تَفْسِيرُ

الْجَامِعُ الْمُعَلَّى

لِمَنْ أَرَادَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى

جمعه و أعده

أبو توحيد

لقمان حسن أمين

المجلد الاول

١ - ٢٠

حقوق الطبع محفوظة

المقدمة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا.

فإن أصدق الحديث كتاب اللّه وخير الهدي هدي محمد ﷺ. وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. أما بعد:

ان هذا التفسير الذي بين أيديكم، هو جامع مبارك لتفاسير عديدة لمفسرين أجلّاء من مفسري السلف ومن المعاصرين الذين يشار إليهم بالبنان ولتفاسيرهم بغزارة العلم والعرفان. ولقد أفادوا المسلمين عبر القرون بتفسيرهم لكتاب اللّه، وشرحهم لمعانيه ومقاصده ليتسنّى لهم كسب العلم الشرعي النافع والعمل الصالح بموجبه. ولمّا كان من الطبيعة البشرية عدم الكمال والوقوع في الخطأ والتقصير والنسيان، لا يخلو تفسير ولا كتاب ما عدا كتاب الله جلّ وعلا من هذا الوصف، أردت بعد الاستعانة باللّه جل وعلا وحسن التوكل عليه أن أبدأ بجمع ما صح من التفسير لكتاب الله جل وعلا وتنقيتها من العقائد والمناهج الفاسدة المخالفة لعقيدة ومنهج السلف الصالح من القرون المفضلة والأخطاء الموجودة فيها؛ وكذلك حسم كثير من المسائل الخلافية وخصوصًا الفقهية منها وذلك بالاعتماد على كتب ومصنفات شيخ الاسلام وأبحاثه القيمة وكذلك تلميذه ابن القيم والامام الألباني رحمهم الله، وكثير من علمائنا الناصرين لعقيدة ومنهج السلف الصالح وسنة رسول الله ﷺ. وأسميته (تفسير الجامع المعلّى لمن أراد الفردوس الأعلى) وذلك لأن هذا التفسير يعلو ولا يعلى عليه مقارنة بتفاسير كثيرة صنفت حسب عقائد ومناهج فاسدة. وكذلك يعلو ولا يعلى عليه من بين التفاسير السلفية، لأنني نقحته من الأخطاء والزلل التي قد يقع فيها العلماء مهما عظم شأنهم وبلغ علمهم، وذلك للنقص وعدم الكمال الحاصل من العنصر البشري كما نوهت عنه فيما سبق. وكذلك لأنني جمعت فيه من العلوم النافعة التي تفرقت على التفاسير ليكون أتم وأنفع تفسير لآيات الله جل وعلا؛ ومن تعلَّم العلم الذي في هذا الجامع المبارك وعمل به مبتغيًا به وجه الله جل وعلا فنظن بربنا حسنًا أن يدخله الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وللأمانة العلمية، حرصت في هذا التفسير أن أنسب كل تفسير لمفسره وكل قول الى قائله ما استطعت الى ذلك سبيلًا، وأبرأ الى الله جل وعلا أن أنسب أي تفسير أو قول أو رأي لنفسي، إلّا انني أثبت فيها ما أعتقده وأدين الله به،

وأختم تفسير الآيات بقول ومذهب عالم اعتقده واتبنّاه وأدين الله جل وعلا به، وأرجو من الله جل وعلا أن يميتني ويبعثني عليه وسائر المسلمين. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

عملي في هذا التفسير

اخترت مقدمة ابن كثير وما نقله السعدي من كتاب بدائع الفوائد لآبن القيم لتكون مقدمة علمية نافعة وشاملة لهذا التفسير وذلك لما احتوت عليه من معلومات قيمة عن علم التفسير وطرقه وكيفية فهم الأوامر والنواهي المذكورة في آيات القرآن الكريم واستنباط الأحكام منها.

وأبدأ تفسير كل آية بالإشارة أولًا الى اسم المفسر الذي أنقل عنه بقولي مثلًا: (قال السعدي) وألوّنه باللون الأحمر، وأكتبه بخط أكبر حجمًا من باقي الخطوط، الى أن آخذ منه ما أريد، ويكون نهاية الأخذ منه ذكري لأسم مفسر آخر وأقول أيضًا: (قال الطبري) وأبدأ بالنقل من تفسيره كما فعلت مع الآخر وهكذا.

وقد اعتمدت على التحقيقات والتخريجات الموجودة في هوامش الكتب والتفاسير التي نقلت منها، وإذا أردت أن أحقق أو أخرج حديثًا، أو أذكر معلومة أو إحالة الى موضع آخر، أشير اليه في الهامش بقولي: (قلت): وألونه باللون الأحمر، واعتمدت في ترقيم الأحاديث وصفحات الكتب الذي أنقل منه على الترقيم الموجود في الكتب الموجودة في قرص المكتبة الشاملة.

وأقوم بوضع التحقيقات على الأحاديث كلما صادفني ولو كانت مكررة مرات عديدة، دون أن أحيل القارئ الى التحقيق الأول؛ وكذلك الحال بالنسبة للتفسير؛ وذلك لتسهيل أخذ المعلومة من مكانه للقارئ.

أسماء التفاسير والكتب التي اعتمدت عليها

١- تفسير الطبري بتحقيق أحمد شاكر.

٢- تفسير القرطبي.

٣ - مختصر تفسير ابن كثير لأحمد بن شعبان ومحمد بن عيادي بن عبدالحليم.

٤- تفسير البغوي.

٥- تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية (الجامع لكلام الامام ابن تيمية في التفسير) لإياد بن عبداللطيف .

٦- التفسير القيم للإمام ابن القيم. جمعه محمد أويس الندوي.

٧- تفسير أضواء البيان للشنقيطي.

٨- تفسير السعدي.

٩- تفسير ابن العثيمين.

١٠- تفسير المنار.

١١- تفسير زهرة التفاسير لأبي زهرة.

١٢- كتب شيخ الاسلام ابن تيمية.

١٣- كتب الإمام ابن القيم.

١٤- كتب الإمام الألباني.

١٥- كتب الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

١٦- كتب الشيخ صالح آل الشيخ.

١٧- الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.

١٨- العجاب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني.

١٩- كتب المتون وشروح الحديث.

٢٠- وكتب أخرى كثيرة في العقيدة والفقه.

٢١- الملخص الفقهي للشيخ الفوزان.

٢٢- فقه السنة لسيد سابق.

٢٣- صحيح فقه السنة لأبي كمال بن السيد سالم.

مُقَدِّمَةُ ابْنِ كَثِيرٍ

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْأَوْحَدُ، الْبَارِعُ الْحَافِظُ الْمُتْقِنُ، عِمَادُ الدِّينِ أَبُو الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْخَطِيبِ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ الْبَصْرَوِيُّ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَرَضِيَ عَنْهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالْحَمْدِ فَقَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الْفَاتِحَةِ: ٢- ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا}[الكهف: ١- ٥]، وَافْتَتَحَ خَلْقه بِالْحَمْدِ، فَقَالَ تَعَالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}[الْأَنْعَامِ: ١]، وَاخْتَتَمَهُ بِالْحَمْدِ، فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ مَآلِ(١)أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الزُّمَرِ: ٧٥]؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[الْقَصَصِ: ٧٠]، كَمَا قَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[سبأ: ١].

فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، أَيْ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ وَمَا هُوَ خَالِقٌ، هُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُصَلِّي: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)؛ وَلِهَذَا يُلْهَمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ تَسْبِيحَهُ وَتَحْمِيدَهُ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَس، أَيْ يُسَبِّحُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ عَدَدَ أَنْفَاسِهِمْ؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ عَظِيمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَتَوَالِي مِنَنِه(٢)وَدَوَامِ إِحْسَانِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[يُونُسَ: ٩، ١٠].

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رُسُلَهُ {مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[النِّسَاءِ: ١٦٥]، وَخَتَمَهُمْ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ(٣)الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ الْهَادِي لِأَوْضَحِ السُّبُلِ، أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، مِنْ لَدُنْ بَعْثَتِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[الأعراف: ١٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: {لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}[الْأَنْعَامِ: ١٩].

١- المآل: المرجع والمصير.

٢- مننه: جمع منّة، وهي الإحسان والإنعام.

٣- الأمّي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، والأمية في حق النبي ﷺ من تمام إقامة الحجة.

فَمَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عَرَبٍ وعَجَم، وأسودَ وأحمرَ، وَإِنسٍ وَجَانٍّ، فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}[هُودٍ: ١٧]. فَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِمَّنْ ذَكَرْنَا فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، بِنَصِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ}[الْقَلَمِ: ٤٤، ٤٥].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ([1]))). قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الْإِنْسَ وَالْجِنَّ. فَهُوَ – صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – رَسُولُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، مُبَلِّغًا لَهُمْ عَنِ اللَّهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[فُصِّلَتْ: ٤٢].

وَقَدْ أَعْلَمَهُمْ فِيهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ نَدَبهم إِلَى تفهُّمه، فَقَالَ تَعَالَى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا}[النِّسَاءِ: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ}[ص: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[مُحَمَّدٍ: ٢٤].

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ الْكَشْفُ عَنْ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ، وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ، وَطَلَبُهُ مِنْ مَظَانِّهِ([2])، وتعلُّم ذَلِكَ وَتَعْلِيمُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}[آلِ عِمْرَانَ: ١٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[آلِ عِمْرَانَ: ٧٧]. فَذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا، وَاشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ إتباع كِتَابِ اللَّهِ.

فَعَلَيْنَا – أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ – أَنْ نَنْتَهِيَ عَمَّا ذمَّهم اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنْ نَأْتَمِرَ بِمَا أُمِرْنَا بِهِ، مِنْ تَعَلُّم كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ إِلَيْنَا وَتَعْلِيمِهِ، وتَفَهُّمِهِ وتَفْهِيمِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نزلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الْحَدِيدِ: ١٦، ١٧]. فَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الَّتِي قَبْلَهَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ يُلِينُ الْقُلُوبَ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ قَسْوَتِهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَاللَّهُ الْمُؤَمَّلُ الْمَسْؤُولُ أن يفعل بنا ذلك إنه جواد كريم.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِل فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَإِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُوَضِّحَةٌ لَهُ، بَلْ قَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ مِمَّا فَهِمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٦)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمَ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ فَيُرْعَبُ الْعَدُوُّ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ وجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَقِيلَ لِي: سَلْ تعطهُ واخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْقِيَامَةِ وَهِيَ نَائِلَةٌ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ . لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شيئاً)).

٢- مظانه: مواضعه التي يظن كونه فيها.

لِتَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}[النِّسَاءِ: ١٠٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النَّحْلِ: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[النَّحْلِ: ٦٤].

وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ([١]))) يَعْنِي: السُّنَّةَ. وَالسُّنَّةُ أَيْضًا تَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ، كَمَا يَنْزِلُ الْقُرْآنُ؛ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُتلى كَمَا يُتْلَى الْقُرْآنُ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى ذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ لَيس هَذَا مَوْضِعَ ذَلِكَ.

وَالْغَرَضُ أَنَّكَ تَطْلُبُ تفسيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تجده فَمِنَ السُّنَّةِ وَحِينَئِذٍ، إِذَا لَمْ نَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ، لِمَا شَاهَدُوا مِنَ الْقَرَائِنِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتُصُّوا بِهَا، وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ، وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا سِيَّمَا عُلَمَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ، كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ: عن عبد الله ابن مسعود: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا نَزَلَتْ آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فِيمَنْ نَزَلَتْ؟ وَأَيْنَ نَزَلَتْ؟ وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أحد أعلم بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَنَالُهُ الْمَطَايَا([٢])لَأَتَيْتُهُ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ أَيْضًا، عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، والعمل بهنّ .

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا ستقرئون مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَخْلُفُوهَا حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ، فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا.

وَمِنْهُمُ الْحَبْرُ الْبَحْرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ وَبِبَرَكَةِ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُ حَيْثُ قَالَ: ((اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ([٣])فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ([٤]))). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عن عبد الله ابن مسعود: نعم تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابنُ عَبَّاسٍ. فَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ قَالَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذِهِ الْعِبَارَةَ. وَقَدْ مَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ عَلَى الصَّحِيحِ، وعُمِّرَ بَعْدَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا كَسَبَهُ مِنَ الْعُلُومِ بَعْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ؟.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ: اسْتَخْلَفَ عليّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَلَى الْمَوْسِمِ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَرَأَ فِي خُطْبَتِهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ: سُورَةَ النُّورِ، فَفَسَّرَهَا تَفْسِيرًا لَوْ سَمِعَتْهُ الرُّومُ وَالتُّرْكُ وَالدَّيْلَمُ لَأَسْلَمُوا.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٦٣)، والحديث بتمامه: عَنِ الْمِقْدَامِ بن معدي كرب عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قَالَ: ((أَلا إِنِّي أُوتيت الْكتاب وَمثلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِ الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لحم الْحِمَارُ الْأَهْلِيُّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَبُعِ وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ)).

٢- المطايا: جمع مطية وهي ما يمتطى أي يركب من الدواب.

٣- فقهه: أي اجعله فاهماً فطناً والفقيه: العالم الفطن.

٤- التأويل: التفسير، وحقيقة الشيء.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٥٨٩).

وَلِهَذَا غَالِبُ مَا يَرْوِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّدِّيُّ الْكَبِيرُ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَنْقُلُ عَنْهُمْ مَا يَحْكُونَهُ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّتِي أَبَاحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: ((بَلِّغوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وحَدِّثوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجٍ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ(١)))، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو يَوْمَ الْيَرْمُوكِ قَدْ أَصَابَ زَامِلَتَيْنِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَكَانَ يُحَدِّثُ مِنْهُمَا بِمَا فَهِمَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْإِذْنِ فِي ذَلِكَ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ تُذْكَرُ لِلِاسْتِشْهَادِ، لَا لِلِاعْتِضَادِ(٢)، فَإِنَّهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ مِمَّا بِأَيْدِينَا مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، فَذَاكَ صَحِيحٌ.

وَالثَّانِي: مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِمَا عِنْدَنَا مِمَّا يُخَالِفُهُ.

وَالثَّالِثُ: مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ لَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُكَذِّبُهُ، وَتَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقَدَّمَ، وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَى أَمْرٍ دِينِيٍّ؛ وَلِهَذَا يَخْتَلِفُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي هَذَا كَثِيرًا، وَيَأْتِي عَنِ الْمُفَسِّرِينَ خِلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَلَوْنَ كَلْبِهِمْ، وَعِدَّتَهُمْ، وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ؟ وَأَسْمَاءَ الطُّيُورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَتَعْيِينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْقَتِيلُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ مِنْهَا مُوسَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ(٣)اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا دِينِهِمْ. وَلَكِنَّ نَقْلَ الْخِلَافِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا}[الْكَهْفِ: ٢٢]، فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَدَبِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ إِذْ لَوْ كَانَ بَاطِلًا لَرَدَّهُ كَمَا رَدَّهُمَا، ثُمَّ أَرْشَدَ عَلَى أَنَّ الِاطِّلَاعَ عَلَى عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، فَقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ}، فَإِنَّهُ مَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: {فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا}: أَيْ: لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ(٤)، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ. فَهَذَا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي حِكَايَةِ الْخِلَافِ: أَنْ تَسْتَوْعِبَ الْأَقْوَالَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، وَأَنْ تُنَبِّهَ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْهَا وَتُبْطِلَ الْبَاطِلَ، وَتَذْكُرَ فَائِدَةَ الْخِلَافِ وَثَمَرَتَهُ؛ لِئَلَّا يَطُولَ النِّزَاعُ وَالْخِلَافُ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، فَتَشْتَغِلَ بِهِ عَنِ الْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ. فَأَمَّا مَنْ حَكَى خِلَافًا فِي مَسْأَلَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ أَقْوَالَ النَّاسِ فِيهَا فَهُوَ نَاقِصٌ، إِذْ قَدْ يَكُونُ الصَّوَابُ فِي الَّذِي تَرَكَهُ. أَوْ يَحْكِي الْخِلَافَ وَيُطْلِقُهُ وَلَا يُنَبِّهُ عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ، فَهُوَ نَاقِصٌ أَيْضًا. فَإِنْ صَحَّحَ غَيْرَ الصَّحِيحِ عَامِدًا فَقَدْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ، أَوْ جَاهِلًا فَقَدْ أَخْطَأَ، وَكَذَلِكَ مَنْ نَصَبَ الْخِلَافَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ،

١- صحيح: البخاري (٣٤٦١).

٢- الإعتضاد: الإستدلال.

٣- أبهمه: أخفاه.

٤- لا طائل تحته: لا فائدة منه.

أَوْ حَكَى أَقْوَالًا مُتَعَدِّدَةً لَفْظًا وَيَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى قَوْلٍ أَوْ قَوْلَيْنِ مَعْنًى، فَقَدْ ضَيَّعَ الزَّمَانَ، وَتَكَثَّرَ بِمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

فصل

إِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ، فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ، كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ فَإِنَّهُ كَانَ آيَةً[١] فِي التَّفْسِيرِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ، عَنْ عُثْمَانَ الْمَكِّيِّ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: رَأَيْتُ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَمَعَهُ أَلْوَاحُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: اكْتُبْ، حَتَّى سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ. وَلِهَذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ.

وَكَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وعِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، ومسروق ابن الْأَجْدَعِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَتُذْكَرُ أَقْوَالُهُمْ فِي الْآيَةِ فَيَقَعُ فِي عِبَارَاتِهِمْ تَبَايُنٌ فِي الْأَلْفَاظِ، يَحْسَبُهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ اخْتِلَافًا فَيَحْكِيهَا أَقْوَالًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ عَنِ الشَّيْءِ بِلَازِمِهِ أَوْ بِنَظِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنُصُّ عَلَى الشَّيْءِ بِعَيْنِهِ، وَالْكُلُّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمَاكِنِ، فَلْيَتَفَطَّنِ اللَّبِيبُ لِذَلِكَ، وَاللَّهُ الْهَادِي.

وَقَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ وَغَيْرُهُ: أَقْوَالُ التَّابِعِينَ فِي الْفُرُوعِ لَيْسَتْ حُجَّةً؟ فَكَيْفَ تَكُونُ حُجَّةً فِي التَّفْسِيرِ؟ يَعْنِي: أَنَّهَا لَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، وَهَذَا صَحِيحٌ، أَمَّا إِذَا أَجْمَعُوا عَلَى الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنِ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ بَعْضُهُمْ حُجَّةً عَلَى بَعْضٍ، وَلَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ أَوِ السُّنَّةِ أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ. فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ فَحَرَامٌ وَهَكَذَا سَمَّى اللَّهُ الْقَذَفَةَ كَاذِبِينَ، فَقَالَ: {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ}[النُّور: ١٣]، فَالْقَاذِفُ كَاذِبٌ، وَلَوْ كَانَ قَدْ قَذَفَ مَنْ زَنَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِمَا لَا يَحِلُّ لَهُ الْإِخْبَارُ بِهِ، وَلَوْ كَانَ أَخْبَرَ بِمَا يَعْلَمُ؛ لِأَنَّهُ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلِهَذَا تَحَرَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عَنْ تَفْسِيرِ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ، كَمَا روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ.

١– آية: علامة وحجة.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، عَنِ الْعَوَّامِ بْنِ حَوْشَب، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِي؛ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِيقَ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}[عَبَسَ: ٣١]، فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي(١)؟ إِذَا أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ. مُنْقَطِعٌ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخطاب قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}[عَبَسَ: ٣١]، فَقَالَ: هَذِهِ الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا الْأَبُّ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ يَا عُمَرُ. وَقَالَ عَبْد بْنُ حُمَيْد: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، وَفِي ظَهْرِ قَمِيصِهِ أَرْبَعُ رِقَاعٍ، فَقَرَأَ: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، فَقَالَ: مَا الْأَبُّ؟ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ فَمَا عَلَيْكَ أَلَّا تَدْرِيَهُ. وَهَذَا كُلُّهُ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُمَا ﷺ، إِنَّمَا أَرَادَا اسْتِكْشَافَ عِلْمِ كَيْفِيَّةِ الْأَبِّ، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ نَبْتًا مِنَ الْأَرْضِ ظَاهِرٌ لَا يُجْهَلُ، لِقَوْلِهِ: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا} الْآيَةَ [عَبَسَ: ٢٧، ٢٨].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ آيَةٍ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُكُمْ لَقَالَ فِيهَا، فَأَبَى أَنْ يَقُولَ فِيهَا. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ}[السَّجْدَة: ٥]، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [الْمَعَارِجِ: ٤]؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمَا. فَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ.

وَقَالَ – أَيْضًا – ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ – يَعْنِي ابْنَ إِبْرَاهِيمَ – حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ مَهْدِي بْنِ مَيْمُونٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: جَاءَ طَلْق بْنُ حَبِيبٍ إِلَى جُنْدُب بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: أحرّج عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ مُسْلِمًا إِلَّا مَا قمت عَنِّي، أَوْ قَالَ: أَنْ تُجَالِسَنِي.

وَقَالَ مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: إِنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: إِنَّا لَا نَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا. وَقَالَ اللَّيْثُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِي الْمَعْلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ. وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ عن آية من القرآن، فقال: لا تسألني عَنِ الْقُرْآنِ، وَسَلْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، يَعْنِي: عِكْرِمَةَ.

وَقَالَ ابْنُ شَوْذَب: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي يَزِيدَ، قَالَ: كُنَّا نَسْأَلُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ، فَإِذَا سَأَلْنَاهُ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ سَكَتَ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدَةَ الضَّبِّيُّ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: لَقَدْ أدركتُ فُقَهَاءَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُمْ ليعظّمون الْقَوْلَ فِي التَّفْسِيرِ، مِنْهُمْ: سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَنَافِعٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ أَبِي تَأَوَّلَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ قَطُّ.

١– تقلّني: تحملني.

وَقَالَ أَيُّوبُ، وَابْنُ عَوْن، وَهِشَامٌ الدَّسْتوائِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: سَأَلْتُ عبيدة السَّلْمَانِيَّ، عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ: ذَهَبَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ فِيمَ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ؟ فاتّقِ اللَّهَ، وَعَلَيْكَ بِالسَّدَادِ(١).

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا مُعَاذٌ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: إِذَا حَدَّثْتَ عَنِ اللَّهِ فَقِفْ، حَتَّى تَنْظُرَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ.

حَدَّثَنَا هُشَيْم، عَنْ مُغيرة، عَنْ إِبْرَاهِيم، قَالَ: كَانَ أَصْحَابُنَا يَتَّقُونَ التَّفْسِيرَ وَيَهَابُونَهُ.

وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّفْر، قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَاللَّهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا، وَلَكِنَّهَا الرِّوَايَةُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: اتَّقُوا التَّفْسِيرَ، فَإِنَّمَا هُوَ الرِّوَايَةُ عَنِ اللَّهِ.

فَهَذِهِ الْآثَارُ الصَّحِيحَةُ وَمَا شَاكَلَهَا عَنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ مَحْمُولَةٌ عَلَى تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ؛ فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لُغَةً وَشَرْعًا، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَلَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا عَلِمُوهُ، وَسَكَتُوا عَمَّا جَهِلُوهُ(٢)، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ له به، فكذلك يجب القول فيما سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ}[آلِ عِمْرَانَ: ١٨٧]، وَلِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: ((مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِم يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ(٣))).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُهُ فِي حَدِيثٍ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ.

مُقَدِّمَةٌ مُفِيدَةٌ

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الأنباري: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْقَاضِي، عَنْ حَجَّاجِ بْنِ مِنْهال، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةُ، وَآلُ عمران، وَالنِّسَاءُ، وَالْمَائِدَةُ، وَالْأَنْفَالُ، وَبَرَاءَةٌ، وَالرَّعْدُ، وَالنَّحْلُ، وَالْحَجُّ، والنور، وَالْأَحْزَابُ، وَمُحَمَّدٌ، وَالْفَتْحُ، وَالْحُجُرَاتُ، وَالْحَدِيدُ، وَالرَّحْمَنُ، وَالْمُجَادَلَةُ، وَالْحَشْرُ، وَالْمُمْتَحِنَةُ، وَالصَّفُّ، وَالْمُنَافِقُونَ، وَالتَّغَابُنُ، وَالطَّلَاقُ، وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّم، وَإِلَى رَأْسِ الْعَشْرِ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ، وَإِذَا جَاءَ نصرُ اللَّهُ. هَؤُلَاءِ السُّوَرُ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَسَائِرُ الْقُرْآنِ نَزَلَ بِمَكَّةَ.

١- السداد: الإستقامة.

٢- وهذا من أمارات العلم.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤)، وقال: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ.

فَأَمَّا عَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ فَسِتَّةُ آلَافِ آيَةٍ، ثُمَّ اخْتُلِفَ فِيمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: وَمِائَتَا آيَةٍ وَأَرْبَعُ آيَاتٍ، وَقِيلَ: وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَتِسْعَ عَشْرَةَ، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَخَمْسٌ وَعِشْرُونَ آيَةً، وَسِتٌّ وَعِشْرُونَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَا آيَةٍ، وَسِتٌّ وَثَلَاثُونَ آيَةً. حَكَى ذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ فِي كِتَابِ الْبَيَانِ.

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ، فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ شَاذَانَ، عَنْ عطاءِ بْنِ يَسَارٍ: سَبْعٌ وَسَبْعُونَ أَلْفَ كَلِمَةٍ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً.

وَأَمَّا حروفه، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: هَذَا مَا أَحْصَيْنَا مِنَ القرآن وهو ثلاثُمائة ألفِ حَرْفٍ وواحدٌ وَعِشْرُونَ ألفَ حَرْفٍ ومائةٌ وثمانون حَرْفًا. وَقَالَ الْفَضْلُ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ حَرْفٍ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا وَخَمْسَةَ عَشَرَ حَرْفًا. وَقَالَ سَلام أَبُو مُحَمَّدٍ الْحِمَّانِيُّ: إِنَّ الْحَجَّاجَ جَمَعَ الْقُرَّاءَ وَالْحُفَّاظَ والكُتَّاب فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ كَمْ مِنْ حرفٍ هُوَ؟ قَالَ: فَحَسَبْنَاهُ فَأَجْمَعُوا أَنَّهُ ثلاثُمائة ألفِ حَرْف وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَسَبْعُمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا. قَالَ: فَأَخْبِرُونِي عَنْ نِصفِهِ. فَإِذَا هُوَ إِلَى الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْكَهْفِ: {وَلْيَتَلَطَّفْ} [الْكَهْفِ: ١٩]، وثُلثه الْأَوَّلُ عِنْدَ رَأْسِ مِائَةِ آيَةٍ مِنْ بَرَاءَةٌ، وَالثَّانِي عَلَى رَأْسِ مِائَةٍ أَوْ إِحْدَى وَمِائَةٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَالثَّالِثُ إِلَى آخِرِهِ. وسُبُعُه الْأَوَّلُ إِلَى الدَّالِ مِنْ قَوْلِهِ: {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ}[النِّسَاءِ: ٥٥]، والسُّبُع الثَّانِي إِلَى الْبَاءِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْأَعْرَافِ: {حَبِطَتْ}[الْأَعْرَافِ: ١٤٧]، وَالثَّالِثُ إِلَى الْأَلِفِ الثَّانِيَةِ مِنْ: {أُكُلَهَا} فِي الرَّعْدِ [الرَّعْدِ: ٣٥]، وَالرَّابِعُ إِلَى الْأَلِفِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْحَجِّ: {جَعَلْنَا مَنْسَكًا}[الْحَجِّ: ٦٧]، وَالْخَامِسُ إِلَى الْهَاءِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْأَحْزَابِ: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ}[الْأَحْزَابِ: ٣٦]، وَالسَّادِسُ إِلَى الْوَاوِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْفَتْحِ: {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ}[الْفَتْحِ: ٦]، وَالسَّابِعُ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ. قَالَ سَلَّامٌ أَبُو مُحَمَّدٍ: عَمِلْنَا ذَلِكَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. قَالُوا: وَكَانَ الْحَجَّاجُ يَقْرَأُ فِي كلِّ ليلةٍ رُبُعَ الْقُرْآنِ، فَالْأَوَّلُ إِلَى آخِرِ الْأَنْعَامِ، وَالثَّانِي إِلَى {وَلْيَتَلَطَّفْ}[الْكَهْفِ: ١٩]، وَالثَّالِثُ إِلَى آخِرِ الزُّمَرِ، وَالرَّابِعُ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ. وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ فِي كِتَابِهِ الْبَيَانُ خِلَافًا فِي هَذَا كُلِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَأَمَّا التَّحْزِيبُ وَالتَّجْزِئَةُ فَقَدِ اشْتُهِرَتِ الْأَجْزَاءُ مِنْ ثَلَاثِينَ كَمَا فِي الرَّبَعَاتِ فِي الْمَدَارِسِ وَغَيْرِهَا، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي تَحْزِيبِ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ، وَالْحَدِيثُ فِي مُسْنَدِ أحمدَ وسُنَنِ أَبِي داودَ وَابْنِ ماجَهْ وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَوْسِ بْنِ حُذَيفة أَنَّه سَأَلَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ: كَيْفَ يُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعٌ وَتِسْعٌ وَإِحْدَى عشرةَ وثلاث عَشْرَةَ، وحزبُ الْمُفَصَّلِ مِنْ قَافٍ حَتَّى يُخْتَمَ.

فصل

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى السُّورَةِ: مِمَّ هِيَ مُشْتَقَّةٌ؟ فَقِيلَ: مِنَ الْإِبَانَةِ وَالِارْتِفَاعِ. قَالَ النَّابِغَةُ:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللَّهَ أعطاكَ سورةً ... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يَتَذَبْذَبُ

فَكَأَنَّ الْقَارِئَ يَتَنَقَّلُ بِهَا مِنْ مَنْزِلَةٍ إِلَى مَنْزِلَةٍ. وَقِيلَ: لِشَرَفِهَا وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت سُورَةً لِكَوْنِهَا قِطْعَةً مِنَ الْقُرْآنِ وَجُزْءًا مِنْهُ، مَأْخُوذٌ مِنْ أَسْآرِ الْإِنَاءِ وَهُوَ الْبَقِيَّةُ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ أَصْلُهَا مَهْمُوزًا، وَإِنَّمَا خُفِّفَتْ فَأُبْدِلَتِ الْهَمْزَةُ وَاوًا لِانْضِمَامِ مَا قَبْلَهَا. وَقِيلَ: لِتَمَامِهَا وَكَمَالِهَا لِأَنَّ الْعَرَبَ يُسَمُّونَ النَّاقَةَ التَّامَّةَ سُورَةً. قُلْتُ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَمْعِ وَالْإِحَاطَةِ لِآيَاتِهَا كَمَا سُمِّي سورُ الْبَلَدِ لِإِحَاطَتِهِ بمنازِله ودُورِه، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَجَمْعُ السُّورَةِ سُوَرٌ بِفَتْحِ الْوَاوِ، وَقَدْ تُجمع عَلَى سُورَاتٍ وسُوْرَات.

وَأَمَّا الْآيَةُ فَمِنَ العلامَةِ عَلَى انْقِطَاعِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهَا عَنِ الَّذِي بَعْدَهَا وَانْفِصَالِهِ، أَيْ: هِيَ بَائِنَةٌ مِنْ أُخْتِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ}[الْبَقَرَةِ: ٢٤٨]، وَقَالَ النَّابِغَةُ:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لَهَا فَعرَفْتُها ... لستَّةِ أعوامٍ وَذَا العامُ سابعُ

وَقِيلَ: لِأَنَّهَا جماعةُ حروفٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَطَائِفَةٌ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ: خَرَجَ الْقَوْمُ بِآيَتِهِمْ، أَيْ: بِجَمَاعَتِهِمْ. قَالَ الشَّاعِرُ:

خَرَجْنَا مِنَ النَّقبين لَا حيَّ مِثلُنا ... بآيَتِنَا نزجي اللقاحَ[١] المَطَافِلا

وَقِيلَ: سُمِّيت آيَةً لِأَنَّهَا عَجَبٌ يَعْجِز الْبَشَرُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا. قَالَ سِيبَوَيْهِ: وَأَصْلُهَا أَيَيَة مِثْلُ أَكَمَة وشَجَرَة، تحرَّكت الياءُ وافتتح مَا قَبْلَهَا فَقُلِبَتْ أَلِفًا فصَارَتْ آيَةً، بِهَمْزَةٍ بَعْدَهَا مَدَّةٌ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: آيِيَة عَلَى وَزْنِ آمِنة، فَقُلِبت أَلِفًا، ثُمَّ حُذفت لِالْتِبَاسِهَا.

وَقَالَ الفَرَّاء: أَصْلُهَا أَيَّة – بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ – فَقُلِبَت الْأُولَى أَلِفًا، كراهيةَ التَّشْدِيدِ فَصَارَتْ آيَةً، وجمعُها: آيٌ وآيايٌ وآياتٌ. وَأَمَّا الْكَلِمَةُ فَهِيَ اللَّفْظُ الْوَاحِدُ، وَقَدْ تَكُونُ عَلَى حَرْفَيْنِ مِثْلُ: مَا وَلَا وَلَهُ وَلَكَ، وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ. وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ عَشْرَةَ أَحْرُفٍ: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ}[النُّورِ: ٥٥]، وَ{أَنُلْزِمُكُمُوهَا}[هُودٍ: ٢٨]، {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} [الْحِجْرِ: ٢٢]، وَقَدْ تَكُونُ الْكَلِمَةُ آيَةً، مثل: والفجر، والضحى، والعَصْر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم – فِي قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ – وَ{حم عسق} عِنْدَهُمْ كَلِمَتَانِ. وَغَيْرُهُمْ لَا يُسَمِّي هَذِهِ آيَاتٍ بَلْ يَقُولُ: هِيَ فَوَاتِحُ السُّوَرِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرو الدَّانِيُّ: لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ وَحْدَهَا آيَةٌ إِلَّا قَوْلُهُ: {مُدْهَامَّتَانِ} فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ [الرَّحْمنِ: ٦٤].

فصل

قال القرطبي: أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلامًا من الأعجمية كإبراهيم و نوح و لوط، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني و الطبري وقالا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات.

١– نزجي اللقاح: نسوق الإبل.

– فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد لابن القيم رحمه الله تعالى –

فصل

النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، وفي الاستفهام من قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، وفي الشرط من قوله: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا}، {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ}، وفي النهي من قوله تعالى: {وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ}، وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ}، وإذا أضيف إليها (كل) نحو: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}، ومن عمومها بعموم المقتضى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}.

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلّى باللام من قوله: {إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}، وقوله: {وَيَقُولُ الْكَافِرُ}، وعموم المفرد المضاف من قوله: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ}{وكتابه}.

وقوله: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ}، والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلّى باللام من قوله: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ}، وقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ}، وقوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}، إلى آخرها. والمضاف من قوله: {كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}، وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا}، وقوله: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}، وقال: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}، وقوله {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ}، وقوله: {وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، وقوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}، وقوله: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، هذا إذا كان الجواب طلبا مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبرًا ماضيًا، لم يلزم العموم، كقوله: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا}،{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}.

وإن كان مستقبلًا فالتزموا رد العموم، كقوله تعالى: {وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}. وقوله: {وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ}، وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}. وقد لا يعم، كقوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ}.

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمه لمن خالفه، وتسميته إيّاه عاصيًا، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل.
ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصيًا، وترتيبه العقاب على فعله.
ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظة (على)، ولفظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.
ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل. وقوله: (لا ينبغي)، فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلًا وشرعًا. ولفظة (ما كان لهم كذا وكذا) و(لم يكن لهم)، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة (لا يحل) و(لا يصلح)، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.
وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرج والإثم والمؤاخذة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنكار على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه فإن اقترن بإخباره مدح، دل على رجحانه استحبابًا أو وجوبًا.

فصل

وكل فعل عظمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سببًا لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل أو نصبه سببًا لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سببًا لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عاب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعا من الهدى، أو وصفه بسوء أو

كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سببًا لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبث أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقًا أو إثمًا، أو سببًا لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربته أو الاستهزاء به وسخريته أو جعله سببًا لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبه إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلمًا أو بغيًا، أو عدوانًا أو إثمًا، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سببًا لخيبة فاعله عاجلًا أو آجلًا أو رتّب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوّه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمّل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه (لا ينبغي هذا)، أو (لا يصلح)، أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه (ليس من الله في شيء)، أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سببًا للفلاح، أو جعل سببًا لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله: (هل أنت مُنته)؟ أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتّب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة (قتل من فعله)، أو (قاتل الله من فعله)، أو أخبر أن فاعله (لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه)، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفًا ولا عدلًا أو أخبر أن من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سببًا لإزاغة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل (لم فعل) نحو: {لم تصدون عن سبيل الله من آمن}، {لم تلبسون الحق بالباطل}، {ما منعك أن تسجد}، {لم تقولون ما لا تفعلون}، ما لم يقترن به جواب من المسئول فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه. فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه. وأما لفظة (وأما أنا فلا أفعل)، فالمتحقق منه الكراهة كقوله: (أما أنا فلا آكل متّكئًا). وأما لفظة (ما يكون لك)، و(ما يكون لنا)، فاطّرد استعمالها في المحرم، نحو {فما يكون لك أن تتكبر فيها}، {ما يكون لنا أن نعود فيها}، {ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق}.

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و(إن شئت فافعل)، و(إن شئت فلا تفعل)، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: {ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين}، ونحو: {وبالنجم هم يهتدون}. ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو (عجب ربك من شاب ليست له صبوة) ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: {وإن تعجب فعجب قولهم}، وقوله: {بل عجبت ويسخرون}. وقوله: {وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله}.

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: {كيف يكون للمشركين عهد عند الله}.

ويدل على حسن المنع منه قدرا، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم}.

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر} الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله}.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة}.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: {وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور} الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير، والوعظ، والحثّ، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس. وتأتي أمثال القرآن

مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: {ذق إنك أنت العزيز الكريم}، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة.

ومنها: أن يكون شاهدًا على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله.، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيرًا.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها: ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

ومنها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقابًا معجلًا.

ومنها: أن فيه حثًّا للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله. وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عامليها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم. وقد حث تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزدراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

ومنها: أن هذا العلم – وهو العلم المتعلق بالله تعالى– أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق. فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعبد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلًا بربه معرضًا عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: (آمنت بالله)، من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلَّما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلَّما نقص، نقص. وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن. والطريق في ذلك، إذا مرَّ به اسم من أسماء الله، أن يثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه، وينزِّهه عمّا يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة. وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.

فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة. وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيمانًا بهم، ومحبة لهم، وتعظيمًا لهم، وتعزيزًا وتوقيرًا.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا – خصوصًا النبي محمد ﷺ – معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولًا منهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسببهم. فقبيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربّيه ومزكّيه ومعلِّمه. وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى؟!!

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصل للمؤمن الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}، ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزّلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافًا كثيرًا. فلو أراد إنسان أن يصرف همّه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير. وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزّه عنها كلام الله ولغير ذلك من الفوائد المفيدة، والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حثّ على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك. ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها. ولا سبيل إلى امتثالها، أو اجتنابها إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها أو تركها ذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولا معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل. فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان. وكذلك إذا نهي عن أمر من

الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعينًا بربه على تركه، امتثالًا لأمر الله، واجتنابًا لنهيه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه.

ومنها: أن العلم بذلك حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذَّين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفظعة. وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله. وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية. وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقًا للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة. وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء. وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها، وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات على الصلاح، والمحرمات مشتملات على المفاسد. وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف

شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباءً منثورًا. ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازًا غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فلله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في كل مواردها، والتنبه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعًا عظيمًا. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

– فضائل القرآن –

فضل من تعلم القرآن وعلمه

قال رسول اللّه ﷺ: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه([1]))، رواه البخاري في صحيحه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقال أيضًا: ((أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب اللّه عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث و أربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل([2]))، رواه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

قال البغوي: عَنْ أبي الْمَلِيحِ الْهُذَلِيِّ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأسقع رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطوال، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَثَانِيَ، وَأُعْطِيتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمَ الْبَقَرَةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي، وَأَعْطَانِي رَبِّي الْمُفَصَّلَ نَافِلَةً([3]))، غَرِيبٌ.

١- (قلت): البخاري (٥٠٢٧).

٢- (قلت): مسلم (٨٠٣).

٣- جيد بطرقه وشواهده. إسناده ضعيف لضعف عبيد الله بن أبي حميد. قال الذهبي في (الميزان) (٣/ ٥): يروي عن أبي المليح الهذلي، ضعفه محمد بن المثنى، وقال البخاري منكر الحديث، وقال النسائي متروك اهـ. لكن تابعه غير واحد كما سيأتي.

وأخرجه الطيالسي (١٠١٢)، وأحمد (٤/ ١٠٧)، والطبري (١٢٦)، والطبراني في (الكبير) (٢٢/ ١٨٥ و١٨٦)، والطحاوي في (المشكل) (١٣٧٩) من طرق عن عمران القطان عن قتادة عن أبي المليح بهذا الإسناد. وهذا إسناد حسن في الشواهد.

وقال الهيثمي في (المجمع) (٧/ ٤٦): رواه أحمد، وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه النسائي، وغيره، وباقي رجاله ثقات اهـ. وقد توبع.

فقد أخرجه الطبراني (٢٢/ ١٨٧) من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح به، وإسناده ضعيف لضعف سعيد بن بشير الأزدي الشامي. ضعفه الجمهور ووثقه شعبة ودحيم لكن تابعه عمران القطان عند أحمد وغيره.

– وأخرجه الطبري (١٢٩) من طريق لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ أبي بردة عن أبي المليح عن واثلة.

فَصْلٌ فِي فَضَائِلِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

قال البغوي: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَثَلُ الْمَاهِرِ بِالْقُرْآنِ مَثَلُ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يقرأه وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ))، صَحِيحٌ. وَقَالَ هِشَامٌ الدَّسْتُوَائِيُّ عَنْ قَتَادَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ: ((الَّذِي يَقْرَأُ القرآن وهو ماهر به مع السّفرة الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ([١]))). قال رسول اللّه ﷺ: ((من قرأ حرفاً من كتاب اللّه فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها؛ لا أقول {الم} حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف([٢])))، رواه الترمذي و الدارمي وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح.

– وله شاهد من حديث أبي إمامة عند الطبراني في (الكبير) (٨٠٠٣) وفي إسناده ليث بن أبي سليم قال عنه الهيثمي في (المجمع) (١١٦٢٦): وقد ضعفه جماعة، ويعتبر بحديثه..

– وله شاهد آخر عن أبي قلابة مرسل أخرجه الطبري (١٢٧) وابن الضريس في (فضائل القرآن) (١٥٧ و٢٩٩) وإسناده صحيح، فهو مرسل قوي.

– وآخر عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ مرسلا أخرجه أبو عبيد في (فضائله) (ص ١٢٠).

الخلاصة: هو حديث حسن صحيح بمجموع طرقه وشواهده، والله أعلم.

– (قلت): الحديث في السلسلة الصحيحة (١٤٨٠) ولكن بلفظ: ((أعطيت مكان التوراة السبع الطوال وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل))، قال الإمام الألباني: أخرجه الطيالسي (٢ / ٩ / ١٩١٨)، والطحاوي في (مشكل الآثار) (٢ / ١٥٤)، والطبراني في (التفسير) (١ / ١٠٠ رقم ١٢٦)، وابن منده في (المعرفة) (٢ / ٢٠٦ / ٢) من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة بن الأسقع قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: فذكره.

قلت: وهذا إسناد حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير عمران القطان فهو حسن الحديث للخلاف المعروف فيه، وقد تابعه سعيد بن بشير عن قتادة به. أخرجه الطبري ويوسف بن عبد الهادي في (هداية الإنسان) (ق ٢٢ / ٢) . وتابعه ليث ابن أبي سليم عن أبي بردة عن أبي المليح به. أخرجه الطبري أيضا (رقم ١٢٩). وله شاهد من مرسل أبي قلابة مرفوعا نحوه. أخرجه الطبري (١٢٧).

قلت: وإسناده صحيح مرسل. قلت فالحديث بمجموع طرقه صحيح. والله أعلم.

١– إسناده صحيح على شرط البخاري، تفرد البخاري عن علي بن الجعد دون مسلم، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم. شعبة هو ابن الحجاج.

وهو في (شرح السنة) (١١٦٨) بهذا الإسناد. وهو في مسند علي بن الجعد (١/ ٥٠٥) عن شعبة بهذا الإسناد.

– وأخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٤)، والنسائي في (فضائل القرآن) (٧٠)، وابن ماجه (٣٧٧٩) وعبد الرزاق (٦٠١٦)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٩٠)، وأحمد (٦/ ٤٨ و٩٨ و١٧٠) و(٢٣٩ و٢٦٦)، والدارمي (٢/ ٤٤٤)، وإسحاق بن راهويه (٣/ ٧٠٩)، وابن الضريس (٢٩ و٣٠ و٣٥)، وأبو عبيد (ص٣٨)، وابن عبد البر في (التمهيد) (١٤/ ١٣٤)، والفريابي في (فضائل القرآن) (٣ و٤)، وتمام الرازي في (الفوائد) (٤/ ٩٦)، والخطيب في (تاريخه) (٢٦١١)، والشجري في الأمالي (٧٢،٧٣١١)، والبيهقي (٣٩٥١٢) من طرق عن قتاده به. وأخرجه مسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٤)، والطيالسي (١٤٩٩)، وأحمد (٦/ ٤٨ و١٩٢ و٢٣٩)، والدارمي (٢/ ٤٤٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٩٠)، وأبو الفضل الرازي (٩٨)، والبغوي (١١٦٩) من طرق عن هشام الدستوائي بهذا الإسناد.

٢– (قلت): صححه الإمام الألباني المشكاة (٢١٣٧).

شفاعة القرآن لصاحبه

قال رسول اللّه ﷺ: ((اقرؤا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه[١])), رواه مسلم في صحيحه عن أبي امامة الباهلي رضي الله عنه. وقال أيضًا: ((يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما[٢]))، رواه مسلم في صحيحه عن النّواس بن سمعان رضي الله عنه. وقال: ((القرآن شافع مشفع، وما حل مصدّق، من جعله أمامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار[٣]))، رواه ابن حبان في صحيحه وهو حديث صحيح. وقال: ((الصيام والقرآن يشفعان – للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفّعني فيه. قال: فيشفعان[٤]))، أي فتقبل شفاعتهما. رواه أحمد والطبراني والحاكم وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

سمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: ((اقرؤوا القرآن فإنه يأتي شافعا لأصحابه، اقروا الزَّهْرَاوَيْن: الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا، اقرؤوا الْبَقَرَةَ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حسرة ولا تستطيعها الْبَطَلَةُ[٥])). صَحِيحٌ.

١- (قلت): مسلم (٨٠٤).

٢- (قلت): مسلم (٨٠٥). والحديث بتمامه: ((يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ))، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: ((كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((تقدمه)): أي تتقدمه، ((شرق)): هو بفتح الراء وإسكانها، أي ضياء ونور، وممن حكى فتح الراء وإسكانها القاضي وآخرون، والأشهر في الرواية واللغة الإسكان.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠١٩)، وقال: أخرجه ابن حبان (١٧٩٣) عن عبد الله بن الأجلح عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قلت: وإسناده جيد.

٤- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨٤): (حسن صحيح). رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله محتج بهم في الصحيح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع وغيره بإسناد حسن والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

– وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان بزيادة: ((بالنهار))، بعد قوله: ((منعته الطعام والشهوة)).

٥- إسناده صحيح، حميد بن زنجويه ثقة، وكذا من دونه، والنضر بن شميل فمن فوقه رجال البخاري ومسلم خلا أبي سلام، فإنه من رجال مسلم، واسمه ممطور. هشام هو ابن عبد الله الدّستوائي، بفتح الدال مع التشديد. وهو في (شرح السنة) (٨٧) بهذا الإسناد.

وأخرجه أحمد (٥/ ٢٤٩ و٢٥٧) من طريق هشام الدستوائي بهذا الإسناد.

– وأخرجه مسلم (٨٠٤) وأحمد (٥/ ٢٤٩ و٢٥٤- ٢٥٥) والطبراني (٧٥٤٣) وابن حبان (١١٦) والحاكم (١/ ٥٦٤) و البيهقي (٢/ ٣٩٥) و الدارمي (٢/ ٤٥٠- ٤٥١) والفريابي (٢٦) والحاكم (١/ ٥٦٤) من طرق عن أبي سلام به.

– وأخرجه عبد الرزاق وأحمد (٥/ ٢٥١) والطبراني في (الكبير) (٨١١٨) من طريق مَعْمَرٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كثير عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرحمن عن أبي أمامة به.

الأمر بتعهد القرآن

قال رسول اللّه ﷺ: ((تعاهدوا القرآن، فو الذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفلتًا من الإبل في عقلها([١]))، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وقال أيضًا: ((إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت([٢]))، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وقال: ((استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النّعَم بعُقُلها([٣]))، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

رفع شأن المسلمين بالقرآن

قال رسول اللّه ﷺ: ((إن اللّه يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين([٤]))، رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

١- (قلت): البخاري (٥٠٣٣)، واللفظ له، ومسلم (٧٩١)، بلفظ: ((تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا)). وَلَفْظُ الْحَدِيثِ لِابْنِ بَرَّادٍ.

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((تعاهدوا هذا القرآن)): أي جددوا عهده بملازمة تلاوته لئلا تنسوه.

٢- (قلت): البخاري (٤٧٤٣)، بلفظ: ((إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت))، ومسلم (٧٨٩)، واللفظ له.

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الإبل المعقلة)): أي مع الإبل المعقلة، أي: المشدود بعقال، أي: حبل، ((إن عاهد عليها أمسكها)): أي احتفظ بها ولازمها أمسكها أي أستمر إمساكه لها، ((وإن أطلقها ذهبت)): أي انفلتت، وخص المثل بالإبل لأنها أشد الحيوان الأهلي نفورا.

٣- (قلت): البخاري (٤٧٤٤)، مسلم (٧٩٠). والحديث بتمامه: ((بِئْسَمَا لِأَحَدِهِمْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ، اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا)).

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم بعقلها)): قال أهل اللغة: التفصي الانفصال، وهو بمعنى الرواية الأخرى أشد تفلتا، والنعم أصلها الإبل والبقر والغنم، والمراد هنا الإبل خاصة، لأنها التي تعقل والعقل بضم العين والقاف ويجوز إسكان القاف جمع عقال، ككتاب وكتب، والنعم تذكر وتؤنث، ووقع في هذه الرواية بعقلها وفي الرواية الثانية من عقله وفي الثالثة في عقلها وكله صحيح والمراد برواية الباء من كما في قوله تعالى عينا يشرب بها عباد الله.

٤- (قلت): مسلم (٨١٧). والحديث بتمامه: عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: ((إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)).

فضيلة قارئ القرآن

قال رسول اللّه ﷺ: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُترُجة، طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الرّيحانة، ريحها طيّب وطعمها مرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ، ولا ريح لها([1]))، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عظام سمان؟)) قلنا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: ((فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَؤُهُنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ([2]))) صَحِيحٌ.

مكانة حامل القرآن الذي يعمل به

قال رسول اللّه ﷺ: ((يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها([3]))، رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

١- (قلت): البخاري (٥٤٢٧)، مسلم (٧٩٧). وفي الحديث تقديم وتأخير، والحديث بتمامه: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الأترجة)): هي ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون يشبه البطيخ.

٢- صحيح. إبراهيم بن عبد الله ثقة، وقد توبع ومن دونه ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، وكيع هو ابن الجراح، والأعمش هو سليمان بن مهران، وأبو صالح اسمه ذكوان. وهو في (شرح السنة) (١١٧٢) بهذا الإسناد.

- وأخرجه أبو الفضل الرازي في (فضائل القرآن) (١٠٢) عن أبي طاهر بهذا الإسناد.

- وأخرجه مسلم (٨٠٢) وابن ماجه (٣٨٢٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٠٣) وأحمد (٢/ ٤٩٧) ومحمد بن نصر المروزي في (قيام الليل) (ص ١١٦) والفريابي في (فضائل القرآن) (٦٩ و٧٠) والدارمي (٢/ ٣١٠) والبيهقي في (الشعب) (٥/ ١٩١) من طرق عن وكيع بهذا الإسناد.

- (قلت): قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((خلفات)): الخلفات الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها ثم هي عشار والواحدة خلفة وعشراء.

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣١٧): حسن صحيح. ورد بلفظ: ((منزلك)) بدلا من ((منزلتك)). وقال الإمام الألباني في الصحيحة (٢٢٤٠): واعلم أن المراد بقوله: ((صاحب القرآن)): حافظه عن ظهر قلب، على حد قوله ﷺ: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله . .)): أي أحفظهم، فالتفاضل في درجات الجنة إنما هو على حسب الحفظ في الدنيا وليس على حسب قراءته يومئذ واستكثاره منها كما توهم بعضهم، ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن لكن بشرط أن يكون حفظه لوجه الله تبارك وتعالى وليس للدنيا والدرهم والدينار، وإلّا فقد قال ﷺ: ((أكثر منافقي أمتي قراؤها)).

نزول السكينة لقراءة القرآن

عن براء بن عازب رضي الله عنهما قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي فذكر ذلك له فقال: ((تلك السّكينة تنزّلت للقرآن([1]))، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

الأمر بقراءة القرآن ابتغاء وجه اللّه وعدم استعماله للدنيا والأكل به

قال رسول اللّه ﷺ: ((إقرؤا القرآن واعملوا به ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه، ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به([2]))، رواه أحمد والطبراني وغيرهما عن عبد الرحمن بن شبل رضي الله عنه، وهو حديث صحيح. وقال أيضاً: ((اقرؤا القرآن، وابتغوا به وجه اللّه تعالى، من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدِح يتعجلونه ولا يتأجّلونه([3]))، رواه أحمد و أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو حديث حسن.

عَنْ رَجُلٍ أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ مر على رجل يقرأ على قوم، فلما قرأ، سأل، فقال عمران: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ سَمِعْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فليسأل الله به فإنه سيجيئ أقوام يقرؤون الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ بِهِ([4]))،

١- (قلت): البخاري (٥٠١١)، ومسلم (٧٩٥).

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((بشطنين)): هما تثنية شطن وهو الحبل الطويل المضطرب وإنما ربطه بشطنين لقوته وشدته، ((تلك السكينة)): هي ما يحصل به السكون وصفاء القلب وقال النووي قد قيل في معنى السكينة هنا أشياء المختار منها أنها شيء من مخلوقات الله تعالى فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١١٦٨).

٣- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١١٦٧).

٤- حديث قوي بمجموع طرقه وشواهده، إسناده ضعيف. له علتان: الأولى: فيه راو لم يسم، والثانية: خيثمة هو ابن أبي خيثمة، قال الذهبي في (الميزان) (١/ ٦٦٩)، روى عن الحسن، روى عنه الأعمش، قال ابن معين: ليس بشيء. وذكره ابن حبان في الثقات اهـ.

والقول فيه قول ابن معين، وهو غير خيثمة بن عبد الرحمن كما نبه عليه الترمذي ونقله المصنف، فذلك ثقة. وهو في (شرح السنة) (١١٧٨) بهذا الإسناد. لكن وقع عنده (خيثمة بن عبد الرحمن)، وهو خطأ. وأخرجه الترمذي (٢٩١٧) وابن أبي شيبة، (١/ ٤٨٠) وأحمد (٤/ ٤٣٢- ٤٣٣ و١٣٦ و١٣٩ و٤٤٥) والآجري في (أخلاق حملة القرآن) (٤١ و٤٢) من طرق عن الأعمش بعضهم يقول عن خيثمة أو عن رجل، وبعضهم عن خيثمة عن الحسن، ثم إن الحسن عن عمران منقطع.

- وأخرجه أبو الفضل الرازي ٧٨ من طريق موسى بن أعين عن إدريس الكوفي عن منصور عن رجل به. وللحديث شواهد كثيرة منها:

- حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه أبو داود (٨٣١) وأبو عبيد في (فضائل القرآن) (ص ١٠٦) وابن حبان (٧٦٠) والطبراني (٦٠٢٤) من طريق وفاء بن شريح الحضرمي به وإسناده لين وفاء بن شريح، مقبول، لكن يصلح للاعتبار بحديثه.

وأخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٨١٣) والطبراني (٦٠٢١ و٦٠٢٢) وأبو عبيد (ص ١٠٦) والآجري (٢٩) من طريق موسى بن عبيدة الربذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ عن سهل مرفوعا. وفيه موسى الربذي وهو ضعيف.

- وحديث جابر أخرجه أبو داود (٨٣٠) والآجري (٢٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم. وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٠) عن ابن المنكدر مرسلًا.

وحديث أبي سعيد الخدري أخرجه أحمد (١٨/ ٢٨) وأبو عبيد (ص ١٠٦) والبغوي في (شرح السنة) (١١٧٧) وإسناده ضعيف.

رَوَاهُ أَبُو عِيسَى عَنْ مَحْمُودِ بْنِ غَيْلَانَ عَنْ أَبِي أَحْمَدَ عَنْ سُفْيَانَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ خَيْثَمَةَ عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حصين، قَالَ: وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: هُوَ خَيْثَمَةُ الْبَصرِيُّ الَّذِي رَوَى عَنْهُ جَابِرٌ الْجُعْفِيُّ، وَلَيْسَ هُوَ خَيْثَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

استحباب تحسين الصوت بالقرآن

قال رسول اللّه ﷺ: ((زيّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسنًا([1]))، رواه الحاكم عن البراء بن العازب رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

وقال أيضاً: ((إن من أحسن الناس صوتًا الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى اللّه([2]))، رواه الدارمي وغيره، وهو حديث صحيح.

فضل محبَّة سماع القرآن من الغير

عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: ((اقرأ عليّ القرآن))، فقلت: يا رسول اللّه، آقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: ((إني أُحب أن أسمعه من غيري))، فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئت هذه الآية: {فكيف إذا جئنا من كل أُمّة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا}، قال: ((حسبك الآن))، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان([3]). رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وأحاديث النهي عن أخذ الأجر على تعليم القرآن كثيرة انظر (فضائل القرآن) لأبي عبيد (ص ١٠٥- ١٠٨) .

الخلاصة: هو حديث يرقى بمجموع طرقه وشواهده إلى درجة الحسن الصحيح. وهو من أعلام النبوة فإن كثيرا من القراء في أيامنا سواء على الموتى أو الأعراس في البلاد الشامية والمصرية، يتأكلون به.

- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٣٣) (صحيح لغيره).

١- (قلت): قال الإمام الألباني في صفة صلاة النبي: أخرجه البخاري في (أفعال العباد) (٧٩ - ٨٠)، وأبو داود (٢٣١/١)، والنسائي (١٥٧/١)، والدارمي (٤٧٤/٢)، وابن ماجه (٤٠٤/١)، وابن نصر (٥٤)، (وتمام الرازي [١/١٣٠/٣٠٠])، والحاكم (٥٧١/١ - ٥٧٥)، والبيهقي (٥٣/٢)، والطيالسي (١٠٠)، وأحمد (٢٨٣ و ٢٨٥ و ٣٠٤) من طرق عن طلحة بن مُصَرِّف قال: سمعت عبد الرحمن ابن عوسجة قال: سمعت البراء بن عازب به. وهذا سند صحيح. وقد علقه البخاري في (صحيحه) (٤٤٤/١٣) مجزوماً به، وذكر الحافظ أن ابن خزيمة وابن حبان أخرجاه أيضاً في (صحيحيهما) من هذا الوجه. وذكر الحافظ العراقي (٢٥١/١) أن الحاكم صححه. وليس في نسختنا من (المستدرك) تصريحه بالتصحيح، وإنما أكثر في سَرْدِ طرقه عن طلحة وغيره. وقد أخرجه هو (٥٧٥/١) (*)، والخطيب في (تاريخه) (٢٦١/٤) من طريق محمد ابن بكار: ثنا قيس بن الربيع عن زُبَيد بن الحارث عن عبد الرحمن بن عوسجة به. وهذا سند جيد.

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صفة صلاة النبي بعد أن سرد طرق الحديث: (فهذه شواهد وطرق يقوي بعضها بعضاً؛ فهو صحيح أو حسن لغيره)، ولعله لذلك جزم البخاري به؛ - فعلقه في (أفعال العباد) (٨١) مجزوماً به.

٣- (قلت): البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال لأُبي بن كعب ﷺ: ((إن اللّه أمرني أن أقرأ عليك))، قال: آللّه سمّاني لك؟ قال: ((آللّه سمَّاك لي))، قال: فجعل أُبَي يبكي([١]). رواه مسلم في صحيحه.

فضل مدارسة القرآن

قال رسول اللّه ﷺ: ((وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه، يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم اللّه فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله، لم يسرع به نسبه([٢])))، رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ. وقد قال اللّه تعالى في كتابه العزيز: {يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم}.

١- (قلت): البخاري (٤٩٦٠)، بزيادة ((القرآن)) بعد ((أقرأ عليك))، ومسلم (٧٩٩)، واللفظ له.

٢- (قلت): مسلم (٢٦٩٩).

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)): معناه من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل.

تفسير سورة الفاتحة

تفسير سورة الفاتحة

قال ابن كثير: يُقَالُ لَهَا: الْفَاتِحَةُ، أَيْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ خَطًّا، وَبِهَا تُفْتَحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَوات ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا: أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَكَرِهَ أَنَسٌ، وَالْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ كَرِهَا تَسْمِيَتَهَا بِذَلِكَ، قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ: إِنَّمَا ذَلِكَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ: هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَلِذَا كَرِهَا – أَيْضًا – أَنْ يُقَالَ لَهَا أُمُّ الْقُرْآنِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ([١])) وَيُقَالُ لَهَا (الْحَمْدُ)، وَيُقَالُ لَهَا: (الصَّلَاةُ)، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ: ((قَسَمْتُ الصَّلَاةَ([٢])بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي([٣]))، الْحَدِيث. فَسُمِّيَتِ الْفَاتِحَةُ: صَلَاةً؛ لِأَنَّهَا شَرْطٌ فِيهَا. وَيُقَالُ لَهَا: (الرُّقْيَةُ)؛ لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ فِي الصَّحِيحِ حِينَ رَقَى بِهَا الرَّجُلَ السَّلِيمَ، فقال لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟([٤]))).

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَقِيلَ مَدَنِيَّةٌ، قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَالزُّهْرِيُّ. وَيُقَالُ: نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِمَكَّةَ، وَمَرَّةً بِالْمَدِينَةِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي}[الْحِجْرِ: ٨٧]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ بِلَا خِلَافٍ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي الْبَسْمَلَةِ: هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مِنْ أَوَّلِهَا كَمَا هُوَ عِنْدَ جُمْهُورِ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ وَقَوْلُ الْجَمَاعَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَخَلْقٌ مِنَ الْخَلَفِ، أَوْ بَعْضُ آيَةٍ أَوْ لَا تُعَدُّ مِنْ أَوَّلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْفُقَهَاءِ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثقة.

قَالُوا: وَكَلِمَاتُهَا خَمْسٌ وَعِشْرُونَ كَلِمَةً، وَحُرُوفُهَا مِائَةٌ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ حَرْفًا. قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كتاب التفسير: وسميت أم الكتب، أنه يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِرُجُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ.

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْفَاتِحَةِ

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، رضي الله عنه ، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ أُجِبْهُ حَتَّى صلَّيت وَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: ((مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟)). قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. قَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا

---

١ – (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣١٢٤)، بدون لفظ (والقرآن العظيم).

٢ – أي الفاتحة وسميت بالصلاة لأنها أهم ركن في الصلاة. كما قال ﷺ: ((الحج عرفة)).

٣ – صحيح: مسلم (٣٩٥).

٤ – صحيح: البخاري (٢٢٧٦)، مسلم (٢٢٠١).

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[الْأَنْفَالِ: ٢٤]، ثُمَّ قَالَ: ((لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ)). قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ: ((لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ)). قَالَ: ((نَعَمْ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ: السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ(١))).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ: ((يَا أُبَيُّ))، فَالْتَفَتَ ثُمَّ لَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ قَالَ: أُبَيُّ، فَخَفَّفْ. ثُمَّ انصرف إلى رسول الله ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: ((وَعَلَيْكَ السَّلَامُ))، قَالَ: ((مَا مَنَعَكَ أَيْ أُبَيُّ إِذْ دَعَوْتُكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟)). قَالَ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: ((أَوَلَسْتَ تَجِدُ فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[الْأَنْفَالِ: ٢٤])). قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَعُودُ، قَالَ: ((أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ تُنَزَّلْ لَا فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟)) قُلْتُ: نَعَمْ، أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا أَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْبَابِ حَتَّى تَعْلَمَهَا))، قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي يُحَدِّثُنِي، وَأَنَا أَتَبَطَّأُ، مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ الْحَدِيثَ، فلما دَنَوْنَا مِنَ الْبَابِ قلت: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، مَا السُّورَةُ الَّتِي وَعَدْتَنِي قَالَ: ((مَا تَقْرَأُ فِي الصلاة؟)). قَالَ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ أُمَّ الْقُرْآنِ، قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا؛ إِنَّهَا السَّبْعُ المثاني(٢))).

حَدِيثٌ آخَرُ: قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا وَهْبٌ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَعْبَدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: ((كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا، فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيم(٣)، وَإِنَّ نَفَرَنَا غُيَّب، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رجل ما كنا نَأْبِنُه برقية، فرقاه، فبرأ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً، أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ: لَا مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ، أَوْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وما كان يدريه أَنَّهَا رُقْيَةٌ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ(٤))).

ذكر ما ورد في نزولها وأحكامها

قال القرطبي: فيه مسائل: الأولى: قال ابن عطية : ظنَّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد لما رواه مسلم عن ابن عباس قال: ((بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا(٥)من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلَّا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلَّا اليوم،

١- صحيح: البخاري (٤٤٧٤).
٢- صحيح: الترمذي (٥/٢٨٧٥)، وصححه الألباني في (صحيح الترمذي).
٣- سليم: أي لديغ و سمي سليماً للتفاؤل بشفائه كما يقال في الصحراء مفازة تفاؤلاً بالنجاة منها.
٤- صحيح البخاري برقم (٢٢٧٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٢٠١).
٥- النقيض: الصوت.

فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته([١]))). قال ابن عطية: وليس كما ظن فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي ﷺ مُعْلِمًا به وبما ينزل معه، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها والله أعلم.

قلت: الظاهر من الحديث يدلُّ على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبي ﷺ بشيء من ذلك. وقد بينا أن نزولها كان بمكة نزل بها جبريل عليه السلام لقوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}[الشعراء: ١٩٣]. وهذا يقتضي جميع القرآن فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ونزل الملك بثوابها بالمدينة. والله أعلم. وقد قيل: إنها مكية مدنية نزل بها جبريل مرتين حكاه الثعلبي. وما ذكرناه أولى. فانه جمع بين القرآن والسنة ولله الحمد والمنة.

الثانية: واختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة فقال مالك وأصحابه: هي متعيِّنة للإمام والمنفرد في كلِّ ركعة. قال ابن خويز مَنداد البصري المالكي: لم يختلف قول مالك أنه من نسيها في صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه. واختلف قوله فيمن تركها ناسيًا في ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية فقال مرة: يعيد الصلاة وقال مرة أخرى: يسجد سجدتي السهو، وهي رواية ابن عبد الحكم وغيره عن مالك. قال ابن خويز منداد وقد قيل: إنَّه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام. قال ابن عبد البر: الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتي بركعة بدلًا منها كمن أسقط سجدة سهوًا. وهو اختيار ابن القاسم. وقال الحسن البصري وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني: إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة في الصلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة لأنَّها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن وهي تامة لقوله ﷺ: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن([٢]))), وهذا قد قرأ بها.

قلت: ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في كلِّ ركعة، وهو الصحيح على ما يأتي([٣]). ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي: إن تركها عامدًا في صلاته كلِّها وقرأ غيرها أجزأه على اختلاف عن الأوزاعي في ذلك. وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن: أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدين. وعن محمد بن الحسن أيضًا قال: أسوغ الاجتهاد في مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة نحو: (الحمد لله)، ولا أسوغه في حرف لا يكون كلامًا.

وقال الطبري: يقرأ المصلِّي بأم القرآن في كل ركعة فإن لم يقرأ بها لم يجزئه إلَّا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها. قال ابن عبد البر: وهذا لا معنى له لأنَّ التعيين لها والنص عليها قد خصَّها بهذا الحكم دون غيرها ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها وإنما عليه أن يجيء بها ويعود إليها كسائر المفروضات المتعينات في العبادات.

١- (قلت): مسلم (٨٠٦).

٢- (قلت): مسلم (٣٩٤/ ٣٧).

٣- (قلت): نعم هو الصحيح إلَّا فيما يجهر فيها بالقراءة من الصلوات، وما يُدرك فيها الإمام راكعًا كما سيأتي في المسألة السادسة. وقال الإمام الألباني عن هذا الحديث في فتاوى جدَّة: (أنَّ هذا الحديث ليس على إطلاقه وشموله لأنَّه قد ثبت مرفوعًا وموقوفًا عن جماعة من الصحابة أنَّ من أدرك الإمام راكعًا، أن المسبوق إذا أدرك الإمام راكعًا تعتبر له هذه الركعة وتحسب من صلاته ولو أنَّه لم يقرأ فاتحة الكتاب، فيبقى هذا الحديث من العام المخصوص).

الثالثة: قال ابن العربي: لمَّا قال ﷺ: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب([١]))) واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا النفي على التَّمام والكمال، أو على الأجزاء؟ اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر، ولمَّا كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أنَّ النفي على العموم كان الأقوى من رواية مالك أنَّ من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت. ثم نظرنا في تكرارها في كلِّ ركعة، فمن تأوَّل قول النبي ﷺ: ((افعل ذلك في صلاتك كلِّها([٢]))), لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود. والله أعلم.

الرابعة: ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة يرد على الكوفيين قولهم في أن الفاتحة لا تتعيَّن، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء. وقد عيَّنها النبي ﷺ بقوله كما ذكرناه، وهو المبين عن الله تعالى مراده في قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}. وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: ((أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر([٣]))). فدلَّ هذا الحديث على أن قوله ﷺ للأعرابي: ((اقرأ ما تيسر معك من القرآن([٤]))), ما زاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى: {فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}[المزمل: ٢٠]، وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القران – زاد في رواية – فصاعدًا([٥]))). وقوله ﷺ: ((هي خداج – ثلاثًا – غير تمام([٦]))), أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة. والخداج: النقص والفساد. قال الأخفش: خدجت الناقة إذا ألقت ولدها لغير تمام، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق.

والنظر يوجب في النقصان ألَّا تجوز معه الصلاة، لأنَّها صلاة لم تتم ومن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أمر، على حسب حكمها. ومن أدَّعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل إليه من وجه يلزم والله أعلم.

الخامسة: روي عن مالك أنَّ القراءة لا تجب في شيء في الصلاة وكذلك كان الشافعي يقول بالعراق فيمن نسيها، ثم رجع عن هذا بمصر فقال: لا تجزئ صلاة من يحسن فاتحة الكتاب إلَّا بها ولا يجزئه أن ينقص حرفًا منها فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفًا أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها. وهذا هو الصحيح في المسألة.

السادسة: وأمَّا المأموم فإن أدرك الإمام راكعًا فالإمام يحمل عنه القراءة لإجماعهم على أنَّه إذا أدركه راكعًا أنَّه يكبِّر ويركع ولا يقرأ شيئًا وإن أدركه قائمًا فإنَّه يقرأ ولا ينبغي لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه في صلاة السِّر فإن فعل فقد

١- (قلت): البخاري (٧٥٦)، مسلم (٣٩٤/٣٤).

٢- (قلت): البخاري (٧٥٧)، مسلم (٣٩٧). والحديث بتمامه: ((إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا)).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٧٧٧).

٤- (قلت): البخاري (٧٥٧)، مسلم (٣٩٧).

٥- (قلت): مسلم (٣٩٤/٣٧).

٦- (قلت): مسلم (٣٩٥).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((خداج)) قال الخليل بن أحمد والأصمعي وأبو حاتم السجستاني والهروي وآخرون: (الخداج): النقصان، قال: يقال: خدجت الناقة؛ إذا ألقت ولدها قبل أوان النتاج وإن كان تام الخلقة؛ وأخدجته إذا ولدته ناقصًا وإن كان لتمام الولادة، ومنه قيل لذي اليدين: مخدوج اليد، أي ناقص، قالوا: فقوله ﷺ: ((خداج)): أي ذات خداج، وقال جماعة من أهل اللغة: خدجت، وأخدجت، إذا ولدت لغير تمام.

أساء ولا شيء عليه عند مالك وأصحابه. وأمَّا إذا جهر الإمام فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها في المشهور من مذهب مالك لقول الله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}[الأعراف: ٢٠٤]، وقول رسول الله ﷺ: ((ما لي أنازع القرآن([١]))).

وقوله في الإمام: ((إذا قرأ فأنصتوا([٢]))) وقول: ((من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة([٣]))). وقال الشافعي فيما حكى عنه البويطي وأحمد بن حنبل: لا تجزئ أحدًا صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كلِّ ركعة، إمامًا كان أو مأمومًا، جهر إمامه أو أسر. وكان الشافعي بالعراق يقول في المأموم: يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر كمشهور مذهب مالك. وقال بمصر: فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان: أحدهما أن يقرأ والآخر يجزئه ألَّا يقرأ ويكتفي بقراءة الإمام. حكاه ابن المنذر.

قال الإمام الألباني في صفة صلاة النبي: نسخ القراءة وراء الإمام في الجهرية وكان قد أجاز للمؤتمين أن يقرؤا بها وراء الإمام في الصلاة الجهرية، حيث كان ((في صلاة الفجر فقرأ فثقلت عليه القراءة، فلمَّا فرغ قال: لعلَّكم تقرؤون خلف إمامكم؟ قلنا: نعم هذًّا يا رسول اللّه، قال: لا تفعلوا إلَّا أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب فإنَّه لا صلاة لمن لم يقرأ بها)). ثمَّ نهاهم عن القراءة كلِّها في الجهرية، وذلك حينما انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة (وفي رواية أنَّها صلاة الصبح) فقال: ((هل قرأ معي منكم أحد آنفًا؟!)) فقال رجل: نعم، أنا يا رسول اللّه، فقال: ((إنِّي أقول مالي أُنازع([٤])))؟! قال أبو هريرة: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول اللّه فيما جهر فيه رسول اللّه ﷺ بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول اللّه ﷺ وقرؤا في أنفسهم سرًّا فيما لا يجهر فيه الإمام. وجعل الإنصات لقراءة الإمام من تمام الإئتمام به فقال: ((إنَّما جعل الإمام ليؤْتمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا))، كما جعل الاستماع له مُغْنيًا عن القراءة وراءه فقال: ((من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة)) وأمَّا في السريّة فقد أقرَّهم على القراءة فيها، فقال جابر: ((كنَّا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام في الركعتين الأوَّليَّين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الآخرين بفاتحة الكتاب)). وإنَّما أنكر التشويش عليه بها، وذلك حين ((صلَّى الظهر بأصحابه فقال: أيُّكم قرأ {سبح آسم ربك الأعلى}؟ فقال: أنا، ولم أرد بها إلَّا الخير، فقال: قد عرفت أنَّ رجلًا خالجنيها([٥])))، وفي حديث آخر: ((كانوا

١- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٠٣٦).

٢- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٣٥٩، ٦٧٢). والحديث بتمامه: ((إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا وإذا قال: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} فقولوا: آمين وإذا ركع فاركعوا وإذا قال: سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا ولك الحمد وإذا سجد فاسجدوا وإذا صلى جالسًا فصلوا جلوسًا)).

٣- **(قلت):** حسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٤٨٧).

٤- وله شاهد من حديث عمر وفي آخره ((مالي أنازع القرآن؟! أما يكفي أحدكم قراءة إمامه؟! إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا قرأ فانصتوا))، رواه البيهقي في كتاب (وجوب القراءة في الصلاة) كما في الجامع الكبير.

٥- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٧٨٢).

يقرؤون خلف النبي ﷺ فيجهرون به فقال: خلّطتم عليّ القرآن([1]))، وقال: ((إنَّ المصلِّي يناجي ربَّه فلينظر بما يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن([2]))).

وَسُئِلَ شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٣ص٢٦٥عَنْ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ ؟

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ نِزَاعٌ وَاضْطِرَابٌ مَعَ عُمُومِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ. وَأُصُولُ الْأَقْوَالِ ثَلَاثَةٌ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ. فَأَحَدُ الطَّرَفَيْنِ أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ خَلْفَ الْإِمَامِ بِحَالِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَقْرَأُ خَلْفَ الْإِمَامِ بِكُلِّ حَالٍ. وَالثَّالِثُ: وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ السَّلَفِ؛ أَنَّهُ إذَا سَمِعَ قِرَاءَةَ الْإِمَامِ أَنْصَتَ وَلَمْ يَقْرَأْ فَإِنَّ اسْتِمَاعَهُ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَتِهِ وَإِذَا لَمْ يَسْمَعْ قِرَاءَتَهُ قَرَأَ لِنَفْسِهِ فَإِنَّ قِرَاءَتَهُ خَيْرٌ مِنْ سُكُوتِهِ فَالِاسْتِمَاعُ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ أَفْضَلُ مِنْ الْقِرَاءَةِ وَالْقِرَاءَةُ أَفْضَلُ مِنْ السُّكُوتِ هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَالِكِ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَجُمْهُورِ أَصْحَابِهِمَا وَطَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَهُوَ الْقَوْلُ الْقَدِيمُ لِلشَّافِعِيِّ وَقَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ فَهَلْ الْقِرَاءَةُ حَالَ مُخَافَتَةِ الْإِمَامِ بِالْفَاتِحَةِ وَاجِبَةٌ عَلَى الْمَأْمُومِ؟ أَوْ مُسْتَحَبَّةٌ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ.

أَشْهَرُهُمَا أَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ الْقَدِيمِ، وَالِاسْتِمَاعُ حَالَ جَهْرِ الْإِمَامِ هَلْ هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ؟ وَالْقِرَاءَةُ إذَا سَمِعَ الْإِمَامَ هَلْ هِيَ مُحَرَّمَةٌ أَوْ مَكْرُوهَةٌ؟ وَهَلْ تَبْطُلُ الصَّلَاةُ إذَا قَرَأَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ:

أَحَدُهُمَا: إنَّ الْقِرَاءَةَ حِينَئِذٍ مُحَرَّمَةٌ، وَإِذَا قَرَأَ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، وَهَذَا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ حَكَاهُمَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَامِدٍ، فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَبْطُلُ بِذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَدَ، وَنَظِيرُ هَذَا إذَا قَرَأَ حَالَ رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: هَلْ تَبْطُلُ الصَّلَاةُ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَدَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا.

وَالَّذِينَ قَالُوا: يَقْرَأُ حَالَ الْجَهْرِ، وَالْمُخَافَتَةِ، إنَّمَا يَأْمُرُونَهُ أَنْ يَقْرَأَ حَالَ الْجَهْرِ بِالْفَاتِحَةِ خَاصَّةً، وَمَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ فَإِنَّ الْمَشْرُوعَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُسْتَمِعًا لَا قَارِئًا.

وَهَلْ قِرَاءَتُهُ لِلْفَاتِحَةِ مَعَ الْجَهْرِ وَاجِبَةٌ أَوْ مُسْتَحَبَّةٌ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي الْجَدِيدِ، وَقَوْلُ ابْنِ حَزْمٍ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَاخْتِيَارُ جَدِّي أَبِي الْبَرَكَاتِ، وَلَا سَبِيلَ إلَى الِاحْتِيَاطِ فِي الْخُرُوجِ مِنْ الْخِلَافِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، كَمَا لَا سَبِيلَ إلَى الْخُرُوجِ مِنْ الْخِلَافِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ، وَفِي فَسْخِ الْحَجِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمَسَائِلِ.

يَتَعَيَّنُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ النَّظَرُ فِيمَا يُوجِبُهُ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ، وَذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: صَلَاةُ الْعَصْرِ يَخْرُجُ وَقْتُهَا إذَا صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ، كَالْمَشْهُورِ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ، وَهُوَ إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صفة صلاة النبي ص١٠٠.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صفة صلاة النبي ص١٠٠ أيضًا.

وَأَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ: حِينَئِذٍ يَدْخُلُ وَقْتُهَا، وَلَمْ يَتَّفِقُوا عَلَى وَقْتٍ تَجُوزُ فِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ، بِخِلَافِ غَيْرِهَا فَإِنَّهُ إذَا صَلَّى الظُّهْرَ بَعْدَ الزَّوَالِ بَعْدَ مَصِيرِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ، سِوَى ظِلِّ الزَّوَالِ صَحَّتْ صَلَاتُهُ، وَالْمَغْرِبُ أَيْضًا تُجْزِئُ بِاتِّفَاقِهِمْ إذَا صَلَّى بَعْدَ الْغُرُوبِ، وَالْعِشَاءُ تُجْزِئُ بِاتِّفَاقِهِمْ إذَا صَلَّى بَعْدَ مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَبْيَضِ، إلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَالْفَجْرُ تُجْزِئُ بِاتِّفَاقِهِمْ إذَا صَلَّاهَا بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إلَى الْإِسْفَارِ الشَّدِيدِ، وَأَمَّا الْعَصْرُ فَهَذَا يَقُولُ: تُصَلَّى إلَى الْمِثْلَيْنِ، وَهَذَا يَقُولُ: لَا تُصَلَّى إلَّا بَعْدَ الْمِثْلَيْنِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تُصَلَّى مِنْ حِينِ يَصِيرُ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ إلَى اصْفِرَارِ الشَّمْسِ، فَوَقْتُهَا أَوْسَعُ، كَمَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ، وَعَلَى هَذَا تَدُلُّ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الْمَدَنِيَّةُ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي يُوسُفَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ وَهُوَ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْ أَحْمَدَ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ مِنْ الْمَسَائِلِ مَسَائِلَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهَا بِقَوْلٍ يَجْمَعُ، لَكِنْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ عَلَيْهِ دَلَائِلُ شَرْعِيَّةٌ تُبَيِّنُ الْحَقَّ.

وَمِنْ ذَلِكَ فَسْخُ الْحَجِّ إلَى الْعُمْرَةِ، فَإِنَّ الْحَجَّ الَّذِي اتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى جَوَازِهِ أَنْ يُهِلَّ مُتَمَتِّعًا يَحْرُمُ بِعُمْرَةٍ ابْتِدَاءً، وَيُهِلَّ قَارِنًا وَقَدْ سَاقَ الْهَدْيَ، فَأَمَّا إنْ أَفْرَدَ أَوْ قَرَنَ وَلَمْ يَسُقْ الْهَدْيَ فَفِي حَجِّهِ نِزَاعٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْقِرَاءَةُ خَلْفَ الْإِمَامِ فَنَقُولُ: إذَا جَهَرَ الْإِمَامُ اسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ فَإِنْ كَانَ لَا يَسْمَعُ لِبُعْدِهِ فَإِنَّهُ يَقْرَأُ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَسْمَعُ لِصَمَمِهِ أَوْ كَانَ يَسْمَعُ هَمْهَمَةَ الْإِمَامِ وَلَا يَفْقَهُ مَا يَقُولُ: فَفِيهِ قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ يَقْرَأُ؛ لِأَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَكُونَ إمَّا مُسْتَمِعًا وَإِمَّا قَارِئًا وَهَذَا لَيْسَ بِمُسْتَمِعٍ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُ السَّمَاعِ فَقِرَاءَتُهُ أَفْضَلُ مِنْ سُكُوتِهِ فَنَذْكُرُ الدَّلِيلَ عَلَى الْفَصْلَيْنِ. عَلَى أَنَّهُ فِي حَالِ الْجَهْرِ يَسْتَمِعُ وَأَنَّهُ فِي حَالِ الْمُخَافَتَةِ يَقْرَأُ.

فَالدَّلِيلُ عَلَى الْأَوَّلِ الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالِاعْتِبَارُ:

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤]، وَقَدْ اسْتَفَاضَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي الْخُطْبَةِ، وَذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ، وَذَكَرَ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّهُ لَا تَجِبُ الْقِرَاءَةُ عَلَى الْمَأْمُومِ حَالَ الْجَهْرِ.

ثُمَّ يَقُولُ: قَوْله تَعَالَى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} لَفْظٌ عَامٌّ، فَإِمَّا أَنْ يَخْتَصَّ الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ فِي الْقِرَاءَةِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، أَوْ يَعُمَّهُمَا. وَالثَّانِي بَاطِلٌ قَطْعًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ: إنَّهُ يَجِبُ الِاسْتِمَاعُ خَارِجَ الصَّلَاةِ، وَلَا يَجِبُ فِي الصَّلَاةِ، وَلِأَنَّ اسْتِمَاعَ الْمُسْتَمِعِ إلَى قِرَاءَةِ الْإِمَامِ الَّذِي يَأْتَمُّ بِهِ وَيَجِبُ عَلَيْهِ مُتَابَعَتُهُ أَوْلَى مِنْ اسْتِمَاعِهِ إلَى قِرَاءَةِ مَنْ يَقْرَأُ خَارِجَ الصَّلَاةِ دَاخِلَةً فِي الْآيَةِ، إمَّا عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَمْرِ الْمَأْمُومِ بِالْإِنْصَاتِ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ، وَسَوَاءٌ كَانَ أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ.

فَالْمَقْصُودُ حَاصِلٌ، فَإِنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الِاسْتِمَاعَ أَوْلَى مِنْ الْقِرَاءَةِ، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي دَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، وَالْمُنَازِعُ يُسَلِّمُ أَنَّ الِاسْتِمَاعَ مَأْمُورٌ بِهِ دُونَ الْقِرَاءَةِ، فِيمَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ. وَالْآيَةُ أَمَرَتْ بِالْإِنْصَاتِ إذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ. وَالْفَاتِحَةُ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ الَّتِي لَابُدَّ مِنْ قِرَاءَتِهَا فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَالْفَاتِحَةُ أَفْضَلُ سُوَرِ الْقُرْآنِ. وَهِيَ الَّتِي لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي

الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا، فَيُمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ الِاسْتِمَاعُ إلَى غَيْرِهَا دُونَهَا، مَعَ إطْلَاقِ لَفْظِ الْآيَةِ وَعُمُومِهَا، مَعَ أَنَّ قِرَاءَتَهَا أَكْثَرُ وَأَشْهَرُ، وَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا. فَإِنَّ قَوْلَهُ: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ} يَتَنَاوَلُهَا، كَمَا يَتَنَاوَلُ غَيْرَهَا، وَشُمُولُهُ لَهَا أَظْهَرُ لَفْظًا وَمَعْنًى. وَالْعَادِلُ عَنْ اسْتِمَاعِهَا إلَى قِرَاءَتِهَا إنَّمَا يَعْدِلُ لِأَنَّ قِرَاءَتَهَا عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِنْ الِاسْتِمَاعِ، وَهَذَا غَلَطٌ يُخَالِفُ النَّصَّ وَالْإِجْمَاعَ، فَإِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ أَمَرَتْ الْمُؤْتَمَّ بِالِاسْتِمَاعِ دُونَ الْقِرَاءَةِ، وَالْأُمَّةُ مُتَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ اسْتِمَاعَهُ لِمَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَتِهِ لِمَا زَادَ عَلَيْهَا.

فَلَوْ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ لِمَا يَقْرَأُ الْإِمَامُ أَفْضَلَ مِنْ الِاسْتِمَاعِ لِقِرَاءَتِهِ لَكَانَ قِرَاءَةُ الْمَأْمُومِ أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَتِهِ لِمَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ، وَهَذَا لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ وَإِنَّمَا نَازَعَ مَنْ نَازَعَ فِي الْفَاتِحَةِ لِظَنِّهِ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْمَأْمُومِ مَعَ الْجَهْرِ، أَوْ مُسْتَحَبَّةٌ لَهُ حِينَئِذٍ.

وَجَوَابُهُ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ الْحَاصِلَةَ لَهُ بِالْقِرَاءَةِ يَحْصُلُ بِالِاسْتِمَاعِ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، بِدَلِيلِ اسْتِمَاعِهِ لِمَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ، فَلَوْلَا أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِالِاسْتِمَاعِ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ الْقِرَاءَةِ لَكَانَ الْأَوْلَى أَنْ يَفْعَلَ أَفْضَلَ الْأَمْرَيْنِ، وَهُوَ الْقِرَاءَةُ. فَلَمَّا دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الِاسْتِمَاعَ أَفْضَلُ لَهُ مِنْ الْقِرَاءَةِ، عُلِمَ أَنَّ الْمُسْتَمِعَ يَحْصُلُ لَهُ أَفْضَلُ مِمَّا يَحْصُلُ لِلْقَارِئِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي الْفَاتِحَةِ وَغَيْرِهَا، فَالْمُسْتَمِعُ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ يَحْصُلُ لَهُ أَفْضَلُ مِمَّا يَحْصُلُ بِالْقِرَاءَةِ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْأَدْنَى وَيُنْهَى عَنْ الْأَعْلَى.

وَثَبَتَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ قِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ جَمَاهِيرُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ. وَفِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ كَانَ لَهُ إمَامٌ فَقِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ)).

وَهَذَا الْحَدِيثُ رُوِيَ مُرْسَلًا، وَمُسْنَدًا لَكِنْ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ الثِّقَاتِ رَوَوْهُ مُرْسَلًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ([1])، وَأَسْنَدَهُ بَعْضُهُمْ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مُسْنَدًا([2])، وَهَذَا الْمُرْسَلُ قَدْ عَضَّدَهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَقَالَ بِهِ جَمَاهِيرُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمُرْسِلُهُ مِنْ أَكَابِرِ التَّابِعِينَ، وَمِثْلُ هَذَا الْمُرْسَلِ يُحْتَجُّ بِهِ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ نَصَّ الشَّافِعِيُّ عَلَى جَوَازِ الِاحْتِجَاجِ بِمِثْلِ هَذَا الْمُرْسَلِ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِمَاعَ إلَى قِرَاءَةِ الْإِمَامِ أَمْرٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ دَلَالَةً قَاطِعَةً؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَحْتَاجُ إلَيْهَا جَمِيعُ الْأُمَّةِ، فَكَانَ بَيَانُهَا فِي الْقُرْآنِ مِمَّنْ يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُ الْبَيَانِ، وَجَاءَتْ السُّنَّةُ مُوَافِقَةً لِلْقُرْآنِ. فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَنَا، فَبَيَّنَ لَنَا سُنَّتَنَا، وَعَلَّمَنَا صَلَاتَنَا، فَقَالَ: ((أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا))، وَهَذَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الطَّوِيلِ بِالْمَشْهُورِ([3])لَكِنْ بَعْضُ

١- عبدالرزاق في مصنفه (٢٧٩٧)، والبيهقي في الكبرى ٢/١٦٠.

٢- ابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٥٠) وفي الزوائد: (جابر الجعفي كذاب)، والدار قطني في سننه ١/٣٢٥، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/٢١٧، وابن عدي في الكامل ٦/٩٠، كلهم عن جابر بن عبدالله.

- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٤٨٧).

٣- مسلم في الصلاة (٤٠٤/٦٢،٦٣).

الرُّوَاةِ زَادَ فِيهِ عَلَى بَعْضٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ قَوْلَهُ: ((وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا))، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَهَا، وَهِيَ زِيَادَةٌ فِي الثِّقَةِ، لَا تُخَالِفُ الْمَزِيدَ، بَلْ تُوَافِقُ مَعْنَاهُ، وَلِهَذَا رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

فَإِنَّ الْإِنْصَاتَ إِلَى الْقَارِئِ مِنْ تَمَامِ الِائْتِمَامِ بِهِ فَإِنَّ مَنْ قَرَأَ عَلَى قَوْمٍ لَا يَسْتَمِعُونَ لِقِرَاءَتِهِ لَمْ يَكُونُوا مُؤْتَمِّينَ بِهِ، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ حِكْمَةَ سُقُوطِ الْقِرَاءَةِ عَلَى الْمَأْمُومِ، فَإِنَّ مُتَابَعَتَهُ لِإِمَامِهِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى غَيْرِهَا، حَتَّى فِي الْأَفْعَالِ، فَإِذَا أَدْرَكَهُ سَاجِدًا سَجَدَ مَعَهُ، وَإِذَا أَدْرَكَهُ فِي وِتْرٍ مِنْ صَلَاتِهِ تَشَهَّدَ عَقِبَ الْوِتْرِ، وَهَذَا لَوْ فَعَلَهُ مُنْفَرِدًا لَمْ يَجُزْ، وَإِنَّمَا فَعَلَهُ لِأَجْلِ الِائْتِمَامِ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِائْتِمَامَ يَجِبُ بِهِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى الْمُنْفَرِدِ وَيَسْقُطُ بِهِ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُنْفَرِدِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا))، رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ([1]). قِيلَ لِمُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ صَحِيحٌ، يَعْنِي: ((وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا))، قَالَ: هُوَ عِنْدِي صَحِيحٌ. فَقِيلَ لَهُ: لِمَا لَا تَضَعُهُ هَاهُنَا؟ يَعْنِي فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدِي صَحِيحٌ وَضَعْتُهُ هَاهُنَا، إِنَّمَا وَضَعْتُ هَاهُنَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ، عَنْ ابْنِ أُكَيْمَةَ اللَّيْثِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ مِنْ صَلَاةٍ جَهَرَ فِيهَا، فَقَالَ: ((هَلْ قَرَأَ مَعِي أَحَدٌ مِنْكُمْ آنِفًا؟)) فَقَالَ رَجُلٌ: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ((إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازَعَ الْقُرْآنَ)). قَالَ: فَانْتَهَى النَّاسُ عَنْ الْقِرَاءَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَوَاتِ، حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد، وَابْنُ مَاجَهْ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ([2]). قَالَ أَبُو دَاوُد: سَمِعْت مُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى بْنِ فَارِسٍ، يَقُولُ: قَوْلُهُ فَانْتَهَى النَّاسُ، مِنْ كَلَامِ الزُّهْرِيِّ وَرُوِيَ عَنْ الْبُخَارِيِّ نَحْوَ ذَلِكَ، فَقَالَ: فِي الْكُنَى مِنَ التَّارِيخِ، وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ حَدَّثَنِي يُوسُفُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ سَمِعْت ابْنَ أُكَيْمَةَ اللَّيْثِيَّ يُحَدِّثُ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: صَلَّى لَنَا النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ ثُمَّ قَالَ: ((هَلْ قَرَأَ مِنْكُمْ أَحَدٌ مَعِي؟)) قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: ((إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ)). قَالَ: فَانْتَهَى النَّاسُ عَنْ الْقِرَاءَةِ فِيمَا جَهَرَ الْإِمَامُ([3])، قَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابٍ وَلَمْ يَقُلْ: فَانْتَهَى النَّاسُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قَوْلُ الزُّهْرِيِّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قَوْلُ ابْنِ أُكَيْمَةَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ قَوْلُ الزُّهْرِيِّ.

وَهَذَا إِذَا كَانَ مِنْ كَلَامِ الزُّهْرِيِّ، فَهُوَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا يَقْرَءُونَ فِي الْجَهْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ الزُّهْرِيَّ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ زَمَانِهِ، أَوْ أَعْلَمِ أَهْلِ زَمَانِهِ بِالسُّنَّةِ. وَقِرَاءَةُ الصَّحَابَةِ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا كَانَتْ مَشْرُوعَةً وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً، تَكُونُ مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَامَّةِ، الَّتِي يَعْرِفُهَا عَامَّةُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَيَكُونُ الزُّهْرِيُّ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِهَا، فَلَوْ لَمْ يُبَيِّنْهَا لَاسْتُدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى انْتِفَائِهَا، فَكَيْفَ إِذَا قَطَعَ الزُّهْرِيُّ بِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا يَقْرَءُونَ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَهْرِ.

١- أبو داود في الصلاة (٦٠٤)، والنسائي في الصلاة (٩٢١،٩٢٢)، وابن ماجه في الإقامة (٨٤٦).

٢- أبو داود في الصلاة (٨٢٦)، والترمذي (٣١٢)، وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي في افتتاح الصلاة (٩١٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٤٨)، وأحمد ٢/٢٨٥،٢٨٤،٢٤٠، كلهم عن أبي هريرة.

٣- البخاري في الكبير في الكنى ٣٨/٨.

فَإِنْ قِيلَ: قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: ابْنُ أُكَيْمَةَ رَجُلٌ مَجْهُولٌ لَمْ يُحَدِّثْ إِلَّا بِهَذَا الْحَدِيثِ وَحْدَهُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ عَنْهُ غَيْرُ الزُّهْرِيِّ. قِيلَ: لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ قَدْ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيّ فِيهِ: صَحِيحُ الْحَدِيثِ، حَدِيثُهُ مَقْبُولٌ. وَحُكِيَ عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْبُسْتِيِّ أَنَّهُ قَالَ: رَوَى عَنْهُ الزُّهْرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي هِلَالٍ، وَابْنُ أَبِيهِ عُمَرُ، وَسَالِمُ بْنُ عَمَّارِ بْنِ أُكَيْمَةَ بْنِ عُمَرَ.

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ فِي مُوَطَّئِهِ عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: مَنْ صَلَّى رَكْعَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا، لَمْ يُصَلِّ إِلَّا وَرَاءَ الْإِمَامِ([١]). وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا سُئِلَ: هَلْ يَقْرَأُ خَلْفَ الإِمَامِ؟ يَقُولُ: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ خَلْفَ الْإِمَامِ تُجْزِئُهُ قِرَاءَةُ الْإِمَامِ، وَإِذَا صَلَّى وَحْدَهُ فَلْيَقْرَأْ([٢]). قَالَ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، لَا يَقْرَأُ خَلْفَ الْإِمَامِ، وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُ سَأَلَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ عَنْ الْقِرَاءَةِ مَعَ الْإِمَامِ، فَقَالَ: لَا قِرَاءَةَ مَعَ الْإِمَامِ فِي شَيْءٍ.

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي وَائِلٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنْ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ، فَقَالَ: أَنْصِتْ لِلْقُرْآنِ، فَإِنَّ فِي الصَّلَاةِ شُغْلًا، وَسَيَكْفِيكَ ذَلِكَ الْإِمَامُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ هُمَا فَقِيهَا أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَأَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَفِي كَلَامِهِمَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْمَانِعَ إِنْصَاتُهُ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ.

وَكَذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي (كِتَابِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: وَرَوَى الْحَارِثُ عَنْ عَلِيٍّ يُسَبِّحُ فِي الْأُخْرَيَيْنِ، قَالَ: وَلَمْ يَصِحَّ. وَخَالَفَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ، سَمِعَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاشِدٍ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ، حَدَّثَهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: إِذَا لَمْ يَجْهَرْ الْإِمَامُ فِي الصَّلَوَاتِ، فَاقْرَأْ بِأُمِّ الْكِتَابِ، وَسُورَةٍ أُخْرَى فِي الْأُولَيَيْنِ، مِنْ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فِي الْأُخْرَيَيْنِ مِنْ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ الْمَغْرِبِ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ، مِنْ الْعِشَاءِ.

وَأَيْضًا: فَفِي إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُ فِيمَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ يُؤْمَرُ بِالِاسْتِمَاعِ دُونَ الْقِرَاءَةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اسْتِمَاعَهُ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ قِرَاءَتِهِ مَعَهُ بَلْ عَلَى أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالِاسْتِمَاعِ دُونَ الْقِرَاءَةِ مَعَ الْإِمَامِ.

وَأَيْضًا: فَلَوْ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ فِي الْجَهْرِ وَاجِبَةً عَلَى الْمَأْمُومِ لَلَزِمَ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَقْرَأَ مَعَ الْإِمَامِ، وَإِمَّا أَنْ يَجِبَ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَسْكُتَ لَهُ حَتَّى يَقْرَأَ، وَلَمْ نَعْلَمْ نِزَاعًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَسْكُتَ لِقِرَاءَةِ الْمَأْمُومِ بِالْفَاتِحَةِ وَلَا غَيْرِهَا، وَقِرَاءَتُهُ مَعَهُ مَنْهِيٌّ عَنْهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. فَثَبَتَ أَنَّهُ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ مَعَهُ فِي حَالِ الْجَهْرِ، بَلْ نَقُولُ: لَوْ كَانَتْ قِرَاءَةُ الْمَأْمُومِ فِي حَالِ الْجَهْرِ وَالِاسْتِمَاعِ مُسْتَحَبَّةً، لَاسْتُحِبَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَسْكُتَ لِقِرَاءَةِ الْمَأْمُومِ، وَلَا يُسْتَحَبُّ لِلْإِمَامِ السُّكُوتُ لِيَقْرَأَ الْمَأْمُومُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ.

وَحُجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْكُتُ لِيَقْرَأَ الْمَأْمُومُونَ، وَلَا نَقَلَ هَذَا أَحَدٌ عَنْهُ، بَلْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ سُكُوتُهُ بَعْدَ التَّكْبِيرِ لِلِاسْتِفْتَاحِ([٣])، وَفِي السُّنَنِ: أَنَّهُ كَانَ لَهُ سَكْتَتَانِ سَكْتَةٌ. فِي أَوَّلِ الْقِرَاءَةِ، وَسَكْتَةٌ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ

١- الموطأ في الصلاة ١/٨٤ (٣٨).

٢- الموطأ في الصلاة ١/٨٦ (٤٣).

٣- البخاري في الأذان (٧٤٤)عن أبي هريرة.

الْقِرَاءَةِ[١]. وَهِيَ سَكْتَةٌ لَطِيفَةٌ لِلْفَصْلِ لَا تَتَّسِعُ لِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ السَّكْتَةَ كَانَتْ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: إنَّهُ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ سَكَتَاتٍ، وَلَا أَرْبَعُ سَكَتَاتٍ، فَمَنْ نَقَلَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَ سَكَتَاتٍ أَوْ أَرْبَعَ فَقَدْ قَالَ قَوْلًا لَمْ يَنْقُلْهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَالسَّكْتَةُ الَّتِي عَقِبَ قَوْلِهِ: {وَلا الضَّالِّينَ} مِنْ جِنْسِ السَّكَتَاتِ الَّتِي عِنْدَ رُءُوسِ الْآيِ.

وَمِثْلُ هَذَا لَا يُسَمَّى سُكُوتًا؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ: إنَّهُ يَقْرَأُ فِي مِثْلِ هَذَا.

وَكَانَ بَعْضُ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ أَصْحَابِنَا يَقْرَأُ عَقِبَ السُّكُوتِ عِنْدَ رُءُوسِ الْآيِ. فَإِذَا قَالَ الْإِمَامُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي سُكُوتِ الْإِمَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: فَقِيلَ: لَا سُكُوتَ فِي الصَّلَاةِ بِحَالٍ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ. وَقِيلَ: فِيهَا سَكْتَةٌ وَاحِدَةٌ لِلِاسْتِفْتَاحِ، كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ. وَقِيلَ فِيهَا: سَكْتَتَانِ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا لِحَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَهُ سَكْتَتَانِ: سَكْتَةٌ حِينَ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ، وَسَكْتَةٌ إذَا فَرَغَ مِنْ السُّورَةِ الثَّانِيَةِ. قَبْلَ أَنْ يَرْكَعَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، فَقَالَ: كَذَبَ سَمُرَةُ فَكَتَبَ فِي ذَلِكَ إلَى الْمَدِينَةِ إلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَقَالَ: صَدَقَ سَمُرَةُ، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَاللَّفْظُ لَهُ وَأَبُو دَاوُد وَابْنُ مَاجَه، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ[٢].

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُد: ((سَكْتَةٌ إذَا كَبَّرَ. وَسَكْتَةٌ إذَا فَرَغَ مِنْ {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}[الفاتحة: ٧]،

وَأَحْمَدُ رَجَّحَ الرِّوَايَةَ الْأُولَى، وَاسْتَحَبَّ السَّكْتَةَ الثَّانِيَةَ؛ لِأَجْلِ الْفَصْلِ. وَلَمْ يَسْتَحِبَّ أَحْمَدُ أَنْ يَسْكُتَ الْإِمَامُ لِقِرَاءَةِ الْمَأْمُومِ، وَلَكِنَّ بَعْضَ أَصْحَابِهِ اسْتَحَبَّ ذَلِكَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَوْ كَانَ يَسْكُتُ سَكْتَةً تَتَّسِعُ لِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، لَكَانَ هَذَا مِمَّا تَتَوَفَّرُ الْهِمَمُ وَالدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ، فَلَمَّا لَمْ يَنْقُلْ هَذَا أَحَدٌ عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ.

وَالسَّكْتَةُ الثَّانِيَةُ فِي حَدِيثِ سَمُرَةَ قَدْ نَفَاهَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، وَذَلِكَ أَنَّهَا سَكْتَةٌ يَسِيرَةٌ، قَدْ لَا يَنْضَبِطُ مِثْلُهَا، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا بَعْدَ الْفَاتِحَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَسْكُتْ إلَّا سَكْتَتَيْنِ، فَعُلِمَ أَنَّ إحْدَاهُمَا طَوِيلَةٌ وَالْأُخْرَى بِكُلِّ حَالٍ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً مُتَّسِعَةً لِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ.

وَأَيْضًا فَلَوْ كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ يَقْرَءُونَ الْفَاتِحَةَ خَلْفَهُ إمَّا فِي السَّكْتَةِ الْأُولَى، وَإِمَّا فِي الثَّانِيَةِ، لَكَانَ هَذَا مِمَّا تَتَوَفَّرُ الْهِمَمُ وَالدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ، فَكَيْفَ وَلَمْ يَنْقُلْ هَذَا أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي السَّكْتَةِ الثَّانِيَةِ خَلْفَهُ يَقْرَءُونَ الْفَاتِحَةَ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مَشْرُوعًا لَكَانَ الصَّحَابَةُ أَحَقَّ النَّاسِ بِعِلْمِهِ، وَعَمَلِهِ، فَعُلِمَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ.

وَأَيْضًا فَالْمَقْصُودُ بِالْجَهْرِ اسْتِمَاعُ الْمَأْمُومِينَ، وَلِهَذَا يُؤَمِّنُونَ عَلَى قِرَاءَةِ الْإِمَامِ فِي الْجَهْرِ دُونَ السِّرِّ، فَإِذَا كَانُوا مَشْغُولِينَ عَنْهُ بِالْقِرَاءَةِ فَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَى قَوْمٍ لَا يَسْتَمِعُونَ لِقِرَاءَتِهِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُحَدِّثَ مَنْ لَمْ يَسْتَمِعْ لِحَدِيثِهِ، وَيَخْطُبَ مَنْ

١- أبو داود في الصلاة (٧٧٧)، وأحمد ٢٣،١١/٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١٩٦،١٩٥/١، والدار قطني ٣٣٦/١، كلهم عن سمرة، وضعفه الألباني.

٢- ابن ماجه في افتتاح الصلاة (٨٠٥) عن أبي هريرة بلفظ قريب، وأبو داود في الصلاة (٧٧٧)، والترمذي في الصلاة (٢٥١) وقال: (حديث حسن)، وأحمد ٢٣،١١/٥، كلهم عن سمرة.

لَمْ يَسْتَمِعْ لِخُطْبَتِهِ، وَهَذَا سَفَهٌ تُنَزَّهُ عَنْهُ الشَّرِيعَةُ. وَلِهَذَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ: ((مَثَلُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا([١]))). فَهَكَذَا إذَا كَانَ يَقْرَأُ وَالْإِمَامُ يَقْرَأُ عَلَيْهِ.

فَصْلٌ

وَإِذَا كَانَ الْمَأْمُومُ مَأْمُورًا بِالِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ، لَمْ يَشْتَغِلْ عَنْ ذَلِكَ بِغَيْرِهَا، لَا بِقِرَاءَةٍ، وَلَا ذِكْرٍ، وَلَا دُعَاءٍ، فَفِي حَالِ جَهْرِ الْإِمَامِ لَا يَسْتَفْتِحُ، وَلَا يَتَعَوَّذُ. وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نِزَاعٌ. وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ، هِيَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ عَنْ أَحْمَدَ. قِيلَ: إنَّهُ حَالَ الْجَهْرِ يَسْتَفْتِحُ وَيَتَعَوَّذُ، وَلَا يَقْرَأُ؛ لِأَنَّهُ بِالِاسْتِمَاعِ يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُ الْقِرَاءَةِ؛ بِخِلَافِ الِاسْتِفْتَاحِ وَالِاسْتِعَاذَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُهُمَا.

وَقِيلَ: يَسْتَفْتِحُ وَلَا يَتَعَوَّذُ، لِأَنَّ الِاسْتِفْتَاحَ تَابِعٌ لِتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ بِخِلَافِ التَّعَوُّذِ فَإِنَّهُ تَابِعٌ لِلْقِرَاءَةِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ لَا يَتَعَوَّذُ.

وَقِيلَ: لَا يَسْتَفْتِحُ وَلَا يَتَعَوَّذُ حَالَ الْجَهْرِ، وَهَذَا أَصَحُّ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَشْغَلُ عَنْ الِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَشْتَغِلَ عَمَّا أُمِرَ بِهِ بِشَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَصْحَابُ أَحْمَدَ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هَذَا الْخِلَافُ إنَّمَا هُوَ فِي حَالِ سُكُوتِ الْإِمَامِ، هَلْ يَشْتَغِلُ بِالِاسْتِفْتَاحِ، أَوْ الِاسْتِعَاذَةِ، أَوْ بِأَحَدِهِمَا أَوْ لَا يَشْتَغِلُ إلَّا بِالْقِرَاءَةِ لِكَوْنِهَا مُخْتَلَفًا فِي وُجُوبِهَا. وَأَمَّا فِي حَالِ الْجَهْرِ، فَلَا يَشْتَغِلُ بِغَيْرِ الْإِنْصَاتِ. وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَصْحَابِهِ أَنَّ هَذَا النِّزَاعَ هُوَ فِي حَالِ الْجَهْرِ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ التَّعْلِيلِ. وَأَمَّا فِي حَالِ الْمُخَافَتَةِ، فَالْأَفْضَلُ لَهُ أَنْ يَسْتَفْتِحَ، وَاسْتِفْتَاحُهُ حَالَ سُكُوتِ الْإِمَامِ أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَتِهِ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِ أَحْمَدَ، وَأَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمَا؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ يُعْتَاضُ عَنْهَا بِالِاسْتِمَاعِ، بِخِلَافِ الِاسْتِفْتَاحِ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: إنَّ قِرَاءَةَ الْمَأْمُومِ مُخْتَلَفٌ فِي وُجُوبِهَا، فَيُقَالُ: وَكَذَلِكَ الِاسْتِفْتَاحُ هَلْ يَجِبُ؟ فِيهِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ.

وَلَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُهُ: إنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْمَأْمُومِ الْقِرَاءَةُ فِي حَالِ الْجَهْرِ، وَاخْتَارَ ابْنُ بَطَّةَ وُجُوبَ الِاسْتِفْتَاحِ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ رِوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ. ولم يختلف قوله: إنه لا يجب على المأموم القراءة في حال الجهر. واختار ابن بطة وجوب الإستفتاح، وقد ذكر ذلك روايتين عن أحمد.

فَعُلِمَ أَنَّ مَنْ قَالَ مِنْ أَصْحَابِهِ – كَأَبِي الْفَرَجِ بْنِ الْجَوْزِيِّ – أَنَّ الْقِرَاءَةَ حَالَ الْمُخَافَتَةِ أَفْضَلُ فِي مَذْهَبِهِ مِنْ الِاسْتِفْتَاحِ، فَقَدْ غَلَطَ عَلَى مَذْهَبِهِ. وَلَكِنْ هَذَا يُنَاسِبُ قَوْلَ مَنْ اسْتَحَبَّ قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ حَالَ الْجَهْرِ، وَهَذَا مَا عَلِمْتُ أَحَدًا قَالَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، قَبْلَ جَدِّي أَبِي الْبَرَكَاتِ، وَلَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ أَحْمَدَ وَلَا عَامَّةِ أَصْحَابِهِ، مَعَ أَنَّ تَعْلِيلَ الْأَحْكَامِ بِالْخِلَافِ عِلَّةٌ

١- أحمد ٢٣٠/١ وحسن اسناده أحمد شاكر (٢٠٣٣).

- (قلت): وضعفه الإمام الألباني في السلسلة الضعيفة (١٧٦٠) .

بَاطِلَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ الْخِلَافَ لَيْسَ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي يُعَلِّقُ الشَّارِعُ بِهَا الْأَحْكَامَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ ذَلِكَ وَصْفٌ حَادِثٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَكِنْ يَسْلُكُهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لِطَلَبِ الِاحْتِيَاطِ.

وَعَلَى هَذَا فَفِي حَالِ الْمُخَافَتَةِ هَلْ يُسْتَحَبُّ لَهُ مَعَ الِاسْتِفْتَاحِ الِاسْتِعَاذَةُ إذَا لَمْ يَقْرَأْ؟ عَلَى رِوَايَتَيْنِ. وَالصَّوَابُ: أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ لَا تُشْرَعُ إلَّا لِمَنْ قَرَأَ، فَإِنْ اتَّسَعَ الزَّمَانُ لِلْقِرَاءَةِ اسْتَعَاذَ وَقَرَأَ، وَإِلَّا أَنْصَتَ.

فصل

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّانِي – وَهُوَ الْقِرَاءَةُ – إذَا لَمْ يَسْمَعْ قِرَاءَةَ الْإِمَامِ، كَحَالِ مُخَافَتَةِ الْإِمَامِ وَسُكُوتِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْقِرَاءَةِ وَالتَّرْغِيبَ فِيهَا يَتَنَاوَلُ الْمُصَلِّيَ أَعْظَمَ مِمَّا يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ، فَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْهَا خَارِجَ الصَّلَاةِ، وَمَا وَرَدَ مِنْ الْفَضْلِ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ يَتَنَاوَلُ الْمُصَلِّيَ أَعْظَمَ مِمَّا يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: ((مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، أَمَا إنِّي لَا أَقُولُ: {الم} حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ(١))). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي خُصُوصِ الصَّلَاةِ قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ)) – ثَلَاثًا(٢)– أَيْ: غَيْرُ تَمَامٍ فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إنِّي أَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ. فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِك فَإِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي – وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِي – فَإِذَا قَالَ: {إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ(٣))).

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ، فَجَعَلَ رَجُلٌ يَقْرَأُ خَلْفَهُ: بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: ((أَيُّكُمْ قَرَأَ؟)) أَوْ ((أَيُّكُمْ الْقَارِئُ؟)) قَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: ((قَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ بَعْضَكُمْ خَالَجَنِيهَا(٤))). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. فَهَذَا قَدْ قَرَأَ خَلْفَهُ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ وَلَمْ يَنْهَهُ وَلَا غَيْرَهُ عَنْ الْقِرَاءَةِ، لَكِنْ قَالَ: ((قَدْ ظَنَنْت أَنَّ بَعْضَكُمْ خَالَجَنِيهَا)) أَيْ نَازَعَنِيهَا. كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: ((إنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ)).

١- الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٠).
٢- مسلم في الصلاة (٣٩٥/٣٨).
٣- مسلم في الصلاة (٣٩٨/٤٨).
٤- مسلم في الصلاة (٣٩٨/٤٨).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَانُوا يَقْرَؤُونَ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ((خَلَطْتُمْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ([1]))). فَهَذَا كَرَاهَةٌ مِنْهُ لِمَنْ نَازَعَهُ وَخَالَجَهُ، وَخَلَطَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَهَذَا لَا يَكُونُ مِمَّنْ قَرَأَ فِي نَفْسِهِ بِحَيْثُ لَا يَسْمَعُهُ غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ أَسْمَعَ غَيْرَهُ، وَهَذَا مَكْرُوهٌ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمُنَازَعَةِ لِغَيْرِهِ، لَا لِأَجْلِ كَوْنِهِ قَارِئًا خَلْفَ الْإِمَامِ، وَأَمَّا مَعَ مَخَافَتِهِ الْإِمَامَ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَرِدْ حَدِيثٌ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ((أَيُّكُمْ الْقَارِئُ؟)). أَيْ الْقَارِئُ الَّذِي نَازَعَنِي، لَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ الْقَارِئَ فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُنَازِعُ، وَلَا يُعْرَفُ أَنَّهُ خَالَجَ النَّبِيَّ ﷺ وَكَرَاهَةُ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ إنَّمَا هِيَ إذَا امْتَنَعَ مِنْ الْإِنْصَاتِ الْمَأْمُورِ بِهِ، أَوْ إذَا نَازَعَ غَيْرَهُ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إنْصَاتٌ مَأْمُورٌ بِهِ، وَلَا مُنَازَعَةٌ فَلَا وَجْهَ لِلْمَنْعِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ.

وَالْقَارِئُ هُنَا لَمْ يَعْتَضْ عَنْ الْقِرَاءَةِ بِاسْتِمَاعٍ، فَيَفُوتُهُ الِاسْتِمَاعُ وَالْقِرَاءَةُ جَمِيعًا، مَعَ الْخِلَافِ الْمَشْهُورِ فِي وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، فَخِلَافُ وُجُوبِهَا فِي حَالِ الْجَهْرِ، فَإِنَّهُ شَاذٌّ حَتَّى نَقَلَ أَحْمَدُ الْإِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِهِ.

وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ مِنْ الصَّحَابَةِ فَهِمُوا مِنْ قَوْلِهِ: ((قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، أَنَّ ذَلِكَ يَعُمُّ الْإِمَامَ وَالْمَأْمُومَ.

وَأَيْضًا فَجَمِيعُ الْأَذْكَارِ الَّتِي يُشْرَعُ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقُولَهَا سِرًّا يُشْرَعُ لِلْمَأْمُومِ أَنْ يَقُولَهَا سِرًّا كَالتَّسْبِيحِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَكَالتَّشَهُّدِ وَالدُّعَاءِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقِرَاءَةَ أَفْضَلُ مِنْ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، فَلِأَيِّ مَعْنًى لَا تُشْرَعُ الْقِرَاءَةُ فِي السِّرِّ وَهُوَ لَا يَسْمَعُ قِرَاءَةَ السِّرِّ، وَلَا يُؤَمِّنُ عَلَى قِرَاءَةِ الْإِمَامِ فِي السِّرِّ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا قَالَ: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[الأعراف: ٢٠٤]. وَقَالَ: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}[الأعراف: ٢٠٥]. وَهَذَا أَمْرٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ، فَإِنَّهُ مَا خُوطِبَ بِهِ خُوطِبَتْ بِهِ الْأُمَّةُ مَا لَمْ يَرِدْ نَصٌّ بِالتَّخْصِيصِ، كَقَوْلِهِ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}[ق: ٣٩]. وَقَوْلِهِ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ}[هود: ١١٤]. وَقَوْلِهِ: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ}[الإسراء: ٧٨]، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَهَذَا أَمْرٌ يَتَنَاوَلُ الْإِمَامَ وَالْمَأْمُومَ وَالْمُنْفَرِدَ بِأَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ صَلَاةَ الْفَجْرِ وَالظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، فَيَكُونُ الْمَأْمُومُ مَأْمُورًا بِذِكْرِ رَبِّهِ فِي نَفْسِهِ لَكِنْ إذَا كَانَ مُسْتَمِعًا كَانَ مَأْمُورًا بِالِاسْتِمَاعِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَمِعًا كَانَ مَأْمُورًا بِذِكْرِ رَبِّهِ فِي نَفْسِهِ. وَالْقُرْآنُ أَفْضَلُ مِنْ الذِّكْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ}[الأنبياء: ٥٠]. وَقَالَ تَعَالَى: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا}[طه: ٩٩]. وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}[طه: ١٢٤]. وَقَالَ: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ}[الأنبياء: ٢].

وَأَيْضًا: فَالسُّكُوتُ بِلَا قِرَاءَةٍ وَلَا ذِكْرٍ وَلَا دُعَاءٍ لَيْسَ عِبَادَةً، وَلَا مَأْمُورًا بِهِ، بَلْ يَفْتَحُ بَابَ الْوَسْوَسَةِ، فَالِاشْتِغَالُ بِذِكْرِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ السُّكُوتِ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ مِنْ أَفْضَلِ الْخَيْرِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالذِّكْرُ بِالْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ – وَهُنَّ مِنْ الْقُرْآنِ – سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ

١– أحمد ١/٤٥١. وقال الهيثمي في المجمع ٢/١١٣: (رجال أحمد رجال الصحيح).

لِلَّهِ، وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ([١]). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنْ الْقُرْآنِ شَيْئًا فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ، فَقَالَ: ((قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ)). فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لِلَّهِ فَمَا لِي، قَالَ: قُلْ: ((اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي)). فَلَمَّا قَامَ قَالَ: هَكَذَا بِيَدَيْهِ – فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلَأَ يَدَيْهِ مِنْ الْخَيْرِ)). رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيُّ([٢]).

وَالَّذِينَ أَوْجَبُوا الْقِرَاءَةَ فِي الْجَهْرِ: احْتَجُّوا بِالْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنَنِ عَنْ عُبَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((إذَا كُنْتُمْ وَرَائِي فَلَا تقرؤوا إلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا([٣]))). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُعَلَّلٌ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ بِأُمُورِ كَثِيرَةٍ، ضَعَّفَهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَئِمَّةِ. وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامَ عَلَى ضَعْفِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: ((لَا صَلَاةَ إلَّا بِأُمِّ الْقُرْآنِ)) فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ([٤])، وَرَوَاهُ الزُّهْرِيُّ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ عَنْ عُبَادَةَ وَأَمَّا هَذَا الْحَدِيثُ فَغَلِطَ فِيهِ بَعْضُ الشَّامِيِّينَ وَأَصْلُهُ أَنَّ عُبَادَةَ كَانَ يَؤُمُّ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ هَذَا فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ الْمَرْفُوعُ بِالْمَوْقُوفِ عَلَى عُبَادَةَ.

وَأَيْضًا: فَقَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَبَسَطُوا الْقَوْلَ فِيهَا، وَفِي غَيْرِهَا، مِنْ الْمَسَائِلِ. وَتَارَةً أَفْرَدُوا الْقَوْلَ فِيهَا فِي مُصَنَّفَاتٍ مُفْرَدَةٍ، وَانْتَصَرَ طَائِفَةٌ لِلْإِثْبَاتِ فِي مُصَنَّفَاتٍ مُفْرَدَةٍ: كَالْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ. وَطَائِفَةٌ لِلنَّفْيِ: كَأَبِي مُطِيعٍ الْبَلْخِيِّ، وَكَرَّامٍ، وَغَيْرِهِمَا.

وَمَنْ تَأَمَّلَ مُصَنَّفَاتِ الطَّوَائِفِ تَبَيَّنَ لَهُ الْقَوْلُ الْوَسَطُ. فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُصَنَّفَاتِ الْمُفْرَدَةِ تَتَضَمَّنُ صُوَرَ كُلٍّ مِنْ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَبَايِنَيْنِ، قَوْلِ مَنْ يَنْهَى عَنْ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ، حَتَّى فِي صَلَاةِ السِّرِّ. وَقَوْلِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْقِرَاءَةِ خَلْفَهُ مَعَ سَمَاعِ جَهْرِ الْإِمَامِ، وَالْبُخَارِيُّ مِمَّنْ بَالَغَ فِي الِانْتِصَارِ لِلْإِثْبَاتِ بِالْقِرَاءَةِ حَتَّى مَعَ جَهْرِ الْإِمَامِ؛ بَلْ يُوجِبُ ذَلِكَ، كَمَا يَقُولُهُ الشَّافِعِيُّ فِي الْجَدِيدِ، وَابْنُ حَزْمٍ، وَمَعَ هَذَا فَحُجَجُهُ وَمُصَنَّفُهُ إنَّمَا تَتَضَمَّنُ تَضْعِيفَ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَتَوَابِعِهَا، مِثْلَ كَوْنِهِ([٥]).

وفي الفتاوى الكبرى سُئِلَ: فِي قِرَاءَةِ الْمُؤْتَمِّ خَلْفَ الْإِمَامِ: جَائِزَةٌ أَمْ لَا؟ وَإِذَا قَرَأَ خَلْفَ الْإِمَامِ: هَلْ عَلَيْهِ إثْمٌ فِي ذَلِكَ، أَمْ لَا؟

١- مسلم في الآداب (١٢/٢١٣٧).

- (قلت): مع إختلاف في لفظه، والحديث بتمامه عند مسلم: ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ)).

٢- أبو داود في الصلاة (٨٣٢)، وأحمد ٣٥٣/٤.

(قلت): صححه الإمام الألباني في تخريج الكلم الطيب (١٤).

٣- الترمذي في الصلاة (٢٤٧)، وابن ماجه (٨٧٣)، والدارمي في سننه ٢٨٣/١، كلهم عن عبادة بن الصامت ولكن بلفظ: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)).

٤- البخاري في الآذان (٧٥٦)، ومسلم في الصلاة (٣٤/٣٩٤)، كلاهما عن عبادة بن الصامت بلفظ: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)).

٥- هكذا بالأصل.

الْجَوَابُ: الْقِرَاءَةُ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي الصَّلَاةِ لَا تَبْطُلُ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ – لَكِنْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ فِي حَقِّ الْمَأْمُومِ؟ فَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ: أَنَّ الْأَفْضَلَ لَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي حَالِ سُكُوتِ الْإِمَامِ: كَصَلَاةِ الظُّهْرِ، وَالْعَصْرِ، وَالْأَخِيرَتَيْنِ مِنْ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَكَذَلِكَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجَهْرِ إذَا لَمْ يَسْمَعْ قِرَاءَتَهُ.

وَمَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ لَا يَقْرَأَ خَلْفَهُ بِحَالٍ، وَالسَّلَفُ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ – مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ – مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقْرَأُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ خَلْفَ الْإِمَامِ.

وَأَمَّا إذَا سَمِعَ الْمَأْمُومُ قِرَاءَةَ الْإِمَامِ فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَمِعُ وَلَا يَقْرَأُ بِحَالٍ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ، وَغَيْرِهِمْ.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ يَقْرَأُ حَالَ الْجَهْرِ بِالْفَاتِحَةِ خَاصَّةً، وَمَذْهَبُ طَائِفَةٍ كَالْأَوْزَاعِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الشَّامِيِّينَ يَقْرَؤُهَا اسْتِحْبَابًا، وَهُوَ اخْتِيَارُ جَدِّنَا. وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ حَالِ الْجَهْرِ وَحَالِ الْمُخَافَتَةِ، فَيَقْرَأُ فِي حَالِ السِّرِّ، وَلَا يَقْرَأُ فِي حَالِ الْجَهْرِ، وَهَذَا أَعْدَلُ الْأَقْوَالِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَالَ: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤] فَإِذَا قَرَأَ الْإِمَامُ فَلْيَسْتَمِعْ، وَإِذَا سَكَتَ فَلْيَقْرَأْ فَإِنَّ الْقِرَاءَةَ خَيْرٌ مِنْ السُّكُوتِ الَّذِي لَا اسْتِمَاعَ مَعَهُ. وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَا يَفُوتُ هَذَا الْأَجْرُ بِلَا فَائِدَةٍ بَلْ يَكُونُ إمَّا مُسْتَمِعًا، وَإِمَّا قَارِئًا. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

قال القرطبي: السابعة: وأجمع العلماء على أن لا صلاة إلّا بقراءة، على ما تقدَّم من أصولهم في ذلك. وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب إلّا أنّهم يستحبُّون ألّا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلّا سورة واحدة لأنّه الأكثر مما جاء عن النبي. قال مالك: وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب. وقال الأوزاعي: يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القران وقرأ بغيرها أجزأه، وقال: وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد. وقال الثوري: يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ويسبح في الأخريين إن شاء، وإن شاء قرأ وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت صلاته، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين. قال ابن المنذر: وقد روينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: اقرأ في الأوليين وسبح في الأخريين وبه قال النخعي. قال سفيان: فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة. قال: وكذلك إن نسي أن يقرأ ركعة في صلاة الفجر. وقال أبو ثور: لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، كقول الشافعي المصري وعليه جماعة أصحاب الشافعي، وكذلك قال ابن خويز منداد المالكي قال: قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة. روى مسلم عن أبي قتادة قال: ((كان رسول الله ﷺ يصلِّي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحيانًا، وكان يطول في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية وكذلك في الصبح([١]))). وفي رواية: ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك. ونص في تعيّن الفاتحة في كل ركعة خلافًا لمن أبى ذلك، والحجة في السنة لا فيما خالفها.

١- (قلت): البخاري (٧٧٨)، مسلم (٤٥١).

الثامنة: ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب، لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: ((في كل صلاة قراءة فما أسمعنا النبي ﷺ أسمعناكم، وما أخفى منا أخفينا منكم، فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه ومن زاد فهو أفضل([1]))). وفي البخاري: وإن زدت فهو خير.

التاسعة: من تعذَّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا علق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلى وحده أو مع إمام فيما أسر فيه الإمام، فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا فعلمني ما يجزئني منه قال: ((قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله))، قال: يا رسول الله هذا لله، فما لي؟ قال: ((قل اللهم ارحمني وعافني واهدني وارزقني([2]))).

العاشرة: فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله، وعليه أبدًا أن يجهد نفسه في تعلم فاتحة الكتاب فما زاد إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله.

الحادية عشرة: من لم يواته لسانه إلى التكلُّم بالعربية من الأعجميين وغيرهم ترجم له الدعاء العربي بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته، فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى.

الثانية عشرة: لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية في قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية لأن المقصود إصابة المعنى. قال ابن المنذر: لا يجزئه ذلك، لأنه خلاف ما أمر الله به وخلاف ما علم النبي ﷺ وخلاف جماعات المسلمين. ولا نعلم أحدًا وافقه على ما قال.

ذكر ما ورد في التَّأْمين

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: يسن لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون {وَلا الضَّالِّينَ}: (آمين)، ليتميّز ما هو قرآن مما ليس بقرآن.

قال ابن حزم في المحلّى ٢/٢٦٢: وأمّا قول (آمين) فإنه كما ذكر: يقوله الإمام ندباً وسنة، و يقولها المأموم فرضًا ولابدّ.

١- (قلت): البخاري (٧٧٢)، مسلم (٣٩٦).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٨٥٨).

قال القرطبي: الثانية: وثبت في الأُمّهات من حديث أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: ((إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنّه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدّم من ذنبه(١))). قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع تضمنها هذا الحديث: الأولى: تأمين الإمام، الثانية: تأمين من خلفه، الثالثة: تأمين الملائكة، الرابعة: موافقة التأمين، قيل في الإجابة وقيل في الزمن وقيل في الصفة من إخلاص الدعاء لقوله ﷺ: ((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه(٢))).

الثالثة: اختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها، فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين إلى ذلك. وقال الكوفيون وبعض المدنيين: لا يجهر بها. وهو قول الطبري وبه قال ابن حبيب من علمائنا. وقال ابن بكير: هو مخير. وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك من خلفه، وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك. وحجتهم حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ خطبنا فبين لنا سنتنا وعلّمنا صلاتنا فقال: ((إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمّكم أحدكم فإذا كبَّر فكبّروا وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين، فقولوا: آمين يجبكم الله(٣)))، وذكر الحديث، أخرجه مسلم. ومثله حديث سُمَيّ عن أبي هريرة وأخرجه مالك. والصحيح الأول لحديث وائل بن حجر قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا قرأ {وَلا الضَّالِّينَ}، قال: (آمين) يرفع بها صوته(٤)))، أخرجه أبو داود، والدار قطني وزاد: (قال أبو بكر: هذه سنة تفرد بها أهل الكوفة هذا صحيح والذي بعده). وترجم البخاري: (باب جهر الإمام بالتأمين). وقال عطاء: (آمين) دعاء، أمن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد للجّة(٥). قال الترمذي: وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين ولا يخفيها. وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق. وفي الموطأ والصحيحين قال ابن شهاب: ((وكان رسول الله ﷺ يقول: (آمين)(٦))). وأمّا حديث أبي موسى وسُمَيٍّ فمعناهما التعريف بالموضع الذي يقال فيه (آمين)، وهو إذا قال الإمام: {ولا الضالين}، ليكون قولهما معًا ولا يتقدموه بقول: (آمين) لما ذكرناه والله أعلم. ولقوله ﷺ: ((إذا أمن الإمام فأمنوا(٧))). وقال ابن نافع في كتاب ابن الحارث: لا يقولها المأموم إلّا أن يسمع الإمام يقول: {ولا الضالين}. وإذا كان ببعد لا يسمعه فلا يقل. وقال ابن عبدوس: يتحرّى قدر القراءة ويقول: (آمين).

الرابعة: قال أصحاب أبي حنيفة: الإخفاء بآمين أَولى من الجهر بها لأنَّه دعاء وقد قال الله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}[الأعراف: ٥]. قالوا: والدليل عليه ما روي في تأويل قوله تعالى: {قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا}[يونس: ٨٩]. قال: كان موسى يدعو وهارون يؤمِّن فسمَّاهما الله داعيين.

١- (قلت): البخاري (٧٨٠)، مسلم (٤١٠).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٥٩٤).

٣- (قلت): مسلم (٤٠٤).

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٨٦٣)، وصحيح وضعيف سنن النسائي (٨٧٩).

٥- اللجة: الصوت.

٦- (قلت): البخاري (٧٨٠)، ولم أجده في مسلم.

٧- (قلت): البخاري (٧٨٠)، مسلم (٤١٠).

الجواب: أنَّ إخفاء الدعاء إنَّما كان أفضل لما يدخله من الرياء. وأمَّا ما يتعلَّق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره، وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين في آخرها فإذا كان الدعاء مما يسن الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بيِّن.

قال الإمام الألباني في تمام المنة: ليس في تأمين المؤتمين جهرًا سوى هذا الأثر (أي أثر ابن الزبير)، ولا حجة فيه لأنه لم يرفعه إلى النبي ﷺ وقد جاءت أحاديث كثيرة في جهر النبي ﷺ وليس في شيء منها جهر الصحابة بها وراءه ﷺ ومن المعلوم أن التأمين دعاء والأصل فيه الإسرار لقوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، فلا يجوز الخروج عن هذا الأصل الا بدليل صحيح وقد خرجنا عنه في تأمين الإمام جهرًا لثبوته عنه ﷺ ووقفنا عنده بخصوص المقتدين ولعله لذلك رجع الشافعي عن قوله القديم فقال في (الأم) ١ / ٦٥: (فإذا فرغ الإمام من قراءة القرآن قال: آمين ورفع بها صوته ليقتدي بها من خلفه فإذا قالها قالوها وأسمعوا أنفسهم ولا أحب أن يجهروا بها فإن فعلوا فلا شيء عليهم).

ثم خرجت أثر ابن الزبير المذكور وبينت صحته عنه تحت الحديث ٩٥٢ في (الضعيفة) وأتبعته بأثر آخر صحيح أيضًا عن أبي هريرة أنه كان يجهر ب آمين وراء الإمام ويمد بها صوته فملت ثمة إلى اتباعهما في ذلك ثم رأيت الإمام أحمد قال به فيما رواه ابنه عبد الله عنه في (مسائله) ٧٢ / ٢٥٩

أحكام الاستعاذة والكلام على تفسيرها

قال ابن كثير: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[الْأَعْرَافِ: ١٩٩، ٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ}[الْمُؤْمِنُونَ: ٩٦ – ٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[فُصِّلَتْ: ٣٤ – ٣٦].

فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ(١) الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، لِيَرُدَّهُ عَنْهُ طبعُهُ الطَّيِّب الْأَصْلِ إِلَى الْمُوَادَّةِ وَالْمُصَافَاةِ، وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ؛ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ، لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ}[الْأَعْرَافِ: ٢٧]، وَقَالَ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السعير}[فَاطِرٍ: ٦]، وَقَالَ: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ

١– مصانعة: مداراة وهي خلاف المداهنة المذمومة.

لِلظَّالِمِينَ بَدَلا}[الْكَهْفِ: ٥٠]، وَقَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ آدم عليه السلام إِنَّهُ لَمِنَ النَّاصِحِينَ، وَكَذَبَ، فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ: {فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[ص: ٨٢، ٨٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون * إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون }[النحل: ٩٩، ١٠٠].

والاستعاذة هي الالتجاء إلى اللّه تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذ تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي: يا من ألوذ به فيما أُؤَمِّله .... ومن أعوذ به ممَّن أُحاذره

ومعنى أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم أي: أستجير بجناب اللّه من الشيطان الرجيم أن يضرّني في ديني أو دنياي أو يصدّني عن فعل ما أمرت به، أو يحثُّني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلاّ اللّه ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عمّا هو فيه من الأَذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن، لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثّر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفُّه عنك إلاّ الذي خلقه وهذا المعنى في (الآيات التي ذكرناها في أول أحكام الاستعاذة والكلام على تفسيرها)، والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، و بعيد بفسقه عن كل خير.

قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْقُرَّاءِ وَغَيْرِهِمْ: نَتَعَوَّذُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ، وَاعْتَمَدُوا عَلَى ظَاهِرِ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَلِدَفْعِ الْإِعْجَابِ بَعْدَ فَرَاغِ الْعِبَادَةِ؛ وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ حَمْزَةُ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ قَلُوقَا عَنْهُ، وَأَبُو حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيُّ، حَكَى ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ يُوسُفُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ جُبارة الْهُذَلِيُّ الْمَغْرِبِيُّ فِي كِتَابِ (العبادة الْكَامِلِ). وَرُوِيَ عَنْ أبي هريرة – أيضا – وهو غريب، وَنَقْلَهُ فَخْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: وَهُوَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَدَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ الْأَصْبَهَانِيِّ الظَّاهِرِيِّ، وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ عَنِ الْمَجْمُوعَةِ عَنْ مَالِكٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَّ الْقَارِئَ يَتَعَوَّذُ بعد الفاتحة، واستغربه ابن العربي. وحكى قول ثالث وَهُوَ الِاسْتِعَاذَةُ أَوَّلًا وَآخِرًا جَمْعًا بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ نَقَلَهُ الرازي، وَالْمَشْهُورُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ لِدَفْعِ الْوَسْوَاسِ فِيهَا، إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَهُمْ: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[النَّحْلِ: ٩٨]، أَيْ: إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ كَقَوْلِهِ: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ} الْآيَةَ [الْمَائِدَةِ: ٦]، أَيْ: إِذَا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ؛ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ آتَشَ حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ الرِّفَاعِيِّ الْيَشْكُرِيِّ، عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِي، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدريّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَفْتَحَ صَلَاتَهُ وكبّر قَالَ: ((سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)). وَيَقُولُ: ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: ((أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ[١])).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٢١٧).

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَد: اسْتَبَّ(١)رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، فَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مغضبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالها لذهب عنه ما يجده، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ))، فقالوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ(٢).

قال القرطبي: هذا الأمر على الندب في قول الجمهور في كل قراءة في غير الصلاة. واختلفوا فيه في الصلاة. حكى النقاش عن عطاء: أن الاستعاذة واجبة. وكان ابن سيرين والنخعي وقوم يتعوذون في الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعي يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها قراءة واحدة(٣). وأجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه. وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: ((سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك – ثم يقول: – لا إله إلا الله – ثلاثًا ثم يقول: – الله أكبر كبيرًا – ثلاثًا – أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه(٤)))؛ ثم يقرأ. وَقَدْ جَاءَ فِي الِاسْتِعَاذَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا هَاهُنَا، وَمَوْطِنُهَا كِتَابُ الْأَذْكَارِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

افْتَتَحَ بِهَا الصحابةُ كِتَابَ اللَّهِ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آية من سورة النَّمْلِ، ثمّ اختلفوا: هل هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ، لَا أَنَّهَا آيَةٌ؟ عَلَى أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا، وَذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الموضع.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٢ص٣٥٠: ولكن هذه تدلُّ على أَنَّهَا تَبَعٌ لِلْقُرْآنِ الْمَقْصُودِ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا كُتِبَتْ فِي الْمَصَاحِفِ مُفْرِدَةً عَنْ السُّورَةِ لَمْ تُخْلَطْ بِهَا، فَهِيَ قُرْآنٌ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، لَكِنْ أُنْزِلَ تَبعًا لِغَيْرِهِ، وَالْمَقْصُودُ غَيْرُهُ، فَلِهَذَا أُفْرِدَتْ فِي الْكِتَابَةِ وَالتِّلَاوَةِ، فَفِي الْكِتَابَةِ تُكْتَبُ مُفْرَدَةً، وَفِي التِّلَاوَةِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَجْهَرُ بِهَا، وَلَمْ يَجْعَلْهَا مِنْ الْقُرْآنِ الْمَفْرُوضِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ بِقَوْلِهِ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ: نِصْفُهَا لِي، وَنِصفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

١- استبّ: أي شتم كل واحد منهما صاحبه. ٦

٢- (قلت): البخاري (٦١١٥)، واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠).

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في تمام المنة: نرجح مشروعية الاستعاذة في كلّ ركعة لعموم قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} وهو الأصح في مذهب الشافعية ورجحه ابن حزم في "المحلى". والله أعلم.

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٧٤٨). وقال: رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ.

الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي(١))، إلَى آخِرِ الْحَدِيث.

وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبَسْمَلَةِ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ الْقُرْآنِ مُفْرَدَةٌ وَلَيْسَتْ مِنْ السُّورَةِ، وَأَنَّهُ يُقْرَأُ بِهَا فِي الصَّلَاةِ سِرًّا، فَلَا تَخْرَجُ مِنْ الْقُرْآنِ وَتُهْجَرُ، وَلَا تُشَبَّهْ بِالْقُرْآنِ الْمَقْصُودِ فَتُجْهَرَ، وَهِيَ تُشْبِهُ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، لَكِنَّ الِاسْتِعَاذَةَ لَيْسَتْ بِقُرْآنِ، وَلَمْ تُكْتَبْ فِي الْمَصَاحِفِ وَإِنَّمَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ، وَهَذَا قُرْآنٌ. وَالْفَاتِحَةُ سَبْعُ آيَاتٍ بِالِاتِّفَاقِ. وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}[الحجر: ٨٧]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {فَاتِحَةُ الْكِتَابِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي}(٢).

وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ يَقُولُ: الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْهَا، وَيَقْرَأُهَا، وَكَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ لَا يَجْعَلُهَا مِنْهَا، وَيَجْعَلُ الْآيَةَ السَّابِعَةَ {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الصَّحِيحُ(٣)، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ، فَهِيَ مِنْهَا مِنْ وَجْهٍ، وَلَيْسَتْ مِنْهَا مِنْ وَجْهٍ، وَالْفَاتِحَةُ سَبْعُ آيَاتٍ. مِنْ وَجْهٍ تَكُونُ الْبَسْمَلَةُ مِنْهَا فَتَكُونُ آيَةً. وَمِنْ وَجْهٍ لَا تَكُونُ مِنْهَا، فَالْآيَةُ السَّابِعَةُ {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، لِأَنَّ الْبَسْمَلَةَ أُنْزِلَتْ تَبَعًا لِلسُّوَرِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنْ يُبْتَدَأَ الْقُرْآنُ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ، فَهِيَ أُنْزِلَتْ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ تَبَعًا لَمْ تَنْزِلْ فِي أَوَاخِرِ السُّوَرِ، وَكُتِبَتْ فِي الْمَصَاحِفِ مُفْرَدَةً لَكِنْ تَبَعًا لِمَا بَعْدَهَا، لَا لِمَا قَبْلَهَا. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ((قَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ وَقَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}(٤))).

وفي السُّنَنِ: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْلَمُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْهِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)(٥)))، فَمِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا تَابِعَةً لِلسُّورَةِ تُجْعَلُ مِنْهَا، وَمِنْ جِهَةِ كَوْنِ الْمَقْصُودِ أَنْ يَقْرَأَ بِسْمِ اللَّهِ كَمَا يَفْعَلُ سَائِرَ الْأَفْعَالِ بِاسْمِ اللَّهِ وَالْقُرْآنُ الْمَقْصُودُ غَيْرُهَا لَمْ تَكُنْ آيَةً مِنْ السُّورَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إنِّي لَأَعْلَمُ سُورَةً مِنْ الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}(٦))).

وقال رحمه الله في ص٤٣٣: الْأَقْوَالُ فِي كَوْنِهَا مِنْ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ.

الطَّرَفُ الْأَوَّلُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ إنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ الْقُرْآنِ إلَّا فِي سُورَةِ النَّمْلِ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ، وَطَائِفَةٌ مِنْ الْحَنَفِيَّةِ، وَكَمَا قَالَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ أَحْمَد. مُدَّعِيًا أَنَّهُ مَذْهَبُهُ، أَوْ نَاقِلًا لِذَلِك رِوَايَةً عَنْهُ.

١- مسلم في الصلاة (٣٨/٣٩٥).

٢- البخاري في التفسير (٤٤٧٤) عن أبي سعيد بن المعلى.

٣- مسلم في الصلاة (٣٨/٣٩٥) وروى أيضاً عن أنس برقم (٥٢/٣٩٩).

٤- مسلم في الصلاة (٥٣/٤٠٠) عن أنس.

٥- أبو داود في الصلاة (٧٨٨) عن ابن عباس.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٧٥٤).

٦- (قلت): حسَنه الإمام الألباني في المشكاة (٢١٥٣)، ولكن بلفظ: ((إنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ})).

وَالطَّرَفُ الْمُقَابِلُ لَهُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ إِنَّهَا مَنْ كُلِّ سُورَةٍ آيَةٌ أَوْ بَعْضُ آيَةٍ، كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَمَنْ وَافَقَهُ. وَقَدْ نُقِلَ عَنْ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَوَائِلِ السُّوَرِ غَيْرِ الْفَاتِحَةِ، وَإِنَّمَا يُسْتَفْتَحُ بِهَا فِي السُّوَرِ تَبَرُّكًا بِهَا. وَأَمَّا كَوْنُهَا مِنْ الْفَاتِحَةِ، فَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ فِيهِ دَلِيلٌ.

وَالْقَوْلُ الْوَسَطُ: أَنَّهَا مِنْ الْقُرْآنِ حَيْثُ كُتِبَتْ، وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَيْسَتْ مِنْ السُّوَرِ، بَلْ كُتِبَتْ آيَةً فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، وَكَذَلِكَ تُتْلَى آيَةٌ مُنْفَرِدَةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، كَمَا تَلَاهَا النَّبِيُّ ﷺ حِينَ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ([1])، وكَمَا فِي قَوْلِهِ: ((إِنَّ سُورَةً مِنْ الْقُرْآنِ هِيَ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ سُورَةُ {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}([2]))، رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ، وَحَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، وَهُوَ الْمَنْصُوصُ الصَّرِيحُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

وَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِي أَنَّ هَذَا مُقْتَضَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ عِنْدَهُ، وَهُوَ قَوْلُ سَائِرِ مَنْ حَقَّقَ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَتَوَسَّطَ فِيهَا جَمْعٌ مِنْ مُقْتَضَى الْأَدِلَّةِ، وَكِتَابَتِهَا سَطْرًا مَفْصُولًا عَنْ السُّورَةِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: {كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} رَوَاهُ أَبُو دَاوُد([3]). وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ فِي الْفَاتِحَةِ قَوْلَانِ، هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ.

أَحَدُهُمَا أَنَّهَا مِنْ الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا، تَجِبُ قِرَاءَتُهَا حَيْثُ تَجِبُ قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ.

والثَّانِي – وَهُوَ الْأَصَحُّ – لَا فَرْقَ بِهِ بَيْنَ الْفَاتِحَةِ وَغَيْرِهَا فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ قِرَاءَتَهَا فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ، كَقِرَاءَتِهَا فِي أَوَّلِ السُّوَرِ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ تُوَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ، لَا تُخَالِفُهُ. وَحِينَئِذٍ الْخِلَافُ أَيْضًا فِي قِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ وُجُوبَ الْفَاتِحَةِ، كَمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ، وَطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا مِنْ الْفَاتِحَةِ.

وَالثَّانِي: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: قِرَاءَتُهَا مَكْرُوهَةٌ سِرًّا وَجَهْرًا، كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ قِرَاءَتَهَا جَائِزَةٌ؛ بَلْ مُسْتَحَبَّةٌ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ. وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَطَائِفَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يُسَوِّي بَيْنَ قِرَاءَتِهَا وَتَرْكِ قِرَاءَتِهَا، وَيُخَيِّرُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ مُعْتَقِدِينَ أَنَّ هَذَا عَلَى إحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ، وَذَلِكَ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى.

ثُمَّ مَعَ قِرَاءَتِهَا، هَلْ يُسَنُّ الْجَهْرُ أَوْ لَا يُسَنُّ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

قِيلَ: يُسَنُّ الْجَهْرُ بِهَا كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ، وَمَنْ وَافَقَهُ.

١- مسلم في الصلاة (٤٠٠/٥٣)، عن أنس.

٢- أبو داود في الصلاة (١٤٠٠)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩١) وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٦)، وابن ماجة في الأدب (٣٦٨٧)، والحاكم في المستدرك ٥٦٥/١ وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٢٢٧٦) (طبعة الدار السلفية)، كلهم عن أبي هريرة.

– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٥٣).

٣- أبو داود في الصلاة (٧٨٨).

– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٧٥٤). وقد مر قريبا.

قِيلَ: لَا يُسَنُّ الْجَهْرُ بِهَا، كَمَا هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالرَّأْيِ، وَفُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ.

وَقِيلَ: يُخَيَّرُ بَيْنَهُمَا. كَمَا يُرْوَى عَنْ إِسْحَاقَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ حَزْمٍ وَغَيْرِهِ.

وَمَعَ هَذَا، فَالصَّوَابُ أَنَّ مَا لَا يُجْهَرُ بِهِ قَدْ يُشْرَعُ الْجَهْرُ بِهِ لِمَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ، فَيُشْرَعُ لِلْإِمَامِ أَحْيَانًا لِمِثْلِ تَعْلِيمِ الْمَأْمُومِينَ، وَيَسُوغُ لِلْمُصَلِّينَ أَنْ يَجْهَرُوا بِالْكَلِمَاتِ الْيَسِيرَةِ أَحْيَانًا. وَيَسُوغُ – أَيْضًا – أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْسَانُ الْأَفْضَلَ لِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ خَوْفًا مِنَ التَّنْفِيرِ، عَمَّا يَصْلُحُ، كَمَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَاءَ الْبَيْتِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؛ لِكَوْنِ قُرَيْشٍ كَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ([1])، وَخَشِيَ تَنْفِيرَهُمْ بِذَلِكَ، وَرَأَى أَنَّ مَصْلَحَةَ الِاجْتِمَاعِ والائتلاف، مُقَدَّمَةٌ عَلَى مَصْلَحَةِ الْبِنَاءِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ – لَمَّا أَكْمَلَ الصَّلَاةَ خَلْفَ عُثْمَانَ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ، فِي ذَلِكَ، فَقَالَ – الْخِلَافُ شَرٌّ. وَلِهَذَا نَصَّ الْأَئِمَّةُ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْبَسْمَلَةِ، وَفِي وَصْلِ الْوِتْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ الْعُدُولُ عَنِ الْأَفْضَلِ إِلَى الْجَائِزِ الْمَفْضُولِ، مُرَاعَاةَ ائْتِلَافِ الْمَأْمُومِينَ، أَوْ لِتَعْرِيفِهِمُ السُّنَّةَ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَصْلٌ فِي فَضْلِهَا

قال ابن كثير: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنَ الزَّبَانِيَةِ التِّسْعَةَ عَشَرَ فَلْيَقْرَأْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لِيَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا جُنَّةً مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ وَالْقُرْطُبِيُّ وَوَجَّهَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ وَنَصَرَهُ بِحَدِيثِ: ((فَقَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا([2])))، لِقَوْلِ الرَّجُلِ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا بِضْعَةٌ وَثَلَاثُونَ حَرْفًا وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ: عن أَبَا تَمِيمَةَ يُحَدِّثُ، عَنْ رَدِيفِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: عَثَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ. فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ([3]))). هَكَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَابْنُ مَرْدُويَه فِي تَفْسِيرِهِ، مِنْ حَدِيثِ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ، عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ هُوَ و الْهُجَيْمِيُّ، عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ بْنِ أُسَامَةَ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَهُ وَقَالَ: ((لَا تَقُلْ هَكَذَا، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ حَتَّى يَكُونَ كَالْبَيْتِ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَكُونَ كَالذُّبَابَةِ)). فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَةِ بِسْمِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أَوّلِ كل عمل وَقَوْلٍ. وَتُسْتَحَبُّ الْبَسْمَلَةُ عِنْدَ دُخُولِ الْخَلَاءِ وَلِمَا وَرَدَ مِنَ الْحَدِيثِ في ذلك([4]).

١- البخاري في الأنبياء (٣٣٦٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٣/٤٠٠)، والنسائي في المناسك (٢٩٠٢)، والموطأ في الحج١/٣٦٣،٣٦٤(١٠٤)، وأحمد ١١٣/٦، كلهم عن عائشة.

٢- (قلت): البخاري (٧٩٩)، ومسلم (٦٠٠).

٣- صحيح: الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠١).

٤- صحيح: الألباني في صحيح الجامع (٣٦١١).

وَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ لِمَا جَاءَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالسُّنَنِ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ مرفوعًا: ((لا وضوء لمن لم يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ(١)))، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَوْجَبَهَا عِنْدَ الذِّكْرِ هَاهُنَا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِوُجُوبِهَا مُطْلَقًا، وَكَذَا تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَجَمَاعَةٍ، وَأَوْجَبَهَا آخَرُونَ عِنْدَ الذِّكْرِ، وَمُطْلَقًا فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ.

وَهَكَذَا تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْأَكْلِ لِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَبِيبِهِ(٢)عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: ((قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)). وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَوْجَبَهَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ وَكَذَلِكَ تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْجِمَاعِ لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أبداً(٣))).

وَمِنْ هَاهُنَا يَنْكَشِفُ لَكَ أَنَّ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ النُّحَاةِ فِي تَقْدِيرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِكَ: بِاسْمِ اللَّهِ، هَلْ هُوَ اسْمٌ أَوْ فِعْلٌ مُتَقَارِبَانِ وَكُلٌّ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ؛ أَمَّا مَنْ قَدَّرَهُ بِاسْمٍ، تَقْدِيرُهُ: بِاسْمِ اللَّهِ ابْتِدَائِي، فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[هُودٍ: ٤١]، وَمَنْ قَدَّرَهُ بِالْفِعْلِ أَمْرًا وَخَبَرًا نَحْوَ: أبدَأُ بِبِسْمِ اللَّهِ أَوِ ابْتَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ، فَلِقَوْلِهِ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[الْعَلَقِ: ١]، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا بُدّ لَهُ مِنْ مَصْدَرٍ، فَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ الْفِعْلَ وَمَصْدَرَهُ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْفِعْلِ الَّذِي سَمَّيْتَ قَبْلَهُ، إِنْ كَانَ قِيَامًا أَوْ قُعُودًا أَوْ أَكْلًا أَوْ شُرْبًا أَوْ قِرَاءَةً أَوْ وُضُوءًا أَوْ صَلَاةً، فَالْمَشْرُوعُ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ فِي الشُّرُوعِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، تَبَرُّكًا وَتَيَمُّنًا وَاسْتِعَانَةً عَلَى الْإِتْمَامِ وَالتَّقَبُّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الِاسْمِ: هَلْ هُوَ الْمُسَمَّى أَوْ غَيْرُهُ؟ فَفِيهَا لِلنَّاسِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الِاسْمَ هُوَ الْمُسَمَّى، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ وَسِيبَوَيْهِ، وَاخْتَارَهُ الْبَاقِلَّانِيُّ وَابْنُ فُورَكٍ، وَقَالَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ – وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ خَطِيبِ الرَّيِّ – فِي مُقَدِّمَاتِ تفسيره: قَالَتِ الْحَشَوِيَّةُ وَالْكَرَّامِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ: الِاسْمُ نَفْسُ الْمُسَمَّى وَغَيْرُ التَّسْمِيَةِ، وَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: الِاسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى وَنَفْسُ التَّسْمِيَةِ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا: أَنَّ الِاسْمَ غَيْرُ الْمُسَمَّى وَغَيْرُ التَّسْمِيَةِ، ثُمَّ نَقُولُ: إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالِاسْمِ هَذَا اللَّفْظَ الَّذِي هُوَ أَصْوَاتٌ مُقَطَّعَةٌ وَحُرُوفٌ مُؤَلَّفَةٌ، فَالْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ حَاصِلٌ أَنَّهُ غَيْرُ الْمُسَمَّى، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالِاسْمِ ذَاتُ الْمُسَمَّى، فَهَذَا يَكُونُ مِنْ بَابِ إِيضَاحِ الْوَاضِحَاتِ وَهُوَ عَبَثٌ، فَثَبَتَ أَنَّ الْخَوْضَ فِي هَذَا الْبَحْثِ عَلَى جَمِيعِ التَّقْدِيرَاتِ يَجْرِي مَجْرَى الْعَبَثِ.

ثُمَّ شَرَعَ يَسْتَدِلُّ عَلَى مُغَايَرَةِ الِاسْمِ لِلْمُسَمَّى، بِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الِاسْمُ مَوْجُودًا وَالْمُسَمَّى مَفْقُودًا كَلَفْظَةِ الْمَعْدُومِ، وَبِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلشَّيْءِ أَسْمَاءٌ مُتَعَدِّدَةٌ كَالْمُتَرَادِفَةِ وَقَدْ يَكُونُ الِاسْمُ وَاحِدًا وَالْمُسَمَّيَاتُ مُتَعَدِّدَةٌ كَالْمُشْتَرَكِ، وَذَلِكَ دَالٌّ عَلَى تَغَايُرِ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى، وَأَيْضًا فَالِاسْمُ لَفْظٌ وَهُوَ عَرَضٌ وَالْمُسَمَّى قَدْ يَكُونُ ذَاتًا مُمْكِنَةً أَوْ وَاجِبَةً بِذَاتِهَا، وَأَيْضًا فَلَفْظُ

– (قلت): وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٥٠)، والحديث بتمامه: ((ستر ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الخلاء أن يقول: بسم الله)).

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٥٧٣)، وصحح رواية أبي سعيد في المشكاة (٤٠٤).

٢– الربيب: الولد يربيه زوج الأم.

٣– صحيح البخاري (١٤١)، مسلم (١٤٣٤).

النَّارِ وَالثَّلْجِ لَوْ كَانَ هُوَ الْمُسَمَّى لَوَجَدَ اللَّافِظُ بِذَلِكَ حَرَّ النَّارِ أَوْ بَرْدَ الثَّلْجِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَلَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ، وَأَيْضًا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وللهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}[الْأَعْرَافِ: ١٨٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنْ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا))، فَهَذِهِ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ وَالْمُسَمَّى وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ: {وللهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى}، أَضَافَهَا إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}[الْوَاقِعَة: ٧٤- ٩٦]، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَالْإِضَافَةُ تَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ وَقَوْلُهُ: {فَادْعُوهُ بِهَا}: أَيْ: فَادْعُوا اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُهُ، وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ: الِاسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}[الرَّحْمَن: ٧٨]، وَالْمُتَبَارِكُ هُوَ اللَّهُ. وَالْجَوَابُ: أَنَّ الِاسْمَ مُعَظَّمٌ لِتَعْظِيمِ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَيْضًا فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ: زَيْنَبُ طَالِقٌ، يَعْنِي امْرَأَتُهُ طَالِقٌ، طُلِّقَتْ، وَلَوْ كَانَ الِاسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى لَمَا وَقَعَ الطَّلَاقُ، وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الذَّاتَ الْمُسَمَّاةَ بِهَذَا الِاسْمِ طَالِقٌ. قَالَ الرَّازِيُّ: وَأَمَّا التَّسْمِيَةُ فَإِنَّهَا جَعْلُ الِاسْمِ مُعَيَّنًا لِهَذِهِ الذَّاتِ فَهِيَ غَيْرُ الِاسْمِ أَيْضًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

{اللَّهِ}: عَلَمٌ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ الِاسْمُ الْأَعْظَمُ؛ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ([1])، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[الْحَشْر: ٢٢ – ٢٤]، فَأَجْرَى الْأَسْمَاءَ الْبَاقِيَةَ كلها صفات لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وللهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الْإِسْرَاء: ١١٠]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ([2])))، وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وَلِهَذَا لَا يُعْرَفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لَهُ اشْتِقَاقٌ مِنْ فَعَلَ وَيَفْعَلُ، فَذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ النُّحَاةِ إِلَى أَنَّهُ اسْمٌ جَامِدٌ لَا اشْتِقَاقَ لَهُ. وَقَدْ نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمُ الشَّافِعِيُّ وَالْخَطَّابِيُّ وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَالْغَزَالِيُّ وَغَيْرُهُمْ، وَرُوِيَ عَنِ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ أَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ فِيهِ لَازِمَةٌ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: يَا اللَّهُ، وَلَا تَقُولُ: يَا الرَّحْمَنُ، فَلَوْلَا أَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْكَلِمَةِ لَمَا جَازَ إِدْخَالُ حَرْفِ النِّدَاءِ عَلَى الْأَلِفِ وَاللَّامِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِ رؤْبَة بْنِ العَجّاج:

لِلَّهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّه ... سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

١- (قلت): قال الدكتور محمود عبدالرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب المقدس: ورد في ألفين وسبعمائة وثمانية مواضع (٢٧٠٨)، وهذا الاسم هو الاسم الأعظم الذي يدل على جميع أسماء الله الحسنى والصفات العليا بالدلالات العقلية الثلاث، دلالة المطابقة ودلالة التضمن ودلالة اللزوم؛ فإنه دال على إلهيته سبحانه المتضمنة لثبوت الصفات له مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلهية هي التي يستحق بها أن يعبد، وأن تتعلق به القلوب ومحبة خوفا ورجاء وإخلاصا وتوكلا والتجاء، وهي صفات الكمال المنزهة عن جميع النقائص والعيوب التي يتصف بها الإنسان. ويستحيل ثبوت معاني الكمال المطلق في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير، أو ليس بقادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله، فالله سبحانه هو الرَّبّ الأعلى الإله.

– وأنظر كلام الإمام الألباني عن أسم الله الأعظم عند تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

٢– صحيح: البخاري (٧٣٩٢)، مسلم (٢٦٧٧).

فَقَدْ صَرَّحَ الشَّاعِرُ بِلَفْظِ الْمَصْدَرِ، وَهُوَ التَّأَلُّهُ، مِنْ أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَاهَةً وَتَأَلُّهًا، كَمَا رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَ: (وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ)، قَالَ: عِبَادَتَكَ، أَيْ: أَنَّهُ كَانَ يُعْبَدُ وَلَا يَعْبُد، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى كَوْنِهِ مُشْتَقًّا بِقَوْلِهِ: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأرْضِ}[الْأَنْعَامِ: ٣]: أَيْ: الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأرْضِ إِلَهٌ}[الزُّخْرُفِ: ٨٤]، وَنَقَلَ سِيبَوَيْهِ عَنِ الْخَلِيلِ: أَنَّ أَصْلَهُ: إِلَاهٌ، مِثْلُ فِعَالٍ، فَأُدْخِلَتِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ بَدَلًا مِنَ الْهَمْزَةِ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: مِثْلُ النَّاسِ، أَصْلُهُ: أُنَاسٌ، وَقِيلَ: أَصْلُ الْكَلِمَةِ: لَاهَ، فَدَخَلَتِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ لِلتَّعْظِيمِ وَهَذَا اخْتِيَارُ سِيبَوَيْهِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لَاهِ ابْنِ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ ... عَنِّي وَلَا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ، أَيْ: فَتَسُوسُنِي، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ: أَصْلُهُ: الْإِلَهُ حَذَفُوا الْهَمْزَةَ وَأَدْغَمُوا اللَّامَ الْأُولَى فِي الثَّانِيَةِ، كَمَا قَالَ: {لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي}[الْكَهْفِ: ٣٨]: أَيْ: لَكِنْ أَنَا، وَقَدْ قَرَأَهَا كَذَلِكَ الْحَسَنُ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ثُمَّ قِيلَ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ وَلِهَ: إِذَا تَحَيَّرَ، وَالْوَلَهُ ذَهَابُ الْعَقْلِ؛ يُقَالُ: رَجُلٌ وَالِهٌ، وَامْرَأَةٌ وَلْهَى، وَمَاءٌ مُولَهٌ: إِذَا أُرْسِلَ فِي الصَّحَارِي، فَاللَّهُ تَعَالَى تَتَحَيَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ وَالْفِكْرِ فِي حَقَائِقِ صِفَاتِهِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَصْلُهُ: وِلَاهٌ، فَأُبْدِلَتِ الْوَاوُ هَمْزَةً، كَمَا قَالُوا فِي وِشَاحٍ: أَشَاحٌ، وَوِسَادَةٍ: أَسَادَةٌ، وَقَالَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ: وَقِيلَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ أَلِهْتُ إِلَى فُلَانٍ، أَيْ: سَكَنْتُ إِلَيْهِ، فَالْعُقُولُ لَا تَسْكُنُ إِلَّا إِلَى ذِكْرِهِ، وَالْأَرْوَاحُ لَا تَفْرَحُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ؛ لِأَنَّهُ الْكَامِلُ عَلَى الإطلاق دون غَيْرِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[الرَّعْدِ: ٢٨]، قَالَ: وَقِيلَ: مِنْ لَاهَ يَلُوهُ: إِذَا احْتَجَبَ. وَقِيلَ: اشْتِقَاقُهُ مِنْ أَلِهَ الْفَصِيلُ، إِذْ وَلِعَ بِأُمِّهِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْعِبَادَ مَأْلُوهُونَ مُولَعُونَ بِالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، قَالَ: وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ أَلِهَ الرَّجُلُ يَأْلَهُ: إِذَا فَزِعَ مِنْ أَمْرٍ نَزَلَ بِهِ فَأَلَّهَهُ، أَيْ: أَجَارَهُ، فَالْمُجِيرُ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنْ كُلِّ الْمَضَارِّ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ}[الْمُؤْمِنُونَ: ٨٨]، وَهُوَ الْمُنْعِمُ لِقَوْلِهِ: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}[النَّحْلِ: ٥]، وَهُوَ الْمُطْعِمُ لِقَوْلِهِ: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ}[الْأَنْعَامِ: ١٤]، وَهُوَ الْمُوجِدُ لِقَوْلِهِ: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}[النِّسَاءِ: ٧٨].

وَقَدِ اخْتَارَ الرازي أَنَّهُ اسْمُ عَلَمٍ غَيْرُ مُشْتَقٍّ الْبَتَّةَ، قَالَ: وَهُوَ قَوْلُ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ وَأَكْثَرُ الْأُصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ، ثُمَّ أَخَذَ يَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ بِوُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّهُ لَوْ كَانَ مُشْتَقًّا لَاشْتَرَكَ فِي مَعْنَاهُ كَثِيرُونَ، وَمِنْهَا: أَنَّ بَقِيَّةَ الْأَسْمَاءِ تُذْكَرُ صفات لَهُ، فَتَقُولُ: اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ، فَدَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُشْتَقٍّ، قَالَ: فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ}[إِبْرَاهِيمَ: ١، ٢]، عَلَى قِرَاءَةِ الْجَرِّ فَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْبَيَانِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}[مَرْيَمَ: ٦٥]، وَفِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَذِهِ عَلَى كَوْنِ هَذَا الِاسْمِ جَامِدًا غَيْرَ مُشْتَقٍّ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ(١).

١- (قلت): قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص١٤١: لفظ الجلالة واسم {الله}: اختلف العلماء فيه؛ هل هو مشتق أم هو غير مشتق؟ والخلاف واسع.

والذي يرجحه جمع كثير من المحققين وهو المعتمد عند أئمة الدعوة رحمهم الله تعالى أنَّ لفظ الجلالة مشتق، ومعنى كونه مشتقاً أنَّ اسم {الله} دالٌّ على المعبود بحق دلالة مطابقة؛ يعني أنَّ كلمة {الله} أصلها الإله، والإله هو المعبود.

وَحَكى الرازي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عِبْرَانِيٌّ لَا عَرَبِيٌّ، ثُمَّ ضَعَّفَهُ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِالتَّضْعِيفِ كَمَا قَالَ، وَقَدْ حَكَى الرازي هَذَا الْقَوْلَ ثُمَّ قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلْقَ قِسْمَانِ: وَاصِلُونَ إِلَى سَاحِلِ بَحْرِ الْمَعْرِفَةِ، وَمَحْرُومُونَ قَدْ بَقُوا فِي ظُلُمَاتِ الْحَيْرَةِ وَتِيهِ الْجَهَالَةِ؛ فَكَأَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا عُقُولَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ، وَأَمَّا الْوَاجِدُونَ فَقَدْ وَصَلُوا إِلَى عَرْصَةِ النُّورِ وَفُسْحَةِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْجَلَالِ، فَتَاهُوا فِي مَيَادِينِ الصَّمَدِيَّةِ، وَبَادُوا فِي عَرْصَةِ الْفَرْدَانِيَّةِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ وَالِهُونَ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَرُوِيَ عَنِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: لِأَنَّ الْخَلْقَ يَأْلَهُونَ إِلَيْهِ بِنَصْبِ اللَّامِ وَجَرِّهَا لُغَتَانِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الِارْتِفَاعِ، فَكَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ: لَاهَا، وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ: لَاهَتْ. وَأَصْلُ ذَلِكَ الْإِلَهُ، فَحُذِفَتِ الْهَمْزَةُ الَّتِي هِيَ فَاءُ الْكَلِمَةِ، فَالْتَقَتِ اللَّامُ الَّتِي هِيَ عَيْنُهَا مَعَ اللَّامِ الزَّائِدَةِ فِي أَوَّلِهَا لِلتَّعْرِيفِ فَأُدْغِمَتْ إِحْدَاهُمَا فِي الْأُخْرَى، فَصَارَتَا فِي اللَّفْظِ لَامًا وَاحِدَةً مُشَدَّدَةً، وَفُخِّمَتْ تَعْظِيمًا، فَقِيلَ: اللَّهُ.

قال السعدي: {بسم الله}: أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ {اسم} مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى، {الله}: هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال.

قال ابن العثيمين: {بسم الله الرحمن الرحيم}: الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقَدَّر فعلًا متأخِّرًا مناسبًا؛ فإذا قلت: (باسم الله)، وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: (باسم الله آكل).

قلنا: إنه يجب أن يكون متعلِّقًا بمحذوف؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولا بد لكل معمول من عامل.

وقدرناه متأخِّرًا لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبرِّكًا به، ومستعينًا به، إلا باسم الله ﷻ. وقدرناه فعلًا؛ لأن الأصل في العمل الأفعال. وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط.

أمَّا الذي يقول أنه ليس بمشتق فيقول: إنَّ {الله} علم على الذات – ذات الرب – عز وجل – وليس فيه معنى. والقاعدة عامة عندنا أنَّ اللغة في الأسماء لابد أن تكون دالة على معاني. فالاسم يكون دال على معنى، أسماء الله الحسنى دالة على معاني فيها فليس ثَمَّ اسم ليس له دلالة على معنى، والدلالة على المعنى تارة تكون دلالة جامدة وتارة تكون دلالة مشتقة.

وهذا في اسم (الله الأعظم)، أو اسم {الله} لفظ الجلالة العظيم هذا مشتق من إله؛ لأنَّ العرب تُسَهِّلْ في مثل هذا كثيراً.

والبحث فيه بحث نحوي وصرفي وأَكْثَرَ العلماء منه.

المقصود من الجواب أنَّ اسم {الله} مشتق ولا ينافي هذا تعظيم لفظ الجلالة؛ لأننا كما نقول إنَّ الجبار يتنوع إلى عدة معاني أو يدل على عدة معاني ومشتق من كذا واسم الله العظيم مشتق واسم الرحمن مشتق من الرحمة، وهكذا. فالذين يقولون إنَّ الاشتقاق ينافي التعظيم هذا ينخرم الكلام فيما أوردوه بجميع الأسماء الحسنى، فأسماء الله الحسنى كلها مشتقة، والاسم {الله} مشتق من الألوهة وهي العبادة؛ لأنَّ {الله} عَلَمٌ على المعبود بحق.

وقدرناه مناسبًا؛ لأنه أدلّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: ((من لم يذبح فليذبح باسم الله([١]))). أو قال ﷺ: ((على اسم الله([٢])))، فخص الفعل.

و{الله}: اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

قال ابن القيِّم في التفسير القيِّم: فأسم {الله}، دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدِّلالات الثلاث، فإنه دالٌّ على إلهيته المتضمّنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه. وصفات الإلهية: هي صفات الكمال المنزّهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[٧: ١٨٠]، ويقال: الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك؛ فعلم أن اسمه {الله}، مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالّ عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم {الله}، واسم {الله}، دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد؛ وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحيّ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلِّم، ولا فعّال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. ويتضمّن اسم {اللّه}، إثبات النبوّات، لأنه هو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلّا من طريق رسله.

قال ابن كثير:{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}: اسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ، وَرَحْمَنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنْ رَحِيمٍ، وَفِي كَلَامِ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يُفْهِم حِكَايَةَ الِاتِّفَاقِ عَلَى هَذَا، وَفِي تَفْسِيرِ بَعْضِ السَّلَفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْأَثَرِ، عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: وَالرَّحْمَنُ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالرَّحِيمُ رَحِيمُ الْآخِرَةِ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُشْتَق إِذْلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاتَّصَلَ بِذِكْرِ الْمَرْحُومِ وَقَدْ قَالَ: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[الْأَحْزَاب: ٤٣]، وَحَكَى ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الزَّاهِرِ عَنِ الْمُبَرِّدِ: أَنَّ الرَّحْمَنَ اسْمٌ عِبْرَانِيٌّ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ: وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: الرَّحِيمُ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحْمَنُ عِبْرَانِيٌّ، فَلِهَذَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا. قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: وَهَذَا الْقَوْلُ مَرْغُوبٌ عَنْهُ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مَا خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ([٣]))). قَالَ: وَهَذَا نَصٌّ فِي الِاشْتِقَاقِ فَلَا مَعْنَى لِلْمُخَالَفَةِ وَالشِّقَاقِ. قَالَ: وَإِنْكَارُ الْعَرَبِ لِاسْمِ الرَّحْمَنِ لِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا وَجَبَ لَهُ، وهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ كَنَدْمَانَ وَنَدِيمٍ قَالَهُ أَبُو عُبَيْدٍ، وَقِيلَ: لَيْسَ بِنَاءُ فَعْلَانَ كَفَعِيلٍ، فَإِنَّ فَعْلَانَ لَا

١- أخرجه البخاري في صحيحه ص٧٧، كتاب العيدين، باب ٢٣: كلام الإمام والناس في خطبة العيد، حديث رقم ٩٨٥؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص١٠٢٧، كتاب الأضاحي، باب ١: وقتها، حديث رقم ٥٠٦٤ [١] ١٩٦٠.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه ص٤٧٤، كتاب الذبائح والصيد، باب ١٧: قول النبي ﷺ: ((فليذبح على اسم الله))، حديث رقم ٥٥٠٠؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص١٠٢٧، كتاب الأضاحي، باب ١: وقتها، حديث رقم ٥٠٦٤ [٢] ١٩٦٠.

٣- صحيح: الألباني في صحيح الجامع (١٣١٤).

يَقَعُ إِلَّا عَلَى مُبَالَغَةِ الْفِعْلِ نَحْوَ قَوْلِكَ: رَجُلٌ غَضْبَانُ، وَفَعِيلٌ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولُ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: الرَّحْمَنُ: اسْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ يَخْتَصُّ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى، وَالرَّحِيمُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[الْأَحْزَابِ: ٤٣]. وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: الرَّحْمَنُ إِذَا سُئِلَ أَعْطَى، وَالرَّحِيمُ إِذَا لَم يُسْأَلْ يَغْضَبُ، وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ الْفَارِسِيِّ الْخُوزِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ([1]))). وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يسأل يغضب

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ زُفَرٍ، سَمِعْتُ الْعَرْزَمِيَّ يَقُولُ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، قَالَ: الرَّحْمَنُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، الرَّحِيمُ، قَالَ: بِالْمُؤْمِنِينَ. قَالُوا: وَلِهَذَا قَالَ: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ}[الْفُرْقَانِ: ٥٩]، وَقَالَ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: ٥]، فَذَكَرَ الِاسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ لِيَعُمَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَقَالَ: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[الْأَحْزَابِ: ٤٣]، فَخَصَّهُمْ بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ، قَالُوا: فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَالرَّحِيمُ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، لَكِنْ جَاءَ فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا.

قال ابن العثيمين: و{الرحمن}: أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن (فَعْلان) الذي يدل على السّعة.

و{الرحيم}: أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن (فعيل) الدال على وقوع الفعل فهنا رحمة هي صفته. هذه دلّ عليها {الرحمن}؛ ورحمة هي فعله. أي إيصال الرحمة إلى المرحوم. دلّ عليها {الرحيم}.

و{الرحمن الرحيم}: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

قال ابن كثير: اسْمُهُ تَعَالَى {الرَّحْمَنُ}، خَاصٌّ بِهِ لَمْ يُسمّ بِهِ غَيْرُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الْإِسْرَاءِ: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}[الزخرف: ٤٥]، وَلَمَّا تَجَهْرَمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ وَتَسَمَّى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللَّهُ جِلْبَابَ الْكَذِبِ وَشُهِرَ بِهِ؛ فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ، فَصَارَ يُضرب بِهِ الْمَثَلُ فِي الْكَذِبِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ، وَأَهْلِ الْوَبَرِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْأَعْرَابِ.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الرَّحِيمَ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنَ الرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّهُ أَكَّدَ بِهِ، وَالمؤكِّد لَا يَكُونُ إِلَّا أَقْوَى مِنَ المؤكَّد، وَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ النَّعت وَلَا يَلْزَمُ فِيهِ مَا ذَكَرُوهُ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ تَقْدِيرُ اسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يُسَمّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَوَصْفُهُ أَوَّلًا بِالرَّحْمَنِ الَّذِي مَنَعَ مِنَ التَّسْمِيَةِ بِهِ لِغَيْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الْإِسْرَاءِ: ١١٠]. وَإِنَّمَا تَجَهْرَمَ مُسَيْلِمَةُ الْيَمَامَةِ فِي التَّسَمِّي بِهِ وَلَمْ يُتَابِعْهُ

١- صحيح: الألباني في صحيح الجامع (٢٤١٨).

عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الضَّلَالَةِ. وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ حَيْثُ قَالَ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التَّوْبَة: ١٢٨]، كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[الْإِنْسَانِ: ٢].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، كَاسْمِ اللَّهِ وَالرَّحْمَنِ وَالْخَالِقِ وَالرَّزَّاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللَّهِ، وَوَصَفَهُ بِالرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّهُ أَخَصُّ وَأَعْرَفُ مِنَ الرَّحِيمِ؛ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوَّلًا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ، فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَخَصِّ فَالْأَخَصِّ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الرَّحْمَنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً، فَهَلَّا اكْتُفِيَ بِهِ عَنِ الرَّحِيمِ؟ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ مَا مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَمَّا تَسَمَّى غَيْرُهُ تَعَالَى بِالرَّحْمَنِ، جِيءَ بِلَفْظِ الرَّحِيمِ لِيَقْطَعَ الوَهم بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. كَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَطَاءٍ. وَوَجَّهَهُ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، حَتَّى رَدَّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الْإِسْرَاءِ: ١١٠]؛ وَلِهَذَا قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لعلي: ((اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ))، فَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ([1])، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ. وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}[الفرقان: ٦٠]. وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِنْكَارَهُمْ هَذَا إِنَّمَا هُوَ جُحود وَعِنَادٌ وَتَعَنُّتٌ فِي كُفْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ وُجِدَ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَسْمِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِالرَّحْمَنِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ أُنْشِدَ لِبَعْضِ الْجَاهِلِيَّةِ الجُهَّال:

أَلَا ضَرَبَتْ تِلْكَ الفتاةُ هَجِينَهَا ... أَلَا قَضَبَ الرحمنُ رَبِى يَمِينَهَا

وَقَالَ سَلَامَةُ بن جندب الطُّهَوِيُّ:

عَجِلتم عَلَيْنَا عَجْلَتَينَا عليكُمُ ... وَمَا يَشَأ الرَّحْمَن يَعْقِد ويُطْلِقِ

وقال ابن جرير: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: الرَّحْمَنُ: الْفِعْلَانِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَقَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}[الْفَاتِحَةِ: ٣]، الرَّقِيقُ الرَّفِيقُ بِمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْحَمَهُ، وَالْبَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعَنِّفَ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ أَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا وقال أيضاً عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: الرَّحْمَنُ اسْمٌ مَمْنُوعٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ الْحَسَنِ، قَالَ: الرَّحْمَنُ: اسْمٌ لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ أَنْ يَنْتَحِلُوهُ، تَسَمَّى بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا اسْمَانِ رَقِيقَانِ، أَحَدُهُمَا أَرَقُّ مِنَ الْآخَرِ، أَيْ أَكْثَرُ رَحْمَةً، ثُمَّ حُكِيَ عَنِ الْخَطَّابِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّهُمُ اسْتَشْكَلُوا هَذِهِ الصِّفَةَ، وَقَالُوا: لَعَلَّهُ أَرْفَقُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ((إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ وَإِنَّهُ يُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ([2]))).

١- (قلت): مسلم (١٧٨٤). ولم أجده عند البخاري بهذا اللفظ، والحديث الذي عند البخاري (٢٧٣٢)، جاء بلفظ: ((فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)))، ولم يذكر أنه دعا عليًا.

٢- صحيح مسلم (٢٥٩٣).

قال السعدي:{الرحمن الرحيم}: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حيّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها. واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات. فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم. فالنِّعم كلُّها، أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم كل شيء، قدير، ذو قدرة يقدر على كل شيء.

قال ابن العثيمين: والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دلّ عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب، والسنّة من إثبات الرحمة لله. وهو كثير جدًّا؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعمًا منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: (لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة؛ وهذا لا يليق بالله ﷻ)؛ والرَّد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع، ورقة، وانكسار.

الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة، ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصاً بوجه من الوجوه.

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله، فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بَيْنها يدل على رحمة الله ﷻ؛ ولأن الرحمة كمال؛ والله أحق بالكمال؛ ثم إن ما نشاهده من الرحمة التي يختص الله بها. كإنزال المطر، وإزالة الجدب، وما أشبه ذلك. يدل على رحمة الله.

والعجب أن منكري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا لله إرادة حقيقية بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة الله، حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلًا على الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النّباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفه حتى العوام، فإنك لو سألت عاميًا صباح ليلة المطر: (بِمَ مطرنا؟)، لقال: (بفضل الله ورحمته).

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: {الرحمن}: فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما ورد في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}، وقوله

- (قلت): عجبت من عدم إستدراك ابن كثير لقول الخطابي المعطل لصفة الرحمة لله جل وعلا بعدما أورده!! أنظر كلام السعدي وابن العثيمين الذي يليه، وإثباتهم لصفة الرحمة لله جل وعلا على منهج السلف الصالح.

تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء: ١١٠]، وقوله: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً}[مريم: ٧٥]، وقوله: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً}[الفرقان: ٥٩].

وقد ورد اسم الله {الرحمن} في خمسة وأربعين موضعًا من القرآن، اقترن في ستة منها فقط باسمه الرحيم، ولم يقترن بغيره، كما ورد في قوله: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ١٦٣]، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[الحشر: ٢٢]، {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}[النمل: ٣٠]، {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}[فصلت :٢]، أما بقية المواضع فقد ورد الاسم منفردًا دون اقتران كقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: ٥]، {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا}[مريم: ٨٥]، {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً}[مريم: ٦١]، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً}[الفرقان: ٦٠]، {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}[يّس: ١١].

وممَّا ورد في السنة في النص على اسم الله {الرحمن} ما رواه أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أن النَّبِي ث قَالَ: ((الْخَيْلُ ثَلاثَةٌ فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ وَفَرَسٌ لِلإِنْسَانِ وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبَطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَلَفُهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ وَذِكْرَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَالَّذِي يُقَامَرُ أَوْ يُرَاهَنُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا فَرَسُ الإِنْسَانِ فَالْفَرَسُ يَرْتَبِطُهَا الإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا فَهِيَ تَسْتُرُ مِنْ فَقْرٍ([1]))).

وفي المسند أيضا وصححه الشيخ الألباني من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَنْبَشٍ رضي الله عنه أن رجلا سَأَلَه كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ؟ قَالَ: جَاءَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الأَوْدِيَةِ وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِبَالِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا وَجْهَ سُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَبَطَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْ: قَالَ: ((مَا أَقُولُ)): قَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ، إِلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ، قَالَ – عبد الرحمن – فَطَفِئَتْ نَارُهُمْ وَهَزَمَهُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى([2]).

وروى الإمام أحمد وأبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا مِنِ اسْمِي فَمَنْ يَصِلْهَا أَصِلْهُ وَمَنْ يَقْطَعْهَا أَقْطَعْهُ، فَأَبُتَّهُ أَوْ قَالَ: مَنْ يَبُتَّهَا أَبُتَّهُ([3]))، وعند أي أبي داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح، وكذلك حسنه الشيخ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٠).
٢- (قلت): بهذا المتن حسنه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٠٢).
٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٤).

الألباني، من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِي ﷺ قَالَ: ((اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ: {الم اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَي القَيُّومُ}([1]))).

و{الرحمن} في اللغة صفة مشبهة، مستعملة كصيغة للمبالغة، وهي أبلغ من الرحيم، والرحمة في حقنا رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم بالعون، وتقتضي العطف والمسامحة، والرحمة تستدعي مرحومًا فهي من صفات الأفعال، و{الرحمن}: اسم يختص بالله سبحانه وتعالى، ولا يجوز إطلاقه في حق غيره، ومعنى {الرحمن}: الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم، ووسع عليهم رزقهم، ووسعت رحمته كلَ شيء، فالرحمة في اسمه {الرحمن} شمِلَت رحمته للمؤمنين والكافرين في هذه الدنيا، ورحمة الله من أعظم صفاته بالنسبة لعباده، فهي تفتح أبواب الرجاء والأمل وتدفع أبواب الخوف واليأس وتشعر الشخص بالأمان والأمان، والله عز وجل غلبت رحمته غضبه، ولم يجعل الله لنا في هذه الدنيا إلا جزءًا يسيرًا من واسع رحمته، به يتراحم الناس ويتعاطفون وكذلك سائر الأحياء في الأرض أجمعون، كما ثبت عند الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سَمِع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ([2]))). وفي رواية أخرى عند البخاري: ((إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ([3]))). وفي الحديث المتفق عليه من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي، - وقد سبيت وابتعدت عن طفلها - إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ - ليخفف ألم اللبن في ثديها وهي تبحث عن طفلها حتى وجدته فأخذته وضمته وأرضعته يقول عمر - فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ))، قُلْنَا: لاَ وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ث: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا([4]))).

فالرحمة التي دل عليها اسمه {الرحمن} رحمة عامة بأهل الدنيا كما قال تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[القصص: ٧٣]، {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً}[الفرقان: ٤٨]، {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[الروم: ٥٠]، ولما كانت الرحمة التي دلَّ عليها اسمه {الرحمن} رحمة عامة بالخلائق في الدنيا، فإن الله خص اسمه {الرحمن} عند ذكر استوائه على عرشه فقال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: ٥]، لأنه فوق الكل مؤمنهم وكافرهم، وحياتهم قائمة بإذنه، وأرزاقهم مكنونة في غيبه، وبقائهم رهن

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤٣).
٢- (قلت): البخاري (٦٠٠٠).
٣- (قلت): البخاري (٦٤٦٩).
٤- (قلت): البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

مشيئته وأمره، فلا حول ولا قوة لهم إلا بقوته وحوله، فهو الملك والكل في مملكته، {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً}[الفرقان: ٥٩].

واسم الله {الرحمن} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة الرحمة العامة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة الرحمة العامة وحدها بدلالة التضمن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية، والغنى والأحدية، والعزة والصمدية، وكل ما يلزم لقيام وصف من يرحم رحمة مطلقة عامة، وما يترتب عليها، واسم الله {الرحمن} دلَّ على صفة من صفات الفعل، لأنها تتعلق بمشيئته وإن كانت عامة، لأن الرحمة العامة التي تلحق الكافرين والمشركين والتي بها خلقهم ورزقهم وجعلهم ينعمون ويختارون كفرهم وغيهم، إنما ذلك إلى حين أجل لهم فيه عقابهم، ف{الرحمن} اسم يدلُّ على صفة الرحمة العامة بالمخلوقات في الدنيا، لكنها مقيدة خاصة بانتهائها، فهي عامة من وجه وخاصة من وجه آخر.

والرحمة التي دلَّ عليها اسم الله {الرحمن} هي من إضافة صفة لموصوف، لأن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: أحدهما رحمة مضافة إليه من باب إضافة المفعول إلى فاعله، والثاني رحمة مضافة إليه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بها، فمن الأول ما ورد عند البخاري ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن النبي ﷺ: ((تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ قَطٍ قَطٍ قَطٍ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا([1]))، فقوله في الحديث: ((أنت رحمتي أرحم بك من أشاء عبادي))، فهذه رحمة مخلوقة مضافة إلي الله، إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء، ومنه ما ورد عند البخاري في الحديث السابق من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ، وكذلك قوله منه قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ}[هود: ٩]، فقوله في الحديث: ((خلق الرحمة يوم خلقها، وقوله: {ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة}، الرحمة هنا من باب إضافة المفعول إلى فاعله، وكقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}[الأعراف: ٥٧].

كيف ندعو الله باسمه {الرحمن} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة هو أن يتخير الاسم أو الوصف الذي دل عليه الاسم في دعائه لربه، يتوسل به تحقيقا لطلبه، ومن ذلك ما رواه الطبراني في الصغير وحسنه الشيخ الألباني من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: ((ألا أعلمك دعاء تدعو به

١- (قلت): البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه الله عنك، قل يا معاذ: ((اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك(١))).

وفي المسند في الحديث الذي ذكرناه وصححه الشيخ الألباني من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَنْبَشٍ التَّمِيمِيِّ رضي الله عنه أن رجلا سَأَلَه كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ قَالَ: جَاءَتِ الشَّيَاطِينُ .. الحديث.

أما دعاء العبادة فهو امتلاء القلب بالرحمة والحب والحرص على ما ينفع الخلق سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فالمؤمنون يحب لهم ما يحب لنفسه، فيوقر كبيرهم ويرحم ضعيفهم ويجعل حبل الرحمة ممدودًا بينهم، ويسعد بسعادتهم ويحزن لحزنهم، أما رحمته بالكافرين فيحرص على دعوتهم، ويسهم في إخماد النار التي تشتعل فيهم بسبب كفرهم ودون وعي منهم، فيجتهد في نصيحتهم والأخذ على أيدهم، حتى لو بجهادهم في بعض المواطن، فلو أن الكافر علم ما ينتظره من العذاب لشكر كل من دعاه إلى اتقائه ومحاولة منعه ولو بالقوة، وعند أبي أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أن النَّبِيَّ ﷺ قال: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ(٢)))، وفي زيادة صحيحة عند الترمذي ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ – الشجنة هي القرابة المتشابكة – فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ))، وفي المسند أيضا وصححه الشيخ الألباني من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ((ارْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللَّهُ لَكُمْ وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ – هم الذين يسمعون ولا يعملون به، شبه آذانهم بالأقماع المخرومة يصب فيها الكلام صب الماء في الإناء – وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٣))).

{الرحيم}: فقد سمّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما ورد في قوله تعالى: {سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}[يّس: ٥٨]، {نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}[فصلت: ٣٢]، واسم الله {الرحيم} اقترن باسمه {الرحمن} كما ذكرنا ذلك في اسمه {الرحمن} في ستة مواضع من القرآن الكريم.

وغالبًا ما يقترن اسم الله {الرحيم} باسمه التواب والغفور والرؤوف والودود والعزيز، وذلك لأن الرحمة التي دلَّ عليها اسمه {الرحيم}، رحمة خاصة تلحق المؤمنين، فالله عز وجل رحمته في الدنيا شملت جميع الخلائق أجمعين، المؤمن والكافر، البر والفاجر، بينما يختلف الأمر في الآخرة، إذ أن رحمته ستشمل المؤمنين فقط، فكما شملتهم في الدنيا باسمه {الرحمن}، فإنه سوف تشملهم في الآخرة باسمه {الرحيم} فيغفر لهم ذنوبهم وتلحقهم رحمته التي يدخلون بها

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢١).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٩٢٥).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٨٢)، والحديث بتمامه: ((ارحموا ترحموا واغفروا يغفر الله لكم وويل لأقماع القول وويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون)).

الجنان، كما ورد ذلك في القرآن، فقال تعالى عن أهل الإيمان: {سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ٩٩]، {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}[الجاثية:٣٠] ،{يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}[الانسان: ٣١].

فاقتران اسم الله {الرحيم} باسمه التواب والغفور والرؤوف والودود والعزيز يحمل دعوة للتوحيد والإيمان، إما دعوة الكافرين إلى الإيمان أو دعوة المذنبين إلى ترك العصيان، أو تهديد للكافر بما فعله الله بأهل الظلم والطغيان، فاسم الله {الرحيم} اقترن باسمه {الرحمن} ليبين أن رحمته العامة هي رحمة إلى حين، وأن الكافر لن تلحقه الرحمة يوم يقوم الناس لرب العالمين، فهي دعوة صامتة ونداء للعقلاء يظهر من خلال اقتران الأسماء، وكذلك اقترن اسم الله {الرحيم} باسمه التواب كقوله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة:٣٧]، وهي دعوة لأهل العصيان بالدخول تحت الرحمة الخاصة وزيادة الإيمان، {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ٥٤]، {إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ١٦٠]، {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة:١٠٤]، {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة: ١١٨].

وكذلك اقترن اسم الله الرحيم باسمه الغفور كقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ}[الحجر:٥٠]، {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[يونس:١٠٧]، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر: ٥٣]، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[الأنعام: ١٦٥].

وورد أيضًا اسمه {الرحيم} مقترنًا باسمه الرؤوف الودود: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١١٧]، {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[الحديد: ٩]، {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[الحشر: ١٠]، {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}[هود: ٩٠].

ويرد أيضًا اسمه {الرحيم} مقترنًا باسمه العزيز، {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[السجدة: ٦] لبيان أن العزيز غالب على الخلق أجمعين حتى لو أعرضوا عن رب العالمين، وأنه سينصر عباده الموحدين ولو بعد حين فالنصر والعزة للإسلام والمسلمين، وهو في المقابل بالمؤمنين المستضعفين رؤوف رحيم طالما أنهم وحدوه في اسمه

العزيز، كما في قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ}[الشعراء: ٩] ذكر الله هذه الآية بعد ذكر هلاك الأمم الماضية الذين بغوا في الأرض وعصوا الرسل في تسع مواضع في سورة الشعراء.

هذا مما ورد في القرآن عن اسم {الرحيم} أما ما ورد في السنة فعند البخاري من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي قَالَ: ((قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ([1]))).

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني مِحْجَنَ بْنَ الأَدْرَعِ أن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلاَتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، فَقَالَ: ((قَدْ غُفِرَ لَهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ، ثَلاَثًا([2])))، روى أبو داود وابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أن رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ إِنَّ فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جِوَارِكَ فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَقِّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ([3]))).

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث ابْنِ عُمَرَ قَالَ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: ((رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ([4])))، وروى الطبراني في الأوسط وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: ((لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ثم يستغفرون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم([5]))).

و{الرحيم} دل على صفة الرحمة الخاصة، والرحمة هنا بمعنى المغفرة وهي خاصة بالمؤمنين، ف{الرَّحْمَنُ الرحيم} بنيت صفة الرحمة الأولى على فَعْلاَنَ لأَن معناه الكثرة، فرحمته وسِعَتْ كل شيء وهو أَرْحَمُ الراحمين، فأَمّا {الرَّحِيمُ} فإِنما ذكر بعد {الرَّحْمن} لأَن الرَّحْمن مقصور على الله عز وجل، والرحيم قد يكون لغيره، فجيء بالرحيم بعد استغراق الرَّحْمنِ معنى الرَّحْمَة فيه إنما هي لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}[الأحزاب: ٤٣]، ورَحِيمٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعلٍ، كسَمِيعٌ بمعنى سامِعٍ وقديرٌ بمعنى قادر، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أَحدهما أَرق من الآخر.

ورحمة الله التي دلَّ عليها اسمه {الرحيم} هي كما ذكرنا خاصة لعباده المؤمنين، فقد هداهم الله إلى الإيمان وهو يثيبهم في الآخرة بخلدهم في الجنان، ورحمة الله لا تقتصر على المؤمنين فقط بل تمتد لتشمل ذريتهم من بعدهم تكريمًا لهم وسكينة لأنفسهم، وقد بين الله ذلك في قصة الخضر والجدار، والتي قال عنها: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ

١- (قلت): البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).
٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٩٠٥).
٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في أحكام الجنائز (١٥٨) ، والمشكاة (١٦٧٧).
٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٥٧).
٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٣).

لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}، فالإيمان بالله تبارك وتعالى والعمل على طاعته سبب لاستجلاب رحمته، قال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، وقال جلَّ شأنه: {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}[المؤمنون: ١٠٩]، {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[الأنعام: ١٥٥]، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[الحجرات: ١٠].

واسم الله {الرحيم} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة الرحمة الخاصة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة الرحمة الخاصة وحدها بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، وعلى الغنى والأحدية، والعزة والصمدية، وكل ما يلزم لقيام وصف من يرحم رحمة خاصة، وما يترتب عليها، واسم الله {الرحيم} دلَّ على صفة من صفات الفعل لأنها تتعلق بمشيئته.

كيف ندعو الله باسمه {الرحيم} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في الأحاديث التي تقدمت عند البخاري لما قال النبي لأبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه ((قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))، وفي دعاء الرجل الذي قال عنه نبينا ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ لما قال: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))، وفي دعاء النبي ﷺ للميت وهو يصلي عليه: ((اللَّهُمَّ إِنَّ فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جِوَارِكَ فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَقِّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)).

أمَّا دعاء العبادة فهو امتلاء القلب برحمة الولاء ورقة الوفاء التي تدفع إلى حب المؤمنين وبغض الكافرين ، وأسوتنا في ذلك هو سيد الخلق أجمعين: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨]، كان النبي بأصحابه رحيمًا رفيقًا حبيبًا صديقًا، روي البخاري من حديث مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ أنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا رَأَى شَوْقَنَا إِلَى أَهَالِينَا قَالَ: ((ارْجِعُوا فَكُونُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَصَلُّوا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ(١)))، وعند مسلم من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: ((وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ(٢)))، فالطاعة تدفع إلى الرحمة والمغفرة، وتوحيد الله يستوجب الفوز في الآخرة.

١- (قلت): البخاري (٦٢٨).
٢- (قلت): مسلم (٢٨٦٥).

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

قال السعدي: {الحمد لله}: هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه.

قال ابن كثير: وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَفِي ضِمْنِهِ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}. قَالَ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الْحُسْنَى، وَقَوْلُهُ: الشُّكْرُ لِلَّهِ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِنِعَمِهِ وَأَيَادِيهِ، ثُمَّ شَرَعَ فِي رَدِّ ذَلِكَ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِلِسَانِ الْعَرَبِ يُوقِعُونَ كُلًّا مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ مَكَانَ الْآخَرِ. وَقَدْ نَقَلَ السُّلَمِيُّ هَذَا الْمَذْهَبَ أَنَّهُمَا سَوَاءٌ و هذا فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ اشْتُهِرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الْحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ بِالْقَوْلِ عَلَى الْمَحْمُودِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، وَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الْمُتَعَدِّيَةِ، وَيَكُونُ بِالْجَنَانِ وَاللِّسَانِ وَالْأَرْكَانِ. وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا: أَيُّهُمَا أَعَمُّ، الْحَمْدُ أَوِ الشُّكْرُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا، فَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، تَقُولُ: حمدته لِفُرُوسِيَّتِهِ وَحَمِدْتُهُ لِكَرَمِهِ. وَهُوَ أَخَصُّ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَوْلِ، وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالنِّيَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ أَخَصُّ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ، لَا يُقَالُ: شَكَرْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَتَقُولُ: شَكَرْتُهُ عَلَى كَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيَّ. هَذَا حَاصِلُ مَا حَرَّرَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال القرطبي: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان. وعلى هذا الحد قال علماؤنا: الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفًا، فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر. ويذكر الحمد بمعنى الرضا يقال: بلوته فحمدته، أي رضيته. ومنه قوله تعالى: {مَقَاماً مَحْمُوداً}[الإسراء: ٧٩]. ويذكر عن جعفر الصادق في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}: من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد([1]).

قال الشنقيطي: لَمْ يَذْكُرْ لِحَمْدِهِ هُنَا ظَرْفًا مَكَانِيًّا وَلَا زَمَانِيًّا، وَذَكَرَ فِي سُورَةِ الرُّومِ أَنَّ مِنْ ظُرُوفِهِ الْمَكَانِيَّةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي قَوْلِهِ: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وَذَكَرَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ أَنَّ مِنْ ظُرُوفِهِ الزَّمَانِيَّةِ: الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ فِي قَوْلِهِ: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ}، وَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ سَبَأٍ: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي {الْحَمْدُ}، لِاسْتِغْرَاقِ جَمِيعِ الْمَحَامِدِ. وَهُوَ ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ وَفِي ضِمْنِهِ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ بِهِ.

قال ابن العثيمين: {الحمد}، وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولا بد من قيد وهو (المحبة، والتعظيم)؛ قال أهل العلم: (لأن مجرد وصفه

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن (الحمد، والشكر) والفرق بينهما عند تفسير الآية (١٥٢) من سورة البقرة.

بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمدًا؛ وإنما يسمى مدحًا)؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئًا؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفًا منهم؛ ولكن حمدنا لربنا ﷻ حمدَ محبةٍ، وتعظيمٍ؛ فلذلك صار لا بد من القيد في الحمد أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم.

قال ابن القيم في التفسير القيم: فإن الحمد يتضمَّن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلَّما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمد كله لله حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه. ولهذا ذمّ الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدى، ولا تنفع ولا تضر. وهذا أمر معقول بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلها، ولا مدبِّرًا، ولا ربًّا، بل هو مذموم معيب ناقص، ليس له الحمد لا في الأولى، ولا في الآخرة. وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد. والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت البتّة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسّلب المحض لا حمد فيه ولا مدح ولا كمال. وكذلك حمده لنفسه على عدم اتّخاذ الولد المتضمِّن لكمال صمديّته وغناه وملكه، وتعبّد كل شيء له، فاتّخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: {قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً، سُبْحانَهُ، هُوَ الْغَنِيُّ، لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ}[١٠: ٦٨]. وحمد نفسه على عدم الشّريك، المتضمِّن تفرُّده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له. فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه. لأن الموجود أكمل من المعدوم. ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلّا إذ كان متضمِّنًا ثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمُّنه كمال حياته، وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمُّن ذلك قيّوميّته وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته. وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه.

وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يُرى ولا يُدرك، كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علمًا. وإلّا فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال. لأن العدم لا يُرى، فليس في كون الشيء لا يُرى كمال البتّة. وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكًا، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له. وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد به نفسه فلمضادّته لثبوت ضدّه، ولتضمُّنه كمال ثبوت ضدّه. فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

قال ابن العثيمين: {الرب}: هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور.

قال السعدي: {الرب}، هو المربي جميع العالمين – وهم من سوى الله – بخلقه إيّاهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنِّعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء. فما بهم من نعمة، فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربّيهم بالإيمان، ويوفِّقهم له، ويكمّله لهم، ويدفع عنهم الصَّوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا المعنى هو السرّ في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرّب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: السؤال الآن ما هو السبب الذي من أجله كان اسم {الرب} من أسماء الله الحسنى؟ والإجابة على ذلك تتمثل في أن الله عز وجل سمَّى نفسه به على سبيل الإطلاق والتقييد مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من مواضع القرآن والسنة، فقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه مع اجتماع علامات الاسم فيه في غير موضع من القرآن والسنة، فمن القرآن قوله تعالى: {قُل يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ}[سبأ: ٢]، فأسندت إليه الجملة وقال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً}[الفرقان: ٣٠]، حيث دخلت عليه ياء النداء، ومثله قوله: {وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ}[الزخرف: ٨٨]، والتنوين في قوله: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}[سبأ: ١٥]، والتنوين والجر في قوله: {سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}[يّس: ٥٨]، وحرف الجر وحده كقوله تعالى: {الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ}[البقرة: ١٤٧]، {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً}[الإسراء: ٢٨]، وحرف الجر (إلى): {لِكُل أُمَّةٍ جَعَلنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ}[الحج: ٦٧]، {أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّل}[الفرقان: ٤٥]، {إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ}[القيامة: ٣٠]، {إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعَى}[العلق: ٨]، وحرف الجر (الباء)، {وَكَمْ أَهْلكْنَا مِنَ القُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً}[الإسراء: ١٧]، وأقسم الله بنفسه باسمه الرب فقال: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}[الحجر: ٩٢]، {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً}[مريم: ٦٨].

وكل هذه النصوص القرآنية تدلّ على علمية اسم {الرب} وأنه من الأسماء الحسنى التي أمرنا الله بأن ندعوه بها، ومن السنة ما ورد عند البخاري من حديث أنس بن مالكٍ عن مالكِ بنِ صَعْصَعَةَ رضيَ الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال:

((فأتيتُ على موسى فسلمت عليه فقال: مَرحباً بكَ من أخ ونبيّ فلما جاوَزتُ بكى، فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب، هذا الغلامُ الذي بُعِثَ بعدي يَدخُل الجنةَ من أُمَّتِهِ أفضلُ ممّا يدخلُ من أمَّتي([1]))).

وعند البخاري أيضاً من حديث سعيد بن جُبير عن ابن عباسٍ أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئل: أي الناسِ أعلم؟ فقال: أنا، فعتبَ اللهُ عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليه: إنَّ لي عبدًا بمجمَع البحرين هو أعلمُ منك، قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به؟ قال: تأخذُ معك حُوتاً فتجعله في مِكتَلٍ، فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثمَّ... الحديث([2]))، وعند البخاري أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: ((واشْتكَتِ النّارُ إلى ربِّها فقالت: يا ربِّ أَكل بَعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ في الشّتاءِ ونفَسٍ في الصّيفِ([3]))، والأدلة كثيرة على أن {الرب} اسم من أسماء الله الحسنى، سمّى الله به نفسه في كتابه وسماه به رسوله ﷺ.

و{الرب} اسم مشتق من صفة الربوبية، و{الرب} في اللغة مصدر من معنى التربية، {الرب} هو الذي يربي غيره وينشئه شيئا فشيئًا، فوصف الرب يكون لمن أنشأ الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام، أو إصلاح شئون الغير ورعاية أمره بانتظام، ويطلق {الرب} في اللغة على المالك، (مالك الشيء)، تقول: هذا رب الإبل ورب الدار أي مالكها، ويطلق على السيد المطاع ومنه قوله تعالى: {أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا}: أي سيده المطاع، ويطلق {الرب} أيضا على المعبود، ومنه قول الشاعر: أَرَبٌّ يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب

و{الرب} عند الإطلاق لا يقال إلا لله تعالى، وهو المتكفِّل بخلق الموجودات وإنشائها، والقائم على هدايتها وإصلاحها، وهو المنظم لمعيشتها المدبِّر لأمرها، يقول تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ يُغْشِي الليْل النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لهُ الخَلقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالمِينَ}[الأعراف: ٥٤]، فربنا تبارك وتعالى هو المتكفِّل بالخلائق أجمعين إيجادًا وإمدادًا {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلى كُل نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}[الرعد: ٣٣]، {إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلئِنْ زَالتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَليماً غَفُوراً}[فاطر: ٤١].

وخلاصة معنى {الرب}: أنه هو الذي يخلق ويدبر ما خلق كما ورد في قوله تعالى عن موسى عليه السلام هو يبين حقيقة الربوبية ومعناها لفرعون لما سأله عنها: {قَال فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَال رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَى}، فالآية دلالتها صريحة على أن موسى عليه السلام لما سئل عن الربوبية أجاب فرعون عن كل معاني الربوبية في معنيين جامعين، الأول منهما هو إفراد الله بتخليق الأشياء وتكوينها وإنشائها من العدم حيث أعطى كل شيء خلقه ووجوده، والثاني هو إفراد الله بتدبير الأمر في خلقه وهدايتهم إلي قيام شؤنهم وتصريف أحوالهم والعناية بهم، ويقول

١- (قلت): البخاري (٣٢٠٧).
٢- (قلت): البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).
٣- (قلت): البخاري (٥٣٧).

تعالى: {اللهُ خَالِقُ كُلِ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِ شَيْءٍ وَكِيل لهُ مَقَاليدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ}[الزمر: ٦٣].

و{الرب}: اسم يدلُّ على ذات الله وصفة الربوبية بالمطابقة وعلى ذات الله وحدها بالتضمن وعلى الربوبية وحدها بالتضمن، ويدلُّ باللزوم على الصفات اللازمة لقيام الربوبية كالحياة والقيومية والعلم والمشيئة والقدرة، والملك والغنى والقوة، والإحياء والإبقاء والهداية، والرزق والإمداد والرعاية، والإفناء والإماتة والإعادة، والهيمنة والعزة والإحاطة، وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الأفعال لتخليق الشيء وتصنيعه، وكمال إيجاده واختراعه، فصفة الخالق أن يستغنى بنفسه فلا يحتاج إلى غيره، وأن يفتقر وإليه كل من سواه، كما أن اسم الرب يدلُّ أيضًا بدلالة اللزوم تدبير أمر المخلوقات وتقدير أحوالهم، والقيام على شئونهم، والعناية واللطف بهم، والهداية إلى ما يصلحهم، والفصل والقضاء والحكم بينهم، وتهيئة الكون لتحقيق الغاية من خلقهم.

كيف ندعوا الله باسمه {الرب} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة هو أن يذكر الاسم في دعائه وتضرعه لربه كقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَليمُ}[البقرة: ١٢٧]، {رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِل عَليْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلتَهُ عَلى الذِينَ مِنْ قَبْلنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلنَا مَا لا طَاقَةَ لنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلى القَوْمِ الكَافِرِينَ}[البقرة: ٢٨٦]، {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لنَا مِنْ لدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ}[آل عمران: ٨]، {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ليَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلفُ المِيعَادَ}[آل عمران: ٩]، {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}[المؤمنون: ١٠٩]، {وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً}[الفرقان: ٦٥]، {وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلنَا للمُتَّقِينَ إِمَاماً}[الفرقان: ٧٤]، وعند البخاري من حديث شدّاد بن أوسٍ أن النبي ﷺ قال: ((سيِّد الاستغفار اللهم أنتَ ربي لا إلهَ إلا أنت، خلقتَني وأنا عبدُك وأنا على عهدِكَ ووعدِك ما استطعت، أبوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبوءُ لك بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعت إذا قال حينَ يُمسي فمات دخل الجنَّة أو كان من أهل الجنة وإذا قال حِينَ يُصبح فمات من يومِه دخل الجنَّة([1]))).

أما دعاء الله باسمه {الرب} دعاء عبادة فيظهر العبد بمظهر العبودية ويخلع عن نفسه أوصاف الربوبية لعلمه أن المنفرد بها هو الله، فيثبت أوصاف العظمة لله، ويفرده بالعلو والكبرياء، ولا ينازع رب العالمين في منهجه، أو يتخلف عن اتباع شريعته، فدعاء العبادة هنا عمل وتربية وتنفيذ الأوامر الشرعية، تجعل المسلم في أرقي حالاته الإيمانية، فهذا إبراهيم عليه السلام: {قَال أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلا رَبَّ العَالمِينَ الذِي خَلقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ

١- (قلت): البخاري (٦٣٠٦).

لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ}[الشعراء: ٧٨].

قال السعدي: فدل قوله: {رب العالمين}، على انفراده بالخلق والتدبير، والنِّعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

قال الشنقيطي: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا الْعَالَمُونَ، وَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}[٢٦ \ ٢٣، ٢٤].

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: اشْتِقَاقُ الْعَالَمِ مِنَ الْعَلَامَةِ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ عَلَامَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [٣ \ ١٩٠]، وَالْآيَةُ فِي اللُّغَةِ: الْعَلَامَةُ.

قال ابن العثيمين: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

قال ابن القيم في التفسير القيم: وتضمنت إثبات النبوّات كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سدىً هملًا، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرّهم فيهما. فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات الحمد الكامل لله ﷻ، وذلك من {أل} في قوله تعالى: {الحمد}؛ لأنها دالة على الاستغراق.

٢- أن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: ((الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات))؛ وإذا أصابه خلاف ذلك قال: ((الحمد لله على كل حال([1]))).

٣- تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن (الله)، هو الاسم العَلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.

٤- عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم؛ لقوله تعالى: {العالمين..}.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠)، والحديث بتمامه: كان إذا أتاه الأمر يسره قال: ((الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات)) وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: ((الحمد لله على كل حال)).

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

قال القرطبي: وصف نفسه تعالى بعد {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، بأنه {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، لأنه لمّا كان في اتصافه بـ{رب العالمين} ترهيب قرنه بـ{الرحمن الرحيم}، لما تضمّن من التّرغيب، ليجمع في صفاته بين الرّهبة منه والرّغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ}[الحجر: ٤٩، ٥٠]. وقال: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ}[غافر: ٣]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنّته أحد[1])).

قال ابن القيم في التفسير القيم: فصفات الجلال والجمال أخصّ باسم (الله)، وصفات الفعل والقدرة، والتّفرد بالضرّ والنّفع، والعطاء والمّنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة أخص باسم (الرب).

وصفات الإحسان والجود والبر، والحنان والمنة والرأفة واللطف، أخص باسم {الرحمن}، وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلّقه بمتعلقاته.

ف{الرحمن}: الذي الرحمة وصفه. و{الرحيم}: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}[٣٣: ٤٣]، {إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ}[٩: ١١٧]، ولم يجيء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم {الرحمن} الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان: للممتلئ غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك؟ فبناء فعلان للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرًا كقوله تعالى: {الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى}[٢٠: ٥]، {ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ}[٢٥: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها.

والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}[٧: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي[2]))، وفي لفظ ((فهو وضع عنده على العرش)).

١- (قلت): مسلم (٢٧٥٥).

٢- (قلت): البخاري (٧٤٠٤)، بلفظ: ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، هُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهْوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ - إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي)). ومسلم (٢٧٥١)، بلفظ: ((لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي)).

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرّحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: {الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى}، وقوله: {ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً}[٢٦: ١٥٦]، ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهُّم.

واسمه {الرّحمن}، يتضمّن إثبات النبوّات، فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم {الرحمن} حقه عرف أنه متضمِّن لإرسال الرّسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضُّمنه علم إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات هذين الاسمين الكريمين. {الرحمن الرحيم} لله ﷻ؛ وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.

٢- أن ربوبية الله ﷻ مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالى لما قال: {رب العالمين}، كأن سائلاً يسأل: (ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ، وانتقام؛ أو ربوبية رحمة، وإنعام؟) قال تعالى: {الرحمن الرحيم}.

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

قال ابن كثير: قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ: {مَلِك يَوْمِ الدِّينِ}، وَقَرَأَ آخَرُونَ: {مَالِكِ}. وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ فِي السَّبْعِ. وَيُقَالُ: مَلِيكٌ أَيْضًا، وَأَشْبَعَ نَافِعٌ كَسْرَةَ الْكَافِ فَقَرَأَ: (مَلَكِي يَوْمِ الدِّينِ)، وَقَدْ رَجَّحَ كُلًّا مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ مُرَجِّحُونَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، وَكِلَاهُمَا صَحِيحَةٌ حَسَنَةٌ، وَرَجَّحَ الزَّمَخْشَرِيُّ (مَلِكِ)؛ لِأَنَّهَا قِرَاءَةُ أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ وَلِقَوْلِهِ: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}، وَقَوْلُهُ: {قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ}. وروى الزهري أن رسول اللّه ﷺ قرأها كذلك بالألف، وكذلك قرأها أبوبكر و عمرو عثمان وعلي وابن مسعود وأبي ابن كعب و معاذ بن جبل وطلحة والزبير رضي الله عنهم.

وحكى أبو علي: في حجة من قرأ {مالك يوم الدين}، أنه قد يدخل في المالك مالا يدخل في الملك فيقال: مالك الدنانير، والدراهم، والطير، والبهائم، ولا يقال ملكها، و مالك في صفة اللّه تعالى يعم ملك أعيان الأشياء وملك الحكم فيها، وقد قال اللّه تعالى: {قل اللهم مالك الملك}.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}: يَقُولُ: لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَهُ حُكْمًا، كَمِلْكِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحمن} مفصلًا، وإسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

وفي زبدة التفسير: والحق أن الفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرّب سبحانه وتعالى: أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله.

قال الشنقيطي: وَقَوْلُهُ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}: لَمْ يُبَيِّنْهُ هُنَا، وَبَيَّنَهُ فِي قَوْلِهِ: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا} الْآيَةَ [٨٢ \ ١٧، ١٨، ١٩].

قال السعدي: {المالك([١])}: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن في ذلك اليوم، يظهر للخلق تمام الظّهور، كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق. حتى إنه يستوي في ذلك اليوم، الملوك والرّعايا والعبيد والأحرار كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزّته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصَّه بالذِّكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

قال ابن القيم في التفسير القيم: فصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله)، وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضّر والنّفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة أخص باسم (الرب). وصفات العدل، والقبض والبسط. والخفض والرّفع. والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم، ونحوها: أخص باسم {الملك}، وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهي: (الله، والرب، والرحمن)، كيف نشأ عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع والفرق.

فإسم (الرب)، له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وخلقه، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلُّل والخضوع إلا له. وهاهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم فالدين والشرع، والأمر والنهي، مظهره وقيامه، من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتّدبير والفعل، من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار، من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلَّهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {المالك} مفصلاً عند تفسير الآية (٢٦) من سورة آل عمران.

وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتّأليه منهم له، والربوبية منه لهم. والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته، فالرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى مطابق لقوله: رَبِّ الْعالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربّا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء. وتضمّنت إثبات النبوات من ذكر {يوم الدّين}، فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات وما كان الله ليعذِّب أحدا قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استحق الثواب والعقاب. وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم. والفجار إلى الجحيم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات ملك الله ﷻ، وملكوته يوم الدين؛ لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات، والملوك.

فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟

فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: {لمن الملك اليوم}[غافر: ١٦]، فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: {لله الواحد القهار}[غافر: ١٦]؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلًا لا يرون أن هناك ربًا للسموات، والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم.

٢- إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: {مالك يوم الدين}.

٣- حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون.

ايّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

قال الشنقيطي: أَشَارَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى تَحْقِيقِ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا مُرَكَّبٌ مِنْ أَمْرَيْنِ: نَفْيٌ وَإِثْبَاتٌ. فَالنَّفْيُ: خَلْعُ جَمِيعِ الْمَعْبُودَاتِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ. وَالْإِثْبَاتُ: إِفْرَادُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى النَّفْيِ مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِتَقْدِيمِ الْمَعْمُولِ

الَّذِي هُوَ {إِيَّاكَ}، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ فِي مَبْحَثِ دَلِيلِ الْخِطَابِ الَّذِي هُوَ مَفْهُومُ الْمُخَالَفَةِ. وَفِي الْمَعَانِي فِي مَبْحَثِ الْقَصْرِ: أَنَّ تَقْدِيمَ الْمَعْمُولِ مِنْ صِيَغِ الْحَصْرِ. وَأَشَارَ إِلَى الْإِثْبَاتِ مِنْهَا بِقَوْلِهِ: {نَعْبُدُ}.

وَقَدْ بَيَّنَ مَعْنَاهَا الْمُشَارَ إِلَيْهِ هُنَا مُفَصَّلًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} الْآيَةَ [٢ \ ٢١]، فَصَرَّحَ بِالْإِثْبَاتِ مِنْهَا بِقَوْلِهِ: {اعْبُدُوا رَبَّكُمْ}، وَصَرَّحَ بِالنَّفْيِ مِنْهَا فِي آخِرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِقَوْلِهِ: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٢ \ ٢٢]، وَكَقَوْلِهِ: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} فَصَرَّحَ بِالْإِثْبَاتِ بِقَوْلِهِ: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ} وَبِالنَّفْيِ بِقَوْلِهِ: {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، وَكَقَوْلِهِ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}[٢ \ ٢٥٦]، فَصَرَّحَ بِالنَّفْيِ مِنْهَا بِقَوْلِهِ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ}، وَبِالْإِثْبَاتِ بِقَوْلِهِ: {وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ}، وَكَقَوْلِهِ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}[٤٣ \ ٢٦، ٢٧]، وَكَقَوْلِهِ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[٢١ \ ٢٥]، وَقَوْلِهِ: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}[٤٣ \ ٤٥]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: أَيْ لَا نَطْلُبُ الْعَوْنَ إِلَّا مِنْكَ وَحْدَكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِكَ وَحْدَكَ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُ مَعَكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. وَإِتْيَانُهُ بِقَوْلِهِ: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} بَعْدَ قَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ لَيْسَ بِيَدِهِ الْأَمْرُ. وَهَذَا الْمَعْنَى الْمُشَارُ إِلَيْهِ هُنَا جَاءَ مُبَيَّنًا وَاضِحًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} الْآيَةَ [١١ \ ١٢٣]، وَقَوْلِهِ: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} الْآيَةَ [٩ \ ١٢٩]، وَقَوْلِهِ: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}[٧٣ \ ٩]، وَقَوْلِهِ: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}[٦٧ \ ٢٩]، وَإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قال ابن كثير: وَالدِّينُ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فالْأَوَّلُ: تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَالثَّانِي: تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ والقوة، والتّفويض إِلَى اللَّهِ ﷻ. وَتَحَوُّلُ الْكَلَامِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ[١] بِكَافِ الْخِطَابِ، وَهُوَ مُنَاسَبَةٌ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللَّهِ فَكَأَنَّهُ اقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلِهَذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ بِأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا لَا تَصِحُّ صَلَاةُ مَنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ)). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}: يَعْنِي: إِيَّاكَ نُوَحِّدُ وَنَخَافُ وَنَرْجُو يَا رَبَّنَا لَا غَيْرَكَ. {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: عَلَى طَاعَتِكَ وَعَلَى أُمُورِنَا كُلِّهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أَمْرِكُمْ.

---

١ – المواجهة: يعني المؤلف هنا التكلّم الى الحاضر.

وَإِنَّمَا قَدَّمَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} عَلَى {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا، وَالِاهْتِمَامُ وَالْحَزْمُ هُوَ أَنْ يُقَدَّمَ مَا هُوَ الْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى النُّونِ فِي قَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}؟؛ فَإِنْ كَانَتْ لِلْجَمْعِ فَالدَّاعِي وَاحِدٌ، وَإِنْ كَانَتْ لِلتَّعْظِيمِ فَلَا تُنَاسِبُ هَذَا الْمَقَامَ؟

وَقَدْ أُجِيبَ: بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْإِخْبَارُ عَنْ جِنسِ الْعِبَادِ وَالْمُصَلِّي فَرْدٌ مِنْهُمْ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ فِي جَمَاعَةٍ أَوْ إِمَامَهُمْ، فَأَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي خُلِقُوا لِأَجْلِهَا، وَتَوَسَّطَ لَهُمْ بِخَيْرٍ. وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ رَسُولَهُ بِعَبْدِهِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ فَقَالَ:{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أنزل عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}[الْكَهْفِ: ١]، {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}[الْجِنِّ: ١٩]، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا}[الْإِسْرَاءِ: ١]، فَسَمَّاهُ عَبْدًا عِنْدَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ وَقِيَامِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَإِسْرَائِهِ بِهِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَةِ فِي أَوْقَاتٍ يَضِيقُ صَدْرُهُ مِنْ تَكْذِيبِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ.

قال ابن القيم في التفسير القيم: وتضمّنت إثبات النبوّات من قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، فإن ما يعبد به تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادته: هي شكره وحبه وخشيته، فطري ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبّد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله. وفي هذا بيان أن إرسال الرّسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصّانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل. ولم يؤمن به، ولهذا جعل سبحانه الكفر برسله كفرًا به. وسرّ الخلق و الأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد. حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب: جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن. وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين: فنصفها له تعالى وهو: {إيَّاكَ نعبد}، ونصفهما لعبده وهو: {إيّاك نستعين}، وسيأتي سرّ هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذّل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبّد أي مذلّل، والتعبّد: التذلّل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًّا خاضعًا، ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم، بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم: منكرين لكونه إلها، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم، فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركوا العرب، ولم يخرجوا به من الشرك، كما قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}[٤٣: ٨٧]، وقال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}[٣٩: ٣٨]، {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها؟. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ}[٢٣: ٨٤- ٨٩]، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه.

والاستعانة: تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره، مع ثقته به، لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه، مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه.

فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

والتّوكل: معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وهذان الأصلان – وهما التوكل والعبادة – قد ذكر في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: [قوله تعالى في حكاية عن شعيب]: {وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[١١: ٥٦].

الثالث: قوله تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}[١١: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين {رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٦٠: ٤].

الخامس: قوله تعالى: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}[٧٣: ٨،٩].

السادس: قوله تعالى: {قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[٣: ١٣].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين وهما: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة، من باب تقديم الغايات على الوسائل إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأنَّ {إيَّاك نعبد}، متعلّق بألوهيته واسمه (الله)، و{إيَّاك نستعين}، متعلّق بربوبيته واسمه الرب. فقدَّم {إيَّاك نعبد} على {إيَّاك نستعين}، كما تقدَّم اسم (الله)، على (الرب) في أول السورة، ولأنَّ {إيَّاك نعبد}، قسم الرب. فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و{إيَّاك نستعين}، قسم العبد، فكان مع الشطر الذي له، وهو: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) إلى آخر السورة. ولأن العبادة المطلقة: تتضمّن الاستعانة، من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به، ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتمّ. ولهذا كانت قسمَ (الرّب)، ولأنَّ الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأنَّ الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له، ولأنَّ العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأنَّ العبادة حقّه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدّق بها عليك، وأداء حقّه: أهم من التعرض لصدقته. ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يجب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقّها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقّها سببًا لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتمّ عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا، حتى يقضي العبد نحبه، ولأنَّ {إيَّاك نعبد} له؛ و{إيَّاك نستعين} به، وما له مقدم على ما به. لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه. وما به متعلّق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل ممّا تتعلق بمشيئته، فإن الكون كلّه متعلّق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي. والمتعلّق بمحبته: طاعاتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئة،

والمؤمنون أهل محبته. ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا. وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته. فهذه الأسرار يتبيَّن بها حكمة تقديم {إيَّاك نعبد} على {إيَّاك نستعين}.

وأمَّا تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم وفيه الاهتمام وشدَّة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمَّى بالحصر. فهو في قوة: لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نستعين إلَّا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدّمًا، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره. ولأنه يقبح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلًا، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضًا أعتقت. ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمَّل قوله تعالى: {إِيَّايَ فَارْهَبُونِ}[٢: ٤٠]، {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}[٢: ٤١]، كيف تجده في قوة! (لا ترهبوا غيري)، (ولا تتّقوا سواي)، وكذلك {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} هو في قوة، (لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك)، وكلّ ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق، ولا عبرة بجدل من قلّ فهمه، وفتح عليه باب الشكّ والتّشكيك، فهؤلاء هم آفة العلوم، وبليّة الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير (إياك) من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي (إياك قصدت، وأحببت)، من الدّلالة على معنى حقيقتك وذاتك قصدي ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك. وإياك أعني: فيه معنى نفسك وذاتك وحقيقتك أعني. ومن هاهنا قال من قال من النحاة: إن (إيّا) اسم ظاهر، مضاف إلى الضمير المتصل، ولم يردّ بردّ شاف.

ولولا أنّا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح، ولعل أن نعطف على ذلك بعون الله.

وفي إعادة {إيَّاك} مرة أخرى دلالة على تعلُّق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلًا: إياك أحب، وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف. إذا عرف هذا: فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام:

أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفّقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الربّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علّمه النبي ﷺ لحبّه معاذ بن جبل. فقال: ((يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك(١))).

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩). وصحيح أبي داود (١٣٦٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمدّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه: عدوه إبليس ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها، ومتّعه بها، ولكن لمّا لم تكن عونًا له على مرضاته: كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته، كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بدّ.

وليتأمّل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبّته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا لا بخلًا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه: فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنّه بربّه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار. وعتابه الباطن لها.

كما قيل: وعاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فو الله لو كشف عن حاصله وسرّه لرأى هناك معاتبة القدر واتّهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي؟ والأمر ليس إليّ، والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معيّنًا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدًّا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة ولا تكن استخارة باللّسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها. ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وكِّل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره. وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كلّ ما أعطى لكرامة عبده عليه ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالى: { فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ: رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ * كَلَّا}[٨٩: ١٥، ١٦]، أي ليس كل من أعطيته ونعّمته وخوّلته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ ولكنه ابتلاء مني وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيّقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط. فردّ الله سبحانه على من ظن أن سعة الرِّزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه يوسّع على الكافر لا لكرامته، ويقتّر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من

يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان.

أحدها: القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة: فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفّق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر. فعبادة هؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه: فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس ب: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذّب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظّهم ناقص من التّوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالرّوح المحرّك لها، والمعوّل على المحرِّك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرِّك إلى المحرِّك، ومن السبب إلى المسبِّب، ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من {إياك نستعين}، ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورا بإزالته، لأزاله.

فإن قلتَ: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلتُ: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، وتفرُّده بالخلق والتَّدبير والضرّ والنّفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه وتفويضًا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينًا بكفايته لما توكِّل عليه فيه، وأنه مليّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبَوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مليّان بهما. فانظر في تجرُّد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همّه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بدّ. قال الله تعالى: { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[٦٥: ٣]، أي كافيه. والحسب: الكافي. فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع: وهو من شهد تفرّد الله بالنّفع والضّرر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به فقضيت له وأسعف بها، ولكن لا عاقبة له، سواء كانت أموالًا أو رئاسة أو جاهًا عند الخلق أو أحوالًا، من كشف وتأثير وقوة وتمكين. فإنها

من جنس المُلك الظاهر، والأموال لا تستلزم الإسلام، فضلًا عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدلّ بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقرّبين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفة بالله ودينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا. فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره، ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحقّقًا بإياك نعبد إلا بأصلين عظيمين.

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق {إيَّاك نعبد}.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل {إيَّاك نعبد} حقيقة، فأعمالهم كلُّها لله وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربا من ذمهم. بل قد عدّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. فالعمل لأجل هؤلاء، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم، لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم، وكذلك أعمالهم كلّها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجله. قال الله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[٦٧: ٢]، وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملًا، قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[١٨: ١١٠]. وفي قوله: { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}[٤: ١٢٥]، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يعود عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورًا. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: ((كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد([١])).

١- (قلت): البخاري (٢٦٩٧)، بلفظ: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ)). ومسلم برقم (١٧/١٧١٨)، بلفظ: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)). وبرقم (١٨/١٧١٨)، بلفظ: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)).

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا. فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقًا للشّرع، ولا هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزيِّنين للناس المرائين لهم بما لم يشرِّعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله. ولهم أوفر نصيب من قوله: {لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ}[٣: ١٨٨]، يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص. وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنَّها على غير متابعة الأمر، كجهّال العبّاد، والمنتسبين إلى طريق الزّهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقده قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. ومثال ذلك:

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله. كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنَّها غير خالصة فلا تقبل {وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[٩٨: ٥]، فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة. وهم أهل {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

فاعلم أن سرّ العبودية وغايتها وحكمتها: إنما يطّلع عليها من عرف صفات الربّ ﷻ، ولم يعطِّلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهًا، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباطه المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود. فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له معرفة حكمة هي الغاية المقصودة بالخلق، ولها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه من خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلًا. ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سدىً مهملًا، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)) قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول أنا ما أحدثت شيئا، فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به.

تُرْجَعُونَ؟}[٢٣: ١١٥]: أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم، وقد صرّح تعالى بهذا في قوله: {وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٥١: ٥٦].

فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً}[٧٥: ٣٦]؟ أي مهملًا. قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب، والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما. وقال تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ. فَقِنا عَذابَ النَّارِ}[٣: ١٩١]، {وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ}[١٥: ٨٥]، وقال: {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ}[٤٥: ٢٢]. فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن: أمره ونهيه، وثوابه وعقابه. فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علّة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكّد عليهم الثواب بالمنّة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية. وارتياضها بمخالفة العوائد؟.

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دلّ عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته. فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبّته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبّة، وأن يكون الحبّ كلّه لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبّتنا لهم من تمام محبّته، وليست محبّة معه، كمحبّة من يتّخذ من دون الله أندادًا يحبّونهم كحبه. وإذا كانت المحبّة له حقيقة عبوديّته وسرّها، فهي إنما تتحقّق باتّباع أمره، واجتناب نهيه. فعند اتّباع الأمر واجتناب النهي تتبيّن حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتّباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادّعاها، فقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}[٣: ٣١]. فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحقّقهُ بتحقّقهِ فعُلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودلّ على أن متابعة الرسول ﷺ هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبّ إلى العبد ممّا سواهما. فلا يكون عنده شيء أحبّ إليه من الله ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ}[٩: ٢٤].

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه. أو معاملة أحدهم على معاملة الله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدَّم حكم أحد على حكم الله ورسوله. فذلك المقدّم عنده أحب من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته ظنا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول، فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك. وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتّبعه هو أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور. ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به، فهذا الذي يخاف عليه. وهو داخل تحت الوعيد. فإن استحلّ عقوبة من خالفه وأذلّه، ولم يوافقه على اتّباع شيخه. فهو من الظلمة المعتدين. وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

وبني {إيَّاك نعبد} على أربع قواعد: التحقّق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب {إيّاك نعبد} حقًا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذلّ له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فإياك نعبد: التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و{إيّاك نستعين}، طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و{اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ} متضمّن للتّعريف بالأمرين على التّفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

وجميع الرسل إنما دعوا إلى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ}[٧: ٥٩]. وكذلك قال هود وصالح وشعيب [٧: ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وإبراهيم. قال الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ }[١٦:٣٦]. وقال: {وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }[٢١: ٢٥]، وقال تعالى: { يا أَيُّهَا

الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[٢٣: ٥١، ٥٢].

وفي لزوم {إيَّاك نعبد} لكل عبد إلى الموت قال الله تعالى لرسوله {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[١٥: ٩٩]، وقال أهل النار: { وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ}[٧٤: ٤٦، ٤٧]، واليقين هاهنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي الصحيح، في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه([١]))) أي الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التَّكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان ((من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟([٢]))، ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا. ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو زنديق، كافر بالله ورسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، وكلما تمكّن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ، بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

وفي مراتب {إيَّاك نعبد} علمًا وعملًا، للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عمّا لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداهما: دينه الأمر الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم العلم بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقرّبين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورِّعين عمّا يخافون ضرره.

١- (قلت): صححه شعيب الأرنؤوط في مسند الإمام أحمد (٢٧٤٥٧).

٢- (قلت): البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١).

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية فليس في حقهم مباح متساو الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها إطاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

ورحى العبودية على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصُّه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان، والجوارح. فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصِّدق. والفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص: توحيد مطلوبه. والصِّدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسمًا والصدق: أن لا يكون الطلب منقسمًا، فالصِّدق بذل الجُهد، والإخلاص إفراد المطلوب، واتّفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النّصح في العبودية. ومدار الدّين عليه، وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب وكماله مرتبة المقرّبين. وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق. وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب. وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضعًا وتسعين، وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

(ثم ذكر القسم الواجب المختلف فيه – إلى أن قال).

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء – وهو القلب – قائما بعبوديته لله هو ورعيته وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق، وهي نوعان: كفر ومعصية. فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها. والمعصية نوعان: كبائر وصغائر. فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشّماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنّي زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشدّ

تحريما من الزنا، وشرب الخمر، وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن. وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة {إيَّاك نعبد} على القلب قبل الجوارح فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها. وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتّها وغلظها وخفّتها ودقّتها.

ومن الصغائر أيضا: شهوة المحرمات وتمنّيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهي، فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزًا عن بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزّله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: ((إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه[1])) فنزّله منزلة القاتل، لحرصه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب. وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النّطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما يتوقّف صحّة صلاته عليه، وتلفّظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتّسبيح في الرّكوع والسّجود، وأمر بقول: (ربنا ولك الحمد) بعد الاعتدال الواجبة بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: ردّ السّلام. وفي ابتدائه قولان. ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجّاهل، وإرشاد الضّال، وأداء الشهادة المتعيّنة، وصدق الحديث.

وأما مستحبّه: فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرّمه: فهو النّطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنّطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسبّ المسلم، وأذاه بكلّ قول، والكذب، وشهادة الزّور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدّها تحريمًا.

ومكروهه: التكلُّم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف. هل في حقِّه كلام مباح متساوي الطّرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره.

أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقِّه شيء لا له ولا عليه.

١- (قلت): البخاري (٧٠٨٣)، مسلم (٢٨٨٨).

واحتجّوا بالحديث المشهور، وهو ((كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه([١]))). واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كلّه. ولا يكتب إلا بالخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه كما في حركات الجوارح. قالوا: لأنّ كثيرًا من الكلام لا يتعلّق به أمر ولا نهي. وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللّسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للّسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللّسان، تقول: اتّق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا. وأكثر ما يكبّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللّسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أولًا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرّة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللّسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرّة. فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرّك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده. فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللّسان الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك. فقد يكون الشيء مباحا، بل واجبا، ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة: هو واجب، مع أن وسيلته، وهو النذر مكروه منهي عنه، وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه. ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة، وهذا كثير جدًّا. فقد تكون الوسيلة متضمّنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

وأما المعبودات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضا: إذ الحواس خمسة. وعلى كل حاسة خمس عبوديّات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه: استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة. من ردّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسرّه، ولا يجب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمّنًا لحق الله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعيّن نصحه، وتحذيره منه.

---

١ - (قلت): حسنه الإمام الألباني في تحقيق الإيمان لآبن تيمية. ولكن بهذا اللفظ: ((كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله)).

وكذلك استماع أصوات النّساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها. وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها. ولا يجب عليه سدّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب تجنّب سماعها وجوب سدّ الذّرائع.

ونظير هذا المحرّم: لا يجوز له تعمّد شمّ الطّيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامّه لم يجب عليه سدُّ أنفه، ونظير هذا: نظرة الفجأة لا تحرم على النّاظر، وتحرم عليه النّظرة الثانية إذا تعمّدها.

وأما السّمع المستحب: فكإستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

وأما النّظر الواجب: فالنّظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلّم الواجب منها، والنّظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤدّيها إلى أربابها ليميّز بينها. ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلّا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، ذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين، الوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدلّ بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولًا كما للّسان فضولًا، وكم قاد فضولها إلى فضول عزّ التّخلص منها، وأعيي دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرّة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان. عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب. ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيء، وذهبت هدرًا، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته. وإن ضعّفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوّله، وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح لأجله، كعورة له هناك ينظرها. أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في اطلاعها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت، فإن تركه حتى مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطرَّ إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار. ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن به من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن: أن رسول الله ﷺ: ((نهى عن طعام المتبارين([١]))، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذّوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله، مما أذن الله فيه. والأكل مع الضّيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشّم، فالشّم الواجب: كل شمّ تعين طريقًا للتّمييز بين الحلال والحرام، كالشّم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيّبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرّة فيه؟ أو يميّز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوّم وربّ الخبرة عند الحكم بالتقويم، والعبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمّد لشمّ الطّيب في الإحرام، وشمّ الطّيب المغصوب والمسروق، وتعمد شمّ الطّيب من النساء الأجنبيات للإفتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: ((من عرض عليه ريحان فلا يرده. فإنه طيِّب الريح، خفيف المحمل([٢]))).

والمكروه: كشم الظلمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللّمس. فاللّمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غضُّ بصره وكفُّ نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذّة، وكذلك في الاعتكاف. وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه. ومن هذا لمس بدن الميت – لغير غاسله – لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريمًا له، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميص في أحد القولين، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هو عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

١- (قلت): قال الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة أخرجه أبو داود (٣٧٥٤)، وغيره بإسناد رجاله ثقات لكنهم صححوا أنه مرسل كما بينته في التعليق على (المشكاة)، وهو مرسل صحيح الإسناد، لاسيما وقد أودعه الضياء المقدسي في (المختارة)، (٦٤ / ٤١/ ١)، وأشار إلى الخلاف في وصله وإرساله. وهو شاهد قوي لحديث: ((المتباريان لا يجابان ولا يؤكل طعامهما)) الذي أورده الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٢٦).

٢- (قلت): مسلم (٢٢٥٣)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ)).

وهذه المراتب أيضا مرتّبة على البطش باليد والمشي بالرجل. وأمثالها لا تخفى. فالتّكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهل عياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دَينه خلاف، والصحيح: وجوبه ليمكّنه من أداء دَينه، ولا يجب لإخراج الزكاة وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكُّنه بذلك من أداء النسك. والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطّر ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمُّم.

والحرام: كقتل النفس التي حرم الله، ونهب المال المغصوب، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللّعب المحرم بالنّص كالنّرد، أو ما هو أشدّ تحريما منه عند أهل المدينة كالشّطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردّها ونقضها، وكتابة الزّور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتَّشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرّة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبت عليه مالًا: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}[٢: ٧٩]، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك، ومنه: لمس الرّكن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرّة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلًا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبرّ والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلّمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رجل الشيطان. قال تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ}[١٧: ٦٤]، قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس([١]).

وكذلك تعلق هذه الأحكام الخمس بالرّكوب أيضا: فواجبه في الرّكوب في الغزو والجهاد والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبرّ الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله.

١- (قلت): لم يذكر ابن القيم العبوديات الثلاث الأخرى على المشي في مدارج السالكين الذي نقل منه المؤلف.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمَّن فوت أجر، ولا تحصيل وزر. فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج([1])والاستواء على ظهر الدابة([2]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: {إيَّاك نعبد}؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول.

٢- إخلاص الاستعانة بالله ﷻ؛ لقوله تعالى: {وإيَّاك نستعين}، حيث قدَّم المفعول.

فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة لله وقد جاء في قوله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى}[المائدة: ٢]، إثبات المعونة من غير الله ﷻ، وقال النبي ﷺ: ((تعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة؟([3])))؟.

فالجواب: أن الاستعانة نوعان: استعانة تفويض؛ بمعنى أنك تعتمد على الله تعالى، وتتبرأ من حولك، وقوتك؛ وهذا خاص بالله؛ واستعانة بمعنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حيًّا قادرًا على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى}[المائدة: ٢].

فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادرًا عليها؛ وأما إذا لم يكن قادرًا فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئًا؛ فكيف يعينه!!! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الوليّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضاً شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوقَ فيما تجوز استعانته به؟

فالجواب: الأَولى أن لا يستعين بأحد إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسَر بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه؛ وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

١- (قلت): ولم يذكر أيضاً العبوديات الخمس على الفرج.

٢- (قلت): انظر كلام شيخ الإسلام عن العبادة في الآية (٢١) من سورة البقرة.

٣- أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد، باب ٧٢: فضل من حمل متاع صاحبه في السفر حديث رقم ٢٨٩١؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٣٥ [٥٦] ١٠٠٩، واللفظ لمسلم.

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

قال السعدي: أي: دلّنا وأرشدنا، ووفّقنا للصّراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط. فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

قال ابن القيم في التفسير القيم: وذكر الصراط المستقيم منفردًا، معرَّفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة. وذلك يفيد تعيّنه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: {وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}[٦: ١٥٤]، فوحّد لفظ الصراط وسبيله. وجمع السُّبل المخالفة له.

وقال ابن مسعود: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطّا، وقال: ((هذا سبيل الله))، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: ((هذه سبل، وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: {وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ. ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}([1]))). وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله، قال الله تعالى: {هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ}[١٥: ٤١]، قال الحسن معناه: صراط إليّ مستقيم. وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة (على) مقام (إلى) والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أي صراط موصل إلي وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه. وهو من أصح ما قيل في الآية. قيل: في أداة (على) سر لطيف؛ وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: { أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ}[٢: ٥]، وقال لرسوله ﷺ: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}[٢٧: ٧٩]، والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة (على)، على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله، فإنه سريع بديع.

فإن قلتَ: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضًا. وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق، وعلى الهدى؟.

قلتُ: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه واستقامته إليه. فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والرّيب. فإنه يؤتي فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه،

١- (قلت): قال الإمام الألباني في الظلال (١٦و١٧): حسن صحيح.

وانقماعه وتدسُّسِهِ فيه، كقوله تعالى: {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}[٩: ٤٥]، وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ}[٦: ٣٩]، وقوله: {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}[٢٣: ٢٥]، وقوله: {إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ}[١٤: ٤٢]، وتأمل قوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}[٣٤: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علوًّا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلًا، هاوية بسالكها في أسفل سافلين. ولمّا كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب ونيله أشرف المواهب: علّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم. توسّل إليه بأسمائه وصفاته. وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يردّ معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه، والإمام أحمد والترمذي. أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو، ويقول: ((اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)). فقال: ((والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى([١]))). قال الترمذي: حديث صحيح. فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم (الصمد) وهو كما قال ابن عباس: (العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته)، وفي رواية عنه (هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد) وقال أبو وائل: (هو السيد الذي انتهى سؤدده)، وقال سعيد بن جبير: (هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأعماله) وبنفي التمثيل والتشبيه عنه بقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}، وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: ((أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنّان، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: لقد سأل الله باسمه الأعظم([٢]))).

فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته. وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه، وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرّغائب، وهو الهداية، بعد الوسيلتين، فالدّاعي به حقيق بالإجابة. ونظير هذا: دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلّي من الليل، رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس: ((اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤١).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤٢)، وقال: حديث صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي.

حاكمت. فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت([1])). فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

وتضمّنت إثبات النبوّات من قوله اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ فالهداية: هي البيان والدّلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق. وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثّرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه. هما هدايتان مستقلّتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمّنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتّباعه ظاهرًا و باطنًا. ثم خلق القدرة لنا على القيام لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هاهنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنّا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا، من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التّثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى – وهي آخر مراتبها – وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على

---

١ – (قلت): البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((أنت نور السماوات والأرض))، قال العلماء: معناه منورهما وقال أبو عبيد معناه بنورك يهتدي أهل السماوات والأرض قال الخطابي في تفسير اسمه سبحانه وتعالى النور ومعناه الذي بنوره يبصر ذو العماية وبهدايته يرشد ذو الغواية قال ومنه الله نور السماوات والأرض أي منه نورهما قال ويحتمل أن يكون معناه ذو النور ولا يصح أن يكون النور صفة ذات الله تعالى وإنما هو صفة فعل أي هو خالقه وقال غيره معنى نور السماوات والأرض مدير شمسها وقمرها ونجومها ((أنت قيام السماوات والأرض))، وفي الرواية الثانية قيم قال العلماء من صفاته القيام والقيم كما صرح به هذا الحديث والقيوم بنص القرآن وقائم ومنه قوله تعالى أفمن هو قائم على كل نفس قال الهروي ويقال قوام قال ابن عباس القيوم الذي لا يزول وقال غيره هو القائم على كل شيء ومعناه مدبر أمر خلقه وهما سائغان في تفسير الآية والحديث ((أنت رب السماوات الأرض ومن فيهن))، قال العلماء: للرب ثلاث معان في اللغة السيد المطاع والمصلح والمالك قال بعضهم إذا كان بمعنى السيد المطاع فشرط المربوب أن يكون ممن يعقل وإليه أشار الخطابي بقوله لا يصح أن يقال سيد الجبال والشجر قال القاضي عياض هذا الشرط فاسد بل الجميع مطيع له سبحانه وتعالى قال الله تعالى قالتا أتينا طائعين ((أنت الحق))، قال العلماء: الحق في أسمائه سبحانه وتعالى معناه المتحقق وجوده وكل شيء صح وجوده وتحقق فهو حق ومنه الحاقة أي الكائنة حقا بغير شك ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق أي كله متحقق لا شك فيه وقيل معناه خبرك حق وصدق وقيل أنت صاحب الحق وقيل محق الحق وقيل الإله الحق دون ما يقوله الملحدون كما قال تعالى ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وقيل في قوله: ((ووعدك الحق)): أي صدق، ومعنى ((لقاؤك حق)): أي البعث ((اللهم لك أسلمت الخ))، معنى ((أسلمت)): استسلمت وانقدت لأمرك ونهيك، ((وبك آمنت)): أي صدقت بك وبكل ما أخبرت وأمرت ونهيت ((وإليك أنبت)): أي أطعت ورجعت إلى عبادتك أي أقبلت عليها، وقيل: معناه رجعت إليك في تدبيري أي فوضت إليك، ((وبك خاصمت)): أي ما أعطيتني من البراهين والقوة خاصمت من عاند فيك وكفر بك وقمعته بالحجة وبالسيف، ((وإليك حاكمت)): أي كل من جحد الحق حاكمته إليك وجعلتك الحاكم بيني وبينه لا غيرك مما كانت تحاكم إليه الجاهلية وغيرهم من صنم وكاهن ونار وشيطان وغيرها فلا أرضى إلا بحكمك ولا أعتمد غيره.

ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطّرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلّم، ومنهم المكردس في الناس. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذّة بالقذة جزاء وفاقًا، {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر. وكذلك يتضمّن إثبات النبوّات من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم.

ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة. فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا.

والصراط: تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: {وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً}[٦: ١٥٣]، وقوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ: صِراطِ اللَّهِ}[٤٢: ٥٢]، وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب لهم. وهم المارّون عليه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- لجوء الإنسان إلى الله ﷻ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بدَّ في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: {إياك نعبد}؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدلّ عليه قوله تعالى: {وإياك نستعين}؛ ومن أتباع للشريعة؛ يدلّ عليه قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}؛ لأن {الصراط المستقيم} هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

٢- بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من {اهدنا}؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية: التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية علم، وإرشاد؛ وهداية توفيق، وعمل؛ فالأولى ليس فيها إلّا مجرَّد الدّلالة؛ والله ﷻ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس}[البقرة: ١٨٥]؛ والثانية فيها التوفيق للهدى، واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين}[البقرة: ٢]، وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: {وأمَّا ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهدى}[فصلت: ١٧]: {فهديناهم}: أي بيَّنَّا لهم الحق، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا.

٣- أن الصراط ينقسم إلى قسمين: مستقيم، ومعوج؛ فما كان موافقًا للحق فهو مستقيم، كما قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه}[الأنعام: ١٥٣]؛ وما كان مخالفاً له فهو معوج.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧)

قال الشنقيطي: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ }: لم يُبَيِّنْ هُنَا مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ. وَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: {فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}.

قال ابن القيم في التفسير القيم: ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريد لسلوك طريق مرافقه فيها غاية العزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرق، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم {مع الذين أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرّده عن أهل زمانه وبني جنسه. وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنّهم هم الأقلّون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلّة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلّما استوحشت في تفرّدك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللّحاق بهم. وغضّ الطرف عمّن سواهم. فإنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفتّ إليهم أخذوك وعاقوك. وقد ضربت لك مثلين، فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه. فوقف ورد عليه، وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز[١]بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشدُّ سعيًا من الكلب، ولكنّه إذا أحسَّ به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب فيأخذه.

١- جمز الإنسان والبعير وغيره يجمز جمزا وجمزي وهو عدو دون الحضر وفوق العنيد، وبعير جماز وناقة جمازة. يقال: حمار جمّاز: وثاب، وجمزي: سريع.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للّحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت ((اللهم اهدني فيمن هديت)): أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك. فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدّقت عليهم، وعلّمني في جملة من علّمته. وأحسن إلي في جملة من شملته إحسانك.

ويتضمّن إثبات النبوّات من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى الأقسام الثلاثة. لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق، أو جاهلًا به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملًا بموجبه أو مخالفًا له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها البتّة. فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح. وهو المفلح {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها}[٩١: ٩]، والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه. والجاهل بالحق: هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به. ومن هاهنا كان اليهود أحقّ به. وهو متغلظ في حقهم. كقوله تعالى في حقهم {بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ: أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ، فَباؤُا بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ}[٢: ٩٠]، قال تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ}[٥: ٦٠]. والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: {قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً، وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ}[٥: ٧٧]، فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود. والثانية: في سياقه مع النصارى.

وفي الترمذي وصحيح ابن حبّان: من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: ((اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون([١]))). ففي ذكر المنعم عليهم – وهم من عرف الحق واتبعه – والمغضوب عليهم – وهم من عرفه واتبع هواه – والضالين – وهم من جهله –: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة. لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة. وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه:

منها: أن النعمة هي الخير والفصل. والغضب من باب الانتقام والعدل. والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما. وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه. وحذف الفاعل في مقابلتهما،

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في شرح العقيدة الطحاوية (٥٩٤).

كقول مؤمني الجن: { وَأَنَّا لا نَدْري أَشَرٌّ أُريدَ بِمَنْ في الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }[٧٢: ١٠]، ومنه قوله الخضر في شأن الجدار واليتيمين: {فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما}[١٨: ٨٢]، وقال في خرق السفينة: {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها ثم قال بعد ذلك وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْري }[١٨: ٧٩]، وتأمل قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ}[٢: ١٨٧]، وقوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ}[٥: ٤]، وقوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ}[٤: ٢٤] – ثم قال – وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ.

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنّعمة ما دلّ على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم. وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر. فكل الخلق في نعمه. وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟. فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان. ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[١٤: ٣٤].

والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان. والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر. والمؤمن والكافر. وأما الإحسان المطلق فللّذين اتّقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم: {وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}[١٦: ٥٣]، فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة. وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان في طلبه {المغضوب عليهم}، بموافقة أوليائه له: من الدّلالة على تفردّه بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها – ما ليس في لفظه (المنعم عليهم).

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره، وتصغير شأنه، ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره: ما ليس في حذفه. فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه، ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه. كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأعطي.

وتأمل سرًّا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره. فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح. وهي الهدى ودين الحق. ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ {أنعمت عليهم}، يتضمن الأمرين. وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال. فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلالة وغضب الله عليه. فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال. وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير

في القرآن: يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالثاني كقوله: {أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[٢: ٥]، وقوله: {أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }[٦: ٨٢]. والأول كقوله تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ}[٤٧: ٥٤]، وقوله: {خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ، وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ، وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ}[٢: ٧]، وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى}[٢٠: ١٢٤]، فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً * وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى * قالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى}[٢٠: ١٢٤- ١٢٦]. فذكر الضلال والشقاء. فالهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

قال السعدي: فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: {رب العالمين}. وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: {الله}، ومن قوله: {إياك نعبد}، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ {الحمد}، كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: {اهدنا الصراط المستقيم}، لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة. وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: {مالك يوم الدين}، وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافًا للقدرية والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: {اهدنا الصراط المستقيم}، لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة في قوله: {إياك نعبد وإياك نستعين}، فالحمد لله رب العالمين.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج١ص٧٦: (في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين شفاء القلوب، وشفاء الأبدان): فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليها داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب ينتجه فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد، وأوجبه عليه كل يوم وليلة. في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بِإِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته، من المشركين ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رئاستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رئاستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن

عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة([1])وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به: {وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، أَمِ ارْتابُوا؟ أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ؟ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٢٤: ٤٨- ٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسُّرًا، إذا حق الحق وبطل الباطل، وتقطّعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتدّ ظهوره وتحقّقه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حققت الحقائق. وفاز المحقّون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه. بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

فإن هذا الدواء مركّب من ستة أجزاء:

[١] عبودية الله لا غيره.

[٢] بأمره وشرعه.

[٣] لا بالهوى.

[٤] ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم.

[٥] بالاستعانة على عبوديته به.

[٦] لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما تراميًا به إلى التلف ولا بد: وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء ب{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، ودواء الكبر ب{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

١- السكة: المراد منها الاسم يضرب على النقود، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته، حيث لم يكن لهم من الخلافة إلّا الصورة، والحكم النافذ في الأمور لغيره.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} تدفع الرياء، {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء ب{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، ومن مرض الكبر والعجب ب{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، ومن مرض الضلال والجهل بإهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، غير المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين. وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه. وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت الله وكلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًا، اختصّها به، من معاني هذه السورة.

قال الشنقيطي: (تَنْبِيهَانِ):

الْأَوَّلُ: يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ صِحَّةُ إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه ؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِيمَنْ أَمَرَنَا اللَّهُ فِي السَّبْعِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ – أَعْنِي الْفَاتِحَةَ – بِأَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُمْ. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ صِرَاطَهُمْ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ. وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، وَقَدْ بَيَّنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَعَدَّ مِنْهُمُ الصِّدِّيقِينَ. وَقَدْ بَيَّنَ ﷺ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ –رضي الله عنه– مِنَ الصِّدِّيقِينَ، فَاتَّضَحَ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، الَّذِينَ أَمَرَنَا اللَّهُ أَنْ نَسْأَلَهُ الْهِدَايَةَ إِلَى صِرَاطِهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ لَبْسٌ فِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رضي الله عنه – عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنَّ إِمَامَتَهُ حَقٌّ.

الثَّانِي: قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الصِّدِّيقِينَ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ صَرَّحَ تَعَالَى بِأَنَّ مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ صِدِّيقَةٌ فِي قَوْلِهِ: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}[٥ \ ٧٥] وَإِذَنْ فَهَلْ تَدْخُلُ مَرْيَمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} أَوْ لَا؟

الْجَوَابُ: أَنَّ دُخُولَهَا فِيهِمْ يَتَفَرَّعُ عَلَى قَاعِدَةٍ أُصُولِيَّةٍ مُخْتَلَفٍ فِيهَا مَعْرُوفَةٍ، وَهِيَ: هَلْ مَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْجُمُوعِ الصَّحِيحَةِ الْمُذَكَّرَةِ وَنَحْوِهَا مِمَّا يَخْتَصُّ بِجَمَاعَةِ الذُّكُورِ تَدْخُلُ فِيهِ الْإِنَاثُ أَوْ لَا يَدْخُلْنَ فِيهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ مُنْفَصِلٍ؟

فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهُنَّ يَدْخُلْنَ فِي ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ: فَمَرْيَمُ دَاخِلَةٌ فِي الْآيَةِ، وَاحْتَجَّ أَهْلُ هَذَا الْقَوْلِ بِأَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: إِجْمَاعُ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ عَلَى تَغْلِيبِ الذُّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ فِي الْجَمْعِ.

وَالثَّانِي: وُرُودُ آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى دُخُولِهِنَّ فِي الْجُمُوعِ الصَّحِيحَةِ الْمُذَكَّرَةِ وَنَحْوِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي مَرْيَمَ نَفْسِهَا: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}[٦٦ \ ١٢]، وَقَوْلِهِ فِي امْرَأَةِ الْعَزِيزِ: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}[١٢ \ ٢٩]، وَقَوْلِهِ فِي بِلْقِيسَ: {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ} [٢٧ \ ٤٣] ، وَقَوْلِهِ فِيمَا كَالْجَمْعِ الْمُذَكَّرِ السَّالِمِ: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا} الْآيَةَ [٢ \ ٣٨]؛ فَإِنَّهُ تَدْخُلُ فِيهِ حَوَّاءُ إِجْمَاعًا.

وَذَهَبَ كَثِيرٌ إِلَى أَنَّهُنَّ لَا يَدْخُلْنَ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِدَلِيلٍ مُنْفَصِلٍ. وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِآيَاتٍ كَقَوْلِهِ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، إِلَى قَوْلِهِ: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[٣٣ \ ٣٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ

لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ}[٢٤ \ ٣١]، ثُمَّ قَالَ: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} الْآيَةَ [٢٤ \ ٣١]، فَعَطْفُهُنَّ عَلَيْهِمْ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ دُخُولِهِنَّ. وَأَجَابُوا عَنْ حُجَّةِ أَهْلِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ تَغْلِيبَ الذُّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ فِي الْجَمْعِ لَيْسَ مَحَلَّ نِزَاعٍ. وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي الَّذِي يَتَبَادَرُ مِنَ الْجَمْعِ الْمُذَكَّرِ وَنَحْوِهِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ. وَعَنِ الْآيَاتِ بِأَنَّ دُخُولَ الْإِنَاثِ فِيهَا إِنَّمَا عُلِمَ مِنْ قَرِينَةِ السِّيَاقِ وَدَلَالَةِ اللَّفْظِ، وَدُخُولُهُنَّ فِي حَالَةِ الِاقْتِرَانِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: فَمَرْيَمُ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي الْآيَةِ وَإِلَى هَذَا الْخِلَافِ أَشَارَ فِي (مَرَاقِي السُّعُودِ) بِقَوْلِهِ: (الرَّجَزُ): وَمَا شُمُولُ مَنْ لِلْأُنْثَى جَنَفُ ... وَفِي شَبِيهِ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}: وهذا مجمل؛ {صراط الذين أنعمت عليهم}: وهذا مفصل؛ لأن الإجمال، ثم التفصيل فيه فائدة: فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل، والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه؛ ثم فيه فائدة ثانية هنا: وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.

٢- إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله.

٣- انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام.. وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل؛ أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم. وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق. وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة. أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم، واليهود سواءً. كلهم مغضوب عليهم.

٤- بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

٥- أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه. بخلاف المخالف عن جهل.. وعلى كل حال السورة هذه عظيمة؛ ولا يمكن لا لي، ولا لغيري أن يحيط بمعانيها العظيمة؛ لكن هذا قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب (مدارج السالكين) لابن القيم رحمه الله.

تمَّ تفسير سورة الفاتحة بعون اللّه وفضله

تفسير سورة البقرة

الجزء الاول

الْكَلَامُ فِي نُزُولِهَا وَفَضْلِهَا وَمَا جَاءَ فِيهِ

قال ابن العثيمين: نزلت سورة البقرة بعد الهجرة؛ ولذلك فهي مدنية؛ فإن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ وما نزل قبلها فهو مكي؛ هذا هو الصحيح؛ لأنَّ العبرة بالزمن. لا بالمكان.

وغالب السور المدنية يكون فيها تفصيل أكثر من السور المكية؛ ويكون التفصيل فيها في فروع الإسلام دون أصوله؛ وتكون غالباً أقل شدة في الزجر، والوعظ، والوعيد؛ لأنها تخاطب قوماً كانوا مؤمنين موحدين قائمين بأصول الدين، ولم يبق إلا أن تُبَيَّن لهم فروع الدين ليعملوا بها؛ وتكون غالباً أطول آيات من السور المكية.

قال القرطبي: وَهَكَذَا كُلُّ سُورَةٍ إِنْ وَجَدْنَا لَهَا ذَلِكَ، فَنَقُولُ: سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَدَنِيَّةٌ، نَزَلَتْ فِي مُدَدٍ شَتَّى. وَقِيلَ: هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}[البقرة: ٢٨١]، فَإِنَّهُ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ، وَنَزَلَتْ يَوْمَ النَّحْرِ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى، وَآيَاتُ الرِّبَا أَيْضًا مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ. وَهَذِهِ السُّورَةُ فَضْلُهَا عَظِيمٌ وَثَوَابُهَا جَسِيمٌ. وَيُقَالُ لَهَا: فُسْطَاطُ الْقُرْآنِ، قَالَهُ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ. وَذَلِكَ لِعِظَمِهَا وَبَهَائِهَا، وَكَثْرَةِ أَحْكَامِهَا وَمَوَاعِظِهَا. وَتَعَلَّمَهَا عُمَرُ رضي الله عنه بِفِقْهِهَا وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي ثَمَانِي سِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: سَمِعْتُ بَعْضَ أَشْيَاخِي يَقُولُ: فِيهَا أَلْفُ أَمْرٍ وَأَلْفُ نَهْيٍ وَأَلْفُ حُكْمٍ وَأَلْفُ خَبَرٍ. وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي أمامه الْبَاهِلِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ([1]))، قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ. وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ([2]))، وَرَوَى الدَّارِمِيُّ: ((إِنَّ لِكُلِ شيء سَنَامًا وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ([3]))).

وَفِي كِتَابِ الِاسْتِيعَابِ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: وَكَانَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ عامر بن مالك بن جعفر ابن كِلَابِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ مِنْ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ وَتَرَكَ قَوْلَ الشِّعْرِ فِي الْإِسْلَامِ، وَسَأَلَهُ عُمَرُ فِي خِلَافَتِهِ عَنِ

١- (قلت): مسلم (٨٠٤)، والحديث بتمامه: ((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)). قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ.

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الزهراوين))، سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما، ((كأنهما غمامتان أو إنهما غيايتان))، قال أهل اللغة: الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه سحابة وغيرة وغيرهما، قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين، ((كأنهما فرقان من طير صواف)) وفي الرواية الأخرى، ((كأنهما حزقان من طير صواف))، الفرقان والحزقان معناهما واحد، وهما قطيعان وجماعتان، يقال في الواحد فرق وحزق وحزيقة، وقوله: ((من طير صواف))، جمع صافة، وهي من الطيور ما يبسط أجنحتها في الهواء، ((تحاجان عن أصحابهما))، أي تدافعان الجحيم والزبانية وهو كناية عن المبالغة في الشفاعة ((ولا يستطيعها))، أي لا يقدر على تحصيلها.

٢- (قلت): مسلم (٧٨٠).

٣- (قلت): حسن إسناده حسين سليم أسد الداراني في تحقيقه لسنن الدارمي الحديث المرقم (٣٤٢٠)، من أجل عاصم بن أبي النجود. والحديث بتمامه: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ الْمُفَصَّلُ)) قَالَ أَبُو مُحَمَّد: (اللُّبَابُ: الْخَالِصُ).

شِعْرِهِ وَاسْتَنْشَدَهُ، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ: إِنَّمَا سَأَلْتُكَ عَنْ شِعْرِكَ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقُولَ بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ بَعْدَ إِذْ عَلَّمَنِي اللَّهُ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَأَعْجَبَ عُمَرَ قَوْلُهُ، وَكَانَ عَطَاؤُهُ أَلْفَيْنِ فَزَادَهُ خَمْسَمِائَةٍ. وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَخْبَارِ: إِنَّ لَبِيدًا لَمْ يَقُلْ شِعْرًا مُنْذُ أَسْلَمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَقُلْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا قَوْلَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سربالا، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَقَدْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ لِقَرَدَةَ بْنِ نُفَاثَةَ السَّلُولِيِّ، وَهُوَ أَصَحُّ عِنْدِي. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلِ الْبَيْتُ الَّذِي قَالَهُ فِي الْإِسْلَامِ: مَا عَاتَبَ الْمَرْءَ الْكَرِيمَ كَنَفْسِهِ وَالْمَرْءُ يُصْلِحُهُ الْقَرِينُ الصَّالِحُ وَسَيَأْتِي مَا وَرَدَ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَخَوَاتِيمِ الْبَقَرَةِ، وَيَأْتِي فِي أَوَّلِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ زِيَادَةُ بَيَانٍ لِفَضْلِ هَذِهِ السُّورَةِ، إن شاء الله تعالى.

الم (١)

قال ابن العثيمين: {الم} حروف هجائية: ثلاثة أحرف: ألِف، ولام، وميم؛ تقرأ لا على حسب الكتابة: {أَلَمْ}؛ ولكن على حسب اسم الحرف: {أَلِفْ لامْ ميمْ}.

هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منها على أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال:

القول الأول: أن لها معنًى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: هل هو اسم لله عزّ وجلّ؛ أو اسم للسورة؛ أو أنه إشارة إلى مدة هذه الأمة؛ أو نحو ذلك؟

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى إطلاقًا.

القول الثالث: لها معنًى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنًى؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى.

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: أَلَها معنًى، أم لا؛ وإذا كان لها معنًى فلا ندري ما هو.

وأصح الأقوال فيها القول الثاني؛ وهو أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد؛ وحجة هذا القول: أن القرآن نزل بلغة العرب؛ وهذه الحروف ليس لها معنًى في اللغة العربية، مثل ما تقول: ألِف؛ باء؛ تاء؛ ثاء؛ جيم؛ حاء ...؛ فهي كذلك حروف هجائية. أما كونه تعالى اختار هذا الحرف دون غيره، ورتبها هذا الترتيب فهذا ما لا علم لنا به. هذا بالنسبة لذات هذه الحروف؛ أما بالنسبة للحكمة منها فعلى قول من يعين لها معنًى فإن الحكمة منها: الدلالة على ذلك المعنى. مثل غيرها مما في القرآن. وأما على قول من يقول: (ليس لها معنًى)؛ أو: (لها معنًى الله أعلم به)؛ أو: (يجب علينا أن نتوقف)، فإن الحكمة عند هؤلاء على أرجح الأقوال. وهو الذي اختاره ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره تلميذه الحافظ الذهبي، وجمع كثير من أهل العلم. هو الإشارة إلى بيان إعجاز القرآن العظيم، وأن هذا القرآن لم يأتِ بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر؛ وإنما هو من الحروف

التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم.. فهذا أبين في الإعجاز؛ لأنه لو كان في القرآن حروف أخرى لا يتكلم الناس بها لم يكن الإعجاز في ذلك واقعًا؛ لكنه بنفس الحروف التي يتكلم بها الناس. ومع هذا فقد أعجزهم.؛ فالحكمة منها ظهور إعجاز القرآن الكريم في أبلغ ما يكون من العبارة؛ قالوا: ويدل على ذلك أنه ما من سورة افتتحت بهذه الحروف إلا وللقرآن فيها ذكر؛ إلا بعض السور القليلة لم يذكر فيها القرآن؛ لكن ذُكر ما كان من خصائص القرآن:. فمثلًا قوله تعالى: {كهيعص}[مريم: ١]، ليس بعدها ذكر للقرآن؛ ولكن جاء في السورة خاصية من خصائص القرآن. وهي ذِكر قصص من كان قبلنا: {ذكر رحمت ربك عبده زكريا...}[مريم: ٢]. كذلك في سورة الروم قال تعالى في أولها: {الم * غلبت الروم}[الروم: ١، ٢]؛ فهذا الموضع أيضاً ليس فيه ذكر للقرآن؛ ولكن في السورة ذكر شيء من خصائص القرآن. وهو الإخبار عن المستقبل: {غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين}[الروم: ٢، ٤]. وكذلك أيضاً قوله تعالى: {الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}[العنكبوت: ١، ٢]، ليس فيها ذكر القرآن؛ ولكن فيها شيء من القصص الذي هو أحد خصائص القرآن: {ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا ... }[العنكبوت: ٣].

فهذا القول الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره جمع من أهل العلم هو الراجح: أن الحكمة من هذا ظهور إعجاز القرآن في أبلغ صوره، حيث إن القرآن لم يأتِ بجديد من الحروف؛ ومع ذلك فإن أهل اللغة العربية عجزوا عن معارضته وهم البلغاء الفصحاء.

وقال بعضهم: إن الحكمة منها تنشيط السامعين؛ فإذا تلي القرآن، وقرئ قوله تعالى: {الم}، كأنه تعالى يقول: أنصتوا؛ وذلك لأجل المشركين. حتى ينصتوا له. ولكن هذا القول فيه نظر؛ لأنه لو كان كذلك لكان هذا في كل السور؛ مع أن أكثر السور غير مبتدئ بمثل هذه الحروف؛ وأيضًا لو كان كذلك ما صارت في السور المدنية. مثل سورة البقرة.؛ لأن السور المدنية ليس فيها أحد يلغو في القرآن؛ فالصواب أن الحكمة من ذلك هو ظهور إعجاز القرآن([1]).

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)

قال ابن العثيمين: {ذا}، اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ فإذا كان المشار إليه بعيدًا تأتي بهذه اللام التي نسميها (لام البعد)؛ أما الكاف فهي للخطاب؛ وهذه الكاف فيها ثلاث لغات:

١- (قلت): انظر كلام الشنقيطي على الحروف الهجائية في الآية الأولى من سورة هود.

الأولى: مراعاة المخاطب؛ فإن كان مفردًا مذكرًا فُتِحت؛ وإن كان مفردًا مؤنثًا كُسِرت، وإن كان مثنى قرنت بالميم، والألف: (ذلكما)؛ وإن كان جمعًا مذكرًا قرنت بالميم: (ذلكم)؛ وإن كان جمعًا مؤنثًا قرنت بالنون المشددة: (ذلكنَّ)؛ وهذه هي اللغة الفصحى.

اللغة الثانية: لزوم الفتح والإفراد مطلقًا، سواء خاطبت مذكرًا، أو مؤنثًا، أو مثنىً، أو جمعًا؛ فتقول للرجل: (ذلكَ)؛ وللمرأة: (ذلكَ)؛ وللاثنين: (ذلكَ)؛ وللجماعة: (ذلكَ).

اللغة الثالثة: أن تكون بالإفراد سواء كان المخاطب واحدًا، أم أكثر. مفتوحة في المذكر مكسورة في المؤنث؛ فتقول: (ذلكَ) إذا كان المخاطب مذكرًا؛ وتقول: (ذلكِ) إذا كان مؤنثًا.

والخطاب في قوله تعالى: {ذلك}، لكل مخاطب يصح أن يوجه إليه الخطاب؛ والمعنى: ذلك أيها الإنسان المخاطَب.

والمراد بـ{الكتاب}، القرآن؛ و{الكتاب}، بمعنى المكتوب؛ لأن (فِعال) كما تأتي مصدرًا مثل: قتال، ونضال؛ تأتي كذلك بمعنى اسم مفعول، مثل: بناء بمعنى مبني؛ وغراس بمعنى مغروس؛ فكذلك (كتاب)، بمعنى مكتوب؛ فهو مكتوب عند الله؛ وهو أيضًا مكتوب بالصحف المكرمة، كما قال تعالى: {في صحف مكرمة * مرفوعة مطهَّرة * بأيدي سفرة}[عبس: ١٣- ١٥]؛ وهو مكتوب في الصحف التي بين أيدي الناس؛ وأشار إليه بأداة البعيد لعلوّ منزلته؛ لأنه أشرف كتاب، وأعظم كتاب.

قال السعدي: وقوله: {ذلك الكتاب}: أي هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين.

قال ابن العثيمين: {لا ريب فيه هدًى للمتقين}: أهل النحو يقولون: إنّ {لا} هنا نافية للجنس؛ و{ريب} اسمها مبني على الفتح؛ لأنه مركب معها؛ فهي في محل نصب؛ ويقولون: إنّ (لا) النافية للجنس تفيد العموم في أقصى غايته. يعني تدل على العموم المطلق.، فتشمل القليل، والكثير؛ فإذًا القرآن ليس فيه ريب لا قليل، ولا كثير. و{الريب}: هو الشك؛ ولكن ليس مطلق الشك؛ بل الشك المصحوب بقلق لقوة الداعي الموجب للشك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهذا الشك؛ فهي قلقة منه. بخلاف مطلق الشك؛ ولهذا من فسّر الريب بالشك فهذا تفسير تقريبي؛ لأن بينهما فرقًا([1]).

والنفي هنا على بابه؛ فالجملة خبرية؛ هذا هو الراجح؛ وقيل: إنه بمعنى النهي. أي لا ترتابوا فيه؛ والأول أبلغ.

فإن قال قائل: ما وجه رجحانه؟

١- (قلت): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٢٨١: قَالَ تَعَالَى: {إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات:١٥]، فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ رَيْبٌ عِنْدَ الْمِحَنِ الَّتِي تُقَلْقِلُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ، وَالرَّيْبُ يَكُونُ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ وَفِي عَمَلِ الْقَلْبِ؛ بِخِلَافِ الشَّكِّ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْعِلْمِ؛ وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ بِالْيَقِينِ إلَّا مَنْ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ وَإِلَّا فَإِذَا كَانَ عَالِمًا بِالْحَقِّ؛ وَلَكِنَّ الْمُصِيبَةَ أَوْ الْخَوْفَ أَوْرَثَهُ جَزَعًا عَظِيمًا لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ يَقِينٍ. قَالَ تَعَالَى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}[الأحزاب:١١].

فالجواب: أن هذا ينبني على قاعدة هامة في فهم وتفسير القرآن: وهي أنه يجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن لا نصرفه عن الظاهر إلا بدليل، مثل قوله تعالى: {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء}[البقرة: ٢٢٨]، فهذه الآية ظاهرها خبر؛ لكن المراد بها الأمر؛ لأنه قد لا تتربص المطلقة؛ فما دمت تريد تفسير القرآن الكريم فيجب عليك أن تجريه على ظاهره إلّا ما دلّ الدليل على خلافه؛ وذلك؛ لأن المفسّر للقرآن شاهد على الله بأنه أراد به كذا، وكذا؛ وأنت لو فسّرت كلام بشر على خلاف ظاهره لَلامَكَ هذا المتكلم، وقال: (لماذا تحمل كلامي على خلاف ظاهره! ليس لك إلا الظاهر)؛ مع أنك لو فسرت كلام هذا الرجل على خلاف ظاهره لكان أهون لومًا مما لو فسرت كلام الله؛ لأن المتكلم. غير الله. ربما يخفى عليه المعنى، أو يعييه التعبير، أو يعبر بشيء ظاهره خلاف ما يريده، فتفسره أنت على ما تظن أنه يريده؛ أما كلام الله عزّ وجلّ فهو صادر عن علم، وبأبلغ كلام، وأفصحه؛ ولا يمكن أن يخفى على الله عزّ وجلّ ما يتضمنه كلامه؛ فيجب عليك أن تفسره بظاهره.

فقوله تعالى: {لا ريب فيه}: ظاهرها أنها جملة خبرية تفيد النفي؛ والمعنى: ليس فيه ريب أبدًا؛ وقيل: إن الخبر هنا بمعنى النهي؛ فمعنى: {لا ريب فيه}: لا ترتابوا فيه؛ والذي أوجب أن يفسروا النفي بمعنى النهي قالوا: لأنه قد حصل فيه ريب من الكفار، والمنافقين؛ قال تعالى: {فهم في ريبهم يترددون}[التوبة: ٤٥]؛ فلا يستقيم النفي حينئذ؛ وتكون هذه القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة لصرف الخبر إلى النهي؛ ولكننا نقول: إن الله تعالى يتحدث عن القرآن من حيث هو قرآن. لا باعتبار من يتلى عليهم القرآن.؛ والقرآن من حيث هو قرآن لا ريب فيه؛ عندما أقول لك: (هذا الماء عذب)، فهذا بحسب وصف الماء بقطع النظر عن كون هذا الماء في مذاق إنسان من الناس ليس عذبًا؛ كون مذاق الماء العذب مرًّا عند بعض الناس فهذا لا يؤثر على طبيعة الماء العذب؛ وقد قال المتنبي: ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ ... يجدْ مُرّاً به الماءَ الزُّلالا

فما علينا من هؤلاء إذا كان القرآن عندهم محل ريبة؛ فإن القرآن في حد ذاته ليس محل ريبة؛ والله سبحانه وتعالى يصف القرآن من حيث هو قرآن؛ على أن كثيرًا من الذين ادّعوا الارتياب كاذبون يقولون ذلك جحودًا، كما قال تعالى: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}[الأنعام: ٣٣]؛ فكثير منهم ربما لا يكون عنده ارتياب حقيقي في القرآن؛ ويكون في داخل نفسه يعرف أن هذا ليس بقول الرسول ﷺ وأن محمدًا ﷺ لا يستطيع أن يأتي بمثله؛ ولكن مع ذلك يجحدون، وينكرون.

وعلى هذا فالوجه الأول هو الوجه القوي الذي لا انفصام عنه. وهو أن الله تعالى وصف القرآن من حيث هو قرآن بقطع النظر عمن يُتلى عليهم هذا القرآن: أيرتابون، أم لا يرتابون فيه.

قال السعدي: ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنًا لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه.

قال ابن كثير: وَمِنَ الْقُرَّاءِ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: {لَا رَيْبَ}، وَيَبْتَدِئُ بِقَوْلِهِ: {فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، وَالْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا رَيْبَ فِيهِ}، أَوْلَى لِلْآيَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا، وَلِأَنَّهُ يَصِيرُ قَوْلُهُ: {هُدًى}، صِفَةً لِلْقُرْآنِ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ كَوْنِ: {فِيهِ هُدًى}.

قال الشنقيطي: صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ، {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، وَيُفْهَمُ مِنْ مَفْهُومِ الْآيَةِ - أَعْنِي مَفْهُومَ الْمُخَالَفَةِ الْمَعْرُوفِ بِدَلِيلِ الْخِطَابِ - أَنَّ غَيْرَ الْمُتَّقِينَ لَيْسَ هَذَا الْقُرْآنُ هُدًى لَهُمْ، وَصَرَّحَ بِهَذَا الْمَفْهُومِ فِي آيَاتٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}[٤١ \ ٤٤] وَقَوْلِهِ: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}، وَقَوْلِهِ: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}[٩ \ ١٢٤، ١٢٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} الْآيَتَيْنِ [٥ \ ٦٤، ٦٨].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْهُدَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْهُدَى الْخَاصُّ؛ الَّذِي هُوَ التَّفَضُّلُ بِالتَّوْفِيقِ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، لَا الْهُدَى الْعَامُّ؛ الَّذِي هُوَ إِيضَاحُ الْحَقِّ.

قال ابن العثيمين: و(التقوى): اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص١٥: هُنَا لَطِيفَةٌ تُزِيلُ إشْكَالًا يُفْهَمُ هُنَا: وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ هَذَا الْمُتَّقِي الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ هَذَا أَوَّلًا: مُمْتَنِعٌ؛ إذْ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا مُتَّقِيًا مَنْ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ. وَثَانِيًا: أَنَّ الشَّرْطَ إنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُقَارِنَ الْمَشْرُوطَ، لَا يَجِبُ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ تَقَدُّمًا زَمَانِيًّا، كَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ. وَثَالِثًا: أَنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يَبِينَ شَيْئَانِ: (أَحَدُهُمَا): أَنَّ الِانْتِفَاعَ بِهِ بِالِاهْتِدَاءِ وَالِاتِّعَاظِ وَالرَّحْمَةِ هُوَ- وَإِنْ كَانَ مُوجِبًا لَهُ - لَكِنْ لَا بُدَّ مَعَ الْفَاعِلِ مِنْ الْقَابِلِ؛ إذْ الْكَلَامُ لَا يُؤَثِّرُ فِيمَنْ لَا يَكُونُ قَابِلًا لَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَهْدِيَ وَيَعِظَ وَيَرْحَمَ، وَهَذَا حَالُ كُلِّ كَلَامٍ.

(الثَّانِي): أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْمُهْتَدِينَ بِهَذَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، وَيُسْتَدَلُّ بِعَدَمِ الِاهْتِدَاءِ بِهِ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، كَمَا يُقَالُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِكِتَابِ بقراط هُمْ الْأَطِبَّاءُ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَطِبَّاءَ قَبْلَ تَعَلُّمِهِ؛ بَلْ بِتَعَلُّمِهِ وَكَمَا يُقَالُ: كِتَابُ سِيبَوَيْهِ كِتَابٌ عَظِيمُ الْمَنْفَعَةِ لِلنُّحَاةِ، وَإِنْ كَانُوا إنَّمَا صَارُوا نُحَاةً بِتَعَلُّمِهِ، وَكَمَا يُقَالُ: هَذَا مَكَانٌ مُوَافِقٌ لِلرُّمَاةِ وَالرُّكَابِ.

قال ابن القيم في الفوائد ج١ص١٣٠: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هدى لِلْمُتقين}، وَهَذَا يتَضَمَّن أَمريْن أَحدهمَا: أَنه يهدي بِهِ من اتَّقى مَا خطه قبل نزُول الْكتاب فَإِن النَّاس على اخْتِلَاف ملله‍م ونحلهم قد اسْتَقر عِنْدهم أَن الله سُبْحَانَهُ يكره الظُّلم وَالْفَوَاحِش وَالْفساد فِي الأَرْض ويمقت فَاعل ذَلِك وَيُحب الْعدْل وَالْإِحْسَان والجود والصدق والإصلاح فِي الأَرْض وَيُحب فَاعل ذَلِك فَلَمَّا نزل الْكتاب أثاب سُبْحَانَهُ أهل الْبر بِأَن وفقهم لِلْإِيمَانِ بِهِ جَزَاء لَهُم على برهم وطاعتهم وخذل أهل الْفُجُور وَالْفُحْش وَالظُّلم بِأَن حَال بَينهم وَبَين الاهتداء بِهِ وَالْأَمر.

الثَّانِي: أَن العَبْد إِذا آمن بِالْكتاب واهتدى بِهِ مُجملا وَقبل أوامره وَصدق بأخباره كَانَ ذَلِك سَببا لهداية أُخْرَى تحصل لَهُ على التَّفْصِيل فَإِن الْهِدَايَة لَا نِهَايَة لَهَا وَلَو بلغ العَبْد فِيهَا مَا بلغ ففوق هدايته هِدَايَة أُخْرَى وَفَوق تِلْكَ الْهِدَايَة هِدَايَة أُخْرَى إِلَى غير غَايَة فَكلما اتَّقى العَبْد ربه ارْتقى إِلَى هِدَايَة أُخْرَى فَهُوَ فِي مزِيد هِدَايَة مَا دَامَ فِي مزِيد من التَّقْوَى وَكلما فوّت خطا من التَّقْوَى فَاتَهُ حَظّ من الْهِدَايَة بِحَسبِهِ فَكلما اتَّقى زَاد هداه وَكلما اهْتَدَى زَادَت تقواه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان علوّ القرآن؛ لقوله تعالى: {ذلك}؛ فالإشارة بالبعد تفيد علوّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلوّ والرفعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {ليظهره على الدين كله}[التوبة: ٣٣]؛ وكذلك ما وُصِف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضًا لمن تمسك به.

٢- رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتنىً به؛ لقوله تعالى: {ذلك الكتاب}؛ وقد بيّنّا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدي الناس.

٣- أن هذا القرآن نزل من عند الله يقينًا؛ لقوله تعالى: {لا ريب فيه}.

٤- أن المهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنه عُلِّق الهدى بوصف؛ والحكم إذا عُلق بوصف كانت قوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلَّق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علة؛ وكلما قويت العلة قوي المعلول.

٥- فضيلة التقوى، وأنها من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل الهداية العلمية، والهداية العملية؛ أي هداية الإرشاد، والتوفيق.

فإن قيل: ما الجمع بين قوله تعالى: {هدًى للمتقين}، وقوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان}[البقرة: ١٨٥].

فالجواب: أن الهدى نوعان: عام، وخاص؛ أما العام فهو الشامل لجميع الناس وهو هداية العلم، والإرشاد؛ ومثاله قوله تعالى عن القرآن: {هدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان}[البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى عن ثمود: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى}[فصلت: ١٧]؛ وأما الخاص فهو هداية التوفيق: أي أن يوفق الله المرء للعمل بما علم؛ مثاله قوله تعالى: {هدًى للمتقين}، وقوله تعالى: {قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاء}[فصلت: ٤٤].

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

قال ابن العثيمين: بعد أن ذكر الله عز وجل أن المتقين هم الذين ينتفعون ويهتدون بهذا الكتاب، بيَّن لنا صفات هؤلاء المتقين؛ فذكر في هذه الآيات خمس صفات:

الأولى: الإيمان بالغيب في قوله تعالى: {الذين يؤمنون بالغيب}، أي يقرّون بما غاب عنهم مما أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه، وغير ذلك مما أخبر الله به من أمور الغيب؛ وعلى هذا ف {الغيب}، مصدر بمعنى اسم الفاعل: أي بمعنى: غائب.

قال السعدي: ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك فقال: {الذين يؤمنون بالغيب}، حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح.

قال صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب العقيدة الطحاوية تعقيبًا على تعريف الطحاوي رحمه الله للإيمان:

يريد بالإيمان: الإيمان الذي أَمَرَ الله – عز وجل – به الناس والذي يصير به المرء معصوم الدم والمال.

فَعَرَّفَ الإيمان بأنه (الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ)، وهذا التعريف من جهة مورد الإيمان وهو اللِّسان والجنان، فيتعلّق باللِّسان عبادة الإقرار في الإيمان ويتعلّق بالجنان عبادة التصديق في الإيمان.

وهذا التعريف من جهة المورِدْ هو المشهور عن الطائفة التي يسمِّيها العلماء مرجئة الفقهاء، وهم الإمام أبو حنيفة ومن تبعه من أصحابه، ومنهم أبو جعفر الطحاوي صاحب هذه العقيدة.

وهذه الجملة ممَّا وافَقَ فيه المؤلف الطَّحاوي المرجئة وقَرَّرَ فيها عقيدتهم. وطريقة أهل السنة ومذهب أهل الحق خلاف هذا لأدلةٍ كثيرة في هذا الموطن.

إذا تبيَّن ذلك من جهة أنَّ الطحاوي في هذا الموطن لم يُقَرِّرْ عقيدة أهل السنة والجماعة وإنما ذَكَرَ مُعْتَقَدْ طائفته وهم الحنفية في هذه المسألة، وهو قول المرجئة – مرجئة الفقهاء – فإنَّا نقول: لابدَّ من بيان لهذا الأصل العظيم وذلك يُرَتَّبُ على مطالب أو مسائل:

(المسألة الأولى):

أنَّ الإيمان لفظٌ مُسْتَعْمَلٌ في اللغة قبل ورود الشرع. والألفاظ لها في استعمالها قبل ورود الشرع حالان:

– الأول: الحال العُرْفِي.

– والثاني: الحال الأصلي.

والحال العرفي جعلناه الأول لِقُرْبِهِ. والحال الثاني الأصلي جعلناه الثاني لأنه بعيد؛ يعني من جهة العموم. وهذا هو الذي يسميه طائفة من العلماء يسمونه الحقيقة اللغوية والحقيقة العرفية، فإنَّ الألفاظ المُستعملة لها حقائق لغوية حقيقة ليست مجاز، ولها حقائق عرفية يعني في استعمال أهل العرف لها.

مثال ذلك لفظ الدَّابَّة، فإنه في اللغة الأصلية – في لغة العرب في الاستعمال العام – الدابة كل ما يَدُبُّ على الأرض سواءٌ أكان يَدُبُّ على بطنه أم يَدُبُّ على رجلين أم يَدُبُّ على أربع، ودلّ على هذا قول الله – عز وجل – {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ}: يعني من الدواب، {فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[النور: ٤٥].

ثم خُصَّتْ في الاستعمال العُرْفي بأنَّ الدابة هي ذات الأربع التي تُرْكَبُ في الاستعمال، يعني يركبها الناس أو يحرثون عليها أو إلى آخره، فهذه تسمى حقيقة عرفية، والمعنى الأول يسمى حقيقة لغوية. فإذًا: صارت الحقيقة العرفية أخص من الحقيقة اللغوية.

اللغة دائمًا تكون عامة، ثُمَّ الناس يُقَيِّدُونَ المعنى اللغوي ببعض ما يحتاجون إليه في الاستعمال، فتكون الحقيقة العرفية دائمًا أضيق من الحقيقة اللغوية.

ثُمَّ لمَّا أتَى الشرع ظهرت ما سَمَّاهُ العلماء الحقيقة الشرعية، أو ما سَمَّاهُ طائفة ممن ألَّفَ في فقه اللغة بالأسباب الإسلامية.

الأسباب الإسلامية يعني ألفاظ جُعِلَ لها معانٍ لأجل سبب مجيء الإسلام. من الأمثلة على ذلك لفظ السجود:

ففي اللغة: لفظ السجود للخضوع والذل بحركة البدن.

وفي العُرْفْ: أنَّ السجود يكون بالانحناء إمَّا بركوعٍ أو بما نسميه السجود؛ يعني وضع الجبهة على الأرض.

وفي الشرع: السجود هو من وضع جبهته وأنفه على الأرض.

قال – عز وجل – لبني إسرائيل {ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً}[البقرة: ٥٨]، يعني راكعين؛ لأنَّ السجود العرفي يدخل فيه الركوع. أمَّا في شريعة الإسلام صارت الحقيقة الشرعية للسجود هي وضع الجبهة على الأرض. هذه المقدمة مهمة في تأصيل هذه الحقائق الثلاث على مسألة الإيمان.

اللغة مرتبطة بالاشتقاق، اللغة لها اشتقاق يجمع الكلام الذي حروفه واحدة؛ فالإيمان والأَمْنْ والأَمان هذه كلماتها واحدة، (أَمْنٌ وأمان وإيمان)، فاشتقاقها من حيث الأصل واحد، ولهذا الإيمان يرجع إلى الأمْنْ في اللغة، والأمان يرجع إلى الأمْنْ وإلى الإيمان، فهذه الألفاظ في أصل اللغة اشتقاقها واحد وذلك من الأمن الذي هو المصدر.

ما علاقة الإيمان في اللغة بالأمن يعني في دلالة اللغة؟ لأنَّه من آمَنَ فقد أمِنَ، آمَنَ بالشيء أمِنَ على نفسه، آمَنْ يعني صدَّقْ استسلم أطاع إلى آخره فإنه يعتبر مُسْتسلمًا؛ يعني يُعْتَبَرْ أَمِنَ عدوه، لو آمَنَ بما قال عدوه صَدَّقَهُ فإنه يكون أَمِنَ غائلته.

إذا تبيَّن هذا فهذا الأصل اللغوي الذي هو مجيء الاشتقاق من كلمة واحدة يدلُّكَ على أنَّ أصْلْ كلمة الإيمان في اللغة من حيث الاشتقاق من الأمن، ثُمَّ في الاستعمال العرفي – عُرْف العرب – خَصَّتْ ذلك المعنى إلى أنَّ الإيمان هو التصديق الجازم الذي يكون معه عمل يَأْمَنُ معه.

وهذا جاء في القرآن يعني في استعمال المعنى اللغوي للإيمان في مواضع: كقوله – عز وجل – في قصة يوسف مخبراً عن قول إخوة يوسف لأبيهم: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}[يوسف: ١٧].

لاحظ الأَمْنْ يعني بِمُصَدِّقٍ لنا التصديق الجازم الذي يتبعه عمل أنَّكَ لا تؤاخذنا بما فعلنا، قال {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا}[يوسف: ١٨]، فما أعطاهم الأَمْنْ.

كذلك قال – عز وجل – في قصة إبراهيم عليه السلام {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}[العنكبوت: ٢٦]، {آمَنَ لَهُ لُوطٌ}: يعني صَدَّقَهُ تصديقًا جازمًا تبعه عملٌ له بحيث يأمن من العذاب الذي توعد به إبراهيم قومَه.

كذلك في وصف النبي ﷺ في سورة براءة قال: {وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ}[براءة: ٦١]، {وَيُؤْمِنُ}: أي يُصَدِّقُهُمْ فيما يقولون فيأْمنون معه عقوبة النبي ﷺ.

إذًا فالإيمان في اللغة أُستُعْمِلَ ويُرادُ به التصديق الجازم الذي يكون معه عمل يأمن معه؛ لأنه فيه صلة دائمًا بين المعنى العرفي، الحقيقة العرفية والحقيقة اللغوية.

جاء الشرع فَأَمَرَ الناس بالإيمان، فهذا الإيمان فيه كما ذكرنا لك أنَّ الحقيقة العرفية تخصيص للحقيقة اللغوية، والحقيقة الشرعية أسباب زائدة، فيها زيادة عن الحقيقة العرفية، قد تكون تخصيصًا لها وقد تكون رجوع إلى أصل المعنى اللغوي وتكون أوسع منها.

فالإيمان في الشرع جاء بأنه مُتَّجِهٌ إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله إلى آخر أركان الإيمان الستة، وهذا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر عَرَفْنَا منه أنَّهُ لا يكون إلَّا بِعَمَلْ ولا يكون إلا بإقرار ولا يكون إلَّا بتصديق، قال – عز وجل – {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}[البقرة: ٢٨٥]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[النساء: ١٣٦]، {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى}[البقرة: ١٧٧] الآية {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال: ٢].

فإذًا وَصَفَ الله – عز وجل – المطلوب من المؤمن بأنَّ المؤمن مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأيضًا أنه يعمل، وأيضًا أنه يقول بلسانه.

ولهذا جعل الله – عز وجل – الصلاة للدلالة على هذا الأصل، جعل الصلاة هي الإيمان فقال سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}[البقرة: ١٤٣]، – نحن الآن نبحث هذا من جهة لغوية، من الجهة التأصيلية للكلمة لا من جهة التعريف – {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}، هذا استعمال لكلمة الإيمان ويراد بها الصلاة.

الصلاة هي الإيمان معنى هذا أنَّ هذا تخصيص لكونه تصديق، فهو ليس تصديقًا فقط، بل الإيمان صار صلاةً.

إذًا هذا من جهة الاستعمال اللغوي زاد على العُرْفْ ورَجَعَ إلى سَعَةِ اللغة، وهو تخصيص في الواقع للتصديق ببعض ما يشمله التصديق الذي يتبعه عمل.

إذا تبيَّن هذا فيظهر لك أنَّ الإيمان في الشرع نُقِلَ عن الإيمان في العُرف، كما أنَّ الإيمان في العرف نُقِلَ عن الإيمان في اللغة.

فتأصيل الإيمان على أنه في اللغة هو إقرارٌ وتصديقٌ ليس صحيحًا؛ لأنَّ الإيمان في اللغة أعمُّ من ذلك، مثل ما ذكرنا لك، الإيمان ما يَجْلُبُ الأمن من عمل، من إقرار، من تصديق، من تصرف، من موالاة، كل ما يجلب الأمن فهو إيمان.

– في اللغة قُيِّد ذلك على نحو ما ذكرت لك من الآيات.

– في الشرع جاء تسمية الإقرار إيمانًا، وجاء تسمية الاعتقاد إيمانًا، وجاء تسمية العمل إيمانًا.

فإذًا من حيث الدلالة اللغوية والدلالة العرفية والدلالة الشرعية تبيَّنَ لك أنَّ هناك اختلاف في معنى الإيمان.

المرجئة اختلفوا مع أهل السنة في هذه المسألة، وهذا الاختلاف طويل الذيول كما هو معلوم؛ لكنهم اتفقوا من حيث الأصول – أصول الفقه – على أنَّ الكلمة إذا اعتراها هذه الأمور الثلاثة: الحقيقة اللغوية والشرعية والعرفية اتفق الجميع – الحنفية مع الشافعية والمالكية والحنابلة وغيرهم – اتفقوا على أن تُقَدَّمَ الشرعية، لماذا؟ لأنَّ الألفاظ الشرعية تخصيص، فلا يقول الحنفية – الذين قالوا في الإيمان بهذا التعريف – لا يقولون إنَّ السجود إذا أُمِرَ به فإنه يصلح بالركوع.

يعني مثلًا لو قرأ القارئ القرآن وهو يمشي، ثم مَرَّتْ آية سجدة، فهل يركع ويُكْتَفَى بها؟ أم أنه يصير إلى السجود؟ السنة في السجود الشرعي، ولماذا؟ لأنَّ السجود جاء بهذا اللفظ الشرعي وبَيَّنَتْهُ السنة، فإذًا يكون هو المراد لا السجود العرفي. المسألة لها نظائر في الفقه في العقيدة في اللغة بعامة. فإذًا نقول: اجتمعوا على أنَّ الحقيقة الشرعية مُقَدَّمَة، ثم هل تقدم اللغوية أو العُرْفِيَة؟

خلاف بينهم. لهذا نقول: ما دام أنَّ الجميع اتفقوا على تقديم الحقيقة الشرعية، فما هي أدلة الحقيقة الشرعية في الإيمان؟ الأدلة على ذلك يطول الكلام عليها، لكن نكمل المُقَدِّمَات.

أنا أريدك تفهم مسألة الإيمان لأنها مسألة مُشْكِلَة، وكثير ممن خاض فيها في هذا العصر ما أدرك حقيقة الفرق ما بين قول أهل السنة وقول المرجئة في هذا الباب.

(المسألة الثانية):

الإيمان في اللغة هو التصديق الجازم الذي يتبعه عمل يأمن معه المُؤْمنْ الغائلة أو العقوبة إلى آخره.

وقولنا التصديق الذي معه عمل هذا تحصيل حاصل؛ لأنَّهُ إذا كان الشيء يلزَمُ منه العمل فإنه لا يُطْلَقُ لفظ (مُصَدِّقًا) في اللغة على (من صَدَّقَ) حتى يعمل.

مثاله: أتى شخص وقال لآخر سيارتك الآن تُسْرَقْ.

فقال له الآخر: جزاك الله خيرًا.

قال: لك فيها أموال ولك فيها أشياء وهي الآن تُسْرَقْ.

قال الآخر: جزاك الله خيرًا وجَلَسَ ولم يتحرك.

فهل يُعْتَبَرُ في اللغة مُصَدِّقًا؟

إذا كان قد صَدَّقَ الخبر فإنه لابد أن يتبعه بعمل يدلُّ على صدقه؛ لأنَّ الناس لا يُفَرِّطُونْ بأموالهم ولا يفرّطُون بما فيه قوام حياتهم.

فإذا مَكَثَ وقال أنا مُصَدِّقْ، وهو ما ذَهَبَ، ما أتْبَعَهُ عمل، فلا يُسَمَّى مُصَدِّقًا في اللغة – ليس في الشرع – لا يسمى مُصَدِّقًا في اللغة.

ودلَّ على هذا الأصل قول الله – عز وجل – في قصة إبراهيم الخليل مع ابنه إسماعيل في سورة الصافات قال: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ}[الصافات: ١٠٢- ١٠٣]، لاحظ العمل {فَلَمَّا}، و{لَمَّا}، انتبه لكلمة {لَمَّا}، {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}[الصافات: ١٠٣- ١٠٥]، رؤيا الأنبياء حق، إذا رآها النبي صدَّقَ بأنها وحي من الله – عز وجل –.

لكن متى صار مُصَدِّقًا بالرؤيا؟ لمَّا امتثل دلالتها، {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}، وهذا تصديق لغوي وهو أيضًا تصديق شرعي.

إذًا فالإيمان في العُرْفْ – الحقيقة العرفية – ولو أرجعناه إلى التصديق فإنَّ حقيقة التصديق أن يكون معه عمل، فلا يُسَمَّى مُصَدِّقًا من ليس يعمل أصلًا فيما صدّق به.

(المسألة الثالثة):

يمكن أن يُضْبَطَ ما جاء في القرآن من استعمال الإيمان في الحقيقة اللغوية والعرفية والشرعية بضابط وهو أنه:

– إذا اقْتُرِنَ بالإيمان الأمَنْ أو كانت الدّلَالَةُ عليه فإنَّ المراد به سعة المعنى اللغوي.

– وإذا عُدِّيَ الإيمان باللام في القرآن أو في السنة فإنَّ المراد به الإيمان العرفي؛ يعني اللُّغَوِي العرفي.

– وإذا عدي الإيمان بالباء، فإنه يراد به الإيمان الشرعي.

وهذه كل واحدة لها طائفة من الأدلة تَدُلُّ عليها.

١– المعنى اللغوي: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[الأنعام: ٨٢]، {آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ} هذا دلالة على عموم المعنى اللغوي.

٢– المعنى العرفي: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا}[يوسف: ١٧]، لاحظ التعدية باللام {بِمُؤْمِنٍ لَنَا}، {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}[العنكبوت: ٢٦]، {وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ}[براءة: ٦١]: يعني النبي ﷺ، {وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} هذا المعنى العرفي.

٣– الإيمان الشرعي: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ}[البقرة: ٢٨٥]، لاحظ الباء، عُدِيَ الباء للدلالة الشرعية.

لماذا اختلفت التعدية؟ لأنَّ المطلوب اختلف. كيف؟

الإيمان اللغوي ما دام أنَّهُ تصديق فتقول: العرب صَدَّقَ لفلان، تعديه باللام، صَدَّقَ لفلان، وتقول صَدَّقَ بكذا أيضًا فتعديه بالباء.

لكن الإيمان الشرعي آمن بكذا – لاحظ التعدية مُضَمَّنٌ أَقَرَّ بكذا – أَقَرَّ تتعدَّى بالباء في اللغة أليس كذلك؟– أَقَرَّ بكذا، فتكون صحيحة، عمل بكذا صحيحة، صَدَّقَ بكذا صحيحة.

ولهذا لمَّا عُديَ الإيمان في اللغة بالباء علمنا أنه ضُمِّنَ المعنى الأصلي في اللغة وزيادة تصلح للتعدية بالباء.

فالمعنى اللغوي يتعدَّى باللام، فلماذا عُديَ بالباء تفريقًا ما بين الإيمان الشرعي والإيمان اللغوي؟ هو تضمين العمل للإيمان الذي هو زيادة على ما جاء في المعنى العُرفي.

هذا كثير في القرآن وفي اللغة أنه يأتي الفعل ويراد منه معنى، ثم تختلف التعدية بالحرف فيُضَمَّنْ الفعل معنى فعل آخر. سنضرب له مثالًا حاضر عندكم جميعًا وإن كان الأمثلة كثيرة لكن لقربه منكم.

مثلًا تعلمون قول ابن القيم وابن تيمية وعدد من مشايخنا حفظ الله الجميع ورحم الأموات في قوله تعالى في المسجد الحرام: {وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[الحج: ٢٥]، قالوا هنا ما معنى الإرادة؟ الهم، يعني الهم الجازم. لماذا؟ قالوا لأنَّ الإرادة بنفسها تَتَعَدَّى، الإرادة المعروفة تتعدى بنفسها، تقول أردت الذهاب، أردت المجيء، أردت القراءة، ما تقول أردت بالقراءة، فلما قال: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ}، ما قال: (ومن يرد فيه إلحادًا)، بل قال: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ}، علمنا أنَّ كلمة {يُرِدْ} هذه فيها فعل يناسب التعدية بالباء وهو هَمَّ. هَمَّ بكذا هَمَّ فلان بكذا هذا الذي يناسب.

ولذلك فسره الأئمة بأنَّ المراد بالإرادة هنا الهم الجازم فيُؤَاخَذْ عليه ولو لم يحقق الإرادة من كل وجه وإنما يَصْدُقُ عليه الهَمْ؛ إذا هَمَّ بالفعل، هَمَّ به صار داخلًا في الفعل.

نرجع هنا في اللغة: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}[العنكبوت: ٢٦]: يعني صَدَّقَ له، أَقَرَّ لَهُ، تقول أنا أقررت لك، ماذا أقول أقررت إياك؟ لا، أقررت بكذا؛ لكن لفلان، أقررت بفلان ولا أقررت لفلان ما قال؟ أقررت لفلان ما قال، {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}، يعني صَدَّقَ له، أَقَرَّ له، إلى آخره. لاحظ هذا التصديق والإقرار الذي هو المعنى اللغوي؛ لكن جاء المعنى الشرعي في القرآن بزيادة عن التعدية باللام إلى التعدية بالباء قال – عز وجل – {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}[النساء: ١٣٦]. ما قال آمنوا لله ولرسوله مع أنه قال في النبي ﷺ: {وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ}[براءة: ٦١]، وقال في لوط: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}، قال: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ}، إلى آخره {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ}[النساء: ١٣٦].

فإذًا دَلَّنَا على أنَّ هذا المعنى هو المعنى اللغوي، وزيادة عليه ما دخل فيه مما يناسب التعدية بالباء وهو العمل. تقول عملت بكذا يعني آمنت بكذا فعملت به، آمنت بأنَّ الأمر واقع فعملت به؛ يعني عَمِلْتَ بما آمنت، فلذلك دخلت

زيادة تعدية بالباء لِتَدُلَّنا على أنَّ العمل دخل في مسمى الإيمان أصلًا، وهذه يأتي لها مزيد تفصيل في الأدلة إن شاء الله تعالى.

إذا تبيَّن هذا فمن المهم في تأصيل هذه المسألة التي غَلِطَ فيها الكثيرون منذ نَشَأَتْ المرجئة، أن يُعرَفَ أنَّ الإيمان في اللغة في حقيقته تصديق وإقرار؛ لكن تصديق معه نوع عمل وليس لازمًا في حقيقته؛ لكن لا يُسَمَّى تصديقًا حتى يكون معه عمل يأمن به، لصلته بالمعنى اللغوي العام.

أمَّا في الشرع فهو إقرارٌ وتصديقٌ وعمل؛ لأنَّ الشرع جاء بزيادة على المعنى اللغوي في هذه المسألة العظيمة([1]).

(المسألة الرابعة):

تعريف الطحاوي لهذه المسألة وهي: (وَالْإِيمَانُ: هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ)، هذا فيه إخراج العمل أن يكون مورِدًا للإيمان وقَصْرُ الإيمان من حيث المورد على الإقرار والتصديق، وهذا كما ذكرت لك مذهب مرجئة الفقهاء.

والمرجئة في هذه المسألة لهم أقوال متعدِّدة أشهرها قولان:

١- قول جمهور المرجئة وهو أنَّ الإيمان هو التصديق، ولا يلزم معه إقرار.

٢- ثُمَّ مرجئة الفقهاء - وذهب إليه الماتريدية والأشاعرة وجماعة - أنَّ الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان. وسُمُّوا مرجئة لأنهم أرجؤوا العمل عن مسمَّى الإيمان؛ يعني أخَّرُوهُ عن مسمَّى الإيمان، فجعلوا الإيمان مُتَحَقَّقًا بلا عمل. واستدلوا لمذهبهم بعدَّة أدلَّة من أشهرها قول الله - عز وجل - في آيات كثيرة: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وهذا من أقوى أدلتهم على هذه المسألة، فعَطَفَ العمل على الإيمان، قالوا فهذا يدل على التغاير ما بين العمل وما بين الإيمان؛ لأنه لو كان عمل الصالحات في الإيمان لما قال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فلمَّا عَطَفَ العمل على الإيمان قالوا دلَّنا على تأخير العمل وإرجاء العمل عن مسمى الإيمان.

والجواب: عن ذلك؛ يعني عن هذا الاستدلال بجواب مختصر ونرجئ الجواب المطول، الجواب عن ذلك أنَّ اللغة فيها:

& العطف بالواو ويُرَادُ بالعطف بالواو التَّغايُرْ؛ والتغاير:

- تارةً يكون تغاير ذوات، ومعناه أنك تقول مثلًا في اللغة: دخل محمد وخالد، فمحمد ذاته غير ذات خالد، هذا له حقيقة ذات وهذا له حقيقة، هذا يسمى تغاير ذوات.

- وتارةً يكون تغاير صفات، تغاير الصفات تقول عندي مُهَنَّدٌ وصارمٌ وحسام، والذي عندك سيفٌ واحد يعني الذي عند العربي سيفٌ واحدٌ، لكن يقول:

١- (قلت): أنظر كلام ابن العثيمين عن الإيمان عند تفسير الآية (١٧٧) من سورة آل عمران.

مُهَنَّدٌ من جهة وصفه أنه صُنِعَ في الهند. وصارمٌ من جهة شهرته وأنه يَصْرِمْ. وحسام من جهة أنه من وَقَعَ عليه حَسَمَهُ وقتله. منه في القرآن قال – عز وجل – في تغاير الصفات {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ}[الحجر: ١]، الكتاب هو القرآن، والقرآن هو الكتاب، عَطَفَ بالواو هل لتغاير الذوات، الكتاب شيء والقرآن شيء؟

لا أحد يقول بهذا من المتقدمين لا أحد يقول بهذا، فصار التعاطف هنا لتغاير الصفات {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، نُظِرَ فيه إلى جهة كونه مكتوبًا باقيًا، {وَقُرْآنٍ مُبِينٍ}، يعني أنه يُقْرَأُ ويُنْظَرُ فيه إلى التلاوة والقراءة فهذا تغاير صفات.

– وتارةً يكون العطف بالواو لا لأجل التغاير ولكن تَغَايُرٌ ما بين الجزء والكل، وما بين العام والخاص: فيُعْطَفْ الخاص على العام ويعطف العام على الخاص، ومثاله قول الله – عز وجل – في سورة البقرة: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة: ٩٨]، {عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ} لاشك الملائكة غير الله – عز وجل –، الملائكة مخلوقة والرب – عز وجل – هو مالك الملك وخالق الخلق.

{وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ}، الرسل منهم رسل من الملائكة، ومنهم رسل من الله: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}[الحج: ٧٥]، فالرسل هنا أعم من الملائكة لأنَّ منهم الرسل من الملائكة ومنهم الرسل من البشر.

فإذًا هنا صار عطفًا: عَطْفُ الكلي على الجزئي. ثم قال: {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}، جبريل وميكال من الرسل أو لا؟ من الرسل. من الملائكة؟ نعم. فعطفهم، هل حقيقة جبريل وميكال غير الملائكة؟ لا، هذا تغاير صحيح؛ ولكن تغايرٌ بين حقيقة الجزء والكل، والكل والجزء، وليس تغاير ذوات ولا تغاير صفات ولا تغاير حقيقة.

ومن هذا عَطْفُ الخاص على العام لأجل التغاير ما بين الجزء والكل بقوله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ}[الكهف: ١٠٧]، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا}[مريم: ٩٦]، الآيات كثيرة آمنوا وعملوا الصالحات، عَطَفَ العمل على الإيمان لأجل هذا وإلا فهو داخل في حقيقته.

هنا لماذا تُخَصُّ الخاص بالذكر بعد العام؟ لأجل التنبيه على شرفه. فالعرب تَعْطِفُ الخاص على العام وتغاير في هذا لأجل التنبيه على شرف ما ذُكِرْ، لأنك تقول مثلًا: (جاءني المشايخ وسماحة الشيخ عبد العزيز)، هل هو ليس من المشايخ؟ لكن هنا للتنبيه على شرفه أنه هو المقصود، جاءني المشايخ جميعًا وجاء المقصود أو المقدَّم فيهم إلى آخره تنبيهًا على شرفه ومنزلته إلى آخره. فإذًا الاستدلال بهذا، هذا جواب مختصر ونذكر لكم بقية الأدلة والإجابة عليها فيما يأتي.

* أنا أردت بهذا التطويل اللغوي تأصيل المسألة لكم؛ لأنَّ مسألة الإيمان خاض فيها كثيرون في هذا العصر، كتبوا فيها كتابات سواء في الإيمان أو في التكفير، وهم لم يدركوا حقيقة مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة.

فمنهم من أدخل مذاهب المرجئة في مذهب أهل السنة وقَصَرَ الكفر على التكذيب والإيمان على التصديق وإما قولًا أو باللازم.

ومنهم من ذهب إلى أنَّ الإيمان قول واعتقاد وأنَّ العمل ليس من الإيمان أصلًا كما هو قول المرجئة، والأقوال في هذا انُ: هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ) هذه الجملة من كلامه في تعريف الإيمان المقصود بها التعريف الشَّرعي للإيمان عند الطحاوي رحمه الله.

والذي دَلَّتْ عليه الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الأئمة – أئمة أهل الحديث والسنة – أنَّ الإيمان قول وعمل.

وبعض أهل العلم يُعَبِّرْ بقوله: (الإيمان قول وعمل ونية)، كما قالها الإمام أحمد في موضع؛ ويعني بالنية الإخلاص يعني الإخلاص في القول والعمل.

وهذا الأصل وهو أنَّ الإيمان قول وعمل وُضِّحَ بقول أهل العلم: الإيمان اعتقادٌ بالقلب يعني بالجنان، وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح والأركان، يزيد بطاعة الرحمن وينقص بطاعة الشيطان. فشمل الإيمان إذًا فيما دلَّت عليه الأدلة هذه الأمور الخمسة، وهي: أنه اعتقاد، وأنه قول، وأنه عمل، وأنه يزيد، وأنه ينقص.

وتعريف الطحاوي للإيمان بقوله: (هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ)، هذا تعريفٌ بالمقارنة مع ما سبق فيه قصور، وهو موافقٌ لما عليه الإمام أبو حنيفة رحمه الله وأصحابه، فإنَّهم لم يجعلوا العمل من مُسَمَّى الإيمان، وجعلوا الإيمان تصديق القلب وإقرار اللِّسان، وجعلوا الأعمال زائدة عن مُسَمَّى الإيمان مع كونها لابدَّ منها ولازمة للإيمان.

فقول الطحاوي هذا ليس مستقيمًا مع معتقد أهل السنة والجماعة وأتباع أهل الحديث والأثر، وفيه قصور لأنه أخرَجَ العمل عن تعريف الإيمان.

وكون العمل من الإيمان له أدلةٌ كثيرة من الكتاب والسنة: ومنها في هذا المقام قول الله – عز وجل – {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}[البقرة: ١٤٣]، ويعني بالإيمان الصلاة، فسمَّى الصلاة إيمانًا والصلاة عمل.

وقال أيضًا – عز وجل –: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}. وقال: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}[البقرة: ٢٨٥]. دَلَّتْ الآية على أنّ الإيمان له حقيقةٌ هي الاعتقاد والإيمان بهذه الأركان الخمسة: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}، فإذا كان العمل ناشئاً عن هذه، فإنه لا يُتَصَوَّرْ الانفكاك ما بين العمل والإيمان، ولهذا في آية البقرة: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}، جَعَلَ العمل هو الإيمان لأنّه منه ولأنه ينشأ عنه.

فنفهم إذًا أنَّ قوله: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، ونحو ذلك، بما فيه عَطْفُ العمل على الإيمان – كما قدّمنا آنفًا – أنَّ هذا عَطْفُ الخاص بعد العام و عَطْفُ الجزء بعد الكل، وهذا كثير في القرآن وفي اللغة كما قدمته لك.

ومن السنة قول النبي ﷺ كما قال لوفد عبد القيس لما أتوه في المدينة قال: ((آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده))، ثم فَسَّرَهُ بأركان الإيمان ثم قال: ((وأن تؤدوا الخمس من المغنم([1]))، وهذا – أداء الخمس – عمل فجعله تفسيرًا للإيمان.

وكذلك قوله ﷺ: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان([2]))) فجعل الإيمان:

– له قولٌ مرتبط بالنطق.

– وله عمل الذي هو إماطة الأذى عن الطريق – يعني الذي هو نوع العمل –.

– وجَعَلَ له عمل القلب وهو الحياء.

ففي هذا الحديث مَثَّلَ النبي ﷺ شُعَبْ الإيمان بثلاثة أشياء منها القول ومنها الاعتقاد أو عمل القلب ومنها عمل الجوارح([3]).

ثُمَّ زيادة الإيمان ونقصانه دلَّ على الزيادة قول الله – عز وجل – {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[الأنفال: ٢]، وكذلك قوله {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}[الفتح: ٤]، وكذلك قوله {زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[محمد: ١٧]، ونحو ذلك مما فيه زيادة، وإذا كان فيه الزيادة فإنه لابد أن يكون فيه النقص بمقابل ما تُرِكَ مما يسبب الزيادة في الإيمان.

ولهذا بعض الصحابة لما ذَكَرَ زيادة الإيمان وذَكَرَ نقصانه قال: (إذا سَبَّحْنَا الله وحمدناه وذكرناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا فذلك نقصانه).

فزيادة الإيمان ونقصانه دل عليها قول الله – عز وجل – والسنة وقول الصحابة رضوان الله عليهم.

فمن هذا يتقرر أنَّ قول الطحاوي: (وَالْإِيمَانُ: هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ)، هذا يوافق قول مرجئة الفقهاء وهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام المعروف، وأصحابه ممن أخرجوا العمل عن كونه جزءًا من الماهيَّةْ؛ عن كونه ركنًا في الإيمان.

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (١٧٢ و٤٥٢٤)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: كُنْتُ أُترجم بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنْ نَبِيذِ الجَرِّ فَقَالَ: إِنَّ وفدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنِ الوفدُ؟ أَوْ مَنِ الْقَوْمُ؟)) قَالُوا: رَبِيعَةُ قَالَ: ((مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ، أَوْ بِالْوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ فمُرنا بِأَمْرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ قَالَ: ((فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟)) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: ((شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُزَفَّتِ)) – قَالَ شُعْبَةُ: وَرُبَّمَا قَالَ: وَالنَّقِيرِ وَرُبَّمَا قَالَ: الْمُقَيَّرِ – وَقَالَ: ((احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَن وراءكم)).

٢– (قلت): مسلم (٣٥).

٣– (قلت): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج ٧ص٥٥٥: وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعَمَلُ تَحْقِيقٌ لِمُسَمَّى الْإِيمَانِ وَتَصْدِيقٌ لَهُ وَلِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ – كَالشَّيْخِ أَبِي إسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيِّ وَغَيْرِهِ: الْإِيمَانُ كُلُّهُ تَصْدِيقٌ فَالْقَلْبُ يُصَدِّقُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَاللِّسَانُ يُصَدِّقُ مَا فِي الْقَلْبِ، وَالْعَمَلُ يُصَدِّقُ الْقَوْلَ كَمَا يُقَالُ: صَدَّقَ عَمَلُهُ قَوْلَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: ((الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْأُذُنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا السَّمْعُ وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْمَشْيُ وَالْقَلْبُ يَتَمَنَّى وَيَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ)).

إذا تقرّر هذا فإنَّ في مسألة الإيمان مباحث كثيرة جدًا، وذلك لكثرة الخلاف في هذه المسألة وطول الكلام عليها وكثرة التصانيف التي صنفها السلف ومن بعدهم في هذه المسألة؛ لكن يمكن تقريب هذه المسألة لطالب العلم في مسائل:

(المسألة الخامسة): الإيمان يجمع:

– أولًا: الاعتقاد بالقلب، وهو الذي يسمِّيه مرجئة الفقهاء – أو يسمِّيه العامَّة التصديق.

– ثانيًا: قول اللِّسان.

– ثالثًا: عمل الجوارح والأركان.

– رابعًا: الزيادة.

– خامسًا: النقصان.

هذه خمسة أشياء فيها اختلف المنتسبون إلى القبلة على أقوال:

١– القول الأول:

هو أنَّ الإيمان تصديقٌ فقط، وهذا هو قول جمهور الأشاعرة، وهو أيضًا قول أبي منصور الماتريدي والماتريدية بعامة. وهذا مبنيٌ منهم على أنَّ القول ينشأ عن التصديق، وعلى أنَّ العمل ينشأ عن التصديق، فَنَظَرُوا إلى أصله في اللغة بحَسَبِ ظنِّهم، وإلى ما يترتَّب عليه فجعلوه التصديق فقط.

واستدلوا له بعدَّة أدلَّة ممَّا فيه أنَّ الإيمان تصديق كقوله: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}[البقرة: ٢٨٥]، وهذه أمور غيبية والإيمان بها يعني التصديق بها، وغير ذلك من الأدلة التي فيها حَصْرُ الإيمان بالغيبيات، والإيمان بالغيبيات يُفْهَمْ على أنَّه التصديق. وهؤلاء يُسَمَّونَ المرجئة، وهم المشهورون بهذا الاسم.

ومن المرجئة طائفة غالية جدًّا وهم الذين جعلوا الإيمان ليس التصديق بالقلب ولكن هو المعرفة بالقلب، وهو القول المنسوب إلى الجهمية وغلاة الصوفية كابن عربي ونحوِهِ ممن صَنَّفُوا في إيمان فرعون.

٢– القول الثاني: من قال إنَّ الإيمان قول باللسان فقط، وهؤلاء يُسَمَّونَ الكَرَّامِيَّة – بالتشديد – الكَرَّامِيَّة يُنْسَبونَ إلى محمد بن كرّام، وهذا يقول: الإيمان هو الإقرار باللسان. لم؟ قال لأنَّ الله – عز وجل – جَعَلَ المنافقين مخاطَبِينَ باسم الإيمان في آيات القرآن، فإذا نودي المؤمنون في القرآن فيدخُلُ في الخطاب أهل النّفاق، والمنافقون إنما أقرُّوا بلسانهم ولم يصدِّقُوا بقلوبهم فدخلوا في اسم الإيمان لهذا الأمر.

٣– القول الثالث: هو مذهب مرجئة الفقهاء الذين قالوا: إنَّ الإيمان قول باللِّسان وتصديق بالجنان. وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، إقرارٌ باللِّسان وتصديق بالجنان، ويجعلونَ أنَّ الناس في التصديق – كما سيأتي – وفي أعمال القلوب أنَّهم واحد، فأعمال القلوب التي أصلها التصديق عندهم شيءٌ واحد، والعمل ليس من الإيمان عندهم يعني من حقيقة الإيمان وإن كان لابدَّ منه في تحقيق الإيمان، بخلاف أهل القولين السابقين يعني الماتريدية.

والأشاعرة والكرامية فإنَّهم يقولون أنَّهُ لو وَافَى بلا عمل فإنَّه ناجٍ، لو لم يعمل قط فإنَّه ينجو. وأمَّا مرجئة الفقهاء فيقولون لابُدَّ لَهُ مِنَ العمل فإذا ترك العمل فهو فاسقٌ، لكن (لا)([١])يُدْخِلُونَهُ في مُسَمَّى الإيمان.

وأظنُّ شبهتهم نَص أبي حنيفة في هذه المسألة وهو بَنَاهُ على أنَّ الذين خُوطِبُوا بالإيمان هم المؤمنون والمنافقون، والمنافقون ليس لهم عمل، عَمَلُهُم باطل، وإنما أَقَرُّوا باللِّسان فقط، والمؤمنون مُصَدِّقُونَ مُقِرُّونْ، فَجَمَعَ لهم ما بين – يعني بين الطائفتين – ما بين الإقرار باللِّسان والتصديق بالجنان؛ يعني في الخطاب الظاهر، وأمَّا الأعمال فالحساب عليها آخر.

ومن أدلَّتهم الأصل اللغوي الذي هو حَسَبْ ما قالوا أنَّ الإيمان هو التصديق، والإقرار أُخِذَ من زيادة في الشريعة لأنَّه لابدَّ من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٤- القول الرابع: هو قول الخوارج والمعتزلة وهو أنَّ الإيمان: اعتقاد بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالجوارح. وهذا العمل عندهم بِكُلِّ مأمورٍ به، والانتهاء عن كلِّ منهيٍّ عنه. فما أُمِرَ به وُجُوبًا فيدخل في مسمى الإيمان بِمُفْرَدِهِ، وما نُهِيَ عنه تحريمًا فيدخل في مسمَّى الإيمان بمفرده. يعني أنَّ كلَّ واجبٍ يدخل في مسمى الإيمان على حِدَهْ، فيكون جزءًا وركنًا في الإيمان، وكُلُّ محرمٍ في الانتهاء عنه يدخل في مسمى الإيمان بمفرده.

وبناءً على ذلك قالوا: فإذا تَرَكَ واجبًا فإنه يكفر، وإذا فعل محرَّمًا من الكبائر فإنه يكفر؛ لأنَّ جزء الإيمان وركن الإيمان ذَهَبْ. فعندهم أنَّ هذا العمل جزء واحد، إذا فُقِدَ بعضه فُقِدَ جميعه. وبين الخوارج والمعتزلة خلاف فيمن استحق النار بالآخرة ماذا يسمى في الدنيا؟ على القول المعروف عندهم:

– وهو عند الخوارج في الدنيا عنده يُسَمَّى كافر.

– وعند المعتزلة هو في منزلة بين المنزلتين لا يقال مؤمن ولا يقال كافر.

مع اتفاقهم على أنه في النار مخلدْ فيها لانتفاء الإيمان في حقه.

٥- القول الخامس: هو قول أهل الحديث والأثر وقول صحابة رسول الله ﷺ وهو أنَّ الإيمان:

اعتقاد – ومن الاعتقاد التصديق –، وقول باللسان وهو إعلان لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعمل بالأركان وأنه يزيد وينقص. ويعنون بالعمل جنس العمل؛ يعني أنْ يكون عنده جنس طاعة وعمل لله – عز وجل –.

فالعمل عندهم الذي هو ركن الإيمان ليس شيئًا واحدًا إذا ذَهَبَ بعضه ذهَبَ جميعه أو إذا وُجِدَ بعضه وُجد جميعه؛ بل هذا العمل مُرَكَّبٌ من أشياء كثيرة، لابدَّ من وجود جنس العمل.

وهل هذا العمل الصلاة؟ أو هو أيُّ عملٍ من الأعمال الصالحة بامتثال الواجب طاعةً وترك المحرم طاعةً؟ هذا ثَمَّ خلافٌ بين علماء الملة في المسألة المعروفة بتكفير تارك الصلاة تهاونًا أو كسلًا([٢]).

١- لعل الشيخ لم يقصد هذا الحرف وإنَّما أراد أنهم يُدْخِلُونَهُ في مسمَّى الإيمان إذ قال عن مرجئة الفقهاء في شرح العقيدة الواسطية/ الشريط (٢٣) ما نصه فقالوا: (الايمان قول واعتقاد وأمَّا العمل فليس من مُسَمَّى الايمان وإنَّما هو لازم له – يعني لابدَّ أنَّه يعمل لكن لو لم يعمل ما خرج عن اسم الايمان).

٢- (قلت): لا شك هو أيُّ عملٍ من الأعمال الصالحة بامتثال الواجب طاعةً وترك المحرم طاعةً؛ كما قرَّره الشيخ نفسه بقوله: (فالعمل عندهم الذي هو ركن الإيمان ليس شيئًا واحدًا إذا ذَهَبَ بعضه ذهَبَ جميعه أو إذا وُجِدَ بعضه وُجد جميعه؛ بل هذا العمل مُرَكَّبٌ من أشياء كثيرة)؛ ولو كان قصدهم بالعمل الصلاة، لم

يمنعهم مانع من تصريحهم بأنَّه الصلاة، ولم يتركوا الحبل على الغارب في أهم مسألة في الدِّين ليتكلَّم الناس فيها بما شاءوا، ولقالوا: الإيمان هو: (تصديق بالجنان وقول باللِّسان وإقامة الصلوات) بصورة واضحة لا لبس فيها، كما قالوا بصورة واضحة لا لبس فيها أنَّ الإيمان هو: (تصديق بالجنان وقول باللِّسان وعمل بالأركان). ولكان في إعتقادهم أصلًا قريبًا من أصول الخوارج والمعتزلة في مسألة الإيمان، لأنَّهم يعتقدون بأنَّ كلَّ واجبٍ يدخل في مسمَّى الإيمان على حِدَهْ، وبإنتفائه ينتفي الإيمان كلُّه، ولو أنَّنا قلنا أنَّ المقصود بالعمل من قول السلف هو الصلاة وبآنتفائه ينتفي الإيمان كله، لكان قولنا يوافق أصلًا من أصول الخوارج والمعتزلة، ولألزمونا بأن نكفِّر بترك كل واجب لأنَّ الصلاة واجب لوحدها. ومع عدم تصريحهم بأنَّها الصلاة؛ تأكّد بأنَّهم يقصدون أيَّ عملٍ كما هو واضح، وهذا دليل بأن السلف لم يكونوا يرون تكفير تارك الصلاة تهاونًا أو كسلًا تكفيرًا يخرجه من الملَّة بمجرَّد الترك – إلاّ إذا أصرّ على الترك بعد دعوته إليها حتى يقتل – كما قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية في عدَّة مواضع في مجموع الفتاوى منها قوله في ج٢٢ص٤٠ عندما سُئِلَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – عَنْ تَارِكِ الصَّلَاةِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، هَلْ هُوَ مُسْلِمٌ فِي تِلْكَ الْحَالِ؟.

فَأَجَابَ: (..... وَأَمَّا مَنْ اعْتَقَدَ وُجُوبَهَا مَعَ إصْرَارِهِ عَلَى تَرْكِ: فَقَدْ ذَكَرَ عَلَيْهِ الْمُفَرِّعُونَ مِنْ الْفُقَهَاءِ فُرُوعًا: أَحَدُهَا هَذَا، فَقِيلَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ: مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد. وَإِذَا صَبَرَ حَتَّى يُقْتَلَ فَهَلْ يُقْتَلُ كَافِرًا مُرْتَدًّا، أَوْ فَاسِقًا كَفُسَّاقِ الْمُسْلِمِينَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورِينَ. حُكِيَا رِوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد، وَهَذِهِ الْفُرُوعُ لَمْ تُنْقَلْ عَنْ الصَّحَابَةِ، وَهِيَ فُرُوعٌ فَاسِدَةٌ، فَإِنْ كَانَ مُقِرًّا بِالصَّلَاةِ فِي الْبَاطِنِ، مُعْتَقِدًا لِوُجُوبِهَا، يَمْتَنِعُ أَنْ يُصِرَّ عَلَى تَرْكِهَا حَتَّى يُقْتَلَ، وَهُوَ لَا يُصَلِّي هَذَا لَا يُعْرَفُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَعَادَتِهِمْ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقَعْ هَذَا قَطُّ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا يُعْرَفُ أَنَّ أَحَدًا يَعْتَقِدُ وُجُوبَهَا، وَيُقَالُ لَا إنْ لَمْ تُصَلِّ وَإِلَّا قَتَلْنَاك، وَهُوَ يُصِرُّ عَلَى تَرْكِهَا، مَعَ إقْرَارِهِ بِالْوُجُوبِ، فَهَذَا لَمْ يَقَعْ قَطُّ فِي الْإِسْلَامِ. وَمَتَى امْتَنَعَ الرَّجُلُ مِنْ الصَّلَاةِ حَتَّى يُقْتَلَ لَمْ يَكُنْ فِي الْبَاطِنِ مُقِرًّا بِوُجُوبِهَا، وَلَا مُلْتَزِمًا بِفِعْلِهَا، وَهَذَا كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا اسْتَفَاضَتْ الْآثَارُ عَنْ الصَّحَابَةِ بِكُفْرِ هَذَا، – (يقصد الشيخ بقوله: – بكفر هذا – أي بكفر من امْتَنَعَ مِنْ الصَّلَاةِ حَتَّى يُقْتَلَ) – وَدَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ. كَقَوْلِهِ ﷺ: ((لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ إلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلِهِ: ((الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)). وَقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ: (كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ الْأَعْمَالِ فِي تَرْكِهِ كُفْرٌ إلَّا الصَّلَاةَ). فَمَنْ كَانَ مُصِرًّا عَلَى تَرْكِهَا حَتَّى يَمُوتَ – أي يموت قتلًا كما قاله من قبل– لَا يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً قَطُّ، فَهَذَا لَا يَكُونُ قَطُّ مُسْلِمًا مُقِرًّا بِوُجُوبِهَا، فَإِنَّ اعْتِقَادَ الْوُجُوبِ، وَاعْتِقَادَ أَنَّ تَارِكَهَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ هَذَا دَاعٍ تَامٌّ إلَى فِعْلِهَا، وَالدَّاعِي مَعَ الْقُدْرَةِ يُوجِبُ وُجُودَ الْمَقْدُورِ، فَإِذَا كَانَ قَادِرًا وَلَمْ يَفْعَلْ قَطُّ عُلِمَ أَنَّ الدَّاعِيَ فِي حَقِّهِ لَمْ يُوجَدْ. وَالِاعْتِقَادُ التَّامُّ لِعِقَابِ التَّارِكِ بَاعِثٌ عَلَى الْفِعْلِ، لَكِنَّ هَذَا قَدْ يُعَارِضُهُ أَحْيَانًا أُمُورٌ تُوجِبُ تَأْخِيرَهَا وَتَرْكَ بَعْضِ وَاجِبَاتِهَا، وَتَفْوِيتَهَا أَحْيَانًا. فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُصِرًّا عَلَى تَرْكِهَا لَا يُصَلِّي قَطُّ، وَيَمُوتُ – أي يموت قتلًا – عَلَى هَذَا الْإِصْرَارِ وَالتَّرْكِ فَهَذَا لَا يَكُونُ مُسْلِمًا...) أنتهى.

وبهذا يتبيَّن لكلِّ منصف أنَّ شيخ الإسلام لا يكفر تارك الصلاة تكفيرًا يخرجه من الملَّة بمجرَّد الترك، الَّا إذا أصرَّ على الترك حتى يقتل عقوبةً له على تركه للصلاة، وحمَّل تكفير تارك الصلاة الوارد في الحديثين، والآثار عن الصحابة والسلف على هذه الصورة وأقرّه الإمامين الجليلين ابن القيم والألباني على ذلك.

حيث قال ابن القيم في كتابه (الصلاة وأحكام تاركها) ج١ص٦٣: (ومن العجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها، ودعي إلى فعلها على رؤوس الملأ وهو يرى بارقة السيف على رأسه ويشد للقتل وعصبت عيناه وقيل له تصلي وإلا قتلناك فيقول اقتلوني ولا أصلي أبدًا! ومن لا يكفر تارك الصلاة يقول هذا مؤمن مسلم يغسل يصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، وبعضهم يقول إنه مؤمن كامل الإيمان إيمانه كإيمانه جبريل وميكائيل فلا يستحي من هذا قوله من إنكاره تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة واتفاق الصحابة والله الموفق) أنتهى. ولكن يحمّل التكفير الوارد في الحديثين وأثار الصحابة والسلف على الكفر العملي الذي هو دون الكفر المخرج من الملة كما يقول في ص٥٧: (وها هنا أصل آخر وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل وكفر جحود وعناد، فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحودًا وعنادًا من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه. وأمّا كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده. فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان، وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعًا ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن اطلقه الله ورسوله عليه فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ﷺ، ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد، ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا ويسمي رسول الله ﷺ تارك الصلاة كافرًا ولا يطلق عليهما اسم كافر) انتهى. أي تسميته بأنَّه كافر ليس معناه أنَّه كافر خارج من الملة، بل كافر كفرًا أصغر لا يخرجه من الملَّة.

وقال إمام الدعوة محمد بن عبدالوهاب في الدرر السنية ج١ ص٧٠ – جوابًا على من سأله عمَّا يكفر الرجل به؟ وعمَّا يقاتل عليه؟ فقال رحمه الله: (أركان الإسلام الخمسة أولها الشهادتان ثم الأركان الأربعة إذا أقر بها وتركها تهاونًا فنحن وإن قاتلناه على فعلها فلا نكفره بتركها والعلماء اختلفوا في كفر التارك لها كسلًا من غير جحود ولا نكفر إلَّا ما أجمع عليه العلماء كلهم وهو الشهادتان).

وبهذا يتبيَّن أن القول بأن الأئمة الأجلّاء شيخ الإسلام وابن القيم ومحمد بن عبدالوهاب يكفرون تارك الصلاة كفرًا يخرجه من الملَّة بمجرَّد الترك على مفهومهم تقوُّل عليهم بما لم يقولوه ولا صحَّة له؛ كما سيأتي عند تفصيل الكلام عن هذه المسألة عند تفسير الآية (١١) من سورة التوبة.

وبهذا يتبيَّن أنَّ حمل مفهوم الكفر لتارك الصلاة – بالكفر المخرج من الملَّة – في الحديثين والآثار الواردة عن الصحابة وإجماعهم على مطلق الترك مفهوم خاطئ والله أعلم كما قرّره شيخ الإسلام وابن القيم وتابعهما على ذلك الإمام الألباني رحمهم الله جميعًا.

وكذلك حمل أحاديث الشفاعة والبطاقة على نجاة تارك العمل بالكليَّة مع القدرة والتمكّن حمل خاطئ؛ ويكفي في الرَّد عليهم بأنَّ دخول الجنة لمن قال: (لا اله الا الله) ليس دليلًا على دخولهم بلا عمل لأنَّ (لا اله الا الله) لا يكون مقبولًا عند الله الَّا بشروطها، وكلّنا نعلم بأنَّ أحد شروطه السبعة هو الإنقياد، أي الإتيان

بالعمل. قال إمام الدعوة محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في الدرر السنية ج١ص١٢٤ عندما سئل عن قول وهب بن منبه: مفتاح الجنة لا اله الا الله ولابدَّ لها من أسنان فإن جاء بالأعمال وإلَّا لم يفتح له، قال: (اذا فهمت ذلك، فالمسألة الأولى واضحة مراده الرَّد على من ظنَّ دخول الجنة بالتوحيد وحده بدون الأعمال).

وبهذه العقيدة التي ذكرتها عن الأئمة نحافظ على وسطيَّتنا في مسألة الإيمان بين الغالي والجافي كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في جميع المسائل بأنَّنا لا نكفر مسلمًا لتركه واجبًا واحدًا ولو كان هذا الواجب صلاةً كما يكفره الخوارج والمعتزلة، ولا نعتقد دخول كافر في الإسلام بتصديق وقول بدون الإتيان بجنس العمل مع القدرة والتمكُّن، كما يفعله جميع طوائف المرجئة؛ لأنَّ عدم اتيانه بجنس العمل يكذِّب تصديقه ويبطله؛ أو الحكم بإسلام شخص تارك لعمل الجوارح بالكليَّة – والإعتقاد هنا في حكم هذا الشخص بالنظر الى ما عند الله وليس باعتبار الحكم عليه في الظاهر وتكفيره اجتهاديًا، لأنَّه من المستحيل الحكم على مسلم ما بالكفر لتركَه عمل الجوارح بالكليَّة، الَّا أن يكون ذلك باعتراف منه –.

ولقد لاحظت أنَّ الدُّعاة الى هذه العقيدة الفاسدة يخوِّفون المسلمين – ومن ضمنهم الموحدون – بأنَّ من دعاكم الى الإعتقاد بأنَّ (من لم يأت بجنس العمل لا يحكم بإسلامه)، دعوة الى التكفير؛ ويتدرَّج الى أن يدعوك الى تكفير تارك الصلاة، ومن ثمَّ تكفير الحكام، ومن ثمَّ تكفير المعيَّن، الى أن تصبح تكفيريًّا بآمتياز؛ وبهذا التقوُّل أقنعوا كثيرًا منهم بهذه العقيدة وخوَّفوهم من اعتقاد عقيدة السلف في الإيمان، وخصوصًا بعد انتشار ظاهرة التكفير والخوف من الوقوع فيها. ولكنني وجدت استجابة كبيرة من اخواننا السلفيين الذين دخلت عليهم شبهة الإرجاء عندما ندعوهم الى الرجوع عن الحكم بالإسلام على من لم يأت بجنس العمل بهذا الأسلوب والبيان الذي اتَّبعناه هنا، ونزيل عنهم هذا الخوف ونبيِّن لهم بأن هذا الإعتقاد لا يجعلك تكفِّر المسلمين ومن ثمَّ تكفر تارك الصلاة، ومن ثمَّ تكفر الحكام، ومن ثمَّ تكفر المعيَّن؛ بل يجعلك أن تؤمن بأن الإيمان: (تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح) وكل واحدٍ من الثلاثة ركن في صحة الإيمان، أي لابدَّ أن يأتي بجنس العمل، ومع هذا الإعتقاد لا تكفر تارك الصلاة، ولا الحكام، ولا المعينين الَّا بشروطها وآنتفاء موانعها، وهذا خاص بالعلماء وليس لآحاد المسلمين.

* الفرق ما بين مذهب أهل السنة والجماعة وما بين مذهب الخوارج والمعتزلة:

– أنَّ أولئك جعلوا تَرْكَ أي عمل واجب أو فعل أي عمل محرَّم فإنه ينتفي عنه اسم الإيمان.

– وأهل السنة قالوا: العمل ركن وجزءٌ من الماهية؛ لكن هذا العمل أبعاض ويتفاوت وأجزاء، إذا فات بعضه أو ذهب جزء منه فإنه لا يذهب كله.

فيكون المراد من الاشتراط جنس العمل؛ يعني أن يُوجَدَ منه عملٌ صالح ظاهرًا بأركانه وجوارحه، يدلُّ على أنَّ تصديقه الباطن وعمل القلب الباطن على أنه استسلم به ظاهرًا.

وهذا مُتَّصِلٌ بمسألة الإيمان والإسلام، فإنه لا يُتَصَوَّرْ وجود إسلام ظاهر بلا إيمان، كما أنه لا يُتَصَوَّرْ وجود إيمان باطن بلا نوع استسلام لله – عز وجل – بالانقياد له بنوعِ طاعةٍ ظاهرًا.

(المسألة السادسة):

الطحاوي هنا تَرَكَ العمل؛ يعني ما ذَكَرَ العمل في مسمى الإيمان، وكما ذكرتُ لك أنَّ العمل عند أهل السنة والجماعة داخِلٌ في مسمى الإيمان وفي ماهيته وهو ركن من أركانه.

والفرق بينهما يعني بين قول مرجئة الفقهاء – وهو الذي قرَّرَهُ الطحاوي – وبين قول أهل السنة والجماعة أتباع الحديث والأثر، الفرق بينهما:

– من العلماء من قال: إنه صُورِي لا حقيقة له؛ يعني لا يترتب عليه خلافٌ في الاعتقاد.

– ومنهم من قال: لا، هو معنوي وحقيقي.

ولبيان ذلك؛ لأنَّ الشارح ابن أبي العز رحمه الله على جلالة قدره وعُلُوِّ كعبه ومتابعته للسنة ولأهل السنة والحديث فإنه قَرَّرَ أنَّ الخلاف لفظي وصوري، وسبب ذلك أنَّ جهة النظر إلى الخلاف منفكَّة:

- فمنهم من ينظر إلى الخلاف بأثَرِهِ في التكفير.
- ومنهم من ينظر إلى الخلاف بأثَرِهِ في الاعتقاد.

فمن نظر إلى الخلاف بأثرِهِ في التكفير قال الخلاف صوري، الخلاف لفظي.

لأنَّ الحنفية الذين يقولون هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان هم متّفقون مع أهل الحديث والسنة مع أحمد والشافعي على أنَّ الكفر والرِدَّةْ عن الإيمان تكون بالقول وبالاعتقاد وبالعمل وبالشك.

فهم متفقون معهم على أنَّ:

- من قال قولًا يخالف ما به دخل في الإيمان فإنه يكفر.
- ومن اعتقد اعتقادًا يخالف ما به دخل في الإيمان فإنه يكفر.
- وإذا عمل عملًا ينافي ما دخل به في الإيمان فإنه يكفر.
- وإذا شَكَّ أو ارتاب فإنه يكفر.

بل الحنفية في باب حكم المرتد في كتبهم الفقهية أشد في التكفير من بقية أهل السنة مثل الحنابلة والشافعية ونحوهم. فهم أشد منهم، حتى إنهم كَفَّرُوا بمسائل لا يُكَفِّرُ بها بقية الأئمة كقول القائل مثلًا سورةٌ صغيرة فإنهم يُكفِّرون بها، أو مسيجد أو نحو ذلك أو إلقاء كتاب فيه آيات فإنهم يُكَفِّرون إلى آخر ذلك. فمن نَظَرَ - مثل ما نَظَرْ الشارح، ونَظَرْ جماعة من العلماء - من نَظَرَ في المسألة إلى جهة الأحكام وهو حكم الخارج من الإيمان قال:

الجميع متّفقون، سواءٌ كان العمل داخلًا في المسمى أو خارجًا من المسمى فإنه يكفُرُ بأعمال ويكفُرُ بترك أعمال.

فإذًا لا يترتّب عليه على هذا النحو:

١- دُخُولٌ في قول المرجئة الذين يقولون: بلا عَمَلٍ ينفع، ولا يَخْرُجُ من الإيمان بأي عَمَلٍ يعمله.

٢- ولا يدخلون مع الخوارج في أنهم: يُكَفِّرونَ بأي عمل أو يترك أي واجب أو فعل أي محرم.

فمِنْ هذه الجهة إذا نُظِرَ إليها تُصُوِّرْ أنَّ الخلاف ليس بحقيقي؛ بل هو لفظي وصوري.

الجهة الثانية التي يُنْظَرُ إليها وهي أنَّ العمل - عمل الجوارح والأركان - هو مما أَمَرَ الله - عز وجل - به في أن يُعْتَقَدَ وجوبُهُ أو يُعْتَقَدَ تحريمه من جهة الإجمال والتفصيل.

يعني أنَّ الأعمال التي يعملها العبد لها جهتان:

١- جهة الإقرار بها.

٢- وجهة الامتثال لها.

وإذا كان كذلك فإنَّ العمل بالجوارح والأركان، فإنه إذا عَمِلَ:

- فإما أن نقول: إنَّ العمل داخِلٌ في التصديق الأول؛ التصديق بالجنان.

– وإما أن نقول: إنه خارجٌ عن التصديق بالجنان.

& فإذا قلنا إنَّهُ داخلٌ في التصديق بالجنان – يعني العمل بالجوارح باعتبار أنَّهُ إذا أقَرَّ به امتثل – فإنه يكون التصديق إذًا ليس تصديقًا، وإنما يكون اعتقادًا شاملًا للتّصديق وللعزم على الامتثال، وهذا ما خَرَجَ عن قول وتعريف الحنفية.

& والجهة الثانية أنَّ العمل يُمَتَثَلُ فعلًا فإذا كان كذلك كان التنصيص على دخول العمل في مسمى الإيمان هو مقتضى الإيمان بالآيات وبالأحاديث، لأنَّ حقيقة الإيمان فيما تُؤْمِنُ به من القرآن في الأوامر والنواهي في الإجمال والتفصيل أنَّكَ تؤمن بأنّ تَعْمَلْ، وتؤمن بأن تنتهي، وإلا فلو لم يدخل هذا في حقيقة الإيمان لم يحصل فرقٌ ما بين الذي دخل في الإيمان بيقين والذي دخل في الإيمان بنفاق.

يُبَيِّنُ لك ذلك أنَّ الجهة هذه وهي جهة انفكاك العمل عن الاعتقاد، انفكاك العمل عن التصديق هذه حقيقةً داخلةٌ فيما فَرَّقَ الله – عز وجل – به فيما بين الإسلام والإيمان.

ومعلومٌ أنَّ الإيمان إذا قلنا إنَّهُ إقرارٌ وتصديق فإنه لابد له من إسلام وهو امتثال الأوامر والاستسلام لله بالطاعات.

لهذا نقول إن مسألة الخلاف هل هو لفظي أو هو حقيقي راجعة إلى النظر في العمل.

هل العمل داخلٌ امتثالًا فيما أمر الله – عز وجل – به أم لم يدخل امتثالًا فيما أمر الله – عز وجل – به؟

والنبي ﷺ بَيَّنَ أنه يأمُرُ بالإيمان ((آمركم بالإيمان بالله وحده))، والله – عز وجل – أمر بالإيمان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا}[النساء: ١٣٦]. فالإيمان مأمور به، وتفاصيل الإيمان بالاتفاق بين أهل السنة وبين مرجئة الفقهاء يَدْخُلُ شُعَبْ الإيمان، يَدْخُلُ فيها الأعمال الصالحة؛ لكنها تَدْخُلُ في المُسَمَّى من جهة كونها مأمورًا بها، فمن امتثل الأمر على الإجمال والتفصيل فقد حَقَّقَ الإيمان، وإذا لم يمتثل الأمر على الإجمال والتفصيل فإنه بعموم الأوامر لا يدخل في الإيمان.

وهذه يكون فيها النظر مُشْكِلًا من جهة:

هل يُتصوَّرْ أن يوجد أحد يؤمن بالإيمان، يؤمن بما أنزل الله – عز وجل – ولا يفعل خيرًا البتة، لا يفعل خيرًا قط، لا يمتثل واجبًا ولا ينتهي عن محرم مع اتساع الزمن وإمكانه؟؟

في الحقيقة هذا لا يُتَصَوَّرْ أن يكون أحد يقول أنا مؤمن ويكون إيمانه صحيحًا ولا يعمل صالحًا مع إمكانه، لا يعمل أي جنس من الطاعات خوفا من الله – عز وجل –، ولا ينتهي عن أي معصية خوفًا من الله – عز وجل –، هذا لا يُتصَوَّرْ.

ولهذا حقيقةً المسألَةُ تَرْجِعُ إلى الإيمان بالأمر، الأمر بالإيمان في القرآن وفي السنة كيف يؤمن به؟ كيف يحققه؟ يحقق الإيمان بعمَلٍ، بِجِنْسِ العمل الذي يمتثل به، فَرَجَعَ إذًا أن يكون الامتثال داخل في حقيقة الإيمان بأمره، وإلا فإنه حينئذ لا يكون فرقًا بين من يعمل ومن لا يعمل.

لهذا نقول إن الإيمان الحق بالنص، بالدليل يعني بالكتاب والسنة بالله وبرسوله ﷺ وبكتابه لابد له من امتثال، وهذا الامتثال لا يُتَصَوَّرُ أن يكون غير موجودٍ للمؤمن، أن يكون مؤمن ممكن أن يعمل ولا يعمل البتة.

وإذا كان كذلك، كان إذًا جزءًا من الإيمان لـ:

– أولًا: لدخوله في تركيبه.

– والثاني: أنه لا يُتَصَوَّرْ في الامتثال للإيمان والإيمان بالأمر أن يؤمن ولا يعمل البتة.

إذًا فتحَصَّلْ من هذه الجهة أنّ الخلاف ليس صوريًّا من كل جهة؛ بل ثَمَّ جهة فيه تكون لفظية، وثَمَّ جهة فيه تكون معنوية.

والجهات المعنوية والخلاف المعنوي كثيرة متنوّعة، لهذا قد ترى من كلام بعض الأئمة من يقول أنَّ الخلاف بين مرجئة الفقهاء وبين أهل السنة صوري؛ لأنهم يقولون العمل شرط زائد لا يدخل في المسمى، وأهل السنة يقولون لا هو داخل في المسمى فيكون إذًا الخلاف صوري.

من قال الخلاف صوري فلا يُظَنْ أنَّهُ يقول به في كل صُوَرِ الخلاف، وإنما يقول به من جهة النظر إلى التكفير وإلى ترتب الأحكام على من لم يعمل.

أما من جهة الأمر، من جهة الآيات والأحاديث والاعتقاد بها والإيقان بالامتثال فهذا لابد أن يكون الخلاف حينئذ حقيقيًّا.

(المسألة السابعة):

زيادَةُ الإيمان ونقصانُهُ اختلف فيها العلماء على أقوال:

١– القول الأول: وهو قول جمهور أهل العلم من أهل السنة ومن المرجئة ومن غيرهم، قول الجمهور من جميع الطوائف أنَّ الإيمان يزيد وينقُصْ.

٢– القول الثاني: أنَّ الإيمان يزيد ولا ينقُصْ، وهذا منسوبٌ إلى بعض أئمة أهل السنة؛ لأنَّ الدليل دلَّ على زيادته وهذا أمْرٌ لا يدخله القياس، فلا نقول بنقصانه لعدم ورود الدليل في ذلك.

٣– القول الثالث: من قال إنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص وهو قول طائفة من المرجئة ومن غيرهم.

* ولا ارتباط ما بين الإرجاء والخلاف في الثلاثة أركان الأولى وما بين القول بزيادة الإيمان وبنقصانه.

تارَةً تجد من ذهب إلى أحد الأقوال يقول بزيادته ونقصانه ومن ذهب إليه لا يقول بزيادته ونقصانه.

يعني مثلًا الأشاعرة الذي هم مرجئة والماتريدية منهم من يقول بزيادته ونقصانه ومنهم من لا يقول بذلك لعدم ترتبها على حقيقة الإيمان، هذا أمر زائد أَدْخَلُوهُ في البحث. فإذًا لا أثر في الخلاف في مسألة زيادته أو نقصانه على كونه مرجئًا.

فإذا قال أحد: (الإيمان ما يزيد ولا ينقص)، فإن هذا لا يدل على كونه مثلًا مرجئًا؛ لكنَّهُ يدل على أنه ليس من أهل السنة. إذا قال: (الإيمان نقول بزيادته ونقصانه) فهذا لا يدل على أنه من أهل السنة والجماعة، بل قد يكون مرجئًا.

فلا ارتباط بين مسألة الزيادة والنقصان ومسائل التعريف السالفة للإيمان.

(المسألة الثامنة):

عرَّف الإيمان بقوله إقْرارٌ باللِّسانِ، وتصديقٌ بالجَنَانِ، وقلنا في التعريف اعتقاد بالجنان. والفرق ما بين التصديق والاعتقاد: أنَّ التصديق شيء واحد؛ بمعنى أنَّهُ أمْرٌ واحد، عِبَادَةٌ واحدة، وأما الاعتقاد فإنه يشمل أشياء كثيرة من أعمال القلوب، لهذا قالت طائفة من السّلف في تعريف الإيمان: (الإيمان قول وعمل)، وهذا دقيق لأنه يشمل قول القلب وقول اللّسان.

(قول القلب): هو تصديقه وإخلاصه في الله – عز وجل –.

(وقول اللّسان): هو إعلانه الشّهادة.

وعَمَلْ: يشمل عمل القلب وعمل الجوارح.

(وعَمَلُ القلب): من محبة الله – عز وجل – والتوكل عليه والخوف منه – جل جلاله – ورجاؤه والإنابة إليه وخشية الرّب – جل جلاله – ونحو ذلك من أعمال القلوب.

فإذًا ما يتّصِلُ بالقلب من أمور الإيمان ليست شيئًا واحدًا، ليس هو التصديق فقط، بل ثَمَّ أشياء كثيرة في القلب، والتصديق هو أحدها.

ولهذا فإنَّ التفاضل – الزيادة والنقصان – زيادةٌ ونقصان باعتبار العمل الظاهر، وزيادةٌ ونقصان باعتبار عمل القلب الباطن.

فالناس يتفاوتون في الإيمان من جهة:

١– زيادته ونقصانه في أعمالهم الظاهرة وهي أمور الإسلام: من الصلاة والزكاة والصيام والحج والاستسلام لله – عز وجل – في الأوامر والانقياد ونحو ذلك والانتهاء من المحرمات.

٢– وكذلك أعمال القلوب.

وأعمال القلوب نوعان:

– أعمالٌ واجِبَةُ الفعل.

– وأعمالٌ مُحَرَّمَةُ العمل أو واجبة الترك.

أما واجبة الفعل مثل: محبة الله – عز وجل –، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخشيته، والخوف منه، والطمأنينة له، ونحو ذلك من أعمال القلوب.

وما يجب تركه من أعمال القلوب المحرمات، محرمات أعمال القلوب التي هي الكِبْرْ والبَطَر وتزكية النفس وسوء الظن بالله – عز وجل – ونحو ذلك، هذه كلها يجب تركها.

فإذًا أعمال القلوب مشتملة على:

١– تصديق.

٢- ومشتملة على أمور واجبٌ أن يعملها القلب، وأمور واجب أن ينتهي عنها القلب.

* وهذه كلها في الحقيقة متصلة؛ فالتصديق مُتَأَثِرٌ زيادَةً ونُقْصَاناً بأعمال القلوب.

فأعمال القلوب تؤثر على تصديقه، فأعمال القلوب الواجبة إذا زادت محبته لله – عز وجل – زاد تصديقه، إذا زادت إنابته إلى الله وزاد خشوعه وخضوعه بين يدي الله وزاد توكله على الله سبحانه وتعالى زاد تصديقه وزاد يقينه.

وكذلك إذا انتهى عن المحرمات، خضع لله – عز وجل –، لم يكن مُتَكبرًا، ذليلًا لله – عز وجل –، غير مترفع على الخلق، مُحِبًا لسلامته – سلامة قلبه –، مُبْتَعِدًا عما يفسد القلب، هذه كلها مؤثرة في تصديقه.

فإذًا رجع الأمر في زيادة الإيمان وفي نقصانه إلى زيادة الإيمان في أركانه الثلاثة ونقصان الإيمان في أركانه الثلاثة.

فإذًا زيادة الإيمان: (يزيد بطاعة الرحمن) يعني:

- يزيد التصديق أو الاعتقاد بطاعة الرحمن.
- يزيد الإقرار باللسان بطاعة الرحمن.
- يزيد العمل بالأركان أيضا بطاعة الرحمن.

فزيادة الإيمان راجعَةٌ للثلاثة جميعًا.

لأنَّ الزيادة: تارةً تكون بالعمل الظاهر مثل زيادة صلاة، زيادة صدقة، زيادة بر، زيادة جهاد في سبيل الله، طلب علم ونحو ذلك، فَيَرْجِعُ هذا إلى التصدِيقِ وإلى الإقرار بزيادة. فيكون تصديقه واعتقاده أكثر وأعظم وأمتن وأثبت وكذلك إقراره. وهذا يُحِسُّهُ الإنسان من نفسه فإنه إذا زاد إيمانه زاد لَهَجُهُ بذكر به – عز وجل – تهليلًا وتسبيحًا وتحميدًا وتكبيرًا وتمجيدًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٦٤٢: اسْمُ (الْإِيمَانِ) يُسْتَعْمَلُ مُطْلَقًا، وَيُسْتَعْمَلُ مُقَيَّدًا، وَإِذَا أُسْتُعْمِلَ مُطْلَقًا، فَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ أَقْوَالِ الْعَبْدِ وَأَعْمَالِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْإِيمَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيُدْخِلُونَ جَمِيعَ الطَّاعَاتِ فَرْضَهَا وَنَفْلَهَا فِي مُسَمَّاهُ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْجَمَاهِيرِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ وَالْفِقْهِ، مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمْ.

إلى أن قال رحمه الله: فَأَصْلُ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ وَهُوَ قَوْلُ الْقَلْبِ وَعَمَلُهُ، وَهُوَ إقْرَارٌ بِالتَّصْدِيقِ وَالْحُبِّ وَالِانْقِيَادِ، وَمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ فَلَابُدَّ أَنْ يَظْهَرَ مُوجِبُهُ وَمُقْتَضَاهُ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِمُوجِبِهِ وَمُقْتَضَاهُ دَلَّ عَلَى عَدَمِهِ أَوْ ضَعْفِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ مِنْ مُوجِبِ إيمَانِ الْقَلْبِ وَمُقْتَضَاهُ وَهِيَ تَصْدِيقٌ لِمَا فِي الْقَلْبِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ وَشَاهِدٌ لَهُ، وَهِيَ شُعْبَةٌ مِنْ مَجْمُوعِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ وَبَعْضٌ لَهُ؛ لَكِنَّ مَا فِي الْقَلْبِ هُوَ الْأَصْلُ لِمَا عَلَى الْجَوَارِحِ، كَمَا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه –: إنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ، وَالْأَعْضَاءَ جُنُودُهُ، فَإِنْ طَابَ الْمَلِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خَبُثَ الْمَلِكُ خَبُثَتْ

جُنودُهُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ(١))).

وَلِهَذَا ظَنَّ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الْإِيمَانَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْقَلْبِ خَاصَّةً، وَمَا عَلَى الْجَوَارِحِ لَيْسَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّاهُ، وَلَكِنْ هُوَ مِنْ ثَمَرَاتِهِ وَنَتَائِجِهِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِغُلَاتِهِمْ – كَجَهْمٍ وَأَتْبَاعِهِ – إِلَى أَنْ قَالُوا: يُمْكِنُ أَنْ يُصَدِّقَ بِقَلْبِهِ، وَلَا يُظْهِرَ بِلِسَانِهِ إِلَّا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِظْهَارِهَا، فَيَكُونُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ إِيمَانًا نَافِعًا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالُوا: حَيْثُ حَكَمَ الشَّارِعُ بِكُفْرِ أَحَدٍ بِعَمَلٍ أَوْ قَوْلٍ؛ فَلِكَوْنِهِ دَلِيلًا عَلَى انْتِفَاءِ مَا فِي الْقَلْبِ. وَقَوْلُهُمْ مُتَنَاقِضٌ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا مُسْتَلْزِمًا لِانْتِفَاءِ الْإِيمَانِ الَّذِي فِي الْقَلْبِ، امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ ثَابِتًا فِي الْقَلْبِ، مَعَ الدَّلِيلِ الْمُسْتَلْزِمِ لِنَفْيِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَلِيلًا لَمْ يَجُزْ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ عَلَى الْكُفْرِ الْبَاطِنِ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ يُبَيِّنُ أَنَّ تَحْقِيقَ الْإِيمَانِ وَتَصْدِيقَهُ بِمَا هُوَ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، كَقَوْلِهِ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا}[الأنفال: ٢– ٤]، وَقَالَ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}[النور: ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[النساء: ٦٥].

فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَنْتَفِي عِنْدَ انْتِفَاءِ هَذِهِ الْأُمُورِ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنَ الْإِيمَانِ، قِيلَ: هَذَا اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُ يَنْتَفِي الْإِيمَانُ الْبَاطِنُ مَعَ عَدَمِ مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ إِيمَانٌ يُنَافِي الْكُفْرَ بِدُونِ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ، لَا قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ – وَذَلِكَ تَصْدِيقٌ – وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَلْبَ إِذَا تَحَقَّقَ مَا فِيهِ أَثَّرَ فِي الظَّاهِرِ ضَرُورَةً، لَا يُمْكِنُ انْفِكَاكُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَالْإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ لِلْفِعْلِ مَعَ الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ تُوجِبُ وُقُوعَ الْمَقْدُورِ، فَإِذَا كَانَ فِي الْقَلْبِ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثَابِتًا اسْتَلْزَمَ مُوَالَاةَ أَوْلِيَائِهِ وَمُعَادَاةَ أَعْدَائِهِ {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}[المجادلة: ٢٢]، {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ}[المائدة: ٨١] فَهَذَا التَّلَازُمُ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ.

وَمِنْ جِهَةِ ظَنِّ انْتِفَاءِ التَّلَازُمِ غَلِطَ غَالِطُونَ؛ كَمَا غَلِطَ آخَرُونَ فِي جَوَازِ وُجُودِ إِرَادَةٍ جَازِمَةٍ، مَعَ الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ بِدُونِ الْفِعْلِ، حَتَّى تَنَازَعُوا: هَلْ يُعَاقَبُ عَلَى الْإِرَادَةِ بِلَا عَمَلٍ؟ وَقَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْهِمَّةَ الَّتِي لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا فِعْلُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْهَامُّ لَيْسَتْ إِرَادَةً جَازِمَةً، وَأَنَّ الْإِرَادَةَ الْجَازِمَةَ لَابُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَعَهَا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، وَالْعَفْوُ وَقَعَ عَمَّنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمَّا يَفْعَلْهَا؛ لَا عَنْ مَنْ أَرَادَ وَفَعَلَ الْمَقْدُورَ عَلَيْهِ، وَعَجَزَ عَنْ حُصُولِ مُرَادِهِ، كَالَّذِي أَرَادَ

١– البخاري في الإيمان (٥٣)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩/١٠٧).

قَتْلَ صَاحِبِهِ فَقَاتَلَهُ حَتَّى قُتِلَ أَحَدُهُمَا؛ فَإِنَّ هَذَا يُعَاقَبُ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ وَفَعَلَ الْمَقْدُورَ مِنْ الْمُرَادِ، وَمَنْ عَرَفَ الْمُلَازِمَاتِ الَّتِي بَيْنَ الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ زَالَتْ عَنْهُ شُبُهَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي كَثُرَ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِيهَا.

بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: فَهَلْ اسْمُ الْإِيمَانِ لِلْأَصْلِ فَقَطْ، أَوْ لَهُ وَلِفُرُوعِهِ؟.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الِاسْمَ الْمُطْلَقَ يَتَنَاوَلُهُمَا، وَقَدْ يَخُصُّ الِاسْمُ وَحْدَهُ بِالِاسْمِ مَعَ الِاقْتِرَانِ، وَقَدْ لَا يَتَنَاوَلُ إلَّا الْأَصْلَ، إذَا لَمْ يَخُصَّ إلَّا هُوَ؛ كَاسْمِ الشَّجَرَةِ، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ الْأَصْلَ وَالْفَرْعَ إذَا وُجِدَتْ، وَلَوْ قُطِعَتْ الْفُرُوعُ لَكَانَ اسْمُ الشَّجَرَةِ يَتَنَاوَلُ الْأَصْلَ وَحْدَهُ، وَكَذَلِكَ اسْمُ الْحَجِّ هُوَ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُشْرَعُ فِيهِ مِنْ رُكْنٍ، وَوَاجِبٍ، وَمُسْتَحَبٍّ، وَهُوَ حَجٌّ أَيْضًا تَامٌّ بِدُونِ الْمُسْتَحَبَّاتِ، وَهُوَ حَجٌّ نَاقِصٌ بِدُونِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي يَجْبُرُهَا دَمٌ.

وَالشَّارِعُ ﷺ لَا يَنْفِي الْإِيمَانَ عَنْ الْعَبْدِ لِتَرْكِ مُسْتَحَبٍّ لَكِنْ لِتَرْكِ وَاجِبٍ؛ بِحَيْثُ تَرَكَ مَا يَجِبُ مِنْ كَمَالِهِ وَتَمَامِهِ؛ لَا بِانْتِفَاءِ مَا يُسْتَحَبُّ فِي ذَلِكَ وَلَفْظُ الْكَمَالِ وَالتَّمَامِ: قَدْ يُرَادُ بِهِ الْكَمَالُ الْوَاجِبُ، وَالْكَمَالُ الْمُسْتَحَبُّ؛ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: الْغُسْلُ يَنْقَسِمُ: إلَى كَامِلٍ، وَمُجْزِئٍ، فَإِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لَا إيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ([1]))، وَ((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ([2]))). وَنَحْوَ ذَلِكَ، كَانَ لِانْتِفَاءِ بَعْضِ مَا يَجِبُ فِيهِ؛ لَا لِانْتِفَاءِ الْكَمَالِ الْمُسْتَحَبِّ، وَالْإِيمَانُ يَتَبَعَّضُ وَيَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِيهِ، كَالْحَجِّ، وَالصَّلَاةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: ((يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمَانٍ وَمِثْقَالُ شُعَيْرَةٍ مِنْ إيمَانٍ([3]))).

وَأَمَّا إذَا اُسْتُعْمِلَ اسْمُ الْإِيمَانِ مُقَيَّدًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[البينة: ٧]، وَقَوْلِهِ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[يونس: ٦٣]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ([4])))، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهُنَاكَ قَدْ يُقَالُ: إنَّهُ مُتَنَاوِلٌ لِذَلِكَ، وَإِنَّ عَطْفَ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}[البقرة: ٩٨]، وَقَوْلِهِ: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}[الأحزاب: ٧].

وَقَدْ يُقَالُ: إنَّ دَلَالَةَ الِاسْمِ تَنَوَّعَتْ بِالْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ، كَلَفْظِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمَا إذَا أُفْرِدَ تَنَاوَلَ الْآخَرَ، وَإِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا كَانَا صِنْفَيْنِ، كَمَا فِي آيَةِ الصَّدَقَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ فُرُوعَ الْإِيمَانِ مَعَ أُصُولِهِ كَالْمَعْطُوفَيْنِ، وَهِيَ مَعَ جَمِيعِهِ كَالْبَعْضِ مَعَ الْكُلِّ، وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ نَشَأَ نِزَاعٌ وَاشْتِبَاهٌ، هَلْ الْأَعْمَالُ دَاخِلَةٌ فِي الْإِيمَانِ أَمْ لَا؟ لِكَوْنِهَا عُطِفَتْ عَلَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَدْ يُعْطَفُ عَلَى الْإِيمَانِ بَعْضُ شُعَبِهِ الْعَالِيَةِ، أَوْ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ الرَّفِيعَةِ؛ كَالْيَقِينِ، وَالْعِلْمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيُشْعِرُ الْعَطْفُ بِالْمُغَايَرَةِ؛ فَيُقَالُ: هَذَا أَرْفَعُ الْإِيمَانِ – أَيْ الْيَقِينُ وَالْعِلْمُ أَرْفَعُ مِن المؤمن الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ هَذَا الْيَقِينُ وَالْعِلْمُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[المجادلة: ١١].

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في: (تخريج الإيمان) (رقم ٧)، (المشكاة) (٣٥)، (الروض) (٥٦٩). وانظر حديث رقم : ٧١٧٩ في صحيح الجامع.

٢– البخاري في المظالم (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧/١٠٠–١٠٥)، عن أبي هريرة. والبخاري في الحدود (٦٧٨٢) عن ابن عباس.

٣– البخاري في الإيمان (٢٢) ومسلم في الإيمان (١٤٨/٩١).

٤– مسلم في الإيمان (١/٨) عن عمر بن الخطاب.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاضَلُونَ فِي نَفْسِ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ فِي قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ، وَفِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ، وَفِي بَقَائِهِ وَدَوَامِهِ، وَفِي مُوجِبِهِ وَنَقِيضِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِ، فَيُخَصُّ أَحَدُ نَوْعَيْهِ بِاسْمٍ يَفْضُلُ بِهِ عَلَى النَّوْعِ الْآخَرِ، وَيَبْقَى اسْمُ الْإِيمَانِ، فِي مِثْلِ ذَلِكَ مُتَنَاوِلًا لِلْقِسْمِ الْآخَرِ، وَكَذَلِكَ يُفْعَلُ فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ؛ كَمَا يُقَالُ: الْإِنْسَانُ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانُ خَيْرٌ مِنَ الدَّوَابِّ، وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَدْخُلُ فِي الدَّوَابِّ، فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[الأنفال: ٢٢].

فَإِذَا عُرِفَ هَذَا؛ فَحَيْثُ وُجِدَ فِي كَلَامٍ مَقْبُولٍ تَفْضِيلُ شَيْءٍ عَلَى الْإِيمَانِ، فَإِنَّمَا هُوَ تَفْضِيلُ نَوْعٍ خَاصٍّ عَلَى عُمُومِهِ، أَوْ تَفْضِيلُ بَعْضِ شُعَبِهِ الْعَالِيَةِ عَلَى غَيْرِهِ، وَاسْمُ الْإِيمَانِ قَدْ يَتَنَاوَلُ النَّوْعَيْنِ جَمِيعًا، وَقَدْ يَخُصُّ أَحَدَهُمَا كَمَا تَقَدَّمَ، وَقَدْ قِيلَ: أَكْثَرُ اخْتِلَافِ الْعُقَلَاءِ مِنْ جِهَةِ أَسْمَائِهِ.

قال السعدي: وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، و يتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٥٢: أَنَّ اسْمَ (الْغَيْبِ وَالْغَائِبِ) مِنْ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ يُرَادُ بِهِ مَا غَابَ عَنَّا فَلَمْ نُدْرِكْهُ، وَيُرَادُ بِهِ مَا غَابَ عَنَّا فَلَمْ يُدْرِكْنَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا إذَا غَابَ عَنْ الْآخَرِ مَغِيبًا مُطْلَقًا لَمْ يُدْرِكْ هَذَا هَذَا وَلَا هَذَا هَذَا، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ شَهِيدٌ عَلَى الْعِبَادِ، رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، فَلَيْسَ هُوَ غَائِبًا، وَإِنَّمَا لَمَّا لَمْ يَرَهُ الْعِبَادُ كَانَ غَيْبًا؛ وَلِهَذَا يَدْخُلُ فِي الْغَيْبِ الَّذِي يُؤْمَنُ بِهِ وَلَيْسَ هُوَ بِغَائِبِ؛ فَإِنَّ (الْغَائِبَ) اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ قَوْلِك غَابَ يَغِيبُ فَهُوَ غَائِبٌ وَاَللَّهُ شَاهِدٌ غَيْرُ غَائِبٍ، وَأَمَّا (الْغَيْبُ) فَهُوَ مَصْدَرُ غَابَ يَغِيبُ غَيْبًا، وَكَثِيرًا مَا يُوضَعُ الْمَصْدَرُ مَوْضِعَ الْفَاعِلِ كَالْعَدْلِ وَالصَّوْمِ وَالزُّورِ، وَمَوْضِعَ الْمَفْعُولِ كَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَدِرْهَمٍ ضَرْبِ الْأَمِيرِ.

وَلِهَذَا يَقْرِنُ الْغَيْبَ بِالشَّهَادَةِ، وَهِيَ أَيْضًا مَصْدَرٌ، فَالشَّهَادَةُ هِيَ الْمَشْهُودُ أَوْ الشَّاهِدُ وَالْغَيْبُ هُوَ إمَّا الْمَغِيبُ عَنْهُ فَهُوَ الَّذِي لَا يَشْهَدُ نَقِيضَ الشَّهَادَةِ، وَإِمَّا بِمَعْنَى الْغَائِبِ الَّذِي غَابَ عَنَّا فَلَمْ نَشْهَدْهُ فَتَسْمِيَتُهُ بِاسْمِ الْمَصْدَرِ فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى النِّسْبَةِ إلَى الْغَيْرِ، أَيْ لَيْسَ هُوَ بِنَفْسِهِ غَائِبًا، وَإِنَّمَا غَابَ عَنْ الْغَيْرِ أَوْ غَابَ الْغَيْرُ عَنْهُ.

وَقَدْ يُقَالُ اسْمُ (الشَّهَادَةِ وَالْغَيْبِ) يَجْمَعُ النِّسْبَتَيْنِ، فَالشَّهَادَةُ مَا شَهِدْنَا وَشَهِدْنَاهُ، وَالْغَيْبُ مَا غَابَ عَنَّا وَغِبْنَا عَنْهُ فَلَمْ نَشْهَدْهُ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَالْمَعْنَى فِي كَوْنِهِ غَيْبًا هُوَ انْتِفَاءُ شُهُودِ نَالَهُ، وَهَذِهِ تَسْمِيَةٌ قُرْآنِيَّةٌ صَحِيحَةٌ، فَلَوْ قَالُوا: قِيَاسُ الْغَيْبِ عَلَى الشَّهَادَةِ لَكَانَتْ الْعِبَارَةُ مُوَافِقَةً، وَأَمَّا قِيَاسُ الْغَائِبِ فَفِيهِ مُخَالَفَةٌ فِي ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَلَكِنْ مُوَافَقَةٌ فِي الْمَعْنَى؛ فَلِهَذَا حَصَلَ فِي إطْلَاقِهِ التَّنَازُعُ.

وقال رحمه الله في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج١ص١٣٧: فَصَّلَ إِيمَانَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَجْمَلَهُ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّ مُجَرَّدَ دَعْوَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ يَنْفَعُ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، فَلَوْ قَالَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ: أَنَا أُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُؤْمِنُ بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ، لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، حَتَّى يُؤْمِنَ بِجَمِيعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، وَلَوْ كَانُوا صِنْفًا آخَرَ لَكَانَ الْمُفْلِحُونَ قِسْمَيْنِ: قِسْمًا يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، وَقِسْمًا يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَهَذَا بَاطِلٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَإِلَى مَنْ قَبْلَهُ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ، وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال ابن العثيمين: الصفة الثانية: إقامة الصلاة في قوله تعالى: {ويقيمون الصلاة}، أي يقومون بها على وجه مستقيم، كما جاء عن رسول الله ﷺ؛ والمراد بـ{الصلاة} هنا الجنس؛ فتعم الفريضة، والنافلة.

قال السعدي: ثم قال: {ويقيمون الصلاة}، لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة. فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهرًا، بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها. وإقامتها باطنًا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}، وهي التي يترتب عليها الثواب. فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

قال القرطبي: {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ}: فيه مسائل:

الأولى: مَعْطُوفٌ جُمْلَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ. وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ أَدَاؤُهَا بِأَرْكَانِهَا وَسُنَنِهَا وَهَيْئَاتِهَا فِي أَوْقَاتِهَا، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ. يُقَالُ: قَامَ الشَّيْءُ أَيْ دَامَ وَثَبَتَ، وَلَيْسَ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الرِّجْلِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ قَوْلِكَ: قَامَ الْحَقُّ أَيْ ظَهَرَ وَثَبَتَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقٍ

وَقَالَ آخَرُ: وَإِذَا يُقَالُ أَتَيْتُمْ لَمْ يَبْرَحُوا ... حَتَّى تُقِيمَ الْخَيْلُ سُوقَ طِعَانِ

وَقِيلَ: {يُقِيمُونَ}: يُدِيمُونَ، وَأَقَامَهُ أَيْ أَدَامَهُ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ عُمَرُ بِقَوْلِهِ: مَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ.

الثانية: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ مَعْرُوفَةٌ، وَهِيَ سُنَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَأَنَّهُ لَا إِعَادَةَ عَلَى تَارِكِهَا. وَعِنْدَ الْأَوْزَاعِيِّ وَعَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَابْنِ أَبِي لَيْلَى هِيَ وَاجِبَةٌ وَعَلَى مَنْ تَرَكَهَا الْإِعَادَةُ، وَبِهِ قَالَ أَهْلُ الظَّاهِرِ، وَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ قَالَ: لِأَنَّ فِي حَدِيثِ الْأَعْرَابِيِّ ((وَأَقِمْ))، فَأَمَرَهُ بِالْإِقَامَةِ كَمَا أَمَرَهُ بِالتَّكْبِيرِ وَالِاسْتِقْبَالِ وَالْوُضُوءِ. قَالَ: فَأَمَّا أَنْتُمُ الْآنَ وَقَدْ وَقَفْتُمْ عَلَى الْحَدِيثِ فَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا بِإِحْدَى رِوَايَتَيْ مَالِكٍ الْمُوَافِقَةِ لِلْحَدِيثِ وَهِيَ أَنَّ الْإِقَامَةَ فَرْضٌ(1). قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ قَوْلُهُ ﷺ: ((وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ(2)))، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي الصَّلَاةِ مَنْ لَمْ يُحْرِمْ، فَمَا كَانَ قَبْلَ الْإِحْرَامِ فَحُكْمُهُ أَلَّا تُعَادَ مِنْهُ الصَّلَاةُ إِلَّا أَنْ يجمعوا على شيء فَيُسَلَّمَ لِلْإِجْمَاعِ كَالطَّهَارَةِ وَالْقِبْلَةِ وَالْوَقْتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الثالثة: وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَنْ سَمِعَ الْإِقَامَةَ هَلْ يسرع أولا؟ فَذَهَبَ الْأَكْثَرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُسْرِعُ وَإِنْ خَافَ فَوْتَ الرَّكْعَةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: ((إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةَ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا(3))). رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ فَلَا يَسْعَ إِليها أحدكم ولكن ليمشي وَعَلَيْهِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ صَلِّ مَا أَدْرَكْتَ وَاقْضِ مَا سَبَقَكَ(4))). وَهَذَا نَصٌّ. وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى أَنَّهُ إِذَا أَسْرَعَ انْبَهَرَ(5)فَشَوَّشَ عَلَيْهِ دُخُولَهُ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَتَهَا وَخُشُوعَهَا. وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمُ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ مَسْعُودٍ عَلَى اخْتِلَافٍ عَنْهُ أَنَّهُ إِذَا خَافَ فَوَاتَهَا أَسْرَعَ. وَقَالَ إِسْحَاقُ: يُسْرِعُ إِذَا خَافَ فَوَاتَ الرَّكْعَةِ، وَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ نَحْوُهُ، وَقَالَ: لَا بَأْسَ لِمَنْ كَانَ عَلَى فَرَسٍ أَنْ يُحَرِّكَ الْفَرَسَ، وَتَأَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَاشِي وَالرَّاكِبِ، لِأَنَّ الرَّاكِبَ لَا يَكَادُ أَنْ يَنْبَهِرَ كَمَا يَنْبَهِرُ الْمَاشِي.

قُلْتُ: وَاسْتِعْمَالُ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ حَالٍ أَوْلَى، فَيَمْشِي كَمَا جَاءَ الْحَدِيثُ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، لِأَنَّهُ فِي صَلَاةٍ وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُ ﷺ عَلَى خِلَافِ ما أخبره، فَكَمَا أَنَّ الدَّاخِلَ فِي الصَّلَاةِ يَلْزَمُ الْوَقَارَ وَالسُّكُونَ كَذَلِكَ الْمَاشِي، حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ التَّشَبُّهُ بِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ ثَوَابُهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وَمَا خَرَّجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي مُسْنَدِهِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ عَنِ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ كَعْبِ بْنِ

١- (قلت): قال الإمام الألباني في تمام المنة: هذا الشعار لا يختص بصلاة الجماعة بل لكلِّ مصلٍّ عليه أن يؤذن ويقيم لكن من كان في جماعة كفاه أذان المؤذن لها وإقامته ثم الظاهر أن النساء كالرجال لأنهن شقائق الرجال والأمر لهم أمر لهن ولم يرد ما ينتهض للحجة في عدم الوجوب عليهن فإن الوارد في ذلك في أسانيده متروكان لا يحل الاحتجاج بهم فإن ورد دليل يصلح لإخراجهن فذاك وإلا فهن كالرجال. وقال في الثمر المستطاب: وهي فرض كفاية كالأذان إذا كانوا جماعة في الحضر والسفر لقوله ﷺ: ((إذا أنتما خرجتما فأذنا ثم أقيما ثم ليؤمكما أكبركما)).

وهذا الحديث أخرجه البخاري في (الأدب المفرد)، ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد من طريق أبي قلابة عن مالك ابن الحويرث.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٣١٢)، وصحيح أبي داود (٥٥)، والإرواء (٣٠١)، وصفة الصلاة ص ٦٦. والحديث بتمامه: ((مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم)).

٣- (قلت): البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢ / ١٥٣).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((تسعون))، يقال: سعيت في كذا وإلى كذا إذا ذهبت إليه وعملت فيه ومنه قوله تعالى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والمراد بقول الله تعالى فاسعوا إلى ذكر الله الذهاب ((وعليكم السكينة))، قال العلماء: والحكمة في إتيانها بسكينة والنهى عن السعي أن الذاهب إلى صلاة عامد في تحصيلها ومتوصل إليها فينبغي أن يكون متأدبا بآدابها وعلى أكمل الأحوال.

٤- (قلت): مسلم (٦٠٢ / ١٥٤).

٥- البُهر (بالضم): تتابع النفس من الإعياء.

عُجْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا تَوَضَّأْتَ فَعَمِدْتَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَا تُشَبِّكَنَّ بَيْنَ أَصَابِعِكَ فَإِنَّكَ فِي صَلَاةٍ([1]))). فَمَنَعَ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَهُوَ صَحِيحٌ مِمَّا هُوَ أَقَلُّ مِنَ الْإِسْرَاعِ وَجَعَلَهُ كَالْمُصَلِّي، وَهَذِهِ السُّنَنُ تُبَيِّنُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، وَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الِاشْتِدَادُ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَإِنَّمَا عَنَى الْعَمَلَ وَالْفِعْلَ، هَكَذَا فَسَّرَهُ مَالِكٌ. وهو الصواب في ذلك والله أعلم.

الرابعة: الْإِقَامَةُ تَمْنَعُ مِنَ ابْتِدَاءِ صَلَاةِ نَافِلَةٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا صَلَاةَ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ([2]))) خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ، فَأَمَّا إذا شرع في نافلة فَلَا يَقْطَعُهَا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ}، وَخَاصَّةً إِذَا صَلَّى رَكْعَةً مِنْهَا([3]). وَقِيلَ: يَقْطَعُهَا لِعُمُومِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ. والله أعلم.

الخامسة: وَاخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِالصَّلَاةِ هُنَا، فَقِيلَ: الْفَرَائِضُ. وَقِيلَ: الْفَرَائِضُ وَالنَّوَافِلُ مَعًا، وَهُوَ الصَّحِيحُ، لِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ وَالْمُتَّقِي يَأْتِي بِهِمَا.

السادسة: والصَّلَاةُ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِشُرُوطٍ وَفُرُوضٍ، فَمِنْ شُرُوطِهَا([4]): الطَّهَارَةُ، وَسَتْرُ الْعَوْرَةِ. وَأَمَّا فُرُوضُهَا([5]): فَاسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ، وَالنِّيَّةُ، وَتَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ وَالْقِيَامِ لَهَا، وَقِرَاءَةُ أُمِّ الْقُرْآنِ وَالْقِيَامُ لَهَا، وَالرُّكُوعُ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِيهِ، وَرَفْعُ الرَّأْسِ مِنَ الرُّكُوعِ وَالِاعْتِدَالُ فِيهِ، وَالسُّجُودُ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِيهِ، وَرَفْعُ الرَّأْسِ مِنَ السُّجُودِ، وَالْجُلُوسُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِيهِ، وَالسُّجُودُ الثَّانِي وَالطُّمَأْنِينَةُ فِيهِ. وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الرَّجُلِ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ لَمَّا أَخَلَّ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: ((إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ ثُمَّ كَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٩٤).

٢- (قلت): مسلم (٧١٠).

- قال سيد سابق في فقه السنة: عن عبد الله بن سرجس قال: دخل رجل المسجد، ورسول الله ﷺ في صلاة الغداة، فصلى ركعتين في جانب المسجد، ثم دخل مع رسول الله ﷺ. فلما سلم رسول الله ﷺ قال: ((يا فلان بأي الصلاتين اعتددت، بصلاتك وحدك أم بصلاتك معنا))؟ رواه مسلم وأبو داود والنسائي. وفي إنكار الرسول ﷺ، مع عدم أمره بإعادة ما صلّى، دليل على صحة الصلاة وإن كانت مكروهة. وعن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا يصلّي ركعتي الغداة حين أخذ المؤذن يؤذن، فغمز منكبه وقال: ((ألا كان هذا قبل هذا)). رواه الطبراني. قال العراقي: إسناده جيد.

٣- (قلت): أظن بأنَّ هذا القول هو الفصل في المسألة، لأنَّ الرسول ﷺ قال لآبن عباس: أتصلي الصبح أربعًا؟ ولم يقل: ثلاثًا، كما جاء في الحديث عن ابن عباس قال: كنت أصلّي وأخذ المؤذن في الاقامة، فجذبني نبي الله ﷺ، وقال: ((أتصلي الصبح أربعًا؟)). رواه البيهقي والطبراني وأبو داود الطيالسي وأبو يعلى والحاكم، وقال: إنه على شرط الشيخين. وهذا يبين بوضوح أنه دخل في الصلاة للتو، فتأمل.

٤- (قلت): الشرط هو: ما يلزم من عدمه عدم المشروط، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم وهو: العلم بدخول الوقت، والنية، وَسَتْرُ الْعَوْرَةِ، والطهارة من الحدثين، طهارة البدن والثوب والمكان الذي يصلّي فيه من النجاسة الحسية، متى قدر على ذلك، فإن عجز عن إزالتها صلَّى معها، ولا إعادة عليه، واستقبال القبلة.

٥- (قلت): الفرض ينقسم إلى قسمين:

الأولى: الركن: أقوال وأفعال تتركب منها حقيقة الصلاة وماهيتها، فإذا تخلف واحد من هذه الأركان لم تتحقق الصلاة ولم يعتد بها شرعًا، ولا يجبر بسجود السهو. وهو ما ذكره القرطبي هنا ماعدا النية واستقبال القبلة فهو من الشروط على الأصح.

الثانية: الواجب: ما يجب فعله أو قوله في الصلاة، ويسقط بالسهو ويجبره سجود السهو ومن تركه عمدًا بطلت صلاته اذا كان عالمًا بوجوبه، كالتأمين للمأموم، وتكبيرات الانتقال وقول سمع اللّه لمن حمده وقول ربنا ولك الحمد، والتسبيح في الركوع والسجود، والتشهد الأوسط والجلوس له، والخشوع في الصلاة وهو حضور القلب فيها. وهذا المصطلح عند الحنفية والحنابلة، إلَّا أن الحنفية لا يرون تارك الواجب متعمدًا تبطل صلاته!! وإنما هو آثم فاسق يستحق العقاب.

فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا([١])) خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ. ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدار قطني وَغَيْرُهُ. قَالَ عُلَمَاؤُنَا: فَبَيَّنَ قَوْلُهُ ﷺ أَرْكَانَ الصَّلَاةِ، وَسَكَتَ عَنِ الْإِقَامَةِ وَرَفْعِ الْيَدَيْنِ وَعَنْ حَدِّ الْقِرَاءَةِ وَعَنْ تَكْبِيرِ الِانْتِقَالَاتِ، وَعَنِ التَّسْبِيحِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَعَنِ الْجِلْسَةِ الْوُسْطَى، وَعَنِ التَّشَهُّدِ وَعَنِ الْجِلْسَةِ الْأَخِيرَةِ وَعَنِ السَّلَامِ. وَأَمَّا رَفْعُ الْيَدَيْنِ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ عِنْدَ جَمَاعَةِ الْعُلَمَاءِ وَعَامَّةِ الْفُقَهَاءِ، لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحَدِيثِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ. وَأَمَّا التَّكْبِيرُ مَا عَدَا تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ فَمَسْنُونٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ. وَقَالَ أَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: لَيْسَ عَلَى مَنْ لَمْ يُكَبِّرْ فِي الصَّلَاةِ من أولها إلى آخرها شيء إِذَا كَبَّرَ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ، فَإِنْ تَرَكَهُ سَاهِيًا سجد للسهو، فإن لم يسجد فلا شيء عَلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ التَّكْبِيرَ عَامِدًا، لِأَنَّهُ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنْ فعل فقد أساء ولا شيء عَلَيْهِ وَصَلَاتُهُ مَاضِيَةٌ. قُلْتُ: هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ مِنَ الشَّافِعِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ وَجَمَاعَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمَالِكِيِّينَ غَيْرَ مَنْ ذَهَبَ مَذْهَبَ ابْنِ الْقَاسِمِ([٢]). وَقَدْ تَرْجَمَ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ (بَابُ إِتْمَامِ التَّكْبِيرِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، وَسَاقَ حَدِيث مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَا وَعِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، فَكَانَ إِذَا سَجَدَ كَبَّرَ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ كَبَّرَ، وَإِذَا نَهَضَ مِنَ الرَّكْعَتَيْنِ كَبَّرَ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ أَخَذَ بِيَدَيْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فَقَالَ: لَقَدْ ذَكَّرَنِي هَذَا صَلَاةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ قَالَ: لَقَدْ صَلَّى بِنَا صَلَاةَ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَحَدِيثَ عِكْرِمَةَ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا عِنْدَ الْمَقَامِ يُكَبِّرُ فِي كُلِّ خَفْضٍ وَرَفْعٍ، وَإِذَا قَامَ وَإِذَا وَضَعَ، فَأَخْبَرْتُ ابن عباس فقال: أو ليس تِلْكَ صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ لَا أُمَّ لَكَ([٣])! فَدَلَّكَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذَا الْبَابِ عَلَى أَنَّ التَّكْبِيرَ لَمْ يَكُنْ مَعْمُولًا بِهِ عِنْدَهُمْ. رَوَى أَبُو إِسْحَاقَ السُّبَيْعِيُّ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: صَلَّى بِنَا عَلِيٌّ يَوْمَ الْجَمَلِ صَلَاةً أَذْكَرَنَا بِهَا صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يُكَبِّرُ فِي كُلِّ خَفْضٍ وَرَفْعٍ، وَقِيَامٍ وَقُعُودٍ، قَالَ أَبُو مُوسَى: فَإِمَّا نَسِينَاهَا وَإِمَّا تَرَكْنَاهَا عَمْدًا. قُلْتُ: أَتَرَاهُمْ أَعَادُوا الصَّلَاةَ! فَكَيْفَ يُقَالُ مَنْ تَرَكَ التَّكْبِيرَ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ! وَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يكن فَرْقٌ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْفَرْضِ، وَالشَّيْءُ إِذَا لَمْ يَجِبْ أَفْرَادُهُ لَمْ يَجِبْ جَمِيعُهُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

قال الإمام الألباني في تمام المنّة: عدّ هذه التكبيرات من السنن ينافي أمر النبي ﷺ المسيء صلاته بها كما جاء في رواية لأبي داود وغيره من حديث رفاعة بن رافع، وهو مخرج في صحيح أبي داود (٨٠٣ – ٨٠٥) فهي إذن واجبة، ومؤيد بعموم قوله ﷺ: ((صلوّا كما رأيتموني أصلّي([٤]))). وقد قرر الإمام الشوكاني في (نيل الأوطار) (٢\ ٢٢٢ – ٢٢٤)، ثمّ في (السيل الجرّار)، أن الأصل في جميع الأمور الواردة في حديث المسيء صلاته الوجوب، وقد نص الشوكاني نفسه في النيل أن هذه التكبيرات ممّا جاء في بعض الروايات، ثمّ نسي ذلك في السيل فذكرها(١\ ٢٢٧– ٢٢٨) في جملة السنن! فسبحان ربّي لا يضل ولا ينسى، وقد ذهب إلى الوجوب الإمام أحمد رحمه اللّه كما حكاه النووي في (المجموع)(٣\ ٣٩٧) عنه، واحتج له بالعموم السابق وخفي عليه حديث المسيء

١– (قلت): البخاري (٦٢٥١)، مسلم (٣٩٧).

٢– (قلت): أنظر كلام القرطبي عند تفسير الآية (٤٣) من سورة البقرة المسألة الخامسة، يقول هناك بوجوبه.

٣– قوله: لا أم لك. في النهاية ابن الأثير: (هو ذم وسب. أي أنت لقيط لا تعرف لك أم. وقيل: قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بعد).

٤– (قلت): البخاري (٦٣١).

صلاته، فإنه قال محتجّاً عليه لمذهبه: (ودليلنا على أحمد حديث المسيء صلاته، فإن النبي ﷺ لم يأمره بتكبيرات الانتقال وأمره بتكبيرة الإحرام)! فلم يتنبّه لرواية أبي داود وغيره.

قال القرطبي: السابعة: وَأَمَّا التَّسْبِيحُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ فَغَيْرُ وَاجِبٍ عِنْدَ الْجُمْهُورِ لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ، وَأَوْجَبَهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ، وَأَنَّ مَنْ تَرَكَهُ أَعَادَ الصَّلَاةَ، لِقَوْلِهِ ﷺ: ((أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ(١))).

الثامنة: وَأَمَّا الْجُلُوسُ وَالتَّشَهُّدُ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ: الْجُلُوسُ الْأَوَّلُ وَالتَّشَهُّدُ لَهُ سُنَّتَانِ. وَأَوْجَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْجُلُوسَ الْأَوَّلَ وَقَالُوا: هُوَ مَخْصُوصٌ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْفُرُوضِ بِأَنْ يَنُوبَ عَنْهُ السُّجُودُ كَالْعَرَايَا(٢)مِنَ الْمُزَابَنَةِ(٣)، وَالْقِرَاضِ(٤)مِنَ الْإِجَارَاتِ، وَكَالْوُقُوفِ بَعْدَ الْإِحْرَامِ لِمَنْ وَجَدَ الْإِمَامَ رَاكِعًا. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ سنة ما كان الْعَامِدُ لِتَرْكِهِ تَبْطُلُ صَلَاتُهُ كَمَا لَا تَبْطُلُ بِتَرْكِ سُنَنِ الصَّلَاةِ. احْتَجَّ مَنْ لَمْ يُوجِبْهُ بِأَنْ قَالَ: لَوْ كَانَ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ لَرَجَعَ السَّاهِي عَنْهُ إِلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ، كَمَا لَوْ تَرَكَ سَجْدَةً أَوْ رَكْعَةً، وَيُرَاعَى فِيهِ مَا يُرَاعَى فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ مِنَ الْوِلَاءِ وَالرُّتْبَةِ، ثُمَّ يَسْجُدُ لِسَهْوِهِ كَمَا يَصْنَعُ مَنْ تَرَكَ رَكْعَةً أَوْ سَجْدَةً وَأَتَى بِهِمَا. وفي حديث عبد الله بن بُحَيْنَةَ: ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ وَنَسِيَ أَنْ يَتَشَهَّدَ فَسَبَّحَ النَّاسُ خَلْفَهُ كَيْمَا يَجْلِسَ فَثَبَتَ قَائِمًا فَقَامُوا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ سَجَدَ سَجْدَتَيِ السَّهْوِ قَبْلَ التَّسْلِيمِ(٥)))، فَلَوْ كَانَ الْجُلُوسُ فَرْضًا لَمْ يُسْقِطْهُ النِّسْيَانُ وَالسَّهْوُ(٦)، لِأَنَّ لِأَنَّ الْفَرَائِضَ فِي الصَّلَاةِ يَسْتَوِي فِي تَرْكِهَا السَّهْوُ وَالْعَمْدُ إِلَّا فِي الْمُؤْتَمِّ.

قال الإمام الألباني في صفة صلاة النبي: (وجوب التشهد الأول ومشروعية الدعاء فيه).

(مسلم وأبو عوانة)، ثم ((كان ﷺ يقرأ في كل ركعتين (التحية(٧)))).

(البيهقي بإسناد جيد)، ((وكان أول ما يتكلم به عند القعدة: (التحيات لله)).

(البخاري ومسلم)، و((كان إذا نسيها في الركعتين الأوليين يسجد للسهو(١)))).

١- (قلت): مسلم (٤٧٩)، والحديث بتمامه: ((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)).

٢- العرايا: نخل كانت توهب ثمارها للمساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمر.

٣- المزابنة: بيع الرطب على رؤوس النخل بالتمر كيلا، وبيع الزبيب بالكرم.

٤- القراض (بالكسر): إجارة على التجر في مال بجزء من ربحه.

٥- (قلت): البخاري (١٢٢٤)، ومسلم (٥٧٠)، والحديث بتمامه: عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ بُحَيْنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: ((صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ مِنْ بَعْضِ الصَّلَوَاتِ، ثُمَّ قَامَ فَلَمْ يَجْلِسْ، فَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ وَنَظَرْنَا تَسْلِيمَهُ كَبَّرَ قَبْلَ التَّسْلِيمِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ ثُمَّ سَلَّمَ)).

- وهناك حديث آخر في الإرواء (٣٨٨)، وهي: عن إبراهيم بن طهمان عن ابن شبيل به بلفظ: صلى بنا المغيرة بن شعبة، فقام من الركعتين قائما، فقلنا سبحان الله، فأومأ وقال: سبحان الله، فمضى فى صلاته، فلما قضى صلاته سجد سجدتين وهو جالس، ثم قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فاستوى قائما من جلوسه فمضى فى صلاته، فلما قضى صلاته سجد سجدتين وهو جالس ثم قال: ((إذا صلى أحدكم فقام من الجلوس، فإن لم يستتم قائما فليجلس، وليس عليه سجدتان، فإن استوى قائما فليمض فى صلاته، وليسجد سجدتين وهو جالس)).

قلت: وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات.

٦- (قلت): وأجيب بأن هذا إنما يكون دليلاً لو كان سجود السهو مختصاً بترك ما ليس بواجب وذلك ممنوع (السيل الجرار ٢٢٩١).

٧- (قلت): مسلم (٤٩٨)، ولكن بلفظ: ((وَكَانَ يَقُولُ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ التَّحِيَّةَ)).

وكان يأمر بها فيقول: (النسائي وأحمد والطبراني بسند صحيح)، ((إذا قعدتم في كل ركعتين فقولوا: التحيات إلخ . . وليتخير أحدكم من الدعاء أعجبه إليه فليدع الله عز وجل به))، وفي لفظ: ((قولوا في كل جلسة: التحيات)). وأمر به (المسيء صلاته) أيضا كما تقدم آنفا.

(البخاري ومسلم)، و((كان ﷺ يعلمهم التشهد كما يعلمهم السورة من القرآن([٢]))).

(أبو داود وصححه الحاكم ووافقه الذهبي)، و((السنة إخفاؤه)).

قال القرطبي: وَاخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ الْجُلُوسِ الْأَخِيرِ فِي الصَّلَاةِ وَمَا الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى خَمْسَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الجلوس فرض والتشهيد فَرْضٌ وَالسَّلَامَ فَرْضٌ. وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي رِوَايَةٍ، وَحَكَاهُ أَبُو مُصْعَبٍ فِي مُخْتَصَرِهِ عَنْ مَالِكٍ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَبِهِ قَالَ دَاوُدُ. قَالَ الشَّافِعِيُّ: مَنْ تَرَكَ التَّشَهُّدَ الْأَوَّلَ وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ سَجْدَتَا السَّهْوِ لِتَرْكِهِ. وَإِذَا تَرَكَ التَّشَهُّدَ الْأَخِيرَ سَاهِيًا أَوْ عَامِدًا أَعَادَ. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ بَيَانَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ فَرْضٌ، لِأَنَّ أَصْلَ فَرْضِهَا مُجْمَلٌ يَفْتَقِرُ إِلَى الْبَيَانِ إِلَّا مَا خَرَجَ بِدَلِيلٍ وَقَدْ قَالَ ﷺ: ((صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي([٣]))).

التاسعة: وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السَّلَامِ، فَقِيلَ: وَاجِبٌ، وَقِيلَ: لَيْسَ بِوَاجِبٍ. وَالصَّحِيحُ وُجُوبُهُ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَحَدِيثِ عَلِيٍّ الصَّحِيحِ خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَرَوَاهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ([٤]))) وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي إِيجَابِ التَّكْبِيرِ وَالتَّسْلِيمِ، وَأَنَّهُ لَا يُجْزِئُ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا كَمَا لَا يُجْزِئُ عَنِ الطَّهَارَةِ غَيْرُهَا بِاتِّفَاقٍ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: لَوِ افْتَتَحَ رَجُلٌ صَلَاتَهُ بِسَبْعِينَ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يُكَبِّرْ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ لَمْ يُجْزِهِ، وَإِنْ أَحْدَثَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ لَمْ يُجْزِهِ، وَهَذَا تَصْحِيحٌ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ لِحَدِيثِ عَلِيٍّ، وَهُوَ إِمَامٌ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَعْرِفَةِ صَحِيحِهِ مِنْ سَقِيمِهِ. وَحَسْبُكَ بِهِ!

١- (قلت): البخاري (١٢٢٤)، ومسلم (٥٧٠). وقد مر قريبا.

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في هامش صفة الصلاة على هذا الحديث: هو من حديث جمع من الصحابة رضي الله عنهم: منهم: عبد الله بن مسعود قال: ((كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد، كما يعلمنا السورة من القرآن)). أخرجه أحمد (١/٣٩٤) من طريق شَرِيك عن جامع بن أبي راشد عن أبي وائل عنه. وهذا سند حسن. وذكره في " المجمع " (٢/١٤٠) بزيادة: ويقول: ((تعلموا؛ فإنه لا صلاة إلا بتشهد)). وقال: (رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه سعد بن سِنَان: ضعفه ابن معين. ورواه البزار برجال موثقين، وفي بعضهم خلاف لا يضر إن شاء الله).

وهو في (الصحيحين) من طريق أخرى بنحوه.

ومنهم: عبد الله بن عباس بلفظ ابن مسعود. أخرجه مسلم (٢/١٤)، والنسائي (١/١٨٨)، وأحمد (١/٣١٥) من طريق عبد الرحمن بن حُمَيد: ثنا أبو الزبير عن طاوس عنه.

ورواه الليث عن أبي الزبير عن سعيد بن جُبير وعن طاوس عنه به. رواه مسلم وغيره.

ومنهم: جابر بن عبد الله. أخرج حديثه النسائي (١/١٧٥)، وابن ماجه (١/٢٩٢)، والطحاوي (١/١٥٦) ...... الى آخر البحث.

٣- (قلت): البخاري (٦٣١).

٤- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٨٨٥): (صحيح) المشكاة ٣١٢، صحيح أبي داود ٥٥، الإرواء ٣٠١، صفة الصلاة ص ٦٦.

العاشرة: وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وُجُوبِ التَّكْبِيرِ عِنْدَ الِافْتِتَاحِ، فَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَطَائِفَةٌ: تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ فِي الْمَأْمُومِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِهِ إِيجَابُ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ وَأَنَّهَا فَرْضٌ وَرُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ، وَهُوَ الصَّوَابُ وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ فَمَحْجُوجٌ بِالسُّنَّةِ. وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي اللَّفْظِ الَّذِي يَدْخُلُ بِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهِ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: لَا يُجْزِئُ إِلَّا التَّكْبِيرُ، لَا يُجْزِئُ مِنْهُ تَهْلِيلٌ وَلَا تَسْبِيحٌ وَلَا تَعْظِيمٌ وَلَا تَحْمِيدٌ. هَذَا قَوْلُ الْحِجَازِيِّينَ وَأَكْثَرُ الْعِرَاقِيِّينَ، وَلَا يُجْزِئُ عِنْدَ مَالِكٍ إِلَّا (اللَّهُ أَكْبَرُ) لَا غَيْرَ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَزَادَ: وَيُجْزِئُ (اللَّهُ الْأَكْبَرُ) و(الله الْكَبِيرُ)، وَالْحُجَّةُ لِمَالِكٍ حَدِيثُ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة ب ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ([1]))). وَحَدِيثُ عَلِيٍّ: ((وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ([2]))). وَحَدِيثُ الْأَعْرَابِيِّ: فَكَبِّرْ([3]). وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ عن أَبَا حُمَيْدٍ السَّاعِدِيَّ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: ((اللَّهُ أَكْبَرُ([4]))), وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ وَحَدِيثٌ صَحِيحٌ فِي تَعْيِينِ لَفْظِ التَّكْبِيرِ.

الحادية عشرة: وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى وُجُوبِ النِّيَّةِ عِنْدَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ إِلَّا شَيْئًا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا يَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي آيَةِ الطَّهَارَةِ، وَحَقِيقَتُهَا قَصْدُ التَّقَرُّبِ إِلَى الْآمِرِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَالْأَصْلُ فِي كُلِّ نِيَّةٍ أَنْ يَكُونَ عَقْدُهَا مَعَ التَّلَبُّسِ بِالْفِعْلِ الْمَنْوِيِّ بِهَا، أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ بِشَرْطِ اسْتِصْحَابِهَا، فَإِنْ تَقَدَّمَتِ النِّيَّةُ وَطَرَأَتْ غَفْلَةٌ فَوَقَعَ التَّلَبُّسُ بِالْعِبَادَةِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لَمْ يُعْتَدَّ بِهَا، كَمَا لَا يُعْتَدُّ بِالنِّيَّةِ إِذَا وَقَعَتْ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِالْفِعْلِ، وَقَدْ رُخِّصَ فِي تَقْدِيمِهَا فِي الصَّوْمِ لِعِظَمِ الْحَرَجِ فِي اقْتِرَانِهَا بِأَوَّلِهِ.

قال ابن العثيمين: الصفة الثالثة: الإنفاق مما رزقهم الله في قوله تعالى: {ومما رزقناهم ينفقون}، أي مما أعطيناهم من المال يخرجون؛ و {مِن} هنا يحتمل أن تكون للتبعيض، وأن تكون للبيان؛ ويتفرع على ذلك ما سيُبَيَّن في الفوائد. إن شاء الله تعالى.

قال الشنقيطي: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}

عَبَّرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِ(مِنْ) التَّبْعِيضِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ يُنْفِقُ لِوَجْهِ اللَّهِ بَعْضَ مَالِهِ لَا كُلِّهِ. وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الْقَدْرَ الَّذِي يَنْبَغِي إِنْفَاقُهُ، وَالَّذِي يَنْبَغِي إِمْسَاكُهُ. وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يَنْبَغِي إِنْفَاقُهُ: هُوَ الزَّائِدُ عَلَى

١- (قلت): مسلم (٤٩٨)، والحديث بتمامه: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ. وَالْقِرَاءَةِ، بِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَانَ إِذَا رَكَعَ لَمْ يُشْخِصْ رَأْسَهُ، وَلَمْ يُصَوِّبْهُ وَلَكِنْ بَيْنَ ذَلِكَ، وَكَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ لَمْ يَسْجُدْ، حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِمًا، وَكَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السَّجْدَةِ، لَمْ يَسْجُدْ حَتَّى يَسْتَوِيَ جَالِسًا، وَكَانَ يَقُولُ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ التَّحِيَّةَ، وَكَانَ يَفْرِشُ رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَيَنْصِبُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقْبَةِ الشَّيْطَانِ. وَيَنْهَى أَنْ يَفْتَرِشَ الرَّجُلُ ذِرَاعَيْهِ افْتِرَاشَ السَّبُعِ، وَكَانَ يَخْتِمُ الصَّلَاةَ بِالتَّسْلِيمِ)).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في المشكاة (٣١٢ و ٣١٣)، والإرواء (٣٠١)، وصحيح أبي داود (٥٥)، حسن صحيح.

٣- (قلت): (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). البخاري (٦٦٦٧)، مسلم (٣٩٧). وهو حديث السيء صلاته.

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٨١٠).

الْحَاجَةِ وَسَدِّ الْخَلَّةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا}[٢ \ ٢١٩]، وَالْمُرَادُ بِالْعَفْوِ: الزَّائِدُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَاتِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {حَتَّى عَفَوْا}[٧ \ ٩٥]، أَيْ: كَثُرُوا، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْعَفْوُ نَقِيضُ الْجَهْدِ، وَهُوَ أَنْ يُنْفِقَ مَا لَا يَبْلُغُ إِنْفَاقُهُ مِنْهُ الْجَهْدَ وَاسْتِفْرَاغَ الْوُسْعِ. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: الطَّوِيلُ: خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي ... وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

وَهَذَا الْقَوْلُ رَاجِحٌ إِلَى مَا ذَكَرْنَا، وَبَقِيَّةُ الْأَقْوَالِ ضَعِيفَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}[١٧ \ ٢٩]، فَنَهَاهُ عَنِ الْبُخْلِ بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}، وَنَهَاهُ عَنِ الْإِسْرَافِ بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، فَيَتَعَيَّنُ الْوَسَطُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، كَمَا بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[٢٥ \ ٦٧]، فَيَجِبُ عَلَى الْمُنْفِقِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْجُودِ وَالتَّبْذِيرِ، وَبَيْنَ الْبُخْلِ وَالِاقْتِصَادِ. فَالْجُودُ غَيْرُ التَّبْذِيرِ، وَالِاقْتِصَادُ غَيْرُ الْبُخْلِ. فَالْمَنْعُ فِي مَحَلِّ الْإِعْطَاءِ مَذْمُومٌ. وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}، وَالْإِعْطَاءُ فِي مَحَلِّ الْمَنْعِ مَذْمُومٌ أَيْضًا وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ: الْبَسِيط

لَا تَمْدَحَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ ... يَدَاهُ كَالْمُزْنِ حَتَّى تَخْجَلَ الدِّيَمَا

فَإِنَّهَا فَلَتَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ ... يُعْطِي وَيَمْنَعُ لَا بُخْلًا وَلَا كَرَمَا

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ: أَنَّ الْإِنْفَاقَ الْمَحْمُودَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، إِلَّا إِذَا كَانَ مَصْرِفُهُ الَّذِي صُرِفَ فِيهِ مِمَّا يُرْضِي اللَّهَ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} الْآيَةَ [٢ \ ٢١٥]، وَصَرَّحَ بِأَنَّ الْإِنْفَاقَ فِيمَا لَا يُرْضِي اللَّهَ حَسْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فِي قَوْلِهِ: {فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً} الْآيَةَ [٨ \ ٣٦]، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تُعَدُّ صَنِيعَةً ... حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا الَّذِي قَرَّرْتُمْ يَقْتَضِي أَنَّ الْإِنْفَاقَ الْمَحْمُودَ هُوَ إِنْفَاقُ مَا زَادَ عَلَى الْحَاجَةِ الضَّرُورِيَّةِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى قَوْمٍ بِالْإِنْفَاقِ وَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَا أَنْفَقُوا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٥٩ \ ٩].

فَالظَّاهِرُ فِي الْجَوَابِ - وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ - هُوَ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا، فَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ يَكُونُ الْإِيثَارُ مَمْنُوعًا. وَذَلِكَ كَمَا إِذَا كَانَتْ عَلَى الْمُنْفِقِ نَفَقَاتٌ وَاجِبَةٌ، كَنَفَقَةِ الزَّوْجَاتِ وَنَحْوِهَا فَتَبَرَّعَ بِالْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ وَاجِبٍ، وَتَرَكَ الْفَرْضَ لِقَوْلِهِ ﷺ: ((وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ(١)))، وَكَأَنْ يَكُونَ لَا صَبْرَ عِنْدَهُ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ فَيُنْفِقُ مَالَهُ وَيَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ يَسْأَلُهُمْ مَالَهُمْ، فَلَا يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ، وَالْإِيثَارُ فِيمَا إِذَا كَانَ لَمْ يُضَيِّعْ نَفَقَةً وَاجِبَةً وَكَانَ وَاثِقًا مِنْ نَفْسِهِ بِالصَّبْرِ وَالتَّعَفُّفِ وَعَدَمِ السُّؤَالِ.

وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}: يَعْنِي بِهِ الزَّكَاةَ، فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

١- (قلت): البخاري (١٤٢٦، ١٤٢٧)، مسلم (١٠٣٤، ١٠٣٦).

قال ابن كثير: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} قَالَ: هِيَ نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ الزَّكَاةُ.

وَقَالَ جُوَيْبِر، عَنِ الضَّحَّاكِ: كَانَتِ النَّفَقَاتُ قُرُبَاتٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَلَى قَدْرِ مَيْسَرَتِهِمْ وَجُهْدِهِمْ، حَتَّى نَزَلَتْ فَرَائِضُ الصَّدَقَاتِ: سبعُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ، مِمَّا يُذْكَرُ فِيهِنَّ الصَّدَقَاتُ، هُنَّ النَّاسِخَاتُ الْمُثْبَتَاتُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، فَأَنْفِقُوا مِمَّا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ، هَذِهِ الْأَمْوَالَ عَوَارٍ[1]وَوَدَائِعُ عِنْدَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، يُوشِكُ أَنْ تُفَارِقَهَا.

قال السعدي: وفي قوله: {رزقناهم}، إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين. وكثيرا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٥٤١: وَالرِّزْقُ يُرَادُ بِهِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَبْدُ.

وَالثَّانِي: مَا يَمْلِكُهُ الْعَبْدُ، فَهَذَا الثَّانِي هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، وَقَوْلِهِ: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [المنافقون: ١٠]، وَهَذَا هُوَ الْحَلَالُ الَّذِي مَلَّكَهُ اللَّهُ إيَّاهُ.

وَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}[هود: ٦]، وَقَوْلِهِ ﷺ: ((إنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا([2]))، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْعَبْدُ قَدْ يَأْكُلُ الْحَلَالَ، وَالْحَرَامَ، فَهُوَ رِزْقٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ لَا بِالِاعْتِبَارِ الثَّانِي، وَمَا اكْتَسَبَهُ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ هُوَ رِزْقٌ بِالِاعْتِبَارِ الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ مَالُ وَارِثِهِ لَا مَالُهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال رحمه الله في المسائل والأجوبة ج١ص١٤٠: أَنَّ لَفْظَ الرِّزْقِ يُرَادُ بِهِ مَا أَبَاحَهُ اللَّهُ لِلْعَبْدِ أو مَلَّكَهُ إيَّاهُ، وَيُرَادُ بِهِ مَا يَتَقَوَّى بِهِ الْعَبْدُ.

فَالْأَوَّلُ: كَقَوْلِهِ تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، وقوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، فَهَذَا الرِّزْقُ هُوَ الْحَلَالُ وَالْمَمْلُوكُ، لَا يَدْخُلُ فِيهِ الْخَمْرُ وَلَا الْحَرَامُ.

---

[1]- عوار: جمع عارية وهي ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك يقال: كل عارية مستردة.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١٥)، والحديث بتمامه: ((إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))، أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث والقضاعي في مسند الشهاب بسند صحيح، وأخرجه الحاكم.

- وورد بلفظ: ((لا تستبطئوا الرزق فإنه لن يموت العبد حتى يبلغه آخر رزق هو له فأجملوا في الطلب: أخذ الحلال وترك الحرام))، أخرجه ابن حبان والحاكم وأبو عبد الرزاق وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وَالثَّانِي: كَقَوْلِهِ تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}، وَاَللَّهُ – تَعَالَى – يَرْزُقُ الْبَهَائِمَ وَلَا تُوصَفُ بِأَنَّهَا تَمْلِكُ، وَلَا بِأَنَّهُ أَبَاحَ اللَّهُ لَهَا ذَلِكَ إبَاحَةً شَرْعِيَّةً، فَإِنَّهُ لَا تَكْلِيفَ عَلَى الْبَهَائِمِ، وَكَذَلِكَ الْأَطْفَالُ وَالْمَجَانِينُ، لَكِنْ كما أنه لَيْسَ (بملك)، وَلَيْسَ بِمُحَرَّمٍ عَلَيْهَا، وَأما الْمُحَرَّمُ الَّذِي يَتَغَذَّى بِهِ الْعَبْدُ فَهُوَ مِنْ الَّذِي عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ العبد يغتذي بِهِ، وَقَدَّرَ ذَلِكَ ليس هو مما أَبَاحَهُ وَمَلَّكَهُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبْعَثُ إليه الْمَلَكُ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ: اُكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، ثم قَالَ: فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلَهَا([١]))).

فَالرِّزْقُ الْحَرَامُ هو مِمَّا قَدَّرَهُ اللَّهُ، وَكَتَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُوَ مِمَّا دَخَلَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ حَرَّمَهُ وَنَهَى عَنْهُ، وَلِفَاعِلِهِ مِنْ غَضَبِهِ وَذَمِّهِ وَعُقُوبَتِهِ مَا هُوَ له أَهْلٌ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال رحمه الله أيضًا في جامع المسائل ج٤ص٢٦٥: فالنفقة المقبولة لابدَّ أن تكون من مال أُذِنَ في إنفاقه شرعًا، لا يكفي الإذن القدري الكوني، واسم الرزق في كتاب الله يُرادُ به ما مُلِكَ شرعًا ويراد به ما يتنعَّم به الحيُّ، فالأول يختص بالحلال، والثاني يتناول كل ما ينتفع به الحيوان وإن كان مما لا يملك كالبهائم، وإن كان حرامًا، فالأول كقوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، والثاني كقوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}. والقدرية منعوا أن يكون الحرام مرزوقًا بناءً على أصلهم في أن الله لم يخلق أفعال العباد، فتناول العبد له ليس عندهم مقدورًا لله، ولا هو ملكه إياه، وهو قول باطل.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أنَّ من أوصاف المتقين الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالمُشاهَد المحسوس ليس بإيمان؛ لأن المحسوس لا يمكن إنكاره.

٢– أنَّ من أوصاف المتَّقين إقامة الصلاة؛ وهو عام لفرضها، ونفلها.. ويتفرع على ذلك: الترغيب في إقامة الصلاة؛ لأنها من صفات المتقين؛ وإقامتها أن يأتي بها مستقيمة على الوجه المطلوب في خشوعها، وقيامها، وقعودها، وركوعها، وسجودها، وغير ذلك.

٣– أنَّ من أوصاف المتَّقين الإنفاق مما رزقهم الله؛ وهذا يشمل الإنفاق الواجب كالزكاة، وإنفاقَ التطوع كالصدقات، والإنفاقِ في سبل الخير.

١– (قلت): قال الإمام الألباني في الإرواء: متفق عليه. أخرجه البخاري (٢/٣٠٨ و٣٣٢ . ٣٣٣ و٤/٢٥١)، ومسلم (٨/٤٤)، وأبو داود (٤٧٠٨)، والترمذي (٢/١٩ . ٢٠) وابن ماجه (٧٦).

٤- أنَّ صدقة الغاصب باطلة؛ لقوله تعالى: {ومما رزقناهم}؛ لأن الغاصب لا يملك المال الذي تصدق به، فلا تقبل صدقته.

٥- أنَّ الإنفاق غير الزكاة لا يتقدر بشيء معين؛ لإطلاق الآية، سواء قلنا: إن (مِن) للتبعيض؛ أو للبيان.

ويتفرَّع على هذا جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين تصدق بجميع ماله([1])؛ لكن هذا مشروط بما إذا لم يترتب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل، ونحوهم؛ فإن ترتب عليه ذلك فالواجب مقدم على التطوع.

٦- ذمُّ البخل؛ ووجهه أن الله مدح المنفقين؛ فإذا لم يكن إنفاق فلا مدح؛ والبخل خلق ذميم حذر الله سبحانه وتعالى منه في عدَّة آيات.

(تنبيه)

لم يذكر الله مصرف الإنفاق أين يكون؛ لكنه تعالى ذكر في آيات أخرى أن الإنفاق الممدوح ما كان في سبيل الله من غير إسراف، ولا تقتير لم يذكر الله مصرف الإنفاق أين يكون؛ لكنه تعالى ذكر في آيات أخرى أن الإنفاق الممدوح ما كان في سبيل الله من غير إسراف، ولا تقتير، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا}[الفرقان: ٦٧].

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

قال ابن العثيمين: الصفة الرابعة: قوله تعالى، {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك}: أي يؤمنون بجميع الكتب المنزلة؛ وبدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمنًا؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها؛ والمراد بـ{ما أنزل من قبلك}، التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، وغيرها.

قال السعدي: ثم قال: {والذين يؤمنون بما أنزل إليك}، وهو القرآن والسنة، قال تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة}، فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله، على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون

---

[1]- راجع سنن أبي داوود ١٣٤٨ كتاب الزكاة باب ٤٠: الرخصة في ذلك حديث ١٦٧٨ والترمذي ص ٢٠٣٠ كتاب المناقب باب ١: رجاؤه ﷺ أن يكون أبو بكر ممن يدعى من جميع أبواب الجنة حديث ٣٦٧٥ والدارمي ١/ ص٤٨٠ كتاب الزكاة باب ٢٦: الرجل يتصدق بجميع ما عنده حديث رقم ١٦٦٠ وقال الألباني في صحيح أبي داود ١/٤٦٦ حسن.

النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيمانًا حقيقيًّا.

{وما أنزل من قبلك}، يشمل الإيمان بالكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه، خصوصًا التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

قال ابن العثيمين: الصفة الخامسة: الإيقان بالآخرة في قوله تعالى: {وبالآخرة هم يوقنون}؛ والمراد بذلك البعث بعد الموت، وما يتبعه مما يكون يوم القيامة من الثواب، والعقاب، وغيرهما؛ وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحظور؛ و(الإيقان)، هو الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك.

قال الطبري: {وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، أما الآخرةُ فإنها صفة للدار، كما قال جل ثناؤه {وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[سورة العنكبوت: ٦٤]. وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخِرةً لأولى كانت قبلها، كما تقول للرجل: (أنعمتُ عليك مرَّة بعد أخرى، فلم تشكر لي الأولى ولا الآخرة)، وإنما صارت آخرة للأولى، لتقدُّم الأولى أمامها. فكذلك الدارُ الآخرة، سُمِّيت آخرةً لتقدُّم الدار الأولى أمامها، فصارت التاليةُ لها آخرةً. وقد يجوز أن تكون سُمِّيت آخرةً لتأخُّرها عن الخلق، كما سميت الدنيا (دنيا) لِدُنُوِّها من الخلق. وأما الذي وصف الله جل ثناؤه به المؤمنين – بما أنزل إلى نبيه محمد ﷺ وما أنزل إلى من قبله من المرسلين – من إيقانهم به من أمر الآخرة، فهو إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين: من البعث والنشور والثواب والعقاب والحساب والميزان، وغير ذلك مما أعد الله لخلقه يوم القيامة.

قال أبو زهرة: وقوله تعالى: {وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، فيه الإيقان مصدر أيقن، وهو إحكام العلم وإتقانه، بحيث لَا يكون شك ولا ريب في أية ناحية من نواحيه، ولا أي حقيقة من حقائقه، وبمقدار قوة الإيمان بالآخرة تكون قوة الإيمان، فمن كان مؤمنًا بربه حق الإيمان كان مؤمنًا بالآخرة كأنها عَيَان.

وقد أكّد سبحانه ضرورة الإيمان بها في تقديم الجار والمجرور على الفعل، فإن التقديم فيه مزيد من الاهتمام بهذا اليقين، واختصاص، أي أنه لَا يؤمن إلا بالحياة الآخرة، وما فيها من جنة ونعيم، وبعث وحساب، وجحيم، كأنه رَأْيَ العين، وأن الحياة الدنيا ليست موضع إيمان، فالحياة الآخرة وحدها هي الجديرة بالإيمان، وكان التأكيد بكلمة {همْ} فهو تصوير لليقين بصورة الجملة الاسمية، والجملة الاسمية تدل على بقاء اليقين واستمراره بحيث لَا يضطرب ولا يتزعزع ولا ينسى ذلك اليوم أبدًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣ص٣٢٩: وَأَمَّا (الْيَقِينُ): فَهُوَ طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ فِيهِ وَهُوَ مَعْنَى مَا يَقُولُونَ: (مَاءٌ يَقَنٌ) إذَا اسْتَقَرَّ عَنْ الْحَرَكَةِ، وَضِدُّ الْيَقِينِ الرَّيْبُ. وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ الْحَرَكَةِ وَالِاضْطِرَابِ يُقَالُ:

رَابَنِي يَرِيبُنِي وَمِنْهُ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ فَقَالَ: ((لَا يَرِيبُهُ أَحَدٌ([1]))، ثُمَّ الْيَقِينُ يَنْتَظِمُ مِنْهُ أَمْرَانِ: عِلْمُ الْقَلْبِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ. فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَعْلَمُ عِلْمًا جَازِمًا بِأَمْرٍ؛ وَمَعَ هَذَا فَيَكُونُ فِي قَلْبِهِ حَرَكَةٌ وَاخْتِلَاجٌ مِنْ الْعَمَلِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ الْعِلْمُ كَعِلْمِ الْعَبْدِ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ؛ وَلَا خَالِقَ غَيْرُهُ؛ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ فَهَذَا قَدْ تَصْحَبُهُ الطُّمَأْنِينَةُ إلَى اللَّهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَقَدْ لَا يَصْحَبُهُ الْعَمَلُ بِذَلِكَ؛ إمَّا لِغَفْلَةِ الْقَلْبِ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ وَالْغَفْلَةُ هِيَ ضِدُّ الْعِلْمِ التَّامِّ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ضِدًّا لِأَصْلِ الْعِلْمِ، وَإِمَّا لِلْخَوَاطِرِ الَّتِي تَسْنَحُ فِي الْقَلْبِ مِنْ الِالْتِفَاتِ إلَى الْأَسْبَابِ وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالْيَقِينَ فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ الْعَافِيَةِ فَسَلُوهُمَا اللَّهَ([2]))، فَأَهْلُ الْيَقِينِ إذَا اُبْتُلُوا ثَبَتُوا؛ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّ الِابْتِلَاءَ قَدْ يُذْهِبُ إيمَانَهُ أَوْ يُنْقِصُهُ. قَالَ تَعَالَى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِه تَعَالَى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}. فَهَذِهِ حَالُ هَؤُلَاءِ. وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} إلَى قَوْلِهِ: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلَّا غُرُورًا}. وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} الْآيَتَيْنِ.

وَأَمَّا كَيْفَ يَحْصُلُ الْيَقِينُ فَبِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَحَدُهَا: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ. وَالثَّانِي: تَدَبُّرُ الْآيَاتِ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وَالثَّالِثُ: الْعَمَلُ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ قَالَ تَعَالَى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} الْآيَةَ.

قال الطبري: عن ابن عباس، {وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}: أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، أي، لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك، ويكفرون بما جاءك من ربك.

وهذا التأويل من ابن عباس قد صرح عن أن السورة من أولها – وإن كانت الآيات التي في أولها من نعت المؤمنين – تعريض من الله عز وجل بذم كفار أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم – بما جاءت به رسل الله عز وجل الذين كانوا قبل محمد صلوات الله عليهم وعليه – مصدقون، وهم بمحمد ﷺ مكذبون، ولما جاء به من التنزيل جاحدون، ويدعون مع جحودهم ذلك أنهم مهتدون، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. فأكذب الله جل ثناؤه ذلك من قيلهم بقوله: {ألم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٢٨١٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في تحقيق الإيمان لابن تيمية.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}. وأخبر جل ثناؤه عباده: أن هذا الكتاب هدى لأهل الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به، المصدقين بما أنزل إليه وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى – خاصة، دون من كذب بمحمد ﷺ وبما جاء به، وادعى أنه مصدق بمن قبل محمد ﷺ من الرسل وبما جاء به من الكتب. ثم أكد جل ثناؤه أمر المؤمنين من العرب ومن أهل الكتاب المصدقين بمحمد ﷺ وبما أنزل إليه وإلى من قبله من الرسل – بقوله: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، فأخبر أنهم هم أهل الهدى والفلاح خاصة دون غيرهم، وأن غيرهم هم أهل الضلال والخسار.

قال ابن كثير: وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمَوْصُوفِينَ هَاهُنَا: هَلْ هُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[الْبَقَرَةِ: ٣] وَمَنْ هُمْ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ حَكَاهَا ابْنُ جَرِيرٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمَوْصُوفِينَ أَوَّلًا هُمُ الْمَوْصُوفُونَ ثَانِيًا، وَهُمْ كُلُّ مُؤْمِنٍ، مُؤْمِنُو الْعَرَبِ وَمُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ.

وَالثَّانِي: هُمَا وَاحِدٌ، وَهُمْ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعَلَى هَذَيْنِ تَكُونُ الْوَاوُ عَاطِفَةً صِفَاتٍ عَلَى صِفَاتٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} [الْأَعْلَى: ١، ٥] وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمام .. وليثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَم .. فَعَطَفَ الصِّفَاتِ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَالْمَوْصُوفُ وَاحِدٌ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ الْمَوْصُوفِينَ أَوَّلًا مُؤْمِنُو الْعَرَبِ، وَالْمَوْصُوفُونَ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ}، الْآيَةَ مؤمنو أَهْلِ الْكِتَابِ، نَقَلَهُ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأُنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَيُسْتَشْهَدُ لِمَا قَالَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} الْآيَةَ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٩]، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ويدرؤون بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[الْقَصَصِ: ٥٢- ٥٤]. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي، وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ جَارِيَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا([1]))).

وَأَمَّا ابْنُ جَرِيرٍ فَمَا اسْتَشْهَدَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ إِلَّا بِمُنَاسَبَةٍ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ وَصَفَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، فَكَمَا أَنَّهُ صَنَّفَ الْكَافِرِينَ إِلَى صِنْفَيْنِ: مُنَافِقٌ وَكَافِرٌ، فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ صَنَّفَهُمْ إِلَى عَرَبِيٍّ وَكِتَابِيٍّ.

قُلْتُ: وَالظَّاهِرُ قَوْلُ مُجَاهِدٍ فِيمَا رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ. وَرَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، عن ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاث عَشْرَةَ فِي الْمُنَافِقِينَ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ اتَّصَفَ بِهَا مِنْ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، وَكِتَابِيٍّ مِنْ إِنْسِيٍّ وَجِنِّيٍّ، وَلَيْسَ تَصِحُّ وَاحِدَةٌ مِنْ

١- صحيح البخاري برقم (٩٧)، وصحيح مسلم برقم (١٥٤).

هَذِهِ الصِّفَاتِ بِدُونِ الْأُخْرَى، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْأُخْرَى وَشَرْطٌ مَعَهَا، فَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْإِيقَانِ بِالْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِذَاكَ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نزل عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أنزل مِنْ قَبْلُ} الْآيَةَ [النِّسَاءِ: ١٣٦]. وَقَالَ: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزل إِلَيْنَا وَأُنزل إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ} الْآيَةَ [الْعَنْكَبُوتِ: ٤٦]. وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نزلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ}[النِّسَاءِ: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}[الْمَائِدَةِ: ٦٨]، وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ} الْآيَةَ [الْبَقَرَةِ: ٢٨٥]، وَقَالَ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ}[النِّسَاءِ: ١٥٢]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَمْرِ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج١ص١٣٤: فَذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، فَحَصَرَ الْفَلَاحَ فِي هَؤُلَاءِ، فَلَا يَكُونُ مُفْلِحًا إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}. هُوَ صِفَةٌ لِلْمَذْكُورِينَ لَيْسَ هَؤُلَاءِ صِنْفًا آخَرَ، فَإِنَّ عَطْفَ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ قَدْ يَكُونُ لِتَغَايُرِ الصِّفَاتِ، وَإِنْ كَانَتِ الذَّاتُ وَاحِدَةً هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ هُنَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ قِيلَ إِنَّ الصِّنْفَ الثَّانِيَ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالْأَوَّلَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَهَذَا ضَعِيفٌ، وَأَفْسَدُ مِنْهُ قَوْلُ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى: إِنَّ الْكِتَابَ الْمُرَادُ بِهِ الْإِنْجِيلُ، كَمَا سَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَالعَطْفُ لِتَغَايُرِ الصِّفَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى – الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى – وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى – وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى – فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} [الأعلى: ١ – ٥]. وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ – الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ – وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ – وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ – وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ}[المؤمنون: ١ – ٥]. إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}. هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَهُمُ الَّذِينَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، وَهُمُ الْمُفْلِحُونَ.

وَلَكِنْ فَصَّلَ إِيمَانَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَجْمَلَهُ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّ مُجَرَّدَ دَعْوَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ يَنْفَعُ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، فَلَوْ قَالَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ: أَنَا أُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُؤْمِنُ بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ، لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، حَتَّى يُؤْمِنَ بِجَمِيعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَمَا

أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، وَلَوْ كَانُوا صِنْفًا آخَرَ لَكَانَ الْمُفْلِحُونَ قِسْمَيْنِ: قِسْمًا يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، وَقِسْمًا يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَهَذَا بَاطِلٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَإِنَّ الْإِيْمَانَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَإِلَى مَنْ قَبْلَهُ يَتَضَمَّنُ الْإِيْمَانَ بِالْغَيْبِ، وَالْإِيْمَانُ بِالْغَيْبِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِيْمَانِ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال ابن كثير: لَكِنْ لِمُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ خُصُوصِيَّةٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِمَا بِأَيْدِيهِمْ مُفَصَّلًا فَإِذَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَآمَنُوا بِهِ مُفَصَّلًا كَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَإِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ الْإِيمَانُ، بِمَا تَقَدَّمَ مُجْمَلًا كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: ((إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ(١))) وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ إِيمَانُ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ وَأَعَمَّ وَأَشْمَلَ مِنْ إِيمَانِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَهُمْ وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَجْرَانِ مِنْ تِلْكَ الْحَيْثِيَّةِ، فَغَيْرُهُمْ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التَّصْدِيقِ مَا يُنِيفُ(٢)ثَوَابُهُ عَلَى الْأَجْرَيْنِ اللَّذَيْنِ حُصِّلَا لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن من أوصاف المتّقين الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ وما أنزل من قبله.

٢- أن من أوصاف المتّقين الإيقان بالآخرة على ما سبق بيانه في التفسير.

٣- أهمية الإيمان بالآخرة؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث على العمل؛ ولهذا يقرن الله تعالى دائمًا الإيمان به عز وجل، وباليوم الآخر؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث على العمل؛ إنما يعمل لدنياه فقط: يعتدي ما دام يرى أن ذلك مصلحة في دنياه: يسرق مثلًا؛ يتمتع بشهوته؛ يكذب؛ يغش ...؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة؛ فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث على العمل.

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

قال أبو زهرة: ذكر الله تعالى ما تحلّى به المتقون الذين يؤمنون بما غيَّبه الله تعالى عنهم، ودلت عليه الفطرة، والذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله تعالى، ويؤمنون بالرسالات الإلهية، ويوقنون بالآخرة، وبعد أن ذكر هذا ذكر سبحانه وتعالى حُكْمَه - تعالت كلماته - عليهم، مؤكدا ذلك، فقال: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}، و{أولئك}: إشارة إلى حالهم موصوفين بهذه الصفات قائمين بهذه الصفات، والإشارة إلى الصفات وتعقيب الحكم بعد الإشارة يومئ

١- صحيح البخاري برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- ينيف: يزيد.

إلى أن هذه الصفات هي علة الحكم بأنهم على هدى من ربهم، وكرّرت الإشارة لبيان أن هذه الصفات أيضًا هي سبب الفوز بالنعيم المقيم، والبعد عن العذاب الأليم، فالتكرار للتنبيه على أنها سبب للثانية كما هي سبب للأولى.

والتعبير بـ{عَلَى هُدًى}: بالتعدية بعلى إشارة إلى العلو على الهدى والتمكن، كما يقال: (ركب فلان متن الغواية)، أو (علا على الهداية)، فكأنه صار مستمكنًا عليها لا يفارقها، ولا تفارقه. فأصحاب هذه الصفات العالية ينالون الهداية ولا يزايلونها، فهم في هداية دائمة مستمرة.

قال ابن العثيمين: {على هدًى}: أي على علم، وتوفيق؛ و{على}: للاستعلاء؛ وتفيد علوَّهم على هذا الهدى، وسيرهم عليه، كأنهم يسيرون على طريق واضح بيّن؛ فليس عندهم شك؛ تجدهم يُقبلون على الأعمال الصالحة وكأن سراجًا أمامهم يهتدون به: تجدهم مثلًا ينظرون في أسرار شريعة الله، وحِكَمها، فيعلمون منها ما يخفى على كثير من الناس؛ وتجدهم أيضًا عندما ينظرون إلى القضاء والقدر كأنما يشاهدون الأمر في مصلحتهم حتى وإن أصيبوا بما يضرهم أو يسوئهم، يرون أن ذلك من مصلحتهم؛ لأن الله قد أنار لهم الطريق؛ فهم على هدًى من ربهم وكأن الهدى مركب ينجون به من الهلاك، أو سفينة ينجون بها من الغرق؛ فهم متمكنون غاية التمكن من الهدى؛ لأنهم عليه.

قال السعدي: وفي الضلالة يأتي بـ(في) كما في قوله: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين}، لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

قال أبو زهرة: {مِّن رَّبِّهِمْ}: معناها أن هذه الهداية جاءتهم من ربِّهم الذي رَبَّهم وكوَّنهم ووفَّقهم إلى سبيل الخير والعمل الصالح، والإيمان واليقين باليوم الآخر، فإسناد الهداية إلى أنها من الرب الكريم بيان لشرفها واستمرارها مع تمكُّنهم منها، لأنها من رب هذا الوجود الذي رَبَّهُ ونماه وهذبه وأعلاه.

وهنا إشارتان بيانيتان:

إحداهما: الإشارة بالبعيد لوجود اللام، والبُعد هنا بُعد المنزلة، وعلوّها وشرفها، فهؤلاء الأتقياء الأطهار الذين نزهت نفوسهم، وسامتوا([1])أعلى العلاء، يشار إليهم بالبعيد إعلاءً وتشريفًا وتكريمًا.

الثانية: تكرار اسم الإشارة أولئك، ففي هذا التكرار بيان تنويع الفضل الذي حكم الله تعالى عليهم، فهو قد حكم سبحانه وتعالى عليهم حكمين كريمين أولهما: الهداية الكاملة الدائمة التي نالوها، وركبوا متنها وعلوا عليها، والحكم الثاني: أنهم ينالون الفوز، والفوز هنا هو الفوز في الدنيا بعلوِّ نفوسهم، واستقامتها، والاتجاه إلى معالي الأمور ورضا الله تعالى، وهو أكبر جزاء، فرضوان من الله أكبر، والفوز في الآخرة بالنعيم المقيم.

وقد أكّد سبحانه وتعالى ذلك الفلاح الذي ينالونه بالجملة الاسمية، فالتعبير بالجملة الاسمية يدل على دوام الفلاح، وأنه دائم بدوام من يعطيه، وهو رب العالمين، وأكده بتعريف الطرفين، وهما اسم الإشارة، وكلمة: {المفلحون}، وتعريف الطرفين يدل على القصر، أي أنهم هم المفلحون وحدهم دون غيرهم، فهم قد خلصت قلوبهم وعقولهم وكل

١- سَامَتَ الشيء: قابله ووازاه وواجهه. [الوسيط - س م ت].

مداركهم للحق جل جلاله، وفاضوا بخيرهم، وتحملوا المشاف في سبيلهم، وآمنوا بكل الرسالات، ولم يطمعوا بغير أن يعدّوا أنفسهم لحكم ربهم.

وأكَّد سبحانه وتعالى الحكم بأنهم المفلحون دون غيرهم بضمير الفصل وهو {هُمُ} فإن في ذكره فضل التأكيد بأنهم المفلحون وحدهم، وأنه لَا ينال منالهم إلا من سلك مثل سبيلهم، واختار مثل طريقهم.

و(المفلح): من الفَلْح بمعنى الشق والقطع، ويطلق المفلح على الفائز، فكأنه قد شق الطريق، ونالته المتاعب حتى نال مطلوبه، وفاز بمرغوبه، فما وصل إليه إلا بجهد جاهد، وعمل ولُغوب حتى نال ما نال، وذلك هو الفلاح، فلا فلاح إلّا إذا كان ثمرة لجد وجهاد، وطلب، وسير في الطريق إلى غايته، فالفوز الرخيص بأمر لا يعدُّ فلاحًا.

قال السعدي: {وأولئك هم المفلحون}: والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك.

قال ابن العثيمين: الجملة مبتدأ وخبر، بينهما ضمير الفصل الدالّ على التوكيد، والحصر؛ وأعيد اسم الإشارة تأكيدًا لما يفيده اسم الإشارة الأول من علوّ المرتبة، والعناية التامة بهم كأنهم حضروا بين يدي المتكلم؛ وفيه الفصل بين الغاية، والوسيلة؛ فالغاية: الفلاح؛ ووسيلته: ما سبق؛ و(الفلاح) هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة ج٣ص١١٢٩: وكما جعل سبحانه الهدى والفلاح لمن اتبع كتابه وآمن به وقدمه على غيره جعل الضلال والشقاء لمن أعرض عنه واتبع غيره وعارضه برأيه ومعقوله وقياسه قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة: ٢٥٧]، وقال: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ}[القمر: ٤٧]، وقال: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}[طه: ١٢٤]، فوصفه بالعمى الذي هو ضد الهدى وبالمعيشة الضنك التي هي ضد السعادة فكتاب الله أوله هداية وآخره سعادة وكلام المعارضين له بمعقولهم أوله ضلال وآخره شقاوة.

(تنبيه)

من المعروف عند أهل العلم أن العطف يقتضي المغايرة. أي أن المعطوف غير المعطوف عليه؛ وقد ذكرنا أن هذه المعطوفات أوصاف للمتقين وهو موصوف واحد؛ فكيف تكون المغايرة؟

والجواب: أن التغاير يكون في الذوات كما لو قلت: (قدم زيد، وعمرو)؛ ويكون في الصفات كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدَّر فهدى * والذي أخرج المرعى} [الأعلى: ١، ٤]؛ قالوا: والفائدة من ذلك أن هذا يقتضي تقرير الوصف الأول. كأنه قال: (أتصف بهذا وزيادة).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- سلامة هؤلاء في منهجهم؛ لقوله تعالى: {أولئك على هدًى من ربهم}.

٢- أن ربوبية الله عزّ وجلّ تكون خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قوله تعالى عن سحرة فرعون: {آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون}[الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

٣- أن مآل هؤلاء هو الفلاح؛ لقوله تعالى: {وأولئك هم المفلحون}.

٤- أن الفلاح مرتب على الاتصاف بما ذُكر؛ فإن اختلَّت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات؛ لأن الصحيح من قول أهل السنة والجماعة، والذي دلّ عليه العقل والنقل، أن الإيمان يزيد، وينقص، ويتجزأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات: هناك رتب كما جاء في الحديث: ((إن أهل الجنة ليتراءون أصحاب الغرف كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال ﷺ لا؛ والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين([1]))، أي ليست خاصة بالأنبياء.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)

قال ابن العثيمين: ثم ذكر الله قسمًا آخر. وهم الكافرون الخلَّص؛ ففي هذه السورة العظيمة ابتدأ الله تعالى فيها بتقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام: المؤمنون الخلَّص؛ ثم الكافرون الخلّص؛ ثم المؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم؛ فبدأ بالطيب، ثم الخبيث، ثم الأخبث؛ إذًا الطيب: هم المتقون المتصفون بهذه الصفات؛ والخبيث: الكفار؛ والأخبث: المنافقون.

{سواء}: أي مستوٍ؛ وهي إما أن تكون خبر {إن}، في قوله تعالى: {إن الذين كفروا}؛ ويكون قوله تعالى: {أأنذرتهم}، فاعلًا بـ{سواء}، مسبوكًا بمصدر؛ والتقدير: سواء عليهم إنذارُك، وعدمُه؛ وإما أن تكون {سواء}، خبرًا مقدمًا، و{أأنذرتهم}، مبتدأً مؤخرًا؛ والجملة خبر {إن}؛ والأول أولى؛ لأنه يجعل الجملة جملة واحدة؛ وهنا انسبك

١- أخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٥٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٠، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ٣: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، حديث رقم ٧١٤٤ [١١] ٢٨٣١.

قوله تعالى: {أأنذرتهم}، بمصدر مع أنه ليس فيه حرف مصدري؛ لكنهم يقولون: إن همزة الاستفهام التي للتسوية يجوز أن تسبك، ومدخولها بمصدر.

{إن الذين كفروا}، أي بما يجب الإيمان به.

{سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}: هذا تسلية من الله لرسوله ﷺ. لا اعتذارًا للكفار، ولا تيئيسًا له ﷺ و(الإنذار) هو الإعلام المقرون بالتخويف؛ والرسول ﷺ بشير، ونذير؛ بشير معلم بما يسر بالنسبة للمؤمنين؛ نذير معلم بما يسوء بالنسبة للكافرين؛ فإنذار النبي ﷺ وعدمه بالنسبة لهؤلاء الكفار المعاندين، والمخاصمين. الذين تبين لهم الحق، ولكن جحدوه. مستوٍ عليهم.

وقوله تعالى: {لا يؤمنون}: هذا محط الفائدة في نفي التساوي. أي إنهم أنذرتهم أم لم تنذرهم. لا يؤمنون؛ وتعليل ذلك قوله تعالى: {ختم الله على قلوبهم}، وال{ختم}: الطبع؛ وال{طبع}: هو أن الإنسان إذا أغلق شيئًا ختم عليه من أجل ألا يخرج منه شيء، ولا يدخل إليه شيء؛ وهكذا فهؤلاء. والعياذ بالله. قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير، ولا يصل إليها خير.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٥٨٤: فَإِنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِمَنْ يَمُوتُ كَافِرًا. وَهَذَا مَنْقُولٌ عَنْ مُقَاتِلٍ، كَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}. وَكَذَلِكَ نُقِلَ عَنْ الضَّحَّاكِ. قَالَا: نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ، كَأَبِي جَهْلٍ، وَأَبِي طَالِبٍ، وَأَبِي لَهَبٍ، مِمَّنْ لَمْ يُسْلِمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَخَمْسَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ.

وَطَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ لَمْ يَذْكُرُوا غَيْرَ هَذَا الْقَوْلِ، كَالثَّعْلَبِيِّ والبغوي وَابْنِ الْجَوْزِيِّ. قَالَ البغوي: هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَقْوَامٍ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الشَّقَاوَةِ فِي سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ قَالَ شَيْخُنَا عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ: وَهَذِهِ الْآيَةُ وردَتْ بِلَفْظِ الْعُمُومِ وَالْمُرَادُ بِهَا الْخُصُوصُ؛ لِأَنَّهَا آذَنَتْ بِأَنَّ الْكُفَّارَ حِينَ إنْذَارِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَقَدْ آمَنَ كَثِيرٌ مِنْ الْكُفَّارِ عِنْدَ إنْذَارِهِمْ. وَلَوْ كَانَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا فِي الْعُمُومِ لَكَانَ خَبَرُ اللَّهِ بِخِلَافِ مُخْبِرِهِ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ نَقْلُهَا إلَى الْخُصُوصِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْآيَةَ عَلَى مُقْتَضَاهَا، وَالْمُرَادُ بِهَا أَنَّ الْإِنْذَارَ وَعَدَمَهُ سَوَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْكَافِرِ مَا دَامَ كَافِرًا، لَا يَنْفَعُهُ الْإِنْذَارُ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ، كَمَا قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْآيَاتِ أَنَّهَا غَيْرُ مُوجِبَةٍ لِلْإِيمَانِ. وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[يونس: ١٠١].

فَالْآيَاتُ أُفُقِيَّةٌ، وَأَرْضِيَّةٌ، وَقُرْآنِيَّةٌ، وَهِيَ أَدِلَّةُ الْعِلْمِ. وَالْإِنْذَارُ يَقْتَضِي الْخَوْفَ. فَالْآيَاتُ لِمَنْ إذَا عَرَفَ الْحَقَّ عَمِلَ بِهِ، فَهَذَا تَنْفَعُهُ الْحِكْمَةُ. وَالْإِنْذَارُ لِمَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَهُ هَوًى يَصُدُّهُ فَيُنْذَرُ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَدْعُوهُ إلَى مُخَالَفَةِ هَوَاهُ، وَهُوَ خَوْفُ الْعَذَابِ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَى الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ. وَآخَرُ لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ فَيَحْتَاجُ إلَى الْجَدَلِ، فَيُجَادِلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}[الأنعام: ١١١]، وَقَالَ {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}[النازعات: ٤٥]، {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ}[يس: ١١].

فَالْمُرَادُ أَنَّ الْكَافِرَ مَا دَامَ كَافِرًا لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ سَوَاءٌ أُنْذِرَ أَمْ لَمْ يُنْذَرْ، وَلَا يُؤْمِنُ مَا دَامَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ مَوَانِعَ تَصُدُّ عَنِ الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ. وَهَكَذَا حَالُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَاهُ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ (إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ). وَقِيلَ ذَلِكَ لِمَنْ سَبَقَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، أَوْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الْكَلِمَةُ، كَقَوْلِهِ {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}[يونس: ٩٦، ٩٧]، فَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ وَقْتَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، كَإِيمَانِ فِرْعَوْنَ الْمَذْكُورِ قَبْلَهَا. وَمُوسَى قَدْ دَعَا عَلَيْهِ فَقَالَ: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا}[يونس: ٨٨، ٨٩].

وَأَمَّا إِذَا أَطْلَقَ سُبْحَانَهُ الْكُفَّارَ فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ} الْآيَةَ [الأنعام: ١١١]. فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ قَدْ يُؤْمِنُوا إِذَا شَاءَ.

وَآيَةُ الْبَقَرَةِ مُطْلَقَةٌ عَامَّةٌ. فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ أَرْبَعَ آيَاتٍ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَيْنِ فِي صِفَةِ الْكَافِرِينَ، وَبِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً فِي الْمُنَافِقِينَ. فَبَيَّنَ حَالَ الْكَافِرِ الْمُصِرِّ عَلَى كُفْرِهِ أَنَّ الْإِنْذَارَ لَا يَنْفَعُهُ لِلْحُجُبِ الَّتِي عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ. وَلَيْسَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَسْمَعُ وَيَقْبَلُ. وَلَكِنْ هُوَ حِينَ يَكُونُ كَافِرًا لَا تَتَنَاوَلُهُ الْآيَةُ.

وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ: لَا يَجُوزُ أَنْ تُعْقَدَ لَهُ الذِّمَّةُ، وَلَا يَكُونُ قَطُّ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ مَا دَامَ حَرْبِيًّا.

فَالْكُفَّارُ مَا دَامُوا كُفَّارًا هُمْ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ. لَهُمْ مَوَانِعُ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ كَمَا أَنَّ لِلْمُنَافِقِينَ مَوَانِعَ تَمْنَعُهُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ وَإِنْ أُنْذِرُوا. وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة: ١٧١]، فَهَذَا مِثْلُ كُلِّ كَافِرٍ مَا دَامَ كَافِرًا.

وَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ يَسْمَعُونَ إِذَا زَالَ الْغِطَاءُ الَّذِي عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ لِذَلِكَ الْمَعْنَى الْمُشْتَقِّ مِنْهُ وَهُوَ الْكُفْرُ. فَمَا دَامُوا هَذِهِ حَالُهُمْ فَهُمْ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ تَغَيُّرَ الْحَالِ مُمْكِنٌ، كَمَا قَالَ: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، وَكَمَا هُوَ الْوَاقِعُ.

وَمِثْلُ هَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِدُعَائِهِ وَإِنْذَارِهِ وَبَيَانِهِ يَحْصُلُ الْهُدَى، وَلَوْ كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا نَاصِحًا مُخْلِصًا فَقَدْ لَا يَسْتَجِيبُ الْمَدْعُوُّ؛ لَا لِنَقْصٍ فِي الدُّعَاءِ لَكِنْ لِفَسَادٍ فِي الْمَدْعُوِّ.

وَهَذَا لِأَنَّ حُصُولَ الْمَطْلُوبِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى فِعْلِ الْفَاعِلِ وَقَبُولِ الْقَابِلِ، كَالسَّيْفِ الْقَاطِعِ يُؤَثِّرُ بِشَرْطِ قَبُولِ الْمَحَلِّ فِيهِ لَا يَقْطَعُ الْحِجَارَةَ وَالْحَدِيدَ وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَالنَّفْخُ يُؤَثِّرُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ قَابِلٌ لَا يُؤَثِّرُ فِي الرَّمَادِ.

وَالدُّعَاءُ، وَالتَّعْلِيمُ، وَالْإِرْشَادُ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ لَهُ فَاعِلٌ وَهُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى وَالنِّذَارَةِ، وَلَهُ قَابِلٌ وَهُوَ الْمُسْتَمِعُ. فَإِذَا كَانَ الْمُسْتَمِعُ قَابِلًا حَصَلَ الْإِنْذَارُ التَّامُّ، وَالتَّعْلِيمُ، التَّامُّ وَالْهُدَى التَّامُّ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَابِلًا قِيلَ: عَلَّمْته فَلَمْ يَتَعَلَّمْ وَهَدَيْته فَلَمْ يَهْتَدِ، وَخَاطَبْته فَلَمْ يُصْغِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَقَوْلُهُ فِي الْقُرْآنِ: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، هُوَ مِنْ هَذَا. إنَّمَا يَهْتَدِي مَنْ يَقْبَلُ الِاهْتِدَاءَ، وَهُمْ الْمُتَّقُونَ، لَا كُلَّ أَحَدٍ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّقِينَ قَبْلَ اهْتِدَائِهِمْ، بَلْ قَدْ يَكُونُوا كُفَّارًا. لَكِنْ إنَّمَا يَهْتَدِي بِهِ مِنْ كَانَ مُتَّقِيًا. فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ اهْتَدَى بِالْقُرْآنِ. وَالْعِلْمُ وَالْإِنْذَارُ إنَّمَا يَكُونُ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْقُرْآنُ.

وَهَكَذَا قَوْلُهُ: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا}[يس: ٧]، الْإِنْذَارَ التَّامَّ، فَإِنَّ الْحَيَّ يَقْبَلُهُ. وَلِهَذَا قَالَ: {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}[يس: ٧٠]، فَهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِنْذَارَ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: {إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}[النازعات: ٤٥].

وَعَكْسُهُ قَوْلُهُ: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الْفَاسِقِينَ}[البقرة: ٢٦]، أَيْ كُلُّ مَنْ ضَلَّ بِهِ فَهُوَ فَاسِقٌ. فَهُوَ ذَمٌّ لِمَنْ يَضِلُّ بِهِ، فَإِنَّهُ فَاسِقٌ. لَيْسَ أَنَّهُ كَانَ فَاسِقًا قَبْلَ ذَلِكَ.

وَلِهَذَا تَأَوَّلَهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الْخَوَارِجِ، وَسَمَّاهُمْ " فَاسِقِينَ " لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا بِالْقُرْآنِ. فَمَنْ ضَلَّ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ فَاسِقٌ.

فَقَوْلُهُ: {إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَالتَّقْدِيرُ: مَنْ خَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ غِشَاوَةً فَسَوَاءٌ عَلَيْك أَنْذَرْته أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُ هُوَ لَا يُؤْمِنُ، أَيْ مَا دَامَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ هَذَا قَدْ يَزُولُ.

وَفِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ: {إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}[الأحزاب: ٤٥]، وحرزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْت عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُك (الْمُتَوَكِّلَ)، لَسْت بِفَظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صخّاب فِي الْأَسْوَاقِ. وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ. وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، فَأَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا[١].

وَقَدْ قَالَ: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[يس: ٦،٧]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ يُؤْمِنُونَ. ثُمَّ قَالَ: {إنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا}، إلَى قَوْلِهِ: {إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ}[يس: ٨ – ١١]، فَهَذَا هُوَ الْإِنْذَارُ التَّامُّ، وَهُوَ الْإِنْذَارُ الَّذِي يَقْبَلُهُ الْمُنْذَرُ وَيَنْتَفِعُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ}، هُوَ أَصْلُ الْإِنْذَارِ، كَمَا يُقَالُ فِي الْبَلِيدِ وَالْمَشْغُولِ الذِّهْنِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالشَّهَوَاتِ: سَوَاءٌ عَلَيْك أَعْلَمْته أَمْ لَمْ تُعْلِمْهُ لَا يَتَعَلَّمُ وَلَا يَقْبَلُ الْهُدَى، وَيُقَالُ فِي الذَّكِيِّ الْفَارِغِ: إنَّمَا يَتَعَلَّمُ مِثْلُ هَذَا. ثُمَّ الْمَشْغُولُ قَدْ يَتَفَرَّغُ. وَقَدْ يَصْلُحُ ذِهْنٌ بَعْدَ فَسَادِهِ وَيَفْسُدُ بَعْدَ صَلَاحِهِ لِفَسَادِ قَلْبِهِ وَصَلَاحِهِ.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَكْثَرُ تَفْسِيرِ السَّلَفِ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إسْحَاقَ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، أَيْ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْك، وَإِنْ قَالُوا: إنَّا قَدْ آمَنَّا بِمَا جَاءَنَا قَبْلَك، {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، أَيْ إنَّهُمْ قَدْ كَفَرُوا بِمَا عِنْدَهُمْ

١- البخاري في البيوع (٢١٢٥)، وأحمد ٢/١٧٤.

مِنْ ذِكْرِك وَجَحَدُوا مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْمِيثَاقِ فَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَك وَبِمَا عِنْدَهُمْ مِمَّا جَاءَهُمْ بِهِ غَيْرُك. فَكَيْفَ يَسْمَعُونَ مِنْك إنْذَارًا وَتَحْذِيرًا؟

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ الْإِنْذَارَ؛ لِكُفْرِهِمْ بِمَا عِنْدَهُمْ وَمَا جَاءَهُمْ مِنْ الْحَقِّ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِنْهُمْ خَلْقًا تَابُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَآمَنُوا.

وَرُوِيَ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: آيَتَانِ فِي قَادَةِ الْأَحْزَابِ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. قَالَ: هُمْ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}[ابراهيم: ٢٨].

قُلْت: جَعَلَهُمْ قَادَةَ الْأَحْزَابِ لِكَوْنِهِمْ أَضَلُّوا الْأَتْبَاعَ فَأَحَلُّوهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. وَالْأَحْزَابُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ قَدْ أَسْلَمَ عَامَّةُ قَادَتِهَا، وَحَسُنَ إسْلَامُهُمْ، مِثْلُ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَأَبِي سُفْيَان. وَهَؤُلَاءِ أَسْلَمَ مِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ، وَهُمْ الطُّلَقَاءُ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ قَبْلَ ذَلِكَ. وَالْحِزْبُ الْآخَرُ غطفان، وَقَدْ أَسْلَمُوا أَيْضًا.

وَالْآيَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَنَاوَلَ كُفَّارَ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ فَإِنَّ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَإِنْ تَنَاوَلَتْ مَعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ. فَهِيَ تَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ. وَمُقَاتِلٌ، وَالضَّحَّاكُ يَخُصُّهَا بِبَعْضِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ. وَابْنُ السَّائِبِ يَقُولُ: هِيَ إنَّمَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ مِنْهُمْ حيي بْنُ أَخْطَبَ. وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إسْحَاقَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهَا فِي الْيَهُودِ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ يَقُولُ: إنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَادَةِ الْأَحْزَابِ.

وَالْآيَةُ تَعُمُّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ وَغَيْرَهُمْ، كَمَا أَنَّ آيَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ الْمَوْجُودِينَ وَقْتَ النُّزُولِ، وَهِيَ تَعُمُّهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ قَوْلَهُ: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، كَقَوْلِهِ: {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ}[الروم: ٥٢، ٥٣]، وَقَوْلَهُ: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}[يونس: ٤٢، ٤٣].

وَكُلُّ هَذَا فِيهِ بَيَانُ أَنَّ مُجَرَّدَ دُعَائِك وَتَبْلِيغِك وَحِرْصِك عَلَى هُدَاهُمْ لَيْسَ مُوجِبُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إذَا شَاءَ اللَّهُ هُدَاهُمْ فَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ}[النحل: ٣٧]، فَفِيهِ تَعْزِيَةٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَبَيَّنَتْ الْآيَةُ لَهُ أَنَّ تَبْلِيغَك وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَفِيهِ مَصَالِحُ عَظِيمَةٌ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ. فـ{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا}[الكهف: ١٧]، وَقَدْ قَالَ لَهُ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}[القصص: ٥٦]. فَفِيهِ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ، وَتَقْرِيرُ مَقْصُودِ الرِّسَالَةِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَمَّنْ لَا يُؤْمِنُ فَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ}[يونس: ٩٦،٩٧]. وَقَالَ: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}[يس: ٦] ثُمَّ قَالَ: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ}[يس: ٧]. فَخصَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَفِي تِلْكَ: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}. وَهُمْ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ، أَيْ حَقَّ عَلَيْهِمْ مَا قَالَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ، وَقَدَّرَهُ. فَجَعَلَ الْمُوجِبَ هُوَ التَّقْدِيرُ السَّابِقُ، وَهُوَ قَوْلُهُ.

وَالْقَوْلُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ خَبَرًا مُجَرَّدًا بِمَا سَيَكُونُ وَقَدْ يَكُونُ قَوْلًا يَتَضَمَّنُ أَشْيَاءَ كَالْيَمِينِ، الْمُتَضَمِّنَة لِلْحَضِّ وَالْمَنْعِ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ تَقَدُّمَ الْيَمِينِ، كَقَوْلِهِ: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}[السجدة: ١٣]، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّا قَالَهُ، أَوْ قَالَهُ وَكَتَبَهُ. وَهُوَ التَّقْدِيرُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ قَدَّرَ مَا يَفْعَلُهُ، وَعَلِمَهُ، وَكَتَبَهُ، كَمَا تَظَاهَرَتْ النُّصُوصُ بِأَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. وَالْقَدَرُ تَضَمَّنَ عِلْمَهُ بِمَا سَيَكُونُ، وَمَشِيئَتَهُ لِوُجُودِ مَا قَدَّرَهُ وَعَلِمَ أَنْ سَيَخْلُقُهُ.

وَالْقَوْلُ، قَدْ يَكُونُ خَبَرًا، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ مَعْنَى الطَّلَبِ الْحَضِّ وَالْمَنْعِ بِالْقَسَمِ، وَإِمَّا لِكِتَابَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[الأنعام: ٥٤]، وَقَوْلِهِ: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[الروم: ٤٧]، وَقَوْلِهِ: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا[1])).

وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}[الزمر: ٧١]، فَهَذَا مُخْتَصٌّ بِالْكُفَّارِ. وَهُوَ الْوَعِيدُ الْمُتَضَمِّنُ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِإِبليس: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}[ص: ٨٥].

وَقَوْلُهُ: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى}[طه: ١٢٩]، أَيْ إِنَّ عَذَابَهُمْ لَهُ أَجَلٌ مُسَمًّى، إِمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِمَّا فِي الدُّنْيَا كَيَوْمِ بَدْرٍ، وَإِمَّا عَقِبَ الْمَوْتِ وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ. فَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّك إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَكَانَ الْعَذَابُ لِزَامًا أَيْ لَازِمًا لَهُمْ. فَإِنَّ الْمُقْتَضِي لَهُ قَائِمٌ تَامٌّ، وَهُوَ كُفْرُهُمْ.

وَأَمَّا إذَا أَطْلَقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ، فَإِنَّهُ لَا يُرِيدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ. فَإِنَّ اللَّفْظَ لَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ. وَأَيْضًا، فَإِنَّ هَذَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، إذْ كَانَ أُولَئِكَ غَيْرُ مَعْرُوفِينَ، وَإِنَّمَا هُمْ طَائِفَةٌ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ، وَهُمْ لَا يَتَمَيَّزُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ. بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِإِنْذَارِ الْجَمِيعِ، وَفِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ. فَذَكَرَ اللَّفْظَ الْعَامَّ؛ وَإِرَادَةُ أُولَئِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْمُرَادِ الْخَاصِّ. وَذَكَرَ الْمَعْنَى الَّذِي أَوْجَبَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ قَطُّ، وَلَا فِيهِ تَعْلِيقُ الْحُكْمِ بِالْمَعْنَى الْعَامِّ. وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى يُصَانُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ.

وَمَا ذَكَرَ مِنْ الْمَوَانِعِ هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ الْإِنْذَارَ، سَوَاءٌ كَانَ كَافِرًا، أَوْ مُنَافِقًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، لِسَبَبٍ يُوجِبُ ذَلِكَ، فَيَمْتَنِعُ قَبُولُ الْإِنْذَارِ بِسَبَبِ الْمَوَانِعِ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَوَانِعَ قَدْ تَزُولُ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَازِمَةً لِكُلِّ كَافِرٍ.

وَإِذَا كَانَ الْمَانِعُ مَا سَبَقَ مِنْ الْقَوْلِ الَّذِي حَقَّ عَلَيْهِمْ فَقَدْ لَا يَزُولُ أَبَدًا، كَمَا قَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}[يونس: ٩٦، ٩٧]. وَقَدْ يَذْكُرُ هَذَا وَهَذَا.

وَأَمَّا إذَا اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْمَوَانِعِ الَّتِي فِيهِمْ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَا سَبَقَ مِنْ الْقَوْلِ، فَهَذِهِ الْمَوَانِعُ يُرْجَى زَوَالُهَا وَيُمْكِنُ، مَا لَمْ يَذْكُرْ مَعَهَا مَا يَقْتَضِي امْتِنَاعَ تَغَيُّرِ حَالِهِمْ وَحُصُولَ الْهُدَى.

١- مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧/٥٥).

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

قال الشنقيطي: لَا يَخْفَى أَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: {وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ}، مُحْتَمِلَةٌ فِي الْحَرْفَيْنِ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَأَنْ تَكُونَ اسْتِئْنَافِيَّةً، وَلَمْ يُبَيِّنْ ذَلِكَ هُنَا، وَلَكِنْ بَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ قَوْلَهُ: {وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: {عَلَى قُلُوبِهِمْ}، وَأَنَّ قَوْلَهُ: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ}، اسْتِئْنَافٌ، وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ: {غِشَاوَةٌ}، وَسَوَّغَ الِابْتِدَاءَ بِالنَّكِرَةِ فِيهِ اعْتِمَادُهَا عَلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ قَبْلَهَا، وَلِذَلِكَ يَجِبُ تَقْدِيمُ هَذَا الْخَبَرِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَوَّغَ الِابْتِدَاءَ بِالْمُبْتَدَأِ كَمَا عَقَدَهُ فِي (الْخُلَاصَةِ) بِقَوْلِهِ: (الرَّجَزُ)

وَنَحْوَ عِنْدِي دِرْهَمٌ وَلِي وَطَرْ ... مُلْتَزَمٌ فِيهِ تَقَدُّمُ الْخَبَرْ

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الْخَتْمَ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَأَنَّ الْغِشَاوَةَ عَلَى الْأَبْصَارِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً}[٤٥ \ ٢٣]، وَالْ{خَتْمُ}: الِاسْتِيثَاقُ مِنَ الشَّيْءِ حَتَّى لَا يَخْرُجَ مِنْهُ دَاخِلٌ فِيهِ وَلَا يَدْخُلَ فِيهِ خَارِجٌ عَنْهُ، وَالْغِشَاوَةُ: الْغِطَاءُ عَلَى الْعَيْنِ يَمْنَعُهَا مِنَ الرُّؤْيَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَارِثِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْعَاصِ: (الطَّوِيلُ)

هَوِيتُكِ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ ... فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلُومُهَا

وَعَلَى قِرَاءَةِ مَنْ نَصَبَ {غِشَاوَةٌ}، فَهِيَ مَنْصُوبَةٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ أَيْ: {وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً}[٤٥ \ ٢٣]، كَمَا فِي سُورَةِ [الْجَاثِيَةِ] وَهُوَ كَقَوْلِهِ: (الرَّجَزُ) عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا ... حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا

وَقَوْلِ الْآخَرِ: (مُرَفَّلُ الْكَامِلِ) وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ فِي الْوَغَى ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحَا

وَقَوْلِ الْآخَرِ: (الْوَافِرُ) إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا ... وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي النَّحْوِ، وَأَجَازَ بَعْضُهُمْ كَوْنَهُ مَعْطُوفًا عَلَى مَحَلِّ الْمَجْرُورِ، فَإِنْ قِيلَ: قَدْ يَكُونُ الطَّبْعُ عَلَى الْأَبْصَارِ أَيْضًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ}[الْآيَةَ: ١٠٨].

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الطَّبْعَ عَلَى الْأَبْصَارِ الْمَذْكُورَ فِي آيَةِ النَّحْلِ: هُوَ الْغِشَاوَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْجَاثِيَةِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال ابن العثيمين: والختم على الأذن: أن لا تسمع خيرًا تنتفع به.

و{غشاوة}: أي غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ ولو نظرت لم تنتفع.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج١ص٨٨: وَهَذِه مدارك الْعلم الثَّلَاث قد فَسدتْ عَلَيْهِم، وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {أَفَرَأَيْت من اتخذ إلهه هَوَاهُ واضله الله على علم وَختم على سَمعه وَقَلبه وَجعل على بَصَره غشاوة فَمن يهديه من بعد الله أَفلا تذكرُونَ}، وَقَوله: {وأضله الله على علم}، قَالَ سعيد بن جُبَير: على علمه تَعَالَى فِيهِ، قَالَ الزّجاج: أَي على مَا سبق فِي علمه تَعَالَى انه ضال قبل ان يخلقه، وَختم على سَمعه، أَي طبع عَلَيْهِ فَلم يسمع الْهدى، وعَلى قلبه

فَلم يعقل الْهدى، وعَلى بَصَره غشاوة فَلَا يبصر اسباب الْهدى، وَهَذَا فِي الْقُرْآن كثير مِمَّا يبين فِيهِ مُنَافَاة الضلال للْعلم، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: {وَمِنْهُم من يستمع اليك حَتَّى إِذا خَرجُوا من عنْدك قَالُوا اللَّذين اوتوا الْعلم مَاذَا قَالَ آنِفًا أولئك الَّذين طبع الله على قُلُوبهم}، فَلَو كَانُوا علمُوا مَا قَالَ الرُّسُل لم يسْأَلُوا أهل الْعلم مَاذَا قَالَ، وَلما كَانَ مطبوعًا على قُلُوبهم.

وقال رحمه الله في شفاء العليل ج١ص٩١: والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بيّنه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعةً وسجيةً، فتأمل هذا المعنى في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك.

قال ابن العثيمين: {ولهم}: أي لهؤلاء الكفار الذين بقوا على كفرهم، {عذاب عظيم}: وهو عذاب النار؛ وعظمه الله تعالى؛ لأنه لا يوجد أشد من عذاب النار.

قال البغوي: {وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ}: أَيْ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الدَّائِمُ فِي الْعُقْبَى، والعذاب: كل ما يعيي الْإِنْسَانَ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ، قَالَ الْخَلِيلُ بن أحمد: الْعَذَابُ مَا يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنْ مُرَادِهِ، وَمِنْهُ الْمَاءُ الْعَذْبُ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْعَطَشَ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- تسلية الرسول ﷺ حين يردُّه الكفار، ولا يقبلون دعوته.

٢- أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن مهما كان المنذِر والداعي؛ لأنه لا يستفيد. قد ختم الله على قلبه، كما قال تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: {أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار}[الزمر: ١٩]: يعني هؤلاء لهم النار؛ انتهى أمرهم، ولا يمكن أن تنقذهم.

٣- أن الإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى فإن فيه شبهاً من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله.

٤- أن محل الوعي القلوب؛ لقوله تعالى: {ختم الله على قلوبهم}، يعني لا يصل إليها الخير.

٥- أن طرق الهدى إما بالسمع؛ وإما بالبصر: لأن الهدى قد يكون بالسمع، وقد يكون بالبصر؛ بالسمع فيما يقال؛ وبالبصر فيما يشاهد؛ وهكذا آيات الله عزّ وجلّ تكون مقروءة مسموعة؛ وتكون بيّنة مشهودة.

٦- وعيد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم.

(مسألة)

إذا قال قائل: هل هذا الختم له سبب من عند أنفسهم، أو مجرد ابتلاء وامتحان من الله عزّ وجلّ؟

فالجواب: أن له سببًا؛ كما قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}[الصف: ٥]، وقال تعالى: {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية}[المائدة: ١٣].

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)

قال ابن العثيمين: {ومن الناس}: {من}، للتبعيض؛ أي: وبعض الناس؛ ولم يصفهم الله تعالى بوصف؛ لا بإيمان، ولا بكفر؛ لأنهم كما وصفهم الله تعالى في سورة النساء: {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء}[النساء: ١٤٣]؛ و{الناس}، أصلها الأناس؛ لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة تخفيفًا، كما قالوا في (خير)، و(شر): إن أصلهما: (أخير)، و(أشر)؛ لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال؛ وسُموا أناسًا: من الأُنس؛ لأن بعضهم يأنس بعضًا، ويركن إليه؛ ولهذا يقولون: (الإنسان مدني بالطبع)؛ بمعنى: أنه يحب المدنية. يعني الاجتماع، وعدم التفرق.

{من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر}: أي يقول بلسانه؛ بدليل قوله تعالى: {وما هم بمؤمنين}: أي بقلوبهم؛ وسبق معنى الإيمان بالله وباليوم الآخر.

قال الطبري: {وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ}: يعني بالبعث يوم القيامة، وإنما سُمّي يومُ القيامة {اليومَ الآخر}، لأنه آخر يوم، لا يومَ بعده سواه.

فإن قال قائل: وكيف لا يكون بعده يوم، ولا انقطاعَ للآخرة ولا فناء، ولا زوال؟

قيل: إن اليومَ عند العرب إنما سُمِّيَ يومًا بليلته التي قبله، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يسمَّ يومًا. فيوم القيامة يوم لا ليلَ بعده، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة، فذلك اليوم هو آخر الأيام. ولذلك سمّاه الله جل ثناؤه {اليوم الآخر}، ونعتَه بالعَقِيم. ووصفه بأنه يوم عَقيم، لأنه لا ليل بعده(١).

{وما هم بمؤمنين}، ونفيُه عنهم جلّ ذكره اسمَ الإيمان، وقد أخبرَ عنهم أنّهم قد قالوا بألسنتهم: آمَنَّا بالله وباليوم الآخر – فإن ذلك من الله جل وعزّ تكذيبٌ لهم فيما أخبَرُوا عن اعتقادهم من الإيمان والإقرار بالبعث، وإعلامٌ منه نبيَّه ﷺ أنّ الذي يُبْدونه له بأفواههم خلافُ ما في ضمائر قلوبهم، وضِدُّ ما في عزائم نفوسهم.

وفي هذه الآية دلالةٌ واضحة على بُطول ما زَعَمتْه الجهميةُ: من أنّ الإيمان هو التصديق بالقول، دون سائر المعاني غيره. وقد أخبر الله جل ثناؤه عن الذين ذكرهم في كتابه من أهل النفاق، أنهم قالوا بألسنتهم: {آمنا بالله وباليوم الآخر}، ثم نفَى عنهم أن يكونوا مؤمنين، إذْ كان اعتقادهم غيرَ مُصَدِّقٍ قِيلَهُم ذلك. وقوله: {وما هم بمؤمنين}: يعني بمصدِّقين، فيما يزعمون أنهم به مُصَدِّقون.

قال السعدي: واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان(٢))) وفي رواية: ((وإذا خاصم فجر(٣))).

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر، وأظهر الله المؤمنين وأعزَّهم، ذلَّ من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضًا عن كثير من فجورهم قال تعالى: {يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم}، فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}، فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: {وما هم بمؤمنين}، لأن الإيمان الحقيقي، ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٦ص٧٣: فكثير من الناس يُقِر بالحق ابتداءً، وإن لم يكن في قلبه إذ ذاك تكذيبٌ به أو بغضٌ له، بل لا يكون في قلبه حقيقة التصديق والمحبة، وإن كان فيه بعض ذلك، مع إقراره بلسانه وظاهره. وفرق بين ان يقوم بقلبه نقيضُ ما أظهره، وبين أن لا يحقق بقلبه ما أظهره، فإن الأول قام بقلبه كفرٌ وجودي،

١- وذلك قول ربنا سبحانه في سورة الحج: ٥٥: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}.

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري: (٣٣)، مسلم (٥٩).

٣- (قلت): البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

وهذا لم يقم بقلبه كفر وجودي، لكن لم يقم بقلبه حقيقة الإيمان، وإن كان قد دخل فيهم منادي الإيمان، إذ تكلموا به، وكان له أثر في قلوبهم، فهذا – والله أعلم – حال الموصوفين في سورة البقرة والمنافقين، فإنه قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخر وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}، فأخبر أنهم في الحقيقة لم يؤمنوا، وأن في قلوبهم مرضًا، والمرض يكون ريبًا وشكًّا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– بلاغة القرآن؛ بل فصاحة القرآن في التقسيم؛ لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السورة بالمؤمنين الخلَّص، ثم الكفار الخلَّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك؛ لأن التقسيم مما يزيد الإنسان معرفةً وفهمًا.

٢– أن القول باللسان لا ينفع الإنسان؛ لقوله تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}.

٣– أن المنافقين ليسوا بمؤمنين. وإن قالوا: إنهم مؤمنون.؛ لقوله تعالى: {وما هم بمؤمنين}؛ ولكن هل هم مسلمون؟ إن أريد بالإسلام الاستسلام الظاهر، فهم مسلمون؛ وإن أريد بالإسلام إسلام القلب والبدن، فليسوا بمسلمين.

٤– أن الإيمان لا بد أن يتطابق عليه القلب، واللسان؛ ووجه الدلالة: أن هؤلاء قالوا: {آمنا} بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم؛ فصح نفي الإيمان عنهم؛ لأن الإيمان باللسان ليس بشيء.

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)

قال الطبري: وخداعُ المنافق ربَّه والمؤمنينَ، إظهارُه بلسانه من القول والتصديق، خلافَ الذي في قلبه من الشكّ والتكذيب، ليدْرأَ عن نفسه، بما أظهر بلسانه، حكمَ الله عز وجلّ – اللازمَ مَن كان بمثل حاله من التكذيب، لو لم يُظْهِرْ بلسانه ما أظهرَ من التصديق والإقرار – من القَتْل والسِّباء. فذلك خِداعُه ربَّه وأهلَ الإيمان بالله.

فإن قال قائل: وكيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مُخادِعًا، وهو لا يظهر بلسانه خلافَ ما هو له معتقدٌ إلا تَقيَّةً؟

قيل: لا تمتنعُ العربُ من أنْ تُسمّي من أعطى بلسانه غيرَ الذي هو في ضميره تَقِيَّةً لينجو مما هو له خائف، فنجا بذلك مما خافه – مُخادِعًا لمن تخلص منه بالذي أظهر له من التَّقيّة. فكذلك المنافق، سُمِّي مخادعًا لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقيَّةً، مما تخلَّص به من القتل والسِّباء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مستبطِنٌ. وذلك من فعلِه – وإن كان خِدَاعًا للمؤمنين في عاجل الدنيا – فهو لنفسه بذلك من فعله خادعٌ، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها، أنه يُعطيها أمنيَّتها، ويُسقيها كأسَ سُرورها، وهو مُورِدُها به حِياض عَطَبها، ومجرِّعها به كأس عَذابها، ومُزِيرُها من غَضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به. فذلك خديعَتُه نفسه، ظَنًّا منه – مع إساءته إليها في أمر معادها – أنه إليها محسن، كما قال جل ثناؤه: {وما يخدَعُون إلّا أنفسهم ومَا يشعُرُون}، إعلامًا منه عبادَه المؤمنين أنَّ المنافقين

بإساءتهم إلى أنفُسهم في إسخاطهم رَّبهم بكُفْرهم وشكِّهم وتكذيبهم – غيرُ شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عَمْيَاء من أمرِهم مُقيمون.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ}:

إن قال قائل: أو ليس المنافقون قد خدعُوا المؤمنين – بما أظهرُوا بألسنتهم من قيل الحق – عن أنفسهم وأموالِهم وذَراريهم حتى سلمت لهم دنياهم، وإن كانوا قد كانوا مخدوعين في أمر آخرتهم؟

قيل: خَطأٌ أن يقال إنهم خَدعوا المؤمنين. لأنَّا إذا قلنا ذلك، أوجبنا لهم حقيقةَ خدعةٍ جازت لهم على المؤمنين. كما أنَّا لو قلنا: قتل فلان فلانًا، أوجبنا له حقيقةَ قتلٍ كان منه لفلان. ولكنا نقول: خادَعَ المنافقون رَبَّهم والمؤمنين، ولم يَخْدَعوهم بَل خَدعوا أنفسهم، كما قال جل ثناؤه، دون غيرها، نظيرَ ما تقول في رجل قاتَل آخر، فقتَل نفسَه ولم يقتُل صاحبه: قاتَل فلان فلانًا فلم يقتل إلا نفسه، فتوجبُ له مقاتَلةَ صاحبه، وتنفي عنه قتلَه صاحبَه، وتوجب له قتل نفسه. فكذلك تقول: (خادَعَ المنافقُ ربَّه والمؤمنين فلم يخدعْ إلا نفسه)، فتثبت منه مخادعةَ ربه والمؤمنين، وتنفي عنه أن يكونَ خَدع غير نَفسه، لأن الخادعَ هو الذي قد صحّت الخديعة له، وَوقع منه فعلُها. فالمنافقون لم يخدَعوا غيرَ أنفسهم، لأنّ ما كان لهم من مالٍ وأهلٍ، فلم يكن المسلمون مَلَكوه عليهم – في حال خِداعهم إياهم عنه بنفاقهم وَلا قَبْلها – فيستنقِذُوه بخداعهم منهم، وإنما دافعوا عنه بكذبهم وإظهارهم بألسنتهم غيرَ الذي في ضمائرهم، ويحكُم الله لهم في أموالهم وأنفسهم وذراريهم في ظاهر أمورِهم بحُكْم ما انتسبوا إليه من الملّة، والله بما يُخْفون من أمورِهم عالم. وإنما الخادع من خَتَل غيرَهُ عن شيئِه، والمخدوعُ غير عالم بموضع خديعةِ خادعِهِ. فأما والمخادَع عارفٌ بخداعِ صاحبه إياه غير لاحقِه من خداعه إيّاه مكروهٌ، بل إنما يَتجافى للظّانّ به أنه له مُخادع، استدراجًا ليبلغ غايةً يتكامل له عليه الحُجَّةُ للعقوبة التي هو بها مُوقع عند بلوغه إياها، والمُسْتَدرَج غيرُ عالم بحال نفسه عند مستدرِجِه، ولا عارف باطّلاعه على ضميره، وأنّ إمهالَ مستدرِجِه إياه، تركه معاقبته على جرمه ليبلغ المخاتِل المخادِعُ من استحقاقه عقوبةَ مستدرِجِه، بكثرة إساءته، وطولِ عِصيانه إياه، وكثرة صفح المستدرِج، وطول عفوه عنه أقصى غايةٍ فإنما هو خادع نفسه لا شك، دون من حدّثته نفسه أنه له مخادعٌ. ولذلك نَفى الله جل ثناؤه عن المنافق أن يكونَ خدَعَ غيرَ نفسه، إذ كانت الصِّفةُ التي وَصَفنا صفتَه.

وإذ كان الأمر على ما وصفنا من خِدَاع المنافق ربَّه وأهلَ الإيمان به، وأنه غير صائر بخداعه ذلك إلى خديعةٍ صحيحةٍ إلا لنفسه دون غيرها، لما يُوَرِّطها بفعله من الهلاك والعطب – فالواجب إذًا أن يكون الصحيح من القراءة: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ}، دون (وما يخادعون)، لأن لفظ (المخادع)، غير مُوجب تثبيتَ خديعةٍ على صحَّة، ولفظ (خادع)، موجب تثبيت خديعة على صحة. ولا شك أن المنافق قد أوْجبَ خديعة الله عز وجل لِنَفْسه بما رَكِبَ من خداعه ربَّه ورسولَه والمؤمنين – بنفاقه، فلذلك وجبَت الصِّحةُ لقراءة من قرأ: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ}.

ومن الدلالة أيضًا على أن قراءة من قرأ: {وَمَا يَخْدَعُونَ}، أولى بالصحة من قراءة من قرأ: (وما يخادعون)، أن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يُخادعون الله والمؤمنين في أول الآية، فمحال أن يَنفي عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه، لأن ذلك تضادٌّ في المعنى، وذلك غير جائزٍ من الله جلّ وعزّ.

{وَمَا يَشْعُرُونَ}: يعني وما يَدْرُون. يقال: ما شَعَرَ فلانٌ بهذا الأمر، وهو لا يشعر به – إذا لم يَدْرِ ولم يَعْلم – شِعرًا وشعورًا. وقال الشاعر: عَقَّوْا بِسَهمٍ وَلَمْ يَشْعُر بِهِ أَحَدٌ ... ثُمَّ اسْتَفَاءُوا وَقَالُوا: حَبَّذَا الوَضَحُ

يعني بقوله: لم يَشعر به، لم يدر به أحد ولم يعلم. فأخبر الله تعالى ذكره عن المنافقين: أنهم لا يشعرون بأن الله خادِعُهم، بإملائه لهم واستدراجِه إياهم، الذي هو من الله جل ثناؤه إبلا غٌ إليهم في الحجة والمعذرة، ومنهم لأنفسهم خديعةٌ، ولها في الآجل مَضرة.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى ج٦ص١٩: فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُخَادِعِينَ مَخْدُوعُونَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِك، وَأَنَّ اللَّهَ خَادِعٌ مَنْ يُخَادِعُهُ وَأَنَّ الْمَخْدُوعَ يَكْفِيهِ اللَّهُ شَرَّ مَنْ خَدَعَهُ، وَالْمُخَادَعَةُ هِيَ الِاحْتِيَالُ وَالْمُرَاوَغَةُ بِإِظْهَارِ الْخَيْرِ مَعَ إبْطَالِ خِلَافِهِ لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ. يُقَالُ: طَرِيقٌ خَدِعٌ إذَا كَانَ مُخَالِفًا لِلْقَصْدِ لَا يُفْطَنُ لَهُ، وَيُقَالُ: غُولٌ خَيْدَعٌ، وَيُقَالُ: لِلسَّرَابِ الْخَيْدَاعُ، وَضَبٌّ خَدِعٌ، أَيْ مُرَاوِغٌ. وَفِي الْمَثَلِ أَخْدَعُ مِنْ ضَبٍّ، وَخُلُقٌ خَادِعٌ، وَسُوقٌ خَادِعَةٌ أَيْ مُتَلَوِّنَةٌ. وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ، وَأَصْلُهُ الْإِخْفَاءُ وَالسَّتْرُ. وَمِنْهُ قِيلَ لِلْخِزَانَةِ: مِخْدَعٌ وَمُخْدَعٌ.

فَلَمَّا كَانَ قَوْلُ الْقَائِلِ: آمَنَّا بِاَللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ إنْشَاءً لِلْإِيمَانِ، أَوْ إخْبَارًا بِهِ وَحَقِيقَتُهُ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا فِي هَذَا الْإِنْشَاءِ وَالْإِخْبَارِ – بِحَيْثُ يَكُونُ قَلْبُهُ مُطْمَئِنًّا بِذَلِك، وَحُكْمُهُ أَنْ يَعْصِمَ دَمَهُ وَمَالَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مَا لِلْمُؤْمِنِينَ – كَانَ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ غَيْرَ مُبْطِنٍ لِحَقِيقَتِهَا، بَلْ مُرِيدًا لِحُكْمِهَا وَثَمَرَتِهَا فَقَطْ، مُخَادِعًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكَانَ جَزَاؤُهُ أَنْ يُظْهِرَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ – مَا يَظُنُّ أَنَّهُ كَرَامَةٌ وَفِيهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ، كَمَا أَظْهَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا ظَنُّوا أَنَّهُ إيمَانٌ وَفِي ضِمْنِهِ الْكُفْرُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- مكر المنافقين، وأنهم أهل مكر، وخديعة؛ لقوله تعالى: {يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم}؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين: {هم العدو فاحذرهم}[المنافقون: ٤]؛ فحصر العداوة فيهم؛ لأنهم مخادعون.

٢- التحفظ من المنافقين؛ لأنه إذا قيل لك: (فلان يخدع) فإنك تزداد تحفظًا منها؛ وأنه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظًا حذِرا، فلا ينخدع بمثل هؤلاء.

فإن قال قائل: كيف نعرف المنافق حتى نكون حذرين منه؟

فالجواب: نعرفه بأن نتتبع أقواله، وأفعاله: هل هي متطابقة، أو متناقضة؟ فإذا علمنا أن هذا الرجل يتملق لنا، ويظهر أنه يحب الإسلام، ويحب الدين، لكن إذا غاب عنا نسمع عنه بتأكد أنه يحارب الدين عرفنا أنه منافق؛ فيجب علينا أن نحذر منه.

٣- أن المكر السيئ لا يحيق إلّا بأهله؛ فهم يخادعون الله، ويظنون أنهم قد نجحوا، أو غلبوا؛ ولكن في الحقيقة أن الخداع عائد عليهم؛ لقوله تعالى: {وما يخدعون إلا أنفسهم}، فالحصر هنا يدل على أن خداعهم هذا لا يضر الله تعالى شيئًا، ولا رسوله، ولا المؤمنين.

٤- أن العمل السيئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يشعر الإنسان بالأمور الظاهرة؛ لقوله تعالى: {وما يشعرون}: أي ما يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم؛ و(الشعور)، أخص من العلم فهو العلم بأمور دقيقة خفية؛ ولهذا قيل: إنه مأخوذ من الشَّعر؛ والشعر دقيق؛ فهؤلاء الذين يخادعون الله، والرسول، والمؤمنين لو أنهم تأملوا حق التأمل لعرفوا أنهم يخدعون أنفسهم، لكن لا شعور عندهم في ذلك؛ لأن الله تعالى قد أعمى بصائرهم. والعياذ بالله، فلا يشعرون بهذا الأمر.

(مسألة)

إن قيل: كيف يكون خداعهم لله وهو يعلم ما في قلوبهم؟

فالجواب: أنهم إذا أظهروا إسلامهم فكأنما خادعوا الله؛ لأنهم حينئذ تُجرى عليهم أحكام الإسلام، فيلوذون بحكم الله – تبارك وتعالى – حيث عصموا دماءهم وأموالهم بذلك.

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

قال السعدي: والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية؛ فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات؛ والزنا، ومحبة الفواحش و المعاصي وفعلها، من مرض الشهوات؛ كما قال تعالى: {فيطمع الذي في قلبه مرض}، وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل(١)في أثواب العافية.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج١ص١١٠: ان الْقلب يَعْتَرِضهُ مرضان يتواردان عَلَيْهِ اذا استحكما فِيهِ كَانَ هَلَاكه وَمَوته، وهما مرض الشَّهَوَات، وَمرض الشُّبُهَات، هَذَانِ اصل دَاء الْخلق الا من عافاه الله، وَقد ذكر الله تَعَالَى هذَيْن المرضين فِي كِتَابه؛ اما مرض الشُّبُهَات وَهُوَ اصعبهما واقتلهما للقلب، فَفِي قَوْله فِي حق الْمُنَافِقين: {فِي قُلُوبهم مرض فَزَادَهُم الله مَرضا}، وَقَوله: {وليقول الَّذين فِي قُلُوبهم مرض والكافرون مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مثلا}، وَقَالَ تَعَالَى: {ليجعل مَا يلقِي الشَّيْطَان فتْنَة للَّذين فِي قُلُوبهم مرض والقاسية قُلُوبهم}، فَهَذِهِ ثَلَاثَة مَوَاضِع المُرَاد بِمَرَض الْقلب فِيهَا مرض الْجَهْل والشبهة، واما مرض الشَّهْوَة، فَفِي قَوْله: {يا نساء النَّبِي لستن كَأحد من النِّسَاء ان اتقيتن فَلَا

١- (قلت): أرْفَلَ في ثَوْبِه: إذا تَبَخْتَرَ. أنظر (معجم ديوان الأدب).

تخضعن بالْقَوْل فيطمع الَّذِي فِي قلبه مرض}، أَي لَا تلن فِي الْكَلَام فيطمع الَّذِي فِي قلبه فجور وزنا، قَالُوا وَالْمَرْأَة يَنْبَغِي لَهَا اذا خاطبت الاجانب ان تغلظ كَلَامهَا وتقويه وَلَا تلينه وتكسره فان ذَلِك ابعد من الرِّيبَة والطمع فِيهَا، وللقلب امراض اخر من الرِّيَاء وَالْكبر وَالْعجب والحسد وَالْفَخْر وَالْخُيَلَاء وَحب الرياسة والعلو فِي الارض وَهَذَا مرض مركب من مرض الشُّبْهَة والشهوة، فَإِنَّهُ لَابُدَّ فِيهِ من تخيل فَاسد وارادة بَاطِلَة كالعجب وَالْفَخْر وَالْخُيَلَاء وَالْكبر الْمركب من تخيل عَظمته وفضله وَإِرَادَة تَعْظِيم الْخلق لَهُ ومحمدتهم، فَلَا يخرج مَرضه عَن شَهْوَة اَوْ شُبْهَة اَوْ مركب مِنْهُمَا وَهَذِه الامراض كلهَا مُتَوَلّدَة عَن الْجَهْل ودواؤها الْعلم كَمَا قَالَ النَّبِي فِي حَدِيث صَاحب الشَّجَّة الَّذِي افتوه بِالْغسْلِ فَمَاتَ قَتَلُوهُ قَتلهمْ الله الا سَأَلُوا اذ لم يعلمُوا انما شِفَاء العي السُّؤَال، فَجعل العي وَهُوَ عي الْقلب عَن الْعلم وَاللِّسَان عَن النُّطْق بِهِ مَرضًا، وشفاؤه سُؤال الْعلمَاء، فأمراض الْقُلُوب اصعب من امراض الابدان لَان غَايَة مرض الْبدن ان يُفْضِي بِصَاحِبِهِ الى الْمَوْت، وَأما مرض الْقلب فيفضي بِصَاحِبِهِ الى الشَّقَاء الابدي.

وقال رحمه الله في التفسير القيم: ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله. فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق محبًا له، مؤثِّرًا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين: مرض شك وريب، ومرض العصاة غي وشهوة. وقد سمى الله سبحانه كلًّا منهما مرضًا.

قال ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة: الفساد، مرض فلان: فسد جسمه، وتغيرت حاله. ومرضت بالمرض: تغيرت وفسدت، قالت ليلى الأخيلية: إذا هبط الحجاج أرضا مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها

وقال آخر: ألم تر أنّ الأرض أضحت مريضة ... لفقد الحسين، والبلاد اقشعرت

والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة. ومنه مرض الرجل في الأمر، إذا ضعف فيه. ولم يبالغ، وعين مريضة النظر: أي فاترة ضعيفة. وريح مريضة: إذا هبّ هبوبها، كما قال: راحت لأربعك الرياح مريضة أي لينة ضعيفة، حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الإعرابي: أصل المرض النقصان. ومنه: بدن مريض، أي ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، ومرض في حاجتي: إذا نقصت حركته.

وقال الأزهري، عن المنذري عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها. قال: والمرض الظلمة، وأنشد: وليلة مرضت من كل ناحية ... فما يضيء لها شمس ولا قمر

هذا أصله في اللغة. ثم الشك، والجهل، والحيرة، والضلال، وإرادة الغي، وشهوة الفجور في القلب: تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض، لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص٩٣: (مَرَضُ الْقَلْبِ) هُوَ نَوْعُ فَسَادٍ يَحْصُلُ لَهُ يَفْسُدُ بِهِ تَصَوُّرُهُ، وَإِرَادَتُهُ، فَتَصَوُّرُهُ بِالشُّبُهَاتِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ حَتَّى لَا يَرَى الْحَقَّ، أَوْ يَرَاهُ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَإِرَادَتُهُ بِحَيْثُ يُبْغِضُ الْحَقَّ النَّافِعَ، وَيُحِبُّ الْبَاطِلَ الضَّارَّ؛ فَلِهَذَا يُفَسَّرُ الْمَرَضُ تَارَةً بِالشَّكِّ وَالرَّيْبِ، كَمَا فَسَّرَ مُجَاهِدٌ وقتادة قَوْلَهُ: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}: أَيْ شَكٌّ، وَتَارَةً يُفَسَّرُ بِشَهْوَةِ الزِّنَا كَمَا فُسِّرَ بِهِ قَوْلُهُ: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}[الأحزاب: ٣٢].

وَلِهَذَا صَنَّفَ الخرائطي (كِتَابَ اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ): أَيْ مَرَضِهَا، وَأَرَادَ بِهِ مَرَضَهَا بِالشَّهْوَةِ، وَالْمَرِيضُ يُؤْذِيهِ مَا لَا يُؤْذِي الصَّحِيحَ، فَيَضُرُّهُ يَسِيرُ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْعَمَلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَقْوَى عَلَيْهَا لِضَعْفِهِ بِالْمَرَضِ.

وَالْمَرَضُ فِي الْجُمْلَةِ يُضْعِفُ الْمَرِيضَ بِجَعْلِ قُوَّتِهِ ضَعِيفَةً لَا تُطِيقُ مَا يُطِيقُهُ الْقَوِيُّ، وَالصِّحَّةُ تُحْفَظُ بِالْمِثْلِ، وَتُزَالُ بِالضِّدِّ، وَالْمَرَضُ يَقْوَى بِمِثْلِ سَبَبِهِ، وَيَزُولُ بِضِدِّهِ، فَإِذَا حَصَلَ لِلْمَرِيضِ مِثْلُ سَبَبِ مَرَضِهِ زَادَ مَرَضُهُ، وَزَادَ ضَعْفُ قُوَّتِهِ، حَتَّى رُبَّمَا يَهْلَكُ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُ مَا يُقَوِّي الْقُوَّةَ وَيُزِيلُ الْمَرَضَ، كَانَ بِالْعَكْسِ.

وَ(مَرَضُ الْقَلْبِ)، أَلَمٌ يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ كَالْغَيْظِ مِنْ عَدُوٍّ اسْتَوْلَى عَلَيْكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤْلِمُ الْقَلْبَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ}[التوبة: ١٤، ١٥]، فَشِفَاؤُهُمْ بِزَوَالِ مَا حَصَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْأَلَمِ، وَيُقَالُ: فُلَانٌ شُفِيَ غَيْظُهُ، وَفِي الْقَوَدِ اسْتِشْفَاءُ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذَا شِفَاءٌ مِنَ الْغَمِّ وَالْغَيْظِ وَالْحُزْنِ، وَكُلُّ هَذِهِ آلَامٌ تَحْصُلُ فِي النَّفْسِ.

وَكَذَلِكَ (الشَّكُّ وَالْجَهْلُ) يُؤْلِمُ الْقَلْبَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((هَلَّا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ[١])). وَالشَّاكُّ فِي الشَّيْءِ الْمُرْتَابِ فِيهِ يَتَأَلَّمُ قَلْبُهُ، حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ، وَيُقَالُ لِلْعَالِمِ الَّذِي أَجَابَ بِمَا يُبَيِّنُ الْحَقَّ: قَدْ شَفَانِي بِالْجَوَابِ.

وَالْمَرَضُ دُونَ الْمَوْتِ، فَالْقَلْبُ يَمُوتُ بِالْجَهْلِ الْمُطْلَقِ، وَيَمْرَضُ بِنَوْعٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَلَهُ مَوْتٌ وَمَرَضٌ، وَحَيَاةٌ وَشِفَاءٌ، وَحَيَاتُهُ وَمَوْتُهُ وَمَرَضُهُ وَشِفَاؤُهُ أَعْظَمُ مِنْ حَيَاةِ الْبَدَنِ وَمَوْتِهِ وَمَرَضِهِ وَشِفَائِهِ؛ فَلِهَذَا مَرَضُ الْقَلْبِ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ أَوْ شَهْوَةٌ قَوَّتْ مَرَضَهُ، وَإِنْ حَصَلَتْ لَهُ حِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ كَانَتْ مِنْ أَسْبَابِ صَلَاحِهِ وَشِفَائِهِ. قَالَ تَعَالَى: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}[الحج: ٥٣]، لِأَنَّ ذَلِكَ أَوْرَثَ شُبْهَةً عِنْدَهُمْ، وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ لِيُبْسِهَا فَأُولَئِكَ قُلُوبُهُمْ ضَعِيفَةٌ بِالْمَرَضِ، فَصَارَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً عَنِ الْإِيمَانِ، فَصَارَ فِتْنَةً لَهُمْ. وَقَالَ: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}[الأحزاب: ٦٠]، كَمَا قَالَ: {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}[المدثر: ٣١]، لَمْ تَمُتْ قُلُوبُهُمْ كَمَوْتِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَيْسَتْ صَحِيحَةً صَالِحَةً كَصَالِحِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ فِيهَا مَرَضُ شُبْهَةٍ وَشَهَوَاتٍ، وَكَذَلِكَ {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}[الأحزاب: ٣٢]، وَهُوَ مَرَضُ الشَّهْوَةِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الصَّحِيحَ لَوْ تَعَرَّضَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، بِخِلَافِ الْقَلْبِ الْمَرِيضِ بِالشَّهْوَةِ فَإِنَّهُ لِضَعْفِهِ يَمِيلُ إِلَى مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْمَرَضِ وَضَعْفِهِ، فَإِذَا خَضَعْنَ بِالْقَوْلِ طَمِعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

قال ابن العثيمين: {في قلوبهم مرض}: هذه الجملة جملة اسمية تدل على مكث وتمكن هذا المرض في قلوبهم؛ ولكنه مرض على وجه قليل أثّر بهم حتى بلغوا النفاق؛ ومن أجل هذا المرض قال سبحانه وتعالى: {فزادهم الله مرضاً}: الفاء هنا عاطفة؛ ولكنها تفيد معنى السببية: زادهم الله مرضًا على مرضهم؛ لأنهم. والعياذ بالله. يريدون الكفر؛ وهذه الإرادة مرض أدى بهم إلى زيادة المرض؛ لأن الإرادات التي في القلوب عبارة عن صلاح القلوب، أو

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيح الجامع (٤٣٦٣).

فسادها؛ فإذا كان القلب يريد خيراً فهو دليل على سلامته، وصحته؛ وإذا كان يريد الشر فهو دليل على مرضه، وعلته.

وهؤلاء قلوبهم تريد الكفر؛ لأنهم يقولون لشياطينهم إذا خلوا إليهم: {إنا معكم إنما نحن مستهزئون}[البقرة: ١٤]، أي بهؤلاء المؤمنين السذج. على زعمهم. ويرون أن المؤمنين ليسوا بشيء، وأن العِلْية من القوم هم الكفار؛ ولهذا جاء التعبير بـ{إنا معكم}[البقرة: ١٤]، الذي يفيد المصاحبة، والملازمة.

فهذا مرض زادهم الله به مرضًا إلى مرضهم حتى بلغوا إلى موت القلوب، وعدم إحساسها، وشعورها.

قال الطبري: والمرضُ الذي ذكر الله جل ثناؤه أنّه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفناه: هو شكُّهم في أمر محمد وما جاء به من عند الله، وتحيُّرُهم فيه، فلا هم به موقنون إيقان إيمان، ولا هم له منكرون إنكارَ إشراك، ولكنهم، كما وصفهم الله عز وجل، مُذَبْذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما يقال: فلانٌ يمَرِّضُ في هذا الأمر، أي يُضَعِّف العزمَ ولا يصحّح الرويَّة فيه.

{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}: قد دللنا آنفًا على أن تأويل المرض الذي وصَف الله جل ثناؤه أنه في قلوب المنافقين، هو الشكُّ في اعتقادات قلوبهم وأديانهم، وما هم عليه – في أمر محمد رسول الله ﷺ، وأمر نبوته وما جاء به – مقيمون. فالمرض الذي أخبرَ الله جل ثناؤه عنهم أنَّه زادهم على مرضهم، نظيرُ ما كان في قلوبهم من الشّكِّ والحيْرة قبل الزيادة، فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضِه – التي لم يكن فرضَها قبلَ الزيادة التي زادها المنافقين – من الشك والحيرة، إذْ شكُّوا وارتَابوا في الذي أحدَث لهم من ذلك – إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السَّالف، من حدوده وفرائضه التي كان فَرَضها قبل ذلك. كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك، بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود إذْ آمنوا به، إلى إيمانهم بالسالف من حُدُوده وفرائضه – إيمانًا. كالذي قال جل ثناؤه في تنزيله: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}[التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. فالزيادة التي زِيدَها المنافقون من الرَّجاسة إلى رَجاستهم، هو ما وصفنا. والتي زِيدَها المؤمنون إلى إيمانهم، هو ما بيَّنا. وذلك هو التأويل المجمَعُ عليه.

قال السعدي: وفي قوله عن المنافقين: {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا}، بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة}، وقال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، وقال تعالى: {وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم}، فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}.

قال ابن العثيمين: قوله تعالى في مجازاتهم: {ولهم عذاب}: أي عقوبة؛ {أليم}: أي مؤلم؛ فهو شديد، وعظيم، وكثير؛ لأن الأليم قد يكون مؤلمًا لقوته، وشدته: فضربة واحدة بقوة تؤلم الإنسان؛ وقد يكون مؤلمًا لكثرته: فقد يكون

ضربًا خفيفًا؛ ولكن إذا كثر، وتوالى آلَم؛ وقد اجتمع في هؤلاء المنافقين الأمران؛ لأنهم في الدرك الأسفل من النار. وهذا ألم حسي؛ وقال تعالى في أهل النار: {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون}[السجدة: ٢٠]، وهذا ألم قلبي يحصل بتوبيخهم.

{بما كانوا يكذبون}: الباء للسببية. أي بسبب كذبهم، أو تكذيبهم؛ و{ما}، مصدرية تؤول وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: بكونهم كاذبين؛ أو: بكونهم مكذبين؛ لأن في الآية قراءتين؛ الأولى: بفتح الياء، وسكون الكاف، وكسر الذال مخففة؛ ومعناها: يَكْذِبون بقولهم: آمنا بالله، وباليوم الآخر. وما هم بمؤمنين.؛ والقراءة الثانية: بضم الياء، وفتح الكاف، وكسر الذال مشددة؛ ومعناها: يُكَذِّبون الله، ورسوله؛ وقد اجتمع الوصفان في المنافقين؛ فهم كاذبون مكذبون.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص٩٥: وَالْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ أَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَفِيهِ مِنْ الْبَيِّنَاتِ مَا يُزِيلُ الْحَقَّ مِنْ الْبَاطِلِ، فَيُزِيلُ أَمْرَاضَ الشُّبْهَةِ الْمُفْسِدَةِ لِلْعِلْمِ، وَالتَّصَوُّرِ وَالْإِدْرَاكِ بِحَيْثُ يَرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مِنْ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْقَصَصِ الَّتِي فِيهَا عِبْرَةٌ مَا يُوجِبُ صَلَاحَ الْقَلْبِ، فَيَرْغَبُ الْقَلْبُ فِيمَا يَنْفَعُهُ وَيَرْغَبُ عَمَّا يَضُرُّهُ، فَيَبْقَى الْقَلْبُ مُحِبًّا لِلرَّشَادِ مُبْغِضًا لِلْغَيِّ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مُرِيدًا لِلْغَيِّ مُبْغِضًا لِلرَّشَادِ.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج١ص١١١: وَلَا شِفَاء لهَذَا الْمَرَض الا بِالْعلمِ، وَلِهَذَا سمّى الله تَعَالَى كِتَابه شِفَاء لأمراض الصُّدُور وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيهَا النَّاس قد جاءتكم موعظة من ربكُم مِنْهُ وشفاء لما فِي الصُّدُور وَهدى وَرَحْمَة لِلْمُؤْمنِينَ}، وَلِهَذَا السَّبَب نِسْبَة الْعلمَاء الى الْقُلُوب كنسبة الاطباء الى الابدان وَمَا يُقَال لِلْعُلَمَاء اطباء الْقُلُوب فَهُوَ لقدر مَا جَامع بَينهمَا والا فالأمر اعظم.

قال ابن كثير: وَقَدْ سُئِلَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ حِكْمَةِ كَفِّهِ ﷺ، عَنْ قَتْلِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ عِلْمِهِ بِأَعْيَانِ بَعْضِهِمْ، وَذَكَرُوا أَجْوِبَةً عَنْ ذَلِكَ مِنْهَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ: ((أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ([1])) وَمَعْنَى هَذَا خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ بِسَبَبِ ذَلِكَ تَغَيُّرٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَعْرَابِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَلَا يَعْلَمُونَ حِكْمَةَ قَتْلِهِ لَهُمْ، وَأَنَّ قَتْلَهُ إِيَّاهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْكُفْرِ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَأْخُذُونَهُ بِمُجَرَّدِ مَا يَظْهَرُ لَهُمْ فَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ.

(تَنْبِيهٌ)

قَوْلُ مَنْ قَالَ: كَانَ ﷺ يَعْلَمُ أَعْيَانَ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا مُسْتَنَدُهُ حَدِيثُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فِي تَسْمِيَةِ أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ مُنَافِقًا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ الَّذِينَ هَمُّوا أَنْ يَفْتِكُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ظَلْمَاءِ اللَّيْلِ عِنْدَ عَقَبَةٍ هُنَاكَ؛ عَزَمُوا عَلَى أَنْ

١- صحيح البخاري برقم (٣٥١٨)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٤).

يُنْفِرُوا بِهِ النَّاقَةَ لِيَسْقُطَ عَنْهَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ فَأَطْلَعَ عَلَى ذَلِكَ حُذَيْفَةَ. وَلَعَلَّ الْكَفَّ عَنْ قَتْلِهِمْ كَانَ لِمُدْرَكٍ مِنْ هَذِهِ الْمَدَارِكِ أَوْ لِغَيْرِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَأَمَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} الْآيَةَ، وقَالَ تَعَالَى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا}، فَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُغْرَ بِهِمْ وَلَمْ يُدْرِكْ عَلَى أَعْيَانِهِمْ وَإِنَّمَا كَانَتْ تُذْكَرُ لَهُ صِفَاتُهُمْ فَيَتَوَسَّمُهَا فِي بَعْضِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ نَشَاءُ لأرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ بِالنِّفَاقِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولَ وَقَدْ شَهِدَ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ بِذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي سَبَقَ فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَمَعَ هَذَا لَمَّا مَاتَ، صَلَّى عَلَيْهِ ﷺ وَشَهِدَ دَفْنَهُ كَمَا يَفْعَلُ بِبَقِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضًا فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً}؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات، وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: {إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلًا}[النساء: ١٣٧]، وقال تعالى في سورة المنافقين: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون}[المنافقون: ٣].

٢- أن أسباب إضلال اللّهِ العبدَ هو من العبد؛ لقوله تعالى: {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً}؛ ومثل ذلك قوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}[الصف: ٥]، وقوله تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة}[الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم}[المائدة: ٤٩].

٣- أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: {فزادهم الله مرضاً}؛ والزيادة لا تُعقل إلا في مقابلة النقص؛ فكما أن الإيمان يزيد وينقص، كذلك الفسق يزيد، وينقص؛ والمرض يزيد، وينقص.

٤- الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: {ولهم عذاب أليم}.

٥- أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب. أي أن الله لا يعذب أحدًا إلا بذنب.؛ لقوله تعالى: {بما كانوا يكذبون}.

٦- أن هؤلاء المنافقين جمعوا بين الكذب، والتكذيب؛ وهذا شر الأحوال.

٧- ذم الكذب، وأنه سبب للعقوبة؛ فإن الكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله ﷺ أن الكذب من خصال المنافقين، فقال ﷺ: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب ... ([1])) الحديث؛ والكذب مذموم شرعًا، ومذموم عادة، ومذموم فطرة أيضًا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)

قال ابن العثيمين: القائل هنا مبهم للعموم؛ أي ليعم أيَّ قائل كان؛ و(الإفساد في الأرض)، هو أن يسعى الإنسان فيها بالمعاصي كما فسره بذلك السلف؛ لقوله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}[الروم: ٤١].

وقوله تعالى: {في الأرض}: المراد الأرض نفسها؛ أو أهلها؛ أو كلاهما. وهو الأولى؛ أما إفساد الأرض نفسها: فإن المعاصي سبب للقحط، ونزع البركات، وحلول الآفات في الثمار، وغيرها، كما قال تعالى عن آل فرعون لما عصوا رسوله موسى عليه السلام: {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون}[الأعراف: ١٣٠]، فهذا فساد في الأرض.

وأما الفساد في أهلها: فإن هؤلاء المنافقين يأتوا إلى اليهود، ويقولون لهم: {لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا وإن قوتلتم لننصرنكم}[الحشر: ١١]: فيزدادوا استعداءً للرسول ﷺ ومحاربة له؛ كذلك أيضًا من فسادهم في أهل الأرض: أنهم يعيشون بين المسلمين، ويأخذون أسرارهم، ويفشونها إلى أعدائهم؛ ومن فسادهم في أهل الأرض: أنهم يفتحون للناس باب الخيانة والتَقِيَّة، بحيث لا يكون الإنسان صريحًا واضحًا، وهذا من أخطر ما يكون في المجتمع.

{قالوا إنما نحن مصلحون}: {إنما}: أداة حصر؛ و{نحن}: مبتدأ؛ و{مصلحون}: خبر؛ والجملة اسمية؛ والجملة الاسمية تفيد الثبوت، والاستمرار؛ فكأنهم يقولون: ما حالنا إلا الإصلاح؛ يعني: أنه ليس فيهم إفساد مطلقًا.

ومن توفيق الله أنه لم يلهمهم، فيقولوا: (إنما نحن المصلحون)؛ فلو أنهم قالوا: (نحن المصلحون) كان مقتضاه أن لا مصلح غيرهم؛ لكنهم قالوا: {إنما نحن مصلحون}: أي ما حالنا إلا إصلاح؛ ولم يدَّعوا أنهم المصلحون وحدهم.

{ألا إنهم هم المفسدون}؛ {ألا}: أداة تفيد التنبيه، والتأكيد؛ و{إنهم}: توكيد أيضًا؛ و{هم}: ضمير فصل يفيد التوكيد أيضًا؛ فالجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات: {ألا}، و{إن}، و{هم}، وهذا من أبلغ صيغ التوكيد؛ وأتى بـ{أل} الدالة

---

[1]- أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٤: علامات المنافق، حديث رقم ٣٣؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١١ [١٠٧] ٥٩.

على حقيقة الإفساد، وأنهم هم المفسدون حقًا؛ ووجه حصر الإفساد فيهم أن {هم}، ضمير فصل يفيد الحصر. أي هم لا غيرهم المفسدون؛ وهذا كقوله تعالى: {هم العدو فاحذرهم}[المنافقون: ٤]: أي هم لا غيرهم؛ فلا عداء أبلغ من عداء المنافقين للمؤمنين؛ ولا فساد أعظم من فساد المنافقين في الأرض.

{ولكن لا يشعرون}: أي لا يشعرون أنهم مفسدون؛ لأن الفساد أمر حسي يدرك بالشعور والإحساس؛ فلبلادتهم وعدم فهمهم للأمور، لا يشعرون بأنهم هم المفسدون دون غيرهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٨٣: وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}.

وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}، وَهَذَا مُطْلَقٌ يَتَنَاوَلُ مَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَنْ سَيَكُونُ بَعْدَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ: إنَّهُ عَنَى بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْمًا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا حِينَ نُزُولِهَا. وَكَذَا قَالَ السدي عَنْ أَشْيَاخِهِ: الْفَسَادُ: الْكُفْرُ وَالْمَعَاصِي. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: تَرْكُ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَالْقَوْلَانِ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْكُفْرُ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: النِّفَاقُ الَّذِي صَافُوا بِهِ الْكُفَّارَ وَأَطْلَعُوهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ. وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَمُقَاتِلٍ: الْعَمَلُ بِالْمَعَاصِي. وَهَذَا أَيْضًا عَامٌّ كَالْأَوَّلَيْنِ.

وَقَوْلُهُمْ: {إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}، فُسِّرَ بِإِنْكَارِ مَا أَقَرُّوا بِهِ، أَيْ: إنَّا إنَّمَا نَفْعَلُ مَا أَمَرَنَا بِهِ الرَّسُولُ. وَفُسِّرَ: بِأَنَّ الَّذِي نَفْعَلُهُ صَلَاحٌ، وَنَقْصِدُ بِهِ الصَّلَاحَ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ يُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكِلَاهُمَا حَقٌّ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا وَهَذَا، يَقُولُونَ الْأَوَّلَ لِمَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ، وَيَقُولُونَ الثَّانِيَ: لِأَنْفُسِهِمْ وَلِمَنْ اطَّلَعَ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ. لَكِنَّ الثَّانِيَ يَتَنَاوَلُ الْأَوَّلَ؛ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَفْعَالِهِمْ إسْرَارَ خِلَافِ مَا يُظْهِرُونَ، وَهُمْ يَرَوْنَ هَذَا صَلَاحًا، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادُوا أَنَّ مُصَافَاةَ الْكُفَّارِ صَلَاحٌ لَا فَسَادٌ. وَعَنْ السدي: إنَّ فِعْلَنَا هَذَا هُوَ الصَّلَاحُ، وَتَصْدِيقُ مُحَمَّدٍ فَسَادٌ، وَقِيلَ: أَرَادُوا أَنَّ هَذَا صَلَاحٌ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ الدَّوْلَةَ إنْ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ أَمِنُوا بِمُتَابَعَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ لِلْكُفَّارِ؛ فَقَدْ أَمِنُوهُمْ بِمُصَافَاتِهِمْ.

وَلِأَجْلِ الْقَوْلَيْنِ قِيلَ فِي قَوْلِهِ: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}: أَيْ: لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ فَسَادٌ لَا صَلَاحٌ. وَقِيلَ: لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ اللَّهَ يُطْلِعُ نَبِيَّهُ عَلَى فَسَادِهِمْ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ يَتَنَاوَلُ الثَّانِيَ؛ فَهُوَ الْمُرَادُ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْآيَةِ.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٣٠: وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكرًا وافيًا، اطلعت فيه من أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر النقض، والفرق، والمعارضة، والمنع، على ما يشفي ويكفي، لمن بصره الله وأنعم عليه بفهم كتابه، فمن ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ}، فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: {لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ}، فأجابهم المنافقون بقولهم: {إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أربع إسجالات:

أحدها: تكذيبهم.

والثاني الإخبار بأنهم مفسدون.

والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: {هُمُ الْمُفْسِدُونَ}.

والرابع: وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- أن النفاق الذي هو إظهار الإسلام، وإبطان الكفر من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض}؛ والنفاق من أعظم الفساد في الأرض.

٢- أن من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ لقولهم: {إنما نحن مصلحون}.

٣- أن غير المؤمن نظره قاصر، حيث يرى الإصلاح في الأمر المعيشي فقط؛ بل الإصلاح حقيقة أن يسير على شريعة الله واضحًا صريحًا.

٤- أنه ليس كل من ادّعى شيئًا يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: {إنما نحن مصلحون}؛ فقال الله تعالى: {ألا إنهم هم المفسدون}؛ وليس كل ما زينته النفس يكون حسنًا، كما قال تعالى: {أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء}[فاطر: ٨].

٥- أن الإنسان قد يبتلى بالإفساد في الأرض، ويخفى عليه فساده؛ لقوله تعالى: {ولكن لا يشعرون}.

٦- قوة الرد على هؤلاء الذين ادعوا أنهم مصلحون، حيث قال الله عزّ وجلّ: {ألا إنهم هم المفسدون}؛ فأكد إفسادهم بثلاثة مؤكدات؛ وهي {ألا} و{إن}، و{هم}؛ بل حصر الإفساد فيهم عن طريق ضمير الفصل.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

قال السعدي: أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوهم إلى السفه؛ وفي ضمنه أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى.

فردَّ الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجا، معرفة الإنسان بمصالح نفسه،

والسعي فيما ينفعه، وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة، والأقوال الفارغة.

قال ابن العثيمين: وهذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات: {ألا}، و{إن}، وضمير الفصل: {هم}، وهو أيضًا مفيد للحصر؛ وهذه الجملة كالتي قبلها في قوله تعالى: {ألا إنهم هم المفسدون}.

{ولكن لا يعلمون}: أي لا يعلمون سفههم؛ فإن قيل: ما الفرق بين قوله تعالى هنا: {ولكن لا يعلمون}، وقوله تعالى فيما سبق: {ولكن لا يشعرون}؟

فالجواب: أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه، وشعوره؛ وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسِه.

قال أبو زهرة: {وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ}: مقدار ما أوتوا من سفه الرأي، وما أوتي غيرهم من حكمة الإيمان، وهنا نجد أنهم عند قصرهم في النص القرآني على الفساد، قال: (وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ)، لأن الفساد والصلاح حسيان، فناسبهما أن يكون عنهم شعور حسي، أما حكم السفه فأمر فكري فناسبه نفي العلم لَا نفي الحس.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٣١: وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع([1])، ثم نفى العلم في قولهم: {أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ}، فقال: {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ}، فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسدًا ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدلّ على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل، وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله، كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه، متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان الإسجال عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا.

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضًا فإن المؤمنين قالوا لهم: {آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ}، فأجابهم المنافقون بقولهم: {أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ}، وتقرير المناظرة من الجانبين أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم، ولا سيما إذا قامت أدلته وصحت شواهده، فأجابهم المنافقون بما مضمونه أنّا إنما يجب علينا موافقة العقلاء وأما السفهاء الذي لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار، فلا يجب علينا موافقتهم فردَّ الله تعالى عليهم وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع:

أحدها: تسفيههم.

الثاني: حصر السفه فيهم.

١- (قلت): في هذا الموضع: قصده في هذه الآية: {ألا انّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون}.

الثالث: نفي العلم عنهم.

الرابع: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التَّنزيه من السفه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن المنافق لا تنفعه الدعوة إلى الخير؛ لقوله تعالى: {وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء}؛ فهم لا ينتفعون إذا دعوا إلى الحق؛ بل يقولون: {أنؤمن كما آمن السفهاء}.

٢- إعجاب المنافقين بأنفسهم؛ لقولهم: {أنؤمن كما آمن السفهاء}.

٣- شدة طغيان المنافقين؛ لأنهم أنكروا على الذين عرضوا عليهم الإيمان: {قالوا أنؤمن}؛ وهذا غاية ما يكون من الطغيان؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية: {في طغيانهم يعمهون}[البقرة: ١٥].

٤- أن أعداء الله يصفون أولياءه بما يوجب التنفير عنهم لقولهم: {أنؤمن كما آمن السفهاء}؛ فأعداء الله في كل زمان، وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفير عنهم؛ فالرسل وصفهم قومهم بالجنون، والسحر، والكهانة، والشعر تنفيرًا عنهم، كما قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون}[الذاريات: ٥٢]، وقال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين}[الفرقان: ٣١]، وورثة الأنبياء مثلهم يجعل الله لهم أعداء من المجرمين، ولكن {وكفى بربك هادياً ونصيراً}[الفرقان: ٣١]؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعالى إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هؤلاء؛ لأن أعداء الأنبياء يسلكون في إبطال دعوة الأنبياء مَسْلكين؛ مسلك الإضلال، والدعاية الباطلة في كل زمان، ومكان؛ ثم مسلك السلاح. أي المجابهة المسلحة؛ ولهذا قال تعالى: {هاديًا}[الفرقان: ٣١]، في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال. وهو الذي نسميه الآن بالأفكار المنحرفة، وتضليل الأمة، والتلبيس على عقول أبنائها؛ وقال تعالى: {ونصيرًا}[الفرقان: ٣١]، في مقابل المسلك الثاني. وهو المجابهة المسلحة.

٥- أن كل من لم يؤمن فهو سفيه، كما قال الله تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه}[البقرة: ١٣٠].

٦- أن الحكمة كل الحكمة إنما هي الإيمان بالله، واتباع شريعته؛ لأن الكافر المخالف للشريعة سفيه؛ فيقتضي أن ضده يكون حكيمًا رشيدًا.

٧- تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمنين، كما قال تعالى: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا}[الحج: ٣٨]؛ فإذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول؛ فهؤلاء قالوا: {أنؤمن كما آمن السفهاء}، والله عزّ وجلّ هو الذي جادل عن المؤمنين، فقال: {ألا إنَّهم هم السفهاء}، يعني هم السفهاء لا أنتم؛ فهذا من تحقيق دفاع الله تعالى عن المؤمنين؛ أما دفاعه عن المؤمنين إذا اعتُدي عليهم بالفعل فاستمع إلى قول الله تعالى: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم

فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان}[الأنفال: ١٢]، هذه مدافعة فعلية، حيث تنْزل جنود الله تعالى من السماء لتقتل أعداء المؤمنين؛ فهذا تحقيق لقول الله تعالى: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا}[الحج: ٣٨]؛ ولكن الحقيقة أن هذا الوعد العظيم من القادر جل وعلا الصادق في وعده يحتاج إلى إيمان حتى نؤمن بالله عزّ وجلّ، ولا نخشى أحدًا سواه، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشى الناس كخشية الله، أو أشدّ خشية؛ لأننا إذا كنا نراعيهم دون أوامر الله فسنخشاهم أشدّ من خشية الله عزّ وجل؛ وإلا لكنا ننفذ أمر الله عزّ وجلّ، ولا نخشى إلا الله سبحانه وتعالى.

فنحن لو آمنا حقيقة الإيمان بهذا الوعد الصادق الذي لا يُخلَف لكنا منصورين في كل حال؛ لكن الإيمان ضعيف؛ ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عزّ وجلّ؛ وهذه هي المصيبة، والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم؛ ولذلك تجد كثيرًا من ولاة المسلمين. مع الأسف. لا يهتمون بأمر الله، ولا بشريعة الله؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان، وفلان؛ أو الدولة الفلانية، والفلانية. ولو على حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور، ومن خالفها فهو المخذول؛ وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله؛ فبدلًا من أن يكونوا عبيدًا لله أعزة صاروا عبيدًا للمخلوقين أذلة؛ لأن الأمم الكافرة الكبرى لا ترحم أحدًا في سبيل مصلحتها؛ لكن لو أننا ضربنا بذلك عُرض الحائط، وقلنا: لا نريد إلَّا رضى الله، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا، وعلى أمتنا؛ لكانت تلك الأمم العظمى تهابنا؛ ولهذا يقال: من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء.

٨- الدلالة على جهل المنافقين؛ لأن الله عزّ وجل نفى العلم عنهم؛ لقوله تعالى: {ولكن لا يعلمون}؛ فالحقيقة أنّهم من أجهل الناس. إن لم يكونوا أجهل الناس؛ لأن طريقهم إنما هو خداع، وانخداع، وتضليل؛ وهؤلاء المنافقون من أجهل الناس؛ لأنهم لم يعلموا حقيقة أنفسهم، وأنهم هم السفهاء.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)

قال ابن العثيمين: {وإذا لقوا الذين آمنوا}: أي قابلوهم، أو جلسوا إليهم؛ {قالوا}: أي للمؤمنين الذين لقوهم؛ {آمنّا}: أي كإيمانكم.

{وإذا خلوا إلى شياطينهم}: ضُمِّن الفعل هنا معنى (رجعوا)؛ ولذلك عُدِّي بـ{إلى}، لكن عُدِّي بالفعل {خلوا} ليكون المعنى: رجعوا خالِين بهم؛ والمراد بـ{شياطينهم}: كبراؤهم؛ وسمِّي كبراؤهم بـ(الشياطين)، لظهور تمردّهم؛ وقد قيل: إن (الشيطان)، كل مارد؛ أي: كل عاتٍ من الجن أو الإنس أو غيرهما شيطان؛ وقد وصف النبي ﷺ الكلب الأسود بأنه شيطان؛ وليس معناه شيطان الجن؛ بل معناه: الشيطان في جنسه؛ لأن أعتى الكلاب، وأشدّها قبحًا هي الكلاب

السود؛ فلذلك قال ﷺ: ((الكلب الأسود شيطان([١])))؛ ويقال للرجل العاتي: هذا شيطان بني فلان. أي مَريدهم، وعاتيهم؛ وكلمة: (شيطان): النون فيها أصلية من (شطن) بمعنى بعُد؛ ولكونها أصلية صُرف الاسم بتنوين، كما في قوله تعالى: {ويتبع كل شيطان مريد}[الحج: ٣]؛ ولو كانت النون والألف زائدتان منعت من الصرف؛ لأن الألف والنون إذا كانتا زائدتين في عَلَم؛ أو وصف فإنه يُمنع من الصرف؛ وأما إذا كانتا زائدتين في غير علم، ولا وصف فإنه لا يمنع من الصرف.

وعن ابن عبَّاسٍ: {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ} مِنْ يَهُودَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ} إِلَى أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ} قال: إلى رؤوسهم، وَقَادَتِهِمْ فِي الشِّرْكِ، وَالشَّرِّ.

وَبِنَحْوِ ذَلِكَ فسَّره أَبُو مَالِكٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٥ص١٨٨: وَالْمَنْقُولُ عَنْ عَامَّةِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ، وَمَا عَلِمْتُ أَحَدًا قَالَ: إِنَّهُمْ شَيَاطِينُ الْجِنِّ. فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ: أَنَّهُمْ رُءُوسُهُمْ فِي الْكُفْرِ. وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٍ: إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ وَابْنِ السَّائِبِ: كَهَنَتُهُمْ.

وَالْآيَةُ تَتَنَاوَلُ هَذَا كُلَّهُ وَغَيْرَهُ، وَلَفْظُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ، لِأَنَّهُ قَالَ: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ}. وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَيْطَانَ الْجِنِّ مَعَهُمْ لَمَّا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَخْلُوا بِهِ، وَشَيْطَانُ الْجِنِّ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِالنِّفَاقِ وَلَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا حَتَّى يَخْلُو مَعَهُمْ، وَيَقُولُ: إِنَّا مَعَكُمْ. لَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}[سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٣]، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ شَيْطَانٌ لَمْ يَرْضَوْهُ.

وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: كُلُّ مُتَمَرِّدٍ عِنْدَ الْعَرَبِ شَيْطَانٌ. وَفِي اشْتِقَاقِهِ قَوْلَانِ أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ مَنْ شَطَنَ يَشْطُنُ إِذَا بَعُدَ عَنِ الْخَيْرِ، وَالنُّونُ أَصْلِيَّةٌ. قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ فِي صِفَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السِّجْنِ وَالْأَغْلَالِ عَكَاهُ: أَوْثَقَهُ.

وَقَالَ النَّابِغَةُ: نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوَى شُطُونِ ... فَبَانَتْ وَالْفُؤَادُ بِهَا رَهِينُ

وَلِهَذَا قُرِنَتْ بِهِ اللَّعْنَةُ؛ فَإِنَّ اللَّعْنَةَ هِيَ الْبُعْدُ مِنَ الْخَيْرِ، وَالشَّيْطَانُ بَعِيدٌ مِنَ الْخَيْرِ، فَيَكُونُ وَزْنُهُ: فَيْعَالًا، وَفَيْعَالٌ نَظِيرُ فَعَّالٍ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْمُبَالَغَةِ، مِثْلُ الْقَيَّامِ وَالْقَوَّامِ، فَالْقَيَّامُ فَيْعَالٌ، وَالْقَوَّامُ فَعَّالٌ، وَمِثْلُ الْعَيَّاذِ وَالْعَوَّاذِ. وَفِي قِرَاءَةِ

١- أخرجه مسلم ص٧٥٧، كتاب الصلاة، باب ٥٠: قدر ما يستر المصلي، حديث رقم ١١٣٧ [٢٦٥] ٥١٠.

– (قلت): قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: سمّي شيطانا لكونه أعقر الكلاب وأخبثها وأقلها نفعا وأكثرها نعاسًا.

– وقال عُمَرَ بن إبراهيمَ الحافظ، الأنصاريُّ القرطبيُّ في (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم): حمله بعض العلماء على ظاهره، وقال : إن الشياطين تتصور بصور الكلاب السود، ولأجل ذلك قال ﷺ: ((اقتلوا منها كل أسود بهيم)).

عُمَرَ: الْحَيُّ الْقِيَامُ. فَالشَّيْطَانُ الْمُتَّصِفُ بِصِفَةٍ ثَابِتَةٍ قَوِيَّةٍ فِي كَثْرَةِ الْبُعْدِ عَنِ الْخَيْرِ، بِخِلَافِ مَنْ بَعُدَ عَنْهُ مَرَّةً وَقَرُبَ مِنْهُ أُخْرَى؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ شَيْطَانًا. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: تَشَيْطَنَ يَتَشَيْطَنُ شَيْطَنَةً، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَاطَ يَشِيطُ لَقِيلَ: تَشَيَّطَ يَتَشَيَّطُ. وَالَّذِي قَالَ: هُوَ مِنْ شَاطَ يَشِيطُ إِذَا احْتَرَقَ وَالْتَهَبَ، جَعَلَ النُّونَ زَائِدَةً وَقَالَ: وَزْنُهُ فَعْلَانُ. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطَلُ.

قال ابن العثيمين: {قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ}، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ إِنَّا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}: أَيْ: إِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ وَنَلْعَبُ بِهِمْ.

قال السعدي: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}: وهذا جزاء لهم، على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة، أنه يعطيهم مع المؤمنين نورا ظاهرا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم، طفئ نور المنافقين، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، {ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم} الآية.

قال الطبري: اختُلف في صفة استهزاءِ الله جل جلاله، الذي ذَكر أنه فاعله بالمنافقين، الذين وَصَف صفتهم.

والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهارُ المستهزِئ للمستهزَأ به من القول والفعل ما يُرضيه ظاهرًا، وهو بذلك من قِيله وفِعْله به مُورِثه مَساءة باطنًا وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر. فإذا كان ذلك كذلك وكان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق في الدنيا من الأحكام بما أظهروا بألسنتهم، من الإقرار بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، المُدْخِلِهم في عداد من يشمله اسمُ الإسلام، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين أحكامَ المسلمين المصدِّقين إقرارَهم بألسنتهم بذلك، بضمائر قلوبِهم، وصحائح عزائمهم، وحميدِ أفعالهم المحققة لهم صحة إيمانهم معَ علم الله عز وجل بكذبهم، واطّلاعِه على خُبث اعتقادهم، وشكِّهم فيما ادَّعوا بألسنتهم أنهم به مصدِّقون، حتى ظنُّوا في الآخرة إذْ حشروا في عِداد من كانوا في عِدادهم في الدنيا، أنَّهم وارِدُون مورِدَهم. وداخلون مدخلهم. والله جل جلاله مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام المُلْحِقَتِهم في عاجل الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه، وتفريقِه بينهم وبينهم معدٌّ لهم من أليم عقابه ونَكال عذابه، ما أعدّ منه لأعدى أعدائه وشر عباده، حتى ميز بينهم وبين أوليائه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدَّرك الأسفل كان معلومًا أنه جل ثناؤه بذلك من فعلِه بهم – وإن كان جزاءً لهم على أفعالهم، وعدلا ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له – كان بهم – بما أظهرَ لهم من الأمور التي أظهرها لهم: من إلحاقه أحكامهم في الدنيا بأحكام أوليائِه وهم له أعداء، وحشرِه إياهم في الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين – إلى أن ميَّز بينهم وبينهم – مستهزئًا، وبهم ساخرًا، ولهم خادعًا، وبهم ماكرًا. إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل، دون أن يكون ذلك معناه في حالٍ فيها المستهزئ بصاحبه له ظالم، أو عليه فيها غير عادل، بل ذلك معناه في كل أحواله، إذا وُجدت الصفات التي قدَّمنا ذكرها في معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره. عن ابن عباس، في قوله: {الله

يَسْتَهْزِئ بِهِمْ}، قال: يسخر بهم للنقمة منهم . وأما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره: {الله يَسْتَهْزِئ بِهِمْ}، إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكرٌ ولا خديعة، فنافُون على الله عز وجل ما قد أثبته الله عز وجل لنفسه، وأوجبه لها.

وسواءٌ قال قائل: لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخريةٌ بمن أخبر أنه يستهزئ ويسخر ويمكر به، أو قال: لم يخسف الله بمن أخبر أنه خَسَف به من الأمم، ولم يُغرق من أخبر أنه أغرقه منهم.

ويقال لقائل ذلك: إن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكرَ بقوم مضَوْا قبلنا لم نَرَهُم، وأخبر عن آخرين أنه خَسَف بهم، وعن آخرين أنه أغرقهم، فصدَّقْنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نُفَرِّق بين شيء منه. فما بُرهانُك على تفريقك ما فَرَّقت بينه، بزعمك: أنه قد أغرقَ وخَسف بمن أخبر أنه أغرق وخسف به، ولم يمكُرْ بمن أخبر أنه قد مكر به؟

ثم نعكس القول عليه في ذلك، فلن يقول في أحدهما شيئًا إلا أُلزِم في الآخَر مثله.

فإن لجأ إلى أن يقول: إن الاستهزاء عبثٌ ولعبٌ، وذلك عن الله عز وجل منفيٌّ.

قيل له: إن كان الأمر عندك على ما وصفتَ من معنى الاستهزاء، أفلست تقول: (الله يستهزئ بهم)، و(سَخِر الله منهم)، و(مكر الله بهم)، وإن لم يكنْ من الله عندك هزء ولا سخرية؟

فإن قال: (لا)، كذَّب بالقرآن، وخرج عن ملة الإسلام.

وإن قال: (بلى)، قيل له: أفتقول من الوجه الذي قلت: (الله يستهزئ بهم)، و(سخر الله منهم) – (يلعب الله بهم)، و(يعبث) – ولا لعبَ من الله ولا عبث؟

فإن قال: (نعم)! وَصَف الله بما قد أجمع المسلمون على نفيه عنه، وعلى تخطئة واصفه به، وأضاف إليه ما قد قامت الحجة من العقول على ضلال مضيفه إليه.

وإن قال: لا أقول: (يلعب الله بهم)، ولا (يعبث)، وقد أقول (يستهزئ بهم)، و(يسخر منهم).

قيل: فقد فرقت بين معنى اللعب والعبث، والهزء والسخرية، والمكر والخديعة. ومن الوجه الذي جازَ قِيلُ هذا، ولم يَجُزْ قِيلُ هذا، افترق معنياهُما. فعُلم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر(١).

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص٧٨: فمن القواعد المقررة في ذلك، أن باب الأسماء لله جل وعلا أضيق من باب الصفات، وأن باب الصفات أضيق من باب الأفعال، وأن باب الأفعال أضيق من باب الإخبار. ومعنى هذا بعبارة مختلفة: أن باب الإخبار عن الله جل وعلا أوسع من باب الأفعال، وباب الأفعال أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء.

فإذا ثبت في الكتاب والسنة صفة لله جل وعلا، لا يعني أنه يسوغ أن يشتق منها اسم لله جل وعلا، بل قد يكون ثم صفةٌ وصِف الله جل وعلا بها، ولا يلزم أن يشتق له منها جل وعلا اسم، لأن هذا الباب ليس مبناه على الاشتقاق، بل مبناه على التوقيف. فإذا أطلق الاسم، تقيدنا بذلك بإثبات الاسم، وإذا أطلقت الصفة، تقيدنا بذلك بإطلاق الصفة.

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن هذه الصفات عند تفسير الآية (٥٤) من سورة آل عمران.

لكن إذا ثبت الاسم لله، فإنه لأن باب الأسماء أضيق، فإن الاسم يشتمل على دلالة على الذات، وعلى دلالة على الصفة، فيشتق من الاسم صفة، فمثلًا الله جل وعلا (رحمن)، فنقول: إنه جل وعلا موصوف بصفة الرحمة، الله جل وعلا (سميع)، نقول: إنه جل وعلا موصوف بصفة السمع، الله جل وعلا (حيي)، نقول: إنه جل وعلا موصوف بصفة الحياء، ونحو ذلك، وهذا كثير في هذا الباب.

كذلك باب الأفعال أوسع من باب الصفات. يعني قد يكون في الكتاب والسنة وصف الله جل وعلا بالفعل، ولكن لم تأت الصفة من الفعل، فهنا يُتقيد بالكتاب والسنة، فنثبت لله جل وعلا ما أثبته لنفسه بالفعل، وأما الصفة أو الاسم من باب أولى فإنه لا يذكر، يعني لا يوصف الله جل وعلا به.

مثلًا إنه جل وعلا وصف نفسه بأنه (يستهزئ)، وأنه (يخادع)، وأنه جل وعلا (يمكر)، وهذه أفعال هي لله جل وعلا على وصف الكمال الذي لا يشوبه نقص. وقد أطلقت في الكتاب والسنة بالمقابلة، قال جل وعلا: (يستهزئون)، في سورة البقرة: {اللَّهُ يستهزئ بِهِمْ}، وقال جل وعلا: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}، وقال جل وعلا: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}. فإذًا، هذهُ وصِف الله جل وعلا بها، من باب ذكر فعله جل وعلا.

فلا يشتق له من ذلك اسم كما غلط من غلط في ذلك من أمثال القرطبي في شرحه للأسماء الحسنى، في قوله إنه يشتق من (يمكر)، ماكر، أو أن من صفاته (المكر) هكذا بإطلاق، أو أنه يشتق له من قوله: (يستهزئ)، أنه مستهزئ، أو أن له صفة (الاستهزاء) بإطلاق ونحو ذلك.

وإنما المقرر أن لا يتجاوز القرآن والحديث، فيقال يوصف الله جل وعلا بأنه يستهزئ بمن استهزأ به، فنأتي بصيغة الفعل لأن هذا هو محض الاتباع. أما إطلاق اشتقاقات فإن هذا فيه شيء. نعم قد يطلق الاشتقاق مقيدًا، وهذا ينفي النقص. فيقول القائل مثلًا: الله جل وعلا يوصف بمخادعة من خادعه، يوصف بالاستهزاء بمن استهزأ به، أو بأوليائه، يوصف بالمكر بمن مكر به، أو بنبيه، أو بأوليائه، وهذا إذا كان على وجه التقييد فإنه أجازه العلماء، لأنه ليس فيه نقص، وليس فيه تعد بالمعنى، لأن المعنى المراد هو إثبات الصفة مقيدة. ولكن الأولى أن يُلزَم ما جاء في الكتاب والسنة. مثل صفة (الملل)، الله جل وعلا لا يقال إنه يوصف بالملل؛ هذا باطل، لأن الملل نقص، ولكن الله جل وعلا وصف نفسه بأنه يمل ممن مل منه، وهذا على جهة الكمال.

فإن هذه الصفات التي تحتمل كمالًا ونقصًا، فإن لله جل وعلا منها الكمال، والكمال فيها يكون على أنحاء منها أن يكون على وجه المقابلة.

قال جل وعلا: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}، وقال جل وعلا: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}، فهو جل وعلا يخادع من خادعه، يستهزئ بمن استهزأ به، وهذا كمال لأنه من آثار أنه جل وعلا، عزيز جبار ذو الجلال وذو الكمال وذو القدرة العظيمة، فهو جل وعلا لا يعجزه شيء.

ومن القواعد – وتفصيل أيضا – باب الإخبار أوسع من باب الأفعال، يعني أن باب الأفعال مقيد بالنصوص. ولكن قد يكون باب الإخبار نخبر عن الله جل وعلا بفعل، أو بصفة، أو باسم، لكنه ليس من باب وصف الله جل وعلا به،

وإنما من جهة الإخبار لا جهة الوصف. وهذا سائغ كما ذكرت لك آنفًا لأن باب الأخبار أوسع هذه الأبواب. فإذا كان الإخبار بمعنى صحيح، لم ينفَ في الكتاب والسنة، وثبت جنسه في الكتاب والسنة، فإنه لا بأس أن يخبر عن ذلك.

مثل أن يخبر عن الله جل وعلا بأنه (الصانع)، فإنه جاء في القرآن قوله جل وعلا: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، وقد جاء أيضًا في الحديث: ((إن الله صانع كل صانع وصنعته([١]))، بلفظ صانع، والذي في مسلم: ((إن الله صانع ما شاء([٢]))، هذا أيضا من هذا الباب فإن لفظ (الصانع)، مثل (المريد).

والمقصود من هذا: أن هذه القاعدة مهمة لك جدا من بيان الأسماء والصفات، وتقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك.

قال السعدي: {ويمدُّهم}: أي يزيدهم، **{في طغيانهم}**: أي فجورهم وكفرهم، **{يعمهون}**: أي حائرون متردّدون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

قال ابن العثيمين: الطغيان مجاوزة الحدِّ، كقوله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طغا الماء حملناكم في الجارية}[الحاقة: ١١]؛ و (العَمَه): الضلال؛ والمعنى أن الله يبقيهم ضالين في طغيانهم؛ واعلم أن بين (يَمد) الثلاثي، و(يُمدد) الرباعي فرقًا؛ فالغالب أن الرباعي يستعمل في الخير، والثلاثي في الشر؛ قال الله تعالى: {ونمد له من العذاب مداً}[مريم: ٧٩]: وهذا في الشر؛ وقال تعالى: {وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون}[الطور: ٢٢]: وهذا في الخير؛ وهنا قال تعالى: **{ويَمدُّهم}**: فهو في الشر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ذلّ المنافق؛ فالمنافق ذليل؛ لأنه خائن؛ فهم **{إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا}**، خوفًا من المؤمنين؛ و**{إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم}**، خوفًا منهم؛ فهم أذلاء عند هؤلاء، وهؤلاء؛ لأن كون الإنسان يتخذ من دينه تَقيَّة فهذا دليل على ذله؛ وهذا نوع من النفاق؛ لأنه تستر بما يُظَن أنه خير وهو شر.

٢- أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به، أو برسله، أو بشرعه جزاءً وفاقًا؛ واعلم أن ها هنا أربعة أقسام:

قسم: هو صفة كمال لكن قد ينتج عنه نقص: هذا لا يسمى الله تعالى به؛ ولكن يوصف الله به، مثل (المتكلم)، و(المريد)؛ فـ(المتكلم)، و(المريد)، ليسا من أسماء الله؛ لكن يصح أن يوصف الله بأنه متكلم، ومريد على سبيل الإطلاق؛ ولم تكن من أسمائه؛ لأن الكلام قد يكون بخير، وقد يكون بشر؛ وقد يكون بصدق، وقد يكون بكذب؛ وقد يكون بعدل، وقد يكون بظلم؛ وكذلك الإرادة.

١- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٧).

٢- **(قلت):** مسلم (٢٦٧٩). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ، لَا مُكْرِهَ لَهُ)).

القسم الثاني: ما هو كمال على الإطلاق، ولا ينقسم: فهذا يسمى الله به، مثل: الرحمن، الرحيم، الغفور، السميع، البصير ... وما أشبه ذلك؛ وهو متضمن للصفة؛ وليس معنى قولنا: (يسمى الله به) أن نُحْدِث له اسمًا بذلك؛ لأن الأسماء توقيفية؛ لكن معناه أن الله سبحانه وتعالى تَسَمَّى به.

القسم الثالث: ما لا يكون كمالًا عند الإطلاق؛ ولكن هو كمال عند التقييد؛ فهذا لا يجوز أن يوصف به إلا مقيَّدًا، مثل: الخداع، والمكر، والاستهزاء، والكيد. فلا يصح أن تقول: إن الله ماكر على سبيل الإطلاق، ولكن قل: إن الله ماكر بمن يمكر به، وبرسله، ونحو ذلك.

(مسألة)

هل (المنتقم) من جنس الماكر، والمستهزئ؟

الجواب: مسألة (المنتقم)، اختلف فيها العلماء؛ منهم من يقول: إن الله لا يوصف به على سبيل الإفراد، وإنما يوصف به إذا اقترن بـ(العفوّ)؛ فيقال: (العفوُّ المنتقم)؛ لأن (المنتقم) على سبيل الإطلاق ليس صفة مدح إلا إذا قُرِن بـ(العفوّ)؛ ومثله أيضًا المُذِل: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ(المُعِز)؛ فيقال: (المعزُّ المُذل)؛ ومثله أيضاً (الضار): قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن (بالنافع)؛ فيقال: (النافع الضار)؛ ويسمون هذه: الأسماء المزدوجة.

ويرى بعض العلماء أنه لا يوصف به على وجه الإطلاق، ولو مقرونًا بما يقابله، أي إنك لا تقول: (العفوّ المنتقم)؛ لأنه لم يرد من أوصاف الله سبحانه وتعالى (المنتقم)؛ وليست صفة كمال بذاتها إلا إذا كانت مقيدة بمن يستحق الانتقام؛ ولهذا يقول عزّ وجل: {إنا من المجرمين منتقمون}[السجدة: ٢٢]، وقال عزّ وجل: {والله عزيز ذو انتقام}[آل عمران: ٤]؛ وهذا هو الذي يرجحه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ والحديث الذي ورد في سرد أسماء الله الحسنى، وذُكِر فيه (المنتقم)، غير صحيح؛ بل هو مدرج؛ لأن هذا الحديث فيه أشياء لم تصح من أسماء الله؛ وحذف منها أشياء هي من أسماء الله، مما يدل على أنه ليس من كلام الرسول ﷺ.

القسم الرابع: ما يتضمن النقص على سبيل الإطلاق: فهذا لا يوصف الله سبحانه وتعالى به أبدًا، ولا يسمى به، مثل: العاجز؛ الضعيف؛ الأعور .... وما أشبه ذلك؛ فلا يجوز أن يوصف الله سبحانه وتعالى بصفة عيب مطلقًا.

والاستهزاء هنا في الآية على حقيقته؛ لأن استهزاء الله بهؤلاء المستهزئين دالّ على كماله، وقوته، وعدم عجزه عن مقابلتهم؛ فهو صفة كمال هنا في مقابل المستهزئين مثل قوله تعالى: {إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً}[الطارق: ١٥، ١٦]: أي أعظمَ منه كيدًا؛ فالاستهزاء من الله تعالى حق على حقيقته، ولا يجوز أن يفسر بغير ظاهره؛ فتفسيره بغير ظاهره محرم؛ وكل من فسر شيئًا من القرآن على غير ظاهره بلا دليل صحيح فقد قال على الله ما لم يعلم؛ والقول على الله بلا علم حرام، كما قال تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}[الأعراف: ٣٣]؛ فكل قول على الله

بلا علم في شرعه، أو في فعله، أو في وصفه غير جائز؛ بل نحن نؤمن بأن الله جل وعلا يستهزئ بالمنافقين استهزاءً حقيقيًا؛ لكن ليس كاستهزائنا؛ بل أعظم من استهزائنا، وأكبر، وليس كمثله شيء.

وهذه القاعدة يجب أن يسار عليها في كل ما وصف الله به نفسه؛ فكما أنك لا تتجاوز حكم الله فلا تقول لما حرم: (إنه حلال)، فكذلك لا تقول لما وصف به نفسه أن هذا ليس المراد؛ فكل ما وصف الله به نفسه يجب عليك أن تبقيه على ظاهره، لكن تعلم أن ظاهره ليس كالذي ينسب لك؛ فاستهزاء الله ليس كاستهزائنا؛ وقرب الله ليس كقربنا؛ واستواء الله على عرشه ليس كاستوائنا على السرير؛ وهكذا بقية الصفات نجريها على ظاهرها، ولا نقول على الله ما لا نعلم؛ ولكن ننزه ربنا عما نزَّه نفسه عنه من مماثلة المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[الشورى: ١١].

أما الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقًا؛ لأن الخيانة صفة نقص مطلق؛ و(الخيانة) معناها: الخديعة في موضع الائتمان. وهذا نقص؛ ولهذا قال الله عزّ وجل: {وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم}[الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لكن لما قال تعالى: {يخادعون الله}[النساء: ١٤٢]، قال: {وهو خادعهم}[النساء: ١٤٢]؛ لأن الخديعة صفة مدح مقيدة؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: ((الحرب خدعة([1]))، وقال ﷺ: ((لا تخن من خانك([2]))؛ لأن الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أما الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق.

٣- أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يستمر في طغيانه.

فيستفاد من هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي تحذير الإنسان الطاغي أن يغتر بنعم الله عزّ وجل؛ فهذه النعم قد تكون استدراجًا من الله؛ فالله سبحانه وتعالى يملي، كما قال تعالى: {ويمدهم في طغيانهم يعمهون}؛ ولو شاء لأخذهم، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. كما جاء في الحديث.

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازى بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيمًا على شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيمًا على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج.

٤- أن صاحب الطغيان يعميه هواه، وطغيانه عن معرفة الحق، وقبوله؛ ولهذا قال تعالى: {ويمدهم في طغيانهم يعمهون}؛ ومن الطغيان أن يُقَدِّم المرء قوله على قول الله ورسوله؛ والله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم}[الحجرات: ١].

١- أخرجه البخاري ص٢٤٣، كتاب الجهاد والسير، باب ١٥٧؛ الحرب خدعة، حديث رقم ٣٠٢٨؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٦، كتاب الجهاد والسير، باب ٥؛ جواز الخداع في الحرب، حديث رقم ٤٥٤٠ [١٨] ١٧٤٠.

٢- أخرجه أحمد في مسنده ٣/٤١٤؛ وأخرجه أبو داود في سننه ص١٤٨٥، كتاب البيوع، باب ٧٩: في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، حديث رقم ٣٥٣٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٧٨، كتاب البيوع، باب ٣٨: أد الأمانة إلى من ائتمنك، حديث رقم ١٢٦٤؛ وأخرجه الدارمي في سننه ٢/٣٤٣، حديث رقم ٢٥٩٧، كتاب البيوع، باب ٥٧: في أداء الأمانة واجتناب الخيانة، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/١٨، وقال عبد القادر الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول: صحيح ٦/٣٢٣، حاشية رقم ١.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

قال ابن العثيمين: {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى}؛ (أولاء): اسم إشارة؛ والمشار إليهم المنافقون؛ وجاءت الإشارة بصيغة البُعد لبُعد منزلة المنافق سفولًا؛ و{اشتروا}: أي اختاروا؛ و{الضلالة}: العماية؛ وهي ما ساروا عليه من النفاق؛ و{بالهدى}: الباء هنا للعوض؛ أخذوا الضلالة، وأعطوا الهدى. مثلما تقول: اشتريت الثوب بدرهم؛ فالهدى المدفوع عوض عن الضلالة المأخوذة، كما أن الدرهم المدفوع عوض عن الثوب المأخوذ.

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٦ص٧١: وهذا كما قال من السلف المفسرين، كقتادة وغيره: عرفوا ثم أنكروا، وأبصروا ثم عَمُوا، واهتدوا ثم ضلوا، ونحو ذلك. فإنه أخبر أنهم اشتروا الضلالة بالهدى، وهذه حال من أخذ الضلالة التي لم تكن عنده، وأخرج الهدى الذي كان عنده، وإن كان قد يُقال: إن مثل هذا قد يُقال للقادر على الأمرين، إذا ترك هذا وأخذ هذا، لكن سياق الكلام يدل على الأول.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج١٣ص٥٣: وَقَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: عَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا وَأَبْصَرُوا ثُمَّ عَمُوا. فَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ أَوَّلًا إيمَانًا مُجْمَلًا ثُمَّ يَأْتِي أُمُورٌ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَيُنَافِقُ فِي الْبَاطِنِ وَمَا يُمْكِنُهُ إظْهَارُ الرِّدَّةِ بَلْ يَتَكَلَّمُ بِالنِّفَاقِ مَعَ خَاصَّتِهِ وَهَذَا كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}[محمد: ٢٠، ٢١].

قال ابن العثيمين: {فما ربحت تجارتهم}: أي ما زادت تجارتهم. وهي اشتراؤهم الضلالة بالهدى.

{وما كانوا مهتدين}: أي ما كانوا متصفين بالاهتداء حينما اشتروا الضلالة بالهدى؛ بل هم خاسرون في تجارتهم ضالون في منهجهم.

قال ابن القيم في الجواب الكافي ج١ص١٠٤: فَإِذَا كَانَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ظَهَرَ لَهُمُ الْغَبْنُ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَتَقَطَّعُ عَلَيْهِمُ النُّفُوسُ حَسَرَاتٍ.

وَأَمَّا الرَّابِحُونَ فَإِنَّهُمْ بَاعُوا فَانِيًا بِبَاقٍ، وَخَسِيسًا بِنَفِيسٍ، وَحَقِيرًا بِعَظِيمٍ، وَقَالُوا: مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، حَتَّى نَبِيعَ حَظَّنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا؟ فَكَيْفَ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الْقَصِيرِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَغَفْوَةِ حُلْمٍ، لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ أَلْبَتَّةَ: قَالَ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}[يُونُسَ: ٤٥].

وَقَالَ تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا – فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا – إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا – إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا – كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}[النَّازِعَاتِ: ٤٢ – ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ}[الْأَحْقَافِ: ٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا

لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الْمُؤْمِنِينَ: ١١٢ – ١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}[طه: ١٠٢ – ١٠٤].

فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدَ مُوَافَاةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا عَلِمُوا قِلَّةَ لُبْثِهِمْ فِيهَا، وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ، هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ وَدَارُ الْبَقَاءِ – رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْفَنَاءِ، فَاتَّجَرُوا تِجَارَةَ الْأَكْيَاسِ، وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِتِجَارَةِ السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ، فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ وَمِقْدَارُ مَا اشْتَرَوْهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَائِعٌ مُشْتَرٍ مُتَّجِرٌ، وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا.

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التَّوْبَةِ: ١١١].

فَهَذَا أَوَّلُ نَقْدٍ مِنْ ثَمَنِ هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَاجِرُوا أَيُّهَا الْمُفْلِسُونَ، وَيَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا الثَّمَنِ، هُنَا ثَمَنٌ آخَرُ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ التِّجَارَةِ فَأَعْطِ هَذَا الثَّمَنَ: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[التَّوْبَةِ: ١١٢]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الصَّفِّ: ١٠ – ١١].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَتَشْغَلُهُ بِالتِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– بيان سفه هؤلاء المنافقين، حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

٢– شغف المنافقين بالضلال؛ لأنه تبارك وتعالى عبر عن سلوكهم الضلال بأنهم اشتروه؛ والمشتري مشغوف بالسلعة محب لها.

٣– أن الإنسان قد يظن أنه أحسنَ عملًا وهو قد أساء؛ لأن هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى ظنًا منهم أنهم على صواب، وأنهم رابحون، فقال الله تعالى: {فما ربحت تجارتهم}.

٤– خسران المنافقين فيما يطمعون فيه بالربح؛ لقوله تعالى: {فما ربحت تجارتهم}.

٥– أن المدار في الربح، والخسران على اتباع الهدى؛ فمن اتبعه فهو الرابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: {والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}[العصر: ١، ٣]، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله

ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون}[الصف: ١٠، ١١]: تقف على {خير لكم}؛ لأن {إن كنتم تعلمون}، إذا وصلناها بما قبلها صار الخير معلقاً بكوننا نعلم. وهو خير علمنا أم لم نعلم.

٦- أن هؤلاء لن يهتدوا؛ لقوله تعالى: {وما كانوا مهتدين}؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ ولذلك لا يرجعون؛ وهكذا كل فاسق، أو مبتدع يظن أنه على حق فإنه لن يرجع؛ فالجاهل البسيط خير من هذا؛ لأن هذا جاهل مركب يظن أنه على صواب. وليس على صواب.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)

قال ابن العثيمين: {مثلهم}: أي وصْفهم، وحالهم {كمثل الذي استوقد ناراً}: أي طلب من غيره أن يوقد له نارًا، أو طلب من غيره ما يوقد به النار بنفسه؛ {فلما أضاءت ما حوله}: أي أنارت ما حول المستوقد، ولم تذهب بعيدًا لضعفها؛ {ذهب الله بنورهم}: يعني وأبقى حرارة النار؛ و{لما}، حرف شرط، و{أضاءت}، فعل الشرط؛ و{ذهب الله}، جواب الشرط؛ والمعنى: أنه بمجرد الإضاءة ذهب النور؛ لأن القاعدة أن جواب الشرط يلي المشروط مباشرة.

وفي هذه الآية نجد اختلافًا في الضمائر: {استوقد}، مفرد؛ {حوله}، مفرد؛ {بنورهم}، جمع؛ {تركهم}، جمع؛ {لا يبصرون}، جمع؛ قد يقول قائل: كيف يجوز في أفصح الكلام أن تكون الضمائر مختلفة والمرجع فيها واحد؟

الجواب من وجهين:

الأول: أن اسم الموصول يفيد العموم؛ وإذا كان يفيد العموم فهو صالح للمفرد، والجمع؛ فتكون الضمائر في {استوقد}، و{حوله}، عادت إلى اسم الموصول باعتبار اللفظ؛ وأما {نورهم}، و{تركهم}، و{لا يبصرون}، فعادت إلى الموصول باعتبار المعنى.

الوجه الثاني: أن الذي استوقد النار كان مع رفقة، فاستوقد النار له، ولرفقته؛ ولهذا قال تعالى: {أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ... }، إلخ.

وعلى الوجه الثاني تكون الآية ممثلة لرؤساء المنافقين مع أتباعهم؛ لأن رأس المنافقين هو الذي استوقد النار، وأراد أن ينفع بها أقرانه، ثم ذهبت الإضاءة، وبقيت الحرارة، والظلمة، وتركهم جميعاً في ظلمات لا يبصرون.

{وتركهم في ظلمات}، جمعها لتضمنها ظلمات عديدة؛ أولها: ظلمة الليل؛ لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل؛ لأنك إذا استوقدت نارًا بالنهار فإنها لا تضيء؛ والثانية: ظلمة الجو إذا كان غائمًا؛ والثالثة: الظلمة التي

تحدث بعد فقد النور؛ فإنها تكون أشد من الظلمة الدائمة؛ و{لا يبصرون}، تأكيد من حيث المعنى لقوله تعالى: {في ظلمات}، دال على شدة الظلمة.

{صم}، خبر لمبتدأ محذوف. أي هم صم؛ و{صم}: جمع أصم؛ و(الأصم): الذي لا يسمع، لكنه هنا ليس على سبيل الإطلاق؛ بل أريد به شيء معين، أي: هم صم عن الحق، فلا يسمعون؛ والمراد نفي السمع المعنوي. وهو السمع النافع؛ لا الحسي. وهو الإدراك؛ لأن كلهم يسمعون القرآن، ويفهمون معناه، لكن لما كانوا لا ينتفعون به صاروا كالصم الذين لا يسمعون؛ وذلك مثل قول الله تعالى: {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون} [الأنفال: ٢١].

{بُكْمٌ}، جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ والمراد أنهم لا ينطقون بالحق؛ وإنما ينطقون بالباطل؛ و{عُمْيٌ}، جمع أعمى؛ والمراد أنهم لا ينتفعون بما يشاهدونه من الآية التي تظهر على أيدي الرسل. عليهم الصلاة والسلام.

فبهذا سُدت طرق الحق أمامهم؛ لأن الحق إما مسموع؛ وإما مشهود؛ وإما معقول؛ فهم لا يسمعون، ولا يشهدون؛ كذلك أيضًا لا يؤخذ منهم حق؛ لأنهم لا ينطقون بالحق؛ لأنهم بُكم؛ فهم لا ينتفعون بالحق من غيرهم، ولا ينفعون غيرهم بحق.

{فهم لا يرجعون}: الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية، أي بسبب هذه الأوصاف الثلاثة لا يرجعون عن غيّهم؛ فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٢٧٤: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ فِي صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِين ضَرَبَ لَهُمْ الْمَثَلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: أَنَّهُمْ أَبْصَرُوا ثُمَّ عَمُوا، وَعَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا، وَآمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا. وَكَذَلِكَ قَالَ قتادة وَمُجَاهِدٌ: ضَرَبَ الْمَثَلَ لِإِقْبَالِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَسَمَاعِهِمْ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَذَهَابِ نُورِهِمْ، قَالَ: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} إلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: الْمُرَادُ بِالنُّورِ: مَا حَصَلَ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَإِذَا مَاتُوا سُلِبُوا ذَلِكَ الضَّوْءَ كَمَا سُلِبَ صَاحِبُ النَّارِ ضَوْءَهُ، فَلَفْظُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَالَ: {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ فِي الْعَذَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِين آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ} الْآيَةَ [الحديد: ١٣، ١٤]، وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ: إنَّ الْمُنَافِقَ يُعْطَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا ثُمَّ يُطْفَأُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِين آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا}[التحريم: ٨].

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إذَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ نُورَ الْمُنَافِقِينَ يُطْفَأُ، سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُتِمَّ لَهُمْ نُورَهُمْ وَيُبَلِّغَهُمْ بِهِ الْجَنَّةَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا يُعْطَى نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُطْفَأُ نُورُهُ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُشْفِقُ مِمَّا رَأَى مِنْ إِطْفَاءِ نُورِ الْمُنَافِقِ، فَهُوَ يَقُولُ: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}.

فَبَيَّنَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُحْشَرُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ، كَمَا كَانُوا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ وَقْتَ الْحَقِيقَةِ، هَؤُلَاءِ يَسْجُدُونَ لِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنَ السُّجُودِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَسْجُدُوا فِي الدُّنْيَا لَهُ، بَلْ قَصَدُوا الرِّيَاءَ لِلنَّاسِ، وَالْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا، فَلِهَذَا أُعْطُوا نُورًا ثُمَّ طفئ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهُ؛ وَلِهَذَا ضَرَبَ اللَّهُ لَهُمُ الْمَثَلَ بِذَلِكَ، وَهَذَا الْمَثَلُ، هُوَ لِمَنْ كَانَ فِيهِمْ آمِنٌ ثُمَّ كَفَرَ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُعْطَوْنَ فِي الْآخِرَةِ نُورًا ثُمَّ يُطْفَأُ.

وَلِهَذَا قَالَ: {فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}، إِلَى الْإِسْلَامِ فِي الْبَاطِنِ. وَقَالَ قتادة وَمُقَاتِلٌ: لَا يَرْجِعُونَ عَنْ ضَلَالِهِمْ. وَقَالَ السدي: لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، يَعْنِي فِي الْبَاطِنِ، وَإِلَّا فَهُمْ يُظْهِرُونَهُ، وَهَذَا الْمَثَلُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا الْمَثَلُ مَضْرُوبٌ لِبَعْضِهِمْ وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٥٩٨: وقال تعالى فيهم: {صم بكم عمي فهم لا يرجعون}، وقال تعالى في الكفار: {صم بكم عمى فهم لا يعقلون}، فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ومن ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشدّ كفرًا وأخبث قلبًا وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل. وفيه معنى آخر ايضًا، وهو أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضًا، ومن ههنا دخل عليهم البلاء، فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله ورسوله، بل كان ميلهم وصغوهم وجهتهم إلى الكفار، فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل وهو أن جعل مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار، فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله، والذين ءامنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان، والكذب والتلاعب بالدين، وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم على الكفر والشرك، وعداوة الله ورسوله، أمر اختصوا به عن الكفار، فتغلظ كفرهم به فاستحقوا الدرك الأسفل من النار.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- بلاغة القرآن، حيث يضرب للمعقولات أمثالًا محسوسات؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلى الفهم من الشيء المعقول؛ لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالى يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يدركها الإنسان جيدًا، كما قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون} [العنكبوت: ٤٣].

٢- ثبوت القياس، وأنه دليل يؤخذ به؛ لأن الله أراد منا أن نقيس حالهم على حال من يستوقد؛ وكل مثل في القرآن فهو دليل على ثبوت القياس.

٣- أن هؤلاء المنافقين ليس في قلوبهم نور؛ لقوله تعالى: {كمثل الذي استوقد نارًا}؛ فهؤلاء المنافقون يستطعمون الهدى، والعلم، والنور؛ فإذا وصل إلى قلوبهم. بمجرد ما يصل إليها. يتضاءل، ويزول؛ لأن هؤلاء المنافقين إخوان للمؤمنين من حيث النسب، وأعمام، وأخوال، وأقارب؛ فربما يجلس إلى المؤمن حقاً، فيتكلم له بإيمان حقيقي، ويدعوه، فينقدح في قلبه هذا الإيمان، ولكن سرعان ما يزول.

٤- أن الإيمان نور له تأثير حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: {فلما أضاءت ما حوله}، الإيمان أضاء بعض الشيء في قلوبهم؛ ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر؛ ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين. وهي أوسع ما تحدَّث الله به عن المنافقين: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم}[المنافقون: ٣].

٥- أنه بعد أن ذهب هذا الضياء حلت الظلمة الشديدة؛ بل الظلمات.

٦- أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: {ذهب الله بنورهم}، كأنه أخذه قهرًا.

فإن قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الجبرية؟

فالجواب: لا؛ لأن هذا الذي حصل من رب العباد عزّ وجلّ بسببهم؛ وتذكَّر دائمًا قول الله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}[الصف: ٥]. حتى يتبين لك أن كل من وصفه الله بأنه أضله فإنما ذلك بسبب منه.

٧- تخلي الله عن المنافقين؛ لقوله تعالى: {وتركهم}، ويتفرع على ذلك: أن من تخلى الله عنه فهو هالك. ليس عنده نور، ولا هدًى، ولا صلاح؛ لقوله تعالى: {وتركهم في ظلمات لا يبصرون}.

٨- أن هؤلاء المنافقين أصم الله تعالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا؛ ويجوز أن يُنفى الشيء لانتفاء الانتفاع به، كما في قوله تعالى: {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون}[الأنفال: ٢١].

٩- أن هؤلاء المنافقين لا ينطقون بالحق. كالأبكم.

١٠- أنهم لا يبصرون الحق. كالأعمى.

١١- أنهم لا يرجعون عن غيِّهم؛ لأنهم يعتقدون أنهم محسنون، وأنهم صاروا أصحابًا للمؤمنين، وأصحابًا للكافرين: هم أصحاب للمؤمنين في الظاهر، وأصحاب للكافرين في الباطن؛ ومن استحسن شيئًا فإنه لا يكاد أن يرجع عنه.

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

قال ابن العثيمين: {أو كصيِّب من السماء}؛ {أو}، هنا للتنويع؛ لأن المثل الثاني نوع آخر؛ والكاف اسم بمعنى (مِثل)؛ فالمعنى: أو مِثل صيب؛ ويجوز أن نقول: إن الكاف حرف تشبيه، والتقدير: أو مَثلهم كصيب؛ وال{صيِّب}: المطر النازل من السماء؛ والمراد بـ{السماء}: هنا العلو.

{فيه ظلمات}: أي معه ظلمات؛ لأن الظلمات تكون مصاحبة له؛ وهذه الظلمات ثلاث: ظلمة الليل؛ وظلمة السحاب؛ وظلمة المطر؛ والدليل على أنها ظلمة الليل قوله تعالى بعد ذلك: {يكاد البرق يخطف أبصارهم}، وقوله تعالى: {كلما أضاء لهم مشوا فيه}: وهذا لا يكون إلا في الليل؛ والثاني: ظلمة السحاب؛ لأن السحاب الكثير يتراكم بعضه على بعض، فيَحدُث من ذلك ظلمةٌ فوق ظلمة؛ والثالث: ظلمة المطر النازل؛ لأن المطر النازل له كثافة تُحدِث ظلمةً؛ هذه ثلاث ظلمات؛ وربما تكون أكثر، كما لو كان في الجو غبار.

{ورعد وبرق}؛ ال{رعد}: هو الصوت الذي نسمعه من السحاب؛ أما ال{برق}: فهو النور الذي يلمع في السحاب. فهؤلاء عندهم ظلمات في قلوبهم. فهي مملوءة ظلمة من الأصل؛ أصابها صيب. وهو القرآن. فيه رعد؛ والرعد هو وعيد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لهؤلاء المنافقين وخوفهم منه كأنه رعد شديد؛ وفيه برق. وهو وعد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لما فيه من نور، وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض.

{يجعلون أصابعهم في آذانهم}: الضمير في {يجعلون}، يعود على أصحاب الصيب؛ ففيها حذف المضاف؛ والتقدير: أصحاب الصيب؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه ليس المشبه به هنا هو الصيب؛ وإنما المشبه به الذين أصابهم الصيب؛ و{أصابع}: جمع أصبع، وفيه عشر لغات أشار إليها في قوله: {وهمزَ أنملةٍ ثلِّث وثالثَه التسعُ في إصبعٍ واختم بأصبوع}، هذا وقد قيل: إن في الآية مجازًا من وجهين؛ الأول: أن الأصابع ليست كلها تجعل في الأذن؛ والثاني: أنه ليس كل الأصبع يدخل في الأذن؛ والتحقيق: أنه ليس في الآية مجاز؛ أما الأول: فلأن {أصابع} جمع عائد على قوله تعالى: {يجعلون}، فيكون من باب توزيع الجمع على الجمع. أي يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه؛ وأما الثاني: فلأن المخاطَب لا يمكن أن يفهم من جعْل الأصبع في الأذن أن جميع الأصبع تدخل في الأذن؛ وإذا كان لا يمكن ذلك امتنع أن تحمل الحقيقة على إدخال جميع الأصبع؛ بل الحقيقة أن ذلك إدخال بعض الأصبع؛ وحينئذ لا مجاز في الآية؛ على أن القول الراجح أنه لا مجاز في القرآن أصلًا؛ لأن معاني الآية تدرك بالسياق؛ وحقيقة الكلام: ما دلّ عليه السياق. وإن استعملت الكلمات في غير أصلها؛ وبحث ذلك مذكور في كتب

البلاغة، وأصول الفقه، وأكبر دليل على امتناع المجاز في القرآن: أن من علامات المجاز صحة نفيه، وتبادر غيره لولا القرينة؛ وليس في القرآن ما يصح نفيه؛ وإذا وجدت القرينة صار الكلام بها حقيقة في المراد به.

{من الصواعق}: {من}، سببية، أي يجعلونها بسبب الصواعق؛ و{الصواعق}: جمع صاعقة؛ وهي ما تَصعَق؛ أي تُهلك مَنْ أصابته؛ هذه الصواعق معروفة بآثارها؛ فهي نار تنطلق من البرق؛ فإذا أصابت أحدًا، أو شيئًا أحرقته؛ وغالبًا تسقط على النخيل، وتحرقها؛ وترى فيها النار، والدخان؛ وأحيانًا تسقط على المنازل وتهدمها؛ لأنها كتلة نارية تنطلق بشدة لها هواء تدفعه أمامها.

فيجعلون أصابعهم في آذانهم من هذه الصواعق لئلّا يموتوا؛ ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل؛ إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصياد أدخلت رأسها في الرمل لئلّا تراه؛ وتظن أنها إذا لم تره تنجو منه! وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسلمون بهذا؛ إذا أراد الله تعالى أن يصيبهم أصابهم؛ ولهذا قال تعالى: {والله محيط بالكافرين}، فلن ينفعهم الحذر.

قال الطبري: {والله محيط بالكافرين}: أي أنه المقتدر عليهم وعلى جمعهم، لإحلال سَخَطه بهم، وإنزال نِقْمته عليهم، ومُحذِّرَهم بذلك سَطوته، ومخوِّفَهم به عقوبته، ليتقوا بأسَه، ويُسارعوا إليه بالتوبة.

قال ابن العثيمين: ولما بَيَّن الله شدة الصوت، وأنهم لفرارهم منه، وعدم تحملهم إياه يجعلون أصابعهم في آذانهم بَيَّن شدة الضوء عليهم، فقال تعالى: {يكاد البرق يخطف أبصارهم}، أي يقرب أن يخطف أبصارهم. أي يأخذها بسرعة، فتعمى؛ وذلك لقوته، وضعف أبصارهم.

{كلَّما أضاء لهم مشوا فيه}: فكأنهم ينتهزون فرصة الإضاءة، ولا يتأخرون عن الإضاءة طرفة عين؛ كلما أضاء لهم – ولو شيئًا يسيرًا – مشوا فيه.

{وإذا أظلم عليهم}: أي أصابهم بظلمة؛ وذلك أن الضوء إذا انطفأ بسرعة اشتدت الظلمة بعده؛ {قاموا}: أي وقفوا.

{ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم}، دون أن تحدث الصواعق، ودون أن يحدث البرق؛ لأن الله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بدون أسباب: فيذهب السمع بدون صواعق، والبصر بدون برق؛ {إنَّ الله على كلِّ شيء قدير}.

هذا المثل ينطبق على منافقين لم يؤمنوا أصلًا؛ بل كانوا كافرين من قبل، كاليهود؛ لأن المنافقين منهم عرب من الخزرج، والأوس؛ ومنهم يهود من بني إسرائيل؛ فاليهود لم يذوقوا طعم الإيمان أبدًا؛ لأنهم كفار من الأصل؛ لكن أظهروا الإسلام خوفًا من النبي ﷺ بعد أن أعزه الله في بدر؛ فهؤلاء ليسوا على هدًى. كالأولين؛ الأولون استوقدوا النار، وصار عندهم شيء من النور بهذه النار، ثم. والعياذ بالله. انتكسوا؛ لكن هؤلاء من الأصل في ظلمات؛ فيكون هذا المثل غير المثل الأول؛ بل هو لقوم آخرين؛ والمنافقون أصناف بلا شك.

و{الصواعق}: عبارة عما في القرآن من الإنذار، والخوف؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم في آية أخرى: {يحسبون كل صيحة عليهم}[المنافقون: ٤]؛ و{البرق}، نور الإسلام، لكنه ليس نورًا يستمر؛ نور البرق ينقطع في

لحظة؛ وميض؛ فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم أصلًا، ولا فكروا في ذلك؛ وإنما يرون هذا النور العظيم الذي شعّ، فينتفعون به لمجرد خطوة يخطونها فقط؛ وبعد ذلك يقفون؛ كذلك أيضًا يكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يتمكنون من رؤية النور الذي جاء به النبي ﷺ؛ بل لكبريائهم، وحسدهم للعرب يكاد هذا البرق يعمي أبصارهم؛ لأنه قوي عليهم لا يستطيعون مدافعته، ومقابلته.. فالظاهر أن القول الراجح أن هذين مثلان يتنزلان على صنفين من المنافقين.

فإن قال قائل: الصنف الأول كيف نقول: إنه دخل الإيمان في قلوبهم؟

فالجواب: نقول: نعم؛ قال الله تعالى: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون}[المنافقون: ٣]؛ وهذا يدل على أنهم آمنوا أولًا ثم كفروا ثانيًا؛ لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، ولم تستنر به؛ وإنما هو وميض ضوء ما لبث أن طفئ؛ وإلا فإن الإيمان إذا دخل القلب دخولاً حقيقيًا فإنه لن يخرج منه بإذن الله؛ ولهذا سأل هرقل أبا سفيان عن أصحاب الرسول ﷺ الذين يدخلون في الإسلام: ((فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؛ فقال: لا؛ فقال: وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلوبَ([1]))؛ لكن الإيمان الهش – الذي لم يتمكن من القلب – هو الذي يُخشى على صاحبه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٢٧٦: وَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يَزَالُوا مُنَافِقِينَ فَضَرَبَ لَهُمْ الْمَثَلَ الْآخَرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ}، وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّ الْمُفَسِّرِينَ اخْتَلَفُوا: هَلْ الْمَثَلَانِ مَضْرُوبَانِ لَهُمْ كُلِّهِم، أَوْ هَذَا الْمَثَلُ لِبَعْضِهِمْ؟ عَلَى " قَوْلَيْنِ ". وَالثَّانِي هُوَ الصَّوَابُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: {أَوْ كَصَيِّبٍ}، وَإِنَّمَا يَثْبُتُ بِهَا أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ مَثَلُهُمْ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ الْمَثَلَيْنِ بَلْ بَعْضُهُمْ يُشْبِهُ هَذَا، وَبَعْضُهُمْ يُشْبِهُ هَذَا وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ يُشْبِهُونَ الْمَثَلَيْنِ لَمْ يَذْكُرْ {أَوْ}، بَلْ يَذْكُرْ الْوَاوَ الْعَاطِفَةَ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: {أَوْ}، هَاهُنَا لِلتَّخْيِيرِ – كَقَوْلِهِمْ: جَالِسْ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سِيرِين – لَيْسَ بِشَيْءِ، لِأَنَّ التَّخْيِيرَ يَكُونُ فِي الْأَمْرِ وَالطَّلَبِ لَا يَكُونُ فِي الْخَبَرِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: {أَوْ}، بِمَعْنَى الْوَاوِ أَوْ لِتَشْكِيكِ الْمُخاطَبِينَ، أَوْ الْإِبْهَامِ عَلَيْهِمْ لَيْسَ بِشَيْءِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ بِالْأَمْثَالِ الْبَيَانَ وَالتَّفْهِيمَ، لَا يُرِيدُ التَّشْكِيكَ وَالْإِبْهَامَ. وَالْمَقْصُودُ تَفْهِيمُ الْمُؤْمِنِينَ حَالَهُمْ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْمَثَلِ الْأَوَّلِ: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}، وَقَالَ فِي الثَّانِي: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فَبَيَّنَ فِي الْمَثَلِ الثَّانِي أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَفِي الْأَوَّلِ كَانُوا يُبْصِرُونَ ثُمَّ صَارُوا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ. وَفِي الثَّانِي إذا أَضَاءَ لَهُمْ الْبَرْقُ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، فَلَهُمْ حَالَانِ: حَالُ ضِيَاءٍ،

١– أخرجه البخاري ص١ – ٢، كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٩٢ – ٩٩٣، كتاب الجهاد والسير، باب ٢٦: كتب النبي ﷺ إلى هرقل ...، حديث رقم ٤٦٠٧ [٧٤] ١٧٧٣.

وَحَالُ ظَلَامٍ، وَالْأَوَّلُونَ بَقُوا فِي الظُّلْمَةِ. فَالْأَوَّلُ حَالُ مَنْ كَانَ فِي ضَوْءٍ فَصَارَ فِي ظُلْمَةٍ، وَالثَّانِي حَالُ مَنْ لَمْ يَسْتَقِرَّ لَا فِي ضَوْءٍ وَلَا فِي ظُلْمَةٍ، بَلْ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ الَّتِي تُوجِبُ مَقَامَهُ وَاسْتِرَابَتَهُ.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين ج١ص١١٦: فَضَرَبَ لِلْمُنَافِقِينَ بِحَسَبِ حَالِهِمْ مَثَلَيْنِ: مَثَلًا نَارِيًّا، وَمَثَلًا مَائِيًّا، لِمَا فِي النَّارِ وَالْمَاءِ مِنْ الْإِضَاءَةِ وَالْإِشْرَاقِ وَالْحَيَاةِ؛ فَإِنَّ النَّارَ مَادَّةُ النُّورِ، وَالْمَاءَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنْ السَّمَاءِ مُتَضَمِّنًا لِحَيَاةِ الْقُلُوبِ وَاسْتِنَارَتِهَا، وَلِهَذَا سَمَّاهُ رُوحًا وَنُورًا، وَجَعَلَ قَابِلِيهِ أَحْيَاءَ فِي النُّورِ، وَمَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا أَمْوَاتًا فِي الظُّلُمَاتِ، وَأَخْبَرَ عَنْ حَالِ الْمُنَافِقِينَ بِالنِّسْبَةِ إلَى حَظِّهِمْ مِنْ الْوَحْيِ وَأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ اسْتَوْقَدَ نَارًا لِتُضِيءَ لَهُ وَيَنْتَفِعَ بِهَا، وَهَذَا لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَاسْتَضَاءُوا بِهِ، وَانْتَفَعُوا بِهِ، وَآمَنُوا بِهِ، وَخَالَطُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لِصُحْبَتِهِمْ مَادَّةٌ مِنْ قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ الْإِسْلَامِ طَفِئَ عَنْهُمْ، وَذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَلَمْ يَقُلْ بِنَارِهِمْ؛ فَإِنَّ النَّارَ فِيهَا الْإِضَاءَةُ وَالْإِحْرَاقُ، فَذَهَبَ اللَّهُ بِمَا فِيهَا مِنْ الْإِضَاءَةِ، وَأَبْقَى عَلَيْهِمْ مَا فِيهَا مِنْ الْإِحْرَاقِ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، فَهَذَا حَالُ مَنْ أَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ، وَعَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ فَارَقَهُ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ لَا يَرْجِعُ إلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ}[البقرة: ١٨]، ثُمَّ ذَكَرَ حَالَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْمَثَلِ الْمَائِيِّ، فَشَبَّهَهُمْ بِأَصْحَابِ صَيِّبٍ – وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يُصَوَّبُ أَيْ يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ – فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، فَلِضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ زَوَاجِرُ الْقُرْآنِ وَوَعِيدُهُ وَتَهْدِيدُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ وَخِطَابُهُ الَّذِي يُشْبِهُ الصَّوَاعِقَ، فَحَالُهُمْ كَحَالِ مَنْ أَصَابَهُ مَطَرٌ فِيهِ ظُلْمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، فَلِضَعْفِهِ وَخَوَرِهِ جَعَلَ أُصْبُعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَغَمَضَ عَيْنَيْهِ خَشْيَةً مِنْ صَاعِقَةٍ تُصِيبُهُ، وَقَدْ شَاهَدْنَا نَحْنُ وَغَيْرُنَا كَثِيرًا مِنْ مَخَانِيثِ تَلَامِيذِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُبْتَدِعَةِ إذَا سَمِعُوا شَيْئًا مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ الْمُنَافِيَةِ لِبِدْعَتِهِمْ رَأَيْتُهُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ.

وَيَقُولُ مُخَنَّثُهُمْ: سُدُّوا عَنَّا هَذَا الْبَابَ، وأقرئوا شَيْئًا غَيْرَ هَذَا، وَتَرَى قُلُوبَهُمْ مُوَلِّيَةٌ وَهُمْ يَجْمَحُونَ لِثِقَلِ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى اخْتِلَافِ شِرْكِهِمْ، إذَا جُرِّدَ لَهُمْ التَّوْحِيدُ وَتُلِيَتْ عَلَيْهِمْ النُّصُوصُ الْمُبْطِلَةُ لِشِرْكِهِمْ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ، وَثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ وَجَدُوا السَّبِيلَ إلَى سَدِّ آذَانِهِمْ لَفَعَلُوا، وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَعْدَاءَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إذَا سَمِعُوا نُصُوصَ الثَّنَاءِ عَلَى الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَصَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ جِدًّا، وَأَنْكَرَتْهُ قُلُوبُهُمْ؛ وَهَذَا كُلُّهُ شَبَهٌ ظَاهِرٌ، وَمَثَلٌ مُحَقَّقٌ مِنْ إخْوَانِهِمْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ بِالْمَاءِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ تَشَابَهَتْ أَعْمَالُهُمْ.

قال الطبري: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: وإنما وصف الله نفسه جلّ ذكره بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم مُحيطٌ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قَديرٌ. ثم قال: فاتقوني أيُّها المنافقون، واحذرُوا خِداعي وخداعَ رسولي وأهلِ الإيمان بي، لا أحِلَّ بكم نقمتي، فإني على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير. ومعنى {قدير}: قادر، كما معنى (عليم) عالم، على ما وصفتُ فيما تقدم من نظائره، من زيادة معنى فعيل على فاعل في المدح والذم.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: {القدير}: هو المتصف بالقدرة المطلقة، الذي يتولى تنفيذ ما قدره في علمه، ويخلقه حسب مشيئته وأمره، فما شاء الله كان بتقديره وقدرته، وما لم يشأ لم يكن بعلمه وحكمته.

واسم الله {القدير} يدل على ذات الله وصفة القدرة المطلقة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة القدرة المطلقة وحدها بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والغني الأحدية، والعلم السمع والقوة والعظمة والحكمة وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الفعل لاتصافه بالقدرة.

و{القدير} مبالغة للموصوف بالقدرة، فبداية القدر كما علمنا في التقدير ونهايته في القدرة وتحقيق المقدر، قدرة الله تعالى على تحقيق ما قدره بعلمه، وكتبه، وما شاء خلقه وتكوينه، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بتقديره وبعد كتابته ومشيئته وقدرته، فبداية القدر العلم والتقدير، والنهاية في القدرة وتنفيذ المقدر، ولذلك يقول: {كَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً}[الأحزاب: ٣٨].

ويذكر العلامة ابن القيم في كتابه طريق الهجرتين أن القضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: (القدر قدرة الله)، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد غاية الاستحسان، ولهذا كان المنكرون للقدر فرقتين، فرقة كذبت بالعلم السابق ونفته، وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة، وفرقة جحدت كمال القدرة وأنكرت أن تكون أفعال العبادة مقدورة لله تعالى، وصرحت بأن الله لا يقدر عليها، فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب وأنكرت الأخرى كمال علمه.

كيف ندعو الله باسمه {القدير} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة أن يذكر الاسم أو الصفة التي دل عليها في دعائه، كما ورد عند الإمام البخاري من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه في الاستخارة: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ([1]))).

وفي سنن أبي داود وصححه الشيخ الألباني من أَبِي عَيَّاشٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ كَانَ لَهُ عِدْلُ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ وَكَانَ فِي حِرْزٍ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِىَ وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ([2])))، أما دعاء العبادة فيظهر من خلال عمل العبد بشرع الله وإيمانه بتقدير الله، يعلم أن تقسيم المقادير بيديه وأن المبتدأ منه والمنتهى إليه، وكل ميسر لما سيصير إليه، وفي السنن روى الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَال: ((كُنْتُ خَلفَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلمَ يَوْمًا فَقَال يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلمُكَ كَلمَاتٍ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلتَ فَاسْأَل اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَاعْلمْ أَنَّ

١- (قلت): البخاري (١١٦٦).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٤١٨).

الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لكَ وَلوِ اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ([1]))).

قال السعدي: وفي هذه الآية وما أشبهها، رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: {إن الله على كل شيء قدير}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٧: اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ وَسَائِرُ أَهْلِ الْمِلَلِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ جِدًّا. فَنَقُولُ: هُنَا مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ عَامَّةُ النُّظَّارِ، وَهُوَ: أَنَّ الْمُمْتَنِعَ لِذَاتِهِ لَيْسَ شَيْئًا أَلْبَتَّةَ، وَإِنْ كَانُوا مُتَنَازِعِينَ فِي الْمَعْدُومِ، فَإِنَّ الْمُمْتَنِعَ لِذَاتِهِ لَا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهُ فِي الْخَارِجِ، وَلَا يَتَصَوَّرُهُ الذِّهْنُ ثَابِتًا فِي الْخَارِجِ، وَلَكِنْ يُقَدَّرُ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الذِّهْنِ، ثُمَّ يُحْكَمُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ مُمْتَنِعٌ فِي الْخَارِجِ؛ إذْ كَانَ يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْأَعْيَانِ، وَتَصَوُّرُهُ فِي الْأَذْهَانِ، إلَّا عَلَى وَجْهِ التَّمْثِيلِ: بِأَنْ يُقَالَ: قَدْ تَجْتَمِعُ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ فِي الشَّيْءِ، فَهَلْ يُمْكِنُ فِي الْخَارِجِ أَنْ يَجْتَمِعَ السَّوَادُ وَالْبَيَاضُ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ، كَمَا تَجْتَمِعُ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ؟ فَيُقَالُ: هَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ، فَيُقَدَّرُ اجْتِمَاعُ نَظِيرِ الْمُمْكِنِ ثُمَّ يُحْكَمُ بِامْتِنَاعِهِ، وَأَمَّا نَفْسُ اجْتِمَاعِ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ، فَلَا يُمْكِنُ وَلَا يُعْقَلُ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ لَا فِي الْأَعْيَانِ وَلَا فِي الْأَذْهَانِ، فَلَمْ يَدْخُلْ فِي قَوْلِهِ: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْمَعْدُومَ لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي الْخَارِجِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَهُوَ الصَّوَابُ.

الى أن قال رحمه الله: وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الشَّيْءَ اسْمٌ لِمَا يُوجَدُ فِي الْأَعْيَانِ، وَلِمَا يُتَصَوَّرُ فِي الْأَذْهَانِ، فَمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ هُوَ شَيْءٌ فِي التَّقْدِيرِ وَالْعِلْمِ وَالْكِتَابِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا فِي الْخَارِجِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ: {إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[يس: ٨٢]، وَلَفْظُ الشَّيْءِ فِي الْآيَةِ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مَا وُجِدَ وَكُلُّ مَا تَصَوَّرَهُ الذِّهْنُ مَوْجُودًا، إنْ تُصُوِّرَ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا قَدِيراً، لَا يُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَا يُزَادُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}[القيامة: ٤]، وَقَالَ: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}[الأنعام: ٦٥]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَعُوذُ بِوَجْهِك)). فَلَمَّا نَزَلَ: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا} الْآيَةَ قَالَ: ((هَاتَانِ أَهْوَنُ([2]))). فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الأوليتين وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُمَا، وَقَالَ: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}[المؤمنون: ١٨].

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَذْهَبَ بِهِ حَتَّى تَمُوتُوا عَطَشًا، وَتَهْلَكَ مَوَاشِيكُمْ، وَتَخْرَبَ أَرَاضِيكُمْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ بِهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ}، إلَى قَوْلِهِ: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}[الواقعة: ٦٨-

---

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٥٣٠٢).

٢- البخاري في التفسير (٤٦٢٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٦٥) وقال: (حسن صحيح)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١/١١١٦٤)، وأحمد ٣/٣٠٩، كلهم عن جابر بن عبدالله. والحديث لم يرد في مسلم.

٨٢]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا لَا يَفْعَلُهُ. فَإِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ جَعَلَ الْمَاءَ أُجَاجًا وَهُوَ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَمِثْلُ هَذَا: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}[السجدة: ١٣]. {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ}[يونس: ٩٩]، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}[البقرة: ٢٥٣]، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَ أَشْيَاءَ وَهُوَ لَمْ يَفْعَلْهَا، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَيْهَا؛ لَكَانَ إِذَا شَاءَهَا لَمْ يُمْكِنْ فِعْلُهَا.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَغَيْرُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ. وَأَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ يَقُولُونَ: إِنَّ أَفْعَالَ الْعَبْدِ غَيْرُ مَقْدُورَةٍ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَفْعَالُ نَفْسِهِ، وَقَدْ نَطَقَتْ النُّصُوصُ بِهَذَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ}[يس: ٨١]، {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}[القيامة: ٤٠]، {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}[القيامة: ٤٠] وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْأَعْيَانِ جَاءَتْ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ}[ق: ١٦]، {أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}[البلد: ٥]، وَجَاءَتْ مَنْصُوصًا عَلَيْهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. أَمَّا الْكِتَابُ فَقَوْلُهُ: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}[الزخرف: ٤١] فَبَيَّنَ أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ، وَهَذَا نَصٌّ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَعْيَانِ الْمَفْعُولَةِ، وَقَوْلُهُ: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ}[ق: ٤٥]، و{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}[الغاشية: ٢٢] وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَهُوَ يَدُلُّ بِمَفْهُومِهِ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْجَبَّارُ عَلَيْهِمْ الْمُسَيْطِرُ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَتَهُ عَلَيْهِمْ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ الْقُدْرَةَ هِيَ قُدْرَتُهُ عَلَى الْفِعْلِ، وَالْفِعْلُ نَوْعَانِ: لَازِمٌ، وَمُتَعَدٍّ، وَالنَّوْعَانِ فِي قَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}[الحديد: ٤]، فَالِاسْتِوَاءُ وَالْإِتْيَانُ وَالْمَجِيءُ وَالنُّزُولُ وَنَحْوُ ذَلِكَ أَفْعَالٌ لَازِمَةٌ، لَا تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ؛ بَلْ هِيَ قَائِمَةٌ بِالْفَاعِلِ، وَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالْهُدَى وَالنَّصْرِ، وَالتَّنْزِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: دَوَامُ كَوْنِهِ قَادِرًا فِي الْأَزَلِ وَالْأَبَدِ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ وَلَايَزَالُ قَادِرًا عَلَى مَا يَشَاؤُهُ بِمَشِيئَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ كَابْنِ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد.

إِلَى أَنْ قَالَ: وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ – تَعْلِيقًا – عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[الأحزاب: ٧٣]، {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[الفتح: ٧]، {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[النساء: ١٣٤]، فَكَأَنَّهُ كَانَ فَمَضَى فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: {وَكَانَ اللَّهُ}، فَإِنَّهُ يُجِلُّ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَسَمَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ لَمْ يُجِلَّهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ أَيْ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ. رواه عبد بن حميد في تفسيره مسندًا موصولًا، ورواه ابن المنذر – أيضًا – في تفسيره، وهذا لفظ رواية عبد[١].

١- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن {إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير} عند تفسير الآية (١٠٦)، و(١٤٨ في الفوائد رقم٨) من سورة البقرة، والآية (١٨٩) من سورة آل عمران.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- تهديد الكفار بأن الله محيط بهم؛ لقوله تعالى: {والله محيط بالكافرين}.

٢- أن البرق الشديد يخطف البصر؛ ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق؛ لئلّا يُخطف بصره.

٣- أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى: {وإذا أظلم عليهم قاموا}.

٤- إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم}.

٥- أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عزّ وجلّ أن يمتعه بسمعه، وبصره؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم}؛ وفي الدعاء المأثور: ((متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا([١]))).

٦- أن من أسماء الله أنه قدير على كل شيء.

٧- عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهو جل وعلا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك.

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)

قال ابن العثيمين: {يا أيها الناس}، النداء هنا وجّه لعموم الناس مع أن السورة مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجهاً للمؤمنين. والله أعلم بما أراد في كتابه؛ ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟

فالجواب: أن الأصل عدم ذلك، أي عدم إدخال الآية المكية في السور المدنية، أو العكس؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلَّم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت.

قال القرطبي: قَالَ عَلْقَمَةُ وَمُجَاهِدٌ: كُلُّ آيَةٍ أَوَّلُهَا {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} فَإِنَّمَا نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَكُلِّ آيَةٍ أَوَّلُهَا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فَإِنَّمَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ.

١- أخرجه الترمذي ص٢٠١٢، كتاب الدعوات، باب ٧٩: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ... ، حديث رقم ٣٥٠٢، قال الألباني في صحيح الترمذي: حسن [١٦٨/٣، حديث رقم ٢٧٨٣].

قُلْتُ: وَهَذَا يَرُدُّهُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ وَالنِّسَاءَ مَدَنِيَّتَانِ وَفِيهِمَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ. وَأَمَّا قولهما في {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فَصَحِيحٌ. وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَا كَانَ مِنْ حَدٍّ أَوْ فَرِيضَةٍ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ الْأُمَمِ وَالْعَذَابِ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِمَكَّةَ. وَهَذَا وَاضِحٌ.

وَاخْتُلِفَ مِنَ الْمُرَادِ بِالنَّاسِ هُنَا عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدِهِمَا: الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوهُ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} [البقرة: ٢٣]. الثَّانِي: أَنَّهُ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ، فَيَكُونُ خِطَابُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاسْتِدَامَةِ الْعِبَادَةِ، وَلِلْكَافِرِينَ بِابْتِدَائِهَا. وَهَذَا حَسَنٌ.

{اعْبُدُوا}: أَمْرٌ بِالْعِبَادَةِ لَهُ. وَالْعِبَادَةُ هُنَا عِبَارَةٌ عَنْ تَوْحِيدِهِ وَالْتِزَامِ شَرَائِعِ دِينِهِ. وَأَصْلُ الْعِبَادَةِ الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدَةٌ إِذَا كَانَتْ مَوْطُوءَةً بِالْأَقْدَامِ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص١٤٩: (الْعِبَادَةُ): هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجُّ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ وَالْيَتِيمِ، وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالْمَمْلُوكِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ، وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ، الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات: ٥٦]، وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[المؤمنون: ٢٣]، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ}[النحل: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[الأنبياء: ٩٢]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[المؤمنون: ٥١]. وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِمًا لِرَسُولِهِ إِلَى الْمَوْتِ كَمَا قَالَ: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[الحجر: ٩٩].

وَبِذَلِكَ وَصَفَ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}[الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}[الأعراف: ٢٠٦]، وَذَمَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر: ٦٠].

وَنعت صَفوَةَ خَلْقِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ، فَقَالَ تَعالَى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}[الإنسان: ٦]، وَقَالَ: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} الْآيَاتِ[الفرقان: ٦٣]، وَلَمَّا قَالَ الشَّيْطَانُ: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[الحجر: ٣٩، ٤٠]، قَالَ اللَّهُ تَعالَى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}[الحجر: ٤٢].

وَقَالَ فِي وَصْفِ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}، إِلَى قَوْلِهِ: {وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}[الأنبياء: ٢٦- ٢٨]، وَقَالَ تَعالَى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[مريم: ٨٨- ٩٥].

وَقَالَ تَعالَى عَنْ الْمَسِيحِ – الَّذِي ادُّعِيَتْ فِيهِ الْإِلَهِيَّةُ وَالنُّبُوَّةُ – {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}[الزخرف: ٥٩]، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ(١))).

وَقَدْ نَعَتَهُ اللَّهُ (بِالْعُبُودِيَّةِ) فِي أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ فَقَالَ فِي الْإِسْرَاءِ: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا}[الإسراء: ١]، وَقَالَ فِي الْإِيحَاءِ: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}[النجم: ١٠]، وَقَالَ فِي الدَّعْوَةِ: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}[الجن: ١٩]، وَقَالَ فِي التَّحَدِّي: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}[البقرة: ٢٣]، فَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ وَسَأَلَهُ عَنْ الْإِسْلَامِ قَالَ: ((أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إنْ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلًا)). قَالَ: فَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)). قَالَ فَمَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك)). ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: ((هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ(٢))). فَجَعَلَ هَذَا كُلَّهُ مِنْ الدِّينِ.

وَ(الدِّينُ)، يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ. يُقَالُ: دِنْته فَدَانَ أَيْ: ذَلَّلْته فَذَلَّ وَيُقَالُ يَدِينُ اللَّهَ وَيَدِينُ لِلَّهِ أَيْ: يَعْبُدُ اللَّهَ وَيُطِيعُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ فَدِينُ اللَّهِ عِبَادَتُهُ وَطَاعَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ.

وَ(الْعِبَادَةُ)، أَصْلُ مَعْنَاهَا: الذُّلُّ أَيْضًا يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إذَا كَانَ مُذَلَّلًا قَدْ وَطِئَتْهُ الْأَقْدَامُ.

١- البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، والدارمي في الرقاق ٢/ ٣٢٠.

٢- البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (١/٨).

لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ لِلَّهِ بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ، فَإِنَّ آخِرَ مَرَاتِبِ الْحُبِّ هُوَ التَّتْمِيمُ، وَأَوَّلُهُ: (الْعَلَاقَةُ)، لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ (الصَّبَابَةُ)، لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ (الْغَرَامُ)، وَهُوَ الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، ثُمَّ (الْعِشْقُ)، وَآخِرُهَا (التَّتْمِيمُ)، يُقَالُ: تَيْمُ اللَّهِ: أَيْ: عَبْدُ اللَّهِ فَالْمُتَيَّمُ الْمُعَبَّدُ لِمَحْبُوبِهِ.

وَمَنْ خَضَعَ لِإِنْسَانٍ مَعَ بُغْضِهِ لَهُ لَا يَكُونُ عَابِدًا لَهُ، وَلَوْ أَحَبَّ شَيْئًا وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا لَهُ، كَمَا قَدْ يُحِبُّ وَلَدَهُ وَصَدِيقَهُ؛ وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ – تَعَالَى- بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ وَالذُّلَّ التَّامَّ إِلَّا اللَّهُ.

وَكُلُّ مَا أُحِبَّ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَحَبَّتُهُ فَاسِدَةٌ، وَمَا عُظِّمَ بِغَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ كَانَ تَعْظِيمُهُ بَاطِلًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}[التوبة: ٢٤]، فَجِنْسُ الْمَحَبَّةِ تَكُونُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، كَالطَّاعَةِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْإِرْضَاءَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ}[التوبة: ٦٢]، وَالْإِيتَاءُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}[التوبة: ٥٩].

وَأَمَّا (الْعِبَادَةُ)، وَمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ التَّوَكُّلِ، وَالْخَوْفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}، إِلَى قَوْلِهِ: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[آل عمران: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}[التوبة: ٥٩]، فَالْإِيتَاءُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ كَقَوْلِهِ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[الحشر: ٧]، وَأَمَّا الحسب وَهُوَ الْكَافِي فَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: ١٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[الأنفال: ٦٤]، أَيْ حَسْبُكَ وَحَسْبُ مَنِ اتَّبَعَكَ اللَّهُ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَعْنَى حَسْبُكَ اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، فَقَدْ غَلِطَ غَلَطًا فَاحِشًا، كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَقَالَ تَعَالَى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}[الزمر: ٣٦].

وَتَحْرِيرُ ذَلِكَ: أَنَّ الْعَبْدَ يُرَادُ بِهِ (الْمُعَبَّدُ)، الَّذِي عَبَّدَهُ اللَّهُ فَذَلَّلَهُ وَدَبَّرَهُ وَصَرَّفَهُ، وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ الْمَخْلُوقُونَ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ، مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، إِذْ هُوَ رَبُّهُمْ كُلُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَاءُوا. وَمَا شَاءُوا إِنْ لَمْ يَشَأْهُ لَمْ يَكُنْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[آل عمران: ٨٣].

فَهُوَ – سُبْحَانَهُ – رَبُّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقُهُمْ، وَرَازِقُهُمْ، وَمُحْيِيهِمْ، وَمُمِيتُهُمْ، وَمُقَلِّبُ قُلُوبِهِمْ، وَمُصَرِّفُ أُمُورِهِمْ، لَا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وَلَا مَالِكَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَلَا خَالِقَ إِلَّا هُوَ سَوَاءٌ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرُوهُ، وَسَوَاءٌ عَلِمُوا ذَلِكَ أَوْ جَهِلُوهُ، لَكِنَّ

أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ عَرَفُوا ذَلِكَ وَاعْتَرَفُوا بِهِ، بِخِلَافِ مَنْ كَانَ جَاهِلًا بِذَلِكَ؛ أَوْ جَاحِدًا لَهُ مُسْتَكْبِرًا عَلَى رَبِّهِ لَا يُقِرُّ وَلَا يَخْضَعُ لَهُ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ.

فَالْمَعْرِفَةُ بِالْحَقِّ إذَا كَانَتْ مَعَ الِاسْتِكْبَارِ عَنْ قَبُولِهِ وَالْجَحْدِ لَهُ كَانَ عَذَابًا عَلَى صَاحِبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[النمل: ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}[الأنعام: ٣٣].

فَإِنْ اعْتَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ مُحْتَاجٌ إلَيْهِ عَرَفَ الْعُبُودِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ، وَهَذَا الْعَبْدُ يَسْأَلُ رَبَّهُ، فَيَتَضَرَّعُ إلَيْهِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، لَكِنْ قَدْ يُطِيعُ أَمْرَهُ، وَقَدْ يَعْصِيهِ، وَقَدْ يَعْبُدُهُ مَعَ ذَلِكَ، وَقَدْ يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَالْأَصْنَامَ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَلَا يَصِيرُ بِهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}[يوسف: ١٠٦]، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}[لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} إلَى قَوْلِهِ: {قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}[المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِيقَةِ وَيَشْهَدُهَا، يَشْهَدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَهِيَ " الْحَقِيقَةُ الْكَوْنِيَّةُ " الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا وَفِي شُهُودِهَا وَمَعْرِفَتِهَا الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَإِبْلِيسُ مُعْتَرِفٌ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَهْلُ النَّارِ. قَالَ إبْلِيسُ: {رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[الحجر: ٣٦]، وَقَالَ: {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}[الحجر: ٣٩]، وَقَالَ: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}ص: ٨٢]، وَقَالَ: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ}[الإسراء: ٦٢]، وَأَمْثَالَ هَذَا مِنْ الْخِطَابِ الَّذِي يُقِرُّ فِيهِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَخَالِقُ غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ قَالُوا: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ}[المؤمنون: ١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا}[الأنعام: ٣٠].

فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَعِنْدَ شُهُودِهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ، وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ كَانَ مِنْ جِنْسِ إبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ ظَنَّ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ خَوَاصِّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ الَّذِينَ يَسْقُطُ عَنْهُمْ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الشَّرْعِيَّانِ، كَانَ مِنْ أَشَرِّ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْخَضِرَ وَغَيْرَهُ سَقَطَ عَنْهُمْ الْأَمْرُ لِمُشَاهَدَةِ الْإِرَادَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ هَذَا مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ الْكَافِرِينَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ. حَتَّى يَدْخُلَ فِي النَّوْعِ الثَّانِي، مِنْ مَعْنَى الْعَبْدِ وَهُوَ الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْعَابِدِ فَيَكُونُ عَابِدًا لِلَّهِ لَا يَعْبُدُ إلَّا إيَّاهُ، فَيُطِيعُ أَمْرَهُ وَأَمْرَ رُسُلِهِ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُ، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِإِلَهِيَّتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُنْوَانُ التَّوْحِيدِ (لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ)، بِخِلَافِ مَنْ يُقِرُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا يَعْبُدُهُ، أَوْ يَعْبُدُ مَعَهُ إلَهًا آخَرَ، فَالْإِلَهُ الَّذِي يألهه الْقَلْبُ بِكَمَالِ

الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا، وَبِهَا وَصَفَ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ، وَبِهَا بَعَثَ رُسُلَهُ.

وَأَمَّا (الْعَبْدُ) بِمَعْنَى الْمُعَبَّدِ، سَوَاءٌ أَقَرَّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ، فَتِلْكَ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ. وَبِالْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ (الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ) الدَّاخِلَةِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَأَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ، الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَيُوَالِي أَهْلَهَا، وَيُكْرِمُهُمْ بِجَنَّتِهِ، وَبَيْنَ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ الَّتِي مَنْ اكْتَفَى بِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعْ الْحَقَائِقَ الدِّينِيَّةَ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ إبْلِيسَ اللَّعِينِ، وَالْكَافِرِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَنْ اكْتَفَى بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ فِي مَقَامٍ أَوْ حَالٍ نَقَصَ مِنْ إيمَانِهِ وَوِلَايَتِهِ لِلَّهِ، بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنْ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ.

وَهَذَا مَقَامٌ عَظِيمٌ فِيهِ غَلِطَ الغالطون، وَكَثُرَ فِيهِ الِاشْتِبَاهُ عَلَى السَّالِكِينَ، حَتَّى زَلَقَ فِيهِ مِنْ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ الْمُدَّعِينَ التَّحْقِيقَ، وَالتَّوْحِيدَ، وَالْعِرْفَانَ مَا لَا يُحْصِيهِمْ إلَّا اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْإِعْلَانَ([1]).

قال ابن العثيمين: {اعبدوا ربكم}: أي تذللوا له بالطاعة؛ وذلك بفعل الأوامر، واجتناب النواهي ذلًّا تامًّا ناشئًا عن المحبة، والتعظيم؛ وال{رب}، هو الخالق المالك المدبر لشؤون خلقه؛ {الذي خلقكم}: أي أوجدكم من العدم؛ {والذين من قبلكم}، معطوف على الكاف في قوله تعالى: {خلقكم}. يعني وخلق الذين من قبلكم؛ والمراد بـ(من قبلنا): سائر الأمم الماضية.

{الذي خلقكم}: صفة كاشفة تبين بعض معنى الربوبية؛ وليست صفة احترازية؛ لأنه ليس لنا ربان أحدهما خالق، والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق.

قال القرطبي: خَصَّ تَعَالَى خَلْقَهُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ صِفَاتِهِ إِذْ كَانَتِ الْعَرَبُ مُقِرَّةً بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا، فَذَكَرَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ. وَقِيلَ: لِيُذَكِّرَهُمْ بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ. وَفِي أَصْلِ الْخَلْقِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: التَّقْدِيرُ، يُقَالُ: خَلَقْتُ الْأَدِيمَ لِلسِّقَاءِ إِذَا قَدَّرْتُهُ قَبْلَ الْقَطْعِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْ ... ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

وَقَالَ الْحَجَّاجُ: مَا خَلَقْتُ إِلَّا فَرَيْتُ ... وَلَا وَعَدْتُ إِلَّا وَفَّيْتُ.

الثَّانِي: الْإِنْشَاءُ وَالِاخْتِرَاعُ وَالْإِبْدَاعُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً}[العنكبوت: ١٧].

{وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}: فَيُقَالُ: إِذَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ خَلْقُهُمْ ثَبَتَ عِنْدَهُمْ خَلْقُ غَيْرِهِمْ، فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ إِنَّمَا يَجْرِي الْكَلَامُ عَلَى التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي الْعِظَةِ، فَذَكَّرَهُمْ مَنْ قَبْلَهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي أَمَاتَ مَنْ قَبْلَهُمْ وَهُوَ خَلَقَهُمْ يُمِيتُهُمْ، وَلِيُفَكِّرُوا فِيمَنْ مَضَى قَبْلَهُمْ كَيْفَ كَانُوا، وَعَلَى أَيِّ الْأُمُورِ مَضَوْا مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ أَهْلَكَ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ يُبْتَلَوْنَ كَمَا ابْتُلُوا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

١- (قلت): أنظر كلام ابن القيم عن العبادة في سورة الفاتحة الآية (٥).

قال الطبري: وهذه الآيةُ من أدلّ دليل على فساد قول من زعم: أنّ تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة الله غيرُ جائز، إلا بَعد إعطاء الله المكلف المعُونةَ على ما كلَّفه. وذلك أنّ الله أمرَ من وَصفنا، بعبادته والتوبة من كفره، بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون، وأنهم عن ضَلالتهم لا يَرْجعون.

قال ابن العثيمين: {لعلكم تتقون}؛ {لعل} هنا للتعليل؛ أي لتصلوا إلى التَّقوى؛ ومعلوم أن التَّقوى مرتبة عالية، حتى قال الله عز وجل في الجنة: {أعدت للمتقين}[آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: {إن الله مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون}[النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: {واعلموا أن الله مع المتقين}[البقرة: ١٩٤].

قال سيبويه: لعلَّ وعسى حرفا ترجٍّ وهما من اللَّه واجب.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٣١: فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله، من قدرته، وعلمه، وإرادته، وحياته، وحكمته، وأفعاله، وحدوث العالم، وإثبات نوعي توحيده تعالى، توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له، ثم قرر تعالى بعد ذلك، إثبات نبوة رسوله محمد أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن المعاد والجنة والنار، فثبت صحة ذلك ضرورة.

فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه، فصدرها تعالى بقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم، ثم قال: {اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، فأمرهم بعبادة ربهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته، لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًّا، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه، عبادته له، وشكره إياه، واجب عليه، ولهذا قال: {اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، ولم يقل إلهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده، وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، فإذا كان هو وحده الخالق، فكيف لا يكون وحده المعبود؟! وكيف يجعلون معه شريكًا في العبادة؟! وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق.

وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ثم قال: {وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم، وإنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم، ولا في خلقكم، وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك، إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبيه له فيها، ولا في أفعاله، فلا شريك له فيها، ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه ويذكرونه فلا ينسونه ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

وقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى اعبدوه لتتقوه بعبادته، وقيل: المعنى خلقكم لتتقوه، وهو أظهر لوجوه:

أحدها: أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني: أن نظيره قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ} .

الثالث: أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، من الأمر. ولمن نصر الأول أن يقول لا يمتنع أن يكون قوله: {لعلكم تتقون}، تعليلًا للأمر بالعبادة ونظيره قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، فهذا تعليل لكتب الصيام ولا يمتنع أن يكون تعليلًا للأمرين معًا وهذا هو الأليق بالآية والله أعلم.

الى أن قال رحمه الله في ص١٣٣: فذكر تعالى دليلًا آخر متضمّنًا للاستدلال بحكمته في مخلوقاته، فالأول: متضمن لأصل الخلق والإيجاد ويسمى دليل الاختراع والإنشاء، والثاني: متضمن للحكم المشهودة في خلقه ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيرًا ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن ونظيره قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}، فذكر خلق السموات والأرض ثم ذكر منافع المخلوقات وحكمها، ونظيره قوله تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً}، إلى آخر الآيات، على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم بما بحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه، ولعله أن يمر بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- العناية بالعبادة؛ يستفاد هذا من وجهين؛ الوجه الأول: تصدير الأمر بها بالنداء؛ والوجه الثاني: تعميم النداء لجميع الناس مما يدل على أن العبادة أهم شيء؛ بل إنّ الناس ما خُلقوا إلا للعبادة، كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}[الذاريات: ٥٦].

٢- أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: {اعبدوا ربكم}.

٣- وجوب عبادة الله عز وجل وحده. وهي التي خُلق لها الجن، والإنس؛ و(العبادة) تطلق على معنيين؛ أحدهما: التعبد. وهو فعل العابد؛ والثاني: المتعبَّد به. وهي كل قول، أو فعل ظاهر، أو باطن يقرب إلى الله عز وجل.

٤- أن وجوب العبادة علينا مما يقتضيه العقل بالإضافة إلى الشرع؛ لقوله تعالى: {اعبدوا ربكم}؛ فإن الرب عزّ وجل يستحق أن يُعبد وحده، ولا يعبد غيره؛ والعجب أن هؤلاء المشركين الذين لم يمتثلوا هذا الأمر إذا أصابتهم ضراء،

وتقطعت بهم الأسباب يتوجهون إلى الله، كما قال تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين} [لقمان: ٣٢]؛ لأن فطرهم تحملهم على ذلك ولابد.

٥- إثبات أن الله عزّ وجل هو الخالق وحده، وأنه خالق الأولين، والآخرين؛ لقوله تعالى: {الذي خلقكم والذين من قبلكم}.

٦- أن من طريق القرآن أنه إذا ذكر الحكم غالبًا ذكر العلة؛ الحكم: {اعبدوا ربكم}؛ والعلة: كونه ربًّا خالقًا لنا، ولمن قبلنا.

٧- التقوى مرتبة عالية لا ينالها كل أحد إلا من أخلص العبادة لله عزّ وجل؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتقون}.

٨- بما يستفاد التحذير من البدع؛ وذلك؛ لأن عبادة الله لا تتحقق إلا بسلوك الطريق الذي شرعه للعباد؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الوحي والشرع: كيف نتوضأ، كيف نصلي ... يعني ما الذي أدرانا أن الإنسان إذا قام للصلاة يقرأ، ثم يركع، ثم يسجد... إلخ، إلا بعد الوحي.

٩- الحث على طلب العلم؛ إذ لا تمكن العبادة إلّا بالعلم؛ ولهذا ترجم البخاري رحمه الله على هذه المسألة بقوله: باب: (العلم قبل القول والعمل).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

قال الطبري: وقوله: {الذي جَعل لكم الأرض فِرَاشًا}، مردود على {الذي} الأولى في قوله: {اعبدُوا ربكم الذي خَلقَكم}، وهما جميعًا من نعت (ربكم)، فكأنّه قال: (اعبدُوا ربكم الخالقكُم)، والخالقَ الذين من قبلكم، الجاعلَ لكم الأرض فراشًا. يعني بذلك أنّه جعل لكم الأرض مهادًا مُوَطًّأً وقرارًا يُستقرّ عليها. يُذكِّرُ ربّنا - جلّ ذكره - بذلك من قِيله - عبادَهُ نعمَه عندهم وآلاءه لديهم ليذْكروا أياديَه عندهم، فينيبوا إلى طاعته - تعطُّفًا منه بذلك عليهم، ورأفةً منه بهم، ورحمةً لهم، من غير ما حاجة منه إلى عبادتهم، ولكن ليُتم نعمته عليهم ولعلهم يهتدون.

عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: {الذي جعل لكم الأرض فراشًا}، فهي فراشٌ يُمشى عليها، وهي المهاد والقرار(١).

{وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}: وإنما سُمِّيت السماءُ سماءً لعلوها على الأرض وعلى سُكانها من خلقه، وكل شيءٍ كان فوق شيءٍ آخرَ فهو لما تحته سَمَاءٌ. ولذلك قيل لسقف البيت: سَمَاوة، لأنه فوقه مرتفعٌ عليه. ولذلك قيل: سَمَا فلان لفلان، إذا أشرف له وقَصَد نحوه عاليًا عليه. عن قتادة في قول الله: {والسماءَ بناءً}، قال: جعل السماء سَقفًا لكَ.

١- الخبر في الدر المنثور ١: ٣٤، والشوكاني ١: ٣٨.

وإنما ذكر تعالى ذكره السماءَ والأرض فيما عدّد عليهم من نعمه التي أنعمها عليهم، لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم، وبهما قوامُ دُنياهم. فأعلمهم أن الذي خَلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من النعم، هو المستحقّ عليهم الطاعة، والمستوجبُ منهم الشكرَ والعبادةَ، دون الأصنام والأوثان، التي لا تضرُّ ولا تنفع.

قال ابن العثيمين: {وأنزل من السماء ماءً}: ليست هي السماء الأولى؛ بل المراد بـ{السماء} هنا العلو؛ لأن الماء الذي هو المطر ينزل من السحاب، والسحاب بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: {ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامًا فترى الودق يخرج من خلاله}[النور: ٤٣]، وقال تعالى: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار....}[البقرة: ١٦٤]، إلى قوله تعالى: {والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}[البقرة: ١٦٤]؛ وبهذا نعرف أن السماء يطلق على معنيين؛ المعنى الأول: البناء الذي فوقنا؛ والمعنى الثاني: العلو.

ثم زَجَرهم عن أن يجعلوا له ندًّا، مع علمهم بأن ذلك كما أخبرهم، وأنه لا نِدَّ له ولا عِدْل، ولا لهم نافعٌ ولا ضارٌّ ولا خالقٌ ولا رازقٌ سِواه.

قال أبو زهرة: {فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ}: {من} للتبعيض، مثل قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}؛ وأسند الإخراج إليه، فلم يقل سبحانه: (أخرجت الأرض)، أو (أنبتت الأرض)، أو (أنبت الماء نباتًا)، لبيان جلائل نعمته لأنه هو المخرج وهو المنبت وهو الذي يُربِي البذر وينتج الثمر، وتلك أسباب وهو خالق الأسباب والمسببات، فالمولود لَا يولد بنطفة الفحل، ولكن بخلق الله تعالى، وجعل سبحانه وتعالى النطفة سبب الوجود.

وقال تعالى: {رِزْقًا لَّكُمْ}: {رزق} بمعنى (المرزوق)، فهو (فِعْل) بمعنى (المفعول)، كـ(طِحْن) بمعنى (المطحون)، و(نقض) بمعنى (المنقوض)، وتنكير {رزق} إنما هو للبعضية، فـ{الثمرات}: بعض الرزق الذي رزقه الله تعالى، فالنعم رزق من رزق الله تعالى لعباده، والفلزات في باطن الأرض من رزق الله تعالى لعباده، والسمك اللحم الطري من رزق الله تعالى، واللآلئ في البحار من رزق الله تعالى، فتنكير {رِزْقًا} في هذه الآية الكريمة التي نذكر معانيها للدلالة على البعضية، أي أنه بعض ما رزق الله: {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}.

وإنه إذا كانت هذه القدرة القاهرة التي خلقت الحاضرين والماضين ومهدت لهم الأرض تمهيدًا، وجعلت لهم السماء سقفًا محفوظًا، وأنعمت برزق من زواج السماء بالأرض، وأخرجت لهم منها بعض رزق الله، وهو كثير، فهو وحده المستحق للعبادة وحده، إذ لَا قدرة لبشر ولا لحجر أن ينشئ خلقًا أو يرزق رزقًا؛ إذ لا ينفع ولا يضر؛ ولذا قال تعالى بعد هذه النعم في الخلق والتكوين: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّه أَندادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك أنه أنزل من السماء مطرًا، فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زرعهم وغَرْسهم ثمرات رزقًا لهم، غذاءً وأقواتًا. فنبههم بذلك على قدرته وسُلطانه، وذكَّرهم به آلاءَه لديهم، وأنه هو الذي خلقهم، وهو الذي يَرزقهم ويكفُلُهم، دون من جعلوه له نِدًّا وعِدْلا من الأوثان والآلهة.

قال ابن العثيمين: لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله، والرازق هو الله، والمدبر للأمر هو الله إقرارًا تامًا، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد، يشركون؛ يجعلون مع الله إلهًا آخر؛ وينكرون على من وحّد الله حتى قالوا في الرسول ﷺ: {أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب}[ص: ٥]؛ وإقرارهم بالخلق، والرزق أن الله منفرد به يستلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده؛ فإن لم يفعلوا فهم متناقضون؛ ولهذا قال العلماء. رحمهم الله: توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية؛ يعني من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتى كان قد أقر بتوحيد الربوبية.

قال ابن العثيمين في شرح العقيدة الواسطية ج١ص٣٥٣: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً}، يعني: في الألوهية، لأن أولئك القوم المخاطبين لم يجعلوا لله أندادًا في الربوبية، إذًا: فلا تجعلوا لله أندادًا في الألوهية، كما أنكم تقرون أنه ليس له أندادًا في الربوبية.

قال ابن العثيمين: وقوله: {أَنْدَادًا}: جمع ندّ، وند الشيء ما كان منادًا؛ أي: (مكافئًا له ومتشابهًا)، وما زال الناس يقولون: هذا ندٌّ لهذا، أي: مقابل له ومكافئ له.

وقوله: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}: الجملة هنا حالية، وصاحب الحال هي الواو قوله: {فَلا تَجْعَلُوا}، والمفعول محذوف، يعني: وأنتم تعلمون أنه لا ندّ له.

الجملة الحالية هنا صفة كاشفة، والصفة الكاشفة كالتعليل للحكم، فكأنه قال: لا تجعلوا لله أندادًا، لأنكم تعلمون أنه لا ندّ له، فإذا كنتم تعلمون ذلك، فكيف تجعلونه فتخالفون علمكم؟!

قال السعدي: {فلا تجعلوا لله أندادًا}: أي نظراءً وأشباهًا من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، {وأنتم تعلمون} أن الله ليس له شريك ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة؛ فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرًّا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

قال الشنقيطي: أَشَارَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ بَرَاهِينَ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَبَيَّنَهَا مُفَصَّلَةً فِي آيَاتٍ أُخَرَ: الْأَوَّلُ: خَلْقُ النَّاسِ أَوَّلًا الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، لِأَنَّ الْإِيجَادَ الْأَوَّلَ أَعْظَمُ بُرْهَانٍ عَلَى الْإِيجَادِ الثَّانِي، وَقَدْ أَوْضَحَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} الْآيَةَ [٣٠ \ ٢٧]، وَقَوْلِهِ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[٢١ \ ١٠٤]، وَكَقَوْلِهِ: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}[٣٦ \ ٧٩]، وَقَوْلِهِ: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}، وَقَوْلِهِ: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ} الْآيَةَ [٥٠ \ ١٥]، وَكَقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ}[٢٢ \ ٥]، وَكَقَوْلِهِ: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى} الْآيَةَ [٥٦ \ ٦٢].

وَلِذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ فَقَدْ نَسِيَ الْإِيجَادَ الْأَوَّلَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ} الْآيَةَ [٣٦ \ ٧٨]، وَقَوْلِهِ: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [١٩ \ ٦٧، ٦٨]، ثُمَّ رَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الدَّلِيلَ بِقَوْلِهِ: {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ} الْآيَةَ [١٩ \ ٦٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

الْبُرْهَانُ الثَّانِي: خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}، لِأَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْأَعْظَمِ فَهُوَ عَلَى غَيْرِهِ قَادِرٌ مِنْ بَابٍ أَحْرَى. وَأَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْبُرْهَانَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}[٤٠ \ ٥٧]، وَقَوْلِهِ: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[٣٦ \ ٨١]، وَقَوْلِهِ: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى}[٤٦ \ ٣٣]، وَقَوْلِهِ: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ}[١٧ \ ٩٩]، وَقَوْلِهِ: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} الْآيَةَ [٧٩ \ ٢٧]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

الْبُرْهَانُ الثَّالِثُ: إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ عَلَى الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، كَمَا أَشَارَ لَهُ هُنَا بِقَوْلِهِ: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}، وَأَوْضَحَهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤١ \ ٣٩]، وَقَوْلِهِ: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}[٥٠ \ ١١]: يَعْنِي خُرُوجُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ عِظَامًا رَمِيمًا. وَقَوْلِهِ: {وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[٣٠ \ ١٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٧ \ ٥٧]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان رحمة الله تعالى، وحكمته في جعل الأرض فراشًا؛ إذ لو جعلها خشنة صلبة لا يمكن أن يستقر الإنسان عليها ما هدأ لأحد بال؛ لكن من رحمته، ولطفه، وإحسانه جعلها فراشًا.

٢- جعْل السماء بناءً؛ وفائدتنا من جعل السماء بناءً أن نعلم بذلك قدرة الله عزّ وجل؛ لأن هذه السماء المحيطة بالأرض من كل الجوانب نعلم أنها كبيرة جداً، وواسعة، كما قال تعالى: {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون} [الذاريات: ٤٧].

٣- بيان قدرة الله عزّ وجل بإنزال المطر من السماء؛ لقوله تعالى: {وأنزل من السماء ماء}؛ لو اجتمعت الخلائق على أن يخلقوا نقطة من الماء ما استطاعوا؛ والله تعالى ينزل هذا المطر العظيم بلحظة؛ وقصة الرجل الذي دخل والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قال: ادع الله يغيثنا، فرفع ﷺ يديه، وقال: ((اللهم أغثنا[١]))، وما نزل من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته.

٤- حكمة الله سبحانه وتعالى، ورحمته بإنزال المطر من السماء؛ وجه ذلك: لو كان الماء الذي تحيى به الأرض يجري على الأرض لأضر الناس؛ ولو كان يجري على الأرض لحُرِم منه أراضٍ كثيرة. الأراضي المرتفعة لا يأتيها شيء؛ ولكن من نعمة الله أن ينزل من السماء؛ ثم هناك شيء آخر أيضًا: أنه ينزل رذاذًا. يعني قطرة قطرة؛ ولو نزل كأفواه القرب لأضر بالناس.

٥- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: {فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم}.

٦- أن الأسباب لا تكون مؤثرة إلا بإرادة الله عزّ وجل؛ لقوله تعالى: {فأخرج به}.

٧- أنه ينبغي لمن أراد أن يضيف الشيء إلى سببه أن يضيفه إلى الله مقرونًا بالسبب، مثل لو أن أحدًا من الناس غرق، وجاء رجل فأخرجه. أنقذه من الغرق؛ فليقل: أنقذني الله بفلان؛ وله أن يقول: أنقذني فلان؛ لأنه فعلًا أنقذه؛ وله أن يقول: أنقذني الله ثم فلان؛ وليس له أن يقول: أنقذني الله وفلان؛ لأن هذا تشريك مع الله؛ ويدل لهذا. أي الاختيار أن يضيف الشيء إلى الله مقرونًا بالسبب. أن النبي ﷺ لما دعا الغلام اليهودي للإسلام وكان هذا الغلام في سياق الموت، فعرض عليه النبي ﷺ أن يسلم، فأسلم؛ لكنه أسلم بعد أن استشار أباه: التفت إليه ينظر إليه يستشيره؛ قال: (أطع أبا القاسم). أمر ولده أن يسلم، وهو لم يسلم في تلك الحال، أما بعد فلا ندري، والله أعلم؛ فخرج النبي ﷺ وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه بي من النار[٢]))، وهكذا ينبغي لنا إذا حصل شيء بسبب أن نضيفه إلى الله تعالى مقرونًا ببيان السبب؛ وذلك؛ لأن السبب موصل فقط.

٨- بيان قدرة الله، وفضله بإخراج هذه الثمرات من الماء؛ أما القدرة فظاهر: تجد الأرض شهباء جدباء ليس فيها ورقة خضراء فينزل المطر، وفي مدة وجيزة يخرج هذا النبات من كل زوج بهيج بإذن الله عزّ وجل، كما قال تعالى: {ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فتصبح الأرض مخضرَّة}[الحج: ٦٣]؛ وأما الفضل فبما يمن الله به من الثمرات؛ ولذلك قال تعالى: {رزقًا لكم}.

٩- أن الله عزّ وجل منعم على الإنسان كافرًا كان، أو مؤمنًا؛ لقوله تعالى: {لكم}، وهو يخاطب في الأول الناس عمومًا؛ لكن فضل الله على المؤمن دائم متصل بفضل الآخرة؛ وفضل الله على الكافر منقطع بانقطاعه من الدنيا.

١- أخرجه البخاري ص٧٩، أبواب الاستسقاء، باب ٧: الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، حديث رقم ١٠١٤؛ وأخرجه مسلم ص٨١٧، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ٢: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم ٢٠٧٨ [٨] ٨٩٧.

٢- (قلت): البخاري (١٣٥٦)، ولكن بلفظ: ((الحمد لله الذي أنقذه من النار))، ولم أجد زيادة (بي) في حديث صحيح؛ وإن كان معناه صحيحًا.

١٠- تحريم اتخاذ الأنداد لله؛ لقوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادًا}؛ وهل الأنداد شرك أكبر، أو شرك أصغر؛ وهل هي شرك جلي، أو شرك خفي؛ هذا له تفصيل في علم التوحيد؛ خلاصته: إن اتخذ الأنداد في العبادة، أو جعلها شريكة لله في الخلق، والملك، والتدبير فهو شرك أكبر؛ وإن كان دون ذلك فهو شرك أصغر، كقول الرجل لصاحبه: (ما شاء الله وشئت).

١١- أنه ينبغي لمن خاطب أحدًا أن يبين له ما تقوم به عليه الحجة؛ لقوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون}، ولقوله تعالى في صدر الآية الأولى: {اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم}[البقرة: ٢١]؛ فإن قوله تعالى: {الذي خلقكم والذين من قبلكم}[البقرة: ٢١]، فيه إقامة الحجة على وجوب عبادته وحده؛ لأنه الخالق وحده.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)

قال ابن العثيمين: {وإن كنتم ... }: الخطاب لمن جعل لله أندادًا؛ لأنه تعالى قال: {فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون * وإن كنتم في ريب}. وفي ذكر هذه الآية المتعلقة برسالة محمد ﷺ إشارة إلى كلمتي التوحيد؛ وهما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لكن شهادة أن لا إله إلا الله: توحيد القصد؛ والثاني: توحيد المتابعة؛ فكلاهما توحيد؛ لكن الأول توحيد القصد بأن يكون العمل خالصًا لله؛ والثاني توحيد المتابعة بأن لا يتابع في عبادته سوى رسول الله ﷺ وإذا تأملت القرآن وجدت هكذا: يأتي بما يدل على التوحيد، ثم بما يدل على الرسالة؛ ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {أفلم يدَّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين}[المؤمنون: ٦٨]، ثم قال تعالى: {أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون}[المؤمنون: ٦٩]؛ وهذا مطَّرد في القرآن الكريم.

{في ريب}: ال{ريب}، يفسره كثير من الناس بالشك؛ ولا شك أنه قريب من معنى الشك، لكنه يختلف عنه بأن ال{ريب}، يُشعر بقلق مع الشك، وأن الإنسان في قلق عظيم مما وقع فيه الشك؛ وذلك؛ لأن ما جاء به الرسول حقّ؛ والشاكّ فيه لا بد أن يعتريه قلق من أجل أنه شكّ في أمرٍ لا بدَّ من التصديق به؛ بخلاف الشكّ في الأمور الهينة، فلا يقال: {ريب}؛ وإنما يقال في الأمور العظيمة التي إذا شكّ فيها الإنسان وجد في داخل نفسه قلقًا، واضطرابًا([1]).

قال السعدي: وفي قوله: {وإن كنتم في ريب} إلى آخره، دليل على أن الذي يرجى له الهداية من الضلالة هو: الشاكّ الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال، فهذا إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق إن كان صادقًا في طلب الحق. وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعد ما تبين له، لم يتركه عن

١- (قلت): أنظر تفسير الآية (٢) من سورة البقرة؛ وكلام شيخ الإسلام في هامشها.

جهل، فلا حيلة فيه. وكذلك الشاكّ غير الصادق في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه، فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

قال أبو زهرة: وهنا يسأل سائل: لقد وصف القرآن الكريم في أول السورة بأنه لَا ريب فيه، فكيف يتصور أن يكون ثمة ريب فيه؟. ونقول في الجواب عن ذلك: إن الريب منهم، لَا منه في ذاته، فهو في ذاته يعلو عن الريب، لأنه يعلو عن المثل والشبيه في تساوق ألفاظه ومعانيه، وجمال فواصله، ورنة وحلاوة نغمه، وكل ما اشتمل عليه مما أدهش المشركين، وحاروا، ولم يجدوا محيصًا من الإذعان والسكوت والانتقال من العجز الذليل إلى الاضطهاد والإيذاء.

وقوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ}، بالتعبير ب(كان) المصورة لما وقع منهم، إشارة إلى أنه لَا ريب فيه لذاته، وإنما الريب من عقولهم المنحرفة. ونفوسهم الوثنية، التي استهوتها الأحجار فعبدتها. فالشكّ منهم، والقرآن أعلى من ذلك، ولا ريب فيه، وفي أنه من العزيز الحكيم، الذي لَا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد يقال: إنهم لم يكونوا في ريب من أمره، بل كانوا جازمين بأنه ليس من عند الله، بدليل قوله تعالى: {إِن كُنتُمْ صادِقِينَ} في تكذيبكم، فنقول في ذلك: إنهم كانوا جازمين في تكذيب أنه من عند الله تعالى، ولكن النص القرآني ينبههم إلى أن حالهم في مثل إدراكهم البياني وذوقهم البلاغي، وكونهم مقاول العرب، وأهل الفصاحة والبيان والدربة في القول، ومعرفة موازينه، وتنبههم الآية الكريمة إلى أن مثلهم في حالهم لَا ينبغي أن يجزموا منكرين، بل يترددوا حتى يصلوا إلى الحقيقة، في أمر هذا النوع من القول الذي لَا ينهد إلى مكانته قول من أقوالهم.

وإن الثابت في سيرة رسول الله ﷺ أنه كان له أثر في نفوسهم، وأحسّوا بأنه فوق ما يقوله البشر، فقال بعضهم: (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، ما يقول هذا بشر)، وكانوا يتفاهمون فيما بينهم على ألا يسمعوه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}، فإذا اتفقوا على ذلك ذهب كل واحد منهم سرًّا إلى حيث يسمعونه، وكل يظن أنه وحده الذي جاء يستمع إليه، فإذا هم يلتقون، وينقضون ما اتفقوا عليه؛ ولذلك سمّوه سحرًا، وسمّوا النبي ﷺ ساحرًا.

ولذلك نقول: إن ذكر القرآن الكريم لهم بأنهم كانوا في ريب منه وخصوصًا أهل العلم بالبيان منهم وصف صادق، فما كانوا مؤمنين به، وما كانوا منكرين إنكارًا قاطعًا بأنه ليس من عند الله؛ ولذلك لم يعرف عن أحد من عقلائهم أنه أراد أن يأتي بمثله، وإن تنكير الريب دليل على أنه ريب ليس بالقوي، أو الشديد، وذلك لكمال وضوح الأدلة الدالة على أنه ليس من طاقة أحد أن يأتي بمثله، وإن الشك إن كان منهم فليس له محل ولا مسوغ.

قال ابن العثيمين: {مما نزّلنا}: المراد به القرآن؛ لأن الله أنزله على محمد ﷺ.

{على عبدنا}: هو محمد رسول الله ﷺ والله تبارك وتعالى وصف رسوله ﷺ بالعبودية في المقامات العالية: في الدفاع عنه؛ وفي بيان تكريمه بالمعراج، والإسراء؛ وفي بيان تكريمه بإنزال القرآن، كما قال تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}[الفرقان: ١]، وقال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا}[الإسراء: ١]، وقال تعالى: {فأوحى إلى عبده ما أوحى}[النجم: ١٠]، وقال تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا}: هذا في مقام التحدي،

والمدافعة؛ وأفضل أوصاف الرسول ﷺ هي العبودية، والرسالة؛ ولهذا قال ﷺ: ((إنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله، ورسوله(١)))؛ و(العبودية): هي التذلل للمحبوب، والمعظم؛ ولهذا قال الشاعر في محبوبته:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

يعني لا تقل: فلان، وفلان؛ بل قل: يا عبد فلانة؛ لأن هذا عنده أشرف أوصافه، حيث انتمى إليها. نعوذ بالله من الخذلان.

{فأتوا بسورة}: أمر يقصد به التحدي؛ يعني: إذا كنتم في شك من هذا القرآن فإننا نتحداكم أن تأتوا بسورة واحدة؛ {من مثله}: يحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الرسول ﷺ؛ والمعنى: من مثل محمد ﷺ ويحتمل أن يكون عائدًا إلى القرآن المنزل؛ والمعنى: من مثل ما نزلنا على عبدنا؛ أي من جنسه؛ وكلاهما صحيح.

قال شيخ الإسلام في النبوات ج٢ص٨٦٠: {وادعوا شهداءكم}: أي: ادْعوا كلّ من يشهد لكم، فيوافقكم على أنّ هذا ليس من عند الله؛ ادعوا كل من لم يُقرّ بأنّ هذا منزّل من الله، فهذا تعجيزٌ لكل من لم يؤمن به. ومن آمن به، وبقي في ريب، بل قد عُلم أنّه من عند الله.

وهذا التَّحدي في البقرة، وهي مدنية بعد يونس وهود. ولهذا قال: {وَإِنْ كُنتُم فِي رَيْبٍ}، وهناك قال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}؛ فهذا تحدّي لكلّ مرتاب، وذاك تحدي لكلّ مثل مكذب. ولهذا قيل في ذاك: {مَن اسْتَطَعْتُمْ} فإنه أبلغ، وقيل في هذا: {شُهَدَاءَكُم}.

وقد قال بعض المفسرين: {شُهَدَاءَكُم}: آلهتكم، وقال بعضهم: من يشهد أنّ الذي جئتم به مثل القرآن.

والصواب: أن شهداءهم الذين يشهدون لهم؛ كما ذكره ابن اسحق بإسناده المعروف عن ابن عباس، قال: {شُهَدَاءَكُم}: من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه.

وقال السدي، عن أبي مالك: {شُهَدَاءَكُم من دون الله}: أي شركاءكم؛ فإنّ هؤلاء هم الذي يُتصوّر منهم المعارضة إذا كانوا في ريب منه.

أمّا من أيقن أنه من عند الله، فإنه يمتنع أن يقصد معارضته؛ لعلمه بأنّ الخلق عاجزون عن ذلك. والله تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات، فادْعوا من يشهد لكم. وهؤلاء يشهدون من دون الله، لا يشهدون بما شهد الله به، فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله؛ كما قال: {لَكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ}.

قال ابن العثيمين: {من دون الله}: أي مما سوى الله؛ {إن كنتم صادقين}: أي في أن هذا القرآن مفترًى على الله؛ والجواب على هذا: أنه لا يمكن أن يأتوا بسورة مثله مهما أتوا من المعاونين، والمساعدين.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٣٤: فلما قرّر نوعي التوحيد انتقل إلى النبوة فقال: {وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ}، إن حصل لكم ريب في

١- أخرجه البخاري ص٢٨١، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٤٨: قول الله تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها}، حديث رقم ٣٤٤٥.

القرآن الكريم وصدق من جاء به، وقلتم إنه مفتعل، فأتوا بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأت واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، حتى أن الذين راموا معارضته، كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشم احد مثل ريحه قط، وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم وجاء الحمقاء بعذرة منتنة خبيثة وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوةً وبرهانًا وعظمةً وجلالةً؟ وأكَّد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، كما يقول المعجز لمن يدعى مقاومته، أجهد عليَّ بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلًا إن كان غير واثق بصحة ما يدَّعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله، والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أُمّيِّهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم ويقول: لن تستطيعوا ذلك، ولن تفعلوه أبدًا، فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وأيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية وجوه متعددة: هذا أحدها.

وثانيها: إقدامه هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدَّى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه.

وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه، وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره ولو لم يفهمه ولم يتأمله، فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن، تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه، حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها، وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام، وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك، من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله، فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- دفاع الله سبحانه وتعالى عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: {فأتوا بسورة من مثله}؛ لأن الأمر هنا للتَّحدِّي؛ فالله عز وجل يتحدَّى هؤلاء بأن يأتوا بمعارضٍ لما جاء به الرسول ﷺ.

٢- فضيلة النبي ﷺ؛ لوصفه بالعبودية؛ والعبودية لله عز وجل هي غاية الحرية؛ لأن من لم يعبد الله فلا بد أن يعبد غيره؛ فإذا لم يعبد الله عز وجل الذي هو مستحق للعبادة، عَبَدَ الشيطان، كما قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

هربوا من الرق الذي خلقوا له ... وبلوا برق النفس والشيطان

٣- أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: {مما نزلنا}؛ ووجه كونه كلام الله أن القرآن كلام؛ والكلام صفة للمتكلم، وليس شيئًا بائنًا منه؛ وبهذا نعرف بطلان قول من زعم أن القرآن مخلوق.

٤- إثبات علوّ الله عزّ وجل؛ لأنه إذا تقرر أن القرآن كلامه، وأنه منزل من عنده لزم من ذلك علوّ المتكلم به؛ وعلو الله عزّ وجل ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ وتفاصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ ولولا خوض أهل البدعة في ذلك ما احتيج إلى كبير عناء في إثباته؛ لأنه أمر فطري؛ ولكن علماء أهل السنة يضطرون إلى مثل هذا لدحض حجج أهل البدع.

٥- أن القرآن معجز حتى بسورة. ولو كانت قصيرة؛ لقوله تعالى: {فأتوا بسورة من مثله}.

٦- تحدّي هؤلاء العابدين للآلهة مع معبوديهم؛ وهذا أشدُّ ذُلًّا مما لو تحدّوا وحدهم.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

قال ابن العثيمين: {فإن لم تفعلوا}: يعني فإن لم تأتوا بسورة من مثله.. ولما قال تعالى: {فإن لم تفعلوا}، وهي شرطية، قطع أطماعهم بقوله: {ولن تفعلوا}، يعني: ولا يمكنكم أن تفعلوا؛ و{لن}، هنا للتأبيد؛ لأن المقام مقام تحدٍّ.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٥ص٤٢٥: فَذَكَرَ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ}. يَقُولُ: إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ حَقٌّ، فَخَافُوا اللَّهَ أَنْ تُكَذِّبُوهُ، فَيَحِيقُ بِكُمُ الْعَذَابُ، الَّذِي وَعَدَ بِهِ الْمُكَذِّبِينَ، وَهَذَا دُعَاءٌ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ بِالْحِكْمَةِ، وَهُوَ جِدَالُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وَالثَّانِي قَوْلُهُ: {وَلَنْ تَفْعَلُوا}. وَ{لَنْ}، لِنَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَثَبَتَ الْخَبَرُ أَنَّهُمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ، لَا يَأْتُونَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ كَمَا أَخْبَرَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ فِي سُورَةِ [سُبْحَانَ]، وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، افْتَتَحَهَا بِذِكْرِ الْإِسْرَاءِ، وَهُوَ كَانَ بِمَكَّةَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ، وَذَكَرَ فِيهَا مِنْ مُخَاطَبَتِهِ لِلْكُفَّارِ بِمَكَّةَ مَا يُبَيِّنُ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء: ٨٨].

فَعَمَّ بِالْخَبَرِ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُعْجِزًا لَهُمْ، قَاطِعًا بِأَنَّهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَلَوْ تَظَاهَرُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا التَّحَدِّي وَالدُّعَاءُ هُوَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَهَذَا قَدْ سَمِعَهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ وَعَرَفَهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، وَعَلِمَ – مَعَ ذَلِكَ – أَنَّهُمْ لَمْ يُعَارِضُوهُ، وَلَا أَتَوْا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَمِنْ حِينِ بُعِثَ، وَإِلَى الْيَوْمِ، الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، مَعَ مَا عُلِمَ مِنْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ كَانُوا كُفَّارًا قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَلَمَّا بُعِثَ إِنَّمَا تَبِعَهُ قَلِيلٌ.

وَكَانَ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِهِ، مُجْتَهِدِينَ بِكُلِّ طَرِيقٍ يُمْكِنُ، تَارَةً يَذْهَبُونَ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فَيَسْأَلُونَهُمْ عَنْ أُمُورٍ مِنَ الْغَيْبِ، حَتَّى يَسْأَلُوهُ عَنْهَا، كَمَا سَأَلُوهُ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَأَهْلِ الْكَهْفِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَتَارَةً يَجْتَمِعُونَ فِي مَجْمَعٍ بَعْدَ مَجْمَعٍ عَلَى مَا يَقُولُونَهُ فِيهِ، وَصَارُوا يَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ، فَيُشَبِّهُونَهُ بِمَنْ لَيْسَ مِثْلَهُ لِمُجَرَّدِ شَبَهٍ مَا مَعَ ظُهُورِ الْفَرْقِ. فَتَارَةً يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: سَاحِرٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: كَاهِنٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: شَاعِرٌ. . . إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُونَ – هُمْ وَكُلُّ عَاقِلٍ سَمِعَهَا – أَنَّهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ قَدْ تَحَدَّاهُمْ بِالْمُعَارَضَةِ – مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ – وَهِيَ تُبْطِلُ دَعْوَتَهُ، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَيْهَا لَفَعَلُوهَا، فَإِنَّهُ مَعَ وُجُودِ هَذَا الدَّاعِي التَّامِّ الْمُؤَكَّدِ إِذَا كَانَتِ الْقُدْرَةُ حَاصِلَةً، وَجَبَ وُجُودُ الْمَقْدُورِ، ثُمَّ هَكَذَا الْقَوْلُ فِي سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ.

فَهَذَا الْقَدْرُ يُوجِبُ عِلْمًا بَيِّنًا لِكُلِّ أَحَدٍ بِعَجْزِ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ بِحِيلَةٍ، وَبِغَيْرِ حِيلَةٍ. وَهَذَا أَبْلَغُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يُكَرَّرُ جِنْسُهَا كَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِنَظِيرِهِ، وَكَوْنُ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ لَيْسَ هُوَ مِنْ جِهَةِ فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ فَقَطْ، أَوْ نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ إِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ صَرْفِ الدَّوَاعِي عَنْ مُعَارَضَتِهِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ سَلْبِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى مُعَارَضَتِهِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مُعْجِزَةٌ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ: مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ، وَمِنْ جِهَةِ النَّظْمِ، وَمِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ فِي دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى، وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ، الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ الْغَيْبِ الْمَاضِي، وَعَنِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْمَعَادِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا بَيَّنَ فِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْيَقِينِيَّةِ، وَالْأَقْيِسَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}[الإسراء: ٨٩].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[الكهف: ٥٤]. وَقَالَ: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ – قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[الزمر: ٢٧ – ٢٨].

وَكُلُّ مَا ذَكَرَهُ النَّاسُ مِنَ الْوُجُوهِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، هُوَ حُجَّةٌ عَلَى إِعْجَازِهِ، وَلَا تَنَاقُضَ فِي ذَلِكَ، بَلْ كُلُّ قَوْمٍ تَنَبَّهُوا لِمَا تَنَبَّهُوا لَهُ.

وَمِنْ أَضْعَفِ الْأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ: إِنَّهُ مُعْجِزٌ بِصَرْفِ الدَّوَاعِي – مَعَ تَمَامِ الْمُوجِبِ لَهَا – أَوْ بِسَلْبِ الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ، أَوْ بِسَلْبِهِمُ الْقُدْرَةَ الْمُعْتَادَةَ فِي مِثْلِهِ سَلْبًا عَامًّا، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى لِزَكَرِيَّا: {آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا}[مريم: ١٠].

وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ صَرَفَ قُلُوبَ الْأُمَمِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ مَعَ قِيَامِ الْمُقْتَضِي التَّامِّ. فَإِنَّ هَذَا يُقَالُ عَلَى سَبِيلِ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْزِيلِ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا قُدِّرَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَقْدِرُ النَّاسُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، فَامْتِنَاعُهُمْ – جَمِيعُهُمْ – عَنْ هَذِهِ الْمُعَارَضَةِ، مَعَ قِيَامِ الدَّوَاعِي الْعَظِيمَةِ إِلَى الْمُعَارَضَةِ، مِنْ أَبْلَغِ الْآيَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ: إِنِّي آخُذُ أَمْوَالَ جَمِيعِ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ الْعَظِيمِ، وَأَضْرِبُهُمْ جَمِيعَهُمْ، وَأُجَوِّعُهُمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَشْكُوا إِلَى اللَّهِ، أَوْ إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ فِيهِمْ – مَعَ ذَلِكَ – مَنْ يَشْتَكِي، فَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْعَجَائِبِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ.

وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ وَاحِدًا صَنَّفَ كِتَابًا يَقْدِرُ أَمْثَالُهُ عَلَى تَصْنِيفِ مِثْلِهِ، أَوْ قَالَ شِعْرًا، يَقْدِرُ أَمْثَالُهُ أَنْ يَقُولُوا مِثْلَهُ، وَتَحَدَّاهُمْ كُلَّهُمْ، فَقَالَ: عَارِضُونِي، وَإِنْ لَمْ تُعَارِضُونِي فَأَنْتُمْ كُفَّارٌ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ، وَدِمَاؤُكُمْ لِي حَلَالٌ، امْتَنَعَ فِي الْعَادَةِ أَنْ لَا يُعَارِضَهُ أَحَدٌ. فَإِذَا لَمْ يُعَارِضُوهُ كَانَ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْعَجَائِبِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ.

وَالَّذِي جَاءَ بِالْقُرْآنِ قَالَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، وَمَنْ آمَنَ بِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي دَخَلَ النَّارَ، وَقَدْ أُبِيحَ لِي قَتْلُ رِجَالِهِمْ، وَسَبْيُ ذَرَارِيهِمْ، وَغَنِيمَةُ أَمْوَالِهِمْ، وَوَجَبَ عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ طَاعَتِي، وَمَنْ لَمْ يُطِعْنِي كَانَ مِنْ أَشْقَى الْخَلْقِ، وَمِنْ آيَاتِي هَذَا الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، وَأَنَا أُخْبِرُكُمْ أَنَّ أَحَدًا لَا يَأْتِي بِمِثْلِهِ.

فَيُقَالُ: لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ قَادِرِينَ عَلَى الْمُعَارَضَةِ أَوْ عَاجِزِينَ.

فَإِنْ كَانُوا قَادِرِينَ، وَلَمْ يُعَارِضُوهُ، بَلْ صَرَفَ اللَّهُ دَوَاعِي قُلُوبِهِمْ، وَمَنَعَهَا أَنْ تُرِيدَ مُعَارَضَتَهُ مَعَ هَذَا التَّحَدِّي الْعَظِيمِ، أَوْ سَلَبَهُمُ الْقُدْرَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ قَبْلَ تَحَدِّيهِ، فَإِنَّ سَلْبَ الْقُدْرَةِ الْمُعْتَادَةِ أَنْ يَقُولَ رَجُلٌ: مُعْجِزَتِي أَنَّكُمْ كُلَّكُمْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى الْكَلَامِ وَلَا عَلَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، فَإِنَّ الْمَنْعَ مِنَ الْمُعْتَادِ كَإِحْدَاثِ غَيْرِ الْمُعْتَادِ – فَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْخَوَارِقِ.

وَإِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ، ثَبَتَ أَنَّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، فَثَبَتَ كَوْنُهُ خَارِقًا عَلَى تَقْدِيرِ النَّقِيضَيْنِ؛ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ. فَثَبَتَ أَنَّهُ مِنَ الْعَجَائِبِ النَّاقِضَةِ لِلْعَادَةِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

فَهَذَا غَايَةُ التَّنَزُّلِ، وَإِلَّا فَالصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَقْدِرُ مُحَمَّدٌ ﷺ – نَفْسُهُ – مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، بَلْ يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَبَيْنَ سَائِرِ كَلَامِهِ لِكُلِّ مَنْ لَهُ أَدْنَى تَدَبُّرٍ، كَمَا قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء: ٨٨].

وَأَيْضًا فَالنَّاسُ يَجِدُونَ دَوَاعِيَهُمْ إِلَى الْمُعَارَضَةِ حَاصِلَةً، لَكِنَّهُمْ يُحِسُّونَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْعَجْزَ عَنِ الْمُعَارَضَةِ، وَلَوْ كَانُوا قَادِرِينَ لَعَارَضُوهُ. وَقَدِ انْتَدَبَ غَيْرُ وَاحِدٍ لِمُعَارَضَتِهِ، لَكِنْ جَاءَ بِكَلَامٍ فَضَحَ بِهِ نَفْسَهُ، وَظَهَرَ بِهِ تَحْقِيقُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ

مِنْ عَجْزِ الْخَلْقِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، مِثْلَ قُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، كَقَوْلِهِ: (يَا ضُفْدَعُ بِنْتَ ضُفْدَعِينَ، نِقِّي كَمْ تَنِقِّينَ، لَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينَ، وَلَا الشَّارِبَ تَمْنَعِينَ، رَأْسُكِ فِي الْمَاءِ، وَذَنَبُكِ فِي الطِّينِ).

قال ابن العثيمين: {فاتَّقوا النار}: الفاء هنا واقعة في جواب الشرط. وهو {إن لم تفعلوا}، يعني: إن لم تفعلوا، وتعارضوا القرآن بمثله فالنار مثواكم؛ فاتقوا النار. ولن يجدوا ما يتقون به النار إلا أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ.

{التي وقودها الناس والحجارة}؛ {التي}، اسم موصول صفة لـ {النار}؛ و{وقود} مبتدأ؛ و{الناس}، خبر المبتدأ؛ والجملة: صلة الموصول؛ وال{وقود}، ما يوقد به الشيء، كالحطب مثلًا في نار الدنيا؛ في الآخرة وقود النار هم الناس، والحجارة؛ فالنار تحرقهم، وتلتهب بهم؛ و{الحجارة}: قال بعض العلماء: إن المراد بها الحجارة المعبودة. يعني الأصنام؛ لأنهم يعبدون الأصنام؛ فأصنامهم هذه تكون معهم في النار، كما قال تعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون}[الأنبياء: ٩٨]؛ وقيل: هذا، وهذا. الحجارة المعبودة، والحجارة الموقودة التي خلقها عزّ وجل لتوقد بها النار.

{أعدَّت}: الضمير المستتر يعود على النار؛ والمعِدُّ لها هو الله عزّ وجل؛ ومعنى (الإعداد): التهيئة للشيء؛ {للكافرين}: أي لكل كافر سواء كفر بالرسالة، أو كفر بالألوهية، أو بغير ذلك.

قال السعدي: وفي قوله: {أعدَّت للكافرين}، ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافا للمعتزلة، وفيها أيضا، أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار، لأنه قال: {أعدَّت للكافرين}، فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدَّة للكافرين وحدهم، خلافًا للخوارج والمعتزلة. وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر، وأنواع المعاصي على اختلافها.

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات التَّحدِّي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا}.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

(مسألة)

قال ابن العثيمين: إذا قال قائل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟ وكيف أعجز البشر؟.

الجواب: أنه معجز بجميع وجوه الإعجاز؛ لأنه كلام الله، وفيه من وجوه الإعجاز ما لا يدرك؛ فمن ذلك:

أولًا: قوة الأسلوب، وجماله؛ والبلاغة، والفصاحة؛ وعدم الملل في قراءته؛ فالإنسان يقرأ القرآن صباحًا، ومساءً. وربما يختمه في اليومين، والثلاثة. ولا يمله إطلاقًا؛ لكن لو كرر متنًا من المتون كما يكرر القرآن ملّ.

ثانيًا: أنه معجز بحيث إن الإنسان كلما قرأه بتدبر ظهر له بالقراءة الثانية ما لم يظهر له بالقراءة الأولى.

ثالثًا: صدق أخباره بحيث يشهد لها الواقع؛ وكمال أحكامه التي تتضمن مصالح الدنيا، والآخرة؛ لقوله تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا}[الأنعام: ١١٥].

رابعًا: تأثيره على القلوب، والمناهج؛ وآثاره، حيث ملك به السلف الصالح مشارق الأرض، ومغاربها.

وأما كيفية الإعجاز فهي تحدي الجن، والإنس على أن يأتوا بمثله، ولم يستطيعوا.

(مسألة ثانية)

حكى الله عزّ وجل عن الأنبياء، والرسل، ومن عاندهم أقوالًا؛ وهذه الحكاية تحكي قول من حُكيت عنه؛ فهل يكون قول هؤلاء معجزًا؛ يعني مثلًا: فرعون قال لموسى: {لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين}[الشعراء: ٢٩] هذا يحكيه الله عزّ وجل عن فرعون؛ فيكون القول قول فرعون؛ فكيف كان قول فرعون معجزًا والإعجاز إنما هو قول الله عز وجل؟

فالجواب: أن الله تعالى لم يحك كلامهم بلفظه؛ بل معناه؛ فصار المقروء في القرآن كلام الله عزّ وجل؛ وهو معجز.

قال صالح آل الشيخ في شرحه للعقيدة الطحاوية: هذه المسألة متصلة ببحث عظيم، وهو بحث (دلائل النبوة)؛ لأنَّ كون القرآن لا يشبه كلام البشر ولا يشبه قول البشر هو المسألة الموسومة عند العلماء بمسألة إعجاز القرآن وأنَّ القرآن مُعْجِزْ.

وهذه ولاشك مسألة مهمة قلّ بل نَدَرَ أن تَتَعَرَّضَ لها كتب العقائد، ولها صلة ببحث دلائل النبوة فهي في التوحيد؛ لأنَّ صلتها تارة بدلائل النبوة من كون القرآن مُعْجِزًا ودليلًا على صحة نبوة محمد ﷺ، وأنه منزل من عند الله، ومن جهة أخرى لها صلة بمبحث كلام الله – عز وجل – وهو أنَّ القرآن لا يشبه كلام البشر وأنَّ كلام الله – عز وجل – ليس ككلام البشر.

فلا بأس إذًا أن نقرر هذه المسألة وهي المسألة الموسومة بإعجاز القرآن؛ لأجل ندرة الكلام عليها في كتب العقائد مُفَصَّلَة، ونذكر منها بعض ما يناسب هذه الدروس المختصرة.

لتقرير هذه المسألة وهي مسألة إعجاز القرآن، وقد تكلم فيها أنواع من الناس من جميع الفرق والمذاهب، نجعل البحث فيها في مسائل، نقول:

(المسألة الأولى):

أنَّ لفظ الإعجاز لم يرد في الكتاب ولا في السنة، وإنما جاء في القرآن وفي السنة أنّ ما يعطيه الله – عز وجل – للأنبياء والرسل وما آتاه محمد ﷺ هو آية وبرهان على نبوته.

فلفظ المعجزة لم يأتِ كما ذكرنا من قبل في الكتاب ولا في السنة وإنما هو لفظٌ حادث ولا بأس باستعماله إذا عُنِيَ به المعنى الصحيح الذي سيأتي.

الذي جاء في القرآن الآيات والبراهين؛ لكن العلماء استعملوا لفظ الإعجاز لسبب، وهو:

أنَّ القرآن تَحدَّى الله – عز وجل – العرب بأن يأتوا بمثله، أو أن يأتوا بعشر سور مثله أو أن يأتوا بسورة من مثله، فلما تَحدَّاهُمْ فلم يَغْلِبُوا، ولم يأتوا بما تَحدَّاهُمْ به، فدل ذلك على عجزهم، وذلك بسبب أنَّ القرآن مُعْجِزٌ لهم فلم يأتوا بمثله، قال – عز وجل – {قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء: ٨٨]، وقال – عز وجل – {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[هود: ١٣– ١٤].

إذا تبين ذلك فالتحدي لمَّا وَقَعَ وعَجِزُوا، وهم يريدون أي وسيلة لمعارضة القرآن وإثبات أنه قول البشر، {فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ}، ائتوا بمثله، {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ}، لما عَجِزُوا سَمَّى العلماء فِعْلَهُمْ ذلك أو عجزهم سموه: مسألة إعجاز القرآن؛ لأجل التحدي وعجز الكفار أن يأتوا بمثله.

(المسألة الثانية):

أنَّ كلام الله – عز وجل – هو المُعْجِزْ، وليس أنَّ الله – عز وجل – أعْجَزَ لأجل السماع، أعْجَزَ لما أنزل القرآن.

والفرق بين المسألتين أنَّ الإعجاز صفة القرآن، ولكن لا يقال أنَّ الله – عز وجل – أعْجَزَ البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن؛ لأنَّ هذا القول يتضمن، بل يدل على أنهم قادرون لكنَّ الله – عز وجل – سلبهم القدرة على هذه المعارضة.

فإذاً الإعجاز والبرهان والآية والدليل في القرآن نفسه لم؟

لأنه كلام الله – عز وجل –، ولا يقال إنَّ الله – عز وجل – أعْجَزَ الناس، أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو صرفهم عن ذلك، كما هي أقوال يأتي بيانها.

فإذاً تنتبه على أنَّ تعبير أهل العلم في هذه المسألة أنَّ القرآن آية، فآية نبوة محمد ﷺ وآية رسالته القرآن.

بل محمد ﷺ لمَّا سَمِعَ كلام الله – عز وجل – خاف ﷺ، فلما فَاجَأَه الوحي وهو بغار حراء فأتاه جبريل فَقَالَ له: اقْرَأْ، قَالَ: {مَا أَنَا بِقَارِئٍ}، فَقَالَ اقْرَأْ، قَالَ: {مَا أَنَا بِقَارِئٍ}، قَالَ {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}[العلق: ١ – ٢]، إلى آخر ما أُنزِلْ في أول ما نبئ النبي ﷺ، فرجع بها ﷺ يرجُف بها فؤاده؛ لأنَّ هذا الكلام لا يشبه كلام أحد، ولم يتحمله ﷺ لا في ألفاظ ومعانيه ولفظه، ولا في أيضا صفة الوحي والتنزيل، فما استطاع ﷺ أن يتحمل ذلك فرجع بهن – يعني بالآيات – يرجف بها فؤاده ﷺ إلى آخر القصة.

إذاً فالنبي ﷺ أول ما جاء الوحي لم يتحمل هذا الذي جاءه، لم؟

لأنه كلام الله – عز وجل – وأما كلام البشر فإنه يتحمله لما سمع منه.

(المسألة الثالثة):

أقوال الناس في إعجاز القرآن.

مسألة إعجاز القرآن – كما ذكرنا – لها صلة بدلائل النبوة.

والقرآن مُعْجِزْ لمن؟ للجن والإنس جميعًا؛ بل معجز لكل المخلوقات، لم؟

لأنه كلام الله – عز وجل –، وكلام الله – عز وجل – لا يشبه كلام الخلق، وكون القرآن معْجِزًا، راجع إلى أشياء كثيرة يأتي فيها البيان.

فاختلف الناس في وجه الإعجاز لأجل أَنَّ إعجاز القرآن دليل نبوة النبي ﷺ في أقوال:

١– القول الأول:

ذهب إليه طائفة من المعتزلة ومن غيرهم حتى من المعاصرين الذين تأثروا بالمدرسة العقلية في الصفات والكلام، قالوا: إنَّ الإعجاز في القرآن إنما هو بصرف البشر عن معارضته، وإلا فالعرب قادرة على معارضته في الأصل؛ لكنهم صُرِفُوا عن معارضته، فهذا الصرف هو قدرة الله – عز وجل –، لا يمكن للنبي ﷺ أن يصرفهم جميعًا عن معارضته.

وهذا الصرف لابد أن يكون من قوة تَمْلِكُ هؤلاء جميعا وهي قوة الله – عز وجل –.

فإذاً الصَّرْفَةْ التي تسمع عنها، القول بالصَّرْفَةْ؛ يعني أنَّ الله صَرَفَ البشر عن معارضة هذا القرآن، وإلا فإنَّ العرب قادرون على المعارضة. وهذا القول هو القول المشهور الذي ينسب للنّظّام وجماعة بما هو معلوم. وهذا القول يرده أشياء نقتصر منها على دليلين:

– الدليل الأول سمعي نقلي من القرآن.

– والدليل الثاني عقلي.

أما الدليل الأول وهو الدليل القرآني: فهو قول الله – عز وجل – {قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء: ٨٨]، فالله – عز وجل – أثْبَتَ أَنَّ الإنس والجن لو اجتمعت على أنْ تأتي بمثل هذا القرآن وصار بعضهم لبعض معينًا في الإتيان بمثل هذا القرآن أنهم لن يأتوا بمثله، وهذا إثبات لقدرتهم على ذلك؛ لأنَّ اجتماعهم مع سلب القدرة عنهم بمنزلة اجتماع الأموات لتحصيل شيء من الأشياء.

فالله – عز وجل – بيّنَ أنهم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن وكان بعضهم لبعض معينًا وظهيرًا على المعارضة، فإنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

فأثْبَتَ لهم القدرة لو اجتمعوا قادرين وبعضهم لبعض يعين، لكنهم سيعجزون مع قُدَرِتهم التي ستجتمع وسيكون بعضهم لبعض معينًا على المعارضة.

وهذه الآية هي التي احتج بها المعتزلة على إعجاز القرآن، ففيها الدليل ضدهم على بطلان الصَّرْفَةْ.

أما الدليل الثاني وهو الدليل العقلي: أنَّ الأمة أجمعت من جميع الفرق والمذاهب أنَّ الإعجاز يُنْسَبُ ويضاف إلى القرآن ولا يضاف إلى الله – عز وجل –.

فلا يقال إعجاز الله بالقرآن، وإنما يقال باتفاق الجميع وبلا خلاف هو إعجاز القرآن.

فإضافة الإعجاز إلى القرآن تدل على أنَّ القرآن مُعْجِزٌ في نفسه، وليس الإعجاز من الله بصفة القدرة.

لأننا لو قلنا الإعجاز إعجاز الله بقدرته الناس عن الإتيان بمثل هذا القرآن، فيكون الإعجاز بأمر خارج عن القرآن.

فلما أجمعت الأمة من جميع الفئات والمذاهب على أنّ الإعجاز وصْفٌ للقرآن علمنا بُطلان أن يكون الإعجاز صفة لقدرة الله – عز وجل –؛ لأنَّ من قال بالصرفة بأنَّ الله سلبهم القدرة هذا راجعٌ الإعجاز – يعني تعجيز أولئك – راجع إلى صفة القدرة وهذه صفة ربوبية. فإذًا لا يكون القرآن مُعْجِزًا في نفسه، وإنما تكون المعجزة في قدرة الله – عز وجل – على ذلك. وهذا لاشك أنه دليل قوي في إبطال قول هؤلاء. لهذا المعتزلة المتأخرون ذهبوا على خلاف قول المتقدمين في الإعجاز بالصرفة؛ لأنَّ قولهم لا يستقيم لا نقلًا ولا عقلًا.

٢– القول الثاني:

من قال القرآن مُعْجِزٌ بألفاظه، فألفاظ القرآن بلغت المنتهى في الفصاحة؛ لأنَّ البلاغيين يُعَرِّفُونَ الفصاحة بقولهم: فصاحة المفرد في سلامته من نُفرة فيه ومن غرابته، فالقرآن مشتمل على أعلى الفصيح في الألفاظ.

ولما تأمل أصحاب هذا القول جميع كلام العرب في خطبهم وأشعارهم، وجدوا أنَّ كلام المتكلم لابد أن يشتمل على لفظ داني في الفصاحة، ولا يستقيم في كلام أي أحد – في المعلقات ولا في خطب العرب ولا في نثرهم ولا في مراسلاتهم إلى آخره – لا يستقيم أن يكون كلامهم دائماً في أعلى الفصاحة، فنظروا إلى هذه الجهة فقالوا الفصاحة هي دليل إعجاز القرآن لأنَّ العرب عاجزون.

وهذا ليس بجيد؛ لأنَّ القرآن اسم للألفاظ والمعاني، فالله – عز وجل – تَحَدَّى أن يُؤْتَى بمثل هذا القرآن، أو بمثل عشر سور مثله مفتريات – كما زعموا – وهذه المثلية إنما هي باللفظ وبالمعنى جميعاً وبصورة الكلام المتركبة.

فإذاً كونه مُعْجِزَاً بألفاظه نعم لكن ليس وجه الإعجاز الألفاظ وحدها.

٣– القول الثالث:

من قال إنَّ الإعجاز في المعاني وأما الألفاظ فهي على قارعة الطريق.

مثل ما يقول الجاحظ وغيره؛ يعني فيما ساقه في كتاب الحيوان يقول: الشأن في المعاني أما الألفاظ فهي ملقاة على قارعة الطريق. يعني أنَّ الألفاظ يتداولها الناس؛ لكن الشأن في الدِلالة بالألفاظ على المعاني. وهذا لاشك أنه قصور لأنَّ القرآن كما ذكرنا مشتمل على فصاحة الألفاظ وعظمة المعاني جميعاً.

٤– القول الرابع:

من قال إنَّ القرآن مُعْجِزٌ في نظمه، ومعنى النظم هو الألفاظ المتركبة والمعاني التي دلت عليها الألفاظ وما بينها من الروابط.

يعني أَنَّ الكلام يُحْتَاجُ فيه إلى أشياء، يُحْتَاجُ فيه إلى ألفاظ وإلى معانٍ في داخل هذه الألفاظ يُعَبَّرُ بها، يُعَبِّرُ بالألفاظ عن المعاني وإلى رابط يربط بين هذه الألفاظ والمعاني في صور بلاغية، وفي صور نحوية عالية، وهذا المجموع سماه أصحاب هذا القول النَّظم.

وهذا هو مدرسة الجُرجاني المعروفة، العلامة عبد القادر الجرجاني فيما كتب في دلائل الإعجاز وفي أسرار البلاغة.

وهذا القول لَمَّا قال به الجرجاني وهو مسبوق إليه من جهة الخطّابي وغيره يعني في كلمة، هو أراد به الرد على عبد الجبار المعتزلي في كتابه المغني، فإنه ألف كتاب المغني وجعل مجلداً كاملا في إعجاز القرآن، وردّ عليه بكتاب دلائل الإعجاز وأنَّ الإعجاز راجع إلى اللفظ والمعنى والروابط؛ يعني إلى النظم ،نظم القرآن جميعا، المقصود بالنظم يعني تآلف الألفاظ والجمل مع دلالات المعاني البلاغية واللفظية وما بينها من صلات نحوية عالية.

وهذا القول قول جيد؛ ولكن لا ينبغي أن يُقصر عليه إعجاز القرآن.

٥- القول الخامس:

من قال إنَّ إعجاز القرآن فيما اشتمل عليه.

فالقرآن اشتمل على:

- أمور غيبية لا يمكن أن يأتي بها النبي ﷺ؛ بأمر الماضي وبأمر المستقبل.

- واشتمل القرآن أيضا على أمور تشريعية لا يمكن أن تكون من عند النبي ﷺ.

- واشتمل القرآن على هداية ومخالطة للنفوس لا يمكن أن تكون من عند بشر.

وهذا قول لبعض المتقدمين وجمع من المعاصرين بأنَّ القرآن محتمل على هذه الأشياء جميعًا.

ولكن هذا القول يُشْكِلُ عليه أَنَّ إعجاز القرآن الذي تُحُدِّيَت به العرب، والعرب حينما خوطبوا به، خوطبوا بكلام مشتمل على أشياء كثيرة، وكان التحدي واقعًا أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل سورة أو بعشر سور مثله مفتريات كما زعموا، وهذا يؤول إلى ما تميزت به العرب، وهو مسألة البلاغة وما تميزوا به من رِفعة الكلام وفصاحته وبلاغته.

والعرب لم تكن متقدمة عارفة بالأمور الطبية ولا بالأمور الفلسفية ولا بالأمور العقدية ولا بالغيبيات، وليس عندهم معرفة بالتواريخ على تفاصيلها ونحو ذلك، حتى يقال إنَّ الإعجاز وقع في هذه الجهة؛ لكنهم خوطبوا بكلام من جنس ما يتكلمون به - يعني من جهة الألفاظ والحروف -؛ لكنهم عجزوا عن الإتيان بذلك لأنه كلام الله - عز وجل -.

٦- القول الأخير - والأقوال متنوعة؛ لأنَّ المدارس كثيرة -:

أنَّ القرآن مُعْجِزٌ لأنه كلام الله - عز وجل -، وكلام الله - عز وجل - لا يمكن أن يشبه كلام المخلوق.

وهذا القول هو الذي ذكره الطحاوي هنا، قال: (عَلِمْنَا وأَيْقَنَّا أنه قولُ خالقِ البَشرِ، ولا يُشْبِهُ قولَ البشر، وَمَنْ وَصَفَ الله بِمعنَى مِنْ مَعاني البشر، فقدْ كَفَر، فمن أبْصَرَ هذا اعْتَبر، وعَنْ مِثْلِ قول الكفَّارِ انْزَجَر، وعَلِمَ أنَّه بصفاته - التي منها القرآن - ليسَ كالبشر).

وهذا القول الذي أشار إليه لم يَتَفَرَّعْ إليه شارحوا هذه الرسالة سواء من السلفيين أو من المبتدعة من الماتريديين وغيرهم – في تقرير هذه المسألة، وهو من أرْفَع وأعظم الأقوال؛ بل هو القول الحق في هذه المسألة: أنَّ كلام الله – عز وجل – لا يمكن أن يشبه كلام البشر.

خذ مثلًا فيما يتميز به المخلوقات ترى فلاناً فتقول هذا عربي، وترى آخر فتقول هذا أوروبي، وترى ثالثًا فتقول هذا من شرق آسيا، لم؟

لأنَّ الصفة العامة دَلَّتْ على ذلك، ولو أَخَذَ الآخِذْ يُعَدِّدُ أشياء كثيرة متنوعة دلته على أَنَّ هذه الصورة هي صورة عربي، وهذه الصورة صورة أوروبي، هذه الصورة الخَلقية صورة من شرق آسيا وهكذا.

فإذًا الصورة العامة بها تتفرق الأشياء، فالذي يدل على الفرقان ما بين شيء وشيء، وأهمها الصورة العامة له.

كلام الناس – إذا انتقلنا من الصورة الخَلقية – كلام الناس يختلف بعضه عن بعض.

قول الصحابة إذا سمعنا كلامًا نقول هذا من قول الصحابة أو من قول السلف؛ لأنَّ كلامهم لا يشبه كلام المتأخرين، كما قال ابن رجب: (كلام السلف قليل كثير الفائدة وكلام الخلف كثير قليل الفائدة).

فكلام السلف له صورة عامة تعلم أنَّ هذا من كلام السلف، فلو أتينا بكلام إنسان معاصر وبكلمات له كثيرة وقارناها بكلام السلف لاتضح الفرق. فإذاً المخلوق البشر في كلامه متباين.

إذا رأيت كلام الإمام أحمد تقول هذا ليس كلام ابن تيمية، ترى كلام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في تقريره تقول هذا ليس بكلام مثلًا النووي، إذا رأيت كلام الإمام أحمد تقول هذا ليس هو كلام أبي حنيفة وهكذا.

فإذًا الكلام له صورة، له هيئة من سَمِعَها مَيَّزَ هذا الكلام.

وهذا هو الذي أشار إليه الطحاوي بأنَّ كلام الله – عز وجل – لا يشبه كلام البشر.

إذا تبين ذلك فإنَّ كلام الله – عز وجل – صِفَتُهُ، فهذا القرآن من سَمِعَهُ أيقن أنه ليس بكلام البشر.

ولهذا بعض الأدباء الغواة مثل ابن المقفع والمعري ونحو ذلك أرادوا معارضة القرآن بصورة أدبية فظهر؛ بل افْتَضَحُوا في ذلك فَغَيَّرُوا منحاهم إلى مَنْحَى التأثير إلى ما أشبه ذلك في كتبهم المعروفة وهي مطبوعة.

أرادوا المعارضة من جهة المعاني، من جهة الألفاظ، أن يأتوا شيء لكنهم افتضحوا لأنَّ كلام البشر لا يمكن أن يكون مثل كلام الله – عز وجل – العرب عندهم معرفة بالبيان، هم الغاية في البيان، هم الغاية في معرفة الفصاحة، هم الغاية في معرفة تركيب الكلام؛ لكنهم لما سمعوا القرآن ما استطاعوا أن يعارضوه لم؟

لأنَّ الكلام لا يشبه الكلام، لا يمكن، لا يمكن أن يعارضوا؛ لأنَّ كلام الله – عز وجل – لا يشبه كلام المخلوق.

إذا تبين لك ذلك، فنقول إذاً: ما نُقَرِّرُهُ هو أنَّ وجه الإعجاز في كلام الله – عز وجل – هو أَنَّ كلام الله لا يشبه كلام البشر، ولا يماثل كلام البشر، وأنَّ البشر لا يمكن أن يقولوا شيئًا يماثل صفة الله – عز وجل –، والناس لا يستطيعون على اختلاف طبقاتهم وتنوّع مشاربهم أن يَتَلَقَّوا أعظم من هذا الكلام، وإلا فكلام الله – عز وجل – في عظمته لو تَحَمَّلَ البشر أعظم من القرآن لكانت الحجة أعظم؛ لكنهم لا يتحملون أكثر من هذا القرآن.

لهذا تجد التفاسير من أول الزمان إلى الآن وكل واحد يُخْرِجُ من عجائب القرآن ما يُخْرِجُ، والقرآن كنوزه لا تنفد ولا يفتر على كثرة الرد لا من جهة التِّلاوة ولا من جهة التفسير.

إذا تبين لك ذلك فكلام الطحاوي هذا من أنْفَسْ ما سمعت وأصح الأقوال في مسألة إعجاز القرآن وهو أنَّ الكلام لا يشبه الكلام.

إذا تبين هذا فنقول: كلام الله – عز وجل – في كونه لا يشبه كلام البشر، له خصائص.

فأوجه إعجاز القرآن التي ذَكَرَهَا من ذَكَر، نقول هي خصائص لكلام الله – عز وجل – أوجبت أن يكون كلام الله – عز وجل – ليس ككلام البشر.

مثل ما يقول الواحد: هذا الشعر موزون، هذا البيت فيه كسر، لماذا؟، حرف واحد نقص قال فيه كسر، أو هذا البيت ما يمكن أن يكون كذا، لماذا؟ في هيئته العامة؛ لكن له برهان يأتيك، يقول لأنه كذا، وكذا، وكذا.

فلان بخصاله، دلنا بصفاته، حركاته، تصرفاته، على أنه ليس بعربي، هذه قضية عامة لم؟ له أدلة عليها؛ لكن هذه خصائص العرب وما تميزوا به عن غيرهم.

يقول هذا الحديث ضعيف أو هذا الحديث معلول، ما وجه علته؟

مثل ما قال أبو حاتم وغيره ممن تقدمه: إنَّ أهل الحديث يعرفون العلة كما يعرف صاحب الجوهر الزيف من النقي.

أنت ترى هل هذا ألماس نقي أو ليس بنقي؟ يأتيك صاحب الخبرة ويقول هذا ألماس ليس بنقي، أنت ترى ما تعرف تُفَرِّقْ هل هذا نقي؟

هذا الكتاب طبعته طبعة حجرية، الذي لا يعرف ما يعرف، هذا الكتاب مطبوع في روسيا كيف عرفت أنه مطبوع وليس عليه اسم البلاد؟ هذا الكتاب مطبوع في بلدة كذا في الهند لماذا؟ عنده البرهان ولكن الصفة العامة هي هذه.

لهذا نقول وانتبه لهذا حتى تخلص من إشكال عظيم في هذه المسألة – مسألة إعجاز القرآن – لتنوع الخطاب فيها وتنوع المدارس فيها نقول: إنّ كلام الله – عز وجل – ليس ككلام البشر، وكلام الله – عز وجل – له خصائص ميزته عن كلام البشر.

ما هذه الخصائص؟ كل ما قيل داخل في خصائص القرآن:

– أولًا:

القرآن كلام الله – عز وجل –، واشتمل القرآن على ألفاظ العرب جميعًا.

تجد القرآن فيه كلمات بلغة قريش، وفيه كلمات بلغة هذيل، وفيه كلمات بلغة تميم، وفيه كلمات بلغة هوازن، وفيه كلمات بلغة أهل اليمن، وفيه بلغات كثيرة بلغة حِمْيَر، {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ}[النجم: ٦١]، قال ابن عباس: (السمود: الغناء بلغة حمير).

بعض قريش خَفِيَ عليها بعض الكلمات مثل ما قال عمر ﵁ لما تلا سورة النحل في يوم الجمعة – يعني في الخطبة –، تلا سورة النحل فوقف عند قوله تعالى: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[النحل: ٤٧]، نظر فقال: ما التخوف؟

فسكت الحاضرون، فقام رجل من هذيل فقال: يا أمير المؤمنين التخوّف في لغتنا التَّنَقُّص قال شاعرنا أبو كبير الهذلي:

تخوّف الرَّحْلُ منها تامِكاً فردا ... كما تَخَوَّفَ عودُ النّبعة السَّفِنُ

تنقص، يعني: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} يعني يبدأ يتنقص شيئًا فشيئًا، ينقصون عما كانوا فيه من النعمة شيئًا فشيئًا، حتى يأتيهم الأجل، عمر القرشي خفيت عليه هذه الكلمة؛ لأنها بلغة أخرى.

هل يستطيع أحد من العرب أن يحيط بلغة العرب جميعًا؟

لا يمكن، أن يحيط بلغة العرب جميعًا بألفاظها وتفاصيلها، لا يمكن.

ولهذا تجد في القرآن الكلمة بلغة مختلفة، وتجد فيه التركيب النحوي بلغة من لغات العرب، فيكون مثلًا على لغة حِمْيَرْ في النحو، أو على لغة سَدُوسْ في النحو، أو على لغة هذيل في النحو.

فإذًا الألفاظ والمعاني والتراكيب النحوية في القرآن تنوَّعت ودخل فيها كل لغات في العرب.

هذا لا يمكن أن يكون من كلام أحد، لا يستطيع أن يحيط هذه الإحاطة إلا من خَلَقَ اللغات وهو رب العالمين.

– ثانيًا:

الألفاظ، كما ذكرنا ألفاظ القرآن بلغت الأعلى في الفصاحة، والقرآن كله فصيح في ألفاظه، والفصاحة راجعة إلى الكلمات جميعا؛ الأسماء والأفعال والحروف، حتى {الم}، فصيح.

إذاً من خصائص القرآن التي دلت على إعجازه أنَّ ألفاظه جميعًا فصيحة، وما استطاع أحد من العرب الذين أنزل عليهم القرآن أن يعيبوا القرآن في لفظٍ مما فيه كما عابوا كلام بعضهم بعضًا، بل قال قائلهم: إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطُلاوة. إلى آخر كلامه.

– ثالثًا:

من خصائصه المعاني، المعاني التي يتصورها البشر عند قول كلامه لابد أن يكون فيها قصور.

فإذا تكلم البشر في المعاني العَقَدِيَة فلابد أن يكون عنده لاشك قصور، إذا تكلم في المعاني التشريعية لابد أن يظهر خلل، إذا تكلم في المعاني الإصلاحية التهذيبية لابد أن يكون فيها خلل، ولهذا قال – عز وجل – {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء: ٨٢].

فإذًا تَنَوُّعُ المعاني على هذا الوجه التام بما يناسب المعاني الكثيرة التي يحتاجها الناس يدل على أنَّ هذا كلام الله – عز وجل –؛ يعني أنه صفته.

هذه خصائص كلام الله – عز وجل –، فلو قيل تقديراً: إننا سنصف القرآن الذي هو كلام الله – عز وجل – وبه فارق كلام البشر فَسَتُعَدِّدْ هذه جميعًا.

فهي خصائص أو أوجه للإعجاز بها صار القرآن معجزًا بجميعها، لا بواحدة منها.

– رابعًا:

أنَّ القرآن فيه النَّظم مثل ما قال الجُرْجَاني وهو من أحسن النظريات والكلام في إعجاز القرآن من جهة البيان.

القرآن فيه القِمَّةْ في فصاحة الألفاظ وفي البلاغة.

البلاغة مُتَرَكِّبَةْ من أشياء؛ مُتَرَكِّبَةْ من ألفاظ ومن معاني ومن روابط – الحروف التي تربط بين الألفاظ والمعاني وتصل الجمل بعضها ببعض –.

فالقرآن إذاً من أوجه إعجازه أو من صفاته وخصائصه أنَّ نظمه – يعني أنَّ ترتيب الكلام والآيات فيه وترتيب الجمل في الآية الواحدة – يدل على أنَّه الغاية في البيان، ولا يمكن لبشر أو لا يمكن للجن والإنس لو اجتمعوا أن يكونوا دائمًا على أعلى مستوى في هذا النظم.

ولهذا تجد أنَّ تفاسير القرآن حارت في القرآن، حتى التفاسير المتخصصة في النحو تجده ينشط في أوله تجده يعجز في آخره، ما تجده ينشط، آخر تجده في البلاغة يريد أن يبين بلاغة القرآن فيُجَوِّدْ في موضع ثم بعد ذلك تأتي مواضع يكسل، ما يستطيع أن يُبِينْ عن ذلك. ولهذا قال من قال من أهل العلم: العلوم ثلاثة:

علم نضج واحترق.

وعلم نضج ولم يحترق.

وعلم لم ينضج ولم يحترق.

والثالث هو التفسير، لم ينضج ولم يحترق؛ لأنه على كثرة المؤلفات في التفسير وهي مئات فإنها لم تأتِ على كل ما في القرآن، لم؟

لأنَّ الإنسان يعجز، يعجز المبَيَّن أن يُبَيَّن عن كل ما في القرآن.

إذًا نظرية النظم التي ذكرها عبدالقادر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة – على تفصيل ما فيها – لا شك أنها دالة على صفة من صفات القرآن.

– خامسًا:

أنَّ القرآن له سلطان على النفوس، وليس ثَمَّ من كلام البشر ما له سلطان على النفوس في كل الكلام.

ولكن القرآن له سلطان على النفوس بما تميز به من كلام الله – عز وجل –؛ لأنه كلام الله – عز وجل –، مثل ما صار السلطان على ذلك المشرك؛ يعني أنه يُرْغِمْ الأنوف.

وقد كان مَرَّةً أحد الدعاة يخطب بالعربية وفي أثناء خطبته يورد آيات من القرآن العظيم يتلوها، فكانت امرأة كافرة لا تحسن الكلام العربي ولا تعرفه، فلما انتهى الخطيب من خطبته استوقفته – وكانت خطبته في سفينة –، لما انتهى من خطبته استوقفته، وقالت:

كلامك له نمط، وتأتي في كلامك بكلمات مختلفة في رنتها وفي قرعها للأذن عن بقية كلامك، فما هذه الكلمات؟

فقال: هي القرآن.

وهذا لاشك إذا سمعت القرآن تجد له سلطان على النفس ينبئ النفس على الاستسلام له، إلا لمن ركب هواه.

هذا السلطان تجده في أشياء:

أولًا: أنَّ آيات القرآن في السورة الواحدة – كما هو معلوم – لم تُجْعَلْ آيات العقيدة على حِدَا، وآيات الشريعة على حدا؛ الأحكام، وآيات السلوك على حدا، إلى آخره؛ بل الجميع كانت هذه وراء هذه، فآية تخاطب المؤمنين، وآية أخرى تخاطب المنافقين، وآية تخاطب النفس، وآية فيها العقيدة، وآية فيها قصص الماضين، وآية تليها فيها ما سيأتي، وآية فيها الوعد وآية فيها الوعيد، وآية فيها ذكر الجنة وذكر النار، وآية فيها التشريع، وثم يرجع إلى آية أخرى فيها أصل الخلق قصة آدم، وهكذا في تنوع. وهذا من أسرار السلطان الذي يكون للقرآن على النفوس؛ لأنَّ الأنفس متنوعة. بل النفس الواحدة لها مشارب، فالنفس تارة يأتيها الترغيب وتارة يأتيها الترهيب، تارة تتأثر بالمثل، تارة تتأثر بالقصة، تارة هي مُلْزَمَة بالعمل، تارة هي ملزمة بالاعتقاد. فَكَوْنُ هذه وراء هذه تُغْدِقُ على النفس البشرية أنواع ما تتأثر به. وهذا لا يمكن أن يكون إلا من كلام من خَلَقَ هذه النفس البشرية، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك: ١٤].

فتجد أنَّ القرآن يحاصرك، فأيُّ إنسان أراد أن يفر لا يمكن أن يفر من القرآن، ستأتيه قوة بآية فيها وصف الكافرين، آيات فيها قوة في وصف المنافقين، آيات فيها قوة في وصف المؤمنين، آيات فيها العقيدة، فيها الماضي، فيها الحاضر، فيها النبوة، فيها الرسالة، فيها الدلائل، فيها حال المشركين، إلى آخر (.....) ما يحصر على النفس الحية والعقل الواعي الذي يتحرك وعنده همة يحصر عليه الهروب.

وهذا لا يمكن أن يحصره في أنواع النفس البشرية الواحدة إلا من خَلَقَ هذه النفس وتَكَلَّمَ بهذا القرآن لإصلاحها، {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[الإسراء: ٩].

فكيف إذًا بأنواع الأنفس المختلفة، هذا الذي يَصْلُحُ له الترغيب، وهذا الذي يَصْلُحُ له الترهيب، وهذا الذي يَصْلُحُ له وصف الجنة، وهذا الذي ينشأ عنده الإيمان بالحب وإلى آخره، وذلك الذي ينشأ عنده الإيمان بالجهاد، ونحو ذلك.

~ ثانيًا: تنوع الأنفس وخطاب القرآن للناس جميعًا على تنوع أنفسهم هذا دليل على أنَّ هذا القرآن له سلطان على النفوس.

أيضًا تجد أن القرآن خُوطب به من عنده فن الشعر وما يسميه بعض الناس موسيقى الكلام؛ يعني رنات الكلام.

بعض الناس عنده شفافية في التأثر باللحن، بالرنات، بالصعود والنزول في نغمة الكلام، هذا النوع من الناس تجد في القرآن ما يجبره على أن يستسلم له.

لَبيد بن رَبيعة صاحب معلقة وصاحب ديوان مشهور، قيل له: ألا تنشدنا من قصائدك، لم وقفت عن الشعر؟ قال أغناني عن الشعر وتذوقه – أو كما قال – سورتا البقرة وآل عمران.

لأنَّ هذا الشيء هو له تذوق في هذا الفن بخصوصه، فيأتي القرآن فيجعل سلطانه على النفس فيقصره قصرًا، لهذا قال – عز وجل – {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[فصلت: ٤١، ٤٢]، وقال سبحانه: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}[فصلت: ٤٤].

– سادسًا:

أنَّ القرآن فيه الفصل في أمور الغيبيات، فَثَمَّ أشياء في القرآن أُنزلت على محمد ﷺ وكان أميًّا ﷺ، ما لم يَظْهَرْ وجه بيانها وحجتها في كمال أُطْرِهَا إلا في العصر الحاضر، وهو ما اعتنى به طائفة من الناس وسموه الإعجاز العلمي في القرآن.

والإعجاز العلمي في القرآن حق؛ لكن له ضوابط، توسَّعَ فيه بعضهم فخرجوا به عن المقصود إلى أنَّ يجعلوا آيات القرآن خاضعة للنظريات، وهذا باطل؛ بل النظريات خاضعة للقرآن لأن القرآن حق من عند الله والنظريات من صنع البشر لكن بالفهم الصحيح للقرآن.

فثَم أشياء من الإعجاز العلمي حق لم يكن يعلمها الصحابة رضوان الله عليهم على كمال معناها وإنما علموا أصل المعنى، فظهرت في العصر الحاضر في أصول من الإعجاز العلمي.

الإعجاز الاقتصادي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العَقدي أشياء تكلم عنها الناس في هذا العصر – ما نطيل في بيانها – وكل واحدة منها دالة على أن هذا القرآن من عند الله – عز وجل – {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء: ٨٢].

– سابعًا:

أنّ القرآن من صفاته أنّ الإنسان المؤمن كلما ازداد من القرآن ازداد حبًّا في الله – عز وجل –، وهذا راجع إلى الإيمان، وراجع إلى أنَّ صفة القرآن فيها زيادة في الهدى والشفاء للقلوب.

فالأوامر والنواهي والأخبار التي في القرآن هي هدى وشفاء لما في القلوب، كما قال سبحانه {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}[فصلت: ٤٤]، وهذا سلطان خاص على الذين آمنوا في أنه يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور في المسائل العلمية وفي المسائل العملية.

لهذا ما تأتي فتنة ولا اشتباه إلا وعند المؤمن البصيرة لما في هذا القرآن؛ {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[الإسراء: ٩].

فإذًا صفة كلام الله – عز وجل – في أنَّ المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعلم حدوده ويعلم معانيه، أنَّ عنده النور في الفصل في المسائل العلمية والعملية، وهذه لا يُلقاها إلا أهل الإيمان {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}[فصلت: ٤٤]، {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[الإسراء: ٨٢]، وهذا أيضًا سلطان خاص يزيد المؤمن إيمانًا.

لهذا إذا تليت على المؤمن آيات الله – عز وجل – {زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[الأنفال: ٢]، زادتهم إيمانًا لما فيه من السلطان على النفوس.

إذا تبين لك ذلك فكلام الله – عز وجل – قديم النوع حادث الآحاد. والقرآن من الحادث الآحاد وقت التَّنَزُّل كما قال – عز وجل – {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}[الأنبياء: ٢، ٣] إلى آخر الآيات؛ يعني أنّ الله – عز وجل – تَكَلَّمَ به. وكلام الله – عز وجل – أوسع من الكلام بالقرآن. والقرآن جاء على هذا النحو؛ لأنه الذي يتحمله الإنسان، الإنس والجن لا يتحملون أكثر من هذا، وإلا لصار عليهم كَلَفَة وعَنَفَة.

بهذا يتبين لك ما ظهر لي من تحصيل أقوال أهل العلم في هذه المسألة العظيمة التي خاض فيها المعتزلة، وخاض فيها الأشاعرة، وقل بل نَدَرْ من أهل السنة من خاض فيها على هذا النحو، بل لا أعلم من جمع فيها الأوجه على هذا النحو في كتب العقائد؛ بل تجدها متفرقة في كتب كثيرة في البلاغة، وفي الدراسات في إعجاز القرآن، وفي التفسير، وفي كتب متنوعة.

وما أجمل قول الطحاوي رحمه الله رحمة واسعة: (أَيْقَنَّا أنه قولُ خالقِ البَشرِ، ولا يُشْبِهُ قولَ البشر)، وهذا هو الحق فالقرآن بصورته وهيئته وصفته لا يمكن أن يشبه قول البشر، حتى في رسمه وتنوع آياته وسوره لا يمكن أن يشبه قول البشر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن من عارض القرآن فإن مأواه النار؛ لقوله تعالى: {فاتقوا النار}.

٢– أن الناس وقود للنار كما توقد النار بالحطب؛ فهي في نفس الوقت تحرقهم، وهي أيضًا توقد بهم؛ فيجتمع العذاب عليهم من وجهين.

٣– إهانة هؤلاء الكفار بإذلال آلهتهم، وطرحها في النار. على أحد الاحتمالين في قوله تعالى: {الحجارة}؛ لأن من المعلوم أن الإنسان يغار على من كان يعبده، ولا يريد أن يصيبه أذًى؛ فإذا أحرق هؤلاء المعبودون أمام العابدين فإن ذلك من تمام إذلالهم، وخزيهم.

٤– أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: {أعدت}؛ ومعلوم أن الفعل هنا فعل ماض؛ والماضي يدل على وجود الشيء؛ وهذا أمر دلت عليه السنة أيضًا؛ فإن النبي ﷺ عُرضت عليه الجنة، والنار، ورأى أهلها يعذبون فيها: رأى عمرو بن

لحيّ الخزاعي يجر قصبه، أي: أمعاءه، في النار؛ ورأى المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعًا؛ فلم تكن أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض؛ ورأى فيها صاحب المحجن الذي كان يسرق الحُجَّاج بمحجنه يعذب؛ وهو رجل معه محجن، أي: عصا محنية الرأس، كان يسرق الحُجاج بهذا المحجن؛ إذا مرَّ به الحجاج جذب متاعهم؛ فإن تفطن صاحب الرحل لذلك ادعى أن الذي جذبه المحجن؛ وإن لم يتفطن أخذه؛ فكان يعذب والعياذ بالله بمحجنه في نار جهنم.

(مسألة)

هل النار باقية؛ أو تفنى؟ ذكر بعض العلماء إجماع السلف على أنها تبقى، ولا تفنى؛ وذكر بعضهم خلافًا عن بعض السلف أنها تفنى؛ والصواب أنها تبقى أبد الآبدين؛ والدليل على هذا من كتاب الله عزّ وجل في ثلاث آيات من القرآن: في سورة النساء، وسورة الأحزاب، وسورة الجن؛ فأما الآية التي في النساء فهي قوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا}[النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ والتي في سورة الأحزاب قوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرًا * خالدين فيها أبدًا}[الأحزاب: ٦٤،٦٥]؛ والتي في سورة الجن قوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدًا}[الجن: ٢٣]؛ وليس بعد كلام الله كلام؛ حتى إني أذكر تعليقًا لشيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله على كتاب (شفاء العليل) لابن القيم؛ ذكر أن هذا من باب: (لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة). وهو صحيح؛ كيف إن المؤلف رحمه الله يستدل بهذه الأدلة على القول بفناء النار مع أن الأمر فيها واضح؟! غريب على ابن القيم رحمه الله أنه يسوق الأدلة بهذه القوة للقول بأن النار تفنى! وعلى كل حال، كما قال شيخنا في هذه المسألة: (لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة)؛ والصواب الذي لا شك فيه. وهو عندي مقطوع به. أن النار باقية أبد الآبدين؛ لأنه إذا كان يخلد فيها تخليدًا أبديًّا لزم أن تكون هي مؤبدة؛ لأن ساكن الدار إذا كان سكونه أبديًّا لابد أن تكون الدار أيضًا أبدية.

وأما قوله تعالى في أصحاب النار: {خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك}[هود: ١٠٧]، فهي كقوله تعالى في أصحاب الجنة: {خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك}[هود: ١٠٨] لكن لما كان أهل الجنة نعيمهم، وثوابهم فضلًا ومنَّة، بيَّن أن هذا الفضل غير منقطع، فقال تعالى: {عطاءً غير مجذوذ}[هود: ١٠٨]؛ ولما كان عذاب أهل النار من باب العدل، والسلطان المطلق للرب عزّ وجل قال تعالى في آخر الآية: {إن ربك فعال لما يريد}[هود: ١٠٧]؛ وليس المعنى: {إن ربك فعال لما يريد}[هود: ١٠٧] أنه سوف يخرجه من النار، أو سوف يُفني النار.

٥- أن النار دار للكافرين؛ لقوله تعالى: {أعدت للكافرين}؛ وأما من دخلها من عصاة المؤمنين فإنهم لا يخلدون فيها؛ فهم فيها كالزوار؛ لا بد أن يَخرجوا منها؛ فلا تسمى النار دارًا لهم؛ بل هي دار للكافر فقط؛ أما المؤمن

العاصي. إذا لم يعف الله عنه. فإنه يعذب فيها ما شاء الله، ثم يخرج منها إما بشفاعة؛ أو بمنة من الله وفضل؛ أو بانتهاء العقوبة.

وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

قال ابن العثيمين: مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكافرين المكذبين للرسول ﷺ ذكر وعد المؤمنين به، فقال تعالى: {وبشر ... } الآية؛ و (البشارة): هي الإخبار بما يسرّ؛ وسمِّيت بذلك لتغير بَشَرة المخاطَب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا أُخبر بما يُسِرُّه استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل (البشارة) في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم}[آل عمران: ٢١]: إمَّا تهكمًا بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تتغير به بشرتهم، وتَسودّ به وجوههم، وتُظلِم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: {ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم}[الدخان: ٤٨، ٤٩].

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٣ص١٥٢: قِيلَ: وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُؤَثِّرُ فِي بَشَرَةِ الْوَجْهِ. وَلِذَلِكَ كَانَتْ نَوْعَيْنِ: بُشْرَى سَارَّةٌ تُؤَثِّرُ فِيهِ نَضَارَةً وَبَهْجَةً، وَبُشْرَى مُحْزِنَةٌ تُؤَثِّرُ فِيهِ بُسُورًا وَعُبُوسًا. وَلَكِنْ إِذَا أُطْلِقَتْ كَانَتْ لِلسُّرُورِ. وَإِذَا قُيِّدَتْ كَانَتْ بِحَسَبِ مَا تُقَيَّدُ بِهِ.

قال ابن العثيمين: والخطاب في قوله تعالى: {بشِّر}، إما للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب. يعني بشِّر أيها النبي؛ أو بشِّر أيها المخاطَب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات.

{الذين آمنوا}: أي بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله؛ وقد بيَّن الرسول ﷺ أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرَّد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان.

{وعملوا الصالحات}: أي عملوا الأعمال الصالحات. وهي الصادرة عن محبة، وتعظيم لله عزّ وجل المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: ((أنا أغنى

الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه([1]))؛ وما لم يكن على الاتّباع فهو مردود لا يقبل؛ لقول النبي ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد([2]))).

{أن لهم جنات}: هذا المبشر به: أن لهم عند الله عزّ وجل، {جنات ... }: جمع (جنَّة)؛ وهي في اللغة: البستان كثير الأشجار بحيث تغطي الأشجار أرضه، فتجتن بها؛ والمراد بها شرعًا: الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

{تجري من تحتها الأنهار}: أي تسيح من تحتها الأنهار؛ و{الأنهار}، فاعل {تجري}؛ و{من تحتها}، قال العلماء: من تحت أشجارها، وقصورها؛ وليس من تحت سطحها؛ لأن جريانها من تحت سطحها لا فائدة منه؛ وما أحسن جري هذه الأنهار إذا كانت من تحت الأشجار، والقصور! يجد الإنسان فيها لذة في المنظر قبل أن يتناولها.

وقد بيّن الله تعالى أنها أربعة أنواع، كما قال تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفًّى}[محمد: ١٥].

{كلما رزقوا}: أي أعطوا؛ {منها}: أي من الجنات؛ {من ثمرة}: أي من أيّ ثمرة؛ {قالوا هذا الذي رزقنا من قبل}.

قال ابن القيم في حادي الأرواح ج١ص١١٦: وقولهم: {هذا الذي رزقنا من قبل}: أي شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار؟ أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة؟ قيل فيه قولان:

ففي تفسير السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي قالوا: {هذا الذي رزقنا من قبل}: أنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا. قال مجاهد: ما اشبهه به. وقال ابن زيد: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا وأتوا به متشابها يعرفونه.

وقال آخرون: {هذا الذي رزقنا من قبل}: من ثمار الجنة من قبل هذا، لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون والطعم،

– واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا، ولشدة المشابهة قالوا هذا هو.

الحجة الثانية: ما حكاه بن جرير عنهم، قال: ومن علة قائلي هذا القول ان ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله كما كان، حدثنا ابن بشار حدثنا ابن مهدي حدثنا سفيان سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة: وذكر ثمر الجنة وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى.

الحجة الثالثة: قوله: {وأتوا به متشابها}، وهذا كالتعليل، والسبب الموجب لقولهم: {هذا الذي رزقنا من قبل}.

[1]- أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٥: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم ٢٦٩٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٢ – ٩٨٣، كتاب الأقضية، باب ٨: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم ٤٤٩٣ [١٨] ١٧١٨، واللفظ لمسلم.

[2]– أخرجه مسلم ص١١٩٥، كتاب الزهد، باب ٤: تحريم الرياء، حديث رقم ٧٤٧٥ [٤٦] ٢٩٨٥.

الحجة الرابعة: أن من المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها.

– ورجحت طائفة منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه:

قال ابن جرير: والذي يحقق صحة قول القائلين أن معنى ذلك: {هذا الذي رزقنا من قبل}، في الدنيا، أن الله جل ثناؤه قال: {كلَّما رزقوا منها من ثمرة رزقًا}، يقولون: {هذا الذي رزقنا من قبل}، ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون بعض، فإذا كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم: كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه، فمعلوم أنه محال يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة هذا الذي من رزقنا من قبل، هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها، هذا هو الذي رزقنا من قبل، أن يلبسهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال، فقد تبين أن معنى الآية، كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول، يخصون هذا العام بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصه ولا بد بأنواع من التخصيصات:

أحدها: أن كثيرا من ثمار الجنة وهي التي لا نظير لها في الدنيا، لا يقال فيها ذلك.

الثاني: أن كثيرا من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد، كلما أكلوا ثمرة واحدة قالوا هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائمًا إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتني بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب، ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضًا، ليس أوله خيرًا من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك، بل أوله مثل أخره، وآخره مثل أوله، هو خيار كله، يشبه بعضه بعضًا، فهذا وجه قولهم، ولا يلزم مخالفة ما نصه الله سبحانه وتعالى، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه، والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه والله أعلم.

– وأما قوله عز و جل: {وأتوا به متشابها}، قال الحسن: خيار كله، لا رذل، ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه، وأن ذلك ليس فيه رذل. وقال قتادة: خيار لا رذل فيه، فأن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها. وكذلك قال أبن جريج وجماعة، وعلى هذا فالمراد بالتشابه، التوافق والتماثل. وقالت طائفة أخرى منهم أبن مسعود وأبن عباس وناس من أصحاب رسول الله: متشابهًا في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم. قال مجاهد: متشابهًا لونه، مختلفًا طعمه.

وكذا قال الربيع بن أنس، وقال يحيى بن ابي كثير: عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها، ثم يأتونهم بمثلها فيقولون: هذا الذي جئتمونا به آنفًا؟ فيقول لهم الخدم: كلوا، فإن اللون واحد، والطعم مختلف، فهو قوله عز و جل: {كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها}.

– وقالت طائفة وناس: معنى الآية: أن يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب. قال ابن وهب قال عبد الرحمن أبن زيد: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا، التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: {هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا}، يعرفونه، وليس هو مثله في الطعم. واختار أبن جرير هذا القول، قال: ودليلنا على فساد قول من قال أن معنى الآية: {هذا الذي رزقنا من قبل}: أي في الجنة، وتلك الدلالة على فساد ذلك القول، هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله: {وأتوا به متشابهًا}، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم: {هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا}.

قلت: هذا لا يدل على فساد قولهم لما تقدم.

قال ابن العثيمين: {قالوا هذا الذي رزقنا من قبل}: لأنه يشبه ما سبقه في حجمه، ولونه، وملمسه، وغير ذلك من صفاته؛ فيظنون أنه هو الأول؛ ولكنه يختلف عنه في الطعم والمذاق اختلافًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: {وأتوا به متشابهًا}؛ وما أجمل وألذّ للإنسان إذا رأى هذه الفاكهة يراها وكأنها شيء واحد؛ فإذا ذاقها وإذا الطعم يختلف اختلافًا عظيمًا! تجده يجد في نفسه حركةً لهذا الفاكهة، ولذةً، وتعجُّبًا؛ كيف يكون هذا الاختلاف المتباين العظيم والشكل واحد! ولهذا لو قُدم لك فاكهة ألوانها سواء، وأحجامها سواء، وملمسها سواء، ثم إذا ذقتها وإذا هذه حلو خالص، وهذه مُز. أي حلو مقرون بالحموضة. وهذه حامضة؛ تجد لذة أكثر مما لو كانت على حد سواء، أو كانت مختلفة.

{وأتوا به متشابهًا}؛ {أتوا}، من (أتى) التي بمعنى جاء؛ فالمعنى: جيء إليهم به متشابهًا يشبه بعضه بعضًا. كما سبق.

{ولهم فيها أزواج}؛ لما ذكر الله الفاكهة ذكر الأزواج؛ لأن في كل منهما تفكهًا، لكن كل واحد من نوع غير الآخر: هذا تفكه في المذاق، والمطعم؛ وهذا تفكه آخر من نوع ثاث؛ لأن بذلك يتم النعيم؛ و{أزواج}، جمع زوج؛ وهو شامل للأزواج من الحور، ومن نساء الدنيا؛ ويطلق (الزوج) على الذكر، والأنثى؛ ولهذا يقال للرجل: (زوج)، وللمرأة: (زوج)؛ لكن في اصطلاح الفرضيين صاروا يلحقون التاء للأنثى فرقًا بينها وبين الرجل عند قسمة الميراث. {مطهرة}: يشمل طهارة الظاهر، والباطن؛ فهي مطهرة من الأذى القذر: لا بول، ولا غائط، ولا حيض، ولا نفاس، ولا استحاضة، ولا عرق، ولا بخر، مطهرة من كل شيء ظاهر حسي؛ مطهرة أيضًا من الأقذار الباطنة، كالغل، والحقد، والكراهية، والبغضاء، وغير ذلك.

قال ابن القيم في حادي الأرواح ج١ص١٤٩: والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فظهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات

المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس، أو وسخ.

قال البغوي: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ((أَهْلُ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَبْزُقُونَ، يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ والتسبيح كما يلهمون النَّفسَ، طَعَامُهُمُ الْجُشَاءُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ(١))).

{هم فيها خالدون}: أي دائمون فيها لا يموتون ولا يخرجون منها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ(٢)، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ(٣))).

عَن ثابتٍ البُناني عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمْعَةٍ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أهلوهم: وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا(٤))).

قال السعدي: ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشر والمبشر، والمبشر به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك، هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة، إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة، على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب.

١- إسناده صحيح على شرط مسلم، سفيان هو ابن سعيد، والأعمش هو سليمان بن مهران، وأبو سفيان هو طلحة بن نافع الواسطي، وهو في (شرح السنة) (٤٢٧١) بهذا الإسناد.

وأخرجه مسلم ٢٨٣٥ وأبو داود ٤٧٤١ والطيالسي ١٧٧٦ وأحمد ٣/ ٣٤٩ و٣٨٤ والدارمي ٢/ ٣٣٥ وأبو يعلى ١٩٠٦ و٢٠٥٢ وابن حبان ٧٤٣٥ وأبو نعيم في (صفة الجنة) (٢٧٤ و٣٣٤)، والبغوي في (شرح السنة) (٤٣٧٥)، والبيهقي في (البعث) (٣١٦) من طرق كلهم من حديث جابر، ورواية أبي داود مختصرة جدا.

٢- الألوّة: هو العود الذي يتبخر به – العود الهندي.

٣- إسناده صحيح على شرطهما. الفربري هو أحد رواة صحيح البخاري. جرير هو ابن عبد الحميد، وعمارة هو ابن القعقاع بن شبرمة. أبو زرعة هو ابن عمرو بن جرير قيل: اسمه هرم، وقيل غير ذلك. وهو في شرح السنة (٤٢٦٩) بهذا الإسناد. في صحيح البخاري (٣٣٢٧) عن قتيبة بن سعيد بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري ٣٢٤٥ و٣٢٤٦ ومسلم ٢٨٣٤ والترمذي ٢٥٣٧ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٨٦٦) وأحمد ٢/ ٣١٦ وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٤٣) من حديث أبي هريرة.

٤- إسناده صحيح على شرط مسلم: ثابت هو ابن أسلم البناني. وهو في شرح السنة (٤٢٨٥) بهذا الإسناد. أخرجه المصنف من طريق مسلم، وهو في صحيحه (٢٨٣٣) عن أبي عثمان بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٠ وأحمد ٣/ ٢٨٤ و٢٨٥ والدارمي ٢٨٤٥ وأبو نعيم ٤١٧ والبغوي في شرح السنة (١٥/ ٢٢٦- ٢٢٧)، والبيهقي في (البعث) (٤١٧) من حديث أنس.

قال ابن القيم في حادي الأرواح ج١ص٢١٧: فتأمل جلالة المبشّر ومنزلته وصدقه، وعظمته وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به، وضمنه لك، وجعله أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، نعيم القلب، وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد، وعدم انقطاعه.

قال السعدي: وفيه استحباب بشارة المؤمنين، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان، توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- مشروعية تبشير الإنسان بما يسر؛ لقوله تعالى: {وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات}؛ ولقول الله تبارك وتعالى: {وبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين}[الصافات: ١١٢]، وقوله تعالى: {وبشروه بغلام عليم}[الذاريات: ٢٨]، وقوله تعالى: {فبشرناه بغلام حليم}[الصافات: ١٠١]؛ فالبشارة بما يسر الإنسان من سنن المرسلين عليهم الصلاة والسلام؛ وهل من ذلك أن تبشره بمواسم العبادة، كما لو أدرك رمضان، فقلت: هنّأك الله بهذا الشهر؟ الجواب: نعم؛ وكذلك أيضًا لو أتم الصوم، فقلت: هنّأك الله بهذا العيد، وتقبل منك عبادتك وما أشبه ذلك؛ فإنه لا بأس به، وقد كان من عادة السلف.

٢- أن الجنات لا تكون إلا لمن جمع هذين: الإيمان، والعمل الصالح.

فإن قال قائل: في القرآن الكريم ما يدل على أن الأوصاف أربعة: الإيمان؛ والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؟

فالجواب: أن التواصي بالحق، والتواصي بالصبر من العمل الصالح، لكن أحيانًا يُذكر بعض أفراد العام لعلة من العلل، وسبب من الأسباب.

٣- أن جزاء المؤمنين العاملين للصالحات أكبر بكثير مما عملوا، وأعظم؛ لأنهم مهما آمنوا، وعملوا فالعمر محدود، وينتهي؛ لكن الجزاء لا ينتهي أبداً؛ هم مخلدون فيه أبد الآباد؛ كذلك أيضًا الأعمال التي يقدمونها قد يشوبها كسل؛ قد يشوبها تعب؛ قد يشوبها أشياء تنقصها، لكن إذا منّ الله عليه، فدخل الجنة فالنعيم كامل.

٤- أن الجنات أنواع؛ لقوله تعالى: {جنات}؛ وقد دل على ذلك القرآن، والسنة؛ فقال الله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان}[الرحمن: ٤٦]، ثم قال تعالى: {ومن دونهما جنتان}[الرحمن: ٦٢]؛ وقال النبي ﷺ: ((جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما؛ وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما(١))).

٥- تمام قدرة الله عزّ وجل بخلق هذه الأنهار بغير سبب معلوم، بخلاف أنهار الدنيا؛ لأن أنهار الماء في الدنيا معروفة أسبابها؛ وليس في الدنيا أنهار من لبن، ولا من عسل، ولا من خمر؛ وقد جاء في الأثر أنها أنهار تجري من غير أخدود(٢). يعني لم يحفر لها حفر، ولا يقام لها أعضاد تمنعها؛ بل النهر يجري، ويتصرف فيه الإنسان بما شاء. يوجهه حيث شاء؛ قال ابن القيم رحمه الله في النونية: (أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان).

٦- أن من تمام نعيم أهل الجنة أنهم يؤتون بالرزق متشابهاً؛ وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل؛ وهذا من تمام النعيم، والتلذذ بما يأكلون.

٧- إثبات الأزواج في الآخرة، وأنه من كمال النعيم؛ وعلى هذا يكون جماع، ولكن بدون الأذى الذي يحصل بجماع نساء الدنيا؛ ولهذا ليس في الجنة مَنِيّ، ولا مَنِيَّة؛ والمنيّ الذي خلق في الدنيا إنما خُلق لبقاء النسل؛ لأن هذا المنيّ مشتمل على المادة التي يتكون منها الجنين، فيخرج بإذن الله تعالى ولدًا؛ لكن في الآخرة لا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنه لا حاجة لبقاء النسل؛ إذ إن الموجودين سوف يبقون أبد الآبدين لا يفنى منهم أحد؛ ثم هم ليسوا بحاجة إلى أحد يعينهم، ويخدمهم؛ الوِلدان تطوف عليهم بأكواب، وأباريق، وكأس من معين؛ ثم هم لا يحتاجون إلى أحد يصعد الشجرة ليجني ثمارها؛ بل الأمر فيها كما قال الله تعالى: {وجنى الجنتين دان}[الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: {قطوفها دانية}[الحاقة: ٢٣]؛ حتى ذكر العلماء أن الرجل ينظر إلى الثمرة في الشجرة، فيحسّ أنه يشتهيها، فيدنو منه الغصن حتى يأخذها؛ ولا تستغرب هذا؛ فنحن في الدنيا نشاهد أن الشيء يدنو من الشيء بغير سلطة محسوسة؛ وما في الآخرة أبلغ، وأبلغ.

٨- أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآباد؛ لا يمكن أن تفنى، ولا يمكن أن يفنى من فيها؛ وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

١- أخرجه البخاري ص٤١٧، كتاب التفسير، سورة الرحمن، باب ١: قوله: {ومن دونهما جنتان..}، حديث رقم ٤٨٧٨؛ وأخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٨٠: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم ٤٤٨ [٢٩٦] ١٨٠.

٢- أخرج الطبري هذا الأثر في تفسيره عن مسروق ٣٨٤/١، رقم ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١؛ ورجاله ثقات.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

قال ابن العثيمين: أي لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلًا، ولو كان مثلًا حقيراً ما دام يثبت به الحق؛ فالعبرة بالغاية؛ و{ما}: يقولون: إنها نكرة واصفة. أي: مثلًا؛ أيُّ مثل.

{بعوضة}: عطف بيان لـ{ما}، أي: مثلًا بعوضة؛ والبعوضة معروفة؛ ويضرب بها المثل في الحقارة؛ وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية أن المشركين اعترضوا: كيف يضرب الله المثل بالذباب في قوله تبارك وتعالى: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له}[الحج: ٧٣]: قالوا: الذباب يذكره الله في مقام المحاجة! فبيَّن الله عزّ وجل أنه لا يستحيي من الحق حتى وإن ضرب المثل بالبعوضة، فما فوقها.

{فما فوقها}: هل المراد بما فوق. أي فما فوقها في الحقارة، فيكون المعنى أدنى من البعوضة؛ أو فما فوقها في الارتفاع، فيكون المراد ما هو أعلى من البعوضة؟ فأيهما أعلى خلقة: الذباب، أو البعوضة؟ الجواب: الذباب أكبر، وأقوى. لا شك؛ لكن مع ذلك يمكن أن يكون معنى الآية: {فما فوقها}: أي فما دونها؛ لأن الفوقية تكون للأدنى، وللأعلى، كما أن الوراء تكون للأمام، وللخلف، كما في قوله تعالى: {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً}[الكهف: ٧٩]: أي كان أمامهم.

قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار: الْآيَاتُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا لَمْ يَخْتَلِفِ النَّظْمُ، وَلَمْ يَخْرُجِ الْكَلَامُ عَنِ الْمَوْضُوعِ الْأَصْلِيِّ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، وَحَالُ النَّاسِ فِي الْإِيمَانِ بِهِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ، وَلَا فَصْلَ فِي صِحَّةِ هَذَا الْوَصْلِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا ضَرْبَ الْأَمْثَالِ بِالْمُحَقَّرَاتِ كَالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ كَمَا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَوْ رَدًّا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْأَمْثَالَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِمُسْتَوْقِدِ النَّارِ وَالصَّيِّبِ مِنَ السَّمَاءِ زَاعِمِينَ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِاللهِ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، أَوْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْمَثَلِ الْقُدْوَةُ تَقْرِيرًا لِنُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

أَمَّا عَلَى الْأَوَّلِ فَيُقَالُ: إِنَّهُ إِنَّمَا نَصَّ هُنَا عَلَى نَفْيِ الِاسْتِحْيَاءِ مَنْ ضَرْبِ أَيِّ مَثَلٍ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ هُنَاكَ عِنْدَ تَمْثِيلِ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ هُنَا مَقَامُ ذِكْرِ الِاعْتِرَاضِ الْمُوَجَّهِ عَلَى الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ هَذَا مَقَامَ رَدِّ شُبَهِ الْمُكَابِرِينَ عَنْهُ، وَأَمَّا عَلَى الثَّانِي وَالثَّالِثِ فَهُوَ أَظْهَرُ. عَلَى أَنَّهُ لَا حَاجَةَ فِي فَهْمِ الْآيَةِ إِلَى مَا قَالُوهُ فِي سَبَبِهَا، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رَدًّا لِمَا قِيلَ، فَهِيَ رَدٌّ لِمَا قَدْ يُقَالُ، أَوْ يَجُولُ فِي خَوَاطِرِ أَهْلِ الْمُكَابَرَةِ وَالْجِدَالِ وَالْمُجَاحَدَةِ وَالْمِحَالِ.

وَالِاسْتِحْيَاءُ – قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ: إِنَّهُ مِنَ الْحَيَاءِ وَهُوَ انْكِسَارٌ وَتَغَيُّرٌ فِي النَّفْسِ يُلِمُّ بِهَا إِذَا نُسِبَ إِلَيْهَا أَوْ عَرَضَ لَهَا فِعْلٌ تَعْتَقِدُ قُبْحَهُ، وَفِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ: يَكُونُ مَانِعًا مِنَ الْفِعْلِ الَّذِي يَعْرِضُ، يُقَالُ: فُلَانٌ يَسْتَحِي أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، أَيْ

إِنَّ نَفْسَهُ تَنكَسِرُ فَتَنْقَبِضُ عَنْ فِعْلِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ اسْتَحْيَا مِنْ عَمَلِ كَذَا، أَيْ إِنَّ نَفْسَهُ انْفَعَلَتْ وَتَأَلَّمَتْ عِنْدَمَا عُرِضَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ فَرَآهُ شَيْئًا أَوْ نَقْصًا، وَيُقَالُ: حَيِيَ بِهَذَا الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ أُصِيبَ فِي حَيَاتِهِ، كَمَا يُقَالُ: نُسِيَ إِذَا أُصِيبَ فِي نَسَاهُ – وَهُوَ عِرْقٌ يُسَمُّونَهُ عِرْقَ النَّسَا بِفَتْحِ النُّونِ – وَحُشِيَ إِذَا أُصِيبَ فِي حَشَاهُ.

وَقَالُوا: إِنَّ الْحَيَاءَ ضَعْفٌ فِي الْحَيَاةِ بِمَا يُصِيبُ مَوْضِعَهَا وَهُوَ النَّفْسُ، فَمَعْنَى عَدَمِ اسْتِحْيَاءِ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَعْرِضُ لَهُ ذَلِكَ الِانْكِسَارُ وَالِانْفِعَالُ، وَلَا يَعْتَرِيهِ ذَلِكَ التَّأَثُّرُ وَالضَّعْفُ فَيَمْتَنِعُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ، بَلْ هُوَ يَضْرِبُ مِنَ الْأَمْثَالِ الْهَادِيَةِ وَالْمُطَابِقَةِ لِحَالِ الْمُمَثَّلِ بِهِ مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ يُجَلِّي الْحَقَائِقَ، وَيُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ.

وَلَكِنَّ صَاحِبَ الْكَشَّافِ وَغَيْرَهُ أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا الْآيَةَ دَلِيلًا عَلَى اتِّصَافِ اللهِ تَعَالَى بِالْحَيَاءِ فَقَالُوا: إِنَّ النَّفْيَ خَاصٌّ، وَمِثْلُهُ إِذَا وَرَدَ عَلَى شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ قَابِلٌ لِلِاتِّصَافِ بِالْمَنْفِيِّ، فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ لَا يُنْفَى عَنْهُ، لَا تَقُولُ: إِنَّ عَيْنِي لَا تَسْمَعُ وَأُذُنِي لَا تَرَى، وَقَالُوا: إِنَّ مَعْنَى نَفْيِ الِاسْتِحْيَاءِ هُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَرَى مِنَ النَّقْصِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا بَعُوضَةً فَمَا دُونَهَا؛ لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ نِسْبَةُ الْحَيَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَالنَّافُونَ لَهُ يُؤَوِّلُونَ مَا وَرَدَ بِأَثَرِهِ وَغَايَتِهِ.

أَقُولُ: هَذَا مُؤَدَّى مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ فِي الدَّرْسِ، وَالْحَدِيثُ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى بِالْحَيَاءِ مَرْوِيٌّ عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ([1])، وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ([2])، أَخْرَجَهُمَا أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالْأَوَّلُ النَّسَائِيُّ، وَالثَّانِي التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ وَحَسَّنُوهُمَا.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الْحَيَاءَ انْفِعَالُ النَّفْسِ وَتَأَلُّمُهَا مِنَ النَّقْصِ وَالْقَبِيحِ بِالْغَرِيزَةِ الْفُضْلَى، غَرِيزَةِ حُبِّ الْكَمَالِ، فَهُوَ كَمَالٌ لَهَا، خِلَافًا لِأُولِي الْوَقَاحَةِ الَّذِينَ يَعُدُّونَهُ ضَعْفًا وَنَقْصًا، وَإِنَّمَا النَّقْصُ الْإِفْرَاطُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ بِحَيْثُ تَضْعُفُ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى الشَّيْءِ الْحَسَنِ النَّافِعِ اتِّقَاءَ لِذَمِّ مَنْ لَا يَعْرِفُ حُسْنَهُ أَوْ لَا يَعْتَرِفُ بِهِ([3]).

١- (قلت): ونص الحديث: ((إن الله تعالى حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر)). صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٧٥٦).

- وقال الشيخ عبدالمحسن العباد في شرح سنن أبي داود في شرحه لهذا الحديث: هذا فيه دليل على إثبات هذين الاسمين لله عز وجل، فهو الحيي وهو الستير، لمجيئهما في هذا الحديث. ثم ذكر مقتضى هذين الاسمين حيث قال: ((يحب الحياء، ويحب الستر))، يعني هو حيي يحب الحياء، وهو ستير يحب الستر، وهكذا يأتي في بعض الأحاديث التي فيها ذكر بعض أسماء الله تعالى محبة الصفات التي تدل عليها هذه الأسماء، وهنا: ((إن الله حيي ستير؛ يحب الحياء والستر)).

٢- (قلت): ونص الحديث: عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن ربكم تبارك وتعالى حَيِي كريم، يَسْتَحِي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يَرُدَّهما صِفراً)). صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٣٧)، وقال: قلت: حديث صحيح، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان (٨٧٧)، والحاكم والذهبي.

- قال الشنقيطي في شرح الترمذي في شرحه لهذا الحديث: وصفة الحياء ثابتة لله- عز وجل – وحياء الله ليس كحياء الخلق، فالحياء لله صفة تليق بجلاله وكماله، ولا تصرف الصفات التي تثبت بها الأخبار والآثار عن النبي ﷺ عن ظواهرها ولا تؤول، فلا يقال في صفة اليد لله – جل وعلا – على أنها القوة ولا يقال إنها بلا حقيقة؛ ولكن يقال كما أثبت الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ لله يد تليق بجلاله وكماله وعظمته، ويثبتها المسلم على الحقيقة دون تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، فالله أعلم بما وصف وسمَّى به نفسه وكذلك رسوله ﷺ حيث أطلعه على هذا الغيب من صفاته وأسمائه – سبحانه وتعالى -.

٣- (قلت): وقال الشيخ عبدالمحسن العباد في شرح سنن أبي داود عندما سئل ما معنى: إن الله عز وجل لا يستحيي من الحق؟

فقال في الجواب: وردت عبارة: ((إن الله لا يستحيي من الحق))، عن أم سليم رضي الله عنها لما أرادت أن تسأل، والله تعالى لا يستحيي من الحق، فهي تسأل عن الحق، وهو سؤال محمود وممدوح، والحياء المذموم هو الذي فيه خجل وفيه ضعف، وأما الحياء المحمود فهو الذي ليس من طريق الخجل والضعف، ولكنه يتعلق بالأمور المحمودة والأخلاق الكريمة، وهذا منه؛ لأن أم سليم رضي الله عنها لم تستحي الاستحياء المذموم، ولكنها أخبرت بأنها لا يمنعها ما أعطاها الله من الحياء أن تسأل عن الحق الذي تعبدها الله تعالى به؛ لتعبد الله على بصيرة وعلى بينة، وهذا فيه إثبات صفة الحياء لله، وقد جاء أيضًا في بعض الأحاديث ما يدل على ذلك، ((إن الله حيي ستير))، وصفة الحياء كغيرها من الصفات تثبت لله عز وجل كما يليق بكماله وجلاله، وكل صفاته صفات كمال لا نقص فيها

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الحيي}: فقد سماه به رسول الله ﷺ على سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا على الوصفية في كثير من النصوص النبوية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما ورد في سنن أبي داود وصححه الشيخ الألباني في (كتاب الحمام) من حديث عَطَاءٍ عَنْ يَعْلَى بن أمية أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلاَ إِزَارٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ))، البراز هو الفضاء الواسع من الأرض، وعند النسائي وابن ماجة وصححه الألباني: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ([1])))، وفي سنن أبي داود وابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث سَلْمَانَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)).

و{الحيي} في اللغة هو المتصف بالحياء، يقال: (حَيِيَ منه حياء)، و(استحيا منه)، و(استحى منه)، وهو حَيِيٌّ ذو حياء كغني ذو غنى، والحياء صفة خلقية رقيقة، وسجية لطيفة دقيقة، تمنع النفس من تجاوز أحكام العرف أو من تجاوز أحكام الشرع، وأحكام العرف يقصد بها كل ما تعرفه النفوس وتستحسنه العقول من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وهي التي كانت ولم تزل مستحسنة في كل زمان ومكان، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: ((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ([2])))، وهو حديث صحيح رواه البخاري من حديث ابن مسعود، والمقصود أن الحياء لم يزل مستحسنًا في شرائع الأنبياء، وأنه لم ينسخ في جملة ما نسخ من شرائعهم، وعند البخاري من حديث من حديث أبي سفيان، وهو بين يدي هرقل أنه قال لِتَرْجُمَانِهِ: (قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، فَوَ اللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ)، وعند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ موسى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لاَ يُرَي مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ([3])))، والله يقول عن بنت شعيب: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}[القصص: ٢٥]، فالحياء صفة أخلاقية وسجية نفسية تراعي مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وهي كلها خير.

بوجه من الوجوه. وتأويل الصفات لا يسوغ، وبعض العلماء ابتلوا بالتأويل، والواجب في كل ما ورد في النصوص من صفات إثباتها مضاف إلى الله عز وجل، فالحياء يجب إثباته لله على ما يليق به، والعلماء الذين حصل منهم التأويل يستفيد الإنسان من علمهم، ويكون على حذر مما ابتلوا به، ومن ذلك قول بعضهم: إن الله لا يأمر بالحياء ولا يبيحه! فهذا المعنى خطأ، كيف لا يأمر بالحياء المشروع المأمور به؟! النبي ﷺ مر برجل ينصح أخاه في الحياء فقال: ((دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير)).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الثمر المستطاب (١٨).

٢- (قلت): البخاري (٣٤٨٤).

٣- (قلت): البخاري (٣٤٠٤)، والحديث بتمامه: ((إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلاَّ مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلاَ يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَ اللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلاَثًا، أَوْ أَرْبَعًا، أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا})).

أما حياء الشرع فهو الحياء الذي يحفظ به العبد حدود الله ومحارمه، وربما يتطلب ذلك ورعا واتقاء للشبهة مما يحيف على الحيي بعض الشيء، وقد روى مسلم من حديث عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، وفي رواية أخرى: مَرَّ عَلَى رَجُلٍ وَهْوَ يُعَاتَبُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي، حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ(١)))، وعند النسائي وابن ماجة وصححه الألباني من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ(٢)))، إنَّما جَعَل الحَياء وهو أمر غريزي شُعْبَة من الإيمان وهو أمر كسبي، لأنَّ المُسْتحي يَنْقَطِع بالحَياء عن المَعاصي، فصار كالإيمان الذي يقطع عنها، وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: ((الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ(٣))).

والله عز وجل حيي لأنه الولي الذي تكفل بعباده وبأرزاقهم فليس لهم أحد سواه، فهو الذي يقبل توبتهم ويوفق محسنهم، ويسمع دعوتهم ولا يخيب رجاءهم، وحياء الرب تعالى لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول فإنه حياء كرم وبرّ وجود وجلال، وفي سنن أبي داود وابن ماجة، وصححه الشيخ الألباني من حديث سَلْمَانَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا))، والحياء وصف كمال لله لا يعارض الحكمة ولا يعارض بيان الحق والحجة: {إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}[البقرة: ٢٦].

وعند البخاري من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه: ((لما بنى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ وأعد طعاما أطعم الناس فيه حتى أكل الجميع وَبَقِيَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ وحياء النَّبِي ﷺ يمنعه من إخراجهم قال أنس: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي أَخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حتى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ في أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً}[الأحزاب: ٥٣](٤))).

واسم الله {الحيي}: يدل على ذات الله وعلى صفة الحياء بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة الحياء بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والسمع والبصر، والعلم والمشيئة، واللطف والعفو

١- (قلت): البخاري (٦١١٨) واللفظ له عن عبدالله بن عمر، - وليس عبدالله بن مسعود -، ومسلم (٣٦).

٢- (قلت): البخاري (٩) ومسلم (٣٥).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٤٩٥).

٤- (قلت): البخاري (٤٧٩٣)، ومسلم (٨٧).

والحكمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال واسم الله {الحيي} دل على صفة من صفات الأفعال، ((إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)).

كيف ندعو الله باسمه {الحيي} دعاء مسألة ودعاء عبادة، دعاء المسألة لم أجد دعاء مأثورا في دعاء المسألة لكن ما ورد في الحديث: ((إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)) يجعل الدعاء وطلب افتقار إلى الله في جملة المعنى دعاء باسم الله {الحيي}.

أما دعاء العبادة فالعبد حليته الحياء ولباسه الحياء وهذا مقتضى توحيد لله في اسمه {الحيي}، وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث أَنسٍ رضي الله عنه أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: ((مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ([1]))، وعند البخاري من حديث عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ([2]))، وفي رواية مسلم من حديث أبي قَتَادَةَ حَدَّثَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فِي رَهْطٍ مِنَّا وَفِينَا بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ فَحَدَّثَنَا عِمْرَانُ يَوْمَئِذٍ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: ((الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ أَوْ قَالَ: الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ([3]))، فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ إِنَّا لَنَجِدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَوِ الْحِكْمَةِ أَنَّ مِنْهُ سَكِينَةً وَوَقَارًا لِلَّهِ وَمِنْهُ ضَعْف، قَالَ فَغَضِبَ عِمْرَانُ حَتَّى احْمَرَّتَا عَيْنَاهُ وَقَالَ أَلاَ أُرَانِي أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُعَارِضُ فِيهِ، قَالَ: فَأَعَادَ عِمْرَانُ الْحَدِيثَ قَالَ: فَأَعَادَ بُشَيْرٌ فَغَضِبَ عِمْرَانُ، قَالَ فَمَا زِلْنَا نَقُولُ فِيهِ إِنَّهُ مِنَّا يَا أَبَا نُجَيْدٍ إِنَّهُ لاَ بَأْسَ بِهِ.

وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: ((الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ([4]))، قَالَ أَبُو عِيسَى: وَالْعِيُّ قِلَّةُ الْكَلاَمِ وَالْبَذَاءُ هُوَ الْفُحْشُ فِي الْكَلاَمِ وَالْبَيَانُ هُوَ كَثْرَةُ الْكَلاَمِ مِثْلُ هَؤُلاَءِ الْخُطَبَاءِ الَّذِينَ يَخْطُبُونَ فَيُوَسِّعُونَ فِي الْكَلاَمِ وَيَتَفَصَّحُونَ فِيهِ مِنْ مَدْحِ النَّاسِ فِيمَا لاَ يُرْضِي اللَّهَ، وعند الترمذي وحسنه الألباني من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: ((اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: ((لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ([5])).

قال ابن العثيمين: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه}: أي المثل الذي ضربه الله؛ {الحق من ربهم}، ويؤمنون به، ويرون أن فيه آيات بينات؛ {وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا}، لأنه لم يتبين لهم الحق لإعراضهم عنه، وقد

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٤٨٥٤) التحقيق الثاني.

٢- (قلت): البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

٣- (قلت): مسلم (٣٧).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((إنه منا إنه لا بأس به)): معناه ليس هو ممن يتهم بنفاق أو زندقة أو بدعة أو غيرها مما يخالف به أهل الاستقامة.

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٤٧٩٦) التحقيق الثاني.

٥- (قلت): حسنه الإمام الألباني في المشكاة (١٦٠٨) التحقيق الثاني.

قال الله تعالى: {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}[المطففين: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: {ماذا}: {ما} هنا اسم استفهام مبتدأ؛ و {ذا} اسم موصول بمعنى (الذي) خبر المبتدأ. أي: (ما الذي أراد الله بهذا مثلًا)، كما قال ابن مالك: (ومثل ماذا بعد ما استفهام أو مَن إذا لم تلغ في الكلام).

{يضل به كثيرًا}: الجملة استئنافية لبيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير؛ ولهذا ينبغي الوقوف على قوله تعالى: {ماذا أراد الله بهذا مثلًا}. و{يضل به}: أي بالمَثل؛ {كثيرًا}: أي من الناس؛ {ويهدي به كثيرًا وما يضل به إلا الفاسقين}: أي الخارجين عن طاعة الله؛ والمراد هنا الخروج المطلق الذي هو الكفر؛ لأن الفسق قد يراد به الكفر؛ وقد يراد به ما دونه؛ ففي قوله تبارك وتعالى: {وأما الذين فسقوا فمأواهم النار}[السجدة: ٢٠]: المراد به في هذه الآية الكفر؛ وكذلك هنا.

قال ابن الكثير: وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ}، قَالَ: هُمْ أَهْلُ النِّفَاقِ. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ}، يَقُولُ: يَعْرِفُهُ الْكَافِرُونَ فَيَكْفُرُونَ بِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ}، فَسَقُوا، فَأَضَلَّهُمُ اللَّهُ عَلَى فِسْقِهِمْ وفي رواية قال: هم الحرورية.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص١٧٣: وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا فَاسِقِينَ قَبْلَ ضَلَالِهِمْ، بَلْ مَنْ سَمِعَهُ فَكَذَّبَ بِهِ صَارَ فَاسِقًا وَضَلَّ.

وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ – وَغَيْرُهُ – أَدْخَلُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ كَالْخَوَارِجِ. وَكَانَ سَعْدٌ يَقُولُ: هُمْ مِنْ {الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}، وَلَمْ يَكُنْ عَلِيٌّ، وَسَعْدٌ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ الصَّحَابَةِ يُكَفِّرُونَهُمْ. وَسَعْدٌ أَدْخَلَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِقَوْلِهِ: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}.

وَهُم ضَلُّوا بِهِ بِسَبَبِ تَحْرِيفِهِمْ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ اللَّهُ. فَتَمَسَّكُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَأَعْرَضُوا عَنْ مُحْكَمِهِ، وَعَنْ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تُبَيِّنُ مُرَادَ اللَّهِ بِكِتَابِهِ. فَخَالَفُوا السُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ مَعَ مَا خَالَفُوهُ مِنْ مُحْكَمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلِهَذَا أَدْخَلَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ فِي الَّذِينَ {يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}[آل عمران: ٧]، {الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا}[الأنعام: ١٥٩].

قال ابن كثير: وَهَذَا وَإِنْ صَحَّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، رضي الله عنه، فَهُوَ تَفْسِيرٌ عَلَى الْمَعْنَى، لَا أَنَّ الْآيَةَ أُرِيدَ مِنْهَا التَّنْصِيصُ عَلَى الْخَوَارِجِ، الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى عليٍّ بِالنَّهْرَوَانِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا حَالَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَإِنَّمَا هُمْ دَاخِلُونَ بِوَصْفِهِمْ فِيهَا مَعَ مَنْ دَخَلَ؛ لِأَنَّهُمْ سُمُّوا خَوَارِجَ لِخُرُوجِهِمْ عَلَى طَاعَةِ الْإِمَامِ وَالْقِيَامِ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

وَالْفَاسِقُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ أَيْضًا، فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَ، وَلَكِنَّ فسق الْكَافِرِ أَشَدُّ وَأَفْحَشُ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْفَاسِقُ الْكَافِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ صِفَاتُ الْكُفَّارِ الْمُبَايِنَةُ

لِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} الْآيَاتِ، إِلَى أَنْ قَالَ: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}.

قال السعدي: {وما يضل به إلا الفاسقين}: أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسل الله؛ الذين صار الفسق وصفهم؛ فلا يبغون به بدلا فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان؛ كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} الآية.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات الحياء لله عزّ وجل؛ لقوله تعالى: {إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما}. ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحًا في السنة، كما في قول النبي ﷺ: ((إن ربكم حييّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صِفرًا([1]))؛ والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله.

٢- أن الله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً}[العنكبوت: ٤١]؛ وهذا البيت لا يقيها من حَرّ، ولا برد، ولا مطر، ولا رياح؛ {وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت}[العنكبوت: ٤١]؛ وقال تعالى: {والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلّا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه}[الرعد: ١٤]: إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلًا، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل.

٣- أنَّ البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: {بعوضة فما فوقها}، ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقض مضاجع الجبابرة؛ وربما تهلك: لو سُلطت على الإنسان لأهلكته وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة.

٤- رحمة الله تعالى بعباده حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم..

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٣٧)، وقال: قلت: حديث صحيح، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان (٨٧٧)، والحاكم والذهبي.

٥– أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليل على ثبوت القياس.

٦– فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزّ وجل بعقله؛ لقوله تعالى: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنَّه الحقُّ من ربهم}، ولا يعترضون، ولا يقولون: لِم؟، ولا: كيف؟؛ يقولون: سمعنا، وأطعنا، وصدقنا؛ لأنهم يؤمنون بأن الله عزّ وجل له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر.

٧– إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: {من ربهم}؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: {قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون}[الأعراف: ١٢١، ١٢٢]: فالأولى ربوبية عامة؛ والثانية خاصة بموسى، وهارون؛ كما أن مقابل ذلك (العبودية)، تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً}[مريم: ٩٣] وخاصة كما في قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}[الفرقان: ١]؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة.

٨– أنَّ ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: {وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا}؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلًا لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة مع أن الخنزير خبيث نجس؟

فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عزّ وجل؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزّ وجل. إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به.

٩– أنَّ لفظ الكثير لا يدل على الأكثر؛ لقوله تعالى: {يضلُّ به كثيرًا ويهدي به كثيرًا}؛ فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون، والمهتدون سواءً؛ وليس كذلك؛ لأنَّ بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف ضالون؛ وواحد من الألف مهتدٍ؛ فكلمة: {كثيرًا}، لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن (كثير) يطلق على القليل، وعلى الأكثر.

١٠– أن إضلال من ضل ليس لمجرَّد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سببًا في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: {وما يضلُّ به إلَّا الفاسقين}؛ وهذا كقوله تعالى: {فلمَّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} [الصف: ٥].

١١– الرَّد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله. لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: {وما يضلُّ به إلَّا الفاسقين}.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

قال ابن العثيمين: أي العهد الذي بينهم وبين الله عز وجل؛ وهو الإيمان به، وبرسله؛ فإن هذا مأخوذ على كل إنسان؛ إذا جاء رسول بالآيات فإن الواجب على كل إنسان أن يؤمن به؛ فهؤلاء نقضوا عهد الله، ولم يؤمنوا به، وبرسله؛ والنقض حَلُّ الشيء بعد إبرامه؛ وقد بين الله عزّ وجل هذا العهد في قوله تعالى: {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنًا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل}[المائدة: ١٢].

قال الطبري: اختلف أهل المعرفة في معنى العهد الذي وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه: وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك قولُ من قال: إن هذه الآيات نزلت في كفّار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظَهْرَانَيْ مهاجَر رسول الله ﷺ، وما قرُب منها من بقايا بني إسرائيل، ومن كان على شِركه من أهل النفاق، وقد دللنا على أن قول الله جل ثناؤه: {إنّ الذين كفروا سواء عليهم}، وقوله: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر}، فيهم أنزِلت، وفيمن كان على مثل الذي هم عليه من الشرك بالله. غيرَ أن هذه الآيات عندي، وإن كانت فيهم نزلتْ، فإنه معنيٌّ بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضّلال، ومعنيٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصّةً، جميعُ المنافقين؛ وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود، جميعُ من كان لهم نظيرًا في كفرهم.

وذلك أن الله جلَّ ثناؤه يعمُّ أحيانًا جميعَهم بالصّفة، لتقديمه ذكر جميعهم في أول الآيات التي ذكرتْ قَصَصهم، ويخصّ أحيانًا بالصفة بعضَهم، لتفصيله في أول الآيات بين فريقيْهم، أعني: فريقَ المنافقين من عبدة الأوثان وأهل الشرك بالله، وفريقَ كفار أحبار اليهود. فالذين ينقضون عهدَ الله، هم التاركون ما عهد الله إليهم من الإقرار بمحمد ﷺ وبما جاء به، وتبيين نبوته للناس، الكاتمون بيان ذلك بعدَ علمهم به، وبما قد أخذَ الله عليهم في ذلك، كما قال الله جل ذكره: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}[آل عمران: ١٨٧]، ونبذُهم ذلك وراء ظهورهم، هو نقضُهم العهدَ الذي عهد إليهم في التوراة الذي وصفناه، وتركُهم العمل به.

وإنَّما قلت: إنه عنى بهذه الآيات من قلتُ إنه عنى بها، لأن الآيات – من مبتدأ الآيات الخمس والست من سورة البقرة – فيهم نزلتْ، إلى تمام قصصهم. وفي الآية التي بعد الخبر عن خلق آدم وبيانِهِ في قوله: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}[البقرة: ٤٠]. وخطابه إياهم جلّ ذكره بالوفاء في ذلك خاصّة دون سائر البشر– ما يدلُّ على أن قوله: {الذين ينقضُون عَهدَ الله من بعد ميثاقه}، مقصودٌ به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم. غيرَ أنّ الخطاب – وإن كان لمن وصفتُ

من الفريقين – فداخلٌ في أحكامهم، وفيما أوجبَ الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ، كلّ من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي.

فمعنى الآية إذًا: وما يُضِلُّ به إلَّا التاركين طاعةَ الله، الخارجين عن اتباع أمره ونهيه، الناكثين عهود الله التي عهدها إليهم، في الكتب التي أنزلها إلى رُسله وعلى ألسن أنبيائه، باتباع أمر رسوله محمد ﷺ وما جاء به، وطاعة الله فيما افترض عليهم في التوراة من تبيين أمره للناس، وإخبارِهم إياهم أنهم يجدونه مكتوبًا عندهم أنه رسولٌ من عند الله مفترضةٌ طاعتُه، وترك كتمان ذلك لهم. ونكثُهم ذلك ونقضُهم إياه، هو مخالفتهم الله في عهده إليهم – فيما وصفتُ أنه عهد إليهم – بعد إعطائهم ربهم الميثاقَ بالوفاء بذلك. كما وصفهم به ربنا تعالى ذكره بقوله: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ}[الأعراف: ١٦٩].

وأما قوله: {من بعد ميثاقه}، فإنه يعني: من بعد توَثُّق الله فيه بأخذ عهوده بالوفاء له، بما عهد إليهم في ذلك غيرَ أن التوثق مصدر من قولك: توثقت من فلان تَوَثُّقًا، والميثاقُ اسمٌ منه. والهاء في الميثاق عائدة على اسمِ الله. وقد يدخل في حكم هذه الآية كلّ من كان بالصفة التي وصف الله بها هؤلاء الفاسقين من المنافقين والكفار، في نقض العهد وقطع الرّحم والإفساد في الأرض.

عن قتادة، قوله: {الذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه}، فإياكم ونقضَ هذا الميثاق، فإن الله قد كره نقضَه وأوعدَ فيه، وقدّم فيه في آي القرآن حُجة وموعظة ونصيحة، وإنا لا نعلم الله جل ذكره أوعدَ في ذنب ما أوعد في نقض الميثاق. فمن أعطى عهدَ الله وميثاقه من ثمرَة قلبه فَلْيَفِ به لله.

عن الربيع، في قوله: {الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمرَ الله به أن يُوصَل ويفسدون في الأرض أولئك همُ الخاسرون}، فهي ستُّ خلال في أهل النفاق، إذا كانت لهم الظَّهَرَة([1])،أظهرُوا هذه الخلال الست جميعًا: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وَعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضُوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمرَ اللهُ به أن يوصل، وأفسدُوا في الأرض. وإذا كانت عليهم الظَّهَرَةُ، أظهروا الخلالَ الثلاثَ إذا حدّثوا كذَبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا([2]).

قال الطبري: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}: والذي رَغب اللهُ في وَصْله وذمّ على قطعه في هذه الآية: الرحم. وقد بين ذلك في كتابه، فقال تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}[محمد: ٢٢]. وإنما عَنى بالرّحم، أهل الرّحم الذين جمعتهم وإياه رَحِمُ والدة واحدة. وقطعُ ذلك: ظلمه في ترك أداء ما ألزم

١- الظهرة (بثلاث فتحات): الكثرة، وأراد بها ظهور الأمر والغلبة. ولو أسكنت الهاء، كان صوابًا، من قولهم: ظهرت على فلان: إذا علوته وغلبته.

٢- الأثر- في ابن كثير ١: ١٢٠ – ١٢١ عن أبي العالية، ثم قال: (وكذا قال الربيع بن أنس أيضًا). هذا، وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور، والشوكاني خبرًا خرجوه عن ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص قال: (الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، قال: إياكم ونقض هذا الميثاق. وكان يسميهم: الفاسقين) الدر المنثور ١: ٤٢، والشوكاني ١: ٤٥. أما ابن كثير فقد رواه في تفسيره ١: ١١٩ نقلا عن ابن أبي حاتم؛ بإسناده، ولم ينسبه إلى الطبري. وأخشى أن يكون وهمًا من السيوطي والشوكاني.

الله من حقوقها، وأوجبَ من بِرّها. وَوَصْلُها: أداءُ الواجب لها إليها من حقوق الله التي أوجبَ لها، والتعطفُ عليها بما يحقُّ التعطف به عليها.

و{أن} التي مع {يوصل} في محل خفض، بمعنى رَدِّها على موضع الهاء التي في {به}، فكان معنى الكلام: ويقطعون الذي أمرَ الله بأن يُوصَل. والهاء التي في {به}، هي كناية عن ذكر {أن يوصل}. عن قتادة: {ويقطعون ما أمر الله به أنْ يوصَل}، فقطع والله ما أمر الله به أن يوصل بقطيعة الرحم والقرابة(١).

قال ابن العثيمين: أي يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق.

قال السعدي: وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب؛ وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون، فقطعوها، ونبذوها وراء ظهورهم؛ معتاضين عنها بالفسق والقطيعة؛ والعمل بالمعاصي؛ وهو: الإفساد في الأرض.

قال الطبري: {ويفسدون في الأرض}: وفسادُهم في الأرض: هو ما تقدم وَصَفْناه قبلُ من معصيتهم ربَّهم، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله، وجحدهم نبوته، وإنكارهم ما أتاهم به من عند الله أنه حقٌّ من عنده.

قال ابن العثيمين: أي يسعون لما به فساد الأرض فساداً معنوياً كالمعاصي؛ وفساداً حسياً كتخريب الديار، وقتل الأنفس.

{أولئك هم الخاسرون}: جملة اسمية مؤكَّدة بضمير الفصل: {هم}؛ لأن ضمير الفصل له ثلاث فوائد؛ الفائدة الأولى: التوكيد؛ والفائدة الثانية: الحصر؛ والفائدة الثالثة: إزالة اللبس بين الصفة، والخبر؛ مثال ذلك: تقول: (زيد الفاضل): كلمة (الفاضل) يحتمل أن تكون خبراً؛ ويحتمل أن تكون وصفاً، فتقول: (زيد الفاضل محبوب)؛ إذا قلت: (زيد الفاضل محبوب) تعين أن تكون صفة؛ وإذا قلت: (زيد الفاضل) يحتمل أن تكون صفة، والخبر لم يأت بعد؛ ويحتمل أن تكون خبراً؛ فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن تكون خبراً لوجود ضمير الفصل؛ ولهذا سُمي ضمير فصل. لفصله بين الوصف والخبر؛ الفائدة الثانية: التوكيد؛ إذا قلت: (زيد هو الفاضل) كان أبلغ من قولك: (زيد الفاضل)؛ والفائدة الثالثة: الحصر؛ فإنك إذا قلت: (زيد هو الفاضل) فقد حصرت هذا الوصف فيه دون غيره؛ وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، كما في قوله تعالى: {لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين}[الشعراء:

١- الأثر: في الدر المنثور ١: ٤٢، والشوكاني ١: ٤٦ مختصرًا، ونصه هناك: (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، قال: الرحم والقرابة).

٤٠]؛ ولو كان له محل من الإعراب لكانت: (هم الغالبون)؛ وربما يضاف إليه اللام، كما في قوله تعالى: {إن هذا لهو القصص الحق}[آل عمران: ٦٢]؛ فيكون في إضافة اللام إليه زيادة توكيد.

وقوله تعالى: {الخاسرون}؛ (الخاسر) هو الذي فاته الربح؛ وذلك؛ لأن هؤلاء فاتهم الربح الذي ربحه من لم ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

قال الطبري: والخاسرون جمع خاسر، والخاسرون: الناقصُون أنفسَهم حظوظَها – بمعصيتهم الله – من رحمته، كما يخسرُ الرجل في تجارته، بأن يوضَع من رأس ماله في بيعه. فكذلك الكافر والمنافق، خسر بحرمان الله إياه رحمتَه التي خلقها لعباده في القيامة، أحوج ما كان إلى رحمته.

قال السعدي: ف{فأولئك}: أي: من هذه صفته، {هم الخاسرون} في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم؛ ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان؛ فمن لا إيمان له لا عمل له؛ وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفرا؛ وقد يكون معصية؛ وقد يكون تفريطا في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: {إن الإنسان لفي خسر}، فهذا عام لكل مخلوق؛ إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؛ وحقيقة فوات الخير؛ الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

قال الطبري: عن ابن عباس، قال: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل (خاسر)، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام، فإنما يعني به الذنب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن نقض عهد الله من الفسق؛ لقوله تعالى: {الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه}، فكلما رأيت شخصًا قد فرط في واجب، أو فعل محرماً فإن هذا نقض للعهد من بعد الميثاق.

٢– التحذير من نقض عهد الله من بعد ميثاقه؛ لأن ذلك يكون سبباً للفسق.

٣– التحذير من قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام. أي الأقارب. وغيرهم؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام الذم؛ وقطع الأرحام من كبائر الذنوب؛ لقول النبي ﷺ: ((لا يدخل الجنة قاطع([1]))، يعني قاطع رحم.

٤– أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قال تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}[الروم: ٤١]؛ ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سبحانه وتعالى، وتابوا إليه، أغاثهم الله عز وجل؛ وقد قال نوح عليه

١– أخرجه البخاري ص٥٠٧، كتاب الأدب، باب ١١: إثم القاطع، حديث رقم ٥٩٨٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٦، كتاب البر والصلة، باب ٦: صلة الرحمن وتحريم قطيعتها، حديث رقم ٦٥٢٠ [١٨] ٢٥٥٦.

السلام لقومه: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لهم أنهارا}[نوح: ١٠. ١٢].

فإن قال قائل: أليس يوجد في الأرض من هم صلحاء قائمون بأمر الله مؤدون لحقوق عباد الله ومع ذلك نجد الفساد في الأرض؟

فالجواب: أن هذا الإيراد أوردته أم المؤمنين زينب رضي الله عنها على النبي ﷺ حيث قال: ((ويل للعرب من شر قد اقترب))؛ قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال ﷺ: ((نعم، إذا كثر الخبث([1])))؛ وقوله ﷺ: ((إذا كثر الخبث)) يشمل معنيين:

أحدهما: أن يكثر الخبث في العاملين بحيث يكون عامة الناس على هذا الوصف.

والثاني: أن يكثر فعل الخبث بأنواعه من فئة قليلة، لكن لا تقوم الفئة الصالحة بإنكاره؛ فمثلًا إذا كثر الكفار في أرض كان ذلك سببًا للشر، والبلاء؛ لأن الكفار نجس؛ فكثرتهم كثرة خبث؛ وإذا كثرت أفعال المعاصي كان ذلك سببًا أيضًا للشر، والبلاء؛ لأن المعاصي خبث.

٥- أن هؤلاء الذين اعترضوا على الله فيما ضرب من الأمثال، ونقضوا عهده، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض هم الخاسرون. وإن ظنوا أنهم يحسنون صنعًا.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)

قال الطبري: وهذه الآية توبيخٌ من الله جل ثناؤه للقائلين: {آمنَّا بالله وباليوم الآخر}، الذين أخبر الله عنهم أنهم مع قيلهم ذلك بأفواههم، غيرُ مؤمنين به. وأنهم إنما يقولون ذلك خداعًا لله وللمؤمنين، فعذَلهم الله بقوله: {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم}، ووبَّخهم واحتجّ عليهم - في نكيرهم ما أنكروا من ذلك وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة.

قال أبو زهرة: {كَيْفَ}: يستفهم بها للحال، والمعنى كيف حالكم وبعدكم عن الإدراك والحق وأنتم تكفرون بالله الذي أنشاكم وأخرجكم من الموت إلى الحياة؟! إنكم ترون أن الطفل يولد، ويجيء من غيب الله تعالى، وترونه يشب غلامًا فصبيًّا فشابًا فكهلًا فشيخًا فيموت ثم يقبر ثم تكون الحياة بعد ذلك، ترون الأمور الثلاثة؛ الأولى موت، ثم حياة، ثم موت، أفلا يكون بالقياس على البدء بالموت ثم الحياة ثم الموت أن نحييكم تارة أخرى؛ وقد قدر سبحانه على الأمور الأولى، أفلا يقدر على الأخيرة؟ {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}.

١- أخرجه البخاري ص٢٧١، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٧: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٦ - ١١٧٧، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ١: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٧٢٣٥ [١].

والاستفهام إنكاري لإنكار الواقع لَا لإنكار الوقوع، والفرق بينهما أن إنكار الوقوع معناه النفي، وهو لَا يصلح هنا، وأما إنكار الواقع فمعناه التوبيخ؛ أبلغ التوبيخ على ما وقع، فقد وقع ذلك الأمر الغريب، وهو أنهم يكفرون أو يجحدون بالله بألا يعبدوه وحده، وهو الذي خلقهم، فأحياهم، وقد كانوا أمواتًا، وذلك محسوس مرئي، وأوثانهم لم تصنع شيئًا من هذا ولا يمكن أن تفعل.

ومعنى الموت الأول الذي يدلّ عليه قوله تعالى: {وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا} هو أنهم كانوا عدمًا ليست فيهم حياة، أو كانوا أجسامًا جامدة هي الطين، أو نطفًا في بطون الأمهات ثم مضغًا مخلّقة وغير مخلّقة، فجعلكم أحياء.

وكيف يطلق على الجماد أنه ميت، مع أن الموت أمر نسبي تكون قبله حياة، ثم تسلب هذه الحياة فيكون الموت، والجماد لم تسبقه حياة، حتى يكون من بعدها موت؟.

ونقول في الجواب عن ذلك: إن الموت لَا يقتضي وجود حياة سابقة، بل يطلق على الجماد ذاته، فيقال: أرض موات، وأرض ميتة، وإحياؤها يكون بوجود الغيث وإنباتها النبات بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ}، وقال تعالى: {رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجِ}.

فقوله تعالى: {كنتُمْ أَمْوَاتًا}: أي كنتم لَا حياة فيكم فأحياكم فخلق التراب ثم أنشأكم منه، فأحياكم فأفاض عليكم بالحياة، وهم قبل هذا الإحياء لم يكونوا شيئًا مذكورًا كما قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}، وقوله تعالى: {وَكنتُم أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ}، خطاب لهم بالانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وهو دال على أن ذلك يعلمونه بالعيان والحس، لا بمجرد التصور والتفكر، {ثمَّ يُمِيتُكُمْ}، و{ثُمَّ} هنا للتراخي؛ لأنه بعد الإحياء يعيش أجلًا محدودًا، ثم يموت، و{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}.

{ثُمَ يُحْيِيكُمْ} بالبعث والنشور، ثم تكون القيامة، ثم إليه سبحانه ترجعون، وذلك هو مدلول قوله تعالى في آية أخرى: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا}، وإنه كما ذكرنا أخذ من الواقع الذي يحسونه، دليلًا على وقوع ما ينتظرهم، وينتظرونه، وهو البعث، فإذا كان سبحانه وتعالى أنشأ من العدم حياة ثم سلبها، فإنه قادر على إعادتها، ولكنهم يؤمنون بالحس وحده، ولا يؤمنون بالغيب الذي لَا يحُسُّون.

قال الطبري: عن ابن مسعود وعن ابن عباس: من أن معنى قوله: {وكنتم أمواتًا}، أمواتَ الذكر، خمولًا في أصلاب آبائكم نطفًا، لا تُعرفون ولا تُذكرون: فأحياكم بإنشائكم بشرًا سويًّا حتى ذُكِرتم وعُرِفتم وحَيِيتم، ثم يُميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رُفاتًا لا تُعرفون ولا تُذكرون في البرزخ إلى يوم تبعثون، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصَيحة القيامة، ثم إلى الله ترجعون بعد ذلك.

قال السعدي: هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله؛ الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم؛ ثم يميتكم عند استكمال آجالكم؛ ويجازيكم في القبور؛ ثم يحييكم بعد البعث والنشور؛ ثم إليه ترجعون؛ فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه؛ وتدبيره؛ وبره؛ وتحت أوامره الدينية؛ ومن

بعد ذلك تحت دينه الجزائي؛ أفيليق بكم أن تكفروا به؛ وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة؟ بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه؛ وترجوا ثوابه.

قال أبو زهرة: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}: {ثم} هنا للتراخي؛ أي بعد أن يقضوا حياتهم، ويموتوا ويدفنوا في قبورهم يرجعون ليحاسبهم على ما قدموا من عمل، فإن خيرًا فخير، وإن شرًّا فالعذاب.

وتقديم {إِلَيْهِ} على {تُرْجَعونَ} للإشارة إلى أنه وحده هو الذي إليه يرجعون، لَا إلى آلهتهم التي يتوهمون بأوهامهم فيها قدرة، ولا قدرة، فالرجوع إليه سبحانه وتعالى.

إن الله تعالى خلق الخلق، وأحياهم بعد العدم، ولم يتركهم، بل أنعم عليهم بالأرض وخيراتها، وكل ثمراتها، وسخر لهم ما في السماوات والأرض، ومع ذلك كفروا بربهم الذي أولاهم الحياة، وأولاهم نعم الوجود؛ ولذلك قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ...}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- شدة الإنكار حتى يصل إلى حد التعجب ممن يكفر وهو يعلم حاله، ومآله.

٢- أن الموت يطلق على ما لا روح فيه. وإن لم تسبقه حياة؛ يعني: لا يشترط للوصف بالموت تقدم الحياة؛ لقوله تعالى: {كنتم أمواتا فأحياكم}؛ أما ظن بعض الناس أنه لا يقال: (ميت) إلا لمن سبقت حياته؛ فهذا ليس بصحيح؛ بل إن الله تعالى أطلق وصف الموت على الجمادات؛ قال تعالى في الأصنام: {أموات غير أحياء}[النحل: ٢١].

٣- أن الجنين لو خرج قبل أن تنفخ فيه الروح فإنه لا يثبت له حكم الحي؛ ولهذا لا يغسَّل، ولا يكفَّن، ولا يصلَّى عليه، ولا يرث، ولا يورث؛ لأنه ميت جماد لا يستحق شيئًا مما يستحقه الأحياء؛ وإنما يدفن في أي مكان في المقبرة، أو غيرها.

٤- تمام قدرة الله عز وجل؛ فإن هذا الجسد الميت ينفخ الله فيه الروح، فيحيى، ويكون إنسانًا يتحرك، ويتكلم، ويقوم، ويقعد، ويفعل ما أراد الله عز وجل.

٥- إثبات البعث؛ لقوله تعالى: {ثم يحييكم ثم إليه ترجعون}؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس، واستبعده، وقال: {من يحيي العظام وهي رميم}[يس: ٧٨]؛ فأقام الله تبارك وتعالى على إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة يس:

الدليل الأول: قوله تعالى: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرَّة}[يس: ٧٩]: هذا دليل على أنه يمكن أن يحيي العظام وهي رميم؛ وقوله تعالى: {أنشأها أول مرة} دليل قاطع، وبرهان جلي على إمكان إعادته كما قال الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}[الروم: ٢٧].

الدليل الثاني: قوله تعالى: {وهو بكل خلق عليم}[يس: ٧٩] يعني: كيف يعجز عن إعادتها وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم؟ يعلم كيف يخلق الأشياء، وكيف يكونها؛ فلا يعجز عن إعادة الخلق.

الدليل الثالث: قوله تعالى: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون}[يس: ٨٠]: الشجر الأخضر فيه البرودة، وفيه الرطوبة؛ والنار فيها الحرارة، واليبوسة؛ هذه النار الحارة اليابسة تخرج من شجر بارد رطب؛ وكان الناس فيما سبق يضربون أغصانًا من أشجار معينة بالزند؛ فإذا ضربوها انقدحت النار، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة؛ ولهذا قال تعالى: {فإذا أنتم منه توقدون}[يس: ٨٠] تحقيقًا لذلك.

ووجه الدلالة: أن القادر على إخراج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الدليل الرابع: قوله تعالى: {أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى}[يس: ٨١].

ووجه الدلالة: أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس؛ والقادر على الأكبر قادر على ما دونه.

الدليل الخامس: قوله تعالى: {وهو الخلاق العليم}[يس: ٨١]؛ فـ {الخلاق} صفته، ووصفه الدائم؛ وإذا كان خلاقًا، ووصفه الدائم هو الخلق فلن يعجز عن إحياء العظام وهي رميم.

الدليل السادس: قوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون}[يس: ٨٢]: إذا أراد شيئًا مهما كان؛ و {شيئًا}: نكرة في سياق الشرط، فتكون للعموم؛ {أمره}: أي شأنه في ذلك أن يقول له كن فيكون؛ أو {أمره} الذي هو واحد (أوامر)؛ ويكون المعنى: إنما أمره أن يقول: (كن)، فيعيده مرة أخرى.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى لا يستعصي عليه شيء أراده.

الدليل السابع: قوله تعالى: {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء}: كل شيء فهو مملوك لله عز وجل: الموجود يعدمه؛ والمعدوم يوجده؛ لأنه رب كل شيء.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نزه نفسه؛ وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم.

الدليل الثامن: قوله تعالى: {وإليه ترجعون}.

ووجه الدلالة: أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هذه الخليقة، ويأمرها، وينهاها، ويرسل إليها الرسل، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن، والكافر، ثم يكون الأمر هكذا يذهب سدى؛ بل لابد من الرجوع؛ وهذا دليل عقلي.

فهذه ثمانية أدلة على قدرة الله على إحياء العظام وهي رميم جمعها الله عز وجل في موضع واحد؛ وهناك أدلة أخرى في مواضع كثيرة في القرآن؛ وكذلك في السنة.

٦- أن الخلق مآلهم، ورجوعهم إلى الله عز وجل.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

قال ابن العثيمين: لما ذكر جل وعلا أنه قادر على الإحياء والإماتة، بين منته على العباد بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا.

{هو الذي خلق لكم}: أي أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جل وعلا وعلمه؛ و{لكم}: اللام هنا لها معنيان؛ المعنى الأول: الإباحة، كما تقول: (أبحت لك)؛ والمعنى الثاني: التعليل: أي خلق لأجلكم.

{ما في الأرض جميعًا}: {ما} اسم موصول تعم كل ما في الأرض فهو مخلوق لنا من الأشجار، والزروع، والأنهار، والجبال ... كل شيء.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى ج١ص٣٦٨: وَالْخِطَابُ لِجَمِيعِ النَّاسِ لِافْتِتَاحِ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}[البقرة: ٢١]. وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ لِلنَّاسِ، مُضَافًا إلَيْهِمْ بِاللَّامِ، وَاللَّامُ حَرْفُ الْإِضَافَةِ، وَهِيَ تُوجِبُ اخْتِصَاصَ الْمُضَافِ بِالْمُضَافِ إلَيْهِ، وَاسْتِحْقَاقُهُ إيَّاهُ مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَعُمُّ مَوَارِدَ اسْتِعْمَالِهَا، كَقَوْلِهِمْ: الْمَالُ لِزَيْدٍ، وَالسَّرْجُ لِلدَّابَّةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَجِبُ إذًا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُمَلَّكِينَ مُمَكَّنِينَ لِجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ، فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً، وَخَصَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ، وَهِيَ الْخَبَائِثُ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ الْإِفْسَادِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ أَوْ مَعَادِهِمْ، فَيَبْقَى الْبَاقِي مُبَاحًا بِمُوجِبِ الْآيَةِ.

قال السعدي: أي: خلق لكم، بَرًّا بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار. وفي هذه الآية العظيمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن تحريمها أيضًا يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر، فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث، تنزيها لنا.

قال البغوي: {ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم}.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ: أَيِ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ وَالْفَرَّاءُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ النَّحْوِيِّينَ: أَيْ أَقْبَلَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ، وَقِيلَ: قَصَدَ لِأَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ أَوَّلًا ثُمَّ عَمَدَ إِلَى خَلْقِ السماء، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ.

قال ابن العثيمين: {ثم}: أي بعد أن خلق لنا ما في الأرض جميعًا، {استوى إلى السماء}، أي علا إلى السماء؛ هذا ما فسرها به ابن جرير. رحمه الله؛ وقيل: أي قصد إليها؛ وهذا ما اختاره ابن كثير رحمه الله؛ فللعلماء في تفسير {استوى إلى}، قولان: الأول: أن الاستواء هنا بمعنى القصد؛ وإذا كان القصد تامًّا قيل: استوى؛ لأن الاستواء كله يدلّ على الكمال، كما قال تعالى: {ولما بلغ أشده واستوى}[القصص: ١٤]، أي كمل؛ فمن نظر إلى أن هذا الفعل

عدي بـ{إلى}، قال: إن {استوى} هنا ضمن معنى قصد؛ ومن نظر إلى أن الاستواء لا يكون إلا في علو جعل {إلى} بمعنى (على).

قال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ص٣٧٢: أَنَّ لَفْظَ الِاسْتِوَاءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِي خَاطَبَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِلُغَتِهِمْ وَأَنْزَلَ بِهَا كَلَامَهُ نَوْعَانِ: مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ، فَالْمُطْلَقُ مَا لَمْ يُوصَلْ مَعْنَاهُ بِحَرْفٍ مِثْلُ قَوْلِهِ: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص: ١٤]، وَهَذَا مَعْنَاهُ كَمُلَ وَتَمَّ، يُقَالُ: اسْتَوَى النَّبَاتُ، وَاسْتَوَى الطَّعَامُ، وَأَمَّا الْمُقَيَّدُ فَثَلَاثَةُ أَضْرَابٍ: أَحَدُهَا: مُقَيَّدٌ بِإِلَى كَقَوْلِهِ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}[البقرة: ٢٩]، وَاسْتَوَى فُلَانٌ إِلَى السَّطْحِ وَإِلَى الْغُرْفَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَذَا الْمُعَدَّى بِإِلَى فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ: فِي الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}[البقرة: ٢٩]، وَالثَّانِي فِي سُورَةِ فُصِّلَتْ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}[فصلت: ١١] وَهَذَا بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَنَذْكُرُ أَلْفَاظَهُمْ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَالثَّانِي: مُقَيَّدٌ بِعَلَى كَقَوْلِهِ: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}[هود: ٤٤]، وَقَوْلِهِ: {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ}[الفتح: ٢٩]، وَهَذَا أَيْضًا مَعْنَاهُ الْعُلُوُّ وَالِارْتِفَاعُ وَالِاعْتِدَالُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ اللُّغَةِ، الثَّالِثُ: الْمَقْرُونُ بِوَاوِ (مَعَ) الَّتِي تُعَدِّي الْفِعْلَ إِلَى الْمَفْعُولِ مَعَهُ، نَحْوَ: اسْتَوَى الْمَاءُ وَالْخَشَبَةَ، بِمَعْنَى سَاوَاهَا، وَهَذِهِ مَعَانِي الِاسْتِوَاءِ الْمَعْقُولَةِ فِي كَلَامِهِمْ.

قال الطبري: وأوْلى المعاني بقول الله جل ثناؤه: {ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن}، علا عليهن وارتفع، فدبَّرهن بقدرته، وخلقهن سبع سموات.

والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله: {ثم استوى إلى السماء}، الذي هو بمعنى العلو والارتفاع، هربًا عند نفسه من أن يلزمه بزعمه – إذا تأوله بمعناه المفهم كذلك – أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها – إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر. ثم لم يَنْجُ مما هرَب منه! فيقال له: زعمت أن تأويل قوله {استوى}، أقبلَ، أفكان مُدْبِرًا عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أنّ ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقُلْ: علا عليها علوّ مُلْك وسُلْطان، لا علوّ انتقال وزوال. ثم لن يقول في شيء من ذلك قولا إلّا ألزم في الآخر مثله. ولولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بما ليس من جنسه، لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال في ذلك قولًا لقول أهل الحق فيه مخالفًا. وفيما بيَّنا منه ما يُشرِف بذي الفهم على ما فيه له الكفاية إن شاء الله تعالى.

وإن قال لنا قائل: أخبرنا عن استواء الله جل ثناؤه إلى السماء، كان قبل خلق السماء أم بعده؟

قيل: بعده، وقبل أن يسويهن سبعَ سموات، كما قال جل ثناؤه: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا}[فصلت: ١١]. والاستواء كان بعد أن خلقها دُخانًا، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سموات.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٥ص٥١٨: قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي (تَفْسِيرِهِ) ثَنَا عِصَامُ بْنُ الرواد، ثَنَا آدَمَ، ثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ، عَنْ الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، {ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ}، يَقُولُ: ارْتَفَعَ. قَالَ: وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ – يَعْنِي الْبَصْرِيَّ – وَالرَّبِيعِ بْنَ أَنَسٍ مِثْلُهُ كَذَلِكَ.

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي (كِتَابِ التَّوْحِيدِ) قَالَ: قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: {اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ}، ارْتَفَعَ فَسَوَّى خَلَقَهُنَّ.

الى أن قال رحمه الله: وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: يَعْنِي اسْتَقَرَّ، قَالَ: وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: صَعِدَ. وَقِيلَ: اسْتَوْلَى. وَقِيلَ: مَلَكَ. وَاخْتَارَ هُوَ مَا حَكَاهُ عَنْ الْفَرَّاءِ وَجَمَاعَةٍ أَنَّ مَعْنَاهُ: أَقْبَلَ عَلَى خَلْقِ الْعَرْشِ وَعَمَدَ إلَى خَلْقِهِ، قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: {ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}[فصلت: ١١] أَيْ عَمَدَ إلَى خَلْقِ السَّمَاءِ. وَهَذَا الْوَجْهُ مِنْ أَضْعَفِ الْوُجُوهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَرْشَ كَانَ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ([١]))). فَإِذَا كَانَ الْعَرْشُ مَخْلُوقًا قَبْلَ خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكَيْفَ يَكُونُ اسْتِوَاؤُهُ عَمْدَهُ إلَى خَلْقِهِ لَهُ؟ لَوْ كَانَ هَذَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ أَنَّ اسْتَوَى عَلَى كَذَا بِمَعْنَى أَنَّهُ عَمَدَ إلَى فِعْلِهِ، وَهَذَا لَا يُعْرَفُ قَطُّ فِي اللُّغَةِ، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، لَا فِي نَظْمٍ وَلَا فِي نَثْرٍ.

وَمَنْ قَالَ: اسْتَوَى بِمَعْنَى عَمَدَ: ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: {ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}؛ لِأَنَّهُ عُدِّيَ بِحَرْفِ الْغَايَةِ، كَمَا يُقَالُ: عَمَدْت إلَى كَذَا، وَقَصَدْت إلَى كَذَا، وَلَا يُقَالُ: عَمَدْت عَلَى كَذَا وَلَا قَصَدْت عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّ مَا ذَكَرَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ([٢])لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ أَيْضًا، وَلَا هُوَ قَوْلُ أَحَدٍ مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ؛ بَلْ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ قَوْلُهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ عَنْ بَعْضِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: {ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ}، إنَّمَا فَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ ارْتَفَعَ لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ هَذَا؛ {أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}[فصلت: ٩- ١٢]، وَهَذِهِ نَزَلَتْ فِي سُورَةِ {حم} بِمَكَّةَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْمَدِينَةِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فَلَمَّا ذَكَرَ أَنَّ اسْتِوَاءَهُ إلَى السَّمَاءِ كَانَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَخَلَقَ مَا فِيهَا؛ تَضَمَّنَ مَعْنَى الصُّعُودِ، لِأَنَّ السَّمَاءَ فَوْقَ الْأَرْضِ، فَالِاسْتِوَاءُ إلَيْهَا ارْتِفَاعٌ إلَيْهَا.

قال ابن كثير: وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ حم السَّجْدَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[فُصِّلَتْ: ٩- ١٢].

١- البخاري في بدء الخلق (٣١٩١).

٢- (قلت): يقصد بعبارة (ما ذكر في تلك الآية): كلمة (استوى) الْمُعَدَّى بِإِلَى؛ {استوى الى السماء}.

فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى ابْتَدَأَ بِخَلْقِ الْأَرْضِ أَوَّلًا ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا، وَهَذَا شَأْنُ الْبِنَاءِ أَنْ يَبْدَأَ بِعِمَارَةِ أَسَافِلِهِ ثُمَّ أَعَالِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ صَرَّحَ الْمُفَسِّرُونَ بِذَلِكَ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا}: قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ * فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَبْعُ أَرَضِينَ، يَعْنِي بَعْضَهُنَّ تَحْتَ بَعْضٍ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ هَذَا بِعَيْنِهِ، فَأَجَابَ بِأَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ وَأَنَّ الْأَرْضَ إِنَّمَا دُحِيَتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ.

قال ابن العثيمين: {وهو بكلّ شيء عليم(١)}؛ ومن علمه عز وجل أنه علم كيف يخلق هذه السماء.

قال السعدي: وكثيرًا ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}، لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل على علمه، وحكمته، وقدرته.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- منّة الله تعالى على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعًا؛ فكل شيء في الأرض فإنه لنا. والحمد لله. والعجب أن من الناس من سخر نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همّه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك.

٢- أن الأصل في كل ما في الأرض الحل. من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة؛ وبناء على هذا لو أن إنسانًا أكل شيئًا من الأشجار، فقال له بعض الناس: (هذا حرام)؛ فالمحرم يطالب بالدليل؛ ولو أن إنسانًا وجد طائرًا يطير، فرماه، وأصابه، ومات، وأكله، فقال له الآخر: (هذا حرام)؛ فالمحرم يطالب بالدليل؛ ولهذا لا يحرم شيء في الأرض إلا ما قام عليه الدليل.

٣- تأكيد هذا العموم بقوله تعالى: {جميعًا} مع أن {ما} موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكده حتى لا يتوهم واهم بأن شيئًا من أفراد هذا العموم قد خرج من الأصل.

٤- إثبات الأفعال لله عز وجل. أي أنه يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: {ثم استوى إلى السماء}: و{استوى} فعل؛ فهو جل وعلا يفعل ما يشاء، ويقوم به من الأفعال ما لا يحصيه إلَّا الله، كما أنه يقوم به من الأقوال ما لا يحصيه إلَّا الله.

٥- أن السموات سبع؛ لقوله تعالى: {سبع سموات}.

٦- كمال خلق السموات؛ لقوله تعالى: {فسواهن}.

٧- إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: {وهو بكل شيء عليم}.

١- (قلت): أنظر معنى أسم الله تعالى {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٨- أن نشكر الله على هذه النعمة. وهي أنه تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعًا؛ لأن الله لم يبينها لنا لمجرَّد الخبر؛ ولكن لنعرف نعمته بذلك، فنشكره عليها.

٩- أن نخشى، ونخاف؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم؛ فإذا كان الله عليما بكل شيء. حتى ما نخفي في صدورنا. أوجب لنا ذلك أن نحترس مما يغضب الله عز وجل سواء في أفعالنا، أو في أقوالنا، أو في ضمائر قلوبنا.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

قال ابن كثير: يُخْبِرُ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ، بِتَنْوِيهِهِ بِذِكْرِهِمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَبْلَ إِيجَادِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ}: أَيْ وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَاقْصُصْ عَلَى قَوْمِكَ ذَلِكَ.

قال ابن العثيمين: {وإذ قال ربك}: قال المعربون: {إذ}، مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ والخطاب في قوله تعالى: {ربك}، للنبي ﷺ؛ ولما كان الخطاب له صارت الربوبية هنا من أقسام الربوبية الخاصة.

قال القرطبي: إِذْ وَإِذَا حَرْفَا تَوْقِيتٍ، فَإِذْ لِلْمَاضِي، وَإِذَا لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ تُوضَعُ إِحْدَاهُمَا مَوْضِعَ الْأُخْرَى. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: إِذَا جَاءَ (إِذْ) مَعَ مُسْتَقْبَلٍ كَانَ مَعْنَاهُ مَاضِيًا، نَحْوَ قَوْلِهِ: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ}[الأنفال: ٣٠]، {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ}[الأحزاب: ٣٧]، معناه إذ مَكَرُوا، وَإِذْ قُلْتَ. وَإِذَا جَاءَ (إِذَا) مَعَ الْمَاضِي كَانَ مَعْنَاهُ مُسْتَقْبَلًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ}[النازعات: ٣٤]، {فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ}[عبس: ٣٣]، و{إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ}[النصر: ١].

قال ابن العثيمين: {للملائكة}: اللام للتعدية. أي تعدية القول للمقول له؛ و{الملائكة}، جمع (ملئك)، وأصله (مألك)؛ لأنه مشتق من (الألوكة) وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل؛ أي نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: (شيئاء)؛ و{الملائكة}، عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالًا مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بني أدم كملك الموت ... إلى غير ذلك من الوظائف، والأعمال.

{إني جاعل في الأرض خليفة}؛ خليفة يخلف الله؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يخلف بعضهم بعضًا يتناسلون على أقوال: أما الأول: فيحتمل أن الله أراد من هذه الخليقة آدم، وبنيه. أن يجعل منهم الخلفاء يخلفون الله تعالى في عباده بإبلاغ شريعته، والدعوة إليها، والحكم بين عباده؛ لا عن جهل بالله سبحانه وتعالى. وحاشاه من ذلك، ولا عن عجز؛ ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس}[ص: ٢٦]: هو خليفة يخلف الله عز وجل في الحكم بين عباده.

والثاني: أنهم يخلفون من سبقهم؛ لأن الأرض كانت معمورة قبل آدم؛ وعلى هذا الاحتمال تكون {خليفة} هنا بمعنى الفاعل؛ وعلى الأول بمعنى المفعول.

والثالث: أنه يخلف بعضهم بعضًا؛ بمعنى: أنهم يتناسلون: هذا يموت، وهذا يحيى؛ وعلى هذا التفسير تكون {خليفة} صالحة لاسم الفاعل، واسم المفعول.. كل هذا محتمل؛ وكل هذا واقع؛ لكن قول الملائكة: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}، يرجح أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك الدماء، وتفسد فيها، فسألت الملائكة ربها عز وجل: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}، كما فعل من قبلهم.

قال الشنقيطي: تَنْبِيهٌ: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي نَصْبِ إِمَامٍ وَخَلِيفَةٍ؛ يُسْمَعُ لَهُ وَيُطَاعُ ؛ لِتَجْتَمِعَ بِهِ الْكَلِمَةُ وَتُنَفَّذَ بِهِ أَحْكَامُ الْخَلِيفَةِ، وَلَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ ذَلِكَ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَلَا بَيْنَ الْأَئِمَّةِ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الْأَصَمِّ؛ حَيْثُ كَانَ عَنِ الشَّرِيعَةِ أَصَمَّ. إِلَى أَنْ قَالَ: وَدَلِيلُنَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[٢ \ ٣٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}[٣٨ \ ٢٦]، وَقَالَ: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ}[٢٤ \ ٥٥]، أَيْ: يَجْعَلُ مِنْهُمْ خُلَفَاءَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيِ.

وَأَجْمَعَتِ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ الصِّدِّيقِ بَعْدَ اخْتِلَافٍ وَقَعَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فِي التَّعْيِينِ حَتَّى قَالَتِ الْأَنْصَارُ: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَدَفَعَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَالْمُهَاجِرُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا لَهُمْ: إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَدِينُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، وَرَوَوْا لَهُمُ الْخَبَرَ فِي ذَلِكَ فَرَجَعُوا وَأَطَاعُوا لِقُرَيْشٍ. فَلَوْ كَانَ فَرْضُ الْإِمَامَةِ غَيْرَ وَاجِبٍ لَا فِي قُرَيْشٍ وَلَا فِي غَيْرِهِمْ، لَمَا سَاغَتْ هَذِهِ الْمُنَاظَرَةُ وَالْمُحَاوَرَةُ عَلَيْهَا. وَلَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّهَا غَيْرُ وَاجِبَةٍ لَا فِي قُرَيْشٍ وَلَا فِي غَيْرِهِمْ. فَمَا لِتَنَازُعِكُمْ وَجْهٌ وَلَا فَائِدَةَ فِي أَمْرٍ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، ثُمَّ إِنَّ الصِّدِّيقَ – رضي الله عنه – لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ عَهِدَ إِلَى عُمَرَ فِي الْإِمَامَةِ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ أَحَدٌ: هَذَا أَمْرٌ غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَيْنَا وَلَا عَلَيْكَ. فَدَلَّ عَلَى وُجُوبِهَا، وَأَنَّهَا رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ الَّذِي بِهِ قِوَامُ الْمُسْلِمِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. انْتَهَى مِنَ الْقُرْطُبِيِّ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: مِنَ الْوَاضِحِ الْمَعْلُومِ مِنْ ضَرُورَةِ الدِّينِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ نَصْبُ إِمَامٍ تَجْتَمِعُ بِهِ الْكَلِمَةُ، وَتُنَفَّذُ بِهِ أَحْكَامُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَلَمْ يُخَالِفْ فِي هَذَا إِلَّا مَنْ لَا يُعْتَدُّ بِهِ كَأَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ الْمُعْتَزِلِيِّ، الَّذِي تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ الْقُرْطُبِيِّ، وَكَضِرَارٍ وَهِشَامٍ الْفُوطِيِّ وَنَحْوِهِمْ.

وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ وُجُوبَ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى بِطَرِيقِ الشَّرْعِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ وَأَشْبَاهُهَا وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ – رضي الله عنهم – وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}، لِأَنَّ قَوْلَهُ: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}، فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى إِعْمَالِ السَّيْفِ عِنْدَ الْإِبَاءِ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ.

وَقَالَتِ الْإِمَامِيَّةُ: إِنَّ الْإِمَامَةَ وَاجِبَةٌ بِالْعَقْلِ لَا بِالشَّرْعِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَالْجَاحِظِ وَالْبَلْخِيِّ: أَنَّهَا تَجِبُ بِالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ مَعًا، وَاعْلَمْ أَنَّمَا تَتَقَوَّلُهُ الْإِمَامِيَّةُ مِنَ الْمُفْتَرَيَاتِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَمَا تَتَقَوَّلُهُ فِي الِاثْنَيْ عَشَرَ إِمَامًا، وَفِي الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ الْمَعْصُومِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ خُرَافَاتِهِمْ، وَأَكَاذِيبِهِمُ الْبَاطِلَةِ، كُلُّهُ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ.

وَإِذَا أَرَدْتَ الْوُقُوفَ عَلَى تَحْقِيقِ ذَلِكَ: فَعَلَيْكَ بِكِتَابِ (مِنْهَاجِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي نَقْضِ كَلَامِ الشِّيعَةِ الْقَدَرِيَّةِ) لِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ تَيْمِيَّةَ، فَإِنَّهُ جَاءَ فِيهِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ، وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ عَلَى إِبْطَالِ جَمِيعِ تِلْكَ الْخُرَافَاتِ الْمُخْتَلَقَةِ، فَإِذَا حَقَّقْتَ وُجُوبَ نَصْبِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِمَامَةَ تَنْعَقِدُ لَهُ بِأَحَدِ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: مَا لَوْ نَصَّ ﷺ عَلَى أَنَّ فُلَانًا هُوَ الْإِمَامُ فَإِنَّهَا تَنْعَقِدُ لَهُ بِذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ إِمَامَةَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِمَامَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ أَهَمُّ شَيْءٍ، فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى التَّقْدِيمِ لِلْإِمَامَةِ الْكُبْرَى وَهُوَ ظَاهِرٌ.

الثَّانِي: هُوَ اتِّفَاقُ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَى بَيْعَتِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ إِمَامَةَ أَبِي بَكْرٍ مِنْهُ ؛ لِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَيْهَا بَعْدَ الْخِلَافِ، وَلَا عِبْرَةَ بِعَدَمِ رِضَى بَعْضِهِمْ، كَمَا وَقَعَ مِنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنه مِنْ عَدَمِ قَبُولِهِ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه.

الثَّالِثُ: أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ الَّذِي قَبْلَهُ، كَمَا وَقَعَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِعُمَرَ رضي الله عنهما.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ جَعْلُ عُمَرَ رضي الله عنه الْخِلَافَةَ شُورَى بَيْنَ سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَاتَ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى النَّاسِ بِسَيْفِهِ، وَيَنْزِعَ الْخِلَافَةَ بِالْقُوَّةِ حَتَّى يَسْتَتِبَّ لَهُ الْأَمْرُ، وَتَدِينَ لَهُ النَّاسُ لِمَا فِي الْخُرُوجِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ شَقِّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَإِرَاقَةِ دِمَائِهِمْ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قِيَامُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَقَتْلِهِ إِيَّاهُ فِي مَكَّةَ عَلَى يَدِ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، فَاسْتَتَبَّ الْأَمْرُ لَهُ. كَمَا قَالَهُ ابْنُ قُدَامَةَ فِي (الْمُغْنِي).

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَقُولُ: تَنْعَقِدُ لَهُ الْإِمَامَةُ بِبَيْعَةِ وَاحِدٍ، وَجَعَلُوا مِنْهُ مُبَايَعَةَ عُمَرَ لِأَبِي بَكْرٍ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَمَالَ إِلَيْهِ الْقُرْطُبِيُّ. وَحَكَى عَلَيْهِ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ الْإِجْمَاعَ وَقِيلَ: بِبَيْعَةِ أَرْبَعَةٍ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

هَذَا مُلَخَّصُ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِيمَا تَنْعَقِدُ بِهِ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى. وَمُقْتَضَى كَلَامِ الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ تَيْمِيَّةَ فِي (الْمِنْهَاجِ) أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْعَقِدُ بِمُبَايَعَةِ مَنْ تَقْوَى بِهِ شَوْكَتُهُ، وَيَقْدِرُ بِهِ عَلَى تَنْفِيذِ أَحْكَامِ الْإِمَامَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ كَآحَادِ النَّاسِ لَيْسَ بِإِمَامٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِمَامَ الْأَعْظَمَ تُشْتَرَطُ فِيهِ شُرُوطٌ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ قُرَشِيًّا، وَقُرَيْشٌ أَوْلَادُ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ، وَقِيلَ: أَوْلَادُ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ. فَالْفِهْرِيُّ قُرَشِيٌّ بِلَا نِزَاعٍ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ أَوْ أَوْلَادِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ؛ فِيهِ خِلَافٌ هَلْ هُوَ قُرَشِيٌّ أَوْ لَا؟ وَمَا كَانَ مِنْ أَوْلَادِ كِنَانَةَ مِنْ غَيْرِ النَّضْرِ فَلَيْسَ بِقُرَشِيٍّ بِلَا نِزَاعٍ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي ذِكْرِ شَرَائِطِ الْإِمَامِ. الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مِنْ صَمِيمِ قُرَيْشٍ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: ((الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ(١)))، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي هَذَا.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الِاخْتِلَافُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي اشْتِرَاطِ كَوْنِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ قُرَشِيًّا ضَعِيفٌ. وَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى تَقْدِيمِ قُرَيْشٍ فِي الْإِمَامَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَحَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعَ، وَدَعْوَى الْإِجْمَاعِ تَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلِ مَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عُمَرَ؛ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ أَنَّهُ قَالَ: (إِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي وَأَبُو عُبَيْدَةَ حَيٌّ اسْتَخْلَفْتُهُ). فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ: (فَإِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي وَقَدْ مَاتَ أَبُو عُبَيْدَةَ اسْتَخْلَفْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ(٢)).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُعَاذًا غَيْرُ قُرَشِيٍّ وَتَأْوِيلُهُ بِدَعْوَى انْعِقَادِ الْإِجْمَاعِ بَعْدَ عُمَرَ أَوْ تَغْيِيرِ رَأْيِهِ إِلَى مُوَافَقَةِ الْجُمْهُورِ. فَاشْتِرَاطُ كَوْنِهِ قُرَشِيًّا هُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنَّ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ التَّقْدِيمَ الْوَاجِبَ لَهُمْ فِي الْإِمَامَةِ مَشْرُوطٌ بِإِقَامَتِهِمُ الدِّينَ وَإِطَاعَتِهِمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنْ خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ فَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يُطِيعُ اللَّهَ تَعَالَى وَيُنَفِّذُ أَوَامِرَهُ أَوْلَى مِنْهُمْ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٥٢٠)، وصحيح الجامع (٢٧٥٧)، والحديث بتمامه: ((الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، وفجارها أمراء فجارها، وإن أمرت عليكم قريش عبدا حبشيا مجدعا فاسمعوا له وأطيعوا ما لم يخير أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه فإن خير بين إسلامه وضرب عنقه فليقدم عنقه)).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩١): وعلى كل حال فهو إسناد جيد كما قلنا بشواهده المرسلة.

- وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق مسند الإمام أحمد: حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن شريح بن عبيد وراشد بن سعد لم يدركا عمر.

وأخرجه أحمد في (الفضائل) (١٢٨٧)، وعمر بن شبة في (تاريخ المدينة) ٣ / ٨٨٦ من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة، عن شهر بن حوشب قال: قال عمر. وهذا منقطع أيضاً شهر بن حوشب لم يدرك عمر.

وأخرجه بنحوه مختصرًا بن سعد ٣ / ٤١٣، وأحمد في (الفضائل) (١٢٨٥)، والحاكم ٣ / ٢٦٨ من طريق كثير بن هشام، عن جعفر بن برقان، عن ثابت بن الحجاج قال: بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فيه، فإن سئلت عنه قلت: استخلفت أمين الله وأمين رسوله. وهذا منقطع أيضًا.

وأخرج القسم الأخير منه ابن سعد ٣ / ٥٩٠ عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي عروبة، عن شهر بن حوشب قال: قال عمر بن الخطاب: لو أدركت معاذ بن جبل فاستخلفته، فسألني ربي عنه، لقلت: يا ربي سمعت نبيك يقول: ((إن العلماء إذا اجتمعوا يوم القيامة كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة حجر)).

وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٣ / ٤١٨ عن يعقوب بن كعب وعمر بن شبة ٣ / ٨٨٦ عن هارون بن معروف، كلاهما عن ضمرة بن ربيعة، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني عن أبي العجفاء قال: قال عمر ...؛ وفيهما (رتوة) بدل: قذفة حجر، و(الرتوة) قال في (النهاية): رمية سهم، وقيل: ميل، وقيل: مدى البصر.

وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢ / ١٣٥، ومن طريقه ابن أبي عاصم ٣ / ٤١٩ عن أبي معاوية، عن السيباني، عن محمد بن عبد الله الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: ((معاذ بين يدي العلماء رتوة)).

وأخرجاه أيضًا عن حسين بن علي، عن زائدة، عن هشام بن حسان، عن الحسن البصري، رفعه: ((معاذ بين يدي العلماء نبذة)).

وأخرج الطبراني في الكبير ٢٠ / (٤١)، وأبو نعيم في الحلية ١ / ٢٢٩ من طريق عمارة بن غزية، عن محمد بن عبد الله بن أزهر الأنصاري، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: ((معاذ بن جبل أمام العلماء برتوة)).

وقوله: ((أن لكل نبي أمينًا ...)) أخرجه من حديث أنس البخاري (٣٧٤٤) و (٤٣٨٢) ومسلم (٢٤١٩) وسيأتي في (المسند) ٣ / ١٣٣.

- والأثر بتمامه: (لَمَّا بَلَغَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ سَرْغَ حُدِّثَ أَنَّ بِالشَّامِ وَبَاءً شَدِيدًا، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ شِدَّةَ الْوَبَاءِ فِي الشَّامِ، فَقُلْتُ: إِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ حَيٌّ، اسْتَخْلَفْتُهُ، فَإِنْ سَأَلَنِي اللهُ: لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ قُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَكَ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَمِينًا، وَأَمِينِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ)) فَأَنْكَرَ الْقَوْمُ ذَلِكَ، وَقَالُوا: مَا بَالُ عُلْيَا قُرَيْشٍ؟! - يَعْنُونَ بَنِي فِهْرٍ - ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي، وَقَدْ تُوُفِّيَ أَبُو عُبَيْدَةَ، اسْتَخْلَفْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، فَإِنْ سَأَلَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ: لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ؟ قُلْتُ: سَمِعْتُ رَسُولَكَ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّهُ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْعُلَمَاءِ نَبْذَةً)).

فَمِنَ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي (صَحِيحِهِ) عَنْ مُعَاوِيَةَ حَيْثُ قَالَ: (بَابُ الْأُمَرَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ). حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَلَغَ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ عِنْدَهُ فِي وَفْدٍ مِنْ قُرَيْشٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مَلِكٌ مِنْ قَحْطَانَ فَغَضِبَ، فَقَامَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِنْكُمْ يُحَدِّثُونَ أَحَادِيثَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا تُؤْثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُولَئِكَ جُهَّالُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَالْأَمَانِيَّ الَّتِي تُضِلُّ أَهْلَهَا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ([1]))). انْتَهَى مِنْ (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) بِلَفْظِهِ.

وَمَحَلُّ الشَّاهِدِ مِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: ((مَا أَقَامُوا الدِّينَ)) لِأَنَّ لَفْظَةَ ((مَا)) فِيهِ مَصْدَرِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ، مُقَيِّدَةٌ لِقَوْلِهِ: ((إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ))، وَتَقْرِيرُ الْمَعْنَى: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ مُدَّةَ إِقَامَتِهِمُ الدِّينَ، وَمَفْهُومُهُ: أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُقِيمُوهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ. وَهَذَا هُوَ التَّحْقِيقُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ.

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي (فَتْحِ الْبَارِي) فِي الْكَلَامِ عَلَى حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ هَذَا مَا نَصُّهُ: وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ نَظِيرَ مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ، ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ، فَذَكَرَ قِصَّةَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَبَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ، وَفِيهَا: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ مَا أَطَاعُوا اللَّهَ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِهِ. وَقَدْ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ:

الْأَوَّلُ: وَعِيدُهُمْ بِاللَّعْنِ إِذَا لَمْ يُحَافِظُوا عَلَى الْمَأْمُورِ بِهِ. كَمَا فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَهُ حَيْثُ قَالَ: ((الْأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ مَا فَعَلُوا ثَلَاثًا: مَا حَكَمُوا فَعَدَلُوا))، الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: ((فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ([2])))، وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَقْتَضِي خُرُوجَ الْأَمْرِ عَنْهُمْ.

الثَّانِي: وَعِيدُهُمْ بِأَنْ يُسَلَّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ يُبَالِغُ فِي أَذِيَّتِهِمْ. فَعِنْدَ أَحْمَدَ وَأَبِي يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ: ((إِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَمْرِ مَا لَمْ تُحْدِثُوا، فَإِذَا غَيَّرْتُمْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى الْقَضِيبُ([3]))).

الثَّالِثُ: الْإِذْنُ فِي الْقِيَامِ عَلَيْهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَالْإِيذَانُ بِخُرُوجِ الْأَمْرِ عَنْهُمْ. وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ذِي مِخْبَرٍ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْمُعْجَمَةِ وَفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ بَعْدَهُمَا رَاءٌ - وَهُوَ ابْنُ أَخِي النَّجَاشِيِّ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي حِمْيَرَ فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَصَيَّرَهُ فِي قُرَيْشٍ، وَسَيَعُودُ لَهُمْ([4])))، وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ، وَهُوَ شَاهِدٌ قَوِيٌّ لِحَدِيثِ الْقَحْطَانِيِّ؛ فَإِنَّ حِمْيَرَ يَرْجِعُ نَسَبُهَا إِلَى قَحْطَانَ، وَبِهِ يَقْوَى أَنَّ مَفْهُومَ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ: ((مَا أَقَامُوا الدِّينَ))، أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُقِيمُوا الدِّينَ خَرَجَ الْأَمْرُ عَنْهُمْ. انْتَهَى.

١- (قلت): البخاري (٣٥٠٠).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٨٩): صحيح لغيره.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٣٥٩)، والحديث بتمامه: ((أما بعد يا معشر قريش! فإنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحى هذا القضيب)).

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٤٦٣).

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، الَّذِي أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ، إِنَّهُ سَيَكُونُ مَلِكٌ مِنْ قَحْطَانَ إِذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما يَعْنِي بِهِ الْقَحْطَانِيَّ الَّذِي صَحَّتِ الرِّوَايَةُ بِمُلْكِهِ، فَلَا وَجْهَ لِإِنْكَارِهِ لِثُبُوتِ أَمْرِهِ فِي الصَّحِيحِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ[1])). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (كِتَابِ الْفِتَنِ) فِي (بَابِ تَغَيُّرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ)، وَفِي (كِتَابِ الْمَنَاقِبِ) فِي (بَابِ ذِكْرِ قَحْطَانَ)، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي (كِتَابِ الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ) فِي (بَابٍ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْمَيِّتِ مِنَ الْبَلَاءِ)، وَهَذَا الْقَحْطَانِيُّ لَمْ يُعْرَفِ اسْمُهُ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: اسْمُهُ جَهْجَاهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اسْمُهُ شُعَيْبُ بْنُ صَالِحٍ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْكَلَامِ عَلَى حَدِيثِ الْقَحْطَانِيِّ هَذَا مَا نَصُّهُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَجِّ أَنَّ الْبَيْتَ يُحَجُّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ: وَتَقَدَّمَ الْجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ: ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُحَجَّ الْبَيْتُ، وَأَنَّ الْكَعْبَةَ يُخَرِّبُهَا ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ[2]))، فَيَنْتَظِمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَبَشَةَ إِذَا خَرَّبَتِ الْبَيْتَ خَرَجَ عَلَيْهِمُ الْقَحْطَانِيُّ فَأَهْلَكَهُمْ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ ذَلِكَ يَحُجُّونَ فِي زَمَنِ عِيسَى بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَلَاكِهِمْ، وَأَنَّ الرِّيحَ الَّتِي تَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ تَبْدَأُ بِمَنْ بَقِيَ بَعْدَ عِيسَى وَيَتَأَخَّرُ أَهْلُ الْيَمَنِ بَعْدَهَا.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِمَّا يُفَسَّرُ بِهِ قَوْلُهُ: ((الْإِيمَانُ يَمَانٌ)): أَيْ يَتَأَخَّرُ الْإِيمَانُ بِهَا بَعْدَ فَقْدِهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ. وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ حَدِيثَ الْقَحْطَانِيِّ عَقِبَ حَدِيثِ تَخْرِيبِ الْكَعْبَةِ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ فَلَعَلَّهُ رَمَزَ إِلَى هَذَا. انْتَهَى مِنْهُ بِلَفْظِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَنِسْبَةُ الْعِلْمِ إِلَيْهِ أَسْلَمُ.

الثَّانِي: مِنْ شُرُوطِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ: كَوْنُهُ ذَكَرًا وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَيَدُلُّ لَهُ مَا ثَبَتَ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ فَارِسًا مَلَّكُوا ابْنَةَ كِسْرَى قَالَ: ((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً[3])).

الثَّالِثُ: مِنْ شُرُوطِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ كَوْنُهُ حُرًّا. فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا، وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.

فَإِنْ قِيلَ: وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ إِمَامَةِ الْعَبْدِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ[4])).

وَلِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْحُصَيْنِ: ((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ[5])).

وَلِمُسْلِمٍ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: ((أَوْصَانِي خَلِيلِي أَنْ أُطِيعَ وَأَسْمَعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ[1])). فَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ:

١- (قلت): البخاري (٧١١٧ و٣٥١٧)، مسلم (٢٩١٠).

٢- (قلت): البخاري (١٥٩١)، مسلم (٢٩٠٩).

٣- (قلت): البخاري (٤٤٢٥ و ٧٠٩٩).

٤- (قلت): البخاري (٧١٤٢).

٥- (قلت): مسلم (١٨٣٨ / ٣٧)، والحديث بتمامه: ((وَلَو اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا)).

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ قَدْ يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِمَا لَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ، فَإِطْلَاقُ الْعَبْدِ الْحَبَشِيِّ لِأَجْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُتَصَوَّرُ شَرْعًا أَنْ يَلِيَ ذَلِكَ، ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ هَذَا الْجَوَابَ عَنِ الْخَطَّابِيِّ، وَيُشْبِهُ هَذَا الْوَجْهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}[٤٣ \ ٨١] عَلَى أَحَدِ التَّفْسِيرَاتِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِاسْتِعْمَالِ الْعَبْدِ الْحَبَشِيِّ أَنْ يَكُونَ مُؤَمَّرًا مِنْ جِهَةِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ عَلَى بَعْضِ الْبِلَادِ وَهُوَ أَظْهَرُهَا، فَلَيْسَ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْعَبْدِ؛ نَظَرًا لِاتِّصَافِهِ بِذَلِكَ سَابِقًا مَعَ أَنَّهُ وَقْتَ التَّوْلِيَةِ حُرٌّ، وَنَظِيرُهُ إِطْلَاقُ الْيُتْمِ عَلَى الْبَالِغِ بِاعْتِبَارِ اتِّصَافِهِ بِهِ سَابِقًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} الْآيَةَ [٤ \ ٢]، وَهَذَا كُلُّهُ فِيمَا يَكُونُ بِطَرِيقِ الِاخْتِيَارِ. أَمَّا لَوْ تَغَلَّبَ عَبْدٌ حَقِيقَةً بِالْقُوَّةِ فَإِنَّ طَاعَتَهُ تَجِبُ؛ إِخْمَادًا لِلْفِتْنَةِ، وَصَوْنًا لِلدِّمَاءِ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ كَمَا تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وَالْمُرَادُ بِالزَّبِيبَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَاحِدَةُ الزَّبِيبِ الْمَأْكُولِ الْمَعْرُوفِ الْكَائِنِ مِنَ الْعِنَبِ إِذَا جَفَّ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّشْبِيهِ: التَّحْقِيرُ وَتَقْبِيحُ الصُّورَةِ؛ لِأَنَّ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ إِذَا وَجَبَا لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى الْوُجُوبِ عَلَى كُلِّ حَالٍ إِلَّا فِي الْمَعْصِيَةِ كَمَا يَأْتِي، وَيُشْبِهُ قَوْلُهُ ﷺ: ((كَأَنَّهُ زَبِيبَةٌ)) قَوْلَ الشَّاعِرِ يَهْجُو شَخْصًا أَسْوَدَ:

دَنِسُ الثِّيَابِ كَأَنَّ فَرْوَةَ رَأْسِهِ ... غُرِسَتْ فَأَنْبَتَ جَانِبَاهَا فُلْفُلَا

الرَّابِعُ: مِنْ شُرُوطِهِ أَنْ يَكُونَ بَالِغًا، فَلَا تَجُوزُ إِمَامَةُ الصَّبِيِّ إِجْمَاعًا لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى الْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ.

الْخَامِسُ: أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا، فَلَا تَجُوزُ إِمَامَةُ الْمَجْنُونِ، وَلَا الْمَعْتُوهِ، وَهَذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ.

السَّادِسُ: أَنْ يَكُونَ عَدْلًا، فَلَا تَجُوزُ إِمَامَةُ فَاسِقٍ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[٢ \ ١٢٤]، وَيَدْخُلُ فِي اشْتِرَاطِ الْعَدَالَةِ اشْتِرَاطُ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ الْعَدْلَ لَا يَكُونُ غَيْرَ مُسْلِمٍ.

السَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا مِنْ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ، مُجْتَهِدًا يُمْكِنُهُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ اسْتِفْتَاءِ غَيْرِهِ فِي الْحَوَادِثِ.

الثَّامِنُ: أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ غَيْرَ زَمِنٍ وَلَا أَعْمَى وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَدُلُّ لِهَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ، أَعْنِي: الْعِلْمَ وَسَلَامَةَ الْجِسْمِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي طَالُوتَ: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ}[٢ \ ٢٤٧].

التَّاسِعُ: أَنْ يَكُونَ ذَا خِبْرَةٍ وَرَأْيٍ حَصِيفٍ بِأَمْرِ الْحَرْبِ، وَتَدْبِيرِ الْجُيُوشِ، وَسَدِّ الثُّغُورِ، وَحِمَايَةِ بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَدْعِ الْأُمَّةِ، وَالِانْتِقَامِ مِنَ الظَّالِمِ، وَالْأَخْذِ لِلْمَظْلُومِ. كَمَا قَالَ لَقِيطٌ الْإِيَادِيُّ: [الْبَسِيطُ]

وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمْ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُطَّلِعَا

١- (قلت): مسلم (١٨٣٧).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((مجدع الأطراف)): أي مقطع الأطراف والجدع القطع والمجدع أردأ العبيد لخسته وقلة قيمته ومنفعته ونفرة الناس منه.

الْعَاشِرُ: أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَا تَلْحَقُهُ رِقَّةٌ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَلَا فَزَعَ مِنْ ضَرْبِ الرِّقَابِ وَلَا قَطْعِ الْأَعْضَاءِ، وَيَدُلُّ ذَلِكَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ. قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ.

(مَسَائِلُ)

الْأُولَى: إِذَا طَرَأَ عَلَى الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ فِسْقٌ، أَوْ دَعْوَةٌ إِلَى بِدْعَةٍ. هَلْ يَكُونُ ذَلِك سَبَبًا لِعَزْلِهِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهِ أَوْ لَا؟ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِذَا صَارَ فَاسِقًا، أَوْ دَاعِيًا إِلَى بِدْعَةٍ جَازَ الْقِيَامُ عَلَيْهِ لِخَلْعِهِ. وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقِيَامُ عَلَيْهِ لِخَلْعِهِ إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ كُفْرًا بَوَاحًا عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ.

فَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: ((إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ[١])).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ)) قَالُوا: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: ((لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، إِلَّا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ[٢])).

وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) أَيْضًا: مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مِنْ رَضِيَ وَتَابَعَ)). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: ((لَا مَا صَلَّوْا[٣])).

١- (قلت): البخاري (٧٠٥٦)، مسلم (١٧٠٩).

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((بايعنا)): المراد بالمبايعة المعاهدة وهي مأخوذة من البيع لأن كل واحد من المتبايعين كان يمد يده إلى صاحبه وكذا هذه البيعة تكون بأخذ الكف، ((إلا أن تروا كفرا بواحا)): أي جهارا من باح بالشيء يبوح إذا أعلنه، ((عندكم من الله فيه برهان)): أي حجة تعلمونها من دين الله تعالى قال النووي معنى الحديث لا تنازعوا ولا ة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين.

٢- (قلت): مسلم (١٨٥٥).

٣- (قلت): مسلم (١٨٥٤/ ٦٢).

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون)) هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة بالإخبار بالمستقبل ووقع ذلك كما أخبر ﷺ وأما قوله ﷺ: ((فمن عرف برئ))، وفي الرواية التي بعدها ((فمن كره فقد برئ))، فأما رواية من روى ((فمن كره فقد برئ)): فظاهرة ومعناها من كره ذلك المنكر فقد برئ عن إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه فليكرهه بقلبه وييرأ، وأما من روى ((فمن عرف برئ)): فمعناها والله أعلم فمن عرف المنكر ولم يشتبه عليه فقد صارت له طريق إلى البراءة من إثمه وعقوبته بأن يغيره بيده أو بلسانه، فإن عجز فليكرهه بقلبه؛ وقوله:((ولكن من رضى وتابع)): معناه ولكن الإثم والعقوبة على من رضى وتابع؛ وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما يأثم بالرضا به، أو بأن لا يكرهه بقلبه، أو بالمتابعة عليه، وأما قوله: ((ألا نقاتلهم قال لا ما صلوا)): ففيه معنى ما سبق أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئًا من قواعد الإسلام.

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرِهَهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً(١))).

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً(٢))). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

فَهَذِهِ النُّصُوصُ تَدُلُّ عَلَى مَنْعِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ مُرْتَكِبًا لِمَا لَا يَجُوزُ، إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ الْكُفْرَ الصَّرِيحَ الَّذِي قَامَ الْبُرْهَانُ الشَّرْعِيُّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنَّهُ كُفْرٌ بَوَاحٌ؛ أَيْ: ظَاهِرٌ بَادٍ لَا لَبْسَ فِيهِ.

وَقَدْ دَعَا الْمَأْمُونُ وَالْمُعْتَصِمُ وَالْوَاثِقُ إِلَى بِدْعَةِ الْقَوْلِ: بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَعَاقَبُوا الْعُلَمَاءَ مِنْ أَجْلِهَا بِالْقَتْلِ، وَالضَّرْبِ، وَالْحَبْسِ، وَأَنْوَاعِ الْإِهَانَةِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِوُجُوبِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ. وَدَامَ الْأَمْرُ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةٍ حَتَّى وَلِيَ الْمُتَوَكِّلُ الْخِلَافَةَ، فَأَبْطَلَ الْمِحْنَةَ، وَأَمَرَ بِإِظْهَارِ السُّنَّةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَجْمَعَ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِإِمَامٍ وَلَا غَيْرِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا لَبْسَ فِيهَا، وَلَا مَطْعَنَ كَحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ(٣))). أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي السَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ أَمِيرُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فِي النَّارِ: ((لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ(٤)))، وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: {وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}[٦٠ \ ١٢].

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: هَلْ يَجُوزُ نَصْبُ خَلِيفَتَيْنِ كِلَاهُمَا مُسْتَقِلٌّ دُونَ الْآخَرِ؟ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

الْأَوَّلُ: قَوْلُ الْكَرَّامِيَّةِ بِجَوَازِ ذَلِكَ مُطْلَقًا مُحْتَجِّينَ بِأَنَّ عَلِيًّا وَمُعَاوِيَةَ كَانَا إِمَامَيْنِ وَاجِبَي الطَّاعَةِ كِلَاهُمَا عَلَى مَنْ مَعَهُ، وَبِأَنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَقْوَمَ بِمَا لَدَيْهِ وَأَضْبَطَ لِمَا يَلِيهِ. وَبِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ بَعْثُ نَبِيَّيْنِ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى إِبْطَالِ النُّبُوَّةِ كَانَتِ الْإِمَامَةُ أَوْلَى.

١- (قلت): البخاري (٧٠٥٤)، مسلم (١٨٤٩).

٢- (قلت): مسلم (١٨٥١). والحديث بتمامه: جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ، زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ، أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)).

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: (عبد الله بن مطيع) هو عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي القرشي كان ممن خلع يزيد وخرج عليه وكان يوم الحرة قائد قريش كما كان عبد الله بن حنظلة قائد الأنصار إذ خرج أهل المدينة لقتال مسلم بن عقبة المري الذي بعثه يزيد لقتال أهل المدينة وأخذهم بالبيعة له فلما ظفر أهل الشام بأهل المدينة انهزم عبد الله ولحق بابن الزبير بمكة وشهد معه الحصر الأول وبقي معه إلى أن حصر الحجاج ابن الزبير فقاتل ابن مطيع معه يومئذ وهو يقول:

أنا الذي فررت يوم الحرّة ... والحر لا يفر إلا مره

يا حبذا الكرة بعد الفره ... لأجزين فرة بكره

((لا حجة له)): أي لا حجة له في فعله ولا عذر له ينفعه.

٣- (قلت): البخاري (٢٩٥٥)، مسلم (١٨٣٩).

٤- (قلت): البخاري (٧١٤٥)، مسلم (١٨٤٠).

الْقَوْلُ الثَّانِي: قَوْلُ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَعَدُّدُ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ، بَلْ يَجِبُ كَوْنُهُ وَاحِدًا، وَأَنْ لَا يَتَوَلَّى عَلَى قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ إِلَّا أُمَرَاؤُهُ الْمُوَلَّوْنَ مِنْ قِبَلِهِ، مُحْتَجِّينَ بِمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا([1]))).

وَلِمُسْلِمٍ أَيْضًا: مِنْ حَدِيثِ عَرْفَجَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ([2]))). وَفِي رِوَايَةٍ: ((فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ)).

وَلِمُسْلِمٍ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: ((وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ([3]))) ثُمَّ قَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَعَاهُ قَلْبِي.

وَأَبْطَلُوا احْتِجَاجَ الْكَرَّامِيَّةِ بِأَنَّ مُعَاوِيَةَ أَيَّامَ نِزَاعِهِ مَعَ عَلِيٍّ لَمْ يَدَّعِ الْإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا ادَّعَى وِلَايَةَ الشَّامِ بِتَوْلِيَةِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ: إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ فِي عَصْرِهِمَا عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ أَحَدُهُمَا فَقَطْ لَا كُلٌّ مِنْهُمَا. وَأَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا أَقْوَمَ بِمَا لَدَيْهِ، وَأَضْبَطَ لِمَا يَلِيهِ، وَبِجَوَازِ بَعْثِ نَبِيَّيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، يَرُدُّهُ قَوْلُهُ ﷺ: ((فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا))؛ وَلِأَنَّ نَصْبَ خَلِيفَتَيْنِ يُؤَدِّي إِلَى الشِّقَاقِ وَحُدُوثِ الْفِتَنِ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: التَّفْصِيلُ، فَيُمْنَعُ نَصْبُ إِمَامَيْنِ فِي الْبَلَدِ الْوَاحِدِ وَالْبِلَادِ الْمُتَقَارِبَةِ، وَيَجُوزُ فِي الْأَقْطَارِ الْمُتَنَائِيَةِ كَالْأَنْدَلُسِ وَخُرَاسَانَ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَا نَصُّهُ: لَكِنْ إِنْ تَبَاعَدَتِ الْأَقْطَارُ وَتَبَايَنَتْ كَالْأَنْدَلُسِ وَخُرَاسَانَ، جَازَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. انْتَهَى مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي كَلَامِهِ: نَصْبُ خَلِيفَتَيْنِ، وَمِمَّنْ قَالَ بِجَوَازِ ذَلِكَ: الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ، وَالْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قُلْتُ: وَهَذَا يُشْبِهُ حَالَ الْخُلَفَاءِ؛ بَنِي الْعَبَّاسِ بِالْعِرَاقِ، وَالْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ، وَالْأُمَوِيِّينَ بِالْمَغْرِبِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: هَلْ لِلْإِمَامِ أَنْ يَعْزِلَ نَفْسَهُ؟ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَهُ ذَلِكَ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ كَانَ عَزْلُهُ لِنَفْسِهِ لِمُوجِبٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ كَإِخْمَادِ فِتْنَةٍ كَانَتْ سَتَشْتَعِلُ لَوْ لَمْ يَعْزِلْ نَفْسَهُ، أَوْ لِعِلْمِهِ مِنْ نَفْسِهِ الْعَجْزَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ، فَلَا نِزَاعَ فِي جَوَازِ عَزْلِ نَفْسِهِ. وَلِذَا أَجْمَعَ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الثَّنَاءِ عَلَى سِبْطِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما بِعَزْلِ نَفْسِهِ وَتَسْلِيمِهِ الْأَمْرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، بَعْدَ أَنْ بَايَعَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ؛ حَقْنًا لِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ قَبْلَ وُقُوعِهِ جَدُّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ((إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ([4]))) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه.

١- (قلت): مسلم (١٨٥٣).

٢- (قلت): مسلم (١٨٥٢).

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((وأمركم جميع)): أي مجتمع، ((أن يشق عصاكم)): معناه يفرق جماعتكم كما تفرق العصا المشقوقة وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس.

٣- (قلت): مسلم (١٨٤٤ / ٤٦).

٤- (قلت): البخاري (٢٧٠٤).

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: هَلْ يَجِبُ الْإِشْهَادُ عَلَى عَقْدِ الْإِمَامَةِ؟

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَا يَجِبُ؛ لِأَنَّ إِيجَابَ الْإِشْهَادِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ مِنَ النَّقْلِ. وَهَذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يَجِبُ الْإِشْهَادُ عَلَيْهِ؛ لِئَلَّا يَدَّعِي مُدَّعٍ أَنَّ الْإِمَامَةَ عُقِدَتْ لَهُ سِرًّا، فَيُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى الشِّقَاقِ وَالْفِتْنَةِ.

وَالَّذِينَ قَالُوا بِوُجُوبِ الْإِشْهَادِ عَلَى عَقْدِ الْإِمَامَةِ، قَالُوا: يَكْفِي شَاهِدَانِ خِلَافًا لِلْجُبَّائِيِّ فِي اشْتِرَاطِهِ أَرْبَعَةَ شُهُودٍ وَعَاقِدًا وَمَعْقُودًا لَهُ، مُسْتَنْبِطًا ذَلِكَ مِنْ تَرْكِ عُمَرَ الْأَمْرَ شُورَى بَيْنَ سِتَّةٍ فَوَقَعَ الْأَمْرُ عَلَى عَاقِدٍ، وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَمَعْقُودٍ لَهُ، وَهُوَ عُثْمَانُ وَبَقِيَ الْأَرْبَعَةُ الْآخَرُونَ شُهُودًا، وَلَا يَخْفَى ضَعْفُ هَذَا الِاسْتِنْبَاطِ كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الْقُرْطُبِيُّ وَابْنُ كَثِيرٍ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال ابن العثيمين: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}: واستفهام الملائكة للاستطلاع، والاستعلام، وليس للاعتراض؛ قال تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون يعني: وستتغير الحال؛ ولا تكون كالتي سبقت.

{ونحن نسبح}: أي ننزهك؛ والذي ينزه الله عنه شيئان؛ أولًا: النقص؛ والثاني: النقص في كماله؛ وزد ثالثًا إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا ينزه الله عنه؛ النقص: مطلقًا؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبدًا. لا وصفًا دائمًا، ولا خبرًا؛ والنقص في كماله: فلا يمكن أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعتريها عجز؛ قوته: لا يمكن أن يعتريها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان ... وهلم جرا؛ ولهذا قال عز وجل: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب}[ق: ٣٨]: أي تعب، وإعياء؛ فهو عز وجل كامل الصفات لا يمكن أن يعتري كماله نقص؛ ومماثلة المخلوقين: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفردها بالذكر، فقال: {ليس كمثله شيء}[الشورى: ١١]، وقال تعالى: {وله المثل الأعلى}، وقال تعالى: {فلا تضربوا لله الأمثال}[النحل: ٧٤]؛ وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول. النقص. لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصًا، كما قال القائل:.{ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا}، لو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تبين أن السيف هذا رديء، وليس بشيء؛ فربما نفرد هذا القسم الثالث، وربما ندخله في القسم الأول؛ على كل حال التسبيح ينبغي لنا. عندما نقول: (سبحان الله)، أو: (أسبح الله)، أو ما أشبه ذلك. أن نستحضر هذه المعاني.

{بحمدك}: قال العلماء: الباء هنا للمصاحبة؛ أي تسبيحًا مصحوبًا بالحمد مقرونًا به؛ فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة، وتعظيمًا؛ فإن وصفت مرة أخرى بكمال فسمه ثناء؛ والدليل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال: {الحمد لله رب العالمين}، قال تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: {الرحمن الرحيم}، قال تعالى: أثنى علي عبدي([1]))؛ لأن نفي النقص يكون قبل إثبات الكمال من أجل أن يرد الكمال على محل خال من النقص.

١- (قلت): مسلم (٣٩٥).

قال الطبري: أما قوله: {ونحن نسبِّح بحمدك}: فإنه يعني: إنا نعظِّمك بالحمد لك والشكر، كما قال جل ثناؤه: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}[النصر: ٣]، وكما قال: {وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}[الشورى: ٥]، وكل ذكر لله عند العرب فتسبيحٌ وصلاة.

{وَنُقَدِّسُ لَكَ}: والتقديس هو التطهير والتعظيم، ومنه قولهم: (سُبُّوح قُدُّوس)، يعني بقولهم : (سُبوح)، تنزيهٌ لله، وبقولهم: (قُدوسٌ)، طهارةٌ له وتعظيم. ولذلك قيل للأرض: (أرض مُقدسة)، يعني بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذًا: {ونحن نسبِّح بحمدك}، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهلُ الشرك بك، ونصلي لك. {ونقدس لك}، ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك. وقد قيل: إن تقديس الملائكة لربها صَلاتها له.

عن قتادة، في قوله: {ونقدس لك}، قال: التقديسُ: الصلاة([١]). وعن مجاهد، في قول الله: {ونقدس لك}، قال نعظّمك ونكبِّرك([٢]).

وأما قول من قال: إن التقديس الصلاة أو التعظيم، فإن معنى قوله ذلك راجع إلى المعنى الذي ذكرناه من التطهير، من أجل أنّ صلاتها لربها تعظيم منها له، وتطهير مما ينسبه إليه أهل الكفر به.

قال ابن العثيمين: (التقديس): معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على (التنزيه)؛ لأن (التنزيه) تبرئة، وتخلية؛ و(التطهير أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: ((اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب؛ اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس؛ اللهم اغسلني من خطاياي بالماء، والثلج، والبرد([٣]))): فالأول: طلب المباعدة؛ والثاني: طلب التنقية. يعني: التخلية بعد المباعدة؛ والثالث: طلب الغسل بعد التنقية حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تنزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص، وتطهيره. أنه لا أثر إطلاقا لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص.

قوله تعالى: {لك} اللام هنا للاختصاص؛ فتفيد الإخلاص؛ وهي أيضا للاستحقاق؛ لأن الله جل وعلا أهل لأن يقدس.

أجابهم الله تعالى: {قال إني أعلم ما لا تعلمون}: أي من أمر هذه الخليفة التي سيكون منها النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون.

١- الأثر: في ابن كثير ١: ١٢٩، والدر المنثور ١: ٤٦، والشوكاني ١: ٥٠

٢- الأثر: - في ابن كثير ١: ١٢٩، والدر المنثور ١: ٤٦.

٤- أخرجه البخاري ٥٩ كتاب الآذان باب ٨٤ رفع اليدين إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع حديث ، ٧٤٤ وأخرجه مسلم ص١٧٧ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب ٢٧ باب يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة حديث ١٣٥٤ (١٤٧) ٥٩٨ واللفظ لمسلم.

قال السعدي: فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٣٧ : فهذه كالمناظرة من الملائكة والجواب عن سؤالهم، كأنهم قالوا إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها، فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك، فأجابهم تعالى عن هذا السؤال، بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد، مصالح وحِكَمًا لا تعلمونها أنتم، فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين، وعمر بهم الجنة، وميز الخبيث من ذريته من الطيب، فعمر بهم النار.

وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم يكن للملائكة تعلمه، ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خص به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريمًا له وتعظيمًا له وإظهار لفضله.

وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله، فمنها امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة، كما فعل سبحانه ذلك بموسى لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض، فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث، وهذه سنته تعالى في خليقته وهو الحكيم العليم.

ومنها خيره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة، فابتدأه بالجبر والفضل ثم جاءت المحنة والبلية والذل، وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين إنعام قبلها وبعدها ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء وجعل العاقبة لهم، فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها استخراجه تعالى ما كان كامنًا في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود، فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامنًا في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلم منه، ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيها، بل على وقوع معلومة، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهرًا للخبث والكفر الذي كان كامنًا فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه، فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافيًا عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريمًا لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض، وجبرًا له وتأديبًا للملائكة، وإظهارًا لما كان مستخفيًا في نفس إبليس، وكان ذلك سببًا لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم، ثم إنه سبحانه لما علم أدم ما

علمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه، فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جوابًا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء، فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات القول لله عز وجل، وأنه بحرف، وصوت؛ وهذا مذهب السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وأئمة الهدى من بعدهم؛ يؤخذ كونه بحرف من قوله تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة}؛ لأن هذه حروف؛ ويؤخذ كونه بصوت من أنه خاطب الملائكة بما يسمعونه؛ وإثبات القول لله على هذا الوجه من كماله سبحانه وتعالى؛ بل هو من أعظم صفات الكمال: أن يكون عز وجل متكلما بما شاء كونًا وشرعًا؛ متى شاء؛ وكيف شاء؛ فكل ما يحدث في الكون فهو كائن بكلمة {كن}؛ لقوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}[يس: ٨٢]؛ وكل الكون مراد له قدرًا؛ وأما قوله الشرعي: فهو وحيه الذي أوحاه إلى رسله، وأنبيائه.

٢- أن الملائكة ذوو عقول؛ ووجهه أن الله تعالى وجه إليهم الخطاب، وأجابوا؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلى من يعقله؛ ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلام، والجواب عليه؛ وإنما نبهنا على ذلك؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا: إن الملائكة ليسوا عقلاء.

٣- إثبات الأفعال لله عز وجل أي أنه تعالى يفعل ما شاء متى شاء كيف شاء؛ ومن أهل البدع من ينكر ذلك زعمًا منه أن الأفعال حوادث؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء، ولا يستوي على العرش، ولا ينزل، ولا يتكلم، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يعجب؛ وهذه دعوى فاسدة من وجوه:

الأول: أنها في مقابلة نص؛ وما كان في مقابلة نص فهو مردود على صاحبه.

الثاني: أنها دعوى غير مسلمة؛ فإن الحوادث قد تقوم بالأول الذي ليس قبله شيء.

الثالث: أن كونه تعالى فعالًا لما يريد من كماله، وتمام صفاته؛ لأن من لا يفعل إما أن يكون غير عالم، ولا مريد؛ وإما أن يكون عاجزًا؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالى.. فتعجب كيف أتي هؤلاء من حيث ظنوا أنه تنزيه لله عن النقص؛ وهو في الحقيقة غاية النقص!!! فاحمد ربك على العافية، واسأله أن يعافي هؤلاء مما ابتلاهم به من سفه في العقول، وتحريف للمنقول.

٤- أن بني آدم يخلف بعضهم بعضًا على أحد الأقوال في معنى {خليفة}؛ وهذا هو الواقع؛ فتجد من له مائة مع من له سنة واحدة، وما بينهما؛ وهذا من حكمة الله عز وجل؛ لأن الناس لو من ولد بقي لضاقت الأرض بما رحبت، ولما استقامت الأحوال، ولا حصلت الرحمة للصغار، ولا الولاية عليهم إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

٥- قيام الملائكة بعبادة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}.

٦- كراهة الملائكة للإفساد في الأرض؛ لقولهم: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}.

٧- أن وصف الإنسان نفسه بما فيه من الخير لابأس به إذا كان المقصود مجرد الخبر دون الفخر؛ لقولهم: {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}؛ ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر[١]))؛ وأما إذا كان المقصود الفخر، وتزكية النفس بهذا فلا يجوز؛ لقوله تعالى: {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى}[النجم: ٣٢].

٨- شدة تعظيم الملائكة لله عز وجل، حيث قالوا: {ونحن نسبِّح بحمدك ونقدِّس لك}.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)

قال السعدي: ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى، أن يبين لهم من فضل آدم، ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه.

قال ابن العثيمين: {وعلم آدم}: الفاعل هو الله عز وجل؛ و{آدم}، هو أبو البشر؛ و{الأسماء}، جمع (اسم)؛ و{أل} فيها للعموم بدليل قوله تعالى: {كلها}؛ وهل هذه الأسماء أسماء لمسمَّيات حاضرة؛ أو لكل الأسماء؟ للعلماء في ذلك قولان؛ والأظهر أنها أسماء لمسميات حاضرة بدليل قوله تعالى: {ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء}؛ وهذه الأسماء. والله أعلم. ما يحتاج إليها آدم، وبنوه في ذلك الوقت.

قال ابن كثير: هَذَا مَقَامٌ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ شَرَفَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، بِمَا اخْتَصَّهُ بِهِ مِنْ عِلم أَسْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُمْ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ سُجُودِهِمْ لَهُ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ هَذَا الْفَصْلَ عَلَى ذَاكَ، لِمُنَاسَبَةِ مَا بَيْنَ هَذَا الْمَقَامِ وَعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِحِكْمَةِ خَلْقِ الْخَلِيفَةِ، حِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا الْمَقَامَ عَقِيبَ هَذَا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ شَرَفَ آدَمَ بِمَا فُضِّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا}.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا}، قَالَ: هِيَ هذه الأسماء التي تعارف بِهَا النَّاسُ: إِنْسَانٌ، وَدَابَّةٌ، وَسَمَاءٌ، وَأَرْضٌ، وَسَهْلٌ، وَبَحْرٌ، وَجَمَلٌ ، وَحِمَارٌ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا}، قَالَ: عَلَّمَهُ اسْمَ كُلِّ دَابَّةٍ، وَكُلِّ طَيْرٍ، وَكُلِّ شَيْءٍ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ.

١- القرآن، باب ١٧: ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم ٣١٤٨؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٩، كتاب الزهد، باب ٣٧: ذكر الشفاعة، حديث رقم ٤٣٠٨؛ ومدار الحديث على علي بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، والحديث صحيح بطرقه وشواهده، منها ما أخرجه الدارمي في المقدمة بمعناه ٣٩/١، حديث رقم ٤٧؛ وما أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٣٥٥/٢ - ٣٥٦، وقال الألباني في تخريجه: صحيح الإسناد ٣٥٦/٢، وقال في صحيح الترمذي: صحيح ٧١/٣، حديث رقم ٢٥١٦ - ٣٣٦٩.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٩ص٥٨: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا. وَقَدْ مَيَّزَ كُلَّ مُسَمًّى بِاسْمِ يَدُلُّ عَلَى مَا يَفْصِلُهُ مِنْ الْجِنْسِ الْمُشْتَرَكِ وَيَخُصُّهُ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَيُبَيِّنُ بِهِ مَا يَرْسُمُ مَعْنَاهُ فِي النَّفْسِ. وَمَعْرِفَةُ حُدُودِ الْأَسْمَاءِ وَاجِبَةٌ؛ لِأَنَّهُ بِهَا تَقُومُ مَصْلَحَةُ بَنِي آدَمَ فِي النُّطْقِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لَهُمْ، لَا سِيَّمَا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كُتُبِهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ كَالْخَمْرِ وَالرِّبَا.

قال الشنقيطي: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ} يَعْنِي مُسَمَّيَاتِ الْأَسْمَاءِ لَا الْأَسْمَاءَ كَمَا يُتَوَهَّمُ مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَنَّهَا الْمُسَمَّيَاتُ بِقَوْلِهِ: {أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ}، الْآيَةَ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

قال ابن العثيمين: ولأن الميم علامة جمع العاقل؛ فلم تعلم الملائكة أسماء تلك المسميات؛ بل كان جوابهم: {سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا}، ثم قال تعالى: {يا آدم أنبئهم بأسمائهم}: وأراد عز وجل بذلك أن يعرف الملائكة أنهم ليسوا محيطين بكل شيء علمًا، وأنهم يفوتهم أشياء يفضلهم آدم فيها.

قال الطبري: قوله: {فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ}: {أنبئوني}: أخبروني.

عن ابن عباس: {أنبئوني}، يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء.

عن مجاهد في قول الله: {بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ} ، قال: بأسماء هذه التي حدَّثتُ بها آدمَ.

عن ابن عباس: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل في الأرض خليفة.

عن ابن عباس – وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: {إن كنتم صادقين}، أنّ بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

قال ابن العثيمين: {أنبئوني}: هل هو فعل أمر يراد به قيام المأمور بما وجه إليه، أو هو تحد؟

الجواب: الظاهر الثاني: أنه تحد؛ بدليل قوله تعالى: {إن كنتم صادقين}، أن لديكم علما بالأشياء فأنبئوني بأسماء هؤلاء؛ لأن الملائكة قالت فيما سبق: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}، فقال تعالى: {إني أعلم ما لا تعلمون}، ثم امتحنهم الله بهذا.

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، تأويلُ ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك: فقال أنبئوني بأسماء من عرضتُه عليكم أيتها الملائكة – القائلون: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا، أم منّا؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عَصَاني ذريته وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني، واتّبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس. فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم من خلقي، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم، وعَلِمه غيركم بتعليمي إيّاه؛ فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بَعدُ، وبما هو مستتر من الأمور – التي هي موجودة – عن أعينكم أحرى أن تكونوا غير عالمين، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم، فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي.

وهذا الفعل من الله جل ثناؤه بملائكته – الذين قالوا له: {أتجعل فيها من يفسد فيها}، من جهة عتابه جل ذكره إياهم – نظيرُ قوله جل جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه إذ قال: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قال ينوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين}[هود:٤٥، ٤٦]. فكذلك الملائكة سألت ربها أن تكون خُلفاءه في الأرض ليسبّحوه ويقدسوه فيها، إذ كان ذرية من أخبرهم أنه جاعلُه في الأرض خليفةً، يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فقال لهم جل ذكره: {إني أعلم ما لا تعلمون}، يعني بذلك: إني أعلم أنّ بعضكم فاتحُ المعاصي وخاتِمُها، وهو إبليس، منكرًا بذلك تعالى ذكره قولهم. ثم عرّفهم موضع هَفوتهم في قيلهم ما قالوا من ذلك، بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عيانًا، – فكيف بما لم يروه ولم يُخبَروا عنه؟ – بعرَضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ، وقيله لهم: {أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين} أنكم إن استخلفتكم في أرضي سبّحتموني وقدستموني، وإن استخلفت فيها غيرَكم عَصَاني ذُريته وأفسدوا وسفكوا الدماء. فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم، وبدت لهم هَفوة زَلتهم، أنابوا إلى الله بالتوبة فقالوا: {سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا}، فسارعوا الرجعة من الهفوة، وبادروا الإنابة من الزلة، كما قال نوح – حين عوتب في مسألته فقيل له: لا تسألنِ ما ليس لك به علم: {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[هود: ٤٧]. وكذلك فعلُ كل مسدَّد للحق موفَّق له – سريعة إلى الحق إنابته، قريبة إليه أوْبته.

قال ابن العثيمين: {سبحانك}: أي تنزيهًا لك عما لا يليق بجلالك؛ فأنت يا ربنا لم تفعل هذا إلا لحكمة بالغة.

{لا علم لنا إلا ما علمتنا}: اعتراف من الملائكة أنهم ليسوا يعلمون إلا ما علمهم الله، هذا مع أنهم ملائكة مقربون إلى الله عز وجل.

قال الطبري: عن ابن عباس: {قالوا سبحانك}: تنزيهًا لله من أن يكون أحدٌ يعلم الغيبَ غيرُه، تُبنا إليك {لا علم لنا إلا ما عَلَّمتنا}، تبرّيًا منهم من علم الغيب، {إلا ما علّمتنا} كما علمت آدم.

وسُبحان مصدر لا تصرُّف له. ومعناه: نسبِّحك، كأنهم قالوا: نسبحك تسبيحًا، وننزهك تنزيهًا، ونبرّئك من أن نعلم شيئًا غير ما علمتنا.

قال ابن العثيمين: {إنك أنت العليم الحكيم}: هذه الجملة مؤكدة بـ{إن}، وضمير الفصل: {أنت}؛ والمعنى: إنك ذو العلم الواسع الشامل المحيط بالماضي والحاضر، والمستقبل؛ و{الحكيم}: يعني ذا الحكمة، والحكم؛ لأن الحكيم مشتقة من الحكم، والحكمة؛ فهذان اسمان من أسماء الله عز وجل: {العليم}، و{الحكيم}.

قال الطبري: أنك أنت يَا ربنا العليمُ من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون جميع خلقك. وذلك أنّهم نَفَوْا عن أنفسهم بقولهم: {لا علم لنا إلا ما علَّمتنا}، أن يكون لهم علم إلا ما علمهم ربهم،

وأثبتوا ما نَفَوْا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم: {إنك أنتَ العليم}، يعنون بذلك العالم من غير تعليم، إذ كان مَنْ سوَاك لا يعلم شيئًا إلا بتعليم غيره إياه. والحكيم: هو ذو الحكمة.

عن ابن عباس: {العليم} الذي قد كمل في علمه، و{الحكيم} الذي قد كمل في حُكمه(١).

وقد قيل، إن معنى الحكيم: الحاكم، كما أنّ العليم بمعنى العالم، والخبير بمعنى الخابر.

قال السعدي: {العليم}: الذي أحاط علما بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

قال الدكتور محمود عبدالرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى: إسم الله {العليم}: فقد سمى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه مع اجتماع علامات الاسم فيه، كقوله: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[البقرة: ١٣٧]، فمرة يرد الاسم مقترنًا باسم الله السميع: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[العنكبوت: ٦٠]، {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[فصلت: ٣٦].

وفي مرات أخرى يرد الاسم مقترنًا باسم الله الحكيم كقوله: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ}[الزخرف: ٨٤]، {قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ}[الذريات: ٣٠]، ومرة يرد الاسم مقترنًا باسم الله القدير كقوله: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ}[الروم: ٥٤]، ومرة يرد الاسم مقترنا باسم الله العزيز كقوله: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}[الأنعام: ٩٦]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ}[الزخرف: ٩]، ومرة يرد الاسم مقترنًا باسم الله الخبير كقوله: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ}[التحريم: ٣]، ومرة يرد الاسم مقترنًا باسم الله الخلاق كقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاقُ العَلِيمُ}[الحجر: ٨٦]، {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلاقُ العَلِيمُ}[يس: ٨١]، ومقترنًا باسم الله الفتاح كقوله: {قُل يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ}[سبأ: ٢٦].

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ، ((لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَلِيمُ الحَلِيمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ(٢))).

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِي رضي الله عنه أنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ ثُمَّ يَقُولُ: ((سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ))، ثُمَّ يَقُولُ: لاَ إِلَهَ

١- الخبر: في الدر المنثور ١: ٤٩، والشوكاني ١: ٥٢ .

٢- (قلت): البخاري (٧٤٢٦).

إلاَّ اللَّهُ، ثَلاَثًا)) ثُمَّ يَقُولُ: ((اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا ، ثَلاَثًا: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ([1]))، ثُمَّ يَقْرَأُ.

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبان بن عُثْمَان بنَ عَفَّانَ عن أبيه أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُمْسِيَ([2]))، قَالَ راوي الحديث: (فَأَصَابَ أَبَانَ بْنَ عُثْمَانَ الفَالِجُ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ الَّذِي سَمِعَ مِنْهُ الحَدِيثَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ؟ فَوَ اللَّهِ مَا كَذَبْتُ عَلَى عُثْمَانَ وَلاَ كَذَبَ عُثْمَانُ عَلَى النَّبِي ﷺ، وَلَكِنَّ اليَوْمَ الَّذِي أَصَابَنِي فِيهِ مَا أَصَابَنِي غَضِبْتُ فَنَسِيتُ أَنْ أَقُولَهَا).

واسم الله {العليم} يدلُّ على ذات الله وصفة العلم بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة العلم وحدها بدلالة التضمن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية، والعلو القوة، والقدرة والعزة، وكل ما يلزم لقيام صفة العلم وما تؤدي إليه.

وعلم الله عز وجل له مراتب، منها علمه بالشيء قبل كونه وهو سر الله في خلقة، ضن به ربنا سبحانه وتعالى، لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهو علم مفاتح الغيب وتقدير الأمور، كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، {قُل لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}، ومن مراتب العلم علمه بالشيء وهو في اللوح المحفوظ بعد كتابته وقبل إنفاذ مشيئته، فالله عز وجل كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، فالمخلوقات في اللوح عبارة عن كلمات، وتنفيذ ما في اللوح من معلومات تضمنتها الكلمات، مرهون بمشيئته في تحديد الأوقات المناسبة لأنواع الابتلاءات التي يحدثها لخلقه، وكل ذلك عن علمه بما في اللوح من حسابات وتقديرات، يقول تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}[الحج: ٧٠]، وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُل مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[الحديد: ٢٣]، ومن مراتب العلم علمه بالشيء حال كونه وتنفيذه، وخلقه وتصنيعه، كما قال تعالى: {اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ}، {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ}[سبأ: ٢]، ومن مراتب العلم علمه بالشيء بعد كونه وتخليقه وإحاطته الكاملة بعد تمامه وفنائه، فالله عز وجل لما قال: {وَهُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٧٧٥).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في تخريج المختارة (٢٩١- ٢٩٢)، التعليق الرغيب (٢٢٦ / ١ - ٢٢٧).

تَعْمَلُونَ}[الأنعام: ٦٠]، {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}[قّ: ٤]، {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}[التوبة: ٧٨]، فالله عز وجل عالم بما كان وما هو كائن وما سيكون وما لو كان كيف يكون على ما اقتضته حكمته البالغة.

كيف ندعو الله باسمه {العليم} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في صحيح البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: ((لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَلِيمُ الحَلِيمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ)).

أما دعاء العبادة فهو اعتقاد يدفع إلى الإيمان بأنه مهما بلغ عمله فهو إلى علم الله أحوج، فيتواضع إلى علمه ويلين إلى خلقه بزيادة التقوى التي هي باب العلم ومفتاحها: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٨٢]، {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عَلِيمٌ}[يوسف: ٧٦]، كما أنه يسعد بتعليم الناس ابتغاء وجه الله الذي منحه وأعطاه من علمه، ورد في سنن الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ أنه قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ(١))).

قال السعدي: {الحكيم}: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئًا إلا لحكمة: ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا، واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم؛ وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: إسم الله {الحكيم}: فقد سمى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وسماه به رسوله ﷺ أيضًا في النصوص النبوية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما ورد في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[البقرة: ١٢٩]، واسمه {الحكيم} في أغلب النصوص ورد مقترنًا باسمه {العزيز} كقوله: {هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[آل عمران: ٦]، {إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[آل عمران: ٦٢]، {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ}[آل عمران: ١٢٦]، وورد أيضًا مقترنًا باسمه (الخبير)، واسمه (العليم): {الحَمْدُ لِلهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ}[سبأ: ١]، {وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ}[الأنعام: ١٨]، {وَهُوَ الذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٢١٣).

العَلِيمُ}[الزخرف: ٨٤]، {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلمَ لَنَا إِلا مَا عَلمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ}[البقرة: ٣٢]، {قَالَ بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ}[يوسف: ٨٣].

وعند البخاري ومسلم ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَلاَ وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ؟ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}، قَالَ: فَيُقَالُ لِي إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ([1]))).

و{الحكيم}: اسم يدل على صيغة تعظيم لصاحب الحكمة، و{الحكيم} في حق الله تعالى بمعنى العليم بالأشياء الذي أوجدها على غاية الإحكام والإتقان والكمال، وهو الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويعلم خواصها ومنافعها، وهو الخبير بحقائق الأمور الذي يعلم ما خفي من أنواع العلوم، أما الحكمة في حق العباد فهي الصواب في القول والعمل بقدر طاقة البشر، وقد تحدثنا فيما سبق عن مناظرة جرت بين أبي الحسن الأشعري وشيخه أبي علي الجبائي في رجل أبي علي الجبائي، فقال له: هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلًا، فقال الجبائي: لا لأن العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حق الله محال، فامتنع الإطلاق، فقال أبو الحسن الأشعري: فقلت له: فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيمًا لأن هذا الاسم مشتق من الحكمة والحكمة مشتقة من حكمة اللجام وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضربُ حين تختلط الدماء

وقول الآخر: أبني حنيفة حكموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكمو أن أغضبا

أي: نمنع بالقوافي من هجانا، وامنعوا سفهاءكم.

فإذا كان اللفظ مشتقًّا من المنع، والمنع على الله محال، لزمك أن تمنع إطلاق حكيم على الله سبحانه وتعالى، قال: فلم يجب الجبائي إلا أنه قال لي: فلم منعت أنت أن يسمى الله سبحانه عاقلًا وأجزت أن يسمى حكيمًا؟ قال: فقلت له: لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي فأطلقت حكيمًا لأن الشرع أطلقه ومنعت عاقلًا لأن الشرع منعه ولو أطلقه الشرع لأطلقته.

كيف ندعو الله باسمه {الحكيم} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في صحيح مسلم من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أنه قَالَ: ((جَاءَ أعرابي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ عَلِّمْنِي كَلاَمًا أَقُولُهُ، قَالَ: ((قُل لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ

١- (قلت): البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠)، واللفظ له مع زيادة: (وَفِي حَدِيثِ وَكِيعٍ وَمُعَاذٍ – ((فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ))).

شَرِيكَ لَهُ اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ))، قَالَ: فَهَؤُلاَءِ لِرَبِّي فَمَا لِي؟ قَالَ: قُلِ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وارحمني وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي([١]))).

أما دعاء العبادة، فهو اختيار العبد لمنهج الله دليلًا وهاديًا، لعلمة أن الكمال في اتباعه وأن الله وضعه عن علم وحكمة فشتان بين منهج من وضع علماء البشر ومنهج من وضع الحكيم الخبير، يقول: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}، ف(الحكيم) من البشر هو الذي اتبع منهج الحكمة ووحد الله في اسمه {الحكيم}: {كَمَا أَرْسَلنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٥١]، {يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ}[البقرة: ٢٦٩]، {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}[آل عمران: ١٦٤]، كما أنه من دعاء العبادة أن يدعو المسلم إلى ربه بالحكمة: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ}[النحل: ١٢٥].

قال الطبري: وهذا خبر من الله جل ذكره عن ملائكته، بالأوبة إليه، وتسليم علم ما لم يعلموه له، وتبرِّيهم من أن يعلموا أو يعلم أحد شيئًا إلا ما علّمه تعالى ذكره.

وفي هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبرَ، والذكرى لمن ادكر، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد، عمّا أودع الله جل ثناؤه آيَ هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن.

وذلك أن الله جل ثناؤه احتجّ فيها لنبيه ﷺ على من كان بين ظَهْرَانَيْه من يهود بني إسرائيل، باطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن جل ثناؤه أطلعَ عليها من خلقه إلا خاصًّا، ولم يكن مُدرَكًا علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به فمن عنده، ودلّ فيها على أنّ كل مخبر خبرًا عما قد كان – أو عما هو كائن مما لم يكنْ، ولم يأته به خبر، ولم يُوضَع له على صحّته برهان، – فمتقوّلٌ ما يستوجبُ به من ربه العقوبة. ألا ترى أنّ الله جل ذكره ردّ على ملائكته قِيلَهم: {أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدماءَ ونَحنُ نُسبح بحمدك ونقدسُ لك قال إني أعلمُ ما لا تعلمونَ}، وعرفهم أن قِيلَ ذلك لم يكن جائزًا لهم، بما عرّفهم من قصور علمهم عند عرضه ما عرض عليهم من أهل الأسماء، فقال: {أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتمْ صادقين}. فلم يكن لهم مَفزَعٌ إلا الإقرارُ بالعجز، والتبرّي إليه أن يعلموا إلا ما علّمهم، بقولهم: {سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علّمتنا}. فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة، على كذب مقالة كلّ من ادعى شيئًا من علوم الغيب من الحُزاة والكهنة والعافةِ

١- (قلت): مسلم (٢٦٩٦).

والمنجِّمة[١]. وذكَّر بها الذين وَصَفنا أمرَهم من أهل الكتاب – سوالفَ نعمه على آبائهم، وأياديَه عند أسلافهم، عند إنابتهم إليه، وإقبالهم إلى طاعته، مُستعطفَهم بذلك إلى الرشاد، ومُستعتِبَهم به إلى النجاة. وحذَّرهم – بالإصرار والتمادي في البغي والضلال – حلولَ العقاب بهم، نظيرَ ما أحلّ بعدوِّه إبليس، إذ تمادَى في الغيّ والخَسَار.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١– بيان أن الله تعالى قد يمنُّ على بعض عباده بعلم لا يعلمه الآخرون؛ وجهه: أن الله علم آدم أسماء مسميات كانت حاضرة، والملائكة تجهل ذلك.

٢– أن اللغات توقيفية. وليست تجريبية؛ (توقيفية) بمعنى أن الله هو الذي علم الناس إياها؛ ولولا تعليم الله الناس إياها ما فهموها؛ وقيل: إنها (تجريبية) بمعنى أن الناس كونوا هذه الحروف والأصوات من التجارب، فصار الإنسان أولًا أبكم لا يدري ماذا يتكلم، لكن يسمع صوت الرعد، يسمع حفيف الأشجار، يسمع صوت الماء وهو يسيح على الأرض، وما أشبه ذلك؛ فاتَّخذ مما يسمع أصواتًا تدلُّ على مراده؛ ولكن هذا غير صحيح؛ والصواب أن اللغات مبدؤها توقيفي؛ وكثير منها كسبي تجريبي يعرفه الناس من مجريات الأحداث؛ ولذلك تجد أن أشياء تحدث ليس لها أسماء من قبل، ثم يحدث الناس لها أسماء؛ إما من التجارب، أو غير ذلك من الأشياء.

٣– جواز امتحان الإنسان بما يدعي أنه مجيد فيه.

٤– جواز التحدي بالعبارات التي يكون فيها شيء من الشدة؛ لقوله تعالى: {أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين}.

٥– أن الملائكة تتكلم؛ لقوله تعالى: {أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}.

٦– اعتراف الملائكة. عليهم الصلاة والسلام. بأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله عز وجل.. ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يدعي علم ما لم يعلم.

٧– شدة تعظيم الملائكة لله عز وجل، حيث اعترفوا بكماله، وتنزيهه عن الجهل بقولهم: {سبحانك}؛ واعترفوا لأنفسهم بأنهم لا علم عندهم؛ واعترفوا لله بالفضل في قولهم: {إلا ما علمتنا}.

٨– إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {العليم}، و{الحكيم}؛ فـ{العليم}: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلًا لما كان، وما يكون من أفعاله، وأفعال خلقه.

١- الحزاة جمع حاز: وهو كالكاهن، يحرز الأشياء ويقدرها بظنه. ويقال للذي ينظر في النجوم ويتكهن حاز وحزاء، وفي حديث هرقل أنه (كان حزاء)، وفي الحديث: ((كان لفرعون حاز))، أي كاهن. والكهنة جمع كاهن: وهو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار. وفي المطبوعة (والقافة) مكان (والعافة)، وهو خطأ بين، فالقيافة ليست مما أراد الطبري في شيء، وهي حق، لا باطل كباطل التحزي والكهانة والتنجيم. والعافة جمع عائف: وهو الذي يعيف الطير فيزجرها ويتفاءل أو يتشاءم بأسمائها وأصواتها وممرها. واسم حرفته: العيافة، وفي الحديث: ((العيافة والطرق من الجبت)). وهو ضرب من الكهانة. والمنجم والمتنجم: الذي ينظر في النجوم يحسب مواقيتها وسيرها، ثم يربط بين ذلك وبين أحوال الدنيا والناس، فيقول بالظن في غيب أمورهم.

و{الحكيم}: ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء وإن كانت قد تدرك شيئًا منها؛ و(الحكمة) هي وضع الشيء في موضعه اللائق به؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله؛ أما الحكمة في شرعه فإن جميع الشرائع مطابقة للحكمة في زمانها، ومكانها، وأحوال أممها؛ فما أمر الله بشيء، فقال العقل الصريح: (ليته لم يأمر به)؛ وما نهى عن شيء، فقال: (ليته لم ينه عنه)؛ وأما الحكمة في قدره فما من شيء يقدره الله إلا وهو مشتمل على الحكمة إما عامة؛ وإما خاصة.

واعلم أن الحكمة تكون في نفس الشيء: فوقوعه على الوجه الذي حكم الله تعالى به في غاية الحكمة؛ وتكون في الغاية المقصودة منه: فأحكام الله الكونية، والشرعية كلها لغايات محمودة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة؛ والأمثلة على هذا كثيرة واضحة.

ولـ{الحكيم} معنى آخر؛ وهو ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب لحكمه؛ وحكمه تعالى نوعان: شرعي، وقدري؛ فأما الشرعي فوحيه الذي جاءت به رسله؛ ومنه قوله تعالى: {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون}[المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: {ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم}[الممتحنة: ١٠]؛ وأما حكمه القدري فهو ما قضى به قدرًا على عباده من شدة، ورخاء، وحزن، وسرور، وغير ذلك؛ ومنه قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف: {فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين}[يوسف: ٨٠].

والفرق بين الحكم الشرعي، والكوني: أن الشرعي لا يلزم وقوعه ممن حكم عليه به؛ ولهذا يكون العصاة من بني آدم، وغيرهم المخالفون لحكم الله الشرعي؛ وأما الحكم القدري فلا معارض له، ولا يخرج أحد عنه؛ بل هو نافذ في عباده على كل حال.

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

قال ابن العثيمين: {قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم}؛ القائل هو الله عز وجل؛ و{آدم}: هو أبو البشر؛ والظاهر أن هذا اسم له، وليس وصفًا؛ وهو مشتق لغة من الأدمة؛ وهي لون بين البياض الخالص والسواد.

قال الطبري: إن الله – جل ثناؤه – عَرّف ملائكته الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء في الأرض، ووصَفوا أنفسهم بطاعته والخضوع لأمره، دونَ غيرهم الذين يُفسدون فيها ويسفكون الدماء – أنهم، من الجهل بمواقع تدبيره ومحلّ قَضَائه، قَبل اطلاعه إياهم عليه، على نحو جهلهم بأسماء الذين عَرَضهم عليهم، إذ كان ذلك مما لم يعلمهم فيعلموه،

وأنهم وغيرهم من العباد لا يعلمون من العلم إلا ما علَّمهم إياه ربهم، وأنّه يخصّ بما شاء من العلم من شاء من الخلق، ويمنعه منهم من شاء، كما علَّم آدم أسماء ما عرض على الملائكة، ومنعهم علمها إلا بعد تعليمه إياهم.

{فلما أنبأهم}: يقول: فلما أخبر آدمُ الملائكةَ بأسماء الذين عرضهم عليهم، فلم يَعرفوا أسماءهم، وأيقنوا خَطأ قيلهم: {أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماءَ ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك}، وأنهم قَد هَفوْا في ذلك وقالوا ما لا يعلمون كيفية وقوع قضاء ربهم في ذلك لو وقع، على ما نطقوا به، قال لهم ربهم: {ألم أقلْ لكُم إنّي أعلمُ غَيبَ السموات والأرض}. والغيب: هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه؛ توبيخًا من الله جل ثناؤه لهم بذلك، على ما سلف من قيلهم، وَفرَط منهم من خطأ مَسألتهم.

عن ابن عباس: {قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم}، يقول: أخبِرهم بأسمائهم، {فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقلْ لكم} أيها الملائكة خَاصة {إنّي أعلم غيبَ السموات والأرض} ولا يعلمه غيري .

قال ابن العثيمين: {قال}: أي قال الله؛ {ألم أقل لكم}: الاستفهام هنا للتقرير؛ والمعنى: قلت لكم، كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك}[الشرح: ١]: والمعنى قد شرحنا لك صدرك؛ {إني أعلم غيب السموات والأرض}: أي ما غاب فيهما. وهو نوعان: نسبي؛ وعام؛ فأما النسبي فهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض؛ وأما العام فهو ما غاب عن الخلق عمومًا.

{وأعلم ما تبدون}: أي ما تظهرون؛ {وما كنتم تكتمون}: أي تخفون.

قال الطبري: عن ابن عباس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: {وأعلمُ ما تبدون وما كنتم تكتمون}، قال: قولهم: {أتجعل فيها من يُفسد فيها}، فهذا الذي أبدَوْا، {وما كنتم تكتمون}، يعني ما أسرّ إبليس في نفسه من الكِبْر(١).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات القول لله عز وجل لقوله تعالى: {يا آدم}؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأن آدم سمعه، وفهمه، فأنبأ الملائكة به؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح. أن الله يتكلم بكلام مسموع مترتب بعضه سابق لبعض.

٢- أن آدم. عليه الصلاة والسلام. امتثل، وأطاع، ولم يتوقف؛ لقوله تعالى: {فلما أنبأهم}؛ ولهذا طوى ذكر قوله: (فأنبأهم) إشارة إلى أنه بادر، وأنبأ الملائكة.

٣- جواز تقرير المخاطب بما لا يمكنه دفعه؛ والتقرير لا يكون إلا هكذا. أي بأمر لا يمكن دفعه؛ وذلك لقوله تعالى: {ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض}.

١- الخبر: في ابن كثير ١: ١٣٥، والدر المنثور ١: ٥٠ والشوكاني ١: ٥٢.

٤- بيان عموم علم الله عز وجل، وأنه يتعلق بالمشاهد، والغائب؛ لقوله تعالى: {أعلم غيب السموات والأرض}.

٥- أن السموات ذات عدد؛ لقوله تعالى: {السموات}؛ و{الأرض}، جاءت مفردة، والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن}[الطلاق: ١٢] أي في العدد.

٦- أن الملائكة لها إرادات تبدى، وتكتم؛ لقوله تعالى: {وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}.

٧- أن الله تعالى عالم بما في القلوب سواء أبدي أم أخفي؛ لقوله تعالى: {ما تبدون وما كنتم تكتمون}.

فإن قال قائل: ما الدليل على أن الملائكة لها قلوب؟.

فالجواب: قوله تعالى: {حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير}[سبأ: ٢٣].

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

قال ابن العثيمين: {وإذ قلنا}: يعني اذكر إذ قلنا؛ ومثل هذا التعبير يتكرر كثيرًا في القرآن، والعلماء يقدرون لفظ: (اذكر)، وهم بحاجة إلى هذا التقدير؛ لأن {إذ} ظرفية؛ والظرف لا بد له من شيء يتعلق به إما مذكورًا؛ وإما محذوفًا؛ وفي نظم الجمل: لا بد للجار من التعلق بفعل أو معناه نحو مرتقي، ومثله الظرف؛ وجاء الضمير في {قلنا} بضمير الجمع من باب التعظيم لا التعدد كما هو معلوم.

{للملائكة}: سبق الكلام على ذكر الملائكة، ومن أين اشتق هذا اللفظ.

قال ابن كثير: وَهَذِهِ كَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ امْتَنَّ بِهَا عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَحَادِيثُ – أَيْضًا – كَثِيرَةٌ مِنْهَا حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الْمُتَقَدِّمِ، وَحَدِيثُ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((رَبِّ، أَرِنِي آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا ونفسه مِنَ الْجَنَّةِ))، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ قَالَ: ((أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ[١])).

قال ابن العثيمين: {فسجدوا}: أي من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب، والتعقيب.

قال القرطبي: واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، فقال الجمهور: كان هذا أمرًا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريمًا لآدم وإظهارًا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا. ومعنى {لآدم}: إلى آدم، كما يقال صلّى للقبلة، أي إلى القبلة. وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد

١- صحيح: مسلم (٢٦٥٢).

اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل. {فَسَجَدُوا}: أي امتثلوا ما أمروا به.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٤ص٣٥٨: قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ لِآدَمَ، وَلَعْنُ الْمُمْتَنِعِ عَنْ السُّجُودِ لَهُ، وَهَذَا تَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ لَهُ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَغْبِيَاءِ: إنَّ السُّجُودَ إنَّمَا كَانَ لِلَّهِ وَجَعَلَ آدَمَ قِبْلَةً لَهُمْ، يَسْجُدُونَ إلَيْهِ كَمَا يَسْجُدُ إلَى الْكَعْبَةِ؛ وَلَيْسَ فِي هَذَا تَفْضِيلٌ لَهُ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا أَنَّ السُّجُودَ إلَى الْكَعْبَةِ لَيْسَ فِيهِ تَفْضِيلٌ لِلْكَعْبَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ حُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ حُرْمَتِهَا، وَقَالُوا: السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ مُحَرَّمٌ، بَلْ كُفْرٌ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ السُّجُودَ كَانَ لِآدَمَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَفَرْضِهِ بِإِجْمَاعِ مَنْ يُسْمَعُ قَوْلُهُ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: {لِآدَمَ}، وَلَمْ يَقُلْ: إلَى آدَمَ. وَكُلُّ حَرْفٍ لَهُ مَعْنَى، وَمِنْ التَّمْيِيزِ فِي اللِّسَانِ أَنْ يُقَالَ: سَجَدْت لَهُ، وَسَجَدْت إلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[فصلت: ٣٧]، وَقَالَ: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[الرعد: ١٥].

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ مُحَرَّمٌ، وَأَمَّا الْكَعْبَةُ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ صَلَّى إلَى الْكَعْبَةِ، وَكَانَ يُصَلِّي إلَى عَنَزَةٍ، وَلَا يُقَالُ لِعَنَزَةٍ وَإِلَى عَمُودِ شَجَرَةٍ وَلَا يُقَالُ: لِعَمُودِ وَلَا لِشَجَرَةٍ؛ وَالسَّاجِدُ لِلشَّيْءِ يَخْضَعُ لَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَخْشَعُ لَهُ بِفُؤَادِهِ؛ وَأَمَّا السَّاجِدُ إلَيْهِ فَإِنَّمَا يُوَلِّي وَجْهَهُ وَبَدَنَهُ إلَيْهِ ظَاهِرًا، كَمَا يُوَلِّي وَجْهَهُ إلَى بَعْضِ النَّوَاحِي إذَا أَمَّهُ، كَمَا قَالَ: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}[البقرة: ١٤٤، ١٥٠].

وَالثَّانِي: أَنَّ آدَمَ لَوْ كَانَ قِبْلَةً لَمْ يَمْتَنِعْ إبْلِيسُ مِنْ السُّجُودِ، أَوْ يَزْعُمْ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ، فَإِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ تَكُونُ أَحْجَارًا، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَفْضِيلٌ لَهَا عَلَى الْمُصَلِّينَ إلَيْهَا، وَقَدْ يُصَلِّي الرَّجُلُ إلَى عَنَزَةٍ وَبَعِيرٍ، وَإِلَى رَجُلٍ، وَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ مُفَضَّلٌ بِذَلِكَ، فَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ فَرَّ الشَّيْطَانُ؟ هَذَا هُوَ الْعَجَبُ الْعَجِيبُ!!

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ آدَمَ قِبْلَةً فِي سَجْدَةٍ وَاحِدَةٍ لَكَانَتْ الْقِبْلَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَفْضَلَ مِنْهُ بِآلَافِ كَثِيرَةٍ، إذْ جُعِلَتْ قِبْلَةً دَائِمَةً فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الصَّلَوَاتِ؛ فَهَذِهِ الْقِصَّةُ الطَّوِيلَةُ الَّتِي قَدْ جُعِلَتْ عَلَمًا لَهُ، وَمِنْ أَفْضَلِ النِّعَمِ عَلَيْهِ، وَجَاءَتْ إلَى الْعَالَمِ بِأَنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ بِهَا، وَامْتَنَّ عَلَيْهِ، لَيْسَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنَّهُ جَعَلَهُ كَالْكَعْبَةِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ!! مَعَ أَنَّ بَعْضَ مَا أُوتِيَهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَالْقُرْبِ مِنْ الرَّحْمَنِ أَفْضَلُ بِكَثِيرِ مِنْ الْكَعْبَةِ؛ وَالْكَعْبَةُ إنَّمَا وُضِعَتْ لَهُ وَلِذُرِّيَّتِهِ؛ أَفَيُجْعَلُ مِنْ جَسِيمِ النِّعَمِ عَلَيْهِ أَوْ يُشَبَّهُ بِهِ فِي شَيْءٍ نَزْرًا قَلِيلًا جِدًّا؟! هَذَا مَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: لَا يَجُوزُ السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: إنْ قِيلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عَلَى الْجُمْلَةِ فَهِيَ كَلِمَةٌ عَامَّةٌ، تَنْفِي بِعُمُومِهَا جَوَازَ السُّجُودِ لِآدَمَ، وَقَدْ دَلَّ دَلِيلٌ خَاصٌّ عَلَى أَنَّهُمْ سَجَدُوا لَهُ، وَالْعَامُّ لَا يُعَارِضُ مَا قَابَلَهُ مِنْ الْخَاصِّ. وَثَانِيهَا: أَنَّ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ حَرَامٌ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَلَا دَلِيلَ وَأَمَّا الثَّانِي فَمَا الْحُجَّةُ فِيهِ؟

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ حَرَامٌ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَوْ حَرَامٌ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ، وَالثَّانِي حَقٌّ وَلَا شِفَاءَ فِيهِ، وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُحَرَّمَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – بِهِ؟

وَرَابِعُهَا: أَبُو يُوسُفَ وَإِخْوَتُهُ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، وَيُقَالُ: كَانَتْ تَحِيَّتَهُمْ؛ فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّ السُّجُودَ حَرَامٌ مُطْلَقًا؟! وَقَدْ كَانَتْ الْبَهَائِمُ تَسْجُدُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْبَهَائِمُ لَا تَعْبُدُ اللَّهَ. فَكَيْفَ يُقَالُ يَلْزَمُ مِنَ السُّجُودِ لِشَيْءٍ عِبَادَتُهُ؟ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((وَلَوْ كُنْت آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْت الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا([1]))، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: لَوْ كُنْت آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَعْبُدَ.

وَخامسها: وَفِيهِ التَّفْسِيرُ أَنْ يُقَالَ: أَمَّا الْخُضُوعُ وَالْقُنُوتُ بِالْقُلُوبِ وَالِاعْتِرَافُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، فَهَذَا لَا يَكُونُ عَلَى الْإِطْلَاقِ إلَّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ، وَهُوَ فِي غَيْرِهِ مُمْتَنِعٌ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا السُّجُودُ فَشَرِيعَةٌ مِنْ الشَّرَائِعِ، إذْ أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نَسْجُدَ لَهُ، وَلَوْ أَمَرَنَا أَنْ نَسْجُدَ لِأَحَدِ مِنْ خَلْقِهِ غَيْرِهِ لَسَجَدْنَا لِذَلِكَ الْغَيْرِ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إذْ أَحَبَّ أَنْ نُعَظِّمَ مَنْ سَجَدْنَا لَهُ، وَلَوْ لَمْ يَفْرِضْ عَلَيْنَا السُّجُودَ لَمْ يَجِبْ أَلْبَتَّةَ فِعْلُهُ، فَسُجُودُ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ عِبَادَةٌ لِلَّهِ وَطَاعَةٌ لَهُ، وَقُرْبَةٌ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إلَيْهِ، وَهُوَ لِآدَمَ تَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ وَتَعْظِيمٌ. وَسُجُودُ إخْوَةِ يُوسُفَ لَهُ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ يُوسُفَ لَوْ سَجَدَ لِأَبَوَيْهِ تَحِيَّةً لَمْ يُكْرَهْ لَهُ.

وَلَمْ يَأْتِ أَنَّ آدَمَ سَجَدَ لِلْمَلَائِكَةِ، بَلْ لَمْ يُؤْمَرْ آدَمَ وَبَنُوهُ بِالسُّجُودِ إلَّا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَعَلَّ ذَلِكَ – وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ – لِأَنَّهُمْ أَشْرَفُ الْأَنْوَاعِ، وَهُمْ صَالِحُو بَنِي آدَمَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ أَحَدٌ يُحْسِنُ السُّجُودُ لَهُ إلَّا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُمْ أَكْفَاءٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ، فَلَيْسَ لِبَعْضِهِمْ مَزِيَّةٌ بِقَدْرِ مَا يَصْلُحُ لَهُ السُّجُودُ، وَمَنْ سِوَاهُمْ فَقَدْ سَجَدَ لَهُمْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ لِلْأَبِ الْأَقْوَمِ، وَمِنْ الْبَهَائِمِ لِلِابْنِ الْأَكْرَمِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: لَمْ يَسْبِقْ لِآدَمَ مَا يُوجِبُ الْإِكْرَامَ لَهُ بِالسُّجُودِ، فَلَغْوٌ مِنْ الْقَوْلِ، هذي بِهِ بَعْضُ مَنْ اعْتَزَلَ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ نِعَمْ اللَّهِ – تَعَالَى – وَأَيَادِيهِ وَآلَائِهِ عَلَى عِبَادِهِ لَيْسَتْ بِسَبَبٍ مِنْهُمْ، وَلَوْ كَانَتْ بِسَبَبٍ مِنْهُمْ فَهُوَ الْمُنْعِمُ بِذَلِكَ السَّبَبِ، فَهُوَ الْمُنْعِمُ بِهِ وَيَشْكُرُهُمْ عَلَى نِعَمِهِ؛ وَهُوَ – أَيْضًا – بَاطِلٌ عَلَى قَاعِدَتِهِمْ، لَا حَاجَةَ لَنَا إلَى بَيَانِهِ هَاهُنَا.

وَقَوْلُهُ: {وَلَهُ يَسْجُدُونَ}[الأعراف: ٢٠٦]، فَإِنَّهُ إنْ سُلِّمَ أَنَّهُ يُفِيدُ الْحَصْرَ، فَالْقَصْدُ مِنْهُ – وَاَللَّهُ أَعْلَمُ – الْفَصْلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَعْبُدُ غَيْرَهُ، ثُمَّ هَذَا عَامٌّ وَتِلْكَ الْآيَةُ خَاصَّةٌ فَيُسْتَثْنَى آدَمَ، ثُمَّ يُقَالُ: السُّجُودُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: سُجُودُ عِبَادَةٍ مَحْضَةٍ وَسُجُودُ تَشْرِيفٍ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَلَا يَكُونُ إلَّا لِلَّهِ، وَأَمَّا الثَّانِي: فَلِمَ قُلْت إنَّهُ كَذَلِكَ؟ وَالْآيَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْأَوَّلِ تَوْفِيقًا بَيْنَ الدَّلَائِلِ.

قال القرطبي: واختلف أيضًا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى، أم كان جائزًا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً}[يوسف: ١٠٠]، فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر

١- أبو داود في النكاح (٢١٤٠)، والترمذي في الرضاع (١١٥٩) وقال: ((حديث حسن غريب))، وابن ماجة في النكاح (١٨٥٣)، وأحمد ٣٨١/٤.

– (قلت): وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٢٥٥)، وانظر حديث رقم : (٥٢٩٥) في صحيح الجامع.

رسول الله ﷺ، روى ابن ماجة في سننه والبستي في صحيحه عن أبي واقد قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ((ما هذا)) فقال: يا رسول الله، قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك، قال: ((فلا تفعل فإني لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها حتى لو سألها نفسها وهي على قتب([1])لم تمنعه([2]))). لفظ البستي. ومعنى القتب أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة. وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة.

قلت: وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه، ضل سعيهم وخاب عملهم.

قال ابن العثيمين: {إِلَّا إبليس}: هو الشيطان؛ وسمي إبليسًا لأنه أبلس من رحمة الله. أي أيس منها يأسًا لا رجاء بعده. {أبى}: أي امتنع؛ {واستكبر}: أي صار ذا كبر.

قال السعدي: امتنع عن السجود؛ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: {أأسجد لمن خلقت طينا}، وهذا الإباء منه والاستكبار؛ نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره.

قال ابن العثيمين: (تنبيه)

إن قال قائل: في الآية إشكال. وهو أن الله تعالى لما ذكر أمر الملائكة بالسجود، وذكر أنهم سجدوا إلا إبليس؛ كان ظاهرها أن إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك؟.

والجواب: أن إبليس كان مشاركًا لهم في أعمالهم ظاهرًا، فكان توجيه الأمر شاملًا له بحسب الظاهر؛ وقد يقال: إن الاستثناء منقطع؛ والاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه.

قال الطبري: وتأويل قوله: {أَبَى}: يعني جل ثناؤه بذلك إبليس، أنه امتنع من السجود لآدم فلم يسجد له. {واستكبر}: يعني بذلك أنه تعظَّم وتكبَّر عن طاعة الله في السجود لآدم. وَالْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ دَخَلَ إِبْلِيسُ فِي خِطَابِهِمْ؛ لِأَنَّهُ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُنْصرهم - إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَدْ تشبَّه بِهِمْ وَتَوَسَّم بِأَفْعَالِهِمْ؛ فَلِهَذَا دَخَلَ فِي الْخِطَابِ لَهُمْ، وَذُمَّ فِي مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ.

١- القتب: رحل صغير على قدر السنام.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٠٣). ولفظه: عن عبد الله بن أبي أوفى قال لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ، قال: ((ما هذا يا معاذ))؟! قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال رسول الله ﷺ: ((فلا تفعلوا، فإني لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه)).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٤ص٣٤٦: وَمَذْهَبُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمَأْمُورِيْن بِالسُّجُودِ أَحَدٌ مِنْ الشَّيَاطِينِ؛ لَكِنْ أَبُوهُمْ إبْلِيسُ هُوَ كَانَ مَأْمُورًا فَامْتَنَعَ وَعَصَى، وَجَعَلَهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ لِدُخُولِهِ فِي الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ، وَبَعْضُهُمْ مِنْ الْجِنِّ لِأَنَّ لَهُ قَبِيلًا وَذُرِّيَّةً، وَلِكَوْنِهِ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَالْمَلَائِكَةُ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ بِاعْتِبَارِ صُورَتِهِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِاعْتِبَارِ أَصْلِهِ، وَلَا بِاعْتِبَارِ مِثَالِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ السُّجُودِ لِآدَمَ أَحَدٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ لَا جبرائيل وَلَا ميكائيل وَلَا غَيْرُهُمَا.

قال الطبري: وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنه تقريعٌ لضُربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق. وكان ممن تكبر عن الخضوع لأمر الله، والتذلل لطاعته، والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم اليهودُ الذين كانوا بين ظهرانيْ مُهَاجَرِ رسول الله ﷺ، وأحبارُهم الذين كانوا برسول الله ﷺ وصِفته عارفين، وبأنه لله رسولٌ عالمين. ثم استكبروا – مع علمهم بذلك – عن الإقرار بنبوّته، والإذعان لطاعته، بَغْيًا منهم له وحسدًا. فقرَّعهم الله بخبره عن إبليس الذي فعل في استكباره عن السجود لآدم حسدًا له وبغيًا، نظيرَ فعلهم في التكبر عن الإذعان لمحمد نبي الله ﷺ ونبوّته، إذ جاءهم بالحق من عند ربهم حسدًا وبغيًا. ثم وَصَف إبليس بمثل الذي وصف به الذين ضرَبه لهم مثلا في الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمرَه الله بالخضوع له.

قال الشنقيطي: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ}، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مُوجِبَ اسْتِكْبَارِهِ فِي زَعْمِهِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[٧ \ ١٢]، وَقَوْلِهِ: {قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[١٥ \ ٣٣].

(تَنْبِيهٌ)

مِثْلُ قِيَاسِ إِبْلِيسَ نَفْسَهُ عَلَى عُنْصُرِهِ، الَّذِي هُوَ النَّارُ وَقِيَاسِهِ آدَمَ عَلَى عُنْصُرِهِ، الَّذِي هُوَ الطِّينُ وَاسْتِنْتَاجُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤْمَرَ بِالسُّجُودِ لِمَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، مَعَ وُجُودِ النَّصِّ الصَّرِيحِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {اسْجُدُوا لِآدَمَ}، يُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ الْأُصُولِيِّينَ فَاسِدُ الِاعْتِبَارِ. وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِ صَاحِبِ (مَرَاقِي السُّعُودِ): (الرَّجَزُ)

وَالْخُلْفُ لِلنَّصِّ أَوْ إِجْمَاعٍ دَعَا ... فَسَادَ الِاعْتِبَارِ كُلُّ مَنْ وَعَى

فَكُلُّ مَنْ رَدَّ نُصُوصَ الْوَحْيِ بِالْأَقْيِسَةِ فَسَلَفُهُ فِي ذَلِكَ إِبْلِيسُ، وَقِيَاسُ إِبْلِيسَ هَذَا لَعَنَهُ اللَّهُ بَاطِلٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ فَاسِدُ الِاعْتِبَارِ؛ لِمُخَالَفَةِ النَّصِّ الصَّرِيحِ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا.

الثَّانِي: أَنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، بَلِ الطِّينُ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ؛ لِأَنَّ طَبِيعَتَهَا الْخِفَّةُ وَالطَّيْشُ وَالْإِفْسَادُ وَالتَّفْرِيقُ، وَطَبِيعَتَهُ الرَّزَانَةُ وَالْإِصْلَاحُ فَتُودِعُهُ الْحَبَّةَ فَيُعْطِيكَهَا سُنْبُلَةً، وَالنَّوَاةَ فَيُعْطِيكَهَا نَخْلَةً.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ الطِّينِ فَانْظُرْ إِلَى الرِّيَاضِ النَّاضِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الثِّمَارِ اللَّذِيذَةِ، وَالْأَزْهَارِ الْجَمِيلَةِ، وَالرَّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ تَعْلَمُ أَنَّ الطِّينَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ.

الثَّالِثُ: أَنَّا لَوْ سَلَّمْنَا تَسْلِيمًا جَدَلِيًّا أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ؛ لِأَنَّ شَرَفَ الْأَصْلِ لَا يَقْتَضِي شَرَفَ الْفَرْعِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْأَصْلُ رَفِيعَ الْفَرْعِ وَضِيعًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (الْبَسِيطُ)

إِذَا افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ ... قُلْنَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ الْآخَرُ: (الْمُتَقَارِبُ)

وَمَا يَنْفَعُ الْأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ ... إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ

قال الطبري: {وكان}: - يعني إبليس - {مِنَ الكافرين}: - من الجاحدين نعمَ الله عليه وأياديَه عنده، بخلافه عليه فيما أمرَه به من السجود لآدم، كما كفرت اليهود نعمَ ربِّها التي آتاها وآباءها قبلُ: من إطعام الله أسلافَهم المنّ والسلوى، وإظلال الغمام عليهم، وما لا يحصى من نعمه التي كانت لهم، خصوصًا ما خصَّ الذين أدركوا محمدًا ﷺ بإدراكهم إياه، ومشاهدتهم حجةَ الله عليهم، فجحدت نبوّته بعد علمهم به، ومعرفتهم بنبوّته حسدًا وبغيًا. فنسبه الله - جل ثناؤه - إلى {الكافرين}، فجعله من عِدَادهم في الدين والملة، وإن خالفهم في الجنس والنسبة. كما جعل أهل النفاق بعضَهم من بعض، لاجتماعهم على النفاق، وإن اختلفت أنسابهم وأجناسهم، فقال: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ}[التوبة: ٦٧]، يعني بذلك أن بعضهم من بعض في النفاق والضلال. فكذلك قوله في إبليس: {وكان من الكافرين}، كان منهم في الكُفر بالله ومخالفتِه أمرَه، وإن كان مخالفًا جنسُه أجناسَهم ونسبُه نسبهم. ومعنى قوله: {وكان من الكافرين}: أنه كان - حين أبَى عن السجود - من الكافرين حينئذ.

عن أبي العالية أنه كان يقول: في تأويل قوله: {وكان مِنَ الكافرين}، في هذا الموضع، وكان من العاصين.

قال السعدي: وفي هذه الآيات من العبر والآيات؛ إثبات الكلام لله تعالى؛ وأنه لم يزل متكلمًا؛ يقول ما شاء؛ ويتكلم بما شاء؛ وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه؛ التسليم؛ واتهام عقله؛ والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة؛ وإحسانه بهم؛ بتعليمهم ما جهلوا؛ وتنبيههم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته؛ بعلمه وحكمته.

ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم؛ وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم؛ إكرامًا له؛ لما بان فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير؛ إذا عجزوا عما امتحنوا به؛ ثم عرفه صاحب الفضيلة؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن؛ وبيان فضل آدم؛ وأفضال الله عليه؛ وعداوة إبليس له؛ إلى غير ذلك من العبر.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج١ص٥٢: وَبَيَان فضل الْعلم من هَذِه الْقِصَّة من وُجُوه:

احدها: انه سُبْحَانَهُ رد على الْمَلَائِكَة لما سَأَلُوهُ كَيفَ يَجْعَل فِي الارض من هم اطوع لَهُ مِنْهُ؟ فَ{قَالَ اني اعْلَم مَالا تعلمُونَ}، فَأجَاب سُؤَالهمْ بِأَنَّهُ يعلم من بواطن الامور وحقائقها مَالا يعلمونه وَهُوَ الْعَلِيم الْحَكِيم، فظهر من هَذَا الْخَلِيفَة من خِيَار خلقه وَرُسُله وأنبيائه وصالحي عباده وَالشُّهَدَاء وَالصديقين وَالْعُلَمَاء وطبقات أهل الْعلم والايمان من هُوَ خير من الْمَلَائِكَة، وَظهر من ابليس من هُوَ شَرّ الْعَالمين، فَأخْرج سُبْحَانَهُ هَذَا وَهَذَا، وَالْمَلَائِكَة لم يكن لَهَا علم لَا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا وَلَا بِمَا فِي خلق آدم واسكانه الارض من الحكم الباهرة.

الثَّانِي: انه سُبْحَانَهُ لما اراد اظهار تَفْضِيل آدم وتمييزه وفضله، ميزه عَلَيْهِم بِالْعلمِ، فَعلمه الاسماء كلهَا، {ثمَّ عرضهمْ على الْمَلَائِكَة فَقَالَ انبئوني بأسماء هَؤُلَاءِ إِن كُنْتُم صَادِقين}، جَاءَ فِي التَّفْسِير انهم قَالُوا: لن يخلق رَبنَا خلقا هُوَ اكرم عَلَيْهِ منا، فظنوا انهم خير وافضل من الْخَلِيفَة الَّذِي يَجعله الله فِي الارض، فَلَمَّا امتحنهم بِعلم مَا علمه لهَذَا الْخَلِيفَة، اقرّوا بِالْعَجزِ وَجَهل مَا لم يعلموه، فَقَالُوا: {سُبْحَانَكَ لَا علم لنا إِلَّا مَا علمتنا انك انت الْعَلِيم الْحَكِيم}، فَحِينَئِذٍ اظهر لَهُم فضل آدم بِمَا خصّه بِهِ من الْعلم، فَقَالَ: {يَا آدم انبئهم بأسمائهم فَلَمَّا انبأهم بِأَسْمَائِهِمْ}، أقرُّوا لَهُ بِالْفَضْلِ.

الثَّالِث: انه سُبْحَانَهُ لما ان عرفهم فضل آدم بِالْعلمِ وعجزهم عَن معرفَة مَا علمه، قَالَ لَهُم: {الم اقل لكم اني اعْلَم غيب السَّمَوَات والارض وَاعْلَم مَا تبدون وَمَا كُنْتُم تكتمون}، فعرفهم سُبْحَانَهُ نَفسه بِالْعلمِ وانه احاط علمًا بظاهرهم وَبَاطِنهمْ وبغيب السَّمَوَات والارض، فتعرف اليهم بِصفة الْعلم، وعرَّفهم فضل نبيه وكليمه بِالْعلمِ، وعجزهم عَمَّا آتَاهُ آدم من الْعلم، وَكفى بِهَذَا شرفًا للْعلم.

الرَّابِع: انه سُبْحَانَهُ جعل فِي آدم من صِفَات الْكَمَال مَا كَانَ بِهِ افضل من غَيره من الْمَخْلُوقَات، وَأَرَادَ سُبْحَانَهُ ان يظْهر لملائكته فَضله وشرفه، فأظهر لَهُم احسن مَا فِيهِ وَهُوَ علمه، فَدلَّ على ان الْعلم اشرف مَا فِي الانسان، وان فَضله وشرفه إِنَّمَا هُوَ بِالْعلمِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان فضل آدم على الملائكة؛ وجهه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيمًا له.

٢- أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة([١])؛ لأن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ ولذلك لما امتنع إبليس عن هذا كان من الكافرين. ويدل على أن المحرم إذا أمر الله تعالى به كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله؛ ولكن الله رحمه، ورحم ابنه برفع ذلك عنهما، حيث قال تعالى: {فلما أسلما وتلَّه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين}[الصافات: ١٠٣. ١٠٥]؛ ومن المعلوم أن قتل الابن من كبائر الذنوب، لكن لما أمر الله عز وجل به كان امتثاله عبادة.

١- (قلت): أي: أن السجود لغير الله تحية أو تشريفًا أو تكريمًا أو تعظيمًا - وليست عبادة - إذا كان بأمر الله فهو عبادة لله - وليست للمخلوق المسجود له -، لأن العبادة لغير الله ممتنع شرعًا.

٣- أن إبليس. والعياذ بالله. جمع صفات الذم كلها: الإباء عن الأمر؛ والاستكبار عن الحق، وعلى الخلق؛ والكفر؛ إبليس استكبر عن الحق؛ لأنه لم يمتثل أمر الله؛ واستكبر على الخلق؛ لأنه قال: {أنا خير منه}[الأعراف : ١٢]؛ فاستكبر في نفسه، وحقر غيره؛ و(الكبر) بطر الحق، وغمط الناس.

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)

قال ابن العثيمين: {قلنا}: فاعل القول هو الله عز وجل.

{اسكن أنت وزوجك}: {زوج} معطوف على الفاعل في {اسكن}؛ لأن {أنت}، توكيد للفاعل؛ وليست هي الفاعل؛ لأن {اسكن}، فعل أمر؛ وفعل الأمر لا يمكن أن يظهر فيه الفاعل؛ لأنه مستتر وجوبًا؛ وعلى هذا ف{أنت}، الضمير المنفصل توكيد للضمير المستتر؛ و{زوجك}، هي حواء، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، وغيره.

قال الطبري: ويقال لامرأة الرجل: زَوْجُه وزَوْجته، والزوجة بالهاء أكثر في كلام العرب منها بغير الهاء. والزوج بغير الهاء يقال إنه لغة لأزْد شَنوءة. فأما الزوج الذي لا اختلاف فيه بين العرب، فهو زوجُ المرأة.

قال ابن القيم: وأما الأزواج فجمع زوج. وقد يقال الزوجة. والأول أفصح. وبها جاء القرآن. قال تعالى لآدم: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}، وقال تعالى في حق زكريا: {وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ}[٢١: ٩٠].

ومن الثاني: قول ابن عباس في عائشة رضي الله عنها: (إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة).

وقال الفرزدق: وإن الذي يبغي ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشّرى يستبينها

وقد جمع على زوجات. وهذا إنما هو جمع زوجة، وإلا فجمع زوج أزواج قال تعالى: {هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ}[٣٦: ٥٦]، وقال تعالى: {أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ}[٤٣: ٧]، وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ (الزوج) مفردًا وجمعًا كما تقدم، وقال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ}[٣٣: ٦]، وقال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ}[٣٣: ٢٨].

والإخبار عن أهل الشرك لفظ (المرأة) قال تعالى: {تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} – إلى قوله – {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِها}، وقال تعالى في فرعون: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ}[٦٦، ١٠]، فلما كان هو المشرك وهي مؤمنة لم يسمها زوجًا لها. وقال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ}[٦٦: ١١]، فلما كانتا مشركتين أوقع عليهما اسم (المرأة) وقال في حق آدم: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}، وقال للنبي ﷺ: {إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ}[٣٣: ٥٠]، وقال في حق المؤمنين: {وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ}[٢: ٢٥].

قالت طائفة، منهم السهيلي وغيره: إنما لم يقل في حق هؤلاء (الأزواج). لأنهن لسن بأزواج لرجالهن في الآخرة. ولأن التزويج حلية شرعية، وهو من أمر الدين، فجرد الكافرة منه، كما جرد منه امرأة نوح وامرأة لوط.

ثم أورد السهيلي على نفسه قول زكريا: {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً}[١٩: ٥]، وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ}[٥١: ٢٩].

وأجاب: بأن ذكر المرأة أليق في هذه المواضع، لأنه في سياق ذكر الحمل والولادة. فذكر المرأة أولى به. لأن الصفة – التي هي الأنوثة – هي المقتضية للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجًا.

قلت: ولو قيل: إن السر في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ (الأزواج) أن هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه: لكان أولى. فإن (الزوجين) هما الشيئان المتشابهان المتشاكلان، والمتساويان.

ومنه قوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ}[٣٧: ٢٢]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم)، وقاله الإمام أحمد أيضًا، ومنه قوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}[٨١: ٧]، أي قرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية: (الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار)، وقاله الحسن وقتادة والأكثرون. وقيل: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين، وأنفس الكافرين بالشياطين. وهو راجع إلى القول الأول. وقال تعالى: {ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ}[٦: ١٤٣]، ثم فسرها بقوله: {مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ}، {وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ}، فجعل الزوجين هما الفردان من نوع واحد. ومنه قولهم: (زوجا خف، وزوجا حمام) ونحوه. ولا ريب ان الله سبحانه قطع المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين، قال تعالى: {لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ}[٥٩: ٢٠]، وقال تعالى: في حق مؤمن أهل الكتاب وكافرهم {لَيْسُوا سَواءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ}[٣: ١١٣] الآية، وقطع سبحانه المقارنة بينهما في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان ولا يتناكحان، ولا يتولى أحدهما صاحبه. فكما انقطعت الصلة بينهما في المعنى انقطعت في الاسم.

فأضاف فيهما (المرأة) بلفظ الأنوثة المجرد، دون لفظ المشاكلة والمشابهة.

فتأمل هذا المعنى تجده أشد مطابقة لألفاظ القرآن ومعانيه. ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، وعلى الكافرة امرأة المؤمن: لفظ (المرأة) دون لفظ (الزوجة) تحقيقًا لهذا المعنى، والله أعلم.

وهذا أولى من قول من قال: إنما سمّى صاحبة أبي لهب امرأته، ولم يقل لها (زوجته) لأن أنكحة الكفار لا يثبت لها حكم الصحة، بخلاف أنكحة أهل الإسلام.

فإن هذا باطل بإطلاق اسم (المرأة) على امرأة نوح وامرأة لوط، مع صحة ذلك النكاح.

وتأمل هذا المعنى في آية المواريث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ (الزوجة) دون (المرأة) كما في قوله تعالى: {وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ}[٤: ١٢]، إيذانًا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب. فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين.

قال ابن العثيمين: {الجنة}: هي البستان الكثير الأشجار، وسمّي بذلك لأنه مستتر بأشجاره؛ وهل المراد بـ{الجنة} جنة الخلد؛ أم هي جنة سوى جنة الخلد؟.

الجواب: ظاهر الكتاب، والسنة أنها جنة الخلد، وليست سواها؛ لأن (أل) هنا للعهد الذهني.

فإن قيل: كيف يكون القول الصحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها. وهذه أخرج منها آدم؟

فالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها: بعد البعث؛ وفي هذا يقول ابن القيم في الميمية المشهورة:

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

قال: (منازلك الأولى)؛ لأن أبانا آدم نزلها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٤ص٣٤٧: وَ{الْجَنَّةُ} الَّتِي أَسْكَنَهَا آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ هِيَ: جَنَّةُ الْخُلْدِ وَمَنْ قَالَ: إنَّهَا جَنَّةٌ فِي الْأَرْضِ بِأَرْضِ الْهِنْدِ، أَوْ بِأَرْضِ جُدَّةَ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُلْحِدِينَ، أَوْ مِنْ إخْوَانِهِمْ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُبْتَدِعِينَ، فَإِنَّ هَذَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ. وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ يَرُدَّانِ هَذَا الْقَوْلَ. وَسَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مُتَّفِقُونَ عَلَى بُطْلَانِ هَذَا الْقَوْلِ. قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} إلَى قَوْلِهِ: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُمْ بِالْهُبُوطِ وَأَنَّ بَعْضَهُمْ عَدُوٌّ لِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}. وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا أهبطوا إلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي الْأَرْضِ وَانْتَقَلُوا إلَى أَرْضٍ أُخْرَى - كَانْتِقَالِ قَوْمِ مُوسَى مِنْ أَرْضٍ إلَى أَرْضٍ - لَكَانَ مُسْتَقَرُّهُمْ وَمَتَاعُهُمْ إلَى حِينٍ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ الْهُبُوطِ وَبَعْدَهُ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْأَعْرَافِ لَمَّا قَالَ إبْلِيسُ {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا}[الأعراف: ١٢، ١٣].

فَقَوْلُهُ: {فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا}، يُبَيِّنُ اخْتِصَاصَ السَّمَاءِ بِالْجَنَّةِ بِهَذَا الْحُكْمِ؛ فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: {مِنْهَا}، عَائِدٌ إلَى مَعْلُومٍ غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي اللَّفْظِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ: {اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ}[البقرة: ٦١]، فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ هُنَاكَ مَا أهبطوا فِيهِ، وَقَالَ هُنَا: {اهْبِطُوا}، لِأَنَّ الْهُبُوطَ يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إلَى سُفْلٍ وَعِنْدَ أَرْضِ السَّرَاةِ حَيْثُ كَانَ بَنُو إسْرَائِيلَ حِيَالَ السَّرَاةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى الْمِصْرِ الَّذِي يَهْبِطُونَ إلَيْهِ. وَمَنْ هَبَطَ مِنْ جَبَلٍ إلَى وَادٍ قِيلَ لَهُ: هَبَطَ. وَأَيْضًا، فَإِنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ كَانُوا يَسِيرُونَ وَيَرْحَلُونَ، وَالَّذِي يَسِيرُ وَيَرْحَلُ إذَا جَاءَ بَلْدَةً يُقَالُ: نَزَلَ فِيهَا؛ لِأَنَّ فِي عَادَتِهِ أَنَّهُ يَرْكَبُ فِي سَيْرِهِ فَإِذَا وَصَلَ نَزَلَ عَنْ دَوَابِّهِ.

يُقَالُ: نَزَلَ الْعَسْكَرُ بِأَرْضِ كَذَا وَنَزَلَ الْقَفَلُ(١)بِأَرْضِ كَذَا؛ لِنُزُولِهِمْ عَنْ الدَّوَابِّ. وَلَفْظُ النُّزُولِ كَلَفْظِ الْهُبُوطِ، فَلَا يُسْتَعْمَلُ هَبَطَ إلَّا إذَا كَانَ مِنْ عُلُوٍّ إلَى سُفْلٍ.

١- القَفَل: الرُّفقة والجماعة في السفر.

وَقَوْلُهُ: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا} الْآيَتَيْنِ [الأعراف: ٢٣، ٢٤]، فَقَوْلُهُ هُنَا بَعْدَ قَوْلِهِ: {اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[الأعراف: ٢٤]، يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ هَبَطُوا إِلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِهَا، وَقَالَ: {فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[الأعراف: ٢٥]، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ ذَلِكَ بِمَكَانٍ فِيهِ يَحْيَوْنَ وَفِيهِ يَمُوتُونَ، وَمِنْهُ يُخْرَجُونَ، وَإِنَّمَا صَارُوا إِلَيْهِ لَمَّا أهبطوا مِنْ الْجَنَّةِ.

وَالنُّصُوصُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَكَذَلِكَ كَلَامُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((احْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحه وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ فَلِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَذُرِّيَّتَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ فَهَلْ تَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ: وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ: فَلِمَاذَا تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ فَقَالَ: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى([1]))، وَمُوسَى إنَّمَا لَامَ آدَمَ، لِمَا حَصَلَ لَهُ وَذُرِّيَّتُهُ بِالْخُرُوجِ مِنْ الْجَنَّةِ مِنْ الْمَشَقَّةِ وَالنَّكَدِ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بُسْتَانًا فِي الْأَرْضِ، لَكَانَ غَيْرُهُ مِنْ بَسَاتِينِ الْأَرْضِ يُعَوِّضُ عَنْهُ.

وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ عَلَى أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِنْ الْمَصَائِبِ، وَيَتُوبَ إلَيْهِ، وَيَسْتَغْفِرَهُ مِنْ الذُّنُوبِ والمعائب. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

قال صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية ج١ص٥٤٨: وهذه الجنة التي سكنها آدم للعلماء فيها أقوال أشهرها:

– الأول: أنها جَنَّةٌ مخلوقة في الأرض وليست بجنة الخلد.

– الثاني: أنّها الجنة المعروفة دار الكرامة عند رب العالمين.

ويُرَجِّح جماعة منهم ابن القيم وكثير من المفسرين من المعتزلة ومن أهل السنة أنَّ الجنة هذه ليست هي جنة الخلد، ولهم في ذلك أدلة طَوَّل عليها ابن القيم في أول مفتاح دار السعادة بأكثر من أربعين صحيفة في ذكر هذه المسألة.

* والصحيح أنَّ الجنة هي الجنة المعهودة لأسباب كثيرة وأدلة من القرآن ومن السنة: من أعظمها قوله – عز وجل – في وصف الجنة {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}[طه: ١١٨– ١٢٠]، إلى آخر الآيات وهذه الصفات {إن لك فيها..}، إلى آخره هذه ليست مناسبة للأرض، فالأرض وإنْ كان فيها مكان مرتفع جَنَّةْ إلى آخره مُخْتَلِفْ عن بقية الأرض فلا يوصف مَنْ فيه بهذه الصفات أنَّهُ لا يظمأ ولا يضحى، يعني ما يأتيه شمس فيها ولا يجوع ولا يعرى ونحو ذلك من الصفات، فهذه صفات تدل على أنَّ المكان مُغَايِرْ للأرض.

ومن الأدلة أنَّ الله – عز وجل – قال في ذكرها لّما عصى آدم {اهْبِطَا مِنْهَا}[طه: ١٢٣]، وهذا الإهباط والخروج يقتضي أن يكون من جهةٍ عالية، والمكان الذي هو من جنسه فإنَّه وإنْ هَبَطَ منه فإنَّه ليس خارجًا إلى غيره؛ بل هو منه

١– البخاري في القدر (٦٦١٤)، ومسلم في القدر (٢٦٥٢/١٥).

إلى جنسه ولا تحصل العقوبة بالإهباط وإنَّما العقوبة بالإخراج، والله – عز وجل – جعل في القرآن هذا وهذا، الإخراج والإهباط، إلى أدلةٍ أخرى معروفة.

قال ابن العثيمين: {وكلا}: أمر بمعنى الإباحة، والإكرام؛ {منها}: أي من هذه الجنة؛ {رغدًا}: أي أكلًا هنيًّا ليس فيه تنغيص.

قال الطبري: أما (الرَّغَد)، فإنه الواسع من العيش، الهنيء الذي لا يُعَنِّي صاحبه. يقال: أرْغد فلان: إذا أصاب واسعًا من العيش الهنيء، كما قال امرؤ القيس بن حُجْر: أيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمَا ... يَأْمَنُ الأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدْ

عن ابن عباس: {وكلا منها رغدًا حيث شئتما}، قال: الرغد: سَعة المعيشة(١).

قال ابن العثيمين: {حيث شئتما}: أي في أي مكان من هذه الجنة، ونقول أيضًا: وفي أي زمان؛ لأن قوله تعالى: {كُلا}، فعل مطلق لم يقيد بزمن..

{ولا تقربا هذه الشجرة}: أشار الله تعالى إلى الشجرة بعينها، و{أل} فيها للعهد الحضوري؛ لأن كل ما جاء بـ(أل) بعد اسم الإشارة فهو للعهد الحضوري؛ إذ إن اسم الإشارة يعني الإشارة إلى شيء قريب.

قال القرطبي: أي لا تقرباها بأكل، لأن الإباحة فيه وقعت. قال ابن العربي: سمعت الشاشي في مجلس النضر بن شميل يقول: إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء)، كان معناه لا تلبس بالفعل، وإذا كان (بضم الراء)، فإن معناه لا تدن منه.

قال ابن عطية: وهذا مثال بين في سد الذرائع. وقال بعض أرباب المعاني قوله: {ولا تقربا}، إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة، وأن سكناه فيها لا يدوم، لأن المخلد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا ينهى. والدليل على هذا قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}[البقرة : ٣٠]، فدل على خروجه منها.

قال ابن العثيمين: وهذه الشجرة غير معلومة النوع، فتبقى على إبهامها.

قال الطبري: والقول في ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر عباده أن آدم وزوجَه أكلا من الشجرة التي نهاهُما ربُّهما عن الأكل منها، فأتيا الخطيئة التي نهاهما عن إتيانها بأكلهما ما أكلا منها، بعد أن بيّن الله – جل ثناؤه – لهما عَين الشجرة التي نهاهما عن الأكل منها، وأشار لهما إليها بقوله: {ولا تقربا هذه الشجرة}، ولم يضع الله جل ثناؤه لعباده المخاطَبين بالقرآن، دلالةً على أيّ أشجار الجنة كان نهيُه آدمَ أن يقربها، بنصٍّ عليها باسمها، ولا بدلالة عليها. ولو كان لله في العلم بأيّ ذلك من أيٍّ رضًا، لم يُخل عبادَه من نَصْب دلالة لهم عليها يَصلون بها إلى معرفة عينها، ليطيعوه بعلمهم بها، كما فعل ذلك في كل ما بالعلم به له رضًا.

فالصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدمَ وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به. ولا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يَضَع لعباده دليلا على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة. فأنَّى يأتي ذلك؟ وقد قيل:

١- الخبر: في الدر المنثور ١: ٥٢ والشوكاني ١: ٥٦.

كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك عِلمٌ، إذا عُلم لم ينفع العالمَ به علمه، وإن جهله جاهل لم يضرَّه جهلُه به.

قال ابن العثيمين: {فتكونا}: وقعت جوابًا للطلب. وهو قوله تعالى: {لا تقربا}؛ فالفاء هنا للسببية؛ والفعل بعدها منصوب بـ(أن) مضمرة بعد فاء السببية؛ وقيل: إن الفعل منصوب بنفس الفاء؛ القول الأول للبصريين، والثاني للكوفيين؛ والثاني هو المختار عندنا بناء على القاعدة أنه متى اختلف علماء النحو في إعراب كلمة أو جملة فإننا: نأخذ بالأسهل ما دام المعنى يحتمله.

{من الظالمين} أي من المعتدين لمخالفة الأمر.

قال الطبري: فإنه يعني به فتكونا من المتعدِّين إلى غير ما أذِن لهم وأبيح لهم فيه، وإنما عَنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة، كنتما على منهاج من تعدَّى حُدودي، وَعصى أمري، واستحلَّ محارمي، لأن الظالمين بعضُهم أولياء بعض، والله وليّ المتقين. وأصل (الظلم) في كلام العرب، وضعُ الشيء في غير موضعه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات القول لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وقلنا يا آدم}.

٢- أن قول الله يكون بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: {يا آدم اسكن ... } إلخ؛ ولولا أن آدم يسمعه لم يكن في ذلك فائدة؛ وأيضًا هو مرتب؛ لقوله تعالى: {يا آدم اسكن أنت وزوجك}، وهذه حروف مرتبة، كما هو ظاهر؛ وإنما قلنا ذلك لأن بعض أهل البدع يقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بصوت، ولا حروف مرتبة؛ ولهم في ذلك آراء مبتدعة أوصلها بعضهم إلى ثمانية أقوال.

٣- منة الله عز وجل على آدم، وحواء حيث أسكنهما الجنة.

٤- أن النكاح سنة قديمة منذ خلق الله آدم، وبقيت في بنيه من الرسل، والأنبياء، ومن دونهم، كما قوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية}[الرعد: ٣٨].

فإن قال قائل: زوجته بنت من؟.

فالجواب: أنها خلقت من ضلعه.

فإن قال: إذا تكون بنتًا له، فكيف يتزوج ابنته؟.

فالجواب: أن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ فكما أباح أن يتزوج الأخ أخته من بني آدم الأولين؛ فكذلك أباح أن يتزوج آدم من خلقها الله من ضلعه.

٥- أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله تعالى: {وكلا منها}؛ فإن هذه للإباحة بدليل قوله تعالى: {حيث شئتما}: خيرهما أن يأكلا من أي مكان؛ ولا شك أن الأمر يأتي للإباحة؛ ولكن الأصل فيه أنه للطلب حتى يقوم دليل أنه للإباحة.

٦- أن ظاهر النص أن ثمار الجنة ليس له وقت محدود؛ بل هو موجود في كل وقت؛ لقوله تعالى: {حيث شئتما}؛ فالتعميم في المكان يقتضي التعميم في الزمان؛ وقد قال الله تعالى في فاكهة الجنة: {وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة}[الواقعة: ٣٢، ٣٣].

٧- أن الله تعالى قد يمتحن العبد، فينهاه عن شيء قد تتعلق به نفسه؛ لقوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشجرة}؛ ووجه ذلك أنه لولا أن النفس تتعلق بها ما احتيج إلى النهي عن قربانها.

٨- أنه قد ينهى عن قربان الشيء والمراد النهي عن فعله؛ للمبالغة في التحذير منه؛ فإن قوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشجرة}، المراد: لا تأكلا منها، لكن لما كان القرب منها قد يؤدي إلى الأكل نهي عن قربها.

٩- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}.

١٠- أن معصية الله تعالى ظلم للنفس، وعدوان عليها؛ لقوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}.

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)

قال ابن العثيمين: {فأزلهما الشيطان}؛ وفي قراءة: {فأزالهما}؛ والفرق بينهما أن {أزلهما}، بمعنى أوقعهما في الزلل؛ و{أزالهما}، بمعنى نحاهما؛ فعلى القراءة الأولى يكون الشيطان أوقعهما في الزلل، فزالا عنها، وأخرجا منها؛ وعلى الثانية يكون الشيطان سببًا في تنحيتهما؛ و{الشيطان}، الظاهر أنه الشيطان الذي أبى أن يسجد لآدم.

قال الطبري: {فأزلَّهما} بتشديد اللام، بمعنى: استزلَّهما، من قولك زلَّ الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه. وأزلَّه غيره: إذا سبب له ما يزلّ من أجله في دينه أو دنياه، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليسَ خُروجَ آدم وزوجته من الجنة، فقال: {فأخرجهما}: يعني إبليس {مما كانا فيه}، لأنه كانَ الذي سَبَّب لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة.

وقرأه آخرون: {فأزَالهما}، بمعنى إزَالة الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه. وسوس لهما ليقوما بمعصية الله كما فعل هو حين أبى أن يسجد لآدم ... عن ابن جُريج، قال: قال ابن عباس في تأويل قوله تعالى: {فأزلهما الشيطان}، قال: أغواهما(١).

{عنها}: أي عن الجنة؛ ولهذا قال تعالى: {فأخرجهما مما كانا فيه} من النعيم؛ لأنهما كانا في أحسن ما يكون من الأماكن.

١- الخبر: في الدر المنثور ١: ٥٣، والشوكاني ١: ٥٦.

قال الطبري: {فأخرجهما}، فإنه يعني: فأخرج الشيطانُ آدمَ وزوجته، {ممَّا كانا فيه}: يعني مما كان فيه آدمُ وزوجته من رغد العيش في الجنة، وسعة نعيمها الذي كانا فيه. وقد بينا أن الله جل ثناؤه إنما أضاف إخراجهما من الجنة إلى الشيطان – وإن كان الله هو المخرجَ لهما – لأن خروجهما منها كان عن سبب من الشيطان، فأضيف ذلك إليه لتسبيبه إياه كما يقول القائل لرجل وَصل إليه منه أذى حتى تحوّل من أجله عن موضع كان يسكنه: (ما حوَّلني من موضعي الذي كنت فيه إلَّا أنت)، ولم يكن منه له تحويل، ولكنه لما كان تحوّله عن سبب منه، جازَ له إضافة تحويله إليه.

فإن قال لنا قائل: وكيف كان استزلال إبليسُ آدمَ وزوجته، حتى أضيف إليه إخراجهما من الجنة؟

قيل: قد قالت العلماء في ذلك أقوالًا، وأولى ذلك بالحق عندنا ما كان لكتاب الله مُوافقًا. وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس أنه وسوس لآدم وزوجته ليبديَ لهما ما وُري عنهما من سَوآتهما، وأنه قال لهما: {ما نهاكما رَبكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلكين أو تكونا من الخالدين}، وأنه {قاسمَهما إني لكما لمن الناصحين}، مُدلِّيًا لهما بغرور. ففي إخباره جل ثناؤه – عن عدوّ الله أنه قاسم آدم وزوجته بقيله لهما: إني لكما لمن الناصحين – الدليلُ الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه، إما ظاهرًا لأعينهما، وإما مستجِنًا في غيره. وذلك أنه غير مَعقول في كلام العرب أن يقال: قاسم فلانٌ فلانًا في كذا وكذا. إذا سبّب له سببًا وصل به إليه دون أن يحلف له. والحلف لا يكون بتسبب السبب. فكذلك قوله: {فوسوس إليه الشيطان}، لو كان ذلك كان منه إلى آدم – على نحو الذي منه إلى ذريته، من تزيين أكل ما نهى الله آدم عن أكله من الشجرة، بغير مباشرة خطابه إياه بما استزلَّه به من القول والحيل – لما قال جلّ ثناؤه: {وقاسمَهما إني لكما لمن الناصحين}. كما غير جائز أن يقول اليوم قائلٌ ممن أتى معصية: قاسمني إبليس أنه لي ناصحٌ فيما زيَّن لي من المعصية التي أتيتها. فكذلك الذي كان من آدمَ وزوجته، لو كان على النحو الذي يكون فيما بين إبليس اليومَ وذرية آدم – لما قال جلّ ثناؤه: {وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين}، ولكن ذلك كان – إن شاء الله – على نحو ما قال ابن عباس ومن قال بقوله.

قال القرطبي: واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء – صلوات الله عليهم أجمعين – صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا – بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعًا عند القاضي أبي بكر[١]، وعند الأستاذ أبي إسحاق[٢] أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم –، فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين: تقع الصغائر منهم. خلافًا للرافضة حيث قالوا: إنهم معصومون من جميع ذلك، واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه. وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم

١– هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبوبكر الباقلاني.

٢– هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الأستاذ أبو اسحاق الإسفرايني.

وسيرهم أمرًا مطلقًا من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة أو الحظر أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية، لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين. قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني: واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة. وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول: الذي ينبغي أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك أحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات، بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فهم – صلوات الله وسلامه عليهم – وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه.

قال ابن العثيمين: {وقلنا}: أي قال الله لهما؛ {اهبطوا}: الضمير للجمع، والمراد آدم، وحواء، وإبليس؛ ولهذا قال تعالى: {بعضكم لبعض عدو}: الشيطان عدو لآدم، وحواء.

قال الطبري: يقال هَبط فلان أرضَ كذا ووادِيَ كذا، إذا حلّ ذلك، وقد أبان هذا القولُ من الله جل ثناؤه، عن صحة ما قلنا من أنّ المخرِجَ آدمَ من الجنة هو الله جل ثناؤه، وأن إضافة الله إلى إبليس ما أضاف إليه من إخراجهما، كان على ما وصفنا. ودلَّ بذلك أيضًا على أنّ هبوط آدم وزوجته وعدوهما إبليس، كان في وقت واحد، بجَمْع الله إياهم في الخبر عن إهباطهم، بعد الذي كان من خطيئة آدم وزوجته، وتسبُّب إبليس ذلك لهما، على ما وصفه ربنا جل ذكره عنهم.

قال السعدي: {بعضكم لبعض عدو}: أي: آدم وذريته؛ أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو؛ يجد ويجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق؛ وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان كما قال تعالى {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير}، {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا}.

قال القرطبي: لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له، لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته، وإنما أهبطه إما تأديبا وإما تغليظا للمحنة، والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة

الأزلية في ذلك، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي، إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة، ولله أن يفعل ما يشاء.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٣٢٢: فَإِنْ قِيلَ: وَهُوَ قَدْ تَابَ، فَلِمَاذَا بَعْدَ التَّوْبَةِ أُهْبِطَ إلَى الْأَرْضِ؟

قِيلَ: التَّوْبَةُ قَدْ يَكُونُ مِنْ تَمَامِهَا عَمَلٌ صَالِحٌ يَعْمَلُهُ فَيُبْتَلَى بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَنْظُرَ دَوَامَ طَاعَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[آل عمران: ٨٩]، فِي التَّائِبِ مِنْ الرِّدَّةِ، وَقَالَ فِي كَاتِمِ الْعِلْمِ: {إلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة : ١٦٠]، وَقَالَ: {أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[الأنعام : ٥٤]، وَقَالَ فِي الْقَذْفِ: {إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور: ٥]، وَقَالَ: {إلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إلَى اللَّهِ مَتَابًا}[الفرقان: ٧٠، ٧١]، وَقَالَ: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}[طه: ٨٢].

وَلَمَّا تَابَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَصَاحِبَاهُ، أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ بِهَجْرِهِمْ حَتَّى نِسَائِهِمْ ثَمَانِينَ لَيْلَةً، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الغامدية لَمَّا رَجَمَهَا: ((لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ(١))). وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ تَوْبَتِهِ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ حَيْثُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى: {يَا قَوْمِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ}[البقرة : ٥٤].

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ يَبْتَلِي الْعَبْدَ مِنْ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ بِمَا يَحْصُلُ مَعَهُ شُكْرُهُ وَصَبْرُهُ، أَمْ كُفْرُهُ وَجَزَعُهُ وَطَاعَتُهُ أَمْ مَعْصِيَتُهُ فَالتَّائِبُ أَحَقُّ بِالِابْتِلَاءِ، فَآدَمُ أُهْبِطَ إلَى الْأَرْضِ ابْتِلَاءً لَهُ، وَوَفَّقَهُ اللَّهُ فِي هُبُوطِهِ لِطَاعَتِهِ فَكَانَ حَالُهُ بَعْدَ الْهُبُوطِ، خَيْرًا مِنْ حَالِهِ قَبْلَ الْهُبُوطِ، وهذا بخلاف ما لو كان الإحتجاج بالقدر نافعًا له، فإنه لا يكون عليه ملام البتة ولا هناك توبة تقتضي أن يبتلى صاحبها ببلاء.

قال ابن العثيمين: {ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين}: يعني أنكم سوف تستقرون في الأرض، وسوف تتمتعون بها بما أعطاكم الله من النعم، ولكن لا على وجه الدوام؛ بل إلى حين. وهو قيام الساعة.

قال ابن عطية: واختلف المتأولون في الحين هاهنا فقالت فرقة: إلى الموت، وهذا قول من يقول المستقر هو المقام في الدنيا، وقالت فرقة: إلى حِينٍ إلى يوم القيامة، وهذا قول من يقول: المستقر هو في القبور. ويترتب أيضًا على أن المستقر في الدنيا أن يراد بقوله: وَلَكُمْ، أي لأنواعكم في الدنيا استقرار ومتاع قرنا بعد قرن إلى يوم القيامة.

قال القرطبي: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ}: ابتداء وخبر، أي موضع استقرار. قاله أبو العالية وابن زيد. وقال السدي: {مستقر}: يعني القبور.

١- مسلم في الحدود (١٦٩٥/٢٣).

قلت: وقول الله تعالى: {جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً}[النمل : ٦١]، يحتمل المعنيين. والله أعلم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الحذر من وقوع الزلل الذي يمليه الشيطان؛ لقوله تعالى: {فأزلهما الشيطان عنها}.

٢- أن الشيطان يغر بني آدم كما غر أباهم حين وسوس لآدم، وحواء، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، وقال: {يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى}؛ فالشيطان قد يأتي الإنسان، فيوسوس له، فيصغر المعصية في عينه؛ ثم إن كانت كبيرة لم يتمكن من تصغيرها؛ مناه أن يتوب منها، فيسهل عليه الإقدام؛ ولذلك احذر عدوك أن يغرك.

٣- إضافة الفعل إلى المتسبب له؛ لقوله تعالى: {فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه}؛ وقد ذكر الفقهاء. رحمهم الله. أن المتسبب كالمباشر في الضمان، لكن إذا اجتمع متسبب ومباشر تمكن إحالة الضمان عليه فالضمان على المباشر؛ وإن لم تمكن فالضمان على المتسبب؛ مثال الأول؛ أن يحفر بئرًا، فيأتي شخص، فيدفع فيها إنسانًا، فيهلك: فالضمان على الدافع؛ ومثال الثاني: أن يلقي شخصًا بين يدي أسد، فيأكله: فالضمان على الملقي. لا على الأسد.

٤- أن الشيطان عدو للإنسان؛ لقوله تعالى: {بعضكم لبعض عدو}؛ وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله تعالى: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا}[فاطر: ٦].

٥- أن قول الله تعالى يكون شرعيًّا، ويكون قدريًّا؛ فقوله تعالى: {يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها}، هذا شرعي؛ وقوله تعالى: {وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو}، الظاهر أنه كوني؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنه لو عاد الأمر إليهما لما هبطا؛ ويحتمل أن يكون قولًا شرعيًّا؛ لكن الأقرب عندي أنه قول كوني. والله أعلم.

٦- أن الجنة في مكان عالٍ؛ لقوله تعالى: {اهبطوا}؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل.

٧- أنه لا يمكن العيش إلا في الأرض لبني آدم؛ لقوله تعالى: {ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين}؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: {فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون}[الأعراف: ٢٥]؛ وبناء على ذلك نعلم أن محاولة الكفار أن يعيشوا في غير الأرض إما في بعض الكواكب، أو في بعض المراكب محاولة يائسة؛ لأنه لابد أن يكون مستقرهم الأرض.

٨- أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا؛ لقوله تعالى: {ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين}.

فتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

قال ابن العثيمين: {فتلقى آدم من ربه}: يعني أخذ، وقبل، ورضي، من الله {كلمات}، حينما ألقى الله إليه هذه الكلمات؛ وهذه الكلمات هي قوله تعالى: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} [الأعراف: ٢٣]؛ فالكلمات اعتراف آدم وحواء بأنهما أذنبا، وظلما أنفسهما، وتضرعهما إلى الله سبحانه وتعالى بأنه إن لم يغفر لهما ويرحمهما لكانا من الخاسرين؛ و{من ربه}، فيه إضافة الربوبية إلى آدم؛ وهي الربوبية الخاصة.

{فتاب عليه}: الفاعل هو الله. يعني فتاب ربه عليه؛ و(التوبة) هي رفع المؤاخذة، والعفو عن المذنب إذا رجع إلى ربه عز وجل.

قال الطبري: يعني رَزَقه التوبة من خطيئته. والتوبة معناها الإنابة إلى الله، والأوبةُ إلى طاعته مما يَكرَهُ من معصيته.

قال ابن العثيمين: {إنه هو التواب الرحيم}: هذه الجملة تعليل لقوله تعالى: {فتاب عليه}؛ لأن التوبة مقتضى هذين الاسمين العظيمين: {التواب الرحيم}؛ و{هو}: ضمير فصل يفيد هنا الحصر والتوكيد؛ و{التواب}: صيغة مبالغة من (تاب)؛ وذلك لكثرة التائبين، وكثرة توبة الله؛ ولذلك سمى الله نفسه {التواب}.

قال السعدي في شرح الأسماء الحسنى ص٢٥: {التواب}: الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين فكل من تاب إلى الله توبة نصوحًا تاب الله عليه. وتوبته على عبده نوعان:

أحدهما: أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه، والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، وإستبدالها بعمل صالح.

والثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها، ومحو الذنوب بها فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص٢٠٢: {التواب} في أسماء الله جل وعلا متعلق بالتائبين، وتعلقه بالتائبين تعلقان. أحد التعلقين قبل التوبة والآخر بعد التوبة.

فالله جل وعلا هو {التواب}، فتعلقه بالتائب قبل أن يتوب، بمعنى هو الذي وفقه وأعانه على أن يتوب. فهو جل وعلا التواب الذي يوفق التائب إلى التوبة. ولو كان العاصي لنفسه؛ دون إعانة ولا توفيق من الله جل وعلا لم تحصل منه التوبة، لأن أعداء الإنسان كثر والشياطين كثر يريدون أن يضلوه، فالله جل وعلا {تواب}: بمعنى وفَّقَ التائب إلى التوبة، وأَذِنَ له بذلك، هذا قبل وقوع التوبة.

وبعد وقوع التوبة، الله جل وعلا هو {التواب}، بمعنى أنه يقبل التوبة عن عباده ويحقق أثر القبول وهو الاعتداد بها يقبل التوبة ويحقق أثر القبول وهو الاعتداد بها. ما أثر قبولها؟

أن تمحى عنه سيئاته (التوبة تجب ما قبلها)، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، أجمع المفسرون على أنها نزلت في التائبين.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: فقد سمّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه كما في قوله تعالي: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ٣٧]، وقد ورد اسم الله {التواب} في ستة مواضع معرَّفًا بالألف واللام، كما في سورة البقرة: {وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَي بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ٥٤]، {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة: ١٠٤]، وورد اسم الله {التواب} في خمسة مواضع بالتنوين كما في قوله: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ}[النور: ١٠]، {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[الحجرات: ١٢]، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}[النصر: ٣].

وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أنه قَالَ: ((كَانَ يُعَدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةُ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ(١))).

و{التواب} في اللغة من صيغ المبالغة من اسم الفاعل التائب، فعله تاب يتوب توبًا وتوبة، والتوبة الرجوع عن الشيء إلي غيره، والتوبة ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو يقول: فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم علي ما فرط في حق الناس وحق ربه، والعزم علي ترك المعاودة لذنبه، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من صالح عمله، فمتى اجتمعت هذه الأربع، فقد كملت شرائط التوبة، قال تعالي: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَي اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}[التحريم: ٨]، وقال سبحانه: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}[التحريم: ٤]، والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة، فالعبد تائب إلى اللَّه، واللَّه تائب على عبده، و{التواب}: هو الله سمّى بذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالًا بعد حال، قال الله تعالى: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ١٢٨]، والتوبة فرض على جميع المذنبين والعاصين صغر الذنب أو كبر، وليس لأحد عذر في ترك التوبة بعد ارتكاب المعصية لأن المعاصي كلها توعد اللَّه عليها أهلها.

واسم الله {التواب}: يدلُّ على ذات الله وعلى قبول التوبة كوصف فعل بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى قبول التوبة كوصف فعل بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والسمع والبصر والعلم والمشيئة، والعزة والقدرة، والعفو والرحمة، والعدل والحكمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال. واسم الله {التواب} دل

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٥٥٦) ، صحيح أبي داود (١٣٥٧) بلفظ أتم منه: عن نافع عن ابن عمر قال: ((إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس يقول رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة)).

على صفة من صفات الأفعال وفي دلالة اسم الله {التواب} على الصفة، قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة: ١١٨]، فقبول التوبة صفة فعل تتعلق بالمشيئة لقوله: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[التوبة: ١٠٦].

كيف ندعو الله باسمه التواب دعاء مسألة ودعاء عبادة، دعاء المسألة وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ([١])).

أما دعاء العبادة فالمسارعة بالتوبة دون تأخيرها وإحساس النفس بسوء أدبها وتقصيرها، روى الطبراني في الكبير وصححه الشيخ الألباني من حديث عبدالله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ((ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إن المؤمن خلق مفتنا توابا نسيا إذا ذكر ذكر([٢]))، وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَنَسٍ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ([٣]))، والله عز وجل يقول: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}[النساء: ١٨].

قال ابن العثيمين: {الرحيم}: أي ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده([٤]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- منة الله سبحانه وتعالى على أبينا آدم حين وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها التوبة؛ لقوله تعالى: {فتلقى آدم من ربه كلمات}.

٢- أن منة الله على أبينا هي منة علينا في الحقيقة؛ لأن كل إنسان يشعر بأن الله إذا من على أحد أجداده كان مانًّا عليه.

٣- أن قول الإنسان: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}، سبب لقبول توبة الله على عبده؛ لأنها اعتراف بالذنب؛ وفي قول الإنسان: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}،

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٩٦).
٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٢٧٦).
٣- (قلت): حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٢٣٤١).
٤- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

أربعة أنواع من التوسل؛ الأول: التوسل بالربوبية؛ الثاني: التوسل بحال العبد: {ظلمنا أنفسنا}؛ الثالث: تفويض الأمر إلى الله؛ لقوله: {وإن لم تغفر لنا ...} إلخ؛ الرابع: ذكر حال العبد إذا لم تحصل له مغفرة الله ورحمته؛ لقوله تعالى: {لنكونن من الخاسرين}، وهي تشبه التوسل بحال العبد؛ بل هي توسل بحال العبد؛ وعليه فيكون توسل العبد بحاله توسلًا بحاله قبل الدعاء، وبحاله بعد الدعاء إذا لم يحصل مقصوده.

٤- أن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع؛ وجه ذلك أن آدم تلقى منه كلمات؛ وتلقي الكلمات لا يكون إلا بسماع الصوت؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام بصوت مسموع، وحروف مرتبة.

٥- منّة الله عز وجل على آدم بقبول التوبة؛ فيكون في ذلك منتان؛ الأولى: التوفيق للتوبة، حيث تلقى الكلمات من الله؛ والثانية: قبول التوبة، حيث قال تعالى: {فتاب عليه}.

واعلم أن لله تعالى على عبده منّتين؛ التوبة الأولى قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله. تبارك وتعالى: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا}[التوبة: ١١٨]، فقوله تعالى: {ثم تاب عليهم}: أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: {ليتوبوا}: أي يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول ففي قوله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات}[الشورى: ٢٥].

٦- أن الإنسان إذا صدق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله فإن الله تعالى يتوب عليه؛ وهذا له شواهد كثيرة أن الله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولةً؛ فكرم الله عز وجل أعلى، وأبلغ من كرم الإنسان.

٧- إثبات هذين الاسمين الكريمين: {التواب}، و{الرحيم}؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

٨- اختصاص الله بالتوبة، والرحمة؛ بدليل ضمير الفصل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة التي لا يقدر عليها غيره؛ لأن الإنسان قد يتوب على ابنه، وأخيه، وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا يقدر عليها إلا الله. وهي المذكورة في قوله تعالى: {ومن يغفر الذنوب إلا الله}[آل عمران: ١٣٥]، هذه خاصة بالله.. كذلك الرحمة المراد بها الرحمة التي لا تكون إلا لله؛ أما رحمة الخلق بعضهم لبعض فهذا ثابت. لا يختص بالله عز وجل؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((الراحمون يرحمهم الرحمن([1]))).

١- أخرجه أحمد ٢/١٦٠، حديث رقم ٦٤٩٤؛ وأخرجه أبو داود ص١٥٨٥، كتاب الأدب، باب ٥٨: في الرحمة، حديث ٤٩٤١؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٤٦، كتاب البر والصلة، باب ١٦: ما جاء في رحمة الناس، حديث رقم ١٩٢٤، وفي الحديث: أبو قابوس لم يوثقه غير ابن حبان، قال الألباني: حديث صحيح بالشواهد والمتابعات (السلسلة الصحيحة ٢/٦٣٠ - ٦٣١، حديث رقم ٩٢٥).

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)

قال ابن العثيمين: {قلنا اهبطوا منها جميعًا}: الواو ضمير جمع، وعبر به عن اثنين لأن آدم، وحواء هما أبوا بني آدم؛ فوجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع باعتبارهما مع الذرية؛ هذا هو الظاهر؛ وأما حمله على أن أقل الجمع اثنين، وأن ضمير الجمع هنا بمعنى ضمير التثنية فبعيد؛ لأن كون أقل الجمع اثنين شاذ في اللغة العربية؛ وأما قوله تعالى: {إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما}[التحريم: ٤]، فإن الأفصح في المتعدد إذا أضيف إلى متعدد أن يكون بلفظ الجمع. وإن كان المراد به اثنين؛ و{جميعًا}، منصوبة على الحال من الواو في قوله تعالى: {اهبطوا}.

قال ابن القيم في حادي الأرواح ج١ص٢٨: والظاهر أن هذا الإهباط الثاني في غير الأول وهو إهباط من السماء إلى الأرض والأول إهباط من الجنة وحينئذ فتكون الجنة التي إهبط منها أولا فوق السماء جنة الخلد وقد ظن الزمخشري أن قوله: {اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعًا}، خطاب لآدم وحواء خاصة، وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما. قال: والدليل عليه قوله تعالى: {قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[٧٠: ١٢٣]، قال: ويدلُّ على ذلك قوله: {فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ}، وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم، ومعنى قوله: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم بعضًا.

وهذا الذي اختاره أضعف الأقوال في الآية. فإن العداوة التي ذكرها الله تعالى إنما هي بين آدم وإبليس وذريتهما، كما قال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}[٣٥: ٦]، وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان، وأعاد وأبدى ذكرها في القرآن لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو. وأما آدم وزوجه فإنه إنما أخبر في كتابه أنه خلقها له ليسكن إليها وجعل بينهما مودة ورحمة. فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته والعداوة بين الشيطان والإنسان. وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس، وهم ثلاثة، فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور، مع منافرته لطريق الكلام دون جميعه؟ مع أن اللفظ والمعنى يقتضيه. فلم يصنع الزمخشري شيئًا.

وأما قوله تعالى في سورة طه: {قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[٢٠: ١٢٣]، فهذا خطاب لآدم وحواء. وقد جعل بعضهم لبعض عدوًا، فالضمير في قوله: {اهْبِطا مِنْها}، إما أن يرجع إلى آدم وزوجته، وإما أن يرجع إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له. وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط، وهما آدم وإبليس، فالأمر ظاهر. وأما الأول – وهو رجوعه إلى آدم وزوجه – فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط.

والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه، وبين إبليس. ولهذا أتى بضمير الجمع في الثاني، دون الأول. ولا بد أن يكون إبليس داخلًا في حكم هذه العداوة قطعًا. كما قال تعالى: {إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ}[٢٠: ١١٧]، وقال لذريته: {إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}.

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع، دون التثنية وأما الإهباط: فتارة يذكر بلفظ الجمع، وتارة بلفظ التثنية. وتارة بلفظ الإفراد، كقوله في سورة الأعراف: {قالَ اهْبِطُوا}، وكذلك في سورة ص، وهذا لإبليس وحده. وحيث ورد بصيغة الجمع، فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم. وحيث ورد بلفظ التثنية، فإما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على المعصية. وإما أن يكون لآدم وإبليس، إذ هما أبوا الثقلين، وأصلا الذرية. فذكر حالهما ومآل أمرهما، ليكون عظة وعبرة لأولادهما. وقد حكيت القولين في ذلك. والذي يوضح أن الضمير في قوله: {اهْبِطا مِنْها جَمِيعًا} لآدم وإبليس: أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم، دون زوجه. فقال: {وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ، فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى}. قالَ: {اهْبِطا مِنْها جَمِيعًا}، وهذا يدلُّ على أن المخاطب بالإهباط هو آدم وإبليس الذي زين له المعصية. ودخلت الزوجة تبعًا. فإن المقصود إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذكر أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنسان فقط. وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة. فعلم أن حكم الزوجة كذلك، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم. وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوي الثقلين أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الإنس وأمهم، فتأمله.

وبالجملة. فقوله: {اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، ظاهر في الجمع، فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله: {اهْبِطا}، من غير موجب.

قال ابن العثيمين: {فإما}، أصلها: {فإن ما)، أدغمت النون في {ما}؛ و{إن} شرطية، و{ما} زائدة للتوكيد؛ و{يأتينكم}: فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد؛ ولذلك لم يكن مجزوما؛ بل كان مبنيا على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد لفظًا، وتقديرًا.

{مني هدى}: أي علمًا: وذلك بالوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه، ورسله.

قال السعدي: كرر الإهباط، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: {فإما يأتينكم مني هدى}، أي: أي وقت وزمان جاءكم مني – يا معشر الثقلين – هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني؛ ويدنيكم من رضائي.

قال ابن العثيمين: {فمن تَبِعَ هُدَايَ}: أي أخذ به تصديقًا بأخباره، وامتثالًا لأحكامه؛ وأضافه الله لنفسه لأنه الذي شرعه لعباده، ولأنه موصل إليه.

قال الطبري: {فمن تَبِعَ هُدَايَ}: يعني فمن اتبع بَياني الذي آتيتُه على ألسن رُسُلي، أو مع رسلي.

{فلا خوفٌ عليهم}: يعني فهم آمنون في أهوال القيامة من عقاب الله، غير خائفين عذابه، بما أطاعوا الله في الدنيا واتبعوا أمرَه وهُداه وسبيله، ولا هم يحزنون يومئذ على ما خلّفوا بعد وفاتهم في الدنيا.

قال ابن العثيمين: {فلا خوف عليهم}: أي فيما يستقبل؛ لأنهم آمنون؛ {ولا هم يحزنون}: أي على ما مضى؛ لأنهم قد اغتنموه، وقاموا فيه بالعمل الصالح؛ بل هم مطمئنون غاية الطمأنينة.

قال السعدي: وفي الآية الأخرى: {فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى}، فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الجنة التي أسكنها آدم، أولًا كانت عالية؛ لقوله تعالى: {اهبطوا}؛ والهبوط لا يكون إلا من أعلى.

٢- إثبات كلام الله؛ لقوله تعالى: {قلنا}.

٣- أنه بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: {اهبطوا منها جميعًا}؛ فلولا أنهم سمعوا ذلك ما صح توجيه الأمر إليهم.

٤- أن التوكيد في الأسلوب العربي فصيح، ومن البلاغة؛ لقوله تعالى: {جميعًا}؛ وهو توكيد معنوي: لأنه حال من حيث الإعراب؛ لأن الشيء إذا كان هامًّا فينبغي أن يؤكد؛ فتقول للرجل إذا أردت أن تحثه على الشيء: (يا فلان عجل عجل عجل) ثلاث مرات؛ والمقصود التوكيد، والحث.

٥- أن الهدى من عند الله؛ لقوله تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى}.

فإن قال قائل: إن في قوله تعالى: {فإما}، لا تدل على الوقوع؛ لأنها ليست ك(إذا)؟ قلنا: نعم، هي لا تدل على الوقوع، لكنها لا تنافيه؛ والواقع يدل على الوقوع. أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير؛ وممكن أن نقول: في هذه الصيغة. {فإما يأتينكم}، ما يدل على الوقوع؛ وهو توكيد الفعل.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنك لا تسأل الهدى إلا من الله عز وجل؛ لأنه هو الذي يأتي به.

٦- أن من اتبع هدى الله فإنه آمن من بين يديه، ومن خلفه؛ لقوله تعالى: {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

٧- أنه لا يتعبد لله إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

٨- أن من تعبد لله بغير ما شرع فهو على غير هدى؛ فيكون ضالًّا كما شهدت بذلك السنة؛ فقد كان النبي ﷺ في خطبة الجمعة يقول: ((وشر الأمور محدثاتها؛ وكل محدثة بدعة؛ وكل بدعة ضلالة([1]))).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

قال ابن العثيمين: {الذين كفروا}: مبتدأ؛ وجملة: {أولئك أصحاب النار}، خبر المبتدأ؛ وجملة {هم فيها خالدون}، في موضع نصب على الحال؛ يعني حال كونهم خالدين. ويجوز أن تكون استئنافية لبيان مآلهم.

{الذين كفروا}: أي بالأمر؛ {وكذبوا}: أي بالخبر؛ فعندهم جحود، واستكبار؛ وهذان هما الأساسان للكفر؛ لأن الكفر يدور على شيئين: إما استكبار؛ وإما جحود؛ فكفر إبليس: كفر استكبار؛ لأنه مقر بالله، لكنه استكبر؛ وكفر فرعون، وقومه: كفر جحود؛ لقوله تعالى: {وجحدوا بها}: فهم في ألسنتهم مكذبون، لكنهم في نفوسهم مصدقون؛ لقوله تعالى: {واستيقنتها أنفسهم}[النمل: ١٤].

قال الطبري: يعني (والذين جَحدوا آياتي وكذّبوا رسلي)؛ وآيات الله: حُجَجه وأدلَّته على وحدانيّته وربوبيّته، وما جاءت به الرُّسُل من الأعلام والشواهد على ذلك، وعلى صدقها فيما أنبأتْ عن ربّها. وقد بيّنا أن معنى الكفر، التغطيةُ على الشيء.

قال أبو زهرة: وآيات الله تعالى آيات كونية، وهي خلق السماوات والأرض وكل ما في الكون مما يدلّ على الله تعالى، وأنه خالق كل شيء، وآيات تجيء على أيدي الرسل الذين يجيئون بهدى الله سبحانه، وهي المعجزات التي تدلّ على أن حامليها رسل من عند الله سبحانه وتعالى العلي القدير، وآيات تتلى في كتبه.

وقد كذَّبوا بكل هذه الآيات، ولذا قال سبحانه وتعالى: {كَذبُوا بِآيَاتِنَا}: أي طمس الله تعالى على بصائرهم فلا يدركون حقًّا، ولا يذعنون لدليل، ولو كان من عند العزيز العليم.

قال ابن العثيمين: {والذين كفروا}: أي كفروا بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينقادوا لها؛ {وكذبوا بآياتنا}: أي بالآيات الشرعية؛ وإن انضاف إلى ذلك الآيات الكونية زاد الأمر شدة؛ لكن المهم الآيات الشرعية؛ لأن من المكذبين الكافرين من آمنوا بالآيات الكونية دون الشرعية؛ فمثلًا كفار قريش مؤمنون بالآيات الكونية مقرون بأن الله خالق السموات والأرض، وأنه المحيي، وأنه المميت، وأنه المدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كافرون بالآيات الشرعية.

١- أخرجه النسائي ص٢١٩٣، كتاب صلاة العيدين، باب ٢٢: كيف الخطبة، حديث رقم ١٥٧٩ن بزيادة: ((وكل ضلالة في النار))، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح (٥١٢/١، حديث رقم ١٥٧٧)، وأصله في مسلم ص٨١٣، كتاب الجمعة، باب ١٣: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث ٢٠٠٥ (٤٣) ٨٦٧، بدون: ((وكل محدثة بدعة))، ولا ((وكل ضلالة في النار)).

{أولئك}: أي المذكورون؛ وأشار إليهم بإشارة البعيد لانحطاط رتبتهم لا ترفيعًا لهم، وتعلية لهم؛ {أصحاب النار}: أي الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي {أصحاب النار} إلا في الكفار؛ لا تأتي في المؤمنين أبدًا؛ لأن المراد الذين هم مصاحبون لها؛ والمصاحب لابد أن يلازم من صاحبه؛ {هم فيها خالدون}: أي ماكثون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن؛ أما آية النساء فقوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا} [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها أبدا} [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ وأما آية الجن فقوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: ٢٣].

قال السعدي: وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الذين جمعوا بين هذين الوصفين. الكفر، والتكذيب. هم أصحاب النار مخلدون فيها أبدًا. كما سبق؛ فإن اتصفوا بأحدهما فقد دل الدليل على أن المكذب خالد في النار؛ وأما الكافر فمن كان كفره مخرجًا عن الملة فهو خالد في النار؛ ومن كان كفره لا يخرج من الملة فإنه غير مخلد في النار.

٢- أن الله تعالى قد بين الحق بالآيات التي تقطع الحجة، وتبين المحجة.

٣- انحطاط رتبة من اتصفوا بهذين الوصفين. الكفر، والتكذيب.

٤- إثبات النار؛ وقد ثبت بالدليل القطعي أنها موجودة الآن، كما في قوله تعالى: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين} [آل عمران: ١٣١].

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

قال الطبري: (بني إسرائيل)، ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن وكان يعقوب يدعى (إسرائيل)، بمعنى عبد الله وصفوته من خلقه. و(إيل) هو الله، و(إسرا) هو العبد، كما قيل: (جبريل) بمعنى عبد الله. عن ابن

عباس: أن إسرائيل كقولك: عبد الله([1]).

قال ابن العثيمين: والأصل في (بني) أن تكون للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمة شملت الذكور، والإناث، كقوله تعالى: {يا بني آدم}، وقوله تعالى: {يا بني إسرائيل}؛ و{إسرائيل} لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وبنوه هم اليهود والنصارى ورسلهم؛ لكن النداء في هذه الآية لليهود والنصارى الموجودين في عهد النبي ﷺ؛ ووجه الله تعالى النداء لبني إسرائيل؛ لأن السورة مدنية؛ وكان من بني إسرائيل ثلاث قبائل من اليهود في المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ سكنوا المدينة ترقُّبًا للنبي ﷺ الذي علموا أنه سيكون مهاجره المدينة ليؤمنوا به، ويتبعوه؛ لكن لما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

قال الطبري: وإنما خاطب الله جل ثناؤه بقوله: {يا بني إسرائيل} أحبارَ اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظَهرانَيْ مُهاجَر رسول الله ﷺ، فنسبهم جل ذكره إلى يعقوب، كما نسب ذرية آدم إلى آدم، فقال: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}[الأعراف: ٣١] وما أشبه ذلك. وإنما خصّهم بالخطاب في هذه الآية والتي بعدها من الآي التي ذكَّرهم فيها نعمَه – وإن كان قد تقدّم ما أنزل فيهم وفي غيرهم في أول هذه السورة ما قد تقدم – أن الذي احتج به من الحجج والآيات التي فيها أنباء أسلافهم، وأخبارُ أوائلهم، وَقصَصُ الأمور التي هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثلُ الذي لهم من العلم به، إلا لمن اقتبس علم ذلك منهم. فعرَّفهم باطلاع محمّد على علمها – مع بعد قومه وعشيرته من معرفتها، وأنّ محمدًا ﷺ لم يَصلْ إلى علم ذلك إلا بوحي من الله وتنزيلٍ منه ذلك إليه – لأنهم من عِلْم صحة ذلك بمحلّ ليس به من الأمم غيرهم، فلذلك جل ثناؤه خص بقوله: {يا بني إسرائيل} خطابهم.

قال أبو زهرة: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}: وخوطب من كانوا في عصر النبي ﷺ بالنعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل في ماضيهم، مع أنهم لم يروها، فالذين عبدوا العجل ليسوا هم، والذين كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ليسوا هم، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى؛ خوطبوا بكفرهم النعم ونقضهم الميثاق، لأنهم أمة واحدة، ويخاطب الحاضرون بمآثم الماضين إذا علموها وأقروها وساروا على مثلها، ولو أنهم ناقضوها، أو استنكروها، كعبد الله بن سلام وغيره، ما خوطبوا بأخطاء من سبقوهم، لأنهم لم يرضوا عنها ولم ينادوا بشرف الانتماء إليهم.

والنداء كما علمت للبعيد لأن النداء بـ{يا} يكون للبعيد، ويراد هنا بالبعد البعد المعنوي، وهو علو الله في ندائهم، وناداهم ببني إسرائيل تذكيرًا بمقام يعقوب وشرفه، وأنه كان ذلك النسب مقتضيًا أن يكونوا في مثل شرفه النبوي، وإيمانه وإذعانه وأن يكونوا عونًا للخير، وأن يكونوا شاكرين لأنعمه مثله.

١– الخبر: في ابن كثير ١: ١٤٩، والدر المنثور ١: ٦٣. وهذا إسناد صحيح. إسماعيل بن رجاء بن ربيعة: ثقة، أخرج له مسلم في صحيحه. عمير مولى ابن عباس: هو عمير بن عبد الله الهلالي، مولى أم الفضل، وقد ينسب إلى ولاء زوجها (العباس)، كما ورد في إسناد حديث آخر في المسند: ٧٧، وقد ينسب إلى ولاء بعض أولادها، كما في هذا الإسناد. وهو تابعي ثقة، ترجمه ابن أبي حاتم ٣/١/٣٨٠، وأخرج له الشيخان وغيرهما.

قال ابن العثيمين: {اذكروا نعمتي}: أي اذكروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم، واذكروها بجوارحكم؛ وذلك؛ لأن الشكر يكون في الأمور الثلاثة: في القلب واللسان والجوارح، وقوله تعالى: {نعمتي}، مفرد مضاف، فيعم جميع النعم الدينية والدنيوية؛ وقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم كثيرة.

{التي أنعمت عليكم}: أشار بهذه الجملة إلى أن هذه النعم فضل محض من الله عز وجل.

قال أبو زهرة: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}: ومعنى اذكروها، تفكَّروا في أمرها، وما يوجبه، فإن ذلك التفكُّر في مقدارها وفي مجيئها في وقت الشدائد والغمة يحملكم على القيام بشكرها، وشكر النعم واجب بالعقل كما هي بدائه العقول، وإن الله تعالى أنعم عليهم بأن نجاهم من فرعون وطغيانه عليهم، ونجاهم باجتياز البحر، وقد انفلق حتى مروا فكان كل فرق كالطود العظيم، وانطبق على فرعون وملئه الذين ساموهم سوء العذاب وكانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأنعم عليهم في الصحراء بالمن والسلوى يتغذون منه بأطيب الغذاء، وأنعم عليهم بأنهم استسقوا فانبجست من حجر ضربه موسى عليه السلام بعصاه – اثنتا عشرة عينًا، لكل أناس مشربهم.

أنعم سبحانه وتعالى بهذه النعم كلها، وكان من شأنها أن تحملهم على الشكر والطاعة، ولكنهم وهم أهل حسد وحقد على الناس، اتخذوها ذريعة للكفر والطغيان، وحسبوها اختصاصًا من الله تعالى وتدليلًا، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فزادوا بالنعمة كفرًا وطغيانًا. وكان الحاضرون في عصر النبي ﷺ صورة للماضين يفعلون مثل ما كانوا يفعلون، ويرضون عما كانوا عليه، ويقولون مثل ما قالوا.

أمرهم سبحانه وتعالى عساهم يشكرون، ويعتبرون بما نزل من الأمور بمن سبقوهم، ثم أمرهم سبحانه من بعد هذا التذكير بالوفاء بالعهد، فقال تعالت كلماته: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}: أخذ الله تعالى عهدًا بمقتضى الفطرة، وهو أنه أخذ عليهم من ظهورهم ذريتهم أن يؤمنوا، وأخذ عليهم العهود والمواثيق في عهد موسى، ومن جاء بعد موسى من النبيين، وأخذ عليهم العهد بألا يسفكوا دماءً، وأخذ عليهم سبحانه وتعالى عهدًا موثقًا ببيان قدرة الله تعالى إذ نتق الجبل فوقهم فقد قال تعالى: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، وصرح سبحانه وتعالى بهذا الميثاق وعهده لهم، فقال: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}؛ هذا عهد من العهود التي واثقهم الله تعالى عليها، عهد عليهم أن يقيموا الصلاة ويؤدوا العبادات وأن يؤمنوا بالرسل، وكان عهد الله تعالى أن يكفر عنهم سيئاتهم، وأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار. وقد أوجب الله تعالى على نفسه تفضلًا، ورحمة وإنعامًا كالإنعام المتوالي عليهم، والله تعالى لَا يجب عليه شيء.

قال ابن العثيمين: {وأوفوا بعهدي}: أي ائتوا به وافيًا؛ وعهده سبحانه وتعالى أنه عهد إليهم أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا برسله، كما قال تعالى: {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا وقال الله إني

معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنًا}[المائدة: ١٢]. هذا عهد الله.

{أوف بعهدكم}: أي أعطكم ما عهدت به إليكم وافيًا. وهو الجزاء على أعمالهم. المذكور في قوله تعالى: {لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار}[المائدة: ١٢]؛ فلو وفوا بعهد الله لوفى الله بعهدهم.

وقوله تعالى: {أوف} جواب الطلب في قوله تعالى: {أوفوا بعهدي}؛ ولهذا جاءت مجزومة بحذف حرف العلة.

{وإياي فارهبون}: أي لا ترهبوا إلا إيّاي؛ و(الرهبة) شدة الخوف.. وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب.

قال الطبري: وإياي فاخْشَوْا – واتَّقُوا أيها المضيّعون عهدي من بني إسرائيل، والمكذبون رسولي الذي أخذتُ ميثاقكم – فيما أنزلتُ من الكتُب على أنبيائي – أن تؤمنوا به وتتبعوه – أن أُحِلّ بكمْ من عقوبتي، إن لم تنيبوا وتتوبوا إليّ باتباعه والإقرار بما أنزلت إليه، ما أحللتُ بمن خالف أمري وكذّب رُسلي من أسلافكم. عن ابن عباس: {وإيايَ فارهبون}، أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النَّقِمات التي قد عرفتم، من المسخ وغيره. عن السدي: {وإياي فارهبون}، يقول: وإياي فاخشون.

قال أبو زهرة: يقرن القرآن الكريم وعد الله تعالى بوعيده، لقد وعدهم سبحانه بأنه يوفى بعهدهم بأن يكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار إذ أوفوا بعهده بأن عبدوه وحده، وآمنوا برسله ونصروهم، ولا شك أن ذلك ترغيب في النعيم، ولكن النفوس لَا تخضع للترغيب فقط، وخصوصًا من كانوا على شاكلة بني إسرائيل الذين لم تُجْدِ فيهم النعم؛ ولذا أردف سبحانه الوعد بالنعيم – بالترهيب، فقال تعالى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}؛ النون هنا تسمى بنون الوقاية التي تكون بين الفعل وياء التكلم، والياء حذفت مع تقديرها في الكلام: فارهبوني، وهذا تخويف بأشد صيغ التخويف والترهيب، وتخصيص التخويف بالله، وأنه لَا يُخاف أحد سواه كما أنه لَا يُعبد سواه.

وقد دلَّ على التخصيص قوله تعالى: {إِيَّايَ}، فهي دالة على التحذير، وفعلها محذوف تقديره مثلًا (احذرني)، كما تقول في كلامك: (إياك إياك) محذرًا مخوفًا، فمعنى إياي: (احذروني وحدي، فإن رحمتي يلحقها عذابي، وهي للمطيع، وعذابي للعاصي).

وقوله: {فَارْهَبُونِ}: الفاء للإفصاح عن شرط مقدر تقديره: (فإن كان من ترهبونه؛ فارهبوني أنا وحدي)؛ ولذلك كان الكلام فيه تأكيد للخوف من الله وحده؛ أولًا بذكر كلمة الله تعالى: {وَإِيَّايَ} الدالة على التحذير وتقديمها، وفي التقديم اختصاص؛ وفي تكرار التخويف، وفي ذكر الفاء المفصحة عن شرط وهي جوابه.

و(الرَّهَبُ): إبقاء الخوف في النفس مع التحذير والتيقظ وتوقع العذاب الأليم. هذا وفي الآية نص على وجوب الوفاء، وعلى شكر النعمة، وأنه لَا يصح أن يخاف المؤمن أحدا غير الله تعالى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الله تعالى يوجه الخطاب للمخاطب إما لكونه أوعى من غيره؛ وإما لكونه أولى أن يمتثل؛ وهنا وجهه لبني إسرائيل؛ لأنهم أولى أن يمتثلوا؛ لأن عندهم من العلم برسالة النبي ﷺ، وأنها حق ما ليس عند غيرهم.

٢- أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعى لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليه؛ لقوله تعالى: {اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم}؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله؛ بمعنى أننا إذا أردنا أن ندعو شخصًا نذكره بالنعم؟

فالجواب: نعم، نذكره بالنعم؛ لأن هذا أدعى لقبول الحق، وأدعى لكونه يحب الله عز وجل؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقوم بطاعته([1]).

٣- عظيم منة الله تعالى في إنعامه على هؤلاء؛ لقوله تعالى: {التي أنعمت عليكم}.

٤- أن من وفى لله بعهده وفى الله له؛ لقوله تعالى: {وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم}؛ بل إن الله أكرم من عبده، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وفي الحديث القدسي: ((إذا تقرب العبد إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا؛ وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا؛ وإذا أتاني مشيًا أتيته هرولةً([2]))).

٥- أن من نكث بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفاء بالعهد؛ وذلك؛ لأن المنطوق في الآية أن من وفّى لله وفّى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يف فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وعد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عز وجل.

٦- وجوب الوفاء بالنذر؛ لأن الناذر معاهد لله، كما قال تعالى: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين}[التوبة: ٧٥].

٧- وجوب إخلاص الرهبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وإياي فارهبون}[البقرة: ٤٠].

٨- أن الرهبة عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها، وأمر بإخلاصها.

فإن قال قائل: هل ينافي التوحيد أن يخاف الإنسان من سبع، أو من عدو؟

فالجواب: لا ينافي هذا التوحيد؛ ولهذا وقع من الرسل: إبراهيم. عليه الصلاة والسلام. لما جاءه الضيوف، ولم يأكلوا أوجس منهم خيفة؛ وموسى. عليه الصلاة والسلام. لما ألقى السحرة حبالهم، وعصيهم أوجس في نفسه خيفة؛ ولأن الخوف الطبيعي مما تقتضيه الطبيعة؛ ولو قلنا لإنسان: (إنك إذا خفت من أحد سوى الله خوفا طبيعيا لكنت مشركًا)،

١- (قلت): أنظر كلام محمد رشيد رضا عن هذه المسألة عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

٢- أخرجه البخاري بلفظه ص٦٢٩، كتاب التوحيد، باب ٥٠: ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، حديث رقم ٧٥٣٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ١: الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم ٦٨٠٥ [٢] ٢٦٧٥.

لكان هذا من تكليف ما لا يطاق؛ لأن خوف الإنسان مما يخاف منه خوف طبيعي غريزي لا يمكنه دفعه؛ كل إنسان يخاف مما يخشى منه الضرر.

فإن قال قائل: لو منعه الخوف من واجب عليه هل ينهى عنه، أو لا؟

فالجواب: نعم، ينهى عنه؛ لأن الواجب عليه يستطيع أن يقوم به؛ إلا إذا جاء الشرع بالعفو عنه في هذه الحال فلا حرج عليه في هذا الخوف؛ قال الله تعالى: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}[آل عمران: ١٧٥]؛ لكن إذا كان في الشرع رخصة لك أن تخالف ما أمر الله به في هذه الحال فلا بأس؛ ولهذا لو كان إنسان يريد أن يصلي صلاة الفريضة، وحوله جدار قصير، ويخشى إن قام أن يتبين للعدو؛ فله أن يصلي قاعدًا؛ وهذا لأن الله تعالى عفا عنه: قال الله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم}[التغابن: ١٦]؛ ولو كان العدو أكثر من مثلي المسلمين فلا يلزمهم أن يصابروهم، ويجوز أن يفروا.

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)

قال الطبري: {آمنوا}، صدّقوا.

قال ابن العثيمين: {وآمنوا} معطوف على قوله تعالى: {اذكروا}.

{بما أنزلت}: هو القرآن أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد ﷺ {مصدقا لما معكم}: أي مصدِّقًا لما ذكر في التوراة، والإنجيل من أوصاف محمد ﷺ ومن أوصاف القرآن الذي يأتي ﷺ به؛ وكذلك أيضًا هو مصدق لما معهم: شاهد للتوراة، والإنجيل بالصدق؛ فصار تصديق القرآن لما معهم من وجهين؛ الوجه الأول: أنه وقع مطابقًا لما أخبرت التوراة، والإنجيل به؛ والوجه الثاني: أنه قد شهد لهما بالصدق؛ فالقرآن يدلّ دلالة واضحة على أن الله أنزل التوراة، وأنزل الإنجيل. وهذه شهادة لهما بأنهما صدق؛ وكذلك التوراة، والإنجيل قد ذكر فيهما من أوصاف القرآن، ومن أوصاف محمد ﷺ حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ فإذا وقع الأمر كما ذكر فيهما صار ذلك تصديقًا لهما؛ ولهذا لو حدثتك بحديث، فقلت أنت: (صدقت)، ثم وقع ما حدثتك به مشهودًا تشاهده بعينك؛ صار الوقوع هذا تصديقًا أيضًا.

{ولا تكونوا أول كافر به}: يعني لا يليق بكم وأنتم تعلمون أنه حق أن تكونوا أول كافر به؛ ولا يعني ذلك كونوا ثاني كافر؛ والضمير في قوله تعالى: {تكونوا}، ضمير جمع، و{كافر}، مفرد، فكيف يصح أن تخبر بالمفرد عن الجماعة؟

والجواب: قال المفسرون: إن تقدير الكلام: أول فريق كافر به؛ لأن الخطاب لبني إسرائيل عمومًا. وهم جماعة.

قال الطبري: يا معشر أحبار أهل الكتاب، صدِّقوا بما أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ من القرآن المصدّق كتابَكم، والذي عندكم من التوراة والإنجيل، المعهود إليكم فيهما أنه رسولي ونبيِّيَ المبعوثُ بالحق، ولا تكونوا أوَّل أمّتكُمْ كذَّبَ به وَجحد أنه من عندي، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم.

وكفرهم به: جُحودهم أنه من عند الله. والهاء التي في {به}، من ذكر {ما}، التي مع قوله: {وآمنوا بما أنزلت}.

قال السعدي: وقوله: {أول كافر به}، أبلغ من قوله: {ولا تكفروا به}، لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم. ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: {ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا}، وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها، إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها، وآثروها.

قال ابن العثيمين: {ولا تشتروا}: أي لا تأخذوا؛ {بآياتي ثمنا قليلًا}: أي الجاه، والرئاسة، وما أشبه ذلك؛ لأن بني إسرائيل إنما كفروا يريدون الدنيا؛ ولو أنهم اتبعوا محمدًا ﷺ لكانوا في القمة، ولأوتوا أجرهم مرتين؛ لكن حسدًا، وابتغاء بقاء الجاه، والشرف، وأنهم هم أهل كتاب حسدوا النبي ﷺ، فلم يؤمنوا به.

{وإياي فاتقون}: أي لا تتقوا إلا إياي؛ و(التقوى) اتخاذ وقاية من عذاب الله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ ففي الآية الأولى: {وإياي فارهبون}، أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها عصيانًا؛ وفي هذه الآية: {وإياي فاتقون}، أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها لا في الأمر، ولا في النهي.

قال السعدي: فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه، تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

قال أبو زهرة: وبعد ذلك التحريض والحث على الاتباع، وبيان أنهم إن اشتروا بالحق شيئًا فهو ثمن قليل، بعد ذلك حذَّرهم من ترك الحق، وخوفهم من عاقبة هذا الترك، فقال: {وَإِيَّايَ فَاتَّقونِ}: تحذير من المخالفة بالتقوى والخوف من الله سبحانه وتعالى والمعنى: (وإياي فاحذروا).

{فَاتَّقُونِ}: النون هنا؛ نون الوقاية التي تكون بين الفعل وياء المتكلم، والفاء جواب عن شرط مقدر أفصحت عنه، والمعنى: (إن كان هناك من يتقى عذابه ومن يجب أن تكون وقاية بينكم وبينه، فاتقوني أنا وحدي)، أي: (اجعلوا بينكم وبين عذابي وقاية تقيكم من عذاب النار).

أمرهم سبحانه وتعالى أن يؤمنوا بالحق وهو الكتاب الذي أنزل مصدقًا لما معهم، وهو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ وإن الأمر بالإيمان بالقرآن أمر بالإيمان بمن نزل عليه القرآن.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: {وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم}.

٢- أن الكافر مخاطب بالإسلام؛ وهذا مجمع عليه، لكن هل يخاطب بفروع الإسلام؟

الجواب: فيه تفصيل؛ إن أردت بالمخاطبة أنه مأمور أن يفعلها فلا؛ لأنه لا بد أن يسلم أولًا، ثم يفعلها ثانيًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: ((فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة([1]))).

إذًا هم لا يخاطبون بالفعل. يعني لا يقال: افعلوا.؛ فلا نقول للكافر: تعال صل؛ بل نأمره أولا بالإسلام؛ وإن أردت بالمخاطبة أنهم يعاقبون عليها إذا ماتوا على الكفر فهذا صحيح؛ ولهذا يقال للمجرمين: {ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين}[المدثر: ٤٢، ٤٧]: يعني هذا دأبهم حتى ماتوا؛ ووجه الدلالة من الآية أنه لولا أنهم كانوا مخاطبين بالفروع لكان قولهم: {لم نك من المصلّين * ولم نك نطعم المسكين}[المدثر: ٤٣، ٤٤]، عبثًا لا فائدة منه، ولا تأثير له.

٣- أن من اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا ففيه شبه من اليهود؛ فالذين يقرؤون العلم الشرعي من أجل الدنيا يكون فيهم شبه باليهود؛ لأن اليهود هم الذين يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ: ((من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة([2]))) يعني ريحها؛ وحينئذ يشكل على كثير من الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة: هل يكون ممن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؟

والجواب: أن ذلك حسب النية؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا أن يتوظف ويعيش، فهذا اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلى المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكانًا ينفع به المسلمين فهذا لم يشتر بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة.

٤- أن جميع ما في الدنيا قليل، ويشهد لهذا قوله تعالى: {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا}[النساء: ٧٧].

١- أخرجه البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦٣: أخذ الصدقة من الأغنياء ... ، حديث رقم ١٤٩٦؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٤، كتاب الإيمان، باب ٧: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم ١٢١ [٢٩] ١٩.

٢- أخرجه أبو داود ص١٤٩٤، كتاب العلم، باب ١١: في طلب العلم لغير الله، حديث رقم ٣٦٦٤؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٤٩٢، كتاب السنة، باب ٢٣: الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث رقم ٢٥٢؛ وأخرجه أحمد ٢/٣٣٨، حديث رقم ٨٤٣٨؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/٨٥، كتاب العلم، وقال: هذا حديث صحيح سنده ثقات رواته على الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ومدار الحديث على فليح بن سليمان الخزاعي، قال الدار قطني: يختلفون فيه وليس به بأس، تهذيب التهذيب ٨/٢٧٣، وقال الحاكم فيه: "اتفاق الشيخين عليه يقوي أمره، ت. التهذيب، وقال عبد القادر الأرنؤوط في تخريج جامع الأصول ٤/٥٤٤، حاشية رقم ١: (توبع في جامع بيان العلم ١/٩٠ فهو به حسن). أهـ

٥- أن شرائع الله من آياته لما تضمنته من العدل، والإصلاح. بخلاف ما يسنه البشر من الأنظمة والقوانين فإنه ناقص:

أولًا: لنقص علم البشر، وعدم إحاطتهم بما يصلح الخلق.

ثانيًا: لخفاء المصالح عليهم: فقد يظن ما ليس بمصلحة مصلحة؛ وبالعكس.

ثالثًا: أننا لو قدرنا أن هذا الرجل الذي سن النظام، أو القانون من أذكى الناس، وأعلم الناس بأحوال الناس فإن علمه هذا محدود في زمانه، وفي مكانه؛ أما في زمانه فظاهر؛ لأن الأمور تتغير: قد يكون المصلحة للبشر في هذا الزمن كذا، وكذا؛ وفي زمن آخر خلافه؛ وفي المكان أيضًا قد يكون هذا التشريع الذي سنه البشر مناسبًا لأحوال هؤلاء الأمة في مكانهم؛ ولكن في أمة أخرى لا يصلح؛ ولهذا ضل كثير من المسلمين مع الأسف الشديد في أخذ القوانين الغربية، أو الشرقية، وتطبيقها على مجتمع إسلامي؛ لأن الواجب تحكيم الكتاب، والسنة؛ والعجب أن بعض الناس. نسأل الله العافية. تجدهم قد مشوا على قوانين شرعت من عشرات السنين، أو مئاتها، وأهلها الذين شرعوها قد عدلوا عنها، فصار هؤلاء كالذين يمشمشون العظام بعد أن ترمى في الزبالة؛ وهذا شيء واضح: هناك قوانين شرعت لقوم كفار، ثم تغيرت الحال، فغيروها، ثم جاء بعض المسلمين إلى هذه القوانين القشور الملفوظة، وصاروا يتمشمشونها.

٦- وجوب تقوى الله عز وجل، وإفراده بالتقوى؛ لقوله تعالى: {وإياي فاتقون}.

فإن قال قائل: أليس الله يأمرنا أن نتقي أشياء أخرى، كقوله تعالى: {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله}[البقرة: ٢٨١]، وقوله تعالى: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}[آل عمران: ١٣١]، وقوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة}[الأنفال: ٢٥]؟

فالجواب: بلى، ولكن اتقاء هذه الأمور من تقوى الله عز وجل. فلا منافاة.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

قال الطبري: عن ابن عباس، قوله: {ولا تلبِسُوا الحق بالباطل}، قال: لا تخلطوا الصدق بالكذب[١].

قال أبو زهرة: والمعنى الجملي للنهي، لَا تخلطوا الحق الذي جاء في شرع موسى عليه السلام بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه بأيديكم، كما توهَّمتم في التوراة التي بأيديكم من أن هارون عليه السلام عبد العجل مع الذين ضلوا منكم، فهم يخلطون بين الحق والباطل، فيلتبس الحق، وتختفي معالمه، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، ونهاهم عن أمر آخر، يقع منهم، وهو أن يكتموا ما أنزل الله تعالى، فإنهم يعملون عملين:

١- الخبر: في ابن كثير ١: ١٥٢، والدر المنثور ١: ٦٤، والشوكاني ١: ٦٢.

أولهما: أن يخلطوا الحق بالباطل، فلا يدرك الحق على وجهه، ولا يعرف صريحه مما اختلط به، وكذلك شأن المضلِّلين يأتون ببعض الحق، ويخلطونه بالباطل، فيختفي نور الحق ببهرج الباطل.

الثاني: أنهم يكتمون الحق الذي لا التباس فيه، ولم يستطيعوا أن يخلطوه فيكتموه ككتمانهم البشارة بمحمد ﷺ وكتمانهم تحريم الربا وقد نهوا عنه، وكاستباحتهم ما حرم عليهم يوم السبت، وغير ذلك مما حرم كتمانه؛ وقد نعى الله تعالى عليهم ذلك الكتمان للحق، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

قال الطبري: عن ابن عباس: {وتكتموا الحق}، يقول: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وما جاء به، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم(١).

فتأويل الآية إذًا: ولا تخلطوا على الناس – أيها الأحبار من أهل الكتاب – في أمر محمد ﷺ وما جاء به من عند ربه، وتزعموا أنه مبعوثٌ إلى بعض أجناس الأمم دون بعض، أو تنافقوا في أمره، وقد علمتم أنه مبعوث إلى جميعكم وجميع الأمم غيركم، فتخلطوا بذلك الصدق بالكذب، وتكتموا به ما تجدونه في كتابكم من نعته وصفته، وأنه رسولي إلى الناس كافة، وأنتم تعلمون أنه رسولي، وأن ما جاء به إليكم فمن عندي، وتعرفون أن من عهدي – الذي أخذت عليكم في كتابكم – الإيمانَ به وبما جاء به والتصديقَ به.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٩ص١٩٤: ذَمَّهُمْ عَلَى الْوَصْفَيْنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُقْتَضٍ لِلذَّمِّ، وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ؛ وَلِهَذَا نَهَى عَنْهُمَا جَمِيعًا فِي قَوْلِهِ: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، فَإِنَّهُ مَنْ لَبَّسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ فَغَطَّاهُ بِهِ فَغَلِطَ بِهِ، لَزِمَ أَنْ يَكْتُمَ الْحَقَّ الَّذِي تَبَيَّنَ أَنَّهُ بَاطِلٌ؛ إذْ لَوْ بَيَّنَهُ زَالَ الْبَاطِلُ الَّذِي لُبِسَ بِهِ الْحَقُّ.

قال السعدي: فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق، وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

قال شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل ج١ص٢١٩: فقوله تعالى: {ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق}[البقرة: ٤٢]، نهي عنهما، والثاني لازم للأول مقصود بالنهي، فمن لبس الحق بالباطل كتم الحق، وهو معاقب على لبسه الحق بالباطل، وعلى كتمانه الحق، فلا يقال: النهي عن جمعهما فقط، لأنه لو كان هذا صحيحًا لم يكن

١- الخبر: في ابن كثير ١: ١٥٢، والدر المنثور ١: ٦٣، والشوكاني ١: ٦١.

مجرد كتمان الحق موجبًا للذم، ولا مجرد لبس الحق بالباطل موجبًا للذم، وليس الأمر كذلك، فإن كتمان أهل الكتاب ما أنزل الله من البينات والهدي من بعد ما بينه للناس، يستحقون به العقاب باتفاق المسلمين، وكذلك لبسهم الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي ابتدعوه، وجمع بينهما بدون إعادة حرف النفي لأن اللبس مستلزم للكتمان، ولم يقتصر على الملزوم لأن اللازم مقصود بالنهي.

فهذا يبين لك بعض ما في القرآن من الحكم والأسرار، وإنما كان اللبس مستلزمًا للكتمان لأن من لبس الحق بالباطل كما فعله أهل الكتاب حيث ابتدعوا دينًا لم يشرعه الله، فأمروا بما لم يأمر به، ونهوا عما لم ينه عنه، وأخبروا بخلاف ما أخبر به، فلا بدَّ له أن يكتم من الحق المنزل ما يناقض بدعته، إذ الحق المنزل الذي فيه خبر بخلاف ما أخبر به، إن لم يكتمه لم يتم مقصوده، وكذلك الذي فيه إباحة لما نهي عنه أو إسقاط لما أمر به.

والحق المنزل إما أمر ونهي وإباحة، وإما خبر، فالبدع الخبرية كالبدع المتعلقة بأسماء الله تعالى وصفاته، والنبيين، واليوم الآخر، لا بدَّ أن يخبروا فيها بخلاف ما أخبر الله به، والبدع الأمرية، كمعصية الرسول المبعوث إليهم، ونحو ذلك، لا بدَّ أن يأمروا فيها بخلاف ما أمر الله به، والكتب المتقدمة تخبر عن الرسول النبي الأمي وتأمر باتباعه.

والمقصود هنا الاعتبار، فإن بني إسرائيل قد ذهبوا أو كفروا، وإنما ذكرت قصصهم عبرة لنا، وكان بعض السلف يقول: إن بني إسرائيل ذهبوا، وإنما يعني أنتم، ومن الأمثال السائرة: (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فكان فيما خاطب الله بني إسرائيل عبرة لنا: أن لا نلبس الحق بالباطل، ونكتم الحق([1]).

قال القرطبي: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}: جملة في موضع الحال أي أن محمدًا ﷺ حق، فكفرهم كان كفر عناد؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا. ودلَّ هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل.

قال ابن العثيمين: {وأنتم تعلمون}: الجملة في موضع نصب على الحال. أي والحال أنكم تعلمون صنيعكم.

قال أبو زهرة: وإنهم إذ يكتمون الحق من الكتاب يفعلونه متعمدين قاصدين التضليل؛ لأنهم يعلمون ما يلبسون به الحق بالباطل، ويعلمون ما يكتمونه؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} الحق فيما لبستم به، وتعلمون الحق الذي كتمتموه قاصدين كتمانه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل؛ فيقال: هذا حق، وهذا باطل؛ لقوله تعالى: {ولا تلبسوا الحق بالباطل}؛ ومن لبس الحق بالباطل: أولئك القوم الذين يوردون الشبهات إما على القرآن، أو

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن (لبس الحق بالباطل) عند تفسير الآية (٧١) من سورة آل عمران.

على أحكام القرآن، ثم يزيلون الإشكال. مع أن إيراد الشبه إذا لم تكن قريبة لا ينبغي. ولو أزيلت هذه الشبهة؛ فإن الشيطان إذا أوقع الشبهة في القلب فقد تستقر فيه. وإن ذكر ما يزيلها.

٢- أنه ليس هناك إلا حق، وباطل؛ وإذا تأملت القرآن والسنة وجدت الأمر كذلك؛ قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل}[الحج: ٦٢]، وقال تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين}[سبأ: ٢٤]، وقال تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال}[يونس: ٣٢]، وقال تعالى: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}[الكهف: ٢٩]، وقال النبي ﷺ: ((القرآن حجة لك أو عليك([1]))).

فإن قال قائل: أليس هناك مرتبة بين الواجب، والمحرم؛ وبين المكروه، والمندوب. وهو المباح؟ قلنا: بلى، لا شك في هذا؛ لكن المباح نفسه لا بدَّ أن يكون وسيلة إلى شيء؛ فإن لم يكن وسيلة إلى شيء صار من قسم الباطل كما جاء في الحديث: ((كل لهو يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا لعبه في رمحه، ومع أهله، وفي فرسه([2])))؛ وهذه الأشياء الثلاثة إنما استثنيت؛ لأنها مصلحة. كلها تعود إلى مصلحة.

٣- تحريم كتمان الحق؛ لقوله تعالى: {وتكتموا}؛ ولكن هل يقال: إن الكتمان لا يكون إلا بعد الطلب؟

الجواب: نعم، لكن الطلب نوعان: طلب بلسان المقال؛ وطلب بلسان الحال؛ فإذا جاءك شخص يقول: ما تقول في كذا، وكذا: فهذا طلب بلسان المقال؛ وإذا رأيت الناس قد انغمسوا في محرم: فبيانه مطلوب بلسان الحال؛ وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يبين المنكر، ولا ينتظر حتى يسأل؛ وإذا سئل ولم يجب لكونه لا يعلم فلا إثم عليه؛ بل هذا هو الواجب؛ لقوله تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم}[الإسراء: ٢٣]. هذه واحدة.

١- أخرجه مسلم ٧١٨، كتاب الطهارة، باب ١: فضل الوضوء، حديث رقم ٥٣٤ [١] ٢٢٣.

٢- أخرجه أحمد ٤/١٤٤، ١٤٨؛ وأخرجه أبو داود ص١٤٠٩، كتاب الجهاد، باب ٢٣: في الرمي، حديث رقم ٢٥١٣؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٢٠، كتاب فضائل الجهاد، باب ١١: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، حديث رقم ١٦٣٧؛ وأخرجه النسائي ص٢٣٢٤، كتاب الخيل، باب ٨: تأديب الرجل فرسه، حديث رقم ٣٦٠٨؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/٩٥، كتاب الجهاد، ومدار إسناد بعضها على خالد بن زيد، قال الحافظ في التقريب: مقبول، وصحح الحاكم حديثه في المستدرك (٢/٩٥) ووافقه الذهبي، وقال: صحيح، ومدار بعضها على عبد الله بن زيد الأزرق، قال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب ٢/٣٤٤: مجهول لم يرو عنه إلا أبو سلام.

- (قلت): لم أجد حديثًا بهذا اللفظ؛ بل وجدت حديثًا في مختصر الأحكام للطوسي - وهو مستخرج على جامع الترمذي - برقم (١٣٨٦)، وحسنه محقق الكتاب أنيس بن أحمد، والحديث بتمامه: ((إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب بصنعته الخير والرامي به والممد به))، وقال: ((ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا. وكل لهو يلهو به الرجل باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته أهله فإنها من الحق)). وقال: ((من نسى الرمي بعدما علمه فقد كفر الذي علمه)).

- وقال الإمام الألباني في مجموع فتاوى الألباني: ويجب أن نتنبّه هنا بمناسبة هذا الحديث بأمرين اثنين: الأول: أن الحديث كما سمعتم بلفظ (باطلٌ) وليس بلفظ (محرمٌ).

والأمر الثاني: أننا إذا انتبهنا لهذا الفرق فحينئذ نعلم أن هناك فرقًا فقهيًّا أيضًا فإذا كان الحديث إنما ورد بلفظ باطلٌ فلا يعني أنه بمعنى محرمٌ، لأن الباطل هو أشبه ما يكون من حيث المعنى المراد منه هو (اللغو)، أما المحرم فهو حكمٌ صريحٌ في وجوب الابتعاد عنه، إذا عرفنا ذلك فحينئذٍ نستطيع أن نقول إن كلّ لهوٍ يلهو به الإنسان في أي زمان ومكان فهو لغوٌ باطلٌ لا أجر له، هذا إن نجى من الإثمِ، والإثمُ قد يأتي من ذات النوع الذي يلعب به وقد يأتي مما يحيط بنوع اللعب الذي يلعب به.

ثانيًا: إذا رأى من المصلحة ألا يبين فلا بأس أن يكتم كما جاء في حديث علي بن أبي طالب: (حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!([1])؛ وقال ابن مسعود: (إنك لن تحدث قوما حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة([2])؛ فإذا رأيت من المصلحة ألا تبين فلا تبين ولا لوم عليك.

ثالثًا: إذا كان قصد السائل الامتحان، أو قصده تتبع الرخص، أو ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض. وأنت تعلم هذا.: فلك أن تمتنع؛ الامتحان أن يأتي إليك، وتعرف أن الرجل يعرف المسألة، لكن سألك لأجل أن يمتحنك: هل أنت تعرفها، أو لا؛ أو يريد أن يأخذ منك كلامًا ليشي به إلى أحد، وينقله إلى أحد: فلك أن تمتنع؛ كذلك إذا علمت أن الرجل يتتبع الرخص، فيأتي يسألك يقول: سألت فلانا، وقال: هذا حرام. وأنت تعرف أن المسؤول رجل عالم ليس جاهلًا؛ فحينئذ لك أن تمتنع عن إفتائه؛ أما إذا كان المسؤول رجلًا تعرف أنه ليس عنده علم. إما من عامة الناس، أو من طلبة العلم الذين لم يبلغوا أن يكونوا من أهل الفتوى؛ فحينئذ يجب عليك أن تفتيه؛ لأنه لا حرمة لفتوى من أفتاه؛ أما لو قال لك: أنا سألت فلانًا، ولكني كنت أطلبك، ولم أجدك، وللضرورة سألت فلانًا؛ لكن لما جاء الله بك الآن أفتني: فحينئذ يجب عليك أن تفتيه؛ لأن حال هذا الرجل كأنه يقول: أنا لا أطمئن إلا لفتواك؛ وخلاصة القول أنه لا يجب عليك الإفتاء إلا إذا كان المستفتي مسترشدًا؛ لأن كتمان الحق لا يتحقق إلا بعد الطلب بلسان الحال، أو بلسان المقال.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

قال أبو زهرة: قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} معطوف على قوله: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}، فقد أمرهم تعالى بأوامر متعاقبة بعضها مترتب على بعض، أولها أن يذكروا نعمة الله تعالى ليتدبروا ويتفكروا ولعلهم يشكرون هذه النعم، ولا يكفرونها، ثم أمرهم سبحانه بأن يوفوا بالذي عاهدهم عليه، وأن يوفي لهم بعهده بأن يكفِّر عن سيئاتهم، ويدخلهم الجنة، ثم حذرهم وأرهبهم، ثم طالبهم بأن يؤمنوا بما أنزل من الكتاب الذي يصدق ما معهم، وألا يكونوا أول كافر به، ثم حذَّرهم وشدَّد في أمرهم بالتقوى ثم نهاهم عن أن يخلطوا الحق بالباطل، وألا يكتموا الحق الخالص.

ثم بعدُ أمرهم بالإيمان، أمرهم بالصلاة التي هي لب الإيمان، وهذه الصلاة نزل بها الكتاب الكريم الذي جاء مصدِّقًا لما معهم، وهي الصلاة التي أمر بها النبي ﷺ، وعلمها، وقال: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))، لأنها لازمة الإيمان بالقرآن الذي أمر بالإيمان به، وأمر بالزكاة، وبذلك أمر بركنَي الإسلام، وشعبتيه، وهما تهذيب الروح بالصلاة، ومثلها

١- أخرجه البخاري ص١٤، كتاب العلم، باب ٤٩: من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم ١٢٧.

٢- أخرجه مسلم ص٦٧٥، مقدمة الكتاب، رقم ١٤.

الصوم، والثاني قيام بناء اجتماعي متعاون فأمر بالزكاة، وبقية العبادات بل التكليفات كلها لَا تخرج عن هاتين الشعبتين: تهذيب الروح، وربط المجتمع بالتعاون الوثيق.

قال ابن العثيمين: {وأقيموا الصلاة}: أي ائتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وهذا كما أمر الله تعالى به بني إسرائيل أمر به هذه الأمة؛ و{الصلاة} هنا تشمل الفريضة، والنافلة.

قال ابن كثير: قَالَ مُقَاتِلٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، أَمَرَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ، أَيْ: يَدْفَعُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، أَمَرَهُمْ أَنْ يَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قال السعدي: {واركعوا مع الراكعين}: أي صلُّوا مع المصلِّين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبَّر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

قال القرطبي: فيه مسائل: الأولى: اختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر فقال قوم جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة([١]).

قلت: وهذا ليس مختصًّا بالركوع وحده فقد جعل الشرع القراءة عبارة عن الصلاة فقال: {وقُرْآنَ الْفَجْرِ}: أي صلاة الفجر. وقيل إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع؛ وقيل لأنه كان أثقل على القوم في الجاهلية.

قال شيخ الإسلام في المستدرك على مجموع الفتاوى ج٣ص٨٤: وقال تعالى لبني إسرائيل: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، فأفرد الركوع بالتخصيص بعد الأمر بإقامة الصلاة، ويشبه والله أعلم أن يكون فيه معنيان: أحدهما: أنهم لا يركعون في صلاتهم فأمرهم بالركوع إذا كانوا لا يفهمون ذلك في نفس الصلاة.

الثاني: أن قوله: {مَعَ الرَّاكِعِينَ}، أمر بصلاة الجماعة، ودلَّ بذلك على وجوبها، وأمر بالركوع معهم؛ لأنه بالركوع يكون مدرِكًا للركعة، فإذا ركع معهم فقد فعل بقية الأفعال معهم، وما قبل الركوع من القيام لا يجب فعله معهم فما بعده لازم؛ بخلاف ما لو قال: قوموا أو اسجدوا، لم يدل على ذلك.

وقال لمريم: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}[٣/٤٣]، قد يكون أمرًا لها بصلاة الجماعة وإن كانت امرأة لأنها كانت محررة منذورة لله عاكفة في المسجد.

وقال رحمه الله في الصلاة وأحكام تاركها ج١ص١٠١: ووجه الاستدلال بالآية أنه سبحانه أمرهم بالركوع وهو الصلاة، وعبَّر عنها بالركوع لأنه من أركانها والصلاة يعبر عنها بأركانها وواجباتها كما سمّاها الله سجودًا وقرآنًا وتسبيحًا فلا بدَّ لقوله: {مَعَ الرَّاكِعِينَ}، من فائدة أخرى وليست إلا فعلها مع جماعة المصلين، والمعية تفيد ذلك.

١- (قلت): أنظر كلام المشايخ عن هذه المسألة عند تفسير الآية (٤٣) من سورة آل عمران.

إذا ثبت هذا الأمر المقيد بصفة أو حال، لا يكون المأمور ممتثلًا إلا بالإتيان به على تلك الصفة والحال، فإن قيل: فهذا ينتقض بقوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}، والمرأة لا يجب عليها حضور الجماعة، قيل: الآية لم تدل على تناول الأمر بذلك لكل امرأة بل مريم بخصوصها أمرت بذلك، بخلاف قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، ومريم كانت لها خاصة لم تكن لغيرها من النساء فإن أمّها نذرتها أن تكون محررة لله ولعبادته ولزوم المسجد، وكانت لا تفارقه، فأمرت أن تركع مع أهله، ولما اصطفاها الله وطهّرها على نساء العالمين أمرها من طاعته بأمر اختصها به على سائر النساء، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}، فإن قيل كونهم مأمورين أن يركعوا مع الراكعين لا يدل على وجوب الركوع معهم حال ركوعهم بل يدل على الإتيان بمثل ما فعلوا، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، فالمعية تقضي المشاركة في الفعل ولا تستلزم المقارنة فيه. قيل: حقيقة المعية مصاحبة ما بعدها لما قبلها وهذه المصاحبة تفيد زائدًا على المشاركة ولا سيَّما في الصلاة فإنه إذا قيل صل مع الجماعة أو صليت مع الجماعة لا يفهم منه إلا اجتماعهم على الصلاة.

قال القرطبي: الثانية: الركوع الشرعي هو أن يحني الرجل صلبه ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا يقول: (سبحان ربي العظيم) ثلاثًا، وذلك أدناه روى مسلم عن عائشة قالت: ((كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك([1]))، وروى البخاري عن أبي حميد الساعدي قال: ((رأيت رسول الله ﷺ إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره .... ([2])) الحديث.

الثالثة: الركوع فرض، قرآنًا وسنة، وكذلك السجود لقوله تعالى في آخر الحج: {ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا}[الحج: ٧٧]. وزادت السنة الطمأنينة فيهما والفصل بينهما، وقد تقدم القول في ذلك وبيّنا صفة الركوع آنفًا، وأما السجود، فقد جاء مبيّنًا من حديث أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ كان ((إذا سجد مكن أنفه وجبهته من الأرض ونحى يديه عن جنبيه ووضع كفيه حذو منكبيه([3]))). خرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وروى مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ((اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب([4]))). وعن البراء قال قال رسول الله ﷺ: ((إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك([5]))). وعن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا سجد خوّى بيديه – يعني جنح حتى يرى وضح إبطيه من ورائه – وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى([6]))).

١- (قلت): مسلم (٤٩٨).

٢- (قلت): البخاري (٨٢٨).

– هصر ظهره: أي ثناه إلى الأرض.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٣٦٠)، وقال: رواه أبو داود والترمذى وصححه.

٤- (قلت): مسلم (٤٩٣).

٥- (قلت): مسلم (٤٩٤).

٦- (قلت): مسلم (٤٩٧).

الرابعة: واختلف العلماء فيمن وضع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته، فقال مالك: يسجد على جبهته وأنفه، وبه قال الثوري وأحمد، وهو قول النخعي. قال أحمد: لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر، وبه قال أبو خيثمة وابن أبي شيبة. قال إسحاق: إن سجد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة.

قلت: الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف، لحديث أبي حميد، وقد تقدم. وروى البخاري عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: ((أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة – وأشار بيده إلى أنفه – واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتَ الثياب والشعر([1]))). وهذا كله بيان لمجمل الصلاة فتعين القول به. والله أعلم .

الخامسة: لما قال تعالى: {ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا}[الحج: ٧٧]، قال بعض علمائنا وغيرهم يكفي منها ما يسمّى ركوعًا وسجودًا، وكذلك من القيام ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك فأخذوا بأقل الاسم في ذلك وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة. قال ابن عبد البر: ولا يجزي ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعًا وواقفًا وساجدًا وجالسًا. وهو الصحيح في الأثر وعليه جمهور العلماء وأهل النظر وهي رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك. وروى النسائي والدار قطني وعلي بن عبدالعزيز عن رفاعة بن رافع قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلى، فلما قضى الصلاة جاء فسلَّم على رسول الله ﷺ وعلى القوم فقال رسول الله ﷺ: ((ارجع فصل فإنك لم تصل))، وجعل يصلي وجعلنا نرمق صلاته لا ندري ما يعيب منها فلما جاء فسلَّم على النبي ﷺ وعلى القوم فقال له النبي ﷺ: ((وعليك ارجع فصل فانك لم تصل))، قال همام: فلا ندري أمره بذلك مرتين أو ثلاثًا فقال له الرجل: ما ألوت فلا ادري ما عبت عليَّ من صلاتي فقال ﷺ: ((إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبِّر الله تعالى ويثني عليه ثم يقرأ أم القرآن وما أذن له فيه وتيسر ثم يكبر فيركع فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخي ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوي قائمًا حتى يقيم صلبه ويأخذ كل عظم مأخوذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه. قال همام وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخي ثم يكبر فيستوي قاعدًا على مقعده ويقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك([2]))) ومثله حديث أبي هريرة خرجه مسلم وقد تقدم.

قلت: فهذا بيان الصلاة المجملة في الكتاب بتعليم النبي ﷺ وتبليغه إياها جميع الأنام فمن لم يقف عند هذا البيان، وأخل بما فرض عليه الرحمن، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيه ﷺ، كان من جملة من دخل في قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}[مريم: ٥٩]، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى. روى

١- (قلت): البخاري (٨١٢)، واللفظ له، ومسلم (٤٩٠ / ٢٣٠).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (١٠٥٣): حسن صحيح، صحيح أبي داود (٨٠٤).

البخاري عن زيد بن وهب قال رأى حذيفة رجلًا لا يتم الركوع ولا السجود فقال: (ما صليت، ولو مِتَّ لمت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمدًا ﷺ([١])).

السادسة: قوله تعالى: { مَعَ الرَّاكِعِينَ} {مع} تقتضي المعية والجمعية ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن: إن الأمر بالصلاة أوَّلًا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: {مع} شهود الجماعة، وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين، فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة، وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية، قال ابن عبد البر: وهذا قول صحيح لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات، فإذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة المنفرد في بيته جائزة لقوله ﷺ: ((صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ([٢])بسبع وعشرين درجة([٣])))، أخرجه مسلم من حديث ابن عمر. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءًا([٤])))، وقال داود: الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة، وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثور وغيرهم. وقال الشافعي: لا أرخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر. حكاه ابن المنذر. وروى مسلم عن أبي هريرة قال أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له فلمّا ولّى دعاه فقال: ((هل تسمع النداء بالصلاة))، قال: نعم، قال: ((فأجب([٥])))، وقال أبو داود في هذا الحديث: ((لا أجد لك رخصة([٦])))، خرجه من حديث ابن أم مكتوم وذكر أنه كان هو السائل. ذكر قاسم بن أصبغ في كتابه فقال حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي قال حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: ((من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر([٧])))، وقال ابن مسعود: ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، قال ابن المنذر: ولقد روينا عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا: ((من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له))، منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعري. وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ((لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا حزمًا من حطب ثم آتي قومًا يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم([٨]))) هذا ما احتج به من أوجب الصلاة في الجماعة فرضًا وهي ظاهرة في الوجوب وحملها الجمهور

١- (قلت): البخاري (٧٩١).

٢- الفذ: المنفرد.

٣- (قلت): البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠)، واللفظ له.

٤- (قلت): البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩)، واللفظ له.

٥- (قلت): مسلم (٦٥٣).

٦- (قلت): سنن أبي داود (٥٥٢)، وقال الإمام الألباني في صحيح وضعيف أبي داود: حسن صحيح.

٧- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٠٧٧)، وصحيح أبي داود (٥٦٠)، وانظر حديث رقم : ٦٣٠٠ في صحيح الجامع.

٨- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٥٥٨): حديث صحيح؛ دون قوله: ((ليست بهم علة))؛ وإن كانت صحيحة المعنى، والصحيح: ((يسمعون النداء)). وأخرجه مسلم مختصراً. وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

على تأكيد أمر شهود الصلوات في الجماعة بدليل حديث ابن عمر وأبي هريرة وحملوا قول الصحابة وما جاء في الحديث من أنه ((لا صلاة له)) على الكمال والفضل، وكذلك قوله ﷺ لابن أم مكتوم: ((فأجب)) على الندب، وقوله ﷺ: ((لقد هممت)) لا يدل على الوجوب الحتم، لأنه هم ولم يفعل، وإنما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة والجمعة، يبين هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبدالله قال: (من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ﷺ، ولو تركتم سنة نبيكم ﷺ لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف). فبين رضي الله عنه في حديثه أن الاجتماع سنة من سنن الهدى وتركه ضلال، ولهذا قال القاضي أبو الفضل عياض: اختلف في التمالؤ على ترك ظاهر السنن، هل يقاتل عليها أو لا، والصحيح قتالهم، لأن في التمالؤ عليها إماتتها.

قلت: فعلى هذا إذا أقيمت السنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحت، روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ((صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعًا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا ينهزه([1])إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون اللهم أرحمه اللهم اغفر له اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه([2]))). قيل لأبي هريرة: ما يحدث؟ قال: يفسو أو يضرط.

قال الإمام الألباني في تمام المنة ردا على قول سيد سابق مؤلف فقه السنة: قوله: (صلاة الجماعة سنة مؤكدة):

قلت: لقد تساهل المؤلف في هذا الحكم فإن معنى كونها سنة مؤكدة عند الفقهاء أنه يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها فكيف يصح هذا في حق المتخلفين عن صلاة الجماعة وقد هم ﷺ بحرق بيوتهم عليهم كما في الحديث الرابع في الكتاب. وقد قال ابن القيم: (ولم يكن ليحرق مرتكب صغيرة فترك الصلاة في الجماعة هو من الكبائر).

بل كيف يصح هذا مع قوله للأعمى ﷺ في: ((أجب))، مع أنه فوق كونه أعمى ليس له قائد يقوده إلى المسجد كما في الحديث الثالث، بل وفي طريقه الأشجار والأحجار كما في بعض الروايات الصحيحة في الحديث، فهل هناك حكم اجتمع فيه مثل هذه القرائن المؤكدة للوجوب ومع ذلك يقال: هو ليس بواجب؟!

١- النهز: الدفع. أي لا يقيمه من موضعه، وهو بمعنى قوله بعده: ((لا يريد إلّا الصلاة)).

٢- (قلت): البخاري (٢١١٩)، ومسلم (٦٤٩/ ٢٧٢)، واللفظ له.

وكذلك قوله في الحديث السادس: ((... إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ... ([1]))) فهو من الأدلة على وجوبها إذ إن من ترك سنة بل السنن كلها مع المحافظة على الواجبات لا يقال فيه: ((استحوذ عليه الشيطان)) كما يشير إلى ذلك حديث الأعرابي: ((دخل الجنة إن صدق([2]))) وهذا بين لا يخفى.

ويغلب على ظني أن المؤلف حين كتب هذه المسألة كان متأثِّرًا بما قرأه في (نيل الأوطار) للشوكاني في هذا البحث فإنه عفا الله عني وعنه قد أجاب عن الأحاديث المقيدة للوجوب بأجوبة تصرفها إلى الندب في زعمه، ولكن من يمعن النظر في تلك الأجوبة يعلم ضعفها وتكلفها، ولا سيما والشوكاني لم يتعرض للإجابة عن كل أدلة الوجوب التي منها الحديث السادس ومنها حديث: ((من سمع النداء فلم يجبه فلا صلاة له إلا من عذر([3])))، وقد أورده المؤلف في الجمعة وعلَّقت عليه هناك بما فيه كفاية بل سلم في (أبواب الأذان) أنه دليل على وجوب الأذان والإقامة قال: (لأن الترك الذي هو نوع من استحواذ الشيطان يجب تجنبه).

قلت: رواية أبي داود تدل على أن المراد بقوله: ((لا تقام فيهم الصلاة)) أي: صلاة الجماعة، والشوكاني فَهِم من الحديث ما ذكرناه عنه لرواية أحمد له بلفظ: ((ما من ثلاثة لا يؤذنون ولا تقام فيهم الصلاة ...)) وأنا لا أفهم منه إلا الجماعة ولو سلمنا أن المراد الإعلام عنها ب (الله أكبر الله أكبر ... الخ).

فنقول للشوكاني: إذا سلمت بأن الحديث دليل على وجوب الأذان والإقامة فهو دليل على وجوب الجماعة من باب أولى، لأن الأذان والإقامة بالنسبة للجماعة كالوسيلة مع الغاية، فإذا وجبت الوسيلة فمن باب أولى أن تجب الغاية فتأمل.

ومن أدلة الوجوب قوله تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ... } الآية. وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه أمرهم بصلاة الجماعة معه في حال الخوف وذلك دليل على وجوبها حال الخوف وهو يدل بطريق الأولى على وجوبها حال الأمن.

الثاني: أنه سن صلاة الخوف جماعة وسوغ فيها ما لا يجوز لغير عذر كاستدبار القبلة والعمل الكثير، فإنه لا يجوز لغير عذر بالاتفاق، وكذلك مفارقة الإمام قبل السلام عند الجمهور، وكذلك التخلف عن متابعة الإمام كما يتخلف الصف المؤخر بعد ركوعه مع الإمام إذا كان العدو أمامهم. وهذه الأمور مما تبطل الصلاة بها لو فعلت لغير عذر،

١- (قلت): رواه أبو داود، وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٥٥٦). والحديث بتمامه: ((ما من ثلاثة - في قرية ولا بَدْو- لا تقام فيهم الصلاة؛ إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية)).

قال زائدة: قال السائب: يعني بالجماعة: الصلاة في الجماعة.

٢- (قلت): البخاري (١٨٩١)، ومسلم (٨/١١، ٩)، والحديث بتمامه في البخاري: عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ثَائِرَ الرَّأْسِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ؟ فَقَالَ: ((الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا))، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقَالَ: ((شَهْرَ رَمَضَانَ إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا))، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ، قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لاَ أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلاَ أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ)).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٠٧٧)، وصحيح أبي داود (٥٦٠)، وانظر حديث رقم : ٦٣٠٠ في صحيح الجامع.

فلو لم تكن الجماعة واجبة، بل مستحبة، لكان قد التزم فعل محظور مبطل للصلاة وتركت المتابعة الواجبة في الصلاة لأجل فعل مستحب! مع أنه قد كان من الممكن أن يصلوا وحدانًا صلاة تامة فعلم أنها واجبة.

ذكر هذا الدليل في أدلة أخرى من الكتاب والسنة شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى) ٢ / ٣٦٣ – ٣٦٩ فمن شاء الزيادة من الإيضاح فليرجع إليها وإلى (المسائل الماردينية) ص ٩٠ – ٩٢.

واعلم أنه لا ينافي القول بالوجوب ما تفيده بعض الأحاديث من صحة صلاة المنفرد مثل الحديث الأول والثاني في الكتاب إذ أفادا أن صلاة المنفرد صحيحة حيث جعلا له درجة واحدة لأن هذا لا ينافي الوجوب الذي من طبيعته أن يكون أجره مضاعفًا على أجر ما ليس بواجب. كما هو واضح.

قال القرطبي: السابعة: واختلف العلماء في هذا الفضل المضاف للجماعة هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت أو إنما يكون ذلك الفضل للجماعة التي تكون في المسجد لما يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء في الحديث قولان. والأول أظهر لأن الجماعة هو الوصف الذي علق عليه الحكم. والله أعلم وما كان من إكثار الخطى إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة والله أعلم.

الثامنة: واختلفوا أيضًا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك لا.

التاسعة: واختلفوا أيضًا فيمن صلى في جماعة هل يعيد صلاته تلك في جماعة أخرى؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وأصحابهم إنما يعيد الصلاة في جماعة مع الإمام من صلّى وحده في بيته وأهله أو في غير بيته، وأمّا من صلّى في جماعة وإن قلّت فإنه لا يعيد في جماعة أكثر منها ولا أقل. وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وداود بن علي جائز لمن صلّى في جماعة ووجد أخرى في تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء لأنها نافلة وسنة. وروي ذلك عن حذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشعبي والنخعي، وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب احتج مالك بقوله ﷺ: ((لا تصلوا صلاة في يوم مرتين([1]))، واتفق أحمد وإسحاق على أن معنى هذا الحديث أن يصلّي الإنسان الفريضة ثم يقوم فيصليها ثانية ينوي بها الفرض مرة أخرى، فأما إذا صلاها مع الإمام على أنها سنة أو تطوع فليس بإعادة الصلاة، وقد قال رسول الله ﷺ للذين أمرهم بإعادة الصلاة في جماعة ((إنها لكم نافلة([2]))) من حديث أبي ذر وغيره.

العاشرة: روى مسلم عن أبي مسعود عن النبي ﷺ قال: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سِلْمًا، ولا يؤمّن الرجلُ الرجلَ في سلطانه ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه([3]))) وفي رواية: ((سنًا)) مكان ((سلمًا))، وأخرجه أبو داود

١– (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٣٥٠): صحيح عن ابن عمر. صحيح أبي داود (٥٩٢)، المشكاة (١١٥٧).

٢– (قلت): مسلم (٦٤٨). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: ((كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟ – أَوْ – يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟)) قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: ((صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، فَإِنْ أَدْرَكْتَهَا مَعَهُمْ، فَصَلِّ، فَإِنَّهَا لَكَ نَافِلَةٌ)).

٣– (قلت): مسلم (٦٧٣).

وقال: قال شعبة فقلت لإسماعيل: ما تكرمته؟ قال: فراشه. وأخرجه الترمذي وقال حديث أبي مسعود حديث حسن صحيح والعمل عليه عند أهل العلم.

قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئًا. ثبت في صحيح البخاري عن عمر بن سلمة قال: (كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ، فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ، أَوْ أَوْحَى اللَّهُ بِكَذَا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلاَمَ، وَكَأَنَّمَا يُغْرَى فِي صَدْرِي، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلاَمِهِمْ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلاَمِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلاَمِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا، فَقَالَ: صَلُّوا صَلاَةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا صَلاَةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا، فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ، أَوْ سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصَتْ عَنِّي، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ: أَلاَ تُغَطُّوا عَنَّا اسْتَ قَارِئِكُمْ، فَاشْتَرَوْا فَقَطَعُوا لِي قَمِيصًا، فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ([1])).

وممن أجاز إمامة الصبي غير البالغ الحسن البصري وإسحاق بن راهويه واختاره ابن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها لدخوله في جملة قوله ﷺ: ((يؤم القوم أقرؤهم))، ولم يستثن.

الحادية عشرة: الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حرّ على استقامة جائز من غير خلاف إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن في أم القرآن لحنًا يخلُّ بالمعنى مثل أن يكسر الكاف من {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}[الفاتحة: ٥]، ويضم التاء في {أَنْعَمْتَ}، ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد وإن لم يفرق بينهما لا تصح إمامته، لأن معناهما يختلف ومنهم من رخّص في ذلك كله إذا كان جاهلًا بالقراءة وأم مثله ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خنثى مشكل ولا كافر ولا مجنون ولا أميّ ولا يكون واحد من هؤلاء إمامًا بحال من الأحوال عند أكثر العلماء على ما يأتي ذكره إلا الأمي لمثله، قال علماؤنا لا تصح إمامة الأمي الذي لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره وكذلك قال الشافعي فإن أَمَّ أميًّا مثله صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعي. وقال أبو حنيفة إذا صلى الأمّيّ بقوم يقرؤون وبقوم أميين فصلاتهم كلهم فاسدة. وخالفه أبو يوسف فقال صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامة. وقالت فرقة: صلاتهم كلهم جائزة لأن كلًّا مؤدٍّ فرضه وذلك مثل المتيمم يصلي بالمتطهرين بالماء والمصلّي قاعدًا يصلّي بقوم قيام صلاتهم مجزئة في قول من خالفنا، لأن كلًّا مؤدٍّ فرض نفسه.

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((سلمًا)): أي إسلامًا، ((ولا يؤمَنَّ الرجل في سلطانه)): معناه أن صاحب البيت والمجلس وإمام المجلس أحق من غيره وإن كان ذلك الغير أفقه وأقرأ وأورع وأفضل منه، وصاحب المكان أحق فإن شاء تقدم وإن شاء قدم من يريده، وإن كان ذلك الذي يقدمه مفضولًا بالنسبة إلى باقي الحاضرين لأنه سلطانه فيتصرف فيه كيف يشاء، ((تكرمته)): قال العلماء التكرمة الفراش ونحوه مما يبسط لصاحب المنزل ويخص به.

١- (قلت): البخاري (٤٣٠٢).

قلت: وقد يحتج لهذا القول بقوله ﷺ: ((ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي فإنما يصلي لنفسه([١]))، أخرجه مسلم وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام، والله أعلم.

الثانية عشرة: ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشل والأقطع والخصي والعبد إذا كان كل واحد منهم عالمًا بالصلاة. وقال ابن وهب لا أرى أن يؤم الأقطع والأشل لأنه منتقص عن درجة الكمال وكرهت إمامته لأجل النقص. وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح، لأنه عضو لا يمنع فقده فرضًا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين، وقد روى أنس ((أن النبي ﷺ استخلف ابن أم مكتوم يؤم الناس وهو أعمى([٢]))، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والحصى قياسًا ونظرا والله أعلم. وقد روي عن أنس بن مالك أنه قال في الأعمى: وما حاجتهم إليه وكان ابن عباس وعتبان بن مالك يؤمان وكلاهما أعمى، وعليه عامة العلماء.

الثالثة عشرة: واختلفوا في إمامة ولد الزنى فقال مالك أكره أن يكون إمامًا راتبًا وكره ذلك عمر بن عبدالعزيز، وكان عطاء بن أبي رباح يقول: له أن يؤم إذا كان مرضيًّا، وهو قول الحسن البصري والزهري والنخعي وسفيان الثوري والأوزاعي وأحمد وإسحاق، وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأي، وغيره أحب إليهم. وقال الشافعي: أكره أن ينصب إمامًا راتبًا من لا يُعرف أبوه، ومن صلّى خلفه أجزأه، وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك في إمامة ولد الزنى، وليس عليه من ذنب أبويه شيء. ونحوه قال ابن عبد الحكم: إذا كان في نفسه أهلًا للإمامة، قال ابن المنذر: يؤم لدخوله جملة قول رسول الله ﷺ: ((يؤم القوم أقرؤهم))، وقال أبو عمر: ليس في شيء من الآثار الواردة في شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب، وإنما فيها دلالة على الفقه والقراءة والصلاح في الدين.

الرابعة عشرة: وأما العبد، فروى البخاري عن ابن عمر قال: (لما قدم المهاجرون الأولون العصبة – موضع بقباء – قبل مقدم النبي ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرآنًا([٣])). وعنه قال: (كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبي ﷺ في مسجد قباء فيهم أبو بكر وعمر وأبو سلمة وزيد وعامر بن ربيعة([٤])). وكانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف. قال ابن المنذر وأم أبو سعيد مولى أبي أسيد – وهو عبد – نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخَّص في إمامة العبد النخعي والشعبي والحسن البصري والحكم والثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي وكره ذلك أبو مجلز، وقال مالك لا يؤمهم إلا أن يكون العبد قارئًا ومن معه من الأحرار لا يقرؤون إلا أن يكون في

١- (قلت): مسلم (٤٢٣). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَ: ((يَا فُلَانُ، أَلَا تُحْسِنُ صَلَاتَكَ؟ أَلَا يَنْظُرُ الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ، إِنِّي وَاللهِ لَأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لأبصر من ورائي))، قال العلماء: معناه أن الله تعالى خلق له ﷺ إدراكا في قفاه يبصر به من ورائه، وقد انخرقت العادة له ﷺ بأكثر من هذا وليس يمنع من هذا عقل ولا شرع، بل ورد الشرع بظاهره فوجب القول به، قال القاضي: قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وجمهور العلماء: هذه الرؤية بالعين حقيقة.

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٦٠٨): إسناده حسن صحيح، وصححه ابن حبان (٢١٣١ و ٢١٣٢) .

٣- (قلت): البخاري (٦٩٢).

٤- (قلت): البخاري (٧١٧٥).

عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها، ويجزئ عند الأوزاعي إن صلوا وراءه. قال ابن المنذر العبد داخل في جملة قول النبي ﷺ: ((يؤم القوم أقرؤهم)).

الخامسة عشرة: وأما المرأة فروى البخاري عن أبي بكرة قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: ((لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة([1]))، وذكر أبو داود عن عبدالرحمن بن خلاد عن أم ورقه بنت عبدالله قال: (وكان رسول الله ﷺ يزورها في بيتها قال: وجعل لها مؤذّنًا يؤذن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها، قال عبدالرحمن: فأنا رأيت مؤذّنها شيخًا كبيرًا([2])). قال ابن المنذر: والشافعي يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة. قال أبو ثور لا إعادة عليهم. وهذا قياس قول المزني.

قلت: وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء وروى ابن أيمن جواز إمامتها للنساء.

قال الإمام الألباني في تمام المنة تعقيباً على سيد سابق بعدما أورد في هذا الباب الحديث الذي رواه البيهقي (وعن عائشة أنها كانت تؤذن وتقيم وتؤم النساء وتقف وسطهن): قلت: في (السنن الكبرى) ١ / ٤٠٨ و٣ / ١٣١ من طريق الحاكم وهو في (المستدرك) ١ / ٢٠٣ – ٢٠٤ وفيه ليث وهو ابن أبي سليم ومن طريقه عبد الرزاق ٣ / ١٢٦ وابن أبي شيبة ١ / ٢٢٣ دون إمامة النساء. لكن هذه الزيادة تابعه عليها ابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة أخرجه ابن أبي شيبة ٢ / ٨٩ فأحدهما يقوي الآخر ولها طريق أخرى من حديث رائطة الحنفية أن عائشة أمَّت نسوة في المكتوبة فأمتهن بينهن وسطًا. أخرجه عبد الرزاق ٣ / ١٤١ والدار قطني ١ / ٤٠٤ والبيهقي ٣ / ١٣١. وقال النووي في (المجموع) ٤ / ١٩٩: (إسناده صحيح)! كذا قال وأقره الزيلعي في (نصب الراية) ٢ / ٣١ وأما الحافظ فسكت عن إسناده في (التلخيص) ٢ / ٤٢ وهو أقرب فإن رائطة هذه لم أجد لها ترجمة وفي طبقتها ما في (التهذيب): (رائطة بنت مسلم روت عن أبيها وعنها ابنها عبد الله بن الحارث بن أبزى المكي).

وقال الحافظ في (التقريب): (لا تعرف). فمن المحتمل أن تكون هي هذه أو غيرها فأنى لإسنادها الصحة؟!

ولها شاهد من رواية حجيرة بنت حصين قالت: (أمّتنا أم سلمة في صلاة العصر قامت بيننا). رواه عبد الرزاق أيضًا وابن أبي شيبة ٢ / ٨٨ والبيهقي ورجاله ثقات غير حجيرة هذه فلم أعرفها ومع ذلك صححه النووي أيضًا وسكت الحافظ عنه أيضًا. لكن يقويه ما عند ابن أبي شيبة من طريق قتادة عن أم الحسن أنها رأت أم سلمة زوج النبي ﷺ تؤم النساء تقوم معهن في صفهن.

قلت: وهذا إسناد صحيح رواته ثقات معروفون من رجال الشيخين غير أم الحسن هذه وهو البصري واسمها خيرة مولاة أم سلمة وقد روى عنها جمع من الثقات ورمز لها في (التهذيب) بأنها ممن روى لها مسلم وذكرها ابن حبان في (الثقات) ٤ / ٢١٦.

١- (قلت): البخاري (٤٤٢٥ و٧٠٩٩).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٦٠٦).

وبالجملة فهذه الآثار صالحة للعمل بها ولا سيّما وهي مؤيدة بعموم قوله ﷺ: ((إنما النساء شقائق الرجال([١]))) فتذَكَّرْهُ فإنه مهم.

قال القرطبي: السادسة عشرة: وأما الخنثى المشكل فقال الشافعي: لا يؤم الرجال ويؤم النساء. وقال مالك: لا يكون إمامًا بحال، وهو قول أكثر الفقهاء.

السابعة عشرة: الكافر المخالف للشرع كاليهودي والنصراني يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره. وكان الشافعي وأحمد يقولان لا يجزئهم ويعيدون، وقاله مالك وأصحابه. وقال الأوزاعي: يعاقب. وقال أبو ثور والمزني لا إعادة على من صلّى خلفه ولا يكون بصلاته مسلمًا عند الشافعي وأبي ثور.

الثامنة عشرة: وأما أهل البدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخاري عن الحسن: صلّ وعليه بدعته. وقال أحمد: لا يصلّى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه، وقال مالك: ويصلّى خلف أئمة الجور ولا يصلّى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم، وقال ابن المنذر: كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة، ولا يجوز تقديم من هذه صفته.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٣ص٣٤٢: وَأَمَّا الصَّلَاةُ خَلْفَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ، وَخَلْفَ أَهْلِ الْفُجُورِ، فَفِيهِ نِزَاعٌ مَشْهُورٌ، وَتَفْصِيلٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ:

لَكِنْ أَوْسَطُ الْأَقْوَالِ فِي هَؤُلَاءِ: أَنَّ تَقْدِيمَ الْوَاحِدِ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الْإِمَامَةِ لَا يَجُوزُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى غَيْرِهِ. فَإِنَّ مَنْ كَانَ مُظْهِرًا لِلْفُجُورِ أَوْ الْبِدَعِ يَجِبُ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِ وَنَهْيُهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَقَلُّ مَرَاتِبِ الْإِنْكَارِ هَجْرُهُ لِيَنْتَهِيَ عَنْ فُجُورِهِ وَبِدْعَتِهِ؛ وَلِهَذَا فَرَّقَ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ بَيْنَ الدَّاعِيَةِ وَغَيْرِ الدَّاعِيَةِ، فَإِنَّ الدَّاعِيَةَ أَظْهَرَ الْمُنْكَرَ فَاسْتَحَقَّ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ السَّاكِتِ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَسَرَّ بِالذَّنْبِ، فَهَذَا لَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ فِي الظَّاهِرِ، فَإِنَّ الْخَطِيئَةَ إذَا خَفِيَتْ، لَمْ تَضُرَّ إلَّا صَاحِبَهَا، وَلَكِنْ إذَا أُعْلِنَتْ، فَلَمْ تُنْكَرْ، ضَرَّتْ الْعَامَّةَ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُنَافِقُونَ تُقْبَلُ مِنْهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ، وَتُوكَلُ سَرَائِرُهُمْ إلَى اللَّهِ تَعَالَى، بِخِلَافِ مَنْ أَظْهَرَ الْكُفْرَ.

فَإِذَا كَانَ دَاعِيَةً مُنِعَ مِنْ وِلَايَتِهِ وَإِمَامَتِهِ وَشَهَادَتِهِ وَرِوَايَتِهِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ النَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، لَا لِأَجْلِ فَسَادِ الصَّلَاةِ أَوْ اتِّهَامِهِ فِي شَهَادَتِهِ وَرِوَايَتِهِ، فَإِذَا أَمْكَنَ لِإِنْسَانِ أَلَّا يُقَدِّمَ مُظْهِرًا لِلْمُنْكَرِ فِي الْإِمَامَةِ، وَجَبَ ذَلِكَ. لَكِنْ إذَا وَلَّاهُ غَيْرُهُ وَلَمْ يُمْكِنْهُ صَرْفُهُ عَنْ الْإِمَامَةِ، أَوْ كَانَ هُوَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَرْفِهِ إلَّا بِشَرِّ أَعْظَمَ ضَرَرًا مِنْ ضَرَرِ مَا أَظْهَرَهُ مِنْ الْمُنْكَرِ، فَلَا يَجُوزُ دَفْعُ الْفَسَادِ الْقَلِيلِ بِالْفَسَادِ الْكَثِيرِ، وَلَا دَفْعُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بِتَحْصِيلِ أَعْظَمِ الضَّرَرَيْنِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ. وَمَطْلُوبُهَا تَرْجِيحُ خَيْرِ الْخَيْرَيْنِ إذَا لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَجْتَمِعَا جَمِيعًا، وَدَفْعُ شَرِّ الشَّرَّيْنِ إذَا لَمْ يَنْدَفِعَا جَمِيعًا.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤).

فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ مَنْعُ الْمُظْهِرِ لِلْبِدْعَةِ وَالْفُجُورِ إِلَّا بِضَرَرٍ زَائِدٍ عَلَى ضَرَرِ إِمَامَتِهِ، لَمْ يَجُزْ ذَلِكَ، بَلْ يُصَلِّي خَلْفَهُ مَا لَا يُمْكِنُهُ فِعْلُهَا إِلَّا خَلْفَهُ، كَالْجُمَعِ، وَالْأَعْيَادِ، وَالْجَمَاعَةِ. إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِمَامٌ غَيْرُهُ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يُصَلُّونَ خَلْفَ الْحَجَّاجِ، وَالْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيِّ، وَغَيْرِهِمَا الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ تَفْوِيتَ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنَ الِاقْتِدَاءِ فِيهِمَا بِإِمَامٍ فَاجِرٍ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ التَّخَلُّفُ عَنْهُمَا لَا يَدْفَعُ فُجُورَهُ، فَيَبْقَى تَرْكُ الْمَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ بِدُونِ دَفْعِ تِلْكَ الْمَفْسَدَةِ. وَلِهَذَا كَانَ التَّارِكُونَ لِلْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ خَلْفَ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ مُطْلَقًا مَعْدُودِينَ عِنْدَ السَّلَفِ، وَالْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ.

وَأَمَّا إِذَا أَمْكَنَ فِعْلُ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ خَلْفَ الْبَرِّ، فَهُوَ أَوْلَى مِنْ فِعْلِهَا خَلْفَ الْفَاجِرِ. وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا صَلَّى خَلْفَ الْفَاجِرِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، فَهُوَ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ لِلْعُلَمَاءِ.

قال القرطبي: التاسعة عشرة: وأما الفاسق بجوارحه كالزاني وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه فقال ابن حبيب: من صلّى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدًا إلا أن يكون الوالي الذي تؤدّى إليه الطاعة فلا إعادة على من صلّى خلفه إلّا أن يكون حينئذ سكران. قاله من لقيت من أصحاب مالك.

الموفية العشرين: وروى الأئمة أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما جعل الإمام ليؤتمّ به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبِّروا وإذا ركع فاركعوا وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا ولك الحمد وإذا سجد فاسجدوا وإذا صلّى جالسًا فصلّوا جلوسًا أجمعون(١))).

وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدًا على قولين: أحدهما: أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو في أكثرها وهو قول أهل الظاهر وروي عن ابن عمر. ذكر سنيد قال: حدثنا ابن علية عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الورد الأنصاري قال صلّيت إلى جنب ابن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله فلمّا سلّم الإمام أخذ ابن عمر بيدي فلواني وجذبني فقلت مالك قال من أنت؟ قلت فلان بن فلان، قال: أنت من أهل بيت صدق فما يمنعك أن تصلِّي؟ قلت: أو ما رأيتني إلى جنبك؟! قال: قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه: (لا صلاة لمن خالف الإمام). وقال الحسن بن حي فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد: لم يعتد بذلك ولم يجزه. وقال أكثر الفقهاء: من فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته، لأن الأصل في صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سنة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وإن أسقط بعض سننها، لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه وبئس ما فعل في تركه الجماعة، قالوا: ومن دخل في صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن في ركعة وإمامه في أخرى فقد اقتدى، وإن كان يرفع قبله ويخفض قبله لأنه بركوعه يركع وبسجوده يسجد ويرفع وهو في ذلك تبع له إلا أنه مسيء في فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها.

١- (قلت): البخاري (٦٨٨)، ومسلم (٤١٢).

قلت: ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام لأن الاتباع الحسي والشرعي مفقود وليس الأمر هكذا عند أكثرهم، والصحيح في الأثر والنظر القول الأول فإن الإمام إنما جعل ليؤتم به ويقتدى به بأفعاله ومنه قوله تعالى: { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا }[البقرة: ١٢٤]: أي يأتمون بك على ما يأتي بيانه. هذا حقيقة الإمام لغةً وشرعًا فمن خالف إمامه لم يتبعه ثم أن النبي ﷺ بين فقال: ((إذا كبَّر فكبِّروا)) الحديث. فأتى بالفاء التي توجب التعقيب وهو المبين عن الله مراده. ثم أوعد من رفع أو ركع قبل وعيدًا شديدًا فقال: ((أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار([1]))، أخرجه في الموطأ والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم، وقال أبو هريرة إنما ناصيته بيد شيطان، وقال رسول الله ﷺ: ((كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد([2]))، يعني مردود فمن تعمد خلاف إمامه عالمًا بأنه مأمور باتباعه منهي عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف ما أمر به فواجب ألا تجزي عنه صلاته تلك والله أعلم.

الحادية والعشرون: فإن رفع رأسه ساهيًا قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السنة فيمن سها ففعل ذلك في ركوع أو في سجود أن يرجع راكعًا أو ساجدًا وينتظر الإمام وذلك خطأ ممن فعله لأن النبي ﷺ قال: ((إنما جعل الإمام ليؤتم به)) فلا تختلفوا عليه، قال ابن عبد البر: ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على فعله عامدًا لقوله: (وذلك خطأ ممن فعله) لأن الساهي الإثم عنه موضوع.

الثانية والعشرون: وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدم القول فيه وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام.

الثالثة والعشرون: وروى مسلم عن أبي مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: ((استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم([3]))، قال أبو مسعود: (فأنتم اليوم أشد اختلافًا). زاد من حديث عبدالله ((وإياكم وهيشات الأسواق([4]))). وقوله: ((استووا)) أمر بتسوية الصفوف وخاصة الصف الأول.

١- (قلت): البخاري (٦٩١)، واللفظ له، ومسلم (٤٢٧).

٢- (قلت): البخاري (٢٦٩٧) بلفظ: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ))، ومسلم (١٧١٨) بلفظ: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث:

((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))، قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول أنا ما أحدثت شيئا فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به.

٣- (قلت): مسلم (٤٣٢).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الأحلام والنهى)): أي ذوو الألباب والعقول قال ابن الأثير واحد الأحلام حلم بالكسر بمعنى الأناة والتثبت في الأمور وذلك من شعار العقلاء والنهى جمع نهية وهي العقل وسمي العقل نهية لأنه ينتهي إلى ما أمر به ولا يتجاوز.

٤- (قلت): مسلم (٤٣٢).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((هيشات الأسواق)): أي اختلاطها والمنازعة والخصومات وارتفاع الأصوات واللغط والفتن التي فيها.

الرابعة والعشرون: واختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك فقال مالك وأصحابه: يفضي المصلي بأليتيه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني رجله اليسرى ، لما رواه في موطئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد (أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وركه الأيسر ولم يجلس على قدمه)، ثم قال: أراني هذا عبدالله بن عمر وحدثني أن أباه كان يفعل ذلك.

قلت: وهذا المعنى قد جاء في صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ: ((يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوي قائمًا وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوي جالسًا وكان يقول في كل ركعتين التحية، وكان يفرش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى وكان ينهى عن عقبة الشيطان وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع، وكان يختم الصلاة بالتسليم([1]))).

قلت: ولهذا الحديث – والله أعلم – قال ابن عمر: إنما سنة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثني اليسرى، وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حي: (ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى)، لحديث وائل بن حجر، وكذلك قال الشافعي وأحمد وإسحاق في الجلسة الوسطى. وقالوا في الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك لحديث أبي حميد الساعدي رواه البخاري قال: رأيت النبي ﷺ ((إذا كبَّر جعل يديه حذاء منكبيه وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره فإذا رفع استوى حتى يعود كل فقار مكانه فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة وإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى وإذا جلس في الركعة الآخرة قدم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته([2]))). قال الطبري إن فعل هذا فحسن كل ذلك قد ثبت عن النبي ﷺ.

الخامسة والعشرون: مالك عن مسلم بن أبي مريم عن علي بن عبدالرحمن المعاوي أنه قال: رآني عبدالله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء في الصلاة، فلما انصرف نهاني فقال: اصنع كما كان رسول الله ﷺ يصنع، قلت: وكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قال: كان ((إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى([3]))) وقال: هكذا كان يفعل. قال ابن عبد البر: (وما وصفه ابن عمر من وضعه كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بها ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع، كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مجمع عليه ولا خلاف علمته بين العلماء فيها وحسبك بهذا. إلا أنهم اختلفوا في تحريك أصبعه السبابة فمنهم من رأى تحريكها

١- (قلت): مسلم (٤٩٨).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((عقبة الشيطان))، وفي الرواية الأخرى ((عقب))، وفسره أبو عبيدة وغيره بالإقعاء المنهي عنه وهو أن يلصق أليتيه بالأرض وينصب ساقيه ويضع يديه على الأرض كما يفرش الكلب وغيره من السباع.

٢- (قلت): البخاري (٨٢٨).

٣- (قلت): مسلم (٥٨٠/ ١١٦).

ومنهم من لم يره، وكل ذلك مروي في الآثار الصحاح المسندة عن النبي ﷺ وجميعه مباح والحمد لله. وروى سفيان بن عيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه قال سفيان وكان يحيى بن سعيد حدثناه عن مسلم ثم لقيته فسمعته منه وزادني فيه قال ((هي مذبة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا([1]))).

قلت: روى أبو داود في حديث ابن الزبير أنه عليه السلام ((كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها([2])))، وإلى هذا ذهب بعض العراقيين فمنع من تحريكها، وبعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد، وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها إلا أنهم اختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين: تأوّلَ (من والاه) بأن قال: إن ذلك يذكر بموالاة الحضور في الصلاة وبأنها مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان، و(من لم يوال) رأى تحريكها عند التلفظ بكلمتي الشهادة، وتأول في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد والله أعلم.

قال الإمام الألباني في تمام المنة ردًا على كلام البيهقي الذي أورده سيد سابق في فقه السنة: يحتمل أن يكون المراد بالتحريك الإشارة بها لا تكرير تحريكها ليكون موافقًا لرواية ابن الزبير ((أن النبي ﷺ كان يشير بإصبعه إذا دعا لا يحركها)). رواه أبو داود بإسناد صحيح. وذكره النووي.

قلت: بل الإسناد غير صحيح والاحتمال المذكور خلاف ظاهر الحديث ولو ثبت لكان يمكن العمل به مع الإبقاء على ظاهر حديث وائل ويجمع بينهما بأنه كان تارة يحرك وتارة لا يحرك أو يقال: المثبت مقدم على النافي.

وقد ضعف الحديث ابن القيم في (الزاد) وحققت القول فيه في (تخريج صفة صلاة النبي ﷺ) وفي ضعيف أبي داود (١٧٥) بما لا يدع مجالًا للشك في ضعفه وخلاصة ذلك: أن الحديث من رواية محمد بن عجلان عن عامر بن عبد الله بن الزبير وابن عجلان متكلم فيه وقد رواه عنه أربعة من الثقات دون قوله: ((لا يحركها))، وكذلك رواه ثقتان عن عامر فثبت بذلك شذوذ هذه الزيادة وضعفها وحسبك دلالة على وهنها أن مسلمًا أخرج الحديث ٢ / ٩٠ دونها من طريق ابن عجلان أيضًا ولقد تغافل عن هذا كله المعلق على (زاد المعاد) فجرى مع ظاهر الإسناد فحسنه وقواه في تعليقه على (شرح السنة) ٣ / ١٧٨ ومع أنه ذكر عقبه حديث وائل في التحريك وصححه فإنه لم يحاول التوفيق بين الحديثين كأنه لا يهمه الناحية الفقهية ولذلك فهو لا يحرك إصبعه في تشهده! وأضيف هنا فائدة جديدة في هذا الموضوع فأقول:

لقد رأيت في الآونة الأخيرة الشيخ أحمد الغماري يذهب في كتابه الذي صدر حديثًا: (الهداية في تخريج أحاديث البداية)؛ (بداية المجتهد) يذهب فيه ٣ / ١٣٦ – ١٤٠ إلى تضعيف حديث وائل هذا مدَّعيًا أن هذا اللفظ التحريك. إنما هو من تصرف الرواة لأن أكثرهم ذكر فيه الإشارة فقط دون التحريك!

١– **(قلت):** قال الإمام الألباني في صفة صلاة النبي: وزاد فيه الحميدي في مسنده (١/١٣١)، وكذا أبو يعلى (٢/٢٧٥) بسندٍ صحيح عن ابن عمر: ((وهي مذبّة الشيطان، لا يسهو أحد وهو يقول هكذا – ونصب الحميدي إصبعه –)).

٢– **(قلت):** حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٩١٢)، لكن قوله: ((ولا يحركها)) زيادة شاذة. أنظر ضعيف أبي داود (١٧٥).

وفي سفرتي الأخيرة للعمرة أول جمادى الأولى سنة ١٤٠٨ هـ قدم إلى أحد الطلبة – وأنا في جدة – رسالة مصورة عن (مجلة الاستجابة) السودانية بعنوان: (البشارة في شذوذ تحريك الإصبع في التشهد وثبوت الإشارة) لأحد الطلبة اليمانيين وهو في الجملة موافق للشيخ الغماري فيما تقدم ذكره لكنه تميز بالتوسع في تخريج أحاديث الإشارة عن بعض الصحابة والروايات الكثيرة فيها عن عاصم بن كليب عن أبيه عن وائل خاصة ومنها رواية زائدة بن قدامة عن عاصم المصرحة بالتحريك وقد أفرغ جهدًا ظاهرًا في تخريجها كلها مقرونة ببيان أجزاء وصفحات مصادرها مما يرجى له الأجر والمثوبة بالحسنى عند الله تبارك وتعالى.

إلا أنني أرى – والعلم عند الله تعالى – أن تفرد زائدة بالتصريح بالتحريك مما لا يسوغ الحكم على روايته بالشذوذ للأسباب الآتي بيانها.

أولًا: تلقي العلماء لها بالتسليم بصحتها وقبولها حتى من الذين لم يعملوا بها كالبيهقي والنووي وغيرهما فإنهم اتفقوا جميعًا على تأويلها وتفسيرها سواء في ذلك من صرح بالتصحيح أو من سلم به وليس يخفى على أحد أن التأويل فرع التصحيح ولولا ذلك لما تكلف البيهقي تأويل التحريك بالإشارة بها دون تحريكها كما تقدم ولأستغني عن ذلك بإعلالها بالشذوذ كما فعل الأخ اليماني! وبخاصة أن البيهقي إنما حمله على التأويل حديث ابن الزبير المصرح بعدم التحريك بينما يرى اليماني أن حديث ابن الزبير شاذ وهو الحق كما تقدم بيانه فبقي حديث زائدة دون معارض سوى الروايات المقتصرة على الإشارة ويأتي الجواب عنها.

ثانيًا: الإشارة في تلك الروايات ليست نصًّا في نفي التحريك لما هو معهود في الاستعمال اللغوي أنه قد يقترن معها التحريك في كثير من الأحيان كمثل لو أشار شخص إلى آخر بعيد عنه أن اقترب إلي أو أشار إلى ناس قاموا له أن اجلسوا فلا أحد يفهم من ذلك أنه لم يحرك يده! ومالنا نذهب بعيدًا فإن خير مثال نقدمه للقارئ حديث عائشة رضي الله عنها في صلاة الصحابة خلفه ﷺ قيامًا وهو قاعد فأشار إليهم أن اجلسوا. متفق عليه. (الإرواء) ٢ / ١١٩ وكل ذي لب يفهم منه أن إشارته هذه لم تكن بمجرد رفعه يده ﷺ ما هو الشأن في رده السلام على الأنصار وهو يصلِّي! بل إنها كانت مقرونة بالتحريك فإذن لا ينبغي أن نفهم من تلك الروايات أنها مخالفة لرواية التحريك بل قد تكون موافقة لها. وفي اعتقادي أن هذا هو ملحظ من صحح الحديث وعمل به أو من سلم بصحته لكنه تأوله ولم يقل بشذوذه. وإن مما يؤكد ذلك أنه صح عنه ﷺ أنه كان يشير بإصبعه السبابة في خطبة الجمعة كما رواه مسلم وغيره وهو مخرج في (الإرواء) ٣ / ٧٧ ومن المتبادر منه أن المقصود أنه كان يحركها إشارة للتوحيد وليس مجرد الإشارة دون تحريك ويشهد لذلك رواية ابن خزيمة في (صحيحه) ٢ / ٣٥١ بسند فيه ضعف عن سهل بن سعد نحو حديث عمارة بلفظ: ((وأشار بإصبعه السبابة يحركها)). وترجم له ابن خزيمة بقوله: (باب إشارة الخاطب بالسبابة على المنبر عند الدعاء في الخطبة وتحريكه إياها عند الإشارة بها).

والخلاصة: أن الإشارة بالمسبحة لا ينافي تحريكها بل قد يجامعها كما تقدم فنصب الخلاف بينهما غير سليم لغة وفقها.

ومن ذلك تعلم خطأ الأخ اليماني في جزمه بأن الإشارة تنفي التحريك فقال في حديث ابن عمر ﵁: ((لهي أشد على الشيطان من الحديد يعني السبابة)). (هذا الحديث ليس فيه تحريك بل أقول: أنحن أدرى بمعنى الحديث أم ابن عمر؟ فقد وصف نافع صلاة ابن عمر بالإشارة لا التحريك).

فأقول: نعم ليس فيه تحريك ولا عكسه أيضًا وكلاهما محتمل هذا هو الحق والله يحب الإنصاف. فحمله على أحدهما بحاجة إلى دليل وهو معنا كما قدمنا. نعم لو جاء صراحة عن ابن عمر أنه لم يحرك إصبعه لكان مرجحها لقوله وهيهات!

ثالثًا: وعلى افتراض أنه صح عن ابن عمر أو غيره التصريح بعدم التحريك فإننا نقول في هذه الحالة بجواز الأمرين: التحريك وعدمه كما هو اختيار الصنعاني في (سبل السلام) ١ / ٢٩٠ – ٢٩١ وإن كان الأرجح عندي التحريك للقاعدة الفقهية: (المثبت مقدَّم على النافي)، ولأن وائلا ﵁ كان له عناية خاصة في نقل صفة صلاته ﷺ ولاسيَّما كيفية جلوسه ﷺ في التشهد فقد قال: ((قلت: لأنظرن إلى رسول الله ﷺ كيف يصلِّي؟ ...)) الحديث. ثم قال: ((ثم قعد فافترش رجله اليسرى فوضع كفه اليسرى على فخذه وركبته اليسرى وجعل حد مرفقه الأيمن على فخذه اليمنى ثم قبض اثنتين من أصابعه فحلق حلقة ثم رفع إصبعه فرأيته يحركها يدعو بها. ثم جئت في زمان فيه برد فرأيت الناس عليهم الثياب تحرك أيديهم من تحت الثياب من البرد)).

رواه أحمد وغيره وهو في (الإرواء) كما تقدم.

فقد تفرد وائل ﵁ بهذا الوصف الدقيق لتشهده ﷺ فذكر فيه ما لم يذكره غيره من الصحابة وهو:

أولًا: مكان المرفق على الفخذ.

ثانيًا: قبض إصبعيه والتحليق بالوسطى والإبهام.

ثالثًا: رفع السبابة وتحريكها.

رابعًا: الاستمرار بالتحريك إلى آخر الدعاء.

خامسًا: رفع الأيدي تحت الثياب في الانتقالات.

أقول: فمن الخطأ الجلي رد التحريك المذكور فيها لتفرد زائدة بن قدامة به دون سائر أصحاب عاصم بن كليب وذلك لأمرين:

الأول: أنهم رووا الإشارة وهي لا تنافي التحريك كما تقدم.

الأخر: ثقة زائدة وشدة تثبته في روايته عن شيوخه فإن الأئمة مع إجماعهم على توثيقه واحتجاج الشيخين به فقد قال ابن حبان فيه في (الثقات) ٦ / ٣٤٠: (كان من الحفاظ المتقنين وكان لا يعد السماع حتى يسمعه ثلاث مرات وكان لا يحدث أحدًا حتى يشهد عنه عدل أنه من أهل السنة).

وقال الدار قطني: (من الأثبات الأئمة). والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

قال القرطبي: السادسة والعشرون: واختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة فقال مالك هي كالرجل ولا تخالفه فيما بعد الإحرام إلا في اللباس والجهر وقال الثوري تسدل المرأة جلبابها من جانب واحد ورواه عن إبراهيم النخعي وقال أبو حنيفة وأصحابه تجلس المرأة كأيسر ما يكون لها وهو قول الشعبي تقعد كيف تيسر لها وقال الشافعي تجلس بأستر ما يكون لها.

السابعة والعشرون: روى مسلم عن طاووس قال قلنا لابن عباس في الإقعاء على القدمين، فقال: (هي السنة) فقلنا له: إنا لنراه جفاء بالرجل، فقال ابن عباس: (بل هي سنة نبيك ﷺ)، وقد اختلف العلماء في صفة الإقعاء فقال أبو عبيد: (الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبًا فخذيه مثل إقعاء الكلب والسبع)، قال ابن عبد البر: وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيه. وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهل الفقه. وقال أبو عبيد: وأما أهل الحديث فانهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين، قال القاضي عياض: والأشبه عندي في تأويل الإقعاء الذي قال فيه ابن عباس إنه من السنة، الذي فسَّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين، وكذا جاء مفسَّرًا عن ابن عباس: (من السنة أن تمس عقبك أليتك). رواه إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عنه، ذكره أبو عمر قال القاضي: وقد روي عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسموه إقعاء. ذكر عبدالرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يقعون بين السجدتين.

الثامنة والعشرون: ولم يختلف من قال من العلماء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض إلَّا ما روي عن الحسن بن حي أنه أوجب التسليمتين معًا. قال أبو جعفر الطحاوي: لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره. قال ابن عبد البر من حجة الحسن بن صالح في إيجابه التسليمتين جميعًا وقوله إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته – قوله ﷺ: ((تحليلها التسليم)) ثم بين كيف التسليم فكان يسلم عن يمينه وعن يساره. ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله ﷺ: ((تحليلها التسليم))، قالوا: والتسليمة الواحدة يقع عليها اسم تسليم.

قلت: هذه المسألة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره ولما كان الدخول في الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة إلا أنه تواردت السنن الثابتة من حديث ابن مسعود – وهو أكثرها تواترًا – ومن حديث وائل بن حجر الحضرمي وحديث عمار وحديث البراء بن عازب وحديث بن عمر وحديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ كان يسلم تسليمتين. روى ابن جريج وسليمان بن بلال وعبدالعزيز بن محمد الدراوردي كلهم عن عمرو ابن يحيى المازني. عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع بن حبان قال: قلت لابن عمر: حدثني عن صلاة رسول الله ﷺ كيف كانت؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره، قال ابن عبد البر: وهذا إسناد مدني صحيح، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرًا عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل في كل بلد لأنه لا يخفى لوقوعه في كل يوم مرارًا، وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عنهم أيضًا،

وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف في المباح كالأذان، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة، ولا إنكار التسليمتين، بل ذلك عندهم معروف وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبي وقاص وعائشة وأنس إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث([1]).

وروى الدار قطني عن ابن مسعود أنه قال: من السنة أن يخفى التشهد. واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. واختار الشافعي وأصحابه والليث بن سعد تشهد ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن فكان يقول: ((التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله([2]))).

واختار الثوري والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسعود الذي رواه مسلم أيضًا، قال: كنا نقول في الصلاة خلف رسول الله ﷺ السلام على الله السلام على فلان، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم: ((إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي([3])ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قالها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن

١- (قلت): قال سيد سابق في فقه السنة: وجوب التسليمة الواحدة واستحباب التسليمة الثانية: يرى جمهور العلماء أن التسليمة الاولى هي الفرض، وأن الثانية مستحبة. قال ابن المنذر: أجمع العلماء على أن صلاة من اقتصر على تسليمه واحدة جائزة. وقال ابن قدامة في المغني: (وليس نص أحمد بصريح في وجوب التسليمتين، إنما قال: ﴿التسليمتين أصح عن رسول الله ﷺ﴾، فيجوز أن يذهب إليه في المشروعية لا الايجاب، كما ذهب إلى ذلك غيره، وقد دل عليه قوله في رواية: وأحب إلي التسليمتان، ولان عائشة وسلمة بن الاكوع وسهل بن سعد قد رووا أن النبي ﷺ كان يسلم تسليمة واحدة، وكان المهاجرون يسلمون تسليمة واحدة) وفيما ذكرناه جمع بين الاخبار وأقوال الصحابة في أن يكون المشروع والمسنون تسليمتين، والواجب واحدة، وقد دل على صحة هذا الاجماع الذي ذكره ابن المنذر، فلا معدل عنه.

٢- (قلت): مسلم (٤٠٣).

٣- (قلت): قد ورد في بعض طرق حديث ابن مسعود هذا ما يقتضي المغايرة في قوله: ((السلام عليك أيها النبي)) بين زمانه ﷺ فيقال بلفظ الخطاب، وبين ما بعده فيقال بلفظ الغيبة: ((السلام على النبي...)) ففي لفظ عند البخاري (٦٢٦٥) بعد سياق التشهد قال ابن مسعود: ((وهو بين ظهرا نينا، فلمّا قبض قلنا: السلام، يعني على النبي)) وقواه الحافظ في الفتح (٣٦٦١٢) فقال: (قد صح بلا ريب، وقد وجدت له متابعًا قويًّا، قال عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرني عطاء: (أن الصحابة كانوا يقولون والنبي ﷺ حي: السلام عليك أيها النبي، فلمل مات قالوا: السلام على النبي) وهذا إسناد صحيح) أه.

– قال الإمام الألباني في أصل صفة صلاة النبي ﷺ: والظاهر أن الصحابة رضي الله عنهم لم يصيروا إلى القول: ((السلام على النبي)) – بلفظ الغَيْبَةِ – إلا بتوقيف من النبي ﷺ؛ إذ لا مجال للاجتهاد أو القياس في مثل هذا المقام؛ بل هو عين الابتداع في الدين، وحاشا الصحابة من ذلك، لا سيما ابن مسعود رضي الله عنه، الذي اشتهر من بينهم بشدة محاربته للبدع – مهما كان نوعها –، وقصته في إنكاره على الذين كانوا يذكرون الله مجتمعين، ويعدون التسبيح والتحميد بالحصى أشهر من أن تذكر، وهو القائل رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كُفِيْتُم، عليكم بالأمر العتيق.

ولذا كان يأخذ على أصحابه الواو في التشهد. كما رواه الطحاوي (١/١٥٧)، والبزار في (مسنده) بإسناد صحيح.

فمن كان هذا شأنه من التحري في الاتباع؛ كيف يعقل أن يتصرف فيما عَلَّمه رسول الله ﷺ إياه من التشهد بدون إذن منه؟! هذا غير معقول. أضف إلى ذلك أنه ليس منفرداً بذلك عن الصحابة؛ بل قد نقل هو نفسه – وهو الثقة العدل – ذلك عن الصحابة بدون خلاف بينهم، فمن تبعهم على ذلك؛ ف ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾. ويؤيده: أن عائشة رضي الله عنها كذلك كانت تعلمهم التشهد في الصلاة: ((السلام على النبي)). رواه السراج في (مسنده) (ج ٢/١/٩) ، والمخلص في (الفوائد) (ج ١١/١/٥٤) بسندين صحيحين عنها.

محمدا عبده ورسول ثم يتخير من المسألة ما شاء([١])) وبه قال أحمد وإسحاق وداود. وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه وروي عن أبي موسى الأشعري مرفوعًا وموقوفًا نحو تشهد ابن مسعود. وهذا كله اختلاف في مباح ليس شيء منه على الوجوب والحمد لله وحده فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنها قوله جل وعز {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[البقرة : ٤٣].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الصلاة واجبة على الأمم السابقة، وأن فيها ركوعًا كما أن في الصلاة التي في شريعتنا ركوعًا؛ وقد دلَّ على ذلك أيضًا قول الله تعالى لمريم: {يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين}[آل عمران: ٤٣]؛ فعلى الأمم السابقة صلاة فيها ركوع، وسجود.

٢- أن الأمم السابقة عليهم زكاة؛ لأنه لابد من الامتحان بالزكاة؛ فإن من الناس من يكون بخيلًا. بذل الدرهم عليه أشد من شيء كثير.؛ فيمتحن العباد بإيتاء الزكاة، وبذل شيء من أموالهم حتى يعلم بذلك حقيقة إيمانهم؛ ولهذا سميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها.

٣- الإجمال في موضع، وتبيينه في موضع آخر؛ لقوله تعالى: {وآتوا الزكاة}، ولم يبين مقدار الواجب، ولا من يدفع إليه، ولا الأموال التي فيها الزكاة؛ لكن هذه الأشياء مبينة في موضع آخر؛ إذ لا يتم الامتثال إلا ببيانه.

٤- جواز التعبير عن الكل بالبعض إذا كان هذا البعض من مباني الكل التي لا يتم إلا بها؛ لقوله تعالى: {واركعوا مع الراكعين}.

٥- وجوب صلاة الجماعة؛ لقوله تعالى: {واركعوا مع الراكعين}؛ هكذا استدل بها بعض العلماء؛ ولكن في هذا الاستدلال شيء؛ لأنه لا يلزم من المعية المصاحبة في الفعل؛ ولهذا قيل لمريم: {اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين}: والنساء ليس عليهن جماعة؛ إذًا لا نسلم أن هذه الآية تدل على وجوب صلاة الجماعة([٢])؛ ولكن. الحمد لله. وجوب صلاة الجماعة ثابت بأدلة أخرى ظاهرة من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

١- (قلت): البخاري (٦٢٣٠)، ومسلم (٤٠٢)، واللفظ له.

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((التحيات)): جمع تحية، وهي الملك والبقاء، وقيل العظمة، وقيل الحياة، وإنما قيل التحيات بالجمع لأن ملوك العرب كان كل واحد منهم تحييه أصحابه بتحية مخصوصة، فقيل جميع تحياتهم لله تعالى وهو المستحق لذلك حقيقة. ((والصلوات)): هي الصلوات المعروفة، وقيل الدعوات والتضرع، وقيل الرحمة، أي الله المتفضل بها. ((والطيبات)): أي الكلمات الطيبات، ومعنى الحديث أن التحيات وما بعدها مستحقة لله تعالى ولا تصلح حقيقتها لغيره.

٢- (قلت): بل العكس هو الصحيح. وآنظر كلام شيخ الإسلام الذي مرَّ معنا: (الآية لم تدلّ على تناول الأمر بذلك لكلِّ امرأة بل مريم بخصوصها أمرت بذلك..).

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)

قال أبو زهرة: هذا خطاب لبني إسرائيل في أمرٍ يفعله علماؤهم، ويرضى به سائرهم، فيلامون جميعًا عليه، وهو خطة يسير عليها أسلافهم، ويرضى عنها أخلافهم، فصح أن يخاطب بها جميعهم، إذ هو عيب فيهم سلفًا وخلفًا، وهو عيب الناس إذا ضعف وازع الدين، وغلب عليهم حب الدنيا، وهو أن يأمروا الناس بالحقائق الدينية، ويدعونهم إليها، ولا يأخذون بهديها، وتلك إحدى صفات النفاق، وهي شأن الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون ما أنزل الله تعالى، فيكون قولهم مخالفا لفعلهم {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}.

كان أحبار اليهود في كل أدوارهم عندما صار التدين شكلًا لَا روح فيه، ومظهرًا لَا حقيقة له كانوا يذكرون للناس حقائق دينية، لَا يعملون بها، ويعلنون أمورًا في نجواهم ينكرونها في جهرهم، فكانوا يقررون أن أوصاف النبي ﷺ في كتبهم، وينكرونها أمام النبي ﷺ وأصحابه لكيلا يحاجوهم بها عند ربهم، وكأنه سبحانه وتعالى لَا يعلم خفي أمرهم! ولذا خاطبهم الله سبحانه وتعالى مستنكرًا تلك الحال فيهم، لأن من فعلها منهم لم ينكرها سائرهم، والاستفهام هنا إنكاري لإنكار الواقع، أي أنه كان منهم، ويستنكره الله تعالى عليهم، وإنكار الواقع توبيخ، وبيان أنه لَا يصح، ولا ينبغي أن يكون، والبر هو الخير، وهو ضد الإثم.

قال الطبري: عن ابن عباس في قوله: {أتأمرون الناس بالبر} يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ، وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة، وتنسون أنفسكم.

قال ابن العثيمين: الاستفهام هنا للإنكار؛ والمراد إنكار أمر الناس بالبر مع نسيان النفس؛ إذ النفس أولى أن يبدأ بها؛ و{البر}، هو الخير؛ قال أهل التفسير: إن الواحد منهم يأمر أقاربه بإتباع الرسول ﷺ، ويقول: إنه حق؛ لكن تمنعه رئاسته، وجاهه أن يؤمن به؛ ومن أمثلة ذلك أن النبي ﷺ عاد غلامًا من اليهود كان مريضًا، فحضر أجله والنبي ﷺ عنده؛ فدعاه النبي ﷺ إلى الرشد، فنظر إلى أبيه كأنه يستشيره، فقال له أبوه: ((أطع أبا القاسم)). وأبوه يهودي، فتشهد الغلام شهادة الحق، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه بي من النار[1]))، أي بدعوتي؛ إذًا هؤلاء اليهود من أحبارهم من يأمر الناس بالبر. وهو اتباع الرسول ﷺ، ولكنه ينسى نفسه، ولا يؤمن؛ فقال الله تعالى: {وأنتم تتلون الكتاب}: أي تقرؤون التوراة؛ والجملة هنا حالية. أي والحال أنكم تتلون الكتاب.؛ فلم تأمروا بالبر إلا عن علم؛ ولكن مع ذلك {تنسون أنفسكم}: أي تتركونها، فلا تأمرونها بالبر.

{أفلا تعقلون}: الاستفهام هنا للتوبيخ. يعني أفلا يكون لكم عقول تدركون بها خطأكم، وضلالكم.؟! و(العقل) هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف. وهو إدراك

١- (قلت): رواه البخاري في صحيحه (١٣٥٦)، بلفظ: ((الحمد لله الذي أنقذه من النار))، بدون ذكر (بي). وصححه الإمام الألباني في الإرواء (١٢٧٢).

الأشياء، وفهمها.؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد. وهو أن يحسن الإنسان التصرف؛ وسمي إحسان التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عقل تصرفه فيما ينفعه.

قال الطبري: أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم التي تأمرون الناس بخلافها وتنهونهم عن ركوبها وأنتم راكبوها، وأنتم تعلمون أن الذي عليكم من حق الله وطاعته، واتباع محمد والإيمان به وبما جاء به، مثل الذي على من تأمرونه باتباعه.

قال السعدي: وأسمى العقل عقلًا، لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجة([1]).

قال القرطبي: فقد دلَّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالمًا بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه، وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ومستخف بأحكامه وهو ممن لا ينتفع بعلمه. واعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قومًا كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها وبخهم به توبيخًا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: {أتأمرون الناس بالبر} الآية([2]).

قال السعدي: وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}، وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما، لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضًا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

قال شيخ الإسلام في الحسبة ج١ص٤: أن الإسلام جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا على كل مسلم، حتى لا يرى منكرًا قد ارتكب فيسكت عنه، أو يرى معروفًا ترك فيتواطأ على الترك. فإذا قام بذلك كان أدعى إلى أن يأتي هو ذاته المعروف الذي أمر به وينتهي عن المنكر الذي نهى عنه غيره، لذا قال الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن العقل عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة. وكلام ابن العثيمين عند تفسير الآية (٨) من سورة آل عمران.

٢- (قلت): أنظر كلام العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند تفسير الآيات (٢١، ١٠٤) من سورة آل عمران. وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند تفسير الآية (١٠٤) من سورة آل عمران في الفوائد رقم (٦).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر، وينسون أنفسهم؛ لأن ذلك مناف للعقل؛ وقد ورد الوعيد الشديد على من كان هذا دأبه؛ فقد أخبر النبي ﷺ: ((أنه يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتابه)). و(الأقتاب) هي الأمعاء. ((فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر، فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه([1]))؛ فهو من أشد الناس عذابًا. والعياذ بالله.

فإن قال قائل: بناء على أنه مخالف للعقل، وبناء على شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أمر به، ومن لا يترك ما نهى عنه: (لا تأمر، ولا تنه)؟

فالجواب: نقول: لا، بل أأمر، وافعل ما تأمر به؛ لأنه لو ترك الأمر مع تركه فعله ارتكب جنايتين: الأولى: ترك الأمر بالمعروف؛ والثانية: عدم قيامه بما أمر به؛ وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهى عنه، ولم ينه عنه فقد ارتكب مفسدتين: الأولى: ترك النهي عن المنكر؛ والثانية: ارتكابه للمنكر.

ثم نقول: أيُّنا الذي يسلم من المنكر! لو قلنا: لا ينهى عن المنكر إلا من لم يأت منكرًا لم ينه أحد عن منكر؛ ولو قلنا: لا يأمر أحد بمعروف إلا من أتى المعروف لم يأمر أحد بمعروف؛ ولهذا نقول: أأمر بالمعروف، وجاهد نفسك على فعله، وانه عن المنكر، وجاهد نفسك على تركه.

٢- توبيخ العالم المخالف لما يأمر به، أو لما ينهى عنه؛ وأن العالم إذا خالف فهو أسوأ حالًا من الجاهل؛ لقوله تعالى: {وأنتم تتلون الكتاب}؛ وهذا أمر فطر الناس عليه. أن العالم إذا خالف صار أشدّ لومًا من الجاهل؛ حتى العامة تجدهم إذا فعل العالم منكرًا قالوا: كيف تفعل هذا وأنت رجل عالم؟! أو إذا ترك واجبًا قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالم؟!.

٣- توبيخ بني إسرائيل، وأنهم أمة جهلة حمقى ذوو غي؛ لقوله تعالى: {أفلا تعقلون}.

٤- أن من أمر بمعروف، ولم يفعله؛ أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة، ففيه شبه باليهود؛ لأن هذا دأبهم. والعياذ بالله.

١- أخرجه البخاري ص٢٦٤، كتاب بدء الخلق، باب ١٠: صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٦٧؛ وأخرجه مسلم ص١١٩٥، كتاب الزهد والرقائق، باب ٧: من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، حديث رقم ٧٤٨٣ [٥١] ٢٩٨٩.

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)

قال أبو زهرة: {واستعينوا بالصبر والصلاة}: الاستعانة طلب العون والمساعدة، وفي استعمال القرآن أنها إذا كانت للمعين تعدت بغير باء، كقوله تعالى: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وفي الدعاء (اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك)، وإذا كانت الاستعانة بما تكون به الإعانة كانت بالباء، فيقال نستعين بكذا لفعل كذا، وهكذا نجد بالاستقراء استعمال القرآن([1]).

وهنا الاستعانة بشيء ولذا تعدت بالباء فقال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}: أي استعينوا على تربية نفوسكم لتكون متّعظة فاعلة الخير، آمرة به ولا يتجافى فعلها عن قولها.

{بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}: والصبر ضبط النفس وسيطرة الإرادة على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، فإنه إذا سيطرت الإرادة والعقل والفكر المستقيم انقمعت الشهوات، وإذا انقمعت استقامت النفس، وكان التنسيق بين القول والعمل، وقذف الله في القلب بنور الحكمة، والقول الطيب، والعمل، وكل ما في الحياة يحتاج إلى الصبر، فالجهاد قوته في الصبر، وكما قال النبي ﷺ: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى([2]))، ونقص الأموال والأنفس والثمرات إنما يكون بالصبر. كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

ويقول الفاروق الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الصبر صبران صبر على المصيبة، وهو حسن، وصبر عن المعاصي وهو أحسن([3]). فالصبر على المعاصي، هو السيطرة على الأهواء والشهوات، وهو تهذيب النفس وتقويمها.

هذه كلمات موجزات في الصبر، وهو طريق السيطرة على النفس؛ ولذا أمرنا الله تعالى بالاستعانة به.

أما الصلاة فإنها بما اشتملت عليه من ركوع وسجود وقراءة، وخشوع، واستحضار لعظمة الله تعالى وإحساس بأنه في حضرته وواقف بين يديه سبحانه وتعالى تنفعل نفسه في وجودها بحضرته، بأوامره، ونواهيه، وطلب مرضاته. ولقد قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، ولقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى، وكان يأمر بالصلاة من كان به وجع ليصبر وينسى ألمه، لأنه يكون في مناجاة بينه وبين ربه، فينسى الدنيا وما فيها ينسى ألمه ووجعه، وهمومه.

وإن الصبر والصلاة تجعلان النفس تتغلب على المحن، كما تتغلب على الإحن، فيلقى الله تعالى بقلب سليم، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}.

١- (قلت): أنظر معنى (الإستعانة) مفصلًا عند تفسير الآية (٥)، من سورة الفاتحة.

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

٣- رواه ابن أبي حازم. [جامع الأحاديث والمراسيل (٢١٨٨) مسند عمر بن الخطاب ج ١٤ ص ٩١].

وإن الاستعانة بالصبر والصلاة ليست أمرًا هيِّنًا ليِّنًا، ولكنها أمر عظيم خطير، لا يتلقاها إلا النفوس القوية ذات العزيمة الحازمة؛ ولذا قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}.

قال السعدي: أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه([1])، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور.

قال الشنقيطي: الِاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا إِشْكَالَ فِيهَا، وَأَمَّا نَتِيجَةُ الِاسْتِعَانَةِ بِالصَّلَاةِ، فَقَدْ أَشَارَ لَهَا تَعَالَى فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَذَكَرَ أَنَّ مِنْ نَتَائِجِ الِاسْتِعَانَةِ بِهَا النَّهْيَ عَمَّا لَا يَلِيقُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [٢٩ \ ٤٥]، وَأَنَّهَا تَجْلِبُ الرِّزْقَ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}، وَلِذَا كَانَ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ بَادَرَ إِلَى الصَّلَاةِ([2]).

وَإِيضَاحُ ذَلِكَ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ يُنَاجِيهِ، وَيَتْلُو كِتَابَهُ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ وَرَهْبَةً مِنْهُ، فَيَتَبَاعَدُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ فَيَرْزُقُهُ اللَّهُ وَيَهْدِيهِ.

قال الطبري: أن ابن عباس نعي إليه أخوه (قثم)، وهو في سفر، فاسترجع. ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: {واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين([3])}.

قال ابن العثيمين: {وإنها}: قيل: إن الضمير يعود على {الصلاة}؛ لأنها أقرب مذكور؛ والقاعدة في اللغة العربية أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ما لم يمنع منه مانع؛ وقيل إن الضمير يعود على الاستعانة المفهومة من قوله تعالى: {واستعينوا}؛ لأن الفعل {استعينوا}، يدل على زمن، ومصدر؛ فيجوز أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من

١- (قلت): أنظر معنى (الصبر) مفصلًا عند تفسير الآيات (١٥٣الى ١٥٧)، من سورة البقرة.

٢- أخرجه أحمد ٥/٣٨٨، حديث رقم ٢٣٦٨٨؛ وأخرجه أبو داود ص١٣٢١، كتاب الصلاة، باب ٢٢: وقت قيام النبي ﷺ من الليل، حديث رقم ١٣١٩، ومدار الحديث على محمد بن عبد الله بن أبي قدامة الدؤلي، قال الذهبي: (ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار). ميزان الاعتدال (٣/٥٩٥) رقم ٧٧٤٧، وأقره الحافظ في تهذيب التهذيب ٩/٢٤١، وقال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب: (مجهول)، تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليمامي ولم يوثقه أحد ٣/٢٧٢، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه أبو داود بإسناد حسن ٣/١٧٢.

- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١١٩٢)، والمشكاة (١٣٢٥).

- حزبه: أي أهمه وأحزنه.

٣- الخبر: إسناده صحيح. عيينة بن عبد الرحمن: ثقة. وأبوه عبد الرحمن بن جرشن الغطفاني: تابعي ثقة. الأثر ذكره السيوطي في الدر المنثور ١: ٦٨، ونسبه أيضًا لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب.

قُثَم بن العباس بن عبد المطلب، أخو عبد الله بن العباس. وأمه أم الفضل كان يشبه بالنبي ﷺ، ولا يصح سماعه عنه، فإنه كان في آخر عهد النبي ﷺ فوق ثمان. وخرج مع سعيد بن عثمان زمن معاوية إلى سمرقند، فاستشهد بها. استرجع: قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

الفعل، كما في قوله تعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى}[المائدة: ٨]، أي العدل المفهوم من قوله تعالى: {اعدلوا} أقرب للتقوى؛ لكن المعنى الأول أوضح.

قال السعدي: {وإنها}: أي: الصلاة {لكبيرة}: أي: شاقة {إلا على الخاشعين}، فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع، وخشية الله، ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحًا صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلًّا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه.

قال القرطبي: الخاشعون، جمع خاشع وهو المتواضع، والخشوع، هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع. وقال قتادة الخشوع في القلب وهو الخوف وغضّ البصر في الصلاة. قال الزجاج: الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الإقوان؟ هذا هو الأصل قال النابغة:

رماد ككحل العين لأيا أبينه ... ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

ومكان خاشع: لا يهتدى له. وخشعت الأصوات: أي سكنت، وخشعت خراشي صدره: إذا ألقى بصاقًا لزجًا. وخشع ببصره: إذا غضه. والخشعة: قطعة من الأرض رخوة. وبلدة خاشعة مغبرة لا منزل بها. قال سفيان الثوري: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوري أنت تريد أن تكون إمامًا للناس ولا تعرف الخشوع؟ سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع فقال: أعيمش تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع؟ ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس، لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء، وتخشع لله في كل فرض افترض عليك. و نظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال يا هذا! ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب. و قال علي بن أبي طالب: الخشوع في القلب، وأن تلين كفيك للمرء المسلم وألا تلتفت في صلاتك. و سيأتي هذا المعنى مجوّدًا عند قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}[المؤمنون: ١ – ٢]، فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقًا على نفاق. قال سهل بن عبدالله: لا يكون خاشعًا حتى تخشع كل شعرة على جسده لقول الله تبارك وتعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}[الزمر: ٢٣].

قلت: هذا هو الخشوع المحمود لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مُطْرِقًا متأدّبًا متذلّلًا. وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك، وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال، وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان. روى الحسن أن رجلًا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن فلكزه عمر أو قال لكمه. وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع وكان ناسكًا صدقًا وخاشعًا حقًّا. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الخاشعون هم المؤمنون حقًّا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٢ص٥٥٣: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}. وَهَذَا يَقْتَضِي ذَمَّ غَيْرِ الْخَاشِعِينَ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ

يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}[البقرة: ١٤٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}[الشورى: ١٣].

فَقَدْ دَلَّ كِتَابُ اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَى مَنْ كَبُرَ عَلَيْهِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَ أَنَّهُ مَذْمُومٌ بِذَلِكَ فِي الدِّينِ، مَسْخُوطٌ مِنْهُ ذَلِكَ، وَالذَّمُّ أَوْ السُّخْطُ لَا يَكُونُ إلَّا لِتَرْكِ وَاجِبٍ، أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ، وَإِذَا كَانَ غَيْرُ الْخَاشِعِينَ مَذْمُومِينَ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى وُجُوبِ الْخُشُوعِ.

فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْخُشُوعَ الْمَذْكُورَ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}، لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ الْخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ الْخُشُوعَ خَارِجَ الصَّلَاةِ لَفَسَدَ الْمَعْنَى، إذْ لَوْ قِيلَ: إنَّ الصَّلَاةَ لَكَبِيرَةٌ إلَّا عَلَى مَنْ خَشَعَ خَارِجَهَا، وَلَمْ يَخْشَعْ فِيهَا، كَانَ يَقْتَضِي أَنَّهَا لَا تَكْبُرُ عَلَى مَنْ لَمْ يَخْشَعْ فِيهَا وَتَكْبُرُ عَلَى من خشع فيها. وَقَدْ انْتَفى مَدْلُولَ الْآيَةِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْخُشُوعَ وَاجِبٌ فِي الصَّلَاةِ.

وَيَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْخُشُوعِ فِيهَا – أَيْضًا – قَوْله تَعَالَى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[المؤمنون: ١–١١]، أَخْبَرَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ يَرِثُونَ فِرْدَوْسَ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَرِثُهَا غَيْرُهُمْ. وَقَدْ دَلَّ هَذَا عَلَى وُجُوبِ هَذِهِ الْخِصَالِ؛ إذْ لَوْ كَانَ فِيهَا مَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ لَكَانَتْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ تُورَثُ بِدُونِهَا؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ تُنَالُ بِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، دُونَ الْمُسْتَحَبَّاتِ، وَ لِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْخِصَالِ إلَّا مَا هُوَ وَاجِبٌ. وَإِذَا كَانَ الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ وَاجِبًا، فَالْخُشُوعُ يَتَضَمَّنُ السَّكِينَةَ وَالتَّوَاضُعَ جَمِيعًا.

وقال رحمه الله في الصلاة وأحكام تاركها ج١ص١٤٠: فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له وقلة رغبتهم فيه فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها وتكميله لها واستفراغه وسعة في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله تعالى.

قال الإمام أحمد في رواية مهنا بن يحيى: إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة فاعرف نفسك يا عبد الله واحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك. فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك. وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة كحظ القلب الخالي الخراب من ذلك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– إرشاد الله – تبارك وتعالى – عباده إلى الاستعانة بهذين الأمرين: الصبر، والصلاة.

٢- جواز الاستعانة بغير الله؛ لكن فيما يثبت أن به العون؛ فمثلًا إذا استعنت إنسانًا يحمل معك المتاع إلى البيت كان جائزًا؛ قال النبي ﷺ: ((وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة([1]))).

أما الاستعانة بما لا عون فيه فهي سفه في العقل، وضلال في الدين، وقد تكون شركًا: كأن يستعين بميت، أو بغائب لا يستطيع أن يعينه لبعده عنه، وعدم تمكنه من الوصول إليه.

٣- فضيلة الصبر، وأن به العون على مكابدة الأمور؛ قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء؛ الأول: الصبر على طاعة الله؛ والثاني: الصبر عن معصية الله؛ والثالث: الصبر على أقدار الله؛ فالصبر على الطاعة هو أشقها، وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلًا وكفًّا اختياريًا: فعل الطاعة؛ وكف النفس عن التهاون بها، وعدم إقامته؛ فهو إيجادي إيجابي؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط؛ لكنه أحيانا يكون شديدًا على النفس؛ ولهذا جعل النبي ﷺ الشاب الذي دعته امرأة ذات منصب، وجمال، فقال: ((إني أخاف الله([2])))، في رتبة الإمام العادل من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. و إن كان الإمام العادل أفضل.؛ لأن قوة الداعي في الشباب، وكون المرأة ذات منصب وجمال، وانتفاء المانع فيما إذا كان خاليًا بها يوجب الوقوع في المحذور؛ لكن قال: ((إني أخاف الله))؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو؛ فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله؛ لكن مع ذلك يفقد حبيبه، أو ابنه، أو زوجته، أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا أشق عليه من كثير من الطاعات من حيث الانفعال النفسي؛ والصبر على أقدار الله ليس من المكلف فيه عمل؛ لأن ما وقع لابد أن يقع صبرت، أم لم تصبر، هل إذا جزعت، وندمت، واشتد حزنك يرتفع المقدور؟!.

الجواب: لا؛ إذا كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام؛ وإما أن تسلو سلو البهائم.

٤- الحث على الصبر بأن يحبس الإنسان نفسه، ويحملها المشقة حتى يحصل المطلوب؛ وهذا مجرب. أن الإنسان إذا صبر أدرك مناله ؛ وإذا مل كسل، وفاته خير كثير.؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز([3])))؛ وكثير من الناس يرى أن بداءته بهذا العمل مفيدة له، فيبدأ، ثم لا يحصل له مقصوده بسرعة، فيعجز، ويكل، ويترك؛ إذا ضاع عليه وقته الأول، وربما يكون زمنًا كثيرًا؛ ولا يأمن أنه إذا عدل عن الأول، ثم شرع في ثان أن يصيبه مثل ما أصابه أولًا، ويتركه؛ ثم تمضي عليه حياته بلا فائدة؛ لكن إذا صبر مع كونه يعرف أنه ليس بينه وبين مراده إلا امتداد الأيام فقط، وليس هناك موجب لقطعه؛ فليصبر: لنفرض أن إنسانًا من طلبة العلم هم أن يحفظ:

١- أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد، باب ٧٢: فضل من حمل متاع صاحبه في السفر حديث رقم ٢٨٩١؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٣٥ [٥٦] ١٠٠٩، واللفظ لمسلم.

٢- أخرجه البخاري ص٥٦٧ – ٥٦٨، كتاب الحدود، باب ١٩: فضل من ترك الفواحش، حديث رقم ٦٨٠٦؛ وأخرجه مسلم ص٨٤٠، كتاب الزكاة، باب ٣٠: فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم ٢٣٨٠ [٩١] ١٠٣١.

٣- أخرجه مسلم ص١١٤٢، كتاب القدر، باب ٨: الإيمان بالقدر والإذعان له، حديث رقم ٦٧٧٤ [٣٤] ٢٦٦٤.

(بلوغ المرام)، وشرع فيه، واستمر حتى حفظ نصفه؛ لكن لحقه الملل، فعجز، وترك: فالمدة التي مضت خسارة عليه إلا ما يبقى في ذاكرته مما حفظ فقط؛ لكن لو استمر، وأكمل حصل المقصود؛ وعلى هذا فقس.

٥– فضيلة الصلاة، حيث إنها مما يستعان بها على الأمور، وشؤون الحياة؛ لقوله تعالى: {والصلاة}؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر صلى؛ ويؤيد ذلك اشتغاله الله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر([1]).

فإن قال قائل: كيف تكون الصلاة عونًا للإنسان؟

فالجواب: تكون عونًا إذا أتى بها على وجه كامل. وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها، أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يسلو بها عن كل هم؛ لأنه اتصل بالله عز وجل الذي هو محبوبه، وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((جعلت قرة عيني في الصلاة([2])))؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عونًا له؛ لأنها ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، كما قال الله تعالى: {اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}[العنكبوت: ٤٥]؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر. هو على ما هو عليه؛ لا لانَ قلبه لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة.

٦– أنه إذا طالت أحزانك فعليك بالصبر، والصلاة.

٧– أن الأعمال الصالحة شاقة على غير الخاشعين، ولا سيَّما الصلاة.

٨– أن تحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى بالخشوع له مما يسهل العبادة على العبد؛ فكل من كان لله أخشع كان لله أطوع؛ لأن الخشوع خشوع القلب؛ والإخبات إلى الله تعالى، والإنابة إليه تدعو إلى طاعته.

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

قال أبو زهرة: عرف الله سبحانه وتعالى الخاشعين بأخص صفات المؤمن، وهو الإيمان بالغيب، لأنه فرق بين الإيمان والإسلام والزندقة، وإن أبلغ الإيمان بالغيب تأثيرا في النفس الخاشعة الإيمان بلقاء الله تعالى الذي يجازي المحسن

١– راجع البخاري ص٢٣٤، كتاب الجهاد، باب ٨٩: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، حديث رقم ٢٩١٥؛ ومسلما ص٩٩٠، كتاب الجهاد، باب ١٨: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم ٤٥٨٨ [٥٨] ١٧٦٣؛ والسيرة النبوية لابن هشام ١٩٦/٢.

٢– أخرجه أحمد ١٢٨/٣، حديث رقم ١٢٣١٨؛ وأخرجه النسائي ص٢٣٠٧، كتاب عشرة النساء، باب ١: حب النساء، حديث رقم ٣٣٩١، وقال الألباني في صحيح النسائي: حسن صحيح ٥٧/٣، حديث رقم ٣٩٣٩.

بإحسانه، والمسيء بجزاء ما يعمل، ولذلك ذكر إيمان الخاشعين بلقاء الله تعالى فقال تبارك وتعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ}.

قال ابن العثيمين: {الذين يظنون}: أي يتيقنون؛ و(الظن)، يستعمل في اللغة العربية بمعنى اليقين، وله أمثلة كثيرة؛ منها قول الله. تبارك وتعالى: {حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه}[التوبة: ١١٨]، وقوله تعالى: {ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا} [الكهف: ٥٣].

قال الطبري: إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة، أنه (يظن) أنه ملاقيه، والظن: شك، والشاك في لقاء الله عندك بالله كافر؟

قيل له: إن العرب قد تسمي اليقين (ظنًّا)، والشك (ظنًّا)، نظير تسميتهم الظلمة (سدفة)، والضياء (سدفة)، والمغيث (صارخًا)، والمستغيث (صارخًا)، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمي بها الشيء وضده. حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق، قال: حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن فهو علم([1]).

فتأويل الآية إذًا: واستعينوا على الوفاء بعهدي بالصبر عليه والصلاة، وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخائفين عقابي، المتواضعين لأمري، الموقنين بلقائي والرجوع إلي بعد مماتهم.

وإنما أخبر الله جل ثناؤه أن الصلاة كبيرة إلا على من هذه صفته؛ لأن من كان غير موقن بمعاد ولا مصدق بمرجع ولا ثواب ولا عقاب، فالصلاة عنده عناء وضلال، لأنه لا يرجو بإقامتها إدراك نفع ولا دفع ضر، وحق لمن كانت هذه الصفة صفته أن تكون الصلاة عليه كبيرة، وإقامتها عليه ثقيلة، وله فادحة.

وإنما خفت على المؤمنين المصدقين بلقاء الله، الراجين عليها جزيل ثوابه، الخائفين بتضييعها أليم عقابه، لما يرجون بإقامتها في معادهم من الوصول إلى ما وعد الله عليها أهلها، ولما يحذرون بتضييعها ما أوعد مضيعها. فأمر الله جل ثناؤه أحبار بني إسرائيل الذين خاطبهم بهذه الآيات، أن يكونوا من مقيميها الراجين ثوابها إذا كانوا أهل يقين بأنهم إلى الله راجعون، وإياه في القيامة ملاقون.

{وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }: (الهاء والميم) اللتان في قوله: {وأنهم}، من ذكر الخاشعين، و(الهاء) في {إليه}، من ذكر الرب تعالى ذكره في قوله: {ملاقو ربهم}، فتأويل الكلمة: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الموقنين أنهم إلى ربهم راجعون.

١- الأثر: إسحاق: هو ابن راهويه الإمام الحافظ. أبو داود الحفري - بالحاء المهملة والفاء المفتوحتين - هو: عمر بن سعد بن عبيد. ووقع في تفسير ابن كثير ١: ١٥٩(أبو داود الجبري)، وهو تصحيف. وسفيان: هو الثوري.

ثم اختلف في تأويل (الرجوع) الذي في قوله: {وأنهم إليه راجعون}، فقال بعضهم عن أبي العالية في قوله: {وأنهم إليه راجعون}، قال: يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة. وقال آخرون: معنى ذلك أنهم إليه يرجعون بموتهم.

وأولى التأويلين بالآية، القول الذي قاله أبو العالية؛ لأن الله تعالى ذكره، قال في الآية التي قبلها: {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون}، فأخبر جل ثناؤه أن مرجعهم إليه بعد نشرهم وإحيائهم من مماتهم، وذلك لا شك يوم القيامة، فكذلك تأويل قوله: {وأنهم إليه راجعون}.

قال ابن العثيمين: {وأنهم إليه راجعون}: أي في جميع أمورهم، كما قال تعالى: {وإليه يرجع الأمر كله}[هود: ١٢٣]، وقال تعالى: {وإلى الله ترجع الأمور}[البقرة: ٢١٠].

قال أبو زهرة: والتعبير بـ{رَبِّهِمْ}، فيه شعور بنعمه تعالى عليهم، لأنه هو الذي رباهم وأنشأهم وتعهدهم في الوجود، كما يتعهد المزارع زرعه بالسقي والإصلاح، ويؤمنون مستيقنين متوقعين أنهم إليه وحده راجعون؛ وتقديم {إِلَيْهِ} للدلالة على أنه وحده الذي يرجعون إليه ويجزيهم بالإحسان إحسانًا وأنه الغفور الرحيم.

هذا الذي مضى من القول الكريم من قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}، خطاب لبني إسرائيل الحاضرين منهم والماضين باعتباره واقعًا منهم في حاضرهم وماضيهم، وهو يصلح خطابًا لبني إسرائيل وغيرهم لما فيه من توجيه وتهذيب وإصلاح بين الناس، وبه تستقيم أمورهم في معاشهم ومعادهم.

(الفوائد)

١- إثبات ملاقاة الله عز و جل؛ لأن الله مدح الذين يتيقنون بهذا اللقاء.

٢- إثبات رؤية الله عز وجل، كما ذهب إليه كثير من العلماء؛ لأن اللقاء لا يكون إلا مع المقابلة، وهذا يعني ثبوت الرؤية؛ فإن استقام الاستدلال بهذه الآية على رؤية الله فهذا مطلوب؛ وإن لم يستقم الاستدلال فثم أدلة أخرى كثيرة تدلُّ على ثبوت رؤية الله عز وجل يوم القيامة.

٣- أن هؤلاء المؤمنين يوقنون أنهم راجعون إلى الله في جميع أمورهم؛ وهذا يستلزم أمورًا:

أوّلًا: الخوف من الله؛ لأنك ما دمت تعلم أنك راجع إلى الله، فسوف تخاف منه.

ثانيًا: مراقبة الله عز وجل. المراقبة في الجوارح؛ والخوف في القلب؛ يعني أنهم إذا علموا أنهم سيرجعون إلى الله، فسوف يخشونه في السر، والعلانية.

ثالثًا: الحياء منه؛ فلا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)

قال ابن العثيمين: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي}: أي بألسنتكم، وقلوبكم؛ والمراد بـ(النعمة)، وإن كانت مفردة. جميع النعم، كما قال الله تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}[إبراهيم: ٣٤].

{التي أنعمت عليكم}: وهي نِعَم كثيرة؛ منها ما ذكرهم بها نبيهم موسى. عليه الصلاة والسّلام، حيث قال: {اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين}[المائدة: ٢٠]: وهي نعم عظيمة دينية، ودنيوية؛ فالدينية في قوله: {إذ جعل فيكم أنبياء}؛ والدنيوية في قوله: {وجعلكم ملوكًا}؛ و{آتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين}: من النعمتين.

قال الطبري: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}: وهذا أيضًا مما ذكرهم جل ثناؤه من آلائه ونعمه عندهم. ويعني بقوله: {وأني فضلتكم على العالمين}: أني فضلت أسلافكم، فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء، والنعم عند الآباء نِعَمًا عند الأبناء، لكون الأبناء من الآباء، وأخرج جل ذكره قوله: {وأني فضلتكم على العالمين}، مخرج العموم، وهو يريد به خصوصًا؛ لأن المعنى: وإني فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهريه وفي زمانه. عن أبي العالية: {وأني فضلتكم على العالمين}: قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب، على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالمًا. عن ابن جريج، قال: قال مجاهد في قوله: {وأني فضلتكم على العالمين}: قال: على من هم بين ظهرانيه.

قال أبو زهرة: والتفضيل ليس تفضيل ذواتهم على غيرهم كما توهموا هم، ودلّاهم غرورهم، فزعموا أنهم صنف الله المختار، ودلّوا على الناس بذلك بل دلّوا على الله تعالى وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وأكلوا الحقوق، وعاملوا غيرهم بكل أمر ليس فيه خلق ولا دين، وقالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ليس التفضيل لذواتهم إنما الفضل الذي اختصهم الله تعالى به في جيلهم أنه جيل فيهم أنبياء، ودعاهم أولئك الأنبياء إلى التوحيد لله سبحانه وتعالى، فقد كانوا موحدين كما دعاهم موسى ومن جاء بعده من الأنبياء في وسط وثنيين، فكان كل من حولهم وثنيين؛ فالمصريون وثنيون يعبدون الشمس ومن دونها، والفرس يعبدون النيران، والروم يعبدون الأوثان، واليونان من قبلهم على شاكلتهم، والبابليون يعبدون الكواكب، وهكذا كان جيلهم الأول جيل موسى، وحين نزول التوراة على موسى.

اختارهم الله تعالى أن يكونوا قوم موسى، وأن يكون التوحيد فيهم، وكان مقامهم يمكنهم من أن يدعوا إلى التوحيد؛ لأنهم كان مقامهم في وسط تلك الأراضي التي كان يسكنها الوثنيون.

وإن ذلك التفضيل نعمة أنعم الله تعالى بها عليهم، وأنها توجب شكرًا، وتحملهم تكليفًا، أما الشكر فلأن شكر النعم واجب بحكم العقل، وبحكم التكليف الإلهي وقد كفروا بأنعم الله تعالى، وأما التكليف الذي حملوه فهو الدعوة إلى

الوحدانية ولم يقوموا بحقها، بل إنهم اعتبروا اليهودية جنسًا، ومن دخل معهم في ديانة موسى عليه السلام من غيرهم كالسامرة(١)لم يعترفوا به، وبذلك ضلوا ضلالًا ولقد أخذ بعد ذلك سبحانه يذكر موجبات التفضيل وغايته.

قال ابن العثيمين: وأصل {العالمين}، كل من سوى الله، كما قال تعالى: {الحمد لله رب العالمين}؛ فليس ثم إلا ربّ ومربوب؛ العالم: مربوب؛ والله: رب؛ فالعالم من سوى الله؛ وسمِّي عالَمًا لأنه عَلَم على خالقه؛ فإن العالم من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على كمال علمه، وقدرته، وسلطانه، وحكمته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٢ص٢٣: فإنما يذكِّرهم بنعمته على آبائهم ولهذا يعددها واحدة واحدة بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته، وكانت نعمته على آبائهم، نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه، وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم والله أعلم.

قال محمد رشيد رضا: طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ، وَتَفْضِيلَهُ إِيَّاهُمْ عَلَى النَّاسِ، إِحْيَاءً لِشُعُورِ الْكَرَامَةِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَوَصْلِهِ بِالْأَمْرِ بِاتِّقَاءِ يَوْمِ الدِّينِ وَالْجَزَاءِ. وَهَذَا أُسْلُوبٌ حَكِيمٌ فِي الْوَعْظِ، فَيَنْبَغِي لِكُلِّ وَاعِظٍ أَنْ يَبْدَأَ وَعْظَهُ بِإِحْيَاءِ إِحْسَاسِ الشَّرَفِ وَشُعُورِ الْكَرَامَةِ فِي نُفُوسِ الْمَوْعُوظِينَ لِتَسْتَعِدَّ بِذَلِكَ لِقَبُولِ الْمَوْعِظَةِ، وَتَجِدَ مِنْ ذَلِكَ الْإِحْسَاسِ مَعُونَةً مِنَ الْعَزِيمَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ النُّفُوسِ الْكَرِيمَةِ عَلَى عَوَامِلِ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا اسْتَشْعَرَتْ كَرَامَتَهَا وَعُلُوَّهَا إِلَى مَا فِي الرَّذَائِلِ مِنَ الْخِسَّةِ أَبَى لَهَا ذَلِكَ الشُّعُورُ – شُعُورُ الْعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ – أَنْ تَنْحَطَّ إِلَى تَعَاطِي تِلْكَ الْخَسَائِسِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الْوَسَائِلِ لِمُسَاعَدَةِ الْوَاعِظِ عَلَى بُلُوغِ قَصْدِهِ مِنْ نَفْسِ مَنْ يُوَجِّهُ إِلَيْهِ وَعْظَهُ، ثُمَّ إِنَّ فِي الْوَعْظِ مَا يُؤْلِمُ نَفْسَ الْمَوْعُوظِ، وَحَرَجًا يَكَادُ يَحْمِلُهَا عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ تَلْقِينِهِ، وَالِاسْتِنْكَافِ مِنْ سَمَاعِهِ، فَذِكْرُ الْوَاعِظِ

١- (قلت): في الملل والنحل للشهرستاني: (السامرة): هؤلاء قوم يسكنون جبال بيت المقدس، وقرايا من أعمال مصر، ويتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود، أثبتوا نبوة موسى، وهارون، ويوشع بن نون عليهم السلام، وأنكروا نبوة من بعدهم من الأنبياء إلا نبيًا واحدًا، وقالوا: التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي من بعد موسى، يصدق ما بين يديه من التوراة، ويحكم بحكمها، ولا يخالفها ألبتة.

وظهر في السامرة رجل يقال له: (الألفان)، ادَّعى النبوة وزعم أنه هو الذي بشر به موسى عليه السلام، وأنه هو الكوكب الدرّي الذي ورد في التوراة أنه يضيء ضوء القمر، وكان ظهوره قبل المسيح عليه السلام بقريب من مائة سنة.

وافترقت السامرة إلى دوستانية، وإلى كوستانية. والدوستانية معناها الفرقة المتفرقة الكاذبة. والكوستانية معناها الجماعة الصادقة. وهم يقرّون بالآخرة، والثواب والعقاب فيها. والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا. وبين الفريقين اختلاف في الأحكام والشرائع.

وقبلة السامرة جبل يقال له (غريزيم) بين بيت المقدس ونابلس. قالوا إن الله تعالى أمر داود أن يبني بيت المقدس بجبل نابلس وهو الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، فتحول داود إلى إيلياء وبنى البيت ثمة، وخالف الأمر فظلم، والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر اليهود. ولغتهم غير لغة اليهود، وزعموا أن التوراة كانت بلسانهم وهي قريبة من العبرانية فنقلت إلى السريانية. (في الملل والنحل للشهرستاني).

لِمَا يُشْعِرُ بِكَرَامَةِ الْمُخَاطَبِ وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ، وَإِبَاءِ مَا يَنْمِي إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَفِ أَنْ يَدُومَ عَلَى مِثْلِ مَا يَقْتَرِفُ يُقْبِلُ بِالنَّفْسِ عَلَى الْقَبُولِ، كَمَا يُقْبِلُ الْجَرِيحُ عَلَى مَنْ يُضَمِّدُ جِرَاحَهُ وَيُسَكِّنُ آلَامَهُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعوا محمدًا ﷺ.

٢- إظهار أن هذه النعمة لم تأت بكسبهم، ولا بكدهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعالى: {أنعمت عليكم}.

٣- أن بني إسرائيل أفضل العالم في زمانهم؛ لقوله تعالى: {وأني فضلتكم على العالمين}؛ لأنهم في ذلك الوقت هم أهل الإيمان؛ ولذلك كتب لهم النصر على أعدائهم العمالقة، فقيل لهم: {ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم}[المائدة: ٢١]؛ و(الأرض المقدسة) هي فلسطين؛ وإنما كتب الله أرض فلسطين لبني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم هم عباد الله الصالحون؛ والله سبحانه وتعالى يقول: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون}[الأنبياء: ١٠٥]، وقال موسى لقومه: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده}[الأعراف: ١٢٨]، ثم قال: {والعاقبة للمتقين}[الأعراف: ١٢٨]؛ إذًا المتقون هم الوارثون للأرض؛ لكن بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسة؛ لأنهم ليسوا من عباد الله الصالحين؛ أما في وقت موسى فكانوا أولى بها من أهلها؛ وكانت مكتوبة لهم، وكانوا أحق بها؛ لكن لما جاء الإسلام الذي بعث به النبي ﷺ صار أحق الناس بهذه الأرض المسلمون. لا العرب؛ ففلسطين ليس العرب بوصفهم عربًا هم أهلها؛ بل إن أهلها المسلمون بوصفهم مسلمين. لا غير وبوصفهم عبادًا لله عز وجل صالحين؛ ولذلك لن ينجح العرب فيما أعتقد. والعلم عند الله. في استرداد أرض فلسطين باسم العروبة أبدًا؛ ولا يمكن أن يستردوها إلا باسم الإسلام على ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه، كما قال تعالى: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}[الأعراف: ١٢٨]؛ ومهما حاول العرب، ومهما ملأوا الدنيا من الأقوال والاحتجاجات، فإنهم لن يفلحوا أبدًا حتى ينادوا بإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام. بعد أن يطبقوه في أنفسهم؛ فإن هم فعلوا ذلك فسوف يتحقق لهم ما أخبر به النبي ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر، والشجر، فيقول الحجر، أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله([1]))) ؛ فالشجر، والحجر يدل المسلمين على اليهود يقول: (يا عبد الله). باسم العبودية لله، ويقول: (يا مسلم). باسم الإسلام؛ والرسول ﷺ يقول: ((يقاتل المسلمون اليهود))، ولم يقل: (العرب).

١- أخرجه البخاري ص٢٣٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٩٤: قتال اليهود، حديث رقم ٢٩٢٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٨٤، كتاب الفتن، باب ١٨: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، حديث رقم ٧٣٣٩ [٨٢] ٢٩٢٢.

ولهذا أقول: إننا لن نقضي على اليهود باسم العروبة أبدًا؛ لن نقضي عليهم إلا باسم الإسلام؛ ومن شاء فليقرأ قوله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون}[الأنبياء: ١٠٥]: فجعل الميراث لعباده الصالحين؛ وما علق بوصف فإنه يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه؛ فإذا كنا عباد الله الصالحين ورثناها بكل يسر وسهولة، وبدون هذه المشقات، والمتاعب، والمصاعب، والكلام الطويل العريض الذي لا ينتهي أبدًا!! نستحلها بنصر الله عز وجل، وبكتابة الله لنا ذلك. وما أيسره على الله.! ونحن نعلم أن المسلمين ما ملكوا فلسطين في عهد الإسلام الزاهر إلا بإسلامهم؛ ولا استولوا على المدائن عاصمة الفرس، ولا على عاصمة الروم، ولا على عاصمة القبط إلا بالإسلام؛ ولذلك ليت شبابنا يعون وعيًا صحيحًا بأنه لا يمكن الانتصار المطلق إلا بالإسلام الحقيقي. لا إسلام الهوية بالبطاقة الشخصية.! ولعل بعضنا سمع قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حينما كسرت الفرس الجسور على نهر دجلة، وأغرقت السفن لئلا يعبر المسلمون إليهم؛ فسخر الله لهم البحر؛ فصاروا يمشون على ظهر الماء بخيلهم، ورجلهم، وإبلهم؛ يمشون على الماء كما يمشون على الأرض لا يغطي الماء خفاف الإبل؛ وإذا تعب فرس أحدهم قيض الله له صخرة تربو حتى يستريح عليها؛ وهذا من آيات الله. ولا شك؛ والله تعالى على كل شيء قدير؛ فالذي فلق البحر لموسى. عليه الصلاة والسلام. ولقومه، وصار يبسًا في لحظة، ومشوا عليه آمنين؛ قادر على ما هو أعظم من ذلك..

فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذلة، واللعنة، والصغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛ وهم أذلّ عباد الله لقوله تعالى: {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله}[آل عمران: ١١٢]، وقوله تعالى: {لا يقاتلونكم جميعًا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون}[الحشر: ١٤].

ويدل لذلك: أي أن المراد بقوله تعالى: {فضلتكم على العالمين} في وقتكم، أو فيمن سبقكم: قوله تعالى في هذه الأمة أمة محمد ﷺ: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم}[آل عمران: ١١٠]؛ فقوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} صريح في تفضيلهم على الناس؛ ولهذا قال تعالى: {ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم}؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أننا نوفي سبعين أمة نحن أكرمها، وأفضلها عند الله عز وجل[١]. وهذا أمر لا شك فيه.، ولله الحمد.

٤– أن الله تعالى إذا فضل أحدًا بعلم، أو مال، أو جاه فإن ذلك من النعم العظيمة؛ لقوله تعالى: {وأني فضلتكم على العالمين}: خصها بالذكر لأهميتها.

١– أخرجه أحمد ٢/٥، حديث رقم ٢٠٢٦٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٥٤، كتاب تفسير القرآن، باب ٣: ومن سورة آل عمران، حديث رقم ٣٠٠١؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٧، كتاب الزهد، باب ٣٤: صفة أمة محمد ﷺ، حديث رقم ٤٢٨٨، وقال الألباني في صحيح الترمذي: حسن ٣/٣٢، حديث رقم ٢٣٩٩.

٥- تفاضل الناس، و أن الناس درجات؛ وهذا أمر معلوم. حتى الرسل يفضل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض}[البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض}[الإسراء: ٥٥].

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

قال الطبري: {واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا}: فإنه تحذير من الله تعالى ذكره عباده الذين خاطبهم بهذه الآية، عقوبته أن تحل بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئًا، ولا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا([1]).

وأما تأويل قوله: {لا تجزي نفس}: فإنه يعني: لا تغني. عن السدي: {واتقوا يومًا لا تجزي نفس}، أما {تجزي}: فتغني.

أصل (الجزاء) – في كلام العرب –: القضاء والتعويض. يقال: (جزيته قرضه ودينه أجزيه جزاء)، بمعنى: قضيته دينه. ومن ذلك قيل: (جزى الله فلانًا عني خيرًا أو شرًا)، بمعنى: أثابه عني وقضاه عني ما لزمني له بفعله الذي سلف منه إلي.

قال ابن العثيمين: و{نفس}: نكرة في سياق النفي، فيكون عامًّا؛ فلا تجزي، ولا تغني نفس عن نفس أبدًا. حتى الرسول ﷺ لا يغني شيئًا عن أبيه، ولا أمه؛ وقد نادى ﷺ عشيرته الأقربين؛ فجعل ينادي كل واحد باسمه، ويقول: ((يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا؛ يا فاطمة بنت رسول الله، لا أغني عنك شيئًا ... ([2]))). مع أن العادة أن الإنسان يدافع عن حريمه، وعن نسائه؛ لكن في يوم القيامة ليست هناك مدافعة؛ بل قال الله تعالى: {فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}[المؤمنون: ١٠١]: تزول الأنساب، وينسى الإنسان كل شيء، ولا يسأل أين ولدي، ولا أين ذهب أبي، ولا أين ذهب أخي، ولا أين ذهبت أمي: {لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه}[عبس: ٣٧].

قال الطبري: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}: و(الشفاعة) مصدر من قول الرجل: (شفع لي فلان إلى فلان شفاعة)، وهو طلبه إليه في قضاء حاجته. وإنما قيل للشفيع (شفيع وشافع) لأنه ثنى المستشفع به، فصار به شفعًا فكان ذو الحاجة

١- تضمين من آية سورة لقمان: ٣٣.

٢- أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١١: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ حديث رقم ٢٧٥٣؛ وأخرجه مسلم ص٧١٦، كتاب الإيمان، باب ٨٩: في قوله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين ...}، حديث رقم ٥٠٤ [٣٥١] ٢٠٦.

– قبل استشفاعه به في حاجته – فردًا، فصار صاحبه له فيها شافعًا، وطلبه فيه وفي حاجته شفاعة. ولذلك سمي الشفيع في الدار وفي الأرض (شفيعًا) لمصير البائع به شفعًا.

فتأويل الآية إذًا: واتقوا يومًا لا تقضي نفس عن نفس حقًّا لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره، ولا يقبل الله منها شفاعة شافع، فيترك لها ما لزمها من حق.

وقيل: إن الله عز وجل خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها، لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آباؤنا. فأخبرهم الله جل وعز أن نفسًا لا تجزي عن نفس شيئًا في القيامة، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها حتى يستوفى لكل ذي حق منها حقه.

فآيسهم الله جل ذكره مما كانوا أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله – مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق وخلافهم أمر الله في اتباع محمد ﷺ وما جاءهم به من عنده – بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلهم؛ وأخبرهم أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم والإنابة من ضلالهم، وجعل ما سن فيهم من ذلك إمامًا لكل من كان على مثل منهاجهم لئلّا يطمع ذو إلحاد في رحمة الله.

قال الشنقيطي: ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ عَدَمُ قَبُولِ الشَّفَاعَةِ مُطْلَقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ الْمَنْفِيَّةَ هِيَ الشَّفَاعَةُ لِلْكُفَّارِ، وَالشَّفَاعَةُ لِغَيْرِهِمْ بِدُونِ إِذْنِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أَمَّا الشَّفَاعَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِإِذْنِهِ فَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ. فَنَصَّ عَلَى عَدَمِ الشَّفَاعَةِ لِلْكَفَّارِ بِقَوْلِهِ: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}[٢١ \ ٢٨]، وَقَدْ قَالَ: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}[٣٩ \ ٧]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ مُقَرِّرًا لَهُ: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ}[٢٦ \ ١٠٠]، وَقَالَ: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[٧٤ \ ٤٨]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَالَ فِي الشَّفَاعَةِ بِدُونِ إِذْنِهِ: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}[٢ \ ٢٥٥]، وَقَالَ: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}[٥٣ \ ٢٦]، وَقَالَ: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا}[٢٠ \ ١٠٩]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَادِّعَاءُ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ لِلْكُفَّارِ أَوْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ بِهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يشركون}[١٠ \ ١٨].

(تنْبِيهٌ)

هَذَا الَّذِي قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلْكُفَّارِ مُسْتَحِيلَةٌ شَرْعًا مُطْلَقًا، يُسْتَثْنَى مِنْهُ شَفَاعَتُهُ ﷺ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فِي نَقْلِهِ مِنْ

مَحَلٍّ مِنَ النَّارِ إِلَى مَحَلٍّ آخَرَ مِنْهَا، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ فِي الصَّحِيحِ(١)، فَهَذِهِ الصُّورَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا مِنْ تَخْصِيصِ الْكِتَابِ بِالسُّنَّةِ.

قال الطبري: وهذه الآية وإن كان مخرجها عامًّا في التلاوة، فإن المراد بها خاص في التأويل لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))، وأنه قال: ((ليس من نبي إلا وقد أعطي دعوة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئًا(٢))).

فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين – بشفاعة نبينا محمد ﷺ لهم – عن كثير من عقوبة إجرامهم بينهم وبينه وأن قوله: {ولا يقبل منها شفاعة} إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل.

قال القرطبي: مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق، وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين. وقد تمسك القاضي عليهم في الرد بشيئين أحدهما: الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى والثاني الإجماع من السلف على تلقي هذه الأخبار بالقبول ولم يبد من أحد منهم في عصر من الأعصار نكير فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة.

فإن قالوا: قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر: ١٨]، قالوا: وأصحاب الكبائر ظالمون وقال: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}[النساء: ١٢٣]{وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}[البقرة: ٤٨].

قلنا: ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم والعموم لا صيغة له فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءًا وكل نفس، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك وأيضًا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام فقال في صفة الكافرين: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر: ٤٨]، وقال: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى}[الأنبياء: ٢٨]، وقال: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}[سبأ: ٢٣]، فعلمنا بهذه الجملة أن

١- (قلت): كما ورد عن أبي سعيد الخدري وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٥٤): أنَّ رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: ((لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)). وكما ورد عن العباس بن عبد المطلب وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٥٥)، أنه قال: يا رسول الله! هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: ((نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا (أي شفاعته) لكان في الدرك الأسفل من النار)).

٢- حديث: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)): هكذا ذكره الطبري دون إسناد. وهو حديث صحيح، ذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه لأحمد، وأبي داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم – عن أنس. والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم – عن جابر. انظر شرح المناوي الكبير، رقم ٤٨٩٢ (ج ٤ ص ١٦٣).

وحديث ((ليس من نبي)) إلخ: كذلك جاء به الطبري دون إسناد. ومعناه ثابت صحيح، من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري، ومسلم. انظر الترغيب والترهيب ٤: ٢١٣.

الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}، النفس الكافرة لا كل نفس. ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها وبدليل قوله: {يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}[النساء: ٤٨]، وقوله: {إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}[يوسف: ٨٧].

فإن قالوا: فقد قال تعالى: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى}، والفاسق غير مرتضى قلنا لم يقل لمن لا يرضى وإنما قال {لِمَنِ ارْتَضَى}، ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون، بدليل قوله: {لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً}[مريم: ٨٧]، قال المفسرون: إلا من قال لا إله إلا الله.

فإن قالوا: المرتضى هو التائب الذي اتَّخذ عند الله عهدًا بالإنابة إليه بدليل أن الملائكة استغفروا لهم، وقال: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}[غافر: ٧]، وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكبائر.

قلنا: عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار. و أجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا}: أي من الشرك، {واتبعوا سبيلك}: أي سبيل المؤمنين. سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم كما قال تعالى: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}[النساء: ٤٨].

فإن قالوا: جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبي ﷺ فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم.

قلنا: إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله في أن تناله لاعتقاده انه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه، بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص، فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة، وقال ﷺ: ((لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى فقيل: ولا أنت يا رسول الله فقال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته(١))).

١- (قلت): البخاري (٦٤٦٣)، بلفظ: ((لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ)) قَالُوا، وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا)). ومسلم (٢٨١٦)، بلفظ: ((لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ))، قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لن ينجي أحدا منكم عمله)): اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضا أن الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى الله بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلا منه وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك ولكنه أخبر وخبره صدق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويخلدهم في النار عدلا منه وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته وأما قوله تعالى {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون}، ونحوها من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة ((يتغمدني الله منه برحمة)): أي يلبسنيها ويغمدني بها ومنه أغمدت السيف وغمدته إذا جعلته في غمده وسترته به ((سددوا)): اطلبوا السداد واعملوا به والسداد الصواب وهو ما بين الإفراط والتفريط فلا تغلوا ولا تقصروا.

- أنظر شرح مسألة الشفاعة عند تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

قال شيخ الإسلام في الصفدية ج٢ص٢٩٠: والناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال: فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا محمد ث في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله ويحد له حدًّا كما في الحديث الصحيح حديث الشفاعة أنهم يأتون آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى وعيسى فيقول لهم عيسى اذهبوا إلى محمد فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: ((فيأتوني فأذهب فإذا رأيت ربي خررت له ساجدًا فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع فأقول أي رب أمتي فيحد لي حدًّا فأدخلهم الجنة ثم أنطلق فأسجد فيحد لي حدًّا(١))) ذكر هذا ثلاث مرات.

وفي الصحيح أن أبا هريرة قال لرسول الله: أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: ((يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه(٢)))، فبين ﷺ أن أسعد الناس بشفاعته في الآخرة أعظمهم إخلاصًا لله وتوحيدًا له في الدين.

وذلك أنه من يشفع عنده بغير إذنه كان الشافع شريكًا له في العقل، ولهذا سمّي الشفيع شفيعًا لأنه يشفع للطالب كما قال تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا}[النساء: ٨٥]، فكل من أعان غيره على أمر فهو شافع له، والشافع عند غيره تؤثر فيه حركة تغير اختياره ويكون شريكًا له في المطلوب والله منزه عن ذلك كله.

قال ابن العثيمين: و(الشفاعة): هي التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة(٣)من جلب المنفعة؛ وشفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها(٤)، وفيمن دخلها أن يخرج منها(٥)من دفع المضرة.

١- (قلت): البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (٣٢٢/١٩٣).

٢- (قلت): البخاري (٩٩).

٣- راجع مسلمًا ص٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٥: في قول النبي ﷺ: ((أنا أول الناس يشفع في الجنة ...))، حديث رقم ٤٨٣ [٣٣٠] ١٩٦؛ وباب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥؛ وفيه: يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة.

٤- قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية: فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم، فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار كما قال النبي ﷺ: ((اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ...)) (١٧٧/٢ - ١٧٨)، وذكر الحافظ ابن حجر أن دليل هذا قوله ﷺ في حديث حذيفة عند مسلم: ((ونبيكم على الصراط يقول: رب سلم، رب سلم)) (فتح الباري ٤٢٨/١١)؛ مسلم ص٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥.

٥- راجع البخاري ص٦٢٥ - ٦٢٦، كتاب التوحيد، باب ٣٦: كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، حديث رقم ٧٥١٠؛ ومسلما ص٧١٤، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٧٩ [٣٢٦] ١٩٣.

{ولا يؤخذ منها}: أي من النفس؛ {عدل}: أي بديل يعدل به عن الجزاء؛ و(العدل)، بمعنى المعادل المكافئ؛ ففي الدنيا قد تجب العقوبة على شخص، ويفتدي نفسه ببدل؛ لكن في الآخرة لا يمكن.

قال الطبري: و(العدل) – في كلام العرب بفتح العين –: الفدية، وإنما قيل للفدية من الشيء والبدل منه (عدل)، لمعادلته إياه وهو من غير جنسه؛ ومصيره له مثلا من وجه الجزاء، لا من وجه المشابهة في الصورة والخلقة، كما قال جل ثناؤه: {وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا}[الأنعام: ٧٠] بمعنى: وإن تفد كل فدية لا يؤخذ منها. يقال منه: (هذا عدله وعديله). وأما (العِدل) بكسر العين، فهو مثل الحمل المحمول على الظهر، يقال من ذلك: (عندي غلام عِدل غلامك، وشاة عِدل شاتك) – بكسر العين –، إذا كان غلام يعدل غلامًا، وشاة تعدل شاة. وكذلك ذلك في كل مثل للشيء من جنسه. فإذا أريد أن عنده قيمته من غير جنسه نصبت العين فقيل: (عندي عَدل شاتك من الدراهم). وقد ذكر عن بعض العرب أنه يكسر العين من (العِدل) الذي هو بمعنى الفدية لمعادلة ما عادله من جهة الجزاء، وذلك لتقارب معنى العِدل والعَدل عندهم، فأما واحد (الأعدال) فلم يسمع فيه إلا (عِدل) بكسر العين(١).

قال ابن العثيمين: {ولا هم ينصرون}: أي لا أحد ينصرهم. أي يمنعهم من عذاب الله؛ لأن الذي يخفف العذاب واحد من هذه الأمور الثلاثة: إما شفاعة؛ وإما معادلة؛ وإما نصر.

قال السعدي: {ولا هم ينصرون}: أي يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقوله: {لا تجزي نفس عن نفس شيئًا} هذا في تحصيل المنافع، {ولا هم ينصرون} هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقل به النافع. {ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل} هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل، أو بغيره، كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع، ويدفع المضار، فيعبده وحده لا شريك له ويستعينه على عبادته.

قال القرطبي: وإنما خصَّ الشفاعة والفدية والنصر بالذكر، لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا فإن الواقع في الشدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو ينصر أو يفتدي.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- التحذير من يوم القيامة؛ وهذا يقع في القرآن كثيرًا؛ كقوله تعالى: {واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله}، وكقوله تعالى: {يومًا يجعل الولدان شيبًا}[المزمل: ١٧].

١- وهذا أيضًا بيان جيد، قلما تصيبه في كتاب من كتب اللغة.

٢- أنه في يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئًا. بخلاف الدنيا.: فإنه قد يجزي أحد عن أحد؛ لكن يوم القيامة: لا.

٣- أن الشفاعة لا تنفع يوم القيامة؛ والمراد لا تنفع من لا يستحق أن يشفع له؛ وأما من يستحق فقد دلت النصوص المتواترة على ثبوت الشفاعة. وهي معروفة في مظانها من كتب الحديث، والعقائد.

٤- أن يوم القيامة ليس فيه فداء؛ لا يمكن أن يقدم الإنسان فداء يعدل به؛ لقوله تعالى: {ولا عدل}.

٥- أنه لا أحد ينصر يوم القيامة إذا كان من العصاة؛ ولهذا قال الله تعالى: {ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون}[الصافات: ٢٥، ٢٦]؛ فلا أحد ينصر أحدًا يوم القيامة. لا الآلهة، ولا الأسياد، ولا الأشراف، ولا غيرهم.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)

قال القرطبي: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}: {إذ}، في موضع نصب عطف على {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ}، وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم، أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم. والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء كما قال: {إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}[الحاقة: ١١]: أي حملنا آباءكم وقيل إنما قال: {نجيناكم}، لأن نجاة الآباء كانت سببًا لنجاة هؤلاء الموجودين. ومعنى {نجيناكم}: ألقيناكم على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها، هذا هو الأصل، ثم سمى كل فائز ناجيًا، فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة وقرئ (وإذ نجيتكم) على التوحيد.

{مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}: {آل فرعون} قومه وأتباعه وأهل دينه، وكذلك آل الرسول ﷺ من هو على دينه وملته في عصره وسائر الإعصار سواء كان نسيبًا له أو لم يكن، و من لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهله وإن كان نسيبه وقريبه. خلافًا للرافضة حيث قالت: إن آل الرسول الله ﷺ فاطمة والحسن والحسين فقط. دليلنا قوله تعالى {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ}[البقرة: ٥٠]، {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}[غافر: ٤٦]: أي آل دينه إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة، ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحد فإنه ليس من آل محمد وإن كان قريبًا له ولأجل هذا يقال إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله وإن كان بينهما وبين النبي ﷺ قرابة، ولأجل هذا قال الله تعالى في ابن نوح: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}[هود: ٤٦]، وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ جهارًا غير سر يقول: ((ألا إن آل أبي - يعني فلانًا - ليسوا لي بأولياء إنما وليي

الله وصالح المؤمنين([1]))، وقالت طائفة: آل محمد أزواجه وذريته خاصة لحديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلّي عليك؟ قال: ((قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد([2]))، رواه مسلم، وقالت طائفة من أهل العلم: الأهل معلوم والآل الأتباع، والأول أصح لما ذكرناه ولحديث عبدالله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: ((اللهم صل عليهم))، فأتاه أبي أَبُو أَوْفَى بِصَدَقَتِهِ، فقال: ((اللهم صلِّ على آل أبي أوفى([3]))).

{فِرْعَوْنَ}: قيل: إنه اسم ذلك الملك بعينه، وقيل: إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة وأن اسم فرعون موسى قابوس في قول أهل الكتاب. وقال وهب: اسمه الوليد بن مصعب بن الريان ويكنى أبا مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. قال السهيلي: وكل من ولي القبط ومصر فهو فرعون، وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر. و{فرعون}، في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته.

قال ابن العثيمين: وكان بنو إسرائيل مستضعفين في مصر، وسلط عليهم الفراعنة حتى كانوا كما قال الله تعالى: {يسومونكم سوء العذاب}؛ ومعنى (السوم) في الأصل: الرعي؛ ومنه السائمة. أي الراعية. والمعنى: أنهم لا يرعونكم إلا بهذا البلاء العظيم و{سوء العذاب}: أي سيئه وقبيحه.

{يذبحون أبنائكم}: الفعل مضعف. أي مشدد. للمبالغة؛ لكثرة من يذبحون، وعظم ذبحهم؛ هذا وقد جاء في سورة الأعراف: {يقتلون} وهو بمعنى {يذبحون}؛ ويحتمل أن يكون مغايرًا له؛ فيحمل على أنهم يقتلون بعضًا بغير الذبح، ويذبحون بعضًا؛ وعلى كل فالجملة بيان لقوله تعالى: {يسومونكم سوء العذاب}؛ هذا وجاء في سورة إبراهيم: {يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم} بالواو عطفًا على قوله تعالى: {يسومونكم}؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ فيكون المعنى أنهم جمعوا بين سوم العذاب. وهو التنكيل، والتعذيب. وبين الذبح.

قال السعدي: {يذبحون أبناءكم} خشية نموِّكم، {ويستحيون نساءكم}: أي فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومذلَّل بالأعمال الشاقة، مستحيي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة.

قال ابن العثيمين: {ويستحيون نساءكم}: أي يستبقون نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال، وبقيت النساء ذل الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدما لآل فرعون؛ وهذا. والعياذ بالله. من أعظم ما

١- (قلت): مسلم (٢١٥).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: (يعني فلانا): هي من بعض الرواة خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة إما في حق نفسه وإما في حقه وحق غيره فكنى عنه، والغرض إنما هو قوله صلى الله عليه وسلم ((إنما ولي الله وصالح المؤمنين))، ومعناه: إنما ولي من كان صالحا وإن بعد نسبه مني وليس ولي من كان غير صالح وإن كان نسبه قريبا.

٢- (قلت): مسلم (٤٠٧).

٣- (قلت): البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨/ ١٧٦).

يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: {فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل}[الشعراء: ٥٧- ٥٩]، وقال تعالى: {كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين}[الدخان: ٢٥-٢٨]. وهم بنو إسرائيل.

قال الطبري: عن ابن عباس، قال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم خليله أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا وائتمروا، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشفارُ[1]يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه، ففعلوا. فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون، قال: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر فتقل أبناؤهم؛ ودعوا عامًا. فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، حتى إذا كان القابل حملت بموسى[2].

وعن ابن عباس، قال: قالت الكهنة لفرعون: إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكك. قال: فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل، وعلى كل مائة عشرة، وعلى كل عشرة رجلًا فقال: انظروا كل امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حملها فانظروا إليه، فإن كان ذكرا فاذبحوه، وإن كان أنثى فخلوا عنها. وذلك قوله: {يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم[3]}.

قال الطبري: {وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُم عَظِيمٌ }: وأصل (البلاء) في كلام العرب – الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر. لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربنا جل ثناؤه: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[الأعراف: ١٦٨]، يقول: اختبرناهم، وكما قال جل ذكره: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ

١- الشفار جمع شفرة: وهي السكين العريضة العظيمة الحديدة، تمتهن في قطع اللحم وغيره.

٢- الأثر: هذا موقوف، وإسناده صحيح إلى ابن عباس. أما صحة المتن، فلا نستطيع أن نجزم بها، لعله مما كان يتحدث به الصحابة عن التاريخ القديم نقلًا عن أهل الكتاب. العباس بن الوليد بن مزيد الآملي البيروتي: ثقة، مترجم في التهذيب، وترجمه ابن أبي حاتم ٣ /١/ ٢١٤ – ٢١٥. وتميم بن المنتصر بن تميم الواسطي: ثقة، مترجم في التهذيب، وترجمه ابن أبي حاتم ١ /١/ ٤٤٤ – ٤٤٥. والأصبغ بن زيد بن علي الجهني الواسطي الوراق: ثقة، وثقه ابن معين وغيره، مترجم في التهذيب، وترجمه البخاري في الكبير ١ /٢/ ٣٦، وابن أبي حاتم ١ /١/ ٣٢٠ – ٣٢١. القاسم بن أبي أيوب الأسدي الواسطي: ثقة، مترجم في التهذيب، والكبير للبخاري ٤ / ١ /١٦٨ – ١٦٩، وابن أبي حاتم ٣ / ٢ / ١٠٧. ووقع في المطبوعة هنا (القاسم بن أيوب)، وهو خطأ.

وهو في تاريخ الطبري بتمامه ١: ٢٠٢، مع اختلاف يسير في اللفظ. وفي المخطوطة في هذا الموضع أخطاء من الناسخ تجافينا عن ذكرها. وفي المطبوعة والمخطوطة: (فولدته علانية أمه)، والصواب من التاريخ.

٣- الأثر: وهذا كالذي قبله، موقوف، إسناده إلى ابن عباس صحيح. وقد رواه الطبري بهذا الإسناد، في التاريخ أيضًا ١: ٢٢٥.

عبد الكريم بن الهيثم بن زياد القطان: ثقة مأمون، مات سنة ٢٧٨. ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد ١١: ٧٨ – ٧٩، وياقوت في معجم الأدباء ٤: ١٥٤. إبراهيم بن بشار الرمادي: ثقة، يهم في الشيء بعد الشيء. مترجم في التهذيب، وفي الكبير ١ / ١ / ٢٧٧، وابن أبي حاتم ١ / ١ / ٨٩ – ٩٠. أبو سعيد – الراوي عن عكرمة: هو عبد الكريم بن مالك الجزري. ولم أجد الأثر في مكانه من تاريخ الطبري.

وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}[الأنبياء: ٣٥]. ثم تسمي العرب الخير (بلاء) والشر (بلاء). غير أن الأكثر في الشر أن يقال: (بلوته أبلوه بلاء)، وفي الخير: (أبليته أبليه إبلاء وبلاء).

قال ابن العثيمين: {وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}: أي وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله عز وجل عظيم. أي اختبار عظيم؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تذكير الله تعالى لبني إسرائيل نعمته عليهم بإنجائهم من آل فرعون.

٢- أن الإنجاء من العدو نعمة كبيرة ينعم الله بها على العبد؛ ولهذا ذكرهم الله بها في قوله تعالى: {نجيناكم}.

٣- بيان حنق آل فرعون على بني إسرائيل؛ وقيل: إن هذا التقتيل كان بعد بعثة موسى؛ لأن فرعون لما جاءه موسى بالبينات قال: {اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم}[غافر: ٢٥]، وقال في سورة الأعراف: {سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون}[الأعراف: ١٢٧].

وذكر بعض المؤرخين أن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى، أو قبل ولادته؛ لأن الكهنة ذكروا لفرعون أنه سيولد لبني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده؛ فجعل يقتلهم؛ وعضدوا هذا القول بما أوحى الله تعالى إلى أم موسى: {أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني}[القصص: ٧]؛ لكن هذه الآية ليست صريحة فيما ذكروا؛ لأنها قد تخاف عليه إما من هذا الفعل العام الذي يقتل به الأبناء، أو بسبب آخر، وآية الأعراف: {قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا}[الأعراف: ١٢٩]، لا دليل فيها صراحة على أن التقتيل كان قبل ولادة موسى عليه السلام؛ لأن الإيذاء لا يدل على القتل، ولأن فرعون لم يقل: سنقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم إلا بعد أن أرسل إليه موسى عليه السلام، ولهذا قال موسى عليه السلام لقومه بعد ذلك: {استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده}[الأعراف: ١٢٨].

٤- أن الرب سبحانه وتعالى له مطلق التصرف في عباده بما يسوؤهم، أو يسرهم؛ لقوله تعالى: {من ربكم}: يعني هذا العذاب الذي سامكم إياه آل فرعون، والإنقاذ منه؛ كله من الله عز وجل؛ فهو الذي بيده الخير، ومنه كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

قال الشنقيطي: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا كَيْفِيَّةَ فَرْقِ الْبَحْرِ بِهِمْ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}[٢٦ \ ٦٣]، وَقَوْلِهِ: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ

بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا} الْآيَةَ [٢٠ \ ٧٧].

قال الطبري: {وإذ فرقنا بكم}، فإنه عطف على: {وإذ نجيناكم}، بمعنى: واذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، وإذ فرقنا بكم البحر.

ومعنى قوله: {فرقنا بكم}: فصلنا بكم البحر. لأنهم كانوا اثني عشر سبطًا؛ ففرق البحر اثني عشر طريقًا، فسلك كل سبط منهم طريقا منها، فذلك فرق الله بهم عز وجل البحر، وفصله بهم، بتفريقهم في طرقه الاثني عشر.

قال أبو زهرة: والمعنى اذكروا ذلك الوقت الذي {فرقنا}: أي أوجدنا شقًّا طوليًّا في البحر من ساحل مصر إلى ساحل سيناء، وقد كان متصل الأجزاء، وسطحًا لا فرقة فيه ولا انشقاق، فسرتم فيه، كأن الماء قد افترق على قدر حاجتكم، وسرتم فيه آمنين مطمئنين، وسار وراءكم الذين عذبوكم، ودبروا السوء لكم، وذبَّحوا أبناءكم، واستحيوا نساءكم لأهوائهم، وهم آل فرعون الذين ناصروه وأيدوه، وقد ازدلفوا من ورائكم فأغرقهم، وأنتم تنظرون إلى تدبير الله تعالى، وإعجازه، وأنتم ترونه رأي العين لا بالخبر والسماع.

قال الشنقيطي: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ}: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا كَيْفِيَّةَ إِغْرَاقِهِمْ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: {فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}[٢٦ \ ٦٠ إِلَى ٦٦]، وَقَوْلِهِ: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}[٢٠ \ ٧٨].

وَقَوْلِهِ: {وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ}[٤٤ \ ٢٤]، وَقَوْلِهِ: {رَهْوًا}، أَيْ: سَاكِنًا عَلَى حَالَةِ انْفِلَاقِهِ حَتَّى يَدْخُلُوا فِيهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قال أبو زهرة: نجا بنو إسرائيل، وظهرت آيتان؛ إحداهما أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه، فانشق وانفلق، وكان كل فرق من أقسامه، كأنه الجبل العظيم من الماء.

والثانية أن هذا كان على قدر مسير بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، وظن فرعون وآله أن الطريق مفتوح لهم، كما فتح لبني إسرائيل، فساروا وراءهم فانطبق البحر عليهم، وكانوا مغرقين.

كانت هذه النجاة بمعجزة من الله تعالى كافية لإيمان الكافر حتى إن فرعون قال آمنت بالذي آمن به بنو إسرائيل، وإن كان لم ينفعه إيمانه، كما قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}.

قال الطبري: {وأنتم تنظرون}، أي تنظرون إلى فرق الله لكم البحر، وإهلاكه آل فرعون في الموضع الذي نجاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه – في الذي أراكم من طاعة البحر إياه، من مصيره ركامًا فلقًا كهيئة الأطواد الشامخة([1])، غير زائل عن حده، انقيادًا لأمر الله وإذعانًا لطاعته، وهو سائل ذائب قبل ذلك، والتطام أمواج البحر بآل فرعون، في الموضع الذي صير لكم في البحر طريقًا يبسًا. وذلك كان، لا شك نظر عيان لا نظر علم. يوقفهم بذلك جل ذكره على موضع حججه عليهم، ويذكرهم آلاءه عند أوائلهم، ويحذرهم – في تكذيبهم نبينا محمدًا ﷺ – أن يحل بهم ما حل بفرعون وآله، في تكذيبهم موسى ﷺ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- مناسبة قوله تعالى: {وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون} لما قبله ظاهرة جدًّا، وذلك أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى تسلط آل فرعون عليهم ذكر مآل هؤلاء المتسلطين؛ وأن الله أغرقهم، وأنجى هؤلاء، وأورثهم أرضهم، كما قال الله تعالى: {وأورثناها بني إسرائيل}[الشعراء: ٥٩].

٢- تذكير الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه؛ وقد تضمن هذا التذكير حصول المطلوب، وزوال المكروه؛ حصول المطلوب: بنجاتهم؛ وزوال المكروه: بإهلاك عدوهم.

٣- بيان قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهذا الماء السيال أمره الله تبارك وتعالى أن يتمايز، وينفصل بعضه عن بعض؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم؛ وثم وجه آخر من هذه القدرة: أن هذه الطرق صارت يبسًا في الحال مع أنه قد مضى عليها سنون كثيرة لا يعلمها إلا الله عز وجل والماء من فوقها، ولكنها صارت في لحظة واحدة يبسًا، كما قال تعالى: {ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسًا لا تخاف دركًا ولا تخشى}[طه: ٧٧]؛ وقد ذكر بعض المفسرين أنه كانت في هذه الفرق فتحات ينظر بعضهم إلى بعض. حتى لا ينزعجوا، ويقولوا: أين أصحابنا؟! وهذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى.

وقد وقع مثل ذلك لهذه الأمة؛ فقد ذكر ابن كثير. رحمه الله في (البداية والنهاية) أنه ما من آية سبقت لرسول إلا لرسولنا ﷺ مثلها: إما له ﷺ هو بنفسه، أو لأمته؛ ومعلوم أن الكرامات التي تقع لمتبع الرسول هي في الحقيقة آيات له؛ لأنها تصديق لطريق هذا الولي المتبع للرسول؛ فتكون آية على صدق الرسول، وصحة الشريعة؛ ولهذا من القواعد المعروفة أن كل كرامة لولي فهي آية لذلك النبي المتبع؛ وذكر ابن كثير رحمه الله في (البداية والنهاية) على ذلك أمثلة؛ ومنها أن من الصحابة من مشوا على الماء؛ وهو أبلغ من فلق البحر لبني إسرائيل، ومشيهم على الأرض اليابسة.

١- ركام: مجتمع بعضه فوق بعض، والفلق جمع فِلْقة (بكسر فسكون): وهي الشق.

٤- أن الآل يدخل فيهم من ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: {وأغرقنا آل فرعون}؛ وفرعون قد غرق بلا شك، كما قال تعالى: {حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين}[يونس: ٩٠] الآيتين.

٥- أن إغراق عدو الإنسان وهو ينظر من نعمة الله عليه؛ فإغراقه، أو إهلاكه نعمة؛ وكون عدوه ينظر إليه نعمة أخرى؛ لأنه يشفي صدره؛ وإهلاك العدو بيد عدوه أشفى، كما قال تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم}[التوبة: ١٤، ١٥]؛ نعم، عند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله عز وجل؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نصروا بالريح التي أرسلها الله عز وجل، كما قال تعالى: {فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها}[الأحزاب: ٩].

٦- عتو بني إسرائيل؛ فإن بني إسرائيل مع هذه النعم العظيمة كانوا من أشد الناس طغيانًا، وتكذيبًا للرسل، واستكبارًا عن عبادة الله عز وجل.

٧- أن الله تعالى سخر من فرعون، حيث أهلكه بجنس ما كان يفتخر به، وأورث أرضه موسى عليه الصلاة والسلام؛ وقد كان فرعون يقول: {يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين}[الزخرف: ٥١، ٥٢]؛ فأغرقه الله تعالى بالماء الذي كان يفتخر بجنسه، وأورث موسى أرضه الذي وصفه بأنه مهين، ولا يكاد يبين.

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)

قال أبو زهرة: نزل بنو إسرائيل أرض سيناء التي انبعث فيها نور الرسالة الموسوية. وكان حقًّا أن يكونوا أول المؤمنين، ولكن الله أخبر أنه لم يكن أكثرهم مؤمنين مع هذه المعجزات الحسية الباهرة، وكانوا قد ألفوا عبادة العجل من غير بيِّنة ولا دليل بل قلدوا المصريين تقليدًا في عباداتهم، وتأثروا طريقهم، وألفوا ما ألفوه هم، وإن الهوى والوهم هما اللذان سيطرا على نفوسهم، فضلوا بضلالهم، ولذلك صنعوا عجلًا من الحُليّ(١)؛ وجعلوه في مهب الريح، فكانت الريح إذا مرت به كان له خوار كخوار العجل الحي؛ ولذلك قال تعالى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}.

١- (قلت): والعلة في تصنيع العجل من الذهب؛ لأن أحد شروط العجل المتَّخَذ عندهم للعبادة أن يكون صفراء، كما قال تعالى: {صفراء فاقع لونها تسر الناظرين}. أنظر تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

هذا ما كان منهم كفرًا بالنعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وفيها الدلالة القاطعة مع النعم الظاهرة، ومع ذلك قلدوا المصريين في عبادتهم.

قال ابن العثيمين: {وإذ واعدنا موسى}: أي واذكروا إذ واعدنا موسى؛ {أربعين ليلة}: وعده الله تعالى لميقاته ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ وفي قوله تعالى: {واعدنا}، قراءتان سبعيتان: بألف بعد الواو؛ وبدونها.

قال الطبري: وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة بتمامها. فالأربعون ليلة كلها داخلة في الميعاد.

قال السعدي: ذكر منَّته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده، أي: ذهابه.

قال ابن العثيمين: {ثم اتخذتم العجل}: أي صَيَّرتم العجل؛ و{العجل}، مفعول أول؛ والثاني: محذوف؛ والتقدير: اتخذتم العجل إلها؛ و{العجل}، تمثال من ذهب صنعه السامري، وقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم وإله موسى فنسي.

{من بعده}: أي من بعد موسى حين ذهب لميقات الله.

قال الطبري: فأخبر جل ثناؤه المخالفين نبينا ﷺ من يهود بني إسرائيل، المكذبين به المخاطبين بهذه الآية، عن فعل آبائهم وأسلافهم، وتكذيبهم رسلهم، وخلافهم أنبياءهم، مع تتابع نعمه عليهم، وشيوع آلائه لديهم، مُعَرِّفَهم بذلك أنهم – من خلاف محمد ﷺ وتكذيبهم به، وجحودهم لرسالته، مع علمهم بصدقه – على مثل منهاج آبائهم وأسلافهم، ومحذِّرَهم من نزول سطوته بهم بمقامهم على ذلك من تكذيبهم ما نزل بأوائلهم المكذبين بالرسل من المسخ واللعن وأنواع النقمات. قال ابن زيد: لما أنجى الله عز وجل بني إسرائيل من فرعون، وأغرق فرعون ومن معه، قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين. قال: لما خرج موسى وأمر هارون بما أمره وخرج موسى متعجِّلًا مسرورًا إلى الله، قد عرف موسى أن المرء إذا أنجح في حاجة سيده، كان يسره أن يتعجل إليه. قال: وكان حين خرجوا استعاروا حُليًّا وثيابًا من آل فرعون، فقال لهم هارون: إن هذه الثياب والحُليّ لا تحل لكم، فاجمعوا نارًا، فألقوه فيها فأحرقوه. قال: فجمعوا نارًا. قال: وكان السامري قد نظر إلى أثر دابة جبريل، وكان على فرس أنثى – وكان السامري في قوم موسى – قال: فنظر إلى أثره فقبض منه قبضة، فيبست عليها يده. فلما ألقى قوم موسى الحُليّ في النار، وألقى السامري معهم القبضة، صور الله جل وعز ذلك لهم عجلًا ذهبًا، فدخلته الريح، فكان له خوار، فقالوا: ما هذا؟ فقال: السامري الخبيث: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}، الآية، إلى قوله: {حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}[طه: ٨٨ – ٩١]، قال: حتى إذا أتى موسى الموعد، قال الله: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي}، فقرأ حتى بلغ: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}[طه: ٨٦].

عن مجاهد في قوله: {ثم اتخذتم العجل من بعده}: قال: العجل: حسيل البقرة[١]. قال: حُليٍّ استعاروه من آل فرعون، فقال لهم هارون: أخرجوه فتطهروا منه وأحرقوه؛ وكان السامري قد أخذ قبضة من أثر فرس جبريل فطرحه فيه فانسبك، فكان له كالجوف تهوي فيه الرياح.

قال ابن العثيمين: {وأنتم ظالمون}: هذه الجملة حال من التاء في قوله تعالى: {اتخذتم}؛ والفائدة من ذكر هذه الحال زيادة التوبيخ، وأنهم غير معذورين.

قال الطبري: يعني: وأنتم واضعو العبادة في غير موضعها، لأن العبادة لا تنبغي إلا لله عز وجل، وعبدتم أنتم العجل ظلمًا منكم، ووضعًا للعبادة في غير موضعها.

قال أبو زهرة: توالت نعمة الله تعالى، ولكنهم فتنوا بما كان عليه المصريون الأقوياء، وكانوا هم الضعفاء، والضعيف دائمًا مأخوذ بتقليد القويّ، فسرى ما عند الأقوياء، وهم قوم فرعون إلى الضعفاء، وكانوا يشعرون بالمذلَّة والاستكانة، وشعروا من بعد بأنهم ذُلّوا، فتابوا وتاب الله تعالى عليهم وعفا عنهم، وعدَّ الله تعالى ذلك عليهم نعمة، فقال تعالى: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}: أي أن هذه الجريمة الكبرى، وهي الإشراك بالله تعالى ما كانت لتغفر، ولكن الله تعالى عفا عنها، والتعبير هنا بـ{ثُمَّ} الدالة على التراخي والبعد، لبيان بُعد ما كان منهم عن أن ينالوا من بعده عفو الله تعالى، ولكنه سبحانه وتعالى توّاب رحيم وسعت رحمته كل شيء ما دامت التوبة قد حصلت.

قال ابن العثيمين: {ثم عفونا[٢]عنكم}: أي تجاوزنا عن عقوبتكم؛ {من بعد ذلك}: أتى بها؛ لأن العفو إنما حصل حين تابوا إلى الله، وقتلوا أنفسهم.

{لعلكم تشكرون}، {لعل} هنا للتعليل؛ و{تشكرون}: أي تشكرون الله على نعمه؛ والشكر يكون بالقلب: وهو إيمان القلب بأن النعمة من الله عز وجل، وأن له المنَّة في ذلك؛ ويكون باللسان: وهو التحدث بنعمة الله اعترافًا لا افتخارًا؛ ويكون بالجوارح: وهو القيام بطاعة المنعم؛ وفي ذلك يقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١ – حكمة الله تبارك وتعالى في تقديره، حيث واعد موسى أربعين ليلة لينزل عليه فيها التوراة. مع أنه سبحانه وتعالى قادر على أن ينزلها في ليلة مرة واحدة؛ ولكن لحكمة لا نعلم ما هي، وعده الله تعالى ثلاثين ليلة أولًا، ثم أتمها بعشر؛ فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

---

١ – الحسيل (بفتح فكسر): ولد البقرة.

٢ – (قلت): أنظر معنى إسم الله {العفو} مفصلاً عند تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء.

٢- بيان جهل بني إسرائيل الجهل التام؛ وجه ذلك أن هذا الحلي الذي جعلوه إلها هم الذين صنعوه بأنفسهم؛ فقد استعاروا حُليًّا من آل فرعون، وصنعوه على صورة الثور عجلًا جسدًا لا روح فيه؛ ثم قال السامري: {هذا إلهكم وإله موسى فنسي}[طه: ٨٨]؛ وزعموا أن موسى ضلّ، ولم يهتد إلى ربه، وهذا ربه! والعياذ بالله؛ فكيف يكون المصنوع ربًّا لكم، ولموسى وأنتم الذين صنعتموه! وهذا دليل على جهلهم، وغباوتهم إلى أبعد الحدود؛ وقد قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام حينما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: {اجعل لنا إلها كما لهم آلهة}[الأعراف: ١٣٨]، قال لهم نبيهم موسى: {إنكم قوم تجهلون}[الأعراف: ١٣٨]، وصدق عليه الصلاة والسلام.

٣- أن اتخاذهم العجل كان عن ظلم؛ لقوله تعالى: {وأنتم ظالمون}، وهذا أبلغ، وأشنع في توبيخهم، والإنكار عليهم.

٤- سعة حلم الله عز وجل، وأنه مهما بارز الإنسان ربه بالذنوب فإن حلم الله تعالى قد يشمله، فيوفق للتوبة؛ وهؤلاء وفقوا لها.

٥- أن العفو موجب للشكر؛ لقوله تعالى: {لعلكم تشكرون}؛ وإذا كان العفو، وهو زوال النقم، موجبًا للشكر فمن باب أولى حدوث النعم أيضًا موجب للشكر.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

قال ابن العثيمين: {وإذ آتينا موسى الكتاب}: أي واذكروا إذ أعطينا موسى؛ {الكتاب}: أي التوراة. {والفرقان}: إما صفة مشبهة، أو مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ لأن المراد بـ{الفرقان}: الفارق؛ والمراد به هنا (الفارق بين الحق والباطل)؛ وعطفه هنا من باب عطف الصفة على الموصوف؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ والمغايرة يكتفى فيها بأدنى شيء؛ قد تكون المغايرة بين ذاتين؛ وقد تكون المغايرة بين صفتين؛ وقد تكون بين ذات وصفة؛ فمثلًا: قوله تعالى: {خلق السماوات والأرض}[الأنعام: ١]: المغايرة بين ذاتين؛ وقوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى}[الأعلى: ١- ٤]: المغايرة بين صفتين؛ وقوله تعالى هنا: {الكتاب والفرقان}: المغايرة بين ذات وصفة؛ فـ{الكتاب} نفس التوراة؛ و{الفرقان} صفته؛ فالعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف.

قال الطبري: تأويل الآية: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح وفرقنا بها بين الحق والباطل.

فيكون {الكتاب} نعتًا للتوراة أقيم مقامها، استغناء به عن ذكر التوراة، ثم عطف عليه بـ{الفرقان}، إذ كان من نعتها.

هذا ما روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد.

قال ابن العثيمين: {لعلكم تهتدون}: {لعل} للتعليل؛ أي: (لعلكم تهتدون بهذا الكتاب الذي هو الفرقان)؛ لأن الفرقان هدى يهتدي به المرء من الضلالة؛ و{تهتدون}: أي هداية العلم والتوفيق؛ فهو نازل للهداية؛ ولكن من الناس من يهتدي، ومنهم من لا يهتدي.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن إنزال الله تعالى الكتب للناس من نعمه، وآلائه؛ بل هو من أكبر النعم؛ لأن الناس لا يمكن أن يستقلوا بمعرفة حق الخالق؛ بل ولا حق المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتب تبيانًا للناس.

٢- أن موسى ﷺ نبي رسول، لأن الله تعالى آتاه الكتاب.

٣- فضيلة التوراة؛ لأنه أطلق عليها اسم {الكتاب}؛ و(أل) هذه للعهد الذهني؛ فدلَّ هذا على أنها معروفة لدى بني إسرائيل، وأنه إذا أطلق الكتاب عندهم فهو التوراة؛ أيضا سمّاها الله تعالى الفرقان، كما سمّى القرآن الفرقان؛ لأن كلا الكتابين أعظم الكتب، وأهداهما؛ لقوله تعالى: {قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما}[القصص: ٤٩]. يعني التوراة، والإنجيل.{أتبعه إن كنتم صادقين}[القصص: ٤٩]؛ ودلَّ هذا على أن التوراة مشاركة للقرآن في كونها فرقانًا؛ ولهذا كانت عمدة الأنبياء من بني إسرائيل، كما قال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء}[المائدة: ٤٤].

٤- بيان عتو بني إسرائيل، وطغيانهم؛ لأنه إذا كانت التوراة التي نزلت عليهم فرقانًا ثم هم يكفرون هذا الكفر دلَّ على زيادة عتوِّهم وطغيانهم؛ إذ من نزل عليه كتاب يكون فرقانًا كان يجب عليه بمقتضى ذلك أن يكون مؤمنًا مذعنًا.

٥- أن الله تبارك وتعالى ينزل الكتب، ويجعلها فرقانًا لغاية حميدة حقًّا وهي الهداية؛ لقوله تعالى: {لعلكم تهتدون}.

٦- أن من أراد الهداية فليطلبها من الكتب المنزلة من السماء. لا يطلبها من الأساطير، وقصص الرهبان، وقصص الزهاد، والعباد، وجعجعة المتكلمين، والفلاسفة، وما أشبه ذلك؛ بل من الكتب المنزلة من السماء.

فعلى هذا ما يوجد في كتب الوعظ من القصص عن بعض الزهاد، والعباد، ونحوهم نقول لكاتبيها، وقارئيها: خير لكم أن تبدو للناس كتاب الله عز وجل، وما صح عن رسوله ﷺ وتبسطوا ذلك، وتشرحوه، وتفسروه بما ينبغي أن يفهم حتى يكون ذلك نافعًا للخلق؛ لأنه لا طريق للهداية إلى الله إلا ما جاء من عند الله عز وجل.

٧- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها؛ وبسط ذلك مذكور في كتب العقائد.

٨- أن الإيتاء المضاف إلى الله سبحانه وتعالى يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا؛ مثال الكوني قوله تعالى: {وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة}[القصص: ٧٦]، ومثال الشرعي قوله تعالى: {وآتينا موسى الكتاب}[الإسراء: ٢].

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

قال ابن العثيمين: ثم ذكر الله تعالى نعمة أخرى أيضًا فقال: {وإذ قال موسى لقومه}: أي واذكروا إذ قال موسى لقومه؛ {يا قوم}: أي يا أصحابي؛ وناداهم بوصف القومية تحبُّبًا، وتودُّدًا، وإظهارًا بأنه ناصح لهم؛ لأن الإنسان ينصح لقومه بمقتضى العادة.

{إنكم ظلمتم أنفسكم}: أكَّد الجملة لبيان حقيقة ما هم عليه؛ و{ظلمتم}: بمعنى نقصتم أنفسكم حقها؛ لأن (الظلم) في الأصل بمعنى النقص، كما قال الله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا}[الكهف: ٣٣]: أي لم تنقص.

{باتِّخاذكم العجل}: الباء هنا للسببية. أي بسبب اتخاذكم العجل؛ و{اتخاذ}، مصدر فعله: اتخذ؛ وهو مضاف إلى فاعله: الكاف؛ و{العجل}، مفعول أول؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلها؛ والمعنى: ظلمتم أنفسكم بسبب اتخاذكم العجل إلها تعبدونه من دون الله؛ وهذا العجل سبق أنه عجل من ذهب، وأن الذي فتن الناس به رجل يقال له: السامري.

{فتوبوا إلى بارئكم}: أي ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته؛ و(البارئ): الخالق المعتني بخلقه؛ فكأنه يقول: كيف تتخذون العجل إلهًا وتدعون خالقكم الذي يعتني بكم؟ وهذا كقول إلياس عليه السلام لقومه: {أتدعون بعلًا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين}[الصافات: ١٢٥، ١٢٦].

قال القرطبي: البارئ، الخالق وبينهما فرق وذلك أن البارئ هو المبدع المحدث والخالق هو المقدِّر الناقل من حال إلى حال والبرية: الخلق وهي فعيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تهمز.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {البارئ }: فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في نصين اثنين من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما ورد في قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[الحشر: ٢٤]، {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ٥٤].

والبارئ في اللغة اسم فاعل، فعله برأ يبرأ برءًا، وبرُؤ بضم الراء، أي: خلا من العيب أو التهمة أو المذمة، فخلي منها وخلص وتنزه عن وصفه بالنقص، واسم الله {البارئ} على ذلك المعنى دلَّ على صفة من صفات الذات، و{البارئ} أيضًا هو الذي أبرأ الخلق، وفصل كل جنس عن الآخر، وصوَّر كل مخلوق بما يناسب الغاية من خلقه، فدلَّ الاسم

بهذا المعنى على وصف فعل، لأن ذلك يتعلق بمشيئة الله وقدرته، فالاسم دلَّ على صفة من صفات الذات والفعل معًا، وقد أضفناه في الأسماء التي تدل على صفات الفعل، لأن الله عز وجل ذكره بين الخالق والمصور فقال: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، وهما من الأسماء التي تدلُّ على صفات الفعل.

والبريء مرادف للبراء كما في قوله تعالى: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا}، وكقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ}؛ وأبرأ فلانًا من حق له عليه؛ أي خلصه منه، وبرئ المريض؛ أي شفي من مرضه، ومنه ما رواه مسلم من حديث أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ(١))) ، وعند البخاري من حديث كعب بن مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا حَسَنٍ، كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِئًا(٢).

وبرأ الله الشيء أي خلقه صالحًا ومناسبًا للمهمة والغاية التي أرادها من خلقه، ومنه بريت القلم؛ أي جعلته صالحًا للكتابة، وبريت السهم؛ أي جعلته مناسبًا وصالحًا للإصابة، قال الشاعر:

يا باري القوس بريا ليس يحكمه ... لا تفسد القوس أعط القوس باريها

فالبارئ هو الذي يتم الصنعة على وجه التدبير، وتحقيق المقدَّر وفق سابق التقدير يقول تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[الحديد: ٢٢].

واسم الله {البارئ}: يدلُّ على ذات الله وعلى كمال العظمة في الذات والصنع بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى كمال العظمة في الذات والصنع وحدها بدلالة التضمن، فالبارئ كوصف فعل له هو الذي يبرأ كما قال علي رضي الله عنه في الحديث الذي رواه البخاري من حديث أَبِي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: ((قُلْتُ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلاَّ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلاَّ فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلاً فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ قَالَ الْعَقْلُ – الدية – وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ(٣)))، والله تسمّى بالباري وموصوف بإحداث البرايا قبل وجود البريّة كما قال الطحاوي: (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري)، فالله عز وجل لم يكن معطلاً عن الخلق والإبراء والقدرة، ثم لما خلق الخلق أصبح خالقًا بارئًا قادرًا، بل استحق هذا الأسماء قبل خلقهم وإنشائهم، واسم الله {البارئ} يدل باللزوم على الحياة والقيومية، والعلم الأحدية، والقدرة والصمدية، والغنى والعزة والقوة، والجلال والاتقان والخبرة، واسم الله {البارئ} دلَّ على صفة من صفات الذات والفعل.

١- (قلت): مسلم (٢٢٠٤).

٢- (قلت): البخاري (٤٤٤٧).

٣- (قلت): البخاري (٣٠٤٧).

كيف ندعو الله باسمه {البارئ} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة أن يذكر الاسم في دعائه يتوسل به إلى ربه كما في دعاء إبراهيم بن أدهم: (اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووفقني لما تحب من العمل وترضى وأصلح لي شأني كله وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولا تضلني وان كنت ظالمًا سبحانك، سبحانك يا علي يا عظيم يا باري يا رحيم يا عزيز يا جبار) حلية الأولياء ٣/٣٩.

أما دعاء العبادة فهو مراعاة العبد لاسمه {البارئ} في سلوكه فيترفع عن المعاصي ويبرئ نفسه من الشبهة والشهوة، وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث صَفْوَان بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ: ((أُغْمِيَ عَلَى أَبِي مُوسَى فَبَكَوْا عَلَيْهِ فَقَالَ أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ كَمَا بَرِئَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَقَ وَلاَ خَرَقَ وَلاَ سَلَقَ، خرق شق الثياب وسلق رفع صوته عند المصيبة([1]))، وعند الإمام مسلم من حديث أُمِّ سَلَمَةَ أن النَّبِي ﷺ قَالَ: ((إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ([2]))، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[التوبة: ١١٤]، كما أنه ينبغي على العبد أن يتّقي الله في عمله فيخلص فيه ويتقنه على قدر وسعه وطاقته وما منحه الله من قوة على الفعل عملًا بقول النبي: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه([3])) وهو حديث صحيح صححه الشيخ الألباني.

قال ابن كثير: وَفِي قَوْلِهِ هَاهُنَا: {إِلَى بَارِئِكُمْ}، تَنْبِيهٌ عَلَى عِظَمِ جُرْمِهِمْ، أَيْ: فَتُوبُوا إِلَى الَّذِي خَلَقَكُمْ وَقَدْ عَبَدْتُمْ معه غيره.

قال ابن العثيمين: {فاقتلوا أنفسكم}: الفاء هنا تفسيرية؛ لأن قوله تعالى: {فاقتلوا}، تفسير للمجمل في قوله تعالى: {توبوا}؛ وعلى هذا فالفاء للتفسير؛ أي: فتوبوا بهذا الفعل. وهو أن تقتلوا أنفسكم؛ أي ليقتل بعضكم بعضًا؛ وليس المعنى أن كل رجل يقتل نفسه. بالإجماع؛ فلم يقل أحد من المفسرين: إن معنى قوله تعالى: {فاقتلوا أنفسكم}: أي يقتل كل رجل نفسه؛ وإنما المعنى: ليقتل بعضكم بعضًا: يقتل الإنسان ولده، أو والده، أو أخاه؛ المهم أنكم تستعدون، وتتخذون سلاحًا، خناجر، وسكاكين، وسيوفًا، وكل واحد منكم يهجم على الآخر، ويقتله.

واختلف المفسرون: هل هذا القتل وقع في ظلمة، أو وقع جهارًا بدون ظلمة؟ فقيل: إنهم لما أمروا بذلك قالوا: لا نستطيع أن يقتل بعضنا بعضًا وهو ينظر إليه: ينظر الإنسان إلى ابنه، فيقتله، وإلى أبيه، وإلى صديقه! هذا شيء لا يطاق؛ فألقى الله تعالى عليهم ظلمة، وصار يقتل بعضهم بعضًا، ولا يدري من قتل.

وقيل: بل إنهم قتلوا أنفسهم جهرًا بدون ظلمة، وأن هذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، وأنه لما رأى موسى ﷺ أنهم سينتهون. لأنه إذا قتل بعضهم بعضًا لن يبقى إلا واحد. ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم الإصر؛ فأمروا بالكف؛ وقيل: بل سقطت أسلحتهم من أيديهم. والله أعلم.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن النسائي (١٨٦١).

٢- (قلت): مسلم (١٨٥٤).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (١١١٣).

وظاهر القرآن أنه لم تكن هناك ظلمة، وأنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضًا عيانًا، وهذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى.

وذهب بعضهم إلى أن المراد: أن يقتل البريء منكم المجرم، يعني الذين دعوا إلى عبادة العجل، وعكفوا عليه يقتلون؛ والذين تبرؤوا منه يقتلون. والله أعلم.

ولكن الظاهر الأول؛ لأن قتل البريء للمجرم ليس فيه دلالة على صدق التوبة من المجرمين؛ لأن الإنسان قد يقتل وهو مصر على الذنب؛ ولا يدل ذلك على توبته.

{ذلكم}: المشار إليه قتل أنفسهم؛ {خير لكم عند بارئكم}: أي من عدم التوبة؛ أو من عدم القتل؛ وهذا من التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ والتفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء وارد في اللغة العربية؛ لكن بعضهم يقول: إنه لا يكون بمعنى التفضيل؛ بل المراد به وجود الخير في هذا الأمر بدون وجود مفضل عليه.

قال الطبري: {ذلكم خير لكم عند بارئكم}: فإنه يعني بذلك (توبتكم بقتلكم أنفسكم وطاعتكم ربكم)، خير لكم عند بارئكم، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة على ذنبكم، وتستوجبون به الثواب منه.

{فتاب عليكم}: أي بما فعلتم مما أمركم به من قتل بعضكم بعضًا، وهذا من المحذوف الذي استغني بالظاهر منه عن المتروك، لأن معنى الكلام: فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتبتم، فتاب عليكم. فترك ذكر قوله: (فتبتم)، إذ كان في قوله: {فتاب عليكم}، دلالة بينة على اقتضاء الكلام (فتبتم)؛ ويعني بقوله: {فتاب عيكم}: رَجَعَ لكم ربكم إلى ما أحببتم من العفو عن ذنوبكم وعظيم ما ركبتم، والصفح عن جرمكم.

قال ابن العثيمين: {إنه هو التواب الرحيم}: هذه الجملة تعليل لما قبلها؛ و{هو} ضمير فصل؛ وسبق بيان فوائده؛ و{التواب}: أي كثير التوبة: لكثرة توبته على العبد الواحد، وكثرة توبته على التائبين الذين لا يحصيهم إلا الله، فهو يتوب في المرات المتعددة على عبده، ويتوب على الأشخاص الكثيرين الذين تكثر توبتهم؛ و{الرحيم}: أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء.

قال الطبري: ويعني ب{الرحيم}، العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى: {يا قوم}؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر.

٢- أن اتخاذ الأصنام مع الله ظلم؛ لقوله: {إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل}.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {التواب} مفصلاً عند تفسير الآية (٣٧) من سورة البقرة، و{الرحيم} عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

٣- أن المعاصي ظلم للنفوس؛ وجه ذلك: أن النفس أمانة عندك؛ فيجب عليك أن ترعاها بأحسن رعاية، وأن تجنبها سوء الرعاية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: ((إن لنفسك عليك حقًّا([1]))).

٤- أنه ينبغي التعبير بما يناسب المقام؛ لقوله: {فتوبوا إلى بارئكم}؛ لأن ذكر (البارئ) هنا كإقامة الحجة عليهم في أن العجل لا يكون إلهًا؛ فإن الذي يستحق أن يكون إلهًا هو البارئ، أي الخالق سبحانه وتعالى.

٥- وجوب التوبة؛ لقوله: {فتوبوا إلى بارئكم}.

٦- أن التوبة على الفور؛ لقوله: {فتوبوا}؛ لأن الفاء للترتيب، والتعقيب.

٧- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها؛ لقوله {باتخاذكم}: فإن الباء هنا للسببية.

٨- أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يبين الأسباب فيما يحكم به؛ لقوله: {إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل}.

٩- سفاهة بني إسرائيل، حيث عبدوا ما صنعوا وهم يعلمون أنه لا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا.

١٠- ما وضع الله تعالى على بني إسرائيل من الأغلال، والآصار، حيث كانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضًا؛ لقوله: {فاقتلوا أنفسكم}.

١١- أن الأمة كنفس واحدة؛ وذلك لقوله: {فاقتلوا أنفسكم}؛ لأنهم ما أمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه؛ بل يقتل بعضهم بعضًا؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {ولا تلمزوا أنفسكم}[الحجرات: ١١]: أي لا يلمز بعضكم بعضًا؛ وعبَّر عن ذلك بـ(النفس)؛ لأن الأمة شيء واحد؛ فمن لمز أخاه فكمن لمز نفسه.

١٢- تفاضل الأعمال؛ لقوله: {ذلكم خير لكم عند بارئكم}.

١٣- أن الله سبحانه وتعالى يتوب على التائبين مهما عظم ذنبهم؛ لقوله تعالى: {فتاب عليكم}.

١٤- إثبات اسمين من أسماء الله. وهما {التواب}، و{الرحيم}؛ وإثبات ما تضمناه من صفة. وهي: التوبة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من صفة باقترانهما، لا تكون عند انفراد أحدهما؛ لأنه لما اقترنا حصل من اجتماعهما صفة ثالثة وهي: الجمع بين التوبة التي بها زوال المكروه، والرحمة التي بها حصول المطلوب.

١٥- أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لما يقتضيه هذان الاسمان من أسماء الله؛ فيتعرض لتوبة الله، ورحمته؛ فيتوب إلى ربه سبحانه وتعالى، ويرجو الرحمة؛ وهذا هو أحد المعاني التي قال عنها رسول الله ﷺ: ((من أحصاها))، أي أسماء الله التسعة والتسعين. ((دخل الجنة([2])))؛ فإن من إحصائها أن يتعبد الإنسان بمقتضاها.

---

[1]- أخرجه البخاري ص١٥٤، كتاب الصوم، باب ٥١: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ... ، حديث رقم ١٩٦٨.

[2]- أخرجه البخاري ص٢١٩، كتاب الشروط، باب ١٨: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار ... ، حديث رقم ٢٧٣٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعاء، باب ٢: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم ٦٨١٠ [٦] ٢٦٧٧.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

قال ابن العثيمين: {وإذ قلتم يا موسى}: أي واذكروا أيضًا يا بني إسرائيل إذ قلتم ...؛ والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ، لكن إنعامه على أول الأمة إنعام على آخرها؛ فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم.

{لن نؤمن لك}: أي لن ننقاد، ولن نصدق، ولن نعترف لك بما جئت به.

{حتى نرى الله جهرة}: {نرى}: بمعنى نبصر؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولًا واحدًا؛ لأنها رؤية بصرية.

قال ابن كثير: يَقُولُ تَعَالَى: وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي بَعْثِي لَكُمْ بَعْدَ الصَّعْقِ، إِذْ سَأَلْتُمْ رُؤْيَتِي جَهْرَةً عِيَانًا، مِمَّا لَا يُسْتَطَاعُ لَكُمْ وَلَا لِأَمْثَالِكُمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}: قَالَ: عَلَانِيَةً. وقال قتادة و الربيع بن أنس: {حتى نرى الله جهرة}: أي عيانًا.

قال الطبري: واذكروا أيضًا إذ قلتم: يا موسى لن نصدقك ولن نقرَّ بما جئتنا به، حتى نرى الله جهرة – عَيانًا برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا. فذكرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله جل وعز وعبره ما تثلج بأقلّها الصّدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: لا نصدِّقك حتى نرى الله جهرة، وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ومرة يقال لهم: قولوا حطة وادخلوا الباب سجَّدًا نغفر لكم خطاياكم، فيقولون: حنطة في شعيرة! ويدخلون الباب من قبل أستاههم، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم عليه السلام، التي يكثر إحصاؤها. فأعلم ربنا تبارك وتعالى ذكره الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ، أنهم لن يعدوا أن يكونوا – في تكذيبهم محمدًا ﷺ، وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره – كأسلافهم وآبائهم الذين فصّل عليهم قَصصهم في ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتوثبهم على نبيهم موسى صلوات الله وسلامه عليه تارة بعد أخرى، مع عظيم بلاء الله جل وعز عندهم، وسبوغ آلائه عليهم.

قال ابن العثيمين: واختلف العلماء متى كان هذا، على قولين:

القول الأول: أن موسى ﷺ اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات الله، وذهب بهم؛ ولما صار يكلم الله، ويكلمه الله قالوا: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}؛ فعلى هذا القول يكون صعقهم حينما كان موسى خارجًا لميقات الله.

القول الثاني: أنه لما رجع موسى من ميقات الله، وأنزل الله عليه التوراة، وجاء بها قالوا: ليست من الله؛ {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}.

والسياق يؤيد الثاني؛ لأنه تعالى قال: {وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان}، ثم ذكر قصة العجل، وهذه كانت بعد مجيء موسى بالتوراة، ثم بعد ذلك ذكر: {وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} ..

وأما قوله تعالى: {فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين}[الأعراف: ١٥٥]، فقد أيَّد بعضهم القول الأول بهذه الآية؛ ولكن الحقيقة ليس فيه تأييد لهم؛ لأنه تعالى قال: {فلما أخذتهم الرجفة} [الأعراف: ١٥٥]، رجف بهم؛ والأخرى: أخذتهم الصاعقة. صعقوا، وماتوا.

فالظاهر لي أن القول الأول لا يترجح بهذه الآية لاختلاف العقوبتين؛ هذه الآية كانت العقوبة بالصاعقة؛ وتلك كانت بالرجفة. والله أعلم.

قال عبدالعزيز الراجحي في شرحه للعقيدة الطحاوية ج١ص١٢٤: هل رؤية الله في الدنيا ممكنة؟ أو غير ممكنة؟ وهل هي واقعة؟ أو غير واقعة؟ تحرير محل النزاع:

أولًا: اتفقت جميع الطوائف على أن الله يُرى في المنام كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية أن جميع الطوائف اتفقوا على أن الله يُرى في النوم إلا الجهمية، فإنهم أنكروا ذلك لشدة إنكارهم للرؤية، لكن رؤيته في المنام جائزة عند جميع الطوائف، ولا يلزم من ذلك أن يكون ما يراه الإنسان، وهو أن يرى الله – سبحانه وتعالى – على صفته التي هو عليها، بل إن رؤية الإنسان لله في المنام على حسب اعتقاده، فإن كان اعتقاده صحيحًا رأى ربه في حالة حسنة، في صورة حسنة، وإن كان اعتقاده فيه خلل رأى ربه في صورة مناسبة لاعتقاده كما قال ذلك ابن تيمية – رحمه الله تعالى– إذًا رؤية الله في المنام جائزة عند جميع الطوائف ما عدا الجهمية، رؤية الله في اليقظة هذا محل نزاع، هل يمكن لأحد أن يرى الله في اليقظة في الدنيا؟

ذهبت المشبهة إلى أن الله يُرى في الدنيا، وأنه يُحاضر ويُسامر ويُصافح ويعانق وينزل عشية عرفة على جبل – قبحهم الله وأخزاهم – هؤلاء المشبه كفرة من غلاة الشيعة يقولون: إن الله على صورة الإنسان، وإن الله يشبه الإنسان في ذاته وصفاته هؤلاء كفرة أثبتوا أن الله يُرى في الدنيا – قبحهم الله –.

كذلك بعض الصوفية قالوا: يمكن أن يكون الله في الخضرة؛ إذا رأيت شيئًا أخضر، قالوا: لا ندري لعلَّ ربنا يكون في هذه الخضرة – قبحهم لهم –، أما ما عدا المشبهة فأجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا، ولم يختلفوا في ذلك إلا في نبينا محمد ﷺ فاختلفوا في رؤيته لربه ليلة المعراج هل رأى ربه؟ أو لم يرى ربه؟ واتفقوا بالإجماع على أن النبي ﷺ لم ير ربه في الأرض، واتفقوا على أن النبي ﷺ رأى ربه بعين قلبه لا بعين رأسه هذا محل اتفاق، والمراد بالرؤية بعين القلب العلم الزائد عن العلم العادي.

والخلاف بين العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج خاصة هل رآه أو لم يره؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج خاصة.

القول الثاني: أن النبي ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج بعيني رأسه، وإنما رآه بعين قلبه.

القول الثالث: التوقف في المسألة.

فتكون الأقوال والمذاهب، ثلاثة: القول الأول: أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السماء بعيني رأسه، وهذا مروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وأتباعه وهي رواية عن الإمام أحمد – رحمه الله – واختار هذا القول النووى بشرح صحيح مسلم، وأبو الحسن الأشعري وأتباعه، واختاره ابن خزيمة في كتاب التوحيد الإمام محمد بن إسحاق وابن خزيمة في كتاب التوحيد، واختاره أبو إسماعيل الهروي وكل هؤلاء رأوا أن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج، واستدلوا بقول الله – تعالى –: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الإسراء: ١].

قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسرى به، وفي رواية رؤيا عين، رأى النبي ﷺ ربه بعينه. ذكر ذلك الإمام محمد بن إسحاق وابن خزيمة في كتاب التوحيد.

القول الثاني: أن النبي ﷺ لم يرى ربه بعين رأسه ليلة المعراج وإنما رآه بعين قلبه، وهذا مروي عن عائشة – رضي الله عنها – فإنها قالت لمسروق لما سألها: هل رأى محمد ﷺ ربَّه؟ قالت: لقد قفَّ شَعْري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمد رأى ربه فقد كذب، وفي رواية أنها قالت: من قال: إن محمد رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وهذا مروي أيضًا عن ابن مسعود، وعن أبي هريرة واختلف فيه جماعة من الصحابة والتابعين، وهو قول كثير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، بل هو قول جمهور العلماء، وهو الصواب كما سيأتي.

واستدلوا على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعين رأسه بأدلة:

الدليل الأول: قول الله – تعالى –: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، فهذه الآية فيها بيان أنواع الوحي، وأن الله – تعالى – إذا كلم الرسول فإمّا أن يكون وحيًا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولًا، وإما أن يكون وحيًا يلقى في روعه، أو يكون من وراء حجاب كما كلم الله موسى من وراء حجاب، وكما كلَّم محمدًا ﷺ من وراء حجاب {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} فقول الله – تعالى –: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ}، يدخل في ذلك محمد ﷺ فهو بشر {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، فمحمد بشر كلمه الله من وراء حجاب، هو محجوب عن رؤية الله، كلمه الله بدون واسطة سمع كلام الله، وفرض الله عليه الصلوات خمسين صلاة في اليوم والليلة، ثم خففها الله إلى خمس صلوات، كلمة الله بدون واسطة لكن من وراء حجاب لم يره.

نص الآية: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا}، فالله كلم محمد ﷺ ليلة المعراج من وراء حجاب، لم يكشف الحجاب حتى يراه، وإنما كلمه من وراء حجاب.

الدليل الثاني: ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر – رضي الله عنه – أنه سأل النبي ﷺ فقال: ((هل رأيت ربك؟ فقال ﷺ: نور أنَّى أراه؟([1]))) فيه اسم استفهام بمعنى كيف، والمعنى: نور كيف أراه؟ المعنى أن النور حجاب يمنعني من رؤية الله، نور أنَّى أراه، والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته فكيف أراه؟ هل رأيت ربك؟، قال: أنَّى أراه؟، وفي لفظ: رأيت نورًا، وهو الحجاب.

الدليل الثالث: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: ((إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور([2]))) وفي رواية: ((النار)) والمعنى واحد، النار بمعنى النور، حجابه النور، وفي رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وجه الدلالة من قوله ﷺ: ((حجابه النور)): يعني الله – سبحانه وتعالى – احتجب بالنور لو كشفه يعني الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، هذا صريح في أن الله لو كشف الحجاب لأحرق من جميع خلقه، ومحمد ﷺ من خلقه، هذا دليل على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه في ليلة المعراج؛ لأن الحجاب يمنعه من رؤية الله؛ لأنه احتجب عن جميع خلقه بالنور، هذه الأدلة كلها تدل على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه.

وأما أهل القول الثالث الذين توقفوا قالوا: نتوقف يعني ما ندري لا نقول: إن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، ولا نقول: إنه لم يره، وهذا رواية القرطبي – رحمه الله – والقاضي عياض وغيرهما قالوا: نحن نتوقف لا نقول: إن النبي ﷺ رأى ربه، ولا نقول: إنه لم يره، قالوا: الأن الأدلة متكافئة، أدلة هؤلاء تكافئ هؤلاء، وليس في المسألة دليل قاطع، وما استدل به هؤلاء وما يستدل به هؤلاء ظواهر قابلة للتأويل؛ فلذلك توقفوا، لم تتبين لهم الأمر، فتوقفوا في المسألة.

والصواب في المسألة والراجح من هذه الأقوال القول بأن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه، هذا هو الصواب؛ لأن الأدلة التي استدلوا بها صريحة واضحة وكون القاضي والقرطبي ما تبين لهم هذه الأدلة هذا يدل على تفاوت الناس في الأفهام، ولكن يتبين لغيرهم.

فلا يمكن لأحد أن يرى الله في الدنيا أولًا؛ لأنه لا يستطع أن يثبت لرؤية الله فكيف يستطيع البشر أن يثبت لرؤية الله؟ إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يثبت لرؤية الشمس وهي مخلوقة؟، تعمى لو حدقت في الشمس، ذهب بصر عينك ما تستطيع أن ترى الشمس وهي مخلوقة فكيف يستطيع البشر أن يرى الله؟ بل إن البشر لا يستطيعوا أن يروا المَلَك على الصورة التي خلق عليها، ولهذا لما اقترح المشركون أن يكون الرسول من الملائكة أخبر الله أن هذا لا يكون، وقال – سبحانه وتعالى –: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ} يعني: لماتوا {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا}، فيمكن مقارنته والأخذ عنه، فإذا كان الناس البشر لا يستطيعون أن يروا المَلَك على الصورة التي خلق عليها، فكيف يستطيعون أن يروا الله؟ والنبي ﷺ ثبته الله حينما رأى جبريل في أول بعثه على الصورة التي خلق عليها،

١– (قلت): مسلم (١٧٨).

٢– (قلت): مسلم (١٧٩/٢٩٣).

ثبته الله، وجاء يرجف فؤاده إلى زوجه وقال: خشيت على نفسي فإذا البشر لا يستطيعون أن يروا الملك، وهو مخلوق، فكيف يستطيعون أن يروا الله؟ لا يستطيع الناس أن يروا الله في الدنيا، ولا يستطيع أحد من الرسل ولا غيرهم ولا نبينا محمد ﷺ هذا هو الصواب؛ ولأن الأدلة صريحة؛ ولأنه لا يوجد شيء من الأحاديث المعروفة أن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، ليس هناك شيء من النصوص يدل على أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه ليلة المعراج، ولم يقله أحد من الصحابة بل إن الأحاديث تدل على نفي الرؤية، وأن النبي ﷺ رأى ربه، وهو قول الله سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}، فالمراد به الآيات ليس المراد رؤية الله {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}، وذلك أن النبي ﷺ لما أسري به وعرج به ورأى الآيات أخبر الناس فصار فتنة واختبار لهم، حيث صدقه قوم، وكذبه آخرون.

فإذًا المراد بالرؤية: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}، الآيات فلما أراه الآيات أخبر الناس فصار فتنةً واختبارًا لهم حيث صدقه قوم وكذبه آخرون، ولهذا قال سبحانه: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}، أي اختبارًا وامتحانًا حيث صدقه قوم، وكذبه آخرون.

ومن الأدلة على أن النبي ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج بعيني رأسه قول الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}، وقوله: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}، وقوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}، فالله أخبر أنه رأى الآيات ورأى جبريل، ولو كان الله أراه نفسه لكان ذكر ذلك أهم وأولى من ذكر الآيات فالله تعالى أخبر أنه {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}، هذه رؤية الآيات، وقال: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}، أي من الآيات، وقال: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}، أي: جبريل فلما نوه الله على رؤيته للآيات ورؤيته لجبريل دلَّ على أنه لم يُره نفسه.

ولو كان الله أراه نفسه لنوه عن ذلك؛ لأن رؤية الله أعظم وأشرف وأجل من ذكر الآيات وذكر جبريل، فلما لم يذكر الله أنه رأى ربه وأنه أراه نفسه وإنما ذكر رؤية الآيات، وذكر جبريل دل على أن النبي ﷺ لم ير ربه، ولو رآه لذكره الله وبين؛ لأن ذكر ذلك أعظم وأهم وأشرف فكيف ينوه الله على رؤيا النبي ﷺ للآيات ورؤيته لجبريل، ولا ينوه عن رؤيته له سبحانه وتعالى؟ فدلَّ على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه، وإنما رآه بعين قلبه.

أما ما روي عن ابن عباس، وما روي عن الإمام أحمد رحمه الله فإن الروايات التي رويت عن ابن عباس بعضها مطلق وبعضها مقيدة فما روي عن ابن عباس أنه قال: رآه، وفي رواية: أنه قال: رآه بفؤاده فيحمل المطلق على المقيد، فالرواية التي فيها أنه رآه تحمل على رؤية الفؤاد وأنه رآه بقلبه، وكذلك ما روي عن الإمام أحمد رحمه الله فإنه تارة يطلق الرواية، وتارة يقول: رآه بفؤاده، فيحمل المطلق على المقيد، وليس هناك رواية عن ابن عباس، وعن الإمام أحمد صريحة بأن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وإنما الروايات إما مطلقة برآه أو مقيدة برؤية الفؤاد وفي رواية رآه بفؤاده، وهذا هو الصواب الذي عليه والذي عليه المحققون أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه وإنما رآه بفؤاده، وما ورد من

الآثار وما ورد عن السلف من إثبات الرؤية فهي المحمولة على رؤية الفؤاد على رؤية القلب، وما ورد من الآثار وما ورد من السلف من نفي الرؤية فهي محمولة على نفي الرؤية بالعين عن الرأس وبذلك تجتمع الأدلة بهذا.

ما ورد من الآثار أن النبي ﷺ رأى ربه فهو محمول على أنه رآه بقلبه، وما ورد من الآثار أن النبي ﷺ فهو محمول نفي رؤيته بعين رأسه، وكذلك ما ورد عن السلف وعن العلماء بأن النبي ﷺ رآه فهو محمولة على رؤية القلب والفؤاد، وما ورد عن الصحابة وعن السلف والعلماء والأئمة بأنه لم يره بأن النبي ﷺ لم ير ربه، فهي محمولة على أنه لم ير ربه بعين رأسه، وبذلك تجتمع الأدلة والآثار ولا تختلف والله الموفق للصواب.

قال الطبري: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}: عن قتادة في قوله: {فأخذتكم الصاعقة}، قال: ماتوا. عن الربيع: {فأخذتكم الصاعقة}: قال: سمعوا صوتًا فصَعِقوا، يقول: فماتوا.

وأصل (الصاعقة) كل أمر هائل رآه المرء أو عاينه أو أصابه حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم صوتًا كان ذلك أو نارًا، أو زلزلةً، أو رجفًا. ومما يدلُّ على أنه قد يكون مصعوقًا وهو حي غير ميت، قول الله عز وجل: {وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}[الأعراف: ١٤٣]، يعني مغشيًّا عليه، ومنه قول جرير بن عطية:

وهل كان الفرزدق غير قرد ... أصابته الصواعق فاستدارا

فقد علم أن موسى لم يكن – حين غشي عليه وصعق ميتًا، لأن الله جل وعز أخبر عنه أنه لما أفاق قال: {تبت إليك} [الأعراف: ١٤٣] – ولا شبه جرير الفرزدق وهو حي بالقرد ميتًا. ولكن معنى ذلك ما وصفنا.

قال ابن العثيمين: {فأخذتكم الصاعقة}: يعني الموت الذي صعقوا به؛ {وأنتم تنظرون}: أي ينظر بعضكم إلى بعض حين تتساقطون؛ والجملة في قوله تعالى: {وأنتم تنظرون}، حال من الكاف في قوله تعالى: {فأخذتكم الصاعقة}: يعني: والحال أنكم تنظرون.

قال الطبري: ويعني بقوله: {وأنتم تنظرون}: وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم، يقول: أخذتكم الصاعقة عيانًا جهارًا وأنتم تنظرون إليها.

قال ابن العثيمين: {ثم بعثناكم من بعد موتكم}: أصل (البعث) في اللغة الإخراج؛ ويطلق على الإحياء، كما هذه الآية؛ ويدل على أن المراد به الإحياء هنا قوله تعالى: {من بعد موتكم}؛ وهو موت حقيقي، وليس نومًا، لأن النوم يسمّى وفاةً؛ ولا يسمّى موتًا، كما في قوله تعالى: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار}[الأنعام: ٦٠]، وقوله تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها}[الزمر: ٤٢]، وقوله تعالى: {بعثناكم من بعد موتكم}: هذه نعمة كبيرة عليهم أن الله تعالى أخذهم بهذه العقوبة، ثم بعثهم ليرتدعوا؛ ويكون كفارة لهم؛ ولهذا قال تعالى: {لعلكم تشكرون}: أي تشكرون الله سبحانه وتعالى؛ و{لعل} هنا للتعليل.

قال الطبري: {لعلكم تشكرون}: يقول: فعلنا بكم ذلك لتشكروني على ما أوليتكم من نعمتي عليكم، بإحيائي إياكم، استبقاء مني لكم، لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم، بعد إحلالي العقوبة بكم بالصاعقة التي أحللتها بكم، فأماتتكم بعظيم خطئكم الذي كان منكم فيما بينكم وبين ربكم.

وفي زبدة التفسير: وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لأنهم طلبوا ما لم يأذن اللّه به من رؤيته في الدنيا، وهذا غاية الظلم والجرأة على اللّه وعلى رسوله، أما في الآخرة فقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهي قطعية الدلالة.

قال ابن العثيمين: وهذه إحدى الآيات الخمس التي في سورة البقرة التي فيها إحياء الله تعالى الموتى؛ والثانية: في قصة صاحب البقرة؛ والثالثة: في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال الله لهم: {موتوا ثم أحياهم} [البقرة: ٢٤٣]؛ والرابعة: في قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: {أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه}[البقرة: ٢٥٩]؛ والخامسة في قصة إبراهيم: {رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ... }[البقرة: ٢٦٠] الآية؛ والله تعالى على كل شيء قدير، ولا ينافي هذا ما ذكر الله في قوله تعالى: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون}[المؤمنون: ١٥، ١٦]؛ لأن هذه القصص الخمس، وغيرها. كإخراج عيسى الموتى من قبورهم. تعتبر أمرًا عارضًا يؤتى به لآية من آيات الله سبحانه وتعالى؛ أما البعث العام فإنه لا يكون إلا يوم القيامة؛ ولهذا نقول في شبهة الذين أنكروا البعث من المشركين، ويقولون: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}[الأنبياء: ٣٨]، ويقولون: {فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين}[الدخان: ٣٦]، نقول: إن هؤلاء مموهون؛ فالرسل لم تقل لهم: إنكم تبعثون الآن؛ بل يوم القيامة؛ ولينتظروا، فسيكون هذا بلا ريب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم، حيث بعثهم من بعد موتهم.

٢- سفاهة بني إسرائيل؛ وما أكثر ما يدلُّ على سفاهتهم؛ فهم يؤمنون بموسى، ومع ذلك قالوا: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}.

٣- أن من سأل ما لا يمكن فهو حري بالعقوبة؛ لقوله تعالى: {فأخذتكم الصاعقة}؛ لأن الفاء تدلُّ على السببية. ولا سيما في مثل حال هؤلاء الذين قالوا هذا عن تشكك؛ وفرق بين قول موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك} [الأعراف: ١٤٣]، وبين قول هؤلاء: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}؛ فموسى قال ذلك شوقًا إلى الله عز وجل، وليتلذذ بالرؤية إليه؛ أما هؤلاء فقالوه تشكُّكًا، يعني: لسنا بمؤمنين إلا إذا رأيناه جهرة؛ ففرق بين الطلبين.

٤- أن ألم العقوبة، ووقعها إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد؛ لقوله تعالى: {وأنتم تنظرون}؛ فإن الإنسان إذا رأى الناس يتساقطون في العقوبة يكون ذلك أشد وقعًا عليه.

٥- بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أحياهم بعد الموت؛ لقوله تعالى: {ثم بعثناكم من بعد موتكم}.

٦- وجوب الشكر على من أنعم الله عليه بنعمة؛ لقوله تعالى: {لعلكم تشكرون}؛ والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقرارًا بالقلب، واعترافًا باللسان، وعملًا بالأركان؛ فيعترف بقلبه أنها من الله، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي؛ كذلك أيضًا يتحدث بها بلسانه اعترافًا لا افتخارًا؛ وكذلك أيضًا يقوم بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون الشكر؛ وعليه قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

٧- إثبات الحكمة لله تعالى: لقوله: {لعلكم تشكرون}؛ فإن (لعل) هنا للتعليل المفيد للحكمة.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

قال ابن العثيمين: {وظللنا عليكم الغمام}: أي جعلناه ظلًّا عليكم؛ وكان ذلك في التيه حين تاهوا؛ وقد بقوا في التيه بين مصر والشام أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ وما كان عندهم ماء، ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلل عليهم الغمام؛ و{الغمام}: هو السحاب الرقيق الأبيض؛ وقيل: السحاب مطلقًا؛ وقيل: السحاب البارد الذي يكون به الجو باردًا، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو. وهذا هو الظاهر.

قال الطبري: قال ابن عباس: {وظللنا عليكم الغمام}، قال: هو غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله عز وجل فيه يوم القيامة في قوله: {في ظلل من الغمام}[البقرة: ٢١٠]، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، وكان معهم في التيه.

قال ابن العثيمين: {وأنزلنا عليكم المن}: يقولون: {المن} شيء يشبه العسل؛ ينزل عليهم بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس؛ فإذا قاموا أكلوا منه.

قال الطبري: قال ابن عباس: كان المن ينزل على شجرهم، فيغدون عليه، فيأكلون منه ما شاءوا.

قال ابن كثير: وَالظَّاهِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ كُلُّ مَا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ عَمَلٌ وَلَا كَدٌّ، فَالْمَنُّ الْمَشْهُورُ إِنْ أُكِلَ وَحْدَهُ كَانَ طَعَامًا وَحَلَاوَةً، وَإِنْ مُزِجَ مَعَ الْمَاءِ صَارَ شَرَابًا طَيِّبًا، وَإِنْ رُكِّبَ مَعَ

غَيْرِهِ صَارَ نَوْعًا آخَرَ، وَلَكِنْ لَيسَ هُوَ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ وَحْدَهُ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْبُخَارِيِّ: عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ(١))).

قال الطبري: {والسلوى}: عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: السلوى طير يشبه السُّمانى.

قال ابن العثيمين: طائر ناعم يسمّى (السمانى)، أو هو شبيه به؛ وهو من أحسن ما يكون من الطيور، وألذّه لحمًا.

{كلوا}: الأمر هنا للإباحة؛ يعني أننا أبحنا لكم هذا الذي أنزلنا عليكم من المن، والسلوى؛ {من طيبات ما رزقناكم}: {من} هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ لأنهم أبيح لهم أن يأكلوا جميع الطيبات.

{وما ظلمونا}: أي ما نقصونا شيئًا؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين.

{ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}: {أنفسهم} مفعول مقدم لـ{يظلمون}؛ وقدم لإفادة الحصر؛ أي لا يظلمون بهذا إلا أنفسهم؛ أما الله تبارك وتعالى فإنهم لا يظلمونه؛ لأنه سبحانه وبحمده لا يتضرر بمعصيتهم، كما لا ينتفع بطاعتهم.

قال شيخ الإسلام في النبوات ج١ص٤٤٤: فقد بيَّن أنّ العصاة لا يضرّونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين؛ فإنّ مماليك السَّيِّد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم، فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه، أو ماله، أو عرضه، أو غير ذلك. وقد يكون ذلك ظلمًا له.

والله تعالى لا يَقْدِر أحدٌ على أن يضرّه ولا يظلمه. وإن كان الكافر على ربه ظهيرًا، فمظاهرته على ربه، ومعاداته له، ومشاقّته، ومحاربته، عادت عليه بضرره، وظلمه لنفسه، وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وأما النفع فهو سبحانه غنيٌّ عن الخلق، لا يستطيعون نفعه فينفعوه؛ فما أمرهم به إذا لم يفعلوه، لم يضرّوه بذلك؛ كما قال تعالى: {وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[آل عمران: ٩٧]، وقال: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[النمل: ٤٠]، وقال: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[الزمر: ٧].

قال ابن كثير: أَيْ أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَكْلِ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ وَأَنْ يَعْبُدُوا، كَمَا قَالَ: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ}[سَبَأ: ١٥]، فَخَالَفُوا وَكَفَرُوا فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْقَاطِعَاتِ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَمِنْ هَاهُنَا تَتَبَيَّنُ فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ فِي صَبْرِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ وَعَدَمِ تَعَنُّتِهِمْ، كَمَا كَانُوا مَعَهُ فِي أَسْفَارِهِ وَغَزَوَاتِهِ، مِنْهَا عَامُ تَبُوكَ، فِي ذَلِكَ الْقَيْظِ وَالْحَرِّ الشَّدِيدِ وَالْجَهْدِ، لَمْ يَسْأَلُوا خَرْقَ عَادَةٍ، وَلَا إِيجَادَ أَمْرٍ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَهْلًا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَلَكِنْ لَمَّا أَجْهَدَهُمُ الْجُوعُ سَأَلُوهُ فِي تَكْثِيرِ طَعَامِهِمْ فَجَمَعُوا مَا مَعَهُمْ، فَجَاءَ قَدْرَ مَبْرِك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملأوا كُلَّ وِعَاءٍ مَعَهُمْ، وَكَذَا لَمَّا احْتَاجُوا إِلَى الْمَاءِ

١- صحيح البخاري برقم (٤٤٧٨)، وصحيح مسلم برقم (٢٠٤٩)، والمسند (١/١٨٧).

سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى، فَجَاءَتْ سَحَابَةٌ فَأَمْطَرَتْهُمْ، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أَسْقِيَتَهُمْ، ثُمَّ نَظَرُوا فَإِذَا هِيَ لَمْ تُجَاوِزِ الْعَسْكَرَ. فَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الِاتِّبَاعِ: الْمَشْيُ مَعَ قَدَرِ اللَّهِ، مَعَ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

قال البغوي: عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، لَمْ يَخْبُثِ الطَّعَامُ وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَّاءُ، لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدهر(١))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- نعمة الله تبارك وتعالى بما هيأه لعباده من الظلّ؛ فإن الظلّ عن الحر من نعم الله على العباد؛ ولهذا ذكره الله عز وجل هنا ممتنًّا به على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: {وظللنا عليكم الغمام}، وقوله تعالى: {والله جعل لكم مما خلق ظلالا}[النحل: ٨١].

٢- أن الغمام يسير بأمر الله عز وجل، حيث جعل الغمام ظلًّا على هؤلاء.

٣- بيان نعمة الله على بني إسرائيل بما أنزل عليهم من المن، والسلوى. يأتيهم بدون تعب، ولا مشقة؛ ولهذا وصف بـ {المن}.

٤- أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ لأن الله تعالى هيأ لهم لحوم الطير، وهو أيضًا لحوم أهل الجنة، كما قال تعالى: {ولحم طير مما يشتهون}[الواقعة: ٢١].

٥- أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة فينبغي أن يتبسط بها، ولا يحرم نفسه منها؛ لقوله تعالى {كلوا من طيبات ما رزقناكم}؛ فإن الإنسان لا ينبغي أن يتعفف عن الشيء المباح؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: (من امتنع من أكل الطيبات لغير سبب شرعي فهو مذموم)؛ وهذا صحيح؛ لأنه ترك ما أباح الله له وكأنه يقول: إنه لا يريد أن يكون لله عليه منّة؛ فالإنسان لا ينبغي أن يمتنع عن الطيبات إلا لسبب شرعي؛ والسبب الشرعي قد يكون لسبب يتعلق ببدنه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بدينه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بغيره؛ فقد يمتنع الإنسان عن اللحم؛ لأن بدنه لا يقبله، فيكون تركه له من باب الحمية؛ وقد يترك الإنسان اللحم، لأنه يخشى أن تتسلّى به نفسه حتى يكون همه أن يذهب طيباته في حياته الدنيا؛ وقد يترك الإنسان الطيب من الرزق مراعاة لغيره، مثل ما يذكر عن عمر رضي الله عنه في عام الرمادة، عام

١- إسناده صحيح. أحمد بن يوسف أبو الحسن، من رجال مسلم، وقد توبع ومن دونه ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، معمر هو ابن راشد.
وهو في شرح السنة (٢٣٢٨) بهذا الإسناد.
وأخرجه مسلم ١٤٧٠ ح ٦٣ من طريق أحمد بن يوسف به.
- وأخرجه البخاري ٣٣٩٩ وأحمد ٢/ ٣١٥ وابن حبان ٤١٦٩ من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد.
- وأخرجه البخاري ٣٣٣٠ من طريق عبد الله عن معمر به، ومسلم ١٤٧٠ من طريق أبي يونس مولى أبي هريرة عن أبي هريرة به.
وأخرجه أحمد ٢/ ٣٠٤ من طريق خلاس بن عمرو الهجري عن أبي هريرة به.

الجدب المشهور، أنه كان لا يأكل إلا الخبز والزيت، حتى اسود جلده، ويقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع([1])؛ فيكون تركه لذلك مراعاة لغيره؛ إذًا من امتنع من الطيبات لسبب شرعي فليس بمذموم.

٦- أن المباح من الرزق هو الطيب؛ لقوله تعالى: {كلوا من طيبات}.

٧- تحريم أكل الخبيث، والخبيث نوعان: خبيث لذاته؛ وخبيث لكسبه؛ فالخبيث لذاته كالميتة، والخنزير، والخمر، وما أشبهها، كما قال الله تعالى: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس}[الأنعام: ١٤٥]، أي نجس خبيث؛ وهذا محرم لذاته؛ محرم على جميع الناس؛ وأما الخبيث لكسبه فمثل المأخوذ عن طريق الغش، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الكذب، وما أشبه ذلك؛ وهذا محرَّم على مكتسبه، وليس محرَّمًا على غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت، ويأخذون الربا، فدل ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب.

٨- أن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة؛ لقوله تعالى: {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}.

٩- أن العاصي لا يضر الله شيئًا؛ وإنما يظلم نفسه.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

قال ابن العثيمين: {وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية}: أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قلنا ادخلوا هذه القرية؛ و{ادخلوا}، أمر كوني، وشرعي؛ لأنهم أمروا بأن يدخلوها سُجَّدًا وهذا أمر شرعي؛ ثم فتحت، فدخلوها بالأمر الكوني.

واختلف المفسرون في تعيين هذه القرية؛ والصواب أن المراد بها: بيت المقدس؛ لأن موسى قال لهم: {ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم}[المائدة: ٢١]؛ و{القرية}، هي البلد المسكون؛ مأخوذة من القري، وهو التجمع؛ وسميت البلاد المسكونة قرية لتجمع الناس بها؛ ومفهوم القرية في اللغة العربية غير مفهومها في العرف؛ لأن مفهوم القرية في العرف: البلد الصغير؛ وأمَّا الكبير فيسمَّى مدينة؛ ولكنه في اللغة العربية، وهي لغة القرآن، لا فرق بين الصغير والكبير؛ فقد سمَّى الله عز وجل مكة قرية، كما في قوله تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم}[محمد: ١٣]: المراد بقريته التي أخرجته: مكة، وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًا لتنذر أم القرى ومن حولها}[الشورى: ٧]: فسمّى مكة أم القرى وهو شامل للبلاد الصغيرة والكبيرة.

١- البداية والنهاية ١٠/١٨٥.

{فكلوا منها}: الأمر للإباحة، أي فأبحنا لكم أن تأكلوا منها؛ {حيث شئتم}: أي في أي مكان كنتم من البلد في وسطها، أو أطرافها تأكلون ما تشاءون؛ {رغدًا}: أي طمأنينة، وهنيئًا لا أحد يعارضكم في ذلك، ولا مانعكم.

{وادخلوا الباب}: أي باب القرية؛ لأن القرى يجعل لها أبواب تحميها من الداخل والخارج؛ {سُجَّدًا}: منصوب على أنه حال من الواو في قوله تعالى: {ادخلوا}، أي ساجدين؛ والمعنى: إذا دخلتم فاسجدوا شكرًا لله؛ وعلى هذا فالحال ليست مقارنة لعاملها؛ بل هي متأخرة عنه.

{وقولوا حطة}: أي قولوا هذه الكلمة: {حطة}: أي احطط عنا ذنوبنا، وأوزارنا؛ فهي بمعنى قولوا: ربنا اغفر لنا؛ والمراد: اطلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى إذا دخلتم، وسجدتم؛ و{حطة}، خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: سؤالنا حطة، أو حاجتنا حطة، أي أن تحط عنا ذنوبنا؛ والجملة من المبتدأ، والخبر في محل نصب مقول القول.

{نَغفِر لكم} بنون مفتوحة، وفاء مكسورة؛ وفي قراءة: {تغفر لكم}، بتاء مضمومة، وفاء مفتوحة؛ وفي قراءة ثالثة: {يغفر}، بياء مضمومة وفاء مفتوحة؛ وكلها قراءات صحيحة؛ بأيها قرأت أجزأك.

{نغفر لكم خطاياكم}: (المغفرة)، هي ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ ومعناه أن الله ستر ذنبك، ويتجاوز عنك، فلا يعاقبك؛ لأن (المغفرة)، مأخوذة من المغفر، وهو ما يوقى به الرأس في الحرب؛ لأنه يستر، ويقي؛ ومن فسر (المغفرة) بمجرد السَّتر فقد قصر؛ لأن الله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وقرره بذنوبه قال: ((قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم(١)))، أي اليوم أسترها أيضًا، ثم أتجاوز عنها؛ و{خطاياكم}: جمع خطية، كمطايا جمع مطية؛ و(الخطية)، ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى (أخطاء)؛ ولهذا يفرق بين (مخطئ)، و(خاطئ)؛ الخاطئ ملوم؛ والمخطئ معذور، كما قال الله تعالى: {لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة}[العلق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}[البقرة: ٢٨٦].

{وسنزيد}: أي سنعطي زيادة على مغفرة الذنوب، {المحسنين}: أي الذين يقومون بالإحسان، و(الإحسان) نوعان:

الأول: إحسان في عبادة الله؛ وقد فسَّره رسول الله ﷺ بقوله: ((أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٢))).

والنوع الثاني: إحسان في معاملة الخلق وهو بذل المعروف، وكف الأذى.

قال الطبري: فتأويل الآية: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية مباحًا لكم كل ما فيها من الطيبات، موسعًا عليكم بغير حساب؛ وادخلوا الباب سجدًا، وقولوا: سجودنا هذا لله حطة من ربنا لذنوبنا يحط به آثامنا، نتغمد لكم ذنوب المذنب منكم فنسترها عليه، ونحط أوزاره عنه، وسنزيد المحسن منكم – إلى إحساننا السالف عنده – إحسانًا. ثم أخبر الله جل ثناؤه عن عظيم جهالتهم، وسوء طاعتهم ربهم وعصيانهم لأنبيائهم، واستهزائهم برسله، مع عظيم آلاء

١- أخرجه البخاري ص١٩٢، كتاب المظالم، باب٢: قول الله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين}، حديث رقم ٢٤٤١؛ وأخرجه مسلم ص١١٥٨، كتاب التوبة، باب ٨: في سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين وفداء كل مسلم بكافر من النار، حديث رقم ٧٠١٥ [٥٢] ٢٧٦٨.

٢- أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٧: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان ... ، حديث رقم ٥٠؛ وأخرجه مسلم ص٦٨١، كتاب الإيمان، باب ١: بيان الإيمان والإسلام ... ، حديث رقم ٩٣ [١] ٨.

الله عز وجل عندهم، وعجائب ما أراهم من آياته وعبره، موبخًا بذلك أبناءهم الذين خوطبوا بهذه الآيات، ومعلمهم أنهم إن تعدوا([1])في تكذيبهم محمدًا ﷺ، وجحودهم نبوته، مع عظيم إحسان الله بمبعثه فيهم إليهم، وعجائب ما أظهر على يده من الحجج بين أظهرهم – أن يكونوا كأسلافهم الذين وصف صفتهم، وقص علينا أنباءهم في هذه الآيات، فقال جل ثناؤه: {فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء} الآية.

قال ابن العثيمين: {فبدل الذين ظلموا}: أي فاختار الذين ظلموا منهم على وجه التبديل، والمخالفة {قولا غير الذي قيل لهم}: وذلك أنهم قالوا: (حنطة في شعيرة) بدلا عن قولهم: {حطة}.

وفي قوله تعالى: {فبدل الذين ظلموا} إظهار في موضع الإضمار؛ ومقتضى السياق أن يكون بلفظ: فبدلوا قولًا.. إلخ، وللإظهار في موضع الإضمار فوائد من أهمها:

أولًا: تحقيق اتصاف محل المضمر بهذا الوصف؛ معنى ذلك: الحكم على هؤلاء بالظلم.

ثانيًا: أن هذا مقياس لغيرهم أيضًا؛ فكل من بدل القول الذي قيل له فهو ظالم؛ فيؤخذ منه تعميم الحكم بعموم علة الوصف.

ثالثًا: التنبيه أعني تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا جاء الكلام على خلاف السياق انتبه المخاطب.

قال ابن كثير: قَالَ الْبُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ}، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِطَّةٌ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ([2]))). وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ أَنَّهُمْ بَدَّلُوا أَمْرَ اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ وَالفِعْلِ، فَأُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ مِنْ قِبَلِ اسْتَاهِهِمْ رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ، وَأُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ، أَيِ: احْطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا، فاستهزئوا فَقَالُوا: حِنْطَةٌ فِي شَعْرَةٍ. وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ؛ وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ بِفِسْقِهِمْ، وَهُوَ خُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَأَنزلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.

قال ابن العثيمين: {فأنزلنا}: الفاء للسببية؛ والمعنى: فبسبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا {على الذين ظلموا}، أي عليهم؛ {رجزًا}، أي عذابًا؛ لقوله تعالى: {لئن كشفت عنا الرجز}[الأعراف: ١٣٤]، أي العذاب، {لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل}[الأعراف: ١٣٤]، والعذاب غير الرجس؛ لأن الرجس النجس القذر؛ والرجز: العذاب.

قال ابن كثير: عَنْ أُسامة بن زَيْدٍ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الطَّاعُونُ رِجز عَذَابٌ عُذِّبَ بِهِ من كان قبلكُمْ([3]))).

١- سياق الجملة: (. . إن تعدوا. . أن يكونوا)، و(إن) هنا، نافية بمعنى (ما)، كالتي في قوله: {قل إن أدري أقريب ما توعدون}، وقوله: {إن أدري لعله فتنة لكم}.

٢- صحيح: البخاري (٣٤٠٣)، مسلم (٣٠١٥).

٣- صحيح: البخاري (٣٤٧٣)، مسلم (٢٢١٨).

قال الطبري: عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ قال: ((إن هذا الوجع – أو السقم – رجز عذب له بعض الأمم قبلكم([١])).

وعن عامر بن سعد قال: شهدت أسامة بن زيد عند سعد بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: ((إن الطاعون رجز أنزل على من كان قبلكم – أو على بني إسرائيل([٢])).

قال أبو زهرة: والرجز قسمه الأصفهاني في مفرداته إلى قسمين: رجز ينزل بسبب أعمال الإنسان من عصيان للرب، ومخالفة لأمره، وسوء تدبيره، وهذا عذاب الله تعالى، ورجز ينزل بلاء من الله، واختبارًا يصهر نفوسهم. كطاعون ينزل بهم، أو إهلاك للحرث والنسل، أو ضرب الذلة عليهم.

وقد أصاب الله تعالى بني إسرائيل بالنوعين من الرجز فعذبوا في الحياة الدنيا رجاء أن يتوبوا ويهتدوا، وأصيبت نفوسهم بالذلة، التي ضربت عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس، ونزلت بهم الآفات البشرية.

وذكر سبحانه وتعالى أن السبب في ذلك ظلمهم وفسقهم، فأما الظلم فبيَّنه سبحانه بالإظهار في موضع الإضمار إذ قال: {فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ}؛ والتعبير بالموصول يفيد أن الصلة سبب لما أنزل الله تعالى من رجز، وهذا بيان للسبب بالإشارة، أما فسقهم فقد بيَّن سبحانه سببيَّته بصريح اللفظ الكريم، فقال: {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}: أي بسبب أنهم يفسقون، و{كَانُوا} دالة على الاستمرار، والتعبير بالمضارع يفيد أن فسقهم على دوامه يتجدد وقتًا بعد آخر فكلما تاب عليهم فسقوا مرة أخرى.

والفسق هو الخروج، يقال فسقت الفأرة خرجت من جحرها، وفسق الثمر خرج، فهؤلاء يخرجون عن الحق، ويسيرون وراء الباطل سيرًا متجددًا مستمرًا آنًا بعد آنٍ.

وذكر الله تعالى أن الرجز من السماء إشارة إلى أنه يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يظنون، وأنه من الله العزيز الحكيم، فإن ما يكون من السماء مغيب لا يعلم متى يجيء ولا من أي جهة يجيء.

قال ابن العثيمين: {من السماء}: أي من فوقهم، كالحجارة والصواعق، والبرد والريح، وغيرها؛ والمراد ب{السماء} هنا العلو، ولا يلزم أن يكون المراد بها السماء المحفوظة؛ لأن كل ما علا فهو سماء ما لم يوجد قرينة كما في قوله تعالى: {وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون}[الأنبياء: ٣].

{بما كانوا يفسقون}: الباء هنا للسببية. أي بسبب؛ و{ما}، مصدرية. أي بكونهم فسقوا؛ وإذا كانت مصدرية فإنه يحول ما بعدها من الفعل، أو الجملة إلى مصدر؛ و{كانوا}: هل المراد فيما مضى؛ أم المراد تحقيق اتصافهم بذلك؟ الجواب: الثاني؛ وهذا يأتي في القرآن كثيرًا؛ و{يفسقون}: أي يخرجون عن طاعة الله عز وجل.

١- إسناده صحيح. وقد ذكره ابن كثير ١: ١٨٢، وقال: (وهذا الحديث أصله مخرج في الصحيحين، من حديث الزهري، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر – عن عامر بن سعد، بنحوه). ورواه أحمد في المسند، من طريق الزهري (٥: ٢٠٧ – ٢٠٨ حلبي). ورواية أيضًا (٥: ٢٠٩) ، من طريق حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد، عن أسامة بن زيد، مطولا.

– (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٣١).

٢- وهذا إسناد آخر صحيح، للحديث السابق.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- إثبات القول لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وإذ قلنا ادخلوا}؛ وهو قول حقيقي بصوت، وبحرف؛ لكن صوته سبحانه وتعالى لا يشبهه صوت من أصوات المخلوقين؛ ولا يمكن للإنسان أن يدرك هذا الصوت؛ لقوله تعالى: {ولا يحيطون به علما}[طه: ١١٠]؛ وهكذا جميع صفات الله عز وجل لا يمكن إدراك حقائقها.

٢- وعد الله لهم بدخولها؛ ويؤخذ هذا الوعد من الأمر بالدخول؛ فكأنه يقول: فتحنا لكم الأبواب فادخلوا.

٣- جواز أكل بني إسرائيل من هذه القرية التي فتحوها؛ فإن قال قائل: أليس حل الغنائم من خصائص هذه الأمة. أي أمة محمد ﷺ؟ فالجواب: بلى، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس على سبيل التمليك؛ بل هو على سبيل الإباحة؛ وأما حل الغنائم لهذه الأمة فهو على سبيل التمليك.

٤- أنه يجب على من نصره الله، وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع، والشكر لله؛ لقوله تعالى: {وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة}؛ ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة دخلها مطأطئا رأسه(١) يقرأ قول الله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا}[الفتح: ١].

٥- لؤم بني إسرائيل، ومضادتهم لله، ورسله؛ لأنهم لم يدخلوا الباب سجدًا؛ بل دخلوا يزحفون على أستاههم على الوراء استكبارًا واستهزاءً.

٦- بيان قبح التحريف سواء كان لفظيًّا، أو معنويًّا؛ لأنه يغير المعنى المراد بالنصوص.

٧- أن الجهاد مع الخضوع لله عز وجل، والاستغفار سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: {نغفر لكم خطاياكم}، وسبب للاستزادة أيضًا من الفضل؛ لقوله تعالى: {وسنزيد المحسنين}.

٨- أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحسانًا في عبادة الله، أو إحسانًا إلى عباد الله؛ فإن الإحسان سبب للزيادة؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: ((الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه(٢))) ؛ وقال: ((ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته(٣))).

٩- تحريم التبديل لكلمات الله وهو تحريفها؛ وأنه من الظلم، لقوله تعالى: {فبدل الذين ظلموا قولا}.

١٠- بيان عقوبة هؤلاء الظالمين، وأن الله أنزل عليهم الرجز من السماء.

١١- الإشارة إلى عدل الله عز وجل، وأنه لا يظلم أحدًا، وأن الإنسان هو الظالم لنفسه.

١- راجع البخاري ص٣٥٠، كتاب المغازي، باب ٤٩: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، حديث رقم ٤٢٨١؛ ومسلما ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب ٣٥: ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح يوم فتح مكة، حديث رقم ١٨٥٤ [٢٣٨] ٧٩٤؛ ولم أقف على من أخرجه بلفظ ((مطأطئا رأسه)).

٢- أخرجه مسلم ص١١٤٧، كتاب الذكر والدعاء، باب ١١: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم ٦٨٥٣ [٣٨] ٢٦٩٩.

٣- أخرجه البخاري ص١٩٢، كتاب المظالم، باب ٣: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم ٢٤٤٢؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٩، كتاب البر والصلة، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٧٨ [٥٨] ٢٥٨٠.

١٢- إثبات فسوق هؤلاء بخروجهم عن طاعة الله؛ والفسق نوعان: فسق أكبر مخرج عن الملة، وضده (الإيمان)، كما في قوله تعالى: {وأما الذين فسقوا فمأواهم النار}[السجدة: ٢٠]؛ وفسق أصغر لا يخرج عن الملة، وضده (العدالة)، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا}[الحجرات: ٦].

١٣- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها؛ لقوله تعالى: {بما كانوا يفسقون}.

١٤- الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله؛ ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالى أضاف الفسق إليهم؛ والفسق هو الخروج عن الطاعة؛ والوجه الثاني: أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلمًا، والله تبارك وتعالى يقول: {ولا يظلم ربك أحدا}[الكهف: ٤٩].

١٥- أن الفسوق سبب لنزول العذاب.

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

قال أبو زهرة: كان بنو إسرائيل يعيشون مع موسى عليه السلام في معجزات حسية مستمرة، ولو كانت قوة الدليل وحسيته سببًا[١]للإيمان لكان بنو إسرائيل أشدّ الناس إيمانًا وأقواهم يقينًا، ولكن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلوب الأتقياء فيدركون الحق، ويذعنون له، ويطمئنون إليه. وقد أرانا الله تعالى آياته في بني إسرائيل، فكلما أتاهم بدليل وكلما أتتهم آية كفروا بها، فلو كانوا يذعنون للحق لأذعنوا لبعض هذه الآيات، ولكنهم قوم معاندون، مناقضون الحس.

شكوا إلى موسى أنهم لَا يجدون الماء الذي يشربونه فاتجه موسى إلى ربه ضارعا يطلب الماء، ولذا قال تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ}.

قال ابن العثيمين: {وإذا استسقى موسى لقومه}: أي واذكر إذ استسقى موسى لقومه. أي طلب السقيا لهم؛ وهذا يعم كونهم في التيه، وغيره.

قال القرطبي: الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة مع التوبة النصوح. وقد استسقى نبينا محمد ﷺ فخرج إلى المصلى متواضعًا متذلِّلًا متخشِّعًا

١- (قلت): الصواب لو قال أبو زهرة رحمه الله هنا: (موجبًا للإيمان) بدلًا من قوله: (سببًا للإيمان)؛ لأن المعجزات وقوة الدليل وحسيته سبب قوي للإيمان، وهو داخل ضمن دائرة هداية الإرشاد، ولكن الموجب للإيمان هي الهداية التوفيقية.

مترسِّلًا متضرِّعًا وحسبك به، فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد فأنّى نسقى! لكن قد قال ﷺ في حديث ابن عمر: ((ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا([1]))) الحديث.

وسنة الاستسقاء الخروج إلى المصلّى - على الصفة التي ذكرنا - والخطبة والصلاة وبهذا قال جمهور العلماء. وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سنته صلاة ولا خروج وإنما هو دعاء لا غير. واحتج بحديث أنس الصحيح أخرجه البخاري ومسلم. ولا حجة له فيه فإن ذلك كان دعاء عجلت إجابته فاكتفي به عما سواه ولم يقصد بذلك بيان سنة ولما قصد البيان بين بفعله حسب ما رواه عبدالله بن يزيد المازني قال: ((خرج رسول الله ﷺ إلى المصلّى فاستسقى وحول رداءه ثم صلّى ركعتين([2]))). رواه مسلم.

قال ابن العثيمين: {فقلنا اضرب بعصاك الحجر}: (العصا)، معروفة؛ و{الحجر}: المراد به الجنس؛ فيشمل أي حجر يكون؛ وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين؛ وهذه (العصا) كان فيها أربع آيات عظيمة:

أولًا: أنه يلقيها، فتكون حية تسعى، ثم يأخذها، فتعود عصا.

ثانيًا: أنه يضرب بها الحجر، فينفجر عيونًا.

ثالثًا: أنه ضرب بها البحر، فانفلق؛ فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعًا: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم، وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

{فانفجرت منه}؛ (الانفجار): الانفتاح، والانشقاق؛ ومنه سمي (الفجر)؛ لأنه ينشق به الأفق؛ فمعنى {انفجرت}: أي تشققت منه هذه العيون.

{اثنتا عشرة عينًا}؛ {عينًا}: تمييز؛ وكانت العيون اثنتي عشرة؛ لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة أسباطًا؛ لكل سبط واحدة.

{قد علم كل أناس}: أي من الأسباط، {مشربهم}: أي مكان شربهم وزمانه، حتى لا يختلط بعضهم ببعض، ويضايق بعضهم بعضًا.

قال الطبري: {قد علم كل أناس مشربهم}، فإنما أخبر الله عنهم بذلك. لأن معناهم - في الذي أخرج الله جل وعز لهم من الحجر، الذي وصف جل ذكره في هذه الآية صفته -([3])من الشرب كان مخالفًا معاني سائر الخلق فيما أخرج الله لهم من المياه من الجبال والأرضين، التي لا مالك لها سوى الله عز وجل. وذلك أن الله كان جعل لكل سبط من الأسباط الاثني عشر عينًا من الحجر الذي وصف صفته في هذه الآية، يشرب منها دون سائر الأسباط غيره، لا يدخل سبط منهم في شرب سبط غيره. وكان مع ذلك لكل عين من تلك العيون الاثنتي عشرة، موضع من الحجر

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (١٠٦).

٢- (قلت): البخاري (١٠٠٥)، مسلم (٤/ ٨٩٤). والحديث بتمامه عند مسلم: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبَّادُ بْنُ تَمِيمٍ الْمَازِنِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ عَمَّهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: ((خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا يَسْتَسْقِي، فَجَعَلَ إِلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ، يَدْعُو اللهَ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَحَوَّلَ رِدَاءَهُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي: (عمه): المراد بعمه عبد الله بن زيد بن عاصم المازني المتكرر في الروايات السابقة.

٣- سياق الجملة: (لأن معناهم. . من الشرب، كالذي مخالفًا معاني)، وفصل كعادته فيما بينا مرارًا. يعني لأن شربهم كان مخالفًا شرب سائر الناس.

قد عرفه السبط الذي منه شربه. فلذلك خص جل ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم: أن كل أناس منهم كانوا عالمين بمشربهم دون غيرهم من الناس. إذ كان غيرهم – في الماء الذي لا يملكه أحد – شركاء في منابعه ومسايله. وكان كل سبط من هؤلاء مفردًا بشرب منبع من منابع الحجر – دون سائر منابعه – خاص لهم دون سائر الأسباط غيرهم. فلذلك خصوا بالخبر عنهم: أن كل أناس منهم قد علموا مشربهم.

قال ابن العثيمين: وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل؛ وهي من نعمة الله على موسى؛ أما كونها نعمة على موسى فلأنها آية دالة على رسالته؛ وأما كونها نعمة على بني إسرائيل فلأنها مزيلة لعطشهم، ولظمئهم.

{كلوا واشربوا}، الأمر هنا للإباحة فيما يظهر؛ {من رزق الله}: أي من عطائه، حيث أخرج لكم من الثمار، ورزقكم من المياه.

قال الطبري: وهذا أيضًا مما استغني بذكر ما هو ظاهر منه، عن ذكره ما ترك ذكره. وذلك أن تأويل الكلام: {فقلنا اضرب بعصاك الحجر}، فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، قد علم كل أناس مشربهم، فقيل لهم: كلوا واشربوا من رزق الله. أخبر الله جل ثناؤه أنه أمرهم بأكل ما رزقهم في التيه من المن والسلوى، وبشرب ما فجر لهم فيه من الماء من الحجر الذي يتدفق بعيون الماء، ويزخر بينابيع العذب الفرات، بقدرة ذي الجلال والإكرام.

ثم تقدم جل ذكره إليهم([1])– مع إباحتهم ما أباح، وإنعامه بما أنعم به عليهم من العيش الهنيء – بالنهي عن السعي في الأرض فسادًا، والعَثَا فيها استكبارًا، فقال جل ثناؤه لهم: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين}.

قال ابن العثيمين: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين}: أي لا تسيروا مفسدين؛ فنهاهم عن الإفساد في الأرض؛ ف (العثو)، و(العثي)، معناه الإسراع في الإفساد؛ والإفساد في الأرض يكون بالمعاصي، كما قال الله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}[الروم: ٤١].

قال أبو زهرة: العثو، من عثى يعثى بمعنى أفسد، أو بمعنى أضاع كل ما فيه من خير، فاعتدى على حق غيره، فيعثون يشمل كل فعل يؤدي إلى الاضطراب والإفزاع ومنع الخير، ويتقارب من معنى العبث، ويكون قوله تعالى: {مفْسِدِينَ} ليس تكرارًا للفظ لَا تعثوا أو تأكيدًا، إنما هو لبيان العثو، وهو القصد إلى الإفساد، فمفسدين معناها قاصدين إلى الإفساد.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء؛ لأن موسى استسقى لقومه؛ وشرع من قبلنا شرع لنا إن لم يرد شرعنا بخلافه؛ فكيف وقد أتى بوفاقه؟! فقد كان النبي ﷺ يستسقي في خطبة الجمعة([1])، ويستسقي في الصحراء على وجه معلوم([2]).

١– تقدم إليه بكذا: إذا أمره.

٢- أن السقيا كما تكون بالمطر النازل من السماء تكون في النابع من الأرض.

٣- أن الله سبحانه وتعالى هو الملجأ للخلق؛ فهم إذا مسهم الضر يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى.

٤- أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كغيرهم في الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلا يقال: إن الرسل قادرون على كل شيء، وأنهم لا يصيبهم السوء.

٥- رأفة موسى بقومه؛ لقوله تعالى: {وإذا استسقى موسى لقومه}.

٦- أن الله سبحانه وتعالى قادر جواد؛ ولهذا أجاب الله تعالى دعاء موسى؛ لأن العاجز لا يسقي؛ والبخيل لا يعطي.

٧- إثبات سمع الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: {فقلنا}؛ لأن الفاء هنا للسببية؛ يعني: فلما استسقى موسى قلنا؛ فدلَّ على أن الله سمع استسقاء موسى، فأجابه.

٨-كمال قدرة الله عز وجل، حيث إن موسى ﷺ يضرب الحجر اليابس بالعصا، فيتفجر عيونًا؛ وهذا شيء لم تجر العادة بمثله؛ فهو دليل على قدرة الله عز وجل، وأنه ليس كما يزعم الطبائعيون بأنه طبيعة؛ إذ لو كانت الأمور بالطبيعة ما تغيرت، وبقيت على ما هي عليه.

٩- الآية العظيمة في عصا موسى، حيث يضرب به الحجر، فيتفجر عيونًا مع أن الحجر صلب، ويابس؛ وقد وقع لرسول الله ﷺ ما هو أعظم، حيث أتي إليه بإناء فيه ماء، فوضع يده فيه، فصار يفور من بين أصابعه كالعيون([٣])؛ ووجه كونه أعظم: أنه ليس من عادة الإناء أن يتفجر عيونًا بخلاف الحجارة؛ فقد قال الله تعالى: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار}[البقرة: ٧٤]؛ ووجه آخر: أن الإناء منفصل عن الأرض لا صلة له بها بخلاف الحجارة.

١٠- حكمة الله سبحانه وتعالى بجعل هذا الماء المتفجر اثنتي عشرة عينًا؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: السعة على بني إسرائيل؛ لأنه لو كان عينًا واحدة لحصلت مشقة الزحام.

الفائدة الثانية: الابتعاد عن العداوة، والبغضاء بينهم؛ لأنهم كانوا اثنتي عشرة أسباطًا؛ فلو كانوا جمعوا في مكان واحد مع الضيق والحاجة إلى الماء لحصل بينهم نزاع شديد؛ وربما يؤدي إلى القتال؛ فهذا من رحمة الله تبارك وتعالى ببني إسرائيل، حيث فجره اثنتي عشرة عينًا، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النعمة بقوله: {قد علم كل أناس مشربهم}، كل أناس من بني إسرائيل.

١- راجع البخاري ص٧٩، كتاب الاستسقاء، باب ٧: الاستسقاء في خطبة الجمعة ن حديث رقم ١٠١٤؛ وصحيح مسلم ص٨١٧ - ٨١٨، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ٢: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم ٢٠٧٨ [٨] ٨٩٧.

٢- راجع البخاري ص١٨٠، كتاب الاستسقاء، باب ٢٠ استقبال القبلة في الاستسقاء حديث ١٠٢٨، وراجع مسلمًا ص٨١٧، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ١: كتاب صلاة الاستسقاء حديث رقم ٢٠٧٢ [٣] ٨٩٤.

٣- راجع البخاري ص١٩، كتاب الطهارة، باب الوضوء في التور، حديث رقم ٢٠٠.

- (قلت): ونص الحديث: عَنْ أَنَسٍ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ، فَأُتِيَ بِقَدَحٍ رَحْرَاحٍ فِيهِ شيء مِنْ مَاءٍ، فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ. قَالَ أَنَسٌ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، قَالَ أَنَسٌ فَحَزَرْتُ مَنْ تَوَضَّأَ مَا بَيْنَ السَّبْعِينَ إِلَى الثَّمَانِينَ)).

١١- أن الله سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل بهذه النعم العظيمة لأجل أن يقوموا بالشكر؛ ولهذا قال تعالى: {كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين}.

١٢- أن ما خلق الله تعالى من المأكول، والمشروب للإنسان فالأصل فيه الإباحة، والحل؛ لأن الأمر للإباحة؛ فما أخرج الله تعالى لنا من الأرض، أو أنزل من السماء فالأصل فيه الحل؛ فمن نازع في حلّ شيء منه فعليه الدليل؛ فالعبادات الأصل فيها الحظر؛ وأما المعاملات، والانتفاعات بما خلق الله فالأصل فيها الحل، والإباحة.

١٣- تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين}؛ والأصل في النهي التحريم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

قال أبو زهرة: كان اليهود (لعنهم الله) لَا يهمهم إلا ما يطعمون، فسألوا الأكل أولًا ثم سألوا الماء ثانيًا، ثم سألوا تلوُّن الأطعمة، ولم يفكروا في أمر معنوي، لم يفكروا في العزَّة بعد الذلَّة، ولا في النجاة بعد القتل، ولا في المعاني الروحية التي جاء بها موسى عليه السلام، ولا في الإيمان بعد الكفر، ولا في الرفعة بعد الحطَّة.

لم يفكروا في شيء من هذا إنما فكروا في الطعام وألوانه، لم يطلبوا الهداية، ولكن طلبوا ألوان الطعام، وقال تعالى عنهم: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ}.

قال ابن العثيمين: {وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد}؛ المن، والسلوى من أحسن الأطعمة، وأنفعها للبدن، وألذّها مذاقًا، ومن أحسن ما يكون؛ لكن بني إسرائيل لدناءتهم لم يصبروا على هذا؛ قالوا: {لن نصبر على طعام واحد}: لا نريد المن، والسلوى فقط؛ نريد أطعمة متعددة؛ ولكنها أطعمة بالنسبة لِلَّتي رزقوها أدنى. يعني ليست مثلها؛ بل إنها تعتبر رديئة جدًّا بالنسبة لهذا.

فإن قال قائل: كيف يقولون: طعام واحد وهما طعامان: المن، والسلوى؟

فالجواب: أن المنَّ في الغالب يستعمل في الشرب؛ فهو ينبذ في الماء، ويشرب؛ أو يقال: المراد بالطعام هنا الجنس؛ يعني: لا نصبر على هذا الجنس فقط. ليس عندنا إلا منٌّ وسلوى.

{فادع لنا ربك}: هذا توسل منهم بموسى ليدعو الله عز وجل لهم؛ وكلمة: {فادع لنا ربك}، تدلُّ على جفاء عظيم منهم؛ فهم لم يقولوا: (ادع لنا ربنا)، أو (ادع الله)؛ بل قالوا: {ادع لنا ربك}، كأنهم بريئون منه. والعياذ بالله؛ وهذا من سفههم، وغطرستهم، وكبريائهم.

{يخرج لنا}؛ {يخرج}: فعل مضارع مجزوم على أنه جواب الطلب: {ادع}؛ أو جواب لشرط محذوف؛ والتقدير: إن تدعه يخرج لنا.

{مما تنبت الأرض}: أي مما تخرجه.

{من بقلها}؛ {من}: بيانية؛ بينت الاسم الموصول: {ما}؛ لأن الاسم الموصول مبهم يحتاج إلى بيان؛ و{بقلها}: هو النبات الذي ليس له ساق، مثل الكراث؛ {وقثائها}: هي صغار البطيخ؛ {وفومها}: هو الثوم؛ يقال: (ثوم) بالمثلثة؛ ويقال: (فوم) بالفاء الموحدة، {وعدسها}؛ (العدس) معروف؛ {وبصلها}: أيضا معروف.

وكل هذه بالنسبة للمن، والسلوى ليست بشيء؛ ولهذا أنكر عليهم موسى ﷺ، فقال: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير}: أي أتأخذون الذي هو أدنى بدلًا عن الذي هو خير.

قال القرطبي: اختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول. جمهور العلماء إلى إباحة ذلك، للأحاديث الثابتة في ذلك وذهبت طائفة من أهل الظاهر – القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضًا – إلى المنع، وقالوا: كل ما منع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به. واحتجوا بأن رسول الله ﷺ سمّاها خبيثة، والله عز وجل قد وصف نبيه ﷺ بأنه يحرم الخبائث. ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبي ﷺ أتي بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحًا، قال: فأخبر بما فيها من البقول، فقال: ((قربوها)) – إلى بعض أصحابه كان معه – فلما رآه كره أكلها، قال: ((كل فإني أناجي من لا تناجي([1]))). أخرجه مسلم وأبو داود. فهذا بين في الخصوص له والإباحة لغيره. وفي صحيح مسلم أيضًا عن أبي أيوب أن النبي ﷺ نزل على أبي أيوب، فصنع للنبي ﷺ طعامًا فيه ثوم، فلما رد إليه سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ، فقيل له: لم يأكل، ففزع وصعد إليه فقال: أحرام هو؟ قال النبي ﷺ: ((لا ولكني أكرهه))، قال: فإني أكره ما تكره أو ما كرهت، قال: وكان النبي ﷺ يؤتى ((يعني يأتيه الوحي([2]))). فهذا نص على عدم التحريم. وكذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ حين أكلوا الثوم زمن خيبر وفتحها: ((أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحلَّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها([3]))) ، الأحاديث تشعر بأن الحكم خاص به، إذ هو المخصوص بمناجاة الملك. لكن قد علمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضي التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال: ((من أكل من هذه البقلة الثوم وقال مرة: من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم([4]))). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث فيه طول:

١- (قلت): البخاري (٨٥٥)، مسلم (٥٦٤/٧٣).

٢- (قلت): مسلم (٢٠٥٣ /١٧٠).

٣- (قلت): مسلم (٥٦٥ /٧٦). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: لَمْ نَعْدُ أَنْ فُتِحَتْ خَيْبَرُ فَوَقَعْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْبَقْلَةِ الثُّومِ وَالنَّاسُ جِيَاعٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا أَكْلًا شَدِيدًا، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرِّيحَ فَقَالَ: ((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبَنَّا فِي الْمَسْجِدِ))، فَقَالَ النَّاسُ: حُرِّمَتْ، حُرِّمَتْ، فَبَلَغَ ذَاكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الخبيثة)): قال أهل اللغة: (الخبيث) في كلام العرب المكروه من قول أو فعل أو مال أو طعام أو شراب أو شخص.

٤- (قلت): مسلم (٥٦٤ /٧٤).

((إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين، هذا البصل والثوم. ولقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخا([١]))). خرجه مسلم.

قال الإمام الألباني في تمام المنة: والشارع الحكيم إنما منع آكل الثوم وغيره من حضور المساجد والحصول على فضيلة الجماعة: عقوبة له على عدم مبالاته بإيذاء المؤمنين والملائكة المقربين.

قال الطبري: وكان سبب مسألتهم موسى ذلك فيما بلغنا ما حدثني يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال، أنبأنا ابن زيد قال: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان شرابهم عسلًا ينزل لهم من السماء يقال له المن، وطعامهم طير يقال له السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكونوا يعرفون خبزًا ولا غيره. فقالوا: {يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها}، فقرأ حتى بلغ: {اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم}.

{قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}، قال: لهم موسى: أتأخذون الذي هو أخس خطرًا وقيمة وقدرًا من العيش، بدلًا بالذي هو خير منه خطرًا وقيمة وقدرًا؟ وذلك كان استبدالهم. وأصل (الاستبدال): هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك.

ومعنى قوله: {أدنى} أخس وأوضع وأصغر قدرًا وخطرًا. وأصله من قولهم: (هذا رجل دني بين الدناءة)، و(إنه ليدنِّي في الأمور) بغير همز، إذا كان يتتبع خسيسها. ولا شك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش الرفيع منه.

قال ابن العثيمين: {اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم}: يعني أن هذا ليس بصعب يحتاج إلى دعاء الله؛ لأن الله تعالى أوجده في كل مصر؛ وكأن موسى ﷺ أنكر عليهم هذا؛ وبين لهم أنه لا يليق به أن يسأل الله سبحانه وتعالى لهم ما هو أدنى وموجود في كل مصر؛ وأما قول من قال من المفسرين: (إنه دعا، وقيل له: قل لهم: يهبطون مصرًا فإن لهم ما سألوا)، فهذا ليس بصحيح؛ لأنه كيف ينكر عليهم أن يطلبوا ذلك منه، ثم هو يذهب، ويدعو الله به!!! فالصواب أن موسى وبخهم على ما سألوا، وأنكر عليهم، وقال لهم: إن هذا الأمر الذي طلبتم موجود في كل مصر؛ ولهذا قال: {اهبطوا مصرًا}.

قال السعدي: قال لهم موسى: {أتستبدلون الذي هو أدنى} وهو الأطعمة المذكورة، {بالذي هو خير} وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي منّ الله به عليكم، فهو خير الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلًا؟!

١- (قلت): مسلم (٥٦٧/ ٧٨).

قال ابن العثيمين: و{مصرًا}، ليست البلد المعروف الآن، ولكن المقصود أي مصر كانت؛ ولهذا نكرت؛ و(مصر البلد لا تنكر، ولا تنصرف؛ واقرأ قوله تعالى: {وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا}[يونس: ٨٧]؛ فالمعنى: اهبطوا أي مصر من الأمصار تجدون ما سألتم.

{وضربت عليهم الذلة والمسكنة}؛ وفي قوله تعالى: {عليهم} ثلاث قراءات: كسر الهاء وضم الميم؛ وكسرها جميعًا؛ وضمهما جميعًا.

قال الطبري: يعني بقوله: {وضربت}: أي فرضت. ووضعت عليهم الذلة وألزموها. من قول القائل: (ضرب الإمام الجزية على أهل الذمة)، و(ضرب الرجل على عبده الخراج)، يعني بذلك وضعه فألزمه إياه.

وأما {الذلة}: فهي (الفعلة) من قول القائل: (ذل فلان يذل ذلا وذلة)، كـ(الصغرة) من (صغُر الأمر)، و{الذلة}: هي الصغار الذي أمر الله جل ثناؤه عباده المؤمنين أن لا يعطوهم أمانا على القرار على ما هم عليه من كفرهم به وبرسوله – إلا أن يبذلوا الجزية عليه لهم، فقال عز وجل: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[التوبة: ٢٩].

وأما {المسكنة}: فإنها مصدر (المسكين). يقال: (ما فيهم أسكن من فلان)، و(ما كان مسكينًا)، و(لقد تمسكن مسكنة). ومن العرب من يقول: (تمسكن تمسكنًا). و{المسكنة} في هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها.

قال ابن العثيمين: {وضربت عليهم الذلة والمسكنة}: جملة مستأنفة إخبار من الله عز وجل بما حصل عليهم؛ و {الذلة}: الهوان؛ فهم أذلة لا يقابلون عدوًّا، وقد قال الله تعالى: {لا يقاتلونكم جميعًا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر}[الحشر: ١٤]، و{المسكنة}: الفقر؛ فليس عندهم شجاعة، ولا غنى؛ لا كرم بالمال، ولا كرم بالنفس؛ فـ(الشجاعة) كرم بالنفس: بأن يجود الإنسان بنفسه لإدراك مقصوده ؛ و(الكرم) جود بالمال؛ فلم يحصل لهم هذا، ولا هذا؛ فلا توجد أمة أفقر قلوبًا، ولا أبخل من اليهود، فالأموال كثيرة، لكن قلوبهم فقيرة، وأيديهم مغلولة.

قال السعدي: ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم فقال: {وضربت عليهم الذلة} التي تشاهد على ظاهر أبدانهم، {والمسكنة} بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم.

قال ابن العثيمين: {وباءوا بغضب من الله}: أي رجعوا؛ والباء للمصاحبة؛ و{من}: للابتداء؛ يعني الغضب من الله. أي أن الله غضب عليهم، كما قال تعالى: {قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت}[المائدة: ٦٠].

قال السعدي: أي لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبئست الغنيمة غنيمتهم، وبئست الحالة حالتهم.

قال ابن العثيمين: {ذلك}: الظاهر أن المشار إليه كل ما سبق، وليس فقط قوله تعالى: {وضربت عليهم الذلة ..}؛ فكل ما سبق مشار إليه حتى سؤالهم الذي هو أدنى عن الذي هو خير؛ {بأنهم}: الباء للسببية؛ {كانوا يكفرون بآيات الله} أي يكذبون بها؛ والمراد الآيات الكونية، والشرعية؛ فالشرعية تتعلق بالعبادة؛ والكونية تتعلق بالربوبية، فهم يكفرون بهذا، وبهذا.

قال أبو زهرة: آيات الله تعالى؛ المعجزات الدالَّة على رسالة موسى، وهي في ذاتها نفع لهم، أنجاهم من فرعون الذي كان يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إذ ضرب البحر بعصاه عليه السلام ففرقت البحر ونجا بنو إسرائيل وأغرق الله تعالى فرعون، وأنه أنزل عليهم المن والسلوى إلى آخر آيات الله التي كانت نِعَمًا عليهم ومعجزات دالَّة على نبوة موسى عليه السلام، والتعبير منه سبحانه وتعالى بقوله: {بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ}، بيان لاستمرار كفرهم، وتكرره بتكرر آياته، فإن {كانوا} دالَّة على الاستمرار، والتعبير بالمضارع للدلالة على تكرر الكفر بتكرار الآيات، فما جاءتهم آية إلا كفروا بها، وهي باهرة تتضمن نعمة أنعم بها سبحانه وتعالى عليهم، فاجتمع فيهم كفر الإيمان بالكفر بدلائله، وكفر النعمة بعدم شكرها، وشكر المنعم واجب بحكم العقل والشرع، وما جرى عليه الناس، ويجرون عليه إلى يوم القيامة.

قال ابن العثيمين: {ويقتلون النبيين}: أي يعتدون عليهم بالقتل؛ وفي قوله تعالى: {النبيين} قراءتان؛ الأولى: بتشديد الياء بدون همز: {النبيين}؛ والثانية: بتخفيف الياء، والهمز: {النبيئين}؛ فعلى القراءة الأولى قيل: إنه مشتق من النبوة. وهو الارتفاع؛ لارتفاع منزلة الأنبياء؛ وقيل: من النبأ، وأبدلت الهمزة ياء تخفيفًا؛ وعلى القراءة الثانية فإنه مشتق من النبأ، لأن الأنبياء مخبرون عن الله عز وجل.

قال أبو زهرة: وقد ذكر سبحانه وتعالى جريمة ثانية إيجابية فالجرائم السابقة كلها سلبية([1])، الكفر سلب، وعدم شكر الله تعالى حيث يجب الشكر جريمة سلبية أيضًا، أما الجريمة الإيجابية فهي قتلهم الأنبياء بغير حق، فهم لَا يكتفون بعصيان الله تعالى وكفرهم بآياته، بل يزيدون على ذلك لإمعانهم في الضلال بقتلهم النبيين الصديقين الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لهدايتهم ودعوتهم إلى الحق كما قتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام.

ويظهر أنهم لم يقتلوا واحدًا، بل كانوا يقتلون النبيين كلّما خالفوهم، لا يرعون مقامهم من الله تعالى، ولذلك كان التعبير بالمضارع الدالّ على التكرار، وكأن قتل النبيين كان عادةً لهم وشأنًا من شئونهم لتغلغل الكفر والعصيان في نفوسهم، واستمرائهم الباطل والعصيان، ولذلك علَّل تعالى تكرار كفرهم للآيات، وقتلهم للأنبياء بقوله: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}.

١- (قلت): الجريمة السلبية: هي ترك المأمور به؛ والجريمة الإيجابية: هي فعل المنهي عنه.

وقوله تعالى في وصف قتلهم للأنبياء بأنه بغير الحق، وصف لإفادة عتوّهم وكفرهم لَا لبيان أن القتل للنبيين قد يكون بحق، بل لبيان أن فعلهم إثم وليس له مبرر، وأن كونه بغير الحق للتشنيع على فعلهم، وقبح تصرفاتهم، وقد علل تعالى كما تلونا بأن ذلك كان بعصيانهم واعتدائهم.

قال ابن العثيمين: {بغير الحق}: أي بالباطل المحض؛ وهذا القيد لبيان الواقع، وللتشنيع عليهم بفعلهم؛ لأنه لا يمكن قتل نبي بحق أبدًا.

قال ابن كثير: يقول تعالى: هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَإِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَإِهَانَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ، فَانْتَقَصُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ، فَلَا كِبْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وغَمْط النَّاسِ(١))).

قال ابن العثيمين: {ذلك}: المشار إليه ما سبق من كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ {بما عصوا}: الباء للسببية؛ و(المعصية): الخروج عن الطاعة إما بترك المأمور؛ وإما بفعل المحظور؛ {وكانوا يعتدون}: معطوف على قوله تعالى: {بما عصوا}؛ و(الاعتداء)، مجاوزة الحد إما بالامتناع عما يجب للغير؛ أو بالتعدي عليه.

والفرق بين (المعصية)، و(العدوان) إذا ذكرا جميعًا: أن (المعصية) ترك المأمور؛ و(العدوان)، فعل المحظور. فهؤلاء اعتدوا، وعصوا؛ فلم يقوموا بالواجب، ولا تركوا المحرم؛ ولذلك تدرجت بهم الأمور حتى كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه؛ وفي ذلك دليل لما ذهب إليه بعض أهل العلم أن المعاصي بريد الكفر؛ فالإنسان إذا فعل معصية استهان بها، ثم يستهين بالثانية، والثالثة ... وهكذا حتى يصل إلى الكفر؛ فإذا تراكمت الذنوب على القلوب حالت بينها، وبين الهدى، والنور، كما قال تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}[المطففين: ١٤].

قال أبو زهرة: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوا}: أي ذلك الجرم الذي ارتكبوه سببه أنهم عصوا، أي أن نفوسهم تمرّدت واستمرأت العصيان، وأنها أظلمت بتراكم المعاصي حتى استمرأتها، وهل يصدر من النفوس المظلمة إلا ما يكون فسادًا وشرًا؟! ويصلون إلى أقبح أنواع الشرور، وهو قتل الهداة أحباب الله تعالى وهم الأنبياء.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن ذلك كان لمجرد الاعتداء، فهم في طبيعتهم العدوان، لأن المعصية إذا استمرت ولجوا في العصيان، وسيطرت الأثرة عليها يكون من آثارها لَا محالة الاعتداء، الاعتداء في طلب الأشياء، والاعتداء بسيطرة الأهواء والشهوات، والاعتداء بقتل الأنبياء، فالاعتداء والعصيان من شئونهم، وهكذا هم بلاء هذا الوجود.

قال السعدي: واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت لهم لفوائد عديدة:

١- رواه مسلم في صحيحه برقم (٩١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكّون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبيَّن الله من أحوال سلفهم التي قد تقرَّرت عندهم، ما يبيِّن به لكل أحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطَبين؟.

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم، نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء، نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نِعَم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدلّ على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثًا من الجميع، لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- لؤم بني إسرائيل، وسفههم؛ حيث إنهم طلبوا أن يغير لهم الله هذا الرزق الذي لا يوجد له نظير بقولهم: {لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها}.

٢- غطرسة بني إسرائيل، وجفاؤهم؛ لقولهم: {ادع لنا ربك}؛ ولم يقولوا: (ادع لنا ربنا)، أو: (ادع لنا الله)؛ كأن عندهم. والعياذ بالله. أنفة؛ مع أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومع ذلك يقولون: {ادع لنا ربك}. كما قالوا: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون}[المائدة: ٢٤].

٣- أن من اختار الأدنى على الأعلى ففيه شبه من اليهود؛ ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيء المحرم على الشيء الحلال.

٤- أن من علو همة المرء أن ينظر للأكمل، والأفضل في كل الأمور.

٥- أن التوسع في المآكل، والمشارب، واختيار الأفضل منها إذا لم يصل إلى حد الإسراف فلا ذم فيه؛ ولذلك لم ينكر النبي ﷺ على أصحابه حين أتوه بتمر جيد بدلًا عن الرديء[١]؛ لكن لو ترك التوسع في ذلك لغرض شرعي فلا بأس كما فعله عمر رضي الله عنه عام الرمادة؛ وأما إذا تركها لغير غرض شرعي فهو مذموم؛ لأن الله تعالى يحب من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه.

١- راجع البخاري ص١٨١، كتاب الوكالة، باب ١١: إذا باع الوكيل شيئا فاسدا فبيعه مردود، حديث رقم ٢٣١٢؛ وصحيح مسلم ص٩٤٥، كتاب المساقاة، باب ١٨؛ بيع الطعام مثلا بمثل، حديث رقم ٤٠٨٣ [٩٦] ١٥٩٤.

٦- حل البقول، والقثاء، والفوم، والعدس، والبصل؛ لقولهم: {ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض ... } إلى قوله: {اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم}، أي من الأصناف المذكورة.

وهذه الأصناف مباحة في شريعة موسى؛ وكذلك في شريعتنا؛ فإنه لما قُدِّم للرسول ﷺ قِدْرٌ فيه بقول فكره أكلها؛ فلما رآه بعض أصحابه كره أكلها، قال الرسول ﷺ ((كل؛ فإني أناجي من لا تناجي(١)))؛ فأباحها لهم؛ وكذلك في خيبر لما وقع الناس في الثوم، وعلموا كراهة النبي ﷺ لها قالوا: حرمت؛ قال ﷺ ((إنه ليس لي تحريم ما أحل الله(٢)))؛ فبين أنه حلال.

٧- جواز إسناد الشيء إلى مكانه لا إلى الفاعل الأول؛ لقولهم: {مما تنبت الأرض}؛ والذي ينبت حقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

٨- جواز إسناد الشيء إلى سببه الحقيقي الذي ثبت أنه سبب شرعًا، أو حسًّا؛ مثال ذلك: لو أطعمت جائعًا يكاد يموت من الجوع فإنه يجوز أن تقول: (لولا أني أطعمته لهلك)؛ لأن الإطعام سبب لزوال الجوع؛ والهلاك معلوم بالحس؛ ومثال الشرعي: القراءة على المريض، فيبرأ، فتقول: (لولا القراءة عليه لم يبرأ)؛ أما المحظور فهو أن تثبت سببًا غير ثابت شرعًا، ولا حسًّا، أو تقرن مشيئة الله بالسبب بحرف يقتضي التسوية مع الله عز وجل؛ مثال الأول: أولئك الذين يعلقون التمائم البدعية، أو يلبسون حلقًا، أو خيوطًا لدفع البلاء، أو رفعه. كما زعموا؛ ومثال الثاني: ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال له رجل: ((ما شاء الله وشئت))، فقال له النبي ﷺ ((أجعلتني لله ندًّا، بل ما شاء الله وحده(٣)))، لأنك إذا قلت: (ما شاء الله وشئت)، جعلت المخاطب ندًّا لله في المشيئة.

فإذا قال قائل: أليس الله قد ذم قارون حينما قال: {إنما أوتيته على علم عندي}[القصص: ٧٨]؛ فنسب حصول هذا المال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحًا؟

فالجواب: أن هذا الرجل أنكر أن يكون من الله ابتداء؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبب فهو مشرك؛ وأيضًا فإن قارون أراد بقوله هذا أن يدفع وجوب الإنفاق عليه مبتغيًا بذلك الدار الآخرة.

والخلاصة: أن الحادث بسبب معلوم له صور:

الصورة الأولى: أن يضيفه إلى الله وحده.

الثانية: أن يضيفه إلى الله تعالى مقرونًا بسببه المعلوم؛ مثل أن يقول: (لولا أن الله أنجاني بفلان لغرقت).

١- اخرجه البخاري ص٦٧، كتاب الأذان، باب ١٦٠: ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، حديث رقم ٨٥٥؛ وأخرجه مسلم ص٧٦٤، كتاب المساجد، باب ١٧: نهي من أكل ثوما ... ، حديث رقم ١٢٥٣ [٧٣] ٥٦٤.

٢- أخرجه مسلم ص٧٦٤ – ٧٦٥، كتاب المساجد، باب ١٧: نهي من أكل ثومًا ... ، حديث رقم ١٢٥٦ [٧٦] ٥٦٥.

٣- أخرجه أحمد ١/٢١٤، حديث رقم ١٨٣٩؛ وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، راجع فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ٢/٢٥٣، باب ٣٣٩: قول الرجل ما شاء الله وشئت، حديث رقم ٧٨٣؛ وأخرجه ابن أبي شيبة ٥/٣٤٠، باب ٢٣١: في الرجل يقول: ما شاء الله وشاء فلان، حديث رقم ٢٦٢٨٢، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: فالإسناد حسن ١/٢١٧، حديث رقم ١٣٩، وقال في صحيح الأدب المفرد: صحيح ص٢٩٢

الثالثة: أن يضيفه إلى السبب المعلوم وحده مع اعتقاد أن الله هو المسبب؛ ومنه قول النبي ﷺ في عمه أبي طالب لما ذكر عذابه: ((لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار([1]))).

الرابعة: أن يضيفه إلى الله مقرونًا بالسبب المعلوم بـ(ثم)، كقوله: (لولا الله ثم فلان)؛ (وهذه الأربع كلها جائزة)..

الصورة الخامسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقرونًا بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: (لولا الله وفلان).

الصورة السادسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقرونًا بالفاء، مثل: (لولا الله ففلان)؛ فهذا محل نظر: يحتمل الجواز، ويحتمل المنع.

الصورة السابعة: أن يضيفه إلى سبب موهوم ليس بثابت شرعًا، ولا حسًّا، فهذا شرك. كما سبق.

٩- توبيخ موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وأن الذي يستبدل الأدنى بالذي هو خير يستحق التوبيخ؛ لأن موسى وبخهم، حيث قال: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير}.

١٠- أنه يجوز للإنسان أن يعتذر عن الوساطة إذا لم يكن لها داع؛ لأنه قال: {اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم}؛ وكأنه قال: لا حاجة أن أدعو الله أن يخرج لكم مما تنبت الأرض.

١١- ضرب الذلة على بني إسرائيل؛ وقد ذكر الله تعالى أنهم ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله. وهو الإسلام؛ أو بحبل من الناس وهو المساعدات الخارجية؛ والمشاهد الآن أن اليهود أعزاء بما يساعدهم إخوانهم من النصارى.

١٢- أن اليهود قد ضربت عليهم المسكنة وهي الفقر؛ ويشمل فقر القلوب الذي هو شدة الطمع بحيث أن اليهودي لا يشبع، ولا يتوقف عن طلب المال ولو كان من أكثر الناس مالًا؛ ويشمل أيضًا فقر المال وهو قلته.

١٣- أن بني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قبل الإسلام؛ لأن ضرب الذلة بسبب المعصية؛ فإذا حوربوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبال عليهم؛ وقد قال الله تعالى: {لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر}[الحشر: ١٤]؛ وما يشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين:

الأول: قلة الإخلاص لله تعالى؛ فإن كثيرًا من الذين يقاتلون اليهود. أو أكثرهم. لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عصبي قبلي؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.

والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة، وصغيرة؛ حتى إن بعضها ليؤدي إلى الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أحد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انضم إليها من التنازع، والفشل، كما قال الله تعالى: {حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون}[آل عمران: ١٥٢].

---

[1]- أخرجه البخاري ص٣١٥، كتاب مناقب الأنصار ن باب ٤٠: قصة أبي طالب، حديث ٣٨٨٣؛ وأخرجه مسلم ص٧١٧، كتاب الإيمان، باب ٩٠: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم ٥١٠ [٣٥٧] ٢٠٩.

١٤- إثبات صفة الغضب لله تعالى؛ وغضب الله سبحانه وتعالى صفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج منا، ويحمر الوجه، ويقف الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عز وجل دال على كمال عظمته، وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به، ورسوله.

وفسر أهل التحريف (غضب الله) بانتقامه، ولا يثبتونه صفة لله عز وجل؛ وفسره آخرون بأنه إرادة الانتقام؛ فمعنى {غضب الله عليهم} عندهم: أراد أن ينتقم منهم؛ وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد.

١٥- أن بني إسرائيل جمعوا بين المعاصي، والعدوان.

١٦- بيان حكمة الله عز وجل حيث ربط الأشياء بأسبابها؛ لقوله تعالى: {ذلك بأنهم}، وقوله تعالى: {ذلك بما عصوا}؛ وهذا من الحكمة أن يكون للأسباب تأثيرًا في مسبباتها بما جعله الله رابطًا بين الأسباب والمسببات، ولكن الأسباب قد يكون لها موانع؛ فقد توجد الأسباب، ولكن توجد موانع أقوى منها؛ فالنار لم تحرق إبراهيم ﷺ. مع أنها سبب للإحراق. لوجود مانع؛ وهو قول الله تعالى لها: {كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم}[الأنبياء: ٦٩].

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

قال ابن العثيمين: لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما عاقب به بني إسرائيل من ضرب الذلة، والمسكنة، والغضب بيَّن أن المؤمنين من بني إسرائيل، وغيرهم كلهم لهم أجرهم عند الله ... ومناسبة الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال: {وباءوا بغضب من الله}، بيَّن أن من آمن منهم، وعمل صالحًا فإن الله لا يضيع أجره؛ فقال تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم}.

{إن الذين آمنوا}: يعني أمة محمد ﷺ لأنهم هم الذين يستحقون الوصف بالإيمان المطلق، حيث آمنوا بجميع الكتب، والرسل.

{والذين هادوا}: أي الذين انتسبوا إلى دين اليهود وهي شريعة موسى، {والنصارى}: أي الذين انتسبوا إلى دين عيسى(١).

{والصابئين}: اختلف فيهم على عدة أقوال؛ فمن العلماء من يقول: إن الصابئين فرقة من النصارى؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من اليهود؛ ومنهم من يقول إنهم فرقة من المجوس؛ ومنهم من يقول: إنهم أمة مستقلة تدين بدين خاص

١- (قلت): أي اذا كانوا على هذه الصفات في زمن أنبيائهم؛ يعني هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ.

بها؛ ومنهم من يقول: إنهم من لا دين لهم: من كانوا على الفطرة؛ ولا يتدينون بدين. وهذا هو الأقرب؛ فإذا أرسل إليهم الرسل فآمنوا بالله واليوم الآخر ثبت لهم انتفاء الخوف، والحزن، كغيرهم من الطوائف الذين ذكروا معهم.

قالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ في مجموع الفتاوى ج١٤ص٦٨: هَذه تَفْسِيرُ آيَاتٍ أُشْكِلَتْ حَتَّى لَا يُوجَدُ فِي طَائِفَةٍ مِنْ (كُتُبٍ فِي التَّفْسِيرِ) إلَّا مَا هُوَ خَطَأٌ فِيهَا.

مِنْهَا قَوْلُهُ: {إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} الْآيَتَانِ، فَهُوَ – سُبْحَانَهُ – وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ الْأَوَّلِينَ والآخرين، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَيُعْرَفُ بِهِ مَعْنَاهُ مِنْ غَيْرِ تَنَاقُضٍ، وَمُنَاسَبَةٍ لِمَا قَبْلَهَا وَلِمَا بَعْدَهَا، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ السَّلَفِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ سَبَبِ نُزُولِهَا بِالْأَسَانِيدِ الثَّابِتَةِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ سَلْمَانُ: (سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَهْلِ دِينٍ كُنْت مَعَهُمْ. فَذَكَرَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ([1])). وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا رُوِيَ بِأَسَانِيدَ ضَعِيفَةٍ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ كَمَا فِي مُسْلِمٍ: ((إلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ([2]))).

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يُجِيبُ بِمَا لَا عِلْمَ عِنْدَهِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ أَثْنَى عَلَى مَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ، كَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ خِلَافًا عَنْ السَّلَفِ، لَكِنْ ذُكِرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا} الْآيَةَ [آل عمران: ٨٩]، وَمُرَادُهُ: أَنَّ اللَّهَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ إلَّا الْإِسْلَامَ مِنْ الْأَوَّلِينَ والآخرين، وَكَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ يُرِيدُ بِلَفْظِ النَّسْخِ رَفْعَ مَا يُظَنُّ أَنَّ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ رَسُولًا وَاحِدًا فَهُوَ كَافِرٌ، فَلَا يَتَنَاوَلُهُ قَوْلُهُ: {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ} إلَخْ [البقرة: ٦٢].

وَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ: أَنَّ الْآيَةَ فِيمَنْ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاصَّةً، فَغَلِطُوا، ثُمَّ افْتَرَقُوا عَلَى أَقْوَالٍ مُتَنَاقِضَةٍ.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٣ص١٢٢: وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد ﷺ، والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام، وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل، والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل. والصابئين وهم الصابئون الحنفاء، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ.

وقال في الصابئة: فَإِنَّ الصَّابِئِينَ كَأَهْلِ الْكِتَابِ، تَارَةً يَجْعَلُهُمْ اللَّهُ قِسْمًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَتَارَةً يَجْعَلُهُمُ اللَّهُ قَسِيمًا لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ}{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ}. وَكَذَلِكَ لَمَّا ذَكَرَ الْمِلَلَ السِّتَّ فِي الْحَجِّ فَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} الْآيَةَ، وَهَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} إِلَى قَوْلِهِ: {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. وَقَالَ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

١– الواحدي في أسباب النزول ص١٣.

٢– مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥/٦٣) عن عياض بن حمار المجاشعي.

– (قلت): ونص الحديث: ((وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،.....)).

مَرْيَمَ}، فَإِذَا كَانَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَدْ يَكُونُونَ مُشْرِكِينَ فَالصَّابِئُونَ أَوْلَى وَذَلِكَ بَعْدَ تَبْدِيلِهِمْ، فَحَيْثُ وُصِفُوا بِالشِّرْكِ فَبَعْدَ التَّبْدِيلِ، وَحَيْثُ جُعِلُوا غَيْرَ مُشْرِكِينَ فَلِأَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ الصَّحِيحِ لَيْسَ فِيهِ شِرْكٌ، فَالشِّرْكُ مُبْتَدَعٌ عِنْدَهُمْ؛ فَيَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لِهَذِهِ الْمَعَانِي(١).

وقال رحمه اللّه: فان الصابئة نوعان صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون، فالأولون هم الذين اثنى الله عليهم بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}، فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من هذه الملل الأربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين. فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة إبراهيم إمام الحنفاء ﷺ قبل نزول التوراة والإنجيل.

وهذا بخلاف المجوس والمشركين فأنه ليس فيهم مؤمن فلهذا قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، فذكر الملل الست هؤلاء وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيمة لم يذكر في الست من كان مؤمنًا، إنما ذكر ذلك في الأربعة فقط(٢).

وقال رحمه اللّه: وأما الصابئون الحنفاء فهم في الصابئين بمنزلة من كان متبعا لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل من اليهود والنصارى وهؤلاء ممَّن حمدهم الله وأثنى عليهم وبعض الناس يقول أن بقراط كان من هؤلاء.

ووهب بن منبه من اعلم الناس بأخبار الأمم المتقدمة، وقد روى ابن أبي حاتم بالإسناد الثابت أنه قيل لوهب بن منبه: ما الصابئون؟ قال: (الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا)، وكذلك روى عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال: (هم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين)، قال: وروى عن علماء نحو ذلك، أي ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي ولم يرد بذلك أنهم كفار فان الله قد أثنى على بعضهم فهم متمسكون بالإسلام المشترك وهو عبادة الله وحده وإيجاب الصدق والعدل وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على إيجابه وتحريمه، فان هذا دخل في الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره، وكذلك قال عبد الرحمن بن زيد: هم قد يقولون لا إله إلا الله فقط وليس لهم كتاب ولا نبي.

وهذا كما كانت العرب عليه قبل أن يبتدع عمرو بن لحي الشرك وعبادة الأوثان فإنهم كانوا حنفاء يعبدون الله وحده ويعظمون إبراهيم وإسماعيل ولم يكن لهم كتاب يقرؤونه ويتبعون شريعته، وكان موسى قد بعث إلى بني إسرائيل بشريعة التوراة وحج البيت العتيق ولم يبعث إلى العرب لا عدنان ولد إسماعيل ولا قحطان، والناس متفقون على أن عدنان

١- مجموع الفتاوى (١٢/٢٠-٢١)

٢- الرد على المنطقيين (٢٨٨).

ولد اسماعيل وربيعة ومضر، وأما قحطان فقال بعضهم: (هم أيضا من ولد إسماعيل)، والصحيح أنهم كانوا موجودين قبل إبراهيم بأرض اليمن، ومنهم جرهم الذين سكنوا مكة، ومنهم تعلم إسماعيل العربية.

وأما من قال من السلف: (الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور)، كما نقل ذلك عن أبي العالية والضحاك والسدي وجابر بن يزيد والربيع ابن انس، فهؤلاء أرادوا من دخل في دين أهل الكتاب منهم، وكذلك من قال: (هم صنف من النصارى)، كما يروى عن ابن عباس أنه قال: (هم صنف من النصارى وهم السائحون المحلقة أوساط رؤوسهم فهؤلاء عرفوا منهم من دخل في أهل الكتاب).

ومن قال: (أنهم يعبدون الملائكة، كما يروي عن الحسن قال: (هم قوم يعبدون الملائكة)، وعن أبي جعفر الرازي قال: (بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور ويصلون)، فهذا أيضًا صحيح، وهم صنف منهم وهؤلاء كثير، من الصابئين يعبدون الروحانيات العلوية لكن هؤلاء من المشركين منهم ليسوا من الحنفاء.

وكذلك اختلاف الفقهاء في الصابئين هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ ويذكر فيه عن احمد روايتان وكذلك قولان للشافعي والذي عليه محققو الفقهاء أنهم صنفان فمن دان بدين أهل الكتاب كان منهم وإلّا فلا.

وقال أبو الزناد: الصابئون قوم مما يلي العراق وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى الشمس كل يوم خمس صلوات فهؤلاء الصابئة الذين أدركهم الإسلام وكانوا بأرض حران والذين خبروهم عرفوا أنهم ليسوا من أهل الكتاب بل مشركون يعبدون الكواكب ولا يحل أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم وان اظهروا الإيمان بالنبيين فهو من جنس إيمان الفلاسفة بالنبيين والفلاسفة الصابئون من هؤلاء.

وأما قبول الجزية منهم فهو على خلاف المشهور فمن قبلها من غير أهل الكتاب كما يقبل من المجوس قبلها من هؤلاء، وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة واحمد في إحدى الروايتين، ومن لم يقبلها إلا من أهل الكتاب، لم يقبلها من هؤلاء، كما إذا لم يدخلوا في دين أهل الكتاب، كما هو قول الشافعي واحمد في الرواية الأخرى عنه، وكان أبو سعيد الإصطخري أفتى بأن لا تقبل منهم الجزية ونازعه في ذلك جماعة من الفقهاء(١).

وقال رحمه الله في تقديم وتأخير الصابئة عن النصارى وبالعكس: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}، وفي الآية الأخرى: {وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى}[المائدة: ٦٩]، فإن النصارى أفضل من الصابئين فلمّا قُدّموا عليهم نصب لفظ الصابئون، ولكن الصابئون أقدم في الزمان فقُدِّموا ها هنا لتقدم زمنهم، ورفع اللفظ ليكون ذلك عطفًا على المحل، فإن المعطوف على المحل مرتبته التأخير ليشعر أنهم مؤخرون في المرتبة وإن قدموا في الزمن واللفظ(٢).

١- الرد على المنطقيين (٤٥٤-٤٥٧)

٢- (قلت): في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الصابئة المندائية هي طائفة الصابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم، والتي تعتبر يحيى عليه السلام نبيًا لها، يقدّس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظّمونها ويعتبر الإتجاه نحو نجم القطب الشمالي وكذلك التعميد في المياه الجارية من أهم معالم هذه الديانة التي يجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجزية من معتنقيها أسوة بالكتابيين من اليهود والنصارى. وكانوا يقيمون في القدس، وبعد الميلاد طردوا من

قال السعدي: فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر، وصدقوا رسلهم، فإن لهم الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء.

وذلك والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضا ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم. ذكر تعالى حكما عاما يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

قال ابن العثيمين: {من آمن منهم بالله واليوم الآخر}: هذا بدل ممن قبله عائد إلى الذين هادوا، والنصارى، والصابئين.

{فلهم أجرهم}: أي ثوابهم؛ وسمى الله تعالى (الثواب)، أجرا؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير؛ {عند ربهم}: أضاف ربوبيته إليهم على سبيل الخصوص تشريفًا، وتكريمًا، وإظهارًا للعناية بهم؛ فهذه كفالة من الله عز وجل، وضمان، والتزام بهذا الأجر؛ فهو أجر غير ضائع.

{ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}؛ (الخوف) هو الهم مما يستقبل؛ و(الحزن): هو الغم على ما فات من محبوب، أو ما حصل من مكروه؛ ولهذا يقال لمن أصيب بمصيبة: (إنه محزون)؛ ويقال لمن يتوقع أمرًا مرعبًا، أو مُرَوِّعًا: (إنه خائف)؛ وقد يطلق (الحزن) على الخوف مما يستقبل، كقول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار: ((لا تحزن إن الله معنا[1]))، فالمراد - والله أعلم - لا تخف؛ فقوله تعالى: {ولا خوف عليهم}: أي من كل مما يخاف في المستقبل من عذاب القبر، وعذاب النار، وغير ذلك؛ وقوله تعالى: {ولا هم يحزنون}: أي على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم انتقلوا إلى خير منها؛ أما الكافر فيحزن على ما فرط في الحياة الدنيا، ويتحسَّر، كما قال تعالى: {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله}[الزمر: ٥٤- ٥٦]، هذا تحزن، وتحسُّر.

فلسطين فهاجروا إلى مدينة حران فتأثروا هناك بمن حولهم وتأثروا بعبادة الكواكب والنجوم من الصابئة الحرانيين، ومن حران هاجروا إلى موطنهم الحالي جنوبي العراق وإيران وما يزالون فيه ويعرفون بصابئة البطائح.

١- أخرجه البخاري ص٢٩٤، كتاب المناقب، باب ٢٥: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم ٣٦١٥؛ وأخرجه مسلم ص١١٩٩، كتاب الزهد، باب ١٩: في حديث الهجرة ويقال له حديث الرجل، حديث رقم ٧٥٢١ [٧٥] ٢٠٠٩.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا، فكل من آمن بالله واليوم الآخر، فإن له أجره من أي صنف كان.

٢- ثمرة الإيمان بالله، واليوم الآخر. وهو حصول الأجر، وانتفاء الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى.

٣- أنه لا فرق في ذلك بين جنس وآخر؛ فالذين هادوا، والنصارى، والصابئون مثل المؤمنين إذا آمنوا بالله، واليوم الآخر. وإن كان المؤمنون من هذه الأمة يمتازون على غيرهم بأنهم أكثر أجرًا.

٤- عظم أجر الذين آمنوا، وعملوا الصالحات؛ وذلك في قوله تعالى: {عند ربهم}.

٥- أنه إذا ذكر الثناء بالشر على طائفة، وكان منهم أهل خير فإنه ينبغي ذكر أولئك الذين اتصفوا بالخير حتى لا يكون قدحًا عامًّا؛ لأنه تعالى بعدما قال: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق}[البقرة: ٦١]، بيَّن أن منهم من آمن بالله، واليوم الآخر، وأن من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

قال أبو زهرة: عاد القول إلى بني إسرائيل بعد أن ذكر اليهود والنصارى والصابئين، لبيان أنه لا يصح أن ييئسوا من رحمة الله تعالى بعد ما كان منهم في ماضيهم، وما يكون منهم في حاضرهم إن آمنوا بالله حق إيمانه، وبالآخرة إيمان إذعان ورجاء إن أطاعوا، وخوف العقاب إن عصوا.

بين الله تعالى حال اليهود في ماضيهم ويتحمله الذين حضروا النبي ﷺ، لأنهم أقروهم عليه فكان الخطاب بما حصل من أسلافهم موجِّهًا أيضًا لأخلافهم. قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ}.

قال ابن العثيمين: ثم ذكر سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأمر أخذه عليهم، فقال تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم}: يعني اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم؛ وال{ميثاق}: العهد الثقيل المؤكَّد؛ وسمّي بذلك من الوثاق. وهو الحبل الذي يشد به المأسور، كما في قوله تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق}[محمد: ٤].

{ورفعنا فوقكم}: أي فوق رؤوسكم، {الطور}: هو الجبل المعروف؛ رفعه الله. تبارك وتعالى. على بني إسرائيل لما تهاونوا في طاعة الله سبحانه وتعالى إنذارًا لهم، وقال تعالى لهم: {خذوا ما آتيناكم بقوة}: أي: اقبلوا ما أعطيناكم من

التوراة. كما قال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب}[البقرة: ١٢١]. واعملوا به بقوة؛ والمراد بالـ{قوة}، هنا الحزم، والتنفيذ؛ والتطبيق؛ وضده أن يأخذ الإنسان أخذًا ضعيفًا متساهلًا على كسل؛ والباء في قوله تعالى: {بقوة}، للمصاحبة؛ أي خذوا هذا الكتاب – أي التوراة التي جاء بها موسى ﷺ – أخذًا مصحوبًا بقوة، فلا تهملوا شيئًا منه.

{واذكروا ما فيه}: أي اذكروا كل ما فيه، واعملوا به؛ لأن {ما}، اسم موصول يفيد العموم.

{لعلكم تتقون}: {لعل}: للتعليل؛ أي لأجل أن تتقوا الله عز وجل.

قال الطبري: يعني: واذكروا ما فيما آتيناكم من كتابنا من وعد ووعيد شديد، وترغيب وترهيب، فاتلوه، واعتبروا به، وتدبروه إذا فعلتم ذلك، كي تتقوا وتخافوا عقابي، بإصراركم على ضلالكم فتنتهوا إلى طاعتي، وتنزعوا عما أنتم عليه من معصيتي.

قال ابن العثيمين: فالأخذ بهذا الميثاق الذي آتاهم الله على وجه القوة، وذكر ما فيه وتطبيقه يوجب التقوى؛ لأن الطاعات يجر بعضها بعضًا، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}[البقرة: ١٨٣]؛ فالطاعات يَجُرُّ بعضها بعضًا، لأن الطاعة إذا ذاق الإنسان طعمها نشط، وابتغى طاعة أخرى، ويتغذى قلبه؛ وكلّما تغذى من هذه الطاعة رغب في طاعة أخرى؛ وبالعكس المعاصي: فإنها توجب وحشة بين العبد وبين الله عز وجل، ونفورًا، والمعاصي يجر بعضها بعضًا؛ وسبق قوله تعالى: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}[البقرة: ٦١]؛ ثم بعد هذا الإنذار، وكون الجبل فوقهم في ذلك الوقت خضعوا، وخشعوا، قال الله تعالى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة}[الأعراف: ١٧١]؛ ففي تلك الساعة هرعوا إلى السجود؛ وسجدوا؛ ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه؛ ولهذا يقال: إن سجود اليهود إلى الآن سجود مائل كأنما ينظرون إلى شيء فوقهم؛ وقالوا: إن هذا السجود سجدناه لله سبحانه وتعالى لإزالة الشدة؛ فلا نزال نسجد به؛ فهذا سجودهم إلى اليوم.

{ثم توليتم}: أي أعرضتم وأدبرتم عن طاعة الله سبحانه وتعالى، {من بعد ذلك}: المشار إليه: رفع الجبل في قوله تعالى: {ورفعنا فوقكم الطور}؛ والمعنى: بعد هذه الإنابة وقت رفع الطور توليتم، ولم تذكروها؛ ما ذكرتم أن الذي خوفكم بهذا الجبل قد يعيد عليكم ذلك مرة أخرى.

{فلولا فضل الله عليكم ورحمته}، بإرسال الرسل، وبيان السبل، وغير ذلك فالـ{فضل}: بمعنى التفضل؛ و{لولا}، حرف امتناع لوجود؛ و{فضل}، مبتدأ، وخبره محذوف، كما قال ابن مالك:

وبعد لولا غالبا حذف الخبر ... حتم وفي النص يمين ذا استقر

والتقدير: فلولا فضل الله عليكم موجود.

قال الطبري: فلولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الذي واثقتموه – إذ رفع فوقكم الطور – بأنكم تجتهدون في طاعته، وأداء فرائضه، والقيام بما أمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه في الكتاب الذي آتاكم، فأنعم

عليكم بالإسلام ورحمته التي رحمكم بها – وتجاوز عنكم خطيئتكم التي ركبتموها – بمراجعتكم طاعة ربكم لكنتم من الخاسرين.

وهذا، وإن كان خطابًا لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ من أهل الكتاب أيام رسول الله ﷺ، فإنما هو خبر عن أسلافهم، فأخرج الخبر مخرج المخبر عنهم – على نحو ما قد بيَّنّا فيما مضى، من أن القبيلة من العرب تخاطب القبيلة عند الفخار أو غيره، بما مضى من فعل أسلاف المخاطِب بأسلاف المخاطَب، فتضيف فعل أسلاف المخاطِب إلى نفسها، فتقول: فعلنا بكم، وفعلنا بكم.

قال ابن العثيمين: {لكنتم من الخاسرين}: اللام واقعة في جواب {لولا}.

{الخاسرين}: أي الذين خسروا الدنيا، والآخرة، فلم يربحوا منهما بشيء؛ لأن أخسر الناس هم الكفار؛ فلا هم استفادوا من دنياهم، ولا من آخرتهم.

قال الطبري: فلولا فضل الله عليكم ورحمته إياكم – بإنقاذه إياكم بالتوبة عليكم من خطيئتكم وجرمكم – لكنتم الباخسين أنفسكم حظوظها دائمًا، الهالكين بما اجترمتم من نقض ميثاقكم، وخلافكم أمره وطاعته.

قال أبو زهرة: فالخاسرون: هم الذين خسروا أنفسهم، بأن أوقعوها في الهلكة والعذاب. وإن النص القرآني يفيد أن الله بفضله ورحمته أعطاهم مهلة ليتداركوا أمرهم، ولم يكتبهم من الخاسرين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- تذكير الله تبارك وتعالى لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهد؛ لقوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور}؛ وهذا التذكير مقتضاه الإلزام. أي فالتزموا بالميثاق.

٢- عتو بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئذ آمنوا؛ وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن؛ أو تقتل.

٣- بيان قوة الله عز وجل، وقدرته؛ لقوله تعالى: {ورفعنا فوقكم الطور}؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة}[الأعراف: ١٧١]؛ فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل، ويجعله ظلة لا يسقط عليهم إلا الله عز وجل؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

٤- أن الواجب على أهل الملة أن يأخذوا كتابهم بقوة لا بضعف، ولين، ومداهنة؛ بل لابدَّ من قوة في التطبيق، والدعوة؛ التطبيق على أنفسهم؛ ودعوة غيرهم إلى ذلك بدون فتور، ولا تراخ على حد قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}[النمل: ١٢٥]؛ لأنه لا يتم الأمر إلا بهذا.

٥- أن الأخذ بالكتاب المنزل يوجب التقوى؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتقون}: أي لأجل أن تكونوا من المتقين لله عز وجل.

٦- لؤم بني إسرائيل؛ لأنهم بعد أن رجع الجبل إلى مكانه تولّوا، كما قال تعالى: {ثم توليتم من بعد ذلك}؛ وهذا من اللؤم؛ لأن من الواجب أن يذكروا رفع الجبل فوقهم حتى يستقيموا، ويستمروا على الأخذ بقوة؛ لكنهم تولّوا من بعد ما رأوا الآيات.

٧- بيان فضل الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين}.

٨- أن الإنسان لا يستقل بنفسه في التوفيق؛ لقوله تعالى: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته}.

٩- إثبات فضل الله تعالى على بني إسرائيل بما أعطاهم من الآيات الكونية، والشرعية.

١٠- إثبات الأسباب، وربطها بمسبباتها؛ لقوله تعالى: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين}؛ فهذا صريح في إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

قال ابن العثيمين: {ولقد}: اللام موطئة للقسم؛ وعلى هذا فالجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات، وهي: القسم المقدر، واللام، و{قد}؛ والتقدير: (والله لقد)؛ و{علمتم}: الخطاب لبني إسرائيل؛ أي علمتم علم اليقين، وعرفتم معرفة تامَّة {الذين اعتدوا منكم}: أي تجاوزوا الحدود، وطغوا منكم.

{في السبت}: أي في الحكم الذي حكم الله به عليهم يوم السبت؛ وذلك أن الله حرم عليهم العمل والصيد في ذلك اليوم ليتفرغوا للعبادة؛ فابتلاهم بكثرة الحيتان يوم السبت حتى تكون فوق الماء شرعًا، ثم لا يرونها بعد ذلك؛ فتحيَّلوا على صيدها بحيلة، حيث وضعوا شباكًا يوم الجمعة، فتدخل فيه الحيتان إذا جاءت يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: نحن لم نصدها يوم السبت، فقال لهم الله تعالى: {كونوا قردة خاسئين}: أي ذليلين، فصاروا كذلك.

قال الطبري: وهذه الآية وآيات بعدها تتلوها، مما عدد جل ثناؤه فيها على بني إسرائيل - الذين كانوا بين خلال دور الأنصار زمان النبي ﷺ، الذين ابتدأ بذكرهم في أول هذه السورة من نكث أسلافهم عهد الله وميثاقه -[١]ما كانوا يبرمون من العقود، وحذر المخاطبين بها أن يحل بهم - بإصرارهم على كفرهم، ومقامهم على جحود نبوة محمد ﷺ، وتركهم اتباعه والتصديق بما جاءهم به من عند ربه - مثل الذي حل بأوائلهم من المسخ والرجف و الصعق، وما لا قبل لهم به من غضب الله وسخطه.

١- سياق عبارته: مما عدد الله على بني إسرائيل . . . ما كانوا يبرمون من العقود، وما بينهما فصل بصفة (بني إسرائيل).

{ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت}: يقول: ولقد عرفتم – وهذا تحذير لهم من المعصية – يقول: احذروا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت، إذ عصوني، اعتدوا – يقول: اجترأوا – في السبت، قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم – يوم الجمعة – فخالفوا إلى السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم السبت، ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيله والطور يقال لها (مدين)، فحرم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعًا إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فلم يروا حوتًا صغيرًا ولا كبيرًا، حتى إذا كان يوم السبت أتين إليهم شُرَّعًا، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقَرِموا(١)إلى الحيتان، عمد رجل منهم فأخذ حوتًا سرًّا يوم السبت، فخزمه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتدًا في الساحل فأوثقه، ثم تركه، حتى إذا كان الغد، جاء فأخذه – أي: إني لم آخذه في يوم السبت – ثم انطلق به فأكله، حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان! ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل، قال: ففعلوا كما فعل، وأكلوا سرًّا زمانًا طويلًا لم يعجل الله عليهم بعقوبة، حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق. وقالت طائفة منهم من أهل البقيّة: ويحكم! اتقوا الله! ونهوهم عما كانوا يصنعون. وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُون} – لسخطنا أعمالهم – {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُون}[الأعراف: ١٦٤]، قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك، أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم، وفقدوا الناس فلا يرونهم، فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأنًا! فانظروا ما هو! فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوا ليلًا فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد. قال: يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن السوء، لقلنا أهلك الجميع منهم. قالوا: وهي القرية التي قال الله لمحمد ﷺ: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} الآية [الأعراف: ١٦٣].

{فقلنا لهم}: أي فقلنا للذين اعتدوا في السبت – يعني في يوم السبت. وأصل (السبت)، الهدوء والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم: (مسبوت)، لهدوّه وسكون جسده واستراحته، كما قال جل ثناؤه: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}[النبأ: ٩]: أي راحة لأجسادكم. وهو مصدر من قول القائل: (سبت فلان يسبت سبتًا).

{كونوا قردة خاسئين}: أي: صيروا كذلك.

و(الخاسئ): المبعد المطرود، كما يخسأ الكلب يقال منه: (خسأته أخسؤه خسأ وخسوءًا، وهو يخسأ خسوءًا). قال: ويقال: (خسأته فخسأ وانخسأ). ومنه قول الراجز: كالكلب إن قلت له اخسأ انخسأ

١– القرم: شدة الشهوة إلى اللحم، قرم يقرَم (بفتح الراء) قرماً (بفتحتين).

يعني: إن طردته انطرد ذليلًا صاغرًا. فكذلك معنى قوله: {كونوا قردة خاسئين}: أي مبعدين من الخير أذلاء صغراء.

قال ابن العثيمين: {فجعلناها}: أي صيَّرناها؛ واختلف المفسرون في مرجع الضمير المفعول به؛ فقيل: يعود على القرية؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف: {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت}؛ فيكون مرجع الضمير مفهومًا من السياق؛ وقيل: يعود على العقوبة. أي فجعلنا العقوبة؛ لقوله تعالى: {فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالًا}؛ فيكون المعنى: فجعلنا هذه العقوبة نكالًا. {نكالًا}: النكال، والتنكيل أن يعاقب الإنسان بعقوبة تمنعه من الرجوع إلى ما عوقب عليه.

{لما بين يديها وما خلفها}: اختلف في مرجع الضمير {ها}؛ فقيل: يرجع إلى القرية؛ فيكون: {لما بين يديها}: ما قرب منها من القرى من أمامها؛ و{ما خلفها}: ما كان من القرى من خلفها؛ لأن أهل القرى علموا بما نزل بها من العقوبة، فكان ذلك نكالًا لهم؛ وقيل: إن المراد بـ{ما بين يديها}: ما يأتي بعدها: {وما خلفها}: ما سبقها؛ ولكن في هذا إشكالًا؛ لأن من سبقها قد مضى، فلا يكون منتفعًا، ولا ناكلًا إلا أن يراد ب{ما بين يديها} من عاصرها، و{ما خلفها}: من يأتي بعدهم، ويكون (الخلف) هنا بمعنى الأمام، كما جاء (الوراء) بمعنى الأمام في قوله تعالى: {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا}[الكهف: ٧٩].

{وموعظة للمتقين}: أي موضع اتعاظ للذين يتقون الله.

قال السعدي: وجعل الله هذه العقوبة {نكالًا لما بين يديها}: أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم. {وما خلفها}: أي من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- توبيخ اليهود الموجودين في عهد الرسول ﷺ على عدم الإيمان به؛ ووجه ذلك أنهم علموا ما حل بأسلافهم من النكال بسبب المخالفة؛ فكان عليهم أن يكون ذلك موعظة لهم يرتدعون به عن معصية الله ورسوله.

٢- تحريم الحيل، وأن المتحيل على المحارم لا يخرج عن العدوان؛ لقوله تعالى: {الذين اعتدوا منكم في السبت}؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثمًا من إتيان المحرم على وجه صريح؛ لأنه جمع بين المعصية، والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشدُّ جرمًا وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني رحمه الله في المتحيلين: (إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون)؛ وصدق رحمه الله؛ وللحيل مفاسد كثيرة. راجع إن شئت كتاب (إغاثة اللهفان) لابن القيم رحمه الله وغيره.

وأنت إذا تأملت حيل اليهود في السبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلوا ثمنها؛ وتأملت حيل بعض المسلمين اليوم على الربا وغيره، وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذكر أشدُّ حيلة من حيل اليهود. ومع ذلك أحلَّ الله بهم نقمته، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: ((لا تر تكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل([1]))) ؛ فالمتحيل على المحرم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة.

٣- بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب؛ لأن عقوبة هؤلاء المتحيلين أنهم مسخوا قردة خاسئين؛ والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئًا صورته صورة المباح؛ ولكن حقيقته غير مباح؛ فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي؛ وهذا؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ويدلُّ لذلك أيضًا قوله تعالى: {فكلا أخذنا بذنبه}[العنكبوت: ٤٠].

٤- بيان قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {كونوا قردة خاسئين}؛ فكانوا في لحظة قردة.

٥- إثبات القول لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين}.

٦- أن الذين مسخوا قردة من هذه القرية هم الذين اعتدوا في السبت؛ وأما الذين نهوا عن السوء فقد نجوا؛ وأما الذين سكتوا عن المعتدين، ولم يشاركوهم فقد سكت الله عنهم؛ فنسكت عنهم.

٧- أن العقوبات فيها تنكيل لغير العامل؛ لقوله تعالى: {فجعلناها نكالًا لما بين يديها وما خلفها}؛ ولهذا يقص الله علينا من نبأ المكذبين للرسل ما يكون لنا فيه عبرة، كما قال عز وجل: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}[يوسف: ١١١].

٨- أن الحدود الشرعية نكال للفاعل أن يعود مرة أخرى إلى هذا الذنب، ولغير الفاعل.

٩- أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون.

١٠- أن المواعظ قسمان: كونية، وشرعية؛ فالموعظة هنا كونية قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالًا لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين؛ وأما الشرعية فمثل قوله تعالى: {يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور}[يونس: ٥٧]؛ والمواعظ الكونية أشدُّ تأثيرًا لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيرًا في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.

١١- أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية، ولا بالمواعظ الشرعية؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطرارًا، وإكراهًا؛ وقد لا ينتفع؛ وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية، كما قال تعالى: {وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم}[الطور: ٤٤]؛ وقد ينتفع، ويرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى: {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم

١- قال ابن القيم: رواه أبو عبد الله ابن بطة: حدثنا أحمد بن سلام حدثنا الحسن بن صباح حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو، وهذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي. أهـ. إغاثة اللهفان ١/٥١٣؛ عون المعبود مع شرح ابن القيم ٩/٣٤٠.

- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الإرواء (١٥٣٥)، وتحقيق صفة الفتوى.

يشركون}[العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور}[لقمان: ٣٢].

١٢– أن من فوائد التقوى. وما أكثر فوائدها، أن المتَّقي يتعظ بآيات الله سبحانه وتعالى الكونية، والشرعية.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

قال ابن العثيمين: {وإذ قال موسى لقومه}: أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قال موسى لقومه، وإضافة (القوم) إليه لبيان أنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقول لهم إلا ما فيه خير؛ لأن الإنسان سوف ينصح لقومه أكثر مما ينصح لغيرهم.

{إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}: قالها في جواب ذكره الله سبحانه وتعالى في أثناء القصة: {وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون}؛ فقد قتل منهم نفس فتخاصموا، وتدافعوا: كل يدعي أن هؤلاء قتلوه؛ حتى كادت تثور الفتنة بينهم؛ ولا حاجة بنا إلى أن نعلل لماذا قتل؛ أو لأي غرض؛ هذا ليس من الأمور التي تهمنا؛ لأن القرآن لم يتكلم بها؛ ولكن غاية ما يكون أن نأخذ عن بني إسرائيل ما لا يكون فيه قدح في القرآن، أو تكذيب له، فقالوا: لا حاجة إلى أن نتقاتل، ويذهب بعضنا بعضًا؛ نذهب إلى نبي الله موسى، ويخبرنا من الذي قتله؛ فذهبوا إليه، فقال لهم: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}، صدر الأمر من الله؛ لم يقل: آمركم، ولا قال: اذبحوا؛ بل قال: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}؛ ليكون أعظم وقعًا في نفوسهم، وأدَّعى إلى قبوله، وامتثاله. وقوله: {بقرة}: لم تعين بوصف؛ فلو ذبحوا أيّ بقرة كانت لكانوا ممتثلين؛ ولكنهم تعنتوا، وتشدَّدوا فشدد الله عليهم. كما سيأتي.

قال أبو زهرة: ولو أتَوا إلى أية بقرة فذبحوها لكان في ذلك استجابة لأمر الله تعالى؛ لأن الأمر المطلق تتحقق الإجابة فيه بالتنفيذ في أيّة جزئيّة من جزئياته، والمطلق يتحقّق وجوده في أي فرد من أفراده، ولكن الطلب لم يصادف

أهواءهم وحالهم في ذات أنفسهم، فأخذوا يراوغون بكثرة الاستفهام، وإن أوَّل التمرُّد هو كثرة الأسئلة، فالطاعة ألّا تتمرَّد، ولا تثير الجدل، وكان أوَّل قولهم في مجاوبة نبي الله وكليمه موسى عليه السلام أن قالوا، وكأنهم يتهكَّمون: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا}؟ والهزو: اللعب والسخرية، أي أنهم يستغربون ذلك الطلب، ولا ندري لماذا يكون الأمر بالذبح سخرية بهم، وعبثًا بعقولهم العابثة، إلّا أن يكون ذلك مخالفًا لمألوفهم، وبالغوا في الهزء فقالوا: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا}: أي أتجعلنا بأمرك في موضع الهزء والسخرية، وذلك لِما ألَّفوه من أن البقرة مقدَّسة لا تذبح بل تعبد، وإذا لم تكن عندهم هذه الحال فإنه لَا موضع لأن يستهزأ بهم، ولا أن يسخر منهم بذكر أمر الله تعالى.

قال ابن العثيمين: {قالوا أتتَّخذنا هزوًا}؛ {هزوًا}: مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي أتتَّخذنا مهزوءًا بنا؛ ويجوز أن تكون {هزوًا} على بابها؛ ويكون المعنى: أتتَّخذنا ذوي هزء؛ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ و(الهزء)، السخرية؛ وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم أن يكون ذبح البقرة سببًا لزوال ما بينهم من المدارئة؛ والتعبير بقولهم: {أتتَّخذنا هزوًا}، أبلغ من قول (أتستهزئ بنا)؛ لأن الأُولى تفيد أنهم جعلوا محل استهزاء. بخلاف الثانية فإنما تدل على حصول الاستهزاء ولو بمرة واحدة.

فأجابهم نبي الله بقوله: {أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}: أي أعتصم بالله أن أكون من أولي الجهل فأتَّخذ عباد الله هزوًا؛ والمراد بـ(الجهل) هنا السفه، كما في قوله تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة}: أي بسفاهة، {ثم يتوبون من قريب}[النساء: ١٧].

قال السعدي: فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأمّا العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق فقالوا: {ادع لنا ربك يبين لنا ما هي}.

قال ابن العثيمين: {قالوا ادع لنا ربك}: سبق الكلام على نظيرها؛ {يبيّن لنا ما هي}: هذا الطلب ليس له وجه؛ لأن اللفظ بيِّن: فالبقرة معلومة، والمطلق ليس مجملًا يحتاج إلى بيان لوضوح معناه؛ فإذا قيل مثلًا: (أكرم رجلًا)؛ فلا يحتاج أن تقول: (ما صفة هذا الرجل)؟؛ إذا أكرمت أيّ رجل حصل المقصود؛ فلو أنهم ذهبوا، وذبحوا أيّ بقرة، وامتثلوا ما أمروا به لانتهى الأمر؛ ولكنهم تعنتوا.

{قال}: أي موسى، {إنه يقول}: أي الله عز وجل، {إنها بقرة لا فارض ولا بكر}: ال{بكر} معروف: التي لم تلد، ولا قرعها الفحل، وال{فارض}، تعرف بمقابلها، فإذا كانت ال{بكر} هي التي لم يقرعها الفحل، فإن ال{فارض} هي المسنة الكبيرة؛ ومعرفة معنى الكلمة بمعرفة ما يقابلها له نظير في القرآن، مثل قوله تعالى: {فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا}[النساء: ٧١]؛ فكلمة: {ثبات} هنا يتبين معناها بما ذكر مقابلًا لها. وهو قوله تعالى: {أو انفروا جميعًا}؛ فيكون معناها: متفرقين أفرادًا.

{عوان بين ذلك}: أي وسط بين ذلك. أي بين كونها فارضًا وبكرًا؛ وفيه إشكال على هذا: لأنه إذا كان المشار إليه اثنين وجب تثنية اسم الإشارة؛ واسم الإشارة هنا مفرد مذكر؟ والجواب عنه أن يقال: {بين ذلك}: أي بين ذلك المذكور من الفارض والبكر، أي لا تكون هكذا، ولا هكذا، ولكن عوان بين ذلك المذكور.

{فافعلوا ما تؤمرون}: هذا الأمر من موسى؛ وليس من كلام الله عز وجل؛ فموسى يقول لبني إسرائيل: افعلوا ما تؤمرون به من ذبح بقرة لا فارض، ولا بكر، ولا تتعنتوا فيشدد عليكم مرة ثانية؛ ولو أنهم امتثلوا، وذبحوا بقرة عوانًا بين ذلك لحصل المقصود؛ وكان عليهم أن يفعلوا وإن لم يأمرهم نبيهم به؛ ولكنهم أهل عناد وتعنت؛ ولهذا أمرهم أمرًا ثانيًا؛ ومع ذلك قالوا: {ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها}: كل هذا من باب التعنت، والتشدد؛ و{ما لونها}: يعني أي شيء لونها. بيضاء؛ سوداء؛ شهباء..؟

{قال}: أي موسى، {إنه يقول}: أي الله سبحانه وتعالى: {إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين}: شدّد عليهم مرة أخرى في اللون: أولًا حيث قال تعالى: {إنها بقرة صفراء}، فخرج بهذا ما عدا الصفرة من الألوان، وهذا نوع تضييق؛ ثانيًا بكونها: {فاقع لونها}؛ وال{فاقع}: يعني الصافي؛ والمعنى: أنه ليس فيه ما يشوبه، ويخرجه عن الصفرة؛ وقيل: معنى {فاقع لونها}: أي شديد الصفرة، وهو كلما كان صافيًا كان أبين في كونه أصفر؛ ثالثًا بكونها: {تسر الناظرين}: يعني ليست صفرتها صفرة توجب الغم؛ أو صفرتها مستكرهة؛ بل هي صفرة تجلب السرور لمن نظر إليها؛ فصار التضييق من ثلاثة أوجه: صفراء؛ والثاني: فاقع لونها؛ والثالث: تسر الناظرين.

{قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي}: هذا أيضًا طلب ثالث؛ يقولون: {ادع لنا ربك يبين لنا ما هي}: أي من حيث العمل؛ {إن البقر تشابه علينا}: أي اشتبه علينا البقرة المطلوبة؛ وفي الحقيقة أنه ليس في هذا اشتباه؛ إذ ذكر لهم أنها بقرة، وذكر لهم سنّها؛ وذكر لهم لونها؛ فأين التشابه؟! لكن هذا من عنادهم، وتعنتهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

{وإنا إن شاء الله لمهتدون}: أكدوا الهداية هنا بمؤكدين؛ وهما: {إن}، واللام؛ ومؤكد ثالث؛ وهو الجملة الاسمية؛ وهي أبلغ من الجملة الفعلية، وأخذوا على أنفسهم أنهم سيهتدون؛ ولكنهم علقوا ذلك بمشيئة الله، قال بعض السلف: (لو لم يقولوا: {إن شاء الله}، لم يهتدوا إليها أبدًا). وهذا فيما إذا كان قصدهم تفويض الأمر إلى الله عز وجل؛ ويحتمل أن يكون قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: (إن الله لم يشأ أن نهتدي)! وما هذا الاحتمال ببعيد عليهم .. فأجابهم على هذا: {قال}: أي موسى، {إنه يقول}: أي الله عز وجل، {إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها}: هذا أيضًا تشديد زيادة على ما سبق؛ و{ذلول}، على وزن فعول؛ وهي المتذلّلة التي ذُلّلت لصاحبها؛ و(والمذلّلة)، هي التي تثير الأرض للزرع؛ و{لا تسقي الحرث}: أي لا يسنى عليها؛ فهي ليست سانية، ولا حارثة؛ و{مسلمة}: أي من العيوب؛ {لا شية فيها}: أي ليس فيها لون يخالف لونها؛ مأخوذ من وشي الثوب، وهو تلوينه بألوان مختلفة، مثل عدة مأخوذة من الوعد؛ إذا هي صفراء ليس فيها سواد، ولا فيها بياض، ولا فيها أي لون آخر؛ وهذا كله من زيادة التشديد عليهم.

قال أبو زهرة: والأوصاف التي يشترط وجودها ليكون ذبحها سائغًا جائزًا:

أولها: أنها ليست ذلولً؛ أي ليست مذلّلة لعمل معيَّن بل هي مطلقة ترعى في الكلأ، لَا رقابة عليها، ولا سلطان لأحد.

وثانيها: أنها لم تُعَدّ لحرث الأرض وإثارتها، ليرمى في الزرع.

وثالثها: أنها لَا تسقي الزرع، فلا تدير ساقية تسقي الزرع.

والوصف الرابع: أنها مسلَّمة، أي سليمة من العرج، ومن كل ما يشوب جسمها من شوائب المرض، ف{مسلَّمة}: اسم مفعول من (سلّم)، أي أن الله تعالى سلَّمها من كل العيوب الجسمية، فلا بها عرج، ولا عور، ولا أي عيب جسمي.

والوصف الخامس: أنه {لَا شية فيها}: أي ليس فيها لون يخالف لونها الذي يعمّ كل أجزائها، وال{شية} أصلها (وشية) حذفت فاؤها، لأنها وصلة، وال{شية} مأخوذة من (وشى الثوب) إذا نسج على لونين مختلفين.

قال ابن العثيمين: وبهذا التقرير نعرف أنه لا حاجة بنا إلي ما ذكره كثير من المفسرين من الإسرائيليات من أن هذه البقرة كانت عند رجل بار بأمه، وأنهم اشتروها منه بملء مسكها ذهبًا. يعني بملء جلدها ذهبًا؛ وهذا من الإسرائيليات التي لا تصدق، ولا تكذب، ولكن ظاهر القرآن هنا يدل على كذبها؛ إذ لو كان واقعًا لكان نقله من الأهمية بمكان لما فيه من الحثّ على برّ الوالدين حتى نعتبر؛ فالصواب أن نقول في تفسير الآية ما قال الله عز وجل، ولا نتعرض للأمور التي ذكرها المفسرون هنا من الحكايات.

قال السعدي: واعلم أن كثيرًا من المفسرين رحمهم الله، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرًا لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج([1]))، والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرًا لكتاب الله قطعًا إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم([2]))، فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكًا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعًا بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

قال ابن العثيمين: {قالوا الآن جئت بالحق}؛ {الآن}، اسم زمان يشار به للوقت الحاضر؛ فمقتضى كلامهم أنه أولًا أتى بالباطل، وقد صدروا هذه القصة بقولهم: {أتتخذنا هزوا}؛ يعني الآن عرفنا أنك لست تستهزئ؛ وإنما أنت صادق؛ هذا هو المتبادر من الآية الكريمة، وليس بغريب على تعنتهم أن يقولوا مثل هذا القول؛ وقال بعض المفسرين اتقاء لهذا المعنى البشع: إن المراد بقولهم: {بالحق}: أي بالبيان التام، أي الآن بينت لنا أوصافها، فجعلوا {الحق}

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣١٣١).

٢- (قلت): البخاري (٤٤٨٥). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ} الآيَةَ...)).

هنا بمعنى البيان؛ ولكن الصواب أن {الحق} هنا ضد الهزء والباطل؛ يدلّ على ذلك أنهم صدروا هذه القصة بقولهم: {أتتخذنا هزوا}؛ فبعد هذه المناقشات مع موسى، والسؤالات، وطلب الله عز وجل قالوا: {الآن جئت بالحقّ}، وعرفنا أنك لست مستهزئًا بنا؛ بل إنك جاد فيما تقول.

{فذبحوها}: أي بعد العثور عليها بأوصافها السابقة؛ {وما كادوا يفعلون}: أي ما قاربوا أن يفعلوا؛ وذلك بإيرادهم الطلب عن سنها، ولونها، وعملها، وهذا تباطؤ يبعدهم من الفعل؛ لكنهم فعلوا؛ لقوله تعالى: {فذبحوها}.

قال أبو زهرة: ونرى أن هذه الأوصاف في البقرة تشبه الأوصاف التي كان يذكرها قدماء المصريين في العجل الذي يعبدونه، فأتى الله سبحانه وتعالى بأوصافه، لتبيَّن أنهم خلصوا من نفوسهم كل أوهام المصريين في البقر.

وقد يقال: إنه كان عجلًا، ولم يكن بقرة، فنقول: إن بقرة مفرد لاسم جنس جمعي هو البقر، ويراد به الذكور والإناث، وإن طلب ذبح بقرة تتشابه في أوصافها مع أوصاف العجل الذي توهموا أنه يستحق أن يعبد، فيه اختبار شديد لهم، وحمل لهم على أن يخلعوا كل أوهام المصريين التي سرت إلى نفوسهم.

ولقد قال تعالى من بعد ذلك: {فَذَبَحوهَا}: أي قاموا بذبحها، {وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} لكثرة لجاجتهم، ومراوغاتهم وجدلهم، ولكن الله سبحانه وتعالى راضهم على ذلك حتى فعلوا كارهين غير راضين.

قال ابن العثيمين: {وإذ قتلتم نفسًا}: أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفسًا؛ ووجه الخطاب لمن كانوا في عهد النبي ﷺ مع أن الفعل كان ممن سبقهم؛ لأن الأمة الواحدة بمنزلة الجسد الواحد؛ وفعل أولها كفعل آخرها فيما يلحقهم من ذم.

{فادارأتم فيها}: أي تدافعتم؛ كل منكم يدافع عن نفسه التهمة، ويتهم الآخر، وكان قد قتل منهم قتيل من إحدى القبيلتين؛ فادعت كل واحدة أن الأخرى هي قاتلته؛ وكاد يكون بينهم فتنة؛ فأتوا إلى موسى، فقال لهم: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ... } إلخ.

{والله مخرج ما كنتم تكتمون}: أي مظهر ما كنتم تخفونه من تعيين القاتل؛ وذلك بالآية العظيمة التي بينها في قوله تعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها}؛ القائل هو الله عز وجل؛ ولكن عن طريق الوحي إلى نبيه موسى عليه الصلاة والسلام؛ وأضاف قول موسى إليه تبارك وتعالى؛ لأنه هو الآمر به، كما في قوله سبحانه وتعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه}[القيامة: ١٦– ١٨]: فالمراد بقوله تعالى: {قرأناه} قرأه جبريل عليه الصلاة والسلام؛ فهنا قوله تعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها}: يعني أن الله تعالى أمر نبيه موسى ﷺ، فقال لهم بأمر الله: {اضربوه ببعضها}: أي اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة؛ ولم يعين الله تعالى البعض: أهو الساق؛ أو الفخذ؛ أو الرقبة؛ أو الرأس، أو أي جزء من أجزائها، فليس لنا أن نعينه بجزء منها.

{كذلك يحيي الله الموتى}: أي مثل إحياء هذا القتيل يحيي الله عز وجل الموتى بكلمة واحدة، كما قال تعالى: {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون}[يس: ٥٣].

{ويريكم آياته}: أي يظهرها لكم حتى تروها؛ والمراد بـ{الآيات} هنا الآيات الكونية؛ لأنها إحياء ميت بضربه بجزء من أجزاء هذه البقرة؛ ويحتمل أن يكون المراد آياته الشرعية أيضًا؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام أمرهم بذلك؛ فضربوا الميت ببعض هذه البقرة؛ فصار ذلك مصداقًا لقول موسى عليه الصلاة والسلام.

قال ابن كثير: ونَبَّه تَعَالَى عَلَى قُدْرَتِهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ: جَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ الصُّنْعَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَى الْمَعَادِ، وَفاصِلًا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْفَسَادِ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا خَلَقَهُ فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ}[الْبَقَرَةِ: ٥٦]. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ، وَقِصَّةُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَقِصَّةُ الذِي مرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَقِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَالطُّيُورِ الْأَرْبَعَةِ. وَنَبَّهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ صَيْرُورَتِهَا رَمِيمًا.

مَسْأَلَةٌ: اسْتُدِلَّ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ فِي كَوْنِ قَوْلِ الْجَرِيحِ: فُلَانٌ قَتَلَنِي لَوْثًا بِهَذِهِ الْقِصَّةِ؛ لِأَنَّ الْقَتِيلَ لَمَّا حَيِيَ سُئِلَ عَمَّنْ قَتَلَهُ فَقَالَ: قَتَلَنِي فُلَانٌ، فَكَانَ ذَلِكَ مَقْبُولًا مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُخْبِرُ حِينَئِذٍ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يُتَّهَمُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ، وَرَجَّحُوا ذَلِكَ بِحَدِيثِ أَنَسٍ: أَنْ يَهُودِيًّا قَتَلَ جَارِيَةً عَلَى أَوْضَاحٍ لَهَا، فَرَضَخَ رَأْسَهَا بَيْنَ حَجَرَيْنِ فَقِيلَ: مَنْ فَعَلَ بِكِ هَذَا؟ أَفُلَانٌ؟ أَفُلَانٌ؟ حَتَّى ذُكِرَ الْيَهُودِيُّ، فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا، فَأُخِذَ الْيَهُودِيُّ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اعْتَرَفَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَدَّ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ(١)وَعِنْدَ مَالِكٍ: إِذَا كَانَ لَوْثًا حَلَفَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ قَسَامَةً، وَخَالَفَ الْجُمْهُورُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَجْعَلُوا قول القتيل فِي ذَلِكَ لَوْثًا.

قال ابن العثيمين: {لعلكم تعقلون}؛ {لعل}، للتعليل؛ أي لأجل أن تعقلوا عن الله تبارك وتعالى آياته، وتفهموها؛ والعقل هو ما يحجز الإنسان عن فعل ما لا ينبغي؛ وهو خلاف الذكاء؛ فالذكاء هو سرعة البديهة، والفهم؛ وقد يكون الإنسان ذكيًا، ولكنه ليس بعاقل.

قال السعدي: {لعلكم تعقلون} فتنزجرون عن ما يضركم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٩ص٢٨٦: أَنَّ اسْمَ الْعَقْلِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَجُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ إنَّمَا هُوَ صِفَةٌ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى عَرَضًا قَائِمًا بِالْعَاقِلِ، وَعَلَى هَذَا دَلَّ الْقُرْآنُ فِي قَوْله تَعَالَى: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، وَقَوْلِهِ: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}[الحج: ٤٦]، وَقَوْلِهِ: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[آل عمران: ١١٨]، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ مَصْدَرُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْعَقْلُ لَا يُسَمَّى بِهِ مُجَرَّدُ الْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يَعْمَلْ بِهِ صَاحِبُهُ، وَلَا الْعَمَلُ بِلَا عِلْمٍ، بَلْ إنَّمَا يُسَمَّى بِهِ الْعِلْمُ الَّذِي يُعْمَلُ بِهِ وَالْعَمَلُ بِالْعِلْمِ، وَلِهَذَا

١- (قلت): البخاري (٥٢٩٥). والحديث بتمامه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ عَدَا يَهُودِيٌّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى جَارِيَةٍ فَأَخَذَ أَوْضَاحًا كَانَتْ عَلَيْهَا وَرَضَخَ رَأْسَهَا فَأَتَى بِهَا أَهْلُهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهِيَ فِي آخِرِ رَمَقٍ وَقَدْ أُصْمِتَتْ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ قَتَلَكِ فُلَانٌ؟)) لِغَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا، فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لاَ، قَالَ: ((فَقَالَ لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا؟)) فَأَشَارَتْ أَنْ لاَ، فَقَالَ: ((فَفُلاَنٌ لِقَاتِلِهَا؟)) فَأَشَارَتْ أَنْ نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُضِخَ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ.
- ومسلم عن أنس (١٦٧٢/١٥).
- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((على أوضاح لها)): أي لأجل حلى لها من قطع فضة ذكر أهل اللغة أن الفضة تسمى وضحا لبياضها، ويجمع على أوضاح، ((رمق)) الرمق هو بقية الحياة والروح.

قَالَ أَهْلُ النَّارِ: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}[الحج: ٤٦].

وَالْعَقْلُ الْمَشْرُوطُ فِي التَّكْلِيفِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عُلُومًا يُمَيِّزُ بِهَا الْإِنْسَانُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ، فَالْمَجْنُونُ الَّذِي لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الدَّرَاهِمِ وَالْفُلُوسِ، وَلَا بَيْنَ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ، وَلَا يَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ لَيْسَ بِعَاقِلٍ، أَمَّا مَنْ فَهِمَ الْكَلَامَ وَمَيَّزَ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ فَهُوَ عَاقِلٌ.

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: الْعَقْلُ هُوَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْعَقْلُ هُوَ الْعَمَلُ بِمُوجَبِ تِلْكَ الْعُلُومِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ اسْمَ الْعَقْلِ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَقَدْ يُرَادُ بِالْعَقْلِ نَفْسُ الْغَرِيزَةِ الَّتِي فِي الْإِنْسَانِ الَّتِي بِهَا يَعْلَمُ وَيُمَيِّزُ وَيَقْصِدُ الْمَنَافِعَ دُونَ الْمَضَارِّ، كَمَا قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَالْحَارِثُ المحاسبي وَغَيْرُهُمَا: أَنَّ الْعَقْلَ غَرِيزَةٌ، وَهَذِهِ الْغَرِيزَةُ ثَابِتَةٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ، كَمَا أَنَّ فِي الْعَيْنِ قُوَّةً بِهَا يُبْصِرُ، وَفِي اللِّسَانِ قُوَّةً بِهَا يَذُوقُ، وَفِي الْجِلْدِ قُوَّةً بِهَا يَلْمِسُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تعظيم الله عز وجل، حيث أسند الأمر إليه بصيغة الغائب، كقوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} [النحل: ٩٠].

٢- أنه ينبغي للإنسان أن يسلك الأسباب التي تؤدي إلى قبول الأمر، أو الخبر؛ لقوله: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}.

٣- استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: {أتتخذنا هزوًا}، وقد أخبرهم أن الله تعالى أمرهم أن يذبحوا بقرة؛ فلم يحملوا هذا محمل الجد مع أن الواجب أن يحملوا هذا محمل الجد؛ لأنه أمر من الله عز وجل.

٤- أن الاستهزاء بالناس من الجهل وهو الحمق، والسفه؛ لقول موسى عليه الصلاة والسلام: {أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}.

٥- أن جميع الخلق محتاجون إلى الله تعالى، وإلى الاعتصام به عز وجل؛ فإن موسى ﷺ كان من أولي العزم من الرسل؛ ومع ذلك فهو محتاج إلى ربه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: {قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}؛ والاستعاذة لا تكون إلا بالله عز وجل؛ وقد تكون بالمخلوق فيما يقدر عليه، مثل قوله ﷺ: ((فمن وجد معاذا فليعذ به[١])).

٦- استكبار بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام: {ادع لنا ربك}؛ فأمروه أمرا، ثم أضافوا ربوبية الله عز وجل إلى موسى، كأنهم متبرئون من ذلك؛ فلم يقولوا: (ادع ربنا)، أو (ادع الله)؛ ومما يدل على استكبارهم كونهم

١- أخرجه البخاري ص٥٩٠ - ٥٩١، كتاب الفتن، باب ٩: تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، حديث رقم ٧٠٨١؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٧ - ١١٧٨، كتاب الفتن، باب ٣: نزول الفتن كمواقع القطر، حديث رقم ٧٢٤٩ [١٢] ٢٨٨٦.

طلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم ما هذه البقرة مع أن البقرة معروفة؛ وهي عند الإطلاق تشمل أي واحدة.

٧- تأكيد الأمر على بني إسرائيل أن يفعلوه؛ لقوله: {فافعلوا ما تؤمرون}؛ ومع ذلك لم يمتثلوا؛ بل تعنتوا، وطلبوا شيئًا آخر: {قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها}؛ فسألوه عن اللون مع أن أي لون يمكن أن يكون في البقرة لا يمنع من إجزائها.

٨- بيان ما يدلُّ أيضًا على تعنتهم؛ وذلك أنهم طلبوا بيان هل البقرة عاملة، أو غير عاملة.

٩- أن استعمال البقر في الحرث والسقي كان قديمًا معروفًا بين الأمم، ولا يزال إلى وقتنا هذا قبل أن تظهر الآلات الحديدية.

١٠- تشديد الله عليهم، حيث أمرهم بذبح بقرة موصوفة بهذه الصفات التي يعز وجودها في بقرة واحدة؛ وذلك بأن تكون متوسطة في السن لا فارضًا ولا بكرًا؛ وأن تكون صفراء فاقعا لونها تسر الناظرين؛ وألا تكون ذلولًا تثير الأرض وتسقي الحرث؛ وأن تكون مسلمة ليس فيها شيء من العيوب.. وألا يخالط لونها لون آخر؛ لقوله: {لا شية فيها}.

١١- أن من شدد على نفسه شدَّد الله عليه كما حصل لهؤلاء؛ فإنهم لو امتثلوا أول ما أمروا، فذبحوا أي بقرة لكفاهم؛ ولكنهم شددوا، وتعنتوا، فشدَّد الله عليهم؛ على أنه يمكن أن يكون تعنتهم هذا للتباطؤ في تنفيذ الأمر.

١٢- أن بني إسرائيل أرادوا أن يتقهقروا عن تنفيذ أمر الله عز وجل على درجات؛ الدرجة الأولى: ما سبق من قولهم: {أتتَّخذنا هزوًا}؛ الدرجة الثانية: قولهم: {ادع لنا ربك يبين لنا ما هي}، الدرجة الثالثة: قولهم: {ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها}؛ الدرجة الرابعة: قولهم: {ادع لنا ربك يبين لنا ما هي}، مرة أخرى.

١٣- استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا: {الآن جئت بالحق}؛ فكأنهم يقولون: الآن رضينا بوصف هذه البقرة، ثم قاموا بذبحها على مضض؛ وكل هذا يدل على استهتارهم بأوامر الله عز وجل.

١٤- أن الإنسان إذا لم يقبل هدى الله عز وجل من أول مرة فإنه يوشك أن يشدّد الله عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ ((إن الدين يسر؛ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه [1])).

١٥- تذكير بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم ببيان الأمر الواقع حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم.

١٦- تأخير ذكر السبب بعد القصة، والمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها.

١٧- أن قول الرسول قول لمرسله إذا كان بأمره؛ لقوله تعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها}.

١٨- أن البعض الذي ضرب به هذا القتيل من البقرة غير معلوم؛ لقوله تعالى: {ببعضها}؛ فقد أبهمه الله؛ ومحاولة بعض المفسرين أن يعينوه محاولة ليس لها داع؛ لأن المقصود الآية.

١- أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٩: الدين يسر، حديث رقم ٣٩.

١٩- أنه ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمعنى القصة، وغرضها دون من وقعت عليه؛ لقوله تعالى: {ببعضها}؛ ولم يعين لهم ذلك توسعة عليهم؛ ليحصل المقصود بأي جزء منها؛ ولهذا نرى أنه من التكلف ما يفعله بعض الناس إذا سمع حديثًا أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ((يا رسول الله ...)) كذا وكذا؛ تجد بعض الناس يتعب، ويتكلف في تعيين هذا الرجل؛ وهذا ليس بلازم؛ المهم معنى القصة، وموضوعها؛ أما أن تعرف من هذا الرجل؟ من هذا الأعرابي؟ ما هذه الناقة مثلًا؟ ما هذا البعير؟ فليس بلازم؛ إذ إن المقصود في الأمور معانيها، وأغراضها، وما توصل إليه؛ فلا يضر الإبهام. اللهم إلا أن يتوقف فهم المعنى على التعيين.

٢٠- أن المبهم في أمور متعددة أيسر على المكلف من المعين؛ وذلك إذا كانوا قد أمروا أن يضربوه ببعضها فقط؛ فإذا قيل لك: (افعل بعض هذه الأشياء)، يكون أسهل مما إذا قيل لك: (افعل هذا الشيء بعينه)؛ فيكون في هذا توسعة على العباد إذا خيروا في أمور متعددة. والله أعلم.

٢١- أن هذه الآية من آيات الله عز وجل وهي أن تكون البقرة سببًا لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تذبح البقرة، ويضرب القتيل ببعضها، فيحيى.

٢٢- أن بيان الأمور الخفية التي يحصل فيها الاختلاف، والنزاع، من نعمة الله عز وجل؛ يعني مثلًا إذا اختلفنا في أمور، وكاد الأمر يتفاقم، ويصل إلى الفتنة، ثم أظهر الله ما يبينه فإن هذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ لأنه يزيل بذلك هذا الخلاف، وهذا النزاع.

٢٣- أن الله سبحانه وتعالى يخرج ما كان يكتمه أهل الباطل، ويبينه للناس؛ لقوله تعالى: {والله مخرج ما كنتم تكتمون}؛ واذكروا قول الله تعالى: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطًا}[النساء: ١٠٨].

٢٤- التحذير من أن يكتم الإنسان شيئًا لا يرضاه الله عز وجل؛ فإنه مهما يكتم الإنسان شيئا مما لا يرضي الله عز وجل فإن الله سوف يطلع خلقه عليه إلا أن يعفو الله عنه.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

قال ابن العثيمين: {ثم قست قلوبكم}: أي صلبت، وتحجَّرت؛ {من بعد ذلك}: أي من بعد أن منّ الله عليكم بما حصل من المدارأة في القتيل حتى تبين.

{فهي}: أي قلوبكم، {كالحجارة}: أي مثلها؛ {أو أشد قسوة}: أي من الحجارة؛ لأن الحجارة أقسى شيء، حتى إنها أقسى من الحديد؛ إذ إن الحديد يلين عند النار، والحجارة تتفتت، ولا تلين؛ و{أو} هنا ليست للشك؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بحالها؛ لكن اختلف العلماء رحمهم الله هل هي بمعنى (بل)، فتكون للإضراب؛ أو إنها لتحقيق ما سبق، أي: أنها إن لم تكن أشد من الحجارة فهي مثلها؟ في هذا قولان لأهل العلم رحمهم الله؛ وهي كقوله تعالى: {وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون}[الصافات: ١٤٧]: فمن العلماء من قال: إن {أو}، بمعنى (بل)، أي: بل يزيدون على مائة ألف؛ ومنهم من قال: إنها لتحقيق ما سبق، أي: إن لم يزيدوا على مائة ألف فإنهم لن ينقصوا؛ والله أعلم بما أراد في كتابه.

قال الطبري: فإن سأل سائل فقال: وما وجه قوله: {فهي كالحجارة أو أشد قسوة}، و(أو) عند أهل العربية، إنما تأتي في الكلام لمعنى الشك، والله تعالى جل ذكره غير جائز في خبره الشك؟

قيل: إن ذلك على غير الوجه الذي توهَّمته، من أنه شكٌّ من الله جل ذكره فيما أخبر عنه، ولكنه خبرٌ منه عن قلوبهم القاسية، أنها - عند عباده الذين هم أصحابها، الذين كذبوا بالحق بعد ما رأوا العظيم من آيات الله - كالحجارة قسوة أو أشد من الحجارة، عندهم وعند من عرف شأنهم.

قال ابن العثيمين: ثم بين الله عز وجل أن الحجارة فيها خير بخلاف قلوب هؤلاء فإنه لا خير فيها؛ فقال تبارك وتعالى: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار}: يعني إن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار، أي أنهار الماء التي يشرب الناس منها، ويسقون بها زروعهم، ومواشيهم، وقوله تعالى: {لما يتفجر}: {ما}: اسم موصول في محل نصب اسم {إن}؛ واللام للتوكيد؛ أي: للذي يتفجر منه الأنهار.

{وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء}: وهي دون الأول؛ الأول يتفجر منها الأنهار؛ أما هذه فإنها تتشقق، ويخرج منها الماء كالذي يحصل في أحجار الآبار، وما أشبهها.

{وإن منها لما يهبط من خشية الله}، كما قال تعالى: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله}[الحشر: ٢١]، ولما قال موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك}[الأعراف: ١٤٣]، قال الله سبحانه وتعالى له: {لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكًّا وخرَّ موسى صعقا}[الأعراف: ١٤٣].

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: وإن من الحجارة لما يهبط - أي يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح - من خوف الله وخشيته.

قال ابن العثيمين: {من خشية الله}، {من} هنا سببية؛ و{خشية الله}: أي خوفهم مع العلم بعظمته.

قال البغوي: فَإِنْ قِيلَ: الْحَجَرُ جَمَادٌ لَا يَفْهَمُ فَكَيْفَ يَخْشَى؟ قِيلَ: اللَّهُ يُفْهِمُهُ وَيُلْهِمُهُ فَيَخْشَى بِإِلْهَامِهِ، وَمَذْهَبُ أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى علّم فِي الْجَمَادَاتِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، سِوَى العقلاء علما لَا يَقِفُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَلَهَا

صَلَاةٌ وَتَسْبِيحٌ وَخَشْيَةٌ، كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}[الْإِسْرَاءِ: ٤٤]، وَقَالَ: {وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ}[النُّورِ: ٤١]، وَقَالَ: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}[الْحَجِّ: ١٨] الْآيَةَ، فيجب على المرء الْإِيمَانُ بِهِ وَيَكِلُ عِلْمَهُ إِلَى الله سبحانه وتعالى.

قال الطبري: {وما الله بغافل عما تعملون}: وما الله بغافل – يا معشر المكذبين بآياته، والجاحدين نبوة رسوله محمد ﷺ، والمتقولين عليه الأباطيل من بني إسرائيل وأحبار اليهود – عما تعملون من أعمالكم الخبيثة، وأفعالكم الرديئة، ولكنه محصيها عليكم، فمجازيكم بها في الآخرة، أو معاقبكم بها في الدنيا.

وأصل الغفلة عن الشيء، تركه على وجه السهو عنه، والنسيان له. فأخبرهم تعالى ذكره أنه غير غافل عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساه عنها، بل هو لها محص، ولها حافظ.

قال ابن العثيمين: {وما الله بغافل عما تعملون}: فنفى سبحانه وتعالى أن يكون غافلًا عما يعملون؛ وذلك لكمال علمه، وإحاطته تبارك وتعالى.

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان ج٢ص٣١٥: وفي هذه القصة أنواع من العبر:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان وقيام الموتى من قبورهم

ومنها: إثبات الفاعل المختار وأنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء عدل لا يجوز عليه الظلم والجور حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات زيادة في هداية المهتدي وإعذارًا وإنذارًا للضّال.

ومنها: إنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الإمتثال فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الإمتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: (اعتق رقبة)، و(أطعم مسكينًا)، و(صم يومًا)، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير عن الربيع عن أبي العالية: لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قابلوا هذا الأمر بقولهم: أتتخذنا هزوًا، فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: أتتخذنا هزوًا، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم:

{أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}، وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون. ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: {الآن جئت بالحق}، فإن أرادوا بذلك: (أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة)، فتلك ردة وكفر ظاهر؛ وإن أرادوا: (أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها)، فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}، فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى: {الآن جئت بالحق}، وزعم أن ذلك: نفي منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلا منهم وهفوة من هفواتهم.

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها وعدم تمكن الإيمان فيها قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: إن القوم بعد أن أحي الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق، قال الله تعالى: {ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة}.

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرًا، فإن القاتل قصده ميراث المقتول ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى، وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل، والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- لؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النعم ومع ذلك فهم لم يلينوا للحق؛ بل قست قلوبهم على ظهور هذه النعم.

٢- تشبيه المعقول بالمحسوس في قوله تعالى: {فهي كالحجارة}؛ لأن الحجارة أمر محسوس؛ والقلب قسوته أمر معقول؛ إذ إنه ليس المعنى أن القلب الذي هو المضغة يقسو؛ القلب هو هو؛ لكن المراد: أنه يقسو قسوة معنوية بإعراضه عن الحق، واستكباره عليه؛ فهو أمر معنوي شبه بالأمر الحسي؛ وهذا من بلاغة القرآن تشبيه المعقول بالمحسوس حتى يتبين.

٣- أن الحجارة أقسى شيء يضرب به المثل.

٤- بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث جعل هذه الحجارة الصماء تتفجر منها الأنهار؛ وقد كان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب بعصاه الحجر، فينبجس، ويتفجر عيونًا بقدرة الله تبارك وتعالى.

٥- أن الحجارة خير من قلوب هؤلاء بأن فيها خيرًا؛ فإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار؛ ومنها ما يشقق، فيخرج منه الماء؛ ومنها ما يهبط من خشية الله؛ وهذه كلها خير، وليس في قلوب هؤلاء خير.

٦- أن الجمادات تعرف الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وإن منها لما يهبط من خشية الله}؛ وهذا أمر معلوم من آيات أخرى، كقوله تعالى: {يسبح لله ما في السموات وما في الأرض}[الجمعة: ١]، وقوله تعالى: {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}[الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين}[فصلت: ١١]: ففهمتا الأمر، وانقادتا.

٧- عظمة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {من خشية الله}؛ والخشية هي الخوف المقرون بالعلم؛ لقوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}[فاطر: ٢٨]؛ فمن علم عظمة الله سبحانه وتعالى فلا بد أن يخشاه.

٨- سعة علم الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}؛ وهذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعالى السلبية؛ والصفات السلبية هي التي ينفيها الله سبحانه وتعالى عن نفسه، وتتضمن أمرين هما: نفي هذه الصفة؛ وإثبات كمال ضدها.

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

قال ابن العثيمين: {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم}؛ الهمزة للاستفهام؛ والمراد به الاستبعاد، والتيئيس، أي تيئيس المسلمين من أن يؤمن هؤلاء اليهود لهم؛ والفاء عاطفة على مقدر بعد الهمزة مناسب للمقام؛ و(الطمع)، معناه الرجاء المقرون بالرغبة الأكيدة؛ يعني: أنتم ترجون مع رغبة؛ لأن الذي يرجو الشيء مع الرغبة الأكيدة فيه يقال: طمع فيه؛ و(الإيمان) هنا بمعنى التصديق؛ أي أن يصدقوا لكم؛ ويحتمل أن يكون بمعنى الانقياد، والاستسلام لكم؛ وهذا أمر بعيد؛ لقوله تعالى: {وقد كان فريق منهم ... }: الواو هنا للحال؛ و{قد} للتحقيق؛ فالجملة في محل نصب حالًا من الواو في {يؤمنوا لكم}، يعني: والحال أن فريقًا منهم يسمعون كلام الله؛ و(الفريق) بمعنى الطائفة؛ و{منهم}: أي من بني إسرائيل.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: الخطاب للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم، ومعنى هذا الخطاب: التقرير على أمر فيه بعد، إذ قد سلفت لأسلاف هؤلاء اليهود أفاعيل سوء، وهؤلاء على ذلك السنن.

قال ابن العثيمين: {يسمعون كلام الله ثم يحرفونه}: ذكر المفسرون فيه قولين:

القول الأول: أن المراد بذلك التوراة، يسمعونها ثم يحرفونها، أي يغيرونها؛ ومنه قولهم: حرفت الدابة، يعني غيرت اتجاهها؛ {من بعد ما عقلوه}: أي من بعد ما فهموها، وعرفوا معناها، ولم تشكل عليهم؛ ومن ذلك تحريفهم إياها في صفة النبي ﷺ، ومبعثه، وقولهم: إنه الرسول المنتظر. وليس هذا الرسول.

والقول الثاني: أن المراد بذلك الذين أسمعهم الله كلامه سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام؛ وهم الذين اختارهم موسى، وهم سبعون رجلًا فأسمعهم الله تعالى كلامه لموسى، ولكنهم قالوا: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}، ثم حرفوا ما سمعوه من كلام الله سبحانه وتعالى لموسى.

وقد بحثت في كتب التفسير التي لدي فلم أجد احتمالًا ثالثًا، وهو أن المراد بـ{كلام الله}، القرآن، وأنهم يسمعونه، ثم يحرفونه؛ لأن القرآن كلام الله؛ وقد قال الله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله}[التوبة: ٦]: أي حتى يسمع القرآن؛ فإن كان هذا الاحتمال صحيحًا فهو أقرب من القولين السابقين([1]). والله أعلم بمراده.

قال أبو زهرة: التحريف في الكلام له معنيان: أحدهما التغيير في معناه، بأن يحرفوه على طرف من المعنى، بأن يخرجوه عن اللب معناها إلى طرف من أطرافه؛ لأن الحرف أصله الطرف دون اللب والوسط، فهم يتجهون إلى التعلق بغير لب القول.

والتحريف: إمالة القول إلى غير معناه، وهذا هو النوع الثاني، وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته ونص كلامه: (تحريف الكلام) أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين. قال عز وجل: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ}، {يحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعدِ مَوَاضِعِهِ}، {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

والتعريض بـ{ثم} يفيد البعد المعنوي بين ما سمعوه وعقلوه، وتدبروه، وعرفوا غايته، وبين التحريف الذي حرَّفوه مما يدلُّ على فساد نفوسهم، وضلال قلوبهم.

١- (قلت): وجدت في تفسير (روح المعاني) للآلوسي ما لم يجده الشيخ رحمه الله، وهو قوله: (وقيل: المراد به الوحي المنزل على نبينا ﷺ، كان جماعة من اليهود يسمعونه فيحرفونه قصدًا أن يدخلوا في الدين ما ليس منه، ويحصل التضاد في أحكامه، {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ}[التوبة: ٣٢]).

وأخبر سبحانه وتعالى أن التحريف من بعد ما عقلوه، وعرفوه عرفان الخبير المدرك، الفاهم، لَا أنهم حرَّفوا عن غير علم ومن غير معرفة بمدلولات الألفاظ ومراميها، ومقاصدها، وغاياتها، فتحريفهم بقصد التضليل، ومن يقصد التضليل يكون قلبه مصروفًا عن الحقائق فلا يدركها، ولا يذعن لها إن أدركها، بل هو يصد عن سبيلها.

ثم أكد سبحانه وتعالى سوء مقصدهم، وغاية عملهم، فقال تعالى: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}: أي وهم يدركون الكلام الذي سمعوه، ويعرفون مرماه ومقصده، ومع ذلك يحرفونه آثمين فاسدين مفسدين. هذا على اعتبار أن الذي خاطب الفريق محمد ﷺ وأتباعه.

ويجب في مقام ذكر معاني هذه الآية أن نذكر أمورًا ثلاثة:

أولها: أن الذين حرَّفوا القول عن مواضعه فريق منهم، وليسوا جميعهم، فكيف يكون اليأس من إيمان كلهم بعمل فريق؟ والجواب عن ذلك أن الفريق الذي سمع أرضى بقوله الفريق الذي لم يسمع، بل إن الفريق الذي لم يسمع كان معرضًا عن سماع النبي ﷺ، فهو كان قابلًا لاستماع القول المحرَّف راضيًا به مصدِّقًا له، فهم كانوا على سواء، وكذلك الأمر على التفسير بأن السماع كان من فريق من قوم موسى سمعوا من موسى وحرفوه، فقَبِله الآخرون وهم راضون، فكانوا مع غيرهم على سواء، ولا فرق بينهم.

الأمر الثاني: أنه إذا كان الفريق الذي حرَّف في عهد موسى أو بعده، فإن ذلك سائغ بعد موسى ثابت، والراجع للتوراة القائمة بين أيدينا يجد أمارات التحريف تلوح.

وقد أثبت كتّاب النصارى أن التحريف لَا يزال يجري في الكتب عندهم ما بين كتب العهد القديم، والجديد، واقرأ في ذلك كتاب (ذخيرة الألباب) لأحد كتاب النصارى، فإنه بيَّن بطريق لَا يقبل الشك أن التحريف حدث في التوراة والإنجيل، وأثبت الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) أن التغيير والتبديل لَا يزال يجري إلى الآن في كتبهم.

الأمر الثالث: الذي نشير إليه أن أثارة باقية في كتبهم ربما تكون صادقة، ولكن اختلطت بباطل كثير.

قال ابن العثيمين: {وهم يعلمون}: أي يعلمون أنهم يحرفون كلام الله عز وجل، ويعلمون أن التحريف محرَّم؛ فتعدوا الحدود، وحرفوا كلام الله عز وجل، وارتكبوا الإثم عن بصيرة.

(الفوائد)

١– أن من كان لا يؤمن بما هو أظهر فإنه يبعد أن يؤمن بما هو أخفى؛ لأن من يسمع كلام الله، ثم يحرفه، أبعد قبولًا للحق ممن لم يسمعه.

٢– أن الله تعالى يسلِّي رسوله ﷺ بما يذهب عنه الأسى، والحزن؛ حيث بين له حال هؤلاء، وأنهم قوم عتاة لا مطمع في إيمانهم.

٣- إثبات أن الله يتكلم، وأن كلامه بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: {يسمعون كلام الله}؛ وكلام الله تبارك وتعالى صفة حقيقية تتضمن اللفظ، والمعنى؛ فهو سبحانه وتعالى يتكلم بحروف، وأصوات مسموعة؛ وتفصيل ذلك والرد على من خالفه مذكور في كتب العقائد.

٤- أن كلام الله سبحانه وتعالى من صفاته الفعلية باعتبار آحاده؛ وأما باعتبار أصل الصفة فهو صفة ذاتية؛ والفرق بين الصفات الذاتية، والفعلية أن الصفات الذاتية لازمة لذات الله أزلًا، وأبدًا، ومعنى (أزلًا): أي فيما مضى؛ و(أبدًا): أي فيما يستقبل. مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والسمع، والبصر إلى غير ذلك، والصفات الفعلية هي التي تتعلق بمشيئته، فتحدث إذا شاء، كالاستواء على العرش، والنزول إلى سماء الدنيا، والمجيء يوم القيامة للفصل بين العباد، والفرح، والرضا، والغضب.. عند وجود أسبابها.

٥- الرد على الأشعرية، وغيرهم ممن يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه؛ وأن الحروف، والأصوات عبارة عن كلام الله، وليست كلام الله؛ بل خلقها الله ليعبر بها عما في نفسه؛ والرد عليهم مفصلًا في كتب العقائد.

٦- أن هؤلاء اليهود قد حرفوا كلام الله، لقوله تعالى: {ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه}.

٧- بيان قبح تحريف هؤلاء اليهود، لأنهم حرفوا ما عقلوه؛ والتحريف بعد عقل المعنى أعظم؛ لأن الإنسان الجاهل قد يعذر بجهله؛ لكن الإنسان العالم الذي عقل الشيء يكون عمله أقبح؛ لأنه تجرأ على المعصية مع علمه بها فيكون أعظم.

٨- قبح تحريف كلام الله، وأن ذلك من صفات اليهود؛ ومن هذه الأمة من ارتكبه، لكن القرآن محفوظ؛ فلا يمكن وقوع التحريف اللفظي فيه؛ لأنه يعلمه كل أحد؛ وأما التحريف المعنوي فواقع، لكن يقيض الله عز وجل من الأئمة، وأتباعهم من يبينه، ويكشف عوار فاعله.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

قال ابن العثيمين: {وإذا لقوا}: الضمير يعود على اليهود؛ أي إذا قابلوا، واجتمعوا بـ{الذين آمنوا}: أي بالله ورسوله محمد ﷺ، {قالوا}: أي بألسنتهم، {آمنا}: أي دخلنا في الإيمان كإيمانكم، وآمنا بالرسول محمد ﷺ، هذا إذا لقوا المؤمنين.

قال الطبري: فإنه خبر من الله جل ذكره عن الذين أيأس أصحاب محمد ﷺ من إيمانهم - من يهود بني إسرائيل، الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون - وهم الذين إذا لقوا الذين آمنوا

بالله ورسوله محمد ﷺ قالوا: آمنا، يعني بذلك: أنهم إذا لقوا الذين صدقوا بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله، قالوا: آمنا – أي صدقنا بمحمد وبما صدقتم به، وأقررنا بذلك، أخبر الله عز وجل أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، وسلكوا منهاجهم.

قال ابن العثيمين: {وإذا خلا بعضهم إلى بعض}: أي إذا أوى بعضهم إلى بعض وانفرد به، قال بعضهم لبعض: {أتحدثونهم}: {الاستفهام} هنا للإنكار والتعجب؛ والضمير الهاء يعود على المؤمنين بالرسول ﷺ، يعني يقول اليهود بعضهم لبعض إذا اجتمعوا: كيف تحدثون المؤمنين بالله ورسوله {بما فتح الله عليكم}: أي من العلم بصحة رسالة النبي ﷺ؟!.

{ليحاجّوكم به عند ربكم}: اللام للعاقبة، أي أن ما حدثتموهم به ستكون عاقبته أن يحاجوكم به عند ربكم.

قال أبو زهرة: أي ليكون حجة عليكم عند ربكم، يحاجونكم به، والاعتراف حجة ظاهرة. وإنهم بذلك يزعمون أمرين كلاهما باطل:

أولهما: أنهم يحسبون أن الله تعالى يحتاج في معرفة ما هم عليه إلى إقرارهم، وهو عالم الغيب والشهادة، وعالم السر والجهر، وأنهم مأخوذون بما واثقهم عليه، وبالحق الذي أمرهم باتباعه.

وثانيهما: أنهم يحسبون أن النبي ﷺ وأصحابه ما كانوا يعلمون ما عند اليهود إلا بإقرارهم أمام النبي ﷺ، والمؤمنون يعرفون ما في كتبهم من بشارة بالنبي ﷺ وهم أنفسهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

قال ابن العثيمين: {أفلا تعقلون}: {الهمزة} للاستفهام؛ والمراد به التوبيخ؛ يعني: أين عقولكم؟! أنتم إذا حدثتموهم بهذا، وقلتم: إن هذا الذي بعث حق، وأنه نبي يحاجونكم به عند الله يوم القيامة.

قال الطبري: {أفلا تعقلون}، خبر من الله تعالى ذكره – عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب رسول الله ﷺ بما فتح الله لهم عليهم – أنهم قالوا لهم: أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون، أن إخباركم أصحاب النبي ﷺ بما في كتبكم أنه نبي مبعوث، حجة لهم عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم؟ أي: فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك.

قال ابن العثيمين: {أفلا تعقلون}؛ الفاء واقعة بعد {همزة الاستفهام}؛ وهذا يكثر في القرآن: {أفلا تعقلون}؛ {أفلا تذكرون}؛ {أفلم يسيروا}؛ {أو لم يسيروا}؛ {أثم إذا ما وقع آمنتم به}؛ وأشباه ذلك؛ يعني أنه يأتي حرف العطف بعد همزة الاستفهام؛ وهمزة الاستفهام لها الصدارة في جملتها؛ ولا صدارة مع وجود العاطف؛ لأن الفاء عاطفة؛ فقال بعض النحويين: إن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف، وهذه الجملة تقدر بما يناسب المقام؛ وقال آخرون: بل إن الهمزة مقدمة؛ وإن حرف العطف هو الذي تأخر، يعني زحلق حرف العطف عن مكانه، وجعلت الهمزة مكانه؛ وعلى هذا فيكون التقدير: فألا تعقلون؛ أما على الأول فيكون

التقدير: أجهلتم فلا تعقلون؟؛ أو: أسفهتم فلا تعقلون؟ ... المهم يقدر شيء مناسب حسب السياق؛ فالقول الأول أدق؛ والثانية أسهل؛ لأن الثاني لا يحتاج عناء وتكلُّفًا فيما تقدره بين الهمزة والعاطف.

قال شيخ الإسلام في جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية ج١ص٢١: فهذه الطريقة المذمومة التي سلكها علماءُ اليهود وأشباههم في أنهم يُحرِّفون كلام الله أو يكتمونه، لئلّا يُحتَجَّ به عليهم في خلافِ أهوائهم. فمن عَمَدَ إلى نصوص الكتاب والسنة فحرَّفها أو كتمها ففيه شَبَهٌ من هؤلاء، كما تجدُ ذلك في كثيرٍ من أهل الأهواء، يكتم ما أنزله الله تعالى من الكتاب والسنة عمن يحتج بها على خلافِ هواه، فيَغُلُّ الكتبَ المسطورة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، ويمنع تبليغَ الأحاديث النبوية وتفسير القرآن المنقول، ولو قدرَ على منع القرآن لفعلَ، وما ظهرَ من ذلك حرَّفَه عن مواضعِه بتأويلِه على غيرِ تأويلِه، ثمّ يَعمِدُون إلى كتبٍ يضعونَها، إمَّا منقولات موضوعة عن النبي ﷺ والصحابةِ والأئمة، فكم عند أهل الأهواء من الآثار المكذوبة، ويقولون: هذه منزَّلةٌ من عند الله، إذ ما جاء به النبي فهو من عند الله، أو يضعون كلامًا ابتدعوه أو رأيًا اخترعوه، ويُسمُّونه مع ما وضعوه من المنقولات دينَ الله وأصولَ دينه وشرعَ الله والحقَّ الذي أوجبه الله، وأكثرهم يأخذُ على ذلك أعواضًا من مالٍ أو رئاسة.

قال ابن العثيمين: {أولا يعلمون}: الاستفهام هنا للتوبيخ، والإنكار عليهم لكونهم نزلوا أنفسهم منزلة الجاهل؛ {أن الله يعلم ما يسرون}: يشمل ما يسره الإنسان في نفسه، وما يسره لقومه وأصحابه الخاصين به؛ {وما يعلنون}: أي ما يظهرون لعامة الناس؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم هذا، وهذا؛ ولا يخفى عليه شيء؛ والمعنى: كيف يؤنب بعضهم بعضا بهذا الأمر وهم لو جاءوا إلى النبي ﷺ ومن معه، وأنكروا نبوته، ولم يؤمنوا فإن الله تعالى لا يخفى عليه الأمر؟! فسواء أقرّوا، أو لم يقرّوا عند الصحابة أن الرسول حق فإن الله تعالى عالم بهم.

قال الطبري: أو لا يعلم – هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانهم من أهل ملَّتهم، على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وعلى إخبارهم المؤمنين بما في كتبهم من نعت رسول الله ﷺ ومبعثه، القائلون لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم – أن الله عالم بما يسرُّون، فيخفونه عن المؤمنين في خلائهم من كفرهم، وتلاومهم بينهم على إظهارهم ما أظهروا لرسول الله وللمؤمنين به من الإقرار بمحمد ﷺ، وعلى قيلهم لهم: آمنا، ونهي بعضهم بعضًا أن يخبروا المؤمنين بما فتح الله للمؤمنين عليهم، وقضى لهم عليهم في كتبهم، من حقيقة نبوة محمد ﷺ ونعته ومبعثه – وما يعلنون، فيظهرونه لمحمد ﷺ ولأصحابه المؤمنين به إذا لقوهم، من قيلهم لهم: آمنا بمحمد ﷺ وبما جاء به، نفاقًا وخداعًا لله ولرسوله وللمؤمنين؟

قال أبو زهرة: هذا استفهام إنكاري لجهلهم، وتوبيخ لهم على عدم علمهم، فالاستفهام داخل على فعل محذوف دلَّ عليه عطف ما بعده؛ والمعنى: أيقولون ما يقولون من ذلك القول، ولا يعلمون أن الله – جل جلاله – وقد أحاط بكل شيءٍ علمًا ويعلم ما يسرونه وما يجهرون به، وما يعلنونه للناس، يعلم ما تخفي صدورهم، ويعلم ما يجهرون؟.

وفي بيان ذلك العلم تهديد بالجزاء الذي ينتظرهم، فهو سبحانه يعلم ما يفعلون، وما يخالفون به مواثيقهم وعهودهم، وما ينكثون به في أيمانهم، ومُؤاخذهم به.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- أن في اليهود منافقين؛ لقوله تعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ...} إلخ.

٢- أن من سجايا اليهود وطبائعهم الغدر؛ لقوله تعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض ... } إلخ؛ لأن هذا نوع من الغدر بالمؤمنين.

٣- أن بعضهم يلوم بعضًا على بيان الحقيقة حينما يرجعون إليهم؛ لقوله تعالى: {وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم}.

٤- أن العلم من الفتح؛ لقولهم: {بما فتح الله عليكم}؛ ولا شك أن العلم فتح يفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما ينير به قلبه.

٥- أن المؤمن، والكافر يتحاجان عند الله يوم القيامة؛ لقولهم: {ليحاجوكم به عند ربكم}؛ ويؤيده قوله تعالى: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون}[المؤمنون: ١٥].

٦- سفه اليهود الذين يتخذون من صنيعهم سلاحًا عليهم؛ لقولهم: {أفلا تعقلون}.

٧- الثناء على العقل، والحكمة؛ لأن قولهم: {أفلا تعقلون}، توبيخ لهم على هذا الفعل؛ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون عاقلًا؛ ما يخطو خطوة إلا وقد عرف أين يضع قدمه؛ ولا يتكلم إلا وينظر ما النتيجة من الكلام؛ ولا يفعل إلا وينظر ما النتيجة من الفعل: قال النبي ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا، أو ليصمت([1]))).

٨- أن كفر اليهود بالرسول محمد ﷺ عن علم؛ ولهذا صاروا مغضوبًا عليهم.

٩- توبيخ اليهود على التحريف؛ لقوله تعالى: {أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون}.

١٠- إثبات عموم علم الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يعلم ما يسرون وما يعلنون}؛ وقوله تعالى: {أولا يعلمون أن الله يعلم....} الآية؛ لأن المقصود بذلك تهديد هؤلاء، وتحذيرهم.

١١- الوعيد على مخالفة أمر الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {أولا يعلمون أن الله يعلم....} الآية؛ لأن المقصود بذلك تهديد هؤلاء، وتحذيرهم.

١- أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ٣١؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم ٦٠١٨؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٨، كتاب الإيمان، باب ١٩: الحث على إكرام الجار ... ، حديث رقم ١٧٣ [٧٤] ٤٧.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)

قال ابن العثيمين: {ومنهم}: أي من اليهود؛ {أميون}: أي بمنزلة الأمِّيِّين؛ والأمِّي من لا يعرف أن يقرأ، ولا أن يكتب؛ {لا يعلمون الكتاب إلا أماني}: أي إلا قراءة بدون فهم للمعنى؛ ومن لم يفهم المعنى فهو في حكم من لا يعرف القراءة؛ لأنه لا يستفيد شيئًا بقراءته.

قال السعدي: أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم، وعوامهم، ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلّدون لهم، لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم في الطائفتين.

قَالَ شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص٤٣٢: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ}: فَذَمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ، كَمَا ذَمَّ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ مَعْنَاهُ وَيُكَذِّبُونَ، فَقَالَ تَعَالَى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} إلَى قَوْلِهِ: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، فَهَذَا أَحَدُ الصِّنْفَيْنِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ}، أَيْ: تِلَاوَةً {وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ}، ثُمَّ ذَمَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ كُتُبًا يَقُولُونَ: هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} إلَى قَوْلِهِ: {يَكْسِبُونَ}.

وَهَذِهِ الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ تَسْتَوْعِبُ أَهْلَ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْبِدَعِ الَّذِينَ ذَمَّهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: عَالِمٌ بِالْحَقِّ يَتَعَمَّدُ خِلَافَهُ.

وَالثَّانِي: جَاهِلٌ مُتَّبِعٌ لِغَيْرِهِ.

فَالْأَوَّلُونَ: يَبْتَدِعُونَ مَا يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إمَّا أَحَادِيثُ مُفْتَرِيَاتٌ، وَإِمَّا تَفْسِيرٌ وَتَأْوِيلٌ لِلنُّصُوصِ بَاطِلٌ، وَيُعَضِّدُونَ ذَلِكَ بِمَا يَدَّعُونَهُ مِنْ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ، وَقَصْدُهُمْ بِذَلِكَ الرِّيَاسَةُ وَالْمَأْكَلُ، فَهَؤُلَاءِ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ}، مِنْ الْبَاطِلِ: {وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}، مِنْ الْمَالِ عَلَى ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ إذَا عُورِضُوا بِنُصُوصِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَقِيلَ لَهُمْ: هَذِهِ تُخَالِفُكُمْ، حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: الْجُهَّالُ، فَهَؤُلَاءِ الْأُمِّيُّونَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ، وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ. فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وقتادة فِي قَوْلِهِ: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}: أَيْ: غَيْرُ عَارِفِينَ بِمَعَانِي الْكِتَابِ يَعْلَمُونَهَا حِفْظًا وَقِرَاءَةً بِلَا فَهْمٍ، وَلَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ، وَقَوْلُهُ: {إلَّا أَمَانِيَّ}: أَيْ تِلَاوَةً فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فِقْهَ الْكِتَابِ، إنَّمَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَا يَسْمَعُونَهُ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، قَالَهُ الْكِسَائِيُّ

وَالزَّجَّاجُ. وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ السَّائِبِ: لَا يُحْسِنُونَ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ، وَلَا كِتَابَتَهُ إِلَّا أَمَانِيَّ إِلَّا مَا يُحَدِّثُهُمْ بِهِ عُلَمَاؤُهُمْ. وَقَالَ أَبُو رَوْقٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ، أَيْ: تِلَاوَةً وَقِرَاءَةً عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ، وَلَا يقرئونها فِي الْكُتُبِ، فَفِي هَذَا الْقَوْلِ جَعْلُ الْأَمَانِيِّ الَّتِي هِيَ التِّلَاوَةُ تِلَاوَةَ الْأُمِّيِّينَ أَنْفُسِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ جَعْلُهُ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ تِلَاوَةِ عُلَمَائِهِمْ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ وَالْآيَةُ تَعُمُّهُمَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ}، لَمْ يَقُلْ: لَا يَقْرَءُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ ثُمَّ قَالَ: {إِلَّا أَمَانِيَّ}، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ. لَكِنْ يَعْلَمُونَ أَمَانِيَّ إِمَّا بِقِرَاءَتِهِمْ لَهَا، وَإِمَّا بِسَمَاعِهِمْ قِرَاءَةَ غَيْرِهِمْ، وَإِنْ جُعِلَ الِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلًا كَانَ التَّقْدِيرُ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا عِلْمَ أَمَانِيَّ، لَا عِلْمَ تِلَاوَةٍ فَقَطْ بِلَا فَهْمٍ، وَالْأَمَانِيُّ جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ وَهِيَ التِّلَاوَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[الحج: ٥٢].

وَالْأُمِّيُّونَ نِسْبَةً إِلَى الْأُمَّةِ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِلَى الْأُمَّةِ وَمَا عَلَيْهِ الْعَامَّةُ، فَمَعْنَى الْأُمِّيِّ: الْعَامِّيُّ الَّذِي لَا تَمْيِيزَ لَهُ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ عَلَى خُلُقِ الْأُمَّةِ الَّتِي لَمْ تَتَعَلَّمْ فَهُوَ عَلَى جِبِلَّتِهِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ نِسْبَةً إِلَى الْأُمَّةِ، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ كَانَتْ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ؛ وَلِأَنَّهُ عَلَى مَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ نِسْبَةً إِلَى الْأُمَّةِ، كَمَا يُقَالُ: عَامِّيٌّ نِسْبَةً إِلَى الْعَامَّةِ الَّتِي لَمْ تَتَمَيَّزْ عَنْ الْعَامَّةِ بِمَا تَمْتَازُ بِهِ الْخَاصَّةُ، وَكَذَلِكَ هَذَا لَمْ يَتَمَيَّزْ عَنْ الْأُمَّةِ بِمَا يَمْتَازُ بِهِ الْخَاصَّةُ مِنْ الْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَيُقَالُ: الْأُمِّيُّ لِمَنْ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ كِتَابًا، ثُمَّ يُقَالُ لِمَنْ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ يقرؤونه وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ مَا لَمْ يُنَزَّلْ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى كَانَ الْعَرَبُ كُلُّهُمْ أُمِّيِّينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا}[آل عمران: ٢٠]، وَقَالَ: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ}[الجمعة: ٢]، وَقَدْ كَانَ فِي الْعَرَبِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ الْمَكْتُوبَ، وَكُلُّهُمْ أُمِّيُّونَ. فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَبْقَوْا أُمِّيِّينَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا مِنْ حِفْظِهِمْ، بَلْ هُمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ مِنْ حِفْظِهِمْ، وَأَنَاجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، لَكِنْ بَقُوا أُمِّيِّينَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى كِتَابَةِ دِينِهِمْ، بَلْ قُرْآنُهُمْ مَحْفُوظٌ فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المجاشعي، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((خَلَقْتُ عِبَادِي يَوْمَ خَلَقْتهمْ حُنَفَاءَ - وَقَالَ فِيهِ - إِنِّي مُبْتَلِيك وَمُبْتَلٍ بِك، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْك كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا ويقظانًا([١]))). فَأُمَّتُنَا لَيْسَتْ مِثْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَا يَحْفَظُونَ كُتُبَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ، بَلْ لَوْ عُدِمَتْ الْمَصَاحِفُ كُلُّهَا كَانَ الْقُرْآنُ مَحْفُوظًا فِي قُلُوبِ الْأُمَّةِ، وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَالْمُسْلِمُونَ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا([٢]))). فَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا لَا نَقْرَأُ كِتَابًا، وَلَا نَحْفَظُ، بَلْ قَالَ: لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ فَدِينُنَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُكْتَبَ وَيُحْسَبَ، كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَوَاقِيتَ صَوْمِهِمْ وَفِطْرِهِمْ بِكِتَابٍ وَحِسَابٍ،

١- مسلم في الجنة (٦٣/٢٨٦٥).

٢- البخاري في الصوم (١٩١٣).

وَدِينُهُمْ مُعَلَّقٌ بِالْكُتُبِ لَوْ عدمت لَمْ يَعْرِفُوا دِينَهُمْ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ أَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَأَهْلُ الْبِدَعِ فِيهِمْ شَبَهٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ.

وَقَوْلُهُ: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ}[الأعراف: ١٥٨]، هُوَ أُمِّيٌّ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مَا فِي الْكُتُبِ، لَا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ مِنْ حِفْظِهِ، بَلْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ أَحْسَنَ حِفْظٍ، وَالْأُمِّيُّ فِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ خِلَافُ الْقَارِئِ، وَلَيْسَ هُوَ خِلَافَ الْكَاتِبِ بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَيَعْنُونَ بِهِ فِي الْغَالِبِ مَنْ لَا يُحْسِنُ الْفَاتِحَةَ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}، أَيْ: لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا تِلَاوَةً لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا. وَهَذَا يَتَنَاوَلُ مَنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَا الْقِرَاءَةَ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّمَا يَسْمَعُ أَمَانِيَّ عِلْمًا، كَمَا قَالَ ابْنُ السَّائِبِ وَيَتَنَاوَلُ مَنْ يَقْرَأهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ وَلَا يَقْرَأهُ مِنَ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ أَبُو رَوْقٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ.

وَقَدْ يُقَالُ: إنَّ قَوْلَهُ: {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ}: أَيْ الْخَطَّ، أَيْ: لَا يُحْسِنُونَ الْخَطَّ، وَإِنَّمَا يُحْسِنُونَ التِّلَاوَةَ، وَيَتَنَاوَلُ – أَيْضًا – مَنْ يُحْسِنُ الْخَطَّ وَالتِّلَاوَةَ، وَلَا يَفْهَمُ مَا يَقْرَأهُ وَيَكْتُبُهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقتادة: غَيْرَ عَارِفِينَ مَعَانِي الْكِتَابِ، يَعْلَمُونَهَا حِفْظًا وَقِرَاءَةً بِلَا فَهْمٍ، وَلَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ، وَالْكِتَابُ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ: الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْخَطَّ، فَإِنَّهُ قَالَ: {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَفَى عَنْهُمْ الْعِلْمَ بِمَعَانِي الْكِتَابِ، وَإِلَّا فَكَوْنُ الرَّجُلِ لَا يَكْتُبُ بِيَدِهِ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ لَا عِلْمَ عِنْدِهِ، بَلْ يَظُنُّ ظَنًّا؛ بَلْ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَكْتُبُ بِيَدِهِ لَا يَفْهَمُ مَا يَكْتُبُ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يَكْتُبُ يَكُونُ عَالِمًا بِمَعَانِي مَا يَكْتُبُهُ غَيْرُهُ.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ هَذَا فِي سِيَاقِ الذَّمِّ لَهُمْ، وَلَيْسَ فِي كَوْنِ الرَّجُلِ لَا يَخُطُّ ذَمٌّ إذَا قَامَ بِالْوَاجِبِ، وَإِنَّمَا الذَّمُّ عَلَى كَوْنِهِ لَا يَعْقِلُ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْهِ، سَوَاءٌ كَتَبَهُ وَقَرَأهُ أَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ، وَلَمْ يَقْرَأْهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((هَذَا أَوَانُ يُرْفَعُ الْعِلْمُ)). فَقَالَ لَهُ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ: كَيْفَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ فَوَ اللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا فَقَالَ لَهُ: ((إنْ كُنْت لَأَحْسَبُك مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوَ لَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ(١))). وَهُوَ حَدِيثٌ مَعْرُوفٌ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ. وَلِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى قَبْلَ هَذَا: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: ٧٥]، فَأُولَئِكَ عَقَلُوهُ ثُمَّ حَرَّفُوهُ، وَهُمْ مَذْمُومُونَ سَوَاءٌ كَانُوا يَحْفَظُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ وَيَكْتُبُونَهُ ويقرؤونه حِفْظًا وَكِتَابَةً، أَوْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، فَكَانَ مِنْ الْمُنَاسِبِ أَنْ يَذْكُرَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَهُ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَهُ إلَّا أَمَانِيَّ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ، وَيَذْكُرُ فِيهِ الْأَقْسَامَ، وَالْأَمْثَالَ فَيَسْتَوْعِبُ الْأَقْسَامَ فَيَكُونُ مَثَانِيَ، وَيَذْكُرُ الْأَمْثَالَ فَيَكُونُ مُتَشَابِهًا. وَهَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانُوا يَكْتُبُونَ ويقرؤون فَهُمْ أُمِّيُّونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا نَقُولُ نَحْنُ لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ: هُوَ أُمِّيٌّ، وَسَاذِجٌ، وَعَامِّيٌّ، وَإِنْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَيَقْرَأُ الْمَكْتُوبَ إذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ.

١- الترمذي في العلم (٢٦٥٣) وقال: (حديث حسن غريب)، والطبراني في الكبير ٤٣/١٨، والحاكم في المستدرك ٩٩/١ وقال: (هذا اسناد صحيح)، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٥/١ وقال: (رواه الطبراني في الكبير واسناده حسن).

– (قلت): وصححه الإمام الألباني في تخريج اقتضاء العلم العمل (٨٩)، والتعليقات الحسان (٦٦٨٥)، قَالَ (جُبَيْر بْن نُفَيْر): فلقيتُ شدَّاد بْنَ أَوسٍ فحدَّثتُهُ بِحَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ فَقَالَ: صَدَقَ عَوْفٌ أَلَا أدلُّكَ بأوَّلِ ذَلِكَ؟! يُرفَعُ الْخُشوعُ حَتَّى لا ترى خاشعًا.

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ ذَمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ إِلَّا تِلَاوَةً دُونَ فَهْمِ مَعَانِيهِ، كَمَا ذَمَّ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ دَلَّ عَلَى أَنَّ كِلَا النَّوْعَيْنِ مَذْمُومٌ: الْجَاهِلُ الَّذِي لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَ النُّصُوصِ، وَالْكَاذِبُ الَّذِي يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ. وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ، فَإِنَّهُمْ أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

إمَّا رَجُلٌ يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ، وَيُؤَوِّلُهُ بِمَا يُضِيفُهُ إِلَى اللَّهِ فَهَؤُلَاءِ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَجْعَلُونَ تِلْكَ الْمَقَالَاتِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا هِيَ مَقَالَةَ الْحَقِّ، وَهِيَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ، وَالَّتِي كَانَ عَلَيْهَا السَّلَفُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَ النُّصُوصَ الَّتِي تُعَارِضُهَا، فَهَؤُلَاءِ إذَا تَعَمَّدُوا ذَلِكَ، وَعَلِمُوا أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ مُخَالِفٌ لِلرَّسُولِ فَهُمْ مِنْ جِنْسِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَهَذَا يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ وَيُوجَدُ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِهِمْ. وَأَمَّا الَّذِينَ قَصْدُهُمْ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَغَلِطُوا فِيمَا كَتَبُوهُ، وَتَأَوَّلُوهُ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ جِنْسِهِمْ، لَكِنْ قَدْ وَقَعَ بِسَبَبِ غَلَطِهِمْ مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ الْبَاطِلِ، كَمَا قِيلَ: إذَا زَلَّ الْعَالِمُ زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالَمٌ. وَهَذَا حَالُ الْمُتَأَوِّلِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَإِمَّا رَجُلٌ مُقَلِّدٌ أُمِّيٌّ لَا يَعْرِفُ مِنْ الْكِتَابِ إِلَّا مَا يَسْمَعُهُ مِنْهُمْ، أَوْ مَا يَتْلُوهُ هُوَ، وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا أَمَانِيَّ وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَعُلِمَ أَنَّ اللَّهَ ذَمَّ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَلَا يَتَدَبَّرُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَهُ، كَمَا صَرَّحَ الْقُرْآنُ بِذَمِّهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَيَمْتَنِعُ مَعَ هَذَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ أَكْثَرَ الْقُرْآنِ أَوْ كَثِيرًا مِنْهُ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا أَمَانِيَّ، لَا جِبْرِيلُ وَلَا مُحَمَّدٌ وَلَا الصَّحَابَةُ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ لَهُمْ بِهَؤُلَاءِ فِيمَا ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَفَلَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مَعْرِفَةُ مَعْنَى كُلِّ آيَةٍ؟ قِيلَ: نَعَمْ، لَكِنَّ مَعْرِفَةَ مَعَانِي الْجَمِيعِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مَعْرِفَةُ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ ذَمَّهُمُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ الْكِتَابِ إِلَّا تِلَاوَةً، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا الظَّنُّ، وَهَذَا يُشْبِهُ قَوْلَهُ: {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ}[هود: ١١٠].

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: {إِلَّا أَمَانِيَّ}: إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا وَبَاطِلًا، وَرُوِيَ هَذَا عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ وَاخْتَارَهُ الْفَرَّاءُ. وَقَالَ: الْأَمَانِيُّ: الْأَكَاذِيبُ الْمُفْتَعَلَةُ، قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ لِابْنِ دَأْبٍ – وَهُوَ يُحَدِّثُ: أَهَذَا شَيْءٌ رَوَيْتَه أَمْ تَمَنَّيْتَه، أَيْ: افْتَعَلْتَه؟ فَأَرَادَ بِالْأَمَانِيِّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي كَتَبَهَا عُلَمَاؤُهُمْ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَضَافُوهَا إِلَى اللَّهِ مِنْ تَغْيِيرِ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَمَانِيُّ: يَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللَّهِ الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ، كَقَوْلِهِمْ: {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً}[البقرة: ٨٠]، وَقَوْلِهِمْ: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى}[البقرة: ١١١]، وَقَوْلِهِمْ: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}[المائدة: ١٨]، وَهَذَا أَيْضًا يُرْوَى عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ.

قِيلَ: كِلَا الْقَوْلَيْنِ ضَعِيفٌ، وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}، وَهَذَا الِاسْتِثْنَاءُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا أَوْ مُنْقَطِعًا، فَإِنْ كَانَ مُتَّصِلًا لَمْ يَجُزْ اسْتِثْنَاءُ الْكَذِبِ وَلَا أَمَانِيِّ الْقَلْبِ مِنَ الْكِتَابِ، وَإِنْ كَانَ مُنْقَطِعًا فَالِاسْتِثْنَاءُ الْمُنْقَطِعُ إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا كَانَ نَظِيرَ الْمَذْكُورِ وَشَبِيهًا لَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِهِ الَّذِي لَمْ يُذْكَرْ فِي اللَّفْظِ، لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمَذْكُورِ؛ وَلِهَذَا لَا يَصْلُحُ الْمُنْقَطِعُ حَيْثُ يَصْلُحُ الِاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ}، ثُمَّ قَالَ: {إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}[الدخان: ٥٦]، فَهَذَا مُنْقَطِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ: لَا

يَذُوقُونَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}[النساء: ٢٩]، لِأَنَّهُ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً، وَقَوْلُهُ: {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}[النساء: ١٥٧]، يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ: وَمَا لَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، فَهُنَا لَمَّا قَالَ: {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}، يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ: لَا يَعْلَمُونَهُ إِلَّا أَمَانِيَّ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ تِلَاوَةً يقرئونها وَيَسْمَعُونَهَا وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ: لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا تَتَمَنَّاهُ قُلُوبُهُمْ، أَوْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا الْكَذِبَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَا هُوَ صِدْقٌ – أَيْضًا – فَلَيْسَ كُلُّ مَا عَلِمُوهُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ كَانَ كَذِبًا، بِخِلَافِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ مَعْنَى الْكِتَابِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا تِلَاوَةً.

وَأَيْضًا فَهَذِهِ الْأَمَانِيُّ الْبَاطِلَةُ الَّتِي تَمَنَّوْهَا بِقُلُوبِهِمْ وَقَالُوهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}[البقرة: ١١١]، قَدْ اشْتَرَكُوا فِيهَا كُلُّهُمْ فَلَا يُخَصُّ بِالذَّمِّ الْأُمِّيُّونَ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ لِكَوْنِهِمْ أُمِّيِّينَ مَدْخَلٌ فِي الذَّمِّ بِهَذِهِ، وَلَا لِنَفْيِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ مَدْخَلٌ فِي الذَّمِّ بِهَذِهِ، بَلْ الذَّمُّ بِهَذِهِ مِمَّا يُعْلَمُ أَنَّهَا بَاطِلٌ أَعْظَمُ مِنْ ذَمِّ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا بَاطِلٌ؛ وَلِهَذَا لَمَّا ذَمَّ اللَّهُ بِهَا عَمَّمَ وَلَمْ يَخُصَّ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} الْآيَةُ [البقرة: ١١١].

وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ قَالَ: {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ ذَمَّهُمْ عَلَى نَفْيِ الْعِلْمِ، وَعَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ إِلَّا الظَّنُّ، وَهَذَا حَالُ الْجَاهِلِ بِمَعَانِي الْكِتَابِ لَا حَالُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْذِبُ، فَظَهَرَ أَنَّ هَذَا الصِّنْفَ لَيْسَ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ، وَلَوْ أُرِيدَ ذَلِكَ لَقِيلَ: لَا يَقُولُونَ إِلَّا أَمَانِيَّ، لَمْ يَقُلْ: لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ، بَلْ ذَلِكَ الصِّنْفُ هُمْ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَهُمْ يُحَرِّفُونَ مَعَانِيَ الْكِتَابِ، وَهُمْ يُحَرِّفُونَ لَفْظَهُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَيَكْذِبُونَ فِي لَفْظِهِمْ وَخَطِّهِمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ فَمَنْ؟(١))). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَآخِذَ الْأُمَمِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَارِسُ وَالرُّومُ؟ قَالَ وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ(٢))).

فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِهِ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يُشْبِهُهُمْ فِيهِ، وَهَذَا حَقٌّ قَدْ شُوهِدَ، قَالَ تَعَالَى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[فصلت: ٥٣]، فَمَنْ تَدَبَّرَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ رَأَى أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ، بَلْ أَكْثَرُ الْأُمُورِ، وَدَلَّهُ ذَلِكَ عَلَى وُقُوعِ الْبَاقِي.

١- البخاري في الإعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٦/٢٦٦٩) كلاهما عن أبي سعيد الخدري.

٢- البخاري في الإعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١٩)، عن أبي هريرة، ولم أعثر عليه في مسلم كما في التحفة.

وقال رحمه الله أيضاً في ج٢٥ص١٧٠: فَهَذِهِ صِفَةُ مَنْ لَا يَفْقَهُ كَلَامَ اللَّهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَإِنَّمَا يَقْتَصِرُ عَلَى مُجَرَّدِ تِلَاوَتِهِ. كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا. فَالْأُمِّيُّ هُنَا، قَدْ يَقْرَأُ حُرُوفَ الْقُرْآنِ أَوْ غَيْرَهَا وَلَا يَفْقَهُ؛ بَلْ يَتَكَلَّمُ فِي الْعِلْمِ بِظَاهِرِ مِنْ الْقَوْلِ ظَنًّا. فَهَذَا أَيْضًا أُمِّيٌّ مَذْمُومٌ، كَمَا ذَمَّهُ اللَّهُ؛ لِنَقْصِ عِلْمِهِ الْوَاجِبِ سَوَاءٌ كَانَ فَرْضَ عَيْنٍ أَمْ كِفَايَةٍ.

قال ابن العثيمين: {وإن هم إلا يظنون}: أي ما هم إلا يظنون؛ لأن الإنسان الذي لا يعرف إلا اللفظ ليس عنده علم.

قال الطبري: ومعنى قوله: {إلّا يظنون}: إلّا يشكون، ولا يعلمون حقيقته وصحته. و(الظن) – في هذا الموضع – الشك. فمعنى الآية: ومنهم من لا يكتب ولا يخط ولا يعلم كتاب الله ولا يدري ما فيه، إلا تخرُّصًا وتقولا على الله الباطل، ظنًّا منه أنه محق في تخرصه وتقوله الباطل. وإنما وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم في تخرصهم على ظن أنهم محقون وهم مبطلون، لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أمورًا حسبوها من كتاب الله، ولم تكن من كتاب الله، فوصفهم جل ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بالذي يوقنون به أنه من عند الله مما جاء به محمد ﷺ، ويتبعون ما هم فيه شاكّون، وفي حقيقته مرتابون، مما أخبرهم به كبراؤهم ورؤساؤهم وأحبارهم عنادا منهم لله ولرسوله، ومخالفة منهم لأمر الله، واغترارًا منهم بإمهال الله إياهم. وبنحو ما قلنا في تأويل قوله: {وإن هم إلا يظنون}، قال فيه المتأولون من السلف.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الأمية يوصف بها من لا يقرأ، ومن يقرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: {ومنم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني}.

٢- ذم من لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله عز وجل.

٣- أن من لا يفهم المعنى فإنه لا يتكلم إلا بالظن؛ لقوله تعالى: {وإن هم إلا يظنون}؛ العامي يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، لكن لا يفهم معناه؛ فإذا تكلم في حكم من أحكام الله الشرعية التي دلَّ عليها الكتاب فإنما كلامه عن ظن؛ لأنه في الحقيقة لا يعلم؛ ولا يمكن أن يعلم إلا إذا فهم المعنى.

٤- ذمّ الحكم بالظن، وأنه من صفات اليهود؛ وهذا موجود كثيرًا عند بعض الناس الذين يحبون أن يقال عنهم: (إنهم علماء)؛ تجده يفتي بدون علم، وربما أفتى بما يخالف القرآن، والسنة وهو لا يعلم.

٥- أن المقلِّد ليس بعالم؛ لأنه لا يفهم المعنى؛ وقد قال ابن عبد البر: (إن العلماء أجمعوا أن المقلّد لا يعدُّ في العلماء)؛ وهو صحيح: المقلّد ليس بعالم؛ غاية ما هنالك أنه نسخة من كتاب؛ بل الكتاب أضبط منه؛ لأنه قد ينسى؛

وليس معنى ذلك أننا نذم التقليد مطلقًا؛ التقليد في موضعه هو الواجب؛ لقوله تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}[النمل: ٤٣].

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند من أسباب النزول: قال الإمام البخاري رحمه الله في كتابه خلق أفعال العباد ص٥٤ حدثنا يحيى ثنا وكيع عن سفيان عن عبد الرحمن بن علقمة عن ابن عباس رضي الله عنه {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}، قال: نزلت في أهل الكتاب.

الحديث رجاله رجال الصحيح إلا عبد الرحمن بن علقمة وقد وثقه النسائي وابن حبان والعجلي وقال ابن شاهين: قال ابن مهدي: كان من الأثبات الثقات ا. هـ. تهذيب التهذيب.

قال أبو زهرة: إذا كان من أهل الكتاب أمّيّون لَا يعلمون من علم الكتاب إلا الأماني التي يشبعون بها أهواءهم، ويدخلون بها الكذب والتمويه على نفوسهم، فإن أولئك الأحبار أو العلماء يمالئون نفوسهم من الأكاذيب، ويكتبون بأيديهم ما ليس من الكتاب، ويوهمونهم أنه من الكتاب، وما هو من الكتاب، وفي ذلك رد على الذين يزعمون أن القرآن يقرّ كل ما جاء في كتبهم، فهل هو يقر ما يكتبونه بأيديهم، ويقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا؛ كذبوا وبهتوا، وأعظموا الفرية على كتاب الله تعالى.

ولقد أخبر سبحانه أن أولئك الذين يجلسون مجلس العلماء فيهم ينتهزون أن فيهم أمّيّين لَا يعلمون الكتاب إلا أماني وأن علمهم ظن والظن لَا يغني من الحق شيئًا، فيكتبون الكتاب بأيديهم حاذفين ما شاءوا ويزيدون عليه ما شاءوا، فقال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ}.

قال ابن العثيمين: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ... }؛ {ويل}، كلمة وعيد؛ يتوعَّد الله تعالى من اتَّصفوا بهذه الصفة؛ وهي مبتدأ؛ وجاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأنها تفيد الوعيد. والوعيد معنى خاص، فزال به إجمال النكرة المطلقة؛ و{الكتاب}: بمعنى المكتوب؛ والمراد به التوراة؛ {بأيديهم}: كلمة مؤكدة لقوله تعالى: {يكتبون}؛ أو مبينة للواقع؛ لأنه لا كتابة إلّا باليد غالبًا؛ والمعنى: أنهم يكتبونه بأيديهم، فيتحققون أنه ليس الكتاب المنزل؛ فهم يباشرون هذه الجناية العظيمة؛ {ثم يقولون}: أي بعدما كتبوه بأيديهم، وعرفوا أنه من صنع أيديهم؛ {هذا من عند الله}: أي نزل من عند الله؛ {ليشتروا به}: أي ليأخذوا به؛ واللام للتعليل؛ فإذا دخلت اللام على الفعل المضارع تكون للتعليل. كما هي هنا؛ وتكون للعاقبة، مثل: {ليكون لهم عدوًا وحزنًا}[القصص: ٨]؛ وتكون زائدة، مثل: {يريدون ليطفئوا نور الله}[الصف: ٨]، أي يريدون أن يطفئوا؛ لأن الفعل (يريد)، يتعدى بنفسه بدون حرف الجر؛ {ثمنًا قليلًا}: أي

عوضًا قليلًا؛ وهذا العوض القليل هو الرئاسة، والجاه، والمال، وغير ذلك من أمور الدنيا، كما قال تعالى: {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى}[النساء: ٧٧]؛ فمهما حصل في الدنيا من رئاسة، وجاه، ومال، وولد، فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل من حديث سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها([1]))، الدنيا من أولها إلى آخرها برئاساتها، وأموالها، وبنيها، وقصورها، وكل ما فيها، وموضع السوط متر تقريبًا؛ إذًا متاع الدنيا قليل.

{فويل لهم مما كتبت أيديهم}: هذا وعيد على فعلهم؛ {وويل لهم مما يكسبون}: هذا وعيد على كسبهم.

قال أبو زهرة: وقد أكَّد سبحانه وتعالى الهلاك النازل بهما يوم القيامة فقال تعالت كلماته: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}؛ ومعناها: هلاك لهم بسبب ما كتبت أيديهم، لأنها بهذه الكتابة حرفت وبدلت وسجلت في الكتاب هراء وأباطيل، فكانت في ذاتها إثمًا، وويل لهم من الكسب الذي كسبوه من أعراض الدنيا، لأنه سحت في ذاته، إذ إن ما دفع في سبيله كان باطلًا، وهو أخذ لمال الله بالباطل، وما يكسبونه من جاه أو سلطان أو رياسة أمر باطل؛ لأنه دفع الحق عن سبيله، وإن الله تعالى لَا يبارك شيئًا أخذ بغير حله، فهو كالاغتصاب لَا يطيب لنفسه، وكذلك عدَّ سبحانه وتعالى الكتابة سببًا للعقاب الشديد، والكسب الذي كسبوه بالتضليل سببًا للويل، وقال تعالى: {يَكْسِبُونَ} بالمضارع للدلالة على تجدد ما يكسبون، وكذلك الويل يكون متجدِّدًا مثله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الوعيد على الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله وهم كاذبون.

٢- أنهم يفعلون ذلك من أجل الرئاسة، والمال، والجاه؛ لقوله تعالى: {ليشتروا به ثمنًا قليلًا}؛ وقد ورد الوعيد على من طلب علما يبتغى به وجه الله لينال عرضًا من الدنيا.

٣- أن الدنيا كلها مهما بلغت فهي قليل، كما قال تعالى: {قل متاع الدنيا قليل}[النساء: ٧٧].

٤- أن الجزاء بحسب العمل؛ لقوله تعالى: {فويل لهم مما كتبت أيديهم}.

٥- إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: {مما كتبت أيديهم}؛ فإن هذا بيان لعلة الوعيد؛ وهذه غير الفائدة السابقة؛ لأن الفائدة السابقة جزاؤهم بقدر ما كتبوا؛ وهذه بيان السبب.

٦- أن عقوبة القول على الله بغير علم تشمل الفعل، وما ينتج عنه من كسب محرم؛ لقوله تعالى: {فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون}؛ فما نتج عن المحرم من الكسب فإنه يأثم به الإنسان؛ مثلًا: إنسان عمل عملًا محرَّمًا. كالغش. فإنه آثم بالغش؛ وهذا الكسب الذي حصل به هو أيضًا آثم به.

١- أخرجه أحمد ٥/٣٣٠، حديث رقم ٢٣١٨٣؛ وأخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧٣: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم (٢٨٩٢).

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

قال الطبري: {وقالوا}: اليهود، {لن تمسنا النار}: يعني لن تلاقي أجسامنا النار ولن ندخلها، {إلا أيّامًا معدودة}. وإنما قيل: {معدودة}، وإن لم يكن مبيَّنا عددها في التنزيل، لأن الله جل ثناؤه أخبر عنهم بذلك وهم عارفون عدد الأيام التي يوقتونها لمكثهم في النار، فلذلك ترك ذكر تسمية عدد تلك الأيّام وسمّاها {معدودة} لما وصفنا.

عن ابن عباس: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أيّامًا معدودة}، قال: ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم، الأيام التي أصبنا فيها العجل: أربعين يومًا، فإذا انقضت عنا تلك الأيام، انقطع عنا العذاب والقسم.

قال ابن العثيمين: يعنون أنهم يبقون فيها أيّامًا معدودة، ثم يخلفهم فيها النبي ﷺ، والمؤمنون؛ فنحن نقول: إقراركم على أنفسكم بدخول النار مقبول؛ ودعواكم الخروج من النار دعوى لا بيِّنة لها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى متحدِّيًا إياهم: {قل}: الخطاب للنبي ﷺ، {أتَّخذتم عند الله عهدًا}: أي أأخذتم عند الله عهدًا أن لا تمسكم النار إلا أيّامًا معدودة، ثم يخلفكم فيها الرسول، والمؤمنون؟! والاستفهام هنا للإنكار؛ و(العهد)، الميثاق، والالتزام؛ {فلن يخلف الله عهده}: أي إن اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلفه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

{أم تقولون على الله ما لا تعلمون}؛ قيل: إن {أم}، متصلة؛ وقيل: إنها منقطعة؛ والفرق بينهما من وجهين: الأول: أن المنقطعة تكون بمعنى (بل)؛ والثاني: أن ما بعدها منقطع عما قبلها؛ وأما المتصلة فتكون بمعنى (أو)، وما بعدها معادل لما قبلها؛ مثال المتصلة: قوله تعالى: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم}[البقرة: ٦]؛ ومثال المنقطعة: قوله تعالى: {أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون}[الطور: ٣٢]: أي بل هم قوم طاغون؛ أما في هذه الآية التي نحن بصددها فيحتمل أنها منقطعة؛ وعلى هذا فيكون معناها: (بل تقولون على الله ما لا تعلمون)؛ ويحتمل أنها متصلة، فيكون معناها: (هل أنتم اتَّخذتم عند الله عهدًا فادعيتموه، أو أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون)؟! وعلى كلا الاحتمالين فهم يقولون على الله ما لا يعلمون؛ إذا لم يكن عندهم من الله عهد، وقد قالوا على الله ما لا يعلمون، فتكون دعواهم هذه باطلة.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٤٣: فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بدَّ من واحد منهما وقد تعيَّن بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر فإن قولهم: {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً} خبر

عن غيب لا يعلم إلا بالوحي فإمّا أن يكون قولًا على الله بلا علم فيكون كاذبًا، وإمّا أن يكون مستندًا إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر وهذا منتف قطعًا فتعين أن يكون خبرًا كاذبًا قائله كاذب على الله تعالى.

قال أبو زهرة: الاستفهام هنا إنكاري لإنكار الواقع، وتوبيخهم على فعلهم الواثقين به في ذات أنفسهم الموقنين به كأن الله عاهدهم، والمعنى أن الله تعالى لم تأخذوا منه عهدًا عاهدكم عليه، وهو وحده الذي يملك العقاب ومقداره، بألّا يعاقبكم إلا بهذا القدر، وهو أن النار لن تمسكم إلّا أيّامًا معدودة، فالاستفهام يتضمن النفي، ويتضمن التوبيخ لهم على ما هم عليه، ويتضمن التعريض بنقضهم للعهود التي أخذت عليهم والمواثيق التي وثّقها وأكّدها، ومنها رفع الطور عليهم، وأخذهم ما أوتوا بقوة.

ولقد بيَّن سبحانه وتعالى أن العقاب يكون على قدر العمل، والثواب يكون على قدر العمل، فلا ينظر فيه إلى الذات، بل الجميع خلق الله تعالى، ولا يريد سبحانه إلا العمل الصالح، والامتناع عن الشر {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}. ولذا قال تعالت كلماته: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}؛ فتضمن الإجابة على قولهم وردّه، والإضراب عنه، فالمعنى: تبين كلامكم، وهو باطل مخالف لما شرعه الله سبحانه وتعالى من عقاب وثواب أنه للأعمال من غير نظر إلى الذوات، بل الجميع على سواء أمام الله سبحانه وتعالى، في الجزاء إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

قال ابن العثيمين: قوله تعالى مبيِّنا من الذي تمسه النار، ومن الذي لا تمسه: {بلى من كسب سيئة}: قال المفسرون: {بلى}، هنا بمعنى (بل)؛ فهي للإضراب الانتقالي؛ ويحتمل أن تكون للإضراب الإبطالي، أي لإبطال قولهم: {لن تمسنا النار إلا أيّامًا معدودة}؛ و{من}، يحتمل أن تكون اسم شرط؛ وجوابه: {فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}؛ ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذي؛ وهي مبتدأ، وخبره: {فأولئك أصحاب النار}، وقرن بالفاء لمشابهة الاسم الموصول الاسم الشرط في العموم؛ والاحتمال الأول أولى؛ وال{كسب}، معناها: حصول الشيء نتيجة لعمل؛ و{سيئة}، من ساء يسوء؛ والمراد الأعمال السيئة.

{وأحاطت به خطيئته}: (الإحاطة) في اللغة: الشمول؛ و{أحاطت}: أي صارت كالحائط عليه، وكالسور؛ أي اكتنفته من كل جانب؛ وفي قوله تعالى: {خطيئته}، قراءتان: الإفراد، والجمع؛ والإفراد بمعنى الجمع؛ لأنه مفرد مضاف فيعم؛ لكن الجمع يفيد الإشارة إلى أنواع الخطايا.

وقوله تعالى: {سيئة}، و{خطيئته}: قيل: بمعنى واحد، وأن السيئة امتدت حتى أحاطت به؛ وقيل: إن المراد بالسيئة: الكفر؛ والخطيئة: ما دونه؛ وهذا هو المعروف عند المفسرين.

قال أبو زهرة: الكسب: العمل الذي يصير حالًا ثابتة قائمة مستمرة، فمن عمل خطأ لَا يقال إنه كسبه، ومن عمل إثمًا عن جهالة وضلالة ثم تاب من قريب لَا يقال إنه كسبه، إنما يقال إنه كسبه إذا عمل قاصدًا مستمرًا، حتى يكون له مجرى في قلبه، وينكت فيه نكتًا سوداء، فهذا هو الذي يقال له كسب السيئة، والسيئة: (فيعلة) من (ساء يسوء سَيْوِئة)، فهي في أصلها (سيوئة)؛ اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء بمقتضى القاعدة

الصرفية، والسَّيِّئة: كل فعل يكون أثره سيِّئًا في الناس أو في الجماعة أو في النفس، فيفسد التقدير، ويكون وبالًا، فيظلم نفسه، والناس، ومن حوله.

والخطيئة فعيلة من الخطأ، ولكن هناك فرقًا بينهما فالخطأ يقع من غير قصد ابتداء، ولكن لَا يتكرر، أما الخطيئة فهي الفعل المقصود الآثم المتكرر الذي يخط في النفس خطوطًا، حتى يصير الذنب عادةً له أو كالعادة فيصدر الشر عنه وباستمرار من غير قصد خاص إليه، وكأنه يقع غير مقصود، وفي الحال تكون النفس قد أركست بالشرِّ إركاسًا، فالخطيئة حال نفسية للنفس الآثمة التي تمرَّست بالإثم؛ ولذا قال تعالى: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}: أي أن الخطيئة استولت على النفس، وصارت كأنها قبة قد أحاطت بالنفس الآثمة من كل جوانبها. وفي هذا إشارة إلى أحوال بني إسرائيل، وأنهم أحاطت بهم خطاياهم.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ في مجموع الفتاوى ج١٤ص٤٨: هَذَا تَفْسِيرُ آيَاتٍ أُشْكِلَتْ حَتَّى لَا يُوجَدُ فِي طَائِفَةٍ مِنْ (كُتُبِ التَّفْسِيرِ) إلَّا مَا هُوَ خَطَأٌ. مِنْهَا قَوْلُهُ: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} الْآيَةَ:

ذَكَرَ أَنَّ الْمَشْهُورَ أَنَّ السَّيِّئَةَ الشِّرْكُ، وَقِيلَ: الْكَبِيرَةُ يَمُوتُ عَلَيْهَا، قَالَهُ عِكْرِمَةُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الذُّنُوبُ تُحِيطُ بِالْقَلْبِ. قُلْت: الصَّوَابُ ذِكْرُ أَقْوَالِ السَّلَفِ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا ضَعِيفٌ فَالْحُجَّةُ تُبَيِّنُ ضَعْفَهُ، فَلَا يُعْدَلُ عَنْ ذِكْرِ أَقْوَالِهِمْ لِمُوَافَقَتِهَا قَوْلَ طَائِفَةٍ مِنْ الْمُبْتَدَعَةِ، وَهُمْ يَنْقُلُونَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَخْطَأَ فِيهَا الْكَاتِبُ كَمَا قِيلَ فِي غَيْرِهَا، وَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ بَعْدَ تَوَاتُرِهِ أُسْتُتِيب، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ، وَأَمَّا قَبْلَ تَوَاتُرِهِ عِنْدَهُ فَلَا يُسْتَتَابُ، لَكِنْ يُبَيَّنُ لَهُ، وَكَذَلِكَ الْأَقْوَالُ الَّتِي جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِخِلَافِهَا؛ فِقْهًا، وَتَصَوُّفًا، وَاعْتِقَادًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ صَحِيحٌ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((إذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ([١]))، إلَخْ، وَالَّذِي يَغْشَى الْقَلْبَ يُسَمَّى (رَيْنًا) و(طَبْعًا) و(خَتْمًا) و(قُفْلًا) وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا مَا أَصَرَّ عَلَيْهِ. و(إحَاطَةُ الْخَطِيئَةِ)، إحْدَاقُهَا بِهِ فَلَا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ، وَهَذَا هُوَ الْبَسْلُ بِمَا كَسَبَتْ نَفْسُهُ، أَيْ: تُحْبَسُ عَمَّا فِيهِ نَجَاتُهَا فِي الدَّارَيْنِ؛ فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ قَيْدٌ وَحَبْسٌ لِصَاحِبِهَا عَنْ الْجَوَلَانِ فِي فَضَاءِ التَّوْحِيدِ، وَعَنْ جَنْيِ ثِمَارِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

وَمِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ مَنْ يَقُولُ: إنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ يُعَذَّبُ مُطْلَقًا وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى خِلَافِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ – سُبْحَانَهُ – يَزِنُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَعَلَى هَذَا دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُوَ مَعْنَى الْوَزْنِ، لَكِنَّ تَفْسِيرَ السَّيِّئَةِ بِالشِّرْكِ هُوَ الْأَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – غَايَرَ بَيْنَ الْمَكْسُوبِ وَالْمُحِيطِ، فَلَوْ كَانَ وَاحِدًا لَمْ يُغَايِرْ، وَالْمُشْرِكُ لَهُ خَطَايَا غَيْرُ الشِّرْكِ أَحَاطَتْ بِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا.

وأَيْضًا، قَوْلُهُ: {سَيِّئَةً}، نَكِرَةٌ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ جِنسَ السَّيِّئَاتِ بِالِاتِّفَاقِ.

١- أحمد ٢/٢٩٧، والترمذي في التفسير (٣٣٣٤)، وقال: (حسن صحيح).

- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٥٤). والحديث بتمامه عند الترمذي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ})).

وأَيْضًا، لَفْظُ {السَّيِّئَةِ}، قَدْ جَاءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مُرَادًا بِهِ الشِّرْكَ وَقَوْلُهُ: {سَيِّئَةً}: أَيْ: حَالٌ سَيِّئَةٌ أَوْ مَكَانٌ سَيِّئَةٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}[البقرة: ٢٠١]، أَيْ حَالًا حَسَنَةً تَعَمُّ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَهَذَا اللَّفْظُ يَكُونُ صِفَةً، وَقَدْ يُنْقَلُ مِنْ الْوَصْفِيَّةِ إلَى الِاسْمِيَّةِ؛ وَيُسْتَعْمَلُ لَازِمًا أَوْ مُتَعَدِّيًا يُقَالُ: سَاءَ هَذَا الْأَمْرُ، أَيْ: قَبُحَ، وَيُقَالُ: سَاءَنِي هَذَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا}[يونس: ٢٧]: عَمِلُوا الشِّرْكَ؛ لِأَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِهَذَا فَقَطْ، وَلَوْ آمَنُوا لَكَانَ لَهُمْ حَسَنَاتٌ، وَكَذَا لَمَّا قَالَ: {كَسَبَ سَيِّئَةً}، لَمْ يَذْكُرْ حَسَنَةً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى}[يونس: ٢٦]، أَيْ: فَعَلُوا الْحُسْنَى، وَهُوَ مَا أُمِرُوا بِهِ، كَذَلِكَ {السَّيِّئَةُ} تَتَنَاوَلُ الْمَحْظُورَ فَيَدْخُلُ فِيهَا الشِّرْكُ.

قال ابن العثيمين: {فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}: المشار إليه ما سبق؛ و{أصحاب}، جمع صاحب، أي أهل النار؛ وسمّوا أصحابًا لها لملازمتهم إياها. والعياذ بالله.

قال الطبري: وإنما جعلهم لها أصحابًا لإيثارهم – في حياتهم الدنيا ما يوردهموها ويوردهم سعيرها – على الأعمال التي توردهم الجنة فجعلهم جل ذكره بإيثارهم أسبابها على أسباب الجنة لها أصحابًا، كصاحب الرجل الذي يصاحبه مؤثِّرًا صحبته على صحبة غيره، حتى يعرف به.

قال ابن العثيمين: {خالدون}: أي ماكثون؛ فالخلود بمعنى المكث، والدوام؛ ومنه قوله تعالى: {ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود}[ق: ٣٤].

قال السعدي: وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

قال الطبري: عن ابن عباس: {هم فيها خالدون}: أي خالدون أبدًا. وعن السدي: {هم فيها خالدون}: لا يخرجون منها أبدًا.

قال ابن العثيمين: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}: مبتدأ؛ خبره: قوله تعالى: {أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون}؛ لما ذكر الله عز وجل مصير الكافرين ذكر بعده مصير المؤمنين ليكون العبد سائرًا إلى الله سبحانه وتعالى بين الخوف والرجاء؛ وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مثاني، أي تثنى فيه المعاني، والأحوال.

وقوله تعالى: {والذين آمنوا}: أي صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول، والإذعان؛ فلا يكون الإيمان مجرد تصديق؛ بل لا بد من قبول للشيء، واعتراف به، ثم إذعان، وتسليم لما يقتضيه ذلك الإيمان.

{وعملوا الصالحات}: أي عملوا الأعمال الصالحات؛ والعمل يصدق على القول، والفعل؛ وليس العمل مقابل القول؛ بل الذي يقابل القول: الفعل؛ وإلا فالقول، والفعل كلاهما عمل؛ لأن القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح.

قال السعدي: ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متَّبِعا بها سنة رسوله.

قال ابن العثيمين: {أولئك أصحاب الجنة}: أي: أهلها الملازمون لها؛ لأن الصحبة ملازمة؛ و{الجنة}: الدار التي أعدَّها الله تعالى للمتقين؛ وفيها كما قال الرسول ﷺ ((ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر(١)))، كقوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}[السجدة: ١٧].

قال الطبري: {فأولئك}: فالذين هم كذلك، {أصحاب الجنة هم فيها خالدون}: يعني أهلها الذين هم أهلها هم فيها {خالدون}: مقيمون أبدًا.

وإنما هذه الآية والتي قبلها إخبار من الله عباده عن بقاء النار وبقاء أهلها فيها، وبقاء الجنة وبقاء أهلها فيها ودوام ما أعدَّ في كل واحدة منهما لأهلها، تكذيبًا من الله جل ثناؤه القائلين من يهود بني إسرائيل: إن النار لن تمسهم إلّا أيّامًا معدودة، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة. فأخبرهم بخلود كفارهم في النار، وخلود مؤمنيهم في الجنة.

عن ابن عباس: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون}: أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدًا لا انقطاع له أبدًا.

قال السعدي: فحاصل هاتين الآيتين، أن أهل النجاة والفوز، هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به. وهذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة، في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا بها في قوله: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا} إلى آخر الآية.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيات: ١- أن اليهود يقرّون بالآخرة، وأن هناك نارًا، لقوله تعالى: {وقالوا لن تمسنا النار إلّا أيّامًا معدودة}؛ لكن هذا الإقرار لا ينفعهم؛ لأنهم كذبوا محمدًا ﷺ؛ وعلى هذا ليسوا بمؤمنين.

٢- أنهم قالوا على الله ما لا يعلمون، إمّا كذبًا، وإمّا جهلًا؛ والأول أقرب؛ لقوله تعالى: {أم تقولون على الله ما تعلمون...}.

٣- حسن مجادلة القرآن؛ لأنه حصر هذه الدعوى في واحد من أمرين، وكلاهما منتف: {أتَّخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون}؛ وهذا على القول بأن {أم} هنا متصلة؛ أما على القول بأنها منقطعة فإنه ليس فيها إلا إلزام واحد.

١- اخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٤٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١: صفة الجنة، حديث رقم ٧١٣٠ [٢] ٢٨٢٤.

٤- أن الله سبحانه وتعالى لن يخلف وعده؛ وكونه لا يخلف الوعد يتضمن صفتين عظيمتين هما: الصدق، والقدرة، لأن إخلاف الوعد إما لكذب، وإما لعجز؛ فكون الله جل وعلا لا يخلف الميعاد يقتضي كمال صدقه، وكمال قدرته.

٥- أن من دأب اليهود القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: {أم تقولون على الله ما لا تعلمون}؛ والقول على الله يتضمن القول عليه في أحكامه، وفي ذاته، وصفاته؛ من قال عليه ما لا يعلم بأنه حلَّل، أو حرَّم، أو أوجب، فقد قال على الله بلا علم؛ ومن أثبت له شيئًا من أسماء، أو صفات لم يثبته الله لنفسه فقد قال على الله بلا علم؛ ومن نفى شيئًا من أسمائه وصفاته فقد قال على الله بلا علم؛ ومن صرف شيئًا عن ظاهره من نصوص الكتاب والسنة بلا دليل فقد قال على الله بلا علم.

٦- تحريم الإفتاء بلا علم؛ وعلى هذا يجب على المفتي أن يتقي الله عز وجل، وألا يتسرع في الإفتاء؛ لأن الأمر خطير.

٧- أن الثواب والعقاب لا يترتب على الأشخاص بحسب النسب، أو الانتماء؛ وإنما هو بحسب العمل.

٨- أن من أحاطت به خطيئته فلم يكن له حسنة فإنه من أصحاب النار الذين لا يخرجون منها.

٩- أن من كسب سيئة لكن لم تحط به الخطيئة فإنه ليس من أصحاب النار؛ لكن إن كان عليه سيئات فإنه يعذب بقدرها. ما لم يعف الله سبحانه وتعالى عنه.

١٠- إثبات النار، وأنها دار الكافرين.

١١- خلود أهل النار فيها؛ وهو خلود مؤبَّد لا يخفف عنهم فيه العذاب، وقد صرح الله عز وجل بتأبيد الخلود فيها في ثلاثة مواضع من القرآن؛ الأول: في سورة النساء في قوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا}[النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ الموضع الثاني: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا}[الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ الموضع الثالث: في سورة الجن في قوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا}[الجن: ٢٣].

١٢- أن أهل الجنة هم الذين قاموا بالإيمان، والعمل الصالح؛ ولا يكون العمل صالحًا إلا بأمرين: الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للرسول ﷺ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه([1]))). وهذا فقد فيه الإخلاص؛ وقول النبي ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ([2]))). وهذا فقد فيه المتابعة؛ وكذلك قول الرسول ﷺ: ((فأيّما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط([3]))).

١- (قلت): مسلم (٢٩٨٥).
٢- (قلت): مسلم (١٧١٨).
٣- أخرجه البخاري ص٢٠١ - ٢٠٢، كتاب المكاتب، باب ٣: استعانة المكاتب وسؤاله الناس، حديث رقم ٢٥٦٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٣٧، كتاب العتق، باب ١: ذكر سعاية العبد، حديث رقم ٣٧٧٩ [٨] ١٥٠٤.

١٣- أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنة؛ بل لا بدَّ من عمل صالح.

١٤- أن العمل وحده لا يكفي حتى يكون صادرًا عن إيمان؛ لقوله تعالى: {آمنوا وعملوا الصالحات}، ولذلك لم ينفع المنافقين عملهم؛ لفقد الإيمان في قلوبهم.

١٥- بلاغة القرآن، وحسن تعليمه؛ حيث إنه لما ذكر أصحاب النار ذكر أصحاب الجنة؛ وهذا من معنى قول الله تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني}[الزمر: ٢٣]؛ فإن من معاني المثاني أن تثنى فيه الأمور؛ فيذكر الترغيب والترهيب؛ والمؤمن والكافر؛ والضار والنافع؛ وما أشبه ذلك.

١٦- إثبات الجنة.

١٧- أن أصحاب الجنة مخلدون فيها؛ وتأبيد الخلود في الجنة صرح الله سبحانه وتعالى به في آيات عديدة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)

قال أبو زهرة: يذكر الله تعالى نبيه والمؤمنين بالميثاق الذي أخذ الله تعالى عليهم، وهو ميثاق يصلح نفوسهم، ويهذِّب جماعتهم ويجعلهم يتآلفون فيما بينهم، ويألفهم الناس، ويأتلفون، ولكن رضوا النفور بدل الائتلاف، والمنازعة بدل الالتقاء في ظل الرحمة والمودة الجامعة، وإن ذلك الميثاق الذي يذكره الله تعالى لهم هو ميثاق كل الأنبياء.

قال ابن العثيمين: {وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل}: أي اذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل؛ وال{ميثاق}: العهد؛ وسمِّيَ (العهد) ميثاقًا؛ لأنه يوثق به المعاهد، كالحبل الذي توثق به الأيدي، والأرجل؛ لأنه يلزمه.

قال السعدي: هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة، والعهود الموثقة.

قال ابن العثيمين: و{إسرائيل}: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ وبنوه: ذريته من ذكور، وإناث، كما يقال: (بنو تميم) لذكورهم، وإناثهم؛ و(بنو إسرائيل)، بنو عم للعرب؛ لأن العرب من بني إسماعيل؛ وهؤلاء من بني إسرائيل؛

- (قلت): والحديث بتمامه: عند البخاري: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَتْ بَرِيرَةُ فَقَالَتْ: إِنِّي كَاتَبْتُ أَهْلِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي كُلِّ عَامٍ وَقِيَّةٌ فَأَعِيْنِينِي فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ عَدَّةً وَاحِدَةً وَأُعْتِقَكِ فَعَلْتُ وَيَكُونَ وَلاؤُكِ لِي فَذَهَبَتْ إِلَى أَهْلِهَا فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الْوَلاءُ لَهُمْ فَسَمِعَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ((خُذِيهَا فَأَعْتِقِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلاَءَ فَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ))، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: ((أَمَّا بَعْدُ فَمَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ فَأَيُّمَا شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهْوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِئَةَ شَرْطٍ فَقَضَاءُ اللهِ أَحَقُّ وَشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ مَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ أَعْتِقْ يَا فُلاَنُ وَلِيَ الْوَلاَءُ إِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ)).

وجدهم واحد، وهو إبراهيم ﷺ، وال{ميثاق}، بينه الله سبحانه وتعالى بقوله: {لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانًا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنًا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}؛ فالميثاق اشتمل على ثمانية أمور:

الأول: أن لا يعبدوا إلا الله؛ لقوله تعالى: {لا تعبدون إلا الله}؛ و(العبادة)، معناها: الذل، والخضوع؛ مأخوذة من قولهم طريق مُعَبَّد. أي مذلَّل.

قال السعدي: هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهى عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده.

قال ابن العثيمين: الثاني: الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: {وبالوالدين إحسانًا}: أي أحسنوا بالوالدين إحسانًا؛ وهو شامل للإحسان بالقول، والفعل، والمال، والجاه، وجميع طرق الإحسان؛ لأن الله أطلق؛ فكل ما يسمّى إحسانًا فهو داخل في قوله تعالى: {وبالوالدين إحسانًا}؛ والمراد بـ{الوالدين}: الأب، والأم، والأباعد لهم حق؛ لكن ليسوا كحق الأب، والأم الأدنيين، ولهذا اختلف إرثهم، واختلف ما يجب لهم في بقية الحقوق.

قال أبو زهرة: وإن الأمر الثاني – الذي ولي الأمر بالعبادة لله وحده، وهي تطهير النفوس من رجس الوثنية، والأوهام الفاسدة هو ما يتعلق بالأسرة لأن الأسرة قوام المجتمع يقوم عليها بناؤه، فلا يمكن أن يتكون مجتمع فاضل إلا من أسر قوية متماسكة برباط المودة، والمحبة والإحسان الذي هو غاية المحبة، وإن أولى رباط في الأسرة هو رباط الولد بأبويه، بالإحسان إليهما؛ ولذا قال سبحانه بعد الأمر بعبادة الله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، والإحسان زيادة في المعاملة عن المعاملة بالمثل أو بالعدل، وإنه زيادة عن العدل، بل فيه المحبة والرحمة؛ ولذا يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأمرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ}، والإحسان أصله مصدر أحسن، وهو الإتقان والإجادة، وبلوغ أقصى الغاية في الإجادة، فالإحسان في العبادة أن تبلغ أقصى درجات التجرد لله تعالى بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى الأبوين أن تبلغ أقصى درجات الوفاء لهما في البر والمكافأة، وأن تزيد في المعاملة الحسنة، عما كان يكون منهما، احتياطا للرعاية والشفقة، والإحسان إلى الناس أن تعاملهم بالمودة الظاهرة، وإفشاء السلام بينهم فخير الإسلام أن تقرأ السلام على من تعرف ومن لم تعرف، وإحسان العمل إتقانه {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}.

وإن الإحسان إلى الوالدين ابتدأ بهما لأنهما رأس الأسرة، وهما أصل تكوينها، فمنهما تتشعب، وتمتد من الأصول إلى الفروع ثم إلى الحواشي؛ ولذلك كان الإحسان واجبًا لكل من يربطهم بهما رحم، وذكر الإحسان إلى ذوي القربى.

قال ابن العثيمين: الثالث: الإحسان إلى القرابة؛ لقوله تعالى: {وذي القربى}؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: {بالوالدين}؛ والمعنى: وإحسانًا بذي القربى؛ و{ذي}: بمعنى صاحب؛ و{القربى}: بمعنى القرابة؛ ويشمل: القرابة من قبل الأم؛ والقرابة من قبل الأب، لأن {القربى} جاءت بعد {الوالدين}، أي القربى من قبل الأم، ومن قبل الأب.

قال أبو زهرة: والأسرة في الإسلام ممتدة، ليست مقصورة على الأبوين أو الزوجين، بل إنها ممتدة تشمل الأقرباء أجمعين، يحسن إليهم الأقرب فالأقرب حتى يعمهم ويبرهم جميعًا، ولقد قال ﷺ: ((من أراد أن يبسط له في رزقه،

وينسأ له في أثره، فليصل رحمه[١]))، وإن ذلك كله تقوية لبناء الأسرة على التواصل والمودة والرحمة فإن المجتمع الكامل يتكون من أُسَر قوية وهي لَبِنة البناء، ولا يتكون بناء قوي إلا من لبنات قوية.

وإن العناية بالأسرة عناية بالجماعة، وإن الوطن لَا تتربى محبته إلا في بناء الأسرة، والنزوع الجماعي، والتربية الاجتماعية هي التي توح النفس الإنسانية محبة الجماعة وحسن التبادل العادل بينها وإنما يبدأ ذلك بالأسرة، وقد أراد بعض الفلاسفة – وسارت وراءهم بعض النظم – أن يمحو الأسرة ويربى الأطفال مع غير آبائهم ليكونوا جميعًا منتمين للجماعة؛ فنمت أجسامهم، ولكن من غير عواطف إنسانية فمحوا الأسرة، والجماعة معًا.

قال ابن العثيمين: الرابع: الإحسان إلى اليتامى؛ لقوله تعالى: {واليتامى}: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ من ذكر، أو أنثى، وأوصى الله تعالى باليتامى؛ لأنه ليس لهم من يربيهم، أو يعولهم؛ إذ إن أباهم قد توفي؛ فهم محل للرأفة، والرحمة، والرعاية.

الخامس: الإحسان إلى المساكين؛ لقوله تعالى: {والمساكين}، جمع مسكين وهو الفقير الذي أسكنه الفقر؛ لأن الإنسان إذا اغتنى فإنه يطغى، ويزداد، ويرتفع، ويعلو؛ وإذا كان فقيرا فإنه بالعكس، وهنا يدخل الفقراء مع {المساكين}؛ لأن (الفقراء)، و(المساكين)، من الأسماء التي إذا قرنت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت؛ فكلمة (الفقراء) إذا كانت وحدها شملت الفقراء والمساكين؛ و(المساكين)، إذا كانت وحدها شملت الفقراء والمساكين؛ وإذا قيل: فقراء ومساكين، مثل آية الزكاة: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين}[التوبة: ٦٠]، صار (الفقراء) لها معنى؛ و(المساكين) لها معنى؛ لما اجتمعت الآن افترقت: ف(الفقير)، من لا يجد شيئًا من الكفاية، أو يجد دون النصف؛ و(المسكين)، من يجد نصف الكفاية دون كمالها.

قال أبو زهرة: وفى الحقيقة إن اليتامى والمساكين بهذا العموم هم الضعاف في الجماعة، ورعاية الضعفاء وقاية لبناء الأمة من الانهيار، وإلا كانوا أشتاتًا غير متراحمين يأكل بعضهم بعضًا. وقدَّم الإحسان على اليتامي وإن كانوا أغنياء على المساكين؛ لأن اليتيم ضعيف، وإن كان كثير المال وهو ذو حاجة وإن كان غنيًّا، والإحسان إليه أن يقوم القائم عليه بتربيته، وألا يقهره ولا يذلَّه، وأن يضمه إلى عياله؛ فإنه إن لم يُحط بالعطف والرعاية والمحبة، تربّى على النفرة من الجماعة فيُكوَّن الشذَّاذ والكارهون للمجتمعات؛ ولذلك كانت النصوص الكثيرة الداعية إلى إكرام اليتيم، فاليتامى إكرامهم فيه تقوية للأمة بإنشاء نشء على الخلق القويم.

بعد إقامة الأسرة ومراعاة الضعفاء في هذا الميثاق الإنساني الذي أخذ على بني إسرائيل وليس خاصًا بهم دعا سبحانه وتعالى إلى بناء مجتمع إنساني يعم الإقليم والجنس والناس أجمعين فقال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}.

١- (قلت): البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

قال ابن العثيمين: السادس: أن يقولوا للناس قولًا حسنًا؛ لقوله تعالى: {وقولوا للناس حُسْنًا}، بسكون السين، وفي قراءة: {حَسَنًا}، بفتحها؛ والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته؛ وفي معناه، ففي هيئته: أن يكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة، والشدة، وفي معناه: بأن يكون خيرًا؛ لأن كل قول حسن فهو خير؛ وكل قول خير فهو حسن.

قال السعدي: ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن}. ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيهًا في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملًا لكل أحد، صبورًا على ما يناله من أذى الخلق، امتثالًا لأمر الله، ورجاء لثوابه.

قال ابن العثيمين: السابع: إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: {وأقيموا الصلاة}: أي ائتوا بها قائمة؛ أي قويمة ليس فيها نقص؛ وذلك بأن يأتوا بها بشروطها، وأركانها، وواجباتها؛ وكمال ذلك أن يأتوا بمستحباتها؛ و{الصلاة}، تشمل الفريضة، والنافلة.

الثامن: إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: {وآتوا الزكاة}، أي أعطوها مستحقها؛ و{الزكاة}، هي النصيب الذي أوجبه الله لمستحقه في الأموال الزكوية.

قال السعدي: أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

{ثم تولَّيتم إلَّا قليلًا منكم}، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وفائدته: إدخال الموجودين في عهد النبي ﷺ في هذا الحكم. أعني التولي؛ و(التولي)، ترك الشيء وراء الظهر؛ وهذا أبلغ من الإعراض؛ لأن الإعراض قد يكون بالقلب، أو بالبدن مع عدم استدبار.

{وأنتم معرضون}، الجملة هنا حالية؛ أي توليتم في إعراض؛ وذلك أن المتولي قد لا يكون عنده إعراض في قلبه، فقد يتولّى بالبدن، ولكن قلبه متعلق بما وراءه؛ ولكن إذا تولى مع الإعراض فإنه لا يرجى منه أن يقبل بعد ذلك.

قال السعدي: {ثم}، بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها وتفضل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم، {تولَّيتم}، على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولّى، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان.

{إلَّا قليلًا منكم}، هذا استثناء، لئلَّا يوهم أنهم تولَّوا كلهم، فأخبر أن قليلًا منهم، عصمهم الله وثبتهم.

قال الطبري: عن ابن عباس قال: لما فرض الله عز وجل عليهم – يعني: على هؤلاء الذين وصف الله أمرهم في كتابه من بني إسرائيل – هذا الذي ذكر أنه أخذ ميثاقهم به، أعرضوا عنه استثقالًا له وكراهية، وطلبوا ما خف عليهم إلّا قليلًا منهم، وهم الذين استثنى الله فقال: {ثم تولَّيتم}، يقول: أعرضتم عن طاعتي، {إلّا قليلًا منكم}، قال: القليل الذين اخترتهم لطاعتي، وسيحل عقابي بمن تولّى وأعرض عنها يقول: تركها استخفافًا بها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– بيان عظمة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وإذ أخذنا}؛ لأن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى العظيم الذي لا أعظم منه.

٢– أن التوحيد جاءت به الرسل جميعًا؛ لقوله تعالى: {لا تعبدون إلَّا الله}.

٣– أن العبادة خاصة بالله تبارك وتعالى؛ فلا يعبد غيره؛ لقوله تعالى: {لا تعبدون إلَّا الله}؛ لأن هذا يفيد الحصر.

٤– وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: {وبالوالدين إحسانًا}؛ وإنما أوجب ذلك؛ لأن نعمة الوالدين على ولدهما هي التي تلي نعمة الله عز وجل؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان: {أن اشكر لي ولوالديك} [لقمان: ١٤]؛ فهما سبب وجودك، وإمدادك، وإعدادك. وإن كان أصل ذلك من الله؛ فلولا الوالدان ما كنت شيئًا؛ والإحسان إلى الوالدين شامل للإحسان بالقول، والفعل، والمال، والجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان؛ وضده أمران؛ أحدهما أن يسيء إليهما؛ والثاني: أن لا يحسن، ولا يسيء؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما؛ وفي الإساءة زيادة الاعتداء.

٥– وجوب الإحسان إلى ذوي القربى. أي قرابة الإنسان. وهم من يجتمعون به بالأب الرابع، فما دون؛ ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت؛ فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان؛ لأن الحكم إذا علق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف؛ فمثلًا يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال.

٦– وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم؛ والإحسان في أموالهم؛ لقوله تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن}[الأنعام: ١٥٢].

٧– وجوب الإحسان إلى المساكين؛ وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة، ودفع الضرورة، وما أشبه ذلك.

٨– وجوب القول الحسن؛ لقوله تعالى: {وقولوا للناس حسنًا}؛ وضد القول الحسن قولان؛ قول سوء؛ وقول ليس بسوء، ولا حسن؛ أما قول السوء فإنه منهي عنه؛ وأما القول الذي ليس بسوء، ولا حسن فليس مأمورًا به، ولا منهيًّا

عنه؛ لكن تركه أفضل؛ ولهذا وصف الله عباد الرحمن بأنهم: {لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كرامًا}[الفرقان: ٧٢]؛ وقال الرسول ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا؛ أو ليصمت(١))).

٩- الأمر بإقامة الصلاة على وجه الوجوب فيما لا تصح الصلاة إلّا به؛ وعلى وجه الاستحباب فيما تصح الصلاة بدونه وهو من كمالها.

١٠- أن الصلوات مفروضة على من كان قبلنا.

١١- وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: {وآتوا الزكاة}.

١٢- وجوب الزكاة على من كان قبلنا؛ ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.

١٣- أن بني إسرائيل مع هذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يقوموا به إلّا القليل منهم.

١٤- أن تولي بني إسرائيل كان تولِّيًا كبيرًا، حيث كان تولِّيًا بإعراض.

١٥- أن المتولِّي المعرض أشد من المتولِّي غير المعرض.

١٦- أن التولِّي قد يكون بإعراض، وقد يكون بغير إعراض؛ لأنه لو كان بإعراض مطلقًا لم يستقم قوله: {وأنتم معرضون}.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

قال أبو زهرة: إن اليهود قد أصابهم ما أصاب الأمم من تفكك في وحدتهم، فكانوا يتسافكون دماءهم ويمالئ بعضهم جماعات أخرى بينهم وبينهم حرب، فينضم فريق منهم إلى بعض المتقاتلين، وآخرون إلى غيرهم فيقاتل بعضهم بعضًا، في ظل العدوين المتقاتلين، وقد أخذ الله تعالى عليهم العهد بمنع سفك دمائهم، وأخذ عليهم العهد

١- أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ٣١؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم ٦٠١٨؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٨، كتاب الإيمان، باب ١٩: الحث على إكرام الجار ....، حديث رقم ١٧٣ [٧٤] ٤٧.

بألّا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، ومع أن ذلك العهد حفظ لجميعهم وحقن لدمائهم ويفرض التعاون بينهم – خالفوه.

قال ابن العثيمين: {وإذ أخذنا ميثاقكم}: يذكِّرهم الله سبحانه وتعالى بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ وبين الله تعالى الميثاق هنا بأمرين:

الأول: قوله تعالى: {لا تسفكون دماءكم}: أي لا تريقونها؛ و(السفك)، و(السفح)، بمعنى واحد؛ والمراد بسفك الدم: القتل، كما قال الرسول ﷺ في مكة: ((لا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا([1]))، أي يقتل نفسًا بغير حق؛ و{دماءكم}: أي دماء بعضكم؛ لكن الأمة الواحدة كالجسد الواحد؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: ((ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم([2]))، وقال: ((ويجير عليهم أقصاهم([3]))).

الأمر الثاني: قوله تعالى: {ولا تخرجون أنفسكم من دياركم}؛ المراد: لا يخرج بعضكم بعضًا من دياركم؛ ولا شك أن الإخراج من الوطن شاقّ على النفوس؛ وربما يكون أشقُّ من القتل.

{ثم أقررتم وأنتم تشهدون}: أي ثم بعد هذا الميثاق بقيتم عليه، وأقررتم به، وشهدتم عليه، ولم يكن الإقرار غائبًا عنكم، أو منسيًّا لديكم؛ بل هو باق لا زائل.

قال أبو زهرة: وكان الخطاب في الإقرار والشهادة للذين عاصروا النبي ﷺ لأنهم الذين نقضوا العهد ظاهرًا، وهم الذين سفكوا دماءهم، وهم الذين أخرجوا فريقًا منهم، وإن كان الاحتمال بأن ذلك حصل من بعضهم في الماضي ليس ببعيد فقد تشابه في مخالفة الميثاق الخلف مع السلف، وهم جميعًا في إثم مبين، وعدوان ظاهر.

وإذا كان ذلك الميثاق حفظًا لوحدتهم ولجمعهم فقد نقضوه، وقتل بعضهم بعضًا، وأخرج فريق منهم الآخر من داره.

قال ابن العثيمين: {ثم} بعد هذا الميثاق، والإقرار به، والشهادة عليه، {أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم}؛ و{هؤلاء}، منادى حذف منه حرف النداء، أي: يا هؤلاء؛ وليست خبر المبتدأ؛ و{أنتم}: مبتدأ خبره جملة: {تقتلون}؛ والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ؛ وإنما وجه إليهم؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك، ورضوا به.

{تقتلون أنفسكم}: أي يقتل بعضكم بعضًا؛ {وتخرجون فريقا منكم من ديارهم}: أي تجلونهم عن الديار؛ وهذا وقع بين طوائف اليهود قرب بعثة النبي ﷺ حيث قتل بعضهم بعضًا، وأخرج بعضهم بعضًا من ديارهم.

١- أخرجه البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٧: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم ١٠٤؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٣ – ٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها ... ، حديث رقم ٣٣٠٤ [٤٤٦] ١٣٥٤.

٢- أخرجه البخاري ص٢٥٧، كتاب الجزية والموادعة، باب ١٧: إثم من عاهد ثم غدر، حديث رقم ٣١٧٩؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٥، كتاب الحج، باب ٨٥: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة ... ، حديث رقم ٣٣٢٧ [٤٦٧] ١٣٧٠.

٣- اخرجه أبو داود ص١٤٢٨، كتاب الجهاد، باب ١٤٧: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث رقم ٢٧٥١؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٣٨، كتاب الديات، باب ٣١: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث رقم ٢٦٨٥، قال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/١٧٠.

{تظاهرون}، بتخفيف الظاء؛ وفيها قراءة أخرى: {تظّاهرون}، بتشديد الظاء؛ وأصله: تتظاهرون؛ ولكن أبدلت التاء ظاء، ثم أدغمت بالظاء الأصلية؛ و{تظاهرون}: أي تعالون؛ لأن الظهور معناه العلو، كما قال الله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله}[الصف: ٩]، يعني ليعليه؛ وسمّي العلو ظهورًا من الظهر؛ لأن ظهر الحيوان أعلاه؛ وقيل: {تظاهرون}: أي تعينون من يعتدي على بعضكم في عدوانه.

{بالإثم}: أي بالمعصية؛ {والعدوان}: أي الاعتداء على الغير بغير حق؛ فكل عدوان معصية؛ وليست كل معصية عدوانًا. إلا على النفس، فالرجل الذي يشرب الخمر عاص، وآثم؛ والرجل الذي يقتل معصومًا هذا آثم، ومعتد؛ والذي يخرجه من بلده آثم، ومعتد؛ ولهذا قال تعالى: {تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان}؛ فهؤلاء بعد ما أخذ عليهم الميثاق مع الإقرار، والشهادة لم يقوموا به؛ أخرجوا أنفسهم من ديارهم، وتظاهروا عليهم بالإثم، والعدوان.

{وإن يأتوكم}: أي يجيئون إليكم؛ {أسارى}: جمع أسير؛ وتجمع أيضًا على أسرى، كما في قوله تعالى: {يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى}[الأنفال: ٧٠]؛ والأسير هو الذي استولى عليه عدوه؛ ولا يلزم أن يأسره بالحبل؛ لكن الغالب أنه يؤسر به؛ لئلّا يهرب؛ و{تفادوهم}: أي تفكوهم من الأسر بفداء؛ وفي قراءة {تفدوهم}.

{وهو محرم عليكم إخراجهم}: يعني تفدون المأسورين وهو محرم عليكم إخراجهم من ديارهم؛ فأنتم لم تقوموا بالإيمان بالكتاب كله؛ ولهذا قال الله تعالى: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}؛ والاستفهام هنا للإنكار، والتوبيخ؛ والفاء في قوله تعالى: {أفتؤمنون} عاطفة؛ وسبق الكلام على مثل ذلك؛ أعني وقوع العاطف بعد همزة الاستفهام؛ ووجه كونهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض: أنهم كفروا بما نهوا عنه من سفك الدماء، وإخراج أنفسهم من ديارهم؛ وآمنوا بفدائهم الأسرى؛ والذي يعبد الله على هذه الطريق لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف، والتماس الأعذار.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٤٣: فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يجليه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضًا من الأسر، فهذه ثلاث عهود خالفوا منها عهدين وأخذوا بالثالث، فقتل بعضهم بعضًا، وأخرجه من دياره، ثم فادوا أسراهم لأن الله أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم، فلم قتلتم بعضكم بعضًا وأخرجتموهم من ديارهم والله وقد نهاكم عن ذلك؟، والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه، فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون.

قال ابن العثيمين: {فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا}؛ {ما}، نافية؛ والجزاء، والمجازاة، والمعاقبة معناها واحد؛ أو متقارب؛ ومعنى ال{جزاء}: إثابة العامل على عمله؛ والمعنى: ما ثوابكم على عملكم هذا إلا خزي في الحياة الدنيا؛ وال{خزي}: معناه الذلّ.

قال أبو زهرة: الخزي: الهوان والعار والذلة، والفاء للترتيب، فإن الأمر الذي يترتب على تسليم أنفسهم لسفك دمائهم وإخراجهم من ديارهم يترتب عليه خزيهم بتسليم أنفسهم، وعار لخيانتهم لأقوامهم، ووراء ذلك كله الذلَّة

وهوان أمرهم بين الناس، وإن ذلك جزاء مأخوذ من العمل في ذاته، ولذلك بين القرآن الكريم أنه لَا جزاء سواه، وذلك بالنفي والإثبات بالاستثناء، أي: أن الذين يفعلون ذلك الفعل لَا جزاء لهم إلا العار والذلة والمهانة، وإذا كان ذلك هو المتعين جزاءً فهو من الفعل في ذاته؛ ولذلك كانت الإشارة إليه في قوله: {ذَلِكَ} إشارة أن الفعل ذاته هو العلة.

والحياة الدنيا هي الحياة الحاضرة، وسمِّيت الدنيا، فهي مؤنث أدنى؛ لأنها القريبة المرئية المحسوسة، والحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة التي تكون سعادة دائمة، أو شقوة مستمرة. وإذا كان ذلك جزاء في الدنيا، فجزاء الآخرة أشد وأبقى ولذلك قال تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ}.

قال ابن العثيمين: {ويوم القيامة}: أي يوم البعث؛ وسمِّي بذلك؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ ولأنه يقام فيه العدل؛ و{يوم القيامة}، ظرف متعلق بـ{يردون}: أي يرجعون من ذلّ الدنيا، وخزيها؛ {إلى أشد العذاب}: أي أعظمه؛ و{العذاب}: العقوبة.

قال أبو زهرة: يفيد بإشارة اللفظ إلى أنه مرجعه إلى عذاب سابق، فالخزي عذاب دنيوي نتيجةً لفعلهم، وهذه هي الدفعة الأولى، ويردون بعد ذلك إلى أخرى يوم القيامة فيها أشد العذاب وأنكله.

وقد بين سبحانه وتعالى أن حسابهم عند الحكيم العليم الذي لَا يخفى عليه شيء، ولا يغفل عن شيء؛ ولذا قال تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

قال ابن العثيمين: {وما الله بغافل}: هذه صفة سلبية، أي نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه صفة الغفلة؛ وذلك لكمال علمه، ومراقبته؛ و{عما تعملون}: بالتاء؛ وفيها قراءة: {يعملون}: بالياء.

قال الطبري: وما الله بساه عن أعمالهم الخبيثة، بل هو محص لها وحافظها عليهم حتى يجازيهم بها في الآخرة، ويخزيهم في الدنيا، فيذلهم ويفضحهم.

قال السعدي: وهذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج – وهم الأنصار – كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود، بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة. فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضًا. والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضًا، وإذا وجدوا أسيرًا منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك فقال: {أفتؤمنون ببعض الكتاب}، وهو فداء الأسير، {وتكفرون ببعض}، وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: {فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلَّا خزي في الحياة الدنيا}، وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى.

{ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب}: أي أعظمه، {وما الله بغافل عما تعملون}. ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب، والإيمان ببعضه فقال: {أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة}: توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار على العار.

قال ابن العثيمين: {أولئك}: المشار إليه هؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد؛ {اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة}: أي اختاروا الدنيا على الآخرة؛ فالآخرة عندهم مزهود فيها مبيعة؛ والدنيا مرغوب فيها مشتراة؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لدنوها زمنًا، لأنها سابقة على الآخرة؛ ولدنوها منزلة، لأنها دون الآخرة؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: ((لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها(١))).

{بالآخرة}: الباء هنا للبدل؛ وهي تدخل دائمًا على الثمن، كقولهم: (اشتريت الثوب بدينار)، فالدينار هو الثمن؛ ويقال: (اشتريت الدينار بثوب)، فالثوب هو الثمن.

{فلا يخفف عنهم العذاب}: أي لا يهون عنهم لا زمنًا، ولا شدة، ولا قوة؛ {ولا هم ينصرون}: أي ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: {وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب * قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال}[غافر: ٤٩، ٥٠].

قال الطبري: فإنه أخبر عنهم أنه لا ينصرهم في الآخرة أحد، فيدفع عنهم بنصرته عذاب الله – لا بقوته ولا بشفاعته ولا غيرهما.

قال ابن العثيمين: فهم يائسون من الخروج؛ فلم يقولوا: (أخرجنا من النار)، ولم يقولوا: (يخفف عنا دائمًا)؛ بل قالوا: {يخفف عنّا يومًا من العذاب}، يتمنون أن العذاب يخفف عنهم يوما واحدا من الأبدي السرمدي؛ ولكن ذلك لا يحصل لهم؛ فيقال لهم توبيخا، وتقريعا، وتنديما: {أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا}؛ ولا ينفعهم الدعاء، كما قال تعالى: {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال}، أي ضياع.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيات: ١- أن بني إسرائيل أخذ عليهم تحريم قتال بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم}.

٢- تحريم إخراج بعضهم بعضًا من ديارهم.

١- أخرجه أحمد ٥/٣٣٠، حديث رقم ٢٣١٨٣؛ وأخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧٣: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٩٢.

٣- أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: {لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم}.

٤- الأسلوب البليغ في قوله تعالى: {لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم}؛ وذلك أن مثل هذا التعبير فيه الحث البليغ على اجتناب ما نهي عنه، وكأن الذي اعتدى على غيره قد اعتدى على نفسه.

٥- أن بني إسرائيل قد أقروا على أنفسهم بهذا الميثاق، وشهد بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: {ثم أقررتم وأنتم تشهدون..}.

٦- بيان تمرد بني إسرائيل؛ حيث إنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، فصار بعضهم يقتل بعضًا، ويخرج بعضهم بعضًا من ديارهم.

٧- أن بعضهم يتعالى على بعض بالإثم، والعدوان.

٨- تحريم التظاهر على الغير بغير حق؛ لقوله تعالى: {تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان}؛ وأمّا إذا علا عليه بحق فإن هذا لا بأس به؛ فإن الله سبحانه وتعالى فضل العباد بعضهم على بعض، كما قال تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}[الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم}[محمد: ٣٥].

٩- تناقض بني إسرائيل في دينهم، وقبولهم للشريعة؛ حيث إنه يقتل بعضهم بعضًا، ويخرج فريقًا من ديارهم؛ ثم إذ أتى بعضهم أسيرًا فاداه. أي دفع فدية لفكِّ أسره؛ لأنه واجب عليهم في شريعتهم أن يفدي بعضهم بعضًا؛ وهذا من الإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعضه؛ ولهذا قال الله تعالى: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}.

١٠- أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها؛ وجه ذلك أن الله توعد هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض؛ ومثل ذلك إذا آمن ببعض الرسل دون بعض فإنه كفر بالجميع؛ ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين}[الشعراء: ١٠٥]. ونوح هو أول الرسل لم يسبقه رسول؛ ومع ذلك جعل الله المكذبين له مكذبين لجميع الرسل؛ ولقوله تعالى: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلًا * أولئك هم الكافرون حقًّا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا}[النساء: ١٥٠، ١٥١].

١١- مضاعفة العقوبة على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: {فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب}.

١٢- إثبات يوم القيامة؛ وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين مبعوثين من قبورهم.

١٣- تهديد الذين نقضوا العهد؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}.

١٤- كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه.

١٥- إثبات أن صفات الله تعالى ثبوتية، ومنفية؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي؛ ففي قوله تبارك وتعالى: {ولا يظلم ربك أحدا}[الكهف:

٤٩]، إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه؛ وفي قوله تعالى: {وما مسنا من لغوب}[ق: ٣٨]، إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه؛ وعلى هذا فقس؛ فالضابط في الصفات التي نفاها الله تعالى عن نفسه أنها تدلّ على نفي تلك الصفة، وعلى ثبوت كمال ضدها.

١٦- توبيخ من اختار الدنيا على الآخرة؛ وهو مع كونه ضلالًا في الدين سفه في العقل؛ إذ إن الدنيا متاع قليل، ثم يزول؛ والآخرة خير، وأبقى.

١٧- أن هؤلاء القوم خالدون في العذاب أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: {فلا يخفف عنهم العذاب}.

١٨- أن المجرم لا يجد ناصرًا له يمنعه من عذاب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ولا هم ينصرون}.

(مسألة)

هذا الذي قصه الله تعالى علينا من أخبار بني إسرائيل مضمونه التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه، ولكن مع الأسف أن بعض هذه الأمة وقعوا في جنس ما وقع فيه بنو إسرائيل؛ وهذا مصداق قول النبي ﷺ: ((لتركبن سنن من كان قبلكم [1])).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

قال ابن العثيمين: {ولقد}: اللام موطئة للقسم؛ و{قد}، للتحقيق؛ وعليه فتكون هذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات، وهي: القسم المقدر، واللام الموطئة للقسم، و {قد}؛ و{آتينا}، أي أعطينا؛ و{موسى}: هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل؛ و{الكتاب}: المراد به هنا التوراة.

{وقفَّينا من بعده بالرسل}: أي أتبعنا من بعده بالرسل؛ لأن التابع يأتي في قفا المتبوع.

قال الطبري: {وقفينا}، فإنه يعني: وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض، كما يقفو الرجل الرجل: إذا سار في أثره من ورائه. وأصله من (القفا)، يقال منه: (قفوت فلانًا): إذا صرت خلف قفاه، كما يقال: (دبرته): إذا صرت في دبره.

ويعني بقوله: {من بعده}، من بعد موسى.

١- أخرجه أحمد ٢١٨/٥، حديث رقم ٢٢٢٤٢؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٧١، كتاب الفتن، باب ١٨: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث رقم ٢١٨٠؛ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٤٨/٨، باب: ذكر الأخبار عن اتباع هذه الأمة سنن من قبلهم من الأمم، حديث رقم ٦٦٦٧، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢٣٥/٢، حديث رقم ١٧٧١.

ويعني بـ{الرسل}: الأنبياء، وهم جمع (رسول). يقال: (هو رسول وهم رسل)، كما يقال: (هو صبور وهم قوم صبر)، (وهو رجل شكور وهم قوم شكر).

وإنما يعني جل ثناؤه بقوله: {وقفينا من بعده بالرسل}: أي أتبعنا بعضهم بعضًا على منهاج واحد وشريعة واحدة. لأن كل من بعثه الله نبيًّا بعد موسى ﷺ إلى زمان عيسى ابن مريم، فإنما بعثه يأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، والدعاء إلى ما فيها. فلذلك قيل: {وقفينا من بعده بالرسل}، يعني على منهاجه وشريعته، والعمل بما كان يعمل به.

قال ابن العثيمين: {وآتينا عيسى ابن مريم}: أي أعطيناه {البينات}: صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: الآية البينات. أي الظاهرات في الدلالة على صدقه، وصحة رسالته؛ وهذه الآية البينات تشمل الآيات الشرعية، كالشريعة التي جاء بها؛ والآيات القدرية الكونية، كإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله.

{وأيدناه}: أي قويناه، كقوله تعالى: {فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين}[الصف: ١٤]: أي قويناهم عليهم؛ وهو معروف اشتقاقه؛ لأنه من (الأيد)، بمعنى القوة، كما قال الله تعالى: {والسماء بنيناها بأيد}[الذاريات: ٤٧]: أي بقوة.

{بروح القدس}، من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي بالروح المقدس؛ وال{قدس}، بمعنى الطاهر؛ واختلف المفسرون في المراد بـ{روح القدس}:

القول الأول: أن المراد روح عيسى؛ لأنها روح قدسية طاهرة؛ فيكون معنى: {أيَّدناه بروح القدس}: أي أيَّدناه بروح طيبة طاهرة تريد الخير، ولا تريد الشر.

والقول الثاني: أن المراد الإنجيل؛ لأن الإنجيل وحي؛ والوحي يسمّى روحًا، كما قال الله تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا}[الشورى: ٥٢].

والقول الثالث: أن المراد جبريل. عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: {قل نزله روح القدس من ربك}[النحل: ١٠٢]: وهو جبريل؛ وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت وهو يهجو المشركين: ((اللهم أيده بروح القدس(١)))، أي جبريل؛ وهذا أصح الأقوال؛ وهو أن المراد بـ{روح القدس}: جبريل عليه الصلاة والسلام، يكون قرينًا له يؤيده، ويقويه، ويلقنه الحجة على أعدائه؛ وهذا الذي رجحناه هو الذي رجحه ابن جرير، وابن كثير، أن المراد بـ{روح القدس}: جبريل عليه الصلاة والسلام.

{أفكلَّما}: الهمزة للاستفهام الإنكاري، والتوبيخ؛ والفاء عاطفة؛ و{كلما}: أداة شرط تفيد التكرار؛ ولا بد فيها من شرط، وجواب؛ والشرط هنا: قوله تعالى: {جاءكم}؛ والجواب: {استكبرتم}.

١- أخرجه البخاري ص٣٨، كتاب الصلاة، باب ٦٨: الشعر في المسجد، حديث رقم ٤٥٣؛ وأخرجه مسلم ص١١١٤ - ١١١٥، كتاب فضائل الصحابة، باب ٣٤: فضائل حسان بن ثابت ﷺ، حديث رقم ٦٣٨٤ [١٥١] ٢٤٨٥.

{أفكلَّما جاءكم رسول}: أي من الله؛ {بما}: أي بشرع؛ {لا تهوى أنفسكم}: أي لا تريد؛ {استكبرتم}: أي سلكتم طريق الكبرياء، والعلو على ما جاءت به الرسل؛ {ففريقًا}: أي طائفة؛ ونصب على أنه مفعول مقدَّم لـ{كذَّبتم}؛ {وفريقًا تقتلون}: أي وطائفة أخرى تقتلونهم؛ وقدم المفعول على عامله؛ لإفادة الحصر مع مراعاة رؤوس الآي؛ والحصر هنا في أحد شيئين لا ثالث لهما: إما التكذيب؛ وإما القتل. يعني مع التكذيب.

وهنا قال تعالى: {كذَّبتم}؛ فعل ماض؛ وقال تعالى: {تقتلون}؛ فعل مضارع؛ فأمّا كون الأول فعلًا ماضيًا فالأمر فيه ظاهر؛ لأنه وقع منهم التكذيب؛ وأما الإتيان بفعل مضارع بالنسبة للقتل فهو أولا مراعاة لفواصل الآية؛ لأنه لو قال: (فريقًا قتلتم)، لم تتناسب مع التي قبلها؛ والتي بعدها؛ ثم إن بعض العلماء أبدى فيها نكتة: وهي أن هؤلاء اليهود استمر قتلهم الرسل حتى آخرهم محمد ﷺ فإنهم قتلوا الرسول ﷺ بالسم الذي وضعوه له في خيبر؛ فإنه ﷺ ما زال يتأثر منه حتى إنه ﷺ في مرض موته قال: ((ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأبهر مني([1]))؛ قال الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود تسببوا في قتله؛ وهذا ليس ببعيد أن يكون هذا من أسرار التعبير بالمضارع في القتل؛ وإن كان قد يرد عليه أن التكذيب استمر حتى زمن الرسول ﷺ فلماذا لم يقل: (فريقا تكذبون وفريقا تقتلون)؟! والجواب عن هذا أن القتل أشد من التكذيب؛ فعبر عنه بالمضارع المستمر إلى آخر الرسل.

فإن قيل: كيف يصح قول الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود كانوا سببًا في قتله، وقد قال الله تعالى: {والله يعصمك من الناس}؟

فالجواب: المراد بقوله تعالى: {يعصمك من الناس}: حال التبليغ؛ أي بلِّغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبدًا في حال تبليغه، فقتله.

قال الطبري: يقول الله جل ثناؤه لهم: يا معشر يهود بني إسرائيل، لقد آتينا موسى التوراة، وتابعنا من بعده بالرسل إليكم، وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجج، إذ بعثناه إليكم، وقويناه بروح القدس، وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم – تجبرًا وبغيًا – استكبار إمامكم إبليس، فكذَّبتم بعضًا منهم. وقتلتم بعضًا؛ فهذا فعلكم أبدًا برسلي.

وقوله: {أفكلَّما}، وإن كان خرج مخرج التقرير في الخطاب، فهو بمعنى الخبر.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٦٢٤: وَهَذَا اللَّفْظُ – الَّذِي هُوَ لَفْظُ الِاسْتِفْهَامِ – هُوَ إنْكَارٌ لِذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَذَمٌّ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يُذَمُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوهُ، فَعُلِمَ أَنَّهُمْ كَانُوا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ اسْتَكْبَرُوا، فَيَقْتُلُونَ فَرِيقًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُكَذِّبُونَ فَرِيقًا، وَهَذَا حَالُ الْمُسْتَكْبِرِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مَا لَا يَهْوَاهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ فَسَّرَ الْكِبْرَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ بِأَنَّهُ: ((بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

١– أخرجه البخاري معلقا ص٣٢٢، كتاب المغازي، باب ٨٤: مرض النبي ﷺ ووفاته ... ، حديث رقم ٤٤٢٨؛ وأخرجه الحاكم موصولا ٣/٥٨، كتاب المغازي، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي؛ وأخرجه أبو داود ص١٥٥٤، كتاب الديات، باب ٦: فيمن سقى رجلا سما أو اطعمه فمات، حديث رقم ٤٥١٢، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٣/٩١.

قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنًا أَفَمِنْ الْكِبْرِ ذَاكَ؟ فَقَالَ: لَا، إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ(١))) ، وَبَطَرُ الْحَقِّ: جَحْدُهُ وَدَفْعُهُ، وَغَمْطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ.

قال ابن العثيمين: {وقالوا}: أي بنو إسرائيل معتذرين عن ردِّهم ما جاء به الرسول ﷺ؛ {قلوبنا غلف}، جمع أغلف؛ وهو الذي عليه غلاف يمنع من وصول الحق إليه. يعني مغلفة لا تصل إليها دعوة الرسل؛ وهذه حجة باطلة؛ ولهذا قال تعالى: {بل لعنهم الله بكفرهم}؛ و{بل}، للإضراب الإبطالي. أي أن الله تعالى أبطل حجتهم هذه، وبين أنه تعالى: {لعنهم}: أي طردهم، وأبعدهم عن رحمته؛ {بكفرهم}: أي بسبب كفرهم، حيث اختاروا الكفر على الإيمان؛ و(كفر}، مصدر مضاف إلى فاعله؛ ولم يذكر مفعوله ليعم الكفر بكل ما يجب الإيمان به.

قال ابن القيم في شفاء العليل ج١ص٩٣: قد اختلف في معنى قولهم {قُلُوبُنَا غُلْفٌ}. فقالت طائفة: المعنى قلوبنا أوعية للحكمة والعلم. فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به؟ أو لا تحتاج إليك؟ وعلى هذا فيكون {غلف}، جمع غلاف. والصحيح: قول أكثر المفسرين: إن المعنى قلوبنا لا تفقهه، ولا تفهم ما تقول. وعلى هذا فهو جمع أغلف، كأحمر وحمر. قال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف، كما يقال: سيف أغلف، وقوس أغلف، ورجل أغلف، غير مختون. وقال ابن عباس وقتادة: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول.

هذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن. كقولهم:{ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}[٤١: ٥]؛ وقوله تعالى: {كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي}[١٨: ١٠٢]، ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة. وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم. والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء. فلا يلزم من كون القلب غلافًا أن يكون داخله العلم والحكمة. وهذا ظاهر جدًّا.

فإن قيل: فالإضراب: {بل} على هذا القول الذي قويتموه، ما معناه؟.

أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلًا للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور. وهو انهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه. فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أنّ قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان. فأكذبهم الله وقال: { بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ }، وفي الآية الأخرى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}[٤: ١٥٤]، فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي

١- مسلم في الأيمان (٩١/١٤٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان. فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة. والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

قال ابن العثيمين: {فقليلًا ما يؤمنون}: أي قليلًا إيمانهم؛ وعلى هذا تكون {ما}، إما مصدرية؛ وإما زائدة لتوكيد القلة؛ وهل المراد بالقلة العدم، أو هي على ظاهرها؟ المعنى الأول أقرب؛ لأن الظاهر من حالهم عدم الإيمان بالكلية؛ ولا يمتنع أن يراد بالقلة العدم إذا دلت عليه القرائن الحالية، أو اللفظية.

قال الطبري: وأولى التأويلات في قوله: {فقليلًا ما يؤمنون} بالصواب، ما نحن متقنوه إن شاء الله. وهو أن الله جل ثناؤه أخبر أنه لعن الذين وصف صفتهم في هذه الآية، ثم أخبر عنهم أنهم قليلو الإيمان بما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ. ولذلك نصب قوله: {فقليلًا}، لأنه نعت للمصدر المتروك ذكره. ومعناه: بل لعنهم الله بكفرهم، فإيمانًا قليلًا ما يؤمنون. فقد تبين إذًا بما بيّنّا فساد القول الذي روي عن قتادة في ذلك. لأن معنى ذلك، لو كان على ما روي من أنه يعني به: فلا يؤمن منهم إلّا قليل، أو فقليل منهم من يؤمن، لكان (القليل) مرفوعًا لا منصوبًا. لأنه إذا كان ذلك تأويله، كان {القليل} حينئذ مرافعًا {ما}. فإذْ نصب {القليل} – و{ما}، في معنى (من) أو (الذي) – فقد بقيت {ما} لا مرافع لها. وذلك غير جائز في لغة أحد من العرب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- إثبات رسالة موسى؛ لقوله تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب}.

٢- تأكيد الخبر ذي الشأن. وإن لم ينكر المخاطب؛ لقوله تعالى: {ولقد آتينا}؛ فإنّها مؤكَّدة بثلاث مؤكِّدات مع أنَّه لم يخاطب بها من ينكر؛ وتأكيد الكلام يكون في ثلاثة مواضع:

أولًا: إذا خوطب به المنكر، وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد وجوبًا.

ثانيًا: إذا خوطب به المتردِّد؛ وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكِّد استحسانًا.

ثالثًا: إذا كان الخبر ذا أهمية بالغة فإنه يحسن توكيده. وإن خوطب به من لم ينكر، أو يتردَّد.

٣- أن من بعد موسى من الرسل من بني إسرائيل تبع له؛ لقوله تعالى: {وقفينا من بعده بالرسل}؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار}[المائدة: ٤٤].

٤- ثبوت رسالة عيسى؛ لقوله تعالى: {وآتينا عيسى بن مريم البينات}.

٥- أن من ليس له أب فإنه ينسب إلى أمه؛ لأن عيسى عليه السلام نسب إلى أمه.. وبهذا نعرف أن القول الراجح من أقوال أهل العلم أن أم من ليس له أب شرعًا هي عصبته؛ فإن عدمت فعصبتها؛ خلافًا لمن قال: إن أمه ليس لها

تعصيب؛ ويظهر أثر ذلك بالمثال: فلو مات من ليس له أب عن أمه، وخاله: فلأمه الثلث والباقي لخاله. على قول من يقول: إن الأم لا تعصيب لها؛ أما على القول الراجح: فلأمه الثلث فرضًا، والباقي تعصيبًا.

٦- أن عيسى بن مريم ﷺ أعطاه الله سبحانه وتعالى آيات كونية، وشرعية؛ مثال الشرعية: الإنجيل؛ ومثال الكونية: إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور، وإبراء الأكمه، والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا يطير بإذن الله؛ وكذلك أيضًا يخبرهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم؛ قال العلماء: إنما أعطي هذه الآية الكونية؛ لأن الطب في عهده ارتقى إلى درجة عالية، فأتاهم بآيات لا يقدر الأطباء على مثلها؛ كما أن محمدًا ﷺ ترقّى في عهده الكلام إلى منزلة عالية في البلاغة، والفصاحة؛ فآتاه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله.

٧- أن الله سبحانه وتعالى أيَّد عيسى بجبرائيل؛ لقوله تعالى: {وأيدناه بروح القدس.. }.

٨- أن الملائكة من جملة تسخيرهم للخلق أنهم يؤيدون من أمرهم الله بتأييده؛ ولهذا قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: ((اللهم أيده بروح القدس)).

٩- بيان عتو بني إسرائيل، وأنهم لا يريدون الحق؛ لقوله تعالى: {أفكلَّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذَّبتم وفريقًا تقتلون}.

١٠- أن بني إسرائيل يبادرون بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، ولا يتأنون؛ لقوله تعالى: {أفكلما جاءكم}، ثم قال تعالى: {استكبرتم}؛ لأن مقتضى ترتب الجزاء على الشرط أن يكون الجزاء عقيبًا للشرط: كلما وجد الشرط وجد الجزاء فورًا.

١١- توبيخ ولوم بني إسرائيل، وبيان مناهجهم بالنسبة للشرائع، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع؛ ففي الشرائع: لا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع بما لا تهوى أنفسهم: انقسموا إلى قسمين: فريقًا يكذبون؛ وفريقًا يقتلون مع التكذيب.

١٢- أن من استكبر عن الحق إذا كان لا يوافق هواه من هذه الأمة فهو شبيه ببني إسرائيل؛ فإذا استكبر عن الحق. سواء تحيل على ذلك بالتحريف؛ أو أقر بأن هذا الحق، ولكنه استكبر عنه. فإنه مشابه ببني إسرائيل.

والخارجون عن الحق ينقسمون إلى قسمين: قسم يقر به، ويعترف بأنه عاص؛ وهذا أمره واضح، وسبيله بين، وقسم آخر يستكبر عن الحق، ويحاول أن يحرف النصوص إلى هواه؛ وهذا الأخير أشد على الإسلام من الأول؛ لأنه يتظاهر بالاتباع وهو ليس من أهله.

١٣- أن بعض الناس يستكبر عن الحق؛ لأنه مخالف لهواه.

١٤- أن بني إسرائيل انقسموا في الرسل الذين جاءوا بما لا تهوى أنفسهم إلى قسمين: قسم كذبوهم؛ وقسم آخر قتلوهم مع التكذيب.

١٥- أن هؤلاء الذين لم يقبلوا الحق احتجوا بما ليس بحجة؛ فقالوا: قلوبنا غلف.

١٦– أن من صنع مثل صنيعهم فهو شبيه بهم؛ يوجد أناس نسمع عنهم أنهم إذا نصحوا، ودعوا إلى الحق قالوا: (ما هدانا الله)؛ وهؤلاء مشابهون لليهود الذين قالوا: {قلوبنا غلف}.

١٧– أن القلوب بفطرتها ليست غلفاء؛ لقوله تعالى: {بل لعنهم الله}؛ وهذا الإضراب للإبطال. يعني ليست القلوب غلفاء لا تقبل الحق، لكن هناك شيء آخر هو الذي منع من وصل الحق؛ وهو لعن الله إياهم بسبب كفرهم.

١٨– أن الفطرة من حيث هي فطرة تقبل الحق، ولكن يوجد لها موانع.

١٩– بيان أن الأسباب مهما قويت إذا غلب عليها المانع لم تؤثر شيئًا؛ فالقلوب وإن كانت مفطورة على الدين القيم لكن إذا وجد موانع لم تتمكن من الهدى؛ وقد قيل: إن الأمور لا تتم إلا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

٢٠– إثبات الأسباب، وأن لها تأثيرًا في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: {بل لعنهم الله بكفرهم}.

٢١– أن الإيمان في هؤلاء اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى: {فقليلا ما يؤمنون}.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

قال ابن العثيمين: {ولمّا جاءهم كتاب}: هو القرآن؛ ونكرة هنا للتعظيم؛ وأكّد تعظيمه بقوله تعالى: {من عند الله} وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه كلامه. كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

{مصدِّق لما معهم}: له معنيان:

الأول: أنه حكم بصدقها، كما قال في قوله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله}[البقرة: ٢٨٥]؛ فهو يقول عن التوراة: إنه حق، وعن الإنجيل: إنه حق؛ وعن الزبور: إنه حق؛ فهو يصدقها، كما لو أخبرك إنسان بخبر، فقلت: (صدقت) تكون مصدِّقًا له.

المعنى الثاني: أنه جاء مطابقًا لما أخبرت الكتب السابقة. التوراة، والإنجيل؛ فعيسى بن مريم ﷺ قال: {إني رسول الله إليكم مصدِّقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد}[الصف: ٦]؛ فجاء هذا الكتاب مصدِّقًا لهذه البشارة.

{لما معهم}: أي من التوراة، والإنجيل؛ وهذا واضح أن التوراة أخبرت بالرسول ﷺ إما باسمه، أو بوصفه الذي لا ينطبق على غيره.

قال أبو زهرة: أخبر سبحانه وتعالى أنهم جاءهم كتاب، وهو قد جاء مع رسول من بني إسماعيل عليه السلام بهذا الكتاب، فذكر الكتاب، وهو يقتضي أن يكون مع رسول، فأعلم بالكتاب لأن الأمر أنه كتاب يشتمل على المواثيق مثل المواثيق التي أخذت عليهم، ونقضوها، فهو ميثاق جديد للمواثيق التي جاءتهم من قبل، ولم يذكر اسم الرسول، لأن الاعتبار لهذا الكتاب الذي وصفه الله تعالى بوصفين أنه من عند الله تعالى، وما يكون من عند الله جدير بأن يتقبلوه بقبول حسن، وأن يأخذوه بمأخذ الطاعة لأوامره ونواهيه، والوصف الثاني أنه مصدق لما معهم فهو مصدق لما جاء في التوراة من وصف للنبي ﷺ ومصدق للمواثيق التي أخذت عليهم من ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن يحسنوا إلى الأبوين وذوي القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأن يقولوا للناس حُسنًا من القول، ويترتب على ذلك المعاملة الطيبة، وإن هذا النبي الذي جاء معه الكتاب الذي أنزله الله تعالى، وهو مصدِّق لما معهم من أوامرٍ ونواهٍ ومواثيق أخذت عليهم بقوة – قد كانوا يعلمون بمجيئه ويتوقعونه.

قال ابن العثيمين: {وكانوا من قبل}: أي من قبل أن يجيئهم {يستفتحون}: أي يستنصرون، ويقولون سيكون لنا الفتح، والنصر {على الذين كفروا}: أي من المشركين الذين هم الأوس، والخزرج؛ لأنهم كانوا على الكفر، ولم يكونوا من أهل الكتاب. كما هو معروف؛ فكانوا يقولون: إنه سيبعث نبي، وسنتبعه، وسننتصر عليكم؛ لكن لما جاءهم الشيء الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به؛ {فلعنة الله}: اللعنة: هي الطرد، والإبعاد عن رحمة الله؛ {على الكافرين}: أي حاقة عليهم؛ وهو مظهر في موضع الإضمار؛ إذ كان مقتضى السياق: (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله عليهم)؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد:

منها: مراعاة الفواصل كما هنا.

ومنها الحكم على موضع الضمير بما يقتضيه هذا الوصف.

ومنها: الإشعار بالتعليل؛ ومنها إرادة التعميم.

قال الطبري: فمعنى الآية: فخزي الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عرفوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه، المنكرين لما قد ثبت عندهم صحته من نبوة محمد ﷺ. ففي إخبار الله عز وجل عن اليهود – بما أخبر الله عنهم بقوله: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به} – البيان الواضح أنهم تعمدوا الكفر بمحمد ﷺ، بعد قيام الحجة بنبوته عليهم، وقطع الله عذرهم بأنه رسوله إليهم.

قال أبو زهرة: الفاء للترتيب أي أنهم مع هذا الاستفتاح ترتب نقيضه وهو أنهم لما جاءهم الذي عرفوه جحدوه وكفروا به، فهم رتَّبوا على الشيء نقيضه وبدل أن يذعنوا للحق الذي عرفوه أنكروه وكفروا به، وهكذا شأنهم هم وأسلافهم دائمًا يعرفون الحق ويكفرون به، عرفوا باطل فرعون ومع ذلك اتَّخذوا العجل.

قال ابن العثيمين: {بئسما اشتروا به أنفسهم}: {بئس}، فعل ماض لإنشاء الذم؛ يقابلها (نعم)، فهي فعل ماض لإنشاء المدح؛ و(بئس)، و(نعم) اسمان جامدان لا يتصرفان. أي لا يتحولان عن صيغة الماضي؛ و{ما}: اسم

موصول بمعنى الذي، أي بئس الذي اشتروا به أنفسهم؛ أو إنها نكرة موصوفة، والتقدير: (بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم)، و{اشتروا}: فسَّرها أكثرهم بمعنى باعوا؛ وهو خلاف المشهور؛ لأن معنى (اشترى الشيء): اختاره؛ والمختار للشَّيء لا يكون بائعًا له؛ والصحيح أنها على بابها؛ ووجهه أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر كانوا راغبين فيه، فكانوا مشترين له.

{أن يكفروا}: {أن} هنا مصدرية؛ والفعل بعدها مؤول بمصدر، والتقدير: كفرهم؛ وهو المخصوص بالذم؛ وإعرابه مبتدأ مؤخر خبره الجملة قبله؛ {بما أنزل الله}: {ما} هذه اسم موصول بمعنى الذي؛ والمراد به: القرآن؛ لأنه تعالى قال في الأول: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم}؛ و{بغيا}، مفعول لأجله عامله: قوله تعالى: {يكفروا}؛ وال{بغي}، فسَّره كثير من العلماء بالحسد؛ والظاهر أنه أخص من الحسد؛ لأنه بمعنى العدوان؛ لأن الباغي هو العادي، كما قيل: على الباغي تدور الدوائر؛ وقيل: البغي: مرتع مبتغيه وخيم؛ فالبغي ليس مجرَّد الحسد فقط؛ نعم، قد يكون ناتجًا عن الحسد؛ والذين فسروه بالحسد فسروه بسببه.

قال الطبري: وهذه الآية – وما أخبر الله فيها عن حسد اليهود محمدًا ﷺ وقومه من العرب، من أجل أن الله جعل النبوة والحكمة فيهم دون اليهود من بني إسرائيل، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به، مع علمهم بصدقه، وأنه نبي لله مبعوث ورسول مرسل نظيره الآية الأخرى في سورة النساء، وذلك قوله، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}[سورة النساء: ٥١- ٥٤].

قال ابن العثيمين: {أن ينزل الله من فضله}: (الفضل) في اللغة: زيادة العطاء؛ والمراد بال{فضل} هنا الوحي، أو القرآن، كما قاله تعالى: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}[يونس: ٥٨].

{على من يشاء من عباده}: {من}: اسم موصول؛ والمراد: النبي ﷺ، لأن القرآن في الحقيقة نزل على النبي ﷺ للناس، كما قال تعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور}[إبراهيم: ١]؛ و{يشاء}: أي يريد بالإرادة الكونية؛ والمراد بـ{عباده} هنا الرسل.

قال أبو زهرة: فهم ارتكبوا إثمين كبيرين بذلك:

أولهما: الكفر بما أنزل الله تعالى وذلك إثم في ذاته، وهو كفر مبين؛ لأن من ينكر ما أنزل الله تعالى، وقد قامت بيناته، وعرفوه من قبل في كتبهم فقد كفر كفرانًا مبينًا.

وثانيهما: أن الباعث إثم عظيم واغترار، بأنهم المختارون وحدهم لرسالة الله – فمعنى {مِن فَضْلِهِ}: أي من رسالة ربه، فهي من فضل الله، والله ذو الفضل العظيم، يختص برحمته من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالته.

قال ابن العثيمين: {فباءوا}: أي رجعوا؛ {بغضب}: الباء للمصاحبة. يعني رجعوا مصطحبين لغضب من الله سبحانه وتعالى؛ ونكره للتعظيم؛ ولهذا قال بعض الناس: إن المراد بـ{الغضب}: غضب الله سبحانه وتعالى، وغيره. حتى المؤمنين من عباده يغضبون من فعل هؤلاء، وتصرفهم.

{على غضب}: كقوله تعالى: {ظلمات بعضها فوق بعض}[النور: ٤٠]. يعني غضبًا فوق غضب؛ فما هو الغضب الذي باءوا به؟ وما هو الغضب الذي كان قبله؟

الجواب: الغضب الذي باءوا به أنهم كفروا بما عرفوا، كما قال تعالى: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به}؛ والغضب السابق أنهم استكبروا عن الحق إذا كان لا تهواه أنفسهم، كما قال تعالى: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم}[البقرة: ٨٧]؛ والغضب الثالث: قتلهم الأنبياء، أو تكذيبهم؛ فهذه ثلاثة أنواع من أسباب الغضب؛ وقد يكون أيضًا هناك أنواع أخرى.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٢ص٢٩: وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسولٍ ﷺ، والبغي عليه ومحاربته، فاستحقوا بكفرهم غضبًا، وبالبغي والصد عنه غضبًا آخر، ونظيره قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ}، فالعذاب الأول: بكفرهم، والعذاب الذي زادهم إياه: بصدهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: أن الغضب الأول: بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني: بكفرهم بالمسيح.

القول الثالث: أن الغضب الأول: بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني: بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد، بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسل الله إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضبًا على حدته، وهذا كما في قوله: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}: أي كرة بعد كرة، لا مرتين فقط، وقصد التعدد في قوله: {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} أظهر ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبًا آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضبًا آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضبًا، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبًا، وصدهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضبًا، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بغضب الله المضاعف المتكرر وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى، وقال تعالى في شأنهم: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}، فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ، وهو أشد ما يكون من الغضب، وقال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}.

قال الطبري: فرجعت اليهود من بني إسرائيل – بعد الذي كانوا عليه من الاستنصار بمحمد ﷺ والاستفتاح به، وبعد الذي كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبي مبعوث – مرتدين على أعقابهم حين بعثه الله نبيًا مرسلًا فباءوا بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بعث، وجحودهم نبوته، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذي يجدون صفته في كتابهم، عنادًا منهم له وبغيًا وحسدًا له وللعرب على غضب سالف، كان من الله عليهم قبل ذلك، سابقٍ غضبه الثاني، لكفرهم الذي كان قبل عيسى ابن مريم، أو لعبادتهم العجل، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت، يستحقون بها الغضب من الله. عن ابن عباس: {فباءوا بغضب على غضب}، فالغضب على الغضب، غضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم([1]).

قال ابن العثيمين: {وللكافرين عذاب مهين}: هذا إظهار في موضع الإضمار فيما يظهر؛ لأن ظاهر السياق أن يكون بلفظ الضمير. أي ولهم عذاب مهين؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد سبق بيانها قريبًا.

{عذاب}: أي عقوبة؛ و{مهين}: أي ذو إهانة، وإذلال؛ ولو لم يكن من إذلالهم. حين يقولون: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون}[المؤمنون: ١٠٧]. إلا قول الله عز وجل لهم: {اخسئوا فيها ولا تكلمون}[المؤمنون: ١٠٨] لكفى.

قال الطبري: وللجاحدين نبوة محمد ﷺ من الناس كلهم، عذاب من الله، إما في الآخرة، وإما في الدنيا والآخرة، {مهين}: هو المذل صاحبه، المخزي، الملبسه هوانًا وذلةً.

فإن قال قائل: أي عذاب هو غير مهين صاحبه، فيكون للكافرين المهين منه؟

قيل: إن المهين هو الذي قد بيّنا أنه المورث صاحبه ذلّةً وهوانًا، الذي يخلد فيه صاحبه، لا ينتقل من هوانه إلى عز وكرامة أبدًا، وهو الذي خص الله به أهل الكفر به وبرسله. وأما الذي هو غير مهين صاحبه، فهو ما كان تمحيصًا لصاحبه. وذلك هو كالسارق من أهل الإسلام، يسرق ما يجب عليه به القطع فتقطع يده، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحد، وما أشبه ذلك من العذاب والنكال الذي جعله الله كفارات للذنوب التي عذب بها أهلها، وكأهل الكبائر من أهل الإسلام الذين يعذبون في الآخرة بمقادير جرائمهم التي ارتكبوها، ليمحصوا من ذنوبهم، ثم يدخلون الجنة. فإن كل ذلك، وإن كان عذابًا، فغير مهين من عذب به. إذ كان تعذيب الله إياه به ليمحصه من آثامه، ثم يورده معدن العز والكرامة، ويخلده في نعيم الجنان.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- أن القرآن من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {كتاب من عند الله}.

١- الأثر: سيرة ابن هشام ٢: ١٩٠.

٢- أن القرآن كلامه سبحانه وتعالى تكلّم به حقيقة؛ لقوله تعالى: {كتاب من عند الله}؛ ومعلوم أن الكلام ليس جسمًا يقوم بنفسه حتى نقول: إنه مخلوق.

٣- التنويه بفضل القرآن؛ لقوله تعالى: {مصدق لما معهم}، ولقوله تعالى: {من عند الله}.

٤- أن اليهود كانوا يعرفون أن النبي ﷺ سيبعث، وتكون له الغلبة؛ لقوله تعالى: {وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا}: يعني يستنصرون. أي يطلبون النصر؛ أو يعدون به؛ فقبل نزول القرآن، وقبل مجيء الرسول ﷺ يقولون للعرب: إنه سيبعث نبي، وينزل عليه كتاب، وننتصر به عليكم، ولما جاءهم الرسول الذي كانوا يستفتحون به كفروا به.

٥- أن اليهود لم يخضعوا للحق؛ حتى الذي يقرون به لم يخضعوا له؛ لأنهم كفروا به؛ فيدل على عتوهم، وعنادهم..

٦- أن الكافر مستحق للعنة الله، وواجبة عليه؛ لقوله تعالى: {فلعنة الله على الكافرين}.

٧- استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عز وجل، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛ ويدل على منع لعن المعين أن النبي ﷺ كان يقول: ((اللهم العن فلانًا، وفلانًا([1]))). لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حيا؛ وإن كان ميتًا فقد قال النبي ﷺ: ((لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا([2]))).

٨- أن كفر بني إسرائيل ما هو إلا بغي، وحسد؛ لقوله تعالى: {بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده}.

٩- أن من ردَّ الحق من هذه الأمة لأن فلانًا الذي يرى أنه أقل منه هو الذي جاء به؛ فقد شابه اليهود.

١٠- أنه يجب على الإنسان أن يعرف الحق بالحق لا بالرجال؛ فما دام أن هذا الذي قيل حق فاتبعه من أي كان مصدره؛ فاقبل الحق للحق؛ لا لأنه جاء به فلان، وفلان.

١١- أن العلم من أعظم فضل الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {أن ينزل الله من فضله على من يشاء}؛ ولا شك أن العلم أفضل من المال؛ وإذا أردت أن تعرف الفرق بين فضل العلم، وفضل المال فانظر إلى العلماء في زمن الخلفاء السابقين؛ الخلفاء السابقون قل ذكرهم؛ والعلماء في وقتهم بقي ذكرهم: هم يدرسون الناس وهم في قبورهم؛ وأولئك الخلفاء نسوا؛ اللهم إلا من كان خليفة له مآثر موجودة، أو محمودة؛ فدلَّ هذا على أن فضل العلم أعظم من فضل المال.

١٢- إثبات مشيئة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {على من يشاء}؛ وهي عامة فيما يحبه الله، وما لا يحب؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ وكل شيء علق بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة؛ لقوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}[الإنسان: ٣٠]؛ فليست أفعال الله وأحكامه لمجرد المشيئة؛ بل هي لحكمة بالغة اقتضت المشيئة.

---

[1]- أخرجه البخاري ص٣٣٣، كتاب المغازي، باب ٢٢: (ليس لك من الأمر شيء)، حديث رقم ٤٠٦٩.

[2]- أخرجه البخاري ص١٠٩، كتاب الجنائز، باب ٩٧: ما ينهى من سب الأموات، حديث رقم ١٣٩٣.

١٣- أن هذا الفضل الذي نزله الله لا يجعل المُفَضَّل به ربًّا يعبد؛ بل هو من العباد. حتى ولو تميز بالفضل؛ لقوله تعالى: {على من يشاء من عباده}.

وهذه الفائدة لها فروع نوضحها، فنقول: إن من آتاه الله فضلًا من العلم والنبوة لم يخرج به عن أن يكون عبدًا؛ إذا لا يرتقي إلى منزلة الربوبية؛ فالرسول ﷺ عبد من عباد الله؛ فلا نقول لمن نزل عليه الوحي: إنه يرتفع حتى يكون ربًّا يملك النفع، والضرر، ويعلم الغيب.

ويتفرع عنها أن من آتاه الله من فضله من العلم، وغيره ينبغي أن يكون أعبد لله من غيره؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله؛ فكان حقَّه عليه أعظم من حقِّه على غيره؛ فكلّما عظم الإحسان من الله عز وجل استوجب الشكر أكثر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوم في الليل حتى تتورم قدماه؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا([1])).

ويتفرع عنها فرع ثالث: أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من العلم، فيتعالى في نفسه، ويتعاظم حتى إنه ربما لا يقبل الحق؛ فحرِّم فضل العلم في الحقيقة.

١٤- أن العقوبات تتراكم بحسب الذنوب جزاءً وفاقًا؛ لقوله تعالى: {فباءوا بغضب على غضب}.

١٥- أن المستكبر يعاقب بنقيض حاله؛ لقوله تعالى: {عذاب مهين}، بعد أن ترفعوا؛ فعوقبوا بما يليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه؛ قال الله تعالى: {فكلا أخذنا بذنبه}[العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: {جزاءً وفاقًا}[النبأ: ٢٦].

١٦- أن الإظهار في موضع الإضمار من أساليب البلاغة، وفيه من الفوائد ما سبق ذكره قريبًا.

١٧- إثبات الغضب من الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: {فباءوا بغضب على غضب}؛ والغضب من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ وهكذا كل صفة من صفات الله تكون على سبب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

قال ابن العثيمين: {وإذا قيل لهم}: أي لليهود؛ وأبهم القائل ليكون شاملًا لكل من قال لهم هذا القول: إما الرسول ﷺ، وإما غيره؛ {آمنوا بما أنزل الله}: أي صدّقوا به مع قبوله، والإذعان له؛ لأن الإيمان شرعًا: التصديق مع القبول، والإذعان؛ وليس كل من صدق يكون مؤمنًا حتى يكون قابلًا مذعنًا؛ والدليل على ذلك أن أبا طالب كان مصدِّقًا

١- أخرجه البخاري ص٨٨، كتاب التهجد، باب ٦: قيام النبي ﷺ الليل، حديث رقم ١١٣٠؛ وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ١٨: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم ٧١٢٤ [٧٩] ٢٨١٩.

برسول الله ﷺ ولم يكن مؤمنًا؛ لأنه لم يقبل، ولم يذعن؛ و{ما}: اسم موصول؛ المراد به: القرآن العظيم؛ و{أنزل الله}: أي من عنده.

{قالوا}: هذا جواب: {إذا}؛ {نؤمن بما أنزل علينا}: يعنون به التوراة؛ {ويكفرون بما وراءه}: يعنون به القرآن؛ و{وراء} هنا بمعنى سوى؛ {وهو الحق}: هذه الجملة حال من {ما} في قوله تعالى: {بما وراءه}: يعني أن هذا الذي كفروا به هو الحق؛ وضده الباطل، وهو الضائع سدى الذي لا يستفاد منه؛ أما الحق فهو الثابت المفيد النافع؛ وهذا الوصف بلا شك ينطبق على القرآن؛ {مصدقا}: حال أيضًا من {هو} الضمير؛ وسبق معنى كونه مصدِّقًا لما معهم؛ وقوله تعالى هنا: {لما معهم}: يعني التوراة.

قال الطبري: عن السدي: {وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه}، وهو القرآن. يقول الله جل ثناؤه: {وهو الحق مصدِّقًا لما معهم}. وإنما قال جل ثناؤه: {مصدِّقًا لما معهم}، لأن كتب الله يصدِّق بعضها بعضًا. ففي الإنجيل والقرآن من الأمر باتباع محمد ﷺ، والإيمان به وبما جاء به، مثل الذي من ذلك في توراة موسى عليه السلام، فلذلك قال جل ثناؤه لليهود – إذْ أخبرهم عما وراء كتابهم الذي أنزله على موسى صلوات الله عليه، من الكتب التي أنزلها إلى أنبيائه –: إنه الحق مصدِّقًا للكتاب الذي معهم، يعني: أنه له موافق فيما اليهود به مكذبون.

قال: وذلك خبر من الله أنهم من التكذيب بالتوراة، على مثل الذي هم عليه من التكذيب بالإنجيل والفرقان، عنادًا لله، وخلافًا لأمره، وبغيًا على رسله صلوات الله عليهم.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٤٨: هذه حكاية مناظرة بين الرسول وبين اليهود لما قال لهم آمنوا بما أنزل الله تعالى، فأجابوه بأن قالوا: {نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دلَّ عليهما قوله تعالى: {وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ} إلى آخر الآية. قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق، فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدِّق لما معكم، وحكم الحق، الإيمان به أين كان، ومع من كان، فلزمكم الإيمان بالحقين جميعًا، أو الكفر الصراح، وفي وقوله: {وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ} نكتة بديعة جدًّا وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق، لم يكن إيمانهم بما انزل عليهم لأجل أنه حق، فإذًا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم، ولا فيما جاء به محمد، لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني، وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني، وهكذا الحكم في كل من فرّق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، لم ينفعه إيمانه بما كفر به، حتى يؤمن بالجميع.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٥ص١٦٨: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ}، وذَلِكَ لِأَنَّهُمْ ابْتَدَعُوا بِدَعًا خَلَطُوهَا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَفَرَّقُوا

دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، فَصَارَ فِي كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي مَعَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ، وَيُصَدِّقُونَ بِالْبَاطِلِ الَّذِي مَعَهُمْ.

وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ كُلِّهِمْ؛ فَإِنَّ مَعَهُمْ حَقًّا وَبَاطِلًا، فَهُمْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، كُلُّ فَرِيقٍ يُكَذِّبُ بِمَا مَعَ الْآخَرِ مِنَ الْحَقِّ وَيُصَدِّقُ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، كَالْخَوَارِجِ وَالشِّيعَةِ.

قال ابن العثيمين: ثم قال تعالى مكذبا لقولهم: {نؤمن بما أنزل علينا}: {قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}؛ الخطاب في {قل} إما للرسول ﷺ؛ وإما لكل من يتأتى خطابه؛ {فلم}: اللام حرف جر؛ و{ما} اسم استفهام دخل عليه حرف جر، فوجب حذف ألفها للتخفيف؛ والاستفهام للإنكار، والتوبيخ؛ يعني لو كنتم صادقين بأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله؛ لأن قتلهم لأنبياء الله مستلزم لكفرهم بهم. أي بأنبياء الله؛ {من قبل}: أي من قبل بعثة الرسول ﷺ.

{أنبياء} فيها قراءتان: {أنبئاء} بالهمزة؛ و{أنبياء} بالياء، مثل: (النبي)، و(النبيء)؛ و(النبيء) جمعه أنبئاء؛ و(النبي) جمعه أنبياء.

قال شيخ الإسلام في الفتوى الحموية الكبرى ج١ص٥١٣: فإن اليهود قالوا: لا نؤمن إلا بما أنزل الله علينا. قال الله لهم: فلم قتلتم الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم، يقول سبحانه: لا ما جاءتكم به أنبياؤكم تتبعون، ولا لما جاءتكم به سائر الأنبياء تتبعون. ولكن إنما تتبعون أهواءكم، فهذا حال من لم يتبع الحق، لا من طائفته ولا من غيرهم، مع كونه يتعصب لطائفته بلا برهان من الله ولا بيان.

قال الطبري: أن الله خاطب الذين أدركوا رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل - بما خاطبهم في سورة البقرة وغيرها من سائر السور - بما سلف من إحسانه إلى أسلافهم، وبما سلف من كفران أسلافهم نعمه، وارتكابهم معاصيه، واجترائهم عليه وعلى أنبيائه، وأضاف ذلك إلى المخاطبين به، نظير قول العرب بعضها لبعض: فعلنا بكم يوم كذا كذا وكذا، وفعلتم بنا يوم كذا كذا وكذا - على نحو ما قد بيناه في غير موضع من كتابنا هذا -، يعنون بذلك أن أسلافنا فعلوا ذلك بأسلافكم، وأن أوائلنا فعلوا ذلك بأوائلكم. فكذلك ذلك في قوله: {فلم تقتلون أنبياء الله من قبل}، إذْ كان قد خرج على لفظ الخبر عن المخاطبين به خبرًا من الله تعالى ذكره عن فعل السالفين منهم - على نحو الذي بينا - جاز أن يقال {من قبل}، إذْ كان معناه: (قل: فلم يقتل أسلافكم أنبياء الله من قبل؟ وكان معلومًا بأن قوله: {فلم تقتلون أنبياء الله من قبل}، إنما هو خبر عن فعل سلفهم.

وأما قوله: {إن كنتم مؤمنين}، فإنه يعني: إن كنتم مؤمنين بما نزل الله عليكم كما زعمتم. وإنما عنى بذلك اليهود الذين أدركوا رسول الله ﷺ وأسلافهم - إن كانوا وكنتم، كما تزعمون أيها اليهود، مؤمنين. وإنما عيرهم جل ثناؤه بقتل أوائلهم أنبياءه، عند قولهم حين قيل لهم: {آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا}، لأنهم كانوا لأوائلهم -

الذين تولوا قتل أنبياء الله، مع قيلهم: نؤمن بما أنزل علينا – متولين، وبفعلهم راضين. فقال لهم: إن كنتم كما تزعمون مؤمنين بما أنزل عليكم، فلم تتولون قتلة أنبياء الله؟ أي: ترضون أفعالهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: {آمنوا بما أنزل الله}؛ لأن ما أنزل الله هو القرآن. وهو كلام؛ والكلام ليس عينا قائمة بذاتها؛ بل هو صفة في غيره؛ فإذا كان صفة في غيره، وهو نازل من عند الله لزم أن يكون كلام الله عز وجل.

٢– علو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان القرآن كلامه، وهو نازل من عنده دل على علو المتكلم به.

٣– كذب اليهود في قولهم: {نؤمن بما أنزل علينا}؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر..}[الأعراف: ١٥٧] إلخ.

٤– عتو اليهود، وعنادهم؛ لأنهم يقولون: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا.

٥– أن من دعي إلى الحق من هذه الأمة، وقال: (المذهب كذا، وكذا). يعني ولا أرجع عنه ففيه شبه من اليهود. لأن الواجب إذا دعيت إلى الحق أن تقول: (سمعنا وأطعنا)؛ ولا تعارضه بأي قول كان، أو مذهب.

٦– وجوب قبول الحق من كل من جاء به.

٧– إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله؛ ووجه ذلك أن الله أقام على اليهود الحجة على فعلهم؛ لأنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم؛ فإن قولهم: {نؤمن بما أنزل علينا} ليس بحق؛ لأنه لو كانوا مؤمنين حقيقة ما قتلوا الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: {قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)

قال ابن العثيمين: {ولقد جاءكم موسى}: الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات: القسم المقدر، واللام الموطئة للقسم، وهي للتوكيد؛ و{قد}، وهي هنا للتحقيق؛ لأنها دخلت على الماضي؛ و{جاءكم}: الخطاب لليهود؛ والدليل على أنه لليهود، قوله تعالى: {موسى}؛ لأن موسى نبيهم؛ وهنا خاطبهم باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص؛ إذ إن موسى لم يأت هؤلاء الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ لكنه أتى بني إسرائيل الذين هؤلاء منهم.

{بالبيِّنات}: الباء للمصاحبة، أو للتعدية؛ يعني: جاءكم مصحوبًا بالبينات؛ أو أن البيِّنات هي التي جيء بها، فتكون للتعدية؛ و{البيِّنات}، صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: بالآيات البينات، أي: بالعلامات الدالة على رسالته؛ ومنها: اليد، والعصا، والحجر، وفلق البحر، والجراد الذي أرسل على آل فرعون، والسنون، وأشياء كثيرة، مثل القمل، والضفادع، والدم.

قال الطبري: وإنما سماها الله {بيِّنات}، لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة لا يقدر على أن يأتي بها بشر، إلا بتسخير الله ذلك له. وإنما هي جمع (بينة)، مثل (طيبة وطيبات).

{ثم}: تفيد الترتيب بمهلة، يعني ثم بعد أن مضى عليكم وقت أمكنكم أن تتأملوا في هذه الآيات، وأن تعرفوها؛ الذي حصل أنكم لم ترفعوا بها رأسًا، {اتخذتم العجل}: (اتخذ) من أفعال التصيير، كقوله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلًا}[النساء: ١٢٥]: يعني صيَّره؛ إذا هي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ، والخبر؛ المفعول الأول: {العجل}؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلها؛ وحذف للعلم به، كما قال ابن مالك في الألفية: (وحذف ما يعلم جائز).

و{العجل}: هو ولد البقرة، وليس عجلًا من حيوان؛ ولكنه عجل من حلي، صنعوا من الحلي مجسَّما كالعجل، وجعلوا فيه ثقبا تدخله الريح، فيكون له صوت كخوار الثور، فأغواهم السامري، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ لأن موسى كان قد ذهب منهم لميقات ربه على أنه ثلاثون يومًا، فزاد الله تعالى عشرًا، فصار أربعين يومًا؛ فقال لهم السامري: إن موسى ضل عن إلهه؛ ولهذا تخلف، فلم يرجع؛ فهو قد ضل، ولم يهتد إلى إلهه؛ فهذا إلهكم، وإله موسى، فاتخذوه إلهًا.

{من بعده}: أي من بعد ذهاب موسى لميقات ربه؛ لأن موسى رجع إليهم، وقال للسامري عن إلهه: {لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا}[طه: ٩٧]؛ وجرى هذا: فحرقه موسى ﷺ، ونسفه في البحر.

{وأنتم ظالمون}: أي معتدون؛ وأصل الظلم النقص، كما في قوله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا}[الكهف: ٣٣]؛ وسمي العدوان ظلمًا؛ لأنه نقص في حق المعتدى عليهم؛ وجملة: {وأنتم ظالمون}، حال في موضع النصب من فاعل {اتخذتم}، أي: والحال أنكم ظالمون؛ وهذا أبلغ في القبح: أن يعمل الإنسان العمل القبيح وهو يعلم أنه ظالم.

قال الطبري: فإنه يعني بذلك أنكم فعلتم ما فعلتم من عبادة العجل وليس ذلك لكم، وعبدتم غير الذي كان ينبغي لكم أن تعبدوه. لأن العبادة لا تنبغي لغير الله. وهذا توبيخ من الله لليهود، وتعيير منه لهم، وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا – من اتخاذ العجل إلهًا وهو لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، بعد الذي علموا أن ربهم هو الرب الذي يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال ما أجراه على يدَي موسى صلوات الله عليه، من الأمور التي لا يقدر عليها أحد من خلق الله، ولم يقدر عليها فرعون وجنده مع بطشه وكثرة أتباعه، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حِكَم الله – فهم إلى تكذيب محمد ﷺ وجحود ما في كتبهم – التي زعموا أنهم بها مؤمنون – من صفته ونعته، مع بُعد ما بينهم وبين عهد موسى من المدة أسرعوا إلى التكذيب بما جاءهم به موسى من ذلك أقرب.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٤٩: أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل وفيهم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم؟ فلا آمنتم بما انزل إليكم ولا بما أنزل على محمد، ثم كأنه توقع منهم الجواب: بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته ولم نكذب به؛ فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم؛ بأن موسى قد جاءكم بالبينات وما لا ريب في صحة نبوته، ثم عبدتم بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه، فقال: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}، فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إقامة البرهان على عناد اليهود؛ ووجه ذلك أنه قد جاءهم موسى بالبينات، فاتخذوا العجل إلهًا.

٢- سفاهة اليهود، وغباوتهم، لاتخاذهم العجل إلهًا مع أنهم هم الذين صنعوه.

٣- أن اليهود اغتنموا فرصة غياب موسى مما يدلُّ على هيبتهم له؛ لقوله تعالى: {من بعده}: يعني من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه.

٤- أن اليهود عبدوا العجل عن ظلم، وليس عن جهل؛ لقوله تعالى: {وأنتم ظالمون}.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

قال ابن العثيمين: {وإذ أخذنا ميثاقكم}: {إذ} تأتي في القرآن كثيرًا؛ والمعربون يعربونها بأنها مفعول لفعل محذوف؛ تقديره: اذكر؛ وإذا كان الخطاب لأكثر من واحد يقدر: اذكروا، أي اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم؛ وال{ميثاق}: العهد؛ وسمِّي العهد ميثاقًا؛ لأنه يتوثق به.

{ورفعنا فوقكم الطور}: وهو الجبل المعروف؛ رفعه الله عز وجل على رؤوسهم تهديدًا لهم؛ فجعلوا يشاهدونه فوقهم كأنه ظلة؛ فسجدوا خوفًا من الله عز وجل، وجعلوا ينظرون إلى الجبل وهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى بكشف كربتهم؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم عن اليهود أنهم يرون أن أفضل سجدة يسجدون لله بها أن يسجدوا وقد أداروا وجوههم إلى السماء؛ يقولون: هذه السجدة أنجانا الله بها؛ فهي أشرف سجدة عندنا.

{خذوا}، فعل أمر؛ وهو في محل نصب مقولًا لقول محذوف، أي: قلنا: خذوا، {ما أتيناكم}: أي ما أعطيناكم؛ والمراد به التوراة، {بقوة}: أي بجد، ونشاط؛ فالجد: العزيمة الثابتة؛ والنشاط: القوة في التنفيذ؛ {واسمعوا}: أي سماع قبول، واستجابة؛ فأمروا بأن يأخذوا بالتوراة بقوة، وأن يسمعوا، ويستجيبوا، وينقادوا.

قال الطبري: {وإذ أخذنا ميثاقكم}: واذكروا إذ أخذنا عهودكم، بأن خذوا ما آتيناكم من التوراة – التي أنزلتها إليكم أن تعملوا بما فيها من أمري، وتنتهوا عما نهيتكم فيها – بجد منكم في ذلك ونشاط، فأعطيتم على العمل بذلك ميثاقكم، إذ رفعنا فوقكم الجبل.

وأما قوله: {واسمعوا}، فإن معناه: واسمعوا ما أمرتكم به وتقبلوه بالطاعة، كقول الرجل للرجل يأمره بالأمر: (سمعت وأطعت)، يعني بذلك: سمعت قولك، وأطعت أمرك. يعني بقوله: (السمع)، قبول ما يسمع، و(الطاعة) لما يؤمر. فكذلك معنى قوله: {واسمعوا}: اقبلوا ما سمعتم واعملوا به.

فمعنى الآية: وإذ أخذنا ميثاقكم أن خذوا ما آتيناكم بقوة، واعملوا بما سمعتم، وأطيعوا الله، ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك.

قال ابن العثيمين: وكان الجواب: {قالوا سمعنا}: أي بآذاننا؛ {وعصينا}: أي بأفعالنا؛ فما سمعوا السمع الذي طلب منهم؛ ولكنهم استكبروا عنه؛ وظاهر الآية الكريمة أنهم قالوا ذلك لفظًا: {سمعنا وعصينا}؛ وقال بعضهم: قالوا: {سمعنا} بألسنتهم، وعصوا بأفعالهم؛ فيكون التعبير بالعصيان هو عبارة عن أفعالهم، وأنهم لم يقولوا بألسنتهم: {وعصينا}؛ وهذا ضعيف؛ لأن الواجب حمل اللفظ على ظاهره حتى يقوم دليل صحيح على أنه غير مراد، ولأنه لا يمتنع أن يقولوا: {سمعنا وعصينا} بألسنتهم وهم الذين قالوا لموسى: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}[البقرة: ٥٥]؛ فالذين تجرأوا أن يقولوا: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}، يتجرؤون أن يقولوا: {سمعنا وعصينا} بألسنتهم؛ وكأن الذين قالوا: إن المراد بالمعصية هنا فعل المعصية؛ وليس معناه أنهم قالوا بألسنتهم: {وعصينا} كأنهم قالوا: إنهم التزموا بهذا والجبل فوق رؤوسهم؛ ومن كان هذه حاله لا يمكن أن يقول: {سمعنا وعصينا} والجبل فوقه؛ ويمكن الجواب عن هذا بأنهم قالوا ذلك بعد أن فرج عنهم؛ و(العصيان) هو الخروج عن الطاعة بترك المأمور، أو فعل المحظور؛ فمن ترك الجماعة وهي واجبة عليه فهو عاص؛ ومن زنى، أو سرق، أو شرب الخمر فهو أيضًا عاص لله ورسوله.

قال الطبري: فإنه خبر من الله – عن اليهود الذين أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة، وأن يطيعوا الله فيما يسمعون منها – أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

{وأشربوا في قلوبهم العجل}: قال بعضهم: إنه على تقدير مضاف؛ والتقدير: أشربوا في قلوبهم حب العجل؛ لأن العجل نفسه لا يمكن أن يشرب في القلب؛ ومعنى {أشربوا}: أنه جعل هذا الحب كأنه ماء سقي به القلب؛ إذا امتزج بالقلب كما يمتزج الماء بالمدر إذا أشرب إياه؛ والمدر هو الطين اليابس؛ فهذا القلب أشرب فيه حب العجل، ولكن عبَّر بالعجل عن حبه؛ لأنه أبلغ؛ فكأن نفس العجل دخل في قلوبهم؛ والذي أشرب هذا في قلوبهم هو الله

سبحانه وتعالى؛ ولكن من بلاغة القرآن أن ما يكرهه الله يعبر عنه غالبا بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن النبي ﷺ يقول: ((والشر ليس إليك[١]))، وقال الله تعالى عن الجن: {وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا}[الجن: ١٠]؛ ففي الشر قالوا: {أريد}، ولم ينسبوه إلى الله؛ أما الرشد فنسبوه إلى الله عز وجل.

{بكفرهم}: الباء هنا للسببية؛ أي بسبب كفرهم بالله السابق على عبادة العجل؛ لأنهم قد نووا الإثم قبل أن يقعوا فيه؛ فصاروا كفارًا به، ثم أشربوا في قلوبهم العجل حتى صاروا لا يمكن أن يتحولوا عنه: قال لهم هارون ﷺ: {يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري}[طه: ٩٠]؛ ولكن كان جوابهم لهارون: {لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى}[طه: ٩١]؛ فأصروا؛ لأنهم أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم[٢].

{قل}: يخاطب الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ، أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه. أي قل أيها النبي؛ أو قل أيها المخاطب؛ {بئسما يأمركم به إيمانكم}: {بئس}، فعل ماض يراد به إنشاء الذم؛ و{ما}، نكرة مبنية على السكون في محل نصب تمييز، يعني: بئس شيئًا يأمركم به إيمانكم عبادة العجل؛ يعني: إذا كان عبادة العجل هو مقتضى إيمانكم فإن إيمانكم قد أمركم بأمر قبيح؛ يعني: أين إيمانكم وأنتم قد أشرب في قلوبكم العجل؟! وأن هذا الإيمان الذي زعمتموه هو الذي حبب إليكم عبادة العجل، وعبدتموه.

{إن كنتم مؤمنين}: أي صادقين في دعوى الإيمان؛ و{إن} شرطية، والمقصود بها التحدي؛ يعني: إن كنتم مؤمنين حقيقة فكيف يأمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح!.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: قل يا محمد ليهود بني إسرائيل: بئس الشيء يأمركم به إيمانكم؛ إن كان يأمركم بقتل أنبياء الله ورسله، والتكذيب بكتبه، وجحود ما جاء من عنده. ومعنى (إيمانهم): تصديقهم الذي زعموا أنهم به مصدقون من كتاب الله، إذْ قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله. فقالوا: نؤمن بما أنزل علينا. وقوله: {إن كنتم مؤمنين}، أي: إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم، وإنما كذبهم الله بذلك - لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه. فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة، إن كان يأمرهم بذلك، فبئس الأمر تأمر به. وإنما ذلك نفي من الله تعالى ذكره عن التوراة، أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم، وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه جل ثناؤه أن الذي يأمرهم بذلك أهواؤهم، والذي يحملهم عليه البغي والعدوان.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان؛ لقوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم ... } إلخ.

٢- أن بني إسرائيل ما آمنوا إلّا عن كره؛ لأنهم لم يؤمنوا إلّا حين رفع فوقهم الطور.

١- أخرجه مسلم ص٨٠٠، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٦: صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، حديث رقم ١٨١٢ [٢٠١] ٧٧١.

٢- (قلت): انظر تفسير الآية (١٣٨) من سورة الأعراف.

٣- بيان قدرة الله عز وجل.

٤- أن أمر الكون كله بيد الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى قادر على خرق العادات؛ لقوله تعالى: {ورفعنا فوقكم الطور..}.

٥- وجوب تلقي شريعة الله بالقوة دون الكسل والفتور، لقوله تعالى: {خذوا ما آتيناكم بقوة}.

٦- بيان عتو بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: {قالوا سمعنا وعصينا}؛ وهذا أبلغ ما يكون في العتو؛ لأنه كان يمكن أن يكون العصيان عن جهل؛ لكنهم قالوا: {سمعنا وعصينا}.

٧- أن السمع نوعان: سمع استجابة، وسمع إدراك؛ مثال الأول: {خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا}؛ ومثال الثاني: {سمعنا وعصينا}.

٨- أن المؤمن حقا لا يأمره إيمانه بالمعاصي؛ لقوله تعالى: {إن كنتم مؤمنين}: يعني إن كنتم مؤمنين حقا ما اتخذتم العجل إلهًا.

٩- أن الشر لا يسنده الله تعالى إلى نفسه؛ بل يذكره بصيغة المبني لما لم يسم فاعله؛ لقوله تعالى: {وأشربوا في قلوبهم}؛ ولهذا نظير من القرآن، كقوله تعالى: {وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} [الجن: ١٠]؛ والنبي ﷺ يقول: ((والشر ليس إليك))؛ فالشر في المفعول. لا في الفعل؛ الخير والشر كل من خلق الله عز وجل؛ لكن الشر بالنسبة لإيجاد الله له هو خير، وليس بشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما أوجده إلا لحكمة بالغة، وغاية محمودة وإن كان شرًّا، لكن الشر في المفعولات. أي المخلوقات؛ وأما نفس الفعل فهو ليس بشر؛ أرأيت الرجل يكوي ابنه بالنار، والنار مؤلمة محرقة. لكنه يريد أن يشفى. فهذا المفعول الواقع من الفاعل شر مؤلم محرق لكن غايته محمودة. وهو شفاء الولد؛ فيكون خيرًا باعتبار غايته.

١٠- أن الله تعالى قد يبتلي العبد، فيملأ قلبه حبًّا لما يكرهه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وأشربوا في قلوبهم العجل}.

١١- أن الإيمان الحقيقي لا يحمل صاحبه إلا على طاعة الله؛ لقوله تعالى: {قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين}.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦).

قال الطبري: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس}: هذه الآية مما احتج الله بها لنبيه

محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم. وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف. كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى – إذ خالفوه في عيسى صلوات الله عليه وجادلوا فيه – إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. وقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنَّوا الموت، فإن ذلك غير ضاركم، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله. بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جنانه، إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا. وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم. فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها تمنت الموت هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها. كما امتنع فريق النصارى – الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى، إذْ دعوا إلى المباهلة – من المباهلة.

فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ((لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ، لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا([1]))). فانكشف – لمن كان مشكلًا عليه أمر اليهود يومئذ – كذبهم وبهتهم وبغيهم على رسول الله ﷺ، وظهرت حجة رسول الله ﷺ وحجة أصحابه عليهم، ولم تزل والحمد لله ظاهرة عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل. وإنما أُمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم: {تمنوا الموت إن كنتم صادقين}، لأنهم – فيما ذكر لنا – قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}[المائدة: ١٨]، وقالوا: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة: ١١١]. فقال الله لنبيه محمد ﷺ: قل لهم إن كنتم صادقين فيما تزعمون، فتمنوا الموت. فأبان الله كذبهم بامتناعهم من تمني ذلك، وأفلج حجة رسول الله ﷺ.

قال ابن العثيمين: {كانت} هنا ناقصة، وخبرها يجوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: {لكم}؛ وتكون {خالصةً} حالًا من {الدار}، يعني: حال كونها خالصة من دون الناس؛ ويجوز أن يكون الخبر: {خالصةً}؛ والمعنى واحد؛ والمراد بـ{الدار الآخرة} الجنة؛ وإنما قال تعالى ذلك؛ لأنهم قالوا: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، وبعدها تخلفوننا أنتم في النار؛ ونكون نحن في الجنة). هذا كلام اليهود؛ والذي يقول هذا الكلام يدعي أن الدار الآخرة خالصة، أي خاصة له من دون الناس، وأن المستحق للنار منهم يدخلها أياما معدودة، ثم يخرج إلى الجنة.

{فتمنوا الموت}: أي اطلبوا حصوله {إن كنتم صادقين}: أي في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس؛ لأنها حينئذ تكون لكم خيرًا من الدنيا؛ فتمنوا الموت لتصلوا إليها؛ وهذا تحدٍّ لهم؛ ولهذا قال الله تعالى هنا: {ولن يتمنوه أبدًا}؛ وفي سورة الجمعة قال تعالى: {ولا يتمنونه أبدًا}[الجمعة: ٧]؛ وذلك لأنهم يعلمون كذب دعواهم أن لهم الدار الآخرة خالصة. وظاهر الآية الكريمة على ما فسرنا أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يتحدّاهم بأنه إن كانت الدار الآخرة لهم كما يزعمون فليتمنوا الموت ليصلوا إليها؛ وهذا لا شك هو ظاهر الآية الكريمة؛ وهو الذي رجحه ابن جرير، وكثير من المفسرين؛ وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بقوله تعالى: {فتمنوا الموت}: أي فباهلونا،

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٦).

وتمنوا الموت لمن هو كاذب منّا؛ فتكون هذه مثل قوله تعالى في سورة آل عمران: {فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين}[آل عمران: ٦١]؛ فيكون المعنى: تمنوا الموت عن طريق المباهلة؛ ورجح هذا ابن كثير؛ وضعف الأول بأنه لو كان المراد: تمنوا حصول الموت لكانوا يحتجون أيضا علينا نحن، ويقولون: أنتم أيضًا إن كنتم تقولون: إن الدار الآخرة لكم فتمنوا الموت؛ لأن تحديكم إيانا بذلك ليس بأولى من تحدينا إياكم به؛ لأنكم أنتم أيضًا تقولون: إن الدار الآخرة لكم، وأن اليهود بعد بعثة الرسول ﷺ في النار؛ فتمنوا الموت أنتم أيضًا، والجواب عن ذلك أنا لم ندع أن الدار الآخرة خالصة لنا من دون الناس؛ بل نؤمن بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحًا سواء كان من هذه الأمة أم من غيرها؛ وهذا المعنى الذي نحا إليه ابن كثير. رحمه الله. مخالف لظاهر السياق؛ فلا يعول عليه؛ وقد عرفت الانفكاك منه.

قال الطبري: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود وكراهتهم الموت، وامتناعهم عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنّي الموت، لعلمهم بأنهم إن فعلوا ذلك، فالوعيد بهم نازل، والموت بهم حال؛ ولمعرفتهم بمحمد ﷺ أنه رسول من الله إليهم مرسل، وهم به مكذبون، وأنه لم يخبرهم خبرًا إلا كان حقًّا كما أخبر. فهم يحذرون أن يتمنوا الموت خوفًا أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب.

عن ابن عباس: {ولن يتمنوه أبدًا}، يقول: يا محمد، ولن يتمنوه أبدًا، لأنهم يعلمون أنهم كاذبون. ولو كانوا صادقين لتمنوه ورغبوا في التعجيل إلى كرامتي، فليس يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم.

وأما قوله: {بما قدمت أيديهم}، فإنه يعني به: بما أسلفته أيديهم. وإنما ذلك مثل، على نحو ما تتمثل به العرب في كلامها. فتقول للرجل يؤخذ بجريرة جرها أو جناية جناها فيعاقب عليها: (نالك هذا بما جنت يداك، وبما كسبت يداك، وبما قدمت يداك)، فتضيف ذلك إلى (اليد). ولعل الجناية التي جناها فاستحق عليها العقوبة، كانت باللسان أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سوى اليد. وإنما قيل ذلك بإضافته إلى (اليد)، لأن عُظْمَ جنايات الناس بأيديهم، فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنايات التي يجنيها الناس إلى (أيديهم)، حتى أضيف كل ما عوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء جسده، إلى أنها عقوبة على ما جنته يده. فلذلك قاله جل ثناؤه للعرب: {ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم}، يعني به: ولن يتمنى اليهود الموت بما قدَّموا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله، في مخالفتهم أمره وطاعته في اتباع محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، ويعلمون أنه نبيٌّ مبعوث. فأضاف جل ثناؤه ما انطوت عليه قلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم – من حسد محمد ﷺ، والبغي عليه، وتكذيبه وجحود رسالته – إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم، لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها. إذ كان جل ثناؤه إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها. عن ابن عباس: {بما قدمت أيديهم}، يقول: بما أسلفت أيديهم.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٦ص٣٥٥: فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا وكان كما أخبر، فلا يتمنى اليهود الموت أبدًا، وهذا دليل من وجهين: من جهة إخباره بأنه لا يكون أبدًا، ومن جهة صرف الله لدواعي اليهود عن تمني الموت مع أن ذلك مقدور لهم، وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة وهم مع حرصهم على تكذيبه لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمني الموت.

قال الطبري: وأما قوله: {والله عليم بالظالمين}، فإنه يعني جل ثناؤه: والله ذو علم بظلمة بني آدم – يهودها ونصاراها وسائر أهل الملل غيرها – وما يعملون.

وظلم اليهود: كفرهم بالله في خلافهم أمره وطاعته في اتباع محمد ﷺ، بعد أن كانوا يستفتحون به وبمبعثه، وجحودهم نبوته وهم عالمون أنه نبي الله ورسوله إليهم.

قال أبو زهرة: وقد صدر الله سبحانه وتعالى الحكم بلفظ الجلالة تربية للمهابة، وليبان أنهم مأخوذون والله القادر القاهر هو الذي يأخذهم بظلمهم، وبين عظيم علمه، ودقَّة علمه، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأظهر في موضع الإضمار فلم يقل سبحانه وتعالى: (عليم بهم وبما قدمت أيديهم)، بل قال: {عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، ليسجِّل عليهم وصف ظلمهم، وأنهم معاقبون بهذا الظلم الذي هو كالسجيَّة لهم.

قال ابن العثيمين: {ولتجدنهم أحرص الناس على حياة}؛ اللام في {لتجدنهم} موطئة للقسم؛ والنون للتوكيد؛ وعليه تكون الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات: القسم، واللام، والنون؛ والضمير الهاء يعود على اليهود؛ و{أحرص} اسم تفضيل؛ و(الحرص)، هو أن يكون الإنسان طامعًا في الشيء مشفقًا من فواته؛ والحرص يستلزم بذل المجهود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ ((احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز([1]))؛ ونكر {حياة} ليفيد أنهم حريصون على أي حياة كانت. وإن قلت؛ حتى لو لم يأتهم إلا لحظة فهم أحرص الناس عليها.

{ومن الذين أشركوا}: أي الشرك الأكبر؛ واختلف المفسرون فيها؛ فمنهم من قال: هو مستأنف، والكلام منقطع عما قبله؛ والتقدير: ومن الذين أشركوا من يود أحدهم لو يعمر ...؛ وهذا وإن كان محتملًا لفظًا، لكنه في المعنى بعيد جدًّا؛ ومنهم من قال: إنه معطوف على قوله تعالى: {الناس}، يعني: ولتجدنَّهم أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا؛ يعني: اليهود أحرص من المشركين على الرغم من أن اليهود أهل كتاب يؤمنون بالبعث، وبالجنة، وبالنار؛ والمشركون لا يؤمنون بذلك، والذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرص الناس على حياة؛ لأنه يرى أنه إذا مات انتهى أمره، ولا يعود؛ فتجده يحرص على هذه الحياة التي يرى أنها هي رأس ماله؛ وهذا القول هو الصواب.

قال الطبري: {ومن الذين أشركوا}، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة، كما يقال: (هو أشجع الناس ومن عنترة)، بمعنى: هو أشجع من الناس ومن عنترة. فكذلك قوله: {ومن الذين أشركوا}، لأن معنى الكلام: ولتجدنَّ – يا محمد – اليهود من بني إسرائيل، أحرص من الناس على حياة ومن الذين أشركوا. وإنما وصف الله جل ثناؤه اليهود بأنهم

١- أخرجه مسلم ص١١٤٢، كتاب القدر، باب ٨: الإيمان بالقدر والإذعان له، حديث رقم ٦٧٧٤ [٣٤] ٢٦٦٤.-

أحرص الناس على الحياة، لعلمهم بما قد أعد لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقر به أهل الشرك، فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث، لأنهم يؤمنون بالبعث، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعث ولا العقاب، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت.

عن ابن عباس: {ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا}، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يحب طول الحياة؛ وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما ضيع مما عنده من العلم([1]).

قال ابن العثيمين: {يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة}؛ (الود)، خالص المحبة؛ والضمير في {أحدهم}، يعود على المشركين لا غير، على القول الأول، أي أن قوله تعالى: {ومن الذين أشركوا} مستأنف؛ وعلى القول الثاني: يحتمل أن يكون الضمير عائدًا على اليهود؛ ويصير انقطع الكلام عند قوله تعالى: {أشركوا}.

{لو يعمَّر}: أي لو يزاد في عمره؛ و(العمر)، هو الحياة؛ و{لو} هنا مصدرية؛ وكلما جاءت بعد (ود) فهي مصدرية، كما في قوله تعالى: {ودوا لو تدهن فيدهنون}[القلم:٩]، وقوله تعالى: {يودوا لو أنهم بادون في الأعراب}[الأحزاب: ٢٠]؛ ومعنى (مصدرية): أنها بمعنى (أن)، تؤول وما بعدها بمصدر، فيقال في الآية. {يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة}: يود أحدهم تعميره ألف سنة؛ و(السنة)، هي العام؛ والمراد بها هنا السنة الهلالية لا الشمسية. لأن الكلمات إذا أطلقت تحمل على الاصطلاح الشرعي؛ وقد قال الله تعالى: {إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم}[التوبة: ٣٦]؛ فالميقات الذي وضع الله للعباد إنما هو بالأشهر الهلالية، كما قال تعالى: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج}[البقرة: ١٨٩]، وكما قال تعالى في القمر: {وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب}[يونس: ٥].

{وما هو بمزحزحه من العذاب}: أي بدافعه، ومانعه؛ {أن يعمر}: {أن}، والفعل بعدها فاعل (زحزح)؛ والتقدير: وما هو بمزحزحه تعميره؛ لأن {مزحزح}، اسم فاعل يعمل عمل فعله؛ والمعنى أنه لو عمر ألف سنة، أو أكثر وهو مقيم على معصية الله تعالى فإن ذلك لن يزحزحه من العذاب؛ بل إن الإنسان إذا ازداد عمره وهو في معصية الله ازداد عذابه؛ ولهذا جاء في الحديث: ((شرُّكم من طال عمره، وساء عمله([2]))).

قال الطبري: {والله بصير بما يعملون}: والله ذو إبصار بما يعملون، لا يخفي عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ ذاكر، حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها. وأصل {بصير}، (مبصر) – من قول القائل: (أبصرت فأنا مبصر)، ولكن صرف إلى (فعيل)، كما صرف (مسمع) إلى (سميع)، و(عذاب مؤلم) إلى (أليم)، (ومبدع السموات) إلى بديع، وما أشبه ذلك.

١- سيرة ابن هشام ٢: ١٩١.

٢- أخرجه أحمد ٥/٤٠، حديث رقم ٢٠٦٨٦؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٨٦، كتاب الزهد، باب ٢٢: أي الناس خير وأيهم شر، حديث رقم ٢٣٣٠؛ مدار الحديث على علي بن زيد، قال الحافظ في التقريب: ضعيف، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح بما قبله ٢/٢٧١، حديث رقم ١٨٩٩.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيات: ١- تكذيب اليهود الذين قالوا: (لنا الآخرة، ولكم الدنيا، لن تمسنا النار إلا أيّامًا معدودة)؛ ووجهه: أن الله تعالى قال لهم: {فتمنوا الموت}، وقد قال تعالى: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم}.

٢- أن الكافر يكره الموت لما يعلم من سوء العاقبة؛ لقوله تعالى: {بما قدمت أيديهم}.

٣- إثبات السببية. تؤخذ من الباء في قوله تعالى: {بما قدمت أيديهم}.

٤- إثبات علم الله تعالى للمستقبل؛ لقوله تعالى: {ولن يتمنوه أبدًا}؛ فوقع الأمر كما أخبر به.

٥- جواز تخصيص العموم لغرض؛ لقوله تعالى: {والله عليم بالظالمين} فخص علمه بالظالمين تهديدًا لهم.

٦- أن اليهود أحرص الناس على حياة.

٧- إبطال قولهم: {لن تمسنا النار إلّا أيّامًا معدودة}، ثم يخرجون منها، ويكونون في الجنة؛ لأن من كان كذلك لا يكره الموت.

٨- أن الناس يتفاوتون في الحرص على الحياة؛ لقوله تعالى: {أحرص}؛ و{أحرص} اسم تفضيل.

٩- أن المشركين من أحرص الناس على الحياة، وأنهم يكرهون الموت؛ لقوله تعالى: {ومن الذين أشركوا}، مما يدل على أنهم في القمة في كراهة الموت ما عدا اليهود.

١٠- أن طول العمر لا يفيد المرء شيئًا إذا كان في معصية الله؛ لقوله تعالى: {وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر}.

١١- غور فهم السلف حين كرهوا أن يدعى للإنسان بالبقاء؛ فإن الإمام أحمد كره أن يقول للإنسان: (أطال الله بقاءك)؛ لأن طول البقاء قد ينفع، وقد يضر؛ إذا الطريق السليم أن تقول: (أطال الله بقاءك على طاعة الله)، أو نحو ذلك.

١٢- أن الله سبحانه وتعالى محيط بأعمال هؤلاء كغيرهم؛ لقوله تعالى: {والله بصير بما يعملون}؛ والبصر هنا بمعنى العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤية؛ قال النبي ﷺ: ((لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه[١]))؛ فأثبت لله بصرًا[٢]؛ لكن تفسيره بالعلم أعم.

١- أخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٩: في قوله ﷺ: ((إن الله لا ينام)) ... ، حديث رقم ٤٤٢ [٢٩٣] ١٧٩.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)

قال الطبري: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم. وإنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته. حدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي. فقال رسول الله ﷺ: ((سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه، لتتابعُني على الإسلام)). فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: ((سلوني عما شئتم)). فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا، أيّ الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليُّه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: ((عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني))! فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: ((نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا فطال سقمه منه، فنذر نذرًا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل)) – قال أبو جعفر: فيما أروي: ((وأحب الشراب إليه ألبانها))؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: ((أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيُّهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرًا بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله))؟ قالوا: اللهم نعم. قال: ((اللهم اشهد))! قال: ((وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه))؟ قالوا: اللهم نعم! قال: ((اللهم اشهد))! قالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نتابعك أو نفارقك. قال: ((فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليُّه)). قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليُّك سواه من الملائكة، تابعناك وصدقناك. قال: ((فما يمنعكم أن تصدقوه))؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: {من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} إلى قوله: {كأنهم لا يعلمون}، فعندها باءوا بغضب على غضب(١).

١- الأثر: إسناده صحيح. يونس بن بكير بن واصل الشيباني: ثقة، من تكلم فيه فلا حجة له، وأخرج له مسلم في صحيحه. وترجمته في التهذيب، والكبير للبخاري ٤ / ٢ / ٤١١، وابن سعد ٦: ٢٧٩، وابن أبي حاتم ٤ /٢ /٢٣٦. ووقع في المطبوعة هنا (يونس عن بكير) وهو خطأ واضح. عبد الحميد بن بهرام – بفتح الباء وسكون الهاء – الفزاري: ثقة، وثقه أحمد وابن معين وغيرهما. وتكلم فيه بعضهم من أجل روايته عن شهر بن حوشب، وهو راويته، ولكن شهر ثقة أيضًا، كما أشرنا في: ١٤٨٩.

قال ابن العثيمين: {قل}: أي يا محمد؛ ويجوز أن يكون المراد: كل من يتوجه إليه الخطاب؛ {من كان عدوا لجبريل}: أي معاديًا له؛ و{جبريل}، هو الملك الموكل بالوحي؛ وكان اليهود يعادونه، ويقولون: (إنه ينزل بالعذاب)؛ {فإنه نزله على قلبك}: فيه إعرابان: الأول: أن الجملة جواب الشرط؛ ووجه ارتباطه بفعل الشرط من الناحية المعنوية تأكيد ذم هؤلاء اليهود المعادين لجبريل، كأنه لم يكن فيه ما يوجب العداوة إلا أنه نزله على قلبك؛ وهذا يشبه تأكيد المدح بما يشبه الذم، كقول القائل: {ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب}. فالمعنى: من كان عدوًّا لجبريل فلا موجب لعداوته إلا أنه نزله – أي القرآن – على قلبك؛ وهذا الوصف يقتضي ولايته لا عداوته؛ وقيل: إن جواب الشرط محذوف؛ والتقدير: من كان عدوًّا لجبريل فليمت غيظًا؛ لكن الإعراب الأول أصح، وأبلغ.

قال السعدي: أي: قل لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، أن وليُّك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدقوا، إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

قال ابن العثيمين: {على قلبك}: أي قلب النبي ﷺ؛ وهذا كقوله تعالى: {نزل به الروح الأمين * على قلبك} [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ وإنما كان نزوله على قلبه؛ لأن القلب محل العقل، والفهم، كما قال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها}[الحج: ٤٦].

قال الشنقيطي: ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ جِبْرِيلَ أَلْقَى الْقُرْآنَ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ – ﷺ – مِنْ غَيْرِ سَمَاعِ قِرَاءَةٍ، وَنَظِيرُهَا فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ} الْآيَةَ [٢٦ \ ١٩٣، ١٩٤]، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَ يَقْرَأُهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْمَعَهُ مِنْهُ، فَتَصِلُ مَعَانِيهِ إِلَى قَلْبِهِ بَعْدَ سَمَاعِهِ، وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى تَنْزِيلِهِ عَلَى قَلْبِهِ، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[٧٥ \ ١٦، ١٩]، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[٢٠ \ ١١٤].

والحديث رواه أحمد في المسند، مطولا: ٢٥١٤، وابن سعد في الطبقات ١/١/١١٥ – ١١٦، كلاهما من هاشم بن القاسم، عن عبد الحميد بن بهرام، بهذا الإسناد. ثم رواه أحمد: ٢٥١٥، عن محمد بن بكار، عن عبد الحميد بن بهرام، به ولم يذكر لفظه، إحالة على ما قبله. ورواه أحمد أيضًا: ٢٤٧١، مختصرا، عن حسين، هو ابن محمد المروزي عن عبد الحميد بن بهرام.

ورواه أيضًا: ٢٤٨٣، من وجه آخر، أطول قليلا. وكذلك رواه أبو نعيم في الحلية ٤: ٣٠٤ – ٣٠٥ من هذا الوجه. وذكر الهيثمي الرواية: ٢٤٨٣، وأشار إلى ما في الرواية: ٢٥١٤ من الزيادة، في مجمع الزوائد ٨: ٢٤١ – ٢٤٢، وقال: (رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات). ونقل ابن كثير في التفسير ١: ٢٣٨ – ٢٣٩ رواية الطبري التي هنا، ثم أشار إلى رواية المسند: ٢٥١٤. ثم نقل رواية المسند: ٢٤٨٣ فيه ١: ٢٤٠، ونقل روايتي المسند أيضًا ٢: ١٨٦ – ١٨٧.

– (قلت): وحسنه شعيب الأرنؤوط في مسند الإمام أحمد.

قال ابن العثيمين: {بإذن الله}: أي بإذنه الكوني القدري؛ {مصدقا لما بين يديه}: حال من الضمير. الهاء في قوله تعالى: {نزله}؛ يعني نزله حال كونه مصدقًا لما بين يديه، أي لما سبقه من الكتب، كالتوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب التي أخبرت عن نزول القرآن؛ وسبق بيان معنى تصديق القرآن لما بين يديه.

قال الطبري: فإن جبريل نزل القرآن على قلبك، يا محمد، مصدِّقًا لما بين يدي القرآن. يعني بذلك: مصدِّقًا لما سلف من كتب الله أمامه، ونزلت على رسله الذين كانوا قبل محمد ﷺ. وتصديقه إياها، موافقة معانيه معانيها في الأمر باتباع محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهي تصدقه(١).

عن ابن عباس: {مصدِّقًا لما بين يديه}، يقول: لما قبله من الكتب التي أنزلها الله، والآيات، والرسل الذين بعثهم الله بالآيات، نحو موسى ونوح وهود وشعيب وصالح، وأشباههم من الرسل صلى الله عليهم.

قال ابن العثيمين: {وهدى}: أي دلالة؛ {وبشرى}: أي بشارة؛ و(البشارة): الإخبار بما يسر؛ وقد تأتي في الإخبار بما يضر، مثل قوله تعالى: {فبشره بعذاب أليم}[لقمان: ٧]؛ و{للمؤمنين} متعلق بـ{بشرى}؛ وإنما كان بشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم الذين قبلوه، وانتفعوا به؛ {المؤمنين}: أي الذين آمنوا بما يجب الإيمان به مع القبول، والإذعان؛ لأن الإيمان يدل على أمن، واستقرار؛ ولهذا قال بعض العلماء: إنه يكون في الأمور الغيبية دون الأمور المحسوسة.

قال الطبري: {وهدى}: ودليل وبرهان. وإنما سماه الله جل ثناؤه {هدى}، لاهتداء المؤمن به. و(اهتداؤه به)، اتخاذه إياه هاديًا يتبعه، وقائدًا ينقاد لأمره ونهيه وحلاله وحرامه. و(الهادي من كل شيء): ما تقدم أمامه. ومن ذلك قيل لأوائل الخيل: (هواديها)، وهو ما تقدم أمامها، وكذلك قيل للعنق: (الهادي)، لتقدمها أمام سائر الجسد.

وأما الـ{بشرى}، فإنها البشارة. أخبر الله عباده المؤمنين جل ثناؤه، أن القرآن لهم بشرى منه، لأنه أعلمهم بما أعد لهم من الكرامة عنده في جناته، وما هم إليه صائرون في معادهم من ثوابه، وذلك هو (البشرى) التي بشر الله بها المؤمنين في كتابه. لأن البشارة في كلام العرب، هي: إعلام الرجل بما لم يكن به عالمًا مما يسره من الخبر، قبل أن يسمعه من غيره، أو يعلمه من قبل غيره. وقد روي في ذلك عن قتادة قول قريب المعنى مما قلناه: عن قتادة قوله: {هدى وبشرى للمؤمنين}، لأن المؤمن إذا سمع القرآن حفظه ووعاه، وانتفع به واطمأن إليه، وصدق بموعود الله الذي وعد فيه، وكان على يقين من ذلك.

قال ابن العثيمين: {من كان عدوًّا لله}: أي معاديًا له مستكبرًا عن عبادته.

{وملائكته}: يعني وعدوًّا لملائكته؛ والـ{ملائكة}، جمع ملك؛ وهم عالم غيبي خلقهم الله عز وجل من نور، وسخَّرهم لعبادته يسبحون الليل، والنهار لا يفترون؛ ومنهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذين كان النبي ﷺ يذكر أسماءهم في افتتاح صلاة الليل(١).

١- في المطبوعة: (وهي تصديقه)، والصواب ما أثبت، يريد: وهي توافقه. كما فسر قبل.

{ورسله}: جمع رسول؛ وهم الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع، وأمرهم بتبليغه؛ أولهم نوح، وآخرهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

{وجبريل وميكال}: معطوف على قوله تعالى: {وملائكته}، من باب عطف الخاص على العام؛ وعطف الخاص على العام يدلُّ على شرف الخاص؛ فجبريل موكل بالوحي من الله إلى الرسل؛ و{ميكال}: هو ميكائيل الموكل بالقطر، والنبات؛ وخص هذين الملكين؛ لأن أحدهما موكل بما تحيى به القلوب وهو جبريل؛ والثاني موكل بما تحيى به الأرض وهو ميكائيل.

{فإن الله عدو للكافرين}: هذا جواب الشرط: من كان عدوًّا لله فالله عدوٌّ له؛ ومن كان عدوًّا للملائكة فإن الله عدوٌّ له؛ ومن كان عدوًّا لرسله فإن الله عدوٌّ له؛ ومن كان عدوًّا لجبريل فإن الله عدوٌّ له؛ ومن كان عدوًّا لميكائيل فإن الله عدوٌّ له؛ وهنا أظهر في موضع الإضمار لفائدتين؛ إحداهما: لفظية؛ والثانية: معنوية؛ أما الفائدة اللفظية: فمناسبة رؤوس الآي؛ وأما الفائدة المعنوية فهي تتضمن ثلاثة أمور: الأول: الحكم على أن من كان عدوًّا لله ومن ذكر، بأنه يكون كافرًا؛ يعني: الحكم على هؤلاء بالكفر؛ الثاني: أن كل كافر سواء كان سبب كفره معاداة الله، أو لا، فالله عدوٌّ له، ثالث: بيان العلة. وهي في هذه الآية: الكفر.

قال الطبري: وهذا خبر من الله جل ثناؤه من كان عدوا لله، من عاداه، وعادى جميع ملائكته ورسله؛ وإعلام منه أن من عادى جبريل فقد عاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميع ملائكته ورسله. لأن الذين سماهم الله في هذه الآية هم أولياء الله وأهل طاعته، ومن عادى لله وليًّا فقد عادى الله وبارزه بالمحاربة، ومن عادى الله فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته. لأن العدو لله عدوٌّ لأوليائه، والعدو لأولياء الله عدوٌّ له. فكذلك قال لليهود – الذين قالوا: إن جبريل عدوُّنا من الملائكة، وميكائيل وليُّنا منهم –: {من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين}، من أجل أن عدو جبريل عدو كل ولي لله. فأخبرهم جل ثناؤه أن من كان عدوًّا لجبريل، فهو لكل من ذكره – من ملائكته ورسله وميكال – عدو، وكذلك عدو بعض رسل الله، عدوٌّ لله ولكل ولي.

فإن قال قائل: أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟

قيل: بلى.

فإن قال: فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما، وقد مضى ذكرهما في الآية في جملة أسماء الملائكة؟

قيل: معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما، أن اليهود لما قالت: (جبريل عدونا، وميكائيل ولينا) – وزعمت أنها كفرت بمحمد ﷺ، من أجل أن جبريل صاحب محمد ﷺ، أعلمهم الله أن من كان لجبريل عدوًّا، فإن الله له عدو، وأنه من الكافرين. فنص عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه، لئلّا يقول منهم قائل: إنما قال الله: من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله، ولسنا لله ولا لملائكته ورسله أعداء. لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصًّا، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه.

١– راجع صحيح مسلم ص ٨٠٠، كتاب صلاة المسافرين، باب: ٢٦: صلاة النبي ﷺ ودعاؤه، حديث رقم ١٨١١ [٢٠٠] ٧٧٠.

وكذلك قوله: {ورسله}، فلست يا محمد داخلًا فيهم. فنص الله تعالى على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم، ليقطع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم، ويحسم تمويههم أمورهم على المنافقين.

وأما إظهار اسم الله في قوله: {فإن الله عدو للكافرين}، وتكريره فيه – وقد ابتدأ أول الخبر بذكره فقال: {من كان عدوا لله وملائكته} – فلئلّا يلتبس لو ظهر ذلك بكناية، فقيل: (فإنه عدو للكافرين)، على سامعه، من المَعْنِيّ بـ(الهاء) التي في (فإنه): أألله، أم رسل الله جل ثناؤه، أم جبريل، أم ميكائيل؟ إذ لو جاء ذلك بكناية على ما وصفت، فإنه يلتبس معنى ذلك على من لم يوقف على المعني بذلك، لاحتمال الكلام ما وصفت.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١– أن من الناس من يكون عدوًّا لملائكة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {قل من كان عدوًّا لجبريل}: ووجه ذلك: أن مثل هذا لكلام لو لم يكن له أصل لكان لغوًا من القول؛ والقرآن منزه عن هذا اللغو.

٢– فضيلة جبريل عليه الصلاة والسلام لأن الله تعالى دافع عنه.

٣– ذكر الوصف الذي يستحق أن يكون به وليًّا لجبريل؛ لقوله تعالى: {فإنه نزله على قلبك}: يعني: ومن كان هذه وظيفته فإنه يستحق أن يكون وليًّا.

٤– إثبات علو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {فإنه نزله}؛ وإنما نزل به من عند الله؛ والنزول لا يكون إلا من أعلى.

٥– أن النبي ﷺ قد وعى القرآن وعيًا كاملًا لا يتطرق إليه الشك؛ لقوله تعالى: {نزله على قلبك}؛ لأن ما نفذ إلى القلب حَلَّ في القلب؛ وإذا حَلَّ في القلب فهو في حرز مكين.

٦– أن هذا القرآن إنما نزل بإذن الله؛ لقوله تعالى: {نزله على قلبك بإذن الله}؛ والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلماء أن إذن الله تعالى نوعان:

كوني: وهو المتعلق بالخلق، والتكوين، ولا بدَّ من وقوع ما أذن الله تعالى فيه بهذا المعنى؛ مثاله قوله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه}[البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: {وما هم بضارِّين به من أحد إلّا بإذن الله}[البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: {ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله}[التغابن: ١١].

والثاني شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع، والعبادة؛ مثاله قوله تعالى: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون}[يونس: ٥٩]؛ وقوله تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}[الشورى: ٢١]؛ والفرق بينهما أن المأذون به شرعًا قد يقع، وقد لا يقع؛ وأمّا المأذون به قدرًا فواقع لا محالة؛ ومن جهة أخرى: أن المأذون به شرعًا محبوب إلى الله عز وجل؛ والمأذون به قدرًا قد يكون محبوبًا، وقد يكون غير محبوب.

٧- أن القرآن بشرى للمؤمنين؛ وعلامة ذلك أنك تنتفع به؛ فإذا وجدت نفسك منتفعًا به، حريصًا عليه، تاليًا له حق تلاوته، فهذا دليل على الإيمان، فتناله البشرى؛ وكلما رأى الإنسان من نفسه كراهة القرآن، أو كراهة العمل به، أو التثاقل في تطبيقه فليعلم أنه إنما فاقد للإيمان بالكلية، أو أن إيمانه ناقص.

٨- أن من عادى الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: {من كان عدوًّا لله}، ثم قال تعالى: {فإن الله عدو للكافرين}.

٩- أن من كان عدوًّا للملائكة، أو للرسل فإنه عدوٌّ لله؛ لأن الملائكة رسل الله، كما قال تعالى: {جاعل الملائكة رسلًا}[فاطر: ١]؛ والرسل البشريون أيضًا رسل لله؛ فمن عادى ملائكة الله من جبريل أو غيره، أو عادى الرسل من محمد أو غيره فقد عادى الله عز وجل.

فإن قيل: فهل من عادى المؤمنين يكون معاديًا لله؟

فالجواب: هذا محل توقف في دلالة الآية عليه؛ اللهم إلا إذا عادى المؤمنين لكونهم تمسكوا بشريعة الرسل؛ فهذا يظهر أن الله يكون عدوًّا لهم، لأن من عاداهم إنما فعل ذلك بسبب أنهم تمسكوا بما جاءت به الرسل؛ فكان حقيقة معاداتهم أنهم عادوا رسل الله، كما قال أهل العلم في قوله تعالى: {إن شانئك هو الأبتر}[الكوثر: ٣]، أي مبغضك، ومبغض ما جئت به من السنة هو الأبتر؛ وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى في الحديث القدسي قال: ((من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب[1])).

١٠- أن كل كافر فالله عدوٌّ له؛ لقوله تعالى: {فإن الله عدوٌّ للكافرين}.

١١- إثبات صفة العداوة من الله، أي أن الله يعادي؛ وهي صفة فعلية كالرضا، والغضب، والسخط، والكراهة؛ و(المعاداة): ضدها الموالاة الثابتة للمؤمنين، كما قال الله تعالى: {الله وليُّ الذين آمنوا}[البقرة: ٢٥٧].

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)

قال الطبري: عن ابن عباس قال: قال ابن صوريا الفِطيوني[2] لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها! فأنزل الله عز وجل: {ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون}.

١- أخرجه البخاري ص٥٤٥، كتاب الرقاق، باب ٣٨: التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

٢- في المطبوعة (القطيوني) بالقاف، وهو خطأ، وهو من بني ثعلبة بن الفطيون (بكسر الفاء وسكون الطاء، وضم الياء) . قال السهيلي: (الفطيون: كلمة عبرانية تطلق على كل من ولي أمر اليهود وملكهم). ورواية ابن جرير: (ابن صوريا)، والذي في سيرة ابن هشام ٢: ١٩٦(ابن صلوبا الفطيوني). وقد ذكر ابن هشام فيما روى من سيرة ابن إسحاق ١: ١٦٠ - ١٦١(الأعداء من يهود)، فعد في بني ثعلبة: ابن الفطيون: (عبد الله بن صوريا الأعور، ولم يكن في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه، وابن صلوبا، ومخيريق. وكان حبرهم، أسلم)، ولم أستطع أن أرجح أهو: ابن صوريا، أو - ابن صلوبا - الذي كان من أمره ما كان. ولعلهما روايتان مختلفتان عن ابن إسحاق.

قال ابن العثيمين: {ولقد}: سبق الكلام عليها؛ {أنزلنا إليك}: الإنزال إنما يكون من الأعلى إلى الأسفل؛ وذلك؛ لأن القرآن كلام الله؛ والله تعالى فوق عباده.

{آيات}: جمع آية؛ والآية في اللغة: العلامة، لكنها في الحقيقة أدق من مجرَّد العلامة؛ لأنها تتضمن العلامة، والدليل؛ فكل آية علامة. ولا عكس؛ لكن العلماء رحمهم الله قد يفسرون الشيء بما يقاربه، أو يلازمه، وإن كان بينهما فرق، كتفسيرهم (الريب) بالشك في قوله تعالى: {لا ريب فيه}[البقرة:]، مع أن (الريب) أخص من مطلق الشك؛ لأنه شك مع قلق؛ وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة (أصول التفسير).

{بينات}: جمع بينة؛ وهن الواضحات في ذاتها، ودلالتها.

قال الطبري: أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالّات على نبوتك: وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم – وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه، من أحكامهم التي كانت في التوراة. فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ. فكان، في ذلك من أمره، الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي. إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة، تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفت من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي. عن ابن عباس: {ولقد أنزلنا إليك آيات بينات}، يقول: فأنت تتلوه عليهم، وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتابًا، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: ففي ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

{وما يكفر بها}: أي بهذه الآيات البينات؛ {إلا الفاسقون}: أي الخارجون عن شريعة الله؛ فالمراد بـ(الفسق) هنا الفسق الأكبر، كقوله تعالى في سورة السجدة: {وأما الذين فسقوا فمأواهم النار}[السجدة: ٢٠].

قال الطبري: ولقد أنزلنا إليك، فيما أوحينا إليك من الكتاب علامات واضحات تبين لعلماء بني إسرائيل وأحبارهم – الجاحدين نبوتك، والمكذبين رسالتك – أنك لي رسول إليهم، ونبي مبعوث، وما يجحد تلك الآيات الدالات على صدقك ونبوتك، التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم إلا الخارج منهم من دينه، التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي يدين بتصديقه. فأما المتمسك منهم بدينه، والمتبع منهم حكم كتابه، فإنه بالذي أنزلت إليك من آياتي مصدق وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدقوا رسوله محمدًا ﷺ من يهود بني إسرائيل.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج١ص١٦٧: وَأَمَّا الْفُسُوقُ: فَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْعَانِ: مُفْرَدٌ مُطْلَقٌ، وَمَقْرُونٌ بِالْعِصْيَانِ. وَالْمُفْرَدُ نَوْعَانِ أَيْضًا: فُسُوقُ كُفْرٍ، يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَفُسُوقٌ لَا يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَالْمُفْرَدُ الَّذِي هُوَ فُسُوقُ كُفْرٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ}[البقرة:

٢٦] الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}[البقرة: ٩٩]، وَقَوْلِهِ: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا}[السجدة: ٢٠] الْآيَةَ، فَهَذَا كُلُّهُ فُسُوقُ كُفْرٍ.

وَأَمَّا الْفُسُوقُ الَّذِي لَا يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ}[البقرة: ٢٨٢]، الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ}[الحجرات: ٦] الْآيَةَ.

وَالْمَقْرُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}[الحجرات: ٧].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن القرآن وحيٌّ من الله عز وجل.

٢- عظمة القرآن؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إليه، وجعله آية.

٣- ثبوت علو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ولقد أنزلنا إليك آيات بينات}؛ والنزول لا يكون إلا من أعلى؛ وعلو الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له التي لم يزل، ولا يزال متَّصِفًا بها؛ وأما استواؤه على العرش فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته.

٤- وصف القرآن بأنه آيات بينات، ولا ينافي هذا قوله تعالى: {منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات}[آل عمران: ٧]؛ لأن هذا التشابه يكون متشابهًا على بعض الناس دون بعض؛ ولأنه يحمل على المحكم، فيكون الجميع محكمًا، كما قال تعالى: {فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ... }[آل عمران: ٧] الآية.

فالحاصل: أن القرآن ولله الحمد آيات بينات؛ ولكنه يحتاج إلى قلب ينفتح لهذا القرآن حتى يتبين؛ أما قلب يكره القرآن، ثم يأتي بما يشتبه فيه ليضرب القرآن بعضه ببعض فهذا لا يتبين له أبدًا؛ إنما يتبين الهدى من القرآن لمن أراد الهدى؛ وأما من لم يرده فلا؛ ولهذا قال تعالى: {وما يكفر بها إلا الفاسقون}.

٥- أنه لا يكفر بالقرآن إلا الفاسق.

٦- أن من كفر به فهو فاسق.

٧- إطلاق الفاسق على الكافر؛ وعلى هذا يكون الفسق على نوعين:

فسق أكبر مخرج عن الملة، كما في قوله تعالى: {فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلًا بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار}[السجدة: ١٩، ٢٠] الآية؛ ووجه الدلالة أنه تعالى جعل الفسق هنا مقابلًا للإيمان.

والثاني: فسق أصغر لا يخرج من الإيمان؛ ولكنه ينافي العدالة، كقوله تعالى: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان}[الحجرات: ٧]: فعطف {الفسوق} على {الكفر}؛ والعطف يقتضي المغايرة.

(مسألة)

تنقسم آيات الله تعالى إلى قسمين: كونية، وشرعية؛ فالكونية مخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والإنسان، وغير ذلك؛ قال الله تعالى: {ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر}[فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: {ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين}[الروم: ٢٢]؛ وأما الشرعية فهي ما أنزله الله تعالى على رسله من الشرائع، كقوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته}[الجمعة: ٢]، وقوله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم..}[سبأ: ٤٣] الآية، وكذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

قال ابن العثيمين: {أو كلَّما}: الهمزة هنا للاستفهام؛ والواو للعطف؛ ومثل هذه الصيغة متكررة في القرآن كثيرًا؛ وقد سبق الكلام عليها؛ أما {كلَّما}: فإنها أداة شرط تفيد التكرار. أي كثرة وقوع شرطها، وجوابها؛ وكلما حصل الشرط حصل الجواب؛ فإذا قلت: (كلما جاء زيد فأكرمه) اقتضى تكرار إكرامه بتكرر مجيئه قل، أو كثر.

قال السعدي: وهذا فيه التعجيب من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها. ف{كلَّما} تفيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض.

قال ابن العثيمين: {عاهدوا عهدًا}؛ ال{عهد}: الميثاق الذي يكون بين الطوائف سواء كان ذلك بين أمَّة مسلمة وأمَّة كافرة؛ أو بين أمَّتين مسلمتين؛ أو بين أمَّتين كافرتين؛ والضمير في {عاهدوا} يعود على اليهود؛ {نبذه فريق منهم}: ال{نبذ}: الطرح، والترك. أي ترك هذا العهد جماعة منهم، أي من اليهود. فطرحوه، ولم يفوا به؛ وهذا هو حال بني إسرائيل مع الله سبحانه وتعالى، ومع عباد الله؛ فالله تعالى أخذ عليهم العهد، والميثاق؛ ومع ذلك نبذوا العهد، والميثاق؛ والنبي ﷺ عاهدهم، ونبذوا عهده.

قال الطبري: وأما ال{عهد}، فإنه الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملنَّ بما في التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى، فوبَّخهم جل ذكره بما كان منهم من ذلك، وعيَّر به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم في بعض ما كان جلَّ ذكره أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد ﷺ من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نعته وصفته، فقال تعالى ذكره: أو كلَّما عاهد اليهود من بني إسرائيل ربهم عهدًا وأوثقوه ميثاقًا، نبذه فريق منهم، فتركه ونقضه؟ عن ابن عباس قال: قال مالك بن الصيف - حين بعث رسول الله ﷺ، وذكر ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد الله إليهم فيه -: والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ، وما أخذ له علينا ميثاقًا! فأنزل الله جل ثناؤه: {أو كلَّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون([1])}.

قال ابن العثيمين: {بل أكثرهم لا يؤمنون}: هذا الإضراب للانتقال من وصف إلى وصف: من وصف نقض العهد ونبذه، إلى وصف عدم الإيمان؛ فعليه يكون هذا الإضراب إثباتًا لما قبله، وزيادة وصف، وهو انتفاء الإيمان عن أكثرهم؛ لأن المؤمن حقيقة لا بدَّ أن يفي بالعهد، كما قال الله تعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولًا} [الإسراء: ٣٤]، وأخبر النبي ﷺ أن آية المنافق ثلاث: ((إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر ...([2])))؛ ولو أنهم آمنوا ما نقضوا العهد الذي بينهم وبين الله، أو الذي بينهم وبين عباد الله.

{ولمّا جاءهم رسول من عند الله}؛ {لما} هنا شرطية؛ وهي على أربعة أنحاء في اللغة العربية: شرطية؛ ونافية جازمة؛ وبمعنى (إلّا)؛ وبمعنى (حين)؛ و{من عند الله} صفة لـ{رسول}: أي رسول مرسل من عند الله، وهو محمد ﷺ.

قال الطبري: {مصدِّق لما معهم}: فإنه للذي هو مع اليهود، وهو التوراة. فأخبر الله جل ثناؤه أن اليهود لمّا جاءهم رسول الله ﷺ من الله بتصديق ما في أيديهم من التوراة، أن محمدًا ﷺ نبي لله.

قال أبو زهرة: وعبر سبحانه بـ{رسول من عند الله} للإشارة إلى أنه من عند الله ذي الجلال الذي أنعم عليهم بالنعم المتوالية، و {رسول} التنكير فيها للتعظيم، أي رسول بالغ أقصى درجات الفضل وقد اختاره الله تعالى.

وقد وصفه الله تعالى بأنه مصدِّق لما معهم، وتصديقه لما معهم من ناحيتين:

الناحية الأولى: أنه قد جاء بالتَّكليفات الكثيرة التي جاءت في المواثيق التي أخذها الله تعالى عليهم، والناحية الثانية أنه تصديق للبشارات التي جاءت بها كتبهم، وقد بشرت به في عدة نصوص منها، كما أشار القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الأعراف: ١٥٧]، ومثل قوله

١- الأثر: في سيرة ابن هشام ٢: ١٩٦، مع اختلاف يسير في اللفظ. وقد ذكر ابن هشام في ٢: ١٦١ (مالك بن الصيف) وقال: (ويقال: ابن ضيف).

٢- أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٤: علامات المنافق، حديث رقم ٣٣؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١١ [١٠٧] ٥٩.

تعالى: {وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}. هذا هو معنى التصديق، وليس التصديق الإقرار بصدق ما حرَّفوا وبدَّلوا حتى يقول ذلك الذين لَا يفهمون، فإن القرآن يفهم بعضه ببعض، وقد كفَّرهم، وسجَّل التحريف عليهم ولا يزالون يغيرون ويبدلون.

قال الطبري: {نبذ فريق}، يعني بذلك: أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا به مقرين، حسدًا منهم له وبغيًا عليه.

{من الذين أوتوا الكتاب}: هم علماء اليهود الذين أعطاهم الله العلم بالتوراة وما فيها. ويعني بقوله: {كتاب الله}، التوراة.

قال ابن العثيمين: {وراء ظهورهم}: أي رموه بشدة وراء الظهر؛ وهو عبارة عن الانصراف التّام عنه؛ لأنهم لو نبذوه أمامهم، أو عن اليمين، أو عن الشمال لكان من الجائز أن يكونوا يأخذون به؛ لكن من ألقاه وراء ظهره كان ذلك أبلغ في التولِّي، والإعراض عنه، وعدم الرجوع إليه؛ لأن الشيء إذا خلف وراء الظهر فإنه لا يرجع إليه.

قال السعدي: {وراء ظهورهم}: أي طرحوه رغبة عنه {وراء ظهورهم}، وهذا أبلغ في الإعراض، كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه، وحقيَّة ما جاء به. تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفرًا بكتابهم من حيث لا يشعرون.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٤٧: وتأمَّل قوله تعالى في هذه الآية: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ}، كيف تجد تحته برهانًا عظيمًا على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه مع تباعد زمانها وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذًا عن بشر، أن يأخذوه عن ملك أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به، والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة، ولا تشاعر، ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معًا.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة، فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقا لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه إذا تجرد الأخبار، فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول!، فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول! فكيف إذا أقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها! والله أعلم.

قال الطبري: {كأنهم لا يعلمون}، كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود – فنقضوا عهد الله بتركهم العمل بما واثقوا الله على أنفسهم العمل بما فيه – لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه. وهذا

من الله جل ثناؤه إخبار عنهم أنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمر الله فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم.

عن قتادة قوله: {نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب}، يقول: نقض فريق من الذين أوتوا الكتاب {كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون}: أي: أن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم أفسدوا علمهم، وجحدوا وكفروا وكتموا.

عن السدي: قال: لمّا جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت. فذلك قول الله: {كأنهم لا يعلمون}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- أن اليهود لا يوثق منهم بعهد؛ لأنهم كلّما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم.

٢- أن نبذ فريق من الأمة يعتبر نبذا من الأمة كلها. ما لم يتبرؤوا منه؛ فإن تبرؤوا منه فإنهم لا يلحقهم عاره؛ لكن إذا سكتوا فإن نبذ الفريق نبذ للأمة كلهم؛ وجه ذلك أن الله وبخ هؤلاء على نبذ فريق منهم مع أنهم لم يباشروه.

٣- أن من أهل الكتاب من لم ينبذ كتاب الله وراء ظهره؛ بل آمن به كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود.

٤- أن من نبذ العهد من هذه الأمة فقد ارتكب محظورين:

أحدهما: النفاق؛ لقول النبي ﷺ: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف؛ وإذا أوتمن خان([1]))، وفي الحديث الآخر: ((أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ...، وذكر منها: ((إذا عاهد غدر([2]))).

والمحظور الثاني: مشابهة اليهود.

٥- أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله تعالى: {من عند الله}.

٦- أن الرسول ﷺ قد أخبرت به الكتب السابقة؛ لقوله تعالى: {مصدق لما معهم}.

٧- أن رسالة النبي ﷺ تقرِّر ما سبق من رسالات الرسل، لقوله تعالى: {مصدق لما معهم}.

٨- أنه مع هذا البيان والوضوح، فإن فريقًا من الذين أوتوا الكتاب نبذوا هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ.

٩- أن نبذ من عنده كتاب وعلم أقبح ممن ليس عنده ذلك؛ ولهذا نص على قوله تعالى: {فريق من الذين أوتوا الكتاب}؛ لإظهار شدَّة القبح من هؤلاء في نبذهم؛ لأن النبذ مع العلم أقبح من النبذ مع الجهل.

١٠- أن القرآن كلام الله، لأن الله تعالى أضافه إليه في قوله تعالى: {كتاب الله}.

١- (قلت): البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩/١٠٧).

٢- أخرجه البخاري ص١٩٣، كتاب المظالم، باب ١٧: إذا خاصم فجر، حديث رقم ٢٤٥٩؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١٠ [١٠٦] ٥٨.

١١ – توكيد قبح ما صنع هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: {كأنهم لا يعلمون}؛ لأنهم في الواقع يعلمون؛ ولكن فعلهم كأنه فعل من لم يعلم؛ وكفر من علم أشدَّ من كفر من لم يعلم.

١٢ – أن هذا النبذ الذي كان منهم لا يرجى بعده قبول؛ لقوله تعالى: {وراء ظهورهم}؛ لأن النبذ لو كان أمامهم ربما يتلقونه بعد؛ كذلك لو كان عن اليمين، والشمال، لكن إذا كان وراء الظهر فمعناه استبعاد القبول منهم.

١٣ – شدة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتهم به، حيث نبذوه وراء ظهورهم.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)

قال ابن العثيمين: {واتبعوا}: أي اليهود؛ و{تتلو}، هنا ليست بمعنى (تقرأ)؛ لكنه من: تلاه يتلوه، بمعنى: (تبعه)؛ أي ما تتبعه الشياطين، وتأخذ به.

قال صالح آل الشيخ في التمهيد: والذي تلته الشياطين على ملك سليمان هو ما قرؤوه في كتب السحر، وما يتصل بذلك من عمل السحر.

قال الطبري: ل{تتلو} في كلام العرب معنيان. أحدهما: الاتباع، كما يقال: (تلوت فلانًا)، إذا مشيت خلفه وتبعت أثره، كما قال جل ثناؤه: {هُنَالِكَ تتلو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ}[يونس: ٣٠]، يعني بذلك تتبع.

والآخر: القراءة والدراسة، كما تقول: (فلان يتلو القرآن)، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه، كما قال حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد

ولم يخبرنا الله جل ثناؤه – بأي معنى (التلاوة) كانت تلاوة الشياطين الذين تلوا ما تلوه من السحر على عهد سليمان – بخبر يقطع العذر. وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسةً وروايةً وعملًا، فتكون كانت متبعته بالعمل، ودارسته بالرواية. فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك، وعملت به، وروته.

قال ابن العثيمين: {على ملك سليمان}: أي في ملكه؛ أي في عهده؛ وإنما قال تعالى: {على ملك سليمان}؛ لأن الله جمع له بين النبوة، والملك، ووهبه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده: فسخَّر له الرياح، والجن، والشياطين؛ فإن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيًّا رسولًا؛ وكل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهم أنبياء رسل؛ لقوله تعالى: {ولقد

أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك}[غافر: ٧٨]؛ وعند اليهود – قاتلهم الله – أن سليمان ملك فقط؛ وهو لا ريب ملك، ونبي، ورسول؛ وسليمان كان بعد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ...}[البقرة: ٢٤٦]، إلى قوله تعالى: {وقتل داود جالوت}[البقرة: ٢٥١]؛ وسليمان هو ابن داود عليهما السلام.

قال الطبري: الفريق من أحبار اليهود وعلمائها، الذين وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى، وراء ظهورهم، تجاهلًا منهم وكفرًا بما هم به عالمون، كأنهم لا يعلمون. فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذي يعلمون أنه منزل من عنده على نبيه ﷺ، ونقضوا عهده الذي أخذه عليهم في العمل بما فيه، وآثروا السحر الذي تلته الشياطين في ملك سليمان بن داود فاتبعوه، وذلك هو الخسار والضلال المبين.

عن السدي: قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم فأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة. فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب، فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا اسمع أحدًا يذكر أن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه! فلما مات سليمان، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف بعد ذلك خلف، تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل، فقال: هل أدلُّكم على كنز لا تأكلونه أبدًا؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي، وذهب معهم فأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فادن! قال: لا ولكني هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني! فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر، ثم طار فذهب، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحرًا، واتَّخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاءهم محمد ﷺ خاصموه بها، فذلك حين يقول: {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر[1]}.

قال ابن العثيمين: {وما كفر سليمان}: أي بتعلم السحر؛ أو تعليمه.

{ولكنَّ الشياطين كفروا}: بتشديد نون {لكنّ}، ونصب {الشياطينَ}؛ وفي قراءة سبعية بتخفيف نون {لكن} وإسكانها ثم كسرها تخلصًا من التقاء الساكنين؛ و{الشياطينُ} برفع النون؛ فعلى القراءة الأولى تكون الواو حرف عطف، و{لكنّ} حرف استدراك يعمل عمل (إن) ينصب الاسم، ويرفع الخبر، و{الشياطين} اسمها، وجملة: {كفروا} خبرها؛ وعلى قراءة التخفيف تكون الواو للعطف، و{لكن} حرف استدراك مبني على السكون حرك بالكسر لالتقاء الساكنين، و{الشياطين} مبتدأ، وجملة: {كفروا} خبر المبتدأ.

١– الأثر: في تفسير ابن كثير ١: ٢٤٩.

وقوله تعالى: {الشياطين} جمع شيطان؛ وجاءت بالجمع؛ لأن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، ويعلم بعضهم بعضًا؛ و{كفروا}: فسر هذا بقوله تعالى: {يعلمون الناس السحر}.

قال السعدي: ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضرُّه، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذلَّ لربه، ابتلي بالذلِّ للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم. وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قيله: {وما كفر سليمان}: أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه، {ولكن الشياطين كفروا} بذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٢٣٣: وَقَدْ قَالَ ﷺ: ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ([1]))) الْحَدِيثَ.

وَالْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ جَاءَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ الْقُرْآنُ عَدَلَ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَيْهِمْ إلَى أَنْ نَبَذَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَاتَّبَعَ مَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ، فَلَا يُعَظِّمُ مَنْ أَمَرَ الْقُرْآنُ بِمُوَالَاتِهِ، وَلَا يُعَادِي مَنْ أَمَرَ الْقُرْآنُ بِمُعَادَاتِهِ، بَلْ يُعَظِّمُ مَنْ رَآهُ يَأْتِي بِبَعْضِ الْخَوَارِقِ الَّتِي تَأْتِي بِمِثْلِهَا السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ بِإِعَانَةِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ، وَهِيَ تَحْصُلُ بِمَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ. ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَلَكِنْ يُعَظِّمُهُ لِهَوَاهُ وَيُفَضِّلُهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ، وَهَؤُلَاءِ كُفَّارٌ، كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: {أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}[النساء: ٥١، ٥٢]، وَهَؤُلَاءِ ضَاهَوْا الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ} - إلَى قَوْلِهِ - {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}[الْبَقَرَة: ١٠١، ١٠٢].

قال ابن العثيمين: {يعلمون الناس السحر}: و{السحر} في اللغة هو: كل شيء خفي سببه ولطف؛ ومنه قول الرسول ﷺ: ((إن من البيان لسحرًا([2])))؛ لأن البيان، وهو الفصاحة، يجذب النفوس، والأسماع حتى إن الإنسان يجد من نفسه ما يشده إلى سماع هذا البيان، والتأثر به، فيسحر الناس؛ لكن ليس هو السحر الذي ورد ذمه؛ وإنما المراد بالسحر المذموم: عقد، ورقى ينفث فيها الساحر، فيؤثر في بدن المسحور، وعقله؛ وهو أنواع: منه ما يقتل؛ ومنه ما يمرض؛ ومنه ما يزيل العقل، ويخدر الإنسان؛ ومنه ما يغير حواس المرء، بحيث يسمع ما لم يكن، أو يشاهد الساكن

١- البخاري في الاعتصام (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٦١٢٦٦٩).

٢- أخرجه البخاري ص٤٤٥، كتاب النكاح، باب ٤٨: الخطبة، حديث رقم ٥١٤٦؛ وأخرجه مسلم ص٨١٣، كتاب الجمعة، باب ١٣: تخفيف الصلاة والخطبة، حديث رقم ٢٠٠٩ [٤٧] ٨٦٩.

متحرِّكًا، أو المتحرك ساكنًا؛ ومنه ما يجلب المودة؛ ومنه ما يوجب البغضاء؛ المهم أن السحر أنواع؛ وأهله يعرفون هذه الأنواع.

وقوله: {يعلمون الناس السحر}: جملة حالية من الفاعل في {كفروا}: يعني حال كونهم يعلمون الناس السحر؛ ويجوز أن تكون استئنافية لبيان نوع كفرهم.

قال الطبري: إن قال لنا قائل: وما هذا الكلام، من قوله: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان}، ولا خبر معنا قبل عن أحد أنه أضاف الكفر إلى سليمان، بل إنما ذكر اتباع من اتبع من اليهود ما تلته الشياطين؟ فما وجه نفي الكفر عن سليمان، بعقب الخبر عن اتباع من اتبعت الشياطين في العمل بالسحر وروايته من اليهود؟

قيل: وجه ذلك، أن الذين أضاف الله جل ثناؤه إليهم اتباع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من السحر والكفر من اليهود، نسبوا ما أضافه الله تعالى ذكره إلى الشياطين من ذلك، إلى سليمان بن داود. وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته، وأنه إنما كان يستعبد من يستعبد من الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسحر. فحسنوا بذلك – من ركوبهم ما حرم الله عليهم من السحر – أنفسهم عند من كان جاهلًا بأمر الله ونهيه، وعند من كان لا علم له بما أنزل الله في ذلك من التوراة، وأنكروا أن يكون كان لله رسولًا وقالوا: بل كان ساحرًا. فبرأ الله سليمان بن داود من السحر والكفر عند من كان منهم ينسبه إلى السحر والكفر، وأكذب الآخرين الذين كانوا يعملون بالسحر متزينين عند أهل الجهل في عملهم ذلك، بأن سليمان كان يعمله، فنفى الله عن سليمان عليه السلام أن يكون كان ساحرًا أو كافرًا، وأعلمهم أنهم إنما اتبعوا – في عملهم بالسحر – ما تلته الشياطين في عهد سليمان، دون ما كان سليمان يأمرهم من طاعة الله، واتباع ما أمرهم به في كتابه الذي أنزله على موسى صلوات الله عليه.

قال ابن العثيمين: {وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت}: يعني واتبعوا أيضًا ما أنزل على الملكين؛ والجملة معطوفة على قوله: {واتبعوا ما تتلو}؛ و{الملكين} بفتح اللام تثنية ملك؛ والفرق بين (ملَك) و(ملِك): أن (الملَك) بفتح اللام واحد الملائكة؛ و(الملِك) بكسر اللام: الحاكم الذي له سلطة؛ و {بابل}، اسم لبلد في العراق؛ و{هاروت وماروت}، عطف بيان على {الملكين} لبيان اسمهما؛ وهما اسمان أعجميان؛ والمنزل عليهما شيء من أنواع السحر.

قال الطبري: أن معنى {ما} التي في قوله: {وما أنزل على الملكين}: بمعنى (الذي)، وأن {هاروت وماروت}، مترجم بهما عن الملكين، ولذلك فتحت أواخر أسمائهما، لأنهما في موضع خفض على الرد على {الملكين}. ولكنهما لما كانا لا يجران، فتحت أواخر أسمائهما.

قال ابن العثيمين: {وما يعلِّمان}: أي الملكان هاروت، وماروت، {من أحد}: أي أحدًا؛ وزيدت {من} للتوكيد.

{حتى يقولا إنما نحن فتنة}: أي اختبار للناس؛ ليتبين من يريد السحر ممن لا يريده.

{فلا تكفر}: أي بتعلم السحر، {فيتعلمون}: أي الناس، {ما يفرقون به}: أي سحرًا يفرقون به، {بين المرء وزوجه}؛ ويسمّى هذا النوع من السحر (الصرف)؛ ويقابله سحر (العطف)؛ وهو من أشد أنواع السحر؛ لأنه يصل بصاحبه إلى الهيمان، والخبل.

قال الطبري: فإن قال قائل: وكيف يفرق الساحر بين المرء وزوجه؟ قيل: أن معنى (السحر): تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته، فتفريقه بين المرء وزوجه: تخييله بسحره إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف ما هو به في حقيقته، من حسن وجمال، حتى يقبحه عنده، فينصرف بوجهه ويعرض عنه، حتى يحدث الزوج لامرأته فراقًا. فيكون الساحر مفرِّقًا بينهما بإحداثه السبب الذين كان منه فرقة ما بينهما. وأن العرب تضيف الشيء إلى مسببه من أجل تسببه، وإن لم يكن باشر فعل ما حدث عن السبب، فكذلك تفريق الساحر بسحره بين المرء وزوجه. عن قتادة: {فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه}، وتفريقهما: أن يُؤَخِّذَ كل واحد منهما عن صاحبه، ويبغض كل واحد منهما إلى صاحبه.

فإن التبس على ذي غباء ما قلنا، فقال: وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟

قيل له: إن الله جل ثناؤه عرف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه. ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم. فالسحر مما قد نهى عباده من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علّمه الملكين اللذين سمّاهما في تنزيله، وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم – كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: {إنما نحن فتنة فلا تكفر} – ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر، فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويخزي الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما. ويكون الملكان في تعليمهما من علما ذلك – لله مطيعين، إذْ كانا – عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علّماهُ – يُعَلِّمان. وقد عُبِدَ من دون الله جماعة من أولياء الله، فلم يكن ذلك لهم ضائرًا، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عبد بعضهم والمعبود عنه ناه. فكذلك الملكان، غير ضائرهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما، بعد نهيهما إياه عنه، وعظتهما له بقولهما: {إنما نحن فتنة فلا تكفر}، إذ كانا قد أدّيا ما أُمِرا به بقيلهما ذلك.

قال صالح آل الشيخ في التمهيد: وتعلُّم السحر، وفهم كيف يكون، وكيف يعمل السحر، كل هذا لا يمكن أن يكون إلا بالكفر والشرك، لكن هناك مراتب: احداها: أن يتعلم ذلك نظريًّا ولا يعمله.

والثانية: أن يتعلمه ويعمله ولو مرة، وهناك مرتبة الساحر الذي يتعلم، ويعمل به دائما فما حكم هذه المراتب؟ قال – جل وعلا – { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُر }، فدلَّ على أن تعلمه بمجرده كفر؛ ولهذا نقول: الصحيح أن تعلم السحر، ولو بدون عمل – شرك وكفر بالله – جل وعلا – بنص الآية، لأنه لا يمكن أن يتعلم السحر إلا بتعلم الشرك بالله جل وعلا، وكيف يشرك. وإذا تعلم الشرك فهو مشرك بالله جل وعلا.

وبعض العلماء كالشافعي وغيره يقولون: السحر قسمان: منه ما يكون بالاستعانة بالشياطين، فهذا كفر وشرك أكبر، ومنه ما يكون بالأدوية والتدخينات، فهذا فسق ومحرم، ولا يكفر فاعله إلا إذا استحله.

وهذا التقسيم من الشافعي، ومن تبعه هو من جهة الواقع، يعني: نظروا في الذين يمارسون ذلك، فمنهم من يقول: إنه ساحر، وليس كذلك من حيث النظر الشرعي، يعني: أنه ليس السحر الذي وصف في الشرع، فيقول هو ساحر، وهو يستخدم أدوية وتعويذات، وفي الحقيقة هو مشعوذ، ولا يصدق عليه اسم الساحر.

وهذا فيما يفعل يؤثر عن طريق الأدوية، وأما الصرف والعطف يعني: جلب محبة امرأة لزوجها، أو صرف محبة المرأة لزوجها، أو العكس فهذا من القسم الأول؛ لأنه من نواقض الإسلام، فالسحر من نواقض الإسلام؛ لأنه شرك بالله، ومنه الصرف والعطف؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى روح وقلب من يراد صرفه أو العطف إليه إلا بالشرك؛ لأن الشيطان هو الذي يؤثر على النفس، ولن يخدم الشيطان الإنسي الساحر إلا بعد أن يشرك بالله – جل وعلا –. فتحصل أن السحر بجميع أنواعه فيه استخدام للشياطين واستعانة بها، والشياطين لا تخدم إلا من تقرب إليها بالذبح، أو بالاستغاثة أو بالاستعاذة ونحو ذلك، يعني: أن يصرف إليها شيئا من أنواع العبادة، بل قد نظرت في بعض كتب السحر، فوجدت أن ساحرًا – بحسب ما وصف ذلك الكاتب – لا يصل إلى حقيقة السحر وتخدمه الجن كما ينبغي حتى يهين القرآن، ويهين المصحف، وحتى يكفر بالله، ويسب الله جل وعلا ونبيه ﷺ، وهذا قد ذكره بعض من اطلع على حقيقة الحال.

فالسحر إذًا شرك بالله تعالى، وكل ساحر مشرك، وقتل الساحر على الصحيح أنه قتل ردَّة، لا قتل تعزير.

قال ابن العثيمين: {وما هم بضارين به من أحد}: أي ما هؤلاء المتعلمون للسحر بضارين به أحدًا، {إلا بإذن الله}: أي إلا بإذنه القدري. وهو بمعنى المشيئة؛ و{من} في قوله تعالى: {من أحد} زائدة للتوكيد.

قال الطبري: وما المتعلمون من الملكين هاروت وماروت ما يفرقون به بين المرء وزوجه، بضارين – بالذي تعلموه منهما، من المعنى الذي يفرقون به بين المرء وزوجه – من أحد من الناس إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضره. فأما من دفع الله عنه ضره، وحفظه من مكروه السحر والنفث والرُّقى، فإن ذلك غير ضارّه، ولا نائله أذاه.

قال السعدي: ثم ذكر مفاسد السحر فقال: {فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه}، مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: {وجعل بينكم مودة ورحمة}، وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: {فإنه نزله على قلبك بإذن الله}، وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٣٨٣: فَإِنَّ (الْإِذْنَ) نَوْعَانِ: إذْنٌ بِمَعْنَى الْمَشِيئَةِ وَالْخَلْقِ، وَإِذْنٌ بِمَعْنَى الْإِبَاحَةِ وَالْإِجَازَةِ.

فَمِنْ الْأَوَّلِ: قَوْلُهُ فِي السِّحْرِ {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ لَمْ يُبِحْ السِّحْرَ.

وَالْقَدَرِيَّةُ تُنْكِرُ هَذَا (الْإِذْنَ). وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ: إنَّ السِّحْرَ يَضُرُّ بِدُونِ إذْنِ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ}[آل عمران: ١٦٦]، فَإِنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ مِنْ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْهَزِيمَةِ، إذَا كَانَ بِإِذْنِهِ فَهُوَ خَالِقٌ لِأَفْعَالِ الْكُفَّارِ وَلِأَفْعَالِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: قَوْلُهُ: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ}[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وَقَوْلُهُ: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}[الحشر: ٥]، فَإِنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ إبَاحَتَهُ لِذَلِكَ وَإِجَازَتَهُ لَهُ، وَرَفْعَ الْجُنَاحِ وَالْحَرَجِ عَنْ فَاعِلِهِ، مَعَ كَوْنِهِ بِمَشِيئَتِهِ وَقَضَائِهِ.

فَقَوْلُهُ: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}[البقرة: ٢٥٥]، هُوَ هَذَا الْإِذْنُ الْكَائِنُ بِقَدَرِهِ وَشَرْعِهِ. وَلَمْ يُرِدْ بِمُجَرَّدِ الْمَشِيئَةِ وَالْقَدَرِ. فَإِنَّ السِّحْرَ وَانْتِصَارَ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَانَ بِذَلِكَ الْإِذْنُ.

قال ابن العثيمين: {ويتعلمون}: أي الناس من الملكين، {ما يضرهم ولا ينفعهم}: أي ما مضرته محضة لا نفع فيها.

قال السعدي: ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: {قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}، فهذا السحر مضرَّة محضة، فليس له داع أصلًا فالمنهيات كلُّها إما مضرة محضة، أو شرُّها أكبر من خيرها. كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرِّها.

قال ابن العثيمين: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق}: الجملة مؤكَّدة بالقسم المقدر، واللام الواقعة في جوابه، و{قد}؛ و{لمن اشتراه}: اللام لام الابتداء؛ وهي معلقة للفعل {علموا} عن العمل؛ و{مَن} مبتدأ؛ وخبره جملة: {ما له في الآخرة من خلاق}: أي نصيب؛ والجملة في محل نصب سدت مسد مفعولين، {علموا}: أي علم هؤلاء المتعلمون للسحر أن من ابتغاه بتعلمه ليس له نصيب في الآخرة؛ وعلموا ذلك من قول الملكين: {إنما نحن فتنة فلا تكفر}.

قال الطبري: الفريق الذين لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، فقال جل ثناؤه: لقد علم النابذون – من يهود بني إسرائيل – كتابي وراء ظهورهم تجاهلًا منهم – التاركون العمل بما فيه من إتباعك يا محمد وإتباع ما جئت به، بعد إنزالي إليك كتابي مصدِّقًا لما معهم، وبعد إرسالك إليهم بالإقرار بما معهم وما في أيديهم، المؤثرون عليه إتباع السحر الذي تلته

الشياطين على عهد سليمان، والذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت - لمن اشترى السحر بكتابي الذي أنزلته على رسولي فآثره عليه ما له في الآخرة من خلاق.

عن قتادة: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق}، يقول: قد علم ذلك أهل الكتاب في عهد الله إليهم: أن الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة.

قال ابن زيد: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق}، قال: قد علمت اليهود أن في كتاب الله في التوراة: أن من اشترى السحر وترك دين الله، ما له في الآخرة من خلاق. فالنار مثواه ومأواه.

قال ابن العثيمين: {ولبئس ما شروا به أنفسهم}: اللام موطئة للقسم؛ والتقدير: والله لبئس ما شروا به أنفسهم؛ و {بئس}: فعل ماض لإنشاء الذم. وهو جامد.؛ ومثله: (نعم)، و(عسى)، و(ليس)؛ ويسمونها الأفعال الجامدة؛ لأنها لا تتغير عن صيغتها: فلا تكون مضارعًا، ولا أمرًا؛ و{ما}، اسم موصول؛ وهي فاعل (بئس)؛ والمخصوص بالذم محذوف؛ و{شروا}: بمعنى باعوا في اللغة العربية؛ لأن الشراء بيع؛ و(الاشتراء)، هو أخذ السلعة؛ فالمشتري طالب؛ والشاري جالب، قال الله سبحانه وتعالى: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}[البقرة: ٢٠٧]، يعني يبيعها؛ فقوله تعالى: {لبئس ما شروا به أنفسهم}: أي باعوا به أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة لما اشتروا السحر، الثمن الذي بذلوه في هذا السحر: أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة خسروا أنفسهم؛ صارت الدنيا الآن ليس لهم فيها ربح إطلاقًا؛ والآخرة ليس لهم فيها ربح أيضًا؛ فخسروا الدنيا، والآخرة.

{لو كانوا يعلمون}: جملة شرطية؛ وجوابها محذوف تقديره: ما تعلموا السحر؛ يعني: لو كانوا من ذوي العلم المنتفعين بعلمهم ما تعلموا السحر؛ وهنا ينبغي للقارئ أن يبتدئ بـ{لو}، وأن يقف على {ما شروا به أنفسهم}؛ لأن الوصل يوهم أن محل الذم في حال علمهم؛ أما في حال عدم علمهم فليس مذمومًا! وهذا خلاف المعنى المراد؛ إذ المعنى المراد: توبيخهم، حيث عملوا عمل الجاهل؛ فقوله تعالى: {لو كانوا يعلمون}، نداء عليهم بالجهل.

قال الطبري: فإن قال لنا قائل: وكيف قال جل ثناؤه: {ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون}؟ وقد قال: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق}، فكيف يكونون عالمين بأن من تعلم السحر فلا خلاق لهم، وهم يجهلون أنهم بئس ما شروا بالسحر أنفسهم؟

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي توهمته، من أنهم موصوفون بالجهل بما هم موصوفون بالعلم به. ولكن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما معنى الكلام: وما هم ضارون به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق. فقوله: {لبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون}، ذمّ من الله تعالى ذكره فعل المتعلمين من الملكين التفريق بين المرء وزوجه، وخبر منه جل ثناؤه عنهم أنهم بئس ما شروا به أنفسهم، برضاهم بالسحر عوضًا عن دينهم الذي به نجاة أنفسهم من الهلكة، جهلًا منهم بسوء عاقبة فعلهم، وخسارة صفقة بيعهم. إذ كان قد يتعلم ذلك منهما من لا يعرف الله، ولا يعرف حلاله وحرامه، وأمره ونهيه. ثم عاد إلى الفريق - الذين أخبر الله عنهم أنهم نبذوا كتابه وراء ظهورهم

كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما أنزل على الملكين – فأخبر عنهم أنهم قد علموا أن من اشترى السحر، ما له في الآخرة من خلاق؛ ووصفهم بأنهم يركبون معاصي الله على علم منهم بها، ويكفرون بالله ورسله، ويؤثرون اتباع الشياطين والعمل بما أحدثته من السحر، على العمل بكتابه ووحيه وتنزيله، عنادًا منهم، وبغيًا على رسله، وتعديًّا منهم لحدوده، على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك عند الله من العقاب والعذاب. فذلك تأويل قوله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين؛ لقوله تعالى: {واتبعوا ما تتلو الشياطين}؛ ويدل على هذا أن أحدهم وهو – لبيد بن الأعصم – سحر النبي ﷺ[1].

٢- أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله تعالى: {ما تتلو الشياطين}.

٣- أن الشياطين كانوا يأتون السحر على عهد سليمان مع قوة سلطانه عليهم؛ لقوله تعالى: {ما تتلو الشياطين على ملك سليمان}.

٤- أن سليمان لا يقر ذلك؛ لقوله تعالى: {وما كفر سليمان}؛ إذ لو أقرهم على ذلك – وحاشاه – لكان مقرًّا لهم على كفرهم.

٥- أن تعلم السحر، وتعليمه كفر؛ وظاهر الآية أنه كفر أكبر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: {ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر}، وقوله تعالى: {وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر}؛ وهذا فيما إذا كان السحر عن طريق الشياطين؛ أما إذا كان عن طريق الأدوية، والأعشاب، ونحوها ففيه خلاف بين العلماء.

واختلف العلماء رحمهم الله هل تقبل توبته، أو لا؟ والراجح أنها تقبل فيما بينه وبين الله عز وجل؛ أما قتله فيرجع فيه إلى القواعد الشرعية، وما يقتضيه اجتهاد الحاكم.

٦- أن الله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنة للناس، أي: ابتلاء، وامتحانًا؛ لقوله تعالى: {وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة}؛ فإياك إياك إذا تيسرت لك أسباب المعصية أن تفعلها؛ واذكر قصة بني إسرائيل حين حرم عليهم الصيد يوم السبت – أعني صيد البحر –؛ فلم يصبروا حتى تحيَّلوا على صيدها يوم السبت؛ فقال لهم الله تعالى: {كونوا قردة خاسئين}[البقرة: ٦٥]؛ واذكر قصة أصحاب محمد ﷺ حين ابتلاهم الله عز وجل وهم محرمون بالصيد تناله أيديهم، ورماحهم؛ فلم يقدم أحد منهم عليه حتى يتبين لك حكمة الله تبارك وتعالى في تيسير أسباب المعصية؛ ليبلو الصابر من غيره.

١- راجع البخاري ص٤٩٢، كتاب الطب، باب ٥٠: السحر، حديث رقم ٥٧٦٦؛ وصحيح مسلم ص١٠٦٦ – ١٠٦٧، كتاب السلام، باب ١٧: السحر، حديث رقم ٥٧٠٣ [٤٣] ٢١٨٩.

٧- أنه يجب على الإنسان أن ينصح للناس وإن أوجب ذلك إعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: {وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما فتنة فلا تكفر}؛ فإذا كانت عندك سلعة رديئة، وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تحذره.

٨- أن من عظم السحر أن يكون أثره التفريق بين المرء، وزوجه؛ لقوله تعالى: {فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه}؛ لأنه من أعظم الأمور المحبوبة إلى الشياطين، كما ثبت في الحديث الصحيح أن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه، ويقول: (نعم أنت)([1])؛ وفيه سحر مقابل لهذا: وهو الربط بين المرء، وزوجه؛ حتى إنه والعياذ بالله يبتلى بالهيام؛ فلا يستطيع أن يعيش ولا لحظة إلا وزوجته أمامه؛ وبعضهم يقضي عليه هذا الأمر نسأل الله العافية.

٩- أن الأسباب وإن عظمت لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله}.

١٠- أن قدرة الله عز وجل فوق الأسباب؛ وأنه مهما وجدت الأسباب والله لم يأذن فإن ذلك لا يؤثر؛ وهذا لا يوجب لنا أن لا نفعل الأسباب؛ لأن الأصل أن الأسباب مؤثرة بإذن الله.

١١- الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله دائمًا؛ لقوله تعالى: {إلا بإذن الله}؛ فإذا علمت أن كل شيء بإذن الله فإذا تلجأ إليه سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار.

١٢- أن تعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: {ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم}؛ فأثبت ضرره، ونفى نفعه.

١٣- أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق}، يعني: من نصيب؛ وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيبًا من الآخرة.

١٤- أن هؤلاء اليهود تعلموا السحر عن علم؛ لقوله تعالى: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق}.

١٥- إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل؛ فإن الكافر لما لم يجعل لله نصيبًا في دنياه لم يجعل الله له نصيبًا من الآخرة.

١٦- ذم هؤلاء اليهود بما اختاروه لأنفسهم؛ لقوله تعالى: {ولبئس ما شروا به أنفسهم}.

١٧- أن صاحب العلم الذي ينتفع بعلمه هو الذي يحذر مثل هذه الأمور؛ لقوله تعالى: {لو كانوا يعلمون} يعني: لو كانوا ذوي علم نافع ما اشتروا هذا العلم الذي يضرهم، ولا ينفعهم؛ والذي علموا: أن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

١- أخرجه مسلم ص١١٦٨، كتاب صفات المنافقين، باب ١٦: تحريش الشيطان ... ، حديث رقم ٧١٠٦ [٦٧] ٢٨١٣.

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

قال ابن العثيمين: {ولو أنهم آمنوا}: أي بقلوبهم، {واتقوا}: أي بجوارحهم؛ فالإيمان بالقلب؛ والتقوى بالجوارح؛ هذا إذا جمع بينهما؛ وإن لم يجمع بينهما صار الإيمان شاملًا للتقوى، والتقوى شاملة للإيمان؛ لقول النبي ﷺ ((التقوى هاهنا(١)))، وأشار إلى قلبه؛ والإيمان عند أهل السنة والجماعة: (التصديق مع القبول، والإذعان)؛ وإلا فليس بإيمان؛ و(التقوى) أصلها: وقوى؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في معناها؛ وإلا فبعضهم قال: (التقوى)، أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله؛ وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ وبعضهم قال في تعريف (التقوى): (خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى) (واعمل كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى) (لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى).

وقوله تعالى: {ولو أنهم}: {أن} هنا مفتوحة الهمزة؛ و(أن) من الحروف المصدرية التي تؤول، وما بعدها بمصدر فاعل لفعل محذوف؛ والتقدير: لو ثبت أنهم آمنوا، أي إيمانهم.

{لمثوبة}؛ ال{مثوبة}، و(الثواب) بمعنى الجزاء؛ وسمِّي بذلك؛ لأنه من ثاب يثوب: إذا رجع؛ لأن الجزاء كأنه عمل الإنسان رجع إليه، وعاد إليه منفعته، وثمرته.

{من عند الله}: أضافها الله إلى نفسه، وجعلها من عنده لأمرين:

الأول: أنها تكون أعظم مما يتصوره العبد؛ لأن العطاء من العظيم عظيم؛ فالعطية على حسب المعطي؛ عطية البخيل قليلة؛ وعطية الكريم كثيرة.

الثاني: اطمئنان العبد على حصولها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

{خير}: الأَولى أن نقول: هي خيرية مطلقة. خير من كل شيء؛ واللام في قوله: {لمثوبة} واقعة في جواب {لو}؛ ويوقف عند قوله: {لمثوبة من عند الله خير}؛ ولا توصل بما بعدها؛ لأنها لو وصلت به لاختل المعنى، حيث تكون مع الوصل: المثوبة خير بشرط العلم؛ والأمر ليس كذلك؛ وعلى هذا فجواب {لو كانوا يعلمون} محذوف تقديره: لآمنوا واتقوا.

قال الطبري: لو أن الذين يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه، {آمنوا} فصدقوا الله ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم، و{اتقوا} ربهم فخافوه فخافوا عقابه، فأطاعوه بأداء فرائضه وتجنبوا معاصيه – لكان جزاء الله إياهم، وثوابه لهم على إيمانهم به وتقواهم إياه، خيرًا لهم من السحر وما اكتسبوا به، {لو كانوا يعلمون} أن ثواب الله إياهم على ذلك خير لهم من السحر ومما اكتسبوا به. وإنما نفى بقوله: {لو كانوا يعلمون} العلم عنهم: أن

١- أخرجه مسلم ص١١٢٧، كتاب البر والصلة، باب ١٠: تحريم ظلم المسلم وخذله ... ، حديث رقم ٦٥٤١ [٣٢] ٢٥٦٤.

يكونوا عالمين بمبلغ ثواب الله، وقدر جزائه على طاعته. عن الربيع: {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير}، يقول: لثواب من عند الله.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٤ص٢٧٩: وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ السَّاحِرِ: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} - إلَى قَوْلِهِ - {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّاحِرَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ. وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ بَعْضَ أَغْرَاضِهِمْ فِي الدُّنْيَا، {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، آمَنُوا وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرْكِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ لَكَانَ مَا يَأْتِيهِمْ بِهِ عَلَى ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَحْصُلُ لَهُمْ بِالسِّحْرِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- سعة حلم الله، حيث يعرض عليهم الإيمان، والتقوى؛ لقوله تعالى: {ولو أنهم آمنوا واتقوا}: يعني فيما مضى، وفيما يستقبل؛ وهذه من سنته سبحانه وتعالى أن يعرض التوبة على المذنبين؛ انظر إلى قوله تعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق}[البروج: ١٠]: يحرقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة؛ لقوله تعالى: {ثم لم يتوبوا.. }.

٢- أن الإيمان ينال به ثواب الله؛ لقوله تعالى: {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير.. }.

٣- أن ثواب الله خير لمن آمن واتقى من الدنيا؛ لقوله تعالى: {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير}: أي خير من كل شيء؛ قال رسول الله ﷺ: ((لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها[١])).

٤- ومن قوله تعالى عن الناصحين لمن تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون: {ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا}[القصص: ٨٠]، أن التقوى هي العمل الصالح.

٥- أن فعل هؤلاء اليهود، واختيارهم لما فيه الكفر من تعلم السحر فعل الجاهل؛ لقوله تعالى: {لو كانوا يعلمون}.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا}: تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في

١- أخرجه أحمد ٥/٣٣٠، حديث رقم ٢٣١٨٣؛ وأخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧٣: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم (٢٨٩٢).

الإيمان؛ قال ابن مسعود ﵁: (إذا سمعت الله يقول: {يا أيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك. يعني استمع لها.؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١]).

وهذه الآية من النهي: {لا تقولوا راعنا}: يعني لا تقولوا عند مخاطبة النبي ﷺ راعنا؛ و{راعنا}، من المراعاة؛ وهي العناية بالشيء، والمحافظة عليه؛ وكان الصحابة إذا أرادوا أن يتكلموا مع الرسول ﷺ قالوا: (يا رسول الله، راعنا)؛ وكان اليهود يقولون: (يا محمد، راعنا)؛ لكن اليهود يريدون بها معنى سيِّئًا؛ يريدون (راعنا)، اسم فاعل من الرعونة؛ يعني أن الرسول ﷺ راعن؛ ومعنى (الرعونة): الحمق، والهوج؛ لكن لما كان اللفظ واحدًا وهو محتمل للمعنيين نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوه تأدُّبًا، وابتعادًا عن سوء الظن؛ ولأن من الناس من يتظاهر بالإيمان. مثل المنافقين. فربما يقول: (راعنا) وهو يريد ما أرادت اليهود؛ فلهذا نهي المسلمون عن ذلك.

قال ابن كثير: وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَانُون مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ تَوْرِيَةٌ لِمَا يَقْصِدُونَهُ مِنَ التَّنْقِيصِ –عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ– فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا: اسْمَعْ لَنَا يَقُولُونَ: رَاعِنَا. يُورُونَ بِالرُّعُونَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا}[النِّسَاءِ: ٤٦]، وَكَذَلِكَ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ بِالْإِخْبَارِ عَنْهُمْ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَلَّموا إِنَّمَا يَقُولُونَ: السامُ عَلَيْكُمْ.[٢]وَالسَّامُ هُوَ: الْمَوْتُ. وَلِهَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَرُدَّ عَلَيْهِم بِ(وَعَلَيْكُمْ). وَإِنَّمَا يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا.

وَالْغَرَضُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا. فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}. عَنِ ابْنِ عُمَرَ، ﵄، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةَ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يُعبد اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ والصَّغارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ[٣])). فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى النَّهْيِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، عَلَى التَّشَبُّهِ بِالْكُفَّارِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلِبَاسِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ، وَعِبَادَاتِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمُ التي لم تشرع لنا ولا نُقَرّ عَلَيْهَا.

قال السعدي: فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة، سدًّا لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز، إذا كان وسيلة إلى محرَّم، وفيه الأدب، واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي

١- أخرجه ابن أبي حاتم في كتاب التفسير ١/١٩٦، تحقيق أسعد أحمد الطيب، وسنده: قال ابن أبي حاتم: ثنا أبي نعيم بن حماد ثنا عبد الله بن المبارك ثنا مسعر ثنا معن وأبو عون أو أحدهما أن رجلًا أتى عبد الله بن مسعود ...، ونعيم بن حماد قال الحافظ فيه: صدوق يخطئ كثيرًا، وقد تتبع ابن عدي ما أخطأ فيه وقال: أرجو أن يكون باقي حديثه مستقيما، الكامل لابن عدي ٨/٢٥١ - ٢٥٦، ولم يذكر ابن عدي هذا الأثر ومعن هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، ت. التهذيب، وأبو عون، كما في التهذيب هو أبو عون الثقفي محمد بن عبيد الله الأعور؛ وكلاهما ثقة، لكن معن بن عبد الرحمن لم يدرك عبد اله بن مسعود، لأن الحافظ عده من الطبقة السابعة، وأما أبو عون فإنه مات سنة ١١٠ هجريا، وعبد الله بن مسعود مات سنة ٣٣هـ، ت. التهذيب [٩/٢٨٥، ٦/٢٥] ، فيبعد أن يكون قد أدرك ابن مسعود، فيكون حديث معن وأبي عون عن ابن مسعود مرسلا.

٢- صحيح: البخاري (٢٩٣٥)، مسلم (٢١٦٥).

٣- صحيح: صحيح الجامع (٢٨٣١) للألباني رحمه اللّه.

فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن فقال: {وقولوا انظرنا} فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين ج٣ص١١٠: نَهَاهُمْ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ – مَعَ قَصْدِهِمْ بِهَا الْخَيْرَ – لِئَلَّا يَكُونَ قَوْلُهُمْ ذَرِيعَةً إلَى التَّشَبُّهِ بِالْيَهُودِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَخِطَابِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُخَاطِبُونَ بِهَا النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيَقْصِدُونَ بِهَا السَّبَّ، وَيَقْصِدُونَ فَاعِلًا مِنْ الرُّعُونَةِ، فَنَهَى الْمُسْلِمُونَ عَنْ قَوْلِهَا؛ سَدًّا لِذَرِيعَةِ الْمُشَابَهَةِ، وَلِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إلَى أَنْ يَقُولَهَا الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تَشَبُّهًا بِالْمُسْلِمِينَ يَقْصِدُونَ بِهَا غَيْرَ مَا يَقْصِدُهُ الْمُسْلِمُونَ.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص١٩٨: فنهاهم على قول {رَاعِنَا} لاستعمال اليهود لها بمعنى الرعونة الإيذاء، ووجَهَهُم إلى غيرها مع أنها تحتمل أن تكون من المراعاة، فقال: {لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا}، فأبدلهم بكلمة لا إشكال فيها ولا شبهة ولا يشتركون فيها مع من يحرفون الكلم عن مواضعه.

قال ابن العثيمين في القول المفيد: وهكذا ينبغي لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدّوا على الناس بابًا محرَّمًا أن يفتحوا لهم الباب المباح حتى لا يضيقوا على الناس ويسدوا الطرق أمامهم، لأن في ذلك فائدتين عظيمتين:

الأولى: تسهيل ترك المحرَّم على هؤلاء، لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلًا عنه هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامي فيه سعة، وأن كل ما يحتاج إليه الناس، فإن الدين الإسلامي يسعه، فلا يحكم على الناس أن يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئًا إلا وفتح لهم ما يغني عنه، وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

قال القرطبي: فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلَانِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى تَجَنُّبِ الْأَلْفَاظِ الْمُحْتَمَلَةِ الَّتِي فِيهَا التَّعْرِيضُ لِلتَّنْقِيصِ وَالْغَضِّ، وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا فَهْمُ الْقَذْفِ بِالتَّعْرِيضِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الْحَدَّ عِنْدَنَا خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِمَا حِينَ قَالُوا: التَّعْرِيضُ مُحْتَمِلٌ لِلْقَذْفِ وَغَيْرِهِ، وَالْحَدُّ مِمَّا يَسْقُطُ بِالشُّبْهَةِ. وَسَيَأْتِي فِي [سورة النُّورِ] بَيَانُ هَذَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الدَّلِيلُ الثَّانِي– التَّمَسُّكُ بِسَدِ الذَّرَائِعِ وَحِمَايَتِهَا وَهُوَ مذهب مالك وأصحابه وأحمد ابن حَنْبَلٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. وَالذَّرِيعَةُ عِبَارَةٌ عَنْ أمر غَيْرِ مَمْنُوعٍ لِنَفْسِهِ يُخَافُ مِنَ ارْتِكَابِهِ الْوُقُوعُ فِي مَمْنُوعٍ. أَمَّا الْكِتَابُ فَهَذِهِ الْآيَةُ، وَوَجْهُ التَّمَسُّكِ بِهَا أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ وَهِيَ سَبٌّ بِلُغَتِهِمْ، فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَنَعَ مِنْ إِطْلَاقِ ذَلِكَ اللَّفْظِ، لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ لِلسَّبِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ}، فَمَنَعَ مِنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ مَخَافَةَ مقابلتهم بمثل ذلك، وقوله تعالى: {وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ} الْآيَةَ، فَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الصَّيْدَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ شُرَّعًا، أَيْ ظَاهِرَةً، فَسَدُّوا عَلَيْهَا يَوْمَ السَّبْتِ وَأَخَذُوهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَكَانَ السَّدُّ ذَرِيعَةً لِلِاصْطِيَادِ، فَمَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وَذَكَرَ اللَّهُ لَنَا ذَلِكَ فِي مَعْنَى التَّحْذِيرِ عَنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِآدَمَ وَحَوَّاءَ: {وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ}، وَقَدْ تَقَدَّمَ. وَأَمَّا السُّنَّةُ فَأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ ثَابِتَةٌ صَحِيحَةٌ، مِنْهَا حَدِيثُ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنهنّ ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة

فيها تصاوير فَذَكَرَتَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ(١))). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. قَالَ عُلَمَاؤُنَا: فَفَعَلَ ذَلِكَ أَوَائِلُهُمْ لِيَتَأَنَّسُوا بِرُؤْيَةِ تِلْكَ الصُّوَرِ وَيَتَذَكَّرُوا أَحْوَالَهُمُ الصَّالِحَةَ فَيَجْتَهِدُونَ كَاجْتِهَادِهِمْ وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ قُبُورِهِمْ، فَمَضَتْ لَهُمْ بِذَلِكَ أَزْمَانٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ جهلُوا أَغْرَاضَهُمْ، وَوَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ آبَاءَكُمْ وَأَجْدَادَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الصُّورَةَ فَعَبَدُوهَا، فَحَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَشَدَّدَ النَّكِيرَ وَالْوَعِيدَ عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَسَدَّ الذَّرَائِعَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ(٢))). وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ(٣))) الْحَدِيثَ، فَمَنَعَ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى الشُّبُهَاتِ مَخَافَةَ الْوُقُوعِ فِي الْمُحَرَّمَاتِ، وَذَلِكَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ.

١- (قلت): البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٦٢).

٣- (قلت): البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩). والحديث بتمامه عند مسلم: عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: - وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ - ((إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه)): أي مدهما إليهما ليأخذهما إشارة إلى استيقانه بالسمع، ((إن الحلال بين والحرام بين))، أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام. قال جماعة: هو ثلث الإسلام وإن الإسلام يدور عليه وعلى حديث الأعمال بالنية وحديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وقال أبو داود السجستاني: يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وقيل: حديث ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس. قال العلماء: وسبب عظم موقعه أنه ﷺ نبه فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرها وأنه ينبغي أن يكون حلالا وأرشد إلى معرفة الحلال وأنه ينبغي ترك المشتبهات فإنه سبب لحماية دينه وعرضه وحذر من مواقعة الشبهات وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب فقال ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة الخ)) فبين ﷺ أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد وبفساده يفسد باقيه.

وأما قوله ﷺ: ((الحلال بين والحرام بين))، فمعناه أن الأشياء ثلاثة أقسام حلال بين واضح لا يخفى حله كالخبز والفواكه والزيت والعسل والسمن ولبن مأكول اللحم وبيضة وغير ذلك من المطعومات، وكذلك الكلام والنظر والمشي وغير ذلك من التصرفات، فيها حلال بين واضح لا شك في حله، وأما الحرام البين فكالخمر والخنزير والميتة والبول والدم المسفوح، وكذلك الزنى والكذب والغيبة والنميمة والنظر إلى الأجنبية وأشباه ذلك، وأما المشتبهات فمعناها أنها ليست بواضحة الحل ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يدركون حكمها، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك، فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة ولم يكن فيه نص ولا إجماع، اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا الحقه به صار حلالا، وقد يكون دليله غير خال من الإحتمال البين فيكون الورع تركه، ويكون داخلا في قوله ﷺ فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ((استبرأ لدينه وعرضه)): أي حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي وصان عرضه عن كلام الناس فيه، ((ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه)): معناه أن ملوك العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفا من الوقوع فيه، ولله تعالى أيضًا حمى وهي محارمه، أي المعاصي التي حرمها الله كالقتل والزنى والسرقة والقذف والخمر والكذب والغيبة والنميمة وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حمى الله تعالى من دخله بارتكابه شيئا من المعاصي استحق العقوبة، ومن قاربه يوشك أن يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه ولم يتعلق بشيء يقربه من المعصية فلا يدخل في شيء من الشبهات، ((ألا وإن في الجسد مضغة))، قال أهل اللغة: يقال صلح الشيء وفسد، بفتح اللام والشين وضمهما، والفتح أفصح وأشهر والمضغة القطعة من اللحم، سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها، قالوا: المراد تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب.

قال ابن العثيمين: {وقولوا انظرنا} يعني إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: {راعنا} ولكن قولوا: {انظرنا}: فعل طلب؛ و(النظر) هنا بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام} [البقرة: ٢١٠]: أي ما ينتظر هؤلاء.

{واسمعوا}: فعل أمر من السمع بمعنى الاستجابة؛ أي اسمعوا سماع استجابة، وقبول، كما قال تعالى: {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون}[الأنفال: ٢١]: يعني اسمعوا ما تؤمرون به فافعلوه، وما تنهون عنه فاتركوه.

قال السعدي: لم يذكر المسموع، ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة، لفظًا ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع.

قال ابن العثيمين: {وللكافرين عذاب أليم}؛ المراد بـ{الكافرين} هنا اليهود؛ و{عذاب}، بمعنى عقوبة؛ و{أليم}، بمعنى مؤلم.

قال الطبري: فمعنى الآية إذًا: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لنبيكم: راعنا سمعك وفرغه لنا نفهمك وتفهم عنا ما نقول. ولكن قولوا: انتظرنا وترقبنا حتى نفهم عنك ما تعلمنا وتبينه لنا. واسمعوا منه ما يقول لكم، فعوه واحفظوه وافهموه. ثم أخبرهم جل ثناؤه أن لمن جحد منهم ومن غيرهم آياته، وخالف أمره ونهيه، وكذب رسوله، العذاب الموجع في الآخرة، فقال: وللكافرين بي وبرسولي عذاب أليم. يعني بقوله: {الأليم}، الموجع.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه ينبغي استعمال الأدب في الألفاظ؛ يعني أن يتجنب الألفاظ التي توهم سبًّا، وشتمًا؛ لقوله تعالى: {لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ... }.

٢- أن الإيمان مقتض لكل الأخلاق الفاضلة؛ لأن مراعاة الأدب في اللفظ من الأخلاق الفاضلة.

٣- أن مراعاة الأخلاق الفاضلة من الإيمان.

٤- أنه ينبغي لمن نهى عن شيء أن يدل الناس على بدله المباح؛ فلا ينهاهم، ويجعلهم في حيرة.

٥- وجوب الانقياد لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: {واسمعوا}.

٦- التحذير من مخالفة أمر الله، وأنها من أعمال الكافرين؛ لقوله تعالى: {وللكافرين عذاب أليم}.

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

قال ابن العثيمين: {ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين}؛ {ما} نافية؛ و{يودُّ} بمعنى يحب؛ و (الود) خالص المحبة؛ و{من} هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ وعليه يصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار؛ {ولا المشركين} معطوفة على قوله تعالى: {من أهل الكتاب}: يعني ما يودُّ الذين كفروا من هؤلاء، ولا هؤلاء؛ ولهذا قال تعالى: {ولا المشركين}؛ لأنها لو كانت معطوفة على {الذين كفروا} لكانت بالرفع؛ فعلى هذا تكون {من} لبيان الجنس؛ أي الذين كفروا من هذا الصنف. الذين هم أهل الكتاب؛ وكذلك من المشركين.

قال أبو زهرة: وقدَّم سبحانه وتعالى أهل الكتاب على المشركين، لأنَّ الكلام كان في أهل الكتاب؛ ولأنهم أشدُّ جحودًا وإعناتًا؛ ولأن الجحود منهم وهم أهل كتاب أشدُّ من جحود غيرهم الذين لم يؤتوا كتابًا، فالجهل قد يكون عذرًا أحيانًا، وإن لم يكن هنا عذرًا. وإن سبب كراهية أن ينزل عليكم خير من ربكم يختلف عند المشركين عنه عند اليهود، فهو عند المشركين كفر للوحدانية، وخوف الرياسة، والتنافس بين العشائر، وأما عند اليهود، فهو كراهية أن تكون الرسل في ولد إسماعيل، وهم في طبيعتهم الحسد، يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وموضع الكراهية أن ينزل عليهم أي خير من ربهم، وتنزيل الخير من رب الوجود هو الرسالة، كان المشركون الذين عاندوا النبي ﷺ ينافسون على عشيرته بني هاشم، ولقد قال أبو جهل في سبب كفره: (تنازعنا وبني عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى تجاثينا على الركب، وصرنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي فأنّى يكون ذلك؟ والله لا نؤمن به). واليهود قد علمنا أنهم كانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

قال ابن العثيمين: {أن ينزل عليكم من خير من ربكم}: {أن ينزل} مفعول {يودُّ}: يعني ما يودون تنزيل خير.

وقوله تعالى: {من خير}: {من} زائدة إعرابًا؛ وال{خير} هنا يشمل خير الدنيا، والآخرة، القليل والكثير؛ لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا؛ لأنهم ما يودون أن ينزل علينا أي خير؛ ولو تمكنوا أن يمنعوا العلم النافع عنا لفعلوا؛ وهذا ليس خاصًّا بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول ﷺ؛ بل هو عام؛ ولهذا جاء بصيغة المضارع: {ما يودّ}؛ وهو دالٌّ على الاستمرار.

وقوله تعالى: {ينزّل} بتشديد الزاي؛ وفي قراءة بدون تشديد؛ والفرق بينهما أن (التنزيل): هو إنزاله شيئًا فشيئًا؛ وأمّا (الإنزال): فهو إنزاله جملة واحدة؛ هذا هو الأصل؛ فهم لا يودون هذا، ولا هذا: لا أن ينزل علينا الخير جملة واحدة؛ ولا أن ينزل شيئًا فشيئًا.

قال الطبري: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزله عليكم. فتمنّى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته. وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، باطّلاعه جل ثناؤه إيّاهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون.

قال ابن العثيمين: {والله يختص برحمته من يشاء}؛ {يختص}، تستعمل لازمة، ومتعدية؛ فإن كانت لازمة فإن {من} فاعل {يختص}؛ والمعنى على هذا: ينفرد برحمته من يشاء؛ كما تقول: اختصصت بهذا الشيء: أي انفردت به؛ وإن كانت متعدية فهي بمعنى: يخص برحمته من يشاء؛ وعلى هذا فتكون {من} مفعولًا به لـ{يختص}؛ وعلى كلا الوجهين المعنى واحد، أي أن الله عز وجل يخص برحمته من يشاء؛ فيختصّ بها.

وقوله تعالى: {برحمته}: يشمل رحمة الدين، والدنيا؛ ومن ذلك رحمة الله بإنزال هذا الوحي على محمد ﷺ؛ لأن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ هو من رحمة الله عليه، وعلينا، كما قال تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله تعالى: {من يشاء} هذا مقرون بالحكمة؛ يعني اختصاصه بالرحمة لمن يشاء مبني على حكمته سبحانه وتعالى؛ فمن اقتضت حكمته ألّا يختصه بالرحمة لم يرحمه.

قال الطبري: والله يختصُّ من يشاء بنبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيتفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له. و(اختصاصه) إيّاهم بها، إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه. وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه، وهدايته من هدى من عباده، رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه. وكل ذلك رحمة من الله له.

قال ابن العثيمين: {والله ذو الفضل}: أي ذو العطاء الزائد عما تتعلق به الضرورة؛ و{العظيم}: أي الواسع الكثير الكبير؛ فالعظم هنا يعود إلى الكمية، وإلى الكيفية.

قال الطبري: {والله ذو الفضل العظيم}: فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده ابتداء وتفضُّلًا منه عليهم، من غير استحقاق منهم ذلك عليه.

وفي قوله: {والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}، تعريض من الله تعالى ذكره بأهل الكتاب: أن الذي آتى نبيه محمدًا ﷺ والمؤمنين به من الهداية، تفضل منه، وأن نِعَمه لا تدرك بالأماني، ولكنها مواهب منه يختصُّ بها من يشاء من خلقه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان عداوة غير المسلمين للمسلمين؛ لأنه تعالى ذكر صنفين ينتظمان جميع الأصناف: أهل الكتاب.

وهم اليهود والنصارى والمشركين؛ وهم كل أصحاب الأوثان؛ فكل هؤلاء أعداء للمسلمين؛ لأنهم لا يودُّون الخير للمسلمين.

٢- أنه يجب علينا أن نحذر من كل تصرف يصدر عن اليهود، والنصارى، والمشركين، ونتخذهم أعداء، وأن نعلم أنهم بجميع تصرفاتهم يحاولون أن يمنعوا الخير عن المسلمين.

٣- أن هؤلاء الكفار يودون أن يمنعوا عن المسلمين التقدم.

٤- أنه يحرم على المسلمين أن يولُّوا هؤلاء الكفار أي قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأي خير مهما كان الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذًا فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائمًا على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذلّ، وضعف الشخصية، والخور، والجبن؛ ولهذا قال تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}؛ وهي شاملة لخير الدنيا، والآخرة؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد ﷺ، ونزل عليهم هذا الكتاب.

٥- أن خير الله لا يجلبه ودّ واد، ولا يرده كراهة كاره؛ لقوله تعالى: {والله يختص برحمته من يشاء}؛ فلا يمكن لهؤلاء اليهود، والنصارى، والمشركين أن يمنعوا فضل الله علينا؛ وعلى هذا جاء الحديث الصحيح: ((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك؛ ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك([١]))).

٦- أن الإنسان الذي لا يودُّ الخير للمسلمين فيه شبه باليهود، والنصارى؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

٧- إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: {من يشاء}؛ ومشيئته تعالى عامة في كل شيء سواء كان من أفعاله، أو من أفعال عباده؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله ما فعلوه}[الأنعام: ١٣٧]، وقوله تعالى: {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين}[التكوير: ٢٩]؛ وأما ما يتعلق بأفعاله تعالى فالأمثلة عليه كثيرة، كقوله تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس

١- أخرجه أحمد ٢٩٣/١، حديث رقم ٢٦٦٩؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٠٤ - ١٩٠٥، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩: حديث حنظلة، حديث رقم ٢٥١٦، وفي سنده قيس بن الحجاج، قال الحافظ في التقريب: صدوق، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٣٠٨/٢ - ٣٠٩، حديث رقم ٢٠٤٣.

هداها}[السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: {إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد}[فاطر: ١٦]، وقوله تعالى: {والله يفعل ما يشاء}، وغير ذلك من الآية.

٨- إثبات الرحمة لله؛ لقوله تعالى: {برحمته}.

٩- إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: {يختص}؛ لأن التخصيص يدل على الإرادة.

١٠- إثبات الفضل لله؛ لقوله تعالى: {ذو الفضل العظيم}.

١١- إثبات أن فضله ليس كفضل غيره؛ ففضل غيره محدود؛ وأما فضل الله ففضل عظيم لا حدود له؛ فإن الله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم؛ ومن فضله تبارك وتعالى أنه خص هذه الأمة بخصائص عظيمة كثيرة ما جعلها لأحد سواها؛ منها ما جاء في حديث جابر في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: ((أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصِّرت بالرعب مسيرة شهر؛ وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ؛ وأحلَّت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي؛ وأعطيت الشفاعة؛ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة([1])).

(تنبيه)

لا يعارض هذه الآية قوله تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون}[المائدة: ٨٢]؛ لأن هذه الآية في صنف معين من النصارى: وهم الذين منهم القسيسون، والرهبان الذين من صفاتهم أنهم لا يستكبرون؛ فإذا وجد هذا الصنف في عهد الرسول، أو بعده انطبقت عليه الآية؛ لكن اختلفت حال النصارى منذ زمن بعيد؛ نسأل الله أن يعيد للمسلمين عزتهم وكرامتهم، حتى يعرفوا حقيقة عداوة النصارى، وغيرهم من أهل الكفر، فيعدوا لهم العدة.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)

قال ابن العثيمين: {ما ننسخ من آية أو ننسها}، فيها ثلاث قراءات؛ الأولى: بفتح النون الأولى في {ننسخ}؛ وضمها في {ننسها} بدون همز؛ والثانية: بفتح النون الأولى في {ننسخ}؛ وفتحها في {ننسأها} مع الهمز؛ والثالثة بضم النون الأولى في {ننسخ} ؛ وضمها في {ننسها} بدون همز.

١- أخرجه البخاري ص٢٩، كتاب التيمم، باب ١، حديث رقم ٣٣٥، وأخرجه مسلم ص٧٥٩، كتاب المساجد مواضع الصلاة، باب ١: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١١٦٢ [٢] ٥٢٠.

قوله تعالى: {ما ننسخ من آية ... }؛ {ما}: شرطية؛ وهي اسم شرط جازم يجزم فعلين؛ الأول: فعل الشرط: {ننسخ} والثاني: جوابه: {نأت}؛ وأما قوله تعالى: {أو ننسها} فهي معطوفة على {ننسخ}.

وقوله تعالى: {ننسخ من آية أو ننسها} بضمير الجمع للتعظيم؛ وليس للتعدد؛ لأن الله واحد؛ و(النسخ): معناه في اللغة: الإزالة؛ أو ما يشبه النقل؛ فالأول كقولهم: (نسخت الشمس الظل) يعني أزالته؛ والثاني كقولهم: (نسخت الكتاب)؛ إذ ناسخ الكتاب لم يزله، ولم ينقله؛ وإنما نقش حروفه، وكلماته؛ لأنه لو كان (نسخ الكتاب) يعني نقله، كان إذا نسخته انمحت حروفه من الأول؛ وليس الأمر كذلك؛ أما في الشرع: فإنه رفع حكم دليل شرعي، أو لفظه، بدليل شرعي؛ و{من} لبيان الجنس؛ لأن {ما} اسم شرط جازم مبهم؛ والمراد بال{آية}: الآية الشرعية؛ لأنها محل النسخ الذي به الأمر والنهي دون الآية الكونية.

قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: {ما ننسخ من آية}: ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره. وذلك أن يحول الحلال حرامًا، والحرام حلالًا والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ.

قال القرطبي: هذه الآية فيها مسائل:

الأولى: مَعْرِفَةُ هَذَا الْبَابِ أَكِيدَةٌ وَفَائِدَتُهُ عَظِيمَةٌ، لَا يَسْتَغْنِي عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يُنْكِرُهُ إِلَّا الْجَهَلَةُ الْأَغْبِيَاءُ، لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّوَازِلِ فِي الْأَحْكَامِ، وَمَعْرِفَةِ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ. رَوَى أَبُو الْبَخْتَرِيِّ قَالَ: دَخَلَ عَلِيٌّ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَجُلٌ يُخَوِّفُ النَّاسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: رَجُلٌ يُذَكِّرُ النَّاسَ، فَقَالَ: لَيْسَ بِرَجُلٍ يُذَكِّرُ النَّاسَ! لَكِنَّهُ يَقُولُ أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ فَاعْرِفُونِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَتَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟! فَقَالَ: لَا، قَالَ: فَاخْرُجْ مِنْ مَسْجِدِنَا وَلَا تُذَكِّرْ فِيهِ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: أَعَلِمْتَ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ!. وَمِثْلُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الثانية: النَّسْخُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا – النَّقْلُ، كَنَقْلِ كِتَابٍ مِنْ آخَرَ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مَنْسُوخًا، أَعْنِي مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَإِنْزَالِهِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهَذَا لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}: أَيْ نَأْمُرُ بِنَسْخِهِ وَإِثْبَاتِهِ. الثَّانِي: الْإِبْطَالُ وَالْإِزَالَةُ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ هُنَا، وَهُوَ مُنْقَسِمٌ فِي اللُّغَةِ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِبْطَالُ الشَّيْءِ وَزَوَالُهُ وَإِقَامَةُ آخَرَ مَقَامَهُ، وَمِنْهُ نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ إِذَا أَذْهَبَتْهُ وَحَلَّتْ مَحَلَّهُ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا}. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ((لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ([1]))، أَيْ تَحَوَّلَتْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، يَعْنِي أَمْرَ الْأُمَّةِ. قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: النَّسْخُ نَسْخُ الْكِتَابِ، وَالنَّسْخُ أَنْ تُزِيلَ أَمْرًا كَانَ مِنْ قَبْلُ يُعْمَلُ بِهِ ثُمَّ تَنْسَخَهُ بِحَادِثٍ غَيْرِهِ، كَالْآيَةِ تَنْزِلُ بِأمر ثم ينسخ بأخرى. وكل شي خَلَفَ شَيْئًا فَقَدِ

١- (قلت): مسلم (٢٩٦٧).

انْتَسَخَهُ، يُقَالُ: انْتَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ، وَالشَّيْبُ الشَّبَابُ. وَتَنَاسَخَ الْوَرَثَةُ: أَنْ تَمُوتَ وَرَثَةٌ بَعْدَ وَرَثَةٍ وَأَصْلُ الْمِيرَاثِ قَائِمٌ لَمْ يُقْسَمْ، وَكَذَلِكَ تَنَاسُخُ الْأَزْمِنَةِ وَالْقُرُونِ.

الثَّانِي: إِزَالَةُ الشَّيْءِ دُونَ أَنْ يَقُومَ آخَرُ مَقَامَهُ، كَقَوْلِهِمْ: نَسَخَتِ الرِّيحُ الْأَثَرَ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}: أَيْ يُزِيلُهُ فَلَا يُتْلَى وَلَا يُثْبَتُ فِي الْمُصْحَفِ بدله.

الثالثة: أَنْكَرَتْ طَوَائِفُ مِنَ الْمُنْتَمِينَ لِلْإِسْلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ جَوَازَهُ، وَهُمْ محجو جون بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ السَّابِقِ عَلَى وُقُوعِهِ فِي الشَّرِيعَةِ. وَأَنْكَرَتْهُ أَيْضًا طَوَائِفُ مِنَ الْيَهُودِ، وَهُمْ محجو جون بِمَا جَاءَ فِي تَوْرَاتِهِمْ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّفِينَةِ: إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ كُلَّ دَابَّةٍ مَأْكَلًا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، وَأَطْلَقْتُ ذَلِكَ لَكُمْ كَنَبَاتِ الْعُشْبِ، ما خلا الدم فلا تأكلوه. ثم قد حَرَّمَ عَلَى مُوسَى وَعَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَثِيرًا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَبِمَا كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُزَوِّجُ الْأَخَ مِنَ الْأُخْتِ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَى غَيْرِهِ، وَبِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ أُمِرَ بِذَبْحِ ابْنِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: لَا تَذْبَحْهُ، وَبِأَنَّ مُوسَى أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقْتُلُوا مَنْ عَبَدَ مِنْهُمُ الْعِجْلَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِرَفْعِ السَّيْفِ عَنْهُمْ، وَبِأَنَّ نُبُوَّتَهُ غَيْرُ مُتَعَبَّدٍ بِهَا قَبْلَ بَعْثِهِ، ثُمَّ تُعُبِّدَ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَدَاءِ بَلْ هُوَ نَقْلُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةٍ إِلَى عِبَادَةٍ، وَحُكْمٍ إِلَى حُكْمٍ، لِضَرْبٍ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، إِظْهَارًا لِحِكْمَتِهِ وكمال مملكته. ولا خِلَافَ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ أَنَّ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ قُصِدَ بِهَا مَصَالِحُ الْخَلْقِ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ، وَإِنَّمَا كَانَ يَلْزَمُ الْبَدَاءُ لَوْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِمَآلِ الْأُمُورِ، وَأَمَّا الْعَالِمُ بِذَلِكَ فَإِنَّمَا تَتَبَدَّلُ خِطَابَاتُهُ بِحَسَبِ تَبَدُّلِ الْمَصَالِحِ، كَالطَّبِيبِ الْمُرَاعِي أَحْوَالَ الْعَلِيلِ، فَرَاعَى ذَلِكَ فِي خَلِيقَتِهِ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَخِطَابُهُ يَتَبَدَّلُ، وَعِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ لَا تَتَغَيَّرُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَالٌ فِي جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَجَعَلَتِ الْيَهُودُ النَّسْخَ وَالْبَدَاءَ شَيْئًا وَاحِدًا، وَلِذَلِكَ لَمْ يُجَوِّزُوهُ فَضَلُّوا. قَالَ النَّحَّاسُ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّسْخِ وَالْبَدَاءِ أَنَّ النَّسْخَ تَحْوِيلُ العبادة من شيء إلى شيء قَدْ كَانَ حَلَالًا فَيُحَرَّمُ، أَوْ كَانَ حَرَامًا فَيُحَلَّلُ. وَأَمَّا الْبَدَاءُ فَهُوَ تَرْكُ مَا عُزِمَ عَلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: امْضِ إِلَى فُلَانٍ الْيَوْمَ، ثُمَّ تَقُولُ لَا تَمْضِ إِلَيْهِ، فَيَبْدُو لَكَ الْعُدُولُ عَنِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا يَلْحَقُ الْبَشَرَ لِنُقْصَانِهِمْ. وَكَذَلِكَ إِنْ قُلْتَ: ازْرَعْ كَذَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ، ثُمَّ قُلْتَ: لَا تَفْعَلْ، فَهُوَ الْبَدَاءُ.

الرابعة: اعْلَمْ أَنَّ النَّاسِخَ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَيُسَمَّى الْخِطَابُ الشَّرْعِيُّ نَاسِخًا تَجَوُّزًا، إِذْ بِهِ يَقَعُ النَّسْخُ، كَمَا قَدْ يُتَجَوَّزُ فَيُسَمَّى الْمَحْكُومُ فِيهِ نَاسِخًا، فَيُقَالُ: صَوْمُ رَمَضَانَ نَاسِخٌ لِصَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَالْمَنْسُوخُ هُوَ الْمُزَالُ، وَالْمَنْسُوخُ عَنْهُ هُوَ الْمُتَعَبِّدُ بِالْعِبَادَةِ الْمُزَالَةِ، وَهُوَ الْمُكَلَّفُ.

الخامسة: اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ أَئِمَّتِنَا فِي حَدِّ النَّاسِخِ، فَالَّذِي عَلَيْهِ الْحُذَّاقُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ إِزَالَةُ مَا قَدِ اسْتَقَرَّ مِنَ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِخِطَابٍ وَارِدٍ مُتَرَاخِيًا، هَكَذَا حَدَّهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ، وَزَادَا: لَوْلَاهُ لَكَانَ السَّابِقُ ثَابِتًا، فَحَافَظَا عَلَى مَعْنَى النَّسْخِ اللُّغَوِيِّ، إِذْ هُوَ بِمَعْنَى الرَّفْعِ وَالْإِزَالَةِ، وَتَحَرُّزًا مِنَ الْحُكْمِ الْعَقْلِيِّ، وَذَكَرَ الْخِطَابَ لِيَعُمَّ وُجُوهَ الدَّلَالَةِ مِنَ النَّصِّ وَالظَّاهِرِ وَالْمَفْهُومِ وَغَيْرِهِ، وَلِيُخْرِجَ الْقِيَاسَ وَالْإِجْمَاعَ، إِذْ لَا يُتَصَوَّرُ النَّسْخُ فِيهِمَا وَلَا بِهِمَا. وَقَيَّدَا بِالتَّرَاخِي، لِأَنَّهُ لَوِ اتَّصَلَ بِهِ لَكَانَ بَيَانًا لِغَايَةِ الْحُكْمِ لَا نَاسِخًا، أَوْ يكون آخر الكلام يرفع أوله، كقولك: قُمْ لَا تَقُمْ.

السادسة: اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي الْأَخْبَارِ هَلْ يَدْخُلُهَا النَّسْخُ، فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ النَّسْخَ إِنَّمَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَالْخَبَرُ لَا يَدْخُلُهُ النَّسْخُ لِاسْتِحَالَةِ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَقِيلَ: إِنَّ الْخَبَرَ إِذَا تَضَمَّنَ حُكْمًا شَرْعِيًّا جَازَ نَسْخُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً}. وَهُنَاكَ يَأْتِي الْقَوْلُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السابعة: التَّخْصِيصُ مِنَ الْعُمُومِ يُوهِمُ أَنَّهُ نَسْخٌ وَلَيْسَ بِهِ، لِأَنَّ الْمُخَصَّصَ لَمْ يَتَنَاوَلْهُ الْعُمُومُ قَطُّ، وَلَوْ ثَبَتَ تَنَاوُلُ الْعُمُومِ لِشَيْءٍ مَا ثُمَّ أُخْرِجَ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَنِ الْعُمُومِ لَكَانَ نَسْخًا لَا تَخْصِيصًا، وَالْمُتَقَدِّمُونَ يُطْلِقُونَ عَلَى التَّخْصِيصِ نَسْخًا تَوَسُّعًا وَمَجَازًا.

الثامنة: اعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَرِدُ فِي الشَّرْعِ أَخْبَارٌ ظَاهِرُهَا الْإِطْلَاقُ وَالِاسْتِغْرَاقُ، وَيَرِدُ تَقْيِيدُهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَيَرْتَفِعُ ذَلِكَ الْإِطْلَاقُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى {وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ}. فَهَذَا الْحُكْمُ ظَاهِرُهُ خَبَرٌ عَنْ إِجَابَةِ كُلِّ دَاعٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، لَكِنْ قَدْ جَاءَ مَا قَيَّدَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، كَقَوْلِهِ" فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ ". فَقَدْ يَظُنُّ مَنْ لَا بَصِيرَةَ عِنْدَهُ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ النَّسْخِ فِي الْأَخْبَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ.

التاسعة: قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: جَائِزٌ نَسْخُ الْأَثْقَلِ إِلَى الْأَخَفِّ، كَنَسْخِ الثُّبُوتِ لِعَشَرَةٍ بِالثُّبُوتِ لِاثْنَيْنِ. وَيَجُوزُ نَسْخُ الْأَخَفِّ إِلَى الْأَثْقَلِ، كَنَسْخِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ وَالْأَيَّامِ الْمَعْدُودَةِ بِرَمَضَانَ، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي آيَةِ الصِّيَامِ. وَيُنْسَخُ الْمِثْلُ بِمِثْلِهِ ثِقَلًا وَخِفَّةً، كَالْقِبْلَةِ. وَيُنْسَخُ الشَّيْءُ لَا إِلَى بَدَلٍ كَصَدَقَةِ النَّجْوَى. وَيُنْسَخُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص٣٩٧: وَأَمَّا (نَسْخُ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ) فَهَذَا لَا يُجَوِّزُهُ الشَّافِعِيُّ، وَلَا أَحْمَد فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ، وَيُجَوِّزُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى. وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ احْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ نَسَخَهَا قَوْلُهُ: ((إنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثِ(1))). وَهَذَا غَلَطٌ فَإِنَّ ذَلِكَ إنَّمَا نَسَخَهُ آيَةُ الْمَوَارِيثِ كَمَا اتَّفَقَ عَلَى ذَلِكَ السَّلَفُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْفَرَائِضِ: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}[النساء: ١٣، ١٤]، فَلَمَّا ذَكَرَ أَنَّ الْفَرَائِضَ الْمُقَدَّرَةَ حُدُودُهُ وَنَهَى عَنْ تَعَدِّيهَا؛ كَانَ فِي ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُزَادَ أَحَدٌ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثِ))، وَإِلَّا فَهَذَا الْحَدِيثُ وَحْدَهُ إنَّمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَنَحْوُهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَنِ، لَيْسَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَجْعَلَ مُجَرَّدَ خَبَرٍ غَيْرِ مَعْلُومِ الصِّحَّةِ نَاسِخًا لِلْقُرْآنِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ نُسِخَ بِسُنَّةٍ بِلَا قُرْآنٍ، وَقَدْ ذَكَرُوا مِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى {فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا}[النساء: ١٥]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ:

١- البخاري معلقاً (فتح الباري) ٣٧٢/٥ وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٠) والترمذي في الوصايا (٢١٢٠) وقال: (حديث حسن صحيح) وابن ماجة في الوصايا (٢٧١٣) وأحمد ٢٦٧/٥ كلهم عن أبي أمامة رضي الله عنه.

((خُذُوا عَنِّي؛ خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ(١))).

وَهَذِهِ الْحُجَّةُ ضَعِيفَةٌ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ النَّسْخِ الْمُتَنَازَعِ فِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَدَّ الْحُكْمَ إلَى غَايَةٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَ تِلْكَ الْغَايَةَ، لَكِنَّ الْغَايَةَ هُنَا مَجْهُولَةٌ، فَصَارَ هَذَا يُقَالُ: إنَّهُ نَسْخٌ، بِخِلَافِ الْغَايَةِ الْبَيِّنَةِ فِي نَفْسِ الْخِطَابِ، كَقَوْلِهِ: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلَى اللَّيْلِ} فَإِنَّ هَذَا لَا يُسَمَّى نَسْخًا بِلَا رَيْبٍ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ جَلْدَ الزَّانِي ثَابِتٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ الرَّجْمُ كَانَ قَدْ أُنْزِلَ فِيهِ قُرْآنٌ يُتْلَى، ثُمَّ نُسِخَ لَفْظُهُ وَبَقِيَ حُكْمُهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {وَالشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاَللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، وَقَدْ ثَبَتَ الرَّجْمُ بِالسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ.

وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْجَوَابُ عَمَّا يُدَّعَى مِنْ نَسْخِ قَوْلِهِ: {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ} الْآيَةَ [النساء: ١٥]. فَإِنَّ هَذَا إنْ قَدَرَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ فَقَدْ نَسَخَهُ قُرْآنٌ جَاءَ بَعْدَهُ، ثُمَّ نُسِخَ لَفْظُهُ وَبَقِيَ حُكْمُهُ مَنْقُولًا بِالتَّوَاتُرِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ، فَإِنَّ الشَّافِعِيَّ وَأَحْمَد وَسَائِرَ الْأَئِمَّةِ يُوجِبُونَ الْعَمَلَ بِالسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ الْمُحْكَمَةِ، وَإِنْ تَضَمَّنَتْ نَسْخًا لِبَعْضِ آيِ الْقُرْآنِ، لَكِنْ يَقُولُونَ: إنَّمَا نُسِخَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ لَا بِمُجَرَّدِ السُّنَّةِ، وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}، وَيَرَوْنَ مِنْ تَمَامِ حُرْمَةِ الْقُرْآنِ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْسَخْهُ إلَّا بِقُرْآنِ.

قال ابن العثيمين: {ننسها}: من النسيان؛ وهو ذهول القلب عن معلوم؛ وأما {ننسأها} فهو من (النسأ)؛ وهو التأخير؛ ومعناه: تأخير الحكم، أو تأخير الإنزال؛ أي أن الله يؤخر إنزالها، فتكون الآية لم تنزل بعد؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أبدلها بغيرها؛ وأما على قراءة {ننسها}، فهو من النسيان؛ بمعنى نجعل الرسول ﷺ ينساها، كما في قوله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله}[الأعلى: ٦، ٧]؛ والمراد به هنا رفع الآية؛ وليس مجرد النسيان؛ لأن مجرد النسيان لا يقتضي النسخ؛ فالنبي ﷺ قد ينسى بعض الآية؛ وهي باقية كما في الحديث: ((أن النبي ﷺ قرأ في الصلاة فترك شيئا لم يقرأه فقال له رجل: تركت آية كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: هلا أذكرتنيها(٢))).

{نأت بخير منها}، هو جواب الشرط؛ والخيرية هنا بالنسبة للمكلف؛ ووجه الخيرية. كما يقول العلماء. أن النسخ إن كان إلى أشد فالخيرية بكثرة الثواب؛ وإن كان إلى أخف فالخيرية بالتسهيل على العباد مع تمام الأجر؛ وإن كان بالمماثل فالخيرية باستسلام العبد لأحكام الله عز وجل، وتمام انقياده لها، كما قال تعالى: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه}[البقرة: ١٤٣].

{أو مثلها} أي نأتي بمثلها.

١- مسلم في الحدود (١٦٩٠/١٢) وأبو داود في الحدود (٤٤١٥) والترمذي في الحدود (١٤٣٤) وقال: (حديث حسن صحيح) وابن ماجة في الحدود (٢٥٥٠) والدارمي في الحدود ١٨١/٢، كلهم عن عبادة بن الصامت، وأحمد ٤٧٦/٣ عن سلمة بن المحبق.

٢- أخرجه أبو داود ص١٢٩٠، كتاب الصلاة، باب ١٥٨: الفتح على الإمام في الصلاة، حديث رقم ٩٠٧، أ، قال الألباني في صحيح أبي داود، حسن، ٢٥٤/١.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص٤٦: وَالْمَقْصُودُ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا هُوَ مِنَ الْعِلْمِ الْمُسْتَقِرِّ فِي نُفُوسِ الْأَئِمَّةِ السَّابِقِينَ وَالتَّابِعِينَ، وَلَمْ يُعْرَفْ قَطُّ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ رَدَّ مِثْلَ هَذَا، وَلَا قَالَ: لَا يَكُونُ كَلَامُ اللَّهِ بَعْضُهُ أَشْرَفُ مِنْ بَعْضٍ، فَإِنَّهُ كُلُّهُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، إنَّمَا حَدَثَ هَذَا الْإِنْكَارُ لَمَّا ظَهَرَتْ بِدَعُ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ وَجَعَلُوهُ عِضِينَ([١]).

وَمِمَّنْ ذَكَرَ (تَفْضِيلَ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى بَعْضٍ فِي نَفْسِهِ)، أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَغَيْرُهُمَا، كَالشَّيْخِ أَبِي حَامِدٍ الإسفراييني، وَالْقَاضِي أَبِي الطَّيِّبِ، وَأَبِي إسْحَاقَ الشِّيرَازِيِّ وَغَيْرِهِمْ، وَمِثْلِ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى، وَالْحَلْوَانِيِّ الْكَبِيرِ وَابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَابْنِ عَقِيلٍ. قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ فِي (كِتَابِ الْوَاضِحِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ) فِي احْتِجَاجِهِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُنْسَخُ بِالسَّنَةِ قَالَ: فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} وَلَيْسَتْ السُّنَّةُ مِثْلَ الْقُرْآنِ وَلَا خَيْرًا مِنْهُ، فَبَطَلَ النَّسْخُ بِهَا؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إلَى الْمُحَالِ، وَهُوَ كَوْنُ خَبَرِهِ بِخِلَافِ مُخْبِرِهِ، وَذَلِكَ مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ، فَمَا أَدَّى إلَيْهِ فَهُوَ مُحَالٌ.

قَالَ: فَإِنْ قِيلَ: أَصْلُ اسْتِدْلَالِكُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَيْرِ الْفَضْلُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا لَكُمْ، وَذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ فِي حَقِّنَا: إمَّا سُهُولَةٌ فِي التَّكْلِيفِ، فَهُوَ خَيْرٌ عَاجِلٌ، أَوْ أَكْثَرُ ثَوَابًا؛ لِكَوْنِهِ أَثْقَلَ وَأَشَقَّ، وَيَكُونُ نَفْعًا فِي الْآجِلِ وَالْعَاقِبَةِ، وَكِلَاهُمَا قَدْ يَتَحَقَّقُ بِطَرِيقِ السُّنَّةِ. وَيَحْتَمِلُ {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا} لَا نَاسِخًا لَهَا، بَلْ يَكُونُ تَكْلِيفًا مُبْتَدَأً هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَرِيقُهُ الْقُرْآنَ النَّاسِخَ وَلَا السُّنَّةُ النَّاسِخَةُ. قَالُوا: يُوَضِّحُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ، أَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ لَيْسَ بَعْضُهُ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَصْرِفُوا اللَّفْظَ عَنْ ظَاهِرِهِ مِنْ خَيْرٍ يَعُودُ إلَى التَّكْلِيفِ لَا إلَى الطَّرِيقِ. وَقَالَ فِي الْجَوَابِ: قَوْلُهُمْ: الْخَيْرُ يَرْجِعُ إلَى مَا يَخُصُّنَا مِنْ سُهُولَةٍ أَوْ ثَوَابٍ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَقَالَ: (لَكُمْ)، فَلَمَّا حَذَفَ ذَلِكَ، دَلَّ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْإِطْلَاقُ - وَهُوَ كَوْنُ النَّاسِخِ خَيْرًا مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ وَذَاتِهِ، وَمِنْ جِهَةِ الِانْتِفَاعِ بِهِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ - عَلَى أَنَّ ظَاهِرَهُ يَقْتَضِي بِآيَاتِ خَيْرٍ مِنْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَعُودُ إلَى الْجِنْسِ كَمَا إذَا قَالَ الْقَائِلُ: مَا آخُذُ مِنْك دِينَارًا إلَّا أُعْطِيك خَيْرًا مِنْهُ، لَا يُعْقَلُ بِالْإِطْلَاقِ إلَّا دِينَارًا خَيْرًا مِنْهُ فَيَتَخَيَّرُ مِنَ الْجِنْسِ أَوَّلًا ثُمَّ النَّفْعِ، فَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ ذَلِكَ إلَى ثَوْبٍ أَوْ عَرَضٍ غَيْرِ الدِّينَارِ فَلَا، وَفِي آخِرِ الْآيَةِ مَا يَشْهَدُ بِأَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وَوَصْفُهُ لِنَفْسِهِ بِالْقُدْرَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَأْتِي بِهِ هُوَ أَمْرٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ {أَوْ مِثْلِهَا} يَشْهَدُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ؛ لِأَنَّ الْمُمَاثَلَةَ يَقْتَضِي إطْلَاقُهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ أَنَّثَهَا تَأْنِيثَ الْآيَةِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: نَأْتِ بِآيَةٍ خَيْرٍ مِنْهَا أَوْ بِآيَةٍ مِثْلِهَا.

قُلْت: وَأَيْضًا فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْخَيْرِ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ أَخَفَّ عَمَلًا أَوْ أَشَقَّ وَأَكْثَرَ ثَوَابًا؛ لِأَنَّ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ ثَابِتَانِ لِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مُبْتَدَأً وَنَاسِخًا، فَإِنَّهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ أَيْسَرَ مِنْ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَشَقَّ فَيَكُونُ ثَوَابُهُ أَكْثَرَ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ لَازِمَةً لِجَمِيعِ الْأَحْكَامِ، لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يُقَالَ: مَا نَنْسَخُ مِنْ حُكْمٍ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ، فَإِنَّ الْمَنْسُوخَ أَيْضًا يَكُونُ خَيْرًا وَمِثْلًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَإِنَّهُمْ إنْ فَسَّرُوا الْخَيْرَ بِكَوْنِهِ أَسْهَلَ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَنْسُوخُ أَسْهَلَ، فَيَكُونُ خَيْرًا،

١- عضين: واحدتها عِضة، والعضة: القطعة والفرقة، والمراد: جزّؤه أجزاءً. أنظر اللسان، مادة (عضا).

وَإِنْ فَسَّرُوهُ بِكَوْنِهِ أَعْظَمَ أَجْرًا لِمَشَقَّتِهِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْمَنْسُوخُ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ بِخَيْرٍ مِمَّا يَنْسَخُهُ أَوْ مِثْلِهِ، فَلَا يَأْتِي بِمَا هُوَ دُونَهُ.

وَأَيْضًا، فَعَلَى مَا قَالُوهُ لَا يَكُونُ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ، بَلْ إِنْ كَانَ خَيْرًا مِنْ جِهَةِ السُّهُولَةِ، فَذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ كَثْرَةِ الْأَجْرِ. قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْقُرْآنَ فِي نَفْسِهِ لَا يَتَخَايَرُ وَلَا يَتَفَاضَلُ، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهِ الْخَيْرَ الَّذِي هُوَ الْأَفْضَلِيَّةُ، فَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ اللَّهِ الَّذِي فِي [سُورَةِ الْإِخْلَاصِ]، وَمَا ضَمِنَهَا مِنْ نَفْيِ التَّجَزُّؤِ وَالِانْقِسَامِ، أَفْضَلُ مِنْ {تَبَّتْ} الْمُتَضَمِّنَةِ ذَمَّ أَبِي لَهَبٍ وَذَمَّ زَوْجَتِهِ، إِنْ شِئْتَ فِي كَوْنِ الْمَدْحِ أَفْضَلُ مِنَ الْقَدْحِ، وَإِنْ شِئْتَ فِي الْإِعْجَازِ، فَإِنَّ تِلَاوَةَ غَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ مِنْهَا الْفَصَاحَةُ وَالْبَيَانُ أَفْضَلُ، وَلَيْسَ مِنْ حَيْثُ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ وَاحِدًا لَا يَكُونُ التَّفَاضُلُ لِمَعْنًى يَعُودُ إِلَى الْكَلَامِ ثَانِيًا، كَمَا أَنَّ الْمُرْسَلَ وَاحِدٌ لِذِي النُّونِ وَإِبْرَاهِيمَ، وَإِبْرَاهِيمُ أَفْضَلُ مِنْ ذِي النُّونِ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا} لَا يَكُونُ نَاسِخًا بَلْ مُبْتَدَأً، فَلَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْجَزَاءِ مَجْزُومًا، وَهَذَا يُعْطِي الْبَدَلِيَّةَ وَالْمُقَابَلَةَ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: إِنْ تُكْرِمْنِي أُكْرِمْكَ، وَإِنْ أَطَعْتَنِي أَطَعْتُكَ، يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْجَزَاءُ مُقَابَلَةً وَبَدَلًا، لَا فِعْلًا مُبْتَدَأً.

قُلْتُ: الْمَقْصِدُ هُنَا ذِكْرُ مَا نَصَرَهُ - مِنْ كَوْنِ الْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِ بَعْضُهُ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ - لَيْسَ الْمَقْصُودُ الْكَلَامُ فِي مَسْأَلَةِ النَّسْخِ.

قال ابن العثيمين: {ألم تعلم} الهمزة هنا للاستفهام؛ والمراد به التقرير؛ وكلما جاءت على هذه الصيغة فالاستفهام فيها للتقرير، مثل: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١] ؛ فقوله تعالى: {ألم تعلم} يقرر الله المخاطب. سواء قلنا: إنه الرسول ﷺ؛ أو كل من يتأتى خطابه. بالاستفهام بأنه يعلم {أن الله على كل شيء قدير}؛ يعني أنك قد علمت قدرة الله على كل شيء؛ ومنها القدرة على النسخ.

وقوله تعالى: {قدير}(١): لما أريد بها الوصف جاءت على صيغة (فعيل)؛ لكن إذا أريد بها الفعل تكون بصيغة (الفاعل)، كما في قوله تعالى: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم}[الأنعام: ٦٥]؛ و(القدرة)، صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ و(القوة)، صفة تقوم بالقوي بحيث يفعل الفعل بلا ضعف؛ إذا المقابل للقدرة: العجز؛ لقوله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا}[فاطر: ٤٤]؛ والمقابل للقوة: الضعف، قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة}[الروم: ٥٤]؛ والفرق الثاني بينهما: أن (القوة)، يوصف بها من له إرادة، وما ليس له إرادة؛ فيقال: رجل قوي؛ وحديد قوي؛ وأمّا (القدرة)، فلا يوصف بها إلا ذو إرادة؛ فلا يقال: حديد قادر(٢).

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {القدير} مفصلاً عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن (ان الله على كل شيء قدير) عند تفسير الآية (٢٠)، و (١٤٨ في الفوائد رقم٨) من سورة البقرة، والآية (١٨٩) من سورة آل عمران.

قال ابن كثير: يُرْشِدُ تَعَالَى بِهَذَا إِلَى أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ، فَكَمَا خَلَقَهُمْ كَمَا يَشَاءُ، وَيُسْعِدُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُشْقِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُصِحُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُمْرِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُوَفِّقُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ، كَذَلِكَ يَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيَحِلُّ مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَيُبِيحُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الذِي يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ. وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. وَيَخْتَبِرُ عِبَادَهُ وَطَاعَتَهُمْ لِرُسُلِهِ بِالنَّسْخِ، فَيَأْمُرُ بِالشَّيْءِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ التِي يَعْلَمُهَا تَعَالَى، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ لِمَا يَعْلَمُهُ تَعَالَى.. فَالطَّاعَةُ كُلُّ الطَّاعَةِ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ فِي تَصْدِيقِ مَا أَخْبَرُوا. وَامْتِثَالِ مَا أَمَرُوا. وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجَرُوا. وَفِي هَذَا الْمَقَامِ رَدٌّ عَظِيمٌ وَبَيَانٌ بَلِيغٌ لِكُفْرِ الْيَهُودِ وَتَزْيِيفِ شُبْهَتِهِمْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي دَعْوَى اسْتِحَالَةِ النَّسْخِ إِمَّا عَقْلًا كَمَا زَعَمَهُ بعضهم جهلا وكفرا، وَإِمَّا نَقْلًا كَمَا تَخَرَّصَهُ آخَرُونَ مِنْهُمُ افْتِرَاءً وَإِفْكًا.

قُلْتُ: الذِي يَحْمِلُ الْيَهُودَ عَلَى الْبَحْثِ فِي مَسْأَلَةِ النَّسْخِ، إِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَشَرَائِعِهِ الْمَاضِيَةِ، كَمَا أَحَلَّ لِآدَمَ تَزْوِيجَ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، ثُمَّ حَرَّمَ ذَلِكَ، وَكَمَا أَبَاحَ لِنُوحٍ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّفِينَةِ أَكْلَ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ، ثُمَّ نَسَخَ حِلَّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباح لِإِسْرَائِيلَ وَبَنِيهِ، وَقَدْ حُرِّمَ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ وَمَا بَعْدَهَا. وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ وَيَصْدِفُونَ عَنْهُ. وَمَا يُجَابُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ بِأَجْوِبَةٍ لَفْظِيَّةٍ، فَلَا تُصْرَفُ الدَّلَالَةُ فِي الْمَعْنَى، إِذْ هُوَ الْمَقْصُودُ، وَكَمَا فِي كُتُبِهِمْ مَشْهُورًا مِنَ الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ، فَإِنَّهُ يفيد وجوب متابعته، عليه والسلام، وَأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا عَلَى شَرِيعَتِهِ. وَسَوَاءٌ قِيلَ إِنَّ الشَّرَائِعَ الْمُتَقَدِّمَةَ مُغَيَّاةٌ إِلَى بِعْثَتِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يُسَمَّى ذَلِكَ نَسْخًا كَقَوْلِهِ: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}[الْبَقَرَةِ: ١٨٧]، وَقِيلَ: إِنَّهَا مُطْلَقَةٌ، وَإِنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَسَخَتْهَا، فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَوُجُوبُ اتِّبَاعِهِ مُتَعَيِّنٌ لِأَنَّهُ جَاءَ بِكِتَابٍ هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فَفِي هَذَا الْمَقَامِ بَيَّنَ تَعَالَى جَوَازَ النَّسْخِ، رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ، عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} الْآيَةَ، فَكَمَا أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ بِلَا مُنَازِعٍ، فَكَذَلِكَ لَهُ الْحُكْمُ بِمَا يَشَاءُ، {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}[الْأَعْرَافِ: ٥٤]، وَقُرِئَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، التِي نَزَلَ صَدْرُهَا خِطَابًا مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وُقُوعُ النسخ عند اليهود في وقوله تَعَالَى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} الْآيَةَ [آلِ عِمْرَانَ: ٩٣]، كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا، وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى جَوَازِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الْبَالِغَةِ، وَكُلُّهُمْ قَالَ بِوُقُوعِهِ.

قال ابن العثيمين: تنبيه:

من هذا الموضع من السورة إلى ذكر تحويل القبلة في أول الجزء الثاني تجد أن كل الآيات توطئة لنسخ استقبال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ ولهذا تجد الآيات بعدها كلها في التحدث مع أهل الكتاب الذين أنكروا غاية الإنكار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ثبوت النسخ، وأنه جائز عقلًا، وواقع شرعًا؛ وهذا ما اتفقت عليه الأمة إلا أبا مسلم الأصفهاني؛ فإنه زعم أن النسخ مستحيل؛ وأجاب عما ثبت نسخه بأن هذا من باب التخصيص؛ وليس من باب النسخ؛ وذلك لأن الأحكام النازلة ليس لها أمد تنتهي إليه؛ بل أمدّها إلى يوم القيامة؛ فإذا نسخت فمعناه أننا خصصنا الزمن الذي بعد النسخ. أي أخرجناه من الحكم؛ فمثلًا: وجوب مصابرة الإنسان لعشرة حين نزل كان واجبًا إلى يوم القيامة شاملًا لجميع الأزمان؛ فلمّا نسخ أخرج بعض الزمن الذي شمله الحكم، فصار هذا تخصيصًا؛ وعلى هذا فيكون الخلاف بين أبي مسلم وعامة الأمة خلافًا لفظيًا؛ لأنهم متفقون على جواز هذا الأمر؛ إلا أنه يسميه تخصيصًا؛ وغيره يسمونه نسخًا؛ والصواب تسميته نسخًا؛ لأنه صريح القرآن: {ما ننسخ من آية أو ننسها}؛ ولأنه هو الذي جاء عن السلف.

٢- أن الناسخ خير من المنسوخ؛ لقوله تعالى: {نأت بخير منها}؛ أو مماثل له عملًا. وإن كان خيرًا منه مآلًا؛ لقوله تعالى: {أو مثلها}.

٣- أن أحكام الله سبحانه وتعالى تختلف في الخيرية من زمان إلى زمان؛ بمعنى أنه قد يكون الحكم خيرًا للعباد في وقت؛ ويكون غيره خيرًا لهم في وقت آخر.

٤- عظمة الله عز وجل لقوله تعالى: {ما ننسخ}: فإن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى أهل العظمة.

٥- إثبات تمام قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير}؛ ومن ذلك أنه قادر على أن ينسخ ما يشاء.

٦- أن قدرة الله عامة شاملة؛ لقوله تعالى: {أن الله على كل شيء قدير}.

٧- أن القادر على تغيير الأمور الحسية قادر على تغيير الأمور المعنوية؛ فالأمور القدرية الكونية الله قادر عليها؛ فإذا كان قادرًا عليها فكذلك الأمور الشرعية المعنوية؛ وهذا هو الحكمة في قوله تعالى: {ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير} بعد ذكر النسخ.

٨- أن الشريعة تابعة للمصالح؛ لأن النسخ لا يكون إلا لمصلحة؛ فإن الله لا يبدِّل حكمًا بحكم إلا لمصلحة.

قد يقول قائل: ما الفائدة إذا من النسخ إذا كانت مثلها والله تعالى حكيم لا يفعل شيئًا إلا لحكمة؟

فالجواب: أن الفائدة اختبار المكلف بالامتثال؛ لأنه إذا امتثل الأمر أولًا وآخرًا، دلَّ على كمال عبوديته؛ وإذا لم يمتثل دلَّ على أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه؛ مثال ذلك: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ هذا بالنسبة للمكلف ليس فيه فرق أن يتّجه يمينًا، أو شمالًا؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما وجه؛ أما المتجه إليه، وكونه أولى بالاتجاه إليه فلا ريب أن الاتجاه إلى الكعبة أولى من الاتجاه إلى بيت المقدس؛ ولهذا ضلَّ من ضلَّ، وارتدَّ من ارتدَّ بسبب تحويل القبلة: قال الله تعالى: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع

الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله}[البقرة: ١٤٣]؛ فالإنسان يبتلى بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمنًا عابدًا لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوى ذلك عاند، وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقًّا، ومن ليس بعابد.

٩- أن الله تعالى وعد بأنه لا يمكن أن ينسخ شيئًا إلّا أبدله بخير منه، أو مثله؛ ووعده صدق.

١٠- ذكر ما يطمئن به العبد حين يخشى أن يقلق فكره؛ لقوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها}.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

قال ابن العثيمين: {ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض}: أي أن الله وحده الذي له ملك السموات، والأرض: ملك الأعيان، والأوصاف، والتدبير؛ فأعيان السموات، والأرض، وأوصافها ملك لله؛ و(التدبير): يعني أنه تعالى يملك التدبير فيها كما يشاء: لا معارض له، ولا ممانع؛ و{السمواات}: جمع سماء؛ ويطلق على العلو، وعلى السقف المحفوظ. وهو المراد هنا.؛ وهي سبع سموات كما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية؛ و{الأرض}: أي جنس الأرضين، فيشمل السبع كلها.

{وما لكم من دون الله}: أي من سواه؛ {من ولي}: فعيل بمعنى مفعل؛ أي ما من أحد يتولّاكم فيجلب لكم الخير؛ {ولا نصير}: أي ولا ناصر يدفع عنكم الشر؛ و{من}: حرف جر زائد إعرابًا؛ ولكنه أصلي المعنى؛ إذ إن الغرض منه التنصيص على العموم؛ يعني ما لكم أيُّ ولي.

قال ابن القيم في اغاثة اللهفان ج٢ص٣٢٦: فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت، فهكذا أحكامه الدينية الأمرية ينسخ منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته وتجحد رسالته بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرَّمًا على من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحًا لهم، وبالله التوفيق يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ومن العجب أن هذه الامة الغضبية تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه وقد تركوا شريعة موسى عليه السلام في أكثر ما هم عليه وتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم.

قال الطبري: فتأويل الآية إذًا: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدِّل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقرُّ منها ما أشاء؟

وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطابًا لنبيه محمد ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمدًا ﷺ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرَهم بما شاء ونهيَهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه. ثم قال لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه: انقادوا لأمري، وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخ وفيما أترك فلا أنسخ، من أحكامي وحدودي وفرائضي، ولا يهولنكم خلاف مخالف لكم في أمري ونهيي وناسخي ومنسوخي، فإنه لا قيم بأمركم سواي، ولا ناصر لكم غيري، وأنا المنفرد بولايتكم، والدفاع عنكم، والمتوحّد بنصرتكم بعزي وسلطاني وقوتي على من ناوأكم وحادكم، ونصب حرب العداوة بينه وبينكم، حتى أعلي حجتكم، وأجعلها عليهم لكم. وليس لكم، أيها المؤمنون، بعد الله من قيم بأمركم، ولا نصير فيؤيدكم ويقويكم، فيعينكم على أعدائكم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تقرير عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: {ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض}؛ ولا يرد على هذا إضافة الملك للإنسان، كما في قوله تعالى: {أو ما ملكت أيمانكم}[النساء: ٣]؛ فإن هذه الإضافة ليست على سبيل الإطلاق؛ لأن ملك الإنسان للأشياء ملك محدود، وناقص، وقاصر؛ محدود من حين استيلائه عليه إلى أن يخرج عن ملكه ببيع، أو هبة، أو موت، أو غير ذلك؛ كذلك هو ناقص: فهو لا يملك التصرف فيه كما يشاء؛ بل تصرفه مقيد بما يباح له شرعًا؛ ولهذا لو أراد أن يحرق ملكه لم يملك ذلك؛ كذلك أيضًا ملك الإنسان قاصر؛ فهو لا يملك إلا ما تحت يده؛ فلا يشمل ملك الآخرين.

٢- اختصاص ملك السموات، والأرض بالله؛ وهذا مأخوذ من تقديم الخبر، حيث إن تقديم الخبر يدل على الحصر؛ لقوله تعالى: {له ملك السموات والأرض}.

٣- أن من ملك الله أنه ينسخ ما يشاء، ويثبت؛ فكأن قوله تعالى: {ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض} تعليل لقوله تعالى: {ما ننسخ من آية}؛ فالمالك للسموات والأرض يتصرف فيهما كما شاء.

٤- أنه لا أحد يدفع عن أحد أراد الله به سوءًا؛ لقوله تعالى: {وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير}.

٥- أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه في طلب الولاية، والنصر.

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى يقول: {هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين}[الأنفال: ٦٢]، ويقول تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله}[التوبة: ٤٠]؛ فأثبت نصرًا لغير الله.

فالجواب: أن إثبات النصر لغير الله إثبات للسبب فقط؛ وليس نصرًا مستقلًا؛ والنصر المستقل من عند الله؛ أما انتصار بعضنا ببعض فإنه من باب الأخذ بالأسباب؛ وليس على وجه الاستقلال.

٦- أن ما يريده الإنسان فهو إمّا جلب منفعة يحتاج إلى ولي يجلبها له؛ وإما دفع مضرة يحتاج إلى نصير يدفعها عنه.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

قال ابن العثيمين: {أم تريدون أن تسألوا}؛ {أم} هنا منقطعة بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام؛ أي: (بل أتريدون)؛ والإضراب هنا ليس للإبطال؛ لأن الأول ليس بباطل؛ بل هو باق؛ فالإضراب هنا إضراب انتقال؛ و(الإرادة) هنا بمعنى المشيئة؛ وإن شئت فقل: بمعنى المحبة؛ والخطاب هنا قيل: إنه لليهود حينما سألوا النبي ﷺ آيات يأتي بها؛ وقيل: إنه للمشركين؛ لقوله تعالى: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا}[الإسراء: ٩٠]؛ وقيل: إنه للمسلمين؛ والآية صالحة للأقوال كلها؛ لأن محمدًا ﷺ رسول للجميع؛ لكن تخصيصها باليهود يبعده قوله تعالى: {كما سئل موسى من قبل}؛ فمعنى الآية: أتريدون أن توردوا الأسئلة على رسولكم كما كان بنو إسرائيل تورد الأسئلة على رسولها؛ ولا شك أن الاستفهام هنا يراد به الإنكار على من يكثرون السؤال على النبي ﷺ.

قال الطبري: عن ابن عباس: قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهارًا نتبعك ونصدقك! فأنزل الله في ذلك من قولهما: {أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل} الآية([1]).

{رسولكم}: أضافه سبحانه وتعالى إليهم، مع أنه في آيات كثيرة أضافه الله إلى نفسه: {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم}[المائدة: ١٥]؛ والجمع بين ذلك: أن كل واحدة من الإضافتين تنزل على حال: فهو رسول الله باعتبار أنه أرسله؛ ورسولنا باعتبار أنه أرسل إلينا؛ والمراد به محمد ﷺ بالإجماع.

{كما سئل موسى من قبل}: أي كما سأل بنو إسرائيل موسى من قبل، كقولهم: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}[البقرة: ٥٥]، وقولهم: {اجعل لنا إلها كما لهم آلهة}[الأعراف: ١٣٨]، وغير ذلك؛ فبنو إسرائيل هم المشهورون بالأسئلة، والتعنت، والإعجاز؛ أما هذه الأمة فإنها قد أدبها الله عز وجل فأحسن تأديبها: لا يسألون إلا عن أمر لهم فيه حاجة.

قال السعدي: ينهى الله المؤمنين، أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم {كما سئل موسى من قبل}، والمراد بذلك، أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة}.

وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم}، فهذه ونحوها، هي المنهي عنها.

١- الأثر في سيرة ابن هشام ٢: ١٩٧.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}، ويقررهم عليه، كما في قوله {يسألونك عن الخمر والميسر}؛ و{يسألونك عن اليتامى}، ونحو ذلك.

قال الطبري: أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم من الأشياء نظير ما سأل قوم موسى من قبلكم، فتكفروا – إن مُنِعتموه – في مسألتكم ما لا يجوز في حكمة الله إعطاؤكموه، أو أن تهلكوا إن كان مما يجوز في حكمته عطاؤكموه، فأعطاكموه، ثم كفرتم من بعد ذلك، كما هلك من كان قبلكم من الأمم التي سألت أنبياءها ما لم يكن لها مسألتها إياهم، فلما أعطيت كفرت، فعوجلت بالعقوبات لكفرها، بعد إعطاء الله إياها سؤلها.

قال الطبري: {وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ}: {ومن يتبدل}، ومن يستبدل {الكفر}، ويعني بـ{الكفر}: الجحود بالله وبآياته، {بالإيمان}: يعني بالتصديق بالله وبآياته والإقرار به.

قال ابن العثيمين: {فقد ضل}: أي تاه، {سواء السبيل}: أي وسط الطريق؛ يعني يخرج عن وسط الطريق إلى حافات الطريق، وإلى شعبها؛ وطريق الله واحد؛ وعليك أن تمشي في سواء الصراط، أي وسطه، حتى لا تعرض نفسك للضلال.

قال السعدي: ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: {ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل}.

قال الطبري: فتأويل الكلام إذًا: ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفر، فيرتد عن دينه، فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسبول.

وهذا القول ظاهره الخبر عن زوال المستبدل بالإيمان والكفر عن الطريق، والمعْنِيُّ به الخبر عنه أنه ترك دين الله الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقًا يسلكونه إلى رضاه، وسبيلًا يركبونها إلى محبته والفوز بجناته. فجعل جل ثناؤه الطريق – الذي إذا ركب محجته السائر فيه، ولزم وسطه المجتاز فيه، نجا وبلغ حاجته، وأدرك طلبته – لدينه الذي دعا إليه عباده، مثلًا لإدراكهم بلزومه واتباعه، طلباتهم في آخرتهم، كالذي يدرك اللازم محجة السبيل – بلزومه إياها – طلبته من النجاة منها، والوصول إلى الموضع الذي أمَّه وقصده. وجعل مثل الحائد عن دينه، الجائر عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته – في إخطائه ما رجا أن يدركه بعمله في آخرته وينال به في معاده، وذهابه عما أمل من ثواب عمله، وبعده به من ربه، مثلَ الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل، الذي لا يزداد وغولًا في الوجه الذي سلكه، إلا ازداد من موضع حاجته بعدًا، وعن المكان الذي أمَّه وأراده نأيًا. وهذه السبيل التي أخبر الله عنها، أن من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلَّ سواءها، هي الصراط المستقيم الذي أمرنا بمسألته الهداية له بقوله: {اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم}.

وفي قوله: {ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل}، دليل واضح أن هذه الآيات من قوله: {يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا}، خطاب من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ، وعتاب منه لهم على أمر

سلف منهم، مما سرَّ به اليهود، وكرهه رسول الله ﷺ لهم، فكرهه الله لهم، فعاتبهم على ذلك، وأعلمهم أن اليهود أهل غش لهم وحسد وبغي، وأنهم يتمنون لهم المكاره، ويبغونهم الغوائل، ونهاهم أن ينتصحوهم، وأخبرهم أن من ارتدَّ منهم عن دينه فاستبدل بإيمانه كفرًا، فقد أخطأ قصد السبيل.

قال أبو زهرة: أي ومن يجعل الإيمان في مقابل الكفر فقد سار في طريق منحرف ولم يسلك السبيل المستقيم، وضل يعني بعد، ومعنى ذلك أن من يطلب الكفر يترك سواء السبيل والقصد، وفي ذلك إشارة إلى أمرين:

أولًا: أنهم ضلوا القصد ولم يسلكوا سواء السبيل، أي وسطه؛ لأن وسط السبيل لَا يكون اعوجاجًا ولا انحرافًا، وأنهم إذ ضلوا سواء السبيل وبعدوا عنه سلكوا طريق الكفر، واختاروه على الإيمان.

ثانيًا: أن السبب في سلوكهم طريق الغي والضلال وطلبهم معجزات يريدونها هو أنهم في أصلهم جاحدون كافرون، ومن ترك الطريق الواضح مع وضوحه وقيام برهانه فقد كفر؛ لأنه يتبدل الكفر بالإيمان.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إنكار كثرة الأسئلة لرسول الله ﷺ؛ لأن الاستفهام: {أم تريدون}، يقصد به الإنكار؛ وقد قال النبي ﷺ محذِّرًا من ذلك: ((ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم([1]))؛ وصح عن النبي ﷺ: ((أن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته([2]))؛ فهذا نهي، وإنكار على الذين يسألون رسول الله ﷺ مسائل؛ والمطلوب من المسلم في زمن الوحي أن يسكت حتى ينزل ما أراد الله عز وجل من أمر أو نهي.

٢- تأكيد ذم هذا النوع من الأسئلة؛ لقوله تعالى: {رسولكم}؛ فكأنه أراد أنه لما كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم عدم إعناته بالأسئلة.

٣- أن إرسال محمد ﷺ من مصالحنا، ومنافعنا؛ لقوله تعالى: {رسولكم}.

٤- أن كثرة الأسئلة للنبي ﷺ فيها مشابهة لليهود؛ لقوله تعالى: {كما سئل موسى من قبل}.

٥- أنه لا ينبغي إلقاء السؤال إلا لمصلحة: إما رجل وقعت له مسألة يسأل عن حكمها؛ أو طالب علم يتعلم ليستنتج المسائل من أصولها؛ أما الأسئلة لمجرد استظهار ما عند الإنسان فقط؛ أو أقبح من ذلك من يستظهر ما عند الإنسان ليضرب آراء العلماء بعضها ببعض، وما أشبه ذلك؛ أو لأجل إعنات المسؤول، وإحراجه؛ فكل هذا من الأشياء المذمومة التي لا تنبغي.

٦- ذم بني إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى ﷺ، حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكرهم في هذه الآية على سبيل الذم..

١- أخرجه مسلم ص٩٠١، كتاب الحج، باب ٧٣: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم ٣٢٥٧ [٤١٢] ١٣٣٧.

٢- أخرجه البخاري ص٦٠٧، كتاب الاعتصام، باب ٣: ما يكره من كثرة السؤال، حديث رقم ٧٢٨٩، وأخرجه مسلم ص١٠٩٢ – ١٠٩٣، كتاب الفضائل باب ٣٧: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله ... ، حديث رقم ٦١١٦ [١٣٢] ٢٣٥٨.

٧- أن اليهود كانوا سألوا موسى عن أشياء فكانت العاقبة فيها وخيمة: فقد سألوا عن أشياء بينت لهم؛ لكنهم لم يعملوا بها؛ فكانت نتيجة السؤال الخيبة.

٨- إثبات رسالة موسى ﷺ؛ لقوله تعالى: {كما سئل موسى من قبل} يعني: وهو رسول.

٩- ذم من استبدل الكفر بالإيمان؛ لقوله تعالى: {ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل}؛ وهذا يشمل من بقي على كفره بعد عرض الإيمان عليه، ومن ارتد بعد إيمانه؛ فإنه في الحقيقة تبديل؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة؛ فإذا كفر فقد تبدَّل الكفر بالإيمان.

١٠- أن من اختار الكفر على الإيمان فهو ضال.

١١- عكس هذه المسألة: أن من يتبدل الإيمان بالكفر فقد هدي إلى سواء السبيل.

١٢- الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة في عمله، وأنه مجبر عليه؛ لقوله تعالى: {ومن يتبدل الكفر بالإيمان}.

١٣- أنه يجب على السائل أن يعمل بما أجيب به؛ لأنه إذا علم ولم يعمل فقد تبدل الكفر بالإيمان من بعد ما تبين له أنكر؛ فالواجب على المرء إذا سأل من يثق به أن يعمل بقوله؛ ولهذا قال العلماء: ومن سأل مفتيًا ملتزمًا بقوله حرم عليه أن يسأل غيره؛ لأنه حين سأله كان يعتقد أن الذي يقوله هو الشرع؛ فإذا كان يعتقد هذا فلا يسأل غيره؛ نعم، إذا سأل إنسانًا يثق به بناء على أن فتواه هو الشرع، وأفتاه، ولكنه سمع في مجلس عالم آخر حكمًا نقيض الذي أفتي به مدعَّمًا بالأدلة، فحينئذ له أن ينتقل؛ بل يجب عليه؛ أو سأل عالمًا مقتنعًا بقوله للضرورة. لأنه ليس عنده في البلد أعلم منه. على نية أنه إذا وجد أعلم منه سأله؛ فهذا أيضًا يجوز أن يسأل غيره إذا وجد أعلم منه.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

قال الطبري: وقد صرَّح هذا القول من قول الله جل ثناؤه، بأن خطابه بجميع هذه الآيات من قوله: {يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا} - وإن صرف في نفسه الكلام إلى خطاب النبي ﷺ، إنما هو خطاب منه للمؤمنين وأصحابه، وعتاب منه لهم، ونهي عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم في شيء من أمور دينهم - ودليل على أنهم كانوا استعملوا أو من استعمل منهم في خطابه ومسألته رسول الله ﷺ الجفاء، وما لم يكن له استعماله معه، تأسّيًا باليهود في ذلك أو ببعضهم. فقال لهم ربهم ناهيًا عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيكم ﷺ كما تقول له اليهود: {راعنا}، تأسّيًا منكم بهم، ولكن قولوا: {انظرنا واسمعوا}، فإن أذى رسول الله ﷺ كفر بي، وجحود لحقي الواجب لي عليكم في تعظيمه وتوقيره، ولمن كفر بي عذاب أليم؛ فإن اليهود والمشركين ما يودون أن ينزل عليكم من خير من

ربكم، ولكن كثيرًا منهم ودوا أنهم يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا، حسدًا من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد ﷺ، من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد، وأنه نبي إليهم وإلى خلقي كافة. وقد قيل إن الله جل ثناؤه عنى بقوله: {ود كثير من أهل الكتاب}، كعب بن الأشرف.

قال ابن حجر العسقلاني في: {العجاب في بيان الأسباب}: وقد أخرج الواحدي من طريق محمد بن يحي الذهلي ما أخرجه في الزهريات من طريق الزهري، أخبرني عبدالرحمن بن عبداللّه بن كعب بن مالك عن أبيه: أن كعب بن الأشرف كان يهوديًّا شاعرًا، فكان يهجو النبي ﷺ ويحرّض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة، يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمرهم اللّه بالصبر والعفو. وفيهم نزلت: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا([1])}. وهذا سند صحيح. وأخرجه أبو داود من هذا الوجه دون هذا الكلام الأخير.

قال ابن العثيمين: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا}؛ {ود} بمعنى أحب؛ بل إن ال{ود}: خالص المحبة؛ والمعنى: أن كثيرًا من أهل الكتاب يودّون بكل قلوبهم أن يردّوكم كفّارًا؛ أي يرجعوكم كفّارًا؛ وعلى هذا ف{يردونكم}، تنصب مفعولين؛ الأول: الكاف في {يردونكم}؛ والثاني: {كفارًا}؛ و{أهل الكتاب}، هم اليهود، والنصارى؛ والمراد بـ{الكتاب} التوراة، والإنجيل؛ و{لو} هنا مصدرية؛ وضابطها أن تقع بعد {ود} ونحوها؛ و {من بعد إيمانكم}: أي من بعد أن ثبت الإيمان في قلوبكم.

قال أبو زهرة: {ودَّ} هنا معناها (تمنّى)، فإنها تستعمل بمعنى (أحبَّ)، وبمعنى (تمنّى)، وحيث كانت {لو} وما بعدها موضع الطلب كانت بمعنى (تمنّى)؛ فإن أمنية أهل الكتاب – وكذلك المشركون – أن يختفي هذا الدين، ولا يكون إلّا الوثنية وخصوصًا الوثنيين الذين بقوا على وثنيتهم من الأوس والخزرج لكيلا يكون محمد ﷺ وصحبه مسيطرين على المدينة.

ويلاحظ أمران:

أولهما: أن القرآن الكريم الذي أنزله العادل الحكيم لم يذكر أهل الكتاب جميعًا، بل ذكر الكثير منهم فقال تعالى:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}؛ لأن بعضهم يرجى إيمانه ويسير في طريق الإيمان، ومن سار في طريق الإيمان لَا يرجو زواله، ومن يريد الهداية لَا يودُّ زوالها.

١- رواه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب (٢٢) كيف كان إخراج اليهود من المدينة، حديث رقم (٣٠٠٠)، ١٥٤١٣. والواحدي في أسباب النزول ص٣٥-٣٦. وابن أبي حاتم في تفسيره حديث رقم (١٠٩٠) ١١\٣٣١-٣٣٢. وابن المنذر كما في الدر المنثور ١١\١٠٧. والبيهقي في الدلائل ٣\١٩٦-١٩٨. والطبراني في المعجم الكبير حديث رقم (١٥٤-١٥٥)١٩\٧٦-٧٨. وسنده صحيح وانظر تفسير ابن كثير ١١\١٥٣.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣٠٠٠).

الأمر الثاني: أنه ذكر أهل الكتاب دون غيرهم لأنهم كانوا أشدّ رغبة في تضليل المؤمنين، وكان الحق عندهم أشدّ بيانًا، وأقوى برهانًا؛ ولأن حسدهم أوضح، فكلما كانت الحجة أقطع، كان حسدهم أوضح وأبين وعداوتهم أشدّ، ولجاجتهم في الباطل.

قال ابن العثيمين: {حسدًا} مفعول لأجله عامله: {ودَّ}؛ أي ودّوا من أجل الحسد؛ يعني هذا الود لا لشيء سوى الحسد؛ لأن ما أنتم عليه نعمة عظيمة؛ وهؤلاء الكفار أعداء؛ والعدو يحسد عدوه على ما حصل له من نعمة الله؛ وال{حسد}: تمنّي زوال نعمة الله على الغير سواء تمنّى أن تكون له، أو لغيره، أو لا لأحد؛ فمن تمنّى ذلك فهو الحاسد؛ وقيل: ال{حسد}: كراهة نعمة الله على الغير.

قال الطبري: حسدكم أهل الكتاب على ما أعطاكم الله من التوفيق، ووهب لكم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله، وخصَّكم به من أن جعل رسوله إليكم رجلًا منكم رؤوفًا بكم رحيمًا، ولم يجعله منهم، فتكونوا لهم تبعًا.

قال القرطبي: الحسد نوعان: مذموم ومحمود، فالمذموم أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، وهذا النوع الذي ذمه الله تعالى في كتابه بقوله: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}[النساء: ٥٤]، وإنما كان مذمومًا لأن فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق. وأما المحمود فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله ﷺ: ((لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار([1]))). وهذا الحسد معناه الغبطة. وكذلك ترجم عليه البخاري (باب الاغتباط في العلم والحكمة). وحقيقتها: أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمّى هذا منافسة، ومنه قوله تعالى: {خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}[المطففين: ٢٦].

قال ابن القيم في الروح ج١ص٢٥٢: فالحسود عدوّ النعمة مُتَمَنٍّ زوالها عن المحسود، كما زالت عنه هو، والمنافس مسابق النعمة، متمنٍّ تمامها عليه وعلى من ينافسه، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به، أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة، فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيرًا، فإنه يتشبه به ويطلب اللِّحاق به والتقدم عليه، وهذا لا نذمه، وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي: ((لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق))، فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل.

وقال رحمه الله في بدائع الفوائد م٢ص٢٣٤: والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبها، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه، لأنه يطلب

١- (قلت): البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).

ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسدًا، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه وربما يعبده من دون الله تعالى حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له، وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب، ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ، ولهذا كان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول ﷺ، وفي الموطأ عن كعب قال: كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حمارًا: (أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم من شر ما خلق وذرأ وبرأ)، رواه مالك ورجاله ثقات. والمقصود أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشَّر لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود والشيطان يقترن به ويعينه ويزين له حسده ويأمره بموجبه والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانته بالشياطين.

قال أبو زهرة: {من عند أنفسهم}: وما كان الباعث على ذلك الحسد؟ وعبَّر عن حسدهم بأنه منبعث من نفوسهم، وذلك التعبير يشير إلى أمرين:

أولهما: أنه ليس له مبرِّر إلا من نفوسهم فلا وجه لأن يحسدوكم على ما آتاكم الله تعالى من فضله.

ثانيهما: تأكيد ما في نفوسهم من غلّ بقوله تعالى: {مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم}.

قال ابن العثيمين: {من بعد ما تبين}: أي من بعد ما ظهر {لهم}: أي لهؤلاء الكثيرين؛ {الحق}: أي ما أنتم عليه من الحق؛ و{الحق}: هو الشيء الثابت؛ فإن وصف به الحكم فالمراد به العدل؛ وإن وصف به الخبر فالمراد به الصدق؛ فـ{الحق}، الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ ودين الإسلام على هذا؛ وما جاء به الرسول ﷺ على هذا؛ فإن أخباره صدق، وأحكامه عدل.

قال شيخ الإسلام في الإقتضاء ج١ص٦: فذمَّ اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم، وقد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم.

قال ابن العثيمين: {فاعفوا واصفحوا}: الخطاب للمؤمنين عامة؛ ويدخل فيهم الرسول ﷺ؛ وال{عفو}: بمعنى ترك المؤاخذة على الذنب؛ كأنه من عفا الأثر: إذا زال لتقادمه؛ {واصفحوا}: قيل: إنه من باب عطف المترادفين، كقول الشاعر: (فألفى قولها كذبًا ومينًا)، و(الكذب) و(المين) معناهما واحد؛ ولكن الصواب أن بين ال{عفو} وال{صفح} فرقًا؛ فال{عفو}: ترك المؤاخذة على الذنب؛ وال{صفح}: الإعراض عنه؛ مأخوذ من صفحة العنق؛ وهو أن الإنسان يلتفت، ولا كأن شيئا صار. يوليه صفحة عنقه.؛ فال{صفح}: معناه الإعراض عن هذا بالكلية وكأنه لم يكن؛ فعلى هذا يكون بينهما فرق؛ فال{صفح}، أكمل إذا اقترن بال{عفو}.

قال أبو زهرة: و(العفو): معناه، ترك المؤاخذة على الذَّنب والرِّفق في المظهر، والمعاملة الحسنة؛ و(الصفح): هو إزالة كل أثر في النفس، فالعفو يتعلق بالمظهر كقوله تعالى: {خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْف وَأَعْرِض عَنِ الْجَاهِلِينَ}، والصفح ألا يبقى في النفس أثر من الآلام التي أثارها الحسد والعمل على مقتضاه، وكلاهما أعلى درجة من الصبر المجرَّد؛ لأن الصبر معناه الضبط والتحمل مع ملاحظة ورجاء، والعفو يتضمن كالصفح معنى الصبر، مع تجمُّل المظهر وألا تكون آلام قط مما يصنعون.

وقد حدَّ الله تعالى نهاية للعفو والصفح، وهو أن يأتي أمر الله قال تعالى: {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}: وإن ذلك يكون بأحد أمور ثلاثة: إما بالقصاص منهم، بإجلائهم أو قتالهم، وإما بنزع الحسد والحقد من قلوبهم وهدايتهم، وإما بالغلب عليهم وأن يكونوا في ظل المسلمين، ويعلنوا إسلامهم وقلوبهم ليست مؤمنة وإن الأمر بالصفح والعفو كان لإرضاء قلوبهم، وإخراج الحسد من نفوسهم فإنه لا يدني القلوب إلا عفو رفيق وصفح جميل.

قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: {فاعفوا}: فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم، إرادة صدّكم عنه، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم – وعما سلف منهم من قيلهم لنبيكم ﷺ: {وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ}[النساء: ٤٦]، و{اصفحوا} عما كان منهم من جهل في ذلك حتى يأتي الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد. فقضى فيهم تعالى ذكره، وأتى بأمره، فقال لنبيه ﷺ، وللمؤمنين به: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[التوبة: ٢٩]. فنسخ الله جل ثناؤه العفو عنهم والصّفح، بفرض قتالهم على المؤمنين، حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة، أو يؤدوا الجزية عن يد صغارًا. عن ابن عباس قوله: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير}، ونسخ ذلك قوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}[التوبة: ٥].

قال ابن عطية: وقال قوم: ليس هذا حد المنسوخ، لأن هذا في نفس الأمر كان التوقيف على مدته. عن الربيع في قوله: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره}، قال: اعفوا عن أهل الكتاب حتى يحدث الله أمرًا. فأحدث الله بعد فقال: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}، إلى: {وهم صاغرون}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٥ص١٦٩: وَالْمَنْقُولُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي احْتِمَالِهِ وَعَفْوِهِ عَمَّنْ كَانَ يُؤْذِيهِ كَثِيرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}، فَالْآمِرُ النَّاهِي إذَا أُوذِيَ وَكَانَ أَذَاهُ تَعَدِّيًا لِحُدُودِ اللَّهِ وَفِيهِ حَقٌّ لِلَّهِ، يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدِ النَّهْيُ عَنْهُ، وَصَاحِبُهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، لَكِنْ لَمَّا دَخَلَ فِيهِ حَقُّ الْآدَمِيِّ كَانَ لَهُ الْعَفْوُ عَنْهُ، كَمَا لَهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ الْقَاذِفِ وَالْقَاتِلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَعَفْوُهُ عَنْهُ لَا يُسْقِطُ عَنْ ذَلِكَ الْعُقُوبَةَ الَّتِي وَجَبَتْ عَلَيْهِ لِحَقِّ

اللَّهِ، لَكِنْ يُكْمِلُ لِهَذَا الْآمِرِ النَّاهِي مَقَامَ الصَّبْرِ وَالْعَفْوِ الَّذِي شَرَعَ اللَّهُ لِمِثْلِهِ، حَتَّى يَدْخُلَ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[آل عمران: ١٨٦]، وَفِي قَوْلِهِ: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}.

ثُمَّ هُنَا فَرْقٌ لَطِيفٌ، أَمَّا الصَّبْرُ فَإِنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ مُطْلَقًا، فَلَا يُنْسَخُ. وَأَمَّا الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ فَإِنَّهُ جُعِلَ إلَى غَايَةٍ، وَهُوَ: أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فَلَمَّا أَتَى بِأَمْرِهِ، بِتَمْكِينِ الرَّسُولِ وَنَصْرِهِ – صَارَ قَادِرًا عَلَى الْجِهَادِ لِأُولَئِكَ، وَإِلْزَامِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَمَنْعِهِمْ عَنْ الْمُنْكَرِ – صَارَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْيَدِ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ عَاجِزًا عَنْهُ، وَهُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ فِي ذَلِكَ، كَمَا كَانَ مَأْمُورًا بِالصَّبْرِ أَوَّلًا.

وقال رحمه الله في الصارم المسلول ج١ص٢١٧: أن هذه الآية وما شابهها منسوخ من بعض الوجوه، وذلك أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان بها يهود كثير ومشركون، وكان أهل الأرض إذ ذاك صنفين: مشركًا، أو صاحب كتاب، فهادن رسول الله ﷺ من بها من اليهود وغيرهم، وأمرهم الله إذ ذاك بالعفو والصفح كما في قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}، فأمره الله بالعفو والصفح عنهم إلى أن يظهر الله دينه ويعز جنده، فكان أول العز وقعة بدر، فإنها أذلت رقاب أكثر الكفار الذين بالمدينة، وأرهبت سائر الكفار.

قال الشنقيطي: هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ {بِأَمْرِهِ}. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هُوَ وَاحِدُ الْأَوَامِرِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ وَاحِدُ الْأُمُورِ، فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: بِأَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ هُوَ الْمُصَرَّحُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[٩ \ ٢٩]. وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ وَاحِدُ الْأُمُورِ: فَهُوَ مَا صَرَّحَ اللَّهُ بِهِ فِي الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا أَوْقَعَ بِالْيَهُودِ مِنَ الْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ كَقَوْلِهِ: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ} الْآيَةَ [٥٩ \ ٢، ٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَالْآيَةُ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ عَلَى التَّحْقِيقِ.

قال ابن العثيمين: {إن الله على كل شيء قدير}: أي لا يعتريه عجز في كل شيء فعله([1]).

قال الطبري: إن الله – على كل ما يشاء بالذين وصفت لكم أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم – قدير([2])، إن شاء انتقم منهم بعنادهم ربهم، وإن شاء هداهم لما هداكم الله له من الإيمان، لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يتعذّر عليه أمر شاء قضاءه، لأن له الخلق والأمر.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {القدير} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة،

٢- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن {إن الله على كل شيء قدير} عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة، والآية (١٨٩) من سورة آل عمران.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان شدة عداوة اليهود، والنصارى للأمة الإسلامية؛ وجه ذلك أن كثيرًا منهم يودون أن يردوا المسلمين كفارًا حسدًا من عند أنفسهم.

٢- أن الكفر بعد الإسلام يسمى ردة؛ لقوله تعالى: {لو يردونكم}؛ ولهذا الذي يكفر بعد الإسلام لا يسمّى باسم الدين الذي ارتدّ إليه؛ فلو ارتدّ عن الإسلام إلى اليهودية، أو النصرانية لم يعط حكم اليهود، والنصارى.

٣- أن الحسد من صفات اليهود، والنصارى.

٤- تحريم الحسد؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة؛ لقول النبي ﷺ: ((من تشبه بقوم فهو منهم([1])))؛ واعلم أن الواجب على المرء إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة أن يسأل الله من فضله، ولا يكره ما أنعم الله به على الآخرين، أو يتمنّى زواله؛ لقوله تعالى: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله}[النساء: ٣٢]؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا نارًا تتلظى في جوفه؛ وكلّما ازدادت نعمة الله على عباده ازداد حسرة؛ فهو مع كونه كارهًا لنعمة الله على هذا الغير مضاد لله في حكمه؛ لأنه يكره أن ينعم الله على هذا المحسود؛ ثم إن الحاسد أو الحسود. مهما أعطاه الله من نعمة لا يرى لله فضلًا فيها؛ لأنه لابدّ أن يرى في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه، فيحتقر النعمة؛ حتى لو فرضنا أنه تميز بأموال كثيرة، وجاء إنسان تاجر، وكسب مكسبًا كبيرًا في سلعة معينة تجد هذا الحاسد يحسده على هذا المكسب بينما عنده ملايين كثيرة؛ وكذلك أيضًا بالنسبة للعلم: بعض الحاسدين إذا برز أحد في مسألة من مسائل العلم تجده. وإن كان أعلم منه.

يحسده على ما برز به؛ وهذا يستلزم أن يحتقر نعمة الله عليه؛ فالحسد أمره عظيم، وعاقبته وخيمة؛ والناس في خير، والحسود في شر: يتتبع نعم الله على العباد؛ وكلما رأى نعمة صارت جمرة في قلبه؛ ولو لم يكن من خلق الحسد إلا أنه من صفات اليهود لكان كافيًا في النفور منه.

٥- علم اليهود، والنصارى أن الإسلام منقبة عظيمة لمتبعه؛ لقوله تعالى: {حسدًا}؛ لأن الإنسان لا يحسد إلا على شيء يكون خيرًا، ومنقبة؛ ويدل لذلك قوله تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}[البقرة: ١٠٥].

٦- وجوب الحذر من اليهود، والنصارى؛ ما دام كثير منهم يودون لنا هذا فإنه يجب علينا أن نحذر منهم.

٧- بيان خبث طوية هؤلاء الذين يودون لنا الكفر؛ لقوله تعالى: {من عند أنفسهم}؛ ليس من كتاب، ولا من إساءة المسلمين إليهم؛ ولكنه من عند أنفسهم: أنفس خبيثة تود الكفر للمسلمين حسدًا.

---

[1]- أخرجه أحمد ٢/٥٠، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفين كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ١٠/٢٧١: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/٥٠٤، وقال في الإرواء: صحيح ٥/١٠٩، حديث رقم ١٢٦٩.

٨- أن هؤلاء الذين يودون الكفر للمسلمين قد تبين لهم الحق؛ فلو كانوا جاهلين بأن المسلمين على حق، وقالوا: (لا نريد أن نكون على دين مشكوك فيه) لكان لهم بعض العذر؛ ولكنهم قد تبين لهم الحق، وعلموا أن الرسول ﷺ حق، وأن دينه حق، وأن المؤمنين على حق؛ ومع ذلك فهم يودون هذه المودة، ويسعون بكل سبيل أن يصلوا إلى غايتهم؛ فمن أحب شيئًا سعى في تحصيله؛ فكثير من هؤلاء اليهود والنصارى يسعون بكل ما يستطيعون من قوة مادية، أو أخلاقية، أو غيرهما ليردوا المسلمين بعد الإيمان كفارًا.

٩- مراعاة الأحوال، وتطور الشريعة، حيث قال تعالى: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره}.

١٠- أن الذم إنما يقع على من تبين له الحق؛ وأما الجاهل فهو معذور بجهله إذا لم يقصر في طلب العلم.

١١- جواز مهادنة الكفار إذا لم يكن للمسلمين قوة.

١٢- إثبات الحكمة لله عز وجل، حيث أمر بالعفو، والصفح إلى أن يأتي الله بأمره؛ لأن الأمر بالقتال قبل وجود أسبابه، وتوفر شروطه من القوة المادية والبشرية، ينافي الحكمة.

١٣- الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد فعلًا يليق بجلاله وعظمته، وما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: {حتى يأتي الله بأمره}.

١٤- ثبوت القدرة لله عز وجل، وأنها شاملة لكل شيء؛ لقوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير}.

١٥- الرَّد على المعتزلة القدرية؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله؛ وإذا كان مستقلًا بعمله لزم من ذلك أن الله لا يقدر على تغييره؛ لأنه إن قدر على تغييره صار العبد غير مستقل.

١٦- بشارة المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى سيغير حالهم المقتضية للعفو والصفح، إلى قوة يستطيعون بها جهاد العدو.

١٧- اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله بالصبر، والمصابرة حتى يتحقق النصر، وأن تعامل كل حال بما يناسبها.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

قال ابن العثيمين: {وأقيموا الصلاة}: يعني أدوا الصلاة على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء جعله قيِّمًا معتدلًا مستقيمًا؛ فمعنى {أقيموا الصلاة}: أي ائتوا بها كاملة بشروطها، وواجباتها، وأركانها، ومكمِّلاتها.

{وآتوا الزكاة}: أي أعطوها؛ وهنا حذف المفعول الثاني؛ والتقدير: وآتوا الزكاة مستحقيها؛ و{الزكاة}، المفعول الأول؛ ومستحقوها قد بينهم الله في سورة براءة في قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء ... } إلخ [التوبة: ٦٠]. و{الزكاة} في اللغة النماء، والزيادة؛ ومنه قولهم: (زكا الزرع) إذا نما، وزاد؛ وفي الشرع هي دفع مال مخصوص لطائفة

مخصوصة تعبُّدًا لله عز وجل؛ وسمِّيت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}[التوبة: ١٠٣]؛ فهي تزكي الإنسان في أخلاقه، وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد، والكرماء؛ وتكفر سيئاته.

قال أبو زهرة: إقامة الصلاة أداؤها على الوجه الأكمل بأن يأتي بأركانها الظاهرة، وأركانها الباطنة مقوَّمة غير مِعوَجة طيبة خارجة من القلوب ليست النفس منفصلة عما تقوم به الجوارح، فإذا قال: (الله أكبر) شعر بعظمة الله وأحسَّ برقابته، وأنه دخل بالتكبير في ظل رحمته، وأنه رقيب عليه وأنه يواجهه، وأنه في حضرة منشئ هذا الوجود بما فيه من سماء وأرض وجبال وواد، وأن نفسه في قبضة يده، والوجود كله في قبضته، وإنه بذلك يحس كأنه يرى الله لأنه في حضرته، وبذلك يعلو عن الأحقاد وعن الحسد، وعن كل ضغن وإحن، ولذا قال تعالى: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ}.

والزكاة تعاون إنساني، لأنها معاونة القوي للضعيف وإعطاء الغني للفقير، والربط بين الإنسان بالأخوة الجامعة والمحبَّة الراحمة والمودَّة الواصلة، وعندها يزول الحسد ولا يتمنّى أحد زوال نعمة أحد، وعند ذلك يكون العفو الشامل والصفح الجميل، ويدرك معنى قوله تعالى: {فاصفح الصفح الجميل}، ويراه بقلبه عيانًا. وإن الأمر بالصلاة التي هي رمز للطهارة النفسية والائتلاف النفسي، وإيتاء الزكاء التي تدلّ على الطهارة الجماعية والائتلاف – أمر سبحانه وتعالى بفعل الخير في شتى صوره، وقال تعالى: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}.

قال ابن العثيمين: {وما تقدموا لأنفسكم}؛ {ما} شرطية؛ لأنها جزمت فعل الشرط، وجوابه.

{من خير} يشمل ما يقدمه من المال، والأعمال؛ وهو بيان للمبهم في اسم الشرط.

قال الطبري: وأما قوله: {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله}، فإنه يعني جل ثناؤه بذلك: ومهما تعملوا من عمل صالح في أيام حياتكم، فتقدموه قبل وفاتكم ذخرًا لأنفسكم في معادكم، تجدوا ثوابه عند ربكم يوم القيامة، فيجازيكم به. وال{خير}، هو العمل الذي يرضاه الله. وإنما قال: {تجدوه}، والمعنى: تجدوا ثوابه، لاستغناء سامعي ذلك بدليل ظاهر على معنى المراد منه. عن الربيع قوله: {تجدوه} يعني: تجدوا ثوابه عند الله.

قال أبو زهرة: ونلاحظ ثلاثة أمور في كل واحدة إشارة بيانية، وحكمة ربانية.

الإشارة الأولى: أن الله تعالى عبَّر عنِ فعل الخير سواء أكان لنفسه أم كان للجماعة بقوله: {وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ} لأن فعل الخير للجماعة فعل لنفسه، والخير يعود على فاعله ابتداء، ويعود على الجماعة انتهاء، فمن تصدَّق فإنَّما يتصدَّق لنفسه؛ لأن الفائدة إليه إذ يعيش في مجتمع متكافل غير متدابر، ولتطيب بفعله القلوب وتسود المحبة الكامنة، وكذلك كل فعل خير يكون لنفسه، وهو يقدمه لنفسه أو يكون له ثوابه.

الإشارة الثانية: أنه يجد العمل قائمًا ثابتًا عند الله، فيكون مهيأً حاضرًا يراه ويعاينه، وذلك كناية عن جزائه الذي لا ينقص عنه، بل قد يزيد عليه رحمة من الله تعالى، ويراه عند الله محفوظًا لَا يضيع.

الإشارة الثالثة: تذييل الآية الكريمة بما يفيد علم الله تعالى بقوله تعالت كلماته: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، وهذه الجملة السامية تفيد علم الله الذي لا تخفى عليه خافية، فلا يضيع عمل عامل منكم، وقد أكد سبحانه وتعالى إحاطة علمه بما يظهر وما يخفى مؤكدات ثلاث:

أولها: إحاطته وسموا ذلك بالتعبير بـ{ما} الدالَّة على العموم، فإنها بمعنى (الذي)، وهي تدلّ على العموم الشامل.

ثانيها: بالجملة الاسمية وتأكيد الجملة ب{إن} وتقديم الجار والمجرور على {بصير}، والتقديم دالّ على التخصيص.

وثالثها: التعبير عن العلم بال{بصير}؛ فمعناه علم كأنه مبصور بالبصر، يعلم الخفي الدقيق، والجليّ الواضح، فلا يخفى عليه شيء من عمل الإنسان ويعلمه علم من يبصره.

قال ابن العثيمين: {إنَّ الله بما تعملون بصير}؛ هذه الجملة مؤكَّدة بـ{إن}، مع أن الخطاب ابتدائي؛ إذ إنه لم يوجه إلى متردِّد، ولا منكِر؛ والخطاب إذا لم يوَجَّه لمنكِر ولا متردِّد فإنه يسمَّى ابتدائيًا؛ والابتدائي لا يؤكَّد؛ لأنه لا حاجة لذلك؛ ولكنه قد يؤكَّد لا باعتبار حال المخاطب؛ لكن باعتبار أهمية مدلوله؛ فهنا له أهمية عظيمة: أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أنه بكل ما نعمل بصير؛ و{ما}، اسم موصول يفيد العموم؛ أي بما نعمل قلبيًّا، وبدنيًّا؛ قوليًّا، وفعليًّا؛ لأن القلوب لها أعمال كالمحبة، والخوف، والرجاء، والرغبة، وما أشبه ذلك؛ و{بما تعملون}، متعلقة بـ{بصير}؛ وقدمت عليها لغرضين؛ الأول: مراعاة الفواصل؛ لأن التي قبلها فاصلة بالراء: {قدير}، وبعدها: {بصير}؛ والثاني: من أجل الحصر؛ والحصر هنا وإن كان يقلل من العموم لكنه يفيد الترهيب والترغيب؛ لأنه إذا قيل: أيهما أعظم في التهديد أو الترغيب، أن نقول: إن الله بصير بكل شيء مما نعمل، ومما لا نعمل؛ أو أنه بصير بما نعمل فقط؟

فالجواب: أن الأول أعم؛ والثاني أبلغ في التهديد، أو الترغيب؛ وهو المناسب هنا؛ كأنه يقول: لو لم يكن الله بصيرًا إلا بأعمالكم فإنه كاف في ردعكم، وامتثالكم؛ و{بصير}، ليس من البصر الذي هو الرؤية؛ لكن من البصر الذي بمعنى العلم؛ لأنه أشمل حيث يعم العمل القلبي، والبدني؛ والعمل القلبي لا يدرك بالرؤية.

قال الطبري: وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير وشر سرًّا وعلانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيرًا، وبالإساءة مثلها.

وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعدًا ووعيدًا، وأمرًا وزجرًا. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدوا في طاعته، إذْ كان ذلك مذخورًا لهم عنده حتى يثيبهم عليه، كما قال: {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله}، وليحذروا معصيته، إذْ كان مطَّلعًا على راكبها، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها، وما أوعد عليه ربنا جل ثناؤه فمنهي عنه، وما وعد عليه فمأمور به.

وأما قوله: {بصير(١)}، فإنه (مبصر) صرف إلى (بصير)، كما صرف (مبدع) إلى (بديع)، (ومؤلم) إلى (أليم).

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب إقامة الصلاة؛ والصلاة تشمل الفريضة والنافلة؛ ومن إقامة الفرائض كثرة النوافل؛ لأنه جاء في الحديث[1] أن النوافل تكمل بها الفرائض يوم القيامة؛ ما من إنسان إلا وفي فريضته نقص؛ لكن هذه النوافل تكملها، وترقعها.

٢- وجوب إيتاء الزكاة. يعني لمستحقيها.

٣- أن الصلاة أوكد من الزكاة؛ ولهذا يقدمها الله عليها في الذكر.

٤-أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من أسباب النصر؛ لأن الله ذكرها بعد قوله: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} [البقرة: ١٠٩]؛ وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}[الحج:٤٠، ٤١].

٥- أنه ينبغي للإنسان أن يتشاغل بالأهم فالأهم مع الدعوة إلى الله عز وجل.

٦- أن كل خير يقدمه العبد لربه عز وجل فإنه سيجد ثوابه عنده.

٧- أن الثواب عام لجميع الأعمال صغيرها، وكبيرها؛ لقوله تعالى: {من خير}؛ فإنها نكرة في سياق الشرط؛ فتفيد العموم؛ فأي خير قدمته قليلًا كان، أو كثيرًا ستجد ثوابه؛ قال الرسول ﷺ: ((اتقوا النار ولو بشق تمرة[2])).

٨- الترغيب في فعل الخير، حيث إن الإنسان يجد ثوابه عند ربه مدَّخرًا له. وهو أحوج ما يكون إليه.

٩- أن الإنسان إذا قدَّم خيرًا فإنما يقدمه لنفسه؛ لقوله تعالى: {وما تقدموا لأنفسكم من خير}؛ ولهذا ليس له من ماله إلا ما أنفق لله؛ وما أخره فلوارثه.

١٠- عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل.

١١- التحذير من المخالفة؛ لقوله تعالى: {إن الله بما تعملون بصير}.

١- كما في سنن أبي داود في الصلاة، باب قول النبي ﷺ: ((كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه))، من حديث أنس بن حكيم حديث رقم (٨٦٤). والترمذي باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة حديث رقم (٤١٣)، والنسائي في الصلاة. باب المحاسبة على الصلاة.

٢- اخرجه البخاري، ١١١، كتاب الزكاة، باب ١٠: (اتقوا النار ولو بشق تمرة)، حديث رقم ١٤١٧، وأخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ٢٠: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ... ، حديث رقم ٢٣٤٨ [٦٧] ١٠١٦.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٨١٠)، والحديث بتمامه: عن أنس بن حَكِيمٍ الضَّبِّيِّ قال: خاف من زياد- أو ابن زياد -، فأتى المدينة، فلقي أبا هريرة، قال: فنسَبَني فانتسبت له، فقال: يا فتى! ألا أحدثك حديثاً؟! قال: قلت: بلى رحمك الله! - قال يونس: أحسبه ذكره عن النبي ﷺ قال: ((إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم: الصلاةُ؛- قال:- ((يقول ربنا جل وعز لملائكته - وهو أعلم -: انظروا في صلاة عبدي؛ أتمّها أم نقصها؟ فإن كانت تامة؛ كتِبَتْ له تامةً، وإن كان انتقص منها شيئًا؛ قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟! فإن كان له تطوع؛ قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تُؤْخَذ الأعمال على ذاكم)). (قلت: حديث صحيح، وصححه الحاكم والذهبي وابن عبد البر وحسنه الترمذي).

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {١١١}

قال أبو زهرة: ذكر سبحانه وتعالى حسد اليهود بالمدينة، وكيف يداوي المؤمنون داء الحسد عند هؤلاء وهو بالعفو والصفح رجاء أن يقربوا بدل أن يستمروا على جفوتهم ونفرتهم، حتى يكون اليأس من إدنائهم فيكون القصاص أو الكشف والإبعاد، والله تعالى على كل شيء قدير.

ولقد بيَّن سبحانه سبب حسدهم وهو غرورهم بأنهم أهل الجنة وحدهم فقال تعالى: {وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}.

قال ابن العثيمين: {وقالوا}: أي اليهود، والنصارى؛ {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا}: هذا قول اليهود؛ {أو نصارى}: هذا قول النصارى.

{تلك أمانيهم}: أي تلك المقالة؛ و{أمانيهم}، جمع أمنية؛ وهي ما يتمناه الإنسان بدون سبب يصل به إليه.

قال الطبري: فإنه خبر من الله تعالى ذكره عن قول الذين قالوا: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى}، أنه أمانيّ منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان، ولا يقين علم بصحة ما يدعون، ولكن بادعاء الأباطيل وأماني النفوس الكاذبة. عن قتادة: {تلك أمانيهم}، أماني يتمنونها على الله كاذبة. عن الربيع: {تلك أمانيهم}، قال: أماني تمنوا على الله بغير الحق.

قال ابن العثيمين: {قل}: أي يا محمد؛ {هاتوا}: فعل أمر؛ لأن ما دلَّ على الطلب، ولحقته العلامة فهو فعل أمر؛ يقال: (هاتي) للمرأة؛ (هاتيا) للاثنين؛ والأمر هنا للتحدي، والتعجيز؛ {برهانكم}: أي دليلكم؛ من (برهن على الشيء) إذا بينه؛ أو من (برهن الشيء): إذا وضح بالعلامة؛ فعلى الأول تكون النون أصلية؛ وعلى الثاني تكون النون زائدة؛ وعلى القولين جميعا فـ(البرهان): هو الذي يتبين به حجة الخصم؛ يعني ما نقبل كلامكم إلا إذا أقمتم عليه الدليل؛ فإذا أقمتم عليه الدليل فهو على العين، والرأس.

{إن كنتم صادقين}: يعني أن هذا أمر لا يمكن وقوعه؛ فهو تحد، كقوله تعالى: {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم}[البقرة: ٩٤، ٩٥]؛ فإذا كانوا صادقين في زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، أو نصارى فليأتوا بالبرهان؛ ولن يأتوا به؛ إذًا يكونون كاذبين.

قال الطبري: وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ بدعاء الذين قالوا: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى} – إلى أمر عدل بين جميع الفرق: مسلمها ويهودها ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادعوا: من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: {هاتوا برهانكم}، على ما تزعمون من ذلك، فنسلم لكم

دعواكم إن كنتم في دعواكم – من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى – محقين. والبرهان: هو البيان والحجة والبينة. عن قتادة: {هاتوا برهانكم}، هاتوا بينتكم. عن السدي وعن مجاهد وعن الربيع: {هاتوا برهانكم}: هاتوا حجتكم. وهذا الكلام، وإن كان ظاهره ظاهر دعاء القائلين: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى} – إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدًا. وقد أبان قوله: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}، عن أن الذي ذكرنا من الكلام، بمعنى التكذيب لليهود والنصارى في دعواهم ما ذكر الله عنهم.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥٠: هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود لا يدخلها إلا من كان هودًا، وقالت النصارى لا يدخلها إلا من كان نصرانيًّا، فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس ووضوح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، وهذا هو المسمّى سؤال المطالبة بالدليل، فمن ادَّعى دعوى بلا دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقًا فيما ادَّعيت.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– بيان ما كان عليه اليهود، والنصارى من الإعجاب بما هم عليه من الدين.

٢– تعصب اليهود، والنصارى؛ وتحجيرهم لفضل الله.

٣– أن ما ادعوه كذب؛ لقوله تعالى: {تلك أمانيُّهم}؛ فعلى قول هؤلاء اليهود يكون النصارى، والمسلمون لن يدخلوا الجنة؛ وقد سبق أن قالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ثم تخلفوننا فيها؛ وعلى قول النصارى لا يدخل اليهود، ولا المسلمون الجنة؛ أما اليهود فصحيح: فإنهم كفروا بعيسى، وبمحمد؛ ومن كفر بهما فإنه لن يدخل الجنة؛ وأما بالنسبة للمسلمين فغير صحيح؛ بل المسلمون هم أهل الجنة؛ وأما اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا رسول الله ﷺ فهم أهل النار؛ لقول النبي ﷺ: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار([1]))؛ فالحاصل أن هذا القول. وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى. كذب من الطرفين؛ ولهذا قال تعالى: {تلك أمانيُّهم}.

٤– أن من اغتر بالأماني، وطمع في المنازل العالية بدون عمل لها ففيه شبه من اليهود، والنصارى.

٥– عدل الله عز وجل في مخاطبة عباده، حيث قال تعالى: {قل هاتوا برهانكم}؛ لأن هذا من باب مراعاة الخصم، وأنه إن كان لكم بينة فهاتوها؛ وهذا لا شك من أبلغ ما يكون من العدل؛ وإلا فالحكم لله العلي الكبير.

٦– أن هؤلاء لا برهان لهم على ما ادعوه بدليل أنهم لم يأتوا به.

١– أخرجه مسلم ص٧٥٣، كتاب الإيمان، باب ٧٠: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ... ، حديث رقم ٣٨٦ [] ٢٤٠ ١٥٣.

٧- أنهم كاذبون؛ لقوله تعالى: {إن كنتم صادقين}؛ ولو كان لهم أدنى حيلة بما يبرر قولهم، ويصدقه لأتوا بها.

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

قال ابن العثيمين: {بلى}: هذا إبطال للنفي في قولهم: {لن يدخل ...} إلخ؛ وإن كان بعض المفسرين يقول: إن {بلى} هنا بمعنى (بل)؛ ولكن نقول: {بلى} هنا حرف جواب تفيد إبطال النفي؛ يعني لمّا قالوا: {لن يدخل الجنة ..} إلخ، قال الله تعالى: {بلى}: أي يدخل الجنة من ليس هودًا، أو نصارى؛ وبينه بقوله تعالى: {من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره}؛ {من} شرطية؛ وهي مبتدأ؛ وجواب الشرط قوله تعالى: {فله أجره}.

قال الطبري: {من أسلم وجهه لله}، فإنه يعني بـ(إسلام الوجه): التذلل لطاعته والإذعان لأمره. وأصل (الإسلام): الاستسلام، لأنه (من استسلمت لأمره)، وهو الخضوع لأمره. وإنما سمِّي (المسلم) مسلمًا بخضوع جوارحه لطاعة ربه. عن الربيع: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ}، يقول: أخلص لله. وكما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلَمَتْ ... له المزن تحمل عذبًا زلالًا

يعني بذلك: استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته المزن وانقادت له. وخص الله جل ثناؤه بالخبر عمن أخبر عنه بقوله: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، بإسلام وجهه له دون سائر جوارحه، لأن أكرم أعضاء ابن آدم وجوارحه وجهه، وهو أعظمها عليه حرمة وحقًّا، فإذا خضع لشيء وجهه الذي هو أكرم أجزاء جسده عليه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له. ولذلك تذكر العرب في منطقها الخبر عن الشيء، فتضيفه إلى (وجهه) وهي تعني بذلك نفس الشيء وعينه، كقول الأعشى:

أُؤَوِّل الحكم على وَجهه ... ليس قضائي بالهوى الجائر

يعني بقوله: (على وجهه): على ما هو به من صحته وصوابه. فكذلك معنى قوله جل ثناؤه: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، إنما يعني: بلى من أسلم لله بدنه، فخضع له بالطاعة جسده، وهو محسن في إسلامه له جسده، فله أجره عند ربه. فاكتفى بذكر (الوجه) من ذكر (جسده) لدلالة الكلام على المعنى الذي أريد به بذكر (الوجه).

قال ابن العثيمين: والمراد بـ(الوجه) القصد، والنية، والإرادة؛ {أسلم وجهه لله}: أي جعل اتجاهه، وقصده، وإرادته خالصًا لله عز وجل؛ وعبر بـ(الوجه) لأنه الذي يدل على قصد الإنسان؛ ولهذا يقال: أين كان وجه فلان؟ يعني: أين كان قصده، واتجاهه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢ص٤٣١: فَإِنَّ وَجْهَهُ هُوَ قَصْدُهُ، وَتَوَجُّهُهُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ عَمَلِهِ، وَهُوَ عَمَلُ قَلْبِهِ الَّذِي هُوَ مِلْكُ بَدَنِهِ، فَإِذَا تَوَجَّهَ قَلْبُهُ تَبِعَهُ أَيْضًا تَوَجَّهَ وَجْهُهُ، فَاسْتَتْبَعَ الْقَصْدَ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ مِنْ الْقَلْبِ، الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ لِلْعَمَلِ، الَّذِي هُوَ تَبَعٌ مِنْ الْوَجْهِ وَسَائِرِ الْبَدَنِ الَّذِي هُوَ تَبَعٌ، فَيَكُونُ قَدْ أَسْلَمَ عَمَلَهُ الْبَاطِنَ وَالظَّاهِرَ،

وَأَعْضَاءَهُ الْبَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ لِلَّهِ، أَيْ سَلَّمَهُ لَهُ، وَأَخْلَصَهُ لِلَّهِ، كَمَا فِي الْإِسْلَامِ اللَّازِمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[البقرة: ١٣١]، وَقَوْلُهُ عَنْ بلقيس: {إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[النمل: ٤٤]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}[البقرة: ١٢٨]: أَيْ مُنْقَادَةً مُخْلِصَةً.

قال ابن العثيمين: {وهو محسن}: الجملة في محل نصب على الحال من فاعل {أسلم}؛ يعني: أسلم والحال أنه محسن. أي متبع لشريعة الله ظاهرًا، وباطنًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٢ص٤٦٩: وَقَالَ تَعَالَى - لَمَّا ذَكَرَ قَوْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى:{لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[البقرة: ١١١]. فَأَمَرَ أَنْ يُطَالِبَهُمْ بِالْبُرْهَانِ عَلَى هَذَا النَّفْيِ الْعَامِّ(١)، وَمَا فِيهِ مِنْ الْإِثْبَاتِ الْبَاطِلِ، ثُمَّ قَالَ: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ١١٢].

فَأَخْبَرَ - سُبْحَانَهُ - عَمَّنْ مَضَى مِمَّنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِدِينِ حَقٍّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ، وَعَنْ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنَّهُ مَنْ جَمَعَ (الْخِصَالَ الثَّلَاثَ) الَّتِي هِيَ جِمَاعُ الصَّلَاحِ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِالْخَلْقِ، وَالْبَعْثِ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ أَدَاءُ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَتَرْكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، فَإِنَّ لَهُ حُصُولُ الثَّوَابِ وَهُوَ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَانْدِفَاعُ الْعِقَابِ. فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ وَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا وَرَاءَهُ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}، إخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَهُوَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة: ٥]، وَهُوَ مُحْسِنٌ.

فَ(الْأَوَّلُ) وَهُوَ إسْلَامُ الْوَجْهِ هُوَ النِّيَّةُ، وَهَذَا (الثَّانِي) - وَهُوَ الْإِحْسَانُ - هُوَ الْعَمَلُ. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ هُوَ الْإِيمَانُ الْعَامُّ، وَالْإِسْلَامُ الْعَامُّ، الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ، مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ.

وقال رحمه اللّه في الاستقامة ج٢ص٣٠٢: وَهَذَا هُوَ الاسلام الْعَام الَّذِي لَا يقبل الله من أحُدُ غَيره، قَالَ تَعَالَى: {وَمن يبتغ غير الْإِسْلَام دينا فَلَنْ يقبل مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَة من الخاسرين}[آل عمرَان: ٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {شهد الله انه لَا اله الا هُوَ وَالْمَلَائِكَة واولو الْعلم قَائِما بِالْقِسْطِ لَا اله الا هُوَ الْعَزِيز الْحَكِيم ان الدّين عِنْد الله الاسلام}[آل عمرَان: ١٨- ١٩]. والاسلام يجمع مَعْنيين: احدهما: الاستسلام والانقياد فَلَا يكون متكبرًا. وَالثَّانِي: الاخلاص من قَوْله تَعَالَى: {ورجلًا سلمًا لرجل}[الزمر: ٢٩]، فَلَا يكون مُشْتَركًا، وَهُوَ ان يسلم العَبْد لله رب الْعَالمين، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { وَمن يرغب عَن مِلَّة ابراهيم الا من سفه نَفسه وَلَقَد اصطفيناه فِي الدُّنْيَا وانه فِي الاخرة لمن الصَّالِحين * اذ

١- (قلت): قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥١: فالتحقيق في مسألة النافي هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان:

- نوع مستلزم لإثبات ضد المنفي، فهذا يلزم النافي فيه الدليل، كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بالدليل قطعًا لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها، ولا بدّ من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم ولا بدّ له من دليل.

- النوع الثاني نفي لا يستلزم ثبوتا كنفي صحة عقد من العقود أو شرط وعبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات فالنافي إن نفى العلم به لم يلزمه دليل.

قَالَ لَهُ ربه اسْلَمْ قَالَ اسلمت لرب الْعَالمين * ووصى بهَا ابراهيم بنيه وَيَعْقُوب يَا بني ان الله اصْطفى لكم الدّين فَلَا تموتن الا وانتم مُسلمُونَ}[الْبَقرة: ١٣٠ – ١٣٢]. وَقَالَ تَعَالَى: {قل انني هَدَاني رَبِّي الى صِرَاط مُسْتَقِيم * دينا قيمًا مِلَّة ابراهيم حَنِيفا وَمَا كَانَ من الْمُشْركين * قل ان صَلَاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب الْعَالمين لَا شريك لَهُ وَبِذَلِك أمرت وانا أول الْمُسلمين}[الانعام: ١٦١– ١٦٣]. والاسلام يسْتَعْمل لَازِمًا معدي بِحرف اللَّام مثل مَا ذكر فِي هَذِه الآيَات وَمثل قَوْله تَعَالَى: {قَالَت رب إِنِّي ظلمت نَفسِي وَأسْلمت مَعَ سُلَيْمَان لله رب الْعَالمين}[النَّمْل: ٤٤]. وَمثل قَوْله تَعَالَى: {وأنيبوا إِلَى ربكُم وَأَسْلمُوا لَهُ من قبل أَن يأتيكم الْعَذَاب ثمَّ لَا تنْصرُونَ}[الزمر: ٥٤]. وَمثل قَوْله: {أفغير دين الله يَبْغُونَ وَله اسْلَمْ من فِي السَّمَوَات والارض طَوْعًا وَكرهًا واليه يرجعُونَ}[آل عمرَان: ٨٣]. وَمثل قَوْله: {قل اندعوا من دون الله مَالا ينفعنا وَلَا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إِذْ هدَانَا الله كَالَّذي استهوته الشَّيَاطِين فِي الأَرْض حيران لَهُ أَصْحَاب يَدعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائتنا قل إِن هدى الله هُوَ الْهدى وأمرنا لنسلم لرب الْعَالمين * وان أقِيمُوا الصَّلَاة واتقوه وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تحشرون}[الأنعام: ٧١ – ٧٢].

ويسْتَعْمل مُتَعَدِّيًا مَقْرُونًا بِالْإِحْسَانِ كَقَوْلِه تَعَالَى: {وَقَالُوا لن يدْخل الْجنَّة إِلَّا من كَانَ هودًا أَو نَصَارَى تِلْكَ أمانيهم قل هاتوا برهانكم إِن كُنْتُم صَادِقين * بلَى من اسْلَمْ وَجهه لله وَهُوَ محسن فَلهُ أجره عِنْد ربه وَلَا خوف عَلَيْهِم وَلَا هم يَحْزَنُونَ}[الْبَقَرَة: ١١١ – ١١٢]. وَقَوله تَعَالَى: {وَمن أحسن دينًا مِمَّن أسلم وَجهه لله وَهُوَ محسن وَاتبع مِلَّة إِبْرَاهِيم حَنِيفًا وَاتخذ الله إِبْرَاهِيم خَلِيلًا}[النِّسَاء: ١٢٥]. فقد أنكر الله أَن يكون دين أحسن من هَذَا الدّين، هُوَ اسلام الْوَجْه لله مَعَ الاحسان، وَاخْبَرْ انه كل {من أسلم وَجهه لله وَهُوَ محسن فَلهُ أجره عِنْد ربه وَلَا خوف عَلَيْهِم وَلَا هم يَحْزَنُونَ}[الْبَقَرَة: ١١٢]، اثْبتَ هَذِه الْكَلِمَة الجامعة والقضية الْعَامَّة ردًّا لما زَعمه من زَعمه انه لَا يدْخل الْجنَّة الا متهود أَو متنصر.

وَهَذَانِ الوصفان، وهما: اسلام الْوَجْه لله والاحسان هما الاصلان المتقدمان، وهما: كَون القَوْل وَالْعَمَل خَالِصًا لله صَوَابًا مُوَافقًا للسّنة والشريعة، وَذَلِكَ إِن إِسْلَام الْوَجْه لله هُوَ يتَضَمَّن اخلاص الْقَصْد وَالنِّيَّة لله كَمَا قَالَ بَعضهم:

استْغْفر الله ذَنبًا لست محصيه ... رب الْعباد إِلَيْهِ الْوَجْه وَالْعَمَل

وَقد اسْتعْمل هُنَا اربعة الفاظ اسلام الْوَجْه واقامة الْوَجْه كَقَوْلِه تَعَالَى: {وَأقِيمُوا وُجُوهكُم عِنْد كل مَسْجِد}[الْأَعْرَاف: ٢٩]، وَقَوله تَعَالَى: {فأقم وَجهك للدّين حَنِيفا فطْرَة الله الَّتِي فطر النَّاس عَلَيْهَا}[الرّوم: ٣٠]، وتوجيه الْوَجْه كَقَوْل الْخَلِيل: {وجهت وَجْهي لِلَّذي فطر السَّمَوَات والارض حَنِيفا وَمَا أَنا من الْمُشْركين}[الأنعام: ٧٩].

وَكَذَلِكَ كَانَ النَّبِي ﷺ يَقُول فِي دُعَاء الاستفتاح فِي صلَاته: ((وجهت وَجْهي لِلَّذي فطر السَّمَوَات والارض حَنِيفًا وَمَا أنا من الْمُشْركين([1]))). وَكَانَ يَقُول إِذا أوى إِلَى فرَاشه: ((اللَّهُمَّ أسلمت نَفسِي إِلَيْك ووجهت وَجْهي إِلَيْك([2])))، رَوَاهُ الْبَراء بن عَازِب فِي الصَّحِيح أَيْضًا، فَالْوَجْه يتَنَاوَل المتوجه بِكَسْر الْجِيم والمتوجه بِفَتْح الْجِيم إِلَيْهِ ويتناول التَّوَجُّه

١- (قلت): مسلم (٧٧١).

٢- (قلت): البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

نَفسه كَمَا يُقَال: (أَي وَجه تُرِيدُ)، أَي: (أَي جِهَة وناحية تقصد)، وَذَلِكَ إنهما متلازمان فَحَيْثُ توجه الإنسان توجه وَجهه وَوَجهه مُسْتَلْزم لتوجهه وَهَذَا فِي بَاطِنه وَظَاهره جَمِيعًا فَهِيَ اربعة أمور وَالْبَاطِن هُوَ الأصل، وَالظَّاهِر هُوَ الْكَمَال والشعار، فإذا توجه قلبه إلى شَيْء تبعه وَجهه الظَّاهِر فَإِذا كَانَ العَبْد قَصده وَمرَاده وتوجهه إلى الله فَهَذَا صَلَاح إرادته وقصده، فَإِذا كَانَ مَعَ ذَلِك محسنًا فقد اجْتمع لَهُ أن يكون عمله صَالحًا وان يكون لله تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَمن كَانَ يَرْجُو لِقَاء ربه فليعمل عملًا صَالحًا وَلَا يُشْرك بِعبَادة ربه أحدًا}[الْكَهْف:١١٠]. وَهُوَ قَول عمر رضي الله عنه: (اللَّهُمَّ اجْعَل عَمَلي كُله صَالحًا واجعله لوجهك خَالِصًا وَلَا تجْعَل لأحد فِيهِ شَيْئًا).

وَالعَمَل الصَّالح هُوَ الاحسان وَهُوَ فعل الْحَسَنَات وَهُوَ مَا أمر الله بِهِ وَالَّذِي أمر الله بِهِ هُوَ الَّذِي شَرعه الله وَهُوَ الْمُوَافق لكتاب الله وَسنة رَسُوله، فقد اخبر الله تَعَالَى انه من اخلص قَصده لله، وَكَانَ محسنًا فِي عمله، فَإِنَّهُ مُسْتَحقّ للثَّواب سَالم من الْعقَاب. وَلِهَذَا كَانَ أئمة السّلف رَحِمهم الله يجمعُونَ هذَيْن الأصلين، كَقَوْل الفضيل بن عِيَاض فِي قَوْله تَعَالَى: {لِيَبْلُوكُمْ أَيّكُم أحسن عملًا}[الْملك: ٢]. قَالَ: أخلصه وأصوبه، فَقيل لَهُ: يَا أبا علي، مَا أخلصه وأصوبه؟ فَقَالَ: إن الْعَمَل إذا كَانَ صَوَابًا وَلم يكن خَالِصًا لم يقبل، وإذا كَانَ خَالِصًا وَلم يكن صَوَابًا لم يقبل، حَتَّى يكون خَالِصًا صَوَابًا، والخالص ان يكون لله، وَالصَّوَاب أن يكون على السّنة.

وَقد روى ابْن شاهين واللالكائي عَن سعيد بن جُبَير قَالَ: لَا يقبل قَول إلا بِعَمَل، وَلَا يقبل قَول وَعمل إلا بنية، وَلَا يقبل قَول وَعمل وَنِيَّة إلا بموافقة السّنة. ورويا عَن الْحسن الْبَصْرِيّ مثله وَلَفظ مَا روى عَن الْحسن: (لَا يصلح) مَكَان (لَا يقبل).

وهذا فِيهِ رد على المرجئة الَّذين يجْعَلُونَ مُجَرّد القَوْل كَافِيًا، فَأخْبر أنه لَا بُد من قَول وَعمل، إذ الإيمان قَول وَعمل لَا بُد من هذَيْن، كَمَا قد بسطناه فِي غير هَذَا الْموضع(١)، وبينا أن مُجَرّد تَصْدِيق الْقلب ونطق اللِّسَان مَعَ البغض لله وشرائعه والاستكبار على الله وشرائعه لا يكون إيمانًا – بِاتِّفَاق الْمُؤمنِينَ – حَتَّى يقْتَرن بالتصديق عمل صَالح.

وَأصل الْعَمَل عمل الْقلب، وَهُوَ الْحبّ والتعظيم الْمنَافِي للبغض والاستكبار، ثمَّ قَالُوا: لَا يقبل قَول وَعمل إلا بنية، وَهَذَا ظَاهر، فَإِن القَوْل وَالْعَمَل إذا لم يكن خَالِصًا لله لم يقبله الله تَعَالَى، ثمَّ قَالُوا: لَا يقبل قَول وَعمل وَنِيَّة إلا بموافقة السّنة، وَهِي الشَّرِيعَة، وَهِي مَا أمر الله بِهِ وَرَسُوله ﷺ لِأَن القَوْل وَالْعَمَل وَالنِّيَّة الَّذِي لَا يكون مسنونًا مَشْرُوعًا قد أمر الله بِهِ، يكون بِدعَة، وكل بِدعَة ضَلَالَة لَيْسَ مِمَّا يُحِبهُ الله، فَلَا يقبله الله، وَلَا يصلح مثل أعمال الْمُشْركين وأهل الْكتاب.

قال ابن العثيمين: {فله أجره}: أي ثوابه؛ وشبهه بالأجر؛ لأن الله التزم به للعامل.

{عند ربه}: أضاف العندية إليه لفائدتين:

الفائدة الأولى: أنه عظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم؛ ولهذا جاء في حديث أبي بكر الذي علّمه الرسول ﷺ إيّاه أنه قال: ((فاغفر لي مغفرة من عندك(١))).

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام، وصالح آل الشيخ عن الإيمان عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

والفائدة الثانية: أن هذا محفوظ غاية الحفظ، ولن يضيع؛ لأنك لا يمكن أن تجد أحدًا أحفظ من الله؛ إذًا فلن يضيع هذا العمل؛ لأنه في أمان غاية الأمان. وأضافه إلى وصف الربوبية ليبين كمال عناية الله بالعامل، وإثابته عليه؛ فالربوبية هنا من الربوبية الخاصة.

{ولا خوف عليهم}: أي فيما يستقبل من أمرهم، {ولا هم يحزنون}: أي فيما مضى من أمرهم.

قال السعدي: {فله أجره عند ربه}: وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، {ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب. ويفهم منها، أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٨ص٢٥١: وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ} الْآيَةَ [الْبَقَرَة: ١١٢]. وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}[النساء: ١٢٥]، وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}[لقمان: ٢٢]، فَإِنَّ إسْلَامَ الْوَجْهِ لِلَّهِ يَتَضَمَّنُ إخْلَاصَ الْعَمَلِ لِلَّه، وَالْإِحْسَانُ هُوَ إحْسَانُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَهُوَ فِعْلُ مَا أَمَرَ بِهِ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}[الْكهف: ٣٠]، فَإِنَّ الْإِسَاءَةَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِهَانَةَ بِالْأَمْرِ بِهِ، وَالِاسْتِهَانَةَ بِنَفْسِ الْعَمَلِ، وَالِاسْتِهَانَةَ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ مِنْ الثَّوَابِ، فَإِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ دِينَهُ لِلَّهِ وَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ كَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، فَكَانَ مِنَ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين؛ الأول: الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: {من أسلم وجهه لله}؛ والثاني: إتباع شرعه؛ لقوله تعالى: {وهو محسن}.

٢- أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله؛ لقوله تعالى: {وهو محسن}؛ وعلى هذا فمن قال: إنه يحب الله، ويخلص له وهو منحرف في عبادته فإنه لا يدخل في هذه الآية لاختلال شرط الإحسان.

ويتفرع على هذه الفائدة أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم. ولو مع حسن النية.؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة؛ والأجر مشروط بأمرين: الأول: إسلام الوجه لله؛ والثاني: الإحسان.

٣- الدلالة على الشرطين الأساسيين في العبادة؛ وهما الإخلاص؛ والمتابعة للرسول ﷺ.

٤- ثبوت الأجر في الآخرة، وأن العمل لن يضيع؛ لقوله تعالى: {فله أجره عند ربه}.

١- أخرجه البخاري ص٦٦، كتاب الأذان، باب ١٤٩: الدعاء قبل السلام، حديث رقم ٨٣٤، وأخرجه مسلم ص١١٤٨، كتاب الذكر والدعوات، باب ١٤: الدعوات والتعوذ، حديث رقم ٦٨٦٩ [٤٨] ٢٧٠٥.

٥- أن الجزاء من جنس العمل.

٦- عظم الثواب؛ لإضافته إلى الله في قوله تعالى: {عند ربه}.

٧- انتفاء الخوف، والحزن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}[الأنعام: ٨٢].

٨- حسن عاقبة المؤمنين بانتفاء الخوف، والحزن عنهم؛ وغير المؤمنين تملأ قلوبهم رعبًا، وحزنًا؛ قال تعالى: {وتقطعت بهم الأسباب}[البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: {كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار}[البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: {وأنذرهم يوم الحسرة}[مريم: ٣٩]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تحسر هؤلاء الذين لم يهتدوا إلى صراط الحميد.

٩- الحث على الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة، واتباع الشرع فيها؛ لأن الله إنما أخبرنا بهذا الثواب لمن أخلص، واتبع الشريعة من أجل أن نقوم بذلك؛ وليس لمجرد الخبر؛ وهكذا يقال في كل ما أخبر الله به من ثواب على طاعة، أو عقاب على معصية؛ فإنه إنما يراد به الحث على الطاعة، والزجر عن المعصية.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

قال ابن العثيمين: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء}: يعني على شيء من الدين.

وإنما قالت اليهود ذلك؛ لأنهم يكفرون بعيسى، ولا يرون شريعته دينًا؛ وقالت النصارى: {ليست اليهود على شيء}؛ لأنهم يرون أن الدين الحق ما كانوا عليه، واليهود قد كفروا به؛ أما عن دعوى اليهود فإنها باطلة على كل تقدير؛ لأن النصارى بلا شك على دين قبل بعثة النبي ﷺ؛ وأما دعوى النصارى في اليهود فحق؛ لأن دينهم نسخ بما جاء به عيسى؛ إذ إنهم يجب عليهم أن يؤمنوا بعيسى؛ فإذا كذبوه لم يكونوا على شيء من الدين؛ بل هم كفار.

{وهم يتلون الكتاب}: الجملة هذه حالية؛ والضمير {هم} يعود على اليهود، والنصارى؛ يعني: والحال أن هؤلاء المدَّعين كلهم {يتلون الكتاب}: يعني يقرؤونه؛ والمراد بـ{الكتاب}، الجنس، فيشمل التوراة، والإنجيل؛ و{كتاب} فعال بمعنى مفعول؛ لأن الكتب المنزلة من السماء تكتب وتقرأ؛ ولا سيَّما أن التوراة كتبها الله بيده سبحانه وتعالى.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٢ص٤٢: قال قتادة: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ}، قال: بلى قد كان أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، { وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ }، قال: بلى قد كانت أوائل اليهود على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، فاليهود كذبوا بدين النصارى وقالوا: ليسوا على

شيء والنصارى كذبوا بجميع ما تميز به اليهود عنهم حتى في شرائع التوراة التي لم ينسخها المسيح بل أمرهم بالعمل بها، وكذبوا بكثير من الذين تميزوا به عنهم حتى كذبوا بما جاء به عيسى عليه السلام من الحق.

لكن النصارى وإن بالغوا في تكفير اليهود ومعاداتهم على الحد الواجب عما ابتدعوه من الغلو والضلال، فلا ريب أن اليهود لما كذبوا المسيح صاروا كفارًا، كما قال تعالى: للمسيح: { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وقال تعالى: { قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}، وكفر النصارى بتكذيب محمد ﷺ وبمخالفة المسلمين أعظم من كفر اليهود بمجرد تكذيب المسيح، فإن المسيح لم ينسخ من شرع التوراة إلا قليلا، وسائر شرعه إحالة على التوراة، ولكن عامة دين النصارى أحدثوه بعد المسيح، فلم يكن في مجرَّد تكذيب اليهود له من مخالفة شرع الله الذي جاء بكتاب مستقل من عند الله لم يحل شيئًا من شرعه على شرع غيره، قال الله تعالى: { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

قال ابن العثيمين: {كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم}؛ قال المعربون: إن الكاف في مثل هذا التعبير اسم بمعنى (مثل)، وأنها منصوبة على المفعولية المطلقة؛ وأن {ذلك}: اسم إشارة يشير إلى المصدر؛ أي مثل ذلك القول قال: {الذين لا يعلمون}؛ يعني: الذين لم يقرؤوا كتابا؛ وكلمة {مثل قولهم} تأكيد لـ{كذلك}؛ قالوا: لأن العامل الواحد لا ينصب معمولين بمعنى واحد.

وقوله تعالى: {الذين لا يعلمون}؛ قال بعض المفسرين: المراد بهم كفار قريش. أهل الجاهلية؛ فإنهم قالوا: إن محمدًا ﷺ ليس على دين، وليس على شيء؛ وقال بعض المفسرين: إنهم أمم سابقة؛ وقال بعض المفسرين: إنهم طوائف من اليهود، والنصارى؛ يعني أن الذين يتلون الكتاب من اليهود، والنصارى قالوا مثل قول الذين لا يعلمون منهم؛ فاستوى قول عالمهم، وجاهلهم؛ والأحسن أن يقال: إن الآية عامة. مثل ما اختاره ابن جرير، وغيره.؛ والقاعدة أن النص من الكتاب، والسنة إذا كان يحتمل معنيين لا منافاة بينهما، ولا يترجح أحدهما على الآخر فإنه يحمل على المعنيين جميعًا؛ لأنه أعم في المعنى؛ وهذا من سعة كلام الله عز وجل، وكلام رسوله ﷺ، وشمول معناهما؛ وهذه قاعدة مهمة ينبغي أن يحتفظ بها الإنسان.

{فالله يحكم بينهم يوم القيامة}؛ الفاء حرف عطف؛ ولفظ الجلالة مبتدأ؛ وجملة: {يحكم} في محل رفع خبر المبتدأ؛ و{يحكم} للمستقبل؛ و(الحكم) معناه القضاء، والفصل بين الشيئين؛ والله تبارك وتعالى يوم القيامة يقضي بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون؛ فيبين لصاحب الحق حقه، ويجزيه به؛ و{يوم القيامة}: هو اليوم الذي يبعث فيه الناس.

{فيما كانوا فيه يختلفون}: أي في الخلاف الواقع بينهم؛ ومعلوم أن هناك خلافا بين اليهود، والنصارى؛ بل النصارى الآن مختلفون في مللهم بعضهم مع بعض اختلافًا جوهريًّا في الأصول؛ واليهود كذلك على خلاف؛ وكذلك المسلمون عامة مع الكفار؛ والذي يحكم بينهم هو الله عز وجل يوم القيامة.

قال الطبري: فالله يقضي فيفصل بين هؤلاء المختلفين،- القائل بعضهم لبعض: لستم على شيء من دينكم - يوم قيام الخلق لربهم من قبورهم - فيتبين المحق منهم من المبطل، بإثابة المحق ما وعد أهل طاعته على أعماله الصالحة، ومجازاته المبطل منهم بما أوعد أهل الكفر به على كفرهم به - فيما كانوا فيه يختلفون من أديانهم ومللهم في دار الدنيا.

وإنما عنى ب{القيامة}، قيام الخلق من قبورهم لربهم. فمعنى {يوم القيامة}: يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٥ص٢٦٠: وَاخْتِلَافُ أَهْلِ الْبِدَعِ هُوَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ؛ فَالْخَارِجِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ الشِّيعِيُّ عَلَى شَيْءٍ. وَالشِّيعِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ الْخَارِجِيُّ عَلَى شَيْءٍ. وَالْقَدَرِيُّ النَّافِي يَقُولُ: لَيْسَ الْمُثْبِتُ عَلَى شَيْءٍ. وَالْقَدَرِيُّ الْجَبْرِيُّ الْمُثْبِتُ يَقُولُ: لَيْسَ النَّافِي عَلَى شَيْءٍ. وَالْوَعِيدِيَّةُ تَقُولُ: لَيْسَتِ الْمُرْجِئَةُ عَلَى شَيْءٍ. وَالْمُرْجِئَةُ تَقُولُ: لَيْسَتِ الْوَعِيدِيَّةُ عَلَى شَيْءٍ.

بَلْ وَيُوجَدُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْأُصُولِيَّةِ وَالْفُرُوعِيَّةِ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى السُّنَّةِ. فَالْكُلَّابِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ الْكَرَّامِيُّ عَلَى شَيْءٍ. وَالْكَرَّامِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ الْكُلَّابِيُّ عَلَى شَيْءٍ. وَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ السَّالِمِيُّ عَلَى شَيْءٍ. وَالسَّالِمِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ الْأَشْعَرِيُّ عَلَى شَيْءٍ.

وَيُصَنِّفُ السَّالِمِيُّ كَأَبِي عَلِيٍّ الْأَهْوَازِيِّ كِتَابًا فِي مَثَالِبِ الْأَشْعَرِيِّ، وَيُصَنِّفُ الْأَشْعَرِيُّ كَابْنِ عَسَاكِرَ كِتَابًا يُنَاقِضُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَذَكَرَ فِيهِ مَثَالِبَ السَّالِمِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهَا، لَا سِيَّمَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ قَدْ تَلَبَّسَ بِبَعْضِ الْمَقَالَاتِ الْأُصُولِيَّةِ، وَخَلَطَ هَذَا بِهَذَا فَالْحَنْبَلِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ يَخْلِطُ بِمَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ شَيْئًا مِنْ أُصُولِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالسَّالِمِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَيُضِيفُهُ إِلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ. وَكَذَلِكَ الْحَنَفِيُّ يَخْلِطُ بِمَذَاهِبِ أَبِي حَنِيفَةَ شَيْئًا مِنْ أُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْكَرَّامِيَّةِ وَالْكُلَّابِيَّةِ، وَيُضِيفُهُ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ.

وَهَذَا مِنْ جِنْسِ الرَّفْضِ وَالتَّشَيُّعِ، لَكِنَّهُ تَشَيُّعٌ فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ الطَّوَائِفِ وَالْعُلَمَاءِ، لَا تَشَيُّعٌ فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ قَصْدِهِ تَوْحِيدَ اللَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ، يَدُورُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَتَّبِعُهُ أَيْنَ وَجَدَهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ أَفْضَلَ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ هُمُ الصَّحَابَةُ، فَلَا يَنْتَصِرُ لِشَخْصٍ انْتِصَارًا مُطْلَقًا عَامًّا، إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا لِطَائِفَةٍ انْتِصَارًا مُطْلَقًا عَامًّا، إِلَّا لِلصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. فَإِنَّ الْهُدَى يَدُورُ مَعَ الرَّسُولِ حَيْثُ دَارَ، وَيَدُورُ مَعَ أَصْحَابِهِ دُونَ أَصْحَابِ غَيْرِهِ حَيْثُ دَارُوا ؛ فَإِذَا أَجْمَعُوا لَمْ يُجْمِعُوا عَلَى خَطَأٍ قَطُّ، بِخِلَافِ أَصْحَابِ عَالِمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ يُجْمِعُونَ عَلَى خَطَأٍ، بَلْ كُلُّ قَوْلٍ قَالُوهُ وَلَمْ يَقُلْهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا خَطَأً؛ فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لَيْسَ مُسَلَّمًا إِلَى عَالِمٍ وَاحِدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ الشَّخْصُ نَظِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ شَبِيهٌ بِقَوْلِ الرَّافِضَةِ فِي الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ الْحَقَّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الرَّسُولَ، قَبْلَ وُجُودِ الْمَتْبُوعِينَ الَّذِينَ تُنْسَبُ إِلَيْهِمُ الْمَذَاهِبُ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ جَاءُوا بِحَقٍّ يُخَالِفُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَإِنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ

الرَّسُولَ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ عَلِمَ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ مَا يُخَالِفُ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَإِنَّ أُولَئِكَ لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ، فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ – إِنْ كَانَ حَقًّا – مَأْخُوذًا عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، مَوْجُودًا فِيمَنْ قَبْلَهُ، وَكُلُّ قَوْلٍ قِيلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، مُخَالِفٌ لِمَا مَضَى عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ قَالُوا خِلَافَهُ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – ذَكَرَ أَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ، وَجَاءَهُمُ الْعِلْمُ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَغْيًا. وَلِهَذَا ذَمَّهُمُ اللَّهُ وَعَاقَبَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُجْتَهِدِينَ مُخْطِئِينَ، بَلْ كَانُوا قَاصِدِينَ الْبَغْيَ، عَالِمِينَ بِالْحَقِّ، مُعْرِضِينَ عَنِ الْقَوْلِ وَعَنِ الْعَمَلِ بِهِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن الأمم الكافرة يكفر بعضها بعضًا؛ فهم أعداء بعضهم لبعض من جهة؛ وأولياء بعضهم لبعض من جهة أخرى: بالنسبة لنا هم بعضهم لبعض ولي؛ وبالنسبة لما بينهم بعضهم لبعض عدو؛ فالإسلام عدو مشترك لليهودية، والنصرانية، وسائر الكفار؛ فيجب أن يتولى بعضنا بعضًا.

٢– شدة قبح قول من خالف الحق وهو يعلمه؛ لقوله تعالى: {وهم يتلون الكتاب}؛ فهذه الجملة تفيد زيادة القبح فيما قالوه، حيث قالوا ذلك وهم يتلون الكتاب، ويعرفون الحق؛ فالنصارى تتلو التوراة، وتعرف أن اليهود تدين بالتوراة. وهم على دين صحيح قبل بعثة عيسى.؛ واليهود أيضًا يتلون الإنجيل، ويعرفون أن عيسى حق؛ لكنهم كفروا استكبارًا؛ ولا ريب أن الذي ينكر الحق مع العلم به أعظم قبحًا من الذي ينكر الحق مع الجهل به؛ لأن هذا معاند مكابر بخلاف الجاهل، فالجاهل ينكر الحق للجهل به؛ ثم إذا تبين له الحق اتبعه إذا كان المانع له من إتباعه الجهل؛ لكن العالم لا عذر له.

٣– إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: {فالله يحكم بينهم يوم القيامة}؛ والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة؛ ولأهميته يقرنه الله سبحانه وتعالى كثيرًا بالإيمان به عز وجل.

٤– إثبات الحكم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {فالله يحكم بينهم}؛ وحكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي، وكوني، وجزائي؛ فالشرعي: مثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: {ذلكم حكم الله يحكم بينكم}[الممتحنة: ١٠]؛ والكوني: مثل قوله تعالى عن أخي يوسف: {فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين}[يوسف: ٨٠]؛ والجزائي: مثل هذه الآية: {فالله يحكم بينهم يوم القيامة}؛ والحكم الجزائي هو ثمرة الحكم الشرعي؛ لأنه مبني عليه: إن خيرًا فخير؛ وإن شرًّا فشر؛ هذا الحكم يوم القيامة بين الناس إما بالعدل؛ أو بالفضل؛ ولا يمكن أن يكون بالظلم؛ لقوله تعالى: {وما ربك بظلام للعبيد}[فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: {ولا يظلم

ربك أحدًا}[الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا([1]))؛ هذا بالنسبة لحقوق الله؛ أما بالنسبة لحقوق الخلق فيما بينهم فيقضى بينهم بالعدل.

فإذا قال قائل: إذا كان الله تعالى يجزي المؤمنين بالفضل، فما الجواب عن قوله تعالى: {ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط}[يونس: ٤]؟

فالجواب: أن هذا هو الذي أوجبه الله على نفسه؛ والفضل زيادة؛ والمقام مقام تحذير.

٥- أن هؤلاء الذين اختلفوا في الحق، والباطل، سوف يكون القضاء بينهم يوم القيامة بين يدي الله عز وجل؛ فيجزي صاحب الحق بعمله، ويجزي صاحب الباطل بعمله؛ لقوله تعالى: {فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون}، وقوله تعالى: {فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا}[النساء: ١٤١] ولهذا لا يوجد حكم يبين للخصم أن الحق له دون خصمه إلا في هذا؛ فالقاضي مثلًا لا يقول لأحد الخصمين: (لن يكون لخصمك سبيل عليك) حتى يتبين، ويأتي كل بحجته؛ لكن هنا بين الله أن الكافرين ليس لهم سبيل على المؤمنين؛ لأن الحجة واضحة للجميع.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

قال ابن العثيمين: {ومن أظلم}: {من}: اسم استفهام؛ وهي مبتدأ؛ و{أظلم}، خبرها؛ والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ يعني لا أحد أظلم؛ والميزان الذي يبين أن الاستفهام بمعنى النفي أنك لو حذفت الاستفهام، وأقمت النفي مقامه لصح؛ والفائدة من تحويل النفي إلى الاستفهام أنه أبلغ في النفي؛ إذ إن الاستفهام الذي بمعنى النفي مشرب معنى التحدي؛ كأنه يقول: بينوا لي أي أحد أظلم من كذا وكذا.

وقوله تعالى: {أظلم}: اسم تفضيل من الظلم؛ وأصله في اللغة النقص؛ وهو أن يفرط الإنسان فيما يجب؛ أو يعتدي فيما يحرم؛ ويدل على هذا قوله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}[الكهف: ٣٣]: أي لم تنقص؛ وهو في الشرع بهذا المعنى؛ لأن الظلم عبارة عن تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم وهذا نقص.

{ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه}: {مِن}: حرف جر؛ و{مَن}: اسم موصول؛ أي مَن الذي منع؛ وأضيفت المساجد إلى الله عز وجل؛ لأنها محل عبادته؛ فتكون الإضافة هنا من باب التشريف.

وقوله تعالى: {مساجد الله}، منصوب على أنه مفعول {منع} ؛ و{أن يذكر فيها اسمه} بدل منه.

---

[1]- أخرجه مسلم ص١١٢٩، كتاب البر والصلة، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٧٢ [٥٥] ٢٥٧٧.

{وسعى في خرابها} معطوف على {منع}؛ يعني جمع وصفين: منع المساجد أن يذكر فيها اسمه؛ والسعي في خرابها؛ والخراب هو الفساد، كما قال تعالى: {يخربون بيوتهم بأيديهم}[الحشر: ٢].

قال الشنقيطي: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: نَزَلَتْ فِي صَدِّ الْمُشْرِكِينَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ عَامَ سِتٍّ. وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: فَالْخَرَابُ مَعْنَوِيٌّ، وَهُوَ خَرَابُ الْمَسَاجِدِ بِمَنْعِ الْعِبَادَةِ فِيهَا. وَهَذَا الْقَوْلُ يُبَيِّنُهُ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} الْآيَةَ [٤٨ \ ٢٥].

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْخَرَابُ الْمَذْكُورُ هُوَ الْخَرَابُ الْحِسِّيُّ. وَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِيمَنْ خَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ بُخْتَنَصَّرُ أَوْ غَيْرُهُ وَهَذَا الْقَوْلُ يُبَيِّنُهُ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا} [١٧ \ ٧].

قال السعدي: أي: لا أحد أظلم وأشدُّ جرمًا، ممَّن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات.

{وسعى}: أي اجتهد وبذل وسعه، {في خرابها} الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة، الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة.

قال ابن العثيمين: {أولئك} اسم إشارة يعود إلى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها؛ {ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين} يحتمل ثلاثة معان:

الأول: ما كان ينبغي لهؤلاء أن يدخلوها إلا خائفين فضلًا عن أن يمنعوا عباد الله؛ لأنهم كافرون بالله عز وجل؛ فليس لهم حق أن يدخلوا المساجد إلا خائفين.

الثاني: أن هذا خبر بمعنى النهي؛ يعني: لا تدعوهم يدخلوها – إذا ظهرتم عليهم – إلا خائفين.

الثالث: أنها بشارة من الله عز وجل أن هؤلاء الذين منعوا المساجد – ومنهم المشركون الذين منعوا النبي ﷺ المسجد الحرام – ستكون الدولة عليهم، ولا يدخلونها إلا وهم ترجف قلوبهم.

قال السعدي: فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا، حتى أذن الله له في فتح مكة، ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا}. وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلط الله عليهم المؤمنين، فأجلوهم عنه. وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر. واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد

قال البغوي: وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي: ((أَلَا لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ([1]))، فَهَذَا خَوْفُهُمْ، وَثَبَتَ فِي الشَّرْعِ أَنْ لَا يُمَكَّنَ مُشْرِكٌ مِنْ دُخُولِ الْحَرَمِ، لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ وَالْقَتْلُ وَالسَّبْيُ والنفي.

قال ابن العثيمين: {لهم في الدنيا خزي}: أي ذلٌّ وعار، {ولهم في الآخرة عذاب عظيم}: أي عقوبة عظيمة.

قال السعدي: وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانًا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر}. بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه}. وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن المعاصي تختلف قبحًا؛ لقوله تعالى: {ومن أظلم}؛ و{أظلم}: اسم تفضيل؛ واسم التفضيل يقتضي مفضَّلًا، ومفضَّلًا عليه؛ وكما أن المعاصي تختلف، فكذلك الطاعات تختلف: بعضها أفضل من بعض؛ وإذا كانت الأعمال تختلف فالعامل نتيجة لها يختلف؛ فبعض الناس أقوى إيمانًا من بعض؛ وبهذا نعرف أن القول الصحيح قول أهل السنة، والجماعة في أن الإيمان يزيد، وينقص، والناس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا لا في الكسب القلبي، ولا في الكسب البدني: فإن الناس يتفاوتون في اليقين؛ ويتفاوتون في الأعمال الظاهرة من قول أو فعل.

يتفاوتون في اليقين: فإن الإنسان نفسه تتفاوت أحواله بين حين وآخر؛ في بعض الأحيان يصفو ذهنه وقلبه حتى كأنما يشاهد الآخرة رأي عين؛ وفي بعض الأحيان تستولي عليه الغفلة، فيقل يقينه؛ ولهذا قال الله تعالى لإبراهيم: {أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي}[البقرة: ٢٦٠]؛ وتفاوت الناس في العلم، واليقين أمر معلوم: فلو أتى رجل، وقال: (قدم فلان) – والرجل ثقة عندي – صار عندي علم بقدومه؛ فإذا جاء آخر، وقال: (قدم فلان) ازداد علمي؛ فإذا جاء الثالث ازداد علمي أكثر؛ فإذا رأيته ازداد علمي؛ فالأمور العلمية تتفاوت في إدراك القلوب لها.

أيضًا يتفاوت الناس في الأقوال: فالذي يسبح الله عشر مرات أزيد إيمانًا ممن يسبحه خمس مرات؛ وهذه زيادة كمية الإيمان؛ كذلك يتفاوت الناس في الأعمال من حيث جنس العمل: فالمتعبد بالفريضة أزيد إيمانًا من المتعبد بالنافلة؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه([2]))؛ فبهذا يكون القول الصواب بلا ريب قول أهل السنة، والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

١- أخرجه البخاري ٣٦٩ ومسلم ١٣٤٧ وغيرهما في أثناء حديث ويأتي في مطلع سورة التَّوْبَةِ إن شاء اللَّه تعالى.

٢- أخرجه البخاري ص٥٤٥ – ٥٤٦، كتاب الرقاق، باب ٣٨ التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

٢- جواز منع دخول المساجد لمصلحة؛ لقوله تعالى: {أن يذكر فيها اسمه}؛ ومنع مساجد الله له أسباب؛ فتارة تمنع المساجد من أن تمتهن فرشها، أو أرضها، أو كتبها، أو مصاحفها؛ فتغلق الأبواب حماية لها؛ وتارة تغلق أبوابها خوفًا من الفتنة، كما لو اجتمع فيها قوم لإثارة الفتن، والتشويش على العامة؛ فتغلق منعا لهؤلاء من الاجتماع؛ وتارة تغلق لترميمها، وإصلاحها؛ وتارة تغلق خوفًا من سرقة ما فيها؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح، أو مطلوب.

٣- تحريم منع المساجد من أن يذكر فيها اسم الله سواء كان ذكر الله: صلاة، أو قراءة للقرآن، أو تعليمًا للعلم، أو غير ذلك.

وأخذ بعض العلماء من هذه الآية: تحريم التحجر؛ وهو أن يضع شيئًا في الصف، فيمنع غيره من الصلاة فيه، ويخرج من المسجد؛ قالوا: لأن هذا منع المكان الذي تحجره بالمسجد أن يذكر فيه اسم الله؛ لأن هذا المكان أحق الناس به أسبق الناس إليه؛ وهذا قد منع من هو أحق بالمكان منه أن يذكر فيه اسم الله؛ وهذا مأخذ قوي؛ ولا شك أن التحجر حرام: أن الإنسان يضع شيئًا، ويذهب، ويبيع، ويشتري، ويذهب إلى بيته يستمتع بأولاده، وأهله؛ وأما إذا كان الإنسان في نفس المسجد فلا حرج أن يضع ما يحجز به المكان بشرط ألا يتخطى الرقاب عند الوصول إليه، أو تصل إليه الصفوف؛ فيبقى في مكانه؛ لأنه حينئذ يكون قد شغل مكانين.

٤- شرف المساجد؛ لإضافتها إلى الله؛ لقوله تعالى: {مساجد الله}؛ والمضاف إلى الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يكون أوصافًا؛ أو أعيانًا؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة؛ فإذا كان المضاف إلى الله وصفا فهو من صفاته غير مخلوق، مثل كلام الله، وعلم الله؛ وإذا كان المضاف إلى الله عينًا قائمة بنفسها فهو مخلوق وليس من صفاته، مثل مساجد الله، وناقة الله، وبيت الله؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه على وجه التشريف؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلى الله عز وجل إلا لسبب خاص به؛ ولولا هذا السبب ما خص بالإضافة؛ وإذا كان المضاف إلى الله ما يتعلق بأعيان مخلوقة فهو أيضًا مخلوق؛ وهذا مثل قوله تعالى: {ونفخت فيه من روحي} [الحجر: ٢٩]؛ فإن الروح هنا مخلوقة؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة.

٥- أن المصليات التي تكون في البيوت، أو الدوائر الحكومية لا يثبت لها هذا الحكم؛ لأنها مصليات خاصة؛ فلا يثبت لها شيء من أحكام المساجد.

٦- أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سببًا للشرك؛ لأن {مساجد الله} معناها موضع السجود له؛ فإذا وضع فيها ما يكون سببًا للشرك فقد خرجت عن موضوعها، مثل أن نقبر فيها الموتى؛ فهذا محرم؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

٧- وجوب تطهير المساجد؛ وهذا مأخوذ من إضافتها إلى الله تلك الإضافة القاضية بتشريفها، وتعظيمها؛ ولهذا قال تعالى: {وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود}.

٨- أن الناس فيها سواء؛ لأن الله تعالى أضافها إلى نفسه: {مساجد الله}؛ والناس عباد الله - بالنسبة إلى الله في المسجد سواء -؛ فكل من أتى إلى هذه المساجد لعبادة الله فإنه لا فرق بينه وبين الآخرين.

وهنا نقول: إن للعالم الحق أن يتّخذ مكانًا يجعله لإلقاء الدرس، وتعليم الناس؛ لكنه إذا أقيمت الصلاة لا يمنع الناس – هو، وغيره سواء –.

٩– أن ذكر الله لا بد أن يكون باسمه، فتقول: لا إله إلا الله؛ سبحان الله؛ سبحان ربك رب العزة عما يصفون؛ سبحان ربي العظيم؛ فالذكر باللسان لا يكون إلا باسم الله؛ أما ذكر القلب فيكون ذكرًا لله، وذكرًا لأسمائه؛ فقد يتأمل الإنسان في قلبه أسماء الله، ويتدبر فيها، ويكون ذكرًا للاسم؛ وقد يتأمل في أفعال الله عز وجل، ومخلوقاته، وأحكامه الشرعية. أما ذكره بالضمير المفرد فبدعة، وليس بذكر، مثل طريقة الصوفية الذين يقولون: أفضل الذكر أن تقول: هو، هو؛ هو، هو؛ قالوا: لأنك لا تشاهد إلا الله، والعياذ بالله؛ فهم يرون أن أكمل حال الإنسان هو الفناء، أي يفنى عن مشاهدة ما سوى الله، بحيث إنه ما شاهد إلا الله؛ ويقولون: ليس بلازم أن تقول: (لا إله إلا الله): تثبت إلهين: واحد منفي، والثاني مثبت! بل قل: هو، هو، هو؛ فهذا لا شك من البدع؛ وليس ذكرًا لله عز وجل؛ بل هو من المنكر.

١٠– تحريم تخريب المساجد؛ لقوله تعالى: {وسعى في خرابها}؛ ويشمل الخراب الحسي، والمعنوي؛ لأنه قد يتسلط بعض الناس – والعياذ بالله – على هدم المساجد حسًّا بالمعاول، والقنابل؛ وقد يخربها معنى، بحيث ينشر فيها البدع والخرافات المنافية لوظيفة المساجد.

١١– البشارة للمؤمنين بأن العاقبة لهم، وأن هؤلاء الذين منعوهم لن يدخلوها إلا وهم خائفون؛ وهذا على أحد الاحتمالات التي ذكرناها.

١٢– أن عقوبة من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، الخزي والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

١٣– أن الذنب إذا كان فيه تعد على العباد فإن الله قد يجمع لفاعله بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة؛ عقوبة الدنيا ليشفي قلب المظلوم المعتدى عليه؛ ولا شك أن الإنسان إذا اعتدى عليك، ثم رأيت عقوبة الله فيه أنك تفرح بأن الله سبحانه وتعالى اقتص لك منه؛ أما إذا كان في حق الله فإن الله تعالى لا يجمع عليه بين عقوبتين؛ لقوله تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}[الشورى: ٣٠].

١٤– إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: {ولهم في الآخرة عذاب عظيم}.

١٥– أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا، كما أن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدنيا؛ ولكن الله سبحانه وتعالى يري عباده نموذجًا من هذا، ومن هذا؛ لأنه لا يستقيم فهم الوعيد، ولا فهم الوعد، إلا بمشاهدة نموذج من ذلك؛ لو كان الله توعد بالنار، ونحن لا ندري ما هي النار، فلا نخاف إلا خوفًا إجماليًّا عامًا؛ وكذلك لو وعد بالنعيم والجنة، ولا نعرف نموذجًا من هذا النعيم، لم يكن الوعد به حافزًا للعمل.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

قال ابن العثيمين: {ولله المشرق والمغرب}؛ اللام للاختصاص؛ يعني أن الله سبحانه وتعالى مختص بملك المشرق، والمغرب؛ وأما من سواه فملكه محدود؛ و{المشرق}، مكان الشروق؛ و{المغرب}، مكان الغروب؛ وقد وردت المشرق، والمغرب في القرآن على ثلاثة أوجه: مفردة، ومثناة، وجمع؛ فجاءت مفردة هنا فقال تعالى: {ولله المشرق والمغرب}؛ وجاءت مثناة في قوله تعالى: {رب المشرقين ورب المغربين}[الرحمن: ١٧]، وجمعًا في قوله تعالى: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب}[المعارج: ٤٠]؛ والجمع بين هذه الأوجه الثلاثة أن نقول: أما (المشرق)، فلا ينافي (المشارق)، ولا (المشرقين)؛ لأنه مفرد محلّى بـ{أل}؛ فهو للجنس الشامل للواحد، والمتعدد؛ وأما {رب المشرقين ورب المغربين}، و{رب المشارق والمغارب}، فالجمع بينهما أن يقال: إن جمع {المشارق} و{المغارب}، باعتبار الشارق والغارب؛ لأن الشارق والغارب كثير: الشمس، والقمر، والنجوم؛ كله له مشرق ومغرب؛ فمن يحصي النجوم! أو باعتبار مشرق كل يوم، ومغربه؛ لأن كل يوم للشمس مشرق، ومغرب؛ وللقمر مشرق، ومغرب؛ وثنى باعتبار مشرق الشتاء، ومشرق الصيف؛ فمشرق الشتاء تكون الشمس في أقصى الجنوب؛ ومشرق الصيف في أقصى الشمال؛ وبينهما مسافات عظيمة لا يعلمها إلا الله؛ و[سورة الرحمن]، أكثر ما فيها بصيغة التثنية؛ فلذلك كان من المناسب اللفظي أن يذكر المشرق، والمغرب بصيغة التثنية؛ أما عند العظمة فذكرت بالجمع: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين}[المعارج: ٤٠، ٤١]؛ فقوله تعالى: {ولله المشرق والمغرب}: أي مشرق كل شارق؛ ومغرب كل غارب؛ ويحتمل أن المراد له كل شيء؛ لأن ذكر المشرق والمغرب يعني الإحاطة والشمول.

قال الطبري: لله ملكهما وتدبيرهما، كما يقال: (لفلان هذه الدار)، يعني بها: أنها له، ملكًا. فذلك قوله: {ولله المشرق والمغرب}، يعني أنهما له ملكًا وخلقًا. و{المشرق}: هو موضع شروق الشمس، وهو موضع طلوعها، كما يقال: لموضع طلوعها منه (مطلِع) بكسر اللام.

قال البغوي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: خَرَجَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ قَبْلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَصَابَهُمُ الضَّبَابُ وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَتَحَرَّوُا الْقِبْلَةَ وَصَلَّوْا، فَلَمَّا ذَهَبَ الضَّبَابُ اسْتَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُصِيبُوا، وَأَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي تَحَرِّيهِمْ، فَلَمَّا قَدِمُوا سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ[١].

١- أخرجه ابن مردويه من حديث الْكَلْبِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابن عباس بنحوه كما في (تفسير ابن كثير) (١/ ١٦٤) . وإسناده ساقط لأجل الكلبي وورد بنحوه أخرجه الترمذي ٣٤٥ وابن ماجه ١٠٢٠ والطيالسي ١١٤٥ والدار قطني (١/ ٢٧٢) وأبو نعيم (١/ ١٧٩) والطبري (١٨٤٣) و(١٨٤٥) والبيهقي (٢/ ١١) من حديث عامر بن ربيعة وفيه أشعث بن سعيد، وبه أعلّه الترمذي، وتوبع عند الطيالسي، وإنما علته عاصم بن عبيد الله، وهو واه. وورد من حديث جابر أخرجه الدار قطني (١/ ٧٢) والحاكم (١/ ٢٠٦) والبيهقي (٢/ ١٠ و١٢) وإسناده ضعيف لضعف أبي سهل. وورد من طرق ضعيفة تبلغ بالحديث درجة الحسن كما قال الحافظ ابن كثير (١/ ١٦٣) وانظر مزيد الكلام عليه في تفسير ابن كثير وتفسير الشوكاني ٢١١ وكلاهما بتخريجي، والله الموفق.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: نَزَلَتْ فِي الْمُسَافِرِ يُصَلِّي التَّطَوُّعَ حَيْثُ مَا تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ فِي السَّفَرِ حَيْثُ مَا تَوَجَّهَتْ بِهِ(١).

قال ابن العثيمين: {فأينما تولوا فثم وجه الله}؛ {أين} شرطية؛ و{ما} زائدة للتوكيد؛ و{تولوا} فعل الشرط مضارع مجزوم بأداة الشرط؛ وعلامة جزمه حذف النون؛ وقوله تعالى: {فثم وجه الله}: الفاء رابطة لجواب الشرط؛ و{ثم} اسم إشارة يشار به للبعيد؛ وهو ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ {وجه} مبتدأ مؤخر؛ والجملة من المبتدأ وخبره في محل جزم جواب الشرط.

قوله تعالى: {تولوا}: أي تتجهوا؛ {فثم}: أي فهناك؛ والإشارة إلى الجهة التي تولوا إليها؛ و{وجه الله}: اختلف فيه المفسرون من السلف، والخلف، فقال بعضهم(٢): المراد به وجه الله الحقيقي؛ وقال بعضهم: المراد به الجهة: {فثم وجه الله}: يعني: في المكان الذي اتجهتم إليه جهة الله عز وجل؛ وذلك؛ لأن الله محيط بكل شيء.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٦ص١٤: فَتَدَبَّرْ هَذَا، فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، إذَا تَنَازَعَ النُّفَاةِ وَالْمُثْبِتَةُ فِي صِفَةٍ وَدَلَالَةٍ نُصَّ عَلَيْهَا، يُرِيدُ الْمُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ اللَّفْظَ - حَيْثُ وَرَدَ - دَالًّا عَلَى الصِّفَةِ وَظَاهِرًا فِيهَا، ثُمَّ يَقُولُ النَّافِي: وَهُنَاكَ لَمْ تَدُلَّ عَلَى الصِّفَةِ فَلَا تَدُلُّ هُنَا.

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ الْمُثْبِتَةِ: دَلَّتْ هُنَا عَلَى الصِّفَةِ، فَتَكُونُ دَالَّةً هُنَاكَ، بَلْ لَمَّا رَأَوْا بَعْضَ النُّصُوصِ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ، جَعَلُوا كُلَّ آيَةٍ فِيهَا مَا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يُضَافُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى - إضَافَةَ صِفَةٍ - مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}[الزمر: ٥٦].

وَهَذَا يَقَعُ فِيهِ طَوَائِفُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ والنُّفَاةِ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْغَلَطِ؛ فَإِنَّ الدَّلَالَةَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ سِيَاقِهِ، وَمَا يُحَفُّ بِهِ مِنْ الْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْحَالِيَّةِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَمْرِ الْمَخْلُوقِينَ يُرَادُ بِأَلْفَاظِ الصِّفَاتِ مِنْهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ غَيْرُ الصِّفَاتِ.

- (قلت): وحسن الإمام الألباني في الإرواء (٢٩١)، حديثا بشواهده: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: ((كنا مع النبى ﷺ فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل: {فأينما تولوا فثم وجه الله})) رواه ابن ماجه (ص ٧٨).

١- إسناده صحيح على شرطهما، أبو مصعب هو أحمد بن أبي بكر. خرجه المصنف من طريق مالك، وهو في (الموطأ) (١/ ١٥١) عن ابن دينار بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري (١٠٩٦) ومسلم (٧٠٠) والنسائي (١/ ٢٤٤ و٢/ ٦١) والشافعي (١/ ٦٦- ٦٧) وأبو عوانة (٢/ ٣٤٣) وأحمد (٢/ ٤٦ و٦٦) وابن حبان (٢٥١٧) والبيهقي (٢/ ٤) من طرق عن ابن دينار به. وورد بنحوه من وجه آخر عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بن عمر.

أخرجه مسلم (٧٠٠) ح (٣٩) وأبو داود ١٢٢٤ والنسائي (١/ ٢٤٣ و٢٤٤) و(٢/ ٦١) وابن خزيمة (١٠٩٠) وابن الجارود (٢٧٠) وابن حبان (٢٤٢١) والبيهقي (٢/ ٤٩١).

- (قلت): وثَمَّ حديث صحيح في سبب نزول الآية عند مسلم في صحيحه برقم (٣٣/٧٠٠)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ}[البقرة: ١١٥])).

٢- (قلت): كابن القيم رحمه الله، حيث ذكره في مختصر الصواعق المرسلة ج١ص٤١٤، وقال: (وَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُ أَيْنَمَا وَلَّى الْعَبْدُ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ مِنْ حَضَرٍ أَوْ سَفَرٍ فِي صَلَاةٍ أَوْ غَيْرِ صَلَاةٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَعَرُّضَ فِيهَا لِلْقِبْلَةِ وَلَا لِحُكْمِ الِاسْتِقْبَالِ، بَلْ سِيَاقُهَا لِمَعْنًى آخَرَ وَهُوَ بَيَانُ عَظَمَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَسَعَتِهِ، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَعْظَمُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِالْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، فَذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ إِحَاطَةَ مُلْكِهِ فِي قَوْلِهِ: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}[البقرة: ١١٥] فَنَبَّهَنَا بِذَلِكَ عَلَى مُلْكِهِ لِمَا بَيْنَهُمَا، ثُمَّ ذَكَرَ عَظَمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَأَنَّهُ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ مَا وَلَّى الْعَبْدُ وَجْهَهُ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .....الخ). ولكنه لم يذكر الأحاديث الكثيرة الواردة في سبب نزول الآية، والذي يؤكد أنه كان في شأن القبلة، والذي يرجح قول مجاهد والشافعي الذي ذكره شيخ الإسلام وأيده كما سيأتي.

وَأَنَا أَذْكُرُ لِهَذَا مِثَالَيْنِ نَافِعَيْنِ أَحَدُهُمَا: صِفَةُ الْوَجْهِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ إثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَةِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَالْمُتَكَلِّمَةِ الصفاتية مِنْ الْكُلَّابِيَة، وَالْأَشْعَرِيَّةِ، والكَرَّامِيَة، وَكَانَ نَفْيُهَا مَذْهَبَ الْجَهْمِيَّةِ: مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَمَذْهَبَ بَعْضِ الصفاتية مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، صَارَ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ، كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ جَعَلَهَا مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ، فَالْمُثْبِتُ يَجْعَلُهَا مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تُتَأَوَّلُ بِالصَّرْفِ، وَالنَّافِي يَرَى أَنَّهُ إذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ صِفَةً فَكَذَلِكَ غَيْرُهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}[البقرة: ١١٥]. أَدْخَلَهَا فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ طَوَائِفُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ والنُّفَاةِ، حَتَّى عَدَّهَا أُولَئِكَ، كَابْنِ خُزَيْمَة، مِمَّا يُقَرِّرُ إثْبَاتَ الصِّفَةِ، وَجَعَلَ النَّافِيَةَ تَفْسِيرَهَا بِغَيْرِ الصِّفَةِ حُجَّةً لَهُمْ فِي مَوَارِدِ النِّزَاعِ.

وَلِهَذَا لَمَّا اجْتَمَعْنَا فِي الْمَجْلِسِ الْمَعْقُودِ، وَكُنْت قَدْ قُلْت: أَمْهَلْت كُلَّ مَنْ خَالَفَنِي ثَلَاثَ سِنِينَ، إنْ جَاءَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عَنْ السَّلَفِ يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْته كَانَتْ لَهُ الْحُجَّةُ، وَفَعَلْت، وفعلت، وَجَعَلَ الْمُعَارِضُونَ يُفَتِّشُونَ الْكُتُبَ. فظَفِرُوا بِمَا ذَكَرَهُ البيهقي فِي كِتَابِ (الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ) فِي قَوْله تَعَالَى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّ الْمُرَادَ قِبْلَةُ اللَّهِ، فَقَالَ أَحَدُ كُبَرَائِهِمْ فِي الْمَجْلِسِ الثَّانِي: قَدْ أَحْضَرْت نَقْلًا عَنْ السَّلَفِ بِالتَّأْوِيلِ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا أَعَدَّ، فَقُلْت: لَعَلَّك قَدْ ذَكَرْت مَا رُوِيَ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، قَالَ: نَعَمْ. قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ، فَقَالَ: قَدْ تَأَوَّلَهَا مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَهُمَا مِنْ السَّلَفِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا السُّؤَالُ يَرِدُ عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا نَاظَرُونِي فِيهِ صِفَةَ الْوَجْهِ وَلَا أَثْبَتُّهَا، لَكِنْ طَلَبُوهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ، وَكَلَامِي كَانَ مُقَيَّدًا كَمَا فِي الْأَجْوِبَةِ، فَلَمْ أَرَ إحْقَاقَهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ، بَلْ قُلْت: هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَصْلًا، وَلَا تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: لَا تُؤَوَّلُ آيَاتُ الصِّفَاتِ.

قَالَ: أَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ؟! فَلَمَّا قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ، قَالَ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ؟ قُلْت: لَا، لَيْسَتْ مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ، فَإِنِّي إنَّمَا أُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ – هُنَا – الْقِبْلَةُ، فَإِنَّ (الْوَجْهَ) هُوَ الْجِهَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، يُقَالُ: قَصَدْت هَذَا الْوَجْهَ، وَسَافَرْت إلَى هَذَا الْوَجْهِ أَيْ: إلَى هَذِهِ الْجِهَةِ، وَهَذَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ، فَالْوَجْهُ هُوَ الْجِهَةُ، وَهُوَ الْوَجْهُ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}[البقرة: ١٤٨]: أَيْ: مُتَوَلِّيهَا، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} كَقَوْلِهِ: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، كِلْتَا الْآيَتَيْنِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبَتَانِ، وَكِلَاهُمَا فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ، وَالْوَجْهِ وَالْجِهَةِ هُوَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَتَيْنِ، أَنَّا نُوَلِّيه: نَسْتَقْبِلُهُ.

قُلْت: وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا}، وَ{أَيْنَ} مِنْ الظُّرُوفِ، وَ{تُوَلُّوا}: أَيْ: تَسْتَقْبِلُوا، فَالْمَعْنَى: أَيُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلْتُمُوهُ فَهُنَالِكَ وَجْهُ اللَّهِ، فَقَدْ جَعَلَ وَجْهَ اللَّهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ، هَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، وَهِيَ الْجِهَاتُ كُلُّهَا كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[البقرة: ١٤٢].

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجِهَاتِ لَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ إضَافَةُ تَخْصِيصٍ وَتَشْرِيفٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: جِهَةُ اللَّهِ وَقِبْلَةُ اللَّهِ، وَلَكِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِهَةُ اللَّهِ، أَيْ قِبْلَةُ اللَّهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ وَعَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ((إذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ([1])))، وَيَقُولُ: إنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ. فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ.

وَالْغَرَضُ أَنَّهُ إذَا قِيلَ: (فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ)، لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الْمُتَنَازَعِ فِيهِ، الَّذِي يُنْكِرُهُ مُنْكِرُو تَأْوِيلِ آيَاتِ الصِّفَاتِ، وَلَا هُوَ مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَيْهِمْ الْمُثْبِتَةُ؛ فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ، وَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ دَالَّةً عَلَى ثُبُوتِ صِفَةٍ فَذَاكَ شَيْءٌ آخَرُ، وَيَبْقَى دَلَالَةُ قَوْلِهِمْ: {فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} عَلَى (فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ)، هَلْ هُوَ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْقِبْلَةِ وَجْهًا بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْوَجْهَ وَالْجِهَةَ وَاحِدٌ؟ أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَنْ اسْتَقْبَلَ وَجْهَ اللَّهِ فَقَدْ اسْتَقْبَلَ قِبْلَةَ اللَّهِ. فَهَذَا فِيهِ بُحُوثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا.

وقال رحمه الله في شرح عمدة الفقه ج١ص٥٤٣: وهذه الآية تدل على جواز استقبال جميع الجهات، نسخ ذلك في حق العالم القادر في صلاة الفرد، فيبقى في حق الجاهل بالقبلة والعاجز عن استقبالها لخوف، ونحوه في حق المتنفل في السفر لم ينسخ، وهذا لأن الأصل جواز استقبال الوجه إلى جميع الجهات، لكن إذا لم يكن بد من الصلاة إلى واحدة منها عين الله سبحانه لنا استقبال أحب الوجوه إليه واوجب ذلك، فإذا تعذر ذلك بالجهل وبالعجز سقط هذا الوجوب حينئذ لأن الايجاب حينئذ محال.

قال ابن العثيمين: {إن الله واسع عليم}؛ ال{واسع}: يعني واسع الإحاطة، وواسع الصفات؛ فهو واسع في علمه، وفي قدرته، وسمعه، وبصره، وغير ذلك من صفاته.

قال الطبري: {واسع}: يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير.

قال الدكتور محمود عبدالرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى: إسم الله {الواسع} فقد سمّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه كما ورد في قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ١١٥]، وغالبًا ما يقترن اسم الله {الواسع} باسمه {العليم } كما جاء في قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦٨]، {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦١]، وورد مقيدا في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[النجم: ٣٢]، ولم يرد الاسم في السنة إلا في حديث سرد الأسماء وهو ضعيف كما علمنا.

١- البخاري في الأذان (٧٥٣)، ومسلم في المساجد (٥٠/٥٤٧).

و{الواسع} في اللغة فعله وَسِعَ الشَّيءُ يَسَعُه سِعَة فهو وَاسِع، وأَوْسَعَ الله عليك، أَي: أَغناك، ورجل مُوسِعٌ يعني مَلِيءُ بالمال والثراء، يقال إناء واسع وبيت واسع ثم قد يستعمل في الغنى يقال فلان يعطي من سعة يعني من غنى، وفلان واسع الرحل يعني غنيًّا، وقال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ}[الطلاق: ٧]، وتَوَسَّعُوا في المجلس أَي تَفَسَّحُوا، والسَّعة الغِنى والرفاهِية، ووسعَ عليه رَفَّهَه وأَغناه، وقال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}[الأعراف: ١٥٦]، وسِعَتْ رحْمتُهُ كلَّ شيء ولكلّ شيء وعلى كلّ شيء، والسعة تكون في العلم فعلمه واسع، وتكون في الإحسان وبسط النعم، والواسع المطلق هو الله تعالى، له مطلق الجمال والكمال في سائر الأسماء والصفات والأفعال، وقد ورد في القرآن الكريم اقترن اسم الله {الواسع} باسمه العليم، وعند البخاري من حديث عَائِشَةَ أنها قَالَتِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النبي ﷺ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[المجادلة: ١]، فالله واسِع وَسِعَ غِناه كل فَقِير وَرَحْمَته كُلَّ شَيءٍ وهو الكثيرُ العطاءِ يده سحاء الليل والنهار.

واسم الله {الواسع} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة السعة بدلالة المطابقة وعلى ذات الله وحدها بالتضمن وعلى صفة السعة بدلالة التضمن ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية والعظمة والعزة والجمال والكمال وغير ذلك من معاني الجلال، واسم الله {الواسع} دلَّ على صفة من صفات الذات والأفعال.

كيف ندعو الله باسمه {الواسع} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما ورد عند مسلم من حديث عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ أنه قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ(١))), قَالَ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّت.

وفي صحيح مسلم من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ عن عمر أنه قال قلت يا رسول الله: ((ادْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِكَ فَقَدْ وَسَّعَ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَاسْتَوَى جَالِسًا ثُمَّ قَالَ: أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ(٢)))، وفي سنن الترمذي وحسنه الألباني من حديث أبي هُرَيْرَةَ أن رسول الله ﷺ قال: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَوَسِّعْ لِي فِي رِزْقِي وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي(٣))).

أما دعاء العبادة فالغني من الموحدين يوسع على نفسه وعلى المسلمين والفقير منهم يطلب من ربه بواسع الكرم مزيدًا من الفضل والنعم، ويثق في سعة الرزق مهما طالت المحن، وفي سنن الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هُرَيْرَةَ أن رسول الله ﷺ قال: ((وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى

١- (قلت): مسلم (٩٦٣).

٢- (قلت): مسلم (١٤٧٩).

٣- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٥) عن أبي هريرة بلفظ: ((اللهم اغفر لي ذنبي ووسع لي في داري و بارك لي في رزقي)).

أَحَدٍ قَالَ بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ: كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ([1])))، وورد عند البخاري من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخدريَّ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: ((مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ([2])))، ومن دعاء العبادة تمني العبد للسعة طلبًا للجهاد ودعوة العباد إلى طاعة الله فمن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ([3]))).

قال الطبري: وأما قوله: {عليم([4])}: فإنه يعني أنه عليم بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- انفراد الله بالملك؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: {ولله المشرق والمغرب}.

٢- عموم ملك الله؛ لأن المشرق والمغرب يحتويان كل شيء.

٣- إحاطة الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: {فأينما تولوا فثم وجه الله}.

٤- عموم ملك الله تعالى للمشرق، والمغرب خَلقًا وتقديرًا؛ وله أن يوجه عباده إلى ما شاء منهما من مشرق ومغرب؛ فله ملك المشرق والمغرب توجيها؛ وقد سبق أن قوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها ... }[البقرة: ١٠٦]، إلى آيات نسخ القبلة كله تمهيد لتحويل القبلة؛ فكأن الله تعالى يقول: لله المشرق والمغرب فإذا شاء جعل اتجاه القبلة إلى المشرق؛ وإذا شاء جعله إلى المغرب؛ فأينما تولوا فثم وجه الله.

٥- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: {واسع}، و{عليم}.

٦- إثبات سعة الله، وعلمه؛ ونستفيد صفة ثالثة من جمع السعة والعلم؛ للإشارة إلى أن علم الله واسع بمعنى أنه لا يفوته شيء من كل معلوم لا في الأرض، ولا في السماء.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٧١٣).

٢- (قلت): البخاري (١٤٦٩).

٣- (قلت): مسلم (١٨٧٦).

٤- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

قال ابن العثيمين: {وقالوا اتَّخذ الله ولدًا}: أي قالت النصارى، واليهود، والمشركون، اتَّخذ الله ولدًا؛ اليهود قالت: عزير ابن الله؛ والنصارى قالت: المسيح ابن الله؛ والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، فنزَّه الله نفسه عن ذلك بقوله تعالى: {سبحانه}: أي تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ وهو سبحانه وتعالى مالك لجميع المخلوقات، كما قال تعالى مبطلًا هذه الدعوى: {بل له ما في السموات والأرض}؛ ومن له ملك السموات والأرض، لا يحتاج إلى ولد؛ ولأنه لو كان له ولد لكان الولد مماثلًا له؛ والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

قال السعدي: فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم. وهو – تعالى – صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه.

قال ابن كثير: قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْبَقَرَةِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبني ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. فَسُبْحَانِي أن أتخذ صاحبة أو ولدا([١]))). انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَنْبَغِ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَنْبَغِ لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. وَأَنَا اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ([٢]))).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ([٣]))).

قال أبو زهرة: {اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}: أي أن الله تعالى هو الذي اختار ولدًا، أو جعله ولدًا، وهذا يدلُّ على زعمهم الباطل من أن الله تعالى احتاج إلى أن يكون له ولد، ورغب فيه وأراده، أو اشتهى كما يشتهي الأحياء أن يكون له ولد لحاجته إليه.

وقد ردَّ الله تعالى عليهم ذلك الزعم بأربعة أدلَّة تدلُّ على بطلان ذلك الزعم الوثني الذي يشابه مقالة عبدة الأصنام:

الدليل الأول: قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ}: أي تنزه عن ذلك وتقدَّست ذاته العلية أن تكون مشابهة لأحد من الحوادث الذين يتوالدون ويتناسلون، فهو الواحد الأحد الذي لا يشابه أحدًا من خلقه، ليس كمثله شيء، ولو كان له ولد لكان

١– صحيح البخاري برقم (٤٤٨٢).

٢– الحديث رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٧٤) من طريق شعيب عن أبي الزناد به، وفيه: ((ولم يكن لي كفوًا أحد)).

٣– صحيح البخاري برقم (٦٠٩٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه.

مشابهًا للحوادث ولكان له زوج، كما قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكن لَّهُ صَاحِبَةٌ}، وأنه لو كان له ولد تولد منه لكان له والد، وهو منزه عن ذلك فهو الواحد الأحد الذي ليس له والد ولا ولد.

الدليل الثاني: أنه لو كان له ولد لكان مفتقدًا إلى من يكمل وجوده؛ لأن الولد امتداد لأبيه، فهو كمال وجوده، والله تعالى ليس بمفتقر لأحد؛ لأنه الكامل المنفرد بالكمال، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك الدليل بقوله: {بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، وبل هنا للإضراب والانتقال من تنزيه إلى تنزيه، والمعنى أن له الملك الكامل والسلطان التام في السموات والأرض، فيستحيل أن يكون محتاجًا إلى ولد، بل كل الوجود في سلطانه، وليس فقيرًا إلى ولد يعينه، وهو يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}، وأن كل شيء خاضع لسلطانه مسبح بحمده كما قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفورًا}.

قال القرطبي: لا يكون الولد إلا من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتَّخذ ولدًا من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء، وقد قال : {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً}[مريم: ٩٣]، كما قال هنا: {بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث، والقدم يقتضي الوحدانية والثبوت، فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. ثم إن البنوَّة تنافي الرِّق والعبودية، فكيف يكون ولده عبدًا هذا محال، وما أدى إلى المحال محال.

قال أبو زهرة: الدليل الثالث: أنه إذا كان الوجود كله ملكًا له، فكيف يتَّخذ ولدًا، وإنه إذا كان الوجود كله ملكًا له، فكيف يكون محتاجًا له، وإن الوالد قد يحتاج للولد ليكون مسخَّرًا في حاجاته يقوم بحق الوالد عليه، والله لَا يحتاج إلى ذلك، لأن الوجود كله في قبضة يده، وكلهم خاضعون له؛ ولذلك قال: {كُلٌّ لهُ قَانِتُونَ} والقنوت: هو الخضوع المطلق، والعبادة والتسبيح له سبحانه وتعالى. والتنوين في قوله تعالى: {كُلٌّ} دال على عموم كل من في الوجود خاضع لله تعالى لَا يحتاج إلى من يكون في طاعته.

والقنوت يشمل العبادة من ذوي الإرادة، ومن يقنتون بمقتضى التكوين الفطري، والتكوين كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}.

قال ابن العثيمين: {كل له قانتون}: أي كل له خاشع ذليل؛ لأنه مملوك؛ والله تبارك وتعالى هو المالك؛ وهذا من الاستدلال بالعقل على كذب دعوى هؤلاء أن له سبحانه وتعالى ولدًا.

قال السعدي: والقنوت نوعان: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة. فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى: {وقوموا لله قانتين}.

قال شيخ الإسلام في جامع الرسائل ج١ص٣: فِي قنوت الْأَشْيَاء لله عز وَجل وإسلامها وسجودها لَهُ وتسبحها لَهُ: (الْقُنُوت فِي الْقُرْآن):

فإن هَذِه الْأَرْبَعَة قد ذكرهَا الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن قَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا اتخذ الله ولدا سُبْحَانَهُ بل لَهُ مَا فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض كل لَهُ قانتون بديع السَّمَوَات وَالْأَرْض وَإِذا قضى أمرا فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ كن فَيكون}[الْبَقَرَة: ١١٦، ١١٧]، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَة الرّوم: {وَله من فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض كل لَهُ قانتون * وَهُوَ الَّذِي يبْدَأ الْخلق ثمَّ يُعِيدهُ وَهُوَ أَهْون عَلَيْهِ}[الرّوم: ٢٦، ٢٧].

(الْإِسْلَام):

وَأما الْإِسْلَام، فَقَالَ تَعَالَى: {أفغير دين الله يَبْغُونَ وَله أسلم من فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض طَوْعًا وَكرها وَإِلَيْهِ يرجعُونَ}[آل عمرَان: ٨٣].

(السُّجُود):

وَأمَّا السُّجُود، فَقَالَ تَعَالَى: {وَللَّه يسْجد من فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض طَوْعًا وَكرها وظلالهم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَال}[الرَّعْد: ١٥]، وَقَالَ: {أولم يرَوا إِلَى مَا خلق الله من شَيْء يتفيأ ظلاله عَن الْيَمين وَالشَّمَائِل سجدا لله وهم داخرون * وَللَّه يسْجد مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض من دَابَّة وَالْمَلَائِكَة وهم لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[النَّحْل: ٤٨، ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {ألم تَرَ أَن الله يسْجد لَهُ من فِي السَّمَوَات وَمن فِي الأَرْض وَالشَّمْس وَالْقَمَر والنجوم وَالْجِبَال وَالشَّجر وَالدَّوَاب وَكثير من النَّاس وَكثير حق عَلَيْهِ الْعَذَاب}[الْحَج: ١٨].

(التَّسْبِيح):

وَأما التَّسْبِيح، فَقَالَ تَعَالَى: {تسبح لَهُ السَّمَوَات السَّبع وَالْأَرْض وَمن فِيهِنَّ وَإِن من شَيْء إِلَّا يسبح بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَا تفقهون تسبيحهم إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[الْإِسْرَاء: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {سبح لله مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض}[الصَّف: ١][الْحَشْر: ١]، فِي موضِعين، و{سبح لله مَا فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض}[الْحَدِيد: ١]، و{يسبح لله مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض}[الْجُمُعَة: ١][التغابن: ١]، فِي موضِعين، فَخمس سور افتتحت بِذكر: {تسبح مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض لَهُ}، وَقَالَ: {ألم تَرَ أَن الله يسبح لَهُ من فى السَّمَوَات وَالْأَرْض وَالطير صافات كل قد علم صلَاته وتسبيحه}[النُّور: ٤١].

فَأما قَوْله تَعَالَى: {وَقَالُوا اتخذ الله ولدا سُبْحَانَهُ}[الْبَقَرَة: ١١٦]، فَهُوَ نَظِير قَوْله: {وَقَالُوا اتخذ الرَّحْمَن ولدا * لقد جئْتُمْ شَيْئا إدا * تكَاد السَّمَوَات يتفطرن مِنْهُ وتنشق الأَرْض وتخر الْجبَال هدا * أَن دعوا للرحمن ولدا * وَمَا يَنْبَغِي للرحمن أَن يتَّخذ ولدا * إِن كل من السَّمَوَات وَالْأَرْض إِلَّا آتِ الرَّحْمَن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وَكلهمْ آتيه يَوْم الْقِيَامَة فردا}[مَرْيَم: ٨٨ – ٩٥]، وَقد قَالَ تَعَالَى: {قَالُوا اتخذ الله ولدا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض إِن عنْدكُمْ من سُلْطَان بِهَذَا أتقولون على الله مَا لَا تعلمُونَ}[يُونُس: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا اتخذ الرَّحْمَن ولدا سُبْحَانَهُ بل عباد مكرمون} إِلَى قَوْله: {وهم من خَشيته مشفقون}[الْأَنْبِيَاء: ٢٦ – ٢٩].

(الْقُنُوت فِي اللُّغَة):

والقنوت فِي اللُّغَة دوَام الطَّاعَة، والمصلِّي إِذا طَال قِيَامه أَو رُكُوعه أَو سُجُوده فَهُوَ قَانِت فِي ذَلِك كُله، قَالَ تَعَالَى: {أمن هُوَ قَانِت آنَاء اللَّيْل سَاجِدا وَقَائِمًا يحذر الْآخِرَة ويرجو رَحْمَة ربه}[الزمر: ٩]، فَجعله قَانِتًا فِي حَال السُّجُود وَالْقِيَام. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح سُئِلَ رَسُول الله ﷺ: أَي الصَّلَاة أفضل؟ فَقَالَ: ((طول الْقُنُوت(١)))، وَلم يرد بِهِ طول الْقيام فَقَط، بل طول الْقيام وَالرُّكُوع وَالسُّجُود كَمَا كَانَت صَلَاة النَّبِي ﷺ، كَانَت معتدلة، إِذا أَطَالَ الْقيام، أَطَالَ الرُّكُوع وَالسُّجُود، وَقَالَ تَعَالَى: {إِن إِبْرَاهِيم كَانَ أمة قَانِتًا لله حَنِيفا}[النَّحْل: ١٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {فالصالحات قانتات حافظات للغيب بِمَا حفظ الله}[النِّسَاء: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {عَسى ربه إِن طَلَّقَكُن أَن يُبدلهُ أَزْوَاجًا خيرًا مِنْكُن مسلمات مؤمنات قانتات}[التَّحْرِيم: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِن الْمُسلمين وَالْمُسلمَات وَالْمُؤمنِينَ وَالْمُؤْمِنَات والقانتين والقانتات}[الْأَحْزَاب: ٣٥]، وسمّى إطالة الْقيام فِي الصَّلَاة قنوتًا لِأَنَّهُ يُطِيل فِيهِ الطَّاعَة، وَلَو صلّى قَاعِدًا لقنت وَهُوَ قَاعد، وَكَذَلِكَ إِذا صلى على جنب قنت وَهُوَ على جنب، وَالْقِيَام قبل الرُّكُوع يُسمى أَيْضًا قنوتًا.

قَالَ ابْن قُتَيْبَة: لَا أرى أصل الْقُنُوت إِلَّا الطَّاعَة، لِأَن جَمِيع الْخلال من الصَّلَاة وَالْقِيَام فِيهَا وَالدُّعَاء وَغير ذَلِك يكون عَنْهَا.

وَقَالَ أَبُو الْفرج: قَالَ الزّجاج: الْقُنُوت هُوَ فِي اللُّغَة بمعنيين: أَحدهمَا الْقيام، وَالثَّانِي الطَّاعَة، وَالْمَشْهُور فِي اللُّغَة والإستعمال، أَن الْقُنُوت الدُّعَاء فِي الْقيام، فالقانت، الْقَائِم بِأَمْر الله، وَيجوز أَن يَقع فِي جَمِيع الطَّاعَات، لِأَنَّهُ وَإِن لم يكن قيَاما على الرجلَيْن فَهُوَ قيام بالنِّيَّة.

قلت: هَذَا ضَعِيف لَا يعرف فِي اللُّغَة أَن مُجَرّد الْقيام يُسمّى قنوتًا، وَالرجل يقوم مَاشِيًا وَقَائِمًا فِي أُمُور وَلَا يُسمّى قَانِتًا، وَهُوَ فِي الصَّلَاة يُسمّى قَانِتًا لكَونه مُطيعًا عابدًا، وَلَو قنت قَاعِدًا ونائمًا سمّي قَانِتًا، وَقَوله تَعَالَى: {وَقومُوا لله قَانِتِينَ}[الْبَقَرَة: ٢٣٨]، يدلُّ على أنه لَيْسَ هُوَ الْقيام، وَإِنَّمَا هُوَ صفة فِي الْقيام يكون بهَا الْقَائِم قَانِتًا وَهَذِه الصّفة تكون فِي السُّجُود أَيْضًا كَمَا قَالَ: {أمن هُوَ قَانِت آنَاء اللَّيْل سَاجِدا وَقَائِمًا}[الزمر: ٩].

فَقَوْل الْقَائِل: (إِن الْمَشْهُور فِي اللُّغَة أنه الدُّعَاء فِي الْقيام)، إِنَّمَا اخذه من كَون هَذَا الْمَعْنى شاع فِي اصْطِلَاح الْفُقَهَاء إِذا تكلمُوا فِي الْقُنُوت وَالصَّلَاة، وَهَذَا عرف خَاص، وَمَعَ هَذَا فالفقهاء يذكرُونَ الْقُنُوت سَوَاء صلّى قَائِمًا أَو قَاعِدًا أَو مُضْطَجعًا، لَكِن لما كَانَ الْفَرْض لَيْسَ يَصح أَن يصلِّيه إِلَّا قَائِمًا، وَصَلَاة الْقَاعِد على النّصْف من صَلَاة الْقَائِم، صَار الْقُنُوت فِي الْقيام أَكثر وَأشهر، وَإِلَّا فلفظ الْقُنُوت فِي الْقُرْآن واللغة لَيْسَ مَشْهُورًا فِي هَذَا الْمَعْنى، بل وَلَا أُرِيد بِهِ هَذَا الْمَعْنى وَلَا هُوَ أَيْضًا مُشْتَركًا، بل اللَّفْظ بِمَعْنى الطَّاعَة، أَو الطَّاعَة الدائمة، وَلِهَذَا يفسره الْمُفَسِّرُونَ بذلك.

وَفِي تَفْسِير ابْن أبي طَلْحَة عَن ابْن عَبَّاس: {فالصالحات قانتات}[النِّسَاء: ٣٤]: مطيعات. قَالَ ابْن أبي حَاتِم: وروى عَن مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَأبي مَالك وَعَطَاء وَقَتَادَة والسّديّ مثل ذَلِك. وروى عَن مقَاتل بن حَيَّان قَالَ: مطيعات لله ولأزواجهن فِي الْمَعْرُوف. وروى عَن سعيد بن جُبَير فِي قَوْله: {والقانتين والقانتات}، قَالَ: يَعْنِي المطيعين والمطيعات.

١- (قلت): مسلم (٧٥٦/ ١٦٥).

قَالَ: وروى عَن قَتَادَة وَالسُّديّ وَعبد الرَّحْمَن بن زيد بن أسلم مثل ذَلِك. وروى بِإِسْنَادِهِ عَن أبي الْعَالِيَة فِي قَوْله: {يَا مَرْيَم اقنتي لِرَبِّك}[آل عمرَان: ٤٣]، قَالَ: اركدي لِرَبِّك. وَعَن الْأَوْزَاعِيّ قَالَ: ركدت فِي مِحْرَابهَا قَائِمَة وراكعة وساجدة حَتَّى نزل مَاء الْأَصْفَر فِي قدميها. وَعَن الْحسن أنه سُئِلَ عَن قَوْله: {اقنتي لِرَبِّك واسجدي}[آل عمرَان: ٤٣]، قَالَ: يَقُول: اعبدي لِرَبِّك. وَعَن لَيْث عَن مُجَاهِد قَالَ: كَانَت تقوم حَتَّى تتورم قدماها.

وَقَوله تَعَالَى: {أَمن هُوَ قَانِت آنَاء اللَّيْل}، قَالَ ابْن أبي حَاتِم: تقدم تَفْسِير القانت فِي غير مَوضِع، القانت الَّذِي يُطِيع الله وَرَسُوله. وروى عَن أَحْمد بن سِنَان عَن عبد الرَّحْمَن بن مهْدي عَن سُفْيَان عَن فراس عَن الشّعبِيّ عَن مَسْرُوق عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ: القانت الَّذِي يُطِيع الله وَرَسُوله. فَهَذَا تَفْسِير السّلف من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وَمن بعدهمْ لألفاظ الْقُنُوت فِي الْقُرْآن.

قال أبو زهرة: الدليل الرابع: أن الله تعالى هو الذي أبدع السماوات والأرض على غير مثال، وخلق الوجود كله الأرض والسماء والأحياء فهو الذي ذرأ من في السماوات والأرض، وكلهم عبيده، كما قال تعالى: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}، فكيف يكون له ولد، وأنه إذا كان له ولد، فإنه يكون من جنسه، ويكون من مثله والله المبدع للوجود والخالق منزه عن أن يكون بعضه من الحوادث والولد بعض أبيه وبضعة منه.

وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}؛ وبديع بمعنى مبدع أي منشئ على غير مثال سبق، وقد أخذ بعض المفسرين من هذا دليلًا على أنه لَا يمكن أن يكون الإبداع متَّفِقًا مع اتِّخاذ الولد، فقد قال الراغب في ذلك: (إن الأب هو عنصر للابن منه تكون، والله مبدع الأشياء كلها فلا يمكن أن يكون عنصرًا للولد، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلًا) اهـ. وإن هذا بلا ريب يتنافى مع الإبداع.

وإن الذين قالوا: إن الله اتَّخذ ولدًا قالوا: إنه نشأ عنه ملازمًا له، كما ينشأ الضوء من الشمس وكما ينشأ النور من السراج، أي أنه نشأ من الموجد الأول نشوء المعلول من علته والمسبب عن سببه، وهم قالوا ذلك آخذين له من الفلسفة، وهي الأفلاطونية التي تتوافق مع النصرانية تمام التوافق، وهي بعد أن حرفت عما جاء به المسيح عليه السلام كما هي والأفلاطونية الحديثة على سواء.

فهم يقولون: إن الله ليس فاعلًا مختارًا وإنما نشأ الولد نشوء المعلول عن العلة؛ ولذلك كان ردَّ الله تعالى عليهم بإثبات ملكه وقدرته على الخلق والتكوين، وأنه أبدع السماوات والأرض بإرادته رَدٌّ لكفرهم وضلال عقولهم، وأوهامهم الباطلة، التي ضلوا بها، وأضلوا الناس بالدعوة إلى تصديقها.

ولقد بيَّن سبحانه إرادته المختارة بأنه مبدع السماوات، وبقوله تعالى: {وَإِذَا قَضي أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}: أي أنه إذا أراد خلق شيء ممكن قال له كن فيكون.

والواو عاطفة، والمعطوف عليه: {بديع السماوات والأرض}، {بديع} صيغة مبالغة بمعنى مبدع فهي في معنى الفعل؛ ولذا صحَّ عطف الفعل عليها، أو عطف الجملة الفعلية عليها. وهي بيان الاختيار والفعل المنافي للتوالد.

قال ابن العثيمين: {بديع}: فعيل بمعنى مفعل؛ أي مبدع؛ ولها نظير في اللغة العربية، مثل قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

ف(السميع): بمعنى المسمع؛ {بديع السموات والأرض}: أي موجدهما على غير مثال سابق.

قال القرطبي: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ}، فعيل للمبالغة، وارتفع على خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع، كبصير من مبصر. أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله عز وجل بديع السموات والأرض، أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال. وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع. وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام.

قال ابن كثير: كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ لِمُسْلِمٍ: ((فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ([1]))). وَالْبِدْعَةُ عَلَى قِسْمَيْنِ: تَارَةً تَكُونُ بِدْعَةً شَرْعِيَّةً، كَقَوْلِهِ: فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ. وَتَارَةً تَكُونُ بِدْعَةً لُغَوِيَّةً، كَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَنْ جَمْعِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ: نعمَتْ البدعةُ هَذِهِ.

قال القرطبي: كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يجوز أن يكون لها أصل في الشرع أولًا، فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وخصَّ رسولٌ عليه، فهي في حيز المدح. وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهي في حيز الذم والإنكار، قال معناه الخطابي وغيره.

قلت: وهو معنى قوله ﷺ في خطبته: ((وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة([2]))، يريد ما لم يوافق كتابًا أو سنة، أو عمل الصحابة رضي الله عنهم، وقد بين هذا بقول: ((من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء([3]))). وهذا إشارة إلى ما ابتدع من قبيح وحسن، وهو أصل هذا الباب، وبالله العصمة والتوفيق، لا رب غيره.

١- (قلت): الحديث بهذا اللفظ صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٦٥)، والحديث بتمامه: وَعَن الْعِرْبَاض بن سَارِيَة قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَات يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا قَالَ: ((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عبدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ من يَعش مِنْكُم يرى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)). وقال: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَذْكُرَا الصَّلَاةَ. والذي في صحيح مسلم هو الحديث التالي.

٢- (قلت): مسلم (٨٦٧)، والحديث بتمامه: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: ((صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ))، وَيَقُولُ: ((بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ))، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: ((أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))، ثُمَّ يَقُولُ: ((أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ)).

٣- (قلت): مسلم (١٠١٧)، والحديث بتمامه: عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النساء: ١] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: {اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ}[الحشر: ١٨]، ((تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ))، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ،

{وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}: أي إذا أراد إحكامه وإتقانه – كما سبق في علمه – قال له كن. قال ابن عرفة: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، ومنه سمِّي القاضي، لأنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين. وقال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه. قال علماؤنا: {قضى} لفظ مشترك، يكون بمعنى الخلق، قال الله تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}[فصلت: ١٢]: أي: خلقهن. ويكون بمعنى الإعلام، قال الله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ}[الإسراء: ٤]: أي: أعلمنا. ويكون بمعنى الأمر، كقوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ}[الإسراء: ٢٣]. ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام، ومنه سمِّيَ الحاكم قاضيًا. ويكون بمعنى توفية الحق، قال الله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ}[القصص: ٢٩]. ويكون بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: {فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[غافر: ٦٨]: أي: إذا أراد خلق شيء. قال ابن عطية: {قضى}، معناه قدر، وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السنة قدر في الأزل وأمضى فيه. وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.

{أَمْرًا}، الأمر واحد الأمور، وليس بمصدر أمر يأمر. قال علماؤنا: والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهًا:

الأول: الدين، قال الله تعالى: {حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ}[التوبة: ٤٨]: يعني دين الله الإسلام.

الثاني: القول، ومنه قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا}: يعني قولنا، وقوله: { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ}[طه: ٦٢]: يعني قولهم.

الثالث: العذاب، ومنه قوله تعالى: {لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ}[إبراهيم: ٢٢]: يعني لما وجب العذاب بأهل النار.

الرابع: عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: {قَضَى أَمْراً}[آل عمران: ٤٧]: يعني عيسى، وكان في علمه أن يكون من غير أب.

الخامس: القتل ببدر، قال الله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}[غافر: ٧٨]: يعني القتل ببدر، وقوله تعالى: {لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا}[الأنفال: ٤٢]: يعني قتل كفار مكة.

السادس: فتح مكة، قال الله تعالى: {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}[التوبة: ٢٤]: يعني فتح مكة.

السابع: قتل قريظة وجلاء بني الضير، قال الله تعالى: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}[البقرة: ١٠٩].

الثامن: القيامة، قال الله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ}[النحل: ١].

التاسع: القضاء، قال الله تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ}[يونس: ٣] يعني القضاء.

العاشر: الوحي، قال الله تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ}[السجدة: ٥] يقول: ينزل الوحي من السماء إلى الأرض، وقوله: {يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}[الطلاق: ١٢] يعني الوحي.

الحادي عشر: أمر الخلق ، قال الله تعالى : {ألا إلى الله تَصِيرُ الأمُورُ}[الشورى: ٥٣] يعني أمور الخلائق.

حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)).

الثاني عشر: النصر، قال الله تعالى : {يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ}[آل عمران: ١٥٤] يعنون النصر، {قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}[آل عمران: ١٥٤] يعني النصر.

الثالث عشر: الذنب، قال الله تعالى: {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا}[الطلاق: ٩]: يعني جزاء ذنبها.

الرابع عشر: الشأن والفعل، قال الله تعالى: {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ}[هود: ٩٧] أي فعله وشأنه، وقال: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ}[النور : ٦٣] أي فعله.

قال ابن العثيمين: {وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون}: أي إذا أراد أن يقضي أمرًا([1])؛ والفعل يأتي بمعنى إرادته المقارنة له، مثل قوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم}[النحل: ٩٨] أي إذا أردت قراءته؛ والدليل على تأويل {قضى} بمعنى (أراد أن يقضي) هو قوله تعالى في آية أخرى: {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون}[يس: ٨٢]؛ على أنه يصلح أن يكون {إذا قضى أمرًا ... }: بمعنى: إذا فعل شيئًا فإنما يقول تعالى له عند فعله: {كن فيكون}؛ يعني أن فعله سبحانه وتعالى للشيء يكون بعد قوله عز وجل: {كن} من غير تأخر؛ لأنه ليس أمرًا شاقًّا عليه؛ و{أمرًا}، واحد الأمور؛ يعني الشؤون؛ أي إذا قضى شأنًا من شؤونه سبحانه وتعالى فإن ذلك لا يصعب عليه: {فإنما يقول له كن}؛ أي لا يقول له إلا {كن} مرة واحدة بدون تكرار؛ و{كن} هنا تامة من (كان) بمعنى حدث؛ {فيكون}: أي فيحدث كما أمره الله سبحانه وتعالى على ما أراد الله عز وجل.

وفي قوله تعالى: {فيكون} قراءتان؛ هما النصب، والرفع؛ فعلى قراءة النصب تكون جوابًا للأمر: {كن} أي فبسبب ذلك يكون؛ وتكون الفاء للسببية؛ وعلى قراءة الرفع تكون للاستئناف؛ أي فهو يكون([2]).

قال أبو زهرة: وقضى بمعنى أنشأ وخلق وكون، والأمر هنا هو بمعنى الشيء فإذا أراد الله تعالى خلق شيء لَا يكون بتوليد شيء في شيء أو مادة من مادة، إنما يكون بكلمة يقولها وهي {كن}؛ والأمر أمر تكويني فيكون الشيء الذي أراده الله تعالى. وهذا يدلُّ على أمرين:

أولهما: أنه سبحانه وتعالى فاعل مختار يفعل ما يريد، وأن الأشياء نشأت بإرادته المختارة، فهو فعال لما يريد، والأشياء لم تنشأ نشوء المعلول عن علته، أو المسبب عن سببه.

ثانيهما: أنه لَا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد يتولد عن والد، ولا يخلق الله تعالى الأشياء بطريق التوالد، من توليد لاحقٍ بسابق، بل إنه سبحانه وتعالى ينشئ في الابتداء، والتوالد بين الأحياء يكون بسلطانه، وبحكمته وهو العزيز العليم.

١- (قلت): قال ابن العثيمين في القول المفيد: أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين: (قضاء كوني، وقضاء شرعي):
والقضاء الكوني لابدَّ من وقوعه، ويكون فيما أحب الله وفيما كرهه، قال تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين}[الإسراء: ٤]؛ فهذا قضاء كوني متعلق بما يكرهه الله؛ لأن الفساد في الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكوني لا بدَّ أن يقع ولا معارض له إطلاقًا.
وأما النوع الثاني من القضاء، وهو القضاء الشرعي؛ فمثل قوله تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا}[الإسراء: ٢٣]، والقضاء الشرعي لا يلزم منه وقوع المقضي، فقد يقع وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيما يحبه الله، وقد سبق الكلام على ذلك.

٢- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عند تفسير الآية (٤٠) من سورة النحل.

قال ابن كثير: وَنَبَّهَ تَعَالَى بِذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ خَلْقَ عِيسَى بِكَلِمَةٍ: كُنْ، فَكَانَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آلِ عِمْرَانَ: ٥٩([1])].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- بيان عتو الإنسان وطغيانه، حيث سبَّ الله سبحانه وتعالى هذه السبَّة العظيمة، فقال: إن الله اتَّخذ ولدًا! في الحديث الصحيح القدسي: ((كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: إنه لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفئًا أحد([2])))؛ فهذا من أعظم العدوان؛ وهو يشير كما تقدم في التفسير إلى ثلاث طوائف: اليهود، والنصارى، والمشركين؛ وقد أبطل الله هذه الدعوى الكاذبة من ستة أوجه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: {سبحانه}؛ فإن تنزهه عن النقص يقتضي أن يكون منزَّهًا عن اتِّخاذ الولد؛ لأن اتِّخاذ الولد يقصد به الإعانة، ودفع الحاجة، أو بقاء العنصر؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ ومنزَّه أيضًا عن المماثلة؛ ولو كان له ولد لكان مثيلًا له.

الوجه الثاني: في قوله تعالى: {بل له ما في السموات والأرض}؛ وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: {بل له ما في السموات والأرض}، والمملوك لا يكون ولدًا للمالك؛ حتى إنه شرعًا إذا ملك الإنسان ولده يعتق عليه؛ فالمملوك لا يمكن أن يكون ولدًا للمالك؛ فالله خالق؛ وما سواه مخلوق؛ فكيف يكون المخلوق ولدًا للخالق.!

الوجه الرابع: في قوله تعالى: {كل له قانتون}؛ ووجهه أن العباد كلهم خاضعون ذليلون؛ وهذا يقتضي أنهم مربوبون لله عابدون له؛ والعبد لا يكون ولدًا لربه.

الوجه الخامس: في قوله تعالى: {بديع السموات والأرض}؛ ووجهه أنه سبحانه وتعالى مبدع السموات والأرض؛ فالقادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق إنسانًا بلا أب، كما قال تعالى: {لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس}[غافر: ٥٧].

الوجه السادس: في قوله تعالى: {إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون}؛ ومن كان هذه قدرته فلا يستحيل عليه أن يوجد ولدًا بدون أب. فبطلت شبهتهم التي يحتجون بها على أن لله ولدًا.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن (بكلمة منه) عند تفسير الآية (٤٥)، وكلام شيخ الإسلام وابن العثيمين عن (كن فيكون) عند تفسير الآية (٤٧) من سورة آل عمران.

٢- أخرجه البخاري ص٤٣١، كتاب التفسير، باب ١: حديث رقم ٤٩٧٤.

٢- امتناع أن يكون لله ولد؛ لهذه الوجوه الستة.

٣- عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {بل له ما في السموات والأرض}.

٤- أن الله لا شريك له في ملكه؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: {له ما في السموات والأرض}؛ وتقديم الخبر يفيد الاختصاص.

٥- أن كل من في السموات، والأرض قانت لله؛ والمراد القنوت العام وهو الخضوع للأمر الكوني؛ والقنوت يطلق على معنيين؛ معنى عام وخاص؛ (المعنى الخاص) هو قنوت العبادة، والطاعة، كما في قوله تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا}[الزمر: ٩]، وكما في قوله تعالى: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين}[التحريم: ١٢]، وكما في قوله تعالى: {يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين}[آل عمران: ٤٣]؛ و(المعنى العام) هو قنوت الذل العام؛ وهذا شامل لكل من في السموات، والأرض، كما في هذه الآية: {كل له قانتون}؛ حتى الكفار بهذا المعنى قانتون لله سبحانه وتعالى؛ لا يخرجون عن حكمه الكوني.

٦- عظم قدرة الله عز وجل ببدع السموات، والأرض؛ فإنها مخلوقات عظيمة.

٧- حكمة الله سبحانه وتعالى بأن هذه السموات، والأرض على نظام بديع عجيب؛ قال تعالى: {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت}[الملك: ٣]؛ هذا النظام الواسع الكبير العظيم لا يختل، ولا يتغير على مر السنين، والأعوام؛ فتدلُّ على قدرة باهرة بالغة، وحكمة عظيمة بالغة: كل شيء منظم تنظيمًا بديعًا متناسبًا، فلا يصطدم شيء بشيء فيفسده؛ ولا يغير شيء شيئًا؛ بل كل سائر حسب ما أمره الله به؛ قال الله تعالى: {وأوحى في كل سماء أمرها}[فصلت: ١٢]؛ إذًا {بديع السموات والأرض}، يستفاد منها القوة، والقدرة، والحكمة.

٨- أن السموات عدد؛ لأن الجمع يدلُّ على العدد؛ وقد بين الله في القرآن، وثبتت السنة، وأجمع المسلمون على أن السماء جرم محسوس؛ وليس كما قال أهل الإلحاد: إن الذي فوقنا فضاء لا نهاية له؛ وأما الأرض فلم تأت في القرآن إلا مفردة؛ لكن أشار الله سبحانه وتعالى إلى أنها سبع في قوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن}[الطلاق: ١٢]؛ وصرحت السنة بذلك في قوله ﷺ: ((من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوَّقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين(١))).

٩- أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عن أمره شيء؛ لقوله تعالى: {إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}.

١٠- إثبات القول لله؛ لقوله تعالى: {فإنما يقول له}.

١١- أن قول الله بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: {فإنما يقول له كن فيكون}؛ و{له} صريحة في توجيه القول للمقول له؛ ولولا أنه يسمعه لما صار في توجيهه له فائدة؛ ولهذا يسمعه الموجه إليه الأمر، فيمتثل، ويكون.

١- اخرجه البخاري ص٢٥٩، كتاب بدء الخلق، باب ٢: ما جاء في سبع أرضين، حديث رقم ٣١٩٨، وأخرجه مسلم ص٩٥٨، كتاب المساقاة، باب ٣٠: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم ٤١٣٢ [١٣٧] ١٦١٠، واللفظ لمسلم.

١٢- أن قول الله بحروف؛ لقوله تعالى: {كن}؛ وهي كلمة بحرفين.
فإن قال قائل: كيف يمكن أن نتصور هذا ونحن نقول: ليس كمثله شيء؛ وأنتم تقولون: إنه بحروف؟ قلنا: نعم؛ الحروف هي الحروف؛ لكن كيفية الكلام، وحقيقة النطق بها أو القول لا يماثل نطق المخلوق، وقوله؛ ومن هنا نعرف أننا لا نكون ممثلة إذا قلنا: إنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأننا نقول: صوت ليس كأصوات المخلوقين؛ بل هو حسب ما يليق بعظمته، وجلاله.
١٣- أن الجماد خاضع لله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن قوله تعالى: {وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} يشمل الأمور المتعلقة بالحيوان، والمتعلقة بالجماد؛ فالجماد إذا قال الله تعالى له: {كن} كان.
١٤- أنه ليس بين أمر الله بالتكوين، وتكونه تراخ؛ بل يكون على الفورية؛ وذلك لقوله تعالى: {فيكون}: بالفاء؛ والفاء تدل على الترتيب، والتعقيب.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

قال ابن العثيمين: {وقال الذين لا يعلمون}: أي ليسوا من ذوي العلم، {لولا يكلِّمنا الله}: أي هلّا يكلِّمنا الله بتصديق الرسل، {أو تأتينا آية}: أي علامة على صدقهم؛ وهذا منهم على سبيل التعنُّت والعناد؛ فالتعنُّت قولهم: {لولا يكلِّمنا الله}؛ والعناد قولهم: {أو تأتينا آية}؛ لأن الرسل أتوا بالآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ وأعظمها القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ؛ وقد تحدّاهم الله أن يأتوا بمثله، فعجزوا.
قال ابن كثير: وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: هَذَا قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ. {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ }: قَالُوا: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ، وَأَنَّ الْقَائِلِينَ ذَلِكَ هُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}[الأنعام: ١٢٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنزلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَرًا رَسُولا}[الْإِسْرَاءِ: ٩٠- ٩٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا}[الْفُرْقَانِ: ٢١]، وَقَوْلُهُ: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}[الْمُدَّثِّرِ: ٥٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كُفْرِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ مَا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِهِ، إِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ

وَالْمُعَانَدَةُ، كَمَا قَالَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً}[النِّسَاءِ: ١٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}[الْبَقَرَةِ: ٥٥].

قال ابن العثيمين: وعلى هذا يكون {مثل قولهم}، توكيدًا لقوله تعالى: {كذلك}؛ أي مثل هذا القول الذي اقترحوه قد اقترحه من قبلهم: قوم موسى قالوا: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}[البقرة: ٥٥]؛ فهذا دأب المكذبين للرسل ينكرون، ويقترحون؛ وقد أتوا من الآيات بأعظم مما اقترحوه.

قال ابن كثير: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}: أَيْ: أَشْبَهَتْ قُلُوب مُشْرِكِي الْعَرَبِ قُلُوب مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْعُتُوِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}[الذَّارِيَاتِ: ٥٢، ٥٣].

قال ابن العثيمين: {تشابهت قلوبهم}: الأولون، والآخرون قلوبهم متشابهة في ردّ الحق، والعناد، والتعنُّت، والجحود؛ من أول ما بعثت الرسل إلى خاتمهم محمد ﷺ بل وإلى يوم القيامة فقلوب أهل الكفر، والعناد متشابهة؛ إنما يختلف الأسلوب؛ قد يقترح هؤلاء شيئًا؛ وهؤلاء شيئًا آخر؛ لكن الكلام على جنس الاقتراح، وعدم قبولهم للحق.

قال أبو زهرة: فالذين لا يعلمون الحق، ولا يدركون معاني الإيمان طلبوا ذلك سواء أكانوا من المشركين، أم كانوا من اليهود والنصارى المتعنِّتين الذين إذا كان علمهم بالكتاب فقد جهلوه أو تجاهلوه أو أنكروه، فهم مع الذين لَا يعلمون على حدٍّ سواء.

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى تشابه ما بين ماضي الكافرين وحاضرهم، فقال تعالى: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}: أي أن قلوبهم تتشابه في الإلحاد في دين الله تعالى، وتعنُّتهم في طلباتهم، وجحودهم المستكنّ في قلوبهم الذي يظهر على أقوالهم، فإذا كانت أقوالهم متَّحدة، فلأنها ناشئة من قلوب متَّحدة في أنها لَا تؤمن بشيء، ولقد جاء عيسى ببينات قاطعة من إحياء للموتى وإخراج لما في القبور، وتصوير للطين ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله تعالى. جاءهم بكل هذا فقالوا: هذا سحر مبين؛ فالجاحد لَا يؤمن بشيء وليس عدم إيمانه لنقص في الدليل، بل كلَّما زاد الدليل قوة زادوا عنتًا وكفروا، وصرفوا عقولهم ونفوسهم لَا في الإيمان به، بل في إعمال الحيلة لردِّه.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٣ ص٤٤٦: فوصَف القولين بالتماثل، والقلوب بالتشابه لا بالتماثل؛ فإن القلوب وإن اشتركت في هذا القول فهي مختلفة لا متماثلة وقال النبي ﷺ: ((الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس[1])). فدلَّ على أنه يعلمها بعض الناس وهي في نفس الأمر ليست متماثلة بل بعضها حرام وبعضها حلال.

١- (قلت): البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

قال السعدي: {قد بيَّنّا}: أي أظهرنا؛ لأن (بان) بمعنى ظهر؛ و(بين) بمعنى أظهر؛ و{الآيات}: جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمدلولها؛ فكل علامة تعين مدلولها تسمّى آية؛ فآيات الله هي العلامات الدالّة عليه.

{لقوم يوقنون}، متعلقة بقوله تعالى: {بيَّنّا}؛ و(الإيقان): هو العلم الذي لا يخالجه شك.

قال ابن كثير: {قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}: أَيْ: قَدْ وَضَّحْنَا الدَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ بِمَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ وَزِيَادَةٍ أُخْرَى، لِمَنْ أَيْقَنَ([1])وصَدَّقَ وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ، وَفَهِمَ ما جاؤوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَأَمَّا مَنْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَأُولَئِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}[يُونُس: ٩٦، ٩٧].

قال أبو زهرة: أكَّد الله سبحانه وتعالى أنه بيَّن للذين لا يعلمون في الحاضر، والذين قالوا مثل قولهم في الماضي، وأتى لهم بآيات من شأنها أن تدخل إلى القلوب بالإيمان، ولكن بشرط تقبل القلوب للحقيقة، وإن من شأنها أن توقن بالحق إذا عيِّن لها دليله؛ ولذا قال تعالى: {لِقَوْمٍ يوقِنُونَ}، أي من شأنهم أن يوقنوا عند وجود الدليل، لا يتردَّدون وليس من شأنهم التردُّد، وينتهي تردُّدهم بالجحود.

إن الدليل إذا كان قويًّا صدقوا بعقولهم، ولكن إذعانهم لا يكون إلا إذا كانت قلوبهم خاضعة من شأنها اليقين، وقد تستيقنها النفس ولكن لا تسكن القلوب إلا إذا كان اليقين من القلب المؤمن بالحق أو المستعد له الذي يقذف الله تعالى في قلبه بالنور؛ ولذا قال تعالى في شأن الجاحدين المتعنتين: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ}.

والآيات هنا إذا كانت عامة للحاضرين والماضين فهي الآيات التي سبقت لموسى ولعيسى، وآية محمد الكبرى، وهي القرآن العظيم الخالد الباقي إلى يوم القيامة.

ومعنى قوله: {قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ} قد أنزلنا بينة مقنعة بذاتها؛ لأنها العلامات والأمارات القاطعة في الدلالة على الله، وعلى نبوة الرسول الذي بعثه الله تعالى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن أهل الباطل يجادلون بالباطل؛ لأن طلبهم الآيات التي يعينونها ما هو إلا تعنُّت واستكبار؛ ففي الآيات التي جاءت بها الرسل ما يؤمن على مثلها البشر؛ ثم إنهم لو جاءت الآيات على ما اقترحوا لم يؤمنوا إذا حقَّت عليهم كلمة ربهم؛ لقوله تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم}[يونس: ٩٦، ٩٧].

٢- وصف من لم ينقد للحق بالجهل؛ لقوله تعالى: {وقال الذين لا يعلمون}؛ فكل إنسان يكابر الحق، وينابذه فإنه أجهل الناس.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن معنى اليقين عند تفسير الآية (٤) من سورة البقرة.

٣- أن المشركين يقرون بأن الله يتكلم بحرف، وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: {لولا يكلِّمنا الله}، فهم خير في هذا ممن يدَّعون أن كلام الله هو المعنى القائم في نفسه.

٤- أنه ما من رسول إلا وله آية؛ لأن قولهم: {أو تأتينا آية}: هذا مدعى غيرهم؛ إذ إن من لم يأت بآية لا يلام من لم يصدقه؛ مثلا إذا جاء رجل يقول: (أنا رسول الله؛ آمنوا بي وإلا قتلتكم، واستحللت نساءكم، وأموالكم) فلا نطيعه؛ ولو أننا أنكرناه لكنا غير ملومين؛ لكن الرسل تأتي بالآيات؛ ما من رسول إلا وأعطاه الله تعالى من الآيات ما يؤمن على مثلها البشر؛ فالله تعالى لا يرسل الرسل، ويتركهم بدون تأييد.

٥- أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ لقوله تعالى: {كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم}، وقوله تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون}[الذاريات: ٥٢، ٥٣]؛ وأنت لو تأمَّلت الدعاوى الباطلة التي ردَّ بها المشركون رسالة الرسول ﷺ من زمنه إلى اليوم لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالى: {وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون}[المطففين: ٣٢]؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن، والسنة هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئًا.

٦- أن الأقوال تابعة لما في القلوب؛ لقوله تعالى: {كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم}؛ فلِتشابه القلوب تشابهت الأقوال؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب(١))). تشابه قلوب الكفار؛ لقوله تعالى: {تشابهت قلوبهم}.

تسلية الرسول ﷺ؛ لأن الإنسان المصاب إذا رأى أن غيره أصيب فإنه يتسلى بذلك، وتخف عليه المصيبة، كما قال تعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون}[الزخرف: ٣٩]؛ فالله تعالى يسلي رسوله ﷺ بأن هذا القول الذي قيل له قد قيل لمن قبله.

٩- إبطال دعوى قولهم: {أو تأتينا آية} في قوله تعالى: {قد بينا الآيات}.

١٠- أنه لا ينتفع بالآيات إلا الموقنون؛ لقوله تعالى: {قد بينا الآيات لقوم يوقنون}؛ وأما غير الموقنين فلا تتبين لهم الآيات لما في قلوبهم من الريب والشك.

١١- أن الموقن قد يتبين له من الآيات ما لم يتبين لغيره؛ ويؤيده قوله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}[محمد: ١٧].

١٢- أن الآيات تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية؛ فالآيات الشرعية: ما جاءت به الرسل من الوحي؛ والقسم الثاني آيات كونية: وهي مخلوقات الله الدالة عليه، وعلى ما تقتضيه أسماؤه، وصفاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها: (وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد).

١- أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٩: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم ٥٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٥، كتاب المساقاة، باب ٢: أخذ الحلال وترك الحرام، حديث رقم ٤٠٩٤ [١٠٧] ١٥٩٩.

١٣- زيادة العلم باليقين؛ لأن من آيات الله هذا الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ؛ فكلما ازداد يقينك تبين لك من آيات الله ما لم يتبين لغيرك، فيزداد علمك؛ فباليقين يزداد العلم؛ قال تعالى: {ويزداد الذين آمنوا إيمانا}[المدثر: ٣١]؛ فكلما كان الإنسان أقوى يقينا كان أكثر علمًا؛ وكلما ازداد علمه ازداد يقينه؛ فهما متلازمان.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

قال ابن العثيمين: {إنَّا أرسلناك}؛ {إن} للتوكيد؛ اسمها {نا}، لكن حذفت النون لتوالي الأمثال؛ مع أن الأصل أنها لا تحذف: (إننا)؛ لكن لا نقول اسمها الألف؛ إذ إن الألف لا تكون ضميرًا إلا إذا اتصلت بفعل، مثل: (قالا)، (قاما)، وما أشبه ذلك؛ وحذف المرسل إليه لإفادة العموم؛ لأن النبي ﷺ مرسل إلى العالمين؛ وغيره من الرسل إلى قومهم خاصة.

{بالحق}؛ الباء هنا للمصاحبة، أو الملابسة؛ يعني أرسلناك متلبِّسًا بالحق؛ أو أن المعنى: حاملًا الحق في هذه الرسالة؛ والآية تحتمل المعنيين؛ أحدهما: أن إرسالك حق؛ والثاني: أن ما أرسلت به حق؛ والمعنيان كلاهما صحيح؛ فتحمل الآية عليهما؛ فالرسول ﷺ رسالته حق؛ وعليه فالباء للملابسة؛ والرسول ﷺ ما أرسل به فهو حق؛ وعلى هذا فالباء للمصاحبة يعني أن رسالتك مصحوبة بالحق؛ لأن ما جئت به حق؛ والحق هو الثابت المستقر؛ وهو ضد الباطل؛ والحق بالنسبة للأخبار الصدق؛ وبالنسبة للأحكام العدل.

قال أبو زهرة: أي إنا بعثناك نبيًّا مرسلًا، مقترنة أو متلبسة رسالته بالحق، فهي حق يثبت نفسه، وما فيها حق، وما تدعو إليه حق، والحق وحده كاف لإقناع من يكون عنده قلب يدركه، ويمتلئ قلبه حكمة، وبصيرة، وإذا كان القلب مخلصًا أدرك وآمن، يروى أن أكثم بن صيفي حكيم العرب عندما بلغه بعث النبي ﷺ أرسل ولده يسألون عما يدعو إليه فلما ذهبوا إليه تلا عليهم قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، فلما عادوا تلوا على أبيهم ما تلاه عليهم النبي ﷺ، فقال حكيم العرب: إن هذا إن لم يكن دينًا كان في أخلاق الناس أمرًا حسنًا، كونوا يا بني في هذا الأمر أولًا، ولا تكونوا آخرًا فالحق نور يدعو إلى اتِّباعه.

قال السعدي: فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته وهديه ودلوه، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة.

فالأول والثاني، قد دخلا في قوله: {إنَّا أرسلناك}، والثالث دخل في قوله: {بالحق}.

وبيان الأمر الأول: وهو – نفس إرساله – أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملًا لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرَّد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله، وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوئه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قال ابن العثيمين: {بشيرًا}، من البشارة؛ وهي الإخبار بما يسر؛ وقد تقع فيما يسوء، كقوله تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم}[آل عمران: ٢١].

{ونذيرًا}، من الإنذار؛ وهو الإعلام بالمكروه؛ أي بما يخاف منه.

والرسول ﷺ لا شك أنه مبشر بما يسر وهو الجنة؛ ومنذر بما يخاف منه وهو النار، و{بشيرًا}، حال من الكاف في {أرسلناك}؛ و{نذيرًا}، حال أخرى بواسطة حرف العطف؛ فجمع الله له بين كونه مبشِّرًا، ومنذرًا؛ لأن ما جاء به أمر، ونهي؛ والمناسب للأمر: البشارة؛ وللنهي: الإنذار؛ فعليه تكون رسالة النبي ﷺ جامعة بين البشرى، وبين الإنذار؛ والأمر، والنهي؛ إذًا فالرسول مبشِّر للمتقين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا؛ ومنذر للكافرين أن لهم نارًا كلَّما نضجت جلودهم بدَّلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب.

{ولا تسأل عن أصحاب الجحيم}؛ في {تسأل} قراءتان؛ إحداهما بالرفع على أن {لا} نافية؛ والفعل مبني لما لم يسمَّ فاعله؛ يعني: ولا تسأل أنت عن أصحاب الجحيم؛ أي لا يسألك الله عنهم؛ لأنك بلغت؛ والحساب على الله؛ والقراءة الثانية: بالجزم على أن {لا} ناهية؛ و{تسأل}: فعل مضارع مبني للفاعل مجزوم بها؛ والمعنى: لا تسأل عن أصحاب الجحيم بما هم عليه من العذاب؛ فإنهم في حال لا يتصورها الإنسان؛ وهذا غاية ما يكون من الإنذار لهؤلاء المكذبين المخالفين الذين هم أصحاب الجحيم؛ فالنهي هنا للتهويل؛ والقراءتان سبعيتان جامعتان للمعنيين؛ و {أصحاب}: جمع صاحب؛ وهو الملازم؛ و{الجحيم}: النار العظيمة؛ وهي لها أسماء كثيرة منها: النار، والسعير، وجهنم، والجحيم؛ كل ذلك لاختلاف أوصافها؛ وإلا فهي واحدة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الردّ على هؤلاء الذين قالوا: {لولا يكلمنا الله ... }؛ لقوله تعالى: {إنَّا أرسلناك بالحقِّ}.

٢- ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: {إنَّا أرسلناك}.

٣- أن النبي ﷺ رسول صادق؛ وليس برب؛ لأن الرسول لا يمكن أن يكون له مقام المرسل.

٤- أن رسالة النبي ﷺ متضمنة لأمر، ونهي، وتبشير، وإنذار؛ لقوله تعالى: {بشيرًا ونذيرًا}؛ والحكمة من ذلك ظاهرة؛ وذلك لأن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات؛ أو بالعكس؛ فلو كانت الشريعة كلها أوامر ما تبين الابتلاء في كف الإنسان نفسه عن المحارم، ولو كانت كلها نواهي ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسه على الأوامر؛ فكان الابتلاء بالأمر، والنهي غاية الحكمة؛ فالشيخ الكبير يهون عليه ترك الزنى؛ ولذلك كانت عقوبته على الزنى أشد من عقوبة الشاب؛ المهم أن الابتلاء لا يتم إلا بتنويع التكليف؛ فمثلًا الصلاة تكليف بدني؛ والزكاة بذل للمحبوب؛ والصيام ترك محبوب؛ والحج تكليف بدني، ومالي.

٥- أن وظيفة الرسل الإبلاغ؛ وليسوا مكلَّفين بعمل الناس؛ لقوله تعالى: {ولا تسأل عن أصحاب الجحيم}.

وعلى القراءة الثانية نستفيد فائدة ثانية؛ وهي شدة عذاب أصحاب الجحيم والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: {ولا تسأل عن أصحاب الجحيم}.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)

قال أبو زهرة: في هذا النص إشارة إلى أنهم هم الذين يعارضون، ويتعنَّتون؛ لأنه سبق إليهم ما يحسبون به أنهم فوق أن يتَّبعوا غيرهم، بل غيرهم عليه هو أن يتبعهم، وقد أكد الله تعالى أن ذلك المعنى في نفوسهم، فنفَى عنهم الرضا على النبي ﷺ نفيًا مؤكَّدًا للحال التي كانوا عليها عند المبعث المحمدي، لأن رسالته ﷺ، واجهت في نفوسهم شعورًا مملوءًا بالضلال والهوى والانحراف عن الجادة المستقيمة، ولكي يدخل الحق إليها لابدّ من تفريغ ما فيها من ضلال وفساد، وهداية النفس الخالية من فساد المنكر أقرب من النفس الممتلئة بالباطل.

فهم يريدون أن يكونوا متبوعين لَا تابعين، وتلك توجد فيهم جحودًا، وقسوة في قبول الحق لَا يقل عن المشركين في تمسكهم برئاساتهم، وشرف قبائلهم وعشائرهم، والمنافسات بينهم.

قال ابن العثيمين: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}: كان النبي ﷺ يحب أن يتألف اليهود، والنصارى؛ والذي يحب أن يتألفهم يحب أن يرضوا عنه؛ فبين الله عز وجل أن هؤلاء اليهود والنصارى قوم ذوو عناد؛

لا يمكن أن يرضوا عنك مهما تألفتهم؛ ومهما ركنت إليهم بالتألف لا بالمودة فإنهم لن يرضوا عنك حتى تتَّبع ملتهم؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه؛ ثم بعد ذلك كان يأمر بمخالفتهم؛ و{لا} هنا للتوكيد؛ وليست مستقلة؛ فإنها لو حذفت، وقيل: (ولن ترضى عنك اليهود والنصارى) لاستقام الكلام؛ لكنها زيدت للتوكيد؛ لأجل ألّا يظن الظّان أن المراد أن الجميع لا يرضون مجتمعين؛ مع أن الواقع أن كل طائفة لن ترضى؛ ونظير ذلك في زيادة (لا)، قوله تعالى: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين}[الفاتحة: ٧]: فإنها تفيد ما أفادته {لا} في قوله تعالى: {ولا النصارى}؛ و{حتى}: حرف غاية؛ وهي تنصب المضارع بنفسها عند الكوفيين؛ وبـ(أن) المقدرة عند البصريين؛ و{ملّتهم}: أي دينهم الذي كانوا عليه؛ فاليهود لن يرضوا عنك حتى تكون يهوديًّا، والنصارى لن ترضى عنك حتى تكون نصرانيًّا؛ ولكن الجواب الوحيد لهؤلاء الذين يقولون: (لا نرضى عنك حتى تتبع ملتنا).

قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم: فانظر كيف قال في الخبر: {مِلَّتَهُمْ}، وقال في النهي {أَهْوَاءَهُمْ}، لأن القوم لا يرضون إلا بإتباع الملَّة مطلقًا، والزجر وقع عن إتباع أهوائهم في قليل أو كثير، ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين نوع متابعة لهم في بعض ما يهوونه، أو مظنة لمتابعتهم فيما يهوونه.

قال القرطبي: فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}، المعنى: ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا، بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك، وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام وإتباعهم. والملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله. فكانت الملة والشريعة سواء، فأمّا الدّين فقد فرَق بينه وبين الملة والشريعة، فإن الملَّة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله، والدين ما فعله العباد عن أمره([1]).

الثانية: تمسَّك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداود وأحمد بن حنبل على أن الكفر كله ملَّة واحدة، لقوله تعالى: {مِلَّتَهُمْ}، فوحَّد الملَّة، وبقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[الكافرون : ٦]، وبقوله ﷺ: ((لا يتوارث أهل ملتين))، على أن المراد به الإسلام والكفر، بدليل قوله ﷺ: ((لا يرث المسلم الكافر([2]))). وذهب مالك وأحمد في الرواية الأخرى إلى أن الكفر ملل، فلا يرث اليهودي النصراني، ولا يرثان المجوسي، أخذا بظاهر قوله ﷺ: ((لا يتوارث أهل ملتين))، وأما قوله تعالى: {مِلَّتَهُمْ}: فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة في اللفظ بدليل إضافتها

١- (قلت): كما جاء في الحديث: ((اللهم أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين)).

٢- (قلت): متفق عليه، البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤)، والحديث بتمامه: ((لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ.)).

- وقال الإمام الألباني في الإرواء (١٦٧٥): وقال الترمذى: حديث حسن صحيح، وزاد الحاكم فى أوله: ((لا يتوارث أهل ملتين، ولا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ)).

قلت: وله شواهد منها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا بلفظ: ((لا يتوارث أهل ملتين شتى)). أخرجه أبو داود (٢٩١١)، وابن ماجه (٢٧٣١)، وابن الجارود (٩٦٧)، والدار قطني (٤٥٧)، وأحمد (١٧٨/٢ و١٩٥)، من طرق عن عمرو به.

قلت: وهذا سند حسن.

إلى ضمير الكثرة، كما تقول: أخذت عن علماء أهل المدينة – مثلًا – علمهم، وسمعت عليهم حديثهم، يعني علومهم وأحاديثهم.

قال ابن العثيمين: {قل}: أي مجيبًا لهم في عدم اتّباع ملتهم، {إن هدى الله هو الهدى}: أي ليس الهدى ما أنتم عليه؛ بل إن هدى الله وحده هو الهدى؛ و {هو}، ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ وقوله تعالى: {الهدى}، خبر {إن}؛ أما اسمها فهو قوله تعالى: {هدى الله}.

{ولئن اتبعت أهواءهم}: الخطاب للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتأتى خطابه؛ ولكن الأقرب أنه للرسول ﷺ؛ و{لئن اتبعت}، جملة فيها شرط، وقسم؛ وإذا اجتمعا أي الشرط، والقسم فإنه يحذف جواب المؤخر منهما؛ قال ابن مالك في الألفية:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

والقسم دلَّت عليه اللام في قوله تعالى: {ولئن اتَّبعت}؛ إذ إن التقدير: (والله لئن اتبعت)؛ والشرط {إن}. والجواب: {ما لك من الله ... }؛ وهو جواب القسم بناء على القاعدة التي أشار إليها ابن مالك؛ ولأنه لو كان جواب الشرط لوجب اقترانه بالفاء؛ لأنه نفي بـ{ما}؛ وجواب الشرط قيل: إنه محذوف دلَّ عليه جواب القسم؛ وقيل: إنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه؛ وهذا القول هو الراجح أنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه؛ والدليل على ذلك؛ أنه لم يأت ذكره في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ فإذا لم يأت في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية دلَّ على أن الكلام مستغن عنه.

{بعد الذي جاءك من العلم}: يشير إلى الوحي الذي جاء إلى النبي ﷺ سواء كان القرآن، أو السنة؛ فالذي جاء إلى الرسول ﷺ علم.

{ما لك من الله من ولي ولا نصير}: {ما} نافية؛ و{لك}، جار ومجرور خبر مقدم؛ و{ولي}، مجرور لفظًا مرفوع محلًا على أنه مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد إعرابًا؛ وأصلها: (ما لك من الله ولي)؛ وجملة: {ما لك من الله}، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب القسم؛ وال{ولي}: هو الذي يتولّى غيره بحفظه، وصيانته؛ فالمعنى: ما أحد يتولّى حفظك سوى الله عز وجل؛ وال{نصير}: هو الذي يدفع الشر؛ أي: ولا أحد يتولى نصرك، فيدفع عنك الشر سوى الله عز وجل.

قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: {ولئن اتبعت}، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى – فيما يرضيهم عنك – من تهوُّد وتنصُّر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم – من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة – ما لك من الله من ولي – يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به – ولا نصير، ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك.

قال السعدي: فهذا فيه النهي العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبُّه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

قال ابن كثير: فِيهِ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأُمَّةِ عَنِ اتِّبَاعِ طَرَائِقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بَعْدَ مَا عَلِموا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْخِطَابَ مَعَ الرَّسُولِ، وَالْأَمْرَ لِأُمَّتِهِ.

قال أبو زهرة: عليهم أن يحرصوا على مجانبتهم، وألّا يغتروا بهم، وإنه في وقت ضعف النفوس المؤمنة يكون كيد هؤلاء مستمرًا دائمًا ومذهبًا يصلون به إلى قلوب ضعاف الإيمان، فقد يميلون – وإن لم يكفروا – فيستحسنوا ما عندهم، وإنّا نرى من ضعفاء الإيمان في عصرنا من يستحسنون كل ما عند النصارى واليهود، فإذا ذكرت أحوالهم استحسنوها، وإذا ذكرت مكارم المسلمين استهجنوها، حتى طمع أولئك الفجرة الفسقة في بعض المسلمين، فأخذوا يستهوونهم بكل الأساليب، وقَى الله أهل الإيمان منهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– بيان عناد اليهود، والنصارى، حيث لا يرضون عن أحد إلا إذا اتبع دينهم.

٢– أن من كان لا يرضى إلا بذلك فسيحاول إدخال غير اليهود، والنصارى في اليهودية، والنصرانية.

٣– الحذر من اليهود، والنصارى؛ إذ لا يرضون لأحد حتى يكون يهوديًّا؛ أو نصرانيًّا.

٤– أن الكفر ملّة واحدة؛ لقوله تعالى: {ملّتهم}؛ وهو باعتبار مضادة الإسلام ملّة واحدة؛ أما باعتبار أنواعه فإنه ملل: اليهودية ملّة؛ والنصرانية ملّة؛ والبوذية ملّة؛ وهكذا بقية الملل؛ ولكن كل هذه الملل باعتبار مضادة الإسلام تعتبر ملّة واحدة؛ لأنه يصدق عليها اسم الكفر؛ فتكون جنسًا، والملل أنواعًا.

٥– الردّ على أهل الكفر بهذه الكلمة: {هدى الله هو الهدى}؛ والمعنى: إن كان معكم هدى الله فأنتم مهتدون؛ وإلّا فأنتم ضالون.

٦– أن ما عدا هدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون}[يونس: ٣٢]؛ فكل ما لا يوافق هدى الله فإنه ضلال؛ وليس ثمة واسطة بين هدى الله، والضلال.

٧– أن البدع ضلالة؛ لقوله تعالى: {قل إن هدى الله هو الهدى}؛ وقوله تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين}[سبأ: ٢٤]؛ فليس بعد الهدى إلا الضلال؛ ولقول النبي ﷺ: ((كل بدعة ضلالة([١]))).

١– أخرجه النسائي ص٢١٩٣، كتاب صلاة العيدين، باب ٢٢: كيف الخطبة، حديث رقم ١٥٧٩ن بزيادة: ((وكل ضلالة في النار))، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح، [٥١٢/١، حديث رقم ١٥٧٧]، وأصله في مسلم ص٨١٣، كتاب الجمعة، باب ١٣: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث ٢٠٠٥ [٤٣] ٨٦٧، بدون: ((وكل محدثة بدعة))، ولا ((وكل ضلالة في النار)).

٨- تحريم اتباع أهواء اليهود، والنصارى؛ لقوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير}.

٩- أن ما عليه اليهود والنصارى ليس دينًا؛ بل هو هوى؛ لقوله تعالى: {أهواءهم}؛ ولم يقل ملَّتهم كما في الأول؛ ففي الأول قال تعالى: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}؛ لأنهم يعتقدون أنهم على ملَّة، ودين؛ ولكن بين الله تعالى أن هذا ليس بدين، ولا ملَّة؛ بل هوى؛ وليسوا على هدى؛ إذ لو كانوا على هدى لوجب على اليهود أن يؤمنوا بالمسيح عيسى بن مريم؛ ولوجب عليهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لكن دينهم هوى، وليس هدى؛ وهكذا كل إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل عليهم الصلوات والسلام، ويتعصب له؛ فإن ملته هوى، وليست هدى.

١٠- أن من اتبع الهوى بعد العلم فهو أشدّ ضلالة؛ لقوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم} الآية.

١١- أن ما جاء إلى الرسول سواء كان القرآن، أو السنة فهو علم؛ فالنبي ﷺ كان أميًّا لا يقرأ، ولا يكتب ، كما قال تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك}[العنكبوت: ٤٨]؛ ولكن الله تعالى أنزل عليه هذا الكتاب حتى صار بذلك نبيًّا جاء بالعلم النافع، والعمل الصالح.

١٢- أن من أراد الله به سوءًا فلا مرد له؛ لقوله تعالى: {ما لك من الله من ولي ولا نصير}.

١٣- أنك إذا اتبعت غير شريعة الله فلا أحد يحفظك من الله؛ ولا أحد ينصرك من دونه حتى لو كثر الجنود عندك؛ ولو كثرت الشرط؛ ولو اشتدت القوة؛ لأن النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدى الله عز وجل، كما قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}[الأنعام: ٨٢] فالأمن إنما يكون بالإيمان، وعدم الظلم.

١٤- أنه يجب تعلق القلب بالله خوفًا، ورجاءً؛ لأنك متى علمت أنه ليس لك ولي، ولا نصير فلا تتعلق إلا بالله؛ فلا تعلق قلبك أيها المسلم إلا بربك.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

قال ابن العثيمين: {الذين آتيناهم الكتاب} مبتدأ؛ وجملة: {يتلونه حق تلاوته}، قيل: إنها خبر المبتدأ؛ وعلى هذا فتكون الجملة الثانية: {أولئك يؤمنون به} استئنافية؛ وقيل: إن قوله تعالى: {يتلونه حق تلاوته} جملة حالية، وأن جملة: {أولئك يؤمنون به} خبر المبتدأ؛ والأقرب الإعراب الثاني؛ لأن الكلام هنا عن الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ:

لا يؤمنون به إلا من يتلو الكتاب حق تلاوته سواء التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن؛ وعلى هذا فقيد الذي آتيناه الكتاب بكونهم يتلونه حق التلاوة أحسن يعني: أن من أوتي الكتاب، وصار على هذا الوصف يتلوه حق تلاوته فهو الذي يؤمن به.

وقوله تعالى: {آتيناهم الكتاب}: أي أعطيناهم الكتاب؛ والإيتاء هنا إيتاء شرعي، وكوني؛ لأن الله تعالى قدر أن يعطيهم الكتاب، فأعطاهم إياه؛ وهو أيضًا إيتاء شرعي؛ لأنه فيه الشرائع، والبيان؛ والمراد بمن آتاهم الكتاب: إما هذه الأمة؛ أو هي، وغيرها؛ وهذا هو الأرجح أنه شامل لكل من آتاه الله الكتاب؛ و{الكتاب}، المراد به الجنس؛ فيشمل القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها من كتب الله عز وجل.

{يتلونه حق تلاوته}؛ (التلاوة)، تطلق على تلاوة اللفظ وهي القراءة؛ وعلى تلاوة المعنى وهي التفسير؛ وعلى تلاوة الحكم وهي الإتباع؛ هذه المعاني الثلاثة للتلاوة داخلة في قوله تعالى: {يتلونه حق تلاوته}؛ فـ(التلاوة اللفظية) قراءة القرآن باللفظ الذي يجب أن يكون عليه معربًا كما جاء لا يغير؛ و(التلاوة المعنوية) أن يفسره على ما أراد الله؛ ونحن نعلم مراد الله بهذا القرآن؛ لأنه جاء باللغة العربية، كما قال لله تعالى: {بلسان عربي مبين}[الشعراء: ١٩٥]؛ وهذا المعنى في اللغة العربية هو ما يقتضيه هذا اللفظ؛ فنكون بذلك قد علمنا معنى كلام الله عز وجل؛ و(تلاوة الحكم) امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وتصديق الأخبار.

وقوله تعالى: {حق تلاوته}، هذا من باب إضافة الوصف إلى موصوفه يعني: التلاوة الحق؛ أي التلاوة الجد، والثبات، وعدم الانحراف يمينًا، أو شمالًا؛ وهو من حيث الإعراب: مفعول مطلق؛ لأنه مضاف إلى مصدر، كما قال ابن مالك في الألفية: (كجد كل الجد).

قال ابن كثير: وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَنْ يُحِلَّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ وَيَقْرَأَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَلَا يُحَرِّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَتَأَوَّلَ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، يَكِلُونَ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ إِلَى عَالِمِهِ. وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: مَنْ يَتَّبِعُ الْقُرْآنَ يَهْبِطُ بِهِ عَلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ. وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رضي الله عنه: هُمُ الَّذِينَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلُوهَا مِنَ اللَّهِ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةِ عَذَابٍ اسْتَعَاذُوا مِنْهَا، قَالَ: وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ تَعَوَّذَ(١).

قال الطبري: عن قتادة قوله: {الذين آتيناهم الكتاب}، هؤلاء أصحاب نبي الله ﷺ، آمنوا بكتاب الله وصدقوا به.

١- (قلت): مسلم (٧٧٢). ونص الحديث: عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ((سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ))، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ))، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: ((سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى))، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ. قَالَ: وَفِي حَدِيثِ جَرِيرٍ مِنَ الزِّيَادَةِ، فَقَالَ: ((سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ)).

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل، الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، فأقروا بحكم التوراة، فعملوا بما أمر الله فيها من إتباع محمد ﷺ، والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله. قال ابن زيد في قوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، قال: من كفر بالنبي ﷺ من يهود فأولئك هم الخاسرون.

وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة. لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله، وتأولهم إياه على غير تأويله، وادعائهم على الله الأباطيل. ولم يجرِ لأصحاب محمد ﷺ في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: {الذين آتيناهم الكتاب}، موجها إلى الخبر عنهم، ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، فيكون موجِّهًا ذلك إلى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول الله ﷺ، بعد انقضاء قصص غيرهم، ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسليم له(١).

فإذ كان ذلك كذلك، فالَّذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجَّهًا إلى أنه خبر عمَّن قصَّ الله جل ثناؤه قصصهم في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وإذْ كان ذلك كذلك:

فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد – وهو التوراة – فقرؤه واتَّبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته. وإنما أدخلت الألف واللام في {الكتاب} لأنه معرفة، وقد كان النبي ﷺ وأصحابه عرفوا أي الكتب عنى به.

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ: {أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}، خَبَر عَنِ {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ}: أَيْ مَنْ أَقَامَ كِتَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ حَقَّ إِقَامَتِهِ، آمَنَ بِمَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ.

قال الطبري: {أولئك}، هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته، وأما قوله: {يؤمنون}، فإنه يعني: يصدقون به. وال{هاء} التي في قوله: {به}، عائدة على ال{هاء} التي في {تلاوته}، وهما جميعًا من ذكر الكتاب الذي قاله الله: {الذين آتيناهم الكتاب}.

فأخبر الله جل ثناؤه أن المؤمن بالتوراة، هو المتبع ما فيها من حلالها وحرامها، والعامل بما فيها من فرائض الله التي فرضها فيها على أهلها، وأن أهلها الذين هم أهلها من كان ذلك صفته، دون من كان محرِّفًا لها مبدِّلًا تأويلها، مغيِّرًا سننها تاركًا ما فرض الله فيها عليه. وإنما وصف جل ثناؤه من وُصف بما وصف به من متبعي التوراة، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم، لأن في إتباعها إتباع محمد نبي الله ﷺ وتصديقه، لأن التوراة تأمر أهلها بذلك، وتخبرهم عن الله تعالى ذكره بنبوته، وفرض طاعته على جميع خلق الله من بني آدم، وأن في التكذيب بمحمد التكذيب لها. فأخبر جل ثناؤه أن متَّبعي التوراة هم المؤمنون بمحمد ﷺ، وهم العاملون بما فيها، كما قال ابن زيد في قوله: {أولئك يؤمنون به}،

١- رحم الله أبا جعفر، فهو لا يدع الاحتجاج الصحيح عند كل آية، ولكن بعض أهل التفسير يتجاوزون ويتساهلون، فليتهم نهجوا نهجه في الضبط والحفظ والاستدلال.

قال: من آمن برسول الله ﷺ من بني إسرائيل، وبالتوراة، وإن الكافر بمحمد ﷺ هو الكافر بها الخاسر، كما قال جل ثناؤه: {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون}.

قال ابن العثيمين: {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون}؛ {من}، شرطية جازمة؛ {يكفر}، مجزوم على أنه فعل الشرط. {به}: أي بالكتاب؛ وجملة: {فأولئك هم الخاسرون}، هي جواب الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ والجملة الاسمية إذا كانت جوابا للشرط وجب اقترانها بالفاء؛ وأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت، والاستمرار؛ وأتى بضمير الفصل {هم} لإفادة الحصر، والتوكيد؛ يعني: فأولئك الذين كفروا به هم الخاسرون لا غيرهم؛ وأصل (الخسران) النقص؛ ولهذا يقال: ربح؛ ويقال في مقابله: خسر؛ فهؤلاء هم الذي حصل عليهم النقص لا غيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة، وفانية، فلا تنفعهم.

قال الطبري: {ومن يكفر به}، ومن يكفر بالكتاب الذي أخبر أنه يتلوه – من آتاه من المؤمنين – حق تلاوته. ويعني بقوله جل ثناؤه: {يكفر}، يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ﷺ، وتصديقه، ويبدله فيحرف تأويله، أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه. قال ابن زيد: {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون}، قال: من كفر بالنبي ﷺ من يهود، {فأولئك هم الخاسرون}.

قال ابن كثير: كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}[هُودٍ: ١٧]. وَفِي الصَّحِيحِ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ([١]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– منَّة الله عز وجل على من آتاه الله تعالى الكتاب، فتلاه حق تلاوته.

٢– أنه ليس مجرد إتيان الكتاب فضيلة للإنسان؛ بل الفضيلة بتلاوته حق تلاوته.

٣– أن للإيمان علامة؛ وعلامته العمل؛ لقوله تعالى: {أولئك يؤمنون به} بعد قوله عز وجل: {يتلونه حق تلاوته}.

٤– أن من خالف القرآن في شيء كان ذلك دليلًا على نقص إيمانه؛ لقوله تعالى: {يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به}؛ فمعنى ذلك: إذا لم يتلوه حق تلاوته فإنهم لم يؤمنوا به؛ بل نقص من إيمانهم بقدر ما نقص من تلاوتهم له.

٥– أن تلاوة القرآن نوعان؛ تلاوة حق؛ وتلاوة ناقصة ليست تامة؛ فالتلاوة الحق أن يكون الإنسان تاليًا للفظه، ولمعناه عاملًا بأحكامه مصدِّقًا بأخباره؛ فمن استكبر أو جحد فإنه لم يتله حق تلاوته.

٦– أن الكافر بالقرآن مهما أصاب من الدنيا فهو خاسر؛ لقوله تعالى: {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون}؛ يكون خاسرًا ولو نال من الدنيا من أموال، وبنين، ومراكب فخمة، وقصور مشيدة؛ لأن هذه كلها سوف تذهب، وتزول؛ أو

١– صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هو يزول عنها، ولا تنفعه؛ واذكر قصة قارون، واتل قول الله تعالى: {قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين}[الزمر: ١٥]؛ فإذا يصدق عليهم أنهم هم الخاسرون، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله}[المنافقون: ٩]؛ ولما كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربح قال تعالى: {ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون}[المنافقون: ٩] يعني: ولو ربحوا في دنياهم.

٧- علو مرتبة من يتلون الكتاب حق تلاوته؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: {أولئك يؤمنون به}.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)

قال ابن كثير: قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ، وَكُرِّرَتْ هَاهُنَا لِلتَّأْكِيدِ وَالْحَثِّ على إتباع الرسول النبي الْأُمِّيِّ الذي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ ونعته وَاسْمَهُ وَأَمْرَهُ وَأُمَّتَهُ. يُحَذِّرُهُمْ مِنْ كِتْمَانِ هَذَا، وَكِتْمَانِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ، وَلَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمِّهم مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ. وَلَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الحسدُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ، وَالْحَيْدَةِ عَنْ مُوَافَقَتِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قال الطبري: وهذه الآية عظَّة من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم، استعطافًا منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد ﷺ، فقال: يا بني إسرائيل اذكروا أيادي لديكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوّكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المنَّ والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد، بعد أن كنتم مذلَّلين مقهورين، واختصاصي الرسل منكم، وتفضيلي إيّاكم على عالم من كنتم بين ظهرانيه، أيام أنتم في طاعتي بإتّباع رسولي إليكم، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي، وَدَعُوا التمادي في الضلال والغي.

وقد ذكرنا فيما مضى النِّعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، والمعاني التي ذكرهم جل ثناؤه من آلائه عندهم، والعالم الذي فُضّلوا عليه فيما مضى قبل، بالروايات والشواهد، فكرهنا تطويل الكتاب بإعادته، إذْ كان المعنى في ذلك في هذا الموضع وهنالك واحدًا.

قال ابن العثيمين: {لا تجزي نفس عن نفس شيئًا}: أي لا تغني نفس عن نفس شيئًا؛ فليس تفضيل آبائكم على العالمين بمغن عنكم شيئًا؛ لا تقولوا: لنا آباء مفضلون على العالمين، وسنسلم بهم من النار، أو من عذاب هذا اليوم؛

و{شيئًا}، نكرة في سياق النفي، فتعمُّ أي شيء؛ ولا يرد على هذا الشفاعة الشرعية التي ثبتت بها السنة؛ فإن هذه الآية مخصوصة بها.

{ولا يقبل منها}: أي من النفس؛ والذي يقبل أو يَرُدّ هو الله سبحانه وتعالى؛ و{عدل}: أي ما يعدل به العذاب عن نفسه وهو الفداء ؛ فال{عدل}، معناه الشيء المعادل، كما قال الله تبارك وتعالى: {أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صيامًا ليذوق وبال أمره}[المائدة: ٩٥]: أي ما يعادله من الصيام؛ وهنا: لو أتت بالفداء لا يقبل.

{ولا تنفعها شفاعة}؛ ال{شفاعة}: هي التوسط للغير بدفع مضرة، أو جلب منفعة؛ سميت بذلك؛ لأن الشافع إذا انضم إلى المشفوع له، صار شفعًا بعد أن كان وترًا؛ فالشفاعة لأهل النار أن يخرجوا منها: شفاعة لدفع مضرة؛ والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة؛ شفاعة في جلب منفعة(١).

{ولا هم ينصرون}: مع أن السياق يرجع إلى مفرد في قوله تعالى: {نفس عن نفس}، وقوله تعالى: {ولا يقبل منها}، وقوله تعالى: {ولا تنفعها}؛ جاء الكلام هنا بصيغة الجمع باعتبار المعنى؛ لأن قوله تعالى: {لا تجزي نفس عن نفس} للعموم؛ والعموم يدل على الجمع، والكثرة؛ ثم إن هنا مناسبة لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ ومراعاة الفواصل أمر ورد به القرآن حتى إنه من أجل المراعاة يقدم المفضول على الفاضل، كما في قوله تعالى في سورة طه؛ {قالوا آمنا برب العالمين * رب هارون وموسى}[الشعراء: ٤٧، ٤٨]؛ لأن سورة طه كلها على فاصلة ألف إلا بعض الآيات القليلة؛ فمراعاة الفواصل إذًا من بلاغة القرآن.

قال الطبري: وهذه الآية ترهيب من الله جل ثناؤه للذين سلفت عظَّته إيّاهم بما وعظهم به في الآية قبلها. يقول الله لهم: واتقوا – يا معشر بني إسرائيل المبدلين كتابي وتنزيلي، المحرِّفين تأويله عن وجهه، المكذبين برسولي محمد ﷺ – عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئًا، ولا تغني عنها غناء، أن تهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بي، وتكذيبكم رسولي، فتموتوا عليه، فإنه يوم لا يقبل من نفس فيما لزمها فدية، ولا يشفع فيما وجب عليها من حق لها شافع، ولا هي ينصرها ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إياه. وقد مضى البيان عن كل معاني هذه الآية في نظيرتها قبل، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– إثبات يوم القيامة، وأن هذا اليوم شديد يجب اتقاؤه والحذر منه.

٢– أن ذلك اليوم لا تغني نفس عن نفس شيئًا؛ حتى الوالد لا يجزي عن ولده شيئًا؛ ولا المولود يجزي عن والده شيئًا، كما قال تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا}.

١– (قلت): أنظر كلام العلماء عن الشفاعة عند تفسير الآيتين: (٤٨ و ٢٥٥) من سورة البقرة.

٣- أن من استحق العذاب ذلك اليوم لا يقبل منه عدل؛ قال تعالى: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم}.

٤- ثبوت أصل الشفاعة في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: {لا تنفعها شفاعة}؛ وثبت أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف أن يقضى بينهم(١)، وأنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار؛ وفيمن دخل النار أن يخرج منها؛ فعلى هذا يكون العموم في قوله تعالى: {ولا تنفعها شفاعة}، مخصوصًا بما ثبتت به السنة من الشفاعة.

٥- أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لقوله تعالى في آية أخرى: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين}[المدثر: ٤٨].

٦- أنه لا ينصر أحد أحدًا من عذاب الله؛ لقوله تعالى: {ولا هم ينصرون}.

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

قال القرطبي: لما جرى ذكر الكعبة والقبلة اتَّصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذي بنى البيت، فكان من حق اليهود – وهم من نسل إبراهيم – ألّا يرغبوا عن دينه. والابتلاء: الامتحان والاختبار، ومعناه أمر وتعبد. وإبراهيم تفسيره بالسريانية فيما ذكر الماوردي، وبالعربية فيما ذكر ابن عطية: (أب رحيم). قال السهيلي: وكثيرًا ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي أو يقاربه في اللفظ، ألا ترى أن إبراهيم تفسيره (أب راحم)، لرحمته بالأطفال، ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين يموتون صغارًا إلى يوم القيامة.

قلت: وممّا يدلُّ على هذا ما خرَّجه البخاري من حديث الرؤيا الطويل عن سمرة، وفيه : أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس(٢).

قال ابن العثيمين: {وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ}؛ {إبراهيم}، مفعول مقدم؛ و{ربه}، فاعل مؤخَّر؛ فالمبتلي هو الله؛ والمبتلى هو إبراهيم؛ والابتلاء هو الاختبار، والامتحان؛ و{إبراهيم} بكسر الهاء، وياء بعدها؛ وفيها قراءة: {إبراهام} بفتح الهاء، وألف بعدها؛ وهنا أضاف الربوبية إلى إبراهيم: وهي من الربوبية الخاصة؛ فالربوبية بإزاء العبودية؛ فكما أن العبودية نوعان خاصة، وعامة فالربوبية أيضا نوعان: خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قول السحرة: {آمنا برب العالمين}[الأعراف: ١٢١]: هذه عامة؛ {رب موسى وهارون}[الشعراء: ٤٨]: هذه خاصة؛ ولا شك أن ربوبية الله سبحانه وتعالى للرسل ولا سيَّما أولو العزم منهم؛ وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام أخصّ الربوبيات.

١- (قلت): البخاري (١٣٨٦).

٢- (قلت): البخاري (٤٠٤٧).

{بكلمات}؛ هذه الكلمات التي هي محل الابتلاء، والاختبار أطلقها الله سبحانه وتعالى؛ فهي كلمات كونية؛ وشرعية؛ أو جامعة بينهما؛ واختلف المفسرون في هذه الكلمات؛ وأصح الأقوال فيها أن كل ما أمره به شرعًا، أو قضاه عليه قدرًا، فهو كلمات؛ فمن ذلك أنه ابتلي بالأمر بذبح ابنه، فامتثل؛ لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذلك عنه حين استسلم لربه؛ وهذا من الكلمات الشرعية؛ وهذا امتحان من أعظم الامتحانات؛ ومن ذلك أن الله امتحنه بأن أوقدت له النار، وألقي فيها؛ وهذا من الكلمات الكونية؛ وصبر، واحتسب؛ فأنجاه الله منها، وقال تعالى: {يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم}[الأنبياء: ٦٩]؛ وكل ما قدره الله عليه مما يحتاج إلى صبر، ومصابرة، أو أمره به فهو داخل في قوله تعالى: {بكلمات}.

قال السعدي: يخبر تعالى، عن عبده وخليله، إبراهيم عليه السلام، المتَّفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدَّعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتبيَّن الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق، الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، ويخلص ذهبه، وكان من أجلهم في هذا المقام، الخليل عليه السلام.

قال ابن العثيمين: {إني جاعلك}: أي مصيرك؛ وهي تنصب مفعولين؛ لأنها مشتقة من (جعل) التي بمعنى (صيَّر)؛ والمفعول الأول: الكاف التي في محل جر بالإضافة؛ والمفعول الثاني: {إمامًا}.

وقوله تعالى: {للناس إمامًا}، عامَّة فيمن أتى بعده: فإنه صار إمامًا حتى لخاتم الرسل محمد ﷺ، كما قال تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين}[النحل: ١٢٣]؛ و(الإمام) من يقتدى به سواء في الخير، أو في الشر؛ لكن لا ريب أن المراد هنا إمامة الخير.

فإذا قال قائل: أرونا دليلًا على أن الإمامة في الشر تسمى إمامة؟

قلنا: قوله تعالى: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون}[القصص: ٤١]، وقول النبي ﷺ: ((من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء([1])))؛ وهذا لأنه إمام.

قال السعدي: فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكورًا فقال: {إني جاعلك للناس إمامًا}: أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد. وهذه – لعمر الله – أفضل درجة، تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام، شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله. فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته، لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته، ونصحه لعباد الله، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية.

١- أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ٢٠: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة … ، حديث رقم ٢٣٥١ [٦٩] ١٠١٧

قال ابن العثيمين: {ومن ذريتي}: أي: واجعل من ذريتي إمامًا؛ وهنا {من} يحتمل أنها لبيان الجنس؛ وبناء على ذلك تصلح {ذريتي} لجميع الذرية؛ يعني: واجعل ذريتي كلهم أئمة؛ ويحتمل أنها للتبعيض؛ وعليه فيكون المقصود: اجعل بعض الذرية إمامًا؛ والكلام يحتمل هذا، وهذا؛ ولكن سواء قلنا؛ إنها لبيان الجنس؛ أو للتبعيض؛ فالله تعالى أعطاه ذلك مقيَّدًا، فقال تعالى: {لا ينال}: أي لا يصيب، {عهدي}: أي تعهدي لك بهذا، {الظالمين}؛ و{عهدي} فاعل؛ و {الظالمين} مفعول به؛ أي أجعل من ذريتك إمامًا؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك.

قال السعدي: فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال: {لا ينال عهدي الظالمين}: أي: لا ينال الإمامة في الدِّين، من ظلم نفسه وضرَّها، وحطَّ قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبَّة التّامَّة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟ ودلَّ مفهوم الآية، أن غير الظالم، سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٣ص٢٠٣: فَعَهْدُهُ بِالْإِمَامَةِ لَا يَنَالُ الظَّالِمَ، فَالظَّالِمُ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْتَمَّ بِهِ فِي ظُلْمِهِ، وَلَا يُرْكَنَ إلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَرْكَنُوا إلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ}، فَمَنْ ائْتَمَّ بِمَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ وَعَبَدَ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْعِبَادَةِ، وَاَللَّهُ تَعَالَى: {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

وقال رحمه اللّه في ج١٠ص٢٠١: وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ إمَامُ الْحُنَفَاءِ الْمُخْلِصِينَ، حَيْثُ بُعِثَ وَقَدْ طَبَقَ الْأَرْضَ دِينُ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذِ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، فَبَيَّنَ أَنَّ عَهْدَهُ بِالْإِمَامَةِ لَا يَتَنَاوَلُ الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ الظَّالِمُ إمَامًا، وَأَعْظَمُ الظُّلْمِ الشِّرْكُ.

وَقَالَ تَعَالَى: {إنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل: ١٢٠]، و(الْأُمَّةُ): هُوَ مُعَلِّمُ الْخَيْرِ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، كَمَا أَنَّ (الْقُدْوَةَ) الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ.

وَاَللَّهُ – تَعَالَى – جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَإِنَّمَا بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ بَعْدَهُ بِمِلَّتِهِ قَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل: ١٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}[آل عمران: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: {مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[آل عمران: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ} – إلَى قَوْلِهِ – {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[البقرة: ١٣٥، ١٣٦].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: ((إنَّ إبْرَاهِيمَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ([1])))، فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ خَلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ: ((إنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا([2]))).

وقال رحمه اللّه أيضاً في ج١٧ص٤٨٣: وَهُوَ الَّذِي بَوَّأَهُ اللَّهُ مَكَانَ الْبَيْتِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إلَيْهِ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الْحَرَمَ عَلَى لِسَانِهِ، وَإِسْمَاعِيلُ نَبَّأَهُ مَعَهُ، وَهُوَ الذَّبِيحُ الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ وَصَبَرَ عَلَى الْمِحْنَةِ، وَأُمُّهُ هَاجَرُ هِيَ الَّتِي أَطَاعَتْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إبْرَاهِيمَ فِي مُقَامِهَا مَعَ ابْنِهَا فِي ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي لَمْ يَكُنْ بِهِ أَنِيسٌ، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ: {رَبَّنَا إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}[ابراهيم: ٣٧].

وَكَانَ لِإِبْرَاهِيمَ وَلِآلِ إبْرَاهِيمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِمْ، فَخَصَّهُمْ اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَ لِبَيْتِهِ الَّذِي بَنَوْهُ لَهُ خَصَائِصَ لَا تُوجَدُ لِغَيْرِهِ، وَجَعَلَ مَا جَعَلَهُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ قُدْوَةً لِلنَّاسِ وَعِبَادَةً يَتَّبِعُونَهُمْ فِيهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِإِبْرَاهِيمَ السَّعْيَ وَرَمْيَ الْجِمَارِ وَالْوُقُوفَ بِعَرَفَاتِ بَعْدَ مَا كَانَ، مِنْ أَمْرِ هَاجَرَ وَإِسْمَاعِيلَ وَقِصَّةِ الذَّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا كَانَ كَمَا شَرَعَ لِمُحَمَّدِ الرَّمَلَ فِي الطَّوَافِ حَيْثُ أَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِحَجِّ الْبَيْتِ، وَالْحَجُّ مَبْنَاهُ عَلَى الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ؛ وَلِهَذَا خُصَّ بِاسْمِ النُّسُكِ، و(النُّسُكُ) فِي اللُّغَةِ: الْعِبَادَةُ.

قال القرطبي: استدلَّ جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله، على ما تقدم من القول فيه. فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى: {لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم. وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بني أمية وقاموا عليهم، فكانت الحرة التي أوقعها بهم مسلم بن عقبة.

والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض. والأول مذهب طائفة من المعتزلة، وهو مذهب الخوارج، فاعلمه.

قال ابن خويزمنداد: وكل من كان ظالمًا لم يكن نبيًّا ولا خليفة ولا حاكمًا ولا مفتيًا، ولا إمام صلاة، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تقبل شهادته في الأحكام، غير أنه لا يعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحل والعقد. وما تقدم من أحكامه موافقًا للصواب ماض غير منقوض.

١- أبو داود في السنة (٤٦٧٢)، وأحمد ٣/١٧٨، كلاهما عن أنس.

- (قلت): الحديث بتمامه عند مسلم (٢٣٦٩)؛ عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ)). وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٣٣٤٤).

٢- البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٣/٣-٧).

وقد نصَّ مالك على هذا في الخوارج والبغاة أن أحكامهم لا تنقض إذا أصابوا بها وجها من الاجتهاد، ولم يخرقوا الإجماع، أو يخالفوا النصوص. وإنما قلنا ذلك لإجماع الصحابة، وذلك أن الخوارج قد خرجوا في أيامهم ولم ينقل أن الأئمة تتبعوا أحكامهم، ولا نقضوا شيئًا منها، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التي أخذوا وأقاموا، فدلَّ على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرض لأحكامهم.

قال ابن خويزمنداد: وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال: إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذًا على موجب الشريعة فجائز أخذه، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره. وإن كان مختلطًا حلالًا وظلمًا كما في أيدي الأمراء اليوم فالورع تركه، ويجوز للمحتاج أخذه، وهو كَلِصٍ في يده مال مسروق، ومال جيد حلال وقد وكله فيه رجل فجاء اللص يتصدق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة، وإن كان قد يجوز أن يكون اللص يتصدق ببعض ما سرق، إذا لم يكن شيء معروف بنهب، وكذلك لو باع أو اشترى كان العقد صحيحًا لازمًا – وإن كان الورع التنزه عنه – وذلك أن الأموال لا تحرم بأعيانها وإنما تحرم لجهاتها. وإن كان ما في أيديهم ظلمًا صراحًا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم. ولو كان ما في أيديهم من المال مغصوبًا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب، فهو كما لو وجد في أيدي اللصوص وقطاع الطريق، ويجعل في بيت المال وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد، فإذا لم يعرف صرفه الإمام في مصالح المسلمين.

قال أبو زهرة: وقد تكلَّم بعض المفسرين على ضوء هذه الآية الكريمة على الولاية وإمامة الناس، فقال بعضهم: إن هذه الآية تدلُّ على أنه لَا يجوز ولاية الظالم، ولا يصح أن يكون إمامًا، وأنه إذا ولي ظالم لَا تجوز طاعته، أو على الأقل في ظلمه، وقال آخرون: تجب طاعته في الطاعة وتجب مخالفته في المعصية، لأنه لَا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ويستمر في ولايته، ويُسعى في تغييره.

وإن الاتفاق على أنه لَا يجوز تولية الجائر، ولكن أتسقط ولايته بجوره؟، أم تبقى ويُسعى في تغييره؛ المعتزلة والشيعة والخوارج قالوا: لَا طاعة له، ويغير بالقوة.

والذي عليه الأكثرون كما قال القرطبي: أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الخوف بالأمن، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء وشن الغارات على المسلمين والفساد في الأرض.

وقد كان الإمام مالك يمنع محاربة الخوارج وأمثالهم إذا خرجوا على الظالمين ويقول: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما، ولكن إذا خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز وجب على الناس أن يقاتلوهم ويمنعوهم من طغيانهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الله قد يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة؛ لقوله تعالى: {وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ}، وكما أنه يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة شرعية، فإنه قد يبتليهم بأحكام كونية، مثل: مرض، مصائب في المال، أو في الأهل؛ وما أشبه ذلك.

٢- فضيلة إبراهيم ﷺ؛ لقوله تعالى: {ربه}، حيث أضاف ربوبيته إلى إبراهيم وهي ربوبية خاصة؛ ولقوله تعالى: {فأتمّهن}؛ ولقوله تعالى: {إني جاعلك للناس إمامًا}.

٣- أن من أتم ما كلفه الله به كان من الأئمة؛ لقوله تعالى: {إني جاعلك للناس إمامًا}؛ فإنه لما أتمهن جوزي على ذلك بأن جعل للناس إمامًا.

٤- أنه ينبغي للإنسان أن يدعو لذريته بالإمامة، والصلاح؛ لقوله تعالى: {قال ومن ذريتي}؛ وإبراهيم طلب أن يكون من ذريته أئمة، وطلب أن يكون من ذريته من يقيم الصلاة: {رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي}[إبراهيم: ٤٠].

٥- أن الظالم لا يستحق أن يكون إمامًا؛ والمراد: الظلم الأكبر الذي هو الكفر؛ لقوله تعالى: {لا ينال عهدي الظالمين}.

٦- أن الظلم ينزل بأهله إلى أسفل سافلين؛ لا يجعلهم في قمة؛ بل ينزلهم إما في الدنيا؛ وإما في الآخرة.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

قال ابن العثيمين: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا}؛ {إذ} للظرفية؛ وهي متعلقة بمحذوف تقديره: (اذكر)؛ يعني: اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي صيرناه للناس؛ و{جعلنا}: أي صيَّرنا؛ و{البيت}: {أل} هنا للعهد الذهني؛ والمراد به الكعبة؛ لأنها بيت الله عز وجل؛ وأتى هنا بـ{أل} للتفخيم والتعظيم؛ يعني: البيت المعهود الذي لا يجهل، ولا ينسى جعلناه مثابة ...؛ وال{مثابة}: بمعنى المرجع؛ أي يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا سواء ثابوا إليه بأبدانهم، أو بقلوبهم، فالذين يأتون إليه حجاجًا، أو معتمرين يثوبون إليه بأبدانهم؛ والذين يتجهون إليه كل يوم بصلواتهم يثوبون إليه بقلوبهم فإنهم لا يزالون يتذكرون هذا البيت في كل يوم، وليلة؛ بل استقباله من شروط صحة صلاتنا.

قال البغوي: قَالَ مجاهد وسعيد بن جبير: يثوبون إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَحُجُّونَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَعَاذًا وَمَلْجَأً، وَقَالَ قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: مَجْمَعًا.

قال ابن العثيمين: {وأمنًا}: أي وجعلناه أمنًا للناس؛ أي مكانٌ أمنٌ يأْمَنُ الناس فيه على دمائهم، وأموالهم حتى أشجار الحرم، وحشيشه آمن من القطع.

قال البغوي: أَيْ: مَأْمَنًا يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنْ إِيذَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فإنهم كانوا لا يَتَعَرَّضُونَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَيَقُولُونَ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، وَيَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ حَوْلَهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}[الْعَنْكَبُوتِ: ٦٧]. أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ طاوس، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: ((إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حرّمه الله يوم خلق السموات وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يَنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ))، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إلا الإذخر([1])).

قال السعدي: ولهذا كانوا في الجاهلية – على شركهم – يحترمونه أشدّ الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم، فلا يهيّجه، فلمّا جاء الإسلام، زاده حرمةً وتعظيمًا، وتشريفًا وتكريمًا.

قال ابن كثير: وَمَضْمُونُ مَا فَسَّرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ هَذِهِ الْآيَةَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ وَمَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ، أَيْ: جَعَلَهُ مَحَلا تَشْتَاقُ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ وَتَحِنُّ إِلَيْهِ، وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطَرًا، وَلَوْ ترددت إِلَيْهِ كُلَّ عَامٍ، اسْتِجَابَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي قَوْلِهِ: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} إِلَى أَنْ قَالَ: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ}[إِبْرَاهِيمَ: ٣٧ – ٤٠]، وَيَصِفُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ أَمْنًا، مَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ، وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا.

قال ابن العثيمين: {واتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلى}: أي صيِّروا، واجعلوا؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفعل الأمر: {اتَّخذوا}؛ والثانية: بفعل الماضي: {اتَّخذوا}: أي: واتَّخذ الناس؛ وعلى الأولى: اتَّخذوا أنتم من مقام إبراهيم مصلّى؛ و{من} هنا لبيان الجنس؛ ويجوز أن تضمن (في)؛ يعني: واتَّخذوا في هذا المقام مكانًا للصلاة؛ وال{مقام} مكان القيام؛ ويطلق إطلاقين: إطلاقًا عامًّا – وهو مكان قيام إبراهيم للعبادة –؛ وإطلاقًا خاصًا وهو مقامه لبناء الكعبة؛ فعلى الإطلاق الأول يكون جميع مواقف الحج، ومشاعر الحج من مقام إبراهيم: عرفة؛ مزدلفة؛ الجمرات؛ الصفا، والمروة ... إلخ؛ وعلى الإطلاق الثاني الخاص يكون المراد الحجر المعين الذي قام عليه إبراهيم ﷺ ليرفع قواعد البيت؛ وهو هذا المقام المشهور المعروف للجميع.

١- إسناده على شرط البخاري، حيث تفرد عن علي بن عبد الله، وهو المديني. جرير هو ابن عبد الحميد، ومنصور هو ابن المعتمر، ومجاهد هو ابن جبر، وطاوس هو ابن كيسان، يقال: اسمه ذكوان. وهو في شرح السنة (١٩٩٦) بهذا الإسناد. رواه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (١٥٨٧) عن علي بن عبد الله بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري ١٨٣٤ و٢٧٨٣ و٣٨٢٥ و٣١٨٩ ومسلم ١٣٥٣ وأبو داود ٢٠١٨ و٢٤٨٠ والترمذي ١٥٩٠ والنسائي (٥/ ٢٠٣- ٢٠٤) و(٧/ ١٤٦)، وأحمد (١/ ٣١٥ و٣٥٩)، وابن الجارود ٥٠٩ والطبراني في (الكبير) (١٠٩٤٣ و١٠٩٤٤)، وابن حبان ٣٧٢٠ والبيهقي (٥/ ١٩٥ و٩/ ١٦) من طرق من حديث ابن عباس، بعضهم رواه مطولًا، وبعضهم مختصرًا.

قال القرطبي: روى ابن عمر قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر(١). خرجه مسلم وغيره. وخرجه البخاري عن أنس قال: قال عمر: وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث ... الحديث(٢).

{مِنْ مَقَامِ}، المقام في اللغة: موضع القدمين. قال النحاس: {مقام} من قام يقوم، ويكون مصدرًا واسمًا للموضع. ومقام من أقام، فأما قول زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل

فمعناه: فيهم أهل مقامات. واختلف في تعيين المقام على أقوال، أصحها – أنه الحجر الذي تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم. وهذا قول جابر بن عبدالله وابن عباس وقتادة وغيرهم. وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبي ﷺ لما رأى البيت استلم الركن فرمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}، فصلى ركعتين قرأ فيهما بـ{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}[الإخلاص]، و{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}[الكافرون(٣)]. وهذا يدلُّ على أن ركعتي الطواف وغيرهما من الصلوات لأهل مكة أفضل ويدلُ من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل، على ما يأتي. وفي البخاري(٤): أنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت، وغرقت قدماه فيه. قال أنس: رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، حكاه القشيري. وقال السدي: المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه. وعن ابن عباس أيضًا ومجاهد وعكرمة وعطاء: الحج كله. وعن عطاء: عرفة ومزدلفة والجمار، وقاله الشعبي. النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقاله مجاهد.

قلت: والصحيح في المقام القول الأول، حسب ما ثبت في الصحيح.

قال ابن العثيمين: {مصلى}: مفعول أول لـ{اتخذوا}، منصوب بالفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر؛ والتنوين الذي فيه عوض عن الألف المحذوفة؛ والمفعول الثاني: هو الجار والمجرور المقدم؛ وال{مصلى} مكان الصلاة؛ وهل المراد بالصلاة الصلاة اللغوية؛ أو الصلاة الشرعية المعروفة؟ يحتمل هذا، وهذا؛ فإن قلنا بالأول شمل جميع مناسك الحج؛ لأنها كلها محل للدعاء؛ وإن قلنا بالثاني اختص بالركعتين بعد الطواف خلف المقام؛ ويؤيده أن النبي ﷺ حين فرغ من طوافه تقدم إلى مقام إبراهيم، وقرأ: {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى}، وصلى ركعتين(٥)؛ والقول بالعموم أشمل؛ ويجاب عن فعل النبي ﷺ بأنه فسر المعنى ببعض أفراده؛ وهذا لا يقتضي التخصيص عند أهل التحقيق من الأصوليين.

١- (قلت): مسلم (٢٣٩٩).
٢- (قلت): البخاري (٤٤٨٣).
٣- (قلت): مسلم (١٢١٨). دون قوله: (فصلى ركعتين قرأ فيهما).
٤- (قلت): البخاري (٣٣٦٥).
٥- راجع مسلما ص ٨٨٠ – ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

قال شيخ الإسلام في الاستغاثة (٢٧٨، ٢٧٩): وقد قال طائفة من السلف: مقام ابراهيم عرفة ومزدلفة ومنى، ومصلّى أي مَدْعى، وهذا لا ينافي عند كثير من العلماء ما ثبت في الصحيح من أن النبي ﷺ لما طاف صلى عند المقام وقرأ: {واتَّخذوا من مقام ابراهيم مصلّى}، لأن الآية قد تتناول هذا وهذا عند كثير من أهل العلم.

قال ابن العثيمين: {وعهدنا إلى إبراهيم} ال{عهد}: الوصية بما هو هام؛ و ليست مجرَّد الوصية؛ بل لا تكون عهدًا إلا إذا كان الأمر هامًّا؛ ومنه عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر؛ ومعلوم أن أهم ما يكون من أمور المسلمين العامة الخلافة.

{وإسماعيل}: هو ابن إبراهيم؛ وهو أبو العرب؛ وهو الذبيح على القول الصحيح؛ يعني: هو الذي أمر الله إبراهيم أن يذبحه؛ وهو الذي قال لأبيه: {يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين}[الصافات: ١٠٢]؛ وقول من قال: إنه (إسحاق) بعيد؛ وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا منقول عن بني إسرائيل: لأن بني إسرائيل يودون أن الذبيح إسحاق؛ لأنه أبوهم دون إسماعيل؛ لأنه أبو العرب عمهم؛ ولكن من تأمل آيات [الصافات] تبين له ضعف هذا القول.

{أن طهّرا بيتي}؛ {أن} تفسيرية؛ لأن {عهدنا} فيه معنى القول دون حروفه؛ أي أن العهد هو قوله تعالى: {طهّرا بيتي ... }؛ و{طهّرا}: فعل أمر؛ و{بيتي}: المراد به الكعبة؛ وأضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إضافة تشريف؛ والمراد تطهير البيت من الأرجاس الحسّيّة والمعنوية.

قال ابن كثير: وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ}، قَالَ: مِنَ الْأَوْثَانِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: {طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}، إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالرَّفَثِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَالرِّجْسِ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وروي عَنْ عُبَيد بْنِ عُمَيْرٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَعطَاءٍ وَقَتَادَةَ: {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}: أَيْ بِ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مِنَ الشِّرْكِ.

قال ابن العثيمين: {للطائفين}: أي للذين يطوفون بالبيت؛ فاللام هذه للتعليل أي لأجلهم؛ والثاني: {العاكفين}: أي الذين يقيمون فيه للعبادة؛ والثالث: {الركَّع السُّجود}: أي الذين يصلون فيه؛ وعبر عن الصلاة بالركوع، والسجود؛ لأنهما ركنان فيها؛ فإذا أطلق جزء العبادة عليها كان ذلك دليلًا على أن هذا الجزء ركن فيها لا تصحُّ بدونه؛ و{الركَّع}: جمع راكع؛ و{السُّجود}: جمع ساجد؛ وهنا بدأ بـ{الطائفين}؛ لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد؛ ثم بـ{العاكفين}؛ لأن عبادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطائفين؛ وثلث بـ{الركع السجود}؛ لأن ذلك يصح بكل مكان بالأرض؛ لقوله ﷺ: ((جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا([١])))؛ فإذًا يكون الله سبحانه وتعالى بدأ بالأخص فالأخص.

١- (قلت): البخاري (٤٣٨)، واللفظ له، ومسلم (٥٢٣)، بلفظ: ((طهورا ومسجدا)).

قال ابن كثير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}: قَالَ: إِذَا كَانَ مُصَلِّيًا فَهُوَ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَمَعْنَى الْآيَةِ: وأَمَرْنا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِتَطْهِيرِ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ. وَالتَّطْهِيرُ الذِي أَمَرَهُمَا بِهِ فِي الْبَيْتِ هُوَ تطهيرُه مِنَ الْأَصْنَامِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فِيهِ وَمِنَ الشِّرْكِ. ثُمَّ أَوْرَدَ سُؤَالًا فَقَالَ:

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ كَانَ قَبْلَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عِنْدَ الْبَيْتِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الذِي أُمِرَ بِتَطْهِيرِهِ مِنْهُ؟

وَأَجَابَ بِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَمَرَهُمَا بِتَطْهِيرِهِ مِمَّا كَانَ يُعْبَدُ عِنْدَهُ زَمَانَ قَوْمِ نُوحٍ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ لِيَكُونَ ذَلِكَ سُنَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمَا إِذْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ} قَالَ: مِنَ الْأَصْنَامِ التِي يَعْبُدُونَ، التِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُعَظِّمُونَهَا.

قُلْتُ: وَهَذَا الْجَوَابُ مُفَرَّعٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُعْبَدُ عِنْدَهُ أَصْنَامٌ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَحْتَاجُ إِثْبَاتُ هَذَا إِلَى دَلِيلٍ عَنِ الْمَعْصُومِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّهُ أَمَرَهُمَا أَنْ يُخْلِصَا فِي بِنَائِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَيَبْنِيَاهُ مُطَهَّرًا مِنَ الشِّرْكِ والرَّيْب، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ}[التَّوْبَة: ١٠٩] قَالَ: فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}: أَيِ: ابْنِيَا بَيْتِي عَلَى طُهْرٍ مِنَ الشِّرْكِ بِي وَالرَّيْبِ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ: {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}: ابْنِيَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ.

وَمُلَخَّصُ هَذَا الْجَوَابِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَنْ يَبْنِيَا الْكَعْبَةَ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لِلطَّائِفِينَ بِهِ وَالْعَاكِفِينَ عِنْدَهُ، وَالْمُصَلِّينَ إِلَيْهِ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} الْآيَاتِ [الْحَجِّ: ٢٦ – ٣٧].

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ: أَيُّمَا أَفْضَلُ، الصَّلَاةُ عِنْدَ الْبَيْتِ أَوِ الطَّوَافُ؟ فَقَالَ مَالِكٌ: الطَّوَافُ بِهِ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَهُ، وَقَالَ الْجُمْهُورُ: الصَّلَاةُ أَفْضَلُ مُطْلَقًا، وَتَوْجِيهُ كُلٍّ مِنْهُمَا يُذْكَرُ فِي كِتَابِ الأحكام . وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ عِنْدَ بَيْتِهِ، الْمُؤَسَّسِ عَلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَصُدُّونَ أَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[الْحَجِّ: ٢٥].

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْبَيْتَ إِنَّمَا أُسِّسَ لِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِمَّا بِطَوَافٍ أَوْ صَلَاةٍ، فَذَكَرَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ أَجْزَاءَهَا الثَّلَاثَةَ: قِيَامَهَا، وَرُكُوعَهَا، وَسُجُودَهَا، وَلَمْ يُذْكَرِ الْعَاكِفِينَ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ذَكَرَ الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ، وَاجْتَزَأَ بِذِكْرِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ عَنِ الْقِيَامِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ رُكُوعٌ وَلَا سُجُودٌ إِلَّا بَعْدَ قِيَامٍ. وَفِي ذَلِكَ – أَيْضًا – رَدٌّ عَلَى مَنْ لَا يَحُجُّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فَضِيلَةَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَعَظَمَتِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَنَى هَذَا الْبَيْتَ لِلطَّوَافِ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَلِلِاعْتِكَافِ وَالصَّلَاةِ عِنْدَهُ وَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ مُقْتَدِينَ بِالْخَلِيلِ، وَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ مَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُ؟ وَقَدْ حَجَّ البيت مُوسَى بْنُ

عِمْرَانَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الْمَعْصُومُ الذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى {إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} [النَّجْم: ٤].

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ إِذًا: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} أَيْ: تَقَدَّمْنَا لِوَحْيِنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}: أَيْ: طَهِّرَاهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالرَّيْبِ وَابْنِيَاهُ خَالِصًا لِلَّهِ، مَعْقِلًا لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَتَطْهِيرُ الْمَسَاجِدِ مَأْخُوذٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}[النُّور: ٣٦].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة البيت الحرام من وجهين: أنه مثابة؛ وأمن.

٢- ظهور رحمة الله؛ فإنه لما جعل هذا البيت مثابة، والناس لابدَّ أن يرجعوا إليه رحمهم بأن جعله أمنًا؛ وإنما أحلها الله لرسوله ﷺ ساعة من نهار للضرورة؛ وهي ساعة الفتح؛ ثم قال ﷺ: ((وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس))؛ ثم أورد ﷺ سؤالًا قال فيه: ((فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم))([1])؛ والحكم لله العلي الكبير: أذن للرسول في تلك الساعة؛ ولكنه لم يأذن لأحد بعده كما لم يأذن لأحد قبله؛ ولهذا نهي عن حمل السلاح في الحرم حتى يبقى كل إنسان آمنًا؛ ولما طعن ابن عمر رضي الله عنهما وهو على راحلته في منى طعنه أحد الخوارج بسنان الرمح في أخمص قدمه حتى لزقت قدمه بالركاب جاءه الحجاج يعوده، فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟! فقال ابن عمر: أنت أصبتني! قال: وكيف؟ قال: (حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم([2]))؛ وبهذا تعرف عظم جرم أولئك الذين يوقعون المخاوف بين المسلمين في مواسم الحج، وأنهم والعياذ بالله من أعظم الناس جرمًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا البلد آمنًا في كل وقت؛ فكيف في وقت أداء مناسك الحج التي ما أمن والله أعلم إلا لأجلها.

٣- أنه ينبغي أن يكون كل مكان مثابة للناس أمنًا؛ ولهذا كره أهل العلم أن يحمل السلاح في المساجد؛ قالوا: لأن المساجد محل أمن؛ لكن إذا كان المراد من حمل السلاح حفظ الأمن كان مأمورًا به.

٤- وجوب اتِّخاذ المصلّى من مقام إبراهيم؛ لقوله تعالى: {واتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى}؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب؛ فإن قلنا بأن المراد بالمقام جميع مناسك الحج فلا إشكال؛ لأن فيه ما لا يتم الحج إلا به كالوقوف بعرفة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة؛ ومنه ما يصح الحج بدونه مع وجوبه كالمبيت بمزدلفة، ورمي الجمرات؛

١- أخرجه البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٧: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم ١٠٤، وأخرجه مسلم ص٩٠٣ - ٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة وتحريم صيدها ... ، حديث رقم ٣٣٠٤ [٤٤٦] ١٣٥٤.

٢- أخرجه البخاري ص٧٦، كتاب العيدين، باب ٩: ما يكره من حمل السلاح في العيد والحرم، حديث رقم ٩٦٦.

ومنه ما يصح الحج بدونه وليس بواجب، كصلاة الركعتين بعد الطواف على المشهور؛ وإذا قلنا: المراد به الركعتان بعد الطواف صار فيه إشكال: فإن جمهور العلماء على أنهما سنة؛ وذهب الإمام مالك إلى أنهما واجبتان؛ والذي ينبغي للإنسان: أن لا يدعهما؛ لأن الرسول ﷺ فسر الآية بهما، حيث تقدم إلى مقام إبراهيم بعد الطواف، فقرأ: {واتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى}.

٥- أن الله سبحانه وتعالى يثيب العامل بأكثر من عمله؛ فإبراهيم ﷺ لما أتم الكلمات جعله الله تعالى إمامًا للناس، وأمر الناس أن يتَّخذوا من مقامه مصلّى؛ وهذا بعض من إمامته.

٦- وجوب تطهير البيت من الأرجاس الحسية، والمعنوية؛ لقوله تعالى: {وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا}؛ والعهد هو الوصية بالأمر الهام؛ ويؤيّد ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا}[التوبة: ٢٨]؛ ولهذا لا يجوز للمشركين وغيرهم من أهل الكفر أن يدخلوا أميال الحرم؛ لأنهم إذا دخلوها قربوا من المسجد الحرام والله تعالى يقول: {فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا}[التوبة: ٢٨].

٧- اشتراط طهارة مكان الطواف؛ لقوله تعالى: {للطائفين}.

٨- اشتراط طهارة لباس الطائفين من باب أولى، وأنه لا يجوز أن يطوف بثوب نجس؛ لأن ملابسة الإنسان للثياب ألصق من ملابسته للمكان.

٩- أن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة؛ لقوله تعالى: {وطهرا بيتي للطائفين}؛ ولهذا قال العلماء: يشترط لصحة الطواف أن يكون في المسجد الحرام، وأنه لو طاف خارج المسجد ما أجزأه؛ فلو أراد الإنسان مثلًا أن يطوف حول المسجد الحرام من خارج فإنه لا يجزئ؛ لأنه يكون حينئذ طائفًا بالمسجد لا بالكعبة؛ أما الذين يطوفون في نفس المسجد سواء فوق أو تحت، فهؤلاء يجزئهم الطواف؛ وعلى هذا يجب الحذر من الطواف في المسعى، أو فوقه؛ لأن المسعى ليس من المسجد؛ إذ لو كان من المسجد لكانت المرأة إذا حاضت بعد الطواف لا تسعى؛ لأنه يلزم من سعيها أن تمكث في المسجد.

١٠- فضيلة هذه العبادات الأربع: الطواف، والاعتكاف، والركوع، والسجود؛ وأن الركوع والسجود أفضل هيئة في الصلاة؛ فالركوع أفضل هيئة من القيام؛ والسجود أفضل منه؛ والقيام أفضل من الركوع، والسجود بما يقرأ فيه؛ ولهذا نهي المصلّي أن يقرأ القرآن راكعًا، أو ساجدًا؛ فإن ذكر القيام كلام الله؛ وهو أفضل من كل شيء؛ وذكر الركوع والسجود هو التسبيح؛ وهو أقل حرمة من القرآن؛ ولذلك حل الذكر للجنب دون قراءة القرآن[١]، ويجوز مسّ الورقات التي فيها الذكر بغير وضوء دون مس المصحف؛ فالله سبحانه وتعالى حكيم: جعل لكل ركن من أركان الصلاة ميزة يختص بها؛ فالقيام اختصه بفضل ذكره؛ والركوع والسجود بفضل هيئتهما.

١- (قلت): قال الإمام الألباني في تمام المنة: والبراءة الأصلية مع الذين قالوا بجواز مس القران من المسلم الجنب وليس في الباب نقل صحيح يجيز الخروج عنها. فتأمل.

(تنبيه)

اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم ﷺ بناء الكعبة لاصقًا بالكعبة، أو كان منفصلًا عنها في مكانه الآن؛ فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقًا بالكعبة، وأن الذي أخره إلى هذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وبناء على ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: إن هذا مكانه على عهد النبي ﷺ فالظاهر أنه لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي ﷺ أقرَّه؛ وإذا أقره النبي ﷺ فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رسالة في هذا الموضوع، وقرظها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأى أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناء على المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقًا بالكعبة، ثم أُخِّر؛ وهذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة، وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم؛ وفيه نوع مفسدة وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بقاؤه في مكانه؟ أو الأولى تأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئة فالأولى أن يبقى ما كان على ما كان، وحذرًا من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين على الطائفين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

قال ابن العثيمين: {وإذ قال إبراهيم}: أي اذكر إذ قال إبراهيم: {رب اجعل}: أي صيِّر، {هذا}: أي مكة، {بلدا آمنًا}؛ الـ{بلد}، اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبيرة، أو مدينة صغيرة؛ كله يسمّى بلدًا؛ وقد سمّى الله سبحانه وتعالى مكة بلدًا، كما في قوله تعالى: {وهذا البلد الأمين}[التين: ٣]؛ وسمّاها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم}[محمد: ١٣].

وقوله تعالى: {آمنّا}: قال بعض المفسرين: أي آمنّا من فيه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن، والخوف؛ الـ{بلد} أرض، وبناء؛ وإنما الذي يكون آمنًا: أهله؛ أما هو فيكون أمنًا؛ والذي ينبغي هو أن يبقى على ظاهره، وأن يكون البلد نفسه آمنًا؛ وإذا أمن البلد أمن من فيه وهو أبلغ ؛ لأنه مثلًا لو جاء أحد، وهدم البناء ما كان البناء آمنًا، وصار البناء عرضة لأن يتسلط عليه من يتلفه؛ فكون البلد آمنًا أبلغ من أن نفسره بـ(آمنًا أهله)؛ لأنه يشمل البلد، ومن فيه؛ ولهذا قال تعالى: {وارزق أهله}؛ لأن البلد لا يرزق.

قال الطبري: {آمنًا}: آمنًا من الجبابرة وغيرهم، أن يسلّطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله، كما تنال سائر البلدان، من خسف، وائتفاك، وغرق، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد غيره.

فإن قال لنا قائل: أو ما كان الحرم آمنًا إلا بعد أن سأل إبراهيم ربه له الأمان؟

قيل له: لقد اختلف في ذلك. فقال بعضهم: لم يزل الحرم آمنًا من عقوبة الله وعقوبة جبابرة خلقه، منذ خلقت السموات والأرض. واعتلوا في ذلك بما:- حدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق قال، حدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري، قال سمعت أبا شريح الخزاعي يقول: لما افتتحت مكة قتلت خزاعة رجلًا من هذيل، فقام رسول الله ﷺ خطيبًا فقال: ((يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرًا. ألا وإنها لا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة، غضبا علي أهلها. ألا فهي قد رجعت على حالها بالأمس. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فمن قال: إن رسول الله ﷺ قد قتل بها! فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يُحِلَّها لك[١])).

حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان - وحدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا حدثنا جرير - جميعًا، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ، لمكة حين افتتحها: ((هذه حرم حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وخلق الشمس والقمر، ووضع هذين الأخشبين، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، أُحِلَّت لي ساعة من نهار[٢])).

١- الحديث: هذا مختصر من حديث صحيح مطول: فرواه أحمد في المسند: ١٦٤٤٨ (ج ٤ ص ٣٢ حلبي)، عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن محمد بن إسحاق، بهذا الإسناد. ورواية ابن إسحاق ثابتة أيضًا - مطولة - في سيرة ابن هشام ٤: ٥٧-٥٨ (حلبي)، و ٨٢٣- ٨٢٤ أوربة، ٢: ٢٧٧-٢٧٨ (من الروض الأنف). ورواه أيضًا، بنحوه، أحمد: ١٦٤٤٤ (ج ٤ ص ٣١)، والبخاري ١: ١٧٦-١٧٧، و ٤: ٣٥-٣٩ (فتح)، ومسلم ١: ٣٨٣-٣٨٤ كلهم من طريق الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي شريح. وقوله في الحديث: ((أو يعضد بها شجرا))، أي يقطعه، يقال: (عضد الشجر)، من باب (ضرب) قطعه. وقوله: ((غضبا على أهلها)): هذا هو الصحيح الثابت في رواية ابن إسحاق، في المسند، وسيرة ابن هشام، وفي المطبوعة: ((عصى على أهلها)). وهو تصحيف.

٢- الحديث: هذا الحديث رواه الطبري بإسنادين، عن ثلاثة شيوخ: فرواه عن أبي كريب محمد بن العلاء، عن عبد الرحيم بن سليمان الرازي. ثم رواه عن ابن حميد - وهو محمد بن حميد الرازي، وعن ابن وكيع - وهو سفيان بن وكيع، كلاهما: أعني ابن حميد وابن وكيع، عن جرير بن عبد الحميد الضبي. ثم يجتمع الإسنادان: فيرويه عبد الرحيم بن سليمان وجرير بن عبد الحميد (جميعا عن يزيد بن أبي زياد).

وهذه الأسانيد ظاهرها الصحة، وإن كان سفيان بن وكيع ضعيفا، كما بينا في: ١٦٩٢- فإن الطبري لم يفرده بالرواية عنه، بل قرن به محمد الرازي، وهو ثقة - إلا أن في الحديث انقطاعا، بين مجاهد وابن عباس. وقد سمع مجاهد من ابن عباس حديثا كثيرا، ولكن هذا الحديث بعينه رواه (عن طاوس عن ابن عباس).

و(يزيد بن أبي زياد الكوفي مولى بني هاشم): صدوق، في حفظه شيء بعد ما كبر، قال ابن سعد ٦: ٢٣٧ (كان ثقة في نفسه، إلا أنه اختلط في آخر عمره، فجاء بالعجائب). وقال يعقوب بن سفيان: (ويزيد - وإن كانوا يتكلمون فيه لتغييره - فهو على العدالة والثقة، وإن لم يكن مثل الحكم ومنصور). وهو مترجم في التهذيب، والكبير ٣٣٤/٢/٤، وابن أبي حاتم ٢٦٥/٢/٤. فلعله وهم في حذف (طاوس) بين مجاهد وابن عباس.

والحديث في ذاته صحيح.

فرواه أحمد بنحوه مطولا: ٢٣٥٣، ٢٨٩٨، من طريق منصور بن المعتمر، عن مجاهد، عن طاوس، عن ابن عباس.

وكذلك رواه البخاري ٤: ٤٠-٤٢، ومسلم ١: ٣٨٣، من طريق منصور.

ومنصور بن المعتمر: سبق توثيقه ١٧٧. وهو أثبت حفظا من مئة مثل يزيد بن أبي زياد. بل قال يحيى القطان: (ما أحد أثبت عن مجاهد وإبراهيم - من منصور). وقدمه الأئمة - في الحفظ - على الأعمش والحكم.

بل إن هذا الحديث نفسه: ذكر الحافظ في الفتح أنه رواه الأعمش عن مجاهد عن النبي ﷺ - مرسلا، يعني بحذف طاوس وابن عباس، ثم قال: (ومنصور ثقة حافظ، فالحكم لوصله). أي أن هذه الزيادة زيادة ثقة، يجب قبولها والحكم لها بالترجيح.

وقوله في هذه الرواية: ((ووضع هذين الأخشبين)). هذه الزيادة لم أجدها في شيء من الروايات الأخر. و(الأخشبان)، بلفظ التثنية: هما جبلا مكة المطيفان بها. انظر النهاية لابن الأثير، ومعجم البلدان لياقوت.

قالوا: فمكة منذ خلقت حرم آمن من عقوبة الله وعقوبة الجبابرة. قالوا: وقد أخبرت عن صحة ما قلنا من ذلك الرواية الثانية عن رسول الله ﷺ التي ذكرناها. قالوا: ولم يسأل إبراهيم ربه أن يؤمنه من عقوبته وعقوبة الجبابرة، ولكنه سأله أن يؤمن أهله من الجدوب والقحوط، وأن يرزق ساكنه من الثمرات، كما أخبر ربه عنه أنه سأله بقوله: {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر}. قالوا: وإنما سأل ربه ذلك لأنه أسكن فيه ذريته، وهو غير ذي زرع ولا ضرع، فاستعاذ ربه من أن يهلكهم بها جوعا وعطشًا، فسأله أن يؤمنهم مما حذر عليهم منه. قالوا: وكيف يجوز أن يكون إبراهيم سأل ربه تحريم الحرم، وأن يؤمنه من عقوبته وعقوبة جبابرة خلقه، وهو القائل – حين حله، ونزله بأهله وولده: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [إبراهيم: ٣٧]؟ قالوا: فلو كان إبراهيم هو الذي حرم الحرم أو سأل ربه تحريمه لما قال: {عند بيتك المحرم}، عند نزوله به، ولكنه حُرِّم قبله، وحُرِّم بعده.

وقال آخرون: كان الحرم حلالًا قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد غيره، وإنما صار حرامًا بتحريم إبراهيم إياه، كما كانت مدينة رسول الله ﷺ حلالًا قبل تحريم رسول الله ﷺ إياها. قالوا: والدليل على ما قلنا من ذلك ما:– حدثنا به ابن بشار قال، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاهها وصيدها، ولا تقطع عضاهها([1]))).

حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا حدثنا ابن إدريس – وأخبرنا أبو كريب قال ، حدثنا عبد الرحيم الرازي، قالا جميعًا: سمعنا أشعث، عن نافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن إبراهيم كان عبد الله وخليله، وإني عبد الله ورسوله، وإن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاهها وصيدها، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجر إلا لعلف بعير([2]))).

١– الحديث: إسناده صحيح. عبد الرحمن بن مهدي: هو الإمام الحافظ العلم. سفيان: هو الثوري.
أبو الزبير: هو المكي، محمد بن مسلم بن تدرس، تابعي ثقة. أخرج له الجماعة. جابر: هو ابن عبد الله، الصحابي المشهور.
والحديث رواه مسلم ١: ٣٨٥، بنحوه، من طريق محمد بن عبد الله الأسدي، عن سفيان، بهذا الإسناد. بلفظ ((إن إبراهيم حرم مكة)) إلخ.
ونقله ابن كثير ١: ٣١٦، وقال: (وهكذا رواه النسائي، عن محمد بن بشار بندار، به). و(بندار): لقب محمد بن بشار.
اللابتان: هما الحرتان بجانبي المدينة، وهي الأرض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها.
العضاه، بكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة وآخره هاء: كل شجر عظيم له شوك.

٢– الحديث: ٢٠٣٠– أبو السائب: هو مسلم بن جنادة، مضت ترجمته: ٤٨. ابن إدريس: هو عبد الله بن إدريس الأودي. سبقت ترجمته في: ٤٣٨.
عبد الرحيم الرازي: هو عبد الرحيم بن سليمان الرازي الأشل الكناني – الذي مضت له رواية في الحديث ٢٠٢٨– وهو ثقة كثير الحديث. مترجم في التهذيب، وابن أبي حاتم ٢/٢/٢٣٩.
أشعث: هو ابن سوار الكندي، ضعفه بعضهم، ووثقه آخرون. وقد رجحنا توثيقه في شرح المسند: ٦٦١. مترجم في التهذيب، والكبير للبخاري ١/٢/٤٣٠، وابن أبي حاتم ١/١/٢٧١–٢٧٢.
نافع: هو مولى ابن عمر، الثقة الثبت الحجة.
وقد كان هذا الإسناد: مغلوطا في المطبوعة هكذا: "حدثنا أبو كريب وأبو السائب، قالا حدثنا عبد الرحيم الرازي: سمعت أشعث. . . نقص منه (ابن إدريس). فكان ظاهره أن أبا كريب وأبا السائب روياه عن عبد الرحيم الرازي عن أشعث. والصواب ما أثبتناه، نقلا عن ابن كثير ١: ٣١٦، عن هذا الموضع من الطبري.

حدثنا أبو كريب قال، حدثنا قتيبة بن سعيد قال، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن أبي بكر بن محمد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم المدينة ما بين لابتيها[١])). وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول باستيعابها الكتاب.

قالوا: وقد أخبر الله تعالى ذكره في كتابه أن إبراهيم قال: {رب اجعل هذا بلدًا آمنًا}، ولم يخبر عنه أنه سأل أن يجعله آمنًا من بعض الأشياء دون بعض، فليس لأحد أن يدعي أن الذي سأله من ذلك، الأمان له من بعض الأشياء دون بعض، إلا بحجة يجب التسليم لها. قالوا: وأما خبر أبي شريح وابن عباس، فخبران لا تثبت بهما حجة، لما في أسانيدهما من الأسباب التي لا يجب التسليم فيها من أجلها.

والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله تعالى ذكره جعل مكة حرما حين خلقها وأنشأها، كما أخبر النبي ﷺ، أنه حرمها يوم خلق السموات والأرض، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله، ولكن بمنعه من أرادها بسوء، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات، وعن ساكنيها، ما أحل بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها الله إبراهيم خليله، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل. فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاب فرض تحريمها على عباده على لسانه، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه، يستنون به فيها، إذ كان تعالى ذكره قد اتَّخذه خليلًا وأخبره أنه جاعله، للناس إمامًا يقتدى به، فأجابه ربه إلى ما سأله، وألزم عباده حينئذ فرض تحريمه على لسانه، فصارت مكة - بعد أن كانت ممنوعة بمنع الله إياها، بغير إيجاب الله فرض الامتناع منها على عباده، ومحرَّمة بدفع الله عنها، بغير تحريمه إياها على لسان أحد من رسله - فرض تحريمها على خلقه على لسان خليله إبراهيم عليه السلام، وواجب على عباده الامتناع من استحلالها، واستحلال صيدها وعضاهها لها بإيجابه الامتناع من ذلك ببلاغ إبراهيم رسالة الله إليه بذلك إليهم. فلذلك أضيف تحريمها إلى إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: ((إن الله حرم مكة)).

فصحة الإسناد: أنه يرويه الطبري عن أبي كريب وأبي السائب. كلاهما عن عبد الله بن إدريس، ثم يرويه الطبري عن أبي كريب وحده، عن عبد الرحيم الرازي - وأن عبد الله بن إدريس وعبد الرحيم الرازي سمعاه جميعا من أشعث.

وهذا الحديث من هذا الوجه، قال فيه ابن كثير: (وهذه الطريق غريبة، ليست في شيء من الكتب الستة). وأزيد عليه: أني لم أجدها في المسند أيضًا، ولا في غيره مما استطعت الرجوع إليه من المراجع.

ثم أشار ابن كثير إلى أن أصل معناه ثابت عن أبي هريرة، من وجه آخر، في صحيح مسلم. وهو حديث مالك في الموطأ، ص: ٨٨٥، عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: ((اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا. اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة، ومثله معه)). وهو في صحيح مسلم ١: ٣٨٧، عن قتيبة، عن مالك.

١- الحديث: بكر من مضر بن محمد بن حكيم المصري: ثقة، أخرج له الشيخان وغيرهما. مترجم في التهذيب، والكبير للبخاري ٩٥/٢/١، وابن أبي حاتم ٣٩٢/١/١-٣٩٣، وتذكرة الحفاظ، وقال: (الإمام المحدث الصادق العابد).

ابن الهاد: هو يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي المدني. وهو ثقة كثير الحديث، أخرج له أصحاب الكتب الستة. مترجم في التهذيب، والكبير ٣٤٤/٢/٤، وابن أبي حاتم ٢٧٥/٢/٤. أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري: تابعي ثقة حجة، لا يسأل عن مثله.

عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: تابعي ثقة، وكان شريفا جوادا ممدحا. جده لأمه: عبد الله بن عمر بن الخطاب.

والحديث رواه مسلم في صحيحه ١: ٣٨٥، عن قتيبة بن سعيد، بهذا الإسناد. ونقله ابن كثير ١: ٣١٦، وقال: (انفرد بإخراجه مسلم). يعني دون البخاري.

لأن فرض تحريمها الذي ألزم الله عباده على وجه العبادة له به – دون التحريم الذي لم يزل متعبِّدًا لها به على وجه الكلاءة والحفظ لها قبل ذلك – كان عن مسألة إبراهيم ربه إيجاب فرض ذلك على لسانه، وهو الذي لزم العباد فرضه دون غيره.

فقد تبين إذًا بما قلنا صحة معنى الخبرين – أعني خبر أبي شريح وابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: ((وإن الله حرم مكة يوم خلق الشمس والقمر)) – وخبر جابر وأبي هريرة ورافع بن خديج وغيرهم: أن النبي ﷺ قال: ((اللهم إن إبراهيم حرم مكة))؛ وأن ليس أحدهما دافعًا صحة معنى الآخر، كما ظنه بعض الجهال.

وغير جائز في أخبار رسول الله ﷺ أن يكون بعضها دافعا بعضًا، إذا ثبت صحتها. وقد جاء الخبران اللذان رويا في ذلك عن رسول الله ﷺ، مجيئًا ظاهرًا مستفيضًا يقطع عذر من بلغه.

وأما قول إبراهيم عليه السلام: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}[إبراهيم: ٣٧] فإنه، إن يكن قاله قبل إيجاب الله فرض تحريمه على لسانه على خلقه، فإنما عنى بذلك تحريم الله إياه الذي حرمه بحياطته إياه وكلاءته، من غير تحريمه إياه على خلقه على وجه التعبد، لهم بذلك – وإن يكن قال ذلك بعد تحريم الله إياه على خلقه على وجه التعبد فلا مسألة لأحد علينا في ذلك.

قال ابن العثيمين: {ارزق}، فعل دعاء؛ ومعناه: أعط؛ و{أهله}، مفعول أول؛ و{من الثمرات}، مفعول ثان؛ و {من آمن بالله واليوم الآخر}، بدل من قوله: {أهله}، بدل بعض من كل؛ و(الإيمان) في اللغة: التصديق؛ وفي الشرع: التصديق المستلزم للقبول، والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته؛ و{اليوم الآخر}: هو يوم القيامة؛ وسمي آخرًا؛ لأنه لا يوم بعده؛ وسبق بيان ذلك.

قال الطبري: وهذه مسألة من إبراهيم ربه: أن يرزق مؤمني أهل مكة من الثمرات، دون كافريهم. وخص، بمسألة ذلك للمؤمنين دون الكافرين، لما أعلمه الله – عند مسألته إياه أن يجعل من ذريته أئمة يقتدى بهم– أن منهم الكافر الذي لا ينال عهده، والظالم الذي لا يدرك ولايته. فلما أن علم أن من ذريته الظالم والكافر، خص بمسألته ربه أن يرزق من الثمرات من سكان مكة، المؤمن منهم دون الكافر. وإنما سأل إبراهيم ربه ما سأل من ذلك، لأنه حل بواد غير ذي زرع ولا ماء ولا أهل، فسأل أن يرزق أهله ثمرًا، وأن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم.

قال السعدي: قيَّد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدُّبًا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيَّدًا بغير الظالم. فلما دعا لهم بالرزق، وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملًا للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع، قال تعالى: {ومن كفر}: أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر، فيتمتع فيها قليلًا.

قال ابن العثيمين: {قال ومن كفر}؛ القائل هو (الله) – سبحانه وتعالى –؛ فأجاب الله تعالى دعاءه؛ يعني: وأرزق من كفر أيضًا؛ فهي معطوفة على قوله تعالى: {من آمن}؛ ولكنه تعالى قال في الكافر: {فأمتعه قليلًا..} إلخ.

{فأمتعه}، فيها قراءتان؛ الأولى بفتح الميم، وتشديد التاء؛ والثانية بإسكان الميم، وتخفيف التاء؛ و(الإمتاع) و(التمتيع) معناهما واحد؛ وهو أن يعطيه ما يتمتع به؛ و(المتعة): البلغة التي تلائم الإنسان.

{قليلًا}: القلة هنا تتناول الزمان، وتتناول عين الممتع به؛ فالزمن قصير: مهما طال بالإنسان العمر فهو قليل؛ قال الله عز وجل: {كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار}[الأحقاف: ٣٥]؛ كذلك عين الممتع به قليل؛ كل ما يحصل للإنسان من هذه الدنيا من اللذة، والمتاع قليل بالنسبة للآخرة، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها([1]))) ؛ ومع قلته فهو مشوب بكدر سابق، ولاحق، كما قال الشاعر: فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

ويقول الآخر: لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بإدكار الموت والهرم

وإذا شئت أن تعرف حقيقة الأمر فقس ما بقي من حياتك بما مضى؛ الآن كلنا يعرف أننا خلفنا أياما كثيرة؛ فما خلفنا بالأمس كأنه لا شيء؛ نحن الآن في الوقت الذي نحن فيه؛ وأما ما مضى فكأنه لم يكن؛ ولهذا قال النبي ﷺ واصفًا الدنيا: ((إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها([2]))): إنسان اطمأن قليلًا تحت ظل شجرة، ثم ارتحل! هذه الدنيا كلها.

قال الطبري: قال الله: يا إبراهيم، قد أجبت دعوتك، ورزقت مؤمني أهل هذا البلد من الثمرات وكفارهم، متاعًا لهم إلى بلوغ آجالهم، ثم أضطر كفارهم بعد ذلك إلى النار.

وأما قوله: {فأمتعه قليلًا}: يعني: فأجعل ما أرزقه من ذلك في حياته متاعًا يتمتع به إلى وقت مماته.

وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لأن الله تعالى ذكره إنما قال ذلك لإبراهيم، جوابًا لمسألته ما سأل من رزق الثمرات لمؤمني أهل مكة. فكان معلومًا بذلك أن الجواب إنما هو فيما سأله إبراهيم لا في غيره. وبالذي قلنا في ذلك قال مجاهد: {ومن كفر فأمتعه قليلا}، يقول: ومن كفر فأرزقه أيضًا، ثم أضطره إلى عذاب النار.

قال ابن العثيمين: {ثم أضطره إلى عذاب النار}: أي ألجئه إلى عذاب النار؛ وإنما جعل الله ذلك إلجاء؛ لأن كل إنسان يفر من عذاب النار؛ لكنه لابدَّ له منه إن كان من أهل النار؛ لأنه هو الذي فعل الأسباب التي توجبه؛ و ال{عذاب}، العقوبة التي يتألم بها المرء؛ و{النار}، اسم معروف.

قال الطبري: ثم أدفعه إلى عذاب النار وأسوقه إليها، كما قال تعالى ذكره: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا}[الطور: ١٣]. ومعنى (الاضطرار): الإكراه. يقال: (اضطررت فلانا إلى هذا الأمر)، إذا ألجأته إليه وحملته عليه.

فذلك معنى قوله: {ثم أضطره إلى عذاب النار}، أدفعه إليها وأسوقه، سحبًا وجرًّا على وجهه.

١- أخرجه أحمد ٥/٣٣٠، حديث رقم ٢٣١٨٣؛ وأخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧٣: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٩٢..

٢- أخرجه أحمد ج١/٤٤١، حديث رقم ٤٢٠٧؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٩٠، كتاب الزهد، باب ٤٤: حديث: ((ما الدنيا إلا كراكب استظل))، حديث رقم ٢٣٧٧، وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٢٧، كتاب الزهد، باب ٣: مثل الدنيا، حديث رقم ٤١٠٩، واللفظ لأحمد؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/٢٨٠ حديث رقم ١٩٣٦.

قال ابن العثيمين: {وبئس المصير}؛ {بئس}، فعل ماض جامد إنشائي يراد به الذَّم؛ و{المصير}، فاعل {بئس}؛ والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: وبئس المصير هي؛ لأنه لو لم تقدر هذا لم تكن الجملة عائدة على ما سبق؛ و{المصير}: بمعنى مكان الصيرورة؛ أي المرجع الذي يصير إليه الإنسان.

قال الطبري: ومعنى الكلام: وساء المصيرُ عذابُ النار، بعد الذي كانوا فيه من متاع الدنيا الذي متعتهم فيها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- التنويه بفضل إبراهيم؛ لأن قوله تعالى: {وإذ قال}، سبق أنها على تقدير: واذكر إذ قال؛ ولولا أن هذا أمر يستحق التنويه، والإعلام ما أمر به.

٢- أنه لا غنى للإنسان عن دعاء الله مهما كانت مرتبته؛ فلا أحد يستغني عن الدعاء أبدًا؛ لقوله تعالى: {رب اجعل ... } إلخ.

٣- أن للدعاء أثرًا في حصول المقصود سواء كان دفع مكروه، أو جلب محبوب؛ لأنه لولا أن للدعاء أثرًا لكان الدعاء عبثًا؛ وقول من يقول: (لا حاجة للدعاء: إن كان الله كتب هذا فهو حاصل، دعوت أو لم أدع؛ وإن كان الله لم يكتبه فلن يحصل، دعوت أو لم أدع)، فإن جوابنا عن هذا أن نقول: إن الله قد كتبه بناء على دعائك؛ فإذا لم تدع لم يحصل، كما أنه لو قال: (لن آكل الطعام؛ فإن أراد الله لي الحياة فسوف أحيا ولو لم آكل؛ وإن كان يريد أن أموت فسوف أموت ولو ملأت بطني إلى حلقومي)؛ نقول: لكن الأكل سبب للحياة؛ فإنكار أن يكون الدعاء سببًا إنكار أمور بديهيات؛ لأننا نعلم علم اليقين فيما أخبرنا به، وفيما شاهدناه، وفيما جرى علينا أن الله سبحانه وتعالى يقدر الأشياء بالدعاء؛ فالله تعالى قص علينا في القرآن قصصًا كثيرة فيها إجابة للدعاء؛ كذلك يجري للإنسان نفسه أشياء يدعو الله بها فيشاهدها رأي العين أنها جاءت نتيجة لدعائه؛ فإذا الشرع، والواقع كلاهما يبطل دعوى من أنكر تأثير الدعاء.

٤- رأفة إبراهيم ﷺ بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمنا يتضمن الإرفاق بمن أمه من الناس.

٥- رأفة إبراهيم ﷺ أيضًا، حيث سأل الله أن يرزق أهله من الثمرات؛ لقوله تعالى: {وارزق أهله من الثمرات}.

٦- أدب إبراهيم ﷺ، حيث لم يعمم في هذا الدعاء؛ فقال: {وارزق أهله من الثمرات من آمن} خوفا من أن يقول الله له: (من آمن فأرزقه)، كما قال تعالى حين سأله إبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة: {لا ينال عهدي الظالمين} [البقرة: ١٢٤]؛ فتأدب في طلب الرزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البلد؛ لكن المسألة صارت على عكس الأولى: الأولى خصص الله دعاءه؛ وهذا بالعكس: عمم.

٧- أن رزق الله شامل للمؤمن، والكافر؛ لقوله تعالى: {ومن كفر}؛ فالرزق عام شامل للمؤمن، والكافر؛ بل للإنسان، والحيوان، كما قال تعالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها}[هود: ٦]؛ وأنت

ترى بعض الخشاش في الأرض ما حوله شيء، ولكن ييسر الله له الرزق يجلب إليه من حيث لا يشعر، ولا يحتسب؛ ويذكر في هذه الأمور قصص غريبة، ويشاهد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العمياء يجلب الله لها رزقًا كلَّما احتاجت إلى ذلك، فتأكله؛ والله على كل شيء قدير.

٨- أنه يجب علينا أن نتخذ من هذا الوقت القصير عملًا كثيرًا ينفعنا في الآخرة؛ لقوله تعالى: {فأمتعه قليلًا}؛ والعمل اليسير ولله الحمد يثمر ثمرات كثيرة في الآخرة يضاعف بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٩- إثبات عذاب النار.

١٠- إثبات كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {قال}؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ والدليل على أنه بحرف أن قوله تعالى: {ومن كفر} مثلًا مكون من حروف؛ والدليل على أنه بصوت مسموع: المحاورة مع إبراهيم؛ فلولا أن إبراهيم يسمع صوتا لم تكن محاورة.

١١- إثبات سمع الله؛ لأنه يسمع إبراهيم وهو يكلمه سبحانه وتعالى.

١٢- إثبات اليوم الآخر.

١٣- الثناء على النار بهذا الذم، وأنها بئس المصير؛ فكل إنسان يسمع هذا من كلام الله عز وجل سوف ينفر من هذه النار، ولا يعمل عمل أهلها.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)

قال ابن العثيمين: لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه جعل هذا البيت مثابةً للناس، بيَّن الله تعالى كيف نشأ هذا البيت، فقال تعالى: {وإذ يرفع ... }.

{إذ}؛ ظرف عاملها محذوف؛ والتقدير: واذكر إذ يرفع؛ و{يرفع}، فعل مضارع؛ والمضارع للحاضر، أو للمستقبل؛ و(رفع البيت) ماض؛ لكنه يعبر بالمضارع عن الماضي على حكاية الحال كأن إبراهيم يرفع الآن، يعني: ذكرهم بهذه الحال التي كأنها الآن مشاهدة أمامهم.

{إبراهيم}، فيها قراءتان؛ إحداهما: بكسر الهاء بعدها ياء؛ والثانية: بفتح الهاء بعدها ألف: {إبراهام}.

{من البيت}، بيان للقواعد؛ وهي في محل نصب على الحال؛ والمراد بـ{البيت} الكعبة، كما سبق.

{وإسماعيل}، عطفًا على قوله تعالى: {إبراهيم}؛ فهو مشارك لأبيه في رفع القواعد؛ وأخر ذكر إسماعيل؛ لأن الأصل: إبراهيم؛ وإسماعيل معين؛ هذا الظاهر والله أعلم.

قال السعدي: أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل فيه النفع العميم.

قال ابن العثيمين: {ربنا تقبل منا}؛ (رب) منادى حذفت منه (يا) النداء؛ وأصله: يا ربنا؛ حذفت (يا) النداء للبداءة بالمدعو المنادى وهو الله؛ وجملة: {ربنا تقبل منا}، عاملها محذوف تقديره: (يقولان)؛ وجملة: (يقولان) في موضع نصب على الحال؛ ودعوا الله سبحانه وتعالى باسم (الرب)؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خلق وإيجاد.

{ربنا تقبل منا}: يعني كل واحد يقول بلسانه: ربنا تقبل منا؛ هذا ظاهر اللفظ؛ و(القبول): أخذ الشيء، والرضا به؛ ومنه ما يذكره الفقهاء في قولهم: ينعقد البيع بالإيجاب، والقبول؛ فتقبل الله سبحانه وتعالى للعمل أن يتلقاه بالرضا، فيرضى عن فاعله؛ وإذا رضي الله تعالى عن فاعله فلا بد أن يثيبه الثواب الذي وعده إيّاه.

قال الطبري: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا تقبل منا عملنا، وطاعتنا إياك، وعبادتنا لك، في انتهائنا إلى أمرك الذي أمرتنا به، في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه، إنك أنت السميع العليم.

وفي إخبار الله تعالى ذكره أنهما رفعًا القواعد من البيت وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم – دليل واضح على أن بناءهما ذلك لم يكن مسكنًا يسكنانه، ولا منزلا ينزلانه، بل هو دليل على أنهما بنياه ورفعًا قواعده لكل من أراد أن يعبد الله تقرُّبًا منهما إلى الله بذلك. ولذلك قالا: {ربنا تقبل منا}. ولو كانا بنياه مسكنًا لأنفسهم، لم يكن لقولهما: {تقبَّل منا} وجه مفهوم. لأنه كانا يكونان – لو كان الأمر كذلك – سائلين أن يتقبل منهما ما لا قربة فيه إليه. وليس موضعهما مسألة الله قبول ما لا قربة إليه فيه([1]).

قال ابن العثيمين: {إنك أنت السميع العليم}: هذه الجملة تعليل لطلب القبول؛ يعني: نسألك أن تقبل لأنك أنت السميع العليم: تسمع أقوالنا، وتعلم أحوالنا؛ وهذه الجملة مؤكَّدة بمؤكِّدين؛ أحدهما: {إن}؛ والثاني: {أنت}؛ ومن المعلوم أن ضمير الفصل يفيد التوكيد؛ وضمير الفصل لا محل له من الإعراب؛ و{السميع}: خبر {إن}؛ وقوله تعالى: {العليم([2])}: أي ذو العلم.

قال الطبري: إنك أنت السميع دعاءنا ومسألتنا إياك قبول ما سألناك قبوله منا، من طاعتك في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه – العليم بما في ضمائر نفوسنا من الإذعان لك في الطاعة، والمصير إلى ما فيه لك الرضا والمحبة، وما نبدي ونخفي من أعمالنا.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: واسم الله {السميع}: فقد سمّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص

١– يقول: هما من العلم والنبوة بمنزلة وموضع، فلا يسألان الله قبول عمل ليس من القربات إلى الله.

٢– (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

القرآنية، وسمَّاه به رسوله ﷺ في كثير من النصوص النبوية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه مع اجتماع علامات الاسم فيه، فمن القرآن قوله تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[المائدة: ٧٦]، وغالبًا ما يقترن السميع بالعليم كقوله تعالى: {وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لِلهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[يونس: ٦٥]، وقال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم}[الأنعام: ١١٥]، ويقترن اسمه {السميع} أيضًا باسمه البصير كقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[الشورى: ١١].

وفي السنة ما رواه البخاري من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: كنّا مع النبيِّ ﷺ في سَفَر، فكنا إذا عَلونا كبَّرنا، فقال النبيُّ ﷺ: ((أيها الناس أربعوا على أنفُسِكم ،فإنكم لا تَدْعونَ أصمَّ ولا غائبًا، ولكنْ تدعون سميعًا بصيرًا))، ثمَّ أتى عليَّ وأنا أقولُ في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: ((يا عبدَ الله بن قيْس، قل لا حول ولا قوةَ إلا بالله، فإنها كنزٌ مِنْ كنوز الجنة))، أو قال: ((ألا أدلك على كلمةٍ هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله([١])).

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِ رضي الله عنه أن النبي كان يستفتح في صلاته قبل القراءة بقوله: ((أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ([٢]))، وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبان بن عُثْمَان بن عَفَّانَ عن أبيه أنه قال: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ قَال بِسْمِ اللهِ الذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُمْسِيَ([٣])).

واسم الله {السميع} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة السمع بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة السمع وحدها بدلالة التضمن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية، والعلم والقوة، والعزة والعظمة، وكل ما يلزم لقيام صفة السمع وما يترتب عليها، واسم الله {السميع} دلَّ على صفة من صفات الذات ثابتة لله عز وجل نؤمن بها ولا ندري كيفيتها لأننا ما رأيناه وما رأينا له مثيلًا، وليس إثبات الصفة لله تشبيها كما يظن البعض، أو كما حاول أن ينفيها لأن إثباتها عنده تشبيه وتجسيم، كما حدث من المعتزلة حين أشار أحمد بن أبي دؤاد على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة (ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم)، بدلًا من قول الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، فحرَّف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير، حيث اعتقد أن السمع في حق الله تشبيه ولابدَّ أن يكون بأذن، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فالله يسمع بالكيفية التي تناسب عظمته وهو الذي يعلم كيف هو؟.

١- (قلت): البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٧٤٨).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في المختارة (٢٩١ - ٢٩٢)، التعليق الرغيب (١ / ٢٢٦ - ٢٢٧).

كيف ندعو الله باسمه {السميع} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة: ١٢٧]، وعند البخاري من حديث ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أمرني أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يأتي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

قال القرطبي: خرَّج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر([1])أمن البيت هو؟ قال: ((نعم))، قلت: فلم لم يدخلوه في [البيت]([2])؟ قال: ((إن قومك قصرت بهم النفقة)). قلت: فما شأن بابه مرتفعًا؟ قال: ((فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت وأن ألزق بابه بالأرض([3]))). وخرج عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه قال: حدثتني خالتي (يعني عائشة) رضي الله عنها قالت قال النبي ﷺ: ((يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشًا اقتصرتها حيث بنت الكعبة([4]))). وعن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال لي رسول الله ﷺ: ((لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإن قريشًا حين بنت الكعبة استقصرت ولجعلت لها خلفًا([5]))). وفي البخاري قال هشام بن عروة: ((خلفًا: يعني بابًا([6]))).فهذا بناء قريش. ثم لما غزا أهل الشام عبدالله بن الزبير ووهت الكعبة من حريقهم، هدمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة، وزاد فيه خمسة أذرع من الحجر، حتى أبدى أُسًّا نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثماني عشرة ذراعًا، فلما زاد فيه استقصره، فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل لها بابين أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه، كذا في صحيح مسلم، وألفاظ الحديث تختلف. وذكر

١- الجَدر: حِجر الكعبة .

٢- الزيادة عن صحيح مسلم.

٣- (قلت): مسلم (١٣٣٣/٤٠٥).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الجدر)): هو حجر الكعبة، ((في الجاهلية)): هكذا هو في جميع النسخ ((في الجاهلية))، وهو بمعنى (بالجاهلية) كما في سائر الروايات.

٤- (قلت): البخاري (١٥٨٦)، مسلم (١٣٣٣/٤٠١) واللفظ له.

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((حيث بنت الكعبة)): أي (حين بنتها) ذكر ابن هشام في مغنى اللبيب إن كلمة (حيث) قد ترد للزمان.

٥- (قلت): مسلم (١٣٣٣/٣٩٨).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((استقصرت)): أي قصرت عن تمام بنائها واقتصرت على هذا القدر لقصور النفقة بهم عن تمامها ((خلفا)): هذا هو الصحيح المشهور والمراد به: (باب من خلفها).

٦- (قلت): البخاري (١٥٨٥).

سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد قال: لما أراد ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيه قال للناس: اهدموا، قال: فأبوا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب. قال مجاهد: فخرجنا إلى منى فأقمنا بها ثلاثا ننتظر العذاب. قال: وارتقى ابن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه، فلما رأوا أنه لم يصبه شيء اجترؤوا على ذلك، قال: فهدموا. فلما بناها جعل لها بابين: بابا يدخلون منه، وبابا يخرجون منه، وزاد فيه مما يلي الحجر ستة أذرع، وزاد في طولها تسعة أذرع. قال مسلم في حديثه: فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبدالملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء(١)، أما ما زاد في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه. في رواية: قال عبدالملك: ما كنت أظن أبا خبيب (يعني ابن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، قال الحارث بن عبدالله: بلى، أنا سمعته منها، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريبًا من سبعة أذرع)). في أخرى: قال عبدالملك: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير. فهذا ما جاء في بناء الكعبة من الآثار.

وروي أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة، وأن يرده على بناء ابن الزبير لما جاء عن النبي ﷺ وامتثله ابن الزبير، فقال له مالك: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين، ألا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناه، فتذهب هيبته من صدور الناس.

قال ابن إسحاق: كانت تكسى القباطي(٢)ثم كسيت البرد، وأول من كساها الديباج الحجاج.

قال العلماء: ولا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء، فإنه مهدى إليها، ولا ينقص منها شيء. روي عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به، وكان إذا رأى الخادم يأخذ منه قفدها قفدة(٣)لا يألو أن يوجعها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضل عمارة الكعبة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه أن يذكر هذه الحادثة؛ لقوله تعالى: {وإذ يرفع ... } إلخ.

٢- فضل إبراهيم، وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، حيث قاما برفع هذه القواعد.

١- قال النووي: يريد بذلك سبه وعيب فعله، يقال: لطخته أي رميته بأمر قبيح.

٢- القُباطي: (جمع القبطية بضم القاف): ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر، وهي منسوبة الى القبط على غير قياس.

٣- القفد: (بفتح فسكون): صفع الرأس ببسط الكف من قبل القفا.

٣- أن من إحكام البناء أن يؤسس على قواعد؛ لقوله تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد}؛ وإذا بني على غير قاعدة فإنه ينهار.

٤- جواز المعاونة في أفعال الخير.

٥- أهمية القبول، وأن المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على العمل؛ فكم من إنسان عمل أعمالًا كثيرة وليس له من عمله إلا التعب، فلم تنفعه؛ وكم من إنسان عمل أعمالًا قليلة قبلت فنفعه الله بها؛ ولهذا جاء في الحديث: ((رب صائم حظه من صيامه الجوع، والظمأ؛ ورب قائم حظه من قيامه السهر[١])).

٦- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {السميع}، و{العليم}؛ وكل اسم من أسماء الله يدل على صفة من صفاته؛ بل على صفتين أحيانًا، أو أكثر ما يلزم من إثبات الصفة التي يدلُّ عليها الاسم؛ مثال ذلك: (الخالق)، دلَّ على صفة الخلق؛ وصفة الخلق تستلزم ثبوت صفة العلم، والقدرة؛ وقد يدلُّ الاسم على الأثر إذا كان ذلك الاسم متعديًّا؛ مثاله: {السميع}، يدلُّ على صفة السمع، ويدل على أن الله يسمع كل صوت يحدث.

٧- إثبات السمع لله عز وجل؛ وينقسم السمع إلى قسمين: سمع بمعنى سماع الأصوات؛ وسمع بمعنى الإجابة؛ فمثال الأول قوله تبارك وتعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى}[الزخرف: ٨٠]، وقوله تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها}[المجادلة: ١]؛ ومثال الثاني قوله تعالى: {إن ربي لسميع الدعاء}[إبراهيم: ٣٩]: أي مستجيب الدعاء؛ وكذلك قول المصلِّي: (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده؛ والسمع الذي هو بمعنى سماع الأصوات من صفاته الذاتية؛ والسمع بمعنى الاستجابة من صفاته الفعلية؛ لأن الاستجابة تتعلق بمشيئته: إن شاء استجاب لمن حمده؛ وإن شاء لم يستجب؛ وأما سماع الأصوات فإنه ملازم لذاته لم يزل، ولا يزال سميعًا؛ إذ إن خلاف السمع الصمم؛ والصمم نقص؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص؛ وكلا المعنيين يناسب الدعاء: فهو سبحانه وتعالى يسمع صوت الداعي، ويستجيب دعاءه.

والسمع أعني سماع الأصوات تارة يفيد تهديدًا؛ وتارةً يفيد إقرارًا، وإحاطة؛ وتارة يفيد تأييدًا. يفيد تهديدًا، كما في قوله تعالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا ... }[آل عمران: ١٨١] الآية، وقوله تعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى}[الزخرف: ٨٠]، ويفيد إقرارًا، وإحاطة، كما في قوله تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها}[المجادلة: ١]؛ ويفيد تأييدًا، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى}[طه: ٤٦].

٨- إثبات العلم لله تبارك وتعالى جملة، وتفصيلًا؛ موجودًا، أو معدومًا؛ ممكنًا، أو واجبًا، أو مستحيلًا؛ مثال علمه بالجملة: قوله تعالى: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما}[الطلاق: ١٢]، وقوله تعالى: {الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما}[طه: ٩٨]، ومثال علمه بالتفصيل: قوله تعالى: {وعنده مفاتح

١- أخرجه أحمد ٣٧٣/٢، حديث رقم ٨٨٤٣ واللفظ له، وأخرجه ابن ماجة ص٢٥٧٨، كتاب الصيام، باب ٢١: ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، حديث رقم ١٦٩٠؛ قال الألباني في صحيح ابن ماجة، حسن صحيح ٢٨٢/١، حديث رقم ١٣٧١.

الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}[الأنعام: ٥٩]؛ ومثال علمه بالموجود: ما أخبر الله به عن علمه بما كان، مثل قول الله تعالى: {علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم}[البقرة: ١٨٧]؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي قد وجد: ما علمه الله من أحوال الماضين؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي لم يوجد بعد: ما علمه الله عز وجل من أحوال القيامة، ومآل الخلق؛ ومثال علمه بالممكن: ما علمه الله عز وجل من الحوادث الواقعة من الإنسان؛ ومثال علمه بالواجب: ما علمه الله عز وجل من كمال صفاته؛ ومثال علمه بالمستحيل: قوله تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض}[المؤمنون: ٩١]، وقوله تعالى: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا}[الأنبياء: ٢٢].

واعلم أن من أنكر علم الله فهو كافر سواء أنكره فيما يتعلق بفعله، أو فيما يتعلق بخلقه؛ فلو قال: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العبد فهو كافر، كما لو قال: إن الله لا يعلم ما يفعله بنفسه؛ ولهذا كفر أهل السنة والجماعة غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أفعال العباد؛ فالذي ينكر علم الله بأفعال العباد لا شك أنه كافر؛ لأن الله تعالى يقول: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد}[ق: ١٦]، ويقول سبحانه وتعالى: {أم يحسبون أنا لا نعلم سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}[الزخرف: ٨٠]؛ فالذي يقول: إن الله لا يعلم أفعال العباد فإنه كافر بهذه الآيات؛ ولهذا قال الشافعي في القدرية: (ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا؛ وإن أنكروه كفروا)؛ وإيمانك بهذا يوجب لك مراقبته، والخوف منه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه؛ لأنك متى علمت أنه عالم بك فإنك تخشاه؛ تستحيي منه عند المخالفة؛ وترغب فيما عنده عند الموافقة.

٩- التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته المناسبة لما يدعو به؛ لقوله تعالى: {إنك أنت السميع العليم}.

١٠- أن الدعاء يكون باسم (الرب)؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خلق، وإيجاد.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)

قال أبو زهرة: وكرر بين المعطوفين كلمة {ربنا} للشعور بكمال ربوبية الله تعالى، وبكمال الضراعة له سبحانه، فتكرار الربوبية شعور بذكر الله تعالى دائمًا، وبذكر نعمه، وأنه كالئ هذا الوجود كله.

قال ابن العثيمين: {ربنا واجعلنا مسلمين}: أتى بالواو عطفًا على قوله تعالى: {ربنا تقبل منا}: يعني ربنا واجعلنا مع قبولك مسلمين لك؛ و{اجعلنا}: أي صيّرنا.

{ومن ذريتنا أمة مسلمة لك}: يعني واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك؛ فأتى بـ{من} التي للتبعيض؛ والمراد بـ{ذريتنا}: من تفرَّعوا منهما؛ فذرية الإنسان من تفرَّعوا منه.

{أمَّة مسلمة لك}، هذه الأمة هي أمة محمد ﷺ؛ لأنه لا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم، وإسماعيل إلا أمة محمد ﷺ؛ لأن اليهود، والنصارى ليسوا من بني إسماعيل؛ بل من بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٥ص٢٢٤: قَالَ: الْمُسْتَخْرِجُونَ لِهَذِهِ الْبِشَارَةِ: مَعْلُومٌ أَنَّ يَدَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - لَمْ تَكُنْ فَوْقَ أَيْدِي بَنِي إِسْحَاقَ، بَلْ كَانَ فِي بَنِي إِسْحَاقَ النُّبُوَّةُ وَالْكِتَابُ، وَقَدْ دَخَلُوا مِصْرَ زَمَنَ يُوسُفَ مَعَ يَعْقُوبَ، فَلَمْ يَكُنْ لِبَنِي إِسْمَاعِيلَ فَوْقَهُمْ يَدٌ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهَا لَمَّا بُعِثَ مُوسَى، وَكَانُوا مَعَ مُوسَى أَعَزَّ أَهْلِ الْأَرْضِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ يَدٌ ثُمَّ مَعَ (يُوشَعَ) بَعْدَهُ إِلَى زَمَنِ دَاوُدَ، وَمَلَكَ سُلَيْمَانُ الَّذِي لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ مِثْلَهُ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ (بُخْتُنَصَّرَ) فَلَمْ يَكُنْ لِبَنِي إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمْ يَدٌ ثُمَّ بُعِثَ الْمَسِيحُ وَخُرِّبَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الْخَرَابَ الثَّانِيَ، حَيْثُ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَمِنْ حِينَئِذٍ زَالَ مُلْكُهُمْ وَقَطَّعَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، وَكَانُوا تَحْتَ حُكْمِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ، لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ عَلَيْهِمْ حُكْمٌ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ لِوَلَدِ إِسْمَاعِيلَ سُلْطَانٌ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ - لَا أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَا الْأُمِّيِّينَ - فَلَمْ يَكُنْ يَدُ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا؛ الَّذِي دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ حَيْثُ قَالَا: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[البقرة: ١٢٩]. فَلَمَّا بُعِثَ، صَارَ يَدُ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ سُلْطَانٌ أَعَزَّ مِنْ سُلْطَانِهِمْ، وَقَهَرُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَقَهَرُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ. فَظَهَرَ بِذَلِكَ تَحْقِيقُ قَوْلِهِ فِي التَّوْرَاةِ " وَتَكُونُ يَدُهُ فَوْقَ الْجَمِيعِ وَيَدُ الْكُلِّ بِهِ " وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَمِرٌّ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.

قال ابن العثيمين: {وأرنا مناسكنا}: أي بينها لنا حتى نراها؛ وال{مناسك}: جمع منسك؛ وهو هنا مكان العبادة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص٤٨٥: فَالْمَنَاسِكُ هُنَا مَشَاعِرُ الْحَجِّ كُلُّهَا.

قال السعدي: أي: علِّمناها على وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ. يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلِّها، كما يدلُّ عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدلُّ عليه عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج، تغليبًا عرفيًّا، فيكون حاصل دعائهما، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح، ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالا: {وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم}.

قال ابن العثيمين: {وتب علينا}: أي وفقنا للتوبة فنتوب؛ والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ ومن الله عز وجل: هي توفيق العبد للتوبة، ثم قبولها منه.

قال الطبري: أما (التوبة)، فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب. فتوبة العبد إلى ربه، أوبته مما يكرهه الله منه، بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه، وتفضلًا عليه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

قيل: إنه ليس أحد من خلق الله، إلا وله من العمل – فيما بينه وبين ربه – ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة. فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك، وإنما خَصَّا به الحال التي كانا عليها، من رفع قواعد البيت. لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى الله. وجائز أن يكونا عَنَيا بقولهما: {وتب علينا}، وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا – الذين أعلمتنا أمرهم – من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك. فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعني به ذريتهما. كما يقال: (أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرني فلان)، إذا برَّ ولده.

قال ابن العثيمين: {إنك أنت التواب الرحيم}: هذا من باب التوسل بأسماء الله عز وجل المناسبة للمطلوب؛ و {التواب([1])}: صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه؛ و{الرحيم}: أي الموصوف بالرحمة التي يرحم بها من يشاء من عباده([2]).

قال الطبري: إنك أنت العائد على عبادك بالفضل، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران – الرحيم بهم، المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– شدَّة افتقار الإنسان إلى ربه، حيث كرَّر كلمة: {ربنا}؛ وأنه بحاجة إلى ربوبية الله الخاصة التي تقتضي عناية خاصة.

٢– أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت الله؛ وإلا هلك؛ لقوله تعالى: {واجعلنا مسلمين}؛ فإنهما مسلمان بلا شك: فهما نبيان؛ ولكن لا يدوم هذا الإسلام إلا بتوفيق الله؛ قال الله سبحانه وتعالى للرسول ﷺ: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا * إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات}[الإسراء: ٧٤، ٧٥].

٣– أهمية الإخلاص؛ لقوله تعالى: {مسلمين لك}: {لك} تدلُّ على إخلاص الإسلام لله عز وجل، كما قال تعالى في آية أخرى: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه}[البقرة: ١١٢].

٤– أن الإسلام يشمل كل استسلام لله سبحانه وتعالى، ظاهرًا وباطنًا.

١– (قلت): أنظر معنى إسم الله {التواب} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٧) من سورة البقرة.

٢– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

٥- أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته في الدعاء؛ لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة؛ لقوله تعالى: {ومن ذريتنا أمَّة مسلمة لك}؛ وقال إبراهيم ﷺ في آية أخرى: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}؛ فالذرية صلاحها لها شأن كبير بالنسبة للإنسان.

٦- أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: {وأرنا مناسكنا} يعني: أعلمنا بها.

٧- أن الأصل في العبادات أنها توقيفية يعني: الإنسان لا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: {وأرنا مناسكنا}.

٨- تحريم التعبد لله بما لم يشرعه؛ لأنهما دعوا الله عز وجل أن يريهما مناسكهما؛ فلولا أن العبادة تتوقف على ذلك لتعبدا بدون هذا السؤال.

٩- افتقار كل إنسان إلى توبة الله؛ لقوله تعالى: {وتب علينا}؛ إذ لا يخلو الإنسان من تقصير.

١٠- إثبات {التواب}، و{الرحيم} اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وما تضمناه من صفة.

١١- مشروعية التوسل إلى الله عز وجل بأسمائه، وصفاته؛ لأن قوله تعالى: {إنك أنت التواب الرحيم} تعليل للطلب السابق؛ فهو وسيلة يتوصل بها الداعي إلى حصول مطلوبه.

١٢- أن التوسل بأسماء الله يكون باسم مطابق لما دعا به؛ لقوله تعالى: {وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم}، ولقوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}.

(تنبيه)

إن قال قائل: كيف يستقيم أن يسأل إبراهيم، وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مسلمين له مع أنهما كانا كذلك؟

فالجواب: أن المراد بذلك تثبيتهما على الإسلام؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان لا يأمن العاقبة؛ أو يقال: إن المراد تقوية إسلامهما بالإخلاص لله عز وجل، والانقياد لطاعته؛ أو يقال: إنهما قالا ذلك توطئة لما بعدها في قولهما: {ومن ذريتنا أمَّة مسلمة لك}؛ والأول أقوى الاحتمالات.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

قال الطبري: وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا ﷺ يقول: ((أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى([١]))).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥)، والحديث بتمامه: ((أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت في بني سعد بن بكر فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجًا فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقةً سوداء فألقياها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى انقياه رداه كما كان ثم

قال البغوي: حَدَّثَنَا السَّيِّدُ أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الْمُوسَوِيُّ، حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّاسٍ الْبَلْخِيُّ، أَنَا الْإِمَامُ أَبُو سُلَيْمَانَ حَمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَطَّابِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَكِّيِّ أَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ وَهْبٍ أَنَا عمي أنا معاوية بن صَالِحٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى بْنِ هِلَالٍ السُّلَمِيِّ عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ أَمْرِي: أَنَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي وَقَدْ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ([1]))).

قال ابن العثيمين: {ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم([2])يتلو عليهم آياتك}: أي أرسل فيهم رسولًا مرسلًا من عندك يقرأ عليهم آياتك، ويبينها لهم، كما قال الله تبارك وتعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}[النحل: ٤٤].

{ويعلِّمهم الكتاب}: أي القرآن، وما فيه من أخبار صادقة نافعة، وأحكام عادلة؛ {والحكمة قيل: هي السنة؛ لقوله تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة}[النساء: ١١٣]؛ ويحتمل أن يكون المراد بها معرفة أسرار الشريعة المطهرة، وأنها شريعة كاملة صالحة لكل زمان، ومكان.

قال الطبري: ثم اختلف أهل التأويل في معنى {الحكمة} التي ذكرها الله في هذا الموضع. عن قتادة: {والحكمة}: أي السنة. وقال بعضهم: {الحكمة}: هي المعرفة بالدين والفقه فيه. قال ابن زيد في قوله: {والحكمة}: قال: الدين الذي لا يعرفونه إلا به ﷺ، يعلمهم إياها. قال: و{الحكمة}: العقل في الدين وقرأ: {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}[البقرة: ٢٦٩]، وقال لعيسى، {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}[آل عمران: ٤٨]، قال: وقرأ ابن زيد: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا}[الأعراف: ١٧٥]، قال: لم ينتفع بالآيات، حيث لم تكن معها حكمة. قال: و{الحكمة}: شيء يجعله الله في القلب، ينور له به.

قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني بعشرة فوزنتهم ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنني بمائة فوزنتهم ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم)).

١- حديث صحيح بشواهده، إسناده ضعيف لضعف ابن أخي ابن وهب، واسمه أحمد بن عبد الرحمن، وفيه سعيد بن سويد، وثقه ابن حبان، وترجمه البخاري وأبو حاتم من غير جرح أو تعديل، وقال البزار: لا بأس به. وشيخه عبد الأعلى، وثقه ابن حبان وحده، وهو مقبول، ولم ينفرد بهذا المتن كما سيأتي.

وهو في شرح السنة (٣٥٢٠) بهذا الإسناد.

وأخرجه أحمد (٤/ ١٢٧- ١٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٦/ ٦٨)، وابن حبان ٦٤٠٤ وابن أبي عاصم في السنة (٤٠٩)، والبيهقي في (الدلائل) (١/ ٨٠ و٢/ ٣٠) من طرق عن سعيد بن سويد به، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٢٢٣): رواه أحمد بأسانيد، وأحد أسانيده رجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان.

- وله شاهد من حديث أبي أمامة أخرجه الطيالسي ١١٤٠، وأحمد (٥/ ٢٦٢)، وابن سعد (١/ ١٠٢)، والطبراني ٧٧٢٩، والبيهقي في (الدلائل) (١/ ٨٤)، وإسناده ضعيف لضعف فرج بن فضالة، والسياق لأحمد، وقال الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٢٢٢): إسناد أحمد حسن.

- وورد عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنِ نفر من الصحابة مرفوعا أخرجه الحاكم (٢/ ٦٠٠) والطبري ٢٠٧٥ والبيهقي في (الدلائل) (١/ ٨٣)، وإسناده قوي كما قال الحافظ ابن كثير في (البداية) (٢/ ٢٧٥)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن في أقل تقدير بل هو صحيح، والله أعلم، وانظر (الكشاف) ٥٥ للزمخشري بتخريجي.

٢- (قلت): قال ابن العثيمين في القول المفيد: ولما كان المراد العرب، قال: {منهم} لا {من أنفسكم}، قال الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم}، وعلى هذا، فإذا جاءت: {من أنفسهم}؛ فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت {منهم}؛ فالمراد العرب.

- أنظر كلام شيخ الإسلام عند تفسير الآية (١٥١) من سورة البقرة.

والصَّواب من القول عندنا في {الحكمة}، أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ، والمعرفة بها، وما دلَّ عليه ذلك من نظائره. وهو عندي مأخوذ من (الحكم) الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، بمنزلة (الجِلسة والقِعدة) من (الجلوس والقعود)، يقال منه: (إن فلانا لحكيم بين الحكمة)، يعني به: إنه لبين الإصابة في القول والفعل. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل قضائك وأحكامك التي تعلمه إياها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٩ص١٧٥: وَالرَّسُولُ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَقَدْ عَلَّمَ أُمَّتَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ كَمَا قَالَ: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[البقرة: ١٢٩]، وَكَانَ يَذْكُرُ فِي بَيْتِهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَأَمَرَ أَزْوَاجَ نَبِيِّهِ بِذِكْرِ ذَلِكَ فَقَالَ: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}[الأحزاب: ٣٤]، فَآيَاتُ اللَّهِ هِيَ الْقُرْآنُ؛ إذْ كَانَ نَفْسُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ، فَهُوَ عَلَامَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى مَنْزِلِهِ، و{والْحِكْمَةُ}، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ: هِيَ السُّنَّةُ. وَقَالَ – أَيْضًا – طَائِفَةٌ كَمَالِكِ وَغَيْرِهِ: هِيَ مَعْرِفَةُ الدِّينِ وَالْعَمَلُ بِهِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ وَكُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَتَعْلِيمِ الْحَقِّ دُونَ الْبَاطِلِ، وَهَذِهِ السُّنَّةُ الَّتِي فَرَّقَ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ مِنْ الْقَبِيحَةِ، وَالْخَيْرِ مِنْ الشَّرِّ، وَقَدْ جَاءَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلَّا هَالِكٌ([1]))).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَلَامٌ نَحْوُ هَذَا، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْحَدِيثِ وَالْآثَارِ، يَذْكُرُونَهُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي تُذْكَرُ فِيهَا هَذِهِ الْآثَارُ، كَمَا يَذْكُرُ مِثْلَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِيمَا يَصِفُونَهُ فِي السُّنَّةِ، مِثْلَ ابْنِ بَطَّةَ واللالكائي والطلمنكي، وَقَبْلَهُمْ الْمُصَنِّفُونَ فِي السُّنَّةِ كَأَصْحَابِ أَحْمَد، مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْأَثْرَمِ وَحَرْبِ الكرماني، وَغَيْرِهِمْ، وَمِثْلَ الْخَلَّالِ وَغَيْرِهِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا تَحْقِيقُ ذَلِكَ وَأَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَافِيَانِ بِجَمِيعِ أُمُورِ الدِّينِ([2]).

قال ابن العثيمين: {ويزكِّيهم}: أي ينمي أخلاقهم، ويطهرها من الرذائل.

قال الطبري: فمعنى قوله: {ويزكيهم} في هذا الموضع: ويطهِّرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان، وينميهم ويكثرهم بطاعة الله. عن ابن عباس: {يتلو عليهم آياتك ويزكيهم}: قال، يعني بالزكاة، طاعة الله والإخلاص.

وقال ابن جريج قوله: {ويزكيهم}: قال، يطهِّرهم من الشرك، ويخلِّصهم منه.

١- ابن ماجة في المقدمة (٤٣)، وأحمد ٤/١٢٦.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٧)، والحديث بتمامه: ((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وعليكم بالطاعة وإن عبدا حبشيا فإنما المؤمن كالجمل الأنف ؛ حيثما قيد انقاد)). عن العرباض بن سارية يقول: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله! إن هذه لموعظة مودع؛ فماذا تعهد إلينا؟ قال: فذكره.

٢- (قلت): أنظر الآية (١٥١) من سورة البقرة، وكلام شيخ الإسلام عن الحكمة هناك.

قال ابن العثيمين: {إنك أنت العزيز الحكيم}؛ {أنت}: ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ و{العزيز}،خبر {إن}؛ و{الحكيم}، خبر ثان؛ والكاف اسم {إن}؛ و{العزيز}: أي ذو العزة؛ و(العزة): بمعنى القهر، والغلبة؛ فهو سبحانه وتعالى ذو قوة، وذو غلبة: لا يغلبه شيء، ولا يعجزه شيء؛ و{الحكيم([1])}: أي ذو الحكم، والحكمة.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: إنك يا رب أنت العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء أراده، فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك؛ والحكيم الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل، فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا، ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: إسم الله {العزيز} فقد سمّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وسماه به رسوله ﷺ في كثير من النصوص النبوية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[آل عمران: ٦]، واسم الله {العزيز} ورد في أغلب آيات القرآن مقترنًا باسمه {الحكيم}، لأن العزة إذا أضيفت إلى الحكمة، ظهر جمال العزة وكمالها، فكمالها وصول الوصف أعلاه وهو مطلق العزة، وجمالها وصول الحسن منتهاه، فقد يكون العزيز منّا عزيزًا لكنه ظالم متهور، جاهل متكبر، لكن لو اكتست العزة بالحكمة والعلم والخبرة لظهر كمال العزة وجمالها، من أجل ذلك اقترن اسمه {العزيز} باسمه {الحكيم}: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[آل عمران: ١٨]، {إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[آل عمران: ٦٢]، {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ}[آل عمران: ١٢٦]، {لِلذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلهِ المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[النحل: ٦٠]، ويرد أيضًا اسمه {العزيز} مقترنًا باسمه (الرحيم) ، لبيان أن {العزيز} غالب على الخلق أجمعين حتى لو أعرضوا عن رب العالمين، وأنه سينصر عباده الموحدين ولو بعد حين، فالنصر والعزة للإسلام والمسلمين، وهو في المقابل بالمؤمنين المستضعفين رؤوف رحيم، طالما أنهم وحدوه في اسمه {العزيز}، كما في قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ}[الشعراء: ٩]، ذكر الله هذه الآية بعد ذكر هلاك الأمم الماضية الذين بغوا في الأرض وعصوا الرسل في تسع مواضع في سورة الشعراء. ويرد أيضًا مقترنًا باسمه (العليم)، لأنها عزة غني قوي لا يخلق سدًّا ولا يتّخذ خلقه لهوًا ولعبًا، ولكنه يفعل عن علم وحكمة، خلقهم بقدرته، متعاليا بعزته، لكنه في المقابل أحكم صنعته بعلمه، وأكملها وأتقنها بفضله، خلق الخلائق فسواها، وقدر أمورها فهداها، وهو الذي أحياها ويعلم متي يتوفاها، فالفضل له والمجد، هو العزيز الذي يستوجب الحمد، فاسمه {العزيز} ورد مقترنا أيضًا باسمه الحميد كما في قوله: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ}[إبراهيم: ١]، فهو (عزيز عليم):

---

[1]- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

{فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}[الأنعام: ٩٦]، {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}[يّس: ٣٨]، {تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ}[غافر: ٢]، {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}[فصلت: ١٢]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ}[الزخرف: ٩]، وورد اسمه {العزيز} مقترنا باسمه (الوهاب): {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ}[صّ: ٩]، واسمه (الغفار): {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً أَلا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ} [الزمر: ٥].

وعزّة الله، عزّة عن أوصاف حقيقية، اتّصفت بها الذات الإلهية، وليست عزّة معنوية قائمة على أوصاف الآخرين وقدرتهم، كما هو حال المتعززين من أصحاب المكانة الاجتماعية، الذين تعزَّزوا بأوصاف غيرهم وقاموا في حكمهم على استغلال غيرهم واستحلال أموالهم وخيراتهم، فاسمه {العزيز} يقترن باسمه (القوي) لأن الله عزيز بقوته وقدرته، فهو الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وهو عزيز بقدرته فلا يعجزه شيء من خلقه، وهو سبحانه (العزيز الجبار): {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ}[هود: ٦٦]، {اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ}[الشورى: ١٩].

ف{العزيز}: يعني الغالب الذي لا يهزم، الذي عزّ وقوى وسلم من الذلّ، يقال: (عزَّ فلان على فلان): أي له فضل وكرم عليه، و(له عز على فلان): يعني غلبه وقهره، و(أعزَّ فلان فلانًا): يعني جعله قويًّا عزيزًا، واسم الله {العزيز} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة العزّة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة العزّة وحدها بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية، والقدرة والأحدية، والسيادة والصمدية، وكمال العلم والعظمة، وكل ما يلزم لقيام صفة العزَّة وما يترتَّب عليها.

كيف ندعو الله باسمه {العزيز} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في دعاء إبراهيم عليه السلام الذي ورد في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[البقرة: ١٢٩]، {رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[الممتحنة: ٥]، وفي دعاء عيسي عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[المائدة: ١١٨]، وفي دعاء حملة العرش للمؤمنين: {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[غافر: ٨]، وفي الجامع الصغير للسيوطي وصححه الشيخ الألباني من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا تضور من الليل – تقلب وتلوى من شدة الألم – قال: ((لا إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار(١))).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٠٦٦).

أما دعاء العبادة، فهو مظهر العزّة التي يشعر بها المسلم في توحيده لربّه، وعبوديّته وحبّه، وعلمه أن العزّة في اتباع أمره، وأنه العزيز الذي جعل العزة لنبيه، وأتباعه وحزبه، ولا يرضى بديلًا عن عزة الإسلام وأهله، حتى لو كانت لعشيرته وقومه، ورد في صحيح البخاري من حديث عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا رضي الله عنه يَقُولُ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ – فِي غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ – وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا – ضربه على دبره بيده –، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: ((مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ))، ثُمَّ قَالَ: ((مَا شَأْنُهُمْ))، فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ([1])))، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، وفي رواية الترمذي فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ: وَاللهِ لاَ تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ العَزِيزُ، فَفَعَلَ([2]).

وفي رواية عند البخاري من حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَوْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فدعاني فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَتَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ}، فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ...} إلى قوله: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} فَقَالَ ﷺ لزيد: ((إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ([3])))).

قال ابن العثيمين في القواعد المثلى ج١ص٨: {العزيز الحكيم} فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيرًا. فيكون كل منهما دالًا على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم. والجمع بينهما دالٌّ على كمال آخر، وهو أن عزّته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزّته لا تقتضي ظلمًا وجورًا وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيئ التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعزّ الكامل، بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذلّ.

١– (قلت): البخاري (٣٥١٨)، واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٤).

٢– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٣١٥).

٣– (قلت): البخاري (٤٩٠٠).

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج٢ص٧٨: وَلِهَذَا كثيرًا مَا يقرن تَعَالَى بَين هذَيْن الاسمين: {الْعَزِيز الْحَكِيم} فِي آيَات التشريع والتكوين وَالْجَزَاء ليدلَّ عباده على أن مصدر ذَلِك كُله عَن حِكْمَة بَالِغَة وَعزّة قاهرة، ففهم الموفقون عَن الله عز وَجل مُرَاده وحكمته، وانتهوا إِلَى مَا وقفُوا عَلَيْهِ ووصلت إِلَيْهِ إفهامهم وعلومهم، وردّوا علم مَا غَابَ عَنْهُم إِلَى أحكم الْحَاكِمين وَمن هُوَ بِكُل شَيْء عليم، وتحققوا بِمَا عملوه من حكمته الَّتِي بهرت عُقُولهمْ أَن الله فِي كل مَا خلق وَأمر وأثاب وعاقب من الحكم البوالغ مَا تقصر عُقُولهمْ عَن إِدْرَاكه، وَأَنه تَعَالَى هُوَ الْغَنِيّ الحميد الْعَلِيم الْحَكِيم، فمصدر خلقه وَأمره وثوابه وعقابه غناهُ وحمده وَعلمه وحكمته لَيْسَ مصدره مَشِيئَة مُجَرّدَة وقدرة خَالِيَة من الْحِكْمَة وَالرَّحْمَة والمصلحة والغايات المحمودة الْمَطْلُوبَة لَهُ خلقًا وأمرًا، وَأَنه سُبْحَانَهُ لَا يسْأَل عَمَّا يفعل لكَمَال حكمته وَوُقُوع أَفعاله كلهَا على أحسن الْوُجُوه وأتمّها على الصَّوَاب والسّداد ومطابقة الحكم والعباد يسْأَلُون إِذْ لَيست أفعالهم كَذَلِك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ضرورة الناس إلى بعث الرسل؛ ولذلك دعا إبراهيم وإسماعيل الله سبحانه وتعالى أن يبعث فيهم الرسول.

٢- أن كون الرسول منهم أقرب إلى قبول دعوته؛ لقوله تعالى: {رسولًا منهم}؛ لأنهم يعرفونه، كما قال تعالى: {ما ضلَّ صاحبكم وما غوى}[النجم: ٥٣]؛ فتأمل قوله تعالى: {ما ضلَّ صاحبكم}، حيث أضافه إليهم؛ يعني: صاحبكم الذي تعرفونه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته ما ضلَّ، وما غوى.

٣- أن الرسول ﷺ جعل الله سبحانه وتعالى فيه من الخير أنه يتلو الآيات، ويعلم الكتاب، ويعلم الحكمة؛ لقوله تعالى: {يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة}.

٤- أن رسالة النبي ﷺ تتضمن ذكر آيات الله الكونية، والشرعية، وتتضمن تعليم الكتاب تلاوة، ومعنى، وتتضمن أيضًا الحكمة وهي معرفة أسرار الشريعة، وتتضمن تزكية الخلق؛ لقوله تعالى: {يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم}.

٥- أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق، ويطهِّرها من كل رذيلة، كما قال ﷺ: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[١]))؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ: تنمية للأخلاق الفاضلة، وتطهيرًا من كل رذيلة؛ فهو يأمر بالبر، ويأمر بالمعروف، ويأمر بالإحسان، ويأمر بالصلة، ويأمر بالصدق، ويأمر بكل خير؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه

١- أخرجه أحمد ج٢/٣٨١، حديث رقم ٨٩٣٩، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/٦١٣، وقال حديث صحيح على شرط مسلم؛ وأقره الذهبي، وقال ابن عبد البر: وهذا حديث مدني صحيح (التمهيد ٢٤/٣٣٤).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥)، وقال: وفي رواية: ((صالح الأخلاق)).

ودنياه فإن الإسلام يأمر به وهذه تزكية؛ وينهى عن ضد ذلك؛ ينهى عن الإثم، والقطيعة، والعدوان، والعقوق، والكذب، والغش، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق وهذه أيضًا تزكية.

وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تسأل! شرك، وكفر؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تسأل أيضًا عن حالهم! القوي يأكل الضعيف؛ والغني يأكل الفقير؛ ويأكلون الربا أضعافًا مضاعفة؛ يغير بعضهم على بعض؛ يتعايرون بالأنساب؛ يدعون بدعوى الجاهلية ... إلخ. جاء الإسلام، وهدم كل هذا؛ ومن تدبر التاريخ قبل بعثه ﷺ وبعده، علم الفرق العظيم بين حال الناس قبل البعثة، وحالهم بعدها؛ وظهر له معنى قوله تعالى: {ويزكيهم}.

٦- أن هذه الشريعة كاملة؛ لتضمن رسالة النبي ﷺ لهذه المعاني الجليلة مما يدلُّ على كمال شريعته.

٧- إثبات العزّة والحكمة لله؛ لقوله تعالى: {إنك أنت العزيز الحكيم}.

٨- إثبات هذين الاسمين لله: {العزيز}، و{الحكيم}.

٩- مناسبة العزّة، والحكمة لبعث الرسول؛ وهي ظاهرة جدًّا؛ لأن ما يجيء به الرسول كله حكمة، وفيه العزّة: قال الله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}[المنافقون: ٨٠]؛ للمؤمنين عربًا كانوا، أو عجمًا؛ من كان مؤمنًا بالله عز وجل قائمًا بأمر الله فإن له العزّة؛ ومن لم يكن كذلك فاته من العزّة بقدر ما أخلَّ به من الإيمان، والعمل الصالح؛ ولهذا يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)

قال البغوي: وَذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ دَعَا ابْنَيْ أَخِيهِ سَلَمَةَ وَمُهَاجِرًا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُمَا: قَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ نَبِيًّا اسْمُهُ أَحْمَدُ فَمَنْ آمَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَى وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ، فَأَسْلَمَ سَلَمَةُ وَأَبَى مُهَاجِرٌ أَنْ يُسْلِمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ([1]).

قال ابن العثيمين: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه}؛ {من} اسم استفهام يراد به النفي؛ وهو مبتدأ؛ وجملة: {يرغب} خبره؛ ولا نقول: {من} هنا شرطية؛ نعم، لو كانت الآية: (ومن يرغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه) صارت شرطية؛ لكن الأول أبلغ.

{يرغب عن ملّة إبراهيم}: يقال: رغب في كذا؛ ورغب عنه؛ والفرق أن (رغب فيه) يعني طلبه؛ و(رغب عنه): يعني تركه، واجتنبه؛ هنا: {ومن يرغب عن ملّة إبراهيم}: يعني تركها؛ وال{ملّة} بمعنى الدين – أي دين إبراهيم؛ ودين

١- وذكره ابن حجر العسقلاني في العجاب في بيان الأسباب عن الثعلبي والزمخشري. وقال: وقد وجدته في تفسير مقاتل بن سليمان (١١٤٤).

إبراهيم ﷺ أنه كان حنيفًا مسلمًا لله، ولم يكن من المشركين؛ و{إبراهيم}: هو الخليل ﷺ الذي هو أبو الأنبياء، وأشرفهم بعد رسول الله ﷺ، وجعله الله إمامًا، قال الله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتا}[النحل: ١٢٠]، وجعل ملَّته هي الملَّة الحنيفية؛ فإذا كان كذلك فلا أحد يرغب عن الملة الحنيفية القويمة.

قال الطبري: وإنما عنى الله بذلك اليهود والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام. لأن {ملَّة إبراهيم} هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى ذكره: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}[آل عمران: ٦٧]، فقال تعالى ذكره لهم: ومن يزهد عن ملَّة إبراهيم الحنيفية المسلمة إلا من سفه نفسه.

عن قتادة قوله: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه}، رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتّخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملَّة إبراهيم – يعني الإسلام – حنيفًا؛ كذلك بعث الله نبيه محمدًا ﷺ بملَّة إبراهيم.

وعن الربيع في قوله: {ومن يرغب عن ملَّة إبراهيم إلا من سفه نفسه}، قال: رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم، وابتدعوا اليهودية والنصرانية، وليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم: الإسلام.

قال ابن العثيمين: {إلا من سفه نفسه}: أي: أوقعها في سفه؛ وال{سفه}، ضد الرشد؛ وقيل: معناه: جهل نفسه أي: جهل ما يجب لها، فضيعها؛ ولنا أن نقول: إن التعبير بما يحتمل الوجهين فيه نكتة عظيمة؛ وهي أن يكون التعبير صالحًا للأمرين؛ فكأنه ناب عن جملتين؛ فهو في الحقيقة جاهل إن لم يتعمد المخالفة؛ وسفيه إن تعمد المخالفة.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٣ص٤٤٦: وَلِهَذَا أَوْصَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَبِّعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ، إِذَا أَصْبَحُوا أَنْ يَقُولُوا: ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ، حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١)))، فَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: التَّوْحِيدُ، وَدِينُ مُحَمَّدٍ: مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ: هِيَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِطْرَةُ الْإِسْلَامِ: هِيَ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالِاسْتِسْلَامِ لَهُ عُبُودِيَّةً وَذُلًّا، وَانْقِيَادًا وَإِنَابَةً.

فَهَذَا هُوَ تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ الَّذِي مَنْ رَغِبَ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[البقرة: ١٣٠] .

فَقَسَّمَ سُبْحَانَهُ الْخَلَائِقَ قِسْمَيْنِ: سَفِيهًا لَا أَسْفَهَ مِنْهُ، وَرَشِيدًا، فَالسَّفِيهُ: مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّتِهِ إِلَى الشِّرْكِ، وَالرَّشِيدُ: مَنْ تَبَرَّأَ مِنَ الشِّرْكِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَحَالًا، فَكَانَ قَوْلُهُ تَوْحِيدًا، وَعَمَلُهُ تَوْحِيدًا، وَحَالُهُ تَوْحِيدًا، وَدَعْوَتُهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ – مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ – قَالَ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[المؤمنون: ٥١].

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٨٩).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٥٦٩: وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}، يُبَيِّنُ أَنَّ كُلَّ مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَقَدْ سَفِهَ نَفْسَهُ. وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ الْإِعْرَابِ وَالْمَعْنَى قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ نُحَاةِ الْكُوفَةِ وَاخْتِيَارُ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ أَكْثَرِ السَّلَفِ -: أَنَّ النَّفْسَ هِيَ الَّتِي سَفِهَتْ. فَإِنَّ {سَفِهَ} فِعْلٌ لَازِمٌ لَا يَتَعَدَّى لَكِنَّ الْمَعْنَى: إلَّا مَنْ كَانَ سَفِيهًا فَجَعَلَ الْفِعْلَ لَهُ وَنَصَبَ النَّفْسَ عَلَى التَّمْيِيزِ لَا النَّكِرَةِ كَقَوْلِهِ: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}.

وَأَمَّا الْكُوفِيُّونَ فَعَرَفُوا هَذَا وَهَذَا. قَالَ الْفَرَّاءُ: نَصْبُ النَّفْسِ عَلَى التَّشْبِيهِ بِالتَّفْسِيرِ، كَمَا يُقَالُ: ضِقْت بِالْأَمْرِ ذَرْعًا، مَعْنَاهُ: ضَاقَ ذَرْعِي بِهِ. وَمِثْلُهُ: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}، أَيْ: اشْتَعَلَ الشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ. قَالَ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ: أَلِمَ فُلَانٌ رَأْسَهُ، وَوَجِعَ بَطْنَهُ، وَرَشَدَ أَمْرَهُ.

وَكَانَ الْأَصْلُ: سَفِهَتْ نَفْسُ زَيْدٍ، وَرَشَدَ أَمْرُهُ، فَلَمَّا حَوَّلَ الْفِعْلَ إلَى زَيْدٍ انْتَصَبَ مَا بَعْدَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ.

فَهَذِهِ شَوَاهِدُ عَرَفَهَا الْفَرَّاءُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: غَبَنَ فُلَانٌ رَأْيَهُ، وَبَطِرَ عَيْشَهُ. وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ: {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا}[القصص: ٥٨]، أَيْ بَطِرَتْ نَفْسُ الْمَعِيشَةِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ يَمَانِ بْنِ رَبَابٍ: حَمِقَ رَأْيُهُ وَنَفْسُهُ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ السَّائِبِ: ضَلَّ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، وَقَوْلِ أَبِي رَوْقٍ: عَجَزَ رَأْيُهُ عَنْ نَفْسِهِ.

وَالْبَصْرِيُّونَ لَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: جَهِلَ نَفْسَهُ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ كيسان، وَالزَّجَّاجُ. قَالَ: لِأَنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ فَقَدْ جَهِلَ نَفْسَهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ خَالِقَهَا.

وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ ضَعِيفٌ. فَإِنَّهُ إنْ قِيلَ إنَّ الْمَعْنَى صَحِيحٌ، فَهُوَ إنَّمَا قَالَ: (سَفِهَ)، و(سَفُهَ) فِعْلٌ لَازِمٌ لَيْسَ بِمُتَعَدٍّ، و(جَهِلَ) فِعْلٌ مُتَعَدٍّ. وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ (سَفَّهْت كَذَا) أَلْبَتَّةَ بِمَعْنَى: جهلته. بَلْ قَالُوا: سَفُهَ – بِالضَّمِّ – سَفَاهَةً، أَيْ: صَارَ سَفِيهًا، وَسَفِهَ بِالْكَسْرِ– أَيْ: حَصَلَ مِنْهُ سَفَهٌ، كَمَا قَالُوا فِي (فَقِهَ وَفَقُهَ). وَنَقَلَ بَعْضُهُمْ: سَفِهَتْ الشُّرْبَ إذَا أَكْثَرْت مِنْهُ. وَهُوَ يُوَافِقُ مَا حَكَاهُ الْفَرَّاءُ، أَيْ صَارَ شُرْبُهُ سَفِيهًا، فَسَفِهَ شُرْبُهُ لَمَّا جَاوَزَ الْحَدَّ.

وَقَالَ الْأَخْفَشُ، وَيُونُسُ: نُصِبَ بِإِسْقَاطِ الْخَافِضِ، أَيْ سَفِهَ فِي نَفْسِهِ. وَقَوْلُهُمْ (بِإِسْقَاطِ الْخَافِضِ)، لَيْسَ هُوَ أَصْلًا فَيُعْتَبَرُ بِهِ، وَلَكِنْ قَدْ تَنْزِعُ حُرُوفُ الْجَرِّ فِي مَوَاضِعَ مَسْمُوعَةٍ، فَيَتَعَدَّى الْفِعْلُ بِنَفْسِهِ. وَإِنْ كَانَ مَقِيسًا فِي بَعْضِ الصُّوَرِ، فـ(سَفِهَ) لَيْسَ مِنْ هَذَا لَا يُقَالُ: سَفِهْت أَمْرَ اللَّهِ، وَلَا دِينَ الْإِسْلَامِ، بِمَعْنَى: جَهِلْته، أَيْ سَفِهْت فِيهِ. وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالسَّفَهِ وَيُنْصَبُ عَلَى التَّمْيِيزِ مَا خُصَّ بِهِ، مِثْلُ نَفْسِهِ أَوْ شُرْبِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ فَهُوَ سَفِيهٌ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: رَغِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ، وَابْتَدَعُوا الْيَهُودِيَّةَ والنصرانية، وَلَيْسَتْ مِنْ اللَّهِ، وَتَرَكُوا دِينَ إبْرَاهِيمَ. وَكَذَلِكَ قَالَ قتادة: بَدَّلُوا دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَعُوا الْمَنْسُوخَ.

فَأَمَّا مُوسَى وَالْمَسِيحُ، وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا، فَهُمْ عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ مُتَّبِعُونَ لَهُ، وَهُوَ إمَامُهُمْ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا}[آل عمران: ٦٨]. فَهُوَ يَتَنَاوَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ وَبَعْدَ مَبْعَثِهِ. وَقِيلَ إنَّهُ عَامٌّ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كُلُّ مُؤْمِنٍ وَلِيُّ إبْرَاهِيمَ مِمَّنْ مَضَى وَمِمَّنْ بَقِيَ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُمْ

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ صَدَّقُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ. وَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَلَيْسُوا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ.

قال ابن العثيمين: {ولقد اصطفيناه في الدنيا}: الجملة هنا مؤكَّدة بمؤكِّدات ثلاثة؛ وهي القسم المقدر؛ واللام؛ و{قد}؛ لأن اللام هنا موطئة للقسم؛ والتقدير: (و والله لقد).

{اصطفيناه}، افتعال من الصفوة؛ فأصل هذه المادة، من صفا يصفو؛ ومعنى {اصطفيناه في الدنيا}: اخترناه، وجعلناه صفيًّا من الخلق: اصطفاه الله سبحانه وتعالى في الدنيا على كل الأنبياء ما عدا محمدًا ﷺ؛ واتَّخذه الله سبحانه وتعالى خليلًا.

قال الطبري: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد ﷺ، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إمامًا، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة. ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعباده.

{وإنه في الآخرة لمن الصالحين}: {إنه}: {إن} واسمها؛ و {لمن الصالحين}: خبرها؛ وهذه الجملة مؤكَّدة بـ{إن} واللام فقط؛ و{في الآخرة}: في موضع نصب على الحال؛ أي إنه في حال كونه في الآخرة؛ لمن الصالحين؛ في الدنيا اصطفاه الله، واختاره؛ وفي الآخرة يكون من الصالحين الذين أدوا ما أوجب الله عليهم لنفسه ولخلقه. وهنا ذكر الله تعالى الاصطفاء في الدنيا، والصلاح في الآخرة؛ فهل هنا نكتة لتغاير الحالين، أو لا؟

الجواب: يبدو لي والله أعلم أن هناك نكتة؛ وهي أن الدنيا دار شهوات، وابتلاء؛ فلا يصبر عن هذه الشهوات، ولا على هذا الابتلاء إلا واحد دون الآخر؛ فإذا أخلص الإنسان نفسه لله صار صفوة من عباد الله؛ والآخرة ليست هكذا؛ الآخرة حتى الكفار يؤمنون؛ ولكن الفرق بين من يكون من الصالحين، وغير الصالحين؛ لأنهم إذا عرضوا على النار قيل لهم: {أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا}[الأنعام: ٣٠]، وقيل لهم: {أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى} [غافر: ٥٠]؛ وقالوا: {يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون}[يس: ٥٢] ... وهكذا ما يدلُّ على أنهم مؤمنون؛ لكنهم ليسوا من الصالحين؛ فإن كانت هذه هي النكتة فذلك من فضل الله؛ وإن لم تكن إياها فالعلم عند الله؛ ولابد أن يكون هناك نكتة جهلناها.

قال الطبري: و(الصالح) من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه. فأخبر تعالى ذكره عن إبراهيم خليله، أنه في الدنيا صفي، وفي الآخرة ولي، وأنه وارد موارد أوليائه الموفين بعهده.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الرشد في إتباع ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: {إلا من سفه نفسه}.

٢- أن مخالفة هذه الملة سفه؛ مهما كان الإنسان حكيمًا في قوله فإنه يعتبر سفيهًا إذا لم يلتزم بشريعة الله.

٣- فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث اصطفاه الله، واختاره على العالمين؛ لقوله تعالى: {ولقد اصطفيناه في الدنيا}.

٤- إثبات الآخرة؛ لقوله تعالى: {وإنه في الآخرة}.

٥- أن الصلاح وصف للأنبياء، ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح؛ ولهذا كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يحيون الرسول ﷺ ليلة المعراج بقولهم: ((مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح(١))); فوصفوه بالصلاح.

٦- أن المخالفين للرسل سفهاء؛ لقوله تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه}، وقوله في المنافقين: {ألا إنهم هم السفهاء}[البقرة: ١٣]، وقوله تعالى: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها}[البقرة: ١٤٢]؛ فإنهم وإن كانوا أذكياء، وعندهم علم بالصناعة، والسياسة هم في الحقيقة سفهاء؛ لأن العاقل هو الذي يتبع ما جاءت به الرسل فقط.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)

قال ابن العثيمين: {إذ قال له ربه أسلم}؛ هذا من الثناء على إبراهيم؛ {إذ}، يحتمل أن تكون متعلقة بقوله: {ولقد اصطفيناه}: أي ولقد اصطفيناه إذ قال له ربه؛ ويحتمل أن تكون متعلقة بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ قال له ربه؛ فيكون أمرًا للرسول ﷺ أن ينوه بهذه الحال التي كان إبراهيم ﷺ عليها.

قال الطبري: إذ قال له ربه: أخلص لي العبادة، واخضع لي بالطاعة.

قال ابن العثيمين: {أسلمت}، يشمل إسلام الباطن، والظاهر.

{لرب العالمين}: يتضمن توحيد الربوبية، والأسماء، والصفات؛ وما أكثر الذين أمروا بالإسلام ولم يسلموا: تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف من بني آدم كلهم في النار، وواحد من ألف في الجنة؛ لأنهم أمروا بالإسلام، ولم يسلموا.

قال الطبري: قال إبراهيم مجيبًا لربه: خضعت بالطاعة، وأخلصت العبادة، لمالك جميع الخلائق ومدبِّرها دون غيره.

فإن قال لنا قائل: وهل دعا اللهُ إبراهيمَ إلى الإسلام؟

قيل له: نعم، قد دعاه إليه.

فإن قال: وفي أي حال دعاه إليه؟

١- أخرجه البخاري في ٣١٥ - ٣١٦، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٢: المعراج، الحديث رقم ٣٨٨٧، وأخرجه مسلم ص٧٠٧، كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤١٦ [٢٦٤] ١٦٤.

قيل: حين قال: {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: ٧٨- ٧٩]، وذلك هو الوقت الذي قال له ربه: أسلم – من بعد ما امتحنه بالكواكب والقمر والشمس.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة إبراهيم ﷺ، حيث لم يتوان، ولم يستكبر؛ فبادر بقوله: {أسلمت لرب العالمين} حين قال له ربه عز وجل: {أسلم}، ولم يستكبر؛ بل أقرَّ؛ لأنه مربوب لرب العالمين.

٢- إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى العامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: {لرب العالمين}.

٣- الإشارة إلى أن الخلق من آيات الله؛ لأنهم سمّوا (عالمين)، حيث إنهم علم على خالقهم.

٤- المناسبة بين قوله تعالى: {أسلمت}، و{رب}؛ كأن هذا علّة لقوله تعالى: {أسلمت}؛ فإن الرب هو الذي يستحق أن يسلم له؛ الرب: الخالق؛ ولهذا أنكر الله سبحانه وتعالى عبادة الأصنام، وبين علة ذلك بأنهم لا يخلقون؛ قال تعالى: {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون}[النحل: ٢٠، ٢١]؛ فتبين بهذا مناسبة ذكر الإسلام مقرونًا بالربوبية.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

قال ابن العثيمين: {ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب}؛ {وصّى} فيها قراءتان؛ إحداهما بهمزة مفتوحة مع تخفيف الصاد: {أوصى}، والثانية بحذف الهمزة مع تشديد الصاد: {وصى}؛ أما {إبراهيم} ففيها قراءتان؛ إحداهما بكسر الهاء بعدها ياء: {إبراهيم}؛ والثانية بفتح الهاء بعدها ألف: {إبراهام}؛ وقراءة: {أوصى} لا تنطبق عليها الشروط الثلاثة في القراءة، والمجموعة في البيتين، وهما:

وكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالًا يحوي
وصح نقلًا فهو القران ... فهذه الثلاثة الأركان

فقوله تعالى: {وصّى}، و{أوصى} لم تتفق في الرسم؛ إذًا الشروط أو الأركان التي ذكرت بناء على الأغلب.

{ووصّى بها إبراهيم}: الضمير {ها} يعود على هذه الكلمة العظيمة؛ وهي: {أسلمت لرب العالمين}[البقرة: ١٣١]؛ ويجوز أن يكون الضمير يعود على الملّة؛ أي: وصّى بهذه الملّة؛ والمعنى واحد؛ لأن {ملَّة إبراهيم}[البقرة: ١٣٠] هي: {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين}[البقرة: ١٣١]؛ و(التوصية) العهد المؤكد في الأمر الهام.

{بنيه}، مفعول {وصّى}؛ ولهذا نصبت بالياء؛ لأنها ملحق بجمع المذكر السالم.

{ويعقوب} معطوفة على {إبراهيم} فهي مرفوعة؛ يعني: وكذلك وصّى بها يعقوب بنيه؛ وسمّي يعقوب: قيل: لأنه عقب إسحاق؛ وقيل: إنه اسم غير عربي، ومثله لا يطلب له اشتقاق.

قال أبو زهرة: والتوصية طلب الشخص من غيره القيام بأمر معيَّن والتشدُّد في طلبه، وهي غالبًا يكون تنفيذها بعد الوفاة، فهي طلب أو إعطاء في الحياة أو في آخرها ليكون تنفيذها بعد وفاته.

وقد وصّى إبراهيم بنيه بأن يستمروا مستمسكين بملَّته بعد وفاته، ويعقوب عليه السلام – وهو حفيد إبراهيم من إسحاق عليه السلام – قد وصى أيضًا بذلك. وأولاد إبراهيم المذكورون في القرآن هم إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وذريتهما من بعدهما.

قال السعدي: ثم ورثه في ذريته، ووصّاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصّى بها بنيه. فأنتم – يا بني يعقوب – قد وصّاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء.

قال أبو زهرة: والوصية أو صيغتها كانت بنداء كل من إبراهيم، ويعقوب لأبنائه بقوله: {يا بني}، بجمع المذكر السالم الذي حذفت منه النون بالإضافة إلى ياء المتكلم. وناداهم بهذه الصيغة التي تدلُّ على النسبة إليه تقريبًا لهم من نفسه، وفي ذلك دليل على الشفقة بهم والرفق، وأنه يُؤْثرهم بما يدلُّ على محبته وحدبه عليهم.

قال ابن العثيمين: قال يعقوب: {يا بني}: أي يا أبنائي؛ وإنّما ناداهم بوصف البنوة ترفقًا معهم ليكون أدعى إلى القبول.

{إنَّ الله اصطفى}: أي اختار، {لكم}: أي لأجلكم، {الدين}: أي العبادة، والعمل؛ ويطلق على الجزاء؛ ففي قوله تعالى: {مالك يوم الدين}[الفاتحة: ٤]، المراد بـ{الدين}: الجزاء؛ وفي قوله تعالى: {ورضيت لكم الإسلام دينًا}[المائدة: ٣]؛ {الدين}: العبادة؛ فالدين يطلق على هذا، وعلى هذا على العمل، وعلى الجزاء عليه؛ ومنه قولهم: كما تدين تدان يعني كما تعمل تجازى.

{فلا تموتن}، الفاء للتفريع؛ أي فعلى هذا الاختيار تمسكوا بهذا الدين؛ و{لا} ناهية؛ و{تموتن} مجزوم بحذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة؛ والنون هنا التي فيها للتوكيد؛ وأصلها: {تموتنن}: حذفت النون للجزم فصارت {تموتن}؛ ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ لأن الحرف المشدد أوله ساكن؛ والواو ساكنة؛ فحذفت الواو؛ قال ابن مالك: إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق ... وإن يكن لينا فحذفه استحق

{إلَّا وأنتم مسلمون}، جملة حالية يراد بها استمرارهم على الإسلام إلى الممات.

قال الطبري: إن قال لنا قائل: أوَ إلَى بني آدمَ الموتُ والحياةُ، فينهى أحدُهم أن يموت إلا على حالة دون حالة؟

قيل له: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننتَ. وإنما معنى {فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}، أي: فلا تفارقوا هذا الدين – وهو الإسلام – أيام حياتكم. وذلك أن أحدًا لا يدري متى تأتيه منيته، فلذلك قالا لهم: {فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}، لأنكم لا تدرون متى تأتيكم مناياكم من ليل أو نهار، فلا تفارقوا الإسلام، فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم فتموتوا وربُّكم ساخط عليكم، فتهلكوا.

قال السعدي: فقوموا به، واتَّصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء، مات عليه، ومن مات على شيء، بعث عليه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أهمية هذه الوصية؛ لأنه اعتنى بها إبراهيم، ويعقوب؛ فإبراهيم أبو العرب والإسرائيليين؛ ويعقوب أبو الإسرائيليين؛ فهذان الرسولان الكريمان اعتنيا بها، حيث جعلاها مما يوصى به.

٢– أنه ينبغي العناية بهذه الوصية اقتداء بإبراهيم، ويعقوب.

٣– أن الله سبحانه وتعالى اختار لعباده من الدين ما هو أقوم بمصالحهم؛ لقوله تعالى: {اصطفى لكم الدين}؛ فلولا أنه أقوم ما يقوم بمصالح العباد ما اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده.

٤– أنه ينبغي التلطف في الخطاب؛ لقوله تعالى: {يا بني}؛ فإن نداءهم بالبنوة يقتضي قبول ما يلقى إليهم.

٥– أنه ينبغي للإنسان أن يتعاهد نفسه دائمًا حتى لا يأتيه الموت وهو غافل؛ لقوله تعالى: {فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}.

٦– أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: {فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون}.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)

قال ابن العثيمين: {أم كنتم شهداء}؛ {أم} هنا منقطعة؛ و(المنقطعة)، يقول المعربون: إنها بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام؛ فمعنى {أم كنتم}: بل أكنتم؛ والضمير في {كنتم} يعود على اليهود الذين ادَّعوا أنهم على الحق، وأن هذه وصية أبيهم يعقوب، فالتزموا ما هم عليه؛ ويحتمل أن يكون عائدًا على جميع المخاطبين، ويكون المقصود بذلك الإعلام بما حصل من يعقوب حين حضره الموت؛ وهذا الاحتمال أولى؛ لأنه لا يوجد هنا دليل على أنه يعود على اليهود؛ بل الآية كلها عامة؛ وهي أيضًا منقطعة عن اليهود بآيات سابقة كثيرة؛ فالمعنى: تقرير ما وصى به يعقوب حين موته؛ و{شهداء} جمع شهيد، أو شاهد بمعنى حاضر.

{إذ حضر يعقوب الموت}؛ {إذ}: ظرف مبنية على السكون في محل نصب أي وقت حضور يعقوب الموت؛ و{يعقوب}: منصوبة؛ لأنها مفعول به مقدَّم؛ و{الموت}: فاعل مؤخَّر؛ لأن الحاضر الموت؛ والمحضور يعقوب.

قال الطبري: أكنتم – يا معشر اليهود والنصارى، المكذبين بمحمد ﷺ، الجاحدين نبوته –، حضورَ يعقوبَ وشهودَه إذ حضره الموت، أي إنكم لم تحضروا ذلك، فلا تدَّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتَنحلوهم اليهوديةَ والنصرانية، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم – وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم – بالحنيفية المسلمة، وبذلك وصَّوْا بنيهم، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم. فلو حضرتموهم فسمعتم منهم، علمتم أنهم على غير ما نحلتموهم من الأديان والملل من بعدهم. وهذه آيات نزلت، تكذيبًا من الله تعالى لليهود والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب: أنهم كانوا على ملَّتهم، فقال لهم في هذه الآية: {أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت}، فتعلموا ما قال لولده وقال له ولده؟ ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له. عن الربيع قوله: {أم كنتم شهداء}، يعني أهل الكتاب.

قال ابن العثيمين: {إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي}؛ {إذ}: بدل من {إذ} الأولى: يعني: إذ حضر إذ قال؛ يعني: أم كنتم شهداء إذ قال لبنيه: {ما تعبدون من بعدي} حين حضره الموت؛ وبنو يعقوب هم يوسف، وإخوته: أحد عشر رجلًا؛ حضر يعقوب الموت، فكان أولاده حاضرون، فقال لهم: {ما تعبدون من بعدي}: أي من بعد موتي، {قالوا نعبد إلهك}، بدأوا به؛ لأنهم يخاطبونه؛ {وإله آبائك}: جمع أب؛ ثم بينوا الآباء بقولهم: {إبراهيم وإسماعيل وإسحاق}؛ {إبراهيم}، بالنسبة إلى يعقوب جَدّ؛ و{إسماعيل}، بالنسبة إليه عم؛ و{إسحاق}، بالنسبة إليه أب مباشر؛ أما إطلاق الأبوة على إبراهيم، وعلى إسحاق فالأمر فيه ظاهر؛ لأن إسحاق أبوه، وإبراهيم جدّه؛ والجدُّ أب؛ بل قال الله عز وجل لهذه الأمة: {ملَّة أبيكم إبراهيم}[الحج: ٧٨]؛ وهي بينها وبين إبراهيم عالم؛ لكن الإشكال في عدهم إسماعيل من آبائه مع أنه عمهم؛ فيقال كما قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: ((أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه(١))) ؛ و(الصنو) الغصنان أصلهما واحد؛ فذكر مع الآباء؛ لأن العم صنو الأب؛ وكما قال الرسول ﷺ: ((الخالة بمنزلة الأم(٢)))؛ كذلك نقول: العم بمنزلة الأب؛ وقيل: إن هذا من باب التغليب، وأن الأب لا يطلق حقيقة على العم إلا مقرونًا بالأب الحقيقي؛ وعلى هذا فلا يكون فيها إشكال إطلاقًا؛ لأن التغليب سائغ في اللغة العربية، فيقال: (القمران)؛ والمراد بهما الشمس، والقمر؛ ويقال: (العمران)؛ وهما أبو بكر، وعمر.

وقوله تعالى: {إبراهيم} بدل من {آبائك}؛ أو عطف بيان؛ وفيها قراءة: {إبراهام} بفتح الهاء بعدها ألف.

{إلهًا واحدًا}: أي نعبده؛ و{إلهًا} هذه حال؛ يسمّونها حال موطِّئة؛ ولكنها بناء على أن {إله}، و(الله) غير مشتق؛ والصحيح أنه مشتق، وأنه بمعنى مألوه؛ وعليه فتكون حالًا مؤسسة حقيقية؛ وليست موطِّئة؛ لأن الحال الموطِّئة التي

١- أخرجه مسلم ص٨٣٢، كتاب الزكاة، باب ٣: في تقديم الزكاة ومنعها، حديث رقم ٢٢٧٧ [١١] ٩٨٣.

٢- أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٦: كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان ... ، حديث رقم ٢٦٩٩.

تكون تمهيدًا لمشتق، مثل: {قرآنًا عربيًّا}[يوسف: ٢]، فإن {قرآن} غير مشتقة؛ والحال كما تقدم تكون مشتقة و{واحدًا} حال أخرى مكررة.

{ونحن له مسلمون}؛ {نحن} مبتدأ؛ و{مسلمون} خبره؛ و{له} جار ومجرور متعلقة بـ{مسلمون} قدمت عليها لإفادة الحصر من حيث المعنى؛ ولمراعاة فواصل الآيات من حيث اللفظ؛ و{نحن له مسلمون}: أي منقادون لأمر هذا الإله.

قال السعدي: فجمعوا بين التوحيد والعمل. ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٥٧٤: قَوْلُهُ: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ} الْآيَةَ، قَالُوا فِيهَا: {نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ}، ثُمَّ قَالُوا: {إلَهًا وَاحِدًا}، فَهَذَا بَدَلٌ مِنْ الْأَوَّلِ – فِي أَظْهَرِ الْوَجْهَيْنِ. فَإِنَّ النَّكِرَةَ تُبْدَلُ مِنْ الْمَعْرِفَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ {لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}[العلق: ١٥، ١٦]، فَذُكِرَتْ مُعَرَّفَةً وَمَوْصُوفَةً. كَذَلِكَ قَالُوا: {نَعْبُدُ إلَهَكَ} فَعَرَّفُوهُ ثُمَّ قَالُوا: {إلَهًا وَاحِدًا} فَوَصَفُوهُ. وَالْبَدَلُ فِي حُكْمِ تَكْرِيرِ الْعَامِلِ أَحْيَانًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ}[الأعراف: ٧٥]، فَالتَّقْدِيرُ: نَعْبُدُ إلَهَك، نَعْبُدُ إلَهًا وَاحِدًا، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَجَمَعُوا بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ بِأَمْرَيْنِ – بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ إلَهَهُ، وَأَنَّهُمْ إنَّمَا يَعْبُدُونَ إلَهًا وَاحِدًا. فَمَنْ عَبَدَ إلَهَيْنِ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا لِإِلَهِهِ وَإِلَهِ آبَائِهِ. وَإِنَّمَا يَعْبُدُ إلَهَهُ مَنْ عَبَدَ إلَهًا وَاحِدًا.

وَلَوْ كَانَ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ عَابِدًا لَهُ، لَكَانَتْ عِبَادَتُهُ نَوْعَيْنِ؛ عِبَادَةَ إشْرَاكٍ، وَعِبَادَةَ إخْلَاصٍ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: {إلَهًا وَاحِدًا} بَدَلًا؛ لِأَنَّ هَذَا كُلٌّ مِنْ كُلٍّ، لَيْسَ هُوَ بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ. فَعَلِمَ أَنَّ إلَهَهُ وَإِلَهَ آبَائِهِ لَا يَكُونُ إلَّا إلَهًا وَاحِدًا.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: قَوْلُهُ: {إلَهًا وَاحِدًا} نُصِبَ عَلَى الْحَالِ، لَكِنَّهَا حَالٌ لَازِمَةٌ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا إلَهًا وَاحِدًا كَقَوْلِهِ: {وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا}[البقرة: ٩١]، وَهُوَ لَا يَكُونُ إلَّا مُصَدِّقًا. وَمِنْهُ: {مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}[البقرة: ١٣٥]، {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ}[آل عمران: ٢١]. فَمَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، فَمَا عَبَدَهُ إلَهًا وَاحِدًا، وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ فَمَا عَبَدَهُ. وَهُوَ لَا يَكُونُ إلَّا إلَهًا وَاحِدًا. فَإِذَا لَمْ يَعْبُدْهُ فِي الْحَالِ اللَّازِمَةِ لَهُ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَالٌ أُخْرَى يَعْبُدُهُ فِيهَا، فَمَا عَبَدَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: الْمُشْرِكُ يَجْعَلُ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى، فَهُوَ يَعْبُدُ فِي حَالٍ لَيْسَ هُوَ فِيهَا الْوَاحِدُ، قِيلَ: هَذَا غَلَطٌ مَنْشَؤُهُ أَنَّ لَفْظَ (الْإِلَهِ) يُرَادُ بِهِ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ، وَيُرَادُ بِهِ مَا اتَّخَذَهُ النَّاسُ إلَهًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إلَهًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، بَلْ هِيَ أَسْمَاءٌ سَمَّوْهَا هُمْ وَآبَاؤُهُمْ. فَتِلْكَ لَيْسَتْ فِي نَفْسِهَا آلِهَةً، وَإِنَّمَا هِيَ آلِهَةٌ فِي أَنْفُسِ الْعَابِدِينَ. فَإِلَهِيَّتُهَا أَمْرٌ قَدَّرَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَجَعَلُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مُطَابِقًا لِلْخَارِجِ، كَالَّذِي يَجْعَلُ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ عَالِمًا، وَمَنْ لَيْسَ بِحَيٍّ حَيًّا، وَمَنْ لَيْسَ بِصَادِقٍ وَلَا عَدْلٍ صَادِقًا وَعَدْلًا فَيُقَالُ: هَذَا عِنْدَك صَادِقٌ، وَعَادِلٌ، وَعَالِمٌ، وَتِلْكَ اعْتِقَادَاتٌ غَيْرُ مُطَابِقَةٍ، وَأَقْوَالٌ كَاذِبَةٌ غَيْرُ لَائِقَةٍ.

وَلِهَذَا يَجْعَلُ – سُبْحَانَهُ – ذَلِكَ مِنْ بَابِ الِافْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ كَمَا قَالَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ: {هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}[الكهف: ١٥]، وَقَالَ الْخَلِيلُ: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}[العنكبوت: ١٧]. وَقَالَ: {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}[يونس: ٦٦]، أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ؟ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ وَالْخَرْصَ، وَهُوَ الْحَزْرُ(١). هَذَا صَوَابٌ، وَأَنَّ مَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَافِيَةٌ. وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ، كَأَبِي الْفَرَجِ. وَهُوَ ضَعِيفٌ كَمَا قَدْ بُيِّنَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَقَالَ هُودٌ: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ}[هود: ٥٠].

وَإِذَا كَانَتْ إِلَهِيَّةُ مَا سِوَى اللَّهِ أَمْرًا مُخْتَلَقًا يُوجَدُ فِي الذِّهْنِ وَاللِّسَانِ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْأَعْيَانِ. وَهُوَ مِنْ بَابِ الْكَذِبِ وَالِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ الَّذِي لَيْسَ بِمُطَابِقٍ. وَمَا عِنْدَ عَابِدِيهَا – مِنَ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ لَهَا – تَابِعٌ لِذَلِكَ الِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ. كَمَنْ اعْتَقَدَ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ صَادِقٌ فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ، وَبَنَى عَلَى إِخْبَارِهِ أَعْمَالًا كَثِيرَةً. فَلَمَّا تَبَيَّنَ كَذِبُهُ، ظَهَرَ فَسَادُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كَأَتْبَاعِ مُسَيْلِمَةَ، وَالْأُسُودِ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَصْحَابِ الزَّوَايَا وَالتُّرَّهَاتِ، وَمَا يَشْرَعُونَهُ لِأَتْبَاعِهِمْ مِمَّا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، بِخِلَافِ الصَّادِقِ وَالصِّدْقِ.

وَلِهَذَا كَانَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ: {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}[ابراهيم: ٢٤]، وَقَالَ فِي كَلِمَةِ الشِّرْكِ: {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}[ابراهيم: ٢٦]. فَلَيْسَ لَهَا أَسَاسٌ ثَابِتٌ، وَلَا فَرْعٌ ثَابِتٌ؛ إِذْ كَانَتْ بَاطِلَةً، كَأَقْوَالِ الْكَاذِبِينَ وَأَعْمَالِهِمْ، بَلْ هِيَ أَعْظَمُ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ مَعَ الْحُبِّ لَهَا.

وَالشِّرْكُ أَعْظَمُ الظُّلْمِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: ((أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ(٢))).

فَنَفْسُ تَأَلُّهِهِمْ لَهَا، وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا، وَتَعْظِيمِهَا، وَحُبِّهَا، وَدُعَائِهَا، وَاعْتِقَادِهَا آلِهَةً، وَالْخَبَرُ عَنْهَا بِأَنَّهَا آلِهَةٌ مَوْجُودٌ، كَمَا كَانَ اعْتِقَادُ الْكَذَّابِينَ مَوْجُودًا. وَأَمَّا نَفْسُ اتِّصَافِهَا بِالْإِلَهِيَّةِ، فَمَفْقُودٌ، كَاتِّصَافِ مُسَيْلِمَةَ بِالنُّبُوَّةِ.

فَهُنَا حَالَانِ: حَالٌ لِلْعَابِدِ. وَحَالٌ لِلْمَعْبُودِ. فَأَمَّا الْعَابِدُونَ فَكُلُّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِبَادَةٌ وَتَأَلُّهٌ لِمَنْ عَبَدُوهُ. وَأَمَّا الْمَعْبُودُونَ، فَالرَّحْمَنُ لَهُ الْإِلَهِيَّةُ، وَمَا سِوَاهُ لَا إِلَهِيَّةَ لَهُ، بَلْ هُوَ مَيِّتٌ لَا يَمْلِكُ لِعَابِدِيهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا}[الإسراء: ٤٢]، وَهُوَ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ: {سَبِيلًا} بِالتَّقَرُّبِ بِعِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ. وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}[الإسراء: ٤٤]، فَأَخْبَرَ عَنِ الْخَلَائِقِ – كُلِّهَا – أَنَّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ. وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

١- الحَزرُ: التقدير بالحدس. انظر: لسان العرب، مادة: (حزر).

٢- البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الأيمان (٨٦/١٤١)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢) وقال: ((هذا حديث حسن صحيح))، وأحمد ١/٣٨٠.

فَقَوْلُهُ: {نَعْبُدُ إِلَهَكَ – إِلَهًا وَاحِدًا}، إِذَا قِيلَ: إِنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ الْعَابِدِ، أَوْ مِنَ الْمَفْعُولِ الْمَعْبُودِ. فَالْأَوَّلُ: نَعْبُدُهُ فِي حَالِ كَوْنِنَا مُخْلِصِينَ لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ. وَالثَّانِي نَعْبُدُهُ فِي الْحَالِ اللَّازِمَةِ لَهُ، وَهُوَ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَنَعْبُدُهُ مُخْلِصِينَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِأَنَّهُ الْإِلَهُ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

فَإِنْ كَانَ التَّقْدِيرُ هَذَا الثَّانِي، امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْمُشْرِكُ عَابِدًا لَهُ. فَإِنَّهُ لَا يَعْبُدُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَهُوَ – سُبْحَانَهُ – لَيْسَتْ لَهُ حَالٌ أُخْرَى نَعْبُدُهُ فِيهَا. وَإِنْ كَانَ التَّقْدِيرُ الْأَوَّلُ، فَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ نَعْبُدَهُ فِي حَالٍ أُخْرَى نَتَّخِذُ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى فِي أَنْفُسِنَا.

لَكِنَّ قَوْلَهُ: {إِلَهًا وَاحِدًا} دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا حَالٌ مِنَ الْمَعْبُودِ، بِخِلَافِ مَا إِذَا قِيلَ: نَعْبُدُهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينُ، فَإِنَّ هَذِهِ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ.

وَلِهَذَا يَأْتِي هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ: {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}[الزمر: ٢]، وَقَوْلِهِ: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي}[الزمر: ١٤]. فَهَذَا حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ فَإِنَّهُ يَكُونُ تَارَةً مُخْلِصًا، وَتَارَةً مُشْرِكًا. وَأَمَّا الرَّبُّ – تَعَالَى – فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا.

وَالْحَالُ – وَإِنْ كَانَتْ صِفَةً لِلْمَفْعُولِ فَهِيَ – أَيْضًا – حَالٌ لِلْفَاعِلِ. فَإِنَّهُمْ قَالُوا: نَعْبُدُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ. فَلَزِمَ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهُ لَيْسَتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَالِ. وَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: {نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ . . . إِلَهًا وَاحِدًا}، هِيَ حَالٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ جَمِيعًا – بِالْعَابِدِ وَالْمَعْبُودِ. فَإِنَّ الْعَامِلَ فِيهَا – الْمُتَعَلِّقَ بِهَا – الْعِبَادَةُ، وَهِيَ فِعْلُ الْعَابِدِ، وَالَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَفْعُولُ فِي الْعَرَبِيَّةِ هُوَ الْمَعْبُودُ.

كَمَا قِيلَ فِي الْجُمْلَةِ: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، قِيلَ: هِيَ وَاوُ الْعَطْفِ. وَقِيلَ: وَاوُ الْحَالِ. أَيْ: نَعْبُدُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ. قَالُوا: وَهِيَ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ {نَعْبُدُ} أَوْ مَفْعُولِهِ لِرُجُوعِ الْهَاءِ إِلَيْهِ فِي {لَهُ} وَهَذَا التَّقْدِيرُ غَلَطٌ؛ إِذْ هِيَ حَالٌ مِنْهُمَا جَمِيعًا. فَإِنَّهُمْ إِذَا عَبَدُوهُ وَهُمْ مُسْلِمُونَ فَهُمْ مُسْلِمُونَ حَالَ كَوْنِهِمْ عَابِدِينَ، وَحَالَ كَوْنِهِ مَعْبُودًا؛ إِذْ كَوْنُهُمْ عَابِدِينَ وَكَوْنِهِ مَعْبُودًا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِمُقَارَنَةِ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ.

فَالظَّرْفُ وَالْحَالُ – هُنَا – كَلِمَةٌ وَلَيْسَتْ مُفْرَدًا؛ وَلِهَذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ. فَإِنَّ الْمُفْرَدَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي اللَّفْظِ صِفَةً لِهَذَا وَهَذَا. فَإِذَا قُلْتَ: ضَرَبْتُ زَيْدًا قَاعِدًا، فَالْقُعُودُ حَالٌ لِلْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ. وَإِذَا قُلْتَ: ضَرَبْتُه وَالنَّاسُ قُعُودٌ، فَلَيْسَ هَذِهِ الْحَالُ مِنْ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، بَلْ هِيَ مُقَارَنَةٌ لِلضَّرْبِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: ضَرَبْتُه فِي زَمَانِ قُعُودِ النَّاسِ. فَهُوَ ظَرْفٌ لِلْفِعْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، بِخِلَافِ مَا إِذَا قُلْتَ: ضَرَبْتُه فِي حَالِ قُعُودِي أَوْ قُعُودِهِ، فَهَذَا يَخْتَلِفُ.

وَالْآيَةُ فِيهَا {إِلَهًا وَاحِدًا}، فَهَذِهِ حَالٌ مِنَ الْمَعْبُودِ بِلَا رَيْبٍ. فَلَزِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوهُ فِي حَالِ كَوْنِهِ إِلَهًا وَاحِدًا، وَهَذِهِ لَازِمَةٌ لَهُ.

وَإِذَا قِيلَ: الْمُرَادُ فِي حَالِ كَوْنِهِ مَعْبُودًا وَاحِدًا لَا نَتَّخِذُ مَعَهُ مَعْبُودًا آخَرَ، فَهَذِهِ حَالٌ لَيْسَتْ لَازِمَةً، لَكِنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَابِدِينَ، لَا لَهُ. قِيلَ: هَذَا لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ لَهُ، وَلَا وَصْفٌ لَهُ بِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْإِلَهِيَّةَ. لَكِنْ فِيهَا وَصْفُهُمْ فَقَطْ.

وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ: {إِلَهًا وَاحِدًا}، كَقَوْلِهِ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}[البقرة: ١٦٣]، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ جَعَلَ مَعَهُ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً بِالِافْتِرَاءِ وَالْحُبِّ. فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الِاسْمُ.

وَلَوْ أَرَادُوا ذَلِكَ الْمَعْنَى لَقَالُوا: نَعْبُدُهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ ذَكَرُوهُ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، لَا سِيَّمَا إذَا جُعِلَتْ حَالًا، أَيْ: نَعْبُدُهُ إلَهًا وَاحِدًا فِي حَالِ إسْلَامِنَا لَهُ. وَإِسْلَامِهِمْ لَهُ يَتَضَمَّنُ إخْلَاصَ الدِّينِ لَهُ، وَخُضُوعَهُمْ، وَاسْتِسْلَامَهُمْ لِأَحْكَامِهِ، بِخِلَافِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ.

وَلِهَذَا قَالَ آمِرًا لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[البقرة: ١٣٦]. ثُمَّ قَالَ: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}[البقرة: ١٣٨، ١٣٩]. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَانٍ جَلِيلَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ اسْتِيفَائِهَا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن التوحيد وصية الأنبياء؛ لقوله تعالى: {ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك}.

٢- أن الموت حق حتى على الأنبياء؛ قال الله تعالى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل}[آل عمران: ١٤٤].

٣- جواز الوصية عند حضور الأجل؛ لقوله تعالى: {إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك}؛ وهذا كالوصية لهم؛ ولكنه يشترط أن يكون الموصي يعي ما يقول؛ فإن كان لا يعي ما يقول فإنه لا تصح وصيته.

٤- رجحان القول الصحيح بأن الجدّ أب في الميراث؛ لقوله تعالى: {آبائك إبراهيم}.

٥- أنه يجوز إطلاق اسم الأب على العم تغليبًا؛ لقوله تعالى: {وإسماعيل}.

٦- أن أبناء يعقوب كانوا على التوحيد، حيث قالوا: {نعبد إلهك وإله آبائك}؛ وهذا لا شك توحيد منهم.

٧- أن النفوس مجبولة على إتباع الآباء؛ لكن إن كان على حق فهو حق؛ وإن كان على باطل فهو باطل؛ لقولهم: {وإله آبائك}؛ ولهذا الذين حضروا وفاة أبي طالب قالوا له: أترغب عن ملّة عبد المطلب.

٨- أهمية التوحيد، والعناية به؛ لقوله تعالى: {ما تعبدون من بعدي}.

٩- أن العبادة والألوهية معناهما واحد؛ لكن العبادة باعتبار العابد؛ والألوهية باعتبار المعبود؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة؛ وبعضهم يقول: توحيد الألوهية.

١٠- إخلاص الإسلام لله، حيث قال تعالى: {ونحن له مسلمون}؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول في {له}؛ لأنه متعلق بـ{مسلمون}؛ فهو معمول له؛ وقد علم أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

١١- إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: {إلهًا واحدًا}.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

قال ابن العثيمين: {تلك آمة قد خلت}: المشار إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن سبق؛ وكان اليهود يجادلون النبي ﷺ في هؤلاء؛ فبين الله تعالى أن هذه أمة قد مضت، {لها ما كسبت ولكم ما كسبتم}، فلا تنالون مما كسبوا شيئًا؛ ولا ينالون مما كسبتم شيئًا.

و{الأمّة} هنا بمعنى الطائفة؛ وتطلق في القرآن على عدة معان؛ المعنى الأول: الطائفة، كما هنا؛ المعنى الثاني: الحقبة من الزمن، مثل قوله تعالى: {وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة}[يوسف: ٤٥]: يعني: بعد حقبة من الزمن؛ والمعنى الثالث: الإمام، مثل قوله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة}[النحل: ١٢٠]؛ والمعنى الرابع: الطريق، والملّة، مثل قوله تعالى: {إنا وجدنا آباءنا على أمة}[الزخرف: ٢٢].

{ولا تسألون عما كانوا يعملون}: أي لا تسألون عن أعمال من سبقكم؛ لأن لهم ما كسبوا، ولكم ما كسبتم.

قال السعدي: أي: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه فاشتغالكم بهم وادعاؤكم، أنكم على ملّتهم، والرضا بمجرَّد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم، أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئًا؛ لقوله تعالى: {تلك أمّة قد خلت ... } الآية؛ يعني هم مضوا، وأسلموا لله؛ وأنتم أيها اليهود الموجودون في عهد الرسول ﷺ عليكم أن تنظروا ماذا كسبتم لأنفسكم.

٢- الإشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نسكت عما جرى بين الصحابة؛ لأنا نقول كما قال الله لهؤلاء: {تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم}، فنحن معنيون الآن بأنفسنا؛ ويذكر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: (هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها)؛ هذه كلمة عظيمة؛ فعلى هذا النزاع فيما جرى بين معاوية، وعلي بن أبي طالب، وعائشة، وما أشبه ذلك لا محل له؛ لكن الذي

يجب أن نعتني به حاضر الأمة؛ هذا الذي يجب أن يبين فيه الحق، ويبطل فيه الباطل؛ ونقول: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنَّك رؤوف رحيم}[الحشر: ١٠].

٣- أنَّ الإنسان وعمله؛ لقوله تعالى: {لها ما كسبت ولكم ما كسبتم}؛ فلا أحد يعطى من عمل أحد، ولا يؤخذ منه؛ قال تعالى: {كل نفس بما كسبت رهينة}[المدثر: ٣٨].

٤- أن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولكن الأول قد يسأل عن عمل الآخر، كما قال تعالى: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار}[القصص: ٤١]؛ فقد يكون الأول صاحب بدعة، ويتبع على بدعته؛ فيكون دالًّا على ضلالة؛ فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لكن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: ((لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا[1]))؛ وفي لفظ: ((فتؤذوا الأحياء[2]))).

٥- إثبات عدل الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يؤاخذ أحدا بما لم يعمله؛ لقوله تعالى: {ولا تسألون عما كانوا يعملون}.

٦- إثبات السؤال، وأن الإنسان سيسأل؛ لقوله تعالى: {ولا تسألون عما كانوا يعملون}؛ منطوق الآية: نفي السؤال عن عمل الغير؛ ومفهومها: ثبوت السؤال عن عمل العامل، وأنه مسؤول عن العمل.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)

قال ابن العثيمين: {وقالوا}: الضمير يعود على اليهود والنصارى، يخاطبون المسلمين؛ {كونوا هودًا}: يعني من اليهود على ملتهم؛ و{هود} جمع هائد، مثل (عود) جمع عائد؛ والذين يقولون: {كونوا هودًا} هم اليهود؛ وقوله تعالى: {أو نصارى}: يقوله النصارى؛ أي كونوا نصارى أي على ملتهم.

{تهتدوا} مجزوم على أنه جواب الأمر؛ أي تكونوا مهتدين.

قال الطبري: احتج الله لنبيه محمد ﷺ أبلغ حجة وأوجزها وأكملها، وعلمها محمدًا نبيه ﷺ فقال: يا محمد، قل – للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: {كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا} –: بل تعالوا نتبع ملَّة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به – فإن دينه كان الحنيفية المسلمة – وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فينكرها بعضنا، ويقر بها بعضنا. فإن ذلك – على اختلافه – لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملَّة إبراهيم.

١- أخرجه البخاري ص١٠٩، كتاب الجنائز، باب ٩٧: ما ينهى من سب الأموات، حديث رقم ١٣٩٣.

٢- أخرجه أحمد ٤/٢٥٢، حديث رقم ١٨٣٩٦، وأخرجه الترمذي ص١٨٥٥ – ١٨٥١، كتاب البر والصلة، باب ٥٠: ما جاء في الشتم، حديث رقم ١٩٨٢، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/١٩٠، حديث رقم ١٦١٤.

قال ابن العثيمين: قال الله تعالى في جواب من يدعو إلى اليهودية من اليهود، أو النصرانية من النصارى: {قل بل ملَّة إبراهيم حنيفًا}؛ {بل} هنا للإضراب الإبطالي؛ لأنها تبطل ما سبق؛ يعني: بل لا نتبع، ولا نكون هودًا، ولا نصارى؛ بل ملَّة إبراهيم؛ وبهذا التقدير يتبين لنا على أي وجه نصب {ملَّة}؛ فهي مفعول لفعل محذوف تقديره: بل نتَّبع ملَّة إبراهيم؛ وال{ملَة} بمعنى الدِّين كما سبق([1])؛ وملَّة إبراهيم هي التوحيد؛ يعني نتَّبع توحيد الله عز وجل، والإسلام له؛ لأن إبراهيم لما قال له ربه عز وجل: {أسلم}؛ قال: {أسلمت لرب العالمين}[البقرة: ١٣١].

وقوله تعالى: {حنيفًا} منصوب على الحال من إبراهيم؛ وهي حال لازمة بدليل قوله تعالى: {وما كان من المشركين}.

قال السعدي: أي: مقبِلًا على الله، معرضًا عما سواه، قائمًا بالتوحيد، تاركًا للشرك والتنديد. فهذا الذي في إتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملَّته الكفر والغواية.

قال الطبري: (الحنف) عندي، هو الاستقامة على دين إبراهيم، واتباعه على ملَّته.

فإن قال قائل: أوَ ما كان مَنْ كان من قبل إبراهيم ﷺ، من الأنبياء وأتباعهم، مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامةَ إبراهيم وأتباعه؟

قيل: بَلى.

فإن قال: فكيف أضيف (الحنيفية) إلى إبراهيم وأتباعه على ملَّته خاصة، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم؟

قيل: إنّ كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفًا متّبعًا طاعة الله، ولكن الله تعالى ذكره لم يجعل أحدًا منهم إمامًا لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة، كالذي فعل من ذلك بإبراهيم، فجعله إمامًا فيما بيّنه من مناسك الحج والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام، تعبُّدًا به أبدًا إلى قيام الساعة. وجعل ما سنّ من ذلك عَلَمًا مميّزًا بين مؤمني عباده وكفارهم، والمطيعِ منهم له والعاصي. فسمِّي الحنيفُ من الناس (حنيفًا) بإتباعه ملته، واستقامته على هديه ومنهاجه، وسُمِّي الضّالُّ من ملَّته بسائر أسماء الملل، فقيل: (يهودي، ونصرانيّ، ومجوسيّ)، وغير ذلك من صنوف الملل.

قال ابن العثيمين: {وما كان من المشركين}: هذا توكيد لقوله تعالى: {حنيفا}؛ لأن ال{حنيف}: المائل عما سوى التوحيد؛ مأخوذ من حنف الذئب أي ميله؛ فهو مائل عن كل ما سوى التوحيد؛ إذًا {وما كان من المشركين} يكون توكيدًا لهذه الحال توكيدًا معنويًّا لا إعرابيًّا؛ يعني أنه ﷺ ما كان فيما مضى من المشركين، ولا فيما يستقبل؛ لأن {كان} لا تدلُّ على الحدث؛ تدلُّ على اتصاف اسمها بخبرها، مثل: {وكان الله غفورًا رحيمًا}[النساء: ٩٦]؛ فقوله تعالى: {وما كان}: يعني أن هذا الوصف منتف عنه؛ وقوله تعالى: {من المشركين}: يعم انتفاء الشرك الأصغر والأكبر عنه؛ هذه هي الملَّة التي يتبعها الرسول ﷺ، ونتبعها نحن إن شاء الله سبحانه وتعالى؛ ونرجو الله عز وجل أن نموت

١- (قلت): أنظر كلام القرطبي في تفسير معنى (الملَّة) عند تفسير الآية (١٢٠) من سورة البقرة.

عليها؛ هذه هي الملَّة الحنيفية الحقيقية التي توصل العبد إلى ربه، كما قال تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}[الأنعام: ١٥٣].

قال شيخ الإسلام في تفسير آيات أشكلت ج١ص٢٨١: وأما اليهودية والنصرانية المتضمنة للمنسوخ المبدَّل وهي التي عليها اليهود والنصارى الذين كذبوا محمدًا فهذه ليست دين أحدٍ من الأنبياء لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: {كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى} فقد أمرهم الله أن يقولوا: {بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} فلا يجوز لنا إتباع ما اختص به أهل التوراة والإنجيل من الشرع المنسوخ فكيف بالمبدَّل؟! بل نتَّبع ملَّة إبراهيم وهي عبادة الله وحده بما أمر به، وهي التي كان عليها موسى وعيسى، لكن كان لهم شرع اختصوا به دون إبراهيم وكان من الدين في حق أولئك الذين أمروا به خاصة، وإبراهيم ومن كان قبله لم يؤمروا به، وكذلك محمد ﷺ ومن آمن به لم يؤمروا بتلك الآصار والأغلال، بل رفعت عنهم كما كانت مرفوعة عن إبراهيم، ولهذا قال عليه السلام: ((بُعِثت بالحنيفية السمحة([1]))). وقال: ((إيّاكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين([2]))). ولما رأى بيد عمر ورقة من التوراة قال: ((والذي نفسي بيده لو كان موسى حيًّا ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم([3]))).

فقد تبين أن اليهود والنصارى فيهم سعيد وهم المتَّبِعون شرع التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل، وفيهم من هو مستحق العذاب، ومع هذا نحن منهيون أن نتبع اليهودية والنصرانية مطلقًا، فإن ما اختص به السعداء منهم قد نسخ، وأما ما اختص به الأشقياء فهو مبدَّل أو منسوخ تمسكوا به بعد النسخ، وما كان مشروعًا كان داخلًا في مسمّى الإسلام والحنيفية لما كان مشروعًا، فلما نسخ لم يبق داخلًا في الإسلام ولا في الحنيفية ملَّة إبراهيم والمُبَدَّل بطريق الأولى. ولهذا قال الله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} إلى قوله: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ}، وقال: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى}. فلم ينكر أن يكون موسى وهارون من اليهود ولا أن يكون المسيح والحواريون نصارى لكن نهى عن إتباع ما تختص به اليهودية والنصرانية مطلقًا وأمر بإتباع ملَّة إبراهيم لأن ما تختص به إما منسوخ وإما مبدَّل والذي لا يجوز نسخه ملَّة إبراهيم وهو عبادة الله وحده بما أمر به ففي كل زمان يعبده بما أمر به في ذلك الزمان وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله لا من الأولين ولا من الآخرين دينًا سواه وعليه الأنبياء جميعهم وأتباعهم وهذا العمل هو العمل الصالح المذكور في قوله: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} وقد قال: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} الآية.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥٥: وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة: أما المنع: مما تضمنه حرف (بل) من الإضراب أي ليس الأمر كما قالوا. وأما المعارضة: ففي قوله: {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً}: أي

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٢٤)، والحديث بتمامه: ((إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفسي بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣).

٣- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

أتتبع أو يتَّبعوا ملَّة إبراهيم حنيفًا، وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، لأنه وصف صاحب الملَّة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملَّته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يتَّبع ممن ملَّته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو الفطرة التي فطر عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي، فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبَّة والذُّل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيعبد وحده، ويحب وحده، ويطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر، فمن أولى بالهداية، صاحب هذه الملَّة؟ أو ملَّة اليهودية والنصرانية؟.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن أهل الباطل يدعون إلى ضلالهم، ويدعون فيه الخير؛ {كونوا هودًا أو نصارى} هذه دعوة إلى ضلال؛ {تهتدوا}: ادعاء أن ذلك خير؛ وهكذا أيضًا قد ورث هؤلاء اليهود من ضلَّ من هذه الأمَّة، كأهل البدع في العقيدة، والقدر، والإيمان الذين ادعوا أنهم على حقّ، وأن من سلك طريقهم فقد اهتدى؛ قال النبي ﷺ: ((لتركبن سنن من كان قبلكم([1]))).

٢- أن كل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود، والنصارى؛ دعاة السفور الآن يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاء، وترك التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل داع إلى ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يغر البليد فهو شبيه باليهود، والنصارى.

٣- مقابلة الباطل بالحق؛ لقوله تعالى: {بل ملَّة إبراهيم حنيفًا}؛ إذ لابدَّ للإنسان من أن يسير على طريق؛ لكن هل هو حق، أو باطل؟! بين الله أن كل ما خالف الحق فهو باطل في قوله تعالى: {بل ملَّة إبراهيم حنيفًا}.

٤- الثناء على إبراهيم عليه السلام من وجوه ثلاثة:

أولا: إمامته؛ ووجهها: أننا أمرنا بإتباعه؛ والمتبوع هو الإمام.

ثانيا: أنه حنيف؛ والحنيف هو المائل عن كل دين سوى الإسلام.

ثالثا: أنه ليس فيه شرك في عمله ﷺ؛ لقوله تعالى: {وما كان من المشركين}.

٥- أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء؛ لقوله تعالى: {وما كان من المشركين}.

٦- أن ملَّة إبراهيم ﷺ أفضل الملل؛ وهي التوحيد، والحنيفية السمحة؛ لقوله تعالى: {بل ملَّة إبراهيم حنيفًا}.

١- أخرجه أحمد ٥/٢١٨، حديث رقم ٢٢٢٤٢؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٧١، كتاب الفتن، باب ١٨: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث رقم ٢١٨٠؛ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٨/٢٤٨، باب: ذكر الأخبار عن إتباع هذه الأمة سنن من قبلهم من الأمم، حديث رقم ٦٦٦٧، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/٢٣٥، حديث رقم ١٧٧١.

٧- أن اليهودية والنصرانية نوع من الشرك؛ لأن قوله تعالى: {وما كان من المشركين} في مقابل دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية يدل على أنهما نوع من الشرك؛ كل من كفر بالله ففيه نوع من الشرك؛ لكن إن اتخذ إلهًا فهو شرك حقيقة، وواقعًا؛ وإلا فإنه شرك باعتبار إتباع الهوى.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)

قال البغوي: وَأَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمُلَيْحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَا محمد بن إِسْمَاعِيلَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ أَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ، أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كان أهل الكتاب يقرؤون التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ ....الْآيَةَ([1]))).

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥٦: فإن قالوا: فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا فنحن على ملّته وإن انتحلنا هذا الاسم فأجيبوا عن هذا بقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ} إلى قوله: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.

قال ابن العثيمين: {قولوا آمنا بالله}: الخطاب للرسول ﷺ، وأمته جميعًا؛ والمراد بالقول هنا القول باللِّسان، وبالقلب؛ فالقول باللِّسان: نطقه؛ والقول بالقلب: اعتقاده؛ و(الإيمان) كما سبق هو التصديق المستلزم للقبول، والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بانفراده بالربوبية؛ والألوهية؛ والأسماء، والصفات.

قال السعدي: هذه الآية الكريمة، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به. واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام، بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام،

١- إسناده صحيح. على شرط البخاري. وهو في شرح السنة (١٢٥) بهذا الإسناد. خرّجه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (٤٤٨٥) عن محمد بن بشار بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري ٤٤٨٥ و٧٣٦٢ و٧٥٤٢ والنسائي في الكبرى (١١٣٨٧)، والبيهقي في الشعب (٥٢٠٧) من حديث أبي هريرة.

- وفي الباب من حديث أبي نملة عند أبي داود ٣٦٤٤ وعبد الرزاق ٢٠٠٥٩ وأحمد (٤/ ١٣٦) وابن حبان ٦٢٥٧ والطبراني في (الكبير) (٢٢/ ٨٧٤-٨٧٩) والفسوي في (المعرفة والتاريخ) (١/ ٣٨٠) وابن الأثير في (أسد الغابة) (٦/ ٣١٥) والمزي في (تهذيب الكمال) في ترجمة أبي نملة.

- (قلت): وروى مسلم في صحيحه (٧٢٧): حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا الْفَزَارِيُّ يَعْنِي مَرْوَانَ بْنَ مُعَاوِيَةَ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَكِيمٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ يَسَارٍ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ((كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا}[البقرة: ١٣٦] الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: {آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[آل عمران: ٥٢])).

وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان، وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان، دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما، كان الإيمان اسمًا لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسمًا للأعمال الظاهرة، وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة، فقوله تعالى: {قولوا}: أي بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام، المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللّسان، بدون اعتقاد القلب، نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب، عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيرا ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرَّد، والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: {قولوا} إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: {آمنا} ونحوه مما فيه صدور الفعل، منسوبًا إلى جميع الأمة، إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعًا، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدًا، وعملهم متحدًا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: {قولوا آمنا بالله} إلخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان، على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: (أنا مؤمن) ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقرونًا بالاستثناء بالمشيئة، لما فيه من تزكية النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: {آمنا بالله}: أي: بأنه موجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزَّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه.

قال ابن العثيمين: {وما أنزل إلينا}: يعني وآمنا بما أنزل إلينا؛ فـ{ما} اسم موصول مبني على السكون في محل جر عطفا على لفظ الجلالة: {الله}؛ وقوله تعالى: {وما أنزل إلينا} يشمل القرآن وهو منزل ؛ ويشمل السنة أيضا؛ لقوله تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة}[النساء: ١١٣]: فإن {الحكمة}[البقرة: ٢٦٩] هي السنة.

قال السعدي: فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

قال ابن العثيمين: {وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط}؛ {إبراهيم} منزل إليه؛ لأنه نبي رسول؛ والذي أنزل إليه هي الصحف التي ذكرها الله تعالى في موضعين من القرآن: {صحف إبراهيم وموسى}[الأعلى: ١٩]، {أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى}[النجم: ٣٦، ٣٧]؛ و{إسماعيل} نبي منزل إليه قطعًا؛ ولم نعلم ما الذي أنزل إليه بالتحديد؛ و{إسحاق ويعقوب} أيضًا منزل إليهما؛ لكن لم يذكر لنا ما الذي أنزل إليهما؛ و{الأسباط} جمع سبط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف؛ وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم.

قال القرطبي: والأسباط: ولد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر ولدًا، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط. والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل. وسمّوا الأسباط من السبط وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السبط (بالتحريك) وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبطة. قال أبو إسحاق الزجاج: ويبين لك هذا ما حدثنا به محمد بن جعفر الأنباري قال حدثنا أبو نجيد الدقاق قال حدثنا الأسود بن عامر قال حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحًا وشعيبًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدًا ﷺ ولم يكن أحد له اسمان إلا عيسى ويعقوب. والسبط: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد وشعر سبط وسبط: غير جعد.

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٣ص٢٩٧: الذي يدلُّ عليه القرآنُ واللغةُ والاعتبار أن إخوةَ يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ بل ولا عن أصحابه خبرٌ بأن الله تعالى نبَّأهم. وإنما احتجّ من قال إنّهم نبِّئُوا بقوله في آيتي البقرة والنساء: {وَالأَسْبَاطِ}، وفسّر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب، والصواب أنه ليس المراد بهم أولادُه لصلبه بل ذُرِّيَّته، كما يقال فيهم أيضًا (بنو إسرائيل)، وكان في ذريته الأنبياء، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل. قال أبو سعيد الضرير: أصل السِّبْط شجرةٌ ملتفةٌ كثيرة الأغصان.

فسُمُّوا الأسباطَ لكثرتهم، فكما أن الأغصان من شجرة واحدة، كذلك الأسباط كانوا من يعقوب. ومثل السبط الحافد، وكان الحسن والحسين سِبْطَي رسولِ الله ﷺ، والأسباط حفدة يعقوب ذَراري أبنائه الاثنَي عشر.

وقال تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَمًا}، فهذا صريحٌ في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، كلُ سِبطٍ أمةٌ، لا أنهم بَنُوه الاثنا عشر. بل لا معنى لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد أسباطًا، فالحال أن السِّبْطَ هم الجماعة من الناس. ومن قال: الأسباط أولاد يعقوب، لم يُرِد أنهم أولادُه لصلبه، بل أرادَ ذريتَه، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو آدم. فتخصيصُ الآية ببنيه لصلبه غلط، لا يدلُّ عليه اللفظُ ولا المعنى، ومن ادّعاه فقط أخطأ خطأً بيِّنًا.

والصواب أيضًا أن كونهم أسباطًا إنما سُمُّوا به من عهد موسى للآية المتقدمة، ومن حينئذٍ كانت فيهم النبوة، فإنه لا يُعرَف أنه كان فيهم نبيّ قبلَ موسى إلا يوسف. ومما يؤيِّد هذا أنّ الله تعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} الآيات، فذكر يوسف ومن معه، ولم يذكر الأسباط، فلو كان إخوةُ يوسف نُبِّئوا كما نبِّئ يوسف لَذُكِروا معه.

وأيضًا فإن الله يذكر عن الأنبياء من المحامد والثناء ما يناسب النبوة، وإن كان قبل النبوة، كما قال عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ} الآية، وقال في يوسف كذلك، وفي الحديث: ((أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبيّ من نبي من نبي[1])). فلو كانت إخوتُه أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم، وهو تعالى لما قصَّ قصَّةَ يوسف وما

١- أخرجه البخاري (٣٣٨٢، ٣٣٩٠، ٤٦٨٨) عن ابن عمر بنحوه.

فعلوا معه ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أبيهم، ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة، ولا شيئا من خصائص الأنبياء، بل ولا ذكر عنهم توبةً باهرةً كما ذكر عن ذنبه دون ذنبهم، بل إنما حكى عنهم الاعتراف وطلب الاستغفار. ولا ذكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء – لا قبلَ النبوة ولا بعدها – أنه فعلَ مثلَ هذه الأمورِ العظيمة، من عقوق الوالد وقطيعةِ الرحم وإرقاقِ المسلم وبيعه إلى بلاد الكفر والكذب البيّن وغير ذلك مما حكاه عنهم، ولم يَحْكِ شيئًا يناسب الاصطفاءَ والاختصاصَ الموجب لنبوتهم، بل الذي حكاه يخالف ذلك، بخلاف ما حكاه عن يوسف.

ثمّ إن القرآن يدلُّ على أنه لم يأتِ أهلَ مِصْرَ نبيٌّ قبلَ موسى سوى يوسف، لآية غافر([١])، ولو كان من إخوة يوسف نبيٌّ لكان قد دعا أهل مصر، وظهرت أخبار نبوته، فلما لم يكن ذلك عُلِمَ أنه لم يكن منهم نبيٌّ. فهذه وجوهٌ متعددة يُقوّي بعضُها بعضًا.

وقد ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، وهو أيضًا، وأوصىَ بنقله إلى الشام، فنقلَه موسى.

والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتهم حَصَلَ من ظَنِّ أنهم هم الأسباط، وليس كذلك، إنما الأسباط ذرّيتهم الذين قُطِّعُوا أسباطًا من عهد موسى، كل سِبْطٍ أمة عظيمة. ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال: (ويعقوب وبنيه)، فإنه أوجز وأَبْيَنُ. واختير لفظ (الأسباط) على لفظ (بني إسرائيل) للإشارة إلى أن النبوة إنما حصلتْ فيهم من حينِ تقطيعِهم أسباطًا من عهد موسى. والله أعلم([٢]).

قال ابن العثيمين: {وما أوتي موسى وعيسى}: يعني: وما أعطوا من الآيات الشرعية، والكونية؛ الشرعية كالتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى؛ والكونية كاليد والعصا لموسى؛ وكإخراج الموتى من قبورهم بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله لعيسى؛ ونص على موسى، وعيسى؛ لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل.

هنا قد يسأل سائل: لم عبر الله تعالى بقوله: {وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل}، وفي موسى وعيسى قال تعالى: {وما أوتي موسى وعيسى}؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟

فالجواب: أن نقول بحسب ما يظهر لنا والعلم عند الله: إن هناك حكمة لفظية، وحكمة معنوية.

الحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: (ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسى ... وما أنزل إلى النبيين) تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

أما الحكمة المعنوية: فلأن موسى وعيسى دينهما باق إلى زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارى يقولون: عيسى بن مريم يحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولون: إن موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحي وآيات.

١- الآية (٣٤).

٢- (قلت): أنظر كلام ابن العثيمين عن (الأسباط) عند تفسير الآية (٨٤) من سورة آل عمران.

{وما أوتي النبيون من ربهم}: من باب عطف العام على الخاص؛ والمراد بما أوتوه: ما أظهره الله على أيديهم من الآيات الكونية، وما أوحاه إليهم من الآيات الشرعية؛ و{من ربهم}: {من} للابتداء؛ لأن هذا الإيتاء من الله؛ وإضافة الربوبية إليهم على وجه الخصوص؛ وإلا فالله سبحانه وتعالى رب كل شيء؛ لكن هذه ربوبية خاصة.

قال السعدي: وفي قوله: {وما أوتي النبيون من ربهم} دلالة على أن عطية الدين، هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع. وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: {من ربهم} إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده، أن ينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته، تركهم سدى ولا هملا. وإذا كان ما أوتي النبيون، إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا إلى لخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم، يصدق الآخر، ويشهد له بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا}. وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه.

وفيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا وخصوصًا، ما نص عليه في الآية، لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار. فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب، أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلًا.

قال ابن العثيمين: {لا نفرق بين أحد منهم}، هذه الجملة داخلة في مقول القول؛ يعني: قولوا آمنا على هذا الوجه؛ {لا نفرق بين أحد منهم}: أي في الإيمان؛ وليس في الإتباع؛ والضمير في {منهم} يعود على الأنبياء.

قال السعدي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين، التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين. فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم – وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب – فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا، أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصا محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمدًا، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفرًا برسولهم.

قال ابن العثيمين: {ونحن له مسلمون}؛ {له} الضمير يعود على الله – سبحانه وتعالى – يعني: ونحن لله؛ وقدمه على عامله لإفادة الحصر، ومناسبة رؤوس الآي؛ و(الإسلام) هنا هو الاستسلام لله ظاهرًا، وباطنًا.

قال السعدي: فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عمومًا وخصوصًا، وكان القول لا يغني عن العمل قال: {ونحن له مسلمون}: أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو {له} على العامل وهو {مسلمون}.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة – على إيجازها واختصارها – على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده، كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٦ص٣٠: فأمرهم بعد أمره لهم باتباع ملة إبراهيم أن يقولوا: {آمنا بالله وما أنزل إلينا}، إلى آخر الآية، ففي ذلك الإيمان بما أنزله الله، وما اوْتِيَه النبيون من ربهم، والإيمان بجماعتهم من غير تفريق بينهم، وهو الإيمان ببعض والكفر ببعض، كما قال عن الكفار حيث قالوا: {نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}[النساء: ١٥٠]، وكان نصيب خالصة الأمة من ذلك أن تؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة، لا تُفرّق بين النصوص فتتَّبع بعضها وتترك بعضها، فبذلك يصيرون من أهل السنة، دون الذين تركوا السنن والآثار أو بعضها، أو تمسكوا ببعض آي القرآن دون بعض، من أصناف المبتدعة.

وكذلك لا يُفرّقون بين أولي الأمر من الأمة من علمائها وأمرائها، بل يُعطُون كلَّ ذي حق حقَّه، ويقبلون منه ما أمر الله بقبوله منه، ويتركونه حيث تركه الله، فيكونون أهلَ جماعةٍ لا أهلَ فُرقةٍ، وهذا فيه جمع عظيم يحتاج إلى تفصيل، وذلك أن الله أمرنا بطاعة أولي الأمر منا، وأمرنا أن نعتصم بحبل الله جميعًا ولا نتفرق، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وَبرَّأَ نبيَّه من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب الإيمان بالله، وما أنزل إلينا ... إلى آخر ما ذكر في هذه الآية؛ لقوله تعالى: {قولوا آمنا بالله ... } الآية.

٢- أن الذين يؤمنون بوجود الله لكن يشركون معه غيره في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته لم يكونوا مؤمنين.

٣- أن الذين يؤمنون بالله، وبربوبيته، وأنه الرب الفعال الخلاق الذي لا يشاركه أحد في هذا، لكنهم يعبدون معه غيره ليسوا بمؤمنين.

٤- أن الذين يؤمنون بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته لكن في الأسماء والصفات لا يؤمنون إما أن ينكروا الأسماء، والصفات؛ وإما أن ينكروا الأسماء دون الصفات؛ وإما أن ينكروا بعض الصفات هؤلاء لم يؤمنوا بالله حق الإيمان، وإيمانهم ناقص.

٥- أن الكتب التي أوتيها الرسل قد نزلت من عند الله؛ لقوله تعالى: {وما أنزل إلينا}، ولقوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط}[الحديد: ٢٥].

٦- الإشارة إلى البداءة بالأهم وإن كان متأخرا؛ لقوله تعالى: {وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم} مع أن ما أنزل إلينا متأخر عما سبق.

٧- الإيمان بما أوتي النبيون من الآيات الكونية، والآيات الشرعية.

٨- أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، على حد سواء في أصل الإيمان؛ وأما الشرائع فلكل منهم جعل الله شرعة ومنهاجا، كما قال تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا}[المائدة: ٤٨]؛ فنحن مأمورون بإتباع شريعة محمد ﷺ التي نسخت جميع الأديان؛ أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله، وأنهم صادقون بما جاءوا به فإنا لا نفرق بين أحد منهم؛ لقوله تعالى: {لا نفرق بين أحد منهم}، وقوله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله}[البقرة: ٢٨٥].

٩- وجوب الإخلاص لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ونحن له مسلمون}.

١٠- أن الرسل ليسوا مستقلين بهذه الآيات؛ فلا يملكون أن يأتوا بهذه الآيات، أو بهذا الوحي؛ فهم يتلقون من الله؛ حتى الرسول ﷺ إذا طلب منه الآيات لا يستطيع أن يأتي بها؛ ولهذا لما اقترح المكذبون عدة آيات قال تعالى: {قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا}[الإسراء: ٩٣]، وقال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين}[العنكبوت: ٥٠]، أي فلا أملك أن آتي بالآيات.

١١- أنه ينبغي للمؤمن أن يشعر أنه هو وإخوانه كنفس واحدة، كما قال النبي ﷺ: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا([1]))) وشبك بين أصابعه؛ لقوله تعالى: {ونحن له مسلمون}: فأتى بضمير الجمع: {قولوا آمنا بالله ... ونحن ... }.

١٢- أن الإسلام لابدَّ أن يكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ لإطلاقه في قوله تعالى: {مسلمون}؛ فيستسلم قلب المرء لله تبارك وتعالى محبة، وتعظيما، وإجلالا؛ ويستسلم لسانه لما أمره الله سبحانه وتعالى أن يقول؛ وتستسلم جوارحه لما أمره الله تعالى أن يفعل.

١- أخرجه البخاري ص٤٠، كتاب الصلاة، باب ٨٨: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم ٤٨١؛ وأخرجه مسلم ص١١٣٠، كتاب البر والصلة، باب ١٧: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم ٦٥٨٥ [٦٥] ٢٥٨٥؛ بدون و "شبك أصابعه".

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)

قال ابن العثيمين: {فإن آمنوا}: أي اليهود، والنصارى؛ لأن هذه الآيات كلها متتابعة: {وقالوا كونوا هودا أو نصارى ... قولوا آمنا بالله ... فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ... }.

{بمثل ما آمنتم به}: اختلف المعربون في الباء، وفي {مثل} أيهما الزائد؟ فقيل: إن {مثل} هي الزائدة، وأن التقدير: فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا؛ وأن {مثل} زائدة إعرابًا لا معنى؛ وأن المعنى: أنهم إن آمنوا بما آمنتم به إيمانًا مماثلًا لإيمانكم؛ فعلى هذا تكون الزيادة في كلمة {مثل}؛ وقيل: إن الزائد هو الباء – حرف الجر–؛ وأن التقدير: فإن آمنوا مثل ما آمنتم – أي مثل إيمانكم –؛ والباء الثانية أيضًا زائدة؛ فصار قولان: الأول: أن الزائد {مثل}؛ والثاني أن الزائد الباء؛ والجميع اتفقوا على أن المراد الزيادة الإعرابية؛ وليست الزيادة المعنوية؛ لأنه ليس في القرآن ما هو زائد معنى – أي لا فائدة فيه –؛ والمعروف أن الأسماء لا تزاد؛ وأما الزيادة في الحروف فكثيرة؛ لأن الاسم كلمة جاءت لمعنى في نفسها؛ والحرف كلمة جاءت لمعنى في غيرها؛ ومعلوم أننا لو وزنا بالميزان المستقيم لكان ما يجيء لمعنى في غيره أولى بالزيادة مما يجيء لمعنى في نفسه؛ ولهذا أنكر بعض النحويين زيادة الأسماء، وقالوا: لا يمكن أن تزاد الأسماء؛ لأنها جاءت لمعنى في ذاتها؛ بخلاف الحرف؛ فعلى هذا تكون الزيادة في الباء – أي فإن آمنوا مثل ما آمنتم –؛ أي مثل إيمانكم؛ وعلى كلا الاحتمالين من حيث الإعراب فالمعنى واحد – أي إن آمنوا إيمانًا مطابقًا لإيمانكم مماثلًا له من كل الوجوه فقد اهتدوا.

قال السعدي: فإن آمن أهل الكتاب {بمثل ما آمنتم به} – يا معشر المؤمنين – من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله {فقد اهتدوا}.

قال ابن العثيمين: {فقد اهتدوا}: أي سلكوا سبيل الهداية؛ و(الهداية) هنا هداية العلم والتوفيق؛ لأنهم آمنوا عن علم فوفقوا واهتدوا؛ والهداية هنا مطلقة، كما أن المسلمين الذين آمنوا على الوصف المذكور مهتدون هداية مطلقة.

قال السعدي: {فقد اهتدوا} للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: {كونوا هودا أو نصارى تهتدوا}، فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، و(الهدى) هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضلال عن العمل بعد العلم.

قال ابن العثيمين: {وإن تولَّوا}: (التولِّي) الإعراض؛ أي عن الإيمان بمثل ما آمنتم به.

{فإنَّما هم في شقاق}، جملة اسمية للدلالة على الاستمرار، والثبوت؛ وأتت بـ{إنما} الدالة على الحصر؛ أي فما حالهم إلا الشقاق؛ و{في} للظرفية كأن الشقاق محيط بهم من كل جانب منغمسون فيه؛ وال{شقاق} بمعنى

الخلاف؛ وهو في كل معانيه يدور على هذا حتى في قوله تعالى: {وإن الظالمين لفي شقاق بعيد}: فبعضهم قال: ال{شقاق} هنا بمعنى الضلال؛ ولكن الصحيح أن معناه: الخلاف؛ فكلّما جاءت في القرآن فمآلها إلى الخلاف؛ ولكنها أشدَّ، حيث تفيد الاختلاف مع طلب المشقة على الخصم؛ ويدلُّ لهذا أن أصل معنى ال{شقاق} أن يكون أحد الطرفين في شقّ، والثاني في شقّ آخر؛ وبهذا يكون الخلاف.

قال الطبري: وإن تولّى – هؤلاء الذين قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه: (كونوا هودًا أو نصارى) فأعرضوا، – فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيّها المؤمنون بالله، وبما جاءت به الأنبياءُ، وابتُعِث به الرسل، وفرّقوا بين رُسُل الله وبين الله ورسله، فصدّقوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ – فاعلموا، أيها المؤمنون، أنهم إنما هُمْ في عصيان وفِرَاق وحَربٍ لله ولرسوله ولكم.

عن قتادة، وعن الربيع: {وإنما هُم في شقاق}: أي في فراق. وقال ابن زيد: {وإن توَلّوا فإنّما هم في شقاق} قال: الشقاق: الفراقُ والمحاربة. إذا شَاقَّ فقد حارب، وإذا حَارب فقد شاقَّ، وهما واحدٌ في كلام العرب، وقرأ: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ}[سورة النساء: ١١٥].

وأصل ال{شقاق} عندنا، والله أعلم، مأخوذٌ من قول القائل: (شَقَّ عليه هذا الأمر)، إذا كَرَبه وآذاه. ثم قيل: (شاقَّ فلانٌ فلانًا)، بمعنى: نال كل واحد منهما من صاحبه ما كَرَبه وآذاه، وأثقلته مَساءَته. ومنه قول الله تعالى ذكره: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا}[سورة النساء: ٣٥]: بمعنى فراقَ بينهما.

قال السعدي: فالمشاق: هو الذي يكون في شقّ والله ورسوله في شقّ، ويلزم من المشاقّة المحادَّة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها، بذل ما يقدرون عليه من أذيَّة الرسول، فلهذا وعد الله رسوله، أن يكفيه إياهم.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥٦: وإن أتَوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم على ملَّة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملّته في شيء، وإنَّما هم في شقاق وعداوة، فإن ملَّة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله وأن لا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملَّة إبراهيم مشاقّ لمن هو على ملَّته.

قال ابن العثيمين: وكأن الإنسان إذا سمع {فإنما هم في شقاق} قد يهاب، ويخاف؛ فطمأن الله تعالى المؤمنين بقوله: {فسيكفيكهم الله}؛ هذه الجملة فيها فعل، وفاعل، ومفعولان؛ الفاعل: لفظ الجلالة؛ والفعل: {يكفي}؛ والمفعول الأول: الكاف؛ والمفعول الثاني: الهاء؛ والسين هنا يقول العلماء: إنها للتنفيس، وتفيد شيئين هما تحقق الوقوع، وقرب الوقوع؛ بخلاف (سوف) فإنها تفيد التحقق؛ ولكن مع مهلة.

قال السعدي: وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد. ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

قال ابن العثيمين: {وهو السميع العليم}؛ {السميع} من أسماء الله؛ و{العليم} أيضًا من أسمائه – تبارك وتعالى –؛ وسبق تفسيرهما([1]).

قد يقول قائل: يبدو لنا أن المناسب أن يقول: (وهو القوي العزيز) لأنه قال: {فسيكفيكهم الله} فما هو الجواب عن ختمها بالسمع والعلم؟

فالظاهر لي – والله أعلم – أنه لما كان تدبير الكيد للرسول ﷺ من هؤلاء قد يكون بالأقوال، وقد يكون بالأفعال؛ والتدبير أمر خفي ليس هو حربًا يعلن حتى نقول: ينبغي أن يقابل بقوة وعزة؛ قال تعالى: {وهو السميع العليم}: أي حتى الأمور التي لا يدرى عنها، ولا يبرزونها، ولا يظهرون الحرابة للرسول ﷺ فإن الله سميع عليم بها؛ هذا ما ظهر لي – والله أعلم –.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أنه لابدَّ أن يكون إيمان اليهود، والنصارى مثل إيمان النبي ﷺ، وأمَّته حقيقة، ووصفًا.

٢– أن ما خالف ما عليه النبي ﷺ فهو ضلال؛ لأن الله سبحانه وتعالى علق الاهتداء بأن يؤمنوا بمثل ما آمن به الرسول ﷺ وأمَّته.

٣– أنه لا حجة لمن تولّى عن شريعة النبي ﷺ إلا الشقاق، والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: {فإن تولّوا فإنَّما هم في شقاق}.

٤– وقوع الشقاق بين أهل الكتاب، والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتفق المسلمون وأهل الكتاب؛ فتبطل دعوة أهل الضلال الذين يدعون إلى توحيد الأديان؛ لقوله تعالى: {فإنما هم في شقاق}؛ فاليهود، والنصارى لما لم يؤمنوا صاروا معنا في شقاق؛ وهذا الشقاق لابدَّ أن يؤدي إلى عداوة، وبغضاء؛ وبالتالي إلى قتال؛ وهكذا وقع: فالمسلمون قاتلوا اليهود، وقاتلوا النصارى – الروم كلهم نصارى –؛ ومن بعد ذلك قاتلوا النصارى في الحروب الصليبية؛ وسيقاتلونهم أيضًا مرة أخرى حتى يدخل الإسلام عاصمتهم الروم؛ ولابدَّ من هذا في المستقبل بإذن الله؛ وسنقاتل اليهود حتى يختبئ اليهودي بالحجر، والشجر فينادي: ((يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود([2]))) فلا يبلغ عنهم.

٥– الوعيد الشديد لهؤلاء المتولِّين عن شريعة النبي ﷺ؛ لقوله: {فسيكفيكهم الله}.

١– (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧)، وإسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٢– أخرجه البخاري ص٢٣٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٩٤: قتال اليهود، حديث رقم ٢٩٢٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٨٤، كتاب الفتن، باب ١٨: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، حديث رقم ٧٣٣٩ [٨٢] ٢٩٢٢.

٦- تكفل الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ أنهم إذا لم يؤمنوا بمثل ما آمن المؤمنون وتولَّوا، فإن الله سبحانه وتعالى سيكفيه إيّاهم عن قرب؛ لقوله تعالى: {فسيكفيكهم الله}؛ والحمد لله أنه صار ذلك عن قرب: فإن الرسول ﷺ لم يتوف حتى أجلى اليهود عن المدينة، وفتح حصونهم في خيبر، وأبقاهم فيها عمالًا؛ وفي خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلاهم من خيبر؛ فكفى الله المؤمنين شرَّهم والحمد لله.

٧- الإشارة إلى التوكل على الله تبارك وتعالى في الدعوة إليه، وفي سائر الأمور؛ لأنه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي فيجب أن يكون التوكل والاعتماد عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه}[الطلاق: ٣].

٨- إثبات الاسمين الكريمين {السميع}، و{العليم}، وما يتضمناه من الصفات والمعاني العظيمة.

٩- أنه يجب على المرء مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع أقواله؛ لأن الله سبحانه وتعالى سامع لها لا يخفى عليه الصوت مهما خفي؛ بل هو يعلم عز وجل ما توسوس به نفس الإنسان - وإن لم يتكلم به

١٠- مراقبة الله سبحانه وتعالى في السر، والعلن؛ وذلك؛ لأن مقتضى اسمه الكريم: {العليم} أنه يعلم كل شيء.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)

قال ابن العثيمين: {صبغة الله}؛ ال{صبغة} معناها اللّون؛ وقالوا: المراد بـ{صبغة الله}: دين الله؛ وسمِّي (الدين) صبغة لظهور أثره على العامل به؛ فإن المتدين يظهر أثر الدين عليه: يظهر على صفحات وجهه، ويظهر على مسلكه، ويظهر على خشوعه، وعلى سمته، وعلى هيئته كلها؛ فهو بمنزلة الصبغ للثوب يظهر أثره عليه؛ وقيل: سمِّي صبغة للزومه كلزوم الصبغ للثوب؛ ولا يمنع أن نقول: إنه سمِّي بذلك للوجهين جميعًا: فهو صبغة للزومه؛ وهو صبغة أيضًا لظهور أثره على العامل به.

ووجه نصب {صبغة الله}: قيل: إنها مصدر معنوي؛ لقوله تعالى: {آمنا} في قوله تعالى: {قولوا آمنا بالله}؛ فإن {آمنا} معناها الدِّين، وأن التقدير: تديُّنا دين الله؛ ولا ريب أن هذا بعيد؛ لأن {آمنا} في آية أخرى قبلها؛ ويبعد أن يكون هذا متعلِّقا بها؛ ولأنه فصل بينهما بفواصل كثيرة؛ إذا هو منصوب على الإغراء - يعني: الزموا صبغة الله، ولا يصدَّنَّكم هؤلاء عن دينكم -؛ وأضيفت ال{صبغة} إلى الله؛ لأنها منه: فإن الشريعة جاءت من الله؛ ولا أحد يشرع للخلق إلا خالقهم.

قال الطبري: يعنى تعالى ذكره بال{صبغة}: صبغةَ الإسلام. وذلك أنّ النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالهم، جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس، بمنزلة غُسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية. فقال الله تعالى ذكره - إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به: (كونوا هودًا أو نَصَارَى تَهتدوا) -: قل لهم يا محمد:

أيها اليهود والنصارى، بل اتَّبعوا ملَّة إبراهيمَ، صبغة الله التي هي أحسن الصِّبَغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة، ودعوا الشركَ بالله، والضلالَ عن محجَّة هُداه. عن قتادة قوله: {صبغةَ الله ومن أحسن من الله صبغة} إنّ اليهود تصبغ أبناءها يهودَ، والنصارى تَصبغ أبناءَها نصارى، وأن صبغة الله الإسلامُ، فلا صبغة أحسنُ من الإسلام، ولا أطهر، وهو دين الله بعث به نُوحًا والأنبياء بعده. عن ابن جريج، قال عطاء: {صبغةَ الله}، صبغت اليهودُ أبناءَهم خالفوا الفِطْرة. عن ابن عباس، وابن زيد: {صبغةَ الله}، قال: دينَ الله.

قال السعدي: أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًّا، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعًا واختيارًا ومحبَّة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التّام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحثّ الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهذا قال – على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية –: {ومن أحسن من الله صبغة}.

قال ابن العثيمين: {ومن أحسن من الله صبغة}: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي لا أحد أحسن من الله صبغة؛ وذلك؛ لأن دين الله عز وجل مشتمل على المصالح، ودرء المفاسد؛ ولا يوجد دين يشتمل على هذا إلا ما جاء من عند الله، سواء كان الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ، أو الأديان الأخرى ما دامت قائمة لم تنسخ؛ ومجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرَّد؛ لأنه يتضمن التحدّي؛ فإن القائل إذا قال: (ليس مثل زيد بشر) ليس كقوله: (من مثل زيد من البشر؟!)؛ الثاني أبلغ: كأنه يتحدّى المخاطب أن يأتي بأحد مثله.

قال السعدي: {ومن أحسن من الله صبغة}: أي لا أحسن صبغة من صبغته. وإذا أردت أن تعرف نموذجًا يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانًا صحيحًا، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلّى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلّى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتَّصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده. فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

قال ابن العثيمين: {ونحن له عابدون}: الضمير {نحن} يعود على النبي ﷺ، وأصحابه؛ وتقديم المعمول في قوله تعالى: {له عابدون} على عامله هنا له فائدتان؛ أولهما: لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ والثانية: معنوية؛ وهي

الحصر، والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: {إياك نعبد}[الفاتحة: ٥]؛ و(العبادة) التذلُّل لله عز وجل بفعل أوامره محبَّة له، واجتناب نواهيه تعظيمًا له مع شعور الإنسان بمنزلته، وأن منزلته أن يكون عبدًا لله عز وجل.

قال السعدي: وفي قوله: {ونحن له عابدون} بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن (العبادة) اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك، حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده، في تلك الأعمال، فتقديم المعمول، يؤذن بالحصر. وقال: {ونحن له عابدون} فوصفهم باسم الفاعل الدالّ على الثبوت والاستقرار، ليدلّ على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازمًا.

قال الطبري: {ونَحنُ له عَابدون}، أمرٌ من الله تعالى ذكره نبيَّه ﷺ أن يقوله لليهود والنصارى، الذين قالوا له ولمن تبعه من أصحابه: {كونوا هودًا أو نَصارَى}. فقال لنبيه محمد ﷺ: قُلْ بل نتبعُ ملَّة إبراهيم حنيفًا، صبغةَ الله، ونحنُ له عابدون. يعني: ملة الخاضعين لله المستكينين له، في اتباعنا ملة إبراهيم، وَدِيْنُونتنا له بذلك، غير مستكبرين في إتباع أمره، والإقرار برسالته رسلَه، كما استكبرت اليهودُ والنصارَى، فكفروا بمحمد ث استكبارًا وبغيًا وحسدًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب الالتزام بدين الله؛ لأن المعنى: الزموا صبغة الله عز وجل.

٢- أن هذا الدين حق؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه؛ وكل ما يضاف إلى الله عز وجل فإنه حق.

٣- أن دين الله سبحانه وتعالى أحسن الأديان، وأكملها، وأشملها، وأقومها بمصالح العباد؛ لقوله تعالى: {ومن أحسن من الله صبغة}.

٤- وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: {ونحن له عابدون}؛ فقدم المعمول لإفادة الحصر؛ وعبادة الله فخر، وشرف للعبد؛ ولهذا جاء وصف العبودية في المقامات العليا لرسول الله ﷺ، فجاءت في مقام الدفاع عنه في قوله تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا}[البقرة: ٢٣]؛ وفي مقام تكريمه بالإسراء في قوله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى}[الإسراء: ١]، وفي مقام رسالته، مثل قوله تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا}[الكهف: ١]؛ ويقول الشاعر في معشوقته:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

٥- أن العقل يقضي بالتزام الدين؛ لقوله تعالى: {ومن أحسن من الله صبغة}؛ فإن العقل يهدي إلى التزام الأحسن؛ كل إنسان له عقل سليم فإن عقله يأمره بالتزام الأحسن.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)

قال ابن العثيمين: {قل أتحاجّوننا في الله}: الخطاب في قوله تعالى: {قل} موجه إلى رسول الله ﷺ؛ و{أتحاجّوننا في الله} موجَّه للذين يحاجّون الرسول ﷺ من اليهود، والنصارى؛ و(المحاجّة): هي أن يدلي كل خصم بحجَّته لينقض حجَّة الخصم الآخر.

قال السعدي: المحاجَّة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها، أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يردَّ الضال إلى الحق، ويقيم الحجَّة على المعاند، ويوضح الحق، ويبيِّن الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرَّد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل.

قال الطبري: قل يا محمد لمعاشر اليهود والنصارى، الذين قالوا لك ولأصحابك: {كونوا هُودًا أو نَصَارَى تَهتدوا}، وزعموا أن دينهم خيرٌ من دينكم، وكتابهم خير من كتابكم، لأنه كان قبلَ كتابكم، وزعموا أنهم من أجل ذلك أولى بالله منكم: {أتحاجّوننا في الله وهو رَبُّنا وربُّكم}، بيده الخيرات، وإليه الثواب والعقابُ، والجزاءُ على الأعمال الحسنات منها والسيئات، فتزعمون أنكم بالله أوْلى منا، من أجل أن نبيكم قبل نبينا، وكتابكم قبل كتابنا، وربّكم وربّنا واحدٌ، وأنّ لكلّ فريق منّا ما عمل واكتسب من صالح الأعمال وسيِّئها، يجازى عليها فيثابُ أو يعاقبُ، لا على الأنساب وقدمَ الدِّين والكتاب.

ويعني بقوله: {قُلْ أتحُاجونَنا}، قل أتخاصموننا وتجادلوننا؟ عن مجاهد وعن ابن زيد: {قل أتحاجُّوننا في الله}، قل: أتخاصموننا؟ وعن ابن عباس: {أتحاجُّوننا}، أتجادلوننا؟

قال ابن العثيمين: {ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم}: أي أننا لا نسأل عنكم، ولا تسألون عنا؛ كل له عمله؛ وسيجازيه الله به يوم القيامة.

{ونحن له مخلصون}: أي لله عز وجل مخلصون؛ و(الإخلاص): تنقية الشيء من كل الشوائب التي قد تعلق به؛ فالمعنى: أننا مخلصون لله الدين لا نشرك به شيئًا.

قال الطبري: ونحن لله مخلصو العبادةِ والطاعة، لا نشرك به شيئًا، ولا نعبد غيره أحدًا، كما عبد أهل الأوثان معه الأوثانَ، وأصحاب العِجل معه العجلَ. وهذا من الله تعالى ذكره توبيخٌ لليهود، واحتجاج لأهل الإيمان.

قال السعدي: فإذا كان ربُّ الجميع واحدًا، ليس ربًّا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وإيّاكم بذلك. فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق مؤثر، دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة. وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله

وحده، وهذه الحالة، وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص، هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلّا كلّ مكابر جهول، ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٣ص٨٢: فَإِنَّا مُشْتَرِكُونَ فِي أَنَّهُ رَبُّنَا كُلِّنَا وَأَنَّ عَمَلَ كُلِّ عَامِلٍ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ، وَامْتَزْنَا نَحْنُ بِأَنَّا مُخْلِصُونَ لَهُ، وَأَنْتُمْ لَسْتُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ، فَأَوْجَبَ هَذَا أَنَّ الْحَقَّ مَعَنَا دُونَكُمْ، وَأَنَّ أَعْمَالَنَا صَالِحَةٌ مَقْبُولَةٌ، وَأَعْمَالَكُمْ مَرْدُودَةٌ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الإنكار على اليهود والنصارى الذين يحاجّون المسلمين في الله مع إقرارهم بأنه ربهم؛ لقوله تعالى: {قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم}.

٢- وجوب البراءة من أعمال الكفار؛ لقوله تعالى: {ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم}؛ فإن المراد بذلك البراءة مما هم عليه.

٣- أنه ينبغي للمرء أن يفتخر بما هو عليه من الحق؛ لقوله تعالى: {ولنا أعمالنا}: أي فنحن مفتخرون بها بريؤون من أعمالكم.

٤- أنه لا يجوز التشبُّه بأعداء الله؛ لأن المشابهة موافقة في العمل؛ لهذا قال النبي ﷺ: ((من تشبه بقوم فهو منهم([1]))؛ وهنا قال تعالى: {ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم}: فنحن متميِّزون عنكم، وأنتم متميِّزون عنّا.

٥- وجوب الإخلاص لله؛ لتقديم المعمول في قوله تعالى: {ونحن له مخلصون}.

١- أخرجه أحمد ٢/٥٠، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفين كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ١٠/٢٧١: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/٥٠٤، وقال في الإرواء: صحيح ٥/١٠٩، حديث رقم ١٢٦٩.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

قال ابن العثيمين: {أم تقولون إن إبراهيم ... }؛ {أم} هنا للإضراب؛ والمعنى: بل أتقولون؛ وهو إضراب انتقال؛ وليس إضراب إبطال؛ والمعنى أنه انتقل من توبيخ هؤلاء الذين يحاجّون في الله إلى توبيخ آخر؛ وهو دعواهم أن هؤلاء الرسل الكرام كانوا هودًا، أو نصارى؛ وهذه دعوى كاذبة؛ فليس هؤلاء هودًا، ولا نصارى؛ بل إن الله سبحانه وتعالى قال موبّخًا لهؤلاء مبيِّنًا ضلالهم الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا: {ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين}[آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: {وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون}[آل عمران: ٦٥]؛ فكيف يكون يهوديًا أو نصرانيًا وكتاب اليهود والنصارى لم ينزل إلا من بعد إبراهيم؟!

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥٦: ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد وهو أن يقولوا: فنحن على ملَّته أيضًا لم نخرج عنها، وإبراهيم وبنوه كانوا هودًا أو نصارى، فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فقال تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى} الآية، وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً} إلى قوله: {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}.

قال ابن العثيمين: {وإسماعيل}: هو أكبر أولاد إبراهيم؛ وهو الذي أمر الله أباه أن يذبحه؛ والقصة مبسوطة في سورة الصافات.

{وإسحاق}: هو أخو إسماعيل؛ وهو الولد الثاني لإبراهيم ﷺ؛ {ويعقوب}: هو ابن إسحاق؛ وهو الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل؛ {والأسباط} سبق الكلام على بيانهم([1]).

{كانوا هودا أو نصارى}: يعني كانوا على ملّة اليهودية، والنصرانية؛ وهذا من سفه هؤلاء اليهود الذين يدَّعون ذلك؛ لأن أصل اليهودية، والنصرانية حدثت بعد هؤلاء؛ فكيف يكون هؤلاء هودًا، أو نصارى؟!

قال الطبري: وهذه الآية أيضًا احتجاجٌ من الله تعالى ذكره لنبيّه ﷺ على اليهود والنصارى، الذين ذكر الله قَصَصهم. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمد – لهؤلاء اليهود والنصارى -: أتحاجُّوننا في الله، وتزعمون أن دينكم أفضلُ من ديننا، وأنكم على هدى ونحنُ على ضَلالة، ببرهان من الله تعالى ذكره، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على

١- (قلت): أنظر الآية (١٣٦) من سورة البقرة.

ذلك فنتبعكم عليه، أم تقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط كانوا هودًا أو نَصَارَى على دينكم؟ فهاتُوا – على دعواكم ما ادّعيتم من ذلك – برهانًا فنصدِّقكم، فإن الله قد جَعلهم أئمة يقتدى بهم. ثم قال تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قُل لهم يا محمد – إن ادَّعوا أن إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هودًا أو نصَارَى: أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان، أم الله؟

قال ابن العثيمين: ثم أبطل الله تعالى دعواهم بطريق آخر فقال: {قل أأنتم أعلم أم الله}؛ ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم من الله عز وجل؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قال ذلك إلزامًا للخصم حتى يتبين بطلان ما ادَّعاه؛ وهو كقوله تعالى: {آلله خير أم ما يشركون}؛ ومن المعلوم أن الله خير مما يشركون؛ لكن من أجل إفحام الخصم، وإلزامه بما هو ظاهر لا إشكال فيه.

قال السعدي: زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين. فردَّ الله عليهم بقوله: {أأنتم أعلم أم الله}، فالله يقول: {ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين} وهم يقولون: بل كان يهوديًا أو نصرانيًا.

فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه – من وضوحه – لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك. وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودًا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم.

قال ابن العثيمين: {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله}: يعني لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وهؤلاء اليهود والنصارى كتموا الشهادة عندهم من الله؛ لأن الله – تبارك وتعالى – أخبر عن نبيه محمد ﷺ، وذكر أوصافه في التوراة، والإنجيل، كما قال الله – تبارك وتعالى – في سورة الأعراف: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم}[الأعراف: ١٥٧]؛ فهذه أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل معلومة لبني إسرائيل؛ ولكنهم يكتمون هذه الشهادة؛ ولا أحد أظلم ممَّن كتم شهادة عنده من الله تعالى في كتمان الشهادة؛ وإن كان المشرك أظلم الظالمين؛ لكن اسم التفضيل يختصّ بالشيء المعين الذي يشترك فيه المفضل، والمفضل عليه.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥٧: أي الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل، وأنهم لم يكونوا يهودًا ولا نصارى، فالله تعالى يعلم ذلك، فلو كانوا يهودًا أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم، هذا مع أن عندكم شهادة من الله تعالى بما كان عليه إبراهيم وبأن هذا النبي ﷺ على ملَّته ولكنَّكم كتمتم

هذه الشهادة عن أتباعكم فلم تؤدّوها إليهم مع تحقُّقكم لها، ولا أظلم ممَّن كتم شهادة استشهده الله بها، فهي عنده من الله، إلّا أنه كتمها من الله، فالمجرور متعلّق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول.

قال السعدي: فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها، وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة.

قال ابن العثيمين: {وما الله بغافل عما تعملون}: يعني أن الله عز وجل لا يغفل عمّا يعمل هؤلاء؛ بل هو جل وعلا عالم به، وسوف يحاسبهم عليه.

قال السعدي: بل قد أحصى أعمالهم، وعدّها وادَّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار، مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها. فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي، أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

{تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ... } الآية: تقدم تفسيرها، وكرَّرها، لقطع التعلُّق بالمخلوقين، وأن المعوَّل عليه ما اتَّصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

قال الطبري: عن قتادة، وعن الربيع قوله تعالى: {تلك أمة قد خَلت}: يعني: إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ. وقد بينا فيما مضى أن ال{أمة}، الجماعة.

فمعنى الآية إذًا: قلْ يا محمد لهؤلاء الذين يُجادلونك في الله من اليهود والنصارى، إن كتموا ما عندَهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومن سَمَّينا مَعه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هودًا أو نصارى، فكذبوا: إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ أمَّةٌ قد خَلتْ - أي مضت لسبيلها - فصارت إلى ربها، وخَلتْ بأعمالها وآمالها، لها عند الله ما كسبت من خير في أيام حياتها، وعليها ما اكتسبت من شرّ، لا ينفعها غيرُ صالح أعمالها، ولا يضرُّها إلا سيِّئها. فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فإنكم، إنْ كان هؤلاء وهم الذين بهم تفتخرون، وتزعمون أنّ بهم تَرجُون النجاةَ من عذاب ربكم، مع سيئاتكم وعظيم خطيئاتكم - لا يَنفعهم عند الله غيرُ ما قدَّموا من صالح الأعمال، ولا يضرُّهم غير سيئها، فأنتم كذلك أحرَى أنْ لا ينفعكم عند الله غير ما قدَّمتم من صالح الأعمال، ولا يضرّكم غيرُ سَيئها. فاحذروا على أنفسكم، وبادروا خروجَها بالتوبة والإنابة إلى الله مما أنتم عليه من الكفر والضلالة والفِرية على الله وعلى أنبيائه ورُسُله، ودَعُوا الاتّكالَ على فَضَائل الآباء والأجداد، فإنما لكم ما كسبتم، وعليكم ما اكتسبتم، ولا تُسألون عما كان إبراهيم وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباط يَعملون من الأعمال، لأن كل نفس قَدِمت على الله يوم القيامة، فإنما تُسأل عما كسبت وأسلفت، دون ما أسلفَ غيرُها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إبطال دعوى هؤلاء اليهود، والنصارى أن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، كانوا هودًا أو نصارى؛ فهذه الدعوى باطلة؛ بل وصف هؤلاء الإسلام؛ فإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ليسوا هودًا، ولا نصارى؛ بل هم مسلمون لله سبحانه وتعالى.

٢- ردّ علم هذه الأشياء إلى الله؛ لقوله تعالى: {أأنتم أعلم أم الله}.

٣- الرَّدُّ على أهل التحريف في أسماء الله، وصفاته الذين يقولون: (إن هذا جائز عقلًا على الله؛ فنقرُّ به؛ وهذا يمتنع عقلًا على الله؛ فلا نقرُّ به) كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم؛ نقول لهم كلهم في الجواب: {أأنتم أعلم أم الله}: أأنتم أعلم بما يجوز على الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟! وهذه في الحقيقة حجَّة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالى بعقولهم، فيقولون: (يجب لله كذا؛ يمتنع عليه كذا)؛ نقول: {أأنتم أعلم أم الله}.

٤- عظم كتم العلم؛ لقوله تعالى: {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله}؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، كما قال الله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم}[آل عمران: ١٨]؛ فكل إنسان يكتم علمًا فقد كتم شهادة عنده من الله؛ ثم إن في هذا عظم إثمه؛ لقوله تعالى: {ومن أظلم ممَّن كتم شهادة عنده من الله}.

٥- كمال علم الله، ومراقبته لعباده؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}.

٦- ثبوت الصفات المنفية؛ وهي ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}؛ فإن هذه صفة منفية، وليست ثبوتية؛ والصفات المنفية متضمنة لإثبات كمال ضدها؛ فلكمال مراقبته، وعلمه سبحانه وتعالى ليس بغافل عما نعمل.

٧- تخويف الإنسان، وإنذاره من المخالفة؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}؛ فإيّاك والمخالفة؛ مثلما تهدد إنسانًا بشيء تقول: لست بغافل عنك.

٨- إضافة العمل إلى العامل؛ ففيه ردّ على الجبرية الذين يقولون: (إن الإنسان مجبر على عمله)؛ لقوله تعالى: {عمّا تعملون}.

تمَّ تفسير الجزء الأول من سورة البقرة بعون الله وفضله

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق عن البراء قال كان رسول الله ﷺ يصلّي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات قبل أن نصرف إلى القبلة فأنزل الله {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}، وقال السفهاء من الناس: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}، إلى آخر الآية ا. هـ منقولًا من لباب النقول في أسباب النزول للحافظ السيوطي ومن تفسير الحافظ ابن كثير.

قال ابن العثيمين: {سيقول السُّفهاء من الناس}؛ {سيقول}: السين للتنفيس؛ وإذا دخلت على المضارع أخلصته للمستقبل؛ المضارع إذا دخلت عليه (لم) أخلصته للماضي؛ وإذا دخلت عليه السين أخلصته للمستقبل؛ وإذا كان مجرَّدًا فهو صالح للحاضر، والمستقبل؛ و{سيقول} تفيد أيضًا مع الاستقبال تحقيق وقوع هذا الشيء، وتفيد أيضًا قرب هذا الشيء؛ بخلاف (سوف) فإنها تدلُّ على المستقبل البعيد؛ و{السُّفهاء}، جمع سفيه؛ وهو الذي لا يحسن التصرف لنفسه؛ وكل من خالف الحكمة في تصرفه فهو سفيه؛ فهؤلاء السفهاء سفهاء في دينهم؛ وقد يكونون في المال جيِّدين؛ وسفه الدين بيَّنه الله سبحانه وتعالى بقوله: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه}[البقرة: ١٣٠].

قال أبو زهرة: والسَّفيه هو: الخفيف العقل، وذلك مأخوذ من قولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج، وقد يكون السفه نوعيا، فقد يكون متزن العقل حكيما، ويكون في أمور أخرى سفيها، كبعض العرب الذين كان فيهم عقل، ولكن الإدراك الديني فيه سفه، وكبعض أهل الكتاب، فإنهم كانوا في أمور الدين سفهاء، إذا تكلموا سفهوا أنفسهم.

قال ابن العثيمين: وقوله تعالى: {من الناس} بيان للسفهاء؛ وهي في موضع نصب على الحال – يعني حال كونهم من الناس.

قال ابن كثير: قِيلَ الْمُرَادُ بِالسُّفَهَاءِ هَاهُنَا: الْمُشْرِكُونَ؛ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ. وَقِيلَ: أَحْبَارُ يَهُودَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقِيلَ: الْمُنَافِقُونَ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال القرطبي: أعلم الله تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة، ما ولّاهم. و{سيقول}: بمعنى قال، جعل المستقبل موضع الماضي، دلالة على استدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول. وخص بقوله: {من

{الناس} لأنَّ السَّفه يكون في جمادات وحيوانات. والمراد من {السفهاء} جميع من قال: {ما ولاهم}. والسفهاء جمع، واحده سفيه، وهو الخفيف العقل.

قال ابن العثيمين: {ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها} في موضع نصب على أنها مقول القول؛ و{ما} اسم استفهام؛ يعني: أي شيء صرفهم {عن قبلتهم}: أي ما يستقبلون؛ فقبلة الإنسان ما يستقبله؛ والمراد بها بيت المقدس؛ لأنَّ الرسول ﷺ أوَّل ما قدم المدينة صار متَّجِهًا إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا؛ أو سبعة عشر شهرًا([1])– يعني إمَّا سنة وأربعة أشهر؛ أو سنة وخمسة أشهر؛ إذا كان مستقبلًا لبيت المقدس تكون الكعبة خلفه تمامًا؛ لهذا يقول ابن عمر: ((رأيت النبي ﷺ يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام([2]))).

{التي كانوا عليها}: أي قبل أن يتَّجهوا إلى الكعبة؛ فأخبر الله عز وجل بما سيقول هؤلاء السفهاء.

قال القرطبي: واختلفوا حين فرضت عليه الصلاة أولًا بمكة، هل كانت إلى بيت المقدس أو إلى مكة، على قولين، فقالت طائفة: إلى بيت المقدس وبالمدينة سبعة عشر شهرًا، ثم صرفه الله تعالى إلى الكعبة، قاله ابن عباس. وقال آخرون: أول ما افترضت الصلاة عليه إلى الكعبة، ولم يزل يصلِّي إليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل، فلمّا قدم المدينة صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، على الخلاف، ثم صرفه الله إلى الكعبة. قال أبو عمر: وهذا أصح القولين عندي. قال غيره: وذلك أن النبي ﷺ لمَّا قدم المدينة أراد أن يستألف اليهود فتوجَّه إلى قبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم، فلمَّا تبيَّن عنادهم وأيَّس منهم أحبَّ أن يحوَّل إلى الكعبة([3])فكان ينظر إلى السماء، وكانت محبَّته إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم، عن ابن عباس. وقيل: لأنها كانت أدعى للعرب إلى الإسلام، وقيل: مخالفة لليهود، عن مجاهد. وروي عن أبي العالية الرياحي أنه قال: كانت مسجد صالح عليه السلام وقبلته إلى

١- راجع البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٣٠: الصلاة من الإيمان ... ، حديث رقم ٤٠، وراجع صحيح مسلم ص٧٥٩، كتاب المساجد، باب ٢: تحويل القبلة من المقدس إلى الكعبة، حديث رقم ١١٧٧ [١٢] ٥٢٥.

٢- أخرجه البخاري ص١٥، كتاب الوضوء، باب ١٤: التبرز في البيوت، حديث رقم ١٤٨، وأخرجه مسلم ص٧٢٣ – ٧٢٤، كتاب الوضوء، باب ١٧: الاستطابة، حديث رقم ٦١٢ [٦٢] ٢٦٦.

٣- (قلت): قال أبو زهرة: (وقد أخطأ من زعم أن النبي ﷺ كان يصلي إلى بيت المقدس ليتألف قلوب اليهود فما كان للنبي ﷺ أن يشرع عبادة من تلقاء نفسه، بل إنه أمر تعبُّدي من الله تعالى لَا يملك فيه رسوله الأمين تحويلًا ولا تبديلًا).

– (قلت): يجوز أن يكون القصد أن التوجُّه الى بيت المقدس كان بأمر الله، والحكمة في ذلك ما ذكر. وكذلك ذكر حكمة أخرى لهذا التحويل وهو أن الكعبة كانت محبوبًا ومعظمًا عندهم قبل الإسلام فأراد الله جل وعلا أن يمحِّص قلوبهم بأن يكون الحب والتعظيم تبعًا لأمره وخالصًا لوجهه والله أعلم.

الكعبة([١])، قال: وكان موسى عليه السلام يصلِّي إلى الصخرة نحو الكعبة، وهي قبلة الأنبياء كلُّهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

قال السعدي: ودلَّت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله، إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقّى أحكام ربه بالقبول، والانقياد، والتسليم كما قال تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}، {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} الآية، {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا} وقد كان في قوله: {السفهاء}، ما يغني عن ردِّ قولهم، وعدم المبالاة به. ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: {قل} لهم مجيبًا: {لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}.

قال ابن العثيمين: {قل لله المشرق والمغرب}؛ {لله}: خبر مقدَّم؛ و{المشرق} مبتدأ مؤخَّر؛ وتقديم الخبر وهو حقه التأخير يفيد الحصر؛ يعني: لله وحده المشرق، والمغرب؛ فهو الذي يوجه إن شاء إلى المشرق؛ وإن شاء إلى المغرب؛ وإن شاء إلى الشمال؛ وإن شاء إلى الجنوب؛ وخص المشرق، والمغرب؛ لأن منهما تطلع الشمس، وتغرب؛ و{المشرق}: مكان شروق الشمس، والقمر، والنجوم؛ و{المغرب} محل غروبها.

قال السعدي: أي: فإذا كان المشرق والمغرب مُلكًا لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملَّة أبيكم إبراهيم، فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكًا له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره، بمجرَّد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه، أن هداكم لذلك فالمعترض عليكم، معترض على فضل الله، حسدًا لكم وبغيًا.

قال ابن العثيمين: {يهدي من يشاء}: أي يدلُّ، ويوفق؛ و{من يشاء} مفعول {يهدي}؛ وهي عامة؛ ولكن كل شيء قيد بمشيئة الله فهو مقرون بالحكمة: يهدي من يشاء ممن هو أهل للهداية؛ و(المشيئة) هي الإرادة الكونية: فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن.

{إلى صراط مستقيم}؛ ال{صراط}: الطريق الواسع الذي يسهل سلوكه؛ والمراد به هنا شريعة الله التي شرعها لعباده، وال{مستقيم}: الذي لا اعوجاج فيه.

١- العبارة هنا غير واضحة والذي في تفسير الطبري (٢/٢١طبع بولاق): (.... قال الربيع: إن يهوديًا خاصم أبا العالية فقال: إن موسى عليه السلام كان يصلِّي الى صخرة بيت المقدس، فقال أبو العالية: كان يصلِّي عند الصخرة الى البيت الحرام. قال: قال: فبيني وبينك مسجد صالح فإنه نحته من الجبل، قال أبو العالية: قد صلَّيت فيه وقبلته الى البيت الحرام، قال الربيع: وأخبرني أبو العالية أنه مرّ على مسجد ذي القرنين وقبلته الى الكعبة).

قال القرطبي: في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى وكتابه ناسخًا ومنسوخًا، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذَّ، كما تقدم. وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نسخ من القرآن.

ودلَّت أيضًا على جواز نسخ السنة بالقرآن، وذلك أن النبي ﷺ صلّى نحو بيت المقدس، وليس في ذلك قرآن، فلم يكن الحكم إلّا من جهة السنة ثم نسخ ذلك بالقرآن، وعلى هذا يكون: {كنت عليها}: بمعنى أنت عليها. وفيها دليل على أن من لم يبلغه الناسخ إنه متعبّد بالحكم الأول، خلافًا لمن قال: إن الحكم الأول يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به، والأول أصح، لأن أهل قباء لم يزالوا يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتي فأخبرهم بالناسخ فمالوا نحو الكعبة. فالناسخ إذا حصل في الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العلم به، لأن الناسخ خطاب، ولا يكون خطابًا في حق من لم يبلغه. وفيها دليل على قبول خبر الواحد، وهو مجمع عليه من السلف معلوم بالتواتر من عادة النبي ﷺ في توجيهه ولاته ورسله آحادًا للأفاق، ليعلموا الناس دينهم فيبلغوهم سنة رسولهم ﷺ من الأوامر والنواهي. وفيها دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله ﷺ شيئًا بعد شيء وفي حال بعد حال، على حسب الحاجة إليه، حتى أكمل الله دينه، كما قال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}[المائدة: ٣].

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٥٧: هذا سؤال من السفهاء أورده على المؤمنين، ومضمونه: أن القبلة الأولى إن كانت حقًّا فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلًا فقد كنتم على باطل، ولفظ الآية وإن لم يدلُّ على هذا، فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه.

فأجاب الله تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه، والسؤال من جهة الكفار أوردوه على صور متعدِّدة ترجع إلى شيء واحد فقالوا ما تقدَّم، وقالوا: لو كان نبيًّا ما ترك قبلة الأنبياء قبله، وقالوا: لو كان نبيًّا ما كان يفعل اليوم شيئًا وغدا خلافه. قال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم، وقال أهل الكتاب: ولو كان نبيًّا ما فارق قبلة الأنبياء.

وكثر الكلام وعظمت المحنة على بعض الناس كما قال تعالى: {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}، وتأمَّل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة، لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطأه ومهَّده وذلَّله بقواعد قبله، فذكر النسخ، وأنه إذا نسخ شيئًا أتى بمثله أو خير منه، وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنُّتًا كما جرى لموسى مع قومه، ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته، وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملَّته، فقرَّر في النفوس بذلك توجُّهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبَّة، وإلى بانيه بالاتِّباع والموالاة والموافقة، وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا، فالقلوب عاكفة على محبَّته دائمة الاشتياق إليه متوجهة إليه حيث كانت، ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلِّين

وأضافه إليه بقوله: {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}، وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت، وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه، فلمّا استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت، فلمّا برز مرسوم {فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام} تلقّاه رسول الله والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيدًا عندهم، لأن رسول الله كان كثيرًا ما يقلّب وجهه في السماء ينتظر أن يحوِّل الله عن قبلة أهل الكتاب، فولّاه الله القبلة التي يرضاها، وتلقّى ذلك الكفار بالمعارضة وذكر الشبهات الداحضة، وتلقّاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة وابتداء ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عمّا يقول السفهاء من الناس، فلا تعبأوا بقولهم، فإنه قول سفيه، ثم قال: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له أنه رب ذلك فأيّما تعبد له عبادة بأمره إلى أي جهة كانت فهم مطيعون له، كما قال: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، فلم يصلِّ مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى، فإذا كنتم تصلُّون إلى غير الكعبة بأمره ثم أمركم أن تصلُّوا إليها، فما صلَّيتم إلا له أولًا وآخرًا، وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر، لأن كليهما كان بأمره ورضاه، فانتقلتم من رضاه، ثم نبَّه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانيًا بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعًا لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها، أولًا لحكمة في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتَّبع الرسول ويدور معه حيثما دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت، وهو العالم بكل شيء، ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عيانًا مشاهَدًا، فتميَّز بذلك الرّاسخ في الإيمان المسلم للرسول المنقاد له، ممن يعبد الله تعالى على حرف فينقلب على عَقِبه بأدنى شبهة.

فهذا من بعض حِكَمِهِ في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة، فلم يشرع ذلك سدىً ولا عبثًا، ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبدهم، فكذلك جعلهم أمةً وسطًا، فاختار القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم، ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- علم الله تعالى بما سيكون؛ لقوله تعالى: {سيقول السفهاء}.

٢- تحقق وقوع خبر الله عز وجل؛ لأنهم قالوا ذلك.

٣- من اعترض على حكم الله فهو سفيه.

٤- تسلية النبي ﷺ، وأصحابه، حيث أخبر الله تعالى أنه لا يعترض عليه في ذلك إلّا سفيه.

٥- إعلام المرء بما يتوقع أن يكون ليستعدَّ له؛ ومن ذلك أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: ((إنك تأتي قومًا أهل كتاب[١]))؛ ليكون مستعدًّا.

٦- جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية لإسكات الناس حتى لا يحصل منازعة؛ إذا قال أحد: لماذا كذا؟ قلت: الله ربك يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ (لماذا أحلَّ كذا، وحرَّم كذا؟) تقول: لأنه ربّك؛ (لماذا توجَّه الناس من المشرق إلى المغرب؛ من المغرب إلى المشرق؛ من بيت المقدس إلى الكعبة؟) قلت: لأن ذلك بمقتضى ربوبية الله: {لله المشرق والمغرب}.

٧- أن العدو يحتج على عدوه بما يثير نعرته، ويلزمه؛ لقوله تعالى: {عن قبلتهم}؛ لم يقولوا: عن القبلة؛ كأنهم يقولون: كنتم تتولون ذلك فما الذي صرفكم عنه؟! وهكذا قد يثير شعور الإنسان حتى يبقى على ما هو عليه، وكأنهم قالوا: بالأمس تختارونها، واليوم تنكرونها، وتنبذونها؛ فالخصم دائما يهيج خصمه بما يثير نعرته؛ ليوافقه فيما ذهب إليه.

٨- عموم ملك الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {لله المشرق والمغرب}؛ فهو المالك سبحانه وتعالى للجهات يصرف إليها العباد كيف يشاء؛ ونحن ليس علينا إلا السمع، والطاعة؛ أينما وجَّهَنا توجَّهْنا؛ هذا المهم؛ لا أن تتَّجه إلى كذا، أو إلى كذا؛ فالسجود لغير الله شرك؛ وكان بالنسبة للملائكة حين أمرهم الله بالسجود لآدم طاعة؛ وقتل النفس بغير حق ولا سيَّما قتل الولد من أكبر الكبائر؛ وحين أمر الله تعالى إبراهيم أن يذبح ابنه كان قربة، وعبادة؛ فالاعتبار بطاعة الله سبحانه وتعالى.

٩- إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: {يهدي من يشاء}.

فإن قال قائل: هل في ذلك حجَّة للجبرية في قولهم: إن العبد مجبر على عمله؟

فالجواب: أنه لا حجَّة لهم في ذلك؛ لأن الاحتجاج ببعض القرآن دون بعض كفر به؛ فالقرآن من متكلِّم واحد؛ فمطلقه في موضع يقيد في موضع آخر؛ بل إن سنة الرسول ﷺ تقيد القرآن، وتبينه، وتخصصه؛ فإذا لا دليل في هذه الآية للجبرية إلا من نظر بعين أعور؛ لأن الأعور ينظر من جانب العين الصحيحة؛ لكن من جانب العين العوراء لا يرى؛ والواجب أن ينظر الإنسان إلى النصوص بعينين ثاقبتين؛ وليس بعين واحدة؛ وقد دلت النصوص من الكتاب، والسنة على أن الإنسان له إرادة، واختيار، وقدرة، وأضاف أعماله إليه؛ وحينئذ لا يمكن أن يكون مجبَرًا.

١٠- أن الهداية بيد الله؛ لقوله تعالى: {يهدي من يشاء}.

١- أخرجه البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦٣: أخذ الصدقة من الأغنياء ...، حديث رقم ١٤٩٦؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٤، كتاب الإيمان، باب ٧: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم ١٢١ [٢٩] ١٩.

١١- أن هدى هذه الأمة إلى القبلة التي يرضاها الرسول ﷺ.

١٢- الثناء على هذه الأمة؛ لأنها التي على صراط مستقيم؛ لأن أول من يدخل في قوله تعالى: {يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} هؤلاء الذين تولوا عن بيت المقدس إلى الكعبة.

١٣- أن معارضة الشرع كما أنه سفه، فهو أيضًا ضلال؛ لأن الشرع هو الصراط المستقيم وهو الهداية؛ وما سواه ضلال، واعوجاج.

١٤- فضيلة هذه الأمة، حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع الناس.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال الإمام البخاري رحمه الله في التفسير ج٩ ص٢٣٧([١])حدثنا أبو نعيم سمع زهيرًا عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا. وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت وأنه صلّى أو صلّاها صلاة العصر وصلّى معه قوم فخرج رجل ممَّن كان صلّى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون قال: أشهد بالله لقد صلّيت مع النبي ﷺ قِبَلَ مكة فداروا كما هم قِبَلَ البيت وكان الذي مات على القبلة قِبَلَ البيت رجال قتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}.

الحديث أخرجه البخاري أيضًا في كتاب الإيمان ج١ ص١٠٣ وقال الحافظ في الفتح ج١ ص١٠٤ والمصنف في التفسير من طريق الثوري عن أبي إسحاق سمعت البراء فأمن ما يخشى من تدليس أبي إسحاق. وأخرجه أبو داود الطيالسي ج١ ص٨٥ وابن سعد قسم ٢ من المجلد ١ ص٥ وابن جرير من حديث البراء وابن عباس ج٢ ص١٧.

ومن حديث ابن عباس أخرجه الترمذي ج٤ ص٧٠ وقال حسن صحيح وأبو داود ج٤ ص٣٥٤ والطيالسي ج٢ ص١٢ والحاكم ج٢ ص٢٦٩ وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

١- (قلت): البخاري (٤٤٨٦).

قال ابن العثيمين: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا}؛ الكاف هنا اسم بمعنى (مثل) في محل نصب على المفعولية المطلقة أي: مثل ذلك؛ والمشار إليه ما سبق؛ وهو جعل القبلة إلى الكعبة؛ أي: مثل هذا الجعل الذي جعلنا لكم وهو اتجاهكم إلى القبلة جعلناكم أمةً وسطًا.

وقوله تعالى: {جعلناكم}: أي صيَّرناكم؛ والكاف مفعوله الأول؛ و{أمة} مفعوله الثاني؛ و{أمَّة} هنا بمعنى جماعة؛ وتطلق في القرآن على أربعة معان، وسبق بيانها([1])؛ و{وسطًا}: أي عدلًا خيارًا.

قال السعدي: ولما كان قوله: {يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}، والمطلق يحمل على المقيَّد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى: {يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام}، ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقًا بجميع أنواع الهداية، ومنة الله عليها فقال: {وكذلك جعلناكم أمَّة وسطًا}: أي: عدلًا خيارًا، وما عدا الوسط، فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة، وسطًا في كل أمور الدين، وسطا في الأنبياء، بين من غلا فيهم، كالنصارى، وبين من جفاهم، كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطًا في الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهِّرهم الماء من النجاسات، وقد حرِّمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج. بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمُّها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها. ووهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا {أمةً وسطًا} كاملين.

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٣ص٨٩: فكمالُ الإسلام هو الوسَطُ في الأديان والمِلَل، كما قال تعالىَ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}، لم ينحرفوا انحرافَ اليهود والنصارى والصابئين. فكذلك أهلُ الاستقامةِ، ولزومِ سنة رسولِ الله ﷺ وما عليه السلف، تمسَّكوا بالوسط، ولم ينحرفوا إلى الأطراف.

فاليهود مثلًا جَفَوا في الأنبياء والصديقين حتى قتلوهم وكذَّبوهم، كما قال الله تعالى: {فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [البقرة: ٨٧]، والنصارى غَلَوا فيهم حتى عَبَدوهم، كما قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[النساء: ١٧١].

١- (قلت): أنظر تفسير الآية (١٣٤) من سورة البقرة.

واليهود انحرفوا في النسخ، حتى زعموا أنه لا يقع من الله ولا يجوز عليه، كما ذكر الله عنهم إنكارَه في القرآن حيث قال: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا]، والنصارى قابَلُوهم، فجوَّزوا للقِسّيسين والرهبان أن يُوجِبوا ما شاءوا ويُحرِّموا ما شاءوا. وكذلك تقابلهم في سائر الأمور، فهدى الله المؤمنين إلى الوسط، فاعتقدوا في الأنبياء ما يستحقونه، ووقَّروهم وعَزَّروهم وأحبُّوهم، وأطاعوهم واتبعوهم، ولم يردُّوهم كما فعلت اليهود، ولا أَطْرَوهم ولا غَلَوا فيهم فنزَّلوهم منزلةَ الربوبية كما فعلت النصارى. وكذلك في النسخ، جوَّزوا أن ينسخ الله، ولم يُجوِّزوا لغيره أن ينسخ، فإنّ الله له الخلق والأمر، فكما لا يَخلُق غيرُه لا يأمُر غيرُه.

وهكذا أهلُ الاستقامةِ في الإسلام المعتصمون بالحكمةِ النبوية والعصمة الجماعية، متوسطون في باب التوحيد والصفات بين النفاة المعطِّلة وبين المشبِّهة الممثِّلة، وفي باب القدر والعدل والأفعال بين القدرية الجبرية والقدرية المجوسية، وفي باب الأسماء والأحكام بين من أخرجَ أهل المعاصي من الإيمان بالكلية كالخوارج وأهل المنزلة، وبين من جَعَلَ إيمان الفُسَّاق كإيمان الأنبياء والصديقين كالمرجئة والجهمية، وفي باب الوعيد والثواب والعقاب بين الوعيديين الذين لا يقولون بشفاعة نبينا لأهل الكبائر، وبين المرجئة الذين لا يقولون بنفود الوعيد، وفي باب الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الذين يُوافِقون الولاةَ على الإثم والعدوان ويَركَنون إلى الذين ظلموا، وبين الذين لا يرون أن يُعاوِنوا أحدًا على البرّ والتقوى لا على جهادٍ ولا جمعةٍ ولا أعيادٍ إلا أن يكون معصومًا، ولا يَدخُلوا فيما أمر الله به ورسولُه إلا في طاعةِ من لا وجودَ له.

فالأوَّلون يدخلون في المحرَّمات، وهؤلاء يتركون واجباتِ الدين وشرائعَ الإسلام، وغُلاتُهم يتركونَها لأجل موافقةِ من يظنونه ظالمًا، وقد يكون كاملًا في علمه وعدلِه.

وأهلُ الاستقامة والاعتدال يُطيعون الله ورسوله بحسب الإمكان، فيتقون اللهَ ما استطاعوا، وإذا أمرهم الرسولُ بأمرٍ أتوا منه ما استطاعوا، ولا يتركون ما أُمِروا به لفعلِ غيرِهم ما نُهِيَ عنه، بل كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[المائدة: ١٠٥]. ولا يُعاوِنون أحدًا على معصية، ولا يُزِيلون المنكرَ بما هو أنكرُ منه، ولا يأمرون بالمعروف إلا بالمعروف. فهم وَسَط في عامة الأمور، ولهذا وصفهم النبي ﷺ بأنهم الطائفة الناجية لما ذكر اختلاف أمته وافتراقهم([1]).

١- أخرجه أحمد (١٠٢/٤) والدارمي (٢٥٢١) وأبو داود (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان. وفي الباب عن أبي هريرة وأنس وغيرهما، انظر (الصحيحة (٢٠٣، ٢٠٤).

- (قلت): (٢٠٣) الحديث بتمامه: ((افترقت اليهود على إحدى أواثنتين وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)).

قال ابن العثيمين: {لتكونوا شهداء على الناس}؛ اللام في قوله: {لتكونوا} للتعليل؛ وليست للعاقبة؛ والفرق بين لام العاقبة، ولام التعليل: أن لام العاقبة تدخل على أمر غير مراد؛ لكن النتيجة آلت إليه؛ ولام التعليل تدخل على أمر مراد ليكون علة للحكم؛ و{شهداء} جمع شهيد؛ أي تشهدون على الناس بأن الرسل قد بلغتهم؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر.

قال السعدي: بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول، فهو مقبول، وما شهدت له بالرد، فهو مردود. فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين، لوجود التهمة فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامَّة، كما في هذه الأمة، فإنما المقصود، الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك، العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم، أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها.

قال القرطبي: كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: ((يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلَّغ([1]))) {ويكون الرسول عليكم شهيدًا} فذلك قوله عز وجل: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ويكون الرسول عليكم شهيدًا} والوسط العدل. وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به، لأنهم إذا كانوا عدولًا شهدوا على الناس. فكل عصر شهيد على من بعده، فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين، وقول التابعين على من بعدهم. وإذ جعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم. ولا معنى لقول من قال: أريد به جميع الأمة، لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليه إلى قيام الساعة. وبيان هذا في كتب أصول الفقه.

قال السعدي: وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: {وسطًا}

و(٢٠٤) الحديث بتمامه: ((ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة)).

١ – (قلت): البخاري (٤٤٨٧).

فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطًا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: {ولتكونوا شهداء على الناس}، يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحلَّه أو حرَّمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك.

قال ابن العثيمين: {ويكون الرسول عليكم شهيدًا}: النبي ﷺ يشهد على أمته بأنه بلغ البلاغ المبين.

قال السعدي: فإن شكَّ شاكّ في فضلها، وطلب مزكيًّا لها، فهو أكمل الخلق نبيهم ﷺ، فلهذا قال تعالى: {ويكون الرسول عليكم شهيدًا}.

قال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ج١ص٥٧٩: أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ جَعَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ عُدُولًا خِيَارًا يَشْهَدُوا عَلَى النَّاسِ بِأَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللَّهِ رِسَالَتَهُ وَأَدَّوْا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَهَذَا يَتَنَاوَلُ شَهَادَتَهُمْ عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَشَهَادَتَهُمْ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُمْ بِكَذَا وَنَهَاهُمْ عَنْ كَذَا، فَهُمْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى مَنْ خَالَفَ رَسُولَ اللَّهِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِمْ مِنَ اللَّهِ مَا تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَتَشْهَدُ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْوَسَطُ عَلَيْهِ بِأَنَّ حُجَّةَ اللَّهِ بِالرُّسُلِ قَامَتْ عَلَيْهِ، وَيَشْهَدُ كُلُّ وَاحِدٍ بِانْفِرَادِهِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ.

قال ابن العثيمين: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها} وهي استقبال بيت المقدس {إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه}: المراد علم ظهور، أو علم يترتَّب عليه الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتى يمتحن العبد، وينظر؛ أو علم ظهور أي علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل، والعلم بأنه قد حصل؛ وقد قال بعض أهل المعاني: إن {لنعلم} هنا بمعنى الماضي أي إلا لعلمنا؛ والمعنى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وهذا وإن كان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحيانًا لكنه ضعيف هنا من حيث المعنى؛ إذ لا حكمة من ذلك؛ لأنه يكون معنى الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وحينئذ يقال: إذا ما الفائدة؟! لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هذه القبلة إلا لأنه قد علم من يبقى على دينه، ومن لا يبقى؛ فالصواب الوجهان الأولان؛ وأحسنهما أن يكون المراد بالعلم هنا الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف.

قال السعدي: {إلا لنعلم}: أي: علمًا يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم، لا يعلّق عليه ثوابًا ولا عقابًا، لتمام عدله، وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم، ترتب عليها الثواب والعقاب.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٤٩٦: وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}. وَقَوْلُهُ: {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}[الكهف: ١٢]، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْلُومِ بَعْدَ وُجُودِهِ، وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْمَدْحُ وَالذَّمُّ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ، وَمُجَرَّدُ ذَلِكَ الْعِلْمِ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَدْحٌ وَلَا ذَمٌّ وَلَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ وُجُودِ الْأَفْعَالِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا: لِنَرَى، وَكَذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ قَالُوا: لِنَعْلَمَهُ مَوْجُودًا بَعْدَ أَنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ، وَهَذَا الْمُتَجَدِّدُ فِيهِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلنُّظَّارِ:

مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْمُتَجَدِّدُ هُوَ نِسْبَةٌ وَإِضَافَةٌ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْلُومِ فَقَطْ، وَتِلْكَ نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ الْمُتَجَدِّدُ عِلْمٌ بِكَوْنِ الشَّيْءِ وَوُجُودِهِ، وَهَذَا الْعِلْمُ غَيْرُ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ، وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[التوبة: ١٠٥]، فَقَدْ أَخْبَرَ بِتَجَدُّدِ الرُّؤْيَةِ، فَقِيلَ نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ، وَقِيلَ الْمُتَجَدِّدُ أَمْرٌ ثُبُوتِيٌّ. وَالْكَلَامُ عَلَى الْقَوْلَيْنِ، وَمَنْ قَالَ هَذَا وَهَذَا، وَحُجَجُ الْفَرِيقَيْنِ قَدْ بُسِطَتْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَعَامَّةُ السَّلَفِ وَأَئِمَّةُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ، عَلَى أَنَّ الْمُتَجَدِّدَ أَمْرٌ ثُبُوتِيٌّ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ، وَهَذَا مِمَّا هَجَرَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ الْحَارِثَ الْمُحَاسِبِيَّ عَلَى نَفْيِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ بِقَوْلِ ابْنِ كُلَّابٍ فَرَّ مِنْ تَجَدُّدِ أَمْرٍ ثُبُوتِيٍّ، وَقَالَ بِلَوَازِمِ ذَلِكَ. فَخَالَفَ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَآثَارِ السَّلَفِ مَا أَوْجَبَ ظُهُورَ بِدْعَةٍ اقْتَضَتْ أَنْ يَهْجُرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَد، وَيُحَذِّرَ مِنْهُ، وَقَدْ قِيلَ: إنَّ الْحَارِثَ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ.

والمتأخرون مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَةَ ابْنِ كُلَّابٍ، وَأَتْبَاعِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَةَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ تَقَدُّمَ عِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابَتِهِ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ حَقٌّ، وَالْقَوْلُ بِحُدُوثِ ذَلِكَ قَوْلٌ مَهْجُورٌ، كَمَا قَالَهُ النَّاظِمُ إنْ كَانَ قَدْ أَرَادَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُنَافِي أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ، فَإِنَّ كَوْنَهُ خَالِقًا لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ لَا يُنَافِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ. فَكَيْفَ الْعِلْمُ الْمُتَقَدِّمُ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَقْتَضِي كَوْنَ الْعَبْدِ مَجْبُورًا لَا قُدْرَةَ لَهُ. وَلَا فِعْلَ كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ الْمُجْبِرَةُ.

قال صالح آل الشيخ في شرحه للعقيدة الواسطية ج١ص٢٨٣: أن العلم قسمان:

* علم باطن .

* وعلم ظاهر.

والله جل وعلا يعلم الأشياء قبل وقوعها ولكن علمه بالأشياء قبل وقوعها لا يحاسب عليه العباد ولا يذمّ العباد به، وإنما يحاسب العباد فيجزيهم على أعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء إذا عملوا ذلك ظاهرًا وصار علمه ظاهرًا لأنه قبل أن يعملوه فليس من العدل أن يحاسبهم على شيء لم يعملوه، فلهذا قال جل وعلا: {إِلاَّ لِنَعْلَمَ}، قال المحققون: يعني

إلا ليظهر ما علمناه،، فيترتب على ظهور العلم المحاسبة لهم وجزاء المحسن الذي اتبع الرسول وجزاء المذنب المسيء المنافق الذي انقلب على عقبيه، وهذا هو قول جمع من المحققين كشيخ الإسلام وغيره.

فالعلم هنا بمعنى ظهور العلم، {إِلاَّ لِنَعْلَمَ}، يعني إلا ليظهر علمنا في هؤلاء، وهذا في المواضع التي في القرآن التي فيها إضافة العلم إلى الله جل وعلا للأمور بعد وقوعها، ليس المراد أنه لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، بل هو جل وعلا يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وإنما المراد بقوله: {إِلاَّ لِنَعْلَمَ} ونظائر ذلك، مراده إلا ليظهر علمنا فيهم ذلك الظهور الذي يكون عليه المحاسبة والجزاء على ما عملوا.

وقال حفظه الله أيضاً في ج٢ص٩٤: أن الله جل وعلا جَعَلَ الأشياء وقَدَّرها لكي يعلم. فهذا فيه دليل على أن العلم يكون بعد وقوع الشيء، وهذا لا ينافي العلم السابق، فالعلم السابق فيه أدلَّته، والله جل وعلا يعلم الأشياء جملةً وتفصيلًا، الكليات والجزئيات بالعلم الأزلي السابق، وكذلك إذا حدث الشيء عَلِمَهُ.

وما جاء في الآيات من مثل آية البقرة هذه {إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ}، ونحو ذلك، فهذا المراد منه عند المحققين إظهار العلم الذي تكون به الحجة على العباد.

ففي قوله: {إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ} هذا لإظهار العلم الذي تقوم به الحجة على العبد، ولكن هو جل وعلا يعلم ذلك قبل حدوثه؛ فالله جل وعلا يعلم قبل ذلك، وإنما خَصَّ هنا هذه المسألة وأمثالها – يعني مسألة تحويل القبلة وأمثال ذلك – بأنه شَرَعَ أو فَعَلَ لِيَعْلَمَ، فجعل ذلك لأجل أن يُظْهِرَ علمه السابق وتقوم الحجة على العبد.

قال ابن العثيمين: {ممن ينقلب}؛ مثل: {ليميز الله الخبيث من الطيب}[الأنفال: ٣٧]؛ فقالوا: إن مثل هذا التقييد يدلُّ على أن هذا الفعل للتمييز، أي: لنميِّز من يتَّبع ممن ينقلب على عقبيه؛ وليس هذا ببعيد أن يكون الفعل ضمن معنى (نميِّز) مع أنه دالٌّ على العلم؛ إذ لا تمييز إلا بعد العلم؛ والفعل إذا ضمن معنى فعل آخر فإنه يدلُّ على معناه الأصلي، وعلى معناه المضمن.

وقوله تعالى: {وما جعلنا}: {ما} نافية؛ و{جعلنا} يحتمل أن تكون بمعنى (صيَّرنا)؛ أو بمعنى (شرعنا)؛ فعلى الاحتمال الأول تحتاج إلى مفعولين؛ وعلى الثاني لا تحتاج إلى مفعولين؛ و(الجعل) يأتي بمعنى الشرع في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام}[المائدة: ١٠٣]، أي ما شرع؛ وعلى هذا المعنى لا يبقى في الآية أي إشكال؛ يعني: ما شرعنا القبلة التي كنت عليها وهي اتجاهك إلى بيت المقدس إلا لنعلم من يتبع الرسول إذا صرفناك عنها ممن ينقلب على عقبيه؛ أما على احتمال أن تكون بمعنى (صيَّرنا) فإنها تحتاج إلى مفعولين؛ الأول: {القبلة}؛ والتقدير: وما صيَّرنا القبلة التي كنت عليها قبلة.

وقوله تعالى: {إلا لنعلم من يتَّبع الرسول}؛ {إلا} أداة حصر؛ وهذا الاستثناء من أعم الأحوال؛ إذا كان الاستثناء مفرغًا يقولون: إنه استثناء من أعم الأحوال يعني: ما جعلنا بأي حال من الأحوال هذه القبلة إلا لهذه الحال فقط لنعلم من يتَّبع؛ والمراد بـ{الرسول} محمد ﷺ؛ وأظهر وصفه في موضع الإضمار تنويها بصدقه، وحثا على إتِّباعه؛ إذ مقتضى السياق لولا ذلك أن يقال: إلا لنعلم من يتَّبعه.

والأصل في (الإتِّباع) المشي خلف الإنسان؛ وهو يختلف باختلاف السياق: إن تعلق بأمور حسية فمعناه: أنك تمشي خلفه في الشارع، وما أشبه ذلك؛ وإن تعلق بأمور معنوية يكون المراد به التأسي بأفعاله، وأقواله؛ وهنا علق بأمور معنوية؛ فيكون المراد به التأسي بأقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: {ممَّن ينقلب على عقبيه} أشدُّ مما لو قال: (ممَّن لم يتبع الرسول)؛ لأن الانقلاب على العقب أشدُّ نفورًا، واستنكارًا ممَّن وقف.

قال السعدي: أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن {من يتبع الرسول} ويؤمن به، فيتَّبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مدبَّر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة، أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيمانًا، وطاعة للرسول.

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق، واتَّبع هواه، فإنه يزداد كفرًا إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

قال ابن العثيمين: {وإن كانت لكبيرة}؛ الضمير يعود على الواقعة؛ يعني: وإن كانت هذه الواقعة وهي تحويل القبلة لكبيرة؛ و{إن} هنا مخففة من الثقيلة؛ واسمها ضمير الشأن؛ والتقدير: وإنها كانت لكبيرة؛ واللام هنا للتوكيد؛ ويجوز أن نقول: إنها للفصل بين (إن) النافية، و(إن) المخففة؛ و{كبيرة}: أي عظيمة شاقة؛ فالكبر يراد به الشيء الشاق العظيم؛ ومنه قوله ﷺ في صاحبي القبرين: ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير[1]))، أي: في أمر شاق عليهما.

{إلَّا على الذين هدى الله}؛ {الذين} اسم موصول؛ والعائد ضمير منصوب محذوف؛ والتقدير: إلا على الذين هداهم الله؛ والمراد بالهداية هنا هداية العلم، وهداية التوفيق؛ أما كونها هداية العلم فلأن الذين يخشون الله هم العلماء، كما قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}[فاطر: ٢٨]، أي: العلماء به، وبأسمائه وصفاته، وبأحكامه؛ هذه هي هداية العلم؛ لأنهم إذا علموا خشوا الله سبحانه وتعالى، ولم يَكرَهوا شريعته، ولم يَكبُر ذلك عليهم، ولم يشُق؛ كذلك هداية

١- أخرجه البخاري ص٢٠، كتاب الوضوء، باب، حديث رقم ٢١٨، وأخرجه مسلم ص٧٢٧، كتاب الطهارة، باب ٣٤: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم ٦٧٧ [١١١] ٢٩٢.

التوفيق وهي المهمة: إذا وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعالى سهل عليه دينه، وصار أيسر عليه من كل شيء، كما قال تعالى: {فأمّا من أعطى واتّقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى}[الليل: ٥- ٧].

{هدى الله}: أضاف الفعل إلى نفسه؛ لأن كل شيء بقضاء الله، وقدره.

قال السعدي: {وإن كانت}: أي: صرفك عنها {لكبيرة}: أي: شاقة، {إلا على الذين هدى الله}، فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم وشكروا وأقروا له بالإحسان، حيث وجّههم إلى هذا البيت العظيم الذي فضّله على سائر بقاع الأرض، وجعل قصده ركنًا من أركان الإسلام وهادمًا للذنوب والآثام، فلهذا خفَّ عليهم ذلك، وشقَّ على من سواهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٢٧٨: أَمْرُ الْقِبْلَةِ، لَمَّا حُوِّلَتْ ارْتَدَّ عَنْ الْإِيمَانِ لِأَجْلِ ذَلِكَ طَائِفَةٌ، وَكَانَتْ مِحْنَةً امْتَحَنَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} قَالَ: أَيْ: إذَا حُوِّلَتْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي كَانَ فِي عِلْمِنَا أَنْ نَجْعَلَهَا قِبْلَتَكُمْ؛ فَإِنَّ الْكَعْبَةَ وَمَسْجِدَهَا وَحَرَمَهَا أَفْضَلُ بِكَثِيرِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَهِيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ، وَقِبْلَةُ إبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ قَطُّ أَحَدًا أَنْ يُصَلِّيَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، لَا مُوسَى وَلَا عِيسَى وَلَا غَيْرَهُمَا؛ فَلَمْ نَكُنْ لِنَجْعَلَهَا لَك قِبْلَةً دَائِمَةً، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهَا أَوَّلًا قِبْلَةً لِنَمْتَحِنَ بِتَحْوِيلِك عَنْهَا النَّاسَ، فَيَتَبَيَّنُ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، فَكَانَ فِي شَرْعِهَا هَذِهِ الْحِكْمَةُ.

قال ابن العثيمين: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}؛ اللام في قوله تعالى: {ليضيع} يسمّونها لام الجحود؛ و(الجحود) يعني النفي؛ وهذه اللام لها ضابط؛ وهو أن تقع بعد (كون) منفي؛ فاللام التي تأتي بعد (كون) منفي تسمّى لام الجحود؛ هذا من جهة الإعراب؛ أما من جهة المعنى فكلما جاءت {ما كان الله ... } في القرآن، فهي الأمر الممتنع غاية الامتناع؛ مثل: (لا ينبغي)، أو (ما ينبغي) فالمراد أنه ممتنع مستحيل، كقوله تعالى: {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر}[يس: ٤٠]، وقوله تعالى: {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدًا}[مريم: ٩٢]، أي: ممتنع مستحيل؛ وقوله ﷺ: ((إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام(١)))، المعنى: أنه مستحيل.

{ليضيع إيمانكم}؛ {يضيع} بمعنى يتركه سدى بدون مجازاة عليه؛ والمراد بـ{إيمانكم}: صلاتهم إلى بيت المقدس؛ وهذا عام للذين ماتوا قبل تحويل القبلة، ومن بقوا حتى حولت؛ وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود صاروا يقولون للمسلمين: الذين صلوا منكم قبل تحويل القبلة ضاعت صلاتهم، وليس لهم فيها ثواب.

١- أخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٩: في قوله ﷺ: ((إن الله لا ينام)) ... ، حديث رقم ٤٤٥ [٢٩٣] ١٧٩.

قال السعدي: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}: أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه، ومستحيل، أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيعه، وحفظه نوعان: حفظ عن الضياع والبطلان، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم، بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره، وثوابه، وحفظه من كل مُكَدِّر، بل إذا وجدت المحن المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازًا عمّا قد يقال إن قوله: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه}، قد يكون سببًا لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله، امتثال أمره في كل وقت، بحسب ذلك، وفي هذه الآية، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

{إنَّ الله بالناس لرؤوف رحيم}؛ {لرؤوف[1]} فيها قراءتان: {لرؤف} بحذف الواو بعد الهمزة؛ و{لرؤوف} بإثبات الواو بعد الهمزة؛ وكلتاهما قراءتان سبعيتان؛ هذه الجملة مؤكَّدة بمؤكِّدين؛ أحدهما: {إن}؛ والثاني: اللام، و{لرؤوف} قال العلماء: إن الرأفة أشدُّ الرحمة؛ فهي رحمة خاصة؛ و{رحيم}: أي متصف بالرحمة؛ وقالوا: إنه قدمت {لرؤوف} على {رحيم} مع أن ال{رؤوف} أبلغ، من أجل مراعاة الفواصل؛ وقال تعالى: {رحيم}، لأن هذا يتعلق بفعله أي برحمته الخلق.

قال الطبري: {إنّ الله بالناس لَرَءوفٌ رحيمٌ}: أن الله بجميع عباده ذُو رأفة. و(الرأفة)، أعلى مَعاني الرحمة، وهي عَامَّة لجميع الخلق في الدنيا، ولبعضهم في الآخرة.

وإنما أراد جل ثناؤه بذلك أنّ الله عز وجل أرْحمُ بعباده منْ أن يُضيع لهم طاعةً أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها، وأرأفُ بهم من أن يُؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم – أيْ ولا تأسوا عَلى مَوْتاكم الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس –، فإني لهم – على طاعتهم إياي بصَلاتهم التي صلوها كذلك – مثيبٌ، لأني أرحم بهم من أن أضيِّع لهم عملًا عملوه لي؛ ولا تحزنوا عليهم، فإني غيرُ مؤاخذهم بتركهم الصلاة إلى الكعبة، لأني لم أكن فرضت ذلك عليهم، وأنا أرأف بخلقي من أن أعاقبهم على تركهم ما لم آمرهم بعمله.

قال الطبري: وأمَّا ال{رحيم}: فإنَّه ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة[2]

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرؤوف} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٠) من سورة النور.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة هذه الأمة حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع للناس؛ وأعظم بيت في الأرض؛ ولا يوجد بيت قصده ركن من أركان الإسلام للحج إلا الكعبة؛ ولذلك حسدنا اليهود عليها، وأثاروا ضجة عظيمة على التولي عن قبلتهم إلى الكعبة، وصاروا مع من يناصرهم من المشركين؛ أحدثوا أمرًا عظيمًا حتى إن بعض المسلمين ارتدَّ والعياذ بالله عن الإسلام لما سمع من زخرف القول من هؤلاء اليهود، وغيرهم.

٢- فضل هذه الأمة على جميع الأمم؛ لقوله تعالى: {وسطًا}.

٣- عدالة هذه الأمة؛ لقوله تعالى: {لتكونوا شهداء على الناس}؛ والشهيد قوله مقبول؛ والمراد بال{أمَّة} هنا أمَّة الإجابة؛ ومن هنا نعرف حذق أهل الفقه، حيث قالوا: إن (العدل) من استقام على دين الله؛ يعني: هذه الأمَّة أمَّة وسط إذا كانت على دين الرسول ﷺ فتكون شهيدًا، وتقبل شهادتها إذا استقامت على دين الله، وكانت أمَّة حقيقية؛ فعليه يؤخذ من هذا حد (العدل): أن العدل من استقام على دين الله.

٤- أن هذه الأمة تشهد على الأمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: {لتكونوا شهداء على الناس}؛ والشهادة تكون في الدنيا، والآخرة؛ فإذا حشر الناس، وسئل الرسل: هل بلَّغتم؟ فيقولون: نعم؛ ثم تسأل الأمم: هل بلغتم؟ فيقولون: ما جاءنا من بشير، ولا نذير؛ ما جاءنا من أحد؛ فيقال للرسول: من يشهد لك؟ فيقول: (محمد، وأمَّته)؛ يستشهدون يوم القيامة، ويشهدون؛ فيكونون شهداء على الناس.

فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمَّن خبره أصدق من المعاينة ﷺ.

٥- أن نبينا ﷺ يكون شهيدًا علينا يوم القيامة شهيدًا علينا بالعدالة؛ وقيل: شهيدًا علينا بأنه بلغ البلاغ المبين؛ وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال يوم عرفة في أعظم مجمع حصل له مع الصحابة: ((ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللّهم اشهد؛ ألا هل بلَّغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللّهم اشهد؛ ألا هل بلَّغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللّهم اشهد(١)))؛ فأشهد النبي ﷺ ربه على إقرار أمَّته بالبلاغ؛ نعم؛ لقد بلَّغ البلاغ المبين ﷺ، فترك أمَّته على المحجَّة البيضاء؛ وما مات حتى أكمل الله به الدين؛ وما بقي شيء يحتاج الناس إليه في دينهم صغيرًا كان، أو كبيرًا إلا بيَّنه ﷺ بيانًا واضحًا – والحمد لله – فالرسول ﷺ شهيد على هذه الأمَّة؛ قال الله تعالى في سورة النساء: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا}[النساء: ٤١]، يعني: كيف تكون الحال في ذلك اليوم عظيم؛ ولهذا لما قرأ ابن مسعود على النبي ﷺ، ووصل إلى هذه الآية قال

١- أخرجه البخاري ص٥٩٠، كتاب الفتن، باب ٨: قول النبي ﷺ: ((لا ترجعوا بعدي كفارا)) ... ، حديث رقم ٧٠٧٨، وأخرجه مسلم ص٨٨٠ – ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

له النبي ﷺ: ((حسبك)) يعني: قف؛ قال: ((فإذا عيناه ﷺ تذرفان[١]))؛ لأن الأمر عظيم؛ فالنبي ﷺ شهيد علينا؛ يشهد بأننا بلغنا، وأقيمت علينا الحجة، وما بقي لنا عذر بأي وجه من الوجوه؛ ولهذا لا عذر لأحد بعد أن يتبين له الهدى أن يشاق الله ورسوله، كما قال تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا}[النساء: ١١٥].

٦- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: {ويكون الرسول عليكم شهيدًا}.

٧- أنه لا رسول بعده؛ لأن {أل} هنا للعهد، وهو يخاطب هذه الأمة؛ فالرسول المعهود فيها واحد؛ وهو محمد ﷺ؛ ويلزم من ذلك أن لا يكون بعده رسول.

٨- أن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العباد بالأحكام الشرعية إيجابًا، أو تحريمًا، أو نسخًا؛ لقوله تعالى: {ما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممَّن ينقلب على عقبيه}؛ فلينتبه الإنسان لهذا؛ فإن الله قد يبتليه بالمال بأن يعطيه مالًا ليبلوه أيقوم بواجبه، أم لا؛ وهذه محنة؛ لأن غالب من ابتلي بالمال طغى من وجه، وشح من وجه آخر؛ ثم اعتدى في تمول المال؛ فضل في تموله، والتصرف فيه، وتصريفه؛ وقد يبتليه بالعلم؛ فيرزقه علما ليبلوه أيعمل به، أم لا؛ ثم هل يعلمه الناس، أم لا؛ ثم هل يدعو به إلى سبيل الله، أم لا؛ فليحذر من آتاه الله علمًا أن يخل بواحد من هذه الأمور. وكذلك قد يمتحن العباد بالأحكام الكونية؛ ومنها ما يجري على العبد من المصائب.

ومن امتحانه بهما أن الله حرم الصيد على المحرم، ثم أرسله على الصحابة وهم محرمون حتى تناله أيديهم، ورماحهم.

٩- وجوب اتباع الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: {لنعلم من يتبع الرسول فالله امتحن العباد ليعلم هل يتبعون الرسول؛ والصحابة رضي الله عنهم اتَّبعوا الرسول ﷺ في ذلك أشدّ الاتباع: جاءهم رجل وهم يصلون الفجر في قباء وهم ركوع، فقال: ((إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة القرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام؛ فاستداروا إلى الكعبة[٢]))؛ هذا هو الاتِّباع العظيم؛ وكذلك فعل بنو سلمة في مسجد القبلتين[٣]؛ إذًا فاتّباع الرسول واجب؛ وإلا لما احتيج إلى محنة الناس عليه.

١- أخرجه البخاري ص٤٣٧، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٣: قول المقرئ للقارئ ((حسبك))؛ وأخرجه مسلم ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٠: فضل استماع القرآن ....، حديث رقم ١٨٦٧ [٢٤٧] ٨٠٠؛ واللفظ للبخاري.

٢- أخرجه البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٢: ما جاء في القبلة ... ، حديث رقم ٤٠٣، وأخرجه مسلم ص٧٥٩ - ٧٦٠، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث رقم ١١٧٨ [١٣] ٥٢٦.

٣- راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٤١ - ٢٤٢.

١٠- إثبات علم الله؛ لقوله تعالى: {لنعلم}؛ وعلم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، كما قال تعالى: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما}[الطلاق: ١٢].

١١- أن الردة عن الإسلام انقلاب؛ لقوله تعالى: {ممَّن ينقلب على عقبيه}؛ فإن بعض الذين أسلموا ارتدّوا حينما تحولت القبلة إلى الكعبة؛ وقالوا: (إن محمدًا ليس على يقين من أمره: بالأمس له قبلة؛ واليوم له قبلة)؛ وما علموا أن ذلك ممّا يؤيد رسالته؛ لأن الإنسان الكذّاب يحرص على أن لا يتراجع؛ لأن التراجع وصمة فيه؛ لكن الإنسان الصدوق لا يهتم أن يقول ما أوحي إليه، سواء وافق ما كان عليه أولًا، أو خالف.

١٢- أن التقدُّم حقيقةً إنما يكون بالإسلام، وأن الرجعية حقيقةً إنما تكون بمخالفة الإسلام؛ لقوله تعالى: {ممَّن ينقلب على عقبيه}؛ فإن هذا حقيقة الرجوع على غير هدى؛ لأن الذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه؛ فمن قال للمتمَسِّكين بكتاب الله وسنة رسوله رجعيون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقةً؛ لأن الله سمّى مخالفة الرسول ﷺ انقلابًا على العقب؛ ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع على عقبيه رجوعًا أعمى والعياذ بالله لا يدري ما وراءه.

١٣- أن تغيير القبلة شاقٌّ إلّا على طائفة معيَّنة من الناس؛ لقوله تعالى: {وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله}؛ وهذا يقع كثيرًا للإنسان: تشقّ عليه بعض الأوامر الشرعية، واجتناب بعض النواهي الشرعية؛ لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقّة، وتكون سهلة؛ والعلماء اختلفوا: أيهما أفضل رجل يفعل العبادة بمشقّة، ويترك المعصية بمشقّة؛ وآخر يفعل العبادة بيسر، ويترك المعصية بيسر؛ قال بعض العلماء: الأول أفضل؛ لأنه مجاهد يجاهد نفسه، فيتعب؛ وقال آخرون: بل الثاني أفضل؛ لأن العبادة كأنها امتزجت بدمه ولحمه، حتى صارت سجيَّة له، ويسيرة عليه لا ينشرح صدره إلا بها؛ والصحيح أن يقال: أما الذي يفعلها بسهولة، ويسر، وانقياد فهذا أكمل حالًا بلا شك؛ لأنه مطمئن بالإيمان فرح بالطاعة؛ أما الثاني فحاله أدنى؛ ولكنه يؤجر على مجاهدة نفسه على الطاعة؛ وعلى ترك المعصية؛ على أن هذا الثاني الذي قلنا: إنه مفضول، وله أجر المشقة ربما يمنّ الله عز وجل عليه وهو أكرم الأكرمين حتى تكون العبادة في نفسه سهلة، ويفعلها بارتياح؛ وهذا هو معنى قول بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله؛ فالإنسان قد يفعل العبادة في البداية بمشقّة، ويكون عنده نوع من التعب في تنفيذها؛ لكن إذا علم الله من نيته صدق القصد والطلب، يسر الله له الطاعة حتى كانت سجيَّة له.

١٤- إظهار منَّة الله عز وجل على من هداه الله؛ لأنه نسب الهداية إليه؛ لقوله تعالى: {إلَّا على الذين هدى الله}؛ وهذه أعظم منة من الله بها عليه أن هداه للإسلام؛ فيجب أن يشعر بها الإنسان؛ لا يمن بدينه على ربه؛ بل يعتقد أن المنَّة لله عليه، كما قال تعالى: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين}[الحجرات: ١٧]؛ فكم من أناس ضلوا عن الحق مع بيانه، ووضوحه؛ وهم كثيرون؛ بل هم الأكثر، كما قال

تعالى: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله}[الأنعام: ١١٦]؛ وانظر إلى الفضل، والكرم: هو الذي من علينا بالهداية، ثم يقول في سورة الرحمن: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان}[الرحمن: ٦٠]؛ فكأننا نحن الذين أحسنّا فأحسن إلينا بالجزاء؛ مع أن له الإحسان أولًا وآخرًا؛ هو الذي أحسن إلينا أولًا، وأحسن إلينا آخرًا؛ ولكن هذه من منّته سبحانه وتعالى ومن شكره لسعي عبده كما قال تعالى: {إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا}[الإنسان: ٢٢].

١٥- أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر عمل عامل إذا كان مبنيًّا على الإيمان؛ لقوله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}؛ كل عمل تعمله صادر عن إيمانه فإنه لن يضيع؛ ستجده مسجَلًا قولًا كان أو فعلًا أو همًا بالقلب، كما قال النبي ﷺ: ((من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة(١))).

١٦- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: {الرؤوف} و{الرحيم}، وما تضمناه من الصفة؛ وهي الرأفة، والرحمة.

١٧- إثبات عموم الرحمة لكل الناس؛ لقوله تعالى: {إن الله بالناس لرؤوف رحيم}؛ وهذه هي الرحمة العامة التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا، والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرين لطاعة الله، ورسوله.

١٨- أن العمل من الإيمان، لقوله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}؛ فإنها فسِّرت بالصلاة إلى بيت المقدس؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن العمل داخل في الإيمان؛ وهذا أحد أدلَّتهم؛ ومن الدليل على ذلك قوله ﷺ: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ فأفضلها قول: لا إله إلا الله؛ وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق؛ والحياء شعبة من الإيمان(٢)))؛ فقول: ((لا إله إلا الله)) من أعمال اللّسان؛ و((إماطة الأذى عن الطريق)) من أعمال الجوارح؛ وقوله ﷺ: ((الحياء شعبة من الإيمان)) من أعمال القلوب؛ كما أن الإيمان أيضًا يطلق على الاعتقاد؛ لقوله ﷺ: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله(٣)))؛ فقوله ﷺ: ((أن تؤمن بالله)) هذا اعتقاد القلب؛ فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يشمل: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح؛ ووجه كون الأعمال من الإيمان أنها صادرة عن إيمان؛ الإيمان هو الذي حمل عليها، ولهذا لا يعدّ عمل المنافق من الإيمان؛ عمل المنافق صلاته، وذكره لله ونفقاته لا يُعَدُّ من الإيمان؛ لأنه صادر عن غير إيمان.

١- أخرجه البخاري ص٥٤٤، كتاب الرقاق، باب ٣١: من هم بحسنة أو سيئة، حديث رقم ٦٤٩١، وأخرجه مسلم ص٧٠٠، كتاب الإيمان، باب ٥٩: إذا هم العبد بحسنة ... ، حديث رقم ٣٣٨ [٢٠٧] ١٣١.

٢- أخرجه مسلم ص٦٨٧، كتاب الإيمان، باب ١٢: بيان عدد شعب الإيمان ... ، حديث رقم ١٥٣ [٥٨] ٣٥.

٣- أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٧: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان ... ، حديث رقم ٥٠؛ وأخرجه مسلم ص٦٨١، كتاب الإيمان، باب ١: بيان الإيمان والإسلام ... ، حديث رقم ٩٣ [١] ٨.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ج٢ ص٤٨ حدثنا عبد الله بن رجاء قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال كان رسول الله ﷺ صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله عز وجل {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} فتوجَّه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فصلّى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلّى فمرَّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال: هو يشهد أنه صلّى مع رسول الله ﷺ وأنه توجَّه نحو الكعبة فتحرَّف القوم حتى توجَّهوا نحو الكعبة.

الحديث أخرجه الترمذي ج٤ ص٧٩ وقال حسن صحيح وابن ماجه رقم ١٠١٠ وفيه سبب نزول {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} والإمام أحمد ج٤ ص٢٧٤ والدار قطني ج١ ص٢٧٤ وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير وابن سعد في الطبقات مجلد ٤ قسم ٢ وعندهما زيادة وقال السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

وأخرجه مسلم ج٥ ص١١ من حديث أنس وكذا أخرجه ابن سعد قسم ٢ من المجلد الأول ص٤.

قال ابن العثيمين: {قد نرى تقلب وجهك في السماء}؛ {قد} هنا للتحقيق؛ و{نرى} فعل مضارع عبر به عن الماضي؛ لأن النبي ﷺ كان يكرِّر تقلب وجهه في السماء؛ فأتى بالفعل المضارع للدلالة على استمرار رؤية الله له كما استمرَّ تقلُّب وجه النبي ﷺ في السماء ترقُّبًا لنزول جبريل بتحويل القبلة إلى الكعبة؛ وقيل: إنه فعل مضارع على بابه، فيكون إخبارًا بأن الله سيرى تقلُّب وجهه، ثم يحوِّله إلى القبلة التي يرضاها؛ وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٦ص٥٧٨: فَلَيْسَ الْعَبْدُ يُنْهَى عَنْ رَفْعِ بَصَرِهِ مُطْلَقًا[١]وَإِنَّمَا نُهِيَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُؤْمَرُ فِيهِ بِالْخُشُوعِ؛ لِأَنَّ خَفْضَ الْبَصَرِ مِنْ تَمَامِ الْخُشُوعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ}.

قال ابن العثيمين: {فلنولِّينَّك} الفاء للتفريع؛ لأن ما بعدها مفرع على ما قبلها؛ واللام موطئة للقسم؛ فالجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات؛ وهي القسم المقدر، واللام، والنون؛ وقوله: {فلنولِّينَّك}: أي فلنوجِّهنَّك؛ وقيل: فلنحوِّلنَّك إلى {قبلة ترضاها}؛ ونكرت {قبلة} للتعظيم؛ و{ترضاها}: أي تطمئن إليها، وتحبها، وتَقبلها؛ والرسول ﷺ قَبِلَ القبلة الأولى، ورضيها قبل أن يحوَّل إلى الكعبة؛ لكنه يحب أن يحوَّل إلى الكعبة.

{فولِّ وجهك}: أي استقبل بوجهك؛ و{وجه} مفعول أول؛ و{شطر} مفعول ثان؛ والمراد بال{شطر} هنا الجهة؛ يعني: جهة المسجد الحرام؛ والمراد بال{وجه} جميع البدن؛ لأن البدن بهيئته وطبيعته إذا استقبل الوجه جهة صار جميع البدن مستقبلًا لها.

{المسجد الحرام}؛ {المسجد} في الأصل مكان السجود؛ وقيل: إن (المسجَد) بفتح الجيم: مكان السجود؛ و{المسجِد} بكسر الجيم: المكان المعد للسجود؛ فيكون بينهما فرق: هو أن المكان المبني المعدّ للسجود يسمّى (مسجِدًا) بالكسر، وأما المكان الذي سجدت فيه بالفعل فيسمّى مسجَدًا بالفتح.

وقوله تعالى: {الحرام} صفة مشبهة من الحرم؛ وهو المنع؛ وسمِّي (حرامًا)؛ لأنه يمنع فيه من أشياء لا تمنع في غيره، ولأنه محترم معظم؛ والمراد به الكعبة، وما حولها من البناء المعروف.

قال الطبري: فالمولِّي وجهه شطرَ المسجد الحرام، هو المصيبُ القبلةَ. وإنما عَلى من توجه إليه النيةُ بقلبه أنه إليه متوجِّه، كما أن على من ائتمَّ بإمام فإنَّما عليه الائتمام به، وإن لم يكن مُحاذيًا بدنُه بدنَه، وإن كان في طَرَف الصّفّ والإمام في طرف آخر، عن يمينه أو عن يساره، بعد أن يكون من خلفه مُؤتمًّا به، مصليًّا إلى الوجه الذي يصلِّي إليه الإمام. فكذلك حكمُ القبلة، وإنْ لم يكن يحاذيها كل مصلّ ومتوجِّه إليها ببدنه، غير أنه متوجِّه إليها. فإن كان عن يمينها أو عن يسارها مقابلَها، فهو مستقبلها، بعُد ما بينه وبينها، أو قَرُب، من عن يمينها أو عن يسارها، بعد أن يكون غيرَ مستدبرها ولا منحرف عنها ببدنه ووَجهه .

١- (قلت): بل من السنة النظر الى السماء في بعض الأوقات، حيث روى البخاري في صحيحه برقم (٤٥٦٩)، حديثاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ.

{وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره}؛ عدل عن الخطاب للنبي ﷺ إلى الخطاب لأمَّته؛ لأن الخطاب الموجَّه للنبي ﷺ خطاب له، وللأمَّة؛ إذ إنه الإمام؛ والخطاب إذا وجِّه للإمام فهو خطاب له، ولمن اتبعه؛ ونظير ذلك أن الوزير مثلًا يقول للقائد: اتَّجه إلى كذا؛ المعنى: اتَّجه ومن يتبعك من الجنود؛ فهكذا الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ يكون له وللأمَّة؛ ونظير هذا قوله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء}[الطلاق: ١]؛ فخاطب النبي ﷺ أولًا ثم قال تعالى: {إذا طلقتم}؛ لأن الحكم له ولأمَّته.

{حيث} ظرف مكان لكنَّها شرطية زيدت عليها {ما} – لفظًا لا معنىً – للتوكيد؛ و{كنتم} فعل الشرط؛ وجواب الشرط قوله تعالى: {فولّوا وجوهكم}.

قال السعدي: {وحيث ما كنتم}: أي من بَرٍّ وبحر، وشرق وغرب، جنوب وشمال. {فولّوا وجوهكم شطره}: أي جهته.

ففيها اشتراط(١)استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها، ونفلها(٢)، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن، مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الضَّبِّيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ محمد الجراحي ،أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَحْبُوبِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو عِيسَى مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ بَكْرٍ الْمَرْوَزِيُّ أَخْبَرَنَا الْمُعَلَّى بْنُ مَنْصُورٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله بن جعفر المخرميّ، عَنْ عُثْمَانَ الْأَخْنَسِيِّ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة)).

وَأَرَادَ بِهِ فِي حَقِّ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأَرَادَ بِالْمُشْرِقِ: مَشْرِقَ الشِّتَاءِ في أقصر يوم من السَّنَةِ، وَبِالْمَغْرِبِ: مَغْرِبَ الصَّيْفِ فِي أَطْوَلِ يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ، فَمَنْ جَعَلَ مَغْرِبَ الصَّيْفِ فِي هَذَا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يَسَارِهِ كَانَ وَجْهُهُ إِلَى الْقِبْلَةِ(٣).

١- (قلت): استقبال القبلة واجب على الأصح وليس شرطًا كما ذكره ابن العثيمين في فوائد هذه الآية برقم (١١). وأنظر هامش تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): وكذلك عند الدعاء يتوجَّه الداعي الى القبلة ويستقبلها، لورود أحاديث في ذلك عن رسول الله ﷺ. منها: الحديث الذي صححه الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٧٨/٦١١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ عَلَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إن دوسًا قد عصت وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا! فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ- فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ- فَقَالَ:......الخ.

٣- حديث حسن بشواهده وطرقه. إسناده لا بأس به لأجل عبد الله بن جعفر المخرمي. وباقي رجال الإسناد ثقات. وهو في شرح السنة (٤٤٧) بهذا الإسناد.
أخرجه المصنف من طريق الترمذي، وهو في سننه (٣٤٤) عن الحسن بن بكر بهذا الإسناد. وأخرجه الترمذي ٣٤٢ و٣٤٣ وابن ماجه ١٠١١ من وجه آخر عن أبي معشر نجيح عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا بلفظ: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة)) وعلّقه النسائي (٤/ ١٧٢) وقال: أبو معشر ضعيف، مع ضعفه اختلط وعنده مناكير. وقال الترمذي عقب الرواية الأولى والثانية: أبو معشر اسمه نجيح قال البخاري: لا أروي عنه شيئا. ثم قال الترمذي: قال البخاري. وحديث الأخنسي أقوى من حديث أبي معشر وأصح اهـ.
- وحديث الأخنسي في الرواية الثالثة للترمذي.

{وإنَّ الذين أوتوا الكتاب}؛ المراد بـ{الكتاب} الجنس؛ وهو التوراة والإنجيل؛ والذين أوتوه هم اليهود، والنصارى.

{ليعلمون أنَّه الحقُّ من ربهم}؛ اللام للتوكيد؛ فالجملة إذًا مؤكَّدة بـ{إن}، واللام؛ و{العلم} إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا للواقع.

{أنَّه الحقُّ}: أي استقبالك المسجد الحرام الحق؛ و{الحق}: معناه الشيء الثابت؛ فإن أضيف إلى الخبر فهو الصدق؛ وإن أضيف إلى الحكم فهو العدل؛ قال الله تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا}[الأنعام: ١١٥].

{من ربهم}؛ ال{رب} الخالق المالك الكامل السلطان المدبِّر لجميع الأمور.

{وما الله بغافل عما يعملون}؛ {ما} هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة قريش؛ والدليل على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: {ما هذا بشرًا}[يوسف: ٣١] ولم يقل: (بشر)؛ فالقرآن بلغة قريش؛ وقريش حجازيون؛ و{ما} عندهم تعمل عمل (ليس).

وقوله تعالى: {بغافل}: الباء زائدة إعرابًا مفيدة معنىً ـ وهو التوكيد؛ و{غافل} خبر {ما} منصوب بها؛ وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجرّ الزائد؛ و(الغفلة) اللهو والسهو عن الشيء.

وقوله تعالى: {عمَّا يعملون}: {ما} اسم موصول تفيد العموم؛ يعني: عن أي عمل يعملونه سواء كان يتعلق بالجوارح، أو يتعلق بالقلوب؛ فيشمل الاعتقاد، ويشمل القول، والفعل.

قال السعدي: ولما ذكر تعالى فيما تقدم، المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا، أن أهل الكتاب والعلم منهم، يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عنادًا وبغيًا، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهًا، وكان ممكنًا أن يكون معه صواب.

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالى: {وما الله بغافل عما يعملون}، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

– وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الدار قطني (١/ ٢٧٠) والبيهقي (٢/ ٩) وصححه الحاكم (١/ ٢٠٥) وقال: على شرطهما! وسكت الذهبي! مع أن فيه شعيب بن أيوب تفرد عنه أبو داود، وهو ثقة، لكنه مدلس ثم ساقه الحاكم من وجه آخر عن ابن عمر وقال: هذا حديث صحيح وقد أوقفه جماعة على ابن عمر، و وافقه الذهبي سكوتًا.

– وفي (نصب الراية) (١/ ٣٠٣) قال الزيلعي: هذا الحديث تكلم فيه أحمد وقوّاه البخاري. وقال ابن أبي حاتم في العلل (٥٢٨): قال أبو زرعة: هذا حديث فيه وهم. بل هو موقوف على ابن عمر اهـ. قلت: قد ورد من حديث أبي هريرة، من طريقين، أحدهما يقرب من الحسن بمفرده.

– لذا صححه الألباني في الإرواء (٢/ ١٠٢) لهذه الطرق، ومع ذلك لا يبلغ درجة الصحة فهو معلول. بعضهم أعله بالإرسال وبعضهم أعله بالوقف، وحسبه أن يكون حسنا، وقد ورد عن عمر قوله، أخرجه مالك (١/ ٢٠١).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات رؤية الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {قد نرى تقلُّب وجهك في السماء}.

٢- أن النظر إلى السماء ليس سوء أدب مع الله؛ لقوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء}، لكن في الصلاة لا يرفع بصره إلى السماء؛ لورود الوعيد الشديد به.

٣- إثبات علوّ الله؛ لأن الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء؛ لأن الوحي يأتيه من السماء.

٤-كمال عبودية الرسول ﷺ لربه، حيث كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لكنه لم يفعل حتى أمر بذلك.

٥- إثبات عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {فلنولينك قبلة}؛ فإن ضمير الجمع للتعظيم.

٦- أن النبي ﷺ كان يحب أن يتوجّه إلى الكعبة؛ لقوله تعالى: {ترضاها} مع قوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك}.

٧- وجوب الاتجاه نحو المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: {فول وجهك شطر المسجد الحرام}.

٨- أن الوجه أشرف الأعضاء حيث عبر به عن سائر الجسم.

٩- ما استدل به المالكية على أنه ينبغي للمصلّي أن ينظر تلقاء وجهه؛ لقوله تعالى: {فول وجهك شطر المسجد الحرام} فإذا ولّى الإنسان وجهه شطر المسجد الحرام فسيكون نظره تلقاء وجهه غالبًا؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: ماذا ينظر إليه المصلّي حال القيام؟ فالمشهور عن المالكية أن المصلّي ينظر تلقاء وجهه؛ وعند الإمام أحمد أنه ينظر إلى موضع سجوده – وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة؛ واستدلوا لذلك بأثر مرسل عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يطأطئ رأسه، وينظر إلى موضع سجوده[1]؛ ولأنه أظهر في الخشوع؛ وقال بعض العلماء: إن الإمام والمنفرد ينظران إلى

١- راجع تفسير الطبري ١٩/٨.

- (قلت): والحديث بتمامه: و((كان ﷺ إذا صلّى؛ طأطأ رأسه، ورمى ببصره نحو الأرض)). قال الإمام الألباني في أصل صفة الصلاة ج١ص٢٣٠: أخرجه الحاكم (٢/٣٩٣) ، ومن طريقه البيهقي (٢/٢٨٣)، والحازمي في (الاعتبار) (ص ٦٠) من طريق أبي شعيب الحراني: ثني أبي: ثنا إسماعيل ابن عُلَيّة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلّى؛ رفع بصره إلى السماء، فنزلت: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}؛ فطأطأ رأسه. وقال الحاكم: (صحيح على شرط الشيخين؛ لولا خلاف فيه على محمد، فقد قيل عنه مرسلاً).

قلت: هو على شرط مسلم فقط؛ فإن والد أبي شعيب – وهو: عبد الله بن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب – لم يخرج له سوى مسلم، وهو من شيوخه. وابنه عبد الله: ثقة، له ترجمة في (تاريخ بغداد) (٩/٤٣٥ – ٤٣٧)، وفي (لسان الميزان).

وأما المرسل الذي أشار إليه الحاكم؛ فأخرجه البيهقي من طريق سعيد بن منصور: ثنا إسماعيل بن إبراهيم – وهو: ابن عُلَيّة – عن أيوب عن محمد قال: ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلّى ... فذكره بنحوه؛ وزاد: فكان محمد بن سيرين يحب أن لا يجاوز بصره مصلاه. وقال: (هذا هو المحفوظ؛ مرسل).

ثم أخرجه من طريق يونس بن بكير، والحازمي من طريق أبي شهاب – وهو الأصغر، واسمه: عبد ربه بن نافع –؛ كلاهما عن عبد الله بن عون عن محمد قال: ... فذكره بنحوه.

وكذلك رواه أحمد في (الناسخ والمنسوخ) مرسلاً؛ كما في (المنتقى من أخبار المصطفى) (١/٣٦٤). قال: (ورواه سعيد بن منصور في (سننه) بنحوه؛ وزاد فيه: وكانوا يستحبون للرجل أن لا يجاوز بصره مصلاه). ونحوه ابن أبي شيبة – كما في (الفتح) (٢/١٨٥) –. قال الحافظ في (الفتح) (٢/١٨٤): (ورجاله ثقات). وانظر (الإرواء) (٣٥٤). ثم أخرجه البيهقي موصولاً من طريق أبي علي حامد بن الرَّفَّاء الهروي: ثنا محمد ابن يونس: ثنا سعيد أبو زيد الأنصاري عن ابن عون عن ابن

موضع السجود؛ وأمّا المأموم فينظر إلى إمامه – بكسر الهمزة؛ واستدلوا لذلك بأحاديث في البخاري؛ وهي أن الرسول ﷺ حينما صلّى صلاة الكسوف، وأخبر أصحابه بأنه عرضت عليه الجنة والنار قال لهم: ((وذلك حين رأيتموني تقدمت وتأخرت([1]))؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أنه لما صنع له المنبر قام يصلّي عليه، فكان يقوم ويركع؛ فإذا أراد السجود نزل وسجد على الأرض؛ وقال: ((إنما فعلت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي([2]))؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أيضًا أنهم لما أخبروا أن الرسول ﷺ كان يقرأ في صلاة السِّر؛ قيل لهم: بم تعرفون ذلك؟ قالوا: ((باضطراب لحيته([3]))؛ وهذه كلها في الصحيح؛ فهذا دليل على أن المأموم ينظر إلى إمامه؛ ولأنه أبلغ في الائتمام به؛ لأن الإمام قد يقوم، وقد يجلس ساهيًا مثلًا؛ فإذا كان المأموم ينظر إلى الإمام كان ذلك أبلغ في الاقتداء به؛ أما الإمام، والمنفرد فإنهما ينظران إلى موضع السجود؛ وهذا القول أقرب؛ ولا سيَّما إذا كان المأموم محتاجًا إلى ذلك، كما لو كان لا يسمع، فيريد أن ينظر إلى الإمام ليقتدي به، أو نحو ذلك.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان جالسًا؛ فإنه ينظر إلى موضع إشارته؛ لقول عبد الله بن الزبير: ((كان النبي ﷺ لا يجاوز بصره إشارته([4]))؛ ومما يستثنى من ذلك عند بعضهم: إذا كنت في المسجد الحرام ويمكنك مشاهدة الكعبة؛ فإنك تنظر إلى الكعبة؛ ومنها إذا كنت في خوف وحولك العدو؛ فإنك تنظر إلى جهة العدو؛ فهذه المسائل الثلاث تستثنى؛ والراجح في مسألة الكعبة أن المصلِّي لا ينظر إليها حال صلاته؛ لعدم الدليل على ذلك؛ ولأنه ربما ينشغل به عن صلاته، لا سيَّما إذا كان الناس يطوفون حولها؛ وأما استثناء الصلاة حال الخوف فصحيح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: {وخذوا

سيرين عن أبي هريرة موصولاً. ثم قال: (والصحيح هو المرسل). فتعقبه ابن التركماني بقوله: قلت: ابن أوس ثقة، وقد زاد الرفع، كيف وقد شهد له روايةُ ابن عُلَيَّة لهذا الحديث موصولاً عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة؟!.

قلت: والاعتماد على هذه الرواية؛ فإن إسنادها صحيح – كما سبق –. وأما رواية ابن أوس؛ ففيها محمد بن يونس، وهو أبو العباس الكُدَيمي، وهو أحد المتروكين – كما قال الذهبي –، والراوي عنه أبو علي حامد بن الرَّفَّاء: وثقه الخطيب في (تاريخه) (١٧٢/٨). والظاهر أن ابن سيرين كان يرسل الحديث مرة، ويوصله أخرى. والعمدة على من وصله. والله أعلم.

١– أخرجه البخاري ص٩٤، كتاب الجمعة، باب ١١: إذا انفلتت الدابة في الصلاة، حديث رقم ٢١٢؛ وأخرجه مسلم ص٨٢٠، كتاب الكسوف، باب ٣: ما عرض على النبي في صلاة الكسوف ... ، حديث رقم ٢١٠٢ [١٠] ٩٠٤.

٢– أخرجه البخاري ص٧٢، كتاب الجمعة، باب ٢٦: الخطبة على المنبر، حديث رقم ٩١٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٦٢، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ١٠: جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة ... ، حديث رقم ١٢١٦ [٤٤] ٥٤٤..

٣– أخرجه البخاري ص٥٩، كتاب الأذان، باب ٩١: رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، حديث رقم ٧٤٦.

٤– أخرجه أبو داود ص١٢٩٦، كتاب الصلاة، باب ١٨٠: الإشارة في التشهد، حديث رقم ٩٩٠، وأخرجه النسائي ص٢١٧٠ كتاب السهو، باب ٣٩: موضع البصر عند الإشارة ... ، حديث رقم ١٢٧٦، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣٥٥/١، باب ٢٢٦: النظر إلى السبابة، حديث رقم ٧١٨، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح (٤٠٧/١) .

حذركم}؛ وقد ورد عن النبي ﷺ أنه بعث طليعة؛ فكان يصلّي وهو يلتفت إلى الشعب هل جاء الطليعة أم لا([1]).

١٠- عظمة هذا المسجد لوصفه بالحرام – أي ذي الحرمة والتعظيم – ولهذا كان من يدخله آمنًا، ولا يدخله أحد إلا بإحرام وجوبًا إن كان لم يؤد الفرض؛ أو استحبابًا إن كان قد أداه – بخلاف غيره؛ فكل شيء فيه حياة فهو آمن داخل الحرم – حتى الجماد: فالشجر آمن لا يجوز قطعه في الحرم؛ والصيد آمن لا يقتل في الحرم؛ بل ولا ينفر من مكانه.

١١- وجوب الاتجاه إلى القبلة في أي مكان كان الإنسان: من بَر أو بحر أو جو؛ لقوله تعالى: {وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره}؛ ويشمل من كان في مكة، ومن كان بعيدًا عنها، ومن كان في جوف الكعبة؛ لعموم قوله تعالى: {وحيث ما كنتم}؛ إذا كان في جوف الكعبة يستقبل أمام وجهه من أي الجهات كان؛ إلا أن بعض أهل العلم يقول: لا يستقبل الباب إذا كان مفتوحًا ما لم يكن له عتبة؛ لأنه لابد من شاخص يكون بين يديه حتى يصح أن يقال: إنه ولى وجهه شطره؛ وإذا كنا خارج الكعبة ولكن في المسجد فإنا ندور حوله؛ لأننا لو استقمنا في صف مستقيم لم نول وجوهنا شطره؛ ويكون من خرج عن مسامتته ولى وجهه جهة غيره؛ لأنه محصور الآن؛ وإذا ابتعدنا فإن بعض العلماء يقول: إن كنت في مكة فاستقبل المسجد؛ وإن كنت خارج مكة فاستقبل مكة؛ لكن هذا تقريبي؛ إنما الصواب في هذه المسألة أن من أمكنه مشاهدة عين الكعبة وجب عليه استقبال العين لا يخرج عن مسامتتها؛ ومن لا يمكن مشاهدتها لبعد، أو حيلولة شيء دونها استكفى بالجهة؛ لقوله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}[البقرة: ٢٨٦].

ويسقط استقبال القبلة في مواضع؛ منها:

أ – عند صلاة النفل في سفر؛ فيصلي حيث كان وجهه.

ب – عند الخوف الشديد إذا كان لا يمكن استقبال القبلة.

ج – إذا كان عاجزًا عن استقبال القبلة لمرض أو صلب؛ يعني: لو صلب إلى غير القبلة، أو نحو ذلك.

---

[1]– أخرجه أبو داود ص١٢٩٠، كتاب الصلاة، باب ١٦٣: الرخصة في ذلك، حديث رقم ٩١٦، وأخرجه ابن خزيمة ١/٢٤٦، باب ٩٣: ذكر الدليل على أن الالتفات المنهي عنه في الصلاة ... ، حديث رقم ٤٨٥، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/٨٣ – ٨٤، كتاب الجهاد، وقال الحاكم (صحيح على شرط الشيخين غير أنهما لم يخرجا لسهل لقلة رواية التابعين عنه)؛ وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: (صحيح) ١/٢٥٦.

– (قلت): قال الإمام الألباني في أصل صفة صلاة النبي ج١ ص (٢٣٣): وقد اختلف العلماء في الجهة التي ينبغي للمصلّي أن يتوجه بنظره إليها؛ فذهب مالك إلى أن نظر المصلّي يتَّجه إلى جهة القبلة. وترجم له البخاري في صحيحه: (باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة) (٢/١٨٤)، وساق فيه عدة أحاديث في أن الصحابة كانوا ينظرون إلى الرسول ﷺ وهم في الصلاة في أحوال مختلفة. وذهب الشافعي، والكوفيون – وهو الصحيح من مذهب الحنفية – إلى أنه يستحب للمصلّي النظر إلى موضع سجوده؛ لأنه أقرب إلى الخشوع. وهو الصواب؛ لدلالة الأحاديث السابقة عليه. وفصَّل الحافظ ابن حجر؛ فقال: (ويمكن أن نفرق بين الإمام والمأموم؛ فيستحب للإمام النظر إلى موضع السجود وكذا للمأموم؛ إلا حيث يحتاج إلى مراقبة إمامه. وأما المنفرد؛ فحكمه حكم الإمام). اهـ.

وبهذا يُجمع بين الأحاديث التي ساقها البخاري وبين أحاديث النظر إلى موضع السجود، وهو جمع حسن. والله تعالى أعلم.

(تنبيه): في هذين الحديثين أن السنة: أن يرمي ببصره إلى موضع سجوده من الأرض، فما يفعله بعض المصلّين من تغميض العينين في الصلاة؛ فهو تورُّع بارد! وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

أمَّا إذا اشتبهت عليه القبلة فعليه أن يجتهد إن كان بمكان يصح فيه الاجتهاد؛ فإن أصاب فذاك؛ وإن أخطأ فهو معذور؛ إذا فالاشتباه لا يستثنى؛ لأن حقيقة الأمر أنه لا يجوز أن يصلِّي إلا وهو يعتقد أنه إلى القبلة؛ بخلاف الذي ذكرنا؛ فالعاجز يعرف أن القبلة خلفه، فيصلِّي إلى غير القبلة؛ وكذلك في شدة الخوف؛ وكذلك المتنفل في السفر.

١٢- ومنها مراعاة الشريعة اجتماع المسلمين على وجهة واحدة؛ لأنه تعالى قال: {وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره} فالمسلمون في أقطار الدنيا كلها يتجهون إلى قبلة واحدة؛ هذا توحيد؛ ولا سيَّما أنهم يتَّجهون هذا الاتجاه، ويتَّحدون هذا الاتحاد في أعظم مشعر عملي، أو في أعظم فريضة عملية وهي الصلاة؛ فيدل هذا على أن الشرع يراعي مراعاة تامة توحيد المسلمين في دينهم، وتوحيدهم في الاتجاه البدني، وكذلك في الاتجاه القلبي الفكري.

١٣- بيان عناد اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: {وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم}؛ ولكن مع ذلك شنعوا على النبي ﷺ تشنيعًا عظيمًا حين توجَّه إلى الكعبة بأمر ربه.

١٤- أن ما كان من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: {أنه الحق} مضافًا إلى الله: {من ربهم}.

١٥- أن هؤلاء المعاندين من أهل الكتاب يعاندون مع علمهم التام، ومع إقرارهم بربوبية الله سبحانه وتعالى؛ فهم يعلمون أن الرسول ﷺ سيستقبل الكعبة؛ وهم علموا ذلك مما جاء في كتبهم من وصف الرسول ﷺ بأن هذا النبي الأمِّي سوف يتَّجه إلى الكعبة؛ وكان عليهم حيث أقروا بربوبية الله لهم، وعلموا الحق أن ينقادوا له، وأن يكونوا أولى الناس باتباعه؛ لأن من أقر بربوبية الله سبحانه وتعالى لزم أن يقر بأحكامه، ويلتزم بها؛ لأن الرب له الملك المطلق يتصرف كيف يشاء؛ ولهذا أضاف الربوبية هنا إليهم: {من ربهم}؛ لإقامة الحجَّة عليهم حيث يعترفون بربوبيته.

١٦- انتفاء غفلة الله عز وجل عن أعمالهم المتضمن لكمال علمه، وإحاطته بهم؛ ولا يكفي أن نقول: انتفاء الغفلة فقط؛ بل نقول: المتضمن لكمال العلم، والإحاطة؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما يعملون}.

١٧- صحة تقسيم الصفات إلى ثبوتية، ومنفية؛ لأن التي في الآية هنا منفية ـ وهي قوله تعالى: {وما الله بغافل عما يعملون} فالصفات المنفية: كل صفة صدرت بما يدلّ على النفي بأي أداة كانت، مثل قوله تعالى: {لا تأخذه سنة ولا نوم}[البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: {وتوكل على الحي الذي لا يموت}[الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: {وما مسَّنا من لغوب}[ق: ٣٨]، وقوله تعالى: {ولم يعي بخلقهن}[الأحقاف: ٣٣]؛ واعلم أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرَّد النفي؛ وإنما يراد بها مع النفي: ضدها؛ فإذا قال الله تعالى عن نفسه: {وما مسنا من لغوب}[ق: ٣٨]، فالمراد: نفي اللغوب، وإثبات كمال قوته، وقدرته.

١٨- تهديد هؤلاء المعاندين الذين أوتوا الكتاب، وعلموا الحق، ولم يتبعوه؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما يعملون}؛ ويشبه هؤلاء من بعض الوجوه من يتعصب لمذهبه ولو علم أن الحق في خلافه إحسانًا للظن بمن قلَّدهم؛ ولو أتيتهم

بكلام من كلام مشايخهم قالوا: على العين والرأس! ولهذا أكثر شيخ الإسلام رحمه الله في (الفتوى الحموية) النقول عن العلماء من الأشاعرة، وغيرهم؛ وقال: (إنه ليس كل من نقلنا قوله فإننا نقول به؛ ولكن لما كان بعض الطوائف منتحلًا إلى إمام أو مذهب، صار لو أتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم) وهذا من الدعوة بالحكمة فإنه يقنع المعارض بما لا يمكنه نفيه ومعارضته إذا أتى إليه بشيء من كلام مقلّده لا يمكنه أن يحيد عنه وهؤلاء المتعصبون للمذاهب إذا قلنا لهم هذا الإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد والإمام أبو حنيفة كلهم ينكرون تقليدهم مع مخالفة الكتاب، والسنة، ويقولون: (اضربوا بأقوالنا عرض الحائط إذا خالفت الكتاب، والسنة)؛ ولهم عبارات في هذا المعنى كثيرة؛ وإذا كانوا يقولون هكذا فإن الذين يتعصبون لهم مع مخالفة الدليل لم يقلدوهم حقيقة؛ ولو قلدوهم حقيقة لكانوا إذا بين لهم الدليل أخذوا به كما أمر به هؤلاء الأئمة؛ لكنهم لم يقلدوهم حقيقة؛ بل تعصبوا تعصبًا لا يحمدون عليه ما دام قام الدليل على خلافه؛ أما إذا لم يقم الدليل عند الإنسان سواء كان ممن يطلب الدليل، ويستطيع أن يعرف الحكم بالأدلة؛ أو لم يكن كذلك فهذا على كل حال يعذر إذا قلد من يرى أنه أقرب إلى الحق؛ أما مع وضوح الدليل، وبيانه فإن التقليد حرام؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن التقليد بمنزلة أكل الميتة يحل للضرورة، أما مع وجود لحم مذكى فلا تأكل الميتة؛ فمع وجود الدليل من الكتاب، والسنة، وتبينه للإنسان فإنه لا يحل له أن يقلد؛ ولهذا لم يأمر الله بسؤال أهل العلم إلا عند عدم العلم فقال تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر}[النحل: ٤٣، ٤٤]؛ أما إذا كنّا نعلم بالبينات، والزبر فلا نسألهم؛ ونأخذ من البينات، والزبر.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

قال السعدي: كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطّف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، فكان من الكفار، من تمرَّد عن أمر الله، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمدًا وعدوانًا، فمنهم: اليهود والنصارى أهل الكتاب الأول الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو {أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية}: أي بكل برهان ودليل يوضّح قولك ويبيِّن ما تدعو إليه.

قال ابن العثيمين: في قوله تعالى: {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك} أمران متنازعان: قسم، وشرط؛ قسم مدلول عليه باللام؛ لأن اللام واقعة في جواب القسم المقدَّر؛ أي: والله لئن؛ والثاني المنازع للقسم: {إن}

الشرطية؛ وكل من القسم والشرط يحتاج إلى جواب؛ فجواب القسم: {ما تبعوا قبلتك}؛ والمحذوف جواب الشرط؛ لأن الشرط مؤخَّر؛ فاستغنى عن جوابه بجواب القسم؛ يقول ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

وقوله تعالى: {أتيت}: بمعنى جئت؛ و{الذين أوتوا الكتاب}: يعني اليهود، والنصارى؛ و{بكل آية}: الباء للمصاحبة؛ والمعنى: مصطحبًا كل آية؛ ويحتمل أن تكون الباء للتقوية، أي: تعدية الفعل؛ وال{آية}: العلامة على صدق ما أتيت به إليهم؛ يعني: إن أتيتهم بكل آية تدلُّ على صدق ما أتيت به {ما تبعوا قبلتك}، أي الكعبة؛ لعنادهم، واستكبارهم.

قال السعدي: أي: ما تبعوك لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد وينتفع بها من يتطلَّب الحق وهو مشتبه عليه، فتوضَّح له الآيات البيِّنات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه.

قال ابن العثيمين: {وما أنت بتابع قبلتهم}: الواو هنا استئنافية؛ لأننا لو جعلناها عاطفة على قوله تعالى: {ما تبعوا قبلتك} لصار المعنى: (وما أنت بتابع قبلتهم في حال إتيانك بالآيات التي تدلُّ على صدق ما جئت به)؛ ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يتَّبع قبلتهم مطلقًا؛ وهذا هو السر في التعبير – والله أعلم بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: {وما أنت بتابع}، وفي الكلام عنهم أتى بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: {ما تبعوا قبلتك}.

{وما بعضهم}: أي الذين أوتوا الكتاب، {بتابع قبلة بعض}، فاليهود لا تتَّبع قبلة النصارى؛ والنصارى لا تتَّبع قبلة اليهود؛ لأن النصارى يقولون: إن اليهود كفار؛ واليهود يقولون: إن النصارى كفار ليسوا على حق؛ ولهذا يكذبون عيسى ﷺ.

قال السعدي: وقوله: {وما أنت بتابع قبلتهم} أبلغ من قوله: (ولا تتَّبع)، لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتَّصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: (ولو أتوا بكل آية) لأنهم لا دليل لهم على قولهم.

وكذلك إذا تبيَّن الحق بأدلَّته اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشُّبه الواردة عليه لأنها لا حدَّ لها ولأنه يعلم بطلانها للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح فهو باطل، فيكون حَلّ الشُّبه من باب التبرُّع. وأيضًا فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتَّبعوا قبلتك يا محمد وهم الأعداء حقيقةً؛ الحسدة.

قال ابن العثيمين: {ولئن اتَّبعت أهواءهم}: نقول فيها مثلما قلنا في قوله تعالى: {ولئن أتيت}؛ ففيها قسم وشرط؛ والجواب للقسم وهو قوله تعالى: {إنك إذًا ... }؛ والخطاب للنبي ﷺ؛ و{إن} الشرطية لا تستلزم وقوع شرطها؛ وإنما قلنا ذلك لئلّا يقول قائل: هل من الممكن أن الرسول ﷺ يتَّبع أهواءهم من بعد ما جاءه من العلم؟ الجواب: لا يمكن؛ و {إن} الشرطية لا تستلزم وقوع جواب شرطها، ألم يقل الله سبحانه وتعالى: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن

أشركت ليحبطن عملك}[الزمر: ٦٥]؛ وإشراك النبي ﷺ لا يمكن أبدًا وقوعه؛ وكذلك قوله تعالى: {قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين}[الزخرف: ٨١]؛ ووجود الولد لله لا يمكن.

وقوله تعالى: {أهواءهم}: جمع هوى وهو الميل؛ ومنه يقال للنجم: (هوى) إذا مال وسقط؛ ويطلق (الهوى) في الغالب على الميل عن الحق؛ ويقابله (الهدى)؛ فيقال: اتَّبع الهوى بعد الهدى.

قال السعدي: إنما قال: {أهواءهم} ولم يقل (دينهم) لأن ما هم عليه مجرَّد أهوية نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتَّبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: {أفرأيت من اتَّخذ إلهه هواه}.

قال ابن العثيمين: {من بعد ما جاءك من العلم} متعلّق بـ{اتَّبعت}؛ يعني: إذا وقع هذا الإتباع بعد العلم فإنه يكون الظالم؛ وقوله تعالى: {من بعد ما جاءك} وردت في القرآن على ثلاثة أوجه؛ هذا أحدها؛ والثاني: {بعد ما جاءك من العلم}؛ والثالث: {بعد الذي جاءك من العلم}، أما {بعدما جاءك من العلم}، و{بعد الذي ... } فلا فرق بينهما إلا أنه عبر بـ{ما} عن {الذي}؛ وأمَّا {من بعد ما جاءك} فهي أبلغ من قوله تعالى: {بعد الذي جاءك}؛ لأن {من} تدلُّ على أنه جاءه العلم، وتمهَّل، وحصل هذا الأمر بعد مجيء العلم؛ نظير ذلك قوله تعالى: {ومن بيننا وبينك حجاب}[فصلت: ٥]؛ فهو أشدُّ ممَّا لو قالوا: (بيننا وبينك حجاب)؛ لأن {من} تدلُّ على مسافة قبل الحجاب ثم حجاب، والمراد بـ{العلم} الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ.

{إنك إذًا لمن الظالمين}: أكّدت بـ{إن} واللام؛ وهذه الجملة جواب القسم؛ و{إذا} ظرف؛ وهنا أدوات ثلاث: إذ، وإذا، وإذًا؛ وهذه الأدوات الثلاثة تنازعت الأزمنة: (إذ) للماضي؛ و(إذا) للمستقبل؛ و(إذًا) للحاضر؛ فمعنى {إنك إذًا}: أي إنك في حال إتباعك أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم {لمن الظالمين}، أي المعتدين الذين نقصوا الواجب عليهم من إتِّباع الحق دون الأهواء.

قال السعدي: {إنك إذًا}: أي (إن اتَّبعتهم)، فهذا احتراز لئلّا تنفصل هذه الجملة عمّا قبلها، ولو في الأفهام، {لمن الظالمين}: أي داخل فيهم ومندرج في جملتهم، وأيُّ ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل فآثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ فإن أمَّته داخلة في ذلك، وأيضًا فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك – وحاشاه – صار ظالمًا مع علوّ مرتبته، وكثرة حسناته فغيره من باب أولى وأحرى([1]).

قال ابن العثيمين في القول المفيد: فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؟ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به فلا فائدة منه؟

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن {فلا تكونن من الممترين} عند تفسير الآية (١٤٧) من سورة البقرة؛ وكلام ابن العثيمين عن {فلا تكن من الممترين} عند تفسير الآية (٦٠) من سورة آل عمران.

أُجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينًا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي }[البقرة: ٢٦٠].

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالَّة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكأنه يقيم في هذا المقسَم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به، لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويهًا له بها وتنبيهًا على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الرسول ﷺ كان حريصًا على هداية الخلق؛ لأن قوله تعالى: {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية} دليل على أنه ﷺ كان يعرض الآيات، ويبين الحقائق؛ ولكن لا ينتفعون بها.

٢- شدَّة عناد هؤلاء الذين أوتوا الكتاب؛ وأنهم مهما أوتوا من الآيات فإنهم لن ينصاعوا لها، ولن يتبعوها.

٣- أن الذين أوتوا الكتاب لن يتبعوا قبلة الرسول ﷺ؛ وإذا كان كذلك فلن يتَّبعوا دينه؛ لأن القبلة بعض الدين؛ فمتى كفروا بها فهو كفر بالدِّين كله.

٤- أن الكعبة قبلة للمسلمين خاصة؛ لأنه تعالى أضاف استقبالها إليهم؛ ولكن الظاهر والله أعلم أن الكعبة قبلة لكل الأنبياء؛ لقوله تعالى: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا}[آل عمران: ٩٦]، وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة لكل الأنبياء؛ لكن أتباعهم من اليهود، والنصارى هم الذين بدَّلوا هذه القبلة.

٥- وجوب الانقياد للحق إذا ظهرت آياته؛ لأن هذه الآية سيقت مساق الذم؛ فدلَّ هذا على وجوب إتِّباع الحق إذا تبيَّنت الآيات.

٦- أن النبي ﷺ مستحيل أن يكون تابعًا لقبلتهم؛ لأن قبلتهم التي يدعونها لم تثبت شرعًا؛ ثم لو فرض أنها جاءت في شرائعهم فإنها نسخت بقبلة الإسلام.

٧- أنه يستحيل شرعًا أن يتَّبع المسلم طريقة اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: {وما أنت بتابع قبلتهم}؛ وجه الاستحالة: أن الجملة جاءت بالاسمية المؤكدة بحرف الجر في سياق النفي؛ فالمؤمن حقيقةً لا يمكن أن يتابع أعداء الله، ولا أن يأخذ بآرائهم، وأفكارهم، واتِّجاهاتهم؛ وقد حمى النبي ﷺ ذلك غاية الحماية، حيث قال: ((من تشبه بقوم فهو منهم([1]))) حتى نحذر ونبعد عن التشبه بأعداء الله، والتقليد لهم سواء في أمور العبادة، أو في أمور العادة؛ فإن التشبُّه بأعداء الله حرام وقد يؤدي إلى الكفر، والشرك والعياذ بالله.

٨- أن اليهود والنصارى لا يتبع بعضهم بعضًا؛ بل يضلِّل بعضهم بعضًا؛ فاليهود يرون النصارى ليسوا على شيء من الدين؛ والنصارى يرون اليهود ليسوا على شيء من الدين أيضًا؛ كل منهم يضلِّل الآخر فيما بينهم؛ كل واحد منهم يرى أن الآخر ليس على ملَّة صحيحة؛ ولهذا قال تعالى: {وما بعضهم بتابع قبلة بعض}[البقرة: ١٤٥]؛ فقبلة اليهود إلى بيت المقدس إلى الصخرة؛ وقبلة النصارى إلى المشرق يتَّجهون نحو الشمس؛ لكنهم على الإسلام يد واحدة بعضهم لبعض وليّ، كما قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض}[المائدة: ٥١]؛ لأنهم كلهم أعداء للإسلام.

٩- أن إتِّباع اليهود والنصارى إتِّباع للهوى لا للهدى؛ لقوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم}.

١٠- أن اليهود والنصارى ليسوا على هدى، حيث جعل الله سبحانه وتعالى ما هم عليه هوى، وليس بهدى.

١١- أن الإنسان لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد قيام الحجة؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءك من العلم}؛ فالإنسان قد يتابع غيره جهلًا؛ فلا يؤاخذ به وإن كان يسمّى ضالًا؛ لكنه ليس بظالم؛ لأنه لم يتعمد المخالفة؛ لا يتحقق الظلم إلا لمن عرف الحق وخالفه.

١٢- التَّلطُّف في الخطاب للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: {لمن الظالمين}؛ لأنَّك لو قلت لرجل: (أنت رجل ظالم) لكان أشدُّ وقعًا من قولك له: (أنت من الظالمين)؛ ونظيره قوله تعالى: {عبس وتولى}[عبس: ١]، عندما تقرؤها تظن أن العابس والمتولِّي غير الرسول ﷺ؛ تظن أنه رجل آخر؛ ولكن المراد به الرسول ﷺ.

١٣- بيان أن العلم حقيقة هو علم الشريعة؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءك من العلم}: أتى بـ{أل} المفيدة للكمال؛ ولا شك أن العلم الكامل الذي هو محل الحمد والثناء هو العلم بالشريعة؛ ولذلك نقول: إن عصر النبوة هو عصر العلم؛ وليس عصرنا الآن هو عصر العلم الذي يمدح على الإطلاق؛ لكن ما كان منه نافعًا في الدين فإنه يمدح عليه لهذا.

١- أخرجه أحمد ٥٠/٢، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفين كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ٢٧١/١٠: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٥٠٤/٢، وقال في الإرواء: صحيح ١٠٩/٥، حديث رقم ١٢٦٩.

١٤- أن الظلم، والعدل، وغير ذلك مقرون بالأعمال؛ لا بالأشخاص؛ بمعنى أنه ليس بين الله تعالى وأحد من الخلق شيء يحابيه، ويراعيه به؛ كل من خالفه فهو ظالم؛ فلا نقول مثلًا: هذا قريب من الرسول ﷺ تكفَّر سيئاته لقربه من الرسول ﷺ؛ أو نقول: هذا إنسان من قريش من سلالة الأشراف من سلالة بني هاشم تكفَّر عنه سيئاته؛ فإذا كان الرسول ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى له: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين}؛ فما بالك بمن دون الرسول ﷺ! فلا أحد يحابى من قبل الله عز وجل من أجل نسبه، أو حسبه، أو جاهه بين الناس: قال الله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}[الحجرات: ١٣].

١٥- قد يرد التعليق على شرط لا يمكن تحققه؛ لقوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين}؛ فهذا الشرط لا يمكن أن يقع من رسول الله ﷺ.

١٦- تحذير الأمة من إتِّباع أهواء غير المؤمنين؛ وجه ذلك أنه إذا كان هذا الوصف يكون للرسول ﷺ لو اتَّبع أهواءهم فالذي دونه من باب أولى؛ فعلينا أن نحذر غاية الحذر من إتِّباع أهواء أعداء الله؛ فالواجب على علماء الأمة أن يحذِّروها مما وقعت فيها الآن من إتِّباع أهواء أعداء الله، ويبيِّنوا لهم أن إتِّباع أهوائهم هو الظلم؛ والظلم ظلمات يوم القيامة؛ والظلم مَرتَع مبتغيه وخيم.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)

قال ابن العثيمين: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}؛ {الذين} مبتدأ؛ والخبر جملة: {يعرفونه}؛ والضمير الهاء المفعول يعود إلى النبي ﷺ؛ و{كما}؛ الكاف للتشبيه؛ و{ما} مصدرية أي كمعرفة أبنائهم.

قوله تعالى: {آتيناهم}: أي أعطيناهم؛ والمراد بـ{الكتاب} التوراة والإنجيل؛ والذين أوتوهما اليهود والنصارى؛ وإنما كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، إلى آخر ما ذكر من أوصافه التي عرفوه بها كما يعرفون أبناءهم؛ وعبَّر بقوله تعالى: {يعرفونه} بالفعل المضارع؛ لأن معرفتهم به تتجدَّد كلَّما تأمَّلوا آياته، وصفاته؛ وعبَّر بقوله تعالى: {يعرفونه}؛ لأن الغالب أن (العلم) يعبَّر به عن الأمور المعقولة التي تدرك بالحس الباطن، و(المعرفة) يعبر بها عن الأمور المحسوسة المدركة بالحس الظاهر؛ فأنا أقول لك: (أعرفت فلانًا)؛ ولا أقول لك: (أعلمت فلانًا)؛ لكن أقول: (أعرفت فلانًا فعلمت ما فعل)؛ فهنا جعلنا العلم في الفعل.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٣ص٣١٢: وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ لَفْظُ الْمَعْرِفَةِ وَلَفْظُ الْعِلْمِ، فَلَفْظُ الْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِهِ: {مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ}[المائدة: ٨٣]، وَقَوْلِهِ: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}[البقرة: ١٤٦]. وَأَمَّا لَفْظُ الْعِلْمِ فَهُوَ أَوْسَعُ إِطْلَاقًا، كَقَوْلِهِ: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}[محمد: ١٩]، وَقَوْلِهِ: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[آل عمران: ١٨] الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}[الأنعام: ١١٤]، وَقَوْلِهِ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه: ١١٤]، وَقَوْلِهِ: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى}[الرعد: ١٩]، وَقَوْلِهِ: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[الزمر: ٩]، وَقَوْلِهِ: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ}[الروم: ٥٦]، وَقَوْلِهِ: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}[القصص: ٨٠]، وَقَوْلِهِ: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت: ٤٣]، وَقَوْلِهِ: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ}[النمل: ٤٠]، وَقَوْلِهِ: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}[الحديد: ١٧]، وَقَوْلِهِ: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}[الحديد: ٢٠]، وَقَوْلِهِ: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ}[البقرة: ٢٢٣]، وَقَوْلِهِ: {فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ}[هود: ١٤] وَهَذَا كَثِيرٌ.

وَاخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ اسْمَ الْعِلْمِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُ، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ، وَعَلِيمٌ، وَعَلَّامٌ، وَعَلِمَ، وَيَعْلَمُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ لَهُ عِلْمًا دُونَ لَفْظِ الْمَعْرِفَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الِاسْمَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ أَكْمَلُ نَوْعِهِ الْمُشَارِكُ لَهُ فِي مَعْنَاهُ.

وَإِنَّمَا جَاءَ لَفْظُ الْمَعْرِفَةِ فِي الْقُرْآنِ فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً، كَقَوْلِهِ: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[المائدة: ٨٢] إِلَى قَوْلِهِ {مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ}[المائدة: ٨٣]، وَقَوْلِهِ: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}[البقرة: ١٤٦].

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لَفْظًا وَمَعْنًى، أَمَّا اللَّفْظُ: فَفِعْلُ الْمَعْرِفَةِ يَقَعُ عَلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، تَقُولُ: عَرَفْتُ الدَّارَ، وَعَرَفْتُ زَيْدًا، قَالَ تَعَالَى: {فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}[يوسف: ٥٨]، وَقَالَ: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}[البقرة: ١٤٦].

وَفِعْلُ الْعِلْمِ يَقْتَضِي مَفْعُولَيْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ}[الممتحنة: ١٠]، وَإِنْ وَقَعَ عَلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، كَانَ بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ، كَقَوْلِهِ: {وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[الأنفال: ٦٠].

وَأَمَّا الْفَرْقُ الْمَعْنَوِيُّ فَمِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ تَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الشَّيْءِ، وَالْعِلْمَ يَتَعَلَّقُ بِأَحْوَالِهِ، فَتَقُولُ: عَرَفْتُ أَبَاكَ، وَعَلِمْتُهُ صَالِحًا عَالِمًا، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْأَمْرُ فِي الْقُرْآنِ بِالْعِلْمِ دُونَ الْمَعْرِفَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}[محمد: ١٩]، وَقَوْلِهِ: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[المائدة: ٩٨]، وَقَوْلِهِ: {فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ}[هود: ١٤]. فَالْمَعْرِفَةُ: حُضُورُ صُورَةِ الشَّيْءِ وَمِثَالِهِ الْعِلْمِيِّ فِي النَّفْسِ، وَالْعِلْمُ: حُضُورُ أَحْوَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنِسْبَتِهَا إِلَيْهِ، فَالْمَعْرِفَةُ: تُشْبِهُ التَّصَوُّرَ، وَالْعِلْمُ: يُشْبِهُ التَّصْدِيقَ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ فِي الْغَالِبِ تَكُونُ لِمَا غَابَ عَنِ الْقَلْبِ بَعْدَ إِدْرَاكِهِ، فَإِذَا أَدْرَكَهُ قِيلَ: عَرَفَهُ، أَوْ تَكُونُ لِمَا وُصِفَ لَهُ بِصِفَاتٍ قَامَتْ فِي نَفْسِهِ، فَإِذَا رَآهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِهَا، قِيلَ: عَرَفَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}[يونس: ٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}[يوسف: ٥٨]، وَقَالَ: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}[البقرة: ١٤٦]، لَمَّا كَانَتْ صِفَاتُهُ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ، فَرَأَوْهُ: عَرَفُوهُ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِآخِرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا: أَتَعْرِفُ الزَّمَانَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى عَلَى رَبِّهِ(١)))، وَقَالَ تَعَالَى: {وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}[البقرة: ٨٩]، فَالْمَعْرِفَةُ: تُشْبِهُ الذِّكْرَ لِلشَّيْءِ، وَهُوَ حُضُورُ مَا كَانَ غَائِبًا عَنِ الذِّكْرِ، وَلِهَذَا كَانَ ضِدَّ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْكَارُ، وَضِدَّ الْعِلْمِ الْجَهْلُ، قَالَ تَعَالَى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا}[النحل: ٨٣]، وَيُقَالُ: عَرَفَ الْحَقَّ فَأَقَرَّ بِهِ، وَعَرَفَهُ فَأَنْكَرَهُ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ مِنَ الْفَرْقِ: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ تُفِيدُ تَمْيِيزَ الْمَعْرُوفِ عَنْ غَيْرِهِ وَالْعِلْمَ يُفِيدُ تَمْيِيزَ مَا يُوصَفُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَهَذَا الْفَرْقُ غَيْرُ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ ذَاكَ يَرْجِعُ إِلَى إِدْرَاكِ الذَّاتِ وَإِدْرَاكِ صِفَاتِهَا، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى تَخْلِيصِ الذَّاتِ مِنْ غَيْرِهَا، وَتَخْلِيصِ صِفَاتِهَا مِنْ صِفَاتِ غَيْرِهَا.

الْفَرْقُ الرَّابِعُ: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: عَلِمْتُ زَيْدًا، لَمْ يُفِدِ الْمُخَاطَبَ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ يَنْتَظِرُ بَعْدُ: أَنْ تُخْبِرَهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ عَلِمْتَهُ؟ فَإِذَا قُلْتَ: كَرِيمًا أَوْ شُجَاعًا، حَصَلَتْ لَهُ الْفَائِدَةُ، وَإِذَا قُلْتَ: عَرَفْتُ زَيْدًا. اسْتَفَادَ الْمُخَاطَبُ، أَنَّكَ أَثْبَتَّهُ وَمَيَّزْتَهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَبْقَ مُنْتَظِرًا لِشَيْءٍ آخَرَ، وَهَذَا الْفَرْقُ فِي التَّحْقِيقِ إِيضَاحٌ لِلْفَرْقِ الَّذِي قَبْلَهُ.

الْفَرْقُ الْخَامِسُ وَهُوَ فَرْقُ الْعَسْكَرِيِّ فِي فُرُوقِهِ وَفُرُوقِ غَيْرِهِ: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ عِلْمٌ بِعَيْنِ الشَّيْءِ مُفَصَّلًا عَمَّا سِوَاهُ، بِخِلَافِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ قَدْ يَتَعَلَّقُ بِالشَّيْءِ مُجْمَلًا، وَهَذَا يُشْبِهُ فَرْقَ صَاحِبِ الْمَنَازِلِ، فَإِنَّهُ قَالَ: الْمَعْرِفَةُ إِحَاطَةٌ بِعَيْنِ الشَّيْءِ كَمَا هُوَ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُعْرَفَ اللَّهُ أَلْبَتَّةَ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ هَذَا الْبَابُ بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، وَلَا مَعْرِفَةً وَلَا رُؤْيَةً، فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ، قَالَ تَعَالَى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}[طه: ١١٠]، بَلْ حَقِيقَةُ هَذَا الْحَدِّ انْتِفَاءُ تَعَلُّقِ الْمَعْرِفَةِ بِأَكْبَرِ الْمَخْلُوقَاتِ حَتَّى بِأَظْهَرِهَا، وَهُوَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، بَلْ لَا يَصِحُّ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ نَفْسَهُ وَذَاتَهُ أَلْبَتَّةَ(٢).

١- (قلت): الحديث طويل رواه البخاري في صحيحه (٨٠٦)، وليست فيه عبارة (أَتَعْرِفُ الزَّمَانَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ؟)، بل فيه: ((... فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا،....)).

٢- (قلت): قال صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب ثلاثة الأصول: والمعرفة ترادف العلم في حق المخلوق في أكثر المواضع، أما في حق الله جل وعلا فإن الله جل وعلا يُوصف بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة، وذلك لأن العلم قد لا يسبقه جهل، بينما المعرفة يسبقها جهل؛ عرف الشيء بعد أن كان جاهلًا به، لكن العلم قد لا يسبقه جهل به، ولهذا يوصف الله جل وعلا بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة. أيضا يقال إن التعبير بالعلم أوجه في المواضع التي يُحتاج فيها إلى التعبير بالمعرفة وذلك لأن

قال ابن العثيمين: {أبناءهم}، جمع ابن؛ وخصه دون البنت؛ لأن تعلُّق الإنسان بالذَّكر أقوى من تعلُّقه بالأنثى؛ فهو به أعرف.

قال ابن القيم في هداية الحيارى ج١ص٢٩٩: وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[الأنعام: ٢٠].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ إِنَّمَا هِيَ بِالنَّعْتِ وَالصِّفَةِ الْمَكْتُوبَةِ عِنْدَهُمُ الَّتِي هِيَ مُنْطَبِقَةٌ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَأَحَدُنَا أَعْرَفُ بِهِ مِنَ ابْنِهِ، إِنَّ أَحَدَنَا لَيَخْرُجُ مِنْ عِنْدِ امْرَأَتِهِ وَمَا يَدْرِي مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُ.

وَلِهَذَا أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَسْتَكْبِرْ عَنِ اتِّبَاعِهِ فَقَالَ: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}[المائدة: ٨٢ - ٨٦].

قال القرطبي: وروي أن عمر قال لعبدالله بن سلام: أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه.

قال ابن العثيمين: {وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون}: يعني طائفة منهم تكتم الحق أي يُخفونه، فلا يبيِّنونه؛ ولهذا ذكر الله في سورة آل عمران أن بعضهم يقول لبعض: كيف تبيِّنون الهدى لمحمد، وأصحابه؟! إذا بيَّنتموه يحاجّوكم به عند الله أفلا تعقلون! فهم يتواصون بالكتمان والعياذ بالله.

وقوله تعالى: {وهم يعلمون} في موضع نصب على الحال من فاعل يكتمون وهو الواو؛ يعني: يكتمون والحال أنهم يعلمون أنه الحق؛ وهذا أبلغ في الذّم، وأقبح في الفعل أن يكونوا كاتمين للحق وهم يعلمون.

المعرفة أكثر ما جاءت في القرآن مذمومة لأنه يتبع المعرفة الإنكار، أما العلم فأوتي به في القرآن ممدوحًا، قال جل وعلا: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[الأنعام:٢٠]، فهنا وصفهم بالمعرفة ثم بيَّن أن معرفتهم تلك لم تنفعهم، وقال جل وعلا: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا}[النحل:٨٣]، لكن العلم أُثني عليه في القرآن، وأما المعرفة فربما بل أكثر المواضع فيها نوع ذم لها، لكن هذا ليس على إطلاقه، لأنه قد جاء في صحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى في بعض طرق حديث ابن عباس الذي فيه إرسال معاذ إلى اليمن، أن النبي ﷺ قال له: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يعرفوا الله فإن هم عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات.....)) إلى آخره، فصارت المعرفة هنا بمعنى العلم بالتوحيد كما في الروايات الأخر.

- وآنظر كلام ابن العثيمين عن (المعرفة) عند تفسير الآية (٧٣) من سورة آل عمران.

قال السعدي: وفي ضمن ذلك، تسلية للرسول والمؤمنين، وتحذير له من شرِّهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر به جهلًا فالعالم عليه إظهار الحق، وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه، وتقبيحه للنفوس، بكل طريق مؤدٍّ لذلك، فهؤلاء الكاتمون، عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

قال أبو زهرة: أي والحال أنهم يعلمون أنه حق، وأن من يكتم الحق يضل ويفسد، فهم يعلمون أن فعلهم إثم ويعلمون نتائج ذلك الإثم، ولكنهم في غيٍّ دائم وضلال مستمر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن النبي ﷺ معروف عند أهل الكتاب معرفة تامة؛ وذلك كما جاء في كتبهم، كما قال الله تبارك وتعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم}[الأعراف: ١٥٧].

٢- أنه لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة النبي ﷺ؛ لأنهم أوتوا من وصفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم.

٣- بيان أن تعلُّق الإنسان بالابن أقوى من تعلُّقه بالبنت؛ لقوله تعالى: {كما يعرفون أبناءهم}؛ فهو يعرف الابن أكثر ممّا يعرف البنت لقوة تعلُّقه به.

٤- الاحتراس في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: {وإن فريقًا منهم}؛ لأن كتمان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتم الحق؛ فإن من النصارى من آمن، كالنجاشي؛ ومن اليهود كعبد الله بن سلام من آمن، ولم يكتم الحق.

٥- شدَّة اللوم، والذَّم لهؤلاء الذين يكتمون الحق؛ لأنهم يكتمونه مع العلم به؛ فهم عامدون ظالمون؛ وهذا أشدُّ قبحًا من كتمان الإنسان ما يكون متردِّدًا فيه.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

قال ابن العثيمين: {الحق} مبتدأ؛ و{من ربك} خبره؛ وهنا الجملة لتقرير ما سبق؛ يعنى أن الحق ثابت، وحاصل من ربك؛ وقيل: إن {الحق} خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هذا الحق من ربك.

وهنا الربوبية خاصة؛ لأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين؛ لكن أضافها إلى النبي ﷺ؛ لأن المقام يقتضيه، حيث هو مقام التثبيت، والنصرة؛ فلولا أن الله سبحانه وتعالى ثبت الرسول ﷺ لكان كما قال الله تعالى: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرًا}[الإسراء: ٧٤، ٧٥]؛ و ال{رب} هو الخالق المالك المدبِّر: هو الذي خلق الخلق كله؛ وهو مالك الخلق كله؛ وهو سبحانه وتعالى المدبِّر للخلق كله.

قال السعدي: أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمّى حقًّا من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية، والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثِّها على تحصيل مصالحها، ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٧٠: ومعنى {الحق من ربك}: أي الذي أمرتك به من التوجه إلى بيت الحرام هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك، فلا تمتر في ذلك فقال: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} وقال: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء.

قال ابن العثيمين: {فلا تكونن من الممترين}؛ {لا} ناهية؛ والفعل بعدها مبني على الفتح في محل جزم؛ وإنما بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد؛ لأن الفعل المضارع إذا اتصل بنون التوكيد صار مبنيًّا على الفتح دائمًا؛ والخطاب هنا للرسول ﷺ؛ وهذا النهي يراد به التثبيت؛ إذ لا يمكن وقوع الامتراء من النبي ﷺ؛ كما أن أمر المؤمن بالإيمان يراد به الثبوت، والاستمرار عليه، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل}[النساء: ١٣٦]، كما أن الشرط قد يعلق بما لا يمكن وقوعه كما سبق في قوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين}[البقرة: ١٤٥].

{من الممترين}، معنى (الامتراء): الشك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٣٢٦: وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، وَفِي قَوْلِهِ {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}[الأحزاب: ٤٨]، وَنَحْوِ ذَلِكَ: إنَّ الْخِطَابَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُرَادَ بِهِ غَيْرُهُ. أَيْ غَيْرُهُ قَدْ يَكُونُ مُمْتَرِيًا وَمُطِيعًا لِأُولَئِكَ فَنُهِيَ، وَهُوَ لَا يَكُونُ مُمْتَرِيًا وَلَا مُطِيعًا لَهُمْ.

وَلَكِنْ بِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ – أَيْضًا – مُخَاطَبٌ بِهَذَا، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ هَذَا. فَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ – قَدْ نَهَاهُ عَمَّا حَرَّمَهُ مِنْ الشِّرْكِ، وَالْقَوْلِ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ، وَالظُّلْمِ، وَالْفَوَاحِشِ. وَبِنَهْيِ اللَّهِ لَهُ عَنْ ذَلِكَ وَطَاعَتِهِ لِلَّهِ فِي هَذَا اسْتَحَقَّ عَظِيمَ الثَّوَابِ، وَلَوْلَا النَّهْيُ وَالطَّاعَةُ لَمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ.

وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَأْمُورُ الْمَنْهِيُّ مِمَّنْ يُشَكُّ فِي طَاعَتِهِ وَيَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْصِيَ الرَّبَّ، أَوْ يَعْصِيَهُ مُطْلَقًا وَلَا يُطِيعَهُ، بَلْ اللَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ، وَيَأْمُرُ الْأَنْبِيَاءَ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ مَا أَطَاعُوهُ فِيهِ قَدْ أَمَرَهُمْ بِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ.

وَلَا يُقَالُ: لَا يَحْتَاجُ إلَى الْأَمْرِ، بَلْ بِالْأَمْرِ صَارَ مُطِيعًا مُسْتَحِقًّا لِعَظِيمِ الثَّوَابِ.

وَلَكِنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي قُدْرَتَهُ عَلَى الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ، لِيُثَابَ عَلَى ذَلِكَ إذَا تَرَكَهُ. وَقَدْ يَقْتَضِي قِيَامَ السَّبَبِ الدَّاعِي إلَى فِعْلِهِ فَيُنْهَى عَنْهُ، فَإِنَّهُ بِالنَّهْيِ وَإِعَانَةِ اللَّهِ لَهُ عَلَى الِامْتِثَالِ يَمْتَنِعُ مِمَّا نُهِيَ عَنْهُ إذَا قَامَ السَّبَبُ الدَّاعِي لَهُ إلَيْهِ. وَكَذَلِكَ قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ {سَلْ بَنِي إسْرَائِيلَ}[البقرة: ٢١١]، إنَّهُ أَمْرٌ لِلرَّسُولِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُوَ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ[١].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن ما جاء من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: {الحق من ربك}.

٢- أنه ما دام الحق من الله فإنه يجب أن يؤمن الإنسان به، وأن لا يلحقه في ذلك شك ولا مرية.

٣- أن كل شيء خالف ما جاء عن الله فهو باطل؛ لقوله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون}[يونس: ٣٢].

٤- تقوية الرسول ﷺ على ما هو عليه من الحق وإن كتمه أهل الكتاب لأن الإنسان بشر؛ لما أنكر هؤلاء الذين أوتوا الكتاب الحق قد يعتري الإنسان شيء من الشبهة وإن كان بعيدا؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن ما جاء به هو الحق؛ لقوله تعالى: {الحق من ربك}.

١- (قلت): أنظر كلام ابن العثيمين عن {فلا تكن من الممترين} عند تفسير الآية (٦٠) من سورة آل عمران.

٥- عناية الله سبحانه وتعالى بالنبي بذكره بالربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: {من ربك}.
٦- أن الشك ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: {فلا تكونن من الممترين}.
٧- أنه قد ينهى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: {فلا تكونن من الممترين}؛ فإن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون من الممترين.
٨- عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول ﷺ بالتثبيت؛ لأن قوله تعالى له: {الحق من ربك} يقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: {فلا تكونن من الممترين} يقتضي استمراره على هذا الثبات؛ ولا شك أن في هذا من تأييد الرسول ﷺ، وتثبيته ما هو ظاهر.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)

قال ابن العثيمين: {ولكل وجهة هو موليها}؛ الوجهة، والجهة، والوجه، معناها متقارب؛ أي: لكل واحد من الناس جهة يتولّاها؛ وهذا شامل للجهة الحسية، والمعنوية؛ مثال الحسية: اختلاف الناس إلى أين يتّجهون في صلاتهم: فمنهم من يتّجه نحو المشرق؛ ومنهم من يتّجه نحو بيت المقدس؛ ومنهم من يتّجه إلى الكعبة؛ واختلاف الناس كذلك في اتجاههم في العمل: فمنهم من يتّجه للتجارة؛ ومنهم من يتّجه للحدادة؛ ومنهم من يتّجه للنجارة ... وهكذا؛ ومثال المعنوية: اختلاف الناس في الملل، والنحل، وما أشبه ذلك.
{هو مولِّيها} فيها قراءتان؛ الأولى: بكسر اللام، وياء ساكنة بعدها - {مولِّيها} - على أنها اسم فاعل؛ والقراءة الثانية: بفتح اللام، وألف بعدها - {مولّاها} - على أنها اسم مفعول؛ فالمعنى على القراءة الأولى: هو متّجه إليها؛ والمعنى على القراءة الثانية: هو موجَّه إليها إمّا شرعًا؛ وإمّا قدرًا؛ وإمّا شرعًا وقدرًا؛ وجملة: {هو مولِّيها}، أو {هو مولّاها} في محل رفع صفة لـ{وجهة}؛ وليس المراد بهذه الجملة إقرار أهل الكفر على كفرهم؛ وإنما المراد - والله أعلم - تسلية المؤمنين، وتثبيتهم على ما هم عليه من الحق؛ لأن لكل أحد وجهة ولّاه الله إيّاها حسب ما تقتضيه حكمته.
قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٦٠: وأصح القولين أن المعنى: (هو متوجِّه إليها)، أي: (مولِّيها وجهه)، فالضمير راجع إلى (كل)، وقيل: إلى (الله)، اي: (الله مولِّيها إيّاه) وليس بشيء، لأن الله لم يول القبلة الباطلة أبدًا، ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط، بل هم تولّوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولّوها وجوههم، وقوله: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}

مشعر بصحة هذا القول، أي: إذا كان أهل الملل قد تولَّوا الجهات، فاستبقوا أنتم الخيرات وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إيّاه ولا تتوقفوا فيه.

قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية ج٢ص٤٦١: فاخبر سبحانه، أن لكل أمَّة وجهة يستقبلونها، وولّى محمدًا قبلة يرضاها، فأمره بأن يولِّي وجهه شطر المسجد الحرام بعد أن كان قد أمره ان يصلِّي الى البيت المقدس هو وأمَّته، فصلّى الى بيت المقدس بعد مَقْدَمِهِ المدينة بضعة عشر شهرًا، وصلّى اليها قبل مَقْدَمِهِ المدينة.

قال السعدي: أي: كل أهل دين وملّة، له وجهة يتوجَّه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتَّصف به النفوس حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتَّصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به.

قال ابن العثيمين: {فاستبقوا الخيرات}، أمر من الاستباق؛ والمراد به التسابق إلى الخيرات؛ وتعدى بنفسه دون حرف الجرّ كأنه ضمن معنى (افعلوا على وجه المسابقة)؛ وفائدة تضمين الفعل فعلًا آخر لأجل أن يدلَّ التَّضمين على المعنيين، كقوله تعالى: {عينا يشرب بها عباد الله}[الإنسان: ٦].

قال السعدي: والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها، يتضمن فعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكوات وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر. ولما كان أقوى ما يحثّ النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها، ما رتَّب الله عليها من الثواب قال: {أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير}.

قال ابن العثيمين: {أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا}؛ {أين} شرطية؛ و{ما} زائدة للتوكيد؛ و{تكونوا} فعل الشرط مجزوم بحذف النون؛ والواو فاعل لأن {كان} هنا تامَّة وليست ناقصة؛ يعني: (أينما توجدوا يأت بكم الله)؛ و{يأت} جواب الشرط مجزوم بحذف الياء؛ والكسرة قبلها دليل عليها.

وقوله تعالى: {أينما تكونوا} في بَرّ أو بحر أو جو فإن الله يأتي بكم جميعًا، وذلك يوم القيامة حيث يحشر الله الأولين، والآخرين في مقام واحد.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٦١: {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا} يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تؤمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق. وهذا نظير قوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، المرجع إلى الله تعالى. وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومنهاجهم كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم فقال: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً}. وتحت هذا سرُّ بديع يفهمه من يفهمه وهو: أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبلة يكون أقربها إلى الحق ما كان أدلّ على الله وأوصل إليه، لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مردّ الجميع ورجوعهم كلُّهم إليه وحده في الدنيا، فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه، إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة، فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورًا وذهابًا في الطرق الباطلة وعبادة غيره ودانوا غير دينه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنين للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر، فتأمل هذا السِّرَّ البديع.

قال ابن العثيمين: {إن الله على كل شيء قدير}: هذه جملة خبرية مؤكَّدة بـ{إن}؛ عامة في كلِّ شيء من موجود، أو معدوم؛ و(القدرة) صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز.

قال السعدي: ويستدلّ بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتّصف بها العمل كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج والعمرة وإخراج الزكاة والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الأمم قد تختلف مناهجها وإن اتَّفقت على أصل واحد وهو الإسلام؛ ونعني بـ(الإسلام) المعنى العام؛ وهو الاستسلام لله بشرائعه القائمة التي لم تنسخ.

٢- أن الإنسان يجب عليه أن يتَّبع الحق أينما كان؛ ولا ينظر إلى كثرة المخالف؛ لا يقل: الناس على كذا فكيف أشذ عنهم! بل يجب عليه أن يتبع الحق؛ لأن قوله تعالى: {ولكل وجهة} يشمل الوجهة الشرعية، والوجهة القدرية؛ يعني ما وجَّه الله العباد إليه شرعًا، وما وجههم إليه قدرًا؛ الوجهة القدرية معروفة: فمن الناس من يهديه الله تعالى فيكون اتِّجاهه إلى الحق؛ ومن الناس من يخذل فيضل، ويكون اتجاهه إلى الباطل؛ فالوجهة التي يتَّبعها المشركون واليهود والنصارى وما أشبه

ذلك هذه وجهة قدرية؛ أمَّا شرعية فلا؛ لأن الله ما شرع الكفر أبدًا؛ ولا شرع شيئًا من خصال الكفر؛ والوجهة الشرعية: اختلاف الشرائع بين الناس؛ فلا تظن أن اختلاف الشريعة الإسلامية عن غيرها معناه أنها ليست حقًّا؛ فإنها الحق من الله.

٣- وجوب المسابقة إلى الخير؛ لقوله تعالى: {فاستبقوا الخيرات}.

٤- أن الأمر يقتضي الفورية؛ لأن الاستباق إلى الخير لا يكون إلّا بالمبادرة إلى فعله؛ فهذه الآية مما يستدلُّ به على أن الأمر المطلق للفورية.

٥- البلاغة التامَّة في قوله تعالى: {فاستبقوا الخيرات} دون (استبقوا إلى الخيرات) – وإن كان بعض الناس يقولون: إنها نزع منها حرف الجر؛ وليس بصحيح؛ لأن {فاستبقوا الخيرات} يشمل الاستباق إليها، والاستباق فيها؛ فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف؛ بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقًا؛ وهذا يشبهه قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}[الفاتحة: ٦]؛ فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط ويستمر فيه؛ ولهذا قال تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}[الفاتحة: ٦].

٦- إحاطة الله تعالى بالخلق أينما كانوا؛ لقوله تعالى: {أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا}.

٧- الإشارة إلى البعث؛ لأن الإتيان بالجميع يكون يوم القيامة.

٨- إثبات عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير}؛ وقد قال الله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا}[فاطر: ٤٤].

وهناك كلمة يقولها بعض الناس فيقول: (إن الله على ما يشاء قدير)؛ وهذا لا ينبغي:

أولًا: لأنه خلاف إطلاق النص؛ فالنص مطلق.

ثانيًا: لأنه قد يفهم منه تخصيص القدرة بما يشاء الله دون ما لم يشأ؛ والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء.

ثالثًا: أنه قد يفهم منه مذهب المعتزلة القدرية الذين قالوا: (إن الله عز وجل لا يشاء أفعال العبد؛ فهو غير قادر عليها).

ولهذا ينبغي أن نطلق ما أطلقه الله لنفسه فنقول: (إن الله على كل شيء قدير)؛ أما إذا جاءت القدرة مضافة إلى فعل معيَّن فلا بأس أن تقيَّد بالمشيئة كما في قوله تعالى: {وهو على جمعهم إذا يشاء قدير}[الشورى: ٢٩]؛ فإن (إذا يشاء) عائدة على (الجمع)؛ لا على (القدرة)؛ فهو قدير على الشيء شاءه أم لم يشأْه؛ لكن جمعه لا يقع إلّا بالمشيئة؛ ومنه الحديث

في قصة الرجل الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى فقال: ((ولكنّي على ما أشاء قادر[١]))؛ لأنَّه يتكلَّم عن فعل معيَّن؛ ولهذا قال: ((قادر)): أتى باسم الفاعل الدالِّ على وقوع الفعل دون الصفة المشبهة (قدير) الدَّالَّة على الاتِّصاف بالقدرة[٢].

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)

قال ابن العثيمين: {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام}؛ ما أعظم هذا الحدث؛ ولهذا أكَّده الله عدَّة مرات؛ {من} حرف جر؛ و{حيث} مبنية على الضَّم؛ قال ابن مالك في عد المبنيات: (كأين أمس حيث والساكن كم).
و{خرجت}: الخطاب هنا إما أن يكون للرسول ﷺ؛ وإما أن يكون لكل من يتأتى خطابه؛ أي من حيث خرجت أيها الإنسان {فول وجهك شطر المسجد الحرام}: أي مستقبلًا له؛ وذلك عند الصلاة؛ و{شطر المسجد}: أي جهة المسجد؛ و{المسجد الحرام} هو المسجد الذي فيه الكعبة؛ لقول النبي ﷺ: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ... ([٣])))؛ بل لقوله تعالى: {هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفًا أن يبلغ محلَّه}[الفتح: ٢٥]؛ ووصف بالحرام لاحترامه، وتعظيمه.
{وإنه}: أي توليك شطر المسجد الحرام {للحق}، اللام هنا للتوكيد؛ فالجملة هنا مؤكَّدة بمؤكِّدين؛ أحدهما: {إن}؛ والثاني: اللام؛ وال{حق}: هو الشيء الثابت؛ لأنه محقوق، أي: مثبت؛ ومنه قوله تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون}[يونس: ٩٦]: {حقت} بمعنى ثبتت، ووجبت.
{من ربك}: تقدم الكلام عليها، وأنها ربوبية خاصة.
{وما الله بغافل}: الباء حرف جر زائد للتوكيد؛ والأولى أن نقول: الباء للتوكيد فقط؛ ولا نقول: زائد؛ لئلّا يفهم السامع أن في القرآن ما ليس له معنى؛ و{غافل} خبر {ما} منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر؛ و(الغفلة) الذهول.

١- أخرجه مسلم ص٧١٢، كتاب الإيمان، باب ٨٣، آخر أهل النار خروجا، رقم الحديث: ٤٦٣ [٣١٠] ١٨٧.
٢- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن (ان الله على كل شيء قدير) عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة. وآنظر كلام ابن العثيمين عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة البقرة، والآية (١٨٩) من سورة آل عمران.
٣- أخرجه البخاري ص٩٢، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب ١: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم ١١٨٩، أخرجه مسلم ص٩٠٩، كتاب الحج، باب ٩٥: فضل المساجد الثلاثة، حديث رقم ٣٣٨٤ [٥١١] ١٣٩٧.

{عما تعملون} بالتاء: خطاب للمسلمين؛ وفي قراءة: {عما يعملون} بالياء: خطاب لهؤلاء الذين اعترضوا على النبي ﷺ؛ فإن الله تعالى ليس بغافل عنهم؛ بل سوف يجازيهم بما يستحقون.

قال الطبري: فإن الله تعالى ذكره لَيس بساهٍ عن أعمالكم ولا بغافل عنها، ولكنه محصيها لكم حتى يجازيكم بها يوم القيامة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب التوجه إلى المسجد الحرام أينما كان الإنسان؛ لقوله تعالى: {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام}؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء ... }[البقرة: ١٤٤] الآية.

٢- تكرار الأمر الهام لتثبيته والثبات عليه ودفع المعارضة فيه؛ لأنه كلَّما كرَّر كان مقتضاه أن الأمر ثابت محكم يجب الثبوت عليه؛ وكون المسلمين ينقلون من وجهة إلى وجهة في القبلة أمر هام له شأن عظيم؛ ولهذا ارتدَّ من الناس حين حولت القبلة.

٣- إثبات حرمة المسجد الحرام، وتعظيمه؛ لقوله تعالى: {المسجد الحرام}؛ فالمسجد محترم معظَّم؛ حتى ما حوله صار محترَما معظَّما؛ فالبلد كله آمن حتى الأشجار التي لا إحساس لها آمنة في هذا المكان؛ ولهذا حرَّم النبي ﷺ أن يختلى خلاها، أو يعضد شوكها(١)، أو يقطع شجرها(٢)، كل هذا لاحترام هذا المكان، وتعظيمه.

٤- أن التوجُّه إلى الكعبة هو الحق؛ لقوله تعالى: {وإنَّه للحقُّ من ربك} فأثبت فيه الحقّية مؤكدًا بـ{إن}، واللام.

٥-كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}.

٦- إضافة العمل إلى الإنسان، فيكون فيه ردّ على الجبرية؛ لقوله تعالى: {عما تعملون}؛ ولا شكّ أن الإنسان يضاف إليه عمله؛ وعمله كسبه - إن كان في الخير - واكتسابه - إن كان في الشر - كما قال تعالى: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت}[البقرة: ٢٨٦].

والناس في هذه المسألة أعني مسألة أعمال العباد ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١- راجع البخاري ص١٤٤، كتاب جزاء الصيد، باب ١٠: لا يحل القتال بمكة، حديث رقم ١٨٣٤؛ ومسلما ص٩٠٣، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها، وشجرها، ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، حديث رقم ٣٣٠٢ [٤٤٥] ١٣٥٣.

٢- راجع البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٩: كتابة العلم، حديث رقم ١١٢؛ ومسلما ص٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها ... ، حديث رقم ٣٣٠٦ [٤٤٨] ١٣٥٥.

القسم الأول: من يرون أن الإنسان مجبر على العمل؛ لا يفعل شيئًا باختيار أبدًا؛ وما فعله الاختياري إلا كفعله الاضطراري: فمن نزل من السطح على الدرج درجة درجة هو كمن سقط بدون علمه من أعلى السطح؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهمية؛ وهو مذهب باطل تردّه الأدلة السمعية والعقلية.

القسم الثاني: من يرون أن الإنسان مستقل بعمله وأن الله سبحانه وتعالى لا يصرف العبد إطلاقًا؛ فالعبد له الحرية الكاملة في عمله ولا تعلق لمشيئة الله به، ولا تعلق لتقدير الله وخلقه بعمل الإنسان، وهذا مذهب المعتزلة القدرية؛ وهو مذهب باطل للأدلة السمعية والعقلية. وكلا القسمين مع بطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة.

القسم الثالث: يرون أن فعل العبد باختياره؛ وله تعلق بمشيئة الله؛ فمتى فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالى قد شاءه وقدره؛ وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريد؛ بل كل ما وقع فهو مراد لله مخلوق له؛ ووجه كون فعل العبد مخلوقًا لله؛ أن الإنسان مخلوق لله؛ وفعله كائن بأمرين: بعزيمة صادقة؛ وقدرة؛ والله عز وجل هو الذي خلق العزيمة الصادقة والقدرة؛ فالإنسان بصفاته وأجزائه وجميع ما فيه كله مخلوق لله عز وجل.

هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعا؛ لأن الذين قالوا: (إن الإنسان مجبر) أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر؛ والذين قالوا: (إنه مستقل) أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة والجماعة والحمد لله أخذوا بأيديهم بالدليلين وقالوا: الإنسان يفعل باختياره؛ ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عز وجل؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رفع عنه حكمه؛ فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ والمكره على الشيء لا حكم لفعله ولا لقوله؛ بل أبلغ من ذلك، الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل؛ لكنه لجهله يعفى عنه؛ كل ذلك يدلُّ على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)

قال الطبري: من أيّ مكان وبُقعة شَخصتَ فخرجت يا محمد، فولِّ وجهك تلقاء المسجد الحرام، وهو شَطره. ويعني بقوله: {وحيث ما كنتم فولُّوا وُجوهكم}: وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولُّوا وجوهكم في صلاتكم تُجاهه وقِبَله وقَصْدَه.

قال القرطبي: قيل: هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة وإهتمام بها، لأن موقع التحويل كان صعبًا في نفوسهم جدًّا، فأكَّد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخفُّ عليهم وتسكن نفوسهم إليه. وقيل: أراد بالأول: ولِّ وجهك شطر الكعبة، أي عاينها إذا صلَّيت تلقاءها. ثم قال: {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ} معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}؛ ثم قال {ومن حيث خرجت}: يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمرًا بالتوجُّه إلى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض.

قلت: هذا القول أحسن من الأول، لأن فيه حمل كل آية على فائدة. وقد روى الدار قطني عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كان في سفر فأراد أن يصلِّي على راحلته استقبل القبلة وكبَّر ثم صلَّى حيث توجَّهَت به. أخرجه أبو داود أيضًا، وبه قال الشافعي وأحمد وأبو ثور. وذهب مالك إلى أنه لا يلزمه الاستقبال، لحديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلِّي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته.. قال: وفيه نزل {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}[البقرة : ١١٥]، وقد تقدَّم([1]).

قلت: ولا تعارض بين الحديثين لأن هذا من باب المطلق والمقيَّد، فقول الشافعي أولى، وحديث أنس في ذلك حديث صحيح.

قال ابن العثيمين: {لئلَّا يكون للناس عليكم حجَّة}؛ {لئلَّا} اللام هنا للتعليل اقترنت بها {أن} المصدرية، و{لا} النافية؛ و{يكون} فعل مضارع منصوب بـ{أن} المصدرية؛ ولا يضر الحيلولة بين الناصب والمنصوب بـ{لا} النافية؛ و {حجة} اسم {يكون} إن كانت ناقصة؛ أو فاعل إن كانت تامَّة؛ والمراد بال{ناس} كل من احتج على المسلمين بتحولِّهم من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وقد احتجَّ على المسلمين في هذه المسألة اليهود والمشركون والمنافقون؛ فالحجَّة التي احتجَّ بها اليهود لها جهتان:

الأولى: أنهم قالوا: إن الرجل ترك ملَّتنا إلى ملَّة آبائه.

والجهة الثانية: أنه لو بقي على استقبال بيت المقدس لقالوا: ليس هذا النبي هو الذي جاء وصفه في التوراة.

وأما حجة المشركين فقالوا: إنه متبع هواه؛ فقد داهن اليهود أول أمره، ثم عاد واستقبل الكعبة؛ وقالوا: (هذا الرجل خالفنا في عقيدتنا وخالفنا في ملَّتنا حين هاجر إلى المدينة، ثم رجع إلى قبلتنا؛ فسيرجع إلى ديننا).

وأما حجَّة المنافقين فقالوا: إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبيًّا حقًّا لثبت على دينه. وهذه عادة أهل الباطل يموِّهون، ويقلِّبون الحق باطلًا؛ لأنهم يريدون غرضًا سيِّئًا؛ بل إن تحوله إلى استقبال الكعبة مع هذه الاعتراضات، والمضايقات دليل على أنه رسول الله حقًّا فاعل ما يؤمر به.

١- (قلت): مسلم (٧٠٠).

وقوله تعالى: {عليكم}: الضمير يعود على الرسول ﷺ والمؤمنين؛ لأن كل حجَّة يحتجُّ به على الرسول للتلبيس وإبطال الدعوة، فهي في الحقيقة حجَّة على جميع أتباعه؛ لأن أتباعه إنما تبعوه لأنه على الحق؛ فإذا جاء من يلبس صار ذلك تلبيسًا على جميعهم التابع والمتبوع.

{إلَّا الذين ظلموا منهم}؛ المراد بهم المعاندون المكابرون الذين لا يرعون للحق مهما تبيَّن؛ واختلف في الاستثناء أهو متصل، أم منقطع؟ فمنهم من قال: إنه متصل؛ ومنهم من قال: إنه منقطع.

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد م٤ص١٧٣ في الاستثناء الذي ورد في هذه الآية: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجَّة ههنا المراد بها الحجَّة الصحيحة الحق. والحجَّة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجَّة الحق الصحيحة كقوله: {وتلك حجتنا ءاتينها إبراهيم على قومه}[الأنعام: ٨٣]، وقوله: {قل فلله الحجة البالغة}[الأنعام: ١٤٩].

الثاني: ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق، أو بباطل كقوله: {فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله}[آل عمران: ٢٠]، وقوله: {وإذا تتلى عليهم ءايتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا آئتوا بآبائنا إن كنتم صادقين}[الجاثية: ٢٥]، وقوله: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهم في ربه}[البقرة: ٢٥٨]، وقوله: {والذين يحاجون في الله من بعد ما آستجيب له حجتهم داحضة عند ربهم}[الشورى: ١٦]، واذا كانت الحجَّة اسمًا لما يحتجُّ به من حق أو باطل، صح استثناء حجَّة الظالمين من قوله: {لئلَّا يكون للناس عليكم حجَّة}، وهذا في غاية التحقيق والمعنى أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة فلا تخشوهم واخشوني.

قال شيخ الإسلام في الإقتضاء ج١ص١٠٠: قال غير واحد من السلف: معناه، لئلّا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة، فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجَّة، اذ الحجَّة: اسم لكل ما يحتج به من حق وباطل {إلَّا الذين ظلموا} وهم قريش، فإنهم يقولون: عادوا الى قبلتنا فيوشك أن يعودوا الى ديننا. فبيَّن سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغيرها مخالفة الناس الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل. ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة، فإن الكافر اذا اتُّبع في شيء من أمره كان له في الحجَّة مثل ما كان أو قريب مما كان لليهود من الحجَّة في القبلة.

قال ابن العثيمين: {فلا تخشوهم واخشوني}: يعني مهما قال الذين ظلموا من كلام، ومهما قالوا من زخارف القول، ومهما ضايقوا من المضايقات فلا تخشوهم؛ و(الخشية)، و(الخوف) متقاربان؛ إلا أن أهل العلم يقولون: إن الفرق أن (الخشية) لا تكون إلَّا عن علم؛ لقوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}[فاطر: ٢٨]، بخلاف (الخوف)، فقد

يخاف الإنسان من المخوّف وهو لا يعلم عن حاله؛ والفرق الثاني: أن (الخشية) تكون لعظم المخشي؛ و(الخوف) لضعف الخائف وإن كان المخوّف ليس بعظيم، كما تقول مثلًا: الجبان يخاف أن يكون شجاعًا؛ وعلى كل حال إن صح هذا الفرق فهو ظاهر؛ لكن الفرق الأول واضح؛ وهو أن (الخشية) إنما تكون عن علم.

وأتى بالأمر {واخشوني} بعد النهي؛ لأنه كما يقال: التخلية قبل التحلية؛ أزل الموانع أولًا ثم أثبت؛ فأوّلًا فرغ قلبك من كل خشية لغير الله، ثم مكّن خشية الله من قلبك؛ فأنت أزل الشوائب حتى يكون المحل قابلًا؛ فإذا كان المحل قابلًا فحينئذ يكون الوارد عليه واردًا على شيء لا ممانعة فيه؛ والأمر هنا للوجوب بلا شك؛ الواجب على المرء أن يخشى الله وحده.

قال أبو زهرة: الخشية نوعان: خشية الله تعالى وهي طمأنينة في القلوب تبعث على التَّوقِّي مما يُغضب الله تعالى، وهذه هي الخشية من الله تعالى وقد أمرنا بها، وأن تمتلئ قلوبنا بالاطمئنان مع التوقي مما يغضب الله.

والخشية الأخرى الخوف والفزع، وهي ما نهانا الله تعالى عنه، فنهى أن نخاف، أو أن نفزع، أو أن نتوقع الأذى من هؤلاء الظالمين، وأن نخشى الله تعالى فتمتلئ نفوسنا بالاطمئنان والتقوى.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٢٠٦: فَنَهَى عَنْ خَشْيَةِ الظَّالِمِ وَأَمَرَ بِخَشْيَتِهِ وقال: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلَّا اللَّهَ}. وَقَالَ: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}. وَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: يَا رَبِّ إنِّي أَخَافُك وَأَخَافُ مَنْ لَا يَخَافُك وَهَذَا كَلَامٌ سَاقِطٌ لَا يَجُوزُ؛ بَلْ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَخَافَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَخَافُ أَحَدًا لَا مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَلَا مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ أَخَسُّ وَأَذَلُّ أَنْ يُخَافَ فَإِنَّهُ ظَالِمٌ وَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ فَالْخَوْفُ مِنْهُ قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

قال ابن العثيمين: {ولأتمَّ نعمتي عليكم} معطوفة على قوله تعالى: {لئلّا يكون}؛ وإتمام الشيء: بلوغ غايته؛ والغالب أنه يكون في الكمال؛ وال{نعمة} هي ما ينعم به الإنسان؛ ويقال: (نِعمة) بكسر النون؛ ويقال: (نَعمة) بالفتح؛ لكن الغالب في نعمة الخير أن تكون بالكسر؛ و(النَعمة) بالفتح: التنعم من غير شكر، كما قال تعالى: {ونعمة كانوا فيها فاكهين}[الدخان: ٢٧]، وقال تعالى: {وذرني والمكذبين أولي النعمة}[المزمل: ١١]، ونزلت هذه الآية في أول الهجرة عند تحويل القبلة يعني في السنة الثانية ولا يعارضها قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي}[المائدة: ٣]؛ وقد نزلت في يوم عرفة في حجة الوداع؛ لأن المراد في آية المائدة: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي}، الإتمام العام في كل الشريعة؛ أما هنا: {ولأتمَّ نعمتي عليكم}: في هذه الشريعة الخاصة وهي استقبال الكعبة بدلًا عن بيت المقدس؛ لأنه سبق أن الرسول ﷺ كان يقلّب وجهه في السماء ينتظر متى يؤمر بالتوجُّه إلى الكعبة؛ فلا شك أنه من نعمة الله عز وجل أن أنعم على المسلمين بأن يتّجهوا إلى هذا البيت الذي هو أول بيت وضع للناس، والذي

كما قال بعض أهل العلم هو قبلة جميع الأنبياء، كما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله ويحتمل وجها آخر في الجمع بين الآيتين: بأن هذه الآية جاءت بصيغة المضارع الدالُّ على الاستمرار؛ وآية المائدة بصيغة الماضي الدالُّ على الانتهاء.

وأضاف الله سبحانه وتعالى النعمة إليه؛ لأنه عز وجل صاحبها: هو الذي يسديها، ويوليها على عباده؛ ولولا نعم الله العظيمة ما بقي الناس طرفة عين؛ وانظر إلى قوله تعالى: {إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم}[الفاتحة]؛ في النعمة قال: {أنعمت عليهم}؛ لأن النعمة من الله وحده، كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله}[النحل: ٥٣]؛ وأمَّا الغضب على المخالف في دين الله، فيكون من الله، ومن أولياء الله، من الرسل، وأتباعهم.

قال السعدي: ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة، نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته، لم يزل يتزايد، وكلَّما شرع لهم شريعة، فهي نعمة عظيمة قال: {ولأتم نعمتي عليكم}، فأصل النعمة، الهداية لدينه، بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم وأعطى أمته ما أتمَّ به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} فلله الحمد على فضله، الذي لا نبلغ له عدًّا، فضلًا عن القيام بشكره.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد م٢ص٢٣: هل لله على الكافر نعمة أم لا؟ فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين، فمن ناف محتج بقوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، وبقوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً}، فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ}، وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي؟. ومن مثبت محتج بقوله: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا}؛ وقوله لليهود: {يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}؛ وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: {كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}، وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا، واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقرٌّ لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

(وفصل الخطاب في المسألة): أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير

مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك، فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب، وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب.

قال ابن العثيمين: {ولعلكم تهتدون}؛ {لعل} هنا للتعليل؛ أي: تكتسبون علمًا وعملًا؛ وهذه هي العلَّة الثالثة؛ العلَّة الأولى: {لئلَّا يكون للناس عليكم حجَّة إلا الذين ظلموا منهم}؛ والعلَّة الثانية: {ولأتمَّ نعمتي عليكم}؛ والثالثة: {ولعلكم تهتدون}؛ وسيأتي بيان أنواع الهداية.

قال السعدي: {ولعلكم تهتدون}: أي تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى – من رحمته – بالعباد قد يسَّر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبَّههم على سلوك طرقها وبيَّنها لهم أتم تبيين، حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه فيتضح بذلك الحق وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحًا ظاهرًا، فلله الحمد على ذلك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تكرير الأمر الهام وذلك لتثبيته، وتسرُّ به النفوس، وبيان أهميته.

٢- وجوب استقبال الكعبة أينما كان الإنسان؛ قال أهل العلم: من أمكنه مشاهدة الكعبة فالواجب إصابة عينها؛ ومن لم تمكنه كفى استقبال جهتها؛ لقوله تعالى: {فاتَّقوا الله ما استطعتم}؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: {قد نرى تقلُّب وجهك في السماء}[البقرة: ١٤٤] الآية.

٣- دفع ملامة اللائمين ما أمكن؛ لقوله تعالى: {لئلَّا يكون للناس عليكم حجة}.

٤- أن الظالم لا يدفع ملامته شيء؛ بمعنى أنه سيلوم وإن لم يكن محل لوم؛ لقوله تعالى: {إلَّا الذين ظلموا منهم}.

٥- أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله؛ ولكن حججهم باطلة.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججًا لينقض عليهم منها، فيبطلها؛ قال الله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون}[الأنبياء: ١٨].

٦- وجوب تنفيذ شريعة الله عز وجل، وألَّا يخشى الإنسان لومة لائم.

٧- وجوب خشية الله تعالى؛ لأنه هو الذي بيده النفع والضرر.

٨- نعمة الله تبارك وتعالى على هذه الأمة وفضله وإحسانه لقوله تعالى: {ولأتمَّ نعمتي عليكم}.

٩- إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى لقوله تعالى: {ولأتم ... ولعلكم تهتدون}.

١٠- أن تنفيذ أوامر الله وخشيته سبب للهداية؛ والهداية نوعان: هداية علمية وهداية عملية؛ ويقال: هداية الإرشاد وهداية التوفيق.

فـ(الهداية العلمية): معناها أن الله يفتح على الإنسان من العلم ما يحتاج إليه لأمور دينه ودنياه.

و(الهداية العملية): أن يوفق للعمل بهذا العلم.

الأولى: وسيلة، والثانية: غاية؛ ولهذا لا خير في علم بدون عمل؛ بل إن العلم بدون عمل يكون وبالًا على صاحبه؛ والهداية هنا شاملة للعلمية، والعملية؛ ووجه كونها شاملة: أنهم لم يعلموا أن مرضاة الله بالتوجُّه إلى الكعبة إلَّا بما علَّمهم الله؛ ثم إن الله وفقهم للعمل به؛ فلم يمانعوا أبدًا؛ بل إن أهل قباء أتاهم الخبر وهم يصلون صلاة الفجر وكانوا متَّجهين إلى بيت المقدس فاستداروا إلى الكعبة؛ فصار الإمام نحو الجنوب والمأمومون نحو الشمال؛ هذه هداية عملية عظيمة؛ لأن انتقال الإنسان إلى ما أمره الله به بهذه السهولة مع توقع المعارضات والمضايقات يدلُّ على قوة إيمانهم وثقتهم بربهم سبحانه وتعالى؛ وهكذا يجب على كل مؤمن إذا جاء أمر الله أن يمتثل الأمر؛ وسيجعل الله له من أمره يسرًا؛ لأن تقوى الله فيها تيسير الأمور؛ لقوله تعالى: {ومن يتَّق الله يجعل له من أمره يسرًا}.

١١- إثبات الحكمة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ولعلكم تهتدون}.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

قال ابن العثيمين: {كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم}؛ هذه أيضًا منَّة رابعة وجِّهت إلى المؤمنين؛ والثلاث قبلها هي: قوله تعالى: {لئلَّا يكون للناس عليكم حجَّة}، وقوله تعالى: {ولأتمَّ نعمتي عليكم}، وقوله تعالى: {ولعلكم تهتدون}؛ يعني أن نعمة الله عز وجل علينا بالتوجُّه إلى الكعبة بدلًا عن بيت المقدس عظيمة، كما أن نعمته علينا بالرسول ﷺ عظيمة؛ و (الإرسال) بمعنى البعث؛ يعني أنه مرسل من الله سبحانه وتعالى.

قال السعدي: يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنِّعم المتمِّمة، ليس ذلك ببدع من إحساننا ولا بأوَّله، بل أنعمنا عليكم بأصول النِّعم ومتمِّماتها، فأبْلَغُها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه.

قال ابن العثيمين: {يتلو عليكم آياتنا}: يعني يقرأ عليكم آياتنا؛ فيأتي بها كما سمع.

قال السعدي: وهذا يعمُّ الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبيِّنة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلَّتكم أولًا على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامَّة، والعلم اليقيني.

{ويزكِّيكم}: أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتكم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحابّ والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

قال ابن العثيمين: {ويعلِّمكم الكتاب}: أي القرآن؛ وكان العرب أمِّيِّين لا يقرؤون، ولا يكتبون إلَّا النادر منهم.

{والحكمة}: هي أسرار الشريعة، وحسن التصرف بوضع كل شيء في موضعه اللائق به – بعد أن كانوا في الجاهلية يتصرَّفون تصرُّفًا أهوج من عبادة الأصنام، وقتل الأولاد، والبغي على العباد.

قال السعدي: قيل: {والحكمة}: هي السنة، وقيل: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها وتنزيل الأمور منازلها. فيكون – على هذا – تعليم السنة داخلًا في تعليم الكتاب، لأن السنة تبيِّن القرآن وتفسِّره وتعبِّر عنه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١ص٨: وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَبِهِمَا أَتَمَّ عَلَى أُمَّتِهِ الْمِنَّةَ. قَالَ تَعَالَى: {وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[البقرة: ١٥٠–١٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[آل عمران: ١٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ}[البقرة: ٢٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[الجمعة: ٢].

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْخَلِيلِ: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}[البقرة: ١٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}[الأحزاب: ٣٤]، وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ

الْعُلَمَاءِ، مِنْهُمْ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وقتادة وَالشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُمْ {الْحِكْمَةُ}: هِيَ السُّنَّةُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ أَزْوَاجَ نَبِيِّهِ أَنْ يَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِهِنَّ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَالْكِتَابُ: الْقُرْآنُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا كَانَ الرَّسُولُ يَتْلُوهُ هُوَ السُّنَّةُ[١].

قال ابن العثيمين: {ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}: أي من أمور الدين والدنيا؛ وهذه الجملة لتقرير ما سبق من تعليمهم الكتاب والحكمة.

قال السعدي: لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ وبسببه كان، فهذه النِّعم هي أصول النِّعم على الإطلاق، ولهي أكبر نِعَم يَنعمُ بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها؛ فلهذا قال تعالى: {فاذكروني أذكركم}.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج١ص٤٤٠: (فَصْلٌ: رَدُّ احْتِجَاجِهِمْ بِبَعْضِ الْآيَاتِ عَلَى خُصُوصِيَّةِ الرِّسَالَةِ): وَأَمَّا احْتِجَاجُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا}[البقرة: ١٥١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}[آل عمران: ١٦٤]. فَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨].

وَهَذَا فِي عُمُومِهِ نِزَاعٌ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَيَكُونَ الْمُرَادُ إِنَّا بَعَثْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ، إِذْ كُنْتُمْ لَا تُطِيقُونَ أَنْ تَأْخُذُوا عَنْ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِأَنْ أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ رَسُولًا بَشَرِيًّا، قَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ}[الأنعام:٨، ٩]. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِلْعَرَبِ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَإِنَّ مَا تَضَمَّنَ ذِكْرَ إِنْعَامِهِ عَلَى الْمُخَاطَبِينَ بِإِرْسَالِهِ رَسُولًا مِنْ جِنْسِهِمْ، وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ مُرْسَلًا إِلَى غَيْرِهِمْ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ خِطَابًا لِلْإِنْسِ كُلِّهِمْ، فَهُوَ أَيْضًا مُرْسَلٌ إِلَى الْجِنِّ، وَلَيْسَ مِنْ جِنْسِهِمْ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ إِذَا كَانَ خِطَابًا لِلْعَرَبِ بِمَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ؟ أَنْ يَكُونَ قَدِ امْتَنَّ عَلَى غَيْرِهِمْ بِذَلِكَ، فَالْعَجَمُ أَقْرَبُ إِلَى الْعَرَبِ مِنَ الْجِنِّ إِلَى الْإِنْسِ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ أَنَّ الْجِنَّ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ آمَنُوا بِهِ.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج١٦ص١٨٩: وَقَوْلُهُ: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ} يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ خُوطِبَ بِالْقُرْآنِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨]. فَالرَّسُولُ مِنْ أَنْفَسِ مَنْ خُوطِبَ بِهَذَا الْكَلَامِ، إِذْ هِيَ كَافُ الْخِطَابِ. وَلَمَّا خُوطِبَ بِهِ - أَوَّلًا - قُرَيْشٌ، ثُمَّ الْعَرَبُ، ثُمَّ سَائِرُ الْأُمَمِ، صَارَ يَخُصُّ وَيَعُمُّ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

١- (قلت): انظر كلام شيخ الإسلام عن الحكمة عند تفسير الآية (١٢٩).

وَفِيهِ مَا يَخُصُّ قُرَيْشًا كَقَوْلِهِ: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}[قريش: ١،٢]. وَقَوْلِهِ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ}[الزخرف: ٤٤].

وَفِيهِ مَا يَعُمُّ الْعَرَبَ وَيَخُصُّهُمْ كَقَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}[الجمعة: ٢]. وَالْأُمِّيُّونَ يَتَنَاوَلُ الْعَرَبَ قَاطِبَةً دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ. ثُمَّ قَالَ: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}[الجمعة: ٣]. فَهَذَا يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ دَخَلَ فِي – الْإِسْلَامِ بَعْدَ دُخُولِ الْعَرَبِ فِيهِ – إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمَا. فَإِنَّ قَوْلَهُ {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ}؛ أَيْ: فِي الدِّينِ دُونَ النَّسَبِ، إِذْ لَوْ كَانُوا مِنْهُمْ فِي النَّسَبِ لَكَانُوا مِنْ الْأُمِّيِّينَ.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ}[الأنفال: ٧٥].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُمْ، فَقَالَ: ((لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مُعَلَّقًا بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِسَ([1]))). فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى دُخُولِ هَؤُلَاءِ – لَا يَمْنَعُ دُخُولَ غَيْرِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ.

وَإِذَا كَانُوا هُمْ مِنْهُمْ فَقَدْ دَخَلُوا فِي قَوْلِهِ: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}[آل عمران: ١٦٤]، فَالْمِنَّةُ عَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ – عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ، سَابِقِهِمْ وَلَاحِقِهِمْ – وَالرَّسُولُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ إِنْسِيٌّ مُؤْمِنٌ. وَهُوَ مِنَ الْعَرَبِ أَخَصُّ؛ لِكَوْنِهِ عَرَبِيًّا جَاءَ بِلِسَانِهِمْ، وَهُوَ مِنْ قُرَيْشٍ أَخَصُّ.

وَالْخُصُوصُ يُوجِبُ قِيَامَ الْحُجَّةِ، لَا يُوجِبُ الْفَضْلَ، إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى لِقَوْلِهِ: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات: ١٣]. وَلِهَذَا كَانَ الْأَنْصَارُ أَفْضَلَ مِنَ الطُّلَقَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُمْ لَيْسُوا مِنْ رَبِيعَةَ وَلَا مُضَرَ، بَلْ مِنْ قَحْطَانَ. وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ هُودٍ لَيْسُوا مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ.

وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ لِحَدِيثِ أَسْلَمَ لَمَّا قَالَ: ((ارْمُوا فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا([2]))) ، وَأَسْلَمَ مِنْ خُزَاعَةَ وَخُزَاعَةُ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ. وَفِي هَذَا كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ؛ إِذْ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْأَنْصَارَ أَبْعَدُ نَسَبًا مِنْ كُلِّ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ مَعَ كَثْرَةِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ. وَمَعَ هَذَا هُمْ أَفْضَلُ مِنْ جُمْهُورِ قُرَيْشٍ، إِلَّا مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ – وَفِيهِمْ قُرَشِيٌّ وَغَيْرُ قُرَشِيٍّ. وَمَجْمُوعُ السَّابِقِينَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ غَيْرُ مُهَاجِرِي الْحَبَشَةِ.

فَقَوْلُهُ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ}[التوبة: ١٢٨] يَخُصُّ قُرَيْشًا، وَالْعَرَبَ، ثُمَّ يَعُمُّ سَائِرَ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ خِطَابٌ لَهُمْ. وَالرَّسُولُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَالْمَعْنَى لَيْسَ بِمَلَكٍ لَا يُطِيقُونَ الْأَخْذَ مِنْهُ، وَلَا جِنِّيٍّ.

ثُمَّ يَعُمُّ الْجِنَّ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ أُرْسِلَ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَالْقُرْآنِ خِطَابٌ لِلثَّقَلَيْنِ، وَالرَّسُولُ مِنْهُمْ جَمِيعًا، كَمَا قَالَ: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}[الأنعام: ١٣٠]، فَجَعَلَ الرُّسُلَ الَّتِي أَرْسَلَهَا مِنَ النَّوْعَيْنِ مَعَ أَنَّهُمْ مِنَ الْإِنْسِ.

١- البخاري في التفسير (٤٨٩٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٦/٢٣٠،٢٣١)، كلاهما عن أبي هريرة.

٢- البخاري في الجهاد (٢٨٩٩)، عن سلمة بن الأكوع.

فَإِنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ مُشْتَرِكُونَ – مَعَ كَوْنِهِمْ أَحْيَاءً نَاطِقِينَ مَأْمُورِينَ مَنْهِيِّينَ – فَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَنْكِحُونَ وَيَنْسِلُونَ، وَيَغْتَذُونَ وَيَنْمُونَ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُمْ. وَهُمْ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عَنْ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ، وَلَا تَنْكِحُ وَلَا تَنْسِلُ.

فَصَارَ الرَّسُولُ مِنْ أَنْفسِ الثَّقَلَيْنِ، بِاعْتِبَارِ الْقَدْرِ الْمُشْتَرِك بَيْنَهُمْ الَّذِي تَمَيَّزُوا بِهِ عَنْ الْمَلَائِكَةِ، حَتَّى كَانَ الرَّسُولُ مَبْعُوثًا إلَى الثَّقَلَيْنِ دُونَ الْمَلَائِكَةِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}[آل عمران: ١٦٤]، هُوَ كَقَوْلِهِ: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ}[البقرة: ٢٣١]، وَقَوْلِهِ: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٥١](١).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان نعمة الله تعالى علينا بإرسال الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولا}؛ لأن هذه الآية متعلقة بقوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم}[البقرة: ١٥٠]؛ فإن هذا من تمام النّعمة؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعبد بما شرع؛ ولا يمكن أن نعرف أن هذا مما يرضاه الله أن نتعبده به، وهذا مما لا يرضاه إلا بواسطة الرسل؛ ولو أن الإنسان وكِّل إلى عقله في العبادة ما عرف كيف يعبد الله؛ ولو وكِّل إلى عقله في العبادة ما اجتمع الناس على عبادة الله؛ لكان كل واحد يقول: هذا هو الصواب؛ ولو أن الإنسان وكِّل إلى عقله في العبادة ما كانت أمَّتنا أمة واحدة؛ فعلى كل حال لا يمكن لنا بمجرَّد عقولنا أن ندرك كيف نعبد الله؛ ومَثل يسير يبِّين ذلك: لو أمرنا بالتطهر للصلاة ـ ولم يبين لنا الكيفية ـ لتنازع الناس في ذلك وأخذ كل برأيه؛ فافترقت الأمة؛ فلولا أن الله أبان لنا كيف نعبده، ما عرفنا كيف نعبده، فهذا من نعمة الله علينا من إرسال هذا الرسول محمدًا ﷺ الذي بيَّن لنا كل شيء؛ ولهذا قال أبو ذر رضي الله عنه: ((تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا عندنا منه علم(٢)))؛ حتى الطيور في السماء علَّمنا عنها الرسول ﷺ.

١- (قلت): قال ابن العثيمين في القول المفيد: ولما كان المراد العرب، قال: {منهم} لا {من أنفسكم}، قال الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم}، وعلى هذا، فإذا جاءت: {من أنفسهم}؛ فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت {منهم}؛ فالمراد العرب.

٢- أخرجه أحمد ١٦٢/٥: حديث ٢١٧٧٠، وأخرجه ابن حبان ١٤٢/١ باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها، حديث رقم ٦٥، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٦٦/٢ رقم ١٦٤٧؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٦٧/٨، (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)، (تخريج صحيح ابن حبان: ٢٦٧/١، حديث ٦٥ حاشية (١)، وقال: إسناده صحيح.

٢- أن كون الرسول مِنَّا يقتضي أن تكون قريش أول من يصدِّق به؛ لأنهم يعرفونه ويعرفون نسبه ويعرفون أمانته؛ ولهذا وبَّخهم الله تعالى على الكفر به ووصفه بالضلال والجنون فقال جل وعلا: {ما ضل صاحبكم وما غوى}[النجم: ٢]، وقال جل وعلا: {وما صاحبكم بمجنون}[التكوير: ٢٢].

٣- أن النبي ﷺ بلَّغ جميع ما أوحي إليه على وجه الكمال؛ لقوله تعالى: {يتلو عليكم آياتنا}؛ فإن هذا يدلُّ على أن جميع الآيات التي أوحاها الله إليه قد تلاها؛ ولهذا القرآن ـ والحمد لله ـ مبيَّن لفظه ومعناه ليس فيه شيء يشتبه على الناس إلَّا اشتباهًا نسبيًّا بحيث يشتبه على شخص دون الآخر، أو في حال دون الأخرى؛ قال الله تعالى: {إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه}[القيامة: ١٧ ـ ١٩].

٤- أن من فوائد رسالة النبي ﷺ حصول العلم؛ لأن هذه الآيات كلها علم؛ لقوله تعالى: {يتلو عليكم آياتنا}.

٥- أن ما جاء به النبي ﷺ فهو من آيات الله الدالَّة على كمال ربوبيته وسلطانه ورحمته وحكمته سواء كان من الآيات الكونية أو الشرعية؛ لكن منها ما هو بيِّن ظاهر؛ ومنها ما يخفى على كثير من الناس إلا الرّاسخين في العلم؛ ومنها ما هو بين ذلك.

٦- أن الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ كلها تزكية للأمة وتنمية لأخلاقها ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة؛ ولهذا كان من القواعد المقرَّرة في الشريعة أنها تأتي بالمصالح الخالصة أو الراجحة، وتنهى عن المفاسد الخالصة أو الراجحة؛ فالخمر فيه مصالح ومفاسد؛ لكن مفاسده راجحة ولهذا حرم؛ الحَجْرُ على السفيه فيه مصالح وفيه مفاسد لكن مصالحه راجحة فلذلك قدمت المصالح؛ أو مصالح خالصة ـ فليس فيها مفاسد، كعبادة الله مثلًا؛ هذه قاعدة الشريعة؛ ولهذا قال تعالى: {ويزكِّيكم}.

٧- أن كل ما فيه تزكية للنفوس فإن الشريعة قد جاءت به؛ لقوله تعالى: {ويزكِّيكم}.

٨- أن وظيفة الرسول ﷺ، ومهمته التي جاء بها أنه يعلِّمنا الكتاب والحكمة.

٩- الرَّد على أهل التأويل، وأهل التجهيل؛ لقوله تعالى: {يعلِّمكم الكتاب} ـ أهل التأويل الذين يؤَوِّلون آيات الصفات ـ لأنه لو كان هذا التأويل من العلم لعلَّمنا إياه النبي ﷺ؛ فلمّا لم يعلِّمنا إياه علمنا أنه ليس من العلم الذي جاء به الرسول ﷺ؛ وأهل التجهيل ـ وهم طائفة يقولون: (إن الرسول ﷺ وأصحابه والأمة كلها لا تعلم معاني آيات الصفات وأحاديثها؛ فلا يدرون ما معناها؛ حتى النبي ﷺ يتكلم بالحديث من صفات الله ولا يدري معناها)!.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (١٨٠٣)، والحديث بتمامه: ((تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما قال: فقال صلى الله عليه وسلم : فذكره)). وقال رحمه الله: وله شاهد من رواية عمرو عن المطلب مرفوعا بلفظ: ((ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا قد أمرتكم به وما تركت شيئا مما نهاكم عنه إلا قد نهيتكم عنه)). وإسناده مرسل حسن.

١٠- أن الرسول ﷺ علّم الأمة لفظ القرآن ومعناه؛ ولهذا إذا استشكل الصحابة شيئًا من المعنى سألوه، فعلّمهم؛ ولكن الغالب أنهم لا يستشكلون؛ لأنه نزل بلغتهم وفي عصرهم، يعرفون معناه ومغزاه وأسبابه.

١١- اشتمال الشريعة على الحكمة؛ لقوله تعالى: {ويعلمكم الكتاب والحكمة}؛ فالشريعة متضمّنة للحكمة تضمُّنًا كاملًا؛ فما من شيء من مأموراتها ولا منهياتها إلا وهو مشتمل على الحكمة؛ لكن هنا حكمة لازمة لكل حكم؛ وهو طاعة الله ورسوله؛ فإن هذه أعظم حكمة؛ وهي ثابتة فيما نعقل حكمته وفيما لا نعقلها؛ ولهذا لما قالت المرأة لعائشة رضي الله عنها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: ((كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة([1]))؛ فبينت الحكمة من ذلك؛ وهو طاعة الله ورسوله؛ وهذه حكمة لازمة في كل حكم سواء عقل معناه أو لم يعقل.

١٢- أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: {ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون}؛ وهو مما يدلُّ على نقص الإنسان، حيث كان الأصل فيه الجهل؛ قال تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا}[النحل: ٧٨]؛ ثم قال عز وجل: {وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة}[النحل: ٧٨]؛ فبيَّن طرق العلم: {السمع والبصر}؛ وبهما الإدراك؛ و {الأفئدة}؛ وبها الوعي والحفظ.

١٣- فضل الله عز وجل حيث علَّمنا ما لم نكن نعلم؛ لقوله تعالى: {ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}؛ وهذا عام في كل ما نحتاج إلى العلم به من أمور الدنيا والآخرة.

إذا قال قائل: (اضربوا لنا مثلًا)، فماذا نقول؟

فالجواب: أن كل الشريعة مثال؛ فإننا لا نعرف كيف نصلِّي إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ ولا كيف نتوضأ، ولا مقدار الواجب في الأموال من الزكاة، ولا من تُصرف إليهم الزكاة، ولا غير ذلك من أمور الشريعة إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ وهناك أحكام قدرية لا نعرفها أيضًا علَّمنا الله سبحانه وتعالى إيّاها، كابتداء الكون، ونهايته: كخلق السموات، والأرض؛ واليوم الآخر؛ إذًا فعلومنا الشرعية والقدرية متلقاة من الرسول ﷺ؛ وليس لنا علم بها قبل تعليم النبي ﷺ.

١- أخرجه البخاري ص٢٧، كتاب الحيض، باب ٢٠: لا تقضي الحائض الصلاة، حديث رقم ٣٢١، وأخرجه مسلم ص٧٣٣، كتاب الحيض، باب ١٥: وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث رقم ٧٦٣ [٦٩] ٣٣٥.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

قال ابن العثيمين: {فاذكروني أذكركم}؛ {اذكروني} فعل أمر؛ فيه نون الوقاية؛ والياء مفعول به؛ والواو فاعل؛ وجواب فعل الأمر: {أذكركم}.

فقوله تعالى: {فاذكروني أذكركم} عمل وجزاء؛ العمل: ما أفاده قوله تعالى: {اذكروني}؛ والجزاء: ما أفاده قوله تعالى: {أذكركم}؛ وذكر الله يكون بالقلب واللسان والجوارح.

وقوله تعالى: {فاذكروني} فيها قراءة بفتح الياء؛ وقراءة بإسكانها؛ لأن ياء المتكلم من حيث اللغة العربية يجوز إسكانها وفتحها وحذفها تخفيفًا؛ لكنها في القرآن تتوقف على السَّماع.

قال السعدي: فأمر تعالى بذكره ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم([1]))). وذكر الله تعالى أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، أَخْبَرَنَا أَبِي أَخْبَرَنَا الْأَعْمَشُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ منه، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنَّ تقرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً([2]))).

١- (قلت): بهذا اللفظ صححه الإمام الألباني في تحقيق الإيمان لابن تيمية. وروى الحديث البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، وكلاهما عن أبي هريرة بلفظ: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)).

٢- إسناده على شرط البخاري ومسلم. عمر بن حفص هو ابن غياث من رجال البخاري ومسلم، وكذا من فوقه، الأعمش هو سليمان بن مهران، وأبو صالح اسمه ذكوان مشهور بكنيته.

- وهو في شرح السنة (١٢٤٤) بهذا الإسناد.

- رواه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (٧٤٠٥) عن عمر بن حفص بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري ٧٥٠٥ و٧٥٣٧ مختصرا ومسلم ٢٦٧٥ والترمذي ٣٦٠٣ وابن ماجه ٣٨٢٢ وأحمد (٢/ ٢٥١ و٤١٣ و٥١٦ و٥٣٤) وابن خزيمة في (التوحيد) (ص ٧) وابن حبان ٨١١ والبيهقي في الشعب (٥٥٠) وفي (الأسماء والصفات) من طريق أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ به.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ السَّمْعَانِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّيَّانِيُّ أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ زَنْجُوَيْهِ، أَخْبَرَنَا يَحْيَى بن عبيد اللَّهِ أَخْبَرَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بن عبيد الله، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ([١]))).

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا عبد الرحمن أَبِي شُرَيْحٍ، أَنَا أَبُو الْقَاسِمِ البغوي أخبرنا علي بن الْجَعْدِ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ ، أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ السَّكُونِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ المازني قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى([٢]))).

قال ابن العثيمين: {واشكروا لي}؛ {اشكروا} فعل أمر من (شكر)؛ أي قوموا بالشكر؛ واللام للاختصاص؛ وال{شكر} هو القيام بطاعة المنعم؛ وقد اختلف علماء العربية هل: {واشكروا لي}: بمعنى (اشكروني): أي أن الفعل يتعدى بنفسه تارة، وباللام أخرى؛ أو أن بينهما فرقا؟ فقال بعضهم: هي بمعناها، فيقال: شكره؛ ويقال: شكر له؛ وقال بعضهم: إنها ليست بمعناها؛ وأن (شكر) تتعدى بنفسها دائما، وأن المفعول هنا في نحو {واشكروا لي} محذوف؛ يعني: اشكروا لي ما أنعمت عليكم، أو نعمتي، أو ما أشبه ذلك؛ والخلاف في هذا قريب؛ لأن الجميع متفقون على أن المراد شكر الله عز وجل على نعمته.

١- حديث حسن صحيح. إسناده ضعيف لضعف يحيى بن عبيد الله، وهو ابن الضحاك الحراني ابن امرأة الأوزاعي، لكن لم يتفرد به حيث تابعه غير واحد.
أم الدرداء هي الصغرى اسمها هجيمة، ثقة في عداد التابعين. هو في (شرح السنة) (١٢٣٥) بهذا الإسناد. وأخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) وأحمد (٢/ ٥٤٠) والحاكم (١/ ٤٩٦) من طريقين عن الأوزاعي بهذا الإسناد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.
- وأخرجه البخاري في (خلق أفعال العباد) (ص ٨٧) من طريق ابن جابر والأوزاعي قالا: حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة عن أبي هريرة به.
- وأخرجه البيهقي في الشعب (٥١٠) من طريق ابن جابر يقول: حدثني إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت الحسحاس المزنية أنها قالت: حدثنا أبو هريرة ونحن في بيت هذه - يعني أم الدرداء.
- قال:.... فذكره. وأخرجه البيهقي ٥٠٩ من وجه آخر عن إسماعيل بن عبيد الله بالإسناد المتقدم.
الخلاصة: روي من عدة طرق عن الأوزاعي، والأوزاعي فمن فوقه رجال البخاري ومسلم، فهو حديث حسن أو صحيح. والله أعلم.

٢- حديث صحيح. إسناده حسن، إسماعيل بن عياش حسن الحديث في روايته عن أهل بلده، وهذا منها. فإن شيخه شامي، ولم ينفرد به بل تابعه غير واحد.
وهو في (شرح السنة) ١٢٣٨ بهذا الإسناد. أخرجه الترمذي ٣٣٧٥ وابن ماجه ٣٧٩٣ وأحمد (٤/ ١٩٠) وابن حبان ٨١٤ والحاكم (١/ ٤٩٥) من طريق معاوية بن صالح عن عمرو بن قيس به. وصححه الحاكم و وافقه الذهبي، واستغربه الترمذي ومعاوية بن قيس، صدوق له أوهام وقد خرج له مسلم، وشيخه ثقة.
وأخرجه أحمد (٤/ ١٨٨) من طريق علي بن عياش عن حسان بن نوح عن عمرو بن قيس به.
- وله شاهد من حديث معاذ بن جبل عن ابن السني في (اليوم والليلة) ٢ وابن حبان ٨١٨ والطبراني في (الكبير) (٢٠/ ٩٣ و١٠٧ و١٠٨) من طرق.
وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، صدوق يخطئ، وقال الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٧٤) : رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذه الطريق خالد بن يزيد عبد الرحمن بن أبي مالك، ضعفه جماعة، ووثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله ثقات. ورواه البزار من غير طريقه، وإسناده حسن اهـ.
الخلاصة: هو حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده، وقد صححه الشيخ شعيب في (الإحسان) والله الموفق.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (١٨٣٦)، والحديث بتمامه: عن عبد الله بن بسر المازني قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما: يا رسول الله! أي الناس خير؟ قال: طوبى لمن طال عمره وحسن عمله. وقال الآخر: أي العمل خير؟ قال: أن تفارق ... الحديث. وإسناده صحيح.

قال السعدي: والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصًا، ثم من بعده أمر بالشكر عمومًا فقال: {واشكروا لي} أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النِّعم، ودفعت عنكم صنوف النِّقم، والشكر يكون بالقلب إقرارًا بالنِّعم واعترافًا، وباللسان ذكرًا وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقيادًا لأمره واجتنابًا لنهيه؛ فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: {لئن شكرتم لأزيدنكم}، وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفِّقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك ليزيدهم من فضله وليندفع عنهم الإعجاب فيشتغلوا بالشكر.

قال ابن القيم في الفوائد ج١ص١٢٨: وَلَيْسَ الْمُرَاد بِالذكر مُجَرّد الذّكر اللِّسَاني، بل الذّكر القلبي واللساني، وَذكره يتضَمَّن ذكر أَسْمَائِهِ وَصِفَاته وَذكر أمره وَنَهْيه وَذكره بِكَلَامِهِ، وَذَلِكَ يسْتَلْزم مَعْرفَته وَالْإِيمَان بِهِ وبصفات كَمَاله ونعوت جَلَاله، وَالثنَاء عَلَيْهِ بأنواع الْمَدْح، وَذَلِكَ لَا يتم إِلَّا بتوحيده؛ فَذكره الْحَقِيقِيّ يسْتَلْزم ذَلِك كُله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إِلَى خلقه.

وَأما الشُّكْر فَهُوَ الْقيام بِطَاعَتِهِ والتقرب إِلَيْهِ بأنواع محابّه ظَاهرًا وَبَاطنًا، وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هما جماع الدّين، فَذكره مُسْتَلْزم لمعرفته، وشكره مُتَضَمّن لطاعته، وَهَذَانِ هما الْغَايَة الَّتِي خلق لأَجلهَا الْجِنّ وَالْإِنْس وَالسَّمَوَات وَالْأَرْض ووضع لأَجلهَا الثَّوَاب وَالْعِقَاب وَأنزل الْكتب وَأرْسل الرُّسُل، وَهِي الْحق الَّذِي بِهِ خلقت السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا، وضدها هُوَ الْبَاطِل والعبث الَّذِي يتعالى ويتقدس عَنهُ، وَهُوَ ظن أعدائه بِهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذين كفرُوا}، وَقَالَ: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَات وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}، وَقَالَ: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَات وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَة لآتِية}، وَقَالَ بعد ذكر آيَاته فِي أول سُورَة يُونُس: {مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ}، وَقَالَ: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً}، وَقَالَ: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}، وَقَالَ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْس إِلَّا ليعبدون}، وقال: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سبع سموات وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ على كل شَيْء قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء علمًا}، وَقَالَ: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْء عليم}، فَثَبت بِمَا ذكر أَن غَايَة الْخلق وَالْأَمر أَن يذكر وَأَن يشْكر، يذكر فَلَا ينسى، ويشكر فَلَا يكفر، وَهُوَ سُبْحَانَهُ ذَاكر لمن ذكره شَاكر لمن شكره، فَذكره سَبَب لذكره وشكره سَبَب لزيادته من فَضله، فالذكر للقلب وَاللِّسَان، وَالشُّكْر للقلب محبَّة وإنابة وللِّسان ثناء وَحمد، وللجوارح طَاعَة وخدمة.

وقال رحمه الله في عدة الصابرين ج١ص٩٧: قالوا: فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره، والصبر انما حُمِدَ لافضائه وايصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل

له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: ((أفلا أكون عبدا شكورًا([1]))). وثبت في المسند والترمذى أن النبي ﷺ قال لمعاذ: ((والله انى لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك([2]))), وقال ابن أبى الدنيا حدثنا اسحاق بن اسماعيل حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ اللهم ((أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك([3]))).

وقد ثبت في صحيح مسلم أنه قال: ((إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها([4])))، فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: {ورضوان من الله أكبر} في مقابلة شكره بالحمد. وقال الحسن البصرى: إن الله ليمتِّع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا ولهذا كانوا يسمّون الشكر (الحافظ) لأنه يحفظ النِّعم الموجودة، و(الجالب) لأنه يجلب النِّعم المفقودة. وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال لرجل من همذان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد. وقال عمر بن عبد العزيز: قيِّدوا نِعم الله بشكر الله، وكان يقال: الشكر قيد النِّعم. وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن ابتلى فأصبر. وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النِّعم، فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: {وأما بنعمة ربك فحدث} والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج٢ص٣٥٤: فالشكر مأمور به وهو واجب.

والشكر له أركان ثلاثة واجبة كلها:

* الأول: أن يقوم في القلب أنَّ النعمة من عند الله جل وعلا، فيكون القلب منطويًا على أن الفضل من الله جل وعلا لا من غيره {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}.

* والثاني: التحدث بهذه النعمة.

* والثالث: استعمالها فيما يُحِبُّ من أَنْعَمَ بها لا فيما يَسْخَط ويَكْرَهْ، وإذا قلنا إستعمالها فيما يُحِب: يشمل ما أَذِنَ به من جهة التغليب، يعني يشمل المباح من جهة التغليب وإلّا فالأَولى أن يقال: استعمالها فيما أَذِنَ به فيدخل فيه المباح، لأن

١- (قلت): البخاري (١١٣٠) عن المغيرة، بلفظ ((حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ، أَوْ سَاقَاهُ)) بدلاً من قوله: ((حتى تفطرت قدماه))، ومسلم (٢٨٢٠)، والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: ((يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٦٢).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في تحقيق الإحتجاج بالقدر لآبن تيمية (٤٥).

٤- (قلت): مسلم (٢٧٣٤)، عن أنس بن مالك.

من استعمل نِعم الله جل وعلا في الواجبات أو في المستحبات أو في المباحات فإنه شاكر، بخلاف من استعملها في المحرمات.

والشكر كما هو معلوم له تعلّق بالقلب وتعلُّق بالعمل؛ الشكر يكون بالقلب وبالعمل جميعًا. والعمل عمل اللِّسان وعمل الجوارح. فصار الشكر إذًا متعلقًا بالقلب واللسان والجوارح جميعًا بخلاف الحمد؛ الحمد ليس له تعلُّق بالعمل، والشكر له تعلُّق بالعمل. الحمد ثناء على من اتَّصف بالصفات الحسنة سواءٌ أكان مُنْعِمًا أم غير مُنْعِم، فليس الحمد في مقابلة النعمة، بل الحمد في مقابلة الصفات الحسنة.

وأما الشكر فهو في مقابلة نعمة؛ يشكر بقلبه يعني ينسب النعمة لله؛ ويشكر بلسانه بأن يتحدَّث بهذه النعمة، {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، لا يكتم نعمة الله عليه.

ويشكر بعمله بأن يستعملها في ما يحب المُنْعِم، كما قال جل وعلا: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}.

فإذًا صار الشكر غير الحمد، الحمد ثناء والشكر فيه عمل.

الشكر على نعمة وأما الحمد على أوصاف الكمال، فَتَحْمَدُ من لا تحب من جهة الإنصاف، تثني عليه بما هو أهله.

والله جل وعلا هو المحمود بكل لسان سبحانه وتعالى[١].

قال ابن العثيمين: {ولا تكفرون}؛ {لا} ناهية؛ والنون هنا نون الوقاية وليست نون الإعراب؛ ومثله قوله تعالى: {فإن للذين ظلموا ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون}[الذاريات: ٥٩]؛ ولهذا كانت مكسورة فيهما؛ و{لا تكفرون}: أي لا تجحدوني أو تجحدوا نعمتي؛ بل قوموا بشكرها وإعلانها وإظهارها.

قال السعدي: ولمَّا كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده فقال: {ولا تكفرون}، المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النِّعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عامًّا، فيكون الكفر أنواعًا كثيرة، أعظمه الكفر بالله ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب ذكر الله؛ للأمر به؛ مطلق الذكر واجب: يجب على كل إنسان أن يذكر ربَّه؛ بل كل مجلس يجلسه الإنسان ولا يذكر الله فيه ولا يصلِّي على النبي إلا كان عليه ترة ـ أي خسارة، وحسرة يوم

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن (الحمد والشكر) والفرق بينهما عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

القيامة؛ فالعبد مأمور بذكر الله؛ لكن ذكر الله ينقسم إلى فريضة من فرائض الإسلام؛ وإلى واجب من واجباته؛ وإلى سنة من سننه ـ بحسب ما تقتضيه الأدلة؛ إنما مطلق الذكر حكمه أنه واجب.

٢- أن من ذكر الله ذكره الله؛ لقوله تعالى: {أذكركم}؛ وكون الله يذكرك أعظم من كونك تذكره؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي؛ ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه))؛ وذكر الله يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فالأصل ذكر القلب كما قال ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب(١)))، فالمدار على ذكر القلب؛ لقوله تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه}[الكهف: ٢٨]؛ وذكر الله باللسان، أو بالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جدًا، كجسد بلا روح؛ وصفة الذكر بالقلب التفكر في آيات الله ومحبته وتعظيمه والإنابة إليه والخوف منه والتوكل عليه وما إلى ذلك من أعمال القلوب؛ وأما ذكر الله باللِّسان فهو النُّطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: (لا إله إلا الله)؛ وأما ذكر الله بالجوارح فبكل فعل يقرب إلى الله: القيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكون طائعًا لله؛ وحينئذ تكون ذاكرًا لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: {وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر}[العنكبوت: ٤٥]؛ قال بعض العلماء: أي لما تضمنته من ذكر الله أكبر؛ وهذا أحد القولين في هذه الآية.

٣- فضيلة الذكر؛ لأن به يحصل ذكر الله للعبد؛ وذكر الله للعبد أمر له شأن كبير عظيم؛ فليس الشأن بأن تذكر الله، أو أن تحب الله؛ ولكن الشأن أن يذكرك الله عز وجل، وأن يحبك الله عز وجل؛ ولهذا قال الله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}[آل عمران: ٣١]؛ فقال تعالى: {يحببكم الله}، لأن هذا هو الغاية المطلوبة.

٤- وجوب الشكر؛ لقوله تعالى: {واشكروا لي}؛ و(الشكر) يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب (الحمد)؛ ومتعلقه أعم من متعلق (الحمد)؛ فيختلفان إذا من حيث السبب؛ ويختلفان من حيث المتعلق؛ سبب (الحمد) كمال المحمود، وإنعام المحمود؛ فإذا كان سببه إنعام المحمود كان (الحمد) من (الشكر)؛ أما (الشكر) فسببه واحد؛ وهو نعمة المشكور؛ وأما متعلق (الحمد) فيكون باللسان فقط؛ وأما متعلق (الشكر) فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فـ(يدي) هذا الشكر بالجوارح؛ و(لساني) هذا الشكر باللسان ـ يعني القول؛ و(الضمير المحجبا) يعني القلب.

١- أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٩: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم ٥٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٥، كتاب المساقاة، باب ٢: أخذ الحلال وترك الحرام، حديث رقم ٤٠٩٤ [١٠٧] ١٥٩٩.

والشكر بالقلب أن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله عز وجل وحده؛ فيحب الله سبحانه وتعالى لهذا الإنعام؛ ولهذا ورد في الحديث: ((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه([1]))؛ فإن الإنسان إذا شعر بأن هذه النعمة من الله أحب الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها.

وأما الشكر باللسان فأن يتحدث الإنسان بنعمه لا افتخارًا؛ بل شكرًا؛ قال الله تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث}[الضحى: ١١]؛ وقال رسول الله ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر([2]))).

وأما الشكر بالجوارح فأن يقوم الإنسان بطاعة الله، ويصرف هذه النعمة لما جعلت له؛ فإن هذا من شكر النعمة.

٥- وجوب ملاحظة الإخلاص؛ لقوله تعالى: {واشكروا لي} يعني مخلصين لله عز وجل؛ لأن الشكر طاعة؛ والطاعة لابدَّ فيها من الإخلاص، كما قال تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}[الكهف: ١١٠].

٦- تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: {ولا تكفرون} ولهذا إذا أنعم الله على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه؛ فإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه:

أولًا: على سلوكه هو بنفسه بحيث يكون معروفا بعلمه، وعمله به.

ثانيًا: بنشر علمه ما استطاع، سواء كان ذلك على وجه العموم، أو الخصوص.

ثالثًا: أن يدعو إلى الله على بصيرة بحيث إنه في كل مجال يمكنه أن يتكلم في الدعوة إلى الله بقدر ما يستطيع حتى في المجالس الخاصة فيما إذا دعي إلى وليمة مثلًا، ورأى من المصلحة أن يتكلم فليتكلم؛ وبعض أهل العلم يكون معه كتاب، فيقرأ الكتاب على الحاضرين، فيستفيد ويفيد؛ وهذا طيب إذا علم من الناس قبول هذا الشيء بأن يكون قد عودهم على هذا فصاروا يرقبونه منه؛ أما إذا لم يعودهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده ـ سؤالًا مثلًا ـ حتى ينفتح المجال للناس، ويسألون، وينتفعون؛ لأن بعض طلبة العلم تذهب مجالسهم كمجالس العامة لا ينتفع الناس بها؛ وهذا لا شك أنه حرمان ـ وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يأتوا بما يوجب الإثم؛ فالذي ينبغي لطالب العلم ـ حتى وإن لم يسأل ـ أن يورد هو سؤالًا لأجل أن يفتح الباب للحاضرين، فيسألوا؛ وقد جاء جبريل

---

[1]- أخرجه الترمذي ص٢٠٤١، كتاب المناقب، باب ٣١، في مناقب أهل بيت النبي ﷺ، حديث رقم ٣٧٨٩، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١٥٠/٣، كتاب الهجرة، ومن مناقب أهل بيت رسول الله ﷺ؛ وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وقال الذهبي: "صحيح" (المرجع السابق) .

[2]- أخرجه أحمد ٢/٣، حديث رقم ١١٠٠٠؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٧٠، كتاب تفسير القرآن، باب ١٧: ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم ٣١٤٨؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٩، كتاب الزهد، باب ٣٧: ذكر الشفاعة، حديث رقم ٤٣٠٨؛ ومدار الحديث على علي بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، والحديث صحيح بطرقه وشواهده، منها ما أخرجه الدارمي في المقدمة بمعناه ٣٩/١، حديث رقم ٤٧؛ وما أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٣٥٥/٢ - ٣٥٦، وقال الألباني في تخريجه: صحيح الإسناد ٣٥٦/٢، وقال في صحيح الترمذي: صحيح ٧١/٣، حديث رقم ٢٥١٦ - ٣٣٦٩.

إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها؛ وقال النبي ﷺ: ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم([١])))؛ مع أن الذي يجيب الرسول ﷺ؛ ولكن جعله معلّمًا وهو يسأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)

قال ابن كثير: لَمَّا فَرَغَ تَعَالَى مِنْ بَيَانِ الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ شَرَعَ فِي بَيَانِ الصَّبْرِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِعْمَةٍ فَيَشْكُرُ عَلَيْهَا، أَوْ فِي نِقْمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ((عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ. لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ([٢]))).

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ أَجْوَدَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَصَائِبِ الصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ}[الْبَقَرَةِ: ٤٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى([٣]))).

قال السعدي: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين}. أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية {بالصبر والصلاة}، فالصبر هو: حبس النفس وكفّها عمّا تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤدّيها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها؛ فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه خصوصًا الطاعات الشاقّة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر وتجرّع المرارة الشاقّة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن ردَّه المكروه والمشقّة عن الصبر والملازمة عليها لم يدرك شيئًا وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلّا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشّاق خصوصًا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ويوجِد مقتضاها وهو التسخُّط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه واللَّجأ إليه والافتقار على الدوام. وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصِّلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة مجتمعًا فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبُّها فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله

١- أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٧: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان ... ، حديث رقم ٥٠؛ وأخرجه مسلم ص٦٨١، كتاب الإيمان، باب ١: بيان الإيمان والإسلام ... ، حديث رقم ٩٣ [١] ٨.

٢- صحيح : مسلم (٢٩٩٩).

٣- رواه أبو داود في السنن برقم (١٣١٩) من حديث حذيفة ﷺ. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

على ربه ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدِّب مستحضرًا لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه؛ لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة يوجب للعبد في قلبه، وصفًا وداعيًا يدعوه إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به وأخبر أنه {مع الصابرين}: أي مع من كان الصبر لهم خُلُقًا وصفة وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهَّل عليهم كل عظيم وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معيَّة خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعيَّة من الله لكفى بها فضلًا وشرفًا، وأما المعيَّة العامة، فهي معيَّة العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: {وهو معكم أين ما كنتم} وهذه عامَّة للخلق.

قال ابن العثيمين: {إن الله مع الصابرين}: هذه بشرى عظيمة لمن صبر؛ وقال تعالى: {مع الصابرين} لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الصلاة من الصبر؛ لأنها صبر على طاعة الله.

الوجه الثاني: أن الاستعانة بالصبر أشقّ من الصلاة؛ لأن الصبر مُرٌّ:

الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

فهو مُرّ يكابده الإنسان ويعاني ويصابر ويتغير دمه حتى من يراه يقول: هذا مريض.

الوجه الثالث: أنه إذا كان مع الصابرين فهو مع المصلِّين من باب أولى، بدليل أنه ثبت عن النبي ﷺ أن الإنسان المصلِّي يناجي ربه، وأن الله قِبَل وجهه([1])- وهو على عرشه سبحانه وتعالى.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٢ص١٥٢: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (الصَّبْرُ فِي الْقُرْآنِ فِي نَحْوِ تِسْعِينَ مَوْضِعًا). وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ نِصْفَانِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ؛ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ عَلَى سِتَّةَ عَشَرَ نَوْعًا:

الْأَوَّلُ: الْأَمْرُ بِهِ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}[البقرة: ١٥٣]، وَقَوْلِهِ: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}[البقرة: ٤٥]، وَقَوْلُهُ: {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا}[آل عمران: ٢٠٠]، وَقَوْلُهُ: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ}[النحل: ١٢٧].

١- راجع البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٣: حك البزاق باليد من المسجد، حديث رقم٤٠٦، وراجع صحيح مسلم ص٧٦٣، كتاب المساجد، باب ١٣: النهي عن البصاق في المسجد ... ، حديث رقم ١٢٢٣ [٥٠] ٥٤٧.

الثَّاني: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّهِ كَقَوْلِهِ: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}[الأحقاف: ٣٥]، وَقَوْلِهِ: {فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}[الأنفال: ١٥]، فَإِنَّ تَوْلِيَةَ الْأَدْبَارِ: تَرْكٌ لِلصَّبْرِ وَالْمُصَابَرَةِ. وَقَوْلِهِ: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[محمد: ٣٣]، فَإِنَّ إِبْطَالَهَا تَرْكُ الصَّبْرِ عَلَى إِتْمَامِهَا، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا}[آل عمران: ١٣٩]، فَإِنَّ الْوَهْنَ مِنْ عَدَمِ الصَّبْرِ.

الثَّالِثُ: الثَّنَاءُ عَلَى أَهْلِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ}[آل عمران: ١٧] الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[البقرة: ١٧٧]، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

الرَّابِعُ: إِيجَابُهُ سُبْحَانَهُ مَحَبَّتَهُ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}[آل عمران: ١٤٦].

الْخَامِسُ: إِيجَابُ مَعِيَّتِهِ لَهُمْ، وَهِيَ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، تَتَضَمَّنُ حِفْظَهُمْ وَنَصْرَهُمْ وَتَأْيِيدَهُمْ، لَيْسَتْ مَعِيَّةً عَامَّةً وَهِيَ مَعِيَّةُ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ، كَقَوْلِهِ: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[الأنفال: ٤٦]، وَقَوْلِهِ: {وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة: ٢٤٩].

السَّادِسُ: إِخْبَارُهُ بِأَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لِأَصْحَابِهِ، كَقَوْلِهِ: {وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[النحل: ١٢٦]، وَقَوْلِهِ: {وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ}[النساء: ٢٥].

السَّابِعُ: إِيجَابُ الْجَزَاءِ لَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ: {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل: ٩٦].

الثَّامِنُ: إِيجَابُهُ سُبْحَانَهُ الْجَزَاءَ لَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[الزمر: ١٠].

التَّاسِعُ: إِطْلَاقُ الْبُشْرَى لِأَهْلِ الصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[البقرة: ١٥٥].

الْعَاشِرُ: ضَمَانُ النَّصْرِ وَالْمَدَدِ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}[آل عمران: ١٢٥]، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ([١]))).

الْحَادِي عَشَرَ: الْإِخْبَارُ مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّ أَهْلَ الصَّبْرِ هُمْ أَهْلُ الْعَزَائِمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: ٤٣].

الثَّانِي عَشَرَ: الْإِخْبَارُ أَنَّهُ مَا يَلْقَى الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَجَزَاءَهَا وَالْحُظُوظَ الْعَظِيمَةَ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}[القصص: ٨٠]، وَقَوْلِهِ: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[فصلت: ٣٥].

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٣٨٢)، ولكن بلفظ: ((النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرا وإن مع العسر يسرا)).

الثَّالِث عَشَرَ: الْإِخْبَارُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ أَهْلُ الصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى: {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[إبراهيم: ٥]، وَقَوْلِهِ فِي أَهْلِ سَبَإٍ: {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[سبأ: ١٩]، وَقَوْلِهِ: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[الشورى: ٣٢].

الرَّابِع عَشَرَ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الْفَوْزَ الْمَطْلُوبَ الْمَحْبُوبَ، وَالنَّجَاةَ مِنَ الْمَكْرُوهِ الْمَرْهُوبِ، وَدُخُولَ الْجَنَّةِ، إِنَّمَا نَالُوهُ بِالصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[الرعد: ٢٣].

الْخَامِس عَشَرَ: أَنَّهُ يُورِثُ صَاحِبَهُ دَرَجَةَ الْإِمَامَةِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ – يَقُولُ: بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}[السجدة: ٢٤].

السَّادِس عَشَرَ: اقْتِرَانُهُ بِمَقَامَاتِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، كَمَا قَرَنَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْيَقِينِ وَبِالْإِيمَانِ، وَالتَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ، وَبِالشُّكْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالرَّحْمَةِ.

وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا جَسَدَ لِمَنْ لَا رَأْسَ لَهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَيْرُ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بِالصَّبْرِ. وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ ضِيَاءٌ. وَقَالَ: ((مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ([1]))).

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ([2]))).

وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُصْرَعُ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهَا: ((إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا([3]))).

وَأَمَرَ الْأَنْصَارَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِأَنْ يَصْبِرُوا عَلَى الْأَثَرَةِ الَّتِي يَلْقَوْنَهَا بَعْدَهُ، حَتَّى يَلْقَوْهُ عَلَى الْحَوْضِ. وَأَمَرَ عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ بِالصَّبْرِ. وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى. وَأَمَرَ ﷺ الْمُصَابَ بِأَنْفَعِ الْأُمُورِ لَهُ،

١- (قلت): البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: ((مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)).

٢- (قلت): مسلم (٢٩٩٩).

٣- (قلت): البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦)، والحديث بتمامه: عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: ((إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ» قَالَتْ: أَصْبِرُ، قَالَتْ: فَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ فَدَعَا لَهَا)).

وَهُوَ الصَّبْرُ وَالِاحْتِسَابُ. فَإِنَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ مُصِيبَتَهُ وَيُوَفِّرُ أَجْرَهُ. وَالْجَزَعُ وَالتَّسَخُّطُ وَالتَّشَكِّي يَزِيدُ فِي الْمُصِيبَةِ وَيُذْهِبُ الْأَجْرَ. وَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ كُلُّهُ، فَقَالَ: ((مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا لَهُ وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ(١))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين من فوائد الآية: ١- فضيلة الإيمان، وأنه من أشرف أوصاف الإنسان؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ... }.

٢- الإرشاد إلى الاستعانة بالصلاة؛ لقوله تعالى: {استعينوا بالصبر والصلاة}.

٣- بيان الآثار الحميدة للصلاة، وأن من آثارها الحميدة أنها تعين العبد في أموره.

٤- جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيه؛ لقوله تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة} وجاء في الحديث: ((وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة(٢))).

٥- أن الاستعانة بالصلاة من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا ... } إلخ.

٦- فضيلة الصبر؛ لأنه يعين على الأمور؛ والصبر ثقيل جدًّا على النفس؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق أو بلاء ثقل عليه تحمُّله فاحتاج إلى الصبر؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين}[هود: ٤٩]؛ فقال تعالى: {فاصبر} إشارة إلى أن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ يحتاج إلى صبر وتحمُّل؛ لأنه سيجد من ينازع ويضاد؛ ونظيره قوله تعالى: {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا}[الإنسان: ٢٣، ٢٤]؛ إذًا الصبر شاقٌّ على النفوس؛ لكن يجب على الإنسان أن يصبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير؛ والذي يصبر أيضًا غالبًا ينتظر الفرج لا سيما إذا صبر بإخلاص وحسن نية؛ وانتظار الفرج عبادة وباب للفرج؛ لقول النبي ﷺ: ((واعلم أن النصر مع الصبر؛ وأن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسرًا(٣)))؛ لأنه إذا كان منتظرًا للفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال؛ فإذا كان يؤمِّل الأجر في الآخرة، ويؤمِّل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيرًا؛ وهذه لا شك من

١- (قلت): البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: ((مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)). وقد مرّ قريبًا.

٢- أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد، باب ٧٢: فضل من حمل متاع صاحبه في السفر حديث رقم ٢٨٩١؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٣٥ [٥٦] ١٠٠٩، واللفظ لمسلم.

٣- أخرجه أحمد ٢٩٣/١، حديث رقم ٢٦٦٩؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٠٤ - ١٩٠٥، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩: حديث حنظلة، حديث رقم ٢٥١٦، وفي سنده قيس بن الحجاج، قال الحافظ في التقريب: صدوق، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٣٠٨/٢ - ٣٠٩، حديث رقم ٢٠٤٣.

الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمور تسهل بالصبر؛ مهما بلغتك الأمور اصبر، فتَهُون؛ ولهذا جعل الله الصبر عونًا.

٧- أن في الصبر تنشيطًا على الأعمال، والثبات عليها؛ لقوله تعالى: {إن الله مع الصابرين}؛ فإذا آمن الإنسان بأن الله معه ازداد نشاطًا وثباتًا؛ وكون الله سبحانه وتعالى مع الإنسان مسدِّدًا له ومؤيدًا له ومصبرًا له، لا شك أن هذه درجة عالية كل يريدها؛ ولهذا لما جاء النبي ﷺ إلى قوم يتناضلون قال: ((ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا وأنا مع بني فلان؛ قال الآخرون: يا رسول الله، إذا كنت معهم فلا نناضل؛ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم([1]))).

٨- إثبات معيَّة الله سبحانه وتعالى؛ ومعيَّته تعالى نوعان:

النوع الأول: عامة لجميع الخلق، ومقتضاها الإحاطة بهم علمًا وقدرة وسلطانا وسمعا وبصر وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ لقوله تعالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا}[المجادلة: ٧].

والنوع الثاني: خاصة؛ ومقتضاها مع الإحاطة: النصر والتأييد؛ وهي نوعان: مقيدة بوصف، كقوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}[النحل: ١٢٨]؛ ومقيَّدة بشخص، كقوله تعالى لموسى، وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى}[طه: ٤٦]، وقوله عن نبيه محمد ﷺ: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}[التوبة: ٤٠].

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

قال السعدي: لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور ذكر نموذجًا مما يستعان بالصبر عليه وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنيّة وأشقّها على النفوس لمشقَّته في نفسه ولكونه مؤدّيًا للقتل وعدم الحياة التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعى لها ودفع لما يضادها.

قال ابن العثيمين: {ولا تقولوا}؛ {لا} ناهية؛ ولهذا جزمت الفعل؛ وعلامة جزمه حذف النون.

{لمن يقتل في سبيل الله}: أي فيمن يقتل في سبيل الله؛ وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

{أموات}، خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم أموات.

١- أخرجه البخاري ص٢٣٣، كتاب الجهاد، باب ٧٨: التحريض على الرمي ... ، حديث رقم ٢٨٩٩.

فإن قال قائل: كيف لا نقول أموات وقد ماتوا؟

فالجواب: أن المراد هنا: لا تقولوا أموات موتًا مطلقًا – دون الموت الذي هو مفارقة الروح للجسد؛ فهذا موجود؛ ولولا أن أرواحهم فارقت أجسادهم لما دفنّاهم، ولكانوا باقين يأكلون ويشربون؛ ولكن الموت المطلق لم يقع منهم بدليل الإضراب الإبطالي في قوله تعالى: {بل أحياء}: يعني بل هم أحياء؛ فـ{أحياء}، خبر لمبتدأ محذوف؛ وهي جمع (حي)؛ والمراد: أحياء عند ربهم، كما في أية آل عمران؛ وهي حياة برزخية لا نعلم كيفيتها؛ ولا تحتاج إلى أكل وشرب وهواء يقوم به الجسد؛ ولهذا قال تعالى: {ولكن لا تشعرون}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص١١٠: فَالْقَلْبُ إذَا كَانَ حَيًّا فَمَاتَ الْإِنْسَانُ بِفِرَاقِ رُوحِهِ بَدَنَهُ كَانَ مَوْتُ النَّفْسِ فِرَاقَهَا لِلْبَدَنِ، لَيْسَتْ هِيَ فِي نَفْسِهَا مَيِّتَةً بِمَعْنَى زَوَالِ حَيَاتِهَا عَنْهَا.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ}[البقرة: ١٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ}[آل عمران: ١٦٩]، مَعَ أَنَّهُمْ مَوْتَى دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[آل عمران: ١٨٥]، وَفِي قَوْلِهِ: {إنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[الزمر: ٣٠]، وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}[الحج: ٦٦]، فَالْمَوْتُ الْمُثْبَتُ غَيْرُ الْمَوْتِ الْمَنْفِيِّ. الْمُثْبَتُ: هُوَ فِرَاقُ الرُّوحِ الْبَدَنَ، وَالْمَنْفِيُّ زَوَالُ الْحَيَاةِ بِالْجُمْلَةِ عَنْ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ، فَيُسَمَّى وَفَاةً وَيُسَمَّى مَوْتًا، وَإِنْ كَانَتْ الْحَيَاةُ مَوْجُودَةً فِيهِمَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[الزمر: ٤٢]. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ يَقُولُ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ([١]))، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَعَافَانِي فِي جَسَدِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا([٢]))، وَإِذَا أَوَى إلَى فِرَاشِهِ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْت نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا لَك مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا إنْ أَمْسَكْتهَا فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَك الصَّالِحِينَ([٣]))، وَيَقُولُ: ((بِاسْمِك اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا([٤]))).

١- البخاري في الدعوات (٦٣١٢) عن حذيفة، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١١/٥٩) عن البراء.

٢- كنز العمال (٢١٤١٨)، وعزاه لآبن السني عن أبي هريرة. وجزء من حديث عند الترمذي في الدعوات (٣٤٠١)، وقد حسنه.

- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧١٦)، بدون قوله: (وفضلني .... تفضيلا).

٣- (قلت): مسلم (٢٧١٢).

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد ١٢٠٥/٩١٩ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ: ((بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا)). وَإِذَا اسْتَيْقَظَ من منامه، قال: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ ما أماتنا، وإليه النشور)). وعند مسلم (٢٧١١) بلفظ: ((اللهمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا، وبِاسْمِكَ أَمُوتُ)).

قال السعدي: ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه الظاهر لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون. فالشهداء {أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين}.

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي وهو الفرح، والاستبشار وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش([1]).

وفي هذه الآية، أعظم حثّ على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم وزاد نوم النائم وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد: {اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون}.

فو الله لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفسًا فنفسًا في سبيل الله لم يكن عظيمًا في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنّى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلّا أن يُرَدّوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة. وفي الآية، دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٥ص٣٢٨: قال العلماء: وخُصَّ الشهيد بذلك؛ لئلّا يظن الإنسان أن الشهيد يموت فَيَفِرّ عن الجهاد خوفًا من الموت. وأخبر الله أنه حيّ مَرْزُوق؛ وهذا الوصف يوجَدُ أيضًا لغير الشهيد من النبيين والصدِّيقين وغيرهم، لكن خُصَّ الشهيد بالنهي لئلّا يَنْكُل عن الجهاد لفرار النُّفُوس من الموت.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٣ص٢٦٤: وَإِذَا كَانَ الشُّهَدَاءُ إِنَّمَا نَالُوا هَذِهِ الْحَيَاةَ بِمُتَابَعَةِ الرُّسُلِ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، فَمَا الظَّنُّ بِحَيَاةِ الرُّسُلِ فِي الْبَرْزَخِ؟ وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ: فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ ... وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خَيَالٌ سَارِي

١- (قلت): كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ برقم (١٨٨٧)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٨): ((إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَة تَحْتَ الْعَرْشِ، فاطَّلع عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطلاعة، فَقَالَ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ نَبْغِي، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُتْرَكُون مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا، قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، فَنُقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ، حَتَّى نُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ - فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي كتبتُ أنَّهم إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ)).

- وآنظر الأحاديث الواردة في فضل الشهداء ودرجتهم والأحكام الواردة فيهم عند تفسير الآية (١٦٩) من سورة آل عمران.

فَلِلرُّسُلِ وَالشُّهَدَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ يَقْظَةٌ مِنْ نَوْمِ الدُّنْيَا أَكْمَلُهَا وَأَتَمُّهَا، وَعَلَى قَدْرِ حَيَاةِ الْعَبْدِ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَكُونُ شَوْقُهُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَسَعْيُهُ وَحِرْصُهُ عَلَى الظَّفَرِ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قال ابن العثيمين: {ولكن لا تشعرون}: أي: لا تشعرون بحياتهم؛ لأنها حياة برزخيَّة غيبيَّة؛ ولولا أن الله عز وجل أخبرنا بها ما كنا نعلم بها.

قال القرطبي: وإذا كان الله تعالى يحييهم بعد الموت ليرزقهم – على ما يأتي – فيجوز أن يحيي الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر. والشهداء أحياء كما قال الله تعالى، وليس معناه أنهم سيحيون، إذ لو كان كذلك لم يكن بين الشهداء وبين غيرهم فرق إذ كل أحد سيحيا. ويدلُّ على هذا قوله تعالى: {وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ}، والمؤمنون يشعرون أنهم سيحيون. وارتفع {أموات} على إضمار مبتدأ، وكذلك {بل أحياء}: أي هم أموات وهم أحياء، ولا يصح إعمال القول فيه لأنه ليس بينه وبينه تناسب، كما يصح في قولك : (قلت كلامًا وحجَّة).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– النهي عن القول بأن الذين قتلوا في سبيل الله أموات؛ وهو يشمل القول بالقلب – وهو الاعتقاد، والقول باللسان – وهو النطق.

٢– التنبيه على الإخلاص في القتال؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله([1]))؛ وهذه مسألة مهمة؛ لأن كثيرًا من الناس قد يقصد أن هذا جهاد، فيخرج؛ لأنه جهاد وقتال لأعداء الله؛ لكن كونه يشعر بأن هذا في سبيل الله – أي في الطريق الموصل إلى الله أبلغ.

٣– إثبات حياة الشهداء؛ لكنها حياة برزخية لا تماثل حياة الدنيا؛ بل هي أجل، وأعظم، ولا تعلم كيفيتها.

٤– أن ثواب الله سبحانه وتعالى للعامل أجل، وأعلى؛ وذلك؛ لأن الشهيد عرض نفسه للموت ابتغاء ثواب الله؛ فأثابه الله، حيث جعله حيًّا بعد موته حياة برزخية أكمل من حياة الدنيا؛ لقوله تعالى: {عند ربهم يرزقون}[آل عمران: ١٦٩].

١– أخرجه البخاري ص٢٥١ – ٢٥٢، كتاب فرض الخمس، باب ١٠: من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره، حديث رقم ٣١٢٦، وأخرجه مسلم ص١٠١٨، كتاب الإمارة، باب ٤٢: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم ٤٩٢٠ [١٥٠] ١٩٠٤، واللفظ لمسلم.

٥- إثبات الحياة البرزخية؛ لقوله تعالى: {بل أحياء}؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا دفن الإنسان ردَّ الله عليه روحه، وجاءه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه[١].

٦- إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: {بل أحياء}.

٧- أن أحوال البرزخ، وعالم الغيب غير معلومة لنا، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)

قال السعدي: أخبر تعالى أنه لابدَّ أن يبتلي عباده بالمحن ليتبيَّن الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السَّرّاء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ولا ردّهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده.

قال ابن العثيمين: {ولنبلونَّكم بشيء من الخوف والجوع ... } هذه مصائب خمس؛ والجملة هنا مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات: القسم، واللام، والنون؛ والتقدير: والله لنبلونَّكم؛ والفعل هنا مع نون التوكيد مبني على الفتح؛ و{نبلو} بمعنى نختبر.

وقوله تعالى: {بشيء}: التَّنكير هنا للتقليل؛ ويحتمل أن يكون للتَّكثير.

وقوله تعالى: {من الخوف}: أي الذعر؛ وهو شامل للخوف العام والخوف الخاص؛ الخوف العام: كأن تكون البلاد مهدَّدة بعدو؛ والخوف الخاص: كأن يكون الإنسان يبتلى بنفسه بمن يخيفه ويروِّعه.

وقوله تعالى: {والجوع}: هو خلو البطن من الطعام مع شدة اشتهائه؛ وهو ضد (الشبع)؛ وله أسباب؛ السبب الأول: قلَّة الطعام؛ والسبب الثاني: قلَّة المال الذي يحصل به الطعام؛ والسبب الثالث: أن يصاب الإنسان بمرض يمنعه من الطعام إما لقلَّة الشهية، وإما للعجز عن استساغه لسدد في الحلق، أو قروح في المعدة، أو غير ذلك؛ والجوع لا يدرك أثره إلّا

١- راجع مسند الإمام أحمد ٤/٢٩٥ - ٢٩٦، حديث رقم ١٨٨١٥، وأبو داود ص١٥٧٢، كتاب السنة، باب ٢٣: المسألة في القبر وعذاب القبر، حديث رقم ٤٧٥٣، والترمذي مختصرا ص١٩٦٨، كتاب تفسير القرآن، باب ١٤: ومن سورة إبراهيم، حديث رقم ٣١٢٠، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٣/١٦٥ - ١٦٦، (صحيح). أهـ. وأصله في البخاري ومسلم.

مَن جرَّبه؛ بل كل المصائب لا يدرك أثرها إلا من جرَّبها؛ أما من لم يجرِّب فإنه لا يشعر بآثار المصائب؛ ولهذا قيل: وبضدها تتبيَّن الأشياء.

{ونقص من الأموال}؛ {الأموال} جمع (مال)؛ وهو كل ما يتموَّله الإنسان من نقود ومتاع وحيوان.

قال السعدي: وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية وغرق وضياع وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة وقطاع الطريق وغير ذلك.

قال ابن العثيمين: {والأنفس} جمع (نفس)؛ والمراد: الأرواح، كالأمراض الفتّاكة التي تهلك بها أمم، مثل الطاعون وغيره.

قال السعدي: أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب؛ ومن أنواع الأمراض في بدن العبد أو بدن من يحبه.

قال ابن العثيمين: {والثمرات} جمع (ثمرة)؛ وهي ما ينتج من أشجار النخيل والأعناب وغيرهما، بأن تأتي كوارث تنقص بها هذه الثمار أو تتلف.

قال السعدي: أي: الحبوب وثمار النخيل والأشجار كلها والخضر ببرد أو برد أو حرق أو آفة سماوية من جراد ونحوه. فهذه الأمور لابدَّ أن تقع لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران وحصل له السخط الدالِّ على شدَّة النُّقصان.

وأما من وفَّقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب فحبس نفسه عن التسخط قولًا وفعلًا واحتسب أجرها عند الله وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: {وبشِّر الصابرين}: أي بشِّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب. فالصابرين هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة.

قال القرطبي: لكن لا يكون ذلك إلّا بالصبر عند الصَّدمة الأولى، كما روى البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: ((إنما الصَّبر عند الصَّدمة الأولى[1])). وأخرجه مسلم أتمَّ منه، أي إنما الصبر الشّاقّ على النفس الذي يعظم الثواب عليه إنما

١- (قلت): البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس، والحديث بتمامه عند مسلم: مَر النبي ﷺ بامرأة عند قبر تبكي على صبي لها، فقال لها: ((اتقي الله واصْبِري)) فقالت: وما تُبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيلَ لها: إنَهُ رسول الله ﷺ، فأخذها مثلُ الموت، فأتت بابَه، فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسولَ الله، لم أعرفك، فقال: ((إنما الصبرُ عند الصدمةِ الأولى)).

هو عند هجوم المصيبة وحرارتها، فإنه يدلُّ على قوة القلب وتثبته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك، ولذلك قيل: يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لابدَّ للأحمق منه بعد ثلاث. وقال سهل بن عبدالله التستري: لمّا قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، صار الصبر عيشًا. والصبر صبران: صبر عن معصية الله، فهذا مجاهد، وصبر على طاعة الله، فهذا عابد. فإذا صبر عن معصية الله وصبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه، وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات. وقال الخواص: الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة. وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال ذو النون المصري: الصبر هو الاستعانة بالله تعالى. وقال الأستاذ أبو علي: الصبر حَدَّهُ: ألّا تعترض على التقدير، فأمّا إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر، قال الله تعالى في قصة أيوب: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ}[ص: ٤٤]، مع أخبر عنه أنه قال: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ}[الأنبياء: ٨٣].

قال السعدي: ثم وصفهم بقوله: {الذين إذا أصابتهم مصيبة} وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره.

قال ابن العثيمين: {قالوا}: أي بقلوبهم، وألسنتهم {إنا لله}: اللام للملك؛ يعني إنا ملك لله يفعل بنا ما يشاء.

قال السعدي: أي: مملوكون لله مدبَّرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البليَّة من المالك الحكيم الذي أرحم بعبده من نفسه فيوجب له ذلك الرضا عن الله والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك.

قال ابن العثيمين: {وإنا إليه راجعون}: أي صائرون في جميع أمورنا دنيا وأخرى؛ فنرجو الذي أصابنا بهذه المصيبة عند رجوعنا إليه أن يجزينا بأفضل منها؛ فهم جمعوا هنا بين الإقرار بالربوبية في قولهم: {إنا لله}، وبين الإقرار والإيمان بالجزاء الذي يستلزم العمل الصالح لأنهم يقولون: {وإنا إليه راجعون}؛ فنحن نرجو ثوابه مع أنه فعل بنا ما هو ملكه وبيده؛ وتقديم المتعلَّق يفيد الحصر ـ أي راجعون إليه لا إلى غيره، ومناسبة رؤوس الآي.

قال السعدي: ومع أننا مملوكون لله، فإنا إليه راجعون يوم المعاد فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورًا عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظُّنا إلا السَّخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه، من أقوى أسباب الصبر.

– وروى ابن ماجة عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وحسنه الإمام الألباني، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ((ابْنَ آدَمَ إِنْ صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، لَمْ أَرْضَ لَكَ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ)).

قال القرطبي: جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب وعصمة للممتحنين لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله: {إِنَّا لِلَّهِ} توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: {وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

قال أبو سنان: دفنت ابني سنانًا وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأنشطني وقال: ألا أبشرك يا أبا سنان، حدثني الضحاك عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: ((إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسمُّوه بيت الحمد([1]))). وروى مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أْجُرْني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها إلا أخلف الله له خيرًا منها([2]))). فهذا تنبيه على قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} إما بالخلف كما أخلف الله لأم سلمة رسول الله ﷺ، فإنه تزوجها لما مات أبو سلمة زوجها. وإما بالثواب الجزيل، كما في حديث أبي موسى، وقد يكون بهما.

قال ابن القيم في الطب النبوي ج١ص١٤٠: وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ أَبْلَغِ عِلَاجِ الْمُصَابِ وَأَنْفَعِهِ لَهُ فِي عَاجِلَتِهِ وَآجِلَتِهِ، فَإِنَّهَا تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتها تَسَلَّى عَنْ مُصِيبَتِهِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْعَبْدَ وَأَهْلَهُ وماله ملك لله عز وجلّ حَقِيقَةً، وَقَدْ جَعَلَهُ عِنْدَ الْعَبْدِ عَارِيَةً، فَإِذَا أَخَذَهُ مِنْهُ، فَهُوَ كَالْمُعِيرِ يَأْخُذُ مَتَاعَهُ مِنَ الْمُسْتَعِيرِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ مَحْفُوفٌ بِعَدَمَيْنِ: عَدَمٍ قَبْلَهُ وَعَدَمٍ بَعْدَهُ، وَمِلْكُ الْعَبْدِ لَهُ مُتْعَةٌ مُعَارَةٌ في زمن يَسِيرٍ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي أَوْجَدَهُ عَنْ عَدَمِهِ حَتَّى يَكُونَ مِلْكُهُ حَقِيقَةً، وَلَا هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهُ مِنَ الْآفَاتِ بَعْدَ وُجُودِهِ، وَلَا يُبْقِي عَلَيْهِ وُجُودَهُ، فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ تَأْثِيرٌ وَلَا مِلْكٌ حَقِيقِيٌّ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ بِالْأَمْرِ تَصَرُّفَ الْعَبْدِ الْمَأْمُورِ الْمَنْهِيِّ، لَا تَصَرُّفَ الْمُلَّاكِ، وَلِهَذَا لَا يُبَاحُ لَهُ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ فِيهِ إِلَّا مَا وَافَقَ أَمْرَ مَالِكِهِ الْحَقِيقِيِّ.

وَالثَّانِي: أَنَّ مَصِيرَ الْعَبْدِ وَمَرْجِعَهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُ الْحَقِّ، وَلَابُدَّ أَنْ يُخَلِّفَ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَيَجِيءَ رَبَّهُ فَرْدًا كَمَا خَلَقَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ بِلَا أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَشِيرَةٍ، وَلَكِنْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ بِدَايَةَ الْعَبْدِ وَمَا خُوِّلَهُ وَنِهَايَتَهُ، فَكَيْفَ يَفْرَحُ بِمَوْجُودٍ، أَوْ يَأْسَى عَلَى مَفْقُودٍ، فَفِكْرُهُ فِي مَبْدَئِهِ وَمَعَادِهِ مِنْ أَعْظَمِ عِلَاجِ هَذَا الدَّاءِ، وَمِنْ عِلَاجِهِ أَنْ يَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ مَا

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (١٤٠٨).

٢- (قلت): مسلم (٩١٨). وتكملة الحديث: قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: ((أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ)).

أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، قَالَ تَعَالَى: {مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى مَا فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ}[الحديد: ٢٢].

وَمِنْ عِلَاجِهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا أُصِيبَ بِهِ، فَيَجِدُ رَبَّهُ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِ مِثْلَهُ، أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَادَّخَرَ لَهُ – إِنْ صَبَرَ وَرَضِيَ – مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ فَوَاتِ تِلْكَ الْمُصِيبَةِ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهَا أعظم مما هي.

ومن علاجه أن يطفئ نَارَ مُصِيبَتِهِ بِبَرْدِ التَّأَسِّي بِأَهْلِ الْمَصَائِبِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ، وَلْيَنْظُرْ يَمْنَةً، فَهَلْ يَرَى إِلَّا مِحْنَةً؟ ثُمَّ لِيَعْطِفْ يَسْرَةً، فَهَلْ يَرَى إِلَّا حَسْرَةً؟، وَأَنَّهُ لَوْ فتش العالم لم ير فيهم إِلَّا مُبْتَلًى، إِمَّا بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ، وَأَنَّ شُرُورَ الدُّنْيَا أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ، إِنْ أَضْحَكَتْ قَلِيلًا، أَبْكَتْ كَثِيرًا، وَإِنْ سَرَّتْ يَوْمًا، سَاءَتْ دَهْرًا، وَإِنْ مَتَّعَتْ قَلِيلًا، مَنَعَتْ طَوِيلًا، وَمَا مَلَأَتْ دَارًا خِيرَةً إِلَّا مَلَأَتْهَا عَبْرَةً، وَلَا سَرَّتْهُ بِيَوْمِ سُرُورٍ إِلَّا خَبَّأَتْ لَهُ يَوْمَ شُرُورٍ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: لِكُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ، وما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ تَرَحًا. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: مَا كَانَ ضَحِكٌ قَطُّ إِلَّا كَانَ مِنْ بَعْدِهِ بُكَاءٌ. وَقَالَتْ هند بنت النعمان: لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَنَحْنُ مِنْ أَعَزِّ النَّاسِ وَأَشَدِّهِمْ مُلْكًا، ثُمَّ لَمْ تَغِبِ الشَّمْسُ حَتَّى رَأَيْتُنَا وَنَحْنُ أَقَلُّ النَّاسِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يَمْلَأَ دَارًا خِيرَةً إلا ملأها عبرة. وَسَأَلَهَا رَجُلٌ أَنْ تُحَدِّثَهُ عَنْ أَمْرِهَا، فَقَالَتْ: أَصْبَحْنَا ذَا صَبَاحٍ، وَمَا فِي الْعَرَبِ أَحَدٌ إِلَّا يَرْجُونَا، ثُمَّ أَمْسَيْنَا وَمَا فِي الْعَرَبِ أَحَدٌ إِلَّا يَرْحَمُنَا. وَبَكَتْ أُخْتُهَا حرقة بنت النعمان يوما، وهي في عزها، فَقِيلَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ، لَعَلَّ أَحَدًا آذَاكِ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَأَيْتُ غَضَارَةً فِي أَهْلِي، وَقَلَّمَا امْتَلَأَتْ دَارٌ سُرُورًا إِلَّا امْتَلَأَتْ حُزْنًا. قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ طَلْحَةَ: دَخَلْتُ عَلَيْهَا يَوْمًا، فَقُلْتُ لَهَا: كَيْفَ رَأَيْتِ عَبَرَاتِ الْمُلُوكِ؟ فَقَالَتْ: مَا نَحْنُ فِيهِ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِمَّا كُنَّا فِيهِ الْأَمْسَ، إِنَّا نَجِدُ فِي الْكُتُبِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَعِيشُونَ فِي خِيرَةٍ إِلَّا سَيُعْقَبُونَ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ يَظْهَرْ لِقَوْمٍ بِيَوْمٍ يُحِبُّونَهُ إِلَّا بَطَنَ لَهُمْ بِيَوْمٍ يَكْرَهُونَهُ، ثُمَّ قَالَتْ:

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا ... إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ

فَأُفٍّ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... تَقَلَّبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتَصَرَّفُ

وَمِنْ عِلَاجِهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْجَزَعَ لَا يَرُدُّهَا، بَلْ يُضَاعِفُهَا، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ تَزَايُدِ الْمَرَضِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ فَوْتَ ثَوَابِ الصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ، وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْهِدَايَةُ الَّتِي ضَمِنَهَا اللَّهُ عَلَى الصَّبْرِ، وَالِاسْتِرْجَاعِ أَعْظَمُ مِنَ الْمُصِيبَةِ فِي الْحَقِيقَةِ.

ومن علاجها أن يعلم أن الجزع يشمت عَدُوَّهُ، وَيَسُوءُ صَدِيقَهُ، وَيُغْضِبُ رَبَّهُ، وَيَسُرُّ شَيْطَانَهُ، وَيُحْبِطُ أَجْرَهُ، وَيُضْعِفُ نَفْسَهُ، وَإِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَ أَنْضَى شَيْطَانَهُ، وَرَدَّهُ خَاسِئًا، وَأَرْضَى رَبَّهُ، وَسَرَّ صَدِيقَهُ، وَسَاءَ عَدُوَّهُ، وَحَمَلَ عَنْ إِخْوَانِهِ، وَعَزَّاهُمْ هُوَ

قَبْلَ أَنْ يُعَزُّوهُ، فَهَذَا هُوَ الثَّبَاتُ وَالْكَمَالُ الْأَعْظَمُ، لَا لَطْمُ الْخُدُودِ، وَشَقُّ الْجُيُوبِ، وَالدُّعَاءُ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، وَالسُّخْطُ عَلَى الْمَقْدُورِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا يُعْقِبُهُ الصَّبْرُ وَالِاحْتِسَابُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْمَسَرَّةِ أَضْعَافُ مَا كَانَ يَحْصُلُ لَهُ بِبَقَاءِ مَا أُصِيبَ بِهِ لَوْ بَقِيَ عَلَيْهِ، وَيَكْفِيهِ مِنْ ذَلِكَ بَيْتُ الْحَمْدِ الذي يا بنى لَهُ فِي الْجَنَّةِ عَلَى حَمْدِهِ لِرَبِّهِ وَاسْتِرْجَاعِهِ، فَلْيَنْظُرْ: أَيُّ الْمُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ؟: مُصِيبَةُ الْعَاجِلَةِ، أَوْ مُصِيبَةُ فَوَاتِ بَيْتِ الْحَمْدِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ. وفي الترمذي مَرْفُوعًا: ((يَوَدُّ نَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ(١))).

وَقَالَ بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مَفَالِيسَ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يُرَوِّحَ قَلْبَهُ بِرُوحِ رَجَاءِ الْخَلَفِ مِنَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عِوَضٌ إِلَّا اللَّهَ، فَمَا مِنْهُ عِوَضٌ كَمَا قِيلَ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ ... وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ حَظَّهُ مِنَ الْمُصِيبَةِ مَا تُحْدِثُهُ لَهُ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ، فَحَظُّكَ مِنْهَا مَا أَحْدَثَتْهُ لَكَ، فَاخْتَرْ خَيْرَ الْحُظُوظِ أَوْ شَرَّهَا، فَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ سُخْطًا وَكُفْرًا كُتِبَ فِي دِيوَانِ الْهَالِكِينَ، وَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ جَزَعًا وَتَفْرِيطًا فِي تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ كُتِبَ فِي دِيوَانِ الْمُفَرِّطِينَ، وَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ شِكَايَةً وَعَدَمَ صَبْرٍ كُتِبَ فِي دِيوَانِ الْمَغْبُونِينَ، وَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ اعْتِرَاضًا عَلَى اللَّهِ وَقَدْحًا فِي حِكْمَتِهِ فَقَدْ قَرَعَ بَابَ الزَّنْدَقَةِ أَوْ وَلَجَهُ، وَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ صَبْرًا وَثَبَاتًا لِلَّهِ كُتِبَ فِي دِيوَانِ الصَّابِرِينَ، وَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ الرِّضَى عَنِ اللَّهِ كُتِبَ فِي دِيوَانِ الرَّاضِينَ، وَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ كُتِبَ فِي دِيوَانِ الشَّاكِرِينَ وَكَانَ تَحْتَ لِوَاءِ الْحَمْدِ مَعَ الْحَمَّادِينَ، وَإِنْ أَحْدَثَتْ لَهُ مَحَبَّةً وَاشْتِيَاقًا إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ كُتِبَ فِي دِيوَانِ الْمُحِبِّينَ الْمُخْلِصِينَ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ يَرْفَعُهُ: ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، ومن سخط فله السّخط(٢))).

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ وَإِنْ بَلَغَ فِي الْجَزَعِ غَايَتَهُ، فَآخِرُ أَمْرِهِ إِلَى صَبْرِ الِاضْطِرَارِ، وَهُوَ غَيْرُ مَحْمُودٍ وَلَا مُثَابٍ، قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَاقِلُ يفعل في أوّل يَوْمٍ مِنَ الْمُصِيبَةِ مَا يَفْعَلُهُ الْجَاهِلُ بَعْدَ أَيَّامٍ، وَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الْكِرَامِ، سَلَا سُلُوَّ

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٢٠٦)، والحديث بتمامه بهذا اللفظ: ((ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء)).

٢- (قلت): الحديث بهذا اللفظ رواه الترمذي في سننه برقم (٢٣٩٦)، عن أنس بزيادة ((إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ))، في أوله. ورواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٦٢٣) عن محمود بن لبيد بلفظ: ((وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ)). وجود إسناده شعيب الأرنؤوط. وحسنه الإمام الألباني في الصحيحة (١٤٦).

الْبَهَائِمِ. وَفِي الصَّحِيحِ مَرْفُوعًا: ((الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى([١]))). وَقَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ: إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَإِلَّا سَلَوْتَ سُلُوَّ الْبَهَائِمِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ أَنْفَعَ الْأَدْوِيَةِ لَهُ مُوَافَقَةُ رَبِّهِ وَإِلَهِهِ فِيمَا أَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ لَهُ، وَأَنَّ خَاصِّيَّةَ الْمَحَبَّةِ وَسِرَّهَا مُوَافَقَةُ الْمَحْبُوبِ، فَمَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ مَحْبُوبٍ، ثُمَّ سَخِطَ مَا يُحِبُّهُ، وَأَحَبَّ مَا يَسْخَطُهُ، فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِكَذِبِهِ، وَتَمَقَّتَ إِلَى مَحْبُوبِهِ.

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى قَضَاءً، أحب أن يرضى به، وكان عمران ابن حُصَيْنٍ يَقُولُ فِي عِلَّتِهِ: أَحَبُّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ قَالَ أبو العالية. وَهَذَا دَوَاءٌ وَعِلَاجٌ لَا يَعْمَلُ إِلَّا مَعَ الْمُحِبِّينَ، وَلَا يُمْكِنُ كُلَّ أَحَدٍ أَنْ يَتَعَالَجَ بِهِ.

وَمِنْ علاجها: أن يوازن بين أعظم اللذتين والتمتعين وَأَدْوَمِهِمَا: لَذَّةِ تَمَتُّعِهِ بِمَا أُصِيبَ بِهِ، وَلَذَّةِ تَمَتُّعِهِ بِثَوَابِ اللَّهِ لَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ لَهُ الرُّجْحَانُ فَآثَرَ الرَّاجِحَ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ آثَرَ الْمَرْجُوحَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مُصِيبَتَهُ فِي عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ وَدِينِهِ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَتِهِ الَّتِي أُصِيبَ بِهَا فِي دُنْيَاهُ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي ابْتَلَاهُ بِهَا أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْهِ الْبَلَاءَ لِيُهْلِكَهُ بِهِ، وَلَا لِيُعَذِّبَهُ بِهِ، وَلَا لِيَجْتَاحَهُ، وَإِنَّمَا افْتَقَدَهُ بِهِ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَإِيمَانَهُ، وَلِيَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ وَابْتِهَالَهُ، وَلِيَرَاهُ طَرِيحًا بِبَابِهِ، لَائِذًا بِجَنَابِهِ، مَكْسُورَ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، رَافِعًا قَصَصَ الشَّكْوَى إِلَيْهِ.

قَالَ الشيخ عبد القادر: يَا بُنَيَّ! إِنَّ المصيبة ما جاءت لتهلك، وَإِنَّمَا جَاءَتْ لِتَمْتَحِنَ صَبْرَكَ وَإِيمَانَكَ، يَا بُنَيَّ! الْقَدَرُ سَبُعٌ، وَالسَّبُعُ لَا يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْمُصِيبَةَ كِيرُ الْعَبْدِ الَّذِي يُسْبَكُ بِهِ حَاصِلُهُ، فَإِمَّا أَنْ يَخْرُجَ ذَهَبًا أَحْمَرَ، وَإِمَّا أَنْ يَخْرُجَ خَبَثًا كُلُّهُ، كَمَا قِيلَ: سَبَكْنَاهُ وَنَحْسِبُهُ لُجَيْنًا ... فَأَبْدَى الْكِيرُ عَنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ

فَإِنْ لَمْ يَنْفَعْهُ هَذَا الْكِيرُ فِي الدُّنْيَا، فَبَيْنَ يَدَيْهِ الْكِيرُ الْأَعْظَمُ، فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ إِدْخَالَهُ كِيرَ الدُّنْيَا وَمَسْبَكَهَا خَيْرٌ لَهُ من ذلك الكير والمسبك، وأنه لابد مِنْ أَحَدِ الْكِيرَيْنِ، فَلْيَعْلَمْ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْكِيرِ الْعَاجِلِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَوْلَا مِحَنُ الدُّنْيَا وَمَصَائِبُهَا، لَأَصَابَ الْعَبْدَ مِنْ أَدْوَاءِ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالْفَرْعَنَةِ وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ مَا هُوَ سَبَبُ هَلَاكِهِ عَاجِلًا وَآجِلًا، فَمِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَنْ يَتَفَقَّدَهُ فِي الْأَحْيَانِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ أَدْوِيَةِ الْمَصَائِبِ، تَكُونُ حِمْيَةً لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَدْوَاءِ، وَحِفْظًا لِصِحَّةِ عُبُودِيَّتِهِ، وَاسْتِفْرَاغًا لِلْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ الرَّدِيئَةِ الْمُهْلِكَةِ مِنْهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَرْحَمُ بِبَلَائِهِ، وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ كَمَا قِيلَ: قد ينعم الله بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

١- (قلت): البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس، والحديث بتمامه عند مسلم: مَر النبي ﷺ بامرأة عند قبر تبكي على صبي لها، فقال لها: ((اتقي الله واصبِري)) فقالت: وما تُبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيلَ لها: إنَهُ رسول الله ﷺ، فأخذها مثلُ الموت، فأتت بابَه، فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسولَ الله، لم أعرفك، فقال: ((إنما الصبرُ عند الصدمةِ الأولى)). وقد مرّ قريباً.

فَلَوْلَا أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – يُدَاوِي عِبَادَهُ بِأَدْوِيَةِ الْمِحَنِ وَالِابْتِلَاءِ، لَطَغَوْا، وَبَغَوْا، وَعَتَوْا، وَاللَّهُ – سُبْحَانَهُ – إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا سَقَاهُ دَوَاءً مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ يَسْتَفْرِغُ بِهِ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُهْلِكَةِ، حَتَّى إِذَا هَذَّبَهُ وَنَقَّاهُ وَصَفَّاهُ، أَهَّلَهُ لِأَشْرَفِ مَرَاتِبِ الدُّنْيَا، وَهِيَ عُبُودِيَّتُهُ، وَأَرْفَعِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ رُؤْيَتُهُ وَقُرْبُهُ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَرَارَةَ الدُّنْيَا هِيَ بِعَيْنِهَا حَلَاوَةُ الْآخِرَةِ، يَقْلِبُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ كَذَلِكَ، وَحَلَاوَةَ الدُّنْيَا بِعَيْنِهَا مَرَارَةُ الْآخِرَةِ، وَلَأَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَرَارَةٍ مُنْقَطِعَةٍ إِلَى حَلَاوَةٍ دَائِمَةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عَكْسِ ذَلِكَ، فَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ هَذَا فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ: ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ([1]))).

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَفَاوَتَتْ عُقُولُ الْخَلَائِقِ، وَظَهَرَتْ حَقَائِقُ الرِّجَالِ، فَأَكْثَرُهُمْ آثَرَ الْحَلَاوَةَ الْمُنْقَطِعَةَ عَلَى الْحَلَاوَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ وَلَمْ يَحْتَمِلْ مَرَارَةَ سَاعَةٍ لِحَلَاوَةِ الْأَبَدِ، وَلَا ذُلَّ سَاعَةٍ لِعِزِّ الْأَبَدِ، وَلَا مِحْنَةَ سَاعَةٍ لِعَافِيَةِ الْأَبَدِ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ وَالْمُنْتَظَرَ غَيْبٌ وَالْإِيمَانَ ضَعِيفٌ وَسُلْطَانُ الشَّهْوَةِ حَاكِمٌ فَتَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ إِيثَارُ الْعَاجِلَةِ وَرَفْضُ الْآخِرَةِ، وَهَذَا حَالُ النَّظَرِ الْوَاقِعِ عَلَى ظواهر الأمور وَأَوَائِلِهَا وَمَبَادِئِهَا، وَأَمَّا النَّظَرُ الثَّاقِبُ الَّذِي يَخْرِقُ حُجُبَ الْعَاجِلَةِ وَيُجَاوِزُهُ إِلَى الْعَوَاقِبِ وَالْغَايَاتِ، فَلَهُ شَأْنٌ آخَرُ.

فَادْعُ نَفْسَكَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَالْفَوْزِ الْأَكْبَرِ وَمَا أَعَدَّ لِأَهْلِ الْبِطَالَةِ وَالْإِضَاعَةِ مِنَ الْخِزْيِ وَالْعِقَابِ وَالْحَسَرَاتِ الدَّائِمَةِ، ثُمَّ اخْتَرْ أَيُّ الْقِسْمَيْنِ أَلْيَقُ بِكَ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ وَكُلُّ أَحَدٍ يَصْبُو إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ وَمَا هُوَ الْأَوْلَى بِهِ، وَلَا تَسْتَطِلْ هَذَا الْعِلَاجَ، فَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ الطَّبِيبِ وَالْعَلِيلِ دَعَتْ إِلَى بَسْطِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- ابتلاء العباد بما ذكر الله من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وهو لمن وقع به ظاهر ولغيرهم يكون الابتلاء بالاعتبار؛ والخوف أن يقع بهم مثل ما وقع بالذين ابتلوا.

٢- أن الناس ينقسمون عند المصائب إلى قسمين: صابر، وساخط؛ وقد جاء في الحديث: ((من رضي فله الرضا؛ ومن سخط فله السخط([2]))؛ فالصبر على المصائب واجب؛ وقد ذكر العلماء أن للإنسان عند المصيبة أربعة مقامات:

المقام الأول: الصبر ـ وهو واجب.

١- (قلت): مسلم (٢٨٢٢).

٢- أخرجه الترمذي ص١٨٩٢، كتاب الزهد، باب ٥٦: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم ٢٣٩٦، وأخرجه ابن ماجة ص٢٧١٩، كتاب الفتن، باب ٢٣: الصبر على البلاء، حديث رقم ٤٠٣١، وفي الحديث سعد بن سنان مختلف فيه، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: (سنده حسن) ١/٢٩٩، حديث رقم ١٤٦.

المقام الثاني: الرضا ـ وهو سنة على القول الراجح؛ والفرق بينه والصبر، أن الصابر يتجرَّع مرارة الصبر ويشقّ عليه ما وقع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي، فإن المصيبة باردة على قلبه لم يتجرَّع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالًا من الصابر.

المقام الثالث: الشكر: بأن يشكر الله على المصيبة.

فإن قيل: كيف يشكره على المصيبة؟

فالجواب: أن ذلك من وجوه:

منها: أن ينسبها إلى ما هو أعظم منها؛ فينسب مصيبة الدنيا إلى مصيبة الدين فتكون أهون؛ فيشكر الله أن لم يجعل المصيبة في الأشدّ.

ومنها: احتساب الأجر على المصيبة بأنه كلَّما عظم المصاب كثر الثواب؛ ولهذا ذكروا عن بعض العابدات أنها أصيبت بمصيبة ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

المقام الرابع: السخط – وهو محرم – بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي ﷺ: ((ليس منّا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية([1]))).

٣– البشرى للصابرين.

٤– أن من سمة الصابرين تفويض أمرهم إلى الله بقلوبهم وألسنتهم إذا أصابتهم المصائب؛ لقوله تعالى: {وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}.

٥– مشروعية هذا القول؛ وقد جاءت السنة بزيادة: ((اللهم أجرني في مصيبتي)) – أي أثبني عليها – ((وأخلف لي)) بقطع الهمزة – أي اجعل لي خلفًا ((خيرًا منها)) والدليل على هذا قصة أم سلمة رضي الله عنها: كانت تحب زوجها ابن عمها أبا سلمة محبة شديدة؛ ولما مات – وكان النبي ﷺ قد حدَّثها بهذا الحديث – قالت: ((اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها([2])))؛ فكانت تفكِّر في نفسها وتقول: من يصير خيرًا من أبي سلمة؟! وهي مؤمنة في نفسها أن ما قاله النبي ﷺ حق؛ لكن لا تدري من هو؛ وما كان يجول في فكرها أن الرسول ﷺ سيكون هو الخلف؛ فأخلف الله لها خيرًا من زوجها؛ فإذا قالها الإنسان مؤمنًا محتسبًا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها.

١– أخرجه البخاري ص١٠١، كتاب الجنائز، باب ٣٨: ليس منا من ضرب الخدود، حديث رقم ١٢٩٧؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٥، كتاب الإيمان، باب ٤٤: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب ... ، حديث رقم ٢٨٥ [١٦٥] ١٠٣.

٢– أخرجه مسلم ص٨٢٢، كتاب الجنائز، باب ٢: ما يقال عند المصيبة، حديث رقم ٢١٢٦ [٣] ٩١٨.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

قال ابن العثيمين: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة}؛ الإشارة إلى {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله ... } [البقرة: ١٥٦] إلخ؛ وجاءت بلفظ الإشارة للبعيد للدلالة على علو مرتبتهم ومنزلتهم ومقامهم؛ و{عليهم} خبر مقدم؛ و {صلوات} مبتدأ مؤخر؛ ولكنه مبتدأ ثان؛ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول: {أولئك}.

وقوله تعالى: {صلوات}، اختلف العلماء في معناها؛ ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في الملأ الأعلى؛ والمعنى أن الله يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعًا لذكرهم وإعلاء لشأنهم.

وقوله تعالى: {ورحمة} عطفها على {الصلوات} من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة.

قال السعدي: ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر.

قال ابن العثيمين: {وأولئك هم المهتدون}، {أولاء} اسم إشارة تعود إلى {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}[البقرة: ١٥٦]؛ وهي مفيدة للحصر؛ وطريقه: ضمير الفصل؛ و{المهتدون} أي الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية.

قال السعدي: {وأولئك هم المهتدون}: الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون وعملوا به، وهو هنا صبرهم لله.

ودلَّت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقلَّ تعب الصابرين وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر وبيان ما يعين على الصبر وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر. وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت ولن تجد لسنة الله تبديلًا، وبيان أنواع المصائب.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص١٥٨: وَالصَّبْرُ صَبْرَانِ: صَبْرٌ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَصَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ. كَمَا قَالَ الْحَسَنُ: مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَعْظَمَ مِنْ جُرْعَةِ حِلْمٍ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَجُرْعَةِ صَبْرٍ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ هُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْمُؤْلِمِ. وَهَذَا هُوَ الشُّجَاعُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَصْبِرُ عَلَى الْمُؤْلِمِ.

وَالْمُؤْلِمُ إنْ كَانَ مِمَّا يُمْكِنُ دَفْعُهُ أَثَارَ الْغَضَبَ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ أَثَارَ الْحُزْنَ؛ وَلِهَذَا يَحْمَرُّ الْوَجْهُ عِنْدَ الْغَضَبِ لِثَوَرَانِ الدَّمِ عِنْدَ اسْتِشْعَارِ الْقُدْرَةِ، وَيَصْفَرُّ عِنْدَ الْحُزْنِ لِغَوْرِ الدَّمِ عِنْدَ اسْتِشْعَارِ الْعَجْزِ؛ وَلِهَذَا جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: الرَّقُوبُ الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ بِالرَّقُوبِ؛ وَلَكِنَّ الرَّقُوبَ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ: مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟ قُلْنَا: الَّذِي لَا تَصْرَعُهُ الرِّجَالُ فَقَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ وَلَكِنَّ الصُّرَعَةَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ([1]))، فَذَكَرَ مَا يَتَضَمَّنُ الصَّبْرَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ وَالصَّبْرَ عِنْدَ الْغَضَبِ، قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – فِي الْمُصِيبَةِ: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ} الْآيَةَ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]. وَقَالَ – تَعَالَى – فِي الْغَضَبِ: {وَمَا يُلَقَّاهَا إلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[فصلت: ٣٥].

وَهَذَا الْجَمْعُ بَيْنَ صَبْرِ الْمُصِيبَةِ وَصَبْرِ الْغَضَبِ نَظِيرُ الْجَمْعِ بَيْنَ صَبْرِ النِّعْمَةِ وَصَبْرِ الْمُصِيبَةِ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[هود: ٩– ١١]. وَقَالَ: {لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}[الحديد: ٢٣]. وَبِهَذَا وَصَفَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ مَنْ وَصَفَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ الْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ قَالَ: لَا يَفْرَحُونَ إذَا نَالَتْ سُيُوفُهُمْ ... قَوْمًا وَلَيْسُوا مجازيعا إذَا نِيلُوا

وَكَذَلِكَ قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ فِي صِفَةِ الْأَنْصَارِ:

لَا فَخْرَ إنْ هُمْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ ... وَإِنْ أُصِيبُوا فَلَا خَوْرٌ وَلَا هَلَعَ

وَقَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَغْلِبُ فَلَا يَبْطَرُ، وَيُغْلَبُ فَلَا يَضْجَرُ.

وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُو النَّاسَ عِنْدَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ إلَى تَعَدِّي الْحُدُودِ بِقُلُوبِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ، نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ لَمَّا قِيلَ لَهُ، وَقَدْ بَكَى لَمَّا رَأَى إبْرَاهِيمَ فِي النَّزْعِ: أَتَبْكِي؟ أَوَلَمْ تَنْهَ عَنْ الْبُكَاءِ؟ فَقَالَ: ((إنَّمَا نَهَيْت عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٌ عِنْدَ نَغْمَةِ لَهْوٍ وَلَعِبٍ وَمَزَامِيرَ شَيْطَانٍ. وَصَوْتٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ لَطْمِ خُدُودٍ وَشَقِّ جُيُوبٍ وَدُعَاءٍ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ([2]))، فَجَمَعَ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ.

وقال رحمه الله أيضاً في ج٣٠ص٣٦٣: وَالدَّلَائِلُ عَلَى أَنَّ الْمَصَائِبَ كَفَّارَاتٌ كَثِيرَةٌ، إذَا صَبَرَ عَلَيْهَا أُثِيبَ عَلَى صَبْرِهِ، فَالثَّوَابُ وَالْجَزَاءُ إنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْعَمَلِ – وَهُوَ الصَّبْرُ – وَأَمَّا نَفْسُ الْمُصِيبَةِ فَهِيَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ، لَا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ، وَهِيَ مِنْ جَزَاءِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى ذَنْبِهِ، وَتَكْفِيرِهِ ذَنْبَهُ بِهَا. وَفِي الْمُسْنَدِ: (أَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَذَكَرُوا أَنَّهُ

١– مسلم في البر والصلة (٢٦٠٨/١٠٦).

٢– الترمذي في الجنائز(١٠٠٥) عن جابر بن عبدالله، وفي الحديث كلام أكثر من هذا، قال الترمذي: ((حديث حسن)).

يُؤْجَرُ عَلَى مَرَضِهِ، فَقَالَ: مَا لِي مِنَ الْأَجْرِ وَلَا مِثْلُ هَذِهِ. وَلَكِنَّ الْمَصَائِبَ حِطَّةٌ([1]). فَبَيَّنَ لَهُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ نَفْسَ الْمَرَضِ لَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ، بَلْ يُكَفَّرُ بِهِ عَنْ خَطَايَاهُ.

وَكَثِيرًا مَا يُفْهَمُ مِنَ الْأَجْرِ غُفْرَانُ الذُّنُوبِ، فَيَكُونُ فِيهِ أَجْرٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ التَّعْوِيضِ وَالْأَجْرِ وَالِامْتِنَانِ، وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ثَوَابٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ كَمَا يُفْعَلُ عَنْهُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ.

وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ فَفِيهَا أَجْرٌ عَظِيمٌ، قَالَ تَعَالَى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[البقرة: ١٥٥– ١٥٧]. فَالرَّجُلُ إِذَا ظُلِمَ بِجُرْحٍ وَنَحْوِهِ فَتَصَدَّقَ بِهِ، كَانَ الْجُرْحُ مُصِيبَةً يُكَفَّرُ بِهَا عَنْهُ، وَيُؤْجَرُ عَلَى صَبْرِهِ، وَعَلَى إحْسَانِهِ إلَى الظَّالِمِ بِالْعَفْوِ عَنْهُ؛ فَإِنَّ الْإِحْسَانَ يَكُونُ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ، وَبِدَفْعِ مَضَرَّةٍ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ صَدَقَةً.

قال البغوي: وَقَدْ وَرَدَتْ أَخْبَارٌ فِي ثَوَابِ وَأَجْرِ الصَّابِرِينَ، مِنْهَا مَا: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّرَخْسِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ السَّرَخْسِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ الْهَاشِمِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحُبَابِ سَعِيدَ بْنَ يَسَارٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خيرا يصب منه([2]))).

وَأَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمْرٍو أَخْبَرَنَا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَلْحَلَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ([3]))).

وأَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ السَّمْعَانِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّيَّانِيُّ أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ زَنْجُوَيْهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِهَا لَمَمٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ

١– أحمد ١/١٩٦، وصحح الشيخ الشاكر إسناده (١٧٠١).

٢– إسناده صحيح. مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عبد الرحمن تفرد عنه البخاري دون مسلم. وهو في شرح السنة (١٤١٤) بهذا الإسناد. خرجه المصنف من طريق مالك، وهو في (الموطأ) (٢/ ٩٤١) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بهذا الإسناد. ومن طريق مالك أخرجه البخاري ٥٦٤٥ والنسائي في الكبرى (٧٤٧٨) وأحمد (٢/ ٢٣٧) وابن حبان ٢٩٠٧ والقضاعي في الشهاب (٣٤٤).

٣– إسناده صحيح على شرط البخاري. – وهو في شرح السنة (١٤١٥) بهذا الإسناد.

– وهو في (صحيح البخاري) (٥٦٤١ و٥٦٤٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بهذا الإسناد. وأخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣) و(٣/ ١٨ و٤٨) وابن حبان ٢٩٠٥ من طريق زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بن عمرو بن حلحلة به. وقد توبع مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَلْحَلَةَ، فقد أخرجه مسلم ٢٥٧٣ والبيهقي (٣/ ٣٧٣) من طريق محمد بن عمرو بن عطاء عن عطاء بن يسار به. وأخرجه الترمذي ٩٦٦ وأحمد (٣/ ٤) و(٦١ و٨١) من حديث أبي سعيد الخدري. فقط ليس فيه ذكر أبي هريرة، وفي الباب من حديث عائشة أخرجه البخاري ٥٦٤٠ ومسلم ٢٥٧٢.

اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يَشْفِيَنِي، قَالَ: ((إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَكِ وَإِنْ شِئْتِ فَاصْبِرِي وَلَا حِسَابَ عَلَيْكِ))، قَالَتْ: بَلْ أَصْبِرُ وَلَا حِسَابَ عَلَيَّ([١]).

وأَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو سَعْدٍ خَلَفُ بن عبد الرحمن بن مُحَمَّدِ بْنِ علي بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي نِزَارٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ النَّضْرَوِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ نَجْدَةَ أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْحِمَّانِيُّ، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَاصِمٍ هُوَ ابْنُ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً قَالَ: ((الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يَبْتَلِي اللَّهُ الرَّجُلَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا ابْتُلِيَ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ هُوِّنَ عَلَيْهِ، فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ وما له ذَنْبٌ([٢]))).

أَخْبَرَنَا أَبُو حَامِدٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْحِيرِيُّ، أَخْبَرَنَا حَاجِبُ بْنُ أَحْمَدَ الطُّوسِيُّ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ([٣]))).

وأَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بِشْرَانَ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي

١- إسناده حسن، رجاله ثقات معروفون، سوى محمد بن عمرو وهو حسن الحديث كما قال الذهبي رحمه الله في (الميزان) (٣/ ٦٧٣) خرج له البخاري ومسلم متابعة، أبو سلمة هو ابن عبد الرحمن بن عوف، قيل اسمه عبد الله، وقيل: إسماعيل، روى له الشيخان. هو في شرح السنة (١٤١٨) بهذا الإسناد. وأخرجه أحمد (٢/ ٤٤١) وابن حبان ٢٩٠٩ من طريق محمد بن عبيد عن محمد بن عمرو. وأخرجه البزار ٧٧٢ من طريق عمرو بن خليفة عن محمد بن عمرو به. وأخرجه الحاكم (٤/ ٢١٨) من طريق عبد العزيز بن مسلم عن محمد بن عمرو به وصححه على شرط مسلم و وافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٣٠٧): رواه البزار وإسناده حسن اهـ. قلت: ومداره على محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، وهو صدوق له أوهام كما في (التقريب) وهو حسن الحديث كما قال الذهبي آنفا والله أعلم.

٢- حديث حسن. إسناده ضعيف، لأجل يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو متهم بسرقة الحديث. ما روى له أحد من الأئمة الستة، حيث لم يذكره الذهبي في (الكاشف)، وذكره في (الميزان) و(المغني) و(ديوان الضعفاء)، ولم يذكر له راو من الأئمة الستة، وإنما ذكره مسلم في صحيحه (٢/ ١٥٥)، ولم يخرج له، فوقع في (التقريب) [رم-، ولم ينفرد به، حيث تابعه غير واحد. وهو في شرح السنة ١٤٢٨ بهذا الإسناد. وأخرجه الترمذي ٢٣٩٨ وابن ماجه ٤٠٢٣ وأحمد (١/ ١٨٥) وابن حبان ٢٩٠١ والحاكم (١/ ٤١) من طرق عن حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة به. وعاصم حسن الحديث.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح اهـ.

وأخرجه أحمد (١/ ١٧٢ و١٧٣ و١٨٠) والدارمي (٢/ ٣٢٠) والحاكم (١/ ٤١) والبيهقي (٣/ ٣٧٢) عن عاصم به ولصدره شواهد كثيرة، وكذا لعجزه شواهد، وأما إثناؤه فهو حسن إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

٣- حديث جيد. إسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، وباقي الإسناد ثقات.

- وهو في شرح السنة (١٤٣٠) بهذا الإسناد.

- وأخرجه الترمذي ٢٣٩٩ وأحمد (٢/ ٢٨٧) و٤٥٠ وابن حبان ٢٩١٣ و٢٩٢٤ والحاكم (١/ ٣٤٦) والبغوي ١٤٣٦ من طرق عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة به، وصححه الحاكم و وافقه الذهبي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح اهـ.

وأخرجه مالك (١/ ٢٣٦) بلاغا عن أبي الحباب سعيد بن يسار عن أبي هريرة مرفوعا به، وهذا وإن كان منقطعا، إلا أنه يشهد لما قبله، لاختلاف مخرجه، فالحديث يرقى إلى الجودة، والله أعلم.

هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُفِيئُهُ، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأرز لَا تَهْتَزُّ حَتَّى تُسْتَحْصَدَ([1]))).

وأَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ بِشْرَانَ أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْعِيزَارِ بْنِ حُرَيْثٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((عجبا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ اللَّهَ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ اللَّهَ وَصَبَرَ، فَالْمُؤْمِنُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ حَتَّى يُؤْجَرَ فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امرأته([2]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان حكمة الله عز وجل فيما يبتلي به العباد.

٢- عظم ثواب الصبر؛ لقوله تعالى: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة}.

٣- إثبات رحمة الله عز وجل؛ وهي صفة حقيقية ثابتة لله؛ بها يرحم من يشاء من عباده؛ ومن آثارها حصول النعم واندفاع النقم.

٤- الثناء على الصابرين بأنهم هم المهتدون الذين اهتدوا إلى ما فيه رضا الله وثوابه.

١- إسناده صحيح. أحمد بن منصور الرمادي فمن دونه ثقات. وقد توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم. معمر هو ابن راشد، والزهري هو محمد بن مسلم وابن المسيب هو سعيد.

- وهو في (شرح السنة) ١٤٣١ بهذا الإسناد. و(مصنف عبد الرزاق) ٢٠٣٠٧ عن معمر بهذا الإسناد. وأخرجه مسلم ٢٨٠٩ والترمذي ٢٨٦٦ وأحمد (٢/ ٢٨٣-٢٨٤) وابن حبان ٢٩١٥ والبغوي ١٤٣٧ من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ٥٦٤٤ و٧٤٦٦ وأحمد (٢/ ٥٢٣) من طريق آخر عن أبي هريرة بنحوه.

- وله شاهد من حديث كعب بن مالك أخرجه البخاري ٥٦٤٣ ومسلم ٢٨١٠ والدارمي (٢/ ٣١٠) و الرامهرمزي في (الأمثال) ٣٧.

٢- إسناده صحيح. العيزار بن حريث، من رجال مسلم، وباقي الإسناد على شرطهما، أبو إسحاق هو عمرو بن عبد الله السّبيعي.

- هو في شرح السنة (١٥٣٤) بهذا الإسناد.

- وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠٣١٠) عن معمر بهذا الإسناد.

وأخرجه الطيالسي ٢١١ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٣١٠)، وأحمد (١/ ١٧٣) و(١٧٧ و١٨٢) والطبراني في الأوسط (٦١١٩) والبيهقي (٣/ ٣٧٥) و (٣٧٦) من طريق عُمَرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاص عن أبيه.

- وقال الهيثمي في (المجمع) (٧/ ٢٠٩): رواه أحمد بأسانيد، ورجالها رجال الصحيح - وقال في موضع آخر (١٠/ ٩٥): رواه أحمد بأسانيد والطبراني في (الأوسط) والبزار وأسانيد أحمد رجالها رجال الصحيح، وكذلك بعض أسانيد البزار اهـ.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

قال ابن العثيمين: {إن الصفا والمروة}: جبلان معروفان؛ يقال للصفا: جبل أبي قبيس؛ وللمروة: قعيقعان؛ وهما شرقي الكعبة؛ وقد كانت أم إسماعيل رضي الله عنها تصعد عليهما لتتحسَّس هل حولها أحد؛ وذلك بعد أن نفد منها التمر والماء وتقلص لبنها وجاع ابنها؛ والقصة مطولة في صحيح البخاري.

قوله تعالى: {من شعائر الله}، {من} للتبعيض ـ يعني بعض شعائر الله؛ وال{شعائر} جمع شعيرة؛ وهي التي تكون عَلَمًا في الدين؛ يعني: من معالم الدين الظاهرة؛ لأن العبادات منها خفية: بين الإنسان وربه؛ ومنها أشياء عَلم ظاهر بيِّن ـ وهي الشعائر.

وقوله تعالى: {من شعائر الله}، ليس المراد أن نفس الجبل من الشعائر؛ بل المراد الطواف بهما من الشعائر؛ ولهذا قال تعالى: {فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما}؛ وأضيفت ال{شعائر} إلى {الله}؛ لأنه هو الذي شرعها، وأثبتها، وجعلها طريقًا موصلًا إليه.

قال القرطبي: روى البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما}، وخرج الترمذي عن عروة قال: ((قلت لعائشة: ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا، وما أبالي ألا أطوف بينهما. فقالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون، وإنما كان من أهلَّ لِمَناة الطاغية التي بالمشلّل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} ولو كانت كما تقول لكانت: (فلا جناح عليه ألا يطوف بهما) قال الزهري: فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال: إن هذا لعلم، ولقد سمعت رجالًا من أهل العلم يقولون: إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}، قال أبو بكر بن عبدالرحمن: فأراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء.([١])) قال: (هذا حديث حسن صحيح). أخرجه البخاري بمعناه، وفيه بعد قوله فأنزل الله تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٩٦٥).

مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}: ((قالت عائشة: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما)، ثم أخبرت أبا بكر بن عبدالرحمن فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالًا من أهل العلم يذكرون أن الناس – إلا من ذكرت عائشة – ممن كان يهلّ بمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة، وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} الآية. قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام، من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت([1]))). وروى الترمذي عن عاصم بن سليمان الأحول قال: سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال: ((كانا من شعائر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} قال: هما تطوع {مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}([2]))) قال: هذا حديث حسن صحيح. خرجه البخاري أيضا([3]). وعن ابن عباس قال: كان في الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله، لا نطوف بين الصفا والمروة فإنهما شرك، فنزلت. وقال الشعبي: كان على الصفا في الجاهلية صنم يسمّى (إسافا)، وعلى المروة صنم يسمّى (نائلة) فكانوا يمسحونهما إذا طافوا، فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك، فنزلت الآية.

قال السعدي: يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان {من شعائر الله} أي أعلام دينه الظاهرة التي تعبَّد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: {ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب} فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب. والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدلُّ على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلَّت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ وقال: ((خذوا عني مناسككم([4]))).

١- (قلت): البخاري (١٦٤٣)، ومسلم (١٢٧٧).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٩٦٦).

٣- (قلت): البخاري (٤٤٩٦)

٤- (قلت): مسلم (١٢٩٧) بلفظ ((لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لتأخذوا مناسككم)): هذه اللام لام الأمر ومعناه خذوا مناسككم.

– وصححه الإمام الألباني في الإرواء (١٠٧٤).

قال ابن العثيمين: {فمن حج البيت}؛ {حج} في اللغة بمعنى قصد؛ إذا: {حج البيت}: أي قصده لأداء مناسك الحج؛ و{البيت}، هو بيت الله؛ أي الكعبة.

{أو اعتمر}؛ {أو} للتنويع؛ لأن قاصد البيت إما أن يكون حاجًا؛ وإما أن يكون معتمرًا؛ و(العمرة) في اللغة: الزيارة؛ والمراد بها زيارة البيت لأداء مناسك العمرة.

قال الطبري: {فمن حج البيت}، فمن أتاه عائدًا إليه بَعدَ بدء. وكذلك كل من أكثر الاختلاف إلى شيء فهو (حَاجٌّ إليه) وإنما قيل للحاجّ (حاجّ)، لأنه يَأتي البيت قَبل التعريف، ثم يعود إليه لطَواف يوم النحر بعد التعريف، ثم ينصرف عنه إلى منى، ثم يعود إليه لطوَاف الصَّدرَ. فلتكراره العودَ إليه مرّة بعد أخرى قيل له: (حاجٌّ).

وأما (المعتمر)، فإنما قيل له: (معتمر)، لأنه إذا طاف به انصرف عنه بعد زيارته إياه. وإنما يعني تعالى ذكره بقوله: {أو اعتمر}، أو اعتمرَ البيت، ويعني ب(الاعتمار) الزيارة. فكل قاصد لشيء فهو له (معتمر).

قال ابن العثيمين: {فلا جناح عليه}: {لا} نافية للجنس؛ و{جناح} اسمها؛ وخبرها {أن} وما دخلت عليه؛ أي لا جناح عليه في التطوف بهما؛ وال{جناح} هو الإثم؛ يعني فلا إثم عليه في أن يتطوف بهما؛ وإنما نفى الإثم؛ لأنهم كانوا يتحرجون من الطواف بهما.

{أن يطوف بهما}: {يطوف}، أصلها يتطوف؛ ولكن قلبت التاء طاء لعلة تصريفية؛ فصار {يطوف}؛ و{بهما}، المراد: بينهما، كما تفسره سنة النبي ﷺ.

قال السعدي: هذا دفع لوهم من توهَّم وتحرَّج من المسلمين عن الطواف بينهما لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم لا لأنه غير لازم.

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلا، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة فتفعل على غير تلك الصفة، وهذا منه.

قال القرطبي: واختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة، فقال الشافعي وابن حنبل: هو ركن، وهو المشهور من مذهب مالك، لقوله ﷺ: ((اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي[1])). خرجه الدار قطني. وكتب بمعنى أوجب، لقوله

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (١٠٧٢).

تعالى : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}[البقرة : ١٨٣]، وقوله ﷺ: ((خمس صلوات كتبهن الله على العباد)). وخرج ابن ماجة عن أم ولد لشيبة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول: ((لا يقطع الأبطح إلا شدا([١]))) فمن تركه أو شوطا منه ناسيًا أو عامدًا رجع من بلده أو من حيث ذكر إلى مكة فيطوف ويسعى، لأن السَّعي لا يكون إلا متَّصلًا بالطواف. وسواء عند مالك كان ذلك في حج أو عمرة وإن لم يكن في العمرة فرضا، فإن كان قد أصاب النساء فعليه عمرة وهدي عند مالك مع تمام مناسكه. وقال الشافعي: عليه هدي، ولا معنى للعمرة إذا رجع وطاف وسعى. وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والشعبي: ليس بواجب، فإن تركه أحد من الحاج حتى يرجع إلى بلاده جبره بالدم لأنه سنة من سنن الحج. وهو قول مالك في العتبية([٢]). وروي عن ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين أنه تطوع، لقوله تعالى: {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً}. وقرأ حمزة والكسائي {يطوع} مضارع مجزوم، وكذلك {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ} الباقون {تطوع} ماض، وهو ما يأتيه المؤمن من قبل نفسه فمن أتى بشيء من النوافل فإن الله يشكره. وشكر الله للعبد إثابته على الطاعة. والصحيح ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى لما ذكرنا، وقوله ﷺ: ((خذوا عني مناسككم)) فصار بيانًا لمجمل الحج، فالواجب أن يكون فرضًا، كبيانه لعدد الركعات، وما كان مثل ذلك إذا لم يتفق على أنه سنة أو تطوع. وقال طليب: رأى ابن عباس قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال: هذا ما أورثتكم أمكم أم إسماعيل.

قلت: وهذا ثابت في صحيح البخاري، على ما يأتي بيانه في [سورة إبراهيم].

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرْخَسِيُّ، أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّفَا يَقُولُ: ((نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ))، فَبَدَأَ بِالصَّفَا، وَقَالَ: كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى الصَّفَا يُكَبِّرُ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))، يَصْنَعُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَيَدْعُو وَيَصْنَعُ عَلَى الْمَرْوَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ: كَانَ إِذَا نَزَلَ مِنَ الصَّفَا مَشَى حَتَّى إذا نصبت قدماه في بطن الوادي سعى حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ([٣]).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٤٣٧).

٢- العتبية: كتاب في مذهب الإمام مالك، نسبت الى مؤلفها فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبدالعزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة (٢٥٤) الهجرية.

٣- إسناده صحيح على شرط مسلم. محمد هو ابن علي بن الحسين- وهو- محمد الباقر- هو وابنه من رجال مسلم.

- وهو في شرح السنة (١٩١٢) بهذا الإسناد.

- خرجه المصنف من طريق مالك، وهو في (الموطأ) (١/ ٣٧٢) من طريق جعفر بن محمد بهذا الإسناد. وأخرجه مسلم ١٢١٨ وأبو داود ١٩٠٥ وابن ماجه ٣٠٧٤ والدارمي ١٧٩٣ من طريق حاتم بن إسماعيل عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أبيه به مطوّلا في أثناء حديث صفة حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

- وأخرجه النسائي في (الكبرى) ٣٩٦٧ من طريق الليث عن ابن الهادي عن جعفر بن محمد بهذا الإسناد.

- وأخرجه الترمذي ٢٩٦٧ من طريق سفيان عن جعفر بن محمد بهذا الإسناد مختصرا.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في الإرواء (١١٢٠)، وخرج جميع طرقه وحققه.

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل (١ \ ٢٠٣ - ٢٠٤): وقد ثبتَ في الصحيح(١): أن ناسًا كانوا يظنونَ أن الصفا والمروة ليس من شعائر الله، بل ظنُّوا ذلك من أعمال الجاهلية، وآخرون كانوا لا يطوفون بهما في الجاهلية. فلما جاء الإسلامُ سألوا عن ذلك، فأنزلَ اللهُ هذه الآية، يُبيِّنُ أن الصفا والمروة من شعائرِه، وقد شَرَعَ لعبادِه الطوافَ بهما فلا جُناحَ في ذلك على من حجَّ أو اعتمر، وأزالَ بذلك ما كان قد حَصَلَ من الشك والظن. وهذا كما يسألُ الرجلُ عن عبادةٍ مأمورٍ بها فيظنُّ أنها منهيّ عنها، فيقالُ له: لا بأس بذلك، وإن كان ذلك مشروعًا مستحبًا.

ولم يكن حين نزولِ هذه الآية قد أوجب الله الحج، بل بيَّن أن ذلك مشروع بقوله: إنهما {مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}، وبقوله: {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}. فهذا وهذا يبيّن أن ذلك عمل صالح، وأن قوله: {فلا جناح} لنفي الشبهة التي وقعت لهم في ذلك، وأنَ قوله: {لا جناح عليه}: أي لا جناح في التقرب بالطوافِ واتخاذِه عبادةً، فإنّ أحدًا لا يطوف بهما إلاّ على وجه التعبُّد، ليس ذلك كالسفر الذي يُفعَل على وجهِ العبادة وغيرِ وجهِ العبادة. فلما قال تعالى: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} وهو لا يفعل إلاّ عبادةً، كان المعنى: لا جُناحَ على من عبد الله بهما، فيدلُّ ذلك على أنّ الطواف بهما عبادةٌ لله. وهذا متفق عليه بين المسلمين، لكن تنازعوا: هل ذلك ركن؟ كما يقوله مالك والشافعي، أو واجبٌ يَجْبُره دم؟ أم لا شيءَ في تركهما؟ كما يقوله طائفة من السلف، وهي ثلاث روايات عن أحمد. وأقوى الأقوال أنه واجب يَجبُره دمٌ.

قال ابن العثيمين: {ومن تطوع خيرًا}: أي ازداد خيرًا في الطاعة؛ ويشمل الواجب والمستحب؛ وتخصيص التطوع بالمستحب اصطلاح فقهي؛ أما في الشرع فإنه يشمل الواجب والمستحب؛ و{من} شرطية؛ و{تطوع} فعل الشرط؛ وجواب الشرط جملة: {فإن الله شاكر عليم}؛ و{خيرًا} يجوز في إعرابها وجهان؛ الوجه الأول: أن تكون منصوبة بنزع الخافض؛ والتقدير: ومن تطوع بخير فإن الله شاكر عليم؛ والوجه الثاني: أن تكون مفعولًا لأجله ـ أي ومن تطوع لأجل الخير وطلبه فإن الله شاكر عليم.

قال السعدي: فدلَّ هذا على أنه كلَّما ازداد العبد من طاعة الله ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله لزيادة إيمانه.

ودلَّ تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له بل قد يكون شرًّا له إن كان متعمِّدًا عالِمًا بعدم مشروعية العمل.

قال ابن العثيمين: {فإن الله شاكر}: أي فالله يشكر؛ وهو سبحانه وتعالى شاكر وشكور؛ وشكره تعالى أنه يثيب العامل أكثر من عمله؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١- البخاري (١٦٤٣)، ومسلم (١٢٧٧) عن عائشة.

قال السعدي: الشاكر([١])والشكور، من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل ويجازيهم عليه العظيم من الأجر الذي إذا قام عبده بأوامره وامتثل طاعته أعانه على ذلك وأثنى عليه ومدحه وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوةً ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق؛ ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملًا موفرًا، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئًا لله أعاضه الله خيرًا منه، ومن تقرَّب منه شبرًا تقرَّب منه ذراعًا، ومن تقرَّب منه ذراعًا تقرَّب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافًا مضاعفة.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الشاكر}: فقد سمّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في موضعين من النصوص القرآنية وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه في قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ١٥٨]، مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}[النساء: ١٤٧]، وورد إثبات الوصف في صحيح البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ((أَنَّ رَجُلاً رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ([٢]))، وفي صحيح البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ([٣]))).

والشكر هو الثناء الجميل على الفعل الجليل حتى لو كان قليلًا، ومجازاة الإحسان بالإحسان، فعله شكر، له يشكر شكرًا، و{الشاكر}: اسم فاعل للموصوف بالشكر، والله {شاكر} يجازي العباد على أعمالهم ويزيد لهم في أجورهم، فيقابل شكرهم بزيادة النعم في الدنيا وواسع الأجر في الآخرة، وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن النَّبِي ﷺ قَالَ: ((لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً([٤]))، والله عز وجل يقول: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ}[البقرة: ١٥٢]، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[إبراهيم: ٧]، والله سبحانه شاكر يرضى

١- **(قلت):** وأورده ابن العثيمين في القواعد المثلى ضمن أسماء الله الحسنى، وكذلك في فوائد هذه الآية برقم (٥). وقال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في كتابه: (أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة): و(عبد الشاكر) لم يتسمَّ به أحد في مجال ما أجرينا عليه البحث، وهنا دعوة لمن أراد أن يسمّي ولده بذلك الاسم لأنه لم يسبقه أحد من السلف. ووجد بالبحث على الإنترنت بعضًا ممَّن تسمّى به من أهل مصر.

٢- **(قلت):** البخاري (١٧٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٤).

٣- **(قلت):** البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

٤- **(قلت):** البخاري (٦٥٦٩).

بأعمال عباده وإن قلَّت، وهذا تكريم لهم حيث يقبل منهم أقلَّ من حقه عليهم، ويتفضل بمضاعفة مالهم من أجر ويمحو بمشيئته ما عليهم من وزر، وعند أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ فقال يا رسول الله رأيت فلانا يشكر يذكر أَنَّكَ أَعْطَيْتَهُ دِينَارَيْنِ فقال رسول الله ﷺ: ((لكن فلانا قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا بَيْنَ الْعَشَرَةِ إِلَى الْمِائَةِ فما شكر وَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَسْأَلُنِي الْمَسْأَلَةَ فَأُعْطِيهَا إِيَّاهُ فَيَخْرُجُ بِهَا مُتَأَبِّطُهَا وَمَا هي لَهُمْ إِلاَّ نَارٌ))، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ تُعْطِيهِمْ قَالَ: ((إِنَّهُم يَأْبَوْن إِلاَّ أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى اللَّهُ لِيَ الْبُخْلَ([1]))) .

واسم الله {الشاكر}: يدل على ذات الله وعلى صفة الشكر بدلالة المطابقة وعلى ذات الله وحدها بالتضمن وعلى صفة الشكر وحدها بدلالة التضمن ويدل باللزوم على الحياة والقيومية والعلم السمع والبصر، والكرم والرحمة واللطف والرأفة الغنى والسعة، وغير ذلك من صفات الكمال، واسم الله {الشاكر} دل على صفة من صفات الأفعال.

كيف ندعو الله باسمه {الشاكر} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما ورد في قول سليمان عليه السلام: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[النمل: ١٩]، {وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[الأحقاف: ١٥].

أما دعاء العبادة فتوحيد العبد لربه في اسمه {الشاكر} يوجب عليه شكر الله على نعمه السابغة وشكر الناس على إحسانهم له، فعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ([2])))، وعند أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: ((إِنَّ الْفُسَّاقَ هُمْ أَهْلُ النَّارِ))، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَنِ الْفُسَّاقُ؟ قَالَ: ((النِّسَاءُ))، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَسْنَ أُمَّهَاتِنَا وَأَخَوَاتِنَا وَأَزْوَاجَنَا، قَالَ: ((بَلَى وَلَكِنَّهُنَّ إِذَا أُعْطِينَ لَمْ يَشْكُرْنَ وَإِذَا ابْتُلِينَ لَمْ يَصْبِرْنَ([3])))، وفي سنن الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث ثَوْبَانَ قَالَ لَمَّا نَزَلَت: {الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ} قَالَ: كُنَّا مَعَ النبي ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: أُنْزِلَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَا أُنْزِلَ لَو عَلِمْنَا أي الْمَالِ خَيْرٌ فَنَتَّخِذَهُ؟ فَقَالَ: ((أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ وَقَلْبٌ شَاكِرٌ وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ([4]))).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٤٤).
٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٤١٦).
٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٠٥٦).
٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢١٧٦).

قال ابن العثيمين: {عليم([1])}: أي ذو علم؛ وعلمه تعالى محيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: {وأن الله قد أحاط بكل شيء علما}[الطلاق: ١٢] ؛ وقرن العلم بالشكر لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع، فإنه معلوم عند الله ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا علم العامل أن الله تعالى شاكر وأنه عليم، فإنه سيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجزيه على عمله بما وعده به ويعطيه أكثر من عمله.

قال السعدي: ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل بحسب نيته وإيمانه وتقواه ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها بل يجدونها أوفر ما كانت على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- مشروعية الطواف بين الصفا، والمروة؛ ويؤخذ ذلك من كونه من شعائر الله؛ وهل هو ركن أو واجب أو سنة؟ اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال ثلاثة؛ فقال بعضهم: إنه ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به؛ وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج يجبر بدم ويصح الحج بدونه؛ وقال آخرون: إنه سنة وليس بواجب. والقول بأنه سنة ضعيف جدًّا؛ لأن قوله تعالى: {من شعائر الله} يدلُّ على أنه أمر مهم؛ لأن الشعيرة ليست هي السنة فقط؛ الشعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدِّين.

بقي أن يكون متردِّدًا بين الركن والواجب؛ والأظهر أنه ركن؛ لأن النبي ﷺ قال: ((اسعوا فإن الله كتب عليكم السَّعي([2])))

وقالت عائشة: (والله! ما أتمَّ الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة([3])).

فالأقرب أنه ركن؛ وليس بواجب؛ وإن كان الموفق ـ رحمه الله ـ وهو من مشائخ مذهب الإمام أحمد ـ اختار أنه واجب يجبر بدم.

٢- دفع ما توهمه بعض الصحابة من الإثم بالطواف بالصفا، والمروة؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليه أن يطوف بهما}؛ وعلى هذا فلا ينافي أن يكون الطواف بينهما ركنا من أركان الحج، أو واجبًا من واجباته، أو مشروعًا من مشروعاته؛ وذلك أن أناسا من الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية المذكورة في القرآن؛ وهي في المشلل ـ مكان قرب مكة ـ فكانوا يتحرَّجون من الطواف بالصفا والمروة وقد أهَلُّوا لمناة؛ فلما جاء الإسلام سألوا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله سبحانه

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله { العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٢- أخرجه أحمد ٤٢١/٦ - ٤٢٢، حديث رقم ٢٧٩١١، وأخرجه ابن خزيمة ٢٣٢/٤ - ٢٣٣، حديث رقم ٢٧٦٤، ٢٧٦٥، وأخرجه الشافعي في مسنده ٣٥١/١ - ٣٥٢، حديث رقم ٩٠٧، وقال الألباني الحديث (صحيح) (الإرواء: ٢٦٩/٤ - ٢٧٠) .

٣- أخرجه البخاري ص١٤٠، كتاب العمرة، باب ١٠: يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج حديث رقم ١٧٩٠، وأخرجه مسلم ص٨٩٩، كتاب الحج، باب ٤٣: بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن ... ، حديث رقم ٣٠٧٩ [٢٥٩] ١٢٧٧.

وتعالى هذه الآية: {فلا جناح عليه أن يطوف بهما}؛ فعلى هذا يكون النفي هنا لدفع ما وقع في نفوسهم من التحرُّج؛ لأنها من شعائر الله؛ وليس لبيان أصل الحكم.

وفيه سبب آخر لتحرُّج الناس من الطواف بهما: وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، فكانوا يطوفون بهما كما كانوا يطوفون بالبيت أيضًا، فذكر الله عز وجل الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بالصفا والمروة؛ فقالوا: لو كان ذلك جائزًا لذكره الله عز وجل، فهذا دليل على أنه ليس بمشروع؛ لأنه من أعمال الجاهلية؛ فلا نطوف؛ فأنزل الله هذه الآية.

وفيه أيضًا سبب ثالث؛ وهو أنه يقال: إنه كان فيهما صنمان: إساف، ونائلة؛ وقيل: إنهما كانا رجلًا وامرأة زنيا في جوف الكعبة؛ فمسخهما الله سبحانه وتعالى حجارة؛ فكان من جهل العرب أن قالوا: (هذان مُسِخا حجارة؛ إذًا لابدَّ أن هناك سرًّا وسببًا، فاخرجوا بهما عن الكعبة واجعلوهما على الجبلين الصفا والمروة نطوف بهما، ونتمسح بهما)؛ وقد كان؛ وعلى هذا يقول أبو طالب: (وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم بمفضى السيول من إساف ونائل) و(مفضى السيول) مجرى الوادي المعروف الذي بين الصفا والمروة؛ فالحاصل أن هذه ثلاثة أسباب في نزول الآية؛ وأظهرها السبب الأول؛ على أنه لا مانع من تعدد الأسباب.

٣- أن الطواف بالصفا والمروة من طاعة الله؛ لقوله تعالى: {ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم}.

٤- أن الطاعة خير؛ لقوله تعالى: {ومن تطوع خيرًا}؛ ولا ريب أن طاعة الله سبحانه وتعالى خير للإنسان في حاله ومآله.

٥- إثبات اسم (الشاكر) لله؛ لقوله تعالى: {شاكر}.

٦- إثبات (العليم) اسمًا لله؛ لقوله تعالى: {شاكر عليم}.

٧- إثبات صفة الشكر والعلم؛ لقوله تعالى: {شاكر عليم}؛ لأنهما اسمان دالّان على الصفة؛ وعلى الحكم إن كان متعدّيًا، فقوله تعالى: {عليم} يدلُّ على العلم ـ وهذه هي الصفة؛ ويدلُّ على الحكم بأنه يعلم كل شيء.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)

قال ابن العثيمين: {إن الذين يكتمون}: أي يخفون؛ لكنه لا يكون كتمانًا إلا حيث دعت الحاجة إلى البيان إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

{ما أنزلنا من البينات}؛ {البينات} جمع بينة؛ وهي صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: من الآيات البينات.

{والهدى}: أي العلم النافع الذي يهتدي به الخلق إلى الله عز وجل.

قال ابن كثير: هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرسلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْهُدَى النَّافِعِ لِلْقُلُوبِ، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَهُ اللَّهُ – تَعَالَى – لِعِبَادِهِ فِي كُتُبِهِ، التِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، كتمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قال الطبري: يعني بقوله: {إنّ الذين يَكتمون مَا أنزلنا منَ البينات}، علماءَ اليهود وأحبارَها، وعلماءَ النصارى، لكتمانهم الناسَ أمرَ محمد ﷺ، وتركهم اتباعه وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

و{البينات} التي أنزلها الله: ما بيّن من أمر نبوة محمد ﷺ ومبعثه وصفته، في الكتابين اللذين أخبر الله تعالى ذكره أنّ أهلهما يجدون صفته فيهما.

ويعني تعالى ذكره ب{الهدى} ما أوضح لَهم من أمره في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، فقال تعالى ذكره: إنّ الذين يكتمون الناسَ الذي أنزلنا في كتبهم من البيان من أمر محمد ﷺ ونبوته، وصحة الملَّة التي أرسلته بها و حقّيَّتها، فلا يخبرونهم به، ولا يعلنون من تبييني ذلك للناس وإيضاحِيه لهم، في الكتاب الذي أنزلته إلى أنبيائهم، {أولئك يَلعنهم الله ويَلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا} الآية.

عن ابن عباس قال: سألَ مُعاذ بن جبل أخو بنى سَلِمة، وسعد بن مُعاذ أخو بني عبد الأشهل، وخارجة بن زيد أخو بني الحارث بن الخزرج، نفرًا من أحبار يَهود – قال أبو كريب: عما في التوراة، وقال ابن حميد: عن بَعض مَا في التوراة – فكتموهم إياه، وأبوْا أن يُخبروهم عنه، فأنزل الله تعالى ذكره فيهم: {إنّ الذين يَكتمون مَا أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئك يَلعنهم الله وَيَلعنهم اللاعنون(١)}.

قال القرطبي: وفيه سبع مسائل:

الأولى: أخبر الله تعالى أن الذي يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون. واختلفوا من المراد بذلك:

فقيل: أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ، وقد كتم اليهود أمر الرجم.

وقيل: المراد كل من كتم الحق؛ فهي عامَّة في كل من كتم علمًا من دين الله يحتاج إلى بثِّه، وذلك مفسَّر في قوله ﷺ: ((من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار(٢))). رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص، أخرجه ابن ماجة. ويعارضه قول عبدالله بن مسعود: ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. وهذا محمول

١- الأثر: في سيرة ابن هشام ٢: ٢٠٠ كما في رواية ابن حميد.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٦٢٨٤).

على بعض العلوم، أو ما لا يستوي في فهمه جميع العوام، فحكم العالم أن يحدَّث بما يُفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته، والله تعالى أعلم[١].

الثانية: هذه الآية هي التي أراد أبو هريرة رضي الله عنه في قوله: (لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثتكم حديثًا). وبها استدلَّ العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيان العلم على الجملة دون أخذ الأجرة عليه، إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعله كما لا يستحق الأجرة على الإسلام.

وتحقيق الآية هو: أن العالم إذا قصد كتمان العلم عصى، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره. وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث. أما أنه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق، ولا يعلم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله، ولا السلطان تأويلًا يتطرق به إلى مكاره الرعيَّة، ولا ينشر الرُّخص في السُّفهاء فيجعلوا ذلك طريقًا إلى ارتكاب المحظورات وترك الواجبات ونحو ذلك.

الثالثة: قوله تعالى: {مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى} يعم المنصوص عليه والمستنبط، لشمول اسم الهدى للجميع. وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله، وقال: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا} [البقرة : ١٦٠] فحكم بوقوع البيان بخبرهم.

فإن قيل: إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهيًّا عن الكتمان ومأمورًا بالبيان ليكثر المخبرون ويتواتر بهم الخبر.

قلنا: هذا غلط، لأنهم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليه، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجبًا للعلم، والله تعالى اعلم.

الرابعة: لما قال: {مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى}، دلَّ على أن ما كان من غير ذلك جائز كتمه لا سيَّما إن كان مع ذلك خوف فإن ذلك آكد في الكتمان. وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال: حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم. أخرجه البخاري. قال أبو عبدالله[٢]: البلعوم مجرى الطعام. قال علماؤنا: وهذا الذي لم يبثه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن والنص على أعيان المرتدِّين والمنافقين، ونحو هذا مما لا يتعلَّق بالبيِّنات والهدى، والله تعالى اعلم.

١- (قلت): يجوز أن يكون الآية نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا صفة رسول الله ﷺ، ويشمل كل من كتم الحق. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٢- أبو عبدالله: كنية البخاري رحمه الله.

- (قلت): البخاري (١٢٠).

الخامسة: قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ} الكناية في {بيناه} ترجع إلى ما أنزل من البيِّنات والهدى. و{الكتاب}: اسم جنس، فالمراد جميع الكتب المنزلة.

قال ابن العثيمين: {من بعد ما بيَّناه}: أي أظهرناه؛ {للناس}: أي للناس عمومًا ـ المؤمن والكافر؛ فإن الله تعالى بيَّن الحق لعموم الناس، كما قال تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى}[فصلت: ١٧]؛ فكل الناس قد بيَّن الله لهم الحق؛ لكن منهم من اهتدى؛ ومنهم من بقي على ضلاله.

{في الكتاب}: المراد به جميع الكتب؛ فهو للجنس؛ فما من نبي أرسله الله إلا ومعه كتاب، كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان}[الحديد: ٢٥]، وكما قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}[البقرة: ٢١٣].

{أولئك يلعنهم الله}؛ {أولئك} مبتدأ؛ وجملة {يلعنهم الله} خبره؛ والمبتدأ الثاني، وخبره خبر (إن)؛ و{يلعنهم الله}: أي يطردهم ويبعدهم عن رحمته؛ لأن (اللعن) في اللغة: الطرد والإبعاد.

{ويلعنهم اللاعنون}: أي يسألون لهم اللعنة؛ وهم أيضًا بأنفسهم يبغضونهم ويعادونهم ويبتعدون عنهم.

قال القرطبي: السادسة: قوله تعالى: {أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ}: أي يتبرَّأ منهم ويبعدهم من ثوابه ويقول لهم: عليكم لعنتي، كما قال للّعين: {وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي}[ص: ٧٨]. وأصل اللّعن في اللغة الإبعاد والطَّرد.

السابعة: قوله تعالى: {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} قال قتادة والربيع: المراد ب{اللاعنون} الملائكة والمؤمنون. قال ابن عطية: وهذا واضح جار على مقتضى الكلام. وقال مجاهد وعكرمة: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم.

قال السعدي: {ويلعنهم اللاعنون}، وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللّعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم وإبعادهم من رحمة الله، فجُوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلِّي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص١٨٧: فَالْمُرْصِدُونَ لِلْعِلْمِ، عَلَيْهِمْ لِلْأُمَّةِ حِفْظُ عِلْمِ الدِّينِ، وَتَبْلِيغُهُ. فَإِذَا لَمْ يُبَلِّغُوهُمْ عِلْمَ الدِّينِ، أَوْ ضَيَّعُوا حِفْظَهُ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ لِلْمُسْلِمِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}، فَإِنَّ ضَرَرَ كِتْمَانِهِمْ تَعَدَّى إلَى الْبَهَائِمِ، وَغَيْرِهَا، فَلَعَنَهُمْ اللَّاعِنُونَ، حَتَّى الْبَهَائِمُ.

كَمَا أَنَّ مُعَلِّمَ الْخَيْرِ يُصَلِّي عَلَيْهِ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْبَحْرِ وَالطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ.

وَكَذَلِكَ كَذِبُهُمْ فِي الْعِلْمِ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ. وَكَذَلِكَ إظْهَارُهُمْ لِلْمَعَاصِي وَالْبِدَعِ الَّتِي تَمْنَعُ الثِّقَةَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَتَصْرِفُ الْقُلُوبَ عَنْ اتِّبَاعِهِمْ، وَتَقْتَضِي مُتَابَعَةَ النَّاسِ لَهُمْ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، وَيَسْتَحِقُّونَ مِنْ الذَّمِّ وَالْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ مَنْ أَظْهَرَ الْكَذِبَ وَالْمَعَاصِيَ وَالْبِدَعَ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ إظْهَارَ غَيْرِ الْعَالِمِ – وَإِنْ كَانَ فِيهِ نَوْعُ ضَرَرٍ – فَلَيْسَ هُوَ مِثْلُ الْعَالِمِ فِي الضَّرَرِ الَّذِي يَمْنَعُ ظُهُورَ الْحَقِّ وَيُوجِبُ ظُهُورَ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ إظْهَارَ هَؤُلَاءِ لِلْفُجُورِ وَالْبِدَعِ بِمَنْزِلَةِ إعْرَاضِ الْمُقَاتِلَةِ عَنْ الْجِهَادِ، وَدَفْعِ الْعَدُوِّ، لَيْسَ هُوَ مِثْلُ إعْرَاضِ آحَادِ الْمُقَاتِلَةِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

فَتَرْكُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِتَبْلِيغِ الدِّينِ، كَتَرْكِ أَهْلِ الْقِتَالِ لِلْجِهَادِ، وَتَرْكُ أَهْلِ الْقِتَالِ لِلْقِتَالِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ، كَتَرْكِ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلتَّبْلِيغِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ، كِلَاهُمَا ذَنْبٌ عَظِيمٌ وَلَيْسَ هُوَ مِثْلُ تَرْكِ مَا تَحْتَاجُ الْأُمَّةُ إلَيْهِ، مِمَّا هُوَ مُفَوَّضٌ إلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَرْكَ هَذَا أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِ أَدَاءِ الْمَالِ الْوَاجِبِ إلَى مُسْتَحَقِّهِ. وَمَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ الْبِدَعِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي تَمْنَعُ قَبُولَ قَوْلِهِمْ، وَتَدْعُو النُّفُوسَ إلَى مُوَافَقَتِهِمْ، وَتَمْنَعُهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنْ إظْهَارِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، أَشَدُّ ضَرَرًا لِلْأُمَّةِ وَضَرَرًا عَلَيْهِمْ مِنْ إظْهَارِ غَيْرِهِمْ لِذَلِكَ.

وَلِهَذَا جَبَلَ اللَّهُ قُلُوبَ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَعْظِمُ جُبْنَ الْجُنْدِيِّ، وَفَشَلَهُ، وَتَرْكَهُ لِلْجِهَادِ، وَمُعَاوَنَتَهُ لِلْعَدُوِّ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَعْظِمُهُ مِنْ غَيْرِهِ. وَتَسْتَعْظِمُ إظْهَارَ الْعَالِمِ الْفُسُوقَ وَالْبِدَعَ، أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَعْظِمُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ، بِخِلَافِ فُسُوقِ الْجُنْدِيِّ وَظُلْمِهِ وَفَاحِشَتِهِ، وَبِخِلَافِ قُعُودِ الْعَالِمِ عَنْ الْجِهَادِ بِالْبَدَنِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ وُلَاةُ الْأُمُورِ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ مِنْ الْوَالِي وَالْقَاضِي، فَإِنَّ تَفْرِيطَ أَحَدِهِمْ فِيمَا عَلَيْهِ رِعَايَتُهُ مِنْ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ، أَوْ فِعْلِ ضِدِّ ذَلِكَ، مِنْ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ، يُسْتَعْظَمُ أَعْظَمَ مِمَّا يُسْتَعْظَمُ ذَنْبٌ يَخُصُّ أَحَدَهُمْ([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن كتم العلم من كبائر الذنوب؛ يؤخذ من ترتيب اللعنة على فاعله؛ والذي يرتب عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب.

٢– الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {يكتمون}؛ والكاتم مريد للكتم.

٣– أن ما أنزل الله من الوحي فهو بيِّن لا غموض فيه؛ وهدىً لا ضلالة فيه؛ لقوله تعالى: {من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب}؛ والبيان ينقسم إلى قسمين: بيان مفصل؛ وبيان مجمل؛ فالمجمل هي القواعد العامة في الشريعة؛

١– (قلت): أنظر كلام ابن العثيمين عن كتمان العلم وأنواعه عند تفسير الآية (١٧٤) من سورة البقرة.

والمفصل هو أن يبيِّن الله سبحانه وتعالى قضيَّة معيَّنة مفصلة مثل آيات الفرائض في الأحكام؛ فإنَّها مفصَّلة مبيَّنة لا يشذّ عنها إلا مسائل قليلة؛ وهناك آيات مجملة عامة مثل: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}[المائدة: ١]: فهو بيان عام؛ وكذلك بعض القصص يذكرها الله سبحانه وتعالى مفصَّلة، وأحيانًا مجملة؛ وكل هذا يعتبر بيانًا.

٤- الرَّد على أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألّا يكون القرآن بيانًا للناس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية وفعلية؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان؛ يكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئًا لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيستفاد من هذه الآية الرَّد على أهل التأويل؛ والحقيقة أنهم ـ كما قال شيخ الإسلام ـ أهل التحريف لا أهل التأويل؛ لأن التأويل منه حق، ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.

٥- الرَّد على أهل التفويض الذين يقولون: إن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناها؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

٦- بيان فضل الله عز وجل على عباده بما أنزله من البينات، والهدى؛ لأن الناس محتاجون إلى هذا؛ ولولا بيان الله سبحانه وتعالى وهدايته ما عرف الناس كيف يتوضؤون، ولا كيف يصلون، ولا كيف يصومون، ولا كيف يحجون؛ ولكن من فضل الله أن الله سبحانه وتعالى بيَّن ذلك.

٧- إثبات علو الله؛ لقوله تعالى: {ما أنزلنا}؛ والنزول إنما يكون من أعلى؛ وعلوّ الله بذاته ثابت بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

٨- قبح هذ الكتمان الذي سلكه هؤلاء؛ لأنه كتمان بعد بيان؛ ليس لهم أن يقولوا: (ما تكلَّمنا؛ لأن الأمر مشتبه علينا)؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشتباه الأمر عليه قد يعذر؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن الله بينه للناس يكون هذا أعظم قبحًا ـ والعياذ بالله.

٩- وجوب نشر العلم عند الحاجة إليه سواء ظهرت الحاجة بلسان الحال، أو بلسان المقال؛ ولسان الحال: أن ترى إنسانًا يعمل عملًا ليس على الوجه المرضي؛ فهذا لسان حاله يدعو إلى أن تبين له الحق؛ ولسان المقال: أن يسألك سائل عن علم وأنت تعلمه؛ فيجب عليك أن تبلغه ما دمت تعلم؛ أما إذا كنت لا تعلم فإنه يجب أن تقول: (لا أدري)، أو (لا أعلم)؛ كذلك لو رأيت الناس عمَّ فيهم الجهل في مسألة من أمور الدين؛ فهنا الحاجة داعية إلى البيان؛ فيجب أن تبيِّن.

١٠- أن الكتب السماوية كلها بيان للناس، لأن قوله تعالى: {في الكتاب} المراد به الجنس لا العهد؛ فالله تعالى بين الحق في كل كتاب أنزله؛ لم يترك الحق غامضًا؛ بل بينه لأجل أن تقوم الحجة على الخلق؛ لأنه لو كان الأمر غامضًا لكان للناس حجة في أن يقولوا: ما تبيَّن لنا الأمر.

١١- أن الرجوع في بيان الحق إلى الكتب المنزلة.

١٢- أن هؤلاء الكاتمين ملعونون؛ يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون؛ لقوله تعالى: {أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون}.

١٣- إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ وهي كل فعل يتعلق بمشيئته، مثل النزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده؛ والاستواء على العرش؛ والضحك؛ والكلام؛ والتعجب؛ وما إلى ذلك؛ كل فعل يتعلق بمشيئة الله عز وجل فإنه من الأفعال الاختيارية؛ و{اللعن} منها؛ ويدلُّ على أنه منها أن له سببًا؛ وما كان له سبب فإنه يوجد بالسبب ويعدم بعدمه؛ إذًا فاللَّعن من الأفعال الاختيارية.

١٤- جواز الدعاء باللعنة على كاتم العلم؛ لقوله تعالى: {يلعنهم اللاعنون}؛ لأن من معنى {يلعنهم اللاعنون}: الدعاء عليهم باللعنة؛ تقول: اللهم العنهم؛ ولا يلعن الشخص المعيَّن؛ بل على سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعيَّن لا يجوز - ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يدرى ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم}[آل عمران: ١٢٨]؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ: ((لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا[١]))؛ وهذا عام؛ ثم إنه قد يثير ضغائن وأحقاد من أقاربه وأصحابه وأصدقائه؛ فيكون في ذلك مفسدة؛ ثم إن النبي ﷺ قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت[٢]))؛ وأي خير في كونك تلعن واحدًا كافرًا قد مات؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها والقدح فيها وذمّها؛ أما هو شخصيًّا فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه - وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات على الكفر.

١٥- عظم كتم العلم، حيث كان من الكبائر؛ وكتم العلم يتحقَّق عند الحاجة إلى بيانه إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال؛ فإن من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل متعنِّتًا، أو يريد الإيقاع بالمسؤول، أو ضرب آراء العلماء بعضها ببعض، أو يترتب على إجابته مفسدة، فلا يجاب حينئذ؛ وليس هذا من كتم العلم؛ بل هو من مراعاة المصالح ودرء المفاسد.

(مسألة)

دفع الفتوى ـ وهو أن يحوّل المستفتي إلى غيره، فيقول: اسأل فلانًا، أو اسأل العلماء - اختلف فيها أهل العلم: هل يجوز، أو لا يجوز؟ والصحيح أنه لا يجوز؛ إلا عند الاشتباه فيجب؛ أما إذا كان الأمر واضحًا فإنه لا يجوز؛ لأنه يضيع الناس لا سيَّما إذا كان الإنسان يرى أنه إذا دفعها استفتي أناس جهال يضلون الناس؛ فإنه هنا تتعيَّن عليه الفتوى؛ ويستعين الله عز وجل، ويسأل الله الصواب والتوفيق.

١- (قلت): البخاري (١٣٩٣).

٢- (قلت): البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧/٧٤).

١٦- استحقاق الكاتمين للعنة الله ولعنة اللاعنين.

قد يقول قائل: هذا تحصيل حاصل، لأنه كقول القائل: قام القائمون، أو يقوم القائمون، ويدخل الداخلون.

فالجواب: لا، لأنه ليس كل من نسب إليه الوصف يكون قائمًا به على الوجه الأكمل؛ قد تقول: (قام القائمون) بمعنى أنهم أتوا بالقيام على وجهه؛ فمعنى {يلعنهم اللاعنون}: أي الذين يعرفون من يستحق اللعنة، ويوجِّهونها إلى أهلها؛ فهم ذوو علم بالمستحق، وذوي حكمة في توجيه اللعنة إليه؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ... }[النساء: ١٣٦] الآية؛ فناداهم باسم الإيمان وأمرهم به؛ أي بتحقيقه والثبات عليه.

إذًا هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البيِّنات والهدى مع ظهوره وبيانه يستحقون – والعياذ بالله – هذا الجزاء الوخيم من الله ومن عباد الله؛ وعكس ذلك الذين يبينون الحق – نسأل الله أن يجعلنا منهم؛ فهؤلاء يكون لهم المودَّة والمحبَّة من الله ومن أولياء الله؛ وقد ورد في حديث أبي الدرداء الطويل أن العالم يستغفر له أهل السموات والأرض حتى الحيتان في الماء[1]؛ لأن الذي يبيِّن شريعة الله يلقي الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده مودَّته ومحبَّته والقبول له حتى في السماء؛ ونحن نعلم ذلك – وإن لم يرد به نص خاص – عن طريق القياس الجلي: فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعاقب الكاتمين بهذه العقوبة الواقعة منه ومن عباده؛ وهو الذي سبقت رحمته غضبه، فالذين يبيِّنون البيِّنات والهدى، يستحقُّون أن يثني الله سبحانه وتعالى عليهم بدلًا من اللعنة، ويقرِّبهم بدلًا من البعد.

١٧- أنه يجب على من قال قولًا باطلًا، ثم تبيَّن له بطلانه أن يبيِّنه للناس إلّا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبيَّن بطلان ما سبق؛ لأنه لا يدري أي الاجتهادين هو الصواب.

١- أخرجه أحمد ص١٦٠٢، حديث رقم ٢٢٠٥٨؛ والترمذي ص١٩٢٢، كتاب العلم، باب ١٩ ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم ٢٦٨٢؛ وأبو داود ص١٤٩٣، أول كتاب العلم، باب ١: في فضل العلم، حديث رقم ٣٦٤١؛ وابن ماجة ص٢٤٩١، كتاب السنة، باب ١٧: فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم ٢٢٣؛ والدارمي ١/١١٠، المقدمة، باب ٣٢: في فضل العلم والعالم، حديث رقم ٣٤٢؛ ومدار هذه الأسانيد على داود بن جميل عن كثير بن قيس (ويقال: قيس بن كثير؛ والأول أصوب – قاله الحافظ في التقريب –)؛ وكل من داود، وكثير ضعيف؛ وقال الألباني: (لكن أخرجه أبو داود من طريق أخرى عن أبي الدرداء بسند حسن) (راجع صحيح الترغيب والترهيب، الطبعة الثانية، حاشية ٣ ص٣٣)؛ لكن في سنده شبيب بن شيبة، قال الحافظ في التقريب: مجهول؛ وقال عمرو بن عثمان: (عن شعيب بن رزيق) بدلا عن شبيب بن شيبة؛ وقال: (وهو أشبه بالصواب) (راجع تهذيب التهذيب ٤/٢٧١)؛ وشعيب بن رزيق الشامي قال الحافظ في التقريب: (صدوق يخطئ)؛ وقيل: صدوق حسن الحديث (تحرير تقريب التهذيب ٢/١١٧)؛ وعليه فالإسناد حسن.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

قال ابن العثيمين: {إلَّا الذين تابوا}: الاستثناء هنا متصل؛ لأنه استثناء من الكاتمين؛ يعني إلا إذا تابوا؛ و(التوبة) في اللغة الرجوع؛ وفي الشرع: الرجوع من معصية الله إلى طاعته؛ والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن كتمان ما أنزل الله إلى بيانه ونشره.

قال السعدي: أي رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندمًا وإقلاعًا وعزمًا على عدم المعاودة {وأصلحوا} ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن؛ ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضًا حتى يبيِّن ما كتمه ويبدي ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنه، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه.

قال ابن العثيمين: {وبيَّنوا}: أي وضَّحوا للناس ما كتموا من العلم ببيانه وبيان معانيه؛ لأنه لا يتم البيان إلا ببيان المعنى؛ {فأولئك}: يعني الذين تابوا وأصلحوا وبينوا، {أتوب عليهم}: أي أقبل منهم التوبة؛ لأن توبة الله على العبد لها معنيان؛ أحدهما: توفيق العبد للتوبة؛ الثاني: قبول هذه التوبة، كما قال الله تعالى: {ثم تاب عليهم ليتوبوا}.

{وأنا التواب}: صيغة مبالغة ونسبة؛ لأن (فعال) تأتي للمبالغة وتأتي للنسبة: فإن قيّدت بمعمول فهي للمبالغة؛ وإن أطلقت فهي للنسبة؛ أو نقول: هي للمبالغة والنسبة بكل حال إلا أن يمنع من ذلك مانع، كقوله تعالى: {وما ربك بظلام للعبيد} فإن هذه للنسبة؛ ولا تصح للمبالغة لفساد المعنى بذلك؛ لأنها لو كانت للمبالغة لكان المنفي عن الله كثرة الظلم مع أنه جل وعلا {لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما}[النساء: ٤٠]؛ وقوله تعالى: {التواب}، تصلح للأمرين جميعًا؛ فهو سبحانه وتعالى موصوف بالتواب؛ وهو ذو توبة على جميع العباد؛ وكذلك موصوف بكثرة توبته سبحانه وتعالى وكثرة من يتوب عليهم؛ كم يفعل الإنسان من ذنب ويتوب، فيتوب الله عليه! وكم من أناس أذنبوا فتابوا، فتاب الله عليهم! فلهذا جاء بلفظ: {التواب[1]}.

قال السعدي: {الرحيم[2]}: الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفَّقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وكرمًا؛ هذا حكم التائب من الذنب.

قال ابن العثيمين: وجمع بين التوبة والرحمة؛ لأن بالرحمة يكون الإحسان؛ وبالتوبة يكون زوال العقوبة؛ فجمع الله بينهما؛ فهو يتوب؛ وإذا تاب سبحانه وتعالى رحم التائب ويسَّره لليسرى وسهَّل له أمور الخير؛ فحصل على الخير العظيم.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {التواب} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٧) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٧) من سورة البقرة.

قال ابن كثير: وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَى كُفْرٍ، أَوْ بِدْعَةٍ إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ لَمْ تَكُنِ التَّوْبَةُ تُقْبَلُ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّ هَذَا مِنْ شَرِيعَةِ نَبِيِّ التَّوْبَةِ وَنَبِيِّ الرَّحْمَةِ صَلَوَاتُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

قال ابن العثيمين: وفي هذه الآية التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ... }[البقرة: ١٥٩]، وقوله تعالى: {أولئك يلعنهم الله}[البقرة: ١٥٩]؛ ولم يقل: (نلعنهم)؛ وللالتفات فائدتان:

الأولى: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام أوجب أن ينتبه المخاطب لما حصل من التغيير.

والفائدة الثانية: تكون بحسب السياق: ففي هذه الآية: {أولئك يلعنهم الله} الفائدة: التعظيم؛ لأن قوله: {يلعنهم الله} أبلغ في التعظيم من (أولئك نلعنهم)؛ لأن المتكلم إذا تحدث عن نفسه بصيغة الغائب صار أشدّ هيبة، مثل قول الملك: إن الملك يأمركم بكذا وكذا؛ وأمر الملك بكذا وكذا ـ ويعني نفسه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن توبة الكاتمين للعلم لا تكون إلا بالبيان والإصلاح؛ لقوله تعالى: {إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا}: ثلاثة شروط:

الأول: التوبة؛ وهي الرجوع عما حصل من الكتمان.

الثاني: الإصلاح لما فسد بكتمانهم؛ لأن كتمانهم الحق حصل به فساد.

الثالث: بيان الحق غاية البيان. وبهذا تبدَّل سيئاتهم حسنات.

٢- أن كل ذنب ـ وإن عظم ـ إذا تاب الإنسان منه فإن الله سبحانه وتعالى يتوب عليه.

٣- إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى وهما {التواب}، و{الرحيم} ؛ {التواب} على من أذنب؛ {الرحيم} على من أخلص وعمل؛ فالرحمة تجلب الخير؛ والتوبة تدفع الشر.

٤- إثبات صفتين من صفات الله؛ وهما التوبة والرحمة.

٥- إثبات حكمين من هذين الاسمين: أن الله يتوب ويرحم؛ ولهذا قال تعالى: {فأولئك أتوب عليهم}.

٦- توكيد الحكم بما يوجبه؛ لقوله تعالى: {وأنا التواب الرحيم}.

٧-كثرة توبة الله، وكثرة من يتوب عليهم؛ لقوله تعالى: {التواب}.

والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته؛ فيرجع من الشرك إلى التوحيد؛ ومن الزنى إلى العفاف؛ ومن الاستكبار إلى الذُّل والخضوع؛ ومن كل معصية إلى ما يقابلها من الطاعة؛ وشروطها خمسة: الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ والنَّدم على الذَّنب؛ والإقلاع عنه في الحال؛ والعزم على أن لا يعود؛ وأن تكون التوبة في وقت تقبل فيه.

الشرط الأول: الإخلاص لله بأن يكون قصده بالتوبة رضا الله، وثواب الآخرة، وألّا يحمله على التوبة خوف مخلوق، أو رجاء مخلوق، أو علو مرتبة، أو ما أشبه ذلك.

الشرط الثاني: الندم على ما جرى منه من الذنب؛ ومعنى (الندم) أن يتحسَّر الإنسان أن وقع منه هذا الذنب.

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية؛ وهذا يدخل فيه أداء حقوق العباد إليهم؛ لأن من لم يؤدِّ الحق إلى العباد فإنه لم يقلع؛ فهو ليس شرطًا مستقلًّا ـ كما قاله بعض العلماء؛ ولكنه شرط داخل في الإقلاع؛ إذ إن من لم يؤدِّ الحق إلى أهله لم يقلع عن المعصية.

الشرط الرابع: أن يعزم ألّا يعود؛ فإن لم يعزم فلا توبة، وليس من الشرط ألّا يعود، فإذا صحَّت التوبة ثم عاد إلى الذنب لم تبطل توبته الأولى؛ لكنه يحتاج إلى تجديد التوبة.

الشرط الخامس: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه؛ يعني أن تكون في وقت قبول التوبة؛ وذلك بأن تكون قبل حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ فإذا كان بعد حضور الموت لم تقبل؛ لقوله تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن}[النساء: ١٨]؛ وإذا كانت بعد طلوع الشمس من مغربها لم تقبل؛ لقوله تعالى: {يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا}[الأنعام: ١٥٨]؛ وقول النبي ﷺ: ((لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة؛ ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها([١]))).

وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟ للعلماء في هذا ثلاثة أقوال؛ الأول: أنها تصح؛ والثاني: أنها تصح إن كان الذنب من غير الجنس؛ والثالث: لا تصح؛ والصحيح أنها تصح من ذنب مع الإصرار على غيره؛ لكن لا يستحق اسم التائبين على سبيل الإطلاق؛ فلا يستحق وصف التائب ولا يدخل في مدح التائبين؛ لأن توبته مقيَّدة من هذا الذنب المعيَّن؛ ومثال ذلك: إذا تاب رجل من الزنى لكنه يتتبع النساء بالنظر المحرَّم فإن توبته من الزنى تصح على القول

١- أخرجه أحمد ٩٩/٤، حديث رقم ١٧٠٣٠، وأخرجه أبو داود ص١٤٠٦، كتاب الجهاد، باب ٢: الهجرة قد انقطعت، حديث رقم ٢٤٧٩، وأخرجه الدارمي ج٣١٢/٢، كتاب السير، باب ٧٠: الهجرة لا تنقطع، حديث رقم ٢٦١٣؛ وفي سنده أبو هند البجلي قال الذهبي في الميزان ٨٥٣/٤: (لا يصرف؛ لكن احتج به النسائي على قاعدته)؛ قال عبد القادر في تخريج جامع الأصول لابن الأثير ٦٠٦/١١ حاشية رقم (٢): رواه أحمد في المسند ١٩٢/١ من طريق آخر وإسناده حسن. أهـ (باختصار).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في الإرواء (١٢٠٨)، وصحيح أبي داود (٢٢٤١).

الراجح؛ لكن لا يستحق وصف التائب على سبيل الإطلاق؛ وعلى القول بأنها تصح إذا كانت من غير الجنس: فإنها لا تصح؛ وإذا تاب من الزنى مع الإصرار على الربا فإنها تصح؛ لأن الربا ليس من جنسه؛ إلا على القول الثالث الذي يقول لا تصح إلا مع الإقلاع عن جميع الذنوب.

٨- عظم الكتمان؛ لأن الله ذكر لنجاتهم من هذه اللعنة ثلاثة شروط: التوبة، والإصلاح، والبيان؛ لأن كتمهم لما أنزل الله يتضمن إفسادًا في الأرض، وإضلالًا للخلق؛ فتوبتهم منه لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد بسبب كتمانهم، مثال ذلك: قوم كتموا صفة النبي ﷺ، وقالوا: (ليس هو بالرسول الذي سيبعث)؛ فسيضل من الناس بناء على قولهم عالَم؛ فلا يكفي أن يتوبوا، ويندموا، ويقلعوا، ويسلموا، حتى يصلحوا ما أفسدوا من الآثار التي ترتبت على كتمانهم الحق؛ وإلا لم تصح التوبة.

٩- عظم العلم، وأنه حمل ثقيل وعبء عظيم على من حمله الله سبحانه وتعالى إياه، وأن الإنسان على خطر إذا لم يقم بواجبه من البيان؛ وسبق أن البيان حين يحتاج الناس إليه ويسألون؛ إما بلسان الحال وإما بلسان المقال.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

قال ابن العثيمين: الآيتان قبلها في العلماء الذين كتموا الحق؛ وهذه في الكفار الذين استكبروا عن الحق.

{إن الذين كفروا}: (الكفر) في اللغة بمعنى الستر؛ ومنها كفرى النخل ـ أي وعاء طلعه ـ لستره الطلع؛ والمراد بالكفر في القرآن والسنة: جحد ما يجب لله سبحانه وتعالى من الطاعة والانقياد؛ وهو نوعان: إما تكذيب؛ وإما استكبار.

{وماتوا وهم كفار} معطوفة على {كفروا} فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها معطوفة على صلة الموصول التي لا محل لها من الإعراب؛ وجملة {وهم كفار} حالية من الفاعل في {ماتوا}؛ يعني أنهم ـ والعياذ بالله ـ استمروا على كفرهم إلى الموت، فلم يزالوا على الكفر، ولم يتوبوا، ولم يرجعوا؛ وخبر {إن} جملة {أولئك عليهم لعنة الله}: {أولئك} مبتدأ ثان؛ و{عليهم} جار ومجرور خبر مقدم لـ{لعنة}؛ و{لعنة} مبتدأ ثالث؛ والجملة من المبتدأ الثالث، وخبره خبر المبتدأ الثاني: {أولئك}؛ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر {إن}.

وقوله تعالى: {لعنة الله}: أي طرده وإبعاده عن رحمته؛ {والملائكة}: أي ولعنة الملائكة؛ والملائكة عالم غيبي خلقوا من نور؛ وهم محجوبون عن الإنس؛ وربما يرونهم إما على الصورة التي خلقوا عليها كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي

خلق عليها له ستمائة جناح([١])قد سدَّ الأفق([٢])؛ وإما على صورة أخرى كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورة دحية الكلبي([٣])؛ وهم عباد الله عز وجل لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون؛ يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ لا يأكلون ولا يشربون؛ صمد – أي لا أجواف لهم؛ والملائكة عليهم السلام لهم وظائف وأعمال خصَّهم الله سبحانه وتعالى بها؛ فإسرافيل وميكائيل وجبريل موكلون بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل بقوله: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ... ([٤]))) الحديث؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكلون بما فيه الحياة؛ والبعث من النوم حياة؛ ولهذا ناسب أن يكون هذا الاستفتاح في أول عمل يعمله الإنسان بعد أن توفاه الله عز وجل بالنوم؛ وهؤلاء الثلاثة أحدهم مكلَّف بما فيه حياة القلوب – وهو جبريل – والثاني بما فيه حياة الأبدان – وهو إسرافيل – والثالث بما فيه حياة النبات – وهو ميكائيل – وأفضلهم جبريل – ولهذا امتدحه الله عز وجل بقوله تعالى: {إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين}[التكوير: ١٩، ٢٠]، وبقوله تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًّا}[مريم: ١٧]؛ فجبريل أفضل الملائكة على الإطلاق.

{والناس أجمعين}: أي عليهم لعنة الناس أجمعين؛ يلعنهم الناس ـ والعياذ بالله، ويمقتونهم ولا سيَّما في يوم القيامة؛ فإن هؤلاء يكونون مبغَضين عند جميع الخلق؛ فهم أعداء الله سبحانه وتعالى.

قال السعدي: لأنه لما صار كفرهم وصفًا ثابتًا، صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول، لأن الحكم يدور مع علَّته، وجودًا وعدمًا.

قال القرطبي: فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال ابن العربي: قال لي كثير من أشياخي إن الكافر المعيَّن لا يجوز لعنه، لأن حاله عند الموافاة لا تعلم وقد شرط الله تعالى في هذه الآية في إطلاق اللعنة الموافاة على الكفر، وأما ما روي عن النبي ﷺ أنه لعن أقوامًا بأعيانهم من الكفار فإنما كان ذلك لعلمه بمآلهم.

قلت: أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف في ذلك لما رواه مالك عن داود بن الحصين أنه سمع الأعرج يقول: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان. قال علماؤنا: وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك

١- راجع البخاري ص٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم ٣٢٣٢؛ ومسلما ص٧٠٨، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى) ... ، حديث رقم ٤٣٢ [٢٨٠] ١٧٤.

٢- راجع البخاري ص٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء ... ، حديث رقم ٣٢٣٥؛ ومسلما ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى) ... ، حديث رقم ٤٤٢ [٢٩٠] ١٧٧.

٣- راجع مسلما ص٧٠٧، كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤٢٣ [٢٧١] ١٦٧.

٤- (قلت): مسلم (٧٧٠)، والحديث بتمامه: ((اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)).

بواجب ولكنه مباح لمن فعله لجحدهم الحق وعداوتهم للدين وأهله، وكذلك كل من جاهر بالمعاصي كشرّاب الخمر وأكلة الربا ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء، إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه.

الثانية: ليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر، بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره، كان الكافر ميتًا أو مجنونًا. وقال قوم من السلف: إنه لا فائدة في لعن من جَنَّ أو مات منهم، لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر، فإنه لا يتأثر به.

والمراد بالآية على هذا المعنى أن الناس يلعنونه يوم القيامة ليتأثر بذلك ويتضرَّر ويتألم قلبه، فيكون ذلك جزاء على كفره، كما قال تعالى: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً}[العنكبوت: ٢٥]، ويدلُّ على هذا القول أن الآية دالَّة على الإخبار عن الله تعالى بلعنهم، لا على الأمر. وذكر ابن العربي أن لعن العاصي المعيَّن لا يجوز اتفاقًا، لما روي عن النبي أنه أتي بشارب خمرٍ مرارًا، فقال بعض من حضره: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: ((لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم([1]))) فجعل له حرمة الأخوة، وهذا يوجب الشفقة، وهذا حديث صحيح.

قلت: خرجه البخاري ومسلم، وقد ذكر بعض العلماء خلافًا في لعن العاصي المعيَّن، قال: وإنما قال ﷺ: ((لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم))، في حق نعيمان بعد إقامة الحدّ عليه، ومن أقيم عليه حدّ الله تعالى فلا ينبغي لعنه، ومن لم يقم عليه الحدّ فلعنته جائزة سواء سمِّي أو عيِّن أم لا، لأن النبي ﷺ لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للّعن، فإذا تاب منها وأقلع وطهره الحدّ فلا لعنة تتوجَّه عليه؛ وبيَّن هذا قوله ﷺ: ((إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدَّ ولا يثرب([2]))). فدلَّ هذا الحديث مع صحَّته على أن التَّثريب واللَّعن([3])إنما يكون قبل أخذ الحدّ وقبل التوبة، والله تعالى اعلم([4]).

١- (قلت): البخاري (٦٧٨١)؛ ولم أجده عند مسلم.

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣). والحديث بتمامه: ((اذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ، فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ، فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَبِعْهَا، وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((فليجلدها الحدّ)): أي الحدّ اللائق بها المبين في الآية، وهي قوله تعالى: {فإذا أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب}، ((ولا يثرب عليها)): التثريب التوبيخ واللوم على الذنب.

٣- (قلت): الحديث ليس فيه كلمة (اللعن) كما ترى، فكيف يكون دليلًا لما ذهبوا اليه؟!

٤- (قلت): اذا كان الله جل وعلا نهى رسول الله ﷺ عن لعن الكفار المعيَّنين الذين لم يكن يعرف مآلهم وقال له: {ليس لك من الأمر شيء....}؛ فمن باب أولى ألّا نلعن العاصي المعيَّن؛ ولو كان هذا مشروعًا لورد ذلك عن رسول الله ﷺ، ومع عدم ورود أي حديث منه ﷺ بلعنهم، – بل على العكس ورد أحاديث في نهيه عن لعن شارب الخمر والمرابي بعينه –، علم بأنها غير مشروعة، لأن ديننا دين رحمة ومكارم الأخلاق، وهذا يدعونا الى الدعاء لهم بالهداية لا لعنهم، ولورود أحاديث كثيرة في ذمّ اللّعان، كما جاء في الحديث الصحيح: ((المؤمن ليس بطعّان ولا لعّان ولا بذيء ولا فاحش))، وكذلك ورد في حديث آخر صحيح: ((إنَّ اللعَّانين لَا يكونون شهداء، ولا شُفعاء يوم القيامة))، الى غير ذلك من الأحاديث، والله أعلم. وآنظر شرح العقيدة الواسطية، والطحاوية لصالح آل الشيخ.

قال ابن العربي: وأما لعن العاصي مطلقًا فيجوز إجماعًا، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده[١])).

الثالثة: قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}: أي إبعادهم من رحمته وأصل اللَّعن: الطَّرد والإبعاد، وقد تقدم. فاللَّعنة من العباد الطَّرد، ومن الله العذاب.

فإن قيل: ليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم، قيل: عن هذا ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن اللَّعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس؛ تغليبًا لحكم الأكثر على الأقل.

الثاني: قال السدي: كل أحد يلعن الظالم، وإذا لعن الكافر الظالم فقد لعن نفسه.

الثالث: قال أبو العالية: المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع الناس، كما قال تعالى: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً}[العنكبوت: ٢٥].

قال ابن العثيمين: {خالدين فيها}: أي في هذه اللَّعنة ـ والعياذ بالله؛ والمراد فيما يترتَّب عليها؛ فإنهم خالدون في النار التي تكون بسبب اللَّعنة.

قال الطبري: عن أبي العالية: {خالدين فيها}، يقول: خالدين في جهنم في اللَّعنة.

قال ابن العثيمين: {لا يخفَّف عنهم العذاب}: أي لا يخفِّفه الله سبحانه وتعالى؛ وحذف الفاعل للعلم به.

{ولا هم ينظرون}: أي لا يمهلون؛ بل يؤخذون بالعقاب؛ من حين ما يموتون وهم في العذاب؛ ويحتمل أن المراد لا ينظرون بالعين؛ فلا ينظرون نظر رحمة، وعناية بهم؛ وهذا قد يؤيد بقوله تعالى: {قال اخسئوا فيها ولا تكلمون}[المؤمنون: ١٠٨]؛ فإن هذا من احتقارهم، وازدرائهم أنهم يوبخون بهذا القول.

قال السعدي: {ولا هم ينظرون}: أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

قال الطبري: عن أبي العالية: {ولا هم ينظرون}، يقول: لا يُنظرون فيعتذرون، كقوله: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}[سورة المرسلات: ٣٥، ٣٦].

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧). والحديث بتمامه:((لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لعن الله السارق يسرق البيضة)): قال جماعة: المراد بها بيضة الحديد وحبل السفينة وكل واحد منهما يساوي أكثر من ربع دينار وأنكر المحققون هذا وضعفوه فقالوا بيضة الحديد وحبل السفينة لهما قيمة ظاهرة وليس هذا السياق موضع استعمالهما بل بلاغة الكلام تأباه ولأنه لا يذم في العادة من خاطر بيده في شيء له قدر، وإنما يذم من خاطر بها فيما لا قدر له، فهو موضع تقليل لا تكثير، والصواب أن المراد التنبيه على عظم ما خسر وهي يده في مقابلة حقير من المال وهو ربع دينار فإنه يشارك البيضة والحبل في الحقارة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- أن الكافر مستحق للعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين.

٢- أنه تشترط لثبوت هذا أن يموت على الكفر؛ لقوله تعالى: {إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار}؛ فلو رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ارتفعت عنهم هذه العقوبة.

٣- إثبات الملائكة.

٤- أن الكافر يلعنه الكافر؛ لقوله تعالى: {والناس أجمعين}؛ وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنه كلما دخلت أمَّة لعنت أختها، وقال تعالى: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب}[البقرة: ١٦٦] إلخ؛ فالكافر ـ والعياذ بالله ـ ملعون حتى ممن شاركه في كفره.

٥- أن الذين يموتون وهم كفار مخلدون في لعنة الله وطرده وإبعاده عن رحمته.

٦- أن العذاب لا يخفف عنهم ولا يومًا واحدًا؛ ولهذا يقول الله عز وجل: {وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب}[غافر: ٤٩]؛ لم يسألوا أن يرفع العذاب؛ ولم يسألوا أن يخفَّف دائمًا؛ بل يخفَّف ولو يومًا واحدًا؛ من أبد الآبدين يتمنَّون هذا؛ يتوسَّلون بالملائكة إلى الله عز وجل أن يخفَّف عنهم يومًا واحدًا من العذاب؛ ولكن يوبخون إذا سألوا هذا: {قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى}[غافر: ٥٠]؛ فما يستطيع أحد أن يتصور كيف تكون حسرتهم حينئذ؛ يقولون: ليتنا فعلنا؛ ليتنا صدَّقنا؛ ليتنا اتَّبعنا الرسول؛ ولهذا يقولون: {بلى}؛ لا يستطيعون أن ينكروا أبدًا؛ {قالوا فادعوا}[غافر: ٥٠]: أي أنتم؛ ولكن دعاء لا يقبل، كما قال تعالى: {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال}[غافر: ٥٠]: أي في ضياع ـ والعياذ بالله؛ والمقصود أنه لا يخفَّف عنهم العذاب.

٧- أنهم لا ينظرون؛ إما أنه من النظر؛ أو من الإنظار؛ فهم لا يمهلون ولا ساعة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: {حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها}[الزمر: ٧١]؛ فمن يوم يجيئونها تفتح؛ أما أهل الجنة فإذا جاءوها لم تفتح فور مجيئهم، كما قال تعالى: {حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها}[الزمر: ٧١]؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بالشفاعة، وبعد أن يقتص من بعضهم لبعض؛ فإذا جاءوها هذبوا، ونقوا، ثم شفع النبي ﷺ في دخول الجنة؛ وحينئذ تفتح أبوابها.

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)

قال ابن حجر العسقلاني في العجاب في بيان الأسباب: قال ابن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: ((قالت كفار قريش: يا محمد صف أو انسب لنا ربك)). فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص، وكذا نقله الواحدي في الوسيط.

ومن طريق جويبر عن الضحاك: ((كان للمشركين ثلاثمائة وستون صنمًا يعبدونها من دون الله، فبيَّن الله تعالى أنه إله واحد))، فأنزل هذه الآية.

قال القرطبي: لما حذَّر تعالى من كتمان الحق بيَّن أن أوَّل ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لابدَّ له من فاعل لا يشبهه شيء.

قال ابن العثيمين: {وإلهكم}: الخطاب للبشر كلهم؛ أي: أيها الناس معبودكم الحق الذي تكون عبادته حقًّا؛ و{إله} بمعنى مألوه؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و(المألوه) معناه المعبود حبًّا وتعظيمًا ـ وهو إله واحد؛ و{إلهكم} مبتدأ؛ و{إله} خبر؛ و{واحد} صفة لـ{إله}؛ وجملة {إلهكم إله واحد} طرفها الأول معرفة؛ والثاني نكرة موصوفة، ومؤكد بالوحدانية يعني أن إله الخلق إله واحد؛ ووحدانيته بالألوهية متضمنة لوحدانيته بالربوبية؛ إذ لا يعبد إلّا من يعلم أنه ربّ.

ثم أكّد هذه الجملة الإسمية بجملة تفيد الحصر، فقال: {لا إله إلّا هو}؛ وهذه الجملة توكيد لما قبلها في المعنى؛ فإنه لما أثبت أنه إله واحد نفى أن يكون معه إله.

وقوله تعالى: {لا إله إلّا هو}: أي لا معبود حق إلا هو؛ وعلى هذا تكون {لا} نافية للجنس؛ وخبرها محذوف؛ والتقدير: لا إله حق إلا هو؛ وإنما قدَّرنا (حق)؛ لقوله تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل}[الحج: ٦٢]؛ ولهذا قال الله تعالى عن هذه الآلهة: {إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان} [النجم: ٢٣]؛ وقد زعم بعضهم أن تقدير الخبر (موجود)؛ وهذا غلط واضح؛ لأنه يختل به المعنى اختلالًا كبيرًا من وجهين:

الوجه الأول: أن هناك آلهة موجودة سوى الله؛ لكنها باطلة، كما قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل}[الحج: ٦٢]، وكما قال تعالى: {فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك}[هود: ١٠١]، وكما قال تعالى: {فلا تدع مع الله إلها آخر}[الشعراء: ٢١٣].

الوجه الثاني: أنه يقتضي أن الآلهة المعبودة من دون الله هي الله، ولا يخفى فساد هذا؛ وعليه فيتعيَّن أن يكون التقدير: (لا إله حق)، كما فسَّرناه.

قال القرطبي: {لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} نفي وإثبات. أولها كفر وآخرها إيمان(١)، وحكي عن الشبلي رحمه الله أنه كان يقول: الله، ولا يقول: لا إله، فسئل عن ذلك فقال أخشى أن آخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار.

قلت: وهذا من علومهم الدقيقة، التي ليست لها حقيقة، فإن الله جل اسمه ذكر هذا المعنى في كتابه نفيًا وإثباتًا وكرَّره، ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيه ﷺ، خرجه الموطأ والبخاري ومسلم وغيرهم. وقال ﷺ: ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة(٢))) خرجه مسلم. والمقصود القلب لا اللسان، فلو قال: (لا إله) ومات، ومعتقده وضميره الوحدانية وما يجب له من الصفات، لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة.

{الرحمن الرحيم} خبر ثالث ورابع، لقوله تعالى: {إلهكم}؛ ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو الرحمن الرحيم؛ فألوهيته مبنيَّة على الرحمة؛ وهذه الآية تشبه قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم}[الفاتحة: ٢، ٣]؛ فإن ذكر هذين الاسمين بعد الربوبية يدلُّ على أن ربوبيته مبنية على الرحمة.

وقوله تعالى: {الرحمن الرحيم}: اسمان من أسماء الله؛ أحدهما يدلُّ على سعة رحمته ـ وهو {الرحمن}؛ والثاني يدلُّ على إيصال الرحمة ـ وهو {الرحيم(٣)}؛ وأسماء الله سبحانه وتعالى لها ثلاث دلالات: دلالة مطابقة؛ ودلالة تضمُّن؛ ودلالة التزام؛ فدلالة الاسم على الذات والصفة دلالة مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها أو الصفة وحدها دلالة تضمُّن؛ ودلالته على ما يستلزمه من الصفات الأخرى دلالة التزام؛ مثال ذلك (الخالق): فهو دالٌّ على ذات متَّصفة بالخلق؛ وعلى صفة الخلق؛ فدلالتها على الأمرين دلالة مطابقة؛ وعلى أحدهما دلالة تضمُّن؛ وهي تدلُّ على صفة العلم والقدرة دلالة التزام؛ إذ لا خلق إلّا بعلم وقدرة.

و(الرحمة) تنقسم إلى عامة وخاصة؛ فالعامة هي التي تشمل جميع الخلق؛ والخاصة تختصّ بالمؤمنين(٤).

١- (قلت): هذا القول ليس صحيحًا. وكذلك يطلقون هذه العبارة الغير شرعية على كلمة (لا إله إلا الله)، وهي كلمة التوحيد، وأفضل الذكر؛ فكيف يكون في كلمة التوحيد وأفضل ما قاله رسول الله ﷺ والأنبياء من قبله ما هو كفر!! وعلى هذا التقسيم الباطل بنى الشبلي مقولته التي أبطلها القرطبي نفسه! وما بني على باطل فهو باطل. بل القول الشرعي الصحيح ما قاله الشنقيطي رحمه الله: (تَحْقِيقِ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ أَمْرَيْنِ: نَفْيٌ وَإِثْبَاتٌ. فَالنَّفْيُ: خَلْعُ جَمِيعِ الْمَعْبُودَاتِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ. وَالْإِثْبَاتُ: إِفْرَادُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ). والله أعلم.

٢- (قلت): لم يخرجه مسلم؛ بل الحديث حسنه الإمام الألباني في الإرواء (٦٨٧)، وقال: أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١/٣٥١)، وابن منده في (التوحيد) (ق ٢/٤٨)، وأحمد (٥/٢٣٣)، من طريق صالح بن أبى عريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل مرفوعا به.

٣- (قلت): أنظر معنى إسمي الله {الرحمن الرحيم} مفصلاً عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

٤- (قلت): وأخرج الترمذي (٢/٢٦٠)، والدارمي (٢/٤٥٠)، وابن ماجه (٢/٢٢٧)، والطحاوي (١/٦٤)، حديثًا حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤٣)، ما نصه: عن أسماء بنت يزيد: أن النبي ﷺ قال: ((اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: {وإلهكم إلهٌ واحدٌ لا إله إلا هو الرحمنُ الرحيمُ}، وفاتحة سورة [آل عمران]: {الم. الله لا إله إلا هو الحي القيومُ}.

قال السعدي: يخبر تعالى – وهو أصدق القائلين – أنه {إله واحد}: أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سَميَّ له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤلَّه ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه {الرحمن الرحيم} المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة، فمن الله، وأن أحدا من المخلوقين، لا ينفع أحدا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات. وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق من تراب، برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه، مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية، إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن إله الخلق إله واحد ـ وهو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وإلهكم إله واحد}.

٢– إثبات اسم (الإله)، و(الواحد) لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وإلهكم إله واحد}؛ وقد جاء في قوله تعالى: {لله الواحد القهار}[إبراهيم: ٤٨]: فأثبت اسم (الواحد) سبحانه وتعالى.

٣– اختصاص الألوهية بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: {لا إله إلا هو}.

فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهذه الآلهة، فيدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛ فما هو الجواب؟

فالجواب: عن هذا أن هذه الأصنام لم توجد ما دعوا به قطعًا؛ لقوله تعالى: {ومن أضل ممَّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} [الأحقاف: ٥، ٦]، ولقوله تعالى: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير}[فاطر: ١٤]؛ فيكون حصول ما دعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من الناس؛ والذي أوجدها هو الله عز وجل؛ لكن قد يمتحن الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاء من الله عز وجل؛ فيكون هذا الشيء حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به.

٤-كفر النصارى القائلين بتعدد الآلهة؛ لأن قولهم تكذيب للقرآن؛ بل وللتوراة والإنجيل؛ بل ولجميع الرسل؛ وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النار([1]))).

٥- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {الرحمن الرحيم}.

٦- إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من الصفة ـ وهو الرحمة ـ والحكم: أنه يرحم بهذه الرحمة.

٧- أنه قد يكون للاسم من أسماء الله معنى إذا انفرد؛ ومعنى إذا انضم إلى غيره؛ لأن {الرحمن} لو انفرد لدلَّ على الصفة والحكم؛ وإذا جمع مع {الرحيم} جعل {الرحمن} للوصف؛ و{الرحيم} للفعل.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

قال البغوي: ذَكَرَ السَّمَاوَاتِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ وَالْأَرْضَ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ لِأَنَّ كُلَّ سماء مِنْ جِنْسٍ آخَرَ، وَالْأَرْضُونَ كُلُّهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَهُوَ التُّرَابُ.

قال ابن العثيمين: {خلق السموات والأرض}: أي إيجادهما من عدم؛ ويشمل ذلك بقاءهما، وكيفيَّتهما، وكل ما يتعلَّق بهما من الشيء الدالّ على علم الله سبحانه وتعالى وقدرته وحكمته ورحمته.

قال البغوي: فَالْآيَةُ فِي السَّمَاوَاتِ: سُمْكُهَا وَارْتِفَاعُهَا مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ وَلَا عِلَاقَةٍ، وما يرى فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَالْآيَةُ فِي الْأَرْضِ: مَدُّهَا وَبَسْطُهَا وسعتها وما يرى فِيهَا مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَالْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْجَوَاهِرِ وَالنَّبَاتِ.

قال ابن العثيمين: {والأرض} يشمل ما أودع الله فيها من المنافع، حيث جعلها متضمِّنة، ومشتملة على جميع ما يحتاج الخلق إليه في حياتهم وبعد مماتهم، كما قال تعالى: {ألم نجعل الأرض كفاتًا * أحياءً وأمواتًا}[المرسلات: ٢٥، ٢٦]، إلى آخر الآيات؛ ما ظنُّك لو جعل الله هذه الأرض شفّافة كالزجاج، فدفن فيها الأموات ينظر الأحياء إلى الأموات ـ فلا تكون كفاتًا لهم! وما ظنك لو جعل الله هذه الأرض صلبة كالحديد أو أشدّ فلا يسهل علينا أن تكون كفاتًا لأمواتنا ولا لنا أيضًا في حياتنا! ثم هذه الأرض أودع الله فيها من المصالح والمعادن شيئًا لم نستطع الوصول إليه حتى الآن.

١- أخرجه مسلم ص٧٥٣، كتاب الإيمان، باب ٧٠: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ... ، حديث رقم ٣٨٦ [] ٢٤٠ ١٥٣.

{واختلاف الليل والنهار}: يعني في الإضاءة والظلمة في الحر والبرد؛ في النصر، والخذلان؛ في كل شيء يتعلَّق بالليل والنهار؛ هذه الليالي والأيام التي تدور على العالم كم فنيَ فيها من حي! كم فيها من حي! كم عزَّ فيها من ذليل! كم ذلَّ فيها من عزيز! كم حصل فيها من حوادث لا يعلمها إلا الله! هذا الاختلاف كله آيات تدلُّ على تمام سلطان الله عز وجل، وعلى تفرده بالوحدانية سبحانه وتعالى.

واختلاف الليل والنهار أيضًا في الطول والقصر، كما قال تعالى: {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل}[الحج: ٦١] على وجه خفي لا يشعر الناس به، يزداد شيئًا فشيئًا، وينقص شيئًا فشيئًا ـ ليست الشمس تطلع فجأة من مدار السرطان وفي اليوم التالي مباشرة من مدار الجدي! ولكنها تنتقل بينهما شيئًا فشيئًا حتى يحصل الالتئام والتوازن وعدم الكوارث؛ فلو انتقلتْ فجأة من مدار السرطان إلى مدار الجدي لهلك الناس من حرٍّ شديد إلى بردٍ شديد؛ والعكس بالعكس؛ ولكن الله ـ جل وعلا ـ بحكمته ورحمته جعلها تنتقل حتى يختلف الليل والنهار على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

{والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس}؛ {الفلك} هي السفينة؛ وتطلق على المفرد، كما في هذه الآية؛ وعلى الجمع، كما في قوله تعالى: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم}[يونس: ٢٢]، و{تجري}: أي تسير؛ {في البحر}: أي في جوف البحر: فالغواصات تجري في البحر بما ينفع الناس وهي في جوفه؛ لأنه يقاتل بها الأعداء، وتحمى بها البلاد؛ وهذا مما ينفع الناس؛ ويجوز أن تكون {في} بمعنى (على): أي على سطح البحر، كقوله تعالى: {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام}[الشورى: ٣٢]؛ وهذه أيضًا من آيات الله؛ سفن محملة بالآدميين والأمتعة والأرزاق، تجري على سطح الماء بدون تقلُّب أو إزعاج غالبًا! هذا من آيات الله؛ وقد حدث في عصرنا هذا ما هو أعظم آية وأكبر منه؛ وهو الفلك الذي يجري في الهواء؛ فإذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى شيء من آياته في أمر، فما هو أعظم منه يكون أقوى دلالة على ذلك؛ وها هو الطير مسخَّرًا في جو السماء لا يمسكه إلا الله؛ من آيات الله، كما قال تعالى: {ألم يروا إلى الطير مسخَّرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون}[النحل: ٧٩]؛ هذه الطيور لا تحمل إلا نفسها، فجعلها الله سبحانه وتعالى آية؛ فكيف بهذه الطائرات! تكون أعظم وأعظم.

وقوله تعالى: {بما ينفع الناس}: الباء هنا للمصاحبة ـ أي مصحوبة بما ينفع الناس من الأرزاق والبضائع والأنفس والذَّخائر وغيرها؛ لأن {ما} اسم موصول يفيد العموم؛ فالفلك آية من آيات الله عز وجل الدالَّة على كمال قدرته، وكمال رحمته وتسخيره، كما قال تعالى في أخرى: {وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار}[إبراهيم: ٣٢].

ومن حكمة الله عز وجل أنه قدَّر في الأرض أقواتها يعني جعل قدرًا هنا وقدرًا هنا وقدرًا هنا؛ لأجل أن ينتفع الناس؛ فهناك ناس لا تكثر عندهم البقول والخضروات وما أشبه ذلك؛ يأتيهم من أرض أخرى؛ وهناك ناس يكثر عندهم نوع من النخيل لا يوجد في مكان آخر، فينقل إلى المكان الآخر، فيتبادل الناس الأرزاق، وينتفع الناس، ويتحركون ـ كل فيما قدّر له.

{وما أنزل الله من السماء من ماء}: يعني: وفيما أنزل الله سبحانه وتعالى من السماء من ماء آيات لقوم يعقلون؛ والمراد بـ{السماء} هنا العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب المسخَّر بين السماء والأرض؛ وليس من السماء نفسها.

وقوله تعالى: {من ماء} بيان لـ{ما} في قوله تعالى: {وما أنزل الله}؛ والمراد به المطر الذي أنزله الله من السماء؛ وفيه آيات عظيمة؛ منها كونه ينزل من السماء؛ فإن الذي حمله إلى السماء هو الله عز وجل؛ كذلك كونه ينزل رذاذًا هذا من آيات الله الدالَّة على رحمته؛ لأنه لو كان ينزل صبًّا لأهلك العالم؛ وكونه ينزل من السماء لا يجري من الأرض هذا أيضًا من آيات الله؛ لأجل أن ينتفع به سهول الأرض وجبالها؛ ولو كان يجري من الأرض لغرق الأسفل قبل أن يصل إلى الأعلى؛ كذلك من آيات الله كونه ينزل لا حارًّا ولا باردًا؛ البرد ذكره الله تعالى في سياق يدلُّ على أنه نوع من الانتقام، فقال تعالى: {وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار}[النور: ٤٣]؛ وإن كان الله قد يجعله رحمة؛ لكن الغالب أنه انتقام.

{فأحيا به الأرض}: الذي يحيي هو النبات الذي فيها ـ وليس الأرض؛ و{بعد موتها}: أي بعد أن كانت يابسة هامدة لا نبات فيها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: {فتصبح الأرض مخضرة}[الحج: ٦٣]؛ وفي إحياء النبات آيات كثيرة: آيات دالَّة على الرحمة؛ وآيات دالَّة على الحكمة؛ وآيات دالَّة على القدرة.

آيات دالَّة على الرحمة: لما في هذا الإحياء من المنافع العظيمة؛ لقوله تعالى: {أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعا لكم ولأنعامكم}[النازعات: ٣١، ٣٣]، وقوله تعالى: {فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا ... }[عبس: ٥٤، ٢٥] إلى قوله تعالى: {متاعا لكم ولأنعامكم}؛ فكم من نعم كثيرة في هذه الزروع التي أحياها الله سبحانه وتعالى بالمطر لنا، ولأنعامنا قوتًا ودواءً وغير ذلك.

وآيات دالَّة على الحكمة: وهو أن حياة الأرض جاءت بسبب – وهو الماء الذي نزل؛ فمنه نأخذ أن الله – جل وعلا – يخلق بحكمة، ويُقَدِّر بحكمة؛ الله – جل وعلا – قادر على أن يقول للأرض: (أنبتي الزرع) فتنبت بدون ماء؛ لكن كل شيء مقرون بسبب؛ فكونه جلا وعلا ربط إحياء الأرض بنزول الماء يدلُّ على الحكمة، وأن كل شيء له نظام خاص لا يتعدّاه منذ خلق إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

وآيات دالَّة على القدرة: وهي أنك ترى الأرض خاشعة هامدة سوداء شهباء ما فيها شيء؛ فإذا أنزل الله عليها المطر؛ تأتي إليها بعد نحو شهر تجدها تهتز أزهارًا وأوراقًا وأشجارًا: قال تعالى: {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها

لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير}[فصلت: ٣٩]؛ وهذه قدرة عظيمة؛ والله! لو أن البشر من أولهم إلى آخرهم اجتمعوا على أن يخرجوا ورقة واحدة من حبَّة لما استطاعوا؛ وحبَّة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبَّة؛ أليس هذا دليلًا على القدرة العظيمة!

{وبثَّ فيها}: أي نشر وفرق؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: {أنزل}: أي: وفيما بثَّ في الأرض من كل دابَّة آيات لقوم يعقلون؛ و{من كل دابّة}: أي من كل ما يدبُّ على الأرض من صغير وكبير وعاقل وبهيم؛ وأتى بـ{كل} لإفادة العموم الشامل لجميع الأجناس والأنواع والأفراد؛ ففي الأرض دواب لا يعلم بأنواعها ولا أجناسها – فضلا عن أفرادها – إلّا الذي خلقها سبحانه وتعالى يعلم هذه الأجناس وأنواعها وأفرادها وأحوالها وكل ما يصلحها؛ ففيها من آيات الله الدالَّة على كمال قدرته ورحمته وعلمه وحكمته ما يبهر العقول؛ تجد هذه الدواب المختلفة المتنوعة، والحشرات الصغيرة كيف هداها الله لما خلقت له؛ قال تعالى: {أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}[طه: ٥٠]، حتى إنك لترى الماء يدخل في جحر النمل، فترى النملة تخرج من هذا الجحر حاملة أولادها! ماذا ترجو من هذه الأولاد؟! لكن رحمة أرحم الراحمين أن جعل في قلب هذه النملة رحمة لتحمل أولادها عن الغرق؛ كذلك أيضًا السباع الضارية التي تأكل ما دون أولادها من الحيوان: تجدها تحنو على ولدها وتربيه؛ حتى إذا استقل بنفسه صار عدوًّا لها، أو صارت عدوةً له؛ فالهرة تربي أولادها؛ فإذا استغنوا عنها طردتهم، وصارت عدوةً لأولادها؛ فهذا من آيات الله عز وجل؛ ترى بعض الدواب تدبُّ على الأرض؛ ولكن لا تكاد تدرك جسمها صغرًا فضلًا عن أعضائها، وعمّا في جوفها؛ ومع ذلك فهي عايشة وتعرف مصالحها، وتعرف جحرها تأوي إليه؛ فهذه من آيات الله عز وجل؛ ومن درس في علم الأحياء وجد من هذا ما يبهر العقول؛ فما بثَّ الله سبحانه وتعالى في الأرض من الدواب من أجناسها وأنواعها وأفرادها فيه من آيات الله ما لا يحصى؛ لأن في كل شيء منه آية؛ وهو لا يحصى أنواعًا أو أجناسًا فضلًا عن أفراد؛ وهذه الدواب تنقسم باعتبار مصالح الخلق إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما فيه مصلحة خالصة أو راجحة.

الثاني: ما فيه مضرَّة خالصة أو راجحة؛ لكن مضرَّتها لها حِكَم كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

الثالث: ما لا مضرَّة فيه ولا مصلحة؛ ولكن فيه دلالة على كمال الله سبحانه وتعالى.

{وتصريف الرياح}: أي تنويعها في اتجاهها وشدَّتها ومنافعها؛ و{الرياح}: جمع ريح؛ وهي الهواء؛ وفي قراءة: {الريح} بالإفراد؛ والمراد به الجنس؛ والتصريف يشمل تصريفها من حيث الاتجاه؛ تصريفها من حيث الشدَّة وعدمها؛ تصريفها من حيث المنافع وعدمها؛ فمن حيث الاتجاه جعلها الله سبحانه وتعالى متَّجهة جنوبًا وشمالًا وغربًا وشرقًا؛ وهذه هي أصول الجهات؛ وهناك جهات أخرى تكون بينها وتسمى النكبة؛ لأنها ليست في الاستقامة في الشرق، أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب؛ فهي نكباء – ناكبة عن الاتجاه الأصلي.

وفي تصريف هذه الرياح آيات: لو بقيت الريح في اتجاه واحد لأضرت بالعالم؛ لكنها تتقابل فيكسر بعضها حدَّة بعض، ويذهب بعضها بما جاء به البعض الآخر من الأذى والجراثيم وغيرها؛ كذلك أيضًا في تصريفها آيات بالنسبة للسحاب فبعضها يجمع السحاب؛ وبعضها يفرقه؛ وبعضها يلقِّحه؛ وبعضه يدره فيمطر، كما قال تعالى: {الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء}[الروم: ٤٨]، وقال تعالى: {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين}[الحجر: ٢٢]؛ قال المفسرون: تلقح في السحاب؛ وفي تصريف الرياح أيضًا آيات للسفن الشراعية؛ وفيه أيضًا آيات في إهلاك الناس وإنجاء آخرين: أهلك الله به عادًا، وطرد به الأحزاب عن رسول الله ﷺ؛ وأنجى الله رسول الله ﷺ بهذه الريح من شرِّ الأحزاب؛ ومن تدبَّر هذا عرف ما فيها من قدرة الله ورحمته وعزَّته وحكمته؛ لو أن جميع مكائن الدنيا كلها اجتمعت وصارت على أقوى ما يكون من نفث هواء، لا يمكن أن تحرِّك ساكنًا إلّا فيما حولها فقط؛ لكن أن تصل من أقصى الشمال إلى الجنوب أو بالعكس فلا؛ والله – جل وعلا – يقول للشيء إذا أراده: {كن فيكون}[البقرة: ١١٧]؛ فتجد الرياح شديدة شمالية؛ وفي لحظة تنعكس، وتكون جنوبية شديدة؛ هذه تمام القدرة العظيمة، حيث يدبِّر الله هذه الرياح بأمر لا يستطيعه البشر؛ ولهذا صار تصريف الرياح آية من آيات الله العظيمة الدالَّة على قدرته؛ ثم إن في تصريفها أيضًا مصالح للسفن الجوية؛ لأن لها تأثيرًا على الطائرات – كما يقولون؛ وكذلك بالنسبة للسيارات لها تأثير.

{والسحاب المسخر بين السماء والأرض}: أي وفي السحاب المسخَّر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون؛ و{السحاب} هو هذا الغمام والمزن؛ وسمِّي سحابًا لأنه ينسحب انسحابًا في الجو بإذن الله؛ و{المسخَّر}: أي المذلَّل بأمر الله لمصالح الخلق؛ ومن الآيات فيه أنه دالٌّ على القدرة، والحكمة، والرحمة.

أما دلالته على القدرة: فلأنه لا يستطيع أحد أن يفرِّقه إلا الله؛ ولا يستطيع أحد أن يوجِّهه إلى أي جهة إلا الله؛ ثم من يستطيع أن يجعل هذا السحاب أحيانًا متراكمًا حتى يكون مثل الجبال السود يوحش من يراه؛ وأحيانًا يكون خفيفًا؛ وأحيانًا يكون سريعًا؛ وأحيانًا يكون بطيئًا؛ وأحيانًا لا يتحرك؛ لأنه يسير بأمر الله.

وأما دلالته على الحكمة: فلأنه يأتي من فوق الرؤوس حتى يكون شاملًا لما ارتفع من الأرض وما انهبط منها؛ ويأتي قطرات حتى لا ينهدم البنيان ولا تشقق الأرض.

وأما دلالته على الرحمة: فلما يحصل من آثاره من نبات الأرض المختلف الذي يعيش عليه الإنسان والبهائم.

وقوله تعالى: {بين السماء والأرض}؛ المراد بـ{السماء} السقف المرفوع؛ و{الأرض}: أرضنا هذه؛ وهذه البينية لا تقتضي الملاصقة ولا المماسة – كما هو ظاهر؛ وبهذا يعرف الرَّد على الذين أنكروا قول الرسول ﷺ: ((إن قلوب بني آدم بين

أصبعين من أصابع الرحمن([1]))، وقالوا: (لو كان هذا حقيقة للزم أن تكون أصابع الرحمن داخل أجوافنا؛ وهذا مستحيل؛ فيكون ظاهر الخبر مستحيلًا، ويصرف إلى معنى أن الله يقلِّب القلوب دون أن تكون بين أصابعه)؛ ولا شك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ وقد تبيَّن بهذه الآية الكريمة أن البينية لا تستلزم الملاصقة والمماسَّة؛ وعليه فلا يكون من لازم كون القلوب بين أصابع الرحمن أن تكون أصابعه داخل أجوافنا؛ ويقال أيضًا: بدر بين مكة والمدينة – هذا في المكان، وبينهما مسافة واضحة.

{لآيات}: اللام للتوكيد؛ و{آيات} اسم {إن} مؤخر منصوب بها؛ و{آيات} جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمعلومها؛ وصارت تلك آيات؛ لأنها دالَّة على كمال علم الله وقدرته ورحمته وحكمته وسلطانه وغير ذلك من مقتضى ربوبيته.

{لقوم يعقلون}: أي لهم عقول؛ والمراد هنا عقل الرُّشد الحامل لمن اتَّصف به على الانتفاع بالعقل؛ فالإنسان العاقل حقًّا إذا تأمل هذه الأشياء وجد أن فيها آيات تدلُّ على خالقها – جل وعلا –، وموجدها، وعلى ما تضمنته من صفات كماله؛ أما الإنسان المعرض – وإن كان ذكاؤه قويًّا – فإنه لا ينتفع بها – ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بأنهم لا يعقلون مع أنهم في العقل الإدراكي – يدركون به ما ينفعهم وما يضرهم – عقلاء؛ لكن نفاه الله عنهم لعدم انتفاعهم به، وعدم عقلهم الرشدي الذي يرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم.

قال السعدي: والحاصل، أنه كلَّما تدبَّر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبِّرها ومصرِّفها. فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله ولا رب سواه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- عظم خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: {لآيات}؛ فلولا أنه عظيم ما كان آيات.

٢- أن السموات متعدِّدة؛ لقوله تعالى: {إن في خلق السموات}.

٣- أن السموات مخلوقة؛ فهي إذا كانت معدومة من قبل؛ فليست أزليَّة.

١- أخرجه مسلم ص١١٤٠، كتاب القدر، باب ٣٣: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، حديث رقم ٦٧٥٠ [١٧] ٢٦٥٤.

ويتفرع على هذه الفائدة الرَّد على الفلاسفة الذين يقولون بقدم الأفلاك ـ يعنون أنها غير مخلوقة، وأنها أزليَّة أبديَّة؛ ولهذا أنكروا انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ، وقالوا: إن الأفلاك العلوية لا تقبل التغيير ولا العدم؛ وفسَّروا قوله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر}[القمر: ١] بأن المراد ظهور العلم، والنور برسالة النبي ﷺ؛ ولا شك أن هذا تحريف باطل مخالف للأحاديث المتواترة الصحيحة في انشقاق القمر انشقاقًا حسِّيًّا.

٤– أنه ينبغي للإنسان أن يتأمل في هذه السموات والأرض ليصل إلى الآيات التي فيها؛ فيكون من الموقنين.

٥– أن الآيات في خلق السموات، والأرض متنوعة بحسب ما تدلُّ عليه من القدرة والحكمة والرحمة وما إلى ذلك.

٦– ما في اختلاف الليل والنهار من الآيات والعبر التي سبق بيان شيء منها؛ لقوله تعالى: {واختلاف الليل والنهار}.

٧– أن اختلاف الليل والنهار من رحمة الله وحكمته.

٨– ما في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس من آيات الله ونعمه؛ وسبق تفصيل ذلك.

٩– ما تضمنه إنزال المطر من السماء؛ ففيه آيات عظيمة سبقت الإشارة إليها.

١٠– ما تضمنه قوله تعالى: {فأحيا به الأرض بعد موتها} من الآيات؛ وسبق الكلام عليها؛ وهي آيات عظيمة دالَّة على كمال القدرة والرحمة والعظمة وعلى إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى.

١١– ما تضمَّنه قوله تعالى: {وبث فيها من كل دابة} من الآيات التي سبق بيان شيء منها.

١٢– ما في تصريف الرياح من الآيات التي سبق ذكر شيء منها.

١٣– ما في السحاب المسخر بين السماء والأرض من الآيات العظيمة؛ وسبق ذكر شيء منها.

١٤– مدح العقل، وأنه به يستظهر الإنسان الآيات التي تزيده إيمانًا ويقينًا؛ لقوله تعالى: {لقوم يعقلون}.

١٥– أن الناس ينقسمون في هذه الآيات إلى قسمين: قسم يعقل ما فيها من الآيات ويستدلُّ به على ما لله سبحانه وتعالى فيها من كمال الصفات؛ وقسم لا يعقلون ذلك، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: {إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا}[الفرقان: ٤٤].

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)

قال ابن العثيمين: لما ذكر الله سبحانه وتعالى: {وإلهكم إله واحد ... }، واستدلَّ على ألوهيته بما في خلق السموات والأرض وما ذكر من الآيات، بيَّن بعد ذلك أن من الناس ـ مع هذه الآيات الواضحة ـ من يتَّخذ من دون الله أندادًا.

{ومن الناس}؛ {من} بمعنى بعض؛ {من يتَّخذ}؛ {من}: اسم موصول مبتدأ مؤخَّر؛ وعند بعض النحويين أن {من} مبتدأ؛ وأن {من} خبره؛ لكن المشهور ما قلناه أوَّلًا.

وقوله تعالى: {من يتَّخذ من دون الله أندادًا}: أي من يجعل من دون الله آلهة أندادًا؛ و{أندادًا} جمع ندّ؛ وهو الشبيه النظير؛ لأنه من: ناده يناده إذا كان نظيرًا له، مكافئًا له.

قال السعدي: ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لمّا بيَّن وحدانيته وأدلَّتها القاطعة وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن {من الناس} مع هذا البيان التام من يتَّخذ من المخلوقين أندادًا لله، أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبَّة والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة – بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد – علم أنه معاند لله مشاقّ له، أو معرض عن تدبّر آياته والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقَّت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتَّخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله: {اتَّخذوا} دليل على أنه ليس لله ندٌّ، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له، تسمية مجرَّدة، ولفظًا فارغًا من المعنى، كما قال تعالى: {وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول}، {إن هي إلَّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلَّا الظن}. فالمخلوق ليس ندًّا لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، فعلم علمًا يقينًا بطلان قول من اتَّخذ من دون الله آلهةً وأندادًا سواء كان مَلَكًا أو نبيًّا أو صالحًا أو صنمًا، أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذُّلّ التّام.

قال ابن العثيمين: {يحبونهم كحب الله}: أي يحبون تلك الأنداد؛ وجاء الضمير جمعًا للعاقل دون أن يأتي بضمير المؤنث – مع أن الأكثر من هذه الأنداد أنها لا تعقل؛ وغير العاقل يكون ضميره مؤنَّثًا – باعتبار عقيدة عابديها؛ لأنهم يعتقدون أنها تنفع وتضر.

وجملة: {يحبونهم} صفة لأنداد؛ ويحتمل أن تكون استئنافية لبيان معنى اتخاذهم أندادًا.

وقوله تعالى: {كحب الله}: أي كحبهم لله؛ أو كحب المؤمنين لله؛ والأول أظهر؛ ولهذا جعلوهم أندادًا – أي هؤلاء جعلوا هذه الأصنام مساوية لله في المحبة فيحبونهم كحب الله –؛ فهم يحبون هذه الأصنام ويعتقدون أنها تنفع وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتَّخذ محبوبًا إلى الله عز وجل أو غير محبوب إليه؛ فمن اتَّخذ النبي ﷺ ندًّا لله في المحبَّة والتعظيم، كمن اتَّخذ صنمًا من شجر أو حجر؛ لأن النبي ﷺ، وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون ندًّا لله عز وجل؛ ولهذا لما نزلت: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون}[الأنبياء: ٩٨] وكان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبِدوا من دون الله، استثناهم الله سبحانه وتعالى في قوله: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون}[الأنبياء: ١٠١]– ولو عُبِدوا من دون الله –؛ وقال النبي ﷺ لرجل قال له: ما شاء الله وشئت: ((أجعلتني لله ندًّا!! بل ما شاء الله وحده([١])))؛ فأنكر عليه أن يجعله ندًّا لله.

{والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله}؛ {الذين}: مبتدأ؛ و{أشدّ}: خبره؛ و{حبًّا}: تمييز؛ لأنها بعد أفعل تفضيل؛ و {أشدّ} اسم تفضيل يقتضي مُفَضَّلًا ومفضَّلًا عليه؛ فالمفضَّل: حبّ الذين آمنوا لله؛ والمفضَّل عليه: إما حبّ هؤلاء لأصنامهم؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من هؤلاء لأصنامهم؛ وإما أن المفضَّل عليه حبّ هؤلاء لله؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من هؤلاء لله؛ وكلا الاحتمالين صحيح؛ أما الأول فلأن حب المؤمنين لله يكون في السراء والضرّاء؛ وحب هؤلاء لأصنامهم في السراء فقط؛ وعند الضراء يلجؤون إلى الله عز وجل؛ فإذًا ليس حبهم الأصنام كحب المؤمنين لله عز وجل؛ ثم إن بعضهم يصرِّح، فيقول: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}؛ وأما الاحتمال الثاني في الآية: فوجه التفضيل ظاهر؛ لأن حبّ المؤمنين لله خالص لا يشوبه شيء؛ وحبّ هؤلاء لله مشترك؛ يحبون الله، ويجعلون معه الأصنام ندًّا.

١- أخرجه أحمد ٢١٤/١، حديث رقم ١٨٣٩؛ وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، راجع فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ٢٥٣/٢، باب ٣٣٩: قول الرجل ما شاء الله وشئت، حديث رقم ٧٨٣؛ وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٤٠/٥، باب ٢٣١: في الرجل يقول: ما شاء الله وشاء فلان، حديث رقم ٢٦٢٨٢، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: فالإسناد حسن ٢١٧/١، حديث رقم ١٣٩، وقال في صحيح الأدب المفرد: صحيح ص٢٩٢.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٣٥٧: وَالْمَحَبَّةُ جِنسٌ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ فَكُلُّ عَابِدٍ مُحِبٌّ لِمَعْبُودِهِ، فَالْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} وَفِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ، وَالثَّانِي: يُحِبُّونَهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ اللَّهَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}، فَلَمْ يُمْكِنْ أَنْ يُقَالَ: إنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ كَمَا يَعْبُدُ الْمُوَحِّدُونَ اللَّهَ، بَلْ كَمَا يُحِبُّونَ – هُمْ – اللَّهَ، فَإِنَّهُمْ يَعْدِلُونَ آلِهَتَهُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا قَالَ: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}[الأنعام: ١]، وَقَالَ: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وَقَدْ قَالَ: بَعْضُ مَنْ نَصَرَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ فِي الْجَوَابِ عَنْ حُجَّةِ الْقَوْلِ الثَّانِي قَالَ: الْمُفَسِّرُونَ: قَوْلُهُ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}، أَيْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِآلِهَتِهِمْ. فَيُقَالُ لَه: مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ الْمُفَسِّرُونَ مُنَاقِضٌ لِقَوْلِك، فَإِنَّك تَقُولُ: إنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْأَنْدَادَ كَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ، وَهَذَا يُنَاقِضُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِأَرْبَابِهِمْ، فَتَبَيَّنَ ضَعْفُ هَذَا الْقَوْلِ وَثَبَتَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ أَكْثَرَ مِنْ مَحَبَّةِ الْمُشْرِكِينَ لِلَّهِ وَلِآلِهَتِهِمْ، لِأَنَّ أُولَئِكَ أَشْرَكُوا فِي الْمَحَبَّةِ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَخْلَصُوهَا كُلَّهَا لِلَّه.

وَأَيْضًا، فَقَوْلُهُ: {كَحُبِّ اللَّهِ} أُضِيفَ فِيهِ الْمَصْدَرُ إلَى الْمَحْبُوبِ الْمَفْعُولِ، وَحُذِفَ فَاعِلُ الْحُبِّ، فَإِمَّا أَنْ يُرَادَ كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ – مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ فَاعِلٍ – فَيَبْقَى عَامًّا فِي حَقِّ الطَّائِفَتَيْنِ، وَهَذَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ كَحُبِّهِمْ لِلَّهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ كَمَا يُحِبُّ غَيْرُهُمْ لِلَّهِ، إذْ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا بِخِلَافِ حُبِّهِمْ، فَإِنَّهُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}، فَأَضَافَ الْحُبَّ الْمُشَبَّهَ إلَيْهِمْ فَكَذَلِكَ الْحُبُّ الْمُشَبَّهُ لَهُمْ إذْ كَانَ سِيَاقُ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَيْهِ إذَا قَالَ: يُحِبُّ زَيْدًا كَحُبِّ عَمْرٍو، أَوْ يُحِبُّ عَلِيًّا كَحُبِّ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ يُحِبُّ الصَّالِحِينَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، كَحُبِّ الصَّالِحِينَ مِنْ أَهْلِهِ أَوْ قِيلَ: يُحِبُّ الْبَاطِلَ كَحُبِّ الْحَقِّ، أَوْ يُحِبُّ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ كَحُبِّ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ الْمَفْهُومُ إلَّا أَنَّهُ هُوَ الْمُحِبُّ لِلْمُشَبِّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ هَذَا كَمَا يُحِبُّ هَذَا، لَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ يُحِبُّ هَذَا كَمَا يُحِبُّ غَيْرَهُ هَذَا. إذْ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ غَيْرِهِ أَصْلًا.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْمَحَبَّةَ تَكُونُ لِمَا يُتَّخَذُ إلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}[الجاثية: ٢٣]، فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مَا يَهْوَاهُ فَقَدْ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ، فَمَا هَوِيَهُ هَوِيَهُ إلَهُهُ، فَهُوَ لَا يَتَأَلَّهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّأَلُّهَ، بَلْ يَتَأَلَّهُ مَا يَهْوَاهُ وَهَذَا الْمُتَّخِذُ إلَهَهُ هَوَاهُ لَهُ مَحَبَّةٌ كَمَحَبَّةِ الْمُشْرِكِينَ لِآلِهَتِهِمْ، وَمَحَبَّةِ عُبَّادِ الْعِجْلِ لَهُ، وَهَذِهِ مَحَبَّةٌ مَعَ اللَّهِ لَا مَحَبَّةٌ لِلَّهِ، وَهَذِهِ مَحَبَّةُ أَهْلِ الشِّرْكِ.

وَالنُّفُوسُ قَدْ تَدَّعِي مَحَبَّةَ اللَّهِ وَتَكُونُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مَحَبَّةَ شِرْكٍ تُحِبُّ مَا تَهْوَاهُ، وَقَدْ أَشْرَكَتْهُ فِي الْحُبِّ مَعَ اللَّهِ، وَقَدْ يَخْفَى الْهَوَى عَلَى النَّفْسِ فَإِنَّ حُبَّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ.

وَهَكَذَا الْأَعْمَالُ الَّتِي يَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ يَعْمَلُهَا لِلَّهِ، وَفِي نَفْسِهِ شِرْكٌ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَعْمَلُهُ، إمَّا لِحُبِّ رِيَاسَةٍ، وَإِمَّا لِحُبِّ مَالٍ، وَإِمَّا لِحُبِّ صُورَةٍ، وَلِهَذَا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَحَمِيَّةً وَرِيَاءً فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ(١))).

فَلَمَّا صَارَ كَثِيرٌ مِنْ الصُّوفِيَّةِ النُّسَّاكِ الْمُتَأَخِّرِينَ يَدَّعُونَ الْمَحَبَّةَ، وَلَمْ يَزِنُوهَا بِمِيزَانِ الْعِلْمِ وَالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، دَخَلَ فِيهَا نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ، وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ مَحَبَّتَهُ مُوجِبَةً لِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ. فَقَالَ {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}[آل عمران: ٣١]، وَهَذَا لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يَدْعُو إلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَيْس شَيْءٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ إلَّا وَالرَّسُولُ يَدْعُو إلَيْهِ، وَلَيْس شَيْءٌ يَدْعُو إلَيْهِ الرَّسُولُ إلَّا وَاَللَّهُ يُحِبُّهُ، فَصَارَ مَحْبُوبُ الرَّبِّ وَمَدْعُوُّ الرَّسُولِ مُتَلَازِمَيْنِ، بَلْ هَذَا هُوَ هَذَا فِي ذَاتِهِ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الصِّفَاتُ.

فَكُلُّ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ، وَلَمْ يَتَّبِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ كَذَبَ، لَيْسَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، بَلْ إنْ كَانَ يُحِبُّهُ فَهِيَ مَحَبَّةُ شِرْكٍ، فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ مَا يَهْوَاهُ كَدَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ لَوْ أَخْلَصُوا لَهُ الْمَحَبَّةَ لَمْ يُحِبُّوا إلَّا مَا أَحَبَّ فَكَانُوا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ، فَلَمَّا أَحَبُّوا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ مَعَ دَعْوَاهُمْ حُبَّهُ كَانَتْ مَحَبَّتُهُمْ مِنْ جِنْسِ مَحَبَّةِ الْمُشْرِكِينَ. وَهَكَذَا أَهْلُ الْبِدَعِ، فَمَنْ قَالَ: إنَّهُ مِنْ الْمُرِيدِينَ لِلَّهِ الْمُحِبِّينَ لَهُ، وَهُوَ لَا يَقْصِدُ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ وَالْعَمَلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرْكَ مَا نَهَى عَنْهُ، فَمَحَبَّتُهُ فِيهَا شَوْبٌ مِنْ مَحَبَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنْ الْبِدْعَةِ، فَإِنَّ الْبِدَعَ الَّتِي لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً وَلَيْسَتْ مِمَّا دَعَا إلَيْهِ الرَّسُولُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ فَإِنَّ الرَّسُولَ دَعَا إلَى كُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، فَأَمَرَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ.

وقال رحمه الله في ج١٠ص١٧٠: وَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ وَالشَّهَوَاتِ، فَكُلٌّ بِحَسَبِهِ، قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ؟! فَقَالَ: أَنَسِيتَ قَوْله تَعَالَى {وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}[البقرة: ٩٣]؟! أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنْ الْكَلَامِ. فَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}، وَقَالَ: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}[القصص: ٥٠]، وَقَالَ: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}[النجم: ٢٣]، وَلِهَذَا يَمِيلُ هَؤُلَاءِ إلَى سَمَاعِ الشِّعْرِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُهَيِّجُ الْمَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ، الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، بَلْ يَشْتَرِكُ فِيهَا مُحِبُّ الرَّحْمَنِ، وَمُحِبُّ الْأَوْثَانِ، وَمُحِبُّ الصُّلْبَانِ، وَمُحِبُّ الْأَوْطَانِ، وَمُحِبُّ الْإِخْوَانِ، وَمُحِبُّ

١- مسلم في الإمارة (١٩٠٤/١٥٠).

المردان، وَمُحِبُّ النِّسْوَانِ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَذْوَاقَهُمْ، وَمَوَاجِيدَهُمْ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ.

فَالْمُخَالِفُ لِمَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ لَا يَكُونُ مُتَّبِعًا لِدِينٍ، شَرَعَهُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} إلَى قَوْلِهِ. {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}[الجاثية: ١٧، ١٨]، بَلْ يَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}[الشورى: ٢١]، وَهُمْ فِي ذَلِكَ تَارَةً يَكُونُونَ عَلَى بِدْعَةٍ يُسَمُّونَهَا حَقِيقَةً يُقَدِّمُونَهَا عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، وَتَارَةً يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ عَلَى الشَّرِيعَةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وقال رحمه الله في تلخيص كتاب الاستغاثة ج٢ص٦٦٩: فمن أحبَّ مخلوقًا مثل ما يحب الخالق فهو مشرك، و يجب الفرق بين الحب في الله و الحب مع الله، فالأول من تمام محبة الله تعالى وتوحيده، والثاني شرك. فالأول يكون لله – تعالى – هو المحبوب له بذاته، و يحب ما يحبه الرب تعالى تبعًا لمحبته، فيحب رسوله وكتابه وعباده المؤمنين، كما في الصحيحين عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله – تعالى –، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه كما يكره أن يلقى في النار (١))). وأما الحب مع الله – تعالى –، فهو الذي يحب محبوبًا في قلبه لا لأجل الله تعالى، كحب المشركين أندادهم، وهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثانًا تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله تعالى وعبادته، ويعظمون ما اتَّخذوه من دون الله شفعاء، حتى إن طوائف منهم يستخفون بحج البيت وبمن يحج البيت، و يرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم أفضل من حج البيت، وهذا موجود في الشيعة وفي المنتسبين إلى السنة.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج١٥ص٢٩٣: بَلْ قَدْ يَنْتَهِي النَّظَرُ وَالْمُبَاشَرَةُ بِالرَّجُلِ إلَى الشِّرْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}. وَلِهَذَا لَا يَكُونُ عِشْقُ الصُّوَرِ إلَّا مِنْ ضَعْفِ مُحِبَّةِ اللَّهِ وَضَعْفِ الْإِيمَانِ، وَاَللَّهُ تَعَالَى إنَّمَا ذَكَرَهُ فِي الْقُرْآنِ عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الْمُشْرِكَةِ، وَعَنْ قَوْمِ لُوطٍ الْمُشْرِكِينَ، وَالْعَاشِقُ الْمُتَيَّمُ يَصِيرُ عَبْدًا لِمَعْشُوقِهِ، مُنْقَادًا لَهُ، أَسِيرَ الْقَلْبِ لَهُ.

قال ابن العثيمين: {ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب}، فيها قراءات؛ أوَّلًا: {ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب} بياء الغيبة في {يُرى}، وبفتح الياء في {يَرون}؛ ثانيا: {ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب} بتاء الخطاب في {ترى}، وبفتح الياء في {يَرون}؛ وبضمها: {يُرون}؛ فالقراءات إذا ثلاث.

١– قال الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٨) (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

قوله تعالى: {الذين ظلموا}؛ الظلم في الأصل هو النقص؛ ومنه قوله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}[الكهف: ٣٣]: أي لم تنقص؛ ولكنه يختلف بحسب السياق؛ فقوله تعالى: {الذين ظلموا} هنا: أي الذين نقصوا الله حقه، حيث جعلوا له أندادًا؛ وهم أيضا ظلموا أنفسهم – أي نقصوها حقها –؛ لأن النفس أمانة عندك يجب أن ترعاها حق رعايتها؛ ولهذا قال تعالى: {قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها}[الشمس: ٩، ١٠]؛ فالنفس أمانة عندك؛ فإذا عصيت ربك فإنك ظالم لنفسك.

قال السعدي: وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرُّهم.

قال ابن العثيمين: {إذ يرون العذاب}؛ {إذ} ظرف بمعنى (حين)؛ أي حين يرون العذاب؛ وقال بعض المعربين: {إذ} هنا بمعنى (إذا)؛ وتأتي {إذ} بمعنى (إذا)؛ لأنها إذا تعلقت بمضارع لا تكون للماضي؛ إذ إن الماضي للماضي؛ والمضارع للمستقبل؛ فهنا الآية للمستقبل؛ فتكون {إذ} بمعنى (إذا)؛ ونظيرها قوله تعالى: {إذ الأغلال في أعناقهم}[غافر: ٧١]، أي إذا الأغلال في أعناقهم؛ فكلمة {إذ} إذا كان العامل فيها فعلًا مضارعًا فهي للمستقبل بمعنى (إذا)؛ والحكمة في كونها جاءت للماضي – وهي في الحقيقة للمستقبل – بيان تحقق وقوعه؛ فصار المستقبل كأنه أمر ماض؛ ونظيره في (الفعل): قوله تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه}[النحل: ١]؛ {أتى} بمعنى المستقبل؛ لأنه قال: {فلا تستعجلوه}؛ ولو كان قد أتى لم يصح أن يقال: {فلا تستعجلوه}.

{إذ يرون العذاب}؛ على قراءة {يَرون} بفتح الياء الرؤية هنا بصرية؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولًا واحدًا؛ وكذلك على قراءة {يُرون} بضم الياء هي بصرية؛ لكنها تعدت إلى مفعولين بالهمزة؛ فهي رباعية؛ لأنها من: أراه يريه؛ ف {يرون}: أي يجعلون يرون؛ وأصل (أراه): (أرآه) لكن حذفت الهمزة تخفيفًا؛ والحاصل أن {يرون} هي رؤية بصرية – أي يريهم الله عز وجل العذاب –؛ و{العذاب} معناه العقوبة – والعياذ بالله – التي تحصل لهم على أفعالهم.

{أن القوة لله جميعًا}؛ اللام هنا للاختصاص – يعني أن المختص بالقوة الكاملة من جميع الوجوه هو الله –؛ و{جميعًا} حال من {القوة}؛ أي حال كونها جميعًا؛ فلا يشذّ منها شيء؛ فكل القوة لله سبحانه وتعالى.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة ج٣ص١٠٨١: وقد اختلف في تعلُّق قوله: {أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاً} بماذا، فقالت طائفة: هو مفعول {يرى}: أي: ولو يرون أن القوة لله جميعًا لما عصوه، ولما كذبوا رسله وقدموا عقولهم على وحيه. وقالت طائفة: بل المعنى: لأن القوة لله جميعًا؛ وجواب لو محذوف على التقديرين، أي: لو يرى هؤلاء حالهم وما أعدَّ الله لهم إذ يرون العذاب، لرأوا أمرًا عظيمًا، ثم قال: {أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} وهو متضمِّن للتهديد الشديد والوعيد؛ وقال تعالى: {بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا}[الرعد٣١]، وقال: {إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}[آل عمران١٥٤]، وقال النبي ﷺ في دعاء

الاستفتاح: ((لبيك وسعديك والخير كله بيديك([1]))، فلله سبحانه كل صفة كمال، وهو موصوف بتلك الصفات كلها، ونذكر من ذلك صفة واحدة تعتبر بها سائر الصفات، وهو أنك لو فرضت جمال الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم اجتمع لشخص واحد منهم، ثم كان الخلق كلهم على جمال ذلك الشخص لكان نسبته إلى جمال الرب تبارك وتعالى دون نسبة سراج ضعيف إلى جرم الشمس، وكذلك قوته سبحانه وعلمه وسمعه وبصره وكلامه وقدرته ورحمته وحكمته وجوده وسائر صفاته، وهذا مما دلَّت عليه آياته الكونية السمعية وأخبرت به رسله عنه.

قال ابن العثيمين: {وأن الله شديد العذاب} معطوفة على قوله تعالى: {أن القوة لله جميعًا}؛ و{شديد العذاب}: أي قوي العقوبة.

قال السعدي: {إذ يرون العذاب}: أي: يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، {أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب}: أي: لعلموا علمًا جازمًا أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبيَّن لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنّوا أن لها من الأمر شيئًا وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنُّهم وبطل سعيهم وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئًا ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها، من حيث ظنّوا نفعها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن بعض الناس يجعل لله ندًّا في المحبة يحبه كحب الله؛ لقوله تعالى: {يحبونهم كحب الله}.

٢- أن محبة الله من العبادة؛ لأن الله جعل من سوى غيره فيها مشركًا متَّخِذًا لله ندًّا؛ فالمحبَّة من العبادة؛ بل هي أساس العبادة؛ لأن أساس العبادة مبنيٌّ على الحبِّ والتعظيم؛ فبالحب يفعل المأمور؛ وبالتعظيم يجتنب المحظور؛ هذا إذا اجتمعا؛ وإن انفرد أحدهما استلزم الآخر.

٣- أن من جعل لله ندًّا في المحبَّة فهو ظالم؛ لقوله تعالى: {ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب}.

٤- إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: {إذ يرون العذاب}.

٥- إثبات القوة لله؛ لقوله تعالى: {أن القوة لله جميعًا}؛ فإن قيل: كيف يتفق قوله تعالى: {جميعًا} مع أن للمخلوق قوة؟

١- (قلت): مسلم (٧٧١).

فالجواب: أن قوة المخلوق ليست بشيء عند قوة الخالق؛ وهذا كقوله تعالى: {فإن العزة لله جميعًا}[النساء: ١٣٩] مع أن الله أثبت للمخلوق عزَّة؛ وهكذا نقول في بقية الصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل الصفة(١).

٦- أن المؤمن محبٌّ لله عز وجل أكثر من محبة هؤلاء لأصنامهم؛ لقوله تعالى: {والذين آمنوا أشدُّ حبًّا}.

٧- أنه كلَّما ازداد إيمان العبد ازدادت محبته لله؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى رتَّب شدَّة المحبَّة على الإيمان؛ وقد علم أن الحكم إذا علق على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، وينقص بنقصه؛ فكلما ازداد الإنسان إيمانًا بالله عز وجل ازداد حبًّا له.

٨- شدَّة عذاب الله عز وجل لهؤلاء الظالمين؛ لقوله تعالى: {وأن الله شديد العذاب}؛ فإن قيل: كيف يكون الله عز وجل شديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟

فالجواب: أن هذا من كمال عزِّه وسلطانه وعدله وحكمته؛ لأنه أنذر مستحق العذاب، وأعذر منهم بإرسال الرسل؛ فلم يبق لهم حجة توجب تخفيف العذاب عنهم؛ فلو رحم هؤلاء الكافرين به لكان لا فرق بينهم والمؤمنين به.

وشدَّة عذاب الله لهؤلاء مذكور في القرآن، والسنة: قال الله تعالى: {وإن يستغيثوا}[الكهف: ٢٩]، أي أهل النار {يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه}[الكهف: ٢٩]؛ فما بالك لو وصلت إلى الأمعاء؟!؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: {وسقوا ماءً حميمًا فقطع أمعاءهم}[محمد: ١٥]؛ ومع ذلك تتقطع، وتلتئم بسرعة كما قال تعالى في جلودهم: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها}[النساء: ٥٦]؛ و{كلَّما} تفيد التكرار؛ وجوابها يفيد الفورية؛ والحكمة: {ليذوقوا العذاب}[النساء: ٥٦]؛ وقال تعالى: {إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون *كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم}[الدخان: ٤٣ ـ ٤٨]؛ ويقال له أيضًا: تبكيتًا وتوبيخًا وتنديمًا وتلويمًا {ذق}؛ ويذكر أيضًا بحاله في الدنيا فيقال له: {إنك أنت العزيز الكريم}؛ فحينئذ يتقطع ألمًا وحسرة؛ ولا شكَّ أن المؤمنين يسرون بعذاب أعداء الله؛ فعذابهم رحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون}.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

قال ابن العثيمين: {إذ تبرأ الذين اتُّبعوا}؛ {إذ} ظرف عامله محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ تبرأ؛ والمراد بالذكر هنا: الذكر

١- (قلت): أنظر كلام ابن القيم عند تفسير قوله تعالى: {أن القوة لله جميعًا}.

للغير، والتذكر أيضًا؛ فالله سبحانه وتعالى يذكِّرنا ويأمرنا أيضًا أن نذكر لغيرنا؛ و{تبرأ}: أي تخلّى وبَعُدَ {الذين اتُّبعوا}: وهم الرؤساء والسادة، يتبرؤون من {الذين اتَّبعوا}: وهم الأتباع والضعفاء وما أشبههم؛ فمن ذلك مثلًا: رؤساء الكفر يدعون الناس إلى الكفر، مثل فرعون؛ فقد دعا إلى الكفر؛ فهو متَّبَع؛ وقومه متَّبِعون؛ وكذلك غيره من رؤساء الكفر والضلال، فإنهم أيضًا متَّبَعون؛ ومن تَبِعهم فهو متَّبِع، فهؤلاء يتبرأ بعضهم من بعض؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى مناقشة بعضهم لبعض، ومحاجة بعضهم بعضًا في عدة آيات.

قال الطبري: عن قتادة قوله: {إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا}، وهم الجبابرة والقادةُ والرؤوس في الشرك، {من الذين اتَّبَعوا}، وهم الأتباع الضعفاء، {ورأوا العذاب}.

والصواب من القول عندي في ذلك أنّ الله تعالى ذكره أخبرَ أنّ المتَّبَعين على الشرك بالله يتبرأون من أتباعهم حين يعاينون عذاب الله. ولم يخصص بذلك منهم بعضًا دون بعض، بل عَمّ جميعهم. فداخلٌ في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتَّبِعونه على الضلال في الدنيا إذا عاينوا عَذابَ الله في الآخرة.

وأما دِلالة الآية فيمن عنى بقوله: {إذ تَبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا}، فإنها إنَّما تدلُّ على أنّ الأنداد الذين اتَّخذهم مِن دون الله مَنْ وَصَف تعالى ذكره صفتَه بقوله: {ومنَ الناس مَن يَتخذُ من دُون الله أندادًا}، هم الذين يتبرأون من أتباعهم.

قال ابن العثيمين: ولا يشمل قوله تعالى: {إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا} من اتَّبَع أئمة الهدى؛ فالمتَّبِعون للرسل لا يتبرأ منهم الرسل؛ والمتَّبِعون لأئمة الهدى لا يتبرأ منهم أئمة الهدى؛ لقوله تعالى: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين}[الزخرف: ٦٧]؛ فالأخلّاء والأحبَّة يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض إلا المتقين.

{ورأوا العذاب}؛ أمامنا الآن فعل ماض في {تبرأ}، وفعل ماض في {رأوا} ـ مع أن هذا الأمر مستقبل ـ؛ لكن لتحقق وقوعه عبَّر عنه بالماضي؛ وهذا كثير في القرآن.

وقوله تعالى: {ورأوا العذاب}: أي رأوه بأعينهم، كما قال تعالى: {ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفًا}[الكهف: ٥٣]؛ و{العذاب} هو العقوبة التي يعاقب الله بها من يستحقها.

{وتقطَّعت بهم الأسباب}؛ الباء هنا إما أن تكون بمعنى (عن)؛ أو تكون صلة بمعنى أنهم متشبثون بها الآن، ثم تنقطع بهم كما ينقطع الحبل بمن تمسَّك به للنجاة من الغرق؛ و{الأسباب} جمع سبب؛ وهو ما يتوصل به إلى غيره؛ والمراد بها هنا كل سبب يؤمِّلون به الانتفاع من هؤلاء المتبوعين، مثل قولهم: {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم}[العنكبوت: ١٢]، وقول فرعون لقومه: {ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد}[غافر: ٢٩]؛ فهذه الأسباب التي سلكها المتَّبعون ظنًا منهم أنها تنقذهم من العذاب إذا كان يوم القيامة تقطَّعت بهم؛ ولا يجدون سبيلًا إلى الوصول إلى غاياتهم؛ وفسَّر ابن

عباس رضي الله عنهما {الأسباب} هنا بالمودَّة؛ أي تقطعت بهم المودَّة؛ وهذا التفسير على سبيل التمثيل؛ والآية أعمّ من ذلك؛ ووجه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية في سياق محبَّة هؤلاء المشركين لأصنامهم([1]).

قال الطبري: و{الأسباب}، الشيء يُتعلَّقُ به. قال: و(السبب) الحبل. و{الأسباب} جمع (سَبب)، وهو كل ما تسبب به الرجل إلى طُلْبَتِهِ وحاجته. فيقال للحبل (سبب)، لأنه يُتسبب بالتعلُّق به إلى الحاجة التي لا يوصل إليها إلا بالتَعلُّق به. ويقال للطريق (سبب)، للتسبُّب بركوبه إلى ما لا يدرك إلا بقطعه؛ وللمصاهرة (سبب)، لأنها سَببٌ للحرمة. وللوسيلة (سَبب)، للوصول بها إلى الحاجة، وكذلك كل ما كان به إدراك الطُّلْبة، فهو (سبب) لإدراكها.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالصواب من القول في تأويل قوله: {وتقطَّعت بهم الأسباب} أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبرَ أن الذين ظلموا أنفسهم – من أهل الكفر الذين ماتوا وهم كفار – يتبرأ = عند معاينتهم عذابَ الله = المتبوعُ من التابع، وتتقطع بهم الأسباب.

وقد أخبر تعالى ذكره في كتابه أن بَعضهم يلعنُ بعضًا، وأخبر عن الشيطان أنه يقول لأوليائه: {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}[سورة إبراهيم: ٢٢]، وأخبر تعالى ذكره أنّ الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، وأن الكافرين لا ينصر يومئذ بعضهم بعضًا، فقال تعالى ذكره: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ}[سورة الصافات: ٢٤، ٢٥]، وأنّ الرجل منهم لا ينفعه نسيبه ولا ذو رحمه وإن كان نسيبه لله وليًّا، فقال تعالى ذكره في ذلك: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}[سورة التوبة: ١١٤]، وأخبر تعالى ذكره أنّ أعمالهم تَصيرُ عليهم حسرات.

وكل هذه المعاني أسباب يتسبب في الدنيا بها إلى مطالب، فقطع الله منافعها في الآخرة عن الكافرين به لأنها كانت بخلاف طاعته ورضاه، فهي منقطعة بأهلها. فلا خِلالُ بعضهم بعضًا نَفعهم عند وُرُودهم على ربهم، ولا عبادتُهم أندادهم ولا طاعتهم شياطينهم؛ ولا دافعت عنهم أرحامٌ فنصرتهم من انتقام الله منهم، ولا أغنت عنهم أعمالهم بل صارت عليهم حسرات. فكل أسباب الكفار منقطعة.

١- (قلت): وقال ابن العثيمين في القول المفيد: الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى شيء. وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال تعالى: { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ }[الحج: ١٥]، ومنه سمِّي الحبل سببًا، لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

وتفسير ابن عباس {الأسباب} هنا بالمودة: هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح، فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تنقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها، فإنها لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات، فقد قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ}[البقرة: ١٦٥]، ثم قال: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}. وبه تعرف أن مراده المودَّة الشركية، فأما المودَّة الإيمانية كمودَّة الله تعالى ومودَّة ما يحبه من الأعمال والأشخاص، فإنها نافعة موصلة للمراد، وقال الله تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}[الزخرف: ٦٧].

فلا معنى أبلغُ – في تأويل قوله: {وتقطَّعت بهم الأسباب} – من صفة الله ذلك؛ وذلك ما بيَّنا من تقطّع جَميع أسبابهم دون بَعضها، على ما قلنا في ذلك. ومن ادَّعى أن المعنيَّ بذلك خاص من الأسباب، سُئل عن البيان على دعواه من أصلٍ لا منازع فيه، وعورض بقول مخالفه فيه. فلن يقول في شيء من ذلك قولًا إلّا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

قال ابن القيم في الرسالة التبوكية ج١ص٥٠: وهذه حال كل من اتَّخذ من دون الله ورسوله وليجةً وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم ويرضى لهم ويغضب لهم، فان أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدَّة تعبه فيها ونَصَبِهِ، إذ لم يجرِّد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودَّة وموالاة كانت لغير الله تعالى ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه، وهو حظُّه من الهجرة إليه وإلى رسوله وتجريد عبادته له وحده، ولوازمها من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره، وترك ما خالف ما جاء به والإعراض عنه وعدم الاعتناء به، وتجريد متابعته تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلًا عن الشركة بينه وبين غيره، فضلًا عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة وهي آخيته التي يحول ما يحول ثم إليها مرجعه:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

وهذه هي النسبة التي تنفع العبد، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة: أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فلا قوام له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه النسبة. وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله ولقد أحسن القائل:

إذا تقطع حبل الوصل بينهم ... فللمحبين حبل غير منقطع
وان تصدع شمل القوم بينهم ... فللمحبين شمل غير متصدع

والمقصود أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم وما عرفت إلا بهم ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً}، فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه يجعلها الله هباءًا منثورًا. ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلًا، وهذا من أعظم

الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن المتبوعين بالباطل لا ينفعون أتباعهم؛ لقوله تعالى: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا}؛ ولو كانوا ينفعونهم لم يتبرؤوا منهم.

٢– أن الأمر لا يقتصر على عدم النفع؛ بل يتعداه إلى البراءة منهم، والتباعد عنهم؛ وهذا يكون أشد حسرة على الأتباع مما لو كان موقفهم سلبيًّا.

٣– ثبوت العقاب؛ لقوله تعالى: {ورأوا العذاب}. ويتفرع عليه ثبوت البعث.

٤– أن الله سبحانه وتعالى يجمع يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين توبيخًا وتنديمًا لهم؛ ويتبرأ بعضهم من بعض؛ لأن هذا ـ لا شك ـ أعظم حسرة إذا صار متبوعه الذي كان يعظمه في الدنيا يتبرأ منه وجهًا لوجه.

٥– أن جميع الأسباب الباطلة التي لا ترضي الله ورسوله تتقطع بأصحابها يوم القيامة وتزول ولا تنفعهم.

٦– أن من استغاث بالرسل، أو غيرهم من المخلوقات فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد ضل في دينه، وسفه في عقله، وأتى الشرك الأكبر.

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

قال ابن العثيمين: {وقال الذين اتَّبعوا}: هم الأتباع.

{لو أن لنا كرَّةً فنتبرأ منهم}؛ {لو} هنا ليست شرطية؛ ولكنها للتمني؛ يعني: ليت لنا كرة فنتبرأ؛ والدليل على أنها للتمني أن الفعل نصب بعدها؛ وهو منصوب بـ(أن) المضمرة بعد الفاء السببية؛ و(لو) تأتي في اللغة العربية على ثلاثة أوجه: تكون شرطية؛ وتكون للتمني؛ وتكون مصدرية؛ فـ{لو} في قوله تعالى: {وودوا لو تكفرون}[الممتحنة: ٢] مصدرية؛ و{لو} في قوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتلوا}[البقرة: ٢٥٣] شرطية؛ و{لو} في قوله تعالى: {لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم} للتمني؛ ومثلها قوله تعالى: {فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين}[الشعراء: ١٠٢].

قال الطبري: {وقَال الذين اتَّبعوا}، وقال أتباع الرجال – الذين كانوا اتخذوهم أندادًا من دون الله يطيعونهم في معصية الله، ويَعصُون ربَّهم في طاعتهم، إذ يرون عَذابَ الله في الآخرة –: {لو أن لنا كرة}. يعني بال{كرَّة}، الرجعةَ إلى الدنيا.

قال ابن العثيمين: ال{كرَّة}: الرجوع إلى الشيء؛ والمراد هنا: الرجوع إلى الدنيا؛ فنتبرأ منهم في الدنيا إذا رجعنا، كما تبرءوا منا هنا في الآخرة؛ فنجازيهم بما جازونا به؛ لكن أنّى لهم ذلك!!! فهذا التمني لا ينفعهم؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: {كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار}.

قال السعدي: وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعيهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا، فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأماني يتمنونها، حنقا وغيظا على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قضي الأمر: {إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم}.

قال ابن العثيمين: {كذلك}: الكاف: اسم بمعنى (مثل)؛ وهي مفعول مطلق عامله الفعل بعده؛ وهذا كثيرا ما يأتي في القرآن، كقوله تعالى: {وكذلك يفعلون}[النمل: ٣]، وقوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا}[البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى: {يريهم} مِن: أرى يري؛ فزيادة الهمزة جعلتها تنصب ثلاثة مفاعيل؛ الأول: الضمير، والثاني: {أعمالهم}؛ والثالث: {حسرات}؛ و{حسرات}: جمع حسرة؛ وهي الندم مع الانكماش، والحزن؛ فهؤلاء الأتباع شعورهم بالندم، والخيبة، والخسران لا يتصور؛ فالأعمال التي عملوها لهؤلاء المتبوعين صارت – والعياذ بالله – خسارة عليهم، وندما؛ ضاعت بها دنياهم، وآخرتهم؛ وهذا أعظم ما يكون من الحسرة.

قال الطبري: فإن قال لنا قائل: فكيف يَرَون أعمالهم حَسرات عليهم، وإنما يتندم المتندم عَلى تَرْك الخيرات وفوتها إياه؟ وقد علمت أنّ الكفار لم يكن لهم من الأعمال ما يتندّمون على تركهم الازديادَ منه، فيريهم الله قليلَه!([١])بل كانت أعمالهم كلها معاصيَ لله، ولا حسرةَ عليهم في ذلك، وإنما الحسرة فيما لم يَعملوا من طاعة الله؟

قيل: إن أهل التأويل في تأويل ذلك مختلفون، وأولى التأويلين بالآية تأويل من قال: معنى قوله: {كذلك يُريهم الله أعمالهمْ حَسرات عليهم}، كذلك يُرِي الله الكافرين أعمالهم الخبيثة حسرات عليهم، لم عملوا بها؟ وهلا عملوا بغيرها؟ فندموا على ما فرط منهم من أعمالهم الرديئة، إذ رأوا جزاءها من الله وعقابها، لأن الله أخبر أنه يريهم أعمالهم ندمًا عليهم.

١- قوله: (فيريهم الله قليله)، يعني به: فيريهم الله أنه قليل، فيتمنون أن لو كانوا ازدادوا من فعله حتى يكثر.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص٦٠٦: فَالْأَعْمَالُ الَّتِي أَرَاهُمْ اللَّهُ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ: هِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي يَفْعَلُهَا بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَمِنْهَا الْمُوَالَاةُ وَالصُّحْبَةُ وَالْمَحَبَّةُ لِغَيْرِ اللَّهِ. فَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ.

وَمِمَّا يُحَقِّقُ هَذِهِ الْأُمُورَ أَنَّ الْمُحِبَّ يَجْذِبُ، وَالْمَحْبُوبَ يُجْذَبُ. فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا جَذَبَهُ إلَيْهِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ صُورَةً جَذَبَتْهُ تِلْكَ الصُّورَةُ إلَى الْمَحْبُوبِ الْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ عِلَّتُهُ فَاعِلِيَّةٌ، وَالْمَحْبُوبَ عِلَّتُهُ غائية، وَكُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ تَأْثِيرٌ فِي وُجُودِ الْمَعْلُولِ، وَالْمُحِبُّ إنَّمَا يَجْذِبُ الْمَحْبُوبَ بِمَا فِي قَلْبِ الْمُحِبِّ مِنْ صُورَتِهِ الَّتِي يَتَمَثَّلُهَا؛ فَتِلْكَ الصُّورَةُ تَجْذِبُهُ بِمَعْنَى انْجِذَابِهِ إلَيْهَا، لَا أَنَّهَا هِيَ فِي نَفْسِهَا قَصْدٌ وَفِعْلٌ؛ فَإِنَّ فِي الْمَحْبُوبِ مِنْ الْمَعْنَى الْمُنَاسِبِ مَا يَقْتَضِي انْجِذَابَ الْمُحِبِّ إلَيْهِ، كَمَا يَنْجَذِبُ الْإِنْسَانُ إلَى الطَّعَامِ لِيَأْكُلَهُ وَإِلَى امْرَأَةٍ لِيُبَاشِرَهَا وَإِلَى صَدِيقِهِ لِيُعَاشِرَهُ، وَكَمَا تَنْجَذِبُ قُلُوبُ الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، لِمَا اتَّصَفَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ لِأَجْلِهَا أَنْ يُحَبَّ وَيُعْبَدَ. بَلْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُحَبَّ شَيْءٌ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ لِذَاتِهِ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، فَكُلُّ مَحْبُوبٍ فِي الْعَالَمِ إنَّمَا يَجُوزُ أَنْ يُحَبَّ لِغَيْرِهِ لَا لِذَاتِهِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُحَبَّ لِنَفْسِهِ، وَهَذَا مِنْ مَعَانِي إلَهِيَّتِهِ، و{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الشَّيْءِ لِذَاتِهِ شِرْكٌ، فَلَا يُحَبُّ لِذَاتِهِ إلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ إلَهِيَّتِهِ، فَلَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَحْبُوبٍ سِوَاهُ إنْ لَمْ يُحَبّ لِأَجْلِهِ أَوْ لِمَا يُحَبُّ لِأَجْلِهِ فَمَحَبَّتُهُ فَاسِدَةٌ. وَاَللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فِي النُّفُوسِ حُبَّ الْغِذَاءِ وَحُبَّ النِّسَاءِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ الْأَبْدَانِ، وَبَقَاءِ الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا حُبّ الْغِذَاءِ لَمَا أَكَلَ النَّاسُ فَفَسَدَتْ أَبْدَانُهُمْ، وَلَوْلَا حُبُّ النِّسَاءِ لَمَا تَزَوَّجُوا فَانْقَطَعَ النَّسْلُ. وَالْمَقْصُودُ بِوُجُودِ ذَلِكَ بَقَاءُ كُلٍّ مِنْهُمْ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَيَكُونُ هُوَ الْمَحْبُوبَ الْمَعْبُودَ لِذَاتِهِ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ غَيْرُهُ. وَإِنَّمَا تُحَبُّ الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ حُبِّهِ حُبّ مَا يُحِبُّهُ، وَهُوَ يُحِبُّ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَيُحِبُّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، فَحُبُّهَا لِلَّهِ هُوَ مِنْ تَمَامِ حُبِّهِ، وَأَمَّا الْحُبُّ مَعَهُ، فَهُوَ حُبُّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، فَالْمَخْلُوقُ إذَا أَحَبَّ لِلَّهِ، كَانَ حُبُّهُ جَاذِبًا إلَى حُبِّ اللَّهِ، وَإِذَا تَحَابَّ الرَّجُلَانِ فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ؛ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا جَاذِبًا لِلْآخَرِ إلَى حُبِّ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ((حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ وَإِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءِ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ بِقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ وَهُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرَوْحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ يتباذلونها وَلَا أَرْحَامٍ يَتَوَاصَلُونَ بِهَا إنَّ لِوُجُوهِهِمْ لَنُورًا وَإِنَّهُمْ لَعَلَى كَرَاسٍ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إذَا حَزِنَ النَّاسُ([1]))، فَإِنَّك إذَا أَحْبَبْت

١- أحمد ٣٨٦/٤، ٣٢٨/٥، والترمذي في الزهد (٢٣٩٠) وقال (حسن صحيح).

- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ لا عند الإمام أحمد ولا الترمذي بل قريب منه، وصحح الأرنؤوط جزءا من الحديث الذي عند الإمام أحمد، وصحح الإمام الألباني حديث الترمذي في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠١٩). ولكن هناك حديث آخر صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١)- مقارب له في اللفظ والمعنى ما نصه:

الشَّخْصَ لِلَّهِ، كَانَ اللَّهُ هُوَ الْمَحْبُوبُ لِذَاتِهِ، فَكُلَّمَا تَصَوَّرْته فِي قَلْبِك تَصَوَّرْت مَحْبُوبَ الْحَقِّ فَأَحْبَبْته فَازْدَادَ حُبُّك لِلَّهِ. كَمَا إذَا ذَكَرْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَصْحَابَهُمْ الصَّالِحِينَ وَتَصَوَّرْتهمْ فِي قَلْبِك فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْذِبُ قَلْبَك إلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ وَبِهِمْ، إذَا كُنْت تُحِبُّهُمْ لِلَّهِ فَالْمَحْبُوبُ لِلَّهِ يُجْذَبُ إلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَالْمُحِبُّ لِلَّهِ إذَا أَحَبَّ شَخْصًا لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَحْبُوبُهُ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَجْذِبَهُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَكُلٌّ مِنْ الْمُحِبِّ لِلَّهِ وَالْمَحْبُوبِ لِلَّهِ يُجْذَبُ إلَى اللَّهِ.

قال الطبري: {وما هم بخارجين من النار}: وما هؤلاء الذين وصَفتهم من الكفار – وإنْ نَدموا بعد معاينتهم مَا عاينوا من عذاب الله، فاشتدت ندامتهم على ما سلف منهم من أعمالهم الخبيثة، وتمنَّوا إلى الدنيا كرةً ليُنيبوا فيها، ويتبرأوا من مُضليهم وسادتهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله فيها – بخارجين من النار التي أصلاهُموها الله بكفرهم به في الدنيا، ولا ندمُهم فيها بمنجيهم من عذاب الله حينئذ، ولكنهم فيها مخلدون.

وفي هذه الآية الدلالةُ على تكذيب الله الزاعمين أن عَذابَ الله أهلَ النار من أهل الكفر مُنقضٍ، وأنه إلى نهاية، ثم هو بعدَ ذلك فانٍ. لأن الله تعالى ذكره أخبرَ عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، ثم ختم الخبر عنهم بأنهم غيرُ خارجين من النار، بغير استثناء منه وَقتًا دون وقت. فذلك إلى غير حدّ ولا نهاية.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن هؤلاء الأتباع يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليتبرؤوا من متبوعيهم كما تبرأ هؤلاء منهم في الآخرة؛ وهو غير ممكن؛ وما يزيدهم هذا إلا حسرة؛ ولهذا قال الله تعالى: {كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم}.

٢– تحسر هؤلاء، وأمثالهم الذين فاتهم في هذه الدنيا العمل الصالح؛ فإنهم يتحسرون في الآخرة تحسرا لا نظير له لا يدور في خيالهم اليوم، ولا في خيال غيرهم؛ لأنه ندم لا يمكن العتبى منه.

٣– إثبات نكال الله بهم؛ لقوله تعالى: {كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم}.

قال الله تعالى: ((حقت محبتي للمتحابين في وحقت محبتي للمتواصلين في وحقت محبتي للمتناصحين في وحقت محبتي للمتزاورين في وحقت محبتي للمتباذلين في. المتحابون في على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء)).

٤- أن المشركين مخلدون في النار لا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: {وما هم بخارجين من النار}؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الخلود الأبدي في النار في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة النساء؛ وفي سورة الأحزاب؛ وفي سورة الجن؛ وبه يبطل قول من ادعى أن النار تفنى؛ لأن خلود الماكث الأبدي يدل على خلود مكانه.

٥- إثبات النار، وأنها حق.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)

قال ابن العثيمين: هذه الآية جاءت في سورة البقرة؛ وسورة البقرة مدنية؛ وقد سبق أنه جاء أيضًا مثلها: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم}[البقرة: ٢١]؛ وقد ذكر كثير من المؤلفين في أصول التفسير أن الغالب في السور المدنية أن يكون الخطاب فيها بـ{يا أيها الذين آمنوا}[البقرة: ١٠٤]؛ لأن الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة صارت المدينة بلاد إسلام؛ وهي أوّل بلد إسلامي يحكمه المسلمون في هذه الرسالة؛ فصار التوجُّه إليها بالخطاب بـ{يا أيها الذين آمنوا}؛ لكنها ليست قاعدة؛ ولكنها ضابط يخرج منه بعض المسائل؛ لأن من السور المدنية فيها {يا أيها الناس}، كسورة النساء، وسورة الحجرات.

{يا أيها الناس}؛ {الناس} أصلها: الأناس؛ وحذفت الهمزة منها تخفيفًا؛ والمراد بـ{الناس}: بنو آدم.

{كلوا ممّا في الأرض}؛ {من} يحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ ويحتمل أن تكون للتبعيض؛ لكن كونها لبيان الجنس أَولى؛ ويرجحه قوله تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا}[البقرة: ٢٩]؛ أي كلوا من هذا ما شئتم؛ ويشمل كل ما في الأرض من أشجار وزروع وبقول وغيرها؛ ومن حيوان أيضًا؛ لأنه في الأرض.

{حلالًا}: منصوبة على الحال من {ما}؛ أي كلوه حال كونه حلالًا – أي محلَّلًا –؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و{طيبًا} حال أخرى – يعني: حال كونه طيبًا – مؤكّد لقوله تعالى: {حلالًا}.

قال ابن كثير: لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ، شَرَعَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ الرَّزَّاقُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ الِامْتِنَانِ أَنَّهُ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا مِنَ اللَّهِ طَيِّبًا، أَيْ: مُسْتَطَابًا فِي نَفْسِهِ غَيْرَ ضَارٍّ لِلْأَبْدَانِ وَلَا لِلْعُقُولِ .

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٤٤: وَإِنْ كَانَ أَصْلُ مَقْصُودِهِ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ، لَمْ تَكُنْ الطَّيِّبَاتُ مُبَاحَةً لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَبَاحَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ، بَلْ الْكُفَّارُ وَأَهْلُ الْجَرَائِمِ وَالذُّنُوبِ وَأَهْلُ الشَّهَوَاتِ، يُحَاسَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي تَنَعَّمُوا بِهَا، فَلَمْ يَذْكُرُوهُ وَلَمْ يَعْبُدُوهُ بِهَا، وَيُقَالُ لَهُمْ: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ}[الأحقاف: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}[التكاثر: ٨]: أَيْ: عَنْ شُكْرِهِ، وَالْكَافِرُ لَمْ يَشْكُرْ عَلَى النَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ فَيُعَاقِبُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَاَللَّهُ إنَّمَا أَبَاحَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَرَهُمْ مَعَهَا بِالشُّكْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ}[البقرة: ١٧٢].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا([1]))). وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَه وَغَيْرِهِ: ((الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ([2]))).

وَكَذَلِكَ قَالَ لِلرُّسُلِ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}[المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}[المائدة: ١]، وَقَالَ الْخَلِيلُ: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[البقرة: ١٢٦].

فَالْخَلِيلُ إنَّمَا دَعَا بِالطَّيِّبَاتِ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، وَاَللَّهُ إنَّمَا أَبَاحَ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ لِمَنْ حَرَّمَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ مِنْ الصَّيْدِ وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَيَشْكُرُوهُ.

وَلِهَذَا مَيَّزَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بَيْنَ خِطَابِ النَّاسِ مُطْلَقًا وَخِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[البقرة: ١٦٨- ١٧٠]، فَإِنَّمَا أَذِنَ لِلنَّاسِ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ بِشَرْطَيْنِ: أَنْ يَكُونَ طَيِّبًا، وَأَنْ يَكُونَ حَلَالًا، ثُمَّ قَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ}[البقرة: ١٧٢- ١٧٣].

١- مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤/٨٩) عن أنس بن مالك.

٢- ابن ماجة في الصيام (١٧٦٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٦)، وقال ((حديث حسن غريب)).

(قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٦٥٥).

فَأَذِنَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَلَمْ يَشْتَرِطْ الْحِلَّ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إلَّا مَا ذَكَرَهُ، فَمَا سِوَاهُ لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَكُنْ أَحَلَّهُ بِخِطَابِهِ، بَلْ كَانَ عَفْوًا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ سَلْمَانَ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا: ((الْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عُفِيَ عَنْهُ([1]))).

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً}[الأنعام: ١٤٥]. نَفَى التَّحْرِيمَ عَنْ غَيْرِ الْمَذْكُورِ، فَيَكُونُ الْبَاقِي مَسْكُوتًا عَنْ تَحْرِيمِهِ عَفْوًا، وَالتَّحْلِيلُ إنَّمَا يَكُونُ بِخِطَابِ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ – الَّتِي أُنْزِلَتْ بَعْدَ هَذَا –: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ}. إلَى قَوْلِهِ: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ}[المائدة: ٤، ٥]، فَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أُحِلَّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتُ، وَقَبْلَ هَذَا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ إلَّا مَا اسْتَثْنَاهُ.

وَقَدْ حَرَّمَ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ، وَكُلَّ ذِي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا نَسْخًا لِلْكِتَابِ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ لَمْ يُحِلَّ ذَلِكَ، وَلَكِنْ سَكَتَ عَنْ تَحْرِيمِهِ، فَكَانَ تَحْرِيمُهُ ابْتِدَاءَ شَرْعٍ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ، وَأَبِي ثَعْلَبَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ: ((لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ؛ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْت بِهِ، أَوْ نَهَيْت عَنْهُ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هَذَا الْقُرْآنُ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ أَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيت الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)). وَفِي لَفْظٍ: ((أَلَا وَإِنَّهُ مِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ. أَلَا وَإِنِّي حَرَّمْت كُلَّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ([2]))). فَبَيَّنَ أَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَحْيٌ آخَرُ وَهُوَ الْحِكْمَةُ غَيْرَ الْكِتَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْوَحْيِ مَا أَخْبَرَ بِتَحْرِيمِهِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَسْخًا لِلْكِتَابِ، فَإِنَّ الْكِتَابَ لَمْ يُحِلَّ هَذِهِ قَطُّ، إنَّمَا أَحَلَّ الطَّيِّبَاتِ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ، وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[البقرة: ١٧٢]. فَلَمْ تَدْخُلْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْعُمُومِ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَرَّمَهَا؛ فَكَانَتْ مَعْفُوًّا عَنْ تَحْرِيمِهَا، لَا مَأْذُونًا فِي أَكْلِهَا.

وَأَمَّا (الْكُفَّارُ) فَلَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ لَهُمْ فِي أَكْلِ شَيْءٍ، وَلَا أَحَلَّ لَهُمْ شَيْئًا، وَلَا عَفَا لَهُمْ عَنْ شَيْءٍ يَأْكُلُونَهُ، بَلْ قَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا}[البقرة: ١٦٨]. فَشَرَطَ فِيمَا يَأْكُلُونَهُ أَنْ يَكُونَ حَلَالًا، وَهُوَ الْمَأْذُونُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاَللَّهُ لَمْ يَأْذَنْ فِي الْأَكْلِ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ بِهِ؛ فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِي أَكْلِ شَيْءٍ إلَّا إذَا آمَنُوا؛ وَلِهَذَا لَمْ تَكُنْ أَمْوَالُهُمْ مَمْلُوكَةً لَهُمْ مِلْكًا شَرْعِيًّا؛ لِأَنَّ الْمِلْكَ الشَّرْعِيَّ هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّصَرُّفِ الَّذِي أَبَاحَهُ الشَّارِعُ ﷺ، وَالشَّارِعُ لَمْ يُبِحْ لَهُمْ تَصَرُّفًا فِي

١- الترمذي في اللباس (١٧٢٦) وقال: ((غريب لا نعرفه مرفوعا إلاّ من هذا الوجه)) وابن ماجة في الأطعمة (٣٣٦٧) والحاكم في المستدرك (١١٥/٤).

(قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٣٦٦)، وصحيح الجامع (٣١٩٥)، وصحح الإمام الألباني حديثا آخر في الصحيحة (٢٢٥٦)، قريب من هذا الحديث ما نصه: ((ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته {وما كان ربك نسيا})).

٢- ابو داود في السنة (٤٦٠٤)، واحمد (١٣١/٤).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ج١ص٢٩.

الْأَمْوَالِ، إِلَّا بِشَرْطِ الْإِيمَانِ، فَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ عَلَى الْإِبَاحَةِ، فَإِذَا قَهَرَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ طَائِفَةً قَهْرًا يَسْتَحِلُّونَهُ فِي دِينِهِمْ، وَأَخَذُوهَا مِنْهُمْ، صَارَ هَؤُلَاءِ فِيهَا كَمَا كَانَ أُولَئِكَ.

وَالْمُسْلِمُونَ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا، فَغَنِمُوهَا، مَلَكُوهَا شَرْعًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ لَهُمُ الْغَنَائِمَ وَلَمْ يُبِحْهَا لِغَيْرِهِمْ.

قال السعدي: وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولمّا أمرهم باتباع ما أمرهم به – إذ هو عين صلاحهم – نهاهم عن اتباع {خطوات الشيطان}: أي طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا تناول المأكولات المحرَّمة.

قال ابن العثيمين: {ولا تتّبعوا خطوات الشيطان}؛ {لا} ناهية؛ و(اتباع الخطوات) معناه: أن يتابع الإنسان غيره في عمله كمتبع الأثر الذي يتبع أثر البعير، وأثر الدابة وما أشبهها؛ و{خطوات الشيطان}: أي أعماله التي يعملها ويخطو إليها؛ وهو شامل للشرك فما دونه؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ قال تعالى: {إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على ما لا تعلمون}[البقرة: ١٦٩]، وقال تعالى: {ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر}[النور: ٢١]؛ فكل شيء حرمه الله فهو من خطوات الشيطان سواء كان عن استكبار، أو تكذيب، أو استهزاء، أو غير ذلك؛ لأنه يأمر به وينادي به ويدعو إليه؛ و{الشيطان} من: شطن؛ فالنون أصلية؛ وليس من (شاط)؛ لأنه مصروف في القرآن؛ قال تعالى: {وما هو بقول شيطان رجيم} [التكوير: ٢٥]؛ ولو كان من (شاط) لكانت النون زائدة، والألف زائدة؛ فيكون ممنوعًا من الصرف؛ إلَّا أنه قد يقال: لا يمنع من الصرف؛ لأن مؤنثه: شيطانة؛ والذي يمنع من الصرف إذا كان مؤنثه (فعلى)، ك(سكران)، و(سكرى)؛ ومعنى (شطن) بعد؛ فسمِّي الشيطان بذلك لبعده عن رحمة الله عز وجل.

{إنه لكم عدو مبين}؛ محل هذه الجملة استئنافية تعليل لما قبلها؛ والعدو ضد الصديق؛ وإن شئت فقل: ضد الولي؛ لقوله تعالى: {لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء}؛ وقد حده الفقهاء – رحمهم الله – بقولهم: من سره مساءة شخص؛ أو غمَّه فرحه فهو عدو؛ فالعدو من يحزن لفرحك ويسرُّ لحزنك.

وقوله تعالى: {مبين}: أي ظاهر العداوة؛ وقد كان عدوًّا لأبينا آدم ﷺ؛ فما زالت عداوته إلى قيام الساعة؛ وقال تعالى عنه: {لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا * ولأضلنَّهم ولأمنينَّهم ولآمرنَّهم فليبتكنَّ آذان الأنعام ولآمرنَّهم فليغيرُنَّ خلق الله}[النساء: ١١٨، ١١٩]، ثم قال تعالى: {ومن يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا}[النساء: ١١٩].

قال السعدي: {إنه لكم عدو مبين}: أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشّكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إظهار منَّة الله على عباده، حيث أباح لهم جميع ما في الأرض من حلال طيب؛ لقوله تعالى: {يا أيها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالًا طيِّبًا}.

٢- أن الأصل فيما في الأرض الحل والطيب حتى يتبيَّن أنه حرام.

٣- أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لقوله تعالى: {يا أيها الناس}؛ وهم داخلون في هذا الخطاب؛ ومخاطبتهم بفروع الشريعة هو القول الصحيح؛ ولكن ليس معنى خطابهم بها أنهم ملزمون بها في حال الكفر؛ لأننا ندعوهم أوَّلًا إلى الإسلام، ثم نلزمهم بأحكامه؛ وليس معنى كونهم مخاطبين بها أنهم يؤمرون بقضائها؛ والدليل على الأول قوله تعالى: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله}[التوبة: ٥٤]؛ فكيف نلزمهم بأمر لا ينفعهم؛ هذا عبث وظلم؛ وأما الدليل على الثاني فقوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}[الأنفال: ٣٨]؛ ولهذا لم يأمر النبي ﷺ أحدًا ممَّن أسلم بقضاء ما فاته من الواجبات حال كفره؛ والفائدة من قولنا: إنهم مخاطبون بها -كما قال أهل العلم - زيادة عقوبتهم في الآخرة؛ وهذا يدلُّ عليه قوله تعالى: (إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين}[المدثر: ٣٩ ـ ٤٧](١).

٤- تحريم اتِّباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: {ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين}؛ ومن ذلك الأكل بالشمال، والشرب بالشمال؛ لقول النبي ﷺ: ((لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله(٢)))؛ ومن اتِّباع خطوات الشيطان القياس الفاسد؛ لأن أول من قاس قياسًا فاسدًا هو إبليس؛ لأن الله لمّا أمره بالسجود لآدم، عارض هذا الأمر بقياس فاسد: قال: {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين}؛ يعني: فكان الأولى هو الذي يسجد؛ فهذا قياس في مقابلة النص؛ فاسد الاعتبار؛ ومن اتِّباع خطوات الشيطان أيضًا الحسد؛ لأن الشيطان إنما قال ذلك حسدًا لآدم؛ وهو أيضًا دأب اليهود، كما قال تعالى: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم}[البقرة: ١٠٩]؛ وكل خلق ذميم أو عمل سوء، فإنه من خطوات الشيطان.

٥- تأكيد عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: {إنَّه لكم عدو مبين}؛ فإنَّ الجملة مؤكَّدة بـ{إن}.

٦- ظهور بلاغة القرآن؛ وذلك لقرن الحكم بعلَّته؛ فإن قرن الحكم بعلَّته له فوائد؛ منها معرفة الحكمة؛ ومنها زيادة طمأنينة المخاطب؛ ومنها تقوية الحكم؛ ومنها عموم الحكم بعموم العلَّة ـ يعني القياس ـ؛ مثاله قوله تعالى: {قل لا أجد

١- أنظر كلام ابن العثيمين عن أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة عند تفسير الآية (٤١) من سورة البقرة في الفوائد برقم (٢).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٥٣٠٧).

فيما أوحي إليَّ محرَّمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس}[الأنعام: ١٤٥]؛ فإن مقتضى هذا التعليل أن كل ما كان نجسًا فهو محرَّم.

٧- التحذير الشَّديد من اتِّباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: {إنه لكم عدو مبين}؛ وما أظن أحدًا عاقلًا يؤمن بعداوة أحد ويتبعه أبدًا.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

قال ابن العثيمين: {إنما يأمركم بالسوء والفحشاء}؛ {إنَّما} أداة حصر؛ و(الحصر) إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عمَّا سواه، كما لو قلت: (إنما القائم زيد)؛ أثبت القيام لزيد، ونفيته عمَّن سواه؛ يعني ما يأمركُم إلَّا بالسُّوء والفحشاء وَأَنْ تقولوا على اللَّه ما لا تعلمون.

وقوله تعالى: {يأمركم}: أي الشيطان؛ والخطاب للناس جميعًا؛ لأن الآيات كلها سياقها للناس.

وقوله تعالى: {بالسُّوء}: أي كل ما يسوء من المعاصي الصغيرة؛ أي السيئات؛ و{الفحشاء}: أي المعاصي الكبيرة كالزنا؛ فهو يأمر بهذا وبهذا؛ مع أن المعاصي الصغار تقع مكفرة بالأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر؛ لكنه يأمر بها؛ لأنه إذا فعلها الإنسان مرة بعد أخرى فإنه يفسق، ويقسو قلبه؛ ثم لا ندري أتقوى هذه الأعمال الصالحة على تكفير السيئات، أم يكون فيها خلل ونقص يمنع من تكفيرها السيئات.

قال السعدي: فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتِّباع خطواته، حتى أخبرنا – وهو أصدق القائلين – بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء، وأعظمها مفسدة فقال: {إنَّما يأمركم بالسوء}.

أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: {والفحشاء} من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من المعاصي ما تناهى قبحه، كالزنا وشرب الخمر والقتل والقذف والبخل ونحو ذلك، مما يستفحشه من له عقل.

قال ابن العثيمين: {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} معطوف على قوله تعالى: {بالسوء}، يعني: أن الشيطان يأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون ـ أي تنسبوا إليه القول من غير علم ـ؛ وعطف {أن تقولوا على الله ما لا تعلمون} على {السوء والفحشاء} من باب عطف الخاص على العام؛ فإنه داخل إما في السوء أو الفحشاء؛ وهو أيضًا إلى الفحشاء أقرب.

قال السعدي: فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله أو نفى عنه ما أثبته لنفسه أو أثبت له ما نفاه عن نفسه فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن لله ندًّا وأوثانا تقرّب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحلَّ كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: الله خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معان اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلينظر العبد نفسه مع أي الداعيين هو، ومن أيّ الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعِم بالنِعَم الظاهرة والباطنة الذي لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلّا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدوّ الإنسان الذي يريد لك الشر ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشر ولا ينهى إلا عن خير.

قال الشيخ عبد العزيز عبد الله الراجحي في شرح الرَّد على الجهمية ج١ص٥٩: القول على الله بلا علم من أعظم الجرائم، وأعظم الكبائر، حتى إن الله – سبحانه وتعالى – جعله فوق الشرك بالله – عز وجل –، قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}. جعلها فيها مرتبة فوق الشرك؛ لأنه يشمل الشرك ويشمل غيره، كل مشرك قد قال على الله بلا علم، بلسان المقال وبلسان الحال، من عبد مع الله غيره، أو أشرك بالله، أو جحد أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، فقد قال على الله بلا علم. فالقول على الله بلا علم يشمل الشرك ويشمل الضلال والبدع، كلُّ قول على الله بلا علم. وقد جعل الله تعالى القول على الله بلا علم من إرادة الشيطان في قوله – عز وجل –: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}. فجعله من أمر الشيطان. فالقول على الله بلا علم هذا من أعظم الجرائم والكبائر.

وقال في البدع الحولية ج١ص٤٨: وقد وردت أحاديث تحذِّر من الفتوى أو الحكم بغير علم، وخاصة فيما يتعلق بأمور الدين. قال ﷺ: ((من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه([1]))). وقال ﷺ: ((القضاة ثلاثة: واحد في الجنة،

١– رواه أبو داود في سننه (٤/٦٦) كتاب العلم، حديث رقم (٣٦٥٧). ورواه الحاكم في المستدرك (١/١٢٦) كتاب العلم، وقال: على شرطهما ووافقه الذهبي في تلخيصه. ورواه غيرهما.

واثنان في النار. فإمّا الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار(١))).

والقولُ في الدِّين بغير علم إضلال، وعلى من أضلَّ إثمُ من وقع في الضلال بسبب إضلاله، فضلًا عن إثمه؛ لوقوعه في الضلال، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}[النحل: ٢٤، ٢٥].

فيجب على من لا يعلم أن يقول: لا أدري، أو أن يسأل غيره، ولنا في رسول الله ﷺ أُسْوةٌ حسنة، فعندما سُئِل عن شرِّ البقاع، قال: ((لا أدري(٢))).

وقال ﷺ: ((ما أدري أتُبَّعٌ لعين هو أم لا، وما أدري أ عزير نبي هو أم لا(٣))).

ولَمَّا سُئِل ابن عمر– رضي الله عنهما – عن مسألة فقال: ((لا علم لي بها، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر: نِعْم ما قال ابن عمر: سئِل عما لا يعلم فقال: لا علم لي به(٤))).

– (قلت): حَسّنه الإمام الألباني في المشكاة (٢٤٢)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ أَفْتَى بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خانه)). رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

١– رواه أبو داود في سننه (٥/٤) ، كتاب الأقضية، حديث رقم (٣٥٧٣). ورواه ابن ماجه في سننه (٧٧٦/٢)، كتاب الأحكام، حديث رقم (٢٣١٥). وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٦٤/٢) رقم (٦١٨٩) وأشار إلى أنه صحيح.

– (قلت): صححَه الإمام الألباني في المشكاة (٣٧٣٥).

٢– رواه أحمد في مسنده (٨١/١)، ورواه الحاكم في المستدرك (٨٩/١)، وقال: قد احتجا جميعاً برواة هذا الحديث إلا عبد الله بن محمد بن عقيل. وسكت عنه الذهبي. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٨/٢)، رقم (١٥٤٥، ١٥٤٦). ورواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٧٠/٢). وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: أنه رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والبزار، ورجال أحمد وأبي يعلى والبزار رجال الصحيح خلا عبد الله بن محمد بن عقيل وهو حسن وفيه كلام. يراجع: مجمع الزوائد (٧٦/٤).

– (قلت): قال الإمام الألباني في الثمر المستطاب ج١ص٤٩٩: وقد جاء في حديثه هذا – يعني عطاء – ألفاظ ظاهرة النكارة ممّا لم يرد في الأحاديث الأخرى وذلك يدلُّ على اختلاطه، لكن أصل الحديث صحيح بشواهده المتقدمة. والحديث بتمامه: أخرجه الحاكم أيضًا من طريق جرير عن عطاء بن السائب عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيُّ البقاع خير؟ فقال: ((لا أدري)). قال: فأيُّ البقاع شر؟ فقال: ((لا أدري)) فأتاه جبريل فقال: سل ربك؛ فقال جبريل: ما نسأله عن شيء. فانتفض انتفاضة كاد أن يصعق منها محمد ﷺ فلما صعد جبريل قال الله تعالى: سألك محمد: أي البقاع خير؟ فقلت: لا أدري وسألك أي البقاع شر؟ فقلت: لا أدري؟ قال: فقال: نعم. قال: فحدثه أن خير البقاع المساجد وأن شر البقاع الأسواق. وقال الحاكم: (صحيح). ووافقه الذهبي.

– (قلت): وثم حديث آخر حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٧٤١)، يصح الإستدلال به هنا على ما نحن فيه، مانصه: عَن أبي أُمَامَة قَالَ: إِنَّ حَبْرًا مِنَ الْيَهُودِ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْبِقَاعِ خَيْرٌ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ وَقَالَ: ((أَسْكُتُ حَتَّى يَجِيءَ جِبْرِيلُ)) فَسَكَتَ وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَ فَقَالَ: مَا المسؤول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ أَسْأَلُ رَبِّيَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي دَنَوْتُ مِنَ اللَّهِ دُنُوًّا مَا دَنَوْتُ مِنْهُ قطّ. قَالَ: وَكَيف كَانَ يا جبريل؟ قَالَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ. فَقَالَ: شَرُّ الْبِقَاعِ أَسْوَاقُهَا وَخَيْرُ الْبِقَاعِ مساجدها.

٣– رواه أبو داود في سننه (٣٤/٥، ٣٥). حديث رقم (٤٦٧٤).

– (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٢١٧).

٤– رواه الحاكم في المستدرك (٥٦١/٣) كتاب معرفة الصحابة، ولم يعلق عليه. وكذلك الذهبي. ورواه الدارمي في سننه (٦٣/١). ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥٢/٢).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن للشيطان إرادة، وأمرا؛ لقوله تعالى: {إنما يأمركم}.

٢- أن الشيطان لا يأمر بالخير؛ لقوله تعالى: {إنما يأمركم بالسوء والفحشاء}؛ وهذا حصر بـ{إنما}؛ وهو يوازن: ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء.

٣- أن الإنسان إذا وقع في قلبه هم بالسيئة أو الفاحشة فليعلم أنها من أوامر الشيطان، فليستعذ بالله منه؛ لقوله تعالى: {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم}[الأعراف: ٢٠٠].

٤- أن القول على الله بلا علم من أوامر الشيطان؛ لقوله تعالى: {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}؛ والقول على الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قاله؛ هذا جائز؛ ويصل إلى حد الوجوب إذا دعت الحاجة إليه.

القسم الثاني: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه؛ فهذا حرام؛ وهذا أشدُّ الأقسام لما فيه من محادَّة الله.

القسم الثالث: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله؛ وهذا حرام أيضًا.

فصار القول على الله حرامًا في حالين؛ إحداهما: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله، أم لم يقله؛ والثانية: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه.

وقوله تعالى: {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}، يشمل القول على الله في ذاته، كالقائلين أنه سبحانه وتعالى ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا فوق العالم ولا تحت؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم؛ بل بما يعلم أن الأمر بخلافه؛ ويشمل القول على الله في أسمائه مثل أن يقول: إن أسماء الله سبحانه وتعالى أعلام مجرَّدة لا تحمل معاني، ولا صفات: فهو سميع بلا سمع؛ وبصير بلا بصر؛ وعليم بلا علم؛ فهو عليم بذاته ـ لا بعلم هو وصفه ويشمل أيضًا من قال في صفات الله ما لا يعلم، مثل أن يثبتوا بعض الصفات دون بعض، فيقولون فيما نفوه: أراد به كذا؛ ولم يرد به كذا؛ فقالوا على الله بلا علم من وجهين:

الوجه الأول: أنهم نفوا ما أراد الله بلا علم.

والثاني: أثبتوا ما لم يعلموا أن الله أراده؛ فقالوا مثلًا: {استوى على العرش}[الأعراف: ٥٤] بمعنى استولى عليه؛ قالوا على الله بلا علم من وجهين؛ الوجه الأول: نفيهم حقيقة الاستواء بلا علم؛ والثاني: إثباتهم أنها بمعنى الاستيلاء بلا علم.

- (قلت): لم يُرِد ابن عمر أن يمدح نفسه؛ بل أراد أن يبيِّن لنا ولمن حوله أن من سئل عن مسألة وهو يجهلها، أن يقول: (لا علم لي بها) ولا يفتي أو يردُّ بلا علم.

كذلك يشمل القول على الله بلا علم في أفعاله، مثل أن يثبتوا أسبابًا لم يجعلها الله أسبابًا، كمثل المنجمين والخراصين وشبههم؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم في أفعاله ومخلوقاته؛ فيقولون: سبب وجود هذا وهذا كذا؛ وهو لا يعلم أنه سبب له كونًا ولا شرعًا.

ويشمل أيضًا القول على الله بلا علم في أحكامه؛ مثل أن يقول: (هذا حرام) وهو لا يعلم أن الله حرمه؛ أو (واجب) وهو لا يعلم أن الله أوجبه؛ وهم كثيرون جدًا؛ ومنهم العامة، ومنهم أدعياء العلم الذي يظنون أنهم علماء وليس عندهم علم؛ ومن الأشياء التي مرَّت عليَّ قريبًا، وهي غريبة: أن رجلًا ذهب إلى إمام مسجد ليكتب له الطلاق؛ فقال له: (طلق امرأتك طلقتين؛ أنا لا أكتب طلقة واحدة؛ لأن الله يقول: {الطلاق مرتان}[البقرة: ٢٢٩])؛ فقال له الرجل: (اكتب أني طلقت امرأتي مرتين)؛ وهذا جهل مركَّب مناف لمعنى الآية؛ لأن معناها أن الطلاق الذي يملك فيه الرجعة هو الطلقة الأولى والطلقة الثانية؛ فإن طلَّقها الثالثة لم تحل له حتى تنكح زوجًا غيره.

فالقول على الله بلا علم في ذاته، أو أسمائه، أو صفاته، أو أفعاله، أو أحكامه، كل ذلك من أوامر الشيطان؛ والغالب أنه لا يحمل على ذلك إلا محبَّة الشرف والسيادة والجاه؛ وإلَّا لو كان عند الإنسان تقوى لالتزم الأدب مع الله عز وجل ولم يتقدم بين يدي الله ورسوله، وصار لا يقول على الله إلا ما يعلم.

فإذا قال قائل: ألستم تبيحون الفتوى بالظن عند تعذر اليقين؟

فالجواب: بلى؛ بشرط أن يكون لهذا الظن أساس شرعي ـ من اجتهاد، أو تقليد لمن هو أهل لذلك ـ يبنى عليه؛ فإذا أفتينا بالظن لتعذُّر اليقين فقد أفتينا بما أذن الله لنا فيه؛ لقوله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم}[التغابن: ١٦]، وقوله تعالى: {لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها}[البقرة: ٢٨٦]؛ ومعلوم أن القول بغلبة الظن خير من التوقُّف؛ وكثير من مسائل الفقه التي تكلم فيها الفقهاء واختلفوا فيها من هذا الباب؛ لأنها لو كانت يقينية لم يحصل فيها اختلاف؛ ثم إن الشيء قد يكون يقينًا عند شخص لإيمانه وكثرة علمه وقوة فهمه؛ ومظنونًا عند آخر لنقصه في ذلك.

٥- تحريم الفتوى بلا علم؛ فإن المفتي يقول على الله، ويعبِّر عن شرع الله؛ وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: {قل إنَّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}[الأعراف: ٣٣].

٦- ضلال أهل التأويل في أسماء الله، وصفاته؛ لأنهم قالوا على الله بلا علم.

٧- وجوب تعظيم الله عز وجل؛ لأنه تعالى حرم القول عليه بلا علم تعظيمًا له، وتأدُّبًا معه؛ وقد قال الله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم}[الحجرات: ١].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)

قال ابن حجر العسقلاني في العجاب في بيان الأسباب: أخرج ابن أبي حاتم([١])من طريق ابن إسحاق([٢])بسنده المتكرر إلى ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذَّرهم الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا خيرًا منَّا وأعلم. فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك من قولهما: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} الآية.

قال ابن العثيمين: {وإذا قيل لهم}؛ {قيل}: مبني أصلها (قول)؛ لكن صار فيها إعلال؛ وهي أن الواو مكسورة فقلبت ياء، فكسر ما قبلها للمناسبة؛ و{لهم}: أي للكفار.

{اتبعوا ما أنزل الله} عقيدة، وقولا، وفعلا؛ و{ما}: اسم موصول يفيد العموم فتشمل جميع ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب، والحكمة؛ وقد قال كثير من أهل العلم: (الحكمة) هي السنة؛ فإذا قيل لهم هذا القول: لا يلينون ولا يقبلون؛ بل يكابرون.

{قالوا بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا}؛ {بل} هذه للإضراب الإبطالي؛ يعني: قالوا مبطلين هذا القول الذي قيل لهم: {بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا}؛ {ما}: اسم موصول؛ {ألفينا}: أي وجدنا، كما قال تعالى في آية أخرى: {بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا}[لقمان: ٢١]؛ والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

وقوله تعالى: {ما ألفينا عليه آباءنا}: يعني ما وجدناهم عليه من العقيدة والعمل، حقًّا كان أو باطلًا؛ و{آباءنا}، يشمل الأدنى منهم والأبعد؛ وجوابهم هذا باطلٌ خطأ؛ ولهذا أبطله الله تعالى في قوله: {أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون}؛ والمعنى: أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم في هذه الحال التي لا يستحقون أن يُتَّبَعوا فيها لا يعقلون شيئًا؛ والمراد بالعقل هنا عقل الرُّشد؛ لا عقل الإدراك؛ فآباؤهم أذكياء، ويدركون ما ينفعهم وما يضرهم؛ لكن ليس عندهم عقل رشد – وهو حسنُ تَصَرُّف –.

وقوله تعالى: {شيئًا}: نكرة في سياق النفي؛ والنكرة في سياق النفي للعموم؛ فإذا قال قائل: إذا كانت للعموم فمعنى ذلك أنهم لا يعقلون شيئًا حتى من أمور الدنيا مع أنهم في أمور الدنيا يحسنون التصرف: فهم يبيعون ويشترون ويَتَحرَّون الأفضل

١- وكذلك الطبري ٣/ ٣٠٥ (٢٤٤٦) وعزاه السيوطي في الدر (١/ ٤٠٥) إلى ابن إسحاق وإليهما، والأولى أن يقول: (أخرجه بن إسحاق، وابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه).

٢- (السيرة) لابن هشام ٢/ ٥٥٢.

والأحسن لهم؟ فيقال: هذا ليس بشيء بالنسبة إلى ما يتعلق بأمور الآخرة؛ أو يقال: إن المراد بهذا العموم الخصوص؛ أي لا يعقلون شيئًا من أمور دينهم لأن المقام هنا مقام منهاج وعمل، وليس مقام دنيا وبيع وشراء؛ فيكون المراد بقوله تعالى: {شيئًا}: شيئًا من أمور الآخرة؛ وكلا الاحتمالين يرجع إلى معنى واحد.

{ولا يهتدون}: أي لا يعملون عمل العالم المهتدي؛ وبهذا انتفى عنهم الرشد في العمل والعلم في طريق العمل؛ وهؤلاء الذين بهذا الوصف، لا يعقلون ولا يهتدون، لا يستحقون أن يُتّبَعوا؛ ولهذا جاءت همزة الإنكار في قوله تعالى: {أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون}؛ وأقرب شبه لهؤلاء الآية التي بعدها.

قال السعدي: فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس وأشدُّهم ضلالًا، وهذه الشبهة لردّ الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه وعدم إنصافهم؛ فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد؛ ومن جعل الحق قصده ووازن بينه وبين غيره، تبيّن له الحق قطعًا، واتّبعه إن كان منصفًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٩ص٢٦٣: إنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إذَا قِيلَ لَهُمْ: {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ؛ بَلْ عِنْدَهُمْ اتِّبَاعُ سَلَفِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي اعْتَادُوهُ وَتَرَبَّوْا عَلَيْهِ.

وقال رحمه الله في ج٤ص١٩٧: فَمَنْ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ لِأَجْلِ الْعَادَةِ الَّتِي تَعَوَّدَهَا، وَتَرَكَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، فَهَذَا هُوَ الْمُقَلِّدُ الْمَذْمُومُ، وَهَذِهِ حَالُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بَلْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا شُيُوخَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي غَيْرِ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}[الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى. {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} إلَى قَوْلِهِ: {خَذُولًا}[الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} إلَى قَوْلِهِ: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}[البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ} إلَى قَوْلِهِ: {إنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ}[غافر: ٤٧، ٤٨]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ بَيَانُ أَنَّ مَنْ أَطَاعَ مَخْلُوقًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الذَّمِّ وَالْعِقَابِ. وَالْمُطِيعُ لِلْمَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إمَّا أَنْ يَتَّبِعَ الظَّنَّ، وَإِمَّا أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَهْوَاهُ، وَكَثِيرٌ يَتَّبِعُهُمَا.

وَهَذِهِ حَالُ كُلِّ مَنْ عَصَى رَسُولَ اللَّهِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إنْ هِيَ إلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} إلَى قَوْلِهِ: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ

رَبِّهِمُ الْهُدَى}[النجم: ٢٣]، والسُّلْطَانُ: هُوَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}[الروم: ٣٥]، وَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} إِلَى قَوْلِهِ: {بِبَالِغِيهِ}[غافر: ٥٦].

وَقَالَ لِبَنِي آدَمَ: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} إِلَى قَوْلِهِ: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}[طه: ١٢٣– ١٢٧].

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّ الشَّخْصَ إِمَّا أَنْ يُبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ حَقٌّ، وَيَعْدِلُ عَنْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ هَوَاهُ، أَوْ يَحْسَبُ أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ، فَهَذَا مُتَّبِعٌ لِلظَّنِّ، وَالْأَوَّلُ مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ. . . ([1])اجْتِمَاعُ الْأَمْرَيْنِ: قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْأَوَّلِينَ: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}[الأنعام: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[النمل: ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} إِلَى قَوْلِهِ: {لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْأَخْسَرِينَ: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} الْآيَةَ[الكهف: ١٠٣]، وَقَالَ: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}[فاطر: ٨].

فَالْأَوَّلُ: حَالُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَتَّبِعُونَهُ، كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْيَهُودِ.

وَالثَّانِي: حَالُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، قَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}[الأنعام: ١١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}[القصص: ٥٠].

وَكُلُّ مَنْ يُخَالِفُ الرُّسُلَ هُوَ مُقَلِّدٌ مُتَّبِعٌ لِمَنْ لَا يَجُوزُ لَهُ اتِّبَاعُهُ، وَكَذَلِكَ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَلَا تَبَيُّنٍ، وَهُوَ الَّذِي يُسَلِّمُ بِظَاهِرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، كَالَّذِي يُقَالُ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَن رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَا نَبِيُّك؟. فَيَقُولُ: هاه هاه لَا أَدْرِي. سَمِعْت النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْته – هُوَ مُقَلِّدٌ – فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصُعِقَ، أَيْ لَمَاتَ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}[الحجرات: ١٤]. فَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ وَكَانَ مُسْلِمًا فِي الظَّاهِرِ، فَهُوَ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ الْمَذْمُومِينَ.

فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُقَلِّدَ مَذْمُومٌ – وَهُوَ مَنْ اتَّبَعَ هَوَى مَنْ لَا يَجُوزُ اتِّبَاعُهُ – كَالَّذِي يَتْرُكُ طَاعَاتِ رُسُلِ اللَّهِ، وَيَتَّبِعُ سَادَاتِهِ وَكُبَرَاءَهُ، أَوْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ظَاهِرًا مِنْ غَيْرِ إِيمَانٍ فِي قَلْبِهِ، تَبَيَّنَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كُلَّهُمْ مُقَلِّدُونَ تَقْلِيدًا مَذْمُومًا، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

١– بياض بالأصل.

وقال رحمه الله ايضا في ج٢٠ص١٥: أَمَّا التَّقْلِيدُ الْبَاطِلُ الْمَذْمُومُ فَهُوَ: قَبُولُ قَوْلِ الْغَيْرِ بِلَا حُجَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[البقرة: ١٧٠]، فِي الْبَقَرَةِ وَفِي الْمَائِدَةِ، وَفِي لُقْمَانَ: {أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ}[لقمان: ٢١]، وَفِي الزُّخْرُفِ: {قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}[الزخرف: ٢٤]، وَفِي الصَّافَّاتِ: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ}[الصافات: ٦٩، ٧٠]، وَقَالَ: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} الْآيَة [الأحزاب: ٦٦، ٦٧]. وَقَالَ: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}[البقرة: ١٦٦]، وَقَالَ: {فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ}[غافر: ٤٧]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}[ابراهيم: ٢١]، وَقَالَ: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}[النحل: ٢٥].

فَهَذَا الِاتِّبَاعُ وَالتَّقْلِيدُ الَّذِي ذَمَّهُ اللَّهُ هُوَ اتِّبَاعُ الْهَوَى؛ إمَّا لِلْعَادَةِ وَالنَّسَبِ كَاتِّبَاعِ الْآبَاءِ. وَإِمَّا لِلرِّئَاسَةِ كَاتِّبَاعِ الْأَكَابِرِ وَالسَّادَةِ والمتكبرين، فَهَذَا مِثْلُ تَقْلِيدِ الرَّجُلِ لِأَبِيهِ أَوْ سَيِّدِهِ أَوْ ذِي سُلْطَانِهِ، وَهَذَا يَكُونُ لِمَنْ لَمْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ وَهُوَ الصَّغِيرُ؛ فَإِنَّ دِينَهُ دِينُ أُمِّهِ، فَإِنْ فُقِدَتْ فَدِينُ مَلِكِهِ وَأَبِيهِ، فَإِنْ فُقِدَ – كَاللَّقِيطِ – فَدِينُ الْمُتَوَلِّي عَلَيْهِ، وَهُوَ أَهْلُ الْبَلَدِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَأَمَّا إذَا بَلَغَ وَأَعْرَبَ لِسَانُهُ، فَإِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا.

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ أَنَّ الْوَاجِبَ الْإِعْرَاضُ عَنْ هَذَا التَّقْلِيدِ إلَى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، فَإِنَّهُمْ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي أَعْذَرَ بِهَا إلَى خَلْقِهِ.

وَالْكَلَامُ فِي التَّقْلِيدِ فِي شَيْئَيْنِ: فِي كَوْنِهِ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا مِنْ جِهَةِ الدَّلَالَةِ. وَفِي كَوْنِهِ مَشْرُوعًا؛ أَوْ غَيْرَ مَشْرُوعٍ مِنْ جِهَةِ الْحُكْمِ. أَمَّا الْأَوَّلُ، فَإِنَّ التَّقْلِيدَ الْمَذْكُورَ لَا يُفِيدُ عِلْمًا؛ فَإِنَّ الْمُقَلِّدَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُقَلِّدُهُ مُصِيبًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُخْطِئًا، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَمُصِيبٌ هُوَ، أَمْ مُخْطِئٌ؟ فَلَا تَحْصُلُ لَهُ ثِقَةٌ وَلَا طُمَأْنِينَةٌ، فَإِنْ عَلِمَ أَنَّ مُقَلِّدَهُ مُصِيبٌ – كَتَقْلِيدِ الرَّسُولِ، أَوْ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ – فَقَدْ قَلَّدَهُ بِحُجَّةٍ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ، وَلَيْسَ هُوَ التَّقْلِيدُ الْمَذْكُورُ، وَهَذَا التَّقْلِيدُ وَاجِبٌ؛ لِلْعِلْمِ بِأَنَّ الرَّسُولَ مَعْصُومٌ، وَأَهْلَ الْإِجْمَاعِ مَعْصُومُونَ.

وَأَمَّا تَقْلِيدُ الْعَالِمِ حَيْثُ يَجُوزُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ اتِّبَاعِ الْأَدِلَّةِ الْمُتَغَلِّبَةِ عَلَى الظَّنِّ، كَخَبَرِ الْوَاحِدِ وَالْقِيَاسِ؛ لِأَنَّ الْمُقَلِّدَ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ إصَابَةُ الْعَالِمِ الْمُجْتَهِدِ كَمَا يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ صِدْقُ الْمُخْبِرِ، لَكِنْ بَيْنَ اتِّبَاعِ الرَّاوِي وَالرَّأْيِ فَرْقٌ يُذْكَرُ – إنْ شَاءَ اللَّهُ – فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

فَإِنَّ اتِّبَاعَ الرَّاوِي وَاجِبٌ؛ لِأَنَّهُ انْفَرَدَ بِعِلْمٍ مَا أَخْبَرَ بِهِ، بِخِلَافِ الرَّأْيِ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَمَ مِنْ حَيْثُ عُلِمَ، وَلِأَنَّ غَلَطَ الرِّوَايَةِ بَعِيدٌ، فَإِنَّ ضَبْطَهَا سَهْلٌ؛ وَلِهَذَا نُقِلَ عَنْ النِّسَاءِ وَالْعَامَّةِ، بِخِلَافِ غَلَطِ الرَّأْيِ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ؛ لِدِقَّةِ طُرُقِهِ وَكَثْرَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الْعُرْفُ لِمَنْ يَجُوزُ قَبُولُ الْخَبَرِ مَعَ إمْكَانِ مُرَاجَعَةِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ، وَلَا يَجُوزُ قَبُولُ الْمَعْنَى مَعَ إمْكَانِ مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ.

وَأَمَّا الْعُرْفُ الْأَوَّلُ، فَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ وَلِهَذَا يُوجِبُونَ اتِّبَاعَ الْخَبَرِ وَلَا يُوجِبُ أَحَدٌ تَقْلِيدَ الْعَالِمِ عَلَى مَنْ أَمْكَنَهُ الِاسْتِدْلَالُ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُونَ فِي جَوَازِهِ؛ لِأَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يُعْلَمَ مِنْ حَيْثُ عُلِمَ، فَهَذِهِ جُمْلَةٌ.

وَأَمَّا تَفْصِيلُهَا فَنَقُولُ: النَّاسُ فِي الِاسْتِدْلَالِ وَالتَّقْلِيدِ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُ الِاسْتِدْلَالَ - حَتَّى فِي الْمَسَائِلِ الدَّقِيقَةِ: أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا - عَلَى كُلِّ أَحَدٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَرِّمُ الِاسْتِدْلَالَ فِي الدَّقِيقِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وَهَذَا فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا.

قال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٢٤٠: فمن اتَّبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه، فهذا اتبع هواه كما قال تعالى: {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون}.

وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام، يتَّبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة بل هو من مسلمة الدار لا مسلمة الإختيار، وهذا إذا قيل له في قبره: من ربك؟ قال؟ هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. فليتأمل اللبيب هذا المحل ولينصح نفسه وليقم معه ولينظر من أي الفريقين هو؟ والله الموفق.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ذمّ التعصب بغير هدى؛ لقوله تعالى: {بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا}؛ مع أن آباءهم لا عقل عندهم ولا هدى.

٢- أن من تعصب لمذهب مع مخالفة الدليل ففيه شبه من هؤلاء؛ والواجب أن الإنسان إذا قيل له: (اتَّبع ما أنزل الله) أن يقول: (سمعنا وأطعنا).

٣- أنه لا يجب الانقياد إلا لما أنزل الله ـ وهو الكتاب والحكمة ـ.

٤- بيان عناد هؤلاء المستكبرين الذين إذا قيل لهم: {اتبعوا ما أنزل الله}، قالوا: {بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا}، دون أن يقيموا برهانًا على صحته.

٥- أن كل من خالف الحق وما أنزل الله فليس بعاقل، وليس عنده هدى؛ لقوله تعالى: {لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون}.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

قال ابن العثيمين: {ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق}: يعني كمثل الراعي الذي ينادي.

{بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً} وهم البهائم؛ فهؤلاء مثلهم كمثل إنسان يدعو بهائم لا تفهم إلّا الصوت، {دعاءً ونداءً}؛ وال{دعاء} إذا كان يدعو شيئًا معيَّنًا باسمه؛ وال{نداء} يكون للعموم؛ هناك بهائم يسميها الإنسان باسمها بحيث إذا ناداها بهذا الاسم أقبلت إليه؛ والنداء العام لجميع البهائم، هذا لا يختص به واحدة دون أخرى؛ فتقبل الإبل جميعًا؛ لكن مع ذلك لا تقبل على أساس أنها تعقل وتفهم، وتهتدي؛ ربما يناديها لأجل أن ينحرها؛ هؤلاء الكفار مثلهم ـ في كونهم يتبعون آباءهم بدون أن يفهموا، هذه الحال التي عليها آباؤهم ـ كمثل هذا الناعق بالماشية التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً.

{صم}: جمع (أصم)؛ وهو الذي لا يسمع؛ وهي خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هم صم؛ و{بكم}: جمع (أبكم)؛ وهو الذي لا ينطق؛ و{عمي}: جمع (أعمى)؛ وهو الذي لا يبصر؛ أي فَهُم صم عن سماع الحق؛ ولكن سماع غيره لا فائدة منه؛ فهو كالعدم؛ وهُم بكم لا ينطقون بالحق؛ ونطقهم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ وهُم كذلك عميٌّ لا يبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به.

{فهم لا يعقلون}: أي لكونهم صمًّا بكمًا عميًا فهم لا يعقلون عقل رشد ـ وإن كان عندهم عقل إدراك ـ؛ فلعدم انتفاعهم بعقولهم نفى الله عنهم العقل؛ ورتَّب الله انتفاء العقل عنهم على كونهم صمًّا بكمًا عميًا؛ لأن هذه الحواس وسيلة العقل والإدراك.

قال السعدي: والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجهلاء. فهل يستريب العاقل أن من دُعيَ إلى الرَّشاد وذيد عن الفساد ونُهي عن اقتحام العذاب وأُمر بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح وتولّى عن أمر ربه واقتحم النار على بصيرة واتَّبع الباطل ونبذ الحق – أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتُّصف بالمكر والخديعة والدهاء، فإنه من أسفه السفهاء.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص١٠٣: وَالْقَلْبُ الْحَيُّ الْمُنَوَّرُ؛ فَإِنَّهُ لِمَا فِيهِ مِنْ النُّورِ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَعْقِلُ، وَالْقَلْبُ الْمَيِّتُ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ. قَالَ تَعَالَى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة: ١٧١]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}[يونس: ٤٢، ٤٣]، وَقَالَ تَعَالَى:

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} الْآيَاتِ [الأنعام: ٢٥].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ بِقُلُوبِهِمْ وَلَا يَسْمَعُونَ بِآذَانِهِمْ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَا رَأَوْهُ مِنَ النَّارِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ حَيْثُ قَالُوا: {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}[فصلت: ٥]. فَذَكَرُوا الْمَوَانِعَ عَلَى الْقُلُوبِ وَالسَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ، وَأَبْدَانُهُمْ حَيَّةٌ تَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ وَتَرَى الْأَشْخَاصَ؛ لَكِنَّ حَيَاةَ الْبَدَنِ بِدُونِ حَيَاةِ الْقَلْبِ مِنْ جِنْسِ حَيَاةِ الْبَهَائِمِ، لَهَا سَمْعٌ وَبَصَرٌ وَهِيَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ وَتَنْكِحُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً}. فَشَبَّهَهُمْ بِالْغَنَمِ الَّذِي ينعق بِهَا الرَّاعِي وَهِيَ لَا تَسْمَعُ إِلَّا نِدَاءً، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}[الفرقان: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}[الأعراف: ١٧٩].

وقال رحمه الله في ج٧ص٢٧: وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: لَمَّا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالنُّطْقِ، جُعِلُوا صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا؛ أَوْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالنُّطْقِ، صَارُوا كَالصُّمِّ الْعُمْيِ الْبُكْمِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ نَفْسُ قُلُوبِهِمْ عَمِيَتْ وَصَمَّتْ وَبَكِمَتْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[الحج: ٤٦]، (وَالْقَلْبُ) هُوَ الْمَلِكُ، وَالْأَعْضَاءُ جُنُودُهُ، وَإِذَا صَلَحَ صَلَحَ سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَ سَائِرُ الْجَسَدِ، فَيَبْقَى يَسْمَعُ بِالْأُذُنِ الصَّوْتَ كَمَا تَسْمَعُ الْبَهَائِمُ، وَالْمَعْنَى: لَا يَفْقَهُهُ، وَإِنْ فَقِهَ بَعْضَ الْفِقْهِ لَمْ يَفْقَهْ فِقْهًا تَامًّا، فَإِنَّ الْفِقْهَ التَّامَّ يَسْتَلْزِمُ تَأْثِيرُهُ فِي الْقَلْبِ مَحَبَّةَ الْمَحْبُوبِ، وَبُغْضَ الْمَكْرُوهِ، فَمَتَى لَمْ يَحْصُلْ هَذَا لَمْ يَكُنْ التَّصَوُّرُ التَّامُّ حَاصِلًا فَجَازَ نَفْيُهُ، لِأَنَّ مَا لَمْ يَتِمَّ يُنْفَى كَقَوْلِهِ لِلَّذِي أَسَاءَ فِي صَلَاتِهِ: ((صَلِّ فَإِنَّك لَمْ تُصَلِّ))، فنفي الإيمان حيث نفي من هذا الباب.

وقال رحمه الله أيضا في ج١٦ص٥٨٦: فَالْكُفَّارُ مَا دَامُوا كُفَّارًا هُمْ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ. لَهُمْ مَوَانِعُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ الْإِيمَانِ كَمَا أَنَّ لِلْمُنَافِقِينَ مَوَانِعَ تَمْنَعُهُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ، وَإِنْ أُنْذِرُوا. وَهَذَا كَقَوْلِهِ {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة: ١٧١]، فَهَذَا مِثْلُ كُلِّ كَافِرٍ مَا دَامَ كَافِرًا.

وَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ يَسْمَعُونَ إذَا زَالَ الْغِطَاءُ الَّذِي عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ لِذَلِكَ الْمَعْنَى الْمُشْتَقِّ مِنْهُ، وَهُوَ الْكُفْرُ. فَمَا دَامُوا هَذِهِ حَالُهُمْ فَهُمْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ تَغَيُّرَ الْحَالِ مُمْكِنٌ، كَمَا قَالَ: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، وَكَمَا هُوَ الْوَاقِعُ.

وَمِثْلُ هَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِدُعَائِهِ وَإِنْذَارِهِ وَبَيَانِهِ يَحْصُلُ الْهُدَى، وَلَوْ كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ – وَإِنْ كَانَ صَالِحًا نَاصِحًا مُخْلِصًا – فَقَدْ لَا يَسْتَجِيبُ الْمَدْعُوُّ؛ لَا لِنَقْصٍ فِي الدُّعَاءِ، لَكِنْ لِفَسَادٍ فِي الْمَدْعُوِّ(١).

قال ابن القيم في إعلام الموقعين ج١ص١٤٠: فَتَضَمَّنَ هَذَا الْمَثَلَ نَاعِقًا أَيْ مُصَوِّتًا بِالْغَنَمِ وَغَيْرِهَا، وَمَنْعُوقًا بِهِ وَهُوَ الدَّوَابُّ، فَقِيلَ: النَّاعِقُ الْعَابِدُ وَهُوَ الدَّاعِي لِلصَّنَمِ، وَالصَّنَمُ هُوَ الْمَنْعُوقُ بِهِ الْمَدْعُوُّ، وَإِنَّ حَالَ الْكَافِرِ فِي دُعَائِهِ كَحَالِ مَنْ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُهُ، هَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ.

وَاسْتَشْكَلَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ هَذَا الْقَوْلَ، وَقَالُوا: قَوْلُهُ: {إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً}[البقرة: ١٧١] لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءً وَلَا نِدَاءً.

وَقَدْ أُجِيبَ عَنْ هَذَا الِاسْتِشْكَالِ بِثَلَاثَةِ أَجْوِبَةٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ {إِلَّا} زَائِدَةٌ، وَالْمَعْنَى: (بِمَا لَا يَسْمَعُ دُعَاءً وَنِدَاءً)، قَالُوا: وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ الْأَصْمَعِيُّ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: (حَرَاجِيجُ مَا تَنْفَكُّ إلَّا مُنَاخَةً)؛ أَيْ: مَا تَنْفَكُّ مُنَاخَةً، وَهَذَا جَوَابٌ فَاسِدٌ، فَإِنَّ {إِلَّا} لَا تُزَادُ فِي الْكَلَامِ.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّ التَّشْبِيهَ وَقَعَ فِي مُطْلَقِ الدُّعَاءِ لَا فِي خُصُوصِيَّاتِ الْمَدْعُوِّ.

الْجَوَابُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ مَثَلَ هَؤُلَاءِ فِي دُعَائِهِمْ آلِهَتَهُمْ الَّتِي لَا تَفْقَهُ دُعَاءَهُمْ كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِغَنَمِهِ، فَلَا يَنْتَفِعُ مِنْ نَعِيقِهِ بِشَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ فِي دُعَاءٍ وَنِدَاءٍ، وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُعَائِهِ وَعِبَادَتِهِ إلَّا الْعَنَاءُ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مِمَّا يَقُولُ الرَّاعِي أَكْثَرَ مِنْ الصَّوْتِ؛ فَالرَّاعِي هُوَ دَاعِي الْكُفَّارِ، وَالْكُفَّارُ هُمْ الْبَهَائِمُ الْمَنْعُوقُ بِهَا.

قَالَ سِيبَوَيْهِ: الْمَعْنَى وَمَثَلُك يَا مُحَمَّدُ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّاعِقِ وَالْمَنْعُوقِ بِهِ؛ وَعَلَى قَوْلِهِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَدَاعِيهِمْ كَمَثَلِ الْغَنَمِ وَالنَّاعِقِ بِهَا)؛ وَلَك أَنْ تَجْعَلَ هَذَا مِنْ التَّشْبِيهِ الْمُرَكَّبِ، وَأَنْ تَجْعَلَهُ مِنْ التَّشْبِيهِ الْمُفَرَّقِ، فَإِنْ جَعَلْتَهُ مِنْ الْمُرَكَّبِ كَانَ تَشْبِيهًا لِلْكُفَّارِ فِي عَدَمِ فِقْهِهِمْ وَانْتِفَاعِهِمْ بِالْغَنَمِ الَّتِي يَنْعَقُ بِهَا الرَّاعِي فَلَا تَفْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ شَيْئًا غَيْرَ الصَّوْتِ الْمُجَرَّدِ هُوَ الدُّعَاءُ وَالنِّدَاءُ، وَإِنْ جَعَلْتَهُ مِنْ التَّشْبِيهِ الْمُفَرَّقِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَنْزِلَةِ الْبَهَائِمِ، وَدُعَاءُ دَاعِيهِمْ إلَى الطَّرِيقِ وَالْهُدَى بِمَنْزِلَةِ الَّذِي يَنْعِقُ بِهَا، وَدُعَاؤُهُمْ إلَى الْهُدَى بِمَنْزِلَةِ النَّعْقِ، وَإِدْرَاكُهُمْ مُجَرَّدَ الدُّعَاءِ وَالنِّدَاءِ كَإِدْرَاكِ الْبَهَائِمِ مُجَرَّدَ صَوْتِ النَّاعِقِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن (أصل السماع الذي أمر الله به) عند تفسير الآية (٢٥) من سورة الأنعام.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن هؤلاء في اتِّباع آبائهم مثل البهائم التي تستجيب للناعق، وهي لا تسمع إلا صوتًا دعاءً ونداءً؛ لا تسمع شيئًا تعقله، وتعرف فائدته ومضرَّة مخالفته.

٢- أن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فلا يسمعون ما يدعون إليه من حق، ولا يقولون به؛ فهم: {صم بكم عمي فهم لا يعقلون}.

٣- أن لهؤلاء أمثالًا يدعون بدعوى الجاهلية، كأولئك الذين يدعون إلى القومية: فإن مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً؛ وهذه الدعوى لا يفكر الدعاة لها فيما يترتَّب عليها من تفريق المسلمين وتمزيق وحدتهم، وكونهم يجعلون الرابطة هي اللغة، أو القومية، فيدخل فيها غير المسلم ممَّن تشملهم القومية، ويخرج بها مسلمون كثيرون ممَّن لا تشملهم القومية؛ لكن الرابطة الدينية التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: {إنما المؤمنون إخوة}[الحجرات: ١٠]؛ هذه تدخل جميع المؤمنين ـ ولو من غير العرب ـ؛ وتخرج من ليس بمؤمن ـ ولو كان عربيًّا ـ؛ فهذا إبراهيم عليه السلام قال الله عز وجل عنه: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم}[التوبة: ١١٤]؛ وقد حثنا الله عز وجل على التأسي بإبراهيم عليه السلام، حيث قال سبحانه وتعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده}[الممتحنة: ٤]، ولما قال نوح عليه السلام: {رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق}[هود: ٤٥]، قال الله عز وجل له: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح}[هود: ٤٥]؛ فكون الناس انجرفوا في هذه الدعوى الباطلة ـ دعوى القومية ـ هو داخل في هذه الآية: أنهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا} سبق الكلام على ذكر فوائد تصدير الخطاب بالنداء، وبوصف الإيمان للمنادى؛ وتصدير الحكم بالنداء يدلُّ على الاهتمام به؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادى.

{كلوا من طيبات ما رزقناكم}: الأمر هنا للامتنان، والإباحة؛ و{من} هنا الظاهر أنها لبيان الجنس؛ لا للتبعيض؛ والمراد بـ(الطيب): المُستلَذ والمستطاب.

قال السعدي: هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته والتَقَوّي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا}.

قال ابن العثيمين: {واشكروا لله}؛ (الشكر) في اللغة: الثناء؛ وفي الشرع: القيام بطاعة المنعِم؛ وإنما فسرناها بذلك؛ لأن النبي ﷺ قال: ((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا}، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله}[1]))؛ فالشكر الذي أمر به المؤمنون بإزاء العمل الصالح الذي أمر به المرسلون؛ والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

قال السعدي: فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل: (حلالًا)، لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي شُرَيْحٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَغَوِيُّ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ أَخْبَرَنَا فُضَيْلُ بْنُ مَرْزُوقٍ عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله طيب ولَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً}[الْمُؤْمِنُونَ: ٥١]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْناكُمْ}، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشعث أغبر يمدّ يديه إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ[2])).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٢ص١٣٥: فَأَمَرَ بِالْأَكْلِ مِنْ الطَّيِّبَاتِ، وَالشُّكْرِ لَهُ، وَالطَّيِّبُ هُوَ مَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ. وَحَرَّمَ الْخَبَائِثَ، وَهُوَ مَا يَضُرُّهُ، وَأَمَرَ بِشُكْرِهِ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِطَاعَتِهِ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْذُورِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَلَى الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا[3])). وَقَالَ تَعَالَى: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}[المؤمنون: ٥١]، فَمَنْ أَكَلَ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَلَمْ يَشْكُرْ، وَلَمْ يَعْمَلْ صَالِحًا، كَانَ مُعَاقَبًا عَلَى مَا تَرَكَهُ مِنْ الْوَاجِبَاتِ، وَلَمْ تَحِلّ لَهُ الطَّيِّبَاتُ.

١- أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم ٢٣٤٦ [٦٥] ١٠١٥.

٢- إسناده صحيح، علي بن الجعد روى له البخاري، وفضيل بن مرزوق روى له مسلم، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم. أبو حازم اسمه سلمة بن دينار.

- وهو في شرح السنة (٢٠٢١) بهذا الإسناد.

- وأخرجه مسلم ١٠١٥ والترمذي ٢٩٨٩ وأحمد (٢/ ٣٢٨) و (٤٠٠) من طريق فضيل بن مرزوق بهذا الإسناد.

٣- مسلم في الذكر والدعاء (٨٩/٢٧٣٤) عن أنس بن مالك.

فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَحَلَّهَا لِمَنْ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى طَاعَتِهِ، لَا لِمَنْ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[المائدة: ٩٣]، وَقَالَ الْخَلِيلُ: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[البقرة: ١٢٦].

وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُعَانَ الْإِنْسَانُ بِالْمُبَاحَاتِ عَلَى الْمَعَاصِي، مِثْلَ مَنْ يُعْطِي الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ لِمَنْ يَشْرَبُ عَلَيْهِ الْخَمْرَ، وَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْفَوَاحِشِ.

وَمَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ مِنْ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالنِّكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ تَرْكَ ذَلِكَ مُطْلَقًا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ فِعْلِهِ لِمَنْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، كَانَ مُعْتَدِيًا مُعَاقَبًا عَلَى تَحْرِيمِهِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَعَلَى تَعَبُّدِهِ لِلَّهِ – تَعَالَى – بالرهبانية، وَرَغْبَتِهِ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَلَى مَا فَرَّطَ فِيهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

قال ابن العثيمين: {إن كنتم إيّاه تعبدون}؛ {إن} شرطية؛ وفعل الشرط: {كنتم}؛ و{إياه} مفعول لـ{تعبدون} مقدَّم؛ وجملة: {تعبدون} خبر كان؛ وجواب الشرط: قيل: إنه لا يحتاج في مثل هذا التعبير إلى جواب؛ وهو الصحيح؛ وقيل: إن جوابها محذوف يفسره ما قبله؛ والتقدير: إن كنتم إيّاه تعبدون فاشكروا له؛ و(العبادة) هي التذلُّل لله عز وجل بالطاعة؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ مأخوذة من قولهم: طريق معبَّد ـ يعني مُذَلَّلًا للسالكين ـ؛ يعني: إن كنتم تعبدونه حقًّا فكلوا من رزقه واشكروا له(١).

قال السعدي: أي: فاشكروه، فدلَّ على أن من لم يشكر الله لم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدلُّ أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله والأمر بالشكر عقيب النِّعَم؛ لأن الشكر يحفظ النِّعَم الموجودة، ويجلب النِّعَم المفقودة كما أن الكفر ينفِر النِّعَم المفقودة ويزيل النِّعَم الموجودة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– فضيلة الإيمان، حيث وجَّه الله الخطاب إلى المؤمنين، فهم أهل لتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}.

٢– الأمر بالأكل من طيبات ما رزق الله؛ لقوله تعالى: {كلوا من طيبات ما رزقناكم}؛ وهو للوجوب إن كان الهلاك أو الضرر بترك الأكل.

١– (قلت): أنظر كلام ابن القيم عند تفسير الآية (٥) من سورة الفاتحة، وشيخ الإسلام عند تفسير الآية (٢١) من سورة البقرة عن (العبادة).

٣- أن الخبائث لا يؤكل منها؛ لقوله تعالى: {من طيبات ما رزقناكم}؛ والخبائث محرَّمة؛ لقوله تعالى: {ويحرم عليهم الخبائث}.

٤- أن ما يحصل عليه المرء من مأكول فإنه من رزق الله؛ وليس للإنسان فيه إلّا السبب فقط؛ لقوله تعالى: {ما رزقناكم}.

٥- توجيه المرء إلى طلب الرزق من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ما رزقناكم}؛ فإذا كان هذا الرزق من الله سبحانه وتعالى فلنطلبه منه مع فعل الأسباب التي أمرنا بها.

٦- وجوب الشكر لله؛ لقوله تعالى: {واشكروا لله}.

٧- وجوب الإخلاص لله في ذلك؛ يؤخذ ذلك من اللام في قوله تعالى: {لله}.

٨- أن الشكر من تحقيق العبادة؛ لقوله تعالى: {إن كنتم إياه تعبدون}.

٩- وجوب الإخلاص لله في العبادة؛ يؤخذ ذلك من تقديم المعمول في قوله تعالى: {إياه تعبدون}.

١٠- إثبات رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده من وجهين:

أوّلًا: من أمرِهِ إيّاهم بالأكل من الطيبات؛ لأن بذلك حفظًا لصحتهم.

ثانيًا: من قوله تعالى: {ما رزقناكم}؛ فإن الرزق بلا شك من رحمة الله.

١١- الرَّد على الجبرية من قوله تعالى: {كلوا}، و{اشكروا}، و{تعبدون}؛ كل هذه أضيفت إلى فعل العبد؛ فدلَّ على أن للعبد فعلًا يوجَّه إليه الخطاب بإيجاده؛ ولو كان ليس للعبد فعل لكان توجيه الخطاب إليه بإيجاده من تكليف ما لا يطاق.

١٢- التنديد بمن حرَّموا الطيبات؛ كأهل الجاهلية الذين حرموا السائبة والوصيلة، والحام.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)

قال أبو زهرة: حرَّم الله تعالى ثلاثة أشياء من الخبائث الحسيَّة، وهي الميتة والدم ولحم الخنزير، ومن الخبائث المعنويَّة ما أُهل به لغير الله، أي ما ذبح لصنم ونحو ذلك.

قال ابن العثيمين: مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه لما أمر بالأكل من الطيبات بيَّن ما حرَّم علينا من الخبائث.

{إنما حرم عليكم الميتة}؛ {إنما} أداة حصر؛ و(الحصر) إثبات الحكم في المذكور ونفيه عمّا سواه؛ فالتَّحريم محصور في هذه الأشياء؛ والمعنى: ما حرَّم عليكم إلّا الميتة ... ؛ و(التَّحريم) بمعنى المنع؛ ومعنى {حرَّم عليكم}: أي منعكم -

أي حرَّم عليكم أكلها ـ؛ والدليل أنه حرَّم أكلها الآية التي قبلها: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم}[البقرة: ١٧٢]؛ ثم قال تعالى: {إنما حرَّم عليكم الميتة}؛ فكأنه قال: (كلوا) ثم استثنى فقال: {إنما حرَّم عليكم الميتة ... }: أي فلا تأكلوها؛ و{الميتة} في اللغة: ما مات حتف أنفه ـ يعني بغير فعل من الإنسان ـ؛ أما في الشرع: فهي ما مات بغير ذكاة شرعية، كالذي مات حتف أنفه؛ أو ذبح على غير اسم الله؛ أو ذبح ولم ينهر الدم؛ أو ذكاه من لا تحل تذكيته، كالمجوسي، والمرتد.

قال الشنقيطي: ظاهر هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ حَرَامٌ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مَيْتَةَ الْبَحْرِ خَارِجَةٌ عَنْ ذَلِكَ التَّحْرِيمِ وَهُوَ قَوْلُهُ: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ} الْآيَةَ [٥ \ ٩٦]، إِذْ لَيْسَ لِلْبَحْرِ طَعَامٌ غَيْرُ الصَّيْدِ إِلَّا مَيْتَتُهُ. وَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِطَعَامِهِ قَدِيدُهُ الْمُجَفَّفُ بِالْمِلْحِ مَثَلًا، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِصَيْدِهِ الطَّرِيُّ مِنْهُ، فَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الْقَدِيدَ مِنْ صَيْدِهِ فَهُوَ صَيْدٌ جُعِلَ قَدِيدًا، وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِطَعَامِهِ مَيْتَتُهُ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ – رضي الله عنهم – أَجْمَعِينَ وَعِكْرِمَةُ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُمُ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ مِنَ الدِّمَاءِ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: {إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا}[٦ \ ١٤٥] فَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ كَالْحُمْرَةِ الَّتِي تَعْلُو الْقِدْرَ مِنْ أَثَرِ تَقْطِيعِ اللَّحْمِ لَيْسَ بِحَرَامٍ، إِذْ لَوْ كَانَ كَالْمَسْفُوحِ لَمَا كَانَ فِي التَّقْيِيدِ بِقَوْلِهِ: {مَسْفُوحًا} فَائِدَةٌ.

وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ مَيْتَتَيْنِ وَدَمَيْنِ، أَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ(١)، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ فِي الْأَنْعَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَعَنْهُ ﷺ فِي الْبَحْرِ ((هُوَ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ(٢)))، أَخْرَجَهُ مَالِكٌ وَأَصْحَابُ (السُّنَنِ)، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالْبَيْهَقِيُّ و الدار قطني فِي سُنَنِهِمَا، وَالْحَاكِمُ فِي (الْمُسْتَدْرَكِ)، وَابْنُ الْجَارُودِ فِي (الْمُنْتَقَى)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْبُخَارِيُّ.

وَظَاهِرُ عُمُومِ هَذَا الْحَدِيثِ وَعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَطَعَامُهُ}، يَدُلُّ عَلَى إِبَاحَةِ مَيْتَةِ الْبَحْرِ مُطْلَقًا، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَكَلَ مِنَ الْعَنْبَرِ، وَهُوَ حُوتٌ أَلْقَاهُ الْبَحْرُ مَيْتًا وَقِصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٢٥٢٦)، والحديث بتمامه: عن ابن عمر مرفوعا: ((أحلَّ لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال)). رواه أحمد وابن ماجه والدار قطني.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٤٧٩)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا أفنتوضأ من مَاء الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ)). رَوَاهُ مَالك وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَه والدارمي.

وَحَاصِلُ تَحْرِيرِ فِقْهِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ مَيْتَةَ الْبَحْرِ عَلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْمَاءِ، وَإِنْ أُخْرِجَ مِنْهُ مَاتَ كَالْحُوتِ، وَقِسْمٌ يَعِيشُ فِي الْبَرِّ، كَالضَّفَادِعِ وَنَحْوِهَا.

أَمَّا الَّذِي لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْمَاءِ كَالْحُوتِ فَمَيْتَتُهُ حَلَالٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ، وَخَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – فِيمَا مَاتَ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ، وَطَفَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ فَقَالَ فِيهِ: هُوَ مَكْرُوهُ الْأَكْلِ، بِخِلَافِ مَا قَتَلَهُ إِنْسَانٌ أَوْ حَسِرَ عَنْهُ الْبَحْرُ فَمَاتَ، فَإِنَّهُ مُبَاحُ الْأَكْلِ عِنْدَهُ.

وَأَمَّا الَّذِي يَعِيشُ فِي الْبَرِّ مِنْ حَيَوَانِ الْبَحْرِ: كَالضَّفَادِعِ وَالسُّلَحْفَاةِ وَالسَّرَطَانِ وَتُرْسِ الْمَاءِ فَقَدِ اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ؛ فَذَهَبَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِلَى أَنَّ مَيْتَةَ الْبَحْرِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مُبَاحَةُ الْأَكْلِ، وَسَوَاءٌ مَاتَ بِنَفْسِهِ أَوْ وُجِدَ طَافِيًا أَوْ بِاصْطِيَادٍ، أَوْ أُخْرِجَ حَيًّا، أَوْ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، أَوْ دُسَّ فِي طِينٍ.

وَقَالَ ابْنُ نَافِعٍ، وَابْنُ دِينَارٍ: مَيْتَةُ الْبَحْرِ مِمَّا يَعِيشُ فِي الْبَرِّ نَجِسَةٌ.

وَنَقَلَ ابْنُ عَرَفَةَ قَوْلًا ثَالِثًا بِالْفَرْقِ بَيْنَ أَنْ يَمُوتَ فِي الْمَاءِ، فَيَكُونُ طَاهِرًا، أَوْ فِي الْبَرِّ فَيَكُونُ نَجِسًا، وَعَزَاهُ لِعِيسَى، عَنِ ابْنِ الْقَاسِمِ. وَالضَّفَادِعُ الْبَحْرِيَّةُ عِنْدَ مَالِكٍ مُبَاحَةُ الْأَكْلِ، وَإِنْ مَاتَتْ فِيهِ.

وَفِي (الْمُدَوَّنَةِ): وَلَا بَأْسَ بِأَكْلِ الضَّفَادِعِ وَإِنْ مَاتَتْ؛ لِأَنَّهَا مِنْ صَيْدِ الْمَاءِ. اهـ.

أَمَّا مَيْتَةُ الضَّفَادِعِ الْبَرِّيَّةِ فَهِيَ حَرَامٌ بِلَا خِلَافٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ مَنْعُ الضَّفَادِعِ مُطْلَقًا وَلَوْ ذُكِّيَتْ، لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

أَمَّا كَلْبُ الْمَاءِ وَخِنْزِيرُهُ فَالْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ فِيهِمَا الْكَرَاهَةُ.

قَالَ خَلِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَالِكِيُّ فِي (مُخْتَصَرِهِ) عَاطِفًا عَلَى مَا يُكْرَهُ، وَكَلْبُ مَاءٍ وَخِنْزِيرُهُ.

وَقَالَ الْبَاجِيُّ: أَمَّا كَلْبُ الْبَحْرِ وَخِنْزِيرُهُ، فَرَوَى ابْنُ شَعْبَانَ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ، وَقَالَهُ ابْنُ حَبِيبٍ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي (الْمُدَوَّنَةِ): لَمْ يَكُنْ مَالِكٌ يُجِيبُنَا فِي خِنْزِيرِ الْمَاءِ بِشَيْءٍ، وَيَقُولُ: أَنْتُمْ تَقُولُونَ خِنْزِيرًا.

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ: وَأَنَا أَتَّقِيهِ وَلَوْ أَكَلَهُ رَجُلٌ لَمْ أَرَهُ حَرَامًا، هَذَا هُوَ حَاصِلُ مَذْهَبِ مَالِكٍ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَحُجَّتُهُ فِي إِبَاحَةِ مَيْتَةِ الْحَيَوَانِ الْبَحْرِيِّ كَانَ يَعِيشُ فِي الْبَرِّ أَوْ لَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ}[٥ \ ٩٦]، وَلَا طَعَامَ لَهُ غَيْرُ صَيْدِهِ إِلَّا مَيْتَتُهُ، كَمَا قَالَهُ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ الْحَقُّ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْبَحْرِ: ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))، وَقَدْ قَدَّمْنَا ثُبُوتَ هَذَا الْحَدِيثِ وَفِيهِ التَّصْرِيحُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّ مَيْتَةَ الْبَحْرِ حَلَالٌ، وَهُوَ فَصْلٌ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ. وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ أَنَّ الْمُفْرَدَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى مَعْرِفَةٍ كَانَ مِنْ صِيَغِ الْعُمُومِ. كَقَوْلِهِ: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ}[٢٤ \ ٦٣]، وَقَوْلِهِ: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[١٤ \ ٣٤].

وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي (مَرَاقِي السُّعُودِ) بِقَوْلِهِ عَاطِفًا عَلَى صِيَغِ الْعُمُومِ: [الرَّجَزُ]

وَمَا مُعَرَّفًا بِأَلْ قَدْ وُجِدَا ... أَوْ بِإِضَافَةٍ إِلَى مُعَرَّفِ ... إِذَا تَحَقَّقَ الْخُصُوصُ قَدْ نَفَى

وَبِهِ نَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ: ((مَيْتَتُهُ))، يَعُمُّ بِظَاهِرِهِ كُلَّ مَيْتَةٍ مِمَّا فِي الْبَحْرِ.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ هُوَ أَنَّ مَا لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْبَحْرِ فَمَيْتَتُهُ حَلَالٌ بِلَا خِلَافٍ، سَوَاءً كَانَ طَافِيًا عَلَى الْمَاءِ أَمْ لَا.

وَأَمَّا الَّذِي يَعِيشُ فِي الْبَرِّ مِنْ حَيَوَانِ الْبَحْرِ فَأَصَحُّ الْأَقْوَالِ فِيهِ وَهُوَ الْمَنْصُوصُ عَنِ الشَّافِعِيِّ فِي (الْأُمِّ) وَ(مُخْتَصَرِ الْمُزَنِيِّ)، وَاخْتِلَافِ الْعِرَاقِيِّينَ: أَنَّ مَيْتَتَهُ كُلَّهُ حَلَالٌ؛ لِلْأَدِلَّةِ الَّتِي قَدَّمْنَا آنِفًا، وَمُقَابِلُهُ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَنْعُ مَيْتَةِ الْبَحْرِيِّ الَّذِي يَعِيشُ فِي الْبَرِّ مُطْلَقًا.

الثَّانِي: التَّفْصِيلُ بَيْنَ مَا يُؤْكَلُ نَظِيرُهُ فِي الْبَرِّ، كَالْبَقَرَةِ وَالشَّاةِ فَتُبَاحُ مَيْتَةُ الْبَحْرِيِّ مِنْهُ، وَبَيْنَ مَا لَا يُؤْكَلُ نَظِيرُهُ فِي الْبَرِّ كَالْخِنْزِيرِ وَالْكَلْبِ فَتُحْرَمُ مَيْتَةُ الْبَحْرِيِّ مِنْهُ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ حُجَّةَ الْأَوَّلِ أَظْهَرُ لِعُمُومِ قَوْلِهِ ﷺ: ((الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَطَعَامُهُ} كَمَا تَقَدَّمَ.

وَأَمَّا مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْمَاءِ فَمَيْتَتُهُ حَلَالٌ، وَالطَّافِي مِنْهُ وَغَيْرُهُ سَوَاءٌ، وَأَمَّا مَا يَعِيشُ فِي الْبَرِّ مِنْ حَيَوَانِ الْبَحْرِ فَمَيْتَتُهُ عِنْدَهُ حَرَامٌ، فَلَا بُدَّ مِنْ ذَكَاتِهِ إِلَّا مَا لَا دَمَ فِيهِ، كَالسَّرَطَانِ فَإِنَّهُ يُبَاحُ عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ ذَكَاةٍ، وَاحْتَجَّ لِعَدَمِ إِبَاحَةِ مَيْتَةِ مَا يَعِيشُ فِي الْبَرِّ ؛ بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ يَعِيشُ فِي الْبَرِّ لَهُ نَفْسٌ سَائِلَةٌ فَلَمْ يُبَحْ بِغَيْرِ ذَكَاةٍ، كَالطَّيْرِ. وَحَمَلَ الْأَدِلَّةَ الَّتِي ذَكَرْنَا عَلَى خُصُوصِ مَا لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْبَحْرِ. اهـ.

وَكَلْبُ الْمَاءِ عِنْدَهُ إِذَا ذُكِّيَ حَلَالٌ، وَلَا يُخْفَى أَنَّ تَخْصِيصَ الْأَدِلَّةِ الْعَامَّةِ يَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ، فَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ أَظْهَرُ دَلِيلًا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَمَذْهَبُ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ كُلَّ مَا يَعِيشُ فِي الْبَرِّ لَا يُؤْكَلُ الْبَحْرِيُّ مِنْهُ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ مُسْتَخْبَثٌ، وَأَمَّا مَا لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْبَحْرِ وَهُوَ الْحُوتُ بِأَنْوَاعِهِ فَمَيْتَتُهُ عِنْدَهُ حَلَالٌ، إِلَّا إِذَا مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فِي الْبَحْرِ وَطَفَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، فَإِنَّهُ يُكْرَهُ أَكْلُهُ عِنْدَهُ، فَمَا قَتَلَهُ إِنْسَانٌ، أَوْ حَسَرَ عَنْهُ الْبَحْرُ فَمَاتَ؛ حَلَالٌ عِنْدَهُ، بِخِلَافِ الطَّافِي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَحُجَّتُهُ فِيمَا يَعِيشُ فِي الْبَرِّ مِنْهُ: أَنَّهُ مُسْتَخْبَثٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}[٧ \ ١٥٧]، وَحُجَّتُهُ فِي كَرَاهَةِ السَّمَكِ الطَّافِي مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي (سُنَنِهِ): حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبَدَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمٍ الطَّائِفِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا أَلْقَى الْبَحْرُ أَوْ جَزَرَ عَنْهُ فَكُلُوهُ، وَمَا مَاتَ فِيهِ وَطَفَا فَلَا تَأْكُلُوهُ([١])))، اهـ.

١- (قلت): ضعفه الإمام الألباني في المشكاة (٤١٣٣ / التحقيق الثاني).

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَأَيُّوبُ، وَحَمَّادٌ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَوْقَفُوهُ عَلَى جَابِرٍ. وَقَدْ أُسْنِدَ هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضًا مِنْ وَجْهٍ ضَعِيفٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. اهـ.

وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ عَنِ الِاحْتِجَاجِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ أَلْفَاظَ النُّصُوصِ عَامَّةٌ فِي مَيْتَةِ الْبَحْرِ، وَأَنَّ تَخْصِيصَ النَّصِّ الْعَامِّ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ يَدُلُّ عَلَى التَّخْصِيصِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَمُطْلَقُ ادِّعَاءِ أَنَّهُ خَبِيثٌ لَا يَرُدُّ بِهِ عُمُومَ الْأَدِلَّةِ الصَّرِيحَةِ فِي عُمُومِ مَيْتَةِ الْبَحْرِ، وَعَنِ الِاحْتِجَاجِ الثَّانِي بِتَضْعِيفِ حَدِيثِ جَابِرٍ الْمَذْكُورِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي (شَرْحِ الْمُهَذَّبِ) مَا نَصُّهُ: وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ حَدِيثِ جَابِرٍ الَّذِي احْتَجَّ بِهِ الْأَوَّلُونَ، فَهُوَ أَنَّهُ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ بِاتِّفَاقِ الْحُفَّاظِ، لَا يَجُوزُ الِاحْتِجَاجُ بِهِ لَوْ لَمْ يُعَارِضْهُ شَيْءٌ، فَكَيْفَ وَهُوَ مُعَارَضٌ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ دَلَائِلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَقَاوِيلِ الصَّحَابَةِ – رضي الله عنهم – الْمُنْتَشِرَةِ؟

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى بْنُ سُلَيْمٍ الطَّائِفِيِّ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ.

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: يَحْيَى بْنُ سُلَيْمٍ الطَّائِفِيُّ كَثِيرُ الْوَهْمِ سَيِّئُ الْحِفْظِ، قَالَ: وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُهُ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ مَوْقُوفًا عَلَى جَابِرٍ قَالَ: وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: سَأَلْتُ الْبُخَارِيَّ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ بِمَحْفُوظٍ، وَيُرْوَى عَنْ جَابِرٍ خِلَافُهُ قَالَ: وَلَا أَعْرِفُ لِأَثَرِ ابْنِ أُمَيَّةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ شَيْئًا.

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا يَحْيَى بْنُ أَبِي أُنَيْسَةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ مَرْفُوعًا، وَيَحْيَى بْنُ أَبِي أُنَيْسَةَ مَتْرُوكٌ لَا يُحْتَجُّ بِهِ، قَالَ: وَرَوَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ ضَعِيفٌ لَا يُحْتَجُّ بِهِ، قَالَ: وَرَوَاهُ بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا، وَلَا يُحْتَجُّ بِمَا يَنْفَرِدُ بِهِ بَقِيَّةُ، فَكَيْفَ بِمَا يُخَالِفُ؟ قَالَ: وَقَوْلُ الْجَمَاعَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافِ قَوْلِ جَابِرٍ مَعَ مَا رَوَيْنَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي الْبَحْرِ: ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))، اهـ.

وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي (السُّنَنِ الْكُبْرَى) فِي بَابِ (مَنْ كَرِهَ أَكْلَ الطَّافِي) مَا نَصُّهُ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ، أَنْبَأَنَا عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ فَيْرُوزَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْحَسَّانِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ – رضي الله عنه – أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (مَا ضَرَبَ بِهِ الْبَحْرُ، أَوْ جَزَرَ عَنْهُ، أَوْ صِيدَ فِيهِ فَكُلْ، وَمَا مَاتَ فِيهِ، ثُمَّ طَفَا فَلَا تَأْكُلْ)، وَبِمَعْنَاهُ رَوَاهُ أَبُو أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيُّ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَزُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، وَغَيْرُهُمْ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ مَوْقُوفًا، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ الْعَدَنِيُّ، وَأَبُو عَاصِمٍ، وَمُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، وَغَيْرُهُمْ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ مَوْقُوفًا، وَخَالَفَهُمْ أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ فَرَوَاهُ عَنِ الثَّوْرِيِّ مَرْفُوعًا وَهُوَ وَاهِمٌ فِيهِ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ عَبْدَانَ، أَنْبَأَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ اللَّخْمِيُّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِسْحَاقَ الْأَصْبَهَانِيُّ، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ

الزُّبَيْرِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِذَا طَفَا السَّمَكُ عَلَى الْمَاءِ فَلَا تَأْكُلْهُ، وَإِذَا جَزَرَ عَنْهُ الْبَحْرُ فَكُلْهُ، وَمَا كَانَ عَلَى حَافَّتِهِ فَكُلْهُ)). قَالَ سُلَيْمَانُ: لَمْ يَرْفَعْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سُفْيَانَ إِلَّا أَبُو حَامِدٍ، ثُمَّ ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ حَدِيثَ أَبِي دَاوُدَ الَّذِي قَدَّمْنَا، وَالْكَلَامُ الَّذِي نَقَلْنَاهُ عَنِ النَّوَوِيِّ.

قال مُقَيِّدُهُ – عَفَا اللَّهُ عَنْهُ – فَتَحَصَّلَ: أَنَّ حَدِيثَ جَابِرٍ فِي النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ السَّمَكِ الطَّافِي ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى تَضْعِيفِهِ وَعَدَمِ الِاحْتِجَاجِ بِهِ. وَحَكَى النَّوَوِيُّ اتِّفَاقَ الْحُفَّاظِ عَلَى ضَعْفِهِ كَمَا قَدَّمْنَا عَنْهُ، وَحَكَمُوا بِأَنَّ وَقْفَهُ عَلَى جَابِرٍ أَثْبَتُ. وَإِذَنْ فَهُوَ قَوْلُ صَحَابِيٍّ مُعَارَضٌ بِأَقْوَالِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رضي الله عنه – وَبِالْآيَةِ وَالْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ. وَقَدْ يَظْهَرُ لِلنَّاظِرِ أَنَّ صِنَاعَةَ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَالْأُصُولِ لَا تَقْتَضِي الْحُكْمَ بَرَدِّ حَدِيثِ جَابِرٍ الْمَذْكُورِ؛ لِأَنَّ رَفْعَهُ جَاءَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَبَعْضِهَا صَحِيحٌ، فَرِوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ لَهُ مَرْفُوعًا الَّتِي قَدَّمْنَا ضَعَّفُوهَا بِأَنَّ فِي إِسْنَادِهَا يَحْيَى بْنَ سُلَيْمٍ الطَّائِفِيَّ، وَأَنَّهُ سَيِّئُ الْحِفْظِ.

وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُهُ مَرْفُوعًا مَعَ أَنَّ يَحْيَى بْنَ سُلَيْمٍ الْمَذْكُورَ مِنْ رِجَالِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ فِي (صَحِيحَيْهِمَا)، وَرِوَايَةُ أَبِي أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيِّ لَهُ عَنِ الثَّوْرِيِّ مَرْفُوعًا عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ وَالدَّارْ قُطْنِيِّ، ضَعَّفُوهَا بِأَنَّهُ وَاهِمٌ فِيهَا، قَالُوا: خَالَفَهُ فِيهَا وَكِيعٌ وَغَيْرُهُ، فَرَوَوْهُ عَنِ الثَّوْرِيِّ مَوْقُوفًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَبَا أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيَّ الْمَذْكُورَ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ دِرْهَمٍ الْأَسْدِيُّ ثِقَةٌ ثَبَتٌ، وَإِنْ قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي (التَّقْرِيبِ): إِنَّهُ قَدْ يُخْطِئُ فِي حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ فَهَاتَانِ الرِّوَايَتَانِ بِرَفْعِهِ تُعَضِّدَانِ بِرِوَايَةِ بَقِيَّةَ بْنِ الْوَلِيدِ لَهُ مَرْفُوعًا عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ وَغَيْرِهِ، وَبَقِيَّةُ الْمَذْكُورُ مِنْ رِجَالِ مُسْلِمٍ فِي (صَحِيحِهِ) وَإِنْ تَكَلَّمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَيَعْتَضِدُ ذَلِكَ أَيْضًا بِرِوَايَةِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ لَهُ، عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا.

وَرِوَايَةُ يَحْيَى بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ لَهُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا، وَإِنْ كَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَيَحْيَى بْنُ أَبِي أُنَيْسَةَ الْمَذْكُورَانِ ضَعِيفَيْنِ؛ لِاعْتِضَادِ رِوَايَتِهِمَا بِرِوَايَةِ الثِّقَةِ، وَيَعْتَضِدُ ذَلِكَ أَيْضًا بِرِوَايَةِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ لَهُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْكَمَ عَلَى حَدِيثِ جَابِرٍ الْمَذْكُورِ بِأَنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ؛ لِمَا رَأَيْتَ مِنْ طُرُقِ الرَّفْعِ الَّتِي رُوِيَ بِهَا وَبَعْضِهَا صَحِيحٌ، كَرِوَايَةِ أَبِي أَحْمَدَ الْمَذْكُورَةِ، وَالرَّفْعُ زِيَادَةٌ، وَزِيَادَةُ الْعَدْلِ مَقْبُولَةٌ.

قَالَ فِي (مَرَاقِي السُّعُودِ): [الرَّجَزُ]

وَالرَّفْعُ وَالْوَصْلُ وَزِيدَ اللَّفْظُ ... مَقْبُولَةٌ عِنْدَ إِمَامِ الْحِفْظِ

إِلَخْ. . نَعَمْ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: هُوَ مُعَارَضٌ بِمَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ؛ لِأَنَّ عُمُومَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ}، وَقَوْلِهِ ﷺ فِي الْبَحْرِ: ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))، أَقْوَى مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ هَذَا، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ اعْتِضَادُهُ بِالْقِيَاسِ؛ لِأَنَّهُ لَا

فَرْقَ فِي الْقِيَاسِ بَيْنَ الطَّافِي وَغَيْرِهِ. وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ لَا يَتَعَارَضُ عَامٌّ وَخَاصٌّ، وَحَدِيثُ جَابِرٍ فِي خُصُوصِ الطَّافِي فَهُوَ مُخَصِّصٌ لِعُمُومِ أَدِلَّةِ الْإِبَاحَةِ.

فَالدَّلِيلُ عَلَى كَرَاهَةِ أَكْلِ السَّمَكِ الطَّافِي لَا يَخْلُو مِنْ بَعْضِ قُوَّةٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَالْمُرَادُ بِالسَّمَكِ الطَّافِي هُوَ الَّذِي يَمُوتُ فِي الْبَحْرِ، فَيَطْفُو عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَكُلُّ مَا عَلَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَلَمْ يَرْسُبْ فِيهِ تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ طَافِيًا. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: [الْوَافِرُ]

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ

وَيُحْكَى فِي نَوَادِرِ الْمَجَانِينِ أَنَّ مَجْنُونًا مَرَّ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي رَاسِبٍ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي طُفَاوَةَ يَخْتَصِمُونَ فِي غُلَامٍ، فَقَالَ لَهُمُ الْمَجْنُونُ: أَلْقُوا الْغُلَامَ فِي الْبَحْرِ فَإِنْ رَسَبَ فِيهِ فَهُوَ مِنْ بَنِي رَاسِبٍ، وَإِنْ طَفَا عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ مِنْ بَنِي طُفَاوَةَ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي (صَحِيحِهِ) بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ}[٥ \ ٩٦]. قَالَ عُمَرُ: صَيْدُهُ مَا اصْطِيدَ، وَطَعَامُهُ مَا رَمَى بِهِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الطَّافِي حَلَالٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: طَعَامُهُ مَيْتَتُهُ إِلَّا مَا قَذِرْتَ مِنْهَا، وَالْجِرِّيُّ لَا تَأْكُلُهُ الْيَهُودُ وَنَحْنُ نَأْكُلُهُ.

وَقَالَ شُرَيْحٌ صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْبَحْرِ مَذْبُوحٌ، وَقَالَ عَطَاءٌ: أَمَّا الطَّيْرُ فَأَرَى أَنْ نَذْبَحَهُ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: صَيْدُ الْأَنْهَارِ وَقِلَاتُ السَّيْلِ أَصَيْدُ بَحْرٍ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا: {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا}[٣٥ \ ١٢]، وَرَكِبَ الْحَسَنُ عَلَى سَرْجٍ مِنْ جُلُودِ كِلَابِ الْمَاءِ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: لَوْ أَنَّ أَهْلِي أَكَلُوا الضَّفَادِعَ لَأَطْعَمْتُهُمْ. وَلَمْ يَرَ الْحَسَنُ بِالسُّلَحْفَاةِ بَأْسًا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلْ مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ نَصْرَانِيٍّ أَوْ يَهُودِيٍّ أَوْ مَجُوسِيٍّ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يُعَلِّقُ بِصِيغَةِ الْجَزْمِ إِلَّا مَا كَانَ صَحِيحًا ثَابِتًا عِنْدَهُ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي (فَتْحِ الْبَارِي) فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْمُعَلَّقَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْبُخَارِيُّ مَا نَصُّهُ: قَوْلُهُ: قَالَ عُمَرُ – هُوَ ابْنُ الْخَطَّابِ – {صَيْدُهُ} مَا اصْطِيدَ، وَ{طَعَامُهُ} مَا رَمَى بِهِ. وَصَلَهُ الْمُصَنِّفُ فِي (التَّارِيخِ) وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ مِنْ طَرِيقِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا قَدِمْتُ الْبَحْرَيْنِ سَأَلَنِي أَهْلُهَا عَمَّا قَذَفَ الْبَحْرُ؟ فَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوهُ، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ فَذَكَرَ قِصَّةً قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ}[٥ \ ٩٦] فَصَيْدُهُ: مَا صِيدَ، وَطَعَامُهُ: مَا قَذَفَ بِهِ. قَوْلُهُ: وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ – هُوَ الصِّدِّيقُ –: الطَّافِي حَلَالٌ، وَصَلَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَالطَّحَاوِيُّ وَالدَّارَ قُطْنِيُّ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ قَالَ: السَّمَكَةُ الطَّافِيَةُ حَلَالٌ. زَادَ الطَّحَاوِيُّ: لِمَنْ أَرَادَ أَكْلَهُ، وَأَخْرَجَهُ الدَّارَ قُطْنِيُّ، وَكَذَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَالطَّبَرِيُّ مِنْهَا. وَفِي

بَعْضِهَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ أَكَلَ السَّمَكَ الطَّافِي عَلَى الْمَاءِ، وَلِلدَّار قُطْنِيِّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ اللَّهَ ذَبَحَ لَكُمْ مَا فِي الْبَحْرِ فَكُلُوهُ كُلَّهُ فَإِنَّهُ ذَكِيٌّ.

قَوْلُهُ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: طَعَامُهُ مَيْتَتُهُ إِلَّا مَا قَذِرْتَ مِنْهَا، وَصَلَهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَفْصٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ}، قَالَ طَعَامُهُ: مَيْتَتُهُ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَذَكَرَ صَيْدَ الْبَحْرِ: لَا تَأْكُلْ مِنْهُ طَافِيًا، فِي سَنَدِهِ الْأَجْلَحُ وَهُوَ لَيِّنٌ، وَيُوَهِّنُهُ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَاضِي قَبْلَهُ، قَوْلُهُ: وَالْجَرِّيُّ لَا تَأْكُلُهُ الْيَهُودُ وَنَحْنُ نَأْكُلُهُ، وَصَلَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزَرِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْجَرِّيِّ فَقَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ كَرِهَتْهُ الْيَهُودُ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ وَكِيعٍ، عَنِ الثَّوْرِيِّ بِهِ، وَقَالَ فِي رِوَايَتِهِ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ الْجَرِّيِّ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ ؛ إِنَّمَا تُحَرِّمُهُ الْيَهُودُ وَنَحْنُ نَأْكُلُهُ، وَهَذَا عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ. وَأَخْرَجَ عَنْ عَلِيٍّ وَطَائِفَةٍ نَحْوَهُ. وَالْجَرِّيُّ بِفَتْحِ الْجِيمِ قَالَ ابْنُ التِّينِ: وَفِي نُسْخَةٍ بِالْكَسْرِ، وَهُوَ ضَبْطُ الصِّحَاحِ، وَكَسْرُ الرَّاءِ الثَّقِيلَةِ قَالَ: وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: الْجِرِّيتُ وَهُوَ مَا لَا قِشْرَ لَهُ.

وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ: إِنَّمَا أَكْرَهُهُ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ مِنَ الْمَمْسُوخِ. وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الْجِرِّيتُ نَوْعٌ مِنَ السَّمَكِ يُشْبِهُ الْحَيَّاتِ. وَقِيلَ: سَمَكٌ لَا قِشْرَ لَهُ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: الْمَرْمَاهِيُّ، وَالسَّلُّورُ مِثْلُهُ. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: هُوَ ضَرْبٌ مِنَ السَّمَكِ يُشْبِهُ الْحَيَّاتِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: نَوْعٌ عَرِيضُ الْوَسَطِ، دَقِيقُ الطَّرَفَيْنِ.

قَوْلُهُ: وَقَالَ شُرَيْحٌ صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْبَحْرِ مَذْبُوحٌ، وَقَالَ عَطَاءٌ: أَمَّا الطَّيْرُ فَأَرَى أَنْ تَذْبَحَهُ، وَصَلَهُ الْمُصَنِّفُ فِي (التَّارِيخِ، وَابْنُ مَنْدَهْ فِي (الْمَعْرِفَةِ) مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، وَأَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُمَا سَمِعَا شُرَيْحًا صَاحِبَ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْبَحْرِ مَذْبُوحٌ. قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَطَاءٍ. فَقَالَ: أَمَّا الطَّيْرُ فَأَرَى أَنْ تَذْبَحَهُ، وَأَخْرَجَهُ الدَّارَ قُطْنِيُّ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي (الصَّحَابَةِ) مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ شُرَيْحٍ، وَالْمَوْقُوفُ أَصَحُّ.

وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي الْأَطْعِمَةِ مِنْ طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، سَمِعْتُ شَيْخًا كَبِيرًا يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا فِي الْبَحْرِ دَابَّةٌ إِلَّا قَدْ ذَبَحَهَا اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ، وَأَخْرَجَ الدَّارَ قُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسٍ رَفَعَهُ: ((أَنَّ اللَّهَ قَدْ ذَبَحَ كُلَّ مَا فِي الْبَحْرِ لِبَنِي آدَمَ(١))، وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ، وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَفَعَهُ نَحْوَهُ، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ أَيْضًا، وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بِسَنَدَيْنِ جَيِّدَيْنِ عَنْ عُمَرَ، ثُمَّ عَنْ عَلِيٍّ: الْحُوتُ ذَكِيٌّ كُلُّهُ، قَوْلُهُ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: صَيْدُ الْأَنْهَارِ وَقِلَاتُ السَّيْلِ أَصَيْدُ بَحْرٍ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا: {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا}[٣٥ \ ١٢]،

١- (قلت): قال الإمام الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٢١٣): ضعيف جداً، أخرجه الدار قطني (٥٣٨)، عن أبراهيم بن يزيد الخوزي عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن سرجس – وكان شيخاً قديماً – قال: (فذكره) مرفوعاً.

قلت: وهذا إسناد ضعيف جداً؛ الخوزي هذا متروك. والحديث بتمامه: ((إن الله قد ذبح كل نون في البحر لبني آدم)).

وَصَلَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي (التَّفْسِيرِ) عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ بِهَذَا سَوَاءٌ، وَأَخْرَجَهُ الْفَاكِهِيُّ فِي كِتَابِ (مَكَّةَ) مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَتَمَّ مِنْ هَذَا، وَفِيهِ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ حِيتَانِ بِرْكَةِ الْقُشَيْرِيِّ – وَهِيَ بِئْرٌ عَظِيمَةٌ فِي الْحَرَمِ – أَتُصَادُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَسَأَلْتُهُ عَنِ ابْنِ الْمَاءِ وَأَشْبَاهِهِ أَصَيْدُ بَحْرٍ أَمْ صَيْدُ بَرٍّ؟ فَقَالَ: حَيْثُ يَكُونُ أَكْثَرَ فَهُوَ صَيْدٌ.

وَقِلَاتٌ: بِكَسْرِ الْقَافِ وَتَخْفِيفِ اللَّامِ وَآخِرُهُ مُثَنَّاةٌ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْأَصِيلِيِّ مُثَلَّثَةٌ. وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ: جَمْعُ قَلْتٍ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ مِثْلَ: بَحْرٌ وَبِحَارٌ، وَهُوَ النَّقْرَةُ فِي الصَّخْرَةِ، يُسْتَنْقَعُ فِيهَا الْمَاءُ. قَوْلُهُ: وَرَكِبَ الْحَسَنُ عَلَى سَرْجٍ مِنْ جُلُودِ كِلَابِ الْمَاءِ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: لَوْ أَنَّ أَهْلِي أَكَلُوا الضَّفَادِعَ لَأَطْعَمْتُهُمْ، وَلَمْ يَرَ الْحَسَنُ بِالسُّلَحْفَاةِ بَأْسًا. أَمَّا قَوْلُ الْحَسَنِ الْأَوَّلِ فَقِيلَ إِنَّهُ ابْنُ عَلِيٍّ، وَقِيلَ: الْبَصْرِيُّ، وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي رِوَايَةٍ: وَرَكِبَ الْحَسَنُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَقَوْلِهِ: عَلَى سَرْجٍ مِنْ جُلُودٍ، أَيْ: مُتَّخَذٍ مِنْ جُلُودِ كِلَابِ الْمَاءِ.

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّعْبِيِّ: فَالضَّفَادِعُ جَمْعُ ضِفْدَعٍ، بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَفَتْحِ الدَّالِ وَبِكَسْرِهَا أَيْضًا، وَحُكِيَ ضَمُّ أَوَّلِهِ مَعَ فَتْحِ الدَّالِ، وَالضَّفَادِي بِغَيْرِ عَيْنٍ لُغَةٌ فِيهِ، قَالَ ابْنُ التِّينِ: لَمْ يُبَيِّنِ الشَّعْبِيُّ هَلْ تُذَكَّى أَمْ لَا؟

وَمَذْهَبُ مَالِكٍ أَنَّهَا تُؤْكَلُ بِغَيْرِ تَذْكِيَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَصَلَ بَيْنَ مَا مَأْوَاهُ الْمَاءُ وَغَيْرُهُ، وَعَنِ الْحَنَفِيَّةِ وَرِوَايَةٌ عَنِ الشَّافِعِيِّ: لَا بُدَّ مِنَ التَّذْكِيَةِ. قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: مَيْتَةُ الضَّفَادِعِ الْبَرِّيَّةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي نَجَاسَتِهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ}[٥ \ ٣] وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ حَيَوَانِ الْبَحْرِ؛ لِأَنَّهَا بَرِّيَّةٌ، كَمَا صَرَّحَ عَبْدُ الْحَقِّ بِأَنَّ مَيْتَتَهَا نَجِسَةٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ. نَقَلَهُ عَنْهُ الْحَطَّابُ وَالْمَوَّاقُ وَغَيْرُهُمَا فِي شَرْحِ قَوْلِ خَلِيلٍ: وَالْبَحْرِيُّ وَلَوْ طَالَتْ حَيَاتُهُ بِبَرٍّ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ مُتَّصِلًا بِالْكَلَامِ السَّابِقِ: وَأَمَّا قَوْلُ الْحَسَنِ فِي السُّلَحْفَاةِ فَوَصَلَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ طَاوُسَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى بِأَكْلِ السُّلَحْفَاةِ بَأْسًا، وَمِنْ طَرِيقِ مُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: لَا بَأْسَ بِأَكْلِهَا، وَالسُّلَحْفَاةُ بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ اللَّامِ وَسُكُونِ الْمُهْمَلَةِ بَعْدَهَا فَاءٌ ثُمَّ أَلِفٌ ثُمَّ هَاءٌ، وَيَجُوزُ بَدَلُ الْهَاءِ هَمْزَةً حَكَاهُ ابْنُ سِيدَهْ، وَهِيَ رِوَايَةُ عَبْدُوسٍ. وَحُكِيَ أَيْضًا فِي الْمُحْكَمِ: بِسُكُونِ اللَّامِ وَفَتْحِ الْحَاءِ. وَحُكِيَ أَيْضًا: سُلَحْفِيَةٌ كَالْأَوَّلِ لَكِنْ بِكَسْرِ الْفَاءِ بَعْدَهَا تَحْتَانِيَّةٌ مَفْتُوحَةٌ.

قَوْلُهُ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلْ مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ نَصْرَانِيٌّ أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ مَجُوسِيٌّ.

قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: كَذَا فِي النُّسَخِ الْقَدِيمَةِ وَفِي بَعْضِهَا (مَا صَادَهُ) قَبْلَ لَفْظِ (نَصْرَانِيٌّ). قُلْتُ: وَهَذَا التَّعْلِيقُ وَصَلَهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ: كُلْ مَا أَلْقَى الْبَحْرُ وَمَا صِيدَ مِنْهُ؛ صَادَهُ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ أَوْ مَجُوسِيٌّ.

قَالَ ابْنُ التِّينِ: مَفْهُومُهُ أَنَّ صَيْدَ الْبَحْرِ لَا يُؤْكَلُ إِنْ صَادَهُ غَيْرُ هَؤُلَاءِ وَهُوَ كَذَلِكَ عِنْدَ قَوْمٍ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَطَاءٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَبِسَنَدٍ آخَرَ عَنْ عَلِيٍّ كَرَاهِيَةَ صَيْدِ الْمَجُوسِيِّ السَّمَكَ. انْتَهَى مِنْ (فَتْحِ الْبَارِي) بِلَفْظِهِ.

وَقَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ: فِي الْمُرْيِ ذَبَحَ الْخَمْرَ النِّينَانُ وَالشَّمْسُ فِي لَفْظِهِ أَنَّ ذَبَحَ فِعْلٌ مَاضٍ، وَالْخَمْرَ مَفْعُولٌ بِهِ، وَالنِّينَانُ فَاعِلُ ذَبَحَ، وَالشَّمْسُ بِالرَّفْعِ مَعْطُوفٌ عَلَى الْفَاعِلِ الَّذِي هُوَ النِّينَانُ، وَهِيَ جَمْعُ نُونٍ وَهُوَ: الْحُوتُ وَالْمُرْيُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَسُكُونِ الرَّاءِ بَعْدَهَا تَحْتَانِيَّةٌ عَلَى الصَّحِيحِ، خِلَافًا لِصَاحِبِ (الصِّحَاحِ) وَ(النِّهَايَةِ) فَقَدْ ضَبَطَاهُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَكَسْرِ الرَّاءِ الْمُشَدَّدَةِ نِسْبَةً إِلَى الْمُرِّ وَهُوَ الطَّعْمُ الْمَشْهُورُ، وَالْمُرْيُ الْمَذْكُورُ طَعَامٌ كَانَ يُعْمَلُ بِالشَّامِ، يُؤْخَذُ الْخَمْرُ فَيُجْعَلُ فِيهِ الْمِلْحُ وَالسَّمَكُ، وَيُوضَعُ فِي الشَّمْسِ فَيَتَغَيَّرُ عَنْ طَعْمِ الْخَمْرِ وَيَصِيرُ خَلًّا، وَتَغْيِيرُ الْحُوتِ وَالْمِلْحِ وَالشَّمْسِ لَهُ عَنْ طَعْمِ الْخَمْرِ إِزَالَةُ الْإِسْكَارِ عَنْهُ، هُوَ مُرَادُ أَبِي الدَّرْدَاءِ بِذَبْحِ الْحِيتَانِ وَالشَّمْسِ لَهُ، فَاسْتَعَارَ الذَّبْحَ لِإِذْهَابِ الشِّدَّةِ الْمُطْرِبَةِ الَّتِي بِهَا الْإِسْكَارُ، وَأَثَرُ أَبِي الدَّرْدَاءِ هَذَا وَصَلَهُ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ لَهُ، مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزَّاهِرِيَّةِ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَذَكَرَهُ سَوَاءً. وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ – رضي الله عنه – يَرَى إِبَاحَةَ تَخْلِيلِ الْخَمْرِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَرَوْنَ مَنْعَ تَخْلِيلِهَا، فَإِنْ تَخَلَّلَتْ بِنَفْسِهَا مِنْ غَيْرِ تَسَبُّبٍ لَهَا فِي ذَلِكَ فَهِيَ حَلَالٌ إِجْمَاعًا، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ: وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَجَمَاعَةٌ يَأْكُلُونَ هَذَا الْمُرْيَ الْمَعْمُولَ بِالْخَمْرِ. وَأَدْخَلَهُ الْبُخَارِيُّ فِي طَهَارَةِ صَيْدِ الْبَحْرِ، يُرِيدُ أَنَّ السَّمَكَ طَاهِرٌ حَلَالٌ، وَأَنَّ طَهَارَتَهُ وَحِلَّهُ يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ كَالْمِلْحِ حَتَّى يَصِيرَ الْحَرَامُ النَّجِسُ بِإِضَافَتِهَا إِلَيْهِ طَاهِرًا حَلَالًا، وَهَذَا رَأْيُ مَنْ يُجَوِّزُ تَخْلِيلَ الْخَمْرِ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَجَمَاعَةٍ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: وَالظَّاهِرُ مَنْعُ أَكْلِ الضَّفَادِعِ مُطْلَقًا؛ لِثُبُوتِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ قَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ: ((أَنَّ طَبِيبًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ضِفْدَعٍ يَجْعَلُهَا فِي دَوَاءٍ فَنَهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِهَا([1]))).

وَقَالَ النَّسَائِيُّ فِي (سُنَنِهِ): أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي فُدَيْكٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ، ((أَنَّ طَبِيبًا ذَكَرَ ضِفْدَعًا فِي دَوَاءٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِهِ([2]))).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي (شَرْحِ الْمُهَذَّبِ): وَأَمَّا حَدِيثُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الضِّفْدَعِ فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَالنَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّيْمِيِّ الصَّحَابِيِّ وَهُوَ ابْنُ أَخِي طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَأَلَ طَبِيبٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ضِفْدَعٍ يَجْعَلُهَا فِي دَوَاءٍ فَنَهَاهُ عَنْ قَتْلِهَا، وَسَيَأْتِي لِتَحْرِيمِ أَكْلِ الضِّفْدَعِ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي [سُورَةِ الْأَنْعَامِ] فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ الْآيَةَ [٦ \ ١٤٥].

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٤٥٤٥).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح النسائي (٤٣٥٥).

وَمَا ذَكَرْنَا مِنْ تَحْرِيمِ الضِّفْدَعِ مُطْلَقًا قَالَ بِهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَجَمَاعَةٌ، وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَنَقَلَ الْعَبْدَرِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم : أَنَّ جَمِيعَ مَيْتَاتِ الْبَحْرِ كُلَّهَا حَلَالٌ إِلَّا الضِّفْدَعَ، قَالَهُ النَّوَوِيُّ.

وَنُقِلَ عَنْ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التِّمْسَاحَ لَا يُؤْكَلُ، وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: لَا بَأْسَ بِهِ لِمَنِ اشْتَهَاهُ.

وَقَالَ ابْنُ حَامِدٍ: لَا يُؤْكَلُ التِّمْسَاحُ وَلَا الْكَوْسَجُ ؛ لِأَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ النَّاسَ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّهُ قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ سِبَاعَ الْبَحْرِ كَمَا يَكْرَهُونَ سِبَاعَ الْبَرِّ، وَذَلِكَ لِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ.

وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال ابن العثيمين: {والدم}: يعني وحرَّم عليكم الدم؛ و{الدم} معروف؛ والمراد به هنا الدم المسفوح دون الذي يبقى في اللحم والعروق، ودم الكبد والقلب؛ لقوله تعالى: {قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس}[الأنعام: ١٤٥].

وقال القاسمي في تفسيره([1]): وقال الإمام ابن تيمية: حرّم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية، وزيادته توجب طغيان هذه القوى، وهو مجرى الشيطان من البدن، كما قال النبي ﷺ: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم([2]))).

قال ابن العثيمين: {ولحم الخنزير}: أي: وحرم عليكم لحم الخنزير؛ و{الخنزير}: حيوان معروف قذر؛ قيل: إنه يأكل العذرات.

قال القرطبي: خص اللّه تعالى ذكر اللحم من الخنزير ليدلّ على تحريم عينه ذكي أو لم يذك، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف([3])وغيرها. وأجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير. وقد استدلَّ مالك وأصحابه على أن من حلف ألّا يأكل شحمًا فأكلَ لحمًا لم يحنث بأكل اللحم. فإن حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحمًا حنث لأن اللحم مع الشحم يقع عليه اسم اللحم، فقد دخل الشحم في اسم اللحم ولا يدخل اللحم في اسم الشحم. وقد حرَم اللّه تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه، لأنه دخل تحت اسم اللحم. وحرَّم اللّه تعالى على بني إسرائيل الشحوم بقوله: {حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا}[الأنعام : ١٤٦]، فلم يقع بهذا عليهم تحريم اللحم ولم يدخل في اسم الشحم، فلهذا فرَّق مالك بين الحالف في الشحم والحالف في اللحم، إلا أن يكون للحالف نية في اللحم دون الشحم فلا يحنث واللّه تعالى أعلم. ولا يحنث في قول الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي إذا حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحمًا. وقال أحمد: إذا حلف ألا يأكل

١- من تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية لإياد بن عبداللّطيف بن ابراهيم القيسي.

٢- البخاري (١٠٦٣).

٣- الغضروف والغرضوف: كل عظم ليِّن رَخص في أي موضع كان.

لحمًا فأكل الشحم لا بأس به إلا أن يكون أراد اجتناب الدسم. ولا خلاف أن جملة الخنزير محرَّمة إلا الشعر فإنه يجوز الخرازة به.

ولا خلاف في تحريم خنزير البَر كما ذكرنا، وفي خنزير الماء خلاف. وأبى مالك أن يجيب فيه بشيء، وقال: أنتم تقولون خنزيرًا وقد تقدَّم، وسيأتي بيانه في [المائدة] إن شاء اللّه تعالى.

وذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية. وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العين، لأنه كذلك ينظر، واللفظة على هذا ثلاثية. وفي الصحاح: وتخازر الرجل إذا ضيق جفنه ليحدد النظر. والخزر: ضيق العين وصغرها. رجل أخزر بين الخزر. ويقال: هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمؤخرها. وجمع الخنزير خنازير. والخنازير أيضًا علَّة معروفة، وهي قروح صلبة تحدث في الرقبة.

قال ابن العثيمين: {وما أهل به لغير الله} يعني وحرَّم عليكم ما أهل به لغير الله؛ و(الإهلال) هو رفع الصوت؛ ومنه الحديث: ((إذا استهل المولود ورث[١]))؛ والمراد به هنا ما ذكر عليه اسم غير الله عند ذبحه مثل أن يقول: (باسم المسيح)، أو(باسم محمد)، أو (باسم جبريل)، نحو ذلك.

قال القرطبي: أي ذكر عليه غير اسم اللّه تعالى، وهي ذبيحة المجوسي والوثني والمعطِّل. فالوثني يذبح للوثن، والمجوسي للنار، والمعطِّل لا يعتقد شيئًا فيذبح لنفسه. ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسي لناره والوثني لوثنه لا يؤكل، ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعي وغيرهما وإن لم يذبحا لناره ووثنه، وأجازهما ابن المسيب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء اللّه تعالى في [سورة المائدة]. والإهلال: رفع الصوت، يقال: أهلَّ بكذا، أي رفع صوته. قال ابن أحمر يصف فلاة: يهل بالفرقد ركبانها ... كما يهل الراكب المعتمر

وقال النابغة : أو درة صدفية غواصها ... بهيج متى يرها يهل ويسجد

ومنه إهلال الصبي واستهلاله، وهو صياحه عند ولادته.

قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة ج١ص٥٢٧: فَحصَرَ التَّحْرِيمَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ فِي كُلِّ مِلَّةٍ، لَا تُبَاحُ بِحَالٍ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَبَدَأَ بِالْأَخَفِّ تَحْرِيمًا ثُمَّ بِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، فَإِنَّ تَحْرِيمَ الْمَيْتَةِ دُونَ تَحْرِيمِ الدَّمِ، فَإِنَّهُ أَخْبَثُ مِنْهَا، وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ أَخْبَثُ مِنْهَا، وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ أَخْبَثُ الْأَرْبَعَةِ.

١- أخرجه أبو داود ص١٤٤١، كتاب الفرائض، باب ١٨: في المولود يستهل ثم يموت، حديث رقم ٢٩٢٠، وأخرجه بطريق آخر ابن ماجة ص٢٦٤٢، كتاب الفرائض، باب ١٧: إذا استهل المولود ورث، حديث رقم ٢٧٥١؛ وقال الألباني في الإرواء: سنده صحيح (١٤٩/٦)؛ فالحديث صحيح بشواهده [راجع الإرواء ١٤٧/٦ – ١٥٠، حديث رقم ١٢٠٧ والسلسلة الصحيحة للألباني ٢٣٣/١ – ٢٣٥، أحاديث رقم ١٥١، ١٥٢، ١٥٣].

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[الأعراف: ٣٣]، فَبَدَأَ بِالْأَسْهَلِ تَحْرِيمًا ثُمَّ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ إِلَى أَنْ خَتَمَ بِأَغْلَظِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهُوَ (الْقَوْلُ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ)، فَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ؛ وَأَنَّ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ تَأْتِيَ شَرِيعَةٌ بِإِبَاحَتِهِ أَصْلًا، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ؛ وَأَنَّ تَحْرِيمَهُ مِنْ بَابِ تَحْرِيمِ الشِّرْكِ، وَتَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ مِنْ بَابِ تَحْرِيمِ الْخَبَائِثِ وَالْمَعَاصِي.

قال ابن العثيمين: {فمن اضطر}: فيها قراءتان: بكسر النون؛ وضمها؛ فأما الكسر فعلى القاعدة من أنه إذا التقى ساكنان كسر الأول منهما؛ وأما الضم فمن أجل الإتباع لضمة الطاء؛ و {من} هنا شرطية؛ و{اضطر} فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله؛ أي ألجأته الضرورة للأكل؛ والضرورة فوق الحاجة؛ فالحاجة كمال؛ والضرورة ضرورية يكون الضرر منها.

{غير باغ ولا عاد}: بنصب {غير} على الحال من نائب الفاعل في {اضطر}؛ و(الباغي) الطالب لأكل الميتة من غير ضرورة؛ و(العادي) المتجاوز لقدر الضرورة؛ هذا هو الراجح في تفسيرهما؛ ويؤيده قوله تعالى: {فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم}[المائدة: ٣]؛ والله سبحانه وتعالى أباح لنا الميتة بثلاثة شروط:

١ – الضرورة.

٢– أن لا يكون مبتغيًا – أي طالبًا لها –.

٣– أن لا يكون متجاوزًا للحد الذي تندفع به الضرورة.

وبناء على هذا ليس له أن يأكل حتى يشبع إلا إذا كان يغلب على ظنه أنه لا يجد سواها عن قرب؛ وهذا هو الصحيح؛ ولو قيل: بأنه في هذه الحال يأكل ما يسد رمقه، ويأخذ شيئًا منها يحمله معه ـ إن اضطر إليه أكل، وإلا تركه ـ لكان قولًا جيِّدًا.

{فلا إثم عليه}: هذا جواب {من}؛ وقرن بالفاء؛ لأن الجملة اسمية؛ وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب قرنها بالفاء؛ وقوله تعالى: {فلا إثم عليه}: أي فلا عقوبة عليه، أو فلا جناح.

قال الشنقيطي: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا سَبَبَ اضْطِرَارِهِ، وَلَمْ يُبَيِّنِ الْمُرَادَ بِالْبَاغِي وَالْعَادِي، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ سَبَبَ الِاضْطِرَارِ الْمَذْكُورَ الْمَخْمَصَةُ، وَهِيَ الْجُوعُ وَهُوَ قَوْلُهُ: {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ}[٥ \ ٣] وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَاغِي وَالْعَادِي الْمُتَجَانِفُ لِلْإِثْمِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ}. وَالْمُتَجَانِفُ: الْمَائِلُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْشَى: [الطَّوِيلِ]: تَجَانَفُ عَنْ حَجَرِ الْيَمَامَةِ نَاقَتِي ... وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لِسِوَائِكَا

فَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْبَاغِيَ وَالْعَادِيَ كِلَاهُمَا مُتَجَانِفٌ لِإِثْمٍ، وَهَذَا غَايَةُ مَا يُفْهَمُ مِنْهَا.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْإِثْمُ الَّذِي تَجَانَفَ إِلَيْهِ الْبَاغِي: هُوَ الْخُرُوجُ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ اسْمُ الْبَغْيِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْإِمَامِ، وَالْإِثْمُ الَّذِي تَجَانَفَ إِلَيْهِ الْعَادِي: هُوَ إِخَافَةُ الطَّرِيقِ وَقَطْعُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ كُلُّ سَفَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ. اهـ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِثْمُ الْبَاغِي وَالْعَادِي أَكْلُهُمَا الْمُحَرَّمَ مَعَ وُجُودِ غَيْرِهِ، وَعَلَيْهِ فَهُوَ كَالتَّأْكِيدِ لِقَوْلِهِ: {فَمَنِ اضْطُرَّ}[٢ \ ١٧٣]، وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ لَا يَجُوزُ لِقَاطِعِ الطَّرِيقِ وَالْخَارِجِ عَلَى الْإِمَامِ الْأَكْلُ مِنَ الْمَيْتَةِ، وَإِنْ خَافَا الْهَلَاكَ مَا لَمْ يَتُوبَا، وَعَلَى الثَّانِي يَجُوزُ لَهُمَا لِقَاطِعِ الطَّرِيقِ وَالْخَارِجِ عَلَى الْإِمَامِ الْأَكْلُ مِنَ الْمَيْتَةِ، وَإِنْ خَافَا الْهَلَاكَ مَا لَمْ يَتُوبَا، وَعَلَى الثَّانِي يَجُوزُ لَهُمَا أَكْلُ الْمَيْتَةِ إِنْ خَافَا الْهَلَاكَ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبَا.

وَنَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ قَتَادَةَ وَالْحَسَنِ وَالرَّبِيعِ وَابْنِ زَيْدٍ وَعِكْرِمَةَ أَنَّ الْمَعْنَى {غَيْرَ بَاغٍ}: أَيْ: فِي أَكْلِهِ فَوْقَ حَاجَتِهِ {وَلَا عَادٍ}، بِأَنْ يَجِدَ عَنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ مَنْدُوحَةً وَيَأْكُلُهَا.

وَنَقَلَ أَيْضًا عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ الْمَعْنَى {غَيْرَ بَاغٍ} فِي أَكْلِهَا شَهْوَةً وَتَلَذُّذًا، {وَلَا عَادٍ} بِاسْتِيفَاءِ الْأَكْلِ إِلَى حَدِّ الشِّبَعِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ أَيْضًا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا: الْمَعْنَى {غَيْرَ بَاغٍ} عَلَى الْمُسْلِمِينَ، {وَلَا عَادٍ} عَلَيْهِمْ، فَيَدْخُلُ فِي الْبَاغِي وَالْعَادِي قُطَّاعُ الطَّرِيقِ، وَالْخَارِجُ عَلَى السُّلْطَانِ، وَالْمُسَافِرُ فِي قَطْعِ الرَّحِمِ، وَالْغَارَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَمَا شَاكَلَهُ، وَهَذَا صَحِيحٌ؛ فَإِنَّ أَصْلَ الْبَغْيِ فِي اللُّغَةِ قَصْدُ الْفَسَادِ، يُقَالُ: بَغَتِ الْمَرْأَةُ تَبْغِي بِغَاءً إِذَا فَجَرَتْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ}[٢٤ \ ٣٣]، وَرُبَّمَا اسْتُعْمِلَ الْبَغْيُ فِي طَلَبِ غَيْرِ الْفَسَادِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: خَرَجَ الرَّجُلُ فِي بِغَاءِ إِبِلٍ لَهُ؛ أَيْ: فِي طَلَبِهَا، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [مُرَفَّلِ الْكَامِلِ]

لَا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ بِغَا ... ءِ الْخَيْرِ تَعْقَادُ الرَّتَائِمْ
إِنَّ الْأَشَائِمَ كَالْأَيَا ... مِنِ وَالْأَيَامِنَ كَالْأَشَائِمْ

وَذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاضْطِرَارِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْإِكْرَاهُ عَلَى أَكْلِ الْمُحَرَّمِ، كَالرَّجُلِ يَأْخُذُهُ الْعَدُوُّ، فَيُكْرِهُونَهُ عَلَى لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَكَرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَخْمَصَةُ الَّتِي هِيَ الْجُوعُ كَمَا ذَكَرْنَا.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ آيَةَ {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ}[٥ \ ٣]، مُبَيِّنَةٌ لِذَلِكَ، وَحُكْمُ الْإِكْرَاهِ عَلَى أَكْلِ مَا ذُكِرَ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}[١٦ \ ١٠٦] بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، وَحَدِيثِ: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ(١))).

١- (قلت): قال الإمام الألباني في المشكاة (٦٢٩٣): (صَحِيح لطرقه)، والحديث بتمامه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ)). رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالْبَيْهَقِيّ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٤ص١١٠: وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ إلَى أَنَّ الْبَاغِيَ: هُوَ الْبَاغِي عَلَى الْإِمَامِ الَّذِي يَجُوزُ قِتَالُهُ. وَالْعَادِيَ: هُوَ الْعَادِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الْمُحَارِبُونَ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ. قَالُوا فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْمَيْتَةَ لَا تَحِلُّ لَهُمْ فَسَائِرُ الرُّخَصِ أَوْلَى، وَقَالُوا: إذَا اُضْطُرَّ الْعَاصِي بِسَفَرِهِ أَمَرْنَاهُ أَنْ يَتُوبَ وَيَأْكُلَ، وَلَا نُبِيحُ لَهُ إتْلَافَ نَفْسِهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْرُوفٌ عَنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد. وَأَمَّا أَحْمَد وَمَالِكٌ: فَجَوَّزَا لَهُ أَكْلَ الْمَيْتَةِ دُونَ الْقَصْرِ وَالْفِطْرِ. قَالُوا: وَلِأَنَّ السَّفَرَ الْمُحَرَّمَ مَعْصِيَةٌ، وَالرُّخَصُ لِلْمُسَافِرِ إعَانَةٌ عَلَى ذَلِكَ فَلَا تَجُوزُ الْإِعَانَةُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَهَذِهِ حُجَجٌ ضَعِيفَةٌ. أَمَّا الْآيَةُ فَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: الْمُرَادُ بِالْبَاغِي الَّذِي يَبْغِي الْمُحَرَّمَ مِنْ الطَّعَامِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْحَلَالِ، وَالْعَادِي الَّذِي يَتَعَدَّى الْقَدْرَ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ. وَهَذَا التَّفْسِيرُ هُوَ الصَّوَابُ دُونَ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ: الْأَنْعَامِ، وَالنَّحْلِ، وَفِي الْمَدَنِيَّةِ؛ لِيُبَيِّنَ مَا يَحِلُّ وَمَا يُحَرَّمُ مِنْ الْأَكْلِ، وَالضَّرُورَةُ لَا تَخْتَصُّ بِسَفَرِ، وَلَوْ كَانَتْ فِي سَفَرٍ، فَلَيْسَ السَّفَرُ الْمُحَرَّمُ مُخْتَصًّا بِقَطْعِ الطَّرِيقِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الْإِمَامِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إمَامٌ يَخْرُجُ عَلَيْهِ، وَلَا مِنْ شَرْطِ الْخَارِجِ أَنْ يَكُونَ مُسَافِرًا، وَالْبُغَاةُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِقِتَالِهِمْ فِي الْقُرْآنِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُسَافِرِينَ، وَلَا كَانَ الَّذِينَ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِمْ أَوَّلًا مُسَافِرِينَ، بَلْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْعَوَالِي مُقِيمِينَ وَاقْتَتَلُوا بِالنِّعَالِ وَالْجَرِيدِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تُفَسَّرَ الْآيَةُ بِمَا لَا يَخْتَصُّ بِالسَّفَرِ، وَلَيْس فِيهَا كُلُّ سَفَرٍ مُحَرَّمٍ؟ فَالْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ لَوْ كَانَ كَمَا قِيلَ، لَمْ يَكُنْ مُطَابِقًا لِلسَّفَرِ الْمُحَرَّمِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ بِلَا سَفَرٍ، وَقَدْ يَكُونُ السَّفَرُ الْمُحَرَّمُ بِدُونِه.

وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ {غَيْرَ بَاغٍ}، حَالٌ مِنْ {اضْطُرَّ}. فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَال اضْطِرَارِهِ وَأَكْلِهِ الَّذِي يَأْكُلُ فِيهِ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ، فَإِنَّهُ قَالَ: {فَلَا إثْمَ عَلَيْهِ}. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِثْمَ إنَّمَا يُنْفَى عَنْ الْأَكْلِ الَّذِي هُوَ الْفِعْلُ، لَا عَنْ نَفْسِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ. فَمَعْنَى الْآيَةِ: فَمَنْ اُضْطُرَّ فَأَكَلَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ. وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّهُ لَا يَبْغِي فِي أَكْلِهِ وَلَا يَتَعَدَّى. وَاَللَّهُ – تَعَالَى – يَقْرِنُ بَيْنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ. فَالْبَغْيُ مَا جِنْسُهُ ظُلْمٌ، وَالْعُدْوَانُ مُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ الْمُبَاحِ، كَمَا قَرَنَ بَيْنَ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فِي قَوْلِهِ: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[المائدة: ٢]. فَالْإِثْمُ جِنْسُ الشَّرِّ. وَالْعُدْوَانُ: مُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ الْمُبَاحِ. فَالْبَغْيُ مِنْ جِنْسِ الْإِثْمِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}[الشورى: ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إثْمَ عَلَيْهِ}[البقرة: ١٨٢]. فَالْإِثْمُ جِنْسٌ لِظُلْمِ الْوَرَثَةِ إذَا كَانَ مَعَ الْعَمْدِ، وَأَمَّا الْجَنَفُ فَهُوَ الْجَنَفُ عَلَيْهِمْ بِعَمْدِ وَبِغَيْرِ عَمْدٍ، لَكِنْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: الْجَنَفُ: الْخَطَأُ، وَالْإِثْمُ: الْعَمْدُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا خَصَّ الْإِثْمَ بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْعَمْدُ بَقِيَ الدَّاخِلُ فِي الْجَنَفِ الْخَطَأُ، وَلَفْظُ الْعُدْوَانِ مِنْ بَابِ تَعَدِّي الْحُدُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فلا تعتدوها}[البقرة: ٢٢٩]. {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[الطلاق: ١]، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا قَوْلُهُ: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}[آل عمران: ١٤٧]، وَالْإِسْرَافُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ الْمُبَاحِ، وَأَمَّا الذُّنُوبُ فَمَا كَانَ جِنْسُهُ شَرٌّ وَإِثْمٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ هَذَا إِعَانَةٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، فَغَلَطٌ؛ لِأَنَّ الْمُسَافِرَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، كَمَا هُوَ مَأْمُورٌ أَنْ يُصَلِّيَ بِالتَّيَمُّمِ. وَإِذَا عَدِمَ الْمَاءَ فِي السَّفَرِ الْمُحَرَّمِ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيُصَلِّيَ، وَمَا زَادَ عَلَى الرَّكْعَتَيْنِ لَيْسَتْ طَاعَةً وَلَا مَأْمُورًا بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسَافِرِينَ. وَإِذَا فَعَلَهَا الْمُسَافِرُ، كَانَ قَدْ فَعَلَ مَنْهِيًّا عَنْهُ، فَصَارَ صَلَاةُ الرَّكْعَتَيْنِ مِثْلَ أَنْ يُصَلِّيَ الْمُسَافِرُ الْجُمُعَةَ خَلْفَ مُسْتَوْطِنٍ. فَهَلْ يُصَلِّيهَا إِلَّا رَكْعَتَيْنِ؟ وَإِنْ كَانَ عَاصِيًا بِسَفَرِهِ، وَإِنْ كَانَ إِذَا صَلَّى وَحْدَهُ، صَلَّى أَرْبَعًا.

قال الشنقيطي: مَسَائِلُ تَتَعَلَّقُ بِالِاضْطِرَارِ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُضْطَرَّ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَيْتَةِ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ وَيُمْسِكُ حَيَاتَهُ، وَأَجْمَعُوا أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ مَا زَادَ عَلَى الشِّبَعِ، وَاخْتَلَفُوا فِي نَفْسِ الشِّبَعِ هَلْ لَهُ أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْمَيْتَةِ أَوْ لَيْسَ لَهُ مُجَاوَزَةُ مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ، وَيَأْمَنُ مَعَهُ الْمَوْتَ. فَذَهَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَنَّ لَهُ أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْمَيْتَةِ، وَيَتَزَوَّدَ مِنْهَا، قَالَ فِي (مُوَطَّئِهِ): إِنَّ أَحْسَنَ مَا سُمِعَ فِي الرَّجُلِ يُضْطَرُّ إِلَى الْمَيْتَةِ، أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهَا حَتَّى يَشْبَعَ وَيَتَزَوَّدُ مِنْهَا، فَإِنْ وَجَدَ عَنْهَا غِنًى طَرَحَهَا.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: حُجَّةُ مَالِكٍ أَنَّ الْمُضْطَرَّ لَيْسَ مِمَّنْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ الْمَيْتَةُ، فَإِذَا كَانَتْ حَلَالًا لَهُ أَكَلَ مِنْهَا مَا شَاءَ حَتَّى يَجِدَ غَيْرَهَا فَتَحْرُمُ عَلَيْهِ، وَذَهَبَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ، وَابْنُ حَبِيبٍ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا إِلَّا قَدْرَ مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ وَيُمْسِكُ الْحَيَاةَ، وَحُجَّتُهُمَا: أَنَّ الْمَيْتَةَ لَا تُبَاحُ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَإِذَا حَصَلَ سَدُّ الرَّمَقِ انْتَفَتِ الضَّرُورَةُ فِي الزَّائِدِ عَلَى ذَلِكَ. وَعَلَى قَوْلِهِمَا دَرَجَ خَلِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَالِكِيُّ فِي (مُخْتَصَرِهِ) حَيْثُ قَالَ: وَلِلضَّرُورَةِ مَا يَسُدُّ غَيْرُ آدَمِيٍّ.

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَمَحَلُّ هَذَا الْخِلَافِ بَيْنَ الْمَالِكِيَّةِ فِيمَا إِذَا كَانَتِ الْمَخْمَصَةُ نَادِرَةً، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ دَائِمَةً فَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِ الشِّبَعِ مِنْهَا.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ عَنِ الْمَالِكِيَّةِ، وَحُجَّتُهُمَا فِي الْقَوْلَيْنِ كَحُجَّةِ الْمَالِكِيَّةِ فِيهِمَا، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا. وَالْقَوْلَانِ الْمَذْكُورَانِ مَشْهُورَانِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ.

وَاخْتَارَ الْمُزَنِيُّ أَنَّهُ لَا يُجَاوِزُ سَدَّ الرَّمَقِ، وَرَجَّحَهُ الْقَفَّالُ وَكَثِيرُونَ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: إِنَّهُ الصَّحِيحُ. وَرَجَّحَ أَبُو عَلِيٍّ الطَّبَرِيُّ فِي الْإِفْصَاحِ، وَالرُّويَانِيُّ وَغَيْرُهُمَا حِلَّ الشِّبَعِ، قَالَهُ النَّوَوِيُّ أَيْضًا.

وَفِي الْمَسْأَلَةِ قَوْلٌ ثَالِثٌ لِلشَّافِعِيَّةِ وَهُوَ: أَنَّهُ إِنْ كَانَ بَعِيدًا مِنَ الْعُمْرَانِ حَلَّ الشِّبَعُ وَإِلَّا فَلَا، وَذَكَرَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ، وَالْغَزَالِيُّ تَفْصِيلًا فِي الْمَسْأَلَةِ، وَهُوَ: أَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي بَادِيَةٍ وَخَافَ إِنْ تَرَكَ الشِّبَعَ أَلَّا يَقْطَعَهَا وَيَهْلَكَ، وَجَبَ الْقَطْعُ بِأَنَّهُ يَشْبَعُ، وَإِنْ كَانَ فِي بَلَدٍ وَتَوَقَّعَ طَعَامًا طَاهِرًا قَبْلَ عَوْدِ الضَّرُورَةِ وَجَبَ الْقَطْعُ بِالِاقْتِصَارِ عَلَى سَدِّ الرَّمَقِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَظْهَرُ حُصُولُ طَعَامٍ طَاهِرٍ وَأَمْكَنَ الْحَاجَةُ إِلَى الْعَوْدِ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى إِنْ لَمْ يَجِدِ الطَّاهِرَ، فَهَذَا مَحَلُّ الْخِلَافِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْإِمَامُ وَالْغَزَالِيُّ تَفْصِيلٌ حَسَنٌ وَهُوَ الرَّاجِحُ، وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ رِوَايَتَانِ أَيْضًا.

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي الْمُغْنِي: وَفِي الشِّبَعِ رِوَايَتَانِ:

أَظْهَرُهُمَا: لَا يُبَاحُ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَإِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ مَالِكٍ، وَأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ لِلشَّافِعِيِّ.

قَالَ الْحَسَنُ: يَأْكُلُ قَدْرَ مَا يُقِيمُهُ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ، وَاسْتَثْنَى مَا اضْطُرَّ إلَيْهِ فَإِذَا انْدَفَعَتِ الضَّرُورَةُ فَلَمْ يَحِلَّ لَهُ الْأَكْلُ كَحَالَةِ الِابْتِدَاءِ. وَلِأَنَّهُ بَعْدَ سَدِّ الرَّمَقِ غَيْرُ مُضْطَرٍّ فَلَمْ يَحِلَّ لَهُ الْأَكْلُ لِلْآيَةِ. يُحَقِّقُهُ: أَنَّهُ بَعْدَ سَدِّ رَمَقِهِ كَهُوَ قَبْلَ أَنْ يَضْطَرَّ، وَثَمَّ لَمْ يُبَحْ لَهُ الْأَكْلُ كَذَا هَاهُنَا.

وَالثَّانِيَةُ: يُبَاحُ لَهُ الشِّبَعُ. اخْتَارَهَا أَبُو بَكْرٍ ؛ لِمَا رَوَى جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ أَنَّ رَجُلًا نَزَلَ الْحَرَّةَ، فَنَفَقَتْ عِنْدَهُ نَاقَةٌ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَسْلُخْهَا حَتَّى نُقَدِّدَ شَحْمَهَا وَلَحْمَهَا وَنَأْكُلَهُ. فَقَالَ: حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: ((هَلْ عِنْدَك غِنًى يُغْنِيكَ))؟ قَالَ: لَا. قَالَ: ((فَكُلُوهَا))، وَلَمْ يُفَرِّقْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

وَيَدُلُّ لَهُ أَيْضًا حَدِيثُ الْفُجَيْعِ الْعَامِرِيِّ عِنْدَهُ: أَنَّ النَّبِيَّ أَذِنَ لَهُ فِي الْمَيْتَةِ مَعَ أَنَّهُ يَغْتَبِقُ وَيَصْطَبِحُ، فَدَلَّ عَلَى أَخْذِ النَّفْسِ حَاجَتَهَا مِنَ الْقُوتِ مِنْهَا ؛ وَلِأَنَّ مَا جَازَ سَدُّ الرَّمَقِ مِنْهُ جَازَ الشِّبَعُ مِنْهُ كَالْمُبَاحِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ مَا إذَا كَانَتِ الضَّرُورَةُ مُسْتَمِرَّةً، وَبَيْنَ مَا إذَا كَانَتْ مَرْجُوَّةَ الزَّوَالِ، فَمَا كَانَتْ مُسْتَمِرَّةً كَحَالَةِ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَازَ الشِّبَعُ؛ لِأَنَّهُ إذَا اقْتَصَرَ عَلَى سَدِّ الرَّمَقِ عَادَتِ الضَّرُورَةُ إلَيْهِ عَنْ قُرْبٍ، وَلَا يَتَمَكَّنُ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْمَيْتَةِ مَخَافَةَ الضَّرُورَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَيُفْضِي إلَى ضَعْفِ بَدَنِهِ، وَرُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إلَى تَلَفِهِ، بِخِلَافِ الَّتِي لَيْسَتْ مُسْتَمِرَّةً، فَإِنَّهُ يَرْجُو الْغِنَى عَنْهَا بِمَا يَحِلُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى مِنَ الْمَغْنَى بِلَفْظِهِ.

وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ: وَلَيْسَ مَعْنَى الشِّبَعِ أَنْ يَمْتَلِئَ حَتَّى لَا يَجِدَ مُسَاغًا، وَلَكِنْ إِذَا انْكَسَرَتْ سَوْرَةُ الْجُوعِ بِحَيْثُ لَا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ اسْمُ جَائِعٍ أَمْسَكَ. اهـ. قَالَهُ النَّوَوِيُّ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: حَدُّ الِاضْطِرَارِ الْمُبِيحِ لِأَكْلِ الْمَيْتَةِ، وَهُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْهَلَاكِ عِلْمًا أَوْ ظَنًّا.

قَالَ الزُّرْقَانِيُّ فِي شَرْحِ قَوْلِ مَالِكٍ فِي (الْمُوَطَّأِ) فِيمَنْ يُضْطَرُّ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ اهـ.

وَحَدُّ الِاضْطِرَارِ أَنْ يَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْهَلَاكَ عِلْمًا أَوْ ظَنًّا، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَصِيرَ إِلَى حَالٍ يُشْرِفُ مَعَهَا عَلَى الْمَوْتِ، فَإِنَّ الْأَكْلَ عِنْدَ ذَلِكَ لَا يُفِيدُ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي (شَرْحِ الْمُهَذَّبِ): الثَّانِيَةُ فِي حَدِّ الضَّرُورَةِ.

قَالَ أَصْحَابُنَا: لَا خِلَافَ أَنَّ الْجُوعَ الْقَوِيَّ لَا يَكْفِي لِتَنَاوُلِ الْمَيْتَةِ وَنَحْوِهَا، قَالُوا: وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ الِامْتِنَاعُ إِلَى الْإِشْرَافِ عَلَى الْهَلَاكِ؛ فَإِنَّ الْأَكْلَ حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَوِ انْتَهَى إِلَى تِلْكَ الْحَالِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَكْلُهَا؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُفِيدٍ، وَاتَّفَقُوا

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٧٠٢).

عَلَى جَوَازِ الْأَكْلِ إِذَا خَافَ عَلَى نَفْسِهِ لَوْ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ جُوعٍ أَوْ ضَعْفٍ عَنِ الْمَشْيِ أَوْ عَنِ الرُّكُوبِ، وَيَنْقَطِعُ عَنْ رُفْقَتِهِ وَيَضِيعُ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَلَوْ خَافَ حُدُوثَ مَرَضٍ مُخَوِّفٍ فِي جِنْسِهِ فَهُوَ كَخَوْفِ الْمَوْتِ، وَإِنْ خَافَ طُولَ الْمَرَضِ فَكَذَلِكَ فِي أَصَحِّ الْوَجْهَيْنِ، وَقِيلَ: إِنَّهُمَا قَوْلَانِ، وَلَوْ عِيلَ صَبْرُهُ، وَأَجْهَدَهُ الْجُوعُ فَهَلْ يَحِلُّ لَهُ الْمَيْتَةُ وَنَحْوُهَا أَمْ لَا يَحِلُّ حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَدْنَى الرَّمَقِ؟ فِيهِ قَوْلَانِ ذَكَرَهُمَا الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ، أَصَحُّهُمَا: الْحِلُّ.

قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَغَيْرُهُ: وَلَا يُشْتَرَطُ فِيمَا يَخَافُهُ تَيَقُّنُ وُقُوعِهِ لَوْ لَمْ يَأْكُلْ، بَلْ يَكْفِي غَلَبَةُ الظَّنِّ. انْتَهَى مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي (الْمُغْنِي): إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَإِنَّ الضَّرُورَةَ الْمُبِيحَةَ هِيَ الَّتِي يَخَافُ التَّلَفَ بِهَا إِنْ تَرَكَ الْأَكْلَ، قَالَ أَحْمَدُ: إِذَا كَانَ يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ سَوَاءً كَانَ مِنَ الْجُوعِ أَوْ يَخَافُ إِنْ تَرَكَ الْأَكْلَ عَجَزَ عَنِ الْمَشْيِ، وَانْقَطَعَ عَنِ الرُّفْقَةِ فَهَلَكَ، أَوْ يَعْجِزُ عَنِ الرُّكُوبِ فَيَهْلِكُ، وَلَا يَتَقَيَّدُ ذَلِكَ بِزَمَنٍ مَحْصُورٍ.

وَحَدُّ الِاضْطِرَارِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ هُوَ: أَنْ يَخَافَ الْهَلَاكَ عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ عَلَى عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ يَقِينًا كَانَ أَوْ ظَنًّا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: هَلْ يَجِبُ الْأَكْلُ مِنَ الْمَيْتَةِ وَنَحْوِهَا إِنْ خَافَ الْهَلَاكَ، أَوْ يُبَاحُ مِنْ غَيْرِ وُجُوبٍ؟ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ، وَأَظْهَرُ الْقَوْلَيْنِ الْوُجُوبُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[٢ \ ١٩٥]، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[٤ \ ٢٩].

وَمِنْ هُنَا قَالَ جَمْعٌ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ: إِنَّ الرُّخْصَةَ قَدْ تَكُونُ وَاجِبَةً، كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ عِنْدَ خَوْفِ الْهَلَاكِ لَوْ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا، وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَهُوَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ لِلشَّافِعِيَّةِ، وَهُوَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَيْضًا، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ حَامِدٍ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَقَالَ مَسْرُوقٌ: مَنِ اضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ، وَالدَّمِ، وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ فَلَمْ يَأْكُلْ حَتَّى مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الطَّبَرِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْكِيَا: وَلَيْسَ أَكْلُ الْمَيْتَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ رُخْصَةً بَلْ هُوَ عَزِيمَةٌ وَاجِبَةٌ، وَلَوِ امْتَنَعَ مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَةِ كَانَ عَاصِيًا، نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَمِمَّنِ اخْتَارَ عَدَمَ الْوُجُوبِ وَلَوْ أَدَّى عَدَمُ الْأَكْلِ إِلَى الْهَلَاكِ أَبُو إِسْحَاقَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ، وَأَبُو يُوسُفَ صَاحِبُ أَبِي حَنِيفَةَ – رَحِمَهُمُ اللَّهُ – وَغَيْرُهُمْ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ لَهُ غَرَضًا صَحِيحًا فِي تَرْكِهِ وَهُوَ اجْتِنَابُ النَّجَاسَةِ، وَالْأَخْذُ بِالْعَزِيمَةِ.

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي (الْمُغْنِي) فِي وَجْهِ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ، مَا نَصُّهُ: وَهَلْ يَجِبُ الْأَكْلُ مِنَ الْمَيْتَةِ عَلَى الْمُضْطَرِّ؛ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: يَجِبُ وَهُوَ قَوْلُ مَسْرُوقٍ، وَأَحَدُ الْوَجْهَيْنِ لِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ.

قَالَ الْأَثْرَمُ: سُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْمُضْطَرِّ يَجِدُ الْمَيْتَةَ وَلَمْ يَأْكُلْ، فَذَكَرَ قَوْلَ مَسْرُوقٍ: مَنِ اضْطُرَّ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ دَخَلَ النَّارَ. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ حَامِدٍ، وَذَلِكَ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، وَتَرْكُ الْأَكْلِ مَعَ إِمْكَانِهِ فِي هَذَا الْحَالِ إِلْقَاءٌ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[٤ \ ٢٩] وَلِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ نَفْسِهِ بِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ فَلَزِمَهُ، كَمَا لَوْ كَانَ مَعَهُ طَعَامٌ حَلَالٌ.

وَالثَّانِي: لَا يَلْزَمُهُ؛ لِمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ طَاغِيَةَ الرُّومِ حَبَسَهُ فِي بَيْتٍ، وَجَعَلَ مَعَهُ خَمْرًا مَمْزُوجًا بِمَاءٍ، وَلَحْمَ خِنْزِيرٍ مَشْوِيٍّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ حَتَّى مَالَ رَأْسُهُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَخَشَوْا مَوْتَهُ، فَأَخْرَجُوهُ فَقَالَ: قَدْ كَانَ اللَّهُ أَحَلَّهُ لِي؛ لِأَنِّي مُضْطَرٌّ، وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ لِأُشْمِتَكَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِأَنَّ إِبَاحَةَ الْأَكْلِ رُخْصَةٌ فَلَا تَجِبُ عَلَيْهِ كَسَائِرِ الرُّخَصِ؛ وَلِأَنَّ لَهُ غَرَضًا فِي اجْتِنَابِ النَّجَاسَةِ وَالْأَخْذِ بِالْعَزِيمَةِ، وَرُبَّمَا لَمْ تَطِبْ نَفْسُهُ بِتَنَاوُلِ الْمَيْتَةِ وَفَارَقَ الْحَلَالَ فِي الْأَصْلِ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنْ أَظْهَرَ الْقَوْلَيْنِ دَلِيلًا؛ وُجُوبُ تَنَاوُلِ مَا يُمْسِكُ الْحَيَاةَ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَجُوزُ لَهُ إِهْلَاكُ نَفْسِهِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: هَلْ يُقَدِّمُ الْمُضْطَرُّ الْمَيْتَةَ أَوْ مَالَ الْغَيْرِ؟ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ: فَذَهَبَ مَالِكٌ إِلَى أَنَّهُ يُقَدِّمُ مَالَ الْغَيْرِ إِنْ لَمْ يَخَفْ أَنْ يُجْعَلَ سَارِقًا وَيُحْكَمَ عَلَيْهِ بِالْقَطْعِ. فَفِي (مُوَطَّئِهِ) مَا نَصُّهُ: وَسُئِلَ مَالِكٌ عَنِ الرَّجُلِ يُضْطَرُّ إِلَى الْمَيْتَةِ أَيَأْكُلُ مِنْهَا وَهُوَ يَجِدُ ثَمَرًا لِقَوْمٍ، أَوْ زَرْعًا، أَوْ غَنَمًا بِمَكَانِهِ ذَلِكَ؟ قَالَ مَالِكٌ: إِنْ ظَنَّ أَنَّ أَهْلَ ذَلِكَ الثَّمَرِ، أَوِ الزَّرْعِ، أَوِ الْغَنَمِ يُصَدِّقُونَهُ بِضَرُورَتِهِ حَتَّى لَا يُعَدَّ سَارِقًا فَتُقْطَعُ يَدُهُ، رَأَيْتُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ وَجَدَ مَا يَرُدُّ جُوعَهُ، وَلَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ الْمَيْتَةَ. وَإِنْ هُوَ خَشِيَ أَلَّا يُصَدِّقُوهُ، وَأَنْ يُعَدَّ سَارِقًا بِمَا أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنْ أَكْلَ الْمَيْتَةِ خَيْرٌ لَهُ عِنْدِي، وَلَهُ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ سَعَةٌ، مَعَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ يَعْدُوَ عَادٍ مِمَّنْ لَمْ يُضْطَرَّ إِلَى الْمَيْتَةِ يُرِيدُ اسْتِجَازَةَ أَمْوَالِ النَّاسِ وَزُرُوعِهِمْ، وَثِمَارِهِمْ بِذَلِكَ بِدُونِ اضْطِرَارٍ. قَالَ مَالِكٌ: وَهَذَا أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ. اهـ.

وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: إِنْ حَضَرَ صَاحِبُ الْمَالِ فَحَقٌّ عَلَيْهِ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي الْأَكْلِ، فَإِنْ مَنَعَهُ فَجَائِزٌ لِلَّذِي خَافَ الْمَوْتَ أَنْ يُقَاتِلَهُ؛ حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَكْلِ مَا يَرُدُّ نَفْسَهُ.

الْبَاجِيُّ: يُرِيدُ أَنَّهُ يَدْعُوهُ أَوَّلًا إِلَى أَنْ يَبِيعَهُ بِثَمَنٍ فِي ذِمَّتِهِ، فَإِنْ أَبَى اسْتَطْعَمَهُ، فَإِنْ أَبَى، أَعْلَمَهُ أَنَّهُ يُقَاتِلُهُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ خَلِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَالِكِيُّ فِي (مُخْتَصَرِهِ) الَّذِي قَالَ فِيهِ مُبَيِّنًا لِمَا بِهِ الْفَتْوَى عَاطِفًا عَلَى مَا يُقْدِمُ الْمُضْطَرُّ عَلَى الْمَيْتَةِ وَطَعَامِ غَيْرٍ إِنْ لَمْ يَخَفِ الْقَطْعَ وَقَاتَلَ عَلَيْهِ. هَذَا هُوَ حَاصِلُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ فِيهَا: هُوَ مَا ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ فِي (شَرْحِ الْمُهَذَّبِ) بِقَوْلِهِ: الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ: إِذَا وَجَدَ الْمُضْطَرُّ مَيْتَةً وَطَعَامَ الْغَيْرِ، وَهُوَ غَائِبٌ فَثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ، وَقِيلَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَصَحُّهَا يَجِبُ أَكْلُ الْمَيْتَةِ، وَالثَّانِي: يَجِبُ أَكْلُ الطَّعَامِ، وَالثَّالِثُ: يَتَخَيَّرُ بَيْنَهُمَا.

وَأَشَارَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ إِلَى أَنَّ هَذَا الْخِلَافَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْخِلَافِ فِي اجْتِمَاعِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَقِّ الْآدَمِيِّ وَلَوْ كَانَ صَاحِبُ الطَّعَامِ حَاضِرًا، فَإِنْ بَذَلَهُ بِلَا عِوَضٍ، أَوْ بِثَمَنِ مِثْلِهِ، أَوْ بِزِيَادَةٍ يَتَغَابَنُ النَّاسُ بِمِثْلِهَا وَمَعَهُ ثَمَنُهُ، أَوْ رَضِيَ بِذِمَّتِهِ لَزِمَهُ الْقَبُولُ، وَلَمْ يَجُزْ أَكْلُ الْمَيْتَةِ، فَإِنْ لَمْ يَبِعْهُ إِلَّا بِزِيَادَةٍ كَثِيرَةٍ فَالْمَذْهَبُ وَالَّذِي قَطَعَ بِهِ الْعِرَاقِيُّونَ، وَالطَّبَرِيُّونَ، وَغَيْرُهُمْ: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ شِرَاؤُهُ وَلَكِنْ يُسْتَحَبُّ، وَإِذَا لَمْ يَلْزَمْهُ الشِّرَاءُ فَهُوَ كَمَا إِذَا لَمْ يَبْذُلْهُ أَصْلًا، وَإِذَا لَمْ يَبْذُلْهُ لَمْ يُقَاتِلْهُ عَلَيْهِ الْمُضْطَرُّ إِنْ خَافَ مِنَ الْمُقَاتَلَةِ عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ خَافَ هَلَاكَ الْمَالِكِ فِي الْمُقَاتَلَةِ، بَلْ يَعْدِلُ إِلَى الْمَيْتَةِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَخَافُ؛ لِضَعْفِ الْمَالِكِ، وَسُهُولَةِ دَفْعِهِ فَهُوَ عَلَى الْخِلَافِ الْمَذْكُورِ فِيمَا إِذَا كَانَ غَائِبًا، هَذَا كُلُّهُ تَفْرِيعٌ عَلَى الْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ.

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: يَشْتَرِيهِ بِالثَّمَنِ الْغَالِي، وَلَا يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، ثُمَّ يَجِيءُ الْخِلَافُ السَّابِقُ فِي أَنَّهُ يَلْزَمُهُ الْمُسَمَّى أَوْ ثَمَنُ الْمِثْلِ، قَالَ: وَإِذَا لَمْ يَبْذُلْ أَصْلًا وَقُلْنَا طَعَامُ الْغَيْرِ أَوْلَى مِنَ الْمَيْتَةِ يَجُوزُ أَنْ يُقَاتِلَهُ، وَيَأْخُذَهُ قَهْرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

حَاصِلُ مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ يُقَدِّمُ الْمَيْتَةَ عَلَى طَعَامِ الْغَيْرِ.

قَالَ الْخِرَقِيُّ فِي (مُخْتَصَرِهِ): وَمَنِ اضْطُرَّ فَأَصَابَ الْمَيْتَةَ وَخُبْزًا لَا يَعْرِفُ مَالِكَهُ أَكَلَ الْمَيْتَةَ. اهـ.

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي (الْمُغْنِي) فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الْكَلَامِ مَا نَصُّهُ: وَبِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ.

وَقَالَ مَالِكٌ: إِنْ كَانُوا يُصَدِّقُونَهُ أَنَّهُ مُضْطَرٌّ أَكَلَ مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَرِ، وَشَرِبَ اللَّبَنَ، وَإِنْ خَافَ أَنْ تُقْطَعَ يَدُهُ أَوْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ أَكَلَ الْمَيْتَةَ، وَلِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ؛ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الطَّعَامِ الْحَلَالِ فَلَمْ يَجُزْ لَهُ أَكْلُ الْمَيْتَةِ كَمَا لَوْ بَذَلَهُ لَهُ صَاحِبُهُ.

وَلَنَا أَنَّ أَكْلَ الْمَيْتَةِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ، وَمَالُ الْآدَمِيِّ مُجْتَهَدٌ فِيهِ، وَالْعُدُولُ إِلَى الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ أَوْلَى ؛ وَلِأَنَّ حُقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمُسَامَحَةِ وَالْمُسَاهَلَةِ، وَحُقُوقُ الْآدَمِيِّ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الشُّحِّ وَالتَّضْيِيقِ ؛ وَلِأَنَّ حَقَّ الْآدَمِيِّ تَلْزَمُهُ غَرَامَتُهُ، وَحَقُّ اللَّهِ لَا عِوَضَ لَهُ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: إِذَا كَانَ الْمُضْطَرُّ إِلَى الْمَيْتَةِ مُحْرِمًا وَأَمْكَنَهُ الصَّيْدُ فَهَلْ يُقَدِّمُ الْمَيْتَةَ أَوِ الصَّيْدَ؟

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ، فَذَهَبَ مَالِكٌ، وَأَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَالشَّافِعِيُّ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ: إِلَى أَنَّهُ يُقَدِّمُ الْمَيْتَةَ.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلٌ بِتَقْدِيمِ الصَّيْدِ وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَوْلِ: بِأَنَّ الْمُحْرِمَ إِنْ ذَكَّى صَيْدًا لَمْ يَكُنْ مَيْتَةً. وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَكَاةَ الْمُحْرِمِ لِلصَّيْدِ لَغْوٌ وَيَكُونُ مَيْتَةً، وَالْمَيْتَةُ أَخَفُّ مِنَ الصَّيْدِ لِلْمُحْرِمِ ؛ لِأَنَّهُ يُشَارِكُهَا فِي اسْمِ الْمَيْتَةِ وَيَزِيدُ بِحُرْمَةِ الِاصْطِيَادِ، وَحُرْمَةِ الْقَتْلِ، وَسَيَأْتِي لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي [سُورَةِ الْمَائِدَةِ].

وَمِمَّنْ قَالَ بِتَقْدِيمِ الصَّيْدِ لِلْمُحْرِمِ عَلَى الْمَيْتَةِ أَبُو يُوسُفَ وَالْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ الصَّيْدَ يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَمَعَ جَوَازِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ تَنْتَفِي الضَّرُورَةُ فَلَا تَحِلُّ الْمَيْتَةُ.

وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ بِأَنَّ حِلَّ أَكْلِ الْمَيْتَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ، وَإِبَاحَةَ الصَّيْدِ لِلضَّرُورَةِ مُجْتَهَدٌ فِيهَا، وَالْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ أَوْلَى، فَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمُضْطَرُّ إِلَّا صَيْدًا وَهُوَ مُحْرِمٌ فَلَهُ ذَبْحُهُ وَأَكْلُهُ، وَلَهُ الشِّبَعُ مِنْهُ عَلَى التَّحْقِيقِ؛ لِأَنَّهُ بِالضَّرُورَةِ وَعَدَمِ وُجُودِ غَيْرِهِ صَارَ مُذَكًّى ذَكَاةً شَرْعِيَّةً طَاهِرًا حَلَالًا فَلَيْسَ بِمَيْتَةٍ، وَلِذَا تَجِبُ ذَكَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ، وَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُ وَالْأَكْلُ مِنْهُ بِغَيْرِ ذَكَاةٍ.

وَلَوْ وَجَدَ الْمُضْطَرُّ مَيْتَةً، وَلَحْمَ خِنْزِيرٍ أَوْ لَحْمَ إِنْسَانٍ مَيِّتٍ، فَالظَّاهِرُ تَقْدِيمُ الْمَيْتَةِ عَلَى الْخِنْزِيرِ وَلَحْمِ الْآدَمِيِّ.

قَالَ الْبَاجِيُّ: إِنْ وَجَدَ الْمُضْطَرُّ مَيْتَةً، وَخِنْزِيرًا فَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنْ يَأْكُلَ الْمَيْتَةَ؛ لِأَنَّ الْخِنْزِيرَ مَيْتَةٌ وَلَا يُبَاحُ بِوَجْهٍ، وَكَذَلِكَ يُقَدِّمُ الصَّيْدَ عَلَى الْخِنْزِيرِ وَالْإِنْسَانِ عَلَى الظَّاهِرِ، وَلَمْ يَجُزْ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ أَكْلُ الْإِنْسَانِ لِلضَّرُورَةِ مُطْلَقًا وَقَتْلُ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ الْمَعْصُومِ الدَّمِ لِأَكْلِهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ حَرَامٌ إِجْمَاعًا، سَوَاءٌ كَانَ مُسْلِمًا أَوْ ذِمِّيًّا. وَإِنْ وُجِدَ إِنْسَانٌ مَعْصُومٌ مَيِّتًا فَهَلْ يَجُوزُ لَحْمُهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، أَوْ لَا يَجُوزُ؟ مَنَعَهُ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ، وَأَجَازَهُ الشَّافِعِيَّةُ وَبَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ.

وَاحْتَجَّ الْحَنَابِلَةُ لِمَنْعِهِ لِحَدِيثِ: ((كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِ عَظْمِ الْحَيِّ(١)))، وَاخْتَارَ أَبُو الْخَطَّابِ مِنْهُمْ جَوَازَ أَكْلِهِ، وَقَالَ: لَا حُجَّةَ فِي الْحَدِيثِ هَاهُنَا؛ لِأَنَّ الْأَكْلَ مِنَ اللَّحْمِ لَا مِنَ الْعَظْمِ، وَالْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ التَّشْبِيهُ فِي أَصْلِ الْحُرْمَةِ لَا فِي مِقْدَارِهَا بِدَلِيلِ اخْتِلَافِهِمَا فِي الضَّمَانِ وَالْقِصَاصِ، وَوُجُوبُ صِيَانَةِ الْحَيِّ بِمَا لَا يَجِبُ بِهِ صِيَانَةُ الْمَيِّتِ، قَالَهُ فِي (الْمُغْنِي).

وَلَوْ وَجَدَ الْمُضْطَرُّ آدَمِيًّا غَيْرَ مَعْصُومٍ كَالْحَرْبِيِّ، وَالْمُرْتَدِّ فَلَهُ قَتْلُهُ، وَالْأَكْلُ مِنْهُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ، وَبِهِ قَالَ الْقَاضِي مِنَ الْحَنَابِلَةِ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ لَا حُرْمَةَ لَهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ السِّبَاعِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: هَلْ يَجُوزُ لِلْمُضْطَرِّ أَنْ يَدْفَعَ ضَرُورَتَهُ بِشُرْبِ الْخَمْرِ؟ فِيهِ لِلْعُلَمَاءِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

الْأَوَّلُ: الْمَنْعُ مُطْلَقًا.

الثَّانِي: الْإِبَاحَةُ مُطْلَقًا.

الثَّالِثُ: الْإِبَاحَةُ فِي حَالَةِ الِاضْطِرَارِ إِلَى التَّدَاوِي بِهَا دُونَ الْعَطَشِ.

الرَّابِعُ: عَكْسُهُ.

وَأَصَحُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ الْمَنْعُ مُطْلَقًا.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الظَّاهِرُ أَنَّ التَّدَاوِيَ بِالْخَمْرِ لَا يَجُوزُ؛ لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ) مِنْ حَدِيثِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ ﵁: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ طَارِقُ بْنُ سُوَيْدٍ الْجُعْفِيُّ عَنِ الْخَمْرِ فَنَهَاهُ، أَوْ كَرِهَ أَنْ يَصْنَعَهَا فَقَالَ: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ، فَقَالَ:

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٧٦٣). رواه أبو داود عن عائشة، ورواه ابن ماجه عن أم سلمة وزاد ((في الإثم))، (ص ١٧٧).

((إِنَّهُ لَيس بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ[١]))، وَالظَّاهِرُ إِبَاحَتُهَا؛ لِإِسَاغَةِ غُصَّةٍ خِيفَ بِهَا الْهَلَاكُ؛ وَعَلَيْهِ جُلُّ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ إِسَاغَةِ الْغُصَّةِ وَبَيْنَ شُرْبِهَا لِلْجُوعِ أَوِ الْعَطَشِ أَنَّ إِزَالَتَهَا لِلْغُصَّةِ مَعْلُومَةٌ، وَأَنَّهَا لَا يَتَيَقَّنُ إِزَالَتُهَا لِلْجُوعِ أَوِ الْعَطَشِ.

قَالَ الْبَاجِيُّ: وَهَلْ لِمَنْ يَجُوزُ لَهُ أَكْلُ الْمَيْتَةِ أَنْ يَشْرَبَ لِجُوعِهِ أَوْ عَطَشِهِ الْخَمْرَ؟ قَالَ مَالِكٌ: لَا يَشْرَبُهَا وَلَنْ تَزِيدَهُ إِلَّا عَطَشًا.

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ: يَشْرَبُ الْمُضْطَرُّ الدَّمَ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَيَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَلَا يَقْرَبُ ضَوَالَّ الْإِبِلِ، وَقَالَهُ ابْنُ وَهْبٍ.

وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: مَنْ غُصَّ بِطَعَامٍ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يُجَوِّزَهُ بِالْخَمْرِ، وَقَالَهُ أَبُو الْفَرَجِ.

أَمَّا التَّدَاوِي بِهَا فَمَشْهُورُ الْمَذْهَبِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ: وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّدَاوِي بِهَا، وَيَجُوزُ اسْتِعْمَالُهَا لِإِسَاغَةِ الْغُصَّةِ فَالْفَرْقُ أَنَّ التَّدَاوِيَ بِهَا لَا يَتَيَقَّنُ بِهِ الْبُرْءُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ. اهـ . بِنَقْلِ الْمَوَّاقِ فِي شَرْحِ قَوْلِ خَلِيلٍ: وَخَمْرٌ لِغُصَّةٍ، وَمَا نَقَلْنَا عَنْ مَالِكٍ مِنْ أَنَّ الْخَمْرَ لَا تَزِيدُ إِلَّا عَطَشًا، نَقَلَ نَحْوَهُ النَّوَوِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: وَقَدْ نَقَلَ الرُّويَانِيُّ أَنَّ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ نَصَّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ شُرْبِهَا لِلْعَطَشِ؛ مُعَلِّلًا بِأَنَّهَا تُجِيعُ وَتُعَطِّشُ.

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ: سَأَلْتُ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ فَقَالَ: الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ: إِنَّهَا تَرْوِي فِي الْحَالِ، ثُمَّ تُثِيرُ عَطَشًا عَظِيمًا.

وَقَالَ الْقَاضِي حُسَيْنٌ فِي (تَعْلِيقِهِ): قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ: الْخَمْرُ تَزِيدُ فِي الْعَطَشِ وَأَهْلُ الشُّرْبِ يَحْرِصُونَ عَلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ، فَجَعَلَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي دَفْعِ الْعَطَشِ.

وَحَصَلَ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ السَّابِقِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي الدَّوَاءِ فَثَبَتَ تَحْرِيمُهَا مُطْلَقًا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. اهـ مِنْ (شَرْحِ الْمُهَذَّبِ).

وَبِهِ تَعَلَمُ أَنَّ مَا اخْتَارَهُ الْغَزَالِيُّ، وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ، وَالْأَبْهَرِيُّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ جَوَازِهَا لِلْعَطَشِ خِلَافُ الصَّوَابِ، وَمَا ذَكَرَهُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَالْأَبْهَرِيُّ مِنْ أَنَّهَا تَنْفَعُ فِي الْعَطَشِ خِلَافُ الصَّوَابِ أَيْضًا، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَمَنْ مَرَّ بِبُسْتَانٍ لِغَيْرِهِ فِيهِ ثِمَارٌ وَزَرْعٌ، أَوْ بِمَاشِيَةٍ فِيهَا لَبَنٌ، فَإِنْ كَانَ مُضْطَرًّا اضْطِرَارًا يُبِيحُ الْمَيْتَةَ فَلَهُ الْأَكْلُ بِقَدْرِ مَا يَرُدُّ جُوعَهُ إِجْمَاعًا، وَلَا يَجُوزُ لَهُ حَمْلُ شَيْءٍ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُضْطَرٍّ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِ أَكْلِهِ مِنْهُ.

فَقِيلَ: لَهُ أَنْ يَأْكُلَ فِي بَطْنِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْمِلَ مِنْهُ شَيْئًا، وَقِيلَ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ، وَقِيلَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْمُحَوَّطِ عَلَيْهِ فَيُمْنَعُ، وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَيَجُوزُ، وَحُجَّةُ مَنْ قَالَ بِالْمَنْعِ مُطْلَقًا مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ عُمُومِ قَوْلِهِ: ((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ

١- (قلت): مسلم (١٩٨٤).

كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا([١]))، وَعُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}[٤ \ ٢٩] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ.

وَحُجَّةُ مَنْ قَالَ بِالْإِبَاحَةِ مُطْلَقًا مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ عَلَى مَاشِيَةٍ، فَإِنْ كَانَ فِيهَا صَاحِبُهَا فَلْيَسْتَأْذِنْهُ، فَإِنْ أَذِنَ فَلْيَحْتَلِبْ وَلْيَشْرَبْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا فَلْيُصَوِّتْ ثَلَاثًا، فَإِنْ أَجَابَ فَلْيَسْتَأْذِنْهُ، فَإِنْ أَذِنَ لَهُ وَإِلَّا فَلْيَحْتَلِبْ وَلْيَشْرَبْ، وَلَا يَحْمِلْ([٢]))) اهـ.

وَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ دَخَلَ حَائِطًا فَلْيَأْكُلْ، وَلَا يَتَّخِذْ خُبْنَةً([٣]))، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ سُلَيْمٍ. وَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الثَّمَرِ الْمُعَلَّقِ فَقَالَ: ((مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ غَيْرَ مُتَّخِذٍ خُبْنَةً فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ([٤]))) قَالَ فِيهِ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي زَيْنَبَ التَّيْمِيِّ، قَالَ: سَافَرْتُ مَعَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، وَأَبِي بُرْدَةَ، فَكَانُوا يَمُرُّونَ بِالثِّمَارِ، فَيَأْكُلُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ. نَقَلَهُ صَاحِبُ (الْمُغْنِي)، وَحَمَلَ أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَالْآثَارَ عَلَى حَالِ الضَّرُورَةِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبَّادِ بْنِ شُرَحْبِيلَ الْيَشْكُرِيِّ الْغُبَرِيِّ – رضي الله عنه – قَالَ: أَصَابَتْنَا عَامًا مَخْمَصَةٌ فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهَا، فَأَخَذْتُ سُنْبُلًا فَفَرَكْتُهُ وَأَكَلْتُهُ، وَجَعَلْتُهُ فِي كِسَائِي، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ فَضَرَبَنِي، وَأَخَذَ ثَوْبِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ((مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا أَوْ سَاغِبًا وَلَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا([٥]))، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَرَدَّ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ، وَأَمَرَ لَهُ بِوَسْقٍ مِنْ طَعَامٍ، أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ، فَإِنَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الدَّلَالَةَ عَلَى أَنَّ نَفْيَ الْقَطْعِ وَالْأَدَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ الْمَخْمَصَةِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي (تَفْسِيرِهِ) عَقِبَ نَقْلِهِ لِمَا قَدَّمْنَا عَنْ عُمَرَ – رضي الله عنه – قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَإِنَّمَا يُوَجَّهُ هَذَا الْحَدِيثَ أَنَّهُ رَخَّصَ فِيهِ لِلْجَائِعِ الْمُضْطَرِّ، الَّذِي لَا شَيْءَ مَعَهُ يَشْتَرِي بِهِ، أَلَّا يَحْمِلَ إِلَّا مَا كَانَ فِي بَطْنِهِ قَدْرَ قُوتِهِ، ثُمَّ قَالَ: قُلْتُ: لِأَنَّ الْأَصْلَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهِ تَحْرِيمُ مَالِ الْغَيْرِ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (١٤٥٥).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٢٥٢١)، وقال: (حديث سمرة فى الماشية) صححه الترمذي. أخرجه الترمذى (١/٢٤٣ ـ ٢٤٤)، وكذا أبو داود (٢٦١٩) عنه، والبيهقي (٩/٣٥٩) عن طريق الحسن عن سمرة بن جندب.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٩٥٤)، التحقيق الثاني.

٤- (قلت): حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٣٠٣٦).

٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٢٢٩).

فَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ عَادَةٌ بِعَمَلِ ذَلِكَ كَمَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ أَوْ كَمَا هُوَ الْآنَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ فَذَلِكَ جَائِزٌ. وَيُحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى أَوْقَاتِ الْمَجَاعَةِ وَالضَّرُورَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ مِنْهُ.

وَحُجَّةُ مَنْ قَالَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْمُحَوَّطِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، أَنَّ إِحْرَازَهُ بِالْحَائِطِ دَلِيلٌ عَلَى شُحِّ صَاحِبِهِ بِهِ وَعَدَمِ مُسَامَحَتِهِ فِيهِ، وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنْ كَانَ عَلَيْهَا حَائِطٌ فَهُوَ حَرَامٌ فَلَا تَأْكُلْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا حَائِطٌ فَلَا بَأْسَ، نَقَلَهُ صَاحِبُ (الْمُغْنِي) وَغَيْرُهُ، وَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ مَالِ الْمُسْلِمِ فَيَجُوزُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَبَيْنَ مَالِ الْكِتَابِيِّ (الذِّمِّيِّ) فَلَا يَجُوزُ بِحَالٍ غَيْرِ ظَاهِرٍ.

وَيَجِبُ حَمْلُ حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ الْوَارِدِ فِي الْمَنْعِ مِنْ دُخُولِ بُيُوتِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَنْعِ الْأَكْلِ مِنْ ثِمَارِهِمْ إِلَّا بِإِذْنٍ عَلَى عَدَمِ الضَّرُورَةِ الْمُلْجِئَةِ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال السعدي: وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: {إن الله غفور رحيم}.

ولما كان الحل مشروطًا بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها – أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: (الضرورات تبيح المحظورات) فكل محظور، اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له، الملك الرحمن. فله الحمد والشكر، أوَّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

قال ابن العثيمين: {إن الله غفور رحيم}؛ هذا تعليل للحكم؛ فالحكم انتفاء الإثم؛ والعلة: {إن الله غفور رحيم}؛ {غفور}، يحتمل أن تكون صيغة مبالغة – وقد ورد أن من صيغ المبالغة (فعول) – لكثرة مغفرته سبحانه وتعالى، وكثرة من يغفر لهم؛ فالكثرة هنا واقعة في الفعل وفي المحل؛ في الفعل: كثرة غفرانه لذنوب عباده؛ وفي المحل: كثرة المغفور لهم؛ ويحتمل أن تكون صفة مشبهة؛ وال{غفور} مأخوذ من الغفر؛ وهو الستر مع الوقاية؛ وليس الستر فقط؛ ومنه سمِّي (المغفر) الذي يغطى به الرأس عند الحرب؛ لأنه يتضمَّن الستر والوقاية؛ ويدلُّ لذلك قوله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وحاسبه: ((قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم([1]))).

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الغفور}: فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، في قوله تعالي: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الحجر: ٤٩]، {وَإِنْ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٨٩٤).

يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧]، {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ}، وقد ذكر اسم الله {الغفور} في أحد عشر موضعًا معرفًا بالألف واللام، وفي اثنين وسبعين موضعًا بعلامة التنوين، كقوله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم} [البقرة: ١٩٩]، {وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورا رَحِيما}[النساء: ١٠٦]، وذكر الوصف الذي دلَّ عليه الاسم في قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ}[الرعد: ٦]، فقوله: {ذو مغفرة}: ورد في موضعين، الموضع السابق وقوله: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} [فصلت: ٤٣]، وفي بيان أن الوصف هو وصف فعل يتعلق بمشيئته ورد بلفظ {يغفر} في ثمانية عشر موضعًا: {وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[الفتح: ١٤].

وعند البخاري من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أن أبا بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه قَالَ لِلنَّبِي ﷺ عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي قَالَ: ((قُلِ اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ([١]))، وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث مِحْجَنَ بْنَ الأَدْرَعِ رضي الله عنه أنه قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلاَتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ: فَقَالَ: ((قَدْ غُفِرَ لَهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ ثَلاَثًا([٢]))، وروى أبو داود أيضا وصححه الشيخ الألباني من حديث وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ قَالَ صَلى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ((اللهُمَّ إِنَّ فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جِوَارِكَ فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَمْدِ اللهُمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ([٣])).

و{الغفور} في اللغة على وزن فعول وهي من صيغ المبالغة التي تدل على الكثرة في الفعل، وأصل الغَفْرِ التغطية والستر، و(غَفَرَ الله ذنوبه): أي سترها، وعند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: ((إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ([٤])).

١- (قلت): البخاري (٨٣٤).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٩٠٥).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٦٧٧).

٤- (قلت): البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨).

واسم الله {الغفور} في أغلب المواضع التي ورد فيها يحمل دعوة للاستغفار العام والخاص، الاستغفار العام هو الاستغفار من صغائر الذنوب، وما يدور من الخواطر في القلوب، فالقلب فيه منطقة حديث النفس، ومنطقة الكسب، فمن المنطقة الأولى تخرج الخواطر التي تتطلب الاستغفار العام، كما قال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}[يوسف: ٥٣]، وعند البخاري من حديث أَبي هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً([1]))، وعند مسلم من حديث الأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ([2]))، أما الاستغفار الخاص فهو متعلق بمنطقة الكسب بعد اقتراف الإثم وتعمد الفعل كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً}[الفرقان: ٧٠]، فالمسلم لابدَّ أن يستغفر استغفارًا عامًّا وخاصًّا، وهذه طبيعة البشر، وعند مسلم من حديث أَبِى أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ أن رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: ((لَوْ أَنَّكُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ ذُنُوبٌ يَغْفِرُهَا اللهُ لَكُمْ لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ لَهُمْ ذُنُوبٌ يَغْفِرُهَا لَهُمْ([3]))).

واسم الله {الغفور} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة المغفرة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى صفة المغفرة وحدها بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية والعزة والأحدية والحكمة والعظمة والرأفة والرحمة وغير ذلك من أوصاف الكمال؛ واسم الله {الغفور} دلَّ على صفة من صفات الأفعال.

كيف ندعو الله باسمه {الغفور} دعاء مسألة ودعاء عبادة، دعاء المسألة كما ورد في قول النبي لأبي بكر وهو يعلِّمه الدعاء ((قُلِ اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كثيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))، وفي حديث وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ: ((اللهُمَّ إِنَّ فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جِوَارِكَ فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَمْدِ اللهُمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)).

أما دعاء العبادة، فالعبد يسارع فيه بالتوبة، وعند مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِيِّ ﷺ قال فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجل أنه قَالَ: ((أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَي رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا

١- (قلت): البخاري (٦٣٠٧).
٢- (قلت): مسلم (٢٧٠٢).
٣- (قلت): مسلم (٢٧٤٨).

يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَي رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ([1])).

كما أن المسلم يستر على إخوانه عيوبهم ويغفر لهم إساءتهم توحيد لله في اسمه {الغفور}: {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[التغابن: ١٤].

قال ابن العثيمين: وقوله تعالى: {الرحيم}، صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء}[العنكبوت: ٢١]، فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل؛ وأهل التأويل ـ والأصح أن نسميهم أهل التحريف ـ يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المراد برحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة، ولين؛ والرقة، واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصا؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين([2]).

وهنا مسائل تتعلّق بالآية:

١ ـ نجاسة الميتة حسيَّة.

٢ ـ الذي يعيش في البَر والبحر يعطى حكم البَر تغليبًا لجانب الحظر([3]).

٣ ـ بالنسبة لميتة الآدمي ـ إذا اضطر إليها الإنسان ـ اختلف فيها أهل العلم ـ؛ فالمشهور عند الحنابلة أنه لا يجوز أن يأكلها ـ ولو اضطر ـ؛ وقالت الشافعية: (إنه يجوز أكلها عند الضرورة) ـ وهو الصحيح ـ.

٤ ـ كل المحرَّمات إذا اضطر إليها وزالت بها الضرورة كانت مباحة؛ قلنا: (وزالت بها الضرورة) احترازًا ممّا لا تزول به الضرورة، كما إذا ما اضطر الإنسان إلى أكل سم ـ فلا يجوز أن يأكل ـ؛ لأنه لا تزول بها ضرورته؛ بل يموت به؛ ولو اضطر إلى شرب خمر لعطش لم يحل له؛ لأنه لا تزول به ضرورته؛ ولذلك لو احتاج إلى شربه لدفع لقمة غصَّ بها حل له؛ لأنه تزول به ضرورته.

١- (قلت): مسلم (٢٧٥٨).

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلاً عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

٣- (قلت): إعطاء هذا الحكم لا دليل عليه، ويخالف الأدلة العامة التي ذكرها الشنقيطي فيما سبق.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله.

٢- أن التحريم والتحليل إلى الله؛ لقوله تعالى: {إنما حرَّم عليكم}.

٣- حصر المحرَّمات في هذه الأشياء الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله؛ لقوله تعالى: {إنما}؛ لأنها أداة حصر؛ لكن هذا الحصر قد بيّن أنه غير مقصود؛ لأن الله حرَّم في آية أخرى غير هذه الأشياء: حرَّم ما ذبح على النصب – وليس من هذه الأشياء –؛ وحرَّم النبي ﷺ كل ذي ناب من السباع([1])، وكل ذي مخلب من الطير([2])– وليس داخلًا في هذه الأشياء –؛ وحرَّم النبي ﷺ الحمر الأهلية([3])– وليس داخلًا في هذه الأشياء –؛ فيكون هذا الحصر غير مقصود بدلالة القرآن والسنة.

٤- تحريم جميع الميتات؛ لقوله تعالى: {والميتة}؛ و{أل} هذه للعموم إلا أنه يستثنى من ذلك السمك والجراد ـ يعني ميتة البحر والجراد ـ؛ للأحاديث الواردة في ذلك؛ والمحرَّم هنا هو الأكل؛ لقول النبي ﷺ في الميتة: ((إنما حرِّم أكلها([4])))؛ ويؤيده أن الله سبحانه وتعالى قال هنا: {كلوا من طيبات ما رزقناكم}[البقرة: ٥٧]، ثم قال تعالى: {إنما حرَّم عليكم الميتة}؛ لأن السياق في الأكل؛ ويدخل في تحريم أكل الميتة جميع أجزائها.

٥- تحريم الدم المسفوح؛ لقوله تعالى: {والدم}.

٦- تحريم لحم الخنزير؛ لقوله تعالى: {ولحم الخنزير}؛ وهو شامل لشحمه وجميع أجزائه؛ لأن اللحم المضاف للحيوان يشمل جميع أجزائه؛ لا يختص به جزء دون جزء؛ اللهم إلا إذا قرن بغيره، مثل أن يقال: (اللحم والكبد)، أو (اللحم والأمعاء)، فيخرج منه ما خُصِّص.

٧- تحريم ما ذكر اسم غير الله عليه؛ لقوله تعالى: {وما أهل به لغير الله}.

٨- تحريم ما ذبح لغير الله ـ ولو ذكر اسم الله عليه ـ، مثل أن يقول: (بسم الله والله أكبر؛ اللهم هذا للصنم الفلاني)؛ لأنه أهل به لغير الله.

١- راجع البخاري ص٤٧٦، كتاب الذبائح والصيد، باب ٢٩: أكل كل ذي ناب من السباع، حديث رقم ٥٥٣٠؛ ومسلما ص١٠٢٣، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب ٣: باب تحريم اكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، حديث رقم ٤٩٨٨ [١٢] ١٩٣٢.

٢- راجع مسلما ص١٠٢٣، كتاب الصيد والذبائح ... ، باب ٣: تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، حديث رقم ٤٩٩٦ [١٦] ١٩٣٤.

٣- راجع البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ٢٨: لحوم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٥٢١، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل لحمه من الحيوان، باب ٥: تحريم أكل لحم الإنسية، حديث رقم ٥٠٠٥.

٤- أخرجه البخاري ص٤٧٥، كتاب الذبائح والصيد، باب ٢٨: لحوم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٥٢٧؛ ومسلم ص١٠٢٤، كتاب الصيد والذبائح ... ، باب ٥: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٠٠٧ [٢٣] ١٩٣٦.

٩- أن الشرك قد يؤثر الخبث في الأعيان ـ وإن كانت نجاسته معنوية ـ؛ هذه البهيمة التي أهل لغير الله بها نجسة خبيثة محرَّمة؛ والتي ذكر اسم الله عليها طيبة حلال؛ تأمَّل خطر الشرك وأنه يتعدى من المعاني إلى المحسوسات؛ وهو جدير بأن يكون كذلك؛ لهذا قال الله عز وجل: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا}[التوبة: ٢٨]، مع أن بدن المشرك ليس بنجس؛ لكن لقوة خبثه المعنوي، وفساد عقيدته وطويته صار مؤثِّرًا حتى في الأمور المحسوسة.

١٠- فضيلة الإخلاص لله.

١١- أن الضرورة تبيح المحظور؛ لقوله تعالى: {فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه}؛ ولكن هذه الضرورة تبيح المحرم بشرطين:

الشرط الأول: صدق الضرورة بحيث لا يندفع الضرر إلا بتناول المحرَّم.

الشرط الثاني: زوال الضرورة به حيث يندفع الضَّرر.

فإن كان يمكن دفع الضرورة بغيره لم يكن حلالًا، كما لو كان عنده ميتة ومذكاة، فإن الميتة لا تحل حينئذ؛ لأن الضرورة تزول بأكل المذكاة؛ ولو كان عطشان وعنده كأس من خمر لم يحل له شربها؛ لأن ضرورته لا تزول بذلك؛ إذًا لا يزيده شرب الخمر إلا عطشًا؛ ولهذا لو غصَّ بلقمة وليس عنده ما يدفعها به إلا كأس خمر، كان شربها لدفع اللقمة حلالًا.

١٢- إثبات رحمة الله عز وجل؛ لأن من رحمة الله أن أباح المحرَّم للعبد لدفع ضرورته.

١٣- أن الأعيان الخبيثة تنقلب طيبة حين يحكم الشرع بإباحتها على أحد الاحتمالين؛ فإن حل الميتة للمضطر يحتمل حالين:

الأولى: أن نقول: إن الله على كل شيء قدير؛ فالذي جعلها خبيثة بالموت بعد أن كانت طيبة حال الحياة قادر على أن يجعلها عند الضرورة إليها طيبة، مثل ما كانت الحمير طيبة تؤكل حال حلها، ثم أصبحت بعد تحريمها خبيثة لا تؤكل؛ فالله سبحانه وتعالى هو خالق الأشياء، وخالق صفاتها، ومغيرها كيف يشاء؛ فهو قادر على أن يجعلها إذا اضطر عبده إليها طيبة.

الحال الثانية: أنها ما زالت على كونها خبيثة؛ لكنه عند الضرورة إليها يباح هذا الخبيث للضرورة؛ وتكون الضرورة واقية من مضرتها؛ فتناولها للضرورة مباح؛ وضررها المتوقع تكون الضرورة واقية منه.

والحالان بينهما فرق؛ لأنه على الحال الأولى انقلبت من الرجس إلى الطهارة؛ وعلى الحال الثانية هي على رجسيتها لكن هناك ما يقي مضرَّتها - وهو الضرورة -؛ وهذه الحال أقرب؛ لأنه لو كان عند الضرورة يزول خبثها لكانت طيبة تحل للمضطر، وغيره؛ ويؤيده الحس: فإن النفس كلما كانت أشدُّ طلبًا للشيء كان هضمه سريعًا، بحيث لا يتضرَّر به الجسم؛ وانظر إلى نفسك إذا أكلت طعامًا على طعام يتأخر هضم الأول، والثاني - مع ما يحصل فيه من الضرر -؛ لكن إذا

أكلت طعامًا وأنت جائع فإنه ينهضم بسرعة؛ ويشهد لهذا ما يروى عن صهيب الرومي أنه كان في عينيه رمد؛ فجيء إلى النبي ﷺ بتمر وهو حاضر؛ فأكل منه النبي ﷺ، فأراد صهيب أن يأكل منه، فقال له النبي ﷺ: ((تأكل تمرًا وبك رمد)). لأن المعروف أن التمر يزيد في وجع العين – فقال: ((إني أمضغ من ناحية أخرى([1])))، أي: إذا كانت اليمنى هي المريضة بالرمد أمضغه على الجانب الأيسر؛ فضحك النبي ﷺ، ومكَّنه من أكله؛ قال ابن القيم رحمه الله: (إن الحكمة في أن الرسول مكَّنه – مع أن العادة أن هذا ضرر –؛ لأن قوة طلب نفسه له يزول بها الضرر: ينهضم سريعًا، ويتفاعل مع الجسم، ويذهب ضرره).

١٤– أن من تناول المحرَّم بدون عذر فهو آثم؛ لقوله تعالى: {فلا إثم عليه}؛ فعلم منها أن من كان غير مضطر فعليه إثم.

(تنبيه)

قد يقال إنه يستفاد من إباحة المحرَّم عند الضرورة: وجوب تناوله؛ لأن المحرَّم لا ينتهك إلا بواجب؛ وهذه قاعدة ذهب إليها بعض أهل العلم: قال: إن المحرم إذا انتهك فهو دليل على الوجوب، مثلما قالوا في وجوب الختان: فقد أخذ بعض العلماء الوجوب من هذه القاعدة، قالوا: إن الأصل أن قطع الإنسان شيئًا من بدنه حرام؛ والختان قطع شيء من بدنه؛ ولا ينتهك المحرَّم إلا لشيء واجب؛ فقرَّروا وجوب الختان من هذه القاعدة؛ ولكنها غير مطَّردة؛ ولهذا يجوز للمسافر أن يفطر في رمضان؛ والفطر انتهاك محرَّم مع أن الفطر ليس بواجب.

١٥– إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {الغفور} و{الرحيم}، وما تضمَّناه من صفة.

١٦– إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمَّن الاسم والصفة والأثر – الذي هو الحكم المترتِّب عليه –؛ والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر – وهو الحكم –؛ لأنه لكونه غفورًا رحيمًا غفر لمن تناول هذه الميتة لضرورته، ورحمه بحلِّها؛ فيكون في هذا دليل واضح على أن أسماء الله عز وجل تدلُّ على (الذات) الذي هو المسمّى؛ و(الصفة)؛ و(الحكم)، كما قال بذلك أهل العلم – رحمهم الله –.

(تنبيه)

ما أهل به لغير الله أنواع:

١– أخرجه ابن ماجة ص٢٦٨٤، كتاب الطب، باب ٣: الحمية، حديث رقم ٣٤٤٣، وقال الألباني في صحيح ابن ماجة ٢/٣٥٣، حديث رقم ٢٧٧٦: (حسن).

النوع الأول: أن يهلَّ بها لغير الله فقط، مثل أن يقول: باسم جبريل، أو محمد، أو غيرهما؛ فالذبيحة حرام بنص القرآن ـ ولو ذبحها لله ـ.

النوع الثاني: أن يهلَّ بها لله ولغيره، مثل أن يقول: (باسم الله واسم محمد)؛ فالذبيحة حرام أيضًا؛ لأنَّه اجتمع مبيح وحاظر؛ فغلب جانب الحظر.

النوع الثالث: أن يهلَّ بها باسم الله وينوي به التقرب والتعظيم لغيره؛ فالذبيحة حرام أيضًا؛ لأنه شرك.

وهل يكون ذبح الذبيحة للضيف إهلالًا بها لغير الله؟

الجواب: إن قصد بها إكرام الضيف فلا يدخل بلا شك، كما لو ذبح الذبيحة لأولاده ليأكلوها، وإن قصد بذلك التقرب إليه، وتعظيمه تعظيم عبادة، فإنه شرك، كالمذبوح على النصب تمامًا، فلا يحلُّ أكلها؛ وقد كان بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ إذا قدِم رئيسهم أو كبيرهم يذبحون بين يديه القرابين تعظيمًا له ـ لا ليأكلها، ثم تترك للناس ـ؛ وهذا يكون قد ذبح على النصب؛ فلا يحل أكله ـ ولو ذكر اسم الله عليه ـ.

النوع الرابع: أن لا يهلَّ لأحد ـ أي لم يذكر عليها اسم الله، ولا غيره؛ فالذبيحة حرام أيضًا؛ لقوله تعالى: {ولا تأكلوا ممَّا لم يذكر اسم الله عليه}[الأنعام: ١٢١]، ولقول النبي ﷺ: ((ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا([1]))).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)

قال ابن العثيمين: {إن الذين يكتمون ... }: جملة مكوَّنة من {إن} الدالَّة على التوكيد؛ و{الذين} اسمها؛ و{أولئك}: (أولاء) مبتدأ ثان؛ وجملة: {ما يأكلون} خبر المبتدأ الثاني؛ والجملة من المبتدأ والخبر، خبر {إن}.

وقوله تعالى: {يكتمون ما أنزل الله}: أي يخفون؛ {من الكتاب}: {أل}، إمّا أن تكون للعهد؛ أو للجنس؛ فإن قلنا: (للعهد) فالمراد بها التوراة؛ ويكون المراد بـ{الذين يكتمون} اليهود؛ لأنَّهم كتموا ما علِموه من صفات النبي ﷺ؛ وإن قلنا: إن {أل} للجنس، شمل جميع الكتب: التوراة والإنجيل وغيرها؛ ويكون {الذين يكتمون}، يشمل اليهود والنصارى وغيرهما؛ وهذا أرجح لعمومه.

١- أخرجه البخاري ص١٩٧، كتاب الشركة، باب ١٦: من عدل عشرة من الغنم بجزور في القسم، حديث رقم ٢٥٠٧، وأخرجه مسلم ص١٠٢٩، كتاب الأضاحي، باب ٤: جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائل العظام، حديث رقم ٥٠٩٢ [٢٠] ١٩٦٨.

- (قلت): وهو قول شيخ الإسلام أيضًا. أنظر تفسير الآية (١٢١) من سورة الأنعام.

وقوله تعالى: {ما أنزل الله من الكتاب}: أي على رسله؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب}[الحديد: ٢٥]؛ فكل رسول فإن معه كتابًا من الله عز وجل يهدي به الناس.

{ويشترون به}: يعني يأخذون بما أنزل الله؛ ويجوز أن يكون الضمير عائدًا على الكتم؛ يعني يأخذون بهذا الكتم.

{ثمنًا قليلًا}: هذا الثمن؛ إما المال؛ وإما الجاه والرياسة؛ وكلاهما قليل بالنسبة لما في الآخرة.

{أولئك ما يأكلون في بطونهم إلّا النار}: الاستثناء هنا مفرغ؛ والإشارة للبعيد لبعد مرتبتهم وانحطاطها والتنفير منها.

قال السعدي: هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله أن يبيِّنوه للناس ولا يكتموه، فمن تعوَّض عنه بالحطام الدنيوي ونبذ أمر الله، فأولئك: {ما يأكلون في بطونهم إلّا النار}، لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرَّمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم.

قال ابن العثيمين: {ولا يكلمهم الله يوم القيامة}: يعني لا يكلمهم تكليم رضا؛ فالنفي هنا ليس نفيًا لمطلق الكلام؛ ولكنه للكلام المطلق الذي هو كلام الرضا.

قال الطبري: يقول: ولا يكلِّمهم بما يحبُّون ويشتهون، فأما بما يسوئهم ويكرَهون، فإنه سيكلمهم. لأنه قد أخبر تعالى ذكره أنه يقول لهم – إذا قالوا: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ}[المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

قال السعدي: فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، {ولا يزكيهم}: أي: لا يطهِّرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكِّهم لأنَّهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه.

قال ابن العثيمين: {ولهم عذاب أليم}؛ (فعيل) هنا بمعنى مفعل؛ و(مؤلم) أي موجع؛ والعذاب هو النكال والعقوبة([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– وجوب نشر العلم؛ لقوله تعالى: {إن الذين يكتمون}؛ ويتأكد وجوب نشره إذا دعت الحاجة إليه بالسؤال عنه؛ إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

٢– أن الكتب منزلة من عند الله؛ لقوله تعالى: {ما أنزل الله من الكتاب}.

٣– علوّ الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ما أنزل الله}؛ فإن لازم النزول من عنده أن يكون سبحانه وتعالى عاليًا.

١- (قلت): أنظر كلام القرطبي وشيخ الإسلام عن كتم العلم عند تفسير الآية (١٥٩).

٤– أن هذا الوعيد على من جمع بين الأمرين: {يكتمون}، و{يشترون}؛ فأمّا من كتم بدون اشتراء أو اشترى بدون كتم؛ فإن الحكم فيه يختلف؛ إذا كتم بدون اشتراء فقد قال الله سبحانه وتعالى: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون}[البقرة: ١٥٩]؛ وهذا يدلُّ على أن كتمان ما أنزل الله من كبائر الذنوب؛ ولكن لا يستحق ما ذكر في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وأما الذين يشترون بما أنزل الله من الكتاب ثمنًا قليلًا بدون كتمان فقد قال الله تعالى: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون}[هود: ١٥، ١٦].

فالناس في كتمان ما أنزل الله ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يكتم العلم بخلًا به ومنعًا لانتفاع الناس به.

والقسم الثاني: من يكتم العلم ولا يبيِّنه إلا لغرض دنيوي من مال، أو جاه، أو رئاسة، أو غير ذلك.

والقسم الثالث: من يكتم العلم بخلًا به، ولا يبيِّنه إلا لغرض دنيوي؛ فيجمع بين الأمرين؛ وهذا شرُّ الأقسام؛ وهو المذكور في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وقد تبيَّن عقوبة كل واحد من هذه الأقسام فيما سبق.

أما من أظهر العلم لله، وتعلَّم لله، فهذا هو خير الأقسام؛ وهو القسم الرابع الذي يبيِّن بلسانه وحاله وقلمه ما أنزل الله عز وجل؛ والذي يكتم خوفًا إذا كان سيبيِّن في موضع آخر فلا بأس؛ أما الذي يكتم مطلقًا فهذا لا يجوز؛ فيجب أن يبيِّن ولو قتل ـ إذا كان يتوقف بيان الحق على ذلك ـ، كما جرى لبعض أهل السنة الذين صبروا على القتل في بيانها لتعينه عليهم.

٥– أن متاع الدنيا قليل ـ ولو كثر ـ؛ لقوله تعالى: {ويشترون به ثمنًا قليلًا}.

٦– إطلاق المسبب على السبب؛ لقوله تعالى: {أولئك ما يأكلون في بطونهم إلّا النار}، هم لا يأكلون النار؛ ولكن يأكلون المال؛ لكنه مال سببٌ للنار.

٧– إقامة العدل في الجزاء؛ لقوله تعالى: {أولئك ما يأكلون في بطونهم إلّا النار}؛ فجعل عقوبتهم من النار بقدر ما أكلوه من الدنيا الذي أخذوه عوضًا عن العلم.

٨– إثبات كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ولا يكلِّمهم الله}؛ لأنه لو كان لا يتكلم لا معهم، ولا مع غيرهم، لم يكن في نفي تكليمه إياهم فائدة؛ فنفيه لتكليمه هؤلاء يدلُّ على أنه يكلِّم غيرهم؛ وقد استدل الشافعي ـ رحمه الله ـ بقوله تعالى: {كلا إنهم}[المطففين: ١٥]: أي الفجار {عن ربهم يومئذ لمحجوبون}[المطففين: ١٥]: برؤية الأبرار له؛ لأنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا لرؤية الأبرار في حال الرضا؛ إذ لو كان لا يرى مطلقًا لم يكن لذكر حجب الفجار فائدة؛ وكلام الله عز وجل هو الحرف والمعنى؛ فالله سبحانه وتعالى يتكلَّم بكلام، بحروف وصوت؛ وأدلة هذا وتفصيله مذكور في كتب العقائد.

٩- أن الكلام من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: {ولا يكلمهم الله يوم القيامة}؛ لأن تخصيصه بيوم القيامة يدلُّ على أنه يتعلَّق بمشيئته؛ وهذه هي الصفات الفعلية؛ لكن أصل الكلام صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلِّمًا.

١٠- إثبات يوم القيامة.

١١- أن يوم القيامة يزكّى فيه الإنسان؛ وذلك بالثناء القولي والفعلي؛ فإن الله يقول لعبده المؤمن حين يقرره بذنوبه: ((سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم))؛ وأما الفعلي؛ فإن علامة الثناء أنه يعطى كتابه بيمينه، ويشهد الناس كلهم على أنه من المؤمنين؛ وهذه تزكية بلا شك.

١٢- غلظ عقوبة هؤلاء بأن الله تعالى لا يكلِّمهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم؛ والمراد كلام الرضا؛ وأما كلام الغضب فإن الله تعالى يكلِّم أهل النار، كما قال تعالى: {اخسئوا فيها ولا تكلَّمون}.

١٣- إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: {ولهم عذاب أليم}.

١٤- أن عذاب هؤلاء الكافرين عذاب مؤلم ألمًا نفسيًّا، وألمًا جسمانيًا؛ فأمّا الألم النفسي فدليله قوله تعالى: {قال اخسئوا فيها ولا تكلَّمون}؛ فهذا من أبلغ ما يكون من الإذلال الذي به الألم النفسي؛ وأما الألم البدني فدليله قول الله تعالى: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزًا حكيمًا}[النساء: ٥٦]، وقوله تعالى: {وسقوا ماءً حميمًا فقطَّع أمعاءهم}[محمد: ١٥]، وقوله تعالى: {يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق}[الحج: ١٩- ٢٢].

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)

قال ابن العثيمين: {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى}: المشار إليهم: {الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا}[البقرة: ١٧٤]؛ و{اشتروا}: بمعنى اختاروا؛ ولكنَّه عبر بهذا؛ لأن المشتري طالب راغب في السلعة؛ فكأن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ طالبون راغبون في الضلالة بمنزلة المشتري؛ و{الضلالة} هنا كتمان العلم؛ فإنَّه ضلال؛ وأما {الهدى}، فهو بيان العلم ونشره.

وقوله تعالى: {بالهدى}: الباء هنا للعوض؛ ويقول الفقهاء: إن ما دخلت عليه الباء هو الثمن؛ سواء كان نقدًا أم عينًا غير نقد؛ فإذا قلت: اشتريت منك دينارًا بثوب، فالثمن الثوب؛ وقال بعض الفقهاء: الثمن هو النقد مطلقًا؛ والصحيح الأول؛ والثمن الذي دفعه هؤلاء هو الهدى؛ فهم دفعوا الهدى – والعياذ بالله – لأخذ الضلالة.

{والعذاب بالمغفرة}؛ فهم أيضًا اشتروا العذاب بالمغفرة؛ ولو أنهم بيَّنوا وأظهروا العلم لَجُوزوا بالمغفرة؛ ولكنهم كتموا فجوزوا بالعذاب.

{فما أصبرهم على النار}؛ {ما} تعجبية مبتدأ؛ وجملة {أصبرهم} خبرها؛ والمعنى: شيء عظيم أصبرهم؛ أو ما أعظم صبرهم على النار؛ وهذا التعجُّب يتوجُّه عليه سؤالان:

السؤال الأول: أهو تعجب من الله أم تعجيب منه؛ بمعنى: أيرشدنا إلى أن نتعجَّب ـ وليس هو موصوفًا بالعجب؛ أو أنه من الله؟

السؤال الثاني: أن قوله: {فما أصبرهم} يقتضي أنهم يصبرون ويتحملون مع أنهم لا يتحملون ولا يطيقون؛ ولهذا يقولون لخزنة جهنم: {ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب}[غافر: ٤٩]؛ وينادون: {يا مالك ليقض علينا ربك}[الزخرف: ٧٧] أي ليهلكنا؛ ومن قال هكذا فليس بصابر؟

والجواب عن السؤال الأول: وهو أهو تعجُّب أو تعجيب: فقد اختلف فيه المفسِّرون؛ فمنهم من رأى أنه تعجُّب من الله عز وجل؛ لأنه المتكلِّم به هو الله؛ والكلام ينسب إلى من تكلَّم به؛ ولا مانع من ذلك لا عقلًا ولا سمعًا ـ أي لا مانع يمنع من أن الله سبحانه وتعالى يعجب؛ وقد ثبت لله العجب بالكتاب والسنة؛ فقال الله تعالى في القرآن: {بل عجبت ويسخرون}[الصافات: ١٢] بضم التاء؛ وهذه القراءة سبعية ثابتة عن النبي ﷺ؛ والتاء فاعل يعود على الله سبحانه وتعالى المتكلم؛ وأما السنة ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره([1])))؛ وعلى هذا فالعجب لله ثابت بالكتاب والسنة؛ فلا مانع من أن الله يعجب من صبرهم؛ فإذا قال قائل: العجب يدلُّ على أن المتعجِّب مباغت بما تعجَّب منه؛ وهذا يستلزم أن لا يكون عالمًا بالأمر من قبل ـ وهو محال على الله؟

فالجواب: أن سبب العجب لا يختص بما ذكر؛ بل ربما يكون سببه الإنكار على الفاعل حيث خرج عن نظائره، كما تقول: (عجبت من قوم جحدوا بآيات الله مع بيانها وظهورها)؛ وهو بهذا المعنى قريب من معنى التوبيخ واللَّوم؛ ومن

١- أخرجه أحمد ٤/١١، حديث رقم ١٦٢٨٨، وابن ماجة ص٢٤٨٨، كتاب السنة، باب ١٣: فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم ١٨١، وكلاهما بلفظ: (ضحك ربنا ...)؛ وأما لفظ (عجب ربنا) فقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية وقال: حديث حسن، وكذلك ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى في سورة البقرة: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ...).

– (قلت): قال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٨١٠): والخلاصة أن الحديث بمجموع الطريقين حسن عندي، و لعله الذي يعنيه ابن تيمية بقوله: (حديث حسن) في (العقيدة الواسطية).

المفسِّرين من قال: إن المراد بالعجب: التعجيب؛ كأنه قال: (اعجَب أيها المخاطب من صبرهم على النار)؛ وهذا وإن كان له وجه لكنه خلاف ظاهر الآية.

وأما الجواب عن السؤال الثاني: وهو كيف يتعجَّب من صبرهم مع أنهم لم يصبروا على النار – فقال أهل العلم: إنهم لما صبروا على ما كان سببًا لها من كتمان العلم صاروا كأنهم صبروا عليها، مثلما يقال للرجل الذي يفعل أشياء ينتقد فيها: ما أصبرك على لوم الناس لك؛ مع أنه ربما لم يلوموه أصلًا؛ لكن فعل ما يقتضي اللَّوم؛ يصير معنى: {ما أصبرهم على النار}: أنهم لمّا كانوا يفعلون هذه الأفعال الموجبة للنار صاروا كأنهم يصبرون على النار؛ لأن الجزاء من جنس العمل كما تفيده الآيات الكثيرة، فيعبّر بالعمل عن الجزاء؛ لأنه سببه المترتب عليه؛ و{النار} هي الدار التي أعدَّها الله سبحانه وتعالى للكافرين والظالمين؛ لكن الظلم إن كان ظلم الكفر فهم مخلدون فيها؛ وإن كان ظلمًا دون الكفر فإنهم مستحقون للعذاب بحسب حالهم.

قال الطبري: ما أجرأهم على عَذاب النار وأعملهم بأعمال أهلها. وذلك أنه مسموع من العرب: (ما أصبرَ فلانًا على الله)، بمعنى: ما أجرأ فلانًا على الله! وإنما يعجب الله خَلقه بإظهار الخبر عن القوم الذين يكتمون ما أنزل الله تبارك وتعالى من أمر محمد ﷺ ونبوّته، واشترائهم بكتمان ذلك ثَمنًا قليلًا من السُّحت والرِّشى التي أعطوها – على وَجه التعجُّب من تقدمهم على ذلك. مع علمهم بأنّ ذلك موجبٌ لهم سَخط الله وأليم عقابه.

وإنما معنى ذلك: فما أجرأهم على عذاب النار! ولكن اجتزئ بذكر {النار} من ذكر (عذابها)، كما يقال: (ما أشبه سخاءك بحاتم)، بمعنى: ما أشبه سَخاءك بسخاء حاتم، (وما أشبه شَجاعتك بعنترة).

عن قتادة وعن الربيع وعن مجاهد: {فما أصْبَرهم على النار}، يقول: فما أجرأهم على العمل الذي يقربهم إلى النار. وعن الحسن في قوله: {فما أصْبرهم على النار}، قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النار.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن سبب ضلال هؤلاء وكتمانهم الحق أنهم لم يريدوا الهدى؛ وإنما أرادوا الضلال والفساد ـ والعياذ بالله ـ؛ لقوله تعالى: {أولئك الذين اشتروا ... } إلخ.

٢– الرَّد على الجبرية؛ لإضافة الفعل إلى الفاعل.

٣– أن كتمان العلم أو بيانه لغرض من الدنيا من الضلال؛ وذلك؛ لأنه جاهل بما يجب على العالم في علمه من النشر والتبليغ، ولأنه جهل على نفسه حيث منعها هذا الخير العظيم في نشر العلم؛ لأن من أفضل الأعمال نشر العلم؛ فإنه ـ أعني العلم ـ ليس كالمال؛ المال يفنى؛ والعلم يبقى؛ أرأيت الآن في الصحابة رضي الله عنهم أناس أغنياء أكثر غنى من أبي هريرة

رضي الله عنه وذكر أبي هريرة بين الخاص والعام الآن أكثر، والثواب الذي يأتيه مما روى عن النبي ﷺ من أحاديث أكثر وأعظم؛ ثم أرأيت منزلة الإمام أحمد بن حنبل ونحوه من الأئمة مع من في عهدهم من الخلفاء والوزراء والأغنياء، هل بقيَ ذكرهم كما بقي ذكر هؤلاء الأئمة؟!! فكتمان العلم لا شك أنه ضلالة في الإنسان وجهالة.

٤- أن عقوبة الله لهم ليست ظلمًا منه؛ بل هم الذين تسبَّبوا لها، حيث اشتروا الضلالة بالهدى؛ والله عز وجل ليس بظلّام للعبيد.

٥- أن نشر العلم وإظهاره وبيانه من أسباب المغفرة؛ لأنه جعل لهم العذاب في مقابلة الكتمان، واختيارهم العذاب على المغفرة، والضلالة على الهدى؛ فدلَّ ذلك على أن نشر العلم من أسباب مغفرة الذنوب؛ كما أن الذنوب أيضًا تحول بين الإنسان والعلم، فكذلك كتم العلم يحول بين الإنسان والمغفرة؛ وقد استدلَّ بعض العلماء بأن الذنوب تحول بين الإنسان والعلم بقوله تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا * واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا}[النساء: ١٠٥، ١٠٦]؛ فقال تعالى: {لتحكم}، ثم قال تعالى: {واستغفر الله}؛ فدلَّ هذا على أن الاستغفار من أسباب فتح العلم ـ وهو ظاهر ـ؛ وبقوله تعالى: {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا ممّا ذكِّروا به}[المائدة: ١٣]؛ لأن الذنوب ـ والعياذ بالله ـ رَينٌ على القلوب، كما قال تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}[المطففين: ١٤]؛ فإذا كانت رَينًا عليها فإن الاستغفار يمحو هذا الرين، وتبقى القلوب نَيِّرة مدركة واعية.

٦- إثبات العجب لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {فما أصبرهم على النار} ـ على أحد الاحتمالين ـ؛ وهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلَّق بمشيئته؛ وكل صفة من صفات الله تتعلَّق بمشيئته فهي من الصفات الفعلية.

فإذا قال قائل: ما دليلكم على أن العجب يتعلق بمشيئته؟

فالجواب: أن له سببًا؛ وكل ما له سبب فإنه متعلّق بالمشيئة؛ لأن وقوع السبب بمشيئة الله؛ فيكون ما يتفرع عنه كذلك بمشيئة الله.

٧- توبيخ هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله؛ لقوله تعالى: {فما أصبرهم على النار}؛ وكان الأجدر بهم أن يتخذوا وقاية من النار لا وسيلة إليها.

٨- الإشارة إلى شدَّة عذابهم، كما يقال في شخص أصيب بمرض عظيم: (ما أصبره على هذا المرض)، أي: أنه مرض عظيم يؤدي إلى التعجُّب من صبر المريض عليه.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

قال ابن العثيمين: {ذلك بأن الله نزل الكتاب}: المشار إليه ما ذكر من جزائهم؛ أي ذلك الجزاء الذي يجازون به؛ {بأن}: الباء هنا للسببية؛ والرابط هنا بين السبب والمسبِّب واضح جدًا؛ لأنه ما دام الكتاب نازلًا بالحق فمن اللائق بهذا الكتاب المنزَّل بالحق أن لا يُكتم؛ الحق يجب أن يبيَّن؛ فلمّا أخفاه هؤلاء استحقّوا هذا العذاب؛ ومعنى: {نزل الكتاب بالحق}: أن ما نزل به حق، وأنه نازل من عند الله حقًّا؛ و{الكتاب}، المراد به الجنس: القرآن والتوراة والإنجيل وغيرها من الكتب التي أنزلها الله.

قال السعدي: ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وأيضًا ففي قوله: {نزل الكتاب بالحق} ما يدلُّ على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده، فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

قال ابن العثيمين: {وإن الذين اختلفوا في الكتاب} بكسر همزة {إن} لوقوع اللام في خبرها؛ أي اختلفوا في الكتاب الذي نزّله الله عز وجل بحق؛ وهذا الاختلاف يشمل الاختلاف في أصله: فمنهم من آمن؛ ومنهم من كفر، والاختلاف فيما بينهم أي فيما بين أحد الطرفين: فمنهم من استقام في تأويله؛ ومنهم من حرف في تأويله على غير مراد الله سبحانه وتعالى.

{لفي شقاق بعيد}: أي لفي جانب بعيد عن الحق؛ وهذا البعد يختلف؛ فمنهم من يكون بعيدًا جدًّا؛ ومنهم من يكون دون ذلك.

قال السعدي: أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، والذين حرَّفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم {لفي شقاق}؛ أي: محادَّة، {بعيد} عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبَّة والاجتماع عليه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٥١٤: الِاخْتِلَافُ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: يَذُمُّ فِيهِ الْمُخْتَلِفِينَ كُلَّهُمْ، كَقَوْلِهِ: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} وَقَوْلِهِ: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ}[هود: ١١٨، ١١٩].

وَالثَّانِي: يَمْدَحُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَذُمُّ الْكَافِرِينَ، كَقَوْلِهِ: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[البقرة: ٢٥٣]، وَقَوْلِهِ: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ} إلَى قَوْلِهِ: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[الحج: ١٩- ٢٣]، وَقَوْلِهِ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[الحج: ١٧].

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَالَّذِي ذَمَّهُ مِنْ تَفَرُّقِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاخْتِلَافِهِمْ، ذَمَّ فِيهِ الْجَمِيعَ، وَنَهَى عَنْ التَّشَبُّهِ بِهِمْ، فَقَالَ: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}[آل عمران: ١٠٥]، وَقَالَ: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}[البقرة: ٢١٣].

وَذَلِكَ بِأَنْ تُؤْمِنَ طَائِفَةٌ بِبَعْضِ حَقٍّ وَتَكْفُرَ بِمَا عِنْدَ الْأُخْرَى مِنْ الْحَقِّ، وَتَزِيدَ فِي الْحَقِّ بَاطِلًا، كَمَا اخْتَلَفَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَحِينَئِذٍ، نَقُولُ: مَنْ قَالَ إنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَا تَفَرَّقُوا فِي مُحَمَّدٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا بُعِثَ، إرَادَةَ إيمَانِ بَعْضِهِمْ وَكُفْرِ بَعْضِهِمْ – كَمَا قَالَهُ طَائِفَةٌ – فَالْمَذْمُومُ – هُنَا – مَنْ كَفَرَ، لَا مَنْ آمَنَ. فَلَا يُذَمُّ كُلُّ الْمُخْتَلِفِينَ، وَلَكِنْ يُذَمُّ مَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ رَسُولٌ، فَلَمَّا جَاءَ كَفَرَ بِهِ – حَسَدًا أَوْ بَغْيًا – كَمَا قَالَ تَعَالَى {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}[البقرة: ٨٩].

وَإِنْ أُرِيدَ بِالتَّفَرُّقِ فِيهِ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ، وَتَفَرَّقَتْ أَقْوَالُهُمْ فِيهِ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَ إرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَاخْتِلَافُ هَؤُلَاءِ وَتَفَرُّقُهُمْ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِيهِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ([1]).

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة ج٢ص٥١٤: الاختلاف في كتاب الله نوعان:

أحدهما: أن يكون المختلفون كلهم مذمومين، وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا}[آل عمران: ١٠٥]، وهم الذين تسودُّ وجوههم يوم القيامة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}[البقرة١٧٦]، فجعل المختلفين كلّهم في شقاق بعيد. وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف وفساد ذات البين ويوقع التحزُّب والتباين.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن الإختلاف عند تفسير الآية (٢١٣) من سورة البقرة.

والنوع الثاني: اختلاف ينقسم أهله إلى محمود ومذموم، فمن أصاب الحق فهو محمود، ومن أخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه فإسم الذم موضوع عنه، وهو محمود في اجتهاده معفوٌّ عن خطئه، وإن أخطأه مع تفريطه وعدوانه فهو مذموم. ومن هذا النوع المنقسم قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}[البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: {مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى١٠].

والاختلاف المذموم: كثيرًا ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق، فلا يُقِرُّ له خصمه به، بل يجحده إيّاه بغيًا ومنافسة، فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه، وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق، فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به، فيأخذون حق جميع الطوائف ويَرُدّون باطلهم، فهؤلاء الذين قال الله فيهم: {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣]، فأخبر سبحانه أنه هدى عباده لما اختلف فيه المختلفون. وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم[١])).

فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، وردّ الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممّن هدى لما اختلف فيه من الحق. فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلًا وأقومهم قيلًا، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى، يقرُّ بعضهم بعضًا عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم بالتناظر والتشاور وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب، فيأتي كل منهم بما قدحه زناد فكره وأدركه قوة بصيرته، فإذا قوبل بين الآراء المختلفة والأقاويل المتباينة وعرضت على الحاكم الذي لا يجور وهو كتاب الله وسنة رسوله وتجرد الناظر عن التعصب والحمية واستفرغ وسعه وقصد طاعة الله ورسوله فقلَّ أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال وما هو أقرب إليه، والخطأ وما هو أقرب إليه، فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب وما هو أقرب إليه، والخطأ وما هو أقرب إليه، ومراتب القرب والبعد متفاوتة.

وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداةً ولا افتراقًا في الكلمة ولا تبديدًا للشَّمل، فإن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع، كالجَدِّ مع الإخوة، وعتق أم الولد بموت سيِّدها، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، وفي الخلية، والبرية، والبتة، وفي بعض مسائل الربا، وفي بعض نواقص الوضوء وموجبات الغسل، وبعض مسائل الفرائض

١- (قلت): مسلم (٧٧٠).

وغيرها، فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كانوا كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبَّة والمصافاة والموالاة من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغنًا ولا ينطوي له على معتبة ولا ذم، بل يدلُّ المستفتي عليه مع مخالفته له ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه. فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر، وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحرِّيه الحق.

وهنا نوع آخر من الاختلاف، وهو وفاق في الحقيقة، وهو اختلاف في الاختيار والأَولى بعد الاتفاق على جواز الجميع، كالاختلاف في أنواع الأذان والإقامة، وصفات التشهد والاستفتاح، وأنواع النسك الذي يحرم به قاصد الحج والعمرة، وأنواع صلاة الخوف، والأفضل من القنوت أو تركه، ومن الجهر بالبسملة أو إخفائها، ونحو ذلك، فهذا وإن كان صورته صورة اختلاف فهو اتفاق في الحقيقة.

ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لابدَّ منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزُّب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لابدَّ منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحدًا والغاية المطلوبة واحدة والطريق المسلوكة واحدة لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع، كان اختلافًا لا يضرّ كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله، والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله، والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة.

قال السعدي: وقد تضمَّنت هذه الآيات، الوعيد للكاتمين لما أنزَل الله، المؤْثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتَّب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة، ثم توجَّع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق والمنازعة والمخاصمة والله أعلم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: {ذلك بأن}؛ والباء للسببية؛ وقد ذكر بعض أهل العلم أن في القرآن أكثر من مائة موضع كلها تفيد إثبات العلة؛ خلافًا للجبرية ـ الذين يقولون: (إن فعل الله عز وجل ليس لحكمة؛ بل لمجرَّد المشيئة).

٢- الثناء على كتب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {بأنَّ الله نزَّل الكتاب بالحقِّ}.

٣- ثبوت العلو لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {بأنَّ الله نزَّل الكتاب}.

٤- أنَّ المختلفين في كتب الله لا يزالون في شقاق بعيد لا تتقارب أقوالهم ـ وإن تقاربت أبدانهم.

٥- أنَّ الاختلاف ليس رحمة؛ بل إنه شقاق وبلاء؛ وبه نعرف أن ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: (اختلاف أمتي رحمة([1])) لا صحة له؛ وليس الاختلاف برحمة؛ بل قال الله سبحانه وتعالى: {ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك} [هود: ١١٨]: أي فإنهم ليسوا مختلفين؛ نعم؛ الاختلاف رحمة بمعنى: أن من خالف الحق لاجتهاد فإنه مرحوم بعفو الله عنه؛ فالمجتهد من هذه الأمة إن أصاب فله أجران؛ وإن أخطأ فله أجر واحد؛ والخطأ معفوٌّ عنه؛ وأما أن يقال هكذا على الإطلاق: (إن الاختلاف رحمة)، فهذا مقتضاه أن نسعى إلى الاختلاف؛ لأنه هو سبب الرحمة على مقتضى زعم هذا المروي!!! فالصواب أن الاختلاف شر.

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

قال ابن العثيمين: {ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب}: في هذه الآية قراءتان: {ليس البرَّ} بفتح الراء؛ و{ليس البرُّ} بضم الراء؛ فأما على قراءة الرفع فإن {البرُّ} تكون اسم {ليس}، و{أن تولُّوا} خبرها؛ وأما على قراءة النصب فتكون {البرَّ} خبر {ليس}، و{أن تولُّوا} اسمها مؤخرًا؛ يعني تقدير الكلام على الأول: ليس البرَّ توليتكم وجوهكم؛ والتقدير على الثاني: ليس البرُّ توليتكم ـ بالرفع.

و{البر} في الأصل الخير الكثير؛ ومنه سمّي {البر} لسعته، واتساعه؛ ومنه (البَر) اسم من أسماء الله، كما قال تعالى: {إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم}[الطور: ٢٨]؛ ومعنى الآية: ليس الخير، أو كثرة الخير والبركة أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق: أي جهة المشرق؛ والمغرب: أي جهة المغرب.

قال ابن كثير: اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، عَلَى جمل عَظِيمَةٍ، وَقَوَاعِدَ عَمِيمَةٍ، وَعَقِيدَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ حوَّلهم إِلَى الْكَعْبَةِ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نُفُوسِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَعْضِ

١- قال الألباني في السلسلة الضعيفة: لا أصل له، ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند، فلم يوفقوا (١/٧٦ حديث رقم ٥٧).

الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ حِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، وَالتَّوَجُّهُ حَيْثُمَا وَجَّهَ، وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَ، فَهَذَا هُوَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانُ الْكَامِلُ، وَلَيْسَ فِي لُزُومِ التَّوَجُّهِ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ بِرٌّ وَلَا طَاعَةٌ، إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ؛ كَمَا قَالَ فِي الْأَضَاحِيِّ وَالْهَدَايَا: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}[الْحَجِّ: ٣٧].

قال ابن العثيمين: {ولكن البر}: فيها قراءاتان؛ الأولى: {ولكن البر} بالرفع؛ وعلى هذا تكون {لكن} مهملة غير عاملة؛ والقراءة الثانية التي في المصحف: {ولكنَّ البر} بتشديد نون {لكن}، فتكون عاملة.

قوله تعالى: {ولكن البر من آمن بالله ... }: {البر} عمل؛ و{من آمن} عامل؛ فكيف يصح أن يكون العامل خبرًا عن العمل؟ في هذا أوجه:

الوجه الأول: أن الآية على تقدير مضاف؛ والتقدير: ولكن البِرَّ بِرُّ من آمن بالله ... إلخ.

الوجه الثاني: أن الآية على سبيل المبالغة؛ وليس فيها تقدير مضاف، كأنه جعل المؤمن هو نفس البر، مثلما يقال: (رجل عدل) بمعنى أنه عادل.

الوجه الثالث: أن نجعل {البر} بمعنى البار؛ فيكون مصدرا بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البار حقيقة القائم بالبر من آمن بالله ...

وقوله تعالى: {من آمن بالله}؛ تقدم أن (الإيمان) في اللغة بمعنى التصديق؛ لكنه إذا قرن بالباء صار تصديقًا متضمِّنًا للطمأنينة والثبات والقرار؛ فليس مجرَّد تصديق؛ ولو كان تصديقًا مطلقًا لكان يقال: آمنه – أي صدَّقه؛ لكن (آمن به) مضمنة معنى الطمأنينة، والاستقرار لهذا الشيء؛ وإذا عديت باللام – مثل: {فآمن له لوط}[العنكبوت: ٢٦]– فمعناه أنها تضمَّنت معنى الاستسلام والانقياد([1]).

قال السعدي: {ولكن البر من آمن بالله}: أي بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزَّه عن كل نقص.

قال ابن العثيمين: {واليوم الآخر}: هو يوم القيامة؛ وسمِّي آخرًا؛ لأنه ليس بعده يوم.

قال السعدي: وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت.

قال ابن العثيمين: {والملائكة} جمع ملك؛ وهم عالم غيبي خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور، وذلَّلهم لعبادته، وهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم أجسام ذوو عقول؛ لقوله تعالى: {جاعل

١– (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام وصالح آل الشيخ عن معنى الإيمان عرفًا ولغةً وشرعًا، عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

الملائكة رسلا أولي أجنحة}[فاطر: ١]؛ ولقوله تعالى في وصف جبريل: {إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين}[التكوير: ١٩ - ٢١].

قال ابن كثير: {والكتاب}؛ وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى خُتِمَتْ بِأَشْرَفِهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُهَيْمِنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، الذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ خَيْرٍ، وَاشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَسَخَ اللَّهُ بِهِ كُلَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ.

قال ابن العثيمين: {والنبيين} يدخل فيهم الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي، ولا عكس: قال الله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده}[النساء: ١٦٣].

{وآتى} بالمد؛ بمعنى أعطى؛ إذا هي تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: {المال}؛ والمفعول الثاني: قوله تعالى: {ذوي القربى}، وما عطف عليه؛ و(المال): كل عين مباحة النفع سواء كان هذا المال نقدًا، أو ثيابًا، وطعامًا، أو عقارًا، أو أي شيء.

(على حبِّه) حال من فاعل (آتى)، يعني حال كونه محبًّا له لحاجته إليه كالجائع؛ أو لتعلُّق نفسه به مثل أن يعجبه جماله أو قوته أو ما أشبه ذلك.

قال ابن كثير أَيْ: أَخْرَجَهُ، وَهُوَ مُحب لَهُ، رَاغِبٌ فِيهِ. نَصَّ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيرة مَرْفُوعًا: ((أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْغِنَى، وَتَخْشَى الْفَقْرَ(١))).

وَقَالَ تَعَالَى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا}[الْإِنْسَانِ: ٨، ٩]. وَقَالَ تَعَالَى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[آلِ عِمْرَانَ: ٩٢]، وَقَوْلُهُ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[الْحَشْرِ: ٩]، نَمط آخرُ أَرْفَعُ مِنْ هَذَا وَمِنْ هَذَا وَهُوَ أَنَّهُمْ آثَرُوا بِمَا هُمْ مُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ أَعْطَوْا وَأَطْعَمُوا مَا هُمْ مُحِبُّونَ لَهُ.

قال السعدي: بيَّن به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد. فمن أخرجه مع حبِّه له تقرُّبًا إلى الله تعالى، كان هذا برهانًا لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبِّه، أن يتصدَّق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلَّة، كانت أفضل، لأنه في هذه الحال يحب إمساكه لما يتوهَّمه من العدم والفقر.

١- (قلت): البخاري (٢٧٤٨)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ قَالَ: ((أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ حَرِيصٌ تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلاَ تُمْهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا وَلِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ)).

وكذلك إخراج النفيس من المال وما يحبُّه من ماله كما قال تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}، فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

قال ابن العثيمين: {ذوي القربى}: أي أصحاب القرابة؛ والمراد قرابة المعطي؛ وبدأ بهم قبل كل الأصناف؛ لأن حقَّهم آكد؛ وقد ذكروا أن القرابة ما جمع بينك وبينهم الجدِّ الرابع.

قال السعدي: وهم أولى الناس ببرِّك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجَّع لمصابهم وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي على حسب قربهم وحاجتهم.

قال ابن العثيمين: {واليتامى}: جمع يتيم؛ وهو من مات أبوه قبل بلوغه من ذكر أو أنثى؛ فأمّا من ماتت أمه فليس بيتيم؛ ومن بلغ فليس بيتيم؛ وسمِّيَ يتيمًا؛ من اليُتم وهو الانفراد؛ ولهذا إذا صارت القصيدة جميلة أو قوية يقولون: هذه الدرة اليتيمة – يعني أنها منفردة ليس لها نظير.

قال السعدي: وهذا من رحمته تعالى بالعباد الدالَّة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رَحَمَ يتيم غيره رُحِمَ يتيمه.

قال ابن العثيمين: {والمساكين}: جمع مسكين؛ وهو الفقير؛ سمِّيَ بذلك لأن الفقر أسكنه وأذلَّه؛ والفقر – أعاذنا الله منه – لا يجعل الإنسان يتكلَّم بطلاقة؛ هذا في الغالب؛ لأنه يرى نفسه أنه ليس على المستوى الذي يمكنه من التكلُّم؛ ويرى نفسه أنه لا كلمة له، كما قال النبي ﷺ: ((رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره([1]))).

واعلم أن الفقير بمعنى المسكين؛ والمسكين بمعنى الفقير؛ إلا إذا اجتمعا صار لكل واحد منهما معنى غير الآخر؛ فالفقير أشدُّ حاجة، كما في آية الصدقة: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... }[التوبة: ٦٠]؛ لأن الله بدأ به؛ ويبدأ بالأحق فالأحق، والأحوج فالأحوج في مقام الإعطاء؛ ويجمعهما – أعني الفقير والمسكين – أن كلًّا منهما ليس عنده ما يكفيه وعائلته من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومنكح ومركوب.

قال السعدي: فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكنتهم أو يخفِّفها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسَّر.

قال ابن العثيمين: {وابن السبيل}؛ {السبيل}: بمعنى الطريق؛ والمراد بـ{ابن السبيل}: الملازم للطريق؛ وهو المسافر؛ والمسافر يكون في حاجة غالبًا، فيحتاج إلى من يعطيه المال؛ ولهذا جعل الله له حظًّا من الزكاة؛ فابن السبيل هو

١– أخرجه مسلم ص١١٣٥، كتاب البر والصلة، باب ٤٠: فضل الضعفاء والخاملين، حديث رقم ٦٦٨٢ [١٣٨] ٢٦٢٢.

المسافر؛ وزاد العلماء قيدًا؛ قالوا: المسافر المنقطع به السفر ـ أي انقطع به السفر؛ فليس معه ما يوصله إلى بلده؛ لأنه إذا كان معه ما يوصله إلى بلده فليس بحاجة؛ فهو والمقيم على حد سواء؛ فلا تتحقَّق حاجته إلا إذا انقطع به السفر.

قال السعدي: {وابن السبيل}: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحثَّ الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره لكونه مظنة الحاجة وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوَّله من نعمته أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها.

قال ابن العثيمين: {والسائلين}: جمع سائل؛ وهو المستجدي الذي يطلب أن تعطيه مالًا؛ وإنما كان إعطاؤه من البر؛ لأن معطيه يتَّصف بصفة الكرماء؛ ولذلك كان النبي ﷺ لا يسأل على الإسلام شيئًا إلا أعطاه؛ والسائل نوعان؛ سائل بلسان المقال: وهو الذي يقول للمسؤول: أعطني كذا؛ وسائل بلسان الحال: وهو الذي يعرض بالسؤال، ولا يصرِّح به، مثل أن يأتي على حال تستدعي إعطاءه.

قال السعدي: أي الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرش جناية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة كالمساجد والمدارس والقناطر ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنيًّا.

{وفي الرقاب}: فيدخل فيه العتق والإعانة عليه وبذل مال للمكاتب ليوفي سيِّده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

قال ابن العثيمين: {وأقام الصلاة}: هذه معطوفة على {آمن} التي هي صلة الموصول؛ فيكون التقدير: (ومن أقام الصلاة)؛ و{الصلاة}: المراد بها الفرض والنَّفل؛ وإقامتها: الإتيان بها مستقيمة؛ لأن أقام الشيء، يعني: جعله قائمًا مستقيمًا؛ وليس المراد بإقامة الصلاة الإعلام بالقيام إليها([1])؛ واعلم أن {الصلاة} من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فمعناها في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: {وصل عليهم}[التوبة: ١٠٣]، أي ادع لهم بالصلاة، فقل: صلّى الله عليكم؛ ولكنها في الشرع: عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم.

{وآتى الزكاة}: أي أعطى الزكاة مستحقها؛ و{الزكاة} أيضًا من الكلمات التي نقلها الشرع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فالزكاة في اللغة من زكا يزكو – أي نما، وزاد؛ وبمعنى الصلاح؛ ومنه قوله تعالى: {قد أفلح من زكاها}[الشمس: ٩]، أي أصلحها وقوَّمها؛ لكن في الشرع {الزكاة} هي التعبُّد ببذل مال واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة؛ وسمِّيت زكاة؛ لأنها تنمي الخلق وتنمي المال وتنمي الثواب؛ تنمي الخلق بأن يكون الإنسان بها كريمًا من أهل البذل

١- (قلت): أنظر أحكام الصلاة عند تفسير الآية (٤٣) من سورة البقرة.

والجود والإحسان؛ وهذا لا شك من أفضل الأخلاق شرعًا وعادةً؛ وتنمي المال بالبركة والحماية والحفظ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((ما نقصت صدقة من مال([1])))؛ وتزكي الثواب، كما قال تعالى: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم}[البقرة: ٢٦١]؛ وصح عن النبي ﷺ أنه قال: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله تعالى يأخذها بيمنيه، فيربيها، كما يربي الإنسان فلوه حتى تكون مثل الجبل([2]))).

قال السعدي: قد تقدَّم مرارًا، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان ويُعرَف ما مع صاحبه من الإيقان.

قال ابن العثيمين: {والموفون بعهدهم إذا عاهدوا}؛ {إذا} هنا مجرَّدة من الشرطية؛ فهي ظرفية محضة – يعني: الموفون بعهدهم وقت العهد؛ أي في الحال التي يعاهدون فيها؛ فإذا عاهدوا وفَّوا.

قال السعدي: والعهد: هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك.

قال ابن العثيمين: {والصابرين}: فيه إشكال من حيث الإعراب؛ لأن الذي قبله مرفوع؛ وهو غير مرفوع؛ يقول بعض العلماء؛ إنه منصوب بفعل محذوف، والتقدير: وأخص الصابرين؛ والبلاغة من هذا أنه إذا تغير أسلوب الكلام كان ذلك أدعى للانتباه؛ فإن الإنسان إذا قرأ الكلام على نسق واحد لم يحصل له انتباه، كما يحصل عند تغير السياق.

و(الصبر) ليس بذل شيء؛ ولكنه تحمُّل شيء؛ وما سبق كله بذل شيء؛ فهو مختلف من حيث النوع: {من آمن ... وأقام ... وآتى ... } كل هذه أفعال؛ لكن {الصابرين} ليس فعلًا؛ ولكنه تحمُّل.

و(الصبر) في اللغة الحبس؛ ومنه قولهم: فلان قتل صبرًا، أي: حبسًا؛ وأما في الشرع فإنه حبس النفس على طاعة الله أو عن معصيته أو على أقداره المؤلمة.

{في البأساء والضراء وحين البأس}: {البأساء}: شدَّة الفقر؛ ومنه (البؤس) يعني الفقر؛ و{الضراء}: المرض؛ و{حين البأس}: شدَّة القتل؛ فهم صابرون في أمور لهم فيها طاقة، وأمور لا طاقة لهم بها؛ {في البأساء}: يعني: في حال الفقر؛ لا يحملهم فقرهم على الطمع في أموال الناس، ولا يشكون أمرهم لغير الله؛ بل يصبرون عن المعصية: لا يسرقون، ولا

١- أخرجه مسلم ص١١٣٠، كتاب البر والصلة، باب ١٩: استحباب العفو والتواضع، حديث ريم ٦٥٩٢ [٦٩] ٢٥٨٨.

٢- أخرجه البخاري ص١١١، كتاب الزكاة، باب ٨: الصدقة من كسب طيب ... ، حديث رقم ١٤١٠، وأخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم ٢٣٤٣ [٦٤] ١٠١٤.

يخونون، ولا يكذبون، ولا يغشُّون؛ ولا تحملهم الضراء – المرض، وما يضر أبدانهم – على أن يتسخطوا من قضاء الله وقدره؛ بل هم دائمًا يقولون بألسنتهم وقلوبهم: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا[1]؛كذلك حين البأس يصبرون، ولا يُوَلُّون الأدبار – وهذا صبر على الطاعة؛ فتضمنت هذه الآية: {الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس} الصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر عن المعصية؛ وعلى الأقدار المؤلمة؛ وعلى الطاعة؛ والترتيب فيها للانتقال من الأسهل إلى الأشد[2].

قال السعدي: {والصابرين في البأساء}: أي الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره. فإن تنعُّم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألَّم، وإن جاع أو جاعت عياله تألَّم، وإن أكل طعامًا غير موافق لهواه تألَّم، وإن عرى أو كاد تألَّم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهَّمه من المستقبل الذي يستعد له تألَّم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألَّم. فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

{والضراء}: أي المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح ورياح ووجع عضو حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصًا مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتسابًا لثواب الله تعالى.

قال أبو زهرة: والضراء ما ينال الجسم والنفس من مرض عارض أو من مرض مزمن، أو من فقد عضو من الأعضاء أو إصابته، والصبر في هذه الحال ألَّا يشكو ولا يئن ولا ييأس من رحمة الله تعالى[3].

{وحين البأس}: أي وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلاد، يشقُّ غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابًا ورجاءً لثواب الله تعالى الذي منه النصر والمعونة التي وعدها الصابرين.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا الْمُطَهَّرُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْفَارِسِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو ذَرٍّ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الصَّالِحَانِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ حَيَّانَ ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيُّ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، أَخْبَرَنَا زُهَيْرٌ عَنْ

١- (قلت): لقد صحّ في أحاديث كثيرة بهذا اللفظ، وكذلك صحّ في أحاديث أخرى كثيرة بلفظ (وبمحمد نبيًّا).

٢- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن الصبر عند تفسير الآيات (١٥٤، ١٥٧).

٣- (قلت): ثمَّ حديث صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٧٢)، وقال: أخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ٣٤٩) ومن طريقه البيهقي في سننه (٣ / ٣٧٥) من طريق أبي بكر الحنفي حدثنا عاصم بن محمد بن زيد عن سعيد ابن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن ولم يشكني إلى عواده؛ أطلقته من أساري ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه ثم يستأنف العمل)).

أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁، قال: كنا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إلى العدوّ منه، يَعْنِي: إِذَا اشْتَدَّ الْحَرْبُ([1]).

قال ابن العثيمين: {أولئك الذين صدقوا}؛ هذه شهادة من الله عز وجل؛ وهي أعلى شهادة؛ لأنها شهادة من أعظم شاهد سبحانه وتعالى؛ والمشار إليهم كل من اتَّصف بهذه الصفات؛ والإشارة بالبعيد لما هو قريب لأجل علوِّ مرتبتهم.

وقوله تعالى: {الذين صدقوا}: أي صدقوا الله وصدقوا عباده بوفائهم بالعهد وإيتاء الزكاة وغير ذلك؛ والصدق هو مطابقة الشيء للواقع؛ فالمخبر بشيء إذا كان خبره موافقًا للواقع صار صادقًا؛ والعامل الذي يعمل بالطاعة إذا كانت صادرة عن إخلاص واتِّباع صار عمله صادقًا؛ لأنه ينبئ عما في قلبه إنباءً صادقًا.

قال السعدي: {أولئك}: أي المتَّصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية، فأولئك هم {الذين صدقوا} في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم.

قال ابن العثيمين: {وأولئك هم المتقون}: أي القائمون بالتقوى؛ و(التقوى): هي اتخاذ الوقاية من عذاب الله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في تعريف التقوى؛ وتأمل كيف جاءت هذه الجملة بالجملة الاسمية المؤكدة؛ الجملة اسمية لدلالتها على الثبوت، والاستمرار؛ لأن الجملة الاسمية تدلُّ على أنها صفة ملازمة للمتَّصف بها؛ وهذه الجملة مؤكدة بضمير الفصل: {هم}؛ لأن ضمير الفصل له ثلاث فوائد سبق ذكرها.

وقوله تعالى: {وأولئك هم المتقون}: هؤلاء جمعوا بين البر والتقوى؛ البر: بالصدق؛ والتقوى: بهذا الوصف: {أولئك هم المتقون}؛ وإنما قلنا: إن الصدق بر؛ لقول النبي ﷺ: ((عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر؛ وإن البر يهدي إلى الجنة([2]))؛ فجمعوا بين البر والتقوى؛ فهذا ما أمر الله به في قوله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى}[المائدة: ٢]؛ وكرَّر الإشارة مرة ثانية من باب التأكيد، والمدح، والثناء كأن كل جملة من هاتين الجملتين مستقلة.

١- صحيح: إسناده ضعيف، سماع زهير من أبي إسحق بعد الاختلاط، لكن توبع. حارثة بن مضرّب ثقة، ومن دونه رجال الصحيح، أبو إسحاق هو عمرو بن عبد الله، وزهير هو ابن معاوية بن خديج أبو خيثمة. وقد توبع.
- وهو في (شرح السنة) ٣٥٩١ بهذا الإسناد.
- وأخرجه أبو الشيخ في (أخلاق النَّبِيِّ ﷺ) (ص ٥٧) من طريق عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيُّ عن علي بن الجعد بهذا الإسناد.
- وأخرجه أبو يعلى ٣٠٢ من طريق هشام بن عبد الملك عن زهير بن معاوية بهذا الإسناد.
- وأخرجه أحمد (١/ ٨٦) وأبو الشيخ (ص ٥٧) من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق بهذا الإسناد، وقد صحح الشيخان رواية إسرائيل عن جده.
وله شاهد من حديث البراء ((كنا والله إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وإن الشجاع منا الذي يُحَاذِي بِهِ- يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ)) أخرجه مسلم ١٧٧٦. [.....]

٢- أخرجه البخاري ص٥١٤ - ٥١٥، كتاب الأدب، باب ٦٩، قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}، وما ينهى عن الكذب، حديث رقم ٦٠٩٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٣٣، كتاب البر والصلة، باب ٢٩: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث رقم ٦٦٣٩ [١٠٥] واللفظ لمسلم.

قال السعدي: {وأولئك هم المتقون} لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمُّنًا ولزومًا، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتَّقون.

وقد علم ما رتَّب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي مما لا يمكن تفصيله في مثل هذا الموضع.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص١٣٣: وَهَذِهِ الْآيَةُ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةُ الْقَدْرِ، مِنْ أَعْظَمِ آيِ الْقُرْآنِ وَأَجْمَعِهِ لِأَمْرِ الدِّين، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ فَنَزَلَتْ([1]).وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ الْفَاعِلِينَ لِهَذِهِ الْأُمُورِ هُمْ الْمُتَّقُونَ، وَعَامَّةُ هَذِهِ الْأُمُورِ فِعْلٌ مَأْمُورٌ بِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ هِيَ الْبِرُّ، وَأَهْلُهَا هُمْ الصَّادِقُونَ، يَعْنِي فِي قَوْلِهِ: {آمَنَّا}[البقرة: ٨]، وَعَامَّتُهَا أُمُورٌ وُجُودِيَّةٌ، هِيَ أَفْعَالٌ مَأْمُورٌ بِهَا، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ أَدْخَلُ فِي الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانِ مِنْ عَدَمِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ. وَبِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ اسْتَحَقَّتْ الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}[الانفطار: ١٣، ١٤]، وَقَالَ: {أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[ص: ٢٨]، {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}[القمر: ٥٤]، وَقَالَ: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ}[السجدة: ١٨].

وَهَذِهِ الْخِصَالُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ قَدْ دَلَّتْ عَلَى وُجُوبِهَا؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَهَا هُمْ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي قَوْلِهِمْ، وَهُمْ الْمُتَّقُونَ، وَالصِّدْقُ وَاجِبٌ وَالْإِيمَانُ وَاجِبٌ إيجَابَ حُقُوقٍ سِوَى الزَّكَاةِ، وَقَوْلُهُ: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا}[المزمل: ٢٠]، وَقَوْلُهُ لِبَنِي إسْرَائِيلَ: {لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}[المائدة: ١٢]، وَقَوْلُهُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[آل عمران: ٩٢]، وَقَوْلُهُ: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}[النساء: ٣٦]، وَقَوْلُهُ: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}[الإسراء: ٢٦] فِي [سُبْحَانَ]، وَ[الرُّومِ]، فَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى حَقَّهُ صِلَةُ الرَّحِمِ، وَالْمِسْكِينِ إطْعَامُ الْجَائِعِ، وَابْنِ السَّبِيلِ قِرَى الضَّيْفِ، وَفِي الرِّقَابِ فِكَاكُ الْعَانِي، وَالْيَتِيمِ نَوْعٌ مِنْ إطْعَامِ الْفَقِيرِ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: ((عُودُوا الْمَرِيضَ وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَفُكُّوا الْعَانِيَ([2]))).

١- ابن جرير ٢/٥٦.

٢- البخاري في المرضى (٥٦٤٩) عن أبي موسى الأشعري.

وَأَيْضًا، فَالرَّسُولُ مِثْلُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ فَاتِحَةُ دَعْوَاهُمْ فِي هُودٍ: أن: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[هود: ٥٠، ٦١، ٨٤]، وَفِي الشُّعَرَاءِ: {أَلَا تَتَّقُونَ}[الشعراء: ١٤٢]، {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}[الشعراء: ١٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى}[البقرة: ١٨٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[آل عمران: ٧٦]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[التوبة: ٤]، وَقَالَ: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[التوبة: ٧].

فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ مِنَ التَّقْوَى الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ هُوَ جُمْلَةُ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ إِمَّا بِالشَّرْعِ، أَوْ بِالشَّرْطِ وَكُلُّ ذَلِكَ فِعْلٌ مَأْمُورٌ بِهِ، وَذَلِكَ وَفَاءٌ بِعَهْدِ اللَّهِ وَعَهْدِ الْعَبِيدِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ التَّقْوَى، إِمَّا تَقْوَى اللَّهِ؛ وَإِمَّا تَقْوَى عَذَابِهِ، كَمَا قَالَ: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[البقرة: ٢٤]، {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[آل عمران: ١٣١]، فَالتَّقْوَى اتِّقَاءُ الْمَحْذُورِ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَبِتَرْكِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَهُوَ بِالْأَوَّلِ أَكْثَرُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ تَقْوَى؛ لِأَنَّ فِعْلَ الْمَأْمُورِ بِهِ وتَرْكَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ سَبَبُ الْأَمْنِ مِنْ ذَمِّ اللَّهِ، وَسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِ اللَّهِ فَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ خَوْفُ الْإِثْمِ، بِخِلَافِ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ مَضَرَّةٌ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَحَبُّ الَّذِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ وأَلّا يَفْعَلَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ بِاسْمِ التَّقْوَى لِيُبَيِّنَ وُجُوبَ ذَلِكَ، وَأَنَّ صَاحِبَهُ مُتَعَرِّضٌ لِلْعَذَابِ بِتَرْكِ التَّقْوَى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن البر حقيقة هو الإيمان بالله ... إلخ؛ والإيمان بالله يتضمَّن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه وصفاته. أما الإيمان بوجوده: فإنه دلَّ عليه الشرع، والحس، والعقل، والفطرة:

أ ـ دلالة الشرع: على وجوده سبحانه وتعالى واضحة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

ب ـ دلالة الحس: فإن الله سبحانه وتعالى يدعى ويجيب؛ وهذا دليل حسي على وجوده تبارك وتعالى، كما في سورة الأنبياء، وغيرها من إجابة دعوة الرسل فور دعائهم، كقوله تعالى: {ونوحًا إذا نادى من قبل فاستجبنا له}[الأنبياء: ٧٦]، وقوله تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له}[الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

ج ـ دلالة العقل: أن ما من حادث إلا وله محدث، كما قال عز وجل: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون}[الطور: ٣٥]؛ هذا الكون العظيم بما فيه من النظام والتغيرات والأحداث لابدَّ أن يكون له موجِد محدِث يحدث هذه الأشياء ـ وهو الله عز وجل؛ إذ لا يمكن أن تحدث بنفسها؛ لأنها قبل الوجود عدم؛ والعدم ـ كإسمه لا وجود له؛ ولا يمكن أن يحدثها مخلوق لما فيها من العظم والعبر.

د ـ دلالة الفطرة: فإن الإنسان لو ترك وفطرته لكان مؤمنًا بالله؛ والدليل على هذا قوله تعالى: {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}[الإسراء: ٤٤]؛ حتى غير الإنسان مفطور على معرفة الرب عز وجل.

وأما الإيمان بربوبيته: فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهذا الكون المالك له المدبِّر له؛ وقد دلَّ عليه ما سبق من الأدلة على وجوده؛ وقد أقرَّ بذلك المشركون، كما في قوله تعالى: {قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله}؛ إلى غيرها من الآيات الكثيرة.

وأما الإيمان بألوهيته: فهو الإيمان بأنه لا إله في الوجود حق إلا الله عز وجل؛ وكل ما سواه من الآلهة باطلة، كما قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير}[الحج: ٦٢]، فالله سبحانه وتعالى هو الإله الحق.

وأما الإيمان بأسمائه وصفاته: فهو الإيمان بما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه، أو أثبتته له رسله من الأسماء والصفات إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل على حد قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[الشورى: ١١]؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}[الأعراف: ١٨٠]؛ ... وقوله تعالى: {ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم}[النحل: ٦٠]، ووجه الدلالة: تقديم الخبر في الآيتين؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٢– أن طاعة الله عز وجل من البر.

٣– أن الإيمان باليوم الآخر من البر؛ ويشمل كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر ونعيمه وعذابه، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والصراط، والميزان، والكتب باليمين أو الشمال، والجنة وما ذكر من نعيمها، والنار وما ذكر من عذابها، وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأمور مفصَّلًا أحيانًا، ومجملًا أحيانًا.

والإيمان باليوم الآخر يستلزم الاستعداد له بالعمل الصالح، ولهذا يقرن الله سبحانه وتعالى الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به تعالى كثيرًا لأن نتيجة هذا الإيمان أن يقوم العبد بطاعته سبحانه وتعالى؛ فالذي يقول: إنه مؤمن باليوم الآخرة، ولكن لا يستعد له فدعواه ناقصة؛ ومقدار نقصها بمقدار ما خالف في الاستعداد؛ كما أنه لو قيل مثلًا لإنسان عنده حَب: إنه سينزل اليوم مطر، فظلَّل الحب؛ معلوم أن الذي لا يؤمن بهذا الكلام لن يغطيه؛ كذلك لو قيل: سيأتي اليوم عدو، فشدَّد في الحراسة؛ إذًا آمن بأنه سيأتي عدو شدَّد في الحراسة بجميع ما يمكن؛ فإذا لم يشدِّد في الحراسة، علمنا أنه لم يؤمن به.

٤– أن الإيمان بالملائكة من البر؛ ويشمل الإيمان بذواتهم، وصفاتهم، وأعمالهم إجمالًا فيما علمناه إجمالًا وتفصيلًا فيما علمناه تفصيلًا؛ واعلم أن الملائكة – عليهم الصلاة السلام – منهم من عُيِّن لنا وعرفناه باسمه؛ ومنهم من لم يعيَّن؛ فمن

عُيِّن لنا وجب علينا أن نؤمن باسمه كما عُيِّن، مثل (جبريل) عليه السلام؛ وإسرافيل؛ ومالك – خازن النار –؛ ومنكر ونكير إن صح الحديث بهذا اللفظ[١]– ففيه نظر –؛ وميكائيل؛ وملك الموت – ولكننا لا نعرف اسمه؛ بعض الناس يقولون: عزرائيل؛ ولكن لم يصح هذا؛ وهاروت، وماروت؛ ثم كذلك أعمالهم منهم من علمنا أعماله؛ ومنهم من لم نعلم؛ لكن علينا أن نؤمن على سبيل الإطلاق بأنهم عباد مكرمون، وممتثلون لأمر الله عز وجل، لهم نصيب من تدبير الخلق بإذن الله؛ منهم الموكل بالقطر، والنبات؛ والموكل بالنفخ في الصور؛ وفيهم ملائكة موكلة بالأجنة؛ وملائكة موكلة بكتابة أعمال بني آدم؛ وملائكة موكلة بحفظ بني آدم؛ كما قال تعالى: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله}[الرعد: ١١]؛ لكن كل هذا بأمر الله عز وجل وبإذنه؛ وليس لهم منازعة لله عز وجل، ولا معاونة في أي شيء من الكون؛ قال الله تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له}[سبأ: ٢٢، ٢٣]، فنفى جميع ما يتعلق به المشركون: {لا يملكون مثقال ذرة}[سبأ: ٢٢]، انفرادًا؛ {وما لهم فيهما من شرك}[سبأ: ٢٢]، مشاركة؛ {وما له منهم من ظهير}[سبأ: ٢٢]، معاونة؛ {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له}[سبأ: ٢٣]، فنفى الشفاعة والوساطة إلا بإذنه، ثم قال تعالى: {حتى إذا فزع عن قلوبهم}[سبأ: ٢٣]، وهم الملائكة إذا سمعوا الوحي صعقوا؛ فليس لهم أي شيء في التصرف في الكون؛ لكنهم يمتثلون أمر الله عز وجل.

٥– أن الإيمان بالكتب من البر؛ وكيفيته أن نؤمن بأن كل كتاب أنزله الله على أحد من رسله فهو حق: صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام؛ ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جاءت شريعتنا بخلافه؛ واعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان}[الحديد: ٢٥]، أي مع هؤلاء الرسل، وقوله تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}[البقرة: ٢١٣]؛ فما من رسول إلا معه كتاب؛ والكتب المعروفة لدينا هي التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى والقرآن الكريم؛ وصحف موسى اختلف العلماء أهي التوراة أو غيرها، فمنهم من قال: إنها غيرها؛ ومنهم من قال: إنها هي؛ وأما ما لم نعلمه به فنؤمن به إجمالًا؛ فتقول بقلبك ولسانك: آمنت بكل كتاب أنزله الله على كل رسول؛ ثم إن المراد أن نؤمن بأن الله أنزل على موسى كتابًا يسمَّى التوراة؛ وعلى عيسى كتابًا يسمَّى الإنجيل؛ وعلى داود

١– راجع الترمذي ص١٧٥٤، كتاب الجنائز، باب ٧٠: ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم ١٠٧١؛ وصحيح ابن حبان (٥/٤٧–٤٨)، فصل في أحوال الميت في قبره، ذكر الأخبار عن اسم الملكين اللذين يسألان الناس في قبورهم ... ، حديث رقم ٣١٠٧؛ وكتاب السنة لابن أبي عاصم ٢/٤٠٢ – ٤٠٣، باب ١٧١: في القبر وعذاب القبر، حديث رقم ٨٦٤، ومدار الحديث على عبد الرحمن بن إسحاق المدني؛ قال الحافظ في التقريب: صدوق رمي بالقدر؛ والحديث قال الألباني في صحيح الترمذي: (حسن) (١/٣١١، حديث رقم ٨٥٦ – ١٠٨٣)؛ وقال في السلسلة الصحيحة: (إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لا يضر) (المجلد الثالث، ص٣٨٠، حديث رقم ١٣٩١).

كتابًا يسمَّى الزبور؛ أما أن تؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب عليك؛ لأنه محرَّف ومغيَّر ومبدَّل؛ لكن تؤمن بأن له أصلًا نزل على هؤلاء الرسل.

٦- أن الإيمان بالنبيين من البر؛ فنؤمن بكل نبي أوحى الله إليه؛ فمن علمنا منهم نؤمن به بعينه؛ والباقي إجمالًا؛ وقد ورد في حديث صححه ابن حبان أن عدة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا؛ وأن عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفًا(١)؛ فإن صح الحديث فهو خبر معصوم يجب علينا الإيمان به؛ وإن لم يصح فإن الله تعالى يقول: {ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك}[غافر: ٧٨]؛ ونحن لا نكلف الإيمان إلا بما بلغنا؛ فالذين علمناهم من الرسل يجب علينا أن نؤمن بهم بأعيانهم؛ والذين لم نعلمهم نؤمن بهم إجمالًا، كما قال تعالى: {كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله}[البقرة: ٢٨٥]؛ وقد ذكر في القرآن أربعة وعشرون رسولًا؛ قال تعالى: {ووهبنا له}[الأنعام: ٨٤]، أي إبراهيم: {إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين}[الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦]؛ فهؤلاء ثمانية عشر؛ ويبقى شعيب، وصالح، وهود، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد ﷺ.

٧- أن إعطاء المال على حبّه من البر؛ وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به وقال: إن الله يقول: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}[آل عمران: ٩٢]؛ وعندما سمع أبو طلحة هذه الآية تصدق ببستانه الذي هو أحب شيء إليه من ماله؛ لا لأنه بستانه فقط؛ ولكن لأن الرسول ﷺ كان يأتي إليه ويشرب فيه من ماء طيِّب، وكان قريبًا من مسجد الرسول ﷺ؛ ولما نزلت الآية: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} ذهب إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله،

١- راجع صحيح ابن حبان ١/٢٨٧ - ٢٨٩، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الاستحباب للمرء ان يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها، حديث رقم ٣٦٢؛ وفي سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال فيه أيو حاتم: (أظنه لم يطلب العلم، وهو كذاب)؛ وقال علي بن الحسين بن الجنيد: (صدق أبو حاتم، ينبغي أن لا يحدث عنه) (كتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم ٢/١٤٢ - ١٤٣)؛ وقال الذهبي: (والصواب: إبراهيم بن هشام أحد المتروكين الذين مشاهم ابن حبان، فلم يصب) (ميزان الاعتدال ٤/٣٧٨)؛ وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن أبي ذر وسكت عنه وقال الذهبي السعدي ليس بثقة (المستدرك ٢/٥٩٧، كتاب التاريخ)؛ ففي سنده يحيى بن سعيد القرشي البصري - وقيل: الكوفي -؛ قال ابن حبان فيه: (شيخ يروي عن ابن جريج المقلوبات، وعن غيره من الثقات الملزقات، لا يحل الاحتجاج به إذا انفرد) (كتاب المجروحين ٣/١٢٩)؛ وقال ابن عدي: (وهذا حديث منكر من هذا الطريق) (الكامل في الضعفاء ٩/١٠٦)؛ لكن بالنسبة لعدد الرسل فقد أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي أمامه رضي الله عنه، ثم قال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه)؛ وأقره الذهبي (المستدرك على الصحيحين ٢/٢٦٢، كتاب التفسير، بسم الله الرحمن الرحيم، من سورة البقرة)؛ وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة المجلد السادس، القسم الأول ص٣٥٨ - ٣٥٩، حديث رقم ٢٦٦٨؛ وأما بالنسبة لعدد الأنبياء، فقد جاء من عدة طرق كلها فيها مقال؛ وقال الألباني: (فهو صحيح لغيره) (المجلد السادس، القسم الأول، ص٣٦٣).

إن الله أنزل هذه الآية: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}؛ وإن أحبَّ مالي إلي (بيرحاء)؛ وإني أضعها صدقة إلى الله ورسوله؛ فقال النبي ﷺ: ((بخ! بخ! ذاك مال رابح! ذاك مال رابح! أرى أن تجعله في الأقربين([1]))).

٨- أن إعطاء ذوي القربى أولى من إعطاء اليتامى والمساكين؛ لأن الله بدأ بهم، فقال تعالى: {وآتى المال على حبه ذوي القربى}؛ فلو سأل سائل: هل الأفضل أن أعطي القرابة، أو اليتامى؟ لقلنا: أعط القرابة؛ اللهم إلا إن يكون هناك ضرورة في اليتامى ترجح إعطاءهم؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ تقديم صلة الرحم على العتق؛ واعلم أن الحكم إذا عُلِّق بوصف تختلف أفراده فيه قوةً وضعفًا، فإنه يزداد قوة بقوة ذلك الوصف؛ فإذا كان معلَّقًا بالقرابة فكل من كان أقرب فهو أولى؛ وأقرب الناس إليك، وأحقهم بالبر: أمك وأبوك.

٩- أن لليتامى حقًّا؛ لأن الله امتدح من آتاهم المال؛ لقوله تعالى: {واليتامى}، سواء كانوا فقراء أم أغنياء.

١٠- إثبات رحمة الله عز وجل، حيث ندب إلى إتيان المال لليتامى والمساكين؛ لأن هذا لا شك من الرحمة بهم.

١١- أن لابن السبيل حقًّا – ولو كان غنيًّا في بلده.

١٢- أن إعطاء السائل من البر – وإن كان غنيًّا؛ لعموم قوله تعالى: {والسائلين}.

فإذا قال قائل: إذا كان مؤتي المال للسائلين من أهل البر فكيف يتفق والتحذير من سؤال الناس؟

فالجواب: أنه لا معارضة؛ لأن الجهة منفكة؛ فالممدوح: المعطي؛ والمحذر: السائل المعطى؛ فإذا انفكت الجهة فلا تعارض؛ فلو رأيت مبتلى بهذه المهنة – وهي مهنة سؤال الناس – فأعطه إذا سألك، ثم انصحه وحذِّره؛ لتكون مؤتيًا للمال وناصحًا للسائل؛ لأن بعض الناس – والعياذ بالله – نعلم علم اليقين – أو يغلب على الظن المؤكَّد – أنه غني؛ وإنما سأل الناس تكثُّرًا؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أن: ((من سأل الناس أموالهم تكثُّرًا فإنما يسأل جمرًا؛ فليستقل، أو ليستكثر([2])))؛ وأنه ((ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم([3]))).

١٣- أن إعتاق الرقاب من البر؛ لقوله تعالى: {وفي الرقاب}؛ والمال المبذول في الرقاب لا يعطى الرقبة؛ وإنما يعطى مالك الرقبة؛ فلهذا أتى بـ{في} الدالة على الظرفية؛ والرقاب ذكر أهل العلم أنها ثلاثة أنواع:

أ ـ عبد مملوك تشتريه وتعتقه.

ب ـ مكاتب اشترى نفسه من سيده، فأعنته في كتابته.

١- أخرجه البخاري ص١١٥، كتاب الزكاة، باب ٤٤: الزكاة على الأقارب، حديث رقم ١٤٦١، وأخرجه مسلم ص٨٣٦، كتاب الزكاة، باب ١٤: فضل النفقة والصدقة على الأقربين ... ، حديث رقم ٢٣١٥ [٤٢] ٩٩٨.

٢- أخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٥: كراهة المسألة للناس، حديث رقم ٢٣٩٩ [١٠٥] ١٠٤١

٣- أخرجه البخاري ص١١٦، كتاب الزكاة، باب ٥٢: من سأل الناس تكثرا، حديث رقم ١٤٧٤، وأخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٥: كراهة المسألة للناس، حديث رقم ٢٣٩٨ [١٠٤] ١٠٤٠.

ج ـ أسير مسلم عند الكفار، فافتديته؛ وكذلك لو أُسِر عند غير الكفار، مثل الذين يختطفون الآن ـ والعياذ بالله؛ إذا طلب المختطفون فدية فإنه يفك من الزكاة؛ لأن فيها فك رقبة من القتل.

١٤– أن إقامة الصلاة من البر؛ لقوله تعالى: {وأقام الصلاة}.

١٥– أن إيتاء الزكاة للمستحقين لها من البر.

١٦– الثناء على الموفين بالعهد، وأن الوفاء به من البر؛ والعهد عهدان: عهد مع الله عز وجل؛ وعهد مع الخلق.

فالعهد الذي مع الله بينه بقوله تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}[الأعراف: ١٧٢]، وقوله تعالى: {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار}[المائدة: ١٢]، وقوله تعالى: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم}[البقرة: ٤٠]؛ فالعهد الذي عهد الله به إلينا أن نؤمن به ربًّا، فنرضى بشريعته؛ بل بأحكامه الكونية، والشرعية؛ هذا العهد الذي بيننا، وبين ربنا.

أما العهد الذي بيننا، وبين الناس فأنواعه كثيرة جدًّا غير محصورة؛ منها العقود، مثل عقد البيع، وعقد الإجارة، وعقد الرهن، وعقد النكاح، وغير ذلك؛ لأنك إذا عقدت مع إنسان التزمت بما يقتضيه ذلك العقد؛ إذا فكل عقد فهو عهد؛ ولهذا قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}[المائدة: ١]، وقال تعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولًا}[الإسراء: ٣٤]؛ ومن العهود بين الخلق؛ ما يجري بين المسلمين وبين الكفار؛ وهو ثلاثة أنواع: مؤبَّد؛ ومقيَّد؛ ومطلق؛ فأما المؤبَّد فلا يجوز؛ لأنه يؤدي إلى إبطال الجهاد؛ وأما المقيَّد فبحسب الحاجة ـ وإن طالت المدة على القول الراجح ـ لأنه عهد دعت إليه الحاجة؛ فيتقيد بقدرها؛ وقيل: لا تجوز الزيادة فيه على عشرة سنوات؛ لأن الأصل وجوب قتال الكفار، وأبيح العهد في عشر سنوات تأسيًّا برسول الله ﷺ في صلح الحديبية؛ والصحيح الأول؛ ويجاب عن عهد الحديبية بأن الحادثة لا تقتضي الزيادة؛ وأما المطلق فهو الذي لم يؤبَّد، ولم يحدَّد؛ وهو جائز على القول الراجح عند الحاجة إليه؛ فمتى وجد المسلمون الحاجة إليه عقدوه؛ وإذا زالت الحاجة عاملوا الكفار بما تقتضيه الحال؛ ولا حجة للكفار فيه؛ لأنه مطلق.

والمعاهدون من الكفار لهم ثلاث حالات؛ الحال الأولى: أن يستقيموا لنا؛ الحالة الثانية: أن يخونوا؛ الحال الثالثة: أن نخاف منهم الخيانة؛ فإن استقاموا لنا وجب علينا أن نستقيم لهم؛ ولا يمكن أن نخون أبدًا؛ لقوله تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين)[التوبة: ٧]؛ وإن خانوا انقض عهدهم، ووجب قتالهم؛ لقوله تعالى: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم)[التوبة: ١٢]؛ وإن خفنا منهم الخيانة

وجب أن ننبذ إليهم عهدهم على سواء؛ لقوله تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء}[الأنفال: ٥٨]: نخبرهم أن لا عهد بيننا ليكونوا على بصيرة؛ ومن العهد أيضًا ما يقع بين الإنسان وبين غيره من الالتزامات غير العقود، مثل الوعد؛ فإن الوعد من العهد؛ ولهذا اختلف أهل العلم هل يجب الوفاء بالوعد، أو لا يجب؛ والصحيح الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يجب الوفاء بالوعد؛ لأنه داخل في العهد، ولأن إخلاف الوعد من علامات النفاق؛ وإذا كان كذلك فلا يجوز للمؤمن أن يتحلَّى بأخلاق المنافقين.

١٧– أن الصبر من البر؛ وهو ثلاثة أنواع:

الأول: الصبر على طاعة الله، بأن يتحمل الصبر على الطاعة من غير ضجر، ولا كراهة.

الثاني: الصبر عن معصية الله، بأن يحمل نفسه على الكف عن معصية الله إذا دعته نفسه إليها.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة التي لا تلائم الطبيعة بأن لا يتسخط من المقدور، ولا يتضجَّر؛ بل يحبس نفسه عن ذلك: قال الله تعالى: {وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}[البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وأعلى هذه الأنواع: الصبر على طاعة الله؛ لأن فيه تحمُّلًا ونوعًا من التعب بفعل الطاعة؛ ثم الصبر عن المعصية؛ لأن فيه تحمُّلًا وكفًّا عن المعصية؛ والكف أهون من الفعل؛ ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة، لأنه على شيء لا اختيار للعبد فيه، ولهذا قيل: (إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلو سلو البهائم).

١٨– أن ما ذكر هو حقيقة الصدق مع الله، ومع الخلق؛ لقوله تعالى: {أولئك الذين صدقوا}؛ فصدقهم مع الله، حيث قاموا بهذه الاعتقادات النافعة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين؛ وأنهم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وبذلوا المحبوب في هذه الجهات؛ وأما صدقهم مع الخلق يدخل في قوله تعالى: {والموفون بعهدهم إذا عاهدوا}؛ وهذا من علامات الصدق؛ ولهذا قال تعالى: {أولئك الذين صدقوا}؛ فصدقوا في اعتقاداتهم، وفي معاملاتهم مع الله، ومع الخلق.

١٩– أن ما ذكر من تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وأولئك هم المتقون}؛ وسبق أنها إذا جمعت مع البر صارت التقوى ترك المحرمات، وصار البر فعل المأمورات؛ وإذا افترقا دخل أحدهما في الآخر؛ وفي هذه الآية قال تعالى: {وأولئك هم المتقون} مع أنهم قائمون بالبر؛ فدل هذا على أن القيام بالبر من التقوى؛ لأن حقيقة الأمر أن القائم بالبر يرجو ثواب الله ويخشى عقاب الله.

٢٠– أنَّ هؤلاء فقط هم المتقون؛ ونفهم ذلك من الحصر وطريقه هنا أمران:

أ – تعريف طرفي الجملة.

ب – ضمير الفصل.

(تنبيه)

ظاهر الآية الكريمة العموم في إتيان المال لهؤلاء المذكورين في الآية: القرابة، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب؛ فظاهر الآية العموم للمسلمين، والكافرين؛ لكنه غير مراد؛ بل هي خاصة بالمسلم؛ وأما الكافر فلا بأس من بره، والإحسان إليه بشرط أن يكون ممن لا يقاتلوننا في ديننا، ولم يخرجونا من ديارنا؛ لقوله تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} [الممتحنة: ٨]؛ وعلى هذا فإذا كان الكافر يقاتلنا بنفسه بأن يكون هذا الرجل المعيَّن مقاتلًا، أو يقاتلنا حكمًا، مثل أن يكون من دولة تقاتل المسلمين فإنه لا يجوز بره، ولا إعطاؤه المال؛ لأنه مستعد حكمًا للقتال؛ إذا أمرته دولته بقتال فإنه يلبي؛ وما دام حربًا للمسلمين فإنه يريد إعدام المسلمين، وليس أهلًا للإحسان إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٧٣: فِي قَوْله تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} الْآيَةَ وَفِيهَا قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْقِصَاصَ هُوَ الْقَوَدُ، وَهُوَ أَخْذُ الدِّيَةِ بَدَلُ الْقَتْلِ، كَمَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إسْرَائِيلَ الْقِصَاصُ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ الدِّيَةُ فَجَعَلَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الدِّيَةَ، فَقَالَ: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ}، وَالْعَفُوُّ هُوَ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} مِمَّا كَانَ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ، وَالْمُرَادُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَنْ يُقْتَلَ الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى. قَالَ قتادة: إنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ فِيهِمْ بَغْيٌ، وَكَانَ الْحَيُّ إذَا كَانَ فِيهِمْ عَدَدٌ وَعُدَّةٌ فَقَتَلَ عَبْدُهُمْ عَبْدَ قَوْمٍ آخَرِينَ، قَالُوا: لَنْ يُقْتَلَ بِهِ إلَّا حُرٌّ تَعَزُّزًا عَلَى غَيْرِهِمْ، وَإِنْ قَتَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ امْرَأَةً مِنْ آخَرِينَ قَالُوا لَنْ يُقْتَلَ بِهَا إلَّا رَجُلًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَيَحْتَجُّ بِهَا طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد عَلَى أَنَّ الْحُرَّ لَا يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ؛ لِقَوْلِهِ: {وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ} فَيَنْقُض ذَلِكَ عَلَيْهِ بِالْمَرْأَةِ؛ فَإِنَّهُ قَالَ: {وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى}، وطَائِفَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ لَمْ يَذْكُرُوا إلَّا هَذَا الْقَوْلَ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْقِصَاصَ فِي الْقَتْلَى يَكُونُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ قِتَالَ عَصَبِيَّةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، فَيُقْتَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَحْرَارٌ وَعَبِيدٌ وَنِسَاءٌ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، بِأَنْ يُقَاصَّ دِيَةُ حُرٍّ بِدِيَةِ حُرٍّ، وَدِيَةُ امْرَأَةٍ بِدِيَةِ امْرَأَةٍ، وَعَبْدٍ بِعَبْدِ، فَإِنْ فَضَلَ لِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ شَيْءٌ بَعْدَ الْمُقَاصَّةِ فَلْتَتْبَعْ الْأُخْرَى بِمَعْرُوفِ، وَلْتُؤَدِّ الْأُخْرَى إلَيْهَا بِإِحْسَانِ، وَهَذَا قَوْلُ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطبري وَغَيْرُهُ، وعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَإِنَّهُ إذَا جَعَلَ ظَاهِرَ الْآيَةِ لَزِمَتْهُ إشْكَالَاتٌ، لَكِنَّ الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ مَدْلُولُ الْآيَةِ وَمُقْتَضَاهُ وَلَا إشْكَالَ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يُسْتَفَادُ مِنْ دَلَالَةِ الْآيَةِ، كَمَا سَنُنَبِّهُ عَلَيْهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا ذَكَرْنَاهُ يَظْهَرُ مِنْ وُجُوهٍ.

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}، و{الْقِصَاصُ} مَصْدَرُ قَاصَّهُ يُقَاصُّهُ مُقَاصَّةً وَقِصَاصًا، وَمِنْهُ مُقَاصَّةُ الدَّيْنَيْنِ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ، وَ{الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} إنَّمَا يَكُونُ إذَا كَانَ الْجَمِيعُ قَتْلَى، كَمَا ذَكَرَ الشَّعْبِيُّ فَيُقَاصُّ هَؤُلَاءِ الْقَتْلَى بِهَؤُلَاءِ الْقَتْلَى، أَمَّا إذَا قَتَلَ رَجُلٌ رَجُلًا فَالْمَقْتُولُ مَيِّتٌ، فَهُنَا الْمَقْتُولُ لَا مُقَاصَّةَ فِيهِ، وَلَكِنَّ الْقِصَاصَ أَنْ يُمَكَّنَ مِنْ قَتْلِ الْقَاتِلِ لَا غَيْرِهِ، وَفِي اعْتِبَارِ الْمُكَافَآتِ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ قِيلَ: تُعْتَبَرُ الْمُكَافَآتُ فَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِذِمِّيٍّ وَلَا حُرٌّ بِعَبْدِ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد. وَقِيلَ: لَا تُعْتَبَرُ الْمُكَافَآتُ كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَالْمُكَافَآتُ لَا تُسَمَّى قِصَاصًا.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ}، وَإِنْ أُرِيدَ بِالْقِصَاصِ الْمُكَافَآتُ فَتِلْكَ لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ اسْتِيفَاءُ الْقَوَدِ فَذَلِكَ مُبَاحٌ لِلْوَلِيِّ، إنْ شَاءَ اقْتَصَّ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْتَصَّ فَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ الِاقْتِصَاصُ، وَقَدْ أَوْرَدَ هَذَا السُّؤَالَ بَعْضُهُمْ وَقَالَ: هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَى الْقَاتِلِ أَنْ يُمَكِّنَ مِنْ نَفْسِهِ، فَيُقَالُ لَهُ: هُوَ تَعَالَى قَالَ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} وَلَيْسَ هَذَا خِطَابًا لِلْقَاتِلِ وَحْدَهُ بَلْ هُوَ خِطَابٌ لِأَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ، بِدَلِيلِ قَوْله تَعَالَى: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} ثُمَّ لَا يُقَالُ لِلْقَاتِلِ: كُتِبَ عَلَيْك الْقِصَاصُ فِي الْمَقْتُولِ فَإِنَّ الْمَقْتُولَ لَا قِصَاصَ فِيهِ.

وأَيْضًا، فَنَفْسُ انْقِيَادِ الْقَاتِلِ لِلْوَلِيِّ لَيْسَ هُوَ قِصَاصًا، بَلْ الْوَلِيُّ لَهُ أَنْ يَقْتَصَّ وَلَهُ أَنْ لَا يَقْتَصَّ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَذَا قَوْدًا لِأَنَّ الْوَلِيَّ يَقُودُهُ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ تَسْلِيمِ السِّلْعَةِ إلَى الْمُشْتَرِي، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} فَكَيْفَ يُقَالُ: مِثْلُ هَذَا قَصْدُهُ الْقَاتِلُ، بَلْ هَذَا خِطَابٌ لِلْأُمَّةِ بِالْمُقَاصَّةِ وَالْمُعَادَلَةِ فِي الْقَتْلِ. وَالنَّبِيُّ ﷺ إنَّمَا قَالَ: ((كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ)) لَمَّا كَسَرَتْ الربيع سِنَّ جَارِيَةٍ وَامْتَنَعُوا مِنْ أَخْذِ الْأَرْشِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: لَا وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الربيع، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَنَسُ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ فَرَضِيَ الْقَوْمُ بِالْأَرْشِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ([1]))، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[المائدة: ٤٥]، يَعْنِي (كِتَابُ اللَّهِ) أَنْ يُؤْخَذَ الْعُضْوُ بِنَظِيرِهِ، فَهَذَا قِصَاصٌ لِأَنَّهُ مُسَاوَاةٌ؛ وَلِهَذَا

١- البخاري في الصلح (٢٧٠٣) وأبو داود في الديات (٤٥٩٥).

كَانَتْ الْمُكَافَآتُ فِي الْأَعْضَاءِ وَالْجُرُوحِ مُعْتَبَرَةً بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنْ قِيلَ: الْقِصَاصُ هُوَ أَنْ يُقْتَلَ قَاتِلُهُ لَا غَيْرُهُ فَهُوَ خِلَافُ الِاعْتِدَاءِ، قِيلَ: نَعَمْ! وَهَذَا قِصَاصٌ فِي الْأَحْيَاءِ لَا فِي الْقَتْلَى.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: {فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى}، وَمَعْلُومٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ الْعَبْدَ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ وَبِالْحُرِّ، وَالْأُنْثَى تُقْتَلُ بِالْأُنْثَى وَبِالذَّكَرِ، وَالْحُرَّ يُقْتَلُ بِالْحُرِّ وَبِالْأُنْثَى – أَيْضًا – عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ. وَقِيلَ: يُشْتَرَطُ أَنْ تُؤَدَّى تَمَامُ دِيَتِهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَقَوْلُهُ: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى مُقَاصَّةِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَمُعَادَلَتِهِ بِهِ وَمُقَابَلَتِهِ بِهِ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى، وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ إذَا كَانُوا مَقْتُولِينَ فَيُقَابِلُ كُلَّ وَاحِدٍ بِالْآخَرِ، وَيَنْظُرُ: أَيَتَعَادَلَانِ أَمْ يُفَضَّلُ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ فَضْلٌ، أَمَّا فِي الْقَتْلَى فَلَا يَخْتَصُّ هَذَا بِهَذَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَالَ: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} لَفْظُ {عُفِيَ} هُنَا قَدْ اُسْتُعْمِلَ مُتَعَدِّيًا؛ فَإِنَّهُ قَالَ: {عُفِيَ}، {شَيْءٌ} وَلَمْ يَقُلْ: (عَفَا)، (شَيْئًا) وَهَذَا إنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْفِعْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}[البقرة: ٢١٩]، وَأَمَّا الْعَفْوُ عَنْ الْقَتْلِ فَذَاكَ يُقَالُ فِيهِ: عَفَوْت عَنْ الْقَاتِلِ، فَوَلِيُّ الْمَقْتُولِ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ: بَيْنَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ الْقَتْلِ وَيَأْخُذَ الدِّيَةَ فَلَمْ يُعْفَ لَهُ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ عَفَا عَنْ الْقَتْلِ وَإِذَا عَفَا فَإِمَّا أَنْ يَسْتَحِقَّ الدِّيَةَ بِنَفْسِهِ أَوْ بِغَيْرِ رِضَا الْقَاتِلِ عَلَى قَوْلَيْنِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: {مِنْ أَخِيهِ}: أَيْ: مِنْ دَمِ أَخِيهِ، أَيْ: تَرَكَ لَهُ الْقَتْلَ وَرَضِيَ بِالدِّيَةِ، وَالْمُرَادُ الْقَاتِلُ، يَعْنِي: أَنَّ الْقَاتِلَ عُفِيَ لَهُ مِنْ دَمِ أَخِيهِ الْمَقْتُولِ، أَيْ تَرَكَ لَهُ الْقَتْلَ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ أَنَّ الْوَلِيَّ عَفَا لِلْقَاتِلِ مِنْ دَمِ الْمَقْتُولِ شَيْئًا، وَهَذَا كَلَامٌ لَا يُعْرَفُ، لَا يُقَالُ: عَفَوْت لَك شَيْئًا، وَلَا يُقَالُ: عَفَوْت مِنْ دَمِ الْقَاتِلِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُقَالُ: إنَّهُ عَفَا عَنْ الْقَاتِلِ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟.

وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، فَالْمُتَقَاصَّانِ إذَا تَعَادَّا الْقَتْلَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ، أَيْ فَضَلَ لَهُ مِنْ مُقَاصَّةِ أَخِيهِ مُقَاصَّةٌ أُخْرَى، أَيْ هَذَا الَّذِي فَضَلَ لَهُ فَضْلٌ كَمَا يُقَالُ: أَبَقِيَ لَهُ مِنْ جِهَةِ أَخِيهِ بَقِيَّةٌ {فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}، فَهَذَا الْمُسْتَحِقّ لِلْفَضْلِ يَتَّبِعُ الْمُقَاصَّ الْآخَرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إلَى هَذَا بِإِحْسَانٍ {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ}: أَيْ: مِنْ أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ تُؤَدِّي قَتْلَى الْأُخْرَى، فَإِنَّ فِي هَذَا تَثْقِيلًا عَظِيمًا لَهُ {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}، فَإِنَّهُمْ إذَا تَعَادُّوا الْقَتْلَى وَتَقَاصُّوا وَتَعَادَلُوا لَمْ يَبْقَ وَاحِدَةٌ تَطْلُبُ الْأُخْرَى بِشَيْءٍ فَحَيِيَ هَؤُلَاءِ وَحَيِيَ هَؤُلَاءِ، بِخِلَافِ مَا إذَا لَمْ يَتَقَاصُّوا فَإِنَّهُمْ يَتَقَاتَلُونَ، وَتَقُومُ بَيْنَهُمْ الْفِتَنُ الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا خَلَائِقُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي فِتَنِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، إنَّمَا تَقَعُ الْفِتَنُ لِعَدَمِ الْمُعَادَلَةِ وَالتَّنَاصُفِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، وَإِلَّا فَمَعَ التَّعَادُلِ وَالتَّنَاصُفِ الَّذِي يَرْضَى بِهِ أُولُو الْأَلْبَابِ لَا تَبْقَى فِتْنَةٌ.

وَقَوْلُهُ: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ}، فَطَلَبَ مِنْ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى مَالًا أَوْ قَوْمًا أَوْ آذَاهُمْ بِسَبَبِ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ الدَّمِ {فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}[الحجرات: ٩، ١٠]، و(الْأُخُوَّةُ) هُنَا كَالْأُخُوَّةِ هُنَاكَ وَهَذَا فِي قَتْلَى الْفِتَنِ.

وَأَمَّا إِذَا قَتَلَ رَجُلٌ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ فِتْنَةٍ فَهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الْقَاتِلَ يُقْتَلُ، لَكِنْ كَانَتْ الطَّائِفَةُ الْقَوِيَّةُ تَطْلُبُ أَنْ تَقْتُلَ غَيْرَ الْقَاتِلِ، أَوْ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الْقَاتِلِ، أَوْ اثْنَيْنِ بِوَاحِدٍ، وَإِذَا كَانَ الْقَاتِلُ مِنْهَا لَمْ تَقْتُلْ بِهِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، كَمَا قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، لَكِنَّ هَذَا لَمْ تَثُرْ بِهِ الْفِتَنُ، بَلْ فِيهِ ظُلْمُ الطَّائِفَةِ الْقَوِيَّةِ لِلضَّعِيفَةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأُمَمِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْقَاتِلَ الظَّالِمَ الْمُتَعَدِّي مُطْلَقًا لَا يُقْتَلُ، فَهَذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، بَلْ كُلُّ بَنِي آدَمَ مُطْبِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقَاتِلَ فِي الْجُمْلَةِ يُقْتَلُ، لَكِنَّ الظَّلَمَةَ الْأَقْوِيَاءَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ قَتِيلٍ وَقَتِيلٍ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}، مَعْنَاهُ: أَنَّ الْقَاتِلَ إِذَا عَرَفَ أَنَّهُ يُقْتَلُ كَفَّ فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةٌ لَهُ وَلِلْمَقْتُولِ، يُقَالُ لَهُ: هَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ، وَلَكِنَّ هَذَا مِمَّا يَعْرِفُهُ جَمِيعُ النَّاسِ، وَهُوَ مَغْرُوزٌ فِي جِبِلَّتِهِمْ، وَلَيْسَ فِي الْآدَمِيِّينَ مَنْ يُبِيحُ قَتْلَ أَحَدٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْتَلَ قَاتِلُهُ، بَلْ كُلُّهُمْ مَعَ التَّسَاوِي يُجَوِّزُونَ قَتْلَ الْقَاتِلِ وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنَّ النَّاسَ. . . ([1])إِذَا كَانَ كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَلَى غَيْرِهِ قَتَلَهُ وَهُوَ لَا يُقْتَلُ يَرْضَى بِمَالٍ، وَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ أَوَائِلِ مَا يَعْرِفُهُ الْآدَمِيُّونَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَعِيشُونَ بِدُونِهِ صَارَ هَذَا مِثْلُ حَاجَتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالسُّكْنَى، فَالْقُرْآنُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ التَّعْرِيفَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْبَدِيهِيَّةِ، بَلْ هَذَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي مَعْنَاهُ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا كَتَبَ عَلَيْهِمْ الْقِصَاصَ فِي الْمَقْتُولِينَ أَنَّهُ يَسْقُطُ حُرٌّ بِحُرٍّ وَعَبْدٌ بِعَبْدٍ وَأُنْثَى بِأُنْثَى فَجَعَلَ دِيَةَ هَذَا كَدِيَةِ هَذَا، وَدَمَ هَذَا كَدَمِ هَذَا مُتَضَمِّنٌ لِمُسَاوَاتِهِمْ فِي الدِّمَاءِ وَالدِّيَاتِ، وَكَانَ بِهَذِهِ الْمُقَاصَّةِ لَهُمْ حَيَاةٌ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي تُوجِبُ هَلَاكَهُمْ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَهَذَا الْمَعْنَى مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَعُلِمَ أَنَّ دَمَ الْحُرِّ وَدِيَتَهُ كَدَمِ الْحُرِّ وَدِيَتِهِ فَيُقْتَلُ بِهِ، وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ التَّقَاصَّ يَقَعُ لِلتَّسَاوِي فِي الدِّيَاتِ عَلِمَ أَنَّ لِلْمَقْتُولِ دِيَةً. وَلَفْظُ الْقِصَاصِ يَدُلُّ عَلَى الْمُعَادَلَةِ وَالْمُسَاوَاةِ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ الْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ فِي أَمْرِ الْقَتْلَى، فَمَنْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَالْمَقْتُولُ وَأَوْلِيَاؤُهُ إِذَا امْتَنَعُوا مِنْ إِنْصَافِ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ فَهُمْ ظَالِمُونَ، هَؤُلَاءِ خَارِجُونَ عَمَّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ مِنْ الْعَدْلِ، وَهَؤُلَاءِ خَارِجُونَ عَمَّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ – سُبْحَانَهُ – هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}[الأسراء: ٣٣]، وَإِذَا دَلَّتْ عَلَى الْعَدْلِ فِي الْقَوَدِ بِطَرِيقِ اللُّزُومِ وَالتَّنْبِيهِ ذَهَبَ الْإِشْكَالُ، وَلَمْ يَقُلْ: فَلِمَ لَا قَالَ: وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْحُرِّ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْمَقْصُودُ أَنَّهُ يُقَاصُّ بِهِ فِي الْقَتْلَى، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِنَّمَا يُقَاصُّ الْحُرَّ بِالْحُرِّ لَا بِالْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةَ بِالْمَرْأَةِ لَا بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ. فَظَهَرَتْ فَائِدَةُ التَّخْصِيصِ بِهِ وَالْمُقَابَلَةِ فِي الْآيَةِ.

وَدَلَّتْ الْآيَةُ – حِينَئِذٍ – عَلَى أَنَّ الْحُرَّ يُقْتَلُ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى؛ إِذَا كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الدَّمِ، وَبَدَلُهُ هُوَ الدِّيَةُ، وَلَمْ يَنْتَفِ أَنْ يُقْتَلَ عَبْدٌ بِحُرٍّ وَأُنْثَى بِذَكَرٍ، وَلَا لَهَا مَفْهُومٌ يَنْفِي ذَلِكَ، بَلْ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ بِطَرِيقِ التَّنْبِيهِ وَالْفَحْوَى

---

١ – بياض بالأصل.

وَالْأَوْلَى، كَذَلِكَ تَدُلُّ عَلَى هَذَا أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ إذَا قُتِلَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ فَقَتْلُهُ بِالْحُرِّ أَوْلَى، وَإِذَا قُتِلَتْ الْمَرْأَةُ بِالْمَرْأَةِ فَقَتْلُهَا بِالرَّجُلِ أَوْلَى.

وَأَمَّا قَتْلُ الْحُرِّ بِالْعَبْدِ وَالذَّكَرِ بِالْأُنْثَى فَالْآيَةُ لَمْ تَتَعَرَّضْ لَهُ لَا بِنَفْيٍ وَلَا إثْبَاتٍ، وَلَا لَهَا مَفْهُومٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ، لَا مَفْهُومَ مُوَافَقَةٍ وَلَا مُخَالَفَةٍ؛ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ فِي الْمُقَاصَّةِ يُقَاسُ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى لِتَسَاوِي الدِّيَاتِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى قَتْلِ النَّظِيرِ بِالنَّظِيرِ، وَالْأَدْنَى بِالْأَعْلَى.

يَبْقَى قَتْلُ الْأَعْلَى الْكَثِيرِ الدِّيَةِ بِالْأَدْنَى الْقَلِيلِ الدِّيَةِ، لَيْسَ فِي الْآيَةِ تَعَرُّضٌ لَهُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا ابْتِدَاءَ الْقَوَدِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ الْمُقَاصَّةَ فِي الْقَتْلَى لِتَسَاوِي دِيَاتِهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: دِيَةُ الْحُرِّ كَدِيَةِ الْحُرِّ، وَدِيَةُ الْأُنْثَى كَدِيَةِ الْأُنْثَى، وَيَبْقَى الْعَبِيدُ قِيمَتُهُمْ مُتَفَاضِلَةٌ؟

قِيلَ: عَبِيدُهُمْ كَانُوا مُتَقَارِبِينَ الْقِيمَةِ، وَقَوْلُهُ: {وَالعَبْدُ بِالْعَبْدِ} قَدْ يُرَادُ بِهِ بِالْعَبْدِ الْمُمَاثِلِ بِهِ، كَمَا يُقَالُ: ثَوْبٌ بِثَوْبٍ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَغْلَى قِيمَةٍ، فَذَاكَ مِمَّا عُفِيَ لَهُ، وَقَدْ يُعْفَى إذَا لَمْ تُعْرَفْ قِيمَتُهُمْ وَهُوَ الْغَالِبُ، فَإِنَّ الْمَقْتُولِينَ فِي الْفِتَنِ عَبِيدُهُمْ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ تَرْبِيَتُهُمْ عِنْدَهُمْ لَمْ يَشْتَرُوهُمْ، فَهَذَا يَكُونُ مَعَ الْعِلْمِ بِتَسَاوِي الْقِيمَةِ وَمَعَ الْجَهْلِ بِتَفَاضُلِهَا؛ فَإِنَّ الْمَجْهُولَ كَالْمَعْدُومِ، وَلَوْ أَتْلَفَ كُلٌّ مِنْ الرَّجُلَيْنِ ثَوْبَ الْآخَرِ وَلَا يَعْلَمُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا قِيمَةَ وَاحِدٍ مِنْ الثَّوْبَيْنِ، قِيلَ: ثَوْبٌ بِثَوْبٍ، وَهَذَا لِأَنَّ الزِّيَادَةَ مُحْتَمَلَةٌ مِنْ الطَّرَفَيْنِ؛ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُ هَذَا أَغْلَى، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُ هَذَا أَغْلَى، وَلَيْسَ تَرْجِيحُ أَحَدِهِمَا أَوْلَى مِنْ الْآخَرِ، وَالْأَصْلُ بَرَاءَةُ ذِمَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الزِّيَادَةِ، فَلَا تَشْتَغِلُ الذِّمَّةُ بِأَمْرٍ مَشْكُوكٍ فِيهِ لَوْ كَانَ الشَّكُّ فِي أَحَدِهِمَا، فَكَيْفَ إذَا كَانَ مِنْ الطَّرَفَيْنِ؟

فَظَهَرَ حِكْمَةُ قَوْلِهِ: {وَالعَبْدُ بِالْعَبْدِ}، وَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى مَا يَحْتَاجُ الْخَلْقُ إلَى مَعْرِفَتِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَيُحْقَنُ بِهِ، دِمَاؤُهُمْ وَيَحْيَوْنَ بِهِ وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْآخَرُونَ مِنْ الْعَدْلِ فِي الْقَوَدِ.

وَدَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْقَتْلَى يُؤْخَذُ لَهُمْ دِيَاتٌ، فَدَلَّ عَلَى ثُبُوتِ الدِّيَةِ عَلَى الْقَاتِلِ، وَأَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْمَقْتُولِينَ، وَهَذَا مِمَّا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حَيْثُ أَثْبَتَ الْقِصَاصَ وَالدِّيَةَ.

وَأَمَّا كَوْنِ الْعَفْوِ هُوَ قَبُولُ الدِّيَةِ فِي الْعَمْدِ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّهَا الْعَافِي بِمُجَرَّدِ عَفْوِهِ – فَالْآيَةُ لَمْ تَتَعَرَّضْ لِهَذَا.

وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الطَّوَائِفَ الْمُمْتَنِعَةَ تُضَمِّنُ كُلٌّ مِنْهُمَا مَا أَتْلَفَتْهُ الْأُخْرَى؛ مِنْ دَمٍ وَمَالٍ بِطَرِيقِ الظُّلْمِ؛ لِقَوْلِهِ: {مِنْ أَخِيهِ} بِخِلَافِ مَا أَتْلَفَهُ الْمُسْلِمُونَ لِلْكُفَّارِ، وَالْكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا الْقِتَالُ بِتَأْوِيلٍ (كَقِتَالِ أَهْلِ الْجَمَلِ وصفين) فَلَا ضَمَانَ فِيهِ – أَيْضًا – بِطَرِيقِ الْأَوْلَى عِنْدَ الْجُمْهُورِ، فَإِنَّهُ إذَا كَانَ الْكُفَّارُ الْمُتَأَوِّلُونَ لَا يَضْمَنُونَ، فَالْمُسْلِمُونَ الْمُتَأَوِّلُونَ أَوْلَى أَنْ لَا يَضْمَنُوا.

وَدَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ هَذَا الضَّمَانَ عَلَى مَجْمُوعِ الطَّائِفَةِ يَسْتَوِي فِيهِ الرِّدْءُ(١)وَالْمُبَاشِرُ، لَا يُقَالُ: أَنْظُرُوا مَنْ قَتَلَ صَاحِبَكُمْ هَذَا فَطَالِبُوهُ بِدِيَتِهِ بَلْ يُقَالُ: دِيَتُهُ عَلَيْكُمْ كُلِّكُمْ، فَإِنَّكُمْ جمِيعًا قَتَلْتُمُوهُ؛ لِأَنَّ الْمُبَاشِرَ إنَّمَا تَمَكَّنَ بِمُعَاوَنَةِ الرِّدْءِ لَهُ، وَعَلَى هَذَا دَلَّ قَوْلُهُ: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}[الممتحنة: ١١]، فَإِنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ كَانَ عَلَيْهِمْ مِثْلُ صَدَاقِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتِي ذَهَبَتْ إلَيْهِمْ، فَإِذَا لَمْ يُؤَدُّوهُ أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي يَقْدِرُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا، مِثْلُ امْرَأَةٍ جَاءَتْ مِنْهُمْ يَسْتَحِقُّونَ صَدَاقَهَا، فَيُعْطِي الْمُسْلِمُ زَوْجَ تِلْكَ الْمُرْتَدَّةِ صَدَاقَهَا مِنْ صَدَاقِ هَذِهِ الْمُسْلِمَةِ الْمُهَاجِرَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهُ الْكُفَّارُ؛ لِكَوْنِهَا أَسْلَمَتْ وَهَاجَرَتْ وَفَوَّتَتْ زَوْجَهَا بُضْعَهَا كَمَا فَوَّتَتْ الْمُرْتَدَّةُ بُضْعَهَا لِزَوْجِهَا وَإِنْ كَانَ زَوْجُ الْمُهَاجِرَةِ لَيْسَ هُوَ الَّذِي تَزَوَّجَ بِالْمُرْتَدَّةِ؛ لِأَنَّ الطَّائِفَةَ لَمَّا كَانَتْ مُمْتَنِعَةً يَمْنَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، صَارَتْ كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ.

وَلِهَذَا لَمَّا قَتَلَ خَالِدٌ مَنْ قَتَلَ مِنْ بَنِي جذيمة وَدَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِهِ؛ لِأَنَّ خَالِدًا نَائِبُهُ وَهُوَ لَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَحَبْسِهِ لِأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ، وَكَذَلِكَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ وَعَاقِلَتُهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْجِهَادِ لَا لِعَدَاوَةٍ تَخُصُّهُ، وَقَدْ تَنَازَعَ الْفُقَهَاءُ فِي خَطَأِ وَلِيِّ الْأَمْرِ؛ هَلْ هُوَ فِي بَيْتِ الْمَالِ أَوْ عَلَى ذِمَّتِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

وَلِهَذَا كَانَ مَا غَنِمَتْهُ السَّرِيَّةُ يُشَارِكُهَا فِيهِ الْجَيْشُ، وَمَا غَنِمَهُ الْجَيْشُ شَارَكَتْهُ فِيهِ السَّرِيَّةُ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يَغْنَمُ بَعْضُهُمْ بِظَهْرِ بَعْضٍ، فَإِذَا اشْتَرَكُوا فِي الْمَغْرَمِ اشْتَرَكُوا فِي الْمَغْنَمِ، وَكَذَلِكَ فِي الْعُقُوبَةِ يُقْتَلُ الرِّدْءُ وَالْمُبَاشِرُ مِنْ الْمُحَارِبِينَ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْفُقَهَاءِ، كَمَا قَتَلَ عُمَرُ رضي الله عنه رَبِيئَةَ(٢)الْمُحَارِبِينَ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ فِي الْقَتْلِ قَوَدًا، وَفِي السُّرَّاقِ أَيْضًا.

وَبَيَانُ دَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ الْمَقْتُولِينَ إذَا حُبِسَ حُرٌّ بِحُرٍّ وَعَبْدٌ بِعَبْدٍ وَأُنْثَى بِأُنْثَى، فَالْحُرُّ مِنْ هَؤُلَاءِ لَيْسَ قَاتِلُهُ هُوَ وَلِيُّ الْحُرِّ مِنْ هَؤُلَاءِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ غَيْرُهُ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَيْسَ قَاتِلُهُ هُوَ سَيِّدُ الْعَبْدِ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ غَيْرُهُ، لَكِنْ لَمَّا كَانُوا مُجْتَمِعِينَ مُتَنَاصِرِينَ عَلَى قِتَالِ أُولَئِكَ وَمُحَارَبَتِهِمْ كَانَ مَنْ قَتَلَهُ بَعْضُهُمْ فَكُلُّهُمْ قَتَلَهُ، وَكُلُّهُمْ يَضْمَنُونَهُ؛ وَلِهَذَا مَا فَضَلَ لِأَحَدِ الطَّائِفَتَيْنِ يُؤْخَذُ مِنْ مَالِ الْأُخْرَى.

فَإِنْ قِيلَ: إذَا كَانَ مُسْتَقِرًّا فِي فِطَرِ بَنِي آدَمَ أَنَّ الْقَاتِلَ الظَّالِمَ لِنَظِيرِهِ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْتَلَ، وَلَيْسَ فِي الْآدَمِيِّينَ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ لَا يُقْتَلُ، فَمَا الْفَائِدَةُ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا}: أَيْ: فِي التَّوْرَاةِ، {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ}[المائدة: ٤٥]، إذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا الشَّرْعِ يَعْرِفُهُ الْعُقَلَاءُ كُلُّهُمْ؟

١- الرِّدْءُ: المُعِين. أنظر: المصباح المنير، مادة (ردؤ).

٢- أي طليعة. أنظر: المصباح، مادة (ربأ).

قِيلَ لَهُمْ: فَائِدَتُهُ: بَيَانُ تَسَاوِي دِمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّ دِمَاءَهُمْ مُتَكَافِئَةٌ لَيْسَ لِشَرِيفِهِمْ مَزِيَّةٌ عَلَى ضَعِيفِهِمْ، وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ الْجَلِيلَةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا شَرَائِعُ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَّا الطَّوَائِفُ الْخَارِجُونَ عَنْ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ فَلَا يَحْكُمُونَ بِذَلِكَ مُطْلَقًا، بَلْ قَدْ لَا يَقْتُلُونَ الشَّرِيفَ، وَإِذَا كَانَ الْمَلِكُ عَادِلًا فَقَدْ يَفْعَلُ بَعْضَ ذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ تَكَافُؤِ دِمَائِهِمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، فَحَكَمَ أَيْضًا فِي الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ بِتَكَافُؤِ دِمَائِهِمْ، فَالْمُسْلِمُ الْحُرُّ يُقْتَلُ بِالْمُسْلِمِ الْحُرِّ مِنْ جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

وَبِهَذَا ظَهَرَ الْجَوَابُ عَنْ احْتِجَاجِ مَنْ احْتَجَّ بِآيَةِ التَّوْرَاةِ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ يُقْتَلُ بِالذِّمِّيِّ؛ لِقَوْلِهِ: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}، و(شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا) فَإِنَّهُ يُقَالُ: الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنَّ النَّفْسَ مِنْهُمْ، بِالنَّفْسِ مِنْهُمْ وَهُمْ كُلُّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ كَافِرٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِي شَرِيعَتِهِمْ إبْقَاءُ كَافِرٍ بَيْنَهُمْ لَا بِجِزْيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا، وَهَذَا مِثْلُ شَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنَّ الْمُسْلِمِينَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَلَيْسَ فِي الشَّرِيعَتَيْنِ أَنَّ دَمَ الْكَافِرِ يُكَافِئُ دَمَ الْمُسْلِمِ، بَلْ جَعْلُ الْإِيمَانِ هُوَ الْوَاجِبُ لِلْمُكَافَآتِ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ ذَلِكَ فِي الْكَافِرِ - سَوَاءٌ كَانَ ذِمِّيًّا أَوْ مُسْتَأْمَنًا - لِانْتِفَاءِ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ لِلْمُكَافَأَةِ فِيهِ، نَعَمْ يُحْتَجُّ بِعُمُومِهِ عَلَى الْعَبْدِ.

وَلَيْسَ فِي الْعَبْدِ نُصُوصٌ صَرِيحَةٌ صَحِيحَةٌ كَمَا فِي الذِّمِّيِّ، بَلْ مَا رُوِيَ: ((مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ بِهِ([1])))، وَهَذَا لِأَنَّهُ إذَا قَتَلَهُ ظَالِمًا كَانَ الْإِمَامُ وَلِيَّ دَمِهِ؛ لِأَنَّ الْقَاتِلَ كَمَا لَا يَرِثُ الْمَقْتُولَ إذَا كَانَ حُرًّا، فَكَذَلِكَ لَا يَكُونُ وَلِيَّ دَمِهِ إذَا كَانَ عَبْدًا، بَلْ هَذَا أَوْلَى كَيْفَ يَكُونُ وَلِيُّ دَمِهِ وَهُوَ الْقَاتِلُ؟ بَلْ لَا يَكُونُ وَلِيَّ دَمِهِ، بَلْ وَرَثَةُ الْقَاتِلِ السَّيِّدِ، لِأَنَّهُمْ وَرَثَتُهُ وَهُوَ بِالْحَيَاةِ وَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ وِلَايَةٌ حَتَّى تَنْتَقِلَ إلَيْهِمْ فَيَكُونُ وَلِيَّهُ الْإِمَامِ. وَحِينَئِذٍ فَلِلْإِمَامِ قَتْلُهُ، فَكُلُّ مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ كَانَ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ.

وَأَيْضًا، فَقَدْ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ أَنَّهُ إذَا مَثَّلَ بِعَبْدِهِ عَتَقَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمَا، وَقَتْلُهُ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الْمَثْلِ، فَلَا يَمُوتُ إلَّا حُرًّا، لَكِنَّ حُرِّيَّتَهُ لَمْ تَثْبُتْ فِي حَالِ الْحَيَاةِ حَتَّى يَرِثَهُ عَصَبَتُهُ، بَلْ حُرِّيَّتُهُ ثَبَتَتْ حُكْمًا، وَهُوَ إذَا كَانَ عَتَقَ كَانَ وَلَاؤُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ الْإِمَامُ هُوَ وَلِيُّهُ، فَلَهُ قَتْلُ قَاتِلِ عَبْدِهِ.

وَقَدْ يَحْتَجُّ بِهَذَا مَنْ يَقُولُ: إنَّ قَاتِلَ عَبْدَ غَيْرِهِ لِسَيِّدِهِ قَتْلُهُ، وَإِذَا دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى هَذَا كَانَ هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الرَّاجِحُ، وَالْقَوْلُ الْآخَرُ لَيْسَ مَعَهُ نَصٌّ صَرِيحٌ وَلَا قِيَاسٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ قَالَ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرُهُمْ: مَنْ قُتِلَ وَلَا وَلِيَّ لَهُ كَانَ الْإِمَامُ وَلِيَّ دَمِهِ، فَلَهُ أَنْ يَقْتُلَ، وَلَهُ أَنْ يَعْفُوَ عَلَى الدِّيَةِ، لَا مَجَّانًا.

يُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ مَنْ قَالَ: لَا يَقْتُلُ حُرٌّ بِعَبْدٍ يَقُولُ: إنَّهُ لَا يُقْتَلُ الذِّمِّيُّ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ الْمُسْلِمِ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ: {وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ}[البقرة: ٢٢١]، فَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ خَيْرٌ مِنَ الذِّمِّيِّ الْمُشْرِكِ، فَكَيْفَ لَا يُقْتَلُ بِهِ؟! وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ

١- البخاري في الديات (٤٥١٥)، والترمذي في الديات (١٤١٤) وقال: (حديث حسن غريب)، والنسائي في القسامة (٤٧٣٦)، وابن ماجة في الديات (٢٦٦٣)، وأحمد ٥/١٠-١٢ كلهم عن سمرة بن جندب.

مِثْلُ الْحَرَائِرِ الْمُؤْمِنَاتِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاهِيرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَهَذَا قَوِيٌّ عَلَى قَوْلِ أَحْمَدَ؛ فَإِنَّهُ يَجُوزُ شَهَادَةُ الْعَبْدِ كَالْحُرِّ، بِخِلَافِ الذِّمِّيِّ، فَلِمَاذَا لَا يَقْتُلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ وَكُلُّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ(١)))؟!.

قال السعدي: ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلّا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصَّهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدلُّ على أن الله تعالى يحبُّ من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحِكم والمصالح الدالَّة على كماله، وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحقَّ المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجّه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا لقوم يعقلون.

وقوله: {لعلكم تتقون}: وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١ ـ أهمية القصاص؛ لأن الله وجه الخطاب به إلى المؤمنين؛ وصدره بالنداء المستلزم للتنبيه؛ وتصدير الخطاب بالنداء فائدته التنبيه، وأهمية الأمر.

٢ ـ أن تنفيذ القصاص من مقتضى الإيمان؛ لأن الخطاب موجَّه للمؤمنين.

٣ـ أن ترك تنفيذه نقص في الإيمان؛ فما كان من مقتضى الإيمان تنفيذه فإنه يقتضي نقص الإيمان بتركه.

٤ ـ ومنها: وجوب التمكين من القصاص؛ لقوله تعالى: {كتب عليكم القصاص}.

٥– الرَّد على طائفتين مبتدعتين؛ وهما الخوارج، والمعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان؛ لكن الخوارج يصرِّحون بكفره؛ والمعتزلة يقولون: إنه في منزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر ـ فلا هو كافر؛ ولا هو بمؤمن؛ لكن اتفق الجميع على أنه مخلَّد في النار.

٦– إثبات الرحمة لله؛ وهي رحمة حقيقية تستلزم حصول النِّعم واندفاع النِّقم؛ وأهل التعطيل يفسرونها بـ(الإنعام) الذي هو مفعول الرب؛ أو بـ(إرادة الإنعام)؛ وينكرون حقيقة الرحمة؛ وقد ضلوا في ذلك: فإن الإنعام، أو إرادته من آثار الرحمة، وليسا إيَّاها.

١– أبو داود في الديات (٤٥٣٠)، والنسائي في القسامة (٤٧٣٤)، وأحمد ١٢٢/١ كلهم عن علي بن أبي طالب.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)

قال ابن العثيمين: {كتب}: أي فرض؛ فهو فعل مبنيٌ لما لم يسمَّ فاعله؛ وفاعله معلوم ـ وهو الله عز وجل؛ ونائب الفاعل قوله تعالى: {الوصية}؛ إنَّما لم يؤنث الفعل لكون نائب الفاعل مؤنَّثًا تأنيثًا مجازيًّا؛ وللفصل بينه وبين عامله.

قال القرطبي: اختلف العلماء في وجوب الوصية على من خلَّف مالًا، بعد إجماعهم على أنها واجبة على من قبله ودائع وعليه ديون. وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس قبله شيء من ذلك، وهو قول مالك والشافعي والثوري، موسرًا كان الموصي أو فقيرًا. وقالت طائفة: الوصية واجبة على ظاهر القرآن، قال الزهري وأبو مجلز، قليلًا كان المال أو كثيرًا. وقال أبو ثور: ليست الوصية واجبة إلَّا على رجل عليه دين أو عنده مال لقوم، فواجب عليه أن يكتب وصيته ويخبر بما عليه. فأمَّا من لا دَين عليه ولا وديعة عنده فليست بواجبة عليه إلَّا أن يشاء. قال ابن المنذر: وهذا حسن، لأن اللّه فرض أداء الأمانات إلى أهلها، ومن لا حقَّ عليه ولا أمانة قبله فليس واجب عليه أن يوصي. احتج الأولون بما رواه الأئمة عن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده([1]))، وفي رواية ((يبيت ثلاث ليال))، وفيها قال عبدالله بن عمر: ما مرَّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول اللّه ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي. احتج من لم يوجبها بأن قال: لو كانت واجبة لم يجعلها إلى إرادة الموصي،

---

١ – (قلت): قال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الشيخين. عبيد الله: هو ابن عمر العمري.

وأخرجه أحمد ٢/٥٧ و٨٠، والدارمي ٢/٤٠٢، ومسلم (١٦٢٧) في الوصية في فاتحته، وأبو داود(٢٨٦٢) في الوصايا: باب ما جاء فيما يؤمر به من الوصية، والترمذي (٩٧٤) في الجنائز: باب ما جاء في الحث على الوصية، والنسائي ٦/٢٣٨ – ٢٣٩ في الوصايا: باب الحث على الوصية، وابن الجارود (٩٤٦) من طرق عن عبيد الله، بهذا الإسناد.

وأخرجه مالك ٢/٧٦١ في الوصية: باب الأمر بالوصية، وأحمد ٢/١٠و٥٠و١١٣، والطيالسي (١٨٤١)، والبخاري (٢٧٣٨) في الوصايا في فاتحته، ومسلم (١٦٢٧)، والترمذي (٢١١٨) في الوصايا: باب ما جاء في الحث على الوصية، والنسائي ٨/٢٣٩، والدار قطني ٤/١٥٠و١٥٠ – ١٥١، والبيهقي ٦/٢٧١، والبغوي (١٤٥٧) من طرق عن نافع، به وانظر ما بعده.

وقوله: ((ما حق امرئ)) قال البغوي: معناه: ما حقه من جهة الحزم والاحتياط إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأنه لا يدري متى يدركه الموت، فربما يأتيه بغتة، فيمنعه عن الوصية.

وفيه دليل على أن الوصية مستحبة غير واجبة، لأنه فوض إلى إرادته، فقال: ((له شيء يوصى فيه)) يعني: يريد أن يوصي فيه، وهو قول عامة أهل العلم.

وذهب بعض التابعين إلى إيجابها ممن لم يجعل الآية منسوخة في حق الكافة، ثم الاستحباب في حق من له مال دون من ليس له فضل، وهذا في الوصية المتبرع بها من صدقة وبر وصلة، فأما أداء الديون والمظالم التي يلزمه الخروج منها، وردّ الأمانات فواجب عليه أن يوصي بها، وأن يتقدم إلى أوليائه فيها، لان أداء الحقوق والأمانات فرض واجب عليه.

– (قلت): قال محمد فؤاد عبدالباقي في شرحه لصحيح مسلم: ((ما حق امرئ مسلم))، قال الشافعي رحمه الله: معنى الحديث ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده فيستحب تعجيلها وأن يكتبها في صحته ويشهد عليه فيها ويكتب فيها ما يحتاج إليه.

ولكان ذلك لازمًا على كل حال، ثم لو سلم أن ظاهره الوجوب فالقول بالموجب يردّه، وذلك فيمن كانت عليه حقوق للناس يخاف ضياعها عليهم، كما قال أبو ثور. وكذلك إن كانت له حقوق عند الناس يخاف تلفها على الورثة، فهذا يجب عليه الوصية ولا يختلف فيه فإن قيل: فقد قال اللّه تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ} وكتب فرض، فدلَّ على وجوب الوصية قيل لهم: قد تقدم الجواب عنه في الآية قبل، والمعنى: إذا أردتم الوصية، واللّه أعلم. وقال النخعي: مات رسول اللّه ﷺ ولم يوص، وقد أوصى أبو بكر، فإن أوصى فحسن، وإن لم يوص فلا شيء عليه([1]).

قال ابن العثيمين: {إذا حضر أحدكم الموت} يريد بذلك – والله أعلم – إذا مرض الإنسان مرض الموت؛ أما إذا حضره بمعنى أنه كان في سياق الموت فإن في ذلك تفصيلًا يأتي – إن شاء الله – في الفوائد.

قال القرطبي: ذهب الجمهور من العلماء إلى أن المريض يحجر عليه في ماله، وشذ أهل الظاهر فقالوا: لا يحجر عليه وهو كالصحيح، والحديث والمعنى يرد عليهم. قال سعد: عادني رسول اللّه ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت فقلت: يا رسول اللّه، بلغ بي ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا بنت واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: ((لا))، قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: ((لا، الثلث والثلث كثير، إنَّك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس([2]))) الحديث.

ومنع أهل الظاهر أيضًا الوصية بأكثر من الثلث وإن أجازها الورثة. وأجاز ذلك الكافة إذا أجازها الورثة، وهو الصحيح، لأن المريض إنما منع من الوصية بزيادة على الثلث لحق الوارث، فإذا أسقط الورثة حقهم كان ذلك جائزًا صحيحًا، وكان كالهبة من عندهم. واختلفوا في رجوع المجيزين للوصية للوارث في حياة الموصي بعد وفاته، فقالت طائفة: ذلك جائز عليهم وليس لهم الرجوع فيه. هذا قول عطاء بن أبي رباح وطاوس والحسن وابن سيرين وابن أبي ليلى والزهري وربيعة والأوزاعي. وقالت طائفة: لهم الرجوع في ذلك إن أحبوا. هذا قول ابن مسعود وشريح والحكم وطاووس والثوري والحسن بن صالح وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وأبي ثور، واختاره ابن المنذر. وفرق مالك فقال: إذا أذنوا في صحته فلهم أن يرجعوا، وإن أذنوا له في مرضه حين يحجب عن ماله فذلك جائز عليهم، وهو قول إسحاق. احتج أهل المقالة الأولى بأن المنع وقع من أجل الورثة، فإذا أجازوه جاز. وقد اتفقوا أنه إذا أوصى بأكثر من ثلثه لأجنبي جاز بإجازتهم، فكذلك ههنا. واحتج أهل القول الثاني بأنهم أجازوا شيئًا لم يملكوه في ذلك الوقت، وإنما يملك المال بعد وفاته، وقد يموت الوارث المستأذن قبله ولا يكون وارثًا وقد يرثه غيره، فقد أجاز من لا حق له فيه فلا يلزمه شيء. واحتج مالك بأن قال: إن الرجل

١- (قلت): كتابة الوصية التي هي واجبة تلك التي للوالدين والأقربين الذين ورَّثهم آية الفرائض، وهذه الوصية نسخت بآية الفرائض؛ ونسخت الوجوب معها. وأمَّا الوصية بالثلث فما دونه من ماله لأقرباء غير مورَّثين وأجانب من عامة المسلمين فليست للوجوب بل هي للندب والله أعلم.

٢- (قلت): البخاري (١٢٩٥، ٦٣٧٣)، ومسلم (١٦٢٨).

إذا كان صحيحًا فهو أحقُّ بماله كله يصنع فيه ما شاء، فإذا أذنوا له في صحته فقد تركوا شيئًا لم يجب لهم، وإذا أذنوا له في مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق، فليس لهم أن يرجعوا فيه إذا كان قد أنفذه لأنه قد فات فإن لم ينفذ المريض ذلك كان للوارث الرجوع فيه لأنه لم يفت بالتنفيذ، قال الأبهري. وذكر ابن المنذر عن إسحاق بن راهويه أن قول مالك في هذه المسألة أشبه بالسنة من غيره. قال ابن المنذر: واتفق قول مالك والثوري والكوفيين والشافعي وأبي ثور أنهم إذا أجازوا ذلك بعد وفاته لزمهم. واختلفوا في الرجل يوصي لبعض ورثته بمال، ويقول في وصيته: إن أجازها الورثة فهي له، وإن لم يجيزوه فهو في سبيل اللّه، فلم يجيزوه. فقال مالك: إن لم تجز الورثة ذلك رجع إليهم. وفي قول الشافعي وأبي حنيفة ومعمر صاحب عبدالرزاق يمضي في سبيل اللّه.

ولا خلاف في وصية البالغ العاقل غير المحجور عليه، واختلف في غيره، فقال مالك: الأمر المجمع عليه عندنا أن الضعيف في عقله والسَّفيه والمصاب الذي يفيق أحيانا وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به. وكذلك الصبي الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول فوصيته جائزة ماضية.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تجوز وصية الصبي. وقال المزني: وهو قياس قول الشافعي، ولم أجد للشافعي في ذلك شيئًا ذكره ونص عليه. واختلف أصحابه على قولين: أحدهما كقول مالك، والثاني كقول أبي حنيفة. وحجتهم أنه لا يجوز طلاقه ولا عتاقه ولا يقتص منه في جناية ولا يحد في قذف، فليس كالبالغ المحجور عليه، فكذلك وصيته. قال أبو عمر: قد اتفق هؤلاء على أن وصية البالغ المحجور عليه جائزة. ومعلوم أن من يعقل من الصبيان ما يوصي به فحاله حال المحجور عليه في ماله، وعلة الحجر تبذير المال وإتلافه، وتلك علة مرتفعة عنه بالموت، وهو بالمحجور عليه في ماله أشبه منه بالمجنون الذي لا يعقل، فوجب أن تجوز وصيته مع الأمر الذي جاء فيه عن عمر رضي الله عنه . وقال مالك: إنه الأمر المجمع عليه عندهم بالمدينة، وباللّه التوفيق. وقال محمد بن شريح: من أوصى من صغير أو كبير فأصاب الحق فاللّه قضاه على لسانه ليس للحق مدفع.

قال ابن العثيمين: {إن ترك خيرًا}: قال العلماء: أي مالًا كثيرًا.

قال القرطبي: لم يبيِّن اللّه تعالى في كتابه مقدار ما يوصى به من المال، وإنما قال: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا}، وال{خير} المال، كقوله: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ}[البقرة: ٢٧٢]، {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ}[العاديات: ٨]، فاختلف العلماء في مقدار ذلك، فروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه أوصى بالخمس. وقال علي رضي الله عنه من غنائم المسلمين بالخمس. وقال معمر عن قتادة. أوصى عمر بالربع. وذكره البخاري عن ابن عباس. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (لأن أوصي بالخمس أحب إليّ من أن أوصي بالربع ولأن أوصي بالربع أحب إليّ من أن أوصي بالثلث).

واختار جماعة لمن ماله قليل وله ورثة ترك الوصية، روي ذلك عن علي وابن عباس وعائشة رضوان اللّه عليهم أجمعين. روى بن أبي شيبة من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة قال لها: إني أريد أن أوصي: قالت: وكم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف. قالت: فكم عيالك؟ قال أربعة. قالت: (إن اللّه تعالى يقول: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا}، وهذا شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل لك.

وذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا: إن لم يترك الموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كله. وقالوا: إن الاقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء، لقوله ﷺ: ((إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس([1]))) الحديث، رواه الأئمة. ومن لا وارث له فليس ممن عني بالحديث، روي هذا القول عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة ومسروق، وإليه ذهب إسحاق ومالك في أحد قوليه، وروي عن علي وسبب الخلاف مع ما ذكرنا، الخلاف في بيت المال هل هو وارث أو حافظ لما يجعل فيه؟ قولان.

وأجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصي بجميع ماله. وروي. عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة لابنه عبدالله: إني قد أردت أن أوصي، فقال له: أوص ومالك في مالي، فدعا كاتبًا فأملى، فقال عبدالله: فقلت له ما أراك إلا وقد أتيت على مالي ومالك، ولو دعوت إخوتي فاستحللتهم.

وأجمعوا أن للإنسان أن يغير وصيته ويرجع فيما شاء منها، إلا أنهم اختلفوا من ذلك في المدبر([2])، فقال مالك رحمه اللّه: الأمر المجمع عليه عندنا أن الموصي إذا أوصى في صحته أو مرضه بوصية فيها عتاقة رقيق من رقيقه أو غير ذلك فإنه يغير من ذلك ما بدا له ويصنع من ذلك ما شاء حتى يموت، وإن أحب أن يطرح تلك الوصية ويسقطها فعل، إلا أن يدبر فإن دبر مملوكًا فلا سبيل له إلى تغيير ما دبر، وذلك أن رسول اللّه ﷺ قال: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده([3]))). قال أبو الفرج المالكي: المدبر في القياس كالمعتق إلى شهر، لأنه أجل آت لا

١- (قلت): أخرجه البخاري ص١٠١، كتاب الجنائز، باب ٣٦: رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، حديث رقم ١٢٩٥، وأخرجه مسلم ص٩٦٢، كتاب الوصية، باب ١: الوصية بالثلث، حديث رقم ٤٢٠٩ [٥] ١٦٢٨. وقال الشيخ الألباني: صحيح.

٢- (قلت): قال الهروي في (الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي): والمدبر من العبيد والاماء مأخوذ من الدبر لان السيد اعتقه بعد مماته والممات دبر الحيات ومنه يقال: اعتقه عن دبر أي بعد الموت ولا تستعمل هذه اللفظة في كل شيء بعد الموت من وصية ووقف وغيره لان التدبير لفظ خص به العتق بعد الموت يقال دابر الرجل فهو مدابر إذا مات.

٣- (قلت): قال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الشيخين. عبيد الله: هو ابن عمر العمري.
وأخرجه أحمد ٢/٥٧ و٨٠، والدارمي ٢/٤٠٢، ومسلم (١٦٢٧) في الوصية في فاتحته، وأبو داود (٢٨٦٢) في الوصايا: باب ما جاء فيما يؤمر به من الوصية، والترمذي (٩٧٤) في الجنائز: باب ما جاء في الحث على الوصية، والنسائي ٦/٢٣٨ - ٢٣٩ في الوصايا: باب الحث على الوصية، وابن الجارود (٩٤٦) من طرق عن عبيد الله، بهذا الإسناد.

محالة. وأجمعوا ألا يرجع في اليمين بالعتق والعتق إلى أجل فكذلك المدبر، وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعي وأحمد وإسحاق: هو وصية، لإجماعهم أنه في الثلث كسائر الوصايا. وفي إجازتهم وطء المدبرة ما ينقض قياسهم المدبر على العتق إلى أجل، وقد ثبت أن النبي ﷺ باع مدبرًا، وأن عائشة دبرت جارية لها ثم باعتها، وهو قول جماعة من التابعين. وقالت طائفة: يغير الرجل من وصيته ما شاء إلا العتاقة. وكذلك قال الشعبي وابن سيرين وابن شبرمة والنخعي، وهو قول سفيان الثوري.

واختلفوا في الرجل يقول لعبده: أنت حر بعد موتي، وأراد الوصية، فله الرجوع عند مالك في ذلك. وإن قال: فلان مدبر بعد موتي، لم يكن له الرجوع فيه. وإن أراد التدبير بقوله الأول لم يرجع أيضًا عند أكثر أصحاب مالك. وأما الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور فكل هذا عندهم وصية، لأنه في الثلث، وكل ما كان في الثلث فهو وصية، إلا أن الشافعي قال: لا يكون الرجوع في المدبر إلا بأن يخرجه عن ملكه ببيع أو هبة. وليس قوله: – قد رجعت – رجوعًا، وإن لم يخرج المدبر عن ملكه حتى يموت فإنه يعتق بموته. وقال في القديم: يرجع في المدبر كما يرجع في الوصية. واختاره المزني قياسا على إجماعهم على الرجوع فيمن أوصى بعتقه. وقال أبو ثور: إذا قال قد رجعت في مدبري فقد بطل التدبير، فإن مات لم يعتق. واختلف ابن القاسم وأشهب فيمن قال: عبدي حر بعد موتي، ولم يرد الوصية ولا التدبير، فقال ابن القاسم: هو وصية. وقال أشهب: هو مدبر وإن لم يرد الوصية.

قال ابن العثيمين: و{الوصية}: هي العهد إلى غيره بشيء هام؛ {للوالدين}: يعني بذلك الأم والأب؛ و{الأقربين}: من سواهما من القرابة؛ والمراد بهم الأدنون، كالإخوة والأعمام ونحوهم.

قال القرطبي: {وَالأَقْرَبِينَ}: الأقربون جمع أقرب. قال قوم: الوصية للأقربين أولى من الأجانب، لنصّ اللّه تعالى عليهم، حتى قال الضحاك: إن أوصى لغير قرابته فقد ختم عمله بمعصية. وروي عن ابن عمر أنه أوصى لأمهات أولاده لكل واحدة بأربعة آلاف. وروي أن عائشة وصت لمولاة لها بأثاث البيت. وروي عن سالم بن عبدالله بمثل ذلك. وقال الحسن: إن أوصى لغير الأقربين ردت الوصية للأقربين، فإن كانت لأجنبي فمعهم، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم. وقال الناس حين مات أبو العالية: عجبًا له أعتقته امرأة من رياح وأوصى بماله لبني هاشم. وقال الشعبي: لم يكن له ذلك ولا كرامة. وقال طاوس: إذا أوص لغير قرابته ردت الوصية إلى قرابته ونقض فعله، وقاله جابر بن زيد، وقد روي مثل هذا عن الحسن أيضًا، وبه قال إسحاق بن راهويه. وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعي وأحمد بن حنبل: من أوصى لغير

وأخرجه مالك ٢/٧٦١ في الوصية: باب الأمر بالوصية، وأحمد ٢/١٠و٥٠و١١٣، والطيالسي (١٨٤١)، والبخاري (٢٧٣٨) في الوصايا في فاتحته، ومسلم (١٦٢٧)، والترمذي (٢١١٨) في الوصايا: باب ما جاء في الحث على الوصية، والنسائي ٨/٢٣٩، والدار قطني ٤/١٥٠و١٥٠ – ١٥١، والبيهقي ٦/٢٧١، والبغوي (١٤٥٧) من طرق عن نافع، به وانظر ما بعده. (وقد مرّ معنا قريبًا).

قرابته وترك قرابته محتاجين فبئسما صنع وفعله مع ذلك جائز ماض لكل من أوصى له من غني وفقير، قريب وبعيد، مسلم وكافر. وهو معنى ما روي عن ابن عمر وعائشة، وهو قول ابن عمر وابن عباس.

قال ابن العثيمين: {بالمعروف}: أي بما عرفه الشرع، وأقرّه؛ وهو الثلث فأقل.

قال القرطبي: {بِالْمَعْرُوفِ}: يعني بالعدل لا وكس فيه ولا شطط، وكان هذا موكلا إلى اجتهاد الميت ونظر الموصي، ثم تولى اللّه سبحانه تقدير ذلك على لسان نبيه ﷺ، فقال ﷺ: ((الثلث والثلث كثير))، وقد تقدم ما للعلماء في هذا. وقال ﷺ: ((إن اللّه تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة لكم في حسناتكم ليجعلها لكم زكاة([1]))). أخرجه الدار قطني عن أبي أمامة عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ. وقال الحسن: لا تجوز وصية إلا في الثلث، وإليه ذهب البخاري واحتج بقوله تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ}[المائدة : ٤٩]، وحكم النبي ﷺ بأن الثلث كثير هو الحكم بما أنزل اللّه. فمن تجاوز ما حده رسول اللّه ﷺ وزاد على الثلث فقد أتى ما نهى النبي ﷺ عنه، وكان بفعله ذلك عاصيًا إذا كان بحكم رسول اللّه ﷺ عالمًا. وقال الشافعي: وقوله: ((الثلث كثير))، يريد أنه غير قليل.

قال ابن العثيمين: {حقًّا}: أي مؤكّدًا؛ وهو مصدر حذف عامله؛ والتقدير: أحقَّ ذلك حقًّا؛ {على المتقين}: أي المتَّصفين بالتقوى؛ و(التقوى) هي اتِّخاذ ما يقي من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال القرطبي: {حَقًّا} يعني ثابتًا ثبوت نظر وتحصين، لا ثبوت فرض ووجوب بدليل قوله: {عَلَى الْمُتَّقِينَ} وهذا يدلُّ على كونه ندبًا، لأنه لو كان فرضًا لكان على جميع المسلمين، فلمّا خصَّ اللّه من يتقي، أي يخاف تقصيرًا، دلَّ على أنه غير لازم إلّا فيما يتوقع تلفه إن مات، فيلزمه فرضًا المبادرة بكتبه والوصية به، لأنه إن سكت عنه كان تضييعًا له وتقصيرًا منه، وقد تقدَّم هذا المعنى. وانتصب {حقًّا} على المصدر المؤكد، ويجوز في غير القرآن (حقّ) بمعنى ذلك حقّ.

وقال العلماء: المبادرة بكتب الوصية ليست مأخوذة من هذه الآية. وإنما هي من حديث ابن عمر. وفائدتها: المبالغة في زيادة الاستيثاق وكونها مكتوبة مشهودًا بها وهي الوصية المتفق على العمل بها، فلو أشهد العدول وقاموا بتلك الشهادة لفظا لعمل بها وإن لم تكتب خطًّا، فلو كتبها بيده ولم يشهد فلم يختلف قول مالك أنه لا يعمل بها إلّا فيما يكون فيها من إقرار بحق لمن لا يتهم عليه فيلزمه تنفيذه.

وروى الدار قطني عن أنس بن مالك قال: كانوا يكتبون في صدور وصاياهم (هذا ما أوصى به فلان بن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن اللّه يبعث من في القبور.

١- (قلت): قال الإمام الألباني في الإرواء (١٦٤١): وخلاصة القول: إن جميع طرق الحديث ضعيف شديد الضعف. إلا الطريق الثانية والثالثة، والخامسة، فإن ضعفها يسير، ولذلك فإني أرى أن الحديث بمجموع هذه الطرق الثلاث يرتقى إلى درجة الحسن، وسائر الطرق إن لم تزده قوة، لم تضره، وقد أشار إلى هذا الحافظ، فقد قال فى (بلوغ المرام): (رواه الدار قطني يعنى عن معاذ، وأحمد والبزار عن أبى الدرداء وابن ماجه عن أبى هريرة، وكلها ضعيفة، لكن قد يقوى بعضها بعضًا).

وأوصى من ترك بعده من أهله بتقوى اللّه حق تقاته وأن يصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا اللّه ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني إن اللّه أصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٢ص٣٢١: لما كانوا في أول الأمر إنما يرث الرجل ولده، فرض الله الوصية للوالدين والأقربين بقوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ}. فلما فرض الوصية لهما دلَّ ذلك على أن الميراث للولد دونهما، وكان ذلك هو الحكم قبل نزول آية الفرائض، فعلم أن الولد أولى من الأبوين والأقربين، وأن الابن أولى أن يكون عصبة من الأب.

وأيضًا فإن الله سبحانه قال: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ}، فأوجب الوصية للوالدين والأقربين لما كان لا يرث أحدهم إلاّ ولده، وكان ميراثُ الولد وأخذُ الأب مالَ ابنه كلَّه معروفًا عندهم في الجاهلية، ففرض الله الفرائضَ لمن سَمَّاه. وأما إرث الابن مالَ أبيه إذا لم يكن غيره، فكان من الأحكام الظاهرة الواضحة التي كانوا عليها في الجاهلية، وأقرَّهم عليها في الإسلام، ووَكَّد ميراث الابن، حتى وَرَّث الابنَ سواء كان صغيرًا أو كبيرًا. وكذلك سائر الورثة سوَّى بين الصغير والكبير، وكانوا في الجاهلية – أو من كان منهم – لا يُوَرِّثون إلاّ الكبير[1].

وقال رحمه الله في منهاج السنة ج٤ص٢٠٣: وَلَمَّا كَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ تَحْرِيمِ تَعَدِّي الْحُدُودِ عَقِبَ ذِكْرِ الْفَرَائِضِ الْمَحْدُودَةِ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُزَادَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْفَرَائِضِ عَلَى مَا قُدِّرَ لَهُ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الْوَصِيَّةُ لَهُمْ، وَكَانَ هَذَا نَاسِخًا لِمَا أَمَرَ بِهِ أَوَّلًا مِنَ الْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: ((إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ[2]))، رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ كَأَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ، وَرَوَاهُ أَهْلُ السِّيَرِ، وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَيْهِ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ آيَةَ الْوَصِيَّةِ إِنَّمَا نُسِخَتْ بِهَذَا الْخَبَرِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ بَيْنَ اسْتِحْقَاقِ الْإِرْثِ وَبَيْنَ اسْتِحْقَاقِ الْوَصِيَّةِ مُنَافَاةً، وَالنَّسْخُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ تَنَافِي النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ.

وَأَمَّا السَّلَفُ وَالْجُمْهُورُ فَقَالُوا: النَّاسِخُ هُوَ آيَةُ الْفَرَائِضِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ فَرَائِضَ مَحْدُودَةً، وَمَنَعَ مِنْ تَعَدِّي حُدُودِهِ، فَإِذَا أَعْطَى الْمَيِّتُ لِوَارِثِهِ أَكْثَرَ مِمَّا حَدَّهُ اللَّهُ لَهُ، فَقَدْ تَعَدَّى حَدَّ اللَّهِ، فَكَانَ ذَلِكَ مُحَرَّمًا، فَإِنَّ مَا زَادَ عَلَى الْمَحْدُودِ يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُهُ مِنَ الْوَرَثَةِ أَوِ الْعَصَبَةِ، فَإِذَا أَخَذَ حَقَّ الْعَاصِبِ فَأَعْطَاهُ لِهَذَا كَانَ ظَالِمًا لَهُ.

قال الإمام الألباني في أحكام الجنائز ج١ص٧: وأما الوصية للوالدين والأقربين الذين يرثون من الموصي، فلا تجوز، لأنها منسوخة بآية الميراث، وبين ذلك رسول الله ﷺ أتم البيان في خطبته في حجة الوداع فقال: ((إن الله قد أعطى كل

١- كما روي ذلك عن سعيد بن جبير وقتادة وابن عباس، انظر (تفسير ابن كثير) (١/٤٦٥، ٤٦٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٠٧٣).

ذي حق حقه، فلا وصية لوارث)) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والبيهقي (٦/ ٢٦٤) وأشار لتقويته، وقد أصاب، فإن إسناده حسن، وله شواهد كثيرة عند البيهقي و (مجمع الزوائد)(٤/ ٢١٢)([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب الوصية للوالدين والأقربين لمن ترك مالًا كثيرًا؛ لقوله تعالى: {كتب عليكم}؛ واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل هذا منسوخ بآيات المواريث؛ أم هو محكم، وآيات المواريث خصصت؟ على قولين؛ فأكثر العلماء على أنه منسوخ؛ ولكن القول الراجح أنه ليس بمنسوخ؛ لإمكان التخصيص؛ فيقال: إن قوله تعالى: {للوالدين والأقربين} مخصوص بما إذا كانوا وارثين؛ بمعنى أنهم إذا كانوا وارثين فلا وصية لهم اكتفاء لما فرضه الله لهم من المواريث([2])؛ وتبقى الآية على عمومها فيمن سوى الوارث.

٢- جواز الوصية للصحيح، والمريض، ومن حضره الموت؛ ولكن النصوص تدلُّ على أن من حضره الموت ينقسم إلى قسمين:

الأول: من بقي معه عقله ووعيه، فوصيته نافذة حسب الشروط الشرعية.

الثاني: من فقد وعيه وعقله، فلا تصح وصيته.

٣- جواز الوصية بما شاء من المال؛ لكن هذا مقيد بحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: ((أتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا؛ قال: فالشطر؟ قال: لا؛ قال: فالثلث؟ قال: الثلث؛ والثلث كثير([3]))؛ وعلى هذا فلا يزاد في الوصية على ثلث المال؛ فتكون الآية مقيدة بالحديث.

١- فالناسخ إنما هو القرآن، والسنة إنما هي مبينة لذلك كما ذكرنا، وكما هو واضح من خطبته ﷺ خلافًا لما يظنه كثيرون أن الحديث هو الناسخ، ثم استغل ذلك بعض المعاصرين فزعموا أن حديث الاحاد ينسخ القرآن فقد عرفت الجواب، وهو أن الناسخ إنما هو القرآن، ولو سلمنا أن الناسخ إنما هو الحديث، فهو صالح للنسخ اتِّفاقًا، لان العلماء جميعا تلقوه بالقبول. على أنه حديث متواتر، كما يعلم ذلك من وقف على طرقه الكثيرة المبثوثة في دواوين السنة ومسانيدها.

ولعلنا نوفق لاستخراجها وتحقيق الكلام عليها في جزء مفرد.

ثم جمعت طرقه وخرجتها في (إرواء الغليل) رقم (١٦) فجاوزت طرقه العشرة، عن ثمانية من الصحابة بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها منجبر الضعف.

٢- (قلت): وهذا هو النسخ بعينه، لأن النسخ في الاصطلاح هو: (رفع حكم شرعي أو لفظه بحكم آخر أو لفظ آخر). ولكن لنا أن نقول مثلما قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: (الْوَصِيَّة للْوَالِدين والأقربين فَإِنَّهَا كَانَت وَاجِبَة على من حَضَره الْمَوْت ثمَّ نسخ الله ذَلِك بِآيَة الْمَوَارِيث وَبقيت مَشْرُوعَة فِي حق الْأَقَارِب الَّذين لَا يَرِثُونَ).

٣- أخرجه البخاري ص١٠١، كتاب الجنائز، باب ٣٦: رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، حديث رقم ١٢٩٥، وأخرجه مسلم ص٩٦٢، كتاب الوصية، باب ١: الوصية بالثلث، حديث رقم ٤٢٠٩ [٥] ١٦٢٨.

٤- أن الوصية الواجبة إنَّما تكون فيمن خلف مالا كثيرا؛ لقوله تعالى: {إن ترك خيرًا}؛ فأمَّا من ترك مالًا قليلًا فالأفضل أن لا يوصي إذا كان له ورثة؛ لقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ((إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس)).

٥- أن الوصية ليست مقيَّدة بجزء معين من المال؛ بل هي بالمعروف.

٦- أهمية صلة الرحم، حيث أوجب الله الوصية للوالدين والأقربين بعد الموت؛ لأن صلة الرحم من أفضل الأعمال المقربة إلى الله؛ فهذه إحدى أمهات المؤمنين أخبرت النبي ﷺ: أنها أعتقت جارية لها؛ فقال: ((أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك([1])))؛ فجعل النبي ﷺ صلة الرحم أعظم أجرًا من العتق.

٧- تأكيد وجوب الوصية على من ترك مالًا كثيرًا لمن ذكر؛ وجه التوكيد قوله تعالى: {حقًّا على المتقين}.

٨- أن المتقين هم الذين يراعون فرائض الله؛ ولذلك وجه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: {حقًّا على المتقين}.

(مسألة)

إذا قال قائل: كيف يكون الوالدان غير وارثين؟.

فالجواب: أن ذلك ممكن، مثل أن يكون الأب، أو الأم مخالفة في الدين؛ فإنه لا يرث فتوصي له.

كذلك بالنسبة للأقربين فإنهم قد لا يرثون لحجبهم بمن هو أولى منهم.

(مسألة ثانية)

فإن قال قائل: إن الله فرض للأب السدس مثلا؛ وللأم السدس؛ وللزوجة الربع؛ وللزوج النصف؛ وما أشبه ذلك؛ وهذا يقتضي أن يكون لهم فرضهم كاملًا؛ ومع تنفيذ الوصية ينقص من فرضهم بقدر الوصية؟.

فالجواب: أن الله بين أن حق الورثة من بعد وصية يوصى بها، أو دين؛ وعلى هذا فلا إشكال في الآية في تقدير أنصباء الورثة؛ وهذا القول هو الذي تجتمع به الأدلة.

١- أخرجه البخاري ص٢٠٤، كتاب الهبة، باب ١٥: هبة المرأة لغير زوجها ... ، حديث رقم ٢٥٩٢، واخرجه مسلم ص٨٣٦ كتاب الزكاة، باب ١٤: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج ... ، حديث رقم ٢٣١٧ [٤٤] ٩٩٩.

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

قال السعدي: ولمَّا كان الموصي قد يمتنع من الوصية لما يتوهَّمه أن من بعده قد يبدِّل ما وصّى به قال تعالى: {فمن بدَّله}: أي الإيصاء للمذكورين أو غيرهم.

قال ابن العثيمين: {فمن بدَّله}؛ الفاء عاطفة؛ و{من} شرطية؛ و{بدَّل} فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط؛ وجملة: {فإنَّما إثمه} جواب الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية.

{فمن بدَّله}: أي بدَّل (الإيصاء) المفهوم من {الوصية}؛ أي: غيَّره بنقص أو زيادة أو منع؛ إن نقص فالضَّرر على الموصى له؛ وإن زاد فعلى الورثة؛ وإن منع فعلى الموصى له؛ كل هذه الصور الثلاث تدخل في قوله تعالى: {فمن بدَّله}.

{بعد ما سمعه}: قال أهل العلم: عبَّر بالسمع عن العلم؛ لأن السمع من الحواس الظاهرة؛ والعلم من الإدراكات الباطنة – أي: فمن بدَّله بعد أن يعلمه علم اليقين، كما لو سمعه بنفسه؛ ومعلوم أن العلم بالوصية لا يتوقف على السماع؛ قد يكون بالكتابة؛ وقد يكون بالمشافهة والسماع؛ وقد يكون بشهادة الشهود وما إلى ذلك.

{فإنَّما إثمه}: الضمير يعود على التَّبديل.

{على الذين يبدِّلونه}: أي يغيِّرونه؛ يعني: فهذا الإثم يعود على المُبَدِّل؛ لا على الموصي، ولا على الورثة، وهذا إظهار في موضع الإضمار لأن مقتضى السِّياق أن يقال: فإنَّما إثمه عليه؛ لكن أظهر بالإشارة إلى استحقاق الإثم وأنه بالتَّبديل.

قال السعدي: وإلّا فالموصي وقع أجره على الله، وإنَّما الإثم على المُبَدِّل المُغيِّر.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن الدَّين إذا أوصى به الميت خرج به عن ذمَّته وحصل الولي مطلوبًا به، له الأجر في قضائه، وعليه الوزر في تأخيره. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: (وهذا إنما يصح إذا كان الميت لم يفرِّط في أدائه، وأما إذا قدِر عليه وتركه ثم وصّى به فإنَّه لا يزيله عن ذمَّته تفريط الولي فيه). ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز مثل أن يوصي بخمر أو خنزير أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه، كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث، قاله أبو عمر.

قال السعدي: {إن الله سميع(١)}يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيَّته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجور في وصيته، {عليم(٢)} بنيَّته، وعليم بعمل الموصى إليه، فإذا اجتهد الموصي وعلم الله من نيَّته

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (١١٥) من سورة البقرة.

ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصى إليه من التَّبديل، فإن الله عليم به مطَّلع على ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن من فعل الخير ثم غُيِّرَ بعده كُتبَ له ما أراد؛ لقوله تعالى: {فإنما إثمه على الذين يبدِّلونه}.

٢- أن من بدَّل الوصية جهلًا فلا إثم عليه؛ لقوله تعالى: {بعد ما سمعه}؛ ويؤخذ من هذا ـ بل من باب أولى ـ أنه لو تصرَّف في الوصيَّة تصرُّفًا خطأ وهو معتقد أنه على صواب فإنه لا ضمان عليه؛ لأنَّه مولى على التصرف فيها؛ فإذا أخطأ فلا ضمان إذا لم يكن هناك تفريط أو تعدٍّ.

٣- تحريم تغيير الوصيَّة؛ لقوله تعالى: {فإنما إثمه على الذين يبدِّلونه}؛ فيجب العمل بوصيَّة الموصي على حسب ما أوصى إلا أن يكون جنفًا أو إثمًا.

٤- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {السميع} و{العليم}؛ وما تضمَّناه من الصفة؛ والحكم الذي هو الأثر؛ فالسميع اسم؛ والسمع صفة؛ وكونه يسمع هو الأثر ـ أو الحكم؛ والعليم كذلك.

٥- إحاطة الله عز وجل بكل أعمال الخلق؛ لأن قوله تعالى: {سميع عليم} ذكر عقب التهديد في قوله تعالى: {فمن بدَّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدِّلونه}؛ وهذا يدلُّ على أن الله يسمع ويعلم ما يبدِّله الوصي.

٦- الرَّد على الجبرية وعلى القدرية؛ فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبَر على عمله ولا قدرة له ولا اختيار؛ فأنكروا حكمة الله تعالى؛ لأنه إذا قيل بهذا القول الباطل انتفت حكمة الأمر والنهي، والثواب والعقاب؛ وصار من فعل ما أمر به، أو ترك ما نهي عنه ليس أهلًا للمدح؛ لأنه كالآلة ليس عنده قدرة ولا اختيار؛ وكذلك أبطلوا حكمة الله في الجزاء؛ لأنه ـ على أصلهم ـ يجزي المحسن وهو غير محسن؛ ويعاقب العاصي وهو غير عاص؛ والرَّد عليهم في قوله تعالى: {فمن بدَّله}؛ فأضاف التَّبديل إلى الإنسان.

وأمَّا القدرية فيقولون: (إن الإنسان مستقل بعمله؛ ولا تتعلَّق به إرادة الله ولا قدرته ولا خلقه)؛ وغلاتهم ينكرون العلم والكتابة، يقولون: (إن أفعال العباد غير معلومة لله ولا مكتوبة عنده)؛ وقالوا: (إن الأمر أنف، أي مستأنف ـ لم يكن الله يعلم شيئًا مما نفعله إلا إذا وقع علمه بعد رؤيته أو سمعه)؛ وجه الرَّد عليهم إثبات العلم لله.

قال الشافعي، وغيره من السلف: ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أقرّوا به خصموا؛ وإن أنكروه كفروا؛ فإما إذا قالوا: إنَّ الله لا يعلم فكفرهم واضح لتكذيبهم القرآن؛ وأمَّا إذا قالوا: إنه يعلم لكن لا يقدِّرها ولا يخلقها، قيل لهم: هل وقعت على وفق

معلومه أو على خلاف معلومه؟ سيقولون: (على وفق معلومه)؛ وإذا كان على وفق معلومه لزم أن تكون مرادة له؛ وإلا لما وقعت.

فالحاصل أن في الآية ردًّا على القدرية والجبرية؛ وكل منهم غلا في جانب من جوانب القدر؛ فالجبرية غلو في إثبات القدر وفرطوا في أفعال العباد؛ والقدرية غلو في إثبات فعل العبد وفرطوا في علم الله وإرادته؛ والوسط هو الخير؛ فأهل السنة والجماعة يثبتون لله العلم والكتابة والمشيئة والخلق؛ كما يثبتون للإنسان إرادة وقدرة ـ لكن ذلك تابع لإرادة الله وخلقه ـ؛ وتفاصيل ذلك مبسوط في علم العقائد.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

قال ابن العثيمين: {فمن خاف}: {من} شرطية؛ و{خاف} فعل الشرط؛ وقوله تعالى: {فلا إثم عليه} جواب الشرط.

وقوله تعالى: {فمن خاف من موص}: أي من توقَّع أو اطَّلع.

{جنفًا أو إثمًا}: ال{جنف}: الميل عن غير قصد؛ وال{إثم}: الميل عن قصد.

قال القرطبي: وقال مجاهد: {فمن خاف}: أي من خشي أن يجنف الموصي ويقطع ميراث طائفة، ويتعمَّد الأذية أو يأتيها دون تعمد، وذلك هو الجنف دون إثم، فإن تعمَّد فهو الجنف في إثم. فالمعنى من وعظ في ذلك وردَّ عنه فأصلح بذلك ما بينه وبين ورثته، وبين الورثة في ذاتهم فلا إثم عليه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢١ص٣٨٨: وَقَوْلِهِ: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا}: فَإِنَّ الْجَنَفَ هُوَ الْمَيْلُ عَنْ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ عَامِدًا. قَالَ عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ: {الْجَنَفُ} الْخَطَأُ، وَ{الْإِثْمُ} الْعَمْدُ. قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ: {الْجَنَفُ}: الْخُرُوجُ عَنْ الْحَقِّ. وَقَدْ يُسَمَّى (الْمُخْطِئُ الْعَامِدُ) إلَّا أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ عَلَّقُوا {الْجَنَفَ} عَلَى الْمُخْطِئِ وَ{الْإِثْمَ} عَلَى الْعَامِدِ.

وقال رحمه الله أيضاً في ج٢٤ص١١٢: فَالْ{إِثْمُ} جِنْسٌ لِظُلْمِ الْوَرَثَةِ إذَا كَانَ مَعَ الْعَمْدِ؛ وَأَمَّا {الْجَنَفُ} فَهُوَ الْجَنَفُ عَلَيْهِمْ بِعَمْدِ وَبِغَيْرِ عَمْدٍ؛ لَكِنْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْجَنَفُ الْخَطَأُ وَالْإِثْمُ الْعَمْدُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا خَصَّ الْإِثْمَ بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْعَمْدُ بَقِيَ الدَّاخِلُ فِي الْجَنَفِ الْخَطَأُ.

قال ابن العثيمين: {فأصلح بينهم}: أي فعل صالحًا؛ أي حول الأمر إلى شيء صالح؛ وليس المعنى: أصلح الشقاق؛ لأنه قد لا يكون هناك شقاق؛ هذا القول وإن كان له وجهة نظر؛ لكن كلمة: {بينهم} تدلُّ على أن المراد إصلاح الشقاق؛

إذ إن البينية لا تكون إلَّا بين شيئين؛ فعلى الوجه الأول يكون المراد بالإصلاح إزالة الفساد؛ وعلى الوجه الثاني يكون الإصلاح فيها إزالة الشقاق؛ لأن الغالب إذا أراد الوصي أن يغير الوصيَّة بعد موت الموصي أن يحصل شقاق بينه وبين الورثة؛ أو بينه وبين الموصى له.

{فلا إثم عليه}: أي فلا عقوبة؛ وهذا كالمستثنى من قوله تعالى: {فمن بدَّله بعد ما سمعه} و{لا} نافية للجنس تعمُّ القليل والكثير.

{فلا إثم عليه}: أي لا يلحقه إثم المبدِّل المذكور قبل. وإن كان في فعله تبديل ما ولابدَّ، ولكنه تبديل لمصلحة. والتَّبديل الذي فيه الإثم إنَّما هو تبديل الهوى.

الخطاب بقوله: {فَمَنْ خَافَ} لجميع المسلمين. قيل لهم: إن خفتم من موصٍ ميلًا في الوصيَّة وعدولًا عن الحق ووقوعًا في إثم ولم يخرجها بالمعروف، وذلك بأن يوصي بالمال إلى زوج ابنته أو لولد ابنته لينصرف المال إلى ابنته أو إلى ابن ابنه والغرض أن ينصرف المال إلى ابنه، أو أوصى لبعيد وترك القريب، فبادروا إلى السَّعي في الإصلاح بينهم، فإذا وقع الصلح سقط الإثم عن المصلح. والإصلاح فرض على الكفاية، فإذا قام أحدهم به سقط عن الباقين، وإن لم يفعلوا أثم الكل.

في هذه الآية دليل على الحكم بالظن، لأنه إذا ظنَّ قصد الفساد وجب السعي في الصلاح، وإذا تحقق الفساد لم يكن صلحًا إنما يكون حكمًا بالدفع وإبطالًا للفساد وحسمًا له.

{فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ}: عطف على {خاف}، والكناية عن الورثة، ولم يجرِ لهم ذكر لأنَّه قد عرف المعنى؛ وجواب الشرط: {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}.

ولا خلاف أن الصدقة في حال الحياة والصحة أفضل منها عند الموت، لقوله ﷺ وقد سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: ((أن تصدق وأنت صحيح شحيح([1]))) الحديث، أخرجه أهل الصحيح([2]).

قال السعدي: {إن الله غفور([3])رحيم }: أي يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه، وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح، سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضا لأجل براءة ذمته، رحيم([4])بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدلت هذه

١- (قلت): البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

٢- (قلت): وأخرج مسلم حديثًا عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، ((أَنَّ رَجُلًا أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلُوكِينَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَزَّأَهُمْ أَثْلَاثًا، ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ، فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ، وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً، وَقَالَ لَهُ قَوْلًا شَدِيدًا)).

٣- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٤- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن من خاف جورا أو معصية من موص فإنه يصلح؛ وهذا يشمل ما إذا كان قبل موت الموصي، أو بعده؛ مثاله قبل موت الموصي: أن يستشهد الموصي، أو يستكتب شخصا لوصيته، فيجد فيها جورا، أو معصية، فيصلح ذلك؛ ومثاله بعد موته: أن يطلع على وصية له تتضمن ما ذكر فتصلح؛ مثال ذلك أن يوصي لوارث، فيطلع على ذلك بعد موته، فتصلح الوصية إما باستحلال الوارث الرشيد؛ وإما بإلغائها إذا لم يمكن.

٢- رفع الإثم عن الوصي إذا أصلح لخوفه جنفا، أو إثما.

٣- فضيلة الإصلاح؛ لقوله تعالى: {فأصلح بينهم}؛ فإن في الإصلاح درء الإثم عن الموصي، وإزالة العداوة والشحناء بين الموصى إليهم والورثة.

٤- أنه قد يعبِّر بنفي الإثم أو نفي الجناح دفعًا عن توهُّمه؛ وعليه فلا ينافي المشروعية، كما في قوله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما}[البقرة: ١٥٨]، ولمّا كان تبديل الوصية إثمًا نفى الله الإثم عمَّن أصلح؛ ثم تعود المسألة إلى القواعد العامة التي مقتضاها وجوب الإصلاح، ورفع الجنف والإثم.

٥- أن تغيير الوصيَّة لدفع الإثم جائز؛ بل هو واجب بدليل آخر؛ وأما تغيير الوصيَّة لما هو أفضل ففيه خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من قال: إنه لا يجوز؛ لعموم قوله تعالى: {فمن بدَّله بعد ما سمعه}[البقرة: ١٨١]؛ ولم يستثن إلّا ما وقع في إثم فيبقى الأمر على ما هو عليه لا يغير؛ ومنهم من قال: بل يجوز تغييرها إلى ما هو أفضل؛ لأن الغرض من الوصيَّة التقرُّب إلى الله عز وجل ونفع الموصى له؛ فكلَّما كان أقرب إلى الله وأنفع للموصى له كان أولى أيضًا؛ والموصي بشر قد يخفى عليه ما هو الأفضل؛ وقد يكون الأفضل في وقت ما غير الأفضل في وقت آخر؛ ولأن النبي ﷺ أجاز تحويل النذر إلى ما هو أفضل مع وجوب الوفاء به؛ فالرجل الذي جاء إليه، وقال: إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلّي في بيت المقدس؛ فقال ﷺ: ((صلِّ ها هنا)) فأعاد عليه فقال: ((صلِّ ها هنا)) فأعاد الثالثة فقال ﷺ: ((شأنك إذًا[1]))؛ والذي أرى في هذه المسألة أنه إذا كانت الوصيَّة لمعيَّن فإنه لا يجوز تغييرها، كما لو كانت الوصيَّة لزيد فقط؛ أو وقف وقفًا على

١- أخرجه أحمد ٣/٣٦٣، حديث رقم ١٤٩٨١، وأخرجه أبو داود ص١٤٧٠، كتاب الإيمان والنذور، باب ٢٠: من نذر أن يصلّي في بيت المقدس، حديث رقم ٣٣٠٥، وقال الألباني في صحيح أبي داود: (صحيح) ٢/٣٢٦.

زيد فإنه لا يجوز أن يغير لتعلُّق حق الغير المعيَّن به؛ أما إذا كانت لغير معيَّن – كما لو كانت لمساجد أو لفقراء – فلا حرج أن يصرفها لما هو أفضل.

٦– إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {الغفور} و{الرحيم}؛ وما تضمَّناه من وصف وحكم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٤ص٣٠٧: الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنْ أَدْوَاءِ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ، مَنَافِعُهُ تَفُوتُ الْإِحْصَاءَ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي حِفْظِ الصِّحَّةِ، وَإِذَابَةِ الْفَضَلَاتِ، وَحَبْسِ النَّفْسِ عَنْ تَنَاوُلِ مُؤْذِيَاتِهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ بِاعْتِدَالٍ وَقَصْدٍ فِي أَفْضَلِ أَوْقَاتِهِ شَرْعًا، وَحَاجَةُ الْبَدَنِ إِلَيْهِ طَبْعًا.

ثُمَّ إِنَّ فِيهِ مِنْ إِرَاحَةِ الْقُوَى وَالْأَعْضَاءِ مَا يَحْفَظُ عَلَيْهَا قُوَاهَا، وَفِيهِ خَاصِّيَّةٌ تَقْتَضِي إِيثَارَهُ، وَهِيَ تَفْرِيحُهُ لِلْقَلْبِ عَاجِلًا وَآجِلًا، وَهُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لِأَصْحَابِ الْأَمْزِجَةِ الْبَارِدَةِ وَالرَّطْبَةِ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حِفْظِ صِحَّتِهِمْ.

وَهُوَ يَدْخُلُ فِي الْأَدْوِيَةِ الرُّوحَانِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ، وَإِذَا رَاعَى الصَّائِمُ فِيهِ مَا يَنْبَغِي مُرَاعَاتُهُ طَبْعًا وَشَرْعًا، عَظُمَ انْتِفَاعُ قَلْبِهِ وَبَدَنِهِ بِهِ، وَحَبَسَ عَنْهُ الْمَوَادَّ الْغَرِيبَةَ الْفَاسِدَةَ الَّتِي هُوَ مُسْتَعِدٌّ لَهَا، وَأَزَالَ الْمَوَادَّ الرَّدِيئَةَ الْحَاصِلَةَ بِحَسَبِ كَمَالِهِ وَنُقْصَانِهِ، وَيَحْفَظُ الصَّائِمَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْهُ، وَيُعِينُهُ عَلَى قِيَامِهِ بِمَقْصُودِ الصَّوْمِ وَسِرِّهِ وَعِلَّتِهِ الْغَائِيَّةِ، فَإِنَّ الْقَصْدَ مِنْهُ أَمْرٌ آخَرُ وَرَاءَ تَرْكِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَبِاعْتِبَارِ ذَلِكَ الْأَمْرِ اخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ بِأَنَّهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَمَّا كَانَ وِقَايَةً وَجُنَّةً بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ مَا يُؤْذِي قَلْبَهُ وَبَدَنَهُ عَاجِلًا وَآجِلًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، فَأَحَدُ مَقْصُودَيِ الصِّيَامِ الْجُنَّةُ وَالْوِقَايَةُ، وَهِيَ حِمْيَةٌ عَظِيمَةُ النَّفْعِ، وَالْمَقْصُودُ الْآخَرُ: اجْتِمَاعُ الْقَلْبِ وَالْهَمِّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَوْفِيرُ قُوَى النَّفْسِ عَلَى مَحَابِّهِ وَطَاعَتِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي بَعْضِ أَسْرَارِ الصَّوْمِ عِنْدَ ذِكْرِ هَدْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ.

قال الطبري: {يا أيها الذين آمنوا}: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بهما وأقرُّوا.

قال ابن العثيمين: {كتب عليكم الصيام}: أي فرض؛ والذي فرضه هو الله سبحانه وتعالى؛ و{الصيام}: نائب فاعل مرفوع.

قال القرطبي: لما ذكر ما كتب على المكلَّفين من القصاص والوصية ذكر أيضًا أنه كتب عليهم الصيام وألزمهم إياه وأوجبه عليهم، ولا خلاف فيه، قال ﷺ: ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج([1]))) رواه ابن عمر.

ومعناه في اللغة: الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال. ويقال للصمت صوم، لأنه إمساك عن الكلام، قال اللّه تعالى مخبرًا عن مريم: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا}[مريم : ٢٦]، أي سكوتًا عن الكلام. والصوم: ركود الريح، وهو إمساكها عن الهبوب. وصامت الدابة على آريِّها([2]): قامت وثبتت فلم تعتلف. وصام النهار: اعتدل.

والصوم في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع في المحرمات، لقوله ﷺ: ((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه([3]))).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٥ص١١٩: وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي تَبْيِيتِ نِيَّتِهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ – مِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ –: إنَّهُ يُجْزِئُ كُلُّ صَوْمٍ فَرْضًا كَانَ أَوْ نَفْلًا بِنِيَّةٍ قَبْلَ الزَّوَالِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ عَاشُورَاءَ([4])، وَحَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَلَمْ يَجِدْ طَعَامًا فَقَالَ: ((إنِّي إذًا صَائِمٌ([5]))). وَبِإِزَائِهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى –

١– (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل: صحيح. وقد ورد من حديث عبد الله بن عمر، وجرير بن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عباس.
أخرجه البخاري (١/١٠)، ومسلم (١/٣٥)، والنسائي (٢/٢٦٨)، والترمذي (٢/١٠١)، وأحمد (٢/١٤٣)، وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

٢– الآريّ: حبل تشد به الدابّة في محبسها، ويسمّى الأخيّة.

٣– (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ لم يَدع قول الزورِ والعملَ به [والجهلَ]؛ فليس لله حاجة أن يَدعَ طعامهُ وشرابَهُ)). (قلت: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه البخاري بإسناد المصنف ومتنه. وصححه الترمذي) .
إسناده: حدثنا أحمد بن يونس: ثنا ابن أبي ذئب عن المَقْبُرِي عن أبيه عن أبي هريرة.
قال أحمد: (فهمت إسناده من ابن أبي ذئب، وأفهمني رجل إلى جنبه؛ أراه ابنَ أخيه).
قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. والحديث أخرجه البيهقي (٤/٢٧٠) من طريق المصنف. والبخاري (١٠/٣٨٩) ... بإسناده ومتنه؛ إلا أنه اختصر جدًّا قول أحمد – وهو ابن عبد الله بن يونس – فقال: قال أحمد: أفهمني رجل إسناده! انظر (فتح الباري).
ثم أخرجه البخاري (٤/٩٣)، والترمذي (٧٠٧)، وابن ماجه (١/٥١٧)، وابن خزيمة في (صحيحه) (١٩٩٥)، وأحمد (٢/٤٥٢ و ٥٠٥) من طرق أخرى عن ابن أبي ذئب ... به. وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح). وليس عنده زيادة: (والجهل). وهو رواية لابن خزيمة، ورواية البخاري هذه. وأخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١٣٠٧) ... بالزيادة.
(تنبيه): سقطت هذه الزيادة من الأصل، فاستدركتها من رواية البيهقي عن المصنف، ومن رواية البخاري بإسناده.

٤– البخاري في الصوم (١٩٢٤)، ومسلم في الصيام (١١٣٥/١٣٥).

٥– مسلم في الصيام (١١٥٤/١٧٠)، وأبو داود في الصوم (٢٤٥٥)، والترمذي في الصوم (٧٣٣، ٧٣٤) وقال: (حديث حسن)، وأحمد ٦/٢٠٧ كلهم عن عائشة.

مِنْهُمْ مَالِكٌ – قَالَتْ: لَا يُجْزِئُ الصَّوْمُ إلَّا مُبَيَّتًا مِنْ اللَّيْلِ، فَرْضًا كَانَ أَوْ نَفْلًا عَلَى ظَاهِرِ حَدِيثِ حَفْصَةَ، وَابْنِ عُمَرَ: الَّذِي يُرْوَى مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا: ((لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يُبَيِّتْ الصِّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ(١))).

وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّالِثُ: فَالْفَرْضُ لَا يُجْزِئُ إلَّا بِتَبْيِيتِ النِّيَّةِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ حَفْصَةَ وَابْنِ عُمَرَ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الزَّمَانِ يَجِبُ فِيهِ الصَّوْمُ، وَالنِّيَّةُ لَا تَنْعَطِفُ عَلَى الْمَاضِي، وَأَمَّا النَّفْلُ فَيُجْزِئُ بِنِيَّةٍ مِنْ النَّهَارِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ((إنِّي إذًا صَائِمٌ))، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ يَجِبُ فِيهَا مِنْ الْأَرْكَانِ – كَالْقِيَامِ وَالِاسْتِقْرَارِ عَلَى الْأَرْضِ – مَا لَا يَجِبُ فِي التَّطَوُّعِ تَوْسِيعًا مِنْ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي طُرُقِ التَّطَوُّعِ، فَإِنَّ أَنْوَاعَ التَّطَوُّعَاتِ دَائِمًا أَوْسَعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَفْرُوضَاتِ، وَصَوْمُهُمْ يَوْمَ عَاشُورَاءَ – إنْ كَانَ وَاجِبًا – فَإِنَّمَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّهَارِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا قَبْلَ ذَلِكَ، وَمَا رَوَاهُ بَعْضُ الخلافيين الْمُتَأَخِّرِينَ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي رَمَضَانَ، فَبَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ.

وَهَذَا أَوْسَطُ الْأَقْوَالِ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد. وَاخْتَلَفَ قَوْلُهُمَا: هَلْ يُجْزِئُ التَّطَوُّعُ بِنِيَّةٍ بَعْدَ الزَّوَالِ؟ وَالْأَظْهَرُ صِحَّتُهُ، كَمَا نُقِلَ عَنْ الصَّحَابَةِ:

وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُهُمَا فِي الثَّوَابِ: هَلْ هُوَ ثَوَابُ يَوْمٍ كَامِلٍ؟ أَوْ مِنْ حِينِ نَوَاهُ؟ وَالْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَد: أَنَّ الثَّوَابَ مِنْ حِينِ النِّيَّةِ.

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِي التَّعْيِينِ. وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ – فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ نِيَّةِ رَمَضَانَ، فَلَا تُجْزِئُ نِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ، وَلَا مُعَيَّنَةٌ لِغَيْرِ رَمَضَانَ، وَهَذَا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ، اخْتَارَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُجْزِئُ بِنِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ وَمُعَيَّنَةٍ لِغَيْرِه، كَمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَرِوَايَةٍ مَحْكِيَّةٍ عَنْ أَحْمَد.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ يُجْزِئُ بِالنِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، دُونَ نِيَّةِ التَّطَوُّعِ أَوْ الْقَضَاءِ أَوْ النَّذْرِ. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَد، اخْتَارَهَا طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

قال القرطبي: وفضل الصوم عظيم، وثوابه جسيم، جاءت بذلك أخبار كثيرة صحاح وحسان ذكرها الأئمة في مسانيدهم.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمَرْوَزِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سِرَاجِ الطَّحَّانُ، أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ مُحَمَّدُ بْنُ قُرَيْشِ بْنِ سُلَيْمَانَ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ، حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عن أبي سُهَيْلٍ نَافِعُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ أبيه عن أبي هريرة: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ صُفِّدَتِ(٢) الشَّيَاطِينُ وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ(٣))).

١- أبو داود في الصوم (٢٤٥٤)، والترمذي في الصوم (٧٣٠)، والنسائي في الصيام (٢٣٣١- ٢٣٤٠).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في تحقيق الإيمان لآبن تيمية.

٢- صفّدت: شدّت وأوثقت بالأغلال- والصفد: القيد.

٣- إسناده صحيح، أبو عبيد فمن دونه ثقات، وقد توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم. وهو في شرح السنة (١٦٩٨).

وأَخْبَرَنَا أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الضَّبِّيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْجِرَاحِيُّ ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَحْبُوبِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو عِيسَى مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، أَخْبَرَنَا أَبُو بكر بْنُ عَيَّاشٍ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ([١]))).

وأَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي نَصْرِ بْنِ أَحْمَدَ الْكَوْفَانِيُّ الْهَرَوِيُّ بِهَا، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ التُّجِيبِيُّ الْمِصْرِيُّ بِهَا الْمَعْرُوفُ بأبي النَّحَّاسِ قِيلَ لَهُ: أَخْبَرَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ الْعَنَزِيُّ الْبَصْرِيُّ بِمَكَّةَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْأَعْرَابِيِّ، أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ الزَّعْفَرَانِيُّ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرحمن عن أبي هريرة: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ([٢]))).

وأخرجه البخاري ١٨٩٨ ومسلم ١٠٧٩ والنسائي (٤/ ١٢٦) و(١٢٧)، وأحمد (٢/ ٣٥٧)، والدارمي (٢/ ٦٢)، وابن خزيمة ١٨٨٢ والبغوي في شرح السنة (١٧٠٣). والبيهقي (٤/ ٢٠٢) من طرق عن إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل نافع بن مالك بهذا الإسناد.

– وأخرجه البخاري ١٨٩٩ و٣٢٧٧ ومسلم ١٠٧٩ ح ٢ وأحمد (٢/ ٤٠١)، وابن أبي شيبة (٣/ ١- ٢)، وابن حبان ٣٤٣٤ من طرق من حديث أبي هريرة.

– وانظر الحديث الآتي.

١– حديث صحيح. إسناده حسن لأجل أبي بكر بن عياش، فإنه صالح الحديث كما قال الذهبي، وهو من رجال البخاري لكن ساء حفظه لما كبر، فانحط حديثه عن درجة الصحيح، وبقية رجاله مشاهير. وهو في شرح السنة (١٦٩٩) بهذا الإسناد. وهو في سنن الترمذي (٦٨٢)، عن محمد بن العلاء بهذا الإسناد.

– وأخرجه ابن ماجه ١٦٤٢ وابن خزيمة ١٨٨٣ وابن حبان ٣٤٣٥ والحاكم (١/ ٤٢١) من طريق أبي كريب بهذا الإسناد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. ويشهد له ما أخرجه النسائي (٤/ ١٣٠)، وابن أبي شيبة (٣/ ١)، وأحمد (٤/ ٣١١) و(٣١٢) و(٥/ ٤١١) من طريق عرفجة عن رجل من الصحابة. وإسناده حسن. فإنه من رواية الثوري وشعبة عن عطاء بن السائب، وقد سمعا منه قبل الاختلاط، وجهالة الصحابي لا تضر، فالحديث حسن، ويرقى بالأول إلى درجة الصحيح، والله أعلم.

– (قلت): وصححه الإمام الألباني عن أبي هريرة في المشكاة (١٩٦٠).

٢– إسناده صحيح، رجاله ثقات، محمد بن الصبّاح الزعفراني فمن دونه توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم. الزهري هو محمد بن مسلم.

– وهو في شرح السنة (١٧٠٠)بهذا الإسناد.

– وأخرجه البخاري ٢٠١٤ وأبو داود ١٣٧٢ والنسائي (٤/ ١٥٦- ١٥٧) (٢٢٠١) - (٢٢٠٣) من طرق عن سفيان بن عيينة بهذا الإسناد.

– وأخرجه البخاري ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ و٢٠١٤ ومسلم ٧٥٩ وأبو داود ١٣٧١ و١٣٧٢ والترمذي ٨٠٨ والنسائي (٣/ ٢٠١- ٢٠٢) و (١٥٦) وابن ماجه ١٣٢٦ ومالك (١/ ١١٣) وأحمد (٢/ ٢٨١) و٢٨٩ و٤٠٨ و٤٢٣ وعبد الرزاق ٧٧١٩ والدارمي (٢/ ٢٦) وابن خزيمة ٢٢٠٢ وابن حبان ٢٥٤٦ والبيهقي (٢/ ٤٩١ و٤٩٢) من طرق عن أبي سلمة به. وبعضهم اقتصر على ذكر (الصيام) والبعض الآخر اقتصر على ذكر (القيام).

وأَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النُّعِيمِيُّ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُطَرِّفٍ، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، مِنْهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ[١])).

وأَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي، أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ مُحَمَّدُ بن محمد بن محمش الزِّيَادِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَفْصٍ التَّاجِرُ، أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ بُكَيْرٍ الْكُوفِيُّ، أَخْبَرَنَا وَكِيعٌ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كُلُّ عَمَلِ ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، قال الله سبحانه وتَعَالَى: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وأنا أجزي به، يدع طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، وللصائم فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيْهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المسك، الصَّوْمُ جُنَّةٌ[٢])).

قال القرطبي: وإنما خصَّ الصوم بأنه له وإن كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات:

أحدهما: أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات.

الثاني: أن الصوم سرٌّ بين العبد وبين ربه لا يظهر إلا له، فلذلك صار مختصًّا به. وما سواه من العبادات ظاهر، ربما فعله تصنُّعًا ورياءً، فلهذا صار أخصّ بالصوم من غيره. وقيل غير هذا.

١- إسناده صحيح، محمد بن إسماعيل هو البخاري إمام فن علم الحديث، سعيد فمن فوقه رجال البخاري ومسلم. أبو مريم اسمه الحكم بن محمد، وأبو حازم اسمه سلمة بن دينار، ويعرف ب- الأعرج -.

- وهو في شرح السنة (١٧٠٢)بهذا الإسناد.

- وهو في صحيح البخاري (٣٢٥٧)عن سعيد بن أبي مريم بهذا الإسناد.

وأخرجه البيهقي (٤/ ٣٠٥) من طريق سعيد بن أبي مريم بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ١٨٩٦ ومسلم ١١٥٢ والترمذي ٧٦٥ والنسائي (٤/ ١٦٨) وابن ماجه ١٦٤٠ وابن أبي شيبة (٣/ ٥- ٦) وابن خزيمة ١٩٠٢ وابن حبان ٣٤٢٠ و٣٤٢١ والبغوي ١٧٠٣ من طرق عن أبي حازم بهذا الإسناد بألفاظ متقاربة.

٢- إسناده صحيح. إبراهيم بن عبد الله فمن دونه ثقات، وقد توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، وكيع هو ابن الجراح، والأعمش سليمان بن مهران، وأبو صالح اسمه ذكوان، مشهور بكنيته وهو في شرح السنة (١٧٠٤)بهذا الإسناد.

- وأخرجه مسلم ١١٥١ وابن ماجه ١٦٣٨ وابن أبي شيبة (٣/ ٥) وأحمد (٢/ ٤٤٣ و٤٧٧) والبيهقي (٤/ ٣٠٤) عن وكيع عن الأعمش بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ١٨٩٤ و١٩٠٤ و٥٩٢٧ و٧٥٣٨ ومسلم ١١٥١ والنسائي (٤/ ١٦٤ و٣٠٤) ومالك (١/ ٣١٠) والطيالسي ٢٤٨٥ وعبد الرزاق ٧٨٩١ و٧٨٩٣ وابن أبي شيبة (٣/ ٥) وأحمد (٢/ ٢٨١) وابن خزيمة ١٨٩٧ و١٩٠٠ وابن حبان ٣٤١٦ و٣٤٢٢ و٣٤٢٣ و٣٤٢٤ والبغوي ١٧٠٥ والبيهقي (٤/ ٣٠٤) من طرق من حديث أبي هريرة.

قال ابن العثيمين: {كما كتب}؛ {ما} مصدرية؛ والكاف حرف جر؛ وتفيد التشبيه؛ وهو تشبيه للكتابة بالكتابة، وليس المكتوب بالمكتوب؛ والتشبيه بالفعل دون المفعول أمر مطَّرد، كما في قوله ﷺ: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر([1]))): التشبيه هنا للرؤية بالرؤية؛ لا للمرئي بالمرئي؛ لأن الكاف دخلت على الفعل الذي يؤول إلى مصدر.

{على الذين من قبلكم}: ـ أي من الأمم السابقة ـ يعم اليهود، والنصارى، ومن قبلهم؛ كلهم كتب عليهم الصيام؛ ولكنه لا يلزم أن يكون كصيامنا في الوقت والمدة.

وهذا التشبيه فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: التسلية لهذه الأمة حتى لا يقال: كلفنا بهذا العمل الشاق دون غيرنا؛ لقوله تعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون}[الزخرف: ٣٩]، يعني لن يخفف عنكم العذاب اشتراككم فيه – كما هي الحال في الدنيا: فإن الإنسان إذا شاركه غيره في أمر شاق هان عليه؛ ولهذا قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

(ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي) (وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي)

الفائدة الثانية: استكمال هذه الأمة للفضائل التي سبقت إليها الأمم السابقة؛ ولا ريب أن الصيام من أعظم الفضائل؛ فالإنسان يصبر عن طعامه، وشرابه، وشهوته لله عز وجل؛ ومن أجل هذا اختصَّه الله لنفسه، فقال تعالى: ((كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي([2]))).

{لعلَّكم تتَّقون}؛ {لعل} للتعليل؛ ففيها بيان الحكمة من فرض الصوم؛ أي تتقون الله عز وجل؛ هذه هي الحكمة الشرعية التعبدية للصوم؛ وما جاء سوى ذلك من مصالح بدنية، أو مصالح اجتماعية، فإنها تبع.

قال ابن كثير: لِأَنَّ الصَّوْمَ فِيهِ تَزْكِيَةٌ لِلْبَدَنِ وَتَضْيِيقٌ لِمَسَالِكِ الشَّيْطَانِ؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ([3]))).

١- أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ص١٩٠٨، كتاب صفة الجنة، باب ١٧: منه تفسير قوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة ... }، حديث رقم ٢٥٥٤، وأخرجه ابن ماجة ص٢٤٨٨، كتاب السنة، باب ١٣: فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم ١٧٨، واللفظ للترمذي؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي: (صحيح) ٢/٣١٥، حديث رقم ٢٠٦٩، والحديث له طرق أخرى في البخاري ومسلم لكن اللفظ يختلف.

٢- أخرجه البخاري ص٥٠٣، كتاب اللباس، ٧٨: ما يذكر في المسك، حديث رقم ٥٩٢٧؛ وأخرجه مسلم بتمامه ص٨٦٢، باب ٣٠: فضل الصيام، حديث رقم ٢٧٠٧ [١٦٤] (...).

٣- صحيح البخاري برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

- الوجاء: أن تُرَضّ أنثيا الفحل رَضًّا شديدًا يذهب شهوة الجماع، ويتنزّل في قطعه منزلة الخصي. أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

قال السعدي: فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه. فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرَّم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه متقرِّبًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها ثوابه، فهذا من التَّقوى.

ومنها: أن الصائم يدرِّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه لعلمه باطِّلاع الله عليه.

ومنها: أن الصيام يضيِّق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي.

ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك مواساة الفقراء المُعْدَمين، وهذا من خصال التقوى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أهمية الصيام؛ لأن الله تعالى صدره بالنداء؛ وأنه من مقتضيات الإيمان؛ لأنه وجه الخطاب إلى المؤمنين؛ وأن تركه مخلٌّ بالإيمان.

٢- فرضية الصيام؛ لقوله تعالى: {كتب}.

٣- فرض الصيام على من قبلنا من الأمم؛ لقوله تعالى: {كما كتب على الذين من قبلكم}.

٤- تسلية الإنسان بما ألزم به غيره ليهون عليه القيام به؛ لقوله تعالى: {كما كتب على الذين من قبلكم}.

٥- استكمال هذه الأمة لفضائل من سبقها، حيث كتب الله عليها ما كتب على من قبلها لتترقّى إلى درجة الكمال كما ترقّى إليها من سبقها.

٦- الحكمة في إيجاب الصيام؛ وهي تقوى الله؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتقون}.

٧- فضل التقوى، وأنه ينبغي سلوك الأسباب الموصلة إليها؛ لأن الله أوجب الصيام لهذه الغاية؛ إذًا هذه الغاية غاية عظيمة؛ ويدلُّ على عِظَمِها أنها وصيَّة الله للأَولين والآخرين؛ لقوله تعالى: {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله}[النساء: ١٣١].

ويتفرع على هذه الفائدة اعتبار الذرائع؛ يعني ما كان ذريعة إلى الشيء فإن له حكم ذلك الشيء؛ فلما كانت التقوى واجبة كانت وسائلها واجبة؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يبتعد عن مواطن الفتن: لا ينظر إلى المرأة الأجنبية ولا يكلِّمها كلامًا

يتمتع به معها؛ لأنه يؤدي إلى الفتنة ويكون ذريعة إلى الفاحشة؛ فيجب اتقاء ذلك؛ حتى إن الرسول ﷺ أمر من سمع بالدجال أن يبتعد عنه حتى لا يقع في فتنته([١]).

٨- حكمة الله سبحانه وتعالى بتنويع العبادات؛ لأننا إذا تدبَّرنا العبادات وجدنا أن العبادات متنوعة؛ منها ما هو مالي محض؛ ومنها ما هو بدني محض؛ ومنها ما هو مركَّب منهما: بدنيّ ومالي؛ ومنها ما هو كف ـ ليتم اختبار المكلَّف؛ لأن من الناس من يهون عليه العمل البدني دون بذل المال؛ ومنهم من يكون بالعكس؛ ومن الناس من يهون عليه بذل المحبوب ويشق عليه الكف عن المحبوب؛ ومنهم من يكون بالعكس؛ فمن ثم نوَّع الله سبحانه وتعالى بحكمته العبادات؛ فالصوم كف عن المحبوب، قد يكون عند بعض الناس أشقّ من بذل المحبوب؛ ومن العجائب في زمننا هذا أن من الناس من يصبر على الصيام ويعظمه؛ ولكن لا يصبر على الصلاة ولا يكون في قلبه من تعظيم الصلاة ما في قلبه من تعظيم الصيام؛ تجده يصوم رمضان، لكن الصلاة لا يصلِّي إلا من رمضان إلى رمضان ـ إن صلَّى في رمضان؛ وهذا لا شك خطأ في التفكير؛ لكن الصلاة حيث إنها تتكرَّر كل يوم صار هيِّنًا على هذا الإنسان تركها؛ والصوم يكون عنده تركه صعبًا؛ ولهذا إذا أرادوا ذمَّ إنسان قالوا: إنه لا يصوم ولا يصلِّي ـ يبدؤون بالصوم.

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)

قال ابن العثيمين: {أيّامًا} مفعول لقوله تعالى: {الصيام}؛ لأن الصيام مصدر يعمل عمل فعله ـ أي: كتب عليكم أن تصوموا أيّامًا معدودات؛ و{أيّامًا}: نكرة؛ والنكرة تفيد القلَّة وتفيد الكثرة، وتفيد العظمة وتفيد الهون ـ بحسب السياق؛ لما قرنت هنا بقوله تعالى: {معدودات} أفادت القلة؛ يعني: هذا الصيام ليس أشهرًا؛ ليس سنوات؛ ليس أسابيع؛ ولكنه أيّام معدودات قليلة؛ و{معدودات} من صيغ جمع القلة؛ لأن جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم من صيغ جمع القلة؛ يعني: فهي أيام قليلة.

{فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر} كالإستثناء من قوله تعالى: {كتب عليكم}؛ لأن قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم} يشمل المريض والمسافر والقادر والعاجز.

١- راجع أحمد ص١٤٥٧، حديث رقم ٢٠١١٦؛ وأبا داود ص١٥٣٧، كتاب الملاحم، باب ١٤: خروج الدجال، حديث رقم ٤٣١٩؛ ومستدرك الحاكم ٥٣١/٤، كتاب الفتن والملاحم، وقال الحاكم: (حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه)، وأقرَّه الذهبي (المرجع نفسه)؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: (صحيح (٣٠/٣، حديث رقم ٤٣١٩).

و{من} شرطية؛ و{كان} فعل الشرط؛ وجملة: {فعدة من أيام أخر} جواب الشرط؛ و{عدة} مبتدأ، والخبر محذوف؛ والتقدير: فعليه عدة؛ ويجوز أن تكون {عدَّة} خبرًا، والمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب عدة؛ أو فالمكتوب عدة.

وقوله تعالى: {فمن كان منكم مريضًا}: يعني مرضًا يشقّ به الصوم؛ أو يتأخر به البرء؛ أو يفوت به العلاج، كما لو قال له الطبيب: خذ حبوبًا كل أربع ساعات وما أشبه ذلك؛ ودليل التخصيص بمرض يشق به الصوم ما يفهم من العلّة.

قال القرطبي: للمريض حالتان:

إحداهما: ألا يطيق الصوم بحال، فعليه الفطر واجبًا.

الثانية: أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة، فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلّا جاهل.

قال ابن سيرين: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر، قياسًا على المسافر لعلَّة السفر، وإن لم تدع إلى الفطر ضرورة. قال طريف بن تمَّام العطاردي: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل، فلما فرغ قال: إنه وجعت أصبعي هذه. وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤلمه ويؤذيه أو يخاف تماديه أو يخاف تزيده صح له الفطر. قال ابن عطية: وهذا مذهب حذاق أصحاب مالك وبه يناظرون. وأما لفظ مالك فهو المرض الذي يشق على المرء ويبلغ به. وقال ابن خويز منداد: واختلفت الرواية عن مالك في المرض المبيح للفطر، فقال مرة: هو خوف التَّلف من الصيام. وقال مرة: شدَّة المرض والزيادة فيه والمشقة الفادحة. وهذا صحيح مذهبه وهو مقتضى الظاهر، لأنه لم يخص مرضًا من مرض فهو مباح في كل مرض، إلّا ما خصَّه الدليل من الصداع والحمى والمرض اليسير الذي لا كلفة معه في الصيام. وقال الحسن: إذا لم يقدر من المرض على الصلاة قائمًا أفطر، وقاله النخعي. وقالت فرقة: لا يفطر بالمرض إلَّا من دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر، ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر. وهذا قول الشافعي رحمه اللّه تعالى.

قلت: قول ابن سيرين أعدل شيء في هذا الباب إن شاء اللّه تعالى. قال البخاري: اعتللت بنيسابور علَّة خفيفة وذلك في شهر رمضان، فعادني إسحاق بن راهويه ونفر من أصحابه فقال لي: أفطرت يا أبا عبدالله؟ فقلت نعم. فقال: خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة. قلت: حدثنا عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال قلت لعطاء: من أيّ المرض أفطر؟ قال: من أيِّ مرض كان، كما قال اللّه تعالى: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً}، قال البخاري: وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق.

{أَوْ عَلَى سَفَرٍ}: اختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد، ويتصل بهذين سفر صلة الرحم وطلب المعاش الضروري. أما سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع

والإجازة، والقول بالجواز أرجح. وأما سفر العاصي فيختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أرجح، قاله ابن عطية([١]). ومسافة الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة واختلف العلماء في قدر ذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٩ص٢٤٣: وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَّقَ الْقَصْرَ وَالْفِطْرَ بِمُسَمَّى السَّفَرِ وَلَمْ يَحُدَّهُ بِمَسَافَةِ، وَلَا فَرْقٍ بَيْنَ طَوِيلٍ وَقَصِيرٍ، وَلَوْ كَانَ لِلسَّفَرِ مَسَافَةٌ مَحْدُودَةٌ لَبَيَّنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا لَهُ فِي اللُّغَةِ مَسَافَةٌ مَحْدُودَةٌ، فَكُلَّمَا يُسَمِّيهِ أَهْلُ اللُّغَةِ سَفَرًا، فَإِنَّهُ يَجُوزُ فِيهِ الْقَصْرُ وَالْفِطْرُ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَقَدْ قَصَرَ أَهْلُ مَكَّةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إلَى عَرَفَاتٍ، وَهِيَ مِنْ مَكَّةَ بَرِيدٌ، فَعُلِمَ أَنَّ التَّحْدِيدَ بِيَوْمِ أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ لَيْسَ حَدًّا شَرْعِيًّا عَامًّا. وَمَا نُقِلَ فِي ذَلِكَ عَنْ الصَّحَابَةِ قَدْ يَكُونُ خَاصًّا، كَانَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ لَا يَكُونُ السَّفَرُ إلَّا كَذَلِكَ؛ وَلِهَذَا اخْتَلَفَتْ الرِّوَايَةُ عَنْ كُلٍّ مِنْهُمْ كَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا، فَعُلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا لِلْمُسَافِرِ وَلَا الزَّمَانِ حَدًّا شَرْعِيًّا عَامًّا، كَمَوَاقِيتِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، بَلْ حَدُّوهُ لِبَعْضِ النَّاسِ بِحَسَبِ مَا رَأَوْهُ سَفَرًا لِمِثْلِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَكَمَا يَحُدُّ إلْحَادَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ، لَا لِأَنَّ الشَّرْعَ جَعَلَ لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ مِقْدَارًا مِنْ الْمَالِ يَسْتَوِي فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ، بَلْ قَدْ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ بِالْقَلِيلِ وَغَيْرُهُ لَا يُغْنِيهِ أَضْعَافُهُ؛ لِكَثْرَةِ عِيَالِهِ وَحَاجَاتِهِ، وَبِالْعَكْسِ.

وَبَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَقْطَعُ الْمَسَافَةَ الْعَظِيمَةَ وَلَا يَكُونُ مُسَافِرًا، كَالْبَرِيدِ إذَا ذَهَبَ مِنْ الْبَلَدِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَةٍ أَوْ أَخْذِ حَاجَةٍ ثُمَّ كَرَّ رَاجِعًا مِنْ غَيْرِ نُزُولٍ. فَإِنَّ هَذَا لَا يُسَمَّى مُسَافِرًا، بِخِلَافِ مَا إذَا تَزَوَّدَ زَادَ الْمُسَافِرِ وَبَاتَ هُنَاكَ فَإِنَّهُ يُسَمَّى مُسَافِرًا وَتِلْكَ الْمَسَافَةُ يَقْطَعُهَا غَيْرُهُ، فَيَكُونُ مُسَافِرًا يَحْتَاجُ أَنْ يَتَزَوَّدَ لَهَا، وَيَبِيتَ بِتِلْكَ الْقَرْيَةِ وَلَا يَرْجِعُ إلَّا بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، فَهَذَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ مُسَافِرًا، وَذَلِكَ الَّذِي ذَهَبَ إلَيْهَا طَرْدًا وَكَرَّ رَاجِعًا عَلَى عَقِبِهِ لَا يُسَمُّونَهُ مُسَافِرًا، وَالْمَسَافَةُ وَاحِدَةٌ.

فَالسَّفَرُ حَالٌ مِنْ أَحْوَالِ السَّيْرِ لَا يُحَدُّ بِمَسَافَةِ وَلَا زَمَانٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْهَبُ إلَى قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا وَلَمْ يَكُنْ مُسَافِرًا، وَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ الْجُمُعَةَ مِنْ الْعَوَالِي وَالْعَقِيقِ ثُمَّ يُدْرِكُهُمْ اللَّيْلُ فِي أَهْلِهِمْ وَلَا يَكُونُونَ مُسَافِرِينَ، وَأَهْلُ مَكَّةَ لَمَّا خَرَجُوا إلَى مِنًى وَعَرَفَةَ كَانُوا مُسَافِرِينَ، يَتَزَوَّدُونَ لِذَلِكَ وَيَبِيتُونَ خَارِجَ الْبَلَدِ، وَيَتَأَهَّبُونَ أُهْبَةَ السَّفَرِ، بِخِلَافِ مَنْ خَرَجَ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْحَاجَاتِ، ثُمَّ رَجَعَ مِنْ يَوْمِهِ وَلَوْ قَطَعَ بَرِيدًا، فَقَدْ لَا يُسَمَّى مُسَافِرًا.

١- **(قلت):** بل الصحيح القول بالجواز. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٤ ص٦٢: وَأَمَّا السَّفَرُ الْمُحَرَّمُ فَمَذْهَبُ الثَّلَاثَةِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد لَا يَقْصُرُ فِيهِ وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ وَطَوَائِفُ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فَقَالُوا يَقْصُرُ فِي جِنْسِ الْأَسْفَارِ وَهُوَ قَوْلُ أَبُو حَنِيفَةَ وَابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُمَا: يُوجِبُونَ الْقَصْرَ فِي كُلِّ سَفَرٍ وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا كَمَا يُوجِبُ الْجَمِيعُ التَّيَمُّمَ إذَا عُدِمَ الْمَاءُ فِي السَّفَرِ الْمُحَرَّمِ وَابْنُ عَقِيلٍ رَجَّحَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الْقَصْرَ وَالْفِطْرَ فِي السَّفَرِ الْمُحَرَّمِ. وَالْحُجَّةُ مَعَ مَنْ جَعَلَ الْقَصْرَ وَالْفِطْرَ مَشْرُوعًا فِي جِنْسِ السَّفَرِ وَلَمْ يَخُصَّ سَفَرًا مِنْ سَفَرٍ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ؛ فَإِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ قَدْ أَطْلَقَا السَّفَرَ قَالَ تَعَالَى: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} كَمَا قَالَ فِي آيَةِ التَّيَمُّمِ: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ} الْآيَةَ وَكَمَا تَقَدَّمَتْ النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُسَافِرَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَلَمْ يَنْقُلْ قَطُّ أَحَدٌ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَصَّ سَفَرًا مِنْ سَفَرٍ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ السَّفَرَ يَكُونُ حَرَامًا وَمُبَاحًا وَلَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ مِنْ السَّفَرِ لَكَانَ بَيَانُ هَذَا مِنْ الْوَاجِبَاتِ وَلَوْ بَيَّنَ ذَلِكَ لَنَقَلَتْهُ الْأُمَّةُ وَمَا عَلِمْت عَنْ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ شَيْئًا.

وَمَا زَالَ النَّاسُ يَخْرُجُونَ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ إِلَى الْبَسَاتِينِ الَّتِي حَوْلَ مَدِينَتِهِمْ، وَيَعْمَلُ الْوَاحِدُ فِي بُسْتَانِهِ أَشْغَالًا مِنْ غَرْسٍ وَسَقْيٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ تَعْمَلُ فِي حِيطَانِهِمْ وَلَا يُسَمَّوْنَ مُسَافِرِينَ، وَلَوْ أَقَامَ أَحَدُهُمْ طُولَ النَّهَارِ، وَلَوْ بَاتَ فِي بُسْتَانِهِ وَأَقَامَ فِيهِ أَيَّامًا، وَلَوْ كَانَ الْبُسْتَانُ أَبْعَدَ مِنْ بَرِيدٍ، فَإِنَّ الْبُسْتَانَ مِنْ تَوَابِعِ الْبَلَدِ عِنْدَهُمْ، وَالْخُرُوجُ إِلَيْهِ كَالْخُرُوجِ إِلَى بَعْضِ نَوَاحِي الْبَلَدِ، وَالْبَلَدُ الْكَبِيرُ الَّذِي يَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ بَرِيدٍ مَتَى سَارَ مِنْ أَحَدِ طَرَفَيْهِ إِلَى الْآخَرِ لَمْ يَكُنْ مُسَافِرًا؛ فَالنَّاسُ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمُتَنَقِّلِ فِي الْمَسَاكِنِ وَمَا يَتْبَعُهَا، وَبَيْنَ الْمُسَافِرِ الرَّاحِلِ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ مَدِينَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَذْهَبُونَ إِلَى حَوَائِطِهِمْ وَلَا يَكُونُونَ مُسَافِرِينَ، وَالْمَدِينَةُ لَمْ يَكُنْ لَهَا سُورٌ بَلْ كَانَتْ قَبَائِلَ قَبَائِلَ، وَدُورًا دُورًا، وَبَيْنَ جَانِبَيْهَا مَسَافَةٌ كَبِيرَةٌ، فَلَمْ يَكُنْ الرَّاحِلُ مِنْ قَبِيلَةٍ إِلَى قَبِيلَةٍ مُسَافِرًا، وَلَوْ كَانَ كُلُّ قَبِيلَةٍ حَوْلَهُمْ حِيطَانُهُمْ وَمَزَارِعُهُمْ فَإِنَّ اسْمَ الْمَدِينَةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ هَذَا كُلَّهُ.

قال القرطبي: اتفق العلماء على أن المسافر في رمضان لا يجوز له أن يبيت الفطر، لأن المسافر لا يكون مسافرًا بالنية بخلاف المقيم، وإنما يكون مسافرًا بالعمل والنهوض، والمقيم لا يفتقر إلى عمل، لأنه إذا نوى الإقامة كان مقيمًا في الحين، لأن الإقامة لا تفتقر إلى عمل فافترقا. ولا خلاف بينهم أيضًا في الذي يؤمل السفر أنه لا يجوز له أن يفطر قبل أن يخرج. وقد روى الدار قطني: حدثنا أبو بكر النيسابوري حدثنا إسماعيل بن إسحاق بن سهل بمصر قال حدثنا ابن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرني زيد بن أسلم قال: أخبرني محمد بن المنكدر عن محمد بن كعب أنه قال: أتيت أنس بن مالك في رمضان وهو يريد السفر وقد رحلت دابته ولبس ثياب السفر وقد تقارب غروب الشمس، فدعا بطعام فأكل منه ثم ركب. فقلت له: سنة؟ قال نعم([١]). وروي عن أنس أيضًا قال: قال لي أبو موسى: ألم أنبأ إذا خرجت خرجت صائمًا، وإذا دخلت دخلت صائمًا، فإذا خرجت فأخرج مفطرًا، وإذا دخلت فادخل مفطرًا([٢]). وقال الحسن البصري: يفطر إن شاء في بيته يوم يريد أن يخرج. وقال أحمد: يفطر إذا برز عن البيوت. وقال إسحاق: لا، بل حين يضع رجله في الرحل. قال ابن المنذر: قول أحمد صحيح، لأنهم يقولون لمن أصبح صحيحًا ثم اعتلّ: إنه يفطر بقية يومه، وكذلك إذا أصبح في الحضر ثم خرج إلى السفر فله كذلك أن يفطر. وقالت طائفة: لا يفطر يومه ذلك وإن نهض في سفره، كذلك قال الزهري ومكحول ويحيى الأنصاري ومالك والأوزاعي والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي. واختلفوا إن فعل، فكلهم قال يقضي ولا يكفر. قال مالك: لأن السفر عذر طارئ، فكان كالمرض يطرأ عليه. وروي عن بعض أصحاب مالك أنه يقضي ويكفر، وهو قول ابن كنانة والمخزومي، وحكاه الباجي عن الشافعي، واختاره ابن العربي وقال به، قال: لأن السفر

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧٩٩).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في تصحيح حديث افطار الصائم قبل سفرة بعد الفجر (٢)، ج٢ص٤٣، وقال: رواه الدار قطني (ص ٢٤١) والبيهقي (٤/٢٤٧) بإسناد صحيح على شرط السنة.

عذر طرأ بعد لزوم العبادة ويخالف المرض والحيض، لأن المرض يبيح له الفطر، والحيض يحرم عليها الصوم، والسفر لا يبيح له ذلك فوجبت عليه الكفارة لهتك حرمته. قال أبو عمر: وليس هذا بشيء، لأن اللّه سبحانه قد أباح له الفطر في الكتاب والسنة. وأما قولهم لا يفطر فإنما ذلك استحباب لما عقده فإن أخذ برخصة اللّه كان عليه القضاء، وأما الكفارة فلا وجه لها، ومن أوجبها فقد أوجب ما لم يوجبه اللّه ولا رسوله ﷺ. وقد روي عن ابن عمر في هذه المسألة: ((يفطر إن شاء في يومه ذلك إذا خرج مسافرًا)) وهو قول الشعبي وأحمد وإسحاق.

قلت: وقد ترجم البخاري رحمه اللّه على هذه المسألة (باب من أفطر في السفر ليراه الناس)، وساق الحديث عن ابن عباس قال: ((خرج رسول اللّه ﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عسفان([1])، ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليريه الناس فأفطر حتى قدم مكة وذلك في رمضان([2]))). وأخرجه مسلم أيضًا عن ابن عباس وقال فيه: ((ثم دعا بإناء فيه شراب شربه نهارًا ليراه الناس ثم أفطر حتى دخل مكة)). وهذا نص في الباب فسقط ما خالفه، وباللّه التوفيق.

واختلف العلماء في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر، فقال مالك والشافعي في بعض ما روي عنهما: الصوم أفضل لمن قوي عليه. وجل مذهب مالك التخيير وكذلك مذهب الشافعي. قال الشافعي ومن اتبعه: هو مخير، ولم يفصل، وكذلك ابن علية، لحديث أنس قال: ((سافرنا مع النبي ﷺ في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم([3]))) خرجه مالك والبخاري ومسلم. وروي عن عثمان بن أبي العاص الثقفي وأنس بن مالك صاحبي رسول اللّه ﷺ أنهما قالا: (الصوم في السفر أفضل لمن قدر عليه) وهو قول أبي حنيفة وأصحابه. وروي عن ابن عمر وابن عباس:

١- عُسفان: قرية بينها وبين مكة ثمانية وأربعون ميلًا.

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود: خرج النبي ﷺ من المدينة إلى مكة، حتى بلغ (عُسْفَان)، ثم دعا بإناء، فرفعه إلى فيه لِيُرِيَهُ الناسَ، وذلك في رمضان. فكان ابن عباس يقول: قد صام النبي ﷺ وأفطر؛ فمن شاء؛ صام، ومن شاء؛ أفطر. (قلت: إسناده صحيح على شرط البخاري. وقد أخرجه هو ومسلم وابن خزيمة في صحاحهم). إسناده: حدثنا مسدد: ثنا أبو عوانة عن منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس. قلت: إسناده صحيح على شرط الشيخين؛ غير مسدد، فهو على شرط البخاري؛ وقد أخرجاه كما يأتي.

والحديث أخرجه البخاري (٤/١٥١) : حدثنا موسى بن إسماعيل. وقال أحمد (١/٢٩١) : ثنا عفان قالا: حدثنا أبو عوانة ... به.

وأخرجه مسلم (٣/١٤١)، والنسائي (١/٣١٧)، وابن ماجه (١/٥١٠)، وابن خزيمة (٢٠٣٦)، وأحمد (١/٢٥٩ و ٣٢٥ و ٣٤٠) من طرق أخرى عن منصور به.

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود: (قلت: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقد أخرجاه وابن خزيمة وابن حبان في صحاحهم).

إسناده: حدثنا أحمد بن يونس: ثنا زائدة عن حميد الطويل عن أنس. قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين؛ وقد أخرجاه كما يأتي.

والحديث أخرجه البخاري (١٩٤٧- السلفية)، ومسلم (٣/١٤٣)، وابن خزيمة (٢٠٣٩)، وابن حبان (٣٥٥٣)، والبيهقي (٤/٢٤٤) وغيرهم من طرق عن حميد ... به؛ وصرح حميد بالتحديث في رواية لمسلم.

وتابعه مُوَرِّق العِجْلِي عن أنس ... بالشطر الأول منه؛ وفيه قصة، وفيه: ((ذهب المفطرون اليوم بالأجر)). أخرجه البخاري (٢٨٩٠)، ومسلم، وابن خزيمة (٢٠٣٢- ٢٠٣٣)، وابن حبان (٣٥٥١)، والبيهقي، وكذا النسائي (٢٢٨٣).

الرُّخصة أفضل، وقال به سعيد بن المسيب والشعبي وعمر بن عبدالعزيز ومجاهد وقتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق. كل هؤلاء يقولون الفطر أفضل، لقول اللّه تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[البقرة: ١٨٥].

{فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ}، في الكلام حذف، أي: من يكن منكم مريضًا أو مسافرًا فأفطر فليقض. والجمهور من العلماء على أن أهل البلد إذا صاموا تسعة وعشرين يومًا وفي البلد رجل مريض لم يصح فإنه يقضي تسعة وعشرين يومًا. وقال قوم منهم الحسن بن صالح بن حي: إنه يقضي شهرًا بشهر من غير مراعاة عدد الأيام. قال الكيا الطبري: وهذا بعيد، لقوله تعالى: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أخر} ولم يقل فشهر من أيام أخر. وقوله: {فعدة} يقتضي استيفاء عدد ما أفطر فيه، ولا شك أنه لو أفطر بعض رمضان وجب قضاء ما أفطر بعده بعدده، كذلك يجب أن يكون حكم إفطاره جميعه في اعتبار عدده.

واختلف الناس في وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدار قطني في (سننه)، فروي عن عائشة ﵂ قالت: نزلت {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ متتابعات} فسقطت([١])(متتابعات) قال هذا إسناد صحيح. والدليل على صحة هذا قوله: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} ولم يخص متفرقة من متتابعة، وإذا أتى بها متفرقة فقد صام عدة من أيام أخر، فوجب أن يجزيه. قال ابن العربي: إنما وجب التتابع في الشهر لكونه معيَّنًا، وقد عدم التعيين في القضاء فجاز التفريق([٢]).

ولما قال تعالى: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} دل ذلك على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان، لأن اللفظ مسترسل على الأزمان لا يختص ببعضها دون بعض. وفي الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: يكون عليّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان، الشغل من رسول اللّه، أو برسول اللّه ﷺ. في رواية: وذلك لمكان رسول اللّه ﷺ. وهذا نص وزيادة بيان للآية([٣]).

١- قال الزرقاني في شرح الموطأ: معنى (سقطت): نسخت، قال: وليس بين اللوحين (متتابعات)، أي: ليس في المصحف كلمة (متتابعات). وقال الدار قطني: إن كلمة (سقطت) انفرد بها عروة.

- (قلت): قال البيهقي في معرفة السنن والآثار: (فَسَقَطَتْ مُتَتَابِعَاتٍ)، فَإِنَّمَا أَرَادَتْ بِهِ نُسِخَتْ، وَسَقَطَ حُكْمُهَا، وَرُفِعَتْ تِلَاوَتُهَا.

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في تمام المنة: وجملة القول (أنه لا يصح في هذا الباب شيء لا سلبًا ولا إيجابًا والأمر القرآني بالمسارعة يقتضي وجوب المتابعة إلا لعذر وهو مذهب ابن حزم أيضًا ٦ / ٢٦١ قال: (فإن لم يفعل فيقضيها متفرقة وتجزيه لقول الله تعالى: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} ولم يحدد تعالى في ذلك وقتًا يبطل القضاء بخروجه وهو قول أبي حنيفة).

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في تمام المنة في ردّه على سيد سابق قوله: (قضاء رمضان لا يجب على الفور بل يجب وجوبًا موسعًا في أي وقت وكذلك الكفارة).

قلت: هذا يتنافى مع قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}[آل عمران: ١٣٣]، فالحق وجوب المبادرة إلى القضاء حين الاستطاعة وهو مذهب ابن حزم ٦ / ٢٦٠ وليس يصح في السنة ما يعارض ذلك.

وأما استدلال المؤلف على عدم الوجوب بقوله: (فقد صح عن عائشة أنها كانت تقضي ما عليها من رمضان في شعبان. رواه أحمد ومسلم ولم تكن تقضيه عند قدرتها على القضاء). فليس بصواب لأنه ليس في حديث عائشة أنها كانت تقدر أن تقضيه فورًا بل فيه عكس ذلك فإن لفظ الحديث عند مسلم ٣ / ١٥٤ - ١٥٥: ((كان يكون علي الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان الشغل من رسول الله ﷺ أو برسول الله ﷺ)).

وهكذا أخرجه البخاري أيضًا في (صحيحه) خلافًا لما أوهمه تخريج المصنف وفي رواية لمسلم عنها قالت: ((إن كانت إحدانا لتفطر في زمان رسول الله ﷺ فما تقدر على أن تقضيه مع رسول الله ﷺ حتى يأتي شعبان)).

وقال بعض الأصوليين: إذا مات بعد مضي اليوم الثاني من شوال لا يعصي على شرط العزم. والصحيح أنه غير آثم ولا مفرط، وهو قول الجمهور، غير أنه يستحب له تعجيل القضاء لئلّا تدركه المنيَّة فيبقى عليه الفرض.

ومن كان عليه قضاء أيام من رمضان فمضت عليه عدتها من الأيام بعد الفطر أمكنه فيها صيامه فأخر ذلك ثم جاءه مانع منعه من القضاء إلى رمضان آخر فلا إطعام عليه، لأنه ليس بمفرط حين فعل ما يجوز له من التأخير. هذا قول البغداديين من المالكيين، ويرونه قول ابن القاسم في المدونة.

فإن أخر قضاءه عن شعبان الذي هو غاية الزمان الذي يقضى فيه رمضان فهل يلزمه لذلك كفارة أو لا، فقال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق: نعم. وقال أبو حنيفة والحسن والنخعي وداود: لا.

قلت: وإلى هذا ذهب البخاري لقوله: ويذكر عن أبي هريرة مرسلًا وابن عباس أنه يطعم، ولم يذكر اللّه الإطعام، إنما قال: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}.

فإن تمادى به المرض فلم يصح حتى جاء رمضان آخر، فروى الدار قطني عن ابن عمر (أنه يطعم مكان كل يوم مسكينًا مدًّا من حنطة، ثم ليس عليه قضاء)، وروي أيضًا عن أبي هريرة أنه قال: (إذا لم يصح بين الرمضانين صام عن هذا وأطعم عن الثاني ولا قضاء عليه، وإذا صح فلم يصم حتى إذا أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضي، فإذا أفطر قضاه) إسناد صحيح. قال علماؤنا: وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها. وروي عن ابن عباس أن رجلًا جاء إليه فقال: مرضت رمضانين؟ فقال له ابن عباس: (استمر بك مرضك، أو صححت بينهما؟) فقال: بل صححت، قال: (صم رمضانين وأطعم ستين مسكينًا) وهذا بدل من قوله: إنه لو تمادى به مرضه لا قضاء عليه. وهذا يشبه مذهبهم في الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما، على ما يأتي.

واختلف من أوجب عليه الإطعام في قدر ما يجب أن يطعم، فكان أبو هريرة والقاسم بن محمد ومالك والشافعي يقولون: يطعم عن كل يوم مدًّا. وقال الثوري: يطعم نصف صاع عن كل يوم.

فالحديث بروايتيه صريح في أنها كانت لا تستطيع ولا تقدر على القضاء قبل شعبان وفيه إشعار بأنها لو استطاعت لما أخرته فهو حجة على المؤلف ومن سبقه ولذلك قال الزين بن المنير رحمه الله: (وظاهر صنيع عائشة يقتضي إيثار المبادرة إلى القضاء لولا ما منعها من الشغل فيشعر بأن من كان بغير عذر لا ينبغي له التأخير).

واعلم أن ابن القيم والحافظ وغيرهما قد بينا أن قوله في الحديث: (الشغل من رسول الله ﷺ أو برسول الله ﷺ) مدرج في الحديث ليس من كلام عائشة بل من كلام أحد رواته وهو يحيى بن سعيد ومن الدليل على ذلك قول يحيى في رواية لمسلم: (فظننت أن ذلك لمكانها من النبي ﷺ).

ولكن هذا لا يخدج فيما ذكرنا لأننا لم نستدل عليه بهذا المدرج بل بقولها: ((فما أستطيع ...))، والمدرج إنما هو بيان لسبب عدم الاستطاعة وهذا لا يهمنا في الموضوع ولا أدري كيف خفي هذا على الحافظ حيث قال في خاتمة شرح الحديث: (وفي الحديث دلالة على جواز تأخير قضاء رمضان مطلقا سواء كان لعذر أو لغير عذر لأن الزيادة كما بيناه مدرجة ...)؟! فخفي عليه أن عدم استطاعتها هو العذر. فتأمل.

واختلفوا فيمن أفطر أو جامع في قضاء رمضان ماذا يجب عليه، فقال مالك: من أفطر يومًا من قضاء رمضان ناسيًا لم يكن عليه شيء غير قضائه، ويستحب له أن يتمادى فيه للاختلاف ثم يقضيه، ولو أفطره عامدًا أثم ولم يكن عليه غير قضاء ذلك اليوم ولا يتمادى، لأنه لا معنى لكفِّه عما يكفّ الصائم ههنا إذ هو غير صائم عند جماعة العلماء لإفطاره عامدًا. وأما الكفارة فلا خلاف عند مالك وأصحابه أنها لا تجب في ذلك، وهو قول جمهور العلماء. قال مالك: ليس على من أفطر يومًا من قضاء رمضان بإصابة أهله أو غير ذلك كفارة، وإنما عليه قضاء ذلك اليوم. وقال قتادة: على من جامع في قضاء رمضان القضاء والكفارة. وروى ابن القاسم عن مالك أن من أفطر في قضاء رمضان فعليه يومان، وكان ابن القاسم يفتي به ثم رجع عنه ثم قال: إن أفطر عمدًا في قضاء القضاء كان عليه مكانه صيام يومين، كمن أفسد حجه بإصابة أهله، وحج قابلًا فأفسد حجَّه أيضًا بإصابة أهله كان عليه حجَّتان. قال أبو عمر: قد خالفه في الحج ابن وهب وعبدالملك، وليس يجب القياس على أصل مختلف فيه.

والصواب عندي – واللّه أعلم – أنه ليس عليه في الوجهين إلا قضاء يوم واحد، لأنه يوم واحد أفسده مرتين([١]).

قلت: وهو مقتضى قوله تعالى: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}، فمتى أتى بيوم تامّ بدلًا عمّا أفطره في قضاء رمضان فقد أتى بالواجب عليه، ولا يجب عليه غير ذلك، واللّه أعلم.

والجمهور على أن من أفطر في رمضان لعلَّة فمات من علّته تلك، أو سافر فمات في سفره ذلك أنه لا شيء عليه. وقال طاوس وقتادة في المريض يموت قبل أن يصح: يطعم عنه.

واختلفوا فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه، فقال مالك والشافعي والثوري: لا يصوم أحد عن أحد. وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر: يصام عنه، إلا أنهم خصصوه بالنذر، وروي مثله عن الشافعي. وقال أحمد وإسحاق في قضاء رمضان: يطعم عنه. احتج من قال بالصوم بما رواه مسلم عن عائشة أن رسول اللّه ﷺ قال: ((من مات وعليه صيام صام عنه وليه([٢]))). إلا أن هذا عام في الصوم، يخصصه ما رواه مسلم أيضًا عن ابن عباس قال: جاءت امرأة إلى رسول اللّه ﷺ فقالت: يا رسول اللّه، إن أمي قد ماتت وعليها صوم نذر – وفي رواية صوم شهر – أفأصوم عنها؟ قال: ((أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدي ذلك عنها))، قالت: نعم، قال: ((فصومي عن أمّك([٣]))). احتج مالك ومن وافقه بقوله سبحانه: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[الأنعام: ١٦٤]، وقوله: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}[النجم: ٣٩]، وقوله: {وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا}[الأنعام: ١٦٤].

١- (قلت): أنظر حكم المفطر عامداً متعمداً عند تفسير الآية (١٨٧) من هذه السورة عند قوله تعالى: {ثُمَّ أتمّوا الصيام الى الليل} في الهامش.

٢- (قلت): البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

٣- (قلت): مسلم (١١٤٨).

قلت: فأمّا صوم النذر فيجوز، بدليل حديث ابن عباس وغيره، فقد جاء في صحيح مسلم أيضًا من حديث بريدة نحو حديث ابن عباس، وفي بعض طرقه: صوم شهرين أفأصوم عنها؟ قال: ((صومي عنها))، قالت: إنها لم تحج قط أفأحجّ عنها؟ قال: ((حجي عنها([1]))). فقولها: شهرين، يبعد أن يكون رمضان، واللّه أعلم. وأقوى ما يحتج به لمالك أنه عمل أهل المدينة، ويعضده القياس الجليّ، وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للمال فيها فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة. ولا ينقض هذا بالحجّ لأن للمال فيه مدخلًا.

استدلّ بهذه الآية من قال: إن الصوم لا ينعقد في السفر وعليه القضاء أبدًا، فإن اللّه تعالى يقول: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}: أي فعليه عدَّة، ولا حذف في الكلام ولا إضمار وبقوله ﷺ: ((ليس من البر الصيام في السفر([2]))). قال: ما لم يكن من البر فهو من الإثم، فيدل ذلك على أن صوم رمضان لا يجوز في السفر. والجمهور يقولون: فيه محذوف فأفطر، كما تقدم. وهو الصحيح، لحديث أنس قال: ((سافرنا مع رسول اللّه ﷺ في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم([3])))، رواه مالك عن حميد الطويل عن أنس. وأخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: ((غزونا مع رسول اللّه ﷺ لست عشرة مضت من رمضان فمنّا من صام ومنّا من أفطر، فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم([4]))).

قال ابن العثيمين: {وعلى الذين يطيقونه} أي يستطيعونه، وقال بعض أهل العلم: {يطيقونه} أي يطوقونه؛ أي يتكلفونه، ويبلغ الطاقة منهم حتى يصبح شاقًّا عليهم؛ وقال آخرون: إن في الآية حذفًا؛ والتقدير: وعلى الذين لا يطيقونه فدية؛ وكلاهما ضعيف؛ والثاني أضعف؛ لأن هذا القول يقتضي تفسير المثبت بالمنفي؛ وتفسير الشيء بضده لا يستقيم؛ وأمّا القول الأول منهما فله وجه؛ لكن ما ثبت في الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع يدلُّ على ضعفه: ((أنه أول ما كتب الصيام كان الإنسان مخيَّرًا بين أن يصوم؛ أو يفطر، ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعده {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ... }([5])))؛ وكذلك ظاهر الآية يدلُّ على ضعفه؛ لأن قوله بآخرها: {وأن تصوموا خير لكم} يدلُّ على أنهم

١- (قلت): مسلم (١١٤٩/١٥٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٥٤)، وقال: وعن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في سفر فرأى رجلًا قد اجتمع الناس عليه وقد ظلل عليه فقال ما له قالوا رجل صائم فقال رسول ﷺ: ليس البر أن تصوموا في السفر. زاد في رواية وعليكم برخصة الله التي رخص لكم وفي رواية ليس من البر الصوم في السفر رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

- وفي رواية للنسائي (صحيح): أن رسول الله ﷺ مر على رجل في ظل شجرة يرش عليه الماء قال ما بال صاحبكم قالوا: يا رسول الله صائم، قال: إنه ليس من البر أن تصوموا في السفر وعليكم برخصة الله عز وجل التي رخَّص لكم فاقبلوها.

٣- (قلت): البخاري (١٩٤٧)، ومسلم (١١١٨/٩٨).

٤- (قلت): مسلم (١١١٦/٩٣).

٥- أخرجه البخاري ص٣٧٠، كتاب تفسير القرآن، باب ٢٦: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}، حديث رقم ٤٥٠٧؛ وأخرجه مسلم ص٨٦١، كتاب الصيام، باب ٢٥: بيان نسخ قول الله تعالى: {وعلى الذين يطيقون فدية طعام مسكين} بقوله تعالى: {فمن شهد منكم الشخر فليصمه}، حديث رقم ٢٦٨٥ [١٤٩] ١١٤٥.

يستطيعون الصيام، وأنه خوطب به من يستطيع فيكون ظاهر الآية مطابقًا لحديث سلمة؛ وهذا هو القول الراجح أن معنى {يطيقونه}: يستطيعونه.

قال محمد فؤاد عبدالباقي في شرحه لصحيح مسلم: كان من أراد أن يفطر ويفتدى فعل (حتى نزلت الآية التي بعدها) هي آية شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن (فنسختها)، يعني أنهم كانوا مخيَّرين في صدر الإسلام بين الصوم والفدية، ثم نسخ التخيير بتعيين الصوم بقوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه، فمعنى وعلى الذين يطيقونه فدية، أي على المطيقين للصيام إن أفطروا إعطاء فدية، وهي طعام مسكين لكل يوم، فهو رخصة منه – تعالى – لهم في الإفطار والفدية في بدء الأمر لعدم تعودهم الصيام أيّامًا، ثم نسخ الرخصة وعين العزيمة، ومن لم يقل بالنسخ قال في تفسيره وعلى الذين يصومونه مع المشقة وهو مبنيٌّ على أن الطاقة اسم للقدرة مع المشدَّة والمشقَّة.

قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية: دلَّ على أن المقيم المطيق يخيَّر بين الصيام والافتداء، وهو منسوخ بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)[البقرة: ١٨٥]، وهذا معلوم بالتواتر وإجماع الأمة أن الصيام واجب على المقيم القادر لا يخيَّر بينه وبين الافتداء كما كان في أول الأمر، وقد قال كثير من السلف هذه الآية ليست منسوخة، وأرادوا أن فيها أحكامًا غير منسوخة، كما قد يستدلُّ بها على افتداء العاجز والمرضع والحامل، لكن الحكم الأول قد اتفقوا على نسخه، وقد يعارضون ما يفهم من آية بما يدلُّ على نقيض ذلك المعنى ليبيِّن أنه لم يفرد، وقد يسمُّون هذا نسخًا، كما عارض ابن مسعود وغيره عموم قوله – تعالى – في المتوفى عنها زوجها: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا }[البقرة: ٢٣٤]، بأن سورة الطلاق وقد سمّاها سورة النساء القصرى نزلت بعد ذلك، وفيها: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[الطلاق ٤]، وكان علي وابن عباس ومن اتبعهم – رضي الله تعالى عنهم – يقولون: تعتدّ أبعد الأجلين، وكان عمر وابن مسعود وغيرهما يقولون: إذا وضعت حلت، وجاءت السنة الصحيحة بذلك في قصة سُبيعة الأسلمية لما توفي عنها زوجها سعد بن خولة عام حجّة الوداع ووضعت بعده بليال وقال لها أبو السنابل بن بعكك: ما أنت بناكحة حتى يمضي عليك أربعة أشهر وعشرًا، فسألت النبي ﷺ فقال كذب أبو السنابل حللت فانكحي فاتفق.

قال الإمام الألباني في إرواء الغليل: يقول ابن عباس في قوله تعالى: {وعلى الذين يطيقونه فدية}: (ليست بمنسوخة هي للكبير الذى لا يستطيع الصوم) رواه البخاري. صحيح.

رواه البخاري في (التفسير) من (صحيحه) (١٣٥/٨ . فتح) والدار قطني (٢٥٠) من طريق زكريا بن إسحاق حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء سمع ابن عباس يقول: ({وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين}، قال ابن عباس: ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فليطعما مكان كل يوم مسكينًا).

ورواه النسائي (١/٣١٨ . ٣١٩) من طريق ورقاء عن عمرو بن دينار به نحوه ولفظه: ({يطيقونه} يكلفونه، {فدية طعام مسكين، فمن تطوع خيرًا} طعام مسكين آخر، ليست بمنسوخة {فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم} لا يرخص في هذا إلا للذي لا يطيق الصيام أو مريض لا يشفى).

قلت: وإسناده صحيح. ورواه الدار قطني (٢٤٩) وقال: (إسناده صحيح ثابت).

وأخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/٤٣١/٢٧٧٨) عن ابن أبى نجيح عن عمرو بن دينار به مثل رواية ورقاء مع بعض اختصار.

قلت: وإسناده صحيح أيضًا. ثم رواه بسند مثله عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان يقول: (ليست بمنسوخة).

ثم أخرج هو (٢٧٥٢ ، ٢٧٥٣) وابن الجارود في (المنتقى) (٣٨١) والبيهقي (٤/٢٣٠) من طرق عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن عزرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (رخّص للشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة في ذلك وهما يطيقان الصوم أن يفطرا إن شاءا، ويطعما كل يوم مسكينًا، ولا قضاء عليهما، ثم نسخ ذلك في هذه الآية: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}، وثبت للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة إذا كانا لا يطيقان الصوم، والحبلى والمرضع إذا خافتا أفطرتا، وأطعمتا كل يوم مسكينًا).

ورواه أبو داود (٢٣١٨) من طريق ابن أبى عدى عن سعيد به إلّا أنه اختصره اختصارًا مخلًّا، ولفظه: ({وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين} قال: كانت رخصة للشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينًا، والحبلى والمرضع إذا خافتا. قال أبو داود: يعنى على أولادهما. أفطرتا وأطعمتا).

ووجه الإخلال أنه اختصر جملة (وثبت للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة إذا كانا لا يطيقان الصوم) فصارت الرواية تعطى الترخيص للشيخ والمرأة بالإفطار وهما يطيقان الصوم، والواقع أن هذا منسوخ بدليل رواية الجماعة عن ابن عروبة وما قبلها من الروايات! وإسناد هذه الرواية صحيح على شرط الشيخين، وأما رواية أبى داود فهي شاذة، وقد وقع فيها (عروة) بدل (عزرة) وهو تصحيف بدليل رواية الجماعة، وأيضًا فقد رواه البيهقي من طريق أبى داود فقال: (عزرة) على الصواب وقد تصحف هذا الاسم أيضًا في تفسير الطبري من الطبعة الأولى كما نبّه عليه محقّقه الأستاذ الفاضل محمود ومحمد شاكر في تعليقه عليه طبعة دار المعارف بمصر، ثم تصحف أيضًا في أحد الموضعين المشار إليهما من هذه الطبعة (٢٧٥٣)!

ومن روايات الحديث ما عند الطبري (٢٧٥٨) من طريق عبدة وهو ابن سليمان الكلابي عن سعيد بن أبي عروبة بسنده المتقدم عن ابن عباس قال: (إذا خافت الحامل على نفسها، والمرضع على ولدها في رمضان قال: يفطران، ويطعمان مكان كل يوم مسكينًا، ولا يقضيان صومًا).

قلت: وإسناده صحيح على شرط مسلم. وفي رواية له بالسند المذكور عن ابن عباس: (أنه رأى أم ولد له حاملًا أو مرضعًا فقال: أنت بمنزلة الذى لا يطيق، عليك أن تطعمي مكان كل يوم مسكينًا ولا قضاء عليك).

زاد في رواية أخرى (٢٧٦١) عن سعيد به: (أن هذا إذا خافت على نفسها).

ورواه الدار قطني (٢٥٠) من طريق روح عن سعيد به بلفظ: (أنت من الذين لا يطيقون الصيام، عليك الجزاء، وليس عليك القضاء). وقال الدار قطني: (إسناده صحيح).

ثم روى من طريق أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وابن عمر قال: (الحامل والمرضع تفطر ولا تقضى). وقال: (وهذا صحيح).

قلت: ورواه ابن جرير (٢٧٦٠) من طريق على بن ثابت عن نافع عن ابن عمر مثل قول ابن عباس في الحامل والمرضع.

قلت: وسنده صحيح ولم يسق لفظه، وقد رواه الدار قطني من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر: (أن امرأته سألته وهى حبلى، فقال: أفطري وأطعمي عن كل يوم مسكينًا ولا تقضى). وإسناده جيد، ومن طريق عبيد الله عن نافع قال: (كانت بنت لابن عمر تحت رجل من قريش، وكانت حاملًا، فأصابها عطش في رمضان، فأمرها ابن عمر أن تفطر وتطعم عن كل يوم مسكينًا). وإسناده صحيح.

ومنها ما عند الدار قطني وصححه من طريق منصور عن مجاهد عن ابن عباس قرأ: {وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين} يقول: (هو الشيخ الكبير الذى لا يستطيع الصيام فيفطر ويطعم عن كل يوم مسكينًا نصف صاع من حنطة).

وأخرجه (٢٤٩) من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: (إذا عجز الشيخ الكبير عن الصيام أطعم عن كل يوم مدًّا مدًّا). وقال: (إسناده صحيح).

ومن شواهد الحديث: عن معاذ بن جبل قال: (أما أحوال الصيام، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصيام يوم عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، فأنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم} إلى هذه الآية: {وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين} فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينًا فأجزى ذلك عنه، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى: {شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس} إلى قوله تعالى: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}، فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض وللمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام، فهذان حولان ...) الحديث.

أخرجه أبو داود (٥٠٧) وابن جرير (٢٧٣٣) والحاكم (٢/٧٧٤) والسياق له والبيهقي (٤/٢٠٠) وأحمد (٥/٢٤٦ . ٢٤٧) من طريق المسعودي: حدثني عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل. وقال الحاكم: (صحيح الإسناد) وافقه الذهبي.

قلت: وفيه نظر، فإن المسعودي كان اختلط، ثم إنه منقطع، وبه أعله البيهقي فقال عقبه: (هذا مرسل، عبد الرحمن لم يدرك معاذ بن جبل). وبذلك أعله الدار قطني والمنذري ، وقد ذكرت كلامهما في (صحيح أبي داود) (رقم ٥٢٤). لكن قد جاء بعضه من طريق غير المسعودي فراجع المصدر المذكور.

ومنها: عن قتادة: (أن أنسا ضعف قبل موته فأفطر، وأمر أهله أن يطعموا مكان كل يوم مسكينًا). أخرجه الدار قطني بسند صحيح.

وأخرج من طريق أخرى عن أنس نحوه ولفظه: (عن أنس بن مالك أنه ضعف عن الصوم عاما فصنع جفنة ثريد ودعا ثلاثين مسكينًا فأشبعهم) وسنده صحيح أيضًا، وعلَّق البخاري بنحوه.

وعن مالك عن نافع: (أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها فقال: تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكينًا مدًّا من حنطة). أخرجه الشافعي (١/٢٦٦) ومن طريقه البيهقي (٤/٢٣٠) وهو في (الموطأ) (١/٣٠٨/٥٢) بلاغًا أن عبد الله بن عمر سئل ...؛ وعن أبي هريرة قال: (من أدركه الكبر فلم يستطع أن يصوم رمضان، فعليه لكل يوم مُدّ من قمح). أخرجه الدار قطني وفيه عبد الله بن صالح وفيه ضعف.

(تنبيه): استدلّ المؤلف رحمه الله تعالى بحديث ابن عباس هذا على أن العاجز عن الصيام لكبر أو مرض مزمن يطعم عن كل يوم مسكينًا، وهذا صحيح يشهد له حديث ابن عمر وأبي هريرة. غير أن في قول ابن عباس في هذه الآية {وعلى الذين يطيقونه ... } ليست منسوخة، وأن المراد بها الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصيام، إشكالًا كبيرًا، ذلك لأن معنى {يطيقونه}: أي يستطيعون بمشقَّة، فكيف تفسِّر حينئذ بأن المراد بها من لا يستطيع الصيام، لا سيَّما وابن عباس نفسه يذكر في رواية عزرة أن الآية نزلت في الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة وهما يطيقان أي يستطيعان الصوم ثم نسخت، فكيف تفسر الآية بتفسيرين متناقضين (يستطيعون) و(لا يستطيعون)؟! وأيضا فقد جاء عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: ((لما نزلت (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من أراد أن يفطر، ويفتدى فعل حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها)).

أخرجه الستة إلا ابن ماجه. وفى رواية عنه قال: ((كنا في رمضان على عهد رسول الله ﷺ، من شاء صام ومن شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين، حتى نزلت هذه الآية: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه})) أخرجه مسلم. ويشهد له حديث معاذ المتقدم. فهذا يبين لنا أن في حديث ابن عباس إشكالًا آخر، وهو أنه يقول: أن الرخصة التي كانت في أول الأمر، إنَّما

كانت للشيخ أو الشيخة وهما يطيقان الصيام، وحديث سلمة ومعاذ يدلّان على أن الرخصة كانت عامة لكل مكلّف شيخًا أو غيره، وهذا هو الصواب قطعًا لأن الآية عامة، فلعل ذكر ابن عباس للشيخ والشيخة لم يكن منه على سبيل الحصر، بل التمثيل، وحينئذ فلا اختلاف بين حديثه والحديثين المذكورين. ويبقى الخلاف في الإشكال الأول قائمًا لأن الحديثين المشار إليهما صريحان في نسخ الآية. وابن عباس يقول ليست بمنسوخة ويحملها على الذين لا يستطيعون الصيام كما سبق بيانه! فلعل مراد ابن عباس رضى الله عنه أن حكم الفدية الذى كان خاصًّا بمن يطيق الصوم ويستطيعه ثم نسخ بدلالة القرآن، كان هذا الحكم مقرَّرًا أيضًا في حق من لا يطيق الصوم ولا يستطيعه، غير أن الأول ثبت بالقرآن، وبه نسخ، وأما الآخر فإنما ثبتت مشروعيته بالسنة لا بالقرآن، ثم لم ينسخ، بل استمرت مشروعيته إلى يوم القيامة، فأراد ابن عباس رضى الله عنه أن يخبر عن الفرق بين الحكمين: بأن الأول نسخ، والآخر لم ينسخ، ولم يرد أن هذا يثبت بالقرآن بآية {وعلى الذين يطيقونه}، وبذلك يزول الإشكال إن شاء الله تعالى.

ويؤيد ما ذكرته أن ابن عباس . في رواية عزرة. بعد أن ذكر نسخ الآية المذكورة قال: (وثبت للشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة إذا كانا لا يطيقان الصوم، والحبلى والمرضع إذا خافتا أفطرتا، وأطعمتا كل يوم مسكينًا). ففي قوله: (ثبت) إشعار بأن هذا الحكم في حق من لا يطيق الصوم كان مشروعًا، كما كان مشروعًا في حق من يطيق الصوم، فنسخ هذا، واستمر الآخر، وكل من شرعيته، واستمراره إنما عرفه ابن عباس من السنة، وليس من القرآن.

ويزيده تأييدًا، أن ابن عباس أثبت هذا الحكم للحبلى والمرضع إذا خافتا ومن الظاهر جدًا أنهما ليسا كالشيخ والشيخة في عدم الاستطاعة، بل إنهما مستطيعتان ولذلك قال لأم ولد له أو مرضع: (أنت بمنزلة الذى لا يطيق) كما سبق.

فمن أين أعطاهما ابن عباس هذا الحكم مع تصريحه بآن الآية {وعلى الذين يطيقونه} منسوخة، ذلك من السنة بلا ريب.

ويشهد لما سبق ذكره حديث معاذ، فإنه بعد أن أفاد نسخ الآية المذكورة بقوله تعالى {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} قال: (فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام). فقد أشار بقوله: (وثبت الإطعام) إلى مثل ما أشار إليه حديث ابن عباس. وبذلك يلتقى الحديثان حديث معاذ وسلمة مع حديث ابن عباس، ويتبين أن في حديثه ما يوافق الحديثين، وفيه ما يوافق حديث معاذ ويزيد على حديث سلمة وهو ثبوت الإطعام على العاجز عن الصيام ، فاتفقت الأحاديث ولم تختلف والحمد لله على توفيقه.

وإذا عرفت هذا فهو خير مما ذكره الحافظ في (الفتح) (٤/١٦٤): (أن ابن عباس ذهب إلى أن الآية المذكورة محكمة، لكنها مخصوصة بالشيخ الكبير) لما عرفت أن ابن عباس صرح بأن الآية منسوخة، لكن حكمها منسحب إلى العاجز عن الصيام بدليل السنة لا الكتاب لما سبق بيانه، وقد توهم كثيرون أن ابن عباس يخالف الجمهور الذين ذهبوا إلى نسخ الآية وانتصر لهم الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٨/١٣٦) فقال تعليقا على رواية البخاري عن ابن عمر أنه قرأ {فدية طعام

مسكين}، قال: (هو صريح في دعوى النسخ، ورجَّحه ابن المنذر من جهة قوله: {وأن تصوموا خير لكم} قال: لأنها لو كانت في الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصيام، لم يناسب أن يقال له: {وأن تصوموا خير لكم} مع أنه لا يطيق الصيام).

قلت: وهذه حجَّة قاطعة فيما ذكر، وهو يشير بذلك إلى الرَّد على ابن عباس، ومثله لا يخفى عليه مثلها، ولكن القوم نظروا إلى ظاهر الرواية المتقدمة عن ابن عباس عند البخاري الصريحة في نفى النسخ، ولم يتأملوا في الرواية الأخرى الصريحة في النسخ، ثم لم يحاولوا التوفيق بينهما، وقد فعلنا ذلك بما سبق تفصيله، وخلاصته: أن يحمل النفي على نفى نسخ الحكم لا الآية، والحكم مأخوذ من السنة(١)، ويحمل النسخ عليها، وبذلك يتبين أن ابن عباس رضى الله عنه ليس مخالفًا للجمهور.

١- (قلت): لقد ورد حديث في ذلك عن رسول الله ﷺ أخرجه أحمد في المسند (٣٤٧/٤) حيث قال: حدثنا وكيع، حدثنا أبو هلال عن عبدالله بن سوادة عن أنس بن مالك - رجل من بني عبدالله بن كعب - قال: أَغَارَتْ عَلَيْنَا خَيْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَغَدَّى، فَقَالَ: ((ادْنُ فَكُلْ))، قُلْتُ: إِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: ((اجْلِسْ أُحَدِّثْكَ عَنِ الصَّوْمِ أَوِ الصِّيَامِ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَضَعَ عَنِ الْمُسَافِرِ شَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الْمُسَافِرِ وَالْحَامِلِ وَالْمُرْضِعِ الصَّوْمَ أَوِ الصِّيَامَ))، وَاللهِ لَقَدْ قَالَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كِلَاهُمَا أَوْ أَحَدُهُمَا، فَيَا لَهْفَ نَفْسِي، هَلَّا كُنْتُ طَعِمْتُ مِنْ طَعَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

- وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٠٢٥)، وقال في صحيح أبي داود (٢٠٨٣): (قلت): إسناده حسن صحيح، وقال الترمذي: (حديث حسن، ولا نعرف لأنس بن مالك غير هذا الحديث)، وصححه ابن خزيمة.

- وحسنه كمال بن السيد سالم في صحيح فقه السنة.

- وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لهذا الحديث في المسند:

حديث حسن، وهذا إسناد اختلف فيه على عبد الله بن سوادة، فرواه أبو هلال، وهو محمد بن سُلَيْم الراسبي عنه، عن أنس بن مالك، وأبو هلال ضعيف يعتبر به. وخالفه وهيب بن خالد الباهلي، فرواه - كما سيأتي في التخريج - عن عبد الله بن سوادة، عن أبيه، عن أنس، فزاد في الإسناد: عن أبيه، ووهيب ثقة من رجال الشيخين. وسوادة والد عبد الله، حسن الحديث، فقد روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في (الثقات)، وقال أبو حاتم: شيخ، وروى له مسلم في (صحيحه). والظاهر أن الإسنادين محفوظان، فقد حسن الترمذي طريق أبي هلال، وصرح عند الله بن سوادة بسماعه من أنس في رواية عفان عند ابن سعد ٤٥/٧، فيكون طريق وهيب من المزيد في متصل الأسانيد، والله أعلم.

- وأخرجه ابنُ سعد ٤٥/٧، والترمذي (٧١٥)، وابن ماجه (١٦٦٧) و(٣٢٩٩)، وابن خزيمة (٢٠٤٤)، من طريق وكيع بن الجراح الرؤاسي، بهذا الإسناد، ووقع عند ابن ماجه: عن أنس بن مالك رجل من بني عبد الأشهل، وهو غلط، نبه عليه الحافظ في (الإصابة) في ترجمة أنس. وقال الترمذي: حديث أنس بن مالك الكعبي حديث حسن، ولا نعرف لأنس بن مالك هذا عن النبي ﷺ غير هذا الحديث الواحد، والعمل على هذا عند أهل العلم. وقال بعض أهل العلم: الحامل والمرضع تفطران وتقضيان وتطعمان. وبه يقول سفيان ومالك والشافعي وأحمد. وقال بعضهم: تفطران وتطعمان ولا قضاء عليهما، وإن شاءتا قضتا، ولا إطعام عليهما، وبه يقول إسحاق.

- وأخرجه عبد بن حميد في (المنتخب) (٤٣٠)، ويعقوب بن سفيان في (المعرفة والتاريخ) ٤٧١/٢، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) (١٤٩٣)، وابن خزيمة (٢٠٤٤)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) ٤٢٣/١، وابن قانع في (معجمه) ١٥/١-١٦، والطبراني في (الكبير) (٧٦٥)، وابن عدي في (الكامل) ٢٢٢٠/٦، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٨٢٩)، والبيهقي في (السنن) ٢٣١/٤. وجاء عند البيهقي: رجل من بني عبد الأشهل، وهو خطأ كما أسلفنا.

- وأخرجه الطبراني في (الكبير) (٧٦٦) من طريق أشعث: وهو ابن سوار، عن عبد الله بن سوادة، به.

- وأخرجه النسائي في (المجتبى) ١٩٠/٤، وفي (الكبرى) (٢٦٢٤)، ويعقوب بن سفيان في (المعرفة والتاريخ) ٤٧١/٢-٤٧٢، والبيهقي في (السنن) ١٥٤/٣ و٢٣١/٤ من طريق وهيب بن خالد، عن عبد الله بن سوادة، عن أبيه، عن أنس بن مالك. وسيرد (١٩٠٤٨)، و٢٩/٥. وانظر حديث ابن عباس عند أبي داود(٢٣١٨). قال السندي: قوله: ((أغارت علينا)): الإغارة النهب، والوقوع على العدو بسرعة وعلى الغفلة، ولعل سبب إغارتهم أنهم ما علموا بمن في القرية من أهل الإسلام، وزعموا أن أهل القرية كلهم كفرة.

وهذا الجمع مما لم أقف عليه في كتاب، فإن كان صوابًا، فمن الله، وإن كان خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله من كل ما لا يرضيه([1]).

قال ابن العثيمين: {فدية} مبتدأ مؤخر خبره: {على الذين يطيقونه}؛ و{فدية}: أي فداء يفتدي به عن الصوم؛ والأصل أن الصوم لازم لك، وأنك مكلف به، فتفدي نفسك من هذا التكليف والإلزام بإطعام مسكين.

{طعام مسكين} عطف بيان لقوله تعالى: {فدية}: أي عليهم لكل يوم طعام مسكين؛ وليس المعنى طعام مسكين لكل شهر؛ بل لكل يوم؛ ويدل لذلك القراءة الثانية في الآية: {طعام مساكين} بالجمع؛ فكما أن الأيام التي عليه جمع، فكذلك المساكين الذين يطعمون لا بد أن يكونوا جمعًا.

وفي قوله تعالى: {فدية طعام مساكين} ثلاث قراءات؛ الأولى: {فدية طعام مساكين} بحذف التنوين في {فدية}، وبجر الميم في {طعام}؛ و{مساكين} بالجمع، وفتح النون بلا تنوين؛ الثانية: {فدية طعام مسكين}؛ بتنوين {فدية} مع الرفع؛ و {طعام} بالرفع؛ و{مسكين} بالإفراد، وكسر النون المنونة؛ الثالثة: {فدية طعام مساكين}؛ بتنوين {فدية} مع الرفع؛ و {طعام} بالرفع؛ و{مساكين} بالجمع، وفتح النون بلا تنوين.

وقوله تعالى: {طعام مسكين}؛ المراد بالمسكين من لا يجد شيئًا يكفيه لمدة سنة؛ فيدخل في هذا التعريف الفقير؛ فإذا مرَّ بك المسكين فهو شامل للفقير؛ وإذا مر بك الفقير فإنه شامل للمسكين؛ أما إذا جمعا فقد قال أهل العلم: إن بينهما فرقًا: فالفقير أشدُّ حاجة من المسكين؛ الفقير هو الذي لا يجد نصف كفاية سنة؛ وأما المسكين فيجد النصف فأكثر دون الكفاية لمدة سنة.

{فمن تطوع خيرًا}؛ {تطوع} فعل الشرط؛ وجوابه جملة: {فهو خير له}؛ وقوله تعالى: {خيرًا} منصوب على أنه مفعول مطلق؛ والتقدير: فمن تطوع تطوّعًا خيرًا؛ أي فمن فعل الطاعة على وجه خير فهو خير له؛ ويحتمل أن تكون {خيرًا} مفعولًا لأجله؛ والمعنى: فمن تطوع يريد خيرًا؛ والمراد على كلا التقديرين واحد؛ يعني: فمن فعل الطاعة يقصد بها الخير فهو خير له؛ ومعلوم أن الفعل لا يكون طاعة إلا إذا كان موافقًا لمرضاة الله عز وجل بأن يكون خالصًا لوجهه موافقًا لشريعته؛ فإن لم يكن خالصًا لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ وإن كان خالصًا على غير الشريعة لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ لأن الأول شرك؛ والثاني بدعة.

لقد قالهما، أي: ذكر المرضع والحُبْلى. فيا لهف نفسي: قاله تحسراً على ما فاته من الأكل.

١- (قلت): جزا الله الإمام الألباني خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته مع اخوانه العلماء. والله لقد أزال عني إشكالاً حيّرني عشر سنوات كاملة لم أجد في جميع الكتب والتفاسير التي اطّلعت عليه وبحثت فيها عن هذه المسألة ما يطمئن به قلبي، إلى أن قرأت جمعه المبارك لجميع ما ورد عن ابن عباس ﷺ من آثار، ولله الحمد والمنة.

{فهو خير له}: اختلف في {خير} هل نقول: هي للتفضيل؛ أي خير له من سواه؛ أو نقول: إن {خير} اسم دالّ على مجرَّد الخيرية بدون مفضَّل، ومفضَّل عليه – وهذا هو الأقرب – ويكون المراد أن من تطوع بالفدية فهو خير له؛ ومطابقة هذا المعنى لظاهر الآية واضح.

{وأن تصوموا خير لكم}: المراد بالخير هنا التفضيل؛ يعني أن تصوموا خير لكم من الفدية؛ وهذا يمثل به النحويون للمبتدأ المؤول: فإن قوله تعالى: {أن تصوموا} فعل مضارع مسبوك مع أن المصدرية بمصدر؛ والتقدير: صومكم خير لكم – يعني من الفدية.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣١ص٢٥٠: وَقَدْ ثَبَتَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ – وَهُوَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ – أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَوْجَبَ رَمَضَانَ كَانَ الْمُقِيمُ مُخَيَّرًا بَيْنَ الصَّوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يُطْعِمَ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِينًا. فَكَانَ الْوَاجِبُ هُوَ إطْعَامُ الْمِسْكِينِ، وَنَدَبَ سُبْحَانَهُ إلَى إطْعَامِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ} ثُمَّ قَالَ: {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ} فَلَمَّا كَانُوا مُخَيَّرِينَ كَانُوا عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: أَعْلَاهَا الصَّوْمُ، وَيَلِيهِ أَنْ يُطْعِمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ مِسْكِينٍ، وَأَدْنَاهَا أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى إطْعَامِ مِسْكِينٍ. ثُمَّ إنَّ اللَّهَ حَتَّمَ الصَّوْمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَسْقَطَ التَّخْيِيرَ فِي الثَّلَاثَةِ.

قال القرطبي: واختلف من أوجب الفدية على من ذكر في مقدارها، فقال مالك: مُدّ بمدّ النبي ﷺ عن كل يوم أفطره، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: كفارة كل يوم صاع تمر أو نصف صاع بر. وروي عن ابن عباس نصف صاع من حنطة، ذكره الدار قطني. وروي عن أبي هريرة قال: من أدركه الكبر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكل يوم مُدّ من قمح[١]. وروي عن أنس بن مالك أنه ضعف عن الصوم عامًا فصنع جفنة من طعام ثم دعا بثلاثين مسكينًا فأشبعهم.

قال ابن العثيمين: {إن كنتم تعلمون}؛ هذه جملة مستأنفة؛ والمعنى: إن كنتم من ذوي العلم فافهموا؛ و{إن} ليست شرطية فيما قبلها – يعني ليست وصلية – كما يقولون؛ لأنه ليس المعنى: خيرًا لنا إن علمنا؛ فإن لم نعلم فليس خيرًا لنا؛ بل هو مستأنف؛ ولهذا ينبغي أن نقف على قوله تعالى: {خير لكم}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن الصوم أيّامه قليلة؛ لقوله تعالى: {أيّامًا معدودات}.

٢– التعبير بكلمات يكون بها تهوين الأمر على المخاطب؛ لقوله تعالى: {أيّامًا معدودات}.

١– (قلت): الراجح والله أعلم نصف صاع من أي طعام كان. أنظر الفائدة رقم (١٥).

٣- رحمة الله عز وجل بعباده؛ لقلَّة الأيام التي فرض عليهم صيامها.

٤- أن المشقَّة تجلب التيسير؛ لقوله تعالى: {فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر}؛ لأن المرض، والسفر مظنة المشقة.

٥- جواز الفطر للمرض؛ ولكن هل المراد مطلق المرض - وإن لم يكن في الصوم مشقَّة عليه؛ أو المراد المرض الذي يشقُّ معه الصوم، أو يتأخر معه البرء؟ الظاهر الثاني؛ وهو مذهب الجمهور؛ لأنه لا وجه لإباحة الفطر بمرض لا يشقّ معه الصوم، أو لا يتأخر معه البرء؛ هذا وللمريض حالات:

الأولى: أن لا يضره الصوم، ولا يشقَّ عليه؛ فلا رخصة له في الفطر([١]).

الثانية: أن يشق عليه، ولا يضره؛ فالصوم في حقه مكروه؛ لأنه لا ينبغي العدول عن رخصة الله.

الثالثة: أن يضره الصوم؛ فالصوم في حقه محرم؛ لقوله تعالى: {ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا}[النساء: ٢٩].

٦- جواز الفطر في السفر؛ لقوله تعالى: {أو على سفر فعدة من أيام أخر}؛ وللمسافر باعتبار صومه في سفره حالات ثلاث:

الأولى: أن لا يكون فيه مشقّة إطلاقًا؛ يعني: ليس فيه مشقَة تزيد على صوم الحضر؛ ففي هذه الحال الصوم أفضل؛ وإن أفطر فلا حرج؛ ودليله أن الرسول ﷺ كان يصوم في السفر، كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ((خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدَّة الحر؛ وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة([٢])))؛ ولأن الصوم في السفر أسرع في إبراء ذمته؛ ولأنه أسهل عليه غالبًا لكون الناس مشاركين له، وثقل القضاء غالبًا؛ ولأنه يصادف شهر الصوم - وهو رمضان.

الحال الثانية: أن يشقّ عليه الصوم مشقّة غير شديدة؛ فهنا الأفضل الفطر؛ والدليل عليه أن النبي ﷺ كان في سفر، فرأى زحامًا، ورجلًا قد ظلّل عليه، فسأل عنه، فقالوا: صائم؛ فقال ﷺ: ((ليس من البر الصيام في السفر([٣])))؛ فنفى النبي ﷺ البرّ عن الصوم في السفر.

١- (قلت): هذا الحكم يحتاج الى دليل. بل له أن يفطر وليس عليه حرج. ولكن الصوم في حقه أفضل كالمسافر سفرًا ليس فيه مشقة. أنظر كلام البخاري فيما سبق عند تفسير قوله تعالى {فمن كان مريضًا}.

٢- أخرجه البخاري ص١٥٢، كتاب الصوم، باب ٣٥: حديث رقم ١٩٤٥، وأخرجه مسلم ص٨٥٨، كتاب الصيام، باب ١٧: التخيير في الصوم والفطر في السفر ٢٦٣٠) [١٠٨] ١١٢٢).

٣- أخرجه البخاري ص١٥٢، كتاب الصوم، باب ٣٦: قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر: "ليس من البر الصيام في السفر، حديث رقم ١٩٤٦، أخرجه مسلم ٨٥٦ - ٨٥٧، كتاب الصيام، باب ١٥: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية ... ، حديث رقم ٢٦١٢ [٩٢] ١١١٥.

فإن قيل: إن من المتقرر في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ وهذا يقتضي نفي البر عن الصوم في السفر مطلقًا؟.

فالجواب: أن معنى قولنا: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) يعني أن الحكم لا يختص بعين الذي ورد من أجله؛ وإنما يعم من كان مثل حاله؛ وقد نص على هذه القاعدة ابن دقيق العيد في شرح الحديث في العمدة؛ وهو واضح.

الحال الثالثة: أن يشق الصوم على المسافر مشقة شديدة؛ فهنا يتعين الفطر؛ ودليله: ما ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ كان في سفر، فشكي إليه أن الناس قد شق عليهم الصيام وإنهم ينتظرون ما يفعل؛ فدعا بماء بعد العصر، فشربه، والناس ينظرون؛ ثم جيء إلى النبي ﷺ، وقيل له: إن بعض الناس قد صام فقال ﷺ: ((أولئك العصاة! أولئك العصاة!([1])))؛ والمعصية لا تكون إلا في فعل محرَّم؛ أو ترك واجب.

٧- أن السفر الذي يباح فيه الفطر غير مقيَّد بزمن ولا مسافة؛ لإطلاق السفر في الآية؛ وعلى هذا يرجع فيه إلى العرف: فما عدَّه الناس سفرًا فهو سفر؛ وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن تحديده بزمن أو مسافة يحتاج إلى دليل.

٨- أن المتهيئ للسفر كالخارج فيه ـ وإن كان في بلده؛ فإنه يجوز أن يفطر؛ وكان أنس بن مالك يفعل ذلك ويقول: (السنة([2]))؛ لكن هذا الحديث فيه مقال؛ لكن على رأي من أثبته يقول: الإنسان إذا عزم على سفر أصبح مفطرًا فقالوا: هذا خير من كونه يصوم ثم يفطر لأنه لم يدخل في العبادة أصلًا لكن جمهور أهل العلم على خلاف هذا القول، وعلى خلاف بينهم أيجوز لمن سافر في خلال اليوم أن يفطر؟ الصحيح أنه يجوز لدلالة السنة على ذلك.

٩- أن الظاهرية استدلوا بها على أن من صام في السفر لم يجزئه؛ لقوله تعالى: {فعدة من أيام أخر}، فأوجب الله سبحانه وتعالى على المريض، والمسافر عدة من أيام أخر؛ فمن صام وهو مريض، أو مسافر صار كمن صام قبل دخول رمضان، وقالوا: (إن الآية ليست فيها شيء محذوف)؛ وهذا القول لولا أن السنة بينت جواز الصوم لكان له وجه قوي؛ لأن الأصل عدم الحذف؛ لكن أجاب الجمهور عن هذا بأن الحذف متعيّن، وتقدير الكلام: فمن كان مريضًا، أو على سفر فأفطر

١- أخرجه مسلم ص٨٥٦، كتاب الصيام، باب ١٥: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، حديث رقم ٢٦١٠ [٩٠] ١١١٤؛ ٢٦١٠ [٩١] ١١١٤.

٢- أخرجه الترمذي ص١٧٢٦، كتاب الصوم، باب ٧٦: ما جاء فيمن أكل ثم خرج يريد سفرًا، حديث رقم ٧٩٩، ٨٠٠، وفي الحديث الأول عبد الله بن جعفر بن نجيح المديني البصري؛ قال الحافظ في التقريب: (ضعيف)؛ لكن تابعه محمد بن جعفر بن أبي كثير في الحديث الثاني؛ قال الترمذي: (وهو مديني ثقة) (جامع الترمذي ص١٧٢٦، كتاب الصوم، باب ٧٦: ما جاء فيمن أكل ... ، حديث رقم ٨٠٠)؛ وفي الحديثين زيد بن أسلم؛ قال الحافظ في التقريب: (ثقة عالم كان يرسل)، ولكنه صرح بالتحديث في حديث رقم ٨٠٠؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي في حديث رقم ٧٩٩: (صحيح) (١/٢٤٠، حديث رقم ٦٤١ – ٨٠٣)؛ وذكر الحديث الثاني في صحيح الترمذي، ولم يعلق عليه (المرجع السابق، حديث رقم ٦٤٢ – ٨٠٤)؛ وقال عبد القادر الأرناؤوط: (إسناده حسن) (جامع الأصول ٦/٤١٢، حاشية رقم ١).

فعليه عدَّة من أيّام أخر؛ لأن النبي ﷺ صام في رمضان في السفر والصحابة معه منهم الصائم، ومنهم المفطر، ولم يعب أحد على أحد([١])؛ ولو كان الصوم حرامًا ما صامه النبي ﷺ، ولأنكر المفطر على الصائم.

١٠- أنه لو صام عن أيام الصيف أيّام الشتاء فإنه يجزئ؛ لقوله تعالى: {فعدة من أيام أخر} وجهه: أن {أيام} نكرة.

١١- حكمة الله سبحانه وتعالى في التدرج بالتشريع، حيث كان الصيام أول الأمر يخير فيه الإنسان بين أن يصوم، ويطعم؛ ثم تعيَّن الصيام كما يدلُّ على ذلك حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه([٢]).

١٢- أن من عجز عن الصيام عجزًا لا يرجى زواله فإنه يطعم عن كل يوم مسكينًا؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى جعل الإطعام عديلًا للصيام حين التخيير بينهما؛ فإذا تعذر الصيام وجب عديله؛ ولهذا ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية في الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يطيقان الصيام، فيطعمان عن كل يوم مسكينًا([٣]).

١٣ ـ أنه يرجع في الإطعام في كيفيته ونوعه إلى العرف؛ لأن الله تعالى أطلق ذلك؛ والحكم المطلق إذا لم يكن له حقيقة شرعية يرجع فيه إلى العرف.

١٤ ـ أنه لا فرق بين أن يملك الفقير ما يطعمه، أو يجعله غداء، أو عشاء؛ لأن الكل إطعام؛ وكان أنس بن مالك حين كبر يطعم أدمًا وخبزًا([٤]).

١٥ ـ أن ظاهر الآية لا يشترط تمليك الفقير ما يطعم؛ وهو القول الراجح؛ وقال بعض أهل العلم: إنه يشترط تمليكه؛ فيعطى مُدًّا من البر؛ أو نصف صاع من غيره؛ وقيل: يعطى نصف صاع من البر وغيره؛ واستدلَّ القائلون بالفرق بين البر وغيره بما قاله معاوية في زكاة الفطر: (أرى المد من هذه – يعني البر – يعدل مدين من الشعير([٥])) فعدل به الناس، وجعلوا الفطرة من البر نصف صاع([٦])؛ واستدل القائلون بوجوب نصف صاع من البر، وغيره بحديث كعب بن عجرة رضي الله عنه حين أذن له النبي ﷺ بحلق رأسه وهو محرَّم أن النبي ﷺ قال له مبيِّنا المجمل في قوله تعالى: {ففدية من صيام أو

١- راجع مسلما ص٨٥٦، كتاب الصيام، باب ١٥: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر ... ، حديث رقم ٢٦١٨ [٩٦] ١١١٦.

٢- (قلت): والحديث هو: ((أنه أول ما كتب الصيام كان الإنسان مخيرًا بين أن يصوم؛ أو يفطر، ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعده {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ... })).

٣- أخرجه البخاري ص٣٦٩، كتاب التفسير، باب ٢٤: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ...)، حديث رقم ٤٥٠٥.

٤- ذكره البخاري معلقا بصيغة الجزم ص٣٦٩، كتاب التفسير، باب ٢٦: قوله تعالى: (أيامًا معدودات فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر ...).

٥- راجع البخاري ص١١٩، كتاب الزكاة، باب ٧٥: صاع من زبيب، حديث رقم ١٥٠٨؛ ومسلما ص٨٣٣، كتاب الزكاة، باب ٤: زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، حديث رقم ٢٢٨٥ [١٩] ٩٨٥، واللفظ للبخاري.

٦- راجع البخاري ص١١٩، كتاب الزكاة، باب ٧٤: صدقة الفطر صاعًا من تمر، حديث رقم ١٥٠٧.

صدقة أو نسك}[البقرة: ١٩٦]، فقال في الصدقة: ((أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع[١]))؛ ولم يفرّق النبي ﷺ بين طعام وآخر.

١٦- أن طاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ كلها خير؛ لقوله تعالى: {فمن تطوع خيرًا فهو خير له}.

١٧- ثبوت تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: {وأن تصوموا خير لكم}؛ وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ فينبني على ذلك أن الناس يتفاضلون في الأعمال؛ وهو ما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف والواقع؛ قال الله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلًّا وعد الله الحسنى}[الحديد: ١٠]، وقال تعالى: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلًّا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا * درجات منه ومغفرة ورحمة}[النساء: ٩٥، ٩٦]؛ والنصوص في هذا كثيرة.

١٨- التنبيه على فضل العلم؛ لقوله تعالى: {إن كنتم تعلمون}.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

قال ابن العثيمين: {شهر رمضان}؛ الشهر هو مدة ما بين الهلالين؛ وسمّي بذلك لاشتهاره؛ ولهذا اختلف العلماء هل الهلال ما هل في الأفق – وإن لم ير؛ أم الهلال ما رئي واشتهر؛ والصواب الثاني، وأن مجرَّد طلوعه في الأفق لا يترتَّب عليه حكم شرعي – حتى يُرى ويتبيَّن ويشهد إلّا أن يكون هناك مانع من غيم أو نحوه؛ و{شهر} مضاف؛ و{رمضان} مضاف إليه ممنوع من الصرف بسبب العلمية وزيادة الألف والنون؛ مأخوذ من الرمض؛ واختلف لماذا سمَّي برمضان؛ فقيل: لأنه يرمض الذنوب – أي يحرقها؛ وقيل: لأنه أول ما سمِّيت الشهور بأسمائها صادف أنه في وقت الحر والرمضاء؛ فسمِّي شهر رمضان؛ وهذا أقرب؛ لأن هذه التسمية كانت قبل الإسلام.

وقوله تعالى: {شهر رمضان}: خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هي – أي الأيام المعدودات – شهر رمضان.

١- أخرجه البخاري ص١٤٢، كتاب الحج، باب ٧: الإطعام في الفدية نصف صاع حديث رقم ١٨١٦؛ وأخرجه مسلم ص٨٧٤، كتاب الحج، باب ١٠: جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ... ، حديث رقم ٢٨٧ [٨٠]٧ ١٢٠١.

قال القرطبي: والرمضاء ممدودة: شدَّة الحر، ومنه الحديث: ((صلاة الأوّابين[١]إذا رمضت الفصال[٢])). خرَّجه مسلم. ورمض الفصال أن تحرق الرمضاء أخفافها فتبرك من شدَّة حرها. فرمضان - فيما ذكروا - وافق شدَّة الحر، فهو مأخوذ من الرمضاء. فرض اللّه صيام شهر رمضان أي مدَّة هلاله، وبه سمّي الشهر، كما جاء في الحديث: ((فإن غمي عليكم الشهر)) أي: الهلال. وفرض علينا عند غمة الهلال إكمال عدة شعبان ثلاثين يومًا، وإكمال عدة رمضان ثلاثين يومًا، حتى ندخل في العبادة بيقين ونخرج عنها بيقين، فقال في كتابه {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}[النحل: ٤٤]. وروى الأئمة الإثبات عن النبي ﷺ قال: ((صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمَّ عليكم فاكملوا العدد[٣]))، في رواية ((فإن غمّي عليكم الشهر فعدوا ثلاثين[٤])).

واختلف مالك والشافعي هل يثبت هلال رمضان. بشهادة واحد أو شاهدين، فقال مالك: لا يقبل فيه شهادة الواحد لأنها شهادة على هلال فلا يقبل فيها أقل من اثنين، أصله الشهادة على هلال شوال وذي الحجة. وقال الشافعي وأبو حنيفة: يقبل الواحد، لما رواه أبو داود عن ابن عمر قال: تراءى الناس الهلال فأخبرت به رسول اللّه ﷺ أني رأيته، فصام وأمر الناس بصيامه. وأخرجه الدار قطني وقال: تفرَّد به مروان بن محمد عن ابن وهب وهو ثقة. روى الدار قطني أن رجلًا شهد عند علي بن أبي طالب على رؤية هلال رمضان فصام، أحسبه قال: وأمر الناس أن يصوموا، وقال: أصوم يومًا من شعبان أحب إلي من أن أفطر يومًا من رمضان. قال الشافعي: فإن لم تر العامة هلال شهر رمضان ورآه رجل عدل رأيت أن أقبله للأثر والاحتياط. واختلفوا فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوال.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٥ص١١٤: إذَا رَأَى هِلَالَ الصَّوْمِ وَحْدَهُ، أَوْ هِلَالَ الْفِطْرِ وَحْدَهُ، فَهَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ بِرُؤْيَةِ نَفْسِهِ؟ أَوْ يُفْطِرَ بِرُؤْيَةِ نَفْسِهِ؟ أَمْ لَا يَصُومُ وَلَا يُفْطِرُ إلَّا مَعَ النَّاسِ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، هِيَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ عَنْ أَحْمَد:

أَحَدُهَا: أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ وَأَنْ يُفْطِرَ سِرًّا، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.

وَالثَّانِي: يَصُومُ وَلَا يُفْطِرُ إلَّا مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَد وَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ.

١- هي الصلاة التي سنها رسول الله ﷺ في وقت الضحى.

٢- (قلت): مسلم (٧٤٨).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الأوابين)): الأواب المطيع، وقيل: الراجع إلى الطاعة، (ترمض): يقال: رمض يرمض، كعلم يعلم، والرمضاء الرمل الذي اشتدت حرارته بالشمس، أي: حين تحترق أخفاف الفصال، وهي الصغار من أولاد الإبل جمع فصيل، وذلك من شدة حر الرمل.

٣- (قلت): مسلم (١٠٨١/ ١٨). ولكن بلفظ: ((غمّي))، بدلًا من (غمَّ)).

٤- (قلت): متفق عليه: البخاري (١٩٠٩)، بلفظ ((غبي))، ومسلم (١٠٨١/ ١٩).

وَالثَّالِثُ: يَصُومُ مَعَ النَّاسِ، وَيُفْطِرُ مَعَ النَّاسِ، وَهَذَا أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تُضَحُّونَ([١]))، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَابْنِ مَاجه، وَذَكَرَ الْفِطْرَ وَالْأَضْحَى فَقَطْ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ المقبري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ وَالْفِطْرُ يَوْمَ تُفْطِرُونَ وَالْأَضْحَى يَوْمَ تُضَحُّونَ([٢]))، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ قَالَ: وَفَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ: إنَّمَا مَعْنَى هَذَا الصَّوْمُ وَالْفِطْرُ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَعُظْمِ النَّاسِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد بِإِسْنَادِ آخَرَ: فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ مِنْ حَدِيثِ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ فِيهِ فَقَالَ: ((وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ، وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تُضَحُّونَ، وَكُلُّ عَرَفَةَ مَوْقِفٌ، وَكُلُّ مِنًى مَنْحَرٌ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ، وَكُلُّ جَمْعٍ مَوْقِفٌ([٣]))).

وَلِأَنَّهُ لَوْ رَأَى هِلَالَ النَّحْرِ لَمَا اُشْتُهِرَ، وَالْهِلَالُ اسْمٌ لِمَا اُسْتُهِلَّ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْهِلَالَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ إذَا اسْتَهَلَّ بِهِ النَّاسُ، وَالشَّهْرُ بَيِّنٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هِلَالًا وَلَا شَهْرًا.

وَأَصْلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ اللَّهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَلَّقَ أَحْكَامًا شَرْعِيَّةً بِمُسَمَّى الْهِلَالِ وَالشَّهْرِ، كَالصَّوْمِ وَالْفِطْرِ وَالنَّحْرِ، فَقَالَ تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}[البقرة: ١٨٩]. فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْأَهِلَّةَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ.

قَالَ تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} إلَى قَوْلِهِ: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ} أَنَّهُ أَوْجَبَ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنَّ الَّذِي تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ: أَنَّ الْهِلَالَ هَلْ هُوَ اسْمٌ لِمَا يَظْهَرُ فِي السَّمَاءِ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ النَّاسُ وَبِهِ يَدْخُلُ الشَّهْرُ؟ أَوْ الْهِلَالُ اسْمٌ لِمَا يَسْتَهِلُّ بِهِ النَّاسُ، وَالشَّهْرُ لِمَا اشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ:

فَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ يَقُولُ: مَنْ رَأَى الْهِلَالَ وَحْدَهُ فَقَدْ دَخَلَ مِيقَاتُ الصَّوْمِ، وَدَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فِي حَقِّهِ، وَتِلْكَ اللَّيْلَةُ هِيَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ غَيْرُهُ.

١– أبو داود في الصيام (٢٣٢٤)، والترمذي في الصوم (٦٩٧) وقال: ((حسن غريب)). وابن ماجه في الصيام (١٦٦٠)، والبيهقي في الكبرى في صلاة العيدين ٣/٣١٧، والدار قطني في سننه في الصيام ٢/١٦٤ كلهم عن أبي هريرة.

– (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٩٠٥).

٢– الترمذي في الصيام (٦٩٧).

– (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل (٩٠٥): وإسناده حسن، رجاله كلهم ثقات معروفون، وفى عثمان بن محمد وهو ابن المغيرة بن الأخنس كلام يسير لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن.

٣– أبو داود في الصيام (٢٣٢٤).

– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود – الأم (٢٠١٣): بقوله: (قلت: حديث صحيح، وصححه الترمذي).

وَيَقُولُ مَنْ لَمْ يَرَهُ إذَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ كَانَ طَالِعًا قَضَى الصَّوْمَ، وَهَذَا هُوَ الْقِيَاسُ فِي شَهْرِ الْفِطْرِ، وَفِي شَهْرِ النَّحْرِ، لَكِنَّ شَهْرَ النَّحْرِ مَا عَلِمْت أَنَّ أَحَدًا قَالَ: مَنْ رَآهُ يَقِفُ وَحْدَهُ، دُونَ سَائِرِ الْحَاجِّ، وَأَنَّهُ يَنْحَرُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، وَيَرْمِي جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، وَيَتَحَلَّلُ دُونَ سَائِرِ الْحَاجِّ، وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي الفِطْرِ، فَالْأَكْثَرُونَ أَلْحَقُوهُ بِالنَّحْرِ، وَقَالُوا: لَا يُفْطِرُ إلَّا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَآخَرُونَ قَالُوا: بَلْ الْفِطْرُ كَالصَّوْمِ، وَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ الْعِبَادَ بِصَوْمِ وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَتَنَاقُضُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّحِيحَ هُوَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي ذِي الْحِجَّةِ.

وَحِينَئِذٍ، فَشَرْطُ كَوْنِهِ هِلَالًا وَشَهْرًا شُهْرَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ. وَاسْتِهْلَالُ النَّاسِ بِهِ حَتَّى لَوْ رَآهُ عَشَرَةٌ، وَلَمْ يَشْتَهِرْ ذَلِكَ عِنْدَ عَامَّةِ أَهْلِ الْبَلَدِ؛ لِكَوْنِ شَهَادَتِهِمْ مَرْدُودَةً، أَوْ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يَشْهَدُوا بِهِ، كَانَ حُكْمُهُمْ حُكْمَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَمَا لَا يَقِفُونَ وَلَا يَنْحَرُونَ وَلَا يُصَلُّونَ الْعِيدَ إلَّا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَذَلِكَ لَا يَصُومُونَ إلَّا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ((صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تُضَحُّونَ))؛ وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَد فِي رِوَايَتِهِ: يَصُومُ مَعَ الْإِمَامِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الصَّحْوِ وَالْغَيْمِ. قَالَ أَحْمَد: يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ.

وَعَلَى هَذَا تَفْتَرِقُ أَحْكَامُ الشَّهْرِ: هَلْ هُوَ شَهْرٌ فِي حَقِّ أَهْلِ الْبَلَدِ كُلِّهِمْ؟ أَوْ لَيْسَ شَهْرًا فِي حَقِّهِمْ كُلِّهِمْ؟ يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}، فَإِنَّمَا أَمَرَ بِالصَّوْمِ مَنْ شَهِدَ الشَّهْرَ، وَالشُّهُودُ لَا يَكُونُ إلَّا لِشَهْرٍ اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ، حَتَّى يُتَصَوَّرَ شُهُودُهُ، وَالْغَيْبَةُ عَنْهُ.

وقول النَّبِيِّ ﷺ: ((إذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا [١]))، ((وَصُومُوا مِنْ الْوَضَحِ إلَى الْوَضَحِ[٢]))، وَنَحْوُ ذَلِكَ خِطَابٌ لِلْجَمَاعَةِ، لَكِنْ مَنْ كَانَ فِي مَكَانٍ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُهُ، إذَا رَآهُ صَامَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ، وَعَلَى هَذَا، فَلَوْ أَفْطَرَ ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّهُ رُئِيَ فِي مَكَانٍ آخَرَ؛ أَوْ ثَبَتَ نِصْفَ النَّهَارِ، لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ، وَهَذَا إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد، فَإِنَّهُ إنَّمَا صَارَ شَهْرًا فِي حَقِّهِمْ مِنْ حِينِ ظَهَرَ، وَاشْتَهَرَ، وَمِنْ حِينَئِذٍ وَجَبَ الْإِمْسَاكُ كَأَهْلِ عَاشُورَاءَ، الَّذِينَ أُمِرُوا بِالصَّوْمِ فِي أَثْنَاءِ الْيَوْمِ، وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِالْقَضَاءِ عَلَى الصَّحِيحِ، وَحَدِيثُ الْقَضَاءِ ضَعِيفٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة:

((أذِّن في قومك أو في الناس يوم عاشوراء: من كان أكل فليصم بقية يومه إلى الليل، ومن لم يكن أكل فليصم)).

ورد من حديث سلمة بن الأكوع والربيع بنت معوذ ومحمد بن صيفي وهند بن أسماء وأبي هريرة وعبد الله بن عباس ورجال لم يُسَمُّوا من أسلم ومعبد القرشي ومحمد بن سيرين مرسلًا.

١- البخاري في الصوم (١٩٠٠)، ومسلم في الصيام (٨/١٠٨٠) كلاهما عن ابن عمر.

٢- الطبراني في الكبير ١٩٠/١، والخطيب في تاريخ بغداد ٣٦٠/١٢، ٣٦١، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦١/٣ وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط وفيه سالم بن عبيدالله بن سالم ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله موثقون.

١- أمّا حديث سلمة، فقال أحمد (٤ / ٥٠): حدثنا يحيى بن سعيد عن يزيد بن عبيد قال: حدثنا سلمة بن الأكوع أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أسلم: فذكره. وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الشيخين، ويحيى بن سعيد هو القطان ومن طريقه أخرجه البخاري (١٣ / ٢٠٥ - ٢٠٦)، والنسائي (١ / ٣١٩)، وفي (الكبرى) (ق ٢٢ / ١)، وابن خزيمة (٢٠٩٢)، ثم أخرجه البخاري (٤ / ١١٣ - ١١٤ و ٢٠١)، ومسلم (٣ / ١٥١ - ١٥٢)، والدارمي (٢ / ٢٢)، والبيهقي (٤ / ٢٢٠ و ٢٨٨)، وأحمد (٤ / ٤٧، ٤٨)، وابن حبان (٥ / ٢٥٢ /٣٦١٠)، من طرق أخرى عن يزيد بن عبيد به. وإسناد أحمد والدارمي والبخاري ثلاثي أيضا والزيادة الأولى لأحمد، والأخرى لمسلم.

٢- وأما حديث الربيع، فقالت: أرسل رسول الله ﷺ صبيحة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: ((من كان أصبح صائمًا فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطرًا فليتم بقية يومه)). قالت: فكنّا نصومه بعد ذلك، ونُصَوِّم صبياننا الصغار، ونجعل لهم اللعبة من العهن ونذهب بهم إلى المسجد، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذلك حتى يكون عند الإفطار. أخرجه البخاري (٤ / ١٦٣)، ومسلم (٣ / ١٥٢)، وابن خزيمة (٢٠٨٨)، والطحاوي (١ / ٣٣٦)، وابن حبان (٣٦١١)، والبيهقي (٤ / ٢٨٨)، وأحمد (٦ / ٣٥٩).

٣- وأما حديث محمد بن صيفي، فقال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم عاشوراء: ((أمنكم أحد طعم اليوم؟))، فقلنا: منّا من طعم، ومنّا من لم يطعم. قال: فقال: ((فأتمُّوا بقية يومكم من كان طعم ومن لم يطعم، وأرسلوا إلى أهل العروض فليتموا بقية يومهم)). يعني أهل العروض حول المدينة.

أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف) (٣ / ٥٤ - ٥٥)، وعنه ابن ماجه (١ / ٥٢٨ -٥٢٩)، وابن خزيمة (٢٠٩١)، وابن حبان (٩٣٢ - موارد)، وأحمد (٤ / ٤٨٨)، من طريق حصين عن الشعبي عنه. قلت: وهذا إسناد صحيح كما قال البوصيري في (الزوائد) (١١٠ / ١).

٤- وأما حديث هند بن أسماء، فيرويه محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد عن حبيب بن هند بن أسماء الأسلمي عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي من أسلم فقال: ((مر قومك فليصوموا هذا اليوم يوم عاشوراء، فمن وجدته منهم قد أكل في أول يومه فليصم آخره)).

أخرجه أحمد (٣ / ٤٨٤)، والطحاوي (١ / ٣٣٥ - ٣٣٦).

قلت: وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات معروفون، غير حبيب بن هند، ترجمه ابن أبي حاتم (١/ ٢ / ١١٠) برواية ثقتين آخرين عنه، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، وذكره ابن حبان في (الثقات) (٣ / ٣٨ - هندية). وفي رواية لأحمد من طريق عبدالرحمن بن حرملة عن يحيى بن هند بن حارثة - وكان هند من أصحاب الحديبية - وأخوه الذي بعثه رسول الله ﷺ يأمر قومه بصيام عاشوراء - وهو أسماء بن حارثة - فحدثني يحيى بن هند عن أسماء بن حارثة أن رسول الله ﷺ

بعثه، فقال: ((مر قومك بصيام هذا اليوم ...)) الحديث نحوه. لكن يحيى بن هند هذا لا يعرف إلا برواية ابن حرملة هذا، وبها ذكره ابن أبي حاتم (٤ /٢ / ١٩٤ – ١٩٥)، ولم يحك فيه جرحًا ولا تعديلًا، وأما ابن حبان فأورده أيضًا في (الثقات) (٣ / ٢٨٧). وقال في ترجمة حبيب بن هند بن أسماء المتقدم: (كأنهما أخوان إن شاء الله). وقال الحافظ في التوفيق بين روايتيهما: قلت: فيحتمل أن يكون كل من أسماء وولده هند أرسلا بذلك، ويحتمل أن يكون أطلق في الرواية الأولى على الجد اسم الأب، فيكون الحديث من رواية حبيب بن هند عن جد أسماء، فَتَتَّحد الروايتان. والله أعلم.

قلت: التوفيق فرع التصحيح، وما أرى أن الرواية الأخرى ثابتة، لما عرفت من حال راويها يحيى بن هند. والله أعلم.

ثم رأيت رواية سعيد بن حرملة في (صحيح ابن حبان) (٥ / ٢٥٢ / ٣٦٠٩ – الإحسان) من طريق سهل بن بكار قال: حدثنا وهيب عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب عن أسماء بن حارثة به. وهذا سند جيِّد يدلُّ على أن له أصلًا عن أسماء، ولعل ابن حرملة كان له عنه إسنادان، فتارة يرويه عن يحيى بن هند، وتارة عن ابن المسيب.. والله أعلم.

٥- وأما حديث أبي هريرة فيرويه حبيب بن عبد الله عن شبيل عنه قال: كان النبي ﷺ صائمًا يوم عاشوراء فقال لأصحابه: ((من كان أصبح منكم صائمًا فليتم صومه، ومن كان أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه)). أخرجه أحمد (٢ / ٣٥٩). ورجاله موثقون غير حبيب بنعبد الله وهو الأزدي اليحمدي، وهو مجهول.

٦- وأما حديث ابن عباس فيرويه جابر عن عكرمة عنه قال: ((أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل قرية على رأس أربعة فراسخ – أو قال فرسخين – يوم عاشوراء فأمر من أكل أن لا يأكل بقية يومه، ومن لم يأكل أن يتم صومه)). أخرجه أحمد (١ / ٢٣٢). وجابر هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف.

٧- وأما حديث الرجال الأسلميين، فيرويه ابن شهاب عن ابن سندر عن رجال منهم من أسلم أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أسلم: ... فذكره نحو الحديث الأول. أخرجه النسائي في (الكبرى) (٣٨/ ١): أخبرنا أحمد بن إبراهيم قال: حدثنا يزيد – يعني – بن موهب قال: حدثني الليث عن عقيل عن ابن شهاب. وهذا إسناد رجاله ثقات غير ابن سندر، وقد جزم الحافظ في (باب من نسب إلى أبيه ...) من (التقريب) أنه عبد الله. ثم لم يترجم له في الأسماء، وهو تابع في ذلك لابن أبي حاتم، فقد قال في (الجرح والتعديل) (٢ / ١ / ٣٢٠): (سندر أبو الأسود، له صحبة، روى عنه عبد الله بن سندر). والشطر الأول منه في (التاريخ) للبخاري (٢ / ٢ / ٢١٠) وزاد: (كناه عثمان بن صالح، وروى الزهري عن سندر بن أبي سندر عن أبيه). ونقله هكذا في (الإصابة)، وذكر فيه أن له ابنًا آخر يدعى مسروحا. ويزيد بن موهب هو ابن خالد بن يزيد بن عبد الله بن موهب الرملي. وأحمد بن إبراهيم هو أبو عبد الملك القرشي البسري الدمشقي. وقد خالف معمر عقيلًا فأرسله، أخرجه عبدالرزاق (٧٨٣٤) قال: أخبرنا معمر عن الزهري أن النبي ﷺ لما قدم المدينة قال لرجل من أسلم: فذكره.

٨- وأما حديث معبد القرشي، فقال عبدالرزاق (٧٨٣٥): عن إسرائيل عن سماك ابن حرب عنه قال: كان النبي ﷺ بـ (قديد) فأتاه رجل، فقال له النبي ﷺ: فذكره نحوه. وعن عبد الرزاق أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير) (٢٠ / ٣٤٢ / ٨٠٣).

قلت: وهذا إسناد جيد، وقال الهيثمي في (المجمع) (٣ / ١٨٧): ((رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات)).

٩- وأما مرسل ابن سيرين، فقال ابن أبي شيبة (٣ / ٥٧): حدثنا ابن علية عن أيوب عنه أن النبي ﷺ أمر رجلًا من أسلم يوم عاشوراء ... الحديث وإسناده صحيح مرسل. ورواه عبدالرزاق (٧٨٥٢) عن عطاء مرسلًا. وفي الباب أحاديث أخرى خرجها الهيثمي في (مجمع الزوائد)، فمن شاء المزيد فليرجع إليه، وآخر فيه زيادة منكرة بلفظ: ((فأتمُّوا بقية يومكم واقضوه)). وفي إسناده جهالة، ولذلك خرجته في المجلد الحادي عشر من (الضعيفة) برقم (٥١٩٩) وفي (ضعيف أبي داود) برقم (٤٢٢).

من فقه الحديث: في هذا الحديث فائدتان هامتان:

الأولى: أن صوم يوم عاشوراء كان في أول الأمر فرضًا، وذلك ظاهر في الاهتمام به الوارد فيه، والمتمثل في إعلان الأمر بصيامه، والإمساك عن الطعام لمن كان أكل فيه، وأمره بصيام بقية يومه، فإن صوم التطوع لا يتصوَّر فيه إمساك بعد الفطر كما قال ابن القيم رحمه الله في (تهذيب السنن) (٣ / ٣٢٧). وهناك أحاديث أخرى تؤكد أنه كان فرضًا، وأنه لما فرض صيام شهر رمضان كان هو الفريضة كما في حديث عائشة عند الشيخين وغيرهما، وهو مخرج في (صحيح أبي داود) برقم (٢١١٠).

والأخرى: أن من وجب عليه الصوم نهارًا، كالمجنون يفيق، والصبي يحتلم، والكافر يسلم، وكمن بلغه الخبر بأن هلال رمضان رؤي البارحة، فهؤلاء يجزيهم النية من النهار حين الوجوب، ولو بعد أن أكلوا أو شربوا، فتكون هذه الحالة مستثناة من عموم قوله ﷺ: ((من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له))، وهو حديث صحيح كما حققته في (صحيح أبي داود) (٢١١٨).

وإلى هذا الذي أفاده حديث الترجمة ذهب ابن حزم وابن تيمية والشوكاني وغيرهم من المحققين.

فإن قيل: الحديث ورد في صوم عاشوراء والدعوى أعم.

قلت: نعم، وذلك بجامع الاشتراك في الفريضة، ألست ترى أن الحنفية استدلوا به على جواز صوم رمضان بنية من النهار، مع إمكان النية في الليل طبقًا لحديث أبي داود، فالاستدلال به لما قلنا أولى كما لا يخفى على أولي النهى. ولذلك قال المحقِّق أبو الحسن السندي في حاشيته على (ابن ماجه) (١ / ٥٢٨ - ٥٢٩) ما مختصره: الأحاديث دالَّة على أن صوم يوم عاشوراء كان فرضًا، من جملتها هذا الحديث، فإن هذا الاهتمام يقتضي الافتراض. نعم الافتراض منسوخ

بالاتفاق وشهادة الأحاديث على النسخ. واستدلَّ به على جواز صوم الفرض بنية من النهار، لا يقال صوم عاشوراء منسوخ فلا يصح الاستدلال به. لأنّا نقول: دل الحديث على شيئين:

أحدهما: وجوب صوم عاشوراء.

والثاني: أن الصوم واجب في يوم بنية من نهار، والمنسوخ هو الأول، ولا يلزم من نسخه نسخ الثاني، ولا دليل على نسخه أيضًا.

بقي فيه بحث: وهو أن الحديث يقتضي أن وجوب الصوم عليهم ما كان معلومًا من الليل، وإنما علم من النهار، وحينئذ صار اعتبار النية من النهار في حقهم ضروريًّا، كما إذا شهد الشهود بالهلال يوم الشك، فلا يلزم جواز الصوم بنية من النهار بلا ضرورة. أهـ.

قلت: وهذا هو الحق الذي به تجتمع النصوص، وهو خلاصة ما قال ابن حزم رحمه الله في (المحلّى) (٦ / ١٦٦) وقال عقبه: (وبه قال جماعة من السلف كما روينا من طريق ... عبد الكريم الجزري أن قوما شهدوا على الهلال بعد ما أصبح الناس، فقال عمر بن عبد العزيز: من أكل فليمسك عن الطعام، ومن لم يأكل فليصم بقية يومه). قلت: وأخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف) (٣ / ٦٩) وسنده صحيح على شرط الشيخين. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال في (الاختيارات العلمية) (٤ / ٦٣ – الكردي): (ويصح صوم الفرض بنية النهار إذا لم يعلم وجوبه بالليل، كما إذا قامت البينة بالرؤية في أثناء النهار، فإنه يتم بقية يومه ولا يلزمه قضاء وإن كان أكل). وتبعه على ذلك المحقِّق ابن القيم، والشوكاني، فمن شاء زيادة بيان وتفصيل فليراجع (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (٢٥ / ١٠٩ و ١١٧ – ١١٨) و(زاد المعاد) لابن القيم (١ / ٢٣٥) و(تهذيب السنن) له (٣ / ٣٢٨) و(نيل الأوطار) للشوكاني (٤ / ١٦٧). وإذا تبين ما ذكرنا، فإنه تزول مشكلة كبرى من مشاكل المسلمين اليوم، ألا وهي اختلافهم في إثبات هلال رمضان بسبب اختلاف المطالع، فإن من المعلوم أن الهلال حين يرى في مكان فليس من الممكن أن يرى في كل مكان، كما إذا رؤي في المغرب فإنه لا يمكن أن يرى في المشرق، وإذا كان الراجح عند العلماء أن حديث (صوموا لرؤيته ...) إنما هو على عمومه، وأنه لا يصح تقييده باختلاف المطالع، لأن هذه المطالع غير محدودة ولا معينة، لا شرعًا ولا قدرًا، فالتقييد بمثله لا يصح، وبناء على ذلك فمن الممكن اليوم تبليغ الرؤية إلى كل البلاد الإسلامية بواسطة الإذاعة ونحوها، وحينئذ فعلى كل من بلغته الرؤية أن يصوم، ولو بلغته قبل غروب الشمس بقليل، ولا قضاء عليه، لأنه قد قام بالواجب في حدود استطاعته، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والأمر بالقضاء لم يثبت كما سبقت الإشارة إليه، ونرى أن من الواجب على الحكومات الإسلامية أن يوحّدوا يوم صيامهم ويوم فطرهم، كما يوحّدون يوم حجهم، ولريثما يتفقون على ذلك، فلا نرى

لشعوبهم أن يتفرَّقوا بينهم، فبعضهم يصوم مع دولته، وبعضهم مع الدولة الأخرى، وذلك من باب درء المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى كما هو مقرر في علم الأصول. والله تعالى وليُّ التوفيق.

قال ابن العثيمين: {الذي أنزل فيه القرآن}؛ {الذي} صفة لـ{شهر}؛ فمحلها الرفع؛ و{أنزل فيه القرآن}: أي أنزله الله – سبحانه وتعالى – فيه(١)؛ ومعروف أن النزول يكون من فوق؛ لأن القرآن كلام الله عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى فوق السموات على العرش؛ و{القرآن} مصدر مثل الغفران، والشكران؛ كلها مصادر؛ ولكن هل هو بمعنى اسم الفاعل؛ أو بمعنى اسم المفعول؟ قيل: إنه بمعنى اسم المفعول – أي المقروء؛ وقيل: بمعنى اسم الفاعل – أي القارئ؛ فالمعنى على الأول واضح؛ والمعنى على الثاني: أنه جامع لمعاني الكتب السابقة؛ أو جامع لخيري الدنيا والآخرة؛ ولا يمتنع أن نقول: إنه بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول؛ وهل المراد بـ{القرآن} الجنس، فيشمل بعضه؛ أو المراد به العموم، فيشمل كله؟ قال بعض أهل العلم: إن {أل} للعموم فيشمل كل القرآن؛ وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين المتأخرين؛ وعلى هذا القول يشكل الواقع؛ لأن الواقع أن القرآن نزل في رمضان، وفي شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة ... في جميع الشهور؛ ولكن أجابوا عن ذلك بأنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في رمضان، وصار جبريل يأخذه من هذا البيت، فينزل به على رسول الله ﷺ(٢)؛ لكن هذا الأثر ضعيف؛ ولهذا الصحيح أن {أل} هنا للجنس؛ وليست للعموم(٣)؛ وأن معنى: {أنزل فيه القرآن}: أي ابتدئ فيه إنزاله، كقوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة}[الدخان: ٣]، وقوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة القدر}[القدر: ١] أي ابتدأنا إنزاله.

١– (قلت): كأنه – سبحانه وتعالى – يَرُدُّ على سؤال قد يطرح هنا، وهو: لماذا آختار الله – سبحانه وتعالى – شهر رمضان للصيام دون سائر الشهور؟ فذكر فضله على سائر الشهور بإنزال القرآن فيه. والله أعلم.

٢– أخرجه الحاكم ٢/ ٥٣٠، والبيهقي في دلائل النبوة ٧/٣١ والأسماء والصفات ٣٠٣.

٣– (قلت): بل هذا الأثر صحيح. صححه مصطفى عبدالقادر عطا والشيخ مقبل بن هادي الوادعي في تحقيقيهما لمستدرك الحاكم. وكذلك صححه الإمام الألباني في موسوعة الألباني في العقيدة وحكم برفعه الى رسول الله ﷺ، حيث قال: فهذا حديث موقوف، ولم نجده مرفوعا إطلاقًا، جاء بالسند الصحيح عن ابن عباس موقوفًا عليه، فقال العلماء: إن هذا الحديث في حكم المرفوع؛ لأنه يتحدث عن أمر غيبي، وهو أنه يقول: نزل كلام الله القرآن الكريم جملة واحدة إلى السماء الدنيا ثم أنزل أَنْجُماً، هذا لا يمكن أن يكون إسرائيليًا؛ لأنه يتحدث عن القرآن، ولا يمكن أن يكون بالرأي والاجتهاد؛ لأنه يتحدث عن أمر غيبي، فإذًا له حكم المرفوع. وهذا لا يستطيع العقل البشري أن يتحدث به إلّا من إنسان لا يبالي ما يخرج من فيه، أما ابن عباس وهو صحابي جليل ابن صحابي ابن عم الرسول ﷺ، فلا يخطر في بال إنسان أن يتحدث رجمًا بالغيب.

فإذًا: قوله أن القرآن نزل جملة واحدة .. إلى آخر الحديث، فيه من الدقائق ما يبعد أن يكون هذا الحديث قد قاله بالرأي، فيقول مثلًا بعد أن ذكر نزل جملة واحدة إلى بيت العزة، ما هو بيت العزة؟ وهل يستطيع الإنسان أن يعيِّن مكانًا في السماء ويسمّيه باسم من عنده، هذا أبعد عن أن يكون قد حصل من رأي الصحابي، ثم هو يعيِّن مكان بيت العزة هذا في السماء لا يقول لا السابعة، ولا .. ولا .. وإنما يقول السماء الدنيا. فإذًا: هذا حديث موقوف في حكم المرفوع. أ. هـ.

– (وقلت أيضًا): اذًا أن (أل) هنا للعموم فيشمل كل القرآن. وآنظر كلام شيخ الإسلام بعد كلام ابن العثيمين لأنه يزيل الإشكال بالكلية.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٢ص١٢٦: أَنَّ قَوْلَهُ: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}: يَتَنَاوَلُ نُزُولَ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ. وَقَدْ أَخْبَرَ: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}[الأنعام: ١١٤]، إخْبَاراً مُسْتَشْهِدٍ بِهِمْ لَا مُكَذِّبٍ لَهُمْ. وَقَالَ: إنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَلَمْ يَقُلْ: إنَّهُمْ يَظُنُّونَهُ أَوْ يَقُولُونَهُ، وَالْعِلْمُ لَا يَكُونُ إلَّا حَقًّا مُطَابِقًا لِلْمَعْلُومِ، بِخِلَافِ الْقَوْلِ وَالظَّنِّ الَّذِي يَنْقَسِمُ إلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَعَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ لَا مِنَ الْهَوَاءِ، وَلَا مِنْ اللَّوْحِ، وَلَا مِنْ جِسْمٍ آخَرَ، وَلَا مِنْ جِبْرِيلَ، وَلَا مِنْ مُحَمَّدٍ وَلَا غَيْرِهِمَا، وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَمَنْ لَمْ يُقِرَّ بِذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ الْمُقِرُّونَ بِذَلِكَ خَيْرًا مِنْهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: {إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} أَنَّهُ أَنْزَلَهُ إلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَنْزَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا بِحَسَبِ الْحَوَادِثِ، وَلَا يُنَافِي أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ نُزُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}[البروج : ٢١، ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {إنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ}[الواقعة: ٧٧ – ٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {كَلَّا إنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ}[عبس: ١١ – ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}[الزخرف: ٤]، فَإِنَّ كَوْنَهُ مَكْتُوبًا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَفِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ جِبْرِيلُ نَزَلَ بِهِ مِنَ اللَّهِ، سَوَاءً كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُرْسِلَ بِهِ جِبْرِيلَ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ قَدْ أَنْزَلَهُ مَكْتُوبًا إلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَدْ كَتَبَهُ كُلَّهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزِّلَهُ.

وَاَللَّهُ – تَعَالَى – يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَهُوَ – سُبْحَانَهُ – قَدْ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ، وَكَتَبَ أَعْمَالَ الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهَا، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَرِيحِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ، ثُمَّ إنَّهُ يَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ بِكِتَابَتِهَا بَعْدَ مَا يَعْمَلُونَهَا، فَيُقَابِلُ بِهِ الْكِتَابَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ عَلَى الْوُجُودِ وَالْكِتَابَةَ الْمُتَأَخِّرَةَ عَنْهُ، فَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا تَفَاوُتٌ هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ – وَهُوَ حَقٌّ – فَإِذَا كَانَ مَا يَخْلُقُهُ بَائِنًا مِنْهُ قَدْ كَتَبَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ، فَكَيْفَ يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَكْتُبَ كَلَامَهُ الَّذِي يُرْسِلُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُرْسِلَهُمْ بِهِ.

وَمَنْ قَالَ إنَّ جِبْرِيلَ أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنَ الْكِتَابِ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ اللَّهِ، كَانَ هَذَا بَاطِلًا مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنْ يُقَالَ إنَّ اللَّهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – قَدْ كَتَبَ التَّوْرَاةَ لِمُوسَى بِيَدِهِ، فَبَنُو إسْرَائِيلَ أَخَذُوا كَلَامَ اللَّهِ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ هُوَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فِيهِ، فَإِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَخَذَهُ عَنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ عَنِ الْكِتَابِ كَانَ بَنُو إسْرَائِيلَ أَعْلَى مِنْ مُحَمَّدٍ بِدَرَجَةٍ.

وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: إنَّهُ أَلْقَى إلَى جِبْرِيلَ الْمَعَانِيَ، وَأَنَّ جِبْرِيلَ عَبَّرَ عَنْهَا بِالْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ، فَقَوْلُهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ جِبْرِيلُ أُلْهِمَهُ إلْهَامًا، وَهَذَا الْإِلْهَامُ يَكُونُ لِآحَادِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي}[المائدة:

١١١]، وَقَالَ: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ}[القصص: ٧]، وَقَدْ أَوْحَى إِلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ فَيَكُونُ هَذَا الْوَحْيُ الَّذِي يَكُونُ لِآحَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى مِنْ أَخْذِ مُحَمَّدٍ الْقُرْآنَ عَنْ جِبْرِيلَ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ الَّذِي عَلَّمَهُ لِمُحَمَّدٍ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْوَاحِدِ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ وَلِهَذَا زَعَمَ ابْنُ عَرَبِيٍّ أَنَّ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ: لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُوحِي بِهِ إِلَى الرَّسُولِ. فَجَعَلَ أَخْذَهُ وَأَخْذَ الْمَلَكِ الَّذِي جَاءَ إِلَى الرَّسُولِ مِنْ مَعْدِنٍ وَاحِدٍ، وَادَّعَى أَنَّ أَخْذَهُ عَنْ اللَّهِ أَعْلَى مِنْ أَخْذِ الرَّسُولِ لِلْقُرْآنِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ، وَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ جَنْسِهِ.

قال ابن العثيمين: {هدى للناس}؛ {هدى}: مفعول من أجله؛ أو حال من {القرآن}؛ فإذا كانت مفعولًا من أجله فالمعنى: أنزل لهداية الناس؛ وإذا كانت حالًا فالمعنى: أنزل هاديًا للناس ـ وهذا أقرب؛ و{هدى} من الهداية؛ وهي الدلالة؛ فالقرآن دلالة للناس يستدلون به على ما ينفعهم في دينهم، ودنياهم؛ و{للناس}: أصلها الأناس؛ ومنه قول الشاعر: وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفر منها الأنامل

لكن لكثرة استعمالها حذفت الهمزة تخفيفًا، كما حذفت من (خير) و(شر) اسمي تفضيل؛ والمراد بهم البشر؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، ويستعين به؛ فقوله تعالى: {هدى للناس}: أي كل الناس يهتدون به ـ المؤمن، والكافر ـ الهداية العلمية؛ أما الهداية العملية فإنه هدى للمتقين، كما في أول السورة؛ فهو للمتقين هداية علمية وعملية؛ وللناس عمومًا فهو هداية علمية.

{وبيّنات}: صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: وآيات بيّنات، كما قال تعالى: {بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم}[العنكبوت: ٤٩]؛ والمعنى: أن القرآن اشتمل على الآيات البينات – أي الواضحات؛ فهو جامع بين الهداية، والبراهين الدالة على صدق ما جاء فيه من الأخبار، وعلى عدل ما جاء فيه من الأحكام.

{من الهدى} صفة لـ{بيّنات}: يعني أنها بينات من الدّلالة والإرشاد.

{والفرقان}: مصدر، أو اسم مصدر؛ والمراد أنه يفرق بين الحق والباطل؛ وبين الخير والشر؛ وبين النافع والضار؛ وبين حزب الله وحرب الله؛ فرقان في كل شيء؛ ولهذا من وفق لهداية القرآن يجد الفرق العظيم في الأمور المشتبهة؛ وأمّا من في قلبه زيغ فتشتبه عليه الأمور؛ فلا يفرق بين الأشياء المفترقة الواضحة.

{فمن شهد منكم الشهر}؛ {شهد}: بمعنى شاهد؛ وقيل: بمعنى حضر؛ فعلى القول الأول يرد إشكال في قوله تعالى: {الشهر}؛ لأن الشهر مدة ما بين الهلالين؛ والمدة لا تشاهد؛ والجواب أن في الآية محذوفًا؛ والتقدير: فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه؛ والقول الثاني أصح: أن المراد بـ{شهد} حضر؛ ويرجح هذا قوله تعالى: {ومن كان مريضًا أو على سفر}؛ لأن قوله تعالى: {على سفر} يقابل الحضر.

{فليصمه}: أي فليصم نهاره.

الصيام ـ باقية؛ وهذا من بلاغة القرآن؛ وعليه فليست هذه الجملة من الآية تكرارًا محضًا؛ بل تكرار لفائدة؛ لأنه تعالى لو قال: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} ولم يقل: {ومن كان....} إلخ، لكان ناسخًا عامًّا.

قال القرطبي: و{شهد}: بمعنى حضر، وفيه إضمار، أي من شهد منكم المصر في الشهر عاقلًا بالغًا صحيحًا مقيمًا فليصمه، وهو يقال عام فيخصص بقوله: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ} الآية. وليس الشهر بمفعول وإنما هو ظرف زمان. وقد اختلف العلماء في تأويل هذا، فقال علي بن أبي طالب وابن عباس وسويد بن غفلة وعائشة – أربعة من الصحابة – وأبو مجلز لاحق بن حميد وعبيدة السلماني: (من شهد أي من حضر دخول الشهر وكان مقيمًا في أوله في بلده وأهله فليكمل صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام، وإنما يفطر في السفر من دخل عليه رمضان وهو في سفر) والمعنى عندهم: من أدركه رمضان مسافرًا أفطر وعليه عدة من أيام أخر، ومن أدركه حاضرًا فليصمه.

وقال جمهور الأمة: من شهد أول الشهر وآخره فليصم ما دام مقيمًا، فإن سافر أفطر، وهذا هو الصحيح وعليه تدلُّ الأخبار الثابتة. وقد ترجم البخاري رحمه اللّه ردًّا على القول الأول (باب إذا صام أيّامًا من رمضان ثم سافر) حدثنا عبدالله بن يوسف قال أنبأنا مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ الكديد([1])أفطر فأفطر الناس. قال أبو عبدالله: والكديد ما بين عسفان وقديد([2]).

قلت: قد يحتمل أن يحمل قول علي رضي الله عنه ومن وافقه على السفر المندوب كزيارة الإخوان من الفضلاء والصالحين، أو المباح في طلب الرزق الزائد على الكفاية([3]). وأما السفر الواجب في طلب القوت الضروري، أو فتح بلد إذا تحقق ذلك، أو دفع عدو، فالمرء فيه مخيَّر ولا يجب عليه الإمساك، بل الفطر فيه أفضل للتقوى، وإن كان شهد الشهر في بلده وصام بعضه فيه، لحديث ابن عباس وغيره، ولا يكون في هذا خلاف إن شاء اللّه واللّه أعلم.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولا مغميً عليه فليصمه، ومن دخل عليه رمضان وهو مجنون وتمادى به طول الشهر فلا قضاء عليه، لأنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام. ومن جن أول الشهر وآخره فإنه يقضي أيام جنونه. ونصب الشهر على هذا التأويل هو على المفعول الصريح بـ{شهد}.

وقوله تعالى: {ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر} تقدم الكلام عليها إعرابًا، ومعنى.

{يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} تعليل لقوله تعالى: {ومن كان مريضًا أو على سفر} إلخ؛ و{يريد}: أي يحب؛ فالإرادة شرعية؛ والمعنى: يحب لكم اليسر؛ وليست الإرادة الكونية؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى لو أراد بنا اليسر كونًا ما

---

١ – الكَديد: موضع بينه وبين المدينة سبع مراحل أو نحوها، وبينه وبين مكة نحو مرحلتين.

٢ – عُسفان: قرية بها مزارع ونخيل على مرحلتين من مكة. وقُديد: اسم موضع قرب مكة.

٣ – (قلت): حتى في هذه الحال له أن يفطر، كما رجّحه القرطبي نفسه عند تفسيره للآية: (١٨٤) {فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر}. وكذلك قال شيخ الإسلام أن الفطر يكون من جنس السفر.

تعسَّرت الأمور على أحد أبدًا؛ فتعيَّن أن يكون المراد بالإرادة هنا الشرعية؛ ولهذا لا تجد – والحمد لله – في هذه الشريعة عسرًا أبدًا.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: يريد الله بكم، أيها المؤمنون – بترخيصه لكم في حال مرضكم وسَفركم في الإفطار، وقضاء عدة أيَّام أخر من الأيام التي أفطرتموها بعد إقامتكم وبعد بُرئكم من مرضكم – التخفيفَ عليكم، والتَّسهيل عليكم، لعلمه بمشقَّة ذلك عليكم في هذه الأحوال ولا يُريد بكم العسر، يقول: ولا يريد بكم الشدَّة والمشقَّة عليكم، فيكلِّفكم صوم الشهر في هذه الأحوال، مع علمه شدَّة ذلك عليكم، وثقل حمله عليكم لو حمَّلَكُم صومه.

عن ابن عباس: {يُريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر}، قال: اليسر: الإفطار في السفر، والعسر الصيام في السفر.

وعن قتادة قوله: {يريد الله بكمُ اليسر ولا يُريد بكم العسر}، فأريدوا لأنفسكم الذي أراد الله لكم.

قال السعدي: أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويُسَهِّلُها أشدُّ تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله. وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهَّله تسهيلًا آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات. وهذه جملة لا يمكن تفصيلها، لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرُّخص والتخفيفات.

قال ابن العثيمين: {ولتكملوا العدة}؛ الواو عاطفة؛ واللام لام التعليل؛ لأنها مكسورة؛ ويكون العطف على قوله تعالى: {اليسر}؛ يعني يريد الله سبحانه وتعالى بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر؛ ويريد لتكملوا العدة؛ و(أراد) إذا تعدت باللام فإن اللام تكون زائدة من حيث المعنى؛ لكن لها فائدة؛ وذلك؛ لأن الفعل (أراد) يتعدى بنفسه، كقوله تعالى: {والله يريد أن يتوب عليكم}[النساء: ٢٧]؛ وهنا: {لتكملوا العدة}: يعني: وأن تكملوا العدة؛ أي: ويريد الله منَّا شرعًا أن نكمِّل العدَّة.

وقوله تعالى: {لتكملوا} فيها قراءتان؛ بتخفيف الميم؛ وتشديدها؛ وهما بمعنى واحد.

قال القرطبي: ولا اعتبار برؤية هلال شوال يوم الثلاثين من رمضان نهارًا بل هو لليلة التي تأتي، هذا هو الصحيح. وقد اختلف الرواة عن عمر في هذه المسألة فروى الدار قطني عن شقيق قال: جاءنا كتاب عمر ونحن بخانقين قال في كتابه: (إن الأهلة بعضها أكبر من بعض، فإذا رأيتم الهلال نهارًا فلا تفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس) وذكره أبو عمر من حديث عبدالرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي وائل قال: كتب إلينا عمر...، فذكره. قال أبو عمر: ورُوي عن علي بن أبي طالب مثل ما ذكره عبدالرزاق أيضا، وهو قول ابن مسعود وابن عمر وأنس بن مالك، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن والليث والأوزاعي، وبه قال أحمد وإسحاق.

وروى الدار قطني عن ربعي بن حراش عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: قال: اختلف الناس في آخر يوم من رمضان فقدم أعرابيان فشهدا عند النبي ﷺ لأهلا الهلال أمس عشية، ((فأمر رسول اللّه ﷺ الناس أن يفطروا وأن يغدوا إلى مصلاهم([1]))، قال الدار قطني: هذا إسناد حسن ثابت. قال أبو عمر: لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلَّى صلاة العيد في غير يوم العيد ولا في يوم العيد بعد الزوال، وحكي عن أبي حنيفة. واختلف قول الشافعي في هذه المسألة، فمرة قال بقول مالك، واختاره المزني وقال: إذا لم يجز أن تصلَّى في يوم العيد بعد الزوال فاليوم الثاني أبعد من وقتها وأحرى ألا تصلَّى فيه. وعن الشافعي رواية أخرى أنها تصلَّى في اليوم الثاني ضحى. وقال البويطي: لا تصلَّى إلا أن يثبت في ذلك حديث. قال أبو عمر: لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تقضى، فهذه مثلها. وقال الثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل: يخرجون من الغد، وقاله أبو يوسف في الإملاء. وقال الحسن بن صالح بن حي: لا يخرجون في الفطر ويخرجون في الأضحى. قال أبو يوسف: وأما في الأضحى فيصلِّيها بهم في اليوم الثالث. قال أبو عمر: لأن الأضحى أيام عيد وهي صلاة عيد، وليس الفطر يوم عيد إلا يوم واحد، فإذا لم تصلِّ فيه لم تقض في غيره، لأنها ليست بفريضة فتقضى. وقال الليث بن سعد: يخرجون في الفطر والأضحى من الغد.

قلت: والقول بالخروج إن شاء اللّه أصح، للسنة الثابتة في ذلك، ولا يمتنع أن يستثني الشارع من السنن ما شاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته. وقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه ﷺ: ((من لم يصلِّ ركعتي الفجر فليصلِّهما بعد ما تطلع الشمس([2]))). صححه أبو محمد. قال الترمذي: والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وابن المبارك. وروي عن عمر أنه فعله.

قلت: وقد قال علماؤنا: من ضاق عليه الوقت وصلَّى الصبح وترك ركعتي الفجر فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء. وقيل: لا يصلِّيهما حينئذ. ثم إذا قلنا: يصلِّيهما فهل ما يفعله قضاء، أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتي الفجر. قال الشيخ أبو بكر: وهذا الجاري على أصل المذهب، وذكر القضاء تجوز.

قلت: ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر في اليوم الثاني على هذا الأصل، لا سيَّما مع كونها مرة واحدة في السنة مع ما ثبت من السنة. روى النسائي قال: أخبرني عمرو بن علي قال حدثنا يحيى قال حدثنا شعبة قال حدثني أبو بشر عن أبي

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٢٧).

٢- (قلت): قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٤٧٨): أخرجه الترمذي (٤٢٣)، وابن خزيمة (١١١٧)، وابن حبان (٦١٣)، والحاكم (١ / ٢٧٤ و ٣٠٧)، والبيهقي (٢ / ٤٨٤) عن عمرو بن عاصم حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة مرفوعًا. وقال الحاكم: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وأشار الترمذي إلى إعلاله بتفرد عمرو بن عاصم فقال: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولا نعلم أحدًا روى هذا الحديث عن همام بهذا الإسناد نحو هذا إلا عمرو بن عاصم الكلابي). وأشار البيهقي إلى رد مثل هذا الإعلال بقوله عقب الحديث: (تفرَّد به عمرو بن عاصم، والله تعالى أعلم، وعمرو بن عاصم ثقة). قلت: واحتج به الشيخان، فلا يرد حديثه بمجرَّد التَّفرُّد.

عمير بن أنس عن عمومة له: أن قومًا رأوا الهلال فأتوا النبي ﷺ فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار وأن يخرجوا إلى العيد من الغد. في رواية: ويخرجوا لمصلَّاهم من الغد.

{ولتكبِّروا الله}؛ الواو للعطف؛ و{لتكبروا} معطوفة على {لتكملوا} بإعادة حرف الجر؛ أي: ولتقولوا: الله أكبر؛ والتكبير يتضمَّن: الكبر بالعظمة والكبرياء والأمور المعنوية؛ والكبر في الأمور الذاتية؛ فإن السموات السبع، والأرض في كفّ الرحمن كحبَّة خردل في كف أحدنا؛ والله أكبر من كل شيء.

{على ما هداكم}؛ {على}: قيل: إنها للتعليل؛ وليست للاستعلاء؛ أي تكبروه لهدايتكم؛ وعبر بـ{على} دون اللام إشارة – والله أعلم – إلى أن التكبير يكون في آخر الشهر؛ لأن أعلى كل شيء آخره؛ و{ما} هنا مصدرية تسبك هي، وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: على هدايتكم؛ وهذه الهداية تشمل: هداية العلم؛ وهداية العمل؛ وهي التي يعبر عنها أحيانًا بهداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فالإنسان إذا صام رمضان وأكمله، فقد من الله عليه بهدايتين: هداية العلم، وهداية العمل.

والذكر الذي حضَّهم الله على تعظيمه به، (التكبير) يوم الفطر، فيما تأوَّله جماعة من أهل التأويل. قال ابن زيد: كان ابن عباس يقول: حقٌّ على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال أن يكبرّوا الله حتى يفرغوا من عيدهم، لأن الله تعالى ذكره يقول: {ولتكملوا العدَّة ولتكبِّروا الله على ما هداكم}. قال ابن زيد: يَنبغي لهم إذا غَدوا إلى المصلَّى كبروا، فإذا جلسوا كبروا، فإذا جاء الإمام صَمتوا، فإذا كبر الإمام كبروا، ولا يكبرون إذا جاء الإمام إلا بتكبيره، حتى إذا فرغ وانقضت الصلاة فقد انقضى العيد. قال يونس: قال ابن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: والجماعةُ عندنا على أن يغدوا بالتكبير إلى المصلَّى.

قال الطبري: ولتعظِّموا الله بالذكر له بما أنعم عليكم به، من الهداية التي خذل عنها غيركم من أهل الملل الذين كتب عليهم من صوم شهر رمضان مثلَ الذي كتب عليكم فيه، فضلُّوا عنه بإضلال الله إيَّاهم، وخصَّكم بكرامته فهداكم له، ووفَّقكم لأداء ما كتبَ الله عليكم من صومه، وتشكروه على ذلك بالعبادة لهُ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٤ص٢٢١: أَمَّا التَّكْبِيرُ فَإِنَّهُ مَشْرُوعٌ فِي عِيدِ الْأَضْحَى بِالِاتِّفَاقِ. وَكَذَلِكَ هُوَ مَشْرُوعٌ فِي عِيدِ الْفِطْرِ: عِنْدَ مَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَد. وَذَكَرَ ذَلِكَ الطَّحَاوِي مَذْهَبًا لِأَبِي حَنِيفَةَ، وَأَصْحَابِهِ، وَالْمَشْهُورُ عَنْهُمْ خِلَافُهُ. لَكِنَّ التَّكْبِيرَ فِيهِ هُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ الصَّحَابَةِ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ – وَالتَّكْبِيرُ فِيهِ أَوْكَدُ مِنْ جِهَةِ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ بِقَوْلِهِ: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

وَالتَّكْبِيرُ فِيهِ: أَوَّلُهُ مِنْ رُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَآخِرُهُ انْقِضَاءُ الْعِيدِ، وَهُوَ فَرَاغُ الْإِمَامِ مِنْ الْخُطْبَةِ عَلَى الصَّحِيحِ. وَأَمَّا التَّكْبِيرُ فِي النَّحْرِ، فَهُوَ أَوْكَدُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ يُشْرَعُ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ، وَأَنَّهُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قال ابن العثيمين: {ولعلَّكم تشكرون}: أي تقومون بشكر الله عز وجل؛ و{لعلَّ} هنا للتعليل؛ و{تشكرون} على أمور أربعة؛ إرادة الله بنا اليسر؛ عدم إرادته العسر؛ إكمال العدة؛ التكبير على ما هدانا؛ هذه الأمور كلها نعم تحتاج منا أن نشكر الله عز وجل عليها؛ ولهذا قال تعالى: {ولعلَّكم تشكرون}؛ و(الشكر) هو القيام بطاعة المنعم بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٤ص٢٣٠: وَلَمَّا قَالَ سُبْحَانَهُ: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ذَكَرَ التَّكْبِيرَ وَالشُّكْرَ كَمَا فِي قَوْلِهِ: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[البقرة : ١٥٢]. وَالشُّكْرُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ، وَهُوَ الْحَمْدُ. وَيَكُونُ بِالْعَمَلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا}[سبأ: ١٣]. فَقَرَنَ بِتَكْبِيرِ الْأَعْيَادِ الْحَمْدَ. فَقِيلَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَاَللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ طُلِبَ فِيهِ التَّكْبِيرُ وَالشُّكْرُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان الأيام المعدودات التي أبهمها الله عز وجل في الآيات السابقة؛ بأنها شهر رمضان.

٢- فضيلة هذا الشهر، حيث إن الله سبحانه وتعالى فرض على عباده صومه.

٣- أن الله تعالى أنزل القرآن في هذا الشهر؛ وقد سبق في التفسير هل هو ابتداء إنزاله؛ أو أنه نزل كاملًا؛ والظاهر أن المراد ابتداء إنزاله؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يتكلم بالقرآن حين إنزاله؛ وقد أنزله جل وعلا مفرَّقًا؛ فيلزم من ذلك أن لا يكون القرآن كله نزل في هذا الشهر([1]).

٤- أن القرآن كلام الله عز وجل؛ لأن الذي أنزله هو الله، كما في آيات كثيرة أضاف الله سبحانه وتعالى إنزال القرآن إلى نفسه؛ والقرآن كلام لا يمكن أن يكون إلا بمتكلم؛ وعليه يكون القرآن كلام الله عز وجل؛ وهو كلامه سبحانه وتعالى لفظه، ومعناه.

٥- ما تضمنه القرآن من الهداية لجميع الناس؛ لقوله تعالى: {هدى للناس}.

٦- أن القرآن الكريم متضمن لآيات بينات واضحة لا تخفى على أحد إلا على من طمس الله قلبه فلا فائدة في الآيات، كما قال عز وجل: {وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}[يونس: ١٠١].

١- (قلت): لقد مرّ معنا بأن الصحيح هو أن القرآن نزل جملة واحدة كما روي عن ابن عباس: بأن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة في رمضان، وصار جبريل يأخذه من هذا البيت، فينزل به على رسول الله ﷺ.

٧- أن القرآن الكريم فرقان يفرق بين الحق، والباطل؛ وبين النافع، والضار؛ وبين أولياء الله، وأعداء الله؛ وغير ذلك من الفرقان فيما تقتضي حكمته التفريق فيه.

٨- وجوب الصوم متى ثبت دخول شهر رمضان؛ وشهر رمضان يثبت دخوله إما بإكمال شعبان ثلاثين يومًا، أو برؤية هلاله؛ وقد جاءت السنة بثبوت دخوله إذا رآه واحد يوثق بقوله(١).

٩- لا يجب الصوم قبل ثبوت دخول رمضان.

ويتفرع على هذا أنه لو كان في ليلة الثلاثين من شعبان غيم، أو قتر يمنع من رؤية الهلال فإنه لا يصام ذلك اليوم؛ لأنه لم يثبت دخول شهر رمضان؛ وهذا هو القول الراجح من أقوال أهل العلم؛ بل ظاهر حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما أن من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ(٢): أي أن صيامه إثم.

١٠- التعبير بـ{شهر رمضان}؛ قال أهل العلم: (وهذا أولى)؛ ويجوز التعبير بـ(رمضان) – بإسقاط (شهر)؛ لقول النبي ﷺ: ((من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ... ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا(٣)))، وقوله ﷺ: ((إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة(٤)))؛ ولا عبرة بقول من كره ذلك.

١١- تيسير الله – تبارك وتعالى – على عباده، حيث رخص للمريض الذي يشق عليه الصوم، وللمسافر مطلقًا أن يفطرًا، ويقضيا أيَّامًا أخر.

١٢- إثبات الإرادة لله عز وجل؛ وإرادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

إرادة كونية: وهي التي بمعنى المشيئة؛ ويلزم منها وقوع المراد سواء كان مما يحبه الله، أو ممَّا لا يحبه الله؛ ومنها قوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيِّقًا حرجًا كأنما يصَّعد في السماء} **[الأنعام: ١٢٥]**؛ وهذه الآية، كقوله تعالى: {من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}**[الأنعام: ٣٩]**.

١- راجع أبا داود ص١٣٩٧، كتاب الصيام، باب ١٤: في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، حديث رقم ٢٣٤٢؛ والدارمي ٢/٩، كتاب الصوم، باب ٦: الشهادة على رؤية هلال رمضان، حديث رقم ١٦٩١؛ قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح (٢/٥٥، حديث رقم ٢٣٤٢).

٢- راجع أبا داود ص١٣٩٦، كتاب الصيام، باب ١٠: كراهية صوم يوم الشك، حديث رقم ٢٣٣٤؛ والترمذي ص١٧١٤، أبواب الصوم، باب ٣: ما جاء في كراهية صوم يوم الشك، حديث رقم ٦٨٦؛ والنسائي ص٢٢٣٠، كتاب الصيام، باب ٣٧: صيام يوم الشك، حديث رقم ٢١٩٠؛ وابن ماجة ص٢٥٧٥، أبواب ما جاء في الصيام، باب ٣: ما جاء في صيام يوم الشك، حديث رقم ١٦٤٥؛ والدارمي ٢/٥ من كتاب الصوم، باب ١؛ في النهي عن صيام يوم الشك، حديث رقم ١٦٨٢؛ قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح (٢/٥٢، حديث رقم ٢٣٣٤).

٣- أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٨: صوم رمضان احتسابا من الإيمان، رقم ٣٨؛ وأخرجه مسلم ص٧٩٧، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٥، الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، حديث رقم ١٧٨١ [١٧٥] ٧٦٠.

٤- أخرجه البخاري ص١٤٨، كتاب الصوم، باب ٥: هل يقال رمضان أو شهر رمضان ... ، حديث رقم ١٨٩٨؛ وأخرجه مسلم ص٨٥٠، كتاب الصيام، باب ١: فضل شهر رمضان، حديث رقم ٢٤٩٥ [١] ١٠٧٩.

وإرادة شرعية: بمعنى المحبة؛ ولا يلزم منها وقوع المراد؛ ولا تتعلّق إلّا فيما يحبه الله عز وجل؛ ومنها قول الله تبارك وتعالى: {والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلًا عظيمًا * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا}[النساء: ٢٧، ٢٨].

١٣- أن شريعة الله سبحانه وتعالى مبنيَّة على اليسر، والسهولة؛ لأن ذلك مراد الله عز وجل في قوله تعالى: {يريد الله بكم اليسر} ؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن الدِّين يسر ولن يشاد الدِّين أحد إلَّا غلبه[١]))؛ وكان ﷺ يبعث البعوث، ويقول: ((يسروا ولا تعسروا؛ وبشروا ولا تنفروا[٢]))؛ ((فإنَّما بعثتم ميسرين؛ ولم تبعثوا معسرين[٣])).

١٤- انتفاء الحرج والمشقة والعسر في الشريعة؛ لقوله عز وجل: {ولا يريد بكم العسر}.

١٥- أنه إذا دار الأمر بين التحليل، والتحريم فيما ليس الأصل فيه التحريم فإنه يغلب جانب التحليل؛ لأنه الأيسر، والأحب إلى الله.

١٦- الأمر بإكمال العدة؛ أي بالإتيان بعدة أيام الصيام كاملًا.

١٧- مشروعية التكبير عند تكميل العدة؛ لقول الله تعالى: {ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم}؛ والمشروع في هذا التكبير أن يقول الإنسان: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد)؛ وإن شاء أوتر فقال: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد)؛ وإن شاء أوتر باعتبار الجميع فقال: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد)؛ فالأمر في هذا واسع - ولله الحمد.

١٨- أن الله يشرع الشرائع لحكمة، وغاية حميدة؛ لقوله تعالى: {لعلكم تشكرون}.

١٩- الإشارة إلى أن القيام بطاعة الله من الشكر؛ ويدل لهذا قول النبي ﷺ: ((إن الله طيب لا يقبل إلا طيِّبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله}؛ وقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا}[٤]))؛ وهذا يدل على أن الشكر هو العمل الصالح.

٢٠- أن من عصى الله عز وجل فإنه لم يقم بالشكر، ثم قد يكون الإخلال كبيرًا؛ وقد يكون الإخلال صغيرًا - حسب المعصية التي قام بها العبد.

١- أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٩: الدين يسر، حديث رقم ٣٩.

٢- أخرجه البخاري ص٨، كتاب العلم، باب ١١: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، حديث رقم ٦٩، وأخرجه مسلم ص٩٨٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٣: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث رقم ٤٥٢٨ [٨] ١٧٣٤، واللفظ للبخاري.

٣- أخرجه البخاري ص٢٠، كتاب الوضوء، باب ٥٨: صب الماء على البول في المسجد، حديث رقم ٢٢٠.

٤- (قلت): مسلم (١٠١٥).

(تنبيه)

استنبط بعض الناس أن من كانوا في الأماكن التي ليس عندهم فيها شهور، مثل الذين في الدوائر القطبية، يصومون في وقت رمضان عند غيرهم عدة شهر؛ لأن الشهر غير موجود؛ وقال: إن هذا من آيات القرآن؛ فقد جاء التعبير صالحًا حتى لهذه الحال التي لم تكن معلومة عند الناس حين نزول القرآن؛ لقوله تعالى: {ولتكملوا العدَّة}.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

قال ابن العثيمين: {وإذا سألك}؛ الخطاب للنبي ﷺ؛ والمراد بقوله تعالى: {عبادي}: المؤمنون؛ وقوله تعالى: {عنّي}: أي عن قربي وإجابتي؛ بدليل الجواب: وهو قوله تعالى: {فإنّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان}.

قوله تعالى: {فإنِّي قريب}: بعضهم قال: إنه على تقدير (قل)، أي: إذا سألك عبادي عنِّي فقل إني قريب؛ فيكون جواب {إذا} محذوفًا؛ و{إنِّي قريب} مقول القول المحذوف؛ ويحتمل أن يكون الجواب جملة: {فإنِّي قريب} لوضوح المعنى بدون تقدير؛ والضمير في قوله تعالى: {فإنِّي قريب} يعود إلى الله.

قوله تعالى: {فإنِّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان}؛ {قريب} خبر {إن}؛ و{أجيب} خبر ثان لـ{إن}؛ فيكون خبرها الأول مفردًا؛ وخبرها الثاني جملة؛ و(الدعاء) بمعنى الطلب؛ و{الداع} أصلها (الداعي) بالياء، كـ(القاضي) و(الهادي)؛ لكن حذفت الياء للتَّخفيف نظيرها قوله تعالى: {الكبير المتعال}؛ وأصلها: (المتعالي).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٥ص٥٠٠: قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: ثَنَا أَبِي ثَنَا يَحْيَى بْنُ الْمُغِيرَةِ، ثَنَا جَرِيرٌ عَنْ عَبَدَةَ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ السجستاني، عَنْ الصَّلْتِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: ((جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيَهُ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيَهُ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي}(١))). إذَا أَمَرْتهمْ أَنْ يَدْعُونِي فَدَعَوْنِي أَسْتَجِيبُ لَهُمْ.

وَلَا يُقَالُ فِي هَذَا: قَرِيبٌ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُمْ لَمْ يَشُكُّوا فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ، وَإِنَّمَا سَأَلُوا عَنْ قُرْبِهِ إلَى مَنْ يَدْعُوهُ وَيُنَاجِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} فَأَخْبَرَ أَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

١- الدر المنثور ١/١٩٤، وابن جرير الطبري في التفسير ٢/٩٢.

وقال رحمه الله في ص٥٠٩: وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ – قُرْبَهُ مِنْ دَاعِيهِ وَعَابِدِيهِ قَالَ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، فَهُنَا هُوَ نَفْسُهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – الْقَرِيبُ الَّذِي يُجِيبُ دَعْوَةَ الداع لَا الْمَلَائِكَةُ، وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ: ((إنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ([١]))). وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ – سُبْحَانَهُ – قَرِيبٌ مِنْ قَلْبِ الدَّاعِي، فَهُوَ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ. وَقُرْبُهُ مِنْ قَلْبِ الدَّاعِي لَهُ مَعْنًى مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَمَعْنًى آخَرُ فِيهِ نِزَاعٌ. فَالْمَعْنَى الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ يَكُونُ بِتَقْرِيبِهِ قَلْبَ الدَّاعِي إلَيْهِ، كَمَا يُقَرِّبُ إلَيْهِ قَلْبَ السَّاجِدِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ([٢]))), فَالسَّاجِدُ يَقْرُبُ الرَّبُّ إلَيْهِ فَيَدْنُو قَلْبُهُ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنْ كَانَ بَدَنُهُ عَلَى الْأَرْضِ. وَمَتَى قَرُبَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مِنْ الْآخَرِ صَارَ الْآخَرُ إلَيْهِ قَرِيبًا بِالضَّرُورَةِ. وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْ الْآخَرِ تَحَرُّكٌ بِذَاتِهِ، كَمَا أَنَّ مَنْ قَرُبَ مِنْ مَكَّةَ قَرُبَتْ مَكَّةُ مِنْهُ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ أَنَّهُ يَقْرُبُ إلَيْهِ مَنْ يَقْرَبُهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ، فَقَالَ: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}[النساء: ١٧٢]، وَقَالَ: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}[الواقعة: ١٠، ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَأَمَّا إنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}[الواقعة: ٨٨، ٨٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}[المطففين: ٢٨]، وَقَالَ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}[الاسراء: ٥٧]، وَقَالَ: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}[مريم: ٥٢].

وَأَمَّا قُرْبُ الرَّبِّ قُرْبًا يَقُومُ بِهِ بِفِعْلِهِ الْقَائِمِ بِنَفْسِهِ، فَهَذَا تَنْفِيهِ الْكُلَّابِيَة وَمَنْ يَمْنَعُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِذَاتِهِ. وَأَمَّا السَّلَفُ وَأَئِمَّةُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ، فَلَا يَمْنَعُونَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ.

فَنُزُولُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَنُزُولُهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ وَلِهَذَا حَدَّ النُّزُولِ بِأَنَّهُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ تَكْلِيمُهُ لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَإِنَّهُ لَوْ أُرِيدَ مُجَرَّدُ تَقْرِيبِ الْحُجَّاجِ وَقُوَّامِ اللَّيْلِ إلَيْهِ، لَمْ يَخُصَّ نُزُولَهُ بِسَمَاءِ الدُّنْيَا، كَمَا لَمْ يَخُصَّ ذَلِكَ فِي إجَابَةِ الدَّاعِي وَقُرْبِ الْعَابِدِينَ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}.

وَقَالَ: ((مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْت إلَيْهِ ذِرَاعًا([٣]))), وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ تَكُونُ عَلَى الْوَجْهِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، بِزِيَادَةِ تَقْرِيبِهِ لِلْعَبْدِ إلَيْهِ جَزَاءً عَلَى تَقَرُّبِهِ بِاخْتِيَارِهِ. فَكُلَّمَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ بِاخْتِيَارِهِ قَدْرَ شِبْرٍ زَادَهُ الرَّبُّ قُرْبًا إلَيْهِ حَتَّى يَكُونَ كَالْمُتَقَرِّبِ بِذِرَاعٍ. فَكَذَلِكَ

١- البخاري في الجهاد (٢٩٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٤/ ٤٦).

٢- مسلم في الصلاة (٤٨٢/٢١٥).

٣- البخاري في التوحيد (٧٥٣٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥/٢١، ٢٦٧٦/٢٢).

قُرْبُ الرَّبِّ مِنْ قَلْبِ الْعَابِدِ، وَهُوَ مَا يَحْصُلُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَهَذَا – أَيْضًا – لَا نِزَاعَ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ يَصِيرُ مُحِبًّا لِمَا أَحَبَّ الرَّبُّ، مُبْغِضًا لِمَا أَبْغَضَ، مُوَالِيًا لِمَنْ يُوَالِي، مُعَادِيًا لِمَنْ يُعَادِي، فَيَتَّحِدُ مُرَادُهُ مَعَ الْمُرَادِ الْمَأْمُورِ بِهِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ.

وَهَذَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي مُوَالَاةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَمُوَالَاةِ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ. فَإِنَّ الْوِلَايَةَ ضِدُّ الْعَدَاوَةِ، والْوِلَايَةُ تَتَضَمَّنُ الْمَحَبَّةَ، وَالْمُوَافَقَةَ والْعَدَاوَةُ تَتَضَمَّنُ الْبُغْضَ وَالْمُخَالَفَةَ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْته عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي(١)عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ(٢))).

فَأَخْبَرَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَنَّهُ يَقْرُبُ الْعَبْدُ بِالْفَرَائِضِ، وَلَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يُحِبَّهُ اللَّهُ فَيَصِيرَ الْعَبْدُ مَحْبُوبًا لِلَّهِ، كما قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبِعوني يُحبِبكُمُ الله}[آل عمران: ٣١].

١– (قلت): وَسُئِلَ شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٨ص١٢٩: عَنْ قَوْلِهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ((وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ)). مَا مَعْنَى تَرَدُّدِ اللَّهِ؟

فَأَجَابَ: هَذَا حَدِيثٌ شَرِيفٌ قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ رَدَّ هَذَا الْكَلَامَ طَائِفَةٌ وَقَالُوا: إنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِالتَّرَدُّدِ وَإِنَّمَا يَتَرَدَّدُ مَنْ لَا يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَوَاقِبِ. وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ اللَّهَ يُعَامِلُ مُعَامَلَةَ الْمُتَرَدِّدِ. وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ كَلَامَ رَسُولِهِ حَقٌّ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِاَللَّهِ مِنْ رَسُولِهِ وَلَا أَنْصَحَ لِلْأُمَّةِ مِنْهُ وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَحْسَنَ بَيَانًا مِنْهُ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْمُتَحَذْلِقُ وَالْمُنْكِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ؛ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَسْوَئِهِمْ أَدَبًا بَلْ يَجِبُ تَأْدِيبُهُ وَتَعْزِيرُهُ وَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الظُّنُونِ الْبَاطِلَةِ؛ وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَلَكِنَّ الْمُتَرَدِّدَ مِنَّا وَإِنْ كَانَ تَرَدُّدُهُ فِي الْأَمْرِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ مَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ لَا يَكُونُ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ مِنَّا فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ثُمَّ هَذَا بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا يَتَرَدَّدُ تَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ وَتَارَةً لِمَا فِي الْفِعْلَيْنِ مِنْ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فَيُرِيدُ الْفِعْلَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ وَيَكْرَهُهُ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَفْسَدَةِ لَا لِجَهْلِهِ مِنْهُ بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ الَّذِي يُحِبُّ مِنْ وَجْهٍ وَيَكْرَهُ مِنْ وَجْهٍ كَمَا قِيلَ: الشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ أُفَارِقَهُ فَاعْجَبْ لِشَيْءِ عَلَى الْبَغْضَاءِ مَحْبُوبُ وَهَذَا مِثْلُ إرَادَةِ الْمَرِيضِ لِدَوَائِهِ الْكَرِيهِ بَلْ جَمِيعُ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكْرَهُهَا النَّفْسُ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَفِي الصَّحِيحِ ((حُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ)) وَقَالَ تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} الْآيَةَ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَظْهَرُ مَعْنَى التَّرَدُّدِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ قَالَ: ((لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)). فَإِنَّ الْعَبْدَ الَّذِي هَذَا حَالُهُ صَارَ مَحْبُوبًا لِلْحَقِّ مُحِبًّا لَهُ يَتَقَرَّبُ إلَيْهِ أَوَّلًا بِالْفَرَائِضِ وَهُوَ يُحِبُّهَا ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي النَّوَافِلِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ فَاعِلَهَا فَأَتَى بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبِ الْحَقِّ؛ فَأَحَبَّهُ الْحَقُّ لِفِعْلِ مَحْبُوبِهِ مِنْ الْجَانِبَيْنِ بِقَصْدِ اتِّفَاقِ الْإِرَادَةِ بِحَيْثُ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ مَحْبُوبُهُ وَالرَّبُّ يَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَ عَبْدَهُ وَمَحْبُوبَهُ فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ يَكْرَهَ الْمَوْتَ لِيَزْدَادَ مِنْ محاب مَحْبُوبِهِ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْمَوْتِ فَكُلُّ مَا قَضَى بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ وَلَا بُدَّ مِنْهُ فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارِهٌ لِمُسَاءَةِ عَبْدِهِ؛ وَهِيَ الْمُسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهٍ وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مُرَادًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَرَجُّحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ كَمَا تَرَجَّحَ إرَادَةُ الْمَوْتِ؛ لَكِنْ مَعَ وُجُودِ كَرَاهَةِ مُسَاءَةِ عَبْدِهِ وَلَيْسَ إرَادَتُهُ لِمَوْتِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ كَإِرَادَتِهِ لِمَوْتِ الْكَافِرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ وَيُرِيدُ مُسَاءَتَهُ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ سَبَقَ ذِكْرَهُ: وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغَضُ ذَلِكَ وَيَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وَشَاءَهُ بِإِرَادَتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يُرِدْهُ بِإِرَادَةٍ دِينِيَّةٍ هَذَا هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ فِيمَا تَنَازَعَ فِيهِ النَّاسُ: مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَلْ يَأْمُرُ بِمَا لَا يُرِيدُهُ.

٢– (قلت): صححه الإمام الألباني في تحقيق كلمة الإخلاص (٣٤).

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص٤٨٤: أن قرب الرب جل وعلا في الكتاب والسنة قرب خاص، ويقرب جل وعلا من أوليائه، ومن الساجد، ومن العابد، ومن الداعي إلى غير ذلك فهذا قرب خاص. وأما القرب العام فإنه يفسَّر بقرب الإحاطة والبطون والله جل وعلا قريب من جميع خلقه لكن ليس هو القرب الخاص وإنما هو قرب الإحاطة وقرب البطون الذي فسره النبي ﷺ في قوله: ((وأنت الباطن فليس دونك شيء[١])). وفرقٌ بين القرب من غير إضافة والقرب الذي يضاف إلى الإحاطة والبطون.

ولهذا اختار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وجماعة من المحقِّقين أن قرب الله جل وعلا الذي جاء في الكتاب والسنة إنما هو قرب خاص لأنه ما جاء الدليل بالقرب العام؛ وقال بعض أهل العلم: القرب قربان:

* قرب عام.
* وقرب خاص.

فالقرب العام من جميع الخلق بإحاطته جل وعلا وبقدرته عليهم، وهذا هو الذي جاء في قوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، وقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ}، والقرب الخاص هو الذي جاء في الآيات والأحاديث الأخر التي فيها أنه جل وعلا قريب من خاصة خلقه.

وهذان وجهتان لأهل السنة: هل القرب ينقسم أم لا ينقسم؟

ومُحَصِّلُ ذلك أن قرب الله جل وعلا عند الجميع صفة من صفاته اللائقة به سبحانه وتعالى.

قال جل وعلا: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، وهذا القرب في هذه الآية خاص، وقد جعله جل وعلا قرب إجابة، وقرب الإجابة نوعان:

* قرب عطاء.
* وقرب إثابة.

فمن سأل الله جل وعلا في دعائة كان داعيًا دعاء المسألة، فيكون قرب الله جل وعلا منه قرب من يعطي، وإذا دعا العبد ربَّه جل وعلا في عبادة وطاعة – يعني دعاء عبادة – كان قرب الله جل وعلا منه قرب إثابة.

فإذًا الإجابة في تفسير السلف في قوله: {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، فسِّرت بأنها إعطاء السؤال أو إثابة الداعي، وكل أحد يسأل الله جل وعلا شيئًا أو يدعو الله جل وعلا شيئًا، فإن الله جل وعلا يعطيه ويجيب دعاءه، {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، ولابدَّ فإنه ما من داع يدعو إلا والله جل وعلا يجيب دعاءه.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٤٠٨)، وقال: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَرَوَاهُ مُسلم مَعَ اخْتِلَاف يسير.

ولكن إجابة الدعاء أعمّ من إعطاء عين السؤال، فإن العبد قد يدعو بدعاء فيه مسألة، وقد يدعو بدعاء ليس فيه مسألة خاصة، فإذا سأل العبد ربه مسألة خاصة (أعطني كذا) فإنه يجاب بإحدى ثلاث خصال:

* إما أن يعطى عين ما سأل (اللهم هيِّء لي زوجة صالحة) (اللهم هيِّء لي من أمري رشدًا) (اللهم اجعل هذا الأمر خيرًا لي)، فيجاب في سؤاله فيعطى عين ما سأل هذا حال.

* والثانية أن لا يعطى عين ما سأل ولكنه يؤخَّر له ذلك في الآخرة فيكون جواب السؤال في الآخرة، هذا أعظم في بعض الأحوال.

* والثالث أن يصرف عنه من السوء مثل ما سأل؛ فهو سأل شيئًا وقضى الله جل وعلا بحكمته أن لا يعطي العبد عين ما سأل، فيصرف عنه من السّوء مثل ما سأل، وهذا قد جاء في الحديث الذي رواه مسلم في الصحيح وغيره ((ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال([1]))، وذكر هذه الخصال التي أسلفت.

فإذًا إجابة الداعي قد تكون إجابة للسائل وقد تكون إثابة للعابد، وإجابة السائل أعم من إعطاء عين المسؤول، ولهذا في حديث التنزل الإلهي تبارك ربنا وتقدَّس ((فإن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل فيقول هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له هل من داع فأجيبه([2]))، ومعلوم أن الاستغفار والسؤال والدعاء الأولى تدخل في الثانية فإن المستغفر سائل وليس كل سائل مستغفرًا كما أن السائل داع وليس كل داع سائلًا، ولهذا نقول الدعاء ينقسم إلى قسمين:

* دعاء مسألة.

* ودعاء عبادة.

وهذا جميعًا داخل في قوله جل وعلا: {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي}.

١- (قلت): لم أجده عند مسلم. صححه الإمام الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٥٢٢. والحديث بتمامه: ((عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته أو يدخر له من الخير مثلها أو يصرف عنه من الشر مثلها))، قالوا: يا رسول الله إذا نكثر قال: ((الله أكثر)).

٢- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ بل بلفظ آخر قال عنه الإمام الألباني في المشكاة (١٢٢٣): (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟)).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَيْهِ وَيَقُولُ: ((مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدُومٍ وَلَا ظَلُومٍ؟ حَتَّى ينفجر الْفجْر)).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٥ص١٠: وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، يُبَيِّنُ – تَعَالَى – أَنَّ الْمَعْبُودَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ، فَهُوَ يَدْعُو لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ، وَيَدْعُو خَوْفًا وَرَجَاءً دُعَاءَ الْعِبَادَةِ، فَعُلِمَ أَنَّ النَّوْعَيْنِ مُتَلَازِمَانِ. فَكُلُّ دُعَاءِ عِبَادَةٍ مُسْتَلْزِمٌ لِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ، وَكُلُّ دُعَاءِ مَسْأَلَةٍ مُتَضَمِّنٌ لِدُعَاءِ الْعِبَادَةِ.

وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} يَتَنَاوَلُ نَوْعَيْ الدُّعَاءِ، وَبِكُلِّ مِنْهُمَا فُسِّرَتْ الْآيَةُ. قِيلَ: أُعْطِيهِ إِذَا سَأَلَنِي. وَقِيلَ: أُثِيبُهُ إِذَا عَبَدَنِي. وَالْقَوْلَانِ مُتَلَازِمَانِ. وَلَيْسَ هَذَا مِنْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ كِلَيْهِمَا، أَوْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ، بَلْ هَذَا اسْتِعْمَالُهُ فِي حَقِيقَتِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، فَتَأَمَّلْهُ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ عَظِيمُ النَّفْعِ، وَقَلَّ مَا يُفْطَنُ لَهُ. وَأَكْثَرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَيَيْنِ فَصَاعِدًا، فَهِيَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.

قال ابن العثيمين: فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: {إذا دعان} بعد قوله تعالى: {الداع} – لأنه لا يوصف بأنه داع إلّا إذا دعا؟

فالجواب: أن المراد بقوله تعالى: {إذا دعان}: أي إذا صدق في دعائه إيّاي بأن شعر بأنه في حاجة إلى الله، وأن الله قادر على إجابته، وأخلص الدعاء لله بحيث لا يتعلّق قلبه بغيره.

وقوله تعالى: {دعان} أصلها دعاني – بالياء، فحذفت الياء تخفيفًا.

قال الشنقيطي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي وَبَيَّنَ فِي آيَةٍ أُخْرَى تَعْلِيقَ ذَلِكَ عَلَى مَشِيئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَهِيَ قَوْلُهُ: {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ} الْآيَةَ [٦ \ ٤١].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّعْلِيقُ بِالْمَشِيئَةِ فِي دُعَاءِ الْكُفَّارِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَالْوَعْدُ الْمُطْلَقُ فِي دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَيْهِ فَدُعَاؤُهُمْ لَا يُرَدُّ، إِمَّا أَنْ يُعْطُوا مَا سَأَلُوا أَوْ يُدَّخَرَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُ أَوْ يُدْفَعَ عَنْهُمْ مِنَ السُّوءِ بِقَدْرِهِ.

قال السعدي: فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: {فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}.

قال ابن العثيمين: {فليستجيبوا لي}: أي فليجيبوا لي؛ لأن (استجاب) بمعنى أجاب، كما قال الله تعالى: {فاستجاب لهم ربهم}[آل عمران: ١٩٥]: أي أجاب، وكما قال الله تعالى: {والذين استجابوا لربهم}[الشورى: ٣٨].

وقوله تعالى: {فليستجيبوا} عداها باللام؛ لأنه ضمن معنى الانقياد – أي فلينقادوا لي؛ وإلا لكانت (أجاب) تتعدى بنفسها؛ نظيرها قوله ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: ((فإن هم أجابوا لك بذلك))؛ فضمن الإجابة معنى الانقياد.

{وليؤمنوا بي}: أي وليؤمنوا بأني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان؛ واللام في الفعلين: {فليستجيبوا}؛ و{ليؤمنوا} لام الأمر؛ ولهذا سكنت بعد حرف العطف.

{لعلهم يرشدون}؛ {لعل} للتعليل؛ وكلما جاءت (لعل) في كتاب الله فإنها للتعليل؛ إذ إن الترجي لا يكون إلا فيمن احتاج، ويؤمل كشف ما نزل به عن قرب؛ أما الرب عز وجل فإنه يستحيل في حقِّه هذا.

و(الرُّشد) يطلق على معان؛ منها: حسن التصرف، كما في قوله تعالى: {وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم}[النساء: ٦]؛ ولا شك أن من آمن بالله واستجاب له، فإنه أحسن الناس تصرفًا، ويوَفَّق ويُهدى وتُيَسَّر له الأمور، كما قال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا}[الطلاق: ٤]، وقال تعالى: {فأمّا من أعطى واتَّقى * وصدَّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى}[الليل: ٥ ـ ٧].

قال السعدي: أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٣٣: ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِأَمْرَيْنِ، فَقَالَ: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}، فالْأَوَّلُ: أَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ. والثَّانِي: الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَإِلَهُهُمْ. وَلِهَذَا قِيلَ: إجَابَةُ الدُّعَاءِ تَكُونُ عَنْ صِحَّةِ الِاعْتِقَادِ، وَعَنْ كَمَالِ الطَّاعَةِ، لِأَنَّهُ عَقَّبَ آيَةَ الدُّعَاءِ بِقَوْلِهِ: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي}، وَالطَّاعَةُ، وَالْعِبَادَةُ، هِيَ مَصْلَحَةُ الْعَبْدِ الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُ وَنَجَاتُهُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن الصيام مظنَّة إجابة الدعاء؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية في أثناء آيات الصيام؛ ولا سيَّما أنه ذكرها في آخر الكلام على آيات الصيام.

وقال بعض أهل العلم: يستفاد منها فائدة أخرى: أنه ينبغي الدعاء في آخر يوم الصيام ـ أي عند الإفطار.

٢– رأفة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وإذا سألك عبادي}، حيث أضافهم إلى نفسه تشريفًا وتعطُّفًا عليهم.

٣– إثبات قرب الله سبحانه وتعالى؛ والمراد قرب نفسه؛ لأن الضمائر في هذه الآية كلها ترجع إلى الله؛ وعليه فلا يصح أن يحمل القرب فيها على قرب رحمته أو ملائكته؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، ويقتضي تشتيت الضمائر بدون دليل؛ ثم قرب الله عز وجل هل هو خاص بمن يعبده أو يدعوه؛ أو هو عام؟ على قولين؛ والراجح أنه خاص بمن يعبده أو يدعوه؛ لأنه لم يرد وصف الله به على وجه مطلق؛ وليس كالمعيَّة التي تنقسم إلى عامة وخاصة.

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد}[ق: ١٦، ١٧] ـ وهذا عام؟

فالجواب: أن المراد بالقرب في هذا الآية قرب ملائكته بدليل قوله تعالى: {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد}[ق: ١٧]، ومثلها قوله تعالى: {فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون}[الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]، فإن المراد بها قرب الملائكة الذين يقبضون الروح.

فإن قال قائل: كيف الجمع بين قربه جل وعلا وعلوّه؟

فالجواب: أن الله أثبت ذلك لنفسه ـ أعني القرب، والعلو؛ ولا يمكن أن يجمع الله لنفسه بين صفتين متناقضتين؛ ولأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فهو قريب في علوّه علي في دنوّه.

٤- إثبات سمع الله؛ لقوله تعالى: {أجيب}؛ لأنه لا يجاب إلا بعد أن يسمع ما دعا به.

٥- إثبات قدرة الله؛ لأن إجابة الداعي تحتاج إلى قدرة.

٦- إثبات كرم الله؛ لقوله تعالى: {أجيب دعوة الداع إذا دعان}.

٧- أن من شرط إجابة الدعاء أن يكون الدّاعي صادق الدعوة في دعوة الله عز وجل، بحيث يكون مخلصًا مشعرًا نفسه بالافتقار إلى ربه، ومشعرًا نفسه بكرم الله وجوده؛ لقوله تعالى: {إذا دعان}.

٨- أن الله تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعاه؛ ولا يلزم من ذلك أن يجيب مسألته؛ لأنه تعالى قد يؤخّر إجابة المسألة ليزداد الداعي تضرُّعًا إلى الله، وإلحاحًا في الدعاء؛ فيقوى بذلك إيمانه، ويزداد ثوابه؛ أو يدخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السوء ما هو أعظم فائدة للداعي؛ وهذا هو السر – والله أعلم – في قوله تعالى: {أجيب دعوة الداع}.

٩- أن الإنابة إلى الله عز وجل والقيام بطاعته سبب للرشد؛ لقوله تعالى: {فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}.

١٠- أن الاستجابة لابدَّ أن يصحبها إيمان؛ لأن الله قرن بينهما؛ فمن تعبد لله سبحانه وتعالى وهو ضعيف الإيمان بأن يكون عنده تردد – والعياذ بالله – أو شك فإنه لا ينفعه؛ أو يكون عنده إنكار، كما يفعل المنافقون: فإنهم يتعبدون إلى الله عز وجل ظاهرًا؛ لكنهم ليس عندهم إيمان؛ فلا ينفعهم.

١١- إثبات الأسباب والعلل؛ ففيه ردٌّ على الجهمية، وعلى الأشاعرة؛ لأنهم لا يثبتون الأسباب إلا إثباتًا صوريًّا، حيث يقولون: إن الأسباب لا تؤثر بنفسها لكن يكون الفعل عندها.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ} لفظ {أحل} يقتضي أنه كان محرَّمًا قبل ذلك ثم نسخ. روى أبو داود عن ابن أبي ليلى قال وحدثنا أصحابنا قال: وكان الرجل إذا أفطر(١)فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح، قال: فجاء عمر فأراد امرأته فقالت: إني قد نمت، فظن أنها تعتل فأتاها. فجاء رجل من الأنصار فأراد طعامًا فقالوا: حتى نسخن لك شيئًا فنام، فلما أصبحوا أنزلت هذه الآية، وفيها: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}(٢). وروى البخاري عن البراء قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وأن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا – وفي رواية: كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صائمًا – فلما حضر الإفطار أتى امرأته

١– الذي في مسند أبي داود: ((إذا صام فنام....)).

٢– (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقول ابن أبي ليلى: (حدثنا أصحابنا)؛ يريد به أصحاب النبي ﷺ. وقد صححه ابن حزم وابن دقيق العيد وابن التركماني. إسناده: حدثنا عمرو بن مرزوق: أنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت ابن أبي ليلى. (ح) وحدثنا ابن المثنى: ثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت ابن أبي ليلى. والرواية الأخرى لابن المثنى.

قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقول ابن أبي ليلى: (حدثنا أصحابنا) إنما أراد به الصحابة رضي الله عنهم، كما صرح به الأعمش عن عمرو ابن مرة، كما يأتي. وقد تردد في ذلك المنذري، فقال في (مختصره) (رقم ٤٧٧): (وقول ابن أبي ليلى: (حدثنا أصحابنا)؛ إن أراد الصحابة؛ فهو قد سمع من جماعة من الصحابة، فيكون الحديث مسنداً؛ وإلا فهو مرسل)!

والرواية المشار إليها تعين الاحتمال الأول، كما قال الحافظ في (التلخيص) (٣/١٧٤) . قال: (ولهذا صححها ابن حزم وابن دقيق العيد). وقال الزيلعي في (نصب الراية) (١/٢٦٧) : (أراد به الصحابة؛ صرَّح بذلك ابن أبي شيبة في (مصنفه)، فقال: حدثنا وكيع: ثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمدَ ﷺ: أن عبد الله بن زيد الأنصاري جاء بلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! رأيت في المنام كأن رجلاً قام وعليه بردان أخضران، فقام على حائط، فأذن مثنى مثنى، وأقام مثنى مثنى. انتهى. وأخرجه للبيهقي في (سننه) عن وكيع ... به. قال في (الإمام): وهذا رجال (الصحيح)، وهو متصل على مذهب الجماعة في عدالة الصحابة، وأن جهالة اسمهم لا تضر).

قلت: وكذا قال ابن التركماني في (الجوهر النقي) نحو ما قال ابن دقيق العيد في (الإمام) أنه على شرط (الصحيح). إلخ.

وكذلك أخرجه الطحاوي (١/٧٩ و ٨٠) – عن يحيى بن يحيى النيسابوري–، والبيهقي (١/٤٢٠) – عن عبد الله بن هاشم –، وابن حزم في (المحلى) (٣/١٥٧) – عن موسى بن معاوية – كلهم عن وكيع ... به. وقال ابن حزم: (وهذا إسناد في غاية الصحة).

فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلمّا رأته قالت: خيبة لك فلمّا انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} ففرحوا فرحًا شديدًا، ونزلت: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}([١]).

وفي البخاري أيضًا عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل اللّه تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ}([٢]).

الثانية: قوله تعالى: {لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ} {ليلة} نصب على الظرف وهي اسم جنس فلذلك أفردت. والرفث: كناية عن الجماع لأن اللّه عز وجل كريم يكني، قاله ابن عباس والسدي. وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وقال الأزهري أيضًا. وقال ابن عرفة: الرفث ههنا الجماع. والرفث: التصريح بذكر الجماع والإعراب به. وتعدى {الرفث} بإلى في قوله تعالى: {الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}. وأنت لا تقول: رفثت إلى النساء، ولكنه جيء به محمولًا على الإفضاء الذي يراد به الملابسة في مثل قوله: {وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}[النساء: ٢١].

الثالثة: قوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ} ابتداء وخبر، وشددت النون من {هنَّ} لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر. {وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} أصل اللباس في الثياب، ثم سمِّي امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباسًا، لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيها بالثوب. وقال النابغة الجعدي: إذا ما الضجيع ثنى جيدها ... تداعت فكانت عليه لباسا

وقال أيضًا: لبست أناسا فأفنيتهم ... وأفنيت بعد أناس أناسا

وقال بعضهم: يقال لما ستر الشيء وداراه: لباس. فجائز أن يكون كل واحد منهما سترًا لصاحبه عمّا لا يحل، كما ورد في الخبر. وقيل: لأن كل واحد منهما ستر لصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع من أبصار الناس.

قال ابن العثيمين: لأن الزوج لا يستغني عن زوجه فهو لها بمنزلة اللباس؛ وكذلك هي له بمنزلة اللباس؛ وعبر سبحانه باللباس لما فيه من ستر العورة، والحماية، والصيانة؛ وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج([٣]))).

قال القرطبي: الرابعة: قوله تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} يستأمر بعضكم بعضًا في مواقعة المحظور من الجماع والأكل بعد النوم في ليالي الصوم، كقوله تعالى: {تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ}[البقرة: ٨٥].

١- (قلت): رواه البخاري في صحيحه باب قول الله جل ذكره: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم} برقم (١٩١٥).

٢- (قلت): رواه البخاري في صحيحه باب قول الله جل ذكره: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم} برقم (٤٥٠٨).

٣- أخرجه البخاري ص٤٣٨، كتاب النكاح، باب ٣: من لم يستطع الباءة فليصم، حديث رقم ٥٠٦٦، وأخرجه مسلم ص٩١٠، كتاب النكاح، باب ١: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة ... ، حديث رقم ٣٣٩٨ [١] ١٤٠٠.

قال ابن العثيمين: والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذا الاختيان بكون الإنسان يفتي نفسه بأن هذا الأمر هين؛ أو بأنه صار في حال لا تحرم عليه زوجته؛ وما أشبه ذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٤٣٨: فَصْلٌ: فِي قَوْله تَعَالَى: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا}[النساء: ١٠٧]، فَقَوْلُهُ: {يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ}، مِثْلُ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَطَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ تَخُونُونَ أَنْفُسَكُمْ. زَادَ بَعْضُهُمْ: تَظْلِمُونَهَا. فَجَعَلُوا الْأَنْفُسَ مَفْعُولَ {تَخْتَانُونَ}، وَجَعَلُوا الْإِنْسَانَ قَدْ خَانَ نَفْسَهُ، أَيْ ظَلَمَهَا بِالسَّرِقَةِ كَمَا فَعَلَ ابْنُ أبيرق – أَوْ بِجِمَاعِ امْرَأَتِهِ لَيْلَةَ الصِّيَامِ كَمَا فَعَلَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ – وَهَذَا الْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ؛ فَإِنَّ كُلَّ ذَنْبٍ يُذْنِبُهُ الْإِنْسَانُ فَقَدْ ظَلَمَ فِيهِ نَفْسَهُ، سَوَاءٌ فَعَلَهُ سِرًّا أَوْ عَلَانِيَةً.

وَإِذَا كَانَ اخْتِيَانُ النَّفْسِ هُوَ ظُلْمُهَا أَوْ ارْتِكَابُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهَا كَانَ كُلُّ مُذْنِبٍ مُخْتَانًا لِنَفْسِهِ وَإِنْ جَهَرَ بِالذُّنُوبِ وَكَانَ كُفْرُ الْكَافِرِينَ وَقِتَالُهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ اخْتِيَانًا لِأَنْفُسِهِمْ وَكَذَلِكَ قَطْعُ الطَّرِيقِ وَالْمُحَارَبَةُ وَكَذَلِكَ الظُّلْمُ الظَّاهِرُ وَكَانَ مَا فَعَلَهُ قَوْمُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ اخْتِيَانًا لِأَنْفُسِهِمْ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا، وَإِنَّمَا أُسْتُعْمِلَ فِي خَاصٍّ مِنْ الذُّنُوبِ مِمَّا يُفْعَلُ سِرًّا، وَحَتَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} عَنَى بِذَلِكَ فِعْلَ عُمَرَ؛ فَإِنَّهُ رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فشكى أَنَّهُ بَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَلَمْ يَتَعَشَّ لَمَّا نَامَ قَبْلَ الْعِشَاءِ، وَكَانَ مَنْ نَامَ قَبْلَ الْأَكْلِ، حَرُمَ عَلَيْهِ الْأَكْلُ فَيَسْتَمِرُّ صَائِمًا، فَأَصْبَحَ يَتَقَلَّبُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، فَلَمَّا شَكَا حَالَهُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنِّي أَرَدْت أَهْلِي اللَّيْلَةَ، فَقَالَتْ: إنَّهَا قَدْ نَامَتْ، فَظَنَنْتهَا لَمْ تَنَمْ فَوَاقَعْتهَا، فَأَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ نَامَتْ، قَالُوا: فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي عُمَرَ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلَى نِسَائِكُمْ}(١).

فَهَذَا فِيهِ أَنَّ نَفْسَهُ الْخَاطِئَةَ سَوَّلَتْ لَهُ ذَلِكَ، وَدَعَتْهُ إلَيْهِ، وَأَنَّهُ أَخَذَ يَلُومُهَا بَعْدَ الْفِعْلِ، فَالنَّفْسُ هُنَا هِيَ الْخَائِنَةُ الظَّالِمَةُ، وَالْإِنْسَانُ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ فِي السِّرِّ إذَا لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ إلَى أَفْعَالٍ لَا تَدْعُو إلَيْهَا عَلَانِيَةً، وَعَقْلُهُ يَنْهَاهُ عَنْ تِلْكَ الْأَفْعَالِ، وَنَفْسُهُ تَغْلِبُهُ عَلَيْهَا.

وَلَفْظُ الْخِيَانَةِ حَيْثُ أُسْتُعْمِلَ لَا يُسْتَعْمَلُ إلَّا فِيمَا خَفِيَ عَنْ الْمَخُونِ، كَالَّذِي يَخُونُ أَمَانَتَهُ، فَيَخُونُ مَنْ ائْتَمَنَهُ إذَا كَانَ لَا يُشَاهِدُهُ، وَلَوْ شَاهَدَهُ لَمَا خَانَهُ، قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ

١- ابن جرير في التفسير ٢/٩٦ ، والقرطبي في التفسير ٢/٣١٤، ٣١٥.

- (قلت): وصحح الإمام الألباني حديثا عن ابن أبي ليلى في صحيح أبي داود (٥٢٣) أنه قال: وحدثنا أصحابنا: ((وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل؛ لم يأكل حتى يصبح. قال: فجاء عمر فأراد امرأته؛ فقالت: إني قد نمت فظن انها تَعْتَل؛ فأتاها، فجاء رجل من الأنصار فأراد الطعام، فقالوا: حتى نُسخن لك شيئاً؛ فنام، فلما أصبحوا أُنزلت عليهم هذه الآية؛ فيها: {احِلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نسائكم})).

(قلت): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقول ابن أبي ليلى: (حدثنا أصحابنا)؛ يريد به أصحاب النبي ﷺ.

تَعْلَمُونَ}[الأنفال: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ}[المائدة: ١٣]، وَقَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}[يوسف: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[غافر: ١٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا قَامَ: ((أَمَا فِيكُمْ رَجُلٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلَّا أَوْمَضْت إلَيَّ؟ فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ(١)))، قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا}{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}[النساء: ١٠٧، ١٠٨]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ(٢)))، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: ((عَلَى كُلِّ خُلُقٍ يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ إلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ(٣)))، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَالْإِنْسَانُ كَيْفَ يَخُونُ نَفْسَهُ، وَهُوَ لَا يَكْتُمُهَا مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ سِرًّا عَنْهَا، كَمَا يَخُونُ مَنْ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ النَّاسِ، كَمَا يَخُونُ اللَّهَ وَالرَّسُولَ إذَا لَمْ يُشَاهِدْهُ، فَلَا يَكُونُ مِمَّنْ يَخَافُ اللَّهَ بِالْغَيْبِ؟ وَلِمَ خُصَّتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ بِأَنَّهَا خِيَانَةٌ لِلنَّفْسِ دُونَ غَيْرِهَا؟ فَالْأَشْبَهُ – وَاَللَّهُ أَعْلَمُ – أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: {تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} مِثْلَ قَوْلِهِ: {إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}[البقرة: ١٣٠].

وَالْبَصْرِيُّونَ يَقُولُونَ فِي مِثْلِ هَذَا: إنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، وَيُخْرِجُونَ قَوْلَهُ: {سَفِهَ} عَنْ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ، فَإِنَّهُ فِعْلٌ لَازِمٌ، فَيَحْتَاجُونَ أَنْ يَنْقُلُوهُ مِنْ اللُّزُومِ إلَى التَّعْدِيَةِ بِلَا حُجَّةٍ.

وَأَمَّا الْكُوفِيُّونَ –كَالْفَرَّاءِ وَغَيْرِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ هَذَا مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ الْمُمَيَّزَ قَدْ يَكُونُ مَعْرِفَةً كَمَا يَكُونُ نَكِرَةً، وَذَكَرُوا لِذَلِكَ شَوَاهِدَ كَثِيرَةً مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: أَلِمَ فُلَانٌ رَأْسَهُ، وَوَجِعَ بَطْنَهُ، وَرَشَدَ أَمْرَهُ. وَكَانَ الْأَصْلُ: سَفِهَتْ نَفْسُهُ، وَرَشَدَ أَمْرُهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: غَبِنَ رَأْيَهُ، وَبَطِرَتْ نَفْسُهُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا}[القصص: ٥٨]، مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَالْمَعِيشَةُ نَفْسُهَا بَطِرَتْ، فَلَمَّا كَانَ الْفِعْلُ. . . (٤) نَصَبَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ}[الأنفال: ٤٧]، فَقَوْلُهُ: {سَفِهَ نَفْسَهُ} مَعْنَاهُ: إلَّا مَنْ سَفِهَتْ نَفْسُهُ، أَيْ كَانَتْ

١- أبو داود في الجهاد (٢٦٨٣) ن وفي الحدود (٤٣٥٩)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٦٧)، كلاهما عن سعد.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢٦٨٣).

٢- البخاري في الشهادات (٢٦٨٢) ومسلم في الإيمان (١٠٧/٥٩).

٣- (قلت): قال نبيل سعدالدين جرار: (١) أخرجه أبو يعلى (٧١١) ، والبزار (١١٣٩) ، والبيهقي (١٩٧/١٠) من طريق مصعب بن سعد به. واختلف في رفعه ووقفه، وقال الدار قطني في (علله) (٣٣١/٤) : والموقوف أشبه بالصواب. وضعفه الألباني في (الضعيفة) (١٩٧/٧).

- (٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦، ٢٢٠) من طريق بقية به.

- وأخرجه الترمذي (١٠٧٤) ، وأحمد (٢/ ١٦٩) من وجه آخر عن ابن عمرو به. وحسنه الألباني بطرقه.

٤- بياض بالأصل.

سَفِيهَةً، فَلَمَّا أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ نَصَبَهَا عَلَى التَّمْيِيزِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}[مريم: ٤] وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِ، لَكِنَّ ذَاكَ نَكِرَةٌ وَهَذَا مَعْرِفَةٌ.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْكُوفِيُّونَ أَصَحُّ فِي اللُّغَةِ وَالْمَعْنَى؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ السَّفِيهُ نَفْسُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}[البقرة: ١٤٢]، {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ}[النساء: ٥]، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}: أَيْ تَخْتَانُ أَنْفُسُكُمْ، فَالْأَنْفُسُ هِيَ الَّتِي اخْتَانَتْ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ السَّفِيهَةُ. وَقَالَ: اخْتَانَتْ، وَلَمْ يَقُلْ خَانَتْ؛ لِأَنَّ الِافْتِعَالَ فِيهِ زِيَادَةُ فِعْلٍ عَلَى مَا فِي مُجَرَّدِ الْخِيَانَةِ. قَالَ عِكْرِمَةُ: وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ: ابْنُ أبيرق الَّذِي سَرَقَ الطَّعَامَ وَالْقُمَاشَ، وَجَعَلَ هُوَ وَقَوْمُهُ يَقُولُونَ: إِنَّمَا سَرَقَ فُلَانٌ لِرَجُلٍ آخَرَ.

فَهَؤُلَاءِ اجْتَهَدُوا فِي كِتْمَانِ سَرِقَةِ السَّارِقِ، وَرَمْيِ غَيْرِهِ بِالسَّرِقَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}[النساء: ١٠٨]، فَكَانُوا خَائِنِينَ لِلصَّاحِبِ وَالرَّسُولِ وَقَدْ اكْتَسَبُوا الْخِيَانَةَ. وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَانُوا يُجَامِعُونَ بِاللَّيْلِ، وَهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي أَنَّ ذَلِكَ لَا يَظْهَرُ عَنْهُمْ حِينَ يَفْعَلُونَهُ، وَإِنْ أَظْهَرُوهُ فِيمَا بَعْدُ عِنْدِ التَّوْبَةِ، أَمَّا عِنْدَ الْفِعْلِ فَكَانُوا يَحْتَاجُونَ مِنْ سَتْرِ ذَلِكَ وَإِخْفَائِهِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَائِنُ وَحْدَهُ، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: {تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}: أَيْ يَخُونُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، كَقَوْلِهِ: {فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}[البقرة: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ}[البقرة: ٨٥]، وَقَوْلُهُ: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}[النور: ١٢]، فَإِنَّ السَّارِقَ وَأَقْوَامًا خَانُوا إِخْوَانَهُمْ الْمُؤْمِنِينَ.

وَالْمَجَامِعُ، إِنْ كَانَ جَامَعَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَقَدْ خَانَهَا، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ. وَالصِّيَامُ مَبْنَاهُ عَلَى الْأَمَانَةِ؛ فَإِنَّ الصَّائِمَ يُمْكِنُهُ الْفِطْرُ وَلَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ، فَإِذَا أَفْطَرَ سِرًّا فَقَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ، وَالْفِطْرُ بِالْجِمَاعِ الْمَسْتُورِ خِيَانَةٌ، كَمَا أَنَّ أَخْذَ الْمَالِ سِرًّا وَإِخْبَارَ الرَّسُولِ وَالْمَظْلُومِ بِبَرَاءَةِ السَّقِيمِ وَسَقَمِ الْبَرِيءِ خِيَانَةٌ، فَهَذَا كُلُّهُ خِيَانَةٌ، وَالنَّفْسُ هِيَ الَّتِي خَانَتْ؛ فَإِنَّهَا تُحِبُّ الشَّهْوَةَ وَالْمَالَ وَالرِّئَاسَةَ، وَخَانَ وَاخْتَانَ مِثْلُ كَسَبَ وَاكْتَسَبَ، فَجَعَلَ الْإِنْسَانَ مُخْتَانًا.

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ نَفْسَهُ هِيَ الَّتِي تَخْتَانُ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَضُرُّ؛ لِأَنَّ مَبْدَأَ ذَلِكَ مِنْ شَهْوَتِهَا، لَيْسَ هُوَ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ الْعَقْلُ وَالرَّأْيُ، وَمَبْدَأُ السَّفَهِ مِنْهَا لِخِفَّتِهَا وَطَيْشِهَا، وَالْإِنْسَانُ تَأْمُرُهُ نَفْسُهُ فِي السِّرِّ بِأُمُورٍ يَنْهَاهَا عَنْهُ الْعَقْلُ وَالدِّينُ فَتَكُونُ نَفْسُهُ اخْتَانَتْهُ وَغَلَبَتْهُ، وَهَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي أَمْرِ الْجِمَاعِ وَالْمَالِ؛ وَلِهَذَا لَا يُؤْتَمَنُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ وَيُقْصَدُ بالائتمان مَنْ لَا تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى الْخِيَانَةِ فِي ذَلِكَ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: لَوْ ائْتَمَنْت عَلَى بَيْتِ مَالٍ لَأَدَّيْت الْأَمَانَةَ، وَلَوْ ائْتَمَنْت عَلَى امْرَأَةٍ سَوْدَاءَ لَخِفْت أَنْ لَا أُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ فِيهَا. وَكَذَلِكَ الْمَالُ لَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ أَصْحَابُ الْأَنْفُسِ الْحَرِيصَةِ عَلَى أَخْذِهِ كَيْفَ اتَّفَقَ. وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ النَّفْسَ تَخُونُ أَمَانَتَهَا، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ ابْتِدَاءً لَا يَقْصِدُ الْخِيَانَةَ، فَتَحْمِلُهُ عَلَى الْخِيَانَةِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، وَتَغْلِبُهُ عَلَى رَأْيِهِ؛ وَلِهَذَا يَلُومُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ وَيَذُمُّهَا، وَيَقُولُ هَذِهِ النَّفْسُ الْفَاعِلَةُ الصَّانِعَةُ؛ فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي اخْتَانَتْ.

قال ابن العثيمين: {فتاب عليكم}: أي تاب عليكم بنسخ الحكم الأول الذي فيه مشقَّة؛ والنسخ إلى الأسهل توبة كما في قوله تعالى في سورة المزمل: {علم أن لن تحصوه فتاب عليكم}[المزمل: ٢٠]؛ فيعبر الله عز وجل عن النسخ بالتوبة إشارة إلى أنه لولا النسخ لكان الإنسان آثمًا إما بفعل محرَّم؛ أو بترك واجب.

{وعفا عنكم}: أي تجاوز عما وقع منكم من مخالفة.

قال القرطبي: يحتمل معنيين: أحدهما – قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم. والآخر – التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة.

قال ابن العثيمين: {فالآن باشروهن}: الفاء حرف عطف تقتضي الترتيب – يعني فالآن بعد التحريم، وبعد تحقيق التوبة، والعفو {باشروهن}؛ وكلمة {الآن} اسم إشارة إلى الزمن الحاضر؛ وهي مبنية على الفتح في محل نصب؛ والمراد بالمباشرة الجماع؛ وسمِّي كذلك لالتقاء البشرتين فيه – بشرة المرأة، وبشرة الرجل –.

قال القرطبي: الخامسة: قوله تعالى: {وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} قال ابن عباس ومجاهد والحكم بن عيينة وعكرمة والحسن والسدي والربيع والضحاك: معناه وابتغوا الولد، يدل عليه أنه عقيب قوله: {فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ}.

قال السعدي: {فالآن} بعد هذه الرُّخصة والسعة من الله {باشروهن} وطأ وقبلة ولمسًا وغير ذلك.

{وابتغوا ما كتب الله لكم} أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

قال القرطبي: السادسة: قوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا}. هذا جواب نازلة قيس، والأول جواب عمر، وقد ابتدأ بنازلة عمر لأنه المهم فهو المقدم.

قال ابن العثيمين: {وكلوا واشربوا} معطوفة على قوله تعالى: {باشروهن}: أي لكم الأكل، والشرب.

قال القرطبي: السابعة: قوله تعالى: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} {حتى} غاية للتبيين، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر. واختلف في الحد الذي بتبينه يجب الإمساك، فقال الجمهور: ذلك الفجر المعترض في الأفق يمنه ويسرة، وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار. روى مسلم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال قال رسول اللّه ﷺ: ((لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير(١)هكذا)). وحكاه حماد(٢) بيديه قال: يعني معترضا(٣). وفي حديث ابن مسعود: ((إن

١- يستطير: أي ينتشر ضوئه ويعترض في الأفق بخلاف المستطيل، والإستطارة هذه تكون بعد غيبوبة ذلك المستطيل.

٢- حماد هذا هو حماد بن زيد أحد رجال سند هذا الحديث.

٣- (قلت): رواه مسلم في صحيحه: (باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر)، برقم (١٠٩٤).

الفجر ليس الذي يقول هكذا – وجمع أصابعه ثم نكسها إلى الأرض – ولكن الذي يقول([1]) هكذا – ووضع المسبحة على المسبحة ومدَّ يديه([2]))).

قال ابن العثيمين: {من الفجر} بيان لمعنى {الخيط الأبيض}؛ ولم يذكر في الخيط الأسود (من الليل) اكتفاء بالأول، كما في قوله تعالى: {وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر}[النحل: ٨١] يعني: والبرد؛ فهذا من باب الاكتفاء بذكر أحد المتقابلين عن المقابل الآخر.

قال القرطبي: الثامنة: أن الصيام من جملة العبادات فلا يصح إلا بنيَّة، وقد وقتها الشارع قبل الفجر، وروى الدار قطني عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((من لم يبيت الصيام قبل طلوع الفجر فلا صيام له([3]))). تفرَّد به عبدالله بن عباد عن المفضل بن فضالة بهذا الإسناد، وكلهم ثقات. وروي عن حفصة أن النبي ﷺ قال: ((من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له([4]))). رفعه عبدالله بن أبي بكر وهو من الثقات الرفعاء، وروي عن حفصة مرفوعًا من قولها. ففي هذين الحديثين دليل على ما قاله الجمهور في الفجر، ومنع من الصيام دون نيَّة قبل الفجر، خلافًا لقول أبي حنيفة([5]).

قال ابن العثيمين: {ثم أتموا الصيام}: أي أكملوا الصيام على وجه التمام؛ {إلى الليل}: أي إلى دخول الليل؛ وذلك بغروب الشمس؛ لقول النبي ﷺ: ((إذا أقبل الليل من هاهنا – وأدبر النهار من هاهنا – وغربت الشمس فقد أفطر الصائم([6])))؛ وبمجرَّد غروب الشمس – أي غروب قرصها – يكون الإفطار؛ وليس بشرط أن تزول الحمرة، كما يظن بعض العوام؛ إذا الصوم محدود: من، وإلى؛ فلا يزاد فيه ولا ينقص؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى – في الفوائد حكم الوصال.

١- قال ابن الأثير في النهاية: ((العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان، فتقول: قال بيده، أي أخذه. وقال برجله، أي مشى. وقال بثوبه، أي رفعه، وكل ذلك على المجاز والإتساع)) فمعنى يقول هنا: يظهر.

٢- (قلت): رواه مسلم في صحيحه: (باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر)، برقم (١٠٩٣).

٣- (قلت): رواه الدار قطني في سننه: (باب النية في الصيام) برقم (٢٢١٣). وصححه الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (١١٤٨٠)، وانظر حديث رقم: (٦٥٣٤) في صحيح الجامع.

٤- (قلت): قال الترمذي في سننه: حديث حفصة حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه وقد روي عن نافع عن ابن عمر قوله وهو أصح وهكذا أيضًا روي هذا الحديث عن الزهري موقوفًا ولا نعلم أحدًا رفعه إلا يحيى بن أيوب وإنَّما معنى هذا عند أهل العلم لا صيام لمن لم يجمع الصيام قبل طلوع الفجر في رمضان أو في قضاء رمضان أو في صيام نذر إذا لم ينوه من الليل لم يجزه وأما صيام التطوع فمباح له أن ينويه بعدما أصبح وهو قول الشافعي وأحمد وإسحق.
قال الشيخ الألباني : صحيح.

٥- (قلت): يشترط لذلك أن يكون عالماً بالوجوب قبل الفجر. وإذا بلغه الوجوب بعد الفجر وفي أي وقت كان فينوي الصوم ولو كان قد أكل وشرب، وليس عليه قضاء، كما جاء في حديث العاشوراء. أنظر كلام الإمام الألباني على هذا الحديث عند تفسير الآية (١٨٣، ١٨٤) من سورة البقرة.

٦- أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٣: متى يحل فطر الصائم، حديث، رقم ١٩٥٤، وأخرجه مسلم ص٨٥٣، كتاب الصيام، باب ١٠ بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار، حديث رقم ٢٥٥٨ [٥١] ١١٠٠.

قال القرطبي: التاسعة: قوله تعالى: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} جعل الله جل ذكره الليل ظرفًا للأكل والشرب والجماع، والنهار ظرفًا للصيام، فبين أحكام الزمانين وغاير بينهما. فلا يجوز في اليوم شيء مما أباحه بالليل إلا لمسافر أو مريض، كما تقدم بيانه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٥ص٢١٩: فَصْلٌ: فِيمَا يُفْطِرُ الصَّائِمَ وَمَا لَا يُفْطِرُهُ وَهَذَا نَوْعَانِ:

مِنْهُ مَا يُفْطِرُ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَهُوَ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ، وَالْجِمَاعُ، قَالَ تَعَالَى: {فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}، فَأَذِنَ فِي الْمُبَاشَرَةِ، فَعُقِلَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ الصِّيَامُ مِنْ الْمُبَاشَرَةِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَمَّا قَالَ أَوَّلًا: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، كَانَ مَعْقُولًا عِنْدَهُمْ: أَنَّ الصِّيَامَ هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ، وَلَفْظُ {الصِّيَامِ} كَانُوا يَعْرِفُونَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ويستعملونه، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – ((أَنَّ يَوْمَ عَاشُورَاءَ كَانَ يَوْمًا تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ([1]))).

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ: أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ شَهْرُ رَمَضَانَ أَمَرَ بِصَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ وَأَرْسَلَ مُنَادِيًا يُنَادِي بِصَوْمِهِ([2])، فَعُلِمَ أَنَّ مُسَمَّى هَذَا الِاسْمِ كَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ.

وَكَذَلِكَ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ وَاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ: أَنَّ دَمَ الْحَيْضِ يُنَافِي الصَّوْمَ، فَلَا تَصُومُ الْحَائِضُ، لَكِنْ تَقْضِي الصِّيَامَ([3]).

وَثَبَتَ بِالسُّنَّةِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ لَقِيطِ بْنِ صَبِرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: ((وَبَالِغْ فِي الِاسْتِنْشَاقِ إلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا([4])))، فَدَلَّ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ إنْزَالَ الْمَاءِ مِنْ الْأَنْفِ يُفْطِرُ الصَّائِمَ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ.

وَفِي السُّنَنِ حَدِيثَانِ: أَحَدُهُمَا: حَدِيثُ هِشَامِ بْنِ حَسَّانٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ ذَرَعَهُ قَيْءٌ وَهُوَ صَائِمٌ فَلَيْسَ عَلَيْهِ قَضَاءٌ، وَإِنْ استقاء فَلْيَقْضِ([5]))).

١- البخاري في الصوم (٢٠٠٢)، ومسلم في الصيام (١١٢٥/١١٣) كلاهما عن عائشة.

٢- البخاري في الصوم (٢٠٠١)، ومسلم في الصيام (١١٢٥/١١٥)، وأبو داود في الصوم (٢٤٤٢) كلهم عن عائشة.

٣- مسلم في الحيض (٣٣٥/٦٩)، والترمذي في الصوم (٧٨٧) وقال: (حديث حسن).

٤- أبو داود في الصوم (٢٣٦٦)، والترمذي في الصوم (٧٨٨) وقال: (حديث حسن صحيح)، والنسائي في الطهارة (٨٧)، وابن ماجة في الطهارة (٤٠٧)، وأحمد ٣٣/٤.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٤٨).

٥- أبو داود في الصوم (٢٣٨٠)، والترمذي في الصوم (٧٢٠) وقال: (حسن غريب)، وابن ماجة في الصيام (١٦٧٦)، وأحمد ٤٩٨/٢.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٥٩).

قَالَ الْخَطَّابِيِّ: وَذَكَرَ أَبُو دَاوُد أَنَّ حَفْصَ بْنَ غِيَاثٍ رَوَاهُ عَنْ هِشَامٍ، كَمَا رَوَاهُ عِيسَى بْنُ يُونُسَ، قَالَ: وَلَا أَعْلَمُ خِلَافًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَنَّ مَنْ ذَرَعَهُ الْقَيْءُ فَإِنَّهُ لَا قَضَاءَ عَلَيْهِ، وَلَا فِي أَنَّ مَنْ استقاء عَامِدًا فَعَلَيْهِ الْقَضَاءُ، وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِي الْكَفَّارَةِ، فَقَالَ عَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ: لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُ الْقَضَاءِ. إلى أن قال رحمه الله:

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ ذَكَرْتُمْ أَنَّ مَنْ أَفْطَرَ عَامِدًا بِغَيْرِ عُذْرٍ كَانَ فِطْرُهُ مِنْ الْكَبَائِرِ، وَكَذَلِكَ مَنْ فَوَّتَ صَلَاةَ النَّهَارِ إلَى اللَّيْلِ عَامِدًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ كَانَ تَفْوِيتُهُ لَهَا مِنْ الْكَبَائِرِ، وَأَنَّهَا مَا بَقِيَتْ تُقْبَلُ مِنْهُ عَلَى أَظْهَرِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ، كَمَنْ فَوَّتَ الْجُمُعَةَ، وَرَمَى الْجِمَارَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ الْمُؤَقَّتَةِ، وَهَذَا قَدْ أَمَرَهُ بِالْقَضَاءِ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثِ الْمُجَامِعِ فِي رَمَضَانَ: أَنَّهُ أَمَرَهُ بِالْقَضَاءِ، قِيلَ: هَذَا إنَّمَا أَمَرَهُ بِالْقَضَاءِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إنَّمَا يَتَقَيَّأُ لِعُذْرٍ كَالْمَرِيضِ يَتَدَاوَى بِالْقَيْءِ، أَوْ يَتَقَيَّأُ لِأَنَّهُ أَكَلَ مَا فِيهِ شُبْهَةٌ كَمَا تَقَيَّأَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ كَسْبِ الْمُتَكَهِّنِ.

وَإِذَا كَانَ الْمُتَقَيِّئُ مَعْذُورًا كَانَ مَا فَعَلَهُ جَائِزًا وَصَارَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَرْضَى الَّذِينَ يَقْضُونَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ الَّذِينَ أَفْطَرُوا بِغَيْرِ عُذْرٍ، وَأَمَّا أَمْرُهُ لِلْمُجَامِعِ بِالْقَضَاءِ فَضَعِيفٌ، ضَعَّفَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْحُفَّاظِ، وَقَدْ ثَبَتَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ(١)، وَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ أَمْرَهُ بِالْقَضَاءِ، وَلَوْ كَانَ أَمَرَهُ بِذَلِكَ لَمَا أَهْمَلَهُ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَهُوَ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ يَجِبُ بَيَانُهُ، وَلَمَّا لَمْ يَأْمُرْهُ بِهِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ لَمْ يَبْقَ مَقْبُولًا مِنْهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُتَعَمِّدًا لِلْفِطْرِ لَمْ يَكُنْ نَاسِيًا وَلَا جَاهِلًا(٢).

وَالْمُجَامِعُ النَّاسِي فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ، وَيُذْكَرُ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ عَنْهُ:

إحداها: لَا قَضَاءَ عَلَيْهِ وَلَا كَفَّارَةَ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالْأَكْثَرِينَ.

١- البخاري في الصوم معلّقًا (فتح٤/١٦٠) عن أبي هريرة، (١٩٣٥) عن عائشة، ومسلم في الصيام (١١١١/٨٣، ٨٤، ١١١٢/٨٥).

٢- (قلت): وأما حكم من أفطر في رمضان عامدًا متعمدًا وبدون عذر شرعي: قال كمال بن السيد سالم في صحيح فقه السنة: وذهب ابن حزم في المحلّى (١٨٠/٦) الى أنه لا يشرع له القضاء اذا أفطر متعمداً بغير عذر على أصله في أن العبادة الموقتة محددة الطرفين اذا تركت من غير عذر لم يشرع قضاؤها الّا بنص جديد، فإيجاب صيام غير رمضان – الذي افترض عليه صيامه– بدلاً منه، ايجاب شرع لم يأذن به الله تعالى.

قال كمال بن السيد سالم (قلت): وهو مذهب قوي – كما تقدم تحريره في قضاء الصلوات الفائتة – ويؤيده هنا أنه لم يثبت أمر النبي ﷺ للمجامع في رمضان بالقضاء مع ثبوت الكفارة، وقد صح عن ابن مسعود أنه قال: (من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا رخصة لم يجزِه صيام الدهر كله)، أخرجه ابن أبي شيبة (٩٧٨٤) بإسناد صحيح. ونحوه عن ابو هريرة. أ. هـ.

– وقال الإمام الألباني في تمام المنة في استدراكه على سيد سابق حيث قال رحمه الله: فائدة: لم يتعرض المؤلف لقضاء رمضان ممن أفطره عامدًا متعمدًا هل يشرع له قضاؤه أم لا؟ والظاهر الثاني وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قال في (الاختيارات) ص ٦٥: (لا يقضي متعمد بلا عذر صوما ولا صلاة ولا تصح منه وما روي أن النبي ﷺ أمر المجامع في رمضان بالقضاء ضعيف لعدول البخاري ومسلم عنه).

وهو مذهب ابن حزم ورواه عن أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وأبي هريرة فراجع (المحلّى) ٦ / ١٨٠ – ١٨٥.

لكن تعليل ابن تيمية ضعف حديث أمر المجامع في رمضان بالقضاء بعدول البخاري ومسلم عنه ليس بشيء عندي فكم من حديث عدل الشيخان عنه وهو صحيح، والحق أنه ثابت صحيح بمجموع طرقه كما قال الحافظ ابن حجر وأحدها صحيح مرسل كما كنت بينته في تعليقي على رسالة ابن تيمية في (الصيام) ص ٢٥ – ٢٧ ثم في (إرواء الغليل) ٤ / ٩٠ – ٩٢ فقضاء المجامع من تمام كفارته فلا يلحق به غيره من المفطرين عمدا ويبقى كلام الشيخ في غيره سليمًا.

وَالثَّانِيَةُ: عَلَيْهِ الْقَضَاءُ بِلَا كَفَّارَةٍ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٌ.

وَالثَّالِثَةُ: عَلَيْهِ الْأَمْرَانِ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَد.

وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ – كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ – فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ بِدَلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: أَنَّ مَنْ فَعَلَ مَحْظُورًا مُخْطِئًا أَوْ نَاسِيًا لَمْ يُؤَاخِذْهُ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يَفْعَلْهُ، فَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ إثْمٌ، وَمَنْ لَا إثْمَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ عَاصِيًا وَلَا مُرْتَكِبًا لِمَا نُهِيَ عَنْهُ، وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ قَدْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ وَلَمْ يَفْعَلْ مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُبْطِلُ عِبَادَتَهُ، إنَّمَا يُبْطِلُ الْعِبَادَاتِ إذَا لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ أَوْ فَعَلَ مَا حُظِرَ عَلَيْهِ.

إلى أن قال رحمه الله:

والصَّائِمَ إذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ أَوْ جَامَعَ نَاسِيًا أَوْ مُخْطِئًا فَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

(فصل)

وَأَمَّا الْكُحْلُ وَالْحُقْنَةُ وَمَا يُقَطَّرُ فِي إحْلِيلِهِ(١)، وَمُدَاوَاةُ الْمَأْمُومَةِ(٢)وَالْجَائِفَةِ(٣)، فَهَذَا مِمَّا تَنَازَعَ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ(٤)، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُفَطِّرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَطَّرَ بِالْجَمِيعِ لَا بِالْكُحْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَطَّرَ بِالْجَمِيعِ لَا بِالتَّقْطِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُفَطِّرْ بِالْكُحْلِ وَلَا بِالتَّقْطِيرِ وَيُفَطِّرُ بِمَا سِوَى ذَلِكَ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ لَا يُفْطِرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الصِّيَامَ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَى مَعْرِفَتِهِ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِمَّا حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي الصِّيَامِ، وَيَفْسُدُ الصَّوْمُ بِهَا لَكَانَ هَذَا مِمَّا يَجِبُ عَلَى الرَّسُولِ بَيَانُهُ، وَلَوْ ذَكَرَ ذَلِكَ لَعَلِمَهُ الصَّحَابَةُ وَبَلَّغُوهُ الْأُمَّةَ كَمَا بَلَّغُوا سَائِرَ شَرْعِهِ، فَلَمَّا لَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ لَا حَدِيثًا صَحِيحًا وَلَا ضَعِيفًا وَلَا مُسْنَدًا وَلَا مُرْسَلًا – عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. وَالْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ فِي الْكُحْلِ ضَعِيفٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي السُّنَنِ(٥)وَلَمْ يَرْوِهِ غَيْرُهُ. وَلَا هُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَد وَلَا سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُعْتَمَدَةِ.

إلى أن قال رحمه الله:

وَإِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ الَّتِي تَعُمُّ بِهَا الْبَلْوَى لَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَهَا الرَّسُولُ ﷺ بَيَانًا عَامًّا، وَلَا بُدَّ أَنْ تَنْقُلَ الْأُمَّةُ ذَلِكَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكُحْلَ وَنَحْوَهُ مِمَّا تَعُمُّ بِهِ الْبَلْوَى كَمَا تَعُمُّ بِالدُّهْنِ وَالِاغْتِسَالِ وَالْبَخُورِ وَالطِّيبِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا يُفْطِرُ لَبَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ

١- الإحليل: مخرج البول من الإنسان، ومخرج اللبن من الثدي والضرع. أنظر: لسان العرب، مادة (حلل).

٢- المأمومة: الإصابة البالغة في الرأس. أنظر: القاموس، مادة (أمم).

٣- الجائفة: الطعنة تبلغ الجوف. أنظر: القاموس، مادة (جوف).

٤- من هنا يبدأ النوع الثاني فيما يفطر الصائم ومالا يفطره.

٥- أبو داود في الصوم (٢٣٧٧)، وضعفه الألباني. وقال يحيى بن معين: هذا حديث منكر.

كَمَا بَيَّنَ الْإِفْطَارَ بِغَيْرِهِ، فَلَمَّا لَمْ يُبَيِّنْ ذَلِكَ عُلِمَ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الطِّيبِ وَالْبَخُورِ وَالدُّهْنِ، وَالْبَخُورُ قَدْ يَتَصَاعَدُ إلَى الْأَنْفِ وَيَدْخُلُ فِي الدِّمَاغِ وَيَنْعَقِدُ أَجْسَامًا، وَالدُّهْنُ يَشْرَبُهُ الْبَدَنُ وَيَدْخُلُ إلَى دَاخِلِهِ وَيَتَقَوَّى بِهِ الْإِنْسَانُ، وَكَذَلِكَ يَتَقَوَّى بِالطِّيبِ قُوَّةً جَيِّدَةً، فَلَمَّا لَمْ يَنْهَ الصَّائِمَ عَنْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى جَوَازِ تَطْيِيبِهِ وَتَبْخِيرِهِ وَادِّهَانِهِ، وَكَذَلِكَ اكْتِحَالُهُ.

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي عَهْدِهِ ﷺ يُجْرَحُ أَحَدُهُمْ إمَّا فِي الْجِهَادِ وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ مَأْمُومَةً وَجَائِفَةً، فَلَوْ كَانَ هَذَا يُفْطِرُ لَبَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ، فَلَمَّا لَمْ يَنْهَ الصَّائِمَ عَنْ ذَلِكَ عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهُ مُفْطِرًا.

إلى أن قال رحمه الله:

وَالدَّوَاءُ الَّذِي يَصِلُ إلَى الْمَعِدَةِ فِي مُدَاوَاةِ الْجَائِفَةِ وَالْمَأْمُومَةِ لَا يُشْبِهُ مَا يَصِلُ إلَيْهَا مِنْ غِذَائِهِ، وَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ – قَالَ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} وَقَالَ ﷺ: ((الصَّوْمُ جُنَّةٌ([١])))، وَقَالَ: ((إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ بِالصَّوْمِ([٢]))).

فَالصَّائِمُ نُهِيَ عَنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ سَبَبُ التَّقَوِّي، فَتَرْكُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ الَّذِي يُوَلِّدُ الدَّمَ الْكَثِيرَ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ الشَّيْطَانُ إنَّمَا يَتَوَلَّدُ مِنْ الْغِذَاءِ لَا عَنْ حُقْنَةٍ وَلَا كُحْلٍ، وَلَا مَا يُقْطَرُ فِي الذَّكَرِ، وَلَا مَا يُدَاوِي بِهِ الْمَأْمُومَةَ وَالْجَائِفَةَ، وَهُوَ مُتَوَلِّدٌ عَمَّا اُسْتُنْشِقَ مِنْ الْمَاءِ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ مِمَّا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ الدَّمُ، فَكَانَ الْمَنْعُ مِنْهُ مِنْ تَمَامِ الصَّوْمِ.

وأَنَّهُ ثَبَتَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ مَنْعُ الصَّائِمِ مِنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ([٣])))، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الدَّمَ يَتَوَلَّدُ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَإِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ اتَّسَعَتْ مَجَارِي الشَّيَاطِينِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ((فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ))، وَبَعْضُهُمْ يَذْكُرُ هَذَا اللَّفْظَ مَرْفُوعًا؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ((إذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ([٤])))، فَإِنَّ مَجَارِيَ الشَّيَاطِينِ الَّذِي هُوَ الدَّمُ ضَاقَتْ، وَإِذَا ضَاقَتْ انْبَعَثَتْ الْقُلُوبُ إلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي بِهَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَإِلَى تَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ الَّتِي بِهَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ، فَضَعُفَتْ قُوَّتُهُمْ وَعَمَلُهُمْ بِتَصْفِيدِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَفْعَلُوا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي غَيْرِهِ، وَلَمْ يَقُلْ: إنَّهُمْ قُتِلُوا وَلَا مَاتُوا، بَلْ قَالَ: ((صُفِّدَتْ)) وَالْمُصَفَّدُ مِنْ الشَّيَاطِينِ قَدْ يُؤْذِي، لَكِنَّ هَذَا أَقَلُّ وَأَضْعَفُ مِمَّا يَكُونُ فِي

١- البخاري في الصوم (١٨٩٤)، ومسلم في الصيام (١١٥١/١٦٢)، وأبو داود في الصوم (٢٣٦٣)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥ ، ٢٢١٦)، وأحمد ٢/٢٧٣ كلهم عن أبي هريرة.

٢- البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩)، وأبو داود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجة في الصيام (١٧٧٩)، وأحمد ٦/٣٣٧ كلهم عن صفية أم المؤمنين.

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: هذا حديث صحيح، أخرجه الشيخان من حديث أنس وصفية رضي الله عنهما، هكذا، وقد ذكره ابن تيمية في مكان آخر من رسالته في (الصيام) (ص ٧٥) بزيادة: ((فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم))، ولا أصل لها من شيء من كتب السنة التي وقفت عليها، وإنما هي في (كتاب الإحياء) للغزالي فقط كما نبهت عليه في التعليق على الرسالة المذكورة. اهـ.

٤- مسلم في الصيام (١٠٧٩/١)، والترمذي في الصوم (٦٨٢)، والنسائي في الصيام (٢٠٩٧ ،٢٠٩٨)، وابن ماجة في الصيام (١٦٤٢)، وأحمد ٢/٣٥٧ كلهم عن أبي هريرة.

غَيْرِ رَمَضَانَ، فَهُوَ بِحَسَبِ كَمَالِ الصَّوْمِ وَنَقْصِهِ، فَمَنْ كَانَ صَوْمُهُ كَامِلًا دَفَعَ الشَّيْطَانَ دَفْعًا لَا يَدْفَعُهُ دَفْعُ الصَّوْمِ النَّاقِصِ، فَهَذِهِ الْمُنَاسَبَةُ ظَاهِرَةٌ فِي مَنْعِ الصَّائِمِ مِنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَالْحُكْمُ ثَابِتٌ عَلَى وَفْقِهِ، وَكَلَامُ الشَّارِعِ قَدْ دَلَّ عَلَى اعْتِبَارِ هَذَا الْوَصْفِ وَتَأْثِيرِهِ، وَهَذَا الْمَنْعُ مُنْتَفٍ فِي الْحُقْنَةِ وَالْكُحْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: بَلْ الْكُحْلُ قَدْ يَنْزِلُ إلَى الْجَوْفِ وَيَسْتَحِيلُ دَمًا.

قِيلَ: هَذَا كَمَا قَدْ يُقَالُ فِي الْبُخَارِ الَّذِي يَصْعَدُ مِنْ الْأَنْفِ إلَى الدِّمَاغِ فَيَسْتَحِيلُ دَمًا، وَكَالدُّهْنِ الَّذِي يَشْرَبُهُ الْجِسْمُ، وَالْمَمْنُوعُ مِنْهُ إنَّمَا هُوَ مَا يَصِلُ إلَى الْمَعِدَةِ، فَيَسْتَحِيلُ دَمًا وَيَتَوَزَّعُ عَلَى الْبَدَنِ.

فَنَقِيسُ الْكُحْلَ وَالْحُقْنَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ عَلَى الْبَخُورِ وَالدُّهْنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِجَامِعِ مَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِمَّا يَتَغَذَّى بِهِ الْبَدَنُ وَيَسْتَحِيلُ فِي الْمَعِدَةِ دَمًا، وَهَذَا الْوَصْفُ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ أَنْ لَا تَكُونَ هَذِهِ الْأُمُورُ مُفْطِرَةً، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ، وَالْفَرْعُ قَدْ يَتَجَاذَبُهُ أَصْلَانِ فَيَلْحَقُ كُلًّا مِنْهُمَا بِمَا يُشْبِهُهُ مِنْ الصِّفَاتِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَالْجِمَاعُ مُفْطِرٌ، وَهَذِهِ الْعِلَّةُ مُنْتَفِيَةٌ فِيهِ؟

قِيلَ: تِلْكَ أَحْكَامٌ ثَابِتَةٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، فَلَا يَحْتَاجُ إثْبَاتُهَا إلَى الْقِيَاسِ؛ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْعِلَلُ مُخْتَلِفَةً، فَيَكُونُ تَحْرِيمُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْفِطْرُ بِذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، وَتَحْرِيمُ الْجِمَاعِ وَالْفِطْرُ بِهِ لِحِكْمَةٍ، وَالْفِطْرُ بِالْحَيْضِ لِحِكْمَةٍ فَإِنَّ الْحَيْضَ لَا يُقَالُ فِيهِ إنَّهُ يَحْرُمُ، وَهَذَا لِأَنَّ الْمُفْطِرَاتِ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ لَمَّا انْقَسَمَتْ إلَى أُمُورٍ اخْتِيَارِيَّةٍ تَحْرُمُ عَلَى الْعَبْدِ كَالْأَكْلِ وَالْجِمَاعِ، وَإِلَى أُمُورٍ لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِيهَا كَدَمِ الْحَيْضِ، كَذَلِكَ تَنْقَسِمُ عِلَلُهَا.

فَنَقُولُ: أَمَّا الْجِمَاعُ فَإِنَّهُ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ سَبَبُ إنْزَالِ الْمَنِيِّ يَجْرِي مَجْرَى الِاسْتِقَاءَةِ وَالْحَيْضُ وَالِاحْتِجَامُ – كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى – فَإِنَّهُ مِنْ نَوْعِ الِاسْتِفْرَاغِ لَا الِامْتِلَاءِ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ إحْدَى الشَّهْوَتَيْنِ، فَجَرَى مَجْرَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عن اللَّهِ – تَعَالَى –((قَالَ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي(١))، فَتَرْكُ الْإِنْسَانِ مَا يَشْتَهِيهِ لِلَّهِ هُوَ عِبَادَةٌ مَقْصُودَةٌ يُثَابُ عَلَيْهَا كَمَا يُثَابُ الْمُحْرِمُ عَلَى تَرْكِ مَا اعْتَادَهُ مِنْ اللِّبَاسِ وَالطِّيبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ نَعِيمِ الْبَدَنِ، وَالْجِمَاعُ مِنْ أَعْظَمِ نَعِيمِ الْبَدَنِ، وَسُرُورِ النَّفْسِ وَانْبِسَاطِهَا، هُوَ يُحَرِّكُ الشَّهْوَةَ وَالدَّمَ وَالْبَدَنَ أَكْثَرَ مِنْ الْأَكْلِ، فَإِذَا كَانَ الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَالْغِذَاءُ يَبْسُطُ الدَّمَ الَّذِي هُوَ مَجَارِيهِ، فَإِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ انْبَسَطَتْ نَفْسُهُ إلَى الشَّهَوَاتِ، وَضَعُفَتْ إرَادَتُهَا وَمَحَبَّتُهَا لِلْعِبَادَاتِ، فَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْجِمَاعِ أَبْلَغُ، فَإِنَّهُ يَبْسُطُ إرَادَةَ النَّفْسِ لِلشَّهَوَاتِ، وَيُضْعِفُ إرَادَتَهَا عَنْ الْعِبَادَاتِ أَعْظَمَ، بَلْ الْجِمَاعُ هُوَ غَايَةُ الشَّهَوَاتِ، وَشَهْوَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ شَهْوَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ وَلِهَذَا أَوْجَبَ عَلَى الْمُجَامِعِ كَفَّارَةَ الظِّهَارِ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ الْعِتْقُ أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ بِالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ؛ لِأَنَّ هَذَا أَغْلَظُ، وَدَاعِيَهُ أَقْوَى وَالْمَفْسَدَةَ بِهِ أَشَدُّ، فَهَذَا أَعْظَمُ الْحِكْمَتَيْنِ فِي تَحْرِيمِ الْجِمَاعِ.

١- البخاري في الصوم (١٨٩٤)، ومسلم في الصيام (١١٥١/١٦١) كلاهما عن أبي هريرة.

وَأَمَّا كَوْنُهُ يُضْعِفُ الْبَدَنَ كَالِاسْتِفْرَاغِ، فَذَاكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى، فَصَارَ فِيهِمَا كَالْأَكْلِ وَالْحَيْضِ وَهُوَ فِي ذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْهُمَا، فَكَانَ إفْسَادُهُ الصَّوْمَ أَعْظَمَ مِنْ إفْسَادِ الْأَكْلِ وَالْحَيْضِ.

فَنَذْكُرُ حِكْمَةَ الْحَيْضِ وَجَرَيَانَ ذَلِكَ عَلَى وَفْقِ الْقِيَاسِ، فَنَقُولُ: إنَّ الشَّرْعَ جَاءَ بِالْعَدْلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْإِسْرَافُ فِي الْعِبَادَاتِ مِنْ الْجَوْرِ الَّذِي نَهَى عَنْهُ الشَّارِعُ وَأَمَرَ بِالِاقْتِصَادِ فِي الْعِبَادَاتِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ بِتَعْجِيلِ الْفِطْرِ وَتَأْخِيرِ السُّحُورِ، وَنَهَى عَنْ الْوِصَالِ وَقَالَ: ((أَفْضَلُ الصِّيَامِ وَأَعْدَلُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إذَا لَاقَى([1]))، فَالْعَدْلُ فِي الْعِبَادَاتِ مِنْ أَكْبَرِ مَقَاصِدِ الشَّارِعِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} الْآيَةَ [المائدة: ٨٧]، فَجَعَلَ تَحْرِيمَ الْحَلَالِ مِنْ الِاعْتِدَاءِ الْمُخَالِفِ لِلْعَدْلِ، وَقَالَ تَعَالَى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ}[النساء: ١٦٠، ١٦١]، فَلَمَّا كَانُوا ظَالِمِينَ عُوقِبُوا بِأَنْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الطَّيِّبَاتُ؛ بِخِلَافِ الْأُمَّةِ الْوَسَطِ الْعَدْلِ، فَإِنَّهُ أَحَلَّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَالصَّائِمُ قَدْ نُهِيَ عَنْ أَخْذِ مَا يُقَوِّيهِ وَيُغَذِّيهِ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَيُنْهَى عَنْ إخْرَاجِ مَا يُضْعِفُهُ وَيُخْرِجُ مَادَّتَهُ الَّتِي بِهَا يَتَغَذَّى، وَإِلَّا فَإِذَا مُكِّنَ مِنْ هَذَا ضَرَّهُ وَكَانَ مُتَعَدِّيًا فِي عِبَادَتِهِ لَا عَادِلًا.

وَالْخَارِجَاتُ نَوْعَانِ: نَوْعٌ يَخْرُجُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الِاحْتِرَازِ مِنْهُ أَوْ عَلَى وَجْهٍ لَا يَضُرُّهُ، فَهَذَا لَا يُمْنَعُ مِنْهُ كَالْأَخْبَثَيْنِ، فَإِنَّ خُرُوجَهُمَا لَا يَضُرُّهُ، وَلَا يُمْكِنُهُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ أَيْضًا، وَلَوْ اسْتَدْعَى خُرُوجَهُمَا فَإِنَّ خُرُوجَهُمَا لَا يَضُرُّهُ بَلْ يَنْفَعُهُ، وَكَذَلِكَ إذَا ذَرَعَهُ الْقَيْءُ لَا يُمْكِنُهُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الِاحْتِلَامُ فِي الْمَنَامِ لَا يُمْكِنُهُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ، وَأَمَّا إذَا استقاء فَالْقَيْءُ يُخْرِجُ مَا يَتَغَذَّى بِهِ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْمُسْتَحِيلِ فِي الْمَعِدَةِ، وَكَذَلِكَ الِاسْتِمْنَاءُ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ الشَّهْوَةِ فَهُوَ يُخْرِجُ الْمَنِيَّ الَّذِي هُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي الْمَعِدَةِ عَنْ الدَّمِ، فَهُوَ يُخْرِجُ الدَّمَ الَّذِي يَتَغَذَّى بِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ خُرُوجُ الْمَنِيِّ إذَا أَفْرَطَ فِيهِ يَضُرُّ الْإِنْسَانَ وَيَخْرُجُ أَحْمَرَ.

وَالدَّمُ الَّذِي يَخْرُجُ بِالْحَيْضِ فِيهِ خُرُوجُ الدَّمِ، وَالْحَائِضُ يُمْكِنُهَا أَنْ تَصُومَ فِي غَيْرِ أَوْقَاتِ الدَّمِ فِي حَالٍ لَا يَخْرُجُ فِيهَا دَمُهَا، فَكَانَ صَوْمُهَا فِي تِلْكَ الْحَالِ صَوْمًا مُعْتَدِلًا لَا يَخْرُجُ فِيهِ الدَّمُ الَّذِي يُقَوِّي الْبَدَنَ الَّذِي هُوَ مَادَّتُهُ، وَصَوْمُهَا فِي الْحَيْضِ يُوجِبُ أَنْ يَخْرُجَ فِيهِ دَمُهَا الَّذِي هُوَ مَادَّتُهَا، وَيُوجِبُ نُقْصَانَ بَدَنِهَا وَضَعْفَهَا وَخُرُوجَ صَوْمِهَا عَنْ الِاعْتِدَالِ، فَأُمِرَتْ أَنْ تَصُومَ فِي غَيْرِ أَوْقَاتِ الْحَيْضِ.

١- البخاري في الأنبياء (٣٤١٩)، ومسلم في الصيام (١١٥٩/١٨١)، وأبو داود في الصوم (٢٤٢٧)، والنسائي في الصيام (٢٣٩٣)، وأحمد٢/٢٠٠ كلهم عن عبدالله بن عمرو.

بِخِلَافِ الْمُسْتَحَاضَةِ؛ فَإِنَّ الِاسْتِحَاضَةَ تَعُمُّ أَوْقَاتَ الزَّمَانِ، وَلَيْسَ لَهَا وَقْتٌ تُؤْمَرُ فِيهِ بِالصَّوْمِ، وَكَانَ ذَلِكَ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ– كَذَرْعِ الْقَيْءِ، وَخُرُوجِ الدَّمِ بِالْجِرَاحِ وَالدَّمَامِلِ وَالِاحْتِلَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ مُحَدَّدٌ يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ – فَلَمْ يُجْعَلْ هَذَا مُنَافِيًا لِلصَّوْمِ كَدَمِ الْحَيْضِ.

قال القرطبي: العاشرة: واختلفوا أيضًا فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها في شهر رمضان، فقال مالك وأبو يوسف وأصحاب الرأي: عليها مثل ما على الزوج. وقال الشافعي: ليس عليها إلَّا كفارة واحدة، وسواء طاوعته أو أكرهها([1])، لأنَّ النبي ﷺ أجاب السائل بكفارة واحدة ولم يفصِّل.

الحادية عشرة: لما بين سبحانه محظورات الصيام وهي الأكل والشرب والجماع، ولم يذكر المباشرة التي هي اتصال البشرة بالبشرة كالقبلة والجسة وغيرها، دل ذلك على صحة صوم من قبل وباشر، لأن فحوى الكلام إنما يدلُّ على تحريم ما أباحه الليل وهو الأشياء الثلاثة، ولا دلالة فيه على غيرها بل هو موقوف على الدليل، ولذلك شاع الاختلاف فيه، واختلف علماء السلف فيه، فمن ذلك المباشرة. قال علماؤنا: يكره لمن لا يأمن على نفسه ولا يملكها، لئلّا يكون سببًا إلى ما يفسد الصوم. روى مالك عن نافع أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان ينهي عن القبلة والمباشرة للصائم، وهذا – واللّه أعلم – خوف ما يحدث عنهما، فإن قبل وسلم فلا جناح عليه، وكذلك إن باشر. وروى البخاري عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم([2]). قال أبو عمر: ولا أعلم أحدًا رخَّص فيها لمن يعلم أنه يتولَّد عليه منها ما يفسد صومه، فإن قبل فأمنى فعليه القضاء ولا كفارة، قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن والشافعي، واختاره ابن المنذر وقال: ليس لمن أوجب عليه الكفارة حجة. قال أبو عمر: ولو قبل فأمذى لم يكن عليه شيء عندهم.

الثانية عشرة: والجمهور من العلماء على صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: (وذلك جائز إجماعًا، وقد كان وقع فيه بين الصحابة كلام ثم استقر الأمر على أن من أصبح جنبًا فإن صومه صحيح).

١– (قلت): في كلتا الحالتين فكفارة واحدة وهي على الرجل لأنها حق مال أختصت بالجماع فاختصت بالرجل كالمهر، ولا كفارة عليها مطلقاً ولا قضاء؛ وهو مذهب الشافعي وقول لإمام أحمد. وإن أكره الرجل فلا كفارة عليه ولا قضاء؛ لأن الكفارة إمَّا أن تكون عقوبة، أو ماحية للذنب، ولا حاجة إليها مع الإكراه لعدم الإثم فيه، لقول النبي ﷺ: ((عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))، ولأن الشرع لم يرد بوجوب الكفارة فيه.

٢– (قلت): رواه البخاري في صحيحه (باب المباشرة للصائم) برقم (١٩٢٧): ((كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم وكان أملَكَكُم لإربِهِ)).

وقال مصطفى البغا معلقاً على هذا الحديث: أخرجه مسلم في الصيام باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة. رقم ١١٠٦: (يباشر) من المباشرة وهي الملامسة وأصله من لمس بشرة الرجل بشرة المرأة وقد ترد بمعنى الوطء في الفرج وخارجا منه والمراد هنا غير الجماع. (أملككم لإربه) أقوى منكم في ضبط نفسه والأمن من الوقوع فيما يتولد عن المباشرة من الإنزال أو ما تجر إليه من الجماع. والإرب الحاجة ويطلق على العضو. (مآرب) جمع مآرب وهو الحاجة. / طه ١٨ /. (أولي الإربة) أصحاب الحاجة.

قلت: أما ما ذكر من وقوع الكلام فصحيح مشهور، وذلك قول أبي هريرة: من أصبح جنبًا فلا صوم له، أخرجه الموطأ وغيره. وفي كتاب النسائي أنه قال لما روجع: واللّه ما أنا قلته، محمد ﷺ واللّه قاله. وقد اختلف في رجوعه عنها، وأشهر قوليه عند أهل العلم أنه لا صوم له، حكاه ابن المنذر، وروي عن الحسن بن صالح. وعن أبي هريرة أيضًا قول ثالث قال: إذا علم بجنابته ثم نام حتى يصبح فهو مفطر، وإن لم يعلم حتى أصبح فهو صائم، روي ذلك عن عطاء وطاوس وعروة بن الزبير. وروي عن الحسن والنخعي أن ذلك يجزي في التطوع ويقضى في الفرض.

قلت: فهذه أربعة أقوال للعلماء فيمن أصبح جنبًا، والصحيح منها مذهب الجمهور، لحديث عائشة رضي الله عنها وأم سلمة أن رسول اللّه ﷺ كان يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ثم يصوم. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللّه ﷺ يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من غير احتلام فيغتسل ويصوم، أخرجهما البخاري ومسلم. وهو الذي يفهم من ضرورة قوله تعالى: {فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ} الآية، فإنه لما مَدَّ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر فبالضرورة يعلم أن الفجر يطلع عليه وهو جنب، وإنَّما يتأتى الغسل بعد الفجر. وقد قال الشافعي: ولو كان الذكر داخل المرأة فنزعه مع طلوع الفجر أنه لا قضاء عليه. وقال المزني: عليه القضاء لأنه من تمام الجماع، والأول اصح لما ذكرنا، وهو قول علمائنا.

الثالثة عشرة: واختلفوا في الحائض تطهر قبل الفجر وتترك التطهر حتى تصبح، فجمهورهم على وجوب الصوم عليها وإجزائه، سواء تركته عمدًا أو سهوًا كالجنب، وهو قول مالك وابن القاسم.

الرابعة عشرة: وإذا طهرت المرأة ليلًا في رمضان فلم تدر أكان ذلك قبل الفجر أو بعده، صامت وقضت ذلك اليوم احتياطًا، ولا كفارة عليها.

الخامسة عشرة: روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((أفطر الحاجم والمحجوم(١))). من حديث ثوبان وحديث شداد بن أوس وحديث رافع بن خديج، وبه قال أحمد وإسحاق، وصحح أحمد حديث شداد بن أوس، وصحح علي بن المديني حديث رافع بن خديج. وقال مالك والشافعي والثوري: لا قضاء عليه، إلا أنه يكره له ذلك من أجل التغرير. وفي صحيح مسلم من حديث أنس أنه قيل له: أكنتم تكرهون الحجامة للصائم؟ قال لا، إلا من أجل الضعف. وقال أبو عمر: حديث شداد ورافع وثوبان عندنا منسوخ بحديث ابن عباس: ((أن رسول اللّه ﷺ احتجم صائمًا محرمًا(٢)))، لأن في حديث شداد بن أوس وغيره أنه ﷺ مرَّ عام الفتح على رجل يحتجم لثمان عشره ليلة خلت من رمضان فقال: ((أفطر الحاجم والمحجوم)). واحتجم هو ﷺ عام حجة الوداع وهو محرم صائم، فإذا كانت حجته ﷺ عام حجة الوداع فهي ناسخة لا محالة، لأنه ﷺ لم يدرك بعد ذلك رمضان، لأنه توفي في ربيع الأول ﷺ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٩٣١).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٥٤).

قال الأمام الألباني في إرواء الغليل: (فائدة): عن أنس بن مالك قال: (أول ما كرهت الحجامة للصائم؛ أن جعفر بن أبي طالب احتجم وهو صائم، فمرَّ به النبي ﷺ فقال: ((أفطر هذان))، ثم رخَّص النبي ﷺ بعد فى الحجامة للصائم وكان أنس يحتجم وهو صائم). حديث أنس هذا صريح فى نسخ الأحاديث المتقدمة ((أفطر الحاجم والمحجوم)). ومثله ما أخرجه الطبراني فى (الأوسط) (١/١٠١/٢) من طريق أخرى عن أنس: ((أن النبي ﷺ احتجم بعدما قال: أفطر الحاجم والمحجوم)). وقال: (لم يروه عن أبى قلابة إلا أبو سفيان وهو السعدى واسمه طريف، تفرَّد به أبو حمزة).

قلت: وطريف هذا ضعيف كما قال الحافظ فى (الدراية) و(التقريب).

وأخرجه الدار قطني (٢٣٩) من طريق أخرى عن أنس وقال: (هذا إسناد ضعيف، واختلف عن ياسين الزيات وهو ضعيف) وخير منه حديث أبى سعيد الخدري قال: ((رخَّص رسول الله ﷺ فى القبلة للصائم، والحجامة))، أخرجه الطبراني (١/١٠٢/١) والدار قطني من طريق المعتمر بن سليمان سمعت حميد الطويل يحدث عن أبى المتوكل عن أبى سعيد به. وقال الدار قطني: (كلهم ثقات) وغير معتمر يرويه موقوفًا.

وفى (الفتح) (٤/١٥٥): (وقال ابن حزم: صح حديث أفطر الحاجم والمحجوم بلا ريب، لكن وجدنا من حديث أبى سعيد: أرخص النبي ﷺ فى الحجامة للصائم. وإسناده صحيح، فوجب الأخذ به، لأن الرُّخصة إنما تكون بعد العزيمة، فدلَّ على نسخ الفطر بالحجامة سواء كان حاجمًا أو محجومًا). انتهى. والحديث المذكور أخرجه النسائي (يعنى فى الكبرى) وابن خزيمة والدار قطني، ورجاله ثقات، لكن اختلف فى رفعه ووقفه.

قلت: قد توبع معتمر عليه، فقال الطبراني: حدثنا إبراهيم (هو ابن هاشم) حدثنا أمية حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن حميد عن أنس مثله وزاد: ((ولا تعذبوا أولادكم بالغمز من العذرة)). وقال: (لم يروه عن حميد إلا عبد الوهاب).

قلت: وهو ثقة من رجال مسلم، وسائر الرواة ثقات رجال الشيخين غير إبراهيم، وهو ابن هاشم بن الحسين أبو إسحاق البيع المعروف بـ(البغوي) قال الدار قطني: ثقة، فالسند صحيح، ولا علَّة فيه سوى عنعنة حميد، لكنهم قد ذكروا أن حديثه عن أنس إنما تلقّاه عن ثابت عنه، وثابت ثقة محتج به فى الصحيحين. وعلى ذلك فلحميد فيه إسنادان: أحدهما عن أبى المتوكل عن أبى سعيد. والآخر عن أنس. وله عن أبى المتوكل طريق أخرى، يرويه إسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان، عن خالد الحذاء عن أبى المتوكل به دون ذكر القبلة.

أخرجه الدار قطني وكذا الطبراني والبيهقي (٤/٢٦٤) وقال الدار قطني: (كلهم ثقات، ورواه الأشجعي أيضًا وهو من الثقات).

قلت: ثم ساقه من طريق الأشجعي عن سفيان به وزاد: ((والقبلة)).

قلت: فالحديث بهذه الطرق صحيح لا شك فيه، وهو نص فى النسخ، فوجب الأخذ به كما سبق عن ابن حزم رحمه الله.

قال القرطبي: السادسة عشرة: قوله تعالى: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} أمر يقتضي الوجوب من غير خلاف. و{إلى} غاية، فإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها داخل في حكمه، كقولك: اشتريت الفدان إلى حاشيته، أو اشتريت منك من هذه الشجرة إلى هذه الشجرة – والمبيع شجر، فإن الشجرة داخلة في المبيع. بخلاف قولك: اشتريت الفدان إلى الدار، فإن الدار لا تدخل في المحدود إذ ليست من جنسه. فشرط تعالى تمام الصوم حتى يتبيَّن الليل، كما جوز الأكل حتى يتبيَّن النهار.

السابعة عشرة: ومن تمام الصوم استصحاب النية دون رفعها، فإن رفعها في بعض النهار ونوى الفطر إلا أنه لم يأكل ولم يشرب فجعله في المدونة مفطرًا وعليه القضاء. وفي كتاب ابن حبيب أنه على صومه، قال: ولا يخرجه من الصوم إلا الإفطار بالفعل وليس بالنية.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: {إِلَى اللَّيْلِ} إذا تبيَّن الليل سن الفطر شرعًا، أكل أو لم يأكل. قال ابن العربي: وقد سئل الإمام أبو إسحاق الشيرازي عن رجل حلف بالطلاق ثلاثًا أنه لا يفطر على حار ولا بارد، فأجاب أنه بغروب الشمس مفطر لا شيء عليه، واحتج بقوله ﷺ: ((إذا جاء الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم([١]))). وسئل عنها الإمام أبو نصر بن الصباغ صاحب الشامل فقال: لا بد أن يفطر على حار أو بارد. وما أجاب به الإمام أبو إسحاق أولى، لأنه مقتضى الكتاب والسنة.

التاسعة عشرة: فإن ظن أن الشمس قد غابت لغيم أو غيره فأفطر ثم ظهرت الشمس فعليه القضاء في قول أكثر العلماء. قال عمر في الموطأ في هذا: الخطب يسير، وقد اجتهدنا في الوقت يريد القضاء. وروي عن عمر أنه قال: لا قضاء عليه، وبه قال الحسن البصري: لا قضاء عليه كالنّاسي، وهو قول إسحاق وأهل الظاهر.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٥ص٢٣١: فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: أَفْطَرْنَا يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ فِي غَيْمٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ طَلَعَتْ الشَّمْسُ([٢]). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَيْئَيْنِ: عَلَى أَنَّهُ لَا يُسْتَحَبُّ مَعَ الْغَيْمِ التَّأْخِيرُ إلَى أَنْ يَتَيَقَّنَ الْغُرُوبَ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَالصَّحَابَةُ مَعَ نَبِيِّهِمْ أَعْلَمُ وَأَطْوَعُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ.

وَالثَّانِي: لَا يَجِبُ الْقَضَاءُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَوْ أَمَرَهُمْ بِالْقَضَاءِ لَشَاعَ ذَلِكَ كَمَا نُقِلَ فِطْرُهُمْ، فَلَمَّا لَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى إنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قِيلَ لِهِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ: أُمِرُوا بِالْقَضَاءِ؟ قَالَ: أو بُدٌّ مِنْ الْقَضَاءِ؟.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠). ولكنه ورد بلفظ: ((إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْل من هَهُنَا وَأدبر النَّهَار من هَهُنَا وَغَربَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ)).

٢- البخاري في الصوم (١٩٥٩)، وابن ماجه في الصيام (١٦٧٤)، وأحمد ٣٤٦/٦.

قِيلَ: هِشَامٌ قَالَ ذَلِكَ بِرَأْيِهِ، لَمْ يَرْوِ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ بِذَلِكَ عِلْمٌ: أَنَّ مَعْمَرًا رَوَى عَنْهُ قَالَ: سَمِعْت هِشَامًا قَالَ: لَا أَدْرِي أَقْضَوْا أَمْ لَا؟ ذَكَرَ هَذَا وَهَذَا عَنْهُ الْبُخَارِيُّ، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْمُنْذِرِ عَنْ أَسْمَاءَ.

وَقَدْ نَقَلَ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ: أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالْقَضَاءِ، وَعُرْوَةُ أَعْلَمُ مِنْ ابْنِهِ، وَهَذَا قَوْلُ إسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْه – وَهُوَ قَرِينُ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ – وَيُوَافِقُهُ فِي الْمَذْهَبِ: أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، وَقَوْلُهُمَا كَثِيرًا مَا يُجْمَعُ بَيْنَهُ.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ فِي كِتَابِهِ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ تُبَيِّنُ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالْأَكْلِ إلَى أَنْ يَظْهَرَ الْفَجْرُ، فَهُوَ مَعَ الشَّكِّ فِي طُلُوعِهِ مَأْمُورٌ بِالْأَكْلِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ.

قال القرطبي: الموفية عشرين: قوله تعالى: {إِلَى اللَّيْلِ} فيه ما يقتضي النهي عن الوصال، إذ الليل غاية الصيام، وقالته عائشة. وهذا موضع اختلف فيه، فمن واصل عبدالله بن الزبير وإبراهيم التيمي وأبو الجوزاء وأبو الحسن الدينوري وغيرهم. كان ابن الزبير يواصل سبعًا، فإذا أفطر شرب السَّمن والصبر حتى يفتق أمعاءه، قال: وكانت تيبَّس أمعاؤه. وكان أبو الجوزاء يواصل سبعة أيام وسبع ليال ولو قبض على ذراع الرجل الشديد لحطمها. وظاهر القرآن والسنة يقتضي المنع، قال ﷺ: ((إذا غابت الشمس من ههنا وجاء الليل من ههنا فقد أفطر الصائم)). خرجه مسلم من حديث عبدالله بن أبي أوفى. ونهى عن الوصال، فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوما ثم يوما ثم رأوا الهلال فقال: ((لو تأخر الهلال لزدتكم([1]))) كالمنكل لهم حين أبوا أن ينتهوا. أخرجه مسلم عن أبي هريرة. وفي حديث أنس: ((لو مدَّ لنا الشهر لواصلنا وصالا يدع المتعمقون تعمقهم([2]))). خرجه مسلم أيضا. وقال ﷺ: ((إيَّاكم والوصال إيَّاكم والوصال([3])))، تأكيدًا في المنع لهم منه، وأخرجه البخاري. وعلى كراهية الوصال – لما ذكرنا ولما فيه من ضعف القوى وإنهاك الأبدان – جمهور العلماء. وقد حرَّمه بعضهم لما فيه من مخالفة الظاهر والتشبه بأهل الكتاب، قال ﷺ: ((فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحر([4]))). خرجه مسلم وأبو داود. وفي البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: ((لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السَّحر)) قالوا: فإنك تواصل يا رسول اللّه؟ قال: ((لست كهيئتكم إني

١- (قلت): البخاري (٧٢٩٩)، ومسلم (١١٠٣). والحديث بتمامه: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ تُوَاصِلُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي)) فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوُا الْهِلَالَ، فَقَالَ: ((لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ)) كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا.

٢- (قلت): مسلم (١١٠٤).

٣- (قلت): البخاري (١٩٦٦).

٤- (قلت): مسلم (١٠٩٦).

أبيت لي مطعم وساق يسقيني([1]))). قالوا: وهذا إباحة لتأخير الفطر إلى السحر، وهو الغاية في الوصال لمن أراده، ومنع من اتّصال يوم بيوم، وبه قال أحمد وإسحاق وابن وهب صاحب مالك. واحتج من أجاز الوصال بأن قال: إنما كان النهي عن الوصال لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، فخشي رسول اللّه ﷺ أن يتكلَّفوا الوصال وأعلى المقامات فيفتروا أو يضعفوا عما كان أنفع منه من الجهاد والقوة على العدو، ومع حاجتهم في ذلك الوقت. وكان هو يلتزم في خاصة نفسه الوصال وأعلى مقامات الطاعات، فلما سألوه عن وصالهم أبدى لهم فارقًا بينه وبينهم، وأعلمهم أن حالته في ذلك غير حالاتهم فقال: ((لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)). فلما كمل الإيمان في قلوبهم واستحكم في صدورهم ورسخ، وكثر المسلمون وظهروا على عدوهم، واصل أولياء اللّه وألزموا أنفسهم أعلى المقامات واللّه أعلم.

قلت: ترك الوصال مع ظهور الإسلام وقهر الأعداء أولى، وذلك أرفع الدرجات وأعلى المنازل والمقامات، والدليل على ذلك ما ذكرناه. وأن الليل ليس بزمان صوم شرعي، حتى لو شرع إنسان فيه الصوم بنيَّة ما أثيب عليه، والنبي ﷺ ما أخبر عن نفسه أنه واصل، وإنما الصحابة ظنوا ذلك فقالوا: إنك تواصل، فأخبر أنه يطعم ويسقى. وظاهر هذه الحقيقة: أنه ﷺ يؤتى بطعام الجنة وشرابها. وقيل: إن ذلك محمول على ما يرد على قلبه من المعاني واللطائف، وإذا احتمل اللفظ الحقيقة والمجاز فالأصل الحقيقة حتى يرد دليل يزيلها. ثم لما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم وهو على عادته كما أخبر عن نفسه، وهم على عادتهم حتى يضعفوا ويقل صبرهم فلا يواصلوا. وهذه حقيقة التنكيل حتى يدعوا تعمقهم وما أرادوه من التشديد على أنفسهم. وأيضًا لو تنزلنا على أن المراد بقوله: ((أطعم وأسق)) المعنى لكان مفطرًا حكمًا، كما أن من اغتاب في صومه أو شهد بزور مفطر حكمًا، ولا فرق بينهما، قال ﷺ: ((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه([2]))). وعلى هذا الحد ما واصل النبي ﷺ ولا أمر به، فكان تركه أولى. وباللّه التوفيق.

الحادية والعشرون: ويستحب للصائم إذا أفطر أن يفطر على رطبات أو تمرات أو حسوات من الماء، لما رواه أبو داود عن أنس قال: ((كان رسول اللّه ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلِّي، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من ماء([3]))). وأخرجه الدار قطني وقال فيه: إسناد صحيح. وعن ابن عمر قال: كان رسول اللّه ﷺ يقول إذا أفطر: ((ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء اللّه([4]))). خرجه أبو داود أيضًا. وقال الدار قطني: تفرَّد به الحسين بن واقد إسناده حسن. وروى ابن ماجة عن عبدالله بن الزبير قال: أفطر رسول اللّه ﷺ عند سعد بن معاذ

١- (قلت): البخاري (١٩٦٧).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في (صحيح أبي داود) (٢٠٤٥): خ. وكذلك صححه شعيب الأرنؤوط. وأخرجه أبو بكر البرقاني في كتابه من حديث أحمد بن يونس عن ابن أبي ذئب وهو الذي أخرجه البخاري عنه فزاد فيه ((والجهل)) بعد قوله: ((والعمل به)).

٣- (قلت): حسنه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٩٢٢).

٤- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٤١)، والإرواء (٩٢٠).

فقال: ((أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة([١]))). ورُوي أيضًا عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول اللّه ﷺ: ((من فطر صائمًا كان له مثل أجرهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا([٢]))). وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: ((للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقيَ ربه فرح بصومه([٣]))).

الثانية والعشرون: ويستحب له أن يصوم من شوال ستة أيام، لما رواه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: ((من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر([٤]))، هذا حديث حسن صحيح من حديث سعد بن سعيد الأنصاري المدني، وهو ممن لم يخرج له البخاري شيئًا، وقد جاء بإسناد جيد مفسَّرًا من حديث أبي أسماء الرحبي عن ثوبان مولى النبي ﷺ أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: ((جعل اللّه الحسنة بعشر أمثالها فشهر رمضان بعشرة أشهر وستة أيام بعد الفطر تمام السنة)). رواه النسائي([٥]). واختلف في صيام هذه الأيام، فكرهها مالك في ما ليس منه، وقد وقع ما خافه حتى أنه كان في بعض بلاد خراسان يقومون لسحورها على عادتهم في رمضان. وروى مطرف عن مالك أنه كان يصومها في خاصة نفسه. واستحب صيامها الشافعي، وكرهه أبو يوسف.

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: {وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} بين جل تعالى أن الجماع يفسد الاعتكاف. وأجمع أهل العلم على أن من جامع امرأته وهو معتكف عامدا لذلك في فرجها أنه مفسد لاعتكافه، واختلفوا فيما عليه إذا فعل ذلك، فقال الحسن البصري: عليه ما على المواقع أهله في رمضان. فأما المباشرة من غير جماع فإن قصد بها التلذُّذ فهي مكروهة، وإن لم يقصد لم يكره، لأن عائشة كانت ترجّل رأس رسول اللّه ﷺ وهو معتكف، وكانت لا محالة تمس بدن رسول اللّه ﷺ بيدها، فدلَّ بذلك على أن المباشرة بغير شهوة غير محظورة، هذا قول عطاء والشافعي وابن المنذر. قال أبو عمر: وأجمعوا على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل. واختلفوا فيما عليه إن فعل، فقال مالك والشافعي: إن فعل شيئًا من ذلك فسد اعتكافه، قال المزني. وقال في موضع آخر من مسائل الاعتكاف: لا يفسد الاعتكاف من الوطء إلا ما يوجب الحد، واختاره المزني قياسًا على أصله في الحج والصوم.

قال ابن العثيمين: {ولا تباشروهن}: أي ولا تجامعوهن؛ وذكرها عقب قوله تعالى: {فالآن باشروهن} لئلّا يظن أن المباشرة المأذون فيها شاملة حال الاعتكاف؛ والضمير {هن} يعود على النساء؛ وجملة: {وأنتم عاكفون في المساجد} حال من الواو في قوله تعالى: {لا تباشروهن}؛ و{عاكفون} اسم فاعل من عكف يعكف؛ والعكوف على الشيء ملازمته،

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١١٣٧).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه: صحيح، الروض النضير (٣٢٢) ، التعليق الرغيب (٢ / ٩٥).

٣- (قلت): البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١/١٦٣)، واللفظ له.

٤- (قلت): مسلم (١١٦٤).

٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٠٩٤).

والمداومة عليه؛ ومنه قول إبراهيم عليه السلام لقومه: {ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون}[الأنبياء: ٥٢]: أي مديمون ملازمون؛ والاعتكاف في الشرع هو التعبد لله سبحانه وتعالى بلزوم المساجد لطاعة الله.

قال القرطبي: الرابعة والعشرون: قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ} جملة في موضع الحال. والاعتكاف في اللغة: الملازمة، يقال عكف على الشيء إذا لازمه مقبلًا عليه. قال الراجز:

عكف النبيط يلعبون الفنزجا

وقال الشاعر: وظل بنات الليل حولي عكفا ... عكوف البواكي بينهن صريع

ولما كان المعتكف ملازمًا للعمل بطاعة اللّه مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم. وهو في عرف الشرع: ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص على شرط مخصوص في موضع مخصوص. وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب، وهو قربة من القرب ونافلة من النوافل عمل بها رسول اللّه ﷺ وأصحابه وأزواجه، ويلزمه إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه.

الخامسة والعشرون: أجمع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد، لقول اللّه تعالى: {فِي الْمَسَاجِدِ} واختلفوا في المراد بالمساجد، فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد، وهو ما بناه نبي كالمسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ ومسجد إيلياء[1]، روي هذا عن حذيفة بن اليمان وسعيد بن المسيب، فلا يجوز الاعتكاف عندهم في غيرها. وقال آخرون: لا اعتكاف إلا في مسجد تجمع فيه الجمعة، لأن الإشارة في الآية عندهم إلى ذلك الجنس من المساجد، روي هذا عن علي بن أبي طالب وابن مسعود، وهو قول عروة والحكم وحماد والزهري وأبي جعفر محمد بن علي، وهو أحد قولي مالك. وقال آخرون: الاعتكاف في كل مسجد جائز، يروى هذا القول عن سعيد بن جبير وأبي قلابة وغيرهم، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما. وحجتهم حمل الآية على عمومها في كل مسجد له إمام ومؤذن، وهو أحد قولي مالك، وبه يقول ابن علية وداود بن علي والطبري وابن المنذر.

قال الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة وشيء من فقهها: ((لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة)).

أخرجه الإسماعيلي في (المعجم) (١١٢ / ٢) عن شيخه العباس بن أحمد الوشا: حدثنا محمد بن الفرج، والبيهقي في (السنن) (٤ / ٣١٦) من طريق محمد بن آدم المروزي، كلاهما عن سفيان بن عيينة عن جامع بن أبي شداد عن أبي وائل قال: قال حذيفة لعبد الله [يعني ابن مسعود رضي الله عنه]: [قوم] عكوف بين دارك ودار أبي موسى لا تغير (وفي رواية: لا تنهاهم)؟! وقد علمت أن رسول الله ﷺ قال: فذكره؟! فقال عبد الله: لعلك نسيت وحفظوا، أو أخطأت وأصابوا.

١- إيلياء (بكسر أوله واللام): اسم مدينة بيت المقدس.

قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقول ابن مسعود ليس نصًّا في تخطئته لحذيفة في روايته للفظ الحديث، بل لعله خطأه في استدلاله به على العكوف الذي أنكره حذيفة، لاحتمال أن يكون معنى الحديث عند ابن مسعود: لا اعتكاف كاملًا، كقوله ﷺ: ((لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))، والله أعلم. ثم رأيت الطحاوي قد أخرج الحديث في (المشكل) (٤ / ٢٠) من الوجه المذكور، وادَّعى نسخه!

وكذلك رواه عبد الرزاق في (المصنف) (٤ / ٣٤٨ / ٨٠١٦) وعنه الطبراني (٩ / ٣٥٠ / ٩٥١١) عن ابن عيينة به إلّا أنه لم يصرح برفعه.

ورواه سعيد ابن منصور: أخبرنا سفيان بن عيينة به، إلا أنه شك في رفعه واختصره فقال:.. عن شقيق بن سلمة قال: قال حذيفة لعبد الله بن مسعود: قد علمت أن رسول الله ﷺ قال: ((لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة، أو قال: مسجد جماعة)). ذكره عنه ابن حزم في (المحلَّى) (٥ / ١٩٥)، ثم ردَّ الحديث بهذا الشك. وهو معذور لأنه لم يقف على رواية الجماعة عن ابن عيينة مرفوعًا دون أي شك، وهم:

١- محمد بن الفرج، عند الإسماعيلي.

٢- محمود بن آدم المروزي، عند البيهقي.

٣- هشام بن عمار، عند الطحاوي. وكلهم ثقات، وهذه تراجمهم نقلًا من (التقريب): ١- وهو القرشي مولاهم البغدادي، صدوق من شيوخ مسلم. ٢ - صدوق من شيوخ البخاري فيما ذكر ابن عدي. ٣ - صدوق مقرئ كبر فصار يتلقن، فحديثه القديم أصح، من شيوخ البخاري أيضًا.

قلت: فموافقته للثقتين اللذين قبله دليل على أنه قد حفظه، فلا يضرُّهم من تردُّد في رفعه أو أوقفه، لأن الرفع زيادة من ثقات يجب قبولها. ثم رأيت الفاكهي قد أخرجه في (أخبار مكة) (٢ / ١٤٩ / ١٣٣٤): حدثنا سعيد بن عبد الرحمن ومحمد بن أبي عمر قالا: حدثنا سفيان به. إلا أنهما لم يشكا، وهذه فائدة هامة. وهما ثقتان أيضًا.

وبالجملة، فاتفاق هؤلاء الثقات الخمسة على رفع الحديث دون أي تردُّد فيه لبرهان قاطع على أن الحديث من قوله ﷺ، وأن تردُّد سعيد بن منصور في رفعه لا يؤثِّر في صحَّته، ولاسيَّما أن سياق القصة يؤكد ذلك عند إمعان النظر فيها، ذلك لأن حذيفة رضي الله عنه ما كان لينكر بمجرَّد رأيه على ابن مسعود رضي الله عنه سكوته عن أولئك المعتكفين في المساجد بين الدور، وهو يعلم فضله وفقهه رضي الله عنهما، فلولا أن الحديث عنده مرفوع لمّا تجرَّأ على الإنكار عليه بما لا تقوم الحجة به عليه، حتى رواية عبد الرزاق الموقوفة تؤيد ما ذكرته، فإنها بلفظ: (قوم عكوف بين دارك ودار أبي موسى لا تنهاهم؟! فقال به عبد الله: فلعلهم أصابوا وأخطأت، وحفظوا ونسيت! فقال: حذيفة: (لا اعتكاف إلا في هذه المساجد الثلاثة..) فذكرها.

ومثلها رواية إبراهيم قال: (جاء حذيفة إلى عبد الله فقال: ألا أعجبك من قومك عكوف بين دارك ودار الأشعري، يعني المسجد! قال عبد الله: ولعلهم أصابوا وأخطأت، فقال حذيفة: أما علمت أنه لا اعتكاف إلا في ثلاثة مساجد. (فذكرها)، وما أبالي أعتكف فيه أو في سوقكم هذه [وكان الذين اعتكفوا - وعاب عليهم حذيفة - في مسجد الكوفة الأكبر] .
أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف) (٣ /٩١) والسياق له، وكذا عبد الرزاق (٤ / ٣٤٧ - ٣٤٨) والزيادة له، وعنه الطبراني (٩٥١٠) ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أن إبراهيم - وهو النخعي - لم يدرك حذيفة.
فاحتجاج حذيفة على ابن مسعود بهذه الجملة (لا اعتكاف) يشعر بأنها في موضع الحجة عنده، وإلا لم يقل له: (أما علمت..) إلخ. والله أعلم.
واعلم أن العلماء اختلفوا في شرطية المسجد للاعتكاف وصفته كما تراه مبسوطًا في (المصنفين) المذكورين و(المحلَّى) وغيرهما، وليس في ذلك ما يصحّ الاحتجاج به سوى قوله تعالى: (وأنتم عاكفون في المساجد)، وهذا الحديث الصحيح، والآية عامة، والحديث خاص، ومقتضى الأصول أن يحمل العام على الخاص، وعليه فالحديث مخصّص للآية ومبيِّن لها، وعليه يدلُّ كلام حذيفة وحديثه، والآثار في ذلك مختلفة أيضًا، فالأَولى الأخذ بما وافق الحديث منها كقول سعيد بن المسيب: لا اعتكاف إلا في مسجد نبي. أخرجه ابن أبي شيبة وابن حزم بسند صحيح عنه. ثم رأيت الذهبي قد روى الحديث في (سير أعلام النبلاء) (١٥ / ٨٠) من طريق محمود بن آدم المروزي: حدثنا سفيان به مرفوعًا، وقال: (صحيح غريب عال).
وعلَّق عليه الشيخ شعيب بعد ما عزاه للبيهقي وسعيد بن منصور بقوله: (وقد انفرد حذيفة بتخصيص الاعتكاف في المساجد الثلاثة)! وهذا يبطله قول ابن المسيب المذكور، فتنبه.
على أن قوله هذا يوهم أن الحديث موقوف على حذيفة، وليس كذلك كما سبق تحقيقه، فلا تغتر بمن لا غيرة له على حديث رسول الله ﷺ أن يخالف، والله عز وجل يقول: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}.

قال القرطبي: السادسة والعشرون: وأقل الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة، فإن قال: لله عليّ اعتكاف ليلة لزمه اعتكاف ليلة ويوم. وكذلك إن نذر اعتكاف يوم لزمه يوم وليلة. وقال سحنون: من نذر اعتكاف ليلة فلا شيء عليه. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن نذر يومًا فعليه يوم بغير ليلة، وإن نذر ليلة فلا شيء عليه، كما قال سحنون. قال الشافعي: عليه ما نذر، إن نذر ليلة فليلة، وإن نذر يومًا فيومًا. قال الشافعي: أقلّه لحظة ولا حدَّ لأكثره. وقال بعض أصحاب أبي حنيفة: يصح الاعتكاف ساعة. وعلى هذا القول فليس من شرطه صوم، وروي عن أحمد بن حنبل في أحد قوليه، وهو قول داود بن علي وابن علية، واختاره ابن المنذر وابن العربي. واحتجُّوا بأن اعتكاف رسول اللّه ﷺ كان في رمضان، ومحال أن

يكون صوم رمضان لرمضان ولغيره. ولو نوى المعتكف في رمضان بصومه التطوع والفرض فسد صومه عند مالك وأصحابه. ومعلوم أن ليل المعتكف يلزمه فيه من اجتناب مباشرة النساء ما يلزمه في نهاره، وأن ليله داخل في اعتكافه، وأن الليل ليس بموضع صوم، فكذلك نهاره ليس بمفتقر إلى الصوم، وإن صام فحسن. وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في القول الآخر: لا يصح إلا بصوم. وروي عن ابن عمر وابن عباس وعائشة([1]) رضي الله عنهم. وفي الموطأ عن القاسم بن محمد ونافع مولى عبدالله بن عمر: لا اعتكاف إلا بصيام، لقول اللّه تعالى في كتابه: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا} إلى قوله: {فِي الْمَسَاجِدِ} وقالا: فإنما ذكر اللّه الاعتكاف مع الصيام. قال يحيى قال مالك: وعلى ذلك الأمر عندنا.

السابعة والعشرون: وليس للمعتكف أن يخرج من معتكفه إلا لما لابدَّ له منه، لما روى الأئمة عن عائشة قالت: ((كان رسول اللّه ﷺ إذا اعتكف يدني إليَّ رأسه فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان))، تريد الغائط والبول. ولا خلاف في هذا بين الأمة ولا بين الأئمة، فإذا خرج المعتكف لضرورة وما لابدَّ له منه ورجع في فوره بعد زوال الضرورة بنى على ما مضى من اعتكافه ولا شيء عليه. ومن الضرورة المرض البيِّن والحيض. واختلفوا في خروجه لما سوى ذلك، فمذهب مالك ما ذكرنا، وكذلك مذهب الشافعي وأبي حنيفة. وقال سعيد بن جبير والحسن والنخعي: يعود المريض ويشهد الجنائز، وروي عن علي وليس بثابت عنه. وفرق إسحاق بين الاعتكاف الواجب والتطوع، فقال في الاعتكاف الواجب: لا يعود المريض ولا يشهد الجنائز، وقال في التطوع: يشترط حين يبتدئ حضور الجنائز وعيادة المرضى والجمعة. وقال الشافعي: يصح اشتراط الخروج من معتكفه لعيادة مريض وشهود الجنائز وغير ذلك من حوائجه. واختلف فيه عن أحمد، فمنع منه مرة وقال مرة: أرجو ألا يكون به بأس. وقال الأوزاعي كما قال مالك: لا يكون في الاعتكاف شرط. قال ابن المنذر: لا يخرج المعتكف من اعتكافه إلا لما لابدَّ له منه، وهو الذي كان النبي ﷺ يخرج له.

الثامنة والعشرون: واختلفوا في خروجه للجمعة، فقالت طائفة: يخرج للجمعة ويرجع إذا سلم، لأنه خرج إلى فرض ولا ينتقض اعتكافه. ورواه ابن الجهم عن مالك، وبه قال أبو حنيفة، واختاره ابن العربي وابن المنذر. ومشهور مذهب مالك أن من أراد أن يعتكف عشرة أيام أو نذر ذلك لم يعتكف إلا في المسجد الجامع. وإذ ا اعتكف في غيره لزمه الخروج إلى الجمعة وبطل اعتكافه. وقال عبدالملك: يخرج إلى الجمعة فيشهدها ويرجع مكانه ويصح اعتكافه.

---

١ – (قلت): قال الإمام الألباني في قيام رمضان: رواه البيهقي بسند صحيح، وأبو داود بسند حسن، وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد): ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطرًا، بل قد قالت عائشة: لا اعتكاف إلا بصوم، ولم يذكر سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله ﷺ إلا مع الصوم، فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف أن الصوم شرط في الاعتكاف وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية.

قلت: ويترتب عليه أنه لا يشرع لمن قصد المسجد للصلاة أو غيرهما أن ينوي الاعتكاف مدة لبثه فيه، وهو ما صرح به شيخ الإسلام في (الاختيارات).

قلت: وهو صحيح لقوله تعالى: {وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} فعم. وأجمع العلماء على أن الاعتكاف ليس بواجب وأنه سنة، وأجمع الجمهور من الأئمة على أن الجمعة فرض على الأعيان، ومتى اجتمع واجبان أحدهما آكد من الآخر قُدِّم الآكد، فكيف إذا اجتمع مندوب وواجب، ولم يقل بترك الخروج إليها، فكان الخروج إليها في معنى حاجة الإنسان.

التاسعة والعشرون: المعتكف إذا أتى كبيرة فسد اعتكافه، لأن الكبيرة ضد العبادة، كما أن الحدث ضد الطهارة والصلاة، وترك ما حرم اللّه تعالى عليه أعلى منازل الاعتكاف في العبادة. قاله ابن خويز منداد عن مالك.

الموفية ثلاثين: روى مسلم عن عائشة قالت: ((كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلَّى الفجر ثم دخل معتكفه... ([1])) الحديث. واختلف العلماء في وقت دخول المعتكف في اعتكافه، فقال الأوزاعي بظاهر هذا الحديث، وروي عن الثوري والليث بن سعد في أحد قوليه، وبه قال ابن المنذر وطائفة من التابعين. وقال أبو ثور: إنما يفعل هذا من نذر عشرة أيّام، فإن زاد عليها فقبل غروب الشمس. وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم: إذا أوجب على نفسه اعتكاف شهر، دخل المسجد قبل غروب الشمس من ليلة ذلك اليوم. قال مالك: وكذلك كل من أراد أن يعتكف يومًا أو أكثر. وبه قال أبو حنيفة وابن الماجشون عبدالملك، لأن أول ليلة أيام الاعتكاف داخلة فيها، وأنه زمن للاعتكاف فلم يتبعض كاليوم. وقال الشافعي: إذا قال لله عليّ يوم دخل قبل طلوع الفجر وخرج بعد غروب الشمس، خلاف قوله في الشهر. وقال الليث في أحد قوليه وزفر: يدخل قبل طلوع الفجر، والشهر واليوم عندهم سواء. وروي مثل ذلك عن أبي يوسف،

١- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح أبي داود: عن عائشة قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف؛ صلى الفجر ثم دخل مُعْتَكَفَهُ)).

قالت: وإنه أراد مَرَّةً أن يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، قالت: فأَمَرَ ببنائه فضُرِبَ، فلما رأيتُ ذلك؛ أَمَرتُ ببنائي فضرِبَ، قالت: وأمر غيري من أزواج النبي ﷺ ببنائه فضُرِب. فلما صلَّى الفجر؛ نظر إلى الأبنية فقال: ((ما هذه؟ آلبر تُرِدْنَ؟!)). فأمر ببنائه فَقُوِضَ، وأَمَرَ أزواجه بأبنيتهن فَقُوِّضَتْ، ثم أخَّر الاعتكاف إلى العشر الأول، يعني: من شوال. (قلت: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقد أخرجاه. وصححه ابن خزيمة وابن الجارود). إسناده: حدثنا عثمان بن أبي شيبة: ثنا أبو معاوية ويعلى بن عبيد عن يحيى ابن سعيد عن عمرة عن عائشة.

قال أبو داود: (رواه ابن إسحاق والأوزاعي عن يحيى بن سعيد ... نحوه. ورواه مالك عن يحيى بن سعيد قال: اعتكف عشرين من شوال).

قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين؛ وقد أخرجاه كما يأتي.

والحديث أخرجه مسلم (١٧٥/٣)، والبيهقي (٣١٥/٤) من طريق يحيى بن يحيى: أَبَنَا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد ... به.

وقال أحمد (٢٢٦/٦): ثنا يعلى بن عُبَيْدٍ قال: ثنا يحيى ... به. وأخرجه النسائي (١١٦/١)، وابن ماجه (٥٣٨/١) ، وابن الجارود (٤٠٨)، وابن خزيمة (٢٢١٧) من طرق أخرى عن يعلى بن عبيد ... به.

وأما مُعَلَّقُ ابن إسحاق والأوزاعي؛ فوصلهما مسلم. ووصله البخاري (٢٢٩/٤)، والنسائي في (السنن الكبرى) (ق ٦٩ /١)، وأحمد (٨٤/٦) عن الأوزاعي وحده.

والبخاري (٤٢٣/٤) عن مالك، وهو في (الموطأ) (٢٩٥/١) . ثم أخرجه البخاري ومسلم والنسائي في (الكبرى)، وابن خزيمة (٢٢٢٤) من طرق أخرى عن يحيى بن سعيد ... به. وكذا عبد الرزاق (٨٠٣١) .

(تنبيه): قوله في رواية مالك المعلقة: عشرين! كذا وقع في كل نسخ الكتاب التي وقفت عليها- ومنها نسخة (عون المعبود) (٣٠٨/١) -!

وهو عندي خطأ؛ لمخالفته ما في (الموطأ) و(البخاري). والصواب: عشراً.. ويظهر أنه خطأ قديم؛ فإنه وقع كذلك في (مختصر السنن) للمنذري (٢٣٥٥) !

وبه قال القاضي عبدالوهاب، وأن الليلة إنما تدخل في الاعتكاف على سبيل التبع، بدليل أن الاعتكاف لا يكون إلا بصوم وليس الليل بزمن للصوم. فثبت أن المقصود بالاعتكاف هو النهار دون الليل.

قلت: وحديث عائشة يرد هذه الأقوال وهو الحجة عند التنازع، وهو حديث ثابت لا خلاف في صحته.

الحادية والثلاثون: استحب مالك لمن اعتكف العشر الأواخر أن يبيت ليلة الفطر في المسجد حتى يغدو منه إلى المصلَّى، وبه قال أحمد. وقال الشافعي والأوزاعي: يخرج إذا غابت الشمس، ورواه سحنون عن ابن القاسم، لأن العشر يزول بزوال الشهر، والشهر ينقضي بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان. وقال سحنون: إن ذلك على الوجوب، فإن خرج ليلة الفطر بطل اعتكافه. وقال ابن الماجشون: وهذا يرده ما ذكرنا من انقضاء الشهر، ولو كان المقام ليلة الفطر من شرط صحة الاعتكاف لما صح اعتكاف لا يتصل بليلة الفطر، وفي الإجماع على جواز ذلك دليل على أن مقام ليلة الفطر للمعتكف ليس شرطًا في صحة الاعتكاف. فهذه جمل كافية من أحكام الصيام والاعتكاف اللائقة بالآيات، فيها لمن اقتصر عليها كفاية، واللّه الموفق للهداية.

الثانية والثلاثون: قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} أي هذه الأحكام حدود اللّه فلا تخالفوها، ف{تلك} إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي. والحدود: الحواجز. والحد: المنع ، ومنه سمِّي الحديد حديدًا، لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن. وسمِّي البوّاب والسجّان حدّادًا، لأنه يمنع من في الدار من الخروج منها، ويمنع الخارج من الدخول فيها. وسمِّيت حدود اللّه لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو منها، ومنها سمِّيت الحدود في المعاصي، لأنها تمنع أصحابها من العود إلى أمثالها. ومنه سمِّيت الحاد في العدة، لأنها تمتنع من الزينة.

قال ابن العثيمين: {تلك حدود الله}؛ ت اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ والكاف حرف خطاب؛ والمشار إليه ما ذكر من أحكام الأكل والشرب والجماع في ليالي رمضان؛ و{حدود} جمع حد؛ و(الحد) في اللغة المنع؛ ومنه حدود الدار؛ لأنها تمنع من دخول غيرها فيها؛ فمعنى {حدود الله} أي موانعه؛ واعلم أن حدود الله نوعان:

١ـ حدود تمنع من كان خارجها من الدخول فيها؛ وهذه هي المحرَّمات؛ ويقال فيها: {فلا تقربوها}.

٢ـ وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها؛ وهذه هي الواجبات؛ ويقال فيها: {فلا تعتدوها}.

{فلا تقربوها}: الفاء للتفريع؛ و{لا} ناهية؛ وإنما نهى عن قربانها حتى نبعد عن المحرَّم، وعن وسائل المحرَّم؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ وكم من إنسان حام حول الحمى فوقع فيه؛ ولهذا قال تعالى: {فلا تقربوها}؛ فالمحرَّمات ينبغي البعد عنها، وعدم قربها.

قال القرطبي: الثالثة والثلاثون: قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ}: أي كما بين هذه الحدود يبين جميع الأحكام لتتَّقوا مجاوزتها. والآيات: العلامات الهادية إلى الحق. و{لَعَلَّهُمْ} ترج في حقهم، فظاهر ذلك عموم ومعناه خصوص فيمن يسَّره اللّه للهدى، بدلالة الآيات التي تتضمَّن أن اللّه يضل من يشاء.

قال ابن العثيمين: {كذلك يبيِّن الله}: هذه الجملة ترد في القرآن كثيرًا؛ وإعرابها أن الكاف اسم بمعنى (مثل)؛ وهي في محل نصب على المفعولية المطلقة؛ أي مثل ذلك البيان يبين الله؛ وعاملها ما بعدها.

وقوله تعالى: {كذلك} المشار إليه ما سبق من البيان؛ والبيان في هذه الآية كثير؛ فبين الله سبحانه وتعالى حكم الأكل، والشرب في الليل، وحكم المباشرة للنساء، وحكم الاعتكاف، وموضعه، وما يحرم فيه.. إلخ، المهم عدة أحكام بيَّنها الله.

{آياته للناس}؛ {آيات} جمع آية؛ وهي في اللغة العلامة؛ والمراد بها في الشرع: العلامة المعينة لمدلولها.

{لعلهم يتقون}؛ {لعل} للتعليل؛ أي يتقون الله عز وجل وتقوى الله سبحانه وتعالى هي اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في (التقوى).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- رحمة الله تعالى بعباده؛ لنسخ الحكم الأول إلى التخفيف، حيث كانوا قبل ذلك إذا ناموا، أو صلوا العشاء في ليالي رمضان حرمت عليهم النساء، والطعام، والشراب إلى غروب الشمس من اليوم التالي؛ ثم خفِّف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر.

٢- جواز الكلام بين الزوج وزوجته فيما يستحيا منه؛ لقوله تعالى: {الرفث إلى نسائكم}؛ لأنه مضمن معنى الإفضاء.

٣- جواز استمتاع الرجل بزوجته من حين العقد؛ لقوله تعالى: {إلى نسائكم} ما لم يخالف شرطًا بين الزوجين؛ وقد ظن بعض الناس أنه لا يجوز أن يستمتع بشيء من زوجته حتى يعلن النكاح ـ وليس بصحيح لكن هنا شيء يخشى منه؛ وهو الجماع؛ فإنه ربما يحصل حمل؛ وإذا حصل حمل مع تأخر الدخول ربما يحصل في ذلك ريبة؛ فإذا خشي الإنسان هذا الأمر فليمنع نفسه لئلّا يحصل ريبة عند العامة.

٤- أن الزوجة ستر للزوج؛ وهو ستر لها؛ وأن بينهما من القرب كما بين الثياب، ولابسيها؛ ومن التحصين للفروج ما هو ظاهر؛ لقوله تعالى: {هن لباس لكم وأنتم لباس لهن}.

٥- إثبات العلة في الأحكام؛ لقوله تعالى: {هن لباس لكم}؛ لأن هذه الجملة لتعليل التحليل.

٦- ثبوت علم الله بما في النفوس؛ لقوله تعالى: {علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم}.

٧- أن الإنسان كما يخون غيره قد يخون نفسه؛ وذلك إذا أوقعها في معاصي الله، فإن هذا خيانة؛ وعلى هذا فنفس الإنسان أمانة عنده؛ لقوله تعالى: {علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم}.

٨- إثبات التوبة لله؛ لقوله تعالى: {فتاب عليكم}؛ وهذه من الصفات الفعلية.

٩- إثبات عفو الله؛ لقوله تعالى: {وعفا عنكم}.

١٠- ثبوت النسخ خلافًا لمن أنكره؛ وهو في هذه الآية صريح؛ لقوله تعالى: {فالآن باشروهن} يعني: وقبل الآن لم يكن حلالًا.

١١- أن النسخ إلى الأخف نوع من التوبة إلّا أن يراد بقوله تعالى: {تاب عليكم وعفا عنكم} ما حصل من اختيانهم أنفسهم.

١٢- جواز مباشرة الزوجة على الإطلاق بدون تقييد؛ ويستثنى من ذلك الوطء في الدُّبر، والوطء حال الحيض، أو النفاس.

١٣- أنه ينبغي أن يكون الإنسان قاصدًا بوطئه طلب الولد؛ لقوله تعالى: {وابتغوا ما كتب الله لكم}؛ وذكروا عن عمر رضي الله عنه أنه لا يجامع إلّا إذا اشتهى الولد؛ ولكن مع ذلك لا يمنع الإنسان أن يفعل لمجرَّد الشهوة؛ فهذا ليس فيه منع؛ بل فيه أجر؛ لقول النبي ﷺ: ((وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: نعم؛ أرأيتم لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟ قالوا: نعم؛ قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر([1]))).

١٤- جواز الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام حتى يتبيَّن الفجر؛ لقوله تعالى: {وكلوا واشربوا حتى يتبين}.

أخذ بعض أهل العلم من هذا استحباب السحور وتأخيره؛ وهذا الاستنباط له غور؛ لأنه يقول: إنما أبيح الأكل والشرب ليلة الصيام رفقًا بالمكلف؛ وكلما تأخر إلى قرب طلوع الفجر كان أرفق به؛ فما دام نسخ التحريم من أجل الرفق بالمكلف فإنه يقتضي أن يكون عند طلوع الفجر أفضل منه قبل ذلك؛ لأنه أرفق؛ وهذا استنباط جيد تعضده الأحاديث – مثل قول الرسول ﷺ: ((تسحَّروا فإن في السحور بركة([2])))–؛ ففيه بركة لكونه معينًا على طاعة الله؛ وفيه بركة لأنه امتثال لأمر رسول الله ﷺ؛ وفيه بركة لأنه اقتداء برسول الله ﷺ؛ وفيه بركة لأنه يغني عن عدة أكلات وشرابات في النهار؛ وفيه بركة لأنه فصل بين صيامنا وصيام أهل الكتاب؛ فهذه خمسة أوجه من بركته.

١- أخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٢٩ [٥٣] ١٠٠٦.

٢- أخرجه البخاري ص ١٥٠ كتاب الصوم باب: ٢٠ بركة السحور من غير إيجاب حديث رقم ١٩٢٣ واخرجه مسلم ص ٨٥٣ كتاب الصيام باب ٩ فضل السحور وتأكيد استحبابه حديث رقم ٢٥٤٩ [٤٥] ١٠٩٥.

١٥- أن الإنسان لو طلع عليه الفجر وهو يجامع، ثم نزع في الحال فلا قضاء عليه، ولا كفارة؛ لأن ابتداء جماعه كان مأذونًا فيه؛ ولكن استدامته بعد أن تبيَّن الفجر حرام، وعلى فاعله القضاء والكفارة، إلا أن يكون جاهلًا؛ وقد قيل: إنه إذا نزع في هذه الحال فعليه كفارة؛ لأن النزع جماع؛ لكنه قول ضعيف؛ إذ كيف نلزمه بالقضاء والكفارة مع قيامه بما يجب عليه ـ وهو النزع ـ.

١٦- جواز أن يصبح الصائم جنبًا، لأن الله أباح الجماع حتى يتبيَّن الفجر، ولازم هذا أنه إذا أخر الجماع لم يغتسل إلّا بعد طلوع الفجر؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه كان يصبح جنبًا من جماع أهله، ثم يصوم([1]).

١٧- جواز الأكل والشرب والجماع مع الشك في طلوع الفجر؛ لقوله تعالى: {حتى يتبيَّن}؛ فإن تبيَّن أن أكله وشربه وجماعه كان بعد طلوع الفجر فلا شيء عليه.

١٨- ردّ قول من قال: إنه يجوز أن يأكل الصائم ويشرب إلى طلوع الشمس؛ لقوله تعالى: {حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر}؛ وكذلك ردّ قول من قال: إنه يجوز أن يأكل ويشرب إلى الغلس.

١٩- بيان خطأ بعض جهّال المؤذِّنين الذين يؤذِّنون قبل الفجر احتياطًا – على زعمهم –؛ لأن الله تعالى أباح الأكل والشرب والجماع حتى يتبيَّن الفجر؛ ولأن النبي ﷺ قال: ((إن بلالًا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم؛ فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر([2])))؛ وهو أيضًا مخالف للاحتياط؛ لأنه يستلزم أن يمتنع الناس مما أحلَّ الله لهم من الأكل والشرب والجماع، وأن يقدِّم الناس صلاة الفجر قبل طلوع الفجر؛ وأيضًا فإنه يفتح بابًا للمتهاون، حيث يعلم أنه أذن قبل الفجر فلا يزال يأكل إلى أمد مجهول، فيؤدِّي إلى الأكل بعد طلوع الفجر من حيث لا يشعر؛ ثم اعلم أن الاحتياط الحقيقي إنما هو في اتباع ما جاء في الكتاب، والسنة – لا في التزام التضييق والتشديد –.

٢٠- أنه لو أكل الإنسان يظن أن الفجر لم يطلع، ثم تبيَّن أنه طلع فصيامه صحيح؛ لأنه قد أذن له بذلك حتى يتبيَّن له الفجر؛ وما كان مأذونًا فيه فإنه لا يرتب عليه إثم، ولا ضمان، ولا شيء؛ ومن القواعد الفقهية المعروفة: (ما ترتَّب على المأذون فهو غير مضمون)؛ وهذا هو ما تؤيِّده العموميات، مثل قوله تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}[البقرة: ٢٨٦]؛ وقوله تعالى: {ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم}[الأحزاب: ٥]؛ وتؤيده أيضًا نصوص خاصة في هذه المسألة نفسها ـ وهو فعل عدي بن حاتم رضي الله عنه، حيث كان يضع عقالين تحت وسادته أحدهما أبيض،

١- أخرجه البخاري ص١٥١، كتاب الصوم، باب ٢٥: اغتسال الصائم، حديث رقم ١٩٣١؛ وأخرجه مسلم ص٨٥٥، كتاب الصيام، باب ١٣: صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، حديث رقم ٢٥٨٩ [٧٥] ١١٠٩.

٢- أخرجه البخاري ص٥٠، كتاب الأذان، باب ١١، أذان الأعمى إذا كان له من يخبره، حديث رقم ٦١٧، وأخرجه مسلم ص٨٥٢، كتاب الصيام، باب ٨: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، حديث رقم ٢٥٣٦ [٣٦] ١٠٩٢.

والآخر أسود ـ؛ فيأكل وهو يتسحَّر حتى يتبيَّن له العقال الأبيض من العقال الأسود، ثم يمسك؛ فأخبر النبي ﷺ، وبيَّن له النبي ﷺ المراد في الآية، ولم يأمره بالقضاء([1]).

٢١- الإيماء إلى كراهة الوصال؛ لقوله تعالى: {كلوا واشربوا حتى يتبيَّن}؛ والوصال معناه أن يقرن الإنسان صوم يومين جميعًا لا يأكل بينهما؛ وقد كان الوصال مباحًا، ثم نهاهم الرسول ﷺ عنه، وقال: ((أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر([2])))؛ ورغب ﷺ في تعجيل الفطر، فقال: ((لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر([3])))؛ وهذا من باب أن الشيء قد يكون مأذونًا فيه، وليس بمشروع؛ فالوصال إلى السحر مأذون فيه، ولكن ليس بمشروع؛ ومثال آخر: الصدقة عن الميت: فهذا أمر مأذون فيه، وليس بمشروع.

٢٢- أن الاعتبار بالفجر الصادق الذي يكون كالخيط ممتدًا في الأفق؛ وذكر أهل العلم أن بين الفجر الصادق والفجر الكاذب ثلاثة فروق:

الفرق الأول: أن الصادق مستطير معترض من الجنوب إلى الشمال؛ والكاذب مستطيل ممتد من الشرق إلى الغرب.

والفرق الثاني: أن الصادق متصل بالأفق؛ وذاك بينه، وبين الأفق ظلمة.

والفرق الثالث: أن الصادق يمتد نوره، ويزداد؛ والكاذب يزول نوره ويظلم.

٢٣- أن بياض النهار، وسواد الليل يتعاقبان، فلا يجتمعان؛ لقوله تعالى: {حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود}.

٢٤- أن الأفضل المبادرة بالفطر؛ لقوله تعالى: {إلى الليل}؛ وقد جاءت السنة بذلك صريحًا، كما في قوله ﷺ: ((لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر)).

٢٥- أن الصيام الشرعي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ لقوله تعالى: {ثم أتموا الصيام إلى الليل}.

٢٦- أن الصيام الشرعي ينتهي بالليل؛ لقوله تعالى: {إلى الليل}؛ وقد فسَّر النبي ﷺ ذلك بقوله ﷺ: ((إذا أقبل الليل من هاهنا ـ، وأدبر النهار من هاهنا ـ وغربت الشمس فقد أفطر الصائم([4]))).

١- راجع البخاري ص١٤٩ - ١٥٠، كتاب الصوم، باب ١٦: قول الله تعالى: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل}، حديث رقم ١٩١٦؛ ومسلما ص٨٥٢، كتاب الصيام، باب ٨: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر ... ، حديث رقم ٢٥٣٣ [٣٣] ١٠٩٠.

٢- أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٨: الوصال، حديث رقم ١٩٦٣.

٣- أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٥: تعجيل الفطر حديث رقم ١٩٥٧، وأخرجه مسلم ص٨٥٣، كتاب الصيام، باب ٩: فضل السحور وتأكيد استحبابه، حديث رقم ٢٥٥٤ [٤٨] ١٠٩٨.

٤- أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٣: متى يحل فطر الصائم، حديث، رقم ١٩٥٤، وأخرجه مسلم ص٨٥٣، كتاب الصيام، باب ١٠ بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار، حديث رقم ٢٥٥٨ [٥١] ١١٠٠.

٢٧- الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف؛ لأن الله أقره، ورتب عليه أحكامًا، وقوله تعالى: {في المساجد} بيان للواقع؛ لأن الاعتكاف المشروع لا يكون إلا في المساجد.

٢٨- النهي عن مباشرة النساء حال الاعتكاف.

٢٩- أن الجماع مبطل للاعتكاف؛ وجه كونه مبطِلًا أنه نهي عنه بخصوصه؛ والشيء إذا نهي عنه بخصوصه في العبادة كان من مبطلاتها.

٣٠- ما استنبطه بعض أهل العلم أن الاعتكاف يكون في رمضان، وفي آخر الشهر؛ لأن الله ذكر حكمه عقب آية الصيام؛ وهذا هو الذي جاءت به السنة: فإن النبي ﷺ لم يعتكف إلا في العشر الأواخر من رمضان حين قيل له: ((إن ليلة القدر في العشر الأواخر))؛ وكان اعتكافه في العشر الأول، والأوسط يتحرّى ليلة القدر؛ فلما قيل له: ((إنها في العشر الأواخر(١))) ترك الاعتكاف في العشر الأول والأوسط.

٣١- أن أوامر الله حدود له؛ وكذلك نواهيه؛ لقوله تعالى: {تلك حدود الله}.

٣٢- أنه ينبغي البعد عن المحارم؛ لقوله تعالى: {فلا تقربوها}؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ: ((من اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه؛ ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه؛ ألا وإن لكل ملك حمى؛ ألا وإن حمى الله محارمه(٢))).

٣٣- أن الله سبحانه وتعالى يبين للناس الآيات الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: {كذلك يبين الله آياته للناس}؛ والآيات الكونية هي المخلوقات؛ فكل المخلوقات ذواتها وصفاتها وأحوالها من الآيات الكونية، كما قال تعالى: {ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر}[فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا}[الروم: ٢١]، وقال تعالى: {ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون}[الروم: ٢٠]... إلخ؛ وكانت المخلوقات آية لله؛ لأنه لا أحد من المخلوق يصنع مثلها.

والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله تعالى على رسله، وأنبيائه من الوحي؛ فإنها آيات شرعية تدل على كمال منزلها سبحانه وتعالى في العلم، والرحمة، والحكمة، وغير ذلك مما تقتضيه أحكامها، وأخبارها؛ وجه ذلك أنك إذا تأملت أخبارها وجدتها في غاية الصدق، والبيان، والمصلحة، كما قال تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن}[يوسف: ٣]؛ فأحسن الأخبار أخبار الوحي: القرآن، وغيره؛ وأصلحها للخلق قصصها، كما قال تعالى: {لقد كان

١- أخرجه البخاري بدون ذكر اعتكاف النبي ﷺ العشر الأول ص١٥٧، كتاب فضل ليلة القدر، باب ١: فضل ليلة القدر، حديث رقم ٢٠١٦، وأخرجه مسلم تاما ص٨٦٧، كتاب الصيام، باب ٤٠: فضل ليلة القدر والحث على طلبها ... ، حديث رقم ٢٧٧١ [٢١٥] ١١٦٧.

٢- أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٩: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم ٥٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٥، كتاب المساقاة، باب ٢: أخذ الحلال وترك الحرام، حديث رقم ٤٠٩٤ [١٠٧] ١٥٩٩.

في قصصهم عبرة لأولي الألباب}[يوسف: ١١١]؛ وإذا تأملت أحكامها وجدتها أحسن الأحكام، وأصلحها للعباد في معاشهم، ومعادهم، كما قال تعالى: {ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون}[المائدة: ٥٠]؛ ولو اجتمع الخلق على أن يأتوا بمثل الأحكام التي أنزلها الله على رسوله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ بهذا تكون آية على ما تقتضيه من صفات الله سبحانه وتعالى.

٣٤- الرَّد على أهل التعطيل، وغيرهم الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه في أسماء الله وصفاته؛ وجه ذلك أنهم لما قالوا: المراد بـ(اليد) النعمة أو القوة؛ والمراد بـ(الاستواء) الاستيلاء؛ والمراد بكذا كذا – وهو خلاف ظاهر اللفظ، ولا دليل عليه – صار القرآن غير بيان للناس؛ لأنه ما دام أن البيان خلاف ما ظهر فلا بيان.

٣٥- أن العلم سبب للتقوى؛ لقوله تعالى: {لعلهم يتقون}؛ ووجهه أنه ذكره عقب قوله تعالى: {كذلك يبيِّن الله آياته للناس}؛ فدلَّ هذا أنه كلما تبيَّنت الآيات حصلت التقوى؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}[فاطر: ٢٨]؛ فكلَّما ازداد الإنسان علمًا بآيات الله ازداد تقى؛ ولهذا يقال: من كان بالله أعرف كان منه أخوف.

٣٨- علو مرتبة التقوى؛ لكون الآيات تبيَّن للناس من أجل الوصول إليها.

(مسألة)

لو أذَّن المؤذِّن للفجر وفي يد الصائم الإناء يشرب منه فهل يجب عليه أن ينزل الإناء، أو له أن يقضي نهمته منه؟ على مذهب الإمام أحمد يجب أن ينزل الإناء؛ بل يجب لو كان في فمه ماء لفظه؛ وكذلك الطعام؛ وهذا هو ظاهر القرآن؛ لكن ورد في مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صححه أحمد شاكر بأنه لو أذن المؤذِّن والإناء في يدك فلا تضعه حتى تقضي حاجتك منه[١]؛ فإن كان هذا الحديث صحيحًا فإنه يحمل على أن المؤذن قد احتاط فيؤذن قبل الفجر – أي لا يؤخر الأذان إلى أن يطلع الفجر –؛ لأنه قد يؤذن وهو لم يتبيَّن له كثيرًا فسمح للإنسان أن يقضي نهمته من الإناء الذي في يده؛ وإنما حملناه على ذلك لظاهر الآية، ولقول النبي ﷺ: ((إن بلالًا يؤذن بليل، فكلوا، واشربوا حتى

١- راجع أحمد ص٧٥٢، حديث رقم ١٠٦٣٧؛ وأبا داود ص١٣٩٨، كتاب الصيام، باب ١٨؛ الرجل يسمع النداء والإناء على يده، حديث رقم ٢٣٥٠؛ والحاكم ٤٢٦/١، كتاب الصوم؛ وتفسير الطبري ٥٢٦/٣، تفسير سورة البقرة آية رقم ١٨٧، حديث ٣٠١٥؛ وفي سنده حماد بن سلمة: قال الحافظ في التقريب: (ثقة؛ عابد أثبت الناس في ثابت، وتغير حفظه بأخرة)؛ وذكره الذهبي في جملة ذكرهم من الثقات الذين تكلم فيهم بعض الأئمة بما لا يرد أخبارهم، فحديثهم إن لم يكن في أعلى مراتب الصحيح فلا ينزل عن رتبة الحسن، إلا الأحاديث التي تكلم فيه من أجلها، فينبغي التوقف فيها (راجع كتاب: ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق ص٢٧، ٧٠ – ٧١) ، وفي سنده أيضًا محمد بن عمرو بن علقمة؛ قال الذهبي: حسن الحديث (ميزان الاعتدال ٦٧٣/٣) ؛ ولم ينفرد به محمد بن عمرو، بل تابعه عمار بن أبي عمار (راجع أحمد ص٧٥٣، حديث رقم ١٠٦٣٨) ؛ قال أبو حاتم في عمار: ثقة لا بأس به (الجرح والتعديل ٣٨٩/٦ رقم ٢١٦٧) . وأما الحديث فقد قال الحاكم فيه: صحيح على شرط مسلم، و وافقه الذهبي (المستدرك ٤٢٦/١، كتاب الصوم) ؛ وقال الألباني: (حسن صحيح) (صحيح أبي داود ٥٧/٢، حديث رقم ٢٣٥٠) ؛ وذكره في السلسلة الصحيحة (المجلد الثالث، ص٣٨٢، حديث رقم ١٣٩٤) ، وقال عبد القادر الأرناؤوط: (إسناده صحيح) (جامع الأصول ٣٧١/٦، حاشية رقم ٢)

تسمعوا أذان ابن أم مكتوم؛ فإنه لا يؤذِّن حتى يطلع الفجر))، وقد يقال: الحديث على ظاهره؛ ووجهه: أن هذا الشارب شرع في شربه في وقت يسمح له فيه، فكان آخر شربه تبعا لأوله، كما قال النبي ﷺ: ((من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة([1]))؛ ويكون هذا ممّا سامح به الشارع.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

قال ابن العثيمين: مناسبة هذه الآية لما سبق مناسبة واضحة؛ لأن ما سبق في آيات الصيام تحريم لأشياء خاصة في زمان خاص؛ وهذه الآية تحريم عام في زمانه، وفي مكانه؛ هذا وجه المناسبة: أنه لما ذكر التحريم الخاص الذي يحصل في الصيام بين التحريم العام الذي يحصل في الصيام، وفي غير الصيام.

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد ﷺ، والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق. فيدخل في هذا: القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكه، أو حرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه، كمهر البغي وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك. ولا يدخل فيه الغبن في البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما باع لأن الغبن كأنه هبة، على ما يأتي بيانه في [سورة النساء]. وأضيفت الأموال إلى ضمير المنهي لما كان كل واحد منهما منهيًّا ومنهيًّا عنه، كما قال: {تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ}[البقرة: ٨٥]. وقال قوم: المراد بالآية {وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}[النساء: ٢٩]: أي في الملاهي والقيان والشرب والبطالة، فيجيء على هذا إضافة المال إلى ضمير المالكين.

قال ابن العثيمين: المراد بالأكل ما هو أعم منه، فيشمل الانتفاع بغير الأكل من الملبوسات والمفروشات والمسكونات والمركوبات؛ لكنه خص الأكل؛ لأنه أقوى وجوه الانتفاع؛ الإنسان ينتفع في المال ببناء مسكن له – وهو منفصل عنه –؛ ويفترش الفراش فينتفع به – وهو منفصل عنه إلا أنه ألصق به من البيت؛ ويلبس ثوبًا فينتفع به – وهو منفصل عنه –؛ إلا أنه ألصق به من الفراش؛ والإنسان يأكل الأكل فينتفع – وهو متصل ممازج لعروقه –؛ فكان أخص أنواع الانتفاع وألصقها بالمنتفع؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم – رحمهم الله – أن الإنسان إذا كان عنده مال مشتبه ينبغي أن يصرفه في الوقود؛ لا

١- أخرجه البخاري ص٤٧، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٢٩: من أدرك من الصلاة ركعة، حديث رقم ٥٨٠، وأخرجه مسلم ص٧٧٢، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٣٠، من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة، حديث رقم ١٣٧١ [١٦١] ٦٠٧.

يصرفه في الأكل والشرب يتغذى بهما البدن وهما أخص انتفاع بالمال؛ فإذا كان الله تعالى يقول: {لا تأكلوا أموالكم} وهو أخص الانتفاع، والذي قد يكون الإنسان في ضرورة إليه: لو لم يفعل لهلك – لو لم يأكل لمات فكيف بغيره!!!

وقوله تعالى: {أموالكم}: عندنا آكل، ومأكول عنه؛ فإذا كنت أنت أيها الآكل لا ترضى أن يؤكل مالك فكيف ترضى أن تأكل مال غيرك؛ فاعتبر مال غيرك بمنزلة مالك في أنك لا ترضى أن يأكله أحد؛ وبهذا تتبيَّن الحكمة في إضافة الأموال المأكولة للغير إلى آكلها؛ و{بينكم}: أي في العقود من إجارات، وبيوع، ورهون، وغيرها؛ لأن هذه تقع بين اثنين؛ فتصدق البينية فيها.

قال القرطبي: الثانية: من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل أن يقضي القاضي لك وأنت تعلم أنك مبطل، فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضي، لأنه إنما يقضي بالظاهر. وهذا إجماع في الأموال، وإن كان عند أبي حنيفة قضاؤه ينفذ في الفروج باطنًا، وإذا كان قضاء القاضي لا يغير حكم الباطن في الأموال، في الفروج أولى. وروى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول اللّه ﷺ: ((إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجَّته من بعض فأقضي له على نحو ممّا أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار – في رواية – فليحملها أو يذرها([1]))). وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء. وهو نص في أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن، وسواء كان ذلك في الأموال والدماء والفروج، إلا ما حكي عن أبي حنيفة في الفروج، وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما لعدالتهما عنده فإن فرجها يحل لمتزوجها – ممَّن يعلم أن القضية باطل – بعد العدة. وكذلك لو تزوجها أحد الشاهدين جاز عنده، لأنه لمّا حلَّت للأزواج في الظاهر كان الشاهد وغيره سواء، لأن قضاء القاضي قطع عصمتها، وأحدث في ذلك التحليل والتحريم في الظاهر والباطن جميعًا، ولولا ذلك ما حلت للأزواج. واحتجَّ بحكم اللِّعان وقال: معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللِّعان الكاذب، الذي لو علم الحاكم كذبها فيه لَحَدَّها وما فرَّق بينهما، فلم يدخل هذا في عموم قوله ﷺ: ((فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه... ([2]))) الحديث.

١- (قلت): مسلم (١٧١٣).

٢- (قلت): أخرجه البخاري ص٥٨١، كتاب الحيل، باب ١٠: حديث رقم ٦٩٦٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٨١، كتاب الأقضية، باب ٣: بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن، حديث رقم ٤٤٧٣ [٤] ١٧١٣.

وقال الإمام الألباني في إرواء الغليل: حسن. أخرجه أبو داود (٣٥٨٤ و٣٥٨٥) وكذا أبو عبيد فى (غريب الحديث) (١/١٠٥)، والدار قطني (٥٢٦)، وكذا الحاكم (٤/٩٥)، والبيهقي (٦/٦٦)، وأحمد (٦/٣٢٠)، من طرق عن أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة قالت: ((جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درست، ليس بينهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته أو قد قال لحجته من بعض فإني أقضى بينكم على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها أسطامًا فى عنقه يوم القيامة، فبكى الرجلان، وقال كل واحد منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: أما إذ قلتما، فاذهبا، فاقتسما، ثم توخيا الحق، ثم استهما، ثم ليحلّل كل واحد منكما صاحبه)).

الثالثة: وهذه الآية متمسك كل مؤالف ومخالف في كل حكم يدعونه لأنفسهم بأنه لا يجوز، فيستدلُّ عليه بقوله تعالى: {وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}[النساء: ٢٩]. فجوابه أن يقال له: لا نسلم أنه باطل حتى تبينه بالدليل، وحينئذ يدخل في هذا العموم، فهي دليل على أن الباطل في المعاملات لا يجوز، وليس فيها تعيين الباطل.

الرابعة: قوله تعالى: {بِالْبَاطِلِ} الباطل في اللغة: الذاهب الزائل، يقال: بطل يبطل بطولًا وبطلانًا، وجمع الباطل بواطل. والأباطيل جمع البطولة. وتَبَطَّل أي اتَّبع اللّهو. وأبطل فلان إذا جاء بالباطل. وقوله تعالى: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ}[فصلت: ٤٢] قال قتادة: هو إبليس، لا يزيد في القرآن ولا ينقص. وقوله: {وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ}[الشورى: ٢٤]: يعني الشرك والبطلة: السحرة.

الخامسة: قوله تعالى: {وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ} الآية. قيل: يعني الوديعة وما لا تقوم فيه بيِّنة، عن ابن عباس والحسن. وقيل: هو مال اليتيم الذي في أيدي الأوصياء، يرفعه إلى الحكام إذا طولب به ليقتطع بعضه وتقوم له الظاهر حجة. وقال الزجاج: تعملون ما يوجبه ظاهر الأحكام وتتركون ما علمتم أنه الحق. يقال: أدلى الرجل بحجته أو بالأمر الذي يرجو النجاح به، تشبيها بالذي يرسل الدلو في البئر، يقال: أدلى دلوه: أرسلها. ودلاها: أخرجها. وجمع الدلو والدلاء: أدل ودلاء ودلي. والمعنى في الآية: لا تجمعوا بين أكل المال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة، وهو كقوله: {وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ}[البقرة: ٤٢]. وهو من قبيل قولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقيل: المعنى لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها، فالباء إلزاق مجرد. قال ابن عطية: وهذا القول يترجَّح، لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم وهو الأقل. وأيضًا فإن اللفظين متناسبان: تدلوا من إرسال الدلو، والرشوة من الرشاء، كأنه يمد بها ليقضي الحاجة.

قلت: ويقوي هذا قوله: {وَتُدْلُوا بِهَا} تدلوا في موضع جزم عطفًا على تأكلوا كما ذكرنا. وفي مصحف أُبَيّ (ولا تدلوا) بتكرار حرف النهي، وهذه القراءة تؤيد جزم {تدلوا} في قراءة الجماعة. وقيل: {تدلوا} في موضع نصب على الظرف، والذي ينصب في مثل هذا عند سيبويه (أن) مضمرة. والهاء في قوله {بها} ترجع إلى الأموال، وعلى القول الأول إلى الحجة ولم يجر لها ذكر، فقوي القول الثاني لذكر الأموال، واللّه أعلم. في الصحاح. (والرشوة معروفة، والرشوة بالضم مثله، والجمع رُشى ورِشى، وقد رشاه يرشوه. وارتشى: أخذ الرشوة. واسترشى في حكمه: طلب الرشوة عليه).

قلت: فالحكام اليوم عين الرشا لا مظنَّته، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

قال ابن القيم إعلام الموقعين ج١ص٧٠: {وتدلوا بها إلى الحكام}: أَيْ تُضِيفُوا ذَلِكَ إلَى الْحُكَّامِ وَتَتَوَصَّلُوا بِحُكْمِهِمْ إلَى أَكْلِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: لَوْ أَرَادَ هَذَا الْمَعْنَى لَقِيلَ: (وَتُدْلُوا بِالْحُكَّامِ إِلَيْهَا)، وَأَمَّا الْإِدْلَاءُ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ فَهُوَ التَّوَصُّلُ بِالْبِرْطِيلِ بِهَا إِلَيْهِمْ فَتَرْشُوا الْحَاكِمَ لِتَتَوَصَّلُوا بِرِشْوَتِهِ إِلَى الْأَكْلِ بِالْبَاطِلِ. قِيلَ: الْآيَةُ تَتَنَاوَلُ النَّوْعَيْنِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا إِدْلَاءٌ إِلَى الْحُكَّامِ بِسَبَبِهَا، فَالنَّهْيُ عَنْهُمَا مَعًا.

قال ابن العثيمين: {وتدلوا بها إلى الحكام}؛ الضمير المجرور يعود إما على الأموال؛ وإما على المحاكمة؛ والإدلاء أصلها مأخوذ من: أدلى دلوه؛ ومعلوم أن الذي يدلي دلوه يريد التوصل إلى الماء؛ فمعنى: {تدلوا بها إلى الحكام}: أي تتوصَّلوا بها إلى الحكام لتجعلوا الحكام وسيلة لأكلها بأن تجحد الحق الذي عليك وليس به بيِّنة؛ ثم تخاصمه عند القاضي، فيقول القاضي للمدَّعي عليك: (هات بينة)؛ وإذا لم يكن للمدَّعي بيِّنة توجَّهت عليك اليمين؛ فإذا حلفتَ برئتَ؛ فهنا توصَّلت إلى جحد مال غيرك بالمحاكمة؛ هذا أحد القولين في الآية؛ والقول الثاني: أن معنى: {تدلوا بها إلى الحكام} أي توصلوها إليهم بالرشوة ليحكموا لكم؛ وكلا القولين صحيح.

{لتأكلوا}: قد يقول قائل: إن فيها إشكالًا؛ لأنه تعالى قال: {ولا تأكلوا}، ثم قال تعالى: {لتأكلوا} كيف يعلَّل الحكم بنفس الحكم؟ فنقول: إن اللام هنا ليست للتعليل؛ اللام هنا للعاقبة ـ يعني أنكم إذا فعلتم ذلك وقعتم في الأكل ـ أكل فريق من أموال الناس ـ؛ وتأتي اللام للعاقبة، كما في قوله تعالى: {فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا}[القصص: ٨]: فآل فرعون لم يلتقطوه لهذا الغرض؛ ولكن كانت هذه العاقبة.

قال القرطبي: السادسة: قوله تعالى: {لِتَأْكُلُوا} نصب بلام كي. {فَرِيقًا}: أي قطعة وجزءًا، فعبَّر عن الفريق بالقطعة والبعض. والفريق: القطعة من الغنم تشذّ عن معظمها. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، التقدير: لتأكلوا أموال فريق من الناس. {بِالْإِثْمِ}: معناه بالظلم والتعدي، وسمِّي ذلك إثما لما كان الإثم يتعلَّق بفاعله. {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}: أي بطلان ذلك وإثمه، وهذه مبالغة في الجرأة والمعصية.

قال ابن العثيمين: {فريقًا من أموال الناس}؛ الفريق بمعنى الطائفة؛ وسمِّي فريقًا؛ لأنه يفرَّق عن غيره؛ فهذا فريق من الناس ـ يعني طائفة منهم افترقت وانفصلت ـ؛ لو قال قائل: قد يأكل كل مال المدَّعى عليه لا فريقًا منه؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لو أكل جميع مال المدَّعى عليه لم يأكل جميع أموال الناس؛ لأن مال المدَّعى عليه فريق من أموال الناس.

الثاني: أنه إذا كان النهي عن أكل فريق من أموال المدَّعى عليه فهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

{بالإثم}: الباء للمصاحبة؛ يعني أكلا مصحوبًا بالإثم ـ وهو الذنب ـ؛ وذلك لأنه باطل.

{وأنتم تعلمون}: الجملة حالية؛ وهي قيد للحكم على أعلى أنواع بشاعته؛ لأن من أكل أموال الناس بالباطل عالمًا أبشع مما لو أكله جاهلًا.

قال القرطبي: السابعة: اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مال قلَّ أو كثر أنه يفسق بذلك، وأنه محرَّم عليه أخذه. خلافًا لِبشر بن المعتمر ومن تابعه من المعتزلة حيث قالوا: إن المكلَّف لا يفسق إلّا بأخذ مائتي درهم ولا يفسق بدون ذلك. وخلافًا لابن الجبّائي حيث قال: إنه يفسق بأخذ عشرة دراهم ولا يفسق بدونها. وخلافًا لابن الهذيل حيث قال: يفسق بأخذ خمسة دراهم. وخلافًا لبعض قدرية البصرة حيث قال: يفسق بأخذ درهم فما فوق، ولا يفسق بما دون ذلك. وهذا كله مردود بالقرآن والسنة وباتفاق علماء الأمة، قال ﷺ: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام([1]))) الحديث، متفق على صحته.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تحريم أكل المال بالباطل؛ و{الباطل} كل شيء ليس لك به حقٌّ شرعًا.

٢- حرص الشارع على حفظ الأموال؛ لقوله تعالى: {ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل}؛ ولأن الأموال تقوم بها أمور الدين، وأمور الدنيا، كما قال تعالى: {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما}[النساء: ٥].

٣- تحريم الرشوة؛ لقوله تعالى: {وتدلوا بها إلى الحكام} على أحد التفسيرين، كما سبق.

٤- أن الحاكم يحكم بما ظهر له ـ يعني يقضي بما سمع ـ؛ كما قال الرسول ﷺ: ((إنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع([2])))؛ لقوله تعالى: {وتدلوا بها إلى الحكام}؛ وهذه فيمن يدَّعي ما ليس له، ويخاصم، ويقيم بيِّنةً كَذِبًا؛ أو يجحد ما عليه، ويخاصم، ويحلِف كاذبًا؛ كل هذا من الإدلاء بها إلى الحكام؛ لكن إن علم الحاكم أن الحق بخلاف ما سمع فالواجب عليه التوقف في الحكم، وإحالة القضية إلى حاكم آخر ليكون هو شاهدًا بما علم.

٥- تيسير الله سبحانه وتعالى على الحكام بين الناس، حيث لا يعاقبهم على الأمور الباطنة؛ وإلا لكان الحكام في حرج، ومشقَّة؛ وجه ذلك من الآية أن الحاكم إذا حكم بما ظهر له ـ وإن كان خلاف الواقع – فلا إثم عليه.

٦- أن من حُكِمَ له بما يعتقد أنه حق فلا إثم عليه؛ لكن لو تبيَّن له بعد الحكم أنه لا حق له وجب عليه الرجوع إلى الحق؛ مثاله: لو فرض أن غريمه أوفاه؛ لكنه ناسٍ، وحلف أنه لم يوفِّه، وحُكِمَ له فلا إثم عليه؛ لكن متى ذكر أنه قد أوفي وجب عليه ردُّ المال إلى صاحبه.

١- (قلت): البخاري (١٧٣٩)، ومسلم (١٦٧٩).

٢- أخرجه أحمد ٦/٣٠٧، حديث رقم ٢٧١٥٣، واللفظ له؛ وأخرجه البخاري ص٥٨١، كتاب الحيل، باب ١٠: حديث رقم ٦٩٦٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٨١، كتاب الأقضية، باب ٣: بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن، حديث رقم ٤٤٧٣ [٤] ١٧١٣.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

قال ابن العثيمين: {يسألونك عن الأهلة}؛ {الأهلة} جمع هلال؛ وهو القمر أول ما يكون شهرًا؛ وسمِّي هلالًا لظهوره؛ ومنه: الاستهلال؛ والإهلال هو رفع الصوت، كما في حديث خلاد بن السائب عن أبيه أن النبي ﷺ قال: ((أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال([1]))، يعني بالتلبية؛ ومنه قولهم: (استهلَّ المولود) إذا صرخ بعد وضعه.

وقوله تعالى: {يسألونك عن الأهلة}: يعني الحكمة فيها بدليل الجواب: {قل هي مواقيت للناس والحج} وأما ما ذكره أهل البلاغة من أنهم سألوا الرسول ﷺ عن السبب في كون الهلال يبدو صغيرًا، ثم يكبر؛ فأجاب الله سبحانه وتعالى ببيان الحكمة؛ وقالوا: إن هذا من أسلوب الحكيم أن يجاب السائل بغير ما يتوقع إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل عن هذا؛ فالصواب أنهم لم يسألوا الرسول عن هذا؛ ولكن سألوه عن الحكمة من الأهلة، وأن الله سبحانه وتعالى خلقها على هذا الوجه؛ والدليل: الجواب؛ لأن الأصل أن الجواب مطابق للسؤال إلا أن يثبت ذلك بنص صحيح.

قوله تعالى: {قل هي}: أي الأهلة {مواقيت للناس} جمع ميقات ـ من الوقت ـ؛ أي يوقتون بها أعمالهم التي تحتاج إلى توقيت بالأشهر، كعدة الوفاة أربعة أشهر وعشر، وعدة المطلقة بعد الدخول إذا كانت لا تحيض ثلاثة أشهر، وآجال ديونهم، وإجاراتهم، وغير ذلك.

قوله تعالى: {والحج}: يعني مواقيت للحج؛ لأن الحج أشهر معلومات تبتدئ بدخول شوال، وتنتهي بانتهاء ذي الحجة؛ ثلاثة أشهر؛ وكذلك هي مواقيت للصيام، كما قال تعالى: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}[البقرة: ١٨٥]؛ لكن سياق الآيات توطئة لبيان أشهر الحج؛ فلهذا قال تعالى: {مواقيت للناس والحج}؛ ولم يذكر الصيام؛ لأنه سبق.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٥ص١١٢: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الْمَعْلُومَ بِبَصَرٍ أَوْ سَمْعٍ؛ وَلِهَذَا ذَهَبَ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ: إلَى أَنَّهُ إذَا كَانَتْ السَّمَاءُ مُصْحِيَةً وَلَمْ يَحْصُلْ أَحَدٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَكٍّ؛ لِانْتِفَاءِ الشَّكِّ فِي الْهِلَالِ، وَإِنْ وَقَعَ شَكٌّ فِي الطُّلُوعِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

١- أخرجه أحمد ٤/٥٥ حديث رقم ١٦٦٧٢ أخرجه الترمذي ص ١٧٢٩ كتاب الحج باب ١٥ ما جاء في رفع الصوت بالتلبية حديث رقم ٨٢٩ وأخرجه أبو داود ص ١٣٥٨ كتاب المناسك باب ٢٦ كيفية التلبية حديث رقم ١٨١٤ وأخرجه ابن ماجه ص ٢٦٥٣ باب ١٦ رفع الصوت بالتلبية حديث رقم ٢٩٢٢ وأخرجه مالك في الموطأ ٢٧٢/١ كتاب الحج باب ١٠ رفع الصوت بالإهلال حديث ٣٤ وأخرجه الدارمي ٥٣/٢ من كتاب المناسك باب ١٤ في رفع الصوت بالتلبية حديث رقم ١٨٠٩ قال الألباني في صحيح الترمذي (صحيح) ٢٥٠/١ حديث رقم ٦٦٣.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْهِلَالَ عَلَى وَزْنِ فِعَالٍ. وَهَذَا الْمِثَالُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لِمَا يُفْعَلُ بِهِ كَالْإِزَارِ: لِمَا يؤتزر بِهِ، وَالرِّدَاءِ: لِمَا يُرْتَدَى بِهِ، وَالرِّكَابِ: لِمَا يُرْكَبُ بِهِ، وَالْوِعَاءِ: لِمَا يُوعَى فِيهِ وَبِهِ، والسماد لِمَا تُسَمَّدُ بِهِ الْأَرْضُ، وَالْعِصَابِ: لِمَا يُعْصَبُ بِهِ، وَالسِّدَادِ لِمَا يُسَدُّ بِهِ، وَهَذَا كَثِيرٌ مُطَّرِدٌ فِي الْأَسْمَاءِ.

فَالْهِلَالُ اسْمٌ لِمَا يُهَلُّ بِهِ، أَيْ يُصَاتُ بِهِ، وَالتَّصْوِيتُ بِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ إِدْرَاكِهِ بِبَصَرٍ أَوْ سَمْعٍ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

يُهِلُّ بِالْفَرْقَدِ رُكْبَانُهَا ... كَمَا يُهِلُّ الرَّاكِبُ الْمُعْتَمِرُ

أَيْ: يُصَوِّتُونَ بِالْفَرْقَدِ، فَجَعَلَهُمْ مُهِلِّينَ بِهِ؛ فَلِذَلِكَ سُمِّيَ هِلَالًا. وَمِنْهُ قَوْلُهُ: {وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ}[البقرة: ١٧٣]: أَيْ صُوِّتَ بِهِ، وَسَوَاءٌ كَانَ التَّصْوِيتُ بِهِ رَفِيعًا أَوْ خَفِيضًا، فَإِنَّهُ مِمَّا تُكُلِّمَ بِهِ، وَجُهِرَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَنُطِقَ بِهِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ جَعَلَهَا مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَكُونُ مَوَاقِيتَ لَهُمْ إِلَّا إِذَا أَدْرَكُوهَا بِبَصَرٍ أَوْ سَمْعٍ، فَإِذَا انْتَفَى الْإِدْرَاكُ انْتَفَى التَّوْقِيتُ، فَلَا تَكُونُ أَهِلَّةً، وَهُوَ غَايَةُ مَا يُمْكِنُ ضَبْطُهُ مِنْ جِهَةِ الْحِسِّ، إِذْ ضَبْطُ مَكَانِ الطُّلُوعِ بِالْحِسَابِ لَا يَصِحُّ أَصْلًا، وَقَدْ صَنَّفْت فِي ذَلِكَ شَيْئًا.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَنْبَنِي عَلَيْهِ – أَيْضًا – فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي قُوَى الْبَشَرِ أَنْ يَضْبُطُوا لِلرُّؤْيَةِ زَمَانًا وَمَكَانًا مَحْدُودًا، وَإِنَّمَا يَضْبُطُونَ مَا يُدْرِكُونَهُ بِأَبْصَارِهِمْ أَوْ مَا يَسْمَعُونَهُ بِآذَانِهِمْ، فَإِذَا كَانَ الْوَاجِبُ تَعْلِيقَهُ فِي حَقِّ مَنْ رَأَى بِالرُّؤْيَةِ، فَفِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَرَ بِالسَّمَاعِ، وَمَنْ لَا رُؤْيَةَ لَهُ وَلَا سَمَاعَ، فَلَا إِهْلَالَ لَهُ، وَاَللَّهُ هُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ.

قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن من باع معلومًا من السلع بثمن معلوم إلى أجل معلوم من شهور العرب أو إلى أيام معروفة العدد، أن البيع جائز. وكذلك قالوا في السلم إلى الأجل المعلوم. واختلفوا في من باع إلى الحصاد، أو إلى الدياس، أو إلى العطاء، وشبه ذلك، فقال مالك: ذلك جائز لأنه معروف، وبه قال أبو ثور. وقال أحمد: أرجو ألّا يكون به بأس. وكذلك إلى قدوم الغزاة. وعن ابن عمر أنه كان يبتاع إلى العطاء. وقالت طائفة: ذلك غير جائز، لأن اللّه تعالى وقَّت المواقيت وجعلها علمًا لآجالهم في بياعاتهم ومصالحهم. كذلك قال ابن عباس، وبه قال الشافعي والنعمان. قال ابن المنذر: قول ابن عباس صحيح.

وإذا رئي الهلال كبيرًا فقال علماؤنا: لا يعول على كبره ولا على صغره وإنما هو ابن ليلته. روى مسلم عن أبي البختري قال: خرجنا للعمرة فلما نزلنا ببطن نخلة قال: تراءينا الهلال، فقال بعض القوم: هو ابن ثلاث، وقال بعض القوم: هو ابن ليلتين. قال: فلقينا ابن عباس فقلنا: إنا رأينا الهلال فقال بعض القوم هو ابن ثلاث، وقال بعض القوم هو ابن ليلتين.

فقال: أي ليلة رأيتموه؟ قال فقلنا: ليلة كذا وكذا. فقال: إن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله مدَّه للرؤية)) فهو لليلة رأيتموه([1]).

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: {وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا}: قال الإمام البخاري ج٤ ص٣٧٠ حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول نزلت هذه الآية فينا كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا}. ص –٢٧ – ... الحديث أعاده البخاري رحمه الله في كتاب التفسير فقال حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق به ج٩ ص٢٤٩ وأخرجه مسلم ج١٨ ص١٦١ وأخرجه الطيالسي ج٢ ص١٢ وأخرجه الحاكم في المستدرك ج١ ص٤٨٣ من حديث جابر وفيه كانت الأنصار والعرب – أي غير الحمس – وفيه بيان المبهم في حديث البراء أنه قطبة بن عامر وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي وليس كما قالا فإن أبا الجواب وهو الأحوص بن جواب وعمار بن رزيق١ لم يخرج لهما البخاري شيئًا كما في تهذيب التهذيب فهو على شرط مسلم فقط.

قال ابن العثيمين: {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها}؛ {البر} هو الخير الكثير؛ وسمِّي الخير برًّا لما فيه من السعة؛ ومنه في الاشتقاق (البَر) ـ الذي هو الخلاء: وهو ما سوى البنيان ـ لسعته.

وقوله تعالى: {بأن تأتوا}: الباء حرف جر زائد للتوكيد؛ يعني: وليس البر بإتيانكم البيوت من ظهورها؛ و{البُيوت} بضم الباء؛ وفي قراءة بكسر الباء.

١– (قلت): رواه الإمام أحمد في مسنده: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَهَاشِمٌ، قَالَا: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: أَهْلَلْنَا هِلَالَ رَمَضَانَ، وَنَحْنُ بِذَاتِ عِرْقٍ، قَالَ: فَأَرْسَلْنَا رَجُلًا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ – قَالَ هَاشِمٌ: فَسَأَلَهُ – فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنَّ اللهَ قَدْ مَدَّ رُؤْيَتَهُ – قَالَ هَاشِمٌ: لِرُؤْيَتِهِ – فَإِنْ أُغْمِيَ عَلَيْكُمْ، فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ)).

قال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لمسند الإمام أحمد: إسناده صحيح على شرط الشيخين. هاشم: هو ابن القاسم أبو النضر. وأبو البَخْتَري: هو سعيد بن فيروز الكوفي. وأخرجه مسلم (١٠٨٨) (٣٠)، وابن خزيمة (١٩١٥) من طريق محمد بن جعفر، بهذا الإسناد. وأخرجه الطيالسي (٢٧٢١)، ومن طريقه البيهقي ٢٠٦/٤، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢٢/٣ عن محمد بن جعفر غُندر، كلاهما (الطيالسي وغندر) عن شعبة، به.

وأخرج ابن أبي شيبة ٢١/٣-٢٢، ومسلم (١٠٨٨) (٢٩)، وابن خزيمة (١٩١٩)، والطبراني (١٢٦٨٧) من طريق حصين، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، قال: خرجنا للعمرة، فلما نزلنا ببطن نخلة قال: تراءينا الهلال، فقال بعضُ القوم: هو ابن ثلاث، وقال بعض القوم: هو ابن ليلتين، قال فلقِينا ابن عباس، فقلنا: إنا رأينا الهلال، فقال بعضُ القوم: هو ابن ثلاث، وقال بعضُ القوم: هو ابن ليلتين، فقال: أيَّ ليلة رأيتموه؟ قال: فقلنا: ليلة كذا وكذا، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله مده للرؤية)) فهو لليلة رأيتموه. ووقع عند الطبراني: خرجنا حُجاجًا. وسيأتي الحديث برقم (٣٢٠٨) و (٣٥١٥)، وانظر (٣٤٧٤).

قوله: (فأرسلنا رجلاً)، قال السندي: أي: حين رأيناه كبيرًا خارجًا عن المعتاد فاختلفنا، ففي (مسلم): قال بعض القوم: ابن ثلاث، وقال بعض القوم: ابن ليلتين.

وقوله: (قد مد رؤيته)، أي: أطال فيها بحيث يبلغ الشهر ثلاثين يومًا، فإذا لم تتبين رؤية الهلال في ليلة التاسع والعشرين، فتكمل عدة الشهر ثلاثين.

وذات عِرْق، قال الحافظ في (الفتح) ٣٨٩/٣: هي بكسر العين وسكون الراء بعدها قاف، سمِّي بذلك لأن فيه عِرقًا، وهو الجبل الصغير، وهي أرض سَبَخَة تُنبت الطرفاء (هو شجر)، بينها وبين مكة مرحلتان، والمسافة: اثنان وأربعون ميلًا، وهو الحد الفاصل بين نجدٍ وتهامة.

وقوله تعالى: {من ظهورها}؛ {من} بيانية؛ أي تأتوها من الخلف؛ وكانوا في الجاهلية من سفههم يأتون البيوت من ظهورها إذا أحرموا بحج، أو بعمرة إلّا قريشًا؛ فإنهم يأتونها من أبوابها؛ أما غيرهم فيقولون: نحن أحرمنا؛ لا يمكن أن ندخل بيوتنا من أبوابها؛ هذا يبطل الإحرام؛ لا بد أن نأتي من الظهور لئلّا يسترنا سقف البيت؛ فكانوا يتسلَّقون البيوت مع الجدران من الخلف، ويعتقدون أن ذلك بِرٌّ وقربة إلى الله عز وجل؛ فنفى الله هذا، وأبطله بقوله تعالى: {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها}؛ لما فيه من التعسير، ولما فيه من السفه ومخالفة الحكمة، فهو خلاف البِر؛ ولهذا قال تعالى: {ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها}.

قوله تعالى: {ولكن البر من اتقى}؛ وفي قراءة: {ولكن البر} بتخفيف النون في {لكن}؛ ورفع {البرُّ}؛ على أن تكون {لكن} مخفَّفة من الثقيلة مهملة؛ و{البر} مبتدأ؛ أما على قراءة التشديد فهي عاملة؛ و{البر} اسمها؛ وقوله تعالى: {البر من اتقى}: {البر} اسم معنى؛ و{من اتقى} اسم جثة؛ كيف يخبر بالجثة عن اسم المعنى؟

فالجواب أنه يخرج على واحد من أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: أن يكون المصدر هنا بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البار.

الوجه الثاني: أن يكون المصدر على تقدير محذوف؛ أي: ولكن البرَّ بر من اتقى.

الوجه الثالث: أن هذا على سبيل المبالغة أن يجعل {من اتقى} نفس البر، كما يصفون المصدر فيقولون: فلان عدل، ورضا.

وقوله تعالى: {من اتقى}: أي اتقى الله عز وجل؛ لأن الاتقاء في مقام العبادة إنما يراد به اتقاء الله عز وجل؛ البر هو التقوى؛ هذا هو حقيقة البر؛ لا أن تتقي دخول البيت من بابه؛ ولهذا قال تعالى: {وأتوا البيوت من أبوابها}: أي من جهة الباب فإن هذا هو الخير.

قال السعدي: ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السَّهل القريب، الذي قد جعل له موصلًا فالآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم، ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمرًا من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلابدَّ أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

قال ابن العثيمين: {واتَّقوا الله}: أي اجعلوا لكم وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قال السعدي: هذا هو البِرُّ الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح، الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتَّق الله تعالى، لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتَّقاه، فاز بالفلاح والنجاح.

قال ابن العثيمين: {لعلكم تفلحون}؛ {لعل} للتعليل؛ أي لأجل أن تنالوا الفلاح؛ و{الفلاح} هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

قال القرطبي: في هذه الآية بيان أن ما لم يشرعه الله قربة ولا ندب إليه لا يصير قربة بأن يتقرَّب به متقرِّب. قال ابن خويز منداد: إذا أشكل ما هو بر وقربة بما ليس هو بر وقربة أن ينظر في ذلك العمل، فإن كان له نظير في الفرائض والسنن فيجوز أن يكون، وإن لم يكن فليس ببر ولا قربة. قال: وبذلك جاءت الآثار عن النبي ﷺ. وذكر حديث ابن عباس.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١١ص٦٣٢: وَلَوْ سُئِلَ الْعَالِمُ عَمَّنْ يَعْدُو بَيْنَ جَبَلَيْنِ: هَلْ يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَإِذَا قِيلَ: إنَّهُ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ كَمَا يَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا والمروة، قَالَ: إنَّ فِعْلَهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ حَرَامٌ مُنْكَرٌ، يُسْتَتَابُ فَاعِلُهُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وَلَوْ سُئِلَ: عَنْ كَشْفِ الرَّأْسِ، وَلُبْسِ الْإِزَارِ، وَالرِّدَاءِ: أَفْتَى بِأَنَّ هَذَا جَائِزٌ، فَإِذَا قِيلَ: إنَّهُ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ الْإِحْرَامِ، كَمَا يُحْرِمُ الْحَاجُّ. قَالَ: إنَّ هَذَا حَرَامٌ مُنْكَرٌ.

وَلَوْ سُئِلَ: عَمَّنْ يَقُومُ فِي الشَّمْسِ. قَالَ: هَذَا جَائِزٌ. فَإِذَا قِيلَ: إنَّهُ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ. قَالَ: هَذَا مُنْكَرٌ. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ. فَقَالَ: ((مَنْ هَذَا؟)) قَالُوا: هَذَا أَبُو إسْرَائِيلَ يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ، وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَجْلِسْ، وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ(١))، فَهَذَا لَوْ فَعَلَهُ لِرَاحَةِ، أَوْ غَرَضٍ مُبَاحٍ لَمْ يُنْهَ عَنْهُ، لَكِنْ لَمَّا فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ نُهِيَ عَنْهُ.

وَكَذَلِكَ لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ إلَى بَيْتِهِ مِنْ خَلْفِ الْبَيْتِ، لَمْ يَحْرُمْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إذَا فَعَلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ عِبَادَةٌ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: كَانَ أَحَدُهُمْ إذَا أَحْرَمَ لَمْ يَدْخُلْ تَحْتَ سَقْفٍ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا}، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِبِرٍّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَرَامًا، فَمَنْ فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْبِرِّ وَالتَّقَرُّبِ إلَى اللَّهِ كَانَ عَاصِيًا، مَذْمُومًا، مُبْتَدِعًا، وَالْبِدْعَةُ أَحَبُّ إلَى إبْلِيسَ مِنْ الْمَعْصِيَةِ، لِأَنَّ الْعَاصِيَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَاصٍ فَيَتُوبُ، وَالْمُبْتَدِعُ يَحْسَبُ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُهُ طَاعَةٌ فَلَا يَتُوبُ.

١- البخاري في الإيمان (٦٧٠٤)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٠٠).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- حرص الصحابة ﵃ على العلم، وأنهم يسألون عن أمور الدين، وأمور الدنيا؛ لأن هذا ممّا يتعلّق بالدنيا.

٢- عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ، حيث يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه؛ وهذا من معونة الله للرسول ﷺ، وعنايته به.

٣- بيان علم الله، وسمعه، ورحمته؛ لقوله تعالى: {يسألونك}؛ علم الله بسؤالهم، وسمعه، ورحمهم بالإجابة.

٤- أن الحكمة من الأهلّة أنها مواقيت للناس في شؤون دينهم، ودنياهم؛ لقوله تعالى: {مواقيت للناس}.

٥- أن ميقات الأمم كلها الميقات الذي وضعه الله لهم ـ وهو الأهلة ـ؛ فهو الميقات العالمي؛ لقوله تعالى: {مواقيت للناس}؛ وأما ما حدث أخيرًا من التوقيت بالأشهر الإفرنجية فلا أصل له من محسوس، ولا معقول، ولا مشروع؛ ولهذا تجد بعض الشهور ثمانية وعشرين يومًا، وبعضها ثلاثين يومًا، وبعضها واحدًا وثلاثين يومًا من غير أن يكون سبب معلوم أوجب هذا الفرق؛ ثم إنه ليس لهذه الأشهر علامة حسيَّة يرجع الناس إليها في تحديد أوقاتهم ـ بخلاف الأشهر الهلالية فإن لها علامة حسيَّة يعرفها كل أحد ـ.

٦- أن الحج مقيَّد بالأشهر؛ لقوله تعالى: {والحج}.

٧- أن البِرَّ يكون بالتزام ما شرعه الله، والحذر من معصيَّته؛ لقوله تعالى: {ولكن البر من اتقى}.

٨- أن العادات لا تجعل غير المشروع مشروعًا؛ لقوله تعالى: {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} مع أنهم اعتادوه، واعتقدوه من البر؛ فمن اعتاد شيئًا يعتقده بِرًّا عرض على شريعة الله.

٩- أنه ينبغي للإنسان أن يأتي الأمور من أبوابها؛ لقوله تعالى: {وأتوا البيوت من أبوابها}؛ فإن هذه الآية كما تناولت البيوت الحسيَّة، كذلك أيضًا تناولت الأمور المعنويّة؛ فإذا أردت أن تخاطب مثلًا شخصًا كبير المنزلة فلا تخاطبه بما تخاطب سائر الناس؛ ولكن ائت من الأبواب؛ لا تَتجشَّم الأمر تجشُّمًا؛ لأنك قد لا تحصل المقصود؛ بل تأتي من بابه بالحكمة، والموعظة الحسنة حتى تتم لك الأمور.

١٠- أن الله سبحانه وتعالى إذا نهى عن شيء فتح لعباده من المأذون ما يقوم مقامه؛ فإنه لما نفى أن يكون إتيان البيوت من ظهورها من البِرّ بين ما يقوم مقامه، فقال تعالى: {وأتوا البيوت من أبوابها}؛ وله نظائر منها قوله تعالى: {لا تقولوا راعنا

وقولوا انظرنا}[البقرة: ١٠٤]؛ ومنها قول النبي ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت: ((أجعلتني لله ندًا؛ بل ما شاء الله وحده(١)))؛ والأمثلة في هذا كثيرة.

١١– وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله}.

١٢– أنَّ التَّقوى تسمَّى بِرًّا.

١٣– أنَّ التَّقوى سبب للفلاح؛ لقوله تعالى: {لعلَّكم تفلحون}.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)

قال ابن العثيمين: {قاتلوا} فعل أمر؛ والمقاتلة مفاعلة من الجانبين؛ يعني اقتلوهم بمقاتلتهم إيَّاكم؛ ولكن قال: {في سبيل الله}: أي في دينه، وشرعه، ولأجله؛ فسبيل الله سبحانه وتعالى يتناول الدِّين، وأن يكون القتال في حدود الدِّين، وعلى الوجه المشروع، ولله وحده؛ فهو يتضمَّن الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قدَّم المقاتل من أجله قبل المقاتل، إشارة إلى أنه ينبغي الإخلاص في هذا القتال؛ لأنه ليس بالأمر الهيِّن؛ فإن المقاتل يعرض رقبته لسيوف الأعداء؛ فإذا لم يكن مخلصًا لله خسر الدنيا والآخرة، قُتِلَ ولم تحصل له الشَّهادة؛ فنبَّه بتقديم المراد {في سبيل الله} ليكون قتاله مبنيًّا على الإخلاص.

{الذين يقاتلونكم}: أي ليصدُّوكم عن دينكم؛ وهذا القيد للإغراء؛ لأن الإنسان إذا قيل له: (قاتل من يقاتلك) اشتدَّت عزيمته، وقويت شكيمته؛ وعلى هذا فلا مفهوم لهذا القيد.

{ولا تعتدوا}: أي في المقاتلة؛ والاعتداء في المقاتلة يشمل الاعتداء في حق الله، والاعتداء في حق المقاتلين؛ أمَّا الاعتداء في حق الله: فمثل أن نقاتلهم في وقت لا يحلُّ القتال فيه، مثل أن نقاتلهم في الأشهر الحرم على القول بأن تحريم القتال فيها غير منسوخ ـ؛ وأمَّا في حق المقاتلين فمثل أن نمثِّل بهم؛ لأن النبي ﷺ نهى عن المُثلة(٢).

{إنَّ الله لا يحب المعتدين}: الجملة هنا تعليل للحكم؛ والحكم: النهي عن الاعتداء.

وقوله تعالى: {المعتدين}: أي في القتال وغيره؛ و(الاعتداء) تجاوز ما يحلُّ له.

قال الطبري: عن ابن عباس: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين}، يقول: لا تقتلوا النساء ولا الصِّبيان ولا الشيخ الكبير وَلا مَنْ ألقى إليكم السَّلَمَ وكفَّ يَده، فإن فَعلتم هذا فقد اعتديتم.

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في موسوعة الألباني في العقيدة ج٥ص٦٠٦، وحسنه لغيره شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لمسند الإمام أحمد (١٨٣٩)، والحديث بتمامه ورد بهذا اللفظ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهَ عَدْلاً بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)).

٢– راجع مسلم ص٩٨٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٢: تأمير الإمام الأمراء على البعوث ... ، حديث رقم ٤٥٢٢ [٣] ١٧٣١.

عن سعيد بن عبد العزيز، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عديٍّ بن أرطاة: (إني وَجَدتُ آية في كتاب الله: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين}: أي لا تقاتل من لا يقاتلك، يعني: النساء والصبيان والرُّهبان).

فتأويل الآية: وقاتلوا أيها المؤمنون في سبيل الله – وسبيلُه: طريقه الذي أوضحه، ودينه الذي شرعه لعباده – يقول لهم تعالى ذكره: قاتلوا في طاعتي وَعلى ما شرعت لكم من ديني، وادعوا إليه من وَلَّى عنه واستكبر بالأيدي والألسن، حتى يُنيبوا إلى طاعتي، أو يعطوكم الجزية صَغارًا إن كانوا أهل كتاب. وأمرهم تعالى ذكره بقتال مَنْ كان منه قتال من مُقاتِلة أهل الكفر دون من لم يكن منه قتال من نسائهم وذراريهم، فإنهم أموال وخَوَلٌ لهم إذا غُلب المقاتلون منهم فقُهِروا، فذلك معنى قوله: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم} لأنه أباح الكفَّ عمَّن كفَّ، فلم يُقاتل من مشركي أهل الأوثان والكافِّين عن قتال المسلمين من كفار أهل الكتاب على إعطاء الجزية صَغارًا.

فمعنى قوله: {ولا تعتدوا}: لا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً، ولا من أعطاكم الجزية من أهل الكتابَين والمجوس، {إنَّ الله لا يُحب المعتدين} الذين يجاوزون حدوده، فيستحلُّون ما حرَّمه الله عليهم من قتل هؤلاء الذين حَرَّم قتلهم من نساء المشركين وذراريهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص٣٤٩: الْعُقُوبَاتُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ لِمَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: عُقُوبَةُ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ، مِنْ الْوَاحِدِ وَالْعَدَدِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَالثَّانِي: عِقَابُ الطَّائِفَةِ الْمُمْتَنِعَةِ، كَالَّتِي لَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إلَّا بِقِتَالِ.

فَأَصْلُ هَذَا هُوَ جِهَادُ الْكُفَّارِ، أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إلَى دِينِ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَهُ بِهِ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهُ {حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}[الأنفال: ٣٩].

وَلِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا بَعَثَ نَبِيَّهُ، وَأَمَرَهُ بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إلَى دِينِهِ، لَمْ يَأْذَنْ لَهُ فِي قَتْلِ أَحَدٍ عَلَى ذَلِكَ وَلَا قِتَالِهِ، حَتَّى هَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ، فَأَذِنَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[الحج: ٣٩- ٤١].

ثُمَّ إنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة: ٢١٦].

وَأَكَّدَ الْإِيجَابَ، وَعَظَّمَ أَمْرَ الْجِهَادِ، فِي عَامَّةِ السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ، وَذَمَّ التَّارِكِينَ لَهُ، وَوَصَفَهُمْ بِالنِّفَاقِ وَمَرَضِ الْقُلُوبِ، فَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[التوبة: ٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات: ١٥]. وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}[محمد: ٢٠- ٢٢]. فَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ([1]).

وَكَذَلِكَ تَعْظِيمُهُ وَتَعْظِيمُ أَهْلِهِ فِي [سُورَةِ الصَّفِّ] الَّتِي يَقُولُ فِيهَا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[الصف: ١٠- ١٣]. وَقَوْله تَعَالَى: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[التوبة: ١٩- ٢٢]. وَقَوْله تَعَالَى: {مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[المائدة: ٥٤]. وَقَالَ تَعَالَى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[التوبة: ١٢٠- ١٢١]. فَذَكَرَ مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا يُبَاشِرُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ. وَالْأَمْرُ بِالْجِهَادِ، وَذِكْرُ فَضَائِلِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَرَ.

وَلِهَذَا كَانَ أَفْضَلَ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَكَانَ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ أَفْضَلَ مِنْ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَمِنْ الصَّلَاةِ التَّطَوُّعِ، وَالصَّوْمِ التَّطَوُّعِ. كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ([2]))).

١- (قلت): أنظر كلام أبو حنيفة رحمه الله عن التدرج في فرض قتال المشركين عند تفسير الآية (٢٤٤) من سورة البقرة.

٢- الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) وابن ماجة في الفتن (٣٩٧٣) عن معاذ بن جبل.

وَقَالَ: ((إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَمِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ(١))) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَالَ: ((مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ(٢)))، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَقَالَ ﷺ: ((رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ. وَإِنْ مَاتَ أُجْرِيَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ(٣)))، رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَفِي السُّنَنِ: ((رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ(٤)))، وَقَالَ ﷺ: ((عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرِسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ(٥)))، قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: ((أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا تَسْتَطِيعُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي بِهِ؟ قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَصُومَ لَا تُفْطِرُ، وَتَقُومَ لَا تَفْتُرُ؟ قَالَ لَا. قَالَ: فَذَلِكَ الَّذِي يَعْدِلُ الْجِهَادَ(٦))). وَفِي السُّنَنِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ سِيَاحَةٌ، وَسِيَاحَةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ(٧))).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٤١٣). وقال: وهو قطعة من حديث لمعاذ بن جبل رضى الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ فى سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: ((لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت))، ثم قال: ((ألا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل فى جوف الليل))، قال: ثم تلا: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} حتى بلغ {يعملون}))، ثم قال: ((ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة سنامه؟))، قلت: بلى يا رسول الله: قال: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد))، ثم قال: ((ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟))، قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: ((كف عليك هذا))، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: ((ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس فى النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)).

أخرجه الترمذى (١٠٣/٢ . بولاق) وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد (٢٣١/٥) من طريق معمر عن عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن معاذ. وقال الترمذى: (حديث حسن صحيح). قلت: وإسناده حسن.

١- البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) عن أبي هريرة، والنسائي في الجهاد (٣١٣٢) عن أبي الدرداء، وعن أبي سعيد (٣١٣١) ولم يذكر الإمام المزي رواية لمسلم من نفس الطرق.

٢- البخاري في الجمعة (٩٠٧) عن عباية بن رفاعة.

٣- مسلم في الإمارة (١٦٣/١٩١٣).

٤- الترمذي في الجهاد (١٦٦٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٩)، والدارمي في الجهاد ٢١١/٢، وأحمد ١/ ٦٥، ٧٥.

- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح لترغيب والترهيب (١٢٢٤).

٥- الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩) وقال: (حديث ابن عباس حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٨٢٩).

٦- (قلت): البخاري (٢٧٨٧)، ومسلم في الإمارة (١١٠/١٨٧٨)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦١٩) وقال: (حديث حسن صحيح). والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: ((لَا تَسْتَطِيعُونَهُ))، قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: ((لَا تَسْتَطِيعُونَهُ))، وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: ((مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى)).

٧- (قلت): قال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٤٤٢): ضعيف جدا، أخرجه الطبراني برقم (٧٧٠٨) بإسناد الذي قبله.

لكن جملة ((إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)) (قد جاءت من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وهي مخرجة في المشكاة (٧٢٤)، وصحيح أبي داود (١٢٤٧)، والجملة الأخرى رويت في أحاديث بلفظ ((الجهاد))، وهو مخرج في الصحيحة (٥٥٥).

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، لَمْ يَرِدْ فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ وَفَضْلِهَا مِثْلُ مَا وَرَدَ فِيهِ.

وَهُوَ ظَاهِرٌ عِنْدَ الِاعْتِبَارِ؛ فَإِنَّ نَفْعَ الْجِهَادِ عَامٌّ لِفَاعِلِهِ وَلِغَيْرِهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَمُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَإِنَّهُ مُشْتَمِلٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ – تعَالَى – وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَتَسْلِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ لَهُ، وَالصَّبْرِ وَالزُّهْدِ، وَذِكْرِ اللَّهِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ، عَلَى مَا لَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ عَمَلٌ آخَرُ. وَالْقَائِمُ بِهِ مِنْ الشَّخْصِ وَالْأُمَّةِ بَيْنَ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ دَائِمًا؛ إمَّا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَإِمَّا الشَّهَادَةُ وَالْجَنَّةُ.

فَإِنَّ الْخَلْقَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَحْيَا وَمَمَاتٍ، فَفِيهِ اسْتِعْمَالُ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ فِي غَايَةِ سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفِي تَرْكِهِ ذَهَابُ السَّعَادَتَيْنِ أَوْ نَقْصُهُمَا؛ فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّدِيدَةِ فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا مَعَ قِلَّةِ مَنْفَعَتِهَا، فَالْجِهَادُ أَنْفَعُ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ عَمَلٍ شَدِيدٍ، وَقَدْ يَرْغَبُ فِي تَرْفِيهِ نَفْسِهِ حَتَّى يُصَادِفَهُ الْمَوْتُ، فَمَوْتُ الشَّهِيدِ أَيْسَرُ مِنْ كُلِّ مِيتَةٍ، وَهِيَ أَفْضَلُ الْمِيتَاتِ.

وَإِذَا كَانَ أَصْلُ الْقِتَالِ الْمَشْرُوعِ هُوَ الْجِهَادُ، وَمَقْصُودُهُ هُوَ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَأَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَمَنْ امْتَنَعَ مِنْ هَذَا قُوتِلَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْمُمَانَعَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ، كَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَالرَّاهِبِ، وَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ، وَالْأَعْمَى، وَالزَّمِنِ وَنَحْوِهِمْ، فَلَا يُقْتَلُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، إلَّا أَنْ يُقَاتِلَ بِقَوْلِهِ أَوْ فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَرَى إبَاحَةَ قَتْلِ الْجَمِيعِ لِمُجَرَّدِ الْكُفْرِ، إلَّا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ؛ لِكَوْنِهِمْ مَالًا لِلْمُسْلِمِينَ. وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابُ؛ لِأَنَّ الْقِتَالَ هُوَ لِمَنْ يُقَاتِلُنَا، إذَا أَرَدْنَا إظْهَارَ دِينِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[البقرة: ١٩٠]، وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ ﷺ: أَنَّهُ مَرَّ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، قَدْ وَقَفَ عَلَيْهَا النَّاسُ. فَقَالَ: ((مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ))، وَقَالَ لِأَحَدِهِمْ: ((الْحَقْ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا([1])).

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ محمد بْنُ سَهْلٍ الْقُهُسْتَانِيُّ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي تُرَابٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى الطَّرَسُوسِيُّ، أَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ أَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَعَثَ جَيْشًا قَالَ: ((اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا ، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً وَلَا وَلِيدًا ولا شيخًا كبيرًا([2])).

١- ابن ماجة (٢٨٤٢)، وأحمد ٣/٤٨٨، كلاهما عن حنظلة الكاتب. والعسيف: الأجير. انظر: النهاية ٣/٢٣٦.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة ٢ / ٣٢١.

٢- إسناده صحيح على شرط مسلم لتفرده عن سليمان، يحيى هو ابن عبد الله بن بكير، شعبة هو ابن الحجاج بن الورد.

- وهو في شرح السنة (٣٦٦٣) بهذا الإسناد.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب القتال؛ لقوله تعالى: {وقاتلوا}؛ ووجوب أن يكون في سبيل الله – أي في شرعه، ودينه، ومن أجله –؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ وقد دلَّ الكتاب والسنة على أنه إذا كان العدو من أهل الكتاب – اليهود، والنصارى – فإنهم يُدعَون إلى الإسلام؛ فإن أَبَوا أخذت منهم الجزية؛ فإن أبَوا قوتلوا؛ واختلف العلماء فيمن سواهم من الكفار: هل يعاملون معاملتهم؛ أو يقاتلون إلى أن يسلموا؛ والقول الراجح أنهم يعاملون معاملتهم، كما يدلُّ عليه حديث بريدة الثابت في صحيح مسلم؛ وقد ثبت أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر([1])– وهو يدلُّ على أن أخذ الجزية ليس خاصًّا بأهل الكتاب –.

٢- أنه ينبغي للمتكلِّم أن يذكر للمخاطب ما يهيجه على الامتثال؛ لقوله تعالى: {الذين يقاتلونكم}؛ هذا إذا قلنا: إنها قيد للتهييج والإغراء؛ فإن قلنا: (إنها قيد معنوي يراد به إخراج من لا يقاتلوننا)، اختلف الحكم.

٣- تحريم الاعتداء حتى على الكفار؛ لقوله تعالى: {ولا تعتدوا}؛ وعلى المسلمين من باب أولى؛ ولهذا قال الرسول ﷺ لمن يبعثهم، كالسَّرايا والجيوش: ((لا تمثلوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا([2])))؛ لأن هذا من العدوان.

٤- إثبات محبة الله – أي أن الله يحب –؛ لقوله تعالى: {إن الله لا يحب المعتدين}؛ وجه الدِّلالة: أنه لو كان لا يحب أبدًا ما صحَّ أن ينفي محبَّته عن المعتدين فقط؛ فما انتفت محبَّته عن هؤلاء إلا وهي ثابتة في حق غيرهم.

٥- حسن تعليم الله عز وجل، حيث يقرن الحكم بالحكمة؛ لقوله تعالى: {ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين}؛ وقد سبق ذكر فوائد قرن الحكم بالعلة.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)

قال ابن العثيمين: {واقتلوهم}: الضمير الهاء يعود على الكفار الذين يقاتلوننا؛ لقوله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم}[البقرة: ١٩٠].

١- أخرجه البخاري ص٢٥٥، كتاب الجزية والموادعة، باب ١: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، حديث رقم ٣١٥٦، ٣١٥٧.

٢- (قلت): مسلم (١٧٣١).

{حيث}: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب – أي اقتلوهم في أي مكان {ثقفتموهم} أي ظفرتم بهم –؛ أولاً قال تعالى: {قاتلوا}، ثم قال تعالى: {واقتلوا}؛ والقتل أشدُّ؛ يعني متى وجدنا هذا المحارب الذي يقاتلنا حقيقةً أو حكمًا، فإنَّنا نقتله في أي مكان؛ لكنه يستثنى من ذلك المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: {ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه}.

{وأخرجوهم من حيث أخرجوكم}؛ الإخراج يكون من شيء إلى شيء؛ أما القتال فيكون في شيء؛ القتال يكون في مكان؛ والإخراج يكون من المكان؛ ولهذا قال تعالى: {وأخرجوهم من حيث أخرجوكم}: أي من المكان الذي أخرجوكم منه، فمثلًا إذا قدر أن الكفار غلبوا على هذه البلاد، وأخرجوا المسلمين منها فإن المسلمين يجب عليهم أن يقاتلوهم؛ فإذا قاتلوهم يخرجونهم من البلاد من حيث أخرجوهم؛ فهم الذين اعتدوا علينا، واحتلوا بلادنا؛ فنخرجهم من حيث أخرجونا.

{والفتنة أشدّ من القتل} {الفتنة}: هي صدُّ الناس عن دينهم، كما قال تعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم}[البروج: ١٠]؛ فصدُّ الناس عن دينهم فتنةٌ أشدُّ من قتلهم؛ لأن قتلهم غاية ما فيه أن نقطعهم من ملذَّات الدنيا؛ لكن الفتنة تقطعهم من الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة}[الحج: ١١].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص٣٥٥: وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – أَبَاحَ مِنْ قَتْلِ النُّفُوسِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ فِي صَلَاحِ الْخَلْقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}[البقرة: ٢١٧] أَيْ: أَنَّ الْقَتْلَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَرٌّ وَفَسَادٌ فَفِي فِتْنَةُ الْكُفَّارِ مِنْ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، فَمَنْ لَمْ يَمْنَعْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ إقَامَةِ دِينِ لِلَّهِ لَمْ تَكُنْ مَضَرَّةُ كُفْرِهِ إلَّا عَلَى نَفْسِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ: إنَّ الدَّاعِيَةَ إلَى الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يُعَاقَبُ بِمَا لَا يُعَاقَبُ بِهِ السَّاكِتُ.

وَلِهَذَا أَوْجَبَتْ الشَّرِيعَةُ قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَلَمْ تُوجِبْ قَتْلَ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ، بَلْ إذَا أُسِرَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي الْقِتَالِ، أَوْ غَيْرِ الْقِتَالِ، مِثْلَ أَنْ تُلْقِيَهُ السَّفِينَةُ إلَيْنَا، أَوْ يَضِلَّ الطَّرِيقَ، أَوْ يُؤْخَذَ بِحِيلَةِ، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِيهِ الْإِمَامُ الْأَصْلَحَ مِنْ قَتْلِهِ، أَوْ اسْتِعْبَادَهُ، أَوْ الْمَنَّ عَلَيْهِ، أَوْ مُفَادَاتَهُ، بِمَالِ أَوْ نَفْسٍ عِنْدِ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ الْفُقَهَاءِ مَنْ يَرَى الْمَنَّ عَلَيْهِ وَمُفَادَاتَهُ مَنْسُوخًا([1]).

١- (قلت): روى الترمذي في سننه حديثا بهذا الخصوص وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (١٥٦٨): حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن عمه عن عمران ابن حصين أن النبي ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح وعم أبي قلابة هو أبو المهلب واسمه عبد الرحمن بن عمرو ويقال معاوية بن عمرو وأبو قلابة اسمه عبد الله بن زيد الجرمي والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن للإمام أن يمن على من شاء من الأسارى ويقتل من شاء منهم ويفدي من شاء واختار بعض أهل العلم القتل على الفداء وقال الأوزاعي بلغني أن هذه الآية منسوخة قوله تعالى: {فإما منا بعد وإما فداء} نسختها {واقتلوهم حيث ثقفتموهم} حدثنا بذلك هناد حدثنا ابن المبارك عن الأوزاعي قال إسحق بن منصور قلت لأحمد إذا أسر الأسير يقتل أو يفادى أحب إليك قال إن قدروا أن يفادوا فليس به بأس وإن قتل فما أعلم به بأسًا قال إسحق الإثخان أحب إلي إلا أن يكون معروفًا فأطمع به الكثير.

فَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسُ، فَيُقَاتَلُونَ حَتَّى يُسْلِمُوا، أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

وَمَنْ سِوَاهُمْ، فَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ، إلَّا أَنَّ عَامَّتَهُمْ لَا يَأْخُذُونَهَا مِنْ الْعَرَبِ، وَأَيُّمَا طَائِفَةٍ انْتَسَبَتْ إلَى الْإِسْلَامِ، وَامْتَنَعَتْ مِنْ بَعْضِ شَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ جِهَادُهَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رضي الله عنه – وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ – رضي الله عنهم – مَانِعِي الزَّكَاةِ، وَكَانَ قَدْ تَوَقَّفَ فِي قِتَالِهِمْ بَعْضُ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ اتَّفَقُوا، حَتَّى قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا؛ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ؟))، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا. وَاَللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عِنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا قَالَ عُمَرُ: فَمَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ(١). وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ أَمَرَ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ.

قال ابن العثيمين: {ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام}: أي في مكة؛ لأن {المسجد الحرام} هو المسجد نفسه؛ وما (عنده) فهو البلد ـ أي لا تقاتلوهم في مكة.

قال ابن كثير: كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: ((إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ، حَرَام بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلاه(٢). فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ(٣))).

قال ابن العثيمين: {حتى يقاتلوكم فيه}؛ و{في} هنا الظاهر أنها للظرفية.

{فإن قاتلوكم فاقتلوهم} أي إن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوهم؛ وتأمل كيف قال تعالى: {فاقتلوهم}؛ لأن مقاتلتهم إيَّاكم عند المسجد الحرام توجب قتلهم على كل حال.

قال شيخ الإسلام في شرح السير الكبير ج١ص٢٥٦: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الحرم كله المسجد الحرام أي: كالمسجد الحرام في هذا الحكم، ولأن حرمة الحرم لا تلزمنا بحمل الأذى عنهم، كما لا يلزمنا تحمل الأذى عن الصيد، حتى إن الضَّبع إذا صال على إنسان في الحرم جاز قتله دفعًا لأذاه.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٤٠٧).
- رواه البخاري في الصحيح عن يحيى بن بكير وقال : عناقاً. ورواه مسلم عن قتيبة عن الليث وقال: عقالاً. ورواه شعيب بن أبي حمزة عن الزهري وقال: عناقًا.
العناق: الأنثى من ولد المعز أتى عليها أربعة أشهر.
٢- لا يختلى خلاه: لا يقطع حشيشه.
٣- صحيح البخاري برقم (١٨٣٤)، وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن حمل عليهم المسلمون فانهزموا فأخذوا منهم الأسرى فلا بأس بأن يقتلوهم لأنهم لم يراعوا حرمة الحرم، فيكون الحرم في حقهم بمنزلة الحل ابتداءً وانتهاءً بخلاف الصيد، فإنه بعد الصيال إذا هرب لم يحل قتله، لأنه صيد غير العاقل، وإنما يباح دفع أذاه عند قصده حسًّا وقد اندفع ذلك بهربه، فأما الآدمي عاقل يجوز دفع أذاه بقتله زجرًا، ولهذا شرع القصاص لمعنى الحياة، فكما يجوز قتالهم في الابتداء إذا قصدوا دفعًا لأذاهم وزجرًا لهم عن هتك حرمة الحرم، فكذلك يجوز قتلهم بعد الانهزام والأسر لمعنى الزجر عن هتك حرمة الحرم بطريق الاعتبار.

وكذلك لو دخلوا الحرم مقاتلين ومعهم عيالاتهم فهزموا وأخذت عيالاتهم فلا بأس بأن يؤسروا لأنهم اتباع المقاتلة، وحين التحق الحرم بالحل في حق الأصول لهتكهم حرمة الحرم فكذلك في حق الاتباع، فإن ثبوت الحكم في حق التبع بثبوته في الأصل.

ولو كانوا قاتلوا في غير الحرم فقتلوا جماعة من المسلمين ثم انهزموا بعيالاتهم حتى أدخلوهم الحرم فحصلوا في الحرم منهزمين لا فئة لهم، لم يحل أن يعرض لهم ولا لعيالاتهم، لأنهم التجئوا إلى الحرم معظِّمين لها وكانوا آمنين فيها بخلاف الأول، فإنَّهم دخلوا الحرم هاتكين حرمتها بالقصد إلى قتال المسلمين فيها، ولو كانت فئتهم تجمعت بالحرم وصارت لهم منعة فهرب هؤلاء بعيالاتهم إلى فئتهم في الحرم فلا بأس بقتلهم وأسرهم، لأن الملتجئ إلى فئة يكون محاربًا ولا يكون تاركًا للحرب، ألا ترى أن المنهزم من أهل البغي يتبع فيقتل إذا بقيت لهم فئة، فكذلك في هذا الموضع وجميع ما ذكرنا في أهل الحرب هو الحكم في الخوارج وأهل البغي إلا أنه لا تسبى ذراريهم ولا نساؤهم لأنهم مسلمون من أهل دارنا، ولتأكد حريتهم بالإسلام كانوا آمنين من السبي. فأمَّا فيما سوى ذلك مما يحل فيه قتلهم ويحرم، فهم كأهل الحرب والله الموفق.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص٣٩٣: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (مَنْ سَرَقَ أَوْ قَتَلَ فِي الْحِلِّ ثُمَّ دَخَلَ الْحَرَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُجَالَسُ وَلَا يُكَلَّمُ وَلَا يُؤْوَى، وَلَكِنَّهُ يُنَاشَدُ حَتَّى يَخْرُجَ فَيُؤْخَذَ فَيُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، وَإِنْ سَرَقَ أَوْ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ، أُقِيمَ عَلَيْهِ فِي الْحَرَمِ) وَذَكَرَ الْأَثْرَمُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: (مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فِي الْحَرَمِ، أُقِيمَ عَلَيْهِ مَا أَحْدَثَ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ).

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَتْلِ مَنْ قَاتَلَ فِي الْحَرَمِ، فَقَالَ: **{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}**[الْبَقَرَة: ١٩١].

وَالْفَرْقُ بَيْنَ اللَّاجِئِ وَالْمُنْتَهِكِ فِيهِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْجَانِيَ فِيهِ هَاتِكٌ لِحُرْمَتِهِ بِإِقْدَامِهِ عَلَى الْجِنَايَةِ فِيهِ، بِخِلَافِ مَنْ جَنَى خَارِجَهُ ثُمَّ لَجَأَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ مُعَظِّمٌ لِحُرْمَتِهِ مُسْتَشْعِرٌ بِهَا بِالْتِجَائِهِ إِلَيْهِ، فَقِيَاسُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ بَاطِلٌ.

الثَّانِي: أَنَّ الْجَانِيَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْمُفْسِدِ الْجَانِي عَلَى بِسَاطِ الْمَلِكِ فِي دَارِهِ وَحَرَمِهِ، وَمَنْ جَنَى خَارِجَهُ ثُمَّ لَجَأَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَنَى خَارِجَ بِسَاطِ السُّلْطَانِ وَحَرَمِهِ، ثُمَّ دَخَلَ إِلَى حَرَمِهِ مُسْتَجِيرًا.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْجَانِيَ فِي الْحَرَمِ قَدِ انْتَهَكَ حُرْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحُرْمَةَ بَيْتِهِ وَحَرَمِهِ، فَهُوَ هَاتِكٌ لِحُرْمَتَيْنِ بِخِلَافِ غَيْرِهِ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُقِمِ الْحَدُّ عَلَى الْجُنَاةِ فِي الْحَرَمِ لَعَمَّ الْفَسَادُ، وَعَظُمَ الشَّرُّ فِي حَرَمِ اللَّهِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْحَرَمِ كَغَيْرِهِمْ فِي الْحَاجَةِ إِلَى صِيَانَةِ نُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يُشْرَعِ الْحَدُّ فِي حَقِّ مَنِ ارْتَكَبَ الْجَرَائِمَ فِي الْحَرَمِ، لَتَعَطَّلَتْ حُدُودُ اللَّهِ وَعَمَّ الضَّرَرُ لِلْحَرَمِ وَأَهْلِهِ.

وَالْخَامِسُ: أَنَّ اللَّاجِئَ إِلَى الْحَرَمِ بِمَنْزِلَةِ التَّائِبِ الْمُتَنَصِّلِ، اللَّاجِئِ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ تَعَالَى، الْمُتَعَلِّقِ بِأَسْتَارِهِ، فَلَا يُنَاسِبُ حَالُهُ وَلَا حَالُ بَيْتِهِ وَحَرَمِهِ أَنْ يُهَاجَ، بِخِلَافِ الْمُقْدِمِ عَلَى انْتِهَاكِ حُرْمَتِهِ، فَظَهَرَ سِرُّ الْفَرْقِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ مَحْضُ الْفِقْهِ.

قال ابن العثيمين: {كذلك جزاء الكافرين}: أي مثل هذا الجزاء – وهو قتل من قاتل عند المسجد الحرام – جزاء الكافرين؛ أي عقوبتهم التي يكافؤون بها.

وقوله تعالى: {ولا تقاتلوهم ... }؛ {حتى يقاتلوكم ... }؛ {فإن قاتلوكم}؛ {فاقتلوهم}: الجمل هنا الأربع كلها بصيغة المفاعلة إلا واحدة ـ وهي الأخيرة ـ؛ وهناك قراءة أخرى؛ وهي: {ولا تقتلوهم}؛ {حتى يقتلوكم}؛ {فإن قتلوكم}؛ {فاقتلوهم}؛ وعلى هذا فتكون الأربع كلها بغير صيغة المفاعلة.

قال السعدي: ولما كان القتال عند المسجد الحرام، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم – أيها المسلمون – حرج في قتالهم. ويستدلُّ بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– وجوب قتال الكفار أينما وجدوا؛ لقوله تعالى: {واقتلوهم حيث ثقفتموهم}؛ ووجوب قتالهم أينما وجدوا يستلزم وجوب قتالهم في أي زمان؛ لأن عموم المكان يستلزم عموم الزمان؛ ويستثنى من ذلك القتال في الأشهر الحرم: فإنه لا قتال فيها؛ لقوله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير}؛ وقال بعض أهل العلم: لا استثناء، وأن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ؛ لكن لوجوب قتالهم شروط؛ من أهمها القدرة على ذلك.

٢- أن نخرج هؤلاء الكفار، كما أخرجونا؛ المعاملة بالمثل؛ لقوله تعالى: {وأخرجوهم من حيث أخرجوكم}؛ ولهذا قال العلماء: إذا مثَّلوا بنا مثَّلنا بهم؛ وإذا قطعوا نخيلنا قطعنا نخيلهم مِثلًا بمثل سواءً بسواء.

٣- الإشارة إلى أن المسلمين أحقُّ الناس بأرض الله؛ لقوله تعالى: {وأخرجوهم من حيث أخرجوكم}، وقال تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين}[الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]، وقال موسى لقومه: {استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}[الأعراف: ١٢٨].

٤- أن الفتنة بالكفر، والصدّ عن سبيل الله أعظم من القتل.

فيتفرع على هذه الفائدة: أن استعمار الأفكار أعظم من استعمار الديار؛ لأن استعمار الأفكار فتنة؛ واستعمار الديار أقصى ما فيها إما القتل، أو سلب الخيرات، أو الاقتصاد، أو ما أشبه ذلك؛ فالفتنة أشدّ؛ لأنها هي القتل الحقيقي الذي به خسارة الدين، والدنيا، والآخرة.

٥- تعظيم حرمة المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: {ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه}.

٦- جواز القتال عند المسجد الحرام إذا بدأنا بذلك أهله؛ لقوله تعالى: {حتى يقاتلوكم فيه}؛ ولا يعارض هذا قول رسول الله ﷺ: ((فإن أحد ترخَّص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم))؛ الممنوع هو ابتداء القتال لندخل مكة؛ فهذا حرام، ولا يجوز مهما كان الأمر؛ وأما إذا قاتلونا في مكة فإننا نقاتلهم من باب المدافعة.

٧- المبالغة في قتال الأعداء إذا قاتلونا في المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: {فإن قاتلوكم فاقتلوهم}.

٨- وجوب مقاتلة الكفار حتى لا تكون فتنة، ويكون الدِّين لله؛ وقتال الكفار في الأصل فرض كفاية؛ وقد يكون مستحبًّا؛ وقد يكون فرض عين ـ وذلك في أربعة مواضع ـ:

الموضع الأول: إذا حضر صفَّ القتال فإنه يكون فرض عين؛ ولا يجوز أن ينصرف؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلَّا متحرِّفًا لقتال أو متحيِّزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}[الأنفال: ١٥، ١٦].

الموضع الثاني: إذا حصر بلده العدو فإنه يتعيَّن القتال من أجل فكِّ الحصار عن البلد؛ ولأنه يشبه من حضر صفَّ القتال.

الموضع الثالث: إذا احتيج إليه؛ إذا كان هذا الرجل يحتاج الناس إليه إمَّا لرأيه، أو لقوته، أو لأي عمل يكون؛ فإنه يتعيَّن عليه.

الموضع الرابع: إذا استنفر الإمام الناس وجب عليهم أن يخرجوا، ولا يتخلَّف أحد؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ... }[التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى: {إلَّا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ... }[التوبة: ٣٩] الآية.

وما سوى هذه المواضع فهو فرض كفاية؛ واعلم أن الفرض سواء قلنا فرض عين أو فرض كفاية، لا يكون فرضًا إلَّا إذا كان هناك قدرة؛ أما مع عدم القدرة فلا فرض؛ لعموم الأدلَّة الدالَّة على أن الله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها، ولقوله تعالى: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله}[التوبة: ٩١]؛ فإذا كنَّا لا نستطيع أن نقاتل هؤلاء لم يجب علينا؛ وإلَّا لأثمنا جميع الناس مع عدم القدرة؛ ولكنه مع ذلك يجب أن يكون عندنا العزم على أننا إذا قدرنا فسنقاتل؛ ولهذا قيَّدها الله عز وجل بقوله تعالى: {إذا نصحوا لله ورسوله}[التوبة: ٩١]؛ ليس على هؤلاء الثلاثة حرج بشرط أن ينصحوا لله ورسوله؛ فأمَّا مع عدم النصح لله ورسوله، فعليهم الحرج ـ حتى وإن وجدت الأعذار في حقهم ـ. فالحاصل أننا نقول إن القتال فرض كفاية؛ ويتعيَّن في مواضع؛ وهذا الفرض ـ كغيره من المفروضات ـ من شرطه القدرة؛ أما مع العجز فلا يجب؛ لكن يجب أن يكون العزم معقودًا على أنه إذا حصلت القوة جاهدنا في سبيل الله؛ لقول النبي ﷺ: ((من مات ولم يغزو، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق([1]))).

٩– إثبات العدل لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {كذلك جزاء الكافرين}؛ والجزاء من جنس العمل.

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢)

قال ابن العثيمين: {فإن انتهوا}: أي كفُّوا عن قتالكم؛ ويحتمل أن يكون المراد: كفوًا عن قتالكم، وعن كفرهم؛ فعلى الأول يكون المراد بقوله تعالى: {فإن الله غفور رحيم} طلب مغفرة المسلمين لهم بالكفِّ عنهم؛ وعلى الثاني يكون المراد أن الله غفر لهم؛ لقوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}[الأنفال: ٣٨].

قال الطبري: فإن انتهى الكافرون الذين يقاتلونكم عن قتالكم وكفرهم بالله، فتركوا ذلك وتابوا {فإن الله غفور([2])} لذنوب من آمن منهم وتاب من شركه، وأناب إلى الله من معاصيه التي سلفت منه وأيَّامه التي مَضت – {رحيم([3])} به في آخرته بفضله عليه، وإعطائه ما يعطى أهل طاعته من الثواب بإنابته إلى محبَّته من معصيَّته.

١– أخرجه مسلم ص١٠١٩، كتاب الإمارة، باب ٤٧ ذم من مات ولم يغز ... ، حديث رقم ٤٩٣١ [١٥٨] ١٩١٠.

٢– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٣– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

عن مجاهد: {فإن انتهوا} – فإن تابوا – {فإن الله غفورٌ رَحيم}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– تمام عدل الله سبحانه وتعالى، حيث جعل أحكامه، وعقوبته مبنيَّة على عدوان من يستحق هذه العقوبة فقال تعالى: {فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم}.

٢– وجوب الكف عن الكفار إذا انتهوا عمَّا هم عليه من الكفر؛ فلا يؤاخذون بما حصل منهم حال كفرهم؛ ويؤيِّد هذا قوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}[الأنفال: ٣٨].

٣– إثبات اسمين من أسماء الله، وما تضمَّناه من صفة، أو حكم؛ وهما {الغفور}، و{الرحيم}.

٤– أخذ الأحكام الشرعية مما تقتضيه الأسماء الحسنى؛ ولها نظائر؛ منها قوله تعالى في المحاربين: {إلَّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم}[المائدة: ٣٤].

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

قال ابن العثيمين: {وقاتلوهم}: أي قاتلوا الكفار {حتى لا تكون فتنة}: أي صدٌّ عن سبيل الله بأن يكفوا عن المسلمين، ويدخلوا في الإسلام، أو يبذلوا الجزية؛ {ويكون الدين لله}: أي يكون الدِّين الظاهر الغالب لله تعالى أي دين الله ـ.

قال السعدي: ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن {يكون الدين لله} تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود، فلا قتل ولا قتال.

قال ابن العثيمين: {فإن انتهوا}: أي عن قتالكم، وعن كفرهم، ورجعوا {فلا عدوان إلَّا على الظالمين}؛ وهم قد انتفى عنهم الظلم؛ وحينئذ لا يكون عليهم عدوان.

وقوله هنا: {فلا عدوان}: قيل: إن معناه فلا سبيل، كما في قوله تعالى في قصة موسى: {أيَّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل}[القصص: ٢٨] أي لا سبيل عليَّ؛ وقيل: {فلا عدوان}: أي لا مقاتلة؛ لأنه تعالى قال:

{فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه}[البقرة: ١٩٤]؛ وهي من باب مقابلة الشيء بمثله لفظًا؛ لأنه سببه؛ وليس معناه: أن فعلكم هذا عدوان؛ لكن لمَّا صار سببه العدوان صحَّ أن يعبَّر عنه بلفظه[١].

وقوله تعالى: {فلا عدوان إلَّا على الظالمين}: خبر {لا} يجوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: {على الظالمين}؛ ويجوز أن يكون خبر {لا} محذوفًا؛ والتقدير: فلا عدوان حاصل ـ أو كائن ـ إلَّا على الظالمين.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص١٨٢: وَجِمَاعُ الْأَمْرِ أَنَّ الذُّنُوبَ كُلَّهَا ظُلْمٌ، فَإِمَّا ظُلْمُ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ فَقَطْ، أَوْ ظُلْمُهُ مَعَ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ، فَمَا كَانَ مِنْ ظُلْمِ الْغَيْرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْرَعَ مِنْ عُقُوبَتِهِ مَا يَدْفَعُ بِهِ ظُلْمَ الظَّالِمِ عَنْ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[الحج: ٣٩]، فَجَعَلَ السَّبَبَ الْمُبِيحَ لِعُقُوبَةِ الْغَيْرِ الَّتِي هِيَ قِتَالُهُ: {أَنَّهُمْ ظُلِمُوا}. وَقَالَ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}، فَبَيَّنَ أَنَّ الظَّالِمَ يُعْتَدَى عَلَيْهِ، أَيْ يُتَجَاوَزُ. الْحَدُّ الْمُطْلَقُ فِي حَقِّهِ، وَهُوَ الْعُقُوبَةُ، وَهَذَا عُدْوَانٌ جَائِزٌ، كَمَا قَالَ: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[البقرة: ١٩٤].

وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: إنَّ هَذَا لَيْسَ بِعُدْوَانِ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُ عُدْوَانًا عَلَى سَبِيلِ الْمُقَابَلَةِ، كَمَا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}[الشورى: ٤٠]. لَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعُدْوَانَ الْمُطْلَقَ، هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ الْمُطْلَقِ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ إلَّا إذَا اعْتَدَى، فَيَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي حَقِّهِ بِقَدْرِ تَجَاوُزِهِ. وَالسَّيِّئَةُ اسْمٌ لِمَا يَسُوءُ الْإِنْسَانَ؛ فَإِنَّ الْمَصَائِبَ وَالْعُقُوبَاتِ تُسَمَّى سَيِّئَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالظُّلْمُ نَوْعَانِ: تَفْرِيطٌ فِي الْحَقِّ، وَتَعَدٍّ لِلْحَدِّ. فَالْأَوَّلُ تَرْكُ مَا يَجِبُ لِلْغَيْرِ مِثْلَ تَرْكِ قَضَاءِ الدُّيُونِ، وَسَائِرِ الْأَمَانَاتِ، وَغَيْرِهَا مِنْ الْأَمْوَالِ. وَالثَّانِي الِاعْتِدَاءُ عَلَيْهِ، مِثْلُ الْقَتْلِ، وَأَخْذِ الْمَالِ، وَكِلَاهُمَا ظُلْمٌ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: ((مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتَّبِعْ[٢]))، فَجَعَلَ مُجَرَّدَ الْمَطْلِ الَّذِي هُوَ تَأْخِيرُ الْأَدَاءِ مَعَ الْقُدْرَةِ ظُلْمًا، فَكَيْفَ بِالتَّرْكِ رَأْسًا؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى

١- (قلت): العدوان هنا يأتي بطريق القصاص من الذين اعتدوا ابتداءً بكفرهم ويصدهم عن سبيل الله، والاعتداء ابتداءً (ظلم)، والرَّد عليه قصاص وهو (عدل مباح). فإن انتهوا ورجعوا عن كفرهم، فقد انتفى عنهم الظلم والتعدي، فلا قصاص عليهم. ولكن حكم القصاص يبقى ساريًا على الذين يعتدون على المسلمين بكفرهم وصدِّهم عن سبيل الله حيثما وجدوا. لأن وجود الكفار وعدم ظهور الدين فتنة واعتداء منهم على المسلمين، فوجب القصاص منهم.

والظالمين هنا يأتي بمعنى الكافرين. أي: فلا عدوان بطريق القصاص الَّا على الكافرين، لا على الذين انتهوا عن الكفر وأصبحوا مسلمين. لأنَّه في هذه الحال يكون العدوان ظلمًا. وهذا خاص بالكفار كالوثنيين والشيوعيين وغيرهم من أصناف الكفرة، وأمَّا أهل الكتاب والمجوس فإن أبَوا الإسلام، يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وتنتفي فتنتهم لعباد الله باستسلامهم، فلا عدوان عليهم في هذه الحال أيضًا والله أعلم.

٢- البخاري في الحوالة (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (٣٣/١٥٦٤) كلاهما عن أبي هريرة.

- (قلت): قال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لمسند الإمام أحمد: والمطل: هو منع قضاء ما استحق أداؤه. وأراد بالغني: القادر على الأداء. وأتبع، قال: بضم فسكون فكسر مخففًا، أي: أحيل. على مليء، قال: بهمزة، ككريم، أو هو كغني لفظا ومعنى، والأول هو الأصل. فليتبع، قال: بإسكان الفوقية على المشهور، من تبع، أي: فليقبل الحوالة، وقيل: بشدها، والجمهور على أن الأمر للندب، وحمله بعضهم على الوجوب. وانظر شرح السنة (٨/٢١٠-٢١١)، و فتح الباري (٤/٤٦٥-٤٦).

النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} إِلَى قَوْلِهِ: {وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ}[النساء: ١٢٧]. قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حِجْرِ وَلِيِّهَا، فَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِدُونِ أَنْ يُقْسِطَ لَهَا فِي مَهْرِهَا. فَسَمَّى اللَّهُ تَكْمِيلَ الْمَهْرِ قِسْطًا، وَضِدُّهُ الظُّلْمُ.

وَهَذَا فِي الْجُمْلَةِ ظَاهِرٌ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ: أَنَّ الْعَدْلَ قَدْ يَكُونُ أَدَاءَ وَاجِبٍ، وَقَدْ يَكُونُ تَرْكَ مُحَرَّمٍ، وَقَدْ يَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ، وَأَنَّ الظُّلْمَ – أَيْضًا – قَدْ يَكُونُ تَرْكَ وَاجِبٍ، وَقَدْ يَكُونُ فِعْلَ مُحَرَّمٍ، وَقَدْ يَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ. فَإِذَا عُرِفَ هَذَا؛ وَقَدْ عُرِفَ أَنَّ الْعَدْلَ وَالظُّلْمَ يَكُونُ فِي حَقِّ نَفْسِ الْإِنْسَانِ، وَيَكُونُ فِي حُقُوقِ النَّاسِ – كَمَا تَقَدَّمَ وَقَدْ كَتَبْت فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ (الْقَوَاعِدِ) وَفِي آخِرِ (مُسَوَّدَةِ الْفِقْهِ) كَلَامًا كُلِّيًّا، فِي أَنَّ جَمِيعَ الْحَسَنَاتِ تَدْخُلُ فِي الْعَدْلِ، وَجَمِيعُ السَّيِّئَاتِ تَدْخُلُ فِي الظُّلْمِ – فَإِنَّهُ يَتَبَيَّنُ بِهَذَا مَسَائِلُ نَافِعَةٌ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أن الأمر بقتالهم مقيَّد بغايتين؛ غاية عدميَّة: {حتى لا تكون فتنة}: أي حتى لا توجد فتنة؛ و{الفتنة}: هي الشِّرك، والصدُّ عن سبيل الله؛ والغاية الثانية إيجابية: {ويكون الدِّين لله}: بمعنى: أن يكون الدين غالبًا ظاهرًا لا يعلو إلّا الإسلام فقط؛ وما دونه فهو دين مَعلوٌّ عليه يؤخذ على أصحابه الجزية عن يد وهم صاغرون. وإمّا عن الفتنة: بالاستسلام ـ فإنه لا يعتدى عليهم؛ لقوله تعالى: {فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين}.

٢– أنه إذا زالت الفتنة، وقيام أهلها ضد الدعوة الإسلامية ـ وذلك ببذل الجزية ـ فإنهم لا يقاتلون.

٣– أنهم إذا انتهوا ـ إما عن الشرك: بالإسلام؛ وإمَّا عن الفتنة: بالاستسلام ـ فإنه لا يعتدى عليهم؛ لقوله تعالى: {فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين}.

٤– أن الظالم يجازى بمثل عدوانه؛ لقوله تعالى: {فلا عدوان إلّا على الظالمين}؛ وقد قلنا فيما سبق: إن مثل هذا التعبير يراد به المماثلة بالفعل ـ يعني: أن تسمية المجازاة اعتداء من باب المشاكلة حتى يكون الجزاء من جنس العمل.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

قال ابن العثيمين: {الشهر الحرام بالشهر الحرام}: الجملة مبتدأ، وخبر؛ ومعناها: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه؛ وهذا في انتهاك الزمن؛ وقوله تعالى فيما سبق: {ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم}[البقرة: ١٩١] في انتهاك المكان.

قال الطبري: يعني بقوله جل ثناؤه: {الشهر الحرام بالشهر الحرام} ذا القعدة، وهو الشهر الذي كان رسولُ الله ﷺ اعتمر فيه عُمرة الحديبية، فصدَّه مشركو أهل مكة عن البيت ودخول مكة سنة ست من هجرته، وصالح رسول الله ﷺ المشركين في تلك السنة على أن يعود من العام المقبل، فيدخل مكة ويقيم ثلاثًا، فلما كان العامُ المقبل، وذلك سنة سبع من هجرته، خرج معتمرًا وأصحابه في ذي القَعدة – وهو الشهر الذي كان المشركون صدُّوه عن البيت فيه في سنة ست – وأخلى له أهل مكة البلد حتى دخلها رسولُ الله ﷺ، فقضى حاجته منها، وأتمَّ عمرته، وأقام بها ثلاثًا، ثم خرج منها منصرفًا إلى المدينة، فقال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ وللمسلمين مَعه {الشهرُ الحرام} – يعني ذا القَعدة، الذي أوصَلكم الله فيه إلى حَرَمَه وبيته، على كراهة مشركي قُريش ذلك، حتى قضيتم منه وَطَركم – {بالشهر الحرام}، الذي صدَّكم مشركو قريش العامَ الماضيَ قَبله فيه حتى انصرفتم عن كره منكم عن الحرم، فلم تدخلوه، ولم تصلوا إلى بيت الله، فأقصَّكم الله أيها المؤمنون من المشركين بإدخالكم الحرم في الشهر الحرام على كره منهم لذلك، بما كان منهم إليكم في الشهر الحرام من الصدِّ والمنْع من الوصول إلى البيت.

عن مجاهد في قول الله جل ثناؤه: {الشهرُ الحرامُ بالشهر الحرام والحُرماتُ قِصَاص} قال: فخرت قريش بردِّها رسولَ الله ﷺ يوم الحُديبية محرِمًا في ذي القَعدة عن البلد الحرام، فأدخله الله مكة في العام المقبل من ذي القَعدة، فقضى عُمرته، وأقصَّه بما حيل بينه وبينها يوم الحديبية.

قال ابن العثيمين: {والحرمات قصاص}؛ {الحرمات} جمع حرم؛ والمراد بـ(الحرم) كل ما يحترم من زمان، أو مكان، أو منافع، أو أعيان؛ لأن (حرم) جمع حرام؛ و{حرمات} جمع حرم؛ فالمعنى: أن المحترم يقتصُّ منه بمحترم آخر؛ ومعنى ذلك أن من انتهك حرمة شيء فإنه تنتهك حرمته: فمن انتهك حرمة الشهر انتهكت حرمته في هذا الشهر؛ ومن انتهك عرض مؤمن انتهك عرض مثله؛ ومن انتهك نفس مؤمن فقتله انتهكت حرمة نفسه بقتله؛ وهكذا.

وكل هذا التأكيد من الله عز وجل في هذه الآيات من أجل تسلية المؤمنين؛ لأن المؤمنين لا شك أنهم يحترمون الأشهر الحرم والقتال فيها؛ ولكن الله تعالى سلاهم بذلك بأن الحرمات قصاص؛ فكما أنهم انتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة لكم فإن لكم أن تنتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة إليهم؛ ولهذا قال تعالى مفرعًا على ذلك: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}.

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ} الحرمات جمع حرمة، كالظلمات جمع ظلمة، والحجرات جمع حجرة. وإنَّما جمعت الحرمات لأنه أراد حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام. والحرمة: ما منعت من انتهاكه. والقصاص المساواة، أي اقتصصت لكم منهم إذ صدوكم سنة ست فقضيتم العمرة سنة سبع. فـ{الحرمات قصاص} على هذا متصل بما قبله ومتعلِّق به. وقيل: هو مقطوع منه، وهو ابتداء أمر كان في أول الإسلام: إن من انتهك حرمتك نلت منه مثل ما اعتدى عليك، ثم نسخ ذلك بالقتال. وقالت طائفة: ما تناولت الآية من التعدّي بين أمة محمد ﷺ والجنايات ونحوها لم ينسخ، وجاز لمن تُعدِّي عليه في مال أو جرح أن يتعدى بمثل ما تُعدّي به عليه إذا خُفي([1])له ذلك، وليس بينه وبين الله تعالى في ذلك شيء، قاله الشافعي وغيره، وهي رواية في مذهب مالك. وقالت طائفة من أصحاب مالك: ليس ذلك له، وأمور القصاص وقف على الحكام. والأموال يتناولها قوله ﷺ: ((أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك([2]))). خرَّجه الدار قطني وغيره. فمن ائتمنه من خانه فلا يجوز له أن يخونه ويصل إلى حقِّه ممّا ائتمنه عليه، وهو المشهور من المذهب، وبه قال أبو حنيفة تمسُّكًا بهذا الحديث، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨]. وهو قول عطاء الخراساني. قال قدامة بن الهيثم: سألت عطاء بن ميسرة الخراساني فقلت له: لي على رجل حقّ، وقد جحدني به وقد أعيا عليَّ البينة، أفأقتص من ماله؟ قال: أرأيت لو وقع بجاريتك فعلمت، ما كنت صانعًا؟

قلت: والصحيح جواز ذلك كيف ما توصل إلى أخذ حقِّه ما لم يعُدّ سارقًا، وهو مذهب الشافعي وحكاه الداودي عن مالك، وقال به ابن المنذر، واختاره ابن العربي، وأن ذلك ليس خيانة وإنما هو وصول إلى حقّ. وقال رسول الله ﷺ:

١- إذا خفي: أي ظهر. وهذا اللفظ من الأضداد، يقال: خفيت الشيء: كتمته. وخفيته: أظهرته.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٢٣): وقال أخرجه أبو داود (٢ / ١٠٨)، والترمذي (١ / ٢٣٨)، والدارمي (٢ / ٢٦٤)، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) (٣٠)، والدار قطني (٣٠٣)، والحاكم (٢ / ٤٦)، من طريق طلق بن غنام عن شريك وقيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا(١)))، وأخذ الحقّ من الظالم نصر له. وقال ﷺ لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان لما قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلّا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل عليَّ جناح؟ فقال رسول الله ﷺ: ((خذي ما يكفيك ويكفي ولدك بالمعروف(٢))). فأباح لها الأخذ وألا تأخذ إلا القدر الذي يجب لها. وهذا كله ثابت في الصحيح، قوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} قاطع في موضع الخلاف.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٠ص٣٧١: وَأَمَّا إذَا كَانَ لِرَجُلِ عِنْدَ غَيْرِهِ حَقٌّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ دَيْنٍ. فَهَلْ يَأْخُذُهُ أَوْ نَظِيرَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِ؟ فَهَذَا نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ سَبَبُ الِاسْتِحْقَاقِ ظَاهِرًا لَا يَحْتَاجُ إلَى إثْبَاتٍ، مِثْلَ اسْتِحْقَاقِ الْمَرْأَةِ النَّفَقَةَ عَلَى زَوْجِهَا، وَاسْتِحْقَاقِ الْوَلَدِ أَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهِ وَالِدُهُ، وَاسْتِحْقَاقِ الضَّيْفِ الضِّيَافَةَ عَلَى مَنْ نَزَلَ بِهِ، فَهُنَا لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِدُونِ إذْنِ مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِلَا رَيْبٍ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: ((أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عتبة بْنِ رَبِيعَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَإِنَّهُ لَا يُعْطِينِي مِنْ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي، وَبُنَيَّ. فَقَالَ: خُذِي مَا يَكْفِيك وَوَلَدَك بِالْمَعْرُوفِ))، فَأَذِنَ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ نَفَقَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ بِدُونِ إذْنِ وَلِيِّهِ.

وَهَكَذَا مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ غُصِبَ مِنْهُ مَالُهُ غَصْبًا ظَاهِرًا يَعْرِفُهُ النَّاسُ، فَأَخَذَ الْمَغْصُوبَ، أَوْ نَظِيرَهُ مِنْ مَالِ الْغَاصِبِ. وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ لَهُ دَيْنٌ عِنْدَ الْحَاكِمِ وَهُوَ يَمْطُلُهُ، فَأَخَذَ مِنْ مَالِهِ بِقَدْرِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَلَّا يَكُونَ سَبَبُ الِاسْتِحْقَاقِ ظَاهِرًا، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ قَدْ جَحَدَ دَيْنَهُ، أَوْ جَحَدَ الْغَصْبَ، وَلَا بَيِّنَةَ لِلْمُدَّعِي. فَهَذَا فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ، وَأَحْمَد.

وَالثَّانِي: لَهُ أَنْ يَأْخُذَ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ. وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – فَيُسَوِّغُ الْأَخْذَ مِنْ جِنْسِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ اسْتِيفَاءٌ، وَلَا يُسَوِّغُ الْأَخْذَ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّهُ مُعَاوَضَةٌ فَلَا يَجُوزُ إلَّا بِرِضَا الْغَرِيمِ.

وَالْمُجَوِّزُونَ يَقُولُونَ: إذَا امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ ثَبَتَتْ الْمُعَاوَضَةُ بِدُونِ إذْنِهِ لِلْحَاجَةِ، لَكِنْ مَنْ مَنَعَ الْأَخْذَ مَعَ عَدَمِ ظُهُورِ الْحَقِّ اسْتَدَلَّ بِمَا فِي السُّنَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((أَدِّ الْأَمَانَةَ إلَى مَنْ ائْتَمَنَك، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَك(٣)))، وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ بَشِيرِ بْنِ الخصاصية أَنَّهُ قَالَ: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ لَنَا جِيرَانًا لَا يَدَعُونَ لَنَا شَاذَّةً، وَلَا فَاذَّةً، إلَّا

١- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٤٤٩)، وقال: أخرجه البخاري (٢/٩٨) و (٢/٩٨ ، ٤/٣٣٨)، والترمذى (٢/٤١ . ٤٢)، وأحمد (٣/٢٠١) و(٣/٩٩) و (٣/٣٢٣)، وأخرجه مسلم (٨/١٩)، والدارمي (٢/٣١١)، ابن حبان (١٨٤٧).

٢- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢١٥٨)، وقال: أخرجه البخاري (٢/٣٧ و٣/٤٨٩ و٤٩٠ و٤/٣٩٥) ومسلم (٤/١٢٩) والشافعي (١٧٢٤) وأبو داود (٣٥٣٣) والنسائى (٢/٣١١) والدارمي (٢/١٥٩) والدار قطني (٥٢٥) والبيهقي (٧/٤٦٦) وأحمد (٦/٣٩ و٥٠ و٢٠٦).

٣- أبو داود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤) وقال: (حديث حسن غريب)، والدارمي في البيوع ٢/٢٦٤، والدار قطني في البيوع ٣/٣٥، والحاكم في المستدرك ٢/٤٦، كلهم عن أبي هريرة.

أَخذُوهَا فَإِذَا قَدَرْنَا لَهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَنَأْخُذُهُ؟ قَالَ: لَا أَدِّ الْأَمَانَةَ إلَى مَنْ ائْتَمَنَك وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَك([١])). وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: ((إنَّ أَهْلَ الصَّدَقَةِ يَعْتَدُونَ عَلَيْنَا أَفَنَكْتُمُ مِنْ أَمْوَالِنَا بِقَدْرِ مَا يَعْتَدُونَ عَلَيْنَا؟ قَالَ: لَا([٢]))) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ.

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ تُبَيِّنُ أَنَّ حَقَّ الْمَظْلُومِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إذَا كَانَ سَبَبُهُ لَيْسَ ظَاهِرًا، وأَخَذَهُ خِيَانَةً، لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ هُوَ يَقْصِدُ أَخْذَ نَظِيرِ حَقِّهِ، لَكِنَّهُ خَانَ الَّذِي ائْتَمَنَهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا سَلَّمَ إلَيْهِ مَالَهُ فَأَخَذَ بَعْضَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِ، وَالِاسْتِحْقَاقُ لَيْسَ ظَاهِرًا كَانَ خَائِنًا. وَإِذَا قَالَ: أَنَا مُسْتَحِقٌّ لِمَا أَخَذْته فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لَمْ يَكُنْ مَا ادَّعَاهُ ظَاهِرًا مَعْلُومًا. وَصَارَ كَمَا لَوْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً فَأَنْكَرَتْ نِكَاحَهُ، وَلَا بَيِّنَةَ لَهُ، فَإِذَا قَهَرَهَا عَلَى الْوَطْءِ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ. وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْحَاكِمَ حَكَمَ عَلَى رَجُلٍ بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ بِبَيِّنَةٍ اعْتَقَدَ صِدْقَهَا، وَكَانَتْ كَاذِبَةً فِي الْبَاطِنِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَطَأَهَا لِمَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الْبَاطِنِ.

فَإِنْ قِيلَ: لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا يُمْنَعُ مِنْهُ ظَاهِرًا، وَلَيْس لَهُ أَنْ يُظْهِرَ ذَلِكَ قُدَّامَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِإِنْكَارِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ حَرَامٌ فِي الظَّاهِرِ، لَكِنَّ الشَّأْنَ إذَا كَانَ يُعْلَمُ سِرًّا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ؟

قِيلَ: فِعْلُ ذَلِكَ سِرًّا يَقْتَضِي مَفَاسِدَ كَثِيرَةً مَنْهِيٌّ عَنْهَا، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي مَظِنَّةِ الظُّهُورِ وَالشُّهْرَةِ، وَفِيهِ أَلَّا يَتَشَبَّهَ بِهِ مَنْ لَيْسَ حَالُهُ كَحَالِهِ فِي الْبَاطِنِ، فَقَدْ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ خَفَاءَ ذَلِكَ، فَيُظْهِرَ مَفَاسِدَ كَثِيرَةً، وَيَفْتَحَ – أَيْضًا – بَابَ التَّأْوِيلِ. وَصَارَ هَذَا كَالْمَظْلُومِ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ الِانْتِصَارُ إلَّا بِالظُّلْمِ؛ كَالْمُقْتَصِّ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ الِاقْتِصَاصُ إلَّا بِعُدْوَانِ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ الِاقْتِصَاصُ. وَذَلِكَ أَنَّ نَفْسَ الْخِيَانَةِ مُحَرَّمَةُ الْجِنْسِ. فَلَا يَجُوزُ اسْتِيفَاءُ الْحَقِّ بِهَا، كَمَا لَوْ جَرَّعَهُ خَمْرًا، أَوْ تلوط بِهِ، أَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ بِالزُّورِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا مُحَرَّمُ الْجِنْسِ. وَالْخِيَانَةُ مِنْ جِنْسِ الْكَذِبِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا لَيْسَ بِخِيَانَةِ، بَلْ هُوَ اسْتِيفَاءُ حَقٍّ. وَالنَّبِيُّ ﷺ نَهَى عَنْ خِيَانَةِ مَنْ خَانَ، وَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ مَالًا يَسْتَحِقُّ نَظِيرَهُ. قِيلَ هَذَا ضَعِيفٌ لِوُجُوهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْحَدِيثَ فِيهِ: ((أَنَّ قَوْمًا لَا يَدَعُونَ لَنَا شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إلَّا أَخَذُوهَا. أَفَنَأْخُذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَأْخُذُونَ؟ فَقَالَ: لَا، أَدِّ الْأَمَانَةَ إلَى مَنْ ائْتَمَنَك. وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَك)). وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الزَّكَاةِ: ((أَفَنَكْتُمُ مِنْ أَمْوَالِنَا بِقَدْرِ مَا يَأْخُذُونَ مِنَّا؟ فَقَالَ: لَا([٣]))).

– (قلت): صححه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٢٣): وقال أخرجه أبو داود (٢ / ١٠٨)، والترمذي (١ / ٢٣٨)، والدارمي (٢ / ٢٦٤)، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) (٣٠)، والدار قطني (٣٠٣)، والحاكم (٢ / ٤٦)، من طريق طلق بن غنام عن شريك وقيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

١– (قلت): لم أجده بهذا المتن لا في المسند ولا في غيره. ولكن هناك حديث آخر لبشير بن الخصاصية وهو التالي رواه أبو داود، ولكنه ضعيف.

٢– أبو داود في الزكاة (١٥٨٦).

– (قلت): ضعفه الإمام الألباني في ضعيف أبي داود (٢٧٧).

٣– (قلت): بغض النظر عن ضعف هذين الحديثين على الراجح، فإنه مع هذا، لا يضعف ما ذهب إليه شيخ الإسلام في هذه المسألة لقوة حججه في الوجوه الأخرى.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ((وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)). وَلَوْ أَرَادَ بِالْخِيَانَةِ الْأَخْذَ عَلَى طَرِيقِ الْمُقَابَلَةِ لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ مَنْ خَانَهُ وَمَنْ لَمْ يَخُنْهُ، وَتَحْرِيمُ مِثْلِ هَذَا ظَاهِرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ وَسُؤَالٍ. وَقَدْ قَالَ: ((وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ))، فَعُلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ لَا تُقَابِلُهُ عَلَى خِيَانَتِهِ، فَتَفْعَلَ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِكَ. فَإِذَا أُودِعَ الرَّجُلُ مَالًا فَخَانَهُ فِي بَعْضِهِ، ثُمَّ أُودِعَ الْأَوَّلُ نَظِيرَهُ فَفَعَلَ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ((وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)).

الثَّالِثُ: أَنَّ كَوْنَ هَذَا خِيَانَةً لَا رَيْبَ فِيهِ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي جَوَازِهِ عَلَى وَجْهِ الْقِصَاصِ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ مِنْهَا مَا يُبَاحُ فِيهِ الْقِصَاصُ كَالْقَتْلِ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، وَأَخْذِ الْمَالِ. وَمِنْهَا مَا لَا يُبَاحُ فِيهِ الْقِصَاصُ، كَالْفَوَاحِشِ، وَالْكَذِبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى فِي الْأَوَّلِ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}[الشورى: ٤٠]، وَقَالَ: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}[النحل: ١٢٦]، وَقَالَ: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[البقرة: ١٩٤]. فَأَبَاحَ الْعُقُوبَةَ وَالِاعْتِدَاءَ بِالْمِثْلِ. فَلَمَّا قَالَ هَاهُنَا: ((وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ))، عُلِمَ أَنَّ هَذَا مِمَّا لَا يُبَاحُ فِيهِ الْعُقُوبَةُ بِالْمِثْلِ(١).

١- (قلت): ولقد سئل الإمام الألباني عن مسألة كهذه: قال السائل: بعض الأخوة كلفني بسؤال من الإمارات أتصل وهو السؤال كالاتي: ذهب هو وأخ له إلى بيت أحد أقاربه فهذا أخوه غير ملتزم فسرق أخوه غير الملتزم من بيت هذا الرجل قطعة من الذهب كانت موضوعة على الطاولة فلما ذهب إلى البيت عرف بهذا الأمر أخوه فأخذها منه وتكلم معاه بكلام بيليق بهذا الأخ الغير ملتزم وبيسأل أنه بده من هذا الشخص المسروق منه مال والشخص المسروق من بيته هذا قطعة الذهب منكر لهذا المال لهذا الشخص وقطعة الذهب مع هذا الرجل باقي لها عامين اثنين معاه فمش عارف كيف يتصرف يبيعها ويأخذ ماله ويرجع له باقي المال إن زاد منها مال بأسلوب أو بأخر أو يرجع له هذه الأسواره ببيته ويعني يصبر ويحتسب عند الله ماله اللي أنكره صاحب البيت هذا؟؟

رد الشيخ: هنا نورد نحن عادة أمام مثل هذا الجواب قوله ﷺ: ((أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)). السارق أخو الدائن لو كان السارق نفسه بدّه هذا الحق الذي ذكرته عن أخيه بيسرق هذه القطعة الذهبية بدعوة إنه إله حق عند المسروق منه وهو منكره لا يجوز له أن يقابل إنكار المسروق منه بسرقة ماله لأنه هذا خلاف الحديث المذكور أنفًا ((أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)). الواقع هنا السارق ليس هو الدائن وإنما أخو هذا السارق وهو يتكلم كما قلت بما يليق بالسارق ولكن أخشى أن يقع في مثل ما وقع السارق لأنه إذا سرق سارق مال ما أو بضاعة ما كما يقع الآن مع الأسف وصار هناك سوق للنافقة في بغداد والكويت ربما تباع الحاجات بأبخس الأثمان فإذا عرف أن حاجة ما هي مسروقة واشتراها إنسان بثمن بيكون هو شريك السارق إذا ما عرف أن هذا المال مسروق فهنا هذا مثال أو هذه الصورة تنطبق تماما على هذا الأخ الذي أنب أخاه السارق على سرقته ثم هو أخذ ما سرقه لقمة سائغة فهو شريكه في السرقة والحالة هذه فلا يشفع له ولا يبرر له سرقته أن له حق عند المسروق منه لا يشفع له هذا كما قلنا لو كان السارق الأول له حق فلا يحوز أن يصل إلى الحق المهضوم بطريقة مخالفة للشريعة لأنه الغاية لا تبرر الوسيلة فهذه قاعدة ليست قاعدة مسلمة على زيد وإنما هي قاعدة كافرة هذا شيء وهذا كله يقال إما لو كان عند الرجل الثاني الذي أخذ القطعة الذهبية من أخيه لو كان عنده دليل شرعي أنه فلان بدّه منه هذا حق لكن ما هي إلا مجرد دعوة منه ولو أننا فتحنا مثل هذا الباب كل واحد أدعى إنه إله حق عند فلان فهو بيلف ويدور عليه وبياخد الحق بتمامه وبدون زيادة لكن خلسة منه لاضطربت الأمور تماما لأنه نحن نعلم أنه ليس مجرد ما يدعي إنسان من الناس أنه له حق عليه ثبت هذا الحق صح هذا الحق لابد من إقامة البرهان والدليل والإتيان بشهود كما هو معلوم هنا لم؟ قد تكون هذه الدعوة إما في أحسن الاحتمالات هو وارد ويمكن هناك دفعة للحق أو يكون الحق اللي بيدّعيه أقل بكثير مما يدّعي إلى أخره ولهذا فلا يجوز لهذا الأخ أن يفعل ما كان قادر عليه وعليه أن يعيد هذه القطعة الذهبية على المسروق منه وأن يذكره باني ما عاملتك بما عاملتني به اتقاء لمخالفة الشريعة ويذكر له هذا الحديث ولعله في هذا التذكير تحريكا له بأنه يقضي إليه حقه المهضوم.

فرد السائل: ولكنه يخشى المشاكل فيقول إن أردت أن أعيدها له بطريقة يعني طيبة تكون حتى ما يعني يشك فيّ أنا

فرد الشيخ: بأي طريقة المهم إنه بيرجع الحق إلى أهله و اختيار الطريقة هذا أمر ضروري .

فقال السائل: طيب يا شيخ ما هي الطريقة الشرعية لأخذ المال المنكر الواقع في يد هذا الرجل.

فقال الشيخ: ما في غير إقامة الدعوة عند من يحكم بما أنزل الله بالشرع.

قال القرطبي: الثانية: واختلفوا إذا ظفر له بمال من غير جنس ماله، فقيل: لا يأخذ إلا بحكم الحاكم. وللشافعي قولان، أصحهما الأخذ، قياسا على ما لو ظفر له من جنس ماله. والقول الثاني لا يأخذ لأنه خلاف الجنس. ومنهم من قال: يتحرى قيمة ما له عليه ويأخذ مقدار ذلك. وهذا هو الصحيح لما بيناه من الدليل، والله أعلم.

الثالثة: وإذا فرعنا على الأخذ فهل يعتبر ما عليه من الديون وغير ذلك، فقال الشافعي: لا، بل يأخذ ما له عليه. وقال مالك: يعتبر ما يحصل له مع الغرماء في الفلس، وهو القياس، والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} عموم متفق عليه، إمَّا بالمباشرة إن أمكن، وإمَّا بالحكام. واختلف الناس في المكافأة هل تسمَّى عدوانًا أم لا، فمن قال: ليس في القرآن مجاز، قال: المقابلة عدوان، وهو عدوان مباح.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص٤٦٩: الْعُدْوَانُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، لَكِنْ إنْ كَانَ بِطَرِيقِ الظُّلْمِ كَانَ مُحَرَّمًا، وَإِنْ كَانَ بِطَرِيقِ الْقِصَاصِ كَانَ عَدْلًا مُبَاحًا، فَلَفْظُ الْعُدْوَانِ فِي مِثْلِ هَذَا هُوَ تَعَدِّي الْحَدِّ الْفَاصِلِ، لَكِنْ لَمَّا اعْتَدَى صَاحِبُهُ جَازَ الِاعْتِدَاءُ عَلَيْهِ، وَالِاعْتِدَاءُ الْأَوَّلُ ظُلْمٌ وَالثَّانِي مُبَاحٌ، وَلَفْظُ عَدْلٍ مُبَاحٌ، وَلَفْظُ الِاعْتِدَاءِ هُنَا مُقَيَّدٌ بِمَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ اعْتِدَاءٌ عَلَى وَجْهِ الْقِصَاصِ، بِخِلَافِ الْعُدْوَانِ ابْتِدَاءً فَإِنَّهُ ظُلْمٌ، فَإِذَا لَمْ يُقَيَّدْ بِالْجَزَاءِ فُهِمَ مِنْهُ الِابْتِدَاءُ، إذْ الْأَصْلُ عَدَمُ مَا يُقَابِلُهُ.

قال ابن العثيمين: {فمن اعتدى عليكم}: أي من تجاوز الحدَّ في معاملتكم سواء كان ذلك بأخذ المال، أو بقتل النفس، أو بالعرض، أو بما دون ذلك، أو أكثر فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.

وقوله تعالى هنا: {فاعتدوا عليه}: ليس أخذنا بالقصاص اعتداء؛ ولكنه سمِّيَ اعتداء؛ لأنه مسبَّب عن الاعتداء؛ فكأنه يقول: أنتم إذا اعتدى عليكم أحد، فخذوا حقكم منه؛ ثم فيه نكتة أخرى أن العادي يرى نفسه في مقام أعزُّ من المعتدى عليه، وأرفع منه؛ ولو كان يرى نفسه في مكان دونه لم يعتد؛ فكأنه يقول: إن قصاصكم يعتبر أيضًا عزًّا لكم؛ كما أنه هو

فقال السائل: وإن لم يحكم له بالشرع ووقع بيد هذا الدائن؟؟

فقال الشيخ : ما هو رجعنا لنفس الموضوع

فقال السائل: لا وقع بيده بأسلوب شرعي مش بأسلوب سرقة

فرد الشيخ: كيف؟؟ فقال السائل: يعني مثلا إنسان يعني أدان من إنسان عشرة دنانير وهذا الإنسان بعد مدة أنكر العشرة دنانير ووقع في يد هذا الإنسان الدائن مبلغ لهذا الإنسان أو أكثر منه فهل يأخذ منه حقه ويرجع له الحق الثاني.

فرد الشيخ: هاى هيه بارك الله فيك ((أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)) هل العشر دنانير اللي وقعوا في يد الدائن المهضوم والمنكر حقه ماشي نعم فأفترض إنه ماله حق عند هذا الرجل فماذا يجب عليه لما وقعت هذه العشرة دنانير في يده.

فرد السائل: ظاهر الحديث إنه يرجعها له. قال الشيخ: هذا هو لذلك نقول هي هي القضية.

طغي واعتدى، فأنتم الآن يعتبر قصاصكم بمنزلة المرتبة العليا بالنسبة إليهم؛ وإن شئت فقل: أطلق على المجازاة اعتداء من باب المشاكلة اللفظية.

{بمثل ما اعتدى عليكم}: ادَّعى بعضهم أن الباء هنا زائدة، وقال: إن التقدير: فاعتدوا عليه مثل ما اعتدى عليكم؛ على أن تكون {مثل} هنا مفعولًا مطلقًا ـ أي عدوانًا أو اعتداءً مثل اعتدائه ـ؛ ولكن الصواب أنها ليست زائدة، وأنها أصلية؛ وأن المعنى: اعتدوا عليه بمثله؛ فالباء للبدل؛ بحيث يكون المثل مطابقًا لما اعتدى عليكم به في هيئته، وفي كيفيته، وفي زمنه، وفي مكانه؛ فإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الحرم فاقتلوه؛ وإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الأشهر الحرم فقاتلوه؛ فتكون الباء هنا دالَّة على المقابلة والعوض.

قال القرطبي: الخامسة: واختلف العلماء فيمن استهلك أو أفسد شيئًا من الحيوان أو العروض التي لا تكال ولا توزن، فقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما وجماعة من العلماء: عليه في ذلك المثل، ولا يعدل إلى القيمة إلا عند عدم المثل، لقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}، وقوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}[النحل: ١٢٦].

قالوا: وهذا عموم في جميع الأشياء كلها، وعضدوا هذا بأن النبي ﷺ حبس القصعة المكسورة في بيت التي كسرتها ودفع الصحيحة وقال: ((إناء بإناء وطعام بطعام([١]))) خرجه أبو داود قال: حدثنا مسدد حدثنا يحيى ح وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا خالد عن حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ كان عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم قصعة فيها طعام، قال: فضربت بيدها فكسرت القصعة. قال ابن المثنى: فأخذ النبي ﷺ الكسرتين فضمَّ إحداهما إلى الأخرى، فجعل يجمع فيها الطعام ويقول: ((غارت أمكم)). زاد ابن المثنى ((كلوا))، فأكلوا حتى جاءت قصعتها التي في بيتها. ثم رجعنا إلى لفظ حديث مسدد وقال: ((كلوا)) وحبس الرسول والقصعة حتى فرغوا، فدفع القصعة الصحيحة إلى الرسول وحبس المكسورة في بيته. حدثنا أبو داود قال: حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان قال وحدثنا فليت العامري – قال أبو داود: وهو أفلت بن خليفة – عن جسرة بنت دجاجة قالت: قالت عائشة رضى الله عنها: ما رأيت صانعا طعاما مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعاما فبعثت به، فأخذني أفكَل([٢])فكسرت الإناء، فقلت: يا رسول الله، ما كفارة ما صنعت؟ قال: ((إناء مثل إناء وطعام مثل طعام)). قال مالك وأصحابه: عليه في الحيوان والعروض التي لا تكال ولا توزن القيمة لا

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في ارواء الغليل (١٥٢٣). أخرجه الترمذي (٢٥٤/١) من طريق سفيان الثوري عن حميد عن أنس قال: ((أهدت بعض أزواج النبي ﷺ، إلى النبي ﷺ طعاما، فى قصعة، فضربت عائشة القصعة بيدها، فألقت ما فيها، فقال النبي ﷺ: طعام بطعام، وإناء بإناء)) وقال: (حديث حسن صحيح)، وأخرجه البخاري (٤٥٢/٢)، وأبو داود (٣٥٦٧)، والنسائي (١٥٩/٢)، وابن ماجه (٢٣٣٤)، من طرق اخرى عن حميد به.

٢- الأفكل (على وزن أفعل): الرعدة: أي: ارتعدت من شدّة الغيرة.

المثل، بدليل تضمين النبي ﷺ الذي أعتق نصف عبده قيمة نصف شريكه، ولم يضمنه مثل نصف عبده. ولا خلاف بين العلماء على تضمين المثل في المطعومات والمشروبات والموزونات، لقوله ﷺ: ((طعام بطعام)).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص٥٦٣: أَنَّ جَمِيعَ الْمُتْلَفَاتِ تُضْمَنُ بِالْجِنْسِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ مَعَ مُرَاعَاةِ الْقِيمَةِ – حَتَّى الْحَيَوَانِ – كَمَا أَنَّهُ فِي الْقَرْضِ يَجِبُ فِيهِ رَدُّ الْمِثْلِ، وَإِذَا اقْتَرَضَ حَيَوَانًا رَدَّ مِثْلَهُ، وَكَذَلِكَ فِي الْمَغْرُورِ يُضْمَنُ وَلَدُهُ بِمِثْلِهِمْ كَمَا قَضَتْ بِهِ الصَّحَابَةُ، وَكَذَلِكَ إذَا اسْتَثْنَى رَأْسَ الْمَبِيعِ وَلَمْ يَذْبَحْهُ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ قَضَوْا بِشِرَائِهِ، أَيْ: بِرَأْسٍ مِثْلِهِ فِي الْقِيمَةِ، وَهَذَا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ.

وَقِصَّةُ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَإِنَّ الْمَاشِيَةَ كَانَتْ قَدْ أَتْلَفَتْ حَرْثَ الْقَوْمِ وَهُوَ بُسْتَانُهُمْ، قَالُوا: وَكَانَ عِنَبًا، وَالْحَرْثُ اسْمٌ لِلشَّجَرِ وَالزَّرْعِ، فَقَضَى دَاوُد بِالْغَنَمِ لِأَصْحَابِ الْحَرْثِ كَأَنَّهُ ضَمَّنَهُمْ ذَلِكَ بِالْقِيمَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَالٌ إلَّا الْغَنَمُ فَأَعْطَاهُمْ الْغَنَمَ بِالْقِيمَةِ. وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَحَكَمَ بِأَنَّ أَصْحَابَ الْمَاشِيَةِ يَقُومُونَ عَلَى الْحَرْثِ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ فَضَمَّنَهُمْ إيَّاهُ بِالْمِثْلِ وَأَعْطَاهُمْ الْمَاشِيَةَ يَأْخُذُونَ مَنْفَعَتَهَا عِوَضًا عَنْ الْمَنْفَعَةِ الَّتِي فَاتَتْ مِنْ حِينِ تَلَفِ الْحَرْثِ إلَى أَنْ يَعُودَ وَبِذَلِكَ أَفْتَى الزُّهْرِيُّ لِعُمَرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِيمَنْ كَانَ أَتْلَفَ لَهُ شَجَرًا، فَقَالَ: يَغْرِسُهُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، وَقِيلَ: رَبِيعَةُ وَأَبُو الزِّنَادِ قَالَا: عَلَيْهِ الْقِيمَةُ، فَغَلَّظَ الزُّهْرِيُّ الْقَوْلَ فِيهِمَا.

وَهَذَا مُوجَبُ الْأَدِلَّةِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ ضَمَانُ الْمُتْلَفِ بِالْمِثْلِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، قَالَ تَعَالَى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}[الشورى: ٤٠]، وَقَالَ: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}، وَقَالَ: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}[النحل : ١٢٦]، وَقَالَ: {وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}، فَإِذَا أَتْلَفَ نَقْدًا أَوْ حُبُوبًا وَنَحْوَ ذَلِكَ أَمْكَنَ ضَمَانُهَا بِالْمِثْلِ، وَإِنْ كَانَ الْمُتْلَفُ ثِيَابًا أَوْ آنِيَةً أَوْ حَيَوَانًا فَهُنَا مِثْلُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَقَدْ يَتَعَذَّرُ. فَالْأَمْرُ دَائِرٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ: إمَّا أَنْ يَضْمَنَهُ بِالْقِيمَةِ وَهِيَ دَرَاهِمُ مُخَالِفَةٌ لِلْمُتْلَفِ فِي الْجِنْسِ وَالصِّفَةِ، لَكِنَّهَا تُسَاوِيهِ فِي الْمَالِيَّةِ، وَإِمَّا أَنْ يَضْمَنَهُ بِثِيَابٍ مِنْ جِنْسِ ثِيَابِ الْمِثْلِ، أَوْ آنِيَةٍ مِنْ جِنْسِ آنِيَتِهِ، أَوْ حَيَوَانٍ مِنْ جِنْسِ حَيَوَانِهِ، مَعَ مُرَاعَاةِ الْقِيمَةِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَمَعَ كَوْنِ قِيمَتِهِ بِقَدْرِ قِيمَتِهِ، فَهُنَا الْمَالِيَّةُ مُسَاوِيَةٌ كَمَا فِي النَّقْدِ، وَامْتَازَ هَذَا بِالْمُشَارَكَةِ فِي الْجِنْسِ وَالصِّفَةِ فَكَانَ ذَلِكَ أَمْثَلَ مِنْ هَذَا، وَمَا كَانَ أَمْثَلَ فَهُوَ أَعْدَلُ، فَيَجِبُ الْحُكْمُ بِهِ إذَا تَعَذَّرَ الْمِثْلُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

قال القرطبي: السادسة: لا خلاف بين العلماء أن هذه الآية أصل في المماثلة في القصاص، فمن قتل بشيء قتل بمثل ما قتل به، وهو قول الجمهور، ما لم يقتله بفسق كاللوطية وإسقاء الخمر فيقتل بالسيف. وللشافعية قول: إنه يقتل بذلك، فيتَّخذ عود على تلك الصفة ويطعن به في دبره حتى يموت، ويسقى عن الخمر ماء حتى يموت. وقال ابن الماجشون: إن

من قتل بالنار أو بالسم لا يقتل به، لقول النبي ﷺ: ((لا يعذّب بالنار، إلا الله[١])). والسم نار باطنة. وذهب الجمهور إلى أنه يقتل بذلك، لعموم الآية.

السابعة: وأما القَوَد بالعصا فقال مالك في إحدى الروايتين: إنه إن كان في القتل بالعصا تطويل وتعذيب قتل بالسيف، رواه عنه ابن وهب، وقاله ابن القاسم. وفي الأخرى: يقتل بها وإن كان فيه ذلك، وهو قول الشافعي. وروى أشهب وابن نافع عن مالك في الحجر والعصا أنه يقتل بهما إذا كانت الضربة مجهزة، فأما أن يضرب ضربات فلا. وعليه لا يرمى بالنبل ولا بالحجارة لأنه من التعذيب، وقاله عبدالملك. قال ابن العربي: (والصحيح من أقوال علمائنا أن المماثلة واجبة، إلّا أن تدخل في حدّ التَّعذيب فلتترك إلى السيف). واتفق علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقأ عينه بقصد التعذيب فعل به ذلك، كما فعل النبي ﷺ بقتلة الرعاء[٢]. وإن كان في مدافعة أو مضاربة قتل بالسيف. وذهبت طائفة إلى خلاف هذا كله فقالوا: لا قود إلا بالسيف، وهو مذهب أبي حنيفة والشعبي والنخعي.

واحتجوا على ذلك بما روي عن النبي ﷺ قال: ((لا قود إلا بحديدة[٣]))، وبالنهي عن المُثْلة[٤]، وقوله: ((لا يعذِّب بالنار إلّا ربُّ النار[٥])). والصحيح ما ذهب إليه الجمهور، لما رواه الأئمة عن أنس بن مالك أن جارية وجد رأسها قد رض بين حجرين، فسألوها: من صنع هذا بك! أفلان، أفلان؟ حتى ذكروا يهوديًّا فأومأت برأسها، فأُخِذَ اليهودي فأقرّ،

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٩٩). وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان: حديث صحيح.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٧٧)، وقال: رواه البخاري (١/٦٩ و٣٨٢ و٢/٢٥١ ـ ٢٥٢ ، ٣/١١٩، ٢٣٤، ٤/٥٨، ٢٩٨، ٢٩٩, ٣٢٢ ، ٣٢٣)، ومسلم (٥/١٠١ ـ ١٠٣)، وأبو داود (٤٣٦٤ ـ ٤٣٦٨)، والنسائى (١/٥٧ ـ ٥٨ ، ٢/١٦٦ ـ ١٦٩)، والترمذى (١/١٦ ، ٣٣٩ ، ٢/٣)، وابن ماجه (٢/٨٦١/٢٥٧٨)، والطيالسي (٢٠٠٢)، وأحمد (٣/١٠٧، ١٦٣، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٦، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٣٣، ٢٨٧، ٢٩٠). من طرق كثيرة عن أنس بن مالك. والحديث بتمامه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَاجْتَوَوْهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا))، فَفَعَلُوا، فَصَحُّوا، ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرِّعَاءِ، فَقَتَلُوهُمْ وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ، وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ، حَتَّى مَاتُوا.

– وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: هذا الحديث أصل في عقوبة المحاربين وهو موافق لقوله تعالى {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض}، قال القاضي عياض: واختلف العلماء في معنى حديث العرنيين هذا فقال بعض السلف: كان هذا قبل نزول الحدود وآية المحاربة والنهي عن المثلة فهو منسوخ، وقيل: ليس منسوخًا وفيهم نزلت آية المحاربة. (عرينة) قال في الفتح: عرينة حي من قضاعة وحي من بجيلة من قحطان، والمراد هنا الثاني كذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي (فاجتووها) معناه استوخموها، أي: لم توافقهم وكرهوها لسقم أصابهم، قالوا: وهو مشتق من الجوى وهو داء في الجوف. (ثم مالوا على الرعاة) وفي بعض الأصول المعتمدة الرعاء وهما لغتان يقال راع ورعاة كقاض وقضاة وراع ورعاء كصاحب وصحاب. (وساقوا ذود رسول الله ﷺ) أي: أخذوا إبله وقدموها أمامهم سائقين لها طاردين. (سمل أعينهم) هكذا هو في معظم النسخ سمل وفي بعضها سمر، ومعنى سمل فقأها وأذهب ما فيها، ومعنى سمر حلها بمسامير محمية وقيل: هما بمعنى. (وتركهم في الحرة) هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة وإنما ألقوا فيها لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا.

٣- (قلت): ضعفه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لمسند الإمام أحمد.

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٢٣٠).

٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢٦٧٣).

فأمر به رسول الله ﷺ أن ترض رأسه بالحجارة. وفي رواية: فقتله رسول الله ﷺ بين حجرين(١). وهذا نص صريح صحيح، وهو مقتضى قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}[النحل : ١٢٦](٢). وقوله: {فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}. وأما ما استدلُّوا به من حديث جابر فحديث ضعيف عند المحدِّثين، لا يروى عن طريق صحيح، لو صحَّ قلنا بموجبه، وأنه إذا قتل بحديدة قتل بها، يدلُّ على ذلك حديث أنس: أن يهوديًّا رض رأس جارية بين حجرين فرض رسول الله ﷺ رأسه بين حجرين. وأما النهي عن المثلة فنقول أيضا بموجبها إذا لم يمثِّل، فإذا مثَّل مثَّلنا به، يدلُّ على ذلك حديث العرنيين، وهو صحيح أخرجه الأئمة. وقوله: ((لا يعذِّب بالنار إلّا ربُّ النار)) صحيح إذا لم يحرق، فإن حرق حُرِق، يدلُّ عليه عموم القرآن. قال الشافعي: إن طرحه في النار عمدًا طرحه في النار حتى يموت، وذكره الوقار في مختصره عن مالك، وهو قول محمد بن عبد الحكم. قال ابن المنذر: وقول كثير من أهل العلم في الرجل يخنق الرجل: عليه القود، وخالف في ذلك محمد بن الحسن فقال: لو خنقه حتى مات أو طرحه في بئر فمات، أو ألقاه من جبل أو سطح فمات، لم يكن عليه قصاص وكان على عاقلته الدية، فإن كان معروفا بذلك – قد خنق غير واحد – فعليه القتل.

قال ابن المنذر: ولما أقاد النبي ﷺ من اليهودي الذي رض رأس الجارية بالحجر كان هذا في معناه، فلا معنى لقوله.

قلت: وحكى هذا القول غيره عن أبي حنيفة فقال: وقد شذَّ أبو حنيفة فقال فيمن قتل بخنق أو بسم أو تردية من جبل أو بئر أو بخشبة: إنه لا يقتل ولا يقتص منه، إلَّا إذا قتل بمحدَّد حديد أو حجر أو خشب أو كان معروفًا بالخنق والتردية وكان على عاقلته الديَّة. وهذا منه ردٌّ للكتاب والسنة وإحداث ما لم يكن عليه أمر الأمة وذريعة إلى رفع القصاص الذي شرعه الله للنفوس ، فليس عنه مناص.

الثامنة: واختلفوا فيمن حبس رجلًا وقتله آخر، فقال عطاء: يقتل القاتل ويحبس الحابس حتى يموت. وقال مالك: إن كان حَبسه وهو يرى أنه يريد قتله قُتِلا جميعًا، وفي قول الشافعي وأبي ثور والنعمان يعاقب الحابس. واختاره ابن المنذر.

١- (قلت): صحيح مسلم: (١٦٧٢) باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره. وصححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٥٩٦١).
وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ، وقَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: لاَ قَوَدَ إِلاَّ بِالسَّيْفِ.
(فأومأت): يعني: أشارت.
رُضَّ : يعني: كُسِرَ.

٢- (قلت): وقال البيهقي في معرفة السنن والآثار: فهذا كله يدلُّ على أنه ﷺ اعتبر المماثلة في قتله بها حكمًا يقتضيه لفظ القصاص الذي ورد به الكتاب. ولا تجوز دعوى النسخ فيه بنهي النبي ﷺ عن المثلة إذ ليس فيه تاريخ ولا يستدلُّ على النسخ ويمكن الجمع بينهما. فإنه إنما نهى عن المثلة ممن وجب قتله ابتداء لا على طريق المكافأة والمساواة.

قلت: قول عطاء صحيح، وهو مقتضى التنزيل. وروى الدار قطني عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: ((إذا أمسك الرجل الرجل وقتله الآخر يقتل القاتل ويحبس الذي أمسكه([١]))). رواه سفيان الثوري عن إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر، ورواه معمر وابن جريج عن إسماعيل مرسلًا.

التاسعة: قوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى}: الاعتداء هو التجاوز، قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ}[البقرة : ٢٢٩]: أي يتجاوزها، فمن ظلمك فخذ حقَّك منه بقدر مظلمتك، ومن شتمك فردَّ عليه مثل قوله، ومن أخذ عرضك فخذ عرضه، لا تتعدَّى إلي أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه، وليس لك أن تكذب عليه وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تقابل بالمعصية، فلو قال لك مثلًا: يا كافر، جاز لك أن تقول له: أنت الكافر. وإن قال لك: يا زان، فقصاصك أن تقول له: يا كذاب يا شاهد زور. ولو قلت له يا زان، كنت كاذبًا وأثمت في الكذب. وإن مطلك وهو غني دون عذر فقال: يا ظالم، يا آكل أموال الناس، قال النبي ﷺ: ((لَيُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته([٢]))). أما عرضه فبما فسَّرناه، وأما عقوبته فالسجن يحبس فيه. وقال ابن عباس: نزل هذا قبل أن يقوى الإسلام، فأمر من أوذي من المسلمين أن يجازي بمثل ما أوذي به، أو يصبر أو يعفو، ثم نسخ ذلك بقوله: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً}[التوبة : ٣٦]. وقيل: نسخ ذلك بتصييره إلى السلطان. ولا يحل لأحد أن يقتص من أحد إلا بإذن السلطان.

قال ابن العثيمين: {واتَّقوا الله}: أي اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وفي هذا المقام اتَّقوا الله فلا تتعدُّوا ما يجب لكم من القصاص؛ لأن الإنسان إذا ظلم فإنه قد يتجاوز، ويتعدى عند القصاص.

١- (قلت): وقال البيهقي في معرفة السنن والآثار: وأخبرنا أبو سعيد في موضع آخر قال حدثنا أبو العباس أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي فيما حكي عن محمد بن الحسن أخبرنا إسماعيل بن عياش الحمصي حدثنا عبد الملك بن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه قضى في رجل قتل رجلًا متعمدًا وأمسكه آخر قال: يقتل القاتل ويحبس الآخر في السجن حتى يموت.

قال الشافعي: حد الله تبارك وتعالى الناس على الفعل نفسه وجعل فيه القود وتلى الآيات التي وردت فيه وفي الحدود فلو أن رجلًا حبس رجلًا لرجل فقتله قتل به القاتل وعوقب الحابس. ثم ناقض محمد بن الحسن فيما أدخل على أهل المدينة حين قال بعضهم يقتل كلاهما بما قال في قتل الردة وفي قطاع الطريق.

قال الشافعي: وروى محمد بن الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: يقتل القاتل ويحبس الممسك حتى يموت. وهو لا يحبسه حتى يموت فيخالف ما احتج به.

قال أحمد: روايات إسماعيل بن عياش عن ابن جريج ضعيفة. وعطاء عن علي مرسل.

وقد رواه سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن علي قال: يقتل القاتل ويحبس الممسك. وجابر غير محتج به.

وروى سفيان وغيره عن إسماعيل بن أمية قال: قضى رسول الله ﷺ في رجل أمسك رجلًا وقتل الآخر. قال: يقتل القاتل ويحبس الممسك. وهذا منقطع.

وروي عن أبي داود الحفري عن سفيان وعن إسماعيل عن نافع عن ابن عمر. موصولًا، والصواب مرسل.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٢٩١٩). وقال رحمه الله: لَيُّ: هو بمعنى المطل المماطلة المعروفة، الواجد: هو الغني؛ غني يعني عنده المال الذي يستطيع به أن يفي ما عليه من دين، فهو مماطل، وقد سمعتم في الحديث الأول قوله ﷺ: ((مطل الغني ظلم)). يحل عرضه: يعني الطعن فيه بأن يقول فلان ظلمني، فلان أكل حقي، ولا يتبادرن إلى ذهن أحد أن المقصود بالعرض هنا أن ينال من عرض أهله، حاشا، وإنما أن ينال من عرض هذا الظالم، وفي حدود ظلمه إياه.

قوله تعالى: {واعلموا أن الله مع المتَّقين}؛ أمر بالعلم بأن الله مع المتَّقين؛ وهو أوكد من مجرَّد الخبر؛ والمراد به العلم مع الاعتقاد.

وقوله تعالى: {مع المتَّقين}: أي المتَّخذين وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قال السعدي: ولما كانت النفوس – في الغالب – لا تقف على حدِّها إذا رُخِّص لها في المعاقبة لطلبها التشفِّي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه {مع المتَّقين}: أي بالعون والنصر، والتأييد والتوفيق. ومن كان الله معه، حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التَّقوى تخلَّى عنه وليُّه، وخذله، فوكَّله إلى نفسه فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– تسلية الله عز وجل للمسلمين بأنهم إذا فاتهم قضاء عمرتهم في الشهر الحرام فيمكنهم أن يقضوها في الشهر الحرام من السنة الثانية، كما حصل في الحديبية.

٢– أن الحرمات قصاص؛ يعني أن من انتهك حرمتك لك أن تنتهك حرمته مِثلًا بمثل؛ ولهذا فرع عليها قوله تعالى: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}.

٣– أن المعتدي لا يجازى بأكثر من عدوانه؛ لقوله تعالى: {بمثل ما اعتدى عليكم}؛ فلا يقول الإنسان: أنا أريد أن أعتدي بأكثر للتَشَفِّي؛ ومن ثم قال العلماء: (إنه لا يقتص من الجاني إلّا بحضرة السلطان، أو نائبه) خوفًا من الاعتداء؛ لأن الإنسان يريد أن يتشفَّى لنفسه، فربَّما يعتدي بأكثر.

٤– وجوب تقوى الله عز وجل في معاملة الآخرين؛ بل في كل حال؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله}.

٥– إثبات أن الله مع المتَّقين؛ لقوله تعالى: {واعلموا أن الله مع المتَّقين}؛ والمعيَّة تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة للخلق كلهم، وتقتضي الإحاطة بهم علمًا، وقدرةً، وسلطانًا، وسمعًا، وبصرًا، وغير ذلك من معاني الربوبية؛ لقوله تعالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا}[المجادلة: ٧]؛ وأمّا الخاصة فهي المقيدة بوصف، أو بشخص؛ مثال المقيدة بوصف قوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}[النحل: ١٢٨]؛ ومثال المقيدة بشخص قوله تعالى لموسى وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى}[طه: ٤٦]، وقوله تعالى فيما ذكره عن نبيه ﷺ: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}[التوبة: ٤٠].

(تنبيه)

اعلم أن ما أثبته الله لنفسه من المعيَّة لا ينافي ما ذكر عن نفسه من العلو لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولا يقاس بخلقه؛ فمعيَّته ثابتة مع علوه تبارك وتعالى؛ وإذا كان العلو، والمعيَّة لا يتناقضان في حقِّ المخلوق ـ فإنهم يقولون: (ما زلنا نسير والقمر معنا)، ولا يَعُدُّون ذلك تناقضًا مع أن القمر في السماء ـ فثبوت ذلك في حق الخالق من باب أولى ـ؛ وبهذا يبطل قول من زعم أن معيَّة الله تستلزم أن يكون في الأرض مختلِطًا بالخلق؛ فإن هذا قول باطل باتِّفاق السلف المستند على الكتاب والسنة في إثبات علو الله فوق خلقه؛ وتفصيل القول في هذا مدوَّن في كتب العقائد.

٦- تأكيد هذه المعيَّة؛ ولهذا قال تعالى: {واعلموا}؛ ولم يقتصر على مجرَّد أن يخبر بها؛ بل أمرنا أن نعلم بذلك؛ وهذا أمر فوق مجرَّد الإخبار.

٧- بيان إحاطة الله عز وجل بالخلق، وتأييده بالمتَّقين الذين يقومون بتقواه؛ ووجه ذلك: أنه من المعلوم بالكتاب والسنة والعقل والفطرة أن الله فوق جميع الخلق؛ ومع ذلك أثبت أنه مع الخلق.

٨- فضيلة التَّقوى، حيث ينال العبد بها معيَّة الله؛ فإنه من المعلوم إذا كان الله معك ينصرك، ويؤيِّدك، ويثبِّتك فهذا يدلُّ على فضيلة السبب الذي هو التَّقوى؛ لقوله تعالى: {واعلموا أن الله مع المتَّقين}.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

قال ابن كثير: قَالَ الْبُخَارِيُّ: عَنْ حُذَيْفَةَ: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} قَالَ: نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ (١). وعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ: حَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عَلَى صَفِّ الْعَدُوِّ حَتَّى خَرَقه، وَمَعَنَا أَبُو أَيُّوب الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ نَاسٌ: أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ. فَقَالَ أَبُو أَيُّوب: نَحْنُ أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِينَا، صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وشَهِدنا مَعَهُ الْمُشَاهِدَ وَنَصرْنَاهُ، فَلَمَّا فَشَا الْإِسْلَامُ وَظَهَرَ، اجْتَمَعْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ نَجِيًا، فَقُلْنَا: قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ ونَصْره، حَتَّى فَشَا الْإِسْلَامُ وَكَثُرَ أهلُه، وَكُنَّا قَدْ آثَرْنَاهُ عَلَى الْأَهْلِينَ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَقَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، فَنَرْجِعُ إِلَى أَهْلِينَا وَأَوْلَادِنَا فَنُقِيمُ فِيهِمَا. فَنَزَلَ فِينَا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ فِي الْإِقَامَةِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَتَرْكِ الْجِهَادِ(٢).

١- صحيح البخاري برقم (٤٥١٦) .

٢- أخرجه الترمذي (٢٩٧٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٩،٢٩٨).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣).

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: وفي مجمع الزوائد ج٦ ص٣١٧ وعن أبي جبيرة بن الضحاك قال كانت الأنصار يتصدَّقون ويعطون ما شاء الله فأصابتهم مصيبة فأمسكوا فأنزل الله عز وجل {وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح وزاد في الأوسط {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

وعن النعمان بن بشير في قوله: {وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} قال: كان الرجل يذنب فيقول لا يغفر الله لي فأنزل الله تعالى: {وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}. رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح ا. هـ.

وفي الفتح ج٩ ص٢٥١ من حديث البراء نحوه قال الحافظ: وسنده صحيح ثم قال: والأول أظهر لتصدير الآية بذكر النفقة فهو المعتمد في نزولها ا. هـ. ... وأقول: لا داعي لإلغاء الروايتين أعني رواية النعمان والبراء مع صحتهما فالآية تشمل من ترك الجهاد وبخل، وتشمل من أذنب وظنَّ أن الله لا يغفر له ولا مانع من أن تكون الآية نزلت في الجميع. والله أعلم.

قال ابن العثيمين: {وأنفقوا في سبيل الله}: أي ابذلوا الأموال في الجهاد في سبيل الله؛ ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعمّ من الجهاد ليشمل كل ما يقرِّب إلى الله عز وجل، ويوصل إليه.

قال السعدي: يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير، من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك وأوَّل ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النَّفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة، الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النَّفقة، فالنَّفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدَّة تكالبهم، فيكون قوله تعالى: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} كالتعليل لذلك.

قال ابن العثيمين: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} بعضهم يقول: إن الباء هنا زائدة؛ أي لا تلقوا أيديكم إلى التهلكة؛ والصواب أنها أصلية وليست بزائدة؛ ولكن ضمنت معنى الفعل (الإفضاء): أي لا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة؛ و{التهلكة}: من الهلاك؛ والمعنى لا تلقوها إلى ما يهلككم، ويشمل الهلاك الحسي والمعنوي، فالمعنوي مثل أن يدع الجهاد في سبيل الله، أو الإنفاق فيه؛ والحسي أن يعرض نفسه للمخاطر، مثل أن يلقي نفسه في نار، أو في ماء يغرقه، أو ينام تحت جدار مائل للسقوط، أو ما أشبه ذلك.

قال السعدي: والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك، ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلُّط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرًا أو بنيانًا خطرًا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه، ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي في تركها هلاك للروح والدين.

قال القرطبي: اختلف العلماء في اقتحام الرجل في الحرب وحمله على العدو وحده، فقال القاسم ابن مخيمرة والقاسم بن محمد وعبدالملك من علمائنا: لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيه قوة، وكان لله بنيَّة خالصة، فان لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة. وقيل: إذا طلب الشهادة وخلصت النيَّة فليحمل، لأن مقصوده واحد منهم، وذلك بيِّن في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}[البقرة : ٢٠٧] وقال ابن خويز منداد: فأما أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان: إن علم وغلب على ظنه أن سيقتل من حمل عليه وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يقتل ولكن سينكي نكاية أو سيبلي أو يؤثر أثرًا ينتفع به المسلمون فجائز أيضًا. وقد بلغني أن عسكر المسلمين لما لقي الفرس نفرت خيل المسلمين من الفيلة، فعمد رجل منهم فصنع فيلًا من طين وأنس به فرسه حتى ألفه، فلما أصبح لم ينفر فرسه من الفيل فحمل على الفيل الذي كان يقدمها فقيل له: إنه قاتلك. فقال: لا ضير أن أقتل ويفتح للمسلمين. وكذلك يوم اليمامة لما تحصَّنت بنو حنيفة بالحديقة، قال رجل من المسلمين: ضعوني في الحجفة، وألقوني إليهم، ففعلوا وقاتلهم وحده وفتح الباب.

قلت: ومن هذا ما روي أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا؟ قال: ((فلك الجنة[١])). فانغمس في العدو حتى قتل. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: ((من يردَّهم عنّا وله الجنة))، أو ((هو رفيقي في الجنة))، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. ثم رهقوه أيضا فقال: ((من يردَّهم عنا وله الجنة))، أو ((هو رفيقي في الجنة)). فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال النبي ﷺ: ((ما أنصفنا أصحابنا[٢])). هكذا الرواية ((أنصفنا))

١- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ. بل بهذا اللفظ في إرواء الغليل: ((أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: ما لي يا رسول الله إن قتلت فى سبيل الله؟ قال: الجنة؟ قال: فلما ولى، قال: إلّا الدَّين، سارني به جبريل عليه السلام آنفًا)). أخرجه أحمد (٥/٣٥٠) وابن أبى عاصم فى (الجهاد) (ق ٢/٩٤) من طريق محمد بن عمرو أنبأنا أبو كثير مولى الليثين عنه. وقال الإمام الألباني: قلت: وهذا سند جيد.

٢- (قلت): مسلم (١٧٨٩) في الجهاد والسير: باب غزوة أحد، عن هداب ويقال له: هدبة ابن خالد، بهذا الإسناد، وزاد في مسنده مع ثابت: على بن زيد.

بسكون الفاء ((أصحابنا)) بفتح الباء، أي لم ندلهم للقتال حتى قتلوا. وروي بفتح الفاء ورفع الباء، ووجهها أنها ترجع لمن فرَّ عنه من أصحابه، والله أعلم. وقال محمد بن الحسن: لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع في نجاة أو نكاية في العدو، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه، لأنه عرض نفسه للتلف في غير منفعة للمسلمين. فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه، ولأن فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه. وإن كان قصده إرهاب العدو وليعلم صلابة المسلمين في الدِّين فلا يبعد جوازه. وإذا كان فيه نفع للمسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ}[التوبة: ١١١] الآية، إلى غيرها من آيات المدح التي مدح الله بها من بذل نفسه. وعلى ذلك ينبغي أن يكون حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه متى رجا نفعًا في الدِّين فبذل نفسه فيه حتى قتل كان في أعلى درجات الشهداء، قال الله تعالى: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: ١٧].

قال ابن العثيمين: {وأحسنوا}: أي افعلوا الإحسان في عبادة الخالق؛ وفي معاملة المخلوق؛ أما الإحسان في عبادة الخالق فقد فسَّره النبي ﷺ بقوله: ((أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(١)))؛ وأما الإحسان في معاملة الخلق: فأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به من بذل المعروف وكف الأذى.

{إن الله يحب المحسنين}: تعليل للأمر بالإحسان؛ ولو لم يكن من الإحسان إلا هذا لكان كافيًا للمؤمن أن يقوم بالإحسان.

قال السعدي: ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعًا من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عمومًا فقال: {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}: وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم. ويدخل فيه الإحسان بالجاه، بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك، الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملًا والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، مما هو من الإحسان

وأخرجه احمد ٢٨٦/٣،عن عفان، عن حماد، عن ثابت وعلى بن زيد، عن أنس. وهو في مسند أبي يعلى (٣٣١٩). وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٧١٨): تعليق الإمام الألباني: صحيح: م (١٧٨٩).

قال النووي في شرح مسلم (١٤٧/١٢– ١٤٨): الرواية المشهورة فيه ((ما أنصفْنا)) بإسكان الفاء، و((أصحابنا)) منصوب مفعول به، هكذا ضبطه جماهير العلماء من المتقدمين والمتأخرين، ومعناه: ما أنصفت قريشٌ الأنصارَ، لكون القرشيَين لم يخرجا للقتال، بل خرجت الأنصار واحدًا بعد واحد. وذكر القاضي في مشارق الأنوار (١٦/٢) وغيره أن بعضهم رواه: ((ما أنصَفَنا)) بفتح الفاء، والمراد على هذا الذين فَرُّوا من القتال، فإنهم لم ينصفوا.

١- (قلت): البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضًا، الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: ((أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك))، فمن اتَّصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}، وكان الله معه يسدِّده ويرشده ويعينه على كل أموره.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الأمر بالإنفاق في سبيل الله؛ والزكاة تدخل في هذا الإنفاق؛ بل هي أول ما يدخل؛ لأنها أوجب ما يجب من الإنفاق في سبيل الله؛ وهي أوجب من الإنفاق في الجهاد، وفي صلة الرحم، وفي برِّ الوالدين؛ لأنها أحد أركان الإسلام.

٢- الإشارة إلى الإخلاص في العمل؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ ويدخل في هذا: القصد، والتنفيذ ـ أن يكون القصد لله ـ، وأن يكون التنفيذ على حسب شريعة الله، كما قال تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}[الفرقان: ٦٧].

٣- تحريم الإلقاء باليد إلى التهلكة؛ لقوله تعالى: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}؛ والإلقاء باليد إلى التهلكة يشمل التفريط في الواجب، وفعل المحرم؛ أو بعبارة أعم: يتناول كل ما فيه هلاك الإنسان، وخطر في دينه، أو دنياه.

٤- أن ما كان سببًا للضرر فإنه منهي عنه؛ ومن أجل هذه القاعدة عرفنا أن الدخان حرام؛ لأنه يضر باتفاق الأطباء، كما أن فيه ضياعًا للمال أيضًا؛ وقد نهى ﷺ عن إضاعة المال([1]).

٥- الأمر بالإحسان؛ لقوله تعالى: {وأحسنوا}؛ وهل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟

الجواب: أما الإحسان الذي به تمام الواجب فالأمر فيه للوجوب؛ وأما الإحسان الذي به كمال العمل فالأمر فيه للاستحباب.

٦- فضيلة الإحسان، والحث عليه؛ لقوله تعالى: {إن الله يحب المحسنين}.

٧- إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {إن الله يحب المحسنين}؛ وهي محبَّة حقيقيَّة على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرَّد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبَّة؛ وشبهتهم أن المحبَّة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنَّص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبَّة قد تكون بين شيئين غير

١- أخرجه البخاري ص٥٤٣، كتاب الرقاق، باب ٢٢، ما يكره من قيل وقال، حديث رقم ٦٤٧٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٢، كتاب الأقضية، باب ٥: النهي عن كثرة السؤال ... ، حديث رقم ٤٤٨٦ [٤٤] (٥٩٣) .

متناسبين؛ فقد أثبت النبي ﷺ أن أُحدًا – وهو حصى – جبل يحبُّنا ونحبُّه([1])؛ والإنسان يجد أن دابته تحبُّه، وهو يحبُّها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنَّت إليه، وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحبُّ نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر.

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال الطبراني كما في مجمع البحرين من زوائد المعجمين مخطوط ج٢ ص١٤١: حدثنا أحمد([2])حدثنا محمد بن سابق ثنا إبراهيم بن طهمان عن أبي الزبير عن عطاء بن أبي رباح عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه قال: جاء إلى رسول ﷺ وقال: كيف تأمرني في عمرتي، فأنزل الله عز وجل {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} فقال رسول الله ﷺ: ((من السائل عن العمرة)) فقال: أنا. فقال: ((ألق ثيابك واغتسل واستنشق ما استطعت وما كنت صانعًا في حجَّتك فاصنع في عمرتك)).

لم يروه عن أبي الزبير إلّا إبراهيم ولم يدخل أبو الزبير بين عطاء وصفوان أحدًا. ورواه مجاهد عن عطاء عن صفوان عن أبيه قلت هذا في الصحيح سوى قوله: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} ا. هـ.

وقال: في مجمع الزوائد ج٣ ص٢٠٥ وعن يعلى بن أمية قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ متضمخ بالخلوق عليه مقطعات قد أحرم بعمرة وذكر الحديث ثم قال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح ا. هـ. وذكره الحافظ في الفتح وسكت عليه.

١- أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧١: فضل الخدمة في الغزو، حديث رقم ٢٨٨٩، وأخرجه مسلم ص٩٠٥، كتاب الحج، باب ٨٥ فضل المدينة ٣٣٢١ [٤٦٢] ١٣٦٥.

٢- في الأصل بياض بين حدثنا أحمد وحدثنا محمد.

وأما استغراب ابن كثير رحمه الله له في تفسيره فلا وجه له، لأن قوله عند الطبراني: (فنزل عليه: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ})، مبيِّنٌ لحديث الصحيحين الذي فيه: (فنزل عليه الوحي)، وأما كونه عند ابن أبي حاتم عن صفوان بن أمية فالظاهر أنها سقطت منه عن أبيه ويكون الحديث عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه كما في الصحيحين والأوسط والطبراني وغيرهما من كتب الحديث.

قال ابن العثيمين: {وأتموا الحج والعمرة لله}: أي ائتوا بهما تامَّتين؛ وهذا يشمل كمال الأفعال في الزَّمن المحدَّد، وكذلك صفة الحج، والعمرة – أن تكون موافقة تمام الموافقة لما كان النبي ﷺ يقوم به واللام في قوله تعالى: {لله} تفيد الإخلاص – يعني مخلصين لله عز وجل ممتثلين لأمره –.

قال القرطبي: قرأ الشعبي وأبو حيوة برفع التاء في {العمرةُ}، وهي تدلُّ على عدم الوجوب. وقرأ الجماعة {العمرةَ} بنصب التاء، وهي تدلُّ على الوجوب. وفي مصحف ابن مسعود: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إلى البيت لله)، وروي عنه: (وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت([1]))). وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة، ولا حظ بقصد، ولا قربة بمعتقد، فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقه، ثم سامح في التجارة، على ما يأتي.

ولا خلاف بين العلماء فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوي حجًا ولا عمرة. والقلم جار له وعليه. أن شهودها بغير نيَّة ولا قصد غير مُغنٍ عنه، وأن النيَّة تجب فرضًا، لقوله تعالى: {وَأَتِمُّوا} ومن تمام العبادة حضور النيَّة، وهي فرض كالإحرام عند الإحرام، لقوله ﷺ لما ركب راحلته: ((لبيك بحجة وعمرة معًا([2]))) على ما يأتي. وذكر الربيع في كتاب البويطي عن الشافعي قال: ولو لبّى رجل ولم ينو حجًا ولا عمرة لم يكن حاجًّا ولا معتمرًا، ولو نوى ولم يُلَبِّ حتى قضى المناسك كان حجَّه تامًّا، واحتج بحديث النبي ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيّات([3]))). قال: ومن فعل مثل ما فعل علي حين أهل على إهلال النبي ﷺ أجزته تلك النيَّة، لأنها وقعت على نيَّة لغيره قد تقدمت، بخلاف الصلاة.

قال الطبري: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا، قراءة من قرأ بنصب {العمرةَ} على العطف بها على {الحجّ}، بمعنى الأمر بإتمامهما له.

١– قال أبو حيان في البحر: ينبغي أن يحمل هذا كله على التفسير لأنه مخالف لسواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون.

٢– (قلت): مسلم (١٢٣٢) والحديث بتمامه: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ((يُلَبِّي بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ جَمِيعًا)) قَالَ بَكْرٌ: فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ ابْنَ عُمَرَ، فَقَالَ: ((لَبَّى بِالْحَجِّ وَحْدَهُ))، فَلَقِيتُ أَنَسًا فَحَدَّثْتُهُ بِقَوْلِ ابْنِ عُمَرَ، فَقَالَ أَنَسٌ: مَا تَعُدُّونَنَا إِلَّا صِبْيَانًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((لَبَّيْكَ عُمْرَةً وَحَجًّا)).

٣– (قلت): البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، بلفظ: ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ)).

ولا معنى لاعتلال من اعتَلَّ في رفعها بأن {العمرة} زيارة البيت، فإن المعتمر متى بلغه فلا عمل بقي عليه يؤمر بإتمامه. وذلك أنه إذا بلغ البيت فقد انقضت زيارته وبقيَ عليه تمامُ العمل الذي أمره الله به في اعتماره، وزيارتَه البيت، وذلك هو الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وتَجَنُّب ما أمر الله بتجنبه إلى إتمامه ذلك، وذلك عملٌ – وإن كان ممّا لزمه بإيجاب الزيارة على نفسه – غيرُ الزيارة. هذا، مع إجماع الحجة على قراءة {العمرةَ} بالنصب، ومخالفة جميع قراءات الأمصار قراءةَ من قرأ ذلك رفعًا، ففي ذلك مستغنى عن الاستشهاد على خطأ من قرأ ذلك رفعًا.

وأما أولى القولين اللذين ذكرنا بالصواب في تأويل قوله: {والعمرةَ لله} على قراءة من قرأ ذلك نصبًا فقولُ عبد الله بن مسعود، ومن قال بقوله من أنّ معنى ذلك: وأتمّوا الحج والعمرة لله إلى البيت بعد إيجابكم إياهما – لا أنَّ ذلك أمرٌ من الله عز وجل – بابتداء عَمَلهما والدخول فيهما وأداء عملهما بتمامه – بهذه الآية.

وذلك أن الآية محتملة للمعنيَين اللذين وَصَفْنا: من أن يكون أمرًا من الله عز وجل بإقامتهما ابتداءًا وإيجابًا منه على العبادِ فرضَهما، وأن يكون أمرًا منه بإتمامهما بعد الدخول فيهما، وبعد إيجاب موجبِهما على نفسه، فإذ كانت الآية محتملة للمعنيَين اللذين وصفنا، فلا حجة فيها لأحد الفريقين على الآخر، إلّا وللآخر عليه فيها مثلها. وإذ كان كذلك ولم يكن بإيجاب فرض العمرة خبرٌ عن الحجَّة للعذرِ قاطعًا، وكانت الأمة في وجوبها متنازعة – لم يكن لقول قائلٍ: (هي فرض) بغير برهان دالٌّ على صحة قوله – معنى، إذ كانت الفرُوض لا تلزم العباد إلا بدلالةٍ على لزومها إيّاهم واضحةٍ.

قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار: وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ الْقَائِلُونَ بِوُجُوبِ الْعُمْرَةِ كَالْحَجِّ، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ، وَقِيلَ: إِنَّهَا سُنَّةٌ. وَيُرْوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَعَلَيْهِ مَالِكٌ وَالْحَنَفِيَّةُ، وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَوْلٌ بِالْوُجُوبِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ فِي وُجُوبِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَلَا تَصْلُحُ حُجَّةً عَلَى الْقَائِلِينَ بِالسُّنِّيَّةِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ خِطَابٌ لِمَنْ شَرَعَ فِيهِمَا، وَهُوَ يَصْدُقُ وَإِنْ كَانَتِ الْعُمْرَةُ سُنَّةً.

وَيَدُلُّ عَلَى فَرْضِيَّةِ الْحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}[٣: ٩٧]، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ. وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فِي الْعُمْرَةِ فَمُتَعَارِضَةٌ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ النَّاطِقَةَ بِأَنَّ الْعُمْرَةَ غَيْرُ وَاجِبَةٍ وَبِأَنَّهَا تَطَوُّعٌ ضَعِيفَةٌ، وَأَقْوَاهَا حَدِيثُ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْعُمْرَةِ أَوَاجِبَةٌ هِيَ؟ فَقَالَ: ((لَا، وَأَنْ تَعْتَمِرَ خَيْرٌ لَكَ)) وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ وَعَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَفِي إِسْنَادِهِ الْحَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ وَقَدْ ضَعَّفَهُ الْأَكْثَرُونَ، وَبَالَغَ ابْنُ حَزْمٍ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مَكْذُوبٌ وَبَاطِلٌ. وَالصَّوَابُ مَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ مِنَ اتِّفَاقِ الْحُفَّاظِ عَلَى تَضْعِيفِهِ.

وَأَقْوَى أَحَادِيثِ الْقَائِلِينَ بِوُجُوبِ الْعُمْرَةِ حَدِيثُ أَبِي رَزِينٍ الْعَقِيلِيِّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ وَلَا الْعُمْرَةَ وَلَا الظَّعْنَ، فَقَالَ: ((حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ بِلَا نَكِيرٍ بَلْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: لَا أَعْلَمُ فِي إِيجَابِ الْعُمْرَةِ حَدِيثًا أَوْجَبَ مِنْ هَذَا وَلَا أَصَحَّ مِنْهُ، فَهُوَ حُجَّةٌ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْأَمْرَ لِلْوُجُوبِ مَا لَمْ يَصْرِفْهُ صَارِفٌ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا السَّائِلَ لَمْ يَقْصِدِ السُّؤَالَ عَنْ مَشْرُوعِيَّةِ أَصْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ حُكْمَهُمَا وَإِنَّمَا سَأَلَ هَلْ يَصِحُّ أَنْ يَأْتِيَ بِهِمَا عَنْ أَبِيهِ الَّذِي يُقْعِدُهُ عَنْهُمَا الْعَجْزُ، وَلَا يُنَافِي هَذَا كَوْنَ الْعُمْرَةِ سُنَّةً مُتَّبَعَةً لَا فَرْضًا لَازِمًا، وَيُؤَيِّدُ هَذَا عَدَمُ ذِكْرِهَا فِي الْآيَةِ النَّاطِقَةِ بِالْوُجُوبِ وَلَا فِي حَدِيثِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ تَطَوُّعُ النُّسُكِ، وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ الْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ لَفْظُ التَّطَوُّعِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعُمْرَةَ سُنَّةٌ فَمَتَى شَرَعَ فِيهَا كَانَ إِتْمَامُهَا وَاجِبًا. وَمَا تَقَدَّمَ فِي مَعْنَى الْإِتْمَامِ هُوَ الْمُتَبَادَرُ وَالْجَامِعُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ.

قال الطبري: فإن أولى القراءتين بالصواب في {العمرةَ} قراءةُ من قرأها نصبًا – وأنّ أولى التأويلين في قوله {وأتموا الحج والعمرة لله}، تأويلُ ابن عباس الذي ذكرنا عنه من رواية علي بن أبي طلحة عنه من أنه أمرٌ من الله بإتمام أعمالهما بعد الدُّخول فيهما وإيجابهما على ما أمِر به من حدودهما وسنَنِهما – وأنّ أولى القولين في {العمرة} بالصواب قول من قال: (هي تطوُّعٌ لا فرض) – وإن معنى الآية: وأتموا أيها المؤمنون الحجّ والعمرة لله بعد دخولكم فيهما وإيجابكموهما على أنفسكم، على ما أمركم الله من حدودهما.

وإنما أنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية على نبيه عليه ﷺ في عمرة الحديبية التي صُدَّ فيها عن البيت، معرِّفَهُ المؤمنين فيها ما عليهم في إحرامهم إن خُلِّي بينهم وبين البيت ومبيِّنًا لهم فيها ما المُخْرِجَ لهم من إحرامهم إن أحرموا، فصُدُّوا عن البيت. ولذكر اللازم لهم من الأعمال في عمرتهم التي اعتمروها عام الحديبية، وما يلزمهم فيها بعد ذلك في عمرتهم وحجِّهم، افتتح بقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٦ص٧: الْعُمْرَةُ فِي وُجُوبِهَا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلْعُلَمَاءِ هُمَا قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ، وَرِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَد، وَالْمَشْهُورُ عَنْ أَصْحَابِهِمَا وُجُوبُهَا، وَلَكِنَّ الْقَوْلَ بِعَدَمِ وُجُوبِهَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ؛ كَمَالِكِ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مَنْقُولٌ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْعُمْرَةَ لَيْسَتْ وَاجِبَةً، وَأَنَّ مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَعْتَمِرْ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ تَرَكَ الْعُمْرَةَ عَامِدًا، أَوْ نَاسِيًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ إنَّمَا فَرَضَ فِي كِتَابِهِ حَجَّ الْبَيْتِ بِقَوْلِهِ: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}[آل عمران: ٩٧]، وَلَفْظُ الْحَجِّ فِي الْقُرْآنِ لَا يَتَنَاوَلُ الْعُمْرَةَ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ إذَا أَرَادَ الْعُمْرَةَ ذَكَرَهَا مَعَ الْحَجِّ، كَقَوْلِهِ: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} وَقَوْلِهِ: {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}[البقرة: ١٥٨]، فَلَمَّا أَمَرَ بِالْإِتْمَامِ أَمَرَ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ سَنَةَ سِتٍّ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ. وَآيَةُ آلِ عِمْرَانَ نَزَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، سَنَةَ تِسْعٍ أَوْ عَشْرٍ، وَفِيهَا فَرْضُ الْحَجِّ.

وَلِهَذَا كَانَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ فَرْضَ الْحَجِّ كَانَ مُتَأَخِّرًا. وَمَنْ قَالَ: إنَّهُ فُرِضَ سَنَةَ سِتٍّ فَإِنَّهُ احْتَجَّ بِآيَةِ الْإِتْمَامِ، وَهُوَ غَلَطٌ، فَإِنَّ الْآيَةَ إنَّمَا أَمَرَ فِيهَا بِإِتْمَامِهِمَا لِمَنْ شَرَعَ فِيهِمَا لَمْ يَأْمُرْ فِيهَا بِابْتِدَاءِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ. وَالنَّبِيُّ ﷺ اعْتَمَرَ عُمْرَةَ الْحُدَيْبِيَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَمْ يَكُنْ فُرِضَ عَلَيْهِ لَا حَجٌّ وَلَا عُمْرَةٌ، ثُمَّ لَمَّا صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَأَمَرَ فِيهَا بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَبَيَّنَ حُكْمَ الْمُحْصَرِ الَّذِي تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الْإِتْمَامُ؛ وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ يَلْزَمَانِ بِالشُّرُوعِ، فَيَجِبُ إتْمَامُهُمَا. وَتَنَازَعُوا فِي الصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ وَالِاعْتِكَافِ.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ الْعُمْرَةَ لَيْسَ فِيهَا جِنْسٌ مِنْ الْعَمَلِ غَيْرَ جِنْسِ الْحَجِّ، فَإِنَّهَا إحْرَامٌ وَطَوَافٌ وَسَعْيٌ وَإِحْلَالٌ، وَهَذَا كُلُّهُ مَوْجُودٌ فِي الْحَجِّ. وَالْحَجُّ إنَّمَا فَرَضَهُ اللَّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً لَمْ يَفْرِضْهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَا فَرَضَ شَيْئًا مِنْ فَرَائِضِهِ مَرَّتَيْنِ، لَمْ يَفْرِضْ فِيهِ وقوفين، وَلَا طَوَافَيْنِ؛ بَلْ الْفَرْضُ طَوَافُ الْإِفَاضَةِ، وَأَمَّا طَوَافُ الْوَدَاعِ فَلَيْسَ مِنْ الْحَجِّ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ؛ وَلِهَذَا لَا يَطُوفُ مَنْ أَقَامَ بِمَكَّةَ، وَلَيْسَ فَرْضًا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، بَلْ يَسْقُطُ عَنْ الْحَائِضِ، وَلَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ لَأَجْزَأَهُ دَمٌ، وَلَمْ يَبْطُلْ الْحَجُّ بِتَرْكِهِ بِخِلَافِ طَوَافِ الْفَرْضِ، وَالْوُقُوفِ. وَكَذَلِكَ السَّعْيُ لَا يَجِبُ إلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَالرَّمْيُ يَوْمَ النَّحْرِ لَا يَجِبُ إلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَرَمْيُ كُلِّ جَمْرَةٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَا يَجِبُ إلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَكَذَلِكَ الْحَلْقُ وَالتَّقْصِيرُ لَا يَجِبُ إلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً.

فَإِذَا كَانَتْ الْعُمْرَةُ لَيْسَ فِيهَا عَمَلٌ غَيْرَ أَعْمَالِ الْحَجِّ – وَأَعْمَالُ الْحَجِّ إنَّمَا فَرَضَهَا اللَّهُ مَرَّةً، لَا مَرَّتَيْنِ – عُلِمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضْ الْعُمْرَةَ.

وَالْحَدِيثُ الْمَأْثُورُ فِي ((أَنَّ الْعُمْرَةَ هِيَ الْحَجُّ الْأَصْغَرُ([١]))، قَدْ احْتَجَّ بِهِ بَعْضُ مَنْ أَوْجَبَ الْعُمْرَةَ، وَهُوَ إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَجِبُ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ دَالٌّ عَلَى حَجَّيْنِ: أَكْبَرَ، وَأَصْغَرَ. كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ: {يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ} [التوبة: ٣]، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَوْ أَوْجَبْنَاهَا لَأَوْجَبْنَا حجين: أَكْبَرَ، وَأَصْغَرَ. وَاَللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَفْرِضْ حَجَّيْنِ، وَإِنَّمَا أَوْجَبَ حَجًّا وَاحِدًا، وَالْحَجُّ الْمُطْلَقُ إنَّمَا هُوَ الْحَجُّ الْأَكْبَرُ، وَهُوَ الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَجَعَلَ لَهُ وَقْتًا مَعْلُومًا، لَا يَكُونُ فِي غَيْرِهِ كَمَا قَالَ: {يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ}، بِخِلَافِ الْعُمْرَةِ فَإِنَّهَا لَا تَخْتَصُّ بِوَقْتٍ بِعَيْنِهِ، بَلْ تُفْعَلُ فِي سَائِرِ شُهُورِ الْعَامِ.

وَلِأَنَّ الْعُمْرَةَ مَعَ الْحَجِّ كَالْوُضُوءِ مَعَ الْغُسْلِ، وَالْمُغْتَسِلُ لِلْجَنَابَةِ يَكْفِيهِ الْغُسْلُ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْوُضُوءُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، فَكَذَلِكَ الْحَجُّ؛ فَإِنَّهُمَا عِبَادَتَانِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ: صُغْرَى، وَكُبْرَى. فَإِذَا فَعَلَ الْكُبْرَى لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِعْلُ الصُّغْرَى، وَلَكِنَّ فِعْلَ الصُّغْرَى أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ كَمَا أَنَّ الْوُضُوءَ مَعَ الْغُسْلِ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ.

١– الدار قطني في الحج ٢/٢٨٥، والبيهقي في السنن الكبرى في الحج ٤/٣٥٢،٨٩ وابن حبان في موارد الظمآن (٧٩٣)، كلهم عن عمرو بن حزم.

– (قلت): ورواه ابن حبان في صحيحه (٦٥٥٩)، وصححه لغيره الإمام الألباني في الإرواء (١٢٢)، والمشكاة (٤٦٥).

وَهَكَذَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، لَكِنَّهُ أَمَرَهُمْ بِأَمْرِ التَّمَتُّعِ وَقَالَ: ((دَخَلَتْ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[١]))، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

قال القرطبي: روى الأئمة أن رسول الله ﷺ وقت لأهل المدينة ذا الحليفة[٢]، ولأهل الشام الجحفة[٣]، ولأهل نجد قرن[٤]، ولأهل اليمن يلملم[٥]، هنَّ لهنَّ ولمن أتى عليهنَّ من غير أهلهنَّ ممَّن أراد الحج والعمرة. ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ، حتى أهل مكة من مكة يهلُّون منها[٦]. وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث واستعماله، لا يخالفون شيئًا منه. واختلفوا في ميقات أهل العراق و فيمن وقته، فروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ وقت لأهل المشرق العقيق. قال الترمذي: هذا حديث حسن[٧]. وروي أن عمر وقَّت لأهل العراق ذات عرق[٨]. وفي كتاب أبي داود عن عائشة أن رسول الله ﷺ وقَّت لأهل العراق ذات عرق، وهذا هو الصحيح[٩]. ومن روى أن عمر وقّته وقّته لأن العراق في وقته افتتحت، فغفلة منه، بل وقَّته رسول الله ﷺ كما وقَّت لأهل الشام الجحفة. والشام كلها يومئذ دار كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان، ولم تفتح العراق ولا الشام إلا على عهد عمر، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل السير. قال أبو عمر: كل عراقي أو مشرقي أحرم من ذات عرق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته، والعقيق أحوط عندهم وأولى من ذات عرق، وذات عرق ميقاتهم أيضًا بإجماع.

١- مسلم في الحج (١٢٤١/٢٠٣)، وأبو داود في المناسك (١٧٩٠)، والترمذي في الحج (٩٣٢)، والدارمي في المناسك ٢/٥٠، وأحمد ١/٣٤١،٢٥٩،٢٥٣،٢٣٧،٢٣٦، كلهم عن ابن عباس، وابن ماجة في المناسك (٢٩٧٧)، والدار قطني في الحج ٢/٢٨٣، والبيهقي في السنن الكبرى في الحج ٤/٣٥٢، والحاكم ٣/٦١٩، كلهم عن سراقة بن جعشم. والطبراني في الكبير (١٥٨١،١٥٨٢) عن جبير بن مطعم.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٩٨٢).

٢- ذو الحليفة (مصغر حلفة): قرية خربة بينها وبين مكة مائتا ميل.

٣- الجحفة (بضم الجيم وسكون المهملة): قرية خربة بينها وبين مكة خمس مراحل، ويقرب منها القرية المعروفة برابغ - براء وموحدة وغين معجمة- فيصح الإحرام منها.

٤- قرن: (بفتح فسكون): جبل مشرف على عرفات، وهو على مرحلتين من مكة.

٥- يلملم (بفتح التحتية واللام وسكون الميم وفتح اللام): مكان على مرحلتين من مكة.

٦- (قلت): متفق عليه.

٧- (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٠٠٢): والحديث عندي منكر لمخالفته للأحاديث المتقدمة قريبا عن عائشة وجابر وابن عمر فى أن النبي ﷺ وقت لأهل العراق ذات عرق. والعقيق قبلها بمرحلة أو مرحلتين كما ذكر ابن الأثير فى النهاية فهما موضعان متغايران، فلا يعقل أن يكون لأهل العراق، وهم أهل المشرق، ميقاتان مع ضعف حديث العقيق.

٨- ذات عرق: قرية على مرحلتين من مكة.

٩- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٩٩٩).

وأجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتي الميقات أنه محرم، وإنما منع من ذلك من رأى الإحرام عند الميقات أفضل، كراهية أن يضيق المرء على نفسه ما قد وسَّع الله عليه، وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يحدث في إحرامه، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك، لأنه زاد ولم ينقص.

واختلف العلماء في المراهق والعبد يحرمان بالحج ثم يحتلم هذا، ويعتق هذا قبل الوقوف بعرفة، فقال مالك: لا سبيل لهما إلى رفض الإحرام ولا لأحد متمسِّكا بقوله تعالى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}، ومن رفض إحرامه فلا يتمُّ حجَّه ولا عمرته. وقال أبو حنيفة: جائز للصبي إذا بلغ قبل الوقوف بعرفة أن يجدِّد إحرامًا، فإن تمادى على حجِّه ذلك لم يجزه من حجَّة الإسلام. واحتجَّ بأنه لما لم يكن الحج يجزي عنه، ولم يكن الفرض لازمًا له حين أحرم بالحج ثم لزمه حين بلغ استحال أن يشغل عن فرض قد تعيَّن عليه بنافلة ويعطل فرضه، كمن دخل في نافلة وأقيمت عليه المكتوبة وخشي فوتها قطع النافلة ودخل في المكتوبة. وقال الشافعي: إذا أحرم الصبي ثم بلغ قبل الوقوف بعرفة فوقف بها محرمًا أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد. قال: ولو عتق بمزدلفة وبلغ الصبي بها فرجعا إلى عرفة بعد العتق والبلوغ فأدركا الوقوف بها قبل طلوع الفجر أجزت عنهما من حجة الإسلام، ولم يكن عليهما دم، ولو احتاطا فأهراقا دمًا كان أحب إلي، وليس ذلك بالبين عندي. واحتج في إسقاط تجديد الإحرام بحديث علي رضي الله عنه إذ قال له رسول الله ﷺ حين أقبل من اليمن مُهِلًّا بالحج: ((بم أهللت؟)) قال: قلت: لبيك اللهم بإهلال كإهلال نبيك. فقال رسول الله ﷺ: ((فإني أهللت بالحج وسقت الهدي(١))). قال الشافعي: ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ مقالته، ولا أمره بتجديد نيَّة لإفراد أو تمتع أو قران. وقال مالك في النصراني يسلم عشية عرفة فيحرم بالحج: أجزأه من حجَّة الإسلام، وكذلك العبد يعتق، والصبي يبلغ إذا لم يكونوا محرمين ولا دم على واحد منهم، وإنما يلزم الدم من أراد الحج ولم يحرم من الميقات.

وقال أبو حنيفة: يلزم العبد الدم. وهو كالحر عندهم في تجاوز الميقات، بخلاف الصبي والنصراني فإنهما لا يلزمهما الإحرام لدخول مكة لسقوط الفرض عنهما. فإذا أسلم الكافر وبلغ الصبي كان حكمهما حكم المكي، ولا شيء عليهما في ترك الميقات.

قال الشنقيطي: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْإِحْصَارِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ صَدُّ الْعَدُوِّ الْمُحْرِمِ، وَمَنْعُهُ إِيَّاهُ مِنَ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْمُرَادُ بِهِ حَبْسُ الْمُحْرِمِ بِسَبَبِ مَرَضٍ وَنَحْوِهِ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْمُرَادُ بِهِ مَا يَشْمَلُ الْجَمِيعَ مِنْ عَدُوٍّ وَمَرَضٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

١- (قلت): البخاري (٤٣٥٢)، ومسلم (١٢٥٠)، والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ عَلِيًّا، قَدِمَ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((بِمَ أَهْلَلْتَ؟)) فَقَالَ: أَهْلَلْتُ بِإِهْلَالِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ((لَوْلَا أَنَّ مَعِي الْهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ)).

وَلَكِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: {فَإِذَا أَمِنْتُمْ} يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَارِ هُنَا صَدُّ الْعَدُوِّ الْمُحْرِمِ؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ إِذَا أُطْلِقَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ انْصَرَفَ إِلَى الْأَمْنِ مِنَ الْخَوْفِ لَا إِلَى الشِّفَاءِ مِنَ الْمَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ لَمْ يُذْكَرِ الشَّيْءُ الَّذِي مِنْهُ الْأَمْنُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِحْصَارِ، فَثَبَتَ أَنَّهُ الْخَوْفُ مِنَ الْعَدُوِّ. وَحَاصِلُ تَحْرِيرِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَبْحَثَيْنِ:

الْأَوَّلُ: فِي مَعْنَى الْإِحْصَارِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

الثَّانِي: فِي تَحْقِيقِ الْمُرَادِ بِهِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَأَدِلَّتِهَا فِي ذَلِكَ، وَنَحْنُ نُبَيِّنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

اعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِحْصَارَ هُوَ مَا كَانَ عَنْ مَرَضٍ أَوْ نَحْوِهِ، قَالُوا: تَقُولُ الْعَرَبُ: أَحْصَرَهُ الْمَرَضُ يُحْصِرُهُ بِضَمِّ الْيَاءِ، وَكَسْرِ الصَّادِ إِحْصَارًا، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنَ الْعَدُوِّ فَهُوَ الْحَصْرُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: حَصَرَ الْعَدُوُّ يَحْصُرُهُ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الصَّادِ حَصْرًا بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ، وَمِنْ إِطْلَاقِ الْحَصْرِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَدُوِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ} وَمِنْ إِطْلَاقِ الْإِحْصَارِ عَلَى غَيْرِ الْعَدُوِّ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} الْآيَةَ [٢ \ ٢٧٣] وَقَوْلُ ابْنِ مَيَّادَةَ: [الطَّوِيل]

وَمَا هَجْرُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ ... تَبَاعَدَتْ عَلَيْكَ وَلَا أَنْ أَحْصَرَتْكَ شَغُولُ

وَعَكَسَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ. فَقَالَ: الْإِحْصَارُ مِنَ الْعَدُوِّ، وَالْحَصْرُ مِنَ الْمَرَضِ، قَالَهُ ابْنُ فَارِسٍ فِي (الْمُجْمَلِ) نَقَلَهُ عَنْهُ الْقُرْطُبِيُّ، وَنَقَلَ الْبَغَوِيُّ نَحْوَهُ عَنْ ثَعْلَبٍ.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ: إِنَّ الْإِحْصَارَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْجَمِيعِ، وَكَذَلِكَ الْحَصْرُ، وَمِمَّنْ قَالَ بِاسْتِعْمَالِ الْإِحْصَارِ فِي الْجَمِيعِ الْفَرَّاءُ، وَمِمَّنْ قَالَ: بِأَنَّ الْحَصْرَ وَالْإِحْصَارَ يُسْتَعْمَلَانِ فِي الْجَمِيعِ أَبُو نَصْرٍ الْقُشَيْرِيُّ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: لَا شَكَّ فِي جَوَازِ إِطْلَاقِ الْإِحْصَارِ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَدُوِّ كَمَا سَتَرَى تَحْقِيقَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، هَذَا حَاصِلُ كَلَامِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَعْنَى الْإِحْصَارِ. وَأَمَّا الْمُرَادُ بِهِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَقَدِ اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ حَصْرُ الْعَدُوِّ خَاصَّةً دُونَ الْمَرَضِ وَنَحْوِهِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأَنَسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ – رضي الله عنهم – وَبِهِ قَالَ مَرْوَانُ، وَإِسْحَاقُ وَهُوَ الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَارِ مَا كَانَ مِنَ الْعَدُوِّ خَاصَّةً، فَمَنْ أُحْصِرَ بِمَرَضٍ وَنَحْوِهِ لَا يَجُوزُ لَهُ التَّحَلُّلُ حَتَّى يَبْرَأَ مِنْ مَرَضِهِ، وَيَطُوفَ بِالْبَيْتِ وَيَسْعَى، فَيَكُونُ مُتَحَلِّلًا بِعُمْرَةٍ، وَحُجَّةُ هَذَا الْقَوْلِ مُتَرَكِّبَةٌ مِنْ أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ الَّتِي هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} نَزَلَتْ فِي صَدِّ الْمُشْرِكِينَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَهُمْ مُحْرِمُونَ بِعُمْرَةٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَامَ سِتٍّ بِإِطْبَاقِ الْعُلَمَاءِ.

وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ أَنَّ صُورَةَ سَبَبِ النُّزُولِ قَطْعِيَّةَ الدُّخُولِ فَلَا يُمْكِنُ إِخْرَاجُهَا بِمُخَصَّصٍ، فَشُمُولُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِإِحْصَارِ الْعَدُوِّ، الَّذِي هُوَ سَبَبُ نُزُولِهَا قَطْعِيٌّ، فَلَا يُمْكِنُ إِخْرَاجُهُ مِنَ الْآيَةِ بِوَجْهٍ، وَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ – أَنَّ صُورَةَ سَبَبِ النُّزُولِ ظَنِّيَّةُ الدُّخُولِ لَا قَطْعِيَّتُهُ، وَهُوَ خِلَافُ قَوْلِ الْجُمْهُورِ وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي (مَرَاقِي السُّعُودِ) بِقَوْلِهِ: [الرَّجَزِ]

وَاجْزِمْ بِإِدْخَالِ ذَوَاتِ السَّبَبِ ... وَارْوِ عَنِ الْإِمَامِ ظَنًّا تُصِبِ

وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ إِطْلَاقَ الْإِحْصَارِ بِصِيغَةِ الرُّبَاعِيِّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَدُوٍّ صَحِيحٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِلَا شَكٍّ كَمَا تَرَى، وَأَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْفَصَاحَةِ وَالْإِعْجَازِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: مَا وَرَدَ مِنَ الْآثَارِ فِي أَنَّ الْمُحْصَرَ بِمَرَضٍ وَنَحْوِهِ لَا يَتَحَلَّلُ إِلَّا بِالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ فِي (مُسْنَدِهِ) وَالْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا حَصْرَ إِلَّا حَصْرَ الْعَدُوِّ.

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي (شَرْحِ الْمُهَذَّبِ): إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَصَحَّحَهُ أَيْضًا ابْنُ حَجَرٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (أَلَيْسَ حَسْبُكُمْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنْ حُبِسَ أَحَدُكُمْ عَنِ الْحَجِّ طَافَ بِالْبَيْتِ، وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ يَحِلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَحُجَّ عَامًا قَابِلًا فَيُهْدِي أَوْ يَصُومُ إِنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا([١]))، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي (الْمُوَطَّأِ)، وَالْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: (الْمُحْصَرُ بِمَرَضٍ لَا يَحِلُّ حَتَّى يَطُوفَ بِالْبَيْتِ، وَيَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَإِذَا اضْطُرَّ إِلَى لُبْسِ شَيْءٍ مِنَ الثِّيَابِ الَّتِي لَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا أَوِ الدَّوَاءِ صَنَعَ ذَلِكَ وَافْتَدَى([٢]))، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي (الْمُوَطَّأِ) وَالْبَيْهَقِيُّ أَيْضًا عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ: (أَنَّ سَعِيدَ بْنَ حُزَابَةَ الْمَخْزُومِيَّ صُرِعَ بِبَعْضِ طَرِيقِ مَكَّةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ، فَسَأَلَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ عَنِ الْعُلَمَاءِ، فَوَجَدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَمَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ، فَذَكَرَ لَهُمُ الَّذِي عَرَضَ لَهُ فَكُلُّهُمْ أَمَرَهُ أَنْ يَتَدَاوَى بِمَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَيَفْتَدِيَ فَإِذَا صَحَّ اعْتَمَرَ فَحَلَّ مِنْ إِحْرَامِهِ، ثُمَّ عَلَيْهِ حَجٌّ قَابِلٌ، وَيُهْدِي مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ).

قَالَ مَالِكٌ: وَعَلَى هَذَا الْأَمْرِ عِنْدَنَا فِيمَنْ أُحْصِرَ بِغَيْرِ عَدُوٍّ، وَقَدْ أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ وَهَبَّارَ بْنَ الْأَسْوَدِ حِينَ فَاتَهُمَا الْحَجُّ وَأَتَيَا يَوْمَ النَّحْرِ أَنْ يَحِلَّا بِعُمْرَةٍ ثُمَّ يَرْجِعَا حَلَالًا، ثُمَّ يَحُجَّانِ عَامًا قَابِلًا وَيُهْدِيَانِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٢٧١٠).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل (١١٣٦): صحيح موقوفا. أخرجه فى الموطأ (١/٣٦١/١)، وعنه البيهقي (٥/٢١٩) عن ابن شهاب عن سالم ابن عبد الله عن عبد الله بن عمر به وزاد: وبين الصفا والمروة. قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي (الْمُوَطَّأِ)، وَالْبَيْهَقِيُّ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: (الْمُحْرِمُ لَا يُحِلُّهُ إِلَّا الْبَيْتُ)، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا تَعْنِي غَيْرَ الْمُحْصَرِ بِعَدُوٍّ، كَمَا جَزَمَ بِهِ الزُّرْقَانِيُّ فِي (شَرْحِ الْمُوَطَّأِ) هَذَا هُوَ حَاصِلُ أَدِلَّةِ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَارِ فِي الْآيَةِ هُوَ مَا كَانَ مِنْ خُصُوصِ الْعَدُوِّ دُونَ مَا كَانَ مِنْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: فِي الْمُرَادِ بِالْإِحْصَارِ أَنَّهُ يَشْمَلُ مَا كَانَ مِنْ عَدُوٍّ وَنَحْوِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِ، مِنْ جَمِيعِ الْعَوَائِقِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْحَرَمِ. وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَلْقَمَةُ وَالثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ وَأَبُو ثَوْرٍ وَدَاوُدُ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ. وَحُجَّةُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ جِهَةِ شُمُولِهِ لِإِحْصَارِ الْعَدُوِّ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي حُجَّةِ الَّذِي قَبْلَهُ.

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ شُمُولِهِ لِلْإِحْصَارِ بِمَرَضٍ فَهِيَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ كُسِرَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حَلَّ، وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى[١]))، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَا: صَدَقَ. وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَهْ: ((مَنْ عَرِجَ، أَوْ كُسِرَ، أَوْ مَرِضَ[٢])) فَذَكَرَ مَعْنَاهُ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي (شَرْحِ الْمُهَذَّبِ) بَعْدَ أَنْ سَاقَ حَدِيثَ عِكْرِمَةَ هَذَا: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمْ بِأَسَانِيدَ صَحِيحَةٍ، وَبِهَذَا تَعْلَمُ قُوَّةَ حُجَّةِ أَهْلِ هَذَا الْقَوْلِ، وَرَدَّ الْمُخَالِفُونَ الِاحْتِجَاجَ بِحَدِيثِ عِكْرِمَةَ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: مَا ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي (السُّنَنِ الْكُبْرَى) قَالَ: وَقَدْ حَمَلَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنْ صَحَّ عَلَى أَنَّهُ يَحِلُّ بَعْدَ فَوَاتِهِ بِمَا يَحِلُّ بِهِ مَنْ يَفُوتُهُ الْحَجُّ بِغَيْرِ مَرَضٍ. فَقَدْ رُوِّينَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَابِتًا عَنْهُ، قَالَ: لَا حَصْرَ إِلَّا حَصْرُ عَدُوٍّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: هُوَ حَمْلُ حِلِّهِ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ عَلَى مَا إِذَا اشْتَرَطَ فِي إِحْرَامِهِ أَنَّهُ يَحِلُّ حَيْثُ حَبَسَهُ اللَّهُ بِالْعُذْرِ، وَالتَّحْقِيقُ: جَوَازُ الِاشْتِرَاطِ فِي الْحَجِّ بِأَنْ يُحْرِمَ وَيَشْتَرِطَ أَنَّ مَحِلَّهُ حَيْثُ حَبَسَهُ اللَّهُ، وَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلِ مَنْ مَنَعَ الِاشْتِرَاطَ؛ لِثُبُوتِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ، عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّهَا قَالَتْ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ لَهَا: ((لَعَلَّكِ أَرَدْتِ الْحَجَّ؟)) قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً. فَقَالَ لَهَا: ((حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي[٣]))، وَكَانَتْ تَحْتَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٦٢٧)، وفي المشكاة (٢٧١٣ / التحقيق الثاني).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٦٢٨).

٣- (قلت): البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧).

وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ)، وَأَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنْ ضُبَاعَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي امْرَأَةٌ ثَقِيلَةٌ، وَإِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي أَن أُهِلَّ؟ قَالَ: ((أَهِلِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي([١]))، قَالَ: فَأَدْرَكَتْ. وَلِلنَّسَائِيِّ فِي رِوَايَةٍ: وَقَالَ: ((فَإِنَّ لَكَ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ([٢]))).

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: فِي الْمُرَادِ بِالْإِحْصَارِ أَنَّهُ مَا كَانَ مِنَ الْمَرَضِ وَنَحْوِهِ خَاصَّةً، دُونَ مَا كَانَ مِنَ الْعَدُوِّ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ الْمَنْقُولُ عَنْ أَكْثَرِ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَإِنَّمَا جَازَ التَّحَلُّلُ مِنْ إِحْصَارِ الْعَدُوِّ عِنْدَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ إِلْغَاءِ الْفَارِقِ وَأَخْذِ حُكْمِ الْمَسْكُوتِ عَنْهُ مِنَ الْمَنْطُوقِ بِهِ، فَإِحْصَارُ الْعَدُوِّ عِنْدَهُمْ مُلْحَقٌ بِإِحْصَارِ الْمَرَضِ بِنَفْيِ الْفَارِقِ.

وَلَا يَخْفَى سُقُوطُ هَذَا الْقَوْلِ لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ نَزَلَتْ فِي إِحْصَارِ الْعَدُوِّ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَأَنَّ صُورَةَ سَبَبِ النُّزُولِ قَطْعِيَّةُ الدُّخُولِ، كَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ وَهُوَ الْحَقُّ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الَّذِي يَظْهَرُ لَنَا رُجْحَانُهُ بِالدَّلِيلِ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةِ هُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ فِي أَشْهَرِ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَارِ فِي الْآيَةِ إِحْصَارُ الْعَدُوِّ، وَأَنَّ مَنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ أَوْ نَحْوُهُ لَا يَحِلُّ إِلَّا بِعُمْرَةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ الْآيَةُ وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَإِذَا أَمِنتُمْ}.

وَلَا سِيَّمَا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الرُّخْصَةَ لَا تَتَعَدَّى مَحِلَّهَا، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَأَمَّا حَدِيثُ عِكْرِمَةَ الَّذِي رَوَاهُ عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنهم – فَلَا تَنْهَضُ بِهِ حُجَّةٌ ؛ لِتَعَيُّنِ حَمْلِهِ عَلَى مَا إِذَا اشْتَرَطَ ذَلِكَ عِنْدَ الْإِحْرَامِ ؛ بِدَلِيلِ مَا قَدَّمْنَا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ، وَحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَأَصْحَابِ السُّنَنِ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: ((حُجِّي وَاشْتَرِطِي))، وَلَوْ كَانَ التَّحَلُّلُ جَائِزًا دُونَ شَرْطٍ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ حَدِيثِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو لَمَا كَانَ لِلِاشْتِرَاطِ فَائِدَةٌ، وَحَدِيثُ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ بِالِاشْتِرَاطِ أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ عِكْرِمَةَ، عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ وَاجِبٌ إِذَا أَمْكَنَ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي (مَرَاقِي السُّعُودِ) بِقَوْلِهِ: [الرَّجَز] وَالْجَمْعُ وَاجِبٌ مَتَى مَا ... أَمْكَنَا إِلَّا فَلِلْأَخِيرِ نَسْخٌ بُيِّنَا

وَهُوَ مُمْكِنٌ فِي الْحَدِيثَيْنِ بِحَمْلِ حَدِيثِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو عَلَى مَا إِذَا اشْتَرَطَ ذَلِكَ فِي الْإِحْرَامِ، فَيَتَّفِقُ مَعَ الْحَدِيثَيْنِ الثَّابِتَيْنِ فِي الصَّحِيحِ، فَإِنْ قِيلَ: يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ بِغَيْرِ هَذَا، وَهُوَ حَمْلُ أَحَادِيثِ الِاشْتِرَاطِ عَلَى أَنَّهُ يَحِلُّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْزَمَهُ حُجَّةٌ أُخْرَى، وَحُمِلَ حَدِيثُ عِكْرِمَةَ، عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِ عَلَى أَنَّهُ يَحِلُّ، وَعَلَيْهِ حُجَّةٌ أُخْرَى، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْجَمْعِ أَنَّ أَحَادِيثَ الِاشْتِرَاطِ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ حَجَّةٍ أُخْرَى.

١– (قلت): مسلم (١٢٠٨). وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٤ / ١٨٧).

٢– (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٠١٠) وقال: أخرجه النسائي (٢/٢٠) وكذا الدارمي (٢/٣٤ . ٣٥) وأبو نعيم (٩/٢٢٤) من طريق هلال بن خباب.

وَحَدِيثُ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: ((فَقَدْ حَلَّ وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى)).

فَالْجَوَابُ أَنَّ وُجُوبَ الْبَدَلِ بِحَجَّةٍ أُخْرَى أَوْ عُمْرَةٍ أُخْرَى لَوْ كَانَ يَلْزَمُ، لَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَقْضُوا عُمْرَتَهُمُ الَّتِي صَدَّهُمْ عَنْهَا الْمُشْرِكُونَ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي (صَحِيحِهِ) فِي بَابِ (مَنْ قَالَ لَيْسَ عَلَى الْمُحْصَرِ بَدَلٌ) مَا نَصُّهُ: وَقَالَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ يَنْحَرُ هَدْيَهُ، وَيَحْلِقُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ، وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ نَحَرُوا وَحَلَقُوا وَحَلُّوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ الطَّوَافِ، وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْهَدْيُ إِلَى الْبَيْتِ، ثُمَّ لَمْ يُذْكَرْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَحَدًا أَنْ يَقْضُوا شَيْئًا، وَلَا يَعُودُوا لَهُ وَالْحُدَيْبِيَةُ خَارِجٌ مِنَ الْحَرَمِ. انْتَهَى مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ فِي (الْمُوَطَّأِ) إِنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَلَّ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَنَحَرُوا الْهَدْيَ، وَحَلَقُوا رُءُوسَهُمْ، وَحَلُّوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ، وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ الْهَدْيُ، ثُمَّ لَمْ يُعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ أَنْ يَقْضُوا شَيْئًا، وَلَا يَعُودُوا لِشَيْءٍ. انْتَهَى بِلَفْظِهِ مِنَ (الْمُوَطَّأِ). وَلَا يُعَارِضُ مَا ذَكَرْنَا بِمَا رَوَاهُ الْوَاقِدِيُّ فِي الْمَغَازِي مِنْ طَرِيقِ الزُّهْرِيِّ، وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي مَعْشَرٍ وَغَيْرِهِمَا، قَالُوا: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَعْتَمِرُوا فَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ قُتِلَ بِخَيْبَرَ، أَوْ مَاتَ، وَخَرَجَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مُعْتَمِرِينَ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدُوا الْحُدَيْبِيَةَ، وَكَانَتْ عِدَّتُهُمْ أَلْفَيْنِ؛ لِأَنَّ الشَّافِعِيَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ: وَالَّذِي أَعْقِلُهُ فِي أَخْبَارِ أَهْلِ الْمَغَازِي شَبِيهٌ بِمَا ذَكَرْتُ؛ لِأَنَّا عَلِمْنَا مِنْ مُتَوَاطِئِ أَحَادِيثِهِمْ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ رِجَالٌ مَعْرُوفُونَ، ثُمَّ اعْتَمَرَ عُمْرَةَ الْقَضِيَّةِ، فَتَخَلَّفَ بَعْضُهُمْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ، اهـ.

فَهَذَا الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - جَزَمَ بِأَنَّهُمْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ رِجَالٌ مَعْرُوفُونَ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ. وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ أَنَّ الْمُثْبِتَ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّافِي.

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي (الْفَتْحِ): وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا إِنْ صَحَّ وَبَيْنَ الَّذِي قَبْلَهُ، بِأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِحْبَابِ؛ لِأَنَّ الشَّافِعِيَّ جَازِمٌ بِأَنَّ جَمَاعَةً تَخَلَّفُوا بِغَيْرِ عُذْرٍ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ عُمْرَةُ الْقَضَاءِ وَالْقَضِيَّةِ لِلْمُقَاضَاةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، لَا عَلَى أَنَّهُمْ وَجَبَ عَلَيْهِمْ قَضَاءُ تِلْكَ الْعُمْرَةِ، اهـ.

وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ نَحْوَ هَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَهُ ابْنُ حَجَرٍ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي (صَحِيحِهِ) فِي الْبَابِ الْمَذْكُورِ مَا نَصُّهُ: (وَقَالَ رَوْحٌ، عَنْ شِبْلٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - إِنَّمَا الْبَدَلُ عَلَى مَنْ نَقَضَ حَجَّهُ بِالتَّلَذُّذِ، فَأَمَّا مَنْ حَبَسَهُ عُذْرٌ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَحِلُّ، وَلَا يَرْجِعُ). انْتَهَى مَحَلُّ الْغَرَضِ مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

وَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوُ هَذَا بِإِسْنَادٍ آخَرَ أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ، وَفِيهِ: فَإِنْ كَانَتْ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ فَعَلَيْهِ قَضَاؤُهَا، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ الْفَرِيضَةِ فَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ، اهـ. فَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا وَعَلِمْتَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – مِمَّنْ رَوَى عَنْهُ عِكْرِمَةُ الْحَدِيثَ الَّذِي رُوِيَ عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو، وَأَنَّ رَاوِيَ الْحَدِيثِ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ الَّذِي دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ، وَهُوَ مُصَرِّحٌ بِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى، مَحِلُّهُ فِيمَا إِذَا كَانَتْ عَلَيْهِ حَجَّةُ الْإِسْلَامِ، تَعْلَمُ أَنَّ الْجَمْعَ الْأَوَّلَ الَّذِي ذَكَرْنَا هُوَ الْمُتَعَيِّنُ، وَاخْتَارَهُ النَّوَوِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ، وَأَنَّ الْجَمْعَ الْأَخِيرَ لَا يَصِحُّ؛ لِتَعَيُّنِ حَمْلِ الْحَجَّةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى حَجَّةِ الْإِسْلَامِ، اهـ.

وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا إِحْصَارَ إِلَّا بِالْعَدُوِّ خَاصَّةً، وَأَنَّ الْمُحْصَرَ بِمَرَضٍ لَا يَحِلُّ حَتَّى يَبْرَأَ، وَيَطُوفَ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ يَحِلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَحُجَّ عَامًا قَابِلًا، فَيَهْدِي أَوْ يَصُومُ، إِنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا كَمَا ثَبَتَ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ كَمَا تَقَدَّمَ.

فَهُوَ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْمَرِيضَ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُحْصَرٍ، فَهُوَ كَمَنْ أَحْرَمَ وَفَاتَهُ وُقُوفُ عَرَفَةَ يَطُوفُ وَيَسْعَى وَيَحُجُّ مِنْ قَابِلٍ، وَيَهْدِي أَوْ يَصُومُ إِنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا، اهـ.

وَفِي الْمَسْأَلَةِ قَوْلٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنَّهُ لَا إِحْصَارَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِعُذْرٍ كَائِنًا مَا كَانَ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا، وَلَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ حُكْمَ الْإِحْصَارِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَرِدْ فِيهِ نَسْخٌ، فَادِّعَاءُ دَفْعِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَاضِحِ السُّقُوطِ كَمَا تَرَى، هَذَا هُوَ خُلَاصَةُ الْبَحْثِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ}.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}: فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ شَاةٌ فَمَا فَوْقَهَا، وَهُوَ مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَبِهِ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهِ قَالَ طَاوُسٌ، وَعَطَاءٌ، وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالنَّخَعِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُهُمْ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُمُ ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ إِنَّمَا هُوَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ دُونَ الْغَنَمِ، وَهَذَا الْقَوْلُ مَرْوِيٌّ عَنْ عَائِشَةَ، وَابْنِ عُمَرَ، وَسَالِمٍ، وَالْقَاسِمِ، وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَغَيْرِهِمْ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُسْتَنَدَ هَؤُلَاءِ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ قِصَّةُ الْحُدَيْبِيَةِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ ذَبَحَ فِي تَحَلُّلِهِ ذَلِكَ شَاةً، وَإِنَّمَا ذَبَحُوا الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ.

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ((أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ كُلُّ سَبْعَةٍ مِنَّا فِي بَقَرَةٍ(١))).

١- (قلت): لم أجده عند البخاري، مسلم (١٢١٣)، بلفظ ((في بدنة))، بدلاً من ((في بقرة)).

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: لَا يَخْفَى أَنَّ التَّحْقِيقَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ مَا تَيَسَّرَ مِمَّا يُسَمَّى هَدْيًا، وَذَلِكَ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْأَنْعَامِ: مِنْ إِبِلٍ، وَبَقَرٍ، وَغَنَمٍ، فَإِنْ تَيَسَّرَتْ شَاةٌ أَجْزَأَتْ، وَالنَّاقَةُ وَالْبَقَرَةُ أَوْلَى بِالْأَجزاء.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ: ((أَهْدَى ﷺ مَرَّةً غَنَمًا([1]))).

قال ابن العثيمين: {فإن أحصرتم} أي منعتم عن إتمامها {فما استيسر} أي فعليكم ما تيسر من الهدي؛ وزيادة الهمزة، والسين للمبالغة في تيسر الأمر؛ و{من الهدي} أي الهدي الشرعي؛ فـ{أل} فيه للعهد الذهني؛ والهدي الشرعي هو ما كان ثنيا مما سوى الضأن؛ لقول النبي ﷺ: ((لا تذبحوا إلا مسنة إلا إن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن([2])))؛ وهذا النهي يشمل كل ما ذبح تقرُّبًا إلى الله عز وجل من هدي، أو أضحية، أو عقيقة.

قال الشنقيطي: فُرُوعٌ تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: الْفَرْعُ الْأَوَّلُ: إِذَا كَانَ مَعَ الْمُحْصَرِ هَدْيٌ لَزِمَهُ نَحْرُهُ إِجْمَاعًا، وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ يَنْحَرُهُ فِي الْمَحِلِّ الَّذِي حُصِرَ فِيهِ، حِلًّا كَانَ أَوْ حَرَمًا، وَقَدْ نَحَرَ ﷺ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَجَزَمَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ بِأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي نَحَرُوا فِيهِ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ مِنَ الْحِلِّ لَا مِنَ الْحَرَمِ، وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِدَلِيلٍ وَاضِحٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ}[٤٨ \ ٢٥] فَهُوَ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي أَنَّ ذَلِكَ الْهَدْيَ لَمْ يَبْلُغْ مَحِلَّهُ، وَلَوْ كَانَ فِي الْحَرَمِ لَكَانَ بَالِغًا مَحِلَّهُ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي (الِاسْتِذْكَارِ): فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ نَحَرُوا فِي الْحِلِّ، وَتَعَقَّبَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي (فَتْحِ الْبَارِي): بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا أَرْسَلُوا هَدْيَهُمْ مَعَ مَنْ يَنْحَرُهُ فِي الْحَرَمِ، قَالَ: وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ جُنْدَبِ بْنِ جُنْدَبٍ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْعَثْ مَعِي الْهَدْيَ حَتَّى أَنْحَرَهُ فِي الْحَرَمِ. أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مَجْزَأَةَ بْنِ زَاهِرٍ، عَنْ نَاجِيَةَ، وَأَخْرَجَهُ الطَّحَاوِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، لَكِنْ قَالَ عَنْ نَاجِيَةَ، عَنْ أَبِيهِ: لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ وُقُوعِ هَذَا وُجُوبُهُ، بَلْ ظَاهِرُ الْقِصَّةِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ نَحَرَ فِي مَكَانِهِ وَكَانُوا فِي الْحِلِّ، وَذَلِكَ دَالٌّ عَلَى الْجَوَازِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ حَجَرٍ. وَخَالَفَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَبُو حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – الْجُمْهُورَ، وَقَالَ: لَا يَنْحَرُ الْمُحْصَرُ هَدْيَهُ إِلَّا فِي الْحَرَمِ، فَيَلْزَمُهُ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ إِلَى الْحَرَمِ، فَإِذَا بَلَغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ حَلَّ، وَقَالَ: إِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي نَحَرَ فِيهِ النَّبِيُّ – ﷺ – وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ طَرَفِ الْحَرَمِ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ}[٢ \ ١٩٦]، وَرُدَّ هَذَا الِاسْتِدْلَالُ بِمَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّهُ نَحَرَ فِي الْحِلِّ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: {وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ}، مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}، لَا عَلَى قَوْلِهِ: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَحِلِّهِ الْمَحِلُّ الَّذِي يَجُوزُ نَحْرُهُ فِيهِ، وَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُحْصَرِ حَيْثُ أُحْصِرَ، وَلَوْ كَانَ فِي الْحِلِّ.

---

١ – (قلت): البخاري (١٧٠١)، ومسلم (١٣٢١).

٢ – أخرجه مسلم ص١٠٢٨، كتاب الأضاحي، باب ٢: سن الأضحية، حديث رقم ٥٠٨٢ [١٣] ١٩٦٣.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: التَّحْقِيقُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ هُوَ التَّفْصِيلُ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - وَهُوَ أَنَّهُ إِنِ اسْتَطَاعَ إِرْسَالَ الْهَدْيِ إِلَى الْحَرَمِ أَرْسَلَهُ وَلَا يَحِلُّ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ، إِذْ لَا وَجْهَ لِنَحْرِ الْهَدْيِ فِي الْحِلِّ مَعَ تَيَسُّرِ الْحَرَمِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ إِرْسَالَهُ إِلَى الْحَرَمِ نَحَرَهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أُحْصِرَ فِيهِ مِنَ الْحِلِّ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي (صَحِيحِهِ) فِي (بَابِ مَنْ قَالَ لَيْسَ عَلَى الْمُحْصَرِ بَدَلٌ) مَا نَصُّهُ: وَقَالَ رَوْحٌ، عَنْ شِبْلٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: (إِنَّمَا الْبَدَلُ عَلَى مَنْ نَقَضَ حَجَّهُ بِالتَّلَذُّذِ، فَأَمَّا مَنْ حَبَسَهُ عُذْرٌ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَحِلُّ، وَلَا يَرْجِعُ).

وَإِنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ وَهُوَ مُحْصَرٌ نَحَرَهُ إِنْ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ، وَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ لَمْ يَحِلَّ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ، اهـ. مَحِلُّ الْغَرَضِ مِنْهُ بِلَفْظِهِ وَلَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ عَنْهُ ؛ لِظُهُورِ وَجْهِهِ كَمَا تَرَى.

الْفَرْعُ الثَّانِي: إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَ الْمُحْصَرِ هَدْيٌ، فَهَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَ الْهَدْيَ وَلَا يَحِلَّ حَتَّى يَهْدِيَ، أَوْ لَهُ أَنْ يَحِلَّ بِدُونِ هَدْيٍ؟ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْهَدْيَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}، فَلَا يَجُوزُ لَهُ التَّحَلُّلُ بِدُونِهِ إِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وَوَافَقَ الْجُمْهُورَ أَشْهَبُ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ، وَخَالَفَ مَالِكٌ، وَابْنُ الْقَاسِمِ الْجُمْهُورَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَقَالَا: لَا هَدْيَ عَلَى الْمُحْصَرِ إِنْ لَمْ يَكُنْ سَاقَهُ مَعَهُ قَبْلَ الْإِحْصَارِ.

وَحُجَّةُ الْجُمْهُورِ وَاضِحَةٌ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}، فَتَعْلِيقُهُ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ عَلَى الْإِحْصَارِ تَعْلِيقُ الْجَزَاءِ عَلَى شَرْطِهِ، يَدُلُّ عَلَى لُزُومِ الْهَدْيِ بِالْإِحْصَارِ لِمَنْ أَرَادَ التَّحَلُّلَ بِهِ، دَلَالَةً وَاضِحَةً كَمَا تَرَى، فَإِنْ عَجَزَ الْمُحْصَرُ عَنِ الْهَدْيِ فَهَلْ يَلْزَمُهُ بَدَلٌ عَنْهُ أَوْ لَا؟

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَا بَدَلَ إِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمِمَّنْ قَالَ لَا بَدَلَ لِهَدْيِ الْمُحْصَرِ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّ الْمُحْصَرَ عِنْدَهُ إِذَا لَمْ يَجِدْ هَدْيًا يَبْقَى مُحْرِمًا حَتَّى يَجِدَ هَدْيًا، أَوْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ.

وَقَالَ بَعْضُ مَنْ قَالَ بِأَنَّهُ لَا بَدَلَ لَهُ: إِنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا حَلَّ بِدُونِهِ، وَإِنْ تَيَسَّرَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَدْيٌ أَهْدَاهُ.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ: إِنْ لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ فَلَهُ بَدَلٌ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ هَذَا الْقَوْلِ فِي بَدَلِ الْهَدْيِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَوْمُ عَشَرَةِ أَيَّامٍ قِيَاسًا عَلَى مَنْ عَجَزَ عَمَّا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فِي التَّمَتُّعِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَاتِ عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَأَصَحُّ الرِّوَايَاتِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ فِي بَدَلِ هَدْيِ الْمُحْصَرِ أَنَّهُ بِالْإِطْعَامِ، نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ فِي (كِتَابِ الْأَوْسَطِ) فَتُقَوَّمُ الشَّاةُ وَيَتَصَدَّقُ بِقِيمَتِهَا طَعَامًا، فَإِنْ عَجَزَ صَامَ عَنْ كُلِّ مُدٍّ يَوْمًا، وَقِيلَ إِطْعَامٌ كَإِطْعَامِ فِدْيَةِ الْأَذَى وَهُوَ ثَلَاثَةُ آصُعٍ لِسِتَّةِ مَسَاكِينَ، وَقِيلَ: بَدَلُهُ صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَقِيلَ: بَدَلُهُ صَوْمٌ بِالتَّعْدِيلِ، تُقَوَّمُ الشَّاةُ وَيُعْرَفُ قَدْرُ مَا تُسَاوِي قِيمَتُهَا مِنَ الْأَمْدَادِ، فَيَصُومُ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا، وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ، وَأَقْرَبُهَا قِيَاسُهُ عَلَى التَّمَتُّعِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْفَرْعُ الثَّالِثُ: هَلْ يَلْزَمُ الْمُحْصَرَ إِذَا أَرَادَ التَّحَلُّلَ حَلْقٌ أَوْ تَقْصِيرٌ، أَوْ لَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؟

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا، فَذَهَبَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمُحَمَّدٌ إِلَى أَنَّهُ لَا حَلْقَ عَلَيْهِ وَلَا تَقْصِيرَ، وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ ظَاهِرُ كَلَامِ الْخِرَقِيِّ، وَاحْتَجَّ أَهْلُ هَذَا الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَلْقَ وَلَوْ كَانَ لَازِمًا لَبَيَّنَهُ، وَاحْتَجَّ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ لِعَدَمِ لُزُومِ الْحَلْقِ؛ بِأَنَّ الْحَلْقَ لَمْ يُعْرَفْ كَوْنُهُ نُسُكًا إِلَّا بَعْدَ أَدَاءِ الْأَفْعَالِ، وَقَبْلَهُ جِنَايَةٌ، فَلَا يُؤْمَرُ بِهِ، وَلِهَذَا الْعَبْدُ وَالْمَرْأَةُ إِذَا مَنَعَهُمَا السَّيِّدُ وَالزَّوْجُ لَا يُؤْمَرَانِ بِالْحَلْقِ إِجْمَاعًا.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ فِي حَلْقِ الْمُحْصَرِ رِوَايَتَانِ مَبْنِيَّتَانِ عَلَى الْخِلَافِ فِي الْحَلْقِ، هَلْ هُوَ نُسُكٌ أَوْ إِطْلَاقٌ مِنْ مَحْظُورٍ؟ وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ: إِلَى أَنَّ الْمُحْصَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْلِقَ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الَّذِي يَظْهَرُ لَنَا رُجْحَانُهُ بِالدَّلِيلِ: هُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ مِنْ لُزُومِ الْحَلْقِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ}.

وَلِمَا ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ حَلَقَ لَمَّا صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْلِقُوا، وَقَالَ: ((اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُحَلِّقِينَ)) قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُحَلِّقِينَ)) قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((وَالْمُقَصِّرِينَ[١])).

فَهَذِهِ أَدِلَّةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى عَدَمِ سُقُوطِ الْحَلْقِ عَنِ الْمُحْصَرِ. وَقِيَاسُ مَنْ قَالَ بِعَدَمِ اللُّزُومِ الْحَلْقَ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَفْعَالِ النُّسُكِ الَّتِي صُدَّ عَنْهَا ظَاهِرُ السُّقُوطِ ؛ لِأَنَّ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مَثَلًا، كُلُّ ذَلِكَ مُنِعَ مِنْهُ الْمُحْصَرُ وَصُدَّ عَنْهُ، فَسَقَطَ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَمُنِعَ مِنْهُ.

وَأَمَّا الْحِلَاقُ فَلَمْ يُحَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْعَلَهُ ؛ فَلَا وَجْهَ لِسُقُوطِهِ، وَلَاشَكَّ أَنَّ الَّذِي تَدُلُّ نُصُوصُ الشَّرْعِ عَلَى رُجْحَانِهِ، أَنَّ الْحِلَاقَ نُسُكٌ عَلَى مَنْ أَتَمَّ نُسُكَهُ، وَعَلَى مَنْ فَاتَهُ الْحَجُّ، وَعَلَى الْمُحْصَرِ بِعَدُوٍّ، وَعَلَى الْمُحْصَرِ بِمَرَضٍ.

وَعَلَى الْقَوْلِ الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ الْحِلَاقَ نُسُكٌ، فَالْمُحْصَرُ يَتَحَلَّلُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: وَهِيَ النِّيَّةُ، وَذَبْحُ الْهَدْيِ، وَالْحِلَاقُ. وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْحَلْقَ لَيْسَ بِنُسُكٍ يَتَحَلَّلُ بِالنِّيَّةِ وَالذَّبْحِ.

الْفَرْعُ الرَّابِعُ: قَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَحَرَ قَبْلَ أَنْ يَحْلِقَ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَفِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَدَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ النَّحْرَ قَبْلَ الْحَلْقِ فِي مَوْضِعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ}.

١- (قلت): صححه الأمام الألباني في إرواء الغليل (١٠٨٤)، وقال: وزاد بعض الرواة عنه: فلما كانت الرابعة قال: ((والمقصرين)).أخرجه البخاري (١/٤٣٣)، ومسلم (٤/٨٠ . ٨١)، وأبو نعيم فى المستخرج (٢٠/١٦٧/١)، ومالك (١/٣٩٥/١٨٤)، والشافعي (١٠٨٩)، وأبو داود (١٩٧٩)، والنسائى فى الكبرى (١/٩٠)، والترمذى (١/١٧٢)، والدارمي (٢/٦٤)، وابن ماجه (٣٠٤٤)، والطحاوي فى مشكل الآثار (٢/١٤٣)، وابن الجارود (٤٨٥)، والبيهقي (٥/١٣٤)، والطيالسي (١٨٣٥)، وأحمد (٢/١٦ ، ٢٤ ، ٧٩ ، ١١٩ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥١)، من طرق عن نافع به. والزيادة للنسائي والدارمي ورواية لمسلم.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى فِي [سُورَةِ الْحَجِّ]: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ][الْآيَةَ: ٢٨].

فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ} الْآيَةَ [٢٢ \ ٣٤] ذِكْرُ اسْمِهِ تَعَالَى عِنْدَ نَحْرِ الْبُدْنِ إِجْمَاعًا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى بَعْدَهُ عَاطِفًا بِثُمَّ الَّتِي هِيَ لِلتَّرْتِيبِ {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}[٢٢ \ ٢٩]. وَقَضَاءُ التَّفَثِ يَدْخُلُ فِيهِ بِلَا نِزَاعٍ إِزَالَةُ الشَّعْرِ بِالْحَلْقِ، فَهُوَ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ النَّحْرِ عَلَى الْحَلْقِ، وَمِنْ إِطْلَاقِ التَّفَثِ عَلَى الشَّعْرِ وَنَحْوِهِ، قَوْلُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ: [الْبَسِيطِ]

حَفُّوا رُؤُوسَهُمْ لَمْ يَحْلِقُوا تَفَثًا ... وَلَمْ يَسُلُّوا لَهُمْ قَمْلًا وَصِئْبَانًا

وَرَوَى بَعْضُهُمْ بَيْتَ أُمَيَّةَ الْمَذْكُورِ هَكَذَا: [الْبَسِيطِ]

سَاخِينَ آبَاطِهِمِ لَمْ يَقْذِفُوا تَفَثًا ... وَيَنْزِعُوا عَنْهُمْ قَمْلًا وَصِئْبَانًا

وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ: [الْوَافِرِ]

قَضَوْا تَفَثًا وَنَحْبًا ثُمَّ سَارُوا ... إِلَى نَجْدٍ وَمَا انْتَظَرُوا عَلِيًّا

فَهَذِهِ النُّصُوصُ تَدُلُّ دَلَالَةً لَا لَبْسَ فِيهَا عَلَى أَنَّ الْحَلْقَ بَعْدَ النَّحْرِ، وَلَكِنْ إِذَا عَكَسَ الْحَاجُّ أَوِ الْمُعْتَمِرُ، فَحَلَقَ قَبْلَ أَنْ يَنْحَرَ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَنَّ ذَلِكَ لَا حَرَجَ فِيهِ، وَالتَّعْبِيرُ بِنَفْيِ الْحَرَجِ يَدُلُّ بِعُمُومِهِ عَلَى سُقُوطِ الْإِثْمِ وَالدَّمِ مَعًا، وَقِيلَ فِيمَنْ حَلَقَ قَبْلَ أَنْ يَنْحَرَ مُحْصَرًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ: إِنَّهُ عَلَيْهِ دَمٌ، فَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: عَلَيْهِ دَمٌ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ. ذَكَرَهُ فِي الْمُحْصَرِ. قَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي (نَيْلِ الْأَوْطَارِ): وَالظَّاهِرُ عَدَمُ وُجُوبِ الدَّمِ؛ لِعَدَمِ الدَّلِيلِ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الظَّاهِرُ: أَنَّ الدَّلِيلَ عِنْدَ مَنْ قَالَ بِذَلِكَ هُوَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ بِأَنَّهُ ﷺ، لَمَّا صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ نَحَرَ قَبْلَ الْحَلْقِ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ، عَنِ الْمِسْوَرِ وَمَرْوَانَ فِي حَدِيثِ عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ وَالصُّلْحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: ((قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا(١))). وَلِلْبُخَارِيِّ عَنِ الْمِسْوَرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَحَرَ قَبْلَ أَنْ يَحْلِقَ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ(٢)، اهـ. فَدَلَّ فِعْلُهُ وَأَمْرُهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ اللَّازِمُ لِلْمُحْصَرِ، وَمَنْ قَدَّمَ الْحَلْقَ عَلَى النَّحْرِ فَقَدْ عَكَسَ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَمَنْ أَخَلَّ بِنُسُكٍ فَعَلَيْهِ دَمٌ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٠)، وقال: أخرجه البخاري (٢/١٧٧ - ١٨٣)، وأحمد (٤/٣٢٨). وصححه أيضاً في صحيح وضعيف أبي داود (٢٧٦٥).

٢- (قلت): صححه الأمام الألباني في إرواء الغليل (١١٣٥).

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ نُصُوصُ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ النَّحْرَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْحَلْقِ، وَلَكِنْ مَنْ حَلَقَ قَبْلَ أَنْ يَنْحَرَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ مِنْ إِثْمٍ وَلَا دَمٍ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَجَابَ مَنْ سَأَلَهُ، بِأَنَّهُ ظَنَّ الْحَلْقَ قَبْلَ النَّحْرِ فَنَحَرَ قَبْلَ أَنْ يَحْلِقَ، بِأَنْ قَالَ لَهُ: ((افْعَلْ وَلَا حَرَجَ([1]))).

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ فِي الذَّبْحِ، وَالْحَلْقِ، وَالرَّمْيِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فَقَالَ: ((لَا حَرَجَ([2]))).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ، وَأَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ مَاجَهْ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ، قَالَ: ((اذْبَحْ وَلَا حَرَجَ))، وَقَالَ: رَمَيْتُ بَعْدَ مَا أَمْسَيْتُ، فَقَالَ: ((افْعَلْ وَلَا حَرَجَ([3]))).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ، قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: زُرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ، قَالَ: ((لَا حَرَجَ))، قَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ، قَالَ: ((لَا حَرَجَ([4])))، وَالْأَحَادِيثُ بِمِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ. وَهِيَ تَدُلُّ دَلَالَةً لَا لَبْسَ فِيهَا عَلَى أَنَّ مَنْ حَلَقَ قَبْلَ أَنْ يَنْحَرَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ إِثْمٍ وَلَا فِدْيَةَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ((لَا حَرَجَ)) نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ رُكِّبَتْ مَعَ لَا فَبُنِيَتْ عَلَى الْفَتْحِ، وَالنَّكِرَةُ إِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ فَهِيَ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي الْعُمُومِ، فَالْأَحَادِيثُ إِذَنْ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي عُمُومِ النَّفْيِ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْحَرَجِ مِنْ إِثْمٍ وَفِدْيَةٍ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَلَا يَتَّضِحُ حَمْلُ الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مَنْ قَدَّمَ الْحَلْقَ جَاهِلًا أَوْ نَاسِيًا، وَإِنْ كَانَ سِيَاقُ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّائِلَ جَاهِلٌ؛ لِأَنَّ بَعْضَ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الصَّحِيحِ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ النِّسْيَانِ وَلَا الْجَهْلِ، فَيَجِبُ اسْتِصْحَابُ عُمُومِهَا حَتَّى يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى التَّخْصِيصِ بِالنِّسْيَانِ وَالْجَهْلِ. وَقَدْ تَقَرَّرَ أَيْضًا فِي عِلْمِ الْأُصُولِ أَنَّ جَوَابَ الْمَسْئُولِ لِمَنْ سَأَلَهُ لَا يُعْتَبَرُ فِيهِ مَفْهُومُ الْمُخَالَفَةِ؛ لِأَنَّ تَخْصِيصَ الْمَنْطُوقِ بِالذِّكْرِ لِمُطَابَقَةِ الْجَوَابِ لِلسُّؤَالِ، فَلَمْ يَتَعَيَّنْ كَوْنُهُ لِإِخْرَاجِ الْمَفْهُومِ عَنْ حُكْمِ الْمَنْطُوقِ، وَقَدْ أَشَارَ لَهُ فِي (مَرَاقِي السُّعُودِ) فِي مَبْحَثِ مَوَانِعِ اعْتِبَارِ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ بِقَوْلِهِ عَاطِفًا عَلَى مَا يَمْنَعُ اعْتِبَارَهُ: [الرَّجَز]

أَوْ جَهْلُ الْحُكْمِ أَوِ النُّطْقِ انْجَلَبْ ... لِلسُّؤْلِ أَوْ جَرَى عَلَى الَّذِي غَلَبْ

كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ} الْآيَةَ [٢ \ ٢٢٩]، وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ وَصْفَ عَدَمِ الشُّعُورِ الْوَارِدِ فِي السُّؤَالِ لَا مَفْهُومَ لَهُ.

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي نَيْلِ الْأَوْطَارِ: وَتَعْلِيقُ سُؤَالِ بَعْضِهِمْ بِعَدَمِ الشُّعُورِ لَا يَسْتَلْزِمُ سُؤَالَ غَيْرِهِ بِهِ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّهُ يَخْتَصُّ الْحُكْمَ بِحَالَةِ عَدَمِ الشُّعُورِ، وَلَا يَجُوزُ اطِّرَاحُهَا بِإِلْحَاقِ الْعَمْدِ بِهَا.

---

١ – (قلت): البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦).

٢ – (قلت): البخاري (١٧٣٤)، ومسلم (١٣٠٧).

٣ – (قلت): البخاري (١٧٣٥)، صححه الأمام الألباني في صحيح أبي داود (١٧٥٨).

٤ – (قلت): البخاري (١٧٢٢).

وَلِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ التَّعْوِيلَ فِي التَّخْصِيصِ عَلَى وَصْفِ عَدَمِ الشُّعُورِ الْمَذْكُورِ فِي سُؤَالِ بَعْضِ السَّائِلِينَ غَيْرُ مُفِيدٍ لِلْمَطْلُوبِ، انْتَهَى مَحَلُّ الْغَرَضِ مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

قال ابن العثيمين: {ولا تحلقوا رؤوسكم}: أي لا تزيلوها بالموسى {حتى يبلغ الهدي محلَّه}: {محل} يحتمل أن تكون اسم زمان؛ والمعنى: حتى يصل إلى يوم حلوله – وهو يوم العيد –؛ وثبتت السنة بأن من قدم الحلق على النحر فلا حرج عليه(١)؛ ويحتمل أن المعنى: حتى يذبح الهدي؛ وتكون الآية فيمن ساق الهدي؛ ويؤيد هذا أن النبي ﷺ سئل ما بال الناس حلوا ولم تحل؟ فقال ﷺ: ((إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر(٢))).

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ}: قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَصْبَهَانِيِّ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَعْقل، قَالَ: قَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ – فَسَأَلْتُهُ عَنْ {فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ} فَقَالَ: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ والقملُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي. فَقَالَ: ((مَا كنتُ أرى أَنَّ الجَهد بَلَغَ بِكَ هَذَا! أَمَا تَجِدُ شَاةً؟)) قُلْتُ: لَا. قَالَ: ((صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ(٣))). فَنَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً، وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةً.

قال السعدي: فإذا حصل الضَّرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين أو نسك ما يجزئ في أضحية، فهو مخير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك، من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو الطيب، فإنه يجوز عند الضرورة مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

قال ابن العثيمين: {أو} هنا للتخيير؛ وقد بين النبي ﷺ أن ال{صيام} ثلاثة أيام، وأن ال{صدقة} إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع؛ وأمَّا ال{نسك} فهو ذبح شاة؛ وهذه الجملة قد حذف منها ما يدلُّ عليه السياق؛ والتقدير: فمن كان منكم مريضًا، أو به أذى من رأسه، فحلق رأسه فعليه فدية.

١- راجع البخاري ص١٠، كتاب العلم، باب ٢٣: الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها، حديث رقم ٨٣؛ ومسلما ص٨٩٥، كتاب الحج، باب ٥٧: جواز تقديم الذبح على الرمي ... ، حديث رقم ٣١٥٦ [٣٢٧] ١٣٠٦.

٢- أخرجه البخاري ص١٢٣ – ١٢٤، كتاب الحج، باب ٣٤: التمتع والقران، والإفراد ... ، حديث رقم ١٥٦٦، وأخرجه مسلم ص٨٨٣، كتاب الحج، باب ٢٥: بيان أن القارن لا يتحلل إلا في وقت تحلل الحاج المفرد، حديث رقم ٢٩٨٤ [١٧٦] ١٢٢٩.

٣- صحيح: البخاري برقم (٤٥١٧)، ومسلم (١٢٠١).

قال شيخ الإسلام في شرح العمدة – الحج (٣\٣١٨): وَأَمَّا ذِكْرُهُ بِلَفْظِ {أَوْ} فَذَلِكَ لَا يُوجِبُ التَّخْيِيرَ عَلَى الْعُمُومِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}[المائدة: ٣٣]، وَإِنَّمَا يُوجِبُ التَّخْيِيرَ إِذَا ابْتُدِئَ بِأَسْهَلِ الْخِصَالِ كَقَوْلِهِ: {فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ}[البقرة: ١٩٦]، وَقَوْلِهِ: {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}[المائدة: ٨٩]، فَلَمَّا بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ: عُلِمَ أَنَّهُ يَجُوزُ إِخْرَاجُهُ.

قال ابن العثيمين: {فإذا أمنتم}: أي من العدو ـ يعني فأتموا الحج والعمرة ـ. ثم فصَّل الله عز وجل المناسك فقال: {فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي}: أي فمن أتى بالعمرة متمتِّعًا بحله منها بما أحل الله له من محظورات الإحرام {إلى الحج}: أي إلى ابتداء زمن الحج؛ وهو اليوم الثامن من ذي الحجة {فما استيسر من الهدي}: أي فعليه ما استيسر من الهدي شكرا لله على نعمة التحلل؛ ويقال في هذه الجملة ما قيل في الجملة التي سبقت في الإحصار.

قال السعدي: أي: فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، ومثلها القران لحصول النسكين له. ويدلُّ مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٦ص٨٥: فَالتَّحْقِيقُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إذَا أَفْرَدَ الْحَجَّ بِسَفْرَةِ، وَالْعُمْرَةَ بِسَفْرَةِ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ الْقِرَانِ، وَالتَّمَتُّعِ الْخَاصِّ بِسَفْرَةِ وَاحِدَةٍ وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَد وَأَبُو حَنِيفَةَ، مَعَ مَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَغَيْرِهِمْ. وَهَذَا هُوَ الْإِفْرَادُ الَّذِي فَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ. وَكَانَ عُمَرُ يَخْتَارُهُ لِلنَّاسِ وَكَذَلِكَ عَلِيٌّ – رضي الله عنهم – وَقَالَ عُمَرُ وَعَلِيٌّ فِي قَوْلِهِ: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} قَالَا: إتْمَامُهُمَا أَنْ تُهِلَّ بِهِمَا مِنْ دويرة أَهْلِك. وَقَدْ قال النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ فِي عُمْرَتِهَا: ((أَجْرُك عَلَى قَدْرِ نَصَبِك[١])). وَإِذَا رَجَعَ الْحَاجُّ إلَى دويرة أَهْلِهِ، فَأَنْشَأَ مِنْهَا الْعُمْرَةَ، أَوْ اعْتَمَرَ قَبْلَ أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَأَقَامَ حَتَّى يَحُجَّ، أَوْ اعْتَمَرَ فِي أَشْهُرِهِ، وَرَجَعَ إلَى أَهْلِهِ ثُمَّ حَجَّ، فَهُنَا قَدْ أَتَى بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ النسكين مِنْ دويرة أَهْلِهِ. وَهَذَا أَتَى بِهِمَا عَلَى الْكَمَالِ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ.

وَأَمَّا إذَا أَفْرَدَ الْحَجَّ وَاعْتَمَرَ عَقِبَ ذَلِكَ مِنْ أَدْنَى الْحِلِّ، فَهَذَا الْإِفْرَادُ لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَجُّوا مَعَهُ، بَلْ وَلَا غَيْرِهِمْ. كَيْفَ يَكُونُ هُوَ الْأَفْضَلُ مِمَّا فَعَلُوهُ مَعَهُ بِأَمْرِهِ؟ بَلْ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّ أَحَدًا اعْتَمَرَ مِنْ مَكَّةَ عَلَى عَهْدِ

١- البخاري في العمرة (١٧٨٧)، ومسلم في الحج (١٢١١/١٢٦).

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَائِشَةَ، لَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَلَا قَبْلَهَا، وَلَا بَعْدَهَا، بَلْ هَذِهِ الْعُمْرَةُ لَا تُجْزِئُ عَنْ عُمْرَةِ الْإِسْلَامِ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد. وَعِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهَا مُتْعَةٌ.

وَتُكْرَهُ الْعُمْرَةُ فِي ذِي الْحِجَّةِ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، مَعَ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ إِذَا حَجَّتْ صَبَرَتْ حَتَّى يَدْخُلَ الْمُحَرَّمُ، ثُمَّ تُحْرِمُ مِنَ الْجُحْفَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْتَمِرُ مِنْ أَدْنَى الْحِلِّ، وَلَا فِي ذِي الْحِجَّةِ.

وَأَمَّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ النسكين بِسَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدِمَ مَكَّةَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَلَمْ يَسُقْ الْهَدْيَ. فَالتَّمَتُّعُ أَفْضَلُ لَهُ، مِنْ أَنْ يَحُجَّ وَيَعْتَمِرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْحِلِّ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ حَجُّوا مَعَهُ وَلَمْ يَسُوقُوا الْهَدْيَ، أَمَرَهُمْ جَمِيعَهُمْ أَنْ يَحُجُّوا هَكَذَا: أَمَرَهُمْ إذَا طَافُوا بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَنْ يُحِلُّوا مِنْ إحْرَامِهِمْ، وَيَجْعَلُوهَا مُتْعَةً، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ أَمَرَهُمْ أَنْ يُحْرِمُوا بِالْحَجِّ، وَهَذَا مُتَوَاتِرٌ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَحَجُّوا مَعَهُ كَذَلِكَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ بَعْدَهُ، وَلَا حَجَّةَ تَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ حَجَّةِ أَفْضَلِ الْأُمَّةِ، مَعَ أَفْضَلِ الْخَلْقِ بِأَمْرِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَجُّ مَنْ حَجَّ مُفْرِدًا، وَاعْتَمَرَ عَقِبَ ذَلِكَ، أَوْ قَارِنًا وَلَمْ يَسُقْ الْهَدْيَ أَفْضَلَ مِنْ حَجِّ هَؤُلَاءِ مَعَهُ بِأَمْرِهِ، وَكَيْفَ يَنْقُلُهُمْ عَنْ الْأَفْضَلِ إلَى الْمَفْضُولِ وَأَمْرُهُ أَبْلَغُ مِنْ فِعْلِهِ؟!

وَأَيْضًا، فَإِنَّ مَنْ يُحْرِمُ بِالْعُمْرَةِ قَدْ نَوَى الْحَجَّ، فَإِنَّهُ يَنْوِي التَّمَتُّعَ بِالْعُمْرَةِ إلَى الْحَجِّ، كَمَا يَنْوِي الْمُغْتَسِلُ إذَا بَدَأَ بِالتَّوَضُّؤِ أَنَّهُ يَتَوَضَّأُ الْوُضُوءَ الَّذِي هُوَ بَعْضُ الْغُسْلِ، فَيَكُونُ تَحْرِيمَانِ وَتَحْلِيلَانِ، كَمَا لِلْمُفْرِدِ تَحْلِيلَانِ وَتَحْرِيمَانِ، فَيَكُونُ لَهُ هَدْيٌ، كَمَا لِلْقَارِنِ هَدْيٌ، وَالْهَدْيُ هَدْيُ نُسُكٍ، لَا هَدْيُ جبران، فَإِنَّ هَدْيَ الْجُبْرَانِ – الَّذِي يَكُونُ لِتَرْكِ وَاجِبٍ، أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ – لَا يَحِلُّ سَبَبُهُ إلَّا مَعَ الْعُذْرِ. فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا مِنْ وَاجِبَاتِ الْحَجِّ بِلَا عُذْرٍ، أَوْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ مَحْظُورَاتِهِ بِلَا عُذْرٍ، وَيَأْتِي بِدَمٍ. وَهَذَا لَهُ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِلَا عُذْرٍ، وَيَأْتِي بِالْهَدْيِ، فَعُلِمَ أَنَّهُ دَمُ نُسُكٍ. وَقَدْ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ أَنَّهُ يَأْكُلُ، كَمَا أَكَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ هَدْيِهِ، وَقَدْ كَانَ قَارِنًا، وَكَمَا ذَبَحَ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقَرَةَ، وَأَطْعَمَهُنَّ مِنْ ذَلِكَ، وَكُنَّ مُتَمَتِّعَاتٍ.

وَأَيْضًا، فَلِمَنْ يَأْتِي بِالْعِبَادَتَيْنِ: إذَا كَانَتَا مِنْ جِنْسٍ يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، أَنْ يَبْدَأَ بِالصُّغْرَى عَلَى الْكُبْرَى، كَمَا يَتَوَضَّأُ الْمُغْتَسِلُ، ثُمَّ يُتِمُّ غُسْلَهُ، وَكَمَا أَمَرَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي غُسْلِ الْمَيِّتِ، فَإِذَا اعْتَمَرَ ثُمَّ أَتَى بِالْحَجِّ كَانَ مُوَافِقًا لِهَذَا، بِخِلَافِ مَنْ حَجَّ فَإِنَّهُ أَتَى بِالْغَايَةِ. فَإِذَا اعْتَمَرَ عَقِبَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي عُمْرَتِهِ عَمَلٌ زَائِدٌ.

وَإِذَا أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَيْهَا الْحَجَّ جَازَ ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ؛ لِأَنَّهُ الْتَزَمَ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا إذَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَيْهِ الْعُمْرَةَ لَمْ يَجُزْ عَلَى الصَّحِيحِ لِأَنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ زِيَادَةَ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا جَوَّزَهُ أَبُو حَنِيفَةَ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِ، فِي أَنَّ عَمَلَ الْقَارِنِ فِيهِ زِيَادَةٌ عَلَى عَمَلِ الْمُفْرِدِ.

وَمَنْ سَافَرَ سَفْرَةً وَاحِدَةً وَاعْتَمَرَ فِيهَا، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ أُخْرَى لِلْحَجِّ، فَتَمَتُّعُهُ أَيْضًا أَفْضَلُ لَهُ مِنَ الْحَجِّ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ حَجُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا قَدْ اعْتَمَرُوا قَبْلَ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا فَأَمَرَهُمْ بِالتَّمَتُّعِ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِالْإِفْرَادِ، وَلِأَنَّ هَذَا يَجْمَعُ بَيْنَ عُمْرَتَيْنِ وَحَجَّةٍ وَهَدْيٍ، وَهَذَا أَفْضَلُ مِنْ عُمْرَةٍ وَحَجَّةٍ.

وَكَذَلِكَ لَوْ تَمَتَّعَ ثُمَّ سَافَرَ مِنْ دويرة أَهْلِهِ لِلْمُتْعَةِ، فَهَذَا أَفْضَلُ مِنْ سَفْرَةٍ بِعُمْرَةٍ، وَسَفْرَةٍ بِحَجَّةٍ مُفْرَدَةٍ، وَهَذَا الْمُفْرِدُ أَفْضَلُ مِنْ سَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ يَتَمَتَّعُ فِيهَا.

وَأَمَّا إذَا أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ النسكين بِسَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَسُوقَ الْهَدْيَ، فَالْقِرَانُ أَفْضَلُ، اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَرَنَ، وَسَاقَ الْهَدْيَ.

وَمَنْ قَالَ: إنَّهُ مَعَ سَوْقِ الْهَدْيِ يَكُونُ التَّمَتُّعُ أَفْضَلَ لَهُ. قِيلَ لَهُ: مَعَ أَنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ إذَا أَحْرَمَ قَبْلَ الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ إحْرَامُهُ، وَوَقَعَ الطَّوَافُ وَالسَّعْيُ عَنْ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَإِذَا أَحْرَمَ بَعْدَهُمَا لَمْ يَكُنْ الطَّوَافُ وَالسَّعْيُ وَاقِعًا إلَّا عَنْ الْعُمْرَةِ. وَوُقُوعُ الْأَفْعَالِ عَنْ حَجٍّ مَعَ عُمْرَةٍ خَيْرٌ مِنْ وُقُوعِهَا عَنْ عُمْرَةٍ لَا يَتَحَلَّلُ فِيهَا إلَى أَنْ يَحُجَّ، لَكِنَّهُ قَدْ يَقُولُ: إذَا تَأَخَّرَ إحْرَامُهُ بِالْحَجِّ لَزِمَهُ سَعْيٌ ثَانٍ، وَهَذَا زِيَادَةُ عَمَلٍ، لَكِنْ هَذَا فِيهِ نِزَاعٌ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَحْتَجَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((لَوْ اسْتَقْبَلْت مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْت لَمَا سُقْت الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتهَا عُمْرَةً[١])). لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَقُلْ لَتَمَتَّعْت مَعَ سَوْقِ الْهَدْيِ، بَلْ قَالَ: ((لَمَا سُقْت الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتهَا عُمْرَةً)). فَجَعَلَ الْمَطْلُوبَ مُتْعَةً بِلَا سَوْقِ هَدْيٍ، وَهَذَا دَلِيلٌ ثَانٍ عَلَى أَنَّ مَنْ سَاقَ الْهَدْيَ لَا يَتَمَتَّعُ، بَلْ يَقْرِنُ. وَإِذَا كَانَ الْقِرَانُ وَالتَّمَتُّعُ مَعَ سَوْقِ الْهَدْيِ سَوَاءً، ارْتَفَعَ النِّزَاعُ.

فَإِنْ قِيلَ: أَيُّمَا أَفْضَلُ أَنْ يَسُوقَ الْهَدْيَ وَيَقْرِنَ، أَوْ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِلَا سَوْقِ هَدْيٍ، وَيَحِلَّ مِنْ إحْرَامِهِ؟.

قِيلَ: هَذَا مَوْضِعُ الِاجْتِهَادِ، فَإِنَّهُ قَدْ تَعَارَضَ دَلِيلَانِ شَرْعِيَّانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ قَرَنَ وَسَاقَ الْهَدْيَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَخْتَارَ لِنَبِيِّهِ الْمَفْضُولَ دُونَ الْأَفْضَلِ، فَإِنَّ خَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَالثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ هَذَا، يَقْتَضِي أَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْحَالُ هُوَ وَقْتَ إحْرَامِهِ، لَكَانَ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ، وَلَمْ يَسُقْ الْهَدْيَ بِقَوْلِهِ: ((لَوْ اسْتَقْبَلْت مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْت))، فَالَّذِي اسْتَدْبَرَهُ هُوَ الَّذِي فَعَلَهُ وَمَضَى فَصَارَ خَلْفَهُ، وَالَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَفْعَلْهُ بَعْدُ، بَلْ هُوَ أَمَامَهُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْتَقْبِلًا لِمَا اسْتَدْبَرَهُ مِنْ أَمْرِهِ – وَهُوَ الْإِحْرَامُ – لَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ دُونَ هَدْيٍ، وَهُوَ لَا يَخْتَارُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ الْأَفْضَلِ إلَى الْمَفْضُولِ، بَلْ إنَّمَا يَخْتَارُ الْأَفْضَلَ. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَبَيَّنَ لَهُ حِينَئِذٍ أَنَّ التَّمَتُّعَ بِلَا هَدْيٍ أَفْضَلُ لَهُ.

وَلَكِنْ مَنْ نَصَرَ الْأَوَّلَ يُجِيبُ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ هَذَا لِأَجْلِ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ مَفْضُولٌ، بَلْ لِأَنَّ أَصْحَابَهُ شَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحِلُّوا مِنْ إحْرَامِهِمْ مَعَ بَقَائِهِ مُحْرِمًا، فَكَانَ يَخْتَارُ مُوَافَقَتَهُمْ لِيَفْعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ عَنْ انْشِرَاحٍ وَمُوَافَقَةٍ، وَقَدْ يَنْتَقِلُ عَنْ الْأَفْضَلِ إلَى

١- أحمد ٣/١٤٨، ٢٦٦، وأبو يعلى (٤٣٤٥)، كلاهما عن أنس بن مالك، وقال الهيثمي في المجمع ٣/٢٣٨: (فيه أبو أسماء الصيقل، ولم أجد من روى عنه غير أبي إسحاق).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في ألف فتوى للشيخ الألباني – مجموع الفتاوى.

الْمَفْضُولِ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمُوَافَقَةِ، وَائْتِلَافِ الْقُلُوبِ، كَمَا قال لِعَائِشَةَ: ((لَوْلَا أَنَّ قَوْمَك حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَنَقَضْت الْكَعْبَةَ، وَلَجَعَلْت لَهَا بَابَيْنِ([1]))، فَهُنَا تَرْكُ مَا هُوَ الْأَوْلَى؛ لِأَجْلِ الْمُوَافَقَةِ وَالتَّأْلِيفِ الَّذِي هُوَ الْأَدْنَى مِنْ هَذَا الْأَوْلَى، فَكَذَلِكَ اخْتَارَ الْمُتْعَةَ بِلَا هَدْيٍ.

وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فَيَكُونُ اللَّهُ قَدْ جَمَعَ لَهُ بَيْنَ أَنْ فَعَلَ الْأَفْضَلَ وَبَيْنَ أَنْ أَعْطَاهُ بِمَا يَرَاهُ مِنْ الْمُوَافَقَةِ لَهُمْ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ فَاجْتَمَعَ لَهُ الْأَجْرَانِ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِحَالِهِ ﷺ.

يُبَيِّنُ ذَلِكَ: أَنَّ سَوْقَ الْهَدْيِ أَفْضَلُ مِنْ تَرْكِ سَوْقِهِ، وَقَدْ سَاقَ مِائَةَ بَدَنَةٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ تَرْكُ ذَلِكَ أَفْضَلَ فِي نَفْسِهِ بِمُجَرَّدِ التَّحَلُّلِ وَالْإِحْرَامِ ثَانِيًا، وَسَوْقُ الْهَدْيِ فِيهِ مِنْ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ مَا لَيْسَ فِي تَكَرُّرِ التَّحَلُّلِ وَالتَّحْرِيمِ.

يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَمَتِّعَ إذَا سَاقَ الْهَدْيَ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنْ جَمِيعِ مَنْ لَمْ يَسُقْ، وَالْقَارِنُ الَّذِي سَاقَ الْهَدْيَ أَفْضَلُ مِنْهُمَا.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ الْقَارِنَ وَالْمُتَمَتِّعَ عَلَيْهِ هَدْيٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْهَدْيَ الَّذِي يَسُوقُهُ مِنْ الْحِلِّ أَفْضَلُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا يَشْتَرِيهِ مِنَ الْحَرَمِ، بَلْ فِي أَحَدِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ: لَا يَكُونُ هَدْيًا إلَّا بِمَا أُهْدِيَ مِنَ الْحِلِّ إلَى الْحَرَمِ.

وَحِينَئِذٍ، فَسَوْقُهُ مِنْ الْمِيقَاتِ أَفْضَلُ مِنْ سَوْقِهِ مِنْ أَدْنَى الْحِلِّ، فَكَيْفَ يُجْعَلُ الْهَدْيُ الَّذِي لَمْ يُسَقْ أَفْضَلَ مِمَّا سِيقَ، فَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ سَوْقَ الْهَدْيِ مَعَ التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ أَفْضَلُ مِنْ تَمَتُّعٍ لَا سَوْقَ فِيهِ.

وَأَمَّا سُؤَالُ السَّائِلِ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ: هَلْ اعْتَمَرَ مِنْ مَكَّةَ؟ فَلَمْ يَعْتَمِرْ أَحَدٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إلَّا عَائِشَةَ خَاصَّةً، وَعَائِشَةُ نَفْسُهَا كَانَتْ إذَا حَجَّتْ تَمْكُثُ إلَى أَنْ يُهِلَّ الْمُحَرَّمُ، ثُمَّ تَخْرُجُ إلَى الْجُحْفَةِ فَتُحْرِمُ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: ((عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً ([2]))).

وَفِي لَفْظٍ: ((تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي([3]))، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ: ((الْحَجُّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ([4]))، فَبَيَّنَ لَهَا أَنَّ اعْتِمَارَهَا فِي رَمَضَانَ تَقُومُ مَقَامَ الْحَجَّةِ الَّتِي تَخَلَّفَتْ عَنْهَا، وَالْحَجَّةُ كَانَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَالْعُمْرَةُ كَانَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ هُوَ شَهْرُ الصِّيَامِ، وَهُوَ قَبْلَ أَشْهُرِ الْحَجِّ.

وَمَنْ حَجَّ مِنْ عَامِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ الْمُتَمَتِّعِ، وَالْمُتَمَتِّعُ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَمِرَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُحْرِمَ بِالْحَجِّ، فَلَمَّا عَدَلَ عَنْ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ إلَى الْإِحْرَامِ بِالْعُمْرَةِ تَرَفَّهَ بِسُقُوطِ أَحَدِ السَّفَرَيْنِ، فَصَارَ الْهَدْيُ قَائِمًا مَقَامَ هَذَا التَّرَفُّهِ.

١- البخاري في العلم (١٢٦).

٢- البخاري في العمرة (١٧٨٢)، ومسلم في الحج (١٢٥٦/٢٢١) عن ابن عباس.

٣- مسلم في الحج (١٢٥٦/٢٢٢) عن ابن عباس.

٤- أبو داود في الحج (١٩٨٨) عن أم معقل.

- (قلت): جود إسناده الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٧).

قال السعدي: {فمن لم يجد}: أي: الهدي أو ثمنه، {فصيام ثلاثة أيام في الحج}: أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النَّحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ(منى) ولكن الأفضل منها، أن يصوم السابع والثامن والتاسع، {وسبعة إذا رجعتم}: أي فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

{تلك عشرة كاملة}: للتأكيد على أن هذه الأيام العشرة وإن كانت مفرقة فهي في حكم المتتابعة.

{ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام}: أي ذلك التمتع الموجب للهدي.

قال الطبري: عن الربيع: {ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام}، يعني المتعة أنها لأهل الآفاق، ولا تصلح لأهل مكة.

قال ابن العثيمين: وقوله تعالى: {أهله}: قيل: المراد به نفسه ـ أي لمن لم يكن حاضرًا المسجد الحرام ـ؛ وقيل: المراد بـ(الأهل) سكنه الذي يسكن إليه من زوجة وأب وأم وأولاد وما أشبه ذلك؛ فيكون المعنى: ذلك لمن لم يكن سكنه حاضري المسجد الحرام؛ وهذا أصح؛ لأن التعبير بـ(الأهل) عن النفس بعيد؛ ولكن {أهله}: أي الذين يسكن إليهم من زوجة وأب وأم وأولاد هذا هو الواقع.

وقوله تعالى: {حاضري المسجد الحرام}: المراد به مسجد مكة؛ و{الحرام}: صفة مشبهة بمعنى ذي الحرمة، وقد قال النبي ﷺ: ((وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس([1]))؛ وحرمة المسجد الحرام معروفة من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

واختلف في المراد بـ{حاضري المسجد الحرام}: فقيل: هم أهل الحرم ـ يعني: من كانوا داخل حدود الحرم ـ؛ فمن كان خارج حدود الحرم فليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وروي هذا عن ابن عباس، وجماعة من السلف، والخلف؛ وقيل: حاضرو المسجد الحرام أهل المواقيت، ومن دونهم؛ وعلى هذا فأهل بدر من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وأهل جدة من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وقيل: حاضرو المسجد الحرام أهل مكة، ومن بينهم وبين مكة دون مسافة القصر؛ وهي يومان؛ وعلى هذا فأهل جدة، وأهل بدر ليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وأهل بحرة – وهي بلدة دون جدة – على هذا القول يكون أهلها من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم داخل المسافة؛ وأهل الشرائع من حاضري المسجد الحرام؛ والأقرب القول الأول أن حاضري المسجد الحرام هم أهل الحرم؛ وأما من كان من غير أهل الحرم فليسوا من حاضريه؛ بل هم من محل آخر؛ وهذا هو الذي ينضبط.

١- (قلت): البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندنا قول من قال: إن حاضري المسجد الحرام من هو حوله ممن بينه وبينه من المسافة ما لا تقصر إليه الصلوات. لأن (حاضر الشيء)، في كلام العرب، هو الشاهد له بنفسه. وإذا كان ذلك كذلك – وكان لا يستحق أن يسمَّى (غائبًا)، إلا من كان مسافرا شاخصا عن وطنه، وكان المسافر لا يكون مسافرًا إلا بشخوصه عن وطنه إلى ما تقصر في مثله الصلاة، وكان من لم يكن كذلك لا يستحق اسم (غائب) عن وطنه ومنزله – كان كذلك من لم يكن من المسجد الحرام على ما تقصر إليه الصلاة، غير مستحق أن يقال: هو من غير حاضريه إذ كان الغائب عنه هو من وصفنا صفته.

وإنما لم تكن المتعة لمن كان من حاضري المسجد الحرام، من أجل أن (التمتع) إنما هو الاستمتاع بالإحلال من الإحرام بالعمرة إلى الحج، مرتفقًا في ترك العود إلى المنزل والوطن بالمقام بالحرم حتى ينشئ منه الإحرام بالحج. وكان المعتمر متى قضى عمرته في أشهر الحج، ثم انصرف إلى وطنه، أو شخص عن الحرم إلى ما تقصر فيه الصلاة، ثم حج من عامه ذلك، بطل أن يكون مستمتعًا. لأنه لم يستمتع بالمرفق الذي جعل للمستمتع، من ترك العود إلى الميقات، والرجوع إلى الوطن بالمقام في الحرم. وكان المكي من حاضري المسجد الحرام لا يرتفق بذلك، من أجل أنه متى قضى عمرته أقام في وطنه بالحرم، فهو غير مرتفق بشيء مما يرتفق به من لم يكن أهله من حاضري المسجد الحرام فيكون متمتِّعًا بالإحلال من عمرته إلى حجه.

{واتَّقوا الله}: يعني بذلك جل اسمه: واتقوا الله بطاعته فيما ألزمكم من فرائضه وحدوده، واحذروا أن تعتدوا في ذلك وتتجاوزوا فيما بين لكم من مناسككم، فتستحلوا ما حرم فيها عليكم.

{واعلموا}: تيقَّنوا أنه تعالى ذكره شديد عقابه لمن عاقبه على ما انتهك من محارمه وركب من معاصيه. أي: الزموا تقوى الله عز وجل؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قال السعدي: {واعلموا أن الله شديد العقاب}: أي لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكفَّ عمَّا يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتجرأ على ترك الواجبات.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– وجوب إتمام الحج والعمرة؛ وظاهر الآية أنه لا فرق بين الواجب منهما وغير الواجب؛ ووجه هذا الظاهر: العموم في قوله تعالى: {وأتموا الحج والعمرة}؛ فيكون شاملًا للفريضة والنافلة؛ ويؤيده أن

هذه الآية نزلت قبل فرض الحج؛ لأن الحج إنما فرض في السنة التاسعة في قوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا}[آل عمران: ٩٧]؛ السنة التي يسمّيها العلماء سنة الوفود.

٢- أن العمرة والحج سواء في وجوب إتمامهما؛ لقوله تعالى: {الحج والعمرة}.

٣- أنه لا تجوز الاستنابة في شيء من أفعال الحج، والعمرة؛ فلو أن أحدًا استناب شخصًا في أن يطوف عنه، أو أن يسعى عنه، أو أن يقف عنه بعرفة، أو أن يقف عنه بمزدلفة، أو أن يرمي عنه الجمار، أو أن يبيت عنه في منى فإنه حرام؛ لأن الأمر بالإتمام للوجوب؛ فيكون في ذلك ردٌّ لقول من قال من أهل العلم: إنه تجوز الاستنابة في نفل الحج، وفي بعضه: أما الاستنابة في نفل الحج ـ كل النسك ـ فهذا له موضع آخر؛ وأما في بعضه فالآية تدلُّ على أنها لا تصح.

٤- الحذر مما يفعله بعض الناس الآن من التساهل في رمي الجمرات، حيث إنهم يوكلون من يرمي عنهم بدون عذر مخالفة لقوله تعالى: {وأتموا الحج والعمرة لله}؛ وعليه فلا يصح رمي الوكيل حينئذ؛ لقوله ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ([1]))، أي: مردود عليه؛ أما إذا كان لعذر كالمريض، والخائف على نفسه من شدة الزحام إذا لم يكن وقت آخر للرمي يخف فيه الزحام فلا بأس أن يستنيب من يرمي عنه؛ ولولا ورود ذلك عن الصحابة لقلنا: إن العاجز عن الرمي بنفسه يسقط عنه الرمي كسائر الواجبات، حيث تسقط بالعجز؛ ويدل لعدم التهاون بالتوكيل في الرمي أن النبي ﷺ لم يأذن لسودة بنت زمعة أن توكل؛ بل أمرها أن تخرج من مزدلفة، وترمي قبل حطمة الناس([2])؛ ولو كان التوكيل جائزًا لمشقّة الزحام لكان الرسول ﷺ يبقيها معه حتى تدرك بقية ليلة المزدلفة، وتدرك صلاة الفجر فيها، وتدرك القيام للدعاء بعد الصلاة؛ ولا تحرم من هذه الأفعال؛ فلما أذن لها في أن تدفع بليل علم بأن الاستنابة في الرمي في هذا الأمر لا يجوز؛ وكذلك لو كان جائزًا لأذن للرعاة أن يوكّلوا، ولم يأذن لهم بأن يرموا يومًا، ويَدْعوا يومًا.

٥- وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: {وأتموا الحج والعمرة لله}: يعني أتمُّوها لله لا لغيره؛ لا تراعوا في ذلك جاهًا، ولا رتبة، ولا ثناء من الناس.

٦- أن الحج، والعمرة يخالفان غيرهما في وجوب إتمام نفلهما؛ لقوله تعالى: {وأتموا}؛ والأمر للوجوب؛ ويدلُّ على أنه للوجوب قوله تعالى: {فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي}، حيث أوجب الهدي عند الإحصار؛ أما غيرهما من العبادات فإن النفل لا يجب إتمامه؛ لأن النبي ﷺ دخل على أهله ذات يوم فقال: ((هل عندكم شيء؟ قالوا: نعم، حيس؛ قال:

١- (قلت): مسلم (١٧١٨).

٢- راجع صحيح البخاري ص١٣٢، كتاب الحج، باب ٩٨: من قدم ضعفة أهل بليل ... ، حديث رقم ١٦٨١، وصحيح مسلم ص٨٩٢، كتاب الحج، باب ٤٩: استحباب تقديم الضعفة من النساء وغيرهن، حديث رقم ٣١١٨ [٢٩٣] ١٢٩٠.

أرينيه؛ فلقد أصبحت صائمًا؛ فأكل[١]))؛ لكن يكره قطع النفل إلا لغرض صحيح –كحاجة إلى قطعه، أو انتقال لما هو أفضل منه –.

٧– أنه إذا أحصر الإنسان عن إتمام الحج والعمرة فله أن يتحلَّل؛ ولكن عليه الهدي؛ لقوله تعالى: {فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى}.

٨– أن الله تعالى أطلق الإحصار، ولم يقيده؛ لقوله تعالى: {فإن أحصرتم}؛ لأن الفعل لو بني للفاعل، وذكر الفاعل اختص الحكم به؛ فإذا قلت مثلًا: (أقام زيد عمرًا) صار المقيم زيدًا؛ وإذا قلت: (أقيم عمرو) صار عامًّا؛ فظاهر الآية شمول الإحصار لكل مانع من إتمام النسك؛ فكل ما يمنع من إتمام النسك فإنه يجوز التحلُّل به، وعليه الهدي؛ أما الإحصار بالعدو فأظنّه محل إجماع فيتحلَّل بالنَّص والإجماع؛ النص: تحلُّل الرسول ﷺ في الحديبية[٢]؛ والإجماع: لا نعلم في هذا مخالفًا؛ وأما الحصر بغير عدو، كمرض، أو كسر، أو ضياع نفقة، أو ما أشبه ذلك ممّا لا يستطيع معه إتمام الحج، والعمرة؛ فإن العلماء اختلفوا في ذلك؛ فمنهم من قال: إنه لا يتحلَّل، ويبقى محرمًا حتى يزول المانع؛ ومنهم من قال: إنه يتحلَّل، كالحصر بالعدو؛ حجَّة الأوَّلين: أن الله تعالى قال: {فإن أحصرتم}؛ والآية نزلت في شأن قضية الحديبية؛ وهم قد أحصروا بعدو؛ فيكون الحصر هنا خاصًّا بالعدو؛ ودليل آخر: يقولون: ضباعة بنت الزبير لما جاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ أنها مريضة، وأنها تريد الحج قال لها: ((حجي واشترطي[٣]))؛ فلو كان الإحصار بالمرض مبيحًا للتحلل ما احتيج إلى اشتراط؛ فكانت تدخل في النسك، وإذا عجزت تحلَّلت؛ وأجاب القائلون بأن الحصر عام بحصر العدو وغيره بأن الآية مطلقة: {فإن أحصرتم}؛ لم تقيَّد بحصر العدو؛ والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لأن العلة في جواز التحلل بحصر العدو عدم القدرة على إتمام النسك؛ وهذا حاصل بالحصر بغير العدو؛ والشرع لا يفرق بين متماثلين؛ وأجابوا عن حديث ضباعة بأن يقال: إن الفائدة من حديث ضباعة أنه إذا حصل مرض يمنع من إتمام النسك فإنها تتحلل بلا شيء؛ وأما إذا لم تشترط فإنها لا تتحلل إلا بدم؛ وحينئذ تظهر فائدة اشتراط من خاف أن يعوقه مرض، أو نحوه عن إتمام النسك؛ والفائدة هي أنه لا يجب عليه الهدي لو تحلل بهذا الحصر؛ والصواب القول الثاني: أن الإحصار يكون بالعدو، وبغيره.

فإن قال قائل: إن قوله تعالى في سياق الآية: {فإذا أمنتم} يشير إلى أن الإحصار المذكور بعدو؟

١– أخرجه مسلم ص٨٦٢، كتاب الصيام، باب ٣٢ جواز صوم النافلة ... ، حديث رقم ٢٧١٥ [١٧٠] ١١٥٤.

٢– أخرجه البخاري ص٢١٧ – ٢١٩، كتاب الشروط، باب ١٥: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

٣– أخرجه البخاري ص٤٤٠، كتاب النكاح، باب ١٦: الأكفاء في الدين وقوله تعالى: {وهو الذي خلق من الماء بشر فجعله نسبا وصهرا}، حديث رقم ٥٠٨٩، وأخرجه مسلم ص٨٧٦، كتاب الحج، باب ١٥: جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه، حديث رقم ٢٩٠٢ [١٠٤] ١٢٠٧..

فالجواب: أن ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام لا يقتضي التخصيص، كما هو قول المحققين من أهل أصول الفقه، وغيرهم؛ ونظير ذلك حديث جابر ﵁: ((قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم؛ فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة([1])))؛ فإن قوله: ((فإذا وقعت الحدود ...)) الخ لا يستلزم اختصاص الشفعة بما له حدود، وطرق؛ بل الشفعة ثابتة في كل مشترك على القول الراجح.

٩- وجوب الهدي على من أحصر؛ لقوله تعالى: {فما استيسر من الهدي}.

١٠- أن من تعذّر أو تعسَّر عليه الهدي فلا شيء عليه؛ لقوله تعالى: {فما استيسر من الهدي}؛ ولم يذكر الله بديلًا عند العجز؛ وقال بعض أهل العلم: إنه إذا لم يجد هديًا صام عشرة أيام، ثم حل – قياسًا على هدي التمتع –؛ ولكن هذا القياس ليس بصحيح من وجهين:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر الآية؛ لأن الله لم يذكر بديلًا للهدي.

الوجه الثاني: أن تحلُّل المتمتّع تحلُّل اختياري؛ وأمّا المحصر فتحلُّله اضطراري.

١١- أنه لا يجب على المحصر الحلق عند التحلُّل؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكره؛ وهو أحد القولين في المسألة؛ والقول الثاني: وجوب الحلق؛ لثبوته بالسنة؛ لأن النبي ﷺ أمر به، وغضب على الصحابة حين تأخروا في تنفيذه؛ ولا يغضب النبي ﷺ لترك مستحب؛ لا يغضب إلا لترك واجب.

١٢- أن المحصر لا يجب عليه القضاء؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكره؛ ولو كان القضاء واجبًا لذكره الله عز وجل؛ وهذا يشمل من حصر في فريضة؛ ومن حصر في نافلة؛ لكن الفريضة إذا حصر عن إتمامها يلزمه فعلها بالخطاب الأول؛ لا على أنه بدل عن هذه التي أحصر عنها؛ فمثلًا رجلًا شرع في حج الفريضة، ثم أحصر عن إتمامها، فذبح الهدي، وتحلَّل؛ فيجب الحج عليه بعد ذلك؛ لكن ليس على أنه قضاء؛ لكن على أنه مخاطب به في الأصل؛ وتسمية العمرة التي وقعت بعد صلح الحديبية عمرة القضاء ليست لأنها قضاء عما فات؛ ولكنها من (المقاضاة) ـ وهي المصالحة ـ؛ ولذلك لم يأت بها كل من تحلل من عمرة الحديبية.

١٣- أنه لابدَّ أن يكون هذا الهدي مما يصح أن يهدى: بأن يكون بالغًا للسن المعتبَر سالمًا من العيوب المانعة من الإجزاء؛ لقوله تعالى: {من الهدي}؛ و{أل} هنا للعهد الذهني المعلوم للمخاطب؛ وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: ((لا تذبحوا إلّا مسنة إلّا إن تعسَّر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن([2]))).

١- أخرجه البخاري ص١٧١، كتاب البيوع، باب ٩٦: بيع الشريك من شريكه، حديث رقم ٢٢١٣، وأخرجه مسلم ص٩٥٧، كتاب المساقاة، باب ٢٨ الشفعة، حديث رقم ٤١٢٨ [١٣٤] واللفظ للبخاري.

٢- (قلت): مسلم (١٩٦٣).

فإن قال قائل: هل يؤكل من هذا الهدي أم لا؟

فالجواب: يؤكل؛ كل شيء فيه: {فما استيسر} فهو يؤكل؛ وأما ما فيه: (فعليه) فإنه لا يؤكل؛ فجزاء الصيد لا يؤكل منه؛ وفدية الأذى لا يؤكل منها؛ لأن الله جعلها كفارة؛ أما ما استيسر من الهدي هنا، وفي التَّمتع فإنه يؤكل منه.

١٤– تحريم حلق الرأس على المحرم؛ لقوله تعالى: {ولا تحلقوا رؤوسكم}؛ والنهي عام لكل الرأس، ولبعضه؛ إذًا لو حلق بعضه وقع في الإثم؛ لأن النهي يتناول جميع أجزاء المنهي عنه؛ فإذا قلت لك: (لا تأكل هذه الخبزة)، وأكلت منها فإنك لم تمتثل.

١٥– أنه لا يحرم حلق شعر غير الرأس؛ لأن الله خصَّ النهي بحلق الرأس فقط؛ وأما الشارب، والإبط، والعانة، والساق، والذراع، فلا يدخل في الآية الكريمة؛ لأنه ليس من الرأس؛ والأصل الحل؛ وهذا ما ذهب إليه أهل الظاهر؛ قالوا: لا يحرم على المحرم حلق شيء من الشعر المباح حلقه سوى الرأس؛ لأن الله سبحانه وتعالى خصَّه فقال: {ولا تحلقوا رؤوسكم}؛ ولأن حلقه يفوت به نسك، بخلاف غيره من الشعور؛ ولكن أكثر أهل العلم ألحقوا به شعر بقية البدن؛ وقالوا: إنه يحرم على المحرم أن يحلق أي شعر من بدنه حتى العانة – قياسًا على شعر الرأس؛ لأن العلَّة في تحريم حلق شعر الرأس الترفُّه، وإزالة الأذى؛ وهذا حاصل في حلق غيره من الشعور؛ وهذا القياس غير صحيح لوجهين:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر النَّص، أو صريحه.

الوجه الثاني: أن بين شعر الرأس وغيره فرقًا كثيرًا: فإن حلق شعر الرأس يتعلَّق به التحلُّل من النُّسك؛ فهو عنوان التحلُّل؛ بخلاف غيره من الشعور.

وأما التعليل بأنه للترفُّه، ودفع الأذى ففيه نظر؛ ثم لو سلمنا ذلك فأين دفع الأذى في حلق شعر العانة، وشعر الساق، ونحو ذلك؟! وأين الدليل على منع المحرم من الترفُّه مع أنه يجوز له التنظُّف، والاغتسال، والتظلُّل من الشمس، واستعمال المكيِّفات؟! وهل تلحق الأظافر بشعر الرأس؟

الجواب: لا تلحق؛ فالأظافر ليست شعرًا؛ وليست في الرأس أيضًا؛ فهي أبعد من إلحاق شعر بقية البدن بشعر الرأس؛ ووجه البعد أنها ليست من نوع الشعر؛ صحيح أنها تشبه الشعر من حيث إنها جزء منفصل؛ لكنها ليست من نوع الشعر؛ ولذلك من لم ير تحريم حلق شعر بقية البدن فإنه لا يرى تحريم قص الأظافر من باب أَولى؛ ولكن جمهور أهل العلم على أن تقليم الأظافر محرَّم على المحرم قياسًا على تحريم حلق شعر الرأس؛ والعلَّة: ما في ذلك من الترفُّه، والتنعُّم؛ ولكن هذه العلة غير مسلمة:

أولًا: لأن العرب في زمنهم لا يترفَّهون بحلق الرأس؛ بل الرفاهية عندهم إنما هي في إبقاء الرأس، وترجيله، وتسريحه، ودهنه، والعناية به؛ فليست العلَّة إذًا في حلق شعر الرأس: الترفُّه.

ثانيًا: أن العلَّة لابدَّ أن تَطَّرد في جميع معلولاتها؛ وإلَّا كانت باطلة؛ وهذه العلَّة لا تَطَّرد، بدليل أن المحرم لو ترفَّه، فتنظَّف، وتغسَّل، وأزال الوسخ عنه، ولبس إحرامًا جديدًا غير الذي أحرم به لم يحرم عليه ذلك.

وأقرب شيء للتَّعليل أن في حلق الرأس حال الإحرام إسقاطًا للنُّسك الذي هو حلقه عند التحلُّل؛ وهذا لا يساويه حلق بقية الشعر، أو تقليم الأظافر؛ ولكن نظرًا لأن جمهور أهل العلم ألحقوا ذلك بشعر الرأس فالاحتياط تجنُّب ذلك مراعاة لقول الجمهور.

١٦- أن المحرَّم ما يسمَّى حلقًا؛ فأمَّا أخذ شعرة، أو شعرتين، أو ثلاث شعرات من رأسه فلا يقال: إنه حلق؛ وهذه المسألة مما تنازع فيها أهل العلم؛ فقال بعضهم: إذا أخذ شعرة واحدة من رأسه فقد حلق؛ فعليه فدية إطعام مسكين؛ وإن أخذ شعرتين فإطعام مسكينين؛ وإذا أخذ ثلاث شعرات فدم؛ أو إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع؛ أو صيام ثلاثة أيام؛ وقال بعض العلماء: إن الحكم يتعلق بربع الرأس؛ فإن حلق دون الربع فلا شيء عليه؛ وهذا لا شك أنه تحكم لا دليل عليه؛ فلا يكن صحيحًا؛ بل هو ضعيف؛ وقال آخرون: تتعلَّق الفدية بما يماط به الأذى؛ ومعنى يماط: يزال؛ أي بما يحصل به إزالة الأذى؛ وهذا لا يكون إلا بجزء كبير من الرأس؛ قالوا: لأن الله تعالى قال: {فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه ففدية ... }؛ فدلَّ هذا على أن المحرَّم الذي تتعلَّق به الفدية هو ما يماط به الأذى؛ وهذا مذهب مالك؛ وهو صحيح من حيث أن الفدية لا تجب إلا بما يماط به الأذى فقط؛ لكنه غير صحيح من كون التحريم يتعلَّق بما يماط به الأذى فقط؛ فالتَّحريم يتعلَّق بما يسمَّى حلقًا؛ والفدية تتعلَّق بما يماط به الأذى.

فإن قال قائل: ما هو دليلكم على هذا التقسيم؛ فالعلماء لم يقولوا هذا الكلام؟

فالجواب: أن نقول: دليلنا على هذا التقسيم الآية الكريمة، وفعل النبي ﷺ؛ فقوله تعالى: {ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله}؛ هذا عام لكل حلق؛ فكل ما يسمى حلقا فإنه منهي عنه لهذه الآية؛ ثم قال تعالى: {فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه ففدية}؛ فأوجب الفدية فيما إذا حلق حلقًا يزول به الأذى؛ لقوله تعالى: {أو به أذى}؛ فلو قدرنا محرما رأسه تؤذيه الهوام، فحلق منه شيئًا يسيرًا لا يزول به الأذى فلا فدية عليه؛ لأن الله تعالى إنما أوجب الفدية بحلق ما يزول به الأذى؛ ويدلُّ لذلك فعل الرسول ﷺ: فقد احتجم وهو محرم في يافوخه في أعلى رأسه[١]؛ ومعلوم أن الحجامة تحتاج إلى حلق الشعر الذي يكون في موضع الحجامة؛ ولم ينقل أن الرسول ﷺ افتدى؛ فدلَّ ذلك على أن ما تتعلَّق به الفدية هو ما يماط به الأذى دون الشيء اليسير.

١- أخرجه البخاري ص١٤٤، كتاب جزاء الصيد، باب ١١: الحجامة للمحرم، حديث رقم ١٨٣٦، وأخرجه مسلم ص٨٧٥، كتاب الحج، باب ١١: جواز الحجامة للمحرم، حديث رقم ٢٨٨٦ [٨٨] ١٢٠٣.

١٧- أنه لا يجوز الحلق إلّا بعد النَّحر؛ لقوله تعالى: {حتى يبلغ الهدي محلَّه}؛ وإلى هذا ذهب كثير من أهل العلم مستدلِّين بقوله ﷺ: ((إنِّي لبدت رأسي وقلَّدت هديي؛ فلا أحلُّ حتى أنحر([1])))؛ وهؤلاء الذين قالوا به عندهم ظاهر الآية الكريمة؛ وفعل الرسول ﷺ حيث قال: ((فلا أحلُّ حتى أنحر))؛ لكن قد وردت الأحاديث بجواز التقديم والتأخير تيسيرًا على الأمة؛ فإن النبي ﷺ سئل في يوم العيد عن التقديم والتأخير؛ فما سئل عن شيء قدَّم ولا أخَّر إلّا قال ﷺ: ((افعل ولا حرج([2])))ـ.

١٨- جواز حلق الرأس للمرض، والأذى؛ لقوله تعالى: {فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ... } إلخ.

١٩- وجوب الفدية على المحرم إذا حلق رأسه؛ وهي إما صيام ثلاثة أيام؛ وإما إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع؛ وإمَّا ذبح شاة تفرق على الفقراء ـ كما بيَّنت ذلك السنة ـ؛ والسنة تبيِّن القرآن، كما قال الله تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}[النحل: ٤٤]؛ والتبيين يشمل تبيين اللفظ، وتبيين المعنى.

٢٠- أن هذه الفدية على التخيير؛ لأن هذا هو الأصل في معاني (أو).

٢١- التيسير على العباد؛ وذلك بوقوع الفدية على التخيير.

٢٢- أن محل الإطعام والنُّسك في مكان فعل المحظور؛ لأن الفورية تقتضي ذلك؛ أما الصيام فالظاهر ما قاله العلماء ـ رحمهم الله ـ من كونه يصح في كل مكان؛ لكن الفورية فيه أفضل.

٢٣- أن كفارات المعاصي فدى للإنسان من العقوبة؛ لقوله تعالى: {ففدية من صيام أو صدقة ... }.

٢٤- أن محظورات الإحرام لا تفسده؛ لأن الله لم يوجب في حلق الرأس ـ مع أنه من محظورات الإحرام ـ إلّا الفدية؛ ومقتضى ذلك أن النُّسك صحيح؛ وهذا مما يخالف الحج والعمرة فيه غيرهما من العبادات؛ فإن المحظورات في العبادات تبطلها؛ وألحق العلماء بفدية حلق الرأس فدية جميع محظورات الإحرام ما عدا شيئين؛ وهما الجماع في الحج قبل التحلُّل الأول، وجزاء الصيد؛ فالجماع في الحج قبل التحلُّل الأول يجب فيه بدنة؛ وجزاء الصيد يجب فيه مثله؛ أو إطعام مساكين؛ أو عدل ذلك صيامًا؛ وما عدا ذلك من المحظورات ففديتها كفدية حلق الرأس عند الفقهاء، أو كثير منهم.

٢٥- جواز التمتُّع بالعمرة إلى الحج؛ أي أن يأتي الإنسان بالعمرة في أشهر الحج، ويتحلَّل منها؛ ويبقى حلًا إلى أن يأتي وقت الحج؛ وكانوا في الجاهلية يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور؛ ويقولون: (إذا انسلخ صفر، وبرأ الدبر،

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٥٦٦)، ومسلم (١٢٢٩). وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٥٨٥).

٢- أخرجه البخاري ص١٠، كتاب العلم، باب ٢٣: الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها حديث رقم ٨٣، وأخرجه مسلم ص٨٩٤، كتاب الحج، باب ٥٧: جواز تقديم الذبح على الرمي. حديث رقم ٣١٥٦ [٣٢٧] ١٣٠٦.

وعفا الأثر، حلت العمرة لمن اعتمر)؛ لكن الله سبحانه وتعالى يسَّر وبيَّن أنه يجوز للإنسان القادم في أشهر الحج أن يتحلَّل بالعمرة متمتِّعًا بها إلى الحج.

٢٦- أنه إذا حلَّ من عمرته حلَّ الحلَّ كله؛ لقوله تعالى: {فمن تمتع}؛ لأن إطلاق التمتع لا يكون إلّا كذلك.

٢٧- أن من لم يحلَّ من عمرته لا يسمَّى متمتِّعًا؛ لقوله تعالى: {فمن تمتَّع بالعمرة إلى الحج}؛ وعلى هذا فالقارن ليس بمتمتِّع؛ وهو كذلك عند الفقهاء أن القارن غير متمتِّع؛ لكن ذكر كثير من أهل العلم أن القارن يسمَّى متمتِّعًا في لسان الصحابة؛ وذلك؛ لأن بعض الصحابة عبَّر عن حج النبي ﷺ بالتمتُّع، فقالوا: تمتع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج([1])؛ ومن المعلوم أن الرسول ﷺ لم يحل من إحرامه؛ ولهذا قال الإمام أحمد: (لا شك أن النبي ﷺ حج قارنًا؛ والمتعة أحب إليَّ)؛ ولهذا كان وجوب الهدي على المتمتِّع بالإجماع؛ ووجوب الهدي على القارن فيه خلاف؛ وجمهور أهل العلم على وجوب الهدي عليه؛ وسبب اختلافهم في ذلك اختلافهم في العلَّة: هل هي حصول النُّسُكين في سفر واحد؛ فيكون قد ترفَّه بسقوط أحد السفرين؛ أو العلَّة التمتُّع بالتحلُّل بين العمرة والحج؛ فمن قال بالأول أوجب الهدي على القارن؛ ومن قال بالثاني لم يوجبه؛ لأنه لم يحصل للقارن تحلُّل بين النُّسكين.

٢٨- أنه لا يجب على الإنسان أن يقترض للهدي إذا لم يكن معه ما يشتري به الهدي ـ ولو كان غنيًّا – لقوله تعالى: {فما استيسر من الهدي}.

٢٩- تيسير الله على العباد؛ لقوله تعالى: {فما استيسر من الهدي}؛ والدِّين كله من أوله إلى آخره مبني على اليسر.

٣٠- بلاغة القرآن؛ لقوله تعالى: {فمن لم يجد}؛ فحذف المفعول للعموم ليشمل من لم يجد الهدي، أو ثمنه؛ فاستفيد زيادة المعنى مع اختصار اللفظ.

٣١- أن من لم يجد الهدي، أو ثمنه، فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج: أولها من حين الإحرام بالعمرة؛ وآخرها آخر أيّام التَّشريق؛ لكن لا يصوم يوم العيد؛ لتحريم صومه؛ ولا ينبغي أن يصوم يوم عرفة؛ ليتفرغ للدعاء والذكر وهو نشيط؛ وعلى هذا فيجوز لمن كان عادمًا للهدي من متمتِّع أو قارن أن يصوم من حين إحرامه بالعمرة.

فإن قال قائل: هذا ظاهر في القارن؛ لأنه إذا صام من حين إحرامه فقد صام في الحج؛ لكنه في المتمتِّع فيه إشكال؛ لأن المتمتِّع يحل بين العمرة والحج؟

١- أخرجه البخاري ص١٣٣، كتاب الحج، باب ١٠٤: من ساق البدن معه، حديث رقم ١٦٩٢؛ وأخرجه مسلم ص٨٨٣، كتاب الحج، باب ٢٤، وجوب الدم على المتمتع ... ، حديث رقم ٢٩٨٣ [١٧٥] ١٢٢٨.

والجواب: عن هذا الإشكال أن نقول: إن النبي ﷺ قال: ((دخلت العمرة في الحج([١]))؛ ولأن المتمتِّع من حين إحرامه بالعمرة فقد نوى أن يحج.

٣٢- أن صيام السبعة لا يجوز في أيّام الحج؛ لقوله تعالى: {وسبعة إذا رجعتم}.

٣٣- أنه يجوز التتابع، والتفريق بين الأيام الثلاثة، والأيام السبعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أطلق، ولم يشترط التَّتابع؛ ولو كان التَّتابع واجبًا لذكره الله، كما ذكر وجوب التَّتابع في صيام كفارة القتل، وصيام كفارة الظِّهار.

٣٤- تيسير الله ـ تبارك وتعالى ـ على عباده حيث جعل الأكثر من الصيام بعد رجوعه؛ لقوله تعالى: {وسبعة إذا رجعتم}.

٣٥- أن الهدي، أو بدله من الصيام لا يجب على من كان حاضر المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: {ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام}؛ وقد سبق أن الصحيح أنهم من كانوا داخل حدود الحرم؛ وعلى هذا إذا تمتَّع أهل جَدَّة، أو الطائف، أو أهل الشرائع فعليهم الهدي؛ ولكن هل لحاضر المسجد الحرام التَّمتُّع؟

الجواب: نعم؛ لأن حاضر المسجد الحرام قد تدخل عليه أشهر الحج وهو خارج مكة، ثم يرجع إلى أهله في مكة في أشهر الحج، فيحرم بعمرة يتمتَّع بها إلى الحج.

فإن كان شخص في مكة للدراسة، لكن وطنه الرياض، أو المدينة، وتمتَّع فعليه الهدي؛ لأن أهله ليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وإقامته في مكة ليست إقامة استيطان؛ والمراد أن يكون مستوطنًا في مكة.

وإذا كان له مقرّان ـ في الطائف، وفي مكة ـ؛ يعني من أهل مكة والطائف، فهنا نقول: إن نظرنا إلى مقرّه في الطائف قلنا: ليس من حاضري المسجد الحرام؛ وإن نظرنا إلى مقرّه في مكة قلنا: هو من حاضري المسجد الحرام؛ فنعتبر الأكثر: إذا كان أكثر إقامته في الطائف فليس من أهل المسجد الحرام؛ وإذا كان أكثر إقامته في مكة فهو من حاضري المسجد الحرام.

٣٦- فضيلة المسجد الحرام؛ لوصف الله سبحانه وتعالى له بأنه حرام ـ أي ذو حرمة ـ؛ ومن حرمته تحريم القتال فيه، وتحريم صيده، وشجره، وحشيشه، وأن من أراد الإلحاد فيه بظلم أذاقه الله من عذاب أليم؛ وبسط ذلك في المطوّلات.

٣٧- وجوب تقوى الله عز وجل، وتهديد من خالف ذلك؛ لقوله تعالى: {واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب}.

٣٨- أن العلم بشدَّة عقوبة الله من أهم العلوم؛ ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى به بخصوصه؛ لأنه يورث الخوف من الله، والهرب من معصيَّته.

١- أخرجه مسلم ص ٨٨٠ - ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

٣٩- أن العقوبة على الذنب لا تنافي الرحمة؛ إذ من المعلوم أن رحمة الله سبقت غضبه؛ لكن إذا عاقب من يستحق العقاب فإن ذلك من رحمة المعاقب؛ لأن هذه العقوبة إن كانت في الدنيا فهي كفارة له؛ وإن كانت في الآخرة فما دون الشرك أمره إلى الله: إن شاء عذب؛ وإن شاء غفر.

٤٠- أن شدَّة العقاب من كمال المعاقب، وبسط قوّته، وسلطانه؛ ولا يوصف الله سبحانه وتعالى إلّا بالكمال؛ بل أمرنا أن نعلم ذلك في قوله تعالى: {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم}[المائدة: ٩٨]؛ إذا فإذا عاقبت ولدك بما يستحق، وكانت الجناية كبيرة، فأكبرت العقوبة فإنَّك تحمد، ولا تذم؛ ولهذا قال ﷺ: ((مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر[١]))؛ لأنه إذا بلغ عشرًا صار تركه إيّاها، والإخلال بها أعظم.

(تنبيه)

كثير من الناس كلّما رأوا مخالفة من شخص في الإحرام قالوا: (عليك دم)؛ لو قال: حككت رأسي فسقطت منه شعرة بدون اختيار ولا قصد قالوا: (عليك دم)؛ وهذا غلط:

أولًا: لأنه خلاف ما أمر الله به؛ والله أوجب واحدة من ثلاث: صيام؛ أو صدقة؛ أو نسك؛ فإلزامهم بواحدة معيَّنة فيها تضييق عليهم، وإلزام لهم بما لا يلزمهم.

ثانيًا: أن الدَّم في أوقات النَّحر في أيّام منى غالبه يضيع هدرًا؛ لا ينتفع به.

ثالثًا: أن فيه إخفاء لحكم الله عز وجل؛ لأن الناس إذا كانوا لا يفدون إلّا بالدَّم، كأنه ليس فيه فدية إلّا هذا؛ وليس فيه إطعام، أو صيام! فالواجب على طالب العلم أن يختار واحدًا من أمرين:

* إمّا أن يرى الأسهل، ويفتي بالأسهل.
* وإمّا أن يقول: عليك هذا، أو هذا، أو هذا؛ واختر لنفسك. أمّا أن يذكر الأشدّ فقط، ويسكت فهذا خلاف ما ينبغي للمفتين.

١- أخرجه أحمد ج٢/١٨٧، حديث رقم ٦٧٥٦، وأخرجه أبو داود ص١٢٥٩، كتاب الصلاة، باب ٢٦: متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم ٤٩٥، وفيه سوار بن أبي حازم قال الحافظ في التقريب: صدوق له أوهام؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ١/١٤٥، وله شاهد من حديث سبرة بن معبد (الإرواء /٢٦٦).

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)

قال أبو زهرة: قد بيَّن في الآية السابقة بعض أحكام الحج، وفي هذه الآية الكريمة يبين ميقاته، وما ينبغي للمؤمن في وقت حجه.

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ}، لما ذكر الحج والعمرة سبحانه وتعالى في قوله: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}[البقرة : ١٩٦]، بين اختلافهما في الوقت، فجميع السنة وقت للإحرام بالعمرة، ووقت العمرة. وأما الحج فيقع في السنة مرة، فلا يكون في غير هذه الأشهر. و{الحج أشهر معلومات}، ابتداء وخبر، وفي الكلام حذف تقديره: أشهر الحج أشهر، أو وقت الحج أشهر، أو وقت عمل الحج أشهر.

الثانية: واختلف في الأشهر المعلومات، فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهري: أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة كله. وقال ابن عباس والسدي والشعبي والنخعي: هي شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة، وروي عن ابن مسعود، وقاله ابن الزبير، والقولان مرويان عن مالك، حكى الأخير ابن حبيب، والأول ابن المنذر. وفائدة الفرق تعلُّق الدَّم، فمن قال: إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم ير دمًا فيما يقع من الأعمال بعد يوم النَّحر، لأنَّها في أشهر الحج. وعلى القول الأخير ينقضي الحج بيوم النَّحر، ويلزم الدَّم فيما عمل بعد ذلك لتأخيره عن وقته.

قال ابن العثيمين: {الحج أشهر معلومات}: يعني أن الحج يكون في أشهر معلومات؛ وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة؛ وقيل: العشر الأول من ذي الحجة؛ والأول أصح؛ وقد استشكل كون الخبر {أشهر}؛ ووجه الإشكال: أن الحج عمل، والأشهر زمن؛ فكيف يصح أن يكون الزمن خبرًا عن العمل؟ وأجيب بأن هذا على حذف مضاف؛ والتقدير: الحج ذو أشهر معلومات؛ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ وقيل: التقدير: الحج وقته أشهر معلومات؛ والتقدير الأول أقرب.

قال القرطبي: الثالثة: اختلف في الإهلال بالحج في غير أشهر الحج، فروي عن ابن عباس: من سنة الحج أن يحرم به في أشهر الحج. وقال عطاء ومجاهد وطاوس والأوزاعي: من أحرم بالحج قبل أشهر الحج لم يجزه ذلك عن حجة ويكون عمرة، كمن دخل في صلاة قبل وقتها فإنه لا تجزيه وتكون نافلة، وبه قال الشافعي وأبو ثور. وقال الأوزاعي: يحل بعمرة. وقال أحمد بن حنبل: هذا مكروه، وروي عن مالك، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج في جميع السنة كلها، وهو قول

أبي حنيفة. وقال النخعي: لا يحل حتى يقضي حجَّه، لقوله تعالى: {يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة: ١٨٩] وقد تقدَّم القول فيها. وما ذهب إليه الشافعي أصح، لأن تلك عامة، وهذه الآية خاصة. ويحتمل أن يكون من باب النَّص على بعض أشخاص العموم، لفضل هذه الأشهر على غيرها، وعليه فيكون قول مالك صحيح، والله أعلم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٤٥: {فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} وَلَمْ يَقُلْ: وَالْعُمْرَةَ، لِأَنَّهَا تُفْرَضُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ السُّنَّةَ فَرْضُ الْحَجِّ فِي أَشْهُرِهِ، وَمَنْ فَرَضَ قَبْلَهُ خَالَفَ السُّنَّةَ، فَإِمَّا أَنْ يَلْزَمَهُ مَا الْتَزَمَهُ كَالنَّذْرِ – إذْ لَيْسَ فِيهِ نَقْضٌ لِلْمَشْرُوعِ وَلَيْسَ كَمَنْ صَلَّى قَبْلَ الْوَقْتِ –، وَإِمَّا أَنْ يَلْزَمَ الْإِحْرَامَ وَيَسْقُطُ الْحَجُّ وَيَكُونُ مُعْتَمِرًا، وَهَذَانِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ.

قال القرطبي: الرابعة: قوله تعالى: {فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ}: أي الزمه نفسه بالشروع فيه بالنيَّة قصدًا باطنًا، وبالإحرام فعلًا ظاهرًا، وبالتَّلبية نطقًا مسموعًا، قاله ابن حبيب وأبو حنيفة في التَّلبية. وليست التَّلبية عند الشافعي من أركان الحج، وهو قول الحسن بن حي. قال الشافعي: تكفي النيَّة في الإحرام بالحج. وأوجب التَّلبية أهل الظاهر وغيرهم. وأصل الفرض في اللغة: الحز والقطع، ومنه فرضة[١] القوس والنهر والجبل. ففرضيَّة الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحز للقدح. وقيل: {فرض}: أي أبان، وهذا يرجع إلى القطع، لأن من قطع شيئًا فقد أبانه عن غيره.

قال ابن العثيمين: {فمن فرض فيهن الحج فلا رفث}؛ {من} اسم شرط؛ و{فرض} فعل الشرط؛ {فيهن} الضمير يعود إلى أشهر الحج؛ وقد أجمع العلماء على أن الضمير في {فيهن} يرجع إلى بعضهن؛ لأنه لا يمكن أن يفرض الحج بعد طلوع الفجر يوم النَّحر؛ ويفرض الحج من أول ليلة من شوال إلى ما قبل طلوع الفجر يوم النَّحر بزمن يتمكن فيه من الوقوف بعرفة.

{فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج} جواب الشرط؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما البناء على الفتح في {رفث}، و{فسوق}؛ والثانية: التنوين فيهما؛ أما {جدال} فإنها بالبناء على الفتح على القراءتين.

{فلا رفث: نفي بمعنى النهي؛ وال{رفث} الجماع، ومقدماته.

قال القرطبي: الخامسة: قوله تعالى: {فَلا رَفَثَ} قال ابن عباس وابن جبير والسدي وقتادة والحسن وعكرمة والزهري ومجاهد ومالك: الرفث الجماع، أي فلا جماع لأنه يفسده. وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج، وعليه حج قابل والهدي. وقال عبدالله بن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم: الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام، لقوله: إذا أحللنا فعلنا بك كذا، من غير كناية ، وقاله ابن عباس أيضًا، وأنشد وهو محرم:

١- فرضة القوس (بضم أوّله وضم ثانيه): الحز يقع عليه الوتر. وفرضة النهر: مشرب الماء منه. وفرضة الجبل: ما آنحدر من وسطه وجانبه.

وهن يمشين بنا هميسا ... إن تصدق الطير ننكّ لميسا

فقال له صاحبه حصين بن قيس: أترفث وأنت محرم فقال: إن الرفث ما قيل عند النساء. وقال قوم: الرفث الإفحاش بذكر النساء، كان ذلك بحضرتهن أم لا. وقيل: الرفث كلمة جامعة لما يريده الرجل من أهله. وقال أبو عبيدة: الرفث اللغا من الكلام، وأنشد: ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلم

يقال: رفث يرفث، بضم الفاء وكسرها. وقرأ ابن مسعود (فلا رفوث) على الجمع. قال ابن العربي: المراد بقوله: {فلا رفث} نفيه مشروعًا لا موجدًا، فإنَّا نجد الرفث فيه ونشاهده، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره، وإنما يرجع النفي إلى وجوده مشروعًا لا إلى وجوده محسوسًا، كقوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ}[البقرة: ٢٢٨] معناه: شرعًا لا حسًّا، فإنّا نجد المطلقات لا يتربَّصن، فعاد النفي إلى الحكم الشرعي لا إلى الوجود الحسِّي. وهذه الدقيقة هي التي فاتت العلماء فقالوا: إن الخبر يكون بمعنى النهي، وما وجد ذلك قط، ولا يصح أن يوجد، فإنهما مختلفان حقيقة ومتضادان وصفًا.

السادسة: قوله تعالى: {وَلا فُسُوقَ}: يعني جميع المعاصي كلها، قاله ابن عباس وعطاء والحسن. وكذلك قال ابن عمر وجماعة: الفسوق إتيان معاصي الله عز وجل في حال إحرامه بالحج ، كقتل الصيد وقص الظفر وأخذ الشعر، وشبه ذلك. وقال ابن زيد ومالك: الفسوق الذبح للأصنام، ومنه قوله تعالى: {أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}[الأنعام: ١٤٥]. وقال الضحاك: الفسوق التنابز بالألقاب، ومنه قوله: {بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ}[الحجرات: ١١]. وقال ابن عمر أيضًا: الفسوق السباب، ومنه قوله ﷺ: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر[١])). والقول الأول أصح، لأنه يتناول جميع الأقوال. قال ﷺ: ((من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه[٢]))، ((والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة[٣]))، خرجه مسلم وغيره. وقال الفقهاء: الحج المبرور هو الذي لم يعص الله تعالى فيه أثناء أدائه. وقال الفراء: هو الذي لم يعص الله سبحانه بعده، ذكر القولين ابن العربي رحمه الله.

قلت: الحج المبرور هو الذي لم يعص الله سبحانه فيه لا بعده. قال الحسن: الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة. وقيل غير هذا.

السابعة: قوله تعالى: {وَلا جِدَالَ} الجدال وزنه فعال من المجادلة، وهي مشتقة من الجدل وهو الفتل، ومنه زمام مجدول. وقيل: هي مشتقة من الجدالة التي هي الأرض.

١- (قلت): البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

٢- البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠/٤٣٨) كلاهما عن أبي هريرة.

٣- (قلت): البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

قال ابن العثيمين: {ولا جدال في الحج} يشمل الجدال فيه، وفي أحكامه، والمنازعات بين الناس في معاملاتهم؛ مثال الجدال فيه: أن يقال: (ما هو الحج؟)، أو (متى فرض؟)، فيحصل النزاع؛ فيحصل النزاع فيه؛ ومثاله في أحكامه: النزاع في أركانه، وواجباته، ومحظوراته؛ ومثال النزاع بين الناس في معاملاتهم: أن يتنازع اثنان في العقود، فيقول أحدهما: (بعتك)، والثاني يقول: (لم تبعني)؛ أو يقول: (بعتك بكذا)، ويقول الثاني: (بل بكذا)؛ أو يتنازع اثنان عند أنابيب الماء في الشرب، أو الاستسقاء، أو عند الخباز.

قال القرطبي: الثامنة: واختلفت العلماء في المعنى المراد به هنا على أقوال ستة، فقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء: الجدال هنا أن تماري مسلمًا حتى تغضبه فينتهي إلى السباب، فأما مذاكرة العلم فلا نهي عنها. وقال قتادة: الجدال السباب. وقال ابن زيد ومالك بن أنس: الجدال هنا أن يختلف الناس: أيهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام، كما كانوا يفعلون في الجاهلية حين كانت قريش تقف في غير موقف سائر العرب ثم يتجادلون بعد ذلك، فالمعنى على هذا التأويل: لا جدال في مواضعه. وقالت طائفة: الجدال هنا أن تقول طائفة: الحج اليوم، وتقول طائفة: الحج غدًا. وقال مجاهد وطائفة معه: الجدال المماراة في الشهور حسب ما كانت عليه العرب من النسيء، كانوا ربما جعلوا الحج في غير ذي الحجة، ويقف بعضهم بجمع وبعضهم بعرفة، ويتمارون في الصواب من ذلك.

قلت: فعلى هذين التأويلين لا جدال في وقته ولا في موضعه، وهذان القولان أصح ما قيل في تأويل قوله: {ولا جدال}، لقوله ﷺ: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض... ([1]))) الحديث، وسيأتي في [براءة]. يعني رجع أمر الحج كما كان، أي عاد إلى يومه ووقته. وقال ﷺ لما حج: ((خذوا عني مناسككم([2]))), فبين بهذا مواقف الحج ومواضعه. وقال محمد بن كعب القرظي: الجدال أن تقول طائفة: حجّنا أبرُّ من حجِّكم. ويقول الآخر مثل ذلك. وقيل: الجدال كان في الفخر بالآباء، والله أعلم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٦ص١٠٧: فَالرَّفَثُ: اسْمٌ لِلْجِمَاعِ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَالْفُسُوقُ: اسْمٌ لِلْمَعَاصِي كُلِّهَا، وَالْجِدَالُ – عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ – هُوَ الْمِرَاءُ فِي أَمْرِ الْحَجِّ. فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَهُ وَبَيَّنَهُ، وَقَطَعَ الْمِرَاءَ فِيهِ، كَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَمَارَوْنَ فِي أَحْكَامِهِ وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى قَدْ يُفَسَّرُ بِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا، وَقَدْ فَسَّرُوهَا بِأَنْ لَا يُمَارِيَ الْحَاجُّ أَحَدًا، وَالتَّفْسِيرُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْهَ الْمُحْرِمَ وَلَا غَيْرَهُ عَنْ الْجِدَالِ مُطْلَقًا، بَلْ الْجِدَالُ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا أَوْ

١- (قلت): البخاري (٤٦٦٢)، ومسلم (١٦٧٩).

٢- (قلت): مسلم (١٢٩٧)، ولكن بلفظ: ((لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فإني لاَ أَدْرِى لَعَلِّى لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حجتي هَذِهِ)). وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٠٧٤)، وقال: أخرجه أبو نعيم فى المستخرج (٢/١٦٦/٢١)، وأبو داود (١٩٧٠)، والنسائى (٢/٥٠)، والترمذى (١/١٦٨)، مختصرًا وابن ماجه (٣٠٢٣)، وأحمد (٣/٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٦٧ ، ٣٧٨)، وأبو يعلى فى مسنده (ق ١١٩/١)، والبيهقي (٥/١٣٠)، من طريق أبى الزبير.

مُسْتَحَبًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[النحل: ١٢٥]، وَقَدْ يَكُونُ الْجِدَالُ مُحَرَّمًا فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ كَالْجِدَالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَكَالْجِدَالِ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ.

وَلَفْظُ {الْفُسُوقِ}: يَتَنَاوَلُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَخْتَصُّ بِالسِّبَابِ وَإِنْ كَانَ سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقًا، فَالْفُسُوقُ يَعُمُّ هَذَا وَغَيْرَهُ.

و{الرَّفَثُ}: هُوَ الْجِمَاعُ، وَلَيْسَ فِي الْمَحْظُورَاتِ مَا يُفْسِدُ الْحَجَّ إلَّا جِنْسُ الرَّفَثِ، فَلِهَذَا مَيَّزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفُسُوقِ.

وَأَمَّا سَائِرُ الْمَحْظُورَاتِ، كَاللِّبَاسِ، وَالطِّيبِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ يَأْثَمُ بِهَا، فَلَا تُفْسِدُ الْحَجَّ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْمَشْهُورِينَ.

وَيَنْبَغِي لِلْمُحْرِمِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ إلَّا بِمَا يَعْنِيهِ، وَكَانَ شريح إذَا أَحْرَمَ كَأَنَّهُ الْحَيَّةُ الصَّمَّاءُ، وَلَا يَكُونُ الرَّجُلُ مُحْرِمًا بِمُجَرَّدِ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ قَصْدِ الْحَجِّ، وَنِيَّتِهِ، فَإِنَّ الْقَصْدَ مَا زَالَ فِي الْقَلْبِ مُنْذُ خَرَجَ مِنْ بَلَدِهِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ يَصِيرُ بِهِ مُحْرِمًا؛ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ الْقَوْلَيْنِ. وَالتَّجَرُّدُ مِنْ اللِّبَاسِ وَاجِبٌ فِي الْإِحْرَامِ، وَلَيْسَ شَرْطًا فِيهِ، فَلَوْ أَحْرَمَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ صَحَّ ذَلِكَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَنْزِعَ اللِّبَاسَ الْمَحْظُورَ.

قال القرطبي: التاسعة: قوله تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} شرط وجوابه، والمعنى: أن الله يجازيكم على أعمالكم، لأن المجازاة إنما تقع من العالم بالشيء. وقيل: هو تحريض وحث على حسن الكلام مكان الفحش، وعلى البرِّ والتَّقوى في الأخلاق مكان الفسوق والجدال. وقيل: جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد ما نهوا عنه.

قال ابن العثيمين: {وما تفعلوا من خير يعلمه الله}: لما نهى عن هذه الشرور انتقل إلى الأمر بالخير؛ وهذه الجملة شرطية: {ما} أداة الشرط؛ وفعل الشرط: {تفعلوا}؛ وجواب الشرط: {يعلمه الله}؛ ولهذا جزمت؛ و{من} بيانية تبين المبهم من اللفظ؛ لأن {ما} شرطية مبهمة كالموصول؛ و{خير} نكرة في سياق الشرط، فيشمل كل خير سواء كان قليلًا، أو كثيرًا.

وقوله تعالى: {يعلمه الله}: أي يحيط به علمًا.

قال السعدي: والمقصود من الحج، الذُّل والانكسار لله، والتقرُّب إليه بما أمكن من القربات، والتنزُّه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبرورًا والمبرور، ليس له جزاء إلّا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرُّب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: {وما تفعلوا من خير يعلمه الله}، أتى بـ{من} لتنصيص على العموم، فكل خير وقربة وعبادة، داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمَّن غاية الحث على أفعال الخير، وخصوصًا في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي.

قال القرطبي: العاشرة: قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا}: أمر باتِّخاذ الزَّاد. قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد: نزلت الآية في طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا، فكانوا يبقون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك، وأمر بالزَّاد. وقال عبدالله بن الزبير: كان الناس يتكل بعضهم على بعض بالزَّاد، فأمروا بالزَّاد. وكان للنَّبي ﷺ في مسيره راحلة عليها زاد. وقال بعض الناس: {وَتَزَوَّدُوا} الرفيق الصالح. وقال ابن عطية: وهذا تخصيص ضعيف، والأولى في معنى الآية: وتزوَّدوا لمعادكم من الأعمال الصالحة.

قلت: القول الأول أصح، فإن المراد الزَّاد المتَّخَذ في سفر الحج المأكول حقيقةً كما ذكرنا، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: ((كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}([١]))، وهذا نصّ فيما ذكرنا، وعليه أكثر المفسرين: قال الشعبي: الزَّاد التّمر والسويق. ابن جبير: الكعك والسويق. قال ابن العربي: (أمر الله تعالى بالتَّزوّد لمن كان له مال، ومن لم يكن له مال فإن كان ذا حرفة تنفق في الطريق أو سائلًا فلا خطاب عليه، وإنَّما خاطب الله أهل الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد ويقولون: نحن المتوكِّلون. والتوكُّل له شروط، من قام بها خرج بغير زاد ولا يدخل في الخطاب، فإنه خرج على الأغلب من الخلق وهم المقصِّرون عن درجة التوكُّل الغافلون عن حقائقه، والله عز وجل أعلم). قال أبو الفرج الجوزي: وقد لبس إبليس على قوم يدَّعون التوكُّل، فخرجوا بلا زاد وظنُّوا أن هذا هو التوكُّل وهم على غاية الخطأ. قال رجل لأحمد بن حنبل: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكُّل بغير زاد، فقال له أحمد: اخرج في غير القافلة. فقال لا، إلَّا معهم. قال: فعلى جرب([٢])الناس توكَّلت؟!

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٨ص١٨٢: فَمَنْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ التَّزَوُّدِ فَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَأَحْسَنَ مِنْهُ إلَى مَنْ يَكُونُ مُحْتَاجًا كَانَ مُطِيعًا لِلَّهِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، بِخِلَافِ مَنْ تَرَكَ ذَلِكَ مُلْتَفِتًا إلَى أَزْوَادِ الْحَجِيجِ، كَلًّا عَلَى النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ مَعَ هَذَا قَلْبُهُ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إلَى مُعَيَّنٍ، فَهُوَ مُلْتَفِتٌ إلَى الْجُمْلَةِ، لَكِنْ إنْ كَانَ الْمُتَزَوِّدُ غَيْرَ قَائِمٍ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَمُوَاسَاةِ الْمُحْتَاجِ، فَقَدْ يَكُونُ فِي تَرْكِهِ لِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ جِنْسِ هَذَا التَّارِكِ لِلتَّزَوُّدِ الْمَأْمُورِ بِهِ.

قال القرطبي: الحادية عشرة: قوله تعالى: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}، أخبر تعالى أن خير الزَّاد اتِّقاء المنهيَّات فأمرهم أن يضموا إلى التَّزوُّد التّقوى. وجاء قول: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} محمولًا على المعنى، لأن معنى {وَتَزَوَّدُوا}: اتَّقوا الله في اتِّباع ما أمركم به من الخروج بالزَّاد: وقيل: يحتمل أن يكون المعنى: فإن خير الزَّاد ما اتَّقى به المسافر من الهلكة أو الحاجة إلى السؤال والتكفُّف. وقيل: فيه تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار.

١- (قلت): البخاري (١٥٢٣)، رَوَاهُ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عِكْرِمَةَ مُرْسَلًا.

٢- جرب (بضمتين): جمع جراب وهو الوعاء.

قال السعدي: وأمّا الزَّاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه، في دنياه، وأخراه، فهو زاد التَّقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذَّة، وأَجَلُّ نعيم، دائم أبدًا، ومن ترك هذا الزَّاد، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. فهذا مدح للتَّقوى.

قال القرطبي: الثانية عشرة: قوله تعالى: {وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}: خصَّ أولي الألباب بالخطاب وإن كان الأمر يعمُّ الكل، لأنهم الذين قامت عليهم حجَّة الله، وهم قابلو أوامره والناهضون بها. والألباب جمع لب، ولب كل شيء: خالصه، ولذلك قيل للعقل: لب. قال النحاس: سمعت أبا إسحاق يقول قال لي أحمد بن يحيى ثعلب: أتعرف في كلام العرب شيئًا من المضاعف جاء على فعل؟ قلت نعم، حكى سيبويه عن يونس: لببت تلب، فاستحسنه وقال: ما أعرف له نظيرًا.

قال ابن العثيمين: لمَّا رغَّب الله سبحانه وتعالى في التَّقوى أمر بها طلبًا لخيرها فقال تعالى: {واتَّقون يا أولي الألباب}؛ و{اتَّقون} فعل أمر؛ والنون للوقاية؛ والياء المحذوفة للتَّخفيف مفعول به؛ و{يا أولي الألباب} جمع لب؛ أي يا أصحاب العقول؛ ووجه الله تعالى الأمر إلى أصحاب العقول؛ لأنهم هم الذين يدركون فائدة التَّقوى، وثمرتها؛ أما السفهاء فلا يدركونها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تعظيم شأن الحج، حيث جعل الله له أشهرًا مع أنه أيَّام ـ ستة أيَّام ـ؛ وقد جعل الله له أشهرًا ثلاثة حتى يأمن الناس، ويتأهَّبوا لهذا الحج؛ ولهذا ما بعد الحج أقصر ممّا قبله؛ الذي قبله: شهران وسبعة أيَّام؛ والذي بعده: سبعة عشر يومًا فقط؛ لأنه إذا حج انتهى غرضه؛ فطلب منه العودة؛ بخلاف ما إذا كان قبله.

٢- أن أشهر الحج ثلاثة؛ لقوله تعالى: {أشهر}؛ وهي جمع قلَّة؛ والأصل في الجمع أن يكون ثلاثة فأكثر؛ هذا المعروف في اللغة العربية؛ ولا يطلق الجمع على اثنين، أو اثنين وبعض الثالث إلَّا بقرينة؛ وهنا لا قرينة تدلُّ على ذلك؛ لأنهم إن جعلوا أعمال الحج في الشهرين وعشرة الأيَّام يردُّ عليه أن الحج لا يبدأ فعلًا إلَّا في اليوم الثامن من ذي الحجة؛ وينتهي في الثالث عشر؛ وليس العاشر؛ فلذلك كان القول الراجح أنه ثلاثة أشهر كاملة؛ وهو مذهب مالك؛ وهو الصحيح؛ لأنه موافق للجمع؛ وفائدته أنه لا يجوز تأخير أعمال الحج إلى ما بعد شهر ذي الحجة إلَّا لعذر؛ لو أخَّرتَ طواف الإفاضة مثلًا إلى شهر المحرَّم قلنا: هذا لا يجوز؛ لأنه ليس في أشهر الحج والله تعالى يقول: {الحج أشهر}؛ فلابدَّ أن يقع في أشهر الحج؛ ولو أخَّرت الحلق إلى المحرَّم فهذا لا يجوز؛ لأنه تعدَّى أشهر الحج. وهل هذه الأشهر من الأشهر الحرم؟

الجواب: أن اثنين منها من أشهر الحرم، وهما ذو القعدة، وذو الحجة؛ وواحد ليس منها – وهو شوال كما أن (المحرَّم) من الأشهر الحرم، وليس من أشهر الحج؛ فرمضان شهر صيام؛ وشوال شهر حج؛ وذو القعدة شهر حج، ومن الحرم؛ وذو الحجة شهر حج، ومن الحرم؛ والمحرَّم من الحرم، وليس شهر حج.

٣- الإحالة على المعلوم بشرط أن يكون معلومًا؛ لقوله تعالى: {معلومات}؛ وهذا يستعمله الفقهاء كثيرًا يقولون: هذا معلوم بالضرورة من الدين؛ وأمر هذا معلوم؛ وما أشبه ذلك؛ فلا يقال: إنه لم يبين؛ لأنه ما دام الشيء مشهورًا بين الناس معروفًا بينهم يصح أن يعرفه بأنه معلوم؛ ومن ذلك ما يفعله بعض الكتاب في الوثائق: يقول: (باع فلان على فلان كذا، وكذا) – وهو معلوم بين الطرفين – يجوز وإن لم تفصل ما دام معلومًا؛ فإضافة الشيء إلى العلم وهو معلوم يعتبر من البيان.

٤- أن من تلبس بالحج، أو العمرة وجب عليه إتمامه، وصار فرضًا عليه؛ لقوله تعالى: {فمن فرض فيهن الحج}؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: {ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم}[الحج: ٢٩]؛ فسمَّى الله تعالى أفعال الحج نذورًا؛ ويدلُّ على ذلك أيضًا قوله تعالى: {وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي}[البقرة: ١٩٦]؛ فلم يبح الله تعالى الخروج من النسك إلا بالإحصار.

٥- وجوب إتمام النفل في الحج؛ لقوله تعالى: {فمن فرض}؛ والفرض لابدَّ من إتمامه.

٦- أن الإحرام بالحج قبل أشهره لا ينعقد؛ لقوله تعالى: {فمن فرض فيهن الحج فلا رفث}؛ فلم يرتِّب الله أحكام الإحرام إلَّا لمن فرضه في أشهر الحج؛ ومعلوم أنه إذا انتفت أحكام العمل فمعناه أنه لم يصح العمل، وهذا مذهب الشافعي – رحمه الله – أنه إذا أحرم بالحج قبل دخول أشهر الحج لم ينعقد إحرامه؛ ولكن هل يلغو، أو ينقلب عمرة؟ في هذا قولان عندهم؛ أما عندنا مذهب الحنابلة؛ فيقولون: إن الإحرام بالحج قبل أشهره ينعقد؛ ولكنه مكروه – يكره أن يحرم بالحج قبل أشهره – ومذهب الشافعي أقرب إلى ظاهر الآية الكريمة: أنه إذا أحرم بالحج قبل أشهره لا ينعقد حجًا؛ والظاهر أيضًا أنه لا ينعقد، ولا ينقلب عمرة؛ لأن العبادة لم تنعقد؛ وهو إنَّما دخل على أنها حج؛ فلا ينعقد لا حجًّا، ولا عمرةً.

٧- أن المحظورات تحرم بمجرَّد عقد الإحرام – وإن لم يخلع ثيابه من قميص، وسراويل، وغيرها؛ لقوله تعالى: {فمن فرض فيهن الحج فلا رفث}؛ لأنه جواب الشرط؛ وجواب الشرط يكون تاليًا لفعله؛ فبمجرَّد أن يفرض فريضة الحج تحرم عليه المحظورات.

٨- أن الإحرام ينعقد بمجرَّد النيَّة – أي نيَّة الدخول إلى النُّسك؛ وتثبت بها الأحكام – وإن لم يلب؛ لقوله تعالى: {فمن فرض فيهن الحج فلا رفث}.

٩- تحريم الجماع، ومقدماته بعد عقد الإحرام؛ لقوله تعالى: {فلا رفث}؛ وجواب الشرط يكون عقب الشرط؛ فبمجرَّده يحرم الرفث.

١٠- تحريم الفسوق؛ لقوله تعالى: {فلا فسوق}.

فإن قال قائل: الفسوق محرم في الإحرام، وغيره.

فالجواب: أنه يتأكَّد في الإحرام أكثر من غيره.

١١- تحريم الجدال؛ لقوله تعالى: {ولا جدال في الحج}؛ والجدال إن كان لإثبات الحق، أو لإبطال الباطل فإنه واجب، وعلى هذا فيكون مستثنى من هذا العموم؛ لقوله تعالى: {وجادلهم بالتي هي أحسن}[النحل: ١٢٥]؛ وأما الجدال لغير هذا الغرض فإنه محرَّم حال الإحرام؛ فإن قلت: أليس محرَّمًا في هذا، وفي غيره لما يترتَّب عليه من العداوة والبغضاء وتشويش الفكر؟

فالجواب: أنه في حال الإحرام أوكد.

١٢- البعد حال الإحرام عن كل ما يشوش الفكر، ويشغل النفس؛ لقوله تعالى: {ولا جدال في الحج}؛ ومن ثم يتبيَّن خطأ أولئك الذين يزاحمون على الحجر عند الطواف؛ لأنه يشوِّش الفكر، ويشغل النفس عمّا هو أهم من ذلك.

١٣- الحثّ على فعل الخير؛ لأن قوله تعالى: {وما تفعلوا من خير يعلمه الله} يدل على أنه سيجازي على ذلك، ولا يضيعه؛ قال تعالى: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا}[طه: ١١٢].

١٤- أن الخير سواء قل، أو كثر، فإنه معلوم عند الله؛ لقوله تعالى: {من خير}؛ وهي نكرة في سياق الشرط؛ والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

١٥- عموم علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: {وما تفعلوا من خير يعلمه الله}.

١٦- الحثّ على التَّزوُّد من الخير؛ لقوله تعالى: {وتزوَّدوا فإن خير الزَّاد التَّقوى}.

١٧- أنه ينبغي للحاج أن يأخذ معه الزَّاد الحسِّي من طعام، وشراب، ونفقة، لئلَّا يحتاج في حجِّه، فيتكفَّف الناس؛ لقوله تعالى: {وتزوَّدوا}.

١٨- أن التَّقوى خير زاد، كما أن لباسها خير لباس؛ فهي خير لباس؛ لقوله تعالى: {ولباس التَّقوى ذلك خير}[الأعراف: ٢٦]؛ وهي خير زاد؛ لقوله تعالى: {فإن خير الزَّاد التَّقوى}.

١٩- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: {واتَّقون}.

٢٠- أن أصحاب العقول هم أهل التَّقوى؛ لقوله تعالى: {واتَّقون يا أولي الألباب}.

٢١- أنه كلَّما نقص الإنسان من تقوى الله كان ذلك دليلًا على نقص عقله - عقل الرُّشد؛ بخلاف قول النبي ﷺ: ((ما رأيت من ناقصات عقل، ودين([1])))؛ فإنَّ المراد بنقص العقل هنا عقل الإدراك؛ فإن مناط التَّكليف عقل الإدراك؛ ومناط المدح عقل الرُّشد؛ ولهذا نقول: إن هؤلاء الكفار الأذكياء الذين هم في التصرف من أحسن ما يكون؟ نقول: هم عقلاء عقول إدراك؛ لكنهم ليسوا عقلاء عقول رشد؛ ولهذا دائمًا ينعى الله عليهم عدم عقلهم؛ والمراد عقل الرُّشد الذي به يرشدون.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)

قال أبو زهرة: هذه الآيات الكريمات في ذكر بقيَّة مناسك الحج، وقد ابتدأت الآيات السابقة فذكَرت ابتداءه، وأشارت إلى انتهائه، وكيف يكون الانتهاء، وفي هذه الآية إشارة إلى ركن الحج الرَّكين الذي يفوت الحج بفواته، وهو الوقوف بعرفات. فهذه الآيات وما سبقها في موضوع واحد.

وقد انتهت الآية السابقة بأن الحاج عليه أن يتزوَّد من المعاني الروحية؛ لأنها لبُّ الحج ومعناه، وغايته ومرماه: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}. وقد ابتدأت هذه الآيات ببيان أن التزود الروحي لَا يتنافى مع بعض الأغراض المادية، إذا توافرت التَّقوى، وتسامت النفس وعلت قوة الروح، فإن المادة في هذه الحال تكون مطيَّة الروح، وفي خدمة المبادئ الفاضلة؛ فليست التَّقوى في الإسلام هي التَّجَرُّد النفسي، والانخلاع من دواعي الجسم أو تعذيب الجسم لتطهير الروح؛ إنَّما التَّقوى في الإسلام تقوية الروح لتسيطر على الجسم، وتقوية الجسم ليؤدي مقاصد الروح، ويصل إلى غاياتها ومراميها؛ ولذلك أردفت الآية الداعية إلى طلب الزَّاد الروحي من التَّقوى بالآية التي تنفي الإثم عن مطالب الجسد، ما دامت خاضعة لقوة الإرادة والعقل؛ لأن المادة ومقتضياتها من ملاذ ومتع ليست محرَّمة في الإسلام، بل هي محلَّلة على أن تكون أَمَةً للعقل والروح والإرادة الحازمة الفاضلة لَا أن تكون سيِّدًا حاكمًا مسيرًا، أو أن تكون الغاية والقصد، فتلك هي الحيوانية.

قال ابن العثيمين: لمَّا أمر الله بالتَّزَوُّد، وبيَّن أن خير الزَّاد التَّقوى، وأمر بالتَّقوى، قد يقول قائل: إذا اتَّجرت أثناء حَجِّي صار عليَّ في ذلك إثم؛ ولهذا تحرَّج الصحابة من الاتِّجار في الحج؛ فبيَّن الله عز وجل أن ذلك لا يُؤَثِّر، وأنه ليس فيه

١- أخرجه البخاري ص٢٦، كتاب الحيض، باب ٦: ترك الحائض الصوم، حديث رقم ٣٠٤، وأخرجه مسلم ص٦٩٢، كتاب الإيمان، باب ٣٤: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، حديث رقم ٢٤١ [١٣٢] ٧٩.

إثم؛ فقال تعالى: {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم}: أي أن تبتغوا الرزق، وتطلبوه بالتجارة؛ كقوله تعالى: {وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله}[المزمل: ٢٠].

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {جُنَاحٌ}: أي إثم، وهو اسم ليس. {أَنْ تَبْتَغُوا}: في موضع نصب خبر ليس، أي: في أن تبتغوا. وعلى قول الخليل والكسائي أنها في موضع خفض. ولمَّا أمر تعالى بتنزيه الحج عن الرَّفث والفسوق والجدال ورخَّص في التجارة، المعنى: لا جناح عليكم في أن تبتغوا فضل الله. وابتغاء الفضل ورد في القرآن بمعنى التجارة، قال الله تعالى: {فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}[الجمعة: ١٠]. والدَّليل على صحَّة هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس قال: ((كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا(١)في الجاهلية فتأثَّموا أن يتَّجروا في المواسم فنزلت: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ} في مواسم الحج(٢))).

الثانية: إذا ثبت هذا ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شِركًا ولا يخرج به المكلَّف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، خلافًا للفقراء(٣). أمَّا إن الحج دون تجارة أفضل، لعروها عن شوائب الدنيا وتعلُّق القلب بغيرها. روى الدار قطني في سننه عن أبي أمامة التيمي قال قلت لابن عمر: إني رجل أكرى في هذا الوجه، وإن ناسًا يقولون: إنه لا حج لك. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله مثل هذا الذي سألتني، فسكت حتى نزلت هذه الآية: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} فقال رسول الله ﷺ: ((إن لك حجًّا(٤))).

١- الذي في البخاري: ((كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت....الخ)). وعكاظ: نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال. وذو المجاز: خلف عرفة. ومجنة: بمرّ الظهران، قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها. وهذه أسواق للعرب، وكان أهل الجاهلية يصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه الى مجنة بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة؛ فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا من مجنة الى ذي المجاز، فلبثوا به ثمان ليال، ثم يذهبون الى عرفة. ولم تزل هذه الأسواق قائمة في الإسلام الى أن كان أول ما ترك منها سوق العكاظ في زمن الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة، لما خرج الحروري بمكة مع أبي حمزة المختار أبن عوف خاف الناس أن ينتهبوا فتركت الى الآن، ثم ترك ذو المجاز ومجنة بعد ذلك، وآستغنوا بالأسواق بمكة ويمنى ويعرفة. (عن شرح القسطلاني).

٢- قوله: ((في مواسم الحج)) قراءة ابن عباس، كما نبَّه عليه المؤلف في مقدمة الكتاب، وقال أبو حيان في البحر: وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير (فضلًا من ربكم في مواسم الحج) وجعل هذا تفسيرًا؛ لأنه مخالف لسواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة.

٣- لعله يريد بالفقراء الصوفية.

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبو داود (١٥٢٣)، وقال: وصححه ابن خزيمة. والحديث أخرجه الحاكم (٤٤٩/١)، وعنه البيهقي (٣٣٣/٤) من طريق أخرى عن مسدد ... به. وقال الحاكم: (صحيح الإسناد)، ووافقه الذهبي. ورواه ابن خزيمة (٣٠٥٢)، وأحمد (١٥٥/٢) ، وابن جرير (٣٧٦٥) من طريق أسباط: حدثنا الحسن بن عمرو الفُقَيْمِي عن أبي أمامة التيمي ... به.

ثم أخرجه أحمد، وابن جرير (٣٧٨٩) من طريق سفيان الثوري عن العلاء بن المسيب ... به؛ وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣٠٥١).

الثالثة: قوله تعالى: {فَإِذَا أَفَضْتُمْ}: أي اندفعتم. ويقال: فاض الإناء إذا امتلأ حتى ينصب عن نواحيه. ورجل فيَّاض، أي مندفق بالعطاء.

قال ابن العثيمين: {فإذا أفضتم من عرفات}؛ أصل الإفاضة الاندفاع؛ ومنه إفاضة الماء؛ ومنه الإفاضة في الكلام، والاستمرار فيه؛ ومعنى {أفضتم}: دفعتم؛ والتَّعبير بـ{أفضتم} يصوِّر لك هذا المشهد كأن الناس أودية تندفع.

قال القرطبي: الرابعة: قوله تعالى: {عرفات}: قراءة الجماعة {عَرَفَاتٍ} بالتنوين، وكذلك لو سمِّيت امرأة بمسلمات، لأن التنوين هنا ليس فرقًا بين ما ينصرف وما لا ينصرف فتحذفه، وإنما هو بمنزلة النون في مسلمين. قال النحاس: هذا الجيِّد. و{عرفات}: اسم علم، سمِّي بجمع كأذرعات. وقيل: سمِّي بما حوله، كأرض سباسب(١). وقيل: سمِّيت تلك البقعة عرفات لأن الناس يتعارفون بها. وقيل: لأن آدم لما هبط وقع بالهند، وحواء بجدَّة، فاجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عرفة وتعارفًا، فسمِّي اليوم عرفة، والموضع عرفات، قاله الضحاك. وقيل غير هذا لما تقدم ذكره عند قوله تعالى: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}[البقرة: ١٢٨]. قال ابن عطية: والظاهر أن اسمه مرتجل كسائر أسماء البقاع. وعرفة هي نعمان الأراك، وفيها يقول الشاعر: تزودت من نعمان عود أراكة ... لهند ولكن لم يبلغه هندا

وقيل: هي مأخوذة من العرف وهو الطيب، قال الله تعالى: {عَرَّفَهَا لَهُمْ}[محمد : ٦] أي طيَّبها، فهي طيبة بخلاف منى التي فيها الفروث والدماء، فلذلك سمِّيت عرفات. ويوم الوقوف، يوم عرفة.

قال ابن العثيمين: و{عرفات} على صيَغ الجمع؛ وهي اسم لمكان واحد؛ وهو معروف؛ وسمِّي عرفات لعدة مناسبات:

قيل: لأن الناس يعترفون هناك بذنوبهم، ويسألون الله أن يغفرها لهم.

وقيل: لأن الناس يتعارفون بينهم؛ إذ إنه مكان واحد يجتمعون فيه في النهار؛ فيعرف بعضهم بعضًا.

وقيل: لأن جبريل لما علم آدم المناسك، ووصل إلى هذا قال: عرفت.

وقيل: لأن آدم لما أهبط إلى الأرض هو وزوجته تعارفا في هذا المكان.

وقيل: لأنها مرتفعة على غيرها؛ والشيء المرتفع يسمَّى عَرَفًا؛ ومنه: أهل الأعراف، كما قال تعالى: {ونادى أصحاب الأعراف رجالًا}[الأعراف: ٤٨]؛ ومنه: عَرف الديك؛ لأنه مرتفع؛ وكل شيء مرتفع يسمَّى بهذا الاسم.

وعندي – والله أعلم – أن هذا القول الأخير أقرب الأقوال؛ وكذلك الأول: أنه سمِّي عرفات؛ لأن الناس يعترفون فيه لله تعالى بالذنوب؛ ولأنه أعرف الأماكن التي حوله.

١- جاء في اللسان مادة سبسب: (وحكى اللحياني بلد سبسب، وبلد سباسب؛ كأنهم جعلوا كل جزء منه سبسبا؛ ثم جمعوه على هذا). والسبسب: القفر والمفازة. وقيل: الأرض المستوية البعيدة.

قال القرطبي: الخامسة: أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك قبل الزوال. وأجمعوا على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارًا قبل الليل، إلا مالك بن أنس فإنه قال: لابدَّ أن يأخذ من الليل شيئًا. وأما من وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة في تمام حجّه. والحجة للجمهور مطلق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ ولم يخص ليلًا من نهار، وحديث عروة بن مضرس قال: أتيت النبي ﷺ وهو في الموقف من جمع، فقلت يا رسول الله، جئتك من جبلي طيء أكللت مطيتي، وأتعبت نفسي، والله إن تركت من جبل([1])إلا وقفت عليه، فهل لي من حج يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ((من صلَّى معنا صلاة الغداة بجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلًا أو نهارًا فقد قضى تفثه وتم حجَّه([2]))). أخرجه غير واحد من الأئمة، منهم أبو داود والنسائي والدار قطني واللفظ له وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال أبو عمر: حديث عروة بن مضرس الطائي حديث ثابت صحيح، رواه جماعة من أصحاب الشعبي الثقات عن الشعبي عن عروة بن مضرس، منهم إسماعيل بن أبي خالد وداود بن أبي هند وزكريا بن أبي زائدة وعبدالله بن أبي السفر ومطرف، كلهم عن الشعبي عن عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام. وحجة مالك من السنة الثابتة: حديث جابر الطويل، خرجه مسلم، وفيه: فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القرص. وأفعاله على الوجوب، لا سيَّما في الحج وقد قال: ((خذوا عني مناسككم)).

قال ابن العثيمين: و﴿عرفات﴾: مشعر حلال خارج الحرم؛ ومع ذلك فهو الحج، كما قال الرسول ﷺ: ((الحج عرفة([3])))؛ والحكمة من الوقوف فيها أن يجمع الحاج في نسكه بين الحل والحرم؛ ولهذا أمر النبي ﷺ عائشة أن تحرم بالعمرة من التنعيم([4])؛ لتجمع فيها بين الحل والحرم.

١- في ز وبعض كتب الحديث ونهاية ابن الأثير بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الموحدة. قال الترمذي في سننه: ((قوله: من حبل)) اذا كان من رمل يقال له حبل، واذا كان من حجارة يقال له جبل)).

وقال ابن الأثير في تفسير هذا الحديث: ((الحبل: المستطيل من الرمل، وقيل: الضخم منه؛ وجمعه حبال. وقيل: الحبال في الرمل كالجبال في غير الرمل)). وقال الخطابي: الحبال ما دون الجبال في الإرتفاع.

٢- قال صاحب التعليق المغني على سنن الدار قطني: وقوله: ((وقضى تفثه)). قيل المراد به أنه أتى بما عليه من المناسك، والمشهور أن التفث ما يصنعه المحرم عند حله من تقصير شعر أو حلقه و حلق العانة ونتف الإبط وغيره من خصال الفطرة، ويدخل في ضمن ذلك نحر البدن، وقضاء جميع المناسك؛ لأنه لا يقضي التفث إلا بعد ذلك، وأصل التفث الوسخ والقذر. قاله الشوكاني.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٣٢١).

٣- أخرجه أبو داود ص١٣٦٧، كتاب المناسك، باب ٦٨: من لم يدرك عرفة، حديث رقم ١٩٤٩، وأخرجه الترمذي ص١٩٥١، كتاب تفسير القرآن، باب ٢: ومن سورة البقرة، حديث رقم ٢٩٧٥، وأخرجه النسائي ص٢٢٨٣، كتاب المناسك، باب ٢١١: فمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة، حديث رقم ٣٠٤٧، وأخرجه ابن ماجة ص٢٦٥٩، كتاب المناسك، باب ٥٧: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، حديث رقم ٣٠١٥، وأخرجه الدارمي ٨٢/٢، كتاب المناسك، باب ٥٤: بما يتم الحج، حديث رقم ١٨٨٧، وقال الألباني في الإرواء (صحيح)، ٢٥٦/٤، حديث رقم ١٠٦٤.

٤- أخرجه البخاري ص٢٧، كتاب الحيض، باب ١٥: امتشاط المرأة ... ، حديث رقم ٣١٦؛ وأخرجه مسلم ص٨٧٦، كتاب الحج، باب ١٧: بيان وجوه الإحرام ... ، حديث رقم ٢٩١٠ [١١١] ١٢١١.

قال القرطبي: السادسة: واختلف الجمهور فيمن أفاض قبل غروب الشمس ولم يرجع ماذا عليه مع صحة الحج، فقال عطاء وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأي وغيرهم: عليه دم. وقال الحسن البصري: عليه هدي. وقال ابن جريج: عليه بدنة. وقال مالك: عليه حج قابل، والهدي ينحره في حج قابل، وهو كمن فاته الحج. فإن عاد إلى عرفة حتى يدفع بعد مغيب الشمس فقال الشافعي: لا شيء عليه، وهو قول أحمد وإسحاق وداود، وبه قال الطبري. وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري: لا يسقط عنه الدم وإن رجع بعد غروب الشمس، وبذلك قال أبو ثور.

السابعة: ولا خلاف بين العلماء في أن الوقوف بعرفة راكبا لمن قدر عليه أفضل، لأن النبي ﷺ كذلك وقف إلى أن دفع منها بعد غروب الشمس، وأردف أسامة بن زيد، وهذا محفوظ في حديث جابر الطويل وحديث علي، وفي حديث ابن عباس أيضًا. قال جابر: ((ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات([١])، وجعل حبل([٢])المُشاة بين يديه واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القرص، وأردف أسامة بن زيد خلفه...([٣]))) الحديث. فإن لم يقدر على الركوب وقف قائمًا على رجليه داعيًا، ما دام يقدر، ولا حرج عليه في الجلوس إذا لم يقدر على الوقوف، وفي الوقوف راكبًا مباهاة وتعظيم للحج: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}[الحج: ٣٢]. قال ابن وهب في موطئه قال لي مالك: الوقوف بعرفة على الدواب والإبل أحب إلي من أن أقف قائمًا، قال: ومن وقف قائمًا فلا بأس أن يستريح.

الثامنة: ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد أنه ﷺ: ((كان إذا أفاض من عرفة يسير العَنَق([٤])فإذا وجد فجوة نصَّ([٥]))) قال هشام بن عروة: والنص فوق العنق وهكذا ينبغي على أئمة الحاج فمن دونهم، لأن في استعجال السير إلى المزدلفة استعجال الصلاة بها، ومعلوم أن المغرب لا تصلى تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة، وتلك سنتها، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

التاسعة: ظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدلُّ على أن عرفة كلها موقف، قال ﷺ: ((ووقفت ههنا وعرفة كلها موقف([٦]))) رواه مسلم وغيره من حديث جابر الطويل. وفي موطأ مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: ((عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة والمزدلفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن مُحَسّر([٧]))). قال ابن عبد البر: هذا الحديث يتصل

١- الصخرات: هي صخرات مفترشات في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات.

٢- قال ابن الأثير: (وجعل حبل المشاة بين يديه؛ أي طريقهم الذي يسلكونه في الرمل. وقيل: أراد صفهم ومجتمعهم في مشيهم تشبيهًا بحبل الرمل).

٣- (قلت): مسلم (١٢١٨).

٤- العنق (محركة): سير سريع فسيح واسع للإبل والدابّة. والفجوة: الموضع المتسع بين شيئين.

٥- (قلت): البخاري (١٦٦٦)، ومسلم (١٢٨٦).

٦- (قلت): مسلم (١٢١٨).

٧- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٠٠٦).

يتصل من حديث جابر بن عبدالله، ومن حديث ابن عباس، ومن حديث علي بن أبي طالب، وأكثر الآثار ليس فيها استثناء بطن عرنة من عرفة، وبطن محسر من المزدلفة، وكذلك نقلها الحفاظ الثقات الإثبات من أهل الحديث في حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر. قال أبو عمر: واختلف الفقهاء فيمن وقف بعرفة بعرنة، فقال مالك فيما ذكر ابن المنذر عنه: يهريق دمًا وحجه تام. وهذه رواية رواها خالد بن نزار عن مالك. وذكر أبو المصعب أنه كمن لم يقف وحجه فائت، وعليه الحج من قابل إذا وقف ببطن عرنة. وروي عن ابن عباس قال: من أفاض من عرنة فلا حج له. وهو قول ابن القاسم وسالم، وذكر ابن المنذر هذا القول عن الشافعي، قال وبه أقول: لا يجزيه أن يقف بمكان أمر رسول الله ﷺ ألا يوقف به. قال ابن عبد البر: الاستثناء ببطن عرنة من عرفة لم يجيء مجيئا تلزم حجته، لا من جهة النقل ولا من جهة الإجماع. وحجة من ذهب مذهب أبي المصعب أن الوقوف بعرفة فرض مجمع عليه في موضع معين، فلا يجوز أداؤه إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف. وبطن عرنة يقال بفتح الراء وضمها، وهو بغربي مسجد عرفة، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الجدار الغربي من مسجد عرفة لو سقط سقط في بطن عرنة. وحكى الباجي عن ابن حبيب أن عرفة في الحل، وعرنة في الحرم.

العاشرة: في فضل يوم عرفة، يوم عرفة فضله عظيم وثوابه جسيم، يكفر الله فيه الذنوب العظام، ويضاعف فيه الصالح من الأعمال، قال ﷺ: ((صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية والباقية([1]))). أخرجه الصحيح. وقال ﷺ: ((أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له([2]))). وروى الدار قطني عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: ((ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عددًا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو عز وجل ثم يباهي بهم الملائكة يقول ما أراد هؤلاء([3]))).

الحادية عشرة: استحب أهل العلم صوم يوم عرفة إلّا بعرفة. روى الأئمة واللفظ للترمذي عن ابن عباس: ((أن النبي ﷺ أفطر بعرفة، وأرسلت إليه أم الفضل بلبن فشرب([4]))). قال: حديث حسن صحيح. وقد روي عن ابن عمر قال: ((حججت مع النبي ﷺ فلم يصمه – يعني يوم عرفة – ومع أبي بكر فلم يصمه، ومع عمر فلم يصمه والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، يستحبون الإفطار بعرفة ليتقوَّى به الرجل على الدعاء، وقد صام بعض أهل العلم يوم عرفة

١- (قلت): رواه مسلم وغيره عن أبي قتادة. وصححه الإمام الألباني في الارواء (٩٥٥).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (١٩٨٢)، وقال: انظر حديث رقم : ١١٠٢ في صحيح الجامع.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (١٠٧٣٥)، وانظر حديث رقم: (٥٧٩٦) في صحيح الجامع. أخرجه مسلم (٤ / ١٠٧)، والنسائي (٢ / ٤٤)، وفي الكبرى أيضًا (ق ٨٣ / ١)، وابن ماجه (٣٠١٤)، والدار قطني في سننه (ص ٢٨٩)، وكذا البيهقي (٥ /١١)، وابن عساكر في جزء (فضل عرفة)(ق ٢ / ٢)، كلهم من طريق مخرمة بن بكير عن أبيه قال: سمعت يونس بن يوسف يحدث عن سعيد بن المسيب عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: فذكره.

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢١٠٩)، وفي التعليق على ابن خزيمة (٢١٠٢).

بعرفة[١])). وأسند عن ابن عمر مثل الحديث الأول، وزاد في آخره: ((ومع عثمان فلم يصمه، وأنا لا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنه[٢]))، حديث حسن. وذكره ابن المنذر. وقال عطاء في صوم يوم عرفة: أصوم في الشتاء ولا أصوم في الصيف. وقال يحيى الأنصاري: يجب الفطر يوم عرفة. وكان عثمان بن أبي العاصي وابن الزبير وعائشة يصومون يوم عرفة. قال ابن المنذر: الفطر يوم عرفة بعرفات أحب إليَّ اتّباعا لرسول الله ﷺ، والصوم بغير عرفة أحب إليَّ لقول رسول الله ﷺ وقد سئل عن صوم يوم عرفة فقال: ((يكفِّر السنة الماضية والباقية)). وقد روينا عن عطاء أنه قال: من أفطر يوم عرفة ليتقوَّى على الدعاء فإن له مثل أجر الصائم[٣].

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢١٠٩)، وفي التعليق على ابن خزيمة (٢١٠٢).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٣٥٩٥): صحيح لغيره دون قوله: ((فأنا لا أصومه ....)) إلخ، وقد ثبت نهيه عنه. وروى الحميدي والدولابي (١/ ١٣٣) من طريق أبي الثورين: أن ابن عمر نهى عن صوم يوم عرفة. وسنده حسن.

٣- (قلت): الذي صحَّ عن النبي ﷺ بدون أن يرد عليه إيرادات هو صوم يوم عرفة فقط بلا خلاف؛ وهناك خلاف في مشروعية صيام الأيام التسعة من ذي الحجة، والراجح والله أعلم أن المشروع هو صوم يوم عرفة فقط؛ والأحاديث الواردة في التسع جلّها ضعيفة، والتي صحَّ منها يرد عليه إيرادات، والحديث الذي يرد عليه الإيرادات يبطل الإستدلال به؛ ونوضّح عدم مشروعية الأيام التسعة في هذه النقاط:

أولًا: الذي صحَّ من هذه الأحاديث ما رواه النسائي في سننه (٢٤١٧)، وصححه الإمام الألباني: أخبرني أحمد بن يحيى عن أبي نعيم قال حدثنا أبو عوانة عن الحر بن الصيَّاح عن هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي ﷺ: ((أن رسول الله ﷺ كان يصوم تسعًا من ذي الحجة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر أول اثنين من الشهر وخميسين)). هنا صرَّح بصيامه ﷺ للأيام التسعة بلفظ ((تسعًا من ذي الحجة)). وروى أبو داود الحديث ذاته في سننه (٢١٠٦) وصححه الإمام الألباني: حدثنا مسدد: ثنا أبو عوانة عن الحُرِّ بن الصَّيَّاح عن هُنَيْدَةَ بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي ﷺ. ((كان رسول الله ﷺ يصوم تِسْعَ ذي الحِجةِ، ويومَ عاشوراءَ، وثلاثة أيام من كل شهر: أول اثنين من الشهر، والخمِيْسَيْن)). وهنا صرَّح بأن صيامه ﷺ كان اليوم التاسع بلفظ: ((تِسْعَ ذي الحجة))، أي يوم عرفة. وحمل الذين يقولون بصيام الأيام التسعة معنى لفظ ((تِسْعَ)) الذي هو اليوم التاسع على معنى لفظ الحديث الآخر ((تسعًا)) أي تسعة أيام، بدون وجود مرجِّح، وذلك لضعف جميع الأحاديث والآثار التي استدلّوا بها. ولنا أن نقول: بل الأَولى أن نحمل معنى لفظ ((تسعًا)) على لفظ: ((تِسْعَ)) لوجود مرجِّح وهو حديث صوم يوم عرفة.

ثانيًا: ليس هناك صيام يومٍ تطوعًا لم يذكره الرسول ﷺ بوصفٍ، أو بذكر أجرٍ لمن صامه؛ وأين صيام الأيام التسعة من هذا الوصف والأجر، وأيامها تعدل ثلث أيام شهر رمضان تقريبًا؟!.

ثالثًا: كيف يفرد رسول الله ﷺ صيام يوم عرفة بكل هذا الفضل والأجر، ولا يذكر عن الأيام الثمانية الباقية أيَّ شيءٍ؛ لا يصومه، ولا يحضُّ، ولا يحثُّ الأمة على صيامها؟!.

رابعًا: استدلَّ القائلون بصيام الأيام التسعة: بالحديث الذي رواه البخاري: ((مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشَرَةِ))، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: ((وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ))، وقالوا: الصوم يدخل في عموم العمل الصالح.

- وللرَّد على هذا الإستدلال هناك إحتمالان:

الإحتمال الأول: إمَّا أن يكون الرسول ﷺ ذكر لهم المقصود بالعمل الصالح وخصَّصه لهم - لأن الجهاد أيضًا يدخل في عموم العمل الصالح، فلماذا سألوه إيّاه، وقارنوه معه؟! - والدليل على هذا الإحتمال، ما جاء في الحديث الذي يرويه خالد عن يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ: ((ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيهن من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل))، أخرجه الطبراني فى المعجم الكبير (٣/١١٠/١)، وأبو طاهر الأنباري في المشيخة (ق ١٦٠/٢و١٦١/١)، وقال المنذري: (٢/١٢٤): وإسناده جيد.

- قال عنه الإمام الألباني في الإرواء (٨٩٠): قلت: يزيد بن أبى زياد، وهو الكوفي الهاشمي فيه ضعف.

قال الحافظ فى التقريب: ضعيف، كبر فتغير، صار يتلقَّن.

قلت: وقد اضطرب فى إسناده، فرواه تارة عن مجاهد عن ابن عباس، كما فى رواية خالد هذه، وتارة قال: عن مجاهد عن ابن عمر به؛ أخرجه الطحاوي وأحمد (٢/٧٥ و ١٣١)، وعبد بن حميد فى المنتخب من المسند (ق ١/٨٨)، والمخلص فى الفوائد المنتقاة (١/٢٤٠/١١) من طرق عن زياد به.

وهذا هو الصواب عن مجاهد عن ابن عمر، فقد ذكر الحافظ (٢/٣٨١ . ٣٨٢) أنه رواه أبو عوانة من طريق موسى بن أبى عائشة عن مجاهد فقال: عن ابن عمر، يعنى مثل حديث ابن جبير عن ابن عباس.

ولكني وجدت لحديث يزيد شاهدًا عن أبى هريرة رفعه: ((ما من أيام أحب إلى الله العمل فيهن من أيام العشر: التسبيح والتهليل والتكبير)). أخرجه أبو عثمان البحيري فى الفوائد (١/٣١ . ٢) من طريق أحمد بن نيزك الطوسي، حدثنا الأسود بن عامر حدثنا صالح بن عمر الواسطي عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة.

قلت: وهذا سند حسن لولا أنى لم أعرف ابن نيزك هذا. انتهى كلام الإمام الألباني.

– وهذا يعني لو أننا عرفنا (ابن نيزك) هذا، وسَلِم من جرح مفسَّر قادح، فلنا أن نحسِّن الحديث اعتمادًا على تحقيق الإمام الألباني لهذا الحديث. ولهذا بحثت عن (ابن نيزك) هذا، ووجدت له ترجمة في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي الذي قال فيه: أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن نيزك بْن حبيب أَبُو جَعْفَر يعرف بالطوسي حدث عَن يزيد بْن هارون، وروح بْن عبادة، وقراد أَبِي نوح، وأسود بْن عامر، وأبي أَحْمَد الزبيري، روى عنه: إِبْرَاهِيم الحربي، وقاسم بْن زكريا المطرز، وعبد اللَّه بْن مُحَمَّد بْن ناجية، وَالحسين بْن مُحَمَّد بْن عُفَيْر، وأبو حامد الحضرمي، وأَحْمَد بْن الحسين بْن إِسْحَاق الصوفِي، وغيرهم. انتهى.

إذًا الرجل معروف، وتخلَّصنا هنا من أن يكون (ابن نيزك) هذا مجهولًا. فبقي أن يسلَم من جرح مفسَّر يقدح فيه؛ ولم أجد فيه جرحًا ولا تعديلًا الَّا ما ذكره الحافظ المزّي في تهذيب الكمال الذي قال فيه:– أحمد ابن محمد ابن نيزك بكسر النون بعدها تحتانية ساكنة ثم زاي مفتوحة ثم كاف ابن حبيب البغدادي أبو جعفر الطوسي (صدوق في حفظه شيء) من الحادية عشرة مات سنة ثمان وأربعين. انتهى.

اذًا بما قيل فيه من قبل الحافظ المزِّي فالرجل عدل؛ وعبارة (في حفظه شيء) ينزل بمروياته منَ الأحاديث من درجة الصحيح الى درجة الحسن، وفي بعض الحالات يصلح أن يكون شاهدًا. ونستشهد لذلك بما حكم به الإمام الألباني على راويين للأحاديث حالهما مطابق لحال ابن نيزك، وقيل فيهما مثلما قيل في ابن نيزك.

١ – محمد ابن عجلان: حيث قال فيه في تفريغ سلسلة فتاوى جدة عند تحقيقه لحديث التحريك: (حديثه مرشح لأدنى مناسبة للتضعيف، لماذا؟ لأنه كان في حفظه شيء من الضعف، ولذلك فالعلماء الذين يقوون حديثه لا يرفعونه إلى مرتبة الحديث الصحيح، وإنما يحكمون بحسنه فقط، والحكم على حديث الرجل بالحسن ملازم للحكم على راويه بشيء من الضعف). وقال عند تكلُّمه عن زيادة (لا يحركها): (هذه الزيادة شاذَّة في أحسن أحوالها إن لم يُقل فيها إنها منكَرَة لأن الذي دار الإختلاف عليه هو ابن عجلان وليس ثقة بالإتفاق وإنما هو دون الثقة، هو حسن الحديث كما ذكرتُ آنفا. انتهى.

٢ – فضيل بن سليمان وهو النُّميري: حيث قال فيه في السلسلة الصحيحة (٣٤٧٨): إنما خرج له البخاري متابعة؛ كما حقَّقه الحافظ في مقدمة الفتح (٤٣٥)، وفيه كلام كثير، لخصه الحافظ في التقريب فقال: (صدوق، له خطأ كثير).

فمثله حديثه مرشح للتحسين، وأما الصحة فلا.

– وفضيل هذا أدنى من ابن نيزك ومع ذلك فحديثه حسن عند العلماء؛ فما بالك بآبن نيزك؟.

اذًا بما ذكرنا وهو غيض من فيض نستطيع أن نقول: بأن الحديث حسن لذاته محتجٌ به عند الإمام الألباني رحمه الله، لا (شاهدًا) فقط؛ وفي كلتا الحالتين الحديث يفي بالغرض؛ الَّا أن يظهر لنا جرح قادح في (ابن نيزك) من قبل أحد أئمة الجرح والتعديل.

الإحتمال الثاني: وإمَّا أن تكون الأعمال الصالحة على عمومها مع الإكثار من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل؛ ويكون الصيام داخلًا فيها ولكن ليس في التسعة أيام بل خصَّصه الرسول ﷺ بيوم عرفة، لأنه جاء في إثبات صومه عن النبي ﷺ حديث صحيح صريح وهو ما رواه مسلم في صحيحه (١١٦٢) عن أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي قَالَ: وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ؟ فَقَالَ: ((يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ))؛ وجاء حديث صحيح صريح في نفي الصوم في الأيام التسعة مجتمعةً، وهو:

خامسًا: ما رواه مسلم في صحيحه (١١٧٦) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: ((مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَائِمًا فِي الْعَشْرِ قَطُّ))؛ وبذلك تتَّفق الأدلة.

واجتهد المخالفون بردِّ هذا الحديث بمختلف التأويلات العجيبة والغريبة، وأفرغوها من محتواها بدون أي وجه حق؛ سنذكرها جميعًا، ونبطلها ان شاء الله تعالى كما سيأتي:

– قال حسين بن عودة العوايشة في الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة بعد ذكر أحاديث الباب وحديث عائشة رضي الله عنها: قال ابن خزيمة – رحمه الله – بعد الحديث السابق (٣/ ٢٩٣): (باب ذكر علّةٍ قد كان النّبيّ ﷺ يترك لها بعض أعمال التطوع، وإن كان يحثُّ عليها، وهي خشية أن يُفرَض عليهم

ذلك الفعل؛ مع استحبابه ﷺ ما خفف على الناس من الفرائض). ثمّ روى – رحمه الله – بإسناده حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: ((كان رسول الله ﷺ يترك العمل وهو يحب أن يفعله؛ خشية أن يستن به فيفرض عليهم)).

وقال الإمام النووي – رحمه الله – في شرحه (٨/ ٧١): قال العلماء: هذا الحديث ممَّا يوهم كراهة صوم العشر، والمراد بالعشر هنا الأيَّام التسعة من أول ذي الحِجّة. قالوا: وهذا ممَّا يتأول؛ فليس في صوم هذه التسعة كراهة؛ بل هي مُستحبَّة استحبابًا شديدًا؛ لا سيَّما التاسع منها وهو يوم عرفة. ثمَّ ذكر حديث: ((ما من أيّام العمل الصالح فيها أفضل منه في هذه)).

قال: فيتأول قولها لم يصم العشر؛ أنه لم يصمه لعارض مرض أو سفر أو غيرهما، أو أنها لم تره صائمًا فيه، ولا يلزم من ذلك عدم صيامه في نفس الأمر، ويدل على هذا التأويل حديث هُنَيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النّبيّ ﷺ قالت: ((كان رسول الله ﷺ يصوم تسع ذي الحجة ...)).

وقال في الروضة النديّة (١/ ٥٥٦): وعدم رؤيتها وعِلمها لا يستلزم العدم.

– ولنا أن نقول في ردِّنا على تأويل ابن خزيمة: أن هذا التأويل والتبويب بعد ذكر حديث عائشة رضي الله عنها لا يستقيم، لأنه:

١– قوله: (يترك لها بعض أعمال التطوع)، لا يتناسب مع زعمهم بأن رسول الله ﷺ صامه فعلًا.

٢– قوله: (وإن كان يحثّ عليها)، فليس ثَمَّ حديث واحد يحثُّ على صيام التسعة أيام.

– ولنا أن نقول في ردِّنا على التأويلات التي ذكرها النووي عن العلماء مستشهدًا بهم:

١– ليس ثَمَّ دليل واحد بأن الرسول ﷺ أدخل صوم الأيام التسعة في هذه الأعمال الصالحة، بل الصواب ما ذكرناه في الإحتمالين السابقين.

٢– وهل عائشة رضي الله عنها لا تعلم بأن المرض والسفر يضع عن الصائم الصوم – ولو كان فرضًا – حتى نردُ على قولها هكذا تأويل؟! بل كلامها واضح بأنها لم تره ﷺ في الأيام الإعتيادية. والحديث الذي استدلَّ به في غير محلّه لأنه يدلُّ على صوم اليوم التاسع فقط.

٣– عدم رؤيتها رضي الله عنها، يعني أنها كانت متأكدة من عدم صومه ﷺ، لأنها قالت ذلك في معرِض ردِّها على سؤال سألوه إياها، وهي أتقى من أن تحكم على أمر يخصُّ رسول الله ﷺ والشريعة بالظَّن، ويتأكّد ذلك بعد ما بيَّنَّا في هذا البحث العلمي الذي نحن بصدده بعدم مشروعية صيام الأيام التسعة – ما عدا يوم عرفة–.

– قال أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي في الْإِجَابَةُ لِإِيرَادِ مَا اسْتَدْرَكَتْهُ عَائِشَةُ عَلَى الصَّحَابَةِ: قَالَ بَعْضُ الحفاظ: يَحْتَمِل أن تَكُوْن عَائِشَة لَمْ تعلم بصيامه عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ كَانَ يقسم لتسع نسوة فلعله لَمْ يتفق صيامه فِي يَوْمِها، ويَنْبَغِيْ أن تقرأ ((لَمْ نر)) مبنيًّا للفاعل لتتفق الروايتان – قصده لفظ لسَالِم: ((لم ير رَسُوْل الله ﷺ صائمًا العَشَرَ قط)) – عَلَى أن حَدِيْث المثبت أولى مِنْ حَدِيْث النافِي وَقِيْل: إِذَا تساوَيا فِي الصِحَّة يؤخذ بحَدِيْث هنيدة لَكِنَّهُ لَا يقَوْم إِسْنَاد حَدِيْث عَائِشَة.

– ولنا أن نقول في ردِّنا على التأويلات التي ذكرها الزركشي عن بعض الحفاظ مستشهدًا بهم:

١– هذا التأويل عليهم، لا لهم، لأن تقسيم التسعة أيام على تسعة نسوة فلابدَّ أن يقسم منها لعائشة رضي الله عنها يومًا! بل كان فيه وجه لو قالوا هذا التأويل في صوم يوم عرفة؛ لمن قال منهم بأنها نفت صوم يوم عرفة.

٢– بعد هذا التحقيق تبيَّن بأن ليس ثَمَّ حديث مثبت لصيام الأيام التسعة حتى يكون أَولى من حديث عائشة النَّافي للصيام.

٣– لو فرضنا صحة فهمهم للحديث، فأنَّى لهم الأخذ بحَدِيْث هنيدة المروي في السنن مع وجود حديث عائشة المروي في صحيح مسلم كما قاله الزركشي نفسه، لأنه أصح وأقوى سندًا؟! ففي هذه الحالة يمكننا القول بأن حديث هنيدة شاذَّة والله أعلم؛ اذ قال الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة: (الحديث الشاذ، وأنه ما رواه الثقة مخالفًا لمن هو أوثق منه، أو أكثر عددًا). وقال ابن كثير في اختصار علوم الحديث: (ورحم الله الشافعي إذ قال: وليس الحديث الشاذ أن يروي الثقة ما لم يرو الثقات وإنما أن يروي ما يخالف فيه الثقات).

– وقد اعترض بعضهم على حديث عائشة رضي الله عنها بأنها نفت صوم يوم عرفة أيضًا لأنه ضمن الأيام العشر. ونقول في الرَّد عليهم:

١– أن الحديث ينفي صيام الأيام التسعة مجتمعة، ولم يأتي على ذكر صوم يوم عرفة بنفيٍ أو إثبات.

٢– لو فرضنا صحَّة هذا الإعتراض، فلنا أن نقول هنا: أن هذا الحديث النافي لصوم يوم عرفة – حسب قولهم –، مساوٍ في الصحة لحديث أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي قَالَ: وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ؟ فَقَالَ: ((يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ))، المثبت لصوم يوم عرفة، لأن الحديثين من رواية مسلم في صحيحه، فنأخذ بالحديث المثبت ونقدِّمه على الحديث النافي حسب القاعدة الحديثية. وتبقى صحة نفيها لبقية الأيام الثمانية قائمة لعدم وجود معارضٍ له.

– وبعد ما حقَّقناه يتبيَّن لكلِّ منصف بأن لا صيام في العشر الَّا صوم يوم عرفة، وصيام الثمانية أيام الأخرى من ذي الحجة ليس من هديه ﷺ ولا عليه أمره والله أعلم.

الثانية عشرة: قوله تعالى: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}: أي اذكروه بالدعاء والتَّلبية عند المشعر الحرام. ويسمَّى جمعًا لأنه يجمع ثم المغرب والعشاء، قاله قتادة. وقيل: لاجتماع آدم فيه مع حواء، وازدلف إليها، أي دنا منها، وبه سمِّيت المزدلفة. ويجوز أن يقال: سمِّيت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون إلى الله، أي يتقرَّبون بالوقوف فيها. وسمِّي مشعرًا من الشعار وهو العلامة، لأنه مَعلَم للحج والصلاة والمبيت به، والدعاء عنده من شعائر الحج. ووصف بالحرام لحرمته.

قال ابن العثيمين: {فاذكروا الله عند المشعر الحرام}: الفاء هنا واقعة في جواب الشرط؛ وأداة الشرط: {إذا}؛ وقوله تعالى: {فاذكروا الله}: أي باللِّسان، والقلب، والجوارح؛ فيشمل كل ما فعل عند المشعر من عبادة؛ ومن ذلك صلاة المغرب، والعشاء، والفجر؛ و{المشعر} مكان الشعيرة؛ فهي (مفعل) اسم مكان؛ وهو المكان الذي تؤدى فيه شعيرة من شعائر الله عز وجل؛ و{الحرام}: أي ذي الحرمة؛ لأنه داخل حدود الحرم؛ وقال العلماء: إن هذا الوصف وصف قيدي؛ ليخرج المشعر الحلال ـ وهو عرفة ـ؛ وقالوا: إن المشعر مشعران: حلال ـ وهو عرفة ـ؛ وحرام ـ وهو مزدلفة ـ.

قال القرطبي: الثالثة عشرة: ثبت أن رسول الله ﷺ صلَّى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعًا.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرْخَسِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ، عَنْ مَالِكٍ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ:

دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَرَفَةَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشِّعْبِ، نَزَلَ فَبَالَ ثُمَّ تَوَضَّأَ فَلَمْ يُسْبِغِ الْوُضُوءَ، فَقُلْتُ لَهُ: الصَّلَاةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ: ((الصَّلَاةُ أَمَامَكَ))، فَرَكِبَ فَلَمَّا جَاءَ الْمُزْدَلِفَةَ، نَزَلَ فَتَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ، ثُمَّ أَنَاخَ كُلُّ إِنْسَانٍ بَعِيرَهُ فِي مَنْزِلِهِ، ثُمَّ أُقِيمَتِ الْعِشَاءُ فَصَلَّاهَا وَلَمْ يُصَلِّ بينهما شيئًا(١).

وَقَالَ جَابِرٌ: دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وإقامة، ثم ركب ناقته الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ فاستقبل القبلة ودعاه وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ واقفًا حتى أسفر جدًّا، ودفع قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ(٢).

١– إسناده صحيح. أبو إسحق فمن دونه ثقات، وقد توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم. كريب هو ابن أبي مسلم.

– وهو في شرح السنة (١٩٣٠) بهذا الإسناد.

– وفي (الموطأ) (١/ ٤٠٠– ٤٠١) من طريق موسى بن عقبة بهذا الإسناد.

– ومن طريق مالك أخرجه البخاري ١٣٩ و١٦٧٢ و١٢٨٠ وأبو داود ١٩٢٥ وأحمد (٥/ ٢٠٨)، والطحاوي في المعاني (٢/ ٢١٤)، وابن حبان (١٥٩٤)، والبيهقي (٥/ ١٢٢).

– وأخرجه البخاري ١٨١ و١٦٦٧ ومسلم ١٢٨٠ وأبو داود (١٩٢١ و١٩٢٤)، والنسائي (٥/ ٢٥٩)، وابن ماجه ٣٠١٩ وأحمد (٥/ ١٩٩/ ٢٠٠ و٢٠٢ و٢١٠)، والدارمي (٢/ ٥٧ و٥٨)، وابن خزيمة ٩٧٣ والطبراني في الكبير (٣٨٦)، والبيهقي (٥/ ١١٩ و١٢٠) من طرق من حديث أسامة بن زيد.

٢– هو بعض حديث جابر في صفة حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وهو في شرح السنة (١٩٢٨). وهو عند مسلم ١٢١٨ وأبي داود ١٩٠٥ وابن ماجه ١٠٢٢.

قال القرطبي: وأجمع أهل العلم – لا اختلاف بينهم – أن السنة أن يجمع الحاج بجمع بين المغرب والعشاء. واختلفوا فيمن صلاها قبل أن يأتي جمعًا، فقال مالك: من وقف مع الإمام ودفع بدفعه فلا يصلِّي حتى يأتي المزدلفة فيجمع بينها، واستدلَّ على ذلك بقوله لأسامة بن زيد: ((الصلاة أمامك)). قال ابن حبيب: من صلَّى قبل أن يأتي المزدلفة دون عذر يعيد متى ما علم، بمنزلة من قد صلَّى قبل الزوال، لقوله ﷺ: ((الصلاة أمامك)). وبه قال أبو حنيفة. وقال أشهب: لا إعادة عليه، إلا أن يصلِّيهما قبل مغيب الشفق فيعيد العشاء وحدها، وبه قال الشافعي، وهو الذي نصره القاضي أبو الحسن، واحتج له بأن هاتين صلاتان سن الجمع بينهما، فلم يكن ذلك شرطًا في صحتهما، وإنما كان على معنى الاستحباب ، كالجمع بين الظهر والعصر بعرفة. واختار ابن المنذر هذا القول ، وحكاه عن عطاء بن أبي رباح وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وسعيد بن جبير وأحمد وإسحاق وأبي ثور ويعقوب. وحكي عن الشافعي أنه قال: لا يصلِّي حتى يأتي المزدلفة، فإن أدركه نصف الليل قبل أن يأتي المزدلفة صلاهما.

الرابعة عشرة: ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال ابن حبيب: لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق، لا لإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق، لقوله ﷺ: ((الصلاة أمامك)) ثم صلَّاها بالمزدلفة بعد مغيب الشَّفق ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشَّفق، فلا يجوز أن يؤتى بها قبله، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشَّفق لما أخرت عنه.

الخامسة عشرة: وأمَّا من أتى عرفة بعد دفع الإمام، أو كان له عذر ممَّن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز: من وقف بعد الإمام فليصلِّ كل صلاة لوقتها. وقال مالك فيمن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام: إنه يصلِّي إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما. وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام: إن رَجا أن يأتي المزدلفة ثلث الليل فليؤخِّر الصلاة حتى يأتي المزدلفة، وإلا صلَّى كل صلاة لوقتها. فجعل ابن المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة لمن وقف مع الإمام دون غيره، وراعى مالك الوقت دون المكان، واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان، فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان، وكان مراعاة وقتها المختار أولى.

السادسة عشرة: اختلف العلماء في هيئة الصلاة بالمزدلفة على وجهين: أحدهما: الأذان والإقامة. والآخر: هل يكون جمعهما متَّصلًا لا يفصل بينهما بعمل، أو يجوز العمل بينهما وحطّ الرحال ونحو ذلك، فأمّا الأذان والإقامة فثبت أن رسول الله ﷺ صلَّى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد وإقامتين. أخرجه الصحيح من حديث جابر الطويل، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وابن المنذر[١]. وقال مالك: يصلِّيهما بأذانين وإقامتين، وكذلك الظهر والعصر بعرفة، إلا أن ذلك

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٩٠٥). وقال: هذا هو الصحيح فما في بعض المذاهب أنه يقيم إقامة واحدة خلاف السنة وإن ورد ذلك في بعض الطرق فإنه شاذ كما أن الأذان لم يرد أصلًا في بعض الأحاديث. انظر: نصب الراية (٣ / ٦٩ - ٧٠)[٧٤].

في أول وقت الظهر بإجماع. قال أبو عمر: لا أعلم فيما قاله مالك حديثًا مرفوعًا إلى النبي ﷺ بوجه من الوجوه، ولكنه روي عن عمر بن الخطاب، وزاد ابن المنذر ابن مسعود. ومن الحجة لمالك في هذا الباب من جهة النظر أن رسول الله ﷺ سن في الصلاتين بمزدلفة وعرفة أن الوقت لهما جميعًا وقت واحد، وإذا كان وقتهما واحدًا وكانت كل صلاة تصلَّى في وقتها لم تكن واحدة منهما أولى بالأذان والإقامة من الأخرى، لأن ليس واحدة منهما تقضى، وإنَّما هي صلاة تصلَّى في وقتها، وكل صلاة صليت في وقتها سنتها أن يؤذن لها وتقام في الجماعة، وهذا بيِّن والله أعلم. وقال آخرون: أمّا الأولى منهما فتصلَّى بأذان وإقامة، وأما الثانية فتصلَّى بلا أذان ولا إقامة. قالوا: وإنما أمر عمر بالتأذين الثاني لأن الناس قد تفرَّقوا لعشائهم فأذَّن ليجمعهم. قالوا: وكذلك نقول إذا تفرَّق الناس عن الإمام لعشاء أو غيره، أمر المؤذنين فأذَّنوا ليجمعهم، وإذا أذَّن أقام. قالوا: فهذا معنى ما روي عن عمر، وذكروا حديث عبدالرحمن بن يزيد قال: كان ابن مسعود يجعل العشاء بالمزدلفة بين الصلاتين، وفي طريق أخرى وصلَّى كل صلاة بأذان وإقامة، ذكره عبدالرزاق. وقال آخرون: تصلَّى الصلاتان جميعًا بالمزدلفة بإقامة ولا أذان في شيء منهما، روي عن ابن عمر وبه قال الثوري. وذكر عبدالرزاق وعبدالملك بن الصباح عن الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال: ((جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بجمع، صلَّى المغرب ثلاثًا والعشاء ركعتين بإقامة واحدة([1]))، وقال آخرون: تصلَّى الصلاتان جميعًا بين المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد وإقامة واحدة. وذهبوا في ذلك إلى ما رواه هشيم عن يونس بن عبيد عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه جمع بين المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد وإقامة واحدة، لم يجعل بينهما شيئًا. وروي مثل هذا مرفوعًا من حديث خزيمة بن ثابت، وليس بالقوي. وحكى الجوزجاني عن محمد بن الحسن عن أبي يوسف عن أبي حنيفة أنهما تصلَّيان بأذان واحد وإقامتين، يؤذن للمغرب ويقام للعشاء فقط. وإلى هذا ذهب الطحاوي لحديث جابر، وهو القول الأول وعليه المعول. وقال آخرون: تصلَّى بإقامتين دون أذان لواحدة منهما. قال أبو عمر: والآثار عن ابن عمر في هذا القول من أثبت ما روي عنه في هذا الباب، ولكنها محتملة للتأويل، وحديث جابر لم يختلف فيه، فهو أولى، ولا مدخل في هذه المسألة للنظر، وإنَّما فيها الاتباع.

السابعة عشرة: وأما الفصل بين الصلاتين بعمل غير الصلاة فثبت عن أسامة بن زيد ((أن النبي ﷺ لما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلَّى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت الصلاة فصلَّاها، ولم يصلِّ بينهما شيئًا([2]))، وقد ذكرنا آنفًا عن ابن مسعود أنه كان يجعل العشاء بين الصلاتين، ففي هذا جواز الفصل بين الصلاتين بجَمْع. وقد سئل مالك فيمن أتى المزدلفة: أيبدأ بالصلاة أو يؤخر حتى يحطَّ عن راحلته؟ فقال: أما الرَّحل

١- (قلت): مسلم (١٢٨٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٦٨١)، وقال: (قلت: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقد أخرجاه).

الخفيف فلا بأس أن يبدأ به قبل الصلاة، وأما المحامل والزوامل فلا أرى ذلك، وليبدأ بالصلاتين ثم يحطّ عن راحلته. وقال أشهب في كتبه: له حطّ رحله قبل الصلاة، وحطَّه له بعد أن يصلِّي المغرب أحبّ إلي ما لم يضطر إلى ذلك، لما بدابته من الثقل، أو لغير ذلك من العذر. وأمَّا التَّنفُّل بين الصلاتين فقال ابن المنذر: ولا أعلمهم يختلفون أن من السنة ألَّا يتطوع بينهما الجامع بين الصلاتين وفي حديث أسامة: ولم يصلِّ بينهما شيئًا.

الثامنة عشرة: وأما المبيت بالمزدلفة فليس ركنًا في الحج عند الجمهور. واختلفوا فيما يجب على من لم يبت بالمزدلفة ليلة النَّحر ولم يقف بجمع، فقال مالك: من لم يبت بها فعليه دم، ومن قام بها أكثر ليله فلا شيء عليه، لأن المبيت بها ليلة النحر سنة مؤكدة عند مالك وأصحابه، لا فرض، ونحوه قول عطاء والزهري وقتادة وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق وأبي ثور وأصحاب الرأي فيمن لم يبت. وقال الشافعي: إن خرج منها بعد نصف الليل فلا شيء عليه، وإن خرج قبل نصف الليل فلم يعد إلى المزدلفة افتدى، والفدية شاة. وقال عكرمة والشعبي والنخعي والحسن البصري: الوقوف بالمزدلفة فرض، ومن فاته جمع ولم يقف فقد فاته الحج، ويجعل إحرامه عمرة. وروي ذلك عن ابن الزبير هو قول الأوزاعي. وروي عن الثوري مثل ذلك، والأصح عنه أن الوقوف بها سنة مؤكدة. وقال حماد بن. أبي سليمان. من فاتته الإفاضة من جمع فقد فاته الحج، وليتحلل بعمرة ثم ليحج قابلًا. واحتجوا بظاهر الكتاب والسنة، فأمّا الكتاب فقول الله تعالى: {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}، وأما السنة فقوله ﷺ: ((من أدرك جمعًا فوقف مع الناس حتى يفيض فقد أدرك ومن لم يدرك ذلك فلا حج له[1])). ذكره ابن المنذر. وروى الدار قطني عن عروة بن مضرس: قال أتيت النبي ﷺ وهو بجمع فقلت له: يا رسول الله، هل لي من حج؟ فقال: ((من صلَّى معنا هذه الصلاة ثم وقف معنا حتى نفيض وقد أفاض قبل ذلك من عرفات ليلًا أو نهارًا فقد تمَّ حجَّه وقضى تفثه[2])).

قال الشعبي: من لم يقف بجمع جعلها عمرة. وأجاب من احتج للجمهور بأن قال: أما الآية فلا حجة فيها على الوجوب في الوقوف ولا المبيت، إذ ليس ذلك مذكورًا فيها، وإنما فيها مجرد الذكر. وكل قد أجمع أنه لو وقف بمزدلفة ولم يذكر الله أن حجه تام، فإذا لم يكن الذكر المأمور به من صلب الحج فشهود الموطن أولى بألا يكون كذلك. قال أبو عمر: وكذلك أجمعوا أن الشمس إذا طلعت يوم النحر فقد فات وقت الوقوف بجمع، وإن من أدرك الوقوف بها قبل طلوع الشمس فقد أدرك، ممن يقول إن ذلك فرض، ومن يقول إن ذلك سنة. وأما حديث عروة بن مضرس فقد جاء في بعض طرقه بيان الوقوف بعرفة دون المبيت بالمزدلفة، ومثله حديث عبدالرحمن بن يعمر الديلي قال: شهدت رسول الله ﷺ

١- (قلت): وروى النسائي في سننه (٣٠٤٠) عن عروة بن مضرس وصححه الإمام الألباني قال قال رسول الله ﷺ: ((من أدرك جمعا مع الإمام والناس حتى يفيض منها فقد أدرك الحج ومن لم يدرك مع الناس والإمام فلم يدرك)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٠١٦)، والإرواء (١٠٦٦).

بعرفة، وأتاه ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج، فقال رسول الله ﷺ: ((الحج عرفة من أدركها قبل أن يطلع الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه[1])) رواه النسائي قال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان – يعني الثوري – عن بكير بن عطاء عن عبدالرحمن بن يعمر الديلي قال: شهدت... ، فذكره. ورواه ابن عيينة عن بكير عن عبدالرحمن بن يعمر الديلي قال: شهدت رسول الله ﷺ يقول: ((الحج عرفات فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخَّر فلا إثم عليه[2])). وقوله في حديث عروة: ((من صلَّى صلاتنا هذه)). فذكر الصلاة بالمزدلفة، فقد أجمع العلماء أنه لو بات بها ووقف ونام عن الصلاة فلم يصل مع الإمام حتى فاتته أن حجَّه تام. فلما كان حضور الصلاة مع الإمام ليس من صلب الحج كان الوقوف بالموطن الذي تكون فيه الصلاة أحرى أن يكون كذلك. قالوا: فلم يتحقق بهذا الحديث ذلك الفرض إلا بعرفة خاصة.

التاسعة عشرة: {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ}: كرَّر الأمر تأكيدًا، كما تقول: ارم. ارم. وقيل: الأول أمر بالذكر عند المشعر الحرام. والثاني أمر بالذكر على حكم الإخلاص وقيل: المراد بالثاني تعديد النعمة وأمر بشكرها، ثم ذكرهم بحال ضلالهم ليظهر قدر الإنعام فقال: {وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} والكاف في {كما} نعت لمصدر محذوف، و{ما} مصدرية أو كافة والمعنى: اذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هداية حسنة، واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه. و{إن} مخففة من الثقيلة، يدل على ذلك دخول اللام في الخبر، قال سيبويه. الفراء: نافية بمعنى ما، واللام بمعنى إلا، كما قال:

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة الرحمن

أو بمعنى قد أي قد كنتم ثلاثة أقوال والضمير في {قبله} عائد إلى الهدي. وقيل إلى القرآن، أي ما كنتم من قبل إنزاله إلَّا ضالِّين. وإن شئت على النبي ﷺ كناية عن غير مذكور، والأول أظهر والله أعلم.

قال ابن العثيمين: (واذكروه كما هداكم}؛ أمر بالذكر مرة أخرى؛ لكن لأجل التعليل الذي بعده ـ وهو الهداية ـ؛ لهذا الكاف هنا للتعليل؛ و{ما} مصدرية تسبك، وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: واذكروه لهدايتكم؛ والكاف تأتي للتعليل، كما قال ابن مالك في الألفية: (شبه بكاف وبها التعليل قد يعنى وزائدا لتوكيد ورد)، ومن ذلك قوله تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ... }[البقرة: ١٥١] الآية؛ وكما في التشهد في قوله: ((اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم ...))، أي لأنك صلَّيت على إبراهيم فصلِّ على محمد؛ فهو توسل إلى الله تعالى بفعل سبق منه نظير ما سألته.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٠١٥)، المشكاة (٢٥٩٥).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٣٠١٥)، والإرواء (١٠٦٤)، والمشكاة (٢٧١٤)، وصحيح أبي داود (١٧٠٣).

ويحتمل أن تكون الكاف للتشبيه؛ وعليه فيكون الأمر بذكره ثانية عائدًا على الوصف ـ أي اذكروه على الصفة التي هداكم إليها ـ أي على حسب ما شرع؛ وعليه فلا تكرار؛ لأن الأمر بالذكر أولًا أمر بمطلق الذكر، والأمر به ثانية أمر بكونه على الصفة التي هدانا إليها.

وقوله تعالى: {هداكم}: أي دلَّكم، ووفَّقكم.

{وإن كنتم من قبله لمن الضَّالِّين}؛ {إن} مخفَّفة من الثقيلة؛ فهي للتوكيد بدليل وجود اللام الفارقة؛ والتقدير: وإنكم كنتم من قبله لمن الضالين؛ واسم {إن} ضمير الشأن محذوف؛ وهو مناسب للسياق؛ وبعض النحويين يقدر ضمير الشأن دائمًا بضمير مفرد مذكر غائب فيكون التقدير: وإنه ـ أي الشأن والصواب القول الأول أنه يقدر بما يقتضيه السياق – يعني: وإنكم كنتم من قبله لمن الضالين –؛ وجملة: {كنتم من قبله لمن الضَّالِّين} خبر {إن} المخفَّفة؛ والضمير في قوله تعالى: {من قبله} يعود على القرآن؛ أو يعود على الرسول؛ أو يعود على الهدى؛ كل ذلك محتمل؛ وكل ذلك متلازم؛ فالهدى جاء من القرآن، ومن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: {لمن الضَّالِّين}: يشمل الضال عن جهل؛ والضال عن علم؛ فالضال عن جهل: الذي لم يعلم بالحق أصلًا؛ والضال عن علم: الذي ترك الطريق الذي ينبغي أن يسلكه – وهو الرشد –؛ والعرب من قبل هذا الدين ضالون؛ منهم من كان ضالًّا عن جهل؛ ومنهم من كان ضَّالًّا عن علم؛ فمثلًا قريش لا تفيض من عرفة؛ وإنَّما تقف يوم عرفة في مزدلفة؛ قالوا: لأنَّنا نحن أهل الحرم؛ فلا نخرج عنه؛ فكانوا يقفون في يوم عرفة في مزدلفة، ولا يفيضون من حيث أفاض الناس؛ وإذا جاء الناس وباتوا فيها خرجوا جميعًا إلى منى؛ وهذا من جهلهم، أو عنادهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– جواز الاتِّجار أثناء الحج بالبيع، والشراء، والتأجير ـ كالذي يؤجِّر سيارته التي يحج عليها في الحج؛ لقوله تعالى: {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم}.

٢– أنه ينبغي للإنسان في حال بيعه، وشرائه أن يكون مترقِّبًا لفضل الله لا معتمدًا على قوته وكسبه؛ لقوله تعالى: {أن تبتغوا فضلًا من ربكم}.

٣– ظهور منَّة الله على عباده بما أباح لهم من المكاسب؛ وأن ذلك من مقتضى ربوبيته سبحانه وتعالى، حيث قال تعالى: {فضلًا من ربكم}.

٤– مشروعية الوقوف بعرفة؛ لقوله تعالى: {فإذا أفضتم من عرفات}؛ وهو ركن من أركان الحج؛ لقول النبي ﷺ: ((الحج عرفة))؛ لو قال قائل: إن قوله تعالى: {فإذا أفضتم من عرفات} ليس أمرًا بالوقوف بها.

فالجواب: أنه لم يكن أمرًا بها؛ لأنها قضية مسلمة؛ ولهذا قال تعالى: {فإذا أفضتم من عرفات}.

٥- أنه يشترط للوقوف بمزدلفة أن يكون بعد الوقوف بعرفة؛ لقوله تعالى: {فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام}؛ فلو أن أحدًا مر بمزدلفة في الليل، ووقف بها يدعو، ثم وقف بعرفة يدعو بها، ثم رجع إلى منى لم يجزئه الوقوف بمزدلفة؛ لأنه في غير محله الآن؛ لأن الله ذكره بعد الوقوف بعرفة.

٦- أن الصلاة من ذكر الله؛ لقوله تعالى: {فاذكروا الله عند المشعر الحرام}؛ والنبي ﷺ أول ما بدأ: بالصلاة([1])؛ ولا شك أن الصلاة ذكر لله؛ بل هي روضة من رياض الذكر: فيها قراءة، وتكبير، وتسبيح، وقيام، وركوع، وسجود، وقعود؛ كل ذلك من ذكر الله: ذكر بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ثم من خاصية الصلاة أن كل عضو من أعضاء البدن له ذكر خاص به، وعبادة تتعلّق به.

٧- بيان أن مزدلفة من الحرم؛ لقوله تعالى: {عند المشعر الحرام}.

٨- جواز المبيت في مزدلفة في جميع نواحيها؛ لقوله تعالى: {عند المشعر الحرام}.

٩- أن عرفة مشعر حلال؛ لأنها من الحل؛ ولهذا يجوز للمحرم أن يقطع الأشجار بعرفة.

١٠- أن مزدلفة مشعر من المشاعر؛ فيكون فيه ردٌّ على من قال: إن الوقوف بها سنة؛ والقول الثاني: أنه ركن لا يصح الحج إلّا به كالوقوف بعرفة؛ والقول الثالث: أنه واجب يصح الحج بدونه؛ ولكن يجبر بدم؛ وأنا أتوقف بين كونها ركنًا، وواجبًا؛ أما أنها سنة فهو ضعيف؛ لا يصح.

١١- أن الإنسان يجب عليه أن يذكر الله تعالى لما أنعم عليه به من الهداية؛ لقوله تعالى: {واذكروه كما هداكم} إذا جعلنا الكاف للتعليل؛ وإن جعلناها للتشبيه فالمعنى: اذكروه على الوجه الذي هداكم له؛ فيستفاد منها أن الإنسان يجب أن يكون ذكره لله على حسب ما ورد عن الله عز وجل.

١٢- أن الذكر المشروع ما وافق الشرع؛ لقوله تعالى: {واذكروه كما هداكم}؛ والهداية نوعان: هداية دلالة: وهذه عامة لكل أحد؛ فكل أحد قد بيّن الله له شريعته سواء وفِّق لاتِّباعها، أم لا؛ ودليلها قوله تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى}[فصلت: ١٧]، وقوله تعالى: {إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا}[الإنسان: ٣]؛ والثاني: هداية توفيق بأن يوفق الله العبد لاتباع الهدى؛ ومنها قوله تعالى حين ذكر من ذكر من الأنبياء: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}[الأنعام: ٩٠]، وقوله تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت}[القصص: ٥٦] أي لا توفِّق للهدى من أحببته، أو من أحببت هدايته.

١- راجع البخاري ص١٣٢، كتاب الحج، باب ٩٥: الجمع بين الصلاتين بالمزدلفة، حديث رقم ١٦٧٢.

١٣- تذكير الإنسان بحاله قبل كماله؛ ليعرف بذلك قدر نعمة الله عليه؛ لقوله تعالى: {وإن كنتم من قبله لمن الضَّالِّين}؛ ومن هذا قول النبي ﷺ للأنصار: ((ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي([١])))؛ ومنه قول الملك للأبرص والأقرع: ((ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا، فأغناك الله([٢]))) الحديث؛ فالتَّذكير بالنِّعم بذكر الحال، وبذكر الكمال بعد النقص، مما يوجب للإنسان أن يزداد من شكر نعمة الله عليه.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}، قيل: الخطاب للحُمس، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم، وكانوا يقولون: نحن قَطين الله، فينبغي لنا أن نعظِّم الحرم، ولا نعظِّم شيئًا من الحل، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم إن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لا يخرجون من الحرم، ويقفون بجمع ويفيضون منه ويقف الناس بعرفة، فقيل لهم: أفيضوا مع الجملة. و{ثم} ليست في هذه الآية للترتيب وإنما هي لعطف جملة كلام هي منها منقطعة. وقال الضحاك: المخاطب بالآية جملة الأمَّة، والمراد بـ{الناس} إبراهيم عليه السلام، كما قال: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ}[آل عمران: ١٧٣] وهو يريد واحدًا. ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى، وهي التي من المزدلفة، فتجيء {ثم} على هذا الاحتمال على بابها، وعلى هذا الاحتمال عوَّل الطبري. والمعنى: أفيضوا من حيت أفاض إبراهيم من مزدلفة جمع، أي ثم أفيضوا إلى منى لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع.

قلت: ويكون في هذا حجة لمن أوجب الوقوف بالمزدلفة، للأمر بالإفاضة منها، والله أعلم والصحيح في تأويل هذه الآية من القولين القول الأول. روى الترمذي عن عائشة قالت: ((كانت قريش ومن كان على دينها وهم الحُمس يقفون بالمزدلفة يقولون: نحن قطين([٣])الله، وكان من سواهم يقفون بعرفة، فأنزل الله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ

١- أخرجه البخاري ص٣٥٤، كتاب المغازي، باب ٥٧: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث رقم ٤٣٣٠؛ وأخرجه مسلم ص٨٤٥، كتاب الزكاة، باب ٤٦: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، حديث، رقم ٢٤٢٦ [١٣٩] ١٠٦١.

٢- أخرجه البخاري ص٢٨٢ - ٢٨٣، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥١: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث رقم ٣٤٦٤، وأخرجه مسلم ص١١٩١ - ١١٩٢، كتاب الزهد والرقائق، باب ١: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، حديث رقم ٧٤٣١ [١٠] ٢٩٦٤.

٣- قطين الله: أي سكان حرمه؛ والقطين جمع قاطن كالقطان.

النَّاسُ}([١])) هذا حديث حسن صحيح. وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: ((الحمس هم الذين أنزل الله فيهم : {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} قالت: كان الناس يفيضون من عرفات، وكان الحمس يفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نفيض إلّا من الحرم، فلمَّا نزلت: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} رجعوا إلى عرفات([٢]))). وهذا نص صريح، ومثله كثير صحيح، فلا معول على غيره من الأقوال. والله المستعان. وقرأ سعيد بن جبير (الناسي) وتأويله آدم عليه السلام، لقوله تعالى: {فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}[طه: ١١٥]. ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء فيقول الناس، كالقاض والهاد. ابن عطية: أما جوازه في العربية فذكره سيبويه، وأما جوازه مقروءًا به فلا أحفظه.

الثانية: روى أبو داود عن علي قال: فلما أصبح – يعني النبي ﷺ وقف على قزح فقال: ((هذا قُزَحْ وهو الموقف وجمع كلها موقف ونحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا في رحالكم([٣]))). فحكم الحجيج إذا دفعوا من عرفة إلى المزدلفة أن يبيتوا بها ثم يغلس([٤])بالصبح الإمام بالناس ويقفون بالمشعر الحرام. وقُزَح هو الجبل الذي يقف عليه الإمام، ولا يزالون يذكرون الله ويدعون إلى قرب طلوع الشمس، ثم يدفعون قبل الطلوع، على مخالفة العرب، فإنهم كانوا يدفعون بعد الطلوع ويقولون: أشرِق ثبير([٥])، كيما نغير، أي كيما نقرب من التحلُّل فنتوصل إلى الإغارة. وروى البخاري عن عمرو بن ميمون قال: ((شهدت عمر صلَّى بجمع الصبح ثم وقف فقال: إنَّ المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون: أشرق ثبير، وأن النبي ﷺ خالفهم فدفع قبل أن تطلع الشمس([٦]))).

الثالثة: فإذا دفعوا قبل الطلوع فحكمهم أن يدفعوا على هيئة الدفع من عرفة، وهو أن يسير الإمام بالناس سير العنق، فإذا وجد أحدهم فرجة زاد في العنق شيئًا. والعنق: مشي للدواب معروف لا يجهل. والنص: فوق العنق، كالخبب أو فوق ذلك. وفي صحيح مسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما وسئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين أفاض من عرفة؟ قال: ((كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص([٧]))). قال هشام: والنص فوق العنق، وقد تقدم. ويستحب له أن يحرك في بطن محسر قدر رمية بحجر، فإن لم يفعل فلا حرج، وهو من منى. فإذا أتوا منى وذلك غدوة يوم النحر، رموا جمرة العقبة بها

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠١٨).
٢- (قلت): مسلم (١٢١٩/١٥٢).
٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٩٩٦)، وقال في صحيح أبي داود (١٦٩١): حسن صحيح.
٤- الغلس: (محركة): ظلمة آخر الليل.
٥- ثبير (بفتح المثلثة وكسر الموحدة وسكون التحتية): جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منها الى منى. هذا هو المراد، وللعرب جبال أخر اسم كل منها ثبير. (عن – زهر الربى – للسيوطي).
٦- (قلت): البخاري (١٦٨٤).
٧- (قلت): البخاري (١٦٦٦)، مسلم (١٢٨٦).
– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص)): هما نوعان من إسراع السير، وفي العنق نوع من الرفق، والفجوة المكان المتسع، والنص التحريك حتى يستخرج أقصى سير الناقة.

ضحى ركبانًا إن قدروا، ولا يستحب الركوب في غيرها من الجمار، ويرمونها بسبع حصيات، كل حصاة منها مثل حصى الخذف([١])– على ما يأتي بيانه – فإذا رموها حل لهم كل ما حرم عليهم من اللباس والتفث كله، إلا النساء والطيب والصيد عند مالك وإسحاق في رواية أبي داود الخفاف عنه. وقال عمر بن الخطاب وابن عمر: يحل له كل شيء إلّا النساء والطيب. ومن تطيب عند مالك بعد الرمي وقبل الإفاضة لم ير عليه فدية، لما جاء في ذلك. ومن صاد عنده بعد أن رمى جمرة العقبة وقبل أن يفيض كان عليه الجزاء. وقال الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور: يحل له كل شيء إلّا النساء، وروي عن ابن عباس.

الرابعة: ويقطع الحاج التلبية بأول حصاة يرميها من جمرة العقبة، وعلى هذا أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها، وهو جائز مباح عند مالك. والمشهور عنه قطعها عند زوال الشمس من يوم عرفة، على ما ذكر في موطئه عن علي، وقال: هو الأمر عندنا.

قلت: والأصل في هذه الجملة من السنة ما رواه مسلم عن الفضل بن عباس، وكان رديف رسول الله ﷺ أنه قال في عشية عرفة وغداة جمع([٢])للناس حين دفعوا: ((عليكم بالسكينة، وهو كافّ ناقته حتى دخل محسرًا وهو من منى قال: عليكم بحصى الخذف الذي يرمى به الجمرة(([٣]))))، وقال: ((لم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى رمى جمرة العقبة([٤]))). في رواية: والنبي ﷺ يشير بيده كما يخذف الإنسان. وفي البخاري عن عبدالله: ((أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، ورمى بسبع وقال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة ﷺ([٥]))). وفي البخاري عن عائشة قالت: ((طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين، حين أحرم، ولحله حين أحل قبل أن يطوف، وبسطت يديها([٦]))). وهذا وهذا هو التحلُّل الأصغر عند العلماء. والتحلُّل الأكبر: طواف الإفاضة، وهو الذي يحل النساء وجميع محظورات الإحرام وسيأتي ذكره في [سورة الحج] إن شاء الله تعالى.

وأمر تعالى بالاستغفار لأنها مواطنه، ومظان القبول ومساقط الرحمة. وقالت فرقة: المعنى واستغفروا الله من فعلكم الذي كان مخالفًا لسنة إبراهيم في وقوفكم بقزح من المزدلفة دون عرفة.

١- الخذف (بالخاء المعجمة المفتوحة والذال المعجمة الساكنة) رميك حصاة أو نواة تأخذها بين الإبهام والسبابة وترمي بها. والمراد الحصا الصغار.

٢- أي صباح المزدلفة.

٣- (قلت): مسلم (١٢٨٢).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((وهو كاف ناقته)): من الكف بمعنى المنع، أي: يمنعها الإسراع، ((بحصى الخذف)) هو نحو حب الباقلاء وهذا أمر بالتقاط الحصيات للرمي.

٤- (قلت): مسلم (١٢٨١).

٥- (قلت): البخاري (١٧٤٨).

٦- (قلت): البخاري (١٧٥٤).

قال أبو زهرة: ختم سبحانه الآية الكريمة التي تشتمل على آخر منسك من مناسك الحج، إذ يكون بعده التَّحلُّل، وإن بقيت بعض العبادات الأخرى، بالأمر بالاستغفار وهو طلب المغفرة من الله القدير؛ وطلب المغفرة فور العبادة أمر توحي به النفس المؤمنة البَرَّة؛ وذلك لأن العبادة تطهر قلب العابد، وتزيل أدرانه، فتجعله يحس بما كان منه قبلها، فيضَّرَّع إلى المولى أن يستره بستره، ويصفح عنه بعفوه، ولأن المؤمن الخالص الإيمان كلَّما أرهفت مشاعره وقويت روحه، أحسَّ بأنه مقصِّر أمام المنعم، لَا يصل إلى الوفاء بحقِّه، فيلجأ إلى الاستغفار عن التَّقصير، ولأن الاستغفار نفسه عبادة، وهو أبر الطاعات، والاستغفار ثمرة الحج، لأنه التطهير النهائي للنفس، فيعود الحاج الذي لم يفسق ولم يرفث كيوم ولدته أمه.

قال ابن العثيمين: {واستغفروا الله}: أي اطلبوا المغفرة منه؛ والمغفرة ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المغفر الذي يوضع على الرأس عند القتال لتوقي السهام؛ وليست المغفرة مجرَّد الستر؛ بل هي ستر ووقاية.

قوله تعالى: {إن الله غفور رحيم}؛ هذه الجملة تعليل للأمر؛ أي استغفروا الله؛ لأنه أهل لأن يستغفر؛ فإنه سبحانه وتعالى غفور رحيم.

وإعراب {رحيم}: خبر ثان لـ{إن}؛ والخبر الأول: {غفور}.

وقوله تعالى: {غفور} صيغة مبالغة؛ وذلك لكثرة غفرانه تبارك وتعالى، وكثرة من يغفر لهم؛ و{الغفور(١)}: أي ذو المغفرة، كما قال تعالى: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}[الرعد: ٦].

وقوله تعالى: {رحيم} إما صفة مشبهة؛ وإما صيغة مبالغة؛ و{الرحيم(٢)}: أي ذو الرحمة؛ وهي صفة تقتضي جلب النِّعم، ودفع النِّقم، كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون}[النحل: ٥٣].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب المبيت بمزدلفة؛ لقوله تعالى: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس} على أحد التفسيرين، كما سبق؛ ومتى أفاض الإنسان من حيث أفاض الناس فإنه يلزم من ذلك أن يكون قد بات بمزدلفة.

٢- أن هذا النسك كان أمرًا معلومًا يسير الناس عليه من قديم الزمان؛ لقوله تعالى: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس}.

٣- أن الناس في أحكام الله تعالى سواء؛ فلا يخص أحد بحكم من الأحكام إلَّا لمعنى يقتضي ذلك؛ والمعنى المخصص يكون من قبل الشرع - لا من قبل الهوى، والعادة -؛ لقوله تعالى: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس}؛ ولا يشكل على قولنا هذا ما ورد في قصة أبي بردة بن نيار أنه ذبح في عيد الأضحى أضحية قبل الصلاة؛ ولما خطب النبي ﷺ وقال:

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

((إن من ذبح قبل الصلاة فلا نسك له، وأن شاته شاة لحم)) قام أبو بردة فقال: يا رسول الله، إن عندي عناقًا هي أحب إلي من شاتين أفتجزي عني؟ قال: ((نعم؛ ولن تجزئ عن أحد بعدك([1]))؛ لأن المراد بقوله ﷺ: ((لن تجزئ عن أحد بعدك)): أي بعد حالك؛ بمعنى: أن من جرى له مثله فإنها تجزي عنه؛ هكذا قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – وهو ظاهر؛ وكذلك لا يشكل على هذا قصة سالم مولى أبي حذيفة الذي كان قد تبنّاه؛ فلمَّا أبطل الله التَّبنِّي جاءت زوجة أبي حذيفة إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في سالم أنه كان يدخل عليها؛ يعني: وكأنه أحد أبنائها؛ فقال لها النبي ﷺ: ((أرضعيه تحرمي عليه([2]))؛ فإنه ليس خاصًّا به؛ بل لو جرى لأحد مثل ما جرى لسالم لحكمنا له بمثل ما حكم به النبي ﷺ لسالم؛ لكن هذا لا يمكن بعد نسخ التبني؛ إذ لا يمكن أحدًا أن يتبنَّى؛ وعلى هذا فالصورة التي تلحق بقصة سالم ممتنعة.

٤– أنه يشرع أن يستغفر الله عز وجل في آخر العبادات؛ لقوله تعالى: {واستغفروا الله}.

٥– إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: {الغفور}، و{الرحيم}؛ وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ وهي المغفرة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من الحكم بمقتضاهما؛ وهو أنه يغفر ويرحم كما قال تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء} [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: {ومن يغفر الذنوب إلا الله}[آل عمران: ١٣٥].

٦– قرن الحكم بالعلة؛ لقوله تعالى: {واستغفروا الله إن الله غفور رحيم}؛ وقرن الحكم بالعلة في مثل هذا يفيد الإقدام، والنشاط على استغفار الله عز وجل.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)

قال القرطبي: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ}: قال مجاهد: المناسك الذبائح وهراقة الدماء، وقيل: هي شعائر الحج، لقوله ﷺ: ((خذوا عنِّي مناسككم([3]))). المعنى: فإذا فعلتم منسكًا من مناسك الحج فاذكروا الله وأثنوا عليه بآلائه عندكم.

١– أخرجه البخاري ص٧٥، كتاب العيدين، باب ٥: الأكل يوم النحر، حديث رقم ٩٥٥، وأخرجه مسلم ص١٠٢٧ – ١٠٢٨، كتاب الأضاحي، باب ١: وقتها، حديث رقم ٥٠٧٠ [٥] ١٩٦١.

٢– أخرجه مسلم ص٩٢٣، كتاب الرضاع، باب ٧: رضاعة الكبير، حديث رقم ٣٦٠٢ [٢٨] ١٤٥٣، وأصله في البخاري.

٣– (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (١٠٧٤).

قال ابن العثيمين: {فإذا قضيتم مناسككم}: أي أنهيتم مناسككم؛ وذلك بالتحلُّل من النُّسك.

{فاذكروا الله} أمر تعالى بذكره بعد فراغ النسك؛ لأن الإنسان إذا فرغ من العبادة قد يغفل عن ذكر الله.

وقوله تعالى: {مناسككم} جمع منسك؛ وهو فيما يظهر اسم مصدر – يعني مصدرًا ميميًّا –؛ أي قضيتم نسككم؛ و (النسك) بمعنى العبادة؛ وهو كل ما يتعبد به الإنسان لله؛ ولكن كثر استعماله في الحج؛ وفي الذبح؛ ومنه قوله تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين}[الأنعام: ١٦٢].

{كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكرًا}؛ {ذكر} هنا مصدر مضاف لفاعله؛ و{آباء} مفعول به؛ أي كما تذكرون آباءكم، أو أشدَّ ذكرًا؛ و{أشد} يشمل الشدة في الهيئة، وحضور القلب، والإخلاص؛ والشدَّة في الكثرة أيضًا؛ فيذكر الله ذكرًا كثيرًا، ويذكره ذكرًا قويًّا مع حضور القلب.

وقوله تعالى: {كذكركم آباءكم}؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يذكرون أمجاد آبائهم إذا انتهوا من المناسك؛ وكل يفخر بنسبه، وحسبه؛ فأمر الله تعالى أن نذكره سبحانه وتعالى كذكرهم آباءهم، أو أشدّ ذكرًا.

قال القرطبي: كانت عادة العرب إذا قضت حجَّها تقف عند الجمرة، فتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم، وغير ذلك، حتى أن الواحد منهم ليقول: اللهم إن أبي كان عظيم القبة، عظيم الجفنة[١]، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته فلا يذكر غير أبيه، فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر آبائهم أيام الجاهلية هذا قول جمهور المفسرين. وقال ابن عباس وعطاء والضحاك والربيع: معنى الآية واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم: أبه أمه، أي فاستغيثوا به والجؤوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم. وقالت طائفة: معنى الآية اذكروا الله وعظموه وذبوا عن حرمه، وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره، كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غض أحد منهم، وتحمون جوانبهم وتذبون عنهم. وقال أبو الجوزاء لابن عباس: إن الرجل اليوم لا يذكر أباه، فما معنى الآية؟ قال: ليس كذلك، ولكن أن تغضب لله تعالى إذا عصي أشدّ من غضبك لوالديك إذا شُتِما والكاف من قول {كذكركم} في موضع نصب، أي: ذكرًا كذكركم. {أَوْ أَشَدُّ} قال الزجاج: {أو أشد} في موضع خفض عطفًا على ذكركم، المعنى: أو كأشدّ ذكرًا، ولم ينصرف لأنه (أفعل) صفة، ويجوز أن يكون في موضع نصب بمعنى أو اذكروه أشدّ. و{ذكرًا} نصب على البيان.

قال ابن العثيمين: قال كثير من النحويين: إن {أو} بمعنى: بل؛ أي بل أشدّ؛ وهو هنا متوجّه؛ ويشبهها من بعض الوجوه قوله تعالى: {وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون}[الصافات: ١٤٧]؛ وقد ذكر ابن القيم في قوله تعالى: {أو يزيدون} أن {أو} هنا ليست بمعنى (بل)؛ ولكنها لتحقيق ما سبق – يعني: إن لم يزيدوا فلن ينقصوا –؛ وبناء على هذا نقول مثله في

١- الجفنة: أعظم ما يكون من القصاع.

هذه الآية: أي كذكركم آباءكم – إن لم يزد فلا ينقص –؛ إلا أنه هنا إذا جعلناها بمعنى (بل) تكون أبلغ؛ لأن ذكر الله يجب أن يكون أشدّ من ذكر الآباء.

{فمن الناس}؛ {من} للتبعيض؛ والمعنى: بعض الناس؛ بدليل أنها قوبلت بقوله تعالى: {ومنهم}؛ فيكون المعنى: بعضهم كذا؛ وبعضهم كذا؛ وهذا من باب التقسيم؛ يعني: ينقسم الناس في أداء العبادة لا سيما الحج إلى قسمين.

{من يقول ربنا آتنا في الدنيا}: أي أعطنا في الدنيا؛ والمفعول محذوف؛ والتقدير: آتنا نصيبنا في الدنيا، بحيث لا يسأل إلا ما يكون في ترف دنياه فقط؛ ولا يسأل ما يتعلق بالدين؛ وربما يكون قوله تعالى: {ربنا آتنا في الدنيا} شاملًا للقول باللسان، والقول بالحال ـ أي قد يقول صراحة –: ربنا آتنا في الدنيا مثلًا سكنًا جميلًا؛ سيارة جميلة؛ وما أشبه ذلك؛ وربما يقوله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأنه إذا دعا في أمور الدنيا أحضر قلبه، وأظهر فقره؛ وإذا دعا بأمور الآخرة لم يكن على هذه الحال.

{وما له في الآخرة من خلاق}؛ {ما} نافية؛ و{من خلاق} مبتدأ؛ وخبره الجار والمجرور:{له}؛ ودخلت {من} على المبتدأ من أجل توكيد العموم؛ لأن {خلاق} نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ فإذا دخلت عليها {من} كان ذلك تأكيدًا للعموم؛ وال{خلاق}: بمعنى النصيب؛ يعني ما له في الآخرة من نصيب؛ لأنه لا يريد إلّا الدنيا؛ فلا نصيب له في الآخرة ممّا دعا به؛ وقد يكون له نصيب من أعمال أخرى.

قال القرطبي: قوله تعالى: {فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا} {من} في موضع رفع بالابتداء وإن شئت بالصفة يقول: {ربنا آتنا في الدنيا} صلة {من} والمراد المشركون.

قال أبو وائل والسدي وابن زيد: كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدو، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها، فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضًا إذا قصر دعواته في الدنيا، وعلى هذا ف{ما له في الآخرة من خلاق}: أي كخلاق الذي يسأل الآخرة والخلاق النصيب. و{من} زائدة وقد تقدم.

{وَمِنْهُمْ}: أي من الناس، وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة. وقال قتادة: حسنة الدنيا العافية في الصحة وكفاف المال. وقال الحسن: حسنة الدنيا العلم والعبادة. وقيل غير هذا. والذي عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نِعَمَ الدنيا والآخرة. وهذا هو الصحيح، فإن اللّفظ يقتضي هذا كله، فإن {حسنة} نكرة في سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل. وحسنة الآخرة: الجنة بإجماع. وقيل: لم يرد حسنة واحدة، بل أراد: أعطنا في الدنيا عطية حسنة، فحذف الاسم.

قال أبو زهرة: هذا هو الفريق الثاني؛ ليس همَّه الدنيا وليست مطالبه مقصورة عليها بل مطالبه ثلاثة:

أولها: حسنة في الدنيا، أي حال حسنة في الدنيا، فلا يذلُّ للئيم، ولا يرام بضيم، ولا تكرثه كوارث الحياة، ولا يبتلى في دينه ومروءته وخلقه، ولا يسلَّط عليه حاكم ظالم أو متسلِّط غاشم؛ وهكذا يعيش آمنًا في سربه عنده قوت يومه، ينفع الناس ويصل رحمه، فكل ما يؤدي إلى الاطمئنان والبعد عن الحرام فهو حال حسنة في الدنيا.

والمطلب الثاني: حسنة في الآخرة، أي حال حسنة في الآخرة، بأن يكون من المرضيِّ عنهم من رب العالمين، فلا تلحقه آثام من آثام الدنيا. والمطالبة بالحال الحسنة في الآخرة هي مطالبة بأن يجنبه السيئات في الدنيا، ويوفِّقه للطاعات فيها، لأن حال الآخرة مبنيَّة على حال الدنيا، فإن كان قائمًا بالطاعات نافعًا للناس فيها، غير ظالم ولا متكبِّر، لَا يعيث في الأرض فسادًا، فحاله في الآخرة حسنة؛ وإن انهوى في الشَّرِّ وركبته الآثام في الدنيا، وأحاطت به خطيئته، فليست حاله في الآخرة حسنة.

والمطلب الثالث: أن يقيه عذاب النار، وقد ذكر ذلك مطلبًا قائمًا بذاته مع أنه داخل في حسنة الآخرة؛ إذ إن حسنة الآخرة تقتضي ألَّا يكون في النار، لأن المؤمن الخاشع الخاضع يغلب الخوف على الرجاء، فكلَّما ازداد قربًا من الله ازدادت خشيته ورهبته، وكلَّما أكثر من الطاعات استصغر ما صنع في جانب ما أنعم عليه الكبير المتعال، ولذلك كان الصديقون والنبيون أخوف لله من غيرهم لأنهم أقرب إليه، وأدنى منه، ومراتب الناس في الخوف من العقاب هي كمراتبهم في الطاعات لا كدركاتهم في المعاصي، لأن أهل المعاصي في لهو شاغل، أما أهل الطاعات فهم في ذكر لله دائم، وقد وصف الله الطائعين بقوله: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال: ٢].

ولم يذكر قسم ثالث وهو الذي يطلب الآخرة فقط، ولا يطلب الدنيا؛ لأن الإسلام لَا يرضى أن ينسى المسلم حظَّه من الدنيا؛ ولأن من يطلب الآخرة يطلب الأعمال الحسنة في الدنيا؛ لأنها قنطرة الآخرة، ولأن الإسلام لَا يقرُّ الانقطاع عن طيبات الدنيا لحظ الآخرة لأنه لَا يرضى بتعذيب الجسم لتهذيب الروح كما يزعم الذين يسلكون ذلك المسلك.

ولقد روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ عاد رجلا من المسلمين صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: ((هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟))، قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: ((سبحان الله!! لَا تطيقه، أفلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار[١])).

١- (قلت): لم أجده عند البخاري، رواه مسلم في صحيحه (٢٦٨٨)، والحديث بتمامه: عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟)) قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلَا قُلْتَ: اللهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)). قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ، فَشَفَاهُ.

قال ابن العثيمين: وحسنة الدنيا كل ما يستحسنه الإنسان منها، مثل الصحة، وسعة الرزق، كثرة البنين، والزوجات، والقصور، والمراكب الفخمة، والأموال؛ وأما حسنة الآخرة فقيل: إنها الجنة؛ لقوله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} [يونس: ٢٦]؛ ولا شك أن الحسنة العظمى في الآخرة هي الجنة؛ لكن في الآخرة حسنات يستحسن المرء وقوعها غير الجنة، مثل أن يبيض وجهه، وأن تثقل موازينه، وأن يعطى كتابه بيمينه؛ فإنه إذا أعطي الكتاب بيمينه يقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه فرحًا مسرورًا.

{وقنا عذاب النار}: أي اجعل لنا وقاية من عذاب النار؛ وهذا يشمل شيئين:

الأول: العصمة من الأعمال الموجبة لدخول النار.

الثاني: المغفرة للذنوب التي توجب دخول النار.

قال القرطبي: والمراد بالآية الدعاء في ألَّا يكون المرء ممَّن يدخلها بمعاصيه وتخرجه الشفاعة. ويحتمل أن يكون دعاءً مؤكَّدًا لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين، كما قال أحد الصحابة للنبي ﷺ أنا إنَّما أقول في دعائي: اللهم أدخلني الجنة وعافني من النار، ولا أدري ما دندنتك([1])ولا دندنة معاذ. فقال له رسول الله ﷺ: ((حولها ندندن([2]))). خرجه أبو داود في سننه وابن ماجة أيضًا.

وهذه الآية من جوامع الدعاء التي عمَّت الدنيا والآخرة. قيل لأنس: ادع الله لنا، فقال: (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. قالوا: زدنا. قال: ما تريدون قد سألت الدنيا والآخرة([3])). وفي الصحيحين عن أنس قال: (كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: ((اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)). قال: فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه([4])). وفي حديث عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. ما له هِجِّيرى([5]) غيرها، ذكره أبو عبيد. وقال

١- الدندنة: أن يتكلم الرجل الكلام تسمع نغمته ولا يفهم؛ وهو أرفع من الهينمة قليلًا.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صفة الصلاة (٧٤٢)، وتخريج الكلم الطيب (١٠٣)، وصحيح أبي داود (٧٥٧).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد ٦٧٧/٥٢٦. وقال: لفظ الآية في القرآن الكريم " {ربنا آتنا ... } وقد جمع بين اللفظتين في رواية، فقال: (اللهم ربنا ...) أخرجه أحمد (١٠١/٣) من طريق قتادة، و(٢٤٧/٣ و٢٨٨) من طريق حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ قَالَ: أَخْبَرَنَا ثابت - كلاهما عن أنس، وهذا الجمع مما فات الحافظ التنبيه عليه في الفتح (١٩١/١١)، فقد رواه البخاري في هذا الموضع المشار إليه - وهو في (الدعوات)، بلفظ: (ربنا آتنا) ولما نقله في (الشرح) ذكره بلفظ: (اللهم آتنا)! ثم ذكر أن البخاري رواه في (التفسير) مثله، وهو هناك (٤٥٢٢/١٨٧/٨) بلفظ الجمع: (اللهم ربنا آتنا ...)! ثم أحال في الكلام على شرح الحديث إلى (الدعوات) ثم ذكر اختلاف الروايات ففي بعضها: (اللهم ربنا ...)، وفي بعضها: {ربنا..} بلفظ الآية دون اللفظ الأول (اللهم)، ولم يتعرض لذكر الروايتين اللتين ذكرتهما في الجمع بينهما، وهو الصواب.

٤- (قلت): مسلم (٢٦٩٠).

٥- الهجير، والهجيري: الدأب والعادة والدّيدن.

ابن جريج: بلغني أنه كان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم في الموقف هذه الآية: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- أن الإنسان ينبغي له إذا قضى من العبادة أن لا يغفل بعدها عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: {فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله}؛ وهذا كقوله تعالى: {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون}[الجمعة: ١٠].

٢- تقديم ذكر الله تعالى على ذكر الوالدين؛ لقوله تعالى: {أو أشد ذكرا}.

٣- أن الأجداد داخلون في مسمَّى الآباء؛ لأن العرب كانوا يفتخرون بأمجاد آبائهم، وأجدادهم، وقبائلهم.

٤- بيان انقسام الناس فيما يطلبون من الله، وأن منهم ذوي الغايات الحميدة، والهمم العالية الذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار}؛ ومنهم ذوو الغايات الذميمة، والهمم النازلة الذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق}.

٥- أن الإنسان لا يذم إذا طلب حسنة الدنيا مع حسنة الآخرة؛ لقوله تعالى: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة}.

٦- أن الإنسان محتاج إلى حسنات الدنيا، والآخرة.

٧- إثبات الآخرة.

٨- إثبات النار، وعذابها.

٩- إثبات علم الله، وسمعه، وقدرته؛ إذ لا يدعى إلا من اتصف بذلك.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

قال ابن العثيمين: {أولئك لهم نصيب مما كسبوا}: {أولاء} اسم إشارة؛ والمشار إليه فيه خلاف؛ فقال بعض العلماء: إن الإشارة تعود إلى مورد التقسيم كله؛ يعني: أولئك المذكورون الذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا}[البقرة: ٢٠١]؛ والذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة}[البقرة: ٢٠١]؛ ويكون كل له نصيب مما كسب، كقوله

تعالى: {ولكل درجات مما عملوا}[الأنعام: ١٣٢]؛ ولأنه تعالى قال: {والله سريع الحساب}؛ وهذا يقتضي أن يكون المشار إليه كلا القسمين؛ وقال آخرون: بل إن الإشارة تعود إلى التقسيم الثاني الذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار}[البقرة: ٢٠١]؛ فهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا؛ لقوله تعالى: {من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها}[النساء: ٨٥]؛ الآية إذًا محتملة للمعنيين؛ والثاني منهما أظهر؛ لأن الإشارة تعود إلى أقرب مذكور.

قال أبو زهرة: في هذا بيان لجزاء الذين يتّجهون إلى ربهم داعين أن يوفِّقهم لما فيه حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة، ويقيهم عذاب النار. والإشارة للبعيد لبيان علوّ منزلتهم؛ وقد بيَّن أن الجزاء هو نصيبهم مما كسبوه من عمل الخير والقيام بالحق الواجب عليهم، وفي هذا التعبير الذي يفيد أن النصيب مأخوذ مما كسبوه من أعمال إشارة إلى أمور ثلاثة:

أولها: إن هؤلاء الذين دعوا ربهم بالتوفيق لابدَّ أن يقرن دعاؤهم بإرادة قوية عاملة متَّجهة إلى تحقيق ما يبغون وما يدعون الله سبحانه وتعالى في التوفيق له، وإن لم يكن عمل فالدعاء أماني وأحلام، ولا يتحقَّق فيها القصد الكامل والضراعة الخاشعة لرب العالمين؛ لأنَّ الدعاء هو العبادة؛ فإن كان صادقًا فالإرادة تتَّجه نحوه.

الأمر الثاني: الذي يشير إليه التعبير الكريم: أن الجزاء ليس على الدعاء، وإنما الجزاء على العمل، فيجب أن يعملوا؛ فليس الدعاء وحده بمستحق جزاء إن كان العمل ينافيه.

الأمر الثالث: أن كسب العبد لعمل الخير يطوي في ثناياه جزاءه، وكذلك كل عمل للإنسان جزاؤه مشتق من منهاجه، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ فمن أسدى إلى الناس معروفًا، فقد قدَّم بهذا الإسداء لنفسه؛ ومن أعان مكروبًا، فقد كسب الجزاء ساعة عمل، وكذلك من قتل نفسًا، فقد قتل نفسه إذ استحق ذلك الجزاء، ومن سرق فقد قطع يده، ومن زنى فقد رجم نفسه، وهكذا {كلُّ امرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين}.

وقد ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله الكريمة: {وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، وسرعة حسابه سبحانه وتعالى كناية عن تحقيقه، وتحقُّق يوم القيامة وقربه، وعلمه سبحانه وتعالى بإحسان المحسن وإساءة المسيء؛ لأنَّ تطويل الحساب يكون من جهل المحاسب، فيبطئ ليعرف؛ فإذا كان المحاسب هو العليم الحكيم الذي لَا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإن حسابه يكون كريمًا؛ إذ لَا تخفى عليه سبحانه خافية.

وفى هذا التذييل إشارة إلى عقاب الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق على ما يرتكبون من موبقات ما داموا قد جعلوا الدنيا كل همهم، وغاية أمرهم، ومقصد وجودهم.

قال ابن العثيمين: {والله سريع الحساب}: أي محاسبة الله سبحانه وتعالى الخلائق؛ والسرعة هنا قد تكون سرعة الزمن؛ بمعنى: أن حساب الله قريب، كما في قوله تعالى: {وما يدريك لعل الساعة قريب}[الشورى: ١٧] وقوله تعالى: {وما

يدريك لعل الساعة تكون قريبًا}[الأحزاب: ٦٣]؛ وقد يكون المراد سرعة محاسبة الله للخلق ـ أي أن نفس حسابه سريع ـ؛ والثاني أبلغ؛ فإن الله عز وجل يحاسب الخلائق كلها في يوم واحد، ويعطي كل إنسان ما يستحقه من ذلك الحساب؛ ومحاسبة الله للخلائق على نوعين؛ النوع الأول للمؤمنين؛ والنوع الثاني للكافرين؛ أما حساب المؤمنين فإن الله سبحانه وتعالى يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، ويقول له: ((عملت كذا في يوم كذا))، حتى يقر ويعترف، فيقول الله عز وجل له: ((قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم(١)))؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((من نوقش الحساب عذب))؛ فقالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: {فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا} فقال النبي ﷺ: ((ذلك العرض(٢)))؛ أي تعرض الأعمال على الشخص حتى يقرّ؛ فإذا أقرَّ بها قال الله تعالى له: ((سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم))؛ وأما غير المؤمنين فإنهم لا يحاسبون كذلك؛ وإنما الأمر كما قال شيخ الإسلام: لا يحاسبون حساب من توزن حسناته، وسيئاته؛ لأنهم لا حسنات لهم؛ ولكن تحصى أعمالهم، وتحفظ، فيوقفون عليها، ويقرَّرون بها، ويخزون بها؛ يعني: وينادى عليهم على رؤوس الخلائق: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين}[هود: ١٨].

قال القرطبي: والمعنى في الآية: إن الله سبحانه سريع الحساب، لا يحتاج إلى عَدٍّ ولا إلى عقدٍ ولا إلى إعمال فكرٍ كما يفعله الحُسَّاب، ولهذا قال وقوله الحق: {وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[الأنبياء: ٤٧]، وقال رسول الله ﷺ: ((اللهم منزل الكتاب سريع الحساب(٣))) الحديث. فالله جل وعز عالم بما للعباد وعليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل، إذ قد علم ما للمحاسب وعليه، لأن الفائدة في الحساب علم حقيقته. وقيل: سريع المجازاة للعباد بأعمالهم وقيل: المعنى لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة، كما قال وقوله الحق: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[لقمان: ٢٨]. قال الحسن: حسابه أسرع من لمح البصر. وقيل: هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميع الخلق. وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال: كما يرزقهم في يوم. ومعنى الحساب: تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه، بدليل قوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ}[المجادلة: ٦]. وقيل: معنى الآية سريع بمجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة.

قلت: والكل محتمل فيأخذ العبد لنفسه في تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخف الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٨٩٤).

٢- اخرجه البخاري ص٥٤٨، كتاب الرقاق، باب ٤٩: من نوقش الحاسب عذب، حديث رقم ٦٥٣٦.

٣- (قلت): البخاري (٢٩٣٣)، مسلم (١٧٤٢). وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٦٥).

قال الشيخ خالد بن عبد الله بن محمد المصلح في شرح لمعة الاعتقاد ج١٣ص٥: (كيفية محاسبة الله للمؤمنين والكافرين):

ذكر الله جل وعلا المحاسبة، ووصف حسابه بأنه سريع، ووصف نفسه بأنه سريع الحساب، وهذه المحاسبة لا تختص بأهل الإيمان، بل تكون لأهل الإيمان وأهل الكفر، إلا أن أهل الإيمان حسابهم يسير، كما قال الله عز وجل: { فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا }[الانشقاق: ٨].

أمَّا من نوقش الحساب فإنه يعذب، كما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: ((من نوقش الحساب عذِّب))، قالت: يا رسول الله ألم يقل الله عز وجل: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨]، فقال: ((لا، إنَّما ذلك العرض))، أي: أن الله عز وجل يعرض الأعمال على أهل الإيمان ويقرِّرهم عليها، لكنه لا يحاسبهم عليها ولا يعاقبهم بها.

أمَّا الكفار فإنهم يحاسبون؛ لكن محاسبتهم ليست محاسبة موازنة تحصى فيها حسناتهم وسيئاتهم، فينظر أيهما يرجح؛ لأن الكافر لا حسنات له، وقد قال الله جل وعلا: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}[الفرقان: ٢٣]، والهباء هو الأشياء المتطايرة في شعاع الشمس، وهل هذه توزن أو يتكون منها شيء؟ لا يتكون منها شيء؛ ولذلك قال الله عز وجل في الكافر: { فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا }[الكهف: ١٠٥]: أي لأنه لا عمل له يوزن، لكن المحاسبة التي ثبتت لأهل الكفر هي إحصاء الأعمال وعرضها على الكفار.

وأمَّا المحاسبة التي توضع فيها الحسنات في كفَّة والسيئات في كفَّة؛ فلا تكون لأهل الكفر، لأنهم ليس لديهم حسنات حتى توزن وينظر هل ترجح بما معهم من السيئات أو لا؛ إنَّما معهم سيئات، وهي التي تهوي بهم في النار، نسأل الله السلامة والعافية.

أما أهل الإيمان فهم يحاسبون، وحسابهم عرض أعمالهم عليهم، وأيضًا الموازنة بين الحسنات والسيئات، وينقسم الناس في هذا إلى أقسام: منهم من ترجح حسناته، ومنهم من ترجح سيئاته، ومنهم من تستوي الحسنات والسيئات.

قال الشيخ البراك في شرحه للواسطية ج١ص٢٢٢: والقرآن ظاهره – والله أعلم – أن الكفار توزن أعمالهم فتخف موازينهم قال الله: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}، { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} الآيات، ونظائر هذا في القرآن متعدِّد، ولكنهم لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناتهم وسيئاتهم، توزن أعمالهم فتخف ميزانهم؛ لأنهم ما لهم حسنات، تخف موازينهم، موازين الحسنات ليس فيها شيء.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الثواب يكون بالعدل؛ لقوله تعالى: {أولئك لهم نصيب مما كسبوا}؛ لكنه بالعدل في العقوبة؛ وبالفضل في المثوبة.

٢- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {ممَّا كسبوا}.

٣- إثبات الحساب؛ لقوله تعالى: {والله سريع الحساب}.

٤- تمام قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: {والله سريع الحساب}.

٥-إثبات علم الله؛ لأن المحاسب لا بد أن يكون لديه علم يقابل به من يحاسبه.

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

قال ابن العثيمين: {واذكروا الله في أيام معدودات}؛ لما ذكر الله – تبارك وتعالى – أفعال الحج ذكر ما بعد انتهاء أفعال الحج؛ وهو ذكر الله تعالى في أيام معدودات؛ وهي أيام التشريق الثلاثة: الحادي عشر؛ والثاني عشر؛ والثالث عشر من شهر ذي الحجة؛ والذكر هنا يشمل كل ما يتقرَّب به إلى الله عز وجل من قول أو فعل في هذه الأيام؛ فيشمل التكبير في تلك الأيام مطلقًا، ومقيَّدًا؛ والنحر من الضحايا، والهدايا؛ ورمي الجمار؛ والطواف، والسعي إذا وقعا في هذه الأيام؛ بل والصلاة المفروضة، والتطوع؛ وقد قال النبي ﷺ: ((أيام التشريق أيام أكل، وشرب، وذكر لله عز وجل([1]))).

قال السعدي: يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقيَّة أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافًا لله فيها، ولهذا حرَّم صيامها، فللذِّكر فيها مزيَّة ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: ((أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله)).

ويدخل في ذكر الله فيها، ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيَّد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق، كالعشر، وليس ببعيد.

١- أخرجه مسلم ص٨٦٠، كتاب الصيام، باب ٢٣: تحريم صوم أيام التشريق ... ، حديث رقم ٢٦٧٧ [١٤٤] ١١٤١.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٠٥٠).

{فمن تعجَّل في يومين}: أي خرج من (منى) ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني {فلا إثم عليه ومن تأخَّر} بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد {فلا إثم عليه}، وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده، في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين، فالمتأخر أفضل، لأنه أكثر عبادة.

قال شيخ الإسلام في شرح العمدة – الحج –(٣/٦٤١-٦٤٢): السُّنَّةُ لِلْحَاجِّ: أَنْ لَا يَبِيتَ لَيَالِيَ مِنًى إِلَّا بِهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}[البقرة: ٢٠٣] وَمَعْنَى التَّعَجُّلِ: هُوَ الْإِفَاضَةُ مِنْ مِنًى، فَعُلِمَ أَنَّهُ قَبْلَ التَّعَجُّلِ يَكُونُ مُقِيمًا بِهَا، فَلَوْ لَمْ يَبِتْ بِهَا لَيْلًا – وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُقِيمَ بِهَا نَهَارًا -: لَمْ يَكُنْ مُقِيمًا بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ إِتْيَانِهِ مِنًى لِرَمْيِ الْجِمَارِ، وَإِتْيَانِهِ مَكَّةَ لِطَوَافِ الْإِفَاضَةِ وَالْوَدَاعِ.

وَالْآيَةُ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُقِيمَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي شُرِعَ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ، وَجُعِلَ ذَلِكَ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ عِيدًا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ وَلِأَنَّ الْعَبَّاسَ ((اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَبِيتَ بِمَكَّةَ لَيَالِيَ مِنًى مِنْ أَجْلِ سِقَايَتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ([1]))، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. فَاسْتِئْذَانُ الْعَبَّاسِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْمَبِيتِ بِهَا، وَإِذْنُهُ لَهُ مِنْ أَجْلِ السِّقَايَةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُؤْذَنُ فِي تَرْكِ الْمَبِيتِ بِغَيْرِ عُذْرٍ. وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ مِنًى عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ([2]))).

وَالْعِيدُ: هُوَ الْمُجْتَمَعُ لِلْعِبَادَةِ؛ فَيَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ يَجْتَمِعُونَ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ، وَمِنًى: وَأَيَّامُ مِنًى، لَا بُدَّ أَنْ يَجْتَمِعُوا، وَهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ نَهَارًا لِأَجْلِ مَصَالِحِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَرْمُونَ الْجِمَارَ مُتَفَرِّقِينَ، فَلَا بُدَّ مِنَ الِاجْتِمَاعِ لَيْلًا.

قال ابن العثيمين: {لمن اتَّقى}: الظاهر أنها قيد للأمرين جميعًا للتعجُّل والتأخُّر، بحيث يحمل الإنسان تقوى الله عز وجل على التعجُّل أو التأخُّر.

قال السعدي: ولمَّا كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدِّم، والمتأخِّر فقط قيَّده بقوله: {لمن اتَّقى}: أي اتَّقى الله في جميع أموره، وأحوال الحج، فمن اتَّقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتَّقاه في شيء دون شيء، كان الجزاء من جنس العمل.

قال أبو زهرة: وقد قيَّد الله سبحانه نفي الإثم بقوله: {لِمَنِ اتَّقَى} للإشارة إلى أن العبرة بتقوى القلوب؛ فتلك الحركات الحسية من التزام مكان معيَّن في زمان معيَّن، ورمي الجمار الثلاث لكل جمرة سبع حصيات؛ كل هذا لَا غاية له، ولا ثمرة إلَّا تربية التَّقوى وتنميتها في القلوب، لتتهذَّب النفس، ويربى الوجدان ويخشى العبدُ الدَّيَّانَ، فيراقبه في كل الأفعال وكل

١- (قلت): البخاري (١٧٤٥)، ومسلم (١٣١٥).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٧/٩٦٣)، وقال: أخرجه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذى (١/١٤٨)، وابن أبى شيبة (٢/١٨٣/١)، والدارمي (٢/٢٣)، والطحاوي (١/٣٣٥)، وابن حبان (٩٥٨). وكذا ابن خزيمة (٢١٠٠)، والحاكم (١/٤٣٤)، والبيهقي (٤/٢٩٨)، وأحمد (٤/١٥٢)، وقال الترمذى: (حديث حسن صحيح). وقال الحاكم: (صحيح على شرط مسلم). ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. والحديث بتمامه: عن عقبة بن عامر مرفوعا بلفظ: ((يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهى أيام أكل وشرب)).

الأقوال، فيكون مجتمعًا مهذَّبًا كاملًا صالحًا قويًّا؛ لأن تهذيب الآحاد تقوية لبناء الجماعة، فلا تتنافر أجزاؤها، ولا تتباعد آحادها، وتقوم على تقوى من الله ورضوان.

وإن هذه الأيام التي يقوم فيها الحجيج بذلك الذكر في البقعة المباركة، يشاركهم فيها المسلمون في كل بقاع الأرض في بعض أفعالهم، وذكرهم؛ فالحجيج ينحرون ليتحلَّلوا، وسائر المسلمين ينحرون ليضحُّوا، ويشاركوا وفود الله في صدقاتهم؛ والحجيج يكبِّرون ويرمون الجمار، والمسلمون في الأمصار يشاركونهم في التكبير.

قال ابن العثيمين: {واتَّقوا الله}: ما أكثر ما يأمر الله سبحانه وتعالى بالتَّقوى في كتابه العزيز؛ لأن التَّقوى اتِّخاذ وقاية من عذاب الله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة.

{واعلموا أنكم إليه تحشرون}: أي تجمعون إلى الله – تبارك وتعالى؛ وذلك يوم القيامة؛ وصدر هذا بقوله تعالى: {واعلموا} للتنبيه على أنه لابدَّ من الإيمان بهذا الحشر، والاستعداد له.

قال الطبري: واتَّقوا الله أيها المؤمنون فيما فَرض عليكما من فرائضه، فخافوه في تضييعها والتفريط فيها، وفيما نهاكم عنه في حجِّكم ومناسككما أن ترتكبوه أو تأتوه وفيما كلَّفكم في إحرامكم لحجكم أن تقصِّروا في أدائه والقيام به، {واعلموا أنكم إليه تحشرون}، فمجازيكم هو بأعمالكم – المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته – وموفٍّ كل نفس منكم ما عملت وأنتم لا تظلمون.

قال أبو زهرة: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}: ختم الله سبحانه وتعالى آيات الحج التي أشار فيها إلى مناسكه، وذكر فيها بعض أعمال الحجيج الواجبة فيها، بهذه الجملة السامية، وبذلك الأمر الجازم القاطع، وهو الأمر المكوَّن من عنصرين أحدهما: تقوى الله، وثانيهما: العلم اليقيني بالحشر، وأنه سيكون إلى رب العالمين؛ وفي هذا إشارة إلى خلاصة التديُّن وثمرة العبادات بكل أنواعها وكل طرقها، فإن لم تؤدِّ أية عبادة إلى هذين الأمرين، فهي صورة لَا روح فيها، وشكل لا ثمرة منه، فإن لم تربِّ العبادة قلبًا خاشعًا، وعقلًا خاضعًا، وهوىً ممنوعًا، وترقُّبًا خائفًا، فهي عبادةٌ جوفاء، وإن نسي الشخص لغفلة في نفسه أو غفوة من عقله؛ أو غشيان الضلال على قلبه – الحشر والحساب والعقاب والثواب فقد ضل ضلالًا بعيدًا.

إن الإيمان باليوم الآخر هو لبُّ الدِّين، وهو الفاصل بين المهتدي والضَّال، فمن حسبها دنيا لَا آخرة بعدها، فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ خسر نفسه، فضلَّ وأضلَّ، وخسر حياته ففهمها أجلًا محدودًا لَا غاية وراءها، ولا سموَّ بعدها، وخسر العزاء الروحي الذي يجعله يرضى بشدائد الحياة رجاء لما وراءها؛ ولذلك قال الله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ...}.

وفى الجزء الثاني من الأمر تهديد بالعقاب، بعد الترغيب في الثواب، وعند الله حسن المآب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- مزية الذكر في هذه الأيام المعدودات؛ لقوله تعالى: {واذكروا الله في أيام معدودات}؛ لأن ذكر الله على سبيل العموم في كل الوقت؛ لكن هذا على سبيل الخصوص.

٢- أنه يجوز في هذه الأيام الثلاثة التعجل، والتأخر؛ لقوله تعالى: {فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه}.

٣- سعة فضل الله عز وجل، وتيسيره في أحكامه، حيث جعل الإنسان مخيَّرًا أن يبقى ثلاثة أيام، أو يتعجَّل في اليومين.

٤- أنه لابدَّ أن يكون خروجه من منى قبل أن تغرب الشمس؛ لأن {في} للظرفية؛ والظرف يحيط بالمظروف؛ فلابدَّ أن يكون التعجُّل في خلال اليومين بعد الرَّمي الواقع بعد الزوال.

٥- أنه لا يجوز التعجُّل في اليوم الحادي عشر؛ لأنه لو تعجَّل في اليوم الحادي عشر لكان تعجَّل في يوم لا في يومين؛ فكثير من العامَّة يظنون أن المراد باليومين: يوم العيد، واليوم الحادي عشر؛ وهذا ليس بصحيح؛ لأن الله تعالى قال: {واذكروا الله في أيام معدودات}؛ وهي أيام التشريق؛ وأيام التشريق إنما تبتدئ من الحادي عشر.

٦- أن الأعمال المخيَّر فيها إنما ينتفي الإثم عنها إذا فعلها الإنسان على سبيل التَّقوى لله عز وجل دون التهاون بأوامره؛ لقوله تعالى: {لمن اتَّقى}؛ فمن فعل ما يخيَّر فيه على سبيل التَّقوى لله عز وجل والأخذ بتيسيره فهذا لا إثم عليه؛ وأما من فعلها على سبيل التهاون، وعدم المبالاة فإن عليه الإثم بترك التَّقوى، وتهاونه بأوامر الله.

(تنبيه)

لا يستفاد من الآية جواز التأخُّر إلى اليوم الرابع عشر، والخامس عشر مع أن الله تعالى أطلق: { ... ومن تأخر}؛ لأن أصل الذكر في أيام معدودات؛ وهي ثلاثة أيام؛ فيكون المعنى؛ من تأخر في هذه الأيام المعدودات؛ وهي الأيام الثلاثة.

٧- وجوب التَّقوى؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله}.

٨- إثبات البعث؛ لقوله تعالى: {واعلموا أنَّكم إليه تحشرون}.

٩- قرن المواعظ بالتَّخويف؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله واعلموا أنَّكم إليه تحشرون}؛ لأنَّ الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلى الله عز وجل، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتَّقي الله، ويقوم بما أوجب الله، ويترك ما نهى الله عنه؛ وبهذا عرفنا الحكمة من كون الله عز وجل يقرن الإيمان باليوم الآخر في كثير من الآيات بالإيمان بالله دون بقية الأركان التي يؤمن بها؛ وذلك؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل لذلك اليوم؛ وهو القيام بطاعة الله ورسوله.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)

قال ابن العثيمين: فيما سبق من الآيات قسَّم الناس في الحج إلى قسمين؛ منهم من يقول: {ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق}[البقرة: ٢٠٠]؛ ومنهم من يقول: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة}[البقرة: ٢٠١]؛ وهؤلاء لهم نصيب ممَّا كسبوا؛ هنا قسَّم الناس أيضًا إلى قسمين: إلى مؤمن؛ وإلى منافق.

قال أبو زهرة: وقد ذكر الله سبحانه في هذه الآيات أن الناس فريقان: فريق الشر أهل النفاق، وهم الدَّاء، وهم درن الأمة، بل السرطان الذي يقضي عليها، إن لم يجتثُّ من أصله. والفريق الثاني، وهم الذين يتولون العلاج وهم الأخيار الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله.

وقد ابتدأ سبحانه بذكر الدَّاء، ليعلم أهل الخير مقدار ما يبتلون به، وقد ذكر صفات أهل الشر؛ فكانت ثلاثة:

أولها: حسن البيان والقول الحلو. وثانيها: كثرة الحلف الكاذب. وثالثها: اللدد في الخصومة.

قال ابن العثيمين: فقال تعالى في المنافق: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا}؛ {من} هنا للتبعيض؛ وهي بمعنى بعض الناس؛ ولهذا أعربها بعض النحويين على أنها مبتدأ؛ قال: لأنها حرف بمعنى الاسم؛ إذ إنها بمعنى بعض الناس؛ فيكون {من} مبتدأ، و{من يعجبك} خبره؛ لكن المشهور أن {من} حرف جر؛ و{من الناس} جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدَّم؛ و{من يعجبك} مبتدأ مؤخَّر؛ يعني: ومن الناس الذي يعجبك قوله، والخطاب في قوله تعالى: {يعجبك} إمَّا للرسول ﷺ؛ وإمَّا لكل من يتأتَّى خطابه؛ والأَولى الثاني.

وقوله تعالى: {من يعجبك قوله} ذكر بعض النحويين أنه إذا قيل: (أعجبني كذا) فهو لما يستحسن؛ وإذا قلت: (عجبت من كذا) فهو لما ينكر؛ فتقول مثلًا: (أعجبني قول فلان) إذا كان قولًا حسنًا؛ و(عجبت من قوله) إذا كان قولًا سيِّئًا منكَرًا؛ فقوله تعالى: {من يعجبك قوله}: أي من تستحسن قوله.

{في الحياة الدنيا}: أي إذا تكلَّم فيما يتعلَّق بأمور الدنيا كأن يتكلَّم بشيء، ويتوصل به إلى نجاته من القتل والسبي؛ لأن هذه الآية في المنافقين؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم}[المنافقون: ٤]، من حُسنه وفصاحته؛ ولكنَّهم أهل غرور، وخداع، وكذب؛ فإن آية المنافق ثلاث؛ منها: إذا حدث كذب.

وقوله تعالى: {في الحياة الدنيا}: متعلّق بمحذوف حالًا من {قوله}؛ والتقدير: قوله حال كونه فيما يتعلّق بالدنيا؛ لأنه لا يتكلَّم في أمور الدين؛ ويحتمل أن المعنى: القول الذي يعجب حتى في الدِّين؛ لكن لا ينتفع به في الآخرة؛ إنَّما ينتفع به في الدنيا فقط.

قال السعدي: أي إذا تكلَّم راق كلامه للسَّامع، وإذا نطق، ظننته يتكلَّم بكلام نافع، ويؤكّد ما يقول بأنَّه {ويشهد الله على ما في قلبه} بأن يخبر أن الله يعلم، أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله.

قال ابن العثيمين: {ويشهد الله على ما في قلبه}؛ اختلف المفسرون في معناها على قولين:

الأول: أن المعنى استمراره في النفاق؛ لأن الله – تبارك وتعالى – يعلم ما في قلبه من هذا النفاق؛ فاستمراره عليه إشهاد لله تعالى على ما في قلبه.

الثاني: أن المعنى: أن يقسم، ويحلف بالله أنه مؤمن مصدِّق، وأن الذي في قلبه هو هذا؛ فيشهد الله على ما في قلبه من محبَّة الإيمان، والتمسُّك به وهو كاذب في ذلك؛ ويدلُّ لذلك قوله تعالى: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون}[المنافقون: ١]: أي لكاذبون في دعواهم أنهم يشهدون بذلك؛ وعندي أن المعنَيين لا يتنافيان؛ كلاهما حق؛ فهو منطوٍ على الكفر والنفاق؛ وهو أيضًا يُعلِم الناس، ويشهد الله على أنه مؤمن؛ أما حقيقته قال الله تعالى فيه: {وهو ألدُّ الخصام}: يعني أعوجهم وأكذبهم؛ و{الخصام} يحتمل أن يكون مصدرًا؛ ويحتمل أن يكون جمعًا؛ إن كان مصدرًا ففعله: خاصم يخاصم، مثل: جادل يجادل؛ وقاتل يقاتل؛ وعلى هذا: {ألدُّ الخصام} تكون الإضافة لفظية؛ لأنها صفة مشبّهة مضافة إلى موصوفها – أي وخصامه ألدُّ الخصام؛ وإن كان جمعًا فمفرده: خصم؛ فيكون المعنى أنه ألدّ الخصوم – أي أعوجهم وأشدُّهم كذبًا؛ ويكون أيضًا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ لأن المعنى؛ وهو من الخصوم الأشدّاء الأقوياء في خصومتهم؛ وهذا الرجل صار ألدُّ الخصام؛ لأن قوله جيِّد وبيِّن، يعجبك قوله، فتجده لاعتماده على فصاحته وبيانه ألدُّ الخصام.

قال القرطبي: ال{ألدُّ}: الشديد الخصومة، وهو رجل ألدّ، وامرأة لدَّاء، وهم أهل لدد. وقد لدِدت – بكسر الدال –، تلدَّ – بالفتح – لددًا، أي صرت ألدّ. ولدَدته – بفتح الدال –، ألُدُّه – بضمها – إذا جادلته فغلبته. والألدّ مشتق من اللَّديدين، وهما صفحتا العنق، أي في أي جانب أخذ من الخصومة غلب. قال الشاعر:

وألدّ ذي حنق عليَّ كأنَّما ... تغلي عداوة صدره في مرجل

وقال آخر : إن تحت التراب عزمًا وحزمًا ... وخصيمًا ألدّ ذا مغلاق

و{الخصام} في الآية مصدر خاصم، قاله الخليل. وقيل: جمع خصم، قاله الزجاج، ككلب وكلاب، وصعب وصعاب، وضخم وضخام. والمعنى أشدُّ المخاصمين خصومة، أي هو ذو جدال، إذا كلَّمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوة وباطنه

باطل. وهذا يدلُّ على أن الجدال لا يجوز إلَّا بما ظاهره وباطنه سواء. وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم([1]))).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٤٢٥: فَهُوَ يُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْبَاطِلِ، وَفِيهِ لَدَدٌ. أَيْ: مَيْلٌ وَاعْوِجَاجٌ عَنْ الْحَقِّ، وَهَذَا عَلَى نَوْعَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ مُجَادَلَتُهُ وَذَبُّهُ عَنْ نَفْسِهِ مَعَ النَّاسِ، والثَّانِي: فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، بِحَيْثُ يُقِيمُ أَعْذَارَ نَفْسِهِ وَيَظُنُّهَا مُحِقَّةً وَقَصْدُهَا حَسَنًا، وَهِيَ خَائِنَةٌ ظَالِمَةٌ، لَهَا أَهْوَاءٌ خَفِيَّةٌ قَدْ كَتَمَتْهَا حَتَّى لَا يَعْرِفُ بِهَا الرَّجُلُ حَتَّى يَرَى وَيَنْظُرَ، قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ، قَالَ أَبُو دَاوُد: هِيَ حَبُّ الرِّيَاسَةِ.

قال أبو زهرة: أن ذلك النوع من الناس الذي يحاول أن يخدع الناس بحلو لسانه، ويضلَّهم بقدرة بيانه، فيه طبع ملازم له، وهو شدة الخصومة، ويصح أن نفسِّر الخصومة بالعداوة، كما يصح أن نفسِّرها بالجدل والمغالبة البيانية في ميدان المناظرات.

وعلى الأول يكون المعنى إنه شديد العداوة واللَّجاجة في الخصومة، فليس هيِّنا ليِّنا، قريب الرضا، سهل الرجوع، بل إنه لحب نفسه وكراهيته لخير الناس، لا يصفح عمَّن ينال منه ولو بالحق، فهو قد أكل الحقد قلبه، واعتركت في نفسه حسكة([2])الحسد؛ وكذلك كل شرير؛ لَا يحب الناس، ولا يظهر لهم المودَّة إلَّا برئاء القول: بل ذلك شأن المجرمين؛ ففي طبيعة كل مجرم بغض للمجتمع، وكأن بينه وبين الناس ثأرًا لَا يطل، وترات([3])يجب استيفاؤها؛ وكلَّما انحدر في جريمة وتلقَّفته يد العدالة ازداد للناس كرهًا وعاد إلى مثلها أو أكثر؛ وكذلك أولئك الذين في قلوبهم مرض، وفي ألسنتهم حلاوة يخدعون بها الناس: يبغضون الناس ولا يحبونهم إلَّا بمقدار ما ينالون من إرب فيهم، ولا يصفحون عمَّن ينالهم بالقصاص العادل، ويتَّبعون العورات؛ وهكذا هم في خصومات قلبية بينهم وبين الأخيار؛ يظهرون القول الحسن ليستمكنوا من الرقاب، ثم يشفوا غيظهم.

وعلى الثاني، وهو أن يكون الخصام بمعنى المجادلة والمنازلة البيانية، يكون المعنى: أن هؤلاء الذين يخادعون الناس بالقول الحلو، يثيرون الإعجاب بحسن بيانهم، ويوثِّقونه بالأَيمان المغلظة، ويجادلون عنه بقوة وعنف وغلب؛ فالكلام يكون كله في بيان منهاجهم في خدع الناس، وسلب ثقتهم بقول الزور؛ ولذلك كان هذا المعنى أنسب للسياق.

١- (قلت): البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الألد)): شديد الخصومة، مأخوذ من لديدي الوادي وهما جانباه، لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر ((الخصم)): الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو إثبات باطل.

٢- الحسكة: نبت له ثمرة خشنة (السعدان)، أو عشب له شوك يؤذي، وحسكة الصدر: العداوة والحقد والضغينة، على التشبيه. لسان العرب.

٣- تِرَّات: جمع ترة، من تر العضو إذا بانَ وانقطع بضربة بالسيف ونحوه. لسان العرب.

واللَّدد في الجدل، في ذاته صفة ملازمة للمراء والمهاترة؛ لأن من يكون همُّه الجدل يندفع إلى تأييد مذهبه بالحق وبالباطل، إذ لَا يهمُّه الحق بمقدار مايهمُّه انتصار فكره، وغلبه في ميدان النِّزال البياني؛ ولذلك كان مبغضًا إلى الله، وإلى الذين يدعون إلى الحق المجرَّد؛ ولقد قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم: ((إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم))، ولقد كان الإمام مالك رضي الله عنه يقول: كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص مما جاء به محمد ﷺ.

وفى الحق إن أولئك الذين يحاولون أن يكسبوا قلوب الناس ليتمكَّنوا من رقابهم بالقول المعسول الخادع فيهم الأمران السابقان: فيهم البغض الشديد للناس، وفرضهم أعداءً وخصومًا، ولا يفرضونهم أولياءً وإخوانًا؛ وفيهم اللَّدد في الجدال ومحاولة الغلب بالحق وبالباطل.

بل إن بغضهم للناس، أو على الأقل عدم نظرتهم إليهم نظرة أخوة واصلة، ومودَّة مقرَّبة، هي التي جعلتهم يحاولون خديعتهم بالقول البراق، واليمين الغموس، والجدل الذي تبرق فيه الألفاظ، ويختفي فيه نور الحق وتنقطع به أسباب اليقين؛ ولو كانوا يفرضون الأخوة الرابطة بينهم وبين الناس، لأحبُّوا لهم ما يحبون لأنفسهم، ولكرهوا ما يكرهون لهم، ولكشفوا عن نيَّتهم واضحة بيِّنة؛ فالحق دائمًا أبلج، والباطل لجلج(١)؛ فحيثما كانت خديعة فثمَّة هوَّة فارقة، لَا أخوة جامعة؛ وحيثما كانت لجاجة فثمَّة حق ضائع وباطل رائج.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه لا ينبغي للإنسان أن يغتر بظواهر الأحوال؛ لقوله تعالى: {ومن الناس من يعجبك قوله}؛ وكذلك من الناس من يعجبك فعله؛ ولكنه منطو على الكفر - والعياذ بالله؛ ولكن لا شك أنه بالنسبة إلينا ليس لنا أن نحكم إلا بما يقتضيه الظاهر؛ لأن ما في القلوب لا نعلمه؛ ولا يمكن أن نحاسب الناس على ما في القلوب؛ وإنما نحاسبهم على حسب الظاهر.

٢- أن هذا الصنف من الناس يشهد الله على ما في قلبه إما مما أظهره؛ وإما مما أبطنه - حسب ما سبق.

٣- الإشارة إلى ذم الجدل، والخصام؛ لقوله تعالى: {وهو ألدُّ الخصام}؛ لأن الخصومات في الغالب لا يكون فيها بركة؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ((أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم)): أي الإنسان المخاصم المجادل بالباطل ليدحض به الحق؛ وما من إنسان في الغالب أعطي الجدل إلا حرم بركة العلم؛ لأن غالب من أوتي الجدل يريد بذلك نصرة قوله فقط؛ وبذلك يحرم بركة العلم؛ أما من أراد الحق فإن الحق سهل قريب لا يحتاج إلى مجادلات كبيرة؛ لأنه واضح؛ ولذلك تجد أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خير

١- يقال: الحَقُّ أَبْلَجُ والباطلُ لَجْلَج، أي يُرَدد من غير أن يَنْفذ، واللَّجْلَجُ: المخْتَلِطُ الذي ليس بمستقيم، والأَبْلَجُ: المُضِيءُ المُستقيمُ. لسان العرب.

فيها؛ وتجد أنهم يخاصمون، ويجادلون، وينتهون إلى لا شيء؛ لا ينتهون إلى الحق؛ لأنهم لم يقصدوا إلا أن ينصروا ما هم عليه؛ فكل إنسان جادل من أجل أن ينتصر قوله فإن الغالب أنه لا يوفق، ولا يجد بركة العلم؛ وأما من جادل ليصل إلى العلم، ولإثبات الحق، وإبطال الباطل فإن هذا مأمور به؛ لقوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}[النحل: ١٢٥].

٤- إثبات علم الله عز وجل بما في الصدور؛ لقوله تعالى: {ويشهد الله على ما في قلبه}؛ لأن ما في القلب لا يعلمه إلّا الله عز وجل.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)

قال الطبري: {وإذا تولّى}، وإذا أدبر هذا المنافق من عندك يا محمد منصرفًا عنك.

قال ابن العثيمين: {سعى في الأرض}: المراد بالسَّعي هنا مطلق الحركة؛ وليس المراد بالسَّعي الركض بالرجل؛ {ليفسد فيها}: أي بالمعاصي، والكفر، والفتنة.

{ويهلك الحرث والنسل}: أي يكون سببًا لإهلاكهما؛ لأن المعاصي سبب لذلك؛ لقوله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}[الروم: ٤١]، ولقوله تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}[الأعراف: ٩٦]؛ والمراد بـ{الحرث} المحروث؛ وهو الزروع، كما يقال: (الغرس): يعني المغروس؛ والمراد بـ{النسل} مثلها أيضًا ـ يعني: المنسول؛ وهو الأولاد؛ يعني: يكون سعيه سببًا لفساد الحرث، والحيوانات.

{والله لا يحب الفساد}: بيان أن عمله هذا مكروه إلى الله؛ لأن الله لا يحب الفساد؛ وإذا كان لا يحب هذا الفعل فإنه لا يحب من اتَّصف به؛ ولهذا جاء في آية أخرى؛ {والله لا يحب المفسدين}[المائدة: ٦٤]؛ فالله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين؛ فالفساد نفسه مكروه إلى الله؛ والمفسدون أيضًا مكروهون إليه لا يحبُّهم.

قال السعدي: وإذا كان لا يحب الفساد، فهو يبغض العبد المفسد في الأرض، غاية البغض، وإن قال بلسانه قولًا حسنًا.

قال أبو زهرة: وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} وذلك لعدة أمور:

أولًا: لبيان أن الله لَا يحب ذلك الصنف من الناس الذي يخدع الناس ويكذب على الله، ويجادل ويماري، ويضلُّ عن بيِّنة، ويسعى في الأرض بالفساد؛ إذ الله لَا يحب الفساد، فلا يحب المفسدين، ومن لَا يحبه الله فهو بعيد عن رحمته، مُعَرَّض لنقمته.

ثانيًا: ولبيان أن الله سبحانه وتعالى لَا يريد بما فرض من عبادات إلَّا مصلحة الناس ودفع الضر عنهم، فهو الغني الحميد الذي لَا يكسب من عبادة عابد؛ ولا يضارُّ من فسق فاسق؛ إنما الأمر في ذلك إلى مصلحة الناس ودفع الضُّرِّ عنهم.

ثالثًا: وفوق ذلك هذا التذييل يدلُّ على أن شرع الله كله أساسه إقامة المصلحة ودفع المضرَّة، فما من أمر شرعه الله إلَّا فيه جلب نفع أو دفع ضرر، وأن دفع الضَّرر، مقدَّم على جلب النفع، وأن دفع الضَّرر العام مقدَّم على دفع الضَّرر الخاص، وأن جلب المنفعة العامة مقدَّم على جلب المنفعة الخاصة.

رابعًا: وإن هذا التذييل فوق ذلك يشير إلى أن الله سبحانه استخلف الإنسان في هذه الأرض لَيَعْمُرها لَا ليفسدها، فأولئك الذين يبذلون الجهود العقلية ليصلوا إلى ما يدمِّر الأرض ويخرِّبها ويجعلوا عاليها سافلها قد ضلُّوا عن سنة الله، وخرجوا على قانون الفطرة وهم بعيدون عن محبة الله؛ لأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

قال السعدي: ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص، ليست دليلًا على صدق ولا كذب، ولا برٍّ ولا فجور حتى يوجد العمل المصدِّق لها، المزكِّي لها وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس، بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيَّتهم أنفسهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن المعاصي سبب لهلاك الحرث، والنسل؛ لقوله تعالى: {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل}[البقرة: ٢٠٥]؛ وهذا كقوله تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}[الأعراف: ٩٦].

٢- إثبات محبة الله عز وجل للصلاح؛ لقوله تعالى {والله لا يحب الفساد}؛ فإن قيل: هذا نفي، وليس بإثبات؛ قلنا: إن نفيه محبة الفساد دليل على ثبوت أصل المحبَّة؛ ولو كان لا يحب أبدًا لم يكن هناك فرق بين الفساد، والصلاح؛ فلمَّا نفى المحبَّة عن الفساد علم أنه يحبُّ الصلاح.

٣- التَّحذير من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: {والله لا يحب الفساد}؛ ومعلوم أن كل إنسان يجب أن يكون حذرًا من التَّعرض لأمر لا يحبُّه الله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)

قال السعدي: ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أُمِرَ بتقوى الله تكبَّر وأَنَف.

قال ابن العثيمين: أي إذا قال له أهل العلم، والإيمان اتَّق الله ـ أي اتَّخذ وقاية من عذاب الله بترك الكفر والفساد؛

{أخذته العزَّة بالإثم}: أي حملته على الإثم.

قال السعدي: فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين.

قال ابن العثيمين: و{العزَّة}: بمعنى الأَنَفة والحميَّة والتَّرفُّع؛ والعزّة قد تكون وصفًا محمودًا؛ وقد تكون وصفًا مذمومًا، فالمعتزّ بدينه محمود، كما قال تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}[المنافقون: ٨]؛ والمعتزُّ بحسبه ونسبه حتى يكون عنده أَنَفة إذا أُمِرَ بالدِّين والإصلاح مذموم.

والمراد بـ{الإثم}: الذَّنب الموجب للعقوبة؛ فكل ذنب موجب للعقوبة فهو إثم.

{فحسبه جهنم}: أي كافيه؛ وهو وعيد له بها – والعياذ بالله؛ وال{حسب} بمعنى الكافي، كما قال الله تعالى: {فقل حسبي الله}[التوبة: ١٢٩]: أي كافيني؛ وقال تعالى: {وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}[آل عمران: ١٧٣]: أي كافينا؛ فقوله تعالى؛ {فحسبه جهنم}: أي كافيته؛ والمعنى: أنه يكون من أهلها – والعياذ بالله و{جهنم} اسم من أسماء النار؛ قيل: إنها كلمة معرَّبة، وأنها ليست من العربية الفصحى؛ وقيل: بل هي من اللغة الفصحى، وأن أصلها من الجهمة؛ وهي الظلمة؛ ولكن زيّدت فيها النون للمبالغة؛ وعلى كل فإن {جهنم} اسم للنار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين؛ وسمِّيت بذلك لبعد قعرها، وظلمتها – والعياذ بالله –.

{ولبئس المهاد}: اللام هنا للابتداء؛ أو موطّئة للقسم – أي: ووالله لبئس المهاد – وهذا أقرب؛ و{بئس} فعل جامد لإنشاء الذَّم؛ وفاعلها {المهاد}؛ وهي من الأفعال التي تحتاج إلى مخصوص بالذَّم؛ والمخصوص محذوف؛ أي: ولبئس المهاد مهاده، حيث كانت جهنم.

قال السعدي: {ولبئس المهاد}: أي المستقر والمسكن، عذابٌ دائم، وهمٌّ لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفَّف عنهم العذاب، ولا يرجون الثواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياذًا بالله من أحوالهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن هذا الرجل الموصوف بهذه الصفات يأنف أن يؤمر بتقوى الله؛ لقوله تعالى: {أخذته العزة بالإثم} فهو يأنف، كأنه يقول في نفسه: أنا أرفع من أن تأمرني بتقوى الله عز وجل؛ وكأن هذا الجاهل تعامى عن قول الله تعالى لأتقى البشر: {يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين}[الأحزاب: ١]؛ وقال تعالى في قصة زينب: {واتّق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه}[الأحزاب: ٣٧].

٢- البلاغة التَّامَّة في حذف الفاعل في قوله تعالى: {وإذا قيل له اتّق الله}؛ ليشمل كل من يقول له ذلك؛ فيكون ردُّه لكراهة الحق.

٣- التَّحذير من ردِّ الناصحين؛ لأن الله تعالى جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين؛ فمن ردَّ آمرا بتقوى الله ففيه شبه من المنافقين؛ والواجب على المرء إذا قيل له: (اتق الله) أن يقول: (سمعنا، وأطعنا) تعظيمًا لتقوى الله.

٤- أن الأنفة قد تحمل صاحبها على الإثم؛ لقوله تعالى: {أخذته العزة بالإثم}.

٥- أن هذا العمل موجب لدخول النار؛ لقوله تعالى: {فحسبه جهنم}.

٦- القدح في النار، والذَّم لها؛ لقوله تعالى: {ولبئس المهاد}؛ ولا شك أن جهنم بئس المهاد.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

قال الشيخ مقبل في صحيح المسند: قال الإمام أبو عبد الله الحاكم في مستدركه ج٣ ص٣٩٨ حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزاهد حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي ثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال: لما خرج صهيب مهاجرًا تبعه أهل مكة، فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا ثم أصير بعده إلى السيف فتعلمون أني رجل وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم قال: وحدثنا حماد بن سلمة بن ثابت عن أنس نحوه ونزلت على النبي ﷺ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} الآية فلما رآه النبي ﷺ قال: ((أبا يحيى ربح البيع))، قال: وتلا عليه الآية. صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

الحديث له طرق أخر أغلبها مراسيل كما في الإصابة ج٢ ص١٨٨ وفي الطبقات لابن سعد ج٣ ص١٦٣ و١٦٣ من القسم الأول وهي بمجموعها تزيد الحديث قوةً وتدلُّ على ثبوته.

قال ابن العثيمين: لمَّا ذكر الله حال المنافقين الذين يعجبك قولهم في الحياة الدنيا وهم ألدُّ الخصام؛ والذين إذا تولَّوا سعوا في الأرض فسادًا ليهلكوا الحرث، والنَّسل - والله لا يحب الفساد - ذكر حال قوم على ضدِّهم؛ وهكذا القرآن مثاني تثنى فيه الأمور؛ فيؤتى بذكر الجنة مع النار؛ وبذكر المتَّقين مع الفجار ... لأجل أن يبقى الإنسان في روضة متنوعة؛ ثم ليبقى الإنسان بين الخوف والرجاء - لا يغلب عليه الخوف فيقنط من رحمة الله -؛ ولا الرجاء فيأمن مكر الله؛ فإذا سمع ذكر النار ووعيدها وعقوبتها أوجب له ذلك الخوف؛ وإذا سمع ذكر الجنة ونعيمها وثوابها أوجب له ذلك الرجاء؛ فترتيب القرآن من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى؛ وهو الموافق لإصلاح القلوب؛ ولهذا نرى من الخطأ الفادح أن يؤلِّف أحد القرآن مرتَّبًا على الأبواب والمسائل كما صنعه بعض الناس؛ فإن هذا مخالف لنظم القرآن والبلاغة وعمل السَّلف؛ فالقرآن ليس كتاب فقه؛ ولكنه كتاب تربية وتهذيب للأخلاق؛ فلا ترتيب أحسن من ترتيب الله؛ ولهذا كان ترتيب الآيات توقيفيًّا لا مجال للاجتهاد فيه؛ وكان النبي ﷺ إذا نزلت الآية قال: ((ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا([1]))).

{ومن الناس من يشري نفسه}؛ هذا هو القسيم لقوله تعالى: {ومن الناس من يعجبك ... }[البقرة: ٢٠٤]؛ وعلى هذا تكون {من} للتبعيض؛ والجار والمجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدَّم؛ و{من يشري} مبتدأ مؤخَّر.

وقوله تعالى: {من الناس}: قال بعض المفسرين: إنها تعني شخصًا معيَّنًا؛ وهو صهيب الرومي لمَّا أراد أن يهاجر من مكة منعه كفارها، وقالوا: لا يمكنك أن تهاجر أبدًا إلّا أن تدع لنا جميع ما تملك؛ فوافق على ذلك، وأنقذ نفسه بالهجرة ابتغاء مرضاة الله؛ وقال بعض العلماء - وهم أكثر المفسرين -: بل هي عامة لكل المؤمنين المجاهدين في سبيل الله؛ قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون}[التوبة: ١١١]؛ وهذا القول أصح؛ وهو أنها للعموم حتى لو صح أن سبب نزولها قصة صهيب؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنّة ج٧ص١٢٠: أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ مُطْلَقٌ، لَيْسَ فِيهِ تَخْصِيصٌ. فَكُلُّ مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَقَدْ دَخَلَ فِيهَا. وَأَحَقُّ مَنْ دَخَلَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ وَصَدِيقُهُ فَإِنَّهُمَا شَرَيَا نَفْسَهُمَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، وَهَاجَرَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْعَدُوُّ يَطْلُبُهُمَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

١- أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/٤٠٣، باب ٢١٥: بيان مشكل ما اختلف فيه عن عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الأنفال وبراءة وهل هما سورتان أو سورة واحدة.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٢٢٢٢)، وقال: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ.

قال ابن العثيمين: {من يشري نفسه}: أي يبيعها؛ لأن (شرى) بمعنى باع، كقوله تعالى: {وشروه بثمن بخس}[يوسف: ٢٠]: أي باعوه بثمن بخس؛ أما (اشترى) فهي بمعنى ابتاع؛ فإذا جاءت التاء فهي للمشتري الآخذ؛ وإذا حذفت التاء فهي للبائع المعطي؛ و{نفسه}: يعني ذاته.

{ابتغاء مرضات الله}: أي طلبًا لمرضات الله؛ فهي مفعول لأجله؛ و{مرضات الله}: أي رضوانه، أي يبيع نفسه في طلب رضا الله عز وجل -؛ فيكون قد باع نفسه مخلصًا لله في هذا البيع.

قال السعدي: هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها طلبًا لمرضاة الله ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفَّقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة} إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٥ص٢٧٩: وَأَمَّا قَوْلُهُ: أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي فِي اللَّهِ. فَهَذَا كَلَامٌ مُجْمَلٌ، فَإِنَّهُ إذَا فَعَلَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، فَأَفْضَى ذَلِكَ إلَى قَتْلِ نَفْسِهِ، فَهَذَا مُحْسِنٌ فِي ذَلِكَ، كَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى الصَّفِّ وَحْدَهُ حَمْلًا فِيهِ مَنْفَعَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يُقْتَلُ، فَهَذَا حَسَنٌ. وَفِي مِثْلِهِ أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} وَمِثْلُ مَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَنْغَمِسُ فِي الْعَدُوِّ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَأَمَّا إذَا فَعَلَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ، حَتَّى أَهْلَكَ نَفْسَهُ، فَهَذَا ظَالِمٌ مُتَعَدٍّ بِذَلِكَ، مِثْلُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْ الْجَنَابَةِ فِي الْبَرْدِ الشَّدِيدِ بِمَاءٍ بَارِدٍ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ يَقْتُلُهُ، أَوْ يَصُومُ فِي رَمَضَانَ صَوْمًا يُفْضِي إلَى هَلَاكِهِ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ، فَكَيْفَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ؟!

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ، فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَاسْتَفْتَى مَنْ كَانَ مَعَهُ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: لَا نَجِدُ لَك رُخْصَةً، فَاغْتَسَلَ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((قَتَلُوهُ، قَتَلَهُمْ اللَّهُ، هَلَّا سَأَلُوا إذَا لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ([1]))).

وَكَذَلِكَ رُوِيَ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ العاص، لَمَّا أَصَابَتْهُ الْجَنَابَةُ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، وَكَانَتْ لَيْلَةً بَارِدَةً فَتَيَمَّمَ، وَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ بِالتَّيَمُّمِ، وَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: ((يَا عَمْرُو، أَصَلَّيْت بِأَصْحَابِك، وَأَنْت جُنُبٌ؟))، فَقَالَ: يَا

١- أبو داود في الطهارة (٣٣٦) عن جابر بن عبدالله.

- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤)، وقال: حديث حسن؛ إلَّا قوله: " إنَّما كان ... إلخ؛ فإنه ضعيف؛ لأنه ليس له شاهد معتبر، وصححه ابن السكن.

رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} فَضَحِكَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا([١]). فَهَذَا عَمْرُو قَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْعِبَادَةَ الْمُفْضِيَةَ إِلَى قَتْلِ النَّفْسِ بِلَا مَصْلَحَةٍ مَأْمُورٌ بِهَا، هِيَ مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَتْلُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ حَرَامٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصِّحَاحِ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ([٢]))، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: ((عَبْدِي بَادَأَنِي بِنَفْسِهِ، فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَأَوْجَبْتُ لَهُ النَّارَ([٣]))). وَحَدِيثُ الْقَاتِلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ لَمَّا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الْجِرَاحُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لِعِلْمِهِ بِسُوءِ خَاتِمَتِهِ([٤])، وَقَدْ كَانَ ﷺ لَا يُصَلِّي عَلَى مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ([٥]).

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَصْدِ الْإِنْسَانِ قَتْلَ نَفْسِهِ، أَوْ تَسَبُّبِهِ فِي ذَلِكَ، وَبَيْنَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنْ بَيْعِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}[التوبة: ١١١]، وَقَالَ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ}، أَيْ: يَبِيعُ نَفْسَهُ.

وَالِاعْتِبَارُ فِي ذَلِكَ بِمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، لَا بِمَا يَسْتَحْسِنُهُ الْمَرْءُ أَوْ يَجِدُهُ، أَوْ يَرَاهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَحَدُ هَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِجَهْلٍ، أَفْسَدَ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ: أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ رِضَاهُ أَوْ مَحَبَّتُهُ فِي مُجَرَّدِ عَذَابِ النَّفْسِ، وَحَمْلِهَا عَلَى الْمَشَاقِّ، حَتَّى يَكُونَ الْعَمَلُ كُلَّمَا كَانَ أَشَقَّ كَانَ أَفْضَلَ، كَمَا يَحْسَبُ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ أَنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَا! وَلَكِنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ مَنْفَعَةِ الْعَمَلِ، وَمَصْلَحَتِهِ، وَفَائِدَتِهِ، وَعَلَى قَدْرِ طَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَيُّ الْعَمَلَيْنِ كَانَ أَحْسَنَ، وَصَاحِبُهُ أَطْوَعَ وَأَتْبَعَ، كَانَ أَفْضَلَ؛ فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِمَا يَحْصُلُ فِي الْقُلُوبِ حَالَ الْعَمَلِ.

وَلِهَذَا لَمَّا نَذَرَتْ أُخْتُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنْ تَحُجَّ مَاشِيَةً حَافِيَةً، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ تَعْذِيبِ أُخْتِكَ نَفْسَهَا، مُرْهَا فَلْتَرْكَبْ([٦]))، وَرُوِيَ ((أَنَّهُ أَمَرَهَا بِالْهَدْيِ))، وَرُوِيَ: ((بِالصَّوْمِ)). وَكَذَا حَدِيثُ جويرية فِي تَسْبِيحِهَا بِالْحَصَى، أَوْ النَّوَى،

١- أبو داود في الطهارة (٣٣٤).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٦١) وقال: حديث صحيح، وصححه ابن حبان، وقال الحافظ: (وإسناده قوي). وعلقه البخاري.

٢- البخاري في الأدب (٦٠٤٧)، ومسلم في الإيمان (١٧٦/١١٠) كلاهما عن ثابت بن الضحاك.

٣- مسلم في الإيمان (١٨٠/١١٣) بنحوه.

٤- مسلم في الإيمان (١٧٨/١١)، وأحمد ٣٠٩/٢ كلاهما عن أبي هريرة.

٥- مسلم في الجنائز (١٠٧/٩٧٨)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٨) وقال: (حديث حسن صحيح)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٤)، وأحمد ٩٤/٥، كلهم عن جابر بن سمرة.

٦- البخاري في جزاء الصيد (١٨٦٦)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى في النذور ٧٩/١٠.

وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهَا ضُحًى، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا عَشِيَّةً، فَوَجَدَهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. وَقَوْلُهُ لَهَا: ((لَقَدْ قُلْت بَعْدَك أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْت مُنْذُ الْيَوْمِ لَرَجَحَتْ(١))).

وَأَصْلُ ذَلِكَ: أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا إلَّا بِمَا فِيهِ صَلَاحُنَا، وَلَمْ يَنْهَنَا إلَّا عَمَّا فِيهِ فَسَادُنَا؛ وَلِهَذَا يُثْنِي اللَّهُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَيَأْمُرُ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَيَنْهَى عَنْ الْفَسَادِ.

فَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ – إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا الْخَبَائِثَ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَضَرَّةِ وَالْفَسَادِ، وَأَمَرَنَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنْفَعَةِ وَالصَّلَاحِ لَنَا. وَقَدْ لَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ إلَّا بِمَشَقَّةِ، كَالْجِهَادِ، وَالْحَجِّ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَطَلَبِ الْعِلْمِ، فَيَحْتَمِلُ تِلْكَ الْمَشَقَّةَ، وَيُثَابُ عَلَيْهَا لِمَا يَعْقُبُهُ مِنْ الْمَنْفَعَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ لَمَّا اعْتَمَرَتْ مِنْ التَّنْعِيمِ عَامَ

١- أحمد ٢٥٨/١، وأبو داود في الوتر (١٥٠٣).

- (قلت): قال الألباني في السلسلة الصحيحة ٥ / ١٨٨: أخرجه مسلم (٨ / ٨٣)، وأبو داود (١٥٠٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ١٠٧)، وابن منده في التوحيد له (٧٧ / ١ و ١٠٣ / ٢)، وكذا النسائي (١ / ١٩٨- ١٩٩)، والترمذي (٢ / ٢٧٣)، وابن ماجة (٣٨٠٨)، وأحمد (٦ / ٣٢٤ - ٣٢٥)، من طرق عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة عن كريب عن ابن عباس عن جويرية: ((أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت نعم. قال النبي ﷺ...))، فذكره. ولفظ النسائي والترمذي وأحمد: ((ألا أعلمك كلمات لو عدلن بهن عدلتهن، أو لو وزن بهن وزنتهن، يعني بجميع ما سبحت؟ سبحان الله عدد خلقه، ثلاث مرات ...))، الحديث وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح). قلت: وهو على شرط مسلم وهو رواية لابن خزيمة. وقد رويت هذه القصة من طريق أخرى وهي مع ضعف إسنادها مخالفة لهذه القصة الصحيحة من وجوه منها أن التسبيح كان عدا بالنوى أو الحصى.

- وقال رحمه الله في الضعيفة (١ / ١٣١): أن ذكر الحصى في القصة منكر، ويؤيد هذا إنكار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على الذين رآهم يعدّون بالحصى، وقد جاء ذلك عنه من طرق سبق أحدها ولوكان ذلك مما أقره ﷺ لما خفي على ابن مسعود إن شاء الله وقد تلقى هذا الإنكار منه بعض من تخرج من مدرسته ألا وهو إبراهيم بن يزيد النخعي الفقيه الكوفي، فكان ينهى ابنته أن تعين النساء على فتل خيوط التسبيح التي يسبح بها! رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢ / ٨٩ / ٢) بسند جيد.

قد يقول قائل: إن العدّ بالأصابع كما ورد في السنة لا يمكن أن يضبط به العدد إذا كان كثيرًا، فالجواب: إنما جاء هذا الإشكال من بدعة أخرى وهي ذكر الله في عدد محصور كثير لم يأت به الشارع الحكيم، فتطلبت هذه البدعة بدعة أخرى وهي السبحة! فإن أكثر ما جاء من العدد في السنة الصحيحة، فيما ثبت لدي إنما هو مئة، وهذا يمكن ضبطه بالأصابع بسهولة لمن كان ذلك عادته.

وأما حديث: ((من قال في يوم مئتي مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ...))، الحديث، فالمراد: مئة إذا أصبح، ومئة إذا أمسى كما جاء مصرَّحًا به في بعض الروايات الثابتة، وبيان ذلك في الصحيحة (٢٧٦٢).

وأما ما رواه ابن أبي شيبة (٢ / ٣٩١) عن وقاء عن سعيد بن جبير قال: رأى عمر بن الخطاب رجلًا يسبح بتسابيح معه، فقال عمر: إنما يجزيه من ذلك أن يقول: سبحان الله.... إلخ، فهو منكر لوجوه، منها الانقطاع بينه وبين سعيد، وضعف وقاء، وهو ابن إياس، وهو لين الحديث.

ولولم يكن في السبحة إلا سيِّئة واحدة وهي أنها قضت على سنة العدّ بالأصابع أو كادت، مع اتفاقهم على أنها أفضل، لكفى! فإني قلما أرى شيخًا يعقد التسبيح بالأنامل! ثم إن الناس قد تفنَّنوا في الابتداع بهذه البدعة، فترى بعض المنتمين لإحدى الطرق يطوّق عنقه بالسبحة! وبعضهم يعدّ بها وهو يحدثك أو يستمع لحديثك! وآخر ما وقعت عيني عليه من ذلك منذ أيام أنني رأيت رجلًا على دراجة عادية يسير بها في بعض الطرق المزدحمة بالناس وفي إحدى يديه سبحة! يتظاهرون للناس بأنهم لا يغفلون عن ذكر الله طرفة عين! وكثيرًا ما تكون هذه البدعة سببًا لإضاعة ما هو واجب، فقد اتَّفق لي مرارًا – وكذا لغيري – أنَّني سلَّمت على أحدهم فردَّ عليَّ السَّلام بالتلويح بها! دون أن يتلفَّظ بالسَّلام! ومفاسد هذه البدعة لا تحصى، فما أحسن ما قال الشاعر:

وكل خير في اتباع من سلف * * * وكل شر في ابتداع من خلف

حَجَّةِ الْوَدَاعِ: أَجْرُك عَلَى قَدْرِ نَصَبِك([1])). وَأَمَّا إذَا كَانَتْ فَائِدَةُ الْعَمَلِ مَنْفَعَةً لَا تُقَاوِمُ مَشَقَّتَهُ، فَهَذَا فَسَادٌ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ مَنَافِعُ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْ تَحَمَّلَ مَشَقَّةً لِرِبْحٍ كَثِيرٍ، أَوْ دَفْعِ عَدُوٍّ عَظِيمٍ، كَانَ هَذَا مَحْمُودًا، وَأَمَّا مَنْ تَحَمَّلَ كُلَفًا عَظِيمَةً، وَمَشَاقًّا شَدِيدَةً، لِتَحْصِيلِ يَسِيرٍ مِنْ الْمَالِ، أَوْ دَفْعِ يَسِيرٍ مِنْ الضَّرَرِ، كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أُعْطِيَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، لِيَعْتَاضَ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ. أَوْ مَشَى مَسِيرَةَ يَوْمٍ، لِيَتَغَدَّى غَدْوَةً يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَغَدَّى خَيْرًا مِنْهَا فِي بَلَدِهِ.

فَالْأَمْرُ الْمَشْرُوعُ الْمَسْنُونُ جَمِيعُهُ مَبْنَاهُ عَلَى الْعَدْلِ، وَالِاقْتِصَادِ، وَالتَّوَسُّطِ الَّذِي هُوَ خَيْرُ الْأُمُورِ وَأَعْلَاهَا كَالْفِرْدَوْسِ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَمَصِيرُهُ إلَيْهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

هَذَا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ لَا تُقْصَدُ لِذَاتِهَا، مِثْلِ الْجُوعِ، وَالسَّهَرِ، وَالْمَشْيِ.

وَأَمَّا مَا يُقْصَدُ لِنَفْسِهِ مِثْلُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ شُرِعَ فِيهَا الْكَمَالُ، لَكِنْ يَقَعُ فِيهَا سَرَفٌ، وَعُدْوَانٌ، بِإِدْخَالِ مَا لَيْسَ مِنْهَا فِيهَا، مِثْلُ أَنْ يُدْخِلَ تَرْكَ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا فِي التَّوَكُّلِ، أَوْ يُدْخِلَ اسْتِحْلَالَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَتَرْكَ الْمَشْرُوعَاتِ فِي الْمَحَبَّةِ، فَهَذَا هَذَا. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

قال ابن العثيمين: {والله رؤوف([2])}: أي ذو رأفة؛ و(الرأفة) قال العلماء: هي أرق الرحمة، وألطفها؛ و{بالعباد}: أي جميعهم.

وفي قوله تعالى: {رؤوف} قراءتان؛ إحداهما: مدُّ الهمزة على وزن فعول؛ والثانية قصرها على وزن فعل.

قال الطبري: والله ذو رحمة واسعة بعبده الذي يشري نفسه له في جهاد من حادَّه في أمره من أهل الشرك والفُسوق وبغيره من عباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم، فينجز لهم الثواب على ما أبلوا في طاعته في الدنيا، ويسكنهم جناته على ما عملوا فيها من مرضاته.

قال أبو زهرة: {وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}: ذَيَّل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بتلك الكلمة السامية؛ للإشارة إلى أمور ثلاثة وصلت إليها مداركنا:

أولها: إن الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده جعل الخير القوي بجوار الشر المندفع، فهدى الله أهل الخير الأقوياء إلى مدافعة أهل الشر الطغاة، ولولا ذلك لعمَّ الفساد، وهلك العباد، {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ}.

١- البخاري في العمرة (١٧٨٧)، ومسلم في الحج (١٢١١/١٢٦)، كلاهما عن عائشة.

- (قلت): صححه الإمام الألباني الجامع الصغير وزيادته، وقال: انظر حديث رقم : ٢١٦٠ في صحيح الجامع.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرؤوف} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٠) من سورة النور.

وثانيها: الإشارة إلى أن الغلب للحق دائمًا؛ لأن ذلك من دواعي رأفته ورحمته بعباده، والحق الذي يجيء بالمغالبة حق قوي عزيز يعضُّ عليه بالنواجذ؛ وفيه إعلان لغلبة المعاني الإنسانية على النواحي الحيوانية.

وثالثها: إن من رحمة الله بعباده ألَّا يمكّن للظالمين، وأن يمكّن للعادلين؛ فإن الحكم العادل يكون رحمة بالناس ورفقًا بهم؛ والحاكم العادل ظِلُّ الله في أرضه، ورحمته بخلقه؛ وتسليط الظالمين من أمارة غضب العلي الحكيم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تقسيم الناس إلى قسمين؛ القسم الأول: {ومن الناس من يعجبك قوله}[البقرة: ٢٠٤]؛ والقسم الثاني: {ومن الناس من يشري نفسه}.

٢- بلاغة هذا القرآن حيث يجعل الأمور مثاني؛ إذا جاء الكلام عن شيء جاء الكلام عن ضدِّه.

٣- فضل من باع نفسه لله؛ لقوله تعالى: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}.

٤- الإشارة إلى إخلاص النية؛ لقوله تعالى: {ابتغاء مرضات الله}.

٥- إثبات الرضا لله؛ لقوله تعالى: {مرضات الله}؛ ورضا الله صفة حقيقية لله عز وجل متعلقة بمشيئته؛ وينكرها الأشاعرة وأشباههم من أهل التعطيل؛ ويحرفون المعنى إلى أن المراد برضا الله إما إثابته؛ أو إرادة الثواب.

٦- استحباب تقديم مرضاة الله على النفس؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام المدح والثناء.

٧- إثبات الرأفة لله؛ لقوله تعالى: {والله رؤوف بالعباد}.

٨- عموم رأفة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {بالعباد}؛ هذا إذا كان {العباد} بالمعنى العام؛ أما إذا قلنا بالمعنى الخاص فلا يستفاد ذلك؛ واعلم أن العبودية لها معنيان: خاص؛ وعام؛ والخاص له أخص؛ وهو خاص الخاص؛ فمن العام قوله تعالى: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا}[مريم: ٩٣]؛ وأمَّا الخاص فمثل قوله تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا}[الفرقان: ٦٣]؛ المراد بهم عباد الرحمن المتَّصفون بهذه الصفات؛ فيخرج من لم يتَّصف بها؛ وأمَّا الأخصُّ مثل قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}[الفرقان: ١]؛ هذه عبودية الأخصّ - عبودية الرسالة -.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا}: الخطاب للمؤمنين؛ وقد تقدَّم أن الله تعالى إذا ابتدأ الحكم بالنداء فهو دليل على العناية به؛ لأن المقصود بالنداء تنبيه المخاطب؛ ولا يتطلَّب التنبيه إلَّا ما كان مهمًّا؛ فعندما أقول: (انتبه) يكون أقل ممَّا لو قلت: (يا فلان انتبه)؛ ثم إذا كان الخطاب للذين آمنوا فإن في ذلك ثلاث فوائد سبق ذكرها .

{ادخلوا في السِّلم كافة}؛ {السِّلم} فيها قراءتان: بفتح السين؛ وبكسرها؛ والمراد به الإسلام؛ وهو الاستسلام لله – تعالى – ظاهرًا وباطنًا.

فإن قال قائل: كيف يقول: {ادخلوا في السِّلم} ونحن قد عرفنا من قبل أن الإيمان أكمل من الإسلام؛ لقوله تعالى: {قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم}[الحجرات: ١٤].

قلنا: إن هذا الأمر مقيَّد بما بعد قوله: {في السِّلم}؛ وهو قوله تعالى: {كافَّة}؛ فيكون الأمر هنا منصبًّا على قوله تعالى: {كافَّة}؛ و{كافَّة} اسم فاعل يطلق على من يكفُّ غيره؛ فتكون التاء فيه للمبالغة، مثل: راوية، ساقية، علامة ... وما أشبه ذلك؛ والتاء في هذه الأمثلة للمبالغة؛ فيكون {كافَّة} بمعنى كافًّا؛ والتاء للمبالغة؛ قالوا: ومنه قوله تعالى: {وما أرسلناك إلَّا كافَّة للناس}[سبأ: ٢٨]، أي كافًّا لهم عمَّا يضرُّهم لتخرجهم من الظلمات إلى النور.

وتأتي {كافَّة} بمعنى جميع، مثل (عامَّة)، كقوله ﷺ: ((كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافَّة))؛ ووجه ارتباطها بالمعنى الأصلي – الذي هو الكف – أن الجماعة لها شوكة ومنعة تكف بجمعيتها من أرادها بسوء؛ وهنا قال تعالى: {ادخلوا في السِّلم كافَّة}، هل المراد ادخلوا في السلم جميعه، فتكون {كافَّة} حالًا من {السِّلم}؛ أو ادخلوا أنتم جميعًا في السلم، وتكون {كافَّة} حالًا من الواو في قوله تعالى: {ادخلوا}؟ الأقرب: المعنى الأول؛ لأننا لو قلنا بالمعنى الثاني: ادخلوا جميعًا في السلم صار معنى ذلك أن بعض المؤمنين لم يدخل في الإسلام؛ وحينئذ فلا يصح أن يوجَّه إليه النداء بوصف الإيمان؛ فالمعنى الأول هو الصواب أن {كافَّة} حال من {السِّلم} يعني ادخلوا في الإسلام كله؛ أي نفِّذوا أحكام الإسلام جميعًا، ولا تدَعوا شيئًا من شعائره، ولا تفرطوا في شيء منها؛ وهذا مقتضى الإيمان؛ فإن مقتضى الإيمان أن يقوم الإنسان بجميع شرائع الإسلام.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٢٦٦: وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ مِنْ حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ معدان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إنَّ لِلْإِسْلَامِ صُوًى وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَتُسَلِّمَ عَلَى بَنِي آدَمَ إذْ لَقِيتهمْ، فَإِنْ

رَدُّوا عَلَيْك، رَدَّتْ عَلَيْك وَعَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ، وَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْك، رَدَّتْ عَلَيْك الْمَلَائِكَةُ وَلَعَنَتْهُمْ إِنْ سَكَتَّ عَنْهُمْ، وَتَسْلِيمُك عَلَى أَهْلِ بَيْتِك إِذَا دَخَلْت عَلَيْهِمْ، فَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَهُوَ سَهْمٌ فِي الْإِسْلَامِ تَرَكَهُ، وَمَنْ تَرَكَهُنَّ فَقَدْ نَبَذَ الْإِسْلَامَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ(١))).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً}، قَالَ مُجَاهِدٌ وقتادة: نَزَلَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ يَأْمُرُهُمْ بِالدُّخُولِ فِي شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَهَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَ مَنْ قَالَ: نَزَلَتْ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ فِيمَنْ لَمْ يُسْلِمْ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ مَأْمُورُونَ – أَيْضًا – بِذَلِكَ، وَالْجُمْهُورُ يَقُولُونَ: {فِي السِّلْمِ} أَيْ: فِي الْإِسْلَامِ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُوَ الطَّاعَةُ، وَكِلَاهُمَا مَأْثُورٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكِلَاهُمَا حَقٌّ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الطَّاعَةُ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْأَعْمَالِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: {كَافَّةً} فَقَدْ قِيلَ: الْمُرَادُ ادْخُلُوا كُلُّكُمْ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ ادْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ جَمِيعِهِ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُؤْمَرُ بِعَمَلِ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا يُؤْمَرُ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: {ادْخُلُوا} خِطَابٌ لَهُمْ كُلِّهِمْ فَقَوْلُهُ: {كَافَّةً} إنْ أُرِيدَ بِهِ مُجْتَمِعِينَ لَزِمَ أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْسَانُ الْإِسْلَامَ حَتَّى يُسْلِمَ غَيْرُهُ فَلَا يَكُونُ الْإِسْلَامُ مَأْمُورًا بِهِ إلَّا بِشَرْطِ مُوَافَقَةِ الْغَيْرِ لَهُ كَالْجُمُعَةِ، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ، وَإِنْ أُرِيدَ ب"{كَافَّةً}": أَيْ ادْخُلُوا جَمِيعُكُمْ، فَكُلُّ أَوَامِرِ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}[الحديد: ٧]، {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}[النور: ٥٦] كُلُّهَا مِنْ هَذَا الْبَابِ وَمَا قِيلَ فِيهَا كَافَّةً، وقَوْله تَعَالَى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً}[التوبة: ٣٦]: أَيْ قَاتِلُوهُمْ كُلَّهُمْ لَا تَدَعُوا مُشْرِكًا حَتَّى تُقَاتِلُوهُ، فَإِنَّهَا أُنْزِلَتْ بَعْدَ نَبْذِ الْعُهُودِ، لَيْسَ الْمُرَادُ: قَاتِلُوهُمْ مُجْتَمِعِينَ أَوْ جَمِيعُكُمْ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَجِبُ، بَلْ يُقَاتِلُونَ بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ، وَالْجِهَادُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَإِذَا كَانَتْ فَرَائِضُ الْأَعْيَانِ لَمْ يُؤَكِّدْ الْمَأْمُورِينَ فِيهَا ب{كَافَّةً}، فَكَيْفَ يُؤَكِّدُ بِذَلِكَ فِي فُرُوضِ الْكِفَايَةِ؟! وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ تَعْمِيمُ الْمُقَاتِلِينَ. وَقَوْلُهُ: {كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}[التوبة: ٣٦] فِيهِ احْتِمَالَانِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالدُّخُولِ فِي جَمِيعِ الْإِسْلَامِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ، فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ الْإِسْلَامِ وَجَبَ الدُّخُولُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ وَاجِبًا عَلَى الْأَعْيَانِ لَزِمَهُ فِعْلُهُ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا عَلَى الْكِفَايَةِ اُعْتُقِدَ وُجُوبُهُ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ إذَا تَعَيَّنَ، أَوْ أَخَذَ بِالْفَضْلِ فَفَعَلَهُ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَحَبًّا اعْتَقَدَ حُسْنَهُ وَأَحَبَّ فِعْلَهُ.

قال السعدي: هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا {في السِّلم كافَّة}: أي في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئًا، وأن لا يكونوا ممّن اتّخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تَبَعًا للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه وينويه، فيدركه بنيَّته.

١- الحاكم ٢١/١ وقال: (هذا حديث صحيح على شرط البخاري فقد روى عن محمد بن خلف العسقلاني، واحتج بثور بن يزيد الشامي. فأمّا سماع خالد بن معدان عن أبي هريرة فغير مستبعد، وليس هذا إسناد شاذ كما يتوهم على البعض)، ووافقه الذهبي وأبو نعيم في الحلية ٢١٧/٥.

والصَوى: الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة. أراد: أن للإسلام طرائق وأعلامًا يهتدي بها. أنظر: النهاية في غريب الحديث ٦٢/٣.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في تحقيق الإيمان لابن تيمية.

ولمَّا كان الدخول في السِّلم كافة، لا يمكن ولا يتصوَّر إلَّا بمخالفة طرق الشيطان قال: {ولا تتَّبعوا خطوات الشيطان}: أي في العمل بمعاصي الله.

قال ابن العثيمين: {ولا تتَّبعوا خطوات الشيطان}؛ نهي بعد أمر؛ لأن اتِّباع خطوات الشيطان يخالف الدخول في السِّلم كافة؛ و{خطوات} جمع خطوة؛ و (الخطوة) في الأصل هي ما بين القدمين عند مدِّهما في المشي.

قال أبو زهرة: والمعنى: لَا تتَّبعوا سير الشيطان. وعبَّر عنه بخطواته لأن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لَا تجرُّ المرء إلى الشر دفعة واحدة، بل تأخذه إليه درجة درجة، فيبتدئ بأيسرها وأصغرها فيقتحمه من أغواه لصغره، حتى إذا ألفه جرَّأه على ما هو أكبر منه، ثم ما هو أكبر حتى تحيط بالنفس خطيئاتها، وتستغرقها مآثمها، فيكون الشرير الآثم الذي تصعب عليه التوبة؛ ولقد قال العلماء: إن كثرة ارتكاب الصغائر تجري على الكبائر، والشيطان يأتي من صغائر المعاصي ليغرس في النفوس غرس الرذائل، فخطوات الشيطان مدارجه يغري بالواحدة بعد الأخرى حتى يصل بالمرء إلى أقصى درجات الرذيلة. ولقد كان ذلك النهي بعد الأمر بالدخول في السِّلم، لأننا إن فسَّرناه بالإسلام يكون المعنى ادخلوا في الإسلام كله، ولا تحلوا عراه عروة عروة باتِّباع خطوات الشيطان، وإطاعة هوى النفس الأمَّارة بالسوء، فإن ذلك يذهب بالإسلام كله وبحرماته في النفس.

قال ابن العثيمين: {إنَّه لكم عدو مبين}: الجملة تعليلية مؤكَّدة بـ{إنَّ}؛ فتفيد شدَّة عداوة الشيطان لبني آدم؛ والعدو من يبتغي لك السوء؛ وهو ضد الولي؛ و{مبين}: أي بيِّن العداوة؛ ويجوز أن تكون بمعنى مظهر للعداوة؛ لأن (أبان) الرباعية تصلح للمعنَيين؛ ولا شك أن الشيطان بيِّن العداوة؛ ومُظهِر لعداوته؛ ألا ترى إلى إبائه السجود لأبينا آدم مع أن الله أمره به في جملة الملائكة.

قال الطبري: اعملوا أيها المؤمنون بشرائع الإسلام كلها، وادخلوا في التصديق به قولًا وعملًا ودعوا طرائق الشيطان وآثاره أن تتَّبعوها فإنه لكم عدوٌّ مبين لكم عداوته. وطريقُ الشيطان الذي نهاهم أن يتَّبعوه هو ما خالف حكم الإسلام وشرائعه، ومنه تسبيت السبت وسائر سنن أهل المِلَل التي تخالف ملَّة الإسلام.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضل الإيمان؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}؛ لأن هذا النداء تشريف وتكريم.

٢- أن الإيمان مقتض لامتثال الأمر؛ لأن الله صدر الأمر بهذا النداء؛ والحكم لا يقرن بوصف إلّا كان لهذا الوصف أثر فيه؛ وهذه الفائدة مهمة؛ ولا شك أن الإيمان يقتضي امتثال أمر الله عز وجل.

٣- وجوب تطبيق الشرع جملةً وتفصيلًا؛ لقوله تعالى: {ادخلوا في السِّلم كافَّة}.

٤- أن الإنسان يؤمر بالشيء الذي هو متلبِّس به باعتبار استمراره عليه، وعدم الإخلال بشيءٍ منه؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة}؛ ومثل هذا قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله}[النساء: ١٣٦] : يعني استمروا على ذلك.

٥- تحريم اتِّباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: {ولا تتَّبعوا خطوات الشيطان}؛ والمعنى: أن لا نتَّبع الشيطان في سيره؛ لأن الله بيَّن في آية أخرى أن الشيطان يأمر بالفحشاء، والمنكر؛ وما كان كذلك فإنه لا يمكن لعاقل أن يتَّبعه؛ فلا يرضى أحد أن يتَّبع الفحشاء والمنكر؛ وأيضًا الشيطان لنا عدو كما قال تعالى: {إن الشيطان لكم عدو}[فاطر: ٦]، ثم قال تعالى: {فاتَّخذوه عدوًا}؛ ولا أحد من العقلاء يتَّبع عدوه؛ إذا كان الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، وكان عدوًا لنا، فليس من العقل - فضلًا عن مقتضى الإيمان - أن يتابعه الإنسان في خطواته -؛ وخطوات الشيطان بيَّنها الله عز وجل: يأمر بـ{الفحشاء}: وهي عظائم الذنوب؛ و{المنكر}: وهو ما دونها من المعاصي؛ فكل معصية فهي من خطوات الشيطان؛ سواء كانت تلك المعصية من فعل المحظور، أو من ترك المأمور، فإنها من خطوات الشيطان؛ لكن هناك أشياء بيَّن الرسول ﷺ أنها من فعل الشيطان، ونصَّ عليها بعينها، مثل: الأكل بالشمال، والشرب بالشمال(١)، والأخذ بالشمال، والإعطاء بالشمال(٢)؛ وكذلك الالتفات في الصلاة اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد(٣)؛ فهذه المنصوص عليها بعينها واضحة؛ وغير المنصوص عليها يقال فيها: كل معصية فهي من خطوات الشيطان.

٦- تحريم التشبه بالكفار؛ لأن أعمال الكفار من خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ ولا أنكر من الكفر - والعياذ بالله -.

٧- شدَّة عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: {إنَّه لكم عدوٌ مبين}.

١- راجع مسلما ص١٠٣٩، كتاب الأشربة، باب ١٣: آداب الطعام والشراب وأحكامها، حديث رقم ٥٢٦٥ [١٠٥] ٢٠٢٠.

٢- راجع ابن ماجة ص٢٦٧٥، كتاب الأطعمة، باب ٨: الأكل باليمين، حديث رقم ٣٢٦٦؛ قال الألباني: صحيح (صحيح ابن ماجة ٢/٢٢٥، حديث رقم ٢٦٤٣ - ٣٢٦٦).

- (قلت): الحديث بتمامه: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((ليأكل أحدكم بيمينه وليشرب بيمينه وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويعطي بشماله ويأخذ بشماله)).

٣- أخرجه البخاري ص٥٩ - ٦٠، كتاب الأذان، باب ٩٣: الالتفات في الصلاة، حديث رقم ٧٥١.

٨- أنه لا يمكن أن يأمرنا الشيطان بخير أبدًا؛ إذ إن عدوك يسرّه مساءتك، ويغمّه سرورك؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا}[فاطر: ٦].

٩- قرن الحكم بعلّته؛ لقوله تعالى: {ولا تتّبعوا خطوات الشيطان} ثمَّ علَّل: {إنَّه لكم عدوٌّ مبين}.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي لمن أتى بالأحكام أن يقرنها بالعلل التي تطمئن إليها النفس؛ فإن كانت ذات دليل من الشرع قرنها بدليل من الشرع؛ وإن كانت ذات دليل من العقل، والقياس قرنها بدليل من العقل، والقياس؛ وفائدة ذكر العلَّة أنه يبيِّن سموّ الشريعة وكمالها؛ وأنه تزيد به الطمأنينة إلى الحكم؛ وأنه يمكن إلحاق ما وافق الحكم في تلك العلّة.

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

قال أبو زهرة: يقترن في آي الله الحكيم الأمر بالشيء بالنهي عن نقيضه، وعن أسباب المخالفة، ويقترنان بالترغيب في نعيم الله أحيانًا، وبالترهيب من بطش الله العزيز الحكيم أخرى، وفي هذه الآية قد اقترن النهي بالترهيب من العصيان، لأن النهي كان منصبًّا على اتِّباع خطوات الشيطان والخضوع لإغرائه، وهو يجيء إلى النفس من جهة شهواتها وما تألفه، فناسب ذلك الترهيب من العقاب، ليعلم من يجترح اللذات أن وراءها محاسبة القوي الجبار الذي لَا تخفى عليه خافية، ولقد بيَّن عداوة الشيطان للإنسان، فمن والاه فقد عادى نفسه وربه، ويحق عليه العقاب، وقبل نزوله يلزم التهديد به ليكون على بيِّنة من أمره.

قال ابن العثيمين: {فإن زللتم}، قال بعض العلماء: أي عدلتم؛ وقال آخرون: أي ملتم؛ والمعنى متقارب؛ لأن العادل عن الشيء زال عنه.

{من بعد ما جاءتكم البيِّنات}؛ {البيِّنات} صفة لموصوف محذوف - أي الآيات البيِّنات -؛ وسمَّى الله ذلك زلَلًا؛ لأن في الميل والعدول عن الحق هلكة، مثل لو زلَّ الإنسان وسقط في بئر مثلًا.

{فاعلموا أن الله عزيز حكيم}: هذا جواب الشرط؛ والمراد بالعلم أن نحذَر ممَّن له العزَّة.

وذكر أهل العلم أن ال{عزيز[١]} له ثلاثة معان: عزَّة قدر؛ وعزَّة قهر؛ وعزَّة امتناع؛ فعزَّة القدر - أي أنه عز وجل عظيم القدر -؛ لقوله تعالى: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة ... }[الزمر: ٦٧] الآية؛ أما عزَّة القهر فمعناها الغلبة - أي أنه سبحانه وتعالى غالب لا يغلبه شيء -؛ وهذا أظهر معانيها؛ وأما عزَّة الامتناع فمعناها أنه يمتنع أن

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

يناله السوء – مأخوذ من قولهم: (أرض عزاز) أي قوية صلبة لا تؤثر فيها الأقدام –؛ وأما ال{حكيم(١)}: أي ذو الحكم، والحكمة.

قال الطبري: فإن أخطأتم الحق، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد ما جاءتكم حُجَجي وبيِّنات هداي، واتَّضحت لكم صحَّة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون – فاعلموا أن الله ذو عزَّة، لا يمنعه من الانتقام منكم مانع، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكما أمره ومعصيتكم إياه دافع – {حكيم} فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم إياه، بعد إقامته الحجة عليكم، وفي غيره من أموره.

قال السعدي: وفيه من الوعيد الشديد والتخويف، ما يوجب ترك الزَّلل، فإن العزيز القاهر الحكيم، إذا عصاه العاصي، قهره بقوَّته، وعذَّبه بمقتضى حكمته فإن من حكمته، تعذيب العصاة والجناة.

ومعنى الآية إجمالًا: إن حدتم عن طريق الاستقامة والإخلاص والحق من بعد أن علمتموه ببرهانه، فليس ثمَّة إلَّا العقاب الرَّادع بعد الدليل القاطع، واعلموا أن الله عزيز لَا يُغلب، ولا يُهزم من ينصره، ومن عاداه وعادى أولياءه فهو عرضة لنقمته، وهو حكيم يضع الأمور في مواضعها؛ فلا يجعل المسيء كالمحسن، ولا المصلح كالمفسد؛ فكان من مقتضى حكمته أن يفرِّق بين الأخيار والأشرار وأهل الإيمان وأهل الكفر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– الوعيد على من زلَّ بعد قيام الحجَّة عليه؛ لقوله تعالى: {فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات}؛ فإن قيل: من أين يأتي الوعيد؟ قلنا: من قوله تعالى: {فاعلموا أن الله عزيز حكيم}؛ لأن من معاني (العزَّة) الغلبة، والقهر؛ و(الحكمة): تنزيل الشيء في مواضعه؛ فإذا كان هناك غلبة وحكمة، فالمعنى: أنه سينزل بكم ما تتبيَّن به عزَّته؛ لأن هذا هو مقتضى حكمته.

٢– أن الله تعالى أقام البيِّنات بالعباد؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءتكم البينات}.

٣– أنه لا تقوم الحجَّة على الإنسان، ولا يستحق العقوبة إلّا بعد قيام البيِّنة؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءتكم البينات}؛ ولهذا شواهد كثيرة من الكتاب والسنة تدلُّ على أن الإنسان لا حجَّة عليه حتى تقوم عليه البيِّنة.

١– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

٤- وجوب الإيمان بأسماء الله، وما تضمَّنته من صفات؛ لقوله تعالى: {فاعلموا} علم اعتراف، وإقرار، وقبول، وإذعان؛ فمجرَّد العلم لا يكفي؛ ولهذا فإن أبا طالب كان يعلم أن النبي ﷺ على حق، وأنه رسول الله؛ لكنه لم يقبل، ولم يذعن؛ فلهذا لم ينفعه إقراره؛ فالإيمان ليس مجرَّد اعتراف بدون قبول وإذعان.

٥- إثبات اسمين من أسماء الله – وهما ال{عزيز}، وال{حكيم} –؛ وإثبات ما تضمَّناه من صفة – وهي العزَّة، والحكم، والحكمة.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

قال ابن العثيمين: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله}: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ و{ينظرون}: بمعنى ينتظرون؛ أي ما ينتظر هؤلاء المكذبون الذين زلُّوا بعد ما جاءتهم البيِّنات؛ وتأتي بمعنى النظر بالعين؛ فإن عديت بـ(إلى) فهي للنظر بالعين؛ وإن لم تُعَدِّ، فهي بمعنى الانتظار؛ مثال المعدَّاة بـ(إلى) قوله تعالى: {لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم}[آل عمران: ٧٧].

وقوله تعالى: {إلَّا أن يأتيهم الله}: أي يأتيهم الله نفسه؛ هذا ظاهر الآية، ويجب المصير إليه؛ لأن كل فعل أضافه الله إليه فهو له نفسه؛ ولا يعدل عن هذا الظاهر إلَّا بدليل من عند الله.

{في ظلل من الغمام}؛ {في} معناها (مع)؛ يعني يأتي مصاحبًا لهذه الظلل؛ وإنَّما أخرجناها عن الأصل الذي هو الظرفية؛ لأنا لو أخذناها على أنها للظرفية صارت هذه الظلل محيطة بالله عز وجل؛ والله أعظم، وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته؛ ونظير ذلك أن نقول: جاء فلان في الجماعة الفلانية أي معهم –؛ وإن كان هذا التنظير ليس من كل وجه؛ لأن فلانًا يمكن أن تحيط به الجماعة؛ ولكن الله لا يمكن أن يحيط به الظلل؛ وهذا الغمام يأتي مقدمة بين يدي مجيء الله عز وجل، كما قال تعالى: {ويوم تشقق السماء بالغمام}[الفرقان: ٢٥]؛ فالسماء تشقَّق – لا تنشق – كأنها تنبعث من كل جانب.

{والملائكةُ} بالرفع عطفًا على لفظ الجلالة: يعني وتأتيهم الملائكة أيضًا محيطة بهم، كما قال الله تعالى: {كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا * وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا}[الفجر: ٢١، ٢٢].

{وقضي الأمر}: اختلف فيها المعربون؛ فمنهم من قال: إنها معطوفة على: {أن يأتيهم}، فتكون في حيز الأمر المنتظر بمعنى: هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله؛ وإلا أن يقضى الأمر؛ ولكنه أتى بصيغة الماضي لتحقُّق وقوعه؛ وعلى هذا فيكون محل الجملة النصب؛ لأن (تأتيهم الملائكة) منصوبة – يعني: هل ينظرون إلا إتيان الله في ظلل من الغمام، وإتيان الملائكة، وانقضاء الأمر –؛ ومنهم من قال: إنها جملة مستأنفة؛ أي: وقد انتهى الأمر، ولا عذر لهم بعد ذلك، ولا حجَّة لهم؛ و{الأمر}: بمعنى الشأن؛ أي قضي شأن الخلائق، وانتهى كل شيء، وصار أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة؛ ولهذا قال بعده: {وإلى الله ترجع الأمور}؛ وفي {ترجع} قراءتان؛ الأولى: بفتح التاء، وكسر الجيم؛ والثانية: بضم التاء، وفتح الجيم؛ والمتعلَّق هنا مقدَّم على المتعلَّق به؛ لأن {إلى الله} متعلق بـ{ترجع}؛ وتقديم المعمول يفيد الحصر، والاختصاص؛ أي إلى الله وحده لا إلى غيره ترجع الأمور – أمور الدنيا والآخرة – أي شؤونهما كلها: الدينية، والدنيوية، والجزائية، وكل شيء، كما قال الله تعالى: {وإليه يرجع الأمر كله}[هود: ١٢٣] فالأمور كلها ترجع إلى الله عز وجل؛ ومنها أن الناس يرجعون يوم القيامة إلى ربهم، فيحاسبهم.

قال الطبري: وإلى الله يؤول القضاء بين خلقه يوم القيامة، والحكم بينهم في أمورهم التي جرت في الدنيا، من ظلم بعضهم بعضًا، واعتداءِ المعتدي منهم حدودَ الله، وخلافَ أمره، وإحسانِ المحسن منهم وطاعته إيَّاه فيما أمرَه به فيفصلُ بين المتظالمين، ويجازي أهل الإحسان بالإحسان، وأهل الإساءة بما رأى، ويتفضَّل على من لم يكن منهم كافرًا فيعفو. ولذلك قال جل ثناؤه: {وإلى الله تُرجع الأمور}، وإن كانت أمور الدنيا كلها والآخرةِ من عنده مبدؤها، وإليه مصيرها، إذْ كان خلقُه في الدنيا يتظالمون، ويلي النظرَ بينهم أحيانًا في الدنيا بعضُ خلقه، فيحكم بينهم بعضُ عبيده، فيجور بعضٌ ويعدل بعضٌ، ويصيبُ واحد ويخطئ واحد، ويمكّن من تنفيذ الحكم على بعض، ويتعذَّر ذلك على بعض لمنعة جانبه وغلبته بالقوة. فأعلم عبادَه تعالى ذكره أن مرجع جميع ذلك إليه في موقف القيامة، فينصف كُلًّا من كُلٍّ، ويجازي حق الجزاء كُلا حيثُ لا ظلمَ ولا مُمْتَنَعَ من نفوذ حكمه عليه، وحيث يستوي الضعيف والقويّ، والفقير والغني، ويضمحل الظلم وينزلُ سلطان العدل.

وإنما أدخل – جل وعز– {الألف} و{اللام} في {الأمور}، لأنه جل ثناؤه عنى بها جميع الأمور، ولم يعن بها بعضًا دون بعض، فكان ذلك بمعنى قول القائل: (يعجبني العسل – والبغل أقوى من الحمار)، فيدخل فيه (الألف واللام)، لأنه لم يُقصد به قصد بعض دون بعض، إنما يراد به العموم والجمع.

قال السعدي: وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر السَّاعون في الفساد في الأرض، المتَّبعون لخطوات الشيطان، النَّابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع، ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السَّيئ على المفسدين.

وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنثر الكواكب، وتكوّر الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك وتعالى: {في ظلل من الغمام} ليفصل بين عباده بالقضاء العدل([١]).

فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى، عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافًا للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية ونحوهم، ممَّن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدلُّ على نفي هذه الصفات، بل العقل دلَّ على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات، يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذَّوات، فلله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه، تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضًا، لمن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضًا، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إمَّا أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته رسوله، وإمَّا أن تنفي الجميع وتكون منكرًا لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتَّه وما نفيته، ولن تجد إلى الفرق سبيلًا فإن قلت: ما أثبته لا يقتضي تشبيهًا، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيهًا، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيته إلا التَّشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتَّه إلَّا التَّشبيه، فما أجبت به النُّفاة، أجابك به أهل السنة لِما نفيته.

١- (قلت): لقد ورد في حديث صحيح وصححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترغيب (٣٥٩١) - أيضا - نزول الله عز وجل في ظلل من الغمام؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا أربعين سنة شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء، قال: وينزل الله عز وجل في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ثم ينادي مناد أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا......الخ.

والحاصل أن من نفى شيئًا وأثبتَ شيئًا ممّا دلَّ الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وعيد هؤلاء بيوم القيامة؛ لقوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ... } إلخ.

٢- أن الله تعالى لا يعذب هذه الأمة بعذاب عام؛ لأن الله جعل وعيد المكذبين يوم القيامة؛ ويدلُّ لذلك آيات، وأحاديث؛ منها قول الله - تبارك وتعالى -: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر}[القمر: ٤٦]، وقوله ﷺ: ((أنه سأل ربه أن لا يهلك أُمَّته بسنة عامَّة فأجابه([١]))).

٣- إثبات إتيان الله عز وجل يوم القيامة للفصل بين عباده؛ وهو إتيان حقيقي يليق بجلاله لا تعلم كيفيته، ولا يسأل عنها - كسائر صفاته -؛ قال الإمام مالك - رحمه الله - وقد سئل عن قوله تعالى: {الرحمن على العرش استوى}[طه: ٥]، كيف استوى؟ فقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)؛ هذا وقد ذهب أهل التعطيل إلى أن المراد بإتيان الله: إتيان أمره؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، وصرف للكلام عن ظاهره بلا دليل إلّا ما زعموه دليلًا عقليًّا وهو في الحقيقة وهمي، وليس عقليًّا؛ فنحن نقول: الذي نسب فعل الإتيان إليه هو الله عز وجل؛ وهو أعلم بنفسه؛ وهو يريد أن يبيِّن لعباده، كما قال تعالى: {يبين الله لكم أن تضلوا}[النساء: ١٧٦]؛ وإذا كان يريد أن يبيِّن، وهو أعلم بنفسه، وليس في كلامه عَيٌّ وعجزٌ عن التَّعبير بما أراد؛ وليس في كلامه نقص في البلاغة؛ إذًا فكلامه في غاية ما يكون من العلم؛ وغاية ما يكون من إرادة الهدى؛ وغاية ما يكون من الفصاحة والبلاغة؛ وغاية ما يكون من الصدق؛ فهل بعد ذلك يمكن أن نقول: إنه لا يراد به ظاهره؟! كلَّا؛ لا يمكن هذا إلَّا إذا قال الله هو عن نفسه أنه لم يرد ظاهره؛ إذًا المراد إتيان الله نفسه؛ ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلى أمره، مثل قوله تعالى: {أتى أمر الله}[النحل: ١]، ومثل قوله تعالى: {أو يأتي أمر ربك}[النحل: ٣٣]؛ لأننا نقول: إن هذا من أمور الغيب؛ والصفات توقيفية؛ فنتوقَّف فيها على ما ورد؛ فالإتيان الذي أضافه الله إلى نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه؛ والإتيان الذي أضافه الله إلى أمره يكون المراد به إتيان أمره؛ لأنه ليس لنا أن نقول على الله ما لا نعلم؛ بل علينا أن نتوقف فيما ورد على حسب ما ورد.

٤- إثبات الملائكة.

١- أخرجه مسلم ص١١٧٨/ كتاب الفتن، باب ٥: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم ٧٢٥٨ [١٩] ٢٨٨٩.

٥- إثبات عظمة الله عز وجل في قوله تعالى: {في ظلل من الغمام}؛ ف{ظلل} نكرة تدلُّ على أنها ظلل عظيمة وكثيرة؛ ولهذا جاء في سورة الفرقان: {ويوم تشقق السماء بالغمام}[الفرقان: ٢٥] يعني تثور ثورانا بهذا الغمام العظيم من كل جانب؛ كل هذا مقدمة لمجيء الجبار سبحانه وتعالى؛ وهذا يفيد عظمة الباري سبحانه وتعالى.

٦- أن الملائكة أجسام خلافًا لمن زعم أن الملائكة قوى الخير، وأنهم أرواح بلا أجسام؛ والرَّد على هذا الزعم في القرآن والسنة كثير.

٧- أن يوم القيامة به ينقضي كل شيء؛ فليس بعده شيء؛ إمَّا إلى الجنة؛ وإمَّا إلى النار؛ فلا أمل أن يستعتب الإنسان إذا كان من أهل النار ليكون من أهل الجنة؛ لكنه أتى بصيغة ما لم يسمَّ فاعله لعظمة هذا الأمر؛ وهذا كقوله تعالى: {وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين}[هود: ٤٤].

٨- أن الأمور كلها ترجع إلى الله وحده؛ لقوله تعالى: {وإلى الله ترجع الأمور}: أي الأمور الكونية، والشرعية؛ قال تعالى: {وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله}[الشورى: ١٠]، وقال تعالى: {إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه}[يوسف: ٤٠]؛ فالأمور كلها مرجعها إلى الله – تبارك وتعالى –؛ وما ثبت فيه أنه يرجع فيه إلى الخلق فإنَّما ذلك بإذن الله؛ فالحكم بين الناس مرجعه القضاة؛ لكن كان القضاة مرجعًا للناس بإذن الله تعالى.

٩- إثبات الأفعال الاختيارية لله – أي أنه يحدث من أفعاله ما شاء –؛ لقوله تعالى: {إلا أن يأتيهم الله}؛ وهذا مذهب السلف الصالح خلافًا لأهل التحريف والتعطيل الذين ينكرون هذا النوع، ويحرفونه إلى معانٍ قديمة لمنعهم قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ ومذهبهم باطل بالسمع، والعقل؛ فالنصوص المثبتة لذلك لا تكاد تحصى؛ والعقل يقتضي كمال من يفعل ما يشاء متى شاء وكيف شاء.

١٠- عظمة الله، وتمام سلطانه، وملكه؛ لقوله تعالى: {وإلى الله ترجع الأمور}.

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

قال ابن العثيمين: {سل} أصلها اسأل؛ فنقلت حركة الهمزة إلى السين، ثم حذفت تخفيفًا؛ ثم حذفت همزة الوصل لعدم الحاجة إليها؛ و{كم} استفهامية علّقت الفعل {سل} عن العمل؛ فصارت هي، وجملتها في محل نصب؛ وأصله: (سل فلانا عن كذا، وكذا)؛ فعلّقت الفعل عن المفعول الثاني؛ و{كم} تحتاج إلى مميز؛ لأن {كم} اسم مبهم تدلُّ على

عدد؛ والمعدود: قوله تعالى: {من آية بيِّنة}؛ و{آتينا}: أي أعطينا؛ وهي تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: الهاء؛ والمفعول الثاني: محذوف؛ والتقدير: كم من آية بيِّنة آتينا هموها؛ وعاد الضمير المحذوف إلى متأخِّر لفظًا؛ لأنه متقدِّم رتبة؛ إذ {من آية} كان حقُّها أن تكون بعد {كم}؛ وجملة: {ومن يبدِّل ... } شرطية؛ و{من} اسم شرط جازم؛ ولهذا جزمت الفعل؛ وجوابه مفهوم من قوله تعالى: {فإن الله شديد العقاب}؛ فالجملة هنا دالَّة على الجواب، وليست هي الجواب؛ لأن شدَّة عقاب الله ثابتة سواء بدَّلوا، أم لم يبدِّلوا.

قوله تعالى: {سل بني إسرائيل}؛ الخطاب هل هو للرسول وحده؛ أو لكل من يتأتى خطابه؟ مثل هذه الخطابات تارة يقوم الدليل على أنها خاصة بالرسول ﷺ، فتكون خاصة به؛ وتارة يقوم الدليل على أنها عامة له، ولغيره، فتكون عامة؛ وتارة لا يقوم الدليل على هذا، ولا على هذا؛ فالظاهر أنها عامَّة؛ لأن القرآن نزل للأمة إلى يوم القيامة؛ فمن أمثلة ما قام الدليل على أنها للرسول ﷺ قوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك} [الشرح: ١ – ٤]؛ ومثال الذي قام الدليل على أنها عامة قوله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن} [الطلاق: ١]؛ فقال تعالى: {يا أيها النبي}؛ ولكن أمر بحكم عام، فقال تعالى: {إذا طلقتم النساء فطلقوهن}؛ وأما المحتمل فهو كثير في القرآن؛ ومنه هذه الآية.

وقوله تعالى: {سل}: أي سؤال توبيخ، وتبكيت؛ لإقامة الحجة عليهم ببيان نِعم الله التي كان حقّه عليهم أن يشكروها، ولكن بدَّلوها كفرًا؛ وإلَّا فالظاهر أن الرسول ﷺ كان يعلم بما آتاهم الله من الآيات البيِّنات؛ و{بني إسرائيل}: أي بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ والمراد من ينتمي إليه؛ لا أبناء صلبه خاصة.

{كم آتيناهم من آية بيِّنة}؛ {كم} هذه تكثيرية – أي أعطيناهم آيات كثيرة –؛ والإيتاء هنا يشمل الإيتاء الشرعي، والإيتاء القدري الكوني؛ لأنهم أوتوا آيات بيِّنات شرعية جاءت بها التوراة؛ وأوتوا آيات بيِّنات كونية، كالعصا، واليد؛ وال{آية} بمعنى العلامة على الشيء؛ و{بيِّنة}: أي ظاهرة في كونها آية.

{ومن يبدِّل نعمة الله}: أي ومن يجعل بدلها؛ والمفعول الثاني محذوف؛ تقديره: كفرًا، كما يدلُّ لذلك قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا}[إبراهيم: ٢٨].

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: سل يا محمد بني إسرائيل = الذين لا ينتظرون – بالإنابة إلى طاعتي، والتوبة إليَّ بالإقرار بنبوتك وتصديقك فيما جئتهم به من عندي – إلا إن آتيهم في ظلل من الغمام وملائكتي، فأفصِلُ القضاء بينك وبين من آمن بك وصدَّقك بما أنزلت إليك من كتبي، وفرضت عليك وعليهم من شرائع ديني، وبينهم = كم جئتهم به من قبلك من آية وعلامة، على ما فرضتُ عليهم من فرائضي، فأمرتهم به من طاعتي، وتابعتُ عليهم من حججي على أيدي أنبيائي ورسلي من قبلك، مؤيِّدة لهم على صدقهم، بيِّنة أنها من عندي، واضحة أنها من أدلَّتي على صدق نُذُري ورُسلي

فيما افترضت عليهم من تصديقهم وتصديقك، فكفروا حُجَجي، وكذَّبوا رسلي، وغيَّروا نِعمي قِبَلهم، وبدَّلوا عهدي ووصيتي إليهم.

قال السعدي: تدلُّ على الحق، وعلى صدق الرُّسل، فتيقَّنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النِّعمة، التي تقتضي القيام بها. بل كفروا بها وبدَّلوا نعمة الله كفرًا، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمَّى الله تعالى كفر النِّعمة تبديلًا لها، لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية، فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها، اضمحلَّت عنه وذهبت، وتبدَّلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النِّعمة، وأما من شكر الله تعالى، وقام بحقها، فإنَّها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

قال ابن العثيمين: {فإن الله شديد العقاب}: أي قوي الجزاء بالعقوبة؛ وسمِّيَ الجزاء عقوبة، وعقابًا؛ لأنه يقع عقب الذنب مؤاخذة به.

وقوله تعالى: {شديد العقاب} هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، مثل أن تقول: حسن الوجه – يعني: ذو الوجه الحسن –؛ فهي صفة مشبّهة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان كثرة ما أعطاه الله بني إسرائيل من الآيات البيِّنة الدالَّة على صدق رسله؛ لقوله تعالى: {سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيِّنة}.

٢- تقريع بني إسرائيل الذين كفروا بآيات الله، وتوبيخهم؛ لأن المراد بالسؤال هنا سؤال توبيخ.

٣- أن الآيات من نِعم الله؛ لأنها تحمل المرء على الإيمان؛ وفي الإيمان نجاته، وكرامته؛ لقوله تعالى: {ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته}.

٤- أن الآيات مبيِّنة لما أتت، دالَّة عليه.

٥- التَّحذير من تبديل نعمة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته}[البقرة: ٢١١]؛ والمراد: تبديل الشكر بالكفر؛ لقوله تعالى: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرًا}[إبراهيم: ٢٨].

٦- إثبات شدَّة العقاب من الله لمن بدَّل نعمته بالكفر؛ وهذا من تمام عدله وحكمته.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

قال ابن العثيمين: {زيِّن} مبنيٌّ لما لم يسمَّ فاعله؛ ونائب الفاعل {الحياة الدنيا}؛ والتَّزيين جعل الشيء بهيًّا في عين الإنسان، أو في سمعه، أو في مذاقه، أو في فكره؛ المهم أن أصل التَّزيين جعل الشيء بهيًّا جميلًا جذَّابًا؛ والمزيِّن إمَّا أن يكون الله، كما في قوله تعالى: {إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيَّنا لهم أعمالهم}[النمل: ٤]؛ وإمَّا أن يكون الشيطان؛ لقوله تعالى: {وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل}[النمل: ٢٤]؛ ولا منافاة بين الأمرين؛ فإن الله زيَّن لهم سوء أعمالهم؛ لأنهم أساءوا، كما يفيده قوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}[الصف: ٥]؛ والتَّزيين من الله باعتبار التَّقدير؛ أمَّا الذي باشر التَّزيين، ووسوس لهم بذلك فهو الشيطان(١).

{للذين كفروا}، وفي آية أخرى: {زيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة ... }[آل عمران: ١٤] إلخ؛ فإما أن نحمل ال{ناس} على {الذين كفروا}، ونقول: هو عام أريد به الخاص؛ أو نقول: إن ذكر بعض ألفاظ العام لا يقتضي التخصيص؛ فيكون {زين للناس} عمومًا؛ وهنا ذكر الله تعالى تزيينه لبعض أفراد هذا الجنس وهم {الذين كفروا}.

{الحياة الدنيا}: يعني ما فيها من الشهوات والملذات؛ وقد بيَّن الله ذلك بقوله تعالى: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب}[آل عمران: ١٤]؛ و{الدنيا}: فعلى – يعني أنه اسم تفضيل مؤنث مأخوذة من الدُّنو الذي هو ضد العلو –؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لوجهين: الأول: دنو مرتبتها؛ الثاني: سبقها على الآخرة؛ فهي أدنى منها لقربها، ودنو منزلتها؛ أما قربها وهو سبقها على الآخرة فظاهر معلوم لكل أحد؛ وأما دنو مرتبتها فلقول الرسول ﷺ: ((لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها))؛ وموضع السوط مقدار متر تقريبًا.

{ويسخرون من الذين آمنوا}؛ هذه الجملة يقولون: إنها حالية؛ يعني: زينت لهم والحال أنهم يسخرون من الذين آمنوا؛ و{يسخرون}: يعني يجعلونهم محل سخرية، وازدراء، واحتقار؛ إما لما يقومون به من الأعمال الصالحة؛ وإما لكونهم لم يؤتوا من الدنيا ما أوتي هؤلاء – على زعمهم –، كما قال تعالى: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا

١- (قلت): أنظر تفسير معنى (التزين) وأقسامه مفصلًا عند تفسير الآية (١٤) من سورة آل عمران.

مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} [المطففين: ٢٩ – ٣٢].

قال السعدي: يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ولم ينقادوا لشرعه، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها، واطمأنوا بها وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين، واستهزأوا بهم وقالوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟؛ وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر؛ فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه فإنه يصبر ويحتسب، فيخفِّف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره.

قال ابن العثيمين: {والذين اتَّقوا}: أي اتَّقوا ربهم عز وجل؛ و(التَّقوى) كثيرًا ما ترد في القرآن الكريم؛ وهي اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، عن علم وبصيرة.

{فوقهم يوم القيامة}: أي فوقهم مرتبة، ومنزلة؛ وهذا ما أعاضهم الله به، حيث كان أولئك الذين كفروا يسخرون بهم في الدنيا، فجعلهم الله فوقهم يوم القيامة؛ وهذا كقوله تعالى: {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون}[المطففين: ٣٤، ٣٥].

قال السعدي: وإنما الشأن كل الشأن، والتفضيل الحقيقي، في الدَّار الباقية، فلهذا قال تعالى: {والذين اتَّقوا فوقهم يوم القيامة} فيكون المتَّقون في أعلى الدرجات، متمتِّعين بأنواع النعيم والسرور، والبهجة والحبور.

والكفار تحتهم في أسفل الدركات، معذَّبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء السرمدي الذي لا منتهى له، ففي هذه الآية تسليةٌ للمؤمنين، ونعيٌ على الكافرين.

ولمَّا كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية، لا تُحصل إلَّا بتقدير الله، ولن تُنال إلَّا بمشيئة الله، قال تعالى: {والله يرزق من يشاء بغير حساب}، فالرِّزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبَّة الله وخشيته ورجائه ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

قال ابن العثيمين: {والله يرزق من يشاء بغير حساب}: أي يعطي من يشاء من فضله بغير محاسبة على ذلك؛ فهم يأخذون أجرهم يوم القيامة مجَّانًا؛ لأن العوض قد سبق؛ ويحتمل أن المعنى بغير تقدير – أي لا يقدَّر لهم ذلك –؛ بل يعطون ما تشتهيه أنفسهم، كما قال تبارك وتعالى: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون}[الانشقاق: ٢٥]: أي غير مقطوع؛ لأن رزق الله لا نهاية له لا سيَّما الرزق في الآخرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- انخداع الكافرين بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: {زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا}.

٢- أنَّ الكفار عاشقون لها، وأنها هي همُّهم، وغرضهم؛ لأن ما زيّن للشّخص فلابدَّ أن يكون الشخص مهتمًّا به طالبًا له.

٣- أنَّ المؤمنين ليست الدنيا في أعينهم شيئًا؛ لقوله تعالى: {للذين كفروا}؛ ولهذا كان الرسول ﷺ إذا رأى ما يعجبه في الدنيا يقول: ((لبيك! إن العيش عيش الآخرة[١])) لتوجيه النَّفس إلى إجابة الله؛ لا إلى إجابة رغبتها، ثم يقنع النَّفس أيضًا: أني ما صددتك وأجبت الرب عز وجل إلّا لخير؛ لأن العيش عيش الآخرة؛ والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا؛ ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: {قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة}[الزمر: ١٥]؛ هذه هي الخسارة: خسروا أنفسهم؛ لأن مآلهم النار – والعياذ بالله –؛ وأهلوهم أيضًا الذين في النار لا يهتم بعضهم ببعض؛ كل – والعياذ بالله – شقي فيما هو فيه؛ والحاصل أنا نقول: ينبغي لكل إنسان حين يرى في الدنيا ما يعجبه أن يقول كما قال الرسول ﷺ.

٤- حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدنيا؛ وهي من الدنو زمنًا، ورتبةً؛ زمنًا؛ لأنها قبل الآخرة؛ ورتبةً؛ لأنها قليل بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلّا مشوبًا بتنغيص قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأن له فيه أجرًا، كما أخبر الرسول ﷺ في قوله: ((عجبًا للمؤمن إن أمره كله خير؛ إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له؛ وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له[٢]))؛ والمؤمن إذا ابتلي بالبلاء الجسمي أو النفسي يقول: هذه نعمة من الله يكفر الله بها عنّي سيئاتي؛ فإذا أحسَّ هذا الإحساس صار هذا الألم نعمة؛ لأن الإنسان خطَّاء دائمًا؛ وهذه الأشياء لا شكَّ أنها – والحمد لله – تكفير للسيِّئات؛ فإن صبر واحتسب صارت رفعة للدرجات؛ فالآلام، والبلايا، والهم، والغم، تكفير بكل حال؛ ولكن مع الصبر والاحتساب يكون عملًا صالحًا يثاب عليه، ويؤجر عليه.

٥- أن لا نركن إلى هذه الحياة، ونطمئن إليها؛ بل نجعل همَّتنا منصرفة إلى الدار الآخرة؛ وهذا لا ينافي أن نتمتَّع وننعم بما أحلَّ الله لنا مع الاستقامة في ديننا.

٦- أن الكفار لا يزالون يسلِّطون أنفسهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: {ويسخرون} بالفعل المضارع؛ لأن المضارع يدلُّ على الاستمرار، والحال، والاستقبال؛ فهم دائمًا في سخرية من الذين آمنوا.

٧- أن العبرة بكمال النهاية؛ لقوله تعالى: {والذين اتَّقوا فوقهم يوم القيامة}.

١- أخرجه الشافعي في مسنده ٣٠٤/١، حديث رقم ٧٩٢، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤٨/٧، باب: كان إذا رأى شيئًا يعجبه قال: لبيك إن العيش عيش الآخرة، حديث ١٣١٠٠، أخرجه البيهقي بسنده إلى الشافعي، والحديث مرسل لأنه عن مجاهد أنه قال كان النبي ﷺ ... ، الحديث.

٢- أخرجه مسلم ص١١٩٦، كتاب الزهد والرقائق، باب ١٣: المؤمن أمره كله خير، حديث رقم ٧٥٠٠ [٦٤] ٢٩٩٩.

٨- تثبيت المؤمنين، وترسيخ أقدامهم في إيمانهم؛ لقوله تعالى: {ويسخرون من الذين آمنوا}: يعني: اصبروا؛ فإن هذا دأبهم وشأنهم أن يسخروا منكم؛ فما دمتم تعرفون أن هذه عادة الكفار فإن الإنسان يصبر؛ إذا عرف الإنسان أن هذا شيء لابدَّ منه يكون مستعدًّا له، وقابلًا له، وغير متأثِّر.

٩- البشرى للمؤمنين الذين اتَّقوا أنهم فوق الكفار يوم القيامة.

١٠- إثبات أفعال الله سبحانه وتعالى المتعلِّقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: {والله يرزق من يشاء} فتسمَّى هذه الأفعال في كتب العقائد الأفعال الاختيارية - يعني المتعلِّقة بمشيئة الله -؛ وهي ثابتة لله عز وجل على وجه الحقيقة؛ وأمثلتها في القرآن كثيرة.

١١- إثبات المشيئة لله؛ وكل ما في الكون واقع بمشيئة الله؛ والمشيئة تختلف عن الإرادة بأنها لا تنقسم إلى كونية، وشرعية؛ بل هي كونية محضة؛ فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن سواء كان مما يحبه، أو مما لا يحبه؛ قوله تعالى: {من يشأ الله يضلله}[الأنعام: ٣٩]؛ فهذا لا يحبه؛ وقوله تعالى: {ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}[الأنعام: ٣٩]: فهذا يحبه؛ وكل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة؛ ودليل ذلك سمعي، وعقلي؛ فمن السمع: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}[الإنسان: ٣٠]؛ فدلَّ هذا على أن مشيئته مقرونة بالحكمة؛ وأما العقل فلأن الله سبحانه وتعالى سمَّى نفسه بأنه (حكيم)؛ والحكيم لا يصدر منه شيء إلا وهو موافق للحكمة.

١٢- كثرة رزق الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {بغير حساب}: بمعنى أنه يعطي عطاء لا يبلغه الحساب، كما قال تعالى: {والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم}[البقرة: ٢٦١].

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

قال ابن كثير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ. فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا). عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ).

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَصَحُّ سَنَدًا وَمَعْنًى؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ.

قال ابن العثيمين: {أمة} خبر {كان}؛ و{مبشِّرين} حال من المفعول به؛ وهو {النبيِّين}.

{كان الناس أمَّة واحدة}؛ {أمَّة}: هنا بمعنى طائفة؛ و{كان}: أي فيما مضى من قبل أن تبعث الرسل إليهم كانوا طائفة واحدة على دين واحد؛ وهذا الدين الواحد هو دين الإسلام؛ لأن آدم نبي موحى إليه بشريعة يتعبَّد بها؛ فصار يتعبَّد بها، واتبعه أبناؤه على ذلك؛ ثم بعد مدة من الزمن كثر الناس، واختلفت الأهواء، فاختلفوا؛ فحينئذ صاروا بحاجة إلى بعث الرسل؛ فبعث الله الرسل مبشِّرين، ومنذرين.. إلخ.

{فبعث الله النبيِّين}: الفاء هنا عاطفة؛ والمعطوف عليه محذوف معلوم من السِّياق اللّاحق، كقوله تعالى: {وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا}[يونس: ١٩]؛ وعلى كل حال لابدَّ أن يكون المعنى أنهم اختلفوا؛ فبعث الرسل؛ ونظير هذا من المحذوف الذي يعينه السياق قوله تعالى: {ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة}[البقرة: ١٨٥]: فالمريض والمسافر ليس عليهما العدَّة لو صاما؛ إذًا لابدَّ أن نقدر: فأفطر فعليه عدَّة؛ و {بعث}: بمعنى أرسل، كقوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنات}[الحديد: ٢٥]؛ والمراد بـ{النبِّيين} هنا الرسل؛ لقوله تعالى: {مبشِّرين ومنذرين}.

وقوله تعالى: {مبشِّرين ومنذرين}: هذان حالان؛ لأن الرسل يأتون بالبشارة والنَّذارة في آن واحد؛ يعني: ليس بعض الرسل مبشِّرًا، والآخر منذرًا؛ بل كل واحد جامع بين التَّبشير، والإنذار؛ أي مبشِّرين بثواب الله عز وجل لمن استحقَّه؛ ومنذرين بعقاب الله من خالف أمره؛ قال الله – تبارك وتعالى –: {لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا}[الكهف: ٢]؛ فهنا بيَّنت الآية المبشَّر، والمبشَّر به؛ فالمبشَّر: المؤمنون الذين يعملون الصالحات؛ والمبشَّر به: أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا؛ {وينذر الذين قالوا اتَّخذ الله ولدًا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلَّا كذبًا}[الكهف: ٤، ٥]؛ فالمنذَر: هم الكفار؛ والمنذَر به: العذاب.

{وأنزل معهم الكتاب}؛ المعية هنا للمصاحبة؛ والمعية كلما أطلقت فهي للمصاحبة؛ لكنها في كل موضع بحسبه؛ و{الكتاب} هنا مفرد يراد به الجنس؛ فيعمُّ كل كتاب؛ إذ لكل رسول كتاب؛ وقد زعم بعض المفسرين أن قوله تعالى: {أنزل معهم}: أي مع بعضهم؛ وقال: ليس كل الرُّسل معهم كتاب؛ ولكن هذا خلاف ظاهر القرآن؛ وقد قال الله تعالى في سورة الحديد: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان}[الحديد: ٢٥]؛ فظاهر الآية أن مع كل رسول كتابًا؛ وهذا هو مقتضى الحال حتى يكون هذا الكتاب الذي معه يبلِّغه إلى الناس؛ ولا يرد على هذا أن بعض الشرائع تتَّفق في مشروعاتها – وحتى في منهاجها –، ولا يكون فيها إلَّا اختلاف يسير، كما في شريعة التوراة والإنجيل؛ فإن هذا لا

يضر؛ المهم أن كل رسول في ظاهر القرآن معه كتاب؛ و{كتاب} بمعنى مكتوب؛ فمنه ما نعلم أن الله كتبه؛ ومنه ما لا نعلم أن الله كتبه لكن تكلَّم به.

{بالحق} الباء للمصاحبة متعلِّقة بـ{أنزل}: أي ما جاءت به الكتب فهو حق؛ ويحتمل أن المعنى أن الكتب نفسها حق من عند الله؛ وليست مفتراة عليه؛ وكلا المعنيين صحيح؛ فهي حق من عند الله؛ وما جاءت به من الشرائع، والأخبار فهو حق؛ و{الحق}: أي الثابت النافع؛ وضده الباطل الذي يزول، ولا ينفع؛ والحق الثابت في الكتب المنزلة من عند الله: بالنسبة للأخبار هو الصدق المطابق للواقع؛ وبالنسبة للأحكام فإنه العدل المصلح للخلق في معاشهم، ومعادهم، كما قال الله – تبارك وتعالى –: {وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا}[الأنعام: ١١٥].

قال السعدي: {وأنزل معهم الكتاب بالحق} وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق، يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرَّد إليهما.

قال ابن العثيمين: {ليحكم} الضمير يعود على الكتاب؛ أو على النبيين؛ أو على الله؛ يعني: ليحكم هو – أي الله –؛ أو ليحكم الكتاب باعتبار أنه وسيلة الحكم؛ أو ليحكم النبي باعتبار أنه الذي معه الكتاب؛ ولكن هنا إشكال: وهو أن {ليحكم} مفرد؛ و{النبيِّين} جمع؛ لكن قالوا: لما كان النبيُّون جمعًا؛ والجمع له أفراد، صار {ليحكم}: أي كل فرد منهم.

{بين الناس فيما اختلفوا فيه}؛ فبعضهم قال: الحق كذا؛ وبعضهم قال: الحق كذا؛ خصمان لابدَّ بينهما من حكم؛ وهو ما جاءت به الرسل؛ ولهذا قال تعالى: {ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}؛ و{ما} اسم موصول؛ واسم الموصول من ألفاظ العموم؛ فيشمل كل ما اختلف فيه الناس من الدقيق والجليل، في مسائل الدين والدنيا.

{وما اختلف فيه}: أي في الكتاب؛ {إلَّا الذين أوتوه}، {الذين} فاعل {اختلف}؛ لأن الاستثناء مفرغ. {اوتوه}: أي أعطوه؛ والمراد بهم هنا الأمم؛ {من بعد ما جاءتهم} متعلقة بقوله تعالى: {وما اختلف}: أي وما اختلف فيه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا إلا الذين أوتوه؛ أي من بعد ما جاءت هذه الأمم الذين اختلفوا؛ {البيِّنات}: أي الآيات البيِّنات الدالَّة على صدق الرسل؛ وهذا كقوله تعالى: {وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة}[البينة: ٤].

{بغيًا بينهم} مفعول لأجله عامله {اختلف}؛ و(البغي) هو العدوان.

قال السعدي: ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقَّنوه بالآيات البيِّنات، والأدلَّة القاطعات، فضلُّوا بذلك ضلالًا بعيدًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٥ص٣٦٢: فَبَيَّنَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَنَّهُ هَدَاهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقَّ، لَكِنَّ بَعْضَهُمْ يَبْغِي عَلَى بَعْضٍ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِالْحَقِّ فَيَتَّبِعُ هَوَاهُ وَيُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَزِيغُ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، فَقَدْ بَيَّنَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَنَّهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[الشورى: ١٠]، وَقَالَ يُوسُفُ: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[يوسف: ٣٩،٤٠]، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَرُسُلُهُ يُبَلِّغُونَ عَنْهُ، فَحُكْمُهُمْ حُكْمُهُ، وَأَمْرُهُمْ أَمْرُهُ وَطَاعَتُهُمْ طَاعَتُهُ، فَمَا حَكَمَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَمَرَهُمْ بِهِ وَشَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ وَجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ اتِّبَاعُهُ وَطَاعَتُهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ.

وَالرَّسُولُ يُبَلِّغُ عَنْ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[النساء: ٦٤، ٦٥]، فَعَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَنْ يُحَكِّمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَأَفْضَلَ الْمُرْسَلِينَ وَأَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ حُكْمِهِ فِي شَيْءٍ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْمُلُوكِ أَوْ الشُّيُوخِ أَوْ غَيْرِهِمْ.

وَلَوْ أَدْرَكَهُ مُوسَى أَوْ عِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنْ الرُّسُلِ كَانَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}[آل عمران: ٨١]، وَرُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ – عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا – قَالُوا: لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ عَهْدِ نُوحٍ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ.

وَهُوَ – سُبْحَانَهُ – أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّبِيِّ الْمُتَقَدِّمِ أَنْ يُصَدِّقَ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ وَعَلَى النَّبِيِّ الْمُتَأَخِّرِ أَنْ يُصَدِّقَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ؛ وَلِهَذَا لَمْ تَخْتَلِفْ الْأَنْبِيَاءُ، بَلْ دِينُهُمْ وَاحِدٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ(١))).

وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

١- البخاري في الأنبياء (٣٤٤٣).

فَاتَّقُونِ}[المؤمنون: ٥١، ٥٢]: أَيْ مِلَّتُكُمْ مِلَّةً وَاحِدَةً كَقَوْلِهِمْ: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ}[الزخرف: ٢٢]: أَيْ مِلَّةٍ. وَقَالَ تَعَالَى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}[الشورى: ١٣].

فَدِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ، كَمَا قَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ الْقُرْآنِ، لَكِنَّ بَعْضَ الشَّرَائِعِ تَتَنَوَّعُ، فَقَدْ يُشَرِّعُ فِي وَقْتٍ أَمْرًا لِحِكْمَةِ، ثُمَّ يُشَرِّعُ فِي وَقْتٍ آخَرَ أَمْرًا آخَرَ لِحِكْمَةِ، كَمَا شَرَعَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ الصَّلَاةَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ إلَى الْكَعْبَةِ، فَتَنَوَّعَتْ الشَّرِيعَةُ وَالدِّينُ وَاحِدٌ، وَكَانَ اسْتِقْبَالُ الشَّامِ ذَلِكَ الْوَقْتَ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَكَذَلِكَ السَّبْتُ لِمُوسَى مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَمَّا نُسِخَ صَارَ دِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ النَّاسِخَ وَهُوَ الصَّلَاةُ إلَى الْكَعْبَةِ، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِالْمَنْسُوخِ دُونَ النَّاسِخِ فَلَيْسَ هُوَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَلَا هُوَ مُتَّبِعٌ لِأَحَدِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ بَدَّلَ شَرْعَ الْأَنْبِيَاءِ وَابْتَدَعَ شَرْعًا فَشَرْعُهُ بَاطِلٌ لَا يَجُوزُ اتِّبَاعُهُ، كَمَا قَالَ: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}[الشورى: ٢١]؛ وَلِهَذَا كَفَرَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِشَرْعِ مُبَدَّلٍ مَنْسُوخٍ، وَاللَّهُ أَوْجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ الرُّسُلِ، فَعَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُهُ وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَهُ مِنْ الدِّينِ وَهُوَ مَا أَتَى بِهِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُوَ الشَّرْعُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُهُ، وَلَيْسَ لِأَحَدِ الْخُرُوجُ عَنْهُ، وَهُوَ الشَّرْعُ الَّذِي يُقَاتِلُ عَلَيْهِ الْمُجَاهِدُونَ، وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

وقال رحمه الله أيضاً في ج١٢ص٦: وَالِاخْتِلَافُ نَوْعَانِ: اخْتِلَافٌ فِي تَنْزِيلِهِ، وَاخْتِلَافٌ فِي تَأْوِيلِهِ.

وَالْمُخْتَلِفُونَ الَّذِينَ ذَمَّهُمْ اللَّهُ هُمْ الْمُخْتَلِفُونَ فِي الْحَقِّ؛ بِأَنْ يُنْكِرَ هَؤُلَاءِ الْحَقَّ الَّذِي مَعَ هَؤُلَاءِ، أَوْ بِالْعَكْسِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْحَقِّ الْمُنَزَّلِ، فَأَمَّا مَنْ آمَنَ بِذَلِكَ وَكَفَرَ بِهِ غَيْرُهُ فَهَذَا اخْتِلَافٌ يُذَمُّ فِيهِ أَحَدُ الصِّنْفَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} إلَى قَوْلِهِ: {وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}[البقرة: ٢٥٣]، وَالِاخْتِلَافُ فِي تَنْزِيلِهِ أَعْظَمُ، وَهُوَ الَّذِي قَصَدْنَا هُنَا، فَنَقُولُ:

(الِاخْتِلَافُ فِي تَنْزِيلِهِ) هُوَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ، وَالْكَافِرُونَ كَفَرُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. فَالْمُؤْمِنُونَ بِجِنْسِ الْكِتَابِ وَالرُّسُلِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَالْكَافِرُونَ بِجِنْسِ الْكِتَابِ وَالرُّسُلِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَالْمَجُوسِ وَالصَّابِئِينَ يَكْفُرُونَ بِذَلِكَ والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك.

وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبليغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسل آمن بما بلَّغوه عن الله ومن كذَّب الرسل، كذب بما بلَّغوه عن الله، فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده، والكفر بذلك هو الكفر بهذا، فتدبَّر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه([1]).

قال ابن العثيمين: {فهدى الله الذين آمنوا}: المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق المسبوقة بهداية العلم والإرشاد؛ لأن الجميع قد جاءتهم الرسل بالكتب، وبيَّنت لهم؛ لكن لم يوفَّق منهم إلَّا من هداهم الله؛ و(الإيمان) في اللغة: التَّصديق؛ ولكنه في الشَّرع التَّصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ وليس مجرَّد التَّصديق إيمانًا؛ إذ لو كان مجرَّد التَّصديق إيمانًا لكان أبو طالب مؤمنًا لأنه كان يقرُّ بأن محمدًا ﷺ صادق، ويقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطيل

لكنه لم يقبل، ولم يذعن، فلم يكن مؤمنًا([2]).

{لما اختلفوا فيه}: أي للذي اختلفوا فيه؛ والضمير في قوله تعالى: {اختلفوا} يعود إلى الذين أوتوا الكتاب؛ وعلى هذا فيكون قوله تعالى: {من الحق} في موضع نصب على الحال بيانا لـ{ما} التي هي اسم موصول؛ ويبين أن الجار والمجرور بيان لها أنك لو قلت: (فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه) يستقيم المعنى؛ ومن هنا نعرف أن {من} في قوله تعالى: {من الحق} ليس للتبعيض؛ ولكنها لبيان الإبهام الكائن في {ما} الموصولة؛ و{بإذنه}: أي بمشيئته، وإرادته؛ ولكنه سبحانه وتعالى لا يشاء شيئًا إلَّا لحكمة.

قال السعدي: فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة {بإذنه} تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

قال ابن العثيمين: {والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}: الهداية هنا بمعنى الدلالة، والتوفيق؛ فهي شاملة للنوعين؛ وقوله تعالى: {من يشاء}: يعني ممن يستحق الهداية؛ لأن كل شيء علق بمشيئة الله فإنه تابع لحكمته؛ فهو سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إذا كان أهلًا للهداية؛ كما أنه سبحانه وتعالى يجعل الرسالة في أهلها فإنه يجعل الهداية في أهلها، كما قال تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته}[الأنعام: ١٢٤]، كذلك هو أعلم حيث يجعل هدايته([3]).

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن الإختلاف عند تفسير الآية (١٧٦) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام وصالح آل الشيخ مفصلًا عن الإيمان عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

٣- (قلت): وفي صحيح مسلم عن عائشة قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ النبي ﷺ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاَتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وقوله تعالى: {الصراط} فيها قراءتان: بالصاد، والسين؛ وهما سبعيتان؛ و{الصراط} في اللغة هو الطريق الواسع؛ وسمَّيَ صراطًا – وقد يقال –: (زراطًا) بالزاي؛ لأنه يبتلع سالكه بسرعة دون ازدحام، ولا مشقَّة، كما أنك إذا بلعت اللُّقمة بسرعة يقال: (زرطها)؛ وقال بعضهم: هو الطريق الواسع المستقيم؛ لأن المعوج لا يحصل فيه العبور بسهولة؛ وجعل قوله تعالى: {مستقيم} صفة مؤكدة؛ وعلى كل حال {الصراط المستقيم} الذي ذكره عز وجل بينه سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة في قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين}؛ فهو الصراط الذي يجمع بين العلم والعمل؛ وإن شئت فقل: بين الهدى والرشد؛ بخلاف الطريق غير المستقيم الذي يحرم فيه السالك الهدى، كطريق النصارى؛ أو يحرم فيه الرشد، كطريق اليهود([1]).

قال السعدي: فعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلًا منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلَّا يقولوا: {ما جاءنا من بشير ولا نذير} وهدى – بفضله ورحمته وإعانته ولطفه – من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته تبارك وتعالى.

قال أبو زهرة: وقد ذيَّل الله سبحانه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية الحكيمة؛ لبيان كمال سلطانه سبحانه، وأن الذين يعاندون حكم الكتاب هم في قبضة يده لو أراد أن يهديهم لفعل، فليس لأحد سلطان بجوار سلطان الله؛ وليس الشر قوة قائمة بذاتها، إنما الجميع تحت أمر الله الكوني وسلطانه؛ ولو أراد أن يكون الجميع مهديين لكانوا، ولكنه يختبر الإنسان في هذا الوجود، فجعل الشر بجوار الخير، وجعل المعركة قائمة بينهما ليكون للمهتدى ثواب الهداية إذا قصد إليها، وعلى الضال إثم ضلاله؛ وإن الاعتراك بين الخير والشر يصقل أهل الحق، ويزكي نفوسهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١ص١٧: فَظَهَرَ أَنَّ سَبَبَ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ جَمْعُ الدِّينِ، وَالْعَمَلُ بِهِ كُلِّهِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا أَمَرَ بِهِ بَاطِنًا، وَظَاهِرًا.

وَسَبَبُ الْفُرْقَةِ: تَرْكُ حَظٍّ مِمَّا أُمِرَ الْعَبْدُ بِهِ، وَالْبَغْيُ بَيْنَهُمْ.

وَنَتِيجَةُ الْجَمَاعَةِ: رَحْمَةُ اللَّهِ، وَرِضْوَانُهُ، وَصَلَوَاتُهُ، وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبَيَاضُ الْوُجُوهِ.

وَنَتِيجَةُ الْفُرْقَةِ: عَذَابُ اللَّهِ، وَلَعْنَتُهُ، وَسَوَادُ الْوُجُوهِ، وَبَرَاءَةُ الرَّسُولِ ﷺ مِنْهُمْ.

وَهَذَا أَحَدُ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ، فَإِنَّهُمْ إذَا اجْتَمَعُوا كَانُوا مُطِيعِينَ لِلَّهِ بِذَلِكَ مَرْحُومِينَ، فَلَا تَكُونُ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ بِفِعْلٍ لَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ بِهِ، مِنْ اعْتِقَادٍ، أَوْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ. فَلَوْ كَانَ الْقَوْلُ، أَوْ الْعَمَلُ، الَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ لَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ بِهِ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ، وَلَا سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ.

---

١ – (قلت): أنظر تفسير ابن القيم للصراط المستقيم عند تفسير سورة الفاتحة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن دين الإسلام هو الفطرة؛ لقوله تعالى: {كان الناس أمة واحدة}؛ فقبل أن يحصل ما يفتنهم كانوا على دين واحد - دين الإسلام -.

٢- الحكمة في إرسال الرسل؛ وهي التبشير، والإنذار؛ لقوله تعالى: {فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين}.

٣- أن النبوة لا تنال بالكسب؛ وإنما هي فضل من الله؛ لقوله تعالى: {فبعث الله النبيين}.

٤- أن من يوصف بالتَّبشير إنما هم الرسل، وأتباعهم؛ وأما ما تسمَّى به دعاة النصرانية بكونهم مبشِّرين فهم بذلك كاذبون؛ إلَّا أن يراد أنهم مبشِّرون بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم}[آل عمران: ٢١]؛ وأحق وصف يوصف به هؤلاء الدعاة أن يوصفوا بالمضلِّلين، أو المنصِّرين؛ وما نظير ذلك إلا نظير من اغتر بتسمية النصارى بالمسيحيين؛ لأن لازم ذلك أنك أقررت أنهم يتبعون المسيح، كما إذا قلت: (فلان تميمي)؛ إذا هو من بني تميم؛ والمسيح ابن مريم يتبرأ من دينهم الذي هم عليه الآن كما قال تعالى: {وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ... }[المائدة: ١١٦] إلى قوله تعالى: {ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ... }[المائدة: ١١٧] الآيتين؛ ولأنهم ردُّوا بشارة عيسى بمحمد ﷺ، وكفروا بها؛ فكيف تصح نسبتهم إليه؟!! والحاصل أنه ينبغي للمؤمن أن يكون حذرًا يقظًا لا يغتر بخداع المخادعين، فيجعل لهم من الأسماء، والألقاب ما لا يستحقون.

٥- أن الشرائع التي جاءت بها الرسل تنقسم إلى أوامر ونواهي؛ لقوله تعالى: {مبشِّرين ومنذرين}؛ لأن الإنذار: عن الوقوع في المخالفة؛ والبشارة: لمن امتثل وأطاع.

٦- أن الكتب نازلة من عند الله؛ لقوله تعالى: {وأنزل معهم الكتاب}.

٧- علو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كانت الكتب نازلة من عنده لزم أن يكون هو عاليًا؛ لأن النزول يكون من فوق إلى تحت.

٨- أن الواجب الرجوع إلى الكتب السماوية عند النزاع؛ لقوله تعالى: {ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} وإلَّا لضاعت فائدة الكتب المنزلة؛ ومن المعلوم أن الكتاب المنزل على محمد ﷺ مصدِّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه؛ فيجب الرجوع إليه وحده؛ لأن ما سبقه منسوخ به.

٩- رحمة الله عز وجل بالعباد حيث لم يكلهم إلى عقولهم؛ لأنهم لو وكلوا إلى عقولهم لفسدت السموات والأرض، كما قال تعالى: {ولو اتَّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن}[المؤمنون: ٧١]؛ فكل إنسان يقول: العقل عندي؛ والصواب معي؛ ولكن الله تعالى بعث النبيِّين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

١٠– أن الناس لو رجعوا إلى الكتاب المنزَّل عليهم لحصل بينهم الاجتماع، والائتلاف.

١١– أن الخلاف بين الناس كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: {ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}؛ ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: {ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [هود: ١١٨، ١١٩]، وقوله تعالى: {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن}[التغابن: ٢]؛ ولولا هذا ما قامت الدنيا؛ ولا الدين؛ ولا قام الجهاد؛ ولا قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولم يمتحن الصادق من الكاذب.

١٢– أن أولئك الذين اختلفوا في الشرع كانوا قد أوتوا الكتاب؛ لقوله تعالى: {وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيِّنات بغيًا بينهم}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة أن الحجة قد قامت عليهم؛ لقوله تعالى: {إلَّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيِّنات}.

١٣– كمال التَّوبيخ واللَّوم على هؤلاء ما هو ظاهر؛ لأنه كان الواجب، والأحرى بهؤلاء الذين أوتوه ألا يختلفوا فيه؛ بل يتَّفقوا عليه؛ لكنهم اختلفوا فيه مع تفضُّل الله عليهم بإيتائه؛ لقوله تعالى: {وما اختلف فيه إلَّا الذين أوتوه}.

١٤– بيان ضعف ما يروى عن الرسول ﷺ أنه قال: (اختلاف أمتي رحمة)؛ فالاختلاف ليس برحمة؛ ولهذا قال تعالى: {ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك}[هود: ١١٨، ١١٩]؛ نعم، دخول المختلفين تحت عفو الله رحمة إذا اجتهدوا، حيث إن الله عز وجل لم يعذب المخطئ؛ فالمختلفون تسعهم الرحمة إذا كانوا مجتهدين؛ لأن من اجتهد فأصاب فله أجران؛ ومن اجتهد فأخطأ فله أجر؛ أما أن نقول: (إن الخلاف بين الأمة رحمة) فلا.

١٥– أن فعل الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البيِّنات إنَّما كان ذلك بغيًا منهم؛ لقوله تعالى: {بغيًا بينهم}؛ فالذين اختلفوا في محمد ﷺ من اليهود والنصارى إنما كان اختلافهم بغيًا وعدوانًا؛ لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ وكذلك الذين اختلفوا في محمد ﷺ من قريش كان كفرهم بغيًا وعدوانًا.

١٦– أن كل مخالف للحق بعد ما تبيَّن له فهو باغٍ ضال – وإن قال: أنا لا أريد البغي ولا أريد العدوان –.

١٧– أنه متى تبيَّن الحق وجب اتباعه – ولو كان قد قال بخلافه من قبل –؛ فيدور مع الحق حيث دار.

١٨– رحمة الله عز وجل بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: {فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه}.

١٩– أن الإيمان سبب للهداية للحق.

٢٠– أنه كلما قوي إيمان العبد كان أقرب إلى إصابة الحق؛ لقوله تعالى: {فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا ... }؛ لأن الله علَّق الهداية على وصف الإيمان؛ وما عُلِّق على وصف فإنه يقوى بقوته، ويضعف بضعفه؛ ولهذا كان الصحابة أقرب إلى الحق ممن بعدهم في التفسير، وفي أحكام أفعال المكلَّفين، وفي العقائد أيضًا؛ لأن الهداية للحق علِّقت بالإيمان؛ ولا

شك أن الصحابة أقوى الناس إيمانًا؛ قال الرسول ﷺ: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم[١]))، ولهذا ذهب الإمام أحمد – رحمه الله – إلى أن قول الصحابي حجة ما لم يخالف النص؛ فإن خالف نصًّا فليس بحجة؛ أو يخالفه صحابي آخر؛ فإن خالفه صحابي آخر نظر في الترجيح أيهما أقرب إلى الصواب.

٢١- أنه يجب على المرء الذي هداه الله ألّا يعجب بنفسه، وألّا يظن أن ذلك من حوله، وقوّته؛ لقوله تعالى: {فهدى الله}، ثم قال تعالى: {بإذنه}: أي أمره الكوني القدري؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردّوا الحق بغيًا وعدوانًا.

٢٢- الإيماء إلى أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الهداية من الله؛ لقوله تعالى: {فهدى الله الذين آمنوا}.

٢٣- إثبات الأفعال الاختيارية لله؛ لقوله تعالى: {فهدى الله}، وكذلك لقوله تعالى: {بإذنه}.

٢٤- أن أفعال العباد واقعة بإرادة الله وخلقه.

٢٥- أن إذن الله نوعان: كوني، وشرعي؛ وسبق بيانهما في قوله تعالى: {فإنه نزله على قلبك بإذن الله}[البقرة: ٩٧].

٢٦- إثبات مشيئة الله في أفعال العباد؛ لقوله تعالى: {والله يهدي من يشاء}.

٢٧- أن كل ما سوى الشرع فهو طريق معوَّج؛ لقوله تعالى: {إلى صراط مستقيم}.

٢٨- أن الشَّرع لا ضيق فيه، ولا اعوجاج، ولا تعب؛ لأنه صراط واسع ومستقيم.

٢٩- الإشارة إلى الطرق الثلاثة التي ذكرها الله تعالى في سورة الفاتحة؛ وهي طريق الذين أنعم الله عليهم؛ وطريق المغضوب عليهم؛ وطريق الضالين؛ الذين أنعم الله عليهم: هم الرسل، وأتباعهم؛ والمغضوب عليهم: اليهود، وأمثالهم؛ والضالون: النصارى، وأمثالهم؛ وهذا بالنسبة للنصارى قبل أن يبعث الرسول ﷺ؛ أما لما بعث الرسول ﷺ، وكذبوه صاروا من المغضوب عليهم كاليهود بالنسبة لدين المسيح؛ لأن اليهود كانوا مغضوبًا عليهم، حيث جاءهم عيسى فكذبوه بعد أن علموا الحق؛ وبعد ... ما بعث عيسى واتبعه النصارى وطال الأمد، ابتدعوا ما ابتدعوا من الدين، فضلُّوا؛ فصاروا ضالِّين؛ لكن لمَّا بُعث محمد ﷺ كذَّبوه وأنكروه؛ فصاروا من المغضوب عليهم؛ لأنهم علموا الحق وخالفوه.

١- أخرجه البخاري ص٢٠٩، كتاب الشهادات، باب ٩: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، حديث رقم ٢٦٥٢، وأخرجه مسلم ص١١٢٢، كتاب فضائل الصحابة، باب ٥٢: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حديث رقم ٦٤٧٢ [٢١٢] ٢٥٣٣.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

قال أبو زهرة: بيَّن الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة أن الناس جميعًا قد فطروا على فطرة واحدة، وأن من هذا الاتحاد كان الافتراق والاختلاف، ولقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها؛ وخلق الناس مستعدين للخير وللشر، وللطاعة والعصيان؛ فكان منهم من غلبت عليه شقوته فاتجه نحو الشر، ومنهم من عمَّته رحمة الله فاهتدى إلى الخير؛ فكان من الناس الأخيار والأشرار؛ وكان هذا من مقتضى الاستعداد للأمرين بمقتضى الفطرة التي فطر الناس عليها وكانوا فيها على سواء. ولا شك أن العاقبة للخير، لأن الله هو الذي أمر به، فإذا كان الناس فيهم الفجار والأبرار، وأن في نفس كل امرئ استعدادًا للفجور والتَّقوى، فالله سبحانه قد دعا إلى الخير، وحثَّ عليه، وهو غالب على أمره، وهو لابدَّ ناصر للخير، هازم للشر، والعاقبة للمتقين، ولكن النصر يكون على مقتضى تدبير محكم، وصبر على البلاء، وعدم استنامة إلى الرخاء.

فلا ينتصر الخير على الشر إلَّا بشدائد ومكاره تنزل بالأخيار ويتغلبون عليها بعد مغالبتها، ومغالبة الأشرار معها، ولذلك أردف الله سبحانه وتعالى الآية الدالَّة على اتفاق الناس واختلافهم، بالآيات الدالَّة على الشدائد النازلة بالأخيار وأتباع النبيين، فقال سبحانه: {أَمْ حسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ...}.

قال السعدي: يخبر تبارك وتعالى أنه لابدَّ أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنَّته الجارية التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل أن من قام بدينه وشرعه لابدَّ أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدَّته المكاره عما هو بصدده، وثنته المِحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلِّي والتَّمنِّي، ومجرَّد الدعاوى، حتى تصدِّقه الأعمال أو تكذبه.

قال ابن العثيمين: {أم حسبتم}؛ {أم} من حروف العطف؛ وهي هنا منقطعة بمعنى (بل)؛ يقدر بعده همزة الاستفهام؛ أي: بل أحسبتم؛ فهي إذا للإضراب الانتقالي؛ وهو الانتقال من كلام إلى آخر؛ و{حسبتم}: بمعنى ظننتم؛ وعلى هذا فتنصب المفعولين؛ قال بعض النحويين: إن {أن}، وما دخلت عليه تسدُّ مسدَّ المفعولين؛ وقال آخرون: بل إن {أن}، وما دخلت عليه تسدُّ مسدَّ المفعول الأول؛ ويكون المفعول الثاني محذوفًا دلَّ عليه السياق؛ فإذا قلنا بالأول فالأمر واضح لا يحتاج إلى تقدير شيء آخر؛ وإذا قلنا بالثاني يكون التقدير: أم حسبتم دخولكم الجنة حاصلًا؟!

والخطاب في قوله تعالى: {أم حسبتم} يعود على كل من يتوجَّه إليه الخطاب: إلى النبي ﷺ، وإلى الصحابة، وإلى من بعدهم.

{أن تدخلوا الجنة}؛ {الجنة} في اللغة: البستان كثير الأشجار؛ وفي الشرع: هي الدار التي أعدَّها الله للمتَّقين فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

{ولمَّا يأتكم}؛ {لمَّا} حرف نفي، وجزم، وقلب؛ والفرق بينها وبين (لم): أن {لمَّا} للنفي مع توقع وقوع المنفي؛ و(لم) للنفي دون ترقُّب وقوعه؛ مثاله: إذا قلت: (لم يقم زيد) فقد نفيت قيامه من غير ترقب لوقوعه، ولو قلت: (لما يقم زيد) فقد نفيت قيامه مع ترقب وقوعه؛ ومنه قوله تعالى: {بل لما يذوقوا عذاب}.

{مثل الذين خلوا من قبلكم}: أي صفة ما وقع لهم؛ وال{مثل} يكون بمعنى الصفة، مثل قوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون}[الرعد: ٣٥]: أي صفتها كذا، وكذا؛ ويكون بمعنى الشبه، كقوله تعالى: {مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا}[البقرة: ١٧]: أي شبَهِهم كشبه الذي استوقد نارًا؛ و{خلوا}: بمعنى مضوا؛ فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: {من قبلكم} إذا كانت {خلوا} بمعنى مضوا؟ نقول: هذا من باب التوكيد؛ والتوكيد قد يأتي بالمعنى مع اختلاف اللفظ، كما في قوله تعالى: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين}[البقرة: ٦٠]؛ فإن الإفساد هو العثو؛ ومع ذلك جاء حالًا من الواو؛ فهو مؤكِّد لعامله.

ولما كانت {مثل} مبهمة بيَّنها الله تعالى بقوله تعالى: {مستهم البأساء والضراء وزلزلوا}؛ وال{مس} هو مباشرة الشيء؛ تقول: مسسته بيدي، ومس ثوبه الأرض؛ ف{مستهم}: يعني أصابتهم إصابة مباشرة؛ وهذه الجملة استئنافية لبيان المثل الذي ذكر في قوله تعالى: {مثل الذين خلوا من قبلكم}.

وقوله تعالى: {مسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا} هذه ثلاثة أشياء؛ {البأساء}: قالوا: إنها شدة الفقر مأخوذة من البؤس؛ وهو الفقر الشديد؛ و{الضراء}: قالوا: إنها المرض، والمصائب البدنية؛ و {زلزلوا}: (الزلزلة) هنا ليست زلزلة الأرض؛ لكنها زلزلة القلوب بالمخاوف، والقلق، والفتن العظيمة، والشبهات، والشهوات؛ فتكون الإصابات هنا في ثلاثة مواضع: في المال؛ والبدن؛ والنفس.

{حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله}؛ في {يقول} قراءتان: النصب، والرفع؛ أما على قراءة الرفع فعلى إلغاء {حتى}؛ وأمَّا على قراءة النصب فعلى إعمالها؛ وهي لا تعمل إلا في المستقبل؛ فإن قيل: ما وجه نصبها وهي حكاية عن شيء مضى؟

فالجواب: ما قاله المعربون: أنه نصب على حكاية الحال؛ وإذا قدرنا حكاية الحال الماضية صار {يقول} مستقبلًا بالنسبة لقوله تعالى: {مسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا}؛ و{الرسول}: المراد به الجنس – أي حتى يقول الرسول من هؤلاء الذين

زلزلوا، ومسَّتهم البأساء، والضراء -؛ و{معه} المصاحبة هنا في القول، والإيمان - أي يقولون معه وهم مؤمنون به -؛ {متى نصر الله}: الجملة مقول القول؛ والاستفهام فيها للاستعجال - أي استعجال النصر -؛ وليس للشك فيه.

{ألا إن نصر الله قريب}: يحتمل أن يكون هذا جوابًا لقول الرسول، والذين آمنوا معه: متى نصر الله؛ ويحتمل أن يكون جملة استئنافية يخبر الله بها خبرًا مؤكَّدًا بمؤكِّدين: {ألا}؛ و{إن}؛ وكلاهما صحيح.

قال الطبري: فمعنى الكلام: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثلُ ما أصاب مَن قبلكم مِن أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتُبتَلوا بما ابْتُلوا واختُبروا به من {البأساء} - وهو شدَّة الحاجة والفاقة؛ {والضراء} - وهي العلل والأوصاب - ولم تزلزلوا زلزالهم- يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرُّعب شدَّة وجهدٌ حتى يستبطئ القوم نصر الله إيَّاهم، فيقولون: متى الله ناصرنا؟

قال السعدي: فلما كان الفرج عند الشدَّة، وكلما ضاق الأمر اتَّسع، قال تعالى: {ألا إن نصر الله قريب} فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلَّما اشتدَّت عليه وصعبت، إذا صابر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقِّه منحة، والمشقَّات راحات، وأعقبه ذلك، الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الدَّاء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}، وقوله تعالى: {الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين}، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص٤٦٠: قَالَ الْعُلَمَاءُ: كَانَ اللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}[البقرة: ٢١٤] فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - مُنْكِرًا عَلَى مَنْ حَسِبَ خِلَافَ ذَلِكَ - أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلَّا بَعْدَ أَنْ يُبْتَلَوْا مِثْلُ هَذِهِ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ بـ{الْبَأْسَاءِ}: وَهِيَ الْحَاجَةُ وَالْفَاقَةُ. وَ{الضَّرَّاءُ}: وَهِيَ الْوَجَعُ وَالْمَرَضُ. وَ(الزِّلْزَالُ): وَهِيَ زَلْزَلَةُ الْعَدُوِّ(١).

قال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ج١ص٢٥٣: (فصل العبودية إنما تظهر عند الامتحان بالشهوات): إِنَّ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ إِنَّمَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْمُعَارَضَةِ وَالدَّوَاعِي إِلَى الشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْعُبُودِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ تَتَبَيَّنُ حَقِيقَتُهُ عِنْدَ الْمُعَارَضَةِ وَالِامْتِحَانِ وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الم - أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ - وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}

١- (قلت): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص٤١: فَالْبَأْسَاءُ فِي الْأَمْوَالِ وَالضَّرَّاءُ فِي الْأَبْدَانِ وَالزِّلْزَالُ فِي الْقُلُوبِ.

[العنكبوت: ١ – ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا}[البقرة: ٢١٤]، فَالْجَنَّةُ لَا يَنَالُهَا الْمُكَلَّفُونَ إِلَّا بِالْجِهَادِ وَالصَّبْرِ، فَخَلْقُ الشَّيَاطِينِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَجُنْدِهِمْ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ بِسَبَبِ وُجُودِهِمْ صَارُوا مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُحِبُّونَ لِلَّهِ وَيَبْغَضُونَ لِلَّهِ، يُوَالُونَ فِيهِ وَيُعَادُونَ فِيهِ، وَلَا تَكْمُلُ نَفْسُ الْعَبْدِ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا الزَّكَاةُ وَالْفَلَاحُ إِلَّا بِذَلِكَ، وَفِي التَّوْرَاةِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فَإِنِّي سَأُقَسِّي قَلْبَهُ لِتَظْهَرَ آيَاتِي وَعَجَائِبِي، وَيَتَحَدَّثُ بِهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ بِتَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَسَعْيِهِمْ فِي إِبْطَالِ دَعْوَتِهِ وَمُحَارَبَتِهِ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ، وَإِنْ كَانَ مَنْ أَعْظَمِ النِّقَمِ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَكَمْ حَصَلَ فِي ضِمْنِ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ وَالْمُحَارَبَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِأَصْحَابِهِ وَلِأُمَّتِهِ مِنْ نِعْمَةٍ، وَكَمْ رُفِعَتْ بِهَا دَرَجَةً، وَكَمْ قَامَتْ بِهَا لِدَعْوَتِهِ عَنْ حُجَّةٍ وَكَمْ أَعْقَبَ ذَلِكَ مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ وَسُرُورٍ دَائِمٍ، وَلِلَّهِ كَمْ مِنْ فَرْحَةٍ وَقُرَّةِ عَيْنٍ فِي مُغَايَظَةِ الْعَدُوِّ وَكُبْتِهِ، فَمَا طَابَ الْعَيْشُ إِلَّا بِذَلِكَ، فَمُعْظَمُ اللَّذَّةِ فِي غَيْظِ عَدُوِّكَ، فَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنَيْنَ أَنْ خَلَقَ لَهُمْ مِثْلَ هَذَا الْعَدُوِ، وَأَنَّ الْقُلُوبَ الْمُشْرِقَةَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ لَتَعْلَمُ أَنَّ النِّعْمَةَ بِخَلْقِ هَذَا الْعَدُوِّ لَيْسَتْ بِدُونِ النِّعْمَةِ بِخَلْقِ أَسْبَابِ اللَّذَّةِ وَالنِّعْمَةِ، فَلَيْسَتْ بِأَدْنَى النِّعْمَتَيْنِ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ مَقْصُورَةً لِغَيْرِهَا، فَإِنَّ الَّذِي يَتَرَتَّبُ مِنَ الْخَيْرِ الْمَقْصُودِ لِذَاتِهِ أَنْفَعُ وَأَفْضَلُ وَأَجَلُّ مِنْ فَوَاتِهِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– عناية الله عز وجل بهذه الأمة، حيث يسليها بما وقع بغيرها؛ لقوله تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ... } إلخ؛ وهكذا كما جاء في القرآن جاء في السنة؛ فالرسول ﷺ لما جاءه أصحابه يشكون إليه بمكة فأخبرهم: ((قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه، وعظمه؛ ما يصده ذلك عن دينه([١]))، تثبيتًا للمؤمنين.

٢– إثبات الجنة.

٣– أن الإيمان ليس بالتَّمنِّي، ولا بالتَّحلِّي؛ بل لابدَّ من نيَّة صالحة، وصبر على ما يناله المؤمن من أذى في الله عز وجل.

٤– حكمة الله عز وجل، حيث يبتلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة امتحانًا حتى يتبيَّن الصادق من غيره، كما قال تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم}[محمد: ٣١]؛ فلا يعرف زيف الذهب إلَّا إذا

١– أخرجه البخاري ص٥٧٩، كتاب الإكراه، باب ١: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث رقم ٦٩٤٣.

أذبناه بالنار؛ ولا يعرف طيب العود إلا إذا أحرقناه بالنار؛ أيضًا لا يعرف المؤمن إلَّا بالابتلاء والامتحان؛ فعليك يا أخي بالصبر؛ قد تؤذى على دينك؛ قد يُستهزأُ بك؛ وربما تُلاحَظ؛ وربما تُراقَب؛ ولكن اصبر، واصدُق، وانظر إلى ما حصل من أولي العزم من الرسل؛ فالرسول ﷺ كان ساجدًا لله في آمن بقعة على الأرض – وهو المسجد الحرام –؛ فيأتي طغاة البشر بفرث الناقة ودمها وسلاها، يضعونها عليه وهو ساجد؛ هذا أمر عظيم لا يصبر عليه إلَّا أولو العزم من الرسل؛ ويبقى ساجدًا حتى تأتي ابنته فاطمة وهي جويرية – أي صغيرة – تزيله عن ظهره فيبقى القوم يضحكون، ويقهقهون([1])؛ فاصبر واحتسب؛ واعلم أنه مهما كان الأمر من الإيذاء فإن غاية ذلك الموت؛ وإذا مِتَّ على الصبر لله عز وجل انتقلت من دار إلى خير منها.

٥– أنه ينبغي للإنسان ألا يسأل النصر إلَّا من القادر عليه – وهو الله عز وجل –؛ لقوله تعالى: {متى نصر الله}.

٦– أن المؤمنين بالرسل منهاجهم منهاج الرسل يقولون ما قالوا؛ لقوله تعالى: {حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله}؛ يتفقون على هذه الكلمة استعجالا للنصر.

٧– تمام قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ألا إن نصر الله قريب}.

٨– حكمة الله، حيث يمنع النصر لفترة معيَّنة من الزمن – مع أنه قريب –.

٩– أن الصبر على البلاء في ذات الله عز وجل من أسباب دخول الجنة؛ لأن معنى الآية: اصبروا حتى تدخلوا الجنة.

١٠– تبشير المؤمنين بالنَّصر ليَتَقَوَّوا على الاستمرار في الجهاد ترقُّبًا للنَّصر المبشَّرين به.

١١– الإشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح: ((حُفَّت الجنة بالمكاره([2])))؛ لأن هذه مكاره؛ ولكنها هي الطريق إلى الجنة.

١٢– أنه لا وصول إلى الكمال إلَّا بعد تجرُّع كأس الصبر؛ لقوله تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ... } إلخ.

١– أخرجه البخاري ص٢٢، كتاب الوضوء، باب ٦٩: إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، حديث رقم ٢٤٠، وأخرجه مسلم ص٩٩٧، كتاب الجهاد والسير، باب ٣٩: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم ٤٦٤٩ [١٠٧] ١٧٩٤.

٢– أخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١: صفة الجنة، حديث رقم ٧١٣٠ [١] ٢٨٢٢.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

قال ابن العثيمين: {يسألونك}: أي الصحابة ﷺ؛ والخطاب للنبي ﷺ.

{ماذا ينفقون}: {ما} اسم استفهام مبتدأ؛ و {ذا} اسم موصول خبره؛ وجملة: {ينفقون} صلة الموصول؛ والعائد محذوف؛ والتقدير: ماذا ينفقونه؛ وهذا إذا لم تلغ {ذا}؛ فإذا ألغيت صار الإعراب كالتالي: {ماذا} اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب مفعول مقدم لقوله تعالى: {ينفقون}؛ و{ينفقون} فعل مضارع؛ والفاعل الواو؛ والمفعول ما سبق؛ والمعنى لا يختلف على الإعرابين؛ والسؤال هنا عن المنفق؛ لا على المنفق عليه؛ أي يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم جنسًا، وقدرًا، وكيفًا.

{قل ما أنفقتم من خير فللوالدين}؛ {ما} شرطية؛ فعل الشرط: {أنفقتم}؛ وجوابه؛ {فللوالدين}؛ قد يبدو للإنسان في أول وهلة أن الله إنما أجابهم عن محل الإنفاق – لا عن {ماذا ينفقون} –؛ لكن من تأمَّل الآية تبيَّن له أن الله أجابهم عمَّا ينفقون؛ وعمَّا ينفقون فيه؛ لقوله تعالى: {ما أنفقتم من خير}؛ ففي هذا بيان ما ينفقون؛ وفي قوله تعالى: {فللوالدين ... } بيان ما ينفقون فيه.

وقوله تعالى: {فللوالدين}: أي الأب، والأم – وإن علَوا –؛ {والأقربين} جمع أقرب؛ وهو من كان أدنى من غيره إلى المنفِق؛ فأخ وابن أخ: فالأقرب الأخ؛ وعم وابن عم: فالأقرب العم؛ وابن أخ وعم: فالأقرب ابن الأخ؛ ولهذا اتَّفق أهل العلم على أنه إذا اجتمع عم وابن أخ في مسألة فرضية فيقدَّم ابن الأخ لقول النبي ﷺ: ((فما بقي فلأولى رجل ذكر(١)))؛ والقرابة لهم حق؛ لأنهم من الأرحام؛ لكن الأقرب أَولى من الأبعد؛ ويدخل في {الأقربين} الأولاد من بنين، وبنات – وإن نزلوا –.

قال السعدي: فأَولى الناس به وأحقّهم بالتّقديم، أعظمهم حقًّا عليك، وهم الوالدان الواجب برّهما، والمحرَّم عقوقهما، ومن أعظم برِّهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة.

١– أخرجه البخاري ص٥٦٣، كتاب الفرائض، باب ٩: ميراث الجد مع الأب والإخوة، حديث رقم ٦٧٣٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٥٨، كتاب الفرائض، باب ١: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأَولى رجل ذكر، حديث رقم ٤١٤١ [٢] ١٦١٥.

قال ابن العثيمين: {واليتامى}: جمع يتيم؛ وهو مشتق من اليتم والانفراد؛ والمراد به من مات أبوه ولم يبلغ؛ وإنما أوصى الله به في كثير من الآيات جبرًا لما حصل له من الانكسار بموت الوالد مع صغره؛ فهذا إذا بلغ استقلَّ بنفسه، فلم يكن يتيمًا.

{والمساكين}: جمع مسكين؛ وهو المُعدَم الذي ليس عنده مال؛ سمِّيَ كذلك؛ لأن الفقر قد أسكنه، وأذلَّه؛ والمسكين هنا يدخل فيه الفقير؛ لأنه إذا ذكر المسكين وحده دخل فيه الفقير؛ وإذا ذكر الفقير وحده دخل فيه المسكين؛ وإذا اجتمعا صار الفقير أشدَّ حاجة من المسكين؛ فيفترقان؛ وتجد في القرآن أن الفقير يأتي وحده، والمسكين يأتي وحده؛ والفقير، والمسكين يجتمعان؛ ففي قوله تعالى: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم}[الحشر: ٨]، يشمل المساكين؛ وفي قوله تعالى: {إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله}[النور: ٣٢]، يشمل المساكين؛ وفي قوله تعالى: {فكفارته إطعام عشرة مساكين}[المائدة: ٨٩]، يدخل فيه الفقير؛ وكذلك هنا؛ وفي قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين}[التوبة: ٦٠]، ذكر الصنفين جميعًا.

{وابن السبيل}: هو المسافر الذي انقطع به السفر؛ والسبيل هو الطريق؛ وسمِّيَ ابن السبيل؛ لأنه ملازم له – أي للسبيل –؛ وكل ما لازم شيئًا فهو ابن له، كما يقال: (ابن الماء) لطير الماء؛ لأنه ملازم له؛ وإنما ذكر الله ابن السبيل؛ لأنه غريب في مكانه: قد يحتاج ولا يعلم عن حاجته.

قال السعدي: أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

قال ابن العثيمين: {وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم}، هذه الجملة شاملة لكل خير: هم سألوا ماذا ينفقون من أجل الخير؛ فعمَّم الله؛ والجملة شرطية: فعل الشرط فيها: {تفعلوا}؛ وجوابه جملة: {فإن الله به عليم}؛ والغرض منها بيان إحاطة الله علمًا بكل ما يفعلونه من خير، فيجازيهم عليه.

قال السعدي: ولمَّا خصَّص الله تعالى هؤلاء الأصناف، لشدَّة الحاجة، عمَّم تعالى فقال: {وما تفعلوا من خير} من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير، {فإن الله به عليم(١)} فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيَّته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدَّة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه الجملة السامية لبيان فضل عمل الخير، والحثُّ عليه؛ لأنها تدلُّ على فضل ذلك العمل وتدفع إلى الرغبة فيه، إذ إن الله سبحانه وتعالى يَعلمه؛ وإحساس المؤمن التَّقي بأن الله يرى عمله في الخير حين يعمله، وأنه يبصره وهو يقدُم عليه، يشجعه على الاستمرار عليه، لأنه إذا كانت رؤية أي عظيم من

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

الناس لعمل خير يعمله الإنسان يحمله على الاستمرار، فكيف إذا شعر المؤمن الذي يحسُّ بعظمة خالق الكون بما فيه ومن فيه؛ ثم إنه فوق ذلك ينال جزاءين مع ذلك؛ أولهما: رضاه: وهو وحده جزاء ليس فوقه جزاء؛ ولذلك قال سبحانه بعد بيان ثوابه في الآخرة: {وَرِضْوَانٌ منَ اللَّهِ أَكْبَرُ ....}.

وثانيهما: النعيم المقيم يوم القيامة جزاءً وفاقًا لما قاموا من عمل صالح علمه رب العالمين وقت وقوعه، وحين أدائه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عن العلم؛ وقد وقع سؤالهم لرسول الله ﷺ في القرآن أكثر من اثنتي عشرة مرة.

٢- أن من حسن الإجابة أن يزيد المسؤول على ما يقتضيه السؤال إذا دعت الحاجة إليه؛ فإنهم سألوا عما ينفقون، وكان الجواب عما ينفقون، وفيما ينفقون؛ ونظير ذلك أن النبي ﷺ سئل عن الوضوء بماء البحر فقال: ((هو الطهور ماؤه الحل ميتته([1]))).

٣- فضل الإنفاق على الوالدين والأقربين؛ وأنه مقدَّم على الفقراء والمساكين؛ لأن الله بدأ بهم؛ ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم.

٤- أن لليتامى حقًّا في الإنفاق – ولو كانوا أغنياء –؛ لأنه خصَّهم بالذكر، ثم ذكر بعدهم المساكين؛ فإن كانوا يتامى ومساكين اجتمع فيهم استحقاقان: اليتم، والمسكنة؛ وإذا كانوا أقارب ويتامى ومساكين اجتمع فيهم ثلاثة استحقاقات؛ وإذا كانوا مع ذلك أبناء سبيل اجتمع فيهم أربعة استحقاقات.

٥- عموم علم الله؛ لقوله تعالى: {وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم}.

٦- أن كل فعل خير سواء كان إنفاقًا ماليًّا، أو عملًا بدنيًّا، أو تعليم علم، أو جهادًا في سبيل الله، أو غير ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يعلمه، وسيجازي عليه؛ لأن {من خير} نكرة في سياق الشرط؛ فتكون للعموم.

٧- أنه ينبغي للإنسان ألَّا يحقر من المعروف شيئًا؛ لقوله تعالى: {وما تفعلوا من خير}؛ ويقول النبي ﷺ: ((اتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرة([2]))).

١- أخرجه أحمد ٢/٣٦١، حديث رقم ٨٧٢١، وأخرجه أبو داود ص١٢٢٨، كتاب الطهارة، باب ٤١، الوضوء بما البحر، حديث رقم ٨٣، وأخرجه الترمذي ص١٦٣٨، كتاب الطهارة، باب ٥٢: ما جاء في ماء البحر أنه طهور، حديث رقم ٦٩، وأخرجه النسائي ص٢١٠٨، كتاب المياه، باب ٤: الوضوء بماء البحر، حديث رقم ٣٣٣، وأخرجه ابن ماجة ص٢٥٠٠، كتاب الطهارة وسننها، باب ٣٨: الوضوء بما البحر، حديث رقم ٣٨٦؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح ١/٣٣.

٢- (قلت): البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(مسألة)

هل يعطى ابن السبيل إذا سأل، أو يعطى وإن لم يسأل؟ هذا على أوجه:

١- أن تعلم أنه لا يحتاج، كما لو كان غنيًّا، تعرف أنه غني، ومرَّ بالبلد عابرًا؛ فهذا لا حاجة إلى أن تعطيه؛ حتى لو أعطيته لرأى في ذلك نقيصة له.

٢- أن يغلب على ظنّك أنه محتاج؛ ولكنه متعفِّف يستحيي أن يسأل؛ فالأَولى إعطاؤه – وإن لم يسأل –؛ بل قد يجب.

٣- أن تشك في أمره هل يحتاج أم لا؛ فأعرض عليه الإيتاء؛ ثم اعمل بما يقتضيه الحال.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

قال ابن العثيمين: {كتب عليكم القتال}: أي فرض؛ فال{كتب} هنا بمعنى الفرض، كما في قوله تعالى: {كتب عليكم الصيام}[البقرة: ١٨٣]، وقوله تعالى: {إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا}[النساء: ١٠٣].

وقوله تعالى: {القتال}: أي قتال أعداء الله الكفار؛ و{القتال} مصدر قاتل.

قال القرطبي: هذا هو فرض الجهاد، بيَّن سبحانه أن هذا مما امتحنوا به وجعل وصلة إلى الجنة. والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار، وهذا كان معلومًا لهم بقرائن الأحوال، ولم يؤذَن للنبي ﷺ في القتال مدَّة إقامته بمكة، فلمَّا هاجر أُذن له في قتال من يقاتله من المشركين فقال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}[الحج: ٣٩] ثم أُذن له في قتال المشركين عامَّة. واختلفوا من المراد بهذه الآية، فقيل: أصحاب النبي ﷺ خاصة، فكان القتال مع النبي ﷺ فرض عين عليهم، فلما استقرَّ الشرع صار على الكفاية، قال عطاء والأوزاعي. قال ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب الغزو على الناس في هذه الآية؟ فقال: لا، إنما كتب على أولئك. وقال الجمهور من الأمة: أول فرضه إنما كان على الكفاية دون تعيين، غير أن النبي ﷺ كان إذا استنفرهم تعيَّن عليهم النَّفير لوجوب طاعته. وقال سعيد بن المسيب: إن الجهاد فرض على كل مسلم في عينه أبدًا، حكاه الماوردي. قال ابن عطية: والذي استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد ﷺ فرض كفاية، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين، إلَّا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين، وسيأتي هذا مبيَّنًا في [سورة براءة] إن شاء الله تعالى. وذكر المهدوي وغيره عن الثوري أنه قال: الجهاد تطوع. قال ابن عطية: وهذه العبارة عندي إنما هي على سؤال سائل وقد قيم بالجهاد، فقيل له: ذلك تطوع.

قال ابن العثيمين: {وهو كره لكم}؛ {كره} مصدر بمعنى اسم المفعول – يعني: وهو مكروه لكم –؛ والمصدر بمعنى اسم المفعول يأتي كثيرًا، مثل: {وإن كن أولات حمل}[الطلاق: ٦] يعني: محمول؛ وقول الرسول ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ([١]))، أي مردود.

وجملة: {وهو كره لكم} في محل نصب على الحال؛ والضمير {هو} يعود على القتال؛ وليس يعود على الكتابة؛ فإن المسلمين لا يكرهون ما فرضه الله عليهم؛ وإنما يكرهون القتال بمقتضى الطبيعة البشرية؛ وفرق بين أن يقال: إننا نكره ما فرض الله من القتال؛ وبين أن يقال: إننا نكره القتال؛ فكراهة القتال أمر طبيعي؛ فإن الإنسان يكره أن يقاتل أحدًا من الناس فيقتله؛ فيصبح مقتولًا؛ لكن إذا كان هذا القتال مفروضًا علينا صار محبوبًا إلينا من وجه، ومكروها لنا من وجه آخر؛ فباعتبار أن الله فرضه علينا يكون محبوبًا إلينا؛ ولهذا كان الصحابة ﭫ يأتون إلى الرسول ﷺ يصرُّون أن يقاتلوا؛ وباعتبار أن النفس تنفر منه يكون مكروهًا إلينا.

قال القرطبي: {وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ}: ابتداء وخبر، وهو كره في الطباع. قال ابن عرفة: الكره، المشقَّة والكَره – بالفتح – ما أكرهت عليه، هذا هو الاختيار، ويجوز الضم في معنى الفتح فيكونان لغتين، يقال: كرهت الشيء كُرهًا وكَرهًا وكراهة وكراهية، وأكْرهته عليه إكراهًا. وإنما كان الجهاد كرها لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والتَّعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. وقال عكرمة في هذه الآية: إنهم كرهوه ثم أحبوه وقالوا: سمعنا وأطعنا، وهذا لأن امتثال الأمر يتضمَّن مشقَّة، لكن إذا عرف الثواب هان في جنبه مقاساة المشقَّات.

قلت: ومثاله في الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه كقطع عضو وقلع ضرس، وفصد وحجامة ابتغاء العافية ودوام الصحة، ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدق.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٤ص٢٧٨: فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ الرُّسُلَ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ، وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَمَصْلَحَتُهُ رَاجِحَةٌ عَلَى مَفْسَدَتِهِ، وَمَنْفَعَتُهُ رَاجِحَةٌ عَلَى الْمَضَرَّةِ. وَإِنْ كَرِهَتْهُ النُّفُوسُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} الْآيَةَ. فَأَمَرَ بِالْجِهَادِ وَهُوَ مَكْرُوهٌ لِلنُّفُوسِ، لَكِنَّ مَصْلَحَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنْ أَلَمِهِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَشْرَبُ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ لِتَحْصُلَ لَهُ الْعَافِيَةُ، فَإِنَّ مَصْلَحَةَ حُصُولِ الْعَافِيَةِ لَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى أَلَمِ شُرْبِ الدَّوَاءِ. وَكَذَلِكَ التَّاجِرُ الَّذِي يَتَغَرَّبُ عَنْ وَطَنِهِ،

١- (قلت): مسلم (١٧١٨).

وَيَسْهَرُ، وَيَخَافُ، وَيَتَحَمَّلُ هَذِهِ الْمَكْرُوهَاتِ، مَصْلَحَةُ الرِّبْحِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى هَذِهِ الْمَكَارِهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ([١]))).

قال ابن العثيمين: {وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم}؛ {عسى} تأتي لأربعة معان: للرجاء؛ والإشفاق؛ والتوقع؛ والتعليل؛ والظاهر أنها هنا للتوقع، أو للترجية – لا الترجي –؛ فإن الله عز وجل لا يترجى؛ كل شيء عنده هين؛ لكن الترجية بمعنى أنه يريد من المخاطب أن يرجو هذا؛ أي افعلوا ما آمركم به عسى أن يكون خيرا؛ وهذا الذي ذكره الله هنا واقع حتى في الأمور غير التعبدية، أحيانًا يفعل الإنسان شيئًا من الأمور العادية، ويقول: ليتني لم أفعل، أو ليت هذا لم يحصل؛ فإذا العاقبة تكون حميدة؛ فحينئذ يكون كره شيئًا وهو خير له؛ القتال كره لنا ولكن عاقبته خير؛ لأن المقاتل في سبيل الله حاله كما قال عز وجل آمرًا نبيه أن يقول: {قل هل تربصون بنا إلَّا إحدى الحسنيين}[التوبة: ٥٢]– يعني: لابدَّ من إحدى حسنيين وهما إما النصر والظفر؛ وإما الشهادة.

{وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}؛ وذلك أيضًا كثيرًا ما يقع: يحب الإنسان شيئًا ويلح فيه، ثم تكون العاقبة سيئة؛ والإنسان بمثل هذه الآية الكريمة يسلِّي نفسه في كل ما يفوته مما يحبه، ويصبر نفسه في كل ما يناله مما يكرهه.

قال القرطبي: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا} قيل: {عسى}: بمعنى قد، قاله الأصم. وقيل: هي واجبة. و(عسى) من الله واجبة في جميع القرآن إلَّا قوله تعالى: {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله}[التحريم: ٥]. وقال أبو عبيدة: (عسى) من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقَّة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم.

قلت: وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأسر وقتل وسبى واسترقَّ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته! وقال الحسن في معنى الآية: لا تكرهوا الملمَّات الواقعة، فلرُبَّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرُبَّ أمر تحبه فيه عطبك.

قال ابن القيم في التفسير القيم: في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد. فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه. لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب. فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد – أوجب ذلك للعبد أمورًا –.

١– مسلم في الجنة (١/٢٨٢٢).

منها: أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شق عليه في الابتداء. لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته نفسه، فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب المنهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصة العاقل تحمّل الألم اليسير لما يعقبه من اللَّذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعاقل الكيِّس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مباديها. فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة. فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل. فكلَّما دعته لذَّته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السم. ويرى الأوامر كدواء مرّ المذاق، مفض إلى العافية والشفاء، وكلَّما نهاه مرارة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم، تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمُّل مشقَّة الطريق، لما يؤمل عند الغاية من حسن العاقبة. فإذا فقد اليقين والصبر تعذَّر عليه ذلك. وإذا قوى يقينه هان عليه كل مشقَّة يتحملها في طلب الخير الدائم واللَّذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقتضيه له، لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربِّه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم. فلعلَّ مضرَّته وهلاكه فيه وهو لا يعلم. فلا يختار على ربِّه شيئًا، بل يسأله حسن الإختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوَّض إلى ربِّه ورضي بما يختاره له أمدَّه فيما يختاره له بالقوَّة عليه والعزيمة والصبر، وصرَف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه. وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الإختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى.

ومع هذا فلا خروج له عمَّا قدِر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدَر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلَّا جرى عليه القدَر وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره. ولطفه يهون عليه ما قدره.

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه: تحيُّله في ردِّه.

فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحًا كالميت؛ فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف.

قال ابن العثيمين: {والله يعلم وأنتم لا تعلمون}: هذه الجملة كالتعليل لقوله تعالى: {وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}؛ كأنه قال: إنكم لا تعلمون الخير، والشر فيما قدر لكم؛ ولكن الله يعلم ذلك.

قال الطبري: والله يعلم ما هو خيرٌ لكم، مما هو شر لكم، فلا تكرهوا قتال من أمرتكم بقتاله، فإني أعلم أنّ قتالكم إيّاهم، هو خيرٌ لكم في عاجلكم ومعادكم، وترككم قتالهم شر لكم، وأنتم لا تعلمون من ذلك ما أعلم، يحضّهم جل ذكره بذلك على جهاد أعدائه، ويرغِّبهم في قتال من كفر به.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فرضية الجهاد؛ لقوله تعالى: {كتب عليكم القتال}؛ لكن لابدَّ من شروط؛ منها القدرة على قتال العدو بحيث يكون لدى المجاهدين قدرة بشرية، ومالية، وعتادية؛ ومنها أن يكونوا تحت راية إمام يجاهدون بأمره.

٢- أنه لا حرج على الإنسان إذا كره ما كتب عليه؛ لا كراهته من حيث أمر الشارع به؛ ولكن كراهته من حيث الطبيعة؛ أما من حيث أمر الشارع به فالواجب الرضا، وانشراح الصدر به.

٣- أن البشر لا يعلمون الغيب؛ لقوله تعالى: {وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}

٤- أن الله قد يحكم حكمًا شرعيًا، أو كونيًا على العبد بما يكره وهو خير له.

٥- عموم علم الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {والله يعلم}؛ فحذف المفعول يفيد العموم، كما قال تعالى: {ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى}[الضحى: ٦ - ٨]: كلها محذوفة المفاعيل: آواك، وآوى بك أيضًا؛ وأغناك، وأغنى بك؛ وهداك، وهدى بك، كما قال النبي ﷺ للأنصار: ((ألم أجدكم ضلَّالًا فهداكم الله بي؛ وعالة فأغناكم الله بي[١])).

٦- ضعف الإنسان، وأن الأصل فيه عدم العلم؛ لقوله تعالى: {وأنتم لا تعلمون}، كما قال تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا}[النحل: ٧٨]، وقال ممتنًا على رسوله ﷺ: {وعلمك ما لم تكن تعلم}[النساء: ١١٣].

١- (قلت): البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)

قال ابن حجر العسقلاني في العجاب في بيان الأسباب: أخرج الطبراني في المعجم الكبير من طريق سليمان التيمي عن الحضرمي – هو ابن لاحق، وهو اسم بلفظ النسب، ثقة – عن أبي السوار العدوي – هو حسان بن حريث على الراجح، ثقة أيضًا، عن جندب بن عبدالله، عن النبي ﷺ: (أنه بعث رهطًا، وبعث عليهم أبا عبيدة ابن الجراح فلمَّا ذهب لينطلق بكى صبابة الى رسول الله ﷺ، فجلس، وبعث عبدالله بن جحش مكانه، وكتب له كتابًا وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: ((لا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك)). فلما قرأ الكتاب، استرجع، ثم قال: سمعًا وطاعةً لله ورسوله. فخبَّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان ومضى بقيَّتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادي، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام} الآية. فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزرًا، فليس لهم أجر. فأنزل الله عز وجل:– {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله} الآية. وهذا سنده حسن([١])، وقد علَّق البخاري طرفًا منه في كتاب العلم من صحيحه. وأخرجه الطبري من هذا الوجه وهذه القصة قد ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي قال: حدثني الزهري ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، قال: بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا. وذكر أسمائهم: فالأمير عبدالله بن جحش، وعكاشة بن محصن، وعتبة بن غزوان، وسعد بن أبي وقاص، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبدالله، وخالد بن البكير، وسهيل بن بيضاء قال: فلمَّا سار عبدالله بن جحش يومين، فتح الكتاب فنظر فيه، فإذا فيه ((إذا نظرت في كتابي، فسر حتى تنزل نخلة – بين مكة والطائف – فترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم)). فلمّا نظر عبدالله بن جحش في الكتاب، قال: سمع وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمر رسول الله ﷺ أن أمضي الى النخلة.... الى آخره. فمن

١– وصححه في الفتح لغيره ١/١٥٥.

كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع. فأما أنا فإنِّي ماضٍ لأمر رسول الله ﷺ: فمضى، ومضى أصحابه معه فلم يتخلَّف عنه أحد. وسلك على الحجاز حتى اذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: نجران – أضلَّ – سعد وعتبة بعيرًا لهما، كانا يتعقبان عليه فتخلفا في طلبه. ومضى عبدالله ومن معه حتى نزل بنخلة، فمرَّت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة من تجارة قريش فيها: عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، وأخوه نوفل بن عبدالله، والحكم بن كيسان مولاهم. فلمَّا رآهم القوم، خافوهم – وقد نزلوا قريبًا منهم – فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: قوم عمار فلا بأس علينا منهم. وتشاور القوم – وذلك آخر يوم من جمادي – فقال القوم: والله إن تركتم القوم هذه الليلة، ليدخلنَّ الحرم، فليمتنعنَّ به منكم ولئن قتلتموهم، لنقتلنَّهم في الشهر الحرام. فتردَّد القوم، فهابوا الإقدام عليهم، ثم تشجعوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبدالله عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وآستأسر عثمان والحكم، وأفلت نوفل فأعجزهم. وقدم عبدالله بن جحش وأصحابه بالغنيمة والأسيرين على رسول الله ﷺ بالمدينة([1]).

قال القرطبي: واختلف العلماء في نسخ هذه الآية، فالجمهور على نسخها، وأن قتال المشركين في الأشهر الحرم مباح. واختلفوا في ناسخها، فقال الزهري: نسخها {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً}[التوبة : ٣٦]. وقيل نسخها غزو النبي ﷺ ثقيفًا في الشهر الحرام، وإغزاؤه أبا عامر إلى أوطاس([2])في الشهر الحرام. وقيل: نسخها بيعة الرضوان على القتال في ذي القعدة، وهذا ضعيف، فإن النبي ﷺ لما بلغه قتل عثمان بمكة وأنهم عازمون على حربه بايع حينئذ المسلمين على دفعهم لا على الابتداء بقتالهم. وذكر البيهقي عن عروة بن الزبير من غير حديث محمد بن إسحاق في أثر قصة الحضرمي: فأنزل عز وجل: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ} الآية، قال: فحدَّثهم الله في كتابه أن القتال في الشهر الحرام حرام كما كان، وأن الذي يستحلون من المؤمنين هو أكبر من ذلك من صدِّهم عن سبيل الله حين يسجنونهم ويعذبونهم ويحبسونهم أن يهاجروا إلى رسول الله ﷺ، وكفرهم بالله وصدِّهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعمرة والصلاة فيه، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سكانه من المسلمين، وفتنتهم إيَّاهم عن الدِّين، فبلغنا أن النبي ﷺ عقل([3])ابن الحضرمي وحرم الشهر الحرام كما كان يحرمه، حتى أنزل الله عز وجل: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}[التوبة: ١]. وكان عطاء يقول: الآية محكمة، ولا يجوز القتال في الأشهر الحرم، ويحلف على ذلك، لأن الآيات التي وردت بعدها عامة في

١- قال الحافظ بن حجر في الفتح (١/١٥٥): (وهو صحيح، وقد وجدته من طريقين: إحداهما: مرسلة ذكرها ابن إسحاق في المغازي، عن يزيد بن رومان وأبو اليمان في نسخته عن شعيب عن الزهري، كلاهما عن عروة بن الزبير. والأخرى موصولة. أخرجها الطبراني من حديث جندب البجلي بسند حسن ثم وجدت له شاهدًا من حديث بن عباس عند الطبري في التفسير، فبمجموع هذه الطرق يكون صحيحًا).

٢- أوطاس: واد في ديار هوازن، وفيه كانت وقعة حنين.

٣- عقل القتيل: أعطى ورثته ديته بعد قتله.

الأزمنة، وهذا خاص، والعام لا ينسخ الخاص باتّفاق. وروى أبو الزبير عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل في الشهر الحرام إلَّا أن يغزى.

قال ابن العثيمين: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه}: أي يسألك الناس عن الشهر الحرام؛ والمراد به الجنس؛ فيشمل كل الأشهر الحرم؛ وهي أربعة: ذو القعدة؛ وذو الحجة؛ ومحرم؛ ورجب؛ و{قتال فيه} بدل اشتمال؛ فيكون السؤال عن القتال فيه.

{قل}: يعني في جوابهم {قتال فيه كبير}: أي في الشهر الحرام.

قال القرطبي: {قتال}: بدل عند سيبويه بدل اشتمال، لأن السؤال اشتمل على الشهر وعلى القتال، أي يسألك الكفار تعجُّبًا من هتك حرمة الشهر، فسؤالهم عن الشهر إنما كان لأجل القتال فيه. قال الزجاج: المعنى يسألونك عن القتال في الشهر الحرام. وقال القتبي: يسألونك عن القتال في الشهر الحرام هل يجوز؟ فأبدل قتالًا من الشهر.

{قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} ابتداء وخبر، أي مستنكر، لأن تحريم القتال في الشهر الحرام كان ثابتًا يومئذٍ إذ كان الابتداء من المسلمين. والشهر في الآية اسم جنس، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قوامًا تعتدل عنده، فكانت لا تسفك دمًا، ولا تغير في الأشهر الحرم، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم، ثلاثة سرد وواحد فرد. وسيأتي لهذا مزيد بيان في [المائدة] إن شاء الله تعالى.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ في مجموع الفتاوى ج١٤ص٨٨: قَوْله تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ} مِنْ بَابِ بَدَلِ الِاشْتِمَالِ، وَالسُّؤَالُ إنَّمَا وَقَعَ عَنْ الْقِتَالِ فِيهِ، فَلِمَ قُدِّمَ الشَّهْرُ وَقَدْ قُلْتُمْ: إنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ مَا بَيَانُهُ أَهَمُّ وَهُمْ بِهِ أَعْنَى؟ قِيلَ: السُّؤَالُ لَمْ يَقَعْ مِنْهُمْ إلَّا بَعْدَ وُقُوعِ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ وَتَشْنِيعِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ انْتِهَاكَهُ وَانْتِهَاكَ حُرْمَتِهِ وَكَانَ اهْتِمَامُهُمْ بِالشَّهْرِ فَوْقَ اهْتِمَامِهِمْ بِالْقِتَالِ، فَالسُّؤَالُ إنَّمَا وَقَعَ مِنْ أَجْلِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ، فَلِذَلِكَ قُدِّمَ فِي الذِّكْرِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْفَائِدَةُ فِي إعَادَةِ ذِكْرِ الْقِتَالِ بِلَفْظِ الظَّاهِرِ، وَهَلَّا اكْتَفَى بِضَمِيرِهِ فَقَالَ: هُوَ كَبِيرٌ؟ وَأَنْتَ إذَا قُلْت: سَأَلْتُهُ عَنْ زَيْد هُوَ فِي الدَّارِ كَانَ أَوْجَزَ مِنْ أَنْ تَقُولَ: أَزَيْدٌ فِي الدَّارِ؟

قِيلَ: فِي إعَادَتِهِ بِلَفْظِ الظَّاهِرِ بَلَاغَةٌ بَدِيعَةٌ، وَهُوَ تَعْلِيقُ الْحُكْمِ الْخَبَرِيِّ بِاسْمِ الْقِتَال فِيهِ عُمُومًا، وَلَوْ أَتَى بِالْمُضْمَرِ فَقَالَ: هُوَ كَبِيرٌ، لَتَوَهَّمَ اخْتِصَاصُ الْحُكْمِ بِذَلِكَ الْقِتَالِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ قِتَالٍ وَقَعَ فِي شَهْرٍ حَرَامٍ.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْفَائِدَةِ قَوْلُهُ ﷺ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ الْوُضُوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ فَقَالَ: ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ([1]))، فَأَعَادَ لَفْظَ الْمَاءِ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوْلِهِ: (نَعَمْ تَوَضَّئُوا بِهِ)؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ اخْتِصَاصُ الْحُكْمِ بِالسَّائِلِينَ لِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ الِاخْتِصَاصِ فَعَدَلَ عَنْ قَوْلِهِ: (نَعَمْ تَوَضَّئُوا) إلَى جَوَابٍ عَامٍّ يَقْتَضِي تَعْلِيقَ الْحُكْمِ وَالطَّهُورِيَّةِ بِنَفْسِ مَائِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، فَأَفَادَ اسْتِمْرَارَ الْحُكْمِ عَلَى الدَّوَامِ، وَتَعَلُّقَهُ بِعُمُومِ الْأُمَّةِ، وَبَطَلَ تَوَهُّمُ قَصْرِهِ عَلَى السَّبَبِ، فَتَأَمَّلْهُ فَإِنَّهُ بَدِيعٌ.

فَكَذَلِكَ فِي الْآيَةِ لَمَّا قَالَ: {قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ}، فَجَعَلَ الْخَبَرَ بـ{كَبِيرٌ} وَاقِعًا عَنْ {قِتَالٍ فِيهِ} فَيَتَعَلَّقُ الْحُكْمُ بِهِ عَلَى الْعُمُومِ، وَلَفْظُ (الْمُضْمَرِ) لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْله تَعَالَى: {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}[الأعراف: ١٧٠] وَلَمْ يَقُلْ: أَجْرَهُمْ، تَعْلِيقًا لِهَذَا الْحُكْمِ بِالْوَصْفِ وَهُوَ كَوْنُهُمْ مُصْلِحِينَ، وَلَيْسَ فِي الضَّمِيرِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْوَصْفِ الْمَذْكُورِ.

وَقَرِيبٌ مِنْهُ – وَهُوَ أَلْطَفُ منه – قَوْله تَعَالَى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ}[البقرة: ٢٢٢]، وَلَمْ يَقُلْ فِيهِ تَعْلِيقًا بِحُكْمِ الِاعْتِزَالِ بِنَفْسِ الْحَيْضِ، وَإِنَّهُ هُوَ سَبَبُ الِاعْتِزَالِ، وَقَالَ: {قُلْ هُوَ أَذًى}، وَلَمْ يَقُلْ: (الْمَحِيضُ أَذًى)، لِأَنَّهُ جَاءَ بِهِ عَلَى الْأَصْلِ، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَرَّرَهُ لَثَقُلَ اللَّفْظُ بِهِ لِتُكَرِّرهُ ثَلَاث مَرَّاتٍ، وَكَانَ ذِكْرُهُ بِلَفْظِ الظَّاهِرِ فِي الْأَمْرِ بِالِاعْتِزَالِ أَحْسَنَ مِنْ ذِكْرِهِ مُضْمَرًا لِيُفِيدَ تَعْلِيقَ الْحُكْمِ بِكَوْنِهِ حَيْضًا، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: {قُلْ هُوَ أَذًى}، فَإِنَّهُ إخْبَارٌ بِالْوَاقِعِ، وَالْمُخَاطَبُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّ جِهَةَ كَوْنِهِ أَذًى هُوَ نَفْسُ كَوْنِهِ حَيْضًا، بِخِلَافِ تَعْلِيقِ الْحُكْمِ بِهِ، فَإِنَّهُ إنَّمَا يُعْلَمُ بِالشَّرْعِ، فَتَأَمَّلْهُ.

قال ابن العثيمين: {وصدٌّ عن سبيل الله}: جملة استئنافية لبيان أن ما فعله هؤلاء الكفار من الصدِّ عن سبيل الله، والكفر به، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله؛ فهذه أربعة أشياء يفعلها المشركون الذين اعترضوا على القتال في الشهر الحرام أعظم عند الله من القتال في الشهر الحرام؛ و{صدٌّ} يجوز أن تكون من الفعل اللازم – أي صدُّهم أنفسهم عن سبيل الله –؛ ويجوز أن تكون من المتعدي – أي صدُّهم غيرهم عن سبيل الله –؛ وكلا الأمرين حاصل من هؤلاء المشركين؛ والمراد بـ{سبيل الله} طريقه الموصل إليه – أي شريعته –.

{وكفر به}: أي بالله عز وجل؛ {والمسجد الحرام} بالجر: يحتمل أن تكون معطوفة على الضمير في قوله تعالى: {به}؛ ويحتمل أن تكون معطوفة على قوله تعالى: {عن سبيل الله}؛ فعلى الاحتمال الأول يكون المراد بالكفر بالمسجد الحرام:

١- أبو داود في الطهارة (٨٣)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وقال: (حديث حسن صحيح)، والنسائي في الطهارة (٥٩)، وابن ماجة في الطهارة (٣٨٦)، كلهم عن أبي هريرة.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٩)، صحيح أبي داود (٧٦)، المشكاة (٤٧٩)، الصحيحة (٤٨٠).

عدم احترامه، والقيام بتعظيمه؛ وعلى الاحتمال الثاني يكون المراد: وصدٌّ عن المسجد الحرام، كما قال تعالى: {هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله}[الفتح: ٢٥].

{وإخراج أهله منه}: يعني بـ{أهله}: النبي ﷺ، وأصحابه الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بسبب إيذاء المشركين لهم، وتضييقهم عليهم حتى خرجوا بإذن الله عز وجل من مكة إلى المدينة.

{أكبر عند الله}: أي أعظم إثمًا وجرمًا من القتال في الشهر الحرام.

قال القرطبي: ومعنى الآية على قول الجمهور: إنَّكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصدِّ عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه، كما فعلتم برسول الله ﷺ وأصحابه أكبر جرمًا عند الله.

{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}: قال مجاهد وغيره: {الفتنة} هنا الكفر، أي كفركم أكبر من قتلنا أولئك. وقال الجمهور: معنى الفتنة هنا فتنتهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا، أي أن ذلك أشدُّ اجترامًا من قتلكم في الشهر الحرام.

قال ابن العثيمين: يعني بـ{الفتنة} الصدُّ عن سبيل الله، ومنع المؤمنين وإيذاؤهم؛ و{الفتنة} بمعنى: (إيذاء المؤمنين) قد جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق}[البروج: ١٠].

قال القرطبي: {وَلا يَزَالُونَ}: ابتداء خبر من الله تعالى، وتحذير منه للمؤمنين من شرِّ الكفرة. قال مجاهد: يعني كفار قريش. و{يردُّوكم} نصب بحتى، لأنها غاية مجرَّدة.

قال السعدي: وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم، ويكونوا كفارًا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك، ساعون بما أمكنهم، {ويأبى الله إلَّا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون}.

وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون غيرهم، حتى يردُّوهم عن دينهم، وخصوصًا أهل الكتاب، من اليهود والنصارى الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس، لجذب الأمم إلى دينهم وتدخيلهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم. ولكن المرجو من الله تعالى، الذي منَّ على المؤمنين بالإسلام واختار لهم دينه القيم وأكمل لهم دينه، أن يتمَّ عليهم نعمته بالقيام به أتمَّ القيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم وينصر دينه ويعلي كلمته.

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار كما صدقت على من قبلهم: {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون}.

قال ابن العثيمين: {إن استطاعوا}: يعني: ولن يستطيعوا ذلك؛ ومثل هذه الجملة الشرطية تأتي لبيان العجز عن الشيء، كقوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا}[الرحمن: ٣٣]؛ ومن المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض.

قال السعدي: ثم أخبر تعالى أن من ارتدَّ عن الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمرَّ على ذلك حتى مات كافرًا، {فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة} لعدم وجود شرطها وهو الإسلام.

قال ابن العثيمين: {فأولئك}: أعاد اسم الإشارة بصيغة الجمع على اسم موصول صالح للمفرد والجمع؛ لأن اسم الموصول العام يجوز عود الضمير، والإشارة إليه على وجه الإفراد باعتبار لفظه؛ وعلى وجه الجمع باعتبار معناه.

{حبطت}: أي اضمحلت، {أعمالهم}: أي ما قدَّموه من عمل صالح في الدنيا والآخرة؛ فلا يستفيدون بأعمالهم شيئًا في الدنيا من قبول الحق والانشراح به؛ ولا في الآخرة؛ لأن أعمالهم ضاعت عليهم بكفرهم.

{وأولئك أصحاب النار}: أي أهلها الملازمون لها؛ {هم فيها خالدون}: كالتأكيد لقوله تعالى: {أولئك أصحاب النار}.

قال السعدي: ودلَّت الآية بمفهومها أن من ارتدَّ ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردَّته، وكذلك من تاب من المعاصي فإنها تعود إليه أعماله المتقدِّمة.

قال القرطبي: فالآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام. واختلف العلماء في المرتدّ هل يستتاب أم لا؟ وهل يحبط عمله بنفس الرِّدة أم لا، إلَّا على الموافاة على الكفر؟ وهل يورث أم لا؟ فهذه ثلاث مسائل:

الأولى: قالت طائفة: يستتاب، فإن تاب وإلَّا قتل، وقال بعضهم: ساعة واحدة. وقال آخرون: يستتاب شهرًا. وقال آخرون: يستتاب ثلاثًا، على ما روي عن عمر وعثمان، وهو قول مالك رواه عنه ابن القاسم. وقال الحسن: يستتاب مائة مرة، وقد روي عنه أنه يقتل دون استتابة، وبه قال الشافعي في أحد قوليه، وهو أحد قولي طاوس وعبيد بن عمير. وذكر سحنون أن عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون كان يقول: يقتل المرتد ولا يستتاب، واحتج بحديث معاذ وأبي موسى، وفيه: أن النبي ﷺ لما بعث أبا موسى إلى اليمن أتبعه معاذ بن جبل فلمَّا قدم عليه قال: انزل، وألقى إليه وسادة، وإذا رجل عنده موثق قال: ما هذا؟ قال: هذا كان يهوديًّا فأسلم ثم راجع دينه دين السوء فتهوَّد. قال: لا أجلس حتى يقتل، قضاء الله ورسوله، فقال: اجلس. قال: نعم لا أجلس حتى يقتل، قضاء الله ورسوله – ثلاث مرات – فأمر به فقتل، خرجه مسلم وغيره. وذكر أبو يوسف عن أبي حنيفة أن المرتد يعرض عليه الإسلام فإن أسلم وإلا قتل مكانه، إلا أن يطلب أن يؤجل، فإن طلب ذلك أجِّل ثلاثة أيام، والمشهور عنه وعن أصحابه أن المرتدّ لا يقتل حتى يستتاب. والزنديق عندهم والمرتدُّ سواء. وقال مالك: وتقتل الزنادقة ولا يستتابون. وقد مضى هذا أول [البقرة]. واختلفوا فيمن خرج من كفر إلى كفر، فقال

مالك وجمهور الفقهاء: لا يتعرَّض له، لأنه انتقل إلى ما لو كان عليه في الابتداء لأقرَّ عليه. وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعي أنه يقتل، لقوله ﷺ: ((من بدَّل دينه فاقتلوه([1]))، ولم يخصَّ مسلمًا من كافر. وقال مالك: معنى الحديث من خرج من الإسلام إلى الكفر، وأمَّا من خرج من كفر إلى كفر فلم يعن بهذا الحديث، وهو قول جماعة من الفقهاء. والمشهور عن الشافعي ما ذكره المزني والربيع أن المبدّل لدينه من أهل الذِّمة يلحقه الإمام بأرض الحرب ويخرجه من بلده ويستحلّ ماله مع أموال الحربيين إن غلب على الدار، لأنه إنَّما جعل له الذِّمة على الدين الذي كان عليه في حين عقد العهد. واختلفوا في المرتدَّة، فقال مالك والأوزاعي والشافعي والليث بن سعد: تقتل كما يقتل المرتدُّ سواء، وحجَّتهم ظاهر الحديث: ((من بدَّل دينه فاقتلوه)). و((من)) يصلح للذكر والأنثى. وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه: لا تقتل المرتدَّة، وهو قول ابن شبرمة، وإليه ذهب ابن علية، وهو قول عطاء والحسن. واحتجوا بأن ابن عباس روى عن النبي ﷺ أنه قال: ((من بدَّل دينه فاقتلوه))، ثم إن ابن عباس لم يقتل المرتدَّة، ومن روى حديثًا كان أعلم بتأويله، وروي عن علي مثله. ونهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان. واحتجَّ الأوَّلون بقوله ﷺ: ((لا يحلُّ دم امرئ مسلمٍ إلَّا بإحدى ثلاث، كفر بعد إيمان...([2])) فعمَّ كل من كفر بعد إيمانه، وهو أصح.

الثانية: قال الشافعي: إن من ارتدَّ ثم عاد إلى الإسلام لم يحبط عمله ولا حجَّه الذي فرغ منه، بل إن مات على الرِّدة فحينئذ تحبط أعماله. وقال مالك: تحبط بنفس الرِّدة، ويظهر الخلاف في المسلم إذا حجَّ ثم ارتدَّ ثم أسلم، فقال مالك: يلزمه الحج، لأن الأول قد حبط بالرِّدة. وقال الشافعي: لا إعادة عليه، لأن عمله باق. واستظهر علماؤنا بقوله تعالى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}[الزمر: ٦٥]. قالوا: وهو خطاب للنبي ﷺ والمراد أمَّته، لأنه ﷺ يستحيل منه الرِّدة شرعًا. وقال أصحاب الشافعي: بل هو خطاب النبي ﷺ على طريق التغليظ على الأمَّة، وبيان أن النبي ﷺ على شرف منزلته لو أشرك لحبط عمله، فكيف أنتم! لكنه لا يشرك لفضل مرتبته، كما قال: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}[الأحزاب: ٣٠] وذلك لشرف منزلتهن، وإلَّا فلا يتصوَّر إتيان منهن صيانة لزوجهن المكرم المعظم، قاله ابن العربي. وقال علماؤنا: إنما ذكر الله الموافاة شرطًا ههنا لأنه علَّق عليها الخلود في النار جزاء، فمن وافى على الكفر

١- (قلت): أخرجه البخاري (٢/٢٥١ و٤/٣٢٩)، وأبو داود (٤٣٥١)، والسياق له والنسائى (٢/١٧٠)، الترمذى (١/٢٧٥ . ٢٧٦)، وابن ماجه (٢٥٣٥)، والدار قطني (٣٣٦)، والبيهقي (٨/١٩٥)، وأحمد (١/٢٨٢ و٢٨٢ . ٢٨٣). وصححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجة (٢٥٣٥)، والإرواء (٢٤٧١)، وصحيح الجامع (٦١٢٥).

٢- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ. ولكن صح بلفظ قريب منه في حديث ورد عن ابن مسعود مرفوعًا: ((لا يحلُّ دم أمرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)) متفق عليه.

* وقال الإمام الألباني في إرواء الغليل: صحيح. أخرجه البخاري (٤/٣١٧)، ومسلم (٥/١٠٦)، وكذا أبو داود (٤٣٥٢)، والنسائى (٢/١٦٥ . ١٦٦)، والدارمي (٢/٢١٨)، وابن ماجه (٢٥٣٤)، وابن أبى شيبة (١١/٤٥/٢)، والدار قطني (٣٢٣)، والبيهقي (٨/١٩)، والطيالسي (٢٨٩)، وأحمد (١/٣٨٢ و٤٢٨ و٤٤٤ و٤٦٥)، من طريق مسروق عنه به. واللفظ لأحمد، وزاد مسلم والنسائى فى أوله: ((والذى لا إله غيره لا يحل ...)).

خلَّده الله في النار بهذه الآية، ومن أشرك حبط عمله بالآية الأخرى، فهما آيتان مفيدتان لمعنيين وحكمين متغايرين. وما خوطب به ﷺ فهو لأمَّته حتى يثبت اختصاصه، وما ورد في أزواجه فإنما قيل ذلك فيهن ليبيِّن أنه لو تصور لكان هتكان أحدهما لحرمة الدِّين، والثاني لحرمة النبي ﷺ، ولكلِّ هتك حرمةٍ عقاب، وينزل ذلك منزلة من عصى في الشهر الحرام أو في البلد الحرام أو في المسجد الحرام، يضاعف عليه العذاب بعدد ما هُتِكَ من الحرمات. والله أعلم.

الثالثة: اختلاف العلماء في ميراث المرتد: فقال علي بن أبي طالب والحسن والشعبي والحكم والليث وأبو حنيفة وإسحاق بن راهويه: ميراث المرتد لورثته من المسلمين. وقال مالك وربيعة وابن أبي ليلى والشافعي وأبو ثور: ميراثه في بيت المال. وقال ابن شبرمة وأبو يوسف ومحمد والأوزاعي في إحدى الروايتين: ما اكتسبه المرتد بعد الردة فهو لورثته المسلمين. وقال أبو حنيفة: ما اكتسبه المرتد في حال الرِّدَّة فهو فيء، وما كان مكتسبًا في حالة الإسلام ثم ارتدَّ يرثه ورثته المسلمون، وأما ابن شبرمة وأبو يوسف ومحمد فلا يفصِّلون بين الأمرين، ومطلق قوله ﷺ: ((لا وراثة بين أهل ملَّتين[1])), يدلُّ على بطلان قولهم. وأجمعوا على أن ورثته من الكفار لا يرثونه، سوى عمر بن عبدالعزيز فإنه قال: يرثونه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الرسول ﷺ هو مرجع الصحابة في العلم؛ لقوله تعالى: {يسألونك}.

٢- اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بما يقع منهم من المخالفة؛ وأنهم يندمون، ويسألون عن حالهم في هذه المخالفة؛ لقوله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه}.

٣- أنَّ الرسول ﷺ لا يعلم كل الأحكام؛ بل لا يعلم إلا ما علمه الله عز وجل؛ ولهذا أجاب الله عن هذا السؤال: {قل قتال فيه كبير ...}.

وينبني على هذه المسألة: هل للرسول ﷺ أن يجتهد، أو لا؟ والصواب أن له أن يجتهد؛ ثم إذا اجتهد فأقره الله صار اجتهاده بمنزلة الوحي.

٤- أنَّ القتال في الشهر الحرام من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: {قل قتال فيه كبير}؛ وهل هذا الحكم منسوخ، أو باق؟ للعلماء في ذلك قولان؛ فذهب أكثر أهل العلم إلى أن الحكم منسوخ؛ وأن القتال في الأشهر الحرم كان محرَّمًا، ثم نسخ؛ القول الثاني: أن الحكم باق، وأن القتال في الأشهر الحرم حرام؛ دليل من قال: (إنه منسوخ) قوله تعالى: {وقاتلوا المشركين كافة}[التوبة: ٣٦]، وقوله تعالى: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم}[التوبة: ٧٣]، وأن

١- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ. وصحح الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (١٣٥٧١) حديثاً ولكن ورد بلفظ: ((لا يتوارث أهل ملتين)). وقال: انظر حديث رقم: ٧٦١٣ في صحيح الجامع.

الرسول ﷺ قاتل ثقيفًا في شهر ذي القعدة([1])؛ وهو شهر حرام؛ وأن غزوة تبوك كانت في رجب([2])؛ وهو شهر حرام؛ والذي يظهر لي أن القتال في الأشهر الحرم باق على تحريمه؛ ويجاب عن أدلّة القائلين بالنسخ بأن الآيات العامة كغيرها من النصوص العامة التي تخصص؛ فهي مخصصة بقوله تعالى: {قل قتال فيه كبير}؛ وأما قتال الرسول ﷺ أجيب عنه بأنه ليس قتال ابتداء؛ وإنما هو قتال مدافعة؛ وقتال المدافعة لا بأس به حتى في الأشهر الحرم؛ إذا قاتلونا نقاتلهم؛ فثقيف كانوا تجمعوا لرسول الله فخرج إليهم الرسول ﷺ ليغزوهم؛ وكذلك الروم في غزوة تبوك تجمعوا له فخرج إليهم ليدافعهم؛ فالصواب في هذه المسألة أن الحكم باق، وأنه لا يجوز ابتداء الكفار بالقتال في الأشهر الحرم؛ لكن إن اعتدوا علينا نقاتلهم حتى في الشهر الحرام.

٥- أنَّ الأشهر قسمان: أشهر حرم؛ وأشهر غير حرم.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن الله يختص من خلقه ما شاء؛ فهناك أماكن حرام، وأماكن غير حرام؛ وأزمنة حرام، وأزمنة غير حرام؛ وهناك رسل، وهناك مرسَل إليهم؛ وهناك صديقون، وهناك من دونهم؛ والله عز وجل كما يفاضل بين البشر يفاضل بين الأزمنة والأمكنة.

٦- أنَّ الذنوب تنقسم إلى قسمين: صغائر، وكبائر؛ وكل منهما درجات؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر([3])))؛ وحدُّ الكبائر اختلف فيه أقوال الناس؛ فمنهم من قال: إن الكبائر معدودة؛ وذهب يتتبَّع كل نصّ قال فيه الرسول ﷺ: هذا من الكبائر؛ وعدَّها سردًا؛ ومنهم من قال: إن الكبائر محدودة؛ يعني أن لها حدًّا - أي: ضابطًا يجمعها -؛ ليست معيَّنة: هذه، وهذه، وهذه؛ ثم اختلفوا في الضابط، فقال بعضهم: كل ذنب لعن فاعله فهو كبيرة؛ وقال بعضهم: كل ذنب فيه حد في الدنيا فهو كبيرة؛ وقال بعضهم: كل ذنب فيه وعيد في الآخرة فهو كبيرة؛ لكن شيخ الإسلام رحمه الله قال في بعض كلام له: إن الكبيرة كل ما رتَّب عليه عقوبة خاصة سواء كانت لعنة؛ أو غضبًا؛ أو حدًّا في الدنيا؛ أو نفي إيمان؛ أو تبرؤًا منه؛ أو غير ذلك؛ فالذَّنب إذا قيل: لا تفعل كذا؛ أو حرَّم عليك كذا؛ أو ما أشبه ذلك بدون أن يجعل عقوبة خاصة بهذا الذنب فهو صغيرة؛ أمَّا إذا رتَّب عليه عقوبة - أي عقوبة كانت - فإنه يكون من الكبائر -؛ فالغش مثلًا كبيرة؛ لأنه رتَّب عليه عقوبة خاصة - وهي البراءة منه، كما قال النبي ﷺ: ((من غشَّ فليس مني([4])))؛ كون الإنسان لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه كبيرة؛ لأنه رتَّب عليه عقوبة خاصة؛ وهي قوله ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما

١- راجع: زاد المعاد ٣/٥٠٢.

٢- راجع: زاد المعاد ٣/٥٢٦.

٣- أخرجه البخاري ص٢٠٩، كتاب الشهادات، باب ١٠: ما قيل في شهادة الزور، حديث رقم ٢٦٥٤، وأخرجه مسلم ص٦٩٣، كتاب الإيمان، باب ٣٨: الكبائر وأكبرها، حديث رقم ٢٥٩ [١٤٣] ٨٧..

٤- أخرجه مسلم ص٦٩٥، كتاب الإيمان، باب ٤٣: قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا، حديث رقم ٢٨٤ [١٦٤] ١٠٢.

يحب لنفسه([١]))؛ وكون الإنسان لا يكرم جاره كبيرة؛ لقوله ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره([٢])))؛ وعدوانه على جاره أكبر؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: ((والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قالوا: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه([٣])))؛ وهذا الضابط أقرب الضوابط في تعريف الكبيرة؛ ولكن مع هذا لا نقول: إن هذه الكبائر سواء؛ بل من الكبائر ما يقرب أن يكون من الصغائر على حسب ما رتّب عليه من العقوبة؛ فقطّاع الطريق مثلًا أعظم جرمًا من اللصوص.

٧- أنَّ الصدَّ عن سبيل الله أعظم من القتال في الأشهر الحرم؛ لقوله تعالى: {وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله}؛ ويحتمل أن مجموع هذه الأفعال الأربعة أكبر عند الله من القتال؛ لا أن كل واحد منها أكبر عند الله.

٨- أنَّ أعظم الذنوب أن يصد الإنسان عن الحق؛ فكل من صد عن الخير فهو صادٌّ عن سبيل الله؛ ولكن هذا الصدُّ يختلف باختلاف ما صدَّ عنه؛ من صدَّ عن الإيمان فهو أعظم شيء – مثل مشركي قريش؛ ومن صدَّ عن شيء أقل، كمن صدَّ عن تطوع مثلًا فإنه أخف؛ ولكن لا شك أن هذا جرم؛ فالنهي عن المعروف من صفات المنافقين.

٩- عظم الصدّ ﷺ عن المسجد الحرام؛ ولذلك صور متعدِّدة؛ فقد يكون بمنع الناس من الحج؛ ولكن لو قال ولي الأمر: أنا لا أمنعهم؛ ولكنني أنظِّمهم؛ لأن الناس يقتل بعضهم بعضًا لو اجتمعوا جميعًا؛ فهل نقول: إن هذا من باب السياسة الجائزة، كمنع الرسول ﷺ من لا يصلح للجهاد من الجهاد([٤])؟ أو نقول: إن في هذا نظرًا؟ هذه المسألة تحتاج إلى نظر بعيد؛ وهل مراعاة المصالح بالنسبة للعموم تقضي على مراعاة المصالح بالنسبة للخصوص؛ أو لا؟.

وقد يكون الصدُّ بإلهائهم، وإشغالهم عن فعل العبادات؛ وقد يكون بتحقير العبادات في أنفسهم؛ وقد يكون بإلقاء الشبهات في قلوب الناس حتى يشكوا في دينهم، ويدعوه.

١٠- تقديم ما يفيد العلِّيَّة؛ لقوله تعالى: {عن الشهر الحرام قتال فيه}؛ المسؤول عنه القتال في الشهر الحرام؛ لكنَّه قدَّم الشهر الحرام؛ لأنَّه العلَّة في تحريم القتال؛ ومن ذلك قوله تعالى: {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء

١- أخرجه البخاري ص٣، كتاب الإيمان، باب ٧: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم ١٣: وأخرجه مسلم ص٦٨٨، باب ١٧: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم ١٧٠ [٧١] ٤٥..

٢- أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ٣١: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم ٦٠١٩، وأخرجه مسلم ص٦٨٨، كتاب الإيمان، باب ١٩: الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير ... ، حديث رقم ١٧٣ [٧٤] ٤٧.

٣- أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ١٢٩: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم ٦٠١٦، واللفظ له، وأخرجه مسلم بطريق أخرى ص٦٨٨، كتاب الإيمان باب ١٨: بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم ١٧٢ [٧٣] ٤٦.

٤- راجع البخاري ص٢١١، كتاب الشهادات، باب ١٨: بلوغ الصبيان وشهادتهم، حديث رقم ٢٦٦٤، وأخرجه مسلم ص١٠١٣، كتاب الإمارة، باب ٢٣: بيان سن البلوغ، حديث رقم ٤٨٣٧ [٩١] ١٨٦٨.

في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن}[البقرة: ٢٢٢]؛ فقدَّم العلَّة على الحكم لِتُنَفِّر النفوس من الفعل قبل الحكم به؛ فيقع الحكم وقد تهيَّأت النفوس للاستعداد له، وقبوله.

١١- تفاوت الذنوب؛ لقوله تعالى: {قل قتال فيه كبير} إلى قوله تعالى: {أكبر عند الله}؛ وبتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان؛ لأنه كلَّما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر، كما قال النبي ﷺ: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن([1])))؛ فيكون في ذلك ردٌّ على من أنكروا زيادة الإيمان، ونقصانه؛ وللناس في ذلك ثلاثة أقوال؛ منهم من قال: إن الإيمان يزيد وينقص؛ ومنهم من قال: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ ومنهم من قال: إن الإيمان يزيد ولا ينقص؛ وبحث ذلك على وجه التَّفصيل، والترجيح في كتب العقائد؛ والراجح أن الإيمان يزيد وينقص.

١٢- تسلية الله عز وجل للمؤمنين بما جرى من الكافرين مقابل فعل المؤمنين، حيث قاتلوا في الشهر الحرام.

١٣- أنَّ من كان أقوم بطاعة الله فهو أحقّ الناس بالمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: {وإخراج أهله منه}؛ فمع أن المشركين ساكنون في مكة؛ لكنَّهم ليسوا أهله، كما قال تعالى: {وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتَّقون}[الأنفال: ٣٤].

١٤- التَّحذير من الفتنة؛ لقوله تعالى: {والفتنة أكبر من القتل}.

١٥- أنَّ الفتنة – وهي صدُّ الناس عن دينهم – أكبر من قتلهم؛ لأن غاية ما في قتلهم أن تفوتهم الحياة الدنيا؛ أمَّا صدُّهم عن الإيمان لو صدُّوا عنه لفاتتهم الدنيا والآخرة؛ وكثير من الناس يأتون إلى مواضع الفتن وهم يرون أنهم لن يفتتنوا؛ ولكن لا يزال بهم الأمر حتى يقعوا في فتنة؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الدجال: ((من سمع بالدجال فلينأ عنه فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فلا يزال به لما معه من الشبه حتى يتبعه([2])))؛ المهم أن الإنسان لا يعرض نفسه للفتن؛ فكم من إنسان وقع في مواقع الفتن وهو يرى نفسه أنه سيتخلص، ثم لا يتخلص.

١٦- حرص المشركين على ارتداد المؤمنين بكلِّ وسيلة ولو أدى ذلك إلى القتال؛ لقوله تعالى: {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا}؛ ولهذا كان الغزو الفكري، والغزو الأخلاقي أعظم من الغزو السلاحي؛ لأن هذا يدخل على الأمة من حيث لا تشعر؛ وأما ذاك فصدام مسلح ينفر الناس منه بالطبيعة؛ فلا يمكنون أحدًا أن يقاتلهم؛ أما هذا فسلاح فتَّاك يفتك بالأمة من حيث لا تشعر؛ فانظر كيف أفسد الغزو الفكري والخلقي على الأمة الإسلامية أمور دينها، ودنياها؛ ومن تأمل التاريخ تبيَّن له حقيقة الحال.

١- أخرجه البخاري ص١٩٥، كتاب المظالم والغصب، باب ٣٠: النهي بغير إذن صاحبه، حديث رقم ٢٤٧٥، وأخرجه مسلم ص٦٩٠، باب ٢٤: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ... ، حديث رقم ١٠٢ [١٠٠] ٥٧.

٢- أخرجه أحمد ج٤/٤٣١، حديث رقم ٢٠١١٦، وأخرجه أبو داود ص١٥٣٧، كتاب الملاحم، باب ١٤: خروج الدجال، حديث رقم ٤٣١٩، واللفظ لأحمد، وقال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح ٣/٣٠.

١٧- تيئيس الكافرين أن يردُّوا المؤمنين كلهم عن الدِّين؛ لقوله تعالى: {إن استطاعوا}؛ ولكن لن يستطيعوا حتى يأتي أمر الله، ويكون في آخر الزمان، فتهب ريح تقبض نفس كل مؤمن حتى لا يبقى إلَّا شرار الخلق.

١٨- الحذر من الكافرين؛ لقوله تعالى: {ولايزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم}؛ وكلمة: {لا يزالون} تفيد الاستمرار، وأنه ليس في وقت دون وقت، وأن محاولتهم ارتداد المسلمين عن دينهم مستمرة.

١٩- أنَّ الرِّدَّة مبطلة للأعمال إذا مات عليها؛ لقوله تعالى: {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم}.

٢٠- أنَّ من ارتدَّ عن دينه، ثم عاد إليه لم يبطل عمله السابق؛ لقوله تعالى: {فيمت وهو كافر}.

٢١- أنَّ المرتدَّ مخلدٌ في النار؛ لقوله تعالى: {أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

٢٢- أنَّ المرتدَّ لا يعامل في الدنيا بأحكام المؤمنين؛ لقوله تعالى: {فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة}؛ فلا يغسَّل، ولا يكفَّن، ولا يصلَّى عليه، ولا يُدفن مع المسلمين، ولا يرث؛ وأما أن يوَرَّث فقد اختار شيخ الإسلام أنه يرثه أقاربه المسلمون؛ ولكن الصحيح أنه لا توارث؛ لعموم قوله ﷺ في حديث أسامة: ((لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم([1]))).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

قال ابن العثيمين: {إنَّ الذين آمنوا}؛ (الإيمان) في اللغة التصديق: قال تعالى عن إخوة يوسف قائلين لأبيهم: {وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين}[يوسف: ١٧]؛ وأما في الشرع فهو التصديق المستلزم للقبول والإذعان([2]).

{والذين هاجروا} معطوفة على ما سبق من باب عطف الصفات، كقوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى}[الأعلى: ١ – ٤]؛ فهذه المعطوفات من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف بها واحد؛ و(الهجر) في اللغة الترك؛ ومنه: (هجرت فلانًا) إذا لم تكلِّمه؛ وفي الشرع له معنيان: عام وخاص؛

١- أخرجه البخاري ص٥٦٥، كتاب الفرائض، باب ٢٦: لا يرث المسلم الكافر ... ، حديث رقم ٦٧٦٤؛ وأخرجه مسلم ص٩٥٨، كتاب الفرائض، باب ٢٣: لا يرث المسلم الكافر ... ، حديث رقم ٤١٤٠ [١] ١٦١٤.

٢- (قلت): أنظر كلام صالح آل الشيخ عن الإيمان مفصلًا عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

فأمَّا العام فهو هجر ما حرَّم الله عز وجل، كما قال النبي ﷺ: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه([١]))؛ وأما الخاص فهو أن يهجر الإنسان بلده ووطنه لله ورسوله، بأن يكون هذا البلد بلد كفر لا يقيم فيه الإنسان دينه؛ فيهاجر من أجل إقامة دين الله، وحماية نفسة من الزيغ، كما جاء في الحديث الصحيح: ((من كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه([٢]))؛ والمراد بالهجرة في الآية ما يشمل المعنيين: العام والخاص.

{وجاهدوا في سبيل الله} معطوفة على الصلة في {الذين هاجروا}؛ ولم يعد الموصول؛ لأن الهجرة والجهاد عملان مبنيان على الإيمان؛ و(الجهاد في سبيل الله) هو قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العليا؛ و(الجهاد) هو بذلك الجهد لأمر مطلوب؛ والجهد معناه الطاقة، كما قال تعالى: {والذين لا يجدون إلا جهدهم}[التوبة: ٧٩]: يعني إلا طاقتهم؛ وهو يغلب على بذل الجهد في قتال الأعداء؛ وإلَّا فكل أمر شاق تبذل فيه الطاقة فإنه جهاد؛ ولهذا كان جهاد النفس يسمَّى جهادًا؛ ولكن لا صحة للحديث الذي يذكر عن النبي ﷺ أنه لما رجع من تبوك قال: ((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر([٣]))؛ يعني جهاد النفس؛ ولكن لا شك أن النفس تحتاج إلى مجاهدة لحملها على فعل الطاعة، وترك المعصية.

قال السعدي: هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان، من الربح والخسران.

فأما الإيمان: فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد، قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل.

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف، لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله، وأهله، وخِلَّانه، تقرُّبًا إلى الله ونصرة لدينه.

١- أخرجه البخاري ص٣، كتاب الإيمان، باب ٤: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم ١٠.

٢- أخرجه البخاري ص١، كتاب الوحي، باب ١: كيف كان بدء الوحي ... ، حديث رقم ١، وأخرجه مسلم ص١٠١٩، كتاب الإمارة، باب ٤٥: قوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات))، حديث رقم ٤٩٢٧ [١٥٥] ١٩٠٧.

٣- انظر: الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ص١٢٧.

- (قلت): قال الإمام الألباني في السلسلة الضعيفة – مختصرة (٢٤٦٠): (منكر) وورد بلفظ: قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة العبد هواه. وسنده ضعيف. وقد استنكر ابن تيمية في مجموع الفتاوي تسميته بالجهاد الأصغر. لأن جهاد الكفار من أعظم الأعمال بل هو أعظم ما تطوع له الإنسان.

وأمَّا الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسَّعي التام في نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأْوائِها ومشقَّتها كان لغيرها أشدُّ قيامًا به وتكميلًا.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إيَّاهم لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولًا وآخرًا، وهو الذي منَّ بالسبب والمسبِّب.

قال ابن العثيمين: {أولئك يرجون رحمة الله}؛ هذه الجملة خبر {إن} في أول الآية؛ واسمها {الذين}؛ وجملة: {أولئك يرجون رحمة الله} الخبر؛ وهي جملة؛ لأن {أولاء} مبتدأ؛ و{يرجون} جملة خبر المبتدأ الثاني؛ والجملة من المبتدأ الثاني، والخبر خبر {إن}؛ والإشارة بمبتدأ جديد تدلُّ على رفعة مقامهم؛ ولا سيَّما وقد أتى باسم الإشارة؛ وتصدير خبر {إن} باسم الإشارة للبعيد يدلُّ على علو همَّتهم؛ فيكون في ذلك تنويه بذكرهم من وجهين:

أوَّلًا: الإشارة إليهم بما يدلُّ على الرفعة والعلو.

ثانيًا: أنَّ تعدُّد المبتدأ يجعل الجملة الواحدة كالجملتين؛ فيكون في ذلك توكيد على توكيد.

و(الرَّجاء) الطمع في حصول ما هو قريب؛ ومعلوم أن الطمع بما هو قريب لا يكون قريبًا إلَّا بفعل ما يكون قريبًا به؛ وهؤلاء فعلوا ما تكون الرحمة قريبة منهم؛ والذي فعلوه: الإيمان، والهجرة، والجهاد؛ فإذا لم يُرجَ هؤلاء رحمة الله فمن الذي يرجوها؟! فهؤلاء هم أهل الرَّجاء؛ فالرَّجاء لابدَّ له من أسباب؛ وحسن الظَّن لابدَّ له من أسباب.

والمراد بالرحمة هنا يحتمل أن تكون الرحمة التي هي صفته – أي أن يرحمهم –؛ ويحتمل أن يكون المراد ما كان من آثار رحمته؛ وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: ((أنت رحمتي أرحم بك من أشاء([1])))؛ فجعل المخلوق رحمة له؛ لأنَّه من آثار رحمة الله؛ ولهذا قال: ((أرحم بك))؛ أمَّا الرحمة التي هي وصفه فهي شيء آخر؛ فالآية محتملة للمعنيين؛ وكلاهما متلازمان؛ لأن الله إذا رحم عبدًا أدخله الجنة التي هي رحمته.

قال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٣٢٥: فتأمَّل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات؟ فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته، ولو أن رجلًا له أرض

١– أخرجه البخاري ص٤١٤، كتاب التفسير، باب ١: قوله تعالى: (وتقول هل من مزيد)، حديث رقم ٤٨٥٠، وأخرجه مسلم ص١١٧٢، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١٣: النار يدخلها الجبارون ... ، حديث رقم ٧١٧٢ [٣٤] ٢٨٤٦.

يؤمِّل أن يعود عليه من غلها ما ينفعه، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها ورجا أنه يأتي من غلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض: لَعَدَّه الناس من أسفه السفهاء! وكذا لو رجا وحسن ظنُّه أن يجيئه ولد من غير جماع! أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام! وأمثال ذلك، فكذلك من حسن ظنّه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرُّب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ وممَّا ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه أمورًا: أحدها: محبة ما يرجوه، الثاني: خوفه من فواته، الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان؛ وأمَّا رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

قال السعدي: فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلَّا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجزٌ وتمنٍّ وغرور، وهو دالٌّ على ضعف همَّة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلَّة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

وفي قوله: {أولئك يرجون رحمة الله} إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها، ويعوِّل عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله، ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: {والله غفور}: أي لمن تاب توبةً نصوحًا، {رحيم}: وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له مغفرة الله إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

قد يقول قائل: قوله تعالى: {والله غفور رحيم}؛ ما محل ذكر اسم الله {الغفور([1])} هنا مع أن هؤلاء قاموا بأعمال صالحة؟ الجواب أن القائم بالأعمال الصالحة قد يحصل منه شيء من التفريط والتقصير؛ ولذلك شرع للمصلّي أن يستغفر الله ثلاثًا بعد السلام؛ وأما ذكر {الرحيم([2])} فواضح مناسبته؛ لأن كل هذه الأعمال التي عملوها من آثار رحمته؛ وسبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١ – فضيلة الإيمان، والهجرة؛ لقوله تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هاجروا} الآية.

---

١ – (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٢ – (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

٢- أنَّ الجهاد دون مرتبة الهجرة؛ لأنَّه جعل الجهاد معطوفًا على الهجرة؛ ولم يجعل له اسمًا موصولًا مستقلًّا.

٣- مراعاة الإخلاص في الهجرة، والجهاد؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ وأما بدون الإخلاص فهجرته إلى ما هاجر إليه؛ واعلم أنه يقال: في كذا؛ ولكذا؛ وبكذا؛ تقول مثلًا: جاهدت لله؛ وجاهدت بالله؛ وجاهدت في الله؛ فـ(لله): اللام لبيان القصد؛ فتدلُّ على الإخلاص؛ و(بالله): الباء للاستعانة؛ فتدلُّ على أنك جاهدت مستعينًا بالله؛ و(في الله): (في) للظرفية؛ فتدلُّ على أن ذلك الجهاد على وفق شرع الله – لم يتعدَّ فيه الحدود –.

٤- أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازمًا بقبول عمله؛ بل يكون راجيًا؛ ولكنه يرجو رجاء يصل به إلى حسن الظَّن بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: {أولئك يرجون رحمة الله}؛ لأنهم لا يغترون بأعمالهم؛ ولا يدلون بها على الله؛ وإنما يفعلونها وهم راجون رحمة الله.

٥- إثبات اسمَي {الغفور}، و{الرحيم} لله عز وجل؛ وإثبات ما دلَّا عليه من المغفرة والرحمة؛ وما يترتب على ذلك من غفران الذنوب والرحمة؛ فبالمغفرة يزول المكروه من آثار الذنوب؛ وبالرحمة يحصل المطلوب.

٦- كمال رحمة الله بالخلق؛ فلله على العامل عملًا صالحًا ثلاث نِعم عظيمة:

الأولى: أنَّه بيَّن له العمل الصالح من العمل غير الصالح؛ وذلك بما أنزله من الوحي على رسله؛ بل هي أعظم النِّعم.

الثانية: توفيقه لهذا العمل الصالح؛ لأن الله قد أضلَّ أممًا عن العمل الصالح.

الثالثة: ثوابه على هذا العمل الصالح ثوابًا مضاعفًا: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهذا ممَّا يدلُّ على كمال رحمة الله بالخلق: أنَّه ينعم، ثم يشكر المنعِم عليه، كما قال تعالى: {إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا}[الإنسان: ٢٢].

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

قال السعدي: أي: يسألك – يا أيها الرسول – المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأوَّل الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه، أن يبيِّن لهم منافعهما ومضارهما، ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما، وتحتيم تركهما.

قال ابن العثيمين: أي: يسألك الناس، أو الصحابة ﭫ، وسبب سؤالهم هو أن الإنسان العاقل إذا رأى ما يترتب على الخمر، والميسر من المضار التي تخالف الفطرة فلا بد أن يكون عنده إشكال في ذلك؛ ولهذا سألوا النبي ﷺ عن حكمهما – لا عن معناهما –؛ لأن المعنى معلوم.

والسؤال إذا كان بمعنى طلب مال فإنه ينصب مفعولين؛ وإذا كان سؤال استفهام فإنه ينصب المفعول الأول، ويتعدى للثاني بـ{عن} كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: {يسألونك عن المحيض}[البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: {يسألونك عن الساعة}[الأعراف: ١٨٧]؛ وربما يستغنى عن الثاني بجملة استفهامية، كما في السؤال بعده؛ والفرق بين الصيغتين – تعديه إلى جملة استفهامية، وتعديه إلى المفعول الثاني بحرف الجر – أنه إذا عدي إلى الثاني بصيغة الاستفهام صارت هذه الصيغة نفس لفظ السائل بعينها؛ وإذا تعدى بـ{عن} فقد تكون هي لفظ السائل بعينه، وقد تكون غير ذلك.

قال السعدي: فأما الخمر: فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان.

قال أبو زهرة: ولقد نزل في الخمر أربع آيات من القرآن الكريم:

أولها: {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[النحل: ٦٧].

والثانية: وهي هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}.

والثالثة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتمْ سُكَارَى}[النساء: ٤٣].

والرابعة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة: ٩٠].

ولقد اتَّفق العلماء على أن الآية الأولى أول ما نزل في القرآن خاصًّا بالخمر، مشيرًا إليها، لأنها نزلت بمكة، إذ إنها من سورة النحل وهي مكية. وقد اتَّفقوا أيضًا على أن آية المائدة وهي الرابعة آخر آية نزلت في الخمر، لأنها القاطعة في التحريم؛ ولذا قال عمر عندما سمع قوله تعالى في آية المائدة: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}: انتهينا، وشفى ذلك ما في نفس الفاروق من الخمر. والأكثرون على أن قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ} سبقت في النزول آية: {يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى...}، ولكن يميل بعض المتأخرين إلى أن آية {لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} مقدمة على آية {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ} لأن هذه فيها إشارة إلى التحريم المطلق، لأنه من المقررات الشرعية أنه إذا كان الضَّرر أكبر من النفع، فإن الحكم هو التحريم، وكذلك كل المحرَّمات ضررها أكبر من نفعها، ولا يكاد يوجد أمر يكون ضارًّا ضررًا محضًا، إذ إنه ما من ضار إلَّا فيه نفع، وما من شر إلَّا كان فيه بعض الخير، وما من نفع إلَّا تأشب به بعض الضرر، والعبرة في التحريم بالغالب فإن غلب النفع كانت الإباحة، وإن غلب الضرر كان التحريم، فإذا كانت آية {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ} قد صرَّحت بعلَّة التحريم فقد أومأت إلى التحريم المطلق، أمَّا آية {لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} فهي لم تصرِّح بالتحريم المطلق، بل أومأَت إلى التحريم المؤقَّت أو العلَل بكونه لأجل الصلاة، وإذا كان الترتيب في النزول لأجل التدرُّج في المنع، فالمنطق يوجب أن يكون ما فيه إشارة إلى التحريم المطلق مؤخَّرًا عمَّا فيه إشارة إلى التحريم المؤقَّت، والعلل بكونه لأجل الصلاة.

وقبل أن نترك الكلام في آيات الخمر عامة إلى الكلام في هذه الآية الخاصة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ}، لابدَّ أن نشير إلى معنى خاص بالآية الأولى وهو قوله تعالى: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا...}، فقد فهم بعض الناس أنها تبيح الخمر، ومن المقررات العلمية في الإسلام أن ما أباحه الله لَا يرد نص صريح بإباحته بل يكون متروكًا لَا نص فيه بالإباحة ولا بالمنع، ولذا يقول علماء الأصول أنه لَا يكون مباحًا، بل يكون في مرتبة العفو لأن ما فيه من أسباب التحريم قائم، ولكن لَا نص يمنع، فيكون محل عفو الله، إذ لا عقوبة من غير نص، فكيف تكون هذه الآية مشيرة بالإباحة؛ والجواب عن ذلك أن ذا الفهم المستقيم لَا يأخذ من الآية الأولى دلالة على الإباحة لَا بالإشارة ولا بالعبارة، بل إنها تدلُّ على التحريم بالإشارة، وإن لم تكن قريبة كالإشارة في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ}، ووجه الإشارة إلى التحريم في تلك الآية أن الله سبحانه وتعالى يمنُّ عليهم بنعمه وذكَّرها لهم، فذكر أنه سبحانه وتعالى رزقهم ثمرات النخيل والأعناب فاتَّخذوا منه سكرًا، ورزقًا حسنًا، أي أنهم أخذوا منه نوعين متقابلين: أحدهما مسكِّر والآخر شراب حسن وطعام جيِّد سمَّاه رزقًا حسنًا، فتسميته أحد النوعين بأنه رزق حسن معنى ذلك أن مقابله ليس رزقًا حسنًا، بل هو استعمال سيئ لما أنعم الله به، وفي ذلك بلا ريب إشارة إلى أنه مبغض غير مستحسن، ولا يقرُّ من يتَّخذه كذلك على

ما يفعل، فليس في هذه الآية إذن إشارة إلى الإباحة بل فيها إشارة إلى التحريم أو تصريح بعدم الاستحسان أو ما هو في حكم التصريح من حيث الدلالة اللغوية.

قال ابن كثير: عَنْ عُمَرَ أنَّه قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّن لَنا فِي الْخَمْرِ بَيانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ التِي فِي الْبَقَرَةِ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} فدُعي عُمَرُ فقرئتْ عَلَيْه، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزلَتِ الْآيَةُ التِي فِي النِّسَاءِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى}[النِّسَاءِ: ٤٣]، فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَلَّا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سكرانُ. فدُعي عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزلَتِ الْآيَةُ التِي فِي الْمَائِدَةِ. فَدَعِي عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}[الْمَائِدَةِ: ٩١]؟ قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا، انْتَهَيْنَا(١).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص٢٠٢: فَإِنْ قِيلَ: الْخَمْرُ قَبْلَ التَّحْرِيمِ وَبَعْدَهُ سَوَاءٌ، فَتَخْصِيصُهَا بِالْخُبْثِ بَعْدَ التَّحْرِيمِ تَرْجِيحٌ بِلَا مُرَجِّحٍ.

قِيلَ: لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ إنَّمَا حَرَّمَهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي تَحْرِيمَهَا، وَلَيْسَ مَعْنَى كَوْنِ الشَّيْءِ حَسَنًا وَسَيِّئًا مِثْلَ كَوْنِهِ أَسْوَدَ وَأَبْيَضَ، بَلْ هُوَ مِنْ جِنْسِ كَوْنِهِ نَافِعًا وَضَارًّا، وَمُلَائِمًا وَمُنَافِرًا، وَصِدِّيقًا وَعَدُوًّا، وَنَحْوَ هَذَا مِنْ الصِّفَاتِ الْقَائِمَةِ بِالْمَوْصُوفِ الَّتِي تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ، فَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ، ضَارًّا فِي وَقْتٍ وَالشَّيْءُ الضَّارُّ قَدْ يُتْرَكُ تَحْرِيمُهُ إذَا كَانَتْ مَفْسَدَةُ التَّحْرِيمِ أَرْجَحَ، كَمَا لَوْ حُرِّمَتْ الْخَمْرُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ النُّفُوسَ كَانَتْ قَدْ اعْتَادَتْهَا عَادَةً شَدِيدَةً، وَلَمْ يَكُنْ حَصَلَ عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ مَا يَقْبَلُونَ ذَلِكَ التَّحْرِيمَ، وَلَا كَانَ إيمَانُهُمْ وَدِينُهُمْ تَامًّا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ نَقْصٌ إلَّا مَا يَحْصُلُ بِشُرْبِ الْخَمْرِ مِنْ صَدِّهَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ؛ فَلِهَذَا وَقَعَ التَّدْرِيجُ فِي تَحْرِيمِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ أَوَّلًا فِيهَا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}[الْبَقَرَة: ٢١٩]، ثُمَّ أَنْزَلَ فِيهَا – لَمَّا شَرِبَهَا طَائِفَةٌ وَصَلَّوْا فَغَلِطَ الْإِمَامُ فِي الْقِرَاءَةِ – آيَةُ النَّهْيِ عَنْ الصَّلَاةِ سُكَارَى، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّحْرِيمِ.

وقال رحمه الله أيضاً في الإستقامة ج٢ص١٦٤: فقد تبيَّن ان أحُدُ وصفي السكر مَنْفَعَة فِي الاصل وَالْوَصْف الاخر اثم كَمَا قَالَ تَعَالَى عَن الْخمر: {قل فيهمَا إِثْم كَبِير وَمَنَافِع للنَّاس وإثمهما أكبر من نفعهما}[الْبَقَرَة: ٢١٩]، وَقد يقْتَرن باللَّذة مَا يمْنَع ان تكون مصلحَة اذا استعين بهَا على اثم وعدوان كَمَا يستعان بالأكل وَالشرب على الْكفْر والفسوق والعصيان وَقد يقْتَرن بِعَدَمِ الْعقل مَا يمْنَع ان يكون مفْسدَة اذا استعين بِهِ على ترك الاثم والعدوان.

١- صحيح: سنن أبي داود (٣٦٧٠)، والمسند (١/٥٣).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الترمذي (٣٢٥٥).

فالأصل حمد علم الْقلب وذوقه ولذته مَا لم يشْتَمل على مفْسدَة راجحة بل وذوق الْجِسْم ولذته مَعَ علم الْقلب وعقله لِأَن هَذِه كلهَا خيرات فَإِن الْعلم خير وذوق الْقلب خير واللذة بِهِ خير لَكِن قد يعارضها مَا يَجْعَلهَا شرًّا.

واذا لم يجْتَمع التَّمْيِيز واللَّذة بل اما صحو بِلَا لَذَّة اَوْ لَذَّة بِلَا صحو فقد يتَرَجَّح هَذَا تَارَة وَهَذَا تَارَة فَأَما الْمُؤْمِنُونَ فالصحو خير لَهُم فَإِن السكر يصدهم عَن ذكر الله وَعَن الصَّلَاة ويوقع بَينهم الْعَدَاوَة والبغضاء وَكَذَلِكَ الْعقل خير لَهُم لِأَنَّهُ يزيدهم ايمانًا.

وأمَّا الْكفَّار فزوال عقل الْكَافِر خير لَهُ وللمسلمين اما لَهُ فَلِأَنَّهُ لَا يصده عَن ذكر الله وَعَن الصَّلَاة بل يصدُّه عَن الْكفْر وَالْفِسْق واما للْمُسلمين فَلِأَن السكر يُوقع بَينهم الْعَدَاوَة والبغضاء فَيكون ذَلِك خيرًا للْمُؤْمِنين وَلَيْسَ هَذَا اباحة للخمر وَالسكر وَلكنه دفع لشر الشرين بأدناهما.

قال ابن العثيمين: {والميسر}: المراد به القمار؛ وهو كل كسب عن طريق المخاطرة، والمغالبة؛ وضابطه: أن يكون فيه بين غانم وغارم.

قال السعدي: وأما {الميسر}: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النَّرد، والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية، بعوض سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد، فلهذا رخَّص فيها الشارع.

قال ابن العثيمين: {قل}: أي لمن سأل عن الخمر، والميسر؛ {فيهما} خبر مقدَّم؛ والضمير عائد على الخمر، والميسر؛ {إثم} أي عقوبة؛ أو كان سببًا للعقوبة، كما قال تعالى: {ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} ويقال: (فلان آثم): أي مستحق للعقوبة.

وفي قوله تعالى: {كبير} قراءة: {كثير}؛ والفرق بينهما أن الكبر تعود إلى الكيفية؛ والكثرة تعود إلى الكمية؛ والمعنى أن فيهما إثمًا كثيرًا بحسب ما يتعامل بهما الإنسان؛ والإنسان المبتلى بذلك لا يكاد يقلع عنه؛ وهذا يستلزم تعدد الفعل منه؛ وتعدد الفعل يستلزم كثرة الإثم؛ أيضًا الإثم فيهما كبير – أي عظيم –؛ لأنهما يتضمَّنان مفاسد كثيرة في العقل والبدن، والاجتماع والسلوك.

قال القرطبي: إثم الخمر ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور، وزوال العقل الذي يعرف به ما يجب لخالقه، وتعطيل الصلوات والتعوُّق عن ذكر الله، إلى غير ذلك. روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبد فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليَّ، أو تشرب من هذه الخمر كأسًا، أو تقتل هذا الغلام. قال:

فاسقيني من هذه الخمر كأسًا، فسقته كأسًا. قال: زيدوني، فلم يرم([١])حتى وقع عليها وقتل النفس؛ فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر، إلَّا لَيوشك أن يخرج أحدهما صاحبه، وذكره أبو عمر في الاستيعاب([٢]). وروي أن الأعشى لما توجه إلى المدينة ليسلم فلقيه بعض المشركين في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمدًا ﷺ، فقالوا: لا تَصِلْ إليه، فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة؛ فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء؛ فقال: اصطناع المعروف واجب؛ فقيل له: إنه ينهى عن الزنى؛ فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرت شيخًا فلا أحتاج إليه؛ فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر؛ فقال: أمَّا هذا فإني لا أصبر عليه! فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلم يَصِل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات. وكان قيس بن عاصم المنقري شرَّابا لها في الجاهلية ثم حرَّمها على نفسه، وكان سبب ذلك أنه غمز عكنة([٣])ابنته وهو سكران، وسب أبويه، ورأى القمر فتكلم بشيء، وأعطى الخمَّار كثيرًا من ماله، فلما أفاق أخبر بذلك فحرَّمها على نفسه، وفيها يقول:

رأيت الخمر صالحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا ... ولا أشفى بها أبدا سقيما
ولا أعطي بها ثمنا حياتي ... ولا أدعو لها أبدا نديما
فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

قال أبو عمر: وروى ابن الأعرابي عن المفضل الضبي أن هذه الأبيات لأبي محجن الثقفي قالها في تركه الخمر، وهو القائل رضي الله عنه:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

وجلده عمر الحدَّ عليها مرارًا، ونفاه إلى جزيرة في البحر، فلحق بسعد فكتب إليه عمر أن يحبسه فحبسه، وكان أحد الشجعان البهم([٤])، فلما كان من أمره في حرب القادسية ما هو معروف حل قيوده وقال لا نجلدك على الخمر أبدًا. قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها أبدًا، فلم يشربها بعد ذلك. وفي رواية: قد كنت أشربها إذ يقام علي الحدّ وأطّهر منها، وأما إذ بهرجتني([٥])فو الله لا أشربها أبدًا. وذكر الهيثم بن عدي أنه أخبره من رأى قبر أبي محجن بأذربيجان، أو قال: في

١- يرم (بفتح الياء وكسر الراء من رام يريم): أي فلم يبرح.
٢- (قلت): قال الإمام الألباني ضعيف مرفوعًا، صحيح موقوفًا - (الأحاديث المختارة) (٣٢٠).
٣- العكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا.
٤- البهم: (بضم ففتح جمع البهمة): الفارس الذي لا يدرى من أين يؤتى له من شدَّة بأسه.
٥- بهرجتني: أي أهدرتني بإسقاط الحدِّ عني.

نواحي جرجان، وقد نبتت عليه ثلاث أصول كرم وقد طالت وأثمرت، وهي معروشة على قبره، ومكتوب على القبر (هذا قبر أبي محجن) قال: فجعلت أتعجب وأذكر قوله: إذا مت فادفني إلى جنب كرمة

ثم إن الشارب يصير ضحكة للعقلاء، فيلعب ببوله وعذرته، وربما يمسح وجهه، حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ورؤي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول له: أكرمك الله.

وأما القمار فيورث العداوة والبغضاء، لأنه أكل مال الغير بالباطل.

قال محمد رشيد رضا: وَإِنَّمَا كَانَ إِثْمُ الْخَمْرِ كَبِيرًا؛ لِأَنَّ مَضَرَّاتِهَا وَالتَّبِعَاتِ الَّتِي تَعْقُبُهَا كَبِيرَةٌ، وَالضَّرَرُ يَكُونُ فِي الْبَدَنِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالْمَالِ، وَيَكُونُ فِي التَّعَامُلِ وَارْتِبَاطِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَلَا يُوجَدُ إِثْمٌ مِنَ الْآثَامِ كَالْخَمْرِ يَدْخُلُ ضَرَرُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ وَمِنَ الْأَقْوَالِ، وَأَنْوَاعُ هَذَا الضَّرَرِ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ مَضَرَّاتِ الْخَمْرِ الصِّحِّيَّةِ إِفْسَادُ الْمَعِدَةِ وَالْإِقْهَاءِ – فَقْدُ شَهْوَةِ الطَّعَامِ – وَتَغْيِيرُ الْخَلْقِ، فَالسُّكَارَى يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ التَّشَوُّهُ، فَتَجْحَظُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَمْتَقِعُ سَحْنَتُهُمْ، وَتَعْظُمُ بُطُونُهُمْ؛ بَلْ قَالَ أَحَدُ أَطِبَّاءِ الْأَلْمَانِ: إِنَّ السَّكُورَ – كَثِيرُ السُّكْرِ – ابْنَ الْأَرْبَعِينَ يَكُونُ نَسِيجُ جِسْمِهِ كَنَسِيجِ جِسْمِ ابْنِ السِّتِّينَ، وَيَكُونُ كَالْهَرِمِ جِسْمًا وَعَقْلًا، وَمِنْهَا مَرَضُ الْكَبِدِ وَالْكُلَى، وَدَاءُ السُّلِّ الَّذِي يَفْتِكُ فِي الْبِلَادِ الْأُورُبِّيَّةِ فَتْكًا ذَرِيعًا عَلَى عِنَايَةِ أَهْلِهَا بِقَوَانِينِ الصِّحَّةِ، وَلَكِنْ لَا وِقَايَةَ مِنْ شُرُورِ السُّكْرِ إِلَّا بِتَرْكِهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ نَحْوَ نِصْفِ الْوَفَيَّاتِ فِي بَعْضِ بِلَادِ أُورُبَّا بِدَاءِ السُّلِّ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الدَّاءُ مَعْرُوفًا أَوْ مُنْتَشِرًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ – مِصْرَ – قَبْلَ شُيُوعِ السُّكْرِ فِيهَا، فَهُوَ مِنَ الْأَدْوَاءِ الَّتِي حَمَلَهَا إِلَيْهَا الْأُورُبِّيُّونَ، وَقَدْ كَثُرَ كَثْرَةً فَاحِشَةً فِي مِصْرَ عَلَى أَنَّ جَوَّهَا لَا يُسَاعِدُ عَلَى انْتِشَارِهِ.

وَأَمَّا ضَرَرُ الْخَمْرِ فِي الْعَقْلِ فَهُوَ مُسَلَّمٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَيْسَ ضَرَرُهُ فِيهِ خَاصًّا بِمَا يَكُونُ مِنْ فَسَادِ التَّصَوُّرِ وَالْإِدْرَاكِ عِنْدَ السُّكْرِ؛ بَلِ السُّكْرُ يُضْعِفُ الْقُوَّةَ الْعَاقِلَةَ، وَكَثِيرًا مَا يَنْتَهِي بِالْجُنُونِ، وَلِأَحَدِ أَطِبَّاءِ أَلْمَانْيَا كَلِمَةٌ اشْتُهِرَتْ كَالْأَمْثَالِ وَهِيَ (اقْفِلُوا لِي نِصْفَ الْحَانَاتِ أَضْمَنْ لَكُمُ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْ نِصْفِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ وَالْبِيمَارِسْتَانَاتِ وَالْمَلَاجِئِ – التَّكَايَا – وَالسُّجُونِ).

وَقَدْ قَالَ الْأَطِبَّاءُ: إِنَّ الْمُسْكِرَ لَا يَتَحَوَّلُ إِلَى دَمٍ كَمَا تَتَحَوَّلُ سَائِرُ الْأَغْذِيَةِ بَعْدَ الْهَضْمِ، بَلْ يَبْقَى عَلَى حَالِهِ، فَيُزَاحِمُ الدَّمَ فِي مَجَارِيهِ فَتُسْرِعُ حَرَكَةُ الدَّمِ، وَتَخْتَلُّ مُوَازَنَةُ الْجِسْمِ، وَتَتَعَطَّلُ وَظَائِفُ الْأَعْضَاءِ أَوْ تَضْعُفُ، وَتَخْرُجُ عَنْ وَضْعِهَا الطَّبِيعِيِّ الْمُعْتَدِلِ.

فَمِنْ تَأْثِيرِهِ فِي اللِّسَانِ إِضْعَافُ حَاسَّةِ الذَّوْقِ، وَفِي الْحَلْقِ الِالْتِهَابُ، وَفِي الْمَعِدَةِ تَرْشِيحُ الْعُصَارَةِ الْفَاعِلَةِ فِي الْهَضْمِ حَتَّى يَغْلُظَ نَسِيجُهَا وَتَضْعُفَ حَرَكَتُهَا، وَقَدْ يُحْدِثُ فِيهَا احْتِقَانًا وَالْتِهَابًا، وَفِي الْأَمْعَاءِ التَّقَرُّحُ، وَفِي الْكَبِدِ تَمْدِيدُهُ وَتَوْلِيدُ الشَّحْمِ الَّذِي يُضْعِفُ عَمَلَهُ، وَكُلُّ هَذَا يَتَعَلَّقُ بِمَا يُسَمُّونَهُ الْجِهَازَ الْهَضْمِيَّ.

وَمِنْ تَأْثِيرِهِ فِي الدَّمِ أَنَّهُ بِمُمَازَجَتِهِ لَهُ يَعُوقُ دَوْرَتَهُ وَقَدْ يُوقِفُهَا أَحْيَانًا فَيَمُوتُ السَّكُورُ فَجْأَةً، وَيُضْعِفُ مُرُونَةَ الشَّرَايِينِ فَتَتَمَدَّدُ وَتَغْلُظُ حَتَّى تَنْسَدَّ أَحْيَانًا فَيَفْسُدُ الدَّمُ، وَلَوْ فِي بَعْضِ الْأَعْضَاءِ، فَتَكُونُ الْغَنْغَرِينَا الَّتِي تَقْضِي بِقَطْعِ الْعُضْوِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ لِئَلَّا يَسْرِيَ الْفَسَادُ إِلَى الْجَسَدِ كُلِّهِ فَيَكُونُ هَالِكًا، وَتَصَلُّبُ الشَّرَايِينِ يُسْرِعُ الشَّيْخُوخَةَ وَالْهَرَمَ.

وَمِنْ تَأْثِيرِهِ فِي جِهَازِ التَّنَفُّسِ إِضْعَافُ مُرُونَةِ الْحَنْجَرَةِ، وَتَهْيِيجُ شُعَبِ التَّنَفُّسِ، وَأَهْوَنُ ضَرَرِ ذَلِكَ بُحَّةُ الصَّوْتِ وَالسُّعَالُ، وَأَعْظَمُهَا تَدَرُّنُ الرِّئَةِ؛ أَيِ: السُّلُّ الْفَاتِكُ بِالشُّبَّانِ وَالْقَاطِعُ لِجَمِيعِ لَذَّاتِ الْإِنْسَانِ.

وَأَمَّا تَأْثِيرُهُ فِي الْمَجْمُوعِ الْعَصَبِيِّ فَهُوَ الَّذِي يُولِدُ الْجُنُونَ وَيُهْلِكُ النَّسْلَ، فَوَلَدُ السَّكُورِ لَا يَكُونُ نَجِيبًا، وَوَلَدُ وَلَدِهِ يَكُونُ شَرًّا مِنْ وَلَدِهِ وَأَضْعَفَ بَدَنًا وَعَقْلًا، وَقَدْ يُؤَدِّي تَسَلْسُلُ هَذَا الضَّعْفِ إِلَى انْقِطَاعِ النَّسْلِ أَلْبَتَّةَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا جَرَى الْأَبْنَاءُ عَلَى طَرِيقِ الْآبَاءِ كَمَا هُوَ الْغَالِبُ.

وَمِنْ مَضَرَّاتِ الْخَمْرِ فِي التَّعَامُلِ وُقُوعُ النِّزَاعِ وَالْخِصَامِ بَيْنَ السُّكَارَى بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ يُعَاشِرُهُمْ وَيُعَامِلُهُمْ، تُثِيرُ ذَلِكَ أَدْنَى بَادِرَةٍ مِنْ أَحَدِهِمْ، فَيُوغِلُونَ فِيهِ حَتَّى يَكُونَ عَدَاوَةٌ وَبَغْضَاءُ. وَهَذِهِ الْعِلَّةُ فِي التَّحْرِيمِ مِنْ أَكْبَرِ الْعِلَلِ فِي نَظَرِ الدِّينِ؛ وَلِذَلِكَ وَرَدَ بِهَا النَّصُّ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ}[المائدة: ٩١].

وَمِنْهَا إِفْشَاءُ السِّرِّ، وَهُوَ ضَرَرٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مَضَرَّاتٌ كَثِيرَةٌ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ السِّرُّ يَتَعَلَّقُ بِالْحُكُومَةِ وَسِيَاسَةِ الدَّوْلَةِ وَمَصَالِحِهَا الْعَسْكَرِيَّةِ، وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُ الْجَوَاسِيسُ.

وَمِنْهَا الْخِسَّةُ وَالْمَهَانَةُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ السَّكْرَانَ يَكُونُ فِي هَيْئَتِهِ وَكَلَامِهِ وَحَرَكَاتِهِ بِحَيْثُ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَسْتَخِفُّ بِهِ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ، حَتَّى الصِّبْيَانُ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ أَقَلَّ مِنْهُمْ عَقْلًا، وَأَبْعَدَ عَنِ التَّوَازُنِ فِي حَرَكَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَالضَّبْطِ فِي أَفْكَارِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَيَنْقُلُونَ عَنِ السُّكَارَى مِنَ النَّوَادِرِ الْغَرِيبَةِ مَا يَكْفِي فِي رَدْعِ مَنْ لَهُ شَرَفٌ وَعَقْلٌ عَنِ الْخَمْرِ، فَيُرَاجَعُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ وَالْمُحَاضَرَةِ، وَمِمَّا ذُكِرَ عَنِ الْمُحَدِّثِينَ: أَنَّ ابْنَ أَبِي الدُّنْيَا مَرَّ بِسَكْرَانَ وَهُوَ يَبُولُ فِي يَدِهِ وَيَمْسَحُ بِهِ وَجْهَهُ كَهَيْئَةِ الْمُتَوَضِّئِ، وَيَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْإِسْلَامَ نُورًا وَالْمَاءَ طَهُورًا، وَعَرَضَ بَعْضُهُمْ شُرْبَ الْخَمْرِ عَلَى أَحَدِ فُصَحَاءِ الْمَجَانِينِ فَقَالَ لَهُ الْمَجْنُونُ: أَنْتَ تَشْرَبُ لِتَكُونَ مِثْلِي، فَأَنَا أَشْرَبُ لِأَكُونَ مِثْلَ مَنْ؟ وَمِنْهَا أَنَّ جَرِيمَةَ السُّكْرِ تُغْرِي بِجَمِيعِ الْجَرَائِمِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلسَّكْرَانِ وَتُجَرِّئُ عَلَيْهَا، وَلَا سِيَّمَا الزِّنَا وَالْقَتْلُ، وَبَلَغَنِي أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ إِلَى مَوَاخِيرِ الزِّنَا لَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهَا إِلَّا وَهُمْ سُكَارَى؛ لِأَنَّ غَيْرَ السَّكْرَانِ تَنْفِرُ نَفْسُهُ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ الْمُبْتَذَلَةِ مَهْمَا تَكُنْ خَسِيسَةً؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْخَمْرُ أُمَّ الْخَبَائِثِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ، فَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَضَرَّاتِهَا فِي النَّفْسِ مِنْ حَيْثُ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ.

وَمِنْ مَضَرَّاتِهَا الْمَالِيَّةِ أَنَّهَا تَسْتَهْلِكُ الْمَالَ وَتُفْنِي الثَّرْوَةَ كَمَا قَالَ عَنْتَرَةُ:

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ

وَلَمْ تَكُنِ الْخَمْرُ مُذْهِبَةً لِلثَّرْوَةِ فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمِنَةِ كَزَمَانِنَا هَذَا، وَلَا فِي مَكَانٍ كَهَذِهِ الْبِلَادِ؛ فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْخَمْرِ كَثُرَتْ فِيهَا، وَمِنْهَا مَا هُوَ غَالِي الثَّمَنِ جِدًّا، ثُمَّ إِنَّ الْمُتَّجِرِينَ بِهَا كَثِيرًا مَا يَقْرِنُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقِيَادَةِ إِلَى الزِّنَا، وَفِي مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بُيُوتٌ لِلْفِسْقِ تَجْمَعُ بَيْنَ الْخَمْرِ وَالنِّسَاءِ وَالرَّاقِصَاتِ وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَدْخُلُهَا الرِّجَالُ زَرَافَاتٍ وَأَفْذَاذًا، وَيَتَبَارَوْنَ ثَمَّ فِي النَّفَقَةِ حَتَّى لَيَخْسَرَ الرَّجُلُ فِي لَيْلَتِهِ الْمِئِينَ وَالْأُلُوفَ. وَإِنَّ الْخَمَّارَ الرُّومِيَّ الْفَقِيرَ لَيَفْتَحُ فِي إِحْدَى الْقُرَى وَالْمَزَارِعِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ حَانَةً صَغِيرَةً فَلَا تَزَالُ تَتَّسِعُ بِمَا تَبْتَلِعُ مِنْ ثَرْوَةِ الْأَهَالِي وَغَلَّاتِ أَرْضِهِمْ حَتَّى تَبْتَلِعَ الْقَرْيَةَ كُلَّهَا، فَتَكُونُ أَمْوَالُهَا وَغَلَّاتُهَا وَقُطْنُهَا وَتِجَارَتُهَا فِي يَدِ (الْخَوَاجَةِ) صَاحِبِ الْحَانَةِ.

وَقَدْ عَمَّ الْبَلَاءُ بِالْخَمْرِ هَذَا الْقُطْرَ بِمَا لِأَهْلِهِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِلتَّقْلِيدِ حَتَّى قِيلَ: إِنَّ مَا يُصْرَفُ فِي مِصْرَ عَلَى الْخَمْرِ يَعْدِلُ مَا يُصْرَفُ فِي فَرَنْسَا كُلِّهَا.

وَمِنْ مَضَرَّاتِ الْخَمْرِ فِي الدِّينِ مِنْ حَيْثُ رُوحِهِ وَوِجْهَةِ الْعَبْدِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنَّ السَّكْرَانَ لَا تَتَأَتَّى مِنْهُ عِبَادَةٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَلَا سِيَّمَا الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا: {وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ}، وَسَيَأْتِي إِيضَاحُ هَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَهَذَا شَيْءٌ مِنَ الْبَيَانِ لِكَوْنِ إِثْمِ الْخَمْرِ كَبِيرًا بِمَعْنَى أَنَّ كِبَرَهُ بِكِبَرِ ضَرَرِهِ، أَوْ كَوْنِهِ كَثِيرًا لِكَثْرَةِ أَنْوَاعِهِ، وَقَدْ يَشْتَبِهُ بَعْضُ الْمُبْتَلَيْنَ بِشُرْبِ الْخَمْرِ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَضَرَّاتِ الصِّحِّيَّةِ، أَوْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِمُ التَّوَقِّي مِنْهَا، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا يَتَوَهَّمُونَ؛ فَإِنَّ الْمِزَاجَ الَّذِي يَتَحَمَّلُ سُمَّ الْخَمْرِ – الَّذِي يُسَمَّى الْكُحُولَ أَوِ الْغُولَ – زَمَنًا طَوِيلًا بِحَيْثُ يَغْتَرُّ النَّاسُ بِحُسْنِ صِحَّةِ صَاحِبِهِ قَلِيلٌ فِي النَّاسِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَلَيْنَ يَقِيسُونَ عَلَى النَّادِرِ وَيَجْهَلُونَ الْأَصْلَ الْغَالِبَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مُدْمِنُ السُّكْرِ مِنْ ضَرَرِهِ فِي جِسْمِهِ أَوْ عَقْلِهِ وَمَدَارِكِهِ أَوْ وَلَدِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، بَلْ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي الْغَالِبِ. وَأَمَّا الْمَضَرَّاتُ الْمَعْنَوِيَّةُ فَيَقِلُّ فِي مُعْتَادِي السُّكْرِ مَنْ يَحْفِلُ بِهَا، عَلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَجَنُّبُهَا.

وَأَمَّا كَوْنُ إِثْمِ الْمَيْسِرِ كَبِيرًا أَوْ كَثِيرًا فَقَدْ جَاءَ فِيهِ مَا جَاءَ فِي الْخَمْرِ مِنْ كَوْنِهِ يُورِثُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَيَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي مَيْسِرِ الْعَرَبِ، وَفِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقِمَارِ الْمَعْرُوفَةِ فِي عَصْرِنَا إِلَّا مَا يُسَمُّونَهُ (الْيَانَصِيبَ) فَإِنَّهُ عَلَى كَوْنِهِ مَيْسِرًا لَا شَكَّ فِيهِ لَا يَظْهَرُ جَمِيعُ مَفَاسِدِهِ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِهِ. وَمِنْ مَضَرَّاتِ الْمَيْسِرِ مَا نَبَّهَ إِلَيْهِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ – وَلَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ – وَهُوَ إِفْسَادُ التَّرْبِيَةِ بِتَعْوِيدِ النَّفْسِ الْكَسَلَ وَانْتِظَارَ الرِّزْقِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْوَهْمِيَّةِ، وَإِضْعَافِ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، بِتَرْكِ الْأَعْمَالِ الْمُفِيدَةِ فِي طُرُقِ الْكَسْبِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَإِهْمَالِ الْيَاسِرِينَ (الْمُقَامِرِينَ) لِلزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ الَّتِي هِيَ أَرْكَانُ الْعُمْرَانِ.

وَمِنْهَا – وَهُوَ أَشْهَرُهَا – تَخْرِيبُ الْبُيُوتِ فَجْأَةً بِالِانْتِقَالِ مِنَ الْغِنَى إِلَى الْفَقْرِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَكَمْ مِنْ عَشِيرَةٍ كَبِيرَةٍ نَشَأَتْ فِي الْغِنَى وَالْعِزِّ، وَانْحَصَرَتْ ثَرْوَتُهَا فِي رَجُلٍ أَضَاعَهَا عَلَيْهَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَصْبَحَتْ غَنِيَّةً وَأَمْسَتْ فَقِيرَةً لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى أَنْ تَعِيشَ عَلَى مَا تَعَوَّدَتْ مِنَ السَّعَةِ وَلَا مَا دُونَ ذَلِكَ.

قال ابن العثيمين: {ومنافع للناس}؛ جمع منفعة؛ وهي من صيغة منتهى الجموع التي تدلُّ على الكثرة؛ ففيهما منافع كثيرة عظيمة؛ فإن قلت: كيف قال الله عز وجل: {منافع للناس} بهذا الجمع الكثير؟ أليس هذا مما يستلزم أن يقبل الناس عليهما؛ لأن الإثم ذكره مفردًا – وإن كان قد وصف بالكبر، أو بالكثرة –؛ لكن المنافع ذكرت بالجمع؟

فالجواب: أن يقال: إنه مع كثرة منافعهما فإن إثمهما أكبر، وأعظم؛ لأنه لو كانت منفعة واحدة لم يستغرب كون الإثم أكبر؛ لكن حتى وإن تعددت المنافع، وكثرت فإن الإثم أكبر، وأعظم؛ وتأمل قوله تعالى: {منافع للناس}؛ لأنها منافع ماديَّة بحتة تصلح للناس من حيث هم أناس؛ وليست منافع ذات خير ينتفع بها المؤمنون.

قال القرطبي: {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}: أما في الخمر فربح التجارة، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام برخص فيبيعونها في الحجاز بربح، وكانوا لا يرون المماسكة فيها، فيشتري طالب الخمر الخمر بالثمن الغالي. هذا أصح ما قيل في منفعتها، وقد قيل في منافعها: إنها تهضم الطعام، وتقوي الضعف، وتعين على الباه، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان، وتصفي اللون، إلى غير ذلك من اللذة بها. وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا ما ينهنهنا[1] اللقاء

إلى غير ذلك من أفراحها. وقال آخر[2]:

فإذا شربت فإنني ... رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنني ... رب الشويهة والبعير

ومنفعة الميسر مصير الشيء إلى الإنسان في القمار بغير كَدٍّ ولا تعب، فكانوا يشترون الجزور ويضربون بسهامهم، فمن خرج سهمه أخذ نصيبه من اللحم ولا يكون عليه من الثمن شيء، ومن بقي سهمه آخر كان عليه ثمن الجزور كله ولا يكون له من اللحم شيء. وقيل: منفعته التوسعة على المحاويج، فإن من قمر منهم كان لا يأكل من الجزور وكان يفرقه في المحتاجين.

قال السعدي: {وإثمهما أكبر من نفعهما}: فأخبر أن إثمهما ومضارّهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصدِّ عن ذكر الله، وعن الصلاة، والعداوة، والبغضاء – أكبر مما يظنونه من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر،

١- النهنهة: الكف والمنع.

٢- هو المنخَّل اليشكري.

وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس، عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجرًا للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لمَّا كانوا قد ألفوهما، وصعب التحتيم بتركهما أوَّل وهلة، قدَّم هذه الآية، مقدِّمة للتَّحريم، الذي ذكره في قوله: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان} إلى قوله: {منتهون} وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت، قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٢ص٢٣٠: وَمِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ {الْمَيْسِرَ} لَمْ يُحَرَّمْ لِمُجَرَّدِ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ – وَإِنْ كَانَ أَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ مُحَرَّمًا، وَلَوْ تَجَرَّدَ عَنْ الْمَيْسِرِ، فَكَيْفَ إذَا كَانَ فِي الْمَيْسِرِ؟! بَلْ فِي الْمَيْسِرِ عِلَّةٌ أُخْرَى غَيْرُ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، كَمَا فِي الْخَمْرِ: أَنَّ اللَّهَ قَرَنَ بَيْنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَجَعَلَ الْعِلَّةَ فِي تَحْرِيمِ هَذَا هِيَ الْعِلَّةَ فِي تَحْرِيمِ هَذَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخَمْرَ لَمْ تُحَرَّمْ لِمُجَرَّدِ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَإِنْ كَانَ أَكْلُ ثَمَنِهَا مِنْ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، فَكَذَلِكَ الْمَيْسِرُ. يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ أَوَّلَ مَا سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}، والْ{مَنَافِعُ} الَّتِي كَانَتْ، قِيلَ هِيَ الْمَالُ وَقِيلَ: هِيَ اللَّذَّةُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخَمْرَ كَانَ فِيهَا كِلَا هَذَيْنِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَنْتَفِعُونَ بِثَمَنِهَا وَالتِّجَارَةِ فِيهَا، كَمَا كَانُوا يَنْتَفِعُونَ بِاللَّذَّةِ الَّتِي فِي شُرْبِهَا، ثُمَّ إنَّهُ ﷺ لَمَّا حَرَّمَ الْخَمْرَ ((لَعَنَ الْخَمْرَ وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُشْتَرِيَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَشَارِبَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا([1]))). وَكَذَلِكَ {الْمَيْسِرُ} كَانَتْ النُّفُوسُ تَنْتَفِعُ بِمَا تُحَصِّلُهُ بِهِ مِنْ الْمَالِ، وَمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ لَذَّةِ اللَّعِبِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}؛ لِأَنَّ الْخَسَارَةَ فِي الْمُقَامَرَةِ أَكْثَرُ، وَالْأَلَمَ وَالْمَضَرَّةَ فِي الْمُلَاعَبَةِ أَكْثَرُ. وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ لِأَكْثَرِ النَّاسِ بِالْمَيْسِرِ إنَّمَا هُوَ الِانْشِرَاحُ بِالْمُلَاعَبَةِ وَالْمُغَالَبَةِ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ لِأَكْثَرِ النَّاسِ بِالْخَمْرِ إنَّمَا هُوَ مَا فِيهَا مِنْ لَذَّةِ الشُّرْبِ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ الْعِوَضَ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ أَخْذُ مَالٍ بِلَا مَنْفَعَةٍ فِيهِ، فَهُوَ أَكْلُ مَالٍ بِالْبَاطِلِ، كَمَا حَرَّمَ ثَمَنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، فَكَيْفَ تُجْعَلُ الْمَفْسَدَةُ الْمَالِيَّةُ هِيَ حِكْمَةَ النَّهْيِ فَقَطْ، وَهِيَ تَابِعَةٌ، وَتُتْرَكُ الْمَفْسَدَةُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ فَسَادُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ؟!

والْمَالُ مَادَّةُ الْبَدَنِ، وَالْبَدَنُ تَابِعُ الْقَلْبِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَلَا إنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ بِهَا سَائِرُ الْجَسَدِ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ بِهَا سَائِرُ الْجَسَدِ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ([2]))). وَالْقَلْبُ هُوَ مَحَلُّ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقِيقَةُ الصَّلَاةِ. فَأَعْظَمُ الْفَسَادِ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ إفْسَادُ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ مَلِكُ الْبَدَنِ: أَنْ يُصَدَّ عَمَّا خُلِقَ لَهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ، وَيَدْخُلَ فِيمَا يُفْسِدُ مِنْ التَّعَادِي وَالتَّبَاغُضِ. وَالصَّلَاةُ حَقُّ الْحَقِّ. وَالتَّحَابُّ وَالْمُوَالَاةُ حَقُّ الْخَلْقِ. وَأَيْنَ هَذَا مِنْ أَكْلِ مَالٍ بِالْبَاطِلِ؟!

١- أحمد ٢/٩٧ وأبو داود في الأشربة (٣٦٧٤).
- (قلت): صححه الإمام الألباني في غاية المرام (٦٠).
٢- البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩/١٠٧).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَصْلَحَةَ الْبَدَنِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمَالِ، وَمَصْلَحَةَ الْقَلْبِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى مَصْلَحَةِ الْبَدَنِ. وَإِنَّمَا حُرْمَةُ الْمَالِ لِأَنَّهُ مَادَّةُ الْبَدَنِ؛ وَلِهَذَا قَدَّمَ الْفُقَهَاءُ فِي كُتُبِهِمْ رُبْعَ الْعِبَادَاتِ عَلَى رُبْعِ الْمُعَامَلَاتِ، وَبِهِمَا تَتِمُّ مَصْلَحَةُ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ.

وقال رحمه الله أيضًا في الحسبة ج١ص٢١: وَإِذَا اجْتَمَعَتْ الْمَفَاسِدُ الْمَحْضَةُ، فَإِنْ أَمْكَنَ دَرْؤُهَا دُرِئَتْ، وَإِنْ تَعَذَّرَ دَرْءُ الْجَمِيعِ دُرِئَ الْأَفْسَدُ فَالْأَفْسَدُ، وَالْأَرْذَلُ فَالْأَرْذَلُ، وَإِنْ تَسَاوَتْ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ، وَقَدْ يَتَخَيَّرُ، وَقَدْ يَخْتَلِفُ التَّسَاوِي وَالتَّفَاوُتُ. وَجِمَاعُ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ فِيمَا إذَا تَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ، وَالْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، أَوْ تَزَاحَمَتْ، فَإِنَّهُ يَجِبُ تَرْجِيحُ الرَّاجِحِ مِنْهَا فِيمَا إذَا ازْدَحَمَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ، فَيُنْظَرُ فِي الْمُعَارِضِ لَهُ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنْ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنْ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ، بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ، لَكِنَّ اعْتِبَارَ مَقَادِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ هُوَ بِمِيزَانِ الشَّرِيعَةِ فَمَتَى قُدِّرَ لِإِنْسَانٍ عَلَى اتِّبَاعِ النُّصُوصِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا، وَإِلَّا اجْتَهَدَ رَأْيَهُ لِمَعْرِفَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ، وَعَلَى هَذَا إذَا كَانَ الشَّخْصُ أَوْ الطَّائِفَةُ جَامِعِينَ بَيْنَ مَعْرُوفٍ وَمُنْكَرٍ بِحَيْثُ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمَا، بَلْ إمَّا أَنْ يَفْعَلُوهُمَا جَمِيعًا، أَوْ يَتْرُكُوهُمَا جَمِيعًا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُؤْمَرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَا أَنْ يُنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ، بَلْ يُنْظَرُ ، فَإِنْ كَانَ الْمَعْرُوفُ أَكْثَرَ أَمَرَ بِهِ، وَإِنْ اسْتَلْزَمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ الْمُنْكَرِ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ يَسْتَلْزِمُ تَفْوِيتَ مَعْرُوفٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، بَلْ يَكُونُ النَّهْيُ حِينَئِذٍ مِنْ بَابِ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّعْيِ فِي زَوَالِ طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَزَوَالِ فِعْلِ الْحَسَنَاتِ، وَإِنْ كَانَ الْمُنْكَرُ أَغْلَبَ نَهَى عَنْهُ وَإِنْ اسْتَلْزَمَ فَوَاتَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ الْمَعْرُوفِ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْمُنْكَرِ الزَّائِدِ عَلَيْهِ أَمْرًا بِمُنْكَرٍ وَسَعْيًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَإِنْ تَكَافَأَ الْمَعْرُوفُ وَالْمُنْكَرُ الْمُتَلَازِمَانِ لَمْ يُؤْمَرْ بِهِمَا وَلَمْ يُنْهَ عَنْهُمَا. فَتَارَةً يَصْلُحُ الْأَمْرُ، وَتَارَةً يَصْلُحُ النَّهْيُ، وَتَارَةً لَا يَصْلُحُ لَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ. وَإِذَا اشْتَبَهَ الْأَمْرُ اسْتَبَانَ الْمُؤْمِنُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، فَلَا يُقْدِمُ عَلَى الطَّاعَةِ إلَّا بِعِلْمٍ وَنِيَّةٍ، وَإِذَا تَرَكَهَا كَانَ عَاصِيًا، فَتَرْكُ الْأَمْرِ الْوَاجِبِ مَعْصِيَةٌ، وَفِعْلُ مَا نُهِيَ عَنْهُ مِنْ الْأَمْرِ مَعْصِيَةٌ وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ.

قال ابن العثيمين: {ويسألونك ماذا ينفقون}؛ هذا هو السؤال الثاني في الآية – أي: أي شيء ينفقونه –؛ وفي إعرابها وجهان؛ الأول: أن {ماذا} مفعول مقدم لـ{ينفقون}؛ وعلى هذا فلا يحتاج إلى تقدير ضمير المفعول في: {ينفقون}؛ والثاني: أن {ما} اسم استفهام مبتدأ، و{ذا} اسم موصول بمعنى (الذي) خبر؛ وجملة: {ينفقون} صلة الموصول؛ والعائد محذوف؛ والتقدير: ماذا ينفقونه.

{قل العفو} فيها قراءتان: النصب، والرفع؛ فالرفع على تقدير {ما} اسم استفهام مبتدأ؛ و{ذا} اسم موصول خبرًا؛ فيكون {العفو} خبرًا لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو العفو؛ وأما النصب فعلى تقدير {ماذا} مفعولًا مقدَّمًا؛ و {العفو} منصوب بفعل محذوف؛ والتقدير: أنفقوا العفو؛ وإنما قلنا: الرفع، والنصب مبني على إعراب الجملة التي قبلها؛ لأن الجواب مبني

على السؤال؛ فهنا كلمة: {ما} هذه – الموصولية، أو الاستفهامية – هي التي فسّرت بكلمة: {العفو}؛ فإذا كانت تفسيرًا لها كان لها حكمها في الإعراب؛ إن نصبت {ماذا} فانصب {العفو}؛ وإن رفعت {ماذا} فارفع {العفو}.

قال السعدي: وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسَّر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسِّر من أموالهم، الذي لا تتعلَّق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق تمرة.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلِّفهم ما يشقُّ عليهم. ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا، أو تكليفًا لنا بما يشقُّ، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا ولإخواننا فيستحقُّ على ذلك أتمَّ الحمد.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنّة ج٨ص٥٠١: وَفِيهِ أَيْضًا، مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْفَضْلَ بِالصَّدَقَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ أَدَاءِ الْوَاجِبِ مِنَ الْمُعَاوَضَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}[سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢١٩] فَمَنْ عَلَيْهِ دُيُونٌ مِنْ أَثْمَانٍ وَقَرْضٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا يُقَدِّمُ الصَّدَقَةَ عَلَى قَضَاءِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهَلْ تُرَدُّ صَدَقَتُهُ عَلَى قَوْلَيْنِ مَعْرُوفَيْنِ لِلْفُقَهَاءِ فَهَذِهِ الْآيَةُ يَحْتَجُّ بِهَا مَنْ تُرَدُّ صَدَقَتُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَثْنَى عَلَى مَنْ آتَى مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى فَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ تُجْزَى، فَعَلَيْهِ أَنْ يَجْزِيَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يُؤْتِيَ مَالَهُ يَتَزَكَّى، فَإِذَا آتَى مَالَهُ يَتَزَكَّى قَبْلَ أَنْ يَجْزِيَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مَمْدُوحًا، فَيَكُونُ عَمَلُهُ مَرْدُودًا لِقَوْلِهِ ﷺ: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ([1]))).

قال البغوي: أَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي، أَنَا أَبُو طَاهِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ محمد بن محمش الزِّيَادِيُّ، أَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَفْصٍ التَّاجِرُ، أَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْكُوفِيُّ أَنَا وَكِيعٌ عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ((خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ([2]))).

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَطِيبُ أَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَحْمَدَ الْخَلَّالُ، أَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَصَمُّ أَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَخْبَرَنَا الشَّافِعِيُّ، أَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا

١– رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٨١٨).

٢– إسناده صحيح. إبراهيم الكوفي فمن دونه ثقات، وقد توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، وكيع هو ابن الجراح، والأعمش هو سليمان بن مهران، أبو صالح اسمه ذكوان. وهو في شرح السنة (١٦٦٨) بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري ٥٣٥٥ وأحمد (٢/ ٤٧٦ و٥٢٤)، والبيهقي (٧/ ٤٦٦ و٤٧١) من طرق عن الأعمش بهذا الإسناد.

– وأخرجه البخاري ١٤٢٦ و٥٣٥٦ والنسائي (٥/ ٦٩)، وأحمد (٢/ ٢٧٨ و٤٠٢)، وابن حبان (٣٣٦٣ و٤٢٤٢)، والبيهقي (٤/ ١٨٠ و٤٧٠)، من طرق من حديث أبي هريرة.

رَسُولَ اللَّهِ عِنْدِي دِينَارٌ، قَالَ ﷺ: ((أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ))، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ ﷺ: ((أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ))، قَالَ: عِنْدِي آخر، قَالَ ﷺ: ((أَنْفِقْهُ عَلَى أَهْلِكَ))، قَالَ: عِنْدِي آخر، قَالَ ﷺ: ((أَنْفِقْهُ عَلَى خَادِمِكَ))، قَالَ: عِنْدِي آخر، قَالَ ﷺ: ((أَنْتَ أَعْلَمُ([1])).

قال السعدي: ولمَّا بيَّن تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: {كذلك يبيِّن الله لكم الآيات}: أي الدَّالَّات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان.

قال ابن العثيمين: {كذلك يبيِّن الله لكم الآيات}؛ المشار إليه ما سبق من بيان حكم الخمر والميسر، وبيان ما ينفق؛ أي: مثل ذلك البيان يبيِّن الله؛ و(البيان) بمعنى الإظهار؛ يقال: بيَّنته، فتبيَّن – أي ظهر –؛ و{الآيات}: جمع آية؛ وهي العلامة المعيَّنة لمعلومها؛ والمعنى: أن الله يبيِّن لعباده الأحكام الشرعية بيانًا واضحًا.

{لعلكم تتفكرون}؛ ال{تفكر} إعمال الفكر للوصول إلى الغاية؛ و{لعل} للتعليل؛ واسمها: الكاف؛ وخبرها: جملة: {تتفكرون}.

{في الدنيا والآخرة} متعلّق بـ{تتفكرون}: أي في شؤونهما وأحوالهما.

قال السعدي: أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره، فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضًا لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها وأنها دار الجزاء فتعمروها.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٣ص٣٣٢: فَيَتَفَكَّرُونَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَهَا لَهُمْ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى تَوْحِيدِهِ، وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَالْعِلْمِ بِلِقَائِهِ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَانْقِضَائِهَا، وَاضْمِحْلَالِهَا وَآفَاتِهَا، وَالْآخِرَةِ وَدَوَامِهَا وَبَقَائِهَا وَشَرَفِهَا.

قال ابن العثيمين: {ويسألونك عن اليتامى} معطوفة بالواو، كأنها أسئلة متتابعة؛ سألوا أولًا عن الخمر والميسر؛ ثم سألوا ماذا ينفقون؛ وجه الارتباط بين السؤالين واضح جدًّا؛ لأن في الخمر والميسر إتلاف المال بدون فائدة؛ وفي الإنفاق بذل المال بفائدة؛ ثم قال تعالى: {ويسألونك عن اليتامى}؛ ووجه ارتباط السؤال الثالث بالسؤالين قبله أن الله عز وجل لمَّا أنزل قوله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا}[النساء: ١٠]، وقوله تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن}[الأنعام: ١٥٢] أشكل على الصحابة رضي الله عنهم، فصاروا يجعلون طعامهم على حدة،

١– إسناده حسن، محمد بن عجلان، صدوق حسن الحديث، ومن دونه ثقات، وقد توبعوا، وشيخه روى له الشيخان، سفيان هو ابن عيينة.

هو في شرح السنة (١٦٧٩) بهذا الإسناد. وأخرجه أبو داود ١٦٩١ والشافعي (٢/ ٦٣– ٦٤)، وابن حبان ٤٢٣٣ والحاكم (١/ ٤١٥)، والبيهقي (٧/ ٤٦٦)، من طرق عن سفيان بهذا الإسناد. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

– وأخرجه النسائي (٥/ ٦٢)، وأحمد (٢/ ٢٥١ و٤٧١)، وابن حبان ٣٣٣٧ والطبري ٤١٧٠ والبغوي ١٦٨٠ من طرق عن ابن عجلان به.

وطعام اليتامى على حدة؛ ثم ما جعلوه لليتامى إما أن يفسد، ولا يصلح للأكل؛ وإما أن يصلح للأكل، ولكن ليس على الوجه الأكمل؛ فتحرجوا من ذلك، وأشكل عليهم فيما لو خلطوا طعامهم بطعام اليتامى؛ فأجابهم الله عز وجل بجواب في غاية ما يكون من البلاغة، والاختصار، والوضوح؛ فقال تعالى: {قل إصلاح لهم خير}.

وقوله تعالى: {اليتامى}: جمع يتيم؛ وهو الذي مات أبوه ولم يبلغ؛ مشتق من اليتم – وهو الانفراد؛ واليتيم بما أن أباه قد توفي يحتاج إلى عناية، ورعاية أكثر؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم الوصاية به كثيرًا([1]).

{قل إصلاح لهم خير}؛ وكلمة: {إصلاح}: تعني أن الإنسان يتبع ما هو أصلح لهم في جميع الشؤون سواء كان ذلك في التربية، أو في المال؛ وسواء كان ذلك بالإيجاب، أو السلب؛ فأي شيء يكون إصلاحًا لهم فهو خير؛ وحذف المفضل عليه للعموم، كقوله تعالى: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير}[النساء: ١٢٨]؛ هذه الجملة في شمولها وعمومها ووضوحها كالجملة الأولى.

{وإن تخالطوهم فإخوانكم}؛ هذه الجملة الثانية مما تتضمنه الجواب؛ لأن الجواب تضمن جملتين؛ إحداهما: {قل إصلاح لهم خير}؛ والثانية: {وإن تخالطوهم فإخوانكم}: يعني وإن خالطتموهم في الأكل والشرب، وجعلتم طعامهم مع طعامكم فإنهم ليسوا أجانب منكم بل هم إخوانكم في الدِّين؛ أو في النسب؛ أو فيهما جميعًا – على حسب حال اليتيم.

{والله يعلم المفسد من المصلح}؛ العلم هنا علم معرفة؛ لأنه لم ينصب إلَّا مفعولًا واحدًا؛ وكأنه ضمن (العلم) معنى التميز؛ يعني يعلمه، فيميز بين هذا، وهذا؛ ويجازي كل إنسان بما يستحق؛ لأن التمييز بين هذا، وهذا يقتضي أن يميِّز بينهما أيضًا في الثواب والجزاء؛ ويشمل ذلك الإفساد الديني والدنيوي؛ والإصلاح الديني والدنيوي؛ ويشمل الذي وقع منه الإفساد أو الصلاح.

قال السعدي: وفي هذه الآية، دليل على جواز أنواع المخالطات في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين.

قال القرطبي: لمَّا أذن الله جل وعز في مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر إليهم وفيهم، كان ذلك دليلًا على جواز التَّصرُّف في مال اليتيم تصرف الوصيّ في البيع والقسمة وغير ذلك على الإطلاق لهذه الآية. فإذا كفل الرجل اليتيم وحازه وكان في نظره، جاز عليه فعله وإن لم يقدِّمه والٍ عليه، لأن الآية مطلقة والكفالة ولاية عامة. لم يؤثَر عن أحد من الخلفاء أنه قدَّم أحدًا على يتيم مع وجودهم في أزمنتهم، وإنما كانوا يقتصرون على كونهم عندهم.

١- (قلت): وقال رحمه الله أيضًا في القول المفيد: اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكرًا أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه؛ فليس يتيمًا لا شرعًا ولا لغة. لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد؛ أي: انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له.

– أنظر تفصيل الكلام عن (اليتيم) عند تفسير الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

وتواترت الآثار في دفع مال اليتيم مضاربة والتجارة فيه، وفي جواز خلط ماله بماله دلالة على جواز التصرف في ماله بالبيع والشراء إذا وافق الصلاح، وجواز دفعه مضاربة، إلى غير ذلك على ما نذكره مبيِّنًا. واختلف في عمله هو قراضًا، فمنعه أشهب، وقاسه على منعه من أن يبيع لهم من نفسه أو يشتري لها. وقال غيره: إذا أخذه على جزء من الربح بنسبة قراض مثله فيه أمضي، كشرائه شيئًا لليتيم بتعقب فيكون أحسن لليتيم. قال محمد بن عبد الحكم: وله أن يبيع له بالدَّين إن رأى ذلك نظرًا. قال ابن كنانة: وله أن ينفق في عرس اليتيم ما يصلح من صنيع وطيب ومصلحته بقدر حاله وحال من يزوج إليه، وبقدر كثرة ماله. قال: وكذلك في ختانه، فإن خشي أن يُتَّهم رفع ذلك إلى السلطان فيأمره بالقصد، وكل ما فعله على وجه النظر فهو جائز، وما فعله على وجه المحاباة وسوء النظر فلا يجوز. ودلَّ الظاهر على أن ولي اليتيم يعلمه أمر الدنيا والآخرة، ويستأجر له ويؤاجره ممن يعلمه الصناعات. وإذا وهب لليتيم شيء فللوصيّ أن يقبضه لما فيه من الإصلاح. وسيأتي لهذا مزيد بيان في [النساء] إن شاء الله تعالى.

ولما ينفقه الوصي والكفيل من مال اليتيم حالتان: حالة يمكنه الإشهاد عليه، فلا يقبل قوله إلا ببيِّنة. وحالة لا يمكنه الإشهاد عليه فقوله مقبول بغير بيِّنة، فمهما اشترى من العقار وما جرت العادة بالتوثق فيه لم يقبل قوله بغير بيِّنة. قال ابن خويز منداد: ولذلك فرَّق أصحابنا بين أن يكون اليتيم في دار الوصي ينفق عليه فلا يكلَّف الإشهاد على نفقته وكسوته، لأنه يتعذَّر عليه الإشهاد على ما يأكله ويلبسه في كل وقت، ولكن إذا قال: أنفقت نفقة لسنة قُبِل منه، وبيَّن أن يكون عند أمه أو حاضنته فيدَّعي الوصي أنه كان ينفق عليه، أو كان يعطي الأم أو الحاضنة النفقة والكسوة، فلا يقبل قوله على الأم أو الحاضنة إلَّا ببيِّنة أنها كانت تقبض ذلك له مشاهرة أو مساناة([1]).

واختلف العلماء في الرجل ينكح نفسه من يتيمه، وهل له أن يشتري لنفسه من مال يتيمه أو يتيمته؟ فقال مالك: ولاية النكاح بالكفالة والحضانة أقوى منها بالقرابة، حتى قال في الأعراب الذين يسلمون أولادهم في أيام المجاعة: إنهم ينكحونهم إنكاحهم، فأما إنكاح الكافل والحاضن لنفسه فيأتي في [النساء] بيانه، إن شاء الله تعالى. وأما الشراء منه فقال مالك: يشتري في مشهور الأقوال، وكذلك قال أبو حنيفة: له أن يشتري مال الطفل اليتيم لنفسه بأكثر من ثمن المثل، لأنه إصلاح دل عليه ظاهر القرآن. وقال الشافعي: لا يجوز ذلك في النكاح ولا في البيع، لأنه لم يذكر في الآية التصرف، بل قال: {إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ} من غير أن يذكر فيه الذي يجوز له النظر. وأبو حنيفة يقول: إذا كان الإصلاح خيرا فيجوز تزويجه ويجوز أن يزوج منه. والشافعي لا يرى في التزويج إصلاحا إلا من جهة دفع الحاجة، ولا حاجة قبل البلوغ. وأحمد بن حنبل يجوز للوصي التزويج لأنه إصلاح. والشافعي يجوز للجد التزويج مع الوصي، وللأب في حق ولده الذي ماتت أمه لا بحكم هذه الآية. وأبو حنيفة يجوز للقاضي تزويج اليتيم بظاهر القرآن. وهذه المذاهب نشأت من

١-(قلت): مشاهرة أو مساناة: أي الى أَجَل شهرٍ أو سنةٍ.

هذه الآية، فإن ثبت كون التزويج إصلاحًا فظاهر الآية يقتضي جوازه. ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى}: أي يسألك القوام على اليتامى الكافلون لهم، وذلك مجمل لا يعلم منه عين الكافل والقيم وما يشترط فيه من الأوصاف.

فإن قيل: يلزم ترك مالك أصله في التهمة والذرائع إذ جوَّز له الشراء من يتيمه، فالجواب أن ذلك لا يلزم، وإنما يكون ذلك ذريعة فيما يؤدَّى من الأفعال المحظورة إلى محظورةٍ منصوص عليها، وأما ههنا فقد أذن الله سبحانه في صورة المخالطة، ووكل الحاضنين في ذلك إلى أمانتهم بقوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} وكل أمر مخوَّف وكَّل الله سبحانه المكلَّف إلى أمانته لا يقال فيه: إنه يتذرع إلى محظور به فيمنع منه، كما جعل الله النساء مؤتمنات على فروجهن، مع عظيم ما يترتب على قولهن في ذلك من الأحكام، ويرتبط به من الحل والحرمة والأنساب، وإن جاز أن يكذبن. وكان طاوس إذا سئل عن شيء من أمر اليتامى قرأ: { وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}. وكان ابن سيرين أحب الأشياء إليه في مال اليتيم أن يجتمع نصحاؤه فينظرون الذي هو خير له، ذكره البخاري. وفي هذا دلالة على جواز الشراء منه لنفسه، كما ذكرنا. والقول الآخر أنه لا ينبغي للولي أن يشتري مما تحت يده شيئًا، لما يلحقه في ذلك من التهمة إلَّا أن يكون البيع في ذلك بيع سلطان في ملأ من الناس. وقال محمد بن عبد الحكم: لا يشتري من التركة، ولا بأس أن يدس من يشتري له منها إذا لم يعلم أنه من قبله.

{ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ}: هذه المخالطة كخلط المثل بالمثل كالتمر بالتمر. وقال أبو عبيد: مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه، ولا يجد بدًّا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحرِّي فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان، فجاءت هذه الآية الناسخة بالرُّخصة فيه. قال أبو عبيد: وهذا عندي أصل لما يفعله الرفقاء في الأسفار فإنهم يتخارجون النفقات بينهم بالسوية، وقد يتفاوتون في قلة المطعم وكثرته، وليس كل من قل مطعمه تطيب نفسه بالتفضل على رفيقه، فلما كان هذا في أموال اليتامى واسعًا كان في غيرهم أوسع، ولولا ذلك لخفت أن يضيق فيه الأمر على الناس.

{فَإِخْوَانُكُمْ} خبر لمبتدأ محذوف، أي فهم إخوانكم، والفاء جواب الشرط. وقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}. تحذير، أي يعلم المفسد لأموال اليتامى من المصلح لها، فيجازي كلًّا على إصلاحه وإفساده.

قال ابن العثيمين: {ولو شاء الله لأعنتكم}؛ {لو} شرطية؛ فعل الشرط: {شاء الله}؛ وجواب الشرط: {لأعنتكم}؛ واللام في جواب {لو} غالبة؛ وليست واجبة الوجود؛ ومن حذفها قوله تعالى: {لو نشاء جعلناه أجاجا}[الواقعة: ٧٠]؛ وإلَّا فالأكثر وجود اللام في جوابها.

وقوله تعالى: {لأعنتكم}: أي لشقَّ عليكم فيما يشرعه لكم؛ ومن ذلك أن يشقَّ عليكم في أمر اليتامى بأن لا تخالطوهم؛ وأن تقدِّروا غذاءهم تقديرًا بالغًا، حيث لا يزيد عن حاجتهم ولا ينقص عنها.

{إن الله عزيز حكيم} هذه الجملة تعليل لما سبق من قوله تعالى: {ولو شاء الله لأعنتكم}، كأنه قال: ولو شاء الله لأعنتكم؛ لأن له العزة، والحكم؛ {العزيز[1]}، و{الحكيم[2]} اسمان من أسماء الله تقدَّم معناهما وأنواعهما.

قال السعدي: أي: له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء، ولكنه مع ذلك {حكيم} لا يفعل إلَّا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامَّة، فعزَّته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئًا عبثًا، بل لابدَّ له من حكمة، عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئًا مجرَّدًا عن الحكمة، فلا يأمر إلَّا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلَّا عمَّا فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورحمته.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه الآيات بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} للإشارة إلى ثلاثة أمور:

أوَّلها: أن الله سبحانه عزيز يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء فمن أذلَّ يتيمًا أذلَّه الله، ومن أعزَّهُ أعزَّهُ الله سبحانه.

وثانيها: أن الله سبحانه وتعالى هو الغالب على كل شيء، فهو الذي سيجزي القوَّامين على اليتامى بما يفعلون، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وثالثها: أن هذا التنظيم هو من حكمته ورحمته، فمن رحمته بخلقه أن حثَّهم على معاونة اليتيم وإصلاحه، والقيام على شئونه، وليكون التراحم بين الناس، وليضعف الشرَّ فيهم، ويكثر الخير والإنتاج، والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة أحكام الله سبحانه وتعالى فيما يفعلونه، ويأتونه من مآكل ومشارب وغيرها.

٢- أنَّ الدِّين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح ودرء المفاسد.

٣- المقارنة في الأمور بين مصالحها ومفاسدها.

٤- ترجيح المصالح على المفاسد، أو المفاسد على المصالح حسب ما يترتَّب عليها.

٥- أنَّه مهما كثرت المنافع في الخمر والميسر، فإن الإثم أكبر من منافعهما.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٦- حرص الصحابة ﷺ على معرفة ما يبذل، وينفق؛ لقوله تعالى: {ويسألونك ماذا ينفقون}.

٧- أنَّ الأفضل في الإنفاق أن ينفق الإنسان ما يزيد على حاجته.

٨- أنَّ دفع الحاجة أفضل من الإنفاق؛ لقوله تعالى: {قل العفو} أي ما زاد على حاجتكم، كما سبق بيانه.

٩- أنَّ الله – تبارك وتعالى – قد بيَّن لعباده البيان التام في آياته الكونية والشرعية.

١٠- إثبات الحكمة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتفكرون}.

١١- الحثُّ على التفكُّر في آيات الله؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتفكرون}.

١٢- أنَّ التَّفكُّر لا يقتصر على أمور الدنيا؛ بل هو في أمور الدنيا، والآخرة؛ لقوله تعالى: {لعلَّكم تتفكَّرون * في الدنيا والآخرة}.

١٣- سؤال الصحابة ﷺ عن اليتامى كيف يعاملونهم؛ وهذا السؤال ناتج عن شدَّة خوف الصحابة ﷺ فيما يتعلَّق بأمور اليتامى؛ لأن الله تعالى توعد من يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، وقال تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن}.

١٤- مراعاة الإصلاح فيمن ولّاه الله على أحد.

١٥- أنَّ الإنسان إذا راعى ما يرى أنه أصلح، ثم لم يكن ذلك فإنَّه لا شيء عليه؛ لأنَّ الإنسان إنما يؤاخذ بما يدركه؛ لا بما لا يدركه.

١٦- فضيلة الإصلاح في الولايات، وغيرها؛ لقوله تعالى: {قل إصلاح لهم خير}؛ فإنَّ المقصود بهذه الجملة الحثُّ على الإصلاح.

١٧- جواز مخالطة الأيتام في أموالهم؛ لقوله تعالى: {وإن تخالطوهم فإخوانكم}.

١٨- أنَّه يجب في المخالطة أن يعاملهم معاملة الإخوان؛ لقوله تعالى: {وإن تخالطوهم فإخوانكم}؛ ففي هذه الجملة الحث، والإغراء على ما فيه الخير لهم، كما يسعى لذلك الأخ لأخيه.

١٩- إطلاق الأخ على من هو دونه؛ لأن اليتيم دون من كان وليًّا عليه؛ وهذه الأخوة أخوة الدين.

٢٠- التحذير من الإفساد؛ لقوله تعالى: {والله يعلم المفسد من المصلح}.

٢١- عموم علم الله – تبارك وتعالى –، حيث يعلم كل دقيق وجليل.

٢٢- إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله لأعنتكم}؛ وهذه المشيئة لما يفعله الله تعالى، ولما يفعله العباد؛ لقوله تعالى: {لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين}[التكوير: ٢٨، ٢٩]، ولقوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد}[البقرة: ٢٥٣].

٢٣- أن الدِّين يسر، ولا حرج فيه ولا مشقة؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله لأعنتكم}.

٢٤- إثبات هذين الاسمين الكريمين لله عز وجل؛ وهما {العزيز}، و{الحكيم}؛ وإثبات ما دلَّا عليه من صفة.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

قال ابن العثيمين: {ولا تنكحوا المشركات}؛ النكاح في الأصل الضَّمُّ والجمع؛ ومنه قول الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يجتمعان

يعني: أيها المريد أن تجمع بين الثريا وسهيل – وهما نجمان معروفان –؛ الأول في الشمال؛ والثاني في الجنوب؛ فقوله: (كيف يجتمعان) يدلُّ على أن النكاح في الأصل الجمع والضم؛ وأما في الشرع فهو عقد على محلَّلة لقصد المصالح المترتِّبة على النكاح من تحصين الفرج والولادة والاستمتاع وغير ذلك.

{ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن}؛ {تنكحوا} بفتح التاء؛ أي لا تتزوَّجوا بهن حتى يؤمن؛ و{المشركات} جمع مشركة؛ والمشركة أو المشرك هو من جعل لله شريكًا فيما يختصُّ به سواء كان ذلك في الربوبية، أو في الألوهية، أو في الأسماء والصفات؛ فمن اتَّخذ إلهًا يعبده فهو مشرك – ولو آمن بأن الله خالق للكون –؛ ومن اعتقد أن مع الله خالقًا للكون، أو منفردًا بشيء في الكون، أو معينًا لله تعالى في خلق شيء من الكون فهو مشرك.

وقوله تعالى: {حتى يؤمن}: أي يدخلن في دين الله؛ ودخولهن في دين الله يلزم منه التوحيد.

قال أبو زهرة: {ولأمة مؤمنة خَيْرٌ من مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ}: في هذه الجملة السامية بيان فضل التَّديُّن والإيمان على الشرك والكفر، وبيان فضل المؤمن على الكافر، وبيان فضل كمال النفس على جمال الجسم، وبيان فضل شرف القلب على شرف النسب؛ ومثلها في هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: {وَلَعَبْدٌ مؤْمِنٌ خَيْرٌ من مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} فكلتا الجملتين الساميتين تشير إلى فضل الحقيقة الخلقية والدينية على المظهر الجسمي، والاستعلاء النسبي.

والأَمَة: الأنثى من الرقيق؛ والسبب في أن زواج المؤمن من أمة مؤمنة لا يروقه منظرها، خير من زواجه من حرة مشركة يروقه منظرها، ويثير الإعجاب حسنها، كما دل على ذلك قوله تعالى: {وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ} السبب في ذلك أن الزواج ليس علاقة وقتية، بل هو علاقة دائمة وليس قضاء وطر عاجل يكون الإعجاب المجرَّد سببه، بل الزواج صلة مودَّة رابطة يلاحظ عند

الإقدام عليه عوامل بقائه لا الدوافع المجرَّدة إلى إنشائه. وإذا كانت الأمة المؤمنة التي لَا تثير الإعجاب قد اجتمعت فيها صفتان لَا تثيران النفس، بل تمنعان، وهما الرِّق، وعدم رواء المنظر، ففيها صفة توجد المودة والوئام، وهي الإيمان. وإذا كانت الحرة المشركة التي تثير الإعجاب بجمالها فيها صفتان تسترعيان الأنظار، وهما النَّسب والجمال، ففيها صفة تقطع العلائق، وتفسد البيت، وهي الشرك الذي ليس معه عاصم عن إثم ولا غواية، ولا اتِّجاه معه إلى فضيلة ومودَّة واصلة وخلق كريم.

إن الزواج اختلاط روحي، وشركة أدبية، وتعاون دائم على قطع لَأْواء هذه الحياة وشدَّتها، والبيت الزوجي في هذه الحياة اللاغبة الكادحة كالواحة في وسط الصحراء، يأوي الرجل إليها بعد التَّعب واللُّغوب، فلا يصح أن يكون مناط الاختيار هو الجمال ولا النَّسب فقط، ولا هما معًا من غير أن يكون إيمان وخلق واطمئنان نفس وعلو إدراك وأمانة، وحسن عشرة ولطف مودَّة، والمؤمنة ولو كانت أمة لَا تثير الإعجاب بمنظرها فيها تلك الخصال الكريمة، فهي عالية المدارك، ولذا هجرت الشرك إلى الإيمان، وفيها حسن عشرة ومودة وخلق، واستمساك بالأمانة والفضيلة وبعد عن الخيانة والرذيلة، وقد كوَّن ذلك كله الإيمان.

أما المشركة ولو كانت جميلة نسيبة فإنها في غالب أحوالها لَا تتوافر فيها عوامل بقاء الحياة الزوجية، فهي مستعلية بنسبها، مزهوة بجمالها، لَا عاصم من دين يعصمها عن الغواية، ولا مانع من خلق يمنعها من الخيانة، وليست عالية المدارك، بدليل أنها بقيت على الشرك مع قيام البيِّنات على التوحيد شاهدة معلَّمة موضَّحة مبيَّنة، وكيف يلتقي قلبان قلب يعبد الواحد القهار، وقلب يعبد الأوثان، وليست المفاضلة بينهما في المنفعة التي تعود على العشير فقط، بل المفاضلة من حيث أثرهما في ثمرة هذا الزواج، وهما الأولاد، فالمشركة تغذي طفلها بالأوهام، والمؤمنة تربيه على الإيمان، والمشركة تضع في نفسه بذور الفساد والانحلال، والمؤمنة تغرس في قلبه غرس الفضيلة والاستمساك بالعروة الوثقى، فالطفل بين المسلم والمشركة ينشأ حائر النفس، مضطرب الوجدان، سقيم الضمير؛ بينما أولاد المؤمن والمؤمنة ينشؤون على خلق قوي، ووجدان مستقيم، وقلب سليم.

قال ابن كثير: وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ(١))).

قال ابن العثيمين: فإن قيل: كيف جاءت الآية بلفظ: {خير من مشركة}، مع أن المشركة لا خير فيها؟ فالجواب من أحد وجهين:

١- صحيح البخاري برقم (٥٠٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٤٦٦).

الأول: أنه قد يرد اسم التفضيل بين شيئين، ويراد به التفضيل المطلق – وإن لم يكن في جانب المفضَّل عليه شيء منه، كما قال تعالى: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا وأحسن مقيلًا}[الفرقان: ٢٤].

الثاني: أن المشركة قد يكون فيها خير حسي من جمال ونحوه؛ ولذلك قال تعالى: {ولو أعجبتكم}؛ فبيَّن سبحانه وتعالى أن ما قد يعتقده ناكح المشركة من خيرٍ فيها، فإن نكاح المؤمنة خيرٌ منه.

قال السعدي: لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت، خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: {والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٢ص١٧٨: نِكَاحُ الْكِتَابِيَّةِ جَائِزٌ بِالْآيَةِ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، قَالَ تَعَالَى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}[المائدة: ٥]، وَهَذَا مَذْهَبُ جَمَاهِيرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ كَرِهَ نِكَاحَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ شِرْكًا أَعْظَمَ مِمَّنْ تَقُولُ: إنَّ رَبَّهَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ – وَهُوَ الْيَوْمُ مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ – وَقَدْ احْتَجُّوا بِالْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَبِقَوْلِهِ: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}[الممتحنة: ١٠]، وَالْجَوَابُ عَنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْمُشْرِكِينَ، فَجُعِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: {إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}[الحج: ١٧].

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ وَصَفَهُمْ بِالشِّرْكِ بِقَوْلِهِ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إلَهًا وَاحِدًا لَا إلَهَ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[التوبة: ٣١].

قِيلَ: إنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَيْسَ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ شِرْكٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إنَّمَا بَعَثَ الرُّسُلَ بِالتَّوْحِيدِ، فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَالْكُتُبِ لَمْ يَكُنْ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ شِرْكٌ وَلَكِنَّ النَّصَارَى ابْتَدَعُوا الشِّرْكَ، كَمَا قَالَ: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[يونس: ١٨، والروم: ٤٠، والزمر: ٦٧]، فَحَيْثُ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا فَلِأَجْلِ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي لَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ بِهِ وَجَبَ تَمَيُّزُهُمْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ اتِّبَاعُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِالتَّوْحِيدِ، لَا بِالشِّرْكِ: فَإِذَا قِيلَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَمْ يَكُونُوا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ مُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أُضِيفُوا إلَيْهِ لَا شِرْكَ فِيهِ، كَمَا إذَا قِيلَ: الْمُسْلِمُونَ، وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ. لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، لَا اتِّحَادٌ، وَلَا رَفْضٌ، وَلَا تَكْذِيبٌ بِالْقَدَرِ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْبِدَعِ. وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الدَّاخِلِينَ فِي الْأُمَّةِ قَدْ ابْتَدَعَ هَذِهِ الْبِدَعَ، لَكِنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مَنْ هُوَ مُتَّبِعٌ لِشَرِيعَةِ التَّوْحِيدِ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَلَمْ يُخْبِرْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِالِاسْمِ، بَلْ قَالَ: {عَمَّا يُشْرِكُونَ} بِالْفِعْلِ، وَآيَةُ الْبَقَرَةِ قَالَ فِيهَا: (الْمُشْرِكِينَ) وَ(الْمُشْرِكَاتِ) بِالِاسْمِ. وَالِاسْمُ أَوْكَدُ مِنْ الْفِعْلِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: إنْ شَمِلَهُمْ لَفْظُ (الْمُشْرِكِينَ) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَمَا وَصَفَهُمْ بِالشِّرْكِ، فَهَذَا مُتَوَجِّهٌ بِأَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ دَلَالَةِ اللَّفْظِ مُفْرَدًا وَمَقْرُونًا؛ فَإِذَا أُفْرِدُوا دَخَلَ فِيهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَإِذَا قُرِنُوا مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهِمْ، كَمَا قِيلَ مِثْلُ هَذَا فِي اسْمِ (الْفَقِيرِ) و(الْمِسْكِينِ) وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَعَلَى هَذَا يُقَالُ: آيَةُ الْبَقَرَةِ عَامَّةٌ، وَتِلْكَ خَاصَّةٌ. وَالْخَاصُّ يُقَدَّمُ عَلَى الْعَامِّ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقَالَ: آيَةُ الْمَائِدَةِ نَاسِخَةٌ لِآيَةِ الْبَقَرَةِ؛ لِأَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ الْبَقَرَةِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ((الْمَائِدَةُ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نُزُولًا، فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا، وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا(١))), وَالْآيَةُ الْمُتَأَخِّرَةُ تَنْسَخُ الْآيَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ إذَا تَعَارَضَتَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}[الممتحنة: ١٠]، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ [سُورَةَ الْمُمْتَحَنَةِ] وَأَمَرَ بِامْتِحَانِ الْمُهَاجِرِينَ. وَهُوَ خِطَابٌ لِمَنْ كَانَ فِي عِصْمَتِهِ كَافِرَةٌ. و (اللَّامُ) لِتَعْرِيفِ الْعَهْدِ، وَالْكَوَافِرُ الْمَعْهُودَاتُ هُنَّ الْمُشْرِكَاتُ، مَعَ أَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ يُمَيَّزُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – أَيْضًا – فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ كَقَوْلِهِ: {أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}[النساء: ٥١]، فَإِنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ هُوَ الْإِيمَانُ، وَلَكِنْ هُمْ كَفَرُوا مُبْتَدِعِينَ الْكُفْرَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[النساء: ١٥٠، ١٥١].

قال القرطبي: وأما نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حربًا فلا يحلُّ، وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: لا يحلُّ، وتلا قول الله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ} إلى قوله: { صَاغِرُونَ}[التوبة: ٢٩]. قال المحدث: حدَّثت بذلك إبراهيم النخعي فأعجبه. وكره مالك تزوُّج الحربيَّات لعلَّة ترك الولد في دار الحرب، ولتصرفها في الخمر والخنزير.

واختلف العلماء في نكاح إماء أهل الكتاب، فقال مالك: لا يجوز نكاح الأمة الكتابية. وقال أشهب في كتاب محمد، فيمن أسلم وتحته أمة كتابية: إنه لا يفرق بينهما. وقال أبو حنيفة وأصحابه، يجوز نكاح إماء أهل الكتاب. قال ابن العربي: درسنا الشيخ أبو بكر الشاشي بمدينة السلام قال: احتج أصحاب أبي حنيفة على جواز نكاح الأمة الكتابية بقوله تعالى: {وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ}. ووجه الدليل من الآية أن الله سبحانه خاير بين نكاح الأمة المؤمنة والمشركة، فلولا أن

١- أحمد ١٨٨/٦، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٣٨/٢)، والحاكم في المستدرك في التفسير ٣١١/٢ وقال: (صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى في النكاح ١٧٢/٧، كلهم عن عائشة.

- (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٠٢): ... بعد نزول سورة المائدة، وهي آخر سورة نزلت، كما قالت عائشة وعبد الله بن عمر، فيما رواه الحاكم (٣١١/٢) بإسنادين صحيحين عنهما.

نكاح الأمة المشركة جائز لما خاير الله تعالى بينهما، لأن المخايرة إنما هي بين الجائزين لا بين جائز وممتنع، ولا بين متضادَّين.

والجواب: أن المخايرة بين الضِّدَّين تجوز لغةً وقرآنًا: لأن الله سبحانه قال: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا}[الفرقان: ٢٤]. وقال عمر في رسالته لأبي موسى: (الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل).

جواب آخر: قوله تعالى: {وَلَأَمَةٌ} لم يرد به الرق المملوك وإنما أراد به الآدمية، والآدميات والآدميون بأجمعهم عبيدالله وإماؤه، قاله القاضي بالبصرة أبو العباس الجرجاني.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٢ص١٨٢: قَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِ تَزْوِيجِ الْأَمَةِ الْكِتَابِيَّةِ: جَوَّزَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ، وَحَرَّمَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَاللَّيْثُ وَالْأَوْزَاعِي، وَعَنْ أَحْمَد رِوَايَتَانِ: أَشْهَرُهُمَا كَالثَّانِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ – سُبْحَانَهُ – إنَّمَا أَبَاحَ نِكَاحَ الْمُحْصَنَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} الْآيَةُ [المائدة: ٥]. فَأَبَاحَ الْمُحْصَنَاتِ مِنْهُمْ، وَقَالَ فِي آيَةِ الْإِمَاءِ: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}[النساء: ٢٥]، فَإِنَّمَا أَبَاحَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ.

قال القرطبي: واختلفوا في نكاح نساء المجوس، فمنع مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي وإسحاق من ذلك. وقال ابن حنبل: لا يعجبني. وروي أن حذيفة بن اليمان تزوّج مجوسية، وأن عمر قال له: طلقها. وقال ابن القصار: قال بعض أصحابنا: يجب على أحد القولين أن لهم كتابًا أن تجوز مناكحتهم.

وروى ابن وهب عن مالك أن الأمة المجوسية لا يجوز أن توطأ بملك اليمين، وكذلك الوثنيات وغيرهن من الكافرات، وعلى هذا جماعة العلماء، إلَّا ما رواه يحيى بن أيوب عن ابن جريج عن عطاء وعمرو بن دينار أنهما سئلا عن نكاح الإماء المجوسيات، فقالا: لا بأس بذلك. وتأوّلا قول الله عز وجل: {وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ}. فهذا عندهما على عقد النكاح لا على الأمة المشتراة، واحتجّا بسبي أوطاس، وأن الصحابة نكحوا الإماء منهن بملك اليمين.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٢ص١٨٢: وَأَمَّا (الْأَمَةُ الْمَجُوسِيَّةُ)، فَالْكَلَامُ فِيهَا يَنْبَنِي عَلَى أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ نِكَاحَ الْمَجُوسِيَّاتِ لَا يَجُوزُ، كَمَا لَا يَجُوزُ نِكَاحُ الْوَثَنِيَّاتِ. وَهَذَا مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَد عَنْ خَمْسَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ فِي ذَبَائِحِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، وَجَعَلَ الْخِلَافَ فِي ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ خِلَافِ أَهْلِ الْبِدَعِ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّ مَنْ لَا يَجُوزُ نِكَاحُهُنَّ لَا يَجُوزُ وَطْؤُهُنَّ بِمِلْكِ الْيَمِينِ كَالْوَثَنِيَّاتِ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمْ، وَحُكِيَ عَنْ أَبِي ثَوْرٍ: أَنَّهُ: قَالَ يُبَاحُ وَطْءُ الْإِمَاءِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ عَلَى أَيِّ دِينٍ كُنَّ. وَأَظُنُّ هَذَا يُذْكَرُ عَنْ بَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ. فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ فِي وَطْءِ الْأَمَةِ الْوَثَنِيَّةِ نِزَاعًا. وَأَمَّا الْأَمَةُ الْكِتَابِيَّةُ فَلَيْسَ فِي وَطْئِهَا مَعَ إبَاحَةِ التَّزَوُّجِ بِهِنَّ نِزَاعٌ، بَلْ

فِي التَّزَوُّجِ بِهَا خِلَافٌ مَشْهُورٌ. وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْقَوْلَ بِجَوَازِ التَّزَوُّجِ بِهِنَّ مَعَ الْمَنْعِ مِنَ التَّسَرِّي بِهِنَّ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ وَلَا يَقُولُهُ فَقِيهٌ. وَحِينَئِذٍ فَنَقُولُ: الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَحْرُمُ التَّسَرِّي بِهِنَّ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْأَصْلَ: الْحِلُّ، وَلَمْ يَقُمْ عَلَى تَحْرِيمِهِنَّ دَلِيلٌ مِنْ نَصٍّ وَلَا إجْمَاعٍ وَلَا قِيَاسٍ، فَبَقِيَ حِلُّ وَطْئِهِنَّ عَلَى الْأَصْلِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يُنَازِعُ فِي حِلِّ نِكَاحِهِنَّ كَقَوْلِهِ: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ}[البقرة: ٢٢١]، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}[الممتحنة: ١٠]، إنَّمَا يَتَنَاوَلُ النِّكَاحَ، لَا يَتَنَاوَلُ الْوَطْءَ بِمِلْكِ الْيَمِينِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي السُّنَّةِ وَلَا فِي الْقِيَاسِ مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَهُنَّ، فَيَبْقَى الْحِلُّ عَلَى الْأَصْلِ.

الثَّانِي: أَنَّ قَوْله تَعَالَى {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}[المؤمنون: ٥، ٦]، و[المعارج: ٢٩، ٣٠]، يَقْتَضِي عُمُومَ جَوَازِ الْوَطْءِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ مُطْلَقًا، إلَّا مَا اسْتَثْنَاهُ الدَّلِيلُ؛ حَتَّى إنَّ عُثْمَانَ وَغَيْرَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ جَعَلُوا مِثْلَ هَذَا النَّصِّ مُتَنَاوِلًا لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ حِينَ قَالُوا: أَحَلَّتْهُمَا آيَةٌ، وَحَرَّمَتْهُمَا آيَةٌ. فَإِذَا كَانُوا قَدْ جَعَلُوهُ عَامًّا فِي صُورَةٍ حُرِّمَ فِيهَا النِّكَاحُ، فَلَأَنْ يَكُونَ عَامًّا فِي صُورَةٍ لَا يَحْرُمُ فِيهَا النِّكَاحُ أَوْلَى وَأَحْرَى.

الثَّالِثُ: أَنْ يُقَالَ: قَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى حِلِّ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ: إنَّهُ يَجُوزُ نِكَاحُهُنَّ، وَيَحْرُمُ التَّسَرِّي بِهِنَّ، بَلْ قَدْ قِيلَ: يَحْرُمُ الْوَطْءُ فِي مِلْكِ الْيَمِينِ حَيْثُ يَحْرُمُ الْوَطْءُ فِي النِّكَاحِ. وَقِيلَ: يَجُوزُ التَّزَوُّجُ بِهِنَّ. فَعُلِمَ أَنَّ الْأُمَّةَ مُجْمِعَةٌ عَلَى التَّسَرِّي بِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَرْجَحَ مِنْ حِلِّ النِّكَاحِ، وَلَمْ يَكُنْ دُونَهُ. فَلَوْ حَرُمَ التَّسَرِّي دُونَ النِّكَاحِ كَانَ خِلَافَ الْإِجْمَاعِ.

الرَّابِعُ: أَنْ يُقَالَ: إنَّ حِلَّ نِكَاحِهِنَّ يَقْتَضِي حِلَّ التَّسَرِّي بِهِنَّ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ جَازَ وَطْؤُهَا بِالنِّكَاحِ جَازَ وَطْؤُهَا بِمِلْكِ الْيَمِينِ بِلَا نِزَاعٍ. وَأَمَّا الْعَكْسُ فَقَدْ تَنَازَعَ فِيهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مِلْكَ الْيَمِينِ أَوْسَعُ، لَا يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى عَدَدٍ، وَالنِّكَاحُ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى عَدَدٍ. وَمَا حُرِّمَ فِيهِ الْجَمْعُ بِالنِّكَاحِ قَدْ نُوزِعَ فِي تَحْرِيمِ الْجَمْعِ فِيهِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ، وَلَهُ أَنْ يَسْتَمْتِعَ بِمِلْكِ الْيَمِينِ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ قَسْمٍ وَلَا اسْتِئْذَانٍ فِي عَزْلٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا حُجِرَ عَلَيْهِ فِيهِ لِحَقِّ الزَّوْجَةِ. وَمِلْكُ النِّكَاحِ نَوْعُ رِقٍّ، وَمِلْكُ الْيَمِينِ رِقٌّ تَامٌّ.

وَأَبَاحَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا يَتَزَوَّجُ أَهْلُ الْكِتَابِ نِسَاءَهُمْ؛ لِأَنَّ النِّكَاحَ نَوْعُ رِقٍّ، كَمَا قَالَ عُمَرُ: النِّكَاحُ رِقٌّ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ عِنْدَ مَنْ يُرِقُّ كَرِيمَتَهُ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: الزَّوْجُ سَيِّدٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَقَرَأَ قَوْله تَعَالَى {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}[يوسف: ٢٥]. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ(١)))، فَجُوِّزَ لِلْمُسْلِمِ

١- مسلم في الحج (١٤٧/١٢١٨)، وأبو داود في المناسك (١٩٠٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤)، والدارمي في المناسك ٢/٤٤ – ٤٩، كلهم عن جابر بن عبدالله.

أَنْ يَسْتَرِقَّ هَذِهِ الْكَافِرَةَ، وَلَمْ يُجَوِّزْ لِلْكَافِرِ أَنْ يَسْتَرِقَّ هَذِهِ الْمُسْلِمَةَ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، كَمَا جُوِّزَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَمْلِكَ الْكَافِرَ، وَلَمْ يُجَوِّزْ لِلْكَافِرِ أَنْ يَمْلِكَ الْمُسْلِمَ. فَإِذًا جَوَازُ وَطْئِهِنَّ مِنْ مِلْكٍ تَامٍّ أَوْلَى وَأَحْرَى.

يُوَضِّحُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمَانِعَ: إمَّا الْكُفْرُ، وَإِمَّا الرِّقُّ. وَهَذَا الْكُفْرُ لَيْسَ بِمَانِعٍ، وَالرِّقُّ لَيْسَ مَانِعًا مِنْ الْوَطْءِ بِالْمِلْكِ؛ وَإِنَّمَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَانِعًا مِنْ التَّزَوُّجِ. فَإِذَا كَانَ الْمُقْتَضِي لِلْوَطْءِ قَائِمًا، وَالْمَانِعُ مُنْتَفِيًا، جَازَ الْوَطْءُ. فَهَذَا الْوَجْهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى (قِيَاسِ التَّمْثِيلِ)، وَعَلَى (قِيَاس الْأَوْلَى)، وَيَخْرُجُ مِنْهُ وَجْهٌ رَابِعٌ: يُجْعَلُ (قِيَاسَ التَّعْلِيلِ). فَيُقَالُ: الرِّقُّ مُقْتَضٍ لِجَوَازِ وَطْءِ الْمَمْلُوكَةِ، كَمَا نَبَّهَ النَّصُّ عَلَى هَذِهِ الْعِلَّةِ كَقَوْلِهِ: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}[النساء: ٣]، وَإِنَّمَا يَمْتَنِعُ الْوَطْءُ بِسَبَبِ. يُوجِبُ التَّحْرِيمَ؛ بِأَنْ تَكُونَ مُحَرَّمَةً بِالرِّضَاعِ، أَوْ بِالصِّهْرِ، أَوْ بِالشِّرْكِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَهَذِهِ لَيْسَ فِيهَا مَا يَصْلُحُ لِلْمَنْعِ إلَّا كَوْنُهَا كِتَابِيَّةً، وَهَذَا لَيْسَ بِمَانِعٍ فَإِذَا كَانَ الْمُقْتَضِي لِلْحِلِّ قَائِمًا، وَالْمَانِعُ الْمَذْكُورُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مُعَارِضًا، وَجَبَ الْعَمَلُ بِالْمُقْتَضِي السَّالِمِ عَنْ الْمُعَارِضِ الْمُقَاوِمِ، وَهَذِهِ الْوُجُوهُ بَعْدَ تَمَامِ تَصَوُّرِهَا تُوجِبُ الْقَطْعَ بِالْحِلِّ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّ مَنْ تَدَبَّرَ سِيَرَ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالصَّحَابَةِ وَجَدَ آثَارًا كَثِيرَةً تُبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَجْعَلُونَ ذَلِكَ مَانِعًا، بَلْ هَذِهِ كَانَتْ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّةَ خُلَفَائِهِ: مِثْلُ الَّذِي كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ، وَكَانَتْ تَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ يَقْتُلُهَا، وَقَدْ رَوَى حَدِيثَهَا أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ([1]). وَهَذِهِ لَمْ تَكُنْ مُسْلِمَةً، لَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ قَدْ يُقَالُ: إنَّهُ لَا حُجَّةَ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي أَوَائِلِ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَلَمْ يَكُنْ – حِينَئِذٍ – يَحْرُمُ نِكَاحُ الْمُشْرِكَاتِ، وَإِنَّمَا ثَبَتَ التَّحْرِيمُ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، وَطَلَّقَ عُمَرُ امْرَأَتَهُ كَانَتْ بِمَكَّةَ، وَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فَلَا يُعْلَمُ تَارِيخُ نُزُولِهَا وَفِي الْبَقَرَةِ مَا نَزَلَ مُتَأَخِّرًا كَآيَاتِ الزِّنَا، وَفِيهَا مَا نَزَلَ مُتَقَدِّمًا كَآيَاتِ الصِّيَامِ وَمِثْلَ مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَرَادَ غَزْوَةَ تَبُوكَ قَالَ لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ: ((هَلْ لَك فِي نِسَاءِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟([2]))) فَقَالَ: {ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي}[التوبة: ٤٩]، وَمِثْلَ فَتْحِهِ لِخَيْبَرِ، وَقَسْمِهِ لِلرَّقِيقِ، وَلَمْ يَنْهَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ وَطْئِهِنَّ حَتَّى يُسْلِمْنَ كَمَا أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِبْرَاءِ.

بَلْ مَنْ يُبِيحُ وَطْءَ الْوَثَنِيَّاتِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ، قَدْ يَسْتَدِلُّ بِمَا جَرَى يَوْمَ أوطاس مِنْ قَوْلِهِ: ((لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تُسْتَبْرَأَ بِحَيْضَةٍ([3])))، عَلَى جَوَازِ وَطْءِ الْوَثَنِيَّاتِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ. وَفِي هَذَا كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ وَالصَّحَابَةُ لَمَّا فَتَحُوا الْبِلَادَ لَمْ يَكُونُوا يَمْتَنِعُونَ عَنْ وَطْءِ النَّصْرَانِيَّاتِ.

قال القرطبي: {وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِن مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ}

١- أبو داود في الحدود (٤٣٦١).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٢٥١)، وقال: أخرجه أبو داود (٤٣٦١) والنسائى (٢/١٧١). قلت: وإسناده صحيح على شرط مسلم.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٩٨٨)، بلفظ: ((جلاء بني الأصفر)).

٣- أبو داود في النكاح (٢١٥٧).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢١٣٨).

فيه مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَلا تَنْكِحُوا}: أي لا تزوجوا المسلمة من المشرك. وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه، لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام. والقرَّاء على ضم التاء من {تنكحوا}([١]).

قال القرطبي: الثانية: في هذه الآية دليل بالنَّص على أن لا نكاح إلَّا بوليّ. قال محمد بن علي بن الحسين: (النكاح بوليّ، في كتاب الله)، ثم قرأ: {ولا تنكحوا المشركين}. قال ابن المنذر: ثبت أن رسول الله ﷺ قال: ((لا نكاح إلَّا بوليّ([٢]))، وقد اختلف أهل العلم في النكاح بغير وليّ، فقال كثير من أهل العلم: لا نكاح إلَّا بوليّ، روي هذا الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن البصري وعمر بن عبدالعزيز وجابر بن زيد وسفيان الثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة وابن المبارك والشافعي وعبيد الله بن الحسن وأحمد وإسحاق وأبو عبيد.

قلت: وهو قول مالك رضي الله عنهم أجمعين وأبي ثور والطبري. قال أبو عمر: حجة من قال: (لا نكاح إلَّا بوليّ)، أن رسول الله ﷺ قد ثبت عنه أنه قال: ((لا نكاح إلَّا بوليّ)). روى هذا الحديث شعبة والثوري عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن النبي ﷺ مرسلًا، فمن يقبل المراسيل يلزمه قبوله، وأمَّا من لا يقبل المراسيل فيلزمه أيضًا، لأن الذين وصلوه من أهل الحفظ والثقة. وممن وصله إسرائيل وأبو عوانة كلاهما عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ. وإسرائيل ومن تابعه حفَّاظ، والحافظ تقبل زيادته، وهذه الزيادة يعضدها أصول، قال الله عز وجل: {فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ} [البقرة : ٢٣٢]. وهذه الآية نزلت في معقل بن يسار إذ عضل([٣])أخته عن مراجعة زوجها، قاله البخاري. ولولا أن له حقًّا في الإنكاح ما نهي عن العضل.

قلت: وممَّا يدلُّ على هذا أيضًا من الكتاب قوله: { فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ}[النساء: ٢٥]، وقوله: {وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ}[النور: ٣٢]، فلم يخاطب تعالى بالنكاح غير الرجال، ولو كان إلى النساء لذكرهن. وسيأتي بيان هذا في [النور] وقال تعالى حكاية عن شعيب في قصة موسى عليهما السلام: { إني أريد أن أنكحك} على ما يأتي بيانه في [سورة القصص]. وقال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ}[النساء: ٣٤]، فقد تعاضد الكتاب والسنة على أن لا نكاح إلَّا بوليّ. قال الطبري: في حديث حفصة حين تأيَّمت وعقد عمر عليها النكاح ولم تعقده هي إبطال قول من قال: إن للمرأة البالغة المالكة لنفسها تزويج نفسها وعقد النكاح دون وليِّها، ولو كان ذلك لها لم يكن رسول الله ﷺ ليدع خطبة حفصة

١- (قلت): لقد مرّ معنا كلام شيخ الإسلام عن سبب عدم تزويج المسلمة من المشرك قبل كلام القرطبي هذه. فلتراجع.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨٣٩)، وقال: رواه الخمسة إلَّا النسائي وصححه أحمد وابن معين.

٣- العضل: المنع.

لنفسها إذا كانت أولى بنفسها من أبيها، وخطبها إلى من لا يملك أمرها ولا العقد عليها، وفيه بيان قوله ﷺ: ((الأيم أحقُّ بنفسها من وليِّها([1]))، أن معنى ذلك أنها أحقُّ بنفسها في أنه لا يعقد عليها إلا برضاها، لا أنها أحق بنفسها في أن تعقد عقد النكاح على نفسها دون وليِّها. وروى الدار قطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تزوِّج المرأة المرأة، ولا تزوِّج المرأة نفسها، فإنَّ الزَّانية هي التي تزوِّج نفسها([2]))). قال: حديث صحيح. وروى أبو داود من حديث سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ((أيّما امرأة نُكحت بغير إذن وليِّها فنكاحها باطل – ثلاث مرات – فإن دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها فإن تشاجروا فالسلطان وليُّ من لا وليَّ له([3]))، وهذا الحديث صحيح.

قلت: وقد أخرج هذا الحديث أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي في المسند الصحيح له – على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها، ولا ثبوت جرح في ناقلها – عن حفص بن غياث عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: ((لا نكاح إلَّا بوليّ وشاهدي عدل وما كان من نكاح على غير ذلك فهو باطل فإن تشاجروا فالسلطان وليُّ من لا وليَّ له([4]))). قال أبو حاتم: لم يقل أحد في خبر ابن جريج عن سليمان بن موسى عن الزهري هذا: ((وشاهدي عدل)) إلَّا ثلاثة أنفس: سويد بن يحيى الأموي عن حفص بن غياث وعبدالله بن عبدالوهاب الجمحي عن خالد بن الحارث وعبدالرحمن بن يونس الرقي عن عيسى بن يونس، ولا يصح في الشاهدين غير هذا الخبر، وإذا ثبت هذا الخبر فقد صرح الكتاب والسنة بأن لا نكاح إلَّا بوليّ، فلا معنى لما خالفهما. وقد كان الزهري والشعبي يقولان: (إذا زوَّجت المرأة نفسها كفؤًا بشاهدين فذلك نكاح جائز). وكذلك كان أبو حنيفة يقول: إذا زوَّجت المرأة نفسها كفؤًا بشاهدين فذلك نكاح جائز، وهو قول زفر. وإن زوَّجت نفسها غير كفء فالنكاح جائز، وللأولياء أن

---

١ – (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨٣٣) وقال: أخرجه مالك (٢/٥٢٤/٤)، وعنه مسلم (٤/١٤١)، وكذا أبو داود (٢٠٩٨)، والنسائى (٢/٧٧)، والترمذى (١/٢٠٦)، والدارمي (٢/١٣٨)، وابن ماجه (١٨٧٠)، ابن أبى شيبة (٧/٤/١)، وابن الجارود (٧٠٩)، والدار قطني (٣٩٠)، والبيهقي (٧/١١٨)، وأحمد (١/٢١٩ ، ٢٤١ . ٢٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٢)، كلهم من طريق مالك عن عبد الله بن الفضل عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: فذكره.

٢ – (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨٤١)، وقال: صحيح. دون الجملة الأخيرة. أخرجه ابن ماجه (١٨٨٢)، والدار قطني (٣٨٤)، والبيهقي (٧/١١٠)، من طريق جميل بن الحسن العتكي: حدثنا محمد بن مروان العقيلي حدثنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة به.

وروى عبد الرحمن بن محمد المحاربي حدثنا عبد السلام بن حرب عن هشام به إلا أنه قال: قال أبو هريرة: ((كنا نعد التي تنكح نفسها هي الزانية)).

فجعل القسم الأخير منه موقوفًا، أخرجه الدار قطني والبيهقي.

قلت: وإسناده صحيح على شرط الشيخين. ورواه الأوزاعي عن ابن سيرين به إلا أنه أوقفه كله على أبى هريرة، ولم يفصل كما فعل عبد السلام بن حرب.

أخرجه البيهقي وقال: وعبد السلام قد ميز المسند من الموقوف، فيشبه أن يكون قد حفظه.

٣ – (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨٤٠)، وقال: أخرجه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذى (١/٢٠٤)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وأحمد (٦/٤٧، ١٦٥)، وكذا الشافعي (١٥٤٣)، والدارمي (٢/١٣٧)، وابن أبى شيبة (٧/٢/١)، والطحاوي (٢/٤)، وابن الجارود (٧٠٠)، وابن حبان (١٢٤٨)، والدار قطني (٣٨١)، والحاكم (٢/١٦٨)، والبيهقي (٧/١٠٥)، والطيالسي (١٤٣٦)، وابن عدى فى (الكامل) (ق ٢/١٥٦)، وابن عساكر (٢/٣١٨/٧ . ١/٣٢٠).

٤ – (قلت): قال الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٤٠٦٣): حسن صحيح.

يفرّقوا بينهما. قال ابن المنذر: وأما ما قاله النُّعمان فمخالف للسنة، خارج عن قول أكثر أهل العلم. وبالخبر عن رسول الله ﷺ نقول. وقال أبو يوسف: لا يجوز النكاح إلّا بوليّ، فإن سلَّم الوليّ جاز، وإن أبى أن يسلِّم والزوج كفء أجازه القاضي. وإنَّما يتمُّ النكاح في قوله حين يجيزه القاضي، وهو قول محمد بن الحسن، وقد كان محمد بن الحسن يقول: يأمر القاضي الوليّ بإجازته، فإن لم يفعل استأنف عقدًا. ولا خلاف بين أبي حنيفة وأصحابه أنه إذا أذن لها وليُّها فعقدت النكاح بنفسها جاز. وقال الأوزاعي: (إذا ولَّت أمرها رجلًا فزوَّجها كفؤًا فالنكاح جائز، وليس للوليِّ أن يفرِّق بينهما، إلَّا أن تكون عربية تزوجت مولى)، وهذا نحو مذهب مالك على ما يأتي. وحمل القائلون بمذهب الزهري وأبي حنيفة والشعبي قوله ﷺ: ((لا نكاح إلّا بوليّ)) على الكمال لا على الوجوب، واستدلُّوا على هذا بقوله تعالى: {فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}[البقرة : ٢٣٢]، وقوله تعالى: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: ٢٣٤]، وبما روى الدار قطني عن سماك بن حرب قال: جاء رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: امرأة أنا وليُّها تزوجت بغير إذني؟ فقال علي: ينظر فيما صنعت، فإن كانت تزوجت كفؤًا أجزنا ذلك لها، وإن كانت تزوَّجت من ليس لها بكفء جعلنا ذلك إليك. وفي الموطأ أن عائشة رضي الله عنها زوجت بنت أخيها عبدالرحمن وهو غائب، الحديث. وقد رواه ابن جريج عن عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكحت رجلًا هو المنذر بن الزبير امرأة من بني أخيها فضربت بينهم بستر، ثم تكلمت حتى إذا لم يبق إلَّا العقد أمرت رجلًا فأنكح، ثم قالت: ليس على النساء إنكاح. فالوجه في حديث مالك أن عائشة قررت المهر وأحوال النكاح، وتولَّى العقد أحد عصبتها، ونسب العقد إلى عائشة لمَّا كان تقريره إليها.

الثالثة: ذكر ابن خويز منداد: واختلفت الرواية عن مالك في الأولياء، من هم؟ فقال مرة: كل من وضع المرأة في منصب حسن فهو وليُّها، سواء كان من العصبة أو من ذوي الأرحام أو الأجانب أو الإمام أو الوصي. وقال مرة: الأولياء من العصبة، فمن وضعها منهم في منصب حسن فهو ولي. وقال أبو عمر: قال مالك فيما ذكر ابن القاسم عنه: إن المرأة إذا زوَّجها غير وليّها بإذنها فإن كانت شريفة لها في الناس حال، كان وليُّها بالخيار في فسخ النكاح وإقراره، وإن كانت دنيئة كالمعتقة والسَّوداء(١)والسعاية(٢)والمسلمانية(٣)، ومن لا حال لها جاز نكاحها، ولا خيار لوليِّها لأن كل واحد كفء لها، وقد روي عن مالك أن الشريفة والدنيئة لا يزوجها إلّا وليُّها أو السلطان، وهذا القول اختاره ابن المنذر، قال: وأما تفريق مالك بين المسكينة والتي لها قدر فغير جائز، لأن النبي ﷺ قد سوى بين أحكامهم في الدماء فقال: ((المسلمون تتكافأ

١- قال مالك: هم قوم من القبط يقدمون من مصر الى المدينة.

٢- السعاية: البغيّ.

٣- في الأصول: الإسلامية.

دماؤهم([١])). وإذا كانوا في الدِّماء سواء فهم في غير ذلك شيء واحد. وقال إسماعيل بن إسحاق: لما أمر الله سبحانه بالنكاح جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض فقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[التوبة: ٧١] والمؤمنون في الجملة هكذا يرث بعضهم بعضًا، فلو أن رجلًا مات ولا وارث له لكان ميراثه لجماعة المسلمين، ولو جنى جناية لعقل عنه المسلمون، ثم تكون ولاية أقرب من ولاية، وقرابة أقرب من قرابة. وإذا كانت المرأة بموضع لا سلطان فيه ولا وليّ لها فإنها تصير أمرها إلى من يوثق به من جيرانها، فيزوجها ويكون هو وليُّها في هذه الحال، لأن الناس لابدَّ لهم من التزويج، وإنما يعملون فيه بأحسن ما يمكن، وعلى هذا قال مالك في المرأة الضعيفة الحال: إنه يزوِّجها من تسند أمرها إليه، لأنَّها ممَّن تضعف عن السلطان فأشبهت من لا سلطان بحضرتها، فرجعت في الجملة إلى أن المسلمين أولياؤها، فأمَّا إذا صَيَّرت أمرها إلى رجل وتَركت أولياءها فإنها أخذت الأمر من غير وجهه، وفعلت ما ينكره الحاكم عليها والمسلمون، فيفسخ ذلك النكاح من غير أن يعلم أن حقيقته حرام، لما وصفنا من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ولما في ذلك من الاختلاف، ولكن يفسخ لتناول الأمر من غير وجهه، ولأنه أحوط للفروج ولتحصينها، فإذا وقع الدخول وتطاول الأمر وولدت الأولاد وكان صوابًا لم يجز الفسخ، لأن الأمور إذا تفاوتت لم يرد منها إلَّا الحرام الذي لا يشك فيه، ويشبه ما فات من ذلك بحكم الحاكم إذا حكم بحكم لم يفسخ إلَّا أن يكون خطأ لا شك فيه. وأما الشافعي وأصحابه فالنكاح عندهم بغير وليّ مفسوخ أبدًا قبل الدخول وبعده، ولا يتوارثان إن مات أحدهما. والوليّ عندهم من فرائض النكاح، لقيام الدليل عندهم من الكتاب والسنة: قال الله تعالى: { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ}[النور: ٣٢] كما قال: {فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ}[النساء: ٢٥]، وقال مخاطبًا للأولياء: {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ}[البقرة: ٢٣٢]. وقال ﷺ: ((لا نكاح إلَّا بوليّ)). ولم يفرقوا بين دنيَّة الحال وبين الشريفة، لإجماع العلماء على أن لا فرق بينهما في الدماء، لقوله ﷺ: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم)). وسائر الأحكام كذلك. وليس في شيء من ذلك فرق بين الرفيع والوضيع في كتاب ولا سنة.

الرابعة: واختلفوا في النكاح يقع على غير وليّ ثم يجيزه الوليّ قبل الدخول، فقال مالك وأصحابه إلَّا عبدالملك: ذلك جائز، إذا كانت إجازته لذلك بالقرب، وسواء دخل أو لم يدخل. هذا إذا عقد النكاح غير وليّ ولم تعقده المرأة بنفسها، فإن زوَّجت المرأة نفسها وعقدت عقدة النكاح من غير وليّ قريب ولا بعيد من المسلمين فإن هذا النكاح لا يقرّ أبدًا على حال وإن تطاول وولدت الأولاد، ولكنه يلحق الولد إن دخل، ويسقط الحدّ، ولابدَّ من فسخ ذلك النكاح على كل حال. وقال ابن نافع عن مالك: الفسخ فيه بغير طلاق.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٢٠٨)، وقال: أخرجه أحمد (٢/١٩١ . ١٩٢ و١٩٢ و٢١١)، وأبو داود (٢٧٥١ و٤٥٣١)، وكذا ابن ماجه (٢٦٥٩ و٢٦٨٥)، مفرقًا وابن الجارود (١٠٧٣)، والبيهقي (٨/٢٩).

الخامسة: واختلف العلماء في منازل الأولياء وترتيبهم، فكان مالك يقول: أولهم البنون وإن سفلوا، ثم الآباء، ثم الإخوة للأب والأم، ثم للأب، ثم بنو الإخوة للأب والأم، ثم بنو الإخوة للأب، ثم الأجداد للأب وإن علوا، ثم العمومة على ترتيب الإخوة، ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة وإن سفلوا، ثم المولى ثم السلطان أو قاضيه. والوصي مقدَّم في إنكاح الأيتام على الأولياء، وهو خليفة الأب ووكيله، فأشبه حاله لو كان الأب حيًّا. وقال الشافعي: لا ولاية لأحد مع الأب، فإن مات فالجد، ثم أب الجد، لأنهم كلهم آباء. والولاية بعد الجد للإخوة، ثم الأقرب. وقال المزني: قال في الجديد: من انفرد بأم كان أولى بالنكاح، كالميراث. وقال في القديم: هما سواء.

قلت: وروى المدنيون عن مالك مثل قول الشافعي، وأن الأب أولى من الابن، وهو أحد قولي أبي حنيفة، حكاه الباجي. وروي عن المغيرة أنه قال: (الجد أولى من الإخوة)، والمشهور من المذهب ما قدمناه. وقال أحمد: أحقهم بالمرأة أن يزوّجها أبوها، ثم الابن، ثم الأخ، ثم ابنه، ثم العم. وقال إسحاق: الابن أولى من الأب، كما قاله مالك، واختاره ابن المنذر، لأن عمر ابن أم سلمة زوَّجها بإذنها من رسول الله ﷺ. قلت: أخرجه النسائي عن أم سلمة وترجم له (إنكاح الابن أمه)([1]).

قلت: وكثيرًا ما يستدل بهذا علماؤنا وليس بشيء، والدليل على ذلك ما ثبت في الصحاح أن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلامًا في حِجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال: ((يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل ممَّا يليك([2]))). وقال أبو عمر في كتاب الاستيعاب: عمر بن أبي سلمة يكنى أبا حفص، ولد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة. وقيل: إنه كان يوم قبض رسول الله ﷺ ابن تسع سنين.

قلت: ومن كان سنه هذا لا يصلح أن يكون وليًّا، ولكن ذكر أبو عمر أن لأبي سلمة من أم سلمة ابنًا آخر اسمه سلمة، وهو الذي عقد لرسول الله ﷺ على أمه أم سلمة، وكان سلمة أسن من أخيه عمر بن أبي سلمة، ولا أحفظ له رواية عن النبي ﷺ، وقد روى عنه عمر أخوه.

السادسة: واختلفوا في الرجل يزوج المرأة الأبعد من الأولياء – كذا وقع، والأقرب عبارة أن يقال: اختلف في المرأة يزوّجها من أوليائها الأبعد والأقعد([3])حاضر، فقال الشافعي: النكاح باطل. وقال مالك: النكاح جائز. قال ابن عبد البر:

١- (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨١٩): أخرجه النسائي (٢/٧٧)، والحاكم (٣/١٦ ـ ١٧)، والبيهقي (٧/١٣١)، وأحمد (٦/ ٢٩٥ ، ٣١٣ ـ ٣١٤، ٣١٧ ـ ٣١٨)، وقال الحاكم: (صحيح الإسناد، فإن ابن عمر بن أبى سلمة الذى لم يسمه حماد بن سلمة سماه غيره سعيد بن عمر بن أبى سلمة).

كذا قال، ووافقه الذهبي فى (التلخيص)! وأما فى الميزان فقال: (ابن عمر بن أبى سلمة المخزومي عن أبيه، لا يعرف. وعنه ثابت البناني).

وقال الحافظ فى (اللسان): (قيل اسمه محمد بن عمر بن أبى سلمة بن عبد الأسد). ونحوه فى (التهذيب) ولم يتعرض لا هو ولا غيره لقول الحاكم المذكور أن اسمه سعيد بن عمر بن أبى سلمة، وسواء كان اسمه هذا أو ذاك، فهو مجهول لتفرد ثابت بالرواية عنه، فالإسناد لذلك ضعيف.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الارواء (١٩٦٨)، وقال: أخرجه البخاري ومسلم.

٣- والأقعد: يقال: فلان أقعد من فلان: أي أقرب منه الى جده الأكبر. وفي ج: (الأقرب).

إن لم ينكر الأقعد شيئا من ذلك ولا ردَّهُ نفذ، وإن أنكره وهي ثيب أو بكر بالغ يتيمة ولا وصي لها فقد اختلف قول مالك وأصحابه وجماعة من أهل المدينة في ذلك، فقال منهم قائلون: لا يرد ذلك وينفذ، لأنه نكاح انعقد بإذن ولي من الفخذ والعشيرة. ومن قال هذا منهم لا ينفذ قال: إنما جاءت الرتبة في الأولياء على الأفضل والأولى، وذلك مستحب وليس بواجب. وهذا تحصيل مذهب مالك عند أكثر أصحابه، وإياه اختار إسماعيل بن إسحاق وأتباعه. وقيل: ينظر السلطان في ذلك ويسأل الوليّ الأقرب على ما ينكره، ثم إن رأى إمضاءه أمضاه، وإن رأى أن يردَّه ردَّه. وقيل: بل للأقعد ردُّه على كل حال، لأنه حقٌّ له. وقيل: له ردُّه وإجازته ما لم يطل مكثها وتلد الأولاد، وهذه كلها أقاويل أهل المدينة.

السابعة: فلو كان الوليّ الأقرب محبوسًا أو سفيهًا زوَّجها من يليه من أوليائها، وعدَّ كالميت منهم، وكذلك إذا غاب الأقرب من أوليائها غيبة بعيدة أو غيبة لا يرجى لها أوبة سريعة زوجها من يليه من الأولياء. وقد قيل: إذا غاب أقرب أوليائها لم يكن للذي يليه تزويجها، ويزوِّجها الحاكم، والأول قول مالك.

الثامنة: وإذا كان الوليَّان قد استويا في القعدد([1])وغاب أحدهما وفوَّضت المرأة عقد نكاحها إلى الحاضر لم يكن للغائب إن قدِم نكرته. وإن كانا حاضرين ففوَّضت أمرها إلى أحدهما لم يزوِّجها إلَّا بإذن صاحبه، فإن اختلفا نظر الحاكم في ذلك، وأجاز عليها رأي أحسنهما نظرًا لها، رواه ابن وهب عن مالك.

التاسعة: وأما الشهادة على النكاح فليست بركن عند مالك وأصحابه، ويكفي من ذلك شهرته والإعلان به، وخرج عن أن يكون نكاح سر. قال ابن القاسم عن مالك: لو زوج ببيِّنة، وأمرهم أن يكتموا ذلك لم يجز النكاح، لأنه نكاح سر. وإن تزوَّج بغير بيِّنة على غير استسرار جاز، وأشهدا فيما يستقبلان. وروى ابن وهب عن مالك في الرجل يتزوَّج المرأة بشهادة رجلين ويستكتمهما قال: يفرَّق بينهما بتطليقة ولا يجوز النكاح، ولها صداقها إن كان أصابها، ولا يعاقب الشاهدان. وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما: إذا تزوَّجها بشاهدين وقال لهما: اكتما جاز النكاح. قال أبو عمر: وهذا قول يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي صاحبنا، قال: كل نكاح شهد عليه رجلان فقد خرج من حد السر، وأظنه حكاه عن الليث بن سعد. والسر عند الشافعي والكوفيين ومن تابعهم: كل نكاح لم يشهد عليه رجلان فصاعدًا، ويفسخ على كل حال.

قلت: قول الشافعي أصح للحديث الذي ذكرناه. وروى عن ابن عباس أنه قال: ((لا نكاح إلَّا بشاهدي عدل وولي مرشد([2]))، ولا مخالف له من الصحابة فيما علمته. واحتج مالك لمذهبه أن البيوع التي ذكرها الله تعالى فيها الإشهاد عند العقد، وقد قامت الدلالة بأن ذلك ليس من فرائض البيوع. والنكاح الذي لم يذكر الله تعالى فيه الأشهاد أحرى بألَّا يكون الإشهاد فيه من شروطه وفرائضه، وإنما الغرض الإعلان والظهور لحفظ الأنساب. والإشهاد يصلح بعد العقد

١- القعدد: (بضم القاف وسكون العين وضم الدال المهملة وفتحها): القريب من الجد الأكبر. وقيل: هو أملك القرابة في النسب.

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨٤٤)، صحيح موقوفاً.

للتَّداعي والاختلاف فيما ينعقد بين المتناكحين، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((أعلنوا النكاح([١]))). وقول مالك هذا قول ابن شهاب وأكثر أهل المدينة.

العاشرة: قوله تعالى: {وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ}: أي مملوك، {خير من مشرك}: أي حسيب، {ولو أعجبكم}: أي حسبه وماله، حسب ما تقدَّم. وقيل المعنى: ولرجل مؤمن، وكذا ولأمة مؤمنة، أي ولامرأة مؤمنة، كما بيَّناه.

قال ابن كثير: أَيْ: وَلَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ – وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا – خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ، وَإِنْ كَانَ رَئِيسًا سَرِيًا.

قال أبو زهرة: أن هذه الآية حرَّمت نكاح المسلمة بالمشرك، وليس فيها ما يدلُّ على تحريم المسلمة بالكتابي؛ لأن كلمة مشرك لا تعم الكتابي في لغة القرآن الكريم، والحقيقة العرفية الإسلامية، والتي أجمع المسلمون عليها تحريم زواج المسلمة بالكتابي؛ وسند هذا الإجماع قوله تعالى في سورة الممتحنة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، فهذه الآية صريحة في أن زواج المسلمة بالكافر لا يحلُّ، وإن كانت زوجته وأسلمت دونه انتهت وصارت لا تحلُّ له، ولا يحلُّ لها.

وكلمة كافر تشمل الكتابي والمشرك، كما قال تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكم مِّنْ خَيْرٍ من رَّبِّكمْ....}. وعلى هذا النص وعمل الرسول ﷺ اعتمد إجماع الصحابة والتابعين من بعدهم إلى اليوم.

قال السعدي: ثم ذكر تعالى، الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة، لمن خالفهما في الدين فقال: {أولئك يدعون إلى النار}: أي في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة فالخلطة المجرَّدة من باب أولى، وخصوصًا، الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

قال ابن العثيمين: حتى إنهم يبنون المدارس والمستشفيات، ويلاطفون الناس في معاملتهم خداعًا ومكرًا؛ ولكن قد بيَّن الله نتيجة عملهم في قوله تعالى: {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون}[الأنفال: ٣٦].

{والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه}: أي يدعو الناس إلى الجنة بالحثِّ على الأعمال الصالحات؛ ومغفرة الذنوب بالحثِّ على التوبة، والاستغفار؛ و{بإذنه}: أي إذن الله؛ والإذن على قسمين: إذن كوني – وهو ما يتعلَّق بالمخلوقات،

١- (قلت): قال الإمام الألباني في آداب الزفاف: أخرجه النسائي والترمذي وقال: حديث حسن وابن ماجه. وغيرهم. وقال الحاكم: (صحيح الإسناد). ووافقه الذهبي وهو عندي حسن الإسناد.

والتقديرات -؛ وإذن شرعي - وهو ما يتعلّق بالتشريعات -؛ فمن الأول قوله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلَّا بإذنه}[البقرة: ٢٥٥]؛ ومن الثاني قوله تعالى: {ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون}[يونس: ٥٩]: يعني شرع لكم؛ والظاهر أن الإذن في هذه الآية - والله أعلم - يشمل القسمين؛ لأن دخول الإنسان فيما يكون سببًا للجنة، والمغفرة كوني؛ وما يكون سببًا للجنة، والمغفرة هذا مما شرعه الله.

قال أبو زهرة: ولقد قيَّد سبحانه الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله سبحانه: {بِإِذْنِهِ}، والإذن يطلق على الإعلام، كما يطلق على الأمر، ويطلق على الإرادة مع الرضا والتوفيق والتيسير، وإن تلك المعاني الثلاثة متحقَّقة في هذه الجملة السامية؛ فإن الله سبحانه أعلم الناس بطرق الجنة والمغفرة، وآذنهم بها ليسلك من يريد السلوك، وأمرهم أمرًا قاطعًا بالحق في كل شيء ليطيع من طلب الحق وسلك سبيله. وإنه سبحانه موفِّق من طلب الهداية ميسِّر له السبيل، آخذ بيده إلى الحق الذي لا مِرية فيه.

قال ابن العثيمين: {ويبيِّن آياته للناس}: أي يظهرها، و{آيات} جمع آية؛ وهي العلامة القاطعة التي تستلزم العلم بمدلولها، كما قال تعالى: {وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون}[يس: ٤١].

{لعلهم يتذكرون}: أي يتعظون؛ والجملة تعليلية.

قال السعدي: {ويبيِّن آياته}: أي أحكامه وحكمها، {للناس لعلهم يتذكَّرون} فيوجب لهم ذلك التذكُّر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتثال لما ضيَّعوه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّه يحرم على المؤمن نكاح المشركات؛ لقوله تعالى: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن}؛ ويستثنى من ذلك أهل الكتاب من اليهود، والنصارى؛ لقوله تعالى: {اليوم أحلَّ لكم الطيِّبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متَّخذي أخدان}[المائدة: ٥]، فإنَّ هذه الآية: {اليوم أحلَّ لكم الطيبات ... } مخصصة لآية البقرة؛ و{ال} في قوله تعالى: {اليوم} للعهد الحضوري تفيد أن هذا الحكم ثبت في ذلك اليوم نفسه؛ والآية في سورة المائدة، ونزولها بعد نزول سورة البقرة؛ لكن مع كون ذلك مباحًا فإن الأَولى أن لا يتزوج منهن؛ لأنها قد تؤثر على أولاده؛ وربما تؤثر عليه هو أيضًا: إذا أعجب بها لجمالها، أو ذكائها، أو علمها، أو خلقها، وسلبت عقله فربما تجرُّه إلى أن يكفر.

٢- أنَّ الحكم يدور مع علَّته وجودًا وعدمًا؛ لقوله تعالى: {حتى يؤمن}؛ فدلَّ ذلك على أنه متى زال الشرك حلَّ النكاح؛ ومتى وجد الشرك حرم النكاح.

٣- أنَّ الزوج وليُّ نفسه؛ لقوله تعالى: {ولا تنكحوا المشركات}؛ فوجَّه الخطاب للزوج.

٤- أنَّ المؤمن خير من المشرك؛ ولو كان في المشرك من الأوصاف ما يعجب؛ لقوله تعالى: {ولعبدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم}؛ ومثله قوله تعالى: {قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث}[المائدة: ١٠٠]؛ فلا تغتر بالكثرة؛ ولا تغتر بالمهارة؛ ولا بالجودة؛ ولا بالفصاحة؛ ولا بغير ذلك؛ ارجع إلي الأوصاف الشرعية المقصودة شرعًا.

٥- تفاضل الناس في أحوالهم، وأنهم ليسوا على حدٍّ سواء؛ لقوله تعالى: {ولعبد مؤمن خير من مشرك}.

٦- الرَّد على الذين قالوا: (إن دين الإسلام دين مساواة)؛ لأن التفضيل ينافي المساواة؛ والعجيب أنه لم يأت في الكتاب، ولا في السنة لفظة (المساواة) مثبتًا؛ ولا أن الله أمر بها؛ ولا رغَّب فيها؛ لأنك إذا قلت بالمساواة استوى الفاسق، والعدل؛ والكافر، والمؤمن؛ والذكر، والأنثى؛ وهذا هو الذي يريده أعداء الإسلام من المسلمين؛ لكن جاء دين الإسلام بكلمة هي خير من كلمة (المساواة)؛ وليس فيها احتمال أبدًا، وهي (العدل)، كما قال الله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل}[النحل: ٩٠]؛ وكلمة (العدل) تعني أن يسوَّى بين المتماثلين، ويفرِّق بين المفترقين؛ لأن (العدل) إعطاء كل شيء ما يستحقه؛ والحاصل: أن كلمة (المساواة) أدخلها أعداء الإسلام على المسلمين؛ وأكثر المسلمين - ولا سيَّما ذوو الثقافة العامة - ليس عندهم تحقيق، ولا تدقيق في الأمور، ولا تمييز بين العبارات؛ ولهذا تجد الواحد يظن هذه الكلمة كلمة نور تحمل على الرؤوس: (الإسلام دين مساواة)! ونقول: لو قلتم: (الإسلام دين العدل) لكان أَولى، وأشدُّ مطابقة لواقع الإسلام.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)

قال أبو زهرة: لقد كان من مقتضى الفطرة أن يعلموا أن الحيض أذى في كل أحواله، وأنه يعتزل موضعه إبان ظهوره؛ ولكن أهل الديانات السماوية التي كانت تصاقب[١] أماكنهم في بلادهم من اليهود والنصارى قد اختلفوا، ما بين متشدِّدين في شأن الحائض، ومتسامحين في شأنها؛ فالنصارى ما كانوا يفرِّقون بين حائض وغير حائض في المعاملة والمباشرة؛

١- صاقبه مصاقبة، وصقابا: إذا قاربه وواجهه، يقال: جار مصاقب [الوسيط (صقب)].

واليهود كانوا يشدِّدون عليها وعلى أنفسهم في المعاملة فيتجنَّبونها اجتنابًا تامًا، ولا يعتزلونها في المباشرة وحدها، بل يعزلونها في كل الأحوال عن أنفسهم عزلًا كاملًا، حتى ليعتبرون كل ما مسَّته يكون نجسًا، ومن يمسُّها يكون نجسًا، وكأنها تكون من الأنجاس في هذه المدَّة.

وكان من العرب من تأثَّروا بطريق اليهود، ومنهم من سلكوا مسلك النصارى، فسألوا عن حكم الإسلام إلى أي الطريقين يتَّجه، فكان الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكان بين ذلك قوامًا؛ فأباح المعاملة ومنع المباشرة.

قال ابن كثير: عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُواكلوها وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أصحابُ النَّبِيِّ النبيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ)). فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدع مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ! فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَير وعبَّاد بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ كَذَا وَكَذَا، أَفَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا، فَاسْتَقْبَلَتْهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إلى رسول الله ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا، فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ([١]).

قال ابن العثيمين: {يسألونك}: أي الناس، أو المسلمون؛ {عن المحيض}: يحتمل أن تكون مصدرًا ميميًّا فتكون بمعنى الحيض؛ أو تكون اسم مكان فيكون المراد به مكان الحيض؛ وهو الفرج؛ ولكن الأرجح الاحتمال الأول؛ لقوله تعالى: {قل هو أذى}؛ فإنه لا يحتمل عوده إلى مكان الحيض.

قال القرطبي: وأصل الكلمة من السَّيَلان والانفجار، يقال: حاض السيل وفاض، وحاضت الشجرة أي: سالت رطوبتها، ومنه الحيض أي الحوض، لأن الماء يحيض إليه أي يسيل، والعرب تدخل الواو على الياء والياء على الواو، لأنهما من حيز واحد. قال ابن عرفة: المحيض والحيض اجتماع الدم إلى ذلك الموضع، وبه سمِّيَ الحوض لاجتماع الماء فيه، يقال:

١- صحيح: مسلم (٣٠٢).

- (قلت): قال الإمام الألباني في جلباب المرأة المسلمة: أخرجه مسلم (١/ ١٦٩)، وأبو عوانة (١/ ٣١١ - ٣١٢) في صحيحهما، وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح). وقد أخرجه غيرهم، وتكلمنا عليه في (صحيح سنن أبي داود) رقم (٢٥٠).

قال شيخ الإسلام في الاقتضاء: (فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم حتى قالوا: ((ما يريد أن يدع من أمرنا شيئًا إلَّا خالفنا فيه)). ثم إن المخالفة - كما سنبيِّنه - تارة تكون في أصل الحكم، وتارة في وصفه، ومجانبة الحائض لم يخالفوا في أصله، بل خولفوا في وصفه، حيث شرع الله مقاربة الحائض في غير محل الأذى، فلما أراد بعض الصحابة أن يتعدى في المخالفة إلى ترك ما شرعه الله؛ تغير وجه الرسول ﷺ. وهذا الباب باب الطهارة كان على اليهود فيه أغلال عظيمة، فابتدع النصارى ترك ذلك كله حتى أنهم لا ينجسون شيئًا بلا شرع من الله، فهدى الله الأمة الوسط بما شرعه لها إلى الوسط من ذلك، وإن كان ما كان عليه اليهود كان أيضًا مشروعًا، فاجتناب ما لم يشرع الله اجتنابه مقاربة لليهود، وملابسة ما شرع الله اجتنابه مقاربة للنصارى، وخير الهدي هدي محمد - ﷺ).

حاضت المرأة وتحيضت، ودرست وعركت، وطمثت، تحيض حيضًا ومحاضًا ومحيضًا إذا سال الدم منها في أوقات معلومة. فإذا سال في غير أيام معلومة، ومن غير عرق المحيض قلت: استحيضت، فهي مستحاضة.

قال ابن العربي: ولها ثمانية أسماء: الأول: حائض. الثاني: عارك. الثالث: فارك. الرابع: طامس. الخامس: دارس. السادس: كابر. السابع: ضاحك. الثامن: طامث. قال مجاهد في قوله تعالى: {فَضَحِكَتْ}: يعني حاضت. وقيل في قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ}[يوسف: ٣١]: يعني حضن. وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وأجمع العلماء على أن للمرأة ثلاثة أحكام في رؤيتها الدَّم الظاهر السائل من فرجها، فمن ذلك الحيض المعروف، ودمه أسود خاثر تعلوه حمرة، تترك له الصلاة والصوم، لا خلاف في ذلك. وقد يتَّصل وينقطع، فإن اتَّصل فالحكم ثابت له، وإن انقطع فرأت الدم يومًا والطُّهر يومًا، أو رأت الدم يومين والطهر يومين أو يومًا فإنها تترك الصلاة في أيَّام الدم، وتغتسل عند انقطاعه وتصلِّي، ثم تلفق أيام الدم وتلغي أيام الطُّهر المتخلِّلة لها، ولا تحتسب بها طهرًا في عدَّة ولا استبراء. والحيض خلقة في النساء، وطبع معتاد معروف منهن. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلَّى فمرَّ على النساء فقال: ((يا معشر النساء تصدَّقن فإني أريتكنَّ أكثر أهل النار – فقلن وبم يا رسول الله؟ قال – تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن – قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم؟ قلن: بلى يا رسول الله، قال: فذلك من نقصان دينها[1])).

وأجمع العلماء على أن الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، لحديث معاذة قالت: سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: أحرورية أنت؟ قلت: لست بحرورية[2]، ولكني أسأل. قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة، خرجه مسلم. فإذا انقطع عنها كان طهرها منه الغسل، على ما يأتي.

واختلف العلماء في مقدار الحيض، فقال فقهاء المدينة: إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يومًا، وجائز أن يكون خمسة عشر يومًا فما دون، وما زاد على خمسة عشر يومًا لا يكون حيضًا وإنما هو استحاضة، هذا مذهب مالك وأصحابه. وقد روي عن مالك أنه لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره إلَّا ما يوجد في النساء، فكأنه ترك قوله الأول ورجع إلى عادة النساء. وقال محمد بن سلمة: أقل الطهر خمسة عشر يومًا، وهو اختيار أكثر البغداديين من المالكيين، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما والثوري، وهو الصحيح في الباب، لأن الله تعالى قد جعل عدة ذوات الأقراء ثلاث

١- (قلت): البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

٢- الحرورية: طائفة من الخوارج نسبوا الى (حروراء) وهو موضع قريب من الكوفة، وهم الذين قاتلهم علي رضي الله عنه؛ وكان عندهم من التشديد في الدين ما هو معروف؛ فلما رأت عائشة هذه المرأة تشدد في أمر الحيض شبّهتها بالحرورية. وقيل: أرادت أنها خالفت السنة وخرجت عن الجماعة.

- (قلت): البخاري (٣٢١)، ومسلم (٣٣٥).

حيض، وجعل عدة من لا تحيض من كبر أو صغر ثلاثة أشهر، فكان كل قرء عوضًا من شهر، والشهر يجمع الطهر والحيض. فإذا قلَّ الحيض كثر الطهر، وإذا كثر الحيض قلَّ الطهر، فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يومًا وجب أن يكون بإزائه أقل الطُّهر خمسة عشر يومًا ليكمل في الشهر الواحد حيض وطهر، وهو المتعارف في الأغلب من خلقة النساء وجبلتهن مع دلائل القرآن والسنة. وقال الشافعي: أقل الحيض يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يومًا. وقد روي عنه مثل قول مالك: إن ذلك مردود إلى عرف النساء. وقال أبو حنيفة وأصحابه: أقلُّ الحيض ثلاثة أيام، وأكثره عشرة. قال ابن عبد البر: ما نقص عند هؤلاء عن ثلاثة أيام فهو استحاضة، لا يمنع من الصلاة إلَّا عند أول ظهوره، لأنه لا يعلم مبلغ مدَّته. ثم على المرأة قضاء صلاة تلك الأوقات، وكذلك ما زاد على عشرة أيام عند الكوفيين. وعند الحجازيين ما زاد على خمسة عشر يومًا فهو استحاضة. وما كان أقلَّ من يوم وليلة عند الشافعي فهو استحاضة، وهو قول الأوزاعي والطبري. وممَّن قال أقل الحيض يوم وليلة وأكثره خمسة عشر يومًا عطاء بن أبي رباح وأبو ثور وأحمد بن حنبل. قال الأوزاعي: وعندنا امرأة تحيض غدوة وتطهر عشية وقد أتينا على ما للعلماء في هذا الباب – من أكثر الحيض وأقلّه وأقلّ الطهر، وفي الاستظهار، والحجة في ذلك – في (المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس) فإن كانت بِكرًا مبتدأة فإنها تجلس أول ما ترى الدم في قول الشافعي خمسة عشر يومًا، ثم تغتسل وتعيد صلاة أربعة عشر يومًا. وقال مالك: لا تقضي الصلاة ويمسك عنها زوجها. علي بن زياد عنه: تجلس قدر لِدَاتِهَا([1])، وهذا قول عطاء والثوري وغيرهما. ابن حنبل: تجلس يومًا وليلة، ثم تغتسل وتصلِّي ولا يأتيها زوجها. أبو حنيفة وأبو يوسف: تدع الصلاة عشرًا، ثم تغتسل وتصلِّي عشرين يومًا، ثم تترك الصلاة بعد العشرين عشرًا، فيكون هذا حالها حين ينقطع الدم عنها. أما التي لها أيام معلومة فإنها تستظهر على أيامها المعلومة بثلاثة أيام، عن مالك: ما لم تجاوز خمسة عشر يومًا. الشافعي: تغتسل إذا انقضت أيامها بغير استظهار.

والثاني من الدماء: دم النفاس عند الولادة، وله أيضًا عند العلماء حدٌّ معلوم اختلفوا فيه، فقيل: شهران، وهو قول مالك. وقيل: أربعون يومًا، وهو قول الشافعي. وقيل غير ذلك. وطهرها عند انقطاعه. والغسل منه كالغسل من الجنابة. قال القاضي أبو محمد عبدالوهاب: ودم الحيض والنفاس يمنعان أحد عشر شيئًا: وهي وجوب الصلاة وصحة فعلها وفعل الصوم دون وجوبه – وفائدة الفرق لزوم القضاء للصوم ونفيه في الصلاة – والجماع في الفرج وما دونه والعدَّة والطلاق، والطواف ومس المصحف ودخول المسجد والاعتكاف فيه، وفي قراءة القرآن روايتان.

والثالث من الدماء: دم ليس بعادة ولا طبع منهن ولا خلقة، وإنما هو عرق انقطع، سائله دم أحمر لا انقطاع له إلَّا عند البرء منه، فهذا حكمه أن تكون المرأة منه طاهرة لا يمنعها من صلاة ولا صوم بإجماع من العلماء واتفاق من الآثار المرفوعة إذا كان معلومًا أنه دم عرق لا دم حيض. روى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

---

١ – (قلت): لداتها: أي أقرانها. يعني: تجلس قدر ما تجلس أقرانها.

قالت فاطمة بنت أبي حبيش: يا رسول الله، إني لا أطهر! أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: ((إنما ذلك عرق وليس بالحيضة إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة فإذا ذهب قدرها فاغسلي عنك الدم وصلِّي([١]))). وفي هذا الحديث مع صحته وقلة ألفاظه ما يفسِّر لك أحكام الحائض والمستحاضة، وهو أصح ما روي في هذا الباب، وهو يرد ما روي عن عقبة بن عامر ومكحول أن الحائض تغتسل وتتوضأ عند كل وقت صلاة، وتستقبل القبلة ذاكرة الله عز وجل جالسة. وفيه أن الحائض لا تصلِّي، وهو إجماع من كافة العلماء إلَّا طوائف من الخوارج يرون على الحائض الصلاة. وفيه ما يدلُّ على أن المستحاضة لا يلزمها غير ذلك الغسل الذي تغتسل من حيضها، ولو لزمها غيره لأمرها به، وفيه ردٌّ لقول من رأى ذلك عليها لكل صلاة. ولقول من رأى عليها أن تجمع بين صلاتي النهار بغسل واحد، وصلاتي الليل بغسل واحد وتغتسل للصبح. ولقول من قال: تغتسل من طهر إلى طهر. ولقول سعيد بن المسيب من طهر إلى طهر، لأن رسول الله ﷺ لم يأمرها بشيء من ذلك. وفيه ردٌّ لقول من قال بالاستظهار، لأن النبي ﷺ أمرها إذا علمت أن حيضتها قد أدبرت وذهبت أن تغتسل وتصلِّي، ولم يأمرها أن تترك الصلاة ثلاثة أيام لانتظار حيض يجيء أو لا يجيء، والاحتياط إنما يكون في عمل الصلاة لا في تركها.

قوله تعالى: {قل هو أذًى}: أي هو شيء تتأذَّى به المرأة وغيرها أي برائحة دم الحيض. والأذى كناية عن القذر على الجملة. ويطلق على القول المكروه، ومنه قوله تعالى: { لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى}[البقرة: ٢٦٤] أي بما تسمعه من المكروه. ومنه قوله تعالى: {وَدَعْ أَذَاهُمْ}[الأحزاب: ٤٨]: أي دع أذى المنافقين لا تجازهم إلَّا أن تؤمر فيهم، وفي الحديث: ((وأميطوا عنه الأذى([٢]))، يعني بـ((الأذى)): الشعر الذي يكون على رأس الصبي حين يولد، يحلق عنه يوم أسبوعه، وهي العقيقة. وفي حديث الإيمان: ((وأدناها إماطة الأذى عن الطريق([٣]))): أي تنحيته، يعني الشوك والحجر، وما أشبه ذلك مما يتأذى به المار. وقوله تعالى: {وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ}[النساء: ١٠٢] وسيأتي.

قال أبو زهرة: أي هذا الدم الذي يلفظه الرحم أذى يتأذى به الإنسان تأذيا حسيا جسميا؛ فرائحته، يتأذى منها من يشمها، وهو قذر في ذاته، وهو فوق ذلك أذى نفسي للرجل والمرأة معا؛ فالمرأة لا تكون في حال تستسيغ معها المباشرة؛ بل إنها تكون متقززة منها في هذه الحال نافرة إلا في الأحوال الشاذة والصور النادرة، وجهازها التناسلي يكون في حال اضطراب، فتتألم من كل مباشرة، وأعصابها وأحوالها وعامة شئونها تكون في حال تتأذى معها من كل اتصال

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٢٨)، ومسلم (٣٣٣). وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨٩)، وصحيح أبي داود (٢٨٠).

٢- (قلت): رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٥٤٧٢). وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١١٧١)، وصحيح أبي داود (٢٥٢٩). والحديث بكامله: عَن سلمانَ بن عامرٍ الضَّبي قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَعَ الْغُلَامِ عَقِيقَةٌ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَمًا وأَمِيطوا عنهُ الْأَذَى)).

٣- (قلت): مسلم (٣٥).

جنسي؛ والرجل يتأذَّى نفسيًّا؛ إذ يكون خليطه في حال نفرة بل بغض لما يقدم عليه؛ ثم إن المباشرة في هذه الحال لَا يتحقَّق معها القصد الأسمى وهو النسل؛ فإن المرأة في هذه الحال لَا تكون صالحة للإنسال.

قال القرطبي: واستدلَّ من منع وطء المستحاضة بسيلان دم الاستحاضة، فقالوا: كل دم فهو أذى، يجب غسله من الثوب والبدن، فلا فرق في المباشرة بين دم الحيض والاستحاضة لأنه كله رجس. وأما الصلاة فرخصة وردت بها السنة كما يصلَّى بِسَلس البول، هذا قول إبراهيم النخعي وسليمان بن يسار والحكم بن عيينة وعامر الشعبي وابن سيرين والزهري. واختلف فيه عن الحسن، وهو قول عائشة: لا يأتيها زوجها، وبه قال ابن علية والمغيرة بن عبدالرحمن وكان من أعلى أصحاب مالك، وأبو مصعب، وبه كان يفتي. وقال جمهور العلماء: المستحاضة تصوم وتصلِّي وتطوف وتقرأ ويأتيها زوجها. قال مالك: أمر أهل الفقه والعلم على هذا، وإن كان دمها كثيرًا، رواه عنه ابن وهب. وكان أحمد يقول: أحب إليَّ ألَّا يطأها إلَّا أن يطول ذلك بها. وعن ابن عباس في المستحاضة: (لا بأس أن يصيبها زوجها وإن كان الدم يسيل على عقبيها). وقال مالك: قال رسول الله ﷺ: ((إنما ذلك عرق وليس بالحيضة)). فإذا لم تكن حيضة فما يمنعه أن يصيبها وهي تصلِّي! قال ابن عبد البر: لما حكم الله عز وجل في دم المستحاضة بأنه لا يمنع الصلاة وتعبد فيه بعبادة غير عبادة الحائض وجب ألا يحكم له بشيء من حكم الحيض إلَّا فيما أجمعوا عليه من غسله كسائر الدماء.

قال ابن العثيمين: {فاعتزلوا النساء}: أي اجتنبوا؛ والفاء هنا للتفريع، أو للسببية؛ أي فيتفرع على كونه أذى توجيه الأمر إليكم باعتزال النساء؛ أو: فبسبب كونه أذى اعتزلوا النساء في المحيض؛ والمقصود بـ{النساء} هنا الحائضات؛ لقوله تعالى: {في المحيض}؛ والمراد بـ{المحيض} هنا مكان الحيض – وهو الفرج –؛ فهي ظرف مكان؛ أي لا تجامعوهن في فروجهن؛ لأنه مكان الحيض.

قال القرطبي: { فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ}: أي في زمن الحيض، إن حملت المحيض على المصدر، أو في محل الحيض إن حملته على الاسم. ومقصود هذا النهي ترك المجامعة. وقد اختلف العلماء في مباشرة الحائض وما يستباح منها، فروي عن ابن عباس وعبيدة السلماني: (أنه يجب أن يعتزل الرجل فراش زوجته إذا حاضت). وهذا قول شاذ خارج عن قول العلماء. وإن كان عموم الآية يقتضيه فالسنة الثابتة بخلافه، وقد وقفت على ابن عباس خالته ميمونة وقالت له: أراغب أنت عن سنة رسول الله ﷺ؟! وقال مالك والشافعي والأوزاعي وأبو حنيفة وأبو يوسف وجماعة عظيمة من العلماء: له منها ما فوق الإزار، لقوله ﷺ للسائل حين سأله: ما يحلُّ لي من امرأتي وهي حائض؟ فقال –: ((لتشدَّ عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها([1]))). وقال الثوري ومحمد بن الحسن وبعض أصحاب الشافعي: يجتنب موضع الدم، لقوله ﷺ: ((اصنعوا

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٥٥٥)، وقال: رَوَاهُ مَالِكٌ وَالدَّارِمِيُّ مُرْسلًا.

كل شيء إلا النكاح)) وقد تقدم. وهو قول داود، وهو الصحيح من قول الشافعي. وروى أبو معشر عن إبراهيم عن مسروق قال: سألت عائشة ما يحل لي من امرأتي وهي حائض فقالت: كل شيء إلا الفرج. قال العلماء: مباشرة الحائض وهي متّزرة على الاحتياط والقطع للذريعة، ولأنه لو أباح فخذيها كان ذلك من ذريعة إلى موضع الدم المحرَّم بإجماع، فأمر بذلك احتياطًا، والمحرَّم نفسه موضع الدم، فتتفق بذلك معاني الآثار، ولا تضادّ، وبالله التوفيق.

قال شيخ الإسلام في شرح العمدة – الطهارة – (٤٦١– ٤٦٣): وَالْمَحِيضُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ اسْمًا لِمَكَانِ الْحَيْضِ كَالْقُبُلِ وَالْمَنْبَتِ، فَيَخْتَصُّ التَّحْرِيمُ بِمَكَانِ الْحَيْضِ وَهُوَ الْفَرْجُ، أَوْ هُوَ الْحَيْضُ وَهُوَ الدَّمُ نَفْسُهُ لِقَوْلِهِ: {أَذًى} أَوْ نَفْسُ خُرُوجِ الدَّمِ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْمَصْدَرِ كَقَوْلِهِ: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ}[الطلاق: ٤]، فَقَوْلُهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ: {فِي الْمَحِيضِ} يَحْتَمِلُ مَكَانَ الْحَيْضِ وَيَحْتَمِلُ زَمَانَهُ وَحَالَهُ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَمَكَانُ الْمَحِيضِ هُوَ الْفَرْجُ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي زَمَنِ الْمَحِيضِ، فَهَذَا الِاعْتِزَالُ يَحْتَمِلُ اعْتِزَالَهُنَّ مُطْلَقًا كَاعْتِزَالِ الْمُحْرِمَةِ وَالصَّائِمَةِ. وَيَحْتَمِلُ اعْتِزَالَ مَا يُرَادُ مِنْهُنَّ فِي الْغَالِبِ وَهُوَ الْوَطْءُ فِي الْفَرْجِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: {هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} فَذَكَرَ الْحُكْمَ بَعْدَ الْوَصْفِ بِحَرْفِ الْفَاءِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَصْفَ هُوَ الْعِلَّةُ لَا سِيَّمَا وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِلْحُكْمِ كَقَوْلِهِ: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}[المائدة: ٣٨]، {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}[النور: ٢]، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِاعْتِزَالِهِنَّ مِنَ الْإِيذَاءِ إِضْرَارًا أَوْ تَنْجِيسًا وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِالْفَرْجِ فَيَخْتَصُّ بِمَحَلِّ سَبَبِهِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَنَّ اعْتِزَالَ جَمِيعِ بَدَنِهَا لَيْسَ هُوَ الْمُرَادَ، كَمَا فَسَّرَتْهُ السُّنَّةُ الْمُسْتَفِيضَةُ فَانْتَفَتِ الْحَقِيقَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ فَتَعَيَّنَ حَمْلُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ الْعُرْفِيَّةِ وَهُوَ الْمَجَازُ اللُّغَوِيُّ وَهُوَ اعْتِزَالُ الْمَوْضِعِ الْمَقْصُودِ فِي الْغَالِبِ وَهُوَ الْفَرْجُ لِأَنَّهُ يُكَنَّى عَنِ اعْتِزَالِهِ بِاعْتِزَالِ الْمَرْأَةِ كَثِيرًا، كَمَا يُكَنَّى عَنْ مَسِّهِ بِالْمَسِّ وَالْإِفْضَاءِ مُطْلَقًا، وَبِذَلِكَ فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: {فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} بِقَوْلِهِ: (فَاعْتَزِلُوا نِكَاحَ فُرُوجِهِنَّ) رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ حَزْمٍ، وَأَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ وَغَيْرُهُمْ فِي تَفَاسِيرِهِمْ. فَأَمَّا اعْتِزَالُ الْفَرْجِ وَمَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ فَلَا هُوَ حَقِيقَةُ اللَّفْظِ وَلَا مَجَازُهُ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّ السُّنَّةَ قَدْ فَسَّرَتْ هَذَا الِاعْتِزَالَ بِأَنَّهُ تَرْكُ الْوَطْءِ فِي الْفَرْجِ، فَرَوَى أَنَسٌ أَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ إِذَا حَاضَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى} فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ))، وَفِي لَفْظٍ ((إِلَّا الْجِمَاعَ))، رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا الْبُخَارِيَّ.

وَالْجِمَاعُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ الْإِيلَاجُ فِي الْفَرْجِ، فَأَمَّا فِي غَيْرِ الْفَرْجِ فَلَيْسَ هُوَ كَالْجِمَاعِ وَلَا نِكَاحٍ، وَإِنَّمَا يُسَمَّى بِهِ تَوَسُّعًا عِنْدَ التَّقْيِيدِ فَيُقَالُ: الْجِمَاعُ فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ؛ لِكَوْنِهِ بِالذَّكَرِ فِي الْجُمْلَةِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْجِمَاعِ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ

بِالْإِيلَاجِ لَا سِيَّمَا الِاسْتِمْتَاعُ فِي الْفَرْجِ، فَمَا فَوْقَ السُّرَّةِ جَائِزٌ إِجْمَاعًا، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ مِنَ الْحَائِضِ شَيْئًا أَلْقَى عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا([1]))).

وَلِأَنَّهُ مَحَلٌّ حُرِّمَ لِلْأَذَى فَاخْتَصَّ التَّحْرِيمُ بِمَحَلِّ الْأَذَى كَالْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ، وَلَا يُقَالُ: هَذَا يُخْشَى مِنْهُ مُوَاقَعَةُ الْمَحْظُورِ؛ لِأَنَّ الْأَذَى الْقَائِمَ بِالْفَرْجِ يُنْفِرُ عَنْهُ كَمَا يُنْفِرُ عَنِ الْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ، وَلِذَلِكَ أُبِيحَ لَهُ مَا فَوْقَ الْإِزَارِ إِجْمَاعًا، ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ ذَلِكَ أَلْقَى عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِئَلَّا يُصِيبَهُ الْأَذَى، وَلَوْ رُوعِيَ هَذَا فَحَرُمَ جَمِيعُ بَدَنِهَا كَالْمُحْرِمَةِ وَالصَّائِمَةِ وَالْمُعْتَكِفَةِ، وَمَعَ هَذَا فَالْأَفْضَلُ أَنْ يَقْتَصِرَ فِي الِاسْتِمْتَاعِ عَلَى مَا فَوْقَ الْإِزَارِ لِأَنَّهُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى اسْتِمْتَاعِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَزْوَاجِهِ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: ((كَانَتْ إِحْدَانَا إِذَا كَانَتْ حَائِضًا فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبَاشِرَهَا أَمَرَهَا أَنْ تَأْتَزِرَ بِإِزَارٍ فِي فَوْرِ حَيْضَتِهَا ثُمَّ يُبَاشِرُهَا([2]))، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَعَلَى نَحْوِهِ مِنْ حَدِيثِ مَيْمُونَةَ وَلِأَنَّهُ أَبْعَدُ لَهُ عَنِ الْإِلْمَامِ بِالْمَوْضِعِ الْمُعْتَادِ بِخِلَافِ الدُّبُرِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُعْتَادٍ، وَالْفَرْجُ الْمُبَاحُ يُغْنِي عَنِ الدُّبُرِ فَلَا يُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ الْقُرْبُ مِنْهُ ضَرُورِيٌّ وَهُنَا لَيْسَ هُنَاكَ فَرْجٌ مُبَاحٌ وَلَا ضَرُورَةٌ فَنَهَابُ الْإِلْمَامَ بِهِ عَلَى الْعَادَةِ السَّابِقَةِ أَوْ يُلَوِّثُهُ الدَّمُ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ.

قال القرطبي: واختلفوا في الذي يأتي امرأته وهي حائض ماذا عليه، فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة: يستغفر الله ولا شيء عليه، وهو قول ربيعة ويحيى بن سعيد، وبه قال داود. وروي عن محمد بن الحسن: يتصدَّق بنصف دينار. وقال أحمد: ما أحسن حديث عبدالحميد عن مقسم عن ابن عباس عن النبي ﷺ: ((يتصدَّق بدينار أو نصف دينار([3]))). أخرجه أبو داود وقال: هكذا الرواية الصحيحة، قال: دينار أو نصف دينار، واستحبه الطبري([4]).

١- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٨٧٩٢)، ولكن ورد بلفظ ((كان إذا أراد من الحائض شيئًا ألقى على فرجها ثوبًا))، وقال: انظر حديث رقم (٤٦٦٣) في صحيح الجامع.

٢- **(قلت):** متفق عليه. البخاري (٣٠٢)، ومسلم (٢٩٣).

٣- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح آداب الزفاف (٤٤ و ٤٥)، والمشكاة (٥٥٣)، وصحيح أبي داود (٢٥٦)، والإرواء (١٩٧)، وقال: أخرجه أصحاب السنن، والطبراني في (المعجم الكبير) وابن الأعرابي في (معجمه)، والدارمي والحاكم والبيهقي بإسناد صحيح على شرط البخاري، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وابن دقيق العيد وابن التركماني وابن القيم وابن حجر العسقلاني كما بينته في (صحيح سنن أبي داود)، وكذا وافقه ابن الملقن في (خلاصة البدر المنير)، وقواه الإمام أحمد قبل هؤلاء وجعله من مذهبه فقال أبو داود في (المسائل): (سمعت أحمد سئل عن الرجل يأتي امرأته وهي حائض؟ قال: ما أحسن حديث عبد الحميد فيه (قلت: يعني هذا) قلت: وتذهب إليه؟ قال: نعم إنما هو كفارة. (قلت): فدينار أو نصف دينار: قال: كيف شاء.

وذهب على العمل بالحديث جماعة آخرون من السلف ذكر أسماءهم الشوكاني في النيل وقواه.

- وقال رحمه الله – أيضًا – في (ضعيف أبي داود) رقم (٤١ – ٤٣)، أن الصحيح في متنه: أن عليه أن يتصدق بدينار أو نصف دينار على التخيير، وبدون التفصيل المذكور في هذا الحديث. والله أعلم.

٤- **(قلت):** لقد ورد حديث فيه حكم شديد على من أتى امرأة وهي حائضة في الجامع الصغير وزيادته برقم (١٠٨٨٦) وصححه الإمام الألباني عن أبي هريرة ما نصه: ((من أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول أو أتى امرأة حائضًا أو أتى امرأة في دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد)).

قوله تعالى: {وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} قال ابن العربي: سمعت الشاشي في مجلس النظر يقول: إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه: لا تلبَّس بالفعل، وإن كان بضم الراء كان معناه: لا تَدْنُ منه.

قال ابن العثيمين: {ولا تقربوهن}: أي لا تقربوا جماعهن كما يدلُّ عليه ما قبله.

{حتى يطهرن}: بسكون الطاء، وتخفيف الهاء – أي حتى يطهرن من المحيض بانقطاعه –؛ وفي قراءة {حتى يطَّهَّرن} بتشديد الطاء، والهاء – أي يتطهرن من المحيض بالاغتسال –، كقوله تعالى: {وإن كنتم جنبًا فاطَّهَّروا}[المائدة: ٦]: أي اغتسلوا؛ وعلامة الطهر للمرأة القصة البيضاء بأن لا تتغير القطنة إذا احتشت بها؛ وهذا هو الغالب في النساء؛ لكن بعض النساء لا ترى ذلك – تعرف الطهر بانقطاع الدم فقط ولا ترى القصة البيضاء.

{فإذا تطهَّرن}: جمهور أهل العلم على أن المراد اغتسلن؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضًا؛ فهي كقوله تعالى: {وإن كنتم جنبا فاطهروا}[المائدة: ٦]: أي اغتسلوا.

قال السعدي: وحدّ هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض {حتى يطهرن}: أي ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم، زال المنع الموجود وقت جريانه الذي كان لحله شرطان: انقطاع الدم، والاغتسال منه.

فلما انقطع الدم، زال الشرط الأول وبقي الثاني، فلهذا قال: {فإذا تطهَّرن} أي: اغتسلن.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢١ص٦٢٤: أَمَّا الْمَرْأَةُ الْحَائِضُ إذَا انْقَطَعَ دَمُهَا، فَلَا يَطَؤُهَا زَوْجُهَا حَتَّى تَغْتَسِلَ. إذَا كَانَتْ قَادِرَةً عَلَى الِاغْتِسَالِ، وَإِلَّا تَيَمَّمَتْ. كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَالِكِ وَأَحْمَد وَالشَّافِعِيِّ.

وَهَذَا مَعْنَى مَا يُرْوَى عَنْ الصَّحَابَةِ حَيْثُ رُوِيَ عَنْ بِضْعَةَ عَشَرَ مِنْ الصَّحَابَةِ – مِنْهُمْ الْخُلَفَاءُ – أَنَّهُمْ قَالُوا: فِي الْمُعْتَدَّةِ: هُوَ أَحَقُّ بِهَا مَا لَمْ تَغْتَسِلْ مِنْ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ.

وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} قَالَ مُجَاهِدٌ: حَتَّى يَطْهُرْنَ، يَعْنِي يَنْقَطِعُ الدَّمُ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ اغْتَسَلْنَ بِالْمَاءِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ غَايَتَيْنِ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: {حَتَّى يَطْهُرْنَ} غَايَةُ التَّحْرِيمِ الْحَاصِلُ بِالْحَيْضِ، وَهُوَ تَحْرِيمٌ لَا يَزُولُ بِالِاغْتِسَالِ وَلَا غَيْرِهِ، فَهَذَا التَّحْرِيمُ يَزُولُ بِانْقِطَاعِ الدَّمِ، ثُمَّ يَبْقَى الْوَطْءُ بَعْدَ ذَلِكَ جَائِزًا بِشَرْطِ الِاغْتِسَالِ، لَا يَبْقَى مُحَرَّمًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَلِهَذَا قَالَ: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ}.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ}[البقرة: ٢٣٠]، فَنِكَاحُ الزَّوْجِ الثَّانِي غَايَةُ التَّحْرِيمِ الْحَاصِلِ بِالثَّلَاثِ، فَإِذَا نَكَحَتْ الزَّوْجَ الثَّانِيَ زَالَ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ، لَكِنْ صَارَتْ فِي عِصْمَةِ الثَّانِي فَحُرِّمَتْ لِأَجْلِ حَقِّهِ، لَا لِأَجْلِ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ. فَإِذَا طَلَّقَهَا جَازَ لِلْأَوَّلِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الظَّاهِرِ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ}: أَيْ غَسَلْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَيس بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ: {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا}[المائدة: ٦] فَالتَّطَهُّرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ هُوَ الِاغْتِسَالُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}، فَهَذَا يَدْخُلُ فِيهِ الْمُغْتَسِلُ وَالْمُتَوَضِّئُ وَالْمُسْتَنْجِي، لَكِنَّ التَّطَهُّرَ الْمَقْرُونَ بِالْحَيْضِ كَالتَّطَهُّرِ الْمَقْرُونِ بِالْجَنَابَةِ. وَالْمُرَادُ بِهِ الِاغْتِسَالُ.

وَأَبُو حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – يَقُولُ: إِذَا اغْتَسَلَتْ، أَوْ مَضَى عَلَيْهَا وَقْتُ صَلَاةٍ، أَوْ انْقَطَعَ الدَّمُ لِعَشَرَةِ أَيَّامٍ حَلَّتْ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مَحْكُومٌ بِطَهَارَتِهَا فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ. وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ هُوَ الصَّوَابُ. كَمَا تَقَدَّمَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال ابن العثيمين: {فأتوهن من حيث أمركم الله}؛ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ وهو قوله تعالى: {فإذا تطهرن}؛ والمراد بالإتيان الجماع – كني بالإتيان عن المجامعة –؛ والأمر هنا للإباحة؛ وقيل إن {من} بمعنى (في): أي فأتوهن في المكان الذي أمركم الله بإتيانه؛ وهو الفرج؛ وقيل: إن {من} للابتداء؛ فهي على بابها؛ أي فأتوهن من هذه الطريق من حيث أمركم الله؛ وهو أن تطؤوهن في الفروج؛ لقوله تعالى في الآية بعدها: {نساؤكم حرث لكم}[البقرة: ٢٢٣]؛ والحرث هو موضع الزرع؛ وموضع الزرع هو القبل؛ فيكون معنى قوله تعالى: {فأتوهن من حيث أمركم الله}: أي من قبلهن؛ وليس من الدبر.

قال الشنقيطي: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَذَا الْمَكَانَ الْمَأْمُورَ بِالْإِتْيَانِ مِنْهُ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِلَفْظَةِ {حَيْثُ}، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْإِتْيَانُ فِي الْقُبُلِ فِي آيَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: هِيَ قَوْلُهُ هُنَا: {فَأْتُوا حَرْثَكُمْ}[٢ \ ٢٢٣]؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: {فَأْتُوا} أَمْرٌ بِالْإِتْيَانِ بِمَعْنَى الْجِمَاعِ، وَقَوْلِهِ: {حَرْثَكُمْ}، يُبَيِّنُ أَنَّ الْإِتْيَانَ الْمَأْمُورَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي مَحَلِّ الْحَرْثِ يَعْنِي بَذْرَ الْوَلَدِ بِالنُّطْفَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْقُبُلُ دُونَ الدُّبُرِ كَمَا لَا يَخْفَى؛ لِأَنَّ الدُّبُرَ لَيس مَحَلَّ بَذْرٍ لِلْأَوْلَادِ، كَمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}[٢ \ ١٨٧] لِأَنَّ الْمُرَادَ بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمُ الْوَلَدُ، عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَقَدْ نَقَلَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَكَمِ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَالسُّدِّيِّ، وَالرَّبِيعِ وَالضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ابْتِغَاءَ الْوَلَدِ إِنَّمَا هُوَ بِالْجِمَاعِ فِي الْقُبُلِ. فَالْقُبُلُ إِذَنْ هُوَ الْمَأْمُورُ بِالْمُبَاشَرَةِ فِيهِ بِمَعْنَى الْجِمَاعِ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ {فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ}: وَلْتَكُنْ تِلْكَ الْمُبَاشَرَةُ فِي مَحَلِّ ابْتِغَاءِ الْوَلَدِ، الَّذِي هُوَ الْقُبُلُ دُونَ غَيْرِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: {وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}[٢ \ ١٨٧]، يَعْنِي الْوَلَدَ.

قال ابن العثيمين: {إنَّ الله يحبُّ التَّوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين}؛ هذا تعليل لما سبق من الأوامر؛ وهي اعتزال النساء في المحيض، وإتيانهن من حيث أمر الله بعد التطهُّر.

وقوله تعالى: {يحبُّ التَّوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين}: المحبة معروفة؛ و{التَّوَّابين} صيغة مبالغة تفيد الكثرة؛ فالتوابون كثيرو التوبة؛ و(التوبة): هي الرجوع من معصية الله إلى طاعته؛ و{المتطهِّرين}: أي الذين يتطهرون من الأحداث، والأخباث؛ وجمع بين ذلك، وبين التوبة؛ لأن (التوبة) تطهير الباطن؛ و(التطهر) تطهير الظاهر.

قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال: إنّ الله يحب التوابين من الذنوب، ويحب المتطهِّرين بالماء للصلاة. لأن ذلك هو الأغلب من ظاهر معانيه.

وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر أمرَ المحيض، فنهاهم عن أمور كانوا يفعلونها في جاهليتهم: من تركهم مساكنة الحائض ومؤاكلتها ومشاربتها، وأشياء غير ذلك مما كان تعالى ذكره يكرهها من عباده. فلما استفتى أصحابُ رسولِ الله رسولَ الله ﷺ عن ذلك، أوحى الله تعالى إليه في ذلك، فبيَّن لهم ما يكرهه مما يرضاه ويحبه، وأخبرهم أنه يحب من خلقه من أناب إلى رضاه ومحبَّته، تائبًا ممَّا يكرهه.

وكان مما بيَّن لهم من ذلك، أنه قد حرّم عليهم إتيان نسائهم وإن طهُرن من حيضهن حتى يغتسلن، ثم قال: ولا تقربوهن حتى يطهُرن، فإذا تطهَّرن فأتوهن، فإن الله يحب المتطهرين = يعني بذلك: المتطهرين من الجنابة والأحداث للصلاة، والمتطهرات بالماء – من الحيض والنفاس والجنابة والأحداث – من النساء.

وإنما قال: {ويحبُّ المتطهِّرين} – ولم يقل (المتطهرات) – وإنما جرى قبل ذلك ذكرُ التطهر للنساء، لأن ذلك بذكر {المتطهرين} يجمع الرجال والنساء. ولو ذكر ذلك بذكر (المتطهرات)، لم يكن للرجال في ذلك حظ، وكان للنساء خاصة. فذكر الله تعالى ذكره بالذكر العام جميعَ عباده المكلفين، إذ كان قد تعبَّد جميعَهم بالتطهر بالماء، وإن اختلفت الأسباب التي توجب التطهر عليهم بالماء في بعض المعاني، واتفقت في بعض.

قال أبو زهرة: وإن تذييل الآية بهذه الجملة السامية يفيد ثلاث فوائد:

أولاهما: إشعار المؤمن بأن الله غفار للذنوب لمن ارتكب كما قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...}.

ثانيتها: أن الله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الذي لَا يغتر بطاعاته، حتى لا يزيِّن لنفسه كل أعماله، فقد يتأدى الأمر بمن يزيِّن لنفسه عمله إلى أن يزيَّن له سوء عمله فيراه حسنا، وإن الذي يستصغر حسناته فيكثر من التوبة قريب من ربه مستمتع بمحبَّته سبحانه وتعالى، وهي أقدس ما في هذا الوجود.

ثالثتها: أن طهارة الحسِّ تؤدِّي إلى طهارة النفس، فمن كان طهور النفس لا يقبل أن يقدم على أمر مستقذر في ذاته، تعافه الطبائع السليمة، والفطرة المستقيمة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تتابع أسئلة الصحابة رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ.

٢- حرص الصحابة على العلم، حيث يسألون رسول الله ﷺ عن مثل هذه الأمور.

٣- أنه لا ينبغي أن يستحيي الإنسان من سؤال العلم؛ لقوله تعالى: {ويسألونك عن المحيض}.

٤- أن الله عز وجل قد يتولى الإجابة فيما سئل عنه رسول الله ﷺ، حيث قال تعالى: {قل هو أذًى}.

٥- أن المحيض - وهو الحيض - أذى؛ لأنه قذر ونجس؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بغسله قليله وكثيره؛ فقد كان النساء يصيب ثيابهن الحيض فيسألن النبي ﷺ عن ذلك فيأمرهن بحتِّه، ثم قرصه بالماء، ثم نضحه([1])- أي غسله -.

٦- تعليل الأحكام الشرعية؛ لقوله تعالى: {هو أذى فاعتزلوا}.

ويتفرع على هذه الفائدة: إثبات الحكمة فيما شرعه الله عز وجل؛ لكن من الحكمة ما هو معلوم للخلق؛ ومنها ما ليس بمعلوم؛ لكننا نعلم أن جميع أحكام الله الشرعية والقدرية مقرونة بالحكمة.

٧- تقديم علة الحكم عليه حتى تتهيأ النفوس لقبول الحكم، والطمأنينة إليه؛ ويكون قبوله فطريًّا؛ لقوله تعالى: {قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض}؛ وقد يتقدَّم الحكم على العلَّة - وهو الأكثر كما في قوله تعالى: {قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرَّمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس}[الأنعام: ١٤٥]، وكما في الحديث الصحيح: ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه([2]))).

٨- وجوب اعتزال المرأة حال الحيض؛ لقوله تعالى: {فاعتزلوا النساء في المحيض}؛ وقد بيَّنت السنة ماذا يعتزل منهن - وهو الجماع -؛ لقول النبي ﷺ: ((اصنعوا كل شيء إلَّا النكاح([3]))).

٩- منَّة الله على الرجل والمرأة في اعتزالها حال الحيض؛ لأنه أذى مضرٌّ بالمرأة، ومضرٌّ بالرجل.

١٠- تحريم الوطء بعد الطهر قبل الغسل؛ لقوله تعالى: {فإذا تطهَّرن فأتوهن}.

١١- وجوب جماع الزوجة بعد طهرها من الحيض؛ لقوله تعالى: {فأتوهن}؛ وقد قال به بعض أهل العلم؛ ولكن هذا القول ضعيف جدًّا؛ والصواب أن الأمر فيه لرفع الحظر؛ لأنه ورد بعد النهي؛ ويبقى الحكم على ما كان عليه قبل النهي.

١- راجع البخاري ص٢١ كتاب الوضوء، باب ٦٣: غسل الدم، حديث رقم ٢٢٧؛ وصحيح مسلم ص٧٢٧، كتاب الطهارة باب ٣٣: نجاسة الدم، وكيفية غسله؛ حديث رقم ٦٧٥ [١١٠] ٢٩١.

٢- أخرجه البخاري ص٥٣٠، كتاب الاستئذان، باب ٤٧: إذا كانوا أكثر من ثلاثة ... ، حديث رقم ٦٢٩٠، وأخرجه مسلم ص١٠٦٦، كتاب السلام، باب ١٥: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، حديث رقم ٥٦٩٦ [٣٧] ٢١٨٤.

٣- أخرجه مسلم ص٧٢٨، كتاب الحيض، باب ٣: جواز غسل الحائض رأس زوجها ... ، حديث رقم ٦٩٤ [١٦] ٣٠٢.

١٢- أنه لا يجوز للإنسان أن يتعدّى حدود الله لا زمانًا ولا مكانًا فيما أباحه الله من إتيان أهله؛ لقوله تعالى: {فأتوهن من حيث أمركم الله}.

١٣- جواز وطء المرأة في فرجها من ورائها؛ لقوله تعالى: {فأتوهن من حيث أمركم الله}؛ ولم يحدِّد الجهة التي تؤتى منها المرأة.

١٤- أنه لا يباح وطؤها في الدُّبر؛ لقوله تعالى: {فأتوهن من حيث أمركم الله}، ولقوله تعالى في المحيض: {قل هو أذًى فاعتزلوا النساء في المحيض}؛ ومن المعلوم أن أذى الغائط أقبح من أذى دم الحيض؛ وهذا – أعني تحريم وطء الدبر – قد أجمع عليه الأئمة الأربعة؛ ولم يصحّ عن أحد من السلف جوازه؛ وما روي عن بعضهم مما ظاهره الجواز فمراده إتيانها من الدبر في الفرج.

١٥- إثبات محبة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {إن الله يحب التوابين}؛ والمحبة صفة حقيقية لله عز وجل على الوجه اللائق به؛ وهكذا جميع ما وصف الله به نفسه من المحبة، والرضا، والكراهة، والغضب والسخط، وغيرها؛ كلها ثابتة لله على وجه الحقيقة من غير تكييف ولا تمثيل.

١٦- أن محبة الله من صفاته الفعلية – لا الذاتية –؛ لأنها علقت بالتوبة؛ والتوبة من فعل العبد تتجدد؛ فكذلك محبة الله عز وجل تتعلق بأسبابها؛ وكل صفة من صفات الله تتعلق بأسبابها فهي من الصفات الفعلية.

١٧- فضيلة التوبة، وأنها أمر مطلوب، وأنها من أسباب محبة الله للعبد؛ لقوله تعالى: {إن الله يحب التوابين}.

١٨- محبة الله تعالى للمتطهرين؛ لقوله تعالى: {ويحب المتطهرين}.

١٩- حسن أسلوب القرآن؛ لأنه جمع في هذه الآية بين التطهر المعنوي الباطني، والتطهر الحسِّي الظاهري؛ لقوله تعالى: {يحب التوابين} – وهي طهارة باطنة –؛ وقوله تعالى: {ويحب المتطهرين} – وهي طهارة ظاهرة –.

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال الإمام البخاري رحمه الله ج٩ ص٢٥٧ حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن ابن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله قال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}.

الحديث أخرجه مسلم ج١٠ ص٦ و٧ وفيه زيادة إن شاء مجبية([1])وإن شاء غير مجبية غير أن ذلك في صمام واحد وأخرجه الترمذي ج٤ ص٧٥ وقال حديث حسن صحيح وأبو داود ج٢ ص٢١٥ وابن ماجه رقم ١٩٢٥ والحميدي في المسند ج٢ ص٥٣٢.

وأخرجه الإمام أحمد في المسند عن أم سلمة نحوه وفيه فقال – أي الرسول ﷺ – ((لا إلَّا في صمام واحد))، وأصله في الترمذي ج٤ ص٧٥ وقال حديث حسن صحيح. ثم ظهر لي أن أثبت رواية الإمام أحمد إذ ظاهرها أنه سبب آخر ولفظه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما قدم المهاجرون المدينة على أنصار تزوجوا من نسائهم وكان المهاجرون يجبون وكانت الأنصار لا تجبي فأراد رجل من المهاجرين امرأته على ذلك فأبت عليه حتى تسأل رسول الله ﷺ قالت: فأتته فاستحيت أن تسأله فسألته أم سلمة فنزلت: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} وقال: ((لا إلا في صمام واحد)). ولا مانع أن تكون الآية نزلت في هذا وهذا أو أنه سبب تعدد النزول.

وأما ما جاء عن ابن عمر أنها نزلت في إتيان النساء في أدبارهن كما في البخاري الإشارة إليه وفي الفتح ج٩ ص٢٥٥ و٢٥٦ فقد رده العلماء وعلى رأسهم حبر الأمة كما في الفتح وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله في تفسيره ج٢ ص٣٩٨ بعد ذكره الرد على ذلك وتبيَّن بما بيَّنَّا صحة معنى ما روي عن جابر وابن عباس من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول. وقد قال قبل ذلك: وأي محترث في الدبر فيقال ائته من وجهه.

وقال العلامة الشوكاني بعد ذكره بعض القائلين بالجواز وليس في أقوال هؤلاء حجة ألبتة. ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم فإنهم لم يأتوا بدليل يدلُّ على الجواز فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه كائنًا من كان ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلًا أتى امرأته في دبرها فليس في هذا ما يدلُّ على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك فقد أخطأ، بل الذي تدلُّ عليه الآية أن ذلك حرام، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلات على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه ا. هـ. كلام الشوكاني رحمه الله.

---

[1]- هذه الزيادة ضعيفة لأن الراوي لها النعمان بن راشد وهو ضعيف وقال الحافظ في الفتح وهذه الزيادة يشبه أن تكون من تفسير الزهري لخلوها من رواية غيره من أصحاب ابن المنكدر مع كثرتهم ا. هـ وأقول معناها مستفاد من أدلة أخرى كما في الفتح.

- (قلت): قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((إن شاء مجبية)): أي مكبوبة على وجهها، ((وإن شاء غير مجبية)): هذا يشمل الاستلقاء والاضطجاع والتخجية وهي كونها كالساجدة ((في صمام واحد)): أي ثقب واحد والمراد به القبل، وقال ابن الأثير الصمام: ما تسد به الفرجة فسمَّى الفرج به، ويجوز أن يكون في موضع صمام على حذف المضاف قال العلماء: وقوله تعالى: {فأتوا حرثكم أنى شئتم}: أي موضع الزرع من المرأة هو قبلها الذي يزرع فيه المني لابتغاء الولد، ففيه إباحة وطئها في قبلها إن شاء من بين يديها وإن شاء من ورائها وإن شاء مكبوبة، وأما الدبر فليس هو بحرث ولا موضع زرع. ومعنى قوله تعالى: {أنى شئتم}: كيف شئتم واتَّفق العلماء على تحريم وطئ المرأة في دبرها حائضًا كانت أو طاهرًا.

وأما الحافظ ابن كثير رحمه الله، فبعد أن ذكر قول ابن عمر في سبب نزول الآية قال: وهذا محمول على ما تقدَّم وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي عن علي بن عثمان النفيلي عن سعيد بن عيسى عن الفضل بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل عن كعب بن علقمة عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر إنه قد أكثر عليك القول أنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن، قال كذبوا عَلَيَّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} فقال: يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنَّا كنَّا معشر قريش نجبي النساء فلمَّا دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنَّا نريد فآذاهن فكرهن ذلك وأعظمنه وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن فأنزل الله: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}. وهذا إسناد صحيح ثم ساق جملة من الأحاديث الدالة على تحريم إتيان النساء في أدبارهن وبعدها قال: وقد تقدَّم قول ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وعبد الله بن عمرو في تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه.

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مسنده حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر ما تقول في الجواري أيحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدبر فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم.

قال القرطبي: هذه الأحاديث نص في إباحة الحال والهيئات كلها إذا كان الوطء في موضع الحرث، أي كيف شئتم من خلف ومن قدام وباركة ومستلقية ومضطجعة، فأما الإتيان في غير المأتى فما كان مباحًا، ولا يباح! وذكر الحرث يدلُّ على أن الإتيان في غير المأتى محرم. و{حرث} تشبيه، لأنهن مزدرع الذرية ، فلفظ {الحرث} يعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة إذ هو المزدرع. وأنشد ثعلب:

إنما الأرحام أر ... ضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها ... وعلى الله النبات

ففرج المرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات، فالحرث بمعنى المحترث. ووحد الحرث لأنه مصدر، كما يقال: رجل صوم، وقوم صوم.

قوله تعالى: {أنَّى شئتم}: معناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى: من أي وجه شئتم مقبلة ومدبرة، كما ذكرنا آنفًا. و{أنَّى} تجيء سؤالًا وإخبارًا عن أمر له جهات، فهو أعم في اللغة من (كيف)، ومن (أين)، ومن (متى)، هذا هو الاستعمال العربي في {أنَّى}. وقد فسَّر الناس {أنَّى} في هذه الآية بهذه الألفاظ. وفسَّرها سيبويه بـ(كيف)، و(من أين)

باجتماعهما. وذهبت فرقة ممَّن فسَّرها بـ(أين) إلى أنَّ الوطء في الدُّبر مباح، وممن نسب إليه هذا القول: سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وعبدالملك بن الماجشون، وحكي ذلك عن مالك في كتاب له يسمَّى (كتاب السر). وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجلّ من أن يكون له (كتاب سر). ووقع هذا القول في العتبية. وذكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند جواز هذا القول إلى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين، وإلى مالك من روايات كثيرة في كتاب (جماع النسوان وأحكام القرآن). وقال الكيا الطبري: وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه كان لا يرى بذلك بأسًا، ويتأول فيه قول الله عز وجل : {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ}[الشعراء: ١٦٦]. وقال: فتقديره تتركون مثل ذلك من أزواجكم، ولو لم يبح مثل ذلك من الأزواج لما صح ذلك، وليس المباح من الموضع الآخر مثلًا له، حتى يقال: تفعلون ذلك وتتركون مثله من المباح. قال الكيا: وهذا فيه نظر، إذ معناه: وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم مما فيه تسكين شهوتك، ولذة الوقاع حاصلة بهما جميعًا، فيجوز التَّوبيخ على هذا المعنى. وفي قوله تعالى: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} مع قوله: {فَأْتُوا حَرْثَكُمْ} ما يدلُّ على أن في المأتى اختصاصًا، وأنه مقصور على موضع الولد.

قلت: هذا هو الحق في المسألة. وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر أن العلماء لما اختلفوا في الرتقاء التي لا يوصل إلى وطئها أنه عيب تردُّ به، إلَّا شيئًا جاء عن عمر بن عبدالعزيز من وجه ليس بالقوي أنه لا تردُّ الرتقاء ولا غيرها، والفقهاء كلهم على خلاف ذلك، لأن المسيس هو المبتغى بالنكاح، وفي إجماعهم على هذا دليل على أن الدبر ليس بموضع وطء، ولو كان موضعًا للوطء ما ردَّت من لا يوصل إلى وطئها في الفرج. وفي إجماعهم أيضًا على أن العقيم التي لا تلد لا تردّ. والصحيح في هذه المسألة ما بيَّنَّاه. وما نسب إلى مالك وأصحابه من هذا باطل وهم مبرؤون من ذلك، لأن إباحة الإتيان مختصة بموضع الحرث، لقوله تعالى: {فَأْتُوا حَرْثَكُمْ}، ولأن الحكمة في خلق الأزواج بث النسل، فغير موضع النسل لا يناله ملك النكاح، وهذا هو الحق. وقد قال أصحاب أبي حنيفة: إنه عندنا ولائط الذكر سواء في الحكم، ولأن القذر والأذى في موضع النجو([1])أكثر من دم الحيض، فكان أشنع. وأما صمام البول فغير صمام الرحم. وقال ابن العربي في قبسه: قال لنا الشيخ الإمام فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين فقيه الوقت وإمامه: الفرج أشبه شيء بخمسة وثلاثين، وأخرج يده عاقدا بها. وقال: مسلك البول ما تحت الثلاثين، ومسلك الذكر والفرج ما اشتملت عليه الخمسة، وقد حرم الله تعالى الفرج حال الحيض لأجل النجاسة العارضة. فأولى أن يحرم الدبر لأجل النجاسة اللازمة. وقال مالك لابن وهب وعلي بن زياد لما أخبراه أن ناسا بمصر يتحدثون عنه أنه يجيز ذلك، فنفر من ذلك، وبادر إلى تكذيب الناقل فقال: كذبوا علي، كذبوا علي، كذبوا علي! ثم قال: ألستم قومًا عربًا؟ ألم يقل الله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ

١- النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

لَكُمْ} وهل يكون الحرث إلَّا في موضع المنبت! وما استدلَّ به المخالف من أن قوله عز وجل: {أنَّى شئتم} شامل للمسالك بحكم عمومها فلا حجة فيها، إذ هي مخصصة بما ذكرناه، وبأحاديث صحيحة حسان وشهيرة رواها عن رسول الله ﷺ اثنا عشر صحابيًّا بمتون مختلفة، كلها متواردة على تحريم إتيان النساء في الأدبار، ذكرها أحمد بن حنبل في مسنده، وأبو داود والنسائي والترمذي وغيرهم. وقد جمعها أبو الفرج بن الجوزي بطرقها في جزء سمَّاه (تحريم المحل المكروه). ولشيخنا أبي العباس أيضًا في ذلك جزء سمَّاه (إظهار إدبار، من أجاز الوطء في الأدبار).

قلت: وهذا هو الحق المتبع والصحيح في المسألة، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه. وقد حذرنا من زلة العالم. وقد روي عن ابن عمر خلاف هذا، وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به رضي الله عنه. وكذلك كذَّب نافع من أخبر عنه بذلك، كما ذكر النسائي، وقد تقدم. وأنكر ذلك مالك واستعظمه، وكذَّب من نسب ذلك إليه. وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجواري حين أحمض بهن؟ قال: وما التحميض([1])؟ فذكرت له الدبر، فقال: هل يفعل ذلك أحد من المسلمين! وأسند عن خزيمة بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أيها الناس إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن([2]))). ومثله عن علي بن طلق. وروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: ((تلك اللوطية الصغرى([3]))): يعني إتيان المرأة في دبرها. وروي عن طاوس أنه قال: كان بدء عمل قوم لوط إتيان النساء في أدبارهن. قال ابن المنذر: وإذا ثبت الشيء عن رسول الله ﷺ استغني به عما سواه([4]).

١- التحميض: أن يأتي الرجل المرأة في غير مأتاها الذي يكون موضع الولد.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٠٠٥)، وقال: وللحديث شواهد ذكرتها فى (آداب الزفاف) فليراجعها فيه (ص ٢٩) من شاء.

٣- (قلت): حسنه الإمام الألباني في غاية المرام (٢٣٤)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٤٢٥).

٤- (قلت): ورد أحاديث كثيرة في تحريم اتيان المرأة من الدبر منها:

- ما رواه ابن حبان في صحيحه (٤١٩١)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وحكم عليه الإمام الألباني بأنه حسن صحيح: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى امْرَأَةً فِي دبرها)).

- وحديثين آخرين في الجامع الصغير وزيادته (١٠٨٢٩)، وصححهما الإمام الألباني: عن أبي هريرة: ((ملعون من أتى امرأة في دبرها)).

- وبرقم (١٠٨٨٦)، ((من أتى كاهنا فصدقه بما يقول أو أتى امرأة حائضًا أو أتى امرأة في دبرها فقد برئ ممَّا أُنزل على محمد)).

- وحديث آخر في العقيدة الطحاوية ص (٣٦٠)، وصححه الإمام الألباني: عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد)).

- وحديث آخر في الصحيحة (٢٣٩٩)، وصححه الإمام الألباني: ((نهى عن محاشي النساء)). وله شاهد في آداب الزفاف ص ٣١. ((محاشي النساء)): قال ابن الأثير في النهاية: هكذا جاء في رواية وهي جمع محشاة؛ لأسفل مواضع الطعام من الأمعاء فكنى به عن الأدبار.

{وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ}: أي قدموا ما ينفعكم غدا، فحذف المفعول، وقد صرح به في قوله تعالى: {وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}[البقرة: ١١٠]. فالمعنى قدموا لأنفسكم الطاعة والعمل الصالح. وقيل ابتغاء الولد والنسل، لأن الولد خير الدنيا والآخرة، فقد يكون شفيعًا وجنة. وقيل: هو التزوج بالعفائف، ليكون الولد صالحًا طاهرًا. وقيل: هو تقدم الافراط، كما قال النبي ﷺ: ((من قدم ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلَّا تحلَّة القسم([1]))، الحديث. وسيأتي في [مريم] إن شاء الله تعالى. وقال ابن عباس وعطاء: أي قدموا ذكر الله عند الجماع، كما قال ﷺ: ((لو أن أحدكم إذا أتى امرأته قال بسم الله اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره شيطان أبدًا([2]))) أخرجه مسلم.

قال ابن العثيمين: {وقدِّموا لأنفسكم} يعني الطاعات، وما ينفعنا عند الله عز وجل؛ وإنَّما قال ذلك بعد ذكر إتيان النساء حتى لا ننشغل بهؤلاء النساء عن تقديم ما ينفعنا يوم القيامة؛ ومن التقديم للنفس أن يبتغي الإنسان بإتيان أهله تحصين فرجه، وتحصين فرج امرأته؛ وطلب الولد الصالح، وما أشبه ذلك مما يقارن الجماع من الأعمال الصالحة بالنية.

{واتَّقوا الله}: لما أمرنا بالتقديم لأنفسنا بالأعمال الصالحة أمرنا بالتقوى – وهي فعل أوامره –، واجتناب نواهيه.

قال القرطبي: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} تحذير { واعلموا أنكم ملاقوه} خبر يقتضي المبالغة في التحذير، أي فهو مجازيكم على البر والإثم.

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}: تأنيس لفاعل البر ومبتغي سنن الهدى.

قال ابن العثيمين: {واعلموا أنكم ملاقوه}: أي في يوم القيامة؛ لقوله تعالى: {يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه ... }[الانشقاق: ٦، ٧] الآيات.

{وبشِّر المؤمنين}: أي أخبرهم بما يسرهم؛ و(المؤمن) هنا يتضمن المسلم؛ وعلى هذا فلابدَّ مع الإيمان من عمل صالح.

قال السعدي: لم يذكر المبشَّر به ليدلَّ على العموم، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير، رتب على الإيمان فهو داخل في هذه البشارة.

وفيها محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرُّهم، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعدَّ الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

١- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ. بل الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ: عن رسول الله ﷺ: ((لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ، إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ)). البخاري (٦٦٥٦)، ومسلم (٢٦٣٢).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٠١٢)، وقال: أخرجه البخاري (٤٩/١ ، ٤٣٦/٣ ، ٢٠٤/٤ ، ٤٥١)، ومسلم (١٥٥/٤)، وأبو داود (٢١٦١)، والنسائى فى (العشرة) من (الكبرى) (٧٩/١)، والترمذى (٢٠٢/١)، والدارمي (١٤٥/٢)، وابن ماجه (١٩١٩)، وابن السنى فى (عمل اليوم والليلة) (٦٠٢)، والبيهقي (١٤٩/٧)، والطيالسي (٢٧٠٥)، وأحمد (٢١٦/١ ـ ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦)، وابن أبى شيبة (٤٩/٧/٢).

قال أبو زهرة: في هذه الآية أشار الله سبحانه وتعالى إلى ثلاثة أمور:

أولها: بيان أن المقصد من الزواج ليس هو قضاء الوطر وإشباع الشهوة، فإن ذلك كما يكون في زواج شرعي يكون في المسافدة الحيوانية، إنما المقصد هو النسل وبقاء هذا الإنسان في الوجود على أكمل وجه، وتهذيب النشء بين أبويه وفي أحضانهما لتنمو غرائزه وتتهذب طبائعه، وتستيقظ ينابيع الخير فيه.

وثاني هذه الأمور: أن ما يكون بين الزوجين اللذين جمعهما الله بكلمة الشرع وحكمه هو الأنس الروحي مع المتعة الجسدية، وإن ذلك ليقتضي زوال الكلفة، وأن يكون بينهما من المباسطة ما تسهل معه الحياة، ويكون في البيت تخفيف أعبائها، واستجمام القوى، ليستطيع تحمل تكليفاتها.

وثالث هذه الأمور: أن الدين يجب أن يكون مسيطرًا، ويجب أن تكون العدالة قائمة، والمودَّة حاكمة فيما بين الرجل والمرأة.

وقد أشير إلى الأمر الأول بقوله تعالى: {نسَاؤكمْ حَرْثٌ لكُمْ}، وأشير إلى الأمر الثاني بقوله تعالى: {فَأتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، وأشير إلى الأمر الثالث بقوله تعالى: {وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن النساء حرث للرجال؛ بمعنى موضع زراعة.

٢- أن الرجل حر في الحرث: إن شاء فعل؛ وإن شاء لم يفعل؛ لكن عليه أن يعاشر زوجته بالمعروف في كل ما يعاملها به؛ لقوله تعالى: {وعاشروهن بالمعروف}[النساء: ١٩]، وقوله تعالى: {ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم}[البقرة: ٢٢٨].

٣- أنه ينبغي للإنسان أن يحاول كثرة النسل؛ لقوله تعالى: {حرث لكم}؛ وإذا كانت حرثًا فهل الإنسان عندما يحرث أرضًا يقلل من الزرع، أو يكثر من الزرع؟

فالجواب: الإنسان عندما يحرث أرضًا يكثر من الزرع؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: ((تزوجوا الودود الولود([1]))؛ وأما القول بتحديد النسل فهذا لا شك أنه من دسائس أعداء المسلمين يريدون من المسلمين ألّا يكثروا؛ لأنهم إذا كثروا أرعبوهم، واستغنوا بأنفسهم عنهم: حرثوا الأرض، وشغلوا التجارة، وحصل بذلك ارتفاع للاقتصاد، وغير ذلك من المصالح؛ فإذا بقوا

١- أخرجه أحمد ٣/١٥٨، حديث رقم ١٢٦٤٠، وأخرجه أبو داود ص١٣٧٤، كتاب النكاح، باب ٣، النهي عن تزوج من لم يلد من النساء، حديث رقم ٢٠٥٠/أ، وأخرجه النسائي ص٢٢٩٦، كتاب النكاح، باب ١١: كراهية تزويج العقيم، حديث رقم ٣٢٢٩.

مستحسرين قليلين صاروا أذلَّة، وصاروا محتاجين لغيرهم في كل شيء؛ ثم هل الأمر بيد الإنسان في بقاء النسل الذي حدَّده؟! فقد يموت هؤلاء المحدِّدون؛ فلا يبقى للإنسان نسل.

٤- جواز إتيان المرأة في محل الحرث من أي جهة؛ قوله تعالى: {فأتوا حرثكم أنى شئتم}.

٥- مشروعية أن ينوي الإنسان بجماعه الولد؛ لقوله تعالى: {فأتوا حرثكم}؛ فجعل الإتيان للحرث؛ فكأنه أشار إلى أنه ينبغي للإنسان أن يأتي المرأة من أجل طلب الولد؛ وقد ذكروا عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه ما جامع إلَّا بقصد الولد؛ وعلى كل حال الناس مختلفون في هذا؛ ولا مانع من أن الإنسان يريد بذلك الولد، ويريد بذلك قضاء الوطر.

٦- أنه ينبغي للإنسان أن يحافظ على هذه المرأة التي أضيفت له، وسمِّيت حرثًا له كما يحافظ على حرث أرضه.

٧- أنه يشرع للمرء أن يقدِّم لنفسه عند الجماع؛ لقوله تعالى: {وقدِّموا لأنفسكم}؛ وسبق معنى قوله تعالى: {وقدموا لأنفسكم}.

٨- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله}.

٩- وجوب معاملة الأهل حسب ما شرع الله؛ لأن ذلك من تقوى الله؛ ولقوله تعالى: {من حيث أمركم الله}.

١٠- إثبات البعث؛ لقوله تعالى: {واعلموا أنكم ملاقوه}.

١١- إثبات رؤية الله؛ لقوله تعالى: {ملاقوه}؛ والملاقاة في الأصل المقابلة مع عدم الحاجب.

١٢- تهديد الإنسان من المخالفة؛ لأنه لمَّا أُمر بالتَّقوى قال تعالى: {واعلموا أنكم ملاقوه}.

١٣- أن من البلاغة إذا أخبرت إنسانًا بأمر هام أن تقدِّم بين يدي الخبر ما يقتضي انتباهه؛ لقوله تعالى: {واعلموا}؛ وهذا مما يزيد الإنسان انتباهًا وتحسُّبًا لهذه الملاقاة.

١٤- أن المؤمنين ناجون عند ملاقاة الله؛ لقوله تعالى: {وبشِّر المؤمنين}.

١٥- أن البشارة للمؤمنين مطلقة، حيث قال تعالى: {وبشِّر المؤمنين}.

١٦- أن البشارة للمؤمنين في الدنيا، وفي الآخرة؛ ووجهه: عدم التقييد؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: {لهم البشرى في الحياة وفي الآخرة}[يونس: ٦٤]؛ وسئل النبي ﷺ عنها فقال: ((الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له[١])).

١- أخرجه أحمد ٥/٣١٥، ٢٣٠٦٢، وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٠٩، كتاب تعبير الرؤيا، باب ١: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث رقم ٣٨٩٨، وأورده الألباني في صحيح ابن ماجة ٢/٣٣٨، حديث رقم ٣١٤٦.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٨٢٠)، وصفة الصلاة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر؛ فقال: ((أيها الناس! إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلَّا الرؤيا الصالحة؛ يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني ...)) إلخ.

١٧- تحذير غير المؤمنين من هذه الملاقاة؛ لقوله تعالى: {وبشِّر المؤمنين}؛ فدلَّ ذلك على أن غير المؤمنين لا بشرى لهم.

١٨- فضيلة الإيمان؛ لأن الله علَّق البِّشارة عليه؛ فقال تعالى: {وبشِّر المؤمنين}.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)

قال ابن العثيمين: {ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرُّوا وتتَّقوا وتصلحوا بين الناس}: أي لا تصيروا الحلف بالله معترضًا بينكم وبين البرِّ والتَّقوى والإصلاح بين الناس؛ فـ(البر) فعل الخيرات؛ و(التَّقوى) هنا اجتناب الشرور؛ و(الإصلاح بين الناس) التوفيق بين المتنازعين حتى يلتئم بعضهم إلى بعض، ويزول ما في أنفسهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٥ص٢٧٧: فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ أَوْ كَالْمُجْمِعِينَ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهَا: أَنَّكُمْ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ مَانِعًا لَكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ بِهِ مِنْ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، بِأَنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يَفْعَلَ مَعْرُوفًا مُسْتَحَبًّا أَوْ وَاجِبًا، أَوْ لَيَفْعَلَنَّ مَكْرُوهًا أَوْ حَرَامًا وَنَحْوَهُ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ: افْعَلْ ذَلِكَ أَوْ لَا تَفْعَلْ هَذَا. قَالَ: قَدْ حَلَفْت بِاَللَّهِ، فَيَجْعَلُ اللَّهَ عُرْضَةً لِيَمِينِهِ. فَإِذَا كَانَ قَدْ نَهَى عِبَادَهُ أَنْ يَجْعَلُوا نَفْسَهُ مَانِعًا لَهُمْ فِي الْحِلْفِ مِنْ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَالْحَلِفُ بِهَذِهِ الْأَيْمَانِ إنْ كَانَ دَاخِلًا فِي عُمُومِ الْحَلِفِ بِهِ وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ مَانِعًا مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى، فَإِنَّهُ إذَا نَهَى أَنْ يَكُونَ هُوَ - سُبْحَانَهُ - عُرْضَةً لِأَيْمَانِنَا أَنْ نَبَرَّ وَنَتَّقِيَ فَغَيْرُهُ أَوْلَى أَنْ نَكُونَ مَنْهِيِّينَ عَنْ جَعْلِهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِنَا، وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّنَا مَنْهِيُّونَ عَنْ أَنْ نَجْعَلَ شَيْئًا مِنْ الْأَشْيَاءِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِنَا أَنْ نَبَرَّ وَنَتَّقِيَ وَنُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ فَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا هُوَ لِمَا فِي الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالْإِصْلَاحِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَأْمُرُ بِهِ، فَإِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ بِالنَّذْرِ أَوْ بِالطَّلَاقِ أَوْ بِالْعَتَاقِ أَنْ لَا يَبَرَّ وَلَا يَتَّقِيَ وَلَا يُصْلِحَ فَهُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إنْ وَفَّى بِذَلِكَ فَقَدْ جَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ عُرْضَةً لِيَمِينِهِ أَنْ يَبَرَّ وَيَتَّقِيَ وَيُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ حَنِثَ فِيهَا وَقَعَ عَلَيْهِ الطَّلَاقُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ فِعْلُ الْمَنْذُورِ، فَقَدْ يَكُونُ خُرُوجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَبْعَدَ عَنْ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ الْأَمْرِ الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَقَامَ عَلَى يَمِينِهِ تَرَكَ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ تَرَكَ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، فَصَارَتْ عُرْضَةً لِيَمِينِهِ أَنْ يَبَرَّ وَيَتَّقِيَ فَلَا يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ إلَّا بِالْكَفَّارَةِ.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج٣٣ص٤٧: وَأَمَّا أَنْوَاعُ الْأَيْمَانِ الثَّلَاثَةِ فَالْأَوَّلُ: أَنْ يَعْقِدَ الْيَمِينَ بِاَللَّهِ. وَالثَّانِي: أَنْ يَعْقِدَهَا لِلَّهِ. وَالثَّالِثُ: أَنْ يَعْقِدَهَا بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ لِغَيْرِ اللَّهِ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ، فَهُوَ الْحَلِفُ بِاَللَّهِ. فَهَذِهِ يَمِينٌ مُنْعَقِدَةٌ، مُكَفَّرَةٌ

أخرجه مسلم (٢/٤٨)، (وأبو عوانة (٢/١٧٠)، وأبو داود (١/١٤٠)، والنسائي (١/١٦٠ و ١٦٨)، والدارمي (١/٣٠٤)، والطحاوي (١/١٣٧)، والبيهقي (٢/٨٧ - ٨٨و١١٠)، وأحمد (١/٢١٩) عن سليمان بن سُحَيم عن إبراهيم بن عبد الله بن مَعْبَد عن أبيه عنه. وروى منه ابن ماجه الجملة الأولى.

بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا الثَّالِثُ، وَهُوَ أَنْ يَعْقِدَهَا بِمَخْلُوقٍ أَوْ لِمَخْلُوقٍ مِثْلَ أَنْ يَحْلِفَ بِالطَّوَاغِيتِ، أَوْ بِأَبِيهِ، أَوْ الْكَعْبَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهَذِهِ يَمِينٌ غَيْرُ مُحْتَرَمَةٍ، لَا تَنْعَقِدُ، وَلَا كَفَّارَةَ بِالْحِنْثِ فِيهَا بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، لَكِنَّ نَفْسَ الْحَلِفِ بِهَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللاتِ وَالْعُزَّى. فَلْيَقُلْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ([1]))، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ الْحَلِفُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، إلَّا أَنَّ فِي الْحَلِفِ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمد، وَقَوْلِ الْجُمْهُورِ، أَنَّهَا يَمِينٌ غَيْرُ مُنْعَقِدَةٍ وَلَا كَفَّارَةَ فِيهَا.

وَأَمَّا عَقْدُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ، فَمِثْلَ أَنْ يُنْذِرَ لِلْأَوْثَانِ وَالْكَنَائِسِ، أَوْ يَحْلِفَ بِذَلِكَ فَيَقُولُ: إنْ فَعَلْت كَذَا، فَعَلَيَّ لِلْكَنِيسَةِ كَذَا، أَوْ لِقَبْرِ فُلَانٍ كَذَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهَذَا إنْ كَانَ نَذْرًا فَهُوَ شِرْكٌ، وَإِنْ كَانَ يَمِينًا، فَهُوَ شِرْكٌ، إذَا كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ، كَمَا يَقُولُ الْمُسْلِمُ: إنْ فَعَلْت كَذَا فَعَلَيَّ هَدْيٌ، وَأَمَّا إذَا قَالَهُ عَلَى وَجْهِ الْبُغْضِ لِذَلِكَ، كَمَا يَقُولُ الْمُسْلِمُ: إنْ فَعَلْت كَذَا فَأَنَا يَهُودِيٌّ، أَوْ نَصْرَانِيٌّ، فَهَذَا لَيْسَ مُشْرِكًا، وَفِي لُزُومِ الْكَفَّارَةِ لَهُ قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ لِلْعُلَمَاءِ. وَمَا كَانَ مِنْ نَذْرِ شِرْكٍ أَوْ يَمِينِ شِرْكٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ إلَى اللَّهِ مِنْ عَقْدِهَا، لَيْسَ فِيهَا وَفَاءٌ وَلَا كَفَّارَةٌ، إنَّمَا ذَلِكَ فِيمَا كَانَ لِلَّهِ أَوْ بِاَللَّهِ.

وَأَمَّا الْمَعْقُودُ لِلَّهِ فَعَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ التَّقَرُّبَ إلَى اللَّهِ، لَا مُجَرَّدَ أَنْ يَحُضَّ أَوْ يَمْنَعَ، وَهَذَا هُوَ النَّذْرُ. فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ([2]))، وَثَبَتَ عَنْهُ أَنْ قَالَ: ((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ([3]))). فَإِذَا كَانَ قَصْدُ الْإِنْسَانِ أَنْ يُنْذِرَ لِلَّهِ طَاعَةً فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِهِ، وَإِنْ نَذَرَ مَا لَيْسَ بِطَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِهِ. وَمَا كَانَ مُحَرَّمًا لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ، لَكِنْ إذَا لَمْ يُوفِ بِالنَّذْرِ لِلَّهِ فَعَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ عِنْدَ أَكْثَرِ السَّلَفِ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَد، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ. قِيلَ: مُطْلَقًا. وَقِيلَ: إذَا كَانَ فِي مَعْنَى الْيَمِينِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ الْحَضَّ أَوْ الْمَنْعَ أَوْ التَّصْدِيقَ أَوْ التَّكْذِيبَ، فَهَذَا هُوَ الْحَلِفُ بِالنَّذْرِ، وَالطَّلَاقُ، وَالْعَتَاقُ، وَالظِّهَارُ، وَالْحَرَامُ، كَقَوْلِهِ: إنْ فَعَلْت كَذَا فَعَلَيَّ الْحَجُّ، وَصَوْمُ سَنَةٍ، وَمَالِي صَدَقَةٌ، وَعَبِيدِي أَحْرَارٌ، وَنِسَائِي طَوَالِقُ، فَهَذَا الصِّنْفُ يَدْخُلُ فِي مَسَائِلِ الْأَيْمَانِ، وَيَدْخُلُ فِي مَسَائِلِ الطَّلَاقِ، وَالْعَتَاقِ، وَالنَّذْرِ، وَالظِّهَارِ، وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَلْزَمُهُ مَا حَلَفَ بِهِ إذَا حَنِثَ؛ لِأَنَّهُ الْتَزَمَ الْجَزَاءَ عِنْدَ وُجُودِ الشَّرْطِ، وَقَدْ وُجِدَ الشَّرْطُ، فَيَلْزَمُهُ، كَنَذْرِ التَّبَرُّرِ الْمُعَلَّقِ بِالشَّرْطِ.

١- البخاري في التفسير (٤٨٦٠)، ومسلم في الأيمان (٥/١٦٤٧).

٢- مسلم في النذر (١٢/١٦٤٥).

٣- البخاري في الأيمان (٦٦٩٦)، وأبو داود في الأيمان (٣٢٨٩).

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: هَذِهِ يَمِينٌ غَيْرُ مُنْعَقِدَةٍ فَلَا شَيْءَ فِيهَا إذَا حَنِثَ، لَا كَفَّارَةَ، وَلَا وُقُوعَ، لِأَنَّ هَذَا حَلِفٌ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاَللَّهِ أَوْ لِيَسْكُتْ([١]))، وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ: ((لَا تَحْلِفُوا إلَّا بِاَللَّهِ([٢]))).

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ هَذِهِ أَيْمَانٌ مُكَفِّرَةٌ إذَا حَنِثَ فِيهَا كَغَيْرِهَا مِنْ الْأَيْمَانِ. وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا عَقَدَهُ لِلَّهِ مِنْ الْوُجُوبِ – وَهُوَ الْحَلِفُ بِالنَّذْرِ – وَمَا عَقَدَهُ لِلَّهِ مِنْ تَحْرِيمٍ – وَهُوَ الْحَلِفُ بِالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ – فَقَالُوا فِي الْأَوَّلِ: عَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ إذَا حَنِثَ. وَقَالُوا فِي الثَّانِي: يَلْزَمُهُ مَا عَلَّقَهُ وَهُوَ الَّذِي حَلَفَ بِهِ إذَا حَنِثَ؛ لِأَنَّ الْمُلْتَزِمَ فِي الْأَوَّلِ فِعْلٌ وَاجِبٌ، فَلَا يَبْرَأُ إلَّا بِفِعْلِهِ فَيُمْكِنُهُ التَّكْفِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَالْمُلْتَزِمُ فِي الثَّانِي وُقُوعُ حُرْمَةٍ، وَهَذَا يَحْصُلُ بِالشَّرْطِ فَلَا يَرْتَفِعُ بِالْكَفَّارَةِ([٣]).

والْقَوْلُ الثَّالِثُ: هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالِاعْتِبَارُ وَعَلَيْهِ تَدُلُّ أَقْوَالِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الجملة، كما قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ فِي كِتَابِهِ: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ} إلَى قَوْلِهِ: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ}[المائدة: ٨٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}[التحريم: ٢]، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ([٤]))، وَهَذَا يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ لَفْظًا وَمَعْنًى. أَمَّا اللَّفْظُ فَلِقَوْلِهِ: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}، وَقَوْلِهِ: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ}، وَهَذَا خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ أَيْمَانِهِمْ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا، وَالْحِلْفِ بِالْمَخْلُوقَاتِ شِرْكٌ لَيْسَ مِنْ أَيْمَانِهِمْ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ([٥]))، رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ، فَلَا تَدْخُلُ هَذِهِ فِي أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ. وَأَمَّا مَا عَقَدَهُ بِاَللَّهِ أَوْ لِلَّهِ فَهُوَ مِنْ أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا لَوْ قَالَ: أَيْمَانُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَيْمَانُ الْبِيعَةِ تَلْزَمُنِي، وَنَوَى دُخُولَ الطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ، دَخَلَ فِي ذَلِكَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ، وَلَا أَعْلَمُ فِيهِ نِزَاعًا، وَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْحَلِفُ بِالْكَعْبَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِذَا كَانَتْ مِنْ أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ تَنَاوَلَهَا الْخِطَابُ.

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ الْكَفَّارَةَ فِي أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِئَلَّا تَكُونَ الْيَمِينُ مُوجِبَةً عَلَيْهِمْ أَوْ مُحَرِّمَةً عَلَيْهِمْ لَا مَخْرَجَ لَهُمْ، كَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ تُشْرَعَ الْكَفَّارَةُ، لَمْ يَكُنْ لِلْحَالِفِ مَخْرَجٌ إلَّا الْوَفَاءُ بِالْيَمِينِ، فَلَوْ كَانَ

١- البخاري في الأيمان (٦٦٤٦) ومسلم في الأيمان (٣/١٦٤٦).

٢- مصنف عبدالرزاق (٨/٤٦٦).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (١٣٢٠٥)، عن أبي هريرة بلفظ: ((لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون)). وقال: انظر حديث رقم : ٧٢٤٩ في صحيح الجامع.

٣- (قلت): عدم التفريق هو الصواب، وهو اختيار شيخ الإسلام رحمه الله.

٤- البخاري في الأيمان (٦٦٢٢)، ومسلم في الأيمان (١١/١٦٥٠).

٥- أحمد ١/٤٧، ٢/٣٤، والترمذي في النذور (١٥٣٥) وقال: (حسن).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٥٦١)، والصحيحة (٢٠٤٢)، وانظر حديث رقم : ٦٢٠٤ في صحيح الجامع.

مِنَ الْأَيْمَانِ مَا لَا كَفَّارَةَ فِيهِ كَانَتْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ مَوْجُودَةً. وَأَيْضًا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ}[البقرة: ٢٢٤]، نَهَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلُوا الْحَلِفَ بِاَللَّهِ مَانِعًا لَهُمْ مِنْ فِعْلِ مَا أُمِرَ بِهِ؛ لِئَلَّا يَمْتَنِعُوا عَنْ طَاعَتِهِ بِالْيَمِينِ الَّتِي حَلَفُوهَا، فَلَوْ كَانَ فِي الْأَيْمَانِ مَا يَنْعَقِدُ وَلَا كَفَّارَةَ فِيهِ لَكَانَ ذَلِكَ مَانِعًا لَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ إذَا حَلَفُوا بِهِ.

قال السعدي: المقصود من اليمين والقسم تعظيم المقسم به، وتأكيد المقسم عليه، وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك إذا كان البرُّ باليمين، يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي: مانعة وحائلة عن أن يبروا: أن يفعلوا خيرًا، أو يتَّقوا شرًا، أو يصلحوا بين الناس.

قال الطبري: وأما قوله: {أن تبرُّوا}: عنيَ به فعل الخير كله. وذلك أن أفعال الخير كلها من البر، ولم يخصص الله في قوله: {أن تبرُّوا} معنى دون معنى من معاني (البر)، فهو على عمومه، والبر بذوي القرابة أحد معاني (البر).

وأما قوله: {وتتَّقوا}، فإن معناه: أن تتَّقوا ربكم فتحذروه وتحذروا عقابه في فرائضه وحدوده أن تضيِّعوها أو تتعدَّوْها.

عن ابن عباس في قوله: {أن تبرُّوا وتتَّقوا} قال: كان الرجل يحلف على الشيء من البر والتقوى لا يفعله، فنهى الله عز وجل عن ذلك فقال: {ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس} الآية. قال: ويقال: لا يتق بعضكم بعضًا بي، تحلفون بي وأنتم كاذبون، ليصدِّقكم الناس وتصلحون بينهم، فذلك قوله: {أن تبروا وتتقوا}، الآية.

وأما قوله: {وتصلحوا بين الناس}، فهو الإصلاح بينهم بالمعروف فيما لا مأثَم فيه، وفيما يحبه الله دون ما يكرهه.

قال أبو زهرة: فالخير الذي يطلب، ولا يصح أن تحاجز اليمين دونه ثلاثة أنواع على حسب ما كان يقع من الناس في أيمانهم:

أولها: البر بالرحم، كما حصل في يمين الصديق الكريم أبي بكر رضي الله عنه([1]).

وثانيها: التَّقوى بأن يجعل بينه وبين أذى الناس وغضب الله بأذاهم وقاية، كما يتبيَّن في حلف الرجل في أهله مضارَّةً بهن وإيذاءً لهن.

١- (قلت): يقصد ما روى أن سيدنا أبا بكر حلف ألَّا يعطي ذا قرابة له عندما خاض في شأن ابنته عائشة في حديث الإفك عليها، فنزل قوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

والنوع الثالث: الصلح بين الناس كما حدث في يمين عبد الله بن رواحة مع خَتَنِه النعمان بن بشير رضي الله عنهما([1])، وما من خير يحلف الناس على الامتناع عنه إلَّا وهو داخل في هذه الأنواع الثلاثة.

قال السعدي: فمن حلف على ترك واجب وجب حنثه، وحرم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب، استحب له الحنث، ومن حلف على فعل محرَّم، وجب الحنث، أو على فعل مكروه استحب الحنث، وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث.

ويستدلُّ بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه (إذا تزاحمت المصالح، قدِّم أهمها)، فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدِّمت لذلك.

قال الطبري: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}: يعني تعالى ذكره بذلك: {والله سميع([2])} لما يقوله الحالفُ منكم بالله إذا حلف فقال: (والله لا أبر ولا أتَّقي ولا أصلح بين الناس)، ولغير ذلك من قيلكم وأيمانكم - {عليم([3])} بما تقصدون وتبتغون بحلفكم ذلك، ألخير تريدون أم غيره؟ لأني علام الغيوب وما تضمره الصدور، لا تخفى عليّ خافية، ولا ينكتم عني أمر عَلَن فظهر، أو خَفي فبَطَن.

وهذا من الله تعالى ذكره تهدُّد ووعيدٌ. يقول تعالى ذكره: واتقون أيها الناس أن تظهروا بألسنتكم من القول، أو بأبدانكم من الفعل، ما نهيتكم عنه - أو تضمروا في أنفسكم وتعزموا بقلوبكم من الإرادات والنيَّات بفعل ما زجرتكم عنه، فتستحقوا بذلك مني العقوبة التي قد عرَّفتكموها، فإنّي مطَّلع على جميع ما تعلنونه أو تُسرُّونه.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه وتعالت كلماته الآية الكريمة بهذه الجملة السامية للإشارة إلى أنه سميع لأيمانهم عند النُّطق بها وتوثيقهم القول بها، عليم بالدوافع إليها، والبواعث التي بعثت عليها، والنتائج التي تتأدَّى إليها؛ وإنه تقدَّست ذاته، وتعالت صفاته، يغفر لهم أيمانهم بالحنث ثم الكفارة في نظير الخير العميم والنفع العظيم، ومنع الضرر والضرار بالأهل، والبر بذوي الأرحام؛ ثم ذلك التذييل الكريم لا يخلو من إنذار بغضب الرحمن الرحيم إن أصروا على ما هم عليه ولم يثوبوا إلى رشدهم ويتخذوا تحلة أيمانهم طريقا للعودة إلى البر.

١- (قلت): يقصد ما روي أيضًا أن عبد الله بن رواحة كان بينه وبين خَتَنِه (زوج أخته) النعمان ابن بشير شيء، فحلف بالله ألَّا يدخل عليه ولا يكلِّمه، ولا يصلح بينه وبين خصمه، وإذا قيل له فيه قال: قد حلفت بالله ألَّا أفعل فلا يحلُّ لي إلَّا أن تبر يميني؛ فكانت الآية الكريمة ناهية عن ذلك.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

٣- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- نهي الإنسان عن جعل اليمين مانعة له من فعل البر والتقوى، والإصلاح بين الناس؛ والنهي للتحريم إذا كانت مانعة له من واجب؛ وقد صح عن النبي ﷺ قوله: ((إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفِّر عن يمينك وائت الذي هو خير([1]))).

٢- الحث على البر والتَّقوى والإصلاح بين الناس؛ وجهه: أنه إذا كان الله نهانا أن نجعل اليمين مانعًا من فعل البر فما بالك إذا لم يكن هناك يمين.

٣- فضيلة الإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: {وتصلحوا بين الناس}؛ فنصَّ عليه مع أنه من البر؛ والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدلُّ على العناية به، والاهتمام به؛ ولا ريب أن الإصلاح بين الناس من الأمور الهامة لما فيه من رأب الصدع، ولم الشعث، وجمع الشمل؛ وهذا خلاف من يفعلون ما يوجب القطيعة بين الناس، مثل النميمة - فهي توجب القطيعة بين الناس -؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((لا يدخل الجنة نمَّام([2]))).

٤- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {السميع} و{العليم}؛ وما تضمَّناه من صفة، وما تضمَّناه من حكم وأثر.

٥- تحذير الإنسان من المخالفة؛ وجهه: أنه إذا كان الله سميعًا عليمًا فإيَّاك أن تخالف ما أمرك به؛ فإنك إن خالفته بما يسمع سمعك؛ وبما يعلم علمك؛ فاحذر الله عز وجل.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

قال ابن العثيمين: {لا يؤاخذكم الله باللَّغو في أيمانكم}؛ {يؤاخذ} لها معنيان؛ أحدهما: المؤاخذة بالعقوبة؛ والثاني: المؤاخذة بإلزام الكفارة؛ و{اللَّغو} في اللغة الشيء الساقط؛ والمراد به هنا اليمين التي لا يقصدها الحالف، كقول: (لا والله)؛ (بلى والله) في عرض حديثه؛ ويبيِّن ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: {لا يؤاخذكم الله باللَّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان}[المائدة: ٨٩]: أي نويتم عقده؛ وال{أيمان} جمع يمين؛ وهو القسم؛ والقسم: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة - هي الواو، والباء، والتاء -؛ مثل: (والله)، و(بالله)، و(تالله).

١- أخرجه البخاري ص٥٥٤، كتاب الإيمان والنذور، باب ١: قول الله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم}، حديث رقم ٦٦٢٢، وأخرجه مسلم ص٩٦٧، كتاب الإيمان، باب ٣: ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها ... ، حديث رقم ٤٢٨١ [١٩] ١٦٢٥.

٢- أخرجه مسلم ٦٩٦، كتاب الإيمان، باب ٤٥: بيان غلظ تحريم النميمة، حديث رقم ٢٩٠ [١٦٨] ١٠٥.

قال القرطبي: {بِاللَّغْوِ}، {اللَّغو}: مصدر لغا يلغو ويلغى، ولغي يلغى لغا إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، أو بما يلغى إثمه، وفي الحديث: ((إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت([1]))). ولغة أبي هريرة: ((فقد لغيت)). وقال الشاعر: ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلم

وقال آخر: ولست بمأخوذ بلغو تقوله ... إذا لم تعمد عاقدات العزائم

واختلف العلماء في اليمين التي هي لغو، فقال ابن عباس: (هو قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله، دون قصد لليمين). قال المروزي: لغو اليمين التي اتفق العلماء على أنها لغو هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله، في حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريدها. وروى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أن عروة حدثه أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: (أيمان اللغو ما كانت في المراء والهزل والمزاحة والحديث الذي لا ينعقد عليه القلب). وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزل قوله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللَّغو في أيمانكم} في قول الرجل: لا والله، وبلى والله.

قوله تعالى: {فِي أَيْمَانِكُمْ}: الأيمان جمع يمين، واليمين الحلف، وأصله أن العرب كانت إذا تحالفت أو تعاقدت أخذ الرجل يمين صاحبه بيمينه، ثم كثر ذلك حتى سمِّي الحلف والعهد نفسه يمينًا. وقيل: يمين فعيل من اليُمن، وهو البركة، سمَّاها الله تعالى بذلك لأنها تحفظ الحقوق. ويمين تذكر وتؤنث، وتجمع أيمان وأيمن، قال زهير: (فتجمع أيمن منا ومنكم).

{وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}: مثل قوله: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ}[المائدة: ٨٩]. وهناك يأتي الكلام فيه مستوفى، إن شاء الله تعالى. وقال زيد بن أسلم: قوله تعالى: {ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم} هو في الرجل يقول: هو مشرك إن فعل، أي هذا اللَّغو، إلَّا أن يعقد الإشراك بقلبه ويكسبه.

قال أبو زهرة: هذا موضع المؤاخذة، وهو ما كسبته القلوب، أي قصدته وأرادته. ولم يجئ عفو الخاطر؛ أو لم يُبنَ على علم ناقص؛ وما قصدته القلوب نوعان:

أحدهما: أن يقصد إلى فعل أمر أو الامتناع عن أمر مستحصدًا عزيمته على ذلك، موثِّقًا تلك العزيمة بيمين الله سبحانه وتعالى.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٦١٩)، وقال: أخرجه البخاري (٢٣٧/١)، ومسلم (٤/٣)، والنسائى (٢٠٨/١)، والترمذى (٣٨٧/٢)، وصححه والدارمي (٣٦٤/١)، وابن ماجه (١١١٠)، والبيهقي (٢١٨/٣)، وأحمد (٢٧٢/٢ و٣٩٣ و٣٩٦ و٤٧٤ و٤٨٥ و٥١٨ و٥٣٢)، من طرق عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة مرفوعًا به. واللفظ للشيخين وغيرهما.

وثانيهما: أن يحلف على شيء كاذب مؤكدًا قوله لسامعه ليعتقد السامع صدقه، والحالف جازم بأنه كاذب؛ وتسمَّى هذه اليمين يمين الغَموس، ويدخل فيها الأيمان التي يحلفها شهود الزور، والكاذبون في التَّقاضي.

والمؤاخذة في النوع الأول بوجوب الكفارة إن حَنث في يمينه، وفي النوع الثاني بالإثم المستمر، حتى يتوب توبة نصوحًا، ويرد الحقوق إلى أصحابها إن ترتَّب على يمينه ضياع حق أو حكم بباطل. ولقد قرَّر الشافعي رضي الله عنه أنه تجب مع ذلك كفارة يمين، ولم ير الحنفية فيها كفارة، إنما الكفارة فيما يقبل الحنث، وتلك لا تقبل الحنث.

وعبَّر سبحانه وتعالى عن القصد والتعمُّد بقوله تعالى: {بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} وكسب القلب أدقُّ وأخصُّ من مجرَّد التَّعَمُّد؛ وذلك لأن كسب القلب معناه أن اليمين كان لها أثر فيه قد اكتسبه منها كما كسبت منه القصد والابتعاد عن معنى اللَّغو. والأثر الذي تنتجه الأيمان المقصودة يختلف باختلافها؛ فإن كانت يمينًا بَرَّة هي خير في ذاتها وفي موضوعها، والإصرار عليها لَا ينتج إلَّا خيرًا، اكتسبت القلوب عزيمة نحو الخير، وإصرارًا عليه وإيمانًا به، فتشرق بنور الله، وتستنير بذكر الله. وإن كانت اليمين فاجرة كاذبة في موضوعها لم يقصد الحالف فيها إلَّا تزكية الإثم، فإن القلب يكسب منها شرًا، إذ ينكت فيه الإثم نكتة سوداء، وبتكرارها تحيط بالقلب خطيئاته، وتستغرقه سيئاته، ويرين الله سبحانه وتعالى عليه بغشاوة كثيفة من الآثام.

وإن كانت اليمين غير فاجرة، ولكن الإصرار على موضوعها فيه منع للخير، يكون الكسب شرًا إن أصرَّ عليها، ويغفر الله إن اتخذ السبيل الذي يكون به تحلة الأيمان، وهو الكفارة السهلة المُيَسَّرة لكل إنسان.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١١٦: وَالشَّارِعُ لَمْ يُرَتِّبْ الْمُؤَاخَذَةَ إلَّا عَلَى مَا يَكْسِبُهُ الْقَلْبُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، كَمَا قَالَ: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} وَلَمْ يُؤَاخِذْ عَلَى أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ لَمْ يَعْلَمْ بِهَا الْقَلْبُ وَلَمْ يَتَعَمَّدْهَا، وَكَذَلِكَ مَا يُحَدِّثُ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ لَمْ يُؤَاخَذْ مِنْهُ إلَّا بِمَا قَالَهُ أَوْ فَعَلَهُ.

وَقَالَ قَوْمٌ: إنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْبَتَ لِلْقَلْبِ كَسْبًا فَقَالَ: {بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} فَلَيْسَ لِلَّهِ عَبْدٌ أَسَرَّ عَمَلًا أَوْ أَعْلَنَهُ مِنْ حَرَكَةٍ فِي جَوَارِحِهِ، أَوْ هَمٍّ فِي قَلْبِهِ، إلَّا يُخْبِرُهُ اللَّهُ بِهِ وَيُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ؛ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[الإسراء: ٣٦]، وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ شَاذٌّ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: {يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} إنَّمَا ذَكَرَهُ لِبَيَانِ أَنَّهُ يُؤَاخِذُ فِي الْأَعْمَالِ بِمَا كَسَبَ الْقَلْبُ، لَا يُؤَاخِذُ بِلَغْوِ الْأَيْمَانِ، كَمَا قَالَ: {بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ}[المائدة: ٨٩]، فَالْمُؤَاخَذَةُ لَمْ تَقَعْ إلَّا بِمَا اجْتَمَعَ فِيهِ كَسْبُ الْقَلْبِ مَعَ عَمَلِ الْجَوَارِحِ، فَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي النَّفْسِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْهُ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ يَعْمَلْ، وَمَا وَقَعَ مِنْ لَفْظٍ أَوْ حَرَكَةٍ بِغَيْرِ قَصْدِ الْقَلْبِ وَعِلْمِهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ بِهِ.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج٣٥ص١٤٧ بعد أن ذكر آيات سورة البقرة وسورة المائدة: وَفِيهَا (قَوَاعِدُ عَظِيمَةٌ) لَكِنْ تَحْتَاجُ إلَى تَقْدِيمِ مُقَدِّمَاتٍ نَافِعَةٍ جِدًّا فِي هَذَا الْبَابِ وَغَيْرِهِ.

الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى: أَنَّ الْيَمِينَ تَشْتَمِلُ عَلَى جُمْلَتَيْنِ: جُمْلَةٌ مُقْسَمٌ بِهَا، وَجُمْلَةٌ مُقْسَمٌ عَلَيْهَا. وَمَسَائِلُ الْأَيْمَانِ إمَّا فِي حُكْمِ الْمَحْلُوفِ بِهِ، وَإِمَّا فِي حُكْمِ الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ. فَأَمَّا الْمَحْلُوفُ بِهِ فَالْأَيْمَانُ الَّتِي يَحْلِفُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ مِمَّا قَدْ يَلْزَمُ بِهَا حُكْمٌ (سِتَّةُ أَنْوَاعٍ) لَيْسَ لَهَا سَابِعٌ:

أَحَدُهَا: الْيَمِينُ بِاَللَّهِ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا فِيهِ الْتِزَامُ كُفْرٍ عَلَى تَقْدِيرِ الْخَبَرِ؛ كَقَوْلِهِ هُوَ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ إنْ فَعَلَ كَذَا، عَلَى مَا فِيهِ مِنْ الْخِلَافِ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ.

الثَّانِي: الْيَمِينُ بِالنَّذْرِ الَّذِي يُسَمَّى نَذْرَ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ؛ كَقَوْلِهِ عَلَيَّ الْحَجُّ لَا أَفْعَلُ كَذَا، أَوْ إنْ فَعَلْت كَذَا فَعَلَيَّ الْحَجُّ، أَوْ مَالِي صَدَقَةٌ إنْ فَعَلْت كَذَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

الثَّالِثُ: الْيَمِين بِالطَّلَاقِ.

الرَّابِعُ: الْيَمِينُ بِالْعِتَاقِ.

الْخَامِسُ: الْيَمِينُ بِالْحَرَامِ؛ كَقَوْلِهِ: عَلَيَّ الْحَرَامُ لَا أَفْعَلُ كَذَا.

السَّادِسُ: الظِّهَارُ؛ كَقَوْلِهِ: أَنْتَ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي إنْ فَعَلْت كَذَا فَهَذَا مَجْمُوعُ مَا يَحْلِفُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِمَّا فِيهِ حُكْمٌ.

فَأَمَّا (الْحَلِفُ بِالْمَخْلُوقَاتِ) كَالْحَلِفِ بِالْكَعْبَةِ، أَوْ قَبْرِ الشَّيْخِ، أَوْ بِنِعْمَةِ السُّلْطَانِ، أَوْ بِالسَّيْفِ، أَوْ بِجَاهِ أَحَدٍ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ، فَمَا أَعْلَمُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ خِلَافًا أَنَّ هَذِهِ الْيَمِينَ مَكْرُوهَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، وَأَنَّ الْحَلِفَ بِهَا لَا يُوجِبُ حِنْثًا، وَلَا كَفَّارَةً، وَهَلْ الْحَلِفُ بِهَا مُحَرَّمٌ، أَوْ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ؟ فِيهِ قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ: أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ مُحَرَّمٌ.

الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ يُحْلَفُ بِهَا تَارَةً بِصِيغَةِ الْقَسَمِ، وَتَارَةً بِصِيغَةِ الْجَزَاءِ، لَا يُتَصَوَّرُ أَنَّ تَخْرُجَ الْيَمِينُ عَنْ هَاتَيْنِ الصِّيغَتَيْنِ، فَالْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ: وَاَللَّهِ لَا أَفْعَلُ كَذَا، أَوْ الطَّلَاقُ يَلْزَمُنِي أَنْ أَفْعَلَ كَذَا، أَوْ عَلَيَّ الْحَرَامُ لَا أَفْعَلُ كَذَا، أَوْ عَلَيَّ الْحَجُّ لَا أَفْعَلُ، وَالثَّانِي كَقَوْلِهِ: إنْ فَعَلْت كَذَا فَأَنَا يَهُودِيٌّ، أَوْ نَصْرَانِيٌّ، أَوْ بَرِيءٌ مِنْ الْإِسْلَامِ، أَوْ إنْ فَعَلْت كَذَا فَامْرَأَتِي طَالِقٌ، أَوْ إنْ فَعَلْت كَذَا فَامْرَأَتِي حَرَامٌ، أَوْ فَهِيَ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، أَوْ إنْ فَعَلْت كَذَا فَعَلَيَّ الْحَجُّ، أَوْ فَمَالِي صَدَقَةٌ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْيَمِينِ صِيغَتَيْنِ: صِيغَةِ الْقَسَمِ، وَصِيغَةِ الْجَزَاءِ، فَالْمُقَدَّمُ فِي صِيغَةِ الْقَسَمِ مُؤَخَّرٌ فِي صِيغَةِ الْجَزَاءِ، وَالْمُؤَخَّرُ فِي صِيغَةِ الْجَزَاءِ مُقَدَّمٌ فِي صِيغَةِ الْقَسَمِ، وَالشَّرْطُ الْمُثْبَتُ فِي صِيغَةِ الْجَزَاءِ مَنْفِيٌّ فِي صِيغَةِ الْقَسَمِ؛ فَإِنَّهُ إذَا قَالَ: الطَّلَاقُ يَلْزَمُنِي لَا أَفْعَلُ كَذَا، فَقَدْ حَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنْ لَا يَفْعَلَ، فَالطَّلَاقُ مُقَدَّمٌ مُثْبَتٌ، وَالفِعْلُ مُؤَخَّرٌ مَنْفِيٌّ. فَلَوْ حَلَفَ بِصِيغَةِ الْجَزَاءِ فَقَالَ: إنْ فَعَلْت كَذَا فَامْرَأَتِي طَالِقٌ كَانَ يُقَدِّمُ الْفِعْلَ مُثْبَتًا وَيُؤَخِّرُ الطَّلَاقَ مَنْفِيًّا، كَمَا أَنَّهُ فِي الْقَسَمِ قَدَّمَ الْحُكْمَ وَأَخَّرَ الْفِعْلَ، وَبِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ تَنْحَلُّ مَسَائِلُ مِنْ مَسَائِلِ الْأَيْمَانِ.

فَأَمَّا صِيغَةُ الْجَزَاءِ فَهِيَ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ فِي الْأَصْلِ؛ فَإِنَّ أَدَوَاتِ الشَّرْطِ لَا يَتَّصِلُ بِهَا فِي الْأَصْلِ إلَّا الْفِعْلُ. وَأَمَّا صِيغَةُ الْقَسَمِ فَتَكُونُ فِعْلِيَّةً، كَقَوْلِهِ: أَحْلِفُ بِاَللَّهِ، أَوْ تَاللَّهِ، أَوْ وَاَللَّهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَتَكُونُ اسْمِيَّةً كَقَوْلِهِ لَعَمرُ اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ، وَالْحِلُّ عَلَيَّ حَرَامٌ

لَأَفْعَلَنَّ. ثُمَّ هَذَا التَّقْسِيمُ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الْأَيْمَانِ الَّتِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ، بَلْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُودِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْآدَمِيِّينَ. تَارَةً تَكُونُ بِصِيغَةِ التَّعْلِيقِ الَّذِي هُوَ الشَّرْطُ وَالْجزَاءِ؛ كَقَوْلِهِ فِي الْجعَالَةِ: مَنْ رَدَّ عَبْدِي الْآبِقَ فَلَهُ كَذَا، وَقَوْلِهِ فِي السَّبْقِ: مَنْ سَبَقَ فَلَهُ كَذَا. وَتَارَةً بِصِيغَةِ التَّنْجِيزِ: إمَّا صِيغَةُ خَبَرٍ كَقَوْلِهِ: بِعْت وَزَوَّجْت، وَإِمَّا صِيغَةُ طَلَبٍ؛ كَقَوْلِهِ: بِعْنِي وَاخْلَعْنِي.

الْمُقَدِّمَةُ الثَّالِثَةُ: وَفِيهَا يَظْهَرُ سِرُّ مَسَائِلِ الْأَيْمَانِ وَنَحْوِهَا: أَنَّ صِيغَةَ التَّعْلِيقِ الَّتِي تُسَمَّى: صِيغَةَ الشَّرْطِ، وَصِيغَةَ الْمُجَازَاةِ، تَنْقَسِمُ إلَى سِتَّةِ أَنْوَاعٍ؛ لِأَنَّ الْحَالِفَ إمَّا أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ وُجُودَ الشَّرْطِ فَقَطْ، أَوْ وُجُودَ الْجزَاءِ فَقَطْ، أَوْ وُجُودَهُمَا. وَإِمَّا أَنْ لَا يَقْصِدَ وُجُودَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَلْ يَكُونُ مَقْصُودُهُ عَدَمَ الشَّرْطِ فَقَطْ، أَوْ الْجزَاءِ فَقَطْ، أَوْ عَدَمُهُمَا.

فَالْأَوَّلُ: - بِمَنْزِلَةِ كَثِيرٍ مِنْ صُوَرِ الْخُلْعِ، وَالْكِتَابَةِ، وَنَذْرِ التَّبَرُّرِ، وَالْجعَالَةِ، وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ إذَا قَالَ لِامْرَأَتِهِ. إنْ أَعْطَيْتِنِي أَلْفًا فَأَنْت طَالِقٌ، أَوْ فَقَدْ خَلَعْتُك، أَوْ قَالَ لِعَبْدِهِ: إنْ أَدَّيْت أَلْفًا فَأَنْت حُرٌّ، أَوْ قَالَ: إنْ رَدَدْت عَبْدِي الْآبِقَ فَلَك أَلْفٌ، أَوْ قَالَ: إنْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضِي، أَوْ سَلِمَ مَالِي الْغَائِبُ، فَعَلَيَّ عِتْقُ كَذَا، وَالصَّدَقَةُ بِكَذَا، فَالْمُعَلِّقُ قَدْ لَا يَكُونُ مَقْصُودُهُ إلَّا أَخْذَ الْمَالِ وَرَدَّ الْعَبْدِ وَسَلَامَةَ الْعِتْقِ وَالْمَالِ، وَإِنَّمَا الْتَزَمَ الْجزَاءَ عَلَى سَبِيلِ الْعِوَضِ كَالْبَائِعِ الَّذِي إنَّمَا مَقْصُودُهُ أَخْذُ الثَّمَنِ وَالْتَزَمَ رَدَّ الْمَبِيعِ عَلَى سَبِيلِ الْعِوَضِ، فَهَذَا الضَّرْبُ شَبِيهٌ بِالْمُعَاوَضَةِ فِي الْبَيْعِ وَالْإِجَارَةِ، وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ قَدْ جَعَلَ الطَّلَاقُ عُقُوبَةً لَهَا مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: إذَا ضَرَبْت أُمِّي فَأَنْت طَالِقٌ، أَوْ إنْ خَرَجْت مِنْ الدَّارِ فَأَنْت طَالِقٌ، فَإِنَّهُ فِي الْخُلْعِ عَاوَضَهَا بِالتَّطْلِيقِ عَنْ الْمَالِ؛ لِأَنَّهَا تُرِيدُ الطَّلَاقَ، وَهُنَا عَوَّضَهَا عَنْ مَعْصِيَتِهَا بِالطَّلَاقِ.

وَأَمَّا الثَّانِي: - فَمِثْلُ أَنْ يَقُولَ لِامْرَأَتِهِ: إذَا طَهُرْت فَأَنْت طَالِقٌ، أَوْ يَقُولَ لِعَبْدِهِ: إذَا مُتّ فَأَنْت حُرٌّ، أَوْ إذَا جَاءَ رَأْسُ الْحَوْلِ فَأَنْت حُرٌّ، أَوْ فَمَالِي صَدَقَةٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ التَّعْلِيقِ الَّذِي هُوَ تَوْقِيتٌ مَحْضٌ. فَهَذَا الضَّرْبُ بِمَنْزِلَةِ الْمُنْجَزِ فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَصَدَ الطَّلَاقَ وَالْعِتَاقَ، وَإِنَّمَا أَخَّرَهُ إلَى الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ، بِمَنْزِلَةِ تَأْجِيلِ الدَّيْنِ، وَبِمَنْزِلَةِ مَنْ يُؤَخِّرُ الطَّلَاقَ مِنْ وَقْتٍ إلَى وَقْتٍ لِغَرَضٍ لَهُ فِي التَّأْخِيرِ، لَا لِعِوَضٍ، وَلَا لِحَثٍّ عَلَى طَلَبٍ، أَوْ خَبَرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ: إذَا حَلَفَ أَنَّهُ لَا يَحْلِفُ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: وَاَللَّهِ لَا أَحْلِفُ بِطَلَاقِك أَوْ إنْ حَلَفْت بِطَلَاقِك فَعَبْدِي حُرٌّ، أَوْ فَأَنْت طَالِقٌ، فَإِنَّهُ إذَا قَالَ: إنْ دَخَلْت أَوْ لَمْ تَدْخُلِي وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ مَعْنَى الْحَضِّ أَوْ الْمَنْعِ فَهُوَ حَالِفٌ وَلَوْ كَانَ تَعْلِيقًا مَحْضًا، كَقَوْلِهِ: إذَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ فَأَنْت طَالِقٌ، أَوْ إنْ طَلَعَتْ الشَّمْسُ، فَاخْتَلِفُوا فِيهِ، فَقَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ: لَيْسَ بِحَالِفٍ، وَقَالَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالْقَاضِي فِي (الْجَامِعِ): هُوَ حَالِفٌ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: - وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ وُجُودَهُمَا جَمِيعًا - فَمِثْلُ الَّذِي قَدْ آذَتْهُ امْرَأَتُهُ حَتَّى أَحَبَّ طَلَاقَهَا وَاسْتِرْجَاعَ الْفِدْيَةِ مِنْهَا، فَيَقُولُ: إنْ أبرأتيني مِنْ صَدَاقِك أَوْ مِنْ نَفَقَتِك، فَأَنْتِ طَالِقٌ، وَهُوَ يُرِيدُ كُلًّا مِنْهُمَا.

وَأَمَّا الرَّابِعُ: – وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ عَدَمَ الشَّرْطِ لَكِنَّهُ إذَا وُجِدَ لَمْ يَكْرَهْ الْجَزَاءَ، بَلْ يُحِبُّهُ، أَوْ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَكْرَهُهُ – فَمِثْلُ أَنْ يَقُولَ لِامْرَأَتِهِ إنْ زَنَيْت فَأَنْت طَالِقٌ، أَوْ إنْ ضَرَبْت أُمِّي فَأَنْت طَالِقٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ التَّعْلِيقِ الَّذِي يُقْصَدُ فِيهِ عَدَمُ الشَّرْطِ، وَيُقْصَدُ وُجُودُ الْجَزَاءِ عِنْدَ وُجُودِهِ، بِحَيْثُ تَكُونُ إذَا زَنَتْ أَوْ إذَا ضَرَبَتْ أُمَّهُ يَجِبُ فِرَاقُهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لَهُ، فَهَذَا فِيهِ مَعْنَى الْيَمِينِ وَمَعْنَى التَّوْقِيتِ، فَإِنَّهُ مَنَعَهَا مِنْ الْفِعْلِ، وَقَصَدَ إيقَاعَ الطَّلَاقِ عِنْدَهُ، كَمَا قَصَدَ إيقَاعَهُ عِنْدَ أَخْذِ الْعِوَضِ مِنْهَا، أَوْ عِنْدَ طُهْرِهَا، أَوْ طُلُوعِ الْهِلَالِ.

وَأَمَّا الْخَامِسُ: – وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ عَدَمَ الْجَزَاءِ، وَتَعْلِيقُهُ بِالشَّرْطِ لِئَلَّا يُوجَدُ، وَلَيْسَ لَهُ غَرَضٌ فِي عَدَمِ الشَّرْطِ – فَهَذَا قَلِيلٌ، كَمَنْ يَقُولُ: إنْ أَصَبْت مِائَةَ رَمْيَةٍ أَعْطَيْتُك كَذَا.

وَأَمَّا السَّادِسُ: – وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ عَدَمَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ؛ وَإِنَّمَا تَعَلَّقَ الْجَزَاءُ بِالشَّرْطِ لِيَمْتَنِعَ وُجُودُهُمَا فَهُوَ مِثْلُ نَذْرِ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ – وَمِثْلُ الْحَلِفِ بِالطَّلَاقِ وَالْعِتَاقِ عَلَى حَضٍّ أَوْ مَنْعٍ أَوْ تَصْدِيقٍ أَوْ تَكْذِيبٍ مِثْلُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: تَصَدَّقْ، فَيَقُولُ: إنْ تَصَدَّقَ فَعَلَيْهِ صِيَامُ كَذَا وَكَذَا، أَوْ فَامْرَأَتُهُ طَالِقٌ، أَوْ فَعَبِيدُهُ أَحْرَارٌ، أَوْ يَقُولَ: إنْ لَمْ أَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا فَعَلَيَّ نَذْرُ كَذَا، أَوْ امْرَأَتِي طَالِقٌ، أَوْ عَبْدِي حُرٌّ. أَوْ يَحْلِفُ عَلَى فِعْلِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَقْصِدُ مَنْعَهُ – كَعَبْدِهِ وَنَسِيبِهِ وَصَدِيقِهِ مِمَّنْ يَحُضُّهُ عَلَى طَاعَتِهِ – فَيَقُولُ لَهُ: إنْ فَعَلْت، أَوْ إنْ لَمْ تَفْعَلْ، فَعَلَيَّ كَذَا، أَوْ فَامْرَأَتِي طَالِقٌ، أَوْ فَعَبْدِي حُرٌّ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا نَذْرُ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ.

وَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ الْحَلِفِ بِالطَّلَاقِ وَالْعِتَاقِ يُخَالِفُهُ فِي الْمَعْنَى نَذْرُ التَّبَرُّرِ وَالتَّقَرُّبِ، وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ الْخُلْعِ والْكِتَابَةِ؛ فَإِنَّ الَّذِي يَقُولُ: إنْ سَلَّمَنِي اللَّهُ، أَوْ سَلَّمَ مَالِي مِنْ كَذَا، أَوْ إنْ أَعْطَانِي اللَّهُ كَذَا، فَعَلَيَّ أَنْ أَتَصَدَّقَ، أَوْ أَصُومَ، أَوْ أَحُجَّ، قَصْدُهُ حُصُولُ الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ الْغَنِيمَةُ أَوْ السَّلَامَةُ، وَقَصَدَ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا نَذَرَهُ لَهُ، وَكَذَلِكَ الْمُخَالِعُ وَالْمُكَاتِبُ قَصْدُهُ حُصُولُ الْعِوَضِ وَبَذْلُ الطَّلَاقِ وَالْعِتَاقِ عِوَضًا عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَّا النَّذْرُ فِي اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ إذَا قِيلَ لَهُ: افْعَلْ كَذَا فَامْتَنَعَ مِنْ فِعْلِهِ، ثُمَّ قَالَ: إنْ فَعَلْته فَعَلَيَّ الْحَجُّ أَوْ الصِّيَامُ، فَهُنَا مَقْصُودُهُ أَنْ لَا يَكُونَ الشَّرْطُ، ثُمَّ إنَّهُ لِقُوَّةِ امْتِنَاعِهِ أَلْزَمَ نَفْسَهُ إنْ فَعَلَهُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّقِيلَةِ عَلَيْهِ؛ لِيَكُونَ لُزُومُهَا لَهُ إذَا فَعَلَ مَانِعًا لَهُ مِنْ الْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ: إنْ فَعَلْته فَامْرَأَتِي طَالِقٌ، أَوْ فَعَبِيدِي أَحْرَارٌ، إنَّمَا مَقْصُودُهُ الِامْتِنَاعُ وَالْتَزَمَ بِتَقْدِيرِ الْفِعْلِ مَا هُوَ شَدِيدٌ عَلَيْهِ مِنْ فِرَاقِ أَهْلِهِ وَذَهَابِ مَالِهِ، لَيْسَ غَرَضُ هَذَا أَنْ يَتَقَرَّبَ إلَى اللَّهِ بِعِتْقٍ أَوْ صَدَقَةٍ وَلَا أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَتَهُ.

وَلِهَذَا سَمَّى الْعُلَمَاءُ هَذَا نَذْرَ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ؛ ((لَأَنْ يَلِجَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ الْكَفَّارَةَ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ لَهُ(١)))، فَصُورَةُ هَذَا النَّذْرِ صُورَةُ نَذْرِ التَّبَرُّرِ فِي اللَّفْظِ،

١– البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٥)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٥/٢٦) عن أبي هريرة.

وقوله: ((يلج)): يتمادى في الأمر، ولو تبيَّن له خطأه. انظر: فتح الباري ٥١٩/١١.

وَمَعْنَاهُ شَدِيدُ الْمُبَايَنَةِ لِمَعْنَاهُ. وَمِنْ هنا نَشَأَتْ الشُّبْهَةُ الَّتِي سَنَذْكُرُهَا فِي هَذَا الْبَابِ – إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى – عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ، وَيَتَبَيَّنُ فِقْهُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم الَّذِينَ نَظَرُوا إلَى مَعَانِي الْأَلْفَاظِ لَا إلَى صُوَرِهَا. إذَا ثَبَتَتْ هَذِهِ الْأَنْوَاعُ الدَّاخِلَةُ فِي قِسْمِ التَّعْلِيقِ فَقَدْ عَلِمْت أَنَّ بَعْضَهَا مَعْنَاهُ مَعْنَى الْيَمِينِ بِصِيغَةِ الْقَسَمِ، وَبَعْضَهَا لَيْسَ مَعْنَاهُ ذَلِكَ، فَمَتَى كَانَ الشَّرْطُ الْمَقْصُودُ حَضًّا عَلَى فِعْلٍ، أَوْ مَنْعًا مِنْهُ، أَوْ تَصْدِيقًا لِخَبَرِ، أَوْ تَكْذِيبًا، كَانَ الشَّرْطُ مَقْصُودَ الْعَدَمِ هُوَ وَجَزَاؤُهُ؛ كَنَذْرِ اللَّجَاجِ، وَالْحَلِفِ بِالطَّلَاقِ عَلَى وَجْهِ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ.

وَكَانُوا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لَا مَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ الْيَمِينِ قَبْلَ أَنْ تُشْرَعَ الْكَفَّارَةُ؛ وَلِهَذَا قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ لَا يَحْنَثُ فِي يَمِينٍ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْيَمِينَ بِاَللَّهِ عَقْدٌ بِاَللَّهِ فَيَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، كَمَا يَجِبُ بِسَائِرِ الْعُقُودِ وَأَشَدُّ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: أَحْلِفُ بِاَللَّهِ، أَوْ أُقْسِمُ بِاَللَّهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فِي مَعْنَى قَوْلِهِ أَعْقِدُ بِاَللَّهِ؛ وَلِهَذَا عُدِّيَ بِحَرْفِ الْإِلْصَاقِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي الرَّبْطِ وَالْعَقْدِ فَيَنْعَقِدُ الْمَحْلُوفُ عَلَيْهِ بِاَللَّهِ كَمَا تَنْعَقِدُ إحْدَى الْيَدَيْنِ بِالْأُخْرَى فِي الْمُعَاقَدَةِ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ عَقْدًا فِي قَوْلِهِ: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ}[المائدة: ٨٩]، فَإِذَا كَانَ قَدْ عَقَدَهَا بِاَللَّهِ كَانَ الْحِنْثُ فِيهَا نَقْضًا لِعَهْدِ اللَّهِ وَمِيثَاقِهِ لَوْلَا مَا فَرَضَهُ اللَّهُ مِنْ التَّحِلَّةِ؛ وَلِهَذَا سُمِّيَ حَلُّهَا حِنْثًا، والْحِنْثُ هُوَ الْإِثْمُ فِي الْأَصْلِ، فَالْحِنْثُ فِيهَا سَبَبٌ لِلْإِثْمِ لَوْلَا الْكَفَّارَةُ الْمَاحِيَةُ، فَإِنَّمَا الْكَفَّارَةُ مَنَعَتْهُ أَنْ يُوجِبَ إثْمًا.

قال السعدي: {والله غفور[١]} لمن تاب إليه، {حليم} بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه، وكونه بين يديه.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية لتأكيد معنى عدم المؤاخذة في اللَّغو، ولبيان أنه سبحانه يأخذ عباده بالرِّفق، ويسهِّل لهم سبيل العودة إلى الجادة المستقيمة إن حادوا عنها، وتَنَكَّبوا سبيل المؤمنين، ويرشدهم إلى ما يخرجون به ممَّا يلقون بأنفسهم فيه من أقوال وأفعال؛ فهو يبيِّن طريق التحلُّل من الأَيمان إن حلفوا ليتركوا خيرًا، أو ليرتكبوا شرًا، وهو بحلمه وتدبيره وحكمته يبيِّن لهم الحق والسبيل إليه؛ وإن سبقت الأيمان محاجزة دون الخير طلب إليهم ألَّا يتمسَّكوا بها ويفعلوا الخير.

وإن رحمة الله سبحانه وتعالى في الأَيمان وغفرانه وحلمه قد بدا في الإعفاء من يمين اللَّغو، وعدم اعتبارها، وفي المؤاخذة على ما تكسبه القلوب مع تسهيل العودة إلى فعل الخير، وفي بيان التحلُّل من اليمين إن حالت بين صاحبها والبرِّ والتَّقوى والإصلاح بين الناس.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الحليم}، فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما في قوله تعالى: {لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[البقرة: ٢٢٥]، واقترن باسم الله الغني في قوله: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦٣]، واقترن باسم الله الشكور في قوله: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}[التغابن: ١٧]، واقترن باسم الله العليم في قوله: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}[النساء: ١٢]، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً} [الأحزاب: ٥١]، {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}[الحج: ٥٩]، وفي صحيح البخاري من حديث أَبِى العَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ(١))).

و{الحليم}: في اللغة صفة مشبهة للموصوف بالحلم، فعله حلم يحلم حلمًا، وصفة الحلم تعني الأناة، ومعالجة الأمور بصبر وعلم وحكمة، وفي مقابلها العجلة المفسدة لأمور الدين والدنيا، قال تعالى في وصف إبراهيم: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[التوبة: ١١٤]، و{الحليم} هو الذي لا يسارع بالعقوبة، بل يتجاوز عن الزلّات ويعفو عن السيئات: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[هود: ٧٥]، وقوم شعيب قالوا استهزاءً: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[هود: ٨٧]، يعني اصبر علينا أو دعنا على ما نحن فيه.

ويدخل في معنى الحلم، الحُلم وهو بلوغ الصبي مبلغ الرجال الحكماء العقلاء: {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ} [النور: ٥٩]، {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ}[الصافات: ١٠١]، يعني لديه أناة وبصيرة وحكمة من صغره، والله {حليم} متّصف بالحلم، والحلم صفة كريمة تقوم على الحكمة والعلم والصبر، و{الحليم} سبحانه صبور يتمهّل ولا يتعجّل، فهو سبحانه يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة والثواب، ويمهل العاصين لعلهم يرجعون الطاعة والصواب، ولو أنه عجّل بالجزاء أحدًا ما نجا أحد من عقاب، ولكن الله سبحانه هو الحليم ذو الصَّفحِ والأناةِ، استخلف الإنسان في أرضه واسترعاه، واستبقاه في هذه الحياة إلى يوم موعود وأجل محدود، فأجّل بحلمه عقاب الكافرين، وعجّل بفضله ثواب المؤمنين.

١- (قلت): البخاري (٦٣٤٥).

واسم الله {الحليم} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة الحلم بدلالة المطابقة وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وصفة الحلم وحدها بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية والسمع والبصر والعلم والقدرة، والغنى والعزة، والرأفة والرحمة والعلو العظمة، واسم الله {الحليم} دلَّ على صفة من صفات الذات والفعل معًا.

كيف ندعو الله باسمه {الحليم} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أَبِي العَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ))، وعند رواه الترمذي أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ: ((لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَلِيُّ الحَلِيمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ([1]))).

أما دعاء العبادة، فهو تأثر المسلم في عبادته بتوحيد الله في اسمه {الحليم}، فيكون حليما صبورا يتأنى في رأيه وحكمه، وقوله وفعله ويتخيَّر ما هو أنفع له وللآخرين، ويبادر بالتوبة إلى الحليم الرحيم، وعند مسلم من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ أنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِلأَشَجِّ بن عَبْدِ الْقَيْسِ: ((إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ([2]))) وفي رواية أخرى عند أبي داود وحسنها الشيخ الألباني: ((إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا قَالَ: بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا، قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ([3])))، وروى البزار وقال الألباني صحيح لغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت إن الله يحب الغني الحليم المتعفِّف ويبغض البذيء الفاجر السائل الملح([4]))).

قال ابن القيم: وهو الحيي فليس يفضح عبده عند التَّجاهر منه بالعصيان، لكنه يلقي عليه ستره فهو السِّتِّير وصاحب الغفران، وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان، وهو العفو فعفوه وسع الورى لولاه غار الأرض بالسكان، سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

١- (قلت): الحديث الذي عند الترمذي ليس بهذا اللفظ بل بلفظ: عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ كان يدعو عند الكرب ((لا إله إلا الله الحليم الحكيم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم)). صححه الإمام الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٣٢)، وصحيح سنن ابن ماجة (٣٨٨٣)، وقال: أخرجه البخاري ومسلم، وللحديث سند آخر: مثله.

٢- (قلت): مسلم (١٧).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٥٠٢.

٤- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨١٩): صحيح لغيره.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- عدم مؤاخذة العبد بما لم يقصده في لفظه؛ وهذه الفائدة قاعدة عظيمة يترتَّب عليها مسائل كثيرة؛ منها لو جرى لفظ الطلاق على لسانه بغير قصد لم تطلق امرأته؛ ولو طلق في حال غضب شديد لم تطلق امرأته؛ ولو قال كفرًا في حال فرح شديد لم يكفر، كما في حديث: ((لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من أحدكم ... ([1]))) الحديث؛ ولو أكره على كلمة الكفر فقالها وقلبه مطمئن بالإيمان لم يكفر؛ وأمثلتها كثيرة.

٢- أن المدار على ما في القلوب؛ لقوله تعالى: {ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم}.

٣- أن للقلوب كسبًا، كما للجوارح؛ فأما ما حدث به الإنسان نفسه دون اطمئنان إليه فإنه لا يؤاخذ به؛ لأنه ليس بعمل؛ ولهذا جاء في الحديث قول النبي ﷺ: ((إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم([2]))).

٤- إثبات هذين الاسمين الكريمين؛ وهما {الغفور}، و{الحليم}؛ وما تضمَّناه من وصف وحكم.

٥- الإشارة إلى أن من مغفرة الله وحلمه أن أسقط المؤاخذة باللغو في الأيمان.

٦- أن لا نيأس من رحمة الله؛ لأنه غفور؛ وأن لا نأمن مكر الله؛ لأنه حليم؛ فيكون العبد سائرًا إلى الله بين الرجاء والخوف.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

قال أبو زهرة: هذه إحدى الأَيمان التي لو استمسك بها الحالف كانت محاجزة ممانعة دون البرِّ والتَّقوى، فهي من جهة تطبيق عملي للحكم الذي قرَّره العلي القدير في قوله تعالى: {وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ}، ومن جهة ثانية هي بيان لحكم حال تعرُّض في أثناء العشرة الزوجية؛ وذلك جزء من موضوع الأسرة الذي ابتدأه سبحانه بقوله: {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ...}، أو بقوله تعالى: {وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَى يُؤْمِنَّ...}، على حسب الاختلاف في معنى الأسرة من حيث العموم والخصوص.

١- أخرجه البخاري ص٥٣١، كتاب الدعوات، باب ٤: التوبة، حديث رقم ٦٣٠٨، وأخرجه مسلم ص١١٥٣، كتاب التوبة، باب ١: في الحض على التوبة ... ، حديث رقم ٦٩٥٣ [٢] ٢٦٧٥.

٢- أخرجه البخاري في ٤٥٥، كتاب الطلاق، باب ١١: الطلاق في الإغلاق والكره ... ، حديث رقم ٥٢٦٩، وأخرجه مسلم ص٦٩٩، كتاب الإيمان، باب ٥٨: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، حديث رقم ٣٣١ [٢٠١] ١٢٧.

قال ابن العثيمين: {لِلَّذين} خبر مقدَّم؛ و{تربُّص} مبتدأ مؤخَّر؛ وبعد هذا بيَّن الله الحال بعد هذا التربُّص.

قوله تعالى: {للذين يؤلون من نسائهم}: اللام يحتمل أن تكون للإباحة؛ ويحتمل أن تكون للتوقيت؛ يعني: أنه يباح للمولين أن يتربَّصوا أربعة أشهر؛ أو أن لهم وقتًا محدَّدًا بأربعة أشهر؛ و{يؤلون}: أي يحلفون على ترك وطء زوجاتهم؛ و{من}: قيل إنها بمعنى (عن)؛ يعني يحلفون عن وطء نسائهم؛ وقيل: إنها على بابها؛ فهي مبيِّنة لموضع الإيلاء – يعني: الحلف –؛ و{نسائهم}: أي زوجاتهم.

قوله تعالى: {تربُّص}: أي انتظار؛ وهو شبيه بـ(الصبر) لموافقته إياه في الحروف – وإن خالفه في الترتيب –؛ و(الصبر) بمعنى حبس النفس، وانتظارها؛ {أربعة أشهر}: أي مدة أربعة أشهر؛ فينتظرون لمدة أربعة أشهر ابتداء من إيلائهم.

قال أبو زهرة: وتلك المدة التي وسع لهم فيها ليعودوا إلى رشدهم. ويقلعوا عن غيهم، وإلَّا حقَّت عليهم كلمة الله سبحانه وتعالى؛ هي أربعة أشهر، وبعدها يوضع حدٌّ لذلك الظلم والمضارَّة في العشرة الزوجية.

إن العشرة الزوجية أنس وإلف والتقاء روحي وجسدي بتحقيق ما يتقاضاه الطبع الإنساني، والإنسال؛ ليبقى الإنسان في هذه الأرض يعمرها إلى أن يقضي الله سبحانه وتعالى أمرًا كان مفعولًا؛ فإذا جاء الرجل وهو القوام على الأسرة وهو رأسها وعمادها، واشتطَّ واتَّخذ المضارة والكيد، بدل أن يؤلِّف القلوب ويؤنس النفوس ويربط بالمودَّة بينه وبين أهله؛ إذا فعل ذلك فإن الجو يعتكر، والأمور تضطرب، وتحلُّ البغضاء محل المحبَّة، والمضرَّة محل المودَّة؛ فوجب أن تنتهي هذه الحال إمَّا بإعادة الود إلى صفائه، وإما بفصم عُرَى الزوجية التي صارت لَا تنتج إلَّا نكدًا.

وإن من أشدِّ مظاهر المضارَّة والمكايدة القطيعة في المضجع، والهجر غير الجميل في المبيت، فإنه أذىً شديد، لَا لأنه امتناع عن قضاء الوطر، بل لأنه يدلُّ على البغض الشديد، ولا شيء يفعل في نفس المرأة أشدُّ من الإحساس بالبغض من العشير والضجيع الذي وهبت له نفسها، وأعطته قلبها، فكان منه ذلك النَّكر وذلك الهجر.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى أقصى غاية الصبر منها هو أربعة أشهر، وبعدها يكون الفصم، وإنهاء تلك الحياة الزوجية التي تحكَّمت بين الزوجين فيها البغضاء.

ولماذا كانت المدة أربعة أشهر؟؛ لقد ذكر بعض العلماء أن تلك المدَّة أقصى ما تصبر عليه المرأة في المضارَّة بذلك الهجر غير الجميل. ولقد سأل عمر نساءً عن مقدار ما تصبر المرأة عن زوجها، فقالت بعضهن شهرين، ويقل صبرها في ثلاثة، وينفد صبرها في أربعة أشهر. ولقد كان عمر رضي الله عنه بعد هذا يسترد الغزاة ويستبدل بهم غيرهم بعد أربعة أشهر.

ثم إن التَّقدير بأربعة أشهر هو الذي يتَّفق مع جملة الأحكام الشرعية؛ ذلك لأن الرجل أبيح له أن يتزوج أربعًا من النساء، وإذا كان في كل شهر يقرب نساءه مرة، ويبادل بينهن، فإن قَسمها يكون مرة كل أربعة أشهر، فكان من تناسق الأحكام

الشرعية أن جعلت المدَّة التي تصبر فيها المرأة مع هذا الهجر أو تتصبَّر أربعة أشهر؛ وذلك فوق أن الفطرة تقول: إن ذلك أقصى غاية الصبر على البعد المتعمَّد.

قال ابن العثيمين: {فإن فاءوا}: أي رجعوا إلى نسائهم بعد أن آلوا منهن؛ {فإن الله غفور}: أي يغفر لهم ما تجرؤوا عليه من الحلف على حرمان الزوجات من حقوقهن؛ لأن حلفهم على ألَّا يطؤوا لمدة أربعة أشهر اعتداء على حق المرأة؛ إذ إن الرجل يجب عليه أن يعاشر زوجته بالمعروف؛ وليس من العشرة بالمعروف أن يحلف الإنسان ألَّا يطأ زوجته مدة أربعة أشهر؛ فإن فعل فقد عرض نفسه للعقوبة؛ لكنه إذا رجع غفر الله له؛ و{غفور}: أي ذو مغفرة، كما قال تعالى: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}[الرعد: ٦]؛ والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه مأخوذة من (المغفر)؛ وهو ما يوضع على الرأس عند الحرب لاتِّقاء السهام؛ وفي المغفر تغطية، ووقاية؛ و{رحيم}: أي ذو رحمة، كما قال تعالى: {وربك الغني ذو الرحمة}[الأنعام: ١٣٣]؛ فهو مشتق من الرحمة المستلزمة للعطف، والحنو، والإحسان، ودفع النقم.

قال السعدي: وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته مطْلقًا أو مقيَّدًا، بأقلَّ من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن آلى من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حنث كفَّر، وإن أتم يمينه، فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل لأنه ملكه أربعة أشهر.

وإن كان أبدًا، أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه، إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حقٌّ لها، فإذا تمَّت، أمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ، فلا شيء عليه إلَّا كفَّارة اليمين، وإن امتنع، أجبر على الطلاق، فإن امتنع، طلق عليه الحاكم.

ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته، أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: {فإن فاءوا}: أي رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء. {فإن الله غفور[1]}: يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم. {رحيم[2]}: حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلَّة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضًا، حيث فاءوا إلى زوجاتهم، وحنوا عليهن ورحموهن.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٣ص٥١: (وَالْإِيلَاءُ) هُوَ الْحَلِفُ وَالْقَسَمُ، وَالْمُرَادُ بِالْإِيلَاءِ هُنَا أَنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يَطَأَ امْرَأَتَهُ، وَهُوَ إذَا حَلَفَ بِمَا عَقَدَهُ بِاَللَّهِ كَانَ مُولِيًا، وَإِنْ حَلَفَ بِمَا عَقَدَهُ لِلَّهِ كَالْحَلِفِ بِالنَّذْرِ وَالظِّهَارِ وَالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ كَانَ مُولِيًا عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ، كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ فِي قَوْلِهِ الْجَدِيدِ، وَأَحْمَد، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

مَنْ لَمْ يَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نِزَاعًا كَابْنِ الْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِ، وَذُكِرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ يَمِينٍ مَنَعَتْ جِمَاعًا فَهِيَ إيلَاءٌ، وَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – قَدْ جَعَلَ الْمُولِيَ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ: إمَّا أَنْ يَفِيءَ وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ. وَالْفِيئَةُ هِيَ الْوَطْءُ، خَيَّرَ بَيْنَ الْإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفِ، وَالتَّسْرِيحِ بِإِحْسَانِ. فَإِنْ فَاءَ فَوَطِئَهَا حَصَلَ مَقْصُودُهَا، وَقَدْ أَمْسَكَ بِمَعْرُوفِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وَمَغْفِرَتُهُ وَرَحْمَتُهُ لِلْمُولِي تُوجِبُ رَفْعَ الْإِثْمِ عَنْهُ وَبَقَاءَ امْرَأَتِهِ. وَلَا تَسْقُطُ الْكَفَّارَةُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}[التحريم: ١، ٢]، فَبَيَّنَ أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بِمَا فَرَضَهُ مِنْ تَحِلَّةِ الْأَيْمَانِ، حَيْثُ رَحِمَ عِبَادَهُ بِمَا فَرَضَهُ لَهُمْ مِنْ الْكَفَّارَةِ، وَغَفَرَ لَهُمْ بِذَلِكَ نَقْضَهُمْ لِلْيَمِينِ الَّتِي عَقَدُوهَا؛ فَإِنَّ مُوجِبَ الْعَقْدِ الْوَفَاءُ لَوْلَا مَا فَرَضَهُ مِنْ التَّحِلَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا تَحِلُّ عُقْدَةَ الْيَمِينِ. وَإِنْ كَانَ الْمُولِي لَا يَفِيءُ؛ بَلْ قَدْ عَزَمَ عَلَى الطَّلَاقِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، فَحُكم الْمُولِي فِي كِتَابِ اللَّهِ: أَنَّهُ إمَّا أَنْ يَفِيءَ، وَإِمَّا أَنْ يَعْزِمَ الطَّلَاقَ. فَإِنْ فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا يَقَعُ بِهِ طَلَاقٌ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي الْيَمِينِ بِاَللَّهِ تَعَالَى.

قال السعدي: {وإن عزموا الطلاق}: أي امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلًا على رغبتهم عنهن وعدم إرادتهم لأزواجهم، وهذا لا يكون إلَّا عزمًا على الطَّلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلَّا أجبره الحاكم عليه أو قام به.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٣ص٥٢: وَأَمَّا الْيَمِينُ بِالطَّلَاقِ فَمَنْ قَالَ: إنَّهُ يَقَعُ بِهِ الطَّلَاقُ فَلَا يُكَفِّرُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: إنْ فَاءَ الْمُولِي بِالطَّلَاقِ وَقَعَ بِهِ الطَّلَاقُ، وَإِنْ عَزَمَ الطَّلَاقَ فَأَوْقَعَهُ وَقَعَ بِهِ الطَّلَاقُ. فَالطَّلَاقُ عَلَى قَوْلِهِ لَازِمٌ سَوَاءٌ أَمْسَكَ بِمَعْرُوفِ، أَوْ سَرَّحَ بِإِحْسَانِ. وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُولِيَ مُخَيَّرٌ: إمَّا أَنْ يَفِيءَ، وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ. فَإِذَا فَاءَ لَمْ يَلْزَمْهُ الطَّلَاقُ، بَلْ عَلَيْهِ كَفَّارَةُ الْحِنْثِ إذَا قِيلَ بِأَنَّ الْحَلِفَ بِالطَّلَاقِ فِيهِ الْكَفَّارَةُ، فَإِنَّ الْمُولِيَ بِالْحَلِفِ بِاَللَّهِ إذَا فَاءَ لَزِمَتْهُ كَفَّارَةُ الْحِنْثِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَفِيهِ قَوْلٌ شَاذٌّ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ بِحَالِ. وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ أَصَحُّ، فَإِنَّ اللَّهَ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ([١]))).

فَإِنْ قِيلَ: الْمُولِي بِالطَّلَاقِ إذَا فَاءَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَأْخِيرِ الْوَطْءِ لِلزَّوْجَةِ، وَإِنْ وَقَعَ بِهِ الطَّلَاقُ وَرَحِمَهُ بِذَلِكَ؛ قِيلَ: هَذَا لَا يَصِحُّ. فَإِنَّ أَحَدَ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ الْقَائِلِينَ بِهَذَا الْأَصْلِ أَنَّ الْحَالِفَ بِالطَّلَاقِ ثَلَاثًا أَنْ لَا يَطَأَ امْرَأَتَهُ لَا يَجُوزُ لَهُ وَطْؤُهَا بِحَالِ؛ فَإِنَّهُ إذَا أَوْلَجَ حَنِثَ، وَكَانَ النَّزْعُ فِي أَجْنَبِيَّةٍ، وَهَذِهِ إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد، وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ. وَالثَّانِي: يَجُوزُ لَهُ وَطْأَةٌ وَاحِدَةٌ يَنْزِعُ عَقِبَهَا، وَتَحْرُمُ بِهَا عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيلَاءَ إنَّمَا كَانَ لِحَقِّ الْمَرْأَةِ فِي الْوَطْءِ، وَالْمَرْأَةُ لَا تَخْتَارُ وَطْأَةً يَقَعُ بِهَا الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ عَقِبَهَا إلَّا إذَا كَانَتْ كَارِهَةً لَهُ، فَلَا يَحْصُلُ مَقْصُودُهَا بِهَذِهِ الْفِيئَةِ. وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ

١- البخاري في الأيمان (٦٦٢٢)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٠/ ١١).

عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا فَائِدَةَ فِي التَّأْجِيلِ، بَلْ تَعْجِيلُ الطَّلَاقِ أَحَبُّ إلَيْهَا لِتَقْضِيَ الْعِدَّةَ لِتُبَاحَ لِغَيْرِهِ، فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الطَّلَاقِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ، كَانَ التَّأْجِيلُ ضَرَرًا مَحْضًا لَهَا، وَهَذَا خِلَافُ مَقْصُودِ الْإِيلَاءِ الَّذِي شُرِعَ لِنَفْعِ الْمَرْأَةِ، لَا لِضَرِّهَا.

وَمَا ذَكَرْته مِنَ النُّصُوصِ قَدْ اسْتَدَلَّ بِهِ الصَّحَابَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْجِنْسِ، فَأَفْتَوْا مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إنْ فَعَلْت كَذَا فَمَالِي هَدْيٌ، وَعَبِيدِي أَحْرَارٌ، وَنَحْوَ ذَاكَ، بِأَنْ يُكَفِّرَ يَمِينَهُ، فَجَعَلُوا هَذَا يَمِينًا مُكَفَّرَةً، وَكَذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ جَعَلُوا هَذَا مُتَنَاوِلًا لِلْحَلِفِ بِالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَيْمَانِ، وَجَعَلُوا كُلَّ يَمِينٍ يَحْلِفُ بِهَا الْحَالِفُ فَفِيهَا كَفَّارَةُ يَمِينٍ وَإِنْ عَظُمَتْ.

قال القرطبي: واختلفوا أن من حلف ألَّا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر فانقضت الأربعة الأشهر ولم تطالبه امرأته ولا رفعته إلى السلطان ليوقفه، لم يلزمه شيء عند مالك وأصحابه وأكثر أهل المدينة. ومن علمائنا من يقول: يلزمه بانقضاء الأربعة الأشهر طلقة رجعية. ومنهم ومن غيرهم من يقول: يلزمه طلقة بائنة بانقضاء الأربعة الأشهر. والصحيح ما ذهب إليه مالك وأصحابه، وذلك أن المولي لا يلزمه طلاق حتى يوقفه السلطان بمطالبة زوجته له ليفيء فيراجع امرأته بالوطء ويكفر يمينه أو يطلق، ولا يتركه حتى يفيء أو يطلق. والفيء: الجماع فيمن يمكن مجامعتها. قال سليمان بن يسار: كان تسعة رجال من أصحاب النبي ﷺ يوقفون في الإيلاء، قال مالك: وذلك الأمر عندنا، وبه قال الليث والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور، واختاره ابن المنذر.

وأجل المولي من يوم حلف لا من يوم تخاصمه امرأته وترفعه إلى الحاكم، فإن خاصمته ولم ترض بامتناعه من الوطء ضرب له السلطان أجل أربعة أشهر من يوم حلف، فإن وطئ فقد فاء إلى حق الزوجة وكفر عن يمينه، وإن لم يفيء طلق عليه طلقة رجعية. قال مالك: فإن راجع لا تصح رجعته حتى يطأ في العدة. قال الأبهري: وذلك أن الطلاق إنما وقع لدفع الضَّرر، فمتى لم يطأ فالضرر باق، فلا معنى للرجعة إلَّا أن يكون له عذر يمنعه من الوطء فتصح رجعته، لأن الضَّرر قد زال، وامتناعه من الوطء ليس من أجل الضَّرر وإنما هو من أجل العذر.

واختلف العلماء في الإيلاء في غير حال الغضب، فقال ابن عباس: (لا إيلاء إلَّا بغضب)، وروى عن علي بن أبي طالب ﷺ في المشهور عنه، وقاله الليث والشعبي والحسن وعطاء، كلهم يقولون: (الإيلاء لا يكون إلَّا على وجه مغاضبة ومشادَّة وحرجة ومناكدة ألَّا يجامعها في فرجها إضرارًا بها، وسواء كان في ضمن ذلك إصلاح ولد أم لم يكن، فإن لم يكن عن غضب فليس بإيلاء). وقال ابن سيرين: سواء كانت اليمين في غضب أو غير غضب هو إيلاء، وقاله ابن مسعود والثوري ومالك وأهل العراق والشافعي وأصحابه وأحمد، إلَّا أن مالكًا قال: ما لم يرد إصلاح ولد. قال ابن المنذر: وهذا أصح، لأنهم لما أجمعوا أن الظهار والطلاق وسائر الأيمان سواء في حال الغضب والرضا كان الإيلاء كذلك.

قلت: ويدلُّ عليه عموم القرآن، وتخصيص حالة الغضب يحتاج إلى دليل ولا يؤخذ من وجه يلزم. والله أعلم.

قال علماؤنا: ومن امتنع من وطء امرأته بغير يمين حلفها إضرارًا بها أمر بوطئها، فإن أبى وأقام على امتناعه مضرًّا بها فرق بينه وبينها من غير ضرب أجل. وقد قيل: يضرب أجل الإيلاء. وقد قيل: لا يدخل على الرجل الإيلاء في هجرته من زوجته وإن أقام سنين لا يغشاها، ولكنه يوعظ ويؤمر بتقوى الله تعالى في ألَّا يمسكها ضرارًا.

قال السعدي: {فإن الله سميع عليم}: فيه وعيد وتهديد، لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

قال ابن القيم في التفسير القيم: ختم حكم الفيء، الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها: بأنه غفور رحيم، يعود على عبده بمغفرته ورحمته. إذا رجع إليه. والجزاء من جنس العمل. فكما رجع العبد إلى التي هي أحسن، رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة: {وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} فإن الطلاق لما كان لفظًا يسمع، ومعنى يقصد، عقبه باسم {السميع(١)} {العليم(٢)} لما نطق به بمضمونه.

قال السعدي: ويستدلُّ بهذه الآية على أن الإيلاء، خاص بالزوجة، لقوله: {من نسائهم}، وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة يجبر إمَّا على الوطء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلَّا لتركه واجبًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- ثبوت حكم الإيلاء؛ لأن الله تعالى وقت له أربعة أشهر.

٢- أن الإيلاء لا يصح من غير زوجة؛ لقوله تعالى: {من نسائهم}؛ فلو حلف أن لا يطأ أَمَته لم يثبت له حكم الإيلاء؛ ولو حلف أن لا يطأ امرأةً ثم تزوجها، لم يكن له حكم الإيلاء - لكن لو جامع وجبت عليه كفارة يمين -.

٣- أن المولي يضرب له مدة أربعة أشهر من إيلائه؛ لقوله تعالى: {للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر}؛ فيفيد أن ابتداء المدة من الإيلاء.

٤- حكمة الله عز وجل، ورحمته بعباده في مراعاة حقوق الزوجة؛ وكما أنه حق للزوجة فهو من مصلحة الزوج أيضًا حتى لا يضيع حق المرأة على يده، فيكون ظالمًا.

٥- أن المولي يوقف عند مضي أربعة أشهر، ويقال له: إما أن تفيء؛ وإما أن تطلق؛ لقوله تعالى: {فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم}.

٦- أن الطلاق بيد الزوج؛ لقوله تعالى: {وإن عزموا الطلاق}؛ والضمير يعود على (الذين يؤلون من نسائهم).

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٧- صحة الإيلاء من غير المدخول بها؛ لقوله تعالى: {من نسائهم}؛ والمرأة تكون من نساء الإنسان بمجرَّد العقد الصحيح.

٨- أن الإيلاء من أربعة أشهر فما فوق محرَّم؛ لقوله تعالى: {فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم}؛ فإن المغفرة لا تكون إلَّا في مقابلة ذنب.

٩- أن رجوع الإنسان عمَّا هو عليه من المعصية سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: {فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم}.

١٠- أن الله سبحانه وتعالى لا يحب الطلاق؛ لقوله تعالى: {وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم}.

١١- أن الطلاق لا يقع بمجرَّد تمام مدة الإيلاء؛ لقوله تعالى: {وإن عزموا الطلاق}؛ فإن قيل: لو امتنع عن الفيئة، والطلاق فهل يجبر على أحدهما؟

فالجواب: نعم؛ يجبر على أحدهما إذا طالبت الزوجة بذلك؛ لأنه حق لها؛ فإن أبى فللحاكم أن يطلِّق، أو يفسخ النكاح؛ والفسخ أولى من الطلاق لئلَّا تحسب عليه طلقة، فيضيق عليه العدد – أي عدد الطلاق –.

(مسألة)

هل يصح الإيلاء من الصغير الذي لم يبلغ؟

الجواب: لا يصح؛ لقوله تعالى: {للذين يؤلون من نسائهم}؛ والصبي لا تنعقد منه اليمين؛ لأنه غير مكلَّف.

١٢- إثبات أربعة أسماء من أسماء الله سبحانه وتعالى؛ وهي {الغفور}، و{الرحيم}، و{السميع}، و{العليم}؛ وما تتضمنه هذه الأسماء من الصفات والأحكام.

١٣- الإشارة إلى أن الفيئة أحب إلى الله من الطلاق؛ لأن ذلك نوع من التهديد.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

قال أبو زهرة: أشارت الآيات السابقة إلى أمثل السبل لاختيار الزوج، وهو أن يكون أساس الاختيار الدِّين والتَّقوى والخلق، لَا المال والنسب، {وَلأَمَةٌ مؤمنَةٌ خَيْرٌ من مُّشْرِكة وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ....}.

ثم أشارت الآيات أيضًا إلى حسن العشرة الواجبة، ولطف المودَّة الواصلة، وبيَّنت أن العلاقة بين الزوجين طهر لَا دنس فيه، ونظافة لَا رجس معها يستوي في ذلك الحس والمعنى، والمخبر والمظهر.

وأوجبت أن تكون العلاقة قائمة على العدل من غير ضرار ولا ظلم، وبيَّنت الحكم في الظلم الواقع إن استمر عليه مرتكبه، ووثق إصراره بيمين يحلفها، وذكرت أن القطع في هذه الحال أولى من الوصل، والإنهاء أولى من البقاء لأن بقاء الحياة الزوجية في هذه الحال استمرارًا للظلم، وبقاء للإثم، ولا منفعة ترجى، ولا جدوى تلتمس؛ ولذلك قرَّر الله سبحانه وتعالى حكمه الصارم وهو الطلاق القاطع لهذا الظلم المستمر.

ولقد بيَّنت بعد ذلك هذه الآية الكريمة التي تلوناها، والتي سنتكلّم في معناها حكم الطلاق، وفصَّلت أحواله ومرَّاته الآيات من بعدها.

وقبل أن نخوض في معنى هذه الآية الكريمة، والإشارة إلى دقائق ألفاظها ومعانيها، نقرِّر أن شريعة القرآن شرعت الزواج عقدًا أبديًّا في أصل شرعته؛ لأنه شُرِع لِمعانٍ وأغراضٍ لَا تتحقَّق إلَّا مع البقاء والدوام، فقد شُرع لإقامة الأسرة، وتنظيم الحياة بين الرجل والمرأة، وإنجاب النَّسل، والقيام على تربيته وتهذيبه والسَّير به في مدارج الحياة، وتلك أغراض لَا تكون على الوجه الأكمل إلَّا إذا استمرت الحياة الزوجية موصولة موثَّقة بروابط من المودَّة والأخلاق والشرع إلى أن يقضي الله قضاءه. ذلك حكم الشرع، وهو سنة الوجود، وهو أكثر أحوال الزواج بين بني الإنسان، لَا يختلف في ذلك شرقي عن غربي ولا مسلم عن مسيحي.

والإسلام هو دين المبادئ السامية، يبيِّن المثل العليا ويدعو الناس إليها، فهو يشير إلى المثل السامي في الزواج في مثل قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكم مِّن أَنفسكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ}، وبقوله سبحانه وتعالى في العلاقة الزوجية: {هُنَّ لِبَاسٌ لكُمْ وَأَنتمْ لِبَاسٌ لهُنَّ...}.

ولكن الإسلام مع دعوته إلى تلك المثل العالية في العلاقة الزوجية يعترف بالحقائق الواقعة ويعالجها، ويطب لها، ليأخذ النفوس إلى السير في طريق الكمال، فإن عجزت أو انبتَّت في الطريق عالج ذلك العجز.

وكذلك عالج الأمر في شأن الزواج فشرعه أبديًّا، ولكن الشرط في استمراره أن يكون الوداد هو الرابطة الواصلة، وأن تلك الرابطة قد تتقطَّع أسبابها وتنفر القلوب بعد مودَّتها، وتنفصم عروتها، فهل يبقى المثل السامي للزواج وهو الاستمرار ولا يلتفت إلى النفرة المستحكمة والعداوة المسيطرة، ونيران البغضاء الملتهبة؛ لذلك اتَّجه الإسلام إلى علاج تلك الأدواء القائمة والطب لها، فلم يكتف بالمثل العليا يعلنها ويدعو إليها، بل اعترف بالواقع وعالجه، وطب للأسقام، فكان دين الحقائق الثابتة، والسمو النفسي.

والنزاع بين الزوجين أمر يقع، مهما يكن الزوجان، ومهما تكن درجة كمالهما، وقد كان نساء النبي ﷺ يختلفن معه في الشأن الذي يربط بينهما، بمطالبته بما ليس عنده، وكان النبي ﷺ الأسوة الحسنة لقومه وأمّته في أخلاقه ومعاملته لأهله، في الغضب والرضا، وفي الوفاق وفي الخلاف، ولكن أنّى يكون للناس أخلاق النبيين، والوحي ينزل عليهم من السماء، ونفوسهم علت إلى الملكوت الأعلى ولقد كان النبي ﷺ يقول: ((خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي([1])).

ولقد دعا الإسلام إلى إصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة بينهما تسير في غير طريق المودَّة؛ ولذا قال تعالى: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}.

ودعا الزوجين من له بهما صلة أن يتدخَّلوا عند الشِّقاق بينهما أو عند خوفه، بأن يحكموا حكمين عند خوف الشِّقاق وتوقُّع النِّزاع؛ ولذا قال تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا}.

وإذا تعذَّر الإصلاح ولم يمكن التوفيق وصار الأمر نيرانًا، ولم يكن سلامًا كان لابدَّ من التَّفريق؛ ولذا قال سبحانه: {وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا}.

لابدَّ إذن من التَّفريق بينهما؛ لأن عقد الزواج أصبح غير صالح للبقاء، ولكن من الذي يملك التفريق؛ لَا شك أنهما إن اتَّفقا عليه وقع الطلاق، ولا ضير في ذلك ما دام لم يكن في نوبة غضب جامحة، ولم يكن لأمر عارض، فيجب الاحتياط لذلك ما أمكن الاحتياط.

هذا إذا لم يتَّفقا فهل يقع الطلاق بإرادة منفردة من غير حكم قضائي؛ لقد قال بعض الذين يظنون أن في ذلك صلاحًا أنهما إن لم يتَّفقا على الطلاق لَا يقع إلَّا بأمر القضاء، وإن ذلك القول له وجهته لو كانت كل أمور الأسرة يجري فيها التَّقاضي، ويسوغ فيها الإعلان، وأن تتكشَّف أسرارها بين الناس، ولكن الأمور بين الزوجين لَا تجري فيها البيِّنات، وهي مستورة بستر الله لَا يسوغ إعلانها، وليس من مصلحة المجتمع إظهار العيوب الخاصة فيها.

١- (قلت): قال الإمام الألباني في آداب الزفاف: رواه الطحاوي في المشكل (٢١١/٣) من حديث ابن عباس. وروى منه الشطر الأول الحاكم ١٧٣/٤ وقال: (صحيح الإسناد). ووافقه الذهبي.

وله شاهد من حديث عائشة أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٣٨/٧)، وهو عند الدارمي (١٥٩/٢)، إلَّا انه قال: ((وإذا مات صاحبكم فدعوه)) بدل قوله: ((وأنا خيركم لأهلي)) وسنده صحيح على شرط البخاري.

وله شاهد آخر رواه الخطيب في التاريخ (١٣/٧) من حديث أبي هريرة وللترمذي وأحمد (٢٥٠/٢ و ٤٧٢) الشطر الأول منه نحوه وسنده حسن.

وهب السبب المسوِّغ للطلاق هو النَّفرة الشَّديدة فكيف يمكن إثباتها؛ إنها لا تعرف إلَّا من صاحبها؛ لذلك لم يكن الطلاق في الإسلام في عامة أحواله بيد القضاء، بل جرى الأمر فيه على أن يكون بيد الزوج إن كان هو الراغب، وبيد القضاء إن كانت هي الراغبة فيه.

وهنا يَرِد سؤالان: أولهما: لماذا كان بيد الزوج مطلقًا وبيد الأخرى مقيَّدًا؟

والثاني: ألَّا يُخشى ألَّا تكون النَّفرة مستحكمة، ويطلق الزوج لنوبة غضب جامحة، وتحت تأثير هوج ليست فيه إرادة مستقيمة؟

والجواب عن السؤال الأول: أن الزوج تكلَّف في سبيل الزواج مالًا كثيرًا، وسيعقب الطلاق تكليفات مالية أخرى، فوق ما يحمله الزواج الجديد من أعباء جديدة، فكل هذا يدفعه إلى التأنِّي والتروِّي فلا يندفع وراء هوى جامح إلَّا إذا أيفت([1]) مشاعره، وفسدت مداركه، أما المرأة فعكس ذلك، فلو كان الطلاق بيدها من غير تدخل قضاء لاندفعت وراء هواها جامحة، ولكان في ذلك ظلم شديد على الرجل بضياع ماله، وتكليفه بأعباء مالية جديدة فكان لابدَّ أن يتدخَّل القضاء ليعرف أكان الزوج ظالمًا فيذوق وبال أمره بضياع ماله، وهدم الحياة الزوجية التي أقامها على الظلم، أو ليعرف أن الزوجة ظالمة بالنُّشوز فيقضي بالطلاق، ويكلِّفها المغارم المالية التي غرمها الزوج في سبيل الزواج كما هو مذهب مالك؛ وليس السبيل لمعرفة الحق في الأمر هو الإثبات بالبيِّنات فقط، إنما هو الإثبات بتحكيم الحكمين من أهلها وأهله.

وأما الجواب عن السؤال الثاني، وهو الخاص بألَّا تقع الحياة الزوجية تحت تأثير الغضب الجامح، فقد احتاط الشارع الإسلامي لأمر ذلك الغضب في الطلاق بأحكام شرعها قبل الطلاق وبعده:

(أ) فهو أولًا: فرض أمر الحكمين والإصلاح ما أمكن الإصلاح إذا كان شقاق بين الزوجين كما أشرنا من قبل.

(ب) وأوجب ثانيًا: أن يكون الطلاق في وقت لَا تكون المرأة فيه على حال تسوغ النَّفرة، إلَّا إذا كانت مستحكمة، فمنع الطلاق في حال الحيض ومنع الطلاق في الطهر الذي دخل بها فيه، وظواهر السنة أن يكون الطلاق في هذه الأحوال باطلًا.

(ج) واحتاط الشارع الإسلامي ثالثًا بالنسبة للزوج المدخول بها وهي التي قامت معها الحياة الزوجية فعلًا، فلم يسوغ أن يكون الطلاق في هذه الحال باتًّا، فلم يسوِّغه إلَّا واحدة، ولم يسوِّغه إلَّا رجعيًّا في أثناء العدة.

(د) واحتاط الشارع رابعًا: فجعل للزوج الحق في مراجعة زوجته من غير عقد جديد ولا مهر جديد مدَّة طويلة تقارب نحو ثلاثة أشهر، فإذا مضت هذه المدة الطويلة، مع الإصرار والباب مفتوح وتدخُّل أهل الخير بينهما محتمل، فإن ذلك يكون دليلًا على استحكام النَّفرة، وإن القلوب قد تشعَّب ودُّها، ولم يعد من الصالح بقاء الحياة الزوجية في ظلِّها.

---

١ - (قلت): أيفت: أي أَصَابَته آفَة.

(هـ) واحتاط الشارع الإسلامي خامسًا فسوَّغ لهما أن يستأنِفا حياة زوجية جديدة، إن عادت القلوب النافرة، واستقامت على الحق، وندم كل واحد على ما فرَّط منه في جنب صاحبه.

فإن تكرَّر الطلاق من بعد، تكرَّرت الاحتياطات السابقة، فإن كانت الثالثة فهي التحريم المؤقَّت، حتى تكون التجربة القاسية بزواجها من رجل آخر زواجًا صحيحًا للدوام والبقاء وقيام العشرة الزوجية الجديدة، ثم انتهائها بأي سبب من أسباب الإنهاء الشرعية الصحيحة، فإنها بعد ذلك تحلُّ لزوجها الأول، وقد صقلته التَّجربة وصقله البُعد، والله عليم بذات الصدور.

ولقد سقنا هذا القول في مقدمة تفسير هذه الآيات الكريمة المشتملة على أحكام الطلاق، لأن ذلك القول خلاصتها، وهو مرماها، ولنضع الأحجار في أفواه الذين يعيبون أحكام الطلاق في القرآن، وهي أحكام قد اشتقَّت من الفطرة وطبيعة الحياة الزوجية، والاحتياط لها ما أمكن الاحتياط ولم يكن شيء منها معروفًا من قبل، ولم يصل العقل البشرى لأدقَّ منها وأحكم من بعد؛ إنها شريعة اللطيف الخبير.

قال ابن العثيمين: {والمطلَّقات}: أي اللَّاتي طلقهن أزواجهن؛ {يتربَّصن بأنفسهنَّ}: أي ينتظرن في العدَّة، ويحبسن أنفسهن عن الزواج؛ لأن المرأة بطبيعتها تطلب النكاح؛ فقيل لها: تربَّصي بنفسك؛ انتظري، مثلما أقول: ارفق بنفسك – أي هوِّن على نفسك –؛ وما أشبهها؛ وأما قول من قال: إن {أنفسهنَّ} توكيد للفاعل في {يتربَّصن} زيدت فيه الباء، وجعل معنى الآية: (يتربصن أنفسهن)؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن الأصل عدم الزيادة؛ ولأن مثل هذا التعبير شاذٌّ في اللغة العربية؛ فلا يحمل كلام الله على الشاذ؛ وعلى هذا فالمعنى الصحيح: أن ينتظرن بأنفسهن فلا يعجلن.

قال أبو زهرة: التربص معناه: التأني والانتظار، وقد قال بعض العلماء أنه مقلوب التصبُّر، فهو تكلُّف الأناة، وتكلُّف الانتظار مع صعوبة الاحتمال، كما هو الشأن في أمر الصبر والتصبُّر، وسواء أصحَّ ذلك القول أم لم يصح، فالتصبُّر والتربص متلاقيان في المعنى، ومتشابهان في اللفظ.

والتعبير {يتربَّصن} يدلُّ على الأمر، وهو الطلب اللَّازم المؤكَّد، وإن كانت الصيغة في ظاهرها صيغة خبرية، وقد قرَّر الخبراء بالبيان العربي أن أوكد الصِّيَغ دلالة على اللُّزوم الموثَّق: الصِّيَغ الخبرية التي تساق للطلب، مثل {وَالْوَالِدَات يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يتِمَّ الرَّضَاعَةَ....}، ومثل هذه الآية الكريمة التي نتكلَّم في معناها، ولكن مع ذلك لماذا كان النَّسق البياني السامي في أن يجيء الأمر في هذا المقام بتلك الصيغة الخبرية، فيكون معنى {يتربَّصن}: (ليتربصن)؟. والجواب عن ذلك من عدة وجوه:

أوَّلها: الإشارة إلى أن ذلك التربُّص يجب أن يكون من ذات نفس المطلقة، لأنه هو الذي يليق بكرامتها، ويتَّفق مع فطرتها، فإن كانت الرغبة تدفعها إلى الزواج العاجل السريع إن كان الزوج الجديد كفئًا، فإن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريُّث، فلا يليق بالحُرَّة الكريمة أن تنتقل بين الأزواج انتقالًا سريعًا، لَا فاصل فيه بين الزوجين.

وثانيها: أن نداء الفطرة يوجب عليها الانتظار لتستبرئ رحمها، حتى إذا كان حمل نسب لأبيه ولا يتنازعه الأزواج، فهنَّ إذا انتظرنَ وامتنعنَ عن الزواج هذه المدَّة فكأن ذلك من أنفسهن لَا من أمر فوقهن، وكأن ذلك إلزام الفطرة قبل أن يكون إلزام الشرع.

وثالثها: الإشارة إلى أن الأمر بالتربص أجيب وحصل التربص فعلًا، فالتعبير بصيغة الخبر إشارة إلى الأمر والتنفيذ معًا.

وإن من أبلغ الإشارات السامية الإتيان بكلمة {بِأنفُسِهِنَّ} في الإلزام بالتربص، فإن فيها الإشارة إلى ما في معنى التربص من الصيانة لأنفسهن عن الابتذال والاحتفاظ بكرامتهن. ولقد قال الزمخشري: في ذكر (الأنفس) تهييج لهنَّ على التربص وزيادة بعث؛ لأن فيه ما يستنكفنَ منه، فيحملهنَّ على أن يتربصنَ، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص.

ولماذا كانت تلك الإشارات المتعدِّدة على المرأة؟؛ لأن التربص لَا يعرف إلَّا من جانبها، فمداه لَا يعرف إلَّا منها، فكان ذلك التَّشديد النَّفسي، لتتغلَّب على أهوائها ولا تقول إلَّا حقًّا.

قال الشنقيطي: ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ شُمُولُهَا لِجَمِيعِ الْمُطَلَّقَاتِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ خُرُوجَ بَعْضِ الْمُطَلَّقَاتِ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، كَالْحَوَامِلِ الْمَنْصُوصِ عَلَى أَنَّ عِدَّتَهُنَّ وَضْعُ الْحَمْلِ، فِي قَوْلِهِ: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[٦٥ \ ٤] وَكَالْمُطَلَّقَاتِ قَبْلَ الدُّخُولِ الْمَنْصُوصِ عَلَى أَنَّهُنَّ لَا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ أَصْلًا، بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}[٣٣ \ ٤٩].

أَمَّا اللَّوَاتِي لَا يَحِضْنَ، لِكِبَرٍ أَوْ صِغَرٍ فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ عِدَّتَهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ فِي قَوْلِهِ: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ}[٦٥ \ ٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: {ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}: فِيهِ إِجْمَالٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْءَ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَى الْحَيْضِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: ((دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ([١]))). وَيُطْلَقُ الْقُرْءُ لُغَةً أَيْضًا عَلَى الطُّهْرِ وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْشَى:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ جَاشِمُ غَزْوَةٍ ... تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكَا

١- أخرجه النسائي ص٢١٠٩، كتاب الحيض، باب ٥: جمع المستحاضة بين الصلاتين وغسلها إذا جمعت، حديث رقم ٣٦١، وقال الألباني: صحيح (صحيح النسائي ١/١٢٠ - ١٢١)، حديث رقم ٣٥٩. حديث رقم ٣٥٩.

مُوَرِّثَةٍ مَالًا وَفِي الْحَيِّ رِفْعَةً ... لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقَرْءَ الَّذِي يَضِيعُ عَلَى الْغَازِي مِنْ نِسَائِهِ هُوَ الطُّهْرُ دُونَ الْحَيْضِ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْقُرُوءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، هَلْ هُوَ الْأَطْهَارُ أَوِ الْحَيْضَاتُ؟

وَسَبَبُ الْخِلَافِ اشْتِرَاكُ الْقَرْءِ بَيْنَ الطُّهْرِ وَالْحَيْضِ كَمَا ذَكَرْنَا، وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقَرْءِ فِي الْآيَةِ الطُّهْرُ مَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَالْفُقَهَاءُ السَّبْعَةُ، وَأَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ، وَالزُّهْرِيُّ، وَعَامَّةُ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ، وَمِمَّنْ قَالَ: بِأَنَّ الْقُرُوءَ الْحَيْضَاتُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْأَرْبَعَةُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبُو مُوسَى، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ وَغَيْرُهُمْ، وَهُوَ الرِّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ أَحْمَدَ.

وَاحْتَجَّ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِكِتَابٍ وَسُنَّةٍ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّنَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ نُرَجِّحُ مَا يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ دَلِيلَهُ أَرْجَحُ أَمَّا الَّذِينَ قَالُوا الْقُرُوءُ الْحَيْضَاتُ، فَاحْتَجُّوا بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} قَالُوا: فَتَرْتِيبُ الْعِدَّةِ بِالْأَشْهُرِ عَلَى عَدَمِ الْحَيْضِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الْعِدَّةِ بِالْحَيْضِ، وَالْأَشْهُرُ بَدَلٌ مِنَ الْحَيْضَاتِ عِنْدَ عَدَمِهَا، وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِقَوْلِهِ: {وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}[٢ \ ٢٢٨].

قَالُوا: هُوَ الْوَلَدُ أَوِ الْحَيْضُ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ ((دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ)) قَالُوا: إِنَّهُ ﷺ هُوَ مُبَيِّنُ الْوَحْيِ وَقَدْ أَطْلَقَ الْقَرْءَ عَلَى الْحَيْضِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ، وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ اعْتِدَادِ الْأَمَةِ بِحَيْضَتَيْنِ، وَحَدِيثِ اسْتِبْرَائِهَا بِحَيْضَةٍ.

وَأَمَّا الَّذِينَ قَالُوا: الْقُرُوءُ الْأَطْهَارُ، فَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}[٦٥ \ ١] قَالُوا: عِدَّتُهُنَّ الْمَأْمُورُ بِطَلَاقِهِنَّ لَهَا، الطُّهْرُ لَا الْحَيْضُ كَمَا هُوَ صَرِيحُ الْآيَةِ، وَيَزِيدُهُ إِيضَاحًا قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: ((فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ([1]))) قَالُوا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَرَّحَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، بِأَنَّ الطُّهْرَ هُوَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ، مُبَيِّنًا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} وَهُوَ نَصٌّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ دَلِيلَ هَؤُلَاءِ هَذَا – فَصْلٌ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ – لِأَنَّ مَدَارَ الْخِلَافِ هَلِ الْقُرُوءُ الْحَيْضَاتُ أَوِ الْأَطْهَارُ؟ وَهَذِهِ الْآيَةُ وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلَّا عَلَى أَنَّهَا الْأَطْهَارُ.

وَلَا يُوجَدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ شَيْءٌ يُقَاوِمُ هَذَا الدَّلِيلَ، لَا مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ الصَّرَاحَةِ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ؛ لِأَنَّهُ حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مَذْكُورٌ فِي مَعْرِضِ بَيَانِ مَعْنَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

١- (قلت): البخاري (٤٩٠٨)، ومسلم (١٤٧١).

وَقَدْ صَرَّحَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، بِأَنَّ الطُّهْرَ هُوَ الْعِدَّةُ مُبَيِّنًا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُرَادُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، بِقَوْلِهِ: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ، فَالْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ((فَتِلْكَ الْعِدَّةُ)) رَاجِعَةٌ إِلَى حَالِ الطُّهْرِ الْوَاقِعِ فِيهِ الطَّلَاقُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ((فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا)): أَيْ فِي حَالِ كَوْنِهَا طَاهِرًا، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَالَ الَّذِي هُوَ الطُّهْرُ هُوَ الْعِدَّةُ مُصَرِّحًا بِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُرَادُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعِدَّةَ بِالطُّهْرِ. وَأَنَّثَ بِالْإِشَارَةِ لِتَأْنِيثِ الْخَبَرِ، وَلَا تَخَلُّصَ مِنْ هَذَا الدَّلِيلِ لِمَنْ يَقُولُ هِيَ الْحَيْضَاتُ إِلَّا إِذَا قَالَ: الْعِدَّةُ غَيْرُ الْقُرُوءِ، وَالنِّزَاعُ فِي خُصُوصِ الْقُرُوءِ كَمَا قَالَ بِهَذَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ يَرُدُّهُ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْعُرْفِ الشَّرْعِيِّ، وَإِجْمَاعُ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، عَلَى أَنَّ عِدَّةَ مَنْ تَعْتَدُّ بِالْقُرُوءِ هِيَ نَفْسُ الْقُرُوءِ لَا شَيْءَ آخَرَ زَائِدٌ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ}[٦٥ \ ١] وَهِيَ زَمَنُ التَّرَبُّصِ إِجْمَاعًا، وَذَلِكَ هُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِثَلَاثَةِ قُرُوءٍ، الَّتِي هِيَ مَعْمُولُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَتَرَبَّصْنَ}[٢ \ ٢٢٨] فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ عَلَى الْمُطَلَّقَةِ الَّتِي تَعْتَدُّ بِالْأَقْرَاءِ شَيْئًا يُسَمَّى الْعِدَّةَ زَائِدًا عَلَى ثَلَاثَةِ الْقُرُوءِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْبَتَّةَ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

وَفِي الْقَامُوسِ: وَعِدَّةُ الْمَرْأَةِ أَيَّامُ أَقْرَائِهَا، وَأَيَّامُ إِحْدَادِهَا عَلَى الزَّوْجِ، وَهُوَ تَصْرِيحٌ مِنْهُ بِأَنَّ الْعِدَّةَ هِيَ نَفْسُ الْقُرُوءِ لَا شَيْءَ زَائِدٌ عَلَيْهَا، وَفِي اللِّسَانِ: وَعِدَّةُ الْمَرْأَةِ أَيَّامُ أَقْرَائِهَا، وَعِدَّتُهَا أَيْضًا أَيَّامُ إِحْدَادِهَا عَلَى بَعْلِهَا، وَإِمْسَاكُهَا عَنِ الزِّينَةِ شُهُورًا كَانَ أَوْ أَقْرَاءً أَوْ وَضْعُ حَمْلٍ حَمَلَتْهُ مِنْ زَوْجِهَا.

فَهَذَا بَيَانٌ بَالِغٌ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْوُضُوحِ وَالصَّرَاحَةِ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ، مَا لَا حَاجَةَ مَعَهُ إِلَى كَلَامٍ آخَرَ. وَتُؤَيِّدُهُ قَرِينَةُ زِيَادَةِ التَّاءِ فِي قَوْلِهِ: ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ لِدَلَالَتِهَا عَلَى تَذْكِيرِ الْمَعْدُودِ وَهُوَ الْأَطْهَارُ ؛ لِأَنَّهَا مُذَكَّرَةٌ وَالْحَيْضَاتُ مُؤَنَّثَةٌ.

وَجَوَابُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ عَنْ هَذَا بِأَنَّ لَفْظَ الْقُرْءِ مُذَكَّرٌ وَمُسَمَّاهُ مُؤَنَّثٌ وَهُوَ الْحَيْضَةُ، وَأَنَّ التَّاءَ إِنَّمَا جِيءَ بِهَا مُرَاعَاةً لِلَّفْظِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ لَا لِلْمَعْنَى الْمُؤَنَّثِ.

يُقَالُ فِيهِ: إِنَّ اللَّفْظَ إِذَا كَانَ مُذَكَّرًا، وَمَعْنَاهُ مُؤَنَّثًا لَا تَلْزَمُ التَّاءُ فِي عَدَدِهِ، بَلْ تَجُوزُ فِيهِ مُرَاعَاةُ الْمَعْنَى، فَيُجَرَّدُ الْعَدَدُ مِنَ التَّاءِ كَقَوْلِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيِّ: وَكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي ... ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ

فَجَرَّدَ لَفْظَ الثَّلَاثِ مِنَ التَّاءِ ؛ نَظَرًا إِلَى أَنَّ مُسَمَّى الْعَدَدِ نِسَاءً، مَعَ أَنَّ لَفْظَ الشَّخْصِ الَّذِي أَطْلَقَهُ عَلَى الْأُنْثَى مُذَكَّرٌ، وَقَوْلِ الْآخَرِ: وَإِنَّ كِلَابًا هَذِهِ عَشْرُ أَبْطُنٍ ... وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْ قَبَائِلِهَا الْعَشْرِ

فَمُجَرَّدُ الْعَدَدِ مِنَ التَّاءِ مَعَ أَنَّ الْبَطْنَ مُذَكَّرٌ ؛ نَظَرًا إِلَى مَعْنَى الْقَبِيلَةِ، وَكَذَلِكَ الْعَكْسُ، كَقَوْلِهِ:

ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ وَثَلَاثُ ذَوْدٍ ... لَقَدْ عَالَ الزَّمَانُ عَلَى عِيَالِي

فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ لَفْظَ الثَّلَاثَةِ مَعَ أَنَّ الْأَنْفُسَ مُؤَنَّثَةٌ لَفْظًا ؛ نَظَرًا إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَنْفُسُ ذُكُورٍ، وَتَجُوزُ مُرَاعَاةُ اللَّفْظِ فَيُجَرَّدُ مِنَ التَّاءِ فِي الْأَخِيرِ، وَتَلْحَقُهُ التَّاءُ فِي الْأَوَّلِ، وَلُحُوقُهَا إِذَنْ مُطْلَقُ احْتِمَالٍ، وَلَا يَصِحُّ الْحَمْلُ عَلَيْهِ دُونَ قَرِينَةٍ تُعَيِّنُهُ، بِخِلَافِ

عَدَدِ الْمُذَكَّرِ لَفظًا وَمَعْنًى، كَالْقُرْءِ بِمَعْنَى الطُّهْرِ، فَلُحُوقُهَا لَهُ لَازِمٌ بِلَا شَكٍّ، وَاللَّازِمُ الَّذِي لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ مِنَ الْمُحْتَمَلِ الَّذِي يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ بَدَلًا عَنْهُ، وَلَمْ تَدُلَّ عَلَيْهِ قَرِينَةٌ كَمَا تَرَى.

فَإِنْ قِيلَ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي تَذْكِيرِ وَاحِدِ الْمَعْدُودِ وَتَأْنِيثِهِ إِنَّمَا هِيَ بِاللَّفْظِ، وَلَا تَجُوزُ مُرَاعَاةُ الْمَعْنَى إِلَّا إِذَا دَلَّتْ عَلَيْهِ قَرِينَةٌ، أَوْ كَانَ قَصَدَ ذَلِكَ الْمَعْنَى كَثِيرًا، وَالْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ، قَالَ الْأَشْمُونِيُّ فِي شَرْحِ قَوْلِ ابْنِ مَالِكٍ: ثَلَاثَةٌ بِالتَّاءِ قُلْ لِلْعَشَرَهْ ... فِي عَدِّ مَا آحَادُهُ مُذَكَّرَهْ

فِي الضِّدِّ جَرِّدْ إِلَخْ. . . مَا نَصُّهُ: الثَّانِي اعْتِبَارُ التَّأْنِيثِ فِي وَاحِدِ الْمَعْدُودِ إِنْ كَانَ اسْمًا فَبِلَفْظِهِ، تَقُولُ: ثَلَاثَةُ أَشْخُصٍ، قَاصِدًا «نِسْوَةٍ»، وَثَلَاثُ أَعْيُنٍ قَاصِدًا (رِجَالٍ)؛ لِأَنَّ لَفْظَ شَخْصٍ مُذَكَّرٌ، وَلَفْظُ عَيْنٍ مُؤَنَّثٌ، هَذَا مَا لَمْ يَتَّصِلْ بِالْكَلَامِ مَا يُقَوِّي الْمَعْنَى؛ أَوْ يَكْثُرْ فِيهِ قَصْدُ الْمَعْنَى. فَإِنِ اتَّصَلَ بِهِ ذَلِكَ جَازَ مُرَاعَاةُ الْمَعْنَى، فَالْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ:

ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ

وَكَقَوْلِهِ: وَإِنَّ كِلَابًا . الْبَيْتَ.

وَالثَّانِي كَقَوْلِهِ: ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ وَثَلَاثُ ذَوْدٍ. اهـ مِنْهُ.

وَقَالَ الصَّبَّانُ فِي (حَاشِيَتِهِ) عَلَيْهِ: وَبِمَا ذَكَرَهُ الشَّارِحُ يَرُدُّ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}[٢ \ ٢٢٨]. {بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ}[٢٤ \ ٤] عَلَى أَنَّ الْأَقْرَاءَ الْأَطْهَارُ لَا الْحَيْضُ، وَعَلَى أَنَّ شَهَادَةَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ لِأَنَّ الْحَيْضَ جَمْعُ حَيْضَةٍ ؛ فَلَوْ أُرِيدَ الْحَيْضُ لَقِيلَ ثَلَاثٌ، وَلَوْ أُرِيدَ النِّسَاءُ لَقِيلَ بِأَرْبَعٍ.

وَوَجْهُ الرَّدِّ أَنَّ الْمُعْتَبَرَ هُنَا اللَّفْظُ، وَلَفْظُ قُرْءٍ وَشَهِيدٍ مُذَكَّرَيْنِ، مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

فَالْجَوَابُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا خِلَافُ التَّحْقِيقِ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ اسْتِقْرَاءُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ جَوَازُ مُرَاعَاةِ الْمَعْنَى مُطْلَقًا، وَجَزَمَ بِجَوَازِ مُرَاعَاةِ الْمَعْنَى فِي لَفْظِ الْعَدَدِ ابْنُ هِشَامٍ، نَقَلَهُ عَنْهُ السُّيُوطِيُّ، بَلْ جَزَمَ صَاحِبُ (التَّسْهِيلِ) وَشَارِحُهُ الدَّمَامِينِيُّ: بِأَنَّ مُرَاعَاةَ الْمَعْنَى فِي وَاحِدِ الْمَعْدُودِ مُتَعَيِّنَةٌ.

قَالَ الصَّبَّانُ فِي (حَاشِيَتِهِ)، مَا نَصُّهُ: قَوْلُهُ فَبِلَفْظِهِ ظَاهِرُهُ: أَنَّ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ، وَيُخَالِفُهُ مَا نَقَلَهُ السُّيُوطِيُّ عَنِ ابْنِ هِشَامٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ مَا كَانَ لَفْظُهُ مُذَكَّرًا، وَمَعْنَاهُ مُؤَنَّثًا، أَوْ بِالْعَكْسِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ فِيهِ وَجْهَانِ اهـ.

وَيُخَالِفُهُ أَيْضًا مَا فِي (التَّسْهِيلِ) وَشَرْحِهِ لِلدَّمَامِينِيِّ. وَعِبَارَةُ (التَّسْهِيلِ) تَحْذِفُ تَاءَ الثَّلَاثَةِ وَأَخَوَاتِهَا، إِنْ كَانَ وَاحِدُ الْمَعْدُودِ مُؤَنَّثَ الْمَعْنَى حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا.

قَالَ الدَّمَامِينِيُّ: اسْتُفِيدَ مِنْهُ أَنَّ الِاعْتِبَارَ فِي الْوَاحِدِ بِالْمَعْنَى لَا بِاللَّفْظِ، فَلِهَذَا يُقَالُ: ثَلَاثَةُ طَلَحَاتٍ، ثُمَّ قَالَ فِي «التَّسْهِيلِ» وَرُبَّمَا أُوِّلَ مُذَكَّرٌ بِمُؤَنَّثٍ، وَمُؤَنَّثٌ بِمُذَكَّرٍ، فَجِيءَ بِالْعَدَدِ عَلَى حَسَبِ التَّأْوِيلِ، وَمَثَّلَ الدَّمَامِينِيُّ الْأَوَّلَ بِنَحْوِ ثَلَاثِ شُخُوصٍ، يُرِيدُ نِسْوَةً وَعَشْرِ وَأَبْطُنٍ يُرِيدُ قَبَائِلَ.

وَالثَّانِي بِنَحْوِ ثَلَاثَةِ أَنْفُسٍ؛ أَيْ: أَشْخَاصٍ وَتِسْعَةِ وَقَائِعَ أَيْ: مَشَاهِدَ، فَتَأَمَّلْ. انْتَهَى مِنْهُ بِلَفْظِهِ. وَمَا جَزَمَ بِهِ صَاحِبُ (التَّسْهِيلِ) وَشَارِحُهُ، مِنْ تَعَيُّنِ مُرَاعَاةِ الْمَعْنَى، يَلْزَمُ عَلَيْهِ تَعَيُّنُ كَوْنِ الْقُرْءِ فِي الْآيَةِ هُوَ الطُّهْرُ، كَمَا ذَكَرْنَا.

وَفِي (حَاشِيَةِ الصَّبَّانِ) أَيْضًا مَا نَصُّهُ: قَوْلُهُ جَازَ مُرَاعَاةُ الْمَعْنَى فِي التَّوْضِيحِ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ قِيَاسِيًّا، وَهُوَ خِلَافُ مَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ هِشَامٍ وَغَيْرِهِ، مِنْ أَنَّ مَا كَانَ لَفْظُهُ مُذَكَّرًا وَمَعْنَاهُ مُؤَنَّثًا أَوْ بِالْعَكْسِ، يَجُوزُ فِيهِ وَجْهَانِ؛ أَيْ: وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُرَجِّحٌ لِلْمَعْنَى، وَهُوَ خِلَافُ مَا تَقَدَّمَ عَنْ (التَّسْهِيلِ) وَشَرْحِهِ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْمَعْنَى، فَتَأَمَّلْ. اهـ مِنْهُ.

وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ عَلَى أَنَّهَا الْحَيْضَاتُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ} الْآيَةَ [٦٥ \ ٤]، فَيُقَالُ فِيهِ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يُعَيِّنُ أَنَّ الْقُرُوءَ الْحَيْضَاتُ؛ لِأَنَّ الْأَقْرَاءَ لَا تُقَالُ فِي الْأَطْهَارِ إِلَّا فِي الْأَطْهَارِ الَّتِي يَتَخَلَّلُهَا حَيْضٌ، فَإِنْ عُدِمَ الْحَيْضُ عُدِمَ مَعَهُ اسْمُ الْأَطْهَارِ، وَلَا مَانِعَ إِذَنْ مِنْ تَرْتِيبِ الِاعْتِدَادِ بِالْأَشْهُرِ عَلَى عَدَمِ الْحَيْضِ مَعَ كَوْنِ الْعِدَّةِ بِالطُّهْرِ ؛ لِأَنَّ الطُّهْرَ الْمُرَادَ يَلْزَمُهُ وُجُودُ الْحَيْضِ وَإِذَا انْتَفَى اللَّازِمُ انْتَفَى الْمَلْزُومُ، فَانْتِفَاءُ الْحَيْضِ يَلْزَمُهُ انْتِفَاءُ الْأَطْهَارِ فَكَأَنَّ الْعِدَّةَ بِالْأَشْهُرِ مُرَتَّبَةٌ أَيْضًا عَلَى انْتِفَاءِ الْأَطْهَارِ، الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِانْتِفَاءِ الْحَيْضِ. وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ بِآيَةِ: وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ فَهُوَ ظَاهِرُ السُّقُوطِ؛ لِأَنَّ كَوْنَ الْقُرُوءِ الْأَطْهَارَ لَا يُبِيحُ لِلْمُعْتَدَّةِ كَتْمَ الْحَيْضِ ؛ لِأَنَّ الْعِدَّةَ بِالْأَطْهَارِ لَا تُمَكِّنُ إِلَّا بِتَخَلُّلِ الْحَيْضِ لَهَا، فَلَوْ كَتَمَتِ الْحَيْضَ لَكَانَتْ كَاتِمَةً انْقِضَاءَ الطُّهْرِ، وَلَوِ ادَّعَتْ حَيْضًا لَمْ يَكُنْ كَانَتْ كَاتِمَةً؛ لِعَدَمِ انْقِضَاءِ الطُّهْرِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ بِحَدِيثِ ((دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ)) فَيُقَالُ فِيهِ: إِنَّهُ لَا دَلِيلَ فِي الْحَدِيثِ الْبَتَّةَ عَلَى مَحَلِّ النِّزَاعِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفِيدُ شَيْئًا زَائِدًا عَلَى أَنَّ الْقُرْءَ يُطْلَقُ عَلَى الْحَيْضِ، وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ.

أَمَّا كَوْنُهُ يَدُلُّ عَلَى مَنْعِ إِطْلَاقِ الْقُرْءِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَلَى الطُّهْرِ فَهَذَا بَاطِلٌ بِلَا نِزَاعٍ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الْقَائِلِينَ: بِوُقُوعِ الِاشْتِرَاكِ فِي: أَنَّ إِطْلَاقَ الْمُشْتَرَكِ عَلَى أَحَدِ مَعْنَيَيْهِ فِي مَوْضِعٍ، لَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَنْعُ إِطْلَاقِهِ عَلَى مَعْنَاهُ الْآخَرِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

أَلَا تَرَى أَنَّ لَفْظَ الْعَيْنِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْبَاصِرَةِ وَالْجَارِيَةِ مَثَلًا، فَهَلْ تَقُولُ إِنَّ إِطْلَاقَهُ تَعَالَى لَفْظَ الْعَيْنِ عَلَى الْبَاصِرَةِ فِي قَوْلِهِ: وَ{كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ} الْآيَةَ [٥ \ ٤٥] يَمْنَعُ إِطْلَاقَ الْعَيْنِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَلَى الْجَارِيَةِ، كَقَوْلِهِ: {فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ}[٨٨ \ ١٢].

وَالْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْمُشْتَرَكَ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ مَعْنَيَيْهِ، أَوْ مَعَانِيهِ فِي الْحَالِ الْمُنَاسِبَةِ لِذَلِكَ، وَالْقُرْءُ فِي حَدِيثِ ((دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ)) مُنَاسِبٌ لِلْحَيْضِ دُونَ الطُّهْرِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ إِنَّمَا تُتْرَكُ فِي وَقْتِ الْحَيْضِ دُونَ وَقْتِ الطُّهْرِ. وَلَوْ كَانَ إِطْلَاقُ الْمُشْتَرَكِ عَلَى أَحَدِ مَعْنَيَيْهِ يُفِيدُ مَنْعَ إِطْلَاقِهِ عَلَى مَعْنَاهُ الْآخَرِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، لَمْ يَكُنْ فِي اللُّغَةِ اشْتِرَاكٌ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ كُلُّ مَا أَطْلَقَهُ عَلَى أَحَدِهِمَا مَنَعَ إِطْلَاقَهُ لَهُ عَلَى الْآخَرِ، فَيُبْطِلُ اسْمَ الِاشْتِرَاكِ مِنْ أَصْلِهِ مَعَ أَنَّا قَدَّمْنَا

تَصْرِيحَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: ((بِأَنَّ الطُّهْرَ هُوَ الْعِدَّةُ))، وَكُلُّ هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّةِ حَدِيثِ ((دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ))، لِأَنَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ ضَعَّفَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَحَّحَهُ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ بَعْضَ طُرُقِهِ لَا يَقِلُّ عَنْ دَرَجَةِ الْقَبُولِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا دَلِيلَ فِيهِ لِمَحَلِّ النِّزَاعِ. وَلَوْ كَانَ فِيهِ لَكَانَ مَرْدُودًا بِمَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ وَأَصْرَحُ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ، وَهُوَ مَا قَدَّمْنَا. وَكَذَلِكَ اعْتِدَادُ الْأَمَةِ بِحَيْضَتَيْنِ عَلَى تَقْرِيرِ ثُبُوتِهِ عَنْهُ ﷺ، لَا يُعَارِضُ مَا قَدَّمْنَا؛ لِأَنَّهُ أَصَحُّ مِنْهُ وَأَصْرَحُ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ، وَاسْتِبْرَاؤُهَا بِحَيْضَةٍ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي الْعِدَّةِ لَا فِي الِاسْتِبْرَاءِ.

وَرَدَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الِاسْتِدْلَالَ بِالْآيَةِ وَالْحَدِيثِ الدَّالَّيْنِ عَلَى أَنَّهَا الْأَطْهَارُ، بِأَنَّ ذَلِكَ يَلْزَمُهُ الِاعْتِدَادُ بِالطُّهْرِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الطَّلَاقُ كَمَا عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْقَائِلِينَ: بِأَنَّ الْقُرُوءَ الْأَطْهَارُ، فَيَلْزَمُ عَلَيْهِ كَوْنُ الْعِدَّةِ قُرْءَيْنِ وَكَسْرًا مِنَ الثَّالِثِ، وَذَلِكَ خِلَافُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ مِنْ أَنَّهَا ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ كَامِلَةٍ مَرْدُودٌ بِأَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا تُعَارَضُ بِهِ نُصُوصُ الْوَحْيِ الصَّرِيحَةُ، وَغَايَةُ مَا فِي الْبَابِ إِطْلَاقُ ثَلَاثَةِ قُرُوءٍ عَلَى اثْنَيْنِ وَبَعْضِ الثَّالِثِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ وَالْمُرَادُ شَهْرَانِ وَكَسْرٍ.

وَادِّعَاءُ أَنَّ ذَلِكَ مَمْنُوعٌ فِي أَسْمَاءِ الْعَدَدِ يُقَالُ فِيهِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ الَّذِي ذَكَرَ إِنَّ بَقِيَّةَ الطُّهْرِ الْوَاقِعِ فِيهِ الطَّلَاقُ عِدَّةٌ، مُبَيِّنًا أَنَّ ذَلِكَ مُرَادُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ، وَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَجِلَّاءِ الْعُلَمَاءِ – رَحِمَهُمُ اللَّهُ – مِنْ أَنَّ الْآيَةَ وَالْحَدِيثَ الْمَذْكُورَيْنِ يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ الْأَقْرَاءَ الْحَيْضَاتُ بَعِيدٌ جِدًّا مِنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ كَمَا تَرَى.

بَلْ لَفْظُ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ الْمَذْكُورَيْنِ صَرِيحٌ فِي نَقِيضِهِ، هَذَا هُوَ مَا ظَهَرَ لَنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، وَنِسْبَةُ الْعِلْمِ إِلَيْهِ أَسْلَمُ.

قال البغوي: وَهَذَا الِاخْتِلَافُ مِنْ حَيْثُ أَنَّ اسْمَ الْقُرْءِ يَقَعُ عَلَى الطُّهْرِ وَالْحَيْضِ جَمِيعًا، يُقَالُ: أَقْرَأَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا حَاضَتْ، وَأَقْرَأَتْ إِذَا طَهُرَتْ فَهِيَ مَقْرِئٌ، وَاخْتَلَفُوا فِي أَصْلِهِ، فَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ الْوَقْتُ لِمَجِيءِ الشَّيْءِ وَذَهَابِهِ، يُقَالُ: رَجَعَ فُلَانٌ لِقُرْئِهِ وَلِقَارِئِهِ، أَيْ: لِوَقْتِهِ الَّذِي يَرْجِعُ فِيهِ، وَهَذَا قَارِئُ الرِّيَاحِ، أَيْ: وَقْتُ هُبُوبِهَا، قَالَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْهُذَلِيُّ: كَرِهْتُ العقر عقر بني سليل ... إِذَا هَبَّتْ لِقَارِئِهَا الرِّيَاحُ

أَيْ: لِوَقْتِهَا، وَالْقَرْءُ يَصْلُحُ لِلْوَجْهَيْنِ لِأَنَّ الْحَيْضَ يَأْتِي لِوَقْتٍ، وَالطُّهْرُ مِثْلُهُ، وقيل: هو من القراء، وَهُوَ الْحَبْسُ وَالْجَمْعُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: مَا قَرَأَتِ النَّاقَةُ سَلًّا قَطُّ، أَيْ: لَمْ تَضُمَّ رَحِمُهَا عَلَى وَلَدٍ، وَمِنْهُ قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي الْمِقْرَاةِ وَهِيَ الْحَوْضُ، أَيْ: جَمَعْتُهُ بِتَرْكِ هَمْزِهَا، فَالْقَرْءُ هَاهُنَا احْتِبَاسُ الدَّمِ وَاجْتِمَاعُهُ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ التَّرْجِيحُ فِيهِ لِلطُّهْرِ، لِأَنَّهُ يَحْبِسُ الدَّمَ وَيَجْمَعُهُ، وَالْحَيْضُ يُرْخِيهِ وَيُرْسِلُهُ، وَجُمْلَةُ الْحُكْمِ فِي الْعِدَدِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ سَوَاءٌ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الزَّوْجِ بِالطَّلَاقِ أَوْ بِالْمَوْتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأُولَاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[الطَّلَاقِ: ٤]، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَامِلًا نَظَرَ إِنْ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا بِمَوْتِ الزَّوْجِ، فَعَلَيْهَا أَنْ تَعْتَدَّ بِأَرْبَعَةِ أشهر وعشرًا، سَوَاءٌ مَاتَ الزَّوْجُ قَبْلَ الدُّخُولِ أَوْ بَعْدَهُ وَسَوَاءٌ كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِمَّنْ تَحِيضُ أَوْ لَا تَحِيضُ لقول الله عز وجل: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجًا يَتَرَبَّصْنَ

بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}[الْبَقَرَة: ٢٣٤]، وَإِنْ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا بالطلاق في الحياة نظر فإن كانت قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا فَلَا عِدَّةَ عليها لقول اللَّهُ تَعَالَى: {إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها}[الْأَحْزَابِ: ٤٩]، وَإِنْ كَانَ بعد الدخول بها نظر إن كانت المرأة لَمْ تَحِضْ قَطُّ أَوْ بَلَغَتْ فِي الْكِبَرِ سِنَّ الْآيِسَاتِ فَعِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ}[الطَّلَاقِ: ٤]، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّنْ تَحِيضُ فَعِدَّتُهَا ثلاثة أقرؤ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ}، وَقَوْلُهُ: يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ لَفْظُهُ خَبَرٌ وَمَعْنَاهُ أَمْرٌ، وَعِدَّةُ الْأَمَةِ إِنْ كَانَتْ حَامِلًا بِوَضْعِ الْحَمْلِ كَالْحُرَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ حَائِلًا فَفِي الْوَفَاةِ عِدَّتُهَا شَهْرَانِ وَخَمْسُ أيام، وَفِي الطَّلَاقِ إِنْ كَانَتْ مِمَّنْ تَحِيضُ فَعِدَّتُهَا قُرْءَانِ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّنْ لَا تَحِيضُ فَشَهْرٌ وَنِصْفٌ، وقيل: شهران كالقرءين فِي حَقِّ مَنْ تَحِيضُ، قَالَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: ينكح العبد اثنتين ويطلق تطليقتين، وَتَعْتَدُّ الْأَمَةُ بِحَيْضَتَيْنِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَحِيضُ فَشَهْرَيْنِ أَوْ شَهْرًا ونصفا.

قال السعدي: ولهذه العدَّة عدَّة حِكَم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكرَّرت عليها ثلاثة الأقراء، عُلم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن {ما خلق الله في أرحامهن} وحرم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفاسد كثيرة، فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له رغبة فيه واستعجالًا لانقضاء العدَّة، فإذا ألحقته بغير أبيه حصل من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلَّا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة، وهي الزنا لكفى بذلك شرًّا.

وأما كتمان الحيض بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره وما يتفرَّع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبتْ وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدَّة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرَّمة من جهتين:

من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبته إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدَّة، فيكون ذلك سفاحًا، لكونها أجنبية عنه، فلهذا قال تعالى: {ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر}.

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلَّا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة، عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطَّلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه.

قال أبو زهرة: أودع الله أحشاء المرأة أمانات ناط بها أحكامًا، فكانت الأمينة على تلك الأحكام كما كانت الأمينة بمقتضى نظام الله في الكون على الأنساب والأولاد، وبمقدار عظم الأمانة كان عظم التكليف؛ لذلك قرَّر سبحانه وتعالى أنه لَا يحل لهنَّ أن يكتمن أمانة الله التي خلقها في أرحامهنَّ من ولد لينسبنَه إلى غير أبيه، فإن ذلك خيانة للأمانة، وكذب على الله، وافتراء على الحق، وكذلك لَا يكتمنَ ما خلق في أرحامهن من دم تلفظه الأرحام بعد أن خلقه الله سبحانه وتعالى فيها، وذلك لتطول العدَّة ويمتدُّ الإنفاق، كما كان يفعل ذلك كثيرات من نساء هذا العصر!!.

وعبَّر الله سبحانه وتعالى عن الدم والولد بأنه: {مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} للإشارة إلى أن الكتمان كذب على الله، ونفي لخلقه وتكوينه، وفي ذلك مضاعفة الجرم وعظم الإثم، وذلك فوق أن هذا التعبير عام شامل كامل لموضوعي الإنكار والكتمان وهما الحمل والحيض.

وقد قرن سبحانه وتعالى النهي عن الكتمان بقوله تعالى: {إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} للحث على عدم الكتمان، والإخبار بما خلق الله، لتستقيم الأحكام، وتتقرَّر الحقوق، وفي ذلك تعظيم لأمر الكتمان، بأنه ينافي الإيمان، لأن الإيمان يبعث على الصدق، ويدعو إلى المحافظة على الأمانة، وليس من المحافظة على أمانة الله ووديعته جحودها وكتمانها، وما ترتَّب على ذلك من ضياع الحقوق التي تعلَّقت بها، والاستهانة بأحكام الله سبحانه وتعالى التي ناطها بها، وأيُّ مؤمنة ترضي لنفسها أن تعاند أحكام الله، وتخون أمانته، وتجحد وديعته!!.

وفوق ذلك في هذه الجملة السامية تهديد ووعيد، باليوم الآخر، وما يكون فيه من عذاب شديد، ثم ما يكون فيه من إظهار ما كتم، وكشف ما أسر، وإظهار ما أخفى.

قال ابن العثيمين: وسمِّيَ رحمًا؛ لأنه ينضم على الجنين، ويحفظه؛ فهو كذوي الأرحام من انضمامهم على قريبهم وحنوهم وعطفهم عليه.

قال أبو زهرة: {وبعولتهن أحق بردِّهن في ذلك}؛ في هذه الجملة السامية بيان لبعض المقاصد الشرعية التي أرادها الشارع الحكيم من شرعية العدَّة، وهو أن يكون لدى المطلِّق فرصة مراجعة نفسه، بعد أن تكون قد ذهبت عنه نوبة الألم التي أدَّت إلى الفراق، وقد تكون سحابة صيف تقشَّعت، وعارضًا قد زال، وفي هذا بيان لعلاج الله سبحانه وتعالى لنفوس المطيقين، إذ جعل لهم وقت التربُّص من جانب المرأة، وقت تروية وتدبُّر من جانب الرجل، وفرصة لائحة لمن يريد الإصلاح من الأهل والعشيرة، وكل من يهمهم أمر الزوجين، وما كان بينهما من ثمرة لهذا الزواج.

قال ابن العثيمين: البعل هو الزوج، كما قال الله تعالى عن امرأة إبراهيم: {قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخًا}[هود: ٧٢]: أي زوجي؛ وسمِّيَ بعلًا مع أنه مطلق؛ لأن الأحكام الزوجية في الرجعية باقية إلَّا ما استثني؛ و{أحق}

اسم تفضيل؛ واسم التفضيل لابدَّ فيه من مفضَّل، ومفضَّل عليه؛ يعني: أن بعولتهن أحق بردهن من أنفسهن؛ و{ذا} اسم إشارة؛ والمشار إليه التربص المفهوم من قوله تعالى: {يتربصن} – وهو مدة العدة –.

{إن أرادوا إصلاحًا}: أي إن أراد بعولتهن إصلاحًا في ردهن؛ و{إصلاحًا}: أي ائتلافًا، والتئامًا بين الزوج وزوجته، وإزالة لما وقع من الكسر بسبب الطلاق، وما أشبه ذلك.

قال الشنقيطي: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا}: ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ أَزْوَاجَ كلِّ الْمُطَلَّقَاتِ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ رَجْعِيَّةٍ وَغَيْرِهَا.

وَلَكِنَّهُ أَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ الْبَائِنَ لَا رَجْعَةَ لَهُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا}[٣٣ \ ٤٩].

وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّلَاقَ قَبْلَ الدُّخُولِ بَائِنٌ، كَمَا أَنَّهُ أَشَارَ هُنَا إِلَى أَنَّهَا إِذَا بَانَتْ بِانْقِضَاءِ الْعِدَّةِ لَا رَجْعَةَ لَهُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ}؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ: {ذَلِكَ} رَاجِعَةٌ إِلَى زَمَنِ الْعِدَّةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ بِثَلَاثَةِ قُرُوءٍ.

وَاشْتَرَطَ هُنَا فِي كَوْنِ بُعُولَةِ الرَّجْعِيَّاتِ أَحَقَّ بِرَدِّهِنَّ إِرَادَتَهُمُ الْإِصْلَاحَ بِتِلْكَ الرَّجْعَةِ، فِي قَوْلِهِ: {إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا} وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَفْهُومِ هَذَا الشَّرْطِ هُنَا، وَلَكِنَّهُ صَرَّحَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ زَوْجَ الرَّجْعِيَّةِ إِذَا ارْتَجَعَهَا لَا بِنِيَّةِ الْإِصْلَاحِ بَلْ بِقَصْدِ الْإِضْرَارِ بِهَا؛ لِتُخَالِعَهُ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، أَنَّ رَجْعَتَهَا حَرَامٌ عَلَيْهِ، كَمَا هُوَ مَدْلُولُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا}[٢ \ ٢٣١].

فَالرَّجْعَةُ بِقَصْدِ الْإِضْرَارِ حَرَامٌ إِجْمَاعًا، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَفْهُومُ الشَّرْطِ الْمُصَرَّحِ بِهِ فِي قَوْلِهِ: {وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا} الْآيَةَ، وَصِحَّةُ رَجْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِاعْتِبَارِ ظَاهِرِ الْأَمْرِ، فَلَوْ صَرَّحَ لِلْحَاكِمِ بِأَنَّهُ ارْتَجَعَهَا بِقَصْدِ الضَّرَرِ، لَأَبْطَلَ رَجْعَتَهُ كَمَا ذَكَرْنَا، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال السعدي: ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح، فليسوا بأحق بردهنَّ، فلا يحلُّ لهم أن يراجعوهن، لقصد المضارَّة لها، وتطويل العدَّة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التربص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجُعلت له هذه المدة ليتروى بها ويقطع نظره. وهذا يدلُّ على محبته تعالى للأُلفة بين الزوجين وكراهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: ((أبغض الحلال إلى الله الطلاق([١]))).

---

١ – (قلت): ضعفه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٠٤٠).

وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع فلابدَّ من عقد جديد مجتمع الشروط.

قال أبو زهرة: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة}: هذا هو القانون العادل الشامل، نطق به القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا، وقد شرعه الإسلام في وقت لم يعترف أي قانون من قوانين العالم بأن للمرأة أي حق من الحقوق، وفرضت عليها القوانين في العصور الغابرة كل الواجبات، فجاء الإسلام ووضع تلك القاعدة العادلة، وهي أن الحقوق يجب أن تكون متكافئة مع الواجبات، فما على الإنسان من واجبات يكافئ ما له من حقوق، وما من حق إلَّا تعلَّق به واجب، فإذا كان للرجل سلطان في البيت وعلى المرأة واجب الطاعة، فلها حق، وهو العدل؛ وإذا كانت المرأة قارَّة في البيت قائمة بشئونه، وفرض عليها ذلك الواجب، فلها حق الإنفاق؛ وإذا كان عليها أن تعدُّ البيت إعدادًا حسنًا بمقتضى العرف فلها حق المهر؛ وإذا كان عليها أن تؤنس زوجها، فعليه ألَّا يوحشها، وقد أدرك ذلك المعنى الجليل، وهو التساوي بين الحقوق والواجبات الصحابة الأولون، حتى أن ابن عباس كان يقول: (إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي).

وإن التساوي بين الحقوق والواجبات ليس مقصورًا على ما بين الرجل والمرأة، بل إنه قانون شامل سنَّه الإسلام وأيَّده العقل، وبه يقوم العدل، فقد جعل الواجب على المرء بمقدار ما له من حق، وعلى هذا السنن المستقيم جعل الإسلام عقوبة العبد نصف عقوبة الحر، لأن الرّق الذي أسقط بعض حقوق الآدمية، أسقط أيضًا بعض واجباتها.

وليس معنى أن الواجبات على المرأة مساوية للحقوق التي لها على الرجل أن المرأة مساوية للرجل من كل الوجوه، فإن الإسلام قرَّر فقط تساوي الحقوق والواجبات، بالنسبة لها وليس لذلك علاقة بشأن المساواة بينها وبين الرجل في نوع الحقوق والواجبات، ولكي لَا يفهم أحد هذا المعنى قال الله سبحانه وتعالى: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} فالرجل ليس مساويًا للمرأة، وليست المرأة مساوية للرجل؛ لأن قانون المساواة يوجب أولًا تحقُّق المماثلة، ومن البداهة أنه لَا مماثلة بينهما، فهما وإن كانا من جنس واحد إلَّا أنهما نوعان متقابلان غير متماثلين، وإن كان كلاهما متمِّما للآخر، ومن ازدواجهما يتكامل النوع الإنساني، ويسير في مدارج الكمال.

وإذا كانت الأسرة لَا تتكون إلَّا من ازدواج هذين العنصرين، فلابدَّ أن يشرف على تهذيب الأسرة، ويقوم على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين، وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة فوجد الرجل أملك لزمام نفسه، وأقدر على ضبط حسِّه، ووجده الذي أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه، فجعل له الرياسة؛ ولذا قال سبحانه: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ....}.

هذه هي الدرجة التي جعلها الإسلام للرجل، وهي درجة تجعل له حقوقًا، وتجعل عليه واجبات أكثر، فهي موائمة كل المواءمة لصدر النص الكريم فإذا كان للرجل فضل درجة، فعليه فضل واجب.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قيَّد المماثلة بين حقوق المرأة وواجباتها بالمعروف، كما قيَّدها بما للرجال من درجة تضاعف واجباتهم، والتقييد بالمعروف معناه التقييد بالأمر الذي لَا تستنكره العقول، بل تقرُّه وترضاه، ويتعارفه العقلاء، فلا يطالب الرجل بخدمة البيت كما تطالب بها المرأة؛ فعلى المرأة أن تقوم بواجباتها، وتطالب بحقوقها بالنسبة لنفسها ولأولادها في دائرة العقل والعرف المستمد من قضايا الحق والعدل.

قال ابن العثيمين: {ولهنَّ}: أي للزوجات سواء كن مطلَّقات أو ممسَكات {مثل الذي عليهنَّ بالمعروف}: فكما أن على الزوجة أن تتَّقي الله تعالى في حقوق زوجها، وأن تقوم بما فرض الله عليها؛ فلها أيضًا مثل الذي له في أنه يجب على الزوج أن يعاشرها بالمعروف، وأن يقوم بحقِّها الذي أوجب الله عليه.

قال السعدي: ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة، والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق. وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطًا أحل حرامًا، أو حرَّم حلالًا.

قال البغوي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَعْنَاهُ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِامْرَأَتِي كَمَا تُحِبُّ امْرَأَتِي أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}.

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمَرْوَزِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو سَهْلٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ(١)بْنِ طَرَفَةَ السِّجْزِيُّ(٢)، أَنَا أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ داسه، أَنَا أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ أَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَنَا حَمَّادُ أَنَا أَبُو قَزْعَةَ سُوَيْدُ بْنُ حُجَيْرٍ الْبَاهِلِيُّ، عَنِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: ((أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ وَأَنْ تَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ(٣))).

١- كذا في نسخ المطبوع. وفي المخطوط (عمرة) وفي شرح السنة (محمد).

٢- وقع في الأصل (الشجري) والتصويب من (ط) و(شرح السنة).

٣- حديث صحيح. إسناده حسن، حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، وهو والد بهز بن حكيم، صدوق، وباقي الإسناد ثقات، وللحديث شواهد.

- وهو في شرح السنة (٢٣٢٣) بهذا الإسناد، وفيه (المير بندك شائى) بدل (المروزي).

- وعند أبي داود ٢١٤٢ بهذا الإسناد.

- وأخرجه النسائي في (الكبرى) (٩١٧١) و(١١١٠٤) وابن ماجه ١٨٥٠ وأحمد (٤/ ٤٤٧) وابن حبان ٤١٧٥ والطبراني (١٩/ ١٠٣٤) و(١٠٣٧) و(١٠٣٨) والحاكم (٢/ ١٨٧- ١٨٨) وابن أبي الدنيا في (العيال) ٤٨٨ والبيهقي (٧/ ٢٩٥ و٣٠٥) من طرق عن أبي قزعة به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

- وأخرجه أبو داود (٢١٤٣ و٢١٤٤) وأحمد (٥/ ٥) والطبراني (١٩/ ٩٩٩) و(١٠٠٠) و(١٠٠١) و(١٠٠٢) وابن أبي الدنيا ٤٨٩ من طرق عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أبيه عن جده.

أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْغَافِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَارِسِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى الْجُلُودِيُّ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سُفْيَانَ، أَنَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ أَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ أَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمَدَنِيُّ، حدثنا جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقُلْتُ:

أَخْبِرْنِي عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فسرد لي قِصَّةَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ إِلَى أَنْ ذَكَرَ خُطْبَتَهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، قَالَ: ((فاتقوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ([1]))).

أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْحِيرِيُّ، أَنَا حَاجِبُ بْنُ أَحْمَدَ الطُّوسِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، أَنَا يَعْلَى بْنُ عُبَيْدٍ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِكُمْ([2]))).

- وأخرجه أحمد (٥/ ٣) عن عبد الرزاق عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي قزعة وعطاء عن رجل من بني قشير عن أبيه، والرجل هو حكيم بن معاوية القشيري.

١- إسناده صحيح على شرط مسلم. أبو بكر هو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أبي شيبة، محمد هو الباقر ابن علي بن الحسين.

- وهو في صحيح مسلم ١٢١٨ بهذا الإسناد.

وأخرجه أبو داود ١٩٠٥ وابن ماجه ٣٠٧٤ والدارمي ١٧٩٣ وابن حبان ٣٩٤٤ من طريق حاتم بن إسماعيل به.

٢- حديث صحيح، إسناده حسن لأجل محمد بن عمرو الليثي، فإنه صدوق، روى له الشيخان متابعة، وقال الذهبي: حسن الحديث. ووقع في (التقريب) (ع) أي روى له الجماعة، وليس كذلك. محمد بن يحيى هو الذهلي من رجال البخاري، ومن دونه توبعوا.

- وهو عند المصنف في (شرح السنة) (٢٣٣٤) و(٣٣٨٩) بهذا الإسناد.

- وأخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٩/ ٢٤٨) من طريق يعلى بن عبيد بهذا الإسناد.

- وأخرجه أبو داود ٤٦٨٢ والترمذي ١١٦٢ وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥) و(١١/ ٢٧) وفي (الإيمان) (١٧) و(١٨) وأحمد (٢/ ٢٥٠) و(٤٧٢) وأحمد (٢/ ٢٥٠) و(٤٧٢) وابن حبان ٤١٧٦ من طرق عن محمد بن عمرو بهذا الإسناد.

وصححه الحاكم (١/ ٣) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي ... ؟! وقال الترمذي: حسن صحيح.

- وورد من طريق مُحَمَّدُ بْنُ عَجْلَانَ عَنِ الْقَعْقَاعِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هريرة عند ابن أبي شيبة (٨/ ٥١٦) و (١١/ ٢٧) و (٢٨) وأحمد (٢/ ٥٢٧) والدارمي (٢/ ٣٢٢) وصححه الحاكم (١/ ٣) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

- وورد عن الحسن مرسلا بإسناد صحيح أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٤٧) .

- وله شاهد من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وألطفهم بأهله)).

أخرجه الترمذي ٢٦١٢ وأحمد (٦/ ٤٧) و (٩٩) والحاكم (١/ ٥٣) .

قال الترمذي: هذا حديث صحيح، ولا نعرف لأبي قلابة سماعا من عائشة.

الخلاصة: هو حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

قال الشنقيطي: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا هَذِهِ الدَّرَجَةُ الَّتِي لِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ لَهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}[٤ \ ٣٤] فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الرَّجُلَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الذُّكُورَةَ شَرَفٌ وَكَمَالٌ، وَالْأُنُوثَةَ نَقْصٌ خَلْقِيٌّ طَبِيعِيٌّ، وَالْخَلْقُ كَأَنَّهُ مُجْمِعٌ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْأُنْثَى يَجْعَلُ لَهَا جَمِيعُ النَّاسِ أَنْوَاعَ الزِّينَةِ وَالْحُلِيِّ، وَذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ لِجَبْرِ النَّقْصِ الْخُلُقِيِّ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ الْأُنُوثَةُ، بِخِلَافِ الذَّكَرِ فَجَمَالُ ذُكُورَتِهِ يَكْفِيهِ عَنِ الْحُلِيِّ وَنَحْوِهِ.

وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى نَقْصِ الْمَرْأَةِ وَضَعْفِهَا الْخُلُقِيَّيْنِ الطَّبِيعِيَّيْنِ بِقَوْلِهِ: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}[٤٣ \ ١٨]، لِأَنَّ نَشْأَتَهَا فِي الْحِلْيَةِ دَلِيلٌ عَلَى نَقْصِهَا الْمُرَادُ جَبْرُهُ وَالتَّغْطِيَةُ عَلَيْهِ بِالْحُلِيِّ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (الطَّوِيلِ)

وَمَا الْحَلْيُ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيصَةٍ ... يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصَّرَا

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالُ مُوَفَّرًا كَحُسْنِكِ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَنْ يُزَوَّرَا

وَلِأَنَّ عَدَمَ إِبَانَتِهَا فِي الْخِصَامِ إِذَا ظُلِمَتْ دَلِيلٌ عَلَى الضَّعْفِ الْخَلْقِيِّ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (الطَّوِيلِ)

بِنَفْسِي وَأَهْلِي مَنْ إِذَا عَرَضُوا لَهُ ... بِبَعْضِ الْأَذَى لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ

فَلَمْ يَعْتَذِرْ عُذْرَ الْبَرِيءِ وَلَمْ تَزَلْ ... بِهِ سَكْتَةٌ حَتَّى يُقَالَ مُرِيبٌ

وَلَا عِبْرَةَ بِنَوَادِرِ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّ النَّادِرَ لَا حُكْمَ لَهُ.

وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ: وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَى أَنَّ الْكَامِلَ فِي وَصْفِهِ وَقُوَّتِهِ وَخِلْقَتِهِ يُنَاسِبُ حَالَهُ، أَنْ يَكُونَ قَائِمًا عَلَى الضَّعِيفِ النَّاقِصِ خِلْقَةً.

وَلِهَذِهِ الْحِكْمَةِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا جُعِلَ مِيرَاثُهُ مُضَاعَفًا عَلَى مِيرَاثِهَا؛ لِأَنَّ مَنْ يَقُومُ عَلَى غَيْرِهِ مُتَرَقِّبٌ لِلنَّقْصِ، وَمَنْ يَقُومُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مُتَرَقِّبٌ لِلزِّيَادَةِ، وَإِيثَارُ مُتَرَقِّبِ النَّقْصِ عَلَى مُتَرَقِّبِ الزِّيَادَةِ ظَاهِرُ الْحِكْمَةِ.

كَمَا أَنَّهُ أَشَارَ إِلَى حِكْمَةِ كَوْنِ الطَّلَاقِ بِيَدِ الرَّجُلِ دُونَ إِذْنِ الْمَرْأَةِ بِقَوْلِهِ: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ أَنَّ حَقْلَهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلزِّرَاعَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْغَمَ عَلَى الِازْدِرَاعِ فِي حَقْلٍ لَا يُنَاسِبُ الزِّرَاعَةَ. وَيُوَضِّحُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ آلَةَ الِازْدِرَاعِ بِيَدِ الرَّجُلِ، فَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى الْبَقَاءِ مَعَ مَنْ لَا حَاجَةَ لَهُ فِيهَا حَتَّى تَرْضَى بِذَلِكَ، فَإِنَّهَا إِنْ أَرَادَتْ أَنْ تُجَامِعَهُ لَا يَقُومُ ذَكَرُهُ وَلَا يَنْتَشِرُ إِلَيْهَا، فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى تَحْصِيلِ النَّسْلِ مِنْهُ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْغَرَضِ مِنَ النِّكَاحِ بِخِلَافِ الرَّجُلِ؛ فَإِنَّهُ يُوَلِّدُهَا وَهِيَ كَارِهَةٌ كَمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ.

قال ابن العثيمين: ولما كانت المماثلة تقتضي المساواة أخرج ذلك بقوله تعالى: {وللرجال عليهن درجة}: أي فضل في العقل، والحقوق؛ وهذا من باب الاحتراس حتى لا يذهب الذهن إلى تساوي المرأة، والرجل من كل وجه.

قال الطبري: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[١]}: يعني تعالى ذكره بذلك: {والله عزيز} في انتقامه ممن خالف أمره، وتعدَّى حدوده فأتى النساء في المحيض، وجعل الله عُرضة لأيمانه أن يبرَّ ويتَّقي ويصلح بين الناس، وعضَل امرأته بإيلائه، وضَارَّها في مراجعته بعد طلاقه، ولمن كتم من النساء ما خلق الله في أرحامهن أزواجهن، ونكحن في عِددهن، وتركنَ التربُّص بأنفسهن إلى الوقت الذي حدَّه الله لهن، وركبن غير ذلك من معاصيه، {حكيم} فيما دبَّر في خلقه، وفيما حكم وقضَى بينهم من أحكامه، عن الربيع في قوله: {والله عزيز حكيم}، يقول: عزيز في نقمته، حكيم في أمره.

وإنما توعَّد الله تعالى ذكره بهذا القول عباده، لتقديمه قبل ذلك بيان ما حرَّم عليهم أو نهاهم عنه، من ابتداء قوله: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ} إلى قوله: {وللرجال عليهن درجة} ثم أتبع ذلك بالوعيد ليزدجر أولو النُّهى، وليذَّكر أولو الحجى، فيتقوا عقابه ويحذروا عذابه[٢].

قال أبو زهرة: ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، وفى ذلك دلالة على ثلاثة أمور:

أولها: أن تلك المماثلة بين الحقوق والواجبات في الحقوق الزوجية بل في كل شئون الاجتماع الإنساني، هي مقتضى الحكمة الإلهية والعدل الرَّبَّاني، وإن ذلك أقصى ما تصل إليه المعاملة الإنسانية من سموّ.

ثانيها: إن الله سبحانه وتعالى القاهر القادر العزيز هو الذي أعزَّ المرأة بعد ذلِّها، وأعطاها حقوقها بعد هضمها، وليس لها أن تطلب العزَّة من غير شرع الله فهو الملجأ والمعاذ لكل ذي حق مهضوم، وقد أعلاها بعد خفض، وكرَّمها بعد المهانة، فما يسوغ لامرأة مسلمة من بعد أن تتمرَّد على حكم العزيز الحكيم، وإن حكمته اقترنت بعزَّته، فما للرجل من درجة هو مقتضى الحكمة، والله بكل شيء محيط.

ثالثها: إشعار الرجل بأن الله فوقه، وهو القادر القوي الغالب، وهو المعزّ المذلّ، الحكم العدل اللطيف الخبير، فإن تجاوز الرجل شرعه، وعدا ما حدَّه له الكبير المتعال، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وناله عقابه وحرم من ثوابه. تلك شريعة الله العادلة، فليتدبَّرها الذين يشتطون في القول والعمل، وليعلموا أن القرآن أول صوت سجَّل حقوق المرأة المعقولة كاملة {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز}، مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) وإسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٢- ومرة أخرى فلينظر الناظر كيف يكون ربط معاني الآيات بعضها ببعض وأنه برهان على أن هذا المفسر الإمام يربط معاني هذه الآيات الطوال جميعًا من أول الآية: ٢٢١ إلى الآية: ٢٢٨.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب اعتداد المطلقة بثلاث حِيَض؛ لقوله تعالى: {والمطلقات يتربصن}؛ وهي جملة خبرية بمعنى الأمر؛ قال البلاغيون: إذا جاء الأمر بصيغة الخبر كان ذلك توكيدًا له؛ كأنه أمر واقع صح أن يخبر عنه.

٢- قوة الدَّاعي في المرأة للزواج؛ لقوله تعالى: {يتربصن بأنفسهن}؛ فكأن النفس تحثها على أن تنهي علاقتها بالأول وتتزوج؛ فقيل: (تربصي بنفسك): أي انتظري؛ مثل أن تقول: تربَّصت بكذا، وكذا، وكذا.

٣- وجوب العدَّة بثلاث حيض على كلِّ مطلقة سواء كان طلاقها بائنًا أم لا؛ لعموم قوله تعالى: {والمطلقات}.

ويستثنى من ذلك: من لا تحيض لصغر أو إياس: فعدتها ثلاثة أشهر؛ لقوله تعالى: {واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن[الطلاق: ٤].

ويستثنى أيضًا من طُلِّقت قبل الدخول، والخلوة: فليس عليها عدة؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها}[الأحزاب: ٤٩] .

ويستثنى أيضًا الحامل؛ فعدَّتها إلى وضع الحمل؛ لقوله تعالى: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن}[الطلاق: ٤]

فهذه ثلاث مسائل مستثناة من عموم قوله تعالى: {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء}.

٤- أنَّ من فارق الزوجة بغير طلاق فليس عليها أن تعتدَّ بثلاث حيض، كالمختلعة؛ وعليه فيكفي أن تستبرئ بحيضة؛ وهذا هو القول الراجح.

٥- أنَّه لو طلقها في أثناء الحيض لم يحتسب بالحيضة التي وقع فيها الطلاق؛ وجهه: أن الحيض لا يتبعض؛ فتلغى بقية الحيضة التي وقع فيها الطلاق؛ ولابد لها من ثلاث حيض جديدة؛ وإلا يلزم على ذلك أن تكون عدتها ثلاثة قروء وبعض القرء؛ وهو خلاف النص؛ وهذا على القول بأن طلاق الحائض واقع؛ ولكن الصواب أن طلاق الحائض لا يقع؛ لحديث ابن عمر([1])؛ ولقول النبي ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ([2])))؛ ولنصوص أخرى دلّت على عدم وقوع طلاق الحائض.

٦- أنَّ الطلاق لا يقع قبل النكاح منجزًا كان، أو معلَّقًا؛ معيَّنًا كان أو مطلقًا؛ فلو قال لامرأة: (إن تزوجتك فأنت طالق) فتزوجها لم تطلق؛ لقوله تعالى: {والمطلقات}؛ ولا طلاق إلَّا بعد قيد - وهو عقد النكاح -.

١- راجع البخاري ص٤٥٣، كتاب الطلاق، باب ١: وقول الله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة}، حديث رقم ٥٢٥١؛ ومسلمًا ص٩٢٦ - ٩٢٧، كتاب الطلاق، باب ١: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ... ، حديث رقم ٣٦٥٢ [1] ١٤٧١.

٢- (قلت): مسلم (١٧١٨).

٧- أنَّه يرجع إلى قول المرأة في عدَّتها؛ لقوله تعالى: {ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن}؛ وجه ذلك أن الله جعل قولها معتبَرًا؛ ولو لم يكن معتبَرًا لم يكن لكتمها أي تأثير؛ فإذا ادَّعت أن عدَّتها انقضت، وكان ذلك في زمن ممكن فإنها تصدق؛ وهي مؤتمَنة على ذلك؛ أما إذا ادَّعت أن عدَّتها انقضت في زمن لا يمكن فإن قولها مردود؛ لأن من شروط سماع الدعوى أن تكون ممكنة؛ ودعوى المستحيل غير مسموعة أصلًا.

٨- أنَّ المطلقة البائن عدَّتها ثلاثة قروء؛ لعموم قوله تعالى: {والمطلقات}؛ فيشمل حتى البوائن؛ وهو قول جمهور العلماء؛ حتى لو كانت بائنًا بالثلاث؛ فإنها لابدَّ أن تعتدَّ بثلاثة قروء؛ وقال شيخ الإسلام - رحمه الله -: إن كانت المسألة إجماعية فالإجماع معتبَر، وهو حجة؛ وإن لم تكن إجماعية فإن القول بأن المبانة تعتدّ بحيضة واحدة قول وجيه؛ فعلّق القول به على وجود مخالف؛ وقد وجد؛ ويؤيِّد هذا القول قوله تعالى: {وبعولتهن أحق بردِّهن في ذلك}؛ فإن هذا الحكم إنما هو للرجعيَّات؛ فيكون العموم مخصَّصًا بذكر الحكم المختص ببعض أفراده؛ وهذه المسألة فيها نزاع بين العلماء - وهي أنه إذا ورد لفظ عام ثم فرع عليه حكم يتعلَّق ببعض أفراده فهل يكون ذلك مخصِّصًا لعمومه -؛ أو يقال: إن ذكر حكم يختص ببعض الأفراد لا يقتضي التخصيص؛ ومن أمثلته حديث جابر: ((قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة[١]))؛ إذا نظرنا إلى أول الحديث: ((في كل ما يقسم)) وجدنا أن الشفعة تجري في كل شيء؛ وإذا نظرنا إلى آخره: ((فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق))، قلنا: إن الشفعة لا تجري إلَّا فيما كان له حدود، وطرق - وهو الأرض -. و((الشفعة)) أن ينتزع الشريك حصة شريكه التي باعها لطرف ثالث؛ مثال ذلك: زيد شريك لعمرو في أرض؛ فباع عمرو نصيبه لخالد؛ فلزيد أن يأخذ هذا النصيب من خالد بالثمن الذي يستقر عليه العقد؛ فإذا كان لشخصين سيارة واحدة، وباع أحدهما نصيبه من هذه السيارة لشخص ثالث فللشريك أن يأخذ هذا النصيب ممَّن اشتراه بثمنه على مقتضى أول الحديث العام؛ لكن قوله ﷺ: ((فإذا وقعت الحدود، وصرفت الطرق)) يقتضي أن لا شفعة له في نصيب شريكه في السيارة؛ لأنه لا حدود، ولا طرق فيها؛ والمسألة ذات خلاف معروف في كتب الفقه.

٩- أنَّه ينبغي ذكر ما يوجب القبول والعمل؛ لقوله تعالى: {إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر}.

١٠- أنَّه ينبغي تحذير المؤتمَن الذي لا يعلم بأمانته إلَّا الله عز وجل من عذاب يوم الآخر إن هو لم يقم بواجب الأمانة؛ لقوله تعالى: {ولا يحلُّ لهنَّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنَّ إن كنَّ يؤمنَّ بالله واليوم الآخر}.

١١- إثبات اليوم الآخر.

١٢- أنَّ الرجعية في حكم الزوجات؛ لقوله تعالى: {وبعولتهن أحقُّ}؛ فأثبت أنه بعل.

١- (قلت): البخاري (٢٢١٤).

فإن قال قائل: ألا يمكن أن يقال: {بعولتهنَّ} فيما مضى؛ لأنَّ الشيء قد يعبر عنه بعد انتهائه، كقوله تعالى: {وآتوا اليتامى أموالهم}[النساء: ٢]؛ وهم لا يؤتونها إلَّا بعد زوال اليتم؛ كما أنه قد يعبر عن الشيء قبل وجوده، كقوله تعالى: {إني أراني أعصر خمرًا}[يوسف: ٣٦]؛ وهو إنَّما يعصر عنبًا ليكون خمرًا؟

فالجواب: أن الأصل خلاف ذلك؛ ولا يصار إلى خلاف الأصل إلَّا بدليل؛ لأن الأصل أن الوصف متحقِّق في الموصوف حتى يتبيَّن زوال الوصف عنه؛ ولهذا قال أهل العلم: إن الرجعية زوجة في حكم الزوجات؛ وينبني على ذلك أن كل ما يترتَّب على الزوجية فهو ثابت للرجعيَّة إلَّا أنهم استثنوا بعض المسائل.

١٣- أنَّه لا حقَّ للزوج في الرجعة إذا لم يرد الإصلاح؛ لقوله تعالى: {إن أرادوا إصلاحًا}؛ وقال بعض أهل العلم: (إن هذا ليس على سبيل الشرط؛ ولكنه على سبيل الإرشاد)؛ وهو خلاف ظاهر الآية؛ والواجب إبقاء الآية على ظاهرها؛ فليس له أن يراجع إلا بهذا الشرط.

١٤- أنَّه لا رجعة بعد انقضاء العدة؛ لقوله تعالى: {أحق بردهن في ذلك}.

١٥- أنَّ للزوجة حقًّا كما أن عليها حقًا؛ لقوله تعالى: {ولهن مثل الذي عليهن}.

١٦- إثبات الرجوع إلى العرف؛ لقوله تعالى: {بالمعروف}؛ وهكذا كل ما جاء، ولم يحدد بالشرع فإن مرجعه إلى العرف.

١٧- استعمال الاحتراس؛ وأنه لا ينبغي الإطلاق في موضع يخشى فيه من التعميم؛ لقوله تعالى: {وللرجال عليهن درجة} أي حقوق الرجال أكثر من حقوق النساء؛ ولهذا كان على الزوجة أن تطيع زوجها؛ وليس على الزوج أن يطيع زوجته؛ لقوله تعالى: {فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا}[النساء: ٣٤]؛ وهذا من معنى الدرجة؛ ودرجة الرجال على النساء من وجوه متعدِّدة؛ فالدرجة التي فضِّل بها الرجال على النساء في العقل، والجسم، والدين، والولاية، والإنفاق، والميراث، وعطية الأولاد.

الأمر الأول: العقل؛ فالرجل عقله أكمل من عقل المرأة؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: ((ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن؛ قلن: ما نقصان العقل يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة الرجل بشهادة امرأتين؟ فذلك نقصان عقلها([١]))).

الأمر الثاني: الجسم؛ فإن الرجل أكمل من المرأة في الجسم؛ فهو أنشط من المرأة، وأقوى في الجسم.

الأمر الثالث: الدين؛ فإن الرجل أكمل من المرأة في الدين؛ لأن الرسول ﷺ قال في المرأة: (إنها ناقصة في الدين)؛ وفسر ذلك بأنها إذا حاضت لم تصلِّ، ولم تصم؛ ولهذا يجب على الرجل من الواجبات الدينية ما لا يجب على المرأة، كالجهاد مثلًا.

١- (قلت): البخاري (١٤٦٢).

الأمر الرابع: الولاية؛ فقد فُضِّل الرجل على المرأة في الولاية؛ فإن الله سبحانه وتعالى جعل الرجل قوَّامًا على المرأة؛ فالرجال قوَّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض؛ ولهذا لا يحل أن تتولى المرأة ولاية عامة أبدًا – لا وزارة، ولا غير وزارة –؛ فالولاية العامة ليست من حقوق النساء أبدًا، ولا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة.

الأمر الخامس: الإنفاق؛ فالزوج هو الذي ينفق على المرأة؛ وقد قال النبي ﷺ: ((اليد العليا خير من اليد السفلى([1])))؛ و(اليد العليا): هي المعطية؛ و(السفلى): الآخذة.

الأمر السادس: الميراث وعطية الأولاد؛ فإن للذكر مثل حظ الأنثيين.

١٨– أنَّ الذين لهم درجة على النساء هم الرجال الذين هم جديرون بهذا الوصف؛ وأما من جعل نفسه بمنزلة النسوة فهذا يكون شرًّا من المرأة؛ لأنه انتكس من الكمال إلى الدون؛ ومن ثم لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء؛ والمتشبهات من النساء بالرجال([2])؛ حتى لا يعتدي أحد على حق؛ أو على اختصاصات أحد.

١٩– إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: {العزيز}، و{الحكيم}؛ وما تضمَّناه من صفة – وهي العزة في {العزيز}–؛ والحكمة، والحكم في {الحكيم}؛ وما يترتَّب على ذلك من أثر.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٣ص٤٤: فَإِنَّ الْكَلَامَ الْمُتَعَلِّقَ بِالطَّلَاقِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ. إمَّا صِيغَةُ تَنْجِيزٍ. وَإِمَّا صِيغَةُ تَعْلِيقٍ. وَإِمَّا صِيغَةُ قَسَمٍ.

أَمَّا صِيغَةُ التَّنْجِيزِ: فَهُوَ إيقَاعُ الطَّلَاقِ مُطْلَقًا مُرْسَلًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِصِفَةِ وَلَا يَمِينٍ، كَقَوْلِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ. أَوْ مُطَلَّقَةٌ. أَوْ: فُلَانَةٌ طَالِقٌ. أَوْ: أَنْتِ الطَّلَاقُ. أَوْ: طَلَّقْتُك، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ، أَوْ الْمَصْدَرِ، أَوْ اسْمِ الْفَاعِلِ، أَوْ اسْمِ الْمَفْعُولِ، فَهَذَا يُقَالُ لَهُ: طَلَاقٌ مُنْجَزٌ. وَيُقَالُ: طَلَاقٌ مُرْسَلٌ. وَيُقَالُ: طَلَاقٌ مُطْلَقٌ. أَيْ غَيْرُ مُعَلَّقٍ بِصِفَةِ، فَهَذَا إيقَاعٌ لِلطَّلَاقِ، وَلَيْس

[1] أخرجه البخاري ص١١٢، كتاب الزكاة، باب ١٨: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، حديث رقم ١٤٢٧، وأخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٢: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى ... ، حديث رقم ٢٣٨٦ [٩٥] ١٠٣٤.

[2] راجع البخاري ص٥٠١، كتاب اللباس، باب ٦١: المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال، حديث رقم ٥٨٨٥.

هَذَا بِيَمِينٍ يُخَيَّرُ فِيهِ بَيْنَ الْحِنْثِ وَعَدَمِهِ، وَلَا كَفَّارَةَ فِي هَذَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَالْفُقَهَاءِ فِي عُرْفِهِمْ الْمَعْرُوفِ بَيْنَهُمْ لَا يُسَمُّونَ هَذَا يَمِينًا وَلَا حَلِفًا، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: حَلَفْت بِالطَّلَاقِ، وَمُرَادُهُ أَنَّهُ أَوْقَعَ الطَّلَاقَ.

وَأَمَّا صِيغَةُ الْقَسَمِ: فَهُوَ أَنْ يَقُولَ: الطَّلَاقُ يَلْزَمُنِي لَأَفْعَلَنَّ كَذَا، أَوْ لَا أَفْعَلُ كَذَا. فَيَحْلِفُ بِهِ عَلَى حَضٍّ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ، أَوْ مَنْعٍ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى تَصْدِيقِ خَبَرٍ أَوْ تَكْذِيبِهِ، فَهَذَا يَدْخُلُ فِي مَسَائِلِ الطَّلَاقِ وَالْأَيْمَانِ، فَإِنَّ هَذَا يَمِينٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ اللُّغَةِ، فَإِنَّهَا صِيغَةُ قَسَمٍ، وَهُوَ يَمِينٌ – أَيْضًا – فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ، لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّهَا تُسَمَّى يَمِينًا، وَلَكِنْ تَنَازَعُوا فِي حُكْمِهَا. فَمِنْ الْفُقَهَاءِ مَنْ غَلَّبَ عَلَيْهَا جَانِبَ الطَّلَاقِ فَأَوْقَعَ بِهِ الطَّلَاقَ إذَا حَنِثَ. وَمِنْهُمْ مَنْ غَلَّبَ عَلَيْهِ جَانِبَ الْيَمِينِ فَلَمْ يُوقِعْ بِهِ الطَّلَاقَ، بَلْ قَالَ: عَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ. أَوْ قَالَ: لَا شَيْءَ عَلَيْهِ بِحَالِ.

وَكَذَلِكَ تَنَازَعُوا فِيمَا إذَا حَلَفَ بِالنَّذْرِ فَقَالَ: إذَا فَعَلْت كَذَا فَعَلَيَّ الْحَجُّ أَوْ صَوْمُ شَهْرٍ، أَوْ مَالِي صَدَقَةٌ، لَكِنَّ هَذَا النَّوْعَ أُشْتُهِرَ الْكَلَامُ فِيهِ عَنْ السَّلَفِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَالُوا: إنَّهُ أَيْمَانٌ تَجْزِي فِيهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ؛ لِكَثْرَةِ وُقُوعِ هَذَا فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ، بِخِلَافِ الْحَلِفِ بِالطَّلَاقِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ فِيهِ إنَّمَا عُرِفَ عَنْ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَتَنَازَعُوا فِيهِ عَلَى الْقَوْلَيْنِ.

وَالثَّالِثُ: صِيغَةُ تَعْلِيقٍ: كَقَوْلِهِ: إنْ دَخَلْت الدَّارَ فَأَنْتِ طَالِقٌ. وَيُسَمَّى هَذَا طَلَاقًا بِصِفَةِ. فَهَذَا إمَّا أَنْ يَكُونَ قَصْدُ صَاحِبِهِ الْحَلِفَ وَهُوَ يَكْرَهُ وُقُوعَ الطَّلَاقِ إذَا وُجِدَتْ الصِّفَةُ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ إيقَاعَ الطَّلَاقِ عِنْدَ تَحَقُّقِ الصِّفَةِ.

فَالْأَوَّلُ: حُكْمُهُ حُكْمُ الْحَلِفِ بِالطَّلَاقِ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ. وَلَوْ قَالَ: إنْ حَلَفْت يَمِينًا فَعَلَيَّ عِتْقُ رَقَبَةٍ، وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ حَنِثَ بِلَا نِزَاعٍ نَعْلَمُهُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّرْطِ لِقَصْدِ الْيَمِينِ، كَقَوْلِهِ: إنْ فَعَلْت كَذَا فَعَلَيَّ عِتْقُ رَقَبَةٍ، أَوْ فَعَبِيدِي أَحْرَارٌ، أَوْ فَعَلَيَّ الْحَجُّ، أَوْ عَلَيَّ صَوْمُ شَهْرٍ، أَوْ فَمَالِي صَدَقَةٌ، أَوْ هَدْيٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا بِمَنْزِلَةِ أَنْ يَقُولَ: الْعِتْقُ يَلْزَمُنِي لَا أَفْعَلُ كَذَا، وَعَلَيَّ الْحَجُّ لَا أَفْعَلُ كَذَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ، لَكِنَّ الْمُؤَخَّرَ فِي صِيغَةِ الشَّرْطِ مُقَدَّمٌ فِي صِيغَةِ الْقَسَمِ، وَالْمَنْفِيُّ فِي هَذِهِ الصِّيغَةِ مُثْبَتٌ فِي هَذِهِ الصِّيغَةِ.

وَالثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَصْدُ إيقَاعِ الطَّلَاقِ عِنْدَ الصِّفَةِ، فَهَذَا يَقَعُ بِهِ الطَّلَاقُ إذَا وُجِدَتْ الصِّفَةُ، كَمَا يَقَعُ الْمُنْجَزُ عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَكَذَلِكَ إذَا وَقَّتَ الطَّلَاقَ بِوَقْتِ، كَقَوْلِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ عِنْدَ رَأْسِ الشَّهْرِ، وَقَد ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى وُقُوعِ هَذَا الطَّلَاقِ الْمُعَلَّقِ، وَلَمْ يَعْلَمْ فِيهِ خِلَافًا قَدِيمًا، لَكِنْ ابْنُ حَزْمٍ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ بِهِ الطَّلَاقُ، وَهُوَ قَوْلُ الْإِمَامِيَّةِ، مَعَ أَنَّ ابْنَ حَزْمٍ ذَكَرَ فِي (كِتَابِ الْإِجْمَاعِ) إجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ يَقَعُ بِهِ الطَّلَاقُ، وَذَكَرَ أَنَّ الْخِلَافَ إنَّمَا هُوَ فِيمَا إذَا أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ الْيَمِينِ: هَلْ يَقَعُ الطَّلَاقُ؟ أَوْ لَا يَقَعُ وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ؟ أَوْ يَكُونُ يَمِينًا مُكَفِّرَةً؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، كَمَا أَنَّ نَظَائِرَ ذَلِكَ مِنْ الْأَيْمَانِ فِيهَا هَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ.

وَهَذَا الضَّرْبُ وَهُوَ الطَّلَاقُ الْمُعَلَّقُ بِصِفَةِ يَقْصِدُ إيقَاعَ الطَّلَاقِ عِنْدَهَا وَلَيْسَ فِيهَا مَعْنَى الْحَضِّ وَالْمَنْعِ، كَقَوْلِهِ: إنْ طَلَعَتْ الشَّمْسُ فَأَنْتِ طَالِقٌ. هَلْ هُوَ يَمِينٌ؟ فِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ يَمِينٌ، كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَيْسَ بِيَمِينٍ، كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ، وَالْقَوْلِ الْآخَرِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد. وَهَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ شَرْعًا. وَلُغَةً، وَأَمَّا الْعُرْفُ فَيَخْتَلِفُ.

قال الشنقيطي: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}: ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الطَّلَاقَ كُلَّهُ مُنْحَصِرٌ فِي الْمَرَّتَيْنِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ الْمُنْحَصِرَ فِي الْمَرَّتَيْنِ هُوَ الطَّلَاقُ الَّذِي تُمْلَكُ بَعْدَهُ الرَّجْعَةُ لَا مُطْلَقًا، وَذَلِكَ بِذِكْرِهِ الطَّلْقَةَ الثَّالِثَةَ الَّتِي لَا تَحِلُّ بَعْدَهَا الْمُرَاجَعَةُ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ} الْآيَةَ [٢ \ ٢٣٠]، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَقَوْلُهُ: {أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}[٢ \ ٢٢٩] يَعْنِي بِهِ عَدَمَ الرَّجْعَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الطَّلْقَةُ الثَّالِثَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}، وَرُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا إِلَيْهِ ﷺ.

قال السعدي: كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارّتها، طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها، راجعها، ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبدا، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن {الطلاق} الذي تحصل به الرجعة {مرتان} ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها، فليس محلا لذلك، لأن من زاد على الثنتين، فإمَّا متجرئ على المحرَّم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة.

قال ابن العثيمين: {فإمساك بمعروف} مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فعليكم إمساك بمعروف – أي بما يتعارفه الناس من العشرة الطيبة الحسنة –.

{أو تسريح بإحسان}: أي إطلاق لهن؛ وهو كقوله تعالى في سورة الطلاق: {فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف} [الطلاق: ٢]؛ والمراد بال{إحسان} هنا أن يمتّعها بشيء يجبر كسرها، ويطيب قلبها.

قال الشنقيطي: تَنْبِيهٌ:

ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ الَّتِي هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ يُؤْخَذُ مِنْهَا وُقُوعُ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ، وَأَشَارَ الْبُخَارِيُّ بِقَوْلِهِ: (بَابُ مَنْ جَوَّزَ الطَّلَاقَ الثَّلَاثَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}).

وَالظَّاهِرُ أَنَّ وَجْهَ الدَّلَالَةِ الْمُرَادَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ هُوَ مَا قَالَهُ الْكِرْمَانِيُّ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ} عَلِمْنَا أَنَّ إِحْدَى الْمَرَّتَيْنِ جَمَعَ فِيهَا بَيْنَ تَطْلِيقَتَيْنِ، وَإِذَا جَازَ جَمْعُ التَّطْلِيقَتَيْنِ دَفْعَةً، جَازَ جَمْعُ الثَّلَاثِ، وَرَدَّ ابْنُ حَجَرٍ هَذَا بِأَنَّهُ قِيَاسٌ مَعَ وُجُودِ الْفَارِقِ، وَجَعَلَ الْآيَةَ دَلِيلًا لِنَقِيضِ ذَلِكَ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِالْآيَةِ غَيْرُ نَاهِضٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ حَصْرَ الطَّلَاقِ كُلِّهِ فِي الْمَرَّتَيْنِ حَتَّى يَلْزَمَ الْجَمْعُ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ فِي إِحْدَى التَّطْلِيقَتَيْنِ كَمَا ذَكَرَ، بَلِ الْمُرَادُ بِالطَّلَاقِ الْمَحْصُورِ هُوَ خُصُوصُ الطَّلَاقِ الَّذِي تُمْلَكُ بَعْدَهُ الرَّجْعَةُ كَمَا ذَكَرْنَا، وَكَمَا فَسَّرَ بِهِ الْآيَةَ جَمَاهِيرُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ وَجْهُ الدَّلِيلِ فِي الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} عَامٌّ يَتَنَاوَلُ إِيقَاعَ الثَّلَاثِ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَلَا يَخْفَى عَدَمُ ظُهُورِهِ.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى م٣ص٢٤٧([1]): وَأَمَّا جَمْعُ الطَّلَقَاتِ الثَّلَاثِ، فَفِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: مُحَرَّمٌ أَيْضًا عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ مِنْ الصَّحَابَةِ. وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ.

وَاخْتَارَهُ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ أَحْمَدُ: تَدَبَّرْت الْقُرْآنَ فَإِذَا كُلُّ طَلَاقٍ فِيهِ فَهُوَ الطَّلَاقُ الرَّجْعِيُّ – يَعْنِي طَلَاقَ الْمَدْخُولِ بِهَا – غَيْرَ قَوْلِهِ: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ}[البقرة: ٢٣٠]، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: فَهَلْ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ قَبْلَ الرَّجْعَةِ بِأَنْ يُفَرِّقَ الطَّلَاقَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَطْهَارٍ فَيُطَلِّقَهَا فِي كُلِّ طُهْرٍ طَلْقَةً؟ فِيهِ، قَوْلَانِ: هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ.

إحْدَاهُمَا: لَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ وَمَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ.

وَالثَّانِيَةُ: لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَصَحُّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ الَّتِي اخْتَارَهَا أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ كَأَبِي بَكْرٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى، وَأَصْحَابِهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إنْ جَمْعَ الثَّلَاثَ لَيْسَ بِمُحَرَّمٍ؛ بَلْ هُوَ تَرْكُ الْأَفْضَلِ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، وَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْ أَحْمَدَ: اخْتَارَهَا الْخِرَقِيِّ. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ، طَلَّقَهَا زَوْجُهَا أَبُو حَفْصِ بْنُ الْمُغِيرَةِ ثَلَاثًا، وَبِأَنَّ امْرَأَةَ رِفَاعَةَ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا ثَلَاثًا، وَبِأَنَّ الْمُلَاعِنَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، وَلَمْ يُنْكِرْ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ.

وَأَجَابَ الْأَكْثَرُونَ بِأَنَّ حَدِيثَ فَاطِمَةَ وَامْرَأَةِ رِفَاعَةَ إنَّمَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا مُتَفَرِّقَاتٍ، هَكَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الثَّالِثَةَ آخِرُ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ؛ لَمْ يُطَلِّقْ ثَلَاثًا لَا هَذَا وَلَا هَذَا مُجْتَمِعَاتٍ. وَقَوْلُ الصَّحَابِيِّ: طَلَّقَ ثَلَاثًا. يَتَنَاوَلُ مَا إذَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا مُتَفَرِّقَاتٍ. بِأَنْ يُطَلِّقَهَا ثُمَّ يُرَاجِعَهَا، ثُمَّ يُطَلِّقَهَا ثُمَّ يُرَاجِعَهَا، ثُمَّ يُطَلِّقَهَا ثُمَّ يُرَاجِعَهَا؛ ثُمَّ يُطَلِّقَهَا. وَهَذَا طَلَاقٌ سُنِّيٌّ وَاقِعٌ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ. وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَعْنَى الطَّلَاقِ ثَلَاثًا.

وَأَمَّا جَمْعُ الثَّلَاثِ بِكَلِمَةٍ فَهَذَا كَانَ مُنْكَرًا عِنْدَهُمْ. إنَّمَا يَقَعُ قَلِيلًا؛ فَلَا يَجُوزُ حَمْلُ اللَّفْظِ الْمُطْلَقِ عَلَى الْقَلِيلِ الْمُنْكَرِ دُونَ الْكَثِيرِ الْحَقِّ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: يُطَلِّقُ مُجْتَمِعَاتٍ لَا هَذَا وَلَا هَذَا؛ بَلْ هَذَا قَوْلٌ بِلَا دَلِيلٍ؛ بَلْ هُوَ بِخِلَافِ الدَّلِيلِ.

١- (قلت): وانظر مجموع الفتاوى ج٣٣ص٧٧.

وَأَمَّا الْمُلَاعِنُ فَإِنَّ طَلَاقَهُ وَقَعَ بَعْدَ الْبَيْنُونَةِ؛ أَوْ بَعْدَ وُجُوبِ الْإِبَانَةِ الَّتِي تَحْرُمُ بِهَا الْمَرْأَةُ أَعْظَمَ مِمَّا يَحْرُمُ بِالطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَانَ مُؤَكِّدًا لِمُوجِبِ اللِّعَانِ، وَالنِّزَاعُ إنَّمَا هُوَ فِي طَلَاقِ مَنْ يُمْكِنُهُ إمْسَاكُهَا؛ لَا سِيَّمَا وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ الثَّلَاثِ لَمْ يَقَعْ بِهَا ثَلَاثٌ وَلَا غَيْرُهَا وَإِنْ كَانَ بَعْدَهَا دَلَّ عَلَى بَقَاءِ النِّكَاحِ.

وَالْمَعْرُوفُ أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا بَعْدَ أَنْ طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثَ لَمْ يَقَعْ بِهَا، إذْ لَوْ وَقَعَتْ لَكَانَتْ قَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَامْتَنَعَ حِينَئِذٍ أَنْ يُفَرِّقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا صَارَا أَجْنَبِيَّيْنِ، وَلَكِنَّ غَايَةَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: حَرَّمَهَا عَلَيْهِ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا. فَيُقَالُ: فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُحَرِّمَهَا عَلَيْهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا؛ فَلَمَّا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا دَلَّ عَلَى بَقَاءِ النِّكَاحِ، وَإِنَّ الثَّلَاثَ لَمْ تَقَعْ جَمِيعًا؛ بِخِلَافِ مَا إذَا قِيلَ: إنَّهُ يَقَعُ بِهَا وَاحِدَةٌ رَجْعِيَّةٌ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ فِيهِ حِينَئِذٍ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا. وَقَوْلُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: (طَلَّقَهَا ثَلَاثًا. فَأَنْفَذَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ احْتَاجَ إلَى إنْفَاذِ النَّبِيِّ ﷺ وَاخْتِصَاصِ الْمُلَاعِنِ بِذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَرْعِهِ أَنَّهَا تَحْرُمُ بِالثَّلَاثِ لَمْ يَكُنْ لِلْمُلَاعِنِ اخْتِصَاصٌ وَلَا يَحْتَاجُ إلَى إنْفَاذٍ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمَّا قَصَدَ الْمُلَاعِنُ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثَ أَنْ تَحْرُمَ عَلَيْهِ أَنْفَذَ النَّبِيُّ ﷺ مَقْصُودَهُ، بَلْ زَادَهُ؛ فَإِنَّ تَحْرِيمَ اللِّعَانِ أَبْلَغُ مِنْ تَحْرِيمِ الطَّلَاقِ؛ إذْ تَحْرِيمُ اللِّعَانِ لَا يَزُولُ وَإِنْ نَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَهُوَ مُؤَبَّدٌ فِي أَحَدِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ لَا يَزُولُ بِالتَّوْبَةِ.

وَاسْتَدَلَّ الْأَكْثَرُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُبِحْ إلَّا الطَّلَاقَ الرَّجْعِيَّ، وَإِلَّا الطَّلَاقَ لِلْعِدَّةِ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} إلَى قَوْلِهِ: {لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}[الطلاق: ١،٢]. وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ فِي الرَّجْعِيِّ. وَقَوْلِهِ: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إرْدَافُ الطَّلَاقِ لِلطَّلَاقِ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْعِدَّةُ أَوْ يُرَاجِعَهَا؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا أَبَاحَ الطَّلَاقَ لِلْعِدَّةِ. أَيْ لِاسْتِقْبَالِ الْعِدَّةِ، فَمَتَى طَلَّقَهَا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ قَبْلَ الرَّجْعَةِ بَنَتْ عَلَى الْعِدَّةِ وَلَمْ تَسْتَأْنِفْهَا بِاتِّفَاقِ جَمَاهِيرِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ خِلَافٌ شَاذٌّ عَنْ خِلَاسٍ وَابْنِ حَزْمٍ فَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ فَإِنَّ هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ إذَا أَرَادَ الرَّجُلُ إضْرَارَ امْرَأَتِهِ طَلَّقَهَا حَتَّى إذَا شَارَفَتْ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ رَاجَعَهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا لِيُطِيلَ حَبْسَهَا، فَلَوْ كَانَ إذَا لَمْ يُرَاجِعْهَا تَسْتَأْنِفُ الْعِدَّةَ لَمْ يَكُنْ حَاجَةٌ إلَى أَنْ يُرَاجِعَهَا، وَاَللَّهُ تَعَالَى قَصَرَهُمْ عَلَى الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ دَفْعًا لِهَذَا الضَّرَرِ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْآثَارُ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُسْتَقِرًّا عِنْدَ اللَّهِ أَنَّ الْعِدَّةَ لَا تُسْتَأْنَفُ بِدُونِ رَجْعَةٍ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ قَبْلَ الرَّجْعَةِ؟ أَوْ يَقَعُ وَلَا يُسْتَأْنَفُ لَهُ الْعِدَّةُ؟ وَابْنُ حَزْمٍ إنَّمَا أَوْجَبَ اسْتِئْنَافَ الْعِدَّةِ بِأَنْ يَكُونَ الطَّلَاقُ لِاسْتِقْبَالِ الْعِدَّةِ، فَلَا يَكُونُ طَلَاقٌ إلَّا يَتَعَقَّبُهُ عِدَّةٌ؛ إذْ كَانَ بَعْدَ الدُّخُولِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ؛ فَلَزِمَهُ عَلَى ذَلِكَ هَذَا الْقَوْلُ الْفَاسِدُ.

وَأَمَّا مَنْ أَخَذَ بِمُقْتَضَى الْقُرْآنِ وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: إنَّ الطَّلَاقَ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ هُوَ مَا يَتَعَقَّبُهُ الْعِدَّةُ، وَمَا كَانَ صَاحِبُهُ مُخَيَّرًا فِيهَا بَيْنَ الْإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ وَالتَّسْرِيحِ بِإِحْسَانٍ، وَهَذَا مُنْتَفٍ فِي إيقَاعِ الثَّلَاثِ فِي الْعِدَّةِ قَبْلَ الرَّجْعَةِ، فَلَا يَكُونُ جَائِزًا، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ طَلَاقًا لِلْعِدَّةِ، وَلِأَنَّهُ قَالَ: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}

[الطلاق: ٢] فَخَيَّرَهُ بَيْنَ الرَّجْعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدَعَهَا تَقْضِي الْعِدَّةَ فَيُسَرِّحَهَا بِإِحْسَانٍ، فَإِذَا طَلَّقَهَا ثَانِيَةً قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ لَمْ يُمْسِكْ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يُسَرِّحْ بِإِحْسَانٍ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ}[البقرة: ٢٢٨]. فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذَا حَالُ كُلِّ مُطَلَّقَةٍ، فَلَمْ يُشْرَعْ إِلَّا هَذَا الطَّلَاقُ، ثُمَّ قَالَ: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}[البقرة: ٢٢٩]، أَيْ: هَذَا الطَّلَاقُ الْمَذْكُورُ {مَرَّتَانِ}.

وَإِذَا قِيلَ: سَبِّحْ مَرَّتَيْنِ. أَوْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: لَمْ يُجْزِهِ أَنْ يَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَرَّتَيْنِ؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَنْطِقَ بِالتَّسْبِيحِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَكَذَلِكَ لَا يُقَالُ: طَلَّقَ مَرَّتَيْنِ إِلَّا إِذَا طَلَّقَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَإِذَا قَالَ: أَنْت طَالِقٌ ثَلَاثًا. أَوْ مَرَّتَيْنِ: لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ: طَلَّقَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ؛ وَإِنْ جَازَ أَنْ يُقَالَ: طَلَّقَ ثَلَاثَ تَطْلِيقَاتٍ أَوْ طَلْقَتَيْنِ؛ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ}[البقرة: ٢٣٠]. فَهَذِهِ الطَّلْقَةُ الثَّالِثَةُ لَمْ يَشْرَعْهَا اللَّهُ إلَّا بَعْدَ الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ مَرَّتَيْنِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}[البقرة: ٢٣٢] الْآيَةَ. وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ فِيمَا دُونَ الثَّلَاثِ، وَهُوَ يَعُمُّ كُلَّ طَلَاقٍ، فَعُلِمَ أَنَّ جَمِيعَ الثَّلَاثِ لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ. وَدَلَائِلُ تَحْرِيمِ الثَّلَاثِ كَثِيرَةٌ قَوِيَّةٌ: مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْآثَارِ، وَالِاعْتِبَارِ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ (الْأَصْلَ فِي الطَّلَاقِ الْحَظْرُ)، وَإِنَّمَا أُبِيحَ مِنْهُ قَدْرُ الْحَاجَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ النَّبِيِّ -ﷺ-: ((أَنَّ إبْلِيسَ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلَى الْبَحْرِ، وَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ: فَأَقْرَبُهُمْ إلَيْهِ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، فَيَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَا زِلْت بِهِ حَتَّى فَعَلَ كَذَا؛ حَتَّى يَأْتِيَهُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولَ: مَا زِلْت بِهِ حَتَّى فَرَّقْت بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ؛ فَيُدْنِيَهُ مِنْهُ؛ وَيَقُولُ: أَنْتَ، أَنْتَ، وَيَلْتَزِمُهُ([1]))). وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي ذَمِّ السِّحْرِ: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}[البقرة: ١٠٢].

وَفِي السُّنَنِ أَيْضًا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ([2]))). وَلِهَذَا لَمْ يُبَحْ إلَّا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ بَعْدَ الثَّالِثَةِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَإِذَا كَانَ إنَّمَا أُبِيحَ لِلْحَاجَةِ، فَالْحَاجَةُ تَنْدَفِعُ بِوَاحِدَةٍ، فَمَا زَادَ فَهُوَ بَاقٍ عَلَى الْحَظْرِ.

الْأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّ الطَّلَاقَ الْمُحَرَّمَ الَّذِي يُسَمَّى (طَلَاقَ الْبِدْعَةِ) إذَا أَوْقَعَهُ الْإِنْسَانُ هَلْ يَقَعُ، أَمْ لَا؟ فِيهِ نِزَاعٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَالْأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ بِوُقُوعِهِ مَعَ الْقَوْلِ بِتَحْرِيمِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يَقَعُ. مِثْلُ طَاوُسٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَخِلَاسٍ، وَعُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ، وَحَجَّاجِ بْنِ أَرْطَاةَ. وَأَهْلِ الظَّاهِرِ: كَدَاوُد، وَأَصْحَابِهِ وَطَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ.

١- (قلت): مسلم (٢٨١٣)، وقال مام الألباني في الصحيحة (٣٢٦١): أخرجه مسلم (١٣٨/٨)، وأحمد (٣١٤/٣)، وعبد بن حميد في المنتخب (١٠٣١/٢٠/٣) من طريق أبي معاوية: ثنا الأعمش به.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٢٧٩)، وقال: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ والدارمي.

وَيُرْوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ، وَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الظَّاهِرِ: دَاوُد وَأَصْحَابُهُ؛ لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَقُولُ بِتَحْرِيمِ الثَّلَاثِ. وَمِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ مَجْمُوعُ الثَّلَاثِ إذَا أَوْقَعَهَا جَمِيعًا؛ بَلْ يَقَعُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ؛ وَلَمْ يُعْرَفْ قَوْلُهُ فِي طَلَاقِ الْحَائِضِ؛ وَلَكِنَّ وُقُوعَ الطَّلَاقِ جَمِيعًا قَوْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالشِّيعَةِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ: إذَا أَوْقَعَ الثَّلَاثَ جُمْلَةً لَمْ يَقَعْ بِهِ شَيْءٌ أَصْلًا، لَكِنَّ هَذَا قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ لَا يُعْرَفُ لِقَائِلِهِ سَلَفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَطَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالشِّيعَةِ؛ لَكِنِ ابْنُ حَزْمٍ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ لَا يَقُولُ بِتَحْرِيمِ جَمْعِ الثَّلَاثِ؛ فَلِذَا يُوقِعُهَا، وَجُمْهُورُهُمْ عَلَى تَحْرِيمِهَا، وَأَنَّهُ لَا يَقَعُ إلَّا وَاحِدَةً. وَمِنْهُمْ مَنْ عُرِفَ قَوْلُهُ فِي الثَّلَاثِ وَلَمْ يُعْرَفْ قَوْلُهُ فِي الطَّلَاقِ فِي الْحَيْضِ، كَمَنْ يُنْقَلُ عَنْهُ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ. وَابْنِ عُمَرَ رُوِيَ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَنَّهُ لَا يَقَعُ. وَرُوِيَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَى أَشْهَرُ وَأَثْبَتُ: أَنَّهُ يَقَع. وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ زَيْدٍ.

وَأَمَّا جَمْعُ الثَّلَاثِ: فَأَقْوَالُ الصَّحَابَةِ فِيهَا كَثِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ: رُوِيَ الْوُقُوعُ فِيهَا عَنْ عُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ. وَعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، وَغَيْرِهِمْ. وَرُوِيَ عَدَمُ الْوُقُوعِ فِيهَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعَنْ عُمَرَ صَدْرًا مِنْ خِلَافَتِهِ، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَعَنْ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ. رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُغِيثٍ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ (الْمُقْنِعَ فِي أُصُولِ الْوَثَائِقِ. وَبَيَانُ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الدَّقَائِقِ): وَطَلَاقُ الْبِدْعَةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا ثَلَاثًا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنْ فَعَلَ لَزِمَهُ الطَّلَاقُ. ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ بَعْدَ إجْمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّهُ مُطَلِّقٌ كَمْ يَلْزَمُهُ مِنَ الطَّلَاقِ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا –: يَلْزَمُهُ طَلْقَةٌ وَاحِدَةٌ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما –؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: (ثَلَاثًا) لَا مَعْنَى لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُطَلِّقْ ثَلَاث مَرَّاتٍ: لِأَنَّهُ إذَا كَانَ مُخْبِرًا عَمَّا مَضَى فَيَقُولُ: طَلَّقْت ثَلَاث مَرَّاتٍ، يُخْبِرُ عَنْ ثَلَاثِ طَلْقَاتٍ أَتَتْ مِنْهُ فِي ثَلَاثَةِ أَفْعَالٍ كَانَتْ مِنْهُ، فَذَلِكَ يَصِحُّ.

وَلَوْ طَلَّقَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَالَ: طَلَّقْتهَا ثَلَاث مَرَّاتٍ لَكَانَ كَاذِبًا، وَكَذَلِكَ لَوْ حَلَفَ بِاللَّهِ ثَلَاثًا يُرَدِّدُ الْحَلِفَ كَانَتْ ثَلَاثَةَ أَيْمَانٍ وَأَمَّا لَوْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَقَالَ: أَحْلِفُ بِاللَّهِ ثَلَاثًا لَمْ يَكُنْ حَلَفَ إلَّا يَمِينًا وَاحِدَةً، وَالطَّلَاقُ مِثْلُهُ: قَالَ: وَمِثْلُ ذَلِكَ قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَوَيْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ ابْنِ وَضَّاحٍ يَعْنِي الْإِمَامَ مُحَمَّدَ بْنَ وَضَّاحٍ – الَّذِي يَأْخُذُ عَنْ طَبَقَةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَيَحْيَى بْنِ مَعِينٍ، وَسَحْنُونَ بْنِ سَعِيدٍ وَطَبَقَتِهِمْ قَالَ: وَبِهِ قَالَ مِنْ شُيُوخِ قُرْطُبَةَ ابْنُ زِنْبَاعٍ شَيْخُ هُدًى، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ الْحُسَيْنِيُّ فَقِيهُ عَصْرِهِ، وَابْنُ بَقِيٍّ بْنِ مَخْلَدٍ، وَأَصْبَغُ بْنُ الْحُبَابِ، وَجَمَاعَةٌ سِوَاهُمْ مِنْ فُقَهَاءِ قُرْطُبَةَ، وَذُكِرَ هَذَا عَنْ بِضْعَةَ عَشَرَ فَقِيهًا مِنْ فُقَهَاءِ طُلَيْطِلَةَ الْمُتَعَبِّدِينَ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ.

قُلْت: وَقَدْ ذَكَرَهُ التِّلْمِسَانِيُّ رِوَايَةً عَنْ مَالِكٍ، وَهُوَ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ مُقَاتِلٍ الرَّازِيِّ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَنَفِيَّةِ. حَكَاهُ عَنْ الْمَازِنِيِّ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ ذُكِرَ هَذَا رِوَايَةً عَنْ مَالِكٍ، وَكَانَ يُفْتِي بِذَلِكَ أَحْيَانًا الشَّيْخُ أَبُو الْبَرَكَاتِ بْنُ تَيْمِيَّةَ، وَهُوَ وَغَيْرُهُ يَحْتَجُّونَ بِالْحَدِيثِ الَّذِي

رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَأَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُمَا عَنْ طَاوُسٍ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: ((كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَعْجَلُوا أَمْرًا كَانَ لَهُمْ، فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ([١]))). وَفِي رِوَايَةٍ: ((أَنَّ أَبَا الصَّهْبَاءِ قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: هَاتِ مِنْ هَنَاتِك، أَلَمْ يَكُنْ طَلَاقُ الثَّلَاثِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَاحِدَةً؟ قَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ. فَلَمَّا كَانَ فِي عَهْدِ عُمَرَ تَتَابَعَ النَّاسُ فِي الطَّلَاقِ فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ وَأَجَازَهُ([٢]))).

وَالَّذِينَ رَدُّوا هَذَا الْحَدِيثَ تَأَوَّلُوهُ بِتَأْوِيلَاتٍ ضَعِيفَةٍ، وَكَذَلِكَ كُلُّ حَدِيثٍ فِيهِ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَلْزَمَ الثَّلَاثَ بِيَمِينٍ أَوْقَعَهَا جُمْلَةً، أَوْ أَنَّ أَحَدًا فِي زَمَنِهِ أَوْقَعَهَا جُمْلَةً فَأَلْزَمَهُ بِذَلِكَ): مِثْلُ حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ عَلِيٍّ، وَآخَرَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَآخَرَ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَكُلُّهَا أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ، بَلْ هِيَ مَوْضُوعَةٌ، وَيَعْرِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِنَقْدِ الْحَدِيثِ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَأَقْوَى مَا رَدُّوهُ بِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ثَبَتَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ أَفْتَى بِلُزُومِ الثَّلَاثِ.

وَجَوَابُ الْمُسْتَدِلِّينَ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رُوِيَ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ يَجْعَلُهَا وَاحِدَةً؛ وَثَبَتَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يُوَافِقُ حَدِيثَ طَاوُسٍ مَرْفُوعًا إلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ؛ وَلَمْ يَثْبُتْ خِلَافُ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَالْمَرْفُوعُ: ((إنَّ رُكَانَةَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَرَدَّهَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ))، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ؛ حَدَّثَنَا أَبِي؛ عَنْ ابْنِ إسْحَاقَ، حَدَّثَنِي دَاوُد بْنُ الْحُصَيْنِ، عَنْ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: ((طَلَّقَ رُكَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَزِيدَ أَخُو بَنِي الْمُطَّلِبِ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ؛ فَحَزِنَ عَلَيْهَا حُزْنًا شَدِيدًا. قَالَ: فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ: كَيْفَ طَلَّقْتهَا؟ قَالَ: فَقَالَ: طَلَّقْتهَا ثَلَاثًا قَالَ: فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهَا تِلْكَ وَاحِدَةٌ فَأَرْجِعْهَا إنْ شِئْت. قَالَ: فَرَاجَعَهَا([٣])))؛ وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إنَّمَا الطَّلَاقُ عِنْدَ كُلِّ طُهْرٍ.

قُلْت: وَهَذَا الْحَدِيثُ قَالَ فِيهِ ابْنُ إسْحَاقَ: حَدَّثَنِي دَاوُد؛ وَدَاوُد مِنْ شُيُوخِ مَالِكٍ وَرِجَالِ الْبُخَارِيِّ؛ وَابْنُ إسْحَاقَ إذَا قَالَ: حَدَّثَنِي. فَهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ. وَهَذَا إسْنَادٌ جَيِّدٌ؛ وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي السُّنَنِ؛ وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو

١- (قلت): مسلم (١٤٧٢/١٥).

٢- (قلت): مسلم (١٤٧٢/١٧).

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في (٢٠٦٣) ج٧ص١٤٤: هذا الإسناد صححه الإمام أحمد والحاكم والذهبي وحسنه الترمذى فى متن آخر تقدم برقم (١٩٢١)، وذكرنا هنالك اختلاف العلماء فى داود بن الحصين وأنه حجة فى غير عكرمة، ولولا ذلك لكان إسناد الحديث لذاته قويا، ولكن لا يمنع من الاعتبار بحديثه والاستشهاد بمتابعته لبعض بنى رافع، فلا أقل من أن يكون الحديث حسنا بمجموع الطريقين عن عكرمة، ومال ابن القيم إلى تصحيحه وذكر أن الحاكم رواه فى مستدركه وقال إسناده صحيح، ولم أره في (المستدرك) لا في (الطلاق) منه، ولا في (الفضائل) والله أعلم، وقال ابن تيمية فى الفتاوى (١٨/٣): (وهذا إسناد جيد).
وكلام الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٣١٦/٩) يشعر بأنه يرجح صحته أيضا، فإنه قال: أخرجه أحمد وأبو يعلى وصححه من طريق محمد بن إسحاق ، وهذا الحديث نص فى المسألة لا يقبل التأويل الذى فى غيره من الروايات الآتي ذكرها. وقد أجابوا عنه بأربعة أشياء ... . ثم ذكر الحافظ هذه الأجوبة مع الجواب عنها.

دَاوُد هَذَا الطَّرِيقَ الْجَيِّدَ؛ فَلِذَلِكَ ظَنَّ أَنَّ تَطْلِيقَةً وَاحِدَةً بَائِنًا أَصَحُّ؛ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَهُ؛ بَلْ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَجَّحَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ عَلَى تِلْكَ؛ وَهُوَ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَهَذَا الْمَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ رُكَانَةَ مِنْ وَجْهَيْنِ، وَهُوَ رِوَايَةُ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ وَجْهَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ، وَهُوَ أَثْبَتُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ بْنِ رُكَانَةَ وَنَافِعِ بْنِ عُجَيْنٍ: ((أَنَّهُ طَلَّقَهَا أَلْبَتَّةَ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَحْلَفَهُ، فَقَالَ: مَا أَرَدْت إلَّا وَاحِدَةً؟[١])) فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مَجَاهِيلُ لَا تُعْرَفُ أَحْوَالُهُمْ، وَلَيْسُوا فُقَهَاءَ، وَقَدْ ضَعَّفَ حَدِيثَهُمْ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَبُو عُبَيْدٍ، وَابْنُ حَزْمٍ، وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: حَدِيثُ رُكَانَةَ فِي أَلْبَتَّةَ لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَقَالَ أَيْضًا: حَدِيثُ رُكَانَةَ لَا يَثْبُتُ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ أَلْبَتَّةَ، لِأَنَّ ابْنَ إسْحَاقَ يَرْوِيهِ عَنْ دَاوُد بْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ((أَنَّ رُكَانَةَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا))، وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ يُسَمُّونَ (ثَلَاثًا) أَلْبَتَّةَ.

فَقَدْ اسْتَدَلَّ أَحْمَدُ عَلَى بُطْلَانِ حَدِيثِ أَلْبَتَّةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي فِيهِ أَنَّهُ طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، وَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يُسَمُّونَ مَنْ طَلَّقَ ثَلَاثًا طَلَّقَ أَلْبَتَّةَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْحَدِيثِ عِنْدَهُ، وَقَدْ بَيَّنَهُ غَيْرُهُ مِنْ الْحُفَّاظِ، وَهَذَا الْإِسْنَادُ هُوَ قَوْلُ ابْنِ إسْحَاقَ: حَدَّثَنِي دَاوُد بْنُ الْحُصَيْنِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ إسْنَادٌ ثَابِتٌ عَنْ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ.

وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ رُوِيَ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ ابْنَتَهُ زَيْنَبَ عَلَى زَوْجِهَا بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ)) وَصَحَّحَ ذَلِكَ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ. وَابْنُ إسْحَاقَ إذَا قَالَ: حَدَّثَنِي. فَحَدِيثُهُ صَحِيحٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ إنَّمَا يُخَافُ عَلَيْهِ التَّدْلِيسُ إذَا عَنْعَنَ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَكِلَاهُمَا يُوَافِقُ حَدِيثَ طَاوُسٍ عَنْهُ، وَأَحْمَدُ كَانَ يُعَارِضُ حَدِيثَ طَاوُسٍ بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ: أَنَّ زَوْجَهَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، وَنَحْوَهُ.

وَكَانَ أَحْمَدُ يَرَى جَمْعَ الثَّلَاثِ جَائِزًا، ثُمَّ رَجَعَ أَحْمَدُ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ تَدَبَّرْت الْقُرْآنَ فَوَجَدْت الطَّلَاقَ الَّذِي فِيهِ هُوَ الرَّجْعِيُّ. أَوْ كَمَا قَالَ. وَاسْتَقَرَّ مَذْهَبُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ أَصْحَابِهِ، وَتَبَيَّنَ مِنْ حَدِيثِ فَاطِمَةَ أَنَّهَا كَانَتْ مُطَلَّقَةً ثَلَاثًا مُتَفَرِّقَاتٍ؛ لَا مَجْمُوعَةً، وَقَدْ ثَبَتَ عِنْدَهُ حَدِيثَانِ عَنْ النَّبِيِّ: أَنَّ مَنْ جَمَعَ ثَلَاثًا لَمْ يَلْزَمْهُ إلَّا وَاحِدَةٌ.

وَلَيْسَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ؛ بَلْ الْقُرْآنُ يُوَافِقُ ذَلِكَ، وَالنَّهْيُ عِنْدَهُ يَقْتَضِي الْفَسَادَ.

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَالْأُصُولُ الثَّابِتَةُ عَنْهُ تَقْتَضِي مِنْ مَذْهَبِهِ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ إلَّا وَاحِدَةٌ، وَعُدُولُهُ عَنْ الْقَوْلِ بِحَدِيثِ رُكَانَةَ وَغَيْرِهِ كَانَ أَوَّلًا لَمَّا عَارَضَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ جَوَازِ جَمْعِ الثَّلَاثِ؛ فَكَانَ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى النَّسْخِ؛ ثُمَّ إنَّهُ رَجَعَ عَنْ الْمُعَارَضَةِ، وَتَبَيَّنَ لَهُ فَسَادُ هَذَا الْمُعَارِضِ. وَإِنْ جَمْعَ الثَّلَاثَ لَا يَجُوزُ: فَوَجَبَ عَلَى أَصْلِهِ الْعَمَلُ بِالنُّصُوصِ السَّالِمَةِ عَنْ الْمُعَارِضِ، وَلَيْسَ يُعَلُّ حَدِيثُ طَاوُسٍ بِفُتْيَا ابْنِ عَبَّاسٍ بِخِلَافِهِ: وَهَذَا عِلَّةٌ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ: وَلَكِنَّ ظَاهِرَ مَذْهَبِهِ الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ أَنَّ ذَلِكَ لَا

١- (قلت): ضعفه الإمام الألباني في الإرواء (٢٠٦٣)، وقال: قال الترمذي: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وسألت محمدا (يعنى البخاري) عن هذا الحديث، فقال: فيه اضطراب). وأقول: هو إسناد ضعيف مسلسل بعلل - فذكر علله -.

يَقْدَحُ فِي الْعَمَلِ بِالْحَدِيثِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ بَيَّنَ ابْنُ عَبَّاسٍ عُذْرَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - فِي الْإِلْزَامِ بِالثَّلَاثِ. وَابْنُ عَبَّاسٍ عُذْرُهُ هُوَ الْعُذْرُ الَّذِي ذَكَرَهُ عَنْ عُمَرَ - رضي الله عنه -، وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ لَمَّا تَتَابَعُوا فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ عَلَى ذَلِكَ فَعُوقِبُوا بِلُزُومِهِ، بِخِلَافِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُكْثِرِينَ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمِ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّهُمْ لَمَّا أَكْثَرُوا شُرْبَ الْخَمْرِ وَاسْتَخَفُّوا بِحَدِّهَا كَانَ عُمَرُ يَضْرِبُ فِيهَا ثَمَانِينَ، وَيَنْفِي فِيهَا، وَيَحْلِقُ الرَّأْسَ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَمَا قَاتَلَ عَلِيٌّ بَعْضَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ هُوَ مِمَّا كَانُوا يُعَاقَبُونَ بِهِ أَحْيَانًا: إمَّا مَعَ بَقَاءِ النِّكَاحِ، وَإِمَّا بِدُونِهِ. فَالنَّبِيُّ - ﷺ - فَرَّقَ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَبَيْنَ نِسَائِهِمْ حَتَّى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ طَلَاقٍ، وَالْمُطَلِّقُ ثَلَاثًا حَرُمَتْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ عُقُوبَةً لَهُ لِيَمْتَنِعَ عَنْ الطَّلَاقِ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَمَنْ وَافَقَهُ كَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ حَرَّمُوا الْمَنْكُوحَةَ فِي الْعِدَّةِ عَلَى النَّاكِحِ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ اسْتَعْجَلَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ فَعُوقِبَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ، وَالْحُكْمَانِ لَهُمَا عِنْدَ أَكْثَرِ السَّلَفِ أَنْ يُفَرِّقَا بَيْنَهُمَا بِلَا عِوَضٍ إذَا رَأَيَا الزَّوْجَ ظَالِمًا مُعْتَدِيًا؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَنْعِهِ مِنْ الظُّلْمِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْ الزَّوْجَةِ، وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْآثَارُ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، وَإِلْزَامُ عُمَرَ بِالثَّلَاثِ لَمَّا أَكْثَرُوا مِنْهُ: إمَّا أَنْ يَكُونَ رَآهُ عُقُوبَةً تُسْتَعْمَلُ وَقْتَ الْحَاجَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ رَآهُ شَرْعًا لَازِمًا؛ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ الرُّخْصَةَ كَانَتْ لَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَا يُوقِعُونَهُ إلَّا قَلِيلًا: وَهَكَذَا كَمَا اخْتَلَفَ كَلَامُ النَّاسِ فِي نَهْيِهِ عَنْ الْمُتْعَةِ: هَلْ كَانَ نَهْيَ اخْتِيَارٍ؛ لِأَنَّ إفْرَادَ الْحَجِّ بِسَفْرَةٍ وَالْعُمْرَةِ بِسَفْرَةٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ التَّمَتُّعِ؟ أَوْ كَانَ قَدْ نَهَى عَنْ الْفَسْخِ؛ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ كَانَ مَخْصُوصًا بِالصَّحَابَةِ؟ وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَالصَّحَابَةُ قَدْ نَازَعُوهُ فِي ذَلِكَ، وَخَالَفَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشُّورَى وَغَيْرِهِمْ: فِي الْمُتْعَةِ فِي الْإِلْزَامِ بِالثَّلَاثِ. وَإِذَا تَنَازَعُوا فِي شَيْءٍ وَجَبَ رَدُّ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، كَمَا أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَرَى أَنَّ الْمَبْتُوتَةَ لَا نَفَقَةَ لَهَا وَلَا سُكْنَى، وَنَازَعَهُ فِي ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى قَوْلِهِمْ. وَكَانَ هُوَ وَابْنُ مَسْعُودٍ يَرَيَانِ أَنَّ الْجُنُبَ لَا يَتَيَمَّمُ، وَخَالَفَهُمَا عَمَّارٌ وَأَبُو مُوسَى وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَأَطْبَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ؛ لَمَّا كَانَ مَعَهُمْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا كَثِيرٌ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى مَا أَخَذَ النَّاسُ بِهِ.

وَالَّذِينَ لَا يَرَوْنَ الطَّلَاقَ الْمُحَرَّمَ لَازِمًا يَقُولُونَ: هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْفُقَهَاءِ: كَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، وَغَيْرِهِمْ. وَهُوَ: أَنَّ إيقَاعَاتِ الْعُقُودِ الْمُحَرَّمَةِ لَا تَقَعُ لَازِمَةً: كَالْبَيْعِ الْمُحَرَّمِ، وَالنِّكَاحِ الْمُحَرَّمِ، وَالْكِتَابَةِ الْمُحَرَّمَةِ، وَلِهَذَا أَبْطَلُوا نِكَاحَ الشِّغَارِ، وَنِكَاحَ الْمُحَلِّلِ، وَأَبْطَلَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ الْبَيْعَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عِنْدَ النِّدَاءِ؛ وَهَذَا بِخِلَافِ الظِّهَارِ الْمُحَرَّمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَفْسَهُ مُحَرَّمٌ؛ كَمَا يَحْرُمُ الْقَذْفُ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ، وَسَائِرُ الْأَقْوَالِ الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا مُحَرَّمَةٌ: فَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْقَسِمَ إلَى صَحِيحٍ وَغَيْرِ صَحِيحٍ؛ بَلْ صَاحِبُهَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ بِكُلِّ حَالٍ، فَعُوقِبَ الْمُظَاهِرُ بِالْكَفَّارَةِ، وَلَمْ يَحْصُلْ مَا قَصَدَهُ بِهِ مِنْ الطَّلَاقِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ بِهِ الطَّلَاقَ وَهُوَ مُوجِبُ لَفْظِهِ؛ فَأَبْطَلَ الشَّارِعُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُحَرَّمٌ؛ وَأَوْجَبَ فِيهِ

الْكَفَّارَةَ. أَمَّا الطَّلَاقُ فَجِنْسُهُ مَشْرُوعٌ: كَالنِّكَاحِ وَالْبَيْعِ؛ فَهُوَ يَحِلُّ تَارَةً، وَيَحْرُمُ تَارَةً فَيَنْقَسِمُ إلَى صَحِيحٍ وَفَاسِدٍ، كَمَا يَنْقَسِمُ الْبَيْعُ وَالنِّكَاحُ.

وَالنَّهْيُ فِي هَذَا الْجِنْسِ يَقْتَضِي فَسَادَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُطَلِّقُونَ بِالظِّهَارِ فَأَبْطَلَ الشَّارِعُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُحَرَّمٌ: كَانَ مُقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ مُحَرَّمٍ لَا يَقَعُ بِهِ الطَّلَاقُ وَإِلَّا فَهُمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ الطَّلَاقَ بِلَفْظِ الظِّهَارِ؛ كَلَفْظِ الْحَرَامِ.

وَهَذَا قِيَاسُ أَصْلِ الْأَئِمَّةِ: مَالِكٍ؛ وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ.

وَلَكِنْ الَّذِي خَالَفُوا قِيَاسَ أُصُولِهِمْ فِي الطَّلَاقِ خَالَفُوهُ لِمَا بَلَغَهُمْ مِنْ الْآثَارِ.

فَلَمَّا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ اعْتَدَّ بِتِلْكَ التَّطْلِيقَةِ الَّتِي طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ قَالُوا: هُمْ أَعْلَمُ بِقِصَّتِهِ، فَاتَّبَعُوهُ فِي ذَلِكَ. وَمَنْ نَازَعَهُمْ يَقُولُ: مَا زَالَ ابْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُ يَرْوُونَ أَحَادِيثَ وَلَا تَأْخُذُ الْعُلَمَاءُ بِمَا فَهِمُوهُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ الِاعْتِبَارَ بِمَا رَوَوْهُ؛ لَا بِمَا رَأَوْهُ وَفَهِمُوهُ. وَقَدْ تَرَكَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ الَّذِي فَسَّرَ بِهِ قَوْلَهُ: ((فَاقْدُرُوا لَهُ))، وَتَرَكَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُمَا تَفْسِيرَهُ لِحَدِيثِ: ((الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ)) مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ.

وَتَرَكَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ تَفْسِيرَهُ لِقَوْلِهِ: {فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}[البقرة: ٢٢٣]. وَقَوْلُهُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا. وَكَذَلِكَ إذَا خَالَفَ الرَّاوِي مَا رَوَاهُ، كَمَا تَرَكَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَغَيْرُهُمْ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ بَيْعَ الْأَمَةِ طَلَاقُهَا؛ مَعَ أَنَّهُ رَوَى ((حَدِيثَ بَرِيرَةَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ خَيَّرَهَا بَعْدَ أَنْ بِيعَتْ وَعَتَقَتْ))، فَإِنَّ الِاعْتِبَارَ بِمَا رَوَوْهُ، لَا مَا رَأَوْهُ وَفَهِمُوهُ.

وَلَمَّا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ عَنْ أَئِمَّةِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ أَلْزَمُوا بِالثَّلَاثِ الْمَجْمُوعَةِ قَالُوا: لَا يُلْزِمُونَ بِذَلِكَ إلَّا وَذَلِكَ مُقْتَضَى الشَّرْعِ؛ وَاعْتَقَدَ طَائِفَةٌ لُزُومَ هَذَا الطَّلَاقِ وَإِنَّ ذَلِكَ إجْمَاعٌ؛ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يَعْلَمُوا خِلَافًا ثَابِتًا؛ لَا سِيَّمَا وَصَارَ الْقَوْلُ بِذَلِكَ مَعْرُوفًا عَنْ الشِّيعَةِ الَّذِينَ لَمْ يَنْفَرِدُوا عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بِحَقٍّ.

قَالَ الْمُسْتَدِلُّونَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ بَعْضُ الشِّيعَةِ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَقُولُونَ: جَامِعُ الثَّلَاثِ لَا يَقَعُ بِهِ شَيْءٌ. هَذَا الْقَوْلُ لَا يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ؛ بَلْ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِجْمَاعُ عَلَى بَعْضِهِ؛ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ هَلْ يَلْزَمُهُ وَاحِدَةٌ؟ أَوْ يَقَعُ ثَلَاثٌ؟ وَالنِّزَاعُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ ثَابِتٌ لَا يُمْكِنُ رَفْعُهُ؛ وَلَيْسَ مَعَ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ شَرْعًا لَازِمًا لِلْأُمَّةِ حُجَّةٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهَا: مِنْ كِتَابٍ، وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا إجْمَاعٍ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ احْتَجَّ عَلَى هَذَا بِالْكِتَابِ، وَبَعْضُهُمْ بِالسُّنَّةِ، وَبَعْضُهُمْ بِالْإِجْمَاعِ: وَقَدْ احْتَجَّ بَعْضُهُمْ بِحُجَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ لَكِنَّ الْمُنَازِعَ يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ كُلَّهَا حُجَجٌ ضَعِيفَةٌ، وَأَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَالِاعْتِبَارَ إنَّمَا تَدُلُّ عَلَى نَفْيِ اللُّزُومِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا إجْمَاعَ فِي الْمَسْأَلَةِ؛ بَلْ الْآثَارُ الثَّابِتَةُ عَمَّنْ أُلْزِمَ بِالثَّلَاثِ مَجْمُوعَةً عَنْ الصَّحَابَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِمَّا شَرَعَهُ النَّبِيُّ لِأُمَّتِهِ شَرْعًا لَازِمًا، كَمَا شُرِعَ تَحْرِيمُ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ؛ بَلْ كَانُوا مُجْتَهِدِينَ فِي الْعُقُوبَةِ بِإِلْزَامِ ذَلِكَ إذَا كَثُرَ وَلَمْ يَنْتَهِ النَّاسُ عَنْهُ.

وَقَدْ ذُكِرَتْ الْأَلْفَاظُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ الصَّحَابَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَلْزَمُوا بِالثَّلَاثِ لِمَنْ عَصَى اللَّهَ بِإِيقَاعِهَا جُمْلَةً، فَأَمَّا مَنْ كَانَ يَتَّقِي اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}[الطلاق:٢، ٣] فَمَنْ لَا يَعْلَمُ التَّحْرِيمَ حَتَّى أَوْقَعَهَا، ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ التَّحْرِيمَ تَابَ وَالْتَزَمَ أَنْ لَا يَعُودَ إلَى الْمُحَرَّمِ، فَهَذَا لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَاقَبَ؛ وَلَيْسَ فِي الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ: الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَالْإِجْمَاعِ، وَالْقِيَاسِ، مَا يُوجِبُ لُزُومَ الثَّلَاثِ لَهُ، وَنِكَاحُهُ ثَابِتٌ بِيَقِينِ، وَامْرَأَتُهُ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْغَيْرِ بِيَقِينِ، وَفِي إلْزَامِهِ بِالثَّلَاثِ إبَاحَتُهَا لِلْغَيْرِ مَعَ تَحْرِيمِهَا عَلَيْهِ وَذَرِيعَةٌ إلَى نِكَاحِ التَّحْلِيلِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

وَنِكَاحُ التَّحْلِيلِ لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَخُلَفَائِهِ. وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ امْرَأَةً أُعِيدَتْ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ عَلَى عَهْدِهِمْ إلَى زَوْجِهَا بِنِكَاحِ تَحْلِيلٍ؛ بَلْ: ((لَعَنَ النَّبِيُّ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ([١]))، وَ((لَعَنَ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَكَاتِبَهُ([٢]))).وَلَمْ يَذْكُرْ فِي التَّحْلِيلِ الشُّهُودَ وَلَا الزَّوْجَةَ وَلَا الْوَلِيَّ؛ لِأَنَّ التَّحْلِيلَ الَّذِي كَانَ يُفْعَلُ كَانَ مَكْتُومًا بِقَصْدِ الْمُحَلِّلِ أَوْ يَتَوَاطَأُ عَلَيْهِ هُوَ وَالْمُطَلِّقُ الْمُحَلَّلُ لَهُ، وَالْمَرْأَةُ وَوَلِيُّهَا لَا يَعْلَمُونَ قَصْدَهُ، وَلَوْ عَلِمُوا لَمْ يَرْضَوْا أَنْ يُزَوِّجُوهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْتَقْبَحَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ عِنْدَ النَّاسِ؛ وَلِأَنَّ عَادَاتِهِمْ لَمْ تَكُنْ بِكِتَابَةِ الصَّدَاقِ فِي كِتَابٍ، وَلَا إشْهَادَ عَلَيْهِ؛ بَلْ كَانُوا يَتَزَوَّجُونَ وَيُعْلِنُونَ النِّكَاحَ، وَلَا يَلْتَزِمُونَ أَنْ يُشْهِدُوا عَلَيْهِ شَاهِدَيْنِ وَقْتَ الْعَقْدِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ؛ وَلَيْسَ عَنْ النَّبِيِّ فِي الْإِشْهَادِ عَلَى النِّكَاحِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ. هَكَذَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ.

فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ - رضي الله عنه - تَحْلِيلٌ ظَاهِرٌ، وَرَأَى فِي إنْفَاذِ الثَّلَاثِ زَجْرًا لَهُمْ عَنْ الْمُحَرَّمِ، فَعَلَ ذَلِكَ بِاجْتِهَادِهِ. أَمَّا إذَا كَانَ الْفَاعِلُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، وَإِنْفَاذُ الثَّلَاثِ يُفْضِي إلَى وُقُوعِ التَّحْلِيلِ الْمُحَرَّمِ - بِالنَّصِّ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ - وَالِاعْتِقَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمَفَاسِدِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُزَالَ مَفْسَدَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بِمَفَاسِدَ أَغْلَظَ مِنْهَا؛ بَلْ جَعْلُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً فِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ، كَمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ أَوْلَى؛ وَلِهَذَا كَانَ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ مِثْلُ أَبِي الْبَرَكَاتِ يُفْتُونَ بِلُزُومِ الثَّلَاثِ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، كَمَا نُقِلَ عَنْ الصَّحَابَةِ. وَهَذَا: إمَّا لِكَوْنِهِمْ رَأَوْهُ مِنْ بَابِ التَّعْزِيرِ الَّذِي يَجُوزُ فِعْلُهُ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ؛ كَالزِّيَادَةِ عَلَى أَرْبَعِينَ فِي الْخَمْرِ وَالنَّفْيِ فِيهِ، وَحَلْقِ الرَّأْسِ. وَإِمَّا لِاخْتِلَافِ اجْتِهَادِهِمْ: فَرَأَوْهُ تَارَةً لَازِمًا. وَتَارَةً غَيْرَ لَازِمٍ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَمَا شَرَعَهُ النَّبِيُّ. لِأُمَّتِهِ شَرْعًا لَازِمًا إنَّمَا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهُ، لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ نَسْخٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ بِأَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْصِدَ هَذَا؛ لَا سِيَّمَا الصَّحَابَةُ؛ لَا سِيَّمَا الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ؛ وَإِنَّمَا يَظُنُّ ذَلِكَ فِي الصَّحَابَةِ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ: كَالرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بَعْضَ الْخُلَفَاءِ أَوْ يُفَسِّقُونَهُ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ أَحَدًا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يُقِرَّهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا إقْرَارٌ عَلَى أَعْظَمِ الْمُنْكَرَاتِ، وَالْأُمَّةُ مَعْصُومَةٌ أَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَقَدْ نُقِلَ عَنْ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٢٩٦).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (١٣٣٦).

طَائِفَةٍ: كَعِيسَى بْنِ أَبَانَ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَأَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ: أَنَّ الْإِجْمَاعَ يُنْسَخُ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكُنَّا نَتَأَوَّلُ كَلَامَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ يَدُلُّ عَلَى نَصٍّ نَاسِخٍ، فَوَجَدْنَا مَنْ ذَكَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ الْإِجْمَاعَ نَفْسَهُ نَاسِخًا، فَإِنْ كَانُوا أَرَادُوا ذَلِكَ فَهَذَا قَوْلٌ يُجَوِّزُ تَبْدِيلَ الْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ، كَمَا تَقُولُ النَّصَارَى مِنْ: أَنَّ الْمَسِيحَ سَوَّغَ لِعُلَمَائِهِمْ أَنْ يُحَرِّمُوا مَا رَأَوْا تَحْرِيمَهُ مَصْلَحَةً، وَيُحِلُّوا مَا رَأَوْا تَحْلِيلَهُ مَصْلَحَةً، وَلَيْسَ هَذَا دِينُ الْمُسْلِمِينَ وَلَا كَانَ الصَّحَابَةُ يُسَوِّغُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ. وَمَنْ اعْتَقَدَ فِي الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ كَمَا يُسْتَتَابُ أَمْثَالُهُ؛ وَلَكِنْ يَجُوزُ أَنْ يَجْتَهِدَ الْحَاكِمُ وَالْمُفْتِي فَيُصِيبُ فَيَكُونُ لَهُ أَجْرَانِ، وَيُخْطِئُ فَيَكُونُ لَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ.

وَمَا شَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ شَرْعًا مُعَلَّقًا بِسَبَبٍ إنَّمَا يَكُونُ مَشْرُوعًا عِنْدَ وُجُودِ السَّبَبِ: كَإِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ؛ فَإِنَّهُ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَبَعْضُ النَّاسِ ظَنَّ أَنَّ هَذَا نُسِخَ لِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ: أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ أَغْنَى عَنْ التَّأَلُّفِ، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[الكهف: ٢٩]، وَهَذَا الظَّنُّ غَلَطٌ؛ وَلَكِنَّ عُمَرُ اسْتَغْنَى فِي زَمَنِهِ عَنْ إعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِعَدَمِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ؛ لَا لِنَسْخِهِ، كَمَا لَوْ فُرِضَ أَنَّهُ عُدِمَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ابْنُ السَّبِيلِ، وَالْغَارِمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَقَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: إنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ فَلَوْ أَنَفَذْنَاهُ عَلَيْهِمْ فَأَنْفَذَهُ عَلَيْهِمْ: هُوَ بَيَانُ أَنَّ النَّاسَ أَحْدَثُوا مَا اسْتَحَقُّوا عِنْدَهُ أَنْ يَنْفُذَ عَلَيْهِمْ الثَّلَاثُ، فَهَذَا إمَّا أَنْ يَكُونَ كَالنَّهْيِ عَنْ مُتْعَةِ الْفَسْخِ؛ لِكَوْنِ ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ مَخْصُوصًا بِالصَّحَابَةِ وَهُوَ بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ هَذَا كَانَ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ مَا يُوجِبُ اخْتِصَاصَ الصَّحَابَةِ بِذَلِكَ. وَبِهَذَا أَيْضًا تَبْطُلُ دَعْوَى مَنْ ظَنَّ ذَلِكَ مَنْسُوخًا كَنَسْخِ مُتْعَةِ النِّسَاءِ. وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ عُمَرَ رَأَى ذَلِكَ لَازِمًا فَهُوَ اجْتِهَادٌ مِنْهُ اجْتَهَدَهُ فِي الْمَنْعِ مِنْ فَسْخِ الْحَجِّ؛ لِظَنِّهِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا. وَهَذَا قَوْلٌ مَرْجُوحٌ قَدْ أَنْكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَالْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ هِيَ مَعَ مَنْ أَنْكَرَهُ. وَهَكَذَا الْإِلْزَامُ بِالثَّلَاثِ؛ مَنْ جَعَلَ قَوْلَ عُمَرَ فِيهِ شَرْعًا لَازِمًا قِيلَ لَهُ: فَهَذَا اجْتِهَادُهُ قَدْ نَازَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَإِذَا تَنَازَعُوا فِي شَيْءٍ وَجَبَ رَدُّ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، وَالْحُجَّةُ مَعَ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا الْقَوْلَ الْمَرْجُوحَ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عُمَرُ جَعَلَ هَذَا عُقُوبَةً تُفْعَلُ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَهَذَا أَشْبَهُ الْأَمْرَيْنِ بِعُمَرَ، ثُمَّ الْعُقُوبَةُ بِذَلِكَ يَدْخُلُهَا الِاجْتِهَادُ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْعُقُوبَةَ بِذَلِكَ: هَلْ تُشْرَعُ؟ أَمْ لَا؟ فَقَدْ يَرَى الْإِمَامُ أَنْ يُعَاقِبَ بِنَوْعٍ لَا يَرَى الْعُقُوبَةَ بِهِ غَيْرُهُ، كَتَحْرِيقِ عَلِيٍّ الزَّنَادِقَةَ بِالنَّارِ؛ وَقَدْ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَمِنْ جِهَةِ أَنَّ الْعُقُوبَةَ إنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا، فَمَنْ كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ اسْتَحَقَّ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، لَمْ يَسْتَحِقَّ الْعُقُوبَةَ؛ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ جَمْعَ الثَّلَاثِ مُحَرَّمٌ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ تَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ لَا يُطَلِّقَ إلَّا طَلَاقًا سُنِّيًّا؛ فَإِنَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ فِي بَابِ الطَّلَاقِ. فَمِثْلُ هَذَا لَا يَتَوَجَّهُ إلْزَامُهُ بِالثَّلَاثِ مَجْمُوعَةً؛ بَلْ يَلْزَمُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا. وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ عَظِيمَةٌ؛ وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ مُجَلَّدَيْنِ؛ وَإِنَّمَا نَبَّهْنَا عَلَيْهَا هَهُنَا تَنْبِيهًا لَطِيفًا.

وَالَّذِي يُحْمَلُ عَلَيْهِ أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إمَّا أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّعْزِيرِ الَّذِي يَجُوزُ فِعْلُهُ بِحَسَبِ الْعَادَةِ: كَالزِّيَادَةِ عَلَى أَرْبَعِينَ فِي الْخَمْرِ. وَإِمَّا لِاخْتِلَافِ اجْتِهَادِهِمْ فَرَأَوْهُ لَازِمًا، وَتَارَةً غَيْرَ لَازِمٍ. وَأَمَّا الْقَوْلُ بِكَوْنِ لُزُومِ الثَّلَاثِ شَرْعًا لَازِمًا، كَسَائِرِ الشَّرَائِعِ: فَهَذَا لَا يَقُومُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ. وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ الرَّاجِحِ لِهَذَا الْمُوقِعِ أَنْ يَلْتَزِمَ طَلْقَةً وَاحِدَةً، وَيُرَاجِعَ امْرَأَتَهُ؛ وَلَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ لِكَوْنِهَا كَانَتْ حَائِضًا، إذَا كَانَ مِمَّنْ اتَّقَى اللَّهَ وَتَابَ مِنْ الْبِدْعَةِ.

قال ابن العثيمين: {ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا ممَّا آتيتموهن شيئًا}: أي أعطيتموهن؛ وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ، والخبر؛ فالمفعول الأول الهاء في قوله تعالى: {آتيتموهن}؛ والمفعول الثاني: محذوف؛ والتقدير: مما آتيتموهن إيّاه؛ وهو العائد على الموصول؛ أما {شيئًا}: فهي مفعول {تأخذوا}؛ وهي نكرة في سياق النفي، فتعمُّ كل ما آتاها من مهر، وغيره.

قال السعدي: ومن الإحسان، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئًا من مالها، لأنه ظلم وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: {ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا ممَّا آتيتموهنَّ شيئًا إلَّا أن يخافا ألَّا يقيما حدود الله}: وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها، لخِلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه.

قال البغوي: نَزَلَتْ فِي جَمِيلَةَ بِنْتِ عَبْدِ الله بن أبي، ويقال: في حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلٍ، كَانَتْ تَحْتَ ثابت بن قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَكَانَتْ تَبْغَضُهُ وَهُوَ يُحِبُّهَا فَكَانَ بَيْنَهُمَا كَلَامٌ فَأَتَتْ أَبَاهَا فَشَكَتْ إِلَيْهِ زَوْجَهَا، وَقَالَتْ لَهُ: إِنَّهُ يُسِيءُ إِلَيَّ ويضربني، فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي إِلَى زَوْجِكِ فَإِنِّي أَكْرَهُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ لَا تَزَالَ رَافِعَةً يَدَيْهَا تَشْكُو زَوْجَهَا، قَالَ: فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ وَبِهَا أثر الضرب، فقال: ارْجِعِي إِلَى زَوْجِكِ فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ أَبَاهَا لَا يَشْكِيهَا أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَشَكَتْ إِلَيْهِ زَوْجَهَا وَأَرَتْهُ آثَارًا بِهَا مِنْ ضَرْبِهِ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَنَا وَلَا هُوَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى ثابت بن قيس فَقَالَ: ((مَا لَكَ وَلِأَهْلِكَ؟)) فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهَا غَيْرَكَ، فَقَالَ لَهَا: ((مَا تَقُولِينَ؟)) فَكَرِهَتْ أَنْ تَكْذِبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ سَأَلَهَا، فَقَالَتْ: صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَكِنْ قَدْ خَشِيتُ أَنْ يُهْلِكَنِي، فَأَخْرِجْنِي مِنْهُ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كُنْتُ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْكَ خلافه فهو من أكرم الناس حبا لِزَوْجَتِهِ، وَلَكِنِّي أَبْغَضُهُ، فَلَا أَنَا ولا هو، قال ثابت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أعطيتها حديقة فقل لها فَلْتَرُدَّهَا عَلَيَّ وَأُخَلِّي سَبِيلَهَا، فَقَالَ لَهَا: ((تَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ وَتَمْلِكِينَ أَمْرَكِ؟)) قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَا ثَابِتُ خُذْ مِنْهَا مَا أَعْطَيْتَهَا، وَخَلِّ سَبِيلَهَا))، فَفَعَلَ[١].

١- أخرجه الطبري ٤٨١٥ عن ابن جريج مرسلا باختصار.

- وأصله عند أبي داود ٢٢٢٧ والنسائي (٦/ ١٦٩) ومالك (٢/ ٥٦٤) والشافعي (٢/ ٥٠- ٥١) وأحمد (٦/ ٤٣٣- ٤٣٤) وابن حبان ٤٢٨٠ وابن الجارود ٧٤٩ والبيهقي (٧/ ٣١٢- ٣١٣) من طريق مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصارية أنها كَانَتْ تَحْتَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بن شماس ... وهذا إسناد صحيح.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بن إسماعيل أنا أزهر بْنُ جَمِيلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ أَنَا خَالِدٌ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:

أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ))؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ((اقْبَلِ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً))[١].

قال القرطبي: {وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً} {أن} في موضع رفع بـ{يحلُّ}. والآية خطاب للأزواج، نهوا أن يأخذوا من أزواجهم شيئًا على وجه المضارَّة، وهذا هو الخلع الذي لا يصح إلَّا بألَّا ينفرد الرجل بالضرر، وخصَّ بالذكر ما آتى الأزواج نساءهم، لأن العرف بين الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج من يده لها صداقًا وجهازًا، فلذلك خصَّ بالذكر. وقد قيل: إن قوله: {ولا يحلُّ} فصل معترض بين قوله تعالى: {الطَّلاقُ مَرَّتَانِ} وبين قوله: {فَإِنْ طَلَّقَهَا}.

{ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ}: حرَّم الله تعالى في هذه الآية ألَّا يأخذ إلَّا بعد الخوف ألَّا يقيما حدود الله، وأكَّد التحريم بالوعيد لمن تعدَّى الحد. والمعنى أن يظن كل واحد منهما بنفسه ألَّا يقيم حق النكاح لصاحبه حسب ما يجب عليه فيه لكراهة يعتقدها، فلا حرج على المرأة أن تفتدي، ولا حرج على الزوج أن يأخذ. والخطاب للزوجين. والضمير في {أن يخافا} لهما، و{ألَّا يقيما} مفعول به. و(خفت) يتعدَّى إلى مفعول واحد. ثم قيل: هذا الخوف هو بمعنى العلم، أي أن يعلما ألَّا يقيما حدود الله، وهو من الخوف الحقيقي، وهو الإشفاق من وقوع المكروه، وهو قريب من معنى الظن. ثم قيل: {إلَّا أن يخافا} استثناء منقطع، أي لكن إن كان منهن نشوز فلا جناح عليكم في أخذ الفدية. وقرأ حمزة (إلَّا أن يُخافا) بضم الياء على ما لم يسمَّ فاعله، والفاعل محذوف وهو الولاة والحكام، واختاره أبو عبيد. قال: لقوله عز وجل: {فَإِنْ خِفْتُمْ} قال: فجعل الخوف لغير الزوجين، ولو أراد الزوجين لقال: فإن خافا، وفي هذا حجة لمن جعل الخلع إلى السلطان.

قلت: وهو قول سعيد بن جبير والحسن وابن سيرين. وقال شعبة: قلت لقتادة: عمن أخذ الحسن الخلع إلى السلطان؟ قال: عن زياد، وكان واليًا لعمر وعلي. قال النحاس: وهذا معروف عن زياد، ولا معنى لهذا القول لأن الرجل إذا خالع امرأته فإنما هو على ما يتراضيان به، ولا يجبره السلطان على ذلك، ولا معنى لقول من قال: هذا إلى السلطان. وقد أنكر

١- إسناده صحيح على شرط البخاري. عبد الوهّاب هو ابن عبد المجيد. خالد هو ابن مهران الحذّاء البصري، وعكرمة هو أبو عبد الله مولى ابن عباس. وهو في شرح السنة (٢٦١) وأخرجه البخاري ٥٢٧٣ بهذا الإسناد.

وأخرجه البخاري ٥٢٧٤ و٥٢٧٥ و٥٢٧٦ والنسائي (٦/ ١٦٩)، والبيهقي (٧/ ٣١٣) من طرق عن عكرمة به. [.....]

اختياره أبي عبيد ورد؛ وما علمت في اختياره شيئًا أبعد من هذا الحرف، لأنه لا يوجبه الإعراب ولا اللفظ ولا المعنى؛ أمَّا الإعراب فإن عبدالله بن مسعود قرأ {إلَّا أن يخافا}، تخافوا، فهذا في العربية إذا رُدَّ إلى ما لم يسمَّ فاعله قيل: إلَّا أن يخاف. وأما اللفظ فإن كان على لفظ {يخافا} وجب أن يقال: فإن خيف. وإن كان على لفظ {فإن خفتم} وجب أن يقال: (إلَّا أن تخافوا). وأما المعنى فإنه يبعد أن يقال: (لا يحلُّ لكم أن تأخذوا ممَّا آتيتموهن شيئًا، إلَّا أن يخاف غيركم)، ولم يقل جل وعز: (فلا جناح عليكم أن تأخذوا له منها فدية)، فيكون الخلع إلى السلطان. قال الطحاوي: وقد صحَّ عن عمر وعثمان وابن عمر جوازه دون السلطان، وكما جاز الطلاق والنكاح دون السلطان فكذلك الخلع، وهو قول الجمهور من العلماء.

قوله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا}: أي على أن لا يقيما. {حُدُودُ اللَّهِ}: أي فيما يجب عليهما من حسن الصحبة وجميل العشرة. والمخاطبة للحكام والمتوسطين لمثل هذا الأمر وإن لم يكن حاكمًا. وترك إقامة حدود الله هو استخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعتها إيَّاه، قاله ابن عباس ومالك بن أنس وجمهور الفقهاء. وقال الحسن بن أبي الحسن وقوم معه: إذا قالت المرأة لا أطيع لك أمرًا، ولا أغتسل لك من جنابة، ولا أَبِرُّ لك قَسَمًا، حلَّ الخلع. وقال الشعبي: {أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ}: ألَّا يطيعا الله، وذلك أن المغاضبة تدعو إلى ترك الطاعة. وقال عطاء بن أبي رباح: يحل الخلع والأخذ أن تقول المرأة لزوجها: إني أكرهك ولا أحبك، ونحو هذا: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ}.

روى البخاري من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكن لا أطيقه! فقال رسول الله ﷺ: ((أتردِّين عليه حديقته؟)) قالت: نعم[١]. وأخرجه ابن ماجة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعيب على ثابت في دين ولا خلق ولكني أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضًا! فقال لها النبي ﷺ: ((أتردين عليه حديقته؟)) قالت: نعم. فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد[٢]. فيقال: إنها كانت تبغضه أشدّ البغض، وكان يحبها أشدّ الحب، ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما بطريق الخلع، فكان أول خلع في الإسلام. روى عكرمة عن ابن عباس قال: أول من خالع في الإسلام أخت عبدالله بن أبي، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا يجتمع رأسي ورأسه أبدًا، إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة إذ هو أشدُّهم سوادًا وأقصرُهم قامة، وأقبحُهم وجهًا! فقال: ((أتردين عليه حديقته))؟ قالت: نعم، وإن شاء زدته، ففرَّق بينهما. وهذا الحديث أصل في الخلع، وعليه جمهور الفقهاء. قال مالك: لم أزل أسمع ذلك من أهل العلم، وهو الأمر المجتمع عليه عندنا، وهو أن الرجل إذا لم يضر بالمرأة ولم يسيء إليها، ولم تؤت من

١- (قلت): البخاري (٥٢٧٣).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٥٦).

قبله، وأحبت فراقه فإنه يحلُّ له أن يأخذ منها كل ما افتدت به، كما فعل النبي ﷺ في امرأة ثابت بن قيس وإن كان النشوز من قبله بأن يضيِّق عليها ويضرُّها ردَّ عليها ما أخذ منها.

تمسَّك بهذه الآية من رأى اختصاص الخلع بحالة الشقاق والضرر، وأنه شرط في الخلع، وعضد هذا بما رواه أبو داود عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت عند ثابت بن قيس بن شماس فضربها فكسر نغضها، فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكت إليه، فدعا النبي ﷺ ثابتًا فقال: ((خذ بعض مالها وفارقها)). قال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: ((نعم)). قال: فإني أصدقتها حديقتين وهما بيدها، فقال النبي ﷺ: ((خذهما وفارقها)) فأخذهما وفارقها([1]). والذي عليه الجمهور من الفقهاء أنه يجوز الخلع من غير اشتكاء ضرر، كما دلَّ عليه حديث البخاري وغيره. وأمَّا الآية فلا حجة فيها، لأن الله عز وجل لم يذكرها على جهة الشرط، وإنما ذكرها لأنه الغالب من أحوال الخلع، فخرج القول على الغالب، والذي يقطع العذر ويوجب العلم قوله تعالى: { وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئاً}[النساء: ٤].

لما قال الله تعالى: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} دلَّ على جواز الخلع بأكثرها مما أعطاها. وقد اختلف العلماء في هذا، فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وأبو ثور: يجوز أن تفتدى منه بما تراضيا عليه، كان أقلَّ مما أعطاها أو أكثرُ منه. وروي هذا عن عثمان بن عفان وابن عمر وقبيصة والنخعي. واحتج قبيصة بقوله: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ}. وقال مالك: ليس من مكارم الأخلاق، ولم أرَ أحدًا من أهل العلم يكره ذلك.

وقالت طائفة: لا يأخذ منها أكثر مما أعطاها، كذلك قال طاوس وعطاء والأوزاعي، قال الأوزاعي: كان القضاة لا يجيزون أن يأخذ إلَّا ما ساق إليها، وبه قال أحمد وإسحاق. واحتجوا بما رواه ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أن ثابت بن قيس بن شماس كانت عنده زينب بنت عبدالله بن أبي بن سلول، وكان أصدقها حديقة فكرته، فقال النبي ﷺ: ((أما الزيادة فلا ولكن حديقته))، فقالت: نعم. فأخذها له وخلى سبيلها، فلما بلغ ذلك ثابت بن قيس قال: قد قبلت قضاء رسول الله ﷺ، سمعه أبو الزبير من غير واحد([2])، أخرجه الدار قطني. واختلف العلماء في الخلع هل هو طلاق أو فسخ:

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٢ص٢٨٩: هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا نِزَاعٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، فَظَاهِرُ مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَأَصْحَابِهِ أَنَّهُ فُرْقَةٌ بَائِنَةٌ وَفَسْخٌ لِلنِّكَاحِ، وَلَيْسَ مِنْ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ. فَلَوْ خَلَعَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ لَهُ أَنْ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٩٣٠)، بلفظ: ((ففعل)) بدلاً من ((فأخذهما وفارقها)).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في الإرواء ج٧ص١٠٤: وقال البيهقي: وهذا أيضًا مرسل.

وقال الحافظ في الفتح (٣٥٣/٩): ورجال إسناده ثقات، وقد وقع في بعض طرقه: سمعه أبو الزبير من غير واحد. فإن كان فيهم صحابي، فهو صحيح، وإلَّا فيعتضد بما سبق. يعنى حديث ابن عباس عند ابن ماجه، ومرسل عطاء: ((أن امرأة أتت النبى ﷺ تشكو زوجها، فقال: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، وزيادة، قال: ((أما الزيادة فلا)) أخرجه البيهقي وقال: (وقد رواه الوليد بن مسلم عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس به نحوه).

يَتزَوَّجهَا بِعَقْدِ جدِيدٍ قَبْلَ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْ الشَّافِعِيِّ. وَاخْتَارَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَنَصَرُوهُ، وَطَائِفَةٌ نَصَرُوهُ وَلَمْ يَخْتَارُوهُ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ: كَإِسْحَاقِ بْنِ رَاهَوَيْه، وَأَبِي ثَوْرٍ، وداوُد، وَابْنِ الْمُنْذِرِ، وَابْنِ خُزَيْمَة. وَهُوَ ثَابِتٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابِهِ: كطاوس، وَعِكْرِمَةَ.

والْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ طَلَاقٌ بَائِنٌ مَحْسُوبٌ مِنْ الثَّلَاثِ. وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ السَّلَفِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ فِي قَوْلِهِ الْآخَرِ؛ وَيُقَالُ: إنَّهُ الْجَدِيدُ، وَهُوَ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْ أَحْمَدَ. وَيُنْقَلُ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، لَكِنْ ضَعَّفَ أَحْمَدَ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ: كَابْنِ الْمُنْذِرِ، وَابْنِ خُزَيْمَة، وَالْبَيْهَقِي وَغَيْرِهِمْ: النَّقْلَ عَنْ هَؤُلَاءِ، وَلَمْ يُصَحِّحُوا إلَّا قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ، إنَّهُ فَسْخٌ: وَلَيْس بِطَلَاقِ. وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ فَقَالَ لَا نَعْرِفُ حَالَ مَنْ رَوَى هَذَا عَنْ عُثْمَانَ: هَلْ هُوَ ثِقَةٌ أَمْ لَيْسَ بِثِقَةٍ؟ فَمَا صَحَّحُوا مَا نُقِلَ عَنْ الصَّحَابَةِ، بَلْ اعْتَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ.

وَمَا عَلِمْت أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالنَّقْلِ صَحَّحَ مَا نقِلَ عَنْ الصَّحَابَةِ مِنْ أَنَّهُ طَلَاقٌ بَائِنٌ مَحْسُوبٌ مِنْ الثَّلَاثِ، بَلْ أَثْبَتُ مَا فِي هَذَا عِنْدَهُمْ مَا نُقِلَ عَنْ عُثْمَانَ، وَقَدْ نُقِلَ عَنْ عُثْمَانَ بِالْإِسْنَادِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ أَمَرَ الْمُخْتَلَعَةَ أَنْ تَسْتَبْرِئَ بِحَيْضَةِ. وَقَالَ: لَا عَلَيْك عِدَّةٌ. وَهَذَا يُوجِبُ أَنَّهُ عِنْدَهُ فُرْقَةٌ بَائِنَةٌ، وَلَيْس بِطَلَاقٍ؛ إذْ الطَّلَاقُ بَعْدَ الدُّخولِ يُوجِبُ الِاعْتِدَادَ بِثَلَاثِ قُرُوءٍ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، بِخِلَافِ الْخُلْعِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ أَنَّ الْعِدَّةَ فِيهَا اسْتِبْرَاءٌ بِحَيْضَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ إسْحَاقَ، وَابْنِ الْمُنْذِرِ، وَغَيْرِهِمَا، وَإِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ.

وَقَدْ رَدَّ ابْنُ عَبَّاسٍ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا بَعْدَ طَلْقَتَيْنِ وَخَلعَ مَرَّةً قَبْلَ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَسَأَلَهُ إبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ لَمَّا وَلَّاهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى الْيَمَنِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَقَالَ لَهُ: إنَّ عَامَّةَ طَلَاقِ أَهْلِ الْيَمَنِ هُوَ الْفِدَاءُ؟ فَأَجَابَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ بِأَنَّ الْفِدَاءَ لَيْسَ بِطَلَاقِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ غَلِطُوا فِي اسْمِهِ. واسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – الْفِدْيَةَ بَعْدَ الطَّلَاقِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} وَهَذَا يَدْخُلُ فِي الْفِدْيَةِ خُصُوصًا وَغَيْرِهَا عُمُومًا، فَلَوْ كَانَتْ الْفِدْيَةُ طَلَاقًا، لَكَانَ الطَّلَاقُ أَرْبَعًا. وَأَحْمَدُ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ هُوَ وَمَنْ تَقَدَّمَ اتَّبَعُوا ابْنَ عَبَّاسٍ.

وَاخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي الْمُخْتَلَعَةِ: هَلْ عَلَيْهَا عِدَّةُ ثَلَاثَةِ قُرُوءٍ؟ أَوْ تُسْتَبْرَأُ بِحَيْضَةٍ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ إحْدَاهُمَا: تَسْتَبْرِئُ بِحَيْضَةٍ، وَهَذَا قَوْلُ عُثْمَانَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُمَرَ، فِي آخِرِ رِوَايَتَيْهِ وَهُوَ قَوْلُ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ، وَمَذْهَبُ إسْحَاقَ، وَابْنِ الْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمَا، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي السُّنَنِ مِنْ وُجُوهٍ حَسَنَةٍ، كَمَا قَدْ بُيِّنَتْ طُرُقُهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَهَذَا مِمَّا احْتَجَّ بِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ، وَقَالُوا لَوْ كَانَ مِنْهُ لَوَجَبَ فِيهِ تَرَبُّصُ ثَلَاثَةِ قُرُوءٍ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَاحْتَجُّوا بِهِ عَلَى ضَعْفِ مَنْ نَقَلَ عَنْ عُثْمَانَ، أَنَّهُ جَعَلَهَا طَلْقَةً بَائِنَةً؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ بِالْإِسْنَادِ الْمَرْضِيِّ أَنَّهُ جَعَلَهَا تَسْتَبْرِئُ بِحَيْضَةِ، وَلَوْ كَانَتْ مُطَلَّقَةً لَوَجَبَ عَلَيْهَا تَرَبُّصُ ثَلَاثَةِ قُرُوءٍ. وَإِنْ قِيلَ: بَلْ عُثْمَانُ جَعَلَهَا مُطَلَّقَةً تَسْتَبْرِئُ بِحَيْضَةِ. فَهَذَا لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ، فَاتِّبَاعُ عُثْمَانَ فِي الرِّوَايَةِ الثَّابِتَةِ عَنْهُ الَّتِي يُوَافِقُهُ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ، وَيَدُلُّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ: أَوْلَى مِنْ رِوَايَةٍ رَاوِيهَا مَجْهُولٌ وَهِيَ رِوَايَةُ جمهان الأسلمي عَنْهُ أَنَّهُ جَعَلَهَا طَلْقَةً بَائِنَةً. وَأَجْوَدُ مَا عِنْدَ مَنْ جَعَلَهَا طَلْقَةً بَائِنَةً مِنْ النَّقْلِ عَنْ الصَّحَابَةِ هُوَ هَذَا النَّقْلُ عَنْ عُثْمَانَ، وَهُوَ مَعَ ضَعْفِهِ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ بِالْإِسْنَادِ الصَّحِيحِ مَا يُنَاقِضُهُ، فَلَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ خِلَافِ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ.

وَأَمَّا النَّقْلُ عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ فَضَعِيفٌ جِدًّا، وَالنَّقْلُ عَنْ عُمَرَ مُجْمَلٌ لَا دَلَالَةَ فِيهِ، وَأَمَّا النَّقْلُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ فُرْقَةٌ وَلَيْسَ بِطَلَاقٍ. فَمِنْ أَصَحِّ النَّقْلِ الثَّابِتِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْآثَارِ، وَهَذَا مِمَّا اعْتَضَدَ بِهِ الْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ فَسْخٌ: كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ. وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا نُقِلَ عَنْ الصَّحَابَةِ مِنْ أَنَّهُ طَلْقَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ ظَنُّوا تِلْكَ نُقُولًا صَحِيحَةً؛ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْ نَقْدِ الْآثَارِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ صَحِيحِهَا وَضَعِيفِهَا مَا عِنْدَ أَحْمَدَ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ، فَصَارَ هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّ الَّذِينَ خَالَفُوا ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَمْثَالَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ أَجَلُّ مِنْهُ وَأَكْثَرُ عَدَدًا، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ خِلَافُهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ(١))), وَكَانَ مَا اسْتَنْبَطَهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ الْقُرْآنِ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ مِنْ السُّنَّةِ عَنْ كَمَالِ فِقْهِهِ فِي الدِّينِ وَعِلْمِهِ بِالتَّأْوِيلِ، وَهُوَ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ فُتْيَا. قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: أَيُّ الصَّحَابَةِ أَكْثَرُ فُتْيَا؟ قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ. وَهُوَ أَعْلَمُ وَأَفْقَهُ طَبَقَةً فِي الصَّحَابَةِ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُدْخِلُهُ مَعَ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ –كَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَنَحْوِهِمْ – فِي الشُّورَى وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ يَفْعَلُ هَذِهِ بِغَيْرِهِ مِنْ طَبَقَتِهِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ لَوْ أَدْرَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ إسناننا لَمَا عَشَّرَهُ مِنَّا أَحَدٌ. أَيْ مَا بَلَغَ عُشْرَهُ.

وَالنَّاقِلُونَ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ أَجَلُّ أَصْحَابِهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَقْوَالِهِ: مِثْلَ طَاوُوسٍ، وَعِكْرِمَةَ؛ فَإِنَّ هَذَيْنِ كَانَا يَدْخُلَانِ عَلَيْهِ مَعَ الْخَاصَّةِ، بِخِلَافِ عَطَاءٍ، وَعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ وَنَحْوِهِمَا، فَقَدْ كَانُوا يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ مَعَ الْعَامَّةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ خَوَاصَّ الْعَالِمِ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِهِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، كَمَا عِنْدَ خَوَاصِّ الصَّحَابَةِ – مِثْلَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْأَرْبَعَةِ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَائِشَةَ، وأبي بْنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ – مِنْ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ مَنْ لَيْسَ لَهُ مِثْلُهُمْ مِنْ الِاخْتِصَاصِ بِالنَّبِيِّ ﷺ.

وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا: أَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ خَالَفَهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَثِيرٌ مِنْ الصَّحَابَةِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عَنْ الصَّحَابَةِ إلَّا مَا يُوَافِقُ قَوْلَهُ، لَا مَا يُنَاقِضُهُ. وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ خَالَفَهُ فَالْمَرْجِعُ فِيمَا تَنَازَعُوا فِيهِ إلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

١- البخاري في الوضوء (١٤٣) ومسلم في فضائل الصحابة (١٣٨/٣٤٧٧).

قَالَ هَؤُلَاءِ: وَالطَّلَاقُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ ثَلَاثًا هُوَ الطَّلَاقُ الرَّجْعِيُّ، وَكُلُّ طَلَاقٍ فِي الْقُرْآنِ فِي الْمَدْخُولِ بِهَا هُوَ الطَّلَاقُ الرَّجْعِيُّ غَيْرَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ: تَدَبَّرْت الْقُرْآنَ، فَإِذَا كُلُّ طَلَاقٍ فِيهِ فَهُوَ الرَّجْعِيُّ. قَالَ هَؤُلَاءِ: فَمَنْ قَسَّمَ الطَّلَاقَ الْمَحْسُوبَ مِنْ الثَّلَاثِ، إلَى رَجْعِيٍّ وَبَائِنٍ فَقَدْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، بَلْ كُلُّ مَا فِيهِ بَيْنُونَةٌ فَلَيْسَ مِنْ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ، فَإِذَا سُمِّيَ طَلَاقًا بَائِنًا وَلَمْ يُجْعَلْ مِنْ الثَّلَاثِ، فَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ لَا تَنَازُعَ فِيهِ قَالُوا: وَلَوْ كَانَ الْخُلْعُ طَلَاقًا لَمَا جَازَ فِي الْحَيْضِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ طَلَاقَ الْحَائِضِ، وَقَدْ سَلَّمَ لَنَا الْمُنَازِعُونَ أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُ يَجُوزُ فِي الْحَيْضِ، وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ دَاعِيَةٌ إلَيْهِ فِي الْحَيْضِ، قَالُوا: وَاَللَّهُ – تَعَالَى – إنَّمَا حَرَّمَ الْمَرْأَةَ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ عُقُوبَةً لِلرَّجُلِ لِئَلَّا يُطَلِّقَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ؛ فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي الطَّلَاقِ الْحَظْرُ، وَإِنَّمَا أُبِيحَ مِنْهُ قَدْرُ الْحَاجَةِ، وَالْحَاجَةُ تَنْدَفِعُ بِثَلَاثِ مَرَّاتٍ؛ وَلِهَذَا أُبِيحَتْ الْهِجْرَةُ ثَلَاثًا، وَالْإِحْدَادُ لِغَيْرِ مَوْتِ الزَّوْجِ ثَلَاثًا، وَمُقَامُ الْمُهَاجِرِ بِمَكَّةَ بَعْدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ ثَلَاثًا. وَالْأَصْلُ فِي الْهِجْرَةِ وَمُقَامُ الْمُهَاجِرِ بِمَكَّةَ التَّحْرِيمُ. ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ. هَلْ مِنْ شَرْطِ كَوْنِهِ فَسْخًا أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ لَفْظِ الطَّلَاقِ وَنِيَّتِهِ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ لَفْظِ الطَّلَاقِ وَنِيَّتِهِ. فَمَنْ خَالَعَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ أَوْ نَوَاهُ، فَهُوَ مِنْ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، ثُمَّ قَدْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ: إذَا عَرِيَ عَنْ صَرِيحِ الطَّلَاقِ وَنِيَّتِهِ فَهُوَ فَسْخٌ. وَقَدْ يَقُولُونَ: إنَّهُ لَا يَكُونُ فَسْخًا إلَّا إذَا كَانَ بِلَفْظِ الْخُلْعِ. وَالْفَسْخِ وَالْمُفَادَاةِ دُونَ سَائِرِ الْأَلْفَاظِ، كَلَفْظِ الْفِرَاقِ، وَالسَّرَاحِ، وَالْإِبَانَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا يُفَارِقُ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إلَّا بِهَا، مَعَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَمْ يُسَمِّهِ إلَّا فِدْيَةً وَفِرَاقًا وَخُلْعًا، وَقَالَ: الْخُلْعُ فِرَاقٌ، وَلَيْسَ بِطَلَاقٍ. وَلَمْ يُسَمِّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ فَسْخًا، وَلَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَسْمِيَتُهُ فَسْخًا، فَكَيْفَ يَكُونُ لَفْظُ الْفَسْخِ صَرِيحًا فِيهِ دُونَ لَفْظِ الْفِرَاقِ؟! وَكَذَلِكَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَكْثَرُ مَا يُسَمِّيهِ " فُرْقَةً " لَيْسَتْ بِطَلَاقٍ. وَقَدْ يُسَمِّيهِ فَسْخًا أَحْيَانًا؛ لِظُهُورِ هَذَا الِاسْمِ فِي عُرْفِ الْمُتَأَخِّرِينَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ إذَا كَانَ بِغَيْرِ لَفْظِ الطَّلَاقِ كَلَفْظِ الْخُلْعِ وَالْمُفَادَاةِ وَالْفَسْخِ فَهُوَ فَسْخٌ، سَوَاءٌ نَوَى بِهِ الطَّلَاقَ أَوْ لَمْ يَنْوِ. وَهَذَا الْوَجْهُ ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: فَهَلْ هُوَ فَسْخٌ إذَا عَرِيَ عَنْ صَرِيحِ الطَّلَاقِ بِأَيِّ لَفْظٍ وَقَعَ مِنْ الْأَلْفَاظِ وَالْكِنَايَاتِ؟ أَوْ هُوَ مُخْتَصٌّ بِلَفْظِ الْخُلْعِ وَالْفَسْخِ وَالْمُفَادَاةِ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ، كَالْوَجْهَيْنِ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهُ بِأُصُولِهِمَا مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ؛ فَإِنَّ اللَّفْظَ إذَا كَانَ صَرِيحًا فِي بَابٍ وَوُجِدَ مُعَادًا فِيهِ لَمْ يَكُنْ كِنَايَةً فِي غَيْرِهِ، وَلِهَذَا لَوْ نَوَى بِلَفْظِ الظِّهَارِ الطَّلَاقَ لَمْ يَقَعْ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَى هَذَا دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. وَكَذَلِكَ عِنْدَ أَحْمَدَ: لَوْ نَوَى بِلَفْظِ الْحَرَامِ الطَّلَاقَ لَمْ يَقَعْ؛ لِأَنَّهُ صَرِيحٌ فِي الظِّهَارِ، لاسيما عَلَى أَصْلِ أَحْمَدَ. وَأَلْفَاظُ الْخُلْعِ وَالْفَسْخِ وَالْفِدْيَةِ مَعَ الْعِوَضِ صَرِيحَةٌ فِي الْخُلْعِ فَلَا تَكُونُ كِنَايَةً فِي الطَّلَاقِ، فَلَا يَقَعُ بِهَا الطَّلَاقُ بِحَالٍ، وَلِأَنَّ لَفْظَ الْخُلْعِ وَالْمُفَادَاةِ وَالْفَسْخِ وَالْعِوَضِ إمَّا أَنْ تَكُونَ صَرِيحَةً فِي الْخُلْعِ، وَصَرِيحَةً فِي الطَّلَاقِ، أَوْ كِنَايَةً فِيهِمَا، فَإِنْ قِيلَ بِالْأَوَّلِ – وَهُوَ الصَّحِيحُ – لَمْ يَقَعْ بِهَا الطَّلَاقُ

وَإِنْ نَوَاهُ. وَإِنْ قِيلَ بِالثَّانِي: لَزِمَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ الْخُلْعِ وَالْفَسْخِ وَالْمُفَادَاةِ مِنْ صَرِيحِ الطَّلَاقِ، فَيَقَعُ بِهَا الطَّلَاقُ، كَمَا يَقَعُ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ عِنْدَ التَّجَرُّدِ، وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ، وَلَمْ يَعُدَّهَا أَحَدٌ مِنَ الصَّرَائِحِ. فَإِنْ قِيلَ: هِيَ مَعَ الْعِوَضِ صَرِيحَةٌ فِي الطَّلَاقِ، قِيلَ: هَذَا بَاطِلٌ عَلَى أَصْلِ الشَّافِعِيِّ؛ فَإِنَّ مَا لَيْسَ بِصَرِيحٍ عِنْدَهُ لَا يَصِيرُ صَرِيحًا بِدُخُولِ الْعِوَضِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ: إِنَّ النِّكَاحَ لَا يَنْعَقِدُ بِغَيْرِ لَفْظِ الْإِنْكَاحِ وَالتَّزْوِيجِ؛ لِأَنَّ مَا سِوَى ذَلِكَ كِنَايَةٌ وَالْكِنَايَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى النِّيَّةِ، وَالنِّيَّةُ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِإِشْهَادٍ عَلَيْهَا، وَالنِّكَاحُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الشَّهَادَةِ، فَإِذَا قَالَ: مَلَّكْتُكَهَا بِأَلْفٍ، وَأَعْطَيْتُكَهَا بِأَلْفٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، أَوْ وَهَبْتُكَهَا لَمْ يُجْعَلْ دُخُولُ الْعِوَضِ قَرِينَةً فِي كَوْنِهِ نِكَاحًا؛ لِاحْتِمَالِ تَمْلِيكِ الرَّقَبَةِ. كَذَلِكَ لَفْظُ الْمُفَادَاةِ يَحْتَمِلُ الْمُفَادَاةَ مِنَ الْأَسْرِ. وَلَفْظُ الْفَسْخِ إِنْ كَانَ طَلَاقًا مَعَ الْعِوَضِ فَهُوَ طَلَاقٌ بِدُونِ الْعِوَضِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ: إِنَّهُ صَرِيحٌ فِي الطَّلَاقِ بِدُونِ الْعِوَضِ، بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً. وَهَذَا الْقَوْلُ مَعَ كَوْنِهِ أَقْرَبَ مِنَ الْأَوَّلِ؛ فَهُوَ أَيْضًا ضَعِيفٌ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ فَسْخٌ بِأَيِّ لَفْظٍ وَقَعَ، وَلَيْسَ مِنَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ. وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ لَمْ يَشْتَرِطُوا لَفْظًا مُعَيَّنًا، وَلَا عَدَمَ نِيَّةِ الطَّلَاقِ؛ وَهَذَا هُوَ الْمَنْقُولُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابِهِ، وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَقُدَمَاءِ أَصْحَابِهِ فِي الخلوع بَيْنَ لَفْظٍ وَلَفْظٍ، لَا لَفْظَ الطَّلَاقِ وَلَا غَيْرِهِ، بَلْ أَلْفَاظُهُمْ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُ فُسِخَ بِأَيِّ لَفْظٍ كَانَ، أَصْرَحَ مِنْ لَفْظِ الطَّلَاقِ فِي مَعْنَاهُ الْخَالِصِ. وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَلَمْ يَقُلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ لَفْظِ الطَّلَاقِ وَغَيْرِهِ، بَلْ لَمَّا ذَكَرَ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَكَرَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: كُلّ ما أَجَازَهُ الْمَالُ فَلَيْسَ بِطَلَاقٍ. قَالَ: وَأَحْسَبُ مَنْ لَمْ يَجْعَلْهُ طَلَاقًا إِنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ.

وَمِنْ هُنَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ، والطَّحَاوِي وَنَحْوُهُمَا: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ نِزَاعًا فِي الْخُلْعِ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الظَّنِّ لَا يُنْقَلُ بِهِ مَذَاهِبُ السَّلَفِ، وَيُعْدَلُ بِهِ عَنْ أَلْفَاظِهِمْ وَعِلْمِهِمْ؛ وَأَدِلَّتِهِمْ الْبَيِّنَةِ فِي التَّسْوِيَةِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَلْفَاظِ؛ وَأَمَّا أَحْمَد فَكَلَامُهُ بَيِّنٌ فِي أَنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ لَفْظًا، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ لَفْظٍ وَلَفْظٍ، وَهُوَ مُتَّبِعٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَبِهِ اقْتَدَى. وَكَانَ أَحْمَد يَقُولُ: إِيَّاكَ أَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَك فِيهَا إمَامٌ. وَإِمَامُهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَنَقَلَهُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابِهِ. فَتَبَيَّنَ أَنَّ الِاعْتِبَارَ عِنْدَهُمْ بِبَذْلِ الْمَرْأَةِ الْعِوَضَ، وَطَلَبِهَا الْفُرْقَةَ. وَقَدْ كَتَبْت أَلْفَاظَهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ فِي الْكَلَامِ الْمَبْسُوطِ.

وَأَيْضًا: فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْن شَمَّاسٍ – وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَالَعَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، لَمَّا جَاءَتْ امْرَأَتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَتْ لَهُ: لَا أَنْقِمُ عَلَيْهِ خُلُقًا وَلَا دِينًا، وَلَكِنْ أَكْرَهُ الْكُفْرَ بَعْدُ فِي الْإِسْلَامِ، فَذَكَرَتْ أَنَّهَا تُبْغِضُهُ. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ الْحَدِيقَةَ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: اقْبَلْ الْحَدِيقَةَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً(١))).

١- البخاري في الطلاق (٥٢٧٣).

وَابْنُ عَبَّاسٍ الَّذِي يَرْوِي هَذَا اللَّفْظَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَوَى – أَيْضًا – ((عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَهَا بِحَيْضَةِ اسْتِبْرَاءٍ. وَقَالَ: لَا عِدَّةَ عَلَيْك[١])))، وَأَفْتَى بِأَنَّ طَلَاقَ أَهْلِ الْيَمَنِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ الْفِدَاءَ لَيْسَ مِنْ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ، مَعَ أَنَّ إبْرَاهِيمَ بْنَ سَعْدٍ قَالَ لَهُ: عَامَّةُ طَلَاقِ أَهْلِ الْيَمَنِ الْفِدَاءُ، فَقَالَ لَهُ: لَيْسَ الْفِدَاءُ بِطَلَاقِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِرَاقٌ، وَلَكِنَّ النَّاسَ غَلِطُوا فِي اسْمِهِ. فَأَخْبَرَهُ السَّائِلُ أَنَّ طَلَاقَهُمْ هُوَ الْفِدَاءُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ، وَأَدْنَى أَحْوَالِهِ أَنْ يَعُمَّ لَفْظُ الطَّلَاقِ وَغَيْرِهِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ أَطْلَقَ الْجَوَابَ وَعَمَّمَ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ الْفِدَاءَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ وَلَا عَيَّنَ لَهُ لَفْظًا، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ وُقُوعَ ذَلِكَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ أَكْثَرُ مِنْهُ بِغَيْرِهِ، بَلْ الْعَامَّةُ لَا تَعْرِفُ لَفْظَ الْفَسْخِ وَالْخُلْعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إنْ لَمْ يُعَلِّمْهَا ذَلِكَ مُعَلِّمٌ، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ لَفْظٍ وَلَفْظٍ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إذَا قِيلَ لَهُ: خَالِعْ امْرَأَتَك، طَلَّقَهَا بِلَا عِوَضٍ، وَقَالَ: قَدْ خَلَعْتهَا. فَلَا يَعْرِفُونَ الْفَرْقَ بَيْنَ لَفْظٍ وَلَفْظٍ إنْ لَمْ يُذْكَرْ لَهُمْ الْغَرَضُ فِي أَحَدِ اللَّفْظَيْنِ. وَأَهْلُ الْيَمَنِ إلَى الْيَوْمِ تَقُولُ الْمَرْأَةُ لِزَوْجِهَا: طَلِّقْنِي. فَيَقُولُ لَهَا: أَبْذِلِي لِي فَتَبْذُلُ لَهُ الصَّدَاقَ أَوْ غَيْرَهُ فَيُطَلِّقُهَا. فَهَذَا عَامَّةُ طَلَاقِهِمْ، وَقَدْ أَفْتَاهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ بِأَنَّ هَذَا فِدْيَةٌ وَفِرَاقٌ وَلَيْسَ بِطَلَاقِ. وَرَدَّ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا بَعْدَ طَلْقَتَيْنِ وَفِدَاءٍ مَرَّةً. فَهَذَا نَقْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَفُتْيَاهُ وَاسْتِدْلَالُهُ بِالْقُرْآنِ بِمَا يُوَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ مُقْتَضَى نُصُوصِ أَحْمَد وَأُصُولُهُ فَهُوَ مُقْتَضَى أُصُولِ الشَّرْعِ، وَنُصُوصِ الشَّارِعِ؛ فَإِنَّ الِاعْتِبَارَ فِي الْعُقُودِ بِمَقَاصِدِهَا وَمَعَانِيهَا، لَا بِأَلْفَاظِهَا. فَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِاللَّفْظَيْنِ وَاحِدًا لَمْ يَجُزْ اخْتِلَافُ حُكْمِهِمَا. وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ إنْ شَاءَ الْعَبْدُ جَعَلَهُ طَلَاقًا وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَجْعَلْهُ طَلَاقًا كَانَ تَلَاعُبًا وَهَذَا بَاطِلٌ.

وَقَدْ أَوْرَدُوا عَلَى هَذَا أَنَّ الْمُعْتَقَةَ تَحْتَهُ إذَا خَيَّرَهَا زَوْجُهَا فَإِنَّ لَهَا أَنْ تُطَلِّقَ نَفْسَهَا، وَلَهَا أَنْ تَفْسَخَ النِّكَاحَ لِأَجْلِ عِتْقِهَا. قَالُوا: فَهِيَ مُخَيَّرَةٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَكَذَلِكَ الزَّوْجُ مَعَ الْعِوَضِ يَمْلِكُ إيقَاعَ فَسْخٍ، وَيَمْلِكُ إيقَاعَ طَلَاقٍ. وَهَذَا الْقِيَاسُ ضَعِيفٌ، فَإِنَّ هَذِهِ إذَا طَلَّقَتْ نَفْسَهَا إنَّمَا يَقَعُ الطَّلَاقُ رَجْعِيًّا، فَتَكُونُ مُخَيَّرَةً بَيْنَ إيقَاعِ فُرْقَةٍ بَائِنَةٍ، وَبَيْنَ إيقَاعِ طَلَاقٍ رَجْعِيٍّ. وَهَذَا مُسْتَقِيمٌ، كَمَا يُخَيَّرُ الزَّوْجُ بَيْنَ أَنْ يَخْلَعَهَا مُفَارَقَةً فُرْقَةً بَائِنَةً، وَبَيْنَ أَنْ يُطَلِّقَهَا بِلَا عِوَضٍ طَلَاقًا رَجْعِيًّا، وَإِنَّمَا الْمُخَالِفُ لِلْأُصُولِ أَنْ يَمْلِكَ فُرْقَةً بَائِنَةً إنْ شَاءَ جَعَلَهَا فَسْخًا، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَهَا طَلَاقًا، وَالْمَقْصُودُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْفُرْقَةُ الْبَائِنَةُ، وَالْأَمْرُ إلَيْهِ فِي جَعْلِهَا طَلَاقًا، أَوْ غَيْرَ طَلَاقٍ، فَهَذَا هُوَ الْمُنْكَرُ الَّذِي يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ إنْ شَاءَ جَعَلَ الْعَقْدَ الْوَاحِدَ طَلَاقًا، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَهُ غَيْرَ طَلَاقٍ، مَعَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدٌ.

وَأَيْضًا: فَالَّذِي يَرْجِعُ إلَى الْعَبْدِ هُوَ قَصْدُ الْأَفْعَالِ وَغَايَتُهَا، وَأَمَّا الْأَحْكَامُ فَإِلَى الشَّارِعِ. فَالشَّارِعُ يُفَرِّقُ بَيْنَ حُكْمِ هَذَا الْفِعْلِ وَحُكْمِ هَذَا الْفِعْلِ، لِاخْتِلَافِ الْمَقْصُودِ بِالْفِعْلَيْنِ. فَإِذَا كَانَ مَقْصُودُ الرَّجُلِ بِهَا وَاحِدًا لَمْ يَكُنْ مُخَيَّرًا فِي إثْبَاتِ الْحُكْمِ وَنَفْيِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَقْصُودَ الْفُرْقَةِ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ.

١- أبو داود في الطلاق (٢٢٢٩)، والترمذي في الطلاق (١١٨٥).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢٢٩).

وَأَيْضًا: فَمَعْنَى الِافْتِدَاءِ ثَابِتٌ فِيمَا إذَا سَأَلَتْهُ أَنْ يُفَارِقَهَا بِعِوَضٍ، وَاَللَّهُ عَلَّقَ حُكْمَ الْخُلْعِ بِمُسَمَّى الْفِدْيَةِ، فَحَيْثُ وُجِدَ هَذَا الْمَعْنَى فَهُوَ الْخُلْعُ الْمَذْكُورُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّجْعَةَ مِنْ لَوَازِمِ الطَّلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ تَعَالَى طَلَاقَ الْمَدْخُولِ بِهَا إلَّا وَأَثْبَتَ فِيهِ الرَّجْعَةَ، فَلَوْ كَانَ الِافْتِدَاءُ طَلَاقًا لَثَبَتَ فِيهِ الرَّجْعَةُ وَهَذَا يُزِيلُ مَعْنَى الِافْتِدَاءِ؛ إذْ هُوَ خِلَافُ الْإِجْمَاعِ، فَإِنَّا نَعْلَمُ مَنْ قَالَ: إنَّ الْخُلْعَ الْمُطْلَقَ يَمْلِكُ فِيهِ الْعِوَضَ وَيَسْتَحِقُّ فِيهِ الرَّجْعَةَ. لَكِنْ قَالَ طَائِفَةٌ هُوَ غَيْرُ لَازِمٍ، فَإِنْ شَاءَ رَدَّ الْعِوَضَ وَرَاجَعَهَا، وَتَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِيمَا إذَا شَرَطَ الرَّجْعَةَ فِي الْعِوَضِ: هَلْ يَصِحُّ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ مَالِكٍ. وَبُطْلَانُ الْجَمْعِ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ، وَهُوَ قَوْلُ مُتَأَخِّرِي أَصْحَابِ أَحْمَد. ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُوجِبُ الْعِوَضَ وَيَرُدُّ الرَّجْعَةَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ الرَّجْعَةَ وَيُبْطِلُ الْعِوَضَ. وَهُمَا وَجْهَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَالشَّافِعِيِّ، وَلَيْسَ عَنْ أَحْمَد فِي ذَلِكَ نَصٌّ. وَقِيَاسُ مَذْهَبِ أَحْمَد صِحَّتُهُ بِهَذَا الشَّرْطِ، كَمَا لَوْ بَذَلَتْ مَالًا عَلَى أَنْ تَمْلِكَ أَمْرَهَا. فَإِنَّهُ نَصَّ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ، وَلِأَنَّ الْأَصْلَ عِنْدَهُ جَوَازُ الشَّرْطِ فِي الْعُقُودِ، إلَّا أَنْ يَقُومَ عَلَى فَسَادِهَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، وَلَيْسَ الشَّرْطُ الْفَاسِدُ عِنْدَهُ مَا يُخَالِفُ مُقْتَضَى الْعَقْدِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، بَلْ مَا خَالَفَ مَقْصُودَ الشَّارِعِ وَنَاقَضَ حُكْمَهُ، كَاشْتِرَاطِ الْوَلَاءِ لِغَيْرِ الْمُعْتِقِ، وَاشْتِرَاطِ الْبَائِعِ لِلْوَطْءِ مَعَ أَنَّ الْمِلْكَ لِلْمُشْتَرِي، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا: فَالْفَرْقُ بَيْنَ لَفْظٍ وَلَفْظٍ فِي الْخُلْعِ قَوْلٌ مُحْدَثٌ لَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ: لَا الصَّحَابَةِ، وَلَا التَّابِعِينَ، وَلَا تَابِعِيهِمْ. وَالشَّافِعِيُّ – رضي الله عنه – لَمْ يَنْقُلْهُ عَنْ أَحَدٍ، بَلْ ذَكَرَ: أَنَّهُ يَحْسَبُ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُفَرِّقُونَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَيْسَ نَقْلًا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ. وَالشَّافِعِيُّ ذَكَرَ هَذَا فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ. وَرَجَّحَ فِيهِ أَنَّ الْخُلْعَ طَلَاقٌ وَلَيْسَ بِفَسْخٍ، فَلَمْ يُجِزْ هَذَا الْقَوْلَ لِمَا ظَنَّهُ مِنْ تَنَاقُضِ أَصْحَابِهِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَهُ بِلَفْظِ طَلَاقًا بَائِنًا مِنْ الثَّلَاثِ، وَبِلَفْظِ لَيْسَ مِنْ الثَّلَاثِ، فَلِمَا ظَنَّهُ مِنْ تَنَاقُضِهِ عَدَلَ عَنْ تَرْجِيحِهِ. وَلَكِنَّ هَذَا التَّنَاقُضَ لَمْ يَنْقُلْهُ: لَا هُوَ، وَلَا أَحَدٌ غَيْرُهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ الْقَائِلِينَ بِهِ وَلَا مَنْ اتَّبَعَهُ. كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَقُدَمَاءِ أَصْحَابِهِ، وَإِنَّمَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد، لَمَّا وَجَدُوا غَيْرَهُمْ قَدْ ذَكَرُوا الْفَرْقَ فِيهِ بَيْنَ لَفْظِ الطَّلَاقِ وَغَيْرِهِ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَمُحَمَّدِ بْنِ نَصْرٍ والطَّحَاوِي: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فِي ذَلِكَ نِزَاعًا، وَإِنَّمَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد، وَالْمَنْقُولُ عَنْ السَّلَفِ قَاطِبَةً: إمَّا جَعْلُ الْخُلْعِ فُرْقَةً بَائِنَةً، وَلَيْسَ بِطَلَاقٍ. وَإِمَّا جَعْلُهُ طَلَاقًا. وَمَا رَأَيْت فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ لَفْظٍ وَلَفْظٍ، وَلَا أُعْتُبِرَ فِيهِ عَدَمُ نِيَّةِ الطَّلَاقِ، بَلْ قَدْ يَقُولُونَ كَمَا يَقُولُ عِكْرِمَةُ: كُلُّ ما أَجَازَهُ الْمَالُ فَلَيْسَ بِطَلَاقٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَارَاتِ، مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ اعْتَبَرُوا مَقْصُودَ الْعَقْدِ، لَا لَفْظًا مُعَيَّنًا، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ لَفْظٍ وَلَفْظٍ مُخَالِفٌ لِلْأُصُولِ وَالنُّصُوصِ. وَبِبُطْلَانِ هَذَا الْفَرْقِ يَسْتَدِلُّ مَنْ يَجْعَلُ الْجَمِيعَ طَلَاقًا، فَيُبْطِلُ الْقَوْلَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. وَهَذَا الْفَرْقُ إذَا قِيلَ بِهِ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْحُجَجِ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ جَعَلَهُ فَسْخًا؛ وَلِهَذَا عَدَلَ الشَّافِعِيُّ – رضي الله عنه – عَنْ تَرْجِيحِ هَذَا الْقَوْلِ، لِمَا ظَهَرَ لَهُ أَنَّ أَهْلَهُ يُفَرِّقُونَ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي صِحَّةِ الْخُلْعِ بِغَيْرِ عِوَضٍ عَلَى قَوْلَيْنِ: هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَد. أَحَدُهُمَا: كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ، وَهِيَ اخْتِيَارُ أَكْثَرِ أَصْحَابِهِ. وَالثَّانِيَةُ: يَصِحُّ، كَالْمَشْهُورِ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَهِيَ اخْتِيَارُ الخرقي. وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْوِيَ بِلَفْظِ الْخُلْعِ الطَّلَاقَ، وَيَقَعَ بِهِ طَلَاقٌ بَائِنٌ لَا يَكُونُ فَسْخًا عَلَى الرِّوَايَتَيْنِ، نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَد – رَحِمَهُ اللَّهُ –؛ فَإِنَّهُ لَوْ أَجَازَ أَنْ يَكُونَ فَسْخًا بِلَا عِوَضٍ لَكَانَ الرَّجُلُ يَمْلِكُ فَسْخَ النِّكَاحِ ابْتِدَاءً وَلَا يُحْسَبُ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِنْ الثَّلَاثِ، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ؛ فَإِنَّهُ لَوْ جَازَ ذَلِكَ لَكَانَ هَذَا يَسْتَلْزِمُ جَعْلَ الطَّلَاقِ بِغَيْرِ عَدَدٍ، كَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ: وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ لِلطَّلَاقِ عَدَدٌ. فَلَوْ كَانَ لَفْظُ الْفَسْخِ أَوْ غَيْرِهِ يَقَعُ وَلَا يُحْسَبُ مِنْ الثَّلَاثِ لَكَانَ ذَلِكَ يُسْتَعْمَلُ بَدَلَ لَفْظِ الطَّلَاقِ، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الطَّلَاقِ بِلَا عَدَدٍ. وَهَذَا بَاطِلٌ.

وَإِنْ قِيلَ: هُوَ طَلَاقٌ بَائِنٌ، قِيلَ: هَذَا أَشَدُّ بُطْلَانًا؛ فَإِنَّهُ إنْ قِيلَ إنَّهُ لَا يَمْلِكُ إلَّا الطَّلَاقَ الرَّجْعِيَّ وَلَا يَمْلِكُ طَلَاقًا بَائِنًا بَطَلَ هَذَا. وَإِنْ قِيلَ: إنَّهُ يَمْلِكُ إيقَاعَ طَلَاقٍ بَائِنٍ فَلَوْ جُوِّزَ لَهُ أَنْ يُوقِعَهُ بِلَفْظِ الْفَسْخِ وَلَا يَكُونُ مِنْ الثَّلَاثِ لَزِمَ الْمَحْذُورُ، وَهُوَ أَنْ يُطَلِّقَ الْمَرْأَةَ كُلَّمَا شَاءَ، وَلَا يُحْسَبُ عَلَيْهِ مِنْ الثَّلَاثِ. وَلِهَذَا لَمْ يَتَنَازَعْ الْعُلَمَاءُ أَنَّ لَفْظَ الْخُلْعِ بِلَا عِوَضٍ وَلَا سُؤَالٍ لَا يَكُونُ فَسْخًا؛ وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِيمَا إذَا طَلَبَتْ الْمَرْأَةُ أَنْ يُطَلِّقَهَا طَلْقَةً بَائِنَةً بِلَا عِوَضٍ: هَلْ تَمْلِكُ ذَلِكَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ تَنَازَعُوا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ فِي الطَّلَاقِ الْبَائِنِ. فَقِيلَ: إنْ شَاءَ الزَّوْجُ طَلَّقَ طَلَاقًا بَائِنًا، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ طَلَاقًا رَجْعِيًّا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الرَّجْعَةَ حَقٌّ لَهُ. وَإِنْ شَاءَ أَثْبَتَهَا. وَإِنْ شَاءَ نَفَاهَا. وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَرِوَايَةً عَنْ أَحْمَد. وَأَظُنُّهُ رِوَايَةً عَنْ مَالِكٍ. وَقِيلَ: لَا يَمْلِكُ الطَّلَاقَ الْبَائِنَ ابْتِدَاءً، بَلْ إذَا طَلَبَتْ مِنْهُ الْإِبَانَةَ مَلَكَ ذَلِكَ، وَهَذَا مَعْرُوفٌ عَنْ مَالِكٍ، وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَد اخْتَارَهَا الخرقي. وَقِيلَ: لَا يَمْلِكُ إبَانَتَهَا بِلَا عِوَضٍ، بَلْ سَوَاءٌ طَلَبَتْ ذَلِكَ أَوْ لَمْ تَطْلُبْهُ، وَلَا يَمْلِكُ إبَانَتَهَا إلَّا بِعِوَضٍ. وَهَذَا مَذْهَبُ أَكْثَرِ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِهِ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ أَصْحَابِهِ، وَهُوَ قَوْلُ إسْحَاقَ وَأَبِي ثَوْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذِرِ، وَابْنِ خُزَيْمَة، ودَاوُد وَغَيْرِهِمْ، وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ النُّقُولِ الثَّابِتَةِ عَنْ أَكْثَرِ الصَّحَابَةِ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَدُلُّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ الطَّلَاقَ إلَّا رَجْعِيًّا، وَلَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ طَلَاقٌ بَائِنٌ مِنْ الثَّلَاثِ، إلَّا بِعِوَضٍ، لَا بِغَيْرِ عِوَضٍ، بَلْ كُلُّ فُرْقَةٍ تَكُونُ بَائِنَةً فَلَيْسَتْ مِنْ الثَّلَاثِ.

فَالطَّلَاقُ الْمُطْلَقُ فِي كِتَابِ اللَّهِ يَتَنَاوَلُ الطَّلَاقَ الَّذِي يُوقِعُهُ الزَّوْجُ بِغَيْرِ عِوَضٍ فَتَثْبُتُ لَهُ فِيهِ الرَّجْعَةُ، وَمَا كَانَ بِعِوَضٍ فَلَا رَجْعَةَ لَهُ فِيهِ، وَلَيْسَ مِنْ الطَّلَاقِ الْمُطْلَقِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ فِدَاءٌ تَفْتَدِي بِهِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا مِنْ زَوْجِهَا كَمَا تَفْتَدِي الْأَسِيرَةُ نَفْسَهَا مِنْ أَسْرِهَا، وَهَذَا الْفِدَاءُ لَيْسَ مِنْ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ سَوَاءٌ وَقَعَ بِلَفْظِ الْخُلْعِ، أَوْ الْفَسْخِ، أَوْ الْفِدَاءِ، وَالسَّرَاحِ، أَوْ الْفِرَاقِ، أَوْ الطَّلَاقِ، أَوْ الْإِبَانَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَلْفَاظِ.

وَلِهَذَا جَازَ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَالْجُمْهُورِ مِنْ الْأَجْنَبِيِّ، فَيَجُوزُ لِلْأَجْنَبِيِّ أَنْ يَخْتَلِعَهَا، كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَفْتَدِيَ الْأَسِيرَةَ، كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَبْذُلَ الْأَجْنَبِيُّ لِسَيِّدِ الْعَبْدِ عِوَضًا لِيُعْتِقَهُ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَشْرُوطًا بِمَا إذَا كَانَ قَصْدُهُ تَخْلِيصَهَا مِنْ رِقِّ الزَّوْجِ، لِمَصْلَحَتِهَا فِي ذَلِكَ، كَمَا يَفْتَدِي الْأَسِيرَ.

وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْخُلْعَ فَسْخٌ تَبِينُ بِهِ الْمَرْأَةُ بِأَيِّ لَفْظٍ كَانَ: هُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ تَدُلُّ النُّصُوصُ وَالْأُصُولُ. وَعَلَى هَذَا فَإِذَا فَارَقَ الْمَرْأَةَ بِالْعِوَضِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ كَانَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، سَوَاءٌ كَانَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ أَوْ غَيْرِهِ. وَإِذَا قِيلَ: الطَّلَاقُ صَرِيحٌ فِي إحْدَى الثَّلَاثِ فَلَا يَكُونُ كِنَايَةً فِي الْخُلْعِ. قِيلَ: إنَّمَا الصَّرِيحُ اللَّفْظُ الْمُطْلَقُ. فَأَمَّا الْمُقَيَّدُ بِقَيْدٍ يُخْرِجُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَهُوَ صَرِيحٌ فِي حُكْمِ الْمُقَيَّدِ، كَمَا إذَا قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ مِنْ وَثَاقٍ، أَوْ مِنْ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ، فَإِنَّ هَذَا صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ، لَا فِي الطَّلَاقِ مِنْ النِّكَاحِ. وَإِذَا قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ بِأَلْفٍ. فَقَالَتْ: قَبِلْت. فَهُوَ مُقَيَّدٌ بِالْعِوَضِ وَهُوَ صَرِيحٌ فِي الْخُلْعِ، لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الثَّلَاثِ أَلْبَتَّةَ، فَإِذَا نَوَى أَنْ يَكُونَ مِنْ الثَّلَاثِ فَقَدْ نَوَى بِاللَّفْظِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ، كَمَا لَوْ نَوَى بِالْخُلْعِ أَنْ تُحَرَّمَ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ. فَنِيَّتُهُ هَذَا الْحُكْمَ بَاطِلٌ، كَذَلِكَ نِيَّتُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الثَّلَاثِ بَاطِلٌ، وَكَذَلِكَ لَوْ نَوَى بِالظِّهَارِ الطَّلَاقَ، أَوْ نَوَى بِالْإِيلَاءِ الطَّلَاقَ مُؤَجَّلًا، مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَعُدُّونَ الظِّهَارَ طَلَاقًا، وَالْإِيلَاءَ طَلَاقًا، فَأَبْطَلَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ذَلِكَ، وَحَكَمَ فِي الْإِيلَاءِ بِأَنْ يُمْسِكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ يُسَرِّحَ بِإِحْسَانٍ مَعَ تَرَبُّصِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. وَحَكَمَ فِي الظِّهَارِ بِأَنَّهُ إذَا عَادَ كَمَا قَالَ، كَفَرَ قَبْلَ الْمُمَاسَّةِ، وَلَا يَقَعُ بِهِ طَلَاقٌ.

قال ابن العثيمين: {تلك حدود الله}؛ المشار إليه ما سبق من الأحكام، والشرائع؛ و{حدود الله}: أي شرائعه.

{فلا تعتدوها}: أي لا تتجاوزوها؛ وقال العلماء: إذا كانت الحدود مما يجب فعله قال تعالى: {فلا تعتدوها}؛ وأمّا إذا كانت الحدود من المحرّمات فإنه تعالى يقول: {فلا تقربوها}.

{ومن يتعدَّ}: أي يتجاوز {حدود الله} المراد بها هنا أوامره؛ والجملة: اسم الشرط، وفعل الشرط؛ وقوله تعالى: {فأولئك هم الظالمون}: جواب الشرط؛ ولم يذكر مفعول {الظالمون} ليفيد العموم.

قال الطبري: وإنما عنى تعالى ذكره بقوله: {تلك حدود الله فلا تعتدوها}، هذه الأشياء التي بيَّنتُ لكم في هذه الآيات التي مضت: من نكاح المشركات الوثنيات، وإنكاح المشركين المسلمات، وإتيان النساء في المحيض، وما قد بيَّن في الآيات الماضية قبل قوله: {تلك حدود الله}، مما أحل لعباده وحرم عليهم، وما أمر ونهى.

ثم قال لهم تعالى ذكره: هذه الأشياء – التي بينت لكم حلالها من حرامها – (حدودي)، يعني به: معالم فصول ما بين طاعتي ومعصيتي، {فلا تعتدوها}: يقول: فلا تتجاوزوا ما أحللته لكم إلى ما حرَّمته عليكم، وما أمرتكم به إلى ما نهيتكم عنه، ولا طاعتي إلى معصيتي = فإن من تعدى ذلك – يعني من تخطاه وتجاوزه – إلى ما حرمت عليه أو نهيته، فإنه هو الظالم = وهو الذي فعل ما ليس له فعله، ووضع الشيء في غير موضعه.

قال السعدي: وأيُّ ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدَّى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحلَّ الله؟
والظلم ثلاثة أقسام: ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلَّا بالتوبة، وحقوق العباد، لا يترك الله منها شيئًا، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

قال أبو زهرة: ولقد ذيَّل الله سبحانه الآية الكريمة بقضية عامة هي في عنق التاركين لأحكام الله إلى يوم القيامة، فقال تعالى: {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}: من يترك أحكام الله سبحانه وتعالى التي شرعها في قرآنه، وبيَّنها على لسان نبيِّه الكريم، فإنه بسبب تركه لها ظالم لنفسه، وظالم لجماعته، وظالم في الحكم بين الناس.
وقد أكَّد الله سبحانه وتعالى الحكم على من يترك شرع الله بالظلم، فقد ربط بفاء السببية بين التَّعدي لحدود الله والحكم بالظلم، وتكرار الربط بالسببية للتوكيد، وعبَّر بالإشارة مع وجود ما يغني عنها لتأكيد معنى السببية، أي أن السبب في ظلمهم تحملهم لتلك المخالفة والمعاندة لحدود الله ولله، وأردف ذلك بقوله {هم} وهو للتأكيد؛ ثم عبَّر بالجملة الاسمية للإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم ووصف ملازم لهم ما داموا تاركين لحدوده؛ ثم كان قصر الظلم عليهم، وهو قصر حقيقي. وكان ذلك التأكيد الشديد لسببين:
أولهما: أن الإنسان مغرور دائمًا، ومحكوم نفسيًّا بأمور زمنية، تسيطر عليه الأحوال التي تلابسه، وقد يكون فيها الظلم والضَّرر، ويتوهَّمهما العدل والمصلحة، ويتوهَّم أن لَا مصلحة في شرع الله ويحاول إخضاع حدود الله لزمانه، أو يتركها، كشأن الناس في الربا والطلاق وتعدُّد الزوجات والحدود وغير ذلك، فبيَّن الله سبحانه وتعالى أنهم ظالمون لأنفسهم إن تركوا شرع الله إلى أهوائهم، بل يجب أن تكون أهواؤهم خاضعة لحكم الله.
ثانيهما: المقام الذي سيق فيه ذلك النص الكريم، وهو ما يتعلَّق بالأسرة، فإن الظلم فيها أقبح الظلم.
وفقنا الله سبحانه لأنَّ ندرك شرع الله، ونؤمن بأنه الحق الذي لَا حق سواه، وفيه المصلحة التي يقوم عليها بناء اجتماعي فاضل. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- حكمة الله عز وجل ورحمته في حصر الطلاق بالثلاث بأنه لا رجعة بعد الثالثة حتى تنكح زوجًا غيره؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يطلِّق الإنسان زوجته عدة طلقات؛ فإذا قاربت انتهاء العدَّة راجع، ثم طلَّق، فتستأنف العدة؛ فإذا شارفت الانقضاء راجع، ثم طلَّق؛ فإذا شارفت الانقضاء راجع ثم طلَّق ... وهكذا؛ فتبقى المرأة معذبة: لا مزوجة، ولا مطلقة؛ فتبقى معلَّقة؛ فجعل الله الأمر في ثلاث طلقات فقط.

٢- اعتبار التكرار بالثلاث؛ وهذه لها نظائر كثيرة؛ فالسلام ثلاث؛ والاستئذان ثلاث؛ وردّ الكلام إذا لم يفهم من أول مرة ثلاث؛ وفي الوضوء والعبادات أيضًا تكرار الثلاث كثير؛ فإذا الثلاث تعتبر تكرارًا يكتفى به في كثير من الأمور.

٣- الإشارة إلى أن الطلاق المكرَّر بلفظ واحد ليس بطلاق؛ بمعنى أنه لا يتكرَّر به الطلاق؛ لأن قوله تعالى: {الطلاق مرتان} وصف يجب أن يكون معتبَرًا؛ فإذا طلقت امرأتك؛ فقلت: أنت طالق؛ فقد طلقت؛ فإذا قلت ثانية: (أنت طالق) فكيف تورد طلاقًا على مطلقة؛ لأن الطلاق لا يرد إلَّا على من كانت غير مطلقة حتى يقال: طلقت؛ وهنا قال تعالى: {الطلاق مرتان}؛ ولهذا قال الفقهاء – رحمهم الله –: لو أن الرجل طلق امرأته، وحاضت مرتين، ثم طلقها بعد الحيضة الثانية لا تستأنف عدة جديدة للطلقة الثانية؛ بل تبني على ما مضى؛ وإذا حاضت الثالثة، وطهرت انقضت عدتها؛ لأن الطلاق الثاني ليس له عدة؛ وهذا مما يؤيد اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الطلاق المكرر لا عبرة به إلا أن يصادف زوجة غير مطلقة؛ ولأن الله سبحانه وتعالى قال: {فطلقوهن لعدتهن}؛ والفقهاء الذين خالفوا في ذلك يقولون: إنه إذا كرَّر الطلاق في المرة الثانية لا تستأنف العدة؛ فإذا هي مطلقة لغير عدة فلا يقع الطلاق؛ لأنه سيكون على خلاف ما أمر الله به؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد[١]))؛ وقد قال شيخنا عن اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن من تأمله تبيَّن له أنه لا يسوغ القول بخلافه)؛ لأنك إذا تأملت كلامه في أنه لا يقع طلاق على طلاق، وأنه لا يتكرَّر إلَّا على زوجة غير مطلقة فلا يمكن أن يتكرَّر الطلاق إلا إذا راجعها، أو عقد عليها عقدًا جديدًا؛ وهذا القول هو الراجح؛ وهو الذي أفتي به؛ وهو أنه لا طلاق على طلاق حتى لو قال ألف مرة: أنت طالق؛ فليس إلَّا مرة واحدة فقط؛ ويدلُّ على هذا قوله تعالى: {الطلاق مرتان} أي مرة بعد مرة؛ فلا بد أن يقع على زوجة غير مطلقة.

٤- أن الواجب على المرء الذي طلق زوجته أحد أمرين؛ إما إمساك بمعروف؛ أو تسريح بإحسان؛ وأما أن يردها مع الإيذاء، والمنة، والتقصير، أو يسرحها بجفوة وعدم إحسان فلا يجوز.

٥- بيان حكمة الله في تشريعه سبحانه وتعالى؛ إذ قال تعالى في الإمساك: {بمعروف}؛ لأنه إذا ردها جبر قلبها بالرد؛ وقال تعالى في التسريح: {بإحسان}؛ لأنه سيفارقها، فيحتاج إلى زيادة في معاملتها بالتي هي أحسن حتى ينضم إلى الفراق الإحسان – والله أعلم –.

٦- تحريم أخذ الزوج شيئًا مما أعطى زوجته من مهر، أو غيره؛ إلَّا أن يطلقها قبل الدخول والخلوة فله نصف المهر؛ لقوله تعالى: {وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم}[البقرة: ٢٣٧].

٧- جواز افتداء المرأة نفسها من زوجها بعوض؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليهما فيما افتدت به}.

١- (قلت): مسلم (١٧١٨).

٨- أن ذلك إنما يكون إذا خافا ألّا يقيما حدود الله؛ أما مع استقامة الحال فلا يجوز طلب الخلع؛ وفي الحديث: ((أيَّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة([1]))).

٩- أهمية النكاح، وبيان أنه راجع إلى الأسرة كلها؛ لقوله تعالى: {فإن خفتم ألّا يقيما حدود الله}.

١٠- أن للوسائل أحكام المقاصد؛ يؤخذ ذلك من جواز أخذ الإنسان من امرأته ما آتاها، أو بعضه إذا خيفت المفسدة في البقاء على الزوجية.

١١- اعتبار المفاسد، وسلوك الأهون لدفع الأشد؛ لأن الأخذ من مال الزوجة محرم بلا شك - كما قال تعالى -؛ لكن إذا أريد به دفع ما هو أعظم من تضييع حدود الله عز وجل صار ذلك جائزا؛ وهذه القاعدة لها أصل في الشريعة؛ منه قوله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم}[الأنعام: ١٠٨]؛ فإن سب آلهة المشركين واجب؛ ولكن إذا كان يخشى من ذلك أن يسبوا الله عدوًا بغير علم صار سب آلهتهم ممنوعًا.

١٢- جواز الخلع بأكثر مما أعطاها؛ لعموم قوله تعالى: {فيما افتدت به}؛ فهو يشمل ما افتدت به من كثير، أو قليل؛ وقيل: إن هذا العموم عائد على قوله تعالى: {ولا يحل لكم أن تأخذوا ممَّا آتيتموهن شيئًا}؛ فيكون المعنى: فيما افتدت به ممَّا آتيتموهن؛ وعلى هذا فلا يأخذ منها أكثر مما أعطاها؛ ويمكن أن يقال: إن كانت هي التي أساءت، وطلبت الخلع فلا بأس أن يأخذ أكثر ممَّا أعطاها؛ وإلّا فلا.

١٣- أنَّ المخالعة ليست رجعية؛ بمعنى أن الفراق في الخلع فراق بائن فلا سبيل لإرجاعها إلّا بعقد جديد؛ لقوله تعالى: {افتدت به}؛ فإذا كان فداء فالفداء فيه عوض عن شيء؛ وإذا استلم الفداء لا يمكن أن يرجع المفدى عنه - وهو الزوجة - إلّا بعقد جديد.

١٤- جواز تصرف المرأة في مالها بغير إذن زوجها؛ لقوله تعالى: {فيما افتدت به}؛ فإن الزوجة تتصرف في مالها كما تشاء في الحدود الشرعية سواء وافق زوجها على هذا التصرف، أم لم يوافق؛ ما دامت امرأة حرة رشيدة فلا اعتراض للزوج عليها؛ وهذه الفائدة قد ينازع فيها.

١٥- عظم شأن النكاح، وما يتعلق به؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {تلك حدود الله فلا تعتدوها}؛ فبين أن هذا من حدود الله، ونهى عن تعديه؛ وقد سبق الفرق بين قوله تعالى: {فلا تعتدوها}، وقوله تعالى: {فلا تقربوها}.

١- أخرجه أحمد ٥/٢٧٧، حديث رقم ٢٢٧٣٨، وأخرجه أبو داود ص١٣٨٧، كتاب الطلاق، باب ١٧: في الخلع، حديث رقم ٢٢٢٦، وأخرجه الترمذي ص١٧٦٩، كتاب الطلاق واللعان، باب ١١: ما جاء في المختلعات، حديث رقم ١١٨٧، وأخرجه ابن ماجة ص٢٦٠٠، كتاب الطلاق، باب ٢١: كراهية الخلع للمرأة، حديث رقم ٢٠٥٥، وأخرجه الدارمي ٢٠/٢١٦، كتاب الطلاق، باب ٦: النهي عن أن تسأل المرأة زوجها طلاقها، حديث رقم ٢٢٧٠، وأخرجه ابن حبان ٦/١٩١، ذكر تحريم الله الجنة على السائلة طلاقها ... ، حديث رقم ٤١٧٢، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٠٠ قال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود ٢/١٧: صحيح.

١٦- أنَّ لله عز وجل أن يحكم في عباده بما شاء؛ لقوله تعالى: {تلك حدود الله}.

١٧- أنَّه لا حاكم للخلق، ولا مشرع، إلا الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {تلك حدود الله فلا تعتدوها}؛ ولو كان مشرع غيره لكان يمكن لكل إنسان أن يشرع لنفسه - ولو كان في ذلك تعدي حدود الله سبحانه وتعالى -.

١٨- أنَّ الخلع لابدَّ فيه من رضا الزوجة؛ لقوله تعالى: {فيما افتدت به}؛ فإذا كانت الفدية منها فلابدَّ من رضاها؛ وأمَّا إذا كانت الفدية من غيرها فإنه لا يشترط رضاها، كما لو أن أحدًا من الناس رأى أن بقاء هذه المرأة مع زوجها فيه ضرر عليه في دينه؛ فذهب إليه، وأعطاه فدية ليخلع هذه المرأة، ويسلم من شرها؛ فهذا جائز - حتى وإن لم ترض بذلك -.

١٩- تحريم تعدي حدود الله؛ لقوله تعالى: {ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون}؛ والظلم حرام.

٢٠- أنَّ التَّعدِّي لحدود الله ظلم عظيم؛ يؤخذ من حصر الظلم في تعديها، ومن الإتيان به في الجملة الاسمية الخبرية: {فأولئك هم الظالمون}.

٢١- جواز الطلاق الثلاث المتفرِّق؛ لقوله تعالى: {الطلاق مرتان} إلى أن قال: {فإن طلقها} يعني الثالثة؛ فهنا لا شك أن الطلاق متفرق؛ لأنه تعالى قال: {الطلاق مرتان}؛ ثم أدخل الفداء بينهما، وبين الطلاق الثالث؛ فدل هذا على أنه طلاق متفرق؛ وهذا جائز بالإجماع؛ أما إذا جمع الثلاث جميعا في دفعة واحدة، مثل أن يقول: (أنت طالق ثلاثا)، أو (أنت طالق طالق طالق) يريد الثلاث؛ أو (أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق)؛ فقد اختلف أهل العلم في جواز ذلك؛ فمنهم من قال بإباحته، ونفوذه - فتبين به المرأة بينونة كبرى -؛ ومنهم من قال بتحريمه، ونفوذه؛ ومنهم من قال بتحريمه، ويقع واحدة؛ ومنهم من قال بتحريمه، وأنه لا يقع لا واحدة، ولا أكثر؛ فإذا الأقوال أربعة؛ والصحيح أنه حرام، وأنه لا يقع إلَّا واحدة؛ وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وعليه يدلُّ الكتاب والسنة؛ لأنه لا تقع البينونة إلَّا إذا طلقها بعد طلاق مرتين؛ والطلاق مرتين لا يكون إلَّا إذا كان بينهما رجعة، أو عقد؛ أما أن يرسل طلاقًا بعد طلاق فهذا ليس بشيء.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

قال ابن العثيمين: {فإن طلَّقها}: أي المرة الثالثة بعد المرتين؛ {فلا تحلُّ له}: أي فلا تحلُّ المطلقة بعد الثالثة للزوج المطلِّق {حتى تنكح زوجًا غيره}: أي يعقد عليها بنكاح صحيح.

قال السعدي: أي: نكاحًا صحيحًا ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلّا صحيحًا، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق. ويشترط أن يكون نكاح الثاني، نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى ج٦ص٨: نِكَاحُ الْمُحَلِّلِ حَرَامٌ بَاطِلٌ لَا يُفِيدُ الْحِلَّ وَصُورَتُهُ:

أَنَّ الرَّجُلَ إذَا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَكَمَا جَاءَتْ بِهِ سُنَّةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَأَجْمَعَتْ عَلَيْهِ أُمَّتُهُ، فَإِذَا تَزَوَّجَهَا رَجُلٌ بِنِيَّةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا لِتَحِلَّ لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ كَانَ هَذَا النِّكَاحُ حَرَامًا بَاطِلًا، سَوَاءٌ عَزَمَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى إمْسَاكِهَا، أَوْ فَارَقَهَا، وَسَوَاءٌ شُرِطَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي عَقْدِ النِّكَاحِ، أَوْ شُرِطَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْعَقْدِ، أَوْ لَمْ يُشْرَطْ عَلَيْهِ لَفْظًا بَلْ كَانَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْخِطْبَةِ وَحَالِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَالْمَهْرِ نَازِلًا بَيْنَهُمْ مَنْزِلَةَ اللَّفْظِ بِالشُّرُوطِ، أَوْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَلْ أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، ثُمَّ يُطَلِّقَهَا لِتَحِلَّ لِلْمُطَلِّقِ ثَلَاثًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْلَمَ الْمَرْأَةُ وَلَا وَلِيُّهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، سَوَاءٌ عَلِمَ الزَّوْجُ الْمُطَلِّقُ ثَلَاثًا، أَوْ لَمْ يَعْلَمْ، مِثْلُ أَنْ يَظُنَّ الْمُحَلِّلُ أَنَّ هَذَا فِعْلُ خَيْرٍ وَمَعْرُوفٍ مَعَ الْمُطَلِّقِ وَامْرَأَتِهِ بِإِعَادَتِهَا إلَيْهِ لِمَا أَنَّ الطَّلَاقَ أَضَرَّ بِهِمَا وَبِأَوْلَادِهِمَا وَعَشِيرَتِهِمَا وَنَحْوِ ذَلِكَ.

بَلْ لَا يَحِلُّ لِلْمُطَلِّقِ ثَلَاثًا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا حَتَّى يَنْكِحَهَا رَجُلٌ مُرْتَغِبًا لِنَفْسِهِ نِكَاحَ رَغْبَةٍ لَا نِكَاحَ دُلْسَةٍ، وَيَدْخُلُ بِهَا بِحَيْثُ تَذُوقُ عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقُ عُسَيْلَتَهَا[١]. ثُمَّ بَعْدَ هَذَا إذَا حَدَثَ بَيْنَهُمَا فُرْقَةٌ بِمَوْتٍ، وَطَلَاقٍ أَوْ فَسْخٍ، جَازَ لِلْأَوَّلِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وَلَوْ أَرَادَ هَذَا الْمُحَلِّلُ أَنْ يُقِيمَ مَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَأْنَفَ النِّكَاحَ، فَإِنَّ مَا مَضَى عَقْدٌ فَاسِدٌ لَا يُبَاحُ الْمُقَامُ بِهِ مَعَهَا هَذَا هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَهُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَامَّةِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَعَامَّةِ فُقَهَاءِ الْإِسْلَامِ، مِثْلُ: سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَهَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ أَرْكَانُ التَّابِعِينَ.

وَمِثْلُ: أَبِي الشَّعْثَاءِ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَبَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَجَمِيعِ أَصْحَابِهِ، وَالْأَوْزَاعِيِّ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَهَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ أَرْكَانُ تَابِعِي التَّابِعِينَ.

وَهُوَ مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ، مِنْهُمْ: إسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ، وَأَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد الْهَاشِمِيُّ وَأَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَبُو إسْحَاقَ الْجُوزَجَانِيُّ وَغَيْرُهُمْ، وَهُوَ قَوْلٌ لِلشَّافِعِيِّ، وَسَنَذْكُرُ – إنْ شَاءَ اللَّهُ – أَقْوَالَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي الْأَدِلَّةِ.

وَأَمَّا أَقْوَالُ التَّابِعِينَ وَالْفُقَهَاءِ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ فِي رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لِيُحِلَّهَا لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ زَوْجُهَا الْأَوَّلُ، وَلَا الْمَرْأَةُ قَالَ: (إنْ كَانَ إنَّمَا نَكَحَهَا لِيُحِلَّهَا فَلَا يَصْلُحُ ذَلِكَ لَهُمَا، وَلَا تَحِلُّ). وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: (إذَا هَمَّ الزَّوْجُ الْأَوَّلُ، أَوْ الْمَرْأَةُ، أَوْ الزَّوْجُ الْأَخِيرُ، بِالتَّحْلِيلِ فَالنِّكَاحُ فَاسِدٌ)، رَوَاهُمَا حَرْبٌ الْكَرْمَانِيُّ.

١- **(قلت):** في صحيح البخاري (٥٢٦١)، ومسلم (١٤٣٣) عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَتَزَوَّجَتْ فَطَلَّقَ فَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَتَحِلُّ لِلْأَوَّلِ؟ قَالَ: ((لَا حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا كَمَا ذَاقَ الْأَوَّلُ)). اللفظ للبخاري.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: (أَمَّا النَّاسُ فَيَقُولُونَ حَتَّى يُجَامِعَهَا، وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَنَا أَقُولُ: إِذَا تَزَوَّجَهَا تَزْوِيجًا صَحِيحًا لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِحْلَالًا لَهَا، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا الْأَوَّلُ)، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ.

وَقَالَ أَبُو الشَّعْثَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ فِي رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لِيُحِلَّهَا لِزَوْجِهَا وَهُوَ لَا يَعْلَمُ قَالَ: (لَا يَصْلُحُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ تَزَوَّجَهَا لِيُحِلَّهَا). وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا فَنَدِمَ وَنَدِمَتْ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَنْطَلِقَ فَأَتَزَوَّجَهَا وَأُصْدِقَهَا صَدَاقًا، ثُمَّ أَدْخُلَ بِهَا كَمَا يَدْخُلُ الرَّجُلُ بِامْرَأَتِهِ، ثُمَّ أُطَلِّقَهَا حَتَّى تَحِلَّ لِزَوْجِهَا قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: (اتَّقِ اللَّهَ يَا فَتَى وَلَا تَكُونَنَّ مِسْمَارَ نَارٍ لِحُدُودِ اللَّهِ). رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، يُرِيدُ الْحَسَنُ أَنَّ الْمِسْمَارَ هُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ الشَّيْءَ الْمَسْمُورَ، فَكَذَلِكَ أَنْتَ تُثَبِّتُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا وَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ. وَعَنْ الْحَسَنِ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، قَالَا: (إِذَا هَمَّ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ بِالتَّحْلِيلِ فَقَدْ فَسَدَ الْعَقْدُ). رَوَاهُمَا سَعِيدٌ.

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فِي الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ فَيَنْطَلِقُ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَحَزَّنُ لَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا مِنْ غَيْرِ مُؤَامَرَةٍ مِنْهُ فَقَالَ: (إِنْ كَانَ تَزَوَّجَهَا لِيُحِلَّهَا لَهُ لَمْ تَحِلَّ لَهُ، وَإِنْ كَانَ تَزَوَّجَهَا يُرِيدُ إِمْسَاكَهَا فَقَدْ أُحِلَّتْ لَهُ).

وَعَنْ الشَّعْبِيِّ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً كَانَ زَوْجُهَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا قَبْلَ ذَلِكَ قِيلَ لَهُ: أَيُطَلِّقُهَا لِتَرْجِعَ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ؟ فَقَالَ: (لَا حَتَّى يُحَدِّثَ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَعْمُرُ مَعَهَا وَتَعْمُرُ مَعَهُ). رَوَاهُمَا الْجُوزَجَانِيُّ هَكَذَا لَفْظُ هَذَا الْأَثَرِ.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: (لَا يُحِلُّهَا إِلَّا نِكَاحُ رَغْبَةٍ).

فَإِنْ قَصَدَ التَّحْلِيلَ لَمْ تَحِلَّ لَهُ، وَسَوَاءٌ عَلِمَا، أَوْ لَمْ يَعْلَمَا لَا تَحِلُّ. وَيَنْفَسِخُ نِكَاحُ مَنْ قَصَدَ إِلَى التَّحْلِيلِ. وَلَا يُقَرُّ عَلَى نِكَاحِهِ قَبْلَ الدُّخُولِ وَبَعْدَهُ، وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ فِي ذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِ مَالِكٍ، نَقَلَهُ الطَّحَاوِيُّ وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُمَا، وَكَذَلِكَ قَالَ الثَّوْرِيُّ فِي أَحَدِ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: (إِذَا تَزَوَّجَهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُحَلِّلَهَا لِزَوْجِهَا، ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ يُمْسِكَهَا لَا يُعْجِبُنِي إِلَّا أَنْ يُفَارِقَهَا وَيَسْتَأْنِفَ نِكَاحًا جَدِيدًا) قَالَ: (وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ).

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ: قُلْت لِأَحْمَدَ: سُئِلَ سُفْيَانُ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُحِلَّهَا لِزَوْجِهَا، ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ يُمْسِكَهَا، قَالَ: (لَا يُعْجِبُنِي إِلَّا أَنْ يُفَارِقَهَا وَيَسْتَقْبِلَ نِكَاحًا جَدِيدًا). قَالَ أَحْمَدُ: قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ: كَمَا قَالَ: وَكَذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَعِيدٍ الشَّالَنْجِيُّ وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ أَصْحَابِهِ قَالَ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ عَنْ الرَّجُلِ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ، وَفِي نَفْسِهِ أَنْ يُحَلِّلَهَا لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ وَلَمْ تَعْلَمْ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ فَقَالَ: (هُوَ مُحَلِّلٌ، وَإِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ الْإِحْلَالَ فَهُوَ مَلْعُونٌ(١)). قَالَ: وَبِهِ قَالَ أَبُو أَيُّوبَ يَعْنِي سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُد الْهَاشِمِيَّ – وَأَبُو خَيْثَمَةَ يَعْنِي – زُهَيْرَ بْنَ حَرْبٍ –، قَالَ: وَقَالَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ يَعْنِي أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي شَيْبَةَ –: (لَسْتُ أَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِهَذَا النِّكَاحِ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ).

١- (قلت): قال القرطبي: جاء عن عمر بن الخطاب في هذا الباب تغليظ شديد وهو قوله: (لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما).

(الأحاديث الواردة في ذلك)

الحديث الأول: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ انه قَالَ: ((لَعَنَ رسُولُ اللَّهِ الْوَاشِمَةَ وَالْمَوْشُومَةَ وَالْوَاصِلَةَ وَالْمَوْصُولَةَ وَالْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ وَآكِلَ الرِّبَا، وَمُوْكِلَهُ([١]))). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْهُ: ((لَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ([٢]))). وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ مِنْ التَّابِعِينَ.

طريق آخر: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ: ((لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ([٣]))).

طريق آخر: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: ((آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَشَاهِدَاهُ وَكَاتِبُهُ إِذَا عَلِمُوا بِهِ وَالْوَاصِلَةُ وَالْمُسْتَوْصِلَةُ وَلَاوِي الصَّدَقَةِ وَالْمُتَعَدِّي فِيهَا وَالْمُرْتَدُّ عَلَى عَقِبَيْهِ أَعْرَابِيًّا بَعْدَ هِجْرَتِهِ وَالْمُحَلِّلُ وَالْمُحَلَّلُ لَهُ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ([٤]))).

الحديث الثاني: وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ وَالْجُو زَجَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ قَالَ سَمِعْت اللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ قَالَ مِشْرَحُ بْنُ هَاعَانَ قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: هُوَ الْمُحَلِّلُ لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ([٥]))).

فَهَذِهِ سُنَنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَيِّنَةٌ فِي أَنَّهُ لَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ التَّحْلِيلَ حَرَامٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ لَعَنَ الْمُحَلِّلَ فَعُلِمَ أَنَّ فِعْلَهُ حَرَامٌ؛ لِأَنَّ اللَّعْنَ لَا يَكُونُ إلَّا عَلَى مَعْصِيَةٍ، بَلْ لَا يَكَادُ يَلْعَنُ إلَّا عَلَى فِعْلٍ كَبِيرَةٍ إذْ الصَّغِيرَةُ تَقَعُ مُكَفَّرَةً بِالْحَسَنَاتِ إذَا اُجْتُنِبَتْ الْكَبَائِرُ.

- وَاللَّعْنَةُ هِيَ الْإِقْصَاءُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَلَنْ يَسْتَوْجِبَ ذَلِكَ إلَّا بِكَبِيرَةٍ. وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ ذَنْبٍ خُتِمَ بِغَضَبٍ أَوْ لَعْنَةٍ أَوْ عَذَابٍ أَوْ نَارٍ فَهُوَ كَبِيرَةٌ رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى بُطْلَانِ الْعَقْدِ؛ لِأَنَّ النِّكَاحَ

قال أبو عمر: لا يحتمل قول عمر إلا التغليظ، لأنه قد صح عنه أنه وضع الحد عن الواطئ فرجا حراما قد جهل تحريمه وعذره بالجهالة، فالتأويل أولى بذلك ولا خلاف أنه لا رجم عليه.

- وقال ابن عمر: التحليل سفاح، ولا يزالون زانيين ولو أقاما عشرين سنة.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن النسائي (٥١٠٢).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن الترمذي (١١٢٠).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥١٠١).

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥-٢).

٥- (قلت): حسنه الإمام الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٩٦)، الإرواء (١٨٩٧).

الْمُحَرَّمَ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ، كَيْفَ وَقَدْ حَمَلُوا نَهْيَهُ أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا أَوْ عَلَى خَالَتِهَا عَلَى التَّحْرِيمِ وَالْفَسَادِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِقْصَاءِ ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ الْمُحَلَّلَ لَهُ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لَهُ بِذَلِكَ التَّحْلِيلِ إِذْ لَوْ حَلَّتْ لَهُ لَكَانَ نِكَاحُهُ مُبَاحًا فَلَمْ يَسْتَحِقَّ اللَّعْنَ عَلَيْهِ، فَعُلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ الْمُحَلِّلُ حَرَامٌ بَاطِلٌ، وَأَنَّ تَزَوُّجَ الْمُطَلِّقِ ثَلَاثًا لِأَجْلِ هَذَا التَّحْلِيلِ حَرَامٌ بَاطِلٌ. وَمَعَ أَنَّ مُجَرَّدَ تَحْرِيمِ عَقْدِ النِّكَاحِ كَافٍ فِي بُطْلَانِهِ فَفِي خُصُوصِ هَذَا الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْعَقْدَيْنِ لِأَنَّهُ – ﷺ – لَعَنَ الْمُحَلَّلَ لَهُ، فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَلَّ لِلثَّانِي تَزَوُّجُهَا، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ حَلَّ، وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – لَعَنَهُ وَلَوْ كَانَتْ قَدْ حَلَّتْ لَهُ لَكَانَ تَزَوُّجُهُ بِهَا جَائِزًا وَلَمْ يَجُزْ لَعْنُهُ فَتَعَيَّنَ الثَّانِي، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ حَلَالًا لِلثَّانِي فَكُلُّ امْرَأَةٍ يَحْرُمُ التَّزَوُّجُ بِهَا فَالْعَقْدُ عَلَيْهَا بَاطِلٌ. وَهَذَا ثَابِتٌ بِالْإِجْمَاعِ الْمُتَيَقَّنِ بَلْ بِالْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ مِنَ الدِّينِ.

وَذَلِكَ أَنَّ مَحَلَّ الْعَقْدِ كَالْمَبِيعِ وَالْمَنْكُوحَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُبَاحًا كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَالْمُعْتَدَّةِ وَالْمُزَوَّجَةِ كَانَ الْعَقْدُ عَلَيْهِ بَاطِلًا بِالضَّرُورَةِ وَالْإِجْمَاعِ. وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِلثَّانِي وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْعَقْدُ الْأَوَّلُ عَلَيْهِ بَاطِلًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَحَصَلَ بِهِ الْحِلُّ كَسَائِرِ الْأَنْكِحَةِ الصَّحِيحَةِ وَالْكَلَامِ الْمَحْفُوظِ لَفْظًا وَمَعْنًى فِي قَوْلِهِ: {حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ}[البقرة: ٢٣٠]، وَمَنْ قَالَ إِنَّ النِّكَاحَ صَحِيحٌ وَهِيَ لَا تَحِلُّ بِهِ فَقَدْ أَثْبَتَ حُكْمًا بِلَا أَصْلٍ وَلَا نَظِيرٍ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ.

قال القرطبي: وطء السيد لأَمَته التي قد بَتَّ زوجها طلاقها لا يحلُّها، إذ ليس بزوج، روي عن علي بن أبي طالب، وهو قول عبيدة ومسروق والشعبي وإبراهيم وجابر بن زيد وسليمان بن يسار وحماد بن أبي سليمان وأبي الزناد، وعليه جماعة فقهاء الأمصار. ويروى عن عثمان وزيد بن ثابت والزبير خلاف ذلك، وأنه يحلها إذا غشيها سيدها غشيانًا لا يريد بذلك مخادعة ولا إحلالًا، وترجع إلى زوجها بخطبة وصداق. والقول الأول أصح، لقوله تعالى: { حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ} والسيد إنما تسلَّط بملك اليمين وهذا واضح.

روي عن مالك أنه سأل ابن شهاب عن رجل كانت تحته أمة مملوكة فاشتراها وقد كان طلقها واحدة، فقال: تحل له بملك يمينه ما لم يبتَّ طلاقها، فإن بتَّ طلاقها فلا تحل له بملك يمينه حتى تنكح زوجًا غيره. قال أبو عمر: وعلى هذا جماعة العلماء وأئمة الفتوى: مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو ثور. وكان ابن عباس وعطاء وطاوس والحسن يقولون: إذا اشتراها الذي بتَّ طلاقها حلت له بملك اليمين، على عموم قوله عز وجل: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}[النساء : ٣]. قال أبو عمر: وهذا خطأ من القول، لأن قوله عز وجل: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} لا يبيح الأمهات ولا الأخوات، فكذلك سائر المحرَّمات.

وإذا طلق المسلم زوجته الذميَّة ثلاثًا فنكحها ذمي ودخل بها ثم طلقها، فقالت طائفة: الذمي زوج لها، ولها أن ترجع إلى الأول، هكذا قال الحسن والزهري وسفيان الثوري والشافعي وأبو عبيد وأصحاب الرأي. قال ابن المنذر: وكذلك نقول، لأن الله تعالى قال : { حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ} والنصراني زوج.

والنكاح الفاسد لا يحل المطلقة ثلاثًا في قول الجمهور. مالك والثوري. والشافعي والأوزاعي وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد، كلهم يقولون: لا تحل للزوج الأول إلَّا بنكاح صحيح، وكان الحكم يقول: هو زوج. قال ابن المنذر: ليس بزوج، لأن أحكام الأزواج في الظهار والإيلاء واللِّعان غير ثابتة بينهما. وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم أن المرأة إذا قالت للزوج الأول: قد تزوجت ودخل علي زوجي وصدقها أنها تحل للأول. قال الشافعي: والورع ألَّا يفعل إذا وقع في نفسه أنها كذبته.

قال ابن العثيمين: {فإن طلقها}: أي الزوج الثاني؛ {فلا جناح عليهما}: أي فلا إثم على الزوج الأول، وزوجته المطلقة من الزوج الثاني {أن يتراجعا}: أي يرجع أحدهما إلى الآخر بعقد جديد؛ {إن ظنا}: أي الزوج الأول، وزوجته؛ {أن يقيما حدود الله}: أي ما أوجبه الله على كل منهما من المعاشرة بالمعروف.

قال القرطبي: واختلفوا في الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين ثم تتزوج غيره ثم ترجع إلى زوجها الأول، فقالت طائفة: تكون على ما بقي من طلاقها، وكذلك قال الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعمران بن حصين وأبو هريرة. ويروى ذلك عن زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبدالله بن عمرو بن العاص، وبه قال عبيدة السلماني وسعيد بن المسيب والحسن البصري ومالك وسفيان الثوري وابن أبي ليلى والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور ومحمد بن الحسن وابن نصر. وفيه قول ثان وهو (أن النكاح جديد والطلاق جديد)، هذا قول ابن عمر وابن عباس، وبه قال عطاء والنخعي وشريح والنعمان ويعقوب. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا أبو معاوية ووكيع عن الأعمش عن إبراهيم قال: كان أصحاب عبدالله يقولون: أيهدم الزوج الثلاث، ولا يهدم الواحدة والاثنتين! قال: وحدثنا حفص عن حجاج عن طلحة عن إبراهيم أن أصحاب عبدالله كانوا يقولون: يهدم الزوج الواحدة والاثنتين كما يهدم الثلاث، إلَّا عبيدة فإنه قال: هي على ما بقي من طلاقها، ذكره أبو عمر. قال ابن المنذر: وبالقول الأول أقول. وفيه قول ثالث وهو: إن كان دخل بها الأخير فطلاق جديد ونكاح جديد، وإن لم يكن دخل بها فعلى ما بقي، هذا قول إبراهيم النخعي.

وقوله تعالى: {إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} شرط. قال طاوس: إن ظنَّا أن كل واحد منهما يحسن عشرة صاحبه. وقيل: حدود الله فرائضه، أي إذا علما أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني، فمتى علم الزوج أنه يعجز عن نفقة زوجته أو صداقها أو شيء من حقوقها الواجبة عليه فلا يحل له أن يتزوجها حتى يبيِّن لها، أو يعلم من نفسه القدرة على أداء

حقوقها وكذلك لو كانت به علَّة تمنعه من الاستمتاع كان عليه أن يبيِّن، كيلا يغر المرأة من نفسه. وكذلك لا يجوز أن يغرها بنسب يدعيه ولا مال له ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها. وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج، أو كان بها علَّة تمنع الاستمتاع من جنون أو جذام أو برص أو داء في الفرج لم يجز لها أن تغره، وعليها أن تبيِّن له ما بها من ذلك، كما يجب على بائع السلعة أن يبيِّن ما بسلعته من العيوب، ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيبًا فله الرَّد، فإن كان العيب بالرجل فلها الصداق إن كان دخل بها، وإن لم يدخل بها فلها نصفه. وإن كان العيب بالمرأة ردَّها الزوج وأخذ ما كان أعطاها من الصداق.

واختلفت الرواية عن مالك في امرأة العنين إذا سلمت نفسها ثم فرق بينهما بالعنة، فقال مرة: لها جميع الصداق، وقال مرة: لها نصف الصداق، وهذا ينبني على اختلاف قوله: بم تستحق الصداق بالتسليم أو الدخول؟ قولان.

قال السعدي: ومفهوم الآية الكريمة، أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحًا، لأن جميع الأمور، إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصًا الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم، وإلَّا أحجم.

ولما بيَّن تعالى هذه الأحكام العظيمة قال: {وتلك حدود الله}: أي شرائعه التي حدَّدها وبيَّنها ووضَّحها.

{يبيِّنها لقوم يعلمون} لأنهم هم المنتفعون بها، النافعون لغيرهم.

قال ابن العثيمين: {وتلك حدود الله}: المشار إليه ما سبق من الأحكام؛ و{حدود الله}: أي أحكامه التي حدَّها لعباده؛ {يبيِّنها}: أي يوضِّحها الله عز وجل، ويظهرها؛ فكل الحدود التي يريدها الله من العباد قد بيَّنها بيانًا كاملًا؛ والبيان يكون بالكتاب، ويكون بالسنة؛ فما لا يوجد في كلام الله يوجد في سنة الرسول ﷺ؛ وما لا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ نصًّا بعينه فإنه يوجد بمعناه؛ وذلك بالقياس الصحيح الذي يتساوى فيه الأصل، والفرع في العلَّة فيلحق هذا بهذا؛ فبيان الله تعالى للحدود متنوّع.

{لقوم يعلمون}: أي لقوم ذوي استعداد وقبول للعلم.

قال السعدي: وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصًّا بهم وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقُّه بها.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه وتعالى أحكام الطلاق وعَدَده، ودفعاته، وما يترتَّب عليه بهذه الجملة السامية؛ ومعناها أن تلك الحقوق والواجبات التي بيَّنها سبحانه وتعالى في الطلاق من أن الزوج أحق بزوجته بعد الأولى والثانية، ومن أن النساء

لَا يسوغ لهن أن يكتمنَ ما خلق الله في أرحامهن، ومن أن الطلاق ثلاث، بعدها تحرم عليه حتى تتزوج زوجًا آخر، ومن أنه لَا يحل له أن يأخذ منها شيئًا إلَّا أن يكون فداءً لنفسها خشية نشوزها([1]). كل هذه الأحكام، هي الحدود التي أقامها سبحانه فارقًا بين العدل والظلم، والحق والباطل، والخطأ والصواب، وهي التي تقوم عليها معالم الأسرة الإسلامية؛ وقد بيَّنها لقوم من شأنهم أن يعلموا الأمور على وجوهها ويدركوها على حقيقتها، ومن لم يلتزمها فقد ضل ضلالًا مبينًا.

وإن ذلك التذييل الكريم يستفاد منه ثلاثة أمور:

أولها: بيان أن الأحكام الخاصة بالطلاق هي حدود حدَّها الشارع، من يتجاوزها فقد تجاوز ما له إلى ما ليس له، وترك الحلال إلى الحرام، وترك الحق إلى الباطل؛ وفي ذلك حثٌّ على الطاعة، وتحريض على التزام ما أمر الله سبحانه وتعالى.

ثانيها: الإشارة إلى أن هذه الأحكام هي المصلحة الحق، وأن الناس إن تجاوزوها فقد تركوا الخير إلى الشر والنَّفع إلى الضَّرر.

الأمر الثالث: حثُّ الناس على تعرُّف حكم الشارع وغاياته؛ فإن مقاصد الشارع لَا يعرفها على وجهها إلَّا الذين من شأنهم أن يعلموا، ويصلوا إلى لبّ الحقائق، ومرامي الأحكام الشرعية القاصية والدانية، والله بكل شيء محيط.

قال القرطبي: قال ابن خويز منداد: واختلف أصحابنا هل على الزوجة خدمة أو لا؟ فقال بعض أصحابنا: ليس على الزوجة خدمة، وذلك أن العقد يتناول الاستمتاع لا الخدمة، ألا ترى أنه ليس بعقد إجارة ولا تملك رقبة، وإنما هو عقد على الاستمتاع، والمستحق بالعقد هو الاستمتاع دون غيره، فلا تطالب بأكثر منه، ألا ترى إلى قوله تعالى: { فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً}[النساء : ٣٤]. وقال بعض أصحابنا: عليها خدمة مثلها، فإن كانت شريفة المحل ليسار أبوة أو ترفه فعليها التدبير للمنزل وأمر الخادم، وإن كانت متوسطة الحال فعليها أن تفرش الفراش ونحو ذلك، وإن كانت دون ذلك فعليها أن تقم البيت وتطبخ وتغسل. وإن كانت من نساء الكرد والديلم والجبل في بلدهن كلفت ما يكلفه نساؤهم، وذلك أن الله تعالى قال: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة : ٢٢٨]. وقد جرى عرف المسلمين في بلدانهم في قديم الأمر وحديثه بما ذكرنا، ألا ترى أن أزواج النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتكلفون الطحين والخبيز والطبيخ وفرش الفراش وتقريب الطعام وأشباه ذلك، ولا نعلم امرأة امتنعت من ذلك، ولا يسوغ لها الامتناع، بل كانوا يضربون نساءهم إذا قصرن في ذلك، ويأخذونهن بالخدمة، فلولا أنها مستحقة لما طالبوهنَّ ذلك.

١- (قلت): الصواب والله أعلم: (إلَّا أن يخافا ألَّا يقيما حدود الله)، لأنه يحل الأخذ ولو لم يكن النشوز أو خوف النشوز منها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تحريم المطلقة ثلاثًا على مطلِّقها حتى تتزوج؛ لقوله تعالى: {فلا تحلُّ له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره}.

٢- أن نكاح الزوج الثاني على وجه لا يصح، لا تحل به للأول؛ لقوله تعالى: {حتى تنكح زوجًا غيره}؛ ولا يكون زوجًا إلَّا بعقد صحيح؛ ولذلك لو تزوجها الثاني بنيَّة تحليلها للأول فنكاحه غير صحيح؛ فلا تحلُّ به للأول.

٣- حِلُّها للزوج الأول بعد مفارقة الثاني لها؛ لقوله تعالى: {فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا}؛ وظاهر الآية الكريمة أنها تحلُّ للأول بمجرَّد عقد الثاني عليها ومفارقته لها؛ لكن السنة بيَّنت أنه لابدَّ من وطء الثاني وطأً تامًّا بانتشار؛ وذلك أن امرأة رفاعة القرظي بانت منه بالثلاث؛ فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَبِير - بفتح الزاي، وكسر الباء -؛ ولم يكن يقدر على الجماع؛ فأتت النبي ﷺ، وقالت: يا رسول الله، إن رفاعة طلقني، فبتَّ طلاقي، وتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير ولم يكن معه إلَّا مثل هدبة الثوب، وقالت بثوبها؛ فقال لها النبي ﷺ: ((أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟! لا حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتك([1]))).

٤- أن الزوجة المطلقة ثلاثًا لو وطئت بملك اليمين فإنها لا تحلُّ للزوج الأول؛ لقوله تعالى: {حتى تنكح زوجًا غيره}؛ مثال ذلك: امرأة مملوكة لشخص وقد تزوجها شخص آخر، فطلقها الزوج الآخر، ثم انقضت عدتها، وجامعها سيدها بحكم ملك اليمين، ثم أراد زوجها الأول أن يتزوجها، فلا يمكن أن يتزوجها؛ لقوله تعالى: {حتى تنكح زوجًا غيره}.

٥- إطلاق المراجعة على عقد النكاح؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليهما أن يتراجعا}؛ والمعروف عند الفقهاء أن الرجعة إعادة مطلقة غير بائن إلى عصمة زوجها؛ هذه هي الرجعة عندهم؛ لكن هذا اصطلاح خاص؛ أما في القرآن فتطلق المراجعة على عقد النكاح؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليهما أن يتراجعا}؛ هذا وقد قسم بعض أهل العلم المراجعة شرعًا إلى ثلاثة أقسام؛ فقالوا: قد يراد بها العقد؛ وقد يراد بها إعادة المطلقة رجعيًّا إلى عصمة زوجها، كما في اصطلاح الفقهاء؛ وقد يراد بالمراجعة أن تعاد المرأة إلى عصمة زوجها بدون طلاق، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - حين طلق امرأته وهي حائض؛ فقال النبي ﷺ لعمر: ((مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس([2])))؛ فالمراد بقوله ﷺ: ((فليراجعها)) أن يردَّها إلى عصمته ويلغي الطلاق، كما لو تابع

١- أخرجه البخاري ص٢٠٨، كتاب الشهادات، باب ٣: شهادة المختبئ، حديث رقم ٢٦٣٩، وأخرجه مسلم ص٩١٨، كتاب النكاح، باب ١٧: لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتى ...، حديث رقم ٣٥٢٦ [١١١] ١٤٣٣.

٢- أخرجه البخاري ص٤٥٣، كتاب الطلاق، باب ١: وقول الله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن}، حديث رقم ٥٢٥١، وأخرجه مسلم ص٩٢٦ - ٩٢٧، كتاب الطلاق، باب ١: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ... ، حديث رقم ٣٦٥٢ [١] ١٤٧١.

رجلان على عق فاسد، وقلت لهما: (تراجعا): أي راجعا العقد، أو ألغياه؛ فالمراد بالمراجعة في حديث ابن عمر إلغاء الطلاق على القول الصحيح – وإن كان الجمهور على أنها مراجعة مطلقة حسب اصطلاح الفقهاء –.

٦– أنه لا يجوز أن يتراجع الزوجان حتى يغلب على ظنهما أن يقيما حدود الله؛ أي أن يقوم كل منهما بمعاشرة الآخر بما يجب عليه؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله} وجه ذلك: أنهما إذا تراجعا بغير هذا الشرط صار هذا العقد عبثًا، وعناءً، وتعبًا، وخسارة مالية؛ لأنهما لا يضمنان أن يرجعا إلى الحال الأولى.

٧– الاكتفاء بالظن في الأمور المستقبلة؛ لأن طلب اليقين في المستقبل من باب التكليف بما لا يطاق؛ لقوله تعالى: {إن ظنا أن يقيما حدود الله}؛ وقد قال الله – تبارك وتعالى –: {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به}[البقرة: ٢٨٦]، فقال: ((قد فعلت([١])).

ويتفرَّع على هذه الفائدة فائدة مهمة: وهي إذا حلف الإنسان على المستقبل بناء على غلبة الظن، فتبيَّن بخلافه فلا كفارة فيه؛ لأنه يحلف على ما في نفسه وعلى ظنه؛ وهذا القول هو الراجح؛ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

٨– عناية الله سبحانه وتعالى بعباده في بيان ما يجب عليهم في عبادتهم، وفي معاملة بعضهم لبعض حتى لا تحصل الفوضى المؤدية إلى النزاع الذي قد يصل إلى القتال.

٩– أنه إذا لزم من فعل المباح شيء محرَّم صار الشيء المباح حرامًا؛ لأن رجوع الزوجة حلال في الأصل؛ فإذا لم يظن الإنسان أنه يقوم بالحدود صار حرامًا؛ وهو في الأصل حلال؛ وعلى هذا فنقول: إذا استلزم العقد إبطالًا لواجب، أو وقوعًا في محرَّم صار ذلك حرامًا؛ وهي في مسائل كثيرة؛ منها: لو تبايع رجلان تلزمهما الجمعة بعد ندائها الثاني: فالبيع حرام، والعقد باطل؛ لأنه وقوع فيما حرَّم الله عز وجل.

١٠– أنه لا يعرف هذه الحدود ويتبيَّنها إلَّا من كان من ذوي العلم؛ فكلَّما كان أعلم كانت الحدود في حقِّه أبين وأظهر؛ فطالب العلم يتعلم من اللفظ مسائل أخرى؛ فالعلم يغذي بعضه بعضًا؛ وطالب العلم رابح بكل حال؛ فهو ليس كطالب المال قد يشتري السلعة وهو يظن الربح، ثم يخسر؛ فطالب العلم أي مسألة يعلمها فإنها مفتاح له؛ ولهذا قال تعالى: {يبيِّنها لقوم يعلمون}.

١١– أنه لا شيء في دين الله يكون مجهولًا لكل أحد؛ لا من العبادات، ولا من المعاملات؛ فكل شيء مبيَّن؛ فإن قيل: هناك أشياء تشكل على أهل العلم ولا يعرفون حكمها؟

فالجواب: أن الخلل هنا ليس في النص؛ ولكنه فيمن يستنبط الأحكام من النص؛ فقد يكون لنقص في علمه، أو قصور في فهمه، أو عدوان في قصده؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: ((رُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع([١])) ؛ وقد يكون الخلل في إعراض

١– أخرجه مسلم ص٦٩٩، كتاب الإيمان، باب ٥٧، بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس ... ، حديث رقم ٣٣٠ [٢٠٠] ١٢٦.

الإنسان عن التدبُّر، وبذل الاجتهاد، وطلب الحق؛ وقد يكون عند الإنسان علم، وفهم، وجلد، وتدبُّر؛ لكن هناك ذنوبًا تحول بينه وبين وصوله للحق، كما في قوله تعالى: {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}[المطففين: ١٣، ١٤]؛ لأن المعاصي تظلم القلب؛ وإذا أظلم القلب لا يستنير؛ وكيف يتبيَّن له الحق وهو مظلم؟! ولهذا قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا}[النساء: ١٠٥]، ثم قال تعالى: {واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا}[النساء: ١٠٦]، أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أنه ينبغي لمن سئل عن علم أن يستغفر الله عز وجل حتى تزول عنه الذنوب باستغفاره، ويتبيَّن له الحق؛ وعلى هذا فنقول: إن جميع الأحكام التي تتعلَّق بالعبادات أو المعاملات قد بيَّنها الله، لكن العيب عيب المستدل؛ فالأدلة واضحة كافية؛ لكن المستدل قد تخفى عليه الأحكام للأسباب التي ذكرناها، وغيرها.

ويتفرَّع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي غلط من قال: (إن النصوص لم تستوعب جميع الأحكام، وأننا محتاجون إلى العقول في الأحكام)؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال: {يبيِّنها لقوم يعلمون}؛ فالنصوص كافية من كل ناحية.

١٢– أن كل ما خالف شريعة الله فليس من أحكام الله؛ لقوله تعالى: {يبيِّنها}.

١٣– أن الخلع ليس بطلاق؛ لقوله تعالى: {الطلاق مرتان}[البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: {فإن خفتم ألَّا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به}[البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: {فإن طلقها فلا تحل له} الآية؛ ولو كان الخلع طلاقا لكان قوله تعالى: {فإن طلقها} هي الطلقة الرابعة؛ وهذا خلاف إجماع المسلمين؛ لأن المرأة تبين بالطلاق الثلاث بإجماعهم؛ وذهب بعض أهل العلم إلى أن الخلع إذا وقع بلفظ الطلاق صار طلاقا؛ واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن الخلع فسخ بأي لفظ كان – ولو بلفظ الطلاق –، وقال: إن هذا هو ظاهر الآية؛ لأنه تعالى قال: {فلا جناح عليهما فيما افتدت}؛ ولم يذكر صيغة معيَّنة؛ لأنه إنما يعتبر في العقود بمعانيها لا بألفاظها؛ فما دام هذا الطلاق الذي وقع من الزوج إنما وقع بفداء من المرأة افتدت نفسها به – فهذا لا يمكن أن نعدَّه طلاقًا ولو وقع بلفظ الطلاق؛ وما ذكره رحمه الله فإنه منظور فيه إلى المعنى؛ وما قاله غيره – من أنه إذا وقع بلفظ الطلاق كان طلاقًا – فقد نظر فيه إلى اللفظ؛ ولا ريب أن من تأمل الشريعة وجد أنها تعتني بالمعنى أكثر من الاعتناء باللفظ؛ أما الألفاظ فهي قوالب للمعاني؛ وأنت إذا ألبست المرأة ثوب رجل لا تكون رجلًا؛ كما أنك إذا ألبست رجلًا ثوب امرأة لم يكن امرأة؛ فالألفاظ عبارة عن قوالب تدلُّ على ما وراءها؛ فإذا صار المعنى هو التخلُّص من الزوج بهذا الفداء فكيف يحسب طلاقًا؟!

١٤– تعظيم شأن النكاح بأن الله ذكر له حدودًا في عقده، وفي حله؛ لأنه يترتب عليه مسائل كثيرة من المحرمية، والنسب، والميراث، وغير ذلك – كحقوق الزوجية –؛ ولهذا اشترط فيه أن يكون بولي؛ فالمرأة تستطيع أن تبيع كل مالها؛

١– أخرجه البخاري ص١٣٦ كتاب الحج، باب ١٣٢: الخطبة أيام منى، حديث رقم ١٧٤١.

لكن لا تستطيع أن تزوج نفسها، كما اشترط فيه الإشهاد على رأي كثير من أهل العلم؛ وكل العقود لا يشترط فيها ذلك؛ وأيضا اشترط فيه الإعلان على رأي بعض أهل العلم؛ والعقود الأخرى لا يشترط فيها ذلك؛ وأيضا أنه لا يصلح العقد في بعض الأحوال والأزمان؛ وهذا يشاركه فيه بعض العقود؛ وكل ذلك من باب الأهمية في هذا العقد العظيم الذي تترتَّب عليه هذه الأمور الكبيرة.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

قال أبو زهرة: الأجل هنا: العدَّة، ويصح أن يطلق على آخرها، فإن كلمة (أجل) تطلق على المدَّة كلها، كما تطلق على الزمن الذي تنتهي إليه، فيقال: أجل الدَّين هو شهران، ويقال: أجل الدَّين هو نهاية شهر كذا، وكلا التفسيرين يصح أن يكون مرادًا هنا، والأقرب أن يراد به انتهاء المدَّة.

وبلوغ الأجل المراد به هنا قرب انتهاء العدَّة، ومشارفة ذلك الانتهاء، وذلك لأن الإمساك بالمعروف، وهو المراجعة لَا يمكن أن يتحقَّق إلَّا إذا فسَّرنا بلوغ الأجل بقرب انتهائه، إذ لَا معنى للإمساك بمعروف بعد انتهاء الأجل، فإن المراجعة لَا تكون بعد انقضاء العدَّة.

ولقد قال الراغب الأصفهاني في معنى البلوغ ما نصه: (البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه، وإن لم ينته إليه؛ فمن الانتهاء: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً....}، وقوله عز وجل: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ}؛ وأما قوله عز وجل: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...}[الطلاق: ٢]، فللمشارفة، فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لَا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها له).

قال الشنقيطي: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} الْآيَةَ، ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}: انْقِضَاءُ عِدَّتِهِنَّ بِالْفِعْلِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ لَا رَجْعَةَ إِلَّا فِي زَمَنِ الْعِدَّةِ خَاصَّةً، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ}[البقرة: ٢٢٨]؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ فِي قَوْلِهِ: {ذَلِكَ} رَاجِعَةٌ

إِلَى زَمَنِ الْعِدَّةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِثَلَاثَةِ قُرُوءٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ} الْآيَةَ [البقرة: ٢٢٨]. فَاتَّضَحَ مِنْ تِلْكَ الْآيَةِ أَنَّ مَعْنَى فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ. أَيْ: قَارَبْنَ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ، وَأَشْرَفْنَ عَلَى بُلُوغِ أَجَلِهَا.

قال أبو زهرة: ومعنى الجملة السامية: إذا شارفت العدَّة الانتهاء، وقاربت العلاقة على الانقطاع التَّام وجب على الرجل أن يتدبَّر في أمره، فينظر في ماضيه معها وحاضره، وما يرجوه في المستقبل ويترقَّبه؛ فإن رجح لديه أن البقاء أولى من القطع، وأن ما كان سببًا لكلمة الطَّلاق لَا يصلح أن يكون سببًا لقطع العلاقة قطعًا باتًّا، وأن يتفرَّقا، وأنه إن أعاد الحياة أقام العدل معها، ولم يكن فيها ما يدفعه إلى الظلم، ولا في طباعه ما يدفع إلى الأذى؛ إن كان ذلك كذلك فليمسكها بمعروف، أي فليرجعها إليه معتزمًا إمساكها والبقاء معها بالمعروف، أي بالتزام الأمر المعقول الذي تعرفه العقول وتقرُّه، ويرضاه الناس، ويزكِّيه الحق سبحانه وتعالى.

وإن رجح لديه بعد أن ينظر في غابر أمره وحاضره أنه لَا يرجو في المستقبل خيرًا، وتأكَّد لديه ذلك، أو كان قريبًا منه، أو غلب الظن بذلك، فليسرحها بمعروف، أي فليمض الطلاق، ويخل بينه وبينها بمعروف، أي بالأخلاق الحسنة من غير مشاحة ولا معاندة ولا إيذاء، فإن ذلك هو الذي يعرفه العقلاء، ويؤمن به الأتقياء؛ ولقد كان الصالحون من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم لا يذكرون نساءهم اللائي يطلقونهن بسوء قط. سئل بعض التابعين: لِمَ طلقت زوجك؟ فقال: إن العاقل لَا يذكر ما بينه وبين أهله.

وإن التسريح بالمعروف يتقاضى أن يؤدّي لها كل حقوقها من مال كان عليه، وألَّا يذكرها إلَّا بخير، وأن يعاونها إن كانت في حاجة إلى معونته؛ حتى لقد قرَّر الفقهاء أنه تستحب المتعة لكل مطلَّقة؛ وقد ادعى بعض الفقهاء وجوبها[١] ﷺ، عملًا بقوله تعالى: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}.

وفى الجملة إن التسريح بالمعروف يتقاضى الامتناع عن كل أذى، ومد يد المعونة إن تعينت إليه؛ وهذا هو التسريح الجميل المذكور في قوله تعالى: {وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}.

قال ابن العثيمين: {ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا}؛ {لا} ناهية؛ والفعل بعدها مجزوم بحذف النون؛ و{ضرارًا} مفعول لأجله؛ والمعنى: لا تمسكوهن لأجل الإضرار بهن؛ وقد مرَّ أنهم كانوا في الجاهلية يراجعون الزوجات في العدَّة من أجل المضايقة؛ فحدَّد الله المراجعة باثنتين، وأنه بعد الثالثة لا رجوع حتى تنكح زوجًا غيره.

وقوله تعالى: {لتعتدوا}؛ اللام للعاقبة؛ والمعنى: لتقعوا في الاعتداء؛ أي أن عاقبة أمركم إذا أمسكتموهن ضرارًا هي الاعتداء؛ واللام التي تعرف عند بعض النحويين بـ(لام كي) تارة يراد بها التعليل؛ وتارة تكون زائدة؛ وتارة تكون للعاقبة؛ فتكون للتعليل، كما في قوله تعالى: {ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا}[العنكبوت: ٦٦]؛ وتكون زائدة، كما في قوله تعالى:

١- (قلت): الصواب هو الوجوب؛ أنظر تفسير الآية (٢٤١) من سورة البقرة.

{يريد الله ليبين لكم}[النساء: ٢٦]؛ فإذا جاءت بعد الإرادة فهي زائدة؛ لأن فعل الإرادة يتعدى بنفسه؛ وتأتي للعاقبة: وهي إذا علم بأن ما بعدها غير مقصود، مثل قوله تعالى: {فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا}[القصص: ٨].

قال أبو زهرة: وإذا كان الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان هو المطلوب، فإن الإمساك الذي يترتَّب عليه الضَّرر لا يسوغ.

وقد يسأل سائل: إن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان، وإن ذلك يفهم منه ضمنًا النهي عن الإمساك ضرارًا وإيذاءً؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى قد خير المؤمن بين أمرين لَا ثالث لهما، فكان ذلك نهيًا عن الثالث والرابع، وهو الإمساك ضرارًا، والتسريح مع الإيذاء.

والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خصَّ الإمساك ضرارًا بالنهي بعد أن فهم النهي عنه وعن غيره ضمنًا، ليبيِّن للمؤمن أنه لَا يحلُّ له أن يراجع إلَّا إذا كان قد اعتزم العدل وأراده، ولم يجد معوِّقًا له عن إقامته، بل وجد أنه يستطيع أن يتعاون مع أهله عليه، وأن التَّنفير من الطَّلاق والنهي عن القطيعة لَا يسوغان له أن يرضى بإعادة العشرة مع توقع الضِّرار والأذى، واستمرار الحياة المعتكرة بالشرِّ والحدَّة والأذى، فإنه إذا كانت القطيعة والفراق أمرين غير مرغوب فيهما، ويتنافيان مع المودَّة التي يدعو إليها الإسلام؛ فإن الضِّرار بين الزوجين أمر منهي عنه، وإن المودة هي المطلوبة، فإن تعذَّر قيامها، أو غلب على الظَّن عدم قيامها، فلا يسوغ استئناف الحياة الزوجية مع النَّفرة المستحكمة، والأذى والنشوز؛ فإن ذلك هو الكفر في الإسلام؛ لأنه كفر في العشرة، وعداوة في موطن المودَّة، ومكايدة في موضع المسالمة.

وقد فهم بعض العلماء أن المراد من الضِّرار هو الإضرار، فإن ذلك هو الذي يصلح سببًا من جانب الذي يملك الرجعة وحده وهو الزوج؛ أما الزوجة فإنها لا تملك الرجعة فلا يتصور ضرر من جانبها يكون مقصودًا عند الرجعة، والضرار يوجب عملًا مشتركًا من الجانبين، والاشتراك غير متصور؛ فالضِّرار يكون بمعنى الضَّرر؛ وإن ذلك الفهم صحيح في جملته؛ ولكن لِمَ عبَّر عن الضَّرر بالضِّرار، وعدل عن اللفظ الأصلي الموضوع له إلى لفظ آخر؟

والجواب عن ذلك هو أن الرجل عند الإمساك الذي يؤدي إلى الضِّرار – وهو مبادلة الضَّرر التي تنشأ عن المعاندة والمكايدة – له حالان:

إحداهما: أن يقصد إلى الضرر والأذى بالرجعة، بأن يمسكها مكايدة وعنادًا ومبالغة في الظلم لتكون كالمعلَّقة؛ وذلك كما كان يقع من بعض الناس في عصر التنزيل، إذ يرجعون أزواجهم قبل انتهاء العدة، ثم يطلقونهن لتطول العدَّة، وليبالغوا في الأذى، وذلك أمر منهي عنه، لَا حاجة إلى النص عليه، ومعنى الضرار فيه خفي، لأن الضَّرر فيه واقع على جانب واحد، ومن جانب واحد، أو هو على الأقل واضح في أحد الجانبين، وليس واضحًا في الآخر.

ثانيهما: هو أن يكون المطلق قاصدًا الرجعة الحق، ولكنه لم يعتزم العدل، ولم يتوقعه، ولم ير أن أسباب الطلاق قد زالت، بل أراد العودة مع قيام أسباب النَّفرة؛ فإن ذلك يكون كقاصد الضرار، وإن لم يعلنه وإن لم يشعر؛ لأنه سيكون بينهما لَا محالة وسيقع؛ ويكون حينئذٍ الضِّرار على أصل معناه، ويكون مقصودًا من فاعل الرجعة، أو في حكم المقصود.

وقد بيَّن سبحانه وتعالى أنه سيترتَّب على الرجعة مع قيام الأسباب التي أوجبت الطلاق والتي اعتبرت ضرارًا – أمران:

أحدهما: أن يعتدي في الحياة الزوجية فيظلم، بل إن إقدامه مع توقع الكيد والأذى اعتداء؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: {لِتَعْتَدُوا} فاللام هنا هي التي تسمى لام العاقبة، فهي تبيِّن أن ثمرة الرجعة التي لَا يتوقع فيها العدل هو الاعتداء، بل إن ذات الرجعة في هذه الحال من الاعتداء والظلم.

الأمر الثاني: الذي يترتَّب على الرجعة ضرارًا، هو أنه يظلم نفسه، فكما أنه يترتَّب على ذلك الضِّرار اعتداء على غيره يكون فعله ظلمًا لنفسه؛ ولذا قال سبحانه: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}: أي أن من يرجع مطلقته إضرارًا أو ضرارًا فقد ظلم نفسه ظلمًا مؤكَّدًا، وإذا كان قد أراد ظلمها فمن المؤكَّد أنه قد ناله حظ عظيم من الظلم قبل أن ينالها؛ وذلك لأنه عصى ربه فاستحقَّ عذابه، ولأنه جعل البيت الذي هو مثابة الرَّاحة والقرار مكان نكد واضطراب يستبدل فيه بالمودَّة البغضاء؛ ولأنه لَا يعيد إلى حظيرة الزوجية زوجًا ودودًا، بل عدوًّا شديدًا، وأشدُّ الأعداء من كان منك قريبًا، وقد يكون كالثعبان بين جنبيك؛ وأي ظلم للنفس فوق هذا الظلم.

قال ابن العثيمين: {ومن يفعل ذلك}: جملة شرطية؛ وجوابها: قوله تعالى: {فقد ظلم نفسه}؛ وارتبط الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصح أن يحل محل الشرط؛ وأضاف الظلم إلى نفسه – وإن كان ظلمه واقعًا على غيره –؛ لأنه جلب على نفسه الإثم، والعقوبة.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: ومن يراجع امرأته – بعد طلاقه إيَّاها في الطلاق الذي له فيه عليها الرجعة – ضرارًا بها ليعتدي حد الله في أمرها، فقد ظلم نفسه، يعني: فأكسبها بذلك إثمًا، وأوجب لها من الله عقوبة بذلك. وقد بيَّنَّا معنى (الظلم) فيما مضى، وأنه وضع الشيء في غير موضعه، وفعل ما ليس للفاعل فعله.

قال ابن العثيمين: {ولا تتَّخذوا آيات الله هزوًا}: أي لا تجعلوها مهزوءًا بها؛ أي موضع استهزاء بحيث لا تعملون بها استخفافًا بها.

قال السعدي: لمَّا بيَّن تعالى حدوده غاية التَّبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها، وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثًا، بل أنزلها بالحق والصِّدق والجِدِّ، نهى عن اتِّخاذها هزوًا، أي: لعبًا بها، وهو التجرُّؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك، أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة رفقًا به وسعيًا في مصلحته.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى ج٦ص٢٢: بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الطَّلَاقَ وَالرَّجْعَةَ وَالْخُلْعَ وَالنِّكَاحَ الْمُحَلَّلَ وَالنِّكَاحَ بَعْدَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمَوَاضِعِ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِدِينِ اللَّهِ مِنْ الْكَبَائِرِ – وَالِاسْتِهْزَاءُ هُوَ السُّخْرِيَةُ وَهُوَ حَمْلُ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ عَلَى الْهَزْلِ وَاللَّعِبِ لَا عَلَى الْجِدِّ وَالْحَقِيقَةِ – فَالَّذِي يَسْخَرُ بِالنَّاسِ هُوَ الَّذِي يَذُمُّ صِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالَهُمْ ذَمًّا يُخْرِجُهَا عَنْ دَرَجَةِ الِاعْتِبَارِ كَمَا سَخِرُوا بِالْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إلَّا جُهْدَهُمْ بِأَنْ قَالُوا هَذَا مُرَاءٍ، وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا مِنْ صَاعِ فُلَانٍ، فَمَنْ تَكَلَّمَ بِالْأَقْوَالِ الَّتِي جَعَلَ الشَّارِعُ لَهَا حَقَائِقَ وَمَقَاصِدَ مِثْلِ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ، وَكَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي تُسْتَحَلُّ بِهَا الْفُرُوجُ، وَالْعُهُودُ، وَالْمَوَاثِيقُ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَعَاقِدِينَ. وَهُوَ لَا يُرِيدُ بِهَا حَقَائِقَهَا الْمُقَوَّمَةَ لَهَا، وَلَا مَقَاصِدَهَا الَّتِي جُعِلَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ مُحَصِّلَةً لَهَا، بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَرْتَجِعَ الْمَرْأَةَ لِيَضُرَّهَا، وَلَا حَاجَةَ لَهُ فِي نِكَاحِهَا، أَوْ يَنْكِحَهَا لِيُحَلِّلَهَا، أَوْ يَخْلَعَهَا لِيَلْبَسَهَا، فَهُوَ مُسْتَهْزِئٌ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ.

قال ابن العثيمين: {واذكروا نعمت الله عليكم}: أي اذكروا باللِّسان، وبالقلب، وبالجوارح، نعمة الله عليكم حتى تقوموا بشكرها؛ فإن الغفلة عن ذكر النِّعم سبب لعدم الشكر، وقوله تعالى: {نعمة الله} مفرد مضاف؛ والمفرد المضاف يدلُّ على العموم، كما في قوله تعالى: {وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها}[النحل: ١٨]؛ ولو كان المراد بالنِّعمة مدلولها الإفرادي لكان إحصاؤها ممكنًا؛ المهم أن نِعمة الله هنا عامة؛ ونِعم الله لا تحصى أجناسها فضلًا عن أفرادها؛ فقوله تعالى: {نعمة الله عليكم} يشمل كل النِّعم – وإن دقَّت؛ لأن الله عز وجل يقول: {وما بكم من نعمة فمن الله}[النحل: ٥٣].

قال السعدي: {واذكروا نعمة الله عليكم} عمومًا باللِّسان ثناءً وحمدًا، وبالقلب اعترافًا وإقرارًا، وبالأركان بصرفها في طاعة الله.

{وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة}: أي السنة اللَّذين بيَّن لكم بهما طرق الخير ورغَّبكم فيها، وطرق الشَّر وحذَّركم إيَّاها وعرَّفكم نفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحُكم والحكمة؛ فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال {يعظكم به}: أي بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوّي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحُكم والحكمة، والترغيب أو الترهيب، فالحُكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة.

قال أبو زهرة: فقد أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يتذكروا دائمًا نعمة الله تعالى عليهم، وأن يتذكَّروا ما في الكتاب وما جاءت به السنة من أحكام وعظات.

أما النعمة التي يجب تذكُّرها: فهي نعمة الزوجية خاصة، ونعمه سبحانه وتعالى عامة، ونعمة الزوجية تتجلَّى في أن يكون للشخص أليف في الحياة يقطع معه بيداءها، ويتحمَّل معه لأْوائها؛ ويكون بيت الزوجية فيها كواحة في وسط صحراء

الحياة، وروضة يأوي إليها بعد المشاق وبعد الكدِّ واللُّغوب، فمن عبث بهذه النعمة فقد ظلم نفسه، ونسي أنعم الله سبحانه وتعالى عليه، ثم حقٌّ عليه أن يتذكَّرها؛ ومن كمال نِعَم الله أن ذكَّره بها في مقام نسيانه لها.

والتذكير الثاني: هو بما أنزل الله من الكتاب والحكمة؛ والكتاب هو القرآن الكريم، والحكمة هي السنة النبوية كما فسَّرها الشافعي رضي الله عنه، وهو تفسير حكيم نقبله؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، فلابدَّ أن تكون الحكمة غير الكتاب؛ ولا شيء نزل على النبي ﷺ بعد الكتاب غير ما اشتملت عليه السنة من أحكام؛ فما كان النبي ﷺ ينطق عن الهوى {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}.

والحكمة معناها العلم النافع الذي يتجه إلى ناحية العمل الذي به تنضبط النفس، وذلك يتلاقى مع السنة النبوية، فكانت جديرة بهذه التسمية؛ لأنها تفصل الأحكام العملية الجزئية، وترشد إلى تنفيذ ما اشتمل عليه القرآن الكريم من قواعد كلية، ونظم جامعة.

والتَّذكير بالكتاب والسنة هو تذكير بأمرين يجب أن يكونا في ذاكرة كل مؤمن، فهو تذكير زاجر، ولذا قال سبحانه وتعالى: {يَعِظُكُم} فالوعظ تذكير فيه زجر وتخويف؛ ولذلك قال الخليل بن أحمد في تعريف الوعظ: (...هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب). والضمير في {يَعِظُكُم} يعود على المذكور من الكتاب والسنة، وجعل الضمير واحدًا؛ لأنهما في مؤَداهما وغايتهما شيء واحد؛ وإن السنة ليست إلَّا تابعة للكتاب، منه أخذت قوتها وسلطانها، إذ قال تعالى: {ومَا آتَاكمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...}.

وقد قال تعالى في ختام الآية: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} بعد أن بيَّن سبحانه العواقب الوخيمة لمن يعبث بالحياة الزوجية، ويجعلها مضَارة وعداوة، لَا مودَّة فيها ولا خير، وذكَّر بنعمة الله عليه في أحكامه وشرعية الزواج، وبيَّن مغبَّة العبث بالأحكام، بعد هذا كله حذَّر وأنذر، فأمر بتقوى الله سبحانه وتعالى بأن يجعل بينه وبين غضب الله سبحانه وتعالى وعذابه وقاية، وذلك باتِّباع أوامره واجتناب نواهيه؛ وإن تربية معاني التَّقوى في النفس تجعلها تدرك الخير والشر، وتمنعها من أن يتأشب إدراكها نوازع من الهوى والعبث؛ لأن التَّقوى تربِّي المهابة من الله والخوف منه، وتجعلها تذكِّر عقابه.

ثم وصل سبحانه بالتَّهديد إلى أقصى الغاية ببيان علمه الكامل بكل شيء فقال: {وَاعْلَمُوا أَن اللَّهَ بكُلِّ شيْءٍ عَليمٌ(١)} سبحانه يعلم ما تخفي الصدور، وما تطويه النِّيَّات، وما تكنُّه السرائر، ثم إن التَّذكير بعلم الله فوق أنه إنذار، وأيّ إنذار، فيه بيان أن المصلحة فيما يشرع من أحكام، وما يبيَّن من نظم، لأنه على قدر العلم يكون الإحكام، وعلى قدر الإحاطة يكون الإتقان، فهذا التنزيل فيه حثٌّ على الطاعة، كما أن فيه إنذارًا بالمخالفة؛ والله سبحانه الهادي إلى سواء السبيل.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

قال الشنقيطي: صَرَّحَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِالنَّهْيِ عَنْ إِمْسَاكِ الْمَرْأَةِ مُضَارَّةً لَهَا؛ لِأَجْلِ الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهَا بِأَخْذِهِ مَا أَعْطَاهَا؛ لِأَنَّهَا إِذَا طَالَ عَلَيْهَا الْإِضْرَارُ افْتَدَتْ مِنْهُ؛ ابْتِغَاءَ السَّلَامَةِ مِنْ ضَرَرِهِ. وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِأَنَّهَا إِذَا أَتَتْ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ جَازَ لَهُ عَضْلُهَا، حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ}[النساء: ١٩]، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْفَاحِشَةِ الْمُبَيِّنَةِ.

فَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ هِيَ: الزِّنَا، وَقَالَ قَوْمٌ هِيَ: النُّشُوزُ وَالْعِصْيَانُ وَبَذَاءُ اللِّسَانِ. وَالظَّاهِرُ شُمُولُ الْآيَةِ لِلْكُلِّ كَمَا اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِنَّهُ جَيِّدٌ، فَإِذَا زَنَتْ أَوْ أَسَاءَتْ بِلِسَانِهَا، أَوْ نَشَزَتْ جَازَتْ مُضَاجَرَتُهَا؛ لِتَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَا أَعْطَاهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ عُمُومِ الْآيَةِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ لكلِّ طلاق أجلًا؛ لقوله تعالى: {وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن}؛ الأجل هنا مجمل؛ ولكنه مبيَّن في قوله تعالى: {والمطلقات يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروء}[البقرة: ٢٢٨]؛ وغيرها من الآيات الدالَّة على العدَّة.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن القرآن يأتي مجملًا أحيانًا، ومفصَّلًا أحيانًا؛ ويدلُّ لذلك قوله تعالى: {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت}[هود: ١]؛ وفائدة الإتيان بالإجمال، ثم التفصيل: أنه إذا ورد النص مجملًا فإن النفس تتطلَّع إلى معرفة ذلك المجمل، وبيان ذلك المبهم؛ فيكون في ذلك شدَّة الاشتياق إلى العلم.

٢- جواز المراجعة بعد تمام العدَّة قبل أن تغتسل؛ لقوله تعالى: {فبلغن أجلهنَّ فأمسكوهن بمعروف أو سرِّحوهن}؛ وجه الدلالة أن قوله تعالى: {فأمسكوهنَّ} جواب للشرط في قوله تعالى: {وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنَّ}؛ وهذا يقتضي أن يكون الإمساك أو التسريح بعد بلوغ الأجل ضرورة أن المشروط يقع بعد الشرط؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم؛ فذهب الإمام أحمد – رحمه الله – إلى أن للزوج أن يراجع زوجته بعد طهرها من الحيضة الثالثة حتى تغتسل؛ فلو طهرت في الصباح بعد الفجر، ثم لم تغتسل إلا لصلاة الظهر، وراجعها زوجها فيما بين طهارتها واغتسالها، صحَّت المراجعة؛ وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه ينتهي وقت المراجعة بالطهارة من الحيضة الثالثة؛ وأوَّلوا قوله تعالى: {فبلغن أجلهنَّ} أن المعنى: قاربن بلوغ أجلهن؛ وأنه لا رجعة بعد الطهر من الثالثة؛ والقول الأول أصح؛ لأنه هو ظاهر الآية؛ وهو الوارد عن الصحابة رضي الله عنهم؛ ويكون هذا من باب التَّوسعة على الزوج؛ لأنه قد يندم فيرجع؛ وهو نظير ثبوت الخيار بين المتبايعين ما داما في المجلس؛ وإلَّا فالعقد قد تمَّ بالإيجاب والقبول؛ لكن لهما الخيار ما داما في المجلس توسعةً عليهما؛ وهذا شيء معلوم في غريزة الإنسان وطبيعته، إنه إذا مُنع من الشيء صار في شوق إليه؛ فإذا حصله فقد يزهد فيه.

٣- أنَّ الإمساك بمعروف أو التسريح بمعروف واجب؛ لقوله تعالى: {فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف}.

٤- وجوب المعاشرة بالمعروف حتى بعد الطلاق؛ لقوله تعالى: {فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف} لئلّا يؤذي الإنسان زوجته بالقول؛ أو بالفعل، أو بمنع الحقوق، أو ما أشبه ذلك؛ وممَّا هو معروف أن ما يجري بين الأزواج أحيانًا من المشاحنة، وادعاء الزوج ما يكون لزوجته من الأمتعة التي أعطاها إيَّاها في المهر، أو فيما بعد ذلك حتى يطالبها بالحليّ الذي أعطاها؛ خلاف المعروف الذي أمر الله به.

٥- عناية الله عز وجل بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف سواء في حال الاتفاق أو في حال الاختلاف؛ لأن ذلك هو الذي يقيم وحدة الأمة؛ فإن الأمة إذا لم تتعامل بالمعروف - بل بالمنكر والإساءة - تفرَّقت واختلفت؛ فالأمة الإسلامية أمة واحدة، كما قال الله تعالى: {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا}[آل عمران: ١٠٣].

٦- تحريم إمساك المطلقة - أي مراجعتها - للإضرار بها؛ لقوله تعالى: {ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا}.

٧- أن كل من عامل أخاه ضرارًا فهو معتد؛ فلا يحل لأحد أن يعامل أخاه المسلم على وجه المضارة؛ وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: ((من ضار ضار الله به، ومن شاق شق الله عليه([١])))، وجاء في حديث آخر: ((لا ضرر ولا ضرار([٢])))؛ فالمضارَّة بين المسلمين محرَّمة؛ لذلك قال تعالى: {ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا}.

٨- أنَّ المضارة عدوان؛ لقوله تعالى: {لتعتدوا} سواء كانت اللام للعاقبة أو للتعليل - أي سواء كان المقصود من المضارَّة الاعتداء؛ أو لم يقصد الاعتداء لكن حصل.

٩- تحريم ظلم الإنسان لنفسه؛ لأن الله تعالى نهى عن هذه الأشياء، ثم قال تعالى: {ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه}.

١٠- أنَّ فعل المعاصي ظلم للنفس؛ فلا يقول الإنسان: (أنا حر أفعل ما أشاء، وأصبر على العذاب)؛ هذا خطأ؛ فأنت لا يحلُّ لك أن تظلم نفسك؛ فظلم الغير عدوان وحرام؛ وظلم النفس أيضًا عدوان وحرام؛ وفي الحديث: ((ولنفسك عليك حقًّا([٣]))).

١- أخرجه أحمد ٤٥٣/٣، حديث ١٥٨٤٧، وأخرجه الترمذي ص١٨٤٧، كتاب البر والصلة، باب ٢٧: ما جاء في الخيانة والغش، حديث رقم ١٩٤٠؛ وأخرجه أبو داود ص١٤٩٢، كتاب القضاء باب ٣١: في القضاء، حديث رقم ٣٦٣٥، وأخرجه ابن ماجة ص٢٦١٧، كتاب الأحكام، باب ١٧: من بنى في حقه ما يضر جاره، حديث رقم ٢٣٤٢، قال الألباني في صحيح أبي داود ٤٠٤/٢: حسن.

٢- أخرجه أحمد ٣١٣/١، حديث رقم ٢٨٦٧ من حديث ابن عباس، وأخرجه ابن ماجة ص٢٦١٧، كتاب الأحكام، باب ١٧: من بني في حقه ما يضر جاره، حديث رقم ٢٣٤٠؛ وأخرجه مالك في الموطأ مرسلًا ٥٧١/٢، كتاب الأقضية، باب ٢٦، القضاء في المرفق، وأخرجه الحاكم في المستدرك من طريق أبي سعيد الخدري ٥٧/٢ - ٥٨، وقال حديث صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٤٣/١، حديث رقم ٢٥٠، صحيح.

٣- أخرجه البخاري ص١٥٤، كتاب الصوم، باب ٥١: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ... ، حديث رقم ١٩٦٨.

١١- أنَّ من ظلم غيره بعدوانه عليه فقد ظلم نفسه في الحقيقة؛ لأن الظالم إذا لم يتخلَّص من مظلمته في الدنيا فسوف يؤخذ من حسناته للمظلوم في الآخرة؛ فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئات المظلوم؛ فطرحت عليه، ثم طرح في النار؛ ولذلك عبَّر الله عن الإضرار بالزوجة في إمساكها بقوله تعالى: {فقد ظلم نفسه} مع أنه ظالم للزوجة أيضًا.

١٢- إغراء المخاطب باجتناب ظلم غيره؛ لأن الظالم قد يظن أنه منتصر على المظلوم؛ فإذا علم أنه ظالم لنفسه تَهَيَّبَ ذلك واستقام على العدل.

١٣- أنَّ آيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية؛ وهي ما جاءت به الرسل من الشرع؛ وآيات كونية؛ وهي هذه الكائنات التي نشاهدها في السموات والأرض والشمس والقمر؛ أما كون ما جاءت به الرسل من الشرع آية فلأنها أمور لا يمكن أن يأتي البشر بمثلها – ولا سيما القرآن الكريم –؛ وأما كون هذه الكائنات آيات كونية فإن هذه المخلوقات لا يمكن لأحد أن يخلق مثلها؛ وقد تحدَّى الله عز وجل أولئك العابدين أن تخلق معبوداتهم شيئًا من هذه الكائنات، فقال عز وجل: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلِّبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب}[الحج: ٧٣]؛ فهذه المخلوقات في انتظامها وحسنها، كلها آيات تدلُّ على أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق؛ وعلى وحدانيته، وعلى قدرته وتمام حكمته، كما قيل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

١٤- تحريم اتِّخاذ آيات الله هزوًا سواء اتَّخذ الكل أم البعض؛ فمثال اتِّخاذ آيات الله الشرعية هزوًا أن يهزأ الإنسان ويسخر من شرع الله عز وجل، سواء سخر بالشرع كله أو بجزء منه؛ لأن الاستهزاء ببعض الشريعة استهزاء بجميع الشريعة؛ وهناك فرق بين من يدَّعِ العمل مع تعظيمه لشرع الله عز وجل، وبين من يسخر بالشرع ويستهزئ به ويرى أنه عبث وأنه باطل وما أشبه ذلك؛ فالأول له حكم العصاة؛ فإن كانت معصيته كبيرة تبلغ به الكفر فهو كافر؛ وإلا فهو فاسق؛ وإلا فهو دون الفاسق – كما لو كانت من صغائر الذنوب ولم يصرّ عليها –؛ وأما الثاني المستهزئ الذي يرى أن الشرع عبث، أو أنه لأناس انقرضوا ومضوا، وأن هذا العصر لا يصلح للعمل بهذا الشرع؛ فهذا لا شك أنه كافر؛ وإذا استهزأ مستهزئ بحامل الشريعة، أو العامل بها من أجل حمله الشريعة، أو عمله بها فهو كافر؛ لأنه استهزأ بشريعة من شرائع الله؛ ولهذا قال عز وجل في أولئك النَّفر الذين قالوا: (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء – يعنون الرسول، وأصحابه – أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء)؛ قال الله سبحانه وتعالى فيهم: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم}[التوبة: ٦٥، ٦٦]؛ أما الذين يقولون عن حملة الشرع والعاملين به: (هؤلاء رجعيون)، وقد ذكر الله في آخر الآيات ما يدلُّ على كفرهم في قوله تعالى: {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون}[المطففين: ٣٤]؛ فدلَّ هذا على أن أولئك الذين يسخرون بالمؤمنين – من أجل إيمانهم – كفار.

ومثال اتخاذ الآيات الكونية هزوًا: لو نزل المطر في أيام الصيف – وهذا لم تجر به العادة – فقال: (ما هذا التبديل! يوم أن يكون الناس محتاجين إلى المطر في الشتاء لا يجيء؛ والآن يأتي!) وهذا يمكن أن يوجد من بعض الفجرة الذين يقولون مثل هذا الكلام؛ أو مثلًا يُغلب قوميون من العرب – تغلبهم اليهود مثلًا، فيقول المستهزئ بآيات الله الكونية –: (ما هذا؟ كيف يكون النصر لليهود على العرب – على بني كنعان، وعدنان، وقحطان؛ كيف هذا وهم بنو إسرائيل؟!) وما أشبه ذلك؛ لكن المؤمن يستسلم لأمر الله عز وجل الكوني كما يستسلم لأمره الشرعي؛ ويرى أنه في غاية الحكمة وفي غاية الإتقان وأنه في مكانه، وأن ما حدث فهو واقع موقعه، وأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن الله عز وجل حكيم؛ لا يصنع شيئًا إلّا لحكمة؛ فالمهم أن الاستهزاء بالآية الكونية يمكن أن يكون؛ وقد نهى الله تعالى أن تُتَّخذ آياته هزوًا؛ وهو عام للكونية والشرعية؛ لكن بما أن الآية في سياق الآية الشرعية، تكون أخصّ بالآيات الشرعية منها بالآيات الكونية.

١٧– أنَّ المخالفة نوع من الاستهزاء؛ لأنَّك إذا آمنت بأن الله عز وجل هو الرب العظيم الذي له الحُكم، وإليه الحُكم، ثم عصيته فكأنك تستهزئ بهذه العظمة؛ فلو أن ملكًا من الملوك – ولله المثل الأعلى – نهاك عن شيء، ثم إنك أمامه وعلى عينه تخالف هذا الأمر، فسيقول لك: (أنت تستهزئ بي؛ لأني نهيتك، ففعلت ما نهيتك عنه أمامي)؛ فالمعصية نوع من الاستهزاء بالله عز وجل – وإن كانت ليست من النوع الذي يخرج به الإنسان من الإسلام –.

١٨– وجوب ذكر نعمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {واذكروا نعمت الله عليكم}؛ والذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح؛ فذِكرها باللِّسان أن تقول: (أنعم الله علي بكذا)، كما قال تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث}[الضحى: ١١]؛ فتثني على الله عز وجل بها تقول: اللهم لك الحمد على ما أنعمت علي به من المال، أو الزوجة، أو الأولاد، أو ما أشبه ذلك؛ وذكرها بالقلب أن تستحضرها بقلبك معترفًا بأنها نعمة من الله؛ وذكرها بالجوارح أن تعمل بطاعة الله، وأن يرى أثر نعمته عليك.

١٩– أنَّ منّة الله علينا بإنزال الكتاب والحكمة أعظم من كل منّة؛ يؤخذ ذلك من تخصيصها بعد التعميم؛ لأن التخصيص بعد التعميم يدلُّ على أهميتها.

٢٠– أنَّ القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: {وما أنزل عليكم من الكتاب}؛ لأن ما أنزل الله إما أن يكون عينًا قائمة بنفسها؛ أو صفة قائمة بموصوفها؛ فأمَّا الأول فمخلوق، كما في قوله تعالى: {أنزل من السماء ماء}[الأنعام: ٩٩]، وقوله تعالى: {وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج}[الزمر: ٦]، وقوله تعالى: {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد}[الحديد: ٢٥]؛ وأمَّا الثاني فكقوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}[الفرقان: ١]، وكما في هذه الآية: {وما أنزل عليكم من الكتاب}؛ وهذا يكون صفة لله عز وجل غير مخلوقة.

٢١– أنَّ شريعة الله عز وجل كلَّها حكمة؛ لقوله تعالى: {وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي أنه لا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا في طلب الحكمة، أو أن نتمحل حكمة بعيدة قد تكون مرادة لله، أو غير مرادة؛ لأننا نعلم أن كل ما شرعه الله فهو لحكمة؛ ومن الحكمة امتحان العبد بالامتثال فيما لا يعلم حكمته؛ ولهذا لما سئلت عائشة رضي الله عنها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: ((كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نقضي الصلاة(١)))؛ فجعلت الحكمة أمر الله، ورسوله؛ أما السؤال عن الحكمة من باب الاسترشاد فإن هذا لا بأس به؛ ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون الرسول ﷺ عن حكمة بعض الأشياء، كما في ... قوله تعالى: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج}[البقرة: ١٨٩]؛ والسؤال على هذا الوجه من باب طلب العلم الذي يزداد به المؤمن إيمانًا وعلمًا؛ وأما السؤال عن الحكمة بحيث لا يستسلم الإنسان للحكم، ولا ينقاد إلَّا بمعرفتها فهذا ضلال واستكبار عن الحق، واتباع للهوى، وجعل الشريعة تابعة لا متبوعة.

٢٢- أن ما جاء في كتاب الله موعظة يتعظ بها العبد؛ و(الاتِّعاظ): معناه أن الإنسان يجتنب ما فيه مضرَّة إلى ما فيه منفعة؛ يقال: (وعظته فاتَّعظ): أي انتفع وتَرَكَ ما فيه مضرَّته إلى ما فيه مصلحته؛ لقوله تعالى: {يعظكم به}[البقرة: ٢٣١].

٢٣- ثبوت رحمة الله عز وجل، وأن الله تعالى ذو رحمة واسعة؛ لقوله تعالى: {وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به}؛ فرحمة الله تعرف بآثارها.

٢٤- وجوب التَّقوى؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله}.

٢٥- عموم علم الله لكل شيء؛ لقوله تعالى: {أن الله بكل شيء عليم}.

٢٦- تحذير المرء من المخالفة؛ لأنه إذا علم أن الله بكل شيء عليم حذَّر من مخالفته؛ ولهذا أعقبها بعد الأمر بالتَّقوى، وقال تعالى: {واتَّقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم}.

٢٧- الرَّد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم أفعال العباد حتى تقع منهم؛ وهذا كان الغلاة يقولونه قديمًا؛ قال شيخ الإسلام: (ومنكروه اليوم قليل)؛ والقدرية هم الذين يقولون: إن للعبد مشيئة، وقدرة مستقلتين عن الله عز وجل.

١- (قلت): مسلم (٣٣٥).

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

قال أبو زهرة: بعد أن بيَّن سبحانه العواقب الوبيلة التي تترتَّب على الإمساك ضرارًا، وما فيه من ظلم للرجل والمرأة معًا، أخذ يبيِّن حُكمه سبحانه في ظلم آخر يقع بالنساء وعاقبته وبيلة للمجتمع، فقال سبحانه: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}.

قال البغوي: وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ، نَزَلَتْ فِي جَمِيلَةَ بِنْتِ يَسَارٍ أُخْتِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ كَانَتْ تَحْتَ أبي البداح بن عَاصِمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَجْلَانَ، فَطَلَّقَهَا.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو : حَدَّثَنِي أَبِي حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ عَنْ يُونُسَ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بن يسار قال: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا! ثُمَّ جِئْتَ تخطبها؟ ألا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ، فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فزوّجها إِيَّاهُ[١].

قال ابن العثيمين: {وإذا طلقتم النساء}: سبق معنى الطلاق؛ والخطاب للأزواج؛ والمراد بـ{النساء} الزوجات.

{فبلغن أجلهن}: أي انتهت عدتهن.

قال أبو زهرة: بلوغ الأجل هنا هو بلوغ أقصى العدَّة، فالبلوغ هنا غير البلوغ في الآية السابقة، إذ الأول كان للمقارنة والمشارفة، وهنا للانتهاء والسياق هو الذي عيَّن معنى البلوغ في الأول كما بيَّنَّا، وهو الذي عيَّن معنى البلوغ الثاني، إذ إن العقد المعبَّر عنه بقوله تعالى: {أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}، يدلُّ على أن المراد هو انتهاء العدَّة؛ إذ لا يتصور النكاح وهو العقد

١- إسناده صحيح على شرط البخاري، أبو عمرو هو حفص بن عبد الله بن راشد، إبراهيم هو ابن طهمان، يونس هو عبيد، والحسن هو ابن أبي الحسن البصري.
- وهو عند المصنف في شرح السنة (٢٢٥٦) بهذا الإسناد.
- وأخرجه البخاري ٥١٣٠ من طريق أحمد بن أبي عمر بهذا الإسناد.
- وأخرجه البخاري ٤٥٢٩ وأبو داود ٢٠٧٨ والترمذي ١٩٨١ والنسائي في (التفسير) (٦١) و(٦٢)، والطيالسي (٩٣٠)، والدار قطني (٣/ ٢٢٢)، والطبري (٤٩٣٠) و(٤٩٣١) و(٤٩٣٢) و(٤٩٣٤)، والواحدي (١٥٣) و(١٥٤)، والبيهقي (٧/ ١٣٨) من طرق عن الحسن به.

الذي يكون من طرفين إلَّا بعد انتهاء العدَّة؛ ولذا قال الشافعي رضي الله عنه في هذه الآية والتي سبقتها: (دلَّ سياق الكلامين على اختلاف البلوغين).

والعَضْل معناه هنا المنع الظالم، وأصله بمعنى الحبس والتضييق مع الألم، ومنه: عضلت الدجاجة إذا تعلَّقت بها بيضتها فلم تخرج منها، وعضل المرأة يمنعها من الزواج من غير مبرر فيه حبس لها وتضييق عليها، وإرهاق لنفسها ولحسِّها. وإن النساء اللائي يطلقن يتعرضن لظلم المطلقين، فيحاول المطلقون أن يرهقوهن من أمرهنَّ عسرًا، بأن يمنع كل مطلِّق من طلقها من أن تتزوج من غيره، خصوصًا إذا كان صاحب سطوة باغية، أو كان ذا جبروت طاغية؛ وتلك نزعة جاهلية، لَا يقرّها عرف ولا شرع ولا عقل، ويتعرَّض أولئك المطلَّقات لظلم ذويهن، فقد يردنَ العودة إلى أزواجهن، ويتراضين معهم على ذلك، ولكن يقف الولي محاجزًا، حاسبًا أن ذلك مهانة له ولها، كما فعل بعض الناس في عصر النبي ﷺ؛ وقد ترتضي المطلَّقة رجلًا زوجا لها، عِفًّا في عرضه، تقيًّا في دينه فيملأ نفسها؛ ولكن لَا يرتضيه أولياؤها، لأمر لَا ينقص من قدره، كفقر أو نحوه، فيمنعونها من ذلك الزواج!.

قال ابن العثيمين: {فلا تعضلوهن}: أي تمنعوهن؛ والخطاب للأولياء؛ {أن ينكحن أزواجهن} جمع زوج؛ وسمِّيَ الزوج زوجًا؛ لأنه يجعل الفرد اثنين بالعقد؛ فالزوج يشفع زوجته؛ وهي كذلك؛ والمراد بال{أزواج} هنا الخاطبون لهن؛ وعبر عنهم بالأزواج باعتبار ما يكون.

قال أبو زهرة: وهنا نكتة بلاغية نشير إليها؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبَّر عن الذين يختارهم النساء ويمنعن عنهم ظلمًا بالأزواج مع أن الزواج لم يتم، للإشارة إلى الحقيقة المقرَّرة الثابتة، وهو أن من يقع اختيارها عليه، ويتراضيان عليه بالمعروف، ولم يكن الزواج بينهما فيه ما يشينها أو يشين أسرتها هو الذي ينبغي أن يكون ازدواجها به، وهو في حكم الفطرة زوجها، وعلى الأولياء ألَّا يعاندوا حكم الفطرة، بل عليهم أن ينفذوه ويقروه، ولا يصح لأحد أن يعارضه.

قال ابن العثيمين: وأضاف هنا النكاح إلى النساء؛ لأن المراد به العقد؛ والعقد حاصل من الطرفين؛ فيقال: نكحت المرأة الرجل؛ ونكح الرجل المرأة؛ وأما الوطء فيقال: نكح الرجل زوجته؛ ويقال: نكح بنت فلان – أي عقد عليها فإذا كان المراد بالنكاح العقد صح أن يطلق على الرجل، وعلى المرأة؛ وإذا كان الجماع فهو للرجل خاصة.

قال أبو زهرة: وقد قال بعض العلماء: إن الخطاب للمطلِّقين ليمتنعوا عن تلك العنجهية الجاهلية؛ وقال بعضهم الخطاب للأولياء لكيلا يحولوا بين النساء وبين الزواج ممَّن يردن من غير سبب ومبرِّر، سواء أكان الزوج الذي ارتضته هو المطلِّق السابق أم كان غيره.

ونحن نرى أن الخطاب عام لكل المؤمنين ممَّن يقع في دائرتهم ذلك، فهو يعمُّ المطلِّقين، ويعمُّ الأولياء، ويعمُّ غيرهم ممَّن يتَّصلون بهم، ويعمُّ أولياء الأمر الذين بيدهم الهيمنة على الأمور، والتعميم بهذا الشكل يدلُّ على التكافل بين آحاد الأمة،

ووجوب التعاون بينهم في منع كل ظلم، وخصوصًا ما يقع على الضعفاء، وما يمسُّ الحرية الشخصية في أدقِّ ما تتَّجه إليه، ولا شيء يهم المرأة أكثر من اختيار زوجها، ولا عقد أمسُّ بالوجدان من عقد الزواج، ولا اتِّفاق أكبر خطرًا في الحياة من ذلك الاتِّفاق؛ فالظلم فيه خطير بمقدار ماله من خطر وشأن.

غير أن المرأة ليست لها الحرية المطلقة في اختيار من تشاء من الأزواج، بل إن رضاها مقيد بالمعقول والمشروع؛ ولذا قيد التراضي بقوله: {إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ}: أي بالأمر الذي تسير عليه العقول، ويجري به العرف، ويقرُّه العقل، ولم يكن ثمَّة سبب للاعتراض، فليس من المعقول أن يطلق اختيارها ويحترم إذا اختارت لمجرَّد الهوى العارض، سواء أكان كفئًا لها أم لم يكن كفئًا؛ ولذلك سوَّغ أبو حنيفة للولي أن يعترض إن تزوجت بغير كفء، فهو قد أطلق حريتها، ولكن إن أساءت الاختيار كان للولي الاعتراض، وغير أبي حنيفة أشركوا الولي معها في الاختيار حتى لَا تضل، ولكن نهاهم القرآن عن أن يمتنعوا من غير سبب معقول، وإلَّا كان ذلك عضلًا، ولها أن ترفع الأمر إلى القاضي صاحب الشأن ليرفع ظلم الأولياء.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٤ص٨٤: وَقَوْلُهُ هُنَا: {بِالْمَعْرُوفِ}. يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَوْ رَضِيَتْ بِغَيْرِ الْمَعْرُوفِ لَكَانَ لِلْأَوْلِيَاءِ الْعَضْلُ وَالْمَعْرُوفُ تَزْوِيجُ الْكُفْءِ. وَقَدْ يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يَقُولُ: مَهْرُ مِثْلِهَا مِنْ الْمَعْرُوفِ؛ فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ أُولَئِكَ.

قال ابن العثيمين: {بالمعروف} الباء للمصاحبة؛ فالمعنى أن يكون الرضا بينهم مصاحبًا للمعروف غير منكر شرعًا، ولا عرفًا. {ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر}: المشار إليه ما سبق من الأحكام؛ والكاف للمخاطبة؛ والخطاب لكل من يصح خطابه؛ فإن قال قائل: لماذا لم يجئ الخطاب جمعًا مع قوله تعالى: {إذا طلقتم ... فلا تعضلوهن}؟ فيقال: إن اسم الإشارة إذا خوطب به جماعة جاز أن يذكر مفردًا، ولو كانوا جماعة؛ وجاز أن يراعى في ذلك المخاطب؛ فالكاف التي تتصل باسم الإشارة يجوز فيها لغة ثلاثة أوجه كما سبق في قوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه}[البقرة: ٢]؛ و{يوعظ به}: أي يذكَّر به وينتفع؛ و{اليوم الآخر} هو يوم القيامة؛ وصف بذلك لأنه آخر مراحل الإنسان.

{ذلكم أزكى لكم وأطهر}: المشار إليه ما سبق من الأحكام؛ وأتى الخطاب مراعيًا فيه المخاطب – وهم جمع –؛ و{أزكى} اسم تفضيل من الزكاء؛ و(الزكاء) في الأصل النمو؛ ومنه الزكاة؛ لأنها تنمي المال بإحلال البركة فيه؛ وتنمي الأخلاق بخروج الإنسان عن طائفة البخلاء إلى طائفة الكرام؛ {أزكى لكم}: أي في أعمالكم، ونموها وكثرتها؛ لأنكم إذا اتَّعظتم بذلك أطعتم الله ورسوله، فزادت الأعمال وزاد الإيمان؛ لأن الإيمان يزداد بامتثال الأمر واجتناب النهي لله عز وجل؛ و{أطهر}: أي أشدُّ طهرًا – يعني من الذنوب –.

قال أبو زهرة: ذلكم أيها المؤمنون أجمعون من غير تخصيص طائفة بالخطاب، وهو ما شرعه الله سبحانه من أحكام خاصة بسلطان الأزواج والأولياء، أزكى وأطهر، والزكاة النماء، أما أنه أزكى وأنمى؛ فلأن قيام الأسرة على العدل والمودَّة والتراحم يؤيِّد في عدد الأمة فيكثر النسل؛ ويزيد من قوتها؛ لأن الجماعات القوية هي التي تقوم على أسرة قوية، ولا شيء يقوي الأسرة أكثر من المودة والعدل والرحمة؛ وأما أنه أطهر فلأن المرأة إذا عوملت معاملة كريمة بالحق والعدل وأطلقت حريتها في دائرة المعروف المعقول ولم تظلم في رغباتها العادلة، أدَّى ذلك إلى الطهر والعفاف؛ فإن احترام النفس صون وعفاف، وامتهانها نقيض ذلك؛ لأن النفس إذا أكرهت جمحت، وإذا جمحت لم ترتبط برباط من الحكمة والصون والعفاف، بل إنها إذا جمحت عميت، فلا تدرك خيرًا ولا شرًّا.

ولقد قال سبحانه: {ذَلِكُمْ}: بضمير الجمع، وغيَّر النَّسق؛ للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها في اختيار زوجها، إن كان الاختيار في دائرة المعقول – حقٌّ على الجميع، وفائدته للجميع.

قال الطبري: قوله: {وأطهر}، فإنه يعني بذلك: أطهر لقلوبكم وقلوبهن وقلوب أزواجهن من الريبة. وذلك أنهما إذا كان في نفس كل واحد منهما – أعني الزوج والمرأة – علاقة حب، لم يؤمَن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحلَّه الله لهما، ولم يؤمَن من أوليائهما أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلهما أن يكونا منه بريئين. فأمر الله تعالى ذكره الأولياء – إذا أراد الأزواج التراجع بعد البينونة بنكاح مستأنف في الحال التي أذن الله لهما بالتراجع – أن لا يعضل وليَّته عما أرادت من ذلك، وأن يزوجها. لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهر لقلوبهم مما يخاف سبوقه إليها من المعاني المكروهة.

ثم أخبر تعالى ذكره عباده أنه يعلم من سرائرهم وخفيَّات أمورهم ما لا يعلمه بعضهم من بعض، ودلَّهم بقوله لهم ذلك في هذا الموضع، أنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح من كانوا أولياءه من النساء إذا تراضت المرأة والزوج الخاطب بينهم بالمعروف، ونهاهم عن عضلهن عن ذلك لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوب من غلبة الهوى والميل من كل واحد منهما إلى صاحبه بالمودَّة والمحبَّة، فقال لهم تعالى ذكره: افعلوا ما أمرتكم به إن كنتم تؤمنون بي وبثوابي وبعقابي في معادكم في الآخرة، فإني أعلم من قلب الخاطب والمخطوبة ما لا تعلمونه من الهوى والمحبَّة. وفعلكم ذلك أفضل لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر لقلوبكم وقلوبهن في العاجل.

قال ابن العثيمين: {والله يعلم[١]}: أي ما فيه مصلحتكم، ونقاؤكم، وطهركم؛ وحذف المفعول لإفادة العموم؛ لأنه إذا حذف المفعول من الفعل المتعدي صار شاملًا لكل ما يحتمله؛ فهو يعلم الحاضر والمستقبل والماضي وما يصلحكم وما

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

لا يصلحكم، ومن يمتثل منكم ومن لا يمتثل؛ {وأنتم لا تعلمون}: أي لا تعلمون ذلك؛ والجملة هنا اسمية في إسناد الله العلم إلى نفسه، وفي نفي العلم عن عباده.

قال أبو زهرة: ولقد ذيَّل سبحانه الآية الكريمة بقوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} للإشارة إلى أن شرع الله تعالى فيه النفع الدائم، والمصلحة الحقيقية، والنتائج المرضية؛ لأنه شرع من يعلم كل شيء ولا يجهل شيئًا، وليس للناس أن يتمرَّدوا عليه، أو يخالفوه، أو يهونوا مخالفته في أنفسهم بدعوى أنهم يرونه في الظاهر مخالفًا للظاهر من مصلحتهم؛ فإن ما يدركونه مصلحة ليس بمصلحة في ذاته إذا جاء نص الشرع القاطع على خلافه؛ لأن علم الإنسان قاصر، وعلم الله وحده هو الكامل؛ فلنتبع شرع الله، ولا نُحكِّم الهوى في نصوص الكتاب، ولنَحْثُ التراب في وجوه الذين يحاولون مخالفة النصوص الصريحة القاطعة بدعوى أن المصلحة في خلافها؛ لأنه لَا توجد مصلحة قاطعة تخالف نصًّا قاطعًا؛ إنما هي أوهام، وعقول خاضعة لأزمان محكومة بالشَّر المتكاثف، حتى حجب النور؛ ولنقل لهم إن شرع الله هو المصلحة: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.

قال السعدي: وفي هذه الآية، دليل على أنه لابدَّ من الولي في النكاح، لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلَّا عن أمر، هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه لا يحل عقد النكاح قبل انقضاء العدَّة؛ لقوله تعالى: {فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن}؛ فإن النكاح في العدة باطل إلَّا ممَّن كانت العدَّة له إذا لم يكن طلاقه بينونة كبرى.

٢- تحريم منع الولي موليته أن تنكح من رضيته؛ لقوله تعالى: {فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف}.

٣- أن النكاح لابدَّ فيه من وليّ؛ وأن المرأة لا تزوِّج نفسها؛ وجه ذلك أنه لو كانت تملك العقد لنفسها ما كان للعضل تأثير؛ فلولا أن عضلهم مؤثِّر ما قال الله تعالى: {فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن}؛ لأنهم لو عضلوا، ولم يكن الوليُّ شرطًا لزوجن أنفسهن؛ وربما ينازع منازع في دلالتها على ذلك؛ لأنه قد يقول: إن الله نهى عن منعهن؛ والإنسان قد يمنع بحسب العادة أو العرف ابنته أو موليته من أن تنكح زوجًا - وإن كان يمكنها أن تتزوج هي بنفسها -؛ لأنها لا تريد أن تخالفهم مخافة المعرَّة واللَّوم من الناس؛ بمعنى أن الآية ليست صريحة واضحة في أنه لا يمكن النكاح إلَّا بوليّ؛ لأنه ممكن أن يكون لها حق تزويج نفسها لكن يمنعها أبوها ويقول: إذا زوجت نفسك قاطعتك، أو هجرتك؛ وعلى فرض أنها

لا تدلُّ على ذلك فهناك أدلة أخرى تدلُّ على اشتراط الوليّ، مثل قوله تعالى: {ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا} [البقرة: ٢٢١]، وقول النبي ﷺ: ((لا نكاح إلَّا بوليّ[١])).

٤- إطلاق الشيء على ما مضى، أو ما يستقبل مع أنه في الحال لا يتَّصف به؛ وذلك قوله تعالى: {أن ينكحن أزواجهن}؛ لأنه إذا كان المراد من طلقت، ثم أراد زوجها أن يعود إليها، فهم أزواجهن باعتبار ما مضى؛ وإن كان المراد الخطاب الذين يخطبونهن بعد انقضاء العدَّة فهم أزواجهن باعتبار المستقبل؛ وقد جاء التعبير عن الماضي والمستقبل في القرآن، كقوله تعالى: {وآتوا اليتامى أموالهم}[النساء: ٢] مع أنهم حين إتيان المال قد بلغوا؛ فهذا تعبير عن الماضي؛ وقوله تعالى: {إني أراني أعصر خمرا}[يوسف: ٣٦] وهو لا يعصر الخمر؛ ولكن يعصر عنبًا يكون خمرًا؛ فهذا تعبير عن المستقبل.

٥- اعتبار الرضا في عقد النكاح سواء كان من الزوج أو من الزوجة؛ لقوله تعالى: {إذا تراضوا بينهم بالمعروف}؛ فالرضا شرط لصحة النكاح سواء أكانت المرأة بكرًا أم ثيِّبًا؛ وسواء أكان الوليُّ أباها أم غيره – على القول الراجح –؛ وأنه ليس للأب ولا لغيره أن يجبر المرأة على النكاح؛ لعموم قول النبي ﷺ: ((لا تنكح الأيم حتى تستأمر؛ ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: كيف إذنها يا رسول الله؟ قال: أن تسكت[٢]))؛ وورد في صحيح مسلم: ((البكر يستأذنها أبوها[٣]))؛ وهذا صريح في أنه لا يحل لأحد أن يزوج ابنته وهي كارهة؛ بل لابدَّ من رضاها؛ والمعنى يقتضيه أيضًا؛ لأنه إذا كان الأب لا يملك أن يبيع شيئًا من مالها إلَّا برضاها، فكيف يملك أن يزوجها بدون رضاها؟! فلو أن رجلًا أكره ابنته أن تشتري هذا البيت، فالعقد غير صحيح مع أنه بإمكانها إذا اشترت البيت وهي كارهة أن تبيعه بعد يوم أو يومين؛ فكيف يملك أن يكرهها على أن تتزوج برجل لا تريده؟! فالشريعة جاءت من لدن حكيم خبير؛ فالصواب بلا شك أنه لا يحلُّ للإنسان أن يجبر ابنته على نكاح من لا تريد مهما كان؛ لكن إذا أرادت إنسانًا ليس مرضيًّا في دينه وخلقه، فللولي أن يأبى – ولو بقيت لا تتزوج طوال عمرها –؛ فليس عليه شيء؛ لأنه مأمور بذلك؛ وما يترتَّب على المأمور فغير محظور؛ فإن قيل: يرد على ذلك تزويج أبي بكر عائشة من النبي ﷺ ولها ست سنين؟

فالجواب: أن يقال: لن يرد مثل هذه الصورة؛ لأننا نعلم علم اليقين أن عائشة سترضى برسول الله ﷺ، ولا تبغي به بديلًا؛ ولذلك لما أمره الله عز وجل أن يخير نساءه فبدأ بها رضي الله عنها، وقال ﷺ: ((لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك؛

١- أخرجه أحمد ٤/٣٩٤، حديث رقم ١٩٧٤٧، وأخرجه أبو داود ص١٣٧٦، كتاب النكاح، باب ١٨: في الولي، حديث رقم ٢٠٨٥، وأخرجه الترمذي ص١٧٥٧، كتاب النكاح، باب ١٤: ما جاء لا نكاح إلا بولي، حديث رقم ١١٠١، وأخرجه ابن ماجة ص٢٥٨٩، كتاب النكاح، باب ١٥: لا نكاح إلا بولي، حديث رقم ١٨٨١؛ كما أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/١٦٩ – ١٧٠) وأقره الذهبي على تصحيحه؛ وقال الألباني في الإرواء ٦/٢٣٥: صحيح.

٢- أخرجه البخاري ص٤٤٤، كتاب النكاح، باب ٤٢: لا ينكح الأب وغيره البكر ... ، حديث رقم ٥١٣٦؛ وأخرجه مسلم ص٩١٤، كتاب النكاح، باب ٩: استئذان الثيب ... ، حديث رقم ٣٤٧٣ [٦٤] ١٤١٩.

٣- أخرجه مسلم ص٩١٤، كتاب النكاح، باب ٩: استئذان الثيب ... ، حديث رقم ٣٤٧٧ [٦٧] ١٤٢١.

قالت: يا رسول الله، أفي هذا أستأمر أبوي؟! إنني أريد الله ورسوله والدار الآخرة([1]))؛ وعلى هذا لا يتمّ الاستدلال بها على تزويج المرأة بغير إذنها.

٦- أن المرأة لو رضيت الزوج على وجه غير معروف - بل على وجه منكر لا يقرُّه الشرع - فإنها لا تمكَّن من ذلك؛ لقوله تعالى: {بالمعروف}؛ فلو أن المرأة رضيت هذا الخاطب لفسقه وانسلاخه من الدين - وإن لم يصل إلى حد الكفر - فلوليّها أن يمنعها؛ لقوله تعالى: {إذا تراضوا بينهم بالمعروف}.

٧- إثبات اليوم الآخر - وهو يوم القيامة -؛ لقوله تعالى: {من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر} ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما ذكر في ذلك اليوم من البعث، والحساب، والصراط، ودنو الشمس، والعرق، وغير ذلك مما ذكر في الكتاب والسنة مجملًا أحيانًا، ومفصلًا أحيانًا؛ بل قال شيخ الإسلام رحمه الله -: يدخل فيه الإيمان بكل ما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، وغير ذلك.

٨- أن الاتّعاظ بأحكام الله تزكية للنفس؛ لقوله تعالى: {ذلكم أزكى لكم}؛ فهو ينمي النفس، وينمي الإيمان، وينمي الأخلاق، وينمي الآداب؛ فكلّما كان الإنسان أشدُّ تطبيقًا لأحكام الله كان ذلك أزكى له.

٩- أن تطبيق الأحكام أطهر للإنسان؛ يعني أطهر للقلب؛ لأن الأعمال الصالحة تطهر القلب من أرجاس المعاصي؛ ولذلك تجد عند الإنسان المؤمن من الحيوية والنشاط والسرور والفرح ما ليس عند غيره؛ ويعرف ذلك في وجهه؛ فالإنسان صاحب المعاصي مظلم الوجه كاسف البال؛ ولو فرح بما فرح من زهرة الدنيا فهو فرح خاسر؛ لكن المؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام، وامتلأ قلبه بنور الله وهدايته، ليس كذلك؛ وأسعد الناس في الدنيا أطهرهم قلبًا.

١٠- الإشارة إلى نقص الإنسان في علمه؛ لقوله تعالى: {والله يعلم وأنتم لا تعلمون} فنفى عن الإنسان العلم - والمراد نفي كماله؛ لأن الإنسان له علم، كما قال الله تعالى: {فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار}[الممتحنة: ١٠] وقال تعالى: {فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرًا}[النور: ٣٣] لكن لنقصان علمه نفى الله عنه العلم؛ وهنا قال تعالى: {والله يعلم وأنتم لا تعلمون}؛ فإذا كان الله يعلم، ونحن لا نعلم فإن مقتضى ذلك أن نستسلم غاية الاستسلام لأحكامه سبحانه وتعالى، وأن لا نعارضها بعقولنا مهما كانت؛ ولهذا ينعى الله عز وجل على الكفار والمشركين عدم العقل؛ وكل ما خالف الشرع فليس بعقل.

١- أخرجه البخاري ص١٩٤، كتاب المظالم، باب ٢٥: الغرفة والعلية المشرفة ... ، حديث رقم ٢٤٦٨؛ وأخرجه مسلم ص٩٣٩، كتاب الطلاق، باب ٤: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، حديث رقم ٣٦٨١ [٢٢] ١٤٧٥.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

قال أبو زهرة: بيّن الله سبحانه وتعالى حقوق الزوجين، وما لكل واحد منهما على صاحبه، ثم أحكام الافتراق إن لم تكن المودّة سائدة؛ وبهذا بيّن العشرة الحسنة والتسريح بإحسان، أو الفراق الجميل.

وبعد بيان حقوق الزوجين في الاجتماع والافتراق، أخذ سبحانه وتعالى يبيِّن حقوق من كانوا ثمرة لهذا الزواج، في حالي الاجتماعي والافتراق أيضًا، وهذه الآية تبيِّن ذلك؛ وقد ذكرت أول حق يتقرَّر للطفل فور ولادته؛ وهو حق التغذية الأولى التي تناسب سنَّه، وتكوّن لحمه، وتنشز عظمه؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}.

{الوالدات}: هن الأمهات، سواء أكنَّ أزواجا لآباء الأولاد أم كن مطلقات منهم؛ والتعبير عن الأمهات بالوالدات فيه إشارة إلى أمرين: أحدهما: أنهن اللّائي ولدنهم وكنَّ الوعاء الذي برزوا منه إلى الوجود، وقد تربَّوا فيه ومنه تغذَّوا، فكان من الحق أن يتغذَّوا منه حتى يستغنوا عنه؛ وفي هذا إيماء إلى وجوب الإرضاع على الأمهات.

وثانيهما: أن الغذاء الذي يناسب الطفل في مهده هو الغذاء الذي يكون من نوع ما كان يتغذّى منه في بطن أمه؛ وكان في التَّعبير بالوالدات إشارة إلى ذلك؛ لأن الولادة انفصال الحمل عن أمه وبروزه إلى الوجود؛ فهي تشير إلى الصِّلة بين المكان الذي خرج منه، وحياته التي يستقبلها؛ وذلك إيماء إلى وجوب التَّناسب بين الحالين، والتَّناسب بينهما من حيث الغذاء، يوجب التجانس بين حالي الغذاء، وذلك يوحي من جهة ثانية إلى وجوب إرضاع الأم ولدها، وهو ما سيقت له الجملة السامية.

قال ابن العثيمين: {والوالدات} اسم فاعل – أي اللاتي ولدن؛ {يرضعن أولادهن}: الإرضاع معروف؛ والأولاد يشمل الذكور، والإناث، كما في قوله تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين}[النساء: ١١]؛ والجملة خبرية بمعنى الأمر؛ وإتيان الأمر بصيغة الخبر أبلغ من الأمر المحض؛ كأنه حين يأتي بصيغة الخبر أمر مستقر يتحدث عنه.

قال أبو زهرة: هو أمر جاء على صيغة الخبر؛ فمعنى {يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ}: ليرضعن؛ أي عليهن إرضاع أولادهن؛ وعبَّر عن الطلب بصيغة الخبر؛ للإشارة إلى أن ذلك الوجوب تنادي به الفطرة، ويتّفق مع طبيعة الأمومة، وأن الأمهات يلبّين الطلب فيه بداعٍ من نفوسهن؛ فلذلك عبَّر بالخبر، كان الإرضاع وقع من غير طلب خارجي، فكان ذلك التعبير مفيدًا للأمر التكليفي، ومقرّرًا للأمر الفطري.

قال ابن العثيمين: {حولين كاملين}: ال{حول} بمعنى السنة؛ وهو اثنا عشر شهرًا هلاليًّا؛ ثم أكّد الله هذين الحولين بقوله تعالى: {كاملين} أي بدون نقص.

{لمن أراد أن يتم الرضاعة}؛ الجار والمجرور متعلّق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: ذلك لمن أراد؛ فيكون المراد به: الوالدات المرضعات؛ وذكر الضمير في {أراد} باعتبار لفظ {من}؛ ويحتمل أن يكون متعلّقًا بقوله تعالى: {يرضعن أولادهن}؛ فيكون المعنى: الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الأزواج؛ فهنا مرضِع، ومرضَع له؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: {فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن}[الطلاق: ٦]؛ ولو قيل: إن الآية تشمل هذا وهذا، لم يكن بعيدًا.

وقوله تعالى: {أن يتم الرضاعة}: أي أن يأتي بها على وجه التمام؛ فإنها لا تنقص عن حولين.

قال السعدي: هذا خبر بمعنى الأمر، تنزيلًا له منزلة المتقرَّر، الذي لا يحتاج إلى أمر بأن {يرضعن أولادهن حولين}.

ولما كان الحول يطلق على الكامل، وعلى معظم الحول قال: {كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة}، فإذا تمَّ للرضيع حولان، فقد تمَّ رضاعه وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبَر، لا يُحرِّم.

ويؤخذ من هذا النَّص ومن قوله تعالى: {وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا} أن أقل مدَّة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود الولد بها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٤ص٥٩: وَالرَّضَاعَةُ الْمُحَرِّمَةُ بِلَا رَيْبٍ أَنْ يَرْضَعَ خَمْسَ رَضَعَاتٍ، فَيَأْخُذَ الثَّدْيَ فَيَشْرَبَ مِنْهُ ثُمَّ يَدَعَهُ، ثُمَّ يَأْخُذَهُ فَيَشْرَبَ مَرَّةً ثُمَّ يَدَعَهُ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ مِثْلَ غَدَائِهِ وَعَشَائِهِ. وَأَمَّا دُونَ الْخَمْسِ فَلَا يُحَرِّمُ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ. وَقِيلَ: يُحَرِّمُ الْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ: كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ. وَقِيلَ لَا يُحَرِّمُ إلَّا ثَلَاثُ رَضَعَاتٍ. وَالْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ مَرْوِيَّةٌ عَنْ أَحْمَد، لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَشْهَرُ عَنْهُ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ: ((كَانَ مِمَّا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ عَشَرُ رَضَعَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِخَمْسِ رَضَعَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ([1]))، وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ أَيْضًا: ((أَنَّهُ ﷺ أَمَرَ امْرَأَةً أَنْ تُرْضِعَ شَخْصًا خَمْسَ رَضَعَاتٍ؛ لِتَحْرُمَ عَلَيْهِ([2]))).

١- مسلم في الرضاع (١٤٥١/١٨-٢٢) عن أم فضل.

٢- أبو داود في النكاح (٢٠٦١)، وأحمد ٢٠١/٦، ٢٧١.

وَالرَّضَاعُ الْمُحَرِّمُ مَا كَانَ فِي الْحَوْلَيْنِ، فَإِنَّ تَمَامَ الرَّضَاعِ حَوْلَانِ كَامِلَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}، وَمَا كَانَ بَعْدَ تَمَامِ الرَّضَاعَةِ فَلَيْسَ مِنْ الرَّضَاعَةِ، وَلِهَذَا كَانَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ رَضَاعَ الْكَبِيرِ لَا تَأْثِيرَ لَهُ، وَاحْتَجُّوا بِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي رَجُلٌ فَقَالَ: ((مَنْ هَذَا يَا عَائِشَةُ؟)) قُلْتُ: أَخِي مِنْ الرَّضَاعَةِ قَالَ: ((يَا عَائِشَةُ أُنْظُرْنَ مَنْ إخْوَانُكُنَّ؟ إنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنْ الْمَجَاعَةِ(١))). وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعَةِ إلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ(٢))). وَمَعْنَى قَوْلِهِ فِي: ((الثَّدْيِ)) أَيْ: وَقْتُهُ، وَهُوَ الْحَوْلَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ((إنَّ ابْنِي إبْرَاهِيمَ مَاتَ فِي الثَّدْيِ(٣))). أَيْ: وَهُوَ فِي زَمَنِ الرَّضَاعِ. وَهَذَا لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا رَضَاعَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ وَلَا بَعْدَ الْفِطَامِ وَإِنْ كَانَ الْفِطَامُ قَبْلَ تَمَامِ الْحَوْلَيْنِ.

وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ إلَى أَنَّ إرْضَاعَ الْكَبِيرِ يُحَرِّمُ. وَاحْتَجُّوا بِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ ((أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ لِعَائِشَةَ: إنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْك الْغُلَامُ الْأَيْفَعُ الَّذِي مَا أُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: مَا لَك فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قَالَتْ: إنَّ امْرَأَةَ أَبِي حُذَيْفَةَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ سَالِمًا يَدْخُلُ عَلَيَّ، وَهُوَ رَجُلٌ فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْهُ شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْضِعِيهِ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْك(٤)))، وَفِي رِوَايَةٍ لِمَالِكِ فِي الْمُوَطَّأِ قَالَ: ((أَرْضِعِيهِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ(٥))) فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِهِ مِنْ الرَّضَاعَةِ. وَهَذَا الْحَدِيثُ أَخَذَتْ بِهِ عَائِشَةُ وَأَبَى غَيْرُهَا مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَأْخُذْنَ بِهِ؛ مَعَ أَنَّ عَائِشَةَ رَوَتْ عَنْهُ قَالَ: ((الرَّضَاعَةُ مِنْ الْمَجَاعَةِ)) لَكِنَّهَا رَأَتْ الْفَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَقْصِدَ رَضَاعَةً أَوْ تَغْذِيَةً. فَمَتَى كَانَ الْمَقْصُودُ الثَّانِي لَمْ يُحَرِّمْ إلَّا مَا كَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ. وَهَذَا هُوَ إرْضَاعُ عَامَّةِ النَّاسِ. وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَيَجُوزُ إنْ أُحْتِيجَ إلَى جَعْلِهِ ذَا مَحْرَمٍ. وَقَدْ يَجُوزُ لِلْحَاجَةِ مَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهَا. وَهَذَا قَوْلٌ مُتَوَجِّهٌ(٦).

قال ابن العثيمين: {وعلى المولود له}؛ {المولود} اسم جنس؛ أو أن {أل} اسم موصول؛ لأنها إذا اقترنت بمشتق صارت اسمًا من الأسماء الموصولة المشتركة – أي الصالحة للواحد، ومن فوقه –؛ فحينئذ أفرد الضمير الراجع إليها –

(قلت): وصححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٤٢٠٢).

١- البخاري في النكاح (٥١٠٢)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٥/٣٢).

٢- الترمذي في الرضاع (١١٥٢)، وقال: (حسن صحيح).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٢١٥٠).

٣- مسلم في الفضائل (٢٣١٦/٦٣)، وأحمد ١١٢/٣ عن أنس بن مالك.

٤- مسلم في الرضاع (١٤٥٣/٢٩).

٥- مالك في الموطأ في الرضاع ٦٠٤/٢،(١٢).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٤٢٠٢).

٦- وقال ابن العثيمين في الفوائد رقم (٣) عند تفسير الآية (١٩٩): لكن هذا لا يمكن بعد نسخ التبني؛ إذ لا يمكن أحدًا أن يتبنى؛ وعلى هذا فالصورة التي تلحق بقصة سالم ممتنعة.

{له} – باعتبار اللفظ؛ وجمع – {وإن أردتم} – باعتبار المعنى؛ وملاحظة المعنى واللفظ في هذه الألفاظ المشتركة جاء بها القرآن مثل قوله تعالى: {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا} [الطلاق: ١١]؛ {يدخله} باعتبار اللفظ: مفرد؛ و{خالدين} باعتبار المعنى: جمع.

قوله تعالى: {وعلى المولود} الجار والمجرور خبر مقدَّم؛ و{له} متعلقة بـ{المولود}؛ و{رزقهن } مبتدأ مؤخَّر.

قوله تعالى: {وعلى المولود له}: أي على الزوج، أو السيد، أو الواطئ بشبهة {رزقهن}: أي نفقتهن؛ {وكسوتهن}: أي ما يكسو به الإنسان بدنه؛ {بالمعروف}: أي رزقهن، وكسوتهن بما تعارف الناس بينهم عليه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٤ص٦٨: وَقَوْله تَعَالَى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} وَلَمْ يَقُلْ: وَعَلَى الْوَالِدِ كَمَا قَالَ {وَالْوَالِدَاتُ}؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ الَّتِي تَلِدُهُ، وَأَمَّا الْأَبُ فَلَمْ يَلِدْهُ، بَلْ هُوَ مَوْلُودٌ لَهُ لَكِنْ إذَا قُرِنَ بَيْنَهُمَا قِيلَ: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا}[النساء: ٣٦]. فَأَمَّا مَعَ الْإِفْرَادِ فَلَيْس فِي الْقُرْآنِ تَسْمِيَتُهُ وَالِدًا، بَلْ أَبًا. وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْوَلَدَ وُلِدَ لِلْأَبِ، لَا لِلْأُمِّ؛ وَلِهَذَا كَانَ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُ حَمْلًا وَأُجْرَةَ رَضَاعِهِ. وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْله تَعَالَى {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}[الشورى: ٤٩]، فَجَعَلَهُ مَوْهُوبًا لِلْأَبِ. وَجَعَلَ بَيْتَهُ بَيْتَهُ فِي قَوْلِهِ: {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ}[النور: ٦١]، وَإِذَا كَانَ الْأَبُ هُوَ الْمُنْفِقُ عَلَيْهِ جَنِينًا وَرَضِيعًا، وَالْمَرْأَةُ وِعَاءٌ، فَالْوَلَدُ زَرْعٌ لِلْأَبِ قَالَ تَعَالَى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}[البقرة: ٢٢٣]، فَالْمَرْأَةُ هِيَ الْأَرْضُ الْمَزْرُوعَةُ، وَالزَّرْعُ فِيهَا لِلْأَبِ، وَقَدْ ((نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَسْقِيَ الرَّجُلُ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ([١]))، يُرِيدُ بِهِ النَّهْيَ عَنْ وَطْءِ الْحَبَالَى، فَإِنَّ مَاءَ الْوَاطِئِ يَزِيدُ فِي الْحَمْلِ كَمَا يَزِيدُ الْمَاءُ فِي الزَّرْعِ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الصَّحِيحِ: ((لَقَدْ هَمَمْت أَنْ أَلْعَنَهُ لَعْنَةً تَدْخُلُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ كَيْفَ يُورِثُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ وَكَيْفَ يَسْتَعْبِدُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ؟([٢]))، وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ لِلْأَبِ وَهُوَ زَرْعُهُ كَانَ هَذَا مُطَابِقًا لِقَوْلِهِ ﷺ ((أَنْتَ وَمَالُك لِأَبِيك([٣]))، وَقَوْلِهِ ﷺ: ((إنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ([٤]))، فَقَدْ حَصَلَ الْوَلَدُ مِنْ كَسْبِهِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ؛ فَإِنَّ الزَّرْعَ الَّذِي فِي الْأَرْضِ كَسْبُ الْمُزْدَرِعِ لَهُ الَّذِي بَذَرَهُ وَسَقَاهُ وَأَعْطَى أُجْرَةَ الْأَرْضِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ أَعْطَى الْمَرْأَةَ مَهْرَهَا، وَهُوَ أَجْرُ الْوَطْءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[الممتحنة: ١٠]، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}[المسد: ٢]، وَقَدْ فُسِّرَ {وَمَا كَسَبَ} بِالْوَلَدِ، فَالْأُمُّ هِيَ

١- أبو داود في النكاح (٢١٥٨)، وأحمد ٤/١٠٨، كلاهما عن رويفع بن ثابت الأنصاري.
- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٨٧٤).
٢- مسلم في النكاح (١٤٤١/١٣٩) عن أبي الدرداء.
٣- أحمد ٢/٢١٤،٢٠٤، وانظره في: مجمع الزوائد ٤/١٥٧- ١٥٩، ولم يعزه الهيثمي لأحمد.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٨٣٨)، والروض النضير (١٩٥ و ٦٠٣)، وصحيح المشكاة (٣٣٥٤).
٤- أبو داود في البيوع (٣٥٢٨)، والنسائي في البيوع (٤٤٤٩)، وابن ماجة في التجارات (٢١٣٧)، وأحمد ٦/١٩٣،٢٠٢،١٧٦، ٢٢٠، كلهم عن عائشة.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٨).

الْحَرْثُ وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي فِيهَا زَرْعٌ، وَالْأَبُ اسْتَأْجَرَهَا بِالْمَهْرِ كَمَا يَسْتَأْجِرُ الْأَرْضَ، وَأَنْفَقَ عَلَى الزَّرْعِ بِإِنْفَاقِهِ لَمَّا كَانَتْ حَامِلًا، ثُمَّ أَنْفَقَ عَلَى الرَّضِيعِ، كَمَا يُنْفِقُ الْمُسْتَأْجِرُ عَلَى الزَّرْعِ وَالثَّمرِ إِذَا كَانَ مَسْتُورًا وَإِذَا بَرَزَ، فَالزَّرْعُ هُوَ الْوَلَدُ، وَهُوَ مِنْ كَسْبِهِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْأَبِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ مَا لَا يَضُرُّ بِهِ، كَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَأَنَّ مَالَهُ لِلْأَبِ مُبَاحٌ، وَإِنْ كَانَ مِلْكًا لِلِابْنِ، فَهُوَ مُبَاحٌ لِلْأَبِ أَنْ يَمْلِكَهُ وَإِلَّا بَقِيَ لِلِابْنِ، فَإِذَا مَاتَ وَلَمْ يَتَمَلَّكْهُ وَرِثَ من الِابْنِ. وَلِلْأَبِ – أَيْضًا – أَنْ يَسْتَخْدِمَ الْوَلَدَ مَا لَمْ يَضُرَّ بِهِ. وَفِي هَذَا وُجُوبُ طَاعَةِ الْأَبِ عَلَى الِابْنِ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ مُبَاحًا لَا يَضُرُّ بِالِابْنِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ اسْتَخْدَمَ عَبَدَهُ فِي مَعْصِيَةٍ أَوْ اعْتَدَى عَلَيْهِ لَمْ يَجُزْ فَالِابْنُ أَوْلَى. وَنَفْعُ الِابْنِ لَهُ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ الْأَبُ، بِخِلَافِ نَفْعِ الْمَمْلُوكِ فَإِنَّهُ لِمَالِكِهِ كَمَا أَنَّ مَالَهُ لَوْ مَاتَ لِمَالِكِهِ لَا لِوَارِثِهِ.

وَدَلَّ مَا ذَكَرَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَطَأَ حَامِلًا مِنْ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا وَطِئَهَا كَانَ كَسَقْيِ الزَّرْعِ يَزِيدُ فِيهِ وَيُنَمِّيهِ وَيَبْقَى لَهُ شَرِكَةٌ فِي الْوَلَدِ، فَيَحْرُمُ عَلَيْهِ اسْتِعْبَادُ هَذَا الْوَلَدِ، فَلَوْ مَلَكَ أَمَةً حَامِلًا مِنْ غَيْرِهِ وَوَطِئَهَا حَرُمَ اسْتِعْبَادُ هَذَا الْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُ سَقَاهُ، وَلِقَوْلِهِ ﷺ: ((كَيْفَ يَسْتَعْبِدُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ؟. وَكَيْفَ يُورِثُهُ – أَيْ يَجْعَلُهُ مَوْرُوثًا مِنْهُ – وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ؟)). وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمُرَادَ: كَيْفَ يَجْعَلُهُ وَارِثًا، فَقَدْ غَلِطَ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ كَانَتْ أَمَةً لِلْوَاطِئِ، وَالْعَبْدُ لَا يُجْعَلُ وَارِثًا، إِنَّمَا يُجْعَلُ مَوْرُوثًا. فَأَمَّا إِذَا أُسْتُبْرِئَتْ الْمَرْأَةُ عُلِمَ أَنَّهُ لَا زَرْعَ هُنَاكَ. وَلَوْ كَانَتْ بِكْرًا أَوْ عِنْدَ مَنْ لَا يَطَؤُهَا فَفِيهِ نِزَاعٌ وَالْأَظْهَرُ جَوَازُ الْوَطْءِ؛ لِأَنَّهُ لَا زَرْعَ هُنَاكَ، وَظُهُورُ بَرَاءَةِ الرَّحِمِ هُنَا أَقْوَى مِنْ بَرَاءَتِهَا مِنْ الِاسْتِبْرَاءِ بِحَيْضَةٍ؛ فَإِنَّ الْحَامِلَ قَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ الدَّمِ مِثْلُ دَمِ الْحَيْضِ، وَإِنْ كَانَ نَادِرًا. وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ هَلْ هُوَ حَيْضٌ أَوْ لَا؟ فَالِاسْتِبْرَاءُ لَيْسَ دَلِيلًا قَاطِعًا عَلَى بَرَاءَةِ الرَّحِمِ، بَلْ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ. وَالْبَكَارَةُ وَكَوْنُهَا كَانَتْ مَمْلُوكَةً لِصَبِيٍّ أَوْ امْرَأَةٍ أَدَلُّ عَلَى الْبَرَاءَةِ. وَإِنْ كَانَ الْبَائِعُ صَادِقًا وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ اسْتَبْرَأَهَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَاسْتِبْرَاءُ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَمْ تَحِضْ وَالْعَجُوزُ وَالْآيِسَةُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}، وَقَالَ تَعَالَى فِي تِلْكَ الْآيَةِ: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[الطلاق: ٦]، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَجْرَ هُوَ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُسَمًّى تَرْجِعَانِ إِلَيْهِ. وَأُجْرَةُ الْمِثْلِ إِنَّمَا تُقَدَّرُ بِالْمُسَمَّى إِذَا كَانَ هُنَاكَ مُسَمًّى يَرْجِعَانِ إِلَيْهِ، كَمَا فِي الْبَيْعِ وَالْإِجَارَةِ لَمَّا كَانَ السِّلْعَةُ هِيَ أَوْ مِثْلُهَا بِثَمَنٍ مُسَمًّى وَجَبَ ثَمَنُ الْمِثْلِ إِذَا أُخِذَتْ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ أَعْتَقَ شِرْكًا لَهُ فِي عَبْدٍ وَكَانَ لَهُ مِنْ الْمَالِ مَا يَبْلُغُ ثَمَنَ الْعَبْدِ قُوِّمَ عَلَيْهِ قِيمَةً عَدْلٌ فَأَعْطَى شُرَكَاءَهُ حِصَصَهُمْ وَعَتَقَ الْعَبْدُ[١]))، فَهُنَاكَ أُقِيمَ الْعَبْدُ؛ لِأَنَّهُ وَمِثْلَهُ يُبَاعُ فِي

١- البخاري في العتق (٢٥٢٢)، ومسلم في العتق (١/١٥٠١)، كلاهما عن عبدالله بن عمر.

السُّوقِ، فَتُعْرَفُ الْقِيمَةُ الَّتِي هِيَ السِّعْرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَكَذَلِكَ الْأَجِيرُ وَالصَّانِعُ كَمَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِعَلِيٍّ ((أَنْ يُعْطِيَ الْجَازِرَ مِنَ الْبُدْنِ شَيْئًا، وَقَالَ: نَحْنُ نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا(١))).

فَإِنَّ الذَّبْحَ وَقِسْمَةَ اللَّحْمِ عَلَى الْمُهْدِي، فَعَلَيْهِ أُجْرَةُ الْجَازِرِ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ نَظِيرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِثْلُهُ إِذَا عَمِلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْجِزَارَةَ مَعْرُوفَةٌ، وَلَهَا عَادَةٌ مَعْرُوفَةٌ. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّنَاعَاتِ – كَالْحِيَاكَةِ، وَالْخِيَاطَةِ، وَالْبِنَاءِ – وَقَدْ كَانَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخِيطُ بِالْأُجْرَةِ عَلَى عَهْدِهِ فَيَسْتَحِقُّ هَذَا الْخَيَّاطُ مَا يَسْتَحِقُّهُ نُظَرَاؤُهُ، وَكَذَلِكَ أَجِيرُ الْخِدْمَةِ يَسْتَحِقُّ مَا يَسْتَحِقُّهُ نَظِيرُهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ عَادَةٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ النَّاسِ.

وَأَمَّا الْأُمُّ الْمُرْضِعَةُ فَهِيَ نَظِيرُ سَائِرِ الْأُمَّهَاتِ الْمُرْضِعَاتِ بَعْدَ الطَّلَاقِ وَلَيْسَ لَهُنَّ عَادَةٌ مُقَدَّرَةٌ إِلَّا اعْتِبَارُ حَالِ الرَّضَاعِ بِمَا ذُكِرَ، وَهِيَ إِذَا كَانَتْ حَامِلًا مِنْهُ وَهِيَ مُطَلَّقَةٌ اسْتَحَقَّتْ نَفَقَتَهَا وَكِسْوَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ نَفَقَةٌ عَلَى الْحَمْلِ. وَهَذَا أَظْهَرُ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[الطلاق: ٦].

وَلِلْعُلَمَاءِ هُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ هَذِهِ النَّفَقَةَ نَفَقَةُ زَوْجَةٍ مُعْتَدَّةٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ حَامِلًا أَوْ حَائِلًا.

الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ يُنْفِقُ عَلَيْهَا نَفَقَةَ زَوْجَةٍ، لِأَجْلِ الْحَمْلِ.

والْقَوْلُ الثَّالِثُ: وَهُوَ الصَّحِيحُ: أَنَّ النَّفَقَةَ تَجِبُ لِلْحَمْلِ، وَلَهَا مِنْ أَجْلِ الْحَمْلِ؛ لِكَوْنِهَا حَامِلًا بِوَلَدِهِ، فَهِيَ نَفَقَةٌ عَلَيْهِ؛ لِكَوْنِهِ أَبَاهُ، لَا عَلَيْهَا لِكَوْنِهَا زَوْجَةً. وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ، وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد، وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى هَذَا، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[الطلاق: ٦]، وَقَالَ هُنَا: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} فَجَعَلَ أَجْرَ الْإِرْضَاعِ عَلَى مَنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ نَفَقَةُ الْحَامِلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَجْرَ الْإِرْضَاعِ يَجِبُ عَلَى الْأَبِ لِكَوْنِهِ أَبًا، فَكَذَلِكَ نَفَقَةُ الْحَامِلِ؛ وَلِأَنَّ نَفَقَةَ الْحَامِلِ وَرِزْقَهَا وَكِسْوَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ جَعَلَ أَجْرَ الْمُرْضِعَةِ كَذَلِكَ؛ وَلِأَنَّهُ قَالَ: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}، أَيْ وَارِثِ الطِّفْلِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِ مَا يَجِبُ عَلَى الْأَبِ، وَهَذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ نَفَقَةَ الْحَمْلِ وَالرَّضَاعِ مِنْ بَابِ نَفَقَةِ الْأَبِ عَلَى ابْنِهِ، لَا مِنْ بَابِ نَفَقَةِ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ.

وَعَلَى هَذَا، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَةً بَلْ كَانَتْ حَامِلًا بِوَطْءِ شُبْهَةٍ يَلْحَقُهُ نَسَبُهُ أَوْ كَانَتْ حَامِلًا مِنْهُ وَقَدْ أَعْتَقَهَا وَجَبَ عَلَيْهِ نَفَقَةُ الْحَمْلِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَةُ الْإِرْضَاعِ، وَلَوْ كَانَ الْحَمْلُ لِغَيْرِهِ، كَمَنْ وَطِئَ أَمَةَ غَيْرِهِ. بِنِكَاحٍ أَوْ شُبْهَةٍ أَوْ إِرْثٍ فَالْوَلَدُ هُنَا لِسَيِّدِ الْأَمَةِ، فَلَيْسَ عَلَى الْوَاطِئِ شَيْءٌ وَإِنْ كَانَ زَوْجًا، وَلَوْ تَزَوَّجَ عَبْدٌ حُرَّةً فَحَمَلَتْ مِنْهُ فَالنَّسَبُ هَاهُنَا لَاحِقٌ، لَكِنَّ الْوَلَدَ حُرٌّ. وَالْوَلَدُ الْحُرُّ لَا تَجِبُ نَفَقَتُهُ عَلَى أَبِيهِ الْعَبْدِ، وَلَا أُجْرَةُ رَضَاعِهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ مَالٌ يُنْفِقُ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ، وَسَيِّدُهُ لَا

١- البخاري في الحج (١٧١٦ مكرر)، ومسلم في الحج (١٣١٧/٣٤٨)، كلاهما عن علي واللفظ لمسلم.

حَقَّ لَهُ فِي وَلَدِهِ، فَإِنَّ وَلَدَهُ إِمَّا حُرٌّ، وَإِمَّا مَمْلُوكٌ لِسَيِّدِ الْأَمَةِ. نَعَمْ، لَوْ كَانَتْ الْحَامِلُ أَمَةً وَالْوَلَدُ حُرٌّ مِثْلَ الْمَغْرُورِ الَّذِي اشْتَرَى أَمَةً فَظَهَرَ أَنَّهَا مُسْتَحَقَّةٌ لِغَيْرِ الْبَائِعِ، أَوْ تَزَوَّجَ حُرَّةً فَظَهَرَ أَنَّهَا أَمَةٌ، فَهُنَا الْوَلَدُ حُرٌّ، وَإِنْ كَانَتْ أَمَةً مَمْلُوكَةً لِغَيْرِ الْوَاطِئِ، لِأَنَّهُ إنَّمَا وَطِئَ مَنْ يَعْتَقِدُهَا مَمْلُوكَةً لَهُ أَوْ زَوْجَةً حُرَّةً، وَبِهَذَا قَضَتْ الصَّحَابَةُ لِسَيِّدِ الْأَمَةِ بِشِرَاءِ الْوَلَدِ وَهُوَ نَظِيرُهُ. فَهُنَا الْآنَ يُنْفِقُ عَلَى الْحَامِلِ كَمَا يُنْفِقُ عَلَى الْمُرْضِعَةِ لَهُ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

قال أبو زهرة: ولقد عبَّر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عن الإنفاق بالرزق والكسوة، أي بالإطعام والإيواء والكسوة، وعبر في آية الطلاق بالأجرة، فقد قال الله تعالى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهنَّ أُجُورَهُنَّ....}، فالأجرة هنالك هي الكسوة والرزق هنا؛ وتخالف التعبيران؛ لأن كل واحد فيما يناسبه؛ فالتعبير بالأجرة؛ لأن الكلام في المطلقات، وما يفرض لهن من نفقة وأمدها؛ ثم بيَّن ما يستحق في مقابل الإرضاع إن أرضعن وقد خرجن من بيت الرجل وسلطانه.

أمَّا في هذه الآية فالكلام في أصل وجوب الإرضاع على الأمهات، وبيان توزيع التكليفات؛ والآية هنا عبر القرآن فيها عن الأم بوصف كونها والدة، وعلى الأب بوصف كونه مولودًا له، فناسب أن يعبر عن النفقة هنا بالرزق والكسوة لأن مؤدَّى التعبير الكريم أن الواجبات للطفل موزَّعة، والحقوق فيه متقابلة؛ فالأم لأنها تفرَّغت لخدمته، وقامت على حياته، وغذَّته من لبنها بعد أن غذَّته من دمها، وأوجب عليها الشارع ذلك الغذاء –كان على الأب في نظير ذلك أن يكدح ويعمل ليوفِّر لها رزقها وكسوتها بالمعروف من غير غضاضة ولا شطط.

قال ابن العثيمين: {لا تكلَّف نفس إلَّا وسعها}: التَّكليف معناه إلزام ما فيه مشقَّة؛ أي لا يلزم الله عز وجل نفسًا إلَّا ما تقدر عليه.

قال السعدي: فلا يكلَّف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئًا بالنفقة حتى يجد.

قال ابن العثيمين: {لا تضار والدة بولدها}: (المضارة) طلب ما يضر الغير؛ وفي الآية قراءتان: {لا تضار} بفتح الراء؛ و{لا تضار} بضمها؛ فعلى قراءة الفتح تكون {لا} ناهية؛ و{تضار} فعل مضارع مجزوم بـ{لا} الناهية؛ وحرك بالفتح لالتقاء الساكنين؛ فإذا قيل: لماذا لم يحرك بالكسرة لأن التحريك بالكسرة هو الغالب في التقاء الساكنين، كما قال تعالى: {لم يكن الذين كفروا}[البينة: ١]؟ فالجواب أن الفتح أخف؛ أما على قراءة الرفع فإن {لا} نافية، و{تضار} فعل مضارع مرفوع؛ وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

وقوله تعالى: {تضار} يحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل، وأصله: (تضارِر) بكسر الراء الأولى، و{والدة} فاعل؛ ويحتمل أن يكون مبنيًّا لما لم يسم فاعله، وأصله: (تضارَر) بفتح الراء الأولى، و{والدة} نائب فاعل؛ وفاعل الإضرار المولود له – على هذا الاحتمال –.

{ولا مولود له بولده}: الواو حرف عطف؛ و{لا} نافية؛ و{مولود} معطوف على والدة.

{وعلى الوارث} خبر مقدَّم؛ و{مثل ذلك} مبتدأ مؤخر؛ والمشار إليه الرزق، والكسوة؛ يعني أن على وارث المولود مثل ما على أبيه من النفقة والكسوة.

قال السعدي: {لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده}: أي لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة، والكسوة أو الأجرة، {ولا مولود له بولده} بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارَّة له، أو تطلب زيادة عن الواجب ونحو ذلك من أنواع الضَّرر.

قال أبو زهرة: هذه الجملة السامية في مقام التعليل للأحكام السابقة الموزعة بين الوالد والوالدة، والتي أساسها القيام بحق ذلك المخلوق الذي كان كل واحد منهما طريقًا لخروجه إلى هذا الوجود الإنساني. والمعنى أنه لا يصح أن يقع ضرر على الأم بسبب ولدها لما لها من حنوٍّ وعطف، فيستغل ذلك الحنو وذلك العطف لإنزال الأذى بها وإعناتها وتكليفها ما ليس في وسعها، وما ليس متَّفقًا مع فطرتها؛ وكذلك لَا يصح أن يقع ضرر بالأب بسبب ولده، لأنه يعني بإنباته نباتًا حسنًا وتنشئته على أكمل وجه، فيرهق بالمطالب المالية، ويكلف ما ليس في وسعه أو لَا تتَّسع له قدرته عليه إلَّا بمشقَّة وجهد شديد.

وتقديم الأم على الأب؛ فإن ذلك التعبير يشير إلى منزلة الولد من قلب كل منهما، وأنه قطعة من قلوبهما؛ ولا يصح أن يكون مزيد العطف الوالدي سببًا في أن يتَّخذه كل منهما ذريعة لإيذاء الآخر والعبث بحقوقه، ولإشعارهما بأن الإيذاء باسم الحنو قد يؤدِّي إلى نقص العطف على الولد، ولكي يعرف كل منهما أن الولد ولدهما معًا ومزيج من جسمهما معًا، فلا يصح أن يتَّخذ سبيلًا للكيد والإعنات والإرهاق؛ وقدِّمت الأم لأن حنوُّها أشدُّ، ولأن مظنَّة إنزال الأذى بها أقرب.

قال السعدي: ودلَّ قوله: {مولود له} أن الولد لأبيه، لأنه موهوب له ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

وقوله: {وعلى الوارث مثل ذلك}: أي على وارث الطفل إذا عدم الأب وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدلَّ على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث الموسر.

قال أبو زهرة: هذه الجملة الكريمة سيقت لبيان من ينفق على الولد إن لم يكن له أب، أو كان له أب عاجز عن الإنفاق عليه؛ فإن الإنفاق في هذه الحال يكون على الوارث الذي يرث الولد إذا مات؛ لأن الغُنم بالغُرم، فما دام يرثه عند الوفاة إن كان له مال، فإنه ينفق عليه إذا كان محتاجًا عاجزًا.

وفى التعبير بكلمة {الْوَارِثِ} بدل كلمة قريب، إشارة إلى أن الوراثة هي السبب في وجوب تقديم الرزق والكسوة، لَا مجرَّد القرابة، أو القرابة المحرمية؛ وعلى ذلك يكون الوجوب تابعًا لمقدار الميراث، ولدرجة التوريث؛ لأن الميراث هو السبب في الوجوب، فيكون الوجوب مشتقًّا من درجته ومقداره وقوته.

وفى هذا الكلام الحكيم تنظيم للعلاقات المالية بين الأسرة أو إشارة إليه؛ فإنه يوضح أن الحقوق المالية في الأسرة متقابلة، فمن كان له حق الميراث عليه واجب الإنفاق؛ وكأن مال الأسرة شركة بين آحادها يتوارثون المال فيما بينهم؛ ويتعاونون في الإنفاق فيما بينهم؛ فالقادر ينفق على العاجز، والغني يمدُّ الفقير بحاجته في موضع الحاجة.

ولقد فهم الإمام أحمد بن حنبل من هذه الآية أن نفقة القرابة تسير مع الميراث وجودًا وعدمًا، وقوة في الوجوب، وتقديرًا له؛ لأن الميراث جعل أساس الإنفاق بمقتضى نص الآية الكريمة: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}.

وقبل أن نترك الكلام في هذا نشير إلى معنى لفظي أشار إليه النص، وهو قوله: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} فإنه أشار إلى أن الوجوب على الوارث هو وجوب بدلي، أي أن الوارث قام فيه مقام الأب، والوجوب الأصلي على الأب؛ فقد قال في الوجوب على الوارث: {مِثْلُ ذَلِكَ} فالتعبير بالمثل يشير إلى أن أصل الوجوب على الأب؛ ولذلك قرَّر أن الأب لَا يشاركه أحد في الإنفاق على ولده، ولو كان يشارك الأب في الميراث من الولد غيره، فلا تشارك الأبَ القادر غير العاجز الأمُّ في الإنفاق إذا كانت غنيَّة.

قال ابن العثيمين: {فإن أرادا فصالًا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما}؛ (الفصال) بمعنى الفطام؛ والفاعل في {أرادا} يعود على الوالدة، والمولود له؛ فلابدَّ من أن يقع هذا الفصال عن تراض منهما؛ لقوله تعالى: {عن تراض منهما}؛ و(التراضي) تفاعل من رضي؛ فلابدَّ أن يكون من الطرفين؛ فلو رضيت الأم دون الأب امتنع الفصال؛ ولو رضي الأب دون الأم امتنع الفصال؛ و(التشاور) تفاعل أيضًا؛ وأصله من: شار العسل – إذا استخلصه من الشمع –؛ والمراد به: تبادل الرأي بين المتشاورين لاستخلاص الأنفع والأصوب؛ فلابدَّ من أن يقع التشاور من أجل مصلحة الطفل؛ فينظر هل من مصلحته أن يفطم قبل الحولين؛ أو من المصلحة أن يبقى حتى يتم الحولين؛ أو من المصلحة أن يبقى بعد الحولين أيضًا – فربما يكون محتاجًا إلى الرضاعة حتى بعد الحولين.

وقوله تعالى: {فلا جناح عليهما}: أي لا إثم على الأبوين في فصاله قبل تمام الحولين.

قال أبو زهرة: الفصال لابدَّ فيه من أمرين: أحدهما – التشاور فيه بأن يفحصا حال الطفل من حيث قوته وقدرته على الاستغناء عن لبن الأم، وسلامة جسمه ونموُّه، ولا مانع من أن يستعينا في ذلك برأي خبير رشيد وقد أوجب سبحانه وتعالى التشاور عند الفطام، لأن ذلك سيؤثر في صحته في قابل حياته، بل ربما أثَّر في أعصابه؛ وإن لذلك خطره وشأنه فوجب التشاور فيه، والشورى واجبة في كل أمر ذي شأن وخطر.

وثاني الأمرين اللذين لابدَّ من وجودهما عند الفطام: أن يكون الفطام بإرادة حرَّة صريحة واضحة ورضا كامل من كل منهما؛ ولذلك أكَّد الرضا من كل منهما بالذِّكر مرتين: أولُّهما أنه قال: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا} فأوجب تحقُّق إرادتهما، وثانيهما أنه قال: {عَن تَرَاضٍ}: أي إرادة حرَّة صريحة صادرة عن تراضٍ صحيح ليس فيه شائبة إكراه.

وفي ذلك فوق ما فيه من رعاية مصلحة الطفل احترام لإرادة المرأة فيما يتعلّق بطفلها، وأنها ليست كمًّا مهملًا في البيت، بل لها الرأي بجوار رأي الرجل في أخطر الأمور وأشدّها أثرًا.

وإن العناية بأمر الفطام على ذلك النَّحو تدلُّ على عناية الشارع الإسلامي بالناشئة وتربيتها تربية جسمية وخلقية وعقلية، فإن العناية بالطفل عناية بجيل كامل من الأمة، وعلى حسب العناية بالتربية الأولى يكون الجيل من الأجيال.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٤ص٦٦: وقَوْله تَعَالَى: {لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ إتْمَامَ الرَّضَاعِ وَيَجُوزُ الْفِطَامُ قَبْلَ ذَلِكَ إذَا كَانَ مَصْلَحَةً، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا}، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُفْصَلُ إلَّا بِرِضَى الْأَبَوَيْنِ، فَلَوْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا الْإِتْمَامَ وَالْآخَرُ الْفِصَالَ قَبْلَ ذَلِكَ، كَانَ الْأَمْرُ لِمَنْ أَرَادَ الْإِتْمَامَ، لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ}، وقَوْله تَعَالَى: {يُرْضِعْنَ} صِيغَةُ خَبَرٍ، وَمَعْنَاهُ: الْأَمْرُ وَالتَّقْدِيرُ، وَالْوَالِدَةُ مَأْمُورَةٌ بِإِرْضَاعِهِ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ إذَا أُرِيدَ إتْمَامُ الرَّضَاعَةِ، فَإِذَا أَرَادَتْ الْإِتْمَامَ كَانَتْ مَأْمُورَةً بِذَلِكَ، وَكَانَ عَلَى الْأَبِ رِزْقُهَا وَكِسْوَتُهَا، وَإِنْ أَرَادَ الْأَبُ الْإِتْمَامَ كَانَ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُبِحْ الْفِصَالَ إلَّا بِتَرَاضِيهِمَا جَمِيعًا، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}، وَلَفْظَةُ (مَنْ) إمَّا أَنْ يُقَالَ: هُوَ عَامٌّ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا وَيَدْخُلُ فِيهِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، فَمَنْ أَرَادَ الْإِتْمَامَ أَرْضَعْنَ لَهُ. وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: قَوْله تَعَالَى: {لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} إنَّمَا هُوَ الْمَوْلُودُ لَهُ وَهُوَ الْمُرْضِعُ لَهُ، فَالْأُمُّ تَلِدُ لَهُ، وَتُرْضِعُ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ}[الطلاق: ٦]. وَالْأُمُّ كَالْأَجِيرِ مَعَ الْمُسْتَأْجِرِ، فَإِنْ أَرَادَ الْأَبُ الْإِتْمَامَ أَرْضَعْنَ لَهُ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ لَا يُتِمَّ فَلَهُ ذَلِكَ وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَمَنْطُوقُ الْآيَةِ أَمْرُهُنَّ بِإِرْضَاعِهِ عِنْدَ إرَادَةِ الْأَبِ، وَمَفْهُومُهَا – أَيْضًا – جَوَازُ الْفَصْلِ بِتَرَاضِيهِمَا. يَبْقَى إذَا أَرَادَتْ الْأُمُّ دُونَ الْأَبِ مَسْكُوتًا عَنْهُ، لَكِنَّ مَفْهُومَ قَوْله تَعَالَى: {عَنْ تَرَاضٍ} أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَلَكِنْ تَنَاوَلَهُ قَوْله تَعَالَى {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[الطلاق: ٦]، فَإِنَّهَا إذَا أَرْضَعَتْ تَمَامَ الْحَوْلِ فَلَهُ أَرْضَعَتْ، وَكَفَتْهُ بِذَلِكَ مُؤْنَةَ الطِّفْلِ، فَلَوْلَا رَضَاعُهَا لَاحْتَاجَ إلَى أَنْ يُطْعِمَهُ شَيْئًا آخَرَ.

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَّنَ أَنَّ عَلَى الْأُمِّ الْإِتْمَامَ إذَا أَرَادَ الْأَبُ، وَفِي تِلْكَ بَيَّنَ أَنَّ عَلَى الْأَبِ الْأَجْرَ إذَا أَبَتْ الْمَرْأَةُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: (التَّشَاوُرُ) فِيمَا دُونَ الْحَوْلَيْنِ: إنْ أَرَادَتْ أَنْ تَفْطِمَ وَأَبَى فَلَيْسَ لَهَا، وَإِنْ أَرَادَ هُوَ وَلَمْ تُرِدْ فَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَقَعَ ذَلِكَ عَلَى تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ، يَقُولُ: غَيْرُ مُسِيئِينَ إلَى أَنْفُسِهِمَا وَلَا رَضِيعِهِمَا.

قال ابن العثيمين: {وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم}: أي إن أردتم أن تطلبوا لأولادكم من يرضعهم؛ وتوجيه الخطاب للجماعة من باب الالتفات من الخطاب بالتثنية إلى الخطاب بالجمع؛ فهو موجه للعموم.

قال السعدي: أي تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة.

قال ابن العثيمين: {فلا جناح عليكم}: أي فلا إثم عليكم.

{إذا سلمتم ما آتيتم}: أي إذا أعطيتم ما اتفقتم عليه في العقد على الإرضاع؛ {بالمعروف}: أي بما عرف من حسن القضاء بحيث لا يكون نقص ولا مماطلة فيما اتفق عليه.

وفي قوله تعالى: {آتيتم} قراءتان؛ أحدهما بمد الهمزة؛ والثانية بقصرها؛ والفرق بينهما أن [أتيتم] المقصور معناه جئتم؛ و {آتيتم} الممدود معناه أعطيتم.

قال الشنقيطي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَطْلُبَ لِوَلَدِهِ مُرْضِعَةً غَيْرَ أُمِّهِ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، إِذَا سَلَّمَ الْأُجْرَةَ الْمُعَيَّنَةَ فِي الْعَقْدِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الْوَجْهَ الْمُوجِبَ لِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهُ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى}[٦٥ \ ٦]، وَالْمُرَادُ بِتَعَاسُرِهِمْ: امْتِنَاعُ الرَّجُلِ مِنْ دَفْعِ مَا تَطْلُبُهُ الْمَرْأَةُ، وَامْتِنَاعُ الْمَرْأَةِ مِنْ قَبُولِ الْإِرْضَاعِ بِمَا يَبْذُلُهُ الرَّجُلُ وَيَرْضَى بِهِ.

قال ابن العثيمين: {واتقوا الله}: أي اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره؛ وإن شئنا قلنا: إن (تصديق أخباره) داخل في فعل أوامره؛ لأن تصديق الأخبار من الواجبات.

{واعلموا أن الله بما تعملون بصير}: جملة معطوفة على قوله تعالى: {واتقوا الله}؛ و{بما تعملون} متعلّق بـ{بصير}؛ وقدم على عامله للمبادرة بالتحذير، والتأكيد على علمه بما نعمل؛ والعلم بأن الله بما نعمل بصير من تقوى الله عز وجل؛ لكن لما كان من تمام التقوى أن تعلم أن الله بما تعمل بصير نص عليه؛ لأنك متى علمت ذلك خِفت من هذا الذي هو بصير بعملك أن يجدك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك؛ لأنه بصير بذلك.

قال الطبري: {واتَّقوا الله}، وخافوا الله فيما فرض لبعضكم على بعض من الحقوق، وفيما ألزم نساءكم لرجالكم ورجالكم لنسائكم، وفيما أوجب عليكم لأولادكم، فاحذروه أن تخالفوه فتعتدوا – في ذلك وفي غيره من فرائضه وحقوقه – حدوده، فتستوجبوا بذلك عقوبته، {واعلموا أن الله بما تعملون} من الأعمال، أيها الناس، سرها وعلانيتها، وخفيها وظاهرها، وخيرها وشرها، {بصير}، يراه ويعلمه، فلا يخفى عليه شيء، ولا يتغيب عنه منه شيء، فهو يحصي ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم بخير ذلك وشره. ومعنى {بصير[1]}، ذو إبصار، وهو في معنى (مبصر).

قال أبو زهرة: ولذلك التَّذييل الكريم فوائد ثلاث:

أولاها: تربية المهابة في قلوب المؤمنين؛ ليتذكَّروا الله سبحانه وتعالى في كل أعمالهم الصغيرة والكبيرة، وليعلموا أن شئون الحياة كلها سواء كان منها ما يتعلَّق بالأسرة أو ما يتعلَّق بالمجتمع، وما يتعلَّق بالآحاد، لَا تستقيم إلَّا بمراقبة الله تعالى،

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء.

والإحساس بتقواه، وأنه عليم بما تخفي الصدور وما تكنُّه القلوب، وأن من يعمل عملًا يعمله كأنه يرى الله، فإن لم يكن يراه فإن الله سبحانه وتعالى يراه.

وثانيها: بيان أن العلاقات بين الآباء وأولادهم وأمهاتهم لَا يغفل الله عنها، وسيجزي المحسن إحسانًا والمسيء سوءًا، وإن استطاع الرجال أو النساء أن يستطيلوا ويظلموا في الدنيا، أو يخدعوا القضاء بزور من القول، فلن يخدعوا الله سبحانه وتعالى، وهو على كل شيءٍ رقيب، وسيجزي كلًّا بما صنع، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌ.

والثالثة: التَّذكير بأن شئون الأسرة تقوم على التديُّن، لَا على الظواهر الماديَّة، فإنه إذا صلحت القلوب استقامت العلاقة بين الرجل وأهله وأولاده، وإن تقطَّعت حبال المودة، وذهبت التَّقوى من القلوب، وأقفرَّت النفوس، فسيكون الظلم مهما تكن الأحكام، ومهما يكن القضاء.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب الإرضاع على الأم؛ لقوله تعالى: {والوالدات يرضعن}.

٢- أنَّ الله عز وجل أرحم بخلقه من الوالدة بولدها؛ لأنه أمرها أن ترضع مع أن فطرتها، وما جبلت عليه تستلزم الإرضاع؛ وهذا؛ لأن رحمة الله أعظم من رحمة الأم بولدها؛ ومثله قوله تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم}[النساء: ١١]؛ فلأن الله أرحم بأولادنا منا أوصانا فيهم.

٣- أنَّ الرِّضاع التَّام يكون حولين كاملين؛ لقوله تعالى: {حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة}.

٤- توكيد اللفظ لينتفي احتمال النقص؛ لقوله تعالى: {كاملين}؛ ومثله قوله تعالى: {فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة}[البقرة: ١٩٦]: فأكدها بـ{كاملة}؛ لئلا يتوهم واهم في تلك العشرة الكاملة أن تفريق الثلاثة والسبعة يقتضي أن يكون كل عدد منفردًا عن الآخر.

٥- أنَّه ينبغي استعطاف المخاطب بما يقتضي عطفه على الشيء؛ لقوله تعالى: {يرضعن أولادهن}، حيث أضاف الأولاد إلى المرضعات.

٦- أنَّه يجوز النقص عن الحولين؛ لكن ذلك بالتشاور، والتراضي؛ لقوله تعالى: {لمن أراد أن يتم الرضاعة}؛ لكن يجب أن نعلم أن الإتمام تارة يكون واجبًا إذا ترتب على تركه إخلال بواجب، كقوله ﷺ: ((ما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتمُّوا[1])) ؛ وتارة يكون من باب الكمال، كما في هذه الآية: {لمن أراد أن يتم الرضاعة}؛ لأن الله تعالى قال: {فإن أرادا

١- أخرجه البخاري ص٥١: كتاب الأذان، باب ٢٠: قول الرجل فاتتنا الصلاة، حديث رقم ٦٣٥، وأخرجه مسلم ص٧٧١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢٨: استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة ... ، حديث رقم ١٣٥٩ [١٥١] ٦٠٢.

فصالًا عن تراض منهما ... } إلخ؛ ولو كان الإتمام إتمام واجب لم يكن فيه خيار؛ فإن قيل: هل تجوز الزيادة على الحولين؟

فالجواب: أنه ينظر في حال الطفل إن بقي محتاجًا إلى اللبن زيد بقدره؛ وإن لم يكن محتاجًا فقد انتهت مدَّة رضاعته؛ وقوله تعالى: {الرضاعة} هي اسم مصدر بمعنى الإرضاع الذي يحتاجه الطفل.

٧- الرَّد على الجبرية في قوله تعالى: {لمن أراد أن يتم الرضاعة}؛ والجبرية يسلبون الإنسان إرادته، وقدرته، واختياره، ويقولون: (الإنسان ليس له إرادة ولا قدرة؛ إنما هو مجبَر على عمله)؛ فلا يرَون فرقًا بين الذي يتحرَّك ارتعاشًا، والذي يتحرَّك اختيارًا.

٨- أن الولد هبة للوالد؛ لقوله تعالى: {وعلى المولود له}؛ فبعض العلماء استنبط أن هذه الآية تدلُّ على أن الوالد موهوب له؛ وعلى كل حال هذا شبيه بقول النبي ﷺ: ((أنت ومالك لأبيك(١))).

٩- أنه قد يكون للشيء الواحد سببان؛ فالرزق والكسوة هنا لهما سببان، كفقير غارم؛ وإذا تخلف أحد السببين بقي حكم السبب الآخر؛ فلو فرض أن امرأة ناشز لا تطيع زوجها فيما يجب عليها، وهي ترضع ولده، كان لها الرزق والكسوة، لا بالزوجية - لأنها ناشز - ولكن بالرضاعة.

فإن قيل: إذا كان سبب الرزق والكسوة الزوجية، أصبح الرضاع عديم التأثير.

قلنا: لا؛ لأننا إذا قلنا: إن تخلَّف الإنفاق بالزوجية، وجب بالرضاع - هذه واحدة؛ ثانيًا: أنه ربما يترتَّب لها من الطعام والكسوة إذا كانت ترضع ما لا يترتب لو كانت لا ترضع؛ فالمرضع ربما تحتاج إلى غسل ثيابها دائما من الرضاعة، وتحتاج إلى زيادة طعام، وشراب.

١٠- اعتبار العرف بين الناس؛ لقوله تعالى: {بالمعروف}؛ وهذا ما لم يخالف الشرع؛ فإن خالفه رُدَّ إلى الشرع.

١١- أنَّه يجب على المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف؛ فيرجع إلى العرف في نوع الرزق وكميته وكيفيته؛ وكذلك الكسوة.

١٢- وجوب الإنفاق على المولود له، من زوج أو غيره للمرضع؛ وظاهر الآية أنه لا فرق بين أن تكون الزوجة في حباله أو بائنًا منه؛ فإن كانت في حباله فلوجوب الإنفاق عليها سببان: الزوجية والإرضاع؛ وإن لم تكن في حباله فلها سبب واحد - وهو الإرضاع؛ ولا يمتنع أن يكون للحكم الواحد سببان - كما سبق - كما في الزوج يكون ابن عم، فيرث بالزوجية، والقرابة.

١- أخرجه أحمد ٢/٢٠٤، حديث رقم ٦٩٠٢، وأخرجه ابن ماجة ص٢٦١٤، كتاب التجارات، باب ٦٤، ما للوالد من مال ولده، حديث رقم ٢٢٩١.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٨٣٨)، والروض النضير (١٩٥ و ٦٠٣)، وصحيح المشكاة (٣٣٥٤).

١٣- أنَّ المعتبر حال الزوجة؛ لا حال الزوج؛ فيرجع تقدير الرزق والكسوة إلى حال الزوجة، فكأنه قال: الرزق الذي يصلح لمثلها، والكسوة التي تصلح لمثلها؛ وعلى هذا فإذا كان الزوج فقيرًا وهي غنية يلزم بنفقة غني، وكسوة غني؛ وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم؛ وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن المعتبَر حال الزوج، واستدلَّ بقوله تعالى: {لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها}[الطلاق: ٧]؛ وأجيب عن الآية بأن المراد: رزقهن من أمثالكم، وكسوتهن من أمثالكم؛ وبهذا تجتمع الآيتان؛ وقال بعض أهل العلم: بل نعمل بالآيتين جميعًا، فنقول: المعتبَر حال الزوج والزوجة جميعًا: إن كانا موسرين فنفقة الموسر؛ وإن كانا معسرين فنفقة المعسر؛ وإن كان أحدهما فقيرًا، والآخر غنيًا فنفقة المتوسط؛ والراجح أن المعتبَر حال الزوج – وهو مذهب الشافعي –.

١٤- أنَّ الله عز وجل لا يكلف نفسًا ما لا تطيق؛ لقوله تعالى: {لا تكلف نفس إلَّا وسعها}، أي طاقتها.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: بيان رحمة الله عز وجل بعباده، وأن الله سبحانه وتعالى لا يكلِّفهم إلا ما يطيقون.

١٥ – تحريم المضارة؛ لقوله تعالى: {لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده}؛ وقال النبي ﷺ: ((لا ضرر ولا ضرار))، وقال ﷺ: ((من ضار ضار الله به))؛ ولا فرق بين أن تكون المضارة من الوالدة للمولود له، أو بالعكس؛ لأن الآية تحتمل هذا، وهذا.

١٦- وجوب النفقة للمولود على الوارث؛ لقوله تعالى: {وعلى الوارث مثل ذلك}؛ وإيجاب النفقة للمرضع من أجل الرضيع دليل على وجوب الإنفاق على الرضيع نفسه.

١٧- أنه يجوز للأم أن تفطم الولد قبل تمام الحولين؛ لكن بشرط التراضي، والتشاور؛ لقوله تعالى: {فإن أرادا فصالًا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما}.

١٨- عناية الله عز وجل بالرضع؛ لأنه لم يبح فطامهم قبل الحولين إلَّا بعد التراضي بين الوالدة، والمولود له، والتشاور.

١٩- أنَّه لا يكفي المراضاة بين الزوجين في الفطام؛ بل لابدَّ أن يكون هذا بعد التشاور، والمراجعة في الأمر حتى إذا تبينت مصلحة الطفل جاز ذلك.

٢٠- جواز استرضاع الإنسان لولده المراضع؛ لقوله تعالى: {وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم}؛ ولو أن الأم طلبت أن ترضعه، وقال الأب: ترضعه غيرها أُجْبِرَ الأب على موافقة الأم؛ لقوله تعالى: {والوالدات يرضعن أولادهن}؛ فبدأ بـ{الوالدات}؛ لأن الأم أشفق، ولبنها لطفلها أطيب؛ ولأن ذلك أدعى إلى التعاطف بين الأم وولدها.

فإن قيل: لو طلبت عليه أجرة أكثر من غيرها فهل يلزمه إجابتها؟

فالجواب: إن كانت الزيادة يسيرة وجبت إجابتها؛ وإن كانت كثيرة لم تلزم إجابتها.

فإن قيل: هل للأم أن تطلب الأجرة إذا كانت مع المولود له؟

فالجواب: أن في ذلك قولين لأهل العلم؛ والراجح أنه ليس لها ذلك اكتفاء بإنفاق الزوج عليها بالزوجية.

٢١- أنه يجب على الإنسان تسليم العوض بالمعروف - أي بدون مماطلة، وبدون نقص -؛ لقوله تعالى: {إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف}.

٢٢- أنَّه لا يجب للأجير إلا ما اتُّفق عليه في العقد؛ لقوله تعالى: {إذا سلَّمتم ما آتيتم}؛ فلو أن المستأجر طلب منه أن يزيد في الأجرة فإنه لا يلزمه؛ حتى ولو زادت المؤن فلا يلزمه شيء سوى ما اتَّفقا عليه.

٢٣- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله}.

٢٤- وجوب الإيمان بأسماء الله، وما تضمَّنته من الصفات؛ لقوله تعالى: {واعلموا أن الله بما تعملون بصير}.

٢٥- التحذير من مخالفة أمر الله؛ لأنه سبحانه وتعالى بعد أن أمر بالتَّقوى قال: {واعلموا أن الله بما تعملون بصير} يحذرنا من مخالفة أمره بذلك.

٢٦- عموم علم الله بكل ما نعمل؛ لقوله تعالى: {بما تعملون}؛ و{ما} اسم موصول عام.

٢٧- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {بما تعملون}، وقوله تعالى: {آتيتم}، وقوله تعالى: {وإن أردتم}؛ فهذه عدة شواهد ترد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله ليس له إرادة فيه.

٢٨- إثبات بصر الله، وعلمه بما نعمل؛ لقوله تعالى: {بما تعملون بصير}.

٢٩- أنَّ وساوس القلوب لا يؤاخذ بها؛ لأنها ليست من الأعمال؛ لقول النبي ﷺ: ((إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تعمل، أو تتكلم([١])))

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

قال أبو زهرة: في الآيات السابقات بيَّن سبحانه إنشاء الزواج، وما ينبغي أن يكون في الاختيار وما يجب، ثم بيَّن العشرة الزوجية، ثم بيَّن الفراق بين الزوجين والأحكام التي تتبع عند الافتراق، وأن الزواج إمَّا إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وأنه إذا لم يكن واحدًا منهما فهو الكفر في الإسلام، أو الجهل بأحكامه أو الزيغ عن قانونه، والخروج من ربقته ونظامه؛ ثم أشار سبحانه إلى حقوق ثمرة الزواج في حالي الوفاق والخلاف، وأنها حقوق مقرَّرة في الحالين.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٩١٥)، وقال: أخرجه البخاري (٣٢٣/٩) إسناده: حدثنا مسلم بن إبراهيم: ثنا هشام عن قتادة عن زُرَارَةَ بن أبي أوفى عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم (٨٢/١)، وأحمد (٢٨١/٢) من طريق وكيع: حدثنا مِسْعَرٌ وهشام عن قتادة ... به.

وبعد ذلك بيَّن الحكم إذا فرَّق بين الزوجين الموت، فذكر القيود المعقولة التي تقيَّد بها المرأة، وبعدها تكون الحرية التي يكون من آثارها اختيار الزوج الكفء، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}.

قال ابن العثيمين: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن}؛ {الذين} اسم موصول مبتدأ في محل رفع؛ وجملة: {يتوفَّون} صلة الموصول؛ وجملة {يتربَّصن} خبر {الذين}؛ وفيها أشكال، حيث لم يوجد رابط يربطها بالمبتدأ؛ لأن قوله تعالى: {يتربَّصن بأنفسهن} ليس فيها ضمير يعود على {الذين}؛ فاختلف الناس في كيفية الربط بين المبتدأ، والخبر؛ فقال بعضهم التقدير: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بعدهم؛ وعلى هذا يكون الضمير: في (بعدهم) هو الرابط الذي يربط بين المبتدأ، والخبر؛ وقال بعضهم: التقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن؛ فقدر المبتدأ؛ هذان وجهان؛ ولكن الأول أيسر من الثاني وأقرب.

وقوله تعالى: {يُتوفَّون} بضم الياء – أي يتوفَّاهم الله –؛ وذلك بقبض أرواحهم عند الموت؛ وقد أضاف الله التوفِّي إليه تارة، كما في قوله تعالى: {الله يتوفَّى الأنفس حين موتها}[الزمر: ٤٢]؛ وإلى ملك الموت تارة، كما في قوله تعالى: {قل يتوفَّاكم ملك الموت الذي وكل بكم}[السجدة: ١١]؛ وإلى رسله – وهم الملائكة – تارة، كما في قوله تعالى: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفَّته رسلنا وهم لا يفرطون}[الأنعام: ٦١]؛ فإضافتها إلى الله؛ لأنها بأمره؛ وإلى ملك الموت؛ لأنه الذي يقبض الروح؛ وإلى الرسل؛ لأنهم يقبضونها من ملك الموت يصعدون بها إلى السماء؛ ولذلك بُنِيَ الفعل في الآية لما لم يسمَّ فاعله؛ ليشمل كل ذلك.

وقوله تعالى: {منكم}: الخطاب للناس جميعًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا}[النساء: ١٧٤]؛ فالخطابات بصيغة الجمع لجميع من نزل إليهم القرآن.

وقوله تعالى: {ويذرون أزواجًا}: أي يتركون أزواجًا بعدهم؛ و{أزواجًا} جمع زوج – وهو من عقد له النكاح من رجل، أو امرأة –؛ إلَّا أن الفرضيين – رحمهم الله – اصطلحوا على أن الرجل يقال له: (زوج)؛ والمرأة يقال لها: (زوجة) من أجل التمييز بينهما في قسمة الميراث.

وقوله تعالى: {يتربَّصن بأنفسهنَّ}: أي ينتظرن، ويحبسن أنفسهن عن الزواج؛ لأن المرأة بطبيعتها تطلب النكاح؛ فقيل لها: تربصي بنفسك؛ انتظري، مثلما أقول: ارفق بنفسك – أي هوِّن على نفسك –؛ وما أشبهها؛ وأما قول من قال: إن {أنفسهن} توكيد للفاعل في {يتربَّصن} زيدت فيه الباء، وجعل معنى الآية: يتربَّصن أنفسهن؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن الأصل عدم الزيادة؛ ولأن مثل هذا التعبير شاذ في اللغة العربية؛ فلا يحمل كلام الله على الشاذ؛ وعلى هذا فالمعنى الصحيح: أن ينتظرن بأنفسهن فلا يعجلن.

{أربعة أشهر وعشرًا}؛ {أربعة} نائبة مناب الظرف؛ لأنها مضافة إليه؛ وهي متعلّقة بـ{يتربَّصن}، {وعشرًا}: أي وعشر ليال؛ والمراد: عشرة أيام لكن يعبر عن الأيام بالليالي، كقوله تعالى: {إن لبثتم إلّا عشرًا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلّا يومًا}[طه: ١٠٣، ١٠٤] فتبيَّن أن المراد بـ(العشر) هنا الأيام؛ وهنا قوله تعالى: {وعشرًا}: يعني عشرة أيام؛ ولكن قال أهل اللغة: إن العرب يعبرون بالليالي عن الأيام؛ لأنها قبلها.

{فإذا بلغن}: الضمير يعود على الأزواج المتوفَّى عنهن أزواجهن؛ و{أجلهنَّ}: أي مدة العدَّة؛ وأجل كل شيء: غايته؛ أي الغاية التي تنتهي بها العدَّة؛ وهي هنا أربعة أشهر وعشرًا.

{فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنَّ بالمعروف}: الخطاب لأولياء النساء؛ فلو أرادت المرأة أن تعمل شيئًا محرَّمًا عليها في هذه العدَّة، لزم وليُّها أن يمنعها؛ وإذا تمَّت العدَّة فلا جناح على وليّها أن يمكّنها من أن تفعل في نفسها ما تشاء – لكن بالمعروف –.

قال ابن كثير: هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلنِّسَاءِ اللَّاتِي يُتَوفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ: أَنْ يَعْتَدِدْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَ لَيَالٍ وَهَذَا الْحُكْمُ يَشْمَلُ الزَّوْجَاتِ الْمَدْخُولَ بِهِنَّ وَغَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ بالإجماع، ومستنده في غير الْمَدْخُولِ بِهَا عُمُوم الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً فَمَاتَ وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا، وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا؟ فَتَرَدَّدُوا إِلَيْهِ مِرَارًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللَّهِ، وَإِنْ يكن خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ: أَرَى لَهَا الصَّدَاقَ كَامِلًا. وَفِي لَفْظٍ: لَهَا صَدَاقُ مِثْلِهَا، لَا وَكْسَ، وَلَا شَطَطَ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ. فَقَامَ مَعْقِلُ بْنُ سِنَانٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قضى بِهِ فِي بَرْوَعَ بِنْتِ وَاشِقٍ. فَفَرِحَ عَبْدُ اللَّهِ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَامَ رِجَالٌ مِنْ أَشْجَعَ، فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِهِ فِي بَرْوَعَ بِنْتِ وَاشِقٍ.

وَلَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، وَهِيَ حَامِلٌ، فَإِنَّ عِدَّتَهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ، وَلَوْ لَمْ تَمْكُثْ بَعْدَهُ سِوَى لَحْظَةٍ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: {وَأُولاتُ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[الطَّلَاقِ: ٤]. وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يرَى: أَنْ عَلَيْهَا أَنْ تَتَرَبَّصَ بِأَبْعَدِ الْأَجَلَيْنِ مِنَ الْوَضْعِ، أَوْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ، لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ، وَهَذَا مَأْخَذٌ جَيِّدٌ وَمَسْلَكٌ قَوِيٌّ، لَوْلَا مَا ثَبَتَتْ بِهِ السُّنَّةُ فِي حَدِيثِ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ، الْمُخَرَّجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ: أَنَّهُ تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ، وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَوَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَهُ بِلَيَالٍ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلخُطَّاب، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَك، فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ مُتَجَمِّلة؟ لَعَلَّكِ تَرْجِينَ النِّكَاحَ. وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بناكح حتى يمر عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْر. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عليَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حللَتُ حِينَ وضعتُ، وَأَمَرَنِي بِالتَّزْوِيجِ إِنْ بَدَا لِي.

قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ سُبيعة، يَعْنِي لَمَّا احْتُجَّ عَلَيْهِ بِهِ. قَالَ: وَيُصَحِّحُ ذَلِكَ عَنْهُ: أَنَّ أَصْحَابَهُ أَفْتَوْا بِحَدِيثِ سُبَيْعَةَ، كَمَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً.

قال القرطبي: فيه مسائل:

الأولى: قال ابن شهاب: ولا أرى بأسًا أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها، غير أن زوجها لا يقربها حتى تطهر؛ وعلى هذا جمهور العلماء وأئمة الفقهاء. وقال الحسن والشعبي والنخعي وحماد: لا تنكح النفساء ما دامت في دم نفاسها. فاشترطوا شرطين: وضع الحمل، والطهر من دم النفاس. والحديث حجة عليهم، ولا حجة لهم في قوله: ((فلمَّا تعلَّت من نفاسها تجمَّلت للخطاب([1]))) كما في صحيح مسلم وأبي داود؛ لأن ((تعلَّت)) وإن كان أصله، طهرت من دم نفاسها على ما قاله الخليل – فيحتمل أن يكون المراد به ههنا تعلَّت من آلام نفاسها؛ أي استقلَّت من أوجاعها. ولو سلم أن معناه ما قال الخليل فلا حجَّة فيه؛ وإنما الحجة في قوله ﷺ لسبيعة: ((قد حللت حين وضعت))، فأوقع الحلّ في حين الوضع وعلَّقه عليه، ولم يقل إذا انقطع دمك، ولا إذا طهرت؛ فصحَّ ما قاله الجمهور.

الثانية: ولا خلاف بين العلماء على أن أجل كل حامل مطلَّقة يملك الزوج رجعتها أو لا يملك، حرة كانت أو أمة أو مدبرة أو مكاتبة، أن تضع حملها.

واختلفوا في أجل الحامل المتوفَّى عنها كما تقدَّم؛ وقد أجمع الجميع بلا خلاف بينهم أن رجلًا لو توفِّيَ وترك امرأةً حاملًا فانقضت أربعة أشهر وعشر أنها لا تحلُّ حتى تلد؛ فعلم أن المقصود الولادة.

الثالثة: قوله تعالى: {يَتَرَبَّصْنَ} (التربص): التأني والتصبر عن النكاح، وترك الخروج عن مسكن النكاح وذلك بألَّا تفارقه ليلًا. ولم يذكر الله تعالى السكنى للمتوفَّى عنها في كتابه كما ذكرها للمطلقة بقوله تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ} وليس في لفظ العدة في كتاب الله تعالى ما يدلُّ على الإحداد، وإنما قال: {يَتَرَبَّصْنَ} فبيَّنت السنة جميع ذلك. والأحاديث عن النبي ﷺ متظاهرة بأن التربص في الوفاة إنما هو بإحداد، وهو الامتناع عن الزينة ولبس المصبوغ الجميل والطيب ونحوه، وهذا قول جمهور العلماء. وقال الحسن بن أبي الحسن: ليس الإحداد بشيء، إنما تتربَّص عن الزوج، ولها أن تتزيَّن وتتطيَّب؛ وهذا ضعيف لأنه خلاف السنة على ما نبيِّنه إن شاء الله تعالى. وثبت أن النبي ﷺ قال للفريعة بنت مالك بن سنان وكانت متوفى عنها: ((امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله([2]))) قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا؛ وهذا حديث ثابت أخرجه مالك عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، رواه عنه مالك والثوري ووهيب بن خالد وحماد بن زيد وعيسى بن يونس وعدد كثير وابن عيينة والقطان وشعبة، وقد رواه مالك عن ابن شهاب، وحسبك، قال الباجي: لم يرو عنه غيره، وقد

١- **(قلت):** البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤).

٢- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٩٩٢).

أخذ به عثمان بن عفان. قال أبو عمر: وقضى به في اعتداد المتوفى عنها في بيتها، وهو حديث معروف مشهور عند علماء الحجاز والعراق أن المتوفى عنها زوجها عليها أن تعتدَّ في بيتها ولا تخرج عنه، وهو قول جماعة فقهاء الأمصار بالحجاز والشام والعراق ومصر. وكان داود يذهب إلى أن المتوفَّى عنها زوجها ليس عليها أن تعتدَّ في بيتها وتعتدَّ حيث شاءت، لأن السكنى إنما ورد به القرآن في المطلَّقات؛ ومن حجته أن المسألة مسألة خلاف. قالوا: وهذا الحديث إنما ترويه امرأة غير معروفة بحمل العلم؛ وإيجاب السكنى إيجاب حكم، والأحكام لا تجب إلَّا بنص كتاب الله أو سنة أو إجماع. قال أبو عمر: أما السنة فثابتة بحمد الله، وأما الإجماع فمستغنى عنه بالسنة؛ لأن الاختلاف إذا نزل في مسألة كانت الحجة في قول من وافقته السنة، وبالله التوفيق: وروي عن علي وابن عباس وجابر وعائشة مثل قول داود؛ وبه قال جابر بن زيد وعطاء والحسن البصري. قال ابن عباس: إنما قال الله تعالى: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً} ولم يقل يعتدِدْنَ في بيوتهن، ولتعتدَّ حيث شاءت؛ وروي عن أبي حنيفة. وذكر عبدالرزاق قال: حدثنا معمر عن الزهري عن عروة قال: خرجت عائشة بأختها أم كلثوم – حين قتل عنها زوجها طلحة بن عبيدالله – إلى مكة في عمرة، وكانت تفتي المتوفَّى عنها زوجها بالخروج في عدَّتها. قال: وحدثنا الثوري عن عبيدالله بن عمر أنه سمع القاسم بن محمد يقول: أبى الناس ذلك عليها. قال: وحدثنا معمر عن الزهري قال: أخذ المترخِّصون في المتوفى عنها زوجها بقول عائشة، وأخذ أهل الورع والعزم بقول ابن عمر. وفي الموطأ: أن عمر بن الخطاب كان يرد المتوفى عنهن أزواجهن من البيداء يمنعهن الحج. وهذا من عمر رضي الله عنه اجتهاد؛ لأنه كان يرى اعتداد المرأة في منزل زوجها المتوفَّى عنها لازمًا لها؛ وهو مقتضى القرآن والسنة، فلا يجوز لها أن تخرج في حج ولا عمرة حتى تنقضي عدَّتها. وقال مالك: تُرَدُّ ما لم تُحْرِم.

الرابعة: إذا كان الزوج يملك رقبة المسكن فإن للزوجة العدَّة فيه؛ وعليه أكثر الفقهاء مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم لحديث الفريعة. وهل يجوز بيع الدار إذا كانت ملكًا للمتوفَّى وأراد ذلك الورثة؟؛ فالذي عليه جمهور أصحابنا أن ذلك جائز، ويشترط فيه العدَّة للمرأة.

الخامسة: فإن كان للزوج السكنى دون الرقبة، فلها السكنى في مدَّة العدَّة، خلافًا لأبي حنيفة والشافعي؛ لقوله عليه السلام للفريعة – وقد علم أن زوجها لا يملك رقبة المسكن –: ((امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله)). لا يقال إن المنزل كان لها، فلذلك قال لها: ((امكثي في بيتك)) فإن مَعمرًا روى عن الزهري أنها ذكرت للنبي ﷺ أن زوجها قتل، وأنه تركها في مسكن ليس لها واستأذنته؛ وذكر الحديث. ولنا من جهة المعنى أنه ترك دارًا يملك سكناها مُلْكًا لا تبعة عليه فيه؛ فلزم أن تعتدَّ الزوجة فيه؛ أصل ذلك إذا ملك رقبتها.

السادسة: وهذا إذا كان قد أدَّى الكراء، وأما إذا كان لم يؤد الكراء فالذي في المدونة: إنه لا سكنى لها في مال الميت وإن كان موسرًا؛ لأن حقُّها إنما يتعلَّق بما يملكه من السكنى ملكًا تامًّا، وما لم ينقد عوضه لم يملكه ملكًا تامًّا، وإنما ملك

العوض الذي بيده، ولا حق في ذلك للزوجة إلَّا بالميراث دون السكنى؛ لأن ذلك مال وليس بسكنى. وروى محمد عن مالك أن الكراء لازم للميت في ماله.

السابعة: قوله ﷺ للفريعة: ((امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله)) يحتمل أنه أمرها بذلك لما كان زوجها قد أدى كراء المسكن، أو كان أسكن فيه إلى وفاته، أو أن أهل المنزل أباحوا لها العدَّة فيه بكراء أو غير كراء، أو ما شاء الله تعالى من ذلك مما رأى به أن المقام لازم لها فيه حتى تنقضي عدتها.

الثامنة: واختلفوا في المرأة يأتيها نعي زوجها وهي في بيت غير بيت زوجها؛ فأمرها بالرجوع إلى مسكنه وقراره مالك بن أنس؛ وروى ذلك عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله. وقال سعيد بن المسيب والنخعي: تعتدُّ حيث أتاها الخبر، لا تبرح منه حتى تنقضي العدَّة. قال ابن المنذر: قول مالك صحيح، إلَّا أن يكون نَقَلَها الزوج إلى مكان فتلزم ذلك المكان.

التاسعة: ويجوز لها أن تخرج في حوائجها من وقت انتشار الناس بكرة إلى وقت هدوئهم بعد العتمة، ولا تبيت إلَّا في ذلك المنزل. وفي البخاري ومسلم عن أم عطية أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تحدُّ امرأة على ميت فوق ثلاث إلَّا على زوج أربعة أشهر وعشرًا، ولا تلبس ثوبًا مصبوغًا إلَّا ثوب عصب([1])، ولا تكتحل ولا تمسُّ طيبًا إلَّا إذا طهرت نبذة([2])من قسط أو أظفار([3]))). وفي حديث أم حبيبة: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدّ على ميت فوق ثلاث إلَّا على زوج أربعة أشهر وعشرًا...([4]))) الحديث. الإحداد: ترك المرأة الزينة كلها من اللباس والطيب والحلي والكحل والخضاب بالحنَّاء ما دامت في عدَّتها؛ لأن الزينة داعية إلى الأزواج، فنهيت عن ذلك قطعًا للذرائع وحماية لحرمات الله تعالى أن تنتهك، وليس دهن المرأة رأسها بالزيت والشيرج من الطيب في شيء. يقال: امرأة حادٍّ ومحدٌّ.

العاشرة: وصفه ﷺ المرأة بالإيمان يدلُّ على صحَّة أحد القولين عندنا في الكتابية المتوفى عنها زوجها أنها لا إحداد عليها؛ وهو قول ابن كنانة وابن نافع، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال أبو حنيفة وابن المنذر، وروي عن ابن القاسم أن عليها الإحداد كالمسلمة؛ وبه قال الليث والشافعي وأبو ثور وعامة أصحابنا؛ لأنه حكم من أحكام العدَّة فلزمت الكتابية للمسلم كلزوم المسكن والعدَّة.

١- العصب (بفتح العين وسكون الصاد المهملتين): من برود اليمن يعصب غزلها، أو يربط ثم يصبغ ثم ينسج مصبوغا فيخرج موشيا لبقاء ما عصب منه أبيض ولم ينصبغ: وإنما يعصب السدي دون اللحمة.

٢- النبذة: الشيء اليسير. القسط والأظفار: نوعان من البخور. نبذة منصوب على الإستثناء تقدّم عليه الظرف (شرح مسلم).

٣- (قلت): مسلم (٩٣٨).

٤- (قلت): البخاري (١٢٨١)، ومسلم (١٤٨٦).

الحادية عشرة: وفي قوله ﷺ: ((فوق ثلاث إلَّا على زوج))، دليل على تحريم إحداد المسلمات على غير أزواجهن فوق ثلاث، وإباحة الإحداد عليهم ثلاثًا تبدأ بالعدد من الليلة التي تستقبلها إلى آخر ثالثها؛ فإن مات حميمها في بقية يوم أو ليلة ألغته وحسبت من الليلة القابلة.

الثانية عشرة: هذا الحديث بحكم عمومه يتناول الزوجات كلهن المتوفَّى عنهن أزواجهن، فيدخل فيه الإماء والحرائر والكبار والصغار؛ وهو مذهب الجمهور من العلماء. وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا إحداد على أَمَةٍ ولا على صغيرة؛ حكاه عنه القاضي أبو الوليد الباجي. قال ابن المنذر: أما الأمة الزوجة فهي داخلة في جملة الأزواج وفي عموم الأخبار؛ وهو قول مالك والشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي؛ ولا أحفظ في ذلك عن أحد خلافًا، ولا أعلمهم يختلفون في الإحداد على أم الولد إذا مات سيدها؛ لأنها ليست بزوجة، والأحاديث إنما جاءت في الأزواج. قال الباجي: الصغيرة إذا كانت ممَّن تعقل الأمر والنهي وتلتزم ما حدَّ لها، أمرت بذلك؛ وإن كانت لا تدرك شيئًا من ذلك لصغرها فروى ابن مزين عن عيسى يجنِّبها أهلها جميع ما تجتنبه الكبيرة، وذلك لازم لها. والدليل على وجوب الإحداد على الصغيرة ما روي ((أن النبي ﷺ سألته امرأة عن بنت لها توفي عنها زوجها فاشتكت عينها أفتكحلها؟(١)) فقال النبي ﷺ ((لا)) مرتين أو ثلاثًا؛ كل ذلك يقول ((لا)) ولم يسأل عن سنها؛ ولو كان الحكم يفترق بالصغر والكبر لسأل عن سنِّها حتى يبيِّن الحكم، وتأخير البيان في مثل هذا لا يجوز، وأيضًا فإن كل من لزمتها العدة بالوفاة لزمها الإحداد كالكبيرة.

الثالثة عشرة: قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافًا أن الخضاب داخل في جملة الزينة المنهي عنها. وأجمعوا على أنه لا يجوز لها لباس الثياب المصبغة والمعصفرة .

الرابعة عشرة: وأجمع الناس على وجوب الإحداد على المتوفَّى عنها زوجها، إلَّا الحسن فإنه قال: ليس بواجب؛ واحتج بما رواه عبدالله بن شداد بن الهاد عن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر بن أبي طالب قال لي رسول الله ﷺ: ((تسلَّبي ثلاثًا ثم اصنعي ما شئت(٢))). قال ابن المنذر: كان الحسن البصري من بين سائر أهل العلم لا يرى الإحداد، وقال: المطلقة ثلاثًا والمتوفَّى عنها زوجها تكتحلان وتختضبان وتصنعان ما شاءا. وقد ثبتت الأخبار عن النبي ﷺ بالإحداد، وليس لأحد بلغته إلَّا التسليم؛ ولعلَّ الحسن لم تبلغه، أو بلغته فتأوَّلها بحديث أسماء بنت عميس أنها استأذنت النبي ﷺ أن تحدَّ على جعفر وهى امرأته؛ فأذن لها ثلاثة أيام ثم بعث إليها بعد ثلاثة أيام أن تطهري واكتحلي. قال ابن

١- (قلت): البخاري (٥٧٠٦)، ومسلم (١٤٨٨). والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ امْرَأَةً تُوُفِّيَ زَوْجُهَا فَاشْتَكَتْ عَيْنَهَا فَذَكَرُوهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَذَكَرُوا لَهُ الْكُحْلَ وَأَنَّهُ يُخَافُ عَلَى عَيْنِهَا فَقَالَ: ((لَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ تَمْكُثُ فِي بَيْتِهَا فِي شَرِّ أَحْلَاسِهَا، أَوْ فِي أَحْلَاسِهَا فِي شَرِّ بَيْتِهَا - فَإِذَا مَرَّ كَلْبٌ رَمَتْ بَعْرَةً فَلَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٢٢٦).

المنذر؛ وقد دفع أهل العلم هذا الحديث بوجوبه؛ وكان أحمد بن حنبل يقول: هذا الشاذ من الحديث لا يؤخذ به؛ وقاله إسحاق.

قال الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة ج٧ص٦٨٤: ومعنى قوله ﷺ: ((تسلَّبي)) – كما قال ابن الأثير –: (أي: البسي ثوب الحداد وهو (السِّلاب)، والجمع (سُلُب)، وتسلبت المرأة: إذا لبسته. وقيل: هو ثوب أسود تُغطي به المُحِدُّ رأسها).

فأقول: هذا المعنى هو صريح في رواية أحمد؛ فإنها بلفظ: ((البسي ثوب الحداد ثلاثًا، ثم اصنعي ما شئت)).

ولكن في رواية أخرى له (٦/٣٦٩) بلفظ: ((لا تُحِدِّي بعد يومك هذا)). وهو شاذ عندي بهذا اللفظ، لمخالفته للطرق المتقدِّمة من جهة، وللحديث المتواتر عن جمع من أمهات المؤمنين وغيرهن – من جهة أخرى – الصريح في أن المتوفَّى عنها زوجها تحد عليه أربعة أشهر وعشرًا، وهو مخرج في الإرواء (٢١١٤). فذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحديث المتواتر ناسخ لحديث الترجمة، ومنهم أبو جعفر الطحاوي.

فأقول: لو كان الحديث محفوظًا باللفظ الثاني؛ لكان القول بالنسخ مما لابدَّ منه، أمَّا والمحفوظ إنما هو باللفظ الأول: ((تسلَّبي ثلاثًا))؛ فهو أخصُّ من الحديث المتواتر، فيستثنى الأقل من الأكثر، أي: تحدُّ بما شاءت من الثياب الجائزة غير السواد؛ إلَّا في الثلاثة أيام، وهذا هو اختيار الإمام ابن جرير، قال رحمه الله: (فإنه غير دالٍّ على أن لا إحداد على المرأة، بل إنَّما دلَّ على أمر النبي إيَّاها بالتَّسلب ثلاثًا، ثم العمل بما بدالها من لبس ما شاءت من الثياب مما يجوز للمعتدَّة لبسه؛ مما لم يكن زينة ولا طيبًا؛ لأنه قد يكون من الثياب ما ليس بزينة ولا ثياب تسلُّب، وذلك كالذي أذن ﷺ للمتوفَّى عنها أن تلبس من ثياب العصب وبرود اليمن؛ فإن ذلك لا من ثياب زينة، ولا من ثياب تسلُّب).

قلت: وهذا هو العلم والفقه والجمع بين الأحاديث، فعضَّ عليه بالنواجذ. والله هو الموفق لا رب سواه.

قال القرطبي: الخامسة عشرة: ذهب مالك والشافعي إلى أن لا إحداد على مطلقة رجعية كانت أو بائنة واحدة. أو أكثر؛ وهو قول ربيعة وعطاء. وذهب الكوفيون: أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حي، وأبو ثور وأبو عبيد، أن المطلَّقة ثلاثًا عليها الإحداد؛ وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وابن سيرين والحكم بن عيينة. قال الحكم: هو عليها أوكد وأشدُّ منه على المتوفَّى عنها زوجها؛ ومن جهة المعنى أنهما جميعًا في عدَّة يحفظ بها النسب. وقال الشافعي وأحمد وإسحاق: الاحتياط أن تتَّقي المطلَّقة الزينة. قال ابن المنذر: وفي قول النبي ﷺ: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث إلَّا على زوج أربعة أشهر وعشرًا)) دليل على أن المطلَّقة ثلاثًا والمطلّق حيٌّ لا إحداد عليها.

السادسة عشرة: أجمع العلماء على أن من طلق زوجته طلاقًا يملك رجعتها ثم توفِّي قبل انقضاء العدَّة أن عليها عدَّة الوفاة وترثه. واختلفوا في عدَّة المطلَّقة ثلاثًا في المرض؛ فقالت طائفة تعتدُّ عدَّة الطلاق؛ هذا قول مالك والشافعي ويعقوب وأبي

عبيد وأبي ثور. قال ابن المنذر: وبه نقول؛ لأن الله تعالى جعل عدَّة المطلَّقات الأقراء، وقد أجمعوا على المطلَّقة ثلاثًا لو ماتت لم يرثها المطلَّق، وذلك لأنها غير زوجة؛ وإذا كانت غير زوجة فهو غير زوج لها.

واختلفوا في المرأة يبلغها وفاة زوجها أو طلاقه؛ فقالت طائفة: العدَّة في الطلاق والوفاة من يوم يموت أو يطلِّق؛ هذا قول ابن عمر وابن مسعود وابن عباس، وبه قال مسروق وعطاء وجماعة من التابعين، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد والثوري وأبو ثور وأصحاب الرأي وابن المنذر. وفيه قول ثان وهو أن عدَّتها من يوم يبلغها الخبر؛ روي هذا القول عن علي، وبه قال الحسن البصري وقتادة وعطاء الخراساني وجلاس بن عمرو. وقال سعيد بن المسيب وعمر بن عبدالعزيز: إن قامت بيِّنة فعدَّتها من يوم مات أو طلَّق، وإن لم تقم بيِّنة فمن يوم يأتيها الخبر؛ والصحيح الأول، لأنه تعالى علَّق العدَّة بالوفاة أو الطلاق، ولأنها لو علمت بموته فتركت الإحداد انقضت العدَّة، فإذا تركته مع عدم العلم فهو أهون؛ ألا ترى أن الصغيرة تنقضي عدَّتها ولا إحداد عليها. وأيضًا فقد أجمع العلماء على أنها لو كانت. حاملًا لا تعلم طلاق الزوج أو وفاته ثم وضعت حملها أن عدَّتها منقضية. ولا فرق بين هذه المسألة وبين المسألة المختلف فيها. ووجه من قال بالعدَّة من يوم يبلغها الخبر، أن العدَّة عبادة بترك الزينة وذلك لا يصح إلَّا بقصد ونيَّة، والقصد لا يكون إلَّا بعد العلم. والله أعلم.

السابعة عشرة: عدَّة الوفاة تلزم الحرة والأمة والصغيرة والكبيرة والتي لم تبلغ المحيض، والتي حاضت واليائسة من المحيض والكتابية – دخل بها أو لم يدخل بها إذا كانت غير حامل – وعدَّة جميعهن إلَّا الأمة أربعة أشهر وعشرة أيام؛ لعموم الآية في قوله تعالى: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً}. وعدَّة الأمة المتوفَّى عنها زوجها شهران وخمس ليال. قال ابن العربي: نصف عدَّة الحرة إجماعًا، إلَّا ما يحكى عن الأصم فإنه سوى فيها بين الحرة والأمة وقد سبقه الإجماع، لكن لصممه لم يسمع. قال الباجي: ولا نعلم في ذلك خلافًا إلَّا ما يروى عن ابن سيرين، وليس بالثابت عنه أنه قال: عدَّتها عدَّة الحرة.

الثامنة عشرة: أجمع أهل العلم على أن نفقة المطلقة ثلاثًا أو مطلقة للزوج عليها رجعة وهي حامل واجبة؛ لقوله تعالى: {وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[الطلاق: ٦].

واختلفوا في وجوب نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها؛ فقالت طائفة: لا نفقة لها؛ كذلك قال جابر بن عبدالله وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء والحسن وعكرمة وعبدالملك بن يعلى ويحيى الأنصاري وربيعة ومالك وأحمد وإسحاق، وحكى أبو عبيد ذلك عن أصحاب الرأي. وفيه قول ثان وهو أن لها النفقة من جميع المال؛ وروي هذا القول عن علي وعبدالله وبه قال ابن عمرو وشريح وابن سيرين والشعبي وأبو العالية والنخعي وجلاس بن عمرو وحماد بن أبي سليمان وأيوب السختياني وسفيان الثوري وأبو عبيد. قال ابن المنذر: وبالقول الأول أقول؛ لأنهم أجمعوا على أن نفقة كل من كان يجبر

على نفقته وهو حي مثل أولاده الأطفال وزوجته ووالديه تسقط عنه؛ فكذلك تسقط عنه نفقة الحامل من أزواجه. وقال القاضي أبو محمد: لأن نفقة الحمل ليست بدين ثابت فتتعلق بماله بعد موته، بدليل أنها تسقط عنه بالإعسار فبأن تسقط بالموت أولى وأحرى.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: {أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} اختلف العلماء في الأربعة الأشهر والعشر التي جعلها الله ميقاتًا لعدَّة المتوفَّى عنها زوجها، هل تحتاج فيها إلى حيضة أم لا؛ فقال بعضهم: لا تبرأ إذا كانت ممن توطأ إلا بحيضة تأتي بها في الأربعة الأشهر والعشر، وإلا فهي مسترابة. وقال آخرون: ليس عليها أكثر من أربعة أشهر وعشر، إلَّا أن تستريب نفسها ريبة بيِّنة؛ لأن هذه المدة لابدَّ فيها من الحيض في الأغلب من أمر النساء إلَّا أن تكون المرأة ممَّن لا تحيض أو ممَّن عرفت من نفسها أو عرف منها أن حيضتها لا تأتيها إلَّا في أكثر من هذه المدة.

قوله تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}: فيه ثلاث مسائل: الأولى: أضاف تعالى الأجل إليهن إذ هو محدود مضروب في أمرهن، وهو عبارة عن انقضاء العدَّة.

الثانية: قوله تعالى: { فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } خطاب لجميع الناس، والتلبس بهذا الحكم هو للحكام والأولياء. {فِيمَا فَعَلْنَ} يريد به التزوُّج فما دونه من التَّزين واطراح الإحداد. {بِالْمَعْرُوفِ}: أي بما أذن فيه الشرع من اختيار أعيان الأزواج وتقدير الصداق دون مباشرة العقد؛ لأنه حق للأولياء كما تقدَّم.

الثالثة: وفي هذه الآية دليل على أن للأولياء منعهن من التبرُّج والتشوُّف للزوج في زمان العدَّة. وفيها ردٌّ على إسحاق في قوله: إن المطلَّقة إذا طعنت في الحيضة الثالثة بانت وانقطعت رجعة الزوج الأول، إلَّا أنه لا يحلُّ لها أن تتزوج حتى تغتسل. وعن شريك: أن لزوجها الرجعة ما لم تغتسل ولو بعد عشرين سنة([1]). قال الله تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ} وبلوغ الأجل هنا انقضاء العدَّة بدخولها في الدم من الحيضة الثالثة ولم يذكر غسلًا؛ فإذا انقضت عدَّتها حلَّت للأزواج ولا جناح عليها فيما فعلت من ذلك. والحديث([2])عن ابن عباس لو صح يحتمل أن يكون منه على الاستحباب، والله أعلم.

قال أبو زهرة: وقد حدَّ الشارع للمتوفَّى عنها زوجها عدَّة هي في جملتها أكثر من عدَّة المطلَّقات؛ لأن تلك ثلاثة قروء تجيء عادةً في نحو ثلاثة أشهر – وهنا يرد سؤالان: أولهما: لماذا كانت العدَّة في المتوفَّى عنها زوجها بالأشهر دون الحيض، فلمَ تجعل أربع حيضات بدل ثلاثة؟؛ ولماذا كانت الزيادة؟

١- (قلت): وهذا أصح الأقوال، والله أعلم. أنظر كلام ابن العثيمين الفائدة الثانية من فوائد الآية (٢٣١) من سورة البقرة.

٢- يشير الى قول ابن عباس: أن المرأة اذا طعنت في الحيضة الثالثة بانت وآنقطعت رجعة الزوج، وهذا قول إسحق وهو ضعيف.

ولم نجد أحدًا تصدى لبيان الحكمة في جعلها بالأشهر، ويبدو لنا أن الحكمة التي تدركها عقولنا – وإن كانت الحكمة الشرعية السامية تعلو على مداركنا – هي أن عدَّة الوفاة تكون للمدخول بها وغير المدخول بها، وللصغيرة والكبيرة، والأساس فيها هو الحداد على الزواج السابق الذي انتهى بوفاة أحد ركنيه، فلزم أن يكون بأمر يشترك فيه الجميع ما دام السبب واحدًا في الجميع؛ وفوق ذلك إن العدَّة في الوفاة لو قدِّرت بالحيض، وهو أمر لَا يعلم إلَّا من جهة المرأة، فربما تدفعها الرغبة في الزواج إلى الكذب فتدَّعيه وهو لم يقع؛ وفي المطلقات العدَّة حق للمطلِّق فيستطيع أن ينكر عليها، أو يظهر كذبها، وهي تخشى صولته، فتبتعد ما أمكن عن المراء؛ أما في حال الوفاة فصاحب الحق الأول قد مات وصار الحق لله خاصًا، فحدَّ ذلك الحق بالأشهر والأيام حتى لَا يكون مساغًا للكذب وادعاء ما لم يحصل؛ لأنَّ الأيام والأشهر تعرف بالكتاب والحساب، وليست أمرًا يعرف من جهتها فقط.

أما الجواب عن الأمر الثاني وهو: لماذا كانت العدَّة بالوفاة أكثر في الجملة من العدَّة الناشئة عن الطلاق؛ فيبدو بادي الرأي، من الفرق بين حال الطلاق وحال الوفاة، أن الطلاق نتيجة شقاق؛ فالحداد على الزوج الذي ينشئه ليس قويًّا، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فرصة للرجعة يكون أوضح في معنى العدَّة، ويكفي لذلك نحو ثلاثة أشهر؛ أما حال الموت، فإن مرارة الفراق فيها أوضح وأشد، ومعنى الحداد يغلب فيها معنى براءة الرحم؛ ولذلك تجب على المدخول بها وغير المدخول بها، وإن الشارع قد جعلها لذلك أطول من عدة الطلاق؛ وإن الشارع الحكيم قد خفَّف من حدَّة ما كانت تعمله النسوة الجاهلية، فقد كانت المرأة في الجاهلية تغلق على نفسها أضيق مكان في مسكنها وتقضي فيه سنة كاملة؛ حدادًا على زوجها، فجاء الإسلام، وخفَّف عليها وجعلها أربعة أشهر وعشرًا.

وقد يرد سؤال آخر: لماذا حُدَّ العدد بأربعة أشهر وعشرًا؟ وإن تقدير الأعداد كما يقرِّر الفقهاء أمر توقيفي خالص لَا يجري فيه القياس؛ ولكن ليس معنى ذلك أنه لَا حكمة فيه؛ وإن الحكمة يقرِّرها العلماء في أن مدة أربعة الأشهر هي المدَّة التي قرَّرها الشارع أقصى مدَّة للحرمان من الرجال، ولذلك جعل الإيلاء مدَّته أربعة أشهر، فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدَّة الإحداد على الزواج في حدود هذه المدَّة، ومقاربة لها في الجملة، وليس من المعقول أن يعاقب الشارع الرجل إذا أصرَّ على هجر زوجه بالفراق إذا أصرَّ عليه أربعة أشهر، وفي الوقت نفسه يلزمها بالحداد مدة أطول من ذلك، بل ينبغي أن تكون مدَّة الإحداد حول هذه المدَّة أيضًا.

قال ابن العثيمين: **{والله بما تعملون خبير[١]}**: أي عليم ببواطن الأمور؛ فالخبير أخصُّ من العليم.

قال أبو زهرة: ذَيَّلَ الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا التذييل؛ لبيان أنه سبحانه وتعالى عليم عِلْمَ الخبير الدقيق الذي لَا تخفى عليه خافية، بما يعملون من تنفيذهم لأوامره، أو إهمالهم؛ وأن من سنته سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه بعد

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الخبير} مفصلًا عند تفسير الآية (١٨) من سورة الأنعام.

كل أمر أو نهي يذكر رقابته سبحانه وتعالى في التنفيذ، ليعلم من يهمل ومن يطيع، ولكل جزاؤه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ وإذا كان المكلف يحس بأنه تحت رقابة الله دائمًا فإنه يراقب الله في عمله، ويكون منه الخير واجتناب الشر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب العدَّة على المتوفى عنها زوجها؛ لقوله تعالى: {يتربَّصن بأنفسهن}؛ لأنها خبر بمعنى الأمر.

٢- وجوب العدَّة على المتوفَّى عنها زوجها سواء كانت صغيرة، أم كبيرة؛ لقوله تعالى: {أزواجًا}، وأطلق؛ فأما الكبيرة فتقوم بما يلزمها من الإحداد؛ وأما الصغيرة فالمخاطب بذلك وليُّها يجنِّبها ما تتجنَّبه المحادَّة الكبيرة.

٣- وجوب العدَّة على المتوفَّى عنها زوجها سواء دخل بها أم لم يدخل؛ لقوله تعالى: {أزواجًا}؛ لأن الزوجة تكون زوجة بمجرَّد العقد بخلاف الطلاق؛ فإن الطلاق قبل الدخول والخلوة لا عدَّة فيه؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها}[الأحزاب: ٤٩].

٤- وجوب انتظار المرأة بنفسها مدة العدَّة بحيث لا تتزوج ولا تتعرض للزواج؛ لقوله تعالى: {يتربَّصن بأنفسهن}، كما تقول: تربِّص بكذا وكذا - يعني لا تتعجَّل.

٥- أن السَّرية لا تلزمها عدَّة الوفاة؛ لأنها ليست بزوجة.

٦- أنه لو تبيَّن عند الوفاة أن النكاح باطل لم تعتدَّ بالوفاة، مثل أن يتبيَّن عند وفاته أنها أخته من الرضاع؛ لأنه تبيَّن أن النكاح باطل - وجوده كالعدم -.

٧- أن عدَّة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام، سواء كانت تحيض أو لا تحيض؛ ويستثنى من ذلك الحامل؛ فعدَّتها إلى وضع الحمل؛ لقوله تعالى: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن}[الطلاق: ٤]؛ ولا عدَّة للمتوفَّى عنها زوجها سوى هاتين.

٨- حكمة الله بتقدير عدَّة المتوفَّى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشر؛ وعلَّق الحكم بهذا العدد، ولم يعلِّقه بالأقراء - كما في المطلقات -؛ لأن أقل ما يمكن أن يتحرَّك فيه الجنين أربعة أشهر؛ وزيدت العشرة للاستثبات؛ هكذا قال بعض أهل العلم؛ ولكن عند التأمل يتبيَّن لك ضعف هذا التعليل؛ لأن المرأة المتوفَّى عنها زوجها قد لا يدخل بها؛ وقد تكون صغيرة لا يمكن أن تحمل؛ وقد تكون كبيرة آيسة من الحمل؛ ثم الاحتياط بأربعة أشهر وعشر، يمكن العلم ببراءة الرحم قبل هذه المدَّة؛ فتبيَّن بهذا أن الحكمة شيء آخر؛ وعندي - والله أعلم - أن الحكمة أنهم لما كانوا في الجاهلية تبقى المرأة حولًا كاملًا في العدَّة بعد موت زوجها، وتبقى في بيت صغير كالخباء لها، ولا تمس الماء أبدًا؛ تأكل وتشرب حتى لا تموت؛

وتبقى بعرقها، ورائحتها، وحيضها، ونتنها لمدة سنة كاملة؛ فإذا تمَّت السنة أتوا لها بفأرة، أو عصفور، فقالوا لها: (امحشي به فرجك)؛ فقل ما تتمسح بشيء إلَّا مات من الرائحة الكريهة؛ مدة سنة ربما يأتيها الحيض اثنتي عشرة مرة وهي في هذا المكان؛ ثم إذا تم الحول أتوا لها ببعرة؛ فأخذت البعرة ورمت بها، كأنها تقول: كل ما مرَّ علي فهو أهون من رمي هذه البعرة؛ فجاء الإسلام وأبدَل الحول بأربعة أشهر؛ لأن أربعة أشهر: ثلث حول؛ وعشرة أيام: ثلث شهر؛ والثلث كثير؛ فأتي من الحول بثلثه، ومن الشهر بثلثه؛ فإن تبينت هذه الحكمة، وكانت هي مراد الله فهذا من فضل الله؛ وإن لم تتبيَّن فإنَّنا نقول: الله أعلم بما أراد؛ وهذا كغيرها من العبادات ذوات العدد التي لا نعلم ما الحكمة فيها.

٩- أن العدَّة إذا انتهت جاز للمرأة أن تفعل كل ما كان معروفًا من تجمُّل، وخروج من البيت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: {فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم}.

١٠- أن الأولياء مسؤولون عن مولياتهم؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليكم} إشارة إلى أن الرجال لهم ولاية على النساء؛ فيكونون مسؤولين عنهن.

١١- اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: {بالمعروف}؛ والعرف معتبَر إذا لم يخالف الشرع؛ فإن خالف الشرع فلا يعتبَر.

١٢- إثبات علم الله عز وجل بالظاهر، والخفي؛ لقوله تعالى: {والله بما تعملون خبير}؛ والخبير هو العليم ببواطن الأمور؛ ومن كان عليمًا ببواطن الأمور كان عليمًا بظواهرها من باب أولى.

١٣- التَّحذير من مخالفة هذا الحكم؛ لقوله تعالى: {والله بما تعملون خبير}: أي احذروا من مخالفته؛ فإن الله بما تعملون خبير.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

قال أبو زهرة: في هذه الجملة الكريمة يشير سبحانه وتعالى إلى طبائع النفس البشرية فيمنعها من الانسياق فيما يردي ويفسد، ويبيح لها ما لَا ضرر فيه، وقد يكون فيه ما تطيب به نفوس، وتطمئن إليه قلوب.

فالله سبحانه وتعالى علم أنَّ العارفين لأخبار المتوفى عنها زوجها وأحوالها وحقيقتها، من جمال أو نحوه، ومن حسن عشرة ولطف ومودة، أنَّهم سيذكرونها في نفوسهم ويقرنون الذكر بالرغب والاتجاه إلى طلبها، وإعلان الرغبة والتحبُّب إليها وإمالة

قلبها، ولقد علم الله سبحانه وتعالى حال النفوس هذه فأباح للناس ما تكون مغبته حسنة، ومنع غيره، فأباح إكنان الرغبة في الأنفس وحديث النفس بها، فإن حديث النفس ليس موضع مؤاخذة؛ وأباح التعريض بالخطبة.

قال ابن العثيمين: {ولا جناح عليكم}: أي لا إثم عليكم؛ والخطاب في قوله تعالى: {عليكم} لجميع الناس؛ فكل خطاب في القرآن بلفظ الجمع فهو للناس عمومًا إلَّا ما خصَّه السِّياق بقرينة فليس للعموم.

قوله تعالى: {فيما}: أي في الذي {عرَّضتم به من خطبة النساء}: (التعريض) هو أن يأتي الإنسان بكلام لا يصرِّح فيه بمراده؛ لكنه مقارب، مثل أن يقول للمرأة: (إني في مثلك لراغب)؛ (إنك امرأة يرغب فيك الرجال)؛ (إذا انقضت العدَّة فأخبريني)؛ وعلى هذا فقس؛ فهذا ليس فيه تصريح أن يخطبها لا لنفسه، ولا لغيره؛ لكنه يسمَّى تعريضًا؛ والتعريض والتلويح بمعنى واحد؛ وال{خطبة}: معناها أن يعرض الإنسان نفسه على المرأة ليتزوَّجها ويطلبها إليه؛ وسمِّيت خطبة إما من الخطب بمعنى الشأن؛ لأن هذا شأنه عظيم؛ وإما من الخطابة؛ لأنها مقرونة بالقول – حتى إنه كان فيما سلف يأتي الخاطب إلى المرأة وأهلها، ويخطب فيهم – يعني يتكلم بخطبة، ثم يبدي أنه يرغبها؛ ومع ذلك يفرقون بين الخطبة – بالكسر –؛ وبين الخطبة – بالضم –؛ فيقول: الخطبة – بالضم: هي القول المشتمل على الوعظ، والتذكير، وما أشبه ذلك –؛ والخطبة – بالكسر –: هي طلب المرأة لتكون زوجة للطالب؛ والمراد بـ{النساء} من مات عنهن أزواجهن.

قال القرطبي: قال ابن عطية: أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدَّة بما هو نص في تزوُّجها وتنبيه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وكذلك ما أشبهه، وجوِّز ما عدا ذلك. ومن أعظمه قربًا إلى التصريح قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: ((كوني عند أم شريك ولا تسبقيني بنفسك([١]))). ولا يجوز التعريض لخطبة الرجعية إجماعًا لأنها كالزوجة. وأما من كانت في عدَّة البينونة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها والله أعلم. وروي في تفسير التَّعريض ألفاظ كثيرة جماعها يرجع إلى قسمين: الأول: أن يذكرها لوليِّها يقول له لا تسبقني بها. والثاني: أن يشير بذلك إليها دون واسطة؛ فيقول لها: إني أريد التزويج؛ أو إنك لجميلة، إنك لصالحة، إن الله لسائق إليك خيرًا، إنِّي فيكِ لراغب، ومن يرغب عنكِ، إنَّك لنافقة([٢])، وإن حاجتي في النساء، وإن يقدر الله أمرًا يكن. هذا هو تمثيل مالك وابن شهاب. وقال ابن عباس: لا بأس أن يقول: لا تسبقيني بنفسك، ولا بأس أن يهدي إليها، وأن يقوم بشغلها في العدَّة إذا كانت من شأنه؛ قاله إبراهيم. وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج. والهدية إلى المعتدَّة جائزة، وهي من التَّعريض؛ قاله سحنون وكثير من العلماء وقاله إبراهيم. وكره مجاهد أن يقول

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٩٧٧).

٢- نفقت الأيم: اذا كثر خطابها ورغب فيها.

لها: لا تسبقيني بنفسك ورآه من المواعدة سرًّا. قال القاضي أبو محمد بن عطية: وهذا عندي على أن يتأوّل قول النبي ﷺ لفاطمة أنه على جهة الرأي لها فيمن يتزوَّجها لا أنه أرادها لنفسه وإلّا فهو خلاف لقول النبي ﷺ.

قوله تعالى: {أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ}: معناه سترتم وأضمرتم من التزوُّج بها بعد انقضاء عدَّتها. والإكنان: الستر والإخفاء؛ يقال: كننته وأكننته بمعنى واحد. وقيل: كننته أي صنته حتى لا تصيبه آفة وإن لم يكن مستورًا؛ ومنه بيض مكنون ودر مكنون. وأكننته أسررته وسترته. وقيل: كننت الشيء (من الأجرام) إذا سترته بثوب أو بيت أو أرض ونحوه. وأكننت الأمر في نفسي. ولم يسمع من العرب (كننته في نفسي). ويقال: أكنُّ البيت الإنسان؛ ونحو هذا. فرفع الله الجناح عمَّن أراد تزوُّج المعتدَّة مع التعريض ومع الإكنان، ونهى عن المواعدة التي هي تصريح بالتزويج وبناء عليه واتفاق على وعد. ورخَّص لعلمه تعالى بغلبة النفوس وطمحها وضعف البشر عن ملكها.

استدلَّت الشافعية بهذه الآية على أنَّ التَّعريض لا يجب فيه حدّ؛ وقالوا: لما رفع الله تعالى الحرج في التعريض في النكاح دلَّ على أن التعريض بالقذف لا يوجب الحدّ؛ لأن الله سبحانه لم يجعل التعريض في النكاح مقام التصريح. قلنا: هذا ساقط لأن الله سبحانه وتعالى لم يأذن في التصريح بالنكاح في الخطبة، وأذن في التَّعريض الذي يفهم منه النكاح، فهذا دليل على أن التَّعريض يفهم منه القذف؛ والأعراض يجب صيانتها، وذلك يوجب حدّ المعرض؛ لئلَّا يتطرق الفسقة إلى أخذ الأعراض بالتعريض الذي يفهم منه ما يفهم بالتصريح.

قال ابن العثيمين: {علم الله أنَّكم ستذكرونهنَّ}: أي تكلمون فيهن معربين عن رغبتكم في نكاحهن، مثل أن يذكر لأخيه، أو لأبيه، أو لابنه، أو لصديقه بأنه يرغب أن يتزوج فلانة.

قوله تعالى: {ولكن لا تواعدوهنَّ سرًّا} معطوف على قوله تعالى: {ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم}.

وقوله تعالى: {ولكن لا تواعدوهنَّ سرًّا}: {لا} ناهية؛ لحذف النون؛ و{سرًّا} ذكر كثير من المفسرين أن (السر) من أسماء النكاح – أي لا تواعدوهن نكاحًا؛ وقالوا: إن (السر) من أسماء النكاح؛ لأنه يقع بين الرجل وامرأته سرًّا؛ وقال بعض العلماء: {لا تواعدوهنَّ سرًّا}: أي وعدًا سرًّا فيما بينكم وبينهن؛ وإذا نُهي عن السِّر فالعلانية من باب أَولى؛ ويختلف الإعراب بناء على القولين؛ فإذا قلنا: إن {سرًّا} بمعنى النكاح صار مفعولًا ثانيًا لـ{تواعدوهنَّ}؛ وإذا قلنا: إن {سرًّا} ضد العلانية، وأن المعنى: (لا تواعدوهن وعدًا سريًّا) صار مفعولًا مطلقًا.

قال أبو زهرة: وقد تكلم العلماء في معنى كلمة {سرًّا} فقيل: إن معناها ما يكون بين الرجل وزوجه من متعة جسدية. وقيل: إن معناها عقد الزواج. وقيل إنَّ سرًّا، معناها زنا. وروي أن ابن عباس وابن جبير والشعبي ومجاهدًا وعكرمة والسدي، فسروا {سرًّا} بألا يأخذ عليها ميثاقًا بألَّا تتزوَّج غيره في استسرار وخفية.

وإن الذي نميل إليه أن {سرًّا} وصف لمحذوف أي لَا تواعدوهن وعدًا سريًّا بأي شكل من الأشكال، وفي أي موضوع من الموضوعات؛ لأن الإسرار يدفع إلى الخلوة فتكون الحال في مكان النهي حيثما قال النبي: ((لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما([1]))، والمعنى على هذا: لَا تندفعوا وراء رغباتكم فتلتقوا بهن سرًّا وتقولوا معهن ما تستحيون من قوله جهرًا؛ إما لأنه قبيح لَا يعلن، وإما لأنه في غير وقته فيستنكر القول فيه فور الوفاة؛ وذلك فوق قبح الخلوة في ذاتها.

ولقد استثنى سبحانه استثناءً منقطعًا في قوله تعالى: {إِلَّا أَن تَقولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا} والمعنى لكن المباح لكم أن تقولوا قولًا معروفًا لَا تستنكره العقول، وتقرُّه الأخلاق، ولا يقبح إعلانه، بل يقال في غير استسرار؛ وبهذا الاستثناء يحدُّ الله سبحانه فرق ما بين الحلال والحرام في هذا المقام؛ فالسرية ممنوعة أيًّا كان موضوعها، لما يكون معها من ملابسات محرَّمة، والقول المعروف الذي يكون بالتعريض، وإظهار المودَّة بشكل لَا يؤدِّي إلى محرَّم، ولا تستهجنه العادات الفاضلة والأخلاق الكريمة، هذا حلال لَا ريب فيه.

قال ابن العثيمين: {إلَّا أن تقولوا قولًا معروفًا} استثناء منقطع؛ وعلامته أن تكون {إلَّا} بمعنى (لكن)، وأن لا يكون ما بعدها من جنس ما قبلها؛ فقوله تعالى: {إلَّا أن تقولوا قولًا معروفًا} ليس هو من جنس ما قبله من المواعدة سرًّا؛ لأن المواعدة سرًّا ليس من القول المعروف؛ إذ إن القول المعروف هو التعريض دون التصريح.

{ولا تعزموا عقدة النكاح}؛ العزم على الشيء إرادة فعله بلا تردُّد؛ والمراد به هنا الفعل؛ و{عقدة النكاح}: أي عقده؛ لأن النِّكاح عقد بين الزوج والزوجة؛ فهو كالعقود الأخرى، كعقد البيع، وما أشبه ذلك.

{حتى يبلغ الكتاب أجله}؛ {حتى} للغاية، وما بعدها منصوب بها؛ و{الكتاب} فعال بمعنى مفعول؛ والمراد بـ{الكتاب} هنا – كما ذكره المفسرون – العدَّة؛ لأن الله سبحانه وتعالى فرضها؛ فهي مفروضة؛ يعني حتى يبلغ المفروض أجله؛ والمفروض هي العدَّة؛ ويحتمل أن يكون المراد بـ{الكتاب} هنا ما يكتبونه عند ابتداء سبب العدَّة من موت أو طلاق أو نحوه، كأن يقال مثلًا: (توفي في يوم كذا)؛ ويكون هذا داخلًا في قوله تعالى: {وأحصوا العدَّة}: يعني اضبطوها وحرِّروها؛ وعلى هذا فيكون المعنى الكتاب المكتوب الذي فيه بيان متى كان سبب العدَّة من وفاة أو طلاق.

وقوله تعالى: {أجله}: أجل الشيء منتهاه وغايته؛ أي حتى يبلغ غايته حسب ما فرض الله سبحانه وتعالى.

قال القرطبي: حرَّم الله تعالى عقد النكاح في العدَّة بقوله تعالى: {وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} وهذا من المحكم المجمع على تأويله، أن بلوغ أجله انقضاء العدَّة. وأباح التَّعريض في العدَّة بقوله: {وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ} الآية. ولم يختلف العلماء في إباحة ذلك، واختلفوا في ألفاظ التَّعريض على ما تقدَّم. واختلفوا في الرجل يخطب امرأة في عدَّتها جاهلًا، أو يواعدها ويعقد بعد العدَّة؛ وقد تقدَّم هذا في الآية التي قبلها.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٧٢١٠).

واختلفوا إن عزم العقدة في العدَّة وعثر عليه ففسخ الحاكم نكاحه؛ وذلك قبل الدخول: فقول عمر بن الخطاب وجماعة من العلماء أن ذلك لا يؤبَّد تحريمًا، وأنه يكون خاطبًا من الخطاب؛ وقاله مالك وابن القاسم في المدونة في آخر الباب الذي يليه (ضرب أجل المفقود). وحكى ابن الجلاب عن مالك رواية أن التحريم يتأبد في العقد وإن فسخ قبل الدخول؛ ووجهه أنه نكاح في العدَّة فوجب أن يتأبَّد به التَّحريم؛ أصله إذا بنى بها. وأما إن عقد في العدَّة ودخل بعد انقضائها: فقال قوم من أهل العلم: ذلك كالدخول في العدَّة؛ يتأبَّد التَّحريم بينهما. وقال قوم من أهل العلم: لا يتأبَّد بذلك تحريم. وقال مالك: يتأبَّد التَّحريم. وقال مرة: وما التَّحريم بذلك بالبيِّن؛ والقولان له في المدونة في طلاق السنة. وأما إن دخل في العدَّة: فقال مالك والليث والأوزاعي: يفرَّق بينهما ولا تحل له أبدًا. قال مالك والليث: ولا بملك اليمين؛ مع أنهم جوَّزوا التزويج بالمَزني بها. واحتجوا بأن عمر بن الخطاب قال: لا يجتمعان أبدًا. قال سعيد: ولها مهرها بما استحل من فرجها؛ أخرجه مالك في موطئه وسيأتي. وقال الثوري والكوفيون والشافعي: يفرق بينهما ولا يتأبَّد التَّحريم بل يفسخ بينهما ثم تعتدّ منه، ثم يكون خاطبًا من الخطاب. واحتجُّوا بإجماع العلماء على أنه لو زنى بها لم يحرم عليه تزويجها؛ فكذلك وطؤه إياها في العدَّة. قالوا: وهو قول علي. ذكره عبدالرزاق. وذكر عن ابن مسعود مثله؛ وعن الحسن أيضًا. وذكر عبدالرزاق عن الثوري عن أشعث عن الشعبي عن مسروق أن عمر رجع عن ذلك وجعلهما يجتمعان. وذكر القاضي أبو الوليد الباجي في المنتقى فقال: لا يخلو الناكح في العدَّة إذا بنى بها أن يبني بها في العدَّة أو بعدها؛ فإن كان بنى بها في العدَّة فإن المشهور من المذهب أن التَّحريم يتأبَّد؛ وبه قال أحمد بن حنبل. وروى الشيخ أبو القاسم في تفريعه أن في التي يتزوجها الرجل في عدَّة من طلاق أو وفاة عالمًا بالتَّحريم روايتين؛ إحداهما: أن تحريمه يتأبَّد على ما قدمناه. والثانية: أنه زان وعليه الحدّ، ولا يلحق به الولد، وله أن يتزوجها إذا انقضت عدَّتها؛ وبه قال الشافعي وأبو حنيفة. ووجه الرواية الأولى – وهي المشهورة – ما ثبت من قضاء عمر بذلك، وقيامه بذلك في الناس، وكانت قضاياه تسير وتنتشر وتنقل في الأمصار ولم يعلم له مخالف؛ فثبت أنه إجماع. قال القاضي أبو محمد: وقد روي مثل ذلك عن علي بن أبي طالب ولا مخالف لهما مع شهرة ذلك وانتشاره؛ وهذا حكم الإجماع. ووجه الرواية الثانية أن هذا وطء ممنوع فلم يتأبَّد تحريمه؛ كما لو زوجت نفسها أو تزوجت متعة أو زَنَتْ. وقد قال القاضي أبو الحسن: إن مذهب مالك المشهور في ذلك ضعيف من جهة النظر. والله أعلم. وأسند أبو عمر: حدثنا عبدالوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ عن محمد بن إسماعيل عن نعيم بن حماد عن ابن المبارك عن أشعث عن الشعبي عن مسروق قال: بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوَّجها رجل من ثقيف في عدَّتها فأرسل إليهما ففرَّق بينهما وعاقبهما وقال: لا تنكحها أبدًا وجعل صِداقها في بيت المال؛ وفشا ذلك في الناس فبلغ عليًّا فقال: يرحم الله أمير المؤمنين، ما بال الصِّداق وبيت المال، إنما جَهِلا، فينبغي للإمام أن يردَّهما إلى السنة. قيل: فما تقول أنت فيهما؟ فقال: لها الصِّداق بما استحل من فرجها، ويفرَّق بينهما ولا جلد عليهما، وتكمل عدَّتها من

الأول، ثم تعتدَّ من الثاني عدَّة كاملة ثلاثة أقراء ثم يخطبها إن شاء. فبلغ عمر فخطب الناس فقال: أيها الناس، ردُّوا الجهالات إلى السنة. قال الكيا الطبري: ولا خلاف بين الفقهاء أن من عقد على امرأة نكاحها وهي في عدَّة من غيره، أن النكاح فاسد. وفي اتفاق عمر وعلي على نفي الحدِّ عنهما ما يدلُّ على أن النِّكاح الفاسد لا يوجب الحدّ؛ إلَّا أنه مع الجهل بالتَّحريم متفق عليه، ومع العلم به مختلف فيه. واختلفوا هل تعتدُّ منهما جميعًا. وهذه مسألة العدَّتين: فروى المدنيون عن مالك أنها تتم بقية عدَّتها من الأول، وتستأنف عدَّة أخرى من الآخر؛ وهو قول الليث والحسن بن حي والشافعي وأحمد وإسحاق. وروي عن علي كما ذكرنا، وعن عمر على ما يأتي. وروى محمد بن القاسم وابن وهب عن مالك: إن عدَّتها من الثاني تكفيها من يوم فُرِّق بينه وبينها، سواء كانت بالحمل أو بالإقراء أو بالشهور؛ وهو قول الثوري والأوزاعي وأبي حنيفة. وحجتهم الإجماع على أن الأول لا ينكحها في بقية العدَّة منه؛ فدلَّ على أنها في عدَّة من الثاني، ولولا ذلك لنكحها في عدَّتها منه. أجاب الأولون فقالوا: هذا غير لازم لأن منع الأول من أن ينكحها في بقية عدَّتها إنما وجب لما يتلوها من عدَّة الثاني؛ وهما حقَّان قد وجبا عليها لزوجين كسائر حقوق الآدميين، لا يدخل أحدهما في صاحبه. وخرج مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وعن سليمان بن يسار أن طليحة الأسدية كانت تحت رشيد الثقفي فطلقها فنكحت في عدَّتها فضربها عمر بن الخطاب وضرب زوجها بالمخفقة ضربات وفرَّق بينهما؛ ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أيّما امرأة نكحت في عدَّتها فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها فرِّق بينهما ثم اعتدَّت بقية عدَّتها من الزوج الأول، ثم كان الآخر خاطبًا من الخطاب؛ وإن كان دخل بها فرِّق بينهما ثم اعتدَّت بقية عدَّتها من الأول، ثم اعتدَّت من الآخر ثم لا يجتمعان أبدًا. قال مالك: وقال سعيد بن المسيب: ولها مهرها بما استحل من فرجها. قال أبو عمر: وأما طليحة هذه فهي طليحة بنت عبيدالله أخت طلحة بن عبيدالله التيمي، وفي بعض نسخ الموطأ من رواية يحيى: طليحة الأسدية وذلك خطأ وجهل، ولا أعلم أحدًا قاله.

وقوله: (فضربها عمر بالمخفقة وضرب زوجها ضربات) يريد على وجه العقوبة لما ارتكباه من المحظور وهو النكاح في العدَّة. وقال الزهري: فلا أدري كم بلغ ذلك الجلد. قال: وجلد عبدالملك في ذلك كل واحد منهما أربعين جلدة. قال: فسئل عن ذلك قبيصة بن ذؤيب فقال: لو كنتم خففتم فجلدتم عشرين، وقال ابن حبيب في التي تتزوَّج في العدَّة فيمسُّها الرجل أو يقبل أو يباشر أو يغمز أو ينظر على وجه اللَّذة أن على الزوجين العقوبة، وعلى الوليّ وعلى الشهود ومن علم منهم أنها في عدَّة، ومن جهل منهم ذلك فلا عقوبة عليه. وقال ابن المواز: يجلد الزوجان الحدّ إن كانا تعمَّدا ذلك؛ فيحمل قول ابن حبيب على من علم بالعدة، ولعله جهل التحريم ولم يتعمد ارتكاب المحظور فذلك الذي يعاقب؛ وعلى ذلك كان ضرب عمر المرأة وزوجها بالمخفقة ضربات. وتكون العقوبة والأدب في ذلك بحسب حال المعاقب. ويحمل

قول ابن المواز على أنهما عَلِما التَّحريم واقتحما ارتكاب المحظور جرأةً وإقدامًا. وقد قال الشيخ أبو القاسم: إنهما روايتان في التعمد؛ إحداهما يُحَدّ، والثانية يعاقب ولا يحدّ.

قال ابن العثيمين: {واعلموا} فعل أمر؛ وأتى سبحانه وتعالى به للأهمية، والتحذير من المخالفة؛ وهذه الجملة يؤتى بها من أجل التنبيه؛ فيقال: اعلم كذا، وكذا؛ لكي تنتبه؛ {أن الله يعلم ما في أنفسكم}: أي ما استقر في أنفسكم مما تضمرونه من كل شيء؛ {فاحذروه}: الفاء هذه للتفريع – أي إذا علمتم هذا فاحذروا الله عز وجل من أن تضمروا في هذه الأنفس ما لا يرضاه سبحانه وتعالى؛ والحذر من الشيء معناه أخذ الحذر – وهو الاحتياط، وعدم المخالفة.

{واعلموا أن الله غفور حليم}؛ فإذا أضمرتم في أنفسكم ما لا يرضاه فإن لديكم بابًا واسعًا – وهو المغفرة؛ تعرَّضوا لمغفرة الله عز وجل بأن تستغفروه، وتتوبوا إليه؛ وسبق أن ال{غفور([1])} مأخوذ من: (الغفر) وهو الستر مع الوقاية؛ والمراد به ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ وال{حليم([2])} هو الذي يؤخر العقوبة عن مستحقها، كما قال ابن القيم:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من العصيان

قال أبو زهرة: في هذا الكلام الكريم الحكيم تحذير وتقريب، وتخويف ورحمة؛ إذ بيَّن سبحانه أنه يعلم خلجات القلوب، وخطرات النفوس، وما تخفي الصدور وما يستكن فيها، وما يعلن؛ وإن للنفس هواجس وخواطر، فإذا همَّت النفس أو جالت فيها أمور تستهجن ولا تستحسن، كأن يجول بخاطره أن يكلِّم المعتدَّة من وفاة في أمر منكر لا يسوغ في الدين، ولا في العرف، ولا في الأخلاق، فليعلم أن الله عليه رقيب يعلم تلك الخواطر؛ فليحذره؛ لكيلا يبرزها إلى الوجود، فيندفع وراءها، وإنه إذا قمعها وقدع نفسه عنها([3])، وجعلها في محيط قلبه لَا تخرج منه، فإن ذلك يكون في عفو الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} يغفر الله فلا يأخذ العبد إلَّا بما يفعل ولا يأخذه بما يجول بخاطره، ولا بما تحدثه به نفسه، ومن همَّ بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شيء، تبارك الله سبحانه هو المنتقم الجبار العفو القدير، الغفور الرحيم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– جواز التَّعريض في خطبة المتوفى عنها زوجها؛ لقوله تعالى: {ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء}.

١– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٢– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٢٥) من سورة البقرة.

٣– (قلت): أي كفَّ نفسه عنها. (أنظر مجمل اللغة لآبن فارس).

٢- تحريم التصريح بخطبة المعتدَّة من وفاة؛ لقوله تعالى: {فيما عرضتم به} فنفي الجناح عن التعريض - وهو دون التصريح - يدلُّ على تحريم التصريح؛ ويؤيده قوله تعالى: {ولكن لا تواعدهن سرًّا}.

تكميلًا لهذه الفائدة نقول: إن خطبة المعتدَّة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: تحرم تصريحًا وتعريضًا؛ وتباح تصريحًا وتعريضًا؛ وتحرم تصريحًا لا تعريضًا؛ فالأول: في الرجعية لغير زوجها؛ فيحرم على الإنسان أن يخطب الرجعية لا تصريحًا ولا تعريضًا؛ والرجعية هي المعتدَّة التي يجوز لزوجها أن يراجعها بغير عقد؛ لأنها زوجة، كما قال تعالى: {والمطلَّقات يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروء}[البقرة: ٢٢٨] إلى أن قال: {وبعولتهن أحق بردهن}[البقرة: ٢٢٨]؛ والتي تحلُّ تصريحًا وتعريضًا هي البائن من زوجها بغير الثلاث، كالمطلَّقة على عوض، والمختلعة، والفاسخة لنكاحها بسبب، وما أشبه ذلك؛ فيجوز لزوجها أن يخطبها تعريضًا وتصريحًا وأن يتزوَّجها؛ والتي تباح تعريضًا لا تصريحًا كل مبانة لغير زوجها؛ فيجوز لغير زوجها أن يعرض بخطبتها بدون تصريح، كالمتوفَّى عنها زوجها تجوز خطبتها تعريضًا لا تصريحًا.

٣- جواز إضمار الإنسان في نفسه خطبة امرأة لا يجوز له التصريح بخطبتها؛ لقوله تعالى: {أو أكننتم في أنفسكم}.

٤- جواز ذكر الإنسان المرأة المعتدَّة في نفسه، ولغيره؛ لقوله تعالى: {علم الله أنكم ستذكرونهن}؛ فلو قال شخص: (إنني أريد أن أتزوج امرأة فلان المتوفى عنها زوجها) يحدِّث غيره: فلا بأس به.

٥- أنه لا يجوز للإنسان أن يواعد المعتدَّة من الوفاة بالنكاح، فيقول: (إذا انتهت عدَّتك فإنني سأتزوجك)؛ لقوله تعالى: {ولكن لا تواعدهن سرًّا}.

٦- أن التعريض بخطبة المتوفَّى عنها زوجها من القول المعروف غير المنكر؛ لقوله تعالى: {إلَّا أن تقولوا قولًا معروفًا}.

٧- تحريم عقد النكاح في أثناء العدَّة إلَّا من زوجها؛ لقوله تعالى: {ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي أن النكاح باطل؛ لقوله ﷺ: ((فأيّما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل - وإن كان مائة شرط([1])))، وقوله ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ([2])))؛ فلو عقد عليها في العدَّة فالعقد باطل؛ وهل له أن يتزوجها بعد انقضاء العدَّة؟ اختلف العلماء - رحمهم الله - هل تحلّ له لزوال المانع؛ وهو قول الجمهور؛ أو لا تحلّ له عقوبة له لتعجُّله الشيء قبل أوانه على وجه محرَّم؛ في المسألة قولان؛ وينبغي أن يرجع في ذلك إلى حكم الحاكم فيحكم بما يراه أصلح للعباد.

٨- الإشارة إلى العناية بالعدَّة، وأنه ينبغي أن تكتب؛ لقوله تعالى: {حتى يبلغ الكتاب أجله}.

١- (قلت): مسلم (١٥٠٤).

٢- (قلت): مسلم (١٧١٨).

٩- المخاطبة بالمجمل، وأنها أسلوب من أساليب البلاغة؛ لقوله تعالى: {حتى يبلغ الكتاب أجله}؛ ومن فوائد الإجمال أن النفس تتطلَّع إلى بيانه، وتحرص عليه حتى تدركه؛ فإذا أدركت البيان بعد الإجمال كان ذلك أحرى بأن يبقى العلم في نفس الإنسان ولا ينساه.

١٠- إحاطة علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: {واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}.

ويتفرَّع على هذا: أن لا يضمر الإنسان في نفسه ما لا يرضاه الله عز وجل.

١١- أن هذا القرآن العظيم مثاني – بمعنى تثنى فيه الأمور، والمواضيع؛ فإذا ذكر أهل الجنة ذكر أهل النار؛ وإذا ذكر الرجاء ذكر معه الخوف ... وهكذا؛ وقد نصَّ الله على ذلك فقال تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني} [الزمر:٢٣]، وهو هذا القرآن؛ ومثاله في هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى لما حذر قال: {واعلموا أن الله غفور حليم}.

١٢- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما (الغفور) و(الحليم)؛ وقد ذكرنا فيما سبق أن كل اسم من أسماء الله فهو متضمِّن للصفة؛ فإذا كان متعدِّيًا فهو يتضمَّن الحكم؛ وإن كان غير متعدٍ لم يتضمَّنه؛ وربما يدلُّ على أكثر من صفة بدلالة الالتزام؛ لأن أنواع الدلالة ثلاثة: مطابقة، وتضمُّن، والتزام؛ فـ(المطابقة) دلالة اللفظ على جميع معناه؛ و(التضمُّن) دلالته على بعض معناه؛ و(الالتزام) دلالته على لازم خارجٍ؛ مثل (الخالق) من أسماء الله؛ دلالته على الذات والخلق: مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها، أو على الخلق وحده: تضمُّن؛ ودلالته على العلم والقدرة: التزام؛ فلا يمكن أن يكون خالقًا إلَّا أن يكون عالمًا قادرًا؛ لأنه لا يخلق من لا يقدر؛ ولا يخلق من لا يعلم؛ فلابدَّ أن يكون عالمًا قادرًا؛ ولهذا قال تعالى: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا}[الطلاق: ١٢]؛ فذَكر العلم والقدرة بعد أن ذكر أنه خلق؛ ولا يمكن أن يكون هناك خلق إلَّا أن يعلم كيف يخلق، ويقدر على ذلك.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

قال القرطبي: هذا أيضًا من أحكام المطلَّقات؛ وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلَّق قبل البِّناء والجماع، فرض مهرًا أو لم يفرض؛ ولمَّا نهى رسول الله ﷺ عن التزوُّج لمعنى الذَّوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوُّج لطلب العصمة وإلتماس ثواب

الله وقصد دوام الصُّحبة وقع في نفوس المؤمنين أن من طلّق قبل البِّناء قد واقع جزءًا من هذا المكروه فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن.

المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها وقد ذكر الله حكمها قبل هذه الآية وأنه لا يسترد منها شيء من المهر، وأن عدَّتها ثلاثة قروء. ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها فهذه الآية في شأنها ولا مهر لها بل أمر الرب تعالى بإمتاعها وبيَّن في [سورة الأحزاب] أن غير المدخول بها إذا طُلِّقت فلا عدَّة عليها، وسيأتي. ومطلَّقة مفروض لها غير مدخول بها ذكرها بعد هذه الآية إذ قال: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً}[البقرة: ٢٣٧] ومطلَّقة مدخول بها غير مفروض لها ذكرها الله في قوله: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[النساء: ٢٤]؛ فذكر تعالى هذه الآية والتي بعدها مطلَّقة قبل المسيس وقبل الفرض، ومطلّقة قبل المسيس وبعد الفرض؛ فجعل للأولى المتعة، وجعل للثانية نصف الصداق لما لحق الزوجة من دحض العقد، ووصم الحل الحاصل للزوج بالعقد؛ وقابل المسيس بالمهر الواجب.

ولمَّا قسَّم الله تعالى حال المطلقة هنا قسمين؛ مطلَّقة مسمَّى لها المهر، ومطلَّقة لم يسمَّ لها، دلَّ على أن نكاح التفويض جائز، وهو كل نكاح عقد من غير ذكر الصّداق، ويفرض بعد ذلك الصِّداق ولا خلاف فيه؛ فإن فُرِض، التحق بالعقد وجاز، وإن لم يفرض لها وكان الطلاق، لم يجب صِداقٌ إجماعًا قاله القاضي أبو بكر بن العربي. وحكى المهدوي عن حماد بن أبي سليمان أنه إذا طلقها ولم يدخل بها ولم يكن فرض لها أُجبِر على نصف صداق مثلها. وإن فرض بعد عقد النكاح وقبل وقوع الطلاق فقال أبو حنيفة: لا يتنصف بالطلاق لأنه لم يجب بالعقد وهذا خلاف الظاهر من قوله تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً}[البقرة : ٢٣٧] وخلاف القياس أيضًا؛ فإن الفرض بعد العقد يلحق بالعقد فوجب أن يتنصف بالطلاق؛ أصله الفرض المقترن بالعقد.

وإن وقع الموت قبل الفرض فذكر الترمذي عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات فقال ابن مسعود: (لها مثل صداق نسائها لا وكس ولا شطط(١)وعليها العدَّة ولها الميراث)، فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: قضى رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق امرأة منا مثل الذي قضيت ففرح بها ابن مسعود. قال الترمذي: حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح، وقد روي عنه من غير وجه، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ منهم علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر: (إذا تزوج الرجل امرأة ولم يدخل بها ولم يفرض لها صداقًا حتى مات قالوا:

١- الوكس: النقص، والشطط: الجور. انظر: النهاية ٥/٢١٩.

لها الميراث ولا صداق لها وعليها العدَّة)، وهول قول الشافعي. وقال: ولو ثبت حديث بروع بنت واشق لكانت الحجة فيما روي عن النبي ﷺ. ويروى عن الشافعي أنه رجع بمصر عن هذا القول، وقال بحديث بروع بنت واشق.

قلت: اختلف في تثبيت حديث بروع؛ فقال القاضي أبو محمد عبدالوهاب في شرح رسالة ابن أبي زيد: وأما حديث بروع بنت واشق فقد ردَّه حفاظ الحديث وأئمة أهل العلم. وقال الواقدي: وقع هذا الحديث بالمدينة فلم يقبله أحد من العلماء وصححه الترمذي كما ذكرنا عنه وابن المنذر. قال ابن المنذر: وقد ثبت مثل قول عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ وبه نقول. وذكر أنه قول أبي ثور وأصحاب الرأي. وذكر عن الزهري والأوزاعي ومالك والشافعي مثل قول علي وزيد وابن عباس وابن عمر. وفي المسألة قول ثالث وهو أنه لا يكون ميراث حتى يكون مهر؛ قاله مسروق.

قلت: ومن الحجة لما ذهب إليه مالك أنه فراق في نكاح قبل الفرض فلم يجب فيه صداق؛ أصله الطلاق لكن إذا صح الحديث[1]فالقياس في مقابلته فاسد. وقد حكى أبو محمد عبدالحميد عن المذهب ما يوافق الحديث والحمد لله. وقال أبو عمر: حديث بروع رواه عبدالرزاق عن الثوري عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود الحديث. وفيه: فقام معقل بن سنان. وقال فيه ابن مهدي عن الثوري عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن عبدالله فقال معقل بن يسار، والصواب عندي قول من قال: معقل بن سنان لا معقل بن يسار لأن معقل بن يسار رجل من مزينة، وهذا الحديث إنما جاء في امرأة من أشجع لا من مزينة وكذلك رواه داود عن الشعبي عن علقمة؛ وفيه: فقال ناس من أشجع ومعقل بن سنان قتل يوم الحرة وفي يوم الحرة يقول الشاعر: ألا تلكم الأنصار تبكي سراتها ... وأشجع تبكي معقل بن سنان

قال ابن العثيمين: {لا جناح عليكم}: أي لا إثم عليكم؛ {إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن}: اختلف أهل الإعراب في إعراب: {ما}؛ فقال بعضهم: إن {ما} مصدرية ظرفية؛ أي مدة دوام عدم مسكهم لهن؛ وقال بعضهم: إن {ما} شرطية؛ فهو من باب دخول الشرط على الشرط؛ أي: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسوهن؛ وهذا يأتي في اللغة العربية كثيرا – أي كون الشرط الثاني شرطا في الأول؛ ومنها قوله تعالى: {فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين}[الواقعة: ٨٦، ٨٧] فهنا شرط في شرط؛ ومنه قول الشاعر:

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا ... منَّا معاقل عزٍّ زانها كرم

---

١ – (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل: صحيح. وله طرق عنه: الأولى: عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عنه.

أخرجه أبو داود (٢١١٥)، والنسائى (٢/٨٩ و١١٣)، والترمذى (١/٢١٤)، والدارمي (٢/١٥٥)، وابن ماجه (١٨٩١)، وابن الجارود (٧١٨)، وابن حبان (١٢٦٠)، والبيهقي (٧/٢٤٥)، وابن أبى شيبة (٧/٤٦/١)، وعبد الرزاق (١٠٨٩٨)، وأحمد (٤/٢٧٩ . ٢٨٠ و٢٨٠)، من طرق عن منصور به. وقال الترمذى والسياق له: (حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه). وقال البيهقي: (إسناده صحيح).

قلت: وهو على شرط الشيخين.

فيكون الثاني شرطًا في الأول؛ وكل شرط دخل على شرط فالسابق الثاني؛ فهنا نقول: إن {ما} شرطية؛ وأن تقدير الآية: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسُّوهن؛ فإذا طلقها بدون مس فلا جناح عليه؛ والمعنى واحد؛ ولكن الاختلاف في الإعراب.

وقوله تعالى: {تمسوهن} فيها قراءة ثانية: (تماسوهن)؛ وكلاهما بمعنى واحد؛ والمراد به الجماع؛ لكن جرت عادة العرب – والقرآن بلسان عربي مبين – أن يكنوا عما يستحيا من ذكره صريحًا بما يدلُّ عليه؛ ولكل من القراءتين وجه؛ فعلى قراءة: (تماسوهن) يكون المسيس من الجانبين؛ فكل من الزوج، والزوجة يمس الآخر؛ ومثله قوله تعالى: {فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا}[المجادلة: ٣]؛ وأما على قراءة حذف الألف – الذي يفيد وقوع الفعل من جانب واحد – فهو أيضًا واقع؛ لأن حقيقة الفاعل هو الرجل؛ فهو ماس؛ ومنها قوله تعالى في مريم: {ولم يمسسني بشر}[آل عمران: ٤٧]؛ فجعل المس من جانب واحد – وهو الرجل –.

قال القرطبي: {ما}: بمعنى الذي، أي: إن طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهن. و{تمسوهن} قرئ بفتح التاء من الثلاثي، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وعاصم وابن عامر.

قال ابن العثيمين: {أو تفرضوا لهن فريضة}: أي تجمعوا بين الأمرين: بين ألَّا تفرضوا لهن فريضة، وبين ألَّا تمسوهن؛ فلا جناح عليكم إذا طلقتم المرأة بعد العقد بدون مسيس، وبدون تسمية مهر؛ و{أو} هنا على القول الراجح حرف عطف على {تمسوهن}.

قال القرطبي: و{أو} في {أو تفرضوا} قيل هو بمعنى الواو؛ أي ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن؛ كقوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ}[الأعراف: ٤]: أي وهم قائلون. وقوله: { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[الصافات: ١٤٧]: أي ويزيدون.

وقوله: {وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُورًا}[الإنسان: ٢٤]: أي وكفورًا. وقوله: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ}[النساء: ٤٣] معناه وجاء أحد منكم من الغائط وأنتم مرضى أو مسافرون. وقوله: {إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ}[الأنعام: ١٤٦] وما كان مثله. ويعتضد هذا بأنه تعالى عطف عليها بعد ذلك المفروض لها فقال: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً}. فلو كان الأول لبيان طلاق المفروض لها قبل المسيس لما كرره.

قال ابن العثيمين: {ومتعوهن}: قال بعض المفسرين: إن هذه الجملة معطوفة على جملة مقدرة؛ والتقدير: فطلقوهن، ومتعوهن؛ وأن تقدير: (فطلقوهن) مستفاد من قوله تعالى: {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء}؛ لأن معنى ذلك: أننا قد أبحنا لكم طلاق النساء، فطلقوهن؛ فيكون المراد بالأمر المقدر – كما قالوا – الإباحة؛ والمراد بالأمر المذكور الوجوب؛

وقال بعض المعربين: لا حاجة إلى التقدير؛ لأن (فطلقوهن) المراد به الإباحة مفهوم من قوله تعالى: {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء}؛ وما دام المعنى يفهم بدون تقدير فإنه لا يجوز التقدير؛ لأن التقدير نوع من التأويل؛ ولأن الأصل تمام الكلام، وعدم احتياجه إلى تقدير؛ وهذا القول أرجح؛ وعلى هذا فقوله تعالى: {ومتعوهن}: يعني إذا طلقتموهن؛ وهذا مستفاد من قوله تعالى: {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء}؛ و{متعوهن}: معناها أن يعطيها ما فيه المتعة والبلاغ، من زاد، أو لباس، أو غير ذلك، مما تقتضيه الحال والعرف.

قال القرطبي: {وَمَتِّعُوهُنَّ}: معناه أعطوهن شيئًا يكون متاعًا لهن. وحمله ابن عمر وعلي بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وقتادة والضحاك بن مزاحم على الوجوب. وحمله أبو عبيد ومالك بن أنس وأصحابه والقاضي شريح وغيرهم على الندب. تمسك أهل القول الأول بمقتضى الأمر. وتمسك أهل القول الثاني بقوله تعالى : {حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}، و{عَلَى الْمُتَّقِين} ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين. والقول الأول أولى؛ لأن عمومات الأمر بالإمتاع في قوله: {مَتِّعُوهُنَّ} وإضافة الإمتاع إليهن بلام التمليك في قوله: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ} أظهر في الوجوب منه في النَّدب. وقوله: {عَلَى الْمُتَّقِين} تأكيد لإيجابها؛ لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراك به ومعاصيه، وقد قال تعالى في القرآن: {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}.

واختلفوا في الضمير المتصل بقوله: {وَمَتِّعُوهُنَّ}، من المراد به من النساء؟ فقال ابن عباس وابن عمر وجابر بن زيد والحسن والشافعي وأحمد وعطاء وإسحاق وأصحاب الرأي: المتعة واجبة للمطلقة قبل البناء والفرض، ومندوبة في حق غيرها. وقال مالك وأصحابه: المتعة مندوب إليها في كل مطلقة وإن دخل بها، إلَّا في التي لم يدخل بها وقد فرض لها فحسبها ما فرض لها ولا متعة لها. وقال أبو ثور: لها المتعة ولكل مطلقة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٢ص٢٦: أوجب ابْنُ عُمَرَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَاتِ عَنْهُ الْمُتْعَةَ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ؛ إلَّا لِمَنْ طَلَقَتْ بَعْدَ الْفَرْضِ وَقَبْلَ الدُّخولِ وَالْمَسِيسِ، فَحَسْبُهَا مَا فُرِضَ لَهَا. وَأَحْمَد فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى مَعَ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِ لَا يُوجِبُونَ الْمُتْعَةَ إلَّا لِمَنْ طَلَقَتْ قَبْلَ الْفَرْضِ وَالدُّخولِ، وَيَجْعَلُونَ الْمُتْعَةَ عِوَضًا عَنْ نِصْفِ الصَّدَاقِ، وَيَقُولُونَ: كُلُّ مُطَلَّقَةٍ فَإِنَّهَا تَأْخُذُ صَدَاقًا، إلَّا هَذِهِ. وَأُولَئِكَ يَقُولُونَ: الصَّدَاقُ اسْتَقَرَّ قَبْلَ الطَّلَاقِ بِالْعَقْدِ وَالدُّخولِ، وَالْمُتْعَةُ سَبَبُهَا الطَّلَاقُ، فَتَجِبُ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ، لَكِنَّ الْمُطَلَّقَةَ بَعْدَ الْفَرْضِ وَقَبْلَ الْمَسِيسِ مُتِّعَتْ بِنِصْفِ الصَّدَاقِ، فَلَا تَسْتَحِقُّ الزِّيَادَةَ. وَهَذَا الْقَوْلُ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ: فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الطَّلَاقَ سَبَبَ الْمُتْعَةِ، فَلَا يُجْعَلُ عِوَضًا عَمَّا سَبَّبَهُ الْعَقْدُ وَالدُّخولُ، لَكِنْ يُقَالُ عَلَى هَذَا: فَالْقَوْلُ الثَّالِثُ أَصَحُّ، وَهُوَ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْ أَحْمَد: أَنَّ كُلَّ مُطَلَّقَةٍ لَهَا مُتْعَةٌ؛ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَعُمُومُهُ، حَيْثُ قَالَ: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: ٢٤١]، وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ: {إذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ

طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}[الأحزاب: ٤٩].

فَأَمَرَ بِتَمْتِيعِ الْمُطَلَّقَاتِ قَبْلَ الْمَسِيسِ، وَلَمْ يَخُصَّ ذَلِكَ بِمَنْ لَمْ يُفْرَضْ لَهَا، مَعَ أَنَّ غَالِبَ النِّسَاءِ يُطَلَّقْنَ بَعْدَ الْفَرْضِ.

وَأَيْضًا، فَإِذَا كَانَ سَبَبُ الْمُتْعَةِ هُوَ الطَّلَاقَ، فَسَبَبُ الْمَهْرِ هُوَ الْعَقْدُ. فَالْمُفَوَّضَةُ الَّتِي لَمْ يُسَمِّ لَهَا مَهْرًا يَجِبُ لَهَا مَهْرُ الْمِثْلِ بِالْعَقْدِ، وَيَسْتَقِرُّ بِالْمَوْتِ، عَلَى الْقَوْلِ الصَّحِيحِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ بروع بِنْتِ وَاشِقٍ، الَّتِي تَزَوَّجَتْ وَمَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ لَهَا مَهْرٌ، وَقَضَى لَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّ ((لَهَا مَهْرَ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهَا، لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ[1]))، لَكِنْ هَذِهِ لَوْ طَلَقَتْ قَبْلَ الْمَسِيسِ لَمْ يَجِبْ لَهَا نِصْفُ الْمَهْرِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ؛ لِكَوْنِهَا لَمْ تَشْتَرِطْ مَهْرًا مُسَمًّى، وَالْكَسْرُ الَّذِي حَصَلَ لَهَا بِالطَّلَاقِ انْجَبَرَ بِالْمُتْعَةِ.

قال القرطبي: وأجمع أهل العلم على أن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة.

قلت: هذا الإجماع إنما هو في الحرة، فأما الأمة إذا طلقت قبل الفرض والمسيس فالجمهور على أن لها المتعة. وقال الأوزاعي والثوري: لا متعة لها لأنها تكون لسيدها وهو لا يستحق مالا في مقابلة تأذي مملوكته بالطلاق. وأما ربط مذهب مالك فقال ابن شعبان: المتعة بإزاء غم الطلاق، ولذلك ليس للمختلعة والمبارئة والملاعنة متعة قبل البناء ولا بعده؛ لأنها هي التي اختارت الطلاق. وقال الترمذي وعطاء والنخعي: للمختلعة متعة. وقال أصحاب الرأي: للملاعنة متعة. قال ابن القاسم: ولا متعة في نكاح مفسوخ. قال ابن المواز: ولا فيما يدخله الفسخ بعد صحة العقد؛ مثل ملك أحد الزوجين صاحبه. قال ابن القاسم: وأصل ذلك قوله تعالى: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} فكان هذا الحكم مختصًّا بالطلاق دون الفسخ. وروى ابن وهب عن مالك أن المخيَّرة لها المتعة بخلاف الأمة تعتق تحت العبد فتختار هي نفسها، فهذه لا متعة لها. وأما الحرة تخير أو تملك أو يتزوج عليها أمة فتختار هي نفسها في ذلك كله فلها المتعة؛ لأن الزوج سبب للفراق.

قال مالك: ليس للمتعة عندنا حدٌّ معروف في قليلها ولا كثيرها.

قال ابن العثيمين: {على الموسع قدره وعلى المقتر قدره}: في {قدره} قراءتان {قدره} بفتح الدال؛ و{قدره} بسكونها؛ فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ما يقدر عليه؛ وعلى الثانية يكون المعنى بقدره – أي بقدر سعته –؛ و{الموسع}: هو الغني الكثير المال؛ و{المقتر}: هو الفقير الذي ليس عنده شيء؛ وقوله تعالى: {على الموسع قدره وعلى المقتر قدره}: أي على الغني ما يناسب حاله؛ وعلى الفقير ما يناسب حاله؛ والجملة هذه قيل: إنها استئنافية لا محل لها من الإعراب تبين مقدار الواجب الذي أوجبه الله عز وجل في قوله تعالى: {ومتعوهن}؛ وقيل: إنها في موضع

١- أبوداود في النكاح (٢١١٦)، والترمذي في النكاح (١١٤٥) وقال: (حديث حسن صحيح)، والنسائي في النكاح (٣٣٥٤)، وابن ماجه في النكاح (١٨٩١)، والدارمي في النكاح ١٥٥/٢، وأحمد ٤٤٧/١، كلهم عن عبدالله اب مسعود.

وقوله: ((لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ)): الوكس: النقص، والشطط: الجور. أنظر: النهاية ٢١٩/٥.

(قلت): وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٩٣٩).

نصب على الحال من الواو في {متعوهن}: يعني متعوهن حال كونكم موسرين، أو معسرين، على الموسر قدره، وعلى المقتر قدره .

قوله تعالى: {متاعًا} يحتمل أن يكون اسم مصدر – أي مفعولًا مطلقًا عامله {متعوهن}: يعني تمتيعًا {بالمعروف}؛ فـ{متاع} هنا بمعنى تمتيع، مثل (كلام) بمعنى تكليم، و(سلام) بمعنى تسليم، وما أشبهها؛ ويحتمل أن يكون حالًا؛ أي حال كون القدر – أو القدر – متاعًا {بالمعروف}؛ أي بما يقتضيه العرف؛ والباء هنا للمصاحبة.

قال القرطبي: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ} دليل على وجوب المتعة وقرأ الجمهور {الْمُوسِعِ} بسكون الواو وكسر السين، وهو الذي اتسعت حاله، يقال: فلان ينفق ، على قدره، أي على وسعه.

و{لمُقْتِرِ} لمقل القليل المال. و{مَتَاعَاً} نصب على المصدر، أي متعوهن متاعًا {بالمعروف}: أي بما عرف في الشرع من الاقتصاد.

قال ابن العثيمين: {حقًّا} منصوبة على أنه مصدر لفعل محذوف يعني: أحق ذلك حقًّا؛ و(الحق) هو الشيء الثابت اللازم؛ و{على المحسنين}: أي على فاعلي الإحسان؛ و(المحسن) اسم فاعل من: أحسن – أي قام بالإحسان، وعمل به –؛ و(الإحسان) هنا ما كان موافقا للشرع؛ فإذا قرن بـ(العدل) صار المراد بـ(الإحسان) الفضل الزائد على العدل، كما في قوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان}[النحل: ٩٠]؛ فـ(الإحسان) تارة يراد به موافقة الشرع – ولو كان شيئًا واجبًا –؛ وتارة يراد به ما زاد على الواجب؛ وهذا إذا قرن بـ(العدل)، كما سبق.

قال القرطبي: {حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}: أي يحق ذلك عليهم حقا، يقال: حققت عليه القضاء وأحققت، أي أوجبت، وفي هذا دليل على وجوب المتعة مع الأمر بها، فقوله: {حَقًّا} تأكيد للوجوب. ومعنى {عَلَى الْمُحْسِنِينَ} و{عَلَى الْمُتَّقِينَ}: أي على المؤمنين، إذ ليس لأحد أن يقول: لست بمحسن ولا متَّقٍ، والناس مأمورون بأن يكونوا جميعًا محسنين متَّقين؛ فيحسنون بأداء فرائض الله ويجتنبون معاصيه حتى لا يدخلوا النار؛ فواجب على الخلق أجمعين أن يكونوا محسنين متَّقين.

و {حَقًّا} صفة لقوله: { مَتَاعًا}، أو نصب على المصدر، وذلك أدخل في التأكيد للأمر؛ والله أعلم.

قال السعدي: {متاعًا بالمعروف} فهذا حق واجب {على المحسنين} ليس لهم أن يبخسوهن.

فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن، وتعلُّق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة.

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي وأَدَلَّه على حكمة شارعه ورحمته ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون؟ فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- جواز طلاق الرجل امرأته قبل أن يمسَّها؛ لقوله تعالى: {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن}؛ وربما يشعر قوله تعالى: {لا جناح} أن الأولى عدم ذلك؛ لأن طلاقه إيَّاها قبل أن يمسها وقد خطبها، وقدم إليها الصداق فيه شيء على المرأة، وغضاضة، وإن كان الإنسان قد يتأمل في أمره، وتضطره الأمور إلى الطلاق فإنه لا ينبغي أن يكون متسرِّعًا متعجِّلًا.

٢- إطلاق المس على الجماع؛ لقوله تعالى: {ما لم تمسوهن}.

٣- أنه يجوز للإنسان أن يتزوج المرأة بلا تسمية مهر؛ لقوله تعالى: {أو تفرضوا} يعني: ما لم تفرضوا لهن فريضة؛ وقد اختلف العلماء فيما إذا تزوج المرأة، وشرط ألَّا مهر لها؛ فمنهم من يرى أن النكاح غير صحيح - وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وهو الراجح؛ لأن الله اشترط للحل المال؛ قال تعالى: {وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم} [النساء: ٢٤]؛ ولأن النكاح إذا شرط فيه عدم المهر صار بمعنى الهبة؛ والنكاح بالهبة خاص بالنبي ﷺ؛ والحال لا تخلو من ثلاثة أمور: إما أن يشترط المهر ويعيَّن؛ وإما أن يسكت عنه؛ وإما أن يشترط عدمه؛ ففي الحال الأولى يكون النكاح صحيحًا ولا نزاع فيه؛ وفي الثانية النكاح صحيح، ولها مهر المثل؛ وفي الثالثة موضع خلاف بين أهل العلم؛ وسبق بيان الراجح.

٤- وجوب المتعة على من طلق قبل الدخول، ولم يسمَّ لها مهرًا؛ لقوله تعالى: {ومتِّعوهن}.

٥- أنَّ ظاهر الآية الكريمة أنه إذا خلا بها، ولم يمسَّها لم يكن عليه إلَّا المتعة؛ لكن الصحابة أَلحقوا الخلوة بها بالمسيس في وجوب العدَّة؛ وقياس ذلك وجوب مهر المثل إذا خلا بها، ولم يسمَّ لها صداقًا.

٦- أن العبرة في المتعة حال الزوج: إن كان موسرًا فعليه قدره؛ وإن كان معسرًا فعليه قدره؛ لقوله تعالى: {على الموسع قدره وعلى المقتر قدره}.

٧- امتناع التكليف بما لا يطاق؛ لقوله تعالى: {على الموسع قدره وعلى المقتر قدره}؛ وهذه القاعدة دلَّ عليها القرآن في عدَّة مواضع؛ منها قوله تعالى: {لا يكلف الله نفسًا إلَّا وسعها}[البقرة: ٢٨٦].

٨- مراعاة الأحوال في الأحكام؛ فيثبت في كل حال ما يناسبها؛ لقوله تعالى: {على الموسع قدره وعلى المقتر قدره}.

٩- أنَّ للعرف اعتبارًا شرعيًّا؛ لقوله تعالى: {متاعًا بالمعروف}.

١٠- أنَّ الحقَّ إمَّا أن يكون في الأخبار، أو يكون في الأحكام؛ فإن كان في الأخبار فهو الصدق؛ وإن كان في الأحكام فهو العدل؛ وقد يجمع بين العدل وبين الصدق، فيحمل الصدق على الخبر؛ والعدل على الأحكام، مثل قوله تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا}[الأنعام: ١١٥].

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

قال ابن العثيمين: {وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن}؛ وفي قراءة: (تماسوهن)، وسبق توجيههما ومعناهما.

{وقد فرضتم لهن فريضة}: أي قدَّرتم لهن مهرًا، كعشرة آلاف مثلًا؛ والجملة في موضع نصب على الحال؛ وهي في مقابل قوله تعالى فيما سبق: {ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة}.

{فنصف ما فرضتم}؛ الفاء واقعة في جواب الشرط، وهو قوله تعالى: {إن طلقتموهن}؛ و{نصف} مبتدأ خبره محذوف؛ وتقدير هذا الخبر: (فلهن)؛ أو (فعليكم)؛ ويجوز أن نجعل {نصف} خبر المبتدأ المحذوف؛ ويكون التقدير: فالواجب نصف ما فرضتم.

قال القرطبي: فيه ثمان مسائل: الأولى: اختلف الناس في هذه الآية؛ فقالت فرقة منها مالك وغيره: إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من حكم التمتُّع؛ إذ يتناولها قوله تعالى: {وَمَتِّعُوهُنَّ}. وقال ابن المسيب: نسخت هذه الآية الآية التي في [الأحزاب] لأن تلك تضمَّنت تمتيع كل من لم يدخل بها. وقال قتادة: نسخت هذه الآية الآية التي قبلها.

قلت: قول سعيد وقتادة فيه نظر؛ إذ شروط النسخ غير موجودة والجمع ممكن. وقال ابن القاسم في المدونة: كان المتاع لكل مطلقة بقوله تعالى: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: ٢٤١]، ولغير المدخول بها بالآية التي في سورة الأحزاب، فاستثنى الله تعالى المفروض لها قبل الدخول بها بهذه الآية، وأثبت للمفروض لها نصف ما فرض فقط. وقال فريق من العلماء منهم أبو ثور: المتعة لكل مطلقة عمومًا، وهذه الآية إنما بينت أن المفروض لها تأخذ نصف ما فرض لها، ولم يعن بالآية إسقاط متعتها، بل لها المتعة ونصف المفروض.

الثانية: قوله تعالى: { فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}: أي فالواجب نصف ما فرضتم، أي من المهر فالنصف للزوج والنصف للمرأة بإجماع.

الثالثة: إذا أصدقها ثم طلقها قبل الدخول ونما الصداق في يدها فقال مالك: كل عرض أصدقها أو عبد فنماؤهما لهما جميعًا ونقصانه بينهما، وتواه عليهما جميعًا ليس على المرأة منه شيء. فإن أصدقها عينًا ذهبًا أو وَرِقًا فاشترت به عبدًا أو دارًا أو اشترت به منه أو من غيره طيبًا أو شوارًا أو غير ذلك مما لها التصرف فيه لجهازها وصلاح شأنها في بقائها معه فذلك كله بمنزلة ما لو أصدقها إياه، ونماؤه ونقصانه بينهما. وإن طلقها قبل الدخول لم يكن لها إلا نصفه، وليس عليها

أن تغرم له نصف ما قبضته منه، وإن اشترت به أو منه شيئا تختص به فعليها أن تغرم له نصف صداقها الذي قبضت منه، وكذلك لو اشترت من غيره عبدًا أو دارًا بالألف الذي أصدقها ثم طلقها قبل الدخول رجع عليها بنصف الألف.

الرابعة: لا خلاف أن من دخل بزوجته ثم مات عنها وقد سمَّى لها أن لها ذلك المسمَّى كاملًا والميراث، وعليها العدَّة.

واختلفوا في الرجل يخلو بالمرأة ولم يجامعها حتى فارقها؛ فقال الكوفيون ومالك: عليه جميع المهر، وعليها العدَّة؛ لخبر ابن مسعود قال: قضى الخلفاء الراشدون فيمن أغلق بابًا أو أرخى سترًا أن لها الميراث وعليها العدَّة؛ وروي مرفوعًا خرجه الدار قطني وسيأتي في النساء. والشافعي لا يوجب مهرًا كاملًا ولا عدَّة إذا لم يكن دخول؛ لظاهر القرآن. قال شريح: لم أسمع الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه بابًا ولا سترًا، إذا زعم أنه لم يمسها فلها نصف الصداق؛ وهو مذهب ابن عباس وسيأتي ما لعلمائنا في هذا في [سورة النساء] إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: {وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} [النساء: ٢١].

الخامسة: قوله تعالى: {إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} الآية. {إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ} استثناء منقطع؛ لأن عفوهن عن النصف ليس من جنس أخذهن. و{يعفون}: معناه يتركن ويصفحن، ووزنه يفعلن. والمعنى إلَّا أن يتركن النصف الذي، وجب لهن عند الزوج، ولم تسقط النون مع {أن}؛ لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع والنصب والجزم، فهي ضمير وليست بعلامة إعراب فلذلك لم تسقط؛ ولأنه لو سقطت النون لاشتبه بالمذكر. والعافيات في هذه الآية كل امرأة تملك أمر نفسها، فأذن الله سبحانه وتعالى لهن في إسقاطه بعد وجوبه؛ إذ جعله خالص حقهن، فيتصرفن فيه بالإمضاء والإسقاط كيف شئن، إذا ملكن أمر أنفسهن وكن بالغات عاقلات راشدات. وقال ابن عباس وجماعة من الفقهاء والتابعين: ويجوز عفو البكر التي لا وليّ لها؛ وحكاه سحنون في المدونة عن غير ابن القاسم بعد أن ذكر لابن القاسم أن وضعها نصف الصداق لا يجوز. وأما التي في حجر أب أو وصي فلا يجوز وضعها لنصف صداقها قولًا واحدًا، ولا خلاف فيه فيما أعلم.

السادسة: قوله تعالى: {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ} معطوف على الأول مبني، وهذا معرب. وقرأ الحسن (أو يعفو) ساكنة الواو، كأنه استثقل الفتحة في الواو. واختلف الناس في المراد بقوله تعالى: {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}، فروى الدار قطني عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بني نصر فطلقها قبل أن يدخل بها، فأرسل إليها بالصداق كاملًا وقال: أنا أحق بالعفو منها، قال الله تعالى: {إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} وأنا أحق بالعفو منها. وتأول قوله تعالى: {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}: يعني نفسه في كل حال قبل الطلاق وبعده، أي عقدة نكاحه؛ فلمَّا أدخل اللام حذف الهاء كقوله: {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[النازعات: ٤١]: أي مأواه. قال النابغة:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود والأحلام غير عوازب

أي أحلامهم. وكذلك قوله: {عُقْدَةَ النِّكَاحِ}: أي عقدة نكاحه. وروى الدار قطني مرفوعًا من حديث قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ: ((ولي عقدة النكاح الزوج([1]))). وأسند هذا عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح. قال: وكذلك قال نافع بن جبير ومحمد بن كعب وطاوس ومجاهد، والشعبي وسعيد بن جبير، زاد غيره ومجاهد والثوري؛ واختاره أبو حنيفة، وهو الصحيح من قول الشافعي، كلهم لا يرى سبيلًا للوليّ على شيء من صداقها؛ للإجماع على أن الوليّ لو أبرأ الزوج من المهر قبل الطلاق لم يجز، فكذلك بعده. وأجمعوا على أن الوليّ لا يملك أن يهب شيئًا من مالها، والمهر مالها. وأجمعوا على أن من الأولياء من لا يجوز عفوهم وهم بنو العم وبنو الإخوة، فكذلك الأب، والله أعلم. ومنهم من قال هو الولي أسنده الدار قطني أيضًا عن ابن عباس قال: وهو قول إبراهيم وعلقمة والحسن، زاد غيره وعكرمة وطاوس وعطاء وأبي الزناد وزيد بن أسلم وربيعة ومحمد بن كعب وابن شهاب والأسود بن يزيد والشعبي وقتادة ومالك والشافعي في القديم. فيجوز للأب العفو عن نصف صداق ابنته البكر إذا طلقت، بلغت المحيض أم لم تبلغه. قال عيسى بن دينار: ولا ترجع بشيء منه على أبيها، والدليل على أن المراد الوليّ أن الله سبحانه وتعالى قال في أول الآية: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب، ثم قال: {إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ} فذكر النسوان، {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} فهو ثالث فلا يردُّ إلى الزوج المتقدِّم إلَّا لو لم يكن لغيره وجود، وقد وجد وهو الوليّ فهو المراد. قال معناه مكي وذكره ابن العربي. وأيضًا فإن الله تعالى قال: {إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ} ومعلوم أنه ليس كل امرأة تعفو، فإن الصغيرة والمحجور عليها لا عفو لهما، فبيَّن الله القسمين فقال: {إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ}: أي إن كن لذلك أهلًا، {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} وهو الوليّ؛ لأن الأمر فيه إليه. وكذلك روى ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن القاسم عن مالك أنه الأب في ابنته البكر والسيد في أمته. وإنما يجوز عفو الوليّ إذا كان من أهل السداد، ولا يجوز عفوه إذا كان سفيهًا. فإن قيل: لا نسلم أنه الولي بل هو الزوج، وهذا الاسم أولى به؛ لأنه أملك للعقد من الولي على ما تقدم. فالجواب – أنا لا نسلم أن الزوج أملك للعقد من الأب في ابنته البكر، بل أب البكر يملكه خاصة دون الزوج؛ لأن المعقود عليه هو بضع البكر، ولا يملك الزوج أن يعقد على ذلك بل الأب يملكه. وقد أجاز شريح عفو الأخ عن نصف المهر؛ وكذلك قال عكرمة: يجوز عفو الذي عقد عقدة النكاح بينهما، كان عمًّا أو أبًا أو أخًا، وإن كرهت.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٢ص٢٦: إذَا طَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ فَلِلْأَبِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ نِصْفِ الصَّدَاقِ إذَا قِيلَ: هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ. كَمَا هُوَ قَوْلُ مَالِكٍ، وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ. وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا

١- (قلت): قال البيهقي في السنن الكبرى: وَهَذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ وَابْنُ لَهِيعَةَ غَيْرُ مُحْتَجٍّ بِهِ.

الْقَوْلِ، وَلَيْسَ الصَّدَاقُ كَسَائِرِ مَالِهَا؛ فَإِنَّهُ وَجَبَ فِي الْأَصْلِ نِحْلَةً، وَبُضْعُهَا عَادَ إلَيْهَا مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ، وَكَانَ إلْحَاقُ الطَّلَاقِ بالفسوخ، فَوَجَبَ أَلَّا يَتَنَصَّفَ، لَكِنَّ الشَّارِعَ جَبَرَهَا بِتَنْصِيفِ الصَّدَاقِ؛ لِمَا حَصَلَ لَهَا مِنْ الِانْكِسَارِ بِهِ.

قال القرطبي: السابعة: قوله تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} ابتداء وخبر، أو الأصل تعفوا وأسكنت الواو الأولى لثقل حركتها ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وهو خطاب للرجال والنساء في قول ابن عباس فغلب الذكور، واللام بمعنى إلى، أي أقرب إلى التّقوى.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٠ص٣٦٦: فَجَعَلَ الْعَفْوَ عَنْ نِصْفِ الصَّدَاقِ الْوَاجِبِ عَلَى الزَّوْجِ بِالطَّلَاقِ قَبْلَ الدُّخُولِ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى مِنْ اسْتِيفَائِهِ. وَعَفْوُ الْمَرْأَةِ إسْقَاطُ نِصْفِ الصَّدَاقِ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ.

وَأَمَّا عَفْوُ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ، فَقِيلَ: هُوَ عَفْوُ الزَّوْجِ، وَأَنَّهُ تَكْمِيلٌ لِلصَّدَاقِ لِلْمَرْأَةِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ هَذَا الْعَفْوُ مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ الْعَفْوِ، فَهَذَا الْعَفْوُ إعْطَاءُ الْجَمِيعِ، وَذَلِكَ الْعَفْوُ إسْقَاطُ الْجَمِيعِ. وَالَّذِي حَمَلَ مَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ عَلَيْهِ؛ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ غَيْرَ الْمَرْأَةِ لَا يَمْلِكُ إسْقَاطَ حَقِّهَا الْوَاجِبِ، كَمَا لَا يَمْلِكُ إسْقَاطَ سَائِرِ دُيُونِهَا. وَقِيلَ: الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ هُوَ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ الْمُسْتَقِلُّ بِالْعَقْدِ بِدُونِ اسْتِئْذَانِهَا؛ كَالْأَبِ لِلْبِكْرِ الصَّغِيرَةِ، وَكَالسَّيِّدِ لِلْأَمَةِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْعَفْوَانِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: إلَّا أَنْ يَعْفُونَ، أَوْ يَعْفُوا هُمْ، وَالْخِطَابُ فِي الْآيَةِ لِلْأَزْوَاجِ.

قال السعدي: ثم رغَّب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحسانًا موجبًا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب، وإعطاء الواجب. وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض ممَّا في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات، وخصوصًا لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: {إن الله بما تعملون بصير}.

قال القرطبي: الثامنة: قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} خبر في ضمنه الوعد للمحسن والحرمان لغير المحسن، أي لا يخفى عليه عفوكم واستقضاؤكم.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: {إنَّ الله بما تعملون}، أيها الناس، مما ندبكم إليه وحضكم عليه، من عفو بعضكم لبعض عمَّا وجب له قبله من حق بسبب النكاح الذي كان بينكم وبين أزواجكم، وتفضل بعضكم على بعض في ذلك، وفي غيره مما تأتون وتذرون من أموركم في أنفسكم وغيركم ممَّا حثّكم الله عليه وأمركم به أو نهاكم عنه {بصير[١]}: يعني

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١١٠) من سورة البقرة.

بذلك: ذو بصر، لا يخفى عليه منه شيء من ذلك، بل هو يحصيه عليكم ويحفظه حتى يجازي ذا الإحسان منكم على إحسانه، وذا الإساءة منكم على إساءته.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّه إذا طلقها قبل المسيس وقد سمَّى لها صِداقًا وجب لها نصف المهر.

٢- أنَّه إذا خلا بها، ولم يمسها لم يكن عليه إلَّا نصف المهر؛ لكن الصحابة ألحقوا الخلوة بها بالمسيس في وجوب العدَّة؛ وقياس ذلك وجوب المهر كاملًا إذا خلا بها.

٣- جواز الطلاق قبل المسيس مع تعيين المهر؛ وجهه أن الله أقرَّ هذه الحال، ورتَّب عليها أحكامًا؛ ولو كانت حرامًا ما أقرَّها، ولا رتَّب عليها أحكامًا؛ وعلى هذا فيكون ارتباط الآية بما قبلها ظاهرًا؛ لأن الآية قبلها فيما إذا طلقت قبل المسيس ولم يسمَّ لها مهر؛ وهذه الآية فيما إذا طلقت قبل المسيس وسمِّيَ لها مهر؛ وإن طلقت بعد المسيس؛ إن سمِّي لها مهر فلها المهر كاملًا؛ وإن لم يسمَّ لها مهر فلها مهر المثل.

٤- أنَّ تعيين المهر إلى الزوج لا إلى الزوجة؛ لقوله تعالى: {وقد فرضتم}.

٥- جواز إسقاط المرأة ما وجب لها من المهر عن الزوج، أو بعضه؛ لقوله تعالى: {إلَّا أن يعفون}؛ ويشترط لذلك أن تكون حرَّة بالغة عاقلة رشيدة.

٦- جواز تصرف المرأة في مالها – ولو على سبيل التبرع – لقوله تعالى: {إلَّا أن يعفون}؛ وهل نقول: عمومه يقتضي جواز عفوها – وإن كان عليها دين يستغرق؛ أو نقول: إن كان عليها دين يستغرق فليس لها أن تعفو؟ يحتمل هذا، وهذا؛ وظاهر الآية العموم؛ لكن تبرَّع المدين لا ينفذ على القول الراجح إذا كان يضرُّ بالغرماء؛ لكن قد يقال: هذا ليس تبرُّعًا محضًا؛ وإنما هو إسقاط ما وجب على الغير؛ وليس كالتبرع المحض الذي ينتزع من مال المدين.

٧- جواز عفو الزوج عما يبقى له من المهر إذا طلق قبل الدخول؛ لقوله تعالى: {أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح}؛ ويقال فيما إذا كان مدينًا كما قيل في عفو الزوجة([1]).

٨- أنَّ النكاح من العقود؛ لقوله تعالى: {عقدة النكاح} ويترتَّب على هذه الفائدة جواز التوكيل فيه؛ لأن النبي ﷺ وكل في العقود؛ فيجوز أن يوكِّل الإنسان من يعقد النكاح له؛ وحينئذ يقول ولي المرأة لوكيل الزوج: زوجت موكلك فلانًا بنتي فلانة؛ ولا يصحُّ أن يقول: زوجتك بنتي فلانة؛ ويقول وكيل الولي للزوج: زوجتك بنت موكلي فلان، فلانة؛ ولا يصح أن يقول: زوجتك فلانة بنت فلان؛ لأن لابدَّ من النص على الوكالة، حيث إنه لابدَّ من الشهادة على عقد النكاح؛ وإذا لم يصرح بما

١- (قلت): وكذلك جواز عفو الولي للبنت البكر الصغيرة والسيد للأمة عن نصف الصداق.

يدلُّ على الوكالة أوهم أن العقد للوكيل؛ وقال بعض العلماء: إنه إذا كان معلومًا عند الجميع أن العقد بوكالة لم يحتج إلى ذكر موكل؛ والأول أحوط سدًّا للباب؛ لئلَّا يدَّعي الوكيل أنه فسخ الوكالة ونوى العقد لنفسه.

وهل يثبت لعقد النكاح ما يثبت لعقد البيع من خيار المجلس، أو خيار الشرط؟ أما خيار المجلس فلا يثبت؛ لأن النبي ﷺ قال: ((البيعان بالخيار([1]))؛ ولا يصح قياس النكاح على البيع؛ لأن النكاح غالبًا إنما يصدر بعد تروٍ دقيق ونظر، وبحث؛ بخلاف البيع فقد يصدر عن عجلة، وعن حرص على الربح بدون أن يتروَّى الإنسان؛ واحتياط الإنسان لعقد النكاح أشد من احتياطه للبيع.

لكن هل يثبت فيه خيار الشرط فالمذهب أنه لا يثبت فيه خيار الشرط؛ واختار شيخ الإسلام أنه يجوز خيار الشرط في النكاح؛ لعموم قول النبي ﷺ: ((إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج([2]))، وقوله ﷺ: ((المسلمون على شروطهم إلَّا شرطًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّم حلالًا([3]))؛ وهذا القول قد تحتاج إليه المرأة فيما إذا أراد الزوج أن يسكنها مع أهله؛ فتشترط عليه الخيار؛ وهذا له حالان:

الحال الأولى: أن تشترط عليه الخيار في أصل العقد: فتفسخ النكاح إذا لم يمكن المقام معهم.

الحال الثانية: أن تشترط عليه الخيار في البقاء مع أهله – يعني إن استقامت الحال؛ وإلا أنزلها في بيت آخر.

٩– الترغيب في العفو؛ لقوله تعالى: {وأن تعفوا أقرب للتقوى}؛ وقد حثَّ الله على العفو، وبيَّن أن أجر العافي على الله عز وجل؛ ولكنه تعالى قيَّد ذلك بما إذا كان العفو إصلاحًا فقال تعالى: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله}[الشورى: ٤٠].

١٠– أنَّ الأعمال تتفاضل؛ لقوله تعالى: {أقرب للتَّقوى}.

١١– أنَّ الناس يتفاضلون في الإيمان؛ لأنَّ تفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ والأعمال من الإيمان كما قد تقرَّر في غير هذا الموضع.

١– أخرجه البخاري ص١٦٢، كتاب البيوع، باب ١٩: إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا، حديث رقم ٢٠٧٩، وأخرجه مسلم ص٩٤٢، كتاب البيوع، باب ١١، الصدق في البيع والبيان، حديث رقم ٣٨٥٨ [٤٧] ١٥٣٢.

٢– أخرجه البخاري ص٢١٦، كتاب الشروط، باب ٦: الشروط في المهر عند عقدة النكاح، حديث رقم ٢٧٢١، وأخرجه مسلم ص٩١٤، كتاب النكاح، باب ٨: الوفاء بالشروط في النكاح، حديث رقم ٣٤٧٢ [٦٣] ١٤١٨.

٣– أخرجه أبو داود ص١٤٨٩، كتاب الأقضية، باب ١٢، في الصلح، حديث رقم ٣٥٩٤، وفي سنده كثير بن زيد؛ قال الحافظ فيه: صدوق يخطئ؛ وقال الألباني: فمثله حسن الحديث إن شاء الله ما لم يتبين خطؤه، كيف وهو لم يتفرد به (الإرواء ٥/١٤٣)، حديث ١٣٠٣، وقال في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/٣٩٥.

١٢- أنَّه ينبغي للإنسان ألَّا ينسى الفضل مع إخوانه في معاملته؛ لقوله تعالى: {ولا تنسوا الفضل بينكم}؛ وقد جاء في الحديث: ((رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع؛ سمحًا إذا اشترى؛ سمحًا إذا اقتضى([١]))؛ فإن هذا فيه من حسن المعاملة ما هو ظاهر؛ والدين الإسلامي يحث على حسن المعاملة، وعلى حسن الخلق، وعلى البِرِّ كله.

١٣- إحاطة علم الله سبحانه وتعالى وبصره بكل شيء مما نعمله؛ لقوله تعالى: {إن الله بما تعملون بصير}.

١٤- الترغيب في العمل الصالح، والترهيب من العمل السيء؛ لأن ختم الآية بهذه الجملة مقتضاه: احرصوا على العمل الصالح؛ فإنه لن يضيع؛ واحذروا من العمل السيء؛ فإنكم تجازون عليه؛ لأن كلًّا معلوم عند الله سبحانه وتعالى.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

قال ابن العثيمين: فإن قال قائل: ما وجه ارتباط هاتين الآيتين بما يتعلّق بشأن العدَّة للنساء؟

فالجواب: أن ترتيب الآيات توقيفي ليس للعقل فيه مجال؛ والله أعلم بما أراد؛ وقد التمس بعض المفسرين حكمة لهذا؛ ولكن لمَّا لم يتعيَّن ما ذكره أحجمنا عن ذكرها؛ ونَكِلُ العلم إلى منزل هذا الكتاب العظيم، ونعلم أنه لابدَّ أن يكون هناك حكمة أو حكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم.

قال أبو زهرة: توسَّطت الآيات التي تبيِّن أحكام الأسرة، وعلاقات الزوجين عند الافتراق بالطلاق، أو عند التفريق بينهما بالموت – آيتان كريمتان تدعوان إلى الصلاة والمحافظة عليها، والإتيان بها على وجهها الكامل: من قنوت لله، وخضوع له، وخشوع وابتهال وضراعة؛ ولذلك التوسُّط مغزاه ومرماه؛ ذلك بأن الله سبحانه وتعالى دعا إلى العفو والتسامح، وعدم نسيان الفضل عند الافتراق، ومنع المشاحنة والمنازعة حيث تتوقعان؛ ولقد بيَّن سبحانه بعد ذلك ما يربي في النفس نزوع التسامح، والبعد عن التجافي وهو ذكر الله سبحانه وتعالى، والإحساس بالخضوع له والانصراف إليه، ومحبته وطلب رضاه؛ فإن من يحب الله ورضوانه يحب الناس ولا ينازعهم؛ لأن الله سبحانه رب الناس وخالق الناس، وهو القاهر فوق عباده والقادر على كل شيء، والمحبَّة في الله والبغض في الله ركن الإيمان، ولا يكون ذلك كله إلَّا بالقيام بالصلاة وأدائها على وجهها؛ ولذا قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ....}. وإن أداء الصلاة على

١- أخرجه البخاري ص١٦٢، كتاب البيوع، باب ١٦: السهولة والسماحة في الشراء والبيع ... ، حديث رقم ٢٠٧٦، وأخرجه ابن ماجة واللفظ له ص٢٦٠٨، باب ٢٨: السماحة في البيع، حديث رقم ٢٢٠٣.

وجهها والقيام بحقِّها ليس أمرًا صغيرًا، بل إنه أمر كبير خطير، له نتائجه العليا في الاتجاه بالنفس الإنسانية نحو السموِّ والتعالي عن متنازع الأهواء في هذه الحياة؛ ولذلك قال تعالى في الاستعانة على التغلب على الأهواء في حياتنا الدنيا: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}.

وقد يقول قائل: أفما كان الأَولى أن تذكر آيات الصلاة بعد بيان أحكام الأسرة كلها؟ ونقول في الجواب عن ذلك: إن الحق الذي لَا ريب فيه هو فيما سلكه كتاب الله الذي لَا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن كتاب الله ليس مؤلَّفًا ينهج مناهج التأليف من حيث التبويب والتقسيم، بل إن كتاب الله تعالى كتاب عظة واعتبار، وبيان شرع، وإرشاد، ولترتيب منهاجه وحده، ولا يضارعه كتاب فيه، فهو يتتبَّع في ترتيبه تداعي المعاني في النفس، وتواردها على الفكر، ويأتي بالحكم حيث تتطلع النفوس إليه، فيملؤها ببيانه الرائع، وحكمه الخالد.

ولا شك أن العقل البشرى يتطلَّع ويستفهم كيف يمكن تذكُّر الفضل في وقت تلك الفرقة التي في أغلب أحوالها تكون نتيجة للبغض الشديد، وكيف يكون التسامح والعفو في موطن تحكُّم البغض؟ فأجاب الله سبحانه داعية العقل، وتطلُّع الفكر، بأن الصلاة على وجهها حيث يخاطب العبد ربه، وينصرف إليه خاشعًا ضارعًا محسًّا بعظمته وتجلِّيه، ومتَّجها إليه سبحانه في علوِّ سلطانه؛ إن ذلك كله هو الذي يعلو بالنفس عن شهواتها، ويصعد بها في سموِّها؛ تعالت كلمات الله العلي القدير، وتسامت حكمة العليم الخبير.

قال ابن العثيمين: {حافظوا على الصلوات}: (المحافظة) الاستمرار في حفظ الشيء مع العناية به؛ ولم يبيِّن الله في هذه الآية كيفية المحافظة؛ لكن بيَّنت في مواضع أخرى من الكتاب والسنة؛ وهو أبلغ من قولك: (احفظ كذا)؛ بدليل أنك لو أعطيتني وديعة وقلت: (حافظ عليها)، أو قلت: (هذه وديعة احفظها) لكان الأول أبلغ؛ فلهذا جاءت في الآية: {حافظوا على الصلوات}؛ و{الصلوات} جمع صلاة؛ وهي في اللغة: الدعاء؛ وفي الشرع العبادة المعروفة.

{والصلاة الوسطى}: أي الفضلى؛ وهي صلاة العصر، كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ([1])؛ ولا عبرة بما خالفه؛ لأن النبي ﷺ أعلم الناس بمراد الله؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}[النحل: ٤٤].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣ص٤٢٧: وَعِمَادُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَقُومُ إلَّا بِهِ هُوَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ الْمَكْتُوبَاتُ، وَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ الِاعْتِنَاءِ بِهَا مَا لَا يَجِبُ مِنْ الِاعْتِنَاءِ بِغَيْرِهَا. كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَكْتُبُ

١- راجع البخاري ص٥٣٧، كتاب الدعوات، باب ٥٨: الدعاء على المشركين، حديث رقم ٦٣٩٦؛ ومسلما ص٧٧٥، كتاب المساجد، باب ٣٦: الدليل لمن قال: {الصلاة الوسطى} هي صلاة العصر، حديث رقم ١٤٢٥ [٢٠٥] ٦٢٧.

إِلَى عُمَّالِهِ: إنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا كَانَ لِمَا سِوَاهَا مِنْ عَمَلِهِ أَشَدَّ إضَاعَةً.

وَهِيَ أَوَّلُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ تَوَلَّى اللَّهُ إيجَابَهَا بِمُخَاطَبَةِ رَسُولِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَهِيَ آخِرُ مَا وَصَّى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ وَقْتَ فِرَاقِ الدُّنْيَا، جَعَلَ يَقُولُ: ((الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ([1]))، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ مِنْ عَمَلِهِ، وَآخِرُ مَا يُفْقَدُ مِنْ الدِّينِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ ذَهَبَ الدِّينُ كُلُّهُ، وَهِيَ عَمُودُ الدِّينِ فَمَتَى ذَهَبَتْ سَقَطَ الدِّينُ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ([2]))، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}[مريم: ٥٩].

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وَغَيْرُهُ: إضَاعَتُهَا تَأْخِيرُهَا عَنْ وَقْتِهَا، وَلَوْ تَرَكُوهَا كَانُوا كُفَّارًا. وَقَالَ تَعَالَى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا: فِعْلُهَا فِي أَوْقَاتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}[الماعون: ٤،٥]، وَهُمْ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَهَا حَتَّى يَخْرُجَ الْوَقْتُ.

وقال رحمه الله في ج٢٢ص٢٧: لَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يُؤَخِّرَ صَلَاةَ النَّهَارِ إلَى اللَّيْلِ، وَلَا يُؤَخِّرَ صَلَاةَ اللَّيْلِ إلَى النَّهَارِ لِشُغْلِ مِنْ الْأَشْغَالِ، لَا لِحَصْدِ وَلَا لِحَرْثِ وَلَا لِصِنَاعَةِ وَلَا لِجَنَابَةِ، وَلَا نَجَاسَةِ وَلَا صَيْدٍ وَلَا لَهْوٍ وَلَا لَعِبٍ وَلَا لِخِدْمَةِ أُسْتَاذٍ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُصَلِّيَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ بِالنَّهَارِ، وَيُصَلِّيَ الْفَجْرَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَلَا يَتْرُكَ ذَلِكَ لِصِنَاعَةِ مِنْ الصِّنَاعَاتِ، وَلَا لِلَّهْوِ وَلَا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَشْغَالِ وَلَيْسَ لِلْمَالِكِ أَنْ يَمْنَعَ مَمْلُوكَهُ، وَلَا لِلْمُسْتَأْجِرِ أَنْ يَمْنَعَ الْأَجِيرَ مِنْ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا.

وَمَنْ أَخَّرَهَا لِصِنَاعَةِ أَوْ صَيْدٍ أَوْ خِدْمَةِ أُسْتَاذٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ، وَجَبَتْ عُقُوبَتُهُ، بَلْ يَجِبُ قَتْلُهُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ بَعْدَ أَنْ يُسْتَتَابَ فَإِنْ تَابَ وَالْتَزَمَ أَنْ يُصَلِّيَ فِي الْوَقْتِ، أُلْزِمَ بِذَلِكَ، وَإِنْ قَالَ: لَا أُصَلِّي إلَّا بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ لِاشْتِغَالِهِ بِالصِّنَاعَةِ وَالصَّيْدِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ([1]))، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ([2]))، وَفِي وَصِيَّةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ لِعُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: (إنَّ لِلَّهِ حَقًّا بِاللَّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ، وَحَقًّا بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ).

١- ابن ماجة في الجنائز (١٦٢٥) وفي الزوائد: (إسناده صحيح على شرط الشيخين)، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١، كلاهما عن أم سلمة.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة - مختصرة (٨٦٨).

٢- الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) وقال: (حديث حسن صحيح)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٣٩٤/ ١) وابن ماجة في الفتن (٣٩٧٣)، وأحمد ٥/ ٢٣١، كلهم عن معاذ بن جبل.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/ ١١٤.

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَخَّرَ صَلَاةَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ لِاشْتِغَالِهِ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ، ثُمَّ صَلَّاهَا بَعْدَ الْمَغْرِبِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى}.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: ((أَنَّ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ(٣)))، فَلِهَذَا قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: إنَّ ذَلِكَ التَّأْخِيرَ مَنْسُوخٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَلَمْ يُجَوِّزُوا تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ حَالَ الْقِتَالِ، بَلْ أَوْجَبُوا عَلَيْهِ الصَّلَاةَ فِي الْوَقْتِ حَالَ الْقِتَالِ، وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ.

فَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا لِجَنَابَةٍ وَلَا حَدَثٍ وَلَا نَجَاسَةٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ يُصَلِّي فِي الْوَقْتِ بِحَسَبِ حَالِهِ، فَإِنْ كَانَ مُحْدِثًا وَقَدْ عَدِمَ الْمَاءَ أَوْ خَافَ الضَّرَرَ بِاسْتِعْمَالِهِ تَيَمَّمَ وَصَلَّى. وَكَذَلِكَ الْجُنُبُ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي إذَا عَدِمَ الْمَاءَ أَوْ خَافَ الضَّرَرَ بِاسْتِعْمَالِهِ لِمَرَضٍ أَوْ لِبَرْدِ. وَكَذَلِكَ الْعُرْيَانُ يُصَلِّي فِي الْوَقْتِ عُرْيَانًا، وَلَا يُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُصَلِّيَ بَعْدَ الْوَقْتِ فِي ثِيَابِهِ. وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ عَلَيْهِ نَجَاسَةٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُزِيلَهَا فَيُصَلِّيَ فِي الْوَقْتِ بِحَسَبِ حَالِهِ. وَهَكَذَا الْمَرِيضُ يُصَلِّي عَلَى حَسَبِ حَالِهِ فِي الْوَقْتِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: ((صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ(٤)))، فَالْمَرِيضُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ يُصَلِّي فِي الْوَقْتِ قَاعِدًا أَوْ عَلَى جَنْبٍ، إذَا كَانَ الْقِيَامُ يَزِيدُ فِي مَرَضِهِ، وَلَا يُصَلِّي بَعْدَ خُرُوجِ الْوَقْتِ قَائِمًا.

وَهَذَا كُلُّهُ لِأَنَّ فِعْلَ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا فَرْضٌ، وَالْوَقْتُ أَوْكَدُ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ، كَمَا أَنَّ صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ وَاجِبٌ فِي وَقْتِهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُؤَخِّرَهُ عَنْ وَقْتِهِ، وَلَكِنْ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِعَرَفَةَ، وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ بمزدلفة، بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَكَذَلِكَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَبَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ لِلسَّفَرِ وَالْمَرَضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْذَارِ. وَأَمَّا تَأْخِيرُ صَلَاةِ النَّهَارِ إلَى اللَّيْلِ، وَتَأْخِيرُ صَلَاةِ اللَّيْلِ إلَى النَّهَارِ. فَلَا يَجُوزُ لِمَرَضٍ وَلَا لِسَفَرٍ، وَلَا لِشَغْلٍ مِنْ الْأَشْغَالِ، وَلَا لِصِنَاعَةٍ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، ثُمَّ اجْعَلُوا صَلَاتَكُمْ مَعَهُمْ نَافِلَةً(٥)))، رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَيْفَ بِك إذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا،

١- البخاري في المواقيت (٥٥٢)، ومسلم في المساجد (٦٢٦/٢٠٠)، وأبو داود في الصلاة (٤١٤)، كلهم عن ابن عمر.

٢- البخاري في المواقيت (٥٥٣)، وأحمد ٣٦١/٥، كلاهما عن بريدة.

٣- مسلم في المساجد (٦٢٧/٢٠٥)، والترمذي في أبواب الصلاة (١٨٢)، كلاهما عن علي.

٤- البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧).

٥- (قلت): مسلم (٦٤٨)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ، فَصَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، فَإِنْ صَلَّيْتَ لِوَقْتِهَا كَانَتْ لَكَ نَافِلَةً، وَإِلَّا كُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ صَلَاتَكَ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((أحرزت صلاتك)): أي حصلتها وصنتها واحتطت لها.

وَيَنْسؤُنِ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟ قُلْت: فَمَاذَا تَأْمُرنِي؟ قَالَ: صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، فَإِنْ أَدْرَكْتَهَا مَعَهُمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَك نَافِلَةٌ([1])).

وَعَنْ عبادة بْنِ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَشْغَلُهُمْ أَشْيَاءُ عَنْ الصَّلَاةِ لِوَقْتِهَا حَتَّى يَذْهَبَ وَقْتُهَا، فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا} وَقَالَ رَجُلٌ أُصَلِّي مَعَهُمْ قَالَ: {نَعَمْ إنْ شِئْت، وَاجْعَلُوهَا تَطَوُّعًا}([2])رَوَاهُ أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَرَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَيْفَ بِكُمْ إذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ لِغَيْرِ مِيقَاتِهَا؟ قُلْت: فَمَا تَأْمُرنِي إنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَاجْعَلْ صَلَاتَك مَعَهُمْ نَافِلَةً([3]))).

ولِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ إذَا كَانَ عُرْيَانًا مِثْلَ أَنْ تَنْكَسِرَ بِهِمْ السَّفِينَةُ أَوْ تَسْلُبَهُ الْقُطَّاعُ ثِيَابَهُ فَإِنَّهُ يُصَلِّي فِي الْوَقْتِ عُرْيَانًا، وَالْمُسَافِرُ إذَا عَدِمَ الْمَاءَ يُصَلِّي بِالتَّيَمُّمِ فِي الْوَقْتِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنْ كَانَ يَجِدُ الْمَاءَ بَعْدَ الْوَقْتِ، وَكَذَلِكَ الْجُنُبُ الْمُسَافِرُ إذَا عَدِمَ الْمَاءَ تَيَمَّمَ وَصَلَّى، وَلَا إعَادَةَ عَلَيْهِ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَغَيْرِهِمْ. وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ الْبَرْدُ شَدِيدًا فَخَافَ إنْ اغْتَسَلَ أَنْ يَمْرَضَ فَإِنَّهُ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي فِي الْوَقْتِ، وَلَا يُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُصَلِّيَ بَعْدَ الْوَقْتِ بِاغْتِسَالِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورُ الْمُسْلِمِ وَلَوْ لَمْ يَجِدْ الْمَاءَ عَشْرَ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدْت الْمَاءَ فَأَمْسِسْهُ بَشَرَتَك فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ([4]))).

وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ نَجَاسَةٌ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُزِيلُهَا بِهِ صَلَّى فِي الْوَقْتِ وَعَلَيْهِ النَّجَاسَةُ، كَمَا صَلَّى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، وَلَمْ يُؤَخِّرْ الصَّلَاةَ حَتَّى خَرَجَ الْوَقْتُ.

وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إلَّا ثَوْبًا نَجِسًا، فَقِيلَ: يُصَلِّي عُرْيَانًا. وَقِيلَ: يُصَلِّي فِيهِ وَيُعِيدُ. وَقِيلَ: يُصَلِّي فِيهِ وَلَا يُعِيدُ، وَهَذَا أَصَحُّ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ الْعَبْدَ أَنْ يُصَلِّيَ الْفَرْضَ مَرَّتَيْنِ، إلَّا إذَا لَمْ يَفْعَلْ الْوَاجِبَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، مِثْلَ أَنْ يُصَلِّيَ بِلَا طُمَأْنِينَةٍ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ، كَمَا ((أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ صَلَّى وَلَمْ يَطْمَئِنَّ أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ. وَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّك لَمْ تُصَلِّ([5]))).

١- مسلم في المساجد (٦٤٨/٢٣٨).

٢- أبو داود في الصلاة (٤٣٣)، وأحمد ٦/٧.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٤١٩٤). وانظر حديث رقم : ٢٤٢٩ في صحيح الجامع.

٣- أبو داود في الصلاة (٤٣٢).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٤٥٩).

٤- أبو داود في الطهارة (٣٣٢)، وأحمد ٥/١٤٦، ١٤٧ عن أبي ذر.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٥٣٠)، صحيح أبي داود (٣٥٧)، الإرواء (١٥٣).

٥- البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٧)، والترمذي في أبواب الصلاة (٣٠٣)، والنسائي في الإفتتاح (٨٨٤)، وابن ماجة في إقامة الصلاة (١٠٦٠)، كلهم عن أبي هريرة.

وَكَذَلِكَ مَنْ نَسِيَ الطَّهَارَةَ وَصَلَّى بِلَا وُضُوءٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَ، كَمَا ((أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ تَوَضَّأَ وَتَرَكَ لَمْعَةً فِي قَدَمِهِ لَمْ يُمِسَّهَا الْمَاءُ أَنْ يُعِيدَ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ([١]))).

فَأَمَّا مَنْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ([٢]))). وَمَنْ كَانَ مُسْتَيْقِظًا فِي الْوَقْتِ وَالْمَاءُ بَعِيدٌ مِنْهُ لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا بَعْدَ الْوَقْتِ فَإِنَّهُ يُصَلِّي فِي الْوَقْتِ بِالتَّيَمُّمِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْبَرْدُ شَدِيدًا، وَيَضُرُّهُ الْمَاءُ الْبَارِدُ، وَلَا يُمْكِنُهُ الذَّهَابُ إِلَى الْحَمَّامِ، أَوْ تَسْخِينُ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ الْوَقْتُ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي فِي الْوَقْتِ بِالتَّيَمُّمِ. وَالْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ، فَإِذَا كَانَا جُنُبَيْنِ وَلَمْ يُمْكِنْهُمَا الِاغْتِسَالُ حَتَّى يَخْرُجَ الْوَقْتُ، فَإِنَّهُمَا يُصَلِّيَانِ فِي الْوَقْتِ بِالتَّيَمُّمِ.

وَالْمَرْأَةُ الْحَائِضُ إِذَا انْقَطَعَ دَمُهَا فِي الْوَقْتِ، وَلَمْ يُمْكِنْهَا الِاغْتِسَالُ إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِ الوَقْتِ تَيَمَّمَتْ وَصَلَّتْ فِي الْوَقْتِ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الصَّلَاةَ بَعْدَ خُرُوجِ الْوَقْتِ بِالْمَاءِ خَيْرٌ مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْوَقْتِ بِالتَّيَمُّمِ فَهُوَ ضَالٌّ جَاهِلٌ.

وَإِذَا اسْتَيْقَظَ آخِرَ وَقْتِ الْفَجْرِ فَإِذَا اغْتَسَلَ طَلَعَتْ الشَّمْسُ، فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ هُنَا يَقُولُونَ: يَغْتَسِلُ وَيُصَلِّي بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد، وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ. وَقَالَ فِي الْقَوْلِ الْآخَرِ: بَلْ يَتَيَمَّمُ أَيْضًا هُنَا وَيُصَلِّي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تِلْكَ الْمَسَائِلِ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ فِي الْوَقْتِ بِالتَّيَمُّمِ خَيْرٌ مِنَ الصَّلَاةِ بَعْدَهُ بِالْغُسْلِ. وَالصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ لِأَنَّ الْوَقْتَ فِي حَقِّ النَّائِمِ هُوَ مِنْ حِينِ يَسْتَيْقِظُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ وَقْتُهَا([٣]))). فَالْوَقْتُ فِي حَقِّ النَّائِمِ هُوَ مِنْ حِينِ يَسْتَيْقِظُ، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَقْتًا فِي حَقِّهِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَلَمْ يُمْكِنْهُ الِاغْتِسَالُ وَالصَّلَاةُ إِلَّا بَعْدَ طُلُوعِهَا، فَقَدْ صَلَّى الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا وَلَمْ يُفَوِّتْهَا، بِخِلَافِ مَنْ اسْتَيْقَظَ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ فَإِنَّ الْوَقْتَ فِي حَقِّهِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُفَوِّتَ الصَّلَاةَ. وَكَذَلِكَ مَنْ نَسِيَ صَلَاةً وَذَكَرَهَا فَإِنَّهُ – حِينَئِذٍ – يَغْتَسِلُ وَيُصَلِّي فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ، وَهَذَا هُوَ الْوَقْتُ فِي حَقِّهِ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَيْقِظْ إِلَّا بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، كَمَا اسْتَيْقَظَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا نَامُوا عَنْ الصَّلَاةِ عَامَ خَيْبَرَ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي بِالطَّهَارَةِ الْكَامِلَةِ وَإِنْ أَخَّرَهَا إِلَى حِينِ الزَّوَالِ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ كَانَ جُنُبًا فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الْحَمَّامَ وَيَغْتَسِلُ وَإِنْ أَخَّرَهَا إِلَى قَرِيبِ الزَّوَالِ، وَلَا

١- أبو داود في الطهارة (١٧٥)، وأحمد ٣/٤٢٤.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٨٦).

٢- البخاري في الإعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الفضائل (١٣٣٧/١٣٠).

٣- البخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧)، ومسلم في المساجد، ومواضع الصلاة (٦٨٤/٣١٤، ٣١٥)، والترمذي في أبواب الصلاة (١٧٨)، والنسائي في المواقيت (٦١٣)، وأحمد ٣/١٠٠، كلهم عن أنس بن مالك، رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٠/١٠٩)، وأبو داود في الصلاة (٤٣٥)، كلاهما عن أبي هريرة.

يُصلِّي هُنَا بِالتَّيَمُّمِ، وَيُسْتَحَبُّ، أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْ الْمَكَانِ الَّذِي نَامَ فِيهِ، كَمَا انْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَنْ الْمَكَانِ الَّذِي نَامُوا فِيهِ، وَقَالَ: ((هَذَا مَكَانٌ حَضَرَنَا فِيهِ الشَّيْطَانُ(١))). وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَد وَغَيْرُهُ. وَإِنْ صَلَّى فِيهِ جَازَتْ صَلَاتُهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا يُسَمَّى قَضَاءً أَوْ أَدَاءً؟.

قِيلَ: الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ هُوَ فَرْقٌ اصْطِلَاحِيٌّ؛ لَا أَصْلَ لَهُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى فِعْلَ الْعِبَادَةِ فِي وَقْتِهَا قَضَاءً، كَمَا قَالَ فِي الْجُمُعَةِ: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ}[الجمعة: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ}[البقرة: ٢٠٠]، مَعَ أَنَّ هَذَيْنِ يَفْعَلَانِ فِي الْوَقْتِ. و(الْقَضَاءُ) فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: هُوَ إكْمَالُ الشَّيْءِ وَإِتْمَامُهُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}[فصلت: ١٢]، أَيْ أَكْمَلَهُنَّ وَأَتَمَّهُنَّ. فَمَنْ فَعَلَ الْعِبَادَةَ كَامِلَةً فَقَدْ قَضَاهَا، وَإِنْ فَعَلَهَا فِي وَقْتِهَا.

وَأَمَّا مَنْ فَوَّتَهَا مُتَعَمِّدًا فَقَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ أَعْظَمِ الْكَبَائِرِ، وَعَلَيْهِ الْقَضَاءُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ لَا يَصِحُّ فِعْلُهَا قَضَاءً أَصْلًا.

أَمَّا تَارِكُ الصَّلَاةِ: فَهَذَا إنْ لَمْ يَكُنْ مُعْتَقِدًا لِوُجُوبِهَا، فَهُوَ كَافِرٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، لَكِنْ إذَا أَسْلَمَ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ، أَوْ وُجُوبَ بَعْضِ أَرْكَانِهَا: مِثْلَ أَنْ يُصَلِّيَ بِلَا وُضُوءٍ، فَلَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْوُضُوءَ أَوْ يُصَلِّيَ مَعَ الْجَنَابَةِ فَلَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ عَلَيْهِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، فَهَذَا لَيْسَ بِكَافِرِ، إذَا لَمْ يَعْلَمْ.

لَكِنْ إذَا عَلِمَ الْوُجُوبَ: هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَمَالِكٍ وَغَيْرِهِمَا. قِيلَ: يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد. وَقِيلَ: لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ.

وَأَمَّا مَنْ اعْتَقَدَ وُجُوبَهَا مَعَ إصْرَارِهِ عَلَى التَرْكِ: فَقَدْ ذَكَرَ عَلَيْهِ الْمُفَرِّعُونَ مِنْ الْفُقَهَاءِ فُرُوعًا:

أَحَدُهَا: هَذَا، فَقِيلَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ: مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد. وَإِذَا صَبَرَ حَتَّى يُقْتَلَ فَهَلْ يُقْتَلُ كَافِرًا مُرْتَدًّا، أَوْ فَاسِقًا كَفُسَّاقِ الْمُسْلِمِينَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورِينَ. حُكِيَا رِوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ(٢).

قال ابن العثيمين: {وقوموا لله قانتين}: هذا أمر بالقيام؛ ولا إشكال فيه؛ وهل المراد بالقيام هنا المكث على الشيء، أو القيام على القدمين؟ هو المعنيان جميعًا؛ واللام في قوله تعالى: {لله} للإخلاص.

قوله تعالى: {قانتين} حال من الواو في {قوموا}: أي حال كونكم قانتين؛ و(القنوت) يطلق على عدّة معان؛ منها: دوام العبادة والطاعة؛ ومنه قوله تعالى: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين}[التحريم: ١٢]؛ ويطلق (القنوت) على (الخشوع) – وهو السكوت تعظيمًا لمن قنت له؛ وعليه يدلُّ سبب نزول الآية؛ فإنه كان أحدهم يكلِّم صاحبه وهو

١- مسلم في المساجد (٦٨٠/٣٠٩)، والنسائي في المواقيت (٦٢٣)، وأحمد ٤٢٩/٢، كلهم عن أبي هريرة.

٢- أنظر حكم تارك الصلاة مفصلًا عند تفسير الآية (٥) من سورة التوبة.

إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: {وقوموا لله قانتين} فأمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام؛ إذا فـ(القنوت) خشوع القلب الذي يظهر فيه خشوع الجوارح؛ ومنها اللِّسان حتى لا يتكلَّم الإنسان مع الناس؛ ليتّجه إلى صلاته؛ وكذلك لا يفعل إلَّا ما يتعلَّق بصلاته.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٢ص٥٤٧: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} أَمْرٌ بِالْقُنُوتِ فِي الْقِيَامِ لِلَّهِ وَالْقُنُوتُ: دَوَامُ الطَّاعَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَوَاءٌ كَانَ فِي حَالِ الِانْتِصَابِ أَوْ فِي حَالِ السُّجُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}[الزمر: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ}[النساء: ٣٤]، وَقَالَ: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}[الأحزاب: ٣١]، وَقَالَ: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}[الروم: ٢٦].

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} إمَّا أَنْ يَكُونَ أَمْرًا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ مُطْلَقًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ}[النساء: ١٣٥] فَيَعُمُّ أَفْعَالَهَا وَيَقْتَضِي الدَّوَامَ فِي أَفْعَالِهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ: الْقِيَامَ الْمُخَالِفَ لِلْقُعُودِ فَهَذَا يَعُمُّ مَا قَبْلَ الرُّكُوعِ وَمَا بَعْدَهُ، وَيَقْتَضِي الطُّولَ، وَهُوَ الْقُنُوتُ الْمُتَضَمِّنُ لِلدُّعَاءِ، كَقُنُوتِ النَّوَازِلِ، وَقُنُوتِ الْفَجْرِ عِنْدَ مَنْ يَسْتَحِبُّ الْمُدَاوَمَةَ عَلَيْهِ.

وَإِذَا ثَبَتَ وُجُوبُ هَذَا ثَبَتَ وُجُوبُ الطُّمَأْنِينَةِ فِي سَائِرِ الْأَفْعَالِ. بِطَرِيقِ الْأَوْلَى.

وَيُقَوِّي الْوَجْهَ الْأَوَّلَ حَدِيثُ زَيْدِ بْنِ أَرْقَم الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَحَدُنَا يُكَلِّمُ الرَّجُلَ إلَى جَنْبِهِ إلَى الصَّلَاةِ، فَنَزَلَتْ {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}. قَالَ: ((فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ، وَنُهِينَا عَنْ الْكَلَامِ[١])). حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلَاةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ السُّكُوتَ عَنْ خِطَابِ الْآدَمِيِّينَ وَاجِبٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَاةِ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ الْأَمْرَ بِالْقُنُوتِ فِي جَمِيعِ الصَّلَاةِ، وَدَلَّ الْأَمْرُ بِالْقُنُوتِ عَلَى السُّكُوتِ عَنْ مُخَاطَبَةِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الْقُنُوتَ هُوَ دَوَامُ الطَّاعَةِ، فَالْمُشْتَغِلُ بِمُخَاطَبَةِ الْعِبَادِ تَارِكٌ لِلِاشْتِغَالِ بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَطَاعَتُهُ، فَلَا يَكُونُ مُدَاوِمًا عَلَى طَاعَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَرُدَّ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَرُدُّ {إنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا}[٢]، فَأَخْبَرَ أَنَّ فِي الصَّلَاةِ مَا يَشْغَلُ الْمُصَلِّي عَنْ مُخَاطَبَةِ النَّاسِ، وَهَذَا هُوَ الْقُنُوتُ فِيهَا، وَهُوَ دَوَامُ الطَّاعَةِ، وَلِهَذَا جَازَ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ تَنْبِيهُ النَّاسِي بِمَا هُوَ مَشْرُوعٌ فِيهَا مِنْ الْقِرَاءَةِ وَالتَّسْبِيحِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَشْغَلُهُ عَنْهَا، وَلَا يُنَافِي الْقُنُوتَ فِيهَا.

١- البخاري في التفسير (٤٥٣٤)، ومسلم في المساجد (٣٥/٥٣٩).

٢- البخاري في العمل في الصلاة (١١٩٩)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٣٤/٥٣٨)، وابن ماجة في إقامة الصلاة (١٠١٩)، وأحمد ٣٧٦/١، كلهم عن عبدالله بن مسعود.

قال ابن العثيمين: {فإن خفتم}: أي خفتم حصول مكروه بالمحافظة على ما ذكر بأن أخافكم عدو، أو حريق، أو سيل، أو ما أشبه ذلك مما يخاف منه الإنسان.

{فرجالًا}: أي على الأرجل؛ وهي جمع راجل؛ و(الراجل) هو الذي يمشي على رجليه؛ لأنه قابله بقوله تعالى: {أو ركبانًا} أي راكبين؛ و{رجالًا} منصوبة على الحال على تأويل: راجلين؛ وعاملها وصاحبها محذوفان؛ والتقدير: فصلُّوا رجالًا.

قوله تعالى: {أو ركبانًا} جمع راكب.

قال السعدي: لم يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خفتم بصلاتكم على تلك الصفة فصلوها {رجالًا}: أي ماشين على أقدامكم، {أو ركبانًا} على الخيل والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من صلاتها مطمئنًّا خارج الوقت.

قال القرطبي: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: الصلاة أصلها الدعاء، وحالة الخوف أولى بالدعاء؛ فلهذا لم تسقط الصلاة بالخوف؛ فإذا لم تسقط الصلاة بالخوف فأحرى ألَّا تسقط بغيره من مرض أو نحوه، فأمر الله سبحانه وتعالى بالمحافظة على الصلوات في كل حال من صحة أو مرض، وحضر أو سفر، وقدرة أو عجز وخوف أو أمن، لا تسقط عن المكلف بحال، ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال. وسيأتي بيان حكم المريض في آخر آل عمران إن شاء الله تعالى. والمقصود من هذا أن تفعل الصلاة كيفما أمكن، ولا تسقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلَّا بالإشارة بالعين لزم فعلها، وبهذا تميزت عن سائر العبادات، كلها تسقط بالأعذار ويترخص فيها بالرخص. قال ابن العربي: ولهذا قال علماؤنا: وهي مسألة عظمى، إن تارك الصلاة يقتل؛ لأنها أشبهت الإيمان الذي لا يسقط بحال، وقالوا فيها: إحدى دعائم الإسلام لا تجوز النيابة عنها ببدن ولا مال، فيقتل تاركها؛ أصله الشهادتان. وسيأتي ما للعلماء في تارك الصلاة في سورة البراءة إن شاء الله تعالى.

قال ابن العثيمين: {فإذا أمنتم}: أي زال الخوف عنكم {فاذكروا الله}: أي أقيموا الصلاة؛ وسمَّاها ذكرًا؛ لأنها هي ذكر، ومشتملة على ذكر؛ قال تعالى: {اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر}[العنكبوت: ٤٥] قال بعض المفسرين: أي ولما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

{فاذكروا الله كما علمكم}؛ الكاف هنا يحتمل أن تكون للتعليل أو التشبيه؛ فعلى الأول يكون المعنى: اذكروا الله لتعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمون؛ وعلى الثاني يكون المعنى: اذكروا الله على الصفة التي بيَّنها لكم – وهي أن تكون صلاة أمن لا صلاة خوف؛ والمعنيان لا منافاة بينهما؛ فتحمل الآية عليهما.

قال السعدي: فإنها نعمة عظيمة ومنَّة جسيمة، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليبقي نعمته عليكم ويزيدكم عليها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب المحافظة على الصلوات؛ لقوله تعالى: {حافظوا على الصلوات}؛ والأصل في الأمر الوجوب.

فإن قيل: إن النوافل لا تجب المحافظة عليها؟

فالجواب: أنه لا مانع من استعمال المشترك في معنييه؛ فتكون المحافظة على الفرائض واجبة؛ وعلى النوافل سنة.

٢- فضيلة صلاة العصر؛ لأن الله خصَّها بالذكر بعد التعميم؛ وهي أفضل الصلاتين المفضلتين – العصر والفجر؛ وقد بيَّن النبي ﷺ فضلهما في أحاديث؛ منها قوله ﷺ: ((من صلَّى البَرَدَين دخل الجنة([1]))، وقوله ﷺ: ((إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته؛ فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا([2]))).

٣- وجوب القيام؛ لقوله تعالى: {وقوموا لله}.

٤- وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: {لله}.

٥- أنه ينبغي للإنسان إذا تعبَّد لله أن يستشعر أمر الله؛ لأنه أبلغ في الامتثال، والطاعة؛ وكذلك ينبغي أن يستحضر أنه متأسٍّ برسول الله ﷺ كأنما يشاهده رأي عين؛ لقول النبي ﷺ: ((صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي([3]))) – فتتم له المتابعة.

٦- الأمر بالقنوت لله عز وجل؛ وهو خشوع القلب الذي يظهر منه سكون الجوارح؛ لقوله تعالى: {قانتين}.

٧- تحريم الكلام في الصلاة – بناء على سبب النزول؛ وهو أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة حتى نزلت هذه الآية؛ فأمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام.

٨- وجوب القيام في الصلاة؛ ويستثنى من ذلك:

أ – صلاة النافلة؛ لدلالة السنة على جوازها من قاعد؛ هذا إذا جعلنا قوله تعالى: {الصلوات} عامة؛ وأمَّا إذا جعلناها خاصة بالفرائض فلا استثناء.

ب – ويستثنى أيضًا الخائف، مثل أن يصلِّي خلف الجدار إن قام علم به عدوه فمال عليه؛ وإن صلَّى جالسًا سَلِم.

١- أخرجه البخاري ص٤٧، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٢٦: فضل صلاة الفجر، حديث رقم ٥٧٤، وأخرجه مسلم ص٧٧٦، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٣٧: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث رقم ٤٣٨ [٢١٥] ٦٣٥.

٢- أخرجه البخاري ص٤٥: كتاب مواقيت الصلاة، باب ١٦: فضل صلاة العصر، حديث رقم ٥٥٤، وأخرجه مسلم ص٧٧٦، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٣٧: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث رقم ١٤٣٤ [٢١١] ٦٣٣.

٣- أخرجه البخاري ص٥١، كتاب الأذان، باب ١٨، الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة ... ، حديث رقم ٦٣١.

ج – ويستثني أيضًا العاجز؛ لقوله تعالى: {فاتَّقوا الله ما استطعتم}[التغابن: ١٦].

د – ويستثني أيضًا المأموم القادر على القيام إذا صلَّى إمامه العاجز عنه قاعدًا من أول صلاته؛ لقول النبي ﷺ في الإمام: ((إذا صلَّى جالسًا فصلُّوا جلوسًا أجمعون[١]))؛ أما إذا طرأ عليه العجز في أثناء الصلاة فإن المأمومين يُتِمُّونها قيامًا؛ لقصة صلاة أبي بكر بالناس، حيث ابتدأ بهم الصلاة قائمًا؛ فلمَّا حضر النبي ﷺ في أثناء الصلاة صلَّى جالسًا، وأتموا خلفه قيامًا [٢].

٩– سعة رحمة الله عز وجل، وأن هذا الدين يسر؛ لقوله تعالى: {فإن خفتم فرجالا أو ركبانا}؛ لأن هذا من التيسير على العباد.

١٠– جواز الحركة الكثيرة في الصلاة للضرورة؛ لقوله تعالى: {فرجالًا}؛ لأن الراجل – وهو الماشي – يتحرك حركة كثيرة.

١١– جواز الصلاة على الراحلة في حال الخوف؛ لقوله تعالى: {أو ركبانًا}؛ أما في حال الأمن فلا تجوز الصلاة على الراحلة إلَّا النافلة؛ إلَّا إذا تمكن من الإتيان بالصلاة على وجه التَّمام فإنه يجوز؛ ولهذا جوَّزنا الصلاة في السفينة وفي القطار وما أشبه ذلك؛ لأنه سيأتي بها على وجه التَّمام بخلاف الراحلة من بعير، وسيارة، وطائرة إلَّا أن يكون في الطائرة مكان متَّسع يتمكن فيه من الإتيان بالصلاة كاملة: فتصح؛ لكن إذا خاف الإنسان خروج الوقت يصلِّي على أي حال – ولو مضطجعًا – في أي مكان.

١٢– أنه يجب على المرء القيام بالعبادة على التَّمام متى زال العذر؛ لقوله تعالى: {فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون}.

١٣– أن الصلاة من الذكر؛ لقوله تعالى: {فاذكروا الله}؛ والكلام هنا في الصلاة.

١٤– بيان مِنَّة الله علينا بالعلم؛ لقوله تعالى: {كما علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون}.

١٥– بيان نقص الإنسان لكون الأصل فيه الجهل، حيث قال تعالى: {كما علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون}؛ فالأصل في الإنسان الجهل حتى يعلمه الله عز وجل.

١– أخرجه البخاري ص٥٥، كتاب الأذان، باب ٥١، إنما جعل الإمام ليؤتم به، حديث رقم ٦٨٩، وأخرجه مسلم ص٧٤٣، كتاب الصلاة، باب ١٩: ائتمام المأموم بالإمام، حديث رقم ٩٢٦ [٨٢] ٤١٢.

٢– راجع صحيح البخاري ص٥٥، كتاب الأذان، باب ٥١: إنما جعل الإمام ليؤتم به، حديث رقم ٦٨٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٤٤، كتاب الصلاة، باب ٢١: استخلاف الإمام ... ، حديث رقم ٩٣٦ [٩٠] ٤١٨.

١٦- الرد على القدرية الذين يقولون: (إن الإنسان مستقل بعمله)؛ لقوله تعالى: {كما علَّمكم}؛ والرَّد على الجبرية أيضًا؛ لتوجيه الأوامر إلى الإنسان؛ لقوله تعالى: {حافظوا}، وقوله تعالى: {فاذكروا الله}، وما أشبههما؛ لأننا لو قلنا بأن العبد مجبَر صار توجيه الخطاب إليه نوعًا من العبث؛ لأنه أُمر بما لا يطاق، ولا يمكن تطبيقه.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

قال أبو زهرة: توسَّطت آيات الصلاة بين الآيات التي تبيِّن ما للمعتدَّات وما عليهن، وذلك ليتوسَّط التَّهذيب النفسي التعامل الاجتماعي، وليستبين المؤمن أن التَّقوى أساس الصِّلات التي تربط آحاد الأسرة، وأن التَّقوى لازمة لتكون روح الاتصال، وميزان الاعتدال عند قيام الحياة الزوجية وعند انقطاعها.

قال ابن العثيمين: {وصية} فيها قراءتان: النصب، والرفع؛ وقوله تعالى: {الذين} مبتدأ؛ و{وصية} بالرفع مبتدأ خبره محذوف؛ والتقدير: عليهم وصية؛ والجملة: خبر {الذين}؛ أما على قراءة النصب فإن خبر {الذين} جملة فعلية محذوفة؛ والتقدير: يوصون وصية؛ أو نوصيهم وصية – على خلاف في ذلك: هل هي وصية من الله؛ أو منهم؛ فإن كانت من الله عز وجل فالتقدير: نوصيهم وصية؛ وإن كانت منهم فالتقدير: يوصون وصية؛ والجملة المحذوفة خبر {الذين}؛ والرابط الضمير في الجملة المحذوفة سواء قلنا: (عليهم وصية)؛ أو قلنا: (نوصيهم وصية)، أو (يوصون وصية).

{فلا جناح عليكم}؛ هذه {لا} النافية للجنس، واسمها وخبرها؛ وقوله تعالى: {من معروف} متعلّق بـ{فعلن}؛ وباقي الآية إعرابها ظاهر وواضح.

{والذين يتوفون منكم}: أي يُقبضون؛ والمراد: الموت؛ و{منكم} الخطاب لعموم الأمة؛ وليس خاصًّا بالصحابة رضي الله عنهم؛ لأن القرآن نزل للجميع إلى يوم القيامة؛ فالخطاب الموجود فيه عام لكل الأمة؛ إلَّا إذا دلَّ دليل على الخصوصية، كما في قوله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلًّا وعد الله الحسنى}[الحديد: ١٠].

{ويذرون}: أي يتركون؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: {يتوفون}؛ و{أزواجًا}: أي زوجات لهم.

{وصية لأزواجهم}: أي عهدًا لأزواجهم؛ ولا تكون الوصية إلّا في الأمر الذي له شأن، وبه اهتمام؛ {إلى الحول}: أي إلى تمام الحول من موت الزوج؛ و{غير إخراج}: أي من الورثة الذين يرثون المال بعد الزوج؛ ومنه البيت الذي تسكن فيه الزوجة.

{فإن خرجن}: أي خرج الزوجات من البيت قبل الحول؛ {فلا جناح عليكم}: أي لا إثم عليكم، {فيما فعلن في أنفسهن من معروف}: أي مما يعرفه الشرع والعرف، ولا ينكره.

قال ابن كثير: قَالَ الْأَكْثَرُونَ: هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا أُمَيَّةُ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيعٍ عَنْ حَبِيبٍ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكة، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} قَدْ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى فَلِمَ تَكْتُبُهَا – أَوْ تَدَعُهَا؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ(١).

وَمَعْنَى هَذَا الْإِشْكَالِ الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ لِعُثْمَانَ: إِذَا كَانَ حُكْمُهَا قَدْ نُسِخَ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ فَمَا الْحِكْمَةُ فِي إِبْقَاءِ رَسْمِهَا مَعَ زَوَالِ حُكْمِهَا، وَبَقَاءِ رَسْمِهَا بَعْدَ الَّتِي نَسَخَتْهَا يُوهِمُ بَقَاءَ حُكْمِهَا؟ فَأَجَابَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ تَوْقِيفِيٌّ، وَأَنَا وَجَدْتُهَا مُثْبَتَةً فِي الْمُصْحَفِ كَذَلِكَ بَعْدَهَا فَأُثْبِتُهَا حَيْثُ وَجَدْتُهَا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} فَكَانَ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا نَفَقَتُهَا وَسُكْنَاهَا فِي الدَّارِ سَنَةً، فَنَسَخَتْهَا آيَةُ الْمَوَارِيثِ فَجُعِلَ لَهُنَّ الرُّبُعُ أَوِ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَ الزَّوْجُ. ثُمَّ قَالَ: وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالسُّدِّيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، وَعَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ.

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ وَالرَّبِيعِ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، قَالُوا: نَسَخَتْهَا {أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} قَالَ: وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: نَسَخَتْهَا الَّتِي فِي الْأَحْزَابِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}[الْأَحْزَابِ:٤٩].

قُلْتُ: وَرُوِيَ عَنْ مُقَاتِلٍ وَ قتادة: أنها منسوخة بآية الميراث.

وقال البخاري: عَنْ مُجَاهِدٍ: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} قَالَ: كَانَتْ هَذِهِ الْعِدَّةُ، تَعْتَدُّ عِنْدَ أَهْلِ زَوْجِهَا وَاجِبٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ} قَالَ: جَعَلَ اللَّهُ لَهَا تَمَامَ السَّنَةِ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً وَصِيَّةً إِنْ شَاءَتْ سَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} فَالْعِدَّةُ كَمَا هِيَ وَاجِبٌ

١- صحيح البخاري برقم (٤٥٣٠).

عَلَيْهَا زَعَمَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ عَطَاءٌ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عِدَّتَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ}؛ قَالَ عَطَاءٌ: إِنْ شَاءَتِ اعْتَدَّتْ عِنْدَ أَهْلِهَا وَسَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ لِقَوْلِ اللَّهِ: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ} قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ جَاءَ الْمِيرَاثُ فَنَسَخَ السُّكْنَى، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ وَلَا سُكْنَى لَهَا ثُمَّ أَسْنَدَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ عَنْهُ([1])بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمْ تَدُلَّ عَلَى وُجُوبِ الِاعْتِدَادِ سَنَةً كَمَا زَعَمَهُ الْجُمْهُورُ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ مَنْسُوخًا بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ والعشر، وَإِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ بَابِ الْوَصَاةِ بِالزَّوْجَاتِ أَنْ يُمَكَّنَّ مِنَ السُّكْنَى فِي بُيُوتِ أَزْوَاجِهِنَّ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ حَوْلًا كَامِلًا إِنِ اخْتَرْنَ ذَلِكَ وَلِهَذَا قَالَ: {وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ}: أَيْ يُوصِيكُمُ اللَّهُ بِهِنَّ وَصِيَّةً كَقَوْلِهِ: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ} الْآيَةَ [النِّسَاءِ:١١]، وَقوله: {وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ}[النِّسَاءِ:١٢]، وَقِيلَ: إِنَّمَا انْتَصَبَ عَلَى مَعْنَى: فَلْتُوصُوا بِهِنَّ وَصِيَّةً. وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالرَّفْعِ {وَصِيَّةٌ} عَلَى مَعْنَى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةٌ وَاخْتَارَهَا ابْنُ جَرِيرٍ وَلَا يُمْنَعْنَ مِنْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ} فَأَمَّا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ وَالْعَشْرِ أَوْ بِوَضْعِ الْحَمْلِ، وَاخْتَرْنَ الْخُرُوجَ وَالِانْتِقَالَ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ فَإِنَّهُنَّ لَا يُمْنَعْنَ مِنْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ: {فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ} وَهَذَا الْقَوْلُ لَهُ اتِّجَاهٌ، وَفِي اللَّفْظِ مُسَاعَدَةٌ لَهُ، وَقَدِ اخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ: الْإِمَامُ أبو العباس بن تَيْمِيَّةَ؛ وَرَدَّهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ: الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَقَوْلُ عَطَاءٍ وَمَنْ تَابَعَهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ إِنْ أَرَادُوا مَا زَادَ عَلَى الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَالْعَشْرِ فَمُسَلَّمٌ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّ سُكْنَى الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ وَعَشْرٍ لَا تَجِبُ فِي تَرِكَةِ الْمَيِّتِ فَهَذَا مَحَلُّ خِلَافٍ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ، وَهُمَا قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَدِ اسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُوبِ السُّكْنَى فِي مَنْزِلِ الزَّوْجِ بِمَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مُوَطَّئِهِ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: أَنَّ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنها أَخْبَرَتْهَا: أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدرة، فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدٍ لَهُ أَبَقُوا، حَتَّى إِذَا كَانَ بِطَرَفِ الْقُدُومِ لَحِقَهُمْ فَقَتَلُوهُ. قَالَتْ: فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي فِي بَنِي خُدرة فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَسْكَنٍ يَمْلِكُهُ وَلَا نَفَقَةٍ قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((نَعَمْ)) قَالَتْ: فَانْصَرَفْتُ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ – أَوْ أَمَرَ بِي فَنُودِيتُ لَهُ – فَقَالَ: ((كَيْفَ قُلْتِ؟)) فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ لَهُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي. فَقَالَ: ((امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ)) قَالَتْ: فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا. قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَاتَّبَعَهُ وَقَضَى بِهِ([2]).

١- صحيح البخاري برقم (٤٥٣١).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في سنن أبي داود برقم (٢٣٠٠).

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره كان جعل لأزواج من مات من الرجال بعد موتهم، سكنى حولٍ في منزله، ونفقتها في مال زوجها الميت إلى انقضاء السنة، ووجب على ورثة الميت أن لا يخرجوهنَّ قبل تمام الحولِ من المسكن الذي يسكنه، وإن هنَّ تركنَ حقهنَّ من ذلك وخرجنَ، لم تكن ورثة الميت من خروجهنَّ في حرج. ثم إن الله تعالى ذكره نسخ النفقة بآية الميراث، وأبطل ممَّا كان جعل لهنَّ من سكنى حول سبعة أشهر وعشرين ليلة، وردَّهنَّ إلى أربعة أشهر وعشر، على لسان رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله: {فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}: يعني تعالى ذكره بذلك: أن المتاع الذي جعله الله لهنَّ إلى الحول في مال أزواجهنَّ بعد وفاتهم وفي مساكنهم، ونهى ورثته عن إخراجهن، إنما هو لهنَّ ما أقمنَ في مساكن أزواجهنَّ، وأن حقوقهنَّ من ذلك تبطل بخروجهنَّ إن خرجنَ من منازل أزواجهنَّ قبل الحول من قبل أنفسهنَّ، بغير إخراج من ورثة الميت.

ثم أخبر تعالى ذكره أنه لا حرج على أولياء الميت في خروجهنَّ وتركهنَّ الحداد على أزواجهن. لأن المقام حولًا في بيوت أزواجهنَّ والحداد عليه تمام حول كامل، لم يكن فرضًا عليهنَّ، وإنَّما كان ذلك إباحة من الله تعالى ذكره لهنَّ إن أقمنَ تمام الحول محدَّات. فأمَّا إن خرجنَ فلا جناح على أولياء الميت ولا عليهنَّ فيما فعلنَ في أنفسهنَّ من معروف، وذلك ترك الحداد. يقول: فلا حرج عليكم في التَّزين إن تزيَّنَّ وتطيَّبنَ وتزوَّجنَ، لأن ذلك لهنَّ.

وإنما قلنا: (لا حرج عليهنَّ في خروجهنَّ)، وإن كان إنَّما قال تعالى ذكره: {فلا جناح عليكم}، لأن ذلك لو كان عليهنَّ فيه جناح، لكان على أولياء الرجل فيه جناح بتركهم إياهنَّ والخروج، مع قدرتهم على منعهنَّ من ذلك. ولكن لمَّا لم يكن عليهنَّ جناح في خروجهنَّ وترك الحداد، وضِع عن أولياء الميت وغيرهم الحرج فيما فعلنَ من معروف، وذلك في أنفسهنَّ.

قال أبو زهرة: تبيَّن ممَّا سبق أن موضوع هذه الآية الكريمة لَا صلة لها بمدَّة العدَّة بالنسبة للمتوفَّى عنها زوجها؛ لأن هذه الآية الكريمة بألفاظها ومعانيها لَا تلزم المرأة بالتَّربص والامتناع عن الأزواج مدَّة معيَّنة كقوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ...}، وكقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا....}، إنَّما تدلُّ هذه الآية على ما للمتوفَّى عنها زوجها من حق البقاء في بيت الزوجية سنة بعد موت زوجها، وأنَّ لها أن تبقى فيه، وأن تخرج منه على ما تراه مصلحتها ويكون فيه اطمئنانها وقرارها.

وعلى ذلك لَا تكون ثمَّة معارضة بأيِّ نوع من أنواعِ المعارضة بين هذه الآية وقوله تعالى في عدَّة المتوفَّى عنها زوجها {وَالَّذِينَ يُتوفَوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعَشْرًا....}، لأن هذه في بيان العدَّة، أمَّا الآية التي نتكلَّم في معناها ففي بيان حق المرأة، لَا بيان الواجب عليها.

ولقد روى البخاري مثل ذلك عن مجاهد أيضًا، فقد أخرج البخاري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا}. قال: كانت هذه العدة تعتدها عند أهل زوجها واجبًا، فأنزل الله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ}. قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت.

وبهذا التخريج وذلك السند الصحيح يثبت أن لَا تعارض قط بين الآيتين، وشرط النسخ التعارض، ولم يوجد، فلا نسخ، ولكن الجمهور من الفقهاء يعتمدون في النسخ على قوله ﷺ: ((إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا وقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ في الجاهلية تَرْمِي الْبَعْرَةَ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ[١]))، ففي هذا الحديث تصريح بأن أربعة أشهر وعشر ليالٍ نسخت وجوب البقاء حولًا، وهذا كلام حق، وهو لَا يخالف الآية التي نتكلّم فيها، لأن الجاهلية كانت تجعل العدَّة سنة فجعلها الإسلام أربعة أشهر وعشرًا، وهذه الآية لَا توجب عدَّة الجاهلية، فهي لَا تلزم المرأة بالامتناع عن الأزواج سنة كاملة، ولكنَّها تعطيها حق البقاء لسنة كاملة، فهي تبيِّن ما لها من حق، ولا تذكر ما عليها من واجب اكتفاء بما ذكر في آيات العدَّة التي تعتدها.

وعلى هذا نقرِّر أن حكم هذه الآية باقٍ لم ينسخ، وثابت مقرَّر بنص القرآن الكريم؛ وقد قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد وجه الحكم بعدم النسخ من قبله فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، فقد جاء فيه ما نصه بعد بيان قول من حكم بالنسخ: القول الثاني قول مجاهد: إن الله أنزل في عدَّة المتوفَّى عنها زوجها آيتين إحداهما ما تقدَّم وهو قوله تعالى: {يَتَرَبَّصْنَ بِأنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...}، والأخرى هذه الآية، فوجب تنزيل هاتين الآيتين على حالتين، فنقول إنها إن لم تختر السكنى في دار زوجها ولم تأخذ النفقة من مال زوجها كانت عدَّتها أربعة أشهر وعشرًا في تلك الآية المتقدِّمة، وأمَّا إن اختارت السكنى في دار زوجها والأخذ من ماله وتركته فعدَّتها هي الحول، وتنزيل الآيتين على هذين التقديرين أولى حتى يكون كل واحد منهما معمولًا به.

قال الطبري: {والله عزيز حكيم[٢]}، {والله عزيز} في انتقامه ممَّن خالف أمره ونهيه وتعدَّى حدوده من الرجال والنساء، فمنع من كان من الرجال نساءهم وأزواجهم ما فرض لهن عليهم في الآيات التي مضت قبل: من المتعة والصداق والوصية، وإخراجهن قبل انقضاء الحول، وترك المحافظة على الصلوات وأوقاتها – ومنع من كان من النساء ما ألزمهن الله من التربُّص عند وفاة أزواجهن عن الأزواج، وخالف أمره في المحافظة على أوقات الصلوات – {حكيم}، فيما قضى بين عباده من قضاياه التي قد تقدمت في الآيات قبل قوله: {والله عزيز حكيم}، وفي غير ذلك من أحكامه وأقضيته.

١- (قلت): البخاري (٥٣٣٦)، ومسلم (١٤٨٨).

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز}، مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩)، و إسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بهذا للإشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن هذه الأمور التي شرعها الله في الأسرة إنَّما هي بحكمته، وفيها صلاح المجتمع، وإذا كان يسوغ أن تجبر المرأة على الخروج من منزل الزوجية بمجرَّد وفاة الزوج، فإن ذلك قد يؤدِّي إلى فساد كبير، وتهزيع للأخلاق؛ ولقد أعطاها الله سبحانه وتعالى ذلك الحق درءًا لهذا الفساد ومنعًا له.

وثانيها: إن الله سبحانه وتعالى غالب على كل شيء، وله سبحانه وتعالى العزة في السماوات وفي الأرض، وأن الورثة إن استضعفوا شأن المرأة فمنعوها حقَّها فالله فوقهم قاهر غالب، وهو مجازيهم بعملهم، وهو ناصر الضعيف.

وثالثها: إشعار النفوس بتذكُّر الله رب العالمين عندما ينظمون علاقاتهم بعضهم مع بعض، وخصوصًا في شئون الأسرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الزوجة تبقى زوجيتها حتى بعد الموت؛ لقوله تعالى: {ويذرون أزواجًا}؛ ولا يقول قائل: إن المراد باعتبار ما كان؛ لأن هذا خلاف الأصل.

فإن قال قائل: فإذا كان الأمر كذلك فإنها لا تحلُّ لأحد بعده؟

قلنا: هي مقيدة بمدة العدَّة؛ ويدلُّ على ذلك أن المرأة إذا مات زوجها جاز أن تغسله؛ ولو كانت أحكام الزوجية منقطعة ما جاز لها أن تغسل زوجها.

٢- أنه يشرع للزوج أن يوصي لزوجته أن تبقى في بيته، وينفق عليها من تركته لمدَّة حول كامل؛ هذا ما تفيده الآية؛ فهل هذا الحكم منسوخ أو محكم؟ على قولين للعلماء؛ أحدهما: أنه منسوخ بقوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا}[البقرة: ٢٣٤]؛ ويؤيِّده ما في صحيح البخاري حينما سئل عثمان رضي الله عنه: لماذا أبقيت هذه الآية وهي منسوخة؛ ولماذا وضعتها بعد الآية الناسخة - وكان الأولى أن تكون المنسوخة قبل الآية الناسخة لمراعاة التَّرتيب؟ فأجاب عثمان رضي الله عنه بأنه لا يغيِّر شيئًا من مكانه([1])؛ وذلك لأن التَّرتيب بين الآيات توقيفي؛ فهذه الآية توفي رسول الله ﷺ وهي تتلى في القرآن، وفي مكانها؛ ولا يمكن أن تُغيَّر؛ وعلى هذا فتكون هذه الآية منسوخة بالآية السابقة بالنسبة للعدَّة؛ وأما بالنسبة لما يوصي به الزوج من المال فهو منسوخ بآية المواريث - وهي قوله تعالى: {ولهن

١- راجع البخاري ص٣٧١، كتاب التفسير، باب ٤٠: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن ... }، حديث رقم ٤٥٣٠.

الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثُّمن مما تركتم}[النساء: ١٢]، وقول النبي ﷺ: ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه؛ فلا وصية لوارث[1])).

والقول الثاني: أن الآية محكمة؛ فتحمل على معنى لا يعارض الآية الأخرى؛ فيقال: إن الآية الأخرى يخاطب بها الزوجة: تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرًا؛ والآية الثانية يخاطب بها الزوج ليوصي لزوجته بما ذكر.

٣- أن الله عز وجل ذو رحمة واسعة حتى أوصى الزوج بأن يوصي لزوجته مع أن الزوج قد جعل الله فيه رحمة لزوجته حين قال الله تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة}[الروم: ٢١]؛ ورحمة الله عز وجل لهذه الزوجة أعظم من رحمة الزوج لها.

٤- أن المرأة يحل لها إذا أوصى زوجها أن تبقى في البيت أن تخرج، ولا تنفذ وصيته؛ لقوله تعالى: {فإن خرجن فلا جناح عليكم}؛ لأن هذا شيء يتعلَّق بها، وليس لزوجها مصلحة فيه.

ويتفرَّع عليه لو أوصى الزوج الزوجة ألَّا تتزوَّج من بعده لا يلزمها؛ لأنه إذا كان لا يلزمها أن تبقى في البيت مدَّة الحول فلأن لا يلزمها أن تبقى غير متزوِّجة من باب أولى.

وكذلك يؤخذ منه قياسًا كل من أوصى شخصًا بأمر يتعلَّق بالشخص الموصى له فإن الحق له في تنفيذ الوصية، وعدم تنفيذها.

٥- أن المسؤولين عن النساء هم الرجال؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليكم}.

٦- أن على الرجال الإثم فيما إذا خرجت المرأة عن المعروف شرعًا؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف}.

ويتفرع على هذا أن كل مسؤول عن شخص إذا تمكن من منعه عن المنكر فإنه يمنعه؛ ولا يعارض هذا قوله تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى}[الأنعام: ١٦٤]؛ لأن الإنسان ما دام مسؤولًا فإنَّه إذا فرط في مسؤوليته كان وازرًا، ووزره على نفسه.

٧- أنه لا يجوز للمرأة أن تخرج عن المعروف في جميع أحوالها؛ وال{معروف} هو ما أقره الشرع والعرف جميعًا؛ فلو خرجت في لباسها، أو مشيتها، أو صوتها، عن المعروف شرعًا فهي آثمة؛ وعلينا أن نردعها عن الخروج على هذا الوجه.

٨- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {العزيز}، و{الحكيم}؛ وإثبات ما تضمَّناه من صفة سواء كان ذلك عن طريق اللزوم، أو المطابقة، أو التضمُّن؛ وهي العزة، والحكمة، والحكم؛ وقد سبق تفسير ذلك.

١- أخرجه أحمد ٢٦٧/٥، حديث رقم ٢٢٦٥٠، وأخرجه أبو داود ص١٤٣٧، كتاب الوصايا، باب ٦: ما جاء في الوصية للوارث، حديث، رقم ٢٨٧٠، وأخرجه الترمذي ص١٨٦٤، كتاب الوصايا، باب ٥: ما جاء لا وصية لوارث، حديث رقم ٢١٢٠؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٦٤٠، كتاب الوصايا، باب ٦: لا وصية لوارث، حديث رقم ٢٧١٣، قال الألباني في صحيح أبي داود ٢٠٧/٢، حسن صحيح، راجع الإرواء ٨٧/٦، حديث رقم ١٦٥٥.

٩- إثبات العزة، والحكمة على سبيل الإطلاق، لأن الله سبحانه وتعالى أطلق: قال: {عزيز حكيم}؛ فيكون عزيزًا في كل حال؛ وحكيمًا حاكمًا في كل حال.

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)

قال ابن العثيمين: {وللمطلَّقات متاع بالمعروف}؛ الجملة مكونة من مبتدأ، وخبر؛ فالخبر مقدَّم: {للمطلَّقات}؛ والمبتدأ مؤخَّر؛ وهو قوله تعالى: {متاع بالمعروف}؛ ومن ثم جاز الابتداء به وهو نكرة؛ لأنه يجوز الابتداء بالنكرة إذا تأخَّر المبتدأ. وقوله تعالى: {وللمطلَّقات} من ألفاظ العموم؛ لأن {أل} فيها اسم موصول؛ فيشمل كل المطلقات بدون استثناء؛ وهن من فارقهن أزواجهن؛ وسمِّيَ طلاقًا؛ لأن الزوجة قبله في قيد النكاح؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((اتَّقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان([١]))): أي أسيرات؛ وقال تعالى عن امرأة العزيز: {وألفيا سيدها لدى الباب}[يوسف: ٢٥]؛ و{سيدها}: زوجها.

قوله تعالى: {متاع}: أي ما تتمتع به من لباس، وغيره؛ وقوله تعالى: {بالمعروف} متعلّق بـ{متاع}؛ يعني: هذا المتاع مقيَد بالمعروف – أي ما يعرفه الناس –؛ وهذا قد يكون مفسَّرًا بقوله تعالى: {وعلى الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعًا بالمعروف}[البقرة: ٢٣٦]، أي المتاع على الموسر بقدر إيساره؛ وعلى المعسر بقدر إعساره.

قال القرطبي: اختلف الناس في هذه الآية؛ فقال أبو ثور: هي محكمة، والمتعة لكل مطلقة؛ وكذلك قال الزهري. قال الزهري: حتى للأمة يطلقها زوجها. وكذلك قال سعيد بن جبير: لكل مطلقة متعة وهو أحد قولي الشافعي لهذه الآية. وقال مالك: لكل مطلقه – اثنتين أو واحدة بنى بها أم لا؛ سمَّى لها صداقًا أم لا – المتعة، إلَّا المطلقة قبل البناء وقد سمَّى لها صداقًا فحسبها نصفه، ولو لم يكن سمَّى لها كان لها المتعة أقل من صداق المثل أو أكثر، وليس لهذه المتعة حدّ؛ حكاه عنه ابن القاسم. وقال ابن القاسم في إرخاء الستور من المدونة، قال: جعل الله تعالى المتعة لكل مطلقة بهذه الآية، ثم استثنى في الآية الأخرى التي قد فرض لها ولم يدخل بها فأخرجها من المتعة، وزعم ابن زيد أنها نسختها. قال ابن عطية: ففرَّ ابن القاسم من لفظ النسخ إلى لفظ الاستثناء والاستثناء لا يتَّجه في هذا الموضع، بل هو نسخ محض كما قال زيد

١- أخرجه أحمد ٧٣/٥، حديث رقم ٢٠٩٧١؛ واللفظ له وأخرجه من طريق أبي حرة ٧٢/٥ – ٧٣، حديث رقم ٢٠٩٧١، وأخرجه الترمذي ص١٧٦٦، كتاب الرضاع، باب ١١: ما جاء في حق المرأة على زوجها حديث رقم ١١٦٣، وأخرجه ابن ماجة ص٢٥٨٨، كتاب النكاح، باب ٣: حق المرأة على الزوج، حديث رقم ١٨٥١، وفي سنده سليمان بن عمرو بن الأحوص؛ قال عبد القادر الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول لابن الأثير ٥٠٤/٥، حاشية رقم _١) : (لم يوثقه غير ابن حبان، وللحديث شواهد في الصحيحين منها حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ، فالحديث صحيح. أهـ. وقال الألباني في صحيح ابن ماجة ٣١١/١: حسن، وقال في الإرواء: في إسناده جهالة لكن له شاهد يتوقى به من حديث عم أبي حرة الرقاش، فالحديث بمجموع الطريقين حسن إن شاء الله تعالى ٥٤/٧، ٩٦، ٩٧. أهـ. باختصار.

بن أسلم، وإذا التزم ابن القاسم أن قوله: {وللمطلَّقات} يعم كل مطلقة لزمه القول بالنسخ ولابدَّ. وقال عطاء بن أبي رباح وغيره: هذه الآية في الثيبات اللواتي قد جومعن، إذ تقدم في غير هذه الآية ذكر المتعة للَّواتي لم يدخل بهن؛ فهذا قول بأن التي قد فرض لها قبل المسيس لم تدخل قط في العموم. فهذا يجيء على أن قوله تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}[البقرة: ٢٣٧] مخصصة لهذا الصنف من النساء، ومتى قيل: إن هذا العموم يتناولها فذلك نسخ لا تخصيص. وقال الشافعي في القول الآخر: إنه لا متعة إلا للتي طلقت قبل الدخول وليس ثم مسيس ولا فرض؛ لأن من استحقت شيئًا من المهر لم تحتج في حقها إلى المتعة. وقول الله عز وجل في زوجات النبي ﷺ: {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ}[الأحزاب: ٢٨] محمول على أنه تطوع من النبي ﷺ، لا وجوب له. وقوله: { فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ}[الأحزاب: ٤٩] محمول على غير المفروضة أيضًا؛ قال الشافعي: والمفروض لها المهر إذا طلقت قبل المسيس لا متعة لها؛ لأنها أخذت نصف المهر من غير جريان وطء، والمدخول بها إذا طلقت فلها المتعة؛ لأن المهر يقع في مقابلة الوطء والمتعة بسبب الابتذال بالعقد[١]. وأوجب الشافعي المتعة للمختلعة والمبارئة. وقال أصحاب مالك:

١- (قلت): بعد تأمُّلي في الآيات وكلام العلماء في هذه المسألة تبيَّن لي والله أعلم: بأن المتعة سببها الطلاق فتجب لكل مطلقة، حتى المطلقة بعد الفرض قبل المسيس كما قال الإمام أحمد وشيخ الإسلام، وأما المهر ينقسم الى نصفين؛ فسبب استحقاق الحصول على نصفه الأول العقد المسمّى فيه المهر، و سبب استحقاق الحصول على نصفه الآخر الدخول أو الوفاة. اذًا للمطلقات في هذه المسألة أربع حالات:

الحالة الأولى:- إذا طلقها بعد المسيس بعد الفرض، فلها المتعة بسبب الطلاق، ولها المهر كاملة لوجود سبب إستحقاق النصف الأول من المهر وهو العقد الذي المهر فيه مسمّى، ووجود سبب إستحقاق النصف الثاني من المهر وهو الدخول.. ولها الميراث مع المهر كاملة بعد وفاة الزوج. ولا متعة لها، لأن سبب المتعة هو الطلاق وليست الوفاة. وقد عدمت الطلاق في هذه الحالة.

الحالة الثانية:- إذا طلقها بعد المسيس قبل الفرض فلها المتعة بسبب الطلاق، ولها مهر المثل كاملة بسبب وجود سبب إستحقاق النصف الأول من المهر وهو العقد الذي المهر فيه مسمًى بالمثل - وذلك بسبب الدخول -، ووجود سبب إستحقاق النصف الثاني من المهر وهو الدخول.. ولها الميراث مع المهر كاملة بعد وفاة الزوج. ولا متعة لها لعدم وجود سببها وهو الطلاق وقد عدمت في هذه الحال أيضًا.

الحالة الثالثة:- إذا طلقها قبل المسيس بعد الفرض، فلها المتعة بسبب الطلاق، ولها النصف الأول من المهر بسبب العقد الذي المهر فيه مسمًى، ولم تستحق النصف الآخر لعدم الدخول. (وإعطائها نصف المهر ليست لجبر خاطرها وآنكسارها كما قال السعدي. بل لآستحقاقها له، لوجود العقد الذي المهر فيه مسمًى، وإنما جبر الخواطر والإنكسار يكون للمطلقات حصرًا، ولذلك وجبت لهن المتعة بغض النظر هل فُرض لهنَّ أم لا. ولهذا لم تُمتَّع المتوفَّى عنها زوجها لعدم وجود الإنكسار. لأن الموت مصيبة تحتاج الى الصبر).

والآية الواردة في ذلك: {وإن طلّقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم...} لم تنسخ المتعة كما قال أبو ثور وبعض العلماء، ولم تأتي على ذكر المتعة لا من قريب ولا من بعيد، بل ذكر قدر المهر المستحق للمطلقة قبل المسيس بعد الفرض. وتبقى المتعة للمطلقات على عمومها.

ولها الميراث مع المهر كاملة في هذه الحالة بعد وفاة الزوج. لأن سبب إستحقاقها للميراث وفاة الزوج، وسبب إستحقاقها للنصف الأول من المهر العقد الذي المهر فيه مسمًى، وسبب إستحقاقها للنصف الثاني الوفاة - وليس العقد - كما قال بعض العلماء، ولقد استقرَّت بالموت.

وإذا تأمّلنا الآية فنرى بوضوح: (سقوط نصف المهر بسبب عدم الدخول وعدم الوفاة. واستحقاق نصف المهر لوجود العقد الذي المهر فيه مسمًى. ولهذا قلنا بأن المهر ينقسم الى نصفين، واشترطنا العقد الذي المهر فيه مسمًى ليكون سببًا لاستحقاق النصف الأول من المهر، - خلافًا لمن قال بأنه العقد فقط بدون التفصيل الذي فصَّلنا - لأن العقد الذي المهر فيه غير مسمًى لم يؤدِّي الى إعطاء المطلقة قبل المسيس قبل الفرض نصف المهر، كما هي عليها الحالة الرابعة، وهذا يؤكد صحة إشتراطنا تسمية المهر في العقد ليكون سببًا لآستحقاق نصف المهر).

كيف يكون للمفتدية متعة وهي تعطي، فكيف تأخذ متاعًا؟! لا متعة لمختارة الفراق من مختلعة أو مفتدية أو مبارئة أو مصالحة أو ملاعنة أو معتقة تختار الفراق، دخل بها أم لا، سمَّى لها صداقًا أم لا.

قال ابن العثيمين: {حقًّا} مصدر منصوب على المصدرية عامله محذوف؛ والتقدير: نحقه حقا؛ وال{حق} هنا بمعنى الحتم الثابت؛ و{على المتَّقين}: أي ذوي التَّقوى؛ و(التَّقوى) هي القيام بطاعة الله على علم وبصيرة؛ وما أحسن ما قاله بعضهم: التَّقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ ولا يعني قوله تعالى: {على المتَّقين} أنه لا يجب على غير المتقين؛ ولكن تقييده بالمتقين من باب الإغراء، والحث على لزومه؛ ويفيد أن التزامه من تقوى الله عز وجل؛ وأن من لم يلتزمه فقد نقصت تقواه([١]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب المتعة لكل مطلقة؛ لعموم قوله تعالى: {وللمطلقات}؛ ويستثنى من ذلك([٢]):

أ - من طلقت قبل الدخول وقد فرض لها المهر؛ لقوله تعالى: {وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم}[البقرة: ٢٣٧].

ب - من طلقت بعد الدخول فلها المهر: إن كان مسمًّى فهو ما سمِّي؛ وإن لم يكن مسمًّى فمهر المثل؛ واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن من طلقت بعد الدخول فلها المتعة على زوجها مطلقًا؛ لعموم الآية.

٢- أنه ينبغي تأكيد الحقوق التي قد يتهاون الناس بها؛ لقوله تعالى: {حقًّا على المتَّقين}.

٣- أنه ينبغي ذكر الأوصاف التي تحمل الإنسان على الامتثال فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور؛ لقوله تعالى: {حقًّا على المتَّقين}؛ لأن عدم القيام به مخالف للتَّقوى؛ والقيام به من التَّقوى.

الحالة الرابعة:- إذا طلقها قبل المسيس قبل الفرض، فلها المتعة فقط بسبب الطلاق، ولا مهر لها لعدم إكتمال سبب النصف الأول، وذلك لعدم تسمية المهر ضمن العقد، ولعدم وجود السبب الثاني وهو الدخول أو الوفاة - حتى تحسب لها مهر المثل -. واذا توفي الزوج، في هذه الحالة لها الميراث مع مهر المثل كاملة. لأن سبب إستحقاقها للميراث وفاة الزوج، وسبب إستحقاقها للنصف الأول من المهر، تسمية المهر بالمثل ضمن العقد - وذلك بسبب وفاة الزوج -، لأن وفاة الزوج كان سببًا في تسمية المهر بالمثل، وأمّا إستحقاقها للنصف الثاني: الوفاة - وليس العقد - ولقد استقرّ بالموت كما دلَّ عليه حديث بروع بنت واشق الَّتِي تَزَوَّجَتْ وَمَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ لَهَا مَهْرٌ، وَقَضَى لَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّ ((لَهَا مَهْرَ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهَا، لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ))، لَكِنْ هَذِهِ لَوْ طَلَقَتْ قَبْلَ الْمَسِيسِ لَمْ يَجِبْ لَهَا نِصْفُ الْمَهْرِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ؛ لِكَوْنِهَا لَمْ تَشْتَرِطْ مَهْرًا مُسَمًّى، وَالْكَسْرُ الَّذِي حَصَلَ لَهَا بِالطَّلَاقِ انْجَبَرَ بِالْمُتْعَةِ. هذا والله تعالى أعلم.

١- (قلت): انظر كلام القرطبي عند تفسيره الآية (٢٣٦) من سورة البقرة عند قوله تعالى: {حقا على المحسنين}.

٢- (قلت): بل المتعة واجبة لكل مطلقة بدون استثناء كما أوضحناه فيما سبق في الهامش.

٤- اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: {متاعًا بالمعروف}[البقرة: ٢٣٦]؛ وهذا ما لم يكن العرف مخالفًا للشرع؛ فإن كان مخالفًا له وجب ردُّه إلى الشرع.

٥- أنَّ التَّقوى تحمل على طاعة الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

قال أبو زهرة: بهذه الجملة الكريمة السامية ختم الله سبحانه وتعالى الآيات المتعلِّقة بأَحكام الأسرة، وقد ابتدأ بيانها بقوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

وإن ذلك الختام الكريم فيه تصوير لبيان الله سبحانه وتعالى لأحكام الأسرة وشدة عنايته بأمرها، وتوضيح الأسس الصالحة التي تقوم عليها، والعدالة والمودَّة والرحمة التي تربط بين آحادها، وكيف فصَّل سبحانه القول فيها تفصيلًا لم يفصله في غيرها من شئون الدين، فلم يبيِّن الصلاة والزكاة والحج كما بيَّن الله سبحانه في كتابه الكريم أحكام الأسرة والروابط التي تربط بين آحادها؛ لأن الأسرة قوام المجتمع الإسلامي الفاضل، فإذا تزلزلت اضطرب ميزان الاجتماع، وتهدَّمت أركانه.

قال ابن العثيمين: {كذلك يبيِّن الله لكم آياته}: أي مثل ذلك البيان السابق يبيِّن الله لكم آياته؛ فالكاف في محل المفعول المطلق؛ ومعنى (البيان) التوضيح؛ أي أن الله يوضحه حتى لا يبقى فيه خفاء؛ و{لكم} يحتمل أن تكون اللام لتعدية الفعل: {يبين}؛ ويحتمل أن تكون اللام للتعليل؛ أي يبين الآيات لأجلكم حتى تتبيَّن لكم، وتتضح؛ و{آياته} جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمدلولها؛ وتشمل الآيات الكونية والشرعية؛ فإن الله سبحانه وتعالى بيَّن لنا من آياته الكونية والشرعية ما لا يبقى معه أدنى شبهة في أن هذه الآيات علامات واضحة على وجود الله عز وجل، وعلى ما له من حكمة ورحمة وقدرة.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره، كما بيَّنت لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم أيها المؤمنون، وعرَّفتكم أحكامي والحق الواجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات، فكذلك أبيِّن لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيِّي محمد ﷺ في هذا الكتاب، لتعقلوا – أيها المؤمنون بي وبرسولي – حدودي، فتفهموا اللازم لكم من فرائضي،

وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعلموا به ليصلح ذات بينكم، وتنالوا به الجزيل من ثوابي في معادكم.

قال أبو زهرة: أي مثل هذا البيان القوي الواضح العالي الذي يوجِّه النفوس نحو الموَدة الرابطة، والرحمة العاطفة، والعدالة المنصفة، يبيِّن الله سبحانه وتعالى آياته المتلوة، وآياته النفسية، وآياته الكونية؛ أي أن الله سبحانه وتعالى يبيِّن دائمًا آياته المذكورة مثل البيان الذي يبيِّن به أحكام الأسرة؛ فهذا التشبيه لتصوير بيان الله دائمًا لآياته بهذه الصورة التي يقرأها القارئ لكتاب الله في آيات النكاح، والطلاق، وما يعقبه من التسريح بإحسان أو التسريح الجميل كما عبَّر القرآن الكريم.

{لعلكم تعقلون} وفي هذه العبارة السامية إشارة إلى الغاية من بيان الله سبحانه وتعالى لحقائق الشرع وتوجيه النظر إلى النفس وإلى الكون، وتلك الغاية هي أن يعقل الناس، أي: يفكِّروا بعقولهم، ويبعدوا عنها أرجاس الجاهلية، ويحرِّروها من ربقة التقاليد القديمة التي كانوا يعبِّرون عنها بقولهم: {بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...}، والتعبير بصيغة الرجاء، وهي {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} هو في معنى التعليل أي لتعقلوا؛ لأن الرجاء من الله سبحانه وتعالى لَا يكون على معناه الأصلي، أو يقال إن ذلك البيان من شأنه أن يرجى أن يعقلوا ويتفكروا، فالتعبير بلفظ يدلُّ على الرجاء للإشارة إلى هذا المعنى المحكم. هذا وإن أحكام الأسرة كما جاءت في الآيات الكريمة باعثة على التأمُّل وإحكام النظر، والإيمان بأن هذه الشريعة من عند اللطيف الخبير، والله سبحانه وتعالى بكل شيءٍ عليم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- مِنَّة الله على عباده بتبيين الآيات؛ لقوله تعالى: {كذلك يبيِّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون}.

٢- أن مسائل النكاح والطلاق، قد يخفى على الإنسان حكمتها؛ لأن الله جعل بيان ذلك إليه، فقال تعالى: {كذلك يبيِّن الله لكم}.

٣- الرَّد على المفوضة - أهل التجهيل؛ وعلى أهل التحريف - الذين يسمُّون أنفسهم بأهل التأويل؛ لقوله تعالى: {يبيِّن الله لكم آياته}؛ لأن أهل التفويض يقولون: إن الله لم يبيِّن ما أراد في آيات الصفات، وأحاديثها؛ وأنها بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم معناها؛ وأهل التحريف يقولون: إن الله لم يبيِّن المعنى المراد في آيات الصفات، وأحاديثها؛ وإنما وكَّل ذلك إلى عقولنا؛ وإنما البيان بما ندركه نحن بعقولنا؛ فنقول: لو كان الأمر كما ذكرتم لكان الله سبحانه وتعالى يبيِّنه؛ فلمَّا لم يبيِّن ما قلتم، عُلم أنه ليس بمراد.

٤– الثناء على العقل، حيث جعله الله غاية لأمر محمود – وهو تبيين الآيات؛ والمراد عقل الرشد السالم من الشبهات، والشهوات – أي الإرادات السيئة.

٥– إثبات العلة لأفعال الله؛ لقوله تعالى: {لعلكم تعقلون}.

٦– أنه لا يمكن أن يوجد في الشرع حكم غير مبيَّن؛ لقوله تعالى: {يبيِّن الله لكم آياته}؛ والآيات هنا جمع مضاف؛ فيعم.

فإن قال قائل: إننا نجد بعض النصوص تخفى علينا؟

فالجواب: أن ذلك إما لقصور في فهمنا؛ وإما لتقصير في تدبُّرنا؛ وإما لنقص في علومنا؛ أما أن النص نفسه لم يبيِّن! فهذا شيء مستحيل.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

قال ابن العثيمين: {ألم}: الاستفهام الداخل هنا على النفي يراد به التقرير، والتعجيب أيضًا: {تر}: أي تنظر؛ والخطاب هنا إما لرسول الله ﷺ؛ أو لكل من يتأتّى خطابه؛ والأخير أحسن؛ لأنه أعم؛ و(الرؤية) هنا رؤية الفكر؛ لا رؤية البصر.

قال الطبري: {ألم تر}: ألم تعلم يا محمد؟ وهو من (رؤية القلب لا رؤية العين)، لأن نبيّنا محمدًا ﷺ لم يدرك الذين أخبر الله عنهم هذا الخبر، و(رؤية القلب): ما رآه وعلمه به. فمعنى ذلك: ألم تعلم يا محمد، الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف؟

قال ابن العثيمين: {إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت}؛ لم يبيِّن الله عز وجل من هؤلاء الذين خرجوا؛ فقيل: إنَّهم من بني إسرائيل؛ وقيل: إنهم من غيرهم؛ والمهم القصة والقضية التي وقعت؛ و{من ديارهم}: أي من بيوتهم وأحيائهم التي يأوون إليها؛ {وهم ألوف}: الجملة في موضع نصب على الحال من الواو في {خرجوا}؛ وكلمة: {ألوف} جمع ألف؛ وهو من صيغ جموع الكثرة؛ فقيل: إنهم ثمانية آلاف؛ وقيل: ثمانون ألفًا؛ وإذا نظرت إلى صيغة اللفظ – {وهم ألوف} – تجد أنها تدلُّ على أنهم أكثر من ثمانية آلاف؛ وأنهم عالم كثير؛ و{حذر الموت} مفعول لأجله؛ والعامل قوله تعالى: {خرجوا}: يعني خرجوا خوفًا من الموت؛ وهل هذا الموت طبيعي؛ لأنه نزل في المراد: خرجوا من ديارهم خوفًا من الموت لوباء وقع في البلاد؛ فخرجوا فرارًا من قدر الله؛ فأراد الله عز وجل أن يريهم أنه لا مفرَّ منه إلَّا

إليه؛ وقيل: إن المراد: خرجوا حذر الموت بالقتل؛ لأنهم دهمهم العدو؛ ولكنهم جبنوا وخرجوا خوفًا من أن يقتلهم العدو؛ فالذين قالوا بالأول قالوا: لأنَّا إذا أخذنا الآية بظاهرها – {حذر الموت} – تبيَّن أنه نزل في أرضهم وباء، فخرجوا من ديارهم خوفًا من الوباء؛ والذين قالوا بالثاني قالوا: لأن الله سبحانه وتعالى قال بعدها: {وقاتلوا في سبيل الله}[البقرة: ٢٤٤]؛ فكأن الله عرض قصة هؤلاء الذين جبنوا وهربوا توطئة لأمرنا بالقتال في سبيل الله، وأن نصبر.

{فقال لهم الله موتوا}: أي قال لهم قولًا كونيًّا، كقوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون}[يس: ٨٢].

{ثمَّ أحياهم}؛ {ثمَّ} تدلُّ على التَّراخي، وأن الله سبحانه وتعالى أحياهم بعد مدَّة؛ وقيل: إنه أحياهم لسبب؛ وهو أن نبيًّا من الأنبياء مرَّ بهم وهم ألوف مؤلفة جثث هامدة؛ فدعا الله أن يحيِّيهم؛ فأحياهم الله؛ وقال بعض المفسرين: إن الله أحياهم بدون دعوة نبي؛ وهذا هو ظاهر اللفظ؛ وأما الأول فلا دلالة عليه؛ وعليه فنقول: إن الله أحياهم ليُريَ العباد آياته.

{إن الله لذو فضل على الناس}: اللام هنا للتوكيد؛ و{ذو}: بمعنى صاحب؛ وال{فضل}: بمعنى العطاء والتفضل.

قال ابن كثير: {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ}: أَيْ فِيمَا يُرِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ وَالدَّلَالَاتِ الدَّامِغَةِ، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}: أَيْ لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

قال ابن العثيمين: أي لا يقومون بشكر الله عز وجل حين يتفضل عليهم؛ و(الشكر) طاعة المتفضل.

قال ابن كثير: وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ وَأَنَّهُ، لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ فَرُّوا مِنَ الْوَبَاءِ(١)طَلَبًا لِطُولِ الْحَيَاةِ فَعُومِلُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ سَرِيعًا فِي آنٍ وَاحِدٍ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى أَخْبَرَنَا مَالِكٌ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ كِلَاهُمَا عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زيد [ابن أَسْلَمَ] بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عباس: أن عمر بن الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغٍ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ: أَبُو عُبَيْدَةُ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فَجَاءَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ))، فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِهِ(٢).

قال القرطبي: في قوله ﷺ: ((إذا وقع الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه)). دليل على أنه يجوز الخروج من بلدة الطاعون على غير سبيل الفرار منه، إذا اعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وكذلك حكم الداخل إذا أيقن أن دخولها لا يجلب إليه قَدَرًا لم يكن الله قدّره له؛ فأباح له الدخول إليه والخروج منه على هذا الحدّ الذي ذكرناه، والله أعلم.

١- (قلت): أو القتال على القول الآخر.

٢- المسند (١٦٨١) وصحيح البخاري برقم (٥٧٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٩).

وفي فضل الصبر على الطاعون وبيانه. الطاعون وزنه فاعول من الطعن، غير أنه لما عدل به عن أصله وضع دالًّا على الموت العام بالوباء؛ قاله الجوهري. ويروى من حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: ((فناء أمتي بالطَّعن والطاعون)) قالت: الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: ((غدة كغدة(١)البعير تخرج في المَراقِّ(٢)والآباط(٣))). قال العلماء: وهذا الوباء قد يرسله الله نقمة وعقوبة على من يشاء من العصاة من عبيده وكفرتهم، وقد يرسله شهادة ورحمة للصالحين؛ كما قال معاذ في طاعون عَمْوَاس(٤): إنه شهادة ورحمة لكم ودعوة نبيّكم، اللهم أعط معاذًا وأهله نصيبهم من رحمتك. فطعن في كفه ﵁. قال أبو قلابة: قد عرفت الشهادة والرحمة ولم أعرف ما دعوة نبيّكم؟ فسألت عنها فقيل: دعا ﷺ أن يجعل فناء أمته بالطعن والطاعون، حين دعا ألَّا يجعل بأس أمته بينهم فمنعها فدعا بهذا. ويروى من حديث جابر وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: ((الفار من الطاعون كالفار من الزحف والصابر فيه كالصابر في الزحف(٥))). وفي البخاري عن يحيى بن يعمر عن عائشة أنها أخبرته أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها نبي الله ﷺ: ((أنه كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرًا يعلم أنه لن يصيبه إلَّا ما كتب الله له إلَّا كان له مثل أجر الشهيد)). وهذا تفسير لقوله ﷺ: ((الطاعون شهادة والمطعون شهيد)). أي الصابر عليه المحتسب أجره على الله العالم أنه لن يصيبه إلَّا ما كتب الله عليه؛ ولذلك تمنَّى معاذ أن يموت فيه لعلمه أن من مات فهو شهيد. وأما من جزع من الطاعون وكرهه وفرَّ منه فليس بداخل في معنى الحديث، والله أعلم.

وقال أبو عمر: لم يبلغني أن أحدًا من حملة العلم فرَّ من الطاعون إلَّا ما ذكره ابن المدائني أن علي بن زيد بن جدعان هرب من الطاعون إلى السيالة فكان يجمع كل جمعة ويرجع؛ فكان إذا جمع صاحوا به: فرَّ من الطاعون فمات بالسَّيالة(٦). قال : وهرب عمرو بن عبيد ورباط بن محمد إلى الرباطية فقال إبراهيم بن علي الفقيمي في ذلك:

١- الغدة: طاعون الإبل، وقلَّما تسلم منه.

٢- المراق: ما سفل من البطن فما تحته من المواضع التي ترق جلودها، واحدها مرق. وقال الجوهري: لا واحد لها.

٣- (قلت): هناك عدة روايات عن عائشة رضي الله عنها حسنهن جميعًا لغيره الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٠٨)، والحديث بتمامه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((لا تفنى أمتي إلَّا بالطعن والطاعون))، قلت: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: ((غدة كغدة البعير المقيم بها كالشهيد والفار منه كالفار من الزحف)). رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وفي رواية لابي يعلى أن رسول الله ﷺ قال: ((وخزة تصيب أمتي من أعدائهم من الجن كغدة الإبل من أقام عليها كان مرابطا ومن أصيب به كان شهيدًا ومن فر منه كان كالفار من الزحف))، رواه البزار وعنده قلت يا رسول الله: هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: ((يشبه الدمل يخرج في الآباط والمراق وفيه تزكية أعمالهم وهو لكل مسلم شهادة)).

- وثم حديث آخر صححه الإمام الألباني أيضًا في صحيح الجامع (١٢٥٨) عن أبي بردة الأشعري: ((اللهم اجعل فناء أمتي قتلًا في سبيلك بالطعن والطاعون)).

٤- عمواس: كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر ﵁، ثمّ فشا في أرض الشام فمات منه خلق كثير من الصحابة ﵃ ومن غيرهم، وذلك في سنة١٨للهجرة.

٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٧٧٢٥). وانظر حديث رقم: (٤٢٧٦) في صحيح الجامع.

٦- السيالة: موضع بقرب المدينة، وهي أول مرحلة لأهل المدينة إذا أرادوا مكة. وقيل: هي بين ملل والروحاء في طريق مكة الى المدينة (عن شرح القاموس).

ولما استفز الموت كل مكذب ... صبرت ولم يصبر رباط ولا عمرو

وذكر أبو حاتم عن الأصمعي قال: هرب بعض البصريين من الطاعون فركب حمارًا له ومضى بأهله نحو سَفَوَان([1])؛ فسمع حاديًا يحدو خلفه:

لن يسبق الله على حمار ... ولا على ذي منعة طيار

أو يأتي الحتف على مقدار ... قد يصبح الله أمام الساري

وذكر المدائني قال: وقع الطاعون بمصر في ولاية عبدالعزيز بن مروان فخرج هاربًا منه فنزل قرية من قرى الصعيد يقال لها [سُكر]([2]). فقدم عليه حين نزلها رسول لعبدالملك بن مروان. فقال له عبدالعزيز: ما اسمك؟ فقال له: طالب بن مدرك. فقال: أوه ما أراني راجعًا إلى الفسطاط فمات في تلك القرية.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه لا فرار من قدر الله؛ لقوله تعالى: {حذر الموت فقال لهم الله موتوا}؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال في الطاعون: ((إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه([3]))).

٢- تمام قدرة الله عز وجل بإماتة الحي، وإحياء الميت؛ لقوله تعالى: {موتوا}؛ فماتوا بدليل قوله تعالى: {ثم أحياهم}.

٣- أن فيها دلالة على البعث؛ وجهه: أن الله أحياهم بعد أن أماتهم.

٤- أن بيان الله عز وجل آياته للناس، وإنقاذهم من الهلاك من فضله؛ لقوله تعالى: {إن الله لذو فضل على الناس}.

٥- أن لله نعمة على الكافر؛ لعموم قوله تعالى: {على الناس}؛ ولكن نعمة الله على الكافر ليست كنعمته على المؤمن؛ لأن نعمته على المؤمن نعمة متصلة بالدنيا والآخرة؛ وأما على الكافر فنعمة في الدنيا فقط.

٦- أن الشاكر من الناس قليل؛ لقوله تعالى: {ولكن أكثر الناس لا يشكرون}.

٧- أن العقل يدلُّ على وجوب شكر المنعِم؛ لقوله تعالى: {إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون}؛ وهذا على سبيل الذَّم؛ فيكون من لا يشكر مذمومًا عقلًا وشرعًا.

١- سفوان: ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة (معجم ياقوت).

٢- سكر (وزان زفر): موضع بشرقية الصعيد بينه وبين مصر يومان، كان عبدالعزيز بن مروان يخرج اليه كثيراً.(عن ياقوت).

٣- أخرجه البخاري ص٢٨٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤: حديث رقم ٣٤٧٣، وأخرجه مسلم ص١٠٧١، كتاب السلام، باب ٣٢: الطاعون والطيرة، والكهانة ... ، حديث رقم ٥٧٧٢ [٩٢] ٢٢١٨.

٨- أن كلام الله سبحانه وتعالى بحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: {موتوا}؛ فيكون فيه ردٌّ على من قال: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه.

٩- أن معنى قوله تعالى: {إذا أراد شيئًا أن يقول له كن}[يس: ٨٢] أن الله عز وجل يتكلَّم بما أراد؛ لا أن يقول: {كن} فقط؛ بل يتكلَّم بما أراد: كن كذا؛ كن كذا؛ لأن الكلام بكلمة {كن} مجمل؛ ولما قال الله للقلم: ((اكتب قال: رب ماذا أكتب؟(١)))؛ فيصير معنى {كن} أي الأمر المستفاد من هذه الصيغة؛ ولكنه يكون أمرًا خاصًّا؛ فلو كان الله سبحانه وتعالى يريد أن ينزل مطرًا؛ لا يقول: {كن} فقط؛ بل يكون بالصيغة التي أراد الله عز وجل.

١٠- جواز حذف ما كان معلومًا، وأنه لا ينافي البلاغة؛ وهو ما يسمَّى عند البلاغيين بإيجاز الحذف؛ لقوله تعالى: {موتوا ثم أحياهم}؛ والتقدير: (فماتوا ثم أحياهم)؛ وهذا كثير في القرآن وكلام العرب.

١١- أنه سبحانه وتعالى يمدح نفسه بما أنعم به على عباده؛ لقوله تعالى: {إن الله لذو فضل على الناس}؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((لا أحد أحبّ إليه المدح من الله(٢)))؛ فهو سبحانه وتعالى يحبُّ أن يمدح ويحمد؛ لأن ذلك صدق وحق؛ فإنه سبحانه وتعالى أحق مَن يثنى عليه، وأحق مَن يحمد؛ وهو سبحانه وتعالى يحبُّ الحق.

١٢- أن من طبيعة البشر الفرار من الموت؛ لقوله تعالى: {خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يستعد للَّذي يحذر منه وهو لا يدري متى يفجؤه.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)

قال ابن العثيمين: {وقاتلوا} فعل أمر حذف مفعوله للعلم به؛ والتقدير: قاتلوا في سبيل الله الكفار الذين يقاتلونكم، كما في قوله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم}[البقرة: ١٩٠].

{في سبيل الله}: أي في الطريقة الموصلة إليه – وهي شريعته –؛ وهذا يشمل النيَّة والعمل؛ أما النيَّة فأن يكون الإنسان قاصدًا بقتاله أن تكون كلمة الله هي العليا، كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حميَّة،

١- أخرجه الترمذي ص١٨٦٨، كتاب القدر، باب ١٧: إعظام أمر الإيمان بالقدر، حديث رقم ٢١٥٥؛ وأبو داود ص١٥٦٨، كتاب السنة، باب ١٦: في القدر، حديث رقم ٤٧٠٠؛ والحاكم ٤٩٨/٢، كتاب التفسير، تفسير [سورة ن والقلم]؛ وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي؛ وأخرجه ابن أبي عاصم من عدة طرق في كتاب السنة ٤٨/١ – ٤٩، باب ذكر القلم، وصححها الألباني، وذكر الحديث في صحيح أبي داود، وقال: صحيح (١٤٨/٣، حديث رقم ٤٧٠٠)؛ وقال عبد القار الأرناؤوط في جامع الأصول: وهو حديث صحيح بطرقه (١٨/٤، حاشية رقم ١).

٢- أخرجه البخاري ص٣٨٣، كتاب تفسير القرآن سورة الأعراف، باب ١: قول الله عز وجل: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منا وما بطن}، حديث رقم ٤٦٧٣، وأخرجه مسلم ص١١٥٦، كتاب التوبة، باب ٦: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، حديث رقم ٦٩٩٢ [٣٣] ٢٧٦٠.

ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[١]))؛ وأمَّا العمل فأن يكون جهاده على وفق الشرع.

قال ابن كثير: أَيْ: كَمَا أَنَّ الْحَذَرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ كَذَلِكَ الْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ وَتَجَنُّبِهِ لَا يُقَرِّبُ أَجَلًا وَلَا يُبَاعِدُهُ، بَلِ الْأَجَلُ الْمَحْتُومُ وَالرِّزْقُ الْمَقْسُومُ مُقَدَّرٌ مُقَنَّنٌ لَا يُزَادُ فِيهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[آلِ عِمْرَانَ: ١٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}[النِّسَاءِ: ٧٧، ٧٨]، وَرُوِّينَا عَنْ أَمِيرِ الْجُيُوشِ وَمُقَدَّمِ الْعَسَاكِرِ وَحَامِي حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ وَسَيْفِ اللَّهِ الْمَسْلُولِ عَلَى أَعْدَائِهِ أَبِي سُلَيْمَانَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ:- وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ: لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْقِفًا وَمَا مِنْ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ رَمْيَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعِيرُ!! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ يَعْنِي: أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ لِكَوْنِهِ مَا مَاتَ قَتِيلًا فِي الْحَرْبِ وَيَتَأَسَّفُ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَلَّمُ أَنْ يَمُوتَ عَلَى فِرَاشِهِ.

قال شيخ الإسلام في شرح السير الكبير ج١ص١٣١: قال أبو حنيفة رحمه الله: أن الأمر بالجهاد وبالقتال نزل مرتَّبًا، فقد كان النبي ﷺ مأمورًا في الابتداء بتبليغ الرسالة والإعراض عن المشركين قال الله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[الحجر: ٩٤]، وقال تعالى: {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}[الحجر: ٨٥]. ثم أمر بالمجادلة بالأحسن كما قال: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}[النحل: ١٢٥]، وقال: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[العنكبوت: ٤٦]. ثم أذن لهم في القتال بقوله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}[الحج: ٣٩]. ثم أمروا بالقتال إن كانت البداية منهم بما تلا من آيات. ثم أُمروا بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم كما قال تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ}[التوبة: ٥]. ثم أمروا بالقتال مطلقاً بقوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٤٤]، فاستقرَّ الأمر على هذا، ومطلق الأمر يقتضي اللزوم إلَّا أن فريضة القتال لمقصود إعزاز الدين وقهر المشركين، فإذا حصل المقصود بالبعض سقط عن الباقين بمنزلة غسل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، إذ لو افترض على كل مسلم بعينه وهذا فرض غير موقت بوقت لم يتفرغ أحد لشغل آخر من كسب أو تعلم، وبدون سائر الأشغال لا يتم أمر الجهاد أيضًا، فلهذا كان فرضًا على الكفاية.

١- (قلت): البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤). والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ – قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا – فَقَالَ: ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)).

حتى لو اجتمعوا على تركه اشتركوا في المأثم، وإذا حصل المقصود بالبعض سقط عن الباقين، وفي مثل هذا يجب على الإمام النظر للمسلمين، لأنه منصوب لذلك نائب عن جماعتهم، فعليه أن لا يعطل الثغور ولا يدع الدعاء إلى الدين وحث المسلمين على الجهاد، وإذا ندب الناس إلى ذلك فعليهم أن لا يعصوه بالامتناع من الخروج، ولا ينبغي أن يدع المشركين بغير دعوة إلى الإسلام أو إعطاء جزية إذا تمكن من ذلك، لأن التكليف بحسب الوسع.

وإن كانوا قومًا لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب والمرتدين، فإنه يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا، قاتلهم، وأمّا المجوس وعبدة الأوثان من العجم، في جواز أخذ الجزية منهم عندنا بمنزلة أهل الكتاب، فيدعوهم إلى إحدى هاتين الخصلتين ويجب الكفُّ عنهم إذا أجابوا إلى إحداهما، وإن امتنعوا منهما فحينئذ يقاتَلون، وفي أهل الكتاب العربي وغير العربي سواء لقوله تعالى: {مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[التوبة: ٢٩]، وكل مسلم في هذا خليفة رسول الله ﷺ، فقد بعث داعيًا إلى ما بيّنا وأمر بالقتال على ذلك مع من أبى.

وإن قالوا للمسلمين: وادعونا على أن لا نقاتلكم ولا تقاتلونا، فليس ينبغي للمسلمين أن يعطوهم ذلك لقوله تعالى: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ}[آل عمران: ١٣٩]، ولأن الجهاد فرض، فإنَّما طلبوا الموادعة على أن تترك فريضة، ولا يجوز إجابتهم إلى مثل هذه الوادعة كما لو طلبوا الموادعة على أن لا يُصَلُّوا ولا يصوموا، إلَّا أن يكون لهم شوكة شديدة لا يقوى عليهم المسلمون، فحينئذ لا بأس بأن يوادعهم إلى أن يظهر للمسلمين قوة ثم ينبذ إليهم، قال الله تعالى: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}[الأنفال: ٦١]، وصالح رسول الله ﷺ أهل مكة عام الحديبية على أن يضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، ولأن حقيقة الجهاد في حفظ المسلمين قوة أنفسهم أولًا ثم في قهر المشركين وكسر شوكتهم، فإذا كانوا عاجزين عن كسر شوكتهم كان عليهم أن يحفظوا قوة أنفسهم بالموادعة إلى أن يظهر لهم قوة كسر شوكتهم فحينئذ ينبذون إليهم ويقاتلونهم، وهو بمنزلة إنظار المعسر إلى الميسرة كما قال الله تعالى: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ}[البقرة: ٢٨٠]، وكذلك لو قالوا للمسلمين: وادعونا على أن نعطيكم في كل سنة مالًا معلومًا على أن تجروا علينا أحكامكم فليس ينبغي الموادعة على ذلك، لأنهم لا يلتزمون شيئًا من أحكامنا، وإنَّما ينتهي القتال بعقد الذِّمة لما فيه من التزام أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات، والرضا منهم بالمقام في دار الإسلام مقهورين، ولما فيه من ترك المحاربة أصلًا، ولا يوجد ذلك فيما طلبوا، ولأنهم لو أجيبوا إلى ذلك ربما يظنون أنا إنما نقاتلهم طمعًا في أموالهم، بل لا يشكُّون في ذلك ولا يحلُّ للمسلمين أن يقصدوا ذلك أو يظهروه من أنفسهم، إلَّا أن يكون لهم شوكة شديدة فحينئذ تجوز الموادعة معهم بغير مال يؤخذ منهم، فلأن يجوز بمال يؤخذ منهم كان أَولى، وهذا المال لا يؤخذ عوضًا عن ترك القتال، وإنما يؤخذ لأن مالهم مباح لنا، فباعتبار تلك الإباحة يؤخذ هذا المال منهم([1]).

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن عظم أجر المجاهدين عند تفسير الآية (١٩٠) من سورة البقرة.

قال ابن العثيمين: {واعلموا أن الله سميع عليم[١]}: أي سميع لأقوالكم؛ عليم بأحوالكم؛ وختم الله هذه الآية بالأمر بعلمنا بأن الله سميع عليم تحذيرًا من المخالفة، وترغيبًا في الموافقة؛ فنقوم بما أوجب علينا، ونجتنب ما حرَّم علينا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الأمر بقتال الكافرين؛ وهو إما فرض عين، أو فرض كفاية، أو مستحب على حسب ما قرره العلماء؛ وقد سبق الكلام عليه عند قوله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا}[البقرة: ١٩٠].

٢- الأمر بالقتال على وجه الإخلاص لله تعالى بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ لقوله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله}.

٣- أنه يحرم على الإنسان أن يقاتل حمية، أو أن يقاتل شجاعة، أو أن يقاتل رياء؛ لأن إيجاب الإخلاص في القتال يقتضي تحريم القتال لغير ذلك؛ اللهم إلَّا أن يكون دفاعًا عن النفس فهو مباح؛ بل قد يجب.

فإن قيل: لو قاتل دفاعًا عن وطنه لأنه بلد إسلامي؛ فيقاتل دفاعًا عنه لهذا الغرض؛ فهل يكون قتالًا في سبيل الله؟

فالجواب: نعم؛ لأن نيَّته أن لا يفرِّق بين وطنه وغيره إذا كان ذلك لحماية الإسلام.

٤- وجوب التَمَشِّي في الجهاد على ما تقتضيه الشريعة من طاعة الأمير، والصبر عند اللقاء، ومعاملة الأسرى، وغير ذلك.

٥- التَّحذير من مخالفة الشريعة؛ لقوله تعالى: {واعلموا أن الله سميع عليم}؛ فإن مقتضى ذلك أن نحذر من مخالفته؛ لأنه سميع لأقوالنا عليم بأحوالنا.

٦- الترغيب في موافقة الشرع؛ فإن ذلك لا يضيع عند الله؛ لأنه سميع لأقوالنا عليم بأحوالنا.

٧- إثبات هذين الاسمين لله تعالى؛ وهما {السميع}، و{العليم}؛ وما تضمَّناه من صفة وحكم؛ وقد سبق تفصيل (السمع) الذي وصف الله عز وجل به نفسه.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع } مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧)، و{العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

قال ابن العثيمين: {من ذا} اسم استفهام؛ أو {من} اسم استفهام، و{ذا} ملغاة؛ و{الذي} خبر المبتدأ؛ والمبتدأ {من}؛ وهذا الاستفهام بمعنى التشويق والحثّ؛ يعني: أين الذي يقرض الله، فليتقدَّم.

{يقرض الله}؛ ال{قرض} في اللغة: القطع؛ ومنه: المقراض – وهو المقص قاطع الثياب؛ ومعنى (أقرضت فلانًا) اقتطعت له جزءًا من مالي فأعطيته إياه؛ {يقرض الله}: أي يعبده؛ وسمِّيَت العبادة قرضًا للمجازاة عليها؛ ويحتمل: أن الله أراد بالإقراض إنفاق المال في سبيله؛ لأنه تعالى لما قال: {قاتلوا في سبيل الله}[البقرة: ٢٤٤]– والقتال يكون بالنفس، والمال – قال الله سبحانه وتعالى: {من ذا الذي يقرض الله}؛ وهذا جهاد بالمال.

قال أبو زهرة: وسمِّي إسلاف المال وبذله في سبيل الخير قرضًا لأنه يقتطع من المال المدَّخَر، وينتقص منه، والمال نظير النفس فكأنه يقتطع من النفس، ولذلك كان الجواد شجاعًا عادةً؛ لأن بذل النفيس كبذل النفس كلاهما ينبع من نفس واحدة فالجود والشجاعة صنوان أو أخوان لَا يولدان إلَّا من أب واحد، ولا يترعرعان إلَّا في منبت واحد وبيئة واحدة، والبخل والجبن أخوان منبتهما واحد، ومولدهما واحد؛ فالبخيل جبان في مجرى العادة، وقد دلَّ على ذلك الاستقراء.

والقرض بعد هذا البيان هو إسلاف المال في السبيل الحسن لمعاونة صديق أو سد حاجة معوز أو حماية الدولة أو إغاثة ملهوف على أن يرد مثله من غير وكس ولا شطط؛ وقد يكون من جنسه مالًا بمال، وقد يكون العوض أزكى من المال وأنمى منه، وأنفع وأبقى، وذلك هو الإسلاف في سبيل الخير غير مبتغٍ جزاءً ولا شكورًا إلَّا من خالق الناس مالك الملك ذي الجلال والإكرام.

قال ابن كثير: يَحُثُّ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ، وَقَدْ كَرَّرَ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن عَرَفَة حَدَّثَنَا خَلَف بْن خَلِيفَة عَنْ حُمَيْد الْأَعْرَج عَنْ عَبد اللَّه بْن الْحَارِث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قال: لَمَّا نَزَلَتْ: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: ((نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ)) قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَنَاوَلَهُ يَدَهُ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ

أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي. قَالَ: وَحَائِطٌ لَهُ فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا. قَالَ: فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ. قَالَتْ: لَبَّيْكَ قَالَ: اخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ(١).

{قَرْضًا حَسَنًا}: رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ: هُوَ النَّفَقَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَقِيلَ: هُوَ النَّفَقَةُ عَلَى الْعِيَالِ. وَقِيلَ: هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ.

قال ابن القيم في التفسير القيم: صدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمِّن معنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر. والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازي عليه أضعافًا مضاعفة؟.

وسمِّيَ ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا، حثًّا للنفوس وبعثًا لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابدَّ طوَّعت له نفسه وسهل عليه إخراجه. فإن علِم أن المستقرض مليءٌ وفيٌّ محسن، كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه.

فإن علِم أن المستقرض يتَّجر له بما اقترضه ويُنميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح.

فإن علِم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، فإن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم، فإنه لا يختلف عن قرضه إلَّا لِآفةٍ في نفسه من البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه. ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمَّنتها الآية، فإنه سمَّاه قرضًا وأخبر أنه هو المقترض، لا قرض حاجة ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته؛ وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به.

ثم أخبر عمَّا يرجع إليه بالقرض، وهو الأضعاف المضاعفة.

ثم أخبر عمَّا يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم. وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيَّده بكونه حسنًا وذلك يجمع أمورًا ثلاثة.

أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئة وخبيثة.

والثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمُنَّ به ولا يؤذي.

فالأول يتعلَّق بالمال. والثاني يتعلَّق بالمنفق بينه وبين الله. والثالث بينه وبين الآخذ.

قال أبو زهرة: والقرض الحسن المذكور في الآية الكريمة، هو القرض الذي يكون منبعثًا من نفسٍ طيبةٍ بالعطاء، قاصدة وجه الخير ورضا الله سبحانه وتعالى، ومتحرية موضع الإنفاق وزمانه، فالقرض الحسن في هذا المقام لابدَّ لتحقُّقه من أن

١- (قلت): ضعفه الإمام الألباني في مشكلة الفقر (١٢٠)، ولكنه صححه بأسانيد أخرى وقال: صحيح أخرجه ابن جرير في تفسيره، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير من طريق خلف وهذا اسناد ضعيف، ورواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات ورجال أبي يعلى رجال الصحيح وله شواهد أخرى.

يكون الباعث عليه خيرًا مقصودًا به وجه الله تعالى، فلا ينفق رئاء الناس، ولا ينفق ابتغاء جاهٍ ولا مَلَقًا لذي جاه، كأولئك الذين يتصدَّقون بالصَّدقات العظيمة لإرضاء كبير مسيطر، لا يقصد الصدقة لذاتها ولا وجه الله فيها، ولا المعاونة لمستحقيها، وإنما يقصد إرضاء الكبير فقط؛ وإن ذلك هو الشرك الخفي.

ولابدَّ لتحقُّق القرض الحسن أن يتحرَّى الشخص موضع الحاجة فيسدَّ حاجة المعوزين، وينفق على المحتاجين، يؤْثر أشدُّهم حاجة؛ فالأدنى منه، ما وسع فضل ماله؛ ثم ينفق في المصالح العامة لإقامة مشروعات اجتماعية أو عمرانية، والإنفاق للجهاد في سبيل الله هو المرتبة السامية العليا.

هذه معاني القرض الحسن في ذاتها ولبِّها؛ وما المراد به هنا؛ أيراد به المعنى العام الشامل، أم يراد به المعنى الخاص الذي يدلُّ عليه ما قبل الآية وما بعدها؟ إن الاتجاهات في هذا ثلاثة:

أولها: القرض الحسن هنا هو المعنى العام له، وهو كل إنفاق في سبيل الخير، سواء أكان الإنفاق لسدِّ حاجات المحتاجين من الآحاد، أم كان للمصالح التي يعمُّ نفعها، ويشمل خيرها؛ أم كان في الجهاد في سبيل الله؛ ووجهة هؤلاء في هذا العموم أن كل ذلك يضاعف الله في جزائه، وذلك قرينة العموم، والمقام لَا يمنعه؛ لأنه يدخل فيه الجهاد.

وثانيها: أن القرض الحسن ما ينفق في سبيل المصالح العامة من إنشاء جماعات للبر بكل ضروبه والإنفاق عليها، ومن بذل في سبيل إعداد الأمة إعدادًا حربيًّا؛ لأن كل ذلك تقوية للوحدة في الأمة، وهو من عدَّة القلوب، فالتعاون فيه قوة، بل هو عماد القوة.

وثالثها: أن المراد الإنفاق في الجهاد، بدليل توسط الآية بين الآيات الدالة على القتال المحرِّضة عليه؛ فهي تخصُّ البذل في القتال، وهو في ذاته أقواها أثرًا، والمقام يؤيِّد إرادته.

وعندي أن السياق حقًّا يجعل القرض الحسن في هذا المقام متَّجِهًا أولًا وبالذات نحو البذل لإعداد العدَّة وأخذ الأهبة؛ ليتحقَّق على الوجه الأكمل قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قوَّةٍ....}، ولكن ذلك لَا يمنع الشمول، فإن الله سبحانه وتعالى يأتي بالعبارات السامية المحكمة الشاملة في معناها في مقام يستدعي ذكرها لوجود حال تدخل في العموم، فلما ذكر القتال ذكر معه وجوب البذل عامَّة كقاعدة شرعية وأصل من أصول الاجتماع الإسلامي الفاضل، ودخل في هذا العموم البذل في القتال على وجه الخصوص وخصوصيته جاءت من السياق القرآني السامي. ولقد حثَّ المولى الكريم عباده المؤمنين على البذل والعطاء لمعاونة المحتاجين، وعلى الإنفاق في مصالح الاجتماع، والإنفاق في الحروب بشكل خاص، وقد جاء النص الكريم متضمِّنًا بعبارته وإشارته أبلغ ما يدلُّ على التَّحريض على البذل، والدعوة إليه؛ وإنَّا نذكر قدرًا ممَّا وصلت إليه مداركنا.

وأوَّل ما يدلُّ على المبالغة في الحثِّ على البذل في الخير التعبير بقوله تعالى: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}، فقد تضمَّن ذلك التَّعبير الحثُّ على البذل من عدَّة وجوه: منها التعبير بالاستفهام، فإنه للتنبيه وبعث الأذهان وحفز العقول على الالتفات، وبمقدار الوعي عند الاستماع تكون الإجابة وبمقدار الحثِّ على الانتباه يكون الطلب.

ومنها: أنه جمع الإشارة والموصول في الاستفهام فقال: {مَن ذَا الَّذِي} وفي ذلك بيان لعلو شأن من يبذل، فإنه لَا يستفهم {مَن ذَا الَّذِي} إلَّا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان موضع الاستفهام خطيرًا وعظيمًا وكان المخاطب له شأن جليل إلى درجة أن يشار إليه، ويتحدَّث عنه، فالإشارة كناية عن أنه يشار إليه في كل أمر جليل، والموصول كناية عن أنه يتحدَّث عنه عند ذكر كل أمر جليل.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى سمَّاه قرضًا، لأن فيه إشارة إلى أنه سيرد لصاحبه، وأنه ليس مالاً يبذل من غير بدل يعود إليه، بل إن له بدلًا أسمى منه، وعوضًا أجل وأعظم، واعتبره سبحانه قرضًا لله تعالى؛ وأي سموٍّ تعلو إليه نفس الباذل عندما يحسُّ بأن المقترض منه هو رب العالمين، الذي يملك كل شيء وهو خالق كل شيء؛ أي كلام يحرِّض على البذل أبلغ من أن يسمَّى فعله قرضًا لله المنعم بالوجود، والمالك لكل موجود؛ ثم إن القرض لله تعالى قرض مضمون الوفاء، مؤكَّد الأداء.

ومنها: أن سمَّاه سبحانه قرضًا حسنًا، فهو حسن في باعثه، وفي عطائه، وفي نتيجته وثمرته.

وقد ذكر سبحانه بدل القرض فقال: {فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً}؛ وهذا هو الأمر الثاني الذي يدلُّ على المبالغة في الحثِّ على البذل والعطاء في سبيل الجهاد والنفع العام، فإذا كانت الجملة السابقة تدلُّ على علوِّ شأن الباذل الذي يعطي، وعظم البذل في سبيل الخير والعطاء، وشرف ذلك العمل لأنه عطاء لله العلي القدير مالك كل شيء، إذا كانت الجملة السامية التي سبقت تدلُّ على ذلك، فإن هذه الجملة الكريمة تحرِّض على العطاء من ناحية العوض الذي يعوض عنه، فإنه ليس بقدره، بل هو أضعافه.

قال ابن العثيمين: {فيضاعفه له أضعافا كثيرة}؛ {فيضاعفه} فيها أربع قراءات؛ الأولى: (يضاعفه) بمد الضاد مع رفع الفاء؛ والثانية؛ بمد الضاد مع فتح الفاء؛ والثالثة: (يضعفه) حذف المد مع تشديد العين، وضم الفاء؛ والرابعة: حذف المد مع تشديد العين، وفتح الفاء؛ ولهذا جاء الرسم صالحًا للقراءات الأربع؛ لأن القرآن أول ما كتب ليس فيه حركات؛ أما على قراءة فتح الفاء فوجهه أن الفاء السابقة للفعل للسببية؛ والفعل منصوب بـ(أن) بعد الفاء السببية؛ لأنه جواب الاستفهام؛ وأما على قراءة الرفع فالفاء السابقة للفعل للاستئناف؛ والفعل مرفوع لتجرده من الناصب والجازم.

{أضعافًا} مصدر مبيِّن للنوع؛ لأن مطلق الضعف يكون بواحدة؛ لكن إذا قال تعالى: {أضعافًا} صار أكثر من واحد؛ فيكون مصدرًا مبيِّنا للنوع؛ وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى هذه الأضعاف بقوله تعالى: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم}[البقرة: ٢٦١].

قال ابن كثير: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ دَخَلَ سُوقًا مِنَ الْأَسْوَاقِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفَ سَيِّئَةٍ([1])) الْحَدِيثَ.

قال أبو زهرة: والضِّعْف: مِثْلُ الشيء، وضعفاه أي مثلاه، وقد يراد من الضعف المثلان، وقد جاء في القاموس المحيط ما نصه: (ويقال لك ضعفه يريدون مثليه وثلاثة أمثاله؛ لأنه زيادة غير محصورة) وقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: (الضعف من الألفاظ المتضايفة التي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر كالنصف والزوج، وهو تركب قدرين متساويين، ويختص بالعدد فإذا قيل أضعفت الشيء وضعفته وضاعفته ضممت إليه مثله فصاعدًا، قال بعضهم: ضاعفت أبلغ من ضعفت).

ومن هذا يتبين أن {يضاعف} في الآية الكريمة معناها يرد إلى الباذل المعطي المقرض لله بدلًا ما أعطى أمثالًا كثيرة، فمعنى أضعافًا: أمثالًا كثيرة. ولم يذكر سبحانه وتعالى العدد، وذلك يدلُّ على الكثرة الكاثرة التي لَا حدَّ لها، ولا عدد يحصيها؛ وحسبك أن تعلم أن الذي يوفِّي بالقرض هو مالك السماوات والأرض.

وإذا علم الباذل أن ذلك جزاء عطائه وإنفاقه، فلابدَّ بالغ أقصى غايات الجود، باذل كل موجود، وليس بذاهب ما يكون في سبيل الخير، ولا ضائع ما يكون في سبيل النفع العام.

وما هذا الجزاء؛ أهو في الدنيا أم في الآخرة؟؛ لَا شك أن ثمَّة جزاء في الآخرة وأن جزاءها هو الجزاء الأوفى، والغاية القصوى، والأمل المرجى لكل مؤمن؛ وإن فيها للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

وإنه مع ذلك الجزاء الأوفى يوجد جزاء دنيوي، ومضاعفة لفعل الخير في هذه الحياة تبدو لكل من يفهم معاني الحياة، وإن هذا الجزاء الدنيوي هو العيش العزيز، والحياة الكريمة له ولقومه، ودفع الهلاك عن أمَّته؛ فإن بذل المال دفاعًا عن الحوزة هو الحياة، وهو أقصى غاية الوجود بعد بذل النفس؛ ولذا اعتبر من لم ينفق قد ألقى بنفسه في الهلكة، كما قال تعالى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.....}.

وليس بذل المال للجهاد هو وحده الذي يكون فيه الجزاء الدنيوي ودفع الهلاك عن النفس، بل سد حاجة المعوزين وإعطاء المال للسائل والمحروم فيه عزة الأمة؛ لأنه لَا عزة لأمة لَا تدفع المَتربة عن آحادها وتذلُّ فقراءها؛ ولئن تمَلمَلوا بحياتهم لكان التقاطع والتنابز، ومن وراء ذلك الخراب، وأن يكون بأس الأمة بينها شديدًا، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣١٣٩). وثم حديث آخر حسنه الإمام الألباني في تحقيق كلمة الإخلاص ج١ص٦٢ عن ابن عمر مرفوعًا: ((من قالها إذا دخل السوق وزاد فيها يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا الله عنه ألف ألف سيئة ورفع الله له ألف ألف درجة))، وفي رواية: ((ويبنى له بيت في الجنة)).

هذا فوق أن البذل في سبيل الله والإنفاق في سبيل الخير والنفع العام والمصالح الإنسانية يلقي في النفس سعادة واطمئنانًا لَا يشعر بهما إلَّا الأبرار؛ وإن الله يبارك في رزق الذين ينفقون، فوق غنى النفس الذي تمتلئ به النفس؛ وقد قال ﷺ: ((ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس([1]))).

فالبذل والعطاء في سبيل الخير يدفع ضرًا، ويقي من شر، ويحمي الجماعة من الآفات، ويسعد النفس، ويبارك في رزق المعطي، ويكثر قوى الإنتاج في الأمة، فتقوى الأيدي كلها على العمل فيعمُّ الخير، وتكثر الثمرة، ويكون الإنتاج الطيب الذي يعمُّ ولا يخص، فمن أعطى قليلًا يأخذ كثيرًا في نفسه وقومه وأهله وعشيرته.

قال ابن العثيمين: {والله يقبض ويبسط}؛ فيها قراءتان: بالسين؛ وبالصاد؛ و(القبض): هو التضييق؛ وهو ضد البسط؛ و (البسط): هو التوسيع؛ فهو الذي بيده القبض، والبسط؛ ويعم كل شيء؛ فيقبض في الرزق ويبسط؛ وفي العلم؛ وفي العمر؛ وفي كل ما يتعلق في الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة.

{وإليه ترجعون}: تقديم المعمول: {إليه} له فائدتان؛ فائدة لفظية؛ وفائدة معنوية؛ أما الفائدة اللفظية: فهي توافق رؤوس الآيات؛ وأما الفائدة المعنوية: فهي الحصر – فالمرجع كله إلى الله عز وجل –؛ لا إلى غيره، كما أن المبدأ كله من الله سبحانه وتعالى.

قال السعدي: ولمَّا كان الإنسان ربما توهَّم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذا الوهم بقوله: {والله يقبض ويبسط}: أي يوسِّع الرزق على من يشاء ويقبضه عمَّن يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدَّموه كاملًا موفَّرًا مضاعفًا، فلهذا قال: {وإليه ترجعون} فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصًا الأسباب التي تترك بها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعيانًا في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال، والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاثَّة عليه من تسميته قرضا، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

قال أبو زهرة: وهذا هو الطريق الثالث الذي اشتملت عليه الآية الكريمة في الحثِّ على البذل والعطاء في سبيل الخير، فقد بيَّن بهذا سبحانه أنه تعالى القابض الذي يقتر الرزق على من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، فعلى الغني أن يستشعر في نفسه أنه كان يجوز أن يخلقه الله فقيرًا لَا يستطيع إعطاء، فعليه أن يشكر النعمة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى إيَّاه،

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

وإن شكرها أن يبذلها في سبيل النفع العام، ثم ليعلم أن المآل إليه سبحانه وتعالى؛ ولذا قال تعالى: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}: أي إليه وحده ترجعون فيحاسبكم سبحانه وقد جُرِّدتم من كل قوة قاهرة، وكل سلطان ظاهر، ولم يكن معكم إلَّا عمل صالح.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الحثّ على الإنفاق في سبيل الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {من ذا الذي}؛ والاستفهام هنا للحثّ والتشويق.

٢- أن الجزاء على العمل مضمون كضمان القرض لمقرضه.

٣- ملاحظة الإخلاص بأن يكون الإنسان منفقًا ماله لله عز وجل على سبيل الإخلاص، وطيب النفس، والمال الحلال، ولا يتبع إنفاقه مَنًّا، ولا أذًى؛ لقوله تعالى: {قرضًا حسنًا}؛ فالقرض الحسن هو ما وافق الشرع بأن يكون:

أولًا: خالصًا لله؛ فإن كان رياءً وسمعةً، فليس قرضًا حسنًا؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: ((من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه([1]))).

ثانيًا: من مال حلال؛ فإن كان من مال حرام فليس بقرض حسن؛ لأن الله طيب لا يقبل إلَّا طيِّبًا.

ثالثًا: نفسه طيبة به؛ لا مكرهًا، ولا معتقدًا أنه غرم وضريبة، كما يظن بعض الناس أن الزكاة ضريبة – حتى إن بعض الكتاب يعبرون بقولهم: ضريبة الزكاة – والعياذ بالله.

رابعًا: أن يكون في محلّه؛ بأن يتصدَّق على فقير، أو مسكين، أو في مصالح عامة؛ أما لو أنفقها فيما يغضب الله فإن ذلك ليس قرضًا حسنًا.

خامسًا: أن لا يتبع ما أنفق منًّا ولا أذًى؛ فإن أتبعه بذلك بطل ثوابه، لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى}[البقرة: ٢٦٤].

٤- أن فضل الله وعطاءه واسع؛ وأن جزاءه للمحسن جزاء فضل؛ لقوله تعالى: {فيضاعفه له أضعافًا كثيرة} مع أن أصل توفيقه للعمل الصالح فضل منه؛ لقول النبي ﷺ لفقراء الأنصار حين ذكروا له فضل الأغنياء عليهم في الصدقات والعتق: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء([2])))؛ وعلى هذا فيكون لله تعالى في توفيق العبد للعمل الصالح فضلان: فضل سابق على العمل الصالح؛ وفضل لاحق – وهو الثواب عليه أضعافًا مضاعفة –؛ وأما جزاؤه للعصاة فهو دائر بين العدل والفضل؛ إن

١- (قلت): مسلم (٢٩٨٥).

٢- أخرجه مسلم ص ٧٧٠، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢٦: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث رقم ١٣٤٧ [١٤٢] ٥٩٥.

كانت المعصية كفرًا فجزاؤها عدل؛ وإن كانت دون ذلك فجزاؤها دائر بين الفضل والعدل؛ لقوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}[النساء: ٤٨].

٥- تمام ربوبية الله عز وجل وكمالها؛ لقوله تعالى: {والله يقبض ويبسط}.

٦- الإشارة إلى أن الإنفاق ليس هو سبب الإقتار والفقر؛ لأن ذكر هذه الجملة بعد الحثِّ على الإنفاق يشير إلى أن الإنفاق لا يستلزم الإعدام أو التضييق؛ لأن الأمر بيد الله سبحانه وتعالى؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((ما نقصت صدقة من مال([1]))؛ وكم من إنسان أمسك ولم ينفق في سبيل الله، فسلَّط الله على ماله آفات في نفس المال كالضياع، والاحتراق، والسرقة، وما أشبه ذلك؛ أو آفات تلحق هذا الرجل ببدنه، أو بأهله يحتاج معها إلى أموال كثيرة؛ وقد يتصدَّق الإنسان، وينفق، ويوسِّع الله له في الرزق.

٧- إثبات المعاد والبعث؛ لقوله تعالى: {وإليه ترجعون}.

٨- ترهيب المرء من المخالفة، وترغيبه في طاعة الله؛ لقوله تعالى: {وإليه ترجعون}؛ لأن الإنسان إذا علم أنه راجع إلى ربه لا محالة فإنَّه لابدَّ أن يكون فاعلًا لما أمر به، تاركًا لما نهي عنه؛ لأنه يخاف من هذا الرجوع.

١- (قلت): مسلم: (٢٥٨٨)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((ما نقصت صدقة من مال)): ذكروا فيه وجهين، أحدهما: معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية وهذا مدرك بالحس والعادة. والثاني: أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة. ((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا)): فيه أيضًا وجهان، أحدهما: على ظاهره ومن عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب وزاد عزه وإكرامه. والثاني: أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك. ((وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)): فيه أيضا وجهان، أحدهما: يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه. والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا. قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة، معروفة، وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

قال ابن العثيمين: {ألم تر}: الخطاب هنا إمَّا للرسول ﷺ؛ وخطاب زعيم الأمة خطاب له وللأمة؛ لأنها تبع له؛ وإمَّا أنه خطاب لكل من يتوجَّه له الخطاب؛ فيكون عامًّا في أصل وضعه؛ الفرق بين المعنيَين أن الأول عام باعتبار التبعيَّة للمخاطب به أولًا – وهو الرسول ﷺ؛ والثاني عام باعتبار وضعه – يعني: ألم تر أيها المخاطب؛ و{تر}: هل المراد تنظر؛ أو تسمع؛ أو تعلم؟ الفعل هنا عدي بـ{إلى}؛ وإذا عدي بـ{إلى} تعين أن يكون من رؤية العين؛ ولو عدي بنفسه لأمكن أن يكون المراد بالرؤية العلم؛ فإذا كان كذلك فإنه يلزم أن يكون المعنى: ألم تر إلى شأن بني إسرائيل؛ لأن من المعلوم أننا نحن – بل والرسول ﷺ – لم نشاهده؛ ويمكن أن نقول: إنها عديت بـ{إلى}؛ وهي بمعنى النظر؛ لأن الإخبار بها جاء من عند الله؛ وما كان من عند الله فهو كالمرئي بالعين؛ بل أشدّ وأبلغ.

والاستفهام هنا الظاهر أنه للتشويق – يعني يشوقنا أن ننظر إلى هذه القصة لنعتبر بها –؛ لأن التقرير إنما يكون في أمر كان معلومًا للمخاطب؛ فيقرر به، كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك}[الشرح: ١]؛ وأما هذا فهو أمر ليس معلومًا للمخاطب إلَّا بعد أن يخبر به؛ فيكون هنا للتشويق، مثل قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة}[الصف: ١٠]، وقوله تعالى: {هل أتاك حديث الغاشية}[الغاشية: ١]، وما أشبهها؛ أما لو كان يخاطب من كان عالمًا بها لقلنا: إن الاستفهام للتقرير.

{الملأ من بني إسرائيل}: أي الأشراف منهم؛ {من بعد موسى}: لما بين قبيلتهم ذكر زمنهم، وأنهم بعد موسى – وهو نبي الله موسى بن عمران ﷺ –؛ وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل.

{إذ قالوا لنبي لهم}؛ {إذ} ظرف مبني على السكون في محل نصب؛ أي حين قالوا لنبي لهم؛ وفي {نبي} قراءتان: بالهمز، وبالياء المشدَّدة؛ وسبق توجيههما؛ ومعنى النبوة.

إذا قال قائل: من هذا النبي؟ قلنا: إن الله سبحانه وتعالى أبهمه؛ ولو كان في معرفة اسمه فائدة لكان الله عز وجل يبيِّن اسمه لنا؛ لكن ليس لنا في ذكر اسمه فائدة؛ المهم أنه نبي من الأنبياء.

{ابعث لنا ملكًا}: أي مر لنا بملك، أو أقم لنا ملكا نقاتل في سبيل الله؛ وكان أمرهم في ذلك الوقت فوضوي ليس عندهم ملك يدبِّر أمورهم، ويدبِّر شؤونهم؛ والناس إذا كان ليس لهم وليُّ أمر صار أمرهم فوضى، كما قيل:

(لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ......).

ولهذا أمر النبي ﷺ القوم إذا سافروا أن يؤمروا أحدهم عليهم([1])حتى لا تكون أمورهم فوضى.

قال السعدي: يقصُّ تعالى على نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخصَّ الملأ بالذكر لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبيٍّ لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له: {ابعث لنا ملكًا}: أي عيِّن لنا ملكا {نقاتل في سبيل الله} ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيِّهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصًّا لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر.

قال أبو زهرة: وفى هذا الطلب منهم عبر وعظات:

أولها: أنهم أحسُّوا بالضياع، إذ أصبحوا لَا رياسة من بينهم تجمعهم.

وثانيها: أنهم آمنوا بأن القتال لَا يكون إلَّا تحت إمرة حازمة تسير بهم نحو الهدى والرَّشاد، وأنه لَا يصلح الناس فوضى لَا سراة لهم ولا رياسة فيهم.

وثالثها: أن القتال دفاعًا عن الحوزة، واستردادًا للحق المسلوب، والوطن المغصوب([2])، قتال في سبيل الله.

قال ابن العثيمين: {نقاتل في سبيل الله}؛ {نقاتل} بالجزم جوابًا للأمر {ابعث}؛ وهذا يدلُّ على عزمهم على القتال إذا بعث إليهم ملكًا؛ وسبق معنى {في سبيل الله}، وأن رسول الله ﷺ فسَّرها بأحسن تفسير؛ وهو ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا([3]))).

١- راجع أبا داود ص١٤١٦، كتاب الجهاد، باب ٨٠: في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، حديث رقم ٢٦٠٨، ٢٦٠٩؛ وقال الشوكاني: رجالهما رجال الصحيح إلَّا علي بن بحر وهو ثقة (نيل الأوطار ٨/٢٥٦)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح (٢/١٢٥، حديث رقم ٢٦٠٨، ٢٦٠٩) .

٢- (قلت): هذا ليس على عمومه؛ بل اذا كان هذا الدفاع عن هذا الوطن بنيَّة الدفاع عن الدين وأنه ديار المسلمين، واستردادها لتكون كلمة الله فيها هي العليا فتلك في سبيل الله؛ وإلَّا فلا.

٣- (قلت): البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤). والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ- قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا – فَقَالَ: ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)).

فقال لهم نبيهم، يريد أن يختبرهم وينظر عزيمتهم: {هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا}؛ {عسيتم} فيها قراءتان: بفتح السين، وكسرها؛ وهي هنا للتوقع؛ فيكون المعنى: هل يتوقع منكم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا؟

وقوله تعالى: {إن كتب عليكم} جملة شرطية معترضة بين اسم {عسى}، وخبرها؛ فاسم {عسى} الضمير: التاء؛ و{ألا تقاتلوا} خبرها؛ وجملة {إن كتب عليكم القتال} الشرطية جوابها محذوف؛ وقد نقول: إنها لا تحتاج إلى جواب لعلمه من السياق.

وقوله تعالى: {إن كتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا}: أي إن فرض عليكم القتال ألّا تقاتلوا.

قال السعدي: أي: لعلكم تطلبون شيئًا وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم.

قال أبو زهرة: وفي هذا القول من النبيِّ الكريم تنبيه إلى أمرين:

أحدهما: أن يفكِّروا في أنفسهم وفي حالهم، وفي قوة أعدائهم، وفي عاقبة القتال، فإن رأوا في أنفسهم القدرة على اللِّقاء، في ميدان القتال مع أعدائهم مهما يتكاثف جمعهم، أصرُّوا على طلب فرضية القتال، واختيار ملك يتولَّى قيادتهم، ويكون قطبًا تدور رحى الحرب به وبتدبيره.

ثانيهما: أخذهم الأهبَّة والاستعداد للقتال إن أصرُّوا عليه، فإن فيه الفصل، وليس بالهزل؛ حتى لَا تكون عقبى القتال أسوأ ممَّا هم عليه.

قال ابن العثيمين: فكان جوابهم أن قالوا: {وما لنا ألّا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا}.

قوله تعالى: {وما لنا ألّا نقاتل}؛ {أن} مصدرية؛ والمعنى: أيُّ مانع لنا يمنعنا من القتال في سبيل الله وقد وجد مقتضي ذلك؛ وهو قولهم: {وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا}؛ والإنسان إذا أُخرج من داره وبنيه فلابدَّ أن يقاتل لتحرير البلاد وفكّ الأسرى.

وقوله تعالى: {وقد أخرجنا ... } جملة حالية في محل نصب.

قال السعدي: أي: أيُّ شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لمّا لم تكن نيَّاتهم حسنة ولم يَقْوَ توكُّلهم على ربهم، {فلما كتب عليهم القتال تولَّوا} فجبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص١٢٣: فعلَّلوا القتال بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، ومع هذا فكانوا ناكلين عما أمروا به من ذلك؛ ولهذا لم تحل لهم الغنائم ولم يكونوا يطؤون بملك اليمين.

قال ابن العثيمين: {فلمَّا كتب عليهم القتال تولَّوا}: هم طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله، ولمَّا استثبت نبيِّهم منهم قالوا: إنا عازمون على ذلك وثابتون عليه؛ ولكن لما كتب عليهم القتال وفرض عليهم {تولوا}، فصار ما توقعه نبيّهم حقًّا أنهم لن يقاتلوا؛ و{تولوا}: أي أعرضوا عن هذا الغرض ولم يقوموا به.

قال القرطبي: أخبر تعالى أنه لمَّا فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب وأن نفوسهم ربما قد تذهب {تولَّوا}: أي اضطربت نيَّاتهم وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأمم المتنعِّمة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب كَعَّتْ([1])وانقادت لطبعها. وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ بقوله: ((لا تتمنَّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فأثبتوا([2]))، رواه الأئمة. ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النيَّة الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله تعالى.

قال ابن العثيمين: {إلَّا قليلًا منهم}: ال{قليل} ما دون الثلث؛ لقول الرسول ﷺ: ((الثلث كثير))؛ وهي منصوبة على الاستثناء.

قال السعدي: {إلَّا قليلًا منهم} فعصمهم الله وثبَّتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهذا قال: {والله عليم بالظالمين}.

قال ابن العثيمين: {والله عليم([3])بالظالمين}؛ ومقتضى علمه بهم أن يجازيهم على ظلمهم؛ والظلم هنا ليس لفعل محرَّم؛ ولكنه لترك واجب؛ لأن ترك الواجب كفعل المحرَّم فيه ظلم للنفس ونقص من حقِّها.

١- (قلت): في القاموس المحيط ج١ص٧٦٠: كِعْتُ عنه - أكِيعُ - وأكاعَ كَيْعاً - وكَيْعوعَةً: (إذا هِبْتَهُ وجَبُنْتَ عنه)، فهو كائعٌ، وهُم كاعَةٌ.

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢). والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ أَبِي النَّضْرِ، عَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى، فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ، يُخْبِرُهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ))، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: ((اللهُمَّ، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الحرورية)): أي لقتالهم وهم الخوارج، ((واسألوا الله العافية)): قد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة، ((فإذا لقيتموهم فاصبروا)): هذا حثٌّ على الصبر والقتال وهو آكد أركانه وقد جمع الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله}، ((واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)): معناه ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ومشي المجاهدين في سبيل الله فاحضروا فيه بصدق وأثبتوا)).

٣- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

قال أبو زهرة: وإن الله سبحانه وتعالى قد ذيَّل الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَالظَّالِمِينَ} وفي هذا التذييل إشارات إلى معانٍ جليلة، منها: الإشارة إلى علم الله السابق بأن هؤلاء الكثيرين سيكون منهم ما كان، لأن حالهم كانت تؤدِّي إليها.

ومنها: أن الله يميز الخبيث من الطيب ويعلم الصالح والطالح، ويضع كلًّا في موضعه الذي يليق به عند الناس وعنده يوم القيامة.

ومنها: أن الذين نكصوا على أعقابهم والبلاءُ بلاءٌ ظالمون، ظلموا أنفسهم بالرِّضا بالذُّل، وبالمنزل الهُون، وبأدنى معيشة؛ وظلموا إخوانهم بعدم معاونتهم في الشديدة؛ وكانوا ظالمين بعصيان أوامر القيادة الحكيمة، ثم ظالمين أكبر الظلم بعصيان الله رب العالمين؛ ثم كانوا ظالمين للذراري والأخلاف من بعدهم، لولا توفيق الله للفئة القليلة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الحثُّ على النظر والاعتبار؛ لقوله تعالى: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل}.

٢- أن في هذه القصة عِبَراً لهذه الأمة، حيث إن هؤلاء القوم الذين كتب عليهم القتال تولَّوا إلَّا قليلًا منهم.

٣- تحذير هذه الأمة عن التولِّي عن القتال إذا كتب عليهم.

٤- أنه لابدَّ للجيوش من قائد يتولَّى قيادتها؛ لقولهم: {ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله}.

٥- أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الملك؛ لقولهم: {ابعث لنا ملكًا} يخاطبون النبي؛ فالنبي له السلطة أن يبعث لهم ملكًا يتولَّى أمورهم ويدبِّرهم.

٦- إذا طلب الإنسان شيئًا من غيره أن يذكر ما يشجعه على إجابة الطلب؛ لقولهم: {نقاتل في سبيل الله}؛ فإن هذا يبعث النبي ويشجعه على أن يبعث لهم الملك.

٧- الإشارة إلى الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}.

٨- امتحان المخاطب بما طلب فعله، أو إيجاده من غيره: هل يقوم بما يجب عليه نحوه، أم لا؛ لقوله تعالى: {هل عسيتم إن كتب القتال ألَّا تقاتلوا}.

٩- أن الإنسان بفطرته يكون مستعدًّا لقتال من قاتله؛ لقولهم: {وما لنا ألَّا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا}؛ ولهذا تجد الجبان إذا حصر يأتي بما عنده من الشجاعة، ويكون عنده قوة للمدافعة.

١٠- أن من مبيحات القتال إخراج الإنسان من بلده وأهله ليرفع ظلم الظالمين؛ لقولهم: {وما لنا ألَّا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا}؛ لكن لو كان إخراجهم بحق -كما فعل النبي ﷺ في بني النضير([1])- فلا حق لهم في المقاتلة أو المطالبة - ولو أسلموا -؛ لأن الله أورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم؛ والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين؛ قال الله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥].

١١- أن الإنسان قد يظن أنه يستطيع الصبر على ترك المحظور، أو القيام بالمأمور؛ فإذا ابتلي نكص؛ لقوله تعالى: {فلمَّا كتب عليهم القتال تولَّوا إلَّا قليلًا منهم} مع أنهم كانوا في الأول متشجعين على القتال.

١٢- الإشارة إلى قول النبي ﷺ: ((لا تتمنّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية؛ فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف))([2])، وقوله ﷺ: ((من سمع بالدجال فلينأ عنه؛ فو الله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه ممَّا يبعث به من الشبهات([3])))؛ ويشبه هذا أن بعض الناس ينذرون النذر وهم يظنون أنهم يوفون به؛ ثم لا يوفون به، كما في قوله تعالى: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون}[التوبة: ٧٥، ٧٦].

١٣- أن البلاء موكل بالمنطق؛ لأنه قال لهم: {هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألَّا تقاتلوا}؛ فكان ما توقعه نبيهم واقعًا؛ فإنهم لما كتب عليهم القتال تولَّوا.

١٤- أن بعض السؤال يكون نكبة على السائل، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم}[المائدة: ١٠١].

١٥- وجوب القتال دفاعًا عن النفس؛ لأنهم لما قالوا: {وقد أخرجنا} قال تعالى: {فلمَّا كتب عليهم القتال}: أي فرض عليهم؛ ليدافعوا عن أنفسهم، ويحرِّروا بلادهم من عدوِّهم؛ وكذلك أبناءهم من السَّبي.

١٦- تحذير الظالم من الظلم - أيُّ ظلم كان -؛ لقوله تعالى: {والله عليم بالظالمين}؛ فإن هذه الجملة تفيد الوعيد والتهديد للظالم.

١٧- تحريم الظلم لوقوع التهديد عليه.

١- راجع البخاري ص٣٢٩، كتاب المغازي، باب ١٤: حديث بني النضير ... ، حديث رقم ٤٠٢٨؛ ومسلما ص٩٩١، كتاب الجهاد والسير، باب ٢٠: إجلاء اليهو من الحجاز، حديث رقم ٤٥٩٢ [٦٢] ١٧٦٦.

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٣٠١)، عن عمران بن حصين.

١٨- أن ترك الواجب من الظلم؛ لقوله تعالى: {تولَّوا إلَّا قليلًا منهم والله عليم بالظالمين}: أي المتولِّين الذين فرض عليهم القتال ولم يقوموا به؛ فدلَّ ذلك على أن الظلم ينقسم إلى قسمين: إما فَعل محرَّم؛ وإما ترَك واجب.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

قال ابن العثيمين: {وقال لهم نبيُّهم} بتشديد الياء؛ وفي قراءة: (نبيئهم) بالهمز.

{إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا}؛ {طالوت} علم على المبعوث؛ و{ملكًا} حال من {طالوت}؛ وال{ملك}: هو الذي له التدبير الذي لا ينازع فيه؛ ولكنه بالنسبة للمخلوق بحسب ما تقتضيه الولاية الشرعية أو العرفية.

قال السعدي: فكان هذا تعيينا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبَوا إلَّا أن يعترضوا.

قال ابن العثيمين: {قالوا}: أي معترضين على هذا {أنَّى}: بمعنى الاستفهام الإنكاري {يكون له الملك علينا}.

ثم قالوا معزِّزين، لاستبعادهم هذا الشيء: {ونحن أحق بالملك منه}؛ كأنهم يرون أن الملك لا يكون إلَّا كابرًا عن كابر، وأن هذا لم يسبق لأحد من آبائه أنه تولَّى الملك بخلافنا نحن؛ فإن الملوك كانوا منَّا؛ فكيف جاءه الملك؟! أيضًا {ولم يؤت سعة من المال} فهو فقير؛ وقد يقال: إنه ليس بفقير؛ لكن ليس عنده مال واسع؛ وفرق بين الفقير المُعدَم، وبين من يجد، ولكن ليس ذا سعة - يعني ليس غنيًّا ننتفع بماله -، ويدبِّرنا بماله، ويحصل الجيوش والجنود بماله؛ فذكروا علَّتين؛ إحداهما: من حيث التَّوسط في مجتمعه؛ والثانية: من حيث المال؛ إذا فقد القوة الحسبية والقوة المالية؛ قالوا: هذا الرجل ليس عنده حَسَب؛ فليس من أبناء الملوك؛ وليس عنده مال؛ فليس من الأثرياء الذين يخضعون الناس بأموالهم.

وجملة: {ونحن أحق بالملك منه} في موضع نصب على الحال؛ وتأمَّل قول نبيُّهم: {إن الله قد بعث لكم طالوت} حيث عبر باللام الدالَّة على أنه هذا الملك بُعِثَ لمصلحتهم؛ وبيَّن قولهم: {أنَّى يكون له الملك علينا} حيث أومئوا إلى أن بعثه للسيطرة عليهم.

قال السعدي: وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النَّسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدَّمة عليها، فلهذا قال لهم نبيهم: {إن الله اصطفاه عليكم} فلزمكم الانقياد لذلك.

قال ابن العثيمين: جواب نبيِّهم: {قال إن الله اصطفاه عليكم}؛ أي اختاره عليكم؛ وأصلها من: الصفوة؛ فيكون أصل {اصطفاه} اصتفاه – بتاء الافتعال؛ ولكنها قلبت طاء لعلَّة تصريفية.

وقوله هنا: {اصطفاه عليكم}؛ وفي الأول قال: {إن الله قد بعث لكم} إشارة إلى أنه تعالى فضله عليهم، فاختاره؛ لأنه أفضل منهم؛ فهو مفضَّل عليهم لما أعطاه الله مما سيذكر.

{وزاده بسطة}: أي سعة، كقوله تعالى: {والله يقبض ويبسط}[البقرة: ٢٤٥]، وقوله تعالى: {يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر}[الرعد: ٢٦].

{في العلم والجسم}؛ المراد بـ{العلم}: علم تدبير الملك؛ فعنده الحنكة والرأي ما جعله مختارًا عليهم من قبل الله عز وجل؛ أيضًا زاده بسطة في الجسم؛ وهي القوة، والضخامة، والشجاعة؛ فاجتمع في حقه القوتان: المعنوية – وهي العلم؛ والحسية – وهي أن الله زاده بسطة في الجسم.

قال السعدي: أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تمَّ رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختلَّ عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالمًا بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا ينفذه شيئًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص٣١٤: قال ابن عباس رضي الله عنه: كان طالوت أعلم بني اسرائيل بالحرب، وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه، والْ{بَسْطَةُ}: السَّعَةُ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: هُوَ مِنْ قَوْلِك: (بَسَطْت الشَّيْءَ) إذَا كَانَ مَجْمُوعًا فَفَتَحْته وَوَسِعْته، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَالْمُرَادُ بِتَعْظِيمِ الْجِسْمِ: فَضْلُ الْقُوَّةِ إذْ الْعَادَةُ أَنَّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ جِسْمًا كَانَ أَكْثَرَ قُوَّةً.

قال ابن العثيمين: {والله يؤتي ملكه من يشاء}: أي يعطي ملكه من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، كما قال تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}[آل عمران: ٢٦].

{والله واسع}: أي ذو سعة في جميع صفاته؛ واسع في علمه، وفضله، وكرمه، وقدرته، وقوته، وإحاطته بكل شيء، وجميع صفاته، وأفعاله؛ و{عليم}: أي ذو علم بكل شيء؛ ومنه العلم بمن يستحق أن يكون ملكًا، أو غيره من الفضل الذي يؤتيه الله سبحانه وتعالى من يشاء.

قال السعدي: {والله واسع} الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحدًا عن أحد، ولا شريفًا عن وضيع، ولكنه مع ذلك {عليم} بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبيينه أن أسباب الملك متوفِّرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له رادٌّ، ولا لإحسانه صادٌّ[١].

قال أبو زهرة: ذَيَّلَ الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية، للدلالة على أمرين:

أولهما: أن الأمور كلُّها بيده سبحانه وتعالى، وأنه فعَّال لما يريد، وأن ما يشاء في هذا الكون يقع، وما لَا يشاء لَا يقع، وأنه سبحانه يؤتي الملك في الدنيا لمن يشاء، وأنه إذ يعطيه هو المسيطر عليه، ولذلك أضيف الملك إليه إذ قال: {مُلْكَهُ} فهو إذ يعطيه لمن يعطيه هو الغالب على أمره يستطيع أن يسلبه في أي وقت شاء، فهو مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممَّن يشاء، وهو القاهر فوق عباده.

ثانيهما: أن كل شيء في الوجود تحت سلطان الله تعالى، وهذا معنى أن الله واسع، أي محيط بكل شيء، قد وسع كل شيء برحمته وقدرته، وأنه يدبر الأمور على مقتضى العلم الواسع الشامل؛ فهو يربط الأسباب والمسببات، وهو يعطي لحكمة يعلمها، ويمنع لحكمة يعلمها، يبتلي الأمم بالقوة والضعف والعزَّة والذِّلة، والهزيمة والانتصار، والبأساء والضراء، ثم النَّعماء والسَّرَّاء، كما قال تعالى: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...}، وعلى الأمم المغلوبة أن تتَّخذ الأسباب بجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وتحرير النفوس من ربقة الأهواء والشهوات، ولا تستسلم للضعف، ولا تستخذي للقوى، وتناضل وتكافح وتصابر، وتتوكَّل على الله، وإلى الله مصير الأمور.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ نبيّهم وافقهم على أن يبعث إليهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله؛ فدعا الله عز وجل، فاستجاب له.

٢- كمال تعظيم الأنبياء لله تعالى وحسن الأدب معه؛ لقول نبيِّهم: {إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا}؛ ولم يقل: إني بعثت.

٣- أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {إن الله قد بعث لكم}.

٤- إسناد الفضل إلى أهله؛ لقوله تعالى: {إن الله قد بعث لكم}.

٥- أنَّ الله قد يعطي الملك من لا يترقَّبه – لكونه غير وجيه، ولا من سلالة الملوك.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الواسع} مفصلًا عند تفسير الآية (١١٥) من سورة البقرة، وإسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٦- اختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطب، وتسليمه للأمر الواقع؛ لقول نبيِّهم: {إن الله قد بعث لكم}؛ فإنه أبلغ في الإقناع، والتسليم من قوله: إني بعثت لكم.

٧- أن المعترض يذكر وجه اعتراضه لمخاطبه؛ لقولهم: {أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال}.

٨- أن استفهام هؤلاء القوم يحتمل أن يكون المراد به الاعتراض؛ ويحتمل أن يراد به الاستكشاف، والبحث عن السبب بدون اعتراض: كيف كان ملكًا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؟ فإن كان الأول فإن حالهم تقتضي الذَّم؛ لأنهم كيف يعترضون وهم الذين طلبوا أن يبعث لهم ملكا!! وإن كان الثاني فلا اعتراض عليهم ولا لوم.

٩- أن المجيب يختار ما يكون به الإقناع بادئًا بالأهم فالأهم؛ لقول نبيِّهم في جوابه: {إن الله اصطفاه عليكم ... } إلخ؛ فبدأ بذكر ما لا جدال فيه - وهو اصطفاء الله عليهم -؛ ثم ذكر بقيَّة المؤهِّلات: وهي أن الله زاده بسطة في العلم، وتدبير الأمة، والحروب، وغير ذلك، وأن الله زاده بسطة في الجسم: ويشمل القوة، والطول ... ؛ وأن الله عز وجل هو الذي يؤتي ملكه من يشاء، وفعله هذا لابدَّ وأن يكون مقرونًا بالحكمة: فلولا أن الحكمة تقتضي أن يكون طالوت هو الملك ما أعطاه الله عز وجل الملك؛ وأن الله واسع عليم: فهو ذو الفضل الذي يمدُّه إلى من يشاء من عباده؛ فله أن يتفضَّل على من يشاء؛ الله أعلم حيث يجعل رسالته؛ والله أعلم أيضًا حيث يجعل ولايته.

١٠- أن الملك تتوطَّد أركانه إذا كان للإنسان مزيَّة في حسبه، أو نسبه، أو علمه، أو قوته؛ يؤخذ هذا أولًا من قولهم: {أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال}؛ وثانيًا من قوله: {إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم}.

١١- بيان أن تقدير الله عز وجل فوق كل تصور؛ لقوله تعالى: {إن الله اصطفاه عليكم} مع أنهم قدحوا فيه من وجهين: أنهم أحق بالملك منه، وأنه فقير؛ فبيَّن نبيُّهم أن الله اصطفاه عليهم بما تقتضيه الحكمة.

١٢- أنه كلَّما كان وليُّ الأمر ذا بسطة في العلم وتدبير الأمور والجسم والقوة، كان أقوم لملكه وأتمّ لإمرته؛ لقوله تعالى: {وزاده بسطة في العلم والجسم}.

١٣- أن ملك بني آدم ملك لله؛ لقوله تعالى: {والله يؤتي ملكه من يشاء}؛ فهذا الملك في مملكته هو في الحقيقة ما ملك إلَّا بإذن الله عز وجل؛ فالملك لله سبحانه وتعالى وحده يؤتيه من يشاء.

١٤- أن ملكنا لما نَملِكه ليس مُلكًا مطلقًا نتصرَّف فيه كما نشاء؛ بل هو مقيَّد بما أذِن الله به؛ ولهذا لا نتصرَّف فيما نملِك إلَّا على حسب ما شرعه الله؛ فلو أراد الإنسان أن يتصرَّف في ملكه كما يشاء - يتلفه ويحرقه، ويعذِّبه إذا كان حيوانًا - فليس له ذلك؛ لأن ملكه تابع لملك الله سبحانه وتعالى.

١٥- إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {من يشاء}؛ ومشيئته تعالى تابعة لحكمته؛ لقوله عز وجل: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}[الإنسان: ٣٠].

١٦- أن أفعال الله سبحانه وتعالى تقع بمشيئته لا مكره له؛ لأنه المهيمن على كل شيء.

١٧- إثبات اسمين من أسماء الله – وهما {واسع}، و{عليم}، وما تضمَّناه من وصف أو حكم.

١٨- إثبات سعة الله عز وجل في إحاطته، وصفاته، وأفعاله.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)

قال أبو زهرة: لقد خضعوا لقول نبيِّهم ولحكم الله باختيار طالوت وليًّا لأمرهم، متوليًّا قيادتهم، ولكنَّه خضوع القلِق المضطرب الذي لم يصب السكون قلبه، فلم تطمئن قلوبهم، فساق الله إليهم آية تدلُّ على سلطان الله، إذ لابدَّ من أمارة تثبت القلوب، وخصوصًا أنهم مقدِمون على حرب فيها تشتدُّ الشديدة وتبتلى القلوب، فلابدَّ من نفوس ملتفة حول قائد لَا يرين عليها شيء من الرَّيب، ولا يمسُّها شيء من ظلمة الشك، بل يكون الخضوع الكامل، والاتحاد الشامل، والتآلف بين الجيش والقائد. فكانت آية ملك طالوت، أي أمارة سلطانه المتقرَّر الثابت، أن يأتيهم التابوت فيه سكينة من ربهم.

قال ابن العثيمين: {وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت}؛ {آية}: يعني علامة، كما قال تعالى: {أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل}[الشعراء: ١٩٧]: يعني علامة تدلُّ على أنه حق.

قوله تعالى: {أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم}؛ {أن}، وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر {إن}؛ و{التابوت} شيء من الخشب، أو من العاج يشبه الصندوق؛ ينزل، ويصطحبونه معهم، وفيه السكينة – يعني أنه كالشيء الذي يسكنهم، ويطمئنون إليه –؛ وهذا من آيات الله.

قال الطبري: وهو التابوت الذي كانت بنو إسرائيل إذا لقوا عدوًّا لهم قدموه أمامهم وزحفوا معه، فلا يقوم لهم معه عدو، ولا يظهر عليهم أحد ناوأهم، حتى ضيَّعوا أمر الله وكثر اختلافهم على أنبيائهم، فسلبهم الله إيَّاه مرة بعد مرة، يردُّه إليهم في كل ذلك، حتى سلبهم آخرها مرة فلم يردَّه عليهم، ولن يُرَدَّ إليهم آخر الأبد.

قال ابن عباس ووهب بن منبه: أن التابوت كان عند عدوٍّ لبني إسرائيل كان سلبهموه. وذلك أن الله تعالى ذكره قال مخبِرًا عن نبيه في ذلك الزمان قوله لقومه من بني إسرائيل: {إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت}، والألف واللام لا تدخلان في مثل

هذا من الأسماء إلَّا في معروف عند المتخاطبين به. وقد عرفه المخبِر والمخبَر. فقد علم بذلك أن معنى الكلام: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت الذي قد عرفتموه، الذي كنتم تستنصرون به، فيه سكينة من ربكم. ولو كان ذلك تابوتًا من التوابيت غير معلوم عندهم قدره ومبلغ نفعه قبل ذلك، لقيل: إن آية ملكه أن يأتيكم تابوتٌ فيه سكينة من ربكم.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٢ص٤٧٢: السَّكِينَةُ: اسْمٌ لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ. أَوَّلُهَا: سَكِينَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أُعْطُوهَا فِي التَّابُوتِ. قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: هِيَ رِيحٌ هَفَّافَةٌ. وَذَكَرُوا صِفَتَهَا.

قُلْتُ: اخْتَلَفُوا: هَلْ هِيَ عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، أَوْ مَعْنًى؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا عَيْنٌ. ثُمَّ اخْتَلَفَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ فِي صِفَتِهَا فَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ، لَهَا رَأْسَانِ وَوَجْهٌ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ. وَيُرْوَى عَنْ مُجَاهِدٍ: إِنَّهَا صُورَةُ هِرَّةٍ لَهَا جَنَاحَانِ، وَعَيْنَانِ لَهُمَا شُعَاعٌ، وَجَنَاحَانِ مِنْ زُمُرُّدٍ وَزَبَرْجَدٍ، فَإِذَا سَمِعُوا صَوْتَهَا أَيْقَنُوا بِالنَّصْرِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ طَسْتٌ مِنْ ذَهَبِ الْجَنَّةِ. كَانَ يُغْسَلُ فِيهِ قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ. وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: هِيَ رُوحٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ تَتَكَلَّمُ. إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَخْبَرَتْهُمْ بِبَيَانِ مَا يُرِيدُونَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا مَعْنًى. وَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: {سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}: أَيْ وَمَجِيئُهُ إِلَيْكُمْ: سَكِينَةٌ لَكُمْ وَطُمَأْنِينَةٌ. وَعَلَى الْأَوَّلِ: يَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّ السَّكِينَةَ فِي نَفْسِ التَّابُوتِ. وَيُؤَيِّدُهُ عَطْفُ قَوْلِهِ: {وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}، قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: فِيهِ سَكِينَةٌ هِيَ مَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْآيَاتِ. فَتَسْكُنُونَ إِلَيْهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ، وَالْكَلْبِيُّ: هِيَ مِنَ السُّكُونِ، أَيْ طُمَأْنِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ. فَفِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ التَّابُوتُ اطْمَأَنُّوا إِلَيْهِ وَسَكَنُوا.

قال ابن العثيمين: {وبقية ممَّا ترك آل موسى وآل هارون}: وهم الأنبياء تركوا العلم، والحكمة؛ لأن الأنبياء لم يورِّثوا درهمًا ولا دينارًا؛ وإنما ورَّثوا العلم؛ فهذا التابوت كان مفقودًا، وجاء به هذا الملك الذي بعثه الله لهم، وصار معهم يصطحبونه في غزواتهم فيه السكينة من الله سبحانه وتعالى: أنهم إذا رأوا هذا التابوت سكنت قلوبهم وانشرحت صدورهم؛ وفيه أيضًا ممَّا ترك آل موسى، وآل هارون – عليهما الصلاة والسلام – من العلم والحكمة.

وقوله تعالى: {آل موسى وآل هارون}؛ خصَّ موسى، وهارون – عليهما الصلاة والسلام –، لأنهما جاءا برسالة واحدة.

وقوله تعالى: {تحمله الملائكة}: الجملة حال من {التابوت}؛ و{الملائكة}: عالم غيبي خلقوا من نور؛ وسبق الكلام مبسوطًا في أحوالهم.

{إن في ذلك لآية} بالنصب اسم {إن} مؤخَّرًا؛ والمشار إليه: (التابوت تحمله الملائكة، وفيه سكينة من الله، وبقيَّة ممَّا ترك آل موسى، وآل هارون).

قال ابن كثير: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ}: أَيْ عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ النبوة، وفيما أمرتكم به من طَاعَةِ طَالُوتَ: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}: أَيْ بِاللَّهِ واليوم الآخر.

قال أبو زهرة: ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه العبارة السامية، لبيان أن عليهم أن يخضعوا لإمرة طالوت بعد أن تبيَّن لهم اختيار الله له، واصطفاؤه؛ والمعنى: إن في عناية الله سبحانه وتعالى بكم، من إعادته التابوت شارة عزِّكم – لآية لكم وعلامة توجب عليكم أن تخضعوا، ولا تتململوا، ولا تتمرَّدوا إن كنتم مؤمنين. أي إن كان شأنكم أن تؤمنوا بالحق، وتذعنوا إذا علمتموه.

قال الطبري: وهذه القصة وإن كانت خبرًا من الله تعالى ذكره عن الملإ من بني إسرائيل ونبيّهم، وما كان من ابتدائهم نبيّهم بما ابتدءوا به من مسألته أن يسأل الله لهم أن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه في سبيله، ونبأً عمَّا كان منهم من تكذيبهم نبيّهم بعد علمهم بنبوته، ثم إخلافهم الموعد الذي وعدوا الله ووعدوا رسوله من الجهاد في سبيل الله، بالتخلُّف عنه حين استنهضوا لحرب من استنهضوا لحربه، وفتح الله على القليل من الفئة، مع تخذيل الكثير منهم عن ملكهم وقعودهم عن الجهاد معه – فإنه تأديب لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ من ذراريهم وأبنائهم يهود قريظة والنضير، وأنهم لن يعدوا في تكذيبهم محمدًا ﷺ فيما أمرهم به ونهاهم عنه – مع علمهم بصدقه، ومعرفتهم بحقيقة نبوته، بعد ما كانوا يستنصرون الله به على أعدائهم قبل رسالته، وقبل بعثة الله إياه إليهم وإلى غيرهم – أن يكونوا كأسلافهم وأوائلهم الذين كذبوا نبيّهم شمويل بن بالي، مع علمهم بصدقه، ومعرفتهم بحقية نبوته، وامتناعهم من الجهاد مع طالوت لما ابتعثه الله ملكًا عليهم، بعد مسألتهم نبيهم ابتعاث ملك يقاتلون معه عدوهم ويجاهدون معه في سبيل ربهم، ابتداءً منهم بذلك نبيّهم، وبعد مراجعة نبيهم شمويل إياهم في ذلك – وحض لأهل الإيمان بالله وبرسوله من أصحاب محمد ﷺ على الجهاد في سبيله، وتحذير منه لهم أن يكونوا في التخلف عن نبيهم محمد ﷺ عند لقائه العدو، ومناهضته أهل الكفر بالله وبه، على مثل الذي كان عليه الملأ من بني إسرائيل في تخلفهم عن ملكهم طالوت إذ زحف لحرب عدو الله جالوت، وإيثارهم الدَّعة والخفض على مباشرة حر الجهاد والقتال في سبيل الله – وشحذ منه لهم على الإقدام على مناجزة أهل الكفر به الحرب، وترك تهيب قتالهم أن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم واشتدَّت شوكتهم بقوله: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[سورة البقرة: ٢٤٩]، – وإعلام منه تعالى ذكره عباده المؤمنين به أن بيده النصر والظفر والخير والشر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث يؤيد الأمور بالآيات لتقوم الحجة؛ لقوله تعالى: {وقال لهم نبيهم إن آية ملكه}؛ ولو شاء الله عز وجل لفعل ما يفعل بدون آية، وانتقم من المكذبين، والمستكبرين؛ ولكن من رحمته عز وجل أنه يبعث بالآيات حتى تطمئن القلوب، وحتى تقوم الحجة؛ ولهذا ما من رسول

أرسل إلَّا أوتي ما على مثله يؤمن البشر؛ وحصول الآيات حكمة ظاهرة؛ لأنه لو خرج رجل من بيننا، وقال: أنا رسول الله إليكم: (افعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه؛ وإلا فإن دماءكم وأموالكم حلال لي)؛ فإنه لا يطاع؛ ولكن من رحمة الله عز وجل، وحكمته أن جعل للرسل آيات حتى تقوم الحجة، ويستجيب الناس.

٢- ما في التابوت من الآيات العظيمة، حيث كان هذا التابوت مشتملًا على ما تركه آل موسى، وآل هارون من العلم، والحكمة من وجه؛ وكان أيضا سكينة للقوم تسكن إليه نفوسهم، وقلوبهم، ويزدادون قوة في مطالبهم.

٣- أن للسكينة تأثيرًا على القلوب؛ لقوله تعالى: {فيه سكينة من ربكم}؛ وتأمل كيف أضافه إلى ربوبيته إشارة إلى أن في ذلك عناية خاصة لهؤلاء القوم؛ والسكينة إذا نزلت في القلب اطمأن الإنسان وارتاح وانشرح صدره لأوامر الشريعة، وقبلها قبولًا تامًّا.

٤- إثبات الملائكة؛ لقوله تعالى: {تحمله الملائكة}؛ وفي قوله تعالى: {الملائكة} دليل على أن التابوت كبير.

٥- أن الآيات إنما ينتفع بها المؤمن؛ لقوله تعالى: {إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين}.

٦- تأكيد الشيء بأدوات التأكيد والتكرار؛ وهنا في هذه الآية اجتمع التكرار والأدوات؛ فقوله تعالى: {إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت}، ثم قوله تعالى: {إن في ذلك لآية لكم}: فهذا أكد بالتكرار؛ وأكّد أيضًا بـ{إن}، واللام: {إن في ذلك لآية لكم}: فهذا أكّد بالأدوات.

٧- فضيلة الإيمان، وأن الإيمان أكبر ما يكون تأثيرًا في الانتفاع بآيات الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين}.

٨- أن الإنسان إذا ازداد إيمانًا ازداد فهما لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الشيء إذا علّق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصانه؛ فكلّما تم الإيمان كان انتفاع الإنسان بآيات الله أكثر، وفهمه لها أعظم.

٩- أن الملائكة أجسام؛ لقوله تعالى: {تحمله الملائكة}؛ وأما قول من يقول: إنهم عقول فقط؛ أو أنهم أرواح وليس لهم أجسام فقول ضعيف؛ بل باطل؛ لأن الله تعالى يقول: {جاعل الملائكة رسلًا أولي أجنحة}[فاطر: ١]؛ والنبي ﷺ رأى جبريل على خلقته – أو على صورته – التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق(١).

١- راجع البخاري ص٤١٥، كتاب التفسير، ٥٣ سورة النجم، باب {لقد رأى من آيات ربه الكبرى}، حديث رقم ٤٨٥٨، وصحيح مسلم ص٧٠٨، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: {ولقد رءاه نزلة أخرى ... }، حديث رقم ٤٣٢ [٢٨٠] ١٧٤.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

قال ابن العثيمين: {فلمَّا فصل طالوت بالجنود}: أي مشى بهم، وانفصل عن مكانه؛ و{الجنود} جمع (جند)؛ وهم الجيش المقاتلون؛ وكان طالوت رجلًا ذكيًّا عاقلًا؛ لأن الله زاده بسطة في العلم والجسم؛ وكان عنده علم بأحوالهم من قبل؛ وأنه لما كتب عليهم القتال بيَّن لهم أن الله مبتليهم بنهر؛ والنهر هو الماء الجاري الكثير؛ فابتلاهم الله عز وجل بهذا النهر؛ أولًا: ليعلم من يصبر، ومن لا يصبر؛ لأن الجهاد يحتاج إلى معاناة، وصبر؛ ثانيًا: ليعلم من يطيع ممَّن لا يطيع؛ ولهذا قال لهم الملك طالوت: {إن الله مبتليكم بنهر}: أي مختبركم به.

{فمن شرب منه}: أي كثيرًا، {فليس مني}: أي فإني منه بريء؛ لأنه ليس على منهجي؛ {ومن لم يطعمه}: أي لم يشرب منه شيئًا، {فإنه مني}: أي على طريقي ومنهجي؛ {إلَّا من اغترف غرفة بيده}: أي شرب قليلًا مغترفًا بيده – لا بيديه –.

قال الطبري: فإنه خبر من الله تعالى ذكره عن طالوت بما قال لجنوده، إذ شكوا إليه العطش، فأخبر أن الله مبتليهم بنهر، ثم أعلمهم أن الابتلاء الذي أخبرهم عن الله به من ذلك النهر، هو أن من شرب من مائه فليس هو منه – يعني بذلك: أنه ليس من أهل ولايته وطاعته، ولا من المؤمنين بالله وبلقائه. ويدلُّ على أن ذلك كذلك قول الله تعالى ذكره: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، فأخرج من لم يجاوز النهر من الذين آمنوا، ثم أخلص ذكر المؤمنين بالله ولقائه عند دنوِّهم من جالوت وجنوده بقوله: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}، وأخبرهم أنه من لم يطعمه – يعني: من لم يطعم الماء من ذلك النهر. والهاء في قوله: {فمن شرب منه}، وفي قوله: {ومن لم يطعمه}، عائدة على {النهر}، والمعنى لمائه. وإنما ترك ذكر (الماء) اكتفاء بفهم السامع بذكر النهر لذلك: أن المراد به الماء الذي فيه.

ومعنى قوله: {لم يطعمه}، لم يذقه، يعني: ومن لم يذق ماء ذلك النهر فهو مني – يقول: هو من أهل ولايتي وطاعتي، والمؤمنين بالله وبلقائه. ثم استثنى مِن {مَن} في قوله: {ومن لم يطعمه}، المغترفين بأيديهم غرفة، فقال: ومن لم يطعم ماء ذلك النهر، إلَّا غرفة يغترفها بيده، فإنه منِّي. وذكر لنا أن عامتهم شربوا من ذلك الماء، فكان من شرب منه عطش، ومن اغترف غرفة روي.

قال أبو زهرة: {ومن لم يطعمه إلا من اغترف غرفة بيده فإنه مني}: ولكن النص السامي جاء بتقديم الجواب على مستثنى الشرط لحكمة بليغة، وهي المسارعة إلى الحكم بالاتصال؛ وإثبات أن أساس الصلة التي تربطهم ألَّا ينالوا من الماء، ثم رخص لهم في الغرفة بيد لنقع الغلة، وذلك ليقلّلوا ما كان في طاقتهم التقليل؛ لأنهم إن استرسلوا في أخذ الماء لَا يقفوا عند القليل، بل ينالوا منه الكثير.

قال ابن العثيمين: {فشربوا منه}: أي شربًا كثيرًا، {إلَّا قليلًا منهم}: فلم يشرب كثيرًا.

{فلمَّا جاوزه هو والذين آمنوا معه}: أي فلمَّا تعدَّاه طالوت، والذين آمنوا معه؛ ولا يلزم أن يكونوا عبروا فوقه.

قال الطبري: {فلما جاوزه هو}، فلما جاوز النهر طالوت. والهاء في {جاوزه} عائدة على {النهر}، و{هو} كناية اسم طالوت. وقوله: {والذين آمنوا معه}: يعني وجاوز النهر معه الذين آمنوا، {قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}.

ثم اختلف في عدَّة من جاوز النهر معه يومئذ، ومن قال منهم: {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}. وأولى القولين في ذلك بالصواب ما روي عن ابن عباس وقاله السدي؛ وهو أنه جاوز النهر مع طالوت المؤمن الذي لم يشرب من النهر إلَّا الغرفة، والكافر الذي شرب منه الكثير. ثم وقع التمييز بينهم بعد ذلك برؤية جالوت ولقائه، وانخزل عنه أهل الشرك والنفاق – وهم الذين: {قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده} – ومضى أهل البصيرة بأمر الله على بصائرهم، وهم أهل الثبات على الإيمان، فقالوا: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}.

فإن ظنَّ ذو غفلة أنه غير جائز أن يكون جاوز النهر مع طالوت إلَّا أهل الإيمان الذين ثبتوا معه على إيمانهم، ومن لم يشرب من النهر إلَّا الغرفة، لأن الله تعالى ذكره قال: {فلمَّا جاوزه هو والذين آمنوا معه}، فكان معلومًا أنه لم يجاوز معه إلَّا أهل الإيمان، على ما روي به الخبر عن البراء بن عازب، ولأن أهل الكفر لو كانوا جاوزوا النهر كما جاوزه أهل الإيمان، لما خصَّ الله بالذكر في ذلك أهل الإيمان – فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن. وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الفريقان – أعني فريق الإيمان وفريق الكفر جاوزوا النهر، وأخبر الله نبيه محمدًا ﷺ عن المؤمنين بالمجاوزة، لأنهم كانوا من الذين جاوزوه مع ملكهم وترك ذكر أهل الكفر، وإن كانوا قد جاوزوا النهر مع المؤمنين.

والذي يدلُّ على صحة ما قلنا في ذلك، قول الله تعالى ذكره: {فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}، فأوجب الله تعالى ذكره أن {الذين يظنون أنهم ملاقو الله}، هم الذين قالوا عند مجاوزة النهر: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}، دون

غيرهم الذين لا يظنون أنهم ملاقو الله – وأن (الذين لا يظنون أنهم ملاقو الله)، هم الذين قالوا: {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}. وغير جائز أن يضاف الإيمان إلى من جحد أنه ملاقي الله أو شك فيه([1]).

قال ابن العثيمين: {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله}: أي يوقنون بذلك؛ لأن ال{ظن} يراد به اليقين أحيانًا، كما في قوله تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم}[البقرة: ٤٥، ٤٦]: أي يوقنون به.

قال أبو زهرة: الظن هنا بمعنى العلم القطعي الجازم؛ لأن شأن المؤمن أن يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر إيمانًا قاطعًا جازمًا لَا شك فيه، وإنما عبَّر عن العلم اليقيني في هذا المقام بلفظ الظن لسببين:

أحدهما: أن اليوم الآخر مغيَّب غير محسوس.

وثانيهما: أن الظن يتضمَّن معنى الرجاء، ورجاء لقاء الله سبحانه وتعالى راضيًا عن فعل العبد يدفعه إلى العمل والجهاد في سبيله، وبيع النفس في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

ووصف أولئك الثابتين الصابرين الذين أرادوا العزة فافتدوها بأنفسهم وأعظموا الفداء بأنهم {الذين يظنون أنهم ملاقو الله} بيان للباعث القوي الدافع للرضا بالفداء، والصبر على البلاء، وذلك لأن الإيمان بلقاء الله يجعل المرء يستهين بكل ما ينزل به في الدنيا، لأنه مهما يكن مقداره، تعب ضئيل في مقابل نعيم مقيم يوم القيامة، ولأنه مهما يكن ما يلقاه من عنت في الدنيا لَا يعدُّ شيئًا مذكورًا في نظير لقاء الله تعالى راضيًا عنه، متقبِّلًا لأعماله، فذلك الرضوان دونه الدنيا كلّها بحذافيرها.

وإذا كان المؤمن بلقاء الله المستشعر لعظمته يستهين بكل ما في الدنيا ومن فيها، فهو مستهين بعدوّه مهما تكن كثرته؛ ولذلك قالوا: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}: الفئة: الجماعة المتعاونة المتساندة التي يفيءَ بعضها إلى بعض، ويظاهر بعضها بعضًا، والمعنى كم من مرات كثيرة غلبت جماعة متعاضدة قليلة العدد جماعة كثيرة العدد، لقوة إيمانهم بالله وبحقِّهم.

قال السعدي: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}: أي بإرادته ومشيئته؛ فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزَّه الله، والذَّليل من أذلَّه الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلَّة مع نصره، {والله مع الصابرين}: بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله.

قال ابن العثيمين: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة}: {كم} للتكثير، أي: ما أكثر ما تغلب الفئة القليلة فئة كثيرة.

١- هذه حجة بيّنة ماضية، تتضمن من البصر والفهم والدقة ما ينبغي أن يوقف عنده.

قال شيخ الإسلام في الإستقامة ج٢ص٢٧٠: وَقد ذكر الْجِهَاد بِالنَّفسِ وَالْمَال فِي سَبيله ومدحه فِي غير آيَة من كِتَابه وَذَلِكَ هُوَ الشجَاعَة والسماحة فِي طَاعَته سُبْحَانَهُ وَطَاعَة رَسُوله وملاك الشجَاعَة الصَّبْر الَّذِي يتَضَمَّن قُوَّة الْقلب وثباته وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {كم من فِئَة قَليلَة غلبت فِئَة كَثِيرَة بِإِذن الله وَالله مَعَ الصابرين}. وَقَالَ تَعَالَى {يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا إِذا لَقِيتُم فِئَة فاثبتوا واذْكُرُوا الله كثيرا لَعَلَّكُمْ تفلحون واطيعوا الله وَرَسُوله وَلَا تنازعوا فتفشلوا وَتذهب ريحكم واصبروا ان الله مَعَ الصابرين}[سُورَة الانفال: ٤٥- ٤٦].

والشجاعة لَيست هِيَ قُوَّة الْبدن فقد يكون الرجل قوي الْبدن ضَعِيف الْقلب، وانما هِيَ قُوَّة الْقلب وثباته، فَأن الْقِتَال مَدَاره على قُوَّة الْبدن وصنعته لِلْقِتَالِ وعَلى قُوَّة الْقلب وخبرته بِهِ، والمحمود مِنْهُمَا مَا كَانَ بِعلم وَمَعْرِفَة دون التهور الَّذِي لَا يفكر صَاحبه وَلَا يُمَيّز بَين الْمَحْمُود والمذموم، وَلِهَذَا كَانَ الْقوي الشَّدِيد هُوَ الَّذِي يملك نَفسه عِنْد الْغَضَب حَتَّى يفعل مَا يصلح دون مَا لَا يصلح، فَأَما المغلوب حِين غَضَبه فَلَيْسَ هُوَ بِشُجَاعٍ وَلَا شَدِيد.

قال ابن العثيمين: {بإذن الله}: أي بقدره؛ {والله مع الصابرين}: أي بالنصر والتأييد.

قال الطبري: وأما قوله: {والله مع الصابرين}: فإنه يعني: والله معين الصابرين على الجهاد في سبيله وغير ذلك من طاعته، وظهورهم ونصرهم على أعدائه الصادّين عن سبيله، المخالفين منهاج دينه. وكذلك يقال لكل مُعينٍ رجلًا على غيره: (هو معه)، بمعنى هو معه بالعون له والنصرة.

قال أبو زهرة: ختم الله سبحانه وتعالى الآيات التي تفيد الاستعداد للقتال بتهيئة النفوس، واتِّخاذ سلاح المفاجأة أوَّل سلاح يرفع ضد الأعداء - ببيان سلاح آخر هو أمضى الأسلحة التي تغالب الزمان، وتناضل الحدثان، وهو الصبر، فقال سبحانه: {وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين}: أي أن على الذين يتقدَّمون للجهاد في سبيل الله أن يدَّرَّعوا بالصبر، ويجعلوه أخصُّ صفاتهم، ويستمسكوا به؛ فإن الله سبحانه وتعالى مع الصابرين. والمصاحبة الكريمة التي أفاض الله بها على الصابرين فقال: {وَاللَّه مَعَ الصَّابِرِين}: هي مصاحبة النصرة والتأييد والتوفيق. فالله جل جلاله، وعظمت قدرته، مع الصابرين، ومن كان الله معه فهو منصور، فإنه هو نعم المولى ونعم النصير.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه ينبغي للقائد أن يتفقد جنوده؛ لقوله تعالى: {فصل طالوت بالجنود}: أي مشى بهم، وتدبَّر أحوالهم، ورتَّبهم.

٢- أنَّه يجب على القائد أن يمنع من لا يصلح للحرب سواء كان مخذِلًا، أو مرجِفًا، أو ملحِدًا؛ لقوله تعالى: {فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلَّا من اغترف غرفة بيده}؛ والفرق بين المخذل والمرجف، أن المخذل هو الذي يخذل الجيش، ويقول: ما أنتم بمنتصرين؛ والمرجف هو الذي يُخَوِّفُ من العدو، فيقول: العدو أكثر عددًا، وأقوى استعدادًا ... وما أشبه ذلك.

٣- أنَّ من الحكمة اختيار الجند؛ ليظهر من هو أهل للقتال ومن ليس بأهل؛ ويشبه هذا ما يصنع اليوم ويسمَّى بالمناورات الحربية؛ فإنها عبارة عن تدريب، واختيار للجند والسلاح؛ كيف ينفِّذون الخطة التي تعلَّموها؛ فيجب أن نختبر قدرة الجند على التَّحمُّل والثبات والطاعة؛ والأساليب الحربية مأخوذة من هذا؛ ولكنها متطوّرة حسب الزمان.

٤- أنَّ طالوت امتحنهم على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: من شرب من النهر كثيرًا؛ فهذا قد تبرأ منه.

الوجه الثاني: من لم يشرب شيئًا؛ فهذا من طالوت - أي من جنوده المقربين -.

الوجه الثالث: من شرب منه غرفة بيده؛ فهذا لم يتبرأ منه؛ وظاهر الآية أنه مثل الوجه الثاني.

وهذا الابتلاء أولاً: ليعلم به من يصبر على المشقَّة ممن لا يصبر؛ فهو كالتَّرويض والتَّمرين على الصبر؛ ثانيا: ليعلم به من يمتثل أوامر القائد ومن لا يمتثل.

٥- أن أكثر عباد الله لا ينفِّذ أمر الله؛ لقوله تعالى: {فشربوا منه إلَّا قليلًا منهم}؛ وهذا أمر يشهد به الحال. قال الله تعالى: {وقليل من عبادي الشكور}[سبأ: ١٣]؛ وقال تعالى: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله} [الأنعام: ١١٦]؛ وثبت عن النبي ﷺ أن بعث النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف([١])؛ فالطائع قليل، والمعاند كثير.

٦- جواز إخبار الإنسان بالواقع إذا لم يترتَّب عليه مفسدة؛ لأنهم قالوا: {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}؛ وقد يقال: إن هذا لا تدلُّ عليه الآية؛ وأن فيها دليلاً على أن الجبان في ذعر دائم ورعب؛ لقولهم: {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}.

٧- أنَّ الإيمان موجب للصبر والتحمل؛ لقوله تعالى: {قال الذين يظنُّون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}.

١- أخرجه البخاري ص٢٧١، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ٧، قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٨، وأخرجه مسلم ص٧١٨، كتاب الإيمان، باب ٩٦، قوله: ((يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين))، حديث رقم ٥٣٢ [٣٧٩] ٢٢٢.

٨- أنَّ الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده إما بفوات محبوب؛ أو حصول مكروه؛ ليعلم سبحانه وتعالى صبرهم؛ ولهذا نظائر؛ منها ما قصَّه سبحانه عن بني إسرائيل حين حرم عليهم صيد الحوت في يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتي يوم السبت شرعًا؛ وفي غير يوم السبت لا يرون شيئًا؛ فصنعوا حيلة؛ وهي أنهم وضعوا شباكًا في يوم الجمعة؛ فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في هذا الشباك ثم نشبت فيه؛ فإذا كان يوم الأحد استخرجوها منه؛ فكان في ذلك حيلة على محارم الله؛ ولهذا انتقم الله منهم؛ ووقع ذلك أيضًا للصحابة – رضوان الله عليهم – وهم في حال الإحرام: فابتلاهم الله بصيد تناله أيديهم، ورماحهم؛ ولكنهم ﷺ امتنعوا عن ذلك؛ وهؤلاء – أعني أصحاب طالوت – ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بهذا النهر، وكانوا عطاشا، فقال لهم نبيّهم: {فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلَّا من اغترف غرفة بيده}.

٩- أنَّ الله عز وجل عند الابتلاء يرحم الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: {إلَّا من اغترف غرفة بيده}؛ لأنهم لابدَّ أن يشربوا للنجاة من الموت.

١٠- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {فمن شرب}، وقوله تعالى: {إلَّا من اغترف}، حيث أضاف الفعل إليهم.

١١- أنَّ القليل من الناس هم الذين يصبرون عند البلوى؛ لقوله تعالى: {فشربوا منه إلَا قليلًا منهم}.

١٢- أنَّ من الناس من يكون مرجفًا أو مخذلًا؛ لقوله تعالى: {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}؛ هؤلاء مخذلون؛ وفي نفس الوقت أيضًا مرجفون.

١٣- أن اليقين يحمل الإنسان على الصبر والتحمُّل والأمل والرجاء؛ لقوله تعالى: {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}؛ مع اليقين قالوا هذا القول لغيرهم لما قال أولئك: {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}؛ فردُّوا عليهم.

١٤- إثبات ملاقاة الله؛ لقوله تعالى: {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله}، كما قال تعالى: {يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه}[الانشقاق: ٦].

١٥- أنَّ الظَّنَّ يأتي في محل اليقين؛ بمعنى أنه يستعمل الظن استعمال اليقين؛ لقوله تعالى: {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله}.

١٦- أنَّه قد تغلب الفئة القليلة فئة كثيرة بإذن الله؛ وهذا قد وقع فيما سبق من الأمم، ووقع في هذه الأمة مثل غزوة (بدر)؛ وقد تُغلب الفئة الكثيرة وإن كان الحق معها، كما في غزوة (حنين)؛ لكن لسبب.

١٧- أنَّ الوقائع والحوادث لا تكون إلَّا بإذن الله؛ وهذا يشمل ما كان من فعله تعالى؛ وفعل مخلوقاته؛ لقوله تعالى: {بإذن الله}.

١٨- إثبات الإذن لله سبحانه وتعالى؛ وهو ينقسم إلى قسمين: إذن كوني؛ وإذن شرعي؛ ففي هذه الآية: إذن كوني؛ وفي قوله تعالى: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون}[يونس: ٥٩] : هذا شرعي؛ وفي قوله تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}[الشورى: ٢١] هذا شرعي أيضًا.

١٩- فضيلة الصبر؛ لقوله تعالى: {والله مع الصابرين}.

٢٠- إثبات المعيَّة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {والله مع الصابرين}؛ فإن قلت: هذه الآية ظاهرها تخصيص معيَّة الله بالصابرين مع أنه في آيات أخرى أثبت معيَّته لعموم الناس؛ فقال تعالى: {هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم}[الحديد: ٤]؛ هذا عام، وقال تعالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا}[المجادلة: ٧]؛ فالجواب: أن هذه المعيَّة خاصة تقتضي الإثابة والنصر والتأييد؛ وتلك معيَة عامة تقتضي الإحاطة بالخلق علمًا وسمعًا وبصرًا وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ والمعيَّة التي أضافها الله إلى نفسه منها ما يقتضي التهديد؛ ومنها ما يقتضي التأييد؛ ومنها ما هو لبيان الإحاطة والشمول؛ فمثال الذي يقتضي التأييد قوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}[النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى لموسى، وهارون: {إني معكما أسمع وأرى}[طه: ٤٦]، وقوله تعالى عن نبيه محمد ﷺ: {لا تحزن إن الله معنا}[التوبة: ٤٠]؛ ومثال الذي يقتضي التهديد قوله تعالى: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول}[النساء: ١٠٨]؛ ومثال ما يقتضي الإحاطة قوله تعالى: {وهو معكم أينما كنتم}[الحديد: ٤].

فإن قلت: ما الجمع بين إثبات المعية لله عز وجل، وإثبات العلو له؟.

فالجواب: أنه لا تناقض بينهما؛ إذ لا يلزم من كونه معنا أن يكون حالًّا في الأمكنة التي نحن فيها؛ بل هو معنا وهو في السماء، كما نقول: القمر معنا، والقطب معنا، والثريا معنا، وما أشبه ذلك مع أنها في السماء.

٢١- الترغيب في الصبر؛ لقوله تعالى: {والله مع الصابرين}؛ والصبر ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله: بأن يحبس الإنسان نفسه على الطاعة، فيقوم بها من غير ملل ولا ضجر.

الثاني: الصبر عن محارم الله: بأن يحبس نفسه عمَّا حرَّم الله عليه من قول أو عمل.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة: بأن يحبس نفسه عن التسخُّط على ما يقدره الله من المصائب العامة والخاصة.

وأعلاها الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)

قال أبو زهرة: اجتاز المؤمنون الصابرون النهر، وجمعوا عزائمهم في عزيمة واحدة، وقدروا النصر مع قلّتهم وكثرة عدوِّهم، لأن الإيمان بالحق وحده عُدَّةٌ هي أقوى عُدَدُ الجهاد، وبهذه النفوس المؤمنة المتوثِّبة المفوّضة أمورها لرب العالمين، تقدَّموا للقاء الأعداء، ولم يغرَّهم بالله الغرور ولم يفرضوا أن قوة البدن والسلاح والشعور بالحق وحدها كافية للنصر بل لابدَّ من تأييد الله، ولذا قال سبحانه في وصفهم في ميدان القتال: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}: أي أنهم خرجوا إلى الأرض إلى الفضاء المتَّسعة التي تتلاقى فيها القوي المناضلة، فـ{برزوا} معناها خرجوا إلى البراز، أي الفضاء المتَّسع المترامي الأطراف، وكان بروزهم وظهورهم لقويٍّ جبار غالب، ومعه جند مدرب تعوَّد الانتصار في الماضي، وأذاق بني إسرائيل من الذل كؤوسًا، ذلك هو جالوت وجنوده.

قال الطبري: ومعنى قوله: {برزوا} صاروا بالبراز من الأرض، وهو ما ظهر منها واستوى. ولذلك قيل للرجل القاضي حاجته: (تبرَّز)، لأن الناس قديمًا في الجاهلية، إنما كانوا يقضون حاجتهم في البراز من الأرض. وذلك كما قيل: (تغوَّط)، لأنهم كانوا يقضون حاجتهم في (الغائط) من الأرض، وهو المطمئن منها، فقيل للرجال: (تغوط): أي صار إلى الغائط من الأرض.

قال ابن العثيمين: {ولما برزوا لجالوت وجنوده}: أي ظهر طالوت، وجنوده؛ مأخوذ من (البراز) – وهي الأرض الواسعة البارزة الظاهرة.

{قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا}: إفراغ الشيء على الشيء يدلُّ على عمومه له؛ والمعنى املأ قلوبنا وأجسادنا صبرًا حتى نثبت.

{وثبِّت أقدامنا}: يعني اجعلها ثابتة لا تزول؛ فلا نفر ولا نهرب؛ وربما يراد بال{أقدام} ما هو أعمَّ من ذلك؛ وهو تثبيت القلوب أيضًا.

{وانصرنا على القوم الكافرين}: أي قوّنا عليهم حتى نغلِبهم.

قال السعدي: لما برزوا لجالوت وجنوده {قالوا}: جميعهم {ربنا أفرغ علينا صبرًا}: أي قوّ قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين.

من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم.

قال القرطبي: وهذا كقوله: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} إلى قوله: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}[آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] الآية. وكان رسول الله ﷺ إذا لقي العدو يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم[١]))، ودعا يوم بدر حتى سقط رداؤه عن منكبيه يستنجز الله وعده.

قال أبو زهرة: فدعوه ضارعين بثلاث عبارات مفوّضة تفيد إدراك أسباب النصر:

أما الدعاة الأول فهو: {قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}، يقال أفرغ الإناء: صب ما فيه من ماء، وأفرغ الدلو على نفسه: صب ما فيه من ماء على نفسه، فمعنى أفرغ علينا: أفض علينا صبرًا يعمُّنا في ظاهر جمعنا، وفي خاصة نفوسنا. فالتعبير بـ {أفرغ علينا صبرًا} فيه استعارة تمثيلية شبَّه فيه حالهم والله سبحانه وتعالى يفيض عليهم بالصبر يظهر في جماعتهم مجتمعة وفي الأفراد منفردين بحال الماء يفرغ على الجسم فيعمَّه كله، يعمُّ ظاهره ويتسرب إلى باطنه، فيلقي في القلوب بردًا وسلامًا، وهدوءًا واطمئنانًا.

وصدروا الدعاء بالنداء {ربنا}: أي خالقنا ومنشئنا ومربِّينا ومميتنا، وفي ذلك إشعار بأنهم دعوا مجيبًا، وضرعوا إلى قادر غالب، وإلى منشئ موجد، فهو قادر على أن يأويهم بالصبر، ويغنيهم به عن نقص العدد.

وابتدأوا بالدعاء بالصبر؛ لأنَّ الصبر هو عدَّة القتال الأولى، وهو ذخيرة المؤمنين وبه ضبط النفس فلا تفزع، وبه يجتمع قلب الشجاع فلا يجزع.

والانتصار في القتال بصبر ساعة، والصبر عند اللقاء الأول هو الذي تتبدَّد به قوى العدو مهما تكاثرت؛ ولذا قال النبي ﷺ: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى[٢])).

والدعاء الثاني الذي ضرعوا إلى ربهم فيه قولهم: {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}، وهذا كناية عن أن يمنحهم سبحانه وتعالى الثبات في الزحف وعدم الفرار في النزال، فمعنى: {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}: أي ثبّتنا، ومكّنّا من عدوّنا، ولا تمكِّن عدوَّنا منَّا، ولا تجعل للفرار سبيلًا إلى قلوبنا، فالتعبير بقوله: {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}، تعبير بالجزء وإرادة الكل؛ لأنَّ الأَقدام هي التي يكون بها الفرار، فتثبيتها إبعاد للفرار بثبات أداته وعدم تحرُّكها إلَّا إلى الأمام، وأن الثبات مظهر الصبر، وذريعة النصر بل مظهر القوة، وعنده تتحطَّم قوى العدو، وتتفرَّق كلمته إذا لم يكن محاربًا في سبيل الحق، بل كان يقيم الظلم ويؤيِّد الباطل.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٦)، والحديث بتمامه عن أبي موسى الأشعري: كان إذا خاف قومًا قال: ((اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم)).

٢- (قلت): البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

والدعاء الثالث، وهو قولهم: {وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} وإن إجابة هذا الدعاء هو تحقيق لثمرة الصبر والثبات، وكان الدعاء بتحقيقه للإشارة إلى أن الأمور كلُّها بيد الله، وإن أولئك المؤمنين الصابرين الثابتين كانوا يأخذون بالأسباب، ثم يفوِّضون الأمور إلى الله مسبِّب الأسباب معتقدين أنه مهما يتحقَّق السبب ولا تكون المعونة الإلهية، والتوفيق الرباني، والتأييد من القوي الجبار – فلن يكون الانتصار، وأن الجيش القوي مهما يكن عنده من صبر وثبات يجب أن يؤمن بأن النصر من عند الله العزيز الحكيم القوي الغالب على كل شيء. وقد رأينا في العصور الحديثة قادةً عِظامًا يأخذون بالأسباب ثم ينهزمون، مع أن تحت سلطانهم جنودًا مدرَّبين طائعين صابرين ولكنهم لم يقولوا: المستقبل بيد الله، بل قالوا: المستقبل بأيدينا، فكفَّ الله أيديهم عن الناس، وكانوا عبرة المعتبرين.

قال ابن القيم في شفاء العليل ج١ص٦٣: فالتَّصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد، وهو فعل العبد، ولهذا أثنى على من يسأله أن يُصَبِّره فقال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ}، ففي الآية أربعة أدلَّة:

أحدها: قولهم: {أفرغ علينا صبرًا}، والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممَّن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}؛ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التَّثبيت فعله، والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلَّا بعد فعله.

الثالث: قولهم: {وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}، فسألوه النصر وذلك بأن يقوِّي عزائمهم ويشجِعهم ويصبِّرهم ويثبِّتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب فيحصل النصر، وأيضًا فإن كون الإنسان منصورًا على غيره إمَّا أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وأمَّا أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضًا فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه؛ وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب.

الرابع: قوله: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ}، وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري؛ أي بمشيئته وقضائه وقدره؛ وليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر، فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة، بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكوَّن لا يتخلف عنه البتة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن من تمام العبودية أن يلجأ العبد إلى ربه عند الشدائد؛ لقوله تعالى: {ولمَّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا}.

٢- أنَّ التجاء الإنسان إلى الله عند الشدائد سبب لنجاته وإجابة دعوته، لقوله تعالى بعد ذلك: {فهزموهم بإذن الله} [البقرة: ٢٥١]؛ وأما اعتماد الإنسان على نفسه واعتداده بها فسبب لخذلانه، كما قال تعالى: {ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت}[التوبة: ٢٥]؛ وهذا مشهد عظيم في الواقع؛ فإن كثيرًا من الناس إذا أعطاه الله سبحانه وتعالى نعمة في بدنه أو ماله أو أهله، يرى أن ذلك من حوله وقوته وكسبه؛ وهذا خطأ عظيم؛ بل هو من عند الله؛ هو الذي مَنَّ به عليك؛ فانظر إلى الأصل – لا إلى الفرع –؛ والنظر إلى الفرع وإهمال الأصل سفه في العقل وضلال في الدين؛ ولهذا يجب عليك إذا أنعم الله عليك بنعمة أن تثني على الله بها بلسانك، وتعترف له بها في قلبك، وتقوم بطاعته بجوارحك.

٣- اضطرار الإنسان إلى ربه في تثبيت قدمه على طاعة الله؛ لقوله تعالى: {وثبِّت أقدامنا}.

٤- ذكر ما يكون سببًا للإباحة؛ لقوله تعالى: {وانصرنا على القوم الكافرين}؛ لم يقولوا: على أعدائنا؛ كأنهم يقولون: انصرنا عليهم من أجل كفرهم؛ وهذا في غاية ما يكون من البعد عن العصبية، والحمية؛ يعني ما طلبنا أن تنصرنا عليهم إلَّا لأنهم كافرون.

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)

قال ابن العثيمين: {فهزموهم}: أي غلبوهم {بإذن الله}: أي بتقديره؛ فالإذن هنا كوني.

{وقتل داود جالوت}؛ داود كان من جنود طالوت؛ لكنه عليه الصلاة والسلام كان قويًّا شجاعًا؛ يقال: إن جالوت طلب البراز؛ لأن جالوت قائد جبار عنيد قوي؛ فخرج إليه داود فقتله؛ وقد ذكروا في كيفية قتله ما لا حاجة إلى ذكره، ولا سند صحيح في إثباته؛ وليس لنا في كيفية قتله كبير فائدة؛ ولذا لم يصف الله تعالى لنا القتل؛ فالمقصود قتله، وقد حصل؛ وإذا قتل – وهو القائد – انهزم الجنود.

قال أبو زهرة: في هذا التعبير السامي، بيان لسبب من أسباب الانتصار الدنيوي بعد أن وهبهم الانتصار اللَّدني، ذلك أن طاغيتهم قد قتل، وهو الذي كان يفرض أهواءه وشهواته عليهم، فيجعل منهم جندًا طائعين له يسيرون مع رغبته في السلطان والقهر والغلب بالحق وبالباطل، وكذلك الشأن دائمًا في أهل الباطل يجتمعون على رجل ويسيرون وراءه، فليست لهم إرادة غير إرادته، ولا روح جماعية تجعل لهم كيانًا قائمًا بذاته، مظهره قائدهم، بل يكون الطاغية هو المسلَّط عليهم،

يملي إرادته على أحدهم، ولا إرادة لأحد وراء إرادته، فإذا قتل ذلك الطاغية أو قضى على سلطانه تفرَّق الجمع وذهبت الوحدة الرابطة، وعملت السيوف في أقفيتهم.

وكذلك كان أمر أعداء الله، جمعهم جالوت تحت إمرته، وفرض عليهم إرادته بحكم القهر، أو بالاستهواء، أو التَّبعية الشخصية، فمكَّن الله أولياءه منه، حتى إذا قتل تفرَّق الجمع وولَّى الأدبار، ولا يكون الأمر كذلك إذا كانت الجماعة تحسُّ بالوحدة الجامعة التي تربط آحادها، وقائدها مظهر توحُّد الإرادة وجمع الكلمة، وليس موجد هذه الوحدة لتسخر لإرادته؛ فإنه في هذه الحال إذا ذهب القائد، قام مقامه من يماثله أو على الأقل يقاربه؛ لأن الجماعة لها إرادة موحَّدة، وليست خاضعة لإرادة مسلَّطة وهي الموجدة لقائدها، وليس قائدها هو الموجِد لإرادته، والإرادة التي أقامته تقيم غيره مقامه إذا خلا مكانه.

كان القاتل لجالوت رأس العدو هو داود، وقد رشَّحته قوته الجسمية، وإحكامه للقتال وعلمه وحكمته لأن يتولَّى المُلك من بعد طالوت والمُلك الذي تولَّاه ليس هو المُلك الوراثي الذي يؤول فيه السلطان إلى أحد من أسرة المَلك السابق بالوراثة القانونية؛ لأن داود لم يكن من أسرة طالوت، وما رشَّحته للمُلك وراثة قانونية، بل رشَّحه للمُلك انتخاب طبيعي، وإرادة إلاهية آتته الحُكم والنبوة، فليس المُلك الذي آل لداود هو المُلك الوراثي، بل السلطان الحكَمُ ذلك الانتخاب.

قال ابن العثيمين: {وآتاه الله}؛ ضمير المفعول به يعود إلى {داود}: أي أعطاه الله {الملك}، فصار ملكًا؛ وآتاه {الحكمة} فصار رسولًا؛ واجتمع له ما به صلاح الدين والدنيا؛ الشرع والإمارة.

قال شيخ اسلام في مجموع الفتاوى ج٣٥ص٣٣: وَأَمَّا فِي شَرْعِ مَنْ قَبْلَنَا؛ فَإِنَّ الْمُلْكَ جَائِزٌ؛ كَالْغِنَى يَكُونُ لِلْأَنْبِيَاءِ تَارَةً وَلِلصَّالِحِينَ أُخْرَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي دَاوُد: {وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}، وَقَالَ عَنْ سُلَيْمَانَ: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}، وَقَالَ عَنْ يُوسُفَ: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}، فَهَؤُلَاءِ ثَلَاثَةُ أَنْبِيَاءٍ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ آتَاهُمْ الْمُلْكَ وَقَالَ: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا}، فَهَذَا مُلْكٌ لِآلِ إبْرَاهِيمَ وَمُلْكٌ لِآلِ دَاوُد وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ}، قَالَ: النُّبُوَّةُ فَجَعَلَ النُّبُوَّةَ نَفْسَهَا مُلْكًا.

قال ابن العثيمين: {وعلَّمه مما يشاء}: أي من الذي يشاؤه؛ ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في قوله: {وعلَّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم}[الأنبياء: ٨٠].

قال السعدي: {وعلَّمه ممَّا يشاء} من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلمَّا نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن، لم يحصل ذلك.

قال أبو زهرة: فقوله تعالى: {مِمَّا يَشَاءُ}: يشير إلى سعة العلم، وأنه كثير متشعِّب لَا تحدُّه إلَّا مشيئة الله وإرادته.

فعلَّمه سبحانه سياسة الملك، وأحوال الناس، ومنازع النفوس، وأحوال البلدان وما تنتجه من خيرات، وغير ذلك، وكان تعليم الله سبحانه وتعالى له بالنبوة التي أفاضها سبحانه وتعالى عليه، والتجارب التي ساقها الله إليه، والذخيرة التي بين يديها من أحوال الحاكمين السابقين، والهداة المرشدين، وما أوتيه من علم التوراة، والأخبار الصحاح عن النبيين السابقين، وفي كل ذلك هداية وإرشاد إلى أقوم مناهج الحكم الصحيح.

تلك هي عناصر الحكم الصالح، لابدَّ أن يكون الحاكم قويًّا في جسمه، بحيث لَا يخذل جسمه إرادته، فكثيرًا ما يكون ضعف الإرادة من ضعف الجسم، وضعف التدبير من تخاذل القوى البدنية عن الاحتمال، ولكن قد تكون الإرادة القوية والعزيمة الماضية في جسم ضعيف، وفي هذه الحال قد يستغني عن ذلك العنصر إن لم يوجد شخص تتوافر فيه قوة النفس وقوة الجسم معًا، فالاعتبار الأول لقوة النفس، وقوة الجسم خادمة لقوة النفس وليست مقصودة لذاتها.

والعنصر الثاني هو الحكمة: وهي كما رأيت جعل العمل يسير مع العقل فلا تتحكَّم الأهواء والشهوات، وآفة الحكم الصالح هوى الحاكم، فإن غلبت رغبته عقله غلب الفساد حُكمه، فليختبر كل حاكم نفسه، فإن رأى أهواءه هي المسيطرة فليعلم أن الشرَّ قد استحكم، وأنه أَولى به ثم أَولى أن يعتزل وإن وجد عقله هو المسيطر فليعلم أن الله أجرى عليه التوفيق.

والعنصر الثالث الإحاطة التامة بمصالح الناس وأحوالهم: فإن الحكم عمل للمصلحة، وليس سيطرة وتحكُّمًا، ومن ظنَّه سيطرة وتحكُّمًا فهو ممَّن طمس الله بصيرته، وغلبت عليه شهوته، ثم غلبت عليه شقوته.

إن الفرق ما بين الحُكم الصالح وغير الصالح دقيق في معناه، وإن كان الأثر كبيرًا في مبناه، فالحُكم الصالح أساسه أن يكون الحُكم لمصلحة المحكوم وإجابة لرغبته، والحُكم غير الصالح أساسه أن يكون الحُكم تحكُّمًا في المحكوم، فمن تحكَّم في الرعية ولو باسم مصلحتها، فقد سلك سبيل الفساد، لأن التحكُّم ينبعث من الرغبة في السيطرة، ولو لبس لبوس المصلحة. والسيطرة تسلُّط، والتسلُّط في ذاته فساد يؤدِّي لَا محالة إلى فساد، ويؤدِّي إلى موت الإرادات في الجماعة، وفي ذلك إضعاف لقوَّتها.

وأمَّا الحُكم المنبعث من إرادة الجماعة الذي يقودها لمصلحتها، فهو يؤدِّي إلى الصلاح لَا محالة، وإن تعثر في أخطاء أحيانًا، لأنه من الخطأ يتعلَّم الناس الصواب، ومن الخط المعوَج يُعرف الخط المستقيم.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٥ص١٠٥: وَذَلِكَ أَنَّ الدِّمَاءَ وَالْأَمْوَالَ وَإِنْ كَانَ يُسْتَحَبُّ لِلْمَظْلُومِ أَنْ يَعْفُوَ فِيهَا عَنْ ظَالِمِهِ، فَالْحَاكِمُ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، مَتَى حَكَمَ عَلَى الْمَظْلُومِ بِتَرْكِ حَقِّهِ كَانَ حَاكِمًا بِالظُّلْمِ لَا بِالْعَدْلِ. وَلَوْ أَمَرْنَا كُلَّ وَلِيِّ مَقْتُولٍ أَنْ لَا يَقْتَصَّ مِنَ الْقَاتِلِ، وَكُلَّ صَاحِبِ دَيْنٍ أَنْ لَا يُطَالِبَ غَرِيمَهُ، بَلْ يَدَعَهُ عَلَى اخْتِيَارِهِ، وَكُلَّ مَشْتُومٍ وَمَضْرُوبٍ أَنْ لَا يَنْتَصِفَ مِنْ ظَالِمِهِ، لَمْ يَكُنْ لِلظَّالِمِينَ زَاجِرٌ يَزْجُرُهُمْ، وَظَلَمَ الْأَقْوِيَاءُ الضُّعَفَاءَ، وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ. قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ}[البقرة: ٢٥١].

قال ابن العثيمين: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض}؛ {دَفع} بفتح الدال، وإسكان الفاء؛ وفي قراءة: (دفاع) بكسر الدال، وفتح الفاء، وألف بعدها؛ وهما سبعيتان؛ و{دفع} مصدر مضاف إلى فاعله؛ و{الناس} مفعول به؛ و{بعضهم} بدل منه؛ و{ببعض} متعلّق بـ{دفع}؛ وخبر المبتدأ محذوف تقديره: موجود؛ يعني: لولا أن دفع الله الناس بعضهم ببعض موجود، لفسدت الأرض.

وقوله تعالى: {لفسدت الأرض} جواب {لولا}؛ و(الفساد) ضد (الصلاح)؛ ومن أنواعه ما ذكره الله تعالى بقوله: {لهدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا}[الحج: ٤٠].

قال الطبري: ولولا أن الله يدفع ببعض الناس (وهم أهل الطاعة له والإيمان به)، بعضًا، (وهم أهلُ المعصية لله والشرك به)، كما دفعَ عن المتخلِّفين عن طالوتَ يوم جالوت من أهل الكفر بالله والمعصية له، وقد أعطاهم ما سألوا ربَّهم ابتداءً: من بَعْثةِ ملك عليهم ليجاهدوا معه في سبيله – بمن جاهد معه من أهل الإيمان بالله واليقين والصبر، جالوتَ وجنوده – {لفسدت الأرض}: يعني لهلك أهلها بعقوبة الله إيَّاهم، ففسدت بذلك الأرض؛ ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه وتطوُّلٍ عليهم، بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.

قال أبو زهرة: وفى العبارة السامية إشارة إلى أن تلك المغالبة هي في طبيعة البشر بمقتضى خليقتهم وفطرتهم، إذ قال سبحانه: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} فهو سبحانه قد حكم بأن دفعه للناس أجمعين، ثم أردف القول بالبدل بقوله: {بَعْضَهُم بِبَعضٍ} وفي ذلك إشارة إلى أن تلك المدافعة بين الناس مستمرة، وأنها ليست في جيل دون جيل، ولا زمان دون زمان، ولا يتعيَّن أن يكون قوم بأعيانهم للشر، وآخرون للخير، فقد يكون بعض الناس فيه خير في بعض نواحيه، فيدفع شر غيره في هذه الناحية، ويكون في الآخر ما يدفع به شرًّا في بعض نواحي الأول، وقد يكون بعض الأقوام في جانب الحق ينصرونه لغايات في نفوسهم، وإن لم يكونوا فضلاء في عامة أحوالهم، فالشَّر يدفع بالبَر والفاجر، وينصر الحق بالأخيار والأشرار، ولذا لم يقل سبحانه وتعالى: ولولا دفع الله الأشرار بالأخيار، بل قال سبحانه: {بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} ليعمَّ تلك الأحوال، وذلك من فضل الله على عباده؛ ولذا ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: {وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}.

قال ابن العثيمين: {ولكن الله ذو فضل على العالمين}: أي صاحب فضل؛ وال{فضل}: هو العطاء الزائد الواسع الكثير؛ {على العالمين}: أي جميع الخلق؛ وسمُّوا عالَمًا؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى.

قال السعدي: {ولكن الله ذو فضل على العالمين}: حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكَّنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها.

قال أبو زهرة: وقد دلَّ ذلك الختام الكريم على ثلاثة أمور:

أولها: أن ذلك التنظيم الحكيم هو من فضل الله ورحمته، وإنعامه على خلقه، وليس ذلك بواجب عليه سبحانه؛ وذلك لأنه خلق الناس، وخلق معهم عقولًا يعرفون بها خيرهم وشرَّهم، فإن ساروا في طريق الخير والفلاح فلهم ما قصدوا إليه، وإن ساروا في طريق الشر والفساد فإلى الهاوية يسيرون، وعليهم وبال أمرهم، وعاقبة عملهم إنما هو من فضله، وقد دلَّ على ذلك الاستدراك بقوله تعالى: {وَلَكِنِ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ} وصف ذلك بأنه فضل من رب العالمين خالق الناس أجمعين.

الأمر الثاني: فضل الله سبحانه وتعالى الكثير، ووصفه سبحانه بأنه ذو فضل، وقد دلَّ على كثرة الفضل التنكير في قوله تعالى: {ذُو فَضْلٍ}: أى ذو فضل كثير، لَا يدرك الناس قدره، ولا يعرف كنهه، ولا يحد بمقدار حتى يعرف ويعيَّن بالتعريف.

الأمر الثالث: أن النعمة التي أنعم الله بها على خلقه من دفع الفساد يَنْعَم بها المؤمنون والمشركون، والأشرار والأبرار، لأن الفساد إذا عمَّ لَا يسلم منه أحد، والخير إذا تحقَّق عمَّ الجميع، وقد دلَّ على هذا المعنى قوله تعالى: {عَلَى الْعَالَمِينَ} فلم يقل على المؤمنين أو المتَّقين، بل عمَّ الخير على الناس أجمعين للإشارة إلى ذلك المعنى الجليل.

هذه قصة بني إسرائيل الذين غلبوا على أمرهم ثم بدَّلوا من الذِّلَّة عزَّة، وهي قصة تكشف عن سنن الاجتماع والحروب، وأمثل طرق الحُكم.

فمن سنن الله في الجماعات التي أشارت إليها الآيات أن الجماعة إن غلبت على أمرها، وسامها الغالب الخسف والهوان تحفزت قوى آحاد منها للحياة، فطلبوها عزيزة كريمة، فإذا طالبوا اتَّجهوا إلى قيادة تجمع أمرهم، وتنظم شئونهم، ثم ساروا تحت لواء تلك القيادة، وقد تصارعت عوامل الضعف مع دوافع العزة، فإن كان الصبر كان معه النصر وإن ضاقوا بأمرهم كان الخذلان، وضربت عليهم الذلة إلى يوم القيامة.

قال الطبري: وهذه الآية إعلامٌ من الله تعالى ذكره أهلَ النفاق الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، المتخلِّفين عن مَشاهده والجهادِ معه للشكِّ الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم، والمشركين وأهلِ الكفر منهم، وأنه إنما يدفع عنهم معاجَلَتهم العقوبة على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسوله الذين هم أهل البصائر والجَدِّ في أمر الله، وذوو اليقين بإنجاز الله إيَّاهم وعدَه على جهاد أعدائه وأعداء رسوله من النصر في العاجل، والفوز بجنانه في الآجل.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن من صَدق اللُّجوء إلى الله، وأحسن الظنَّ به أجاب الله دعاءه.

٢- أنه يجب على المرء إذا اشتدَّت به الأمور أن يرجع إلى الله عز وجل.

٣- إضافة الحوادث إلى الله عز وجل - وإن كان من فعل الإنسان؛ لقوله تعالى: {فهزموهم}: هذا فعلهم - لكن {بإذن الله}؛ فالله هو الذي أذن بانتصار هؤلاء، وخذلان هؤلاء.

٤- شجاعة داود - عليه الصلاة والسلام -، حيث قتل جالوت حين برز لهم؛ والشجاعة عند المبارزة لها أهمية عظيمة؛ لأنه إذا قتل المبارز أمام جنده فلا شك أنه سيجعل في قلوبهم الوهن والرعب؛ ويجوز في هذه الحال أن يخدع الإنسان من بارزه؛ لأن المقام مقام حرب؛ وكل منهما يريد أن يقتل صاحبه؛ فلا حرج أن يخدعه؛ ويذكر أن عمرو بن ود لما خرج لمبارزة علي بن أبي طالب صاح به علي، وقال: (ما خرجت لأبارز رجلين)؛ فظن عمرو أن أحدًا قد لحقه، فالتفت، فضربه علي([1])؛ هذه خدعة؛ ولكنها جائزة؛ لأن المقام مقام حرب؛ هو يريد أن يقتله بكل وسيلة.

٥- أن داود - عليه الصلاة والسلام - أوتي الملك، والنبوة؛ لقوله تعالى: {وآتاه الله الملك والحكمة}.

٦- أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ليس عندهم من العلم إلَّا ما علمهم الله؛ لقوله تعالى: {وعلمه مما يشاء}؛ فالنبي نفسه لا يعلم الغيب، ولا يعلم الشرع إلَّا ما آتاه الله سبحانه وتعالى؛ ومثل ذلك قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا}[النساء: ١١٣].

٧- إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: {وعلّمه مما يشاء}؛ ولكن اعلم أن مشيئة الله تابعة لحكمته، كما قال الله تعالى: {فمن شاء اتَّخذ إلى ربه سبيلًا * وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}[الإنسان: ٢٩، ٣٠].

٨- أن الله عز وجل يدفع الناس بعضهم ببعض لتصلح الأرض، ومن عليها؛ لقوله تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض}؛ وفساد الأرض يكون بالمعاصي، وترك الواجبات؛ لقوله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}[الروم: ٤٠]، وقوله تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}[الشورى: ٣٠].

٩- إثبات حكمة الله، حيث جعل الناس يدفع بعضهم بعضًا ليقوم دين الله، فدفع الكافرين بجهاد المؤمنين؛ لأنه لو جعل السلطة لقوم معيَّنين لأفسدوا الأرض؛ لأنه لا معارض لهم؛ ولكن الله عز وجل يعارض هذا بهذا.

---

[1]- لم أقف على هذا السياق، وإنما وقفت على قول علي رضي الله عنه لعمرو بن عبد ود: (يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلَّا أخذتها منه، قال له: أجل، قال: فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال علي: فإني أدعوك إلى النزال، فقال: لِمَ يا ابن أخي، فو الله ما أحب أن أقتلك، قال علي: لكني والله أحب أن أقتلك، ...) فتنازلا، وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه، والواقعة وقعت في غزوة الخندق؛ راجع: سيرة ابن هشام ٣/١٣٤ - ١٣٥؛ والسيرة النبوية لابن كثير - مقتبسة من البداية والنهاية - ٣/٢٠٢ - ٢٠٣؛ وسير أعلام النبلاء، السيرة النبوية ١/٤٩٢ - ٤٩٣.

١٠- أن من الفساد في الأرض هدم بيوت العبادة؛ لقوله تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا}[الحج: ٤٠]؛ وهذا تفسير لقوله تعالى هنا: {لفسدت الأرض}؛ أو هو ذكر لنوع من الفساد.

١١- إثبات فضل الله تعالى على جميع الخلق؛ لقوله تعالى: {ولكن الله ذو فضل على العالمين} حتى الكفار؛ لكن فضل الله على الكفار فضل في الدنيا فقط بإعطائهم ما به قوام أبدانهم؛ أما في الآخرة فيعاملهم بعدله بعذابهم في النار أبد الآبدين؛ وأما بالنسبة للمؤمنين فإن الله يعاملهم بالفضل في الدنيا والآخرة.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

قال أبو زهرة: بعد ذكر تلك القصة المرشدة الهادية لكلّ مستبصر معتبِر، بيَّن الله سبحانه أن هذه الآيات المتلوَّة هي من عند الله، وهي تتلى بالحق الذي لَا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنها تتلى على الرسول الكريم ﷺ وهي معجزته وآية رسالته، وإنَّما ذلك بعد هذه القصة لما فيها من الدلائل الواضحة البيِّنة التي تثبت رسالة النبي الكريم؛ لأن ذلك القصص الصادق جاء على لسان أمِّي لَا يقرأ ولا يكتب، لم يجلس إلى معلِّم، ولم يأته علم لَا بطريق كتاب يقرؤه؛ لأنه ليس بقارئ، ولا بطريق معلِّم يعلِّمه، ولا بتلقين من أي جهة كان التلقين، إذ كان ﷺ من أمَّة أميَّة ليس فيها علم مدوَّن في كتب، ولا علماء يتدارسون، ولم يكن جو علمي ينال منه الأريب بالخلطة والاتصال، ولم يكن محمد ﷺ في حياته ذا نجعة وأسفار، بل لم ينتقل من مكة إلَّا مرتين كانت أولاهما وهو غلام، وكانت الثانية وهو يقارب الخامسة والعشرين.

فإذا كانت حال النبي ﷺ كذلك والقصص جاء على ذلك النحو من الأحكام والإرشاد والتعليم وبيان سنن الاجتماع والحُكم الأمثل والقيادة الرشيدة مع صدقه في ذاته، فهو دليل على أنه من عند الله.

قال ابن العثيمين: {تلك}: الإشارة إلى ما سبق ذكره؛ أو إلى القرآن كله؛ {آيات الله}: جمع آية؛ وهي العلامة المعيِّنة لمدلولها.

قال شيخ اسلام في النبوات ج٢ص٦٧١: وسمِّيَت آيات القرآن آيات، وقيل: إنّها آيات الله؛ كقوله: {تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ}؛ لأنها علامات، ودلالات على الله، وعلى ما أراد؛ فهي تدلُّ على ما أخبر به، وعلى ما أمر به ونهى عنه؛ وتدلُّ أيضًا على أنَّ الرسول صادق؛ إذْ كانت ممَّا لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحدَّاهم بذلك.

قال ابن العثيمين: {نتلوها عليك}: نقرؤها عليك؛ والمراد تلاوة جبريل، كما قال تعالى: {نزل به الروح الأمين * على قلبك} [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ و{بالحق}: الحق في الأخبار: هو الصدق؛ وفي الأحكام: هو العدل؛ والباء إمَّا للمصاحبة؛ أو لبيان ما جاءت به هذه الآيات؛ والمعنى أن هذه الآيات حق؛ وما جاءت به حق.

{وإنَّك لمن المرسلين}: الجملة مؤكَّدة بـ{إن}، واللام؛ لتحقيق رسالة النبي ﷺ.

قال السعدي: فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلَّتها ما قصَّه الله عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إيَّاه لما كان عنده بذلك علم، بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدلَّ أنه رسول الله حقًّا ونبيُّه صدقًا الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب:

فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم.

ومنها: أن الحق كلَّما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحًا وتميز وحصل به اليقين التَّام كما جرى لهؤلاء لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك، أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب.

ومنها: أن العلم والرأي مع القوة المنفِّذة، بهما كمال الولايات، وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها.

ومنها: أن الاتِّكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيِّهم: {وما لنا ألَّا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا} فكأنه نتيجة ذلك أنه لمَّا كتب عليهم القتال تولَّوا، والثاني في قوله: {ولمَّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله}.

ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز.

ومنها: أن من رحمته وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات آيات الله سبحانه وتعالى الشرعية؛ لأن المراد بـ ال{آيات} هنا: الشرعية – وهي القرآن –.

٢- أن الله تعالى يتلو على نبيِّه ما أوحاه إليه؛ لقوله عز وجل: {نتلوها عليك بالحق}؛ ولكن هل الذي يتلو ذلك هو الله، أو جبريل؟ اقرأ في آية القيامة: {لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه}[القيامة: ١٦ – ١٨]؛ يعني إذا قرأه جبريل فاتَّبع قرآنه؛ فجبريل يتلوه على النبي ﷺ وقد تلقَّاه من الله سبحانه وتعالى.

٣- أن القرآن كله حق من الله، ونازل بالحق؛ لأن الباء في قوله تعالى: {بالحق} للمصاحبة والملابسة أيضًا؛ فهو نازل من عند الله حقًّا؛ وهو كذلك مشتمل على الحق؛ وليس فيه كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه؛ بل أحكامه كلها عدل؛ وأخباره كلها صدق.

٤- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: {وإنَّك لمن المرسلين}.

٥- أن هناك رسلًا آخرين غير الرسول؛ لقوله تعالى: {لمن المرسلين}؛ ولكنه ﷺ كان خاتم النبيين؛ إذ لا نبي بعده.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

قال ابن العثيمين: {تلك}: التاء هنا اسم إشارة؛ وأشار إلى {الرسل} بإشارة المؤنث؛ لأنه جمع تكسير؛ وجمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في تأنيث فعله والإشارة إليه، كما قال تعالى: {قالت الأعراب آمنا}[الحجرات: ١٤]؛ و{الأعراب} مذكَّر، لكن لما جمع جمع تكسير صحَّ تأنيثه؛ وتأنيثه لفظي؛ لأنه مؤول بالجماعة؛ والمشار إليه هم المرسل الذين دلَّ عليهم قوله تعالى: {وإنك لمن المرسلين}[البقرة: ٢٥٢].

{فضلنا بعضهم على بعض}: يعني جعلنا بعضهم أفضل من بعض في الوحي؛ وفي الأتّباع؛ وفي الدرجات؛ والمراتب عند الله سبحانه وتعالى.

{منهم}: أي من الرسل، {من كلَّم الله}: أي من كلَّمه الله عز وجل؛ فالعائد محذوف، وذلك مثل موسى ومحمد ﷺ؛ وهذه الجملة استئنافية لبيان وجه من أوجه التفضيل.

قال الشنقيطي: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَذَا الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ مِنْهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}[٤ \ ١٦٤] ، وَقَوْلُهُ: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي}[٧ \ ١٤٤].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، يَعْنِي مُوسَى وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَكَذَلِكَ آدَمُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ فِي (صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه .

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: تَكْلِيمُ آدَمَ الْوَارِدُ فِي (صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ) يُبَيِّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}[٢ \ ٣٥]، وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْآيَاتِ فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةِ الْمَلَكِ، وَيَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ نَهْيُ حَوَّاءَ عَنِ الشَّجَرَةِ عَلَى لِسَانِهِ، فَهُوَ رَسُولٌ إِلَيْهَا بِذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَدْ تَأَوَّلَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ تَكْلِيمَ آدَمَ كَانَ فِي الْجَنَّةِ، فَعَلَى هَذَا تَبْقَى خَاصِّيَّةُ مُوسَى اهـ.

قال أبو زهرة: فهذه الآيات الكريمات تدلُّ على أن الله سبحانه وتعالى قد اختصَّ موسى عليه السلام بكلامه، وهو إحدى طرق اتِّصال رب العالمين بالمبعوث من خلقه، فقد قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يرْسِلَ رَسولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وكلام الله سبحانه وتعالى مع موسى كان من النوع الثاني، وهو الكلام من وراء حجاب.

وكان خطاب الله سبحانه وتعالى بتكليمه من وراء حجاب مناسبًا لأقوام موسى، لأنهم قد غلبت عليهم المادية، وغلب عليهم الجحود وإنكار الألوهية لرب السماوات والأرض، حتى لقد قالوا: {أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً....}، فكان المناسب لمثل هؤلاء الأقوام أن يكون كلام الله للمبعوث إليهم مباشرة ولا يكون وحيًا يوحى، ولا برسول من الملائكة يرسله إليه، فما كان ذلك تشريفًا فقط لموسى، بل كان مع ذلك التشريف مقصد يتَّفق مع حكمة الله سبحانه وتعالى، وهو العلي الحكيم.

وليس معنى ذلك الاختصاص أن الله سبحانه وتعالى قد رفع الله به موسى عليه السلام على كل الرسل، بل إن الله سبحانه رفع بعض الأنبياء درجات، وإن لم يكن لهم ذلك الاختصاص؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرفع ويخفض، وهو الذي يختص برحمته واصطفائه من يشاء، ولذلك قال سبحانه وتعالى بعد ذكر تكليم الله لبعض رسله: {وَرفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}، فقرن هذه بكلام موسى لتدلَّ على أن التكليم وإن كان شرفًا عظيمًا لَا يقتضي أن يكون المَلَك فوق الأنبياء منزلة، بل إن بعض من لم يكلمه الله رفعه الله درجات.

قال الشنقيطي: وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى}[٢ \ ٣٨]، فِي [سُورَةِ الْبَقَرَةِ] مَا نَصُّهُ: لِأَنَّ آدَمَ كَانَ هُوَ النَّبِيَّ ﷺ أَيَّامَ حَيَاتِهِ، بَعْدَ أَنْ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَالرَّسُولُ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِلَى وَلَدِهِ، فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ

يَكُونَ مَعْنِيًّا وَهُوَ، الرَّسُولُ ﷺ بِقَوْلِهِ: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى، أَيْ: رُسُلٌ اهـ مَحَلُّ الْحُجَّةِ مِنْهُ بِلَفْظِهِ وَفِيهِ وَفِي كَلَامِ ابْنِ كَثِيرٍ الْمُتَقَدِّمِ عَنْ (صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ) التَّصْرِيحُ بِأَنَّ آدَمَ رَسُولٌ وَهُوَ مُشْكِلٌ مَعَ مَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلُ الرُّسُلِ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ}[٤ \ ١٦٣]، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ لِلْجَمْعِ إِلَّا مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ آدَمَ أُرْسِلَ لِزَوْجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَنُوحٌ أَوَّلُ رَسُولٍ أُرْسِلَ فِي الْأَرْضِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْجَمْعِ مَا ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) وَغَيْرِهِمَا، وَيَقُولُ: ((وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ(١))، الْحَدِيثَ. فَقَوْلُهُ: ((إِلَى أَهْلِ)) الْأَرْضِ، لَوْ لَمْ يُرَدْ بِهِ الِاحْتِرَازُ عَنْ رَسُولٍ بُعِثَ لِغَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، لَكَانَ ذَلِكَ الْكَلَامُ حَشْوًا، بَلْ يُفْهَمُ مِنْ مَفْهُومِ مُخَالَفَتِهِ مَا ذَكَرْنَا. وَيَتَأَنَّسُ لَهُ بِكَلَامِ ابْنِ عَطِيَّةَ الَّذِي قَدَّمْنَا نَقْلَ الْقُرْطُبِيِّ لَهُ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ آدَمَ أُرْسِلَ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ وَهُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُمْ كُفْرٌ فَأَطَاعُوهُ، وَنُوحٌ هُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ أُرْسِلَ لِقَوْمٍ كَافِرِينَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَأْمُرُهُمْ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً} الْآيَةَ [١٠ \ ١٩] . أَيْ: عَلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ، أَيْ حَتَّى كَفَرَ قَوْمُ نُوحٍ، وَقَوْلُهُ: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ} الْآيَةَ [٢ \ ٢١٣]. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال ابن العثيمين: {ورفع بعضهم درجات} معطوف على {فضلنا}، لكن فيه التفات من ضمير المتكلِّم إلى ضمير الغائب.

وقوله: {ورفع بعضهم درجات}: أي على بعض؛ فمحمد ﷺ له الوسيلة؛ وهي أعلى درجة في الجنة، ولا تكون إلّا لعبد من عباد الله؛ قال النبي ﷺ: ((وأرجو أن أكون أنا هو(٢))؛ وفي المعراج وجد النبي ﷺ إبراهيم في السماء السابعة؛ وموسى في السادسة؛ وهارون في الخامسة؛ وإدريس في الرابعة(٣)وهكذا؛ وهذا من رفع الدرجات.

قال الشنقيطي: وَأَشَارَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ كَقَوْلِهِ: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [١٧ \ ٧٩]، أَوْ قَوْلِهِ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ} الْآيَةَ [٣٤ \ ٢٨] ، وَقَوْلِهِ: {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}[٧ \ ١٥٨]، وَقَوْلِهِ: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}[٢٥]، وَأَشَارَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ كَقَوْلِهِ: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[٤ \ ١٢٥]، وَقَوْلِهِ: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}[٢ \ ١٢٤]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢٦ - ٣١١٨).

٢- أخرجه مسلم ص٧٣٨، كتاب الصلاة، باب ٧: استحباب القول مثل قول المؤذن ... ، حديث رقم ٨٤٩ [١١] ٣٨٤.

٣- راجع البخاري ص٢٦٠، كتاب بدء الخلق، باب ٦: ذكر الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم، حديث رقم ٣٢٠٧؛ ومسلما ص٧٠٥، كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤١١ [٢٥٩] ١٦٢.

وَأَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ دَاوُدَ وَهُوَ قَوْلُهُ: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا }[١٧/٥٥]، وَأَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ إِدْرِيسَ وَهُوَ قَوْلُهُ: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا }[١٩ \ ٥٧]، وَأَشَارَ هُنَا إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ عِيسَى بِقَوْلِهِ: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ }[٢ \ ٨٧].

تَنْبِيهٌ

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، أَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} الْآيَةَ، إِشْكَالٌ قَوِيٌّ مَعْرُوفٌ. وَوَجْهُهُ: أَنَّهُ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: ((لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ([١]))، وَثَبَتَ أَيْضًا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: ((لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ([٢]))) الْحَدِيثَ، وَفِي رِوَايَةٍ: ((لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ([٣]))، وَفِي رِوَايَةٍ: ((لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ([٤]))).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا نَصُّهُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْكِلَةٌ، وَالْأَحَادِيثُ ثَابِتَةٌ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ))، وَ((لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ))، رَوَاهَا الْأَئِمَّةُ الثِّقَاتُ، أَيْ: لَا تَقُولُوا فُلَانٌ خَيْرٌ مِنْ فُلَانٍ، وَلَا فُلَانٌ أَفْضَلُ مِنْ فُلَانٍ، اهـ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ مَا نَصُّهُ: وَالْجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يُعْلَمَ بِالتَّفْضِيلِ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ.

الثَّانِي: أَنَّ هَذَا قَالَهُ مِنْ بَابِ الْهَضْمِ وَالتَّوَاضُعِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ فِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ الَّتِي تَحَاكَمُوا فِيهَا عِنْدَ التَّخَاصُمِ وَالتَّشَاجُرِ.

الرَّابِعُ: لَا تُفَضِّلُوا بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ.

الْخَامِسُ: لَيْسَ مَقَامُ التَّفْضِيلِ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَيْكُمُ الِانْقِيَادُ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ، اهـ مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

وَذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ فِي (تَفْسِيرِهِ) أَجْوِبَةً كَثِيرَةً عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ، وَاخْتَارَ أَنَّ مَنْعَ التَّفْضِيلِ فِي خُصُوصِ النُّبُوَّةِ، وَجَوَازَهُ فِي غَيْرِهَا مِنْ زِيَادَةِ الْأَحْوَالِ، وَالْخُصُوصِ، وَالْكَرَامَاتِ فَقَدْ قَالَ مَا نَصُّهُ: قُلْتُ: وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَنْعَ مِنَ التَّفْضِيلِ

١- (قلت): البخاري (٢٤١١)، ومسلم (١٦٠/٢٣٧٣).
٢- (قلت): البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤).
٣- (قلت): البخاري (٢٤١٤)، ومسلم (١٥٩/٢٣٧٣).
٤- (قلت): البخاري (٤٦٣٨).

إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ النُّبُوَّةِ هُوَ الَّتِي هِيَ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاضُلَ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ فِي زِيَادَةِ الْأَحْوَالِ وَالْخُصُوصِ، وَالْكَرَامَاتِ، وَالْأَلْطَافِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْمُتَبَايِنَاتِ.

وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فِي نَفْسِهَا فَلَا تَتَفَاضَلُ، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِأُمُورٍ أُخَرَ زَائِدَةٍ عَلَيْهَا، وَلِذَلِكَ مِنْهُمْ رُسُلٌ، وَأُولُو عَزْمٍ، وَمِنْهُمْ مَنِ اتُّخِذَ خَلِيلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا}[١٧]، قُلْتُ: وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، فَإِنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الْآيِ وَالْأَحَادِيثِ مِنْ غَيْرِ نَسْخٍ، وَالْقَوْلُ بِتَفْضِيلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، إِنَّمَا هُوَ بِمَا مَنَحَ مِنَ الْفَضَائِلِ وَأَعْطَى مِنَ الْوَسَائِلِ، وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى هَذَا فَقَالَ: إِنِ اللَّهَ فَضَّلَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَعَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ، فَقَالُوا: بِمَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ فَضَّلَهُ عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}[٢١ \ ٢٩]، وَقَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}[٤٨]، قَالُوا: فَمَا فَضْلُهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}[١٤ \ ٤]، وَقَالَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – لِمُحَمَّدٍ ﷺ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ}[٣٤ \ ٢٨]، فَأَرْسَلَهُ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، ذَكَرَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الدَّارِمِيُّ فِي (مُسْنَدِهِ)، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: خَيْرُ بَنِي آدَمَ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٌ ﷺ وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَهَذَا نَصٌّ مِنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ فِي التَّعْيِينِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أُرْسِلَ أَفْضَلُ مِمَّنْ لَمْ يُرْسَلْ ؛ فَإِنَّ مَنْ أُرْسِلَ فَضَلَ عَلَى غَيْرِهِ بِالرِّسَالَةِ، وَاسْتَوَوْا فِي النُّبُوَّةِ إِلَى مَا يَلْقَاهُ الرُّسُلُ مِنْ تَكْذِيبِ أُمَمِهِمْ وَقَتْلِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَهَذَا مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ. اهـ مَحَلُّ الْغَرَضِ مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

وَاخْتَارَ ابْنُ عَطِيَّةَ كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّ وَجْهَ الْجَمْعِ جَوَازُ التَّفْضِيلِ إِجْمَالًا كَقَوْلِهِ ﷺ: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ(١)))، وَلَمْ يُعَيِّنْ وَمَنَعَ التَّفْضِيلَ عَلَى طَرِيقِ الْخُصُوصِ كَقَوْلِهِ: ((لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى))، وَقَوْلِهِ: ((لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى(٢)))، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية: الأنبياءُ والرُّسُلُ درجات في الفضل والمنزلة عند الله عز وجل وهذا التفضيل جاء في قوله تعالى في سورة البقرة: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}، فنُؤْمِنُ بأنَّ الرسل والأنبياء بعضهم أفْضَلُ من بعض، وليسوا على مرتبة واحدة. أوّل الأنبياء آدم عليه السلام، وآخر الأنبياء محمد ﷺ. وأوّل الرسل نوح عليه السلام، وآخر المرسلين محمد ﷺ.

من الأنبياء والمرسلين أولو العزم من الرسل وهم الذين جاء فيهم قول الله عز وجل: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}[الأحقاف: ٣٥].

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٢٩٨).

٢- (قلت): البخاري (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٧). واللفظ عند البخاري: ((لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ)).

واختلف العلماء في أولي العزم من الرسل من هم؟ على أقوال كثيرة:

القول الأول: أنَّ كل رسول هو من أولي العزم، ومعنى أُولِيْ العَزْمْ يعني أولي الصبر والمصابرة والجَلَدْ والتجلد في دين الله – عز وجل – فهم أهل عزم قوي في مواجهة أعداء الله وأهل صبر ومصابرة. فهذا القول أنَّ كل رسول هو من أولي العزم. ما معنى قوله إذاً: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}؟ قالوا {مِن} هنا ليست تبعيضية بل بيانية، مثل ما تقول الرجل من القوم. يعني فاصبر كما صبر أولو العزم من الناس؟ لا؛ من الرسل. والرسل كلهم على هذا، فتكون {مِنَ} هنا على هذا التفسير بيانية لا تبعيضية.

٢ – القول الثاني: أنَّ أولي العزم من الرسل هم ثمانية عشرة رسولًا وهم المذكورون في سورة الأنعام.

٣– القول الثالث: أنَّ أولي العزم من الرسل خمسة وهم المذكورون في سورة الأحزاب وسورة الشورى، قال – عز وجل – {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}[الشورى: ١٣]، فَجَمَعَ خمسة الرسل وهم المذكورون أيضًا في سورة الأحزاب.

وهذا القول بأنهم الخمسة هؤلاء، هو الأظهر والأرجح ويَدُلُّ له ويُقَوِّيه أنَّ هؤلاء الخمسة هم الذين يستغيث الناس بهم يوم القيامة من شدَّة الحساب أو من شدَّة هول الموقف وطول المُقَامْ في طلب تعجيل المحاسبة والقضاء بين الخلق، أعاننا الله جل علا على شدائد ذلك اليوم، في حديث الشفاعة الطويل المعروف، يأتون آدم ثم قال يأتون نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد ﷺ. آدم خَرَجَ لأنه ليس برسول بقي الخمسة لأنهم مرسلون.

وهؤلاء الخمسة أفضلهم محمد ﷺ، فقد فُضِّل إبراهيم بالخُلّة {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[النساء:١٢٥]، والله عز وجل جعل محمدًا ﷺ خليلاً له، فَفَضْلُ إبراهيم جاء لمحمد ﷺ، وفُضِّل موسى بالتَّكليم، ومحمد ﷺ أيضًا مُكَلَّمْ كما في حديث المعراج.

أنَّ الفضل والتفاضل والتخيير بين الأنبياء له حالتان: حالة عامة وحالة خاصة.

– فالحالة العامة:

يجوز فيها ذلك بمعنى أن يقال محمد ﷺ أفضل المرسلين سيد المرسلين، أشرف الأنبياء والمرسلين.

– وأما في مقابلة نبيٍّ بحسب شخصه في مقابلة نبيٍّ بذاته: فهذا يكون خصوص فلا يجري التفضيل على وجه الاختيار، ولهذا جاء في السنة أنَّ النبي ﷺ قال: ((لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعَقون يومَ القِيامةِ فأكونُ أولَ مَن يُفِيقُ، فإذا أنا بموسى آخذٌ – أو قال باطش – بقائمةٍ من قوائم العرشِ، فلا أدرِي أأفاقَ قبلي أم جُوزِيَ بصَعقةِ الطّور))، فقوله ﷺ هنا: ((لا تخيِّروني على موسى)) وفي رواية: ((لا تفضِّلوني على موسى))، دلَّ على عدم جواز التَّفضيل الخاص.

أنَّ هذا البحث، وهو بحث التفضيل بين الأنبياء جاءت فيه أحاديث، منها هذا الحديث ((لا تفضِّلوني على موسى))، ((لا تخيِّروني على موسى))، ومنها حديث عام: ((لا تَخَيَّرُوا بين الأنبياء))، ومنها حديث خاص بيونس عليه السلام وهو قوله ﷺ: ((لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متَّى))، وفي رواية قال: ((من قال أنا خير من يونس بن متَّى فقد كذب[١]))، وهذا اختلفت فيه أنظار العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث والتفضيل، وما جاء في القرآن من قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، وأحسن الأجوبة على ذلك أن يقال:

١ – أولًا: أنَّ قوله: ((لا تخيِّروني على موسى))، هذا قاله لسبب قصة وردت، وهو أنَّ اليهودي والمسلم اختلفا فافتخر اليهودي على المسلم بموسى، والمسلم ردَّ على اليهودي ولطمه؟

فإذًا يكون النهي إذا كان التفضيل الخاص جاء على جهة العصبية والحميَّة والفخر، ولهذا جاء في الحديث ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ))، فدلَّ على أنَّ التفضيل إذا كان مورده الفخر والعصبية فإنه يمنع منه.

٢ – ثانيًا: أنَّ جهات الفضل متنوعة، والتفضيل من جهة الجنس؛ جنس الفضائل سائغ، ومن جهة كل فَضيلة بحسبها متعدِّد، ولهذا يقال إنَّ تفضيل محمد ﷺ من جهة مجموع الفضائل، ولا يُنَصَّ على أَنَّهُ أفضل من غيره من الرسل في كل فضيلة عند جميع الرسل؛ يعني من حيث النظر العام.

٣ – ثالثًا: أن يقال إنَّ التفضيل بين الأنبياء لا حاجة إليه؛ لأنَّ الأنبياء والرسل رسالتهم واحدة، والله – عز وجل – وَصَفَ المؤمنين بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرِّق بين أحد من رسله، والرسل عليهم الصلاة والسلام وَصَفَهُم النبي ﷺ بقوله: ((الأنبياء إخوة لعلات الدين واحد والشرائع شتى[٢]))، وتَوَلِّي الرسل جميعًا فرض، ومحبتهم جميعًا فرض، فإذًا الدخول في التفضيل دخول فيما لا طائل تحته، فالواجب أن يُبْقَى في ذلك على النص وهو ما ذكرناه أولًا من التفضيل العام دون التفضيل الخاص.

أما قوله ﷺ: ((من قال أنا خير من يونس بن متَّى فقد كذب))، فهذا لأجل أَنَّ بعض الناس قد يظن أَنَّ يونس عليه السلام فعل ما يُلامُ عليه، وأَنَّهُ عُوقِبَ بأن كان في البحر وفي بطن الحوت، ثم قال: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[الأنبياء: ٨٧]، فقال إنَّ هذه الكلمة ربما تكون لمن فعل شيئًا يُلَامُ عليه وعوقب، فقال: إنَّ يونس بن متَّى قالها لأنَّهُ فَعَلَ ما فعل. وهذا في الحقيقة غلط؛ لأنه لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متَّى، كما قال ﷺ، فيَتْرُكْ الدعاء بهذا الدعاء العظيم: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، فهذا قد دعا به آدم عليه السلام، ودعا به موسى عليه السلام، ودعا به غيرهما من الأنبياء والمرسلين.

١– البخاري (٤٦٠٤)، الترمذي (٣٢٤٥)، ابن ماجه (٤٢٧٤).

٢– (قلت): البخاري (٣٤٤٣)، والحديث بتمامه: ((أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)).

فإذًا هذا الدعاء وحال يونس بن متَّى ليس فيها نقص في حق يونس عليه السلام، فإذًا لا ينبغي أن يقال إنَّ فلانًا أفضل من يونس من جهة الاستحباب، لا ينبغي أن يقال إن محمدًا أفضل من يونس بن متَّى على جهة الاستحباب، والدليل دلَّ على عدم الجواز فيمن يقوله لنفسه، فلا يجوز لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى. والنبي ﷺ ترك ذلك، وهو أكمل الخلق عليه السلام.

هذا البحث ربما لم تظهر حاجتُه لكن بحثَه العلماء في هذا الموضع؛ لأنَّ هناك مِمَّن يعتقد الكمال في الوَلاية؛ من يظن أنَّ حالتَه أرفع من حالة يونس بن متَّى عليه السلام.

قال القرطبي: قلت: وهكذا القول في الصحابة إن شاء الله تعالى، اشتركوا في الصحبة ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل، فهم متفاضلون بتلك مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليهم، وحسبك بقوله الحق: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ }[الفتح : ٢٩] إلى آخر السورة. وقال: { وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}[الفتح : ٢٦] ثم قال: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}[الحديد : ١٠] وقال: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}[الفتح : ١٨]، فعمَّ وخصَّ، ونفى عنهم الشين والنقص، رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بحبهم آمين.

قال ابن العثيمين: {وآتينا عيسى ابن مريم البينات}: أي الآيات البيِّنات الدالَّة على رسالته، ويراد بها الإنجيل، وما جرى على يديه من إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله، ونحو ذلك.

{وأيَّدناه بروح القدس}: أي قوّيناه؛ وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: {بروح القدس} ما المراد بها؟ فقيل: المراد بها: ما معه من العلم المطهَّر الآتي من عند الله؛ والعلم أو الوحي يسمَّى روحًا، كما قال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا}[الشورى: ٥٢]؛ وقيل: المراد بـ{روح القدس} جبريل، كما قال تعالى: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} [النحل: ١٠٢]؛ فـ{روح القدس} هو جبريل؛ أيّد الله عيسى به، حيث كان يقويه في مهام أموره عندما يحتاج إلى تقوية؛ والآية صالحة للأمرين، فتفسر بهما كما قرّرناه غير مرة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص٢٨٤: وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى: فِي غَيْرِ آيَةٍ أَنَّهُ أَيَّدَ الْمَسِيحَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}[الْبَقَرَةِ: ٨٧]، فَعِنْدَ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ، بَلْ هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وقتادة وَالضَّحَّاكِ والسدي وَغَيْرِهِمْ وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[النحل: ١٠١، ١٠٢] وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ الِاسْمُ الَّذِي كَانَ يُحْيِي بِهِ الْمَوْتَى. وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:

أَنَّهُ الْإِنْجِيلُ. وَقَالَ تَعَالَى: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}[الْمجادلةِ: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}[الْشورى: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}[النحل: ٢] فَمَا يُنَزِّلُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ مِمَّا تَحْيَا بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ يُسَمِّيهِ رُوحًا، وَهُوَ مَا يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ فَكَيْفَ بِالْمُرْسَلِينَ مِنْهُمْ؟! وَالْمَسِيحُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ جُمْهُورِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ تَعَالَى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}[الْبَقَرَة: ٢٥٣]. وَقَدْ ذَكَرَ الزَّجَّاجُ فِي تَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَيَّدَهُ بِهِ لِإِظْهَارِ أَمْرِهِ وَدِينِهِ.

الثَّانِي: لِدَفْعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْهُ إِذْ أَرَادُوا قَتْلَهُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ أَيَّدَهُ بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ.

قال أبو زهرة: ولماذا خصَّ سيدنا عيسى عليه السلام بأنه مؤيَّد بالروح القدس وهو جبريل، مع أن أكثر النبيين كانوا مؤيّدين بنزول الشرائع من الله عليهم عن طريق جبريل؟ والجواب عن ذلك أن السيد المسيح عليه السلام لم يكن محاربًا لخصومه، بل عاش حياته كلها بين خصومه وأعدائه الذين يتربَّصون به الدوائر، من رومان ووثنيين ويهود ماديين، ولم يؤذن له في القتال، حتى يتولَّى حماية نفسه بسيفه وسيوف أنصار الحق معه، كالشأن بالنسبة لموسى وداود وسليمان، ومحمد ﷺ، فكان يتولَّى حمايته رب العالمين بملائكته الأطهار والأمين جبريل يعاونه، ولعلَّه هو الذي أنقذه من بني إسرائيل وقد بسطوا أيديهم لقتله، وأغرَوا به الرومان ليقتلوه، فرفعه الله سبحانه وتعالى إليه.

قال ابن العثيمين: {ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البيّنات}؛ {لو} شرطية؛ فعل الشرط فيها {شاء الله}؛ وجوابه {ما اقتتل الذين ... }؛ ومفعول {شاء} محذوف دلَّ عليه جواب الشرط؛ والتقدير: ولو شاء الله أن لا يقتتل الذين من بعدهم ما اقتتلوا؛ إمَّا لاتفاقهم على الإيمان؛ وإمَّا لاتفاقهم على المهادنة، وإن كفر بعضهم.

وقوله تعالى: {من بعدهم}: أي من بعد الرسل؛ {من بعدما جاءتهم البيّنات}: أي هذا القتال حصل بعدما زال اللّبس، واتَّضح الأمر، ووجِدت البيّنات على صدق الرسل؛ ومع ذلك فإن الكفَّار استمروا على كفرهم، ورخَّصت عليهم رقابهم ونفوسهم في نصرة الطاغوت؛ وقاتلوا المؤمنين أولياء الله عز وجل؛ كل ذلك من أجل العناد والاستكبار؛ و{البيّنات}: أي الآيات البيّنات؛ وهو الوحي الذي جاءت به الرسل، وغيره من الآيات الدالَّة على رسالتهم.

{ولكن اختلفوا}: أي الذين جاءتهم البينات؛ ثم بيَّن كيفية اختلافهم فقال تعالى: {فمنهم من آمن ومنهم من كفر}، وقوله تعالى: {ولكن اختلفوا} معطوف على قوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتل الذين ... }.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٥ص٢٥٧: وَالِاخْتِلَافُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ مَذْمُومًا، كَقَوْلِهِ: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}[الْبَقَرَةِ: ١٧٦].

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَبَعْضُهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ، كَقَوْلِهِ: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

لَكِنْ إِذَا أُطْلِقَ الِاخْتِلَافُ فَالْجَمِيعُ مَذْمُومٌ كَقَوْلِهِ: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[هُودٍ: ١١٨ – ١١٩]. وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ([1]))).

قال ابن العثيمين: {ولو شاء الله ما اقتتلوا}: هذه الجملة توكيد لما سبق؛ يعني لو شاء الله ألّا يقتتلوا ما اقتتلوا؛ وعلى هذا فالمفعول هنا كما سبق.

{ولكن الله يفعل ما يريد}؛ هذا استدراك على قوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتلوا} ليبيِّن أن ما وقع من الاختلاف والاقتتال كان بإرادته؛ والإرادة في قوله تعالى: {ما يريد} كونية.

قال القرطبي: وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان، ولكنه المستأثر بسرِّ الحكمة في ذلك الفعل لما يريد.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٤٥٩: وَالرَّبُّ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَهُوَ يُخْبِرُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَ أُمُورًا لَمْ يَفْعَلْهَا، كَمَا قَالَ: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}[الْسجدة: ١٣]، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً}[هود: ١١٨]، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}[الْبَقَرَةِ: ٢٥٣]. فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ ذَلِكَ لَكَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ. لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْهُ؛ إذْ كَانَ عَدَمُ مَشِيئَتِهِ أَرْجَحَ فِي الْحِكْمَةِ مَعَ كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَيْهِ لَوْ شَاءَهُ.

قال ابن العثيمين: تنبيه:

قوله تعالى: {ولكن اختلفوا} بعد قوله عز وجل: {ولو شاء الله ما اقتتلوا} بيان لسبب الاقتتال الواقع منهم؛ وقوله تعالى في الجملة الثانية: {ولكن الله يفعل ما يريد} بيان لكونه بإرادته كقوله تعالى: {ولكن الله يفعل ما يشاء}.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص١٦٧: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}: فيه إثبات (المشيئة)، وأيضًا فيها إثبات (الفعل) لله، وإثبات (الإرادة) لله جل وعلا بقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

١- (قلت): البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

و(المشيئة) لله جل وعلا و(الإرادة) إرادة الله جل وعلا، ليستا بمتَّفقتين دائمًا وذلك أن (الإرادة) لله جل وعلا تنقسم إلى قسمين:

– إرادة كونية قدرية.

– وإرادة شرعية دينية.

ومعنى (الإرادة الكونية القدرية): أن الإرادة متعَلِّقها ما يكون في ملكوت الله من التكوين ومن القَدَر.

و(الإرادة الشرعية الدينية): المراد منها ما يكون في آيات الله جل وعلا المَتلُوَة.

فـ(الإرادة الشرعية) قد يمتثلها العبد وقد لا يمتثلها، يعني: قد يأتي بفعل يوافق مراد الله الشرعي، وقد يكون فعله غير موافق لمراد الله الشرعي.

وأما (الإرادة الكونية القدرية): فهي ما يكون في ملكوت الله لابدَّ، لا يحصل شيء إلَّا وهو موافق لإرادة الله الكونية القدرية.

و(الإرادة الكونية القدرية): هذه قد يكون منها، لا تقوم الأشياء إلَّا بها، وقد تكون الأشياء من محبوبات الله، وقد لا تكون من محبوبات الله، فالله جل وعلا أراد الإيمان كونًا من المؤمن وحصل العبد عليه، وأراد الكفر كونًا من الكافر، وكان العبد كافرًا.

وأما (الإرادة الشرعية الدينية): فهي محبوبة لله جل وعلا، كما أراد الإيمان، يعني طلبه مريدًا له من العباد فحقَّقه المؤمن.

فإذًا يجتمع في المؤمن الطائع (الإرادة الكونية القدرية) و(الإرادة الشرعية الدينية)، وأما الكافر أو العاصي فيكون في حقه (الإرادة الكونية القدرية) وهو يكون غير ممتثل لـ(الإرادة الشرعية).

فمثلًا في قوله هنا: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}: يعني كونًا، إذا تبيَّن لك ذلك، فما صلة (المشيئة) لله جل وعلا بـ(الإرادة)؟ (مشيئة) الله جل وعلا مشيئة كونية، لا تنقسم المشيئة إلى شرعية دينية وإلى كونية قدرية.

(المشيئة) قسم واحد بخلاف (الإرادة).

فإذًا (إرادة) الله جل وعلا قسمان: إرادة كونية وإرادة شرعية.

وأما (المشيئة) فهي شيء واحد وهي الإرادة الكونية القدرية.

إذا تبيَّن لك ذلك فهذا التفصيل في (الإرادة)، من أن (الإرادة) تنقسم إلى كونية قدرية وإلى دينية شرعية، هذا ليس في (الإرادة) فحسب، فثَمَّ ألفاظ في الكتاب والسنة تنقسم إلى هذا التقسيم، وقد عدَّها العلماء في اثني عشر قسمًا. أعني المحقِّقين منهم شيخ الإسلام وابن القيم ومن تبعهم على المنهج الصحيح رحم الله جل وعلا الجميع وأسبغ عليهم رضوانه، فثَمَّ اثنا عشر لفظًا في الكتاب والسنة تنقسم إلى هذين القسمين من مثل (الإذن)، ومن مثل (الجعْل)، ومن مثل

(الحكم)، و(الأمر)، ونحو ذلك، فإذًا هنا ألفاظ لابدَّ أن تنتبه هل جاءت في الآية ويراد بها المعنى الكوني الذي لابدَّ أن يحصل؟ أو المعنى الشرعي الديني الذي يطلب من العبد تحصيله؟

إذًا بعد أن عرفت أنه يعني: إثبات (المشيئة) لله و(الإرادة)، والفرق بين الإرادة الكونية والقدرية، والتفريق هذا مهم في باب القدر، لأن كثيرًا من فرق الضلال ضلَّت بسبب عدم التَّفريق بين (الإرادة) الكونية القدرية و(الإرادة) الشرعية الدينية، وبسبب عدم التفريق ضلَّ أناس كثيرون، وقد قال ابن القيم رحمه الله بعد أن ساق هذا التفريق في النونية قال ما حاصله (هذا بيان طالما ضلت به الناس مدى الأزمان) يعني التفريق هذا إذا لم يحصله الناظر في هذا الأمر – في أمر القدر – ضلَّ في هذا الباب.

هنا في قوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، ذكر (المشيئة) وذكر (الإرادة)؛ تقدَّم لنا أنهما هنا بمعنى الإرادة الكونية. (المشيئة) هنا – معروف طبعًا بمعنى ما شاءه كونًا – و(الإرادة) كذلك بمعنى الإرادة الكونية.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، هذه فيها أن الله جل وعلا هو الذي يقدِّر الأشياء ويقدِّر أسبابها، فهو جل وعلا لو لم يشأ قتالهم ما حصل منهم اقتتال، لو لم يشأ الله جل وعلا أن يموت بعضهم بسبب بعض ما حصل منهم اقتتال، فإذًا الله جل وعلا هو الذي شاء الاقتتال، والاقتتال سبب في إزهاق الأرواح.

فإذًا الله جل وعلا شاء الأشياء وأسبابها، وهذا يعني: أن (مشيئته) جل وعلا متعلِّقة بكل ما يحدث في الملكوت من الغايات والأسباب، بل وأسباب الأسباب. فما يشأ من شيء له سبب إلَّا والله جل وعلا قد شاءه كونًا، ولو لم يشأ الله جل وعلا ذلك لم يقع كما قال جل وعلا: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، فـ(مشيئة) الله نافذة.

وهذه مرتبة من مراتب الإيمان بالقدر عند أهل السنة والجماعة؛ فإن من مراتب الإيمان بالقدر الإيمان بتعلُّق مشيئة الله جل وعلا بكل ما يحصل في الملكوت فليس ثَمَّ شيء حصل إلَّا وقد شاءه الله جل وعلا كونًا إذ لا مغالب لله جل وعلا في ملكه.

قال هنا: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، هذه الآية فيها إثبات أن الله جل وعلا يفعل الأشياء لـ(إرادة) تعلَّقت بذلك الشيء، وفي ضمن ذلك إثبات الحكمة لله جل وعلا من وراء الأشياء، فإن الله جل وعلا: {يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، وفعله لحكمة.

فإذًا اقتتالهم كان مرادًا من الله جل وعلا، واقع بـ(مشيئة) الله وكان مرادًا من الله جل وعلا.

وطبعًا لفظ (الإرادة) غير لفظ (المشيئة)، لفظ (المشيئة) قد لا يكون معه علَّة (شاء فلان هذا الشيء) لكن لفظ (الإرادة) (أراد هذا الشيء) يكون ثَمَّ علَّة لذلك الشيء.

فإذًا لفظ (المشيئة) ولفظ (الإرادة) ليستا متساويتين من جميع جهاتها، نعم يلتقيان في (الإرادة الكونية)، لكن أيضًا (المشيئة) لا تساوي (الإرادة الكونية) من كل جهاتها فإن (الإرادة) فيها معنى أنه (فعل لشيء) وأما (المشيئة) فليس فيها هذا المعنى.

فإذًا نقول: الإرادة الكونية القدرية، مشيئة وزيادة، زيادة تفهم منها: أن ثمَّ حكمة، ثمَّ علَّة لذلك.

قال: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} و{مَا}: بمعنى (الذي)، يعني: (يفعل الذي يريده)، وهذا فيه عموم لأن الأسماء الموصولة عند كثير من أهل العلم تفيد عموم ما كان في حيز صلتها.

قال السعدي: فكان موجب هذا الاختلاف التفرُّق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدلَّ ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب وزال كل موجب، فلهذا قال: {ولكن الله يفعل ما يريد}، فإرادته غالبة ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية.

قال أبو زهرة: وهنا إشارات بيانية من أسرار إعجاز القرآن، فلنذكر بعضها ممَّا أدركته مداركنا:

ومن هذه الإشارات البيانية الرائعة: أن الله سبحانه وتعالى ذكر المسبَّب قبل أن يذكر السبب، لأن الاختلاف في الإيمان هو سبب الاقتتال، فذكر الله سبحانه وتعالى أولًا الاقتتال الذي هو النتيجة لهذا الاختلاف، للإشارة إلى بيان أسوأ أحوال الاختلاف، ليبيِّن للناس ما يتعرَّض له الدعاة إلى الحق من تعرُّضهم للقتل والقتال، وللإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى قادر على إزالة الاقتتال في ذاته حتى مع وجود أسبابه؛ فالله سبحانه وتعالى لَا يتقيَّد بالأسباب والمسبَّبات، لأنه سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسبَّبات، وهو الرابط بين الأشياء ونتائجها، وليقرن سبحانه وتعالى أسوأ النتائج بخير المقدِّمات، فيتبيَّن الناس مقدار ضلال العقل البشرى إن انحرف عن فطرته.

ومن الإشارات البيانية: قوله تعالى: {مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ}، ففي ذلك بيان مقدار ما في حيز الإنسان من حب المنازعة، وما استقرَّ في ثنايا الإنسان من تنازع بين الخير والشر في أنفس الآحاد وأنفس الجماعات؛ لأن ذلك الاقتتال بعد أن جاءتهم البيِّنات، أي الأدلة الواضحة المعلنة للحق الكاشفة له، فليس اقتتالهم عن جهالة، بل هو بعد أن تبيَّن الحق ووضحت معالمه؛ وذلك لأن الهوى يعمي، والأعمى لَا يبصر ولو كانت الشمس مشرقة.

الإشارة الثالثة: الاستدراك في قوله تعالى: {وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا} فإنَّ هذا الاستدراك يشير إلى أمرين:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يزيل القتال؛ لأنه سبحانه وتعالى خلق الناس مختلفي المنازع، منهم من يتقبَّل الحق ويصغي فؤاده إليه، ومنهم من يعرضون عنه {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ورسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ منْهم مُّعْرِضونَ}.

الأمر الثاني الذي دلَّ عليه هذا الاستدراك: أن مجيء البيِّنات المعلنة الكاشفة كانت توجب أن يكونوا جميعًا مجيبين، ولكنهم كانوا مختلفين، فالناس ليسوا سواء.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} الاقتتال خالد إلى يوم القيامة، لأن الله سبحانه وتعالى قال لآدم وزوجه وإبليس: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ....}، وقد كان القتال السابق بسبب الإيمان والكفر، أو بسبب إجابة بعض الناس للأنبياء وجحود الآخرين لرسالات الرسل بعد أن قامت عليها البيِّنات، وثبتت دعوة الحق بالأدلة؛ وهنا يبيِّن بشكل عام أن الله سبحانه لو شاء لمنع الاقتال سواء أكان الاختلاف على غرض من الأغراض، فإن المغالبة في طبيعة الإنسان؛ ذلك أن في الإنسان بطبعه حبًّا للعلوّ، والمنازع مختلفة، والقوى متباينة، والفرص قد تواتي فريقًا، وتناوئ فريقًا، وإذا اتَّحدت القوى والفرص فقد يحدث موانع لهذا لا تحدث لذاك، وبهذا يعلو فريق على فريق، فيكون النزاع، ويكون الغلاب ويكون الاصطراع، ويسري ذلك التَّعالي في كل شيء في السلطان وفي التجارة، وفي الاقتصاد، بل في المذاهب الاجتماعية.

وإذا وجد ذلك الصراع فسيكون من ورائه – إن اشتدَّ – القتال، ولو شاء الله لجعل بني آدم على طبيعة الملائكة لَا يتنازعون، ولا يتقاتلون، ولكن الله الذي خلق السماوات والأرض فأتقن كل شيء خلقه، خلق طبيعة الإنسان تتأدَّى إلى ذلك النوع من المغالبة؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} فإنه لما وجد الاعتراض بقوله تعالى: {وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا} كرَّر مشيئة الله سبحانه، ليعقبها بقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

والاستدراك في قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} فيه الإشارة إلى أنه سبحانه لم يشأ منع الاقتتال، بل أراد أن تكون هكذا طبيعة الإنسان، وهو العلي القدير، فعال لما يريد.

قال السعدي: (فائدة)

كما يجب على المكلَّف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقِّهم، ويؤخذ جميع ذلك ممَّا وصفهم الله به في آيات متعدِّدة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرُّون على خطأ فيما يتعلَّق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصَّهم بوحيه، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبَّه فهو كافر يتحتَّم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبَّر القرآن تبيَّن له الحق.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن الرسل عليهم السلام يتفاضلون؛ لقوله تعالى: {فضلنا بعضهم على بعض}.

٢- أن فضل الله يؤتيه من يشاء؛ حتى خواص عباده يفضل بعضهم على بعض؛ لأن الرسل هم أعلى أصناف بني آدم، ومع ذلك يقع التفاضل بينهم بتفضيل الله.

ويتفرَّع عليها فائدة أخرى: أن الله يفضل أتباع الرسل بعضهم على بعض، كما قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} [آل عمران: ١١٠]، وكما قال النبي ﷺ: ((خير الناس قرني[١]))؛ كما أن من كان من الأمم أخلص لله وأتبع لرسله فهو أفضل ممن دونه من أمته؛ لأن الرسل إذا كانوا يتفاضلون فأتباعهم كذلك يتفاضلون؛ فإن قلت: كيف نجمع بين هذه الآية المثبتة للتفاضل بين الرسل؛ وبين قوله ﷺ: ((لا تخيروني على موسى[٢]))، ونهيه ﷺ أن يفاضل بين الأنبياء؟

فالجواب: أن يقال: في هذا عدَّة أوجه من الجمع؛ أحسنها أن النهي فيما إذا كان على سبيل الافتخار والتَّعلِّي: بأن يفتخر أتباع محمد ﷺ على غيرهم، فيقولوا مثلًا: محمد أفضل من موسى؛ أفضل من عيسى؛ وما أشبه ذلك؛ فهذا منهيٌّ عنه؛ أما إذا كان على سبيل الخبر فهذا لا بأس به؛ ولهذا قال ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر)).

٣- إثبات الكلام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {منهم من كلَّم الله}؛ وكلام الله عز وجل عند أهل السنة، والجماعة من صفاته الذاتية الفعلية؛ فباعتبار أصله من الصفات الذاتية؛ لأنه صفة كمال؛ والله عز وجل موصوف بالكمال أزلًا وأبدًا؛ أما باعتبار آحاده - أنه يتكلم إذا شاء - فهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلَّق بمشيئته. قال الله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون}[يس: ٨٢]، وقال تعالى: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه}[الأعراف: ١٤٣]؛ حصل الكلام بعد مجيئه لميقات الله؛ ولهذا حصل بينهما مناجاة: {قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني}[الأعراف: ١٤٣]؛ فقال تعالى: {لن تراني} بعد أن قال موسى: {رب أرني أنظر إليك}؛ هذا هو الحق في هذه المسألة؛ وزعمت الأشاعرة أن كلام الله عز وجل هو المعنى النفسي - أي المعنى القائم بنفسه -؛ وأما ما يسمعه المخاطب به فهو أصوات مخلوقة خلقها الله عز وجل لتعبِّر عما في نفسه؛ وقد أبطل شيخ الإسلام هذا القول من تسعين وجهًا في كتاب يسمَّى بـ(التسعينية).

٤- أن كلام الله للإنسان يعتبر رفعة له؛ لأن الله تعالى ساق قوله: {منهم من كلم الله} على سبيل الثناء والمدح.

٥- ومنه يؤخذ علو مقام المصلِّي؛ لأنه يخاطب الله عز وجل، ويناجيه كما أخبر بذلك النبي ﷺ: فإذا قال المصلِّي: {الحمد لله رب العالمين}، قال الله: ((حمدني عبدي))؛ وإذا قال المصلِّي: {الرحمن الرحيم} قال الله: ((أثنى علي

١- (قلت): البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

٢- أخرجه البخاري ص١٨٩، كتاب الخصومات، باب ١: ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي، حديث رقم ٢٤١١، وأخرجه مسلم ص١٠٩٥، كتاب الفضائل، باب ٤٢: من فضائل موسى، حديث رقم ٦١٥٣ [١٦٠] ٢٣٧٣.

عبدي))، إلى آخر الحديث([1])؛ فالله تعالى يناجي المصلِّي، وإن كان المصلِّي لا يسمعه؛ لكن أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

٦- أن الفضائل مراتب، ودرجات؛ لقوله تعالى: {ورفع بعضهم درجات}؛ وهذا يشمل الدرجات الحسية والدرجات المعنوية؛ فالنبي ﷺ له الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلَّا لعبد من عباد الله؛ قال الرسول ﷺ: ((وأرجو أن أكون أنا هو([2])))؛ كذلك مراتب أهل الجنة درجات: قال النبي ﷺ: ((إن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف من فوقهم - يعني العالية - كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين([3]))).

٧- إثبات أن عيسى نبي من أنبياء الله؛ لقوله تعالى: {وآتينا عيسى ابن مريم البيِّنات}؛ والله عز وجل أعطاه آيات ليؤمن الناس به؛ ومن الآيات الحسية لعيسى ابن مريم إحياء الموتى بإذن الله؛ وإخراجهم من القبور؛ وإبراء الأكمه والأبرص؛ وأن يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرًا يطير بالفعل بإذن الله؛ وهناك آيات شرعية مستفادة من قوله تعالى: {وأيَّدناه بروح القدس} على أحد التفسيرين السابقين.

٨- أن البشر مهما كانوا فهم في حاجة إلى من يؤيدهم ويقوِّيهم؛ لقوله تعالى: {وأيَّدناه بروح القدس}.

٩- الرَّد على النصارى في زعمهم أن عيسى إله؛ لقوله تعالى: {وأيَّدناه بروح القدس}: أي قويناه؛ ولازم ذلك أنه يحتاج إلى تقوية؛ والذي يحتاج إلى تقوية لا يصلح أن يكون ربًا وإلهًا.

١٠- الثناء على جبريل عليه السلام حيث وصف بأنه روح القدس؛ ومن وجه آخر: حيث كان مؤيِّدًا للرسل بإذن الله؛ لقوله تعالى: {وأيَّدناه بروح القدس}.

١١- إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم}.

١٢- الرَّد على القدرية؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتل} ؛ لأن القدرية يقولون: إن فعل العبد ليس بمشيئة الله؛ وإنما العبد مستقل بعمله؛ وهذه الآية صريحة في أن أفعال الإنسان بمشيئة الله.

١٣- أنَّ قتال الكفار للمؤمنين كان عن عناد واستكبار؛ لا عن جهل؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءتهم البيِّنات}.

١- (قلت): مسلم (٣٩٥).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الجامع الصغير (٥٩٤٩)، والحديث بتمامه: ((سلوا الله لي الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد و أرجو أن أكون أنا هو)).

٣- أخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم٥٦ ٣٢، وأخرجه مسلم ص١١٧٠، كتاب صفة الجنة، باب ٣: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، حديث رقم ٧١٤٤ [١١] ٢٨٣١.

١٤- لطف الله بالعباد، حيث كان لا يبعث رسولًا إلَّا ببينة تشهد بأنه رسول؛ وشهادة الله عز وجل لأنبيائه بالرسالة تكون بالقول وبالفعل؛ مثالها بالقول: قوله تعالى: {لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا}[النساء: ١٦٦]؛ ومثالها بالفعل: تأييد الله للرسول ونصره إيَّاه وتمكينه من قتل أعدائه.

١٥- بيان حكمة الله عز وجل في انقسام الناس إلى مؤمن وكافر؛ لقوله تعالى: {ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر}؛ ولولا هذا ما استقام الجهاد ولا حصل الامتحان.

١٦- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {آمن}، و{كفر}، حيث أضاف الفعل إلى العبد؛ وهم يرون أن الإنسان مجبر على عمله، ولا ينسب إليه الفعل إلَّا على سبيل المجاز كما يقال: أحرقت النار الخشب؛ وهذه الآية تردُّ عليهم.

١٧- إثبات أن الله سبحانه وتعالى هو خالق أفعال العباد؛ لقوله تعالى: {يفعل ما يريد}؛ مع أن الفعل فعل العبد: فالاقتتال فعل العبد؛ والاختلاف فعل العبد؛ لكن لما كان صادرًا بمشيئة الله عز وجل وبخلقه، أضافه الله عز وجل إلى نفسه.

١٨- إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: {ولكن الله يفعل ما يريد}؛ والإرادة التي اتَّصف الله بها نوعان: كونية وشرعية؛ والفرق بينهما من حيث المعنى؛ ومن حيث المتعلَّق؛ ومن حيث الأثر؛ من حيث المعنى: (الإرادة الشرعية) بمعنى المحبة؛ و(الإرادة الكونية) بمعنى المشيئة؛ ومن حيث المتعلَّق: (الإرادة الكونية) تتعلَّق فيما يحبه الله وفيما لا يحبه؛ و(الإرادة الشرعية) لا تتعلَّق إلا فيما يحبه الله؛ فإذا قيل: هل أراد الله الكفر؟ نقول: بالإرادة الكونية: نعم؛ وبالشرعية: لا؛ لأن (الإرادة الكونية) تشمل ما يحبه الله وما لا يحبه. ومن حيث الأثر: (الإرادة الكونية) لابدَّ فيها من وقوع المراد؛ و(الإرادة الشرعية) قد يقع المراد وقد لا يقع؛ فمثلًا: {والله يريد أن يتوب عليكم}[النساء: ٢٧]: الإرادة هنا شرعية؛ لو كانت كونية لكان الله يتوب على كل الناس؛ لكن الإرادة شرعية: يحب أن يتوب علينا بأن نفعل أسباب التوبة.

فإن قيل: ما تقولون في إيمان أبي بكر؛ هل هو مراد بالإرادة الشرعية، أو بالإرادة الكونية؟ قلنا: مراد بالإرادتين كلتيهما؛ وما تقولون في إيمان أبي طالب؟ قلنا: مراد شرعًا؛ غير مراد كونًا؛ ولذلك لم يقع؛ وما تقولون في فسق الفاسق؟ قلنا: مراد كونًا لا شرعًا؛ إذًا نقول: قد تجتمع الإرادتان، كإيمان أبي بكر؛ وقد تنتفيان، مثل كفر المسلم؛ وقد توجد الإرادة الكونية دون الشرعية، مثل كفر الكافر؛ وقد توجد الشرعية دون الكونية، كإيمان الكافر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

قال ابن العثيمين: تقدَّم مرارًا وتكرارًا أن تصدير الخطاب بالنداء يدلُّ على أهمية المطلوب؛ لأن النداء يقتضي التنبيه؛ ولا يكون التنبيه إلَّا في الأمور الهامَّة.

وتوجيه النداء للمؤمنين يدلُّ على أن التزام ما ذكر من مقتضيات الإيمان سواء كان أمرًا أو نهيًا؛ وعلى أن عدم امتثاله نقص في الإيمان؛ وعلى الحثِّ والإغراء، كأنه قال: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا وكذا، مثل ما تقول للحثِّ والإغراء: يا رجل افعل كذا وكذا؛ أي لأن ذلك من مقتضى الرجولة.

{أنفقوا ممَّا رزقناكم}: الإنفاق بمعنى البذل؛ والمراد به هنا بذل المال في طاعة الله؛ و{ممَّا رزقناكم}: أي مما أعطيناكم؛ {من} يحتمل أن تكون بيانية؛ أو تبعيضية؛ والفرق بينهما أن البيانية لا تمنع من إنفاق جميع المال؛ لأنها بيان لموضع الإنفاق؛ والتبعيضية تمنع من إنفاق جميع المال؛ وبناء على ذلك لا يمكن أن يتوارد المعنيان على شيء واحد لتناقض الحكمين.

قال القرطبي: قال الحسن: هي الزكاة المفروضة. وقال ابن جريج وسعيد بن جبير: هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتطوع. قال ابن عطية: وهذا صحيح، ولكن ما تقدَّم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجَّح منه أن هذا النَّدب إنما هو في سبيل الله، ويقوى ذلك في آخر الآية قوله: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}: أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال.

قلت: وعلى هذا التأويل يكون إنفاق الأموال مرَّة واجبًا ومرَّة ندبًا بحسب تعين الجهاد وعدم تعينه.

قال أبو زهرة: وكان الإنفاق على ذلك النحو عنصر القوة في الأمة لثلاثة أسباب:

أولها: أن المال عدة التسليح، ولا قتال من غير سلاح يفلُّ شوكة العدو ويدفع كيده، بل يمنعه من أن يفكِّر في الاعتداء، فإنه لَا شيء أنفَى للقتال من السلاح؛ فذو النَّاب لَا يعدو على ذي النَّاب، وتعدو الذئاب على من لَا كلاب له.

وثانيها: أن الإنفاق في سبيل إقامة العمران رفع لمستوى الأمة الاقتصادي، والاقتصاد سلاح ماضٍ، والحرب اليوم تلبس لبوس الاقتصاد في الحصار الاقتصادي والتضييق التجاري.

وثالثها: أن الإنفاق على ضعفاء الأمة يجعل منهم سواعد قوية تحمي الذِّمار([1])، وإن تركهم يجعل منهم شوكة في جنب الدولة يعوقها عن العمل، وقد يكونون قوة مدمِّرة مخرِّبة، وإن الهرَّة إذا جوَّعتها انقلبت ذئبًا.

قال ابن العثيمين: {من قبل أن يأتي يوم}: المراد به يوم القيامة؛ {لا بيع فيه ولا خلَّة ولا شفاعة}؛ ثلاثة أشياء منتفية؛ وهي ال{بيع}؛ وهو تبادل الأشياء؛ وال{خلَّة}؛ وهي أعلى المحبة؛ وال{شفاعة}؛ وهي الوساطة لدفع الضرر، أو جلب المنفعة؛ وفي الآية قراءتان؛ إحداهما ما في المصحف: بالضم، والتنوين: {لا بيعٌ فيه ولا خلَّةٌ ولا شفاعةٌ}؛ و{لا} على هذه القراءة ملغاة إعرابًا؛ لأنها متكررة؛ والقراءة الثانية البناء على الفتح؛ وعلى هذه القراءة تكون {لا} عاملة عمل (إن)؛ لكن بالبناء على الفتح؛ لا بالتَّنوين.

وإنَّما قال سبحانه وتعالى: {لا بيع}؛ لأن عادة الإنسان أن ينتفع بالشيء عن طريق البيع والشراء؛ فيشتري ما ينفعه، ويبيع ما يضرُّه؛ لكن يوم القيامة ليس فيه بيع.

وقوله تعالى: {ولا خلَّة}؛ هذا من جهة أخرى: قد ينتفع الإنسان بالشيء بواسطة الصداقة؛ وال{خُلَّة} بالضم: أعلى المحبة؛ وهي مشتقة من قول الشاعر: قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمِّي الخليل خليلا

يعني أن حبها دخل إلى مسالك الروح، فامتزج بروحه، فصار له كالحياة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((لو كنت متَّخذًا من أمتي خليلًا لاتَّخذت أبا بكر([2])))؛ ولكنه ﷺ اتَّخذه حبيبًا. قيل له: من أحب النساء إليك؟ قال ﷺ: ((عائشة))؛ قيل: ومن الرجال؟ قال ﷺ: ((أبوها([3])))؛ فأثبت المحبة؛ وكان أسامة بن زيد يسمَّى (حب رسول الله): أي حبيبه؛ إذًا الخلة أعلى من المحبة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١ص١١٩: أَنَّهُ نَفَى يَوْمَئِذٍ الْخُلَّةَ بِقَوْلِهِ: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إنَّمَا نَفَى الْخُلَّةَ الْمَعْرُوفَةَ، وَنَفْعَهَا الْمَعْرُوفَ كَمَا يَنْفَعُ الصَّدِيقُ الصَّدِيقَ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}[الانفطار: ١٧، ١٩]، وَقَالَ: {لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[غافر: ١٥، ١٦]، لَمْ يَنْفِ أَنْ يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ خُلَّةٌ نَافِعَةٌ بِإِذْنِهِ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ

١- (قلت): قال الهروي في تهذيب اللغة: وَقَالَ أَبُو عَمْرو: الذِّمار الحرَم والأهل، والذِّمار الحَوْزَةُ، والذِّمار الحَشم، والذِّمارُ الأربُ، وَيُوضَع التَّذَمُّرُ موضعَ الحَفيظة للذِّمار، إذا استُبيحَ.

٢- أخرجه البخاري ص٣٩، كتاب الصلاة، باب ٨٠: الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم ٤٦٦؛ وأخرجه مسلم ص١٠٩٧، كتاب فضائل الصحابة، باب ١: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم ٦١٧٠ [٢] ٢٣٨٢.

٣- أخرجه البخاري ص٢٩٨، كتاب المناقب، باب، حديث رقم ٣٦٦٢؛ أخرجه مسلم ص١٠٩٨، كتاب فضائل الصحابة، باب ١ من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم ٦١٧٧ [٨] ٢٣٨٤.

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} الْآيَاتُ [الزخرف: ٦٧، ٦٨]، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ((حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ(١)))، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ((أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي(٢))).

فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ عَائِدٌ إلَى تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدٌ وَلَا يَضُرُّ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْبَدَ أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ، وَلَا يُسْتَعَانَ بِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَظْهَرُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَيَتَبَرَّأُ كُلُّ مُدَّعٍ مِنْ دَعْوَاهُ الْبَاطِلَةِ، فَلَا يَبْقَى مَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ مَعَهُ شِرْكًا فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ إلَهِيَّتِهِ، وَلَا مَنْ يَدَّعِي ذَلِكَ لِغَيْرِهِ. بِخِلَافِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبٌّ وَلَا إلَهَ إلَّا هُوَ فَقَدْ اتَّخَذَ غَيْرَهُ رَبًّا وَإِلَهًا، وَادَّعَى ذَلِكَ مُدَّعُونَ.

وَفِي الدُّنْيَا يَشْفَعُ الشَّافِعُ عِنْدَ غَيْرِهِ، وَيَنْتَفِعُ بِشَفَاعَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَذِنَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، وَيَكُونُ خَلِيلَهُ، فَيُعِينُهُ وَيَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْ الشَّرِّ، فَقَدْ يَنْتَفِعُ بِالنُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ فِي الدُّنْيَا، النُّفُوسُ يُنْتَفَعُ بِهَا تَارَةً بِالِاسْتِقْلَالِ، وَتَارَةً بِالْإِعَانَةِ وَهِيَ الشَّفَاعَةُ، وَالْأَمْوَالُ بِالْفِدَاءِ، فَنَفَى اللَّهُ هَذِهِ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ. قَالَ تَعَالَى: {لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}[البقرة: ٤٨]، وَقَالَ: {لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ}، كَمَا قَالَ: {لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا}[لقمان: ٣٣]. فَهَذَا هَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ(٣).

وقال رحمه الله أيضاً في مجموع الفتاوى ج٧ص٧٤: فَالْكُفْرُ الْمُطْلَقُ هُوَ الظُّلْمُ الْمُطْلَقُ؛ وَلِهَذَا لَا شَفِيعَ لِأَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَى الشَّفَاعَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي قَوْلِهِ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[غافر: ١٨، ١٩].

قال ابن العثيمين: فانتفت المعاوضة في هذا اليوم؛ وانتفت المحاباة بواسطة الصداقة؛ وانتفى شيء آخر: الشفاعة؛ وهي الإحسان المحض من الشافع للمشفوع له – وإن لم يكن بينهما صداقة –؛ فقال تعالى: {ولا شفاعة}؛ فنفى الله سبحانه وتعالى كل الوسائل التي يمكن أن ينتفع بها في هذا اليوم.

١- مالك في الشعر ٢/٩٥٤ (١٦)، وأحمد٥/٢٢٩، ٢٣٧، والحاكم في المستدرك ٤/١٦٩ وقال: (اسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي، كلهم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١)، والحديث بتمامه: قال الله تعالى: ((حقت محبتي للمتحابين في وحقت محبتي للمتواصلين في وحقت محبتي للمتناصحين في وحقت محبتي للمتزأورين في وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ المتحابون في على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء)).

٢- مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٦/٣٧)، والدارمي في الرقائق ٢/٣١٢، ومالك في الشعر ٢/٩٥٢ (١٣)، وأحمد ٢/٣٣٨ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- (قلت): أنظر الكلام عن الشفاعة مفصلًا عند تفسير الآيتين: (٤٨ و ٢٥٥) من سورة البقرة.

قال السعدي: فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبًا ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدَّوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى: {والكافرون هم الظالمون}، وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التَّام.

قال أبو زهرة: ذيِّلت هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية للإشارة إلى أن المؤمنين عدول إذا قاتلوا الكافرين؛ لأنهم هم الذين اعتدوا، وإلى أن الذي يقع بهم من عقاب يوم القيامة يستحقُّونه، وإلى أنَّهم هم الذين حرَّكوا ذلك الشر، وأنهم هم الذين أشعلوا نيران الحروب بالشر الذي كان في نفوسهم.

ثم إن الكافرين ليس ظلمهم فقط لغيرهم، بل ظلمهم لأنفسهم، لأنهم طمسوا قلوبهم، وجعلوا أنفسهم في شدَّة وبلاء، ثم هم ظالمون فيما بينهم؛ كبراؤهم يظلمون ضعافهم، وضعفاؤهم يظلمون أنفسهم، بالاستضعاف والحياة الهون بينهم، وظلموا أنفسهم بأن حرموها من سعادة الإيمان وبرد اليقين ونور الحق، ورضوان الله ونعمة الله {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...}. لكل هذه المعاني كانوا ظالمين، وقد أكَّد الله سبحانه وتعالى ظلمهم بالقَصْر، أي قصر الظلم عليهم؛ لأنه لا ظالم غيرهم؛ وبالجملة الاسمية والضمير المنفصل.

قال ابن العثيمين: {والكافرون هم الظالمون}: أي أن الكافرين بالله هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، وحصر الظلم فيهم لِعِظم ظلمهم، كما قال تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم}[لقمان: ١٣]؛ وأخبر النبي ﷺ: أن أعظم الظلم أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك(١).

قال شيخ الإسلام في جامع المسائل ج٦ص٤٩: فجعل الظلم في حق الله تعالى قسمًا خارجًا عن ظلم العبد نفسه، وعن ظلم العباد، وهذا يقتضي أن لله فيه حقًّا قد ضيَّعه العبد، لا أنه مجرَّد ظلم العبد نفسه كالمعاصي، وإن كانت المعاصي مخالفةً لأمر الله وتركًا لما أوجبه، وجنايةً على دين الله.

قال الطبري: فإن قال قائل: وكيف صرف الوعيد إلى الكفار والآية مبتدأة بذكر أهل الإيمان؟

قيل له: إن الآية قد تقدَّمها ذكر صنفين من الناس: أحدهما أهل كفر، والآخر أهل إيمان، وذلك قوله: {ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر}. ثم عقب الله تعالى ذكره الصنفين بما ذكرهم به، بحض أهل الإيمان به على ما يقربهم إليه من النفقة في طاعته وفي جهاد أعدائه من أهل الكفر به، قبل مجيء اليوم الذي وصف صفته. وأخبر فيه عن حال

١- أخرجه البخاري ص٣٦٧، كتاب تفسير القرآن، ٢ سورة البقرة، باب ٣: قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون}، حديث رقم ٤٤٧٧، وأخرجه مسلم ص٦٩٣، كتاب الإيمان، باب ٣٧: بيان كون الشرك أقبح الذنوب ... ، حديث رقم ٢٥٧ [١٤١] ٨٦.

أعدائه من أهل الكفر به، إذ كان قتال أهل الكفر به في معصيته ونفقتهم في الصَّد عن سبيله، فقال تعالى ذكره: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا أنتم مما رزقناكم في طاعتي، إذ كان أهل الكفر بي ينفقون في معصيتي – من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه فيدرك أهل الكفر فيه ابتياع ما فرطوا في ابتياعه في دنياهم – ولا خُلَّة لهم يومئذ تنصرهم مني، ولا شافع لهم يشفع عندي فتنجيهم شفاعته لهم من عقابي. وهذا يومئذ فعلي بهم جزاء لهم على كفرهم، وهم الظالمون أنفسهم دوني، لأني غير ظلَّام لعبيدي. و عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: {والكافرون هم الظالمون}، ولم يقل: (الظالمون هم الكافرون).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة الإنفاق مما أعطانا الله؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}، حيث صدرها بالنداء.

٢- أن الإنفاق من مقتضى الإيمان، وأن البخل نقص في الإيمان؛ ولهذا لا يكون المؤمن بخيلًا؛ المؤمن جواد بعلمه؛ جواد بجاهه؛ جواد بماله؛ جواد ببدنه.

٣- بيان مِنَّة الله علينا في الرزق؛ لقوله تعالى: {ممَّا رزقناكم}؛ ثم للأمر بالإنفاق في سبيله، والإثابة عليه؛ لقوله تعالى: {أنفقوا ممَّا رزقناكم}.

٤- التنبيه على أن الإنسان لا يحصل الرزق بمجرَّد كسبه؛ الكسب سبب؛ لكن المسبِّب هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ممَّا رزقناكم}؛ فلا ينبغي أن يعجب الإنسان بنفسه حتى يجعل ما اكتسبه من رزق من كسبه، وعمله، كما في قول القائل: إنما أوتيته على علم عندي.

٥- الإشارة إلى أنه لا مِنَّة للعبد على الله مما أنفقه في سبيله؛ لأن ما أنفقه من رزق الله له.

٦- أن الميت إذا مات فكأنما قامت القيامة في حقه؛ لقوله تعالى: {من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ... } إلخ.

٧- أن ذلك اليوم ليس فيه إمكان أن يصل إلى مطلوبه بأي سبب من أسباب الوصول إلى المطلوب في الدنيا، كالبيع، والصداقة، والشفاعة؛ وإنما يصل إلى مطلوبه بطاعة الله.

٨- أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لأنه تعالى أعقب قوله: {ولا شفاعة} بقوله تعالى: {والكافرون هم الظالمون}؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين}[المدثر: ٤٨].

٩- أن الكفر أعظم الظلم؛ ووجه الدلالة منه: حصر الظلم في الكافرين؛ وطريق الحصر هنا ضمير الفصل: {هم}.

١٠- أن الإنسان لا ينتفع بماله بعد موته؛ لقوله تعالى: {أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم}؛ لكن هذا مقيَّد بما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلَّا من ثلاثة: من صدقة جارية؛ أو علم ينتفع به؛ أو ولد صالح يدعو له(١))).

١١- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {أنفقوا}، حيث أضاف الفعل إلى المنفقين؛ والجبرية يقولون: إن الإنسان لا يفعل باختياره؛ وهذا القول يردُّ عليه السمع والعقل -كما هو مقرَّر في كتب العقيدة -.

١٢- الرَّد على القدرية؛ لقوله تعالى: {ممَّا رزقناكم}؛ لأننا نعلم أن رزق الله يأتي بالكسب؛ ويأتي بسبب لا كسب للإنسان فيه؛ فإذا أمطرت السماء وأنت عطشان وشربت، فهذا رزق لا كسب لك فيه ولا اختيار، لكن إذا بعت واشتريت واكتسبت المال، فهذا لك فيه كسب؛ والله عز وجل هو الذي أعطاك إيَّاه؛ لو شاء الله لسلبك القدرة؛ ولو شاء لسلبك الإرادة؛ ولو شاء ما جلب لك الرزق.

١٣- أن إنفاق جميع المال لا بأس به؛ وهذا على تقدير {من} بيانية؛ بشرط أن يكون الإنسان واثقًا من نفسه بالتَّكسب، وصدق التَّوكُّل على الله.

(مسألة)

ظاهر الآية الكريمة أن الإنفاق مطلق في أي وجه من وجوه الخير؛ ولكن هذا الإطلاق مقيَّد في آيات أخر، مثل قوله تعالى: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله}[البقرة: ٢٦١]، ومثل قوله تعالى: {وأنفقوا في سبيل الله}[البقرة: ١٩٥] ؛ وعلى هذا فيكون إطلاق الآية هنا مقيَّدًا بالآيات الأخر التي تدلُّ على أن الإنفاق المأمور به ما كان في سبيل الله - أي في شرعه -.

(مسألة ثانية)

ظاهر الآية نفي الشفاعة مطلقًا؛ وحينئذ نحتاج إلى الجمع بين هذه الآية وبين النصوص الأخرى الدالَّة على إثبات الشفاعة في ذلك اليوم؛ فيقال: الجمع أن يحمل مطلق هذه الآية على المقيَّد بالنصوص الأخرى، ويقال: إن النصوص الأخرى دلَّت على أن هناك شفاعة؛ لكن لها ثلاثة شروط: رضى الله عن الشافع؛ وعن المشفوع له؛ وإذنه في الشفاعة.

١- أخرجه مسلم ص٩٦٣، كتاب الوصية، باب ٣: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم ٤٢٢٣ [١٥] ١٦٣١.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

قال السعدي: هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردًا للإنسان في أوقاته صباحًا ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات([١]).

قال ابن كثير: هَذِهِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَلَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ قَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ. قَالَ أُبَيٌّ ابْنُ كَعْب أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ: ((أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟)) قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَرَدَّدَهَا مِرَارًا ثُمَّ قَالَ أُبَيٌّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ. قَالَ: ((لِيَهْنك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ([٢]))).

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ أَنَّهُ كَانَ فِي سَهْوَةٍ لَهُ، وَكَانَتِ الْغُولُ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ فَشَكَاهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: فَقَالَ: ((فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ)). قَالَ: فَجَاءَتْ فَقَالَ لَهَا: فَأَخَذَهَا فَقَالَتْ: إِنِّي لَا أَعُودُ. فَأَرْسَلَهَا فَجَاءَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟)) قَالَ: أَخَذْتُهَا فَقَالَتْ لِي: إِنِّي لَا أَعُودُ، إِنِّي لَا أَعُودُ. فَأَرْسَلْتُهَا، فَقَالَ: ((إِنَّهَا عَائِدَةٌ)) فَأَخَذْتُهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ تَقُولُ: لَا أَعُودُ. وَأَجِيءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ: ((مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟)) فَأَقُولُ: أَخَذْتُهَا فَتَقُولُ: لَا أَعُودُ. فَيَقُولُ: ((إِنَّهَا عَائِدَةٌ)) فَأَخَذْتُهَا فَقَالَتْ: أَرْسِلْنِي وَأُعَلِّمُكَ شَيْئًا تَقُولُهُ فَلَا يَقْرَبُكَ شَيْءٌ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: ((صَدَقَتْ وَهِيَ كَذُوبٌ([٣]))).

وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ هَذِهِ الْقِصَّةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ. فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟)) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً

١- **(قلت):** حديث صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٩٧٢)، والحديث بتمامه: ((من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة؛ لم يحل بينه وبين دخول الجنة إلَّا الموت)).

٢- **صحيح:** أخرجه مسلم ص٨٠٥، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ٤٤: فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث رقم ١٨٨٥ [٢٥٨] ٨١٠. وأحمد في مسنده (٢٠٧٧١).

٣- **صحيح:** أخرجه الترمذي في جامعه (٢٨٨٠).

- **(قلت):** صححه لغيره الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٩).

شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرحِمْتُه وَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبك وَسَيَعُودُ)) فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّهُ سَيَعُودُ)) فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ وَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟)) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ)) فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّك تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. فَقَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا. قُلْتُ: ومَا هي؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟)) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: "((مَا هِيَ؟)) قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} وَقَالَ لِي: لا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ على الخير، فقال النبي ﷺ: ((أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُذْ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟)) قُلْتُ: لَا قَالَ: ((ذَاكَ شَيْطَانٌ)). كَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا بِصِيغَةِ الْجَزْمِ([١]).

قال ابن العثيمين: وهي مشتملة على عشر جمل؛ كل جملة لها معنى عظيم جدًّا.

{الله لا إله إلَّا هو}: الاسم الكريم مبتدأ؛ وجملة: {لا إله إلَّا هو} خبر؛ وما بعده: إمَّا أخبار ثانية؛ وإمَّا معطوفة؛ و{إله} بمعنى مألوه؛ و(المألوه) بمعنى المعبود حبًّا وتعظيمًا؛ ولا أحد يستحق هذا الوصف إلَّا الله سبحانه وتعالى؛ والآلهة المعبودة في الأرض، أو المعبودة وهي في السماء – كالملائكة – كلها لا تستحق العبادة؛ وهي تسمَّى آلهة؛ لكنها لا تستحقُّ ذلك؛ الذي يستحقَّه رب العالمين، كما قال تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم}[البقرة: ٢١]، وقال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل}[الحج: ٦٢].

و{إله} اسم لا؛ و{لا} هنا نافية للجنس؛ ولا النافية للجنس تدلُّ على النفي المطلق العام لجميع أفراده؛ وهي نص في العموم؛ فـ{لا إله} نفي عام محض شامل لجميع أفراده؛ وقوله تعالى: {إلَّا هو} بدل من خبر {لا} المحذوف؛ لأن التقدير: لا إله حق إلا هو؛ والبدل في الحقيقة هو المقصود بالحكم، كما قال ابن مالك: (التابع المقصود بالحكم بلا واسطة هو المسمَّى بدلًا) وهذه الجملة العظيمة تدلُّ على نفي الألوهية الحق نفيًا عامًّا قاطعًا إلَّا لله تعالى وحده.

قال السعدي: {لا إله إلَّا هو}: أي لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعيَّن أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتألُّه له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقًّا أن يكون عبدًا لربه، ممتثلًا أوامره مجتنبًا

١– رواه البخاري معلقًا في كتاب (الوكالة) باب (إذا وكل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجاره).

نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقًا ناقصًا مدبَّرا فقيرًا من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئًا من أنواع العبادة.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الإله}:

فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق والتقييد مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من مواضع القرآن والسنة، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه مع علامات الاسم فيه، فمن القرآن قوله تعالى: {وَهُوَ الذِي فِي السَّمَاءِ إِلهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ}[الزخرف: ٨٤]، {لقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلا إِلهٌ وَاحِدٌ}[المائدة: ٧٣]، {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَال لبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل وَإِسْحَاقَ إِلهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لهُ مُسْلمُونَ}[البقرة: ١٣٣]، {إِنَّ إِلهَكُمْ لوَاحِدٌ}[الصافات: ٤]، {وَإِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ لا إِلهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[البقرة: ١٦٣]، {إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَالذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}[النحل: ٢٢]، {قُل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ}[الناس: ٣].

وقال الإمام البخاري: (باب ما يُذكرُ في الذّاتِ والنُّعوتِ وأسامي الله عز وجل وقال خُبيب: وذلك في ذاتِ الإِله، فذكر الذاتَ باسمِهِ تعالى) وهو يشير إلى حديث أبي هريرةَ في قصة خبيبٌ الأنصاريُّ لما قال قبل قتله وهو في الأسر بعد أن صلى ركعتين:

ولستُ أبالي حينَ أُقتلُ مسلمًا ... على أيِّ شِقٍّ كان لِلهِ مصرعي
وذلك في ذات الإلهِ وإنْ يشأ ... يُبارِكْ على أوصالِ شِلوٍ مُمزَّعِ

فقتله ابنُ الحارث، فأخبرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه خبرَهم يومَ أُصيبوا، قال ابن حجر: (وسمعه النبي ﷺ فلم ينكره فكان جائزًا).

وعند البخاري (٧٢٢٠) من حديث ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما قال: كانَ النبيُّ ﷺ يَدعو منَ الليل: ((اللهمَّ لكَ الحمد، أنتَ ربُّ السماواتِ والأرضِ، لك الحمدُ أنتَ قيِمُ السماواتِ والأرض ومن فيهنّ... إلى أن قال: اللهمَّ لك أَسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكلت، وإليك أَنبْتُ، وبك خاصمت، وإليك حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ وأسرَرْت وأعلنت، أنتَ إلهي لا إلهَ لي غيرك[١])).

و{الإله} الحق عند السلف هو المعبود بحق، المستحق للعبادة وحده دون غيره، وقد قامت كلمة التوحيد في الإسلام على معنى الألوهية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا إله إلا أنت فيه إثبات انفراده بالإلهية، والألوهية تتضمَّن كمال علمه وقدرته، ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه

١- (قلت): البخاري (١١٢٠).

يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزمك أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمَّن غاية الحب بغاية الذل).

واسم {الإله} يختلف في معناه عن اسم (الرب) في كثير من النواحي، فالرب معناه يعود كما تقدم إلى الانفراد بالخلق والتدبير، أما {الإله} فهو المستحق للعبادة المألوه الذي تعظمه القلوب وتخضع له وتعبده عن رضا ومحبة، أما من يجعل توحيد الألوهية هو إفراد الله بالخالقية فقد سلك طريق المتكلمين والجهمية، وقد بين الله عز وجل أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، ويعتقدون أن الله خالقهم ورازقهم ومدبِّر أمرهم، كما قال تعالى في شأنهم: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون}، لكنهم كانوا يشركون في توحيد الألوهية.

ف{الإله}: اسم يدلُّ على ذات الله وصفة الإلهية بالمطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى الإلهية وحدها بالتضمُّن، ويدلُّ باللزوم على الصفات اللازمة لقيام معاني الألوهية كالحياة والقيومية والعلم والمشيئة والقدرة، والملك والغنى والقوة، والهيمنة والإحاطة والعزة وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الأفعال لتحقيق معنى الألوهية.

كيف ندعوا الله باسمه {الإله} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة هو أن يذكر الاسم في دعائه وتضرُّعه لربه كقوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[الأنبياء: ٨٧]، {وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[القصص: ٨٨]، فيدعو بقوله: (يا إلهي)، أو (يا إله العالمين)، {هُوَ الحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ}[غافر: ٦٥].

أما دعاء العبادة، فالعبد يظهر بمظهر التوحيد والخضوع لله، ولا يقع في الشرك بأنواعه، فيتشبه بالخالق أو يشبه المخلوق بالخالق قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ}[محمد: ١٩]، {وَقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}[النحل: ٥١]، {قُل إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[الكهف: ١١٠]، {وَمَنْ يَقُل مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}[الأنبياء: ٢٩]، {قُل إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَل أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[الأنبياء: ١٠٨]، {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ}[الصافات: ٣٥].

قال ابن العثيمين: {الحي القيوم}: هذان اسمان من أسمائه تعالى؛ وهما جامعان لكمال الأوصاف، والأفعال؛ فكمال الأوصاف في {الحي}؛ وكمال الأفعال في {القيوم}؛ لأن معنى {الحي}: ذو الحياة الكاملة؛ ويدل على ذلك {أل} المفيدة للاستغراق؛ وكمال حياته تعالى: من حيث الوجود والعدم؛ ومن حيث الكمال والنقص؛ فحياته من حيث الوجود

والعدم؛ أزلية أبدية – لم يزل، ولا يزال حيًّا؛ ومن حيث الكمال والنقص: كاملة من جميع أوصاف الكمال – فعلمه كامل؛ وقدرته كاملة؛ وسمعه وبصره وسائر صفاته كاملة؛ و{القيوم}: أصلها من القيام؛ ووزن {قيوم} فيعول؛ وهي صيغة مبالغة؛ فهو القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه؛ والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه.

قال السعدي: هذان الاسمان الكريمان يدلّان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمُّنا ولزومًا، ف{الحي}: من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، و{القيوم}: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتَّصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحقِّقين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أن {لا تأخذه سنة ولا نوم}.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الحي}: فقد سمَّى الله به نفسه وسماه به رسوله ﷺ على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية، مسندًا إليه المعنى محمولًا عليه، ودخلت عليه (أل) التعريف و(لام) الجر والنداء وغير ذلك من العلامات، فمن القرآن قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً}[الفرقان: ٥٨]، {هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[غافر: ٦٥]، {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[البقرة: ٢٥٥]، {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[آل عمران:٢]، {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً}[طه: ١١١]، وفي صحيح مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ له: ((يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَي الْقَيُّومُ، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صدري، وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)).

وعند البخاري من حديث أبي هريرة قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَي فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِي {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَي الْقَيُّومُ} حتى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حتى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟))، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ، يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ: ((مَا هِيَ؟)) قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِي مِنْ أَوَّلِهَا حتى تَخْتِمَ {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَي الْقَيُّومُ} وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حتى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شيء عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِي ﷺ: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟))، قَالَ: لاَ، قَالَ: ((ذَاكَ شَيْطَانٌ)).

وفي سنن أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث بِلَالَ بنَ يَسَارِ بنِ زَيْدٍ مَوْلَى النَّبيِّ ﷺ، قال: سَمِعْتُ أَبي يُحَدِّثُنِيهِ عن جَدِّي أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ قالَ أَسْتَغْفِرُ الله الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِن كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْف(١))).

وفي سنن أبي داود أيضًا وحسّنه الشيخ الألباني عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِي ﷺ قَالَ: ((اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، وَفَاتِحَةُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: {الم اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَي الْقَيُّومُ})).

ف{الحي} اسم من أسماء الله يدلُّ على ذات الله وعلى صفة الحياة معًا بالمطابقة، ويدلُّ على ذات الله وحدها بالتضمُّن وعلى صفة الحياة وحدها بالتضمُّن، ويدلُّ على الوجود والبقاء والغنى بالنفس والكمال باللُّزوم، وهنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن جميع الأسماء الحسنى تدلُّ باللُّزوم على صفة الحياة ما عدا اسم الله {الحي} فإنه يدلُّ عليها بالتضمُّن، ولولا صفة الحياة ما كملت بقية أسمائه وصفاته، فلا يمكن لأحد أن يكون قديرًا إلَّا إذا كان حيًّا، ولا يمكن أن يكون قويًّا إلَّا إذا كان حيًّا، ولا يمكن أن يكون عليًّا إلَّا إذا كان حيًّا، ولا يمكن أن يكون غنيًّا إلَّا إذا كان حيًّا، ولا يمكن أن يكون عظيمًا إلَّا إذا كان حيًّا، ولا يمكن أن يكون سميعًا بصيرًا إلَّا إذا كان حيًّا، فجميع أسماء الله تدلُّ على صفة الحياة التي تضمَّنها اسمه {الحي}، وهذه قضية عقلية نقلية، كما تقدَّم وشرحناها عند الحديث عن اسم الله الأعظم وما يدلُّ عليه اقتران الأسماء من كمال ودوام الحياة من دلائل دوام الملك لله؛ فدوام الحياة يؤدي إلى انتقال الملكية إلى الغير، وإذا كان كل من على الأرض لا محالة زائل، يدركه الموت في أي زمان ومكان، فكل شيء ما خلا الله باطل، كما نصَّ على زواله القرآن، فقال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلال والإكرام}[الرحمن: ٢٧]، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون }[العنكبوت: ٥٧]، فميراث السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ينفرد به الملك الحق لأن الحياة وصف ذات لله، أما حياة الملوك فحياتهم لا تدوم، وسيأتيهم الموت بالضرورة واللزوم، {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفى عَلى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لمَنِ المُلكُ اليَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ}[غافر: ١٦].

أما دعاء الله باسمه {الحي} دعاء مسألة، فكما ورد في الموطأ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَانَ يَقُومُ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَيَقُولُ: (نَامَتِ الْعُيُونُ وَغَارَتِ النُّجُومُ وَأَنْتَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، قال تعالى: {هُوَ الحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ}[غافر: ٦٥]، ودائما ما كان نبينا ﷺ يدعو باسم الله {الحي القيوم}.

١- (قلت): قال الإمام الألباني في تحقيق رياض الصالحين: في إسناده جهالة لكنه شاهد لا بأس به وللحديث شواهد أخرى أشرت إليها في (التعليق الرغيب) (٢ / ٢٦٩)[٦٣٩].

- وقال الإمام الألباني عن الحديث بسند آخر أخرجه الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه: (إسناده قوي).

أما دعاء العبادة فيظهر من سلوك العبد وتوجيه أفعاله في الحياة على أن الملك باق لله الحي القيوم، وأنه في دار ابتلاء تعقبها دار جزاء، وأن الملك لله في البدء عند إنشاء الخلق فلم يكن أحد من الإحياء سواه، والملك لله في المنتهى عند زوال الأرض لأنه لن يبقى من الأحياء سواه، فلا ينسب الملك على الحقيقة لغير الله، وإنما سبيل الابتلاء في هذه الحياة، ولا يشرك بالله في الاستغاثة والدعاء، أو المحبة والخوف والرجاء، لأن الدعاء يستلزم إثبات صفة الحياة للأنداد من الأموات، والحياة أصل في اتصافهم بالعلم والغنى والقدرة، والسمع والبصر والقوة وغير ذلك مما هو لازم لإجابة الدعاء، وقد نفى الله عنهم ذلك لأنهم أموات، فقال: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}[فاطر: ١٣، ١٤]، {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}[النحل: ٢١].

واسم الله {القيوم} فقد سمَّى الله به نفسه وسمَّاه به رسوله ﷺ على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية، مسندًا إليه المعنى محمولًا عليه، ودخلت عليه (أل) التعريف، و(لام) الجر والنداء، وغير ذلك من العلامات، فمن القرآن قوله تعالى: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}[طه: ١١١]، {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[البقرة:٢٥٥]، {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[آل عمران: ٢]، وفي صحيح مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ له: ((يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)) قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)) قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَي الْقَيُّومُ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صدري، وَقَالَ: ((وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)).

وقد تقدمت الأحاديث التي تدلُّ على اسم الله {القيوم} عن الحديث عن اسمه {الحي} لأنهما يردان في أغلب الروايات مقترنين، و(القيِّم) في اللغة هو السيد الذي يسوس الأمور ويدبِّرها، فقيِّم البلدة سيدها وأمينها ومدبرها، الذي بيده تدبير أمرها، و{القيوم} يدلُّ على وصف القيام والإقامة، قام بذاته فلا يحتاج إلى غيره، وأقام غيره لأن غيره مفتقر إليه، وعند الإمام البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي الله عَنْهمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: ((اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ([1]))، {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ القَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[الرعد: ٣٣].

و{القيوم} أيضًا هو القائم بنفسه، الذي بلغ مطلق الكمال في وصفه، والباقي بكماله ووصفه على الدوام، دون تغيير أو تأثر، فقد يكون الحي سميعًا لكن يتأثر سمعه مع مرور الوقت، فيفتقر إلى وسيلة إضافية للسماع، فيضع سماعة أو آلة

١- (قلت): البخاري (١١٢٠).

يستعين بها، فلابدَّ أن يكون قيُّومًا في سمعه له البقاء والكمال فيه على الدوام، وقد يكون الحي بصيرًا لكن بصره يتأثر مع مرور الوقت، فيفتقر إلى وسيلة إضافية للإبصار، فيضع نظارة يستعين بها، فلابدَّ أن يكون قيومًا في بصره له البقاء والكمال فيه على الدوام، فالحي قد يكون متَّصفًا بالصفات لكنه يتأثَّر بالغفلة والسنات، فتتأثَّر وتضمحل الصفات، وربما ينام فتنعدم حال نومه، فلو كان قائمًا دائمًا لكملت حياته وبقيت صفاته، ولذلك قال تعالى: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ} فأثبت الحياة والقيومية اللازمة لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله.

أما دعاء الله باسمه {القيوم} دعاء مسألة ودعاء عبادة، فما يقال في اسمه {الحي} يقال في اسمه {القيوم} لأن اسمه {القيوم} دائمًا ما يقترن باسم الله {الحي} وقد تقدم الحديث عن ذلك، واقترانهما يدلّان على اسم الله الأعظم، والسبب في ذلك أن جميع الأسماء والصفات تدلُّ عليه باللزوم، ف{الحي} اسم مشتق من صفة الحياة، وصفة الحياة وصف ذات لله، بخلاف (المحي) فإنه مشتق من وصف فعل لله، وصفة الذات هي كل صفة كمال لله لا تتعلَّق بمشيئته، كالبقاء والعزة والعلم والقدرة والمشيئة والقوة والعلو والحكمة، والوجه والعين والقدم واليدين والسمع والبصر وغير ذلك من صفات الذات، وأما صفة الفعل فهي كل صفة كمال تعلَّقت بمشيئة الله، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالخلق والهداية والإحياء والإماتة والرزق والنصرة واللطف والرحمة والمجيء لفصل القضاء والنزول إلى السماء وكذلك صفة الاستواء، وكل ما تعلَّق بمشيئة الله من الصفات فهي صفات أفعال.

فالحسن والعظمة في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال، فالأعلى في الكمال هو اسم الله الأعظم على هذا الاعتبار، ومن هنا ثبت عن النبي ﷺ أنه جعل {الحيُّ القيُّوم} هو اسم الله الأعظم وكذلك (الرحمن الرحيم)، فقد روى ابن ماجة والطبراني وحسنه الشيخ الألباني، من حديث القاسم بن عبد الرحمن عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أن النَّبِي ﷺ قال: ((اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الذِي إِذَا دُعِي بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلاثٍ، البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه))، قال القاسم: فالتمستها إنه الحي القيوم، {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}[البقرة: ٢٥٥]، {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ }[آل عمران: ٢]، {وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلمًا}[طه: ١١١](١).

١- (قلت): حسنه امام الألباني في الصحيحة (٧٤٦)، وقال: (فائدة): قول القاسم أن الاسم الأعظم في آية: {وعنت الوجوه للحي القيوم} من [سورة طه] لم أجد في المرفوع ما يؤيده فالأقرب عندي أنه في قوله: في أول السورة {إني أنا الله لا إله إلا أنا . .} فإنه الموافق لبعض الأحاديث الصحيحة فانظر الفتح (٢٢٥ / ١١)، وصحيح أبي داود (١٣٤١).

- وقال رحمه الله أيضًا في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦١٢٤): واعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين اسم الله الأعظم على أربعة عشر قولًا، ساقها الحافظ في (الفتح)، وذكر لكل قول دليله، وأكثرها أدلتها من الأحاديث، وبعضها مجرَّد رأي لا يلتفت إليه، مثل القول الثاني عشر؛ فإن دليله: (أن فلانًا سأل الله أن يعلمه الاسم الأعظم، فرأى في النوم؛ هو الله، الله، الله، الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم)!!

وقد ورد أيضًا أنَّ اسم الله الأعظم هو (الرحمن الرحيم)، كالحديث الذي رواه أبو داوود والترمذي وقال: حسن صحيح، وحسنه الشيخ الألباني، من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِي قَالَ: ((اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ: {الم اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَي القَيُّومُ})).

فاسم الله الأعظم أطلقه النبي ﷺ على اسمين مضمومين ومقترنين وهما الحي مع القيوم، والرحمن مع الرحيم، وإذا كانت أسماء الله كلها حسنى وكلها عظمى، كما قال تعالى: {وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}[الأعراف: ١٨٠]، إلَّا أن اسمه {الحي} واسمه {القيوم} عند اجتماعهما يختصان عن باقي الأسماء الحسنى وينفردان بما فيهما من أبعاد اعتقادية ويعطيان من المعاني ما ليس لغيرهما، كما قال ابن القيم في نونيته:

وله الحياة كمالها فلأجل ... ذا ما للممات عليه من سلطان
وكذلك القيوم من أوصافه ... ما للمنام لديه من غشيان
وكذاك أوصاف الكمال جميعها ... ثبتت له ومدارها الوصفان
فمصحح الأوصاف والأفعال ... والأسماء حقا ذانك الوصفان
ولأجل ذا جاء الحديث بأنه ... في آية الكرسي وذي عمران
اسم الإله الأعظم اشتملا على ... اسم الحي والقيوم مقترنان
فالكل مرجعها إلي الإسمين ... يدري ذاك ذو بصر بهذا الشأن

ف{الحيُّ القيُّوم} كما ذكر ابن القيم، عليهما مدار أوصاف الكمال جميعها، فجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا، تدلُّ باللزوم على أن الله {حيٌّ قيُّومٌ} دون العكس، فعند الإضافة يظهر كمال على كمال وجمال على جمال، كل ذلك من دلالة أسماء رب العزة والجلال، لكن ما هو السبب الذي يدعو إلى أن ينفرد {الحيُّ القيُّوم} و(الرحمن الرحيم) بما ليس للأسماء المفردة.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٤٨: مسائل:

وتلك الأحاديث منها الصحيح، ولكنه ليس صريح الدلالة، ومنها الموقوف كهذا، ومنها الصريح الدلالة؛ وهو قسمان: قسم صحيح صريح، وهو حديث بريدة: ((الله لا إله إلا هو، الأحد الصمد الذي لم يلد ...)) إلخ، وقال الحافظ: (وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك). وهو كما قال رحمه الله، وأقره الشوكاني في تحفة الذاكرين (ص ٥٢)، وهو مخرج في صحيح أبي داود (١٣٤١).

والقسم الآخر: صريح غير صحيح، بعضه مما صرح الحافظ بضعفه؛ كحديث القول الثالث عن عائشة في ابن ماجه (٣٨٥٩)، وهو في ضعيف ابن ماجه رقم (٨٤١)، وبعضه مما سكت عنه؛ فلم يحسن! كحديث القول الثامن من حديث معاذ ابن جبل في الترمذي، وهو مخرج في الضعيفة برقم (٤٥٢٠). وهناك أحاديث أخرى صريحة لم يتعرض الحافظ لذكرها ولكنها واهية، وهي مخرجة هناك برقم (٢٧٧٢ و ٢٧٧٣ و ٢٧٧٥).

المسألة الأولى: أن صفة الحياة صفةٌ مُشتَرَكة بين كل مخلوقات الله – عز وجل –. وكل حياة لها ما يناسبها، حتى الجماد له حياة تناسبه؛ حتى الشجر والحجر له حياة تناسبه.

وإنما سُمِّيَ جمادًا لأنه جامد ليس له حركة ظاهرة؛ وإلَّا فإنه ليس بميت، يعني لا حراك فيه ولا حياة، وإنما هو:

– ميت باعتبار عدم الحركة.

– وجماد باعتبار عدم الحركة.

ولهذا فإنَّ اشتراك المخلوقات مع الرب – عز وجل – في هذا الاسم وفي صفة الحياة هذا اشتراكٌ في أصل المعنى فكلٌ له حياة تناسبه على حسب القاعدة المعروفة، وهي أن الصفات بما يناسب الذوات. فإثبات الصفات إثباتُ وجودٍ لله – عز وجل – لا إثبات كيفية، وصفات المخلوقات تناسب ذواتهم الوضيعة الضعيفة الفقيرة.

وهذا ظاهر أيضًا في صفتي السمع والبصر كما قد قرَّرْنَاهُ لكم مِرارًا في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[الشورى: ١١]، فإنَّ صفة السَّمع وصفة البصر مشتركة بين أكثر الكائنات الحيَّة، وكذلك الحياة فهي مُشْتَرَكَة بين جميع الكائنات الحيَّة، منها ما حياته بالروح والنفس، ومنها ما حياته بالنَّماء، ومنها ما حياته خاصة به كالصخور والتراب، وأشباه ذلك ولهذا كان ﷺ يقول كما رواه مسلم في الصحيح ((إني لأعلم حجرًا بمكة ما مررت عليه إلَّا سلَّم عليّ([١]).

فإذًا إثبات هذه الصفة واسم الحي لله – عز وجل – يدلُّ على نفي التعطيل بجميع أنواعه، ويدلُّ على إبطال التجسيم بجميع أنواعه.

ولهذا صار اسمًا عظيمًا مختصًّا بالرب – عز وجل – على وجه الكمال، لأنَّ المخلوق يعرف أنَّ حياته قصَّة قليلة يريد زيادتها فلا يستطيع، يريد أن يكون في وَصْفِهِ بالحياة أكمل من وصف غيره فلا يستطيع، فدلَّ على ظهور نقصه في الصفة المشتركة بينه وبين جميع المخلوقات.

المقصود من هذا إنَّ في إثبات صفة الحياة لله – عز وجل – إبطال للتعطيل وإبطال للتجسيم على الوجه الذي ذكرته لك، وهو ظاهر في قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.

المسألة الثانية: الله – عز وجل – قال: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ}، وذلك لكمال حياته ولكمال قيوميته – عز وجل –.

وعلى القاعدة المقرَّرة عند أهل السنة والجماعة:

١– (قلت): مسلم (٢٢٧٧)، وَالحَديث بتمامه: عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ)).

* أنَّ وصف الرب – عز وجل – بالنفي ليس مقصودًا لذاته وإنَّما هو لإثبات كمال ضد ما نفى.

لهذا سبحانه أثبت الكمال له ثمَّ نفى، ليدلَّ على إثبات الكمالات له – عز وجل –، فلمَّا قال: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، قال: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} ليدلَّ على أنَّ قول: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} لكمال حياته ولكمال قيوميَّته، فنفى لتأكيد الإثبات.

وهذه هي القاعدة المقرَّرة عند أهل السنة والجماعة فيما يُنفَى في القرآن وفي السنة عن الله – عز وجل – إنما هو لإثبات كمال ضده من صفات الحق – عز وجل – كما في قوله سبحانه: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[الكهف: ٤٩] لكمال عدله، وكما في قوله سبحانه: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}[مريم: ٦٤] لكمال علمه سبحانه وحِفظِهِ سبحانه وقيوميته، وكقوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}[الإخلاص: ٣، ٤] وأشباه ذلك.

المسألة الثانية: أنَّ اسم {القيوم} لله – عز وجل – واسم {الحي} هذان الاسمان مُتَعَلِّقانِ بخلقه – عز وجل –، يعني أنَّ لهما الأثر في خلقه سبحانه، وكل حياةٍ تراها في خلقه فهي من آثار حياته – عز وجل –، وكل صلاح أو فعل تراه في خلقه فهو من آثار قيوميَّته – عز وجل –.

واسم {القيُّوم} مبالغة لإثبات كمال قيامه سبحانه وتعالى على الوجه المطلق بنفسه وبخلقه، فاسم {القيُّوم} يدلُّ على أنه سبحانه كامل فيما يختاره سبحانه وتعالى لنفسه من الصفات التي تقوم بمشيئته واختياره وقدرته، وكذلك له الكمال فيما يقيم به خلقه – عز وجل –.

فإنَّ معنى {القيُّوم} أنَّهُ الذي قام بنفسه وأقام غيره، فليس ثَمَّ شيء إلَّا والله – عز وجل – مُقيمٌ له على وجه ما تقتضيه حكمة الرب – عز وجل –.

فإذا تبيَّن ذلك فإنَّ اسم {القيُّوم} لله – عز وجل – واسم {الحي} له سبحانه وتعالى لهما أثر في إجابة السؤال.

وهذا الأثر مرتبط بقاعدة كلية في ارتباط الإجابة بحسن السؤال، ولهذا قال – عز وجل – {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ}[الأعراف: ١٨٠]، فدعوة الله – عز وجل – بأسمائه يعني بما يناسب مقصودك من الأسماء، لهذا فإنَّ فقه الدعاء مرتبط بفقه الأسماء والصفات، فكلَّما كان العبد أعرف بأسماء الله وصفاته وآثارها في خلقه، كُلَّما كان أعرف وأعلم بسؤال الله بها، وباستحضاره لمعنى ذلك، كان ذلك أرجى لقبول الدعاء وحصول المطلوب.

المسألة الثالثة: أنَّ اسم {الحي}، واسم {القيُّوم} بلازمهما تدلَّان على بقية صفات الرب – عز وجل –، لأنَّ الحياة مستلزمة لكثير من الصفات، والقيومية مستلزمة لكثير من الصفات.

لهذا قال طائفة من المحقِّقين من أهل العلم في هذا الباب (إنَّ الصفات التي أثبتها الأشاعرة أو أثبتها غيرهم من أهل البدع وزعموا إثباتها بالعقل أنَّهُم قصَّروا في ذلك، لأنَّ العقل بالتلازم واللزوم يُثْبِتُ صفات كثيرة لله – عز وجل – أكثر من السبعة التي أثبتها طائفة منها بالعقل).

لهذا اسم {الحي} يستلزم صفات كثيرة، واسم القيُّوم يستلزم صفات كثيرة، لذا ينبغي أن يُتَامَّل هذا الموضع من جهة أنَّ حياة الرب – عز وجل – واسم الرب – عز وجل – {الحي}، وقيُّومية الرب – عز وجل – واسمه {القيُّوم} يستلزمان عقلًا عددًا كبيرًا جدًّا من الصفات لله – عز وجل –.

وهذا موضع يُحْتَجُّ به على من يُثبِتُونَ الصفات بالعقل لأنَّ حياته سبحانه ثابتة عقلًا عند الجميع، وكذلك قيوميته سبحانه ثابتة عقلًا عند الجميع.

قال ابن كثير: {لا تأخذه سنة ولا نوم}: أَيْ لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خَلْقِهِ بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَمِنْ تَمَامِ الْقَيُّومِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، فَقَوْلُهُ: {لَا تَأْخُذُهُ}: أَيْ لَا تَغْلِبُهُ سِنَةٌ وَهِيَ الْوَسَنُ وَالنُّعَاسُ وَلِهَذَا قَالَ: {وَلا نَوْمٌ} لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السِّنَةِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يُخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ حِجَابُهُ النُّورُ – أَوِ النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَات وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ([1]))).

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص١١٤: هذا النفي فيه إثبات كمال الضد وضد أخذ السنة والنوم الذي هو (الحياة) الكاملة.

فإذًا يكون هنا تأكيد لما سبق ذكره من قوله: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} وذلك لكمال حياته جل وعلا ولكمال قيوميّته جل وعلا.

والسِّنة أخفُّ من النوم، السنة النعاس، والنوم أعظم منه، والنوم وفاة، {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}، فالنوم وفاة، وقيل أيضًا: إن النوم موت أصغر، وهذا صحيح، ويدلُّ النعاس في الإنسان الذي هو السِّنة على نقص قواه، وعلى أنه ليس بقوي بل جسمه يضطرب ويضعف حتى يحتاج إلى راحة، إما في عقله وإما في أعضاءه، والله جل وعلا منزَّه عن ذلك كله، فله الحياة الكاملة الكمال المطلق، ومن كمال حياته الكمال المطلق أنه جل وعلا لا يحتاج

١- صحيح: مسلم برقم (١٧٩).

إلى السِّنة ولا يحتاج إلى النوم، {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ}: يعني لا يغلبه شيء من ذلك ولا يحتاج إليه لكمال حياته جل وعلا([1]).

قال ابن العثيمين: قوله تعالى في الجملة الثالثة: {له ما في السموات وما في الأرض}: أي له وحده؛ ففي الجملة حصر لتقديم الخبر على المبتدأ؛ و{السموات} جمعت؛ و{الأرض} أفردت؛ لكنها بمعنى الجمع؛ لأن المراد بها الجنس.

قال السعدي: أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبِّر، وغيره مخلوق مرزوق مدبَّر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص١١٤: يعني له ملكًا، له ملك السماوات والأرض، وذلك لأن ال(لام) إذا أتى بعدها أعيان فإنها تعني المِلك غالبًا قال هنا: {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}: يعني له ملك السماوات والأرض، وهذا كما قال في الآيات الأخرى: {لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ}، وقوله: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} هذا نوع، وقوله: {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} هذا عام، يعني له الذي في السماوات والذي في الأرض فيعمُّ كل شيء، لأن {ما} اسم موصول والأسماء الموصولة تعمُّ ما كان في حيز صلتها.

قال ابن العثيمين: قوله تعالى في الجملة الرابعة: {من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه}؛ {من} اسم استفهام مبتدأ؛ و{ذا} ملغاة إعرابًا؛ ويأتي بها العرب في مثل هذا لتحسين اللفظ؛ و{الذي} اسم موصول خبر {من}؛ والمراد بالاستفهام هنا النفي بدليل الإثبات بعده، حيث قال تعالى: {إلّا بإذنه}.

و(الشفاعة) في اللغة: جعل الوتر شفعًا؛ وفي الاصطلاح: التوسُّط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف أن يقضي الله بينهم بعدما يلحقهم من الهمِّ والغم ما لا يطيقون، شفاعة لدفع مضرة؛ وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، شفاعة في جلب منفعة.

وقوله تعالى: {إلّا بإذنه}: أي الكوني؛ يعني: إلّا إذا أذن في هذه الشفاعة – حتى أعظم الناس جاهًا عند الله لا يشفع إلّا بإذن الله؛ فالنبي ﷺ يوم القيامة – وهو أعظم الناس جاهًا عند الله؛ ومع ذلك لا يشفع إلّا بإذن الله لكمال سلطانه جل

١- (قلت): أي: لكمال حياته لا يموت، وعبَّر عنه هنا بالنوم لأنَّ النوم وفاة وموت أصغر، ولكمال قيوميته لا تأخذه السنة، أي: لا ينعس، لأنَّ النُّعاس بداية الإحساس بنقص في القوى، والله جل وعلا لا يكون عنده مطلق النقص في قوته لأنَّه القيوم. وكما قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح: (فَنَفْيُ أَخْذِ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ، إِذِ النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ مَعَ كَمَالِ الرَّاحَةِ، كَمَا لَا يَمُوتُونَ. وَالْقَيُّومُ: الْقَائِمُ الْمُقِيمُ لِمَا سِوَاهُ، فَلَوْ جُعِلَتْ لَهُ سِنَةٌ أَوْ نَوْمٌ لَنَقَصَتْ حَيَاتُهُ وَقَيُّومِيَّتُهُ، فَلَمْ يَكُنْ قَائِمًا وَلَا قَيُّومًا، كَمَا ضَرَبَ اللَّهُ الْمَثَلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، لَمَّا سَأَلُوا مُوسَى: هَلْ يَنَامُ رَبُّكَ؟ فَأَرَّقَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَعْطَاهُ قَوَارِيرَ فَأَخَذَهُ النَّوْمُ فَتَكَسَّرَتْ).

وعلا وهيبته؛ وكلّما كمل السلطان صار أهيب للمُلك وأعظم؛ حتى إن الناس لا يتكلمون في مجلسه إلّا إذا تكلّم؛ وانظر وصف رسول قريش النبي ﷺ مع أصحابه، حيث وصفهم بأنه إذا تكلّم سكتوا؛ كل ذلك من باب التعظيم.

قال السعدي: أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده، أذِن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص١٠٩: فَنَفْيُ الشَّفَاعَةِ بِدُونِ إذْنِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ مُلْكِهِ؛ إذْ كُلُّ مَنْ شَفَعَ إلَيْهِ شَافِعٌ بِلَا إذْنِهِ فَقَبِلَ شَفَاعَتَهُ، كَانَ مُنْفَعِلًا عَنْ ذَلِكَ الشَّافِعِ، فَقَدْ أَثَّرَتْ شَفَاعَتُهُ فِيهِ فَصَيَّرَتْهُ فَاعِلًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَكَانَ ذَلِكَ الشَّافِعُ شَرِيكًا لِلْمَشْفُوعِ إلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ بِالشَّفَاعَةِ، إذْ كَانَتْ بِدُونِ إذْنِهِ، لَا سِيَّمَا وَالْمَخْلُوقُ إذَا شُفِعَ إلَيْهِ بِغَيْرِ إذْنِهِ فَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ؛ فَإِنَّمَا يَقْبَلُهَا لِرَغْبَةِ أَوْ لِرَهْبَةِ، إمَّا مِنْ الشَّافِعِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَتْ دَاعِيَتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ تَامَّةً مَعَ الْقُدْرَةِ، لَمْ يَحْتَجْ إلَى شَفَاعَةٍ، وَاَللَّهُ – تَعَالَى – مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْإِلَهِيِّ: ((يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي([1]))؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالشَّفَاعَةِ إلَيْهِ فَكَانَ إذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ يَقُولُ: ((اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ([2]))) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ؛ وَكَانَ مَقْصُودُهُ أَنَّهُمْ يُؤْجَرُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ وَهُوَ إنَّمَا يَفْعَلُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ.

وقال رحمه الله أيضاً في ج١١ص٥٢٨: فَهُوَ الَّذِي يَأْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُهَا فَالْجَمِيعُ مِنْهُ وَحْدَهُ، وَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَعْظَمَ إخْلَاصًا، كَانَتْ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ أَقْرَبَ إلَيْهِ. قَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((مَنْ قَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِك وَجْهَ اللَّهِ([3]))).

وَأَمَّا الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى فُلَانٍ لِيَشْفَعَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَتَعَلَّقُونَ بِفُلَانِ، فَهَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا شُفَعَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}[الزمر: ٤٣، ٤٤]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ}[السجدة: ٤]، وَقَالَ: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}[الإسراء: ٥٦، ٥٧].

١- مسلم في البر والصلة (٥٥/٢٥٧٧).

٢- البخاري في الزكاة (١٤٣٢)، ومسلم في البر والصلة (١٤٥/٢٦٢٧)، كلاهما عن أبي موسى.

٣- البخاري في العلم (٩٩).

قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: كَانَ قَوْمٌ يَدْعُونَ الْمَسِيحَ وَالْعُزَيْرَ وَالْمَلَائِكَةَ فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ عِبَادُهُ، كَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ عِبَادُهُ وَهَؤُلَاءِ يَتَقَرَّبُونَ إلَى اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ. فَالْمُشْرِكُونَ اتَّخَذُوا مَعَ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَاتَّخَذُوا شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَفِيهِمْ مَحَبَّةٌ لَهُمْ وَإِشْرَاكٌ بِهِمْ، وَفِيهِمْ مِنْ جِنْسِ مَا فِي النَّصَارَى مِنْ حُبِّ الْمَسِيحِ وَإِشْرَاكٌ بِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ؛ فَلَا يَعْبُدُونَ إلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يَجْعَلُونَ مَعَهُ شَيْئًا يُحِبُّونَهُ كَمَحَبَّتِهِ لَا أَنْبِيَائِهِ وَلَا غَيْرِهِمْ، بَلْ أَحَبُّوا مَا أَحَبَّهُ بِمَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، وَعَلِمُوا أَنَّ أَحَدًا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَأَحَبُّوا عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِحُبِّ اللَّهِ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ الْمُبَلِّغُ عَنْ اللَّهِ، فَأَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ، وَصَدَّقُوهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَلَمْ يَرْجُوا إلَّا اللَّهَ، وَلَمْ يَخَافُوا إلَّا اللَّهَ، وَلَمْ يَسْأَلُوا إلَّا اللَّهَ، وَشَفَاعَتُهُ لِمَنْ يَشْفَعُ لَهُ هُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَا يَنْفَعُ رَجَاؤُنَا لِلشَّفِيعِ، وَلَا مَخَافَتُنَا لَهُ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ تَوْحِيدُنَا، وَإِخْلَاصُنَا لِلَّهِ، وَتَوَكُّلُنَا عَلَيْهِ، فَهُوَ الَّذِي يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ.

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ مَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَدِينِهِمْ، وَمَحَبَّةِ النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ وَدِينِهِمْ، وَيَتَّبِعُ أَهْلَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، وَيَخْرُجُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَعَبَدَةِ الصُّلْبَانِ.

قال صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب العقيدة الطحاوية في مسألة الشفاعة:

المسألة الأولى:- الشفاعة في اللغة: من الشَّفْع وهو الزوج ضد الفرد؛ لأنَّ الدَّاعي أو المُتَوسِّطْ صار زَوْجًا للسائل بعد أن كان السائل فرْدًا، فَسُمِّيَ شَفِيعًا؛ يعني سُمِّيَ شَفِيعًا لأنه شفع؛ يعني صار زوجًا له؛ يعني صار ثانيًا معه. وحقيقة الشفاعة في اللغة هي السؤال، سؤال الشافع للمشفوع له في حاجةٍ ما، وطلب ذلك. فَرَجَعَتْ في اللغة إلى معنى السؤال والدعاء، فمن قال لأحد اشفع لي عند فلان؛ يعني اسأل لي، واطلب لي، توسَّط لي، ونحو ذلك.

- وأما في الاصطلاح: فالشفاعة اسم عام لكل دعاء للنبي ﷺ يوم القيامة لأمته، فكل دعوى يدعو بها ﷺ في العرصات يوم القيامة فإنها تعدُّ من الشفاعة. يعني أنه إذا جاء في الحديث: فسألت الله لأمتي كذا، أو أسأل الله لأمتي، أو فأدعو الله لأمتي، هذه كلها شفاعة. ولهذا أهل العلم جعلوا - لأجل ما جاء في الأحاديث - الشفاعة عدة أقسام لتنوع العبارات في ذلك.

المسألة الثانية: أنَّ الشفاعة في أحكامها قسمان:

- شفاعة في الدنيا.
- وشفاعة في الآخرة.

المسألة الثالثة: الشفاعة في الآخرة اختلف فيها الناس إلى أقوال متعدِّدة:

- فَثَمَّ شفاعة مُجْمَعْ عليها، وهي شفاعته ﷺ لأهل الموقف كما سيأتي.

– وهناك شفاعة أنكرها المعتزلة والخوارج وطوائف وهي الشفاعة لأهل الكبائر من الأمة في أن يعفو الله؟ عنهم وأن يخرجهم من النار.

– وهناك أنواع من الشفاعة يختلف فيها نَظَرُ العلماء من أهل السنة ومن غيرهم لأجل ورود الدليل عليها.

* وهذه الثالثة لا تُعَدُّ من الخلاف في العقيدة؛ لأنَّه قد يُثْبِتُ الشفاعةُ من رَأَى صحة حديث، وقد ينفيها آخر لعدم ثبوت الدليل عنده بذلك، فهي إذًا مأخذ اجتهاد.

المسألة الرّابعة: أنَّ الشفاعة التي للنبي ﷺ بما جاء في الأخبار يوم القيامة أنواع:

١– أولًا: الشفاعة العظمى: وهي شفاعته ﷺ لأهل الموقف أن يُحَاسَبُوا، فإنَّ الناس يوم القيامة يمكثون زمانًا طويلًا في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ينتظرون الفرج وهم في شدَّة كرب، وشدَّة حر، وخوف وهلع، ينتظرون الحساب، وينتظرون تبيين المنازل، فيأتون إلى الأنبياء، يأتون إلى آدم يستغيثون به يطلبونه أن يشفع لهم، قال: ((فيأتون إلى آدم فيقولون له أنت أبونا ألا ترى ما نحن فيه اشفع لنا)) فيعتذر عن ذلك متذكِّرًا ذنبه عليه السلام، ثم يأتون إلى نوح فيسألونه، ثم يأتون إلى إبراهيم، ثم يأتون إلى موسى، ثم يأتون إلى عيسى عَلَيْهِم جميعًا السَّلاَمُ، كل أولئك يعتذرون، وبعضهم يذكر سؤالًا له وبعضهم يذكر ذنباً له، كما جاء في الحديث الطويل المعروف حديث الشفاعة.

ثم يأتون إلى النبي ﷺ فيقول: ((أنا لها، أنا لها))، فيذهب فيخر تحت العرش بعد نزول الجبار، قال ﷺ: ((فأحمد الله بمحامد يفتحها عليَّ لا أحسنها الآن)) فيقال: ((يا محمد ارفع رأسك وسل تُعطَ واشفع تشفع([١]))) الحديث.

وهذا فيه من جهة السِّياق ما يدلُّ على أنَّ المراد من هذا السؤال أن يشفع لهم ﷺ في تحقيق ما طلبوا، وإن لم يرِد له ذِكْرٌ في الحديث في تحقيق ما طلبوا، وهو أن يحاسبوا وأن يرتاحوا من الموقف.

فهذه هي الشفاعة العظمى جاءت فيها عدَّة أحاديث، وعليها التفسير في قوله: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}[الإسراء: ٧٩]، وكما جاء في دعاء المجيب للأذان: ((اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقامًا محمودًا الذي وعدته).

(المقام المحمود) هو المقام الذي تحمده عليه الخلائق جميعًا، ويُثْنِي عليه به ﷺ جميع الخلائق الذين وقفوا في الحساب، وهو مقام الشفاعة العظمى؛ لأنه بدعائه ﷺ وشفاعته يرتاح الناس من ذلك الموقف العظيم الذي لا يُتَصوَّرْ ولا يَعرف هوله إلَّا من قام فيه، أعاننا الله على كرباته وأمِننا وإيَّاكم من الفزع الأكبر.

٢– ثانيًا: شفاعته ﷺ في أهل الكبائر: وهذه قد جاء بها الدليل الخاص في قوله ﷺ ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي([١]))).

١– (قلت): البخاري (٣٣٤٠)، مسلم (١٩٣)، الترمذي (٢٤٣٤)، ابن ماجه (٤٣١٢).

وقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه نبينا ﷺ فقال له: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال ﷺ: ((أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلَّا الله خالصًا من قلبه أو نفسه([2]))، فقوله: ((أسعد الناس بشفاعتي)): يعني سعيد الناس بشفاعتي، فـ((أسعد)) أفْعَل على غير بابها بمعنى (فَعِيل)، يعني سعيد الناس بشفاعتي كما قال سبحانه: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا}[الفرقان: ٢٤]، ليس معناه أنهم أحسن مقيلًا من أهل النار، فيشترك أهل النار معهم في حُسْنِ مقيل، بل معنى قوله: {أَحْسَنُ مَقِيلًا}: يعني حَسَنٌ مقيلهم.

ف(أفعل) ليس على بابها في المفاضلة؛ ولكنها بمعنى المصدر يعني حَسَنٌ مقيلهم، سعيد الناس بشفاعتي ونحو ذلك.

وهذه الشفاعة لأهل الكبائر لها نوعان؛ يعني لعموم اللفظ: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)) نوعان:

أ – النوع الأول: قومٍ أَهْلُ كبائر رَجحت سيئاتهم على حسناتهم، فأُمِرَ بهم إلى النار فَيَشفع فيهم ﷺ في أن لا يدخلوا النار، فيُشفَّع فيهم ﷺ.

ب – النوع الثاني: في أقوامٍ دخلوا النار فيشفع فيهم ﷺ أن يخرجوا منها، فيخرجون منها كأنهم الحِمَمْ فيوضعون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحِبَّة في جانب السيل.

٣– ثالثًا: شفاعته ﷺ في أن يدخل أقوام الجنة بغير حساب ولا عذاب: وهذه يُستدلُّ لها بقول عُكَّاشة في حديثه (يا رسول الله أدعوا الله أن يجعلني منهم)، قال: ((أنت منهم([3]))).

٤– رابعًا: شفاعته ﷺ في رفع درجات بعض أهل الجنة: وهذه يذكرها أهل العلم، ولم يورِدُوا عليها دليلًا بيِّنًا، وهي شفاعة متفق عليها حتى عند أهل البدع. فيُسْتَدَلُّ لها بالإتفاق بما استدلَّ به ابن القيم رحمه الله في شرحه على تهذيب سنن أبي داوود حيث قال: (ويستدل لها بقوله ﷺ لمَّا صلَّى على أبي سلمة: ((اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ([4]))). فقوله: ((وارفع درجته)) دعاء في الدنيا له، وهذا معنى الشفاعة).

٥– خامسًا: شفاعته ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم وصاروا على الأعراف، في أن يعفوا الله عنهم ويُدخلهم الجنة: فهؤلاء يدخلون في عموم قوله تعالى: {وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ}[الأعراف: ٤٦]، على أحد أوجه التفسير من أنَّ أصحاب الأعراف هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيُجعلون على رأس جبل بين الجنة والنار

١– أبو داود (٤٧٣٩)، الترمذي (٢٤٣٥).

– (قلت): صححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٥٥٩٨).

٢– البخاري (٩٩).

٣– البخاري (٥٧٥٢)، مسلم (٥٤٩)، الترمذي (٢٤٤٦).

٤– مسلم (٢١٦٩)، أبو داود (٣١١٨).

لأجل التساوي، إذا نظروا يمنة إلى الجنة سُرُّوا، وإذا نظروا شمالًا إلى النار خافوا، فَيُشَفَّعْ فيهم ﷺ إكرامًا له في أن يجعلهم الله تعالى من أهل الجنة.

٦- سادسًا: شفاعته ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة: فإنَّ الناس إذا جاوزوا الصراط يُحبسون في عرصات الجنة مدَّة، ثم يأتي ﷺ فيقرع باب الجنة فيُفتح له، ويسأل الله تعالى قبل ذلك أن يأذن لأهل الجنة بدخولها، فيدخلون برحمة الله تعالى، ثم بشفاعته ﷺ، وهو أوَّل شافع وأوَّل مُشَفَّع؛ يعني من حيث الجنس هو أوَّل شافع وأوَّل مُشَفَّع.

٧- سابعًا: شفاعته ﷺ لأبي طالب عمّه في أن يخفِّف الله تعالى عنه العذاب: فيُشَفَّع فيه فيكون في ضحضاح من نار نعلاه من نار يغلي منهما دماغه، نعوذ بالله من عذابه.

هذه سبعة أنواع وبعض أهل العلم يجعلها ثمانية؛ لأجل أنَّ أهل الكبائر نوعان، فيجعل شفاعته لأهل الكبائر يعدُّها نوعين من الشفاعة، وهي واحدة لأن الدليل فيها واحد.

المسألة الخامسة: الشفاعة يوم القيامة ليست خاصَّة بالنبي ﷺ ولا بالأنبياء؛ بل تَشفع الملائكة ويَشفع المؤمنون بدرجاتهم: (العلماء والشهداء والصالحون يشفعون)؛ كما ثبت في الصحيح أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: ((شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلَّا رحمة أرحم الراحمين فيأمر الله تعالى بأقوام في النار لم يعلموا خيرًا قط أن يخرجوا([1]))) إلى آخر الحديث؛ يعني أنَّ الشفاعة ليست خاصَّة بالأنبياء بل الملائكة تشفع كما قال تعالى في وصف الملائكة من حملة العرش وغيرهم {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ}[الشورى: ٥]، وهذا استغفار قبل معاينة المصير والعذاب، وهم أرحم مُتَوَلِّيْنَ لأهل الإيمان إذا رأوا العذاب ورأوا المصير.

قال: ((شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون))، فإذًا الشفاعة عامة فكل مؤمن صالح يشفع.

المسألة السادسة: الشفاعة لا تنفع عند الله مطلقًا كما قال سبحانه: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر: ٤٨]، فليس كل شافع يشفع وليست كل شفاعة تُقبل بل لا تنفع الشفاعة لا من الأنبياء ولا من الملائكة إلَّا بوجود شرطين فيها:

١- الشرط الأول: أي يأذن الله للشافع أن يشفع.

٢- الشرط الثاني: رضا الرحمن عن المشفوع له.

كما قال سبحانه: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}[النجم: ٢٦]، وقال سبحانه {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[الزخرف: ٨٦]، يعني فيمن تنفعه الشفاعة.

لهذا قال العلماء يُشترط لحصول الشفاعة وقبولها:

١- إذن الله جل جلاله.

١- مسلم (٤٧٢).

٢- الرضا.

أ- أولًا: إذن الرحمن جل جلاله. المقصود بالإذن: الإذن الشرعي والإذن الكوني. فإنَّ العبد لا يبتدئ بالشفاعة كونًا إلَّا بعد أن يشاء الله تعالى أن تقع منه الشفاعة كونًا؛ يعني في الدنيا وفي الآخرة. وكذلك لابدَّ لتحقيق هذا الشرط من الإذن الشرعي، فإذا شفع في من لم يُؤْذَنْ شرعًا بالشفاعة فيه، فإن الشفاعة لا تُقْبَلْ. مثاله شفاعة إبراهيم في أبيه قال: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}[الممتحنة: ٤] فلم تنفعه، وقال سبحانه في حقِّه: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}[التوبة: ١١٤]، فلمَّا تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرَّأ منه.

كذلك شفع نوح عليه السلام في ابنه: {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ}[هود: ٤٥] فأجابه الرحمن فقال: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}[هود: ٤٦].

وكذلك شَفَعَ النبي ﷺ في عمِّه وقال: ((لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عن ذلك(١)))، فنزل قول الله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}[التوبة: ١١٣].

فإذًا: ولو وقعت الشفاعة بإذن الله الكوني فإنها لا تنفع حتى يكون إذن الله الشرعي؛ يعني حتى تكون الشفاعة موافقة للشرع، يعني الإذن الشرعي في صفتها وفي المشفوع له وفيما يكون في ذلك، وهذا الشرط مهم.

ب – ثانيًا: الرضا:

كما قال سبحانه: {وَيَرْضَى}[النجم: ٢٦]، وقال في سورة الأنبياء في ذكر الملائكة: {وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}[الأنبياء: ٢٨]، هذا الرضا هو:

– رضا الله عن الشافع.

– رضا الله عن المشفوع له.

فرِضا الله عن الشافع في قوله: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[الزخرف: ٨٦].

ورضا الله عن المشفوع له في قوله: {وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى}، وآية النجم في قوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}[النجم: ٢٦] كذلك.

إذًا فالرضا شرط:

١- رضاه سبحانه عن الشافع، ولذلك الكافر لا يشفع.

٢- رضا الله عن المشفوع له.

١- البخاري (٣٨٨٤)، مسلم (١٤١)، النسائي (٢٠٣٥).

ويرِد على هذا شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب، فهي مستثناة من هذا الشرط لأجل أنَّ الله رضي نصرته للنبي ﷺ، فحصل من أبي طالب مِنَ الفعل ما فيه نوع رضا لله عن الفعل لا عن الفاعل. فإذًا هو إيراد على الشرط، والجواب أنَّ هذا استثناء وسبب الاستثناء ما ذُكِر.

المسألة السابعة: أنَّ الشفاعة من المباحث العظيمة التي ضلَّ فيها فئام من الناس. فضلَّت النصارى فيها، وضلَّ مشركو العرب فيها، وضلَّ مشابهو مشركي العرب من الذين يغلون في الأولياء والأنبياء والقبور فضلُّوا فيها، والجميع لسانهم قول المشركين: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}[الزمر: ٣].

ولهذا الشفاعة كما ذكرت لك لها جهتان في بحثها:

١- جهة تتعلَّق بالعقيدة والآخرة؛ وهي ما قدمنا ملخصًا ومختصرًا في يوم القيامة.

٢- جهة تتعلَّق بما يتَّصل بتوحيد العبادة وطلب الشفاعة من الأموات.

وتحقيقًا لذلك المقام فنقول: إنَّ طلب الشفاعة من الإنسان أو من المخلوق هذه منقسمة إلى قسمين:

الأولى: شفاعة أَذِنَ بها الشرع.

الثانية: شفاعة نهى عنها الشرع.

أما التي أذن بها الشرع فهي طلب الشفاعة ممَّن يملكها ويستطيع أداءَها، وهو الحيّ الحاضر الذي يسمع، ولهذا سأل الصحابة النبي ﷺ أن يشفع لهم في حياته ﷺ لأنه حي حاضر يسمع.

وقد ثبت في الصحيح أن عمر رضي الله عنه لما جاءت المجاعة وأصاب الناس الكرب في عام الرَّمادة أنه قال لما استسقى بالناس (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا استسقينا بنبيك، وإنا الآن نستسقي بعم نبيك اللهم فأسقنا، يا عباس قم فأدعُ ربَّك([1])).

فدلَّ هذا على أنهم كانوا يطلبون الشفاعة من النّبي ﷺ.

وطلب الشفاعة منه في حياته بمعنى طلب أن يدعو لهم ربه، والنبي ﷺ دعواته الأصل فيها أنها مجابة، وقد يُرَدُّ بعضها لحكمة الله.

وأما التي نهى عنها الشرع فهو طلب الشفاعة من المخلوق الذي ليس بحي - ميت - أو هو غائب فإنه شرك بالله جل جلاله؛ لماذا؟ لأنه طلب؛ لأنَّ حقيقة الشفاعة دعاء وطلب، فإذا سأل غيره الشفاعة، فهو سأل وطلب من المسؤول أن يسأل.

١- ابن خزيمة (١٤٢١)، ابن حبان (٢٨٦١)، المستدرك (٥٤٣٨).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢٨٥٠)، وإرواء الغليل (٦٧٢).

فإذًا حقيقة طلب الشفاعة أنها دعاء، ولذلك من طلب من الميت أن يدعو له، فإنه يدخل في عموم نصوص الدعاء؛ لأنَّ الطلب دعاء.

ولهذا نقول: كل طلب شفاعة من الأموات أو الغائبين ممَّن لا يملكها أو لا يستطيعها أو لم يُؤذَن له فيها شرعًا في حياة البرزخ فإنَّ هذه من الشرك بالله جل جلاله.

لكنَّ الشُّبْهَة في الشفاعة كبيرة، وتحتاج إلى إقامة الحجة على المخالف أكثر من غيرها من مسائل العقيدة. المشركون لم يكونوا يطلبون من آلهتهم الدعاء، لم يكونوا يطلبون من أوثانهم لتشفع، ولكن كانوا يتقرَّبون إليها لتشفع. فإذًا صورة طلب الشفاعة من الميت مُحدثة. ولهذا يُعَبِّر كثير من أهل العلم عن طلب الشفاعة من الأموات بأنها بدعة محدثة؛ لأنَّها لم تكن فيما قبل الزمان الذي أُحدثت فيه تلك المُحدثات في هذه الأمة.

فإذًا تعبير بعض أهل العلم عنها بأنها بدعة، لا يعني أنها ليست بشرك؛ لأنَّ البِدَعَ منها ما هو كفري شركي، ومنها ما هو دون ذلك. تفاصيل مسألة الشفاعة من حيث تعلُّقها بتوحيد الإلهية مبسوط في شرح كتاب التوحيد كما هو معروف، والمقام في شرح العقيدة العامة لا يتَّسع لتفصيل الكلام على ذلك.

المسألة الثامنة: احتج المعارض والمخالف من المعتزلة والخوارج في أنَّ الشفاعة لأهل الكبائر لا تنفع، الشفاعة لمن في النار لا تنفع، بقول الله تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر: ٤٨].

ووجه الاستدلال عندهم من الآية أنَّهُ قال: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} بالجمع، والذين يشفعون يوم القيامة هم الذين أذِنَ الله لهم بالشفاعة، وهم الأنبياء والمؤمنون، قالوا: فدلَّت الآية على أنَّ من في النار لا تنفعه الشفاعة – شفاعة الشافعين –، لأجل عموم لفظ الشافعين فهو عام في كل من يشفع.

والجواب عن ذلك:

١– أولًا: أنَّ هذه الآية جاءت في سياق ذكر الكفار وأنهم في النار، فقال: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر:٤٢ – ٤٨]، فقوله: {فَمَا}: الفاء هنا ترتيبية تُرَتِّبُ النتيجة التي بعدها على الوصف الذي قبلها، والوصف الذي قبلها في الكافرين الذين وصفهم بقوله: {لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} ووصفهم بقوله: {وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} وهؤلاء هم الكفار.

والمسألة التي هي الشفاعة لأهل الكبائر هي في مَنْ كان مسلمًا، أما المكذِّب بيوم الدين والذي لم يصحَّ إسلامُه، فإنه ليس هو محل البحث.

فإذًا استدلالهم بالآية في غير محله؛ لأنَّ الآية يقول بها من يثبت الشفاعة لأهل الكبائر في أنَّ المشركين ولو شفع بعضهم لبعض وظنوا أنَّ آلهتهم تشفع فما تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنهم مشركون كفرة، والكافر لم يرضَ الله عنه، ومن شرط الشفاعة الرضا.

فلو شفع، على فرض أنَّ أحدًا شفع لهم من أقربائهم، فإنَّهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، والله سبحانه إنما تنفع الشفاعة عنده لمن يأذن الله له ولمن يرضى.

٢- ثانيًا: أنَّ قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح بمجموع طرقه: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))، هذه نصّ، وليست بالظاهر؛ يعني لا يحتمل التأويل، وكذلك قوله: ((أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه ومن نفسه[1]))، هذا فيه ظهور في الدلالة؛ لأنها تعم من قال لا إله إلا الله مخلصًا وصاحب الكبيرة قالها، وقد قال ﷺ: ((أسعد الناس بشفاعتي من قال)): يعني الذي قال ومن المقرَّر أنَّ الاسم الموصول في العربية وعند الأصوليين يعمُّ ما كان في حيز صلته بظهور في العموم.

ولهذا نقول: إنَّ من مَنَعَ الشفاعة لأهل الكبائر من المعتزلة والخوارج، هذا لأجل مذهبهم الرَّديء في أنَّ فِعْلَ الكبيرة كُفر وأنه يوم القيامة يكون من أهل النار والعياذ بالله، وهذا باطل كما هو مقرَّر في موضعه من مباحث الأسماء والأحكام في الإيمان[2].

المسألة التاسعة: أنَّ الشارح ابن أبي العز رحمه الله في شرحه ذَكَرَ في هذا الموضع مسائل التوسل بالجاه والتوسل بالحق – يعني قول القائل: (بحق فلان)، (بحق نبيك)، (بحق عمر) ونحو ذلك، والتوسل بجاه فلان – وبَحَثَهَا بحثًا جيِّدًا مُلَخَّصًا من كتاب التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية، فلابدَّ من الإطلاع على ذلك الكلام، ومراجعة كتاب التوسل والوسيلة؛ لأنَّ لفظ التوسل يشتبه بالشفاعة، فبعضهم يجعل (أتوسل إليك) بمعنى الشفاعة، فيكون توسلًا متضمِّنًا الشفاعة أو متضمِّنًا التَّشفُّع أو طلب التَّشفُّع.

ولهذا في قول القائل: أسألك بحق فلان، هذا فيه تفصيل ويُرْجَع فيه إلى شرح الطحاوية وإلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه لا يناسب المتن؛ يعني لفظ الشفاعة التي ذكرها الطحاوي رحمه الله، فهي فائدة استطرادية.

المسألة العاشرة: الأسباب التي بها يُحَصِّل المرء المسلم شفاعة نبيه ﷺ جاءت بها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ.

ونذكر منها سببين:

١- البخاري (٩٩).

٢- (قلت): أنظر رد القرطبي على المعتزلة والخوارج في هذه المسألة عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

١- السبب الأول: وهو أعظم الأسباب وأرجاها وهو التوحيد وإخلاص الدين والعمل لله جل جلاله وإسلام الوجه لله عز وجل. وهذا قد دلَّ عليه ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﵁ أنه سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال ﷺ له: ((لقد علمت أن لن يسألني أحد عن هذا قبلك أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه))، ومثله قوله ﷺ: ((لكل نبي دعوة مجابة وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي مدركة منهم من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه ونفسه([١]))) أو كما قال ﷺ.

٢- السبب الثاني: متابعة المؤذِّن فيما يقول كما دلَّ عليه الحديث الذي رواه البخاري وغيره أنه ﷺ قال: ((من سمع النداء فقال مثل ما يقول المؤذن، ثم قال اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إلّا حلّت له شفاعتي يوم القيامة([٢]))).

فمن أسباب نيل شفاعته ﷺ متابعة المؤذن بإخلاص وصدق؛ لأنَّ ذلك دالٌّ على التوحيد وعلى الاستسلام لله في شرعه وأمره، فيقول مثل ما يقول المؤذن، ثم إذا ختم لا إله إلا الله قال مثل ما يقول ثم يقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته.

وهنا فيه زيادات مروية في بعض الروايات في دعاء مجيب المؤذن منها: آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة (والدرجة العالية الرفيعة)، وهذه الزيادة ضعيفة.

وكذلك زيادة أخرى: وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته (إنك لا تخلف الميعاد). وهذه رواها البخاري في صحيحه في رواية الكُشْمَيْهَنِي وهي عند المحققين شاذَّة لا تصحُّ عن البخاري لمخالفة الكُشْمَيْهَنِي لجميع رواة الصحيح.

وثَمَّ أسباب أخرى تجمعونها إن شاء الله تعالى فإنها من نفيس العلم.

قال ابن العثيمين: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم}؛ هذه هي الجملة السادسة؛ و(العلم) عند الأصوليين: إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا؛ فعدم الإدراك: جهل؛ والإدراك على وجه لا جزم فيه: شك؛ والإدراك على وجه جازم غير مطابق: جهل مركَّب؛ فلو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: (لا أدري) فهذا جهل؛ ولو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: (إما في الثانية؛ أو في الثالثة) فهذا شك؛ ولو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: (في السنة الخامسة) فهذا جهل مركَّب؛ والله عز وجل يعلم الأشياء علمًا تامًّا شاملًا لها جملةً وتفصيلًا؛ وعلمه ليس كعلم العباد؛ ولذلك قال تعالى: **{يعلم**

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٢٢٣)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي إِلَى يومِ القِيامةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا)). رَوَاهُ مُسلم وللبخاري أقصر مِنْهُ

٢- البخاري (٦١٤)، أبو داود (٥٢٩)، الترمذي (٢١١)، النسائي (٦٨٠).

ما بين أيديهم}: أي المستقبل؛ {وما خلفهم}: أي الماضي؛ وقد قيل بعكس هذا القول؛ ولكنه بعيد؛ فاللّفظ لا يساعد عليه؛ و{ما} من صيغ العموم؛ فهي شاملة لكل شيء سواء كان دقيقًا أم جليلًا؛ وسواء كان من أفعال الله أم من أفعال العباد.

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ: {يَعْلَمُ(١)مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} دَلِيلٌ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ: مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ: {وَمَا نَتَنزلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}[مَرْيَمَ: ٦٤].

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص١١٨: فالعلم هنا استدلَّ به الذين يقولون: إن علم الله جل وعلا مستأنف، استدلوا بمثل هذه الآيات. وهذا غلط ولا شك من جهات:

منها أن علم الله جل وعلا في القرآن لِما كان وما سيكون والحاضر والمستقبل وكل شيء، وأيضًا يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون. وأمَّا ما ذُكر فيه تعليل الشيء حتى يعلمه الله جل وعلا فهذا يراد به (إظهار العلم السابق لله جل وعلا لكي يكون العلم به مشتركًا بين سائله وبين الله جل وعلا، حتى تكون الحجة على العباد أعظم.

قال جل وعلا: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}، استدلَّ أهل العلم بهذه الآية على الجزء الأخير من مُتَعَلِّق العلم وهو أن الله جل وعلا يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

قال هنا جل وعلا: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}، {مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}: يعني من الزمن، ما يفعلونه الآن وما يستقبلونه، ويعلم {مَا خَلْفَهُمْ}: ما خلفوه من الأعمال، وهذا متعلِّق بالجليل والصغير من الأمور، فالكلُّ يعلمه الله جل وعلا، وهذه صفته تبارك وتعالى.

قال ابن العثيمين: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء} لها معنيان؛ المعنى الأول: لا يحيطون بشيء من علم نفسه؛ أي: لا يعلمون عن الله سبحانه وتعالى من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، إلّا بما شاء أن يُعلِّمهم إيَّاه، فيعلمونه؛ المعنى الثاني: ولا يحيطون بشيء من معلومه – أي مما يعلمه في السموات والأرض – إلّا بما شاء أن يُعلِّمهم إياه، فيعلمونه؛ وقوله تعالى: {إلّا بما شاء} استثناء بدل من قوله تعالى: {شيء}؛ لكنه بإعادة العامل؛ وهي الباء؛ و{ما} يحتمل أن تكون مصدرية؛ أي: إلّا بمشيئته؛ ويحتمل أن تكون موصولة؛ أي: إلّا بالذي شاء؛ وعلى التقدير الثاني يكون العائد محذوفًا؛ والتقدير: إلّا بما شاءه.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص١١٩: عِلمُ الله جل وعلا لا يحيط به أحد من خلقه إلَّا إذا عَلَّمَ الله جل وعلا الخلق شيئًا من ذلك.

فإذًا الأصل أن الخلق لا يعلمون شيئًا إلَّا بتعليمه من الله جل وعلا: إما من جهة التعليم الغريزي، وإمَّا من جهة التعليم التجريبي، وإمَّا من جهة التعليم الشرعي، يعني من جهة ما يكتسبونه في حياتهم من العلوم كما قال: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ}... إلى آخره، أو العلم التجريبي، أو العلم الشرعي

وأما علم الغيب فهذا خاص بالله جل وعلا، لا يعلم أحدًا الغيب إلَّا الله جل وعلا، إلَّا أن الله يطلع الرسل والأنبياء على بعض الغيب، كما قال سبحانه في سورة الجن: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ}: يعني فإن بعض الرسل يطلعهم الله جل وعلا على بعض المغيبات.

والنبي ﷺ أُطْلِعَ على كثير من المغيبات ليكون ذلك دلالة من دلالات نبوته ﷺ، فقد أخبر بأشياء ستكون، وكل ذلك ليس علما ذاتيًّا له ﷺ، بل كان بتعليم الله جل وعلا له كما قال: {إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ}، وكما قال في هذه الآية: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ} وجه الدلالة على ما ذكرنا: أن قوله: {بِشَيْءٍ} هذه نكرة جاءت في سياق النفي في قوله: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ}، وهذه النكرة تدلُّ على العموم لأنها جاءت في سياق النفي، فالنفي إذا جاء بعده نكرة دلَّ على العموم، وأيضًا هذا عموم في الأشياء، {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ}، والشيء ما يصح أن يُعلم إما نظرًا إلى الحاضر أو نظر إلى أنه سيؤول إلى العلم، كما قال سبحانه: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}: يعني لم يكن يصح أن يعلَم علمًا مذكورًا، يعني لم يكن شيئًا يستحق أن يُذكر لأنه لم يكن شيئًا يستحق أن يُعلم لأنه غائب، قال: {لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} لأنه في صلب أبيه أو في ترائب أمه.

قال هنا: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}، {مِنْ} هنا تبعيضية، {مِنْ عِلْمِهِ}: يعني من بعض علمه، وهذا فيه تأكيد آخر.

قال: {إلا بِمَا شَاءَ}: يعني إلَّا بمشيئته، فإذًا لا أحد يعلم شيئًا من علم الله إلَّا إذا أذِن الله جل وعلا بذلك.

قال ابن العثيمين: {وسع كرسيُّهُ السماوات والأرض}: أي شمل وأحاط، كما يقول القائل: وسعني المكان؛ أي شملني وأحاط بي؛ و(الكرسي) هو موضع قدمَي الله عز وجل؛ وهو بين يدي العرش كالمقدمة له؛ وقد صحَّ ذلك عن ابن عباس موقوفًا([١])، ومثل هذا له حكم الرفع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيه؛ وما قيل من أن ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ عن بني إسرائيل فلا صحَّة له؛ بل الذي صح عنه في البخاري([٢])أنه كان ينهى عن الأخذ عن بني إسرائيل؛ فأهل السنة والجماعة عامَّتهم

١- راجع المعجم الكبير للطبراني ١٢/٩٣، حديث رقم ١٢٤٠٤؛ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/٣٢٦)؛ وراجع مستدرك الحاكم ٢/٢٨٢، كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في مختصر العلو للعلي العظيم (٤٥).

٢- راجع البخاري ص٦١٢ - ٦١٣، كتاب الاعتصام بالسنة، باب ٢٥: قول النبي ﷺ: ((لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء))، حديث رقم ٧٣٦٣..

على أن الكرسي موضع قدمي الله عز وجل؛ وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من أهل العلم وأئمة التحقيق؛ وقد قيل: إن (الكرسي) هو العرش؛ ولكن ليس بصحيح؛ فإن (العرش) أعظم، وأوسع، وأبلغ إحاطة من الكرسي؛ وروي عن ابن عباس أن {كرسيه}: علمه؛ ولكن هذه الرواية أظنها لا تصح عن ابن عباس([1])؛ لأنه لا يعرف هذا المعنى لهذه الكلمة في اللغة العربية، ولا في الحقيقة الشرعية؛ فهو بعيد جدًّا من أن يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ فالكرسي موضع القدمين؛ وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((ما السموات السبع والأرضون بالنسبة للكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة([2])))؛ وهذا يدلُّ على سعة هذه المخلوقات العظيمة التي هي بالنسبة لنا من عالم الغيب؛ ولهذا يقول الله عز وجل: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها} [ق~: ٦]؛ ولم يقل: أفلم ينظروا إلى الكرسي؛ أو إلى العرش؛ لأن ذلك ليس مرئيًّ ﷺ ا لنا؛ ولولا أن الله أخبرنا به ما علمنا به.

قال صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب العقيدة الطحاوية في مسألة الكرسي: المسألة الأولى:

أنَّ كلمة (كرسي) من جهة اللغة مأخوذة من الكَرْسِ، و الكَرْسِ هو الجمع في اللغة، ويقال للكرسي المعروف إنه كرسي لأجل أنَّ أعواده تُجمَعْ على هيئة ما. فالكرسي يختلف عن المقعد الآخر بأنَّهُ أعواد مجموعة في اللغة، ومنه سُمِّيَ العلماء أيضًا كَرَاسِي لأجل أنهم جَمَعُوا العلم، لأجل معنى الجمع، وكذلك قيل للوَرَق المجموع على نحوٍ ما كُرَّاسة، لأنها أوراق جُمِعَتْ.

فمادة الجمع، مادة الكَرْسْ، تعود إلى الجمع، ويقال تَكَرَّسَ فلان بالشيء إذا جَمَعَهُ، أو تكرَّس فلان الشيء إذا جمعه إلى صدره أو جمعه إليه.

١- راجع تفسير الطبري ٥/٣٩٧ - ٣٩٨، القول في تأويل قوله تعالى: {وسع كرسيه السموات والأرض}، حديث رقم ٥٧٨٧ - ٥٧٨٨؛ ذكر ابن أبي العز أن المحفوظ عن ابن عباس أن الكرسي هو موضع القدمين (شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧١) وذكر شعيب الأرناؤوط: أن أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بأنه موضع القدمين أصح إسنادا (شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧١، حاشية رقم ١)، وذكر محمود شاكر أنه إذا كان أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بالعلم صحيح الإسناد فإن الخبر الآخر صحيح على شرط الشيخين (تفسير الطبري ٥/٤٠١، حاشية رقم ١).

- (قلت): قال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٩): وما روي عن ابن عباس أنه العلم، فلا يصح إسناده إليه لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه. رواه ابن جرير. قال ابن منده: ابن أبي المغيرة ليس بالقوي في ابن جبير.

٢- أخرجه ابن حبان في صحيحه ١/٢٨٧، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ ... ، حديث رقم ٣٦٢؛ وفي سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال أبو حاتم وأبو زرعة: كذاب، وقال علي بن الجنيد: صدق أبو حاتم ينبغي أن لا يحدث عنه (ميزان الاعتدال ١/٧٣) ؛ وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٥/٣٩٩، تحقيق أحمد شاكر وفي سنده ابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي: قال البخاري: ضعفه علي جدا، وقال النسائي وأحمد ويحيى: ضعيف (ميزان الاعتدال ٢/٥٦٤؛ وقال شعيب في تخريج شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٠، ٣٧١) ضعيف.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩)، وقال: لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث، وأنه أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه جرم قائم بنفسه، وليس شيئًا معنويًّا.

فإذًا مادة الكرسي مأخوذة من الجمع. وهذا يدلُّ على أنَّ كرسي الرحمن – جل جلاله – وتقدَّست أسماؤه له من الصفات العظيمة ما يختلف به عن صفة العرش؛ لأنَّ الله – عز وجل – سَمَّى العرش عرشًا، وهذه لها دلالتها في اللغة، وسَمَّى الكرسيَّ كرسيًّا وهذه لها دلالتها في اللغة.

المسألة الثانية: الناس لهم في الكرسي أربعة أقوال، يعني غير أهل السنة:

١– القول الأول: وهو قول الحسن وهو: أنَّ الكرسي هو العرش وهذا قول ضعيف، الآثار تردُّه كما قلت لك.

٢– القول الثاني: أنَّ الكرسي لمَّا ذُكِرْ في آيةٍ واحدة هي آية الكرسي في سورة البقرة، أَنَّهُ تمثيل وأنه ليس ثمَّ حقيقة للكرسي؛ ولكن هو تمثيل لتقريب عظمة الله – عز وجل –.

وهذا هو قول الذين ينفون كثير من الصفات التي تدلُّ على عظمة الله وقدرته كقوله تعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ}[الزمر: ٦٧]، ونحو ذلك فيقولون: إنَّ هذا كله تخييل؛ بل قالوا: إنَّ كل نص جاء في الكتاب والسنة من هذا القبيل فإنه لأجل التخييل لا تُقْصَدُ حقائقه، وإنما المقصود تعظيم الناس لله – عز وجل – وإلَّا فهذه ليست على حقائقها. وهذا القول معروف من أقوال المعتزلة وطائفة من الأشاعرة، ومن المعاصرين قرَّرَهُ في تفسيره سيد قطب في ظلال القرآن وجعله قاعِدَةً كلية في آخر سورة الزُّمر عند قوله تعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ}.

وفي الحقيقة إنَّ القول بأنَّ هذا كله على جهة التخييل إلغاء لكل الدَّلالات الشرعية للألفاظ، وإلغاء لكل الغيبيَّات، لأنه يكون المقصود في كل هذا التمثيل. وهذا القول قَدَّمَهُ الزمخشري في الكشاف وكأنه يميل إليه، وعلى قاعدتهم في أنَّ كل النصوص من هذا الباب على وجه التوهُّم والتخييل. وهذا القول غلط عظيم؛ لأنَّ معناه على هذه القاعدة: نفي كل الأمور الغيبية، فما كان من الأمور الغيبية يدلُّ على عظمة الله، وكان فيها تمثيل بأشياء موجودة عند البشر، فتُنْفَى ويكون المقصود التمثيل لا الحقيقة.

٣– القول الثالث: أنَّ الكرسي هو العلم، فكرسي الرحمن – عز وجل – هو عِلْمُهُ، وقوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}: يعني وسع علمه السموات والأرض. وهذا القول مروي عن ابن عباس ولكن الصحيح عن ابن عباس خلاف هذا القول. ويُرَدُّ على هذا القول بأمور:

١– أنَّ مادة الكرسي للجمع، والعلم شيء آخر، هذا من جهة اللغة.

٢– أنَّ الله عز وجل ذكر أنَّ الكرسي وسع السموات والأرض؛ ولكن علمه عز وجل وسع كل شيء، قال سبحانه: {ربنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا}[غافر: ٧]، وقال عز وجل: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وعِلْمُ الله عز وجل يشمل علمه بذاته

وبأسمائه وصفاته وأفعاله؛ وعلمه عز وجل الذي يسع السموات والأرض، وعلمه الذي يسع الجنة والنار، وعلمه بعد تغير السموات والأرض وقبل خلق السموات والأرض.

فإذًا تفسير الكرسي بأنه العلم هذا يضادُّ أنَّ العلم يسع كل شيء، {وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا}، وأما كرسي الرحمن عز وجل فقال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}.

٣- أنَّ قولهم إنَّ الكرسي هو العلم وأنَّ مادة تَكَرَّسَ راجعة إلى العلم، والعلماء سُمُّوا كراسي لأجل العلم ونحو ذلك من الاحتجاجات واحتجاجهم بقول الشاعر يصف قنصه لفريسته: فلما احتازها تكرَّسا ...

قالوا يعني علم.

فهذا من الجهة اللغوية فيه ضعف، وذلك أنَّ العلم ليس راجعًا إلى الجمع؛ والعلماء صحيح أنهم جمعوا علومهم، لكنَّ العلم من حيث هو يَحْصُلُ بتلقي المعلوم، ثُمَّ العِلْمُ به والمعرفة به، فليس كل علم ناتجًا عن جمع، بل يكون ناتجًا عن تصوُّر الخبَر، فيكون معلومًا له.

وهذا هو المقرَّر في اللغة وعند أهل نظرية المعرفة، فإن المرء يعلم بدون جمع، والله – عز وجل – وَصَفَ الصغير بقوله: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ}[النحل: ٧٨]، فكُلَّمُا عَلِمَ المخلوق، كلما علم الصغير شيئًا صار عالمًا به ولو لم يجمعه إلى غيره، فمادة الجمع غير مادة العلم، مادة الكَرْسْ غير مادة العلم، والعلم ما صار علمًا للجمع، وإن كان العلماء سُمُّوا كراسي لأجل جمعهم العلم.

فإذًا راجعٌ تفسير كلمة التكرُّس إلى كلمة الجمع، واحتجاجهم بقول الشاعر كما ساقه ابن جرير الطبري في تفسيره:

(فلما احتازها تكرسا)، يدلُّ على أنَّ التكرُّس بمعنى الجمع لا بمعنى العلم لم؟ لأنه قال: (فلما احتازها) يعني صارت في حوزته، (تَكَرَّسَا) وهو عَلِمَ بأنه قَنَصَهَا لَمَّا صارت في حوزته. فيكون تكرسه شيئًا جديدًا زائدًا على ما حَصَلَ له من الحيازة، فالحيازة بها عَلِمَ، وزاد بعد الحيازة أن ضَمَّهَا وجمعها إليه.

فإذًا من حيث اللغة فإنَّ دلالة التَّكَرُّس على العلم دلالة ضعيفة؛ بل الصواب أنَّ التَّكَرُّس ومادة كَرَسَ راجعة إلى الجمع في اشتقاقاتها جميعًا.

٤- القول الرابع: أنَّ الكرسي عبارة عن المُلْكْ كما قالوا في العرش، وقالوا: إذا قيل: إنَّ كرسي الملك واسع، فهذا يدلُّ على سعة مُلْكِهِ وعلى عُلُوِّ شأنه وقُوَّتِهِ.

فيقولون: الله عز وجل قال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[البقرة: ٢٥٥]: يعني أنَّ سلطانه وملكه وسع السموات والأرض. وهذا ليس بجيِّد أيضًا؛ لأنَّ:

١- الكرسي من جهة دلالة اللغة غير دلالته على الملك.

٢- أنَّ الكرسي موصوف في السنة وفي آثار السَّلف بأنه غير الملك، فدلَّ ذلك على أنَّ تفسيره بالملك تفسير حادث، والتفسير الحادث بعد زمن الصحابة رضوان الله عليهم لا يُصَارُ إليه في تفسير القرآن.

المسألة الثالثة: وهذه المسألة متصلة بالعرش والكرسي جميعًا، وهي راجعة إلى أثر الإيمان بالعرش والكرسي.

فالمؤمن إذا آمن بأنَّ عرش الله عز وجل حق، وأنَّ هذه التي ذُكرت هي صفة العرش، وأنَّ عرش الله عظيم جدًّا وأنه مجيد وأنه كريم، وأنَّ النبي ﷺ حَدَّثَ عن أحد حملة العرش بأنَّ مسيرة ما بين عاتقه إلى شحمة أذنه مسيرة خمسمائة عام، وأنَّ السموات بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وأنَّ الكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، وأنَّ الكرسي موضع قدمي الرحمن عز وجل، فلا شك أنَّ هذا يَؤُولُ بالمؤمن الحق إلى اعتقاد عظمة الله عز وجل، وإلى أنَّ الله سبحانه تتناهى المخلوقات عنده في الصِّغَر، وأنه عز وجل كما وصف نفسه بقوله {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وجاء في الأثر في تفسير ذلك أنه يرمي بها يوم القيامة كما يرمي الصغير بالكرة فيقول أنا الله الواحد أنا الملك إلى آخره.

فمعرفة صفة الكرسي وصفة العرش، ويبتدئ المرء من نفسه التي يُعَظِّمُهَا وكيف هو على هذه الأرض العظيمة جدًّا وهو صغير جدًّا جدًّا، هذه الأرض، حتى إنَّ المدن الكبار إذا صعدت بالطائرة تراها صغيرة جدًّا وهي تحوي ملايين الناس، فكيف بالفرد والأرض هذه بالنسبة للسماوات صغيرة، والسماوات السبع على سعتها وعِظم ما فيها من الأفلاك والنجوم والسيارات بالنسبة للكرسي صغيرة كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، والله عز وجل فوق العرش مستغن عن العرش، وكل شيء محتاج إليه، والله سبحانه محيط بكل شيء إحاطة سعة وقدرة وذات وشمول جل جلاله وتقدَّست أسماؤه، فإنَّ المرء ولاشك يصيبه بل يحصل له في قلبه نوع عظيم من الذُّل لله عز وجل، ونوع عظيم من احتقار النفس ومعرفة قدر الإنسان كيف هو، وأنه شُرِّفَ أعظم تشريف أَنْ جعله الله عز وجل عبدًا له سبحانه، ولهذا ينظر المرء إلى عِظَم المخلوقات هذه، ويؤمن بها فيُعَظِّمْ الله عز وجل.

حقيقة الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته يُثْمِرُ ثمراتٍ عملية في القلب؛ من وَجَلِ القلوب، من إجلال الله عز وجل، وحب القلوب لجمال الله عز وجل، وأنواع ما يحدث في القلب من الإيمان ومدارج الإيمان التي تتَّصل بالإيمان بالأسماء والصفات، كذلك الإيمان بالجنة والنار، كذلك الإيمان بالعرش والكرسي لمن تأمَّله فإنه يجعل القلب خاضعًا لربنا ويجعل القلب مُخْبِتًا مُنِيبًا لله عز وجل فإنْ غَفَلَ جاءه تعظيمه وإيمانه وعقيدته بالإنابة السريعة بالاستغفار الحق.

إذًا حين نبحث هذه المباحث في العقيدة ليست كما يبحثها أهل الكلام المذموم في كونها أشياء لا ثَمَرَةَ لها على الإيمان والعمل الصالح وتَعَبُّد المرء لله عز وجل، فإنَّ كل شيء وَصَفَهُ الله عز وجل لنا من الأمور الغيبية لم يُقْصَدْ إيماننا به واعتقادنا له من جهة الوجود دون جهة الإيمان وما يُثْمِرُ منه؛ بل قُصِدَ الإيمان به – يعني بوجوده وأثر الإيمان الذي يُحْدِثُهُ في النفس – لأنَّ المقصود إصلاح القلوب بالله عز وجل.

وأنت سمعت قول أولئك من المعتزلة وطوائف من المبتدعة: إنَّ هذه الأشياء تمثيل لأجل إصلاح الناس وإيمانهم بعظمة الله عز وجل، والواقع أننا إذا قلنا بما جاء في الأدلة من الكتاب والسنة فإنها في تحصيل الإيمان وفي إحداث الإيمان في النفوس وتقوية الإيمان أعظم من أن تكون للتمثيل؛ لأنَّ ذِكْرَهَا على الحقيقة وعلى هذه الصفات يجعل المرء على الحقيقة يتصوَّر كيف هذه المخلوقات جميعًا وهذه الأرض الكبيرة وما فيها، ثُمَّ السموات، ثم الكرسي بعد ذلك، ثم العرش، ثم الملائكة الحافين من حول العرش، لاشك يُحْدِث له أنواع من الإيمان والوجل والخوف وحب الله عز وجل وتعظيمه والإنابة إليه، وهذا لاشك كله من المقاصد الشرعية.

فإذًا الإيمان بهذه يحتاج منك إلى تأمُّل وتدبُّر في أن تُعْمِلَ في قلبك هذه الأشياء وتتذكَّر عظمة الله عز وجل.

فالذي يهمُّنا هو تقرير ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وما يجب اعتقاده أنَّ العرش والكرسي حق، وأنَّ العرش موصوف بتلك الصفات، والكرسي موصوف بتلك الصفات، وأنَّ الأقوال الباطلة في العرش والكرسي والجواب عليها متعدِّدة، وأسأله عز وجل لي ولكم التوفيق والسداد.

قال ابن العثيمين: {ولا يؤوده}: أي لا يثقله، ويشقُّ عليه {حفظهما}: أي حفظ السموات والأرض؛ وهذه الصفة صفة منفية.

قال ابن كثير: أَيْ: لا يثقله ولا يُكْرِثُهُ حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بَيْنَهُمَا، بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا حَقِيرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَوَاضِعَةٌ ذَلِيلَةٌ صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، مُحْتَاجَةٌ فَقِيرَةٌ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ الْفَعَّالُ لَمَّا يُرِيدُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ الْحَسِيبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الرَّقِيبُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

قال ابن العثيمين: {وهو العلي العظيم}: مثل هذه الجملة التي طرفاها معرفتان تفيد الحصر؛ فهو وحده العلي؛ أي ذو العلو المطلق، وهو الارتفاع فوق كل شيء؛ و{العظيم}: أي ذو العظمة في ذاته، وسلطانه، وصفاته.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص١٢٣: وهذان اسمان جليلان، اسمان آخران مع الأسماء التي سبقت {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

{الْعَلِيُّ}: يعني من له العلو الكامل المطلق: ذلك أن الألف واللام هنا إذا دخلت على {عليّ} فإنها تدل على العموم، كما هي الألف واللام التي دخلت على {الْعَظِيمُ} لأن الألف واللام إذا دخلت على اسم الفاعل أو اسم المفعول فإنها تدلُّ على عموم ما اشتمل عليه اسم الفاعل أو اسم المفعول من المصدر.

قال هنا: {وَهُوَ الْعَلِيُّ}: يعني الذي له جميع أنواع وأوصاف العلو.

والعلو ثلاثة أنواع :

- علو الذات - وعلو القَهْرْ - وعلو القَدْرِ.

والله جل وعلا له هذه جميعًا سبحانه وتعالى، {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}.

إذًا فقوله جل وعلا هنا: {وَهُوَ الْعَلِيُّ}، تفسير {الْعَلِيُّ}: أنه ما يشمل جميع أنواع العلو الثلاثة:

وهو العلي في ذاته، العلي في قهره، العلي في قَدْرِهِ جل وعلا.

المبتدعة، المُؤَوِّلة يُؤَوِّلون جميع ما في القرآن من صفة (العلو) أو صفة (الفوقية) بغير صفة (علو الذات)، لأنهم ينكرون علو الرحمن جل وعلا علو الذات، فتجد أن المبتدعة قد يثبتون (العلو) ويقولون (العلو) لله ثابت، ويعنون به (علو القدر وعلو القهر) أما (علو الذات) فهو مما يَشْرَقُونَ به، بل عندهم أن ذلك يلزمه الجهة، ويلزمه التحيز والتجسيم، إلى آخره، وعندهم أن الله جل وعلا في كل مكان حالٌّ بذاته تعالى، جل وعلا وتقدّس وتعاظم عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

{وَهُوَ الْعَلِيُّ}: يعني من له أوصاف العلو وأنواع العلو جميعًا، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} سبحانه وتعالى.

{الْعَظِيمُ}: الذي كَمُلَتْ له أنواع العظمة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٣٥٨: وَاسْمُهُ {الْعَلِيُّ} يُفَسَّرُ بِهَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ؛ يُفَسَّرُ بِأَنَّهُ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ قَدْرًا، فَهُوَ أَحَقُّ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ. وَيُفَسَّرُ بِأَنَّهُ الْعَالِي عَلَيْهِمْ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ، فَيَعُودُ إلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْمَقْدُورُونَ. وَهَذَا يَتَضَمَّنُ كَوْنَهُ خَالِقًا لَهُمْ وَرَبًّا لَهُمْ.

وَكِلَاهُمَا يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ نَفْسَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَك شَيْءٌ. وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ([١]))).

فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ، وَلَا فَوْقَهُ، وَلَا دُونَهُ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَثْنَى بِهِ عَلَى رَبِّهِ. وَإِلَّا فَلَوْ قَدَّرَ أَنَّهُ تَحت بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا، وَكَانَ ذَلِكَ أَعْلَى مِنْهُ.

وَإِنْ قِيلَ: إنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، كَانَ ذَلِكَ تَعْطِيلًا لَهُ، فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذَا.

وَهَذَا هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، مَعَ أَنَّ لَفْظَ {الْعَلِيِّ} و(الْعُلُوِّ)، لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي الْقُرْآنِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ إلَّا فِي هَذَا - وَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِذَيْنِك - لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي مُجَرَّدِ الْقُدْرَةِ، وَلَا فِي مُجَرَّدِ الْفَضِيلَةِ.

وَلَفْظُ (الْعُلُوِّ) يَتَضَمَّنُ الِاسْتِعْلَاءَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ إذَا عُدِّيَ بِحَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ دَلَّ عَلَى الْعُلُوِّ، كَقَوْلِهِ {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}[الحديد: ٤] فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّهِ عَلَى الْعَرْشِ.

قال السعدي: {وهو العلي} بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته {العظيم} الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة

١- مسلم في الذكر والدعاء (٦١/٢٧١٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٠).

والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا.

قال الدكتور محمود عبدالرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {العلي}: فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في القرآن والسنة، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه مع اجتماع علامات الاسم فيه، فمن القرآن: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ}[البقرة: ٢٥٥]، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}[الحج: ٦٢]، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ البَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}[لقمان: ٣٠]، {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}[سبأ: ٢٣]، {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالحُكْمُ لِلَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ}[غافر: ١٢]، {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ}[الشورى: ٤]، وفي سنن ابن ماجه وصححه الشيخ الألباني من حديث عبادة بْنِ الصَّامِتِ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ حِينَ يَسْتَيْقِظُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، ثُمَّ دَعَا رَبِّ اغْفِرْ لِي غُفِرَ لَهُ([١]))، وفي سنن ابن ماجه وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبِي العَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: ((لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَلِيُّ العَظِيمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ([٢]))).

و{العلي}: هو الذي علا بذاته وارتفع ارتفاعًا مطلقًا، فكان فوق الكل، ودائمًا ما يقترن اسم الله {العلي} بالعظمة وذكر العرش والكرسي، ففي آية بعد أن قال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ}[البقرة:

١- (قلت): البخاري (١١٥٤).
- وصححه الإمام الألباني في تخريج الكلم (٤٢).
- تعار: استيقظ.

٢- (قلت): الحديث بتمامه: عن أبي العالية عن ابن عباس: ((أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم قال وكيع مرة لا إله إلا الله فيها كلها)). وقال الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه: صحيح الروض (٦٧٩): وأخرجه البخاري ومسلم.

٢٥٥]، ولمَّا ذكر علو ملك الملوك ذكر بعده العرش وسعته، {فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ}[المؤمنون: ١١٦]، ولمَّا ذكر إعراض الخلق عن عبادته ذكر العرش وأنه الملك: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُل حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ}[التوبة: ١٢٩]، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[المؤمنون: ١١٦]، {قُل لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً}[الإسراء: ٤٢]، {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ}[النمل: ٢٦]، {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ}[غافر: ١٥]، {ذُو العَرْشِ المَجِيدُ}[البروج: ١٥].

ف{العلي} دلَّ على علو الذات والفوقية، وكثير من الناس يحاولون تفسير العلو في اسمه {العلي} بعلو المكانة المنزلة هربًا من إثبات علو الذات والفوقية، وظنًّا منهم أن الاستواء على العرش يوجب التشبيه، كما قال أبو حامد الغزالي في المقصد الأسمى: (العليُّ هو الذي يَعلو على خَلقِه بقهرِهِ وقدرتِهِ، ويستحيلُ وصفُه بارتفاعِ المكانِ لأنه تعالى منزَّهٌ عن المكانِ والله خالِقُهُ). فجعل اسم الله {العلي} دالًّا على معنيين فقط من معاني العلو، وهو علو الشأن وعلو القهر، وعطَّل المعنى الثالث الذي هو علو الذات والفوقية، والذي دلَّ عليه استواء الله على عرشه، فمعاني العلو عند السلف ثلاثة معان دلَّت عليها أسماء الله المشتقَّة من صفة العلو، ف{العلي} دلَّ على علو الذات، و(الأعلى) كما سنرى دلَّ على علو الشأن، و(المتعال) دلَّ على علو القهر، وهؤلاء المتكلمون الأشعرية ينفون علو الذات والفوقية، لأن ذلك عندهم يدلُّ على إثبات المكان لله، وما كان في مكان فهو محصور فيه والله ليس كذلك، ولذلك لا يجوز عندهم أن يُسأل عن الله بأين؟؛ وهذا مخالف للسنة الصريحة، فالرسول ثبت عنه في حديث الجارية الذي رواه مسلم من حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: ((كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِى آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّى صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُعْتِقُهَا قَالَ: ائْتِنِي بِهَا، فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللَّهُ؟ قَالَتْ فِي السَّمَاءِ؟ قَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ[١]))، وهذا الحديث مع وضوحه كالشمس في أن الرسول سأل عن الله بأين والتي لا لبس فيها ولا غموض؟ إلَّا أن المتكلمين إمَّا يردُّون الحديث أو يبحثون له عن مخرج.

والمكان في عرفهم لا يطلق إلَّا على المكان الذي في عالم الشهادة والذي يخضع لأحكامهم، أما المكان الغيبي الذي لا يعلم كيفيته إلَّا الله فهذا لا اعتبار له عندهم، ولذلك فرَّق السلف بين نوعين من المكان، الأول هو ما كان محصورًا خاضعًا لأحكامنا في محيط المخلوقات المشهودة، والثاني يراد به المكان الغيبي الذي يخرج عن مداركنا ولا نعلم له

١- (قلت): مسلم (٥٣٧).

كيفية، لصعوبة ذلك علينا؛ والمكان بهذا الاعتبار لا يخضع بحال من الأحوال لمقاييس المكان في حسابات المخلوقين، فمكان الشيء يحدَّد في حساب المقاييس الحديثة باعتبار ثلاثة محاور رئيسية متعامدة، اثنان يمثلان المستوى الأفقي الموازي لسطح الأرض والثالث يمثل الارتفاع عن ذلك المستوى، وأجسام الدنيا يحدِّد مكانها بمدى الارتفاع في المحور الرأسي عن مستوى المحورين الأفقيين، ولاشك أن هذه المقاييس المكانية لا تصلح بحال، ليس فيه قياس ما هو خارج عن محيط العالم، ومَلَكُ الموت عندما يأتي لقبض الروح لا يحجبه جدار محكم أو قرار مغلق كما قال رب العزة والجلال: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}[النساء: ٧٨]، فملك الموت مخلوق ولا يخضع في مكانه وزمانه لمقاييسنا التي يريدون بها الحكم على استواء الله، ومن ثم فلا يصلح أن نمنع دلالة الآيات والأحاديث بحجة أننا لو أثبتناها لكان الله في مكان، وما كان في مكان فهو حادث مخلوق، فالرسول ﷺ لما قال للجارية: ((أين الله؟)) علم أن (أين) للمكان، ويعلم لوازم قوله، ولو كان في ذلك خطأ وتشبيه وتجسيم كما تدعي الأشعرية، ما سأل الجارية بلفظ إثبات معناه يحمل الخلاف والشقاق بين الأمة، والجارية لما قالت في السماء تعني العلو، وشهد لها رسول الله ﷺ بالإيمان، فلا إشكال عند العقلاء في فهم حديث رسول الله، والأمر واضح جلي ظاهر، فأي اعتراض منهم على ذلك إنما هو اعتراض على رسول الله ﷺ، ووصف له بعدم العلم أو بعدم القدرة على التعبير عن المراد.

وعلو الفوقية أو علو الذات الذي دلَّ عليه اسمه {العلي} ثابت على الحقيقة بالكتاب والسنة وإجماع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، فهو سبحانه وتعالى مستو على عرشه بائن من خلقه لا شيء من ذاته في خلقه ولا خلقه في شيء من ذاته، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى أفعالهم لا تخفى عليه منهم خافية، والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصى وأجل من أن تستقصى، والفطرة السليمة والقلوب المستقيمة مجبولة على الإقرار بذلك، يقوله تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[النحل: ٥٠]، فهنا تصريح بالفوقية مقرون بأداة معينة للفوقية بالذات وهي {من}، ويقول: {تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}[المعارج: ٤]، وعند البخاري من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلاَةِ الفَجْرِ وَصَلاَةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ([١]))، لكن عند الأشعرية يعرجون ويبحثون على ربهم فلا يجدونه، لأنه عندهم موجود ولا يعلم أحد أين هو؟ ومن الأدلة على علو الذات والفوقية التصريح بالصعود إليه نحو قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[فاطر: ١٠]، والتصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥]، وعند البخاري في روايتين تفصحان عن عقيدة الصحابة في هذه المسألة، الأولى: يقول فيها أَنَس بْن مَالِكٍ رضى الله:

١- (قلت): البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(كَانَتْ زَيْنَب بِنْتِ جَحْشٍ تَفْخَرُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ([1]))، والثانية: يقول أَنَسٍ : (كَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِي ﷺ تَقُولُ زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماوَاتٍ([2]))، وعند البخاري أيضًا من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِي ﷺ قَالَ: ((لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلقَ كَتَبَ في كِتَابِهِ، فَهْوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رحمتي غَلَبَتْ غضَبِي([3]))).

واسم الله {العلي}، يدلُّ على ذات الله وصفة العلو – علو الفوقية – بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى صفة العلو والفوقية بدلالة التضمُّن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية والملك والصمدية، والعظمة والقوة، والعزة والقدرة، وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الفعل لاتصافه بالعلو فوق الكل.

كيف ندعو الله باسمه {العلي} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ: ((لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَلِيُّ الحَلِيمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ))، وأيضًا في قوله: ((مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ حِينَ يَسْتَيْقِظُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ ثُمَّ دَعَا رَبِّ اغْفِرْ لي غُفِرَ لَهُ)).

أما دعاء العبادة، فهو اعتقاد يدفع إلى الإيمان بعلو الله على خلقه وأنه الكبير الذي يركن إليه العبد، وأن كل من سواه مهما علا فلا يمثل شيئًا بجوار علو الله، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}[الحج: ٦٢]، فالله عز وجل هو المنفرد بالعلو والعظمة، {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ}[الشورى: ٤]، {قُل لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً}[الإسراء: ٤٢]، المؤمن يعلم أنه لو أعرض عن ربه فهو الخاسر، والله هو الغني لأنه العلي في سمائه، {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُل حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ}[التوبة: ١٢٩]، فدعاء العبادة أفعال تدلُّ على توحيد الله وأنه لا يخشى أحدًا سواه لأن من أسمائه الحسنى العلي، وإذا كانت الملائكة تخشع عند سماع قوله وتفزع عن إلقاء وحيه كما جاء ذلك في قوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}[سبأ: ٢٣]، إذا كان هذا أمرها وهذا قولها، فحريٌّ بالعبد أن يخشع لسماع كلام الله ويتذلَّل بين يدي مولاه ويعلم أنه العلي الكبير.

١- (قلت): البخاري (٧٤٢١).

٢- (قلت): البخاري (٧٤٢٠).

٣- (قلت): البخاري (٣١٩٤).

واسم الله {العظيم}: فقد ورد في القرآن والسنة على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية والنبوية، فمن القرآن: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ} [البقرة:٢٥٥]، {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ}[الشورى:٤]، {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ} [الواقعة: ٧٤ و٩٦]، [الحاقة: ٥٢]، {إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ}[الحاقة: ٣٣].

وفي صحيح البخاري من حديث أَبِي العَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ))، وعند البخاري أيضا من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: ((كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ([1])))، وفي سنن أبي داود وصححه الشيخ الألباني عَنْ حَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ قَالَ لَقِيتُ عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ فَقُلْتُ لَهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ حَدَّثْتَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ قَالَ: ((أَعُوذُ بِاللَّهِ العَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ))، قال: نَعَمْ، وقَالَ أيضا: ((فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ حُفِظَ مِنِّى سَائِرَ اليَوْمِ([2])))).

و{العظيم} لغة هو بمعنى السعة في الذات والكمال في الصفات، مع العز والمجد والكبرياء، واسم الله {العظيم} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة العظمة المطلقة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى صفة العظمة المطلقة بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية والسيادة والصمدية، وانتفاء الشبيه والمثلية، والكمال المطلق في كل شيء.

فالله عز وجل عظيم في ذاته وصفاته، فعظمة الذات دلَّ عليها الحديث المرفوع الذي ذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة: ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة([3])))، وقد صح عن ابن عباس موقوفًا: (الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلَّا الله تعالى)، أمَّا عظمة الصفات، فالله عز وجل قال في كتابه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[الشورى: ١١]، {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}[مريم: ٦٥].

كيف ندعو الله باسمه {العظيم} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما روى البخاري من حديث أَبِي العَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ

١- (قلت): البخاري (٦٤٠٦) واللفظ له، ومسلم (٢٦٩٤).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٥)، المشكاة (٧٤٩)، الكلم (٦٥).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩).

وَالأَرْضِ، رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ))، وعند البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني من حديث الحارث بن سويد أن عبد الله بن مسعود قال: (إذا كان على أحدكم إمام يخاف تغطرسه أو ظلمه فليقل اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم كن لي جارًا من فلان بن فلان وأحزابه من خلائقك أن يفرط علي أحد منهم أو يطغى، عز جارك وجل ثناؤك ولا اله إلا أنت([1]))، وأما دعاء العبادة فهو أن يظهر العبد بمظهر التواضع والذل والافتقار إلى عظمة الله، ويكثر من ذكره وتعظيمه، وعند البخاري كما تقدم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)).

قال ابن كثير: وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الْأَجْوَدُ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَالِحِ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص١٢٤: وتبيَّن بهذه الآية أن فيها قاعدة في الصفات ففيها (الوصف المفصل)، وفيها (النفي المجمل)، وفيها إثبات الكمالات لله وفيها أنواع من أسماء الله جل وعلا وأنواع من صفات الله جل وعلا، ففيها:

* أولًا أن المستحق للعبادة، فيها إثبات توحيد الإلهية بقوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ}.

* وفيها إثبات اسم الله {الْحَيُّ} وأنواع الحياة، و{الْقَيُّومُ} وما في ذلك من الصفات.

* فيها إثبات الشفاعة عنده وأنها لا تنفع إلَّا بعد الإذن.

* وفيها إثبات صفة العلم.

* وكرسي الرحمن جل وعلا.

* وأسماء الله جل وعلا {الْعَلِيُّ} و{الْعَظِيمُ}.

أما النفي الذي جاء فيها ففي قوله: {لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}، وفي قوله: {وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا}، وفي قوله: {وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا} هذا نفي مفصل، لكن النفي المفصل لا يُعنى به حقيقة النفي وإنما يراد منه إثبات كمال الضد، وضد الإكتراث والثِّقل، ضده كمال (القوة)، وكمال (القهر)، وكمال (الجبروت)، وكمال (العزة)، وكمال (القدرة) له جل وعلا.

{وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا} لِمَ؟ لكمال عزته وقوته وقهره جل وعلا وكمال جبروته وقدرته سبحانه وتعالى.

* وفيها أن الشفاعة هنا أُثْبتت ونُفيت، فيه إثبات أن الشفاعة نافعة عند الله، وفيه نفي أنها تنفع عند الله مطلقًا، بل إنمَّا تنفع بشرط ذُكِر هنا وهو إذن الله جل وعلا.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد ج١ص٢٦٣.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات هذه الأسماء الخمسة؛ وهي {الله}؛ {الحي}؛ {القيوم}؛ {العلي}؛ {العظيم}؛ وما تضمَّنته من الصفات.

٢- إثبات انفراد الله تعالى بالألوهية في قوله تعالى: {لا إله إلا هو}.

٣- إبطال طريق المشركين الذين أشركوا بالله، وجعلوا معه آلهة.

٤- إثبات صفة الحياة لله عز وجل؛ وهي حياة كاملة: لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، ولا توصف بنقص، كما قال تعالى: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}[الحديد: ٣]، وقال تعالى: {وتوكل على الحي الذي لا يموت}[الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}[الرحمن: ٢٧].

٥- إثبات القيومية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {القيوم}؛ وهذا الوصف لا يكون لمخلوق؛ لأنه ما من مخلوق إلَّا وهو محتاج إلى غيره: فنحن محتاجون إلى العمال، والعمال محتاجون إلينا؛ ونحن محتاجون إلى النساء، والنساء محتاجة إلينا؛ ونحن محتاجون إلى الأولاد، والأولاد يحتاجون إلينا؛ ونحن محتاجون إلى المال، والمال محتاج إلينا من جهة حفظه وتنميته؛ والكل محتاج إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد}[فاطر: ١٥]؛ وما من أحد يكون قائمًا على غيره في جميع الأحوال؛ بل في دائرة ضيقة؛ ولهذا قال الله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}[الرعد: ٣٣]؛ يعني الله؛ فلا أحد سواه قائم على كل نفس بما كسبت.

٦- أن الله تعالى غني عمَّا سواه؛ وأن كل شيء مفتقر إليه تعالى؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم}[محمد: ٧]، وقوله تعالى: {ولينصرن الله من ينصره}[الحج: ٤٠]؛ فأثبت أنه ينصر؟ فالجواب: أن المراد بنصره تعالى نصر دينه.

٧- تضمُّن الآية لاسم الله الأعظم الثابت في قوله تعالى: {الحي القيوم}؛ وقد ذكر هذان الاسمان الكريمان في ثلاثة مواضع من القرآن: في [البقرة]؛ و[آل عمران]؛ و[طه]؛ في [البقرة]: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}[البقرة: ٢٥٥]؛ وفي [آل عمران]: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [آل عمران: ٢]؛ وفي [طه]: {وعنت الوجوه للحي القيوم}[طه: ١١١]؛ قال أهل العلم: وإنما كان الاسم الأعظم في اجتماع هذين الاسمين؛ لأنهما تضمنا جميع الأسماء الحسنى؛ فصفة الكمال في {الحي}؛ وصفة الإحسان، والسلطان في {القيوم}([1]).

٨- امتناع السِّنة والنوم لله عز وجل؛ وذلك لكمال حياته وقيوميته، بحيث لا يعتريهما أدنى نقص؛ لقوله تعالى: {لا تأخذه سنة ولا نوم}؛ وهذه من الصفات المنفية؛ والإيمان بالصفات المنفية يتضمن شيئين؛ أحدهما: الإيمان بانتفاء الصفة

١- (قلت): الصواب والله أعلم ما قاله الإمام الألباني كما مرّ معنا في الهامش قريبًا بأن (الله لا اله الّا هو....) هو اسم الله الأعظم.

المذكورة؛ والثاني: إثبات كمال ضدها؛ لأن الكمال قد يطلق باعتبار الأغلب الأكثر، وإن كان يرد عليه النقص من بعض الوجوه؛ لكن إذا نفي النقص فمعناه أن الكمال كمال مطلق لا يرِد عليه نقص أبدًا بوجه من الوجوه؛ مثال ذلك: إذا قيل: (فلان كريم) فقد يراد به أنه كريم في الأغلب الأكثر؛ فإذا قيل: (فلان كريم لا يبخل) علم أن المراد كمال كرمه بحيث لا يحصل منه بخل؛ وهنا النفي حصل بقوله تعالى: {لا تأخذه سنة ولا نوم}؛ فدلَّ على كمال حياته وقيوميته.

٩- إثبات الصفات المنفية؛ لقوله تعالى: {لا تأخذه سنة ولا نوم}، وقوله تعالى: {ولا يؤوده حفظهما}؛ و(الصفات المنفية) ما نفاه الله عن نفسه؛ وهي متضمِّنة لثبوت كمال ضدها.

١٠- عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: {له ما في السموات وما في الأرض}. ويتفرَّع على كون المُلك لله؛ ألَّا نتصرف في ملكه إلَّا بما يرضاه.

١١- أن الحكم الشرعي بين الناس والفصل بينهم يجب أن يكون مستنِدًا على حكم الله؛ وأن اعتماد الإنسان على حكم المخلوقين والقوانين الوضعية نوع من الإشراك بالله عز وجل؛ لأن المُلك لله عز وجل.

١٢- تسلية الإنسان على المصائب، ورضاه بقضاء الله عز وجل وقدره؛ لأنه متى علم أن الملك لله وحده رضي بقضائه وسلَّم؛ ولهذا كان في تعزية النبي ﷺ لابنته أنه قال: ((إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمًّى([١]))).

١٣- عدم إعجاب الإنسان بما حصل بفعله؛ لأن هذا من الله؛ والملك له.

١٤- اختصاص الله تعالى بهذا الملك؛ يؤخذ من تقديم الخبر: {له ما في السموات}؛ لأن الخبر حقَّه التأخير؛ فإذا قُدِّم أفاد الحصر.

١٥- إثبات أن السموات عدد؛ لقوله تعالى: {السموات}؛ وأما كونها سبعًا، أو أقل، أو أكثر، فمن دليل آخر.

١٦- كمال سلطان الله لقوله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلَّا بإذنه}؛ وهذا غير عموم الملك؛ لكن إذا انضمَّت قوة السلطان إلى عموم الملك صار ذلك أكمل وأعلى.

١٧- إثبات الشفاعة بإذن الله؛ لقوله تعالى: {إلَّا بإذنه}؛ وإلَّا لما صح الاستثناء.

١٨- إثبات الإذن - وهو الأمر -؛ لقوله تعالى: {إلا بإذنه}؛ وشروط إذن الله في الشفاعة: رضى الله عن الشافع؛ وعن المشفوع له؛ لقوله تعالى: {وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلَّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} [النجم: ٢٦]، وقوله تعالى: {ولا يشفعون إلَّا لمن ارتضى}[الأنبياء: ٢٨].

١٩- إثبات علم الله، وأنه عام في الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ لقوله تعالى: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم}.

١- أخرجه البخاري ص١٠٠، كتاب الجنائز، باب ٣٢: قول النبي ﷺ: ((يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه)) إذا كان النوح من سنته، حديث رقم ١٢٨٤، وأخرجه مسلم ص٨٢٢، كتاب الجنائز، باب ٦: البكاء على الميت، حديث رقم ٢١٣٥ [١١] ٩٢٣.

٢٠- الرَّد على القدرية الغلاة؛ لقوله تعالى: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم}؛ فإثبات عموم العلم يردُّ عليهم؛ لأن القدرية الغلاة أنكروا علم الله بأفعال خلقه إلَّا إذا وقعت.

٢١- الرَّد على الخوارج والمعتزلة في إثبات الشفاعة؛ لأن الخوارج والمعتزلة ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأن مذهبهما أن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار لا تنفع فيه الشفاعة.

٢٢- أن الله عز وجل لا يحاط به علمًا كما لا يحاط به سمعًا ولا بصرًا؛ قال تعالى: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار}[الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: {ولا يحيطون به علمًا}[طه: ١١٠].

٢٣- أننا لا نعلم شيئًا عن معلوماته إلَّا ما أعلمنا به؛ لقوله تعالى: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلَّا بما شاء} على أحد الوجهين في تفسيرها.

٢٤- تحريم تكييف صفات الله؛ لأن الله ما أعلمنا بكيفية صفاته؛ فإذا ادَّعينا علمه فقد قلنا على الله بلا علم.

٢٥- الرَّد على المُمَثِّلة؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم؛ بل بما يعلم خلافه؛ لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء}[الشورى: ١١].

٢٦- إثبات مشيئة الله؛ لقوله: {إلَّا بما شاء}.

٢٧- عظم الكرسي؛ لقوله تعالى: {وسع كرسيه السموات والأرض}.

٢٨- عظمة خالق الكرسي؛ لأن عظم المخلوق يدلُّ على عظمة الخالق.

٢٩- كفر من أنكر السموات والأرض؛ لأنه يستلزم تكذيب خبر الله؛ أما الأرض فلا أظن أحدًا ينكرها؛ لكن السماء أنكرها من أنكرها، وقالوا: ما فوقنا فضاء لا نهاية له ولا حدود؛ وإنما هي سدوم ونجوم، وما أشبه ذلك؛ وهذا لا شك أنه كفر بالله العظيم سواء اعتقده الإنسان بنفسه ووهمه؛ أو صدَّق من قال به ممَّن يعظمهم، إذا كان عالمًا بما دلَّ عليه الكتاب والسنة.

٣٠- إثبات قوة الله؛ لقوله تعالى: {ولا يؤوده حفظهما}.

٣١- أنه سبحانه وتعالى لا يثقل عليه حفظ السموات، والأرض؛ لقوله تعالى: {ولا يؤوده حفظهما}؛ وهذه من الصفات المنفية؛ فهي كقوله تعالى: {وما مسنا من لغوب}[قٓ: ٣٨].

٣٢- إثبات ما تتضمَّنه هذه الجملة: {ولا يؤوده حفظهما}؛ وهي العلم، والقدرة، والحياة، والرحمة، والحكمة، والقوة.

٣٣- أن السموات، والأرض تحتاج إلى حفظ؛ لقوله تعالى: {ولا يؤوده حفظهما}؛ ولولا حفظ الله لفسدتا؛ لقوله تعالى: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورًا}[فاطر: ٤١].

٣٤- إثبات علو الله سبحانه وتعالى أزلًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: {وهو العلي}؛ و{العلي} صفة مشبهة تدلُّ على الثبوت والاستمرار؛ وعلو الله عند أهل السنة والجماعة ينقسم إلى قسمين؛ الأول: علو الذات؛ بمعنى أنه سبحانه نفسه فوق كل شيء؛ وقد دلَّ على ذلك الكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة؛ وتفصيل هذه الأدلَّة في كتب العقائد؛ وخالفهم في ذلك طائفتان؛ الأولى: من قالوا: إنه نفسه في كل مكان في السماء والأرض؛ وهؤلاء حلولية الجهمية ومن وافقهم؛ وقولهم باطل بالكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة؛ الطائفة الثانية: قالوا: إنه لا يوصف بعلوٍّ ولا غيره؛ فهو ليس فوق العالم ولا تحته، ولا عن يمين ولا عن شمال، ولا متصل ولا منفصل؛ وهذا قول يكفي تصوُّره في ردِّه؛ لأنه يؤول إلى القول بالعدم المحض؛ إذ ما من موجود إلَّا وهو فوق أو تحت، أو عن يمين أو شمال، أو متصل أو منفصل؛ فالحمد لله الذي هدانا للحق؛ ونسأل الله أن يثبتنا عليه؛ والقسم الثاني: علو الصفة: وهو أنه كامل الصفات من كل وجه لا يساميه أحد في ذلك؛ وهذا متفق عليه بين فرق الأمة، وإن اختلفوا في تفسير الكمال.

٣٥- الرَّد على الحلولية، وعلى المعطلة النفاة؛ فالحلولية قالوا: إنه ليس بعالٍ؛ بل هو في كل مكان؛ والمعطِّلة النفاة قالوا: لا يوصف بعلو ولا سفل، ولا يمين ولا شمال، ولا اتصال ولا انفصال.

٣٦- التَّحذير من الطغيان على الغير؛ لقوله تعالى: {وهو العلي العظيم}؛ ولهذا قال الله في سورة النساء: {فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا إن الله كان عليًّا كبيرًا}[النساء: ٣٤]؛ فإذا كنت متعاليًا في نفسك فاذكر علوَّ الله عز وجل؛ وإذا كنت عظيمًا في نفسك فاذكر عظمة الله؛ وإذا كنت كبيرًا في نفسك فاذكر كبرياء الله.

٣٧- إثبات العظمة لله؛ لقوله تعالى: {العظيم}.

٣٨- إثبات صفة كمال حصلت باجتماع الوصفين؛ وهما العلو والعظمة.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

قال ابن كثير: وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَإِنْ كَانَ حُكْمُهَا عَامًّا. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاةً فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}([1]).

١- صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٨٠).

- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف أبي داود (٢٦٨٢).

وَفِي الصَّحِيحِ: ((عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ(١))): يَعْنِي الْأَسَارَى الَّذِينَ يَقْدَمُ بِهِمْ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فِي الْوَثَائِقِ وَالْأَغْلَالِ وَالْقُيُودِ وَالْأَكْبَالِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُسْلِمُونَ وَتَصْلُحُ أَعْمَالُهُمْ وَسَرَائِرُهُمْ فَيَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: ((أَسْلِمْ)) قَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي كَارِهًا. قَالَ: ((وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا)) فَإِنَّهُ ثُلَاثِيٌّ صَحِيحٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فَإِنَّهُ لَمْ يُكْرِهْهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ بَلْ دَعَاهُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَ أَنَّ نَفْسَهُ لَيْسَتْ قَابِلَةً لَهُ بَلْ هِيَ كَارِهَةٌ فَقَالَ لَهُ: ((أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا فَإِنَّ اللَّهَ سَيَرْزُقُكَ حُسْنَ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ(٢))).

قال ابن العثيمين: {لا إكراه في الدين}؛ هذه الجملة نفي؛ لكن هل هي بمعنى النهي؛ أي لا تكرهوا أحدًا على الدِّين؛ أو بمعنى النَّفي؛ أي أنه لن يدخل أحد دين الإسلام مكرَهًا؛ بل عن اختيار؛ لقوله تعالى بعد ذلك: {قد تبيَّن الرشد من الغي}؟ الجواب: تحتمل وجهين؛ وال{إكراه} الإرغام على الشيء.

وقوله تعالى: {في الدين}؛ {الدين} يطلق على العمل؛ ويطلق على الجزاء؛ أما إطلاقه على العمل ففي مثل قوله تعالى: {ورضيت لكم الإسلام دينًا}[المائدة: ٣]، وقوله تعالى: {إن الدين عند الله الإسلام}[آل عمران: ١٩]؛ وأما إطلاقه على الجزاء فمثل قوله تعالى: {وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين}[الانفطار: ١٧، ١٨] أي يوم الجزاء؛ وقد قيل: (كما تدين تدان)؛ أي كما تعمل تجازى؛ والمراد بـ{الدين} هنا العمل؛ والمراد به دين الإسلام بلا شك؛ فـ{أل} هنا للعهد الذهني؛ يعني الدين المفهوم عندكم أيها المؤمنون؛ وهو دين الإسلام.

قال أبو زهرة: نفت الجملة الأولى من هاتين الجملتين الساميتين الإكراه في الدِّين، وبيَّنت الجملة الثانية علَّة هذا النفي، وكيف تدرك الأديان، ومهمة الدَّاعي إليها؛ فأمَّا النفي الذي قرَّرته الجملة الأولى فهو يتضمَّن أمرين:

أحدهما: تقرير حقيقة مقرَّرة ثابتة، وهو أن الإكراه في الدِّين لَا يتأتى؛ لأن التَّديُّن إدراك فكري، وإذعان قلبي، واتِّجاه بالنفس والجوارح بإرادة مختارة حرَّة إلى الله سبحانه وتعالى، وتلك معانٍ لَا يُتصوَّر فيها الإكراه؛ إذ الإكراه حمل الشخص على ما يكره بقوَّة ملجئة حاملة، مفسدة للإرادة الحرَّة، ومزيلة للاختيار الكامل، فلا يكون إيمان ولا تديُّن، إذ لَا يكون إذعان قلبي، ولا اتِّجاه حر مختار بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين.

الأمر الثاني: الذي تضمَّنه نفي الإكراه هو النَّهي عن وقوعه، فلا يسوغ للدَّاعي إلى الحق أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؛ لأن الإكراه والتَّديُّن نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر، ونتيجة له؛ لأنه كلَّما حمل الإنسان على أمر بقوة قاهرة غالبة ازداد كرهًا له ونفورًا منه.

١- صحيح: البخاري (٣٠١٠).

٢- صحيح: صحيح الجامع (٩٧٤).

فالنفي عن الإكراه إذًا تضمَّن نفي تصوُّره في شئون الدِّين، ونفي المطالبة به، أو بالأحرى نهي الدَّاعي إلى الحق عن سلوك سبيله؛ لأنه ليس سبيل المؤمنين، وليس من الموعظة الحسنة في شيء: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالْمُهْتَدِينَ}. هذه معاني الجملة الأولى السامية، أما الثانية وهي: {قَد تَّبَيَّنَ الرّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}، فمعناها قد تبيَّن وجه الحق ولاح نوره، وتبيَّن الغي، وهو الضلال والبعد عن محجَّة الحق، وطمس معالمه، وهذه الجملة السامية تفيد أمرين كسابقتها: أحدهما: أن طريق التَّديُّن هو بيان الرشد، وبيان الصواب، وبيان الضلال في وسط النور؛ فمن رأى الحق بيِّنًا فقد أدرك السبيل، وعليه أن يسير فيها، وليس لأحد أن يحمله حملًا؛ لأنه لَا سبب للتَّديُّن إلَّا المعرفة، بإدراك الحق وغايته، ومعرفة الباطل ونهايته. وذلك المعنى في مرتبة التعليل للنهي عن الإكراه ونفيه، لأنه إذا عرف الحق معرفة مثبتة له بالأدلة القاطعة، وعرف الباطل معرفة مبيَّنة وجه الضلال فيه، فقد توافر سبب التَّديُّن، ومن كفر بعد ذلك، فعن بيِّنةٍ كفر، ولا سبيل لهدايته، وليتحمَّل مغبَّة كفره بعد هذه البيِّنات الواضحة الكاشفة.

الأمر الثاني: الذي يدلُّ عليه قوله تعالى: {قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَي}، هو بيان أقصى قدر من التَّكليف للدَّاعي إلى الحق من الرسل ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فليس على الدَّاعي إلى الحق إلَّا تكليف واحد، وهو بيان الرشد من الغي، فهو لم يكلَّف حمل الناس على الهدى، إنما هو مكلَّف أن يبيِّن الهدى من الضلال، والهداية بعد ذلك من الله سبحانه وتعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ....}.

وإذا كان الرشد قد تبيَّن من الغي وتميَّز، ولم يَعُد مختلَطًا به، بل خَلُص منه، وخرج نيِّرًا واضحًا. كما يخرج أشور من الظلمة عند انبثاق فجر الحقيقة، وظهوره ساطعًا منيرًا هاديًا، إذا كان الأمر كذلك فعلى كل طالب للتديُّن أن يسلك سبيل الحق، ومن بقي متردِّيًا في الباطل، فعليه إثم بقائه، وما عليك من أمره شيء، ولذا قال سبحانه: {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوت وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا}.

قال ابن العثيمين: {قد تبيَّن الرشد من الغي}؛ {تبيَّن} هنا ضمنت معنى (تميز)؛ وكلَّما جاءت {من} بعد {تبيَّن} فإنها مضمنة معنى التميز؛ أي تميز هذا من هذا.

وقوله تعالى: {الرشد من الغي}: هناك رشد، وغي؛ وهدى، وضلال؛ فـ{الرشد}: معناه حسن المسلك، وحسن التصرف: بأن يتصرف الإنسان تصرُّفًا يحمد عليه؛ وذلك بأن يسلك الطريق الذي به النجاة؛ ويقابل بـ{الغي} كما هنا؛ والمراد بـ {الرشد} هنا الإسلام؛ وأمَّا {الغي} فهو سوء المسلك: بأن يسلك الإنسان ما لا يحمد عليه لا في الدنيا، ولا في الآخرة؛ والمراد به هنا الكفر. وتبيَّن الرشد من الغي بعدَّة طرق:

أولًا: بالكتاب؛ فإن الله سبحانه وتعالى فرَّق في هذا الكتاب العظيم بين الحق والباطل؛ والصلاح والفساد؛ والرشد والغي، كما قال تعالى: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء}[النحل: ٨٩]؛ فهذا من أقوى طرق البيان.

ثانيًا: بسنة النبي ﷺ؛ فإنها بيَّنت القرآن ووضَّحَتْهُ؛ ففسَّرت ألفاظه التي تُشكَل ولا تُعرف إلَّا بنص؛ وكذلك وضَّحَتْ مجملاته ومبهماته؛ وكذلك بيَّنت ما فيه من تكميلات يكون القرآن أشار إليها، وتُكمِلُها السُّنة، كما قال تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}[النحل: ٤٤].

الطريق الثالث: هدي النبي ﷺ، وسلوكه في عبادته ومعاملته ودعوته؛ فإنه بهذه الطريقة العظيمة تُبَيِّن للكفار، وغير الكفار حسن الإسلام؛ وتبيِّن الرشد من الغي.

الطريق الرابع: سلوك الخلفاء الراشدين؛ وفي مقدمتهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي؛ فإن بطريقتهم بان الإسلام واتَّضح؛ وكذلك من كان في عصرهم من الصحابة على سبيل الجملة لا التفصيل؛ فإنه قد تبيَّن بسلوكهم الرشد من الغي.

هذه الطرق الأربع تبيَّن فيها الرشد من الغي؛ فمن دخل في الدين في ذلك الوقت فقد دخل من هذا الباب؛ ولم يصب من قال: إن الدين انتشر بالسيف والرمح.

قال السعدي: يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلَّا على أمر خفيَّةٌ أعلامه، غامضةٌ آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس؛ وأمَّا هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبيَّنت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبيَّن أمره، وعُرِفَ الرشد من الغي، فالموفَّق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره؛ وأمَّا من كان سيئ القصد، فاسد الإرادة، خبيث النفس، يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمُكره ليس إيمانه صحيحًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص٥٦٨: و(الضَّلَالُ) مَقْرُونٌ بِالْغَيِّ، فَكُلُّ غَاوٍ ضَالٌّ، وَالرَّشَدُ ضِدُّ الْغَيِّ وَالْهُدَى ضِدُّ الضَّلَالِ، وَهُوَ مُجَانَبَةُ طَرِيقِ الْفُجَّارِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ، كَمَا كَانَ السَّلَفُ يَنْهَوْنَ عَنْهُمَا، قَالَ تَعَالَى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}[مريم: ٥٩].

والْغَيُّ فِي الْأَصْلِ: مَصْدَرُ غَوَى يَغْوِي غَيًّا، كَمَا يُقَالُ: لَوَى يَلْوِي لَيًّا. وَهُوَ ضِدُّ الرَّشَدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}[الأعراف: ١٤٦].

والرُّشْدُ: الْعَمَلُ الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، وَالْغَيُّ: الْعَمَلُ الَّذِي يَضُرُّ صَاحِبَهُ، فَعَمَلُ الْخَيْرِ رُشْدٌ، وَعَمَلُ الشَّرِّ غَيٌّ، وَلِهَذَا قَالَتْ الْجِنُّ: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}[الجن: ١٠]، فَقَابَلُوا بَيْنَ الشَّرِّ وَبَيْنَ الرَّشَدِ،

وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}[الجن: ٢١]، وَمِنْهُ الرَّشِيدُ، الَّذِي يُسَلَّمُ إلَيْهِ مَالُهُ. وَهُوَ الَّذِي يَصْرِفُ مَالَهُ فِيمَا يَنْفَعُ لَا فِيمَا يَضُرُّ.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ: {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[ص: ٨٢، ٨٣]، وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالشَّرِّ الَّذِي يَضُرُّهُمْ فَيُطِيعُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}[ابراهيم: ٢٢]، وَقَالَ: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} إلَى أَنْ قَالَ: {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}[الشعراء: ٩١- ٩٥]، وَقَالَ: {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}[القصص: ٦٣]، وَقَالَ: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}[النجم: ٢].

ثُمَّ إنَّ الْغَيَّ، إذَا كَانَ اسْمًا لِعَمَلِ الشَّرِّ الَّذِي يَضُرُّ صَاحِبَهُ، فَإِنَّ عَاقِبَةَ الْعَمَلِ أَيْضًا تُسَمَّى غَيًّا، كَمَا أَنَّ عَاقِبَةَ الْخَيْرِ تُسَمَّى رُشْدًا، كَمَا يُسَمَّى عَاقِبَةُ الشَّرِّ شَرًّا، وَعَاقِبَةُ الْخَيْرِ خَيْرًا، وَعَاقِبَةُ الْحَسَنَاتِ حَسَنَاتٍ، وَعَاقِبَةُ السَّيِّئَاتِ سَيِّئَاتٍ.

فَالْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، فِي كِتَابِ اللَّهِ يُرَادُ بِهَا أَعْمَالُ الْخَيْرِ وَأَعْمَالُ الشَّرِّ، كَمَا يُرَادُ بِهَا النِّعَمُ وَالْمَصَائِبُ وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا وَحَسَنَاتٍ لَقِيَ خَيْرًا وَحَسَنَاتٍ، وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا وَسَيِّئَاتٍ لَقِيَ شَرًّا وَسَيِّئَاتٍ. كَذَلِكَ مَنْ عَمِلَ غَيًّا لَقِيَ غَيًّا، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ، وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ غَيٌّ يَلْقَى صَاحِبُهُ غَيًّا. فَلِهَذَا قَالَ الزمخشري: كُلُّ شَرٍّ عِنْدَ الْعَرَبِ غَيٌّ، وَكُلُّ خَيْرٍ رَشَادٌ.

قال السعدي: ولا تدلُّ الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنَّما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو، موجب لقبوله لكل منصف قصدُه اتّباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يُستدلُّ في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء([١]).

قال ابن العثيمين: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}؛ (الكفر) في اللغة مأخوذ من الستر؛ ومنه سمِّيَ (الكفرى) لوعاء طلع النخل؛ لأن الإنسان الكافر ستر نعمة الله عليه، وستر ما تقتضيه الفطرة من توحيد الله عز وجل؛ {فمن يكفر بالطاغوت}: أي من ينكره ويتبرأ منه؛ و{الطاغوت} فسَّره ابن القيم بأنه كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ مشتق من (الطغيان)؛ وهو تجاوز الحد: قال تعالى: {إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية}[الحاقة: ١١]؛ لأن الماء الذي أغرق الله به الكفار بنوح تجاوز الحدّ حتى وصل إلى ما فوق قمم الجبال؛ فالمعبود كالأصنام طاغوت؛ لأن الإنسان تجاوز بها حدَّه في العبادة؛ والمتبوع كالأحبار، والرهبان الضالين طاغوت؛ لأن الإنسان تجاوز بهم الحدّ في تحليل ما حرم الله عز وجل، أو تحريم ما أحل الله عز وجل؛ والمطاع كالأمراء ذوي الجور

١- (قلت): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص١٠١: فَأَبُو حَنِيفَةَ رَأَى أَنَّ الْكُفْرَ مُطْلَقًا إنَّمَا يُقَاتِلُ صَاحِبُهُ لِمُحَارَبَتِهِ، فَمَنْ لَا حِرَابَ فِيهِ لَا يُقَاتَلُ، وَلِهَذَا يَأْخُذُ الْجِزْيَةَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانُوا وَثَنِيِّينَ. وَقَدْ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ مَالِكٌ وَأَحْمَد فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ.

والضلال الذين يأمرون بسلطتهم التنفيذية – لا التشريعية – طاغوت؛ إذًا: {فمن يكفر بالطاغوت} من كفر بالأصنام؛ ومن كفر بأحبار ورهبان السوء؛ ومن كفر بأمراء السوء الذين يأمرون بمعصية الله ويلزمون بخلاف شرع الله عز وجل. ولا يكفي الكفر بالطاغوت؛ لأن الكفر تَخَلٍّ وعدم؛ ولابدَّ من إيجاد؛ الإيجاد: قوله تعالى: {ويؤمن بالله} بالجزم عطفًا على {يكفر}؛ والإيمان بالله متضمِّن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه وصفاته إيمانًا يستلزم القبول والإذعان – القبول للخبر، والإذعان للطلب – سواء كان أمرًا أو نهيًا؛ فصار الإيمان بالله مركَّبًا من أربعة أمور مستلزمة لأمرين؛ ثم اعلم أن معنى قولنا: الإيمان بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، المراد الإيمان بانفراده بهذه الأشياء: بالألوهية؛ والربوبية؛ والأسماء والصفات؛ وبالوجود الواجب – فهو سبحانه وتعالى منفرد بهذا بأنه واجب الوجود.

قوله تعالى: {فقد استمسك بالعروة الوثقى} جواب {من} الشرطية؛ {استمسك}: أي تمسَّك تمسُّكًا بالغًا {بالعروة الوثقى}: أي المقبض القوي الذي ينجو به؛ والمراد به هنا الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله؛ لأن به النجاة من النار.

قال ابن كثير: أَيْ: فَقَدْ ثَبَتَ فِي أَمْرِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: إِنَّ الجِبت: السِّحْرُ وَالطَّاغُوتَ: الشَّيْطَانُ، وَإِنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْجُبْنَ غَرَائِزُ تَكُونُ فِي الرِّجَالِ يُقَاتِلُ الشُّجَاعُ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ وَيَفِرُّ الْجَبَانُ مِنْ أُمِّهِ، وَإِنَّ كَرَمَ الرَّجُلِ دِينُهُ، وَحَسَبَهُ خُلُقُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارِسِيًّا أَوْ نَبَطِيًّا.

وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ فَهِيَ فِي نَفْسِهَا مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قَوِيَّةٌ وَرَبْطُهَا قَوِيٌّ شَدِيدٌ وَلِهَذَا قَالَ: {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}: أَيْ فقد استمسك من الدين بأقوى سبب. قَالَ مُجَاهِدٌ: {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} يَعْنِي: الْإِيمَانُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْإِسْلَامُ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ: يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: {بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}: الْقُرْآنُ. وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: هُوَ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَلَا تَنَافِي بَيْنَهَا. وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي قَوْلِهِ: {لَا انْفِصَامَ لَهَا}: أَيْ لَا انْقِطَاعَ لَهَا دُونَ دُخُولِ الْجَنَّةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا} ثُمَّ قَرَأَ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[الرَّعْدِ: ١١]. عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ عَبَّادٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَجَاءَ رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ، فَدَخَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَوْجَزَ فِيهِمَا فَقَالَ الْقَوْمُ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَلَمَّا خَرَجَ اتَّبَعْتُهُ حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَهُ فَدَخَلْتُ مَعَهُ فَحَدَّثْتُهُ فَلَمَّا اسْتَأْنَسَ قُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا دَخَلْتَ قَبْلُ الْمَسْجِدَ قَالُوا كَذَا وَكَذَا. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ: إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ: رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ – قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: فَذَكَرَ مِنْ خُضْرَتِهَا وَسِعَتِهَا – وَسَطُهَا عَمُودُ حَدِيدٍ أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ وَأَعْلَاهُ فِي السَّمَاءِ فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِيَ: اصْعَدْ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: لَا أَسْتَطِيعُ. فَجَاءَنِي مِنْصَف – قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: هُوَ الْوَصِيفُ – فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي،

فَقَالَ: اصْعَدْ. فَصَعِدْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ فَقَالَ: اسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ. فَاسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ: ((أَمَّا الرَّوْضَةُ فَرَوْضَةُ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الْعَمُودُ فَعَمُودُ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الْعُرْوَةُ فَهِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، أَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ([1]))). قَالَ: وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْنٍ وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ بِهِ.

قال ابن العثيمين: {لا انفصام لها}: أي لا انقطاع، ولا انفكاك لها؛ لأنها محكمة قوية.

قال الطبري: ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إيَّاه، وإسلامه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة، كالمتمسّك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها وأصل (الفصم) الكسر، ومنه قول أعشى بني ثعلبة: ومبسمها عن شتيت النبات ... غير أكس ولا منفصم

قوله: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}: يعني تعالى ذكره: {والله سميع([2])}، إيمان المؤمن بالله وحده، الكافر بالطاغوت، عند إقراره بوحدانية الله، وتبرُّئِهِ من الأنداد والأوثان التي تعبد من دون الله؛ {عليم([3])} بما عزم عليه من توحيد الله وإخلاص ربوبيته قلبه، وما انطوى عليه من البراءة من الآلهة والأصنام والطواغيت ضميره، وبغير ذلك مما أخفته نفس كل أحد من خلقه، لا ينكتم عنه سر، ولا يخفى عليه أمر، حتى يجازي كلًّا يوم القيامة بما نطق به لسانه، وأضمرته نفسه، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا.

قال أبو زهرة: وفي هذا إشارة إلى أمرين جليلين:

أولهما: رقابة الله سبحانه وتعالى في الدنيا رقابة العليم الخبير، فهو يعلم علم من يسمع همسات القلوب، وخلجات الأنفس، وهو وحده المتَّصف بالعلم المطلق الذي لَا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا في الأنفس؛ وإذا كان المؤمن يحسُّ برقابة الله تعالى المطلقة فإنه يتجافى عن المعاصي، ويبتعد عنها استحياءً من الله، فقوَّة الإحساس بعلم الله ترهف وجدان المؤمن وهذا مقام الإحسان كما في الحديث الشريف ((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك([4]))).

الأمر الثاني: التنبيه إلى ما يترتَّب على العلم من الرضوان والثواب المقيم الدائم لمن أطاع الله وطلب رضاه، والعذاب الأليم وغضب الله لمن عصاه سبحانه.

١- صحيح البخاري (٣٨١٣)، وصحيح مسلم (٢٤٨٤).

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

٣- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٤- (قلت): البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه لا يكره أحد على الدين لوضوح الرشد من الغي؛ لقوله تعالى: {لا إكراه في الدِّين}؛ هذا على القول بأنها خبرية؛ أما على القول بأنها إنشائية فإنه يستفاد منها أنه لا يجوز أن يكره أحد على الدين؛ وبيَّنت السنة كيف نعامل الكفار؛ وذلك بأن ندعوهم إلى الإسلام؛ فإن أَبَوا فإلى بذل الجزية؛ فإن أبوا قاتلناهم.

٢- أنَّه ليس هناك إلَّا رشد، أو غي؛ لأنه لو كان هناك ثالث لذُكر؛ لأن المقام مقام حصر؛ ويدلُّ لهذا قوله تعالى: {فماذا بعد الحق إلَّا الضلال}[يونس: ٣٢]، وقوله تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين}[سبأ: ٢٤].

٣- أنَّه لا يتم الإخلاص لله إلَّا بنفي جميع الشرك؛ لقوله تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله}؛ فمن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فليس بمؤمن.

٤- أن كل ما عُبِدَ من دون الله فهو طاغوت؛ لقوله تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله}؛ وجه هذا أنه سبحانه وتعالى جعل الكفر بالطاغوت قسيمًا للإيمان بالله؛ وقسيم الشيء غير الشيء؛ بل هو منفصل عنه.

٥- أنَّه لا نجاة إلَّا بالكفر بالطاغوت، والإيمان بالله؛ لقوله تعالى: {فقد استمسك بالعروة الوثقى}.

٦- أنَّ الأعمال تتفاضل؛ يؤخذ ذلك من اسم التفضيل: {الوثقى}؛ لأن التفضيل يقتضي مفضَّلًا، ومفضَّلًا عليه؛ ولا شك أنَّ الأعمال تتفاضل بنص القرآن والسنة؛ قال تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملًا}[الملك: ٢] و{أحسن} اسم تفضيل؛ وهذا دليل على أن الأعمال تتفاضل بالحسن؛ وسئل النبي ﷺ: ((أي العمل أحب إلى الله قال: الصلاة على وقتها([1]))) وقال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه([2])))؛ ويلزم من تفاضل الأعمال تفاضل العامل، كلَّما كان العمل أفضل كان العامل أفضل؛ وتفاضل الأعمال يكون بعدة أمور: بحسب العامل؛ بحسب العمل جنسه أو نوعه؛ بحسب الزمان؛ بحسب المكان؛ بحسب الكيفية والمتابعة؛ بحسب الإخلاص لله؛ بحسب الحال.

مثاله بحسب العامل: قول النبي ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه([3]))).

١- أخرجه البخاري ص٤٤، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٥: فضل الصلاة لوقتها، حديث رقم ٥٢٧، وأخرجه مسلم ص٦٩٣، كتاب الإيمان، باب ٣٦: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم ٢٥٣ [١٣٨] ٨٥.

٢- أخرجه البخاري ص٥٤٥ - ٥٤٦، كتاب الرقاق، باب ٣٨: التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

٣- أخرجه البخاري ص٢٩٩، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب، حديث رقم ٣٦٧٣، وأخرجه مسلم ص١١٢٣، كتاب فضائل الصحابة، باب ٥٤، تحريم سب الصحابة ﷺم، حديث رقم ٦٤٨٧ [٢٢١] ٢٥٤٠.

ومثاله بحسب العمل: جنسه، ونوعه؛ فالصلاة مثلا أفضل من الزكاة؛ والزكاة أفضل من الصيام؛ هذا باعتبار الجنس؛ ومثاله باعتبار النوع: الفريضة من كل جنس أفضل من النافلة؛ فصلاة الفجر مثلًا أفضل من راتبة الفجر.

ومثاله بحسب الزمان: قوله ﷺ: ((ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر([1]))، وقوله ﷺ: ((من صام يومًا في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا([2]))).

ومثاله بحسب المكان قوله ﷺ: ((صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلَّا المسجد الحرام([3]))).

ومثاله بحسب الكيفية؛ بمعنى أن كيفية العبادة تكون أفضل من كيفية أخرى، كالخشوع في الصلاة قال تعالى: {قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون}[المؤمنون: ١، ٢].

مثاله بحسب المتابعة: قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}[آل عمران: ٣١]؛ فكلَّما كان الإنسان للرسول أتبع كان عمله أفضل؛ لأن القاعدة أن الحكم المعلَّق بوصف، يَقوى بحسب ذلك الوصف.

ومثاله بحسب الإخلاص: أنه كلَّما كان العامل أشدُّ إخلاصًا لله كان أكمل ممن خالط عمله شيء من الشرك؛ ومثاله بحسب الحال: العبادة بين أهل الغفلة والإعراض، أفضل من العبادة بين أهل الطاعة والإقبال؛ ولهذا كان العامل في أيام الصبر له أجر خمسين من الصحابة لكثرة الإعراض عن الله عز وجل، وعن دينه؛ فلا يجد أحدًا يساعده ويعينه؛ بل ربَّما لا يجد إلَّا من يتهكَّم به، ويسخر به؛ ومن تفاضلها باعتبار الحال أن العفَّة من الشاب أفضل من العفَّة من الشيخ؛ لأن شهوة الشاب أقوى من شهوة الشيخ؛ فالدَّاعي إلى عدم العفَّة في حقِّه أقوى من الدَّاعي بالنسبة للشيخ؛ ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني أشدُّ من عقوبة الشاب؛ لقوله ﷺ: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعة، لا يشتري إلَّا بيمينه، ولا يبيع إلَّا بيمينه([4]))).

٧- إثبات اسمين من أسماء الله – هما {السميع العليم}، وما تضمَّناه من صفة.

١- أخرجه البخاري ص٩٦٩، كتاب العيدين، باب ١١، فضل العمل في أيام التشريق، حديث رقم ٩٦٩؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٢٢، كتاب الصوم، باب ٥٢: ما جاء في العمل في أيام العشر، حديث رقم ٧٥٧؛ واللفظ له.

٢- أخرجه البخاري ص٢٢٩، كتاب الجهاد، باب ٣٦: فضل الصوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٤٠، وأخرجه مسلم ص٨٦٢، كتاب الصيام، باب ٣١: فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه ... ، حديث رقم ٢٧١٣ [١٦٨] ١١٥٣.

٣- أخرجه البخاري ص٩٢، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة، باب ١: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم ١١٩٠، وأخرجه مسلم ص٩٠٨، كتاب الحج، باب ٩٤: فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، حديث رقم ٣٣٧٤ [٥٠٥] ١٣٩٤.

٤- أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢١/٢؛ وقال المنذري في الترغيب والترهيب رواته محتج بهم في الصحيح ٥٨٧/٢، ترغيب التجار في الصدق وترهيبهم من الكذب والحلف وإن كانوا صادقين، حديث رقم ٩.

- (قلت): وصححه الأمام الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٠٧٢).

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

قال ابن العثيمين في القول المفيد ج٢ص٦٠: والولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى قوله تعالى: {الله ولي[١] الذين آمنوا}، ومن الثانية قوله تعالى: {ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا... }[المائدة: ٥٦].

والولاية التي مِن الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق، فالله هو الذي يتولَّى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: {ثم ردُّوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين}[الأنعام: ٦٢].

والولاية الخاصة: أن يتولَّى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ}، وقال: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[يونس: ٦٣].

قال السعدي: {الله ولي الذين آمنوا} وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولَّوه فلا يبغون عنه بدلًا ولا يشركون به أحدًا، قد اتَّخذوه حبيبًا ووليًا، ووالَوا أولياءه وعادَوا أعداءه، فتولَّاهم بلطفه ومَنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سَلَّمَهُمْ من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور.

قال ابن العثيمين: والمراد بذلك الولاية الخاصة؛ ومن ثمراتها قوله تعالى: {يخرجهم من الظلمات إلى النور}؛ وأفرد {النور}؛ لأنَّه طريق واحد؛ وجمع {الظلمات} باعتبار أنواعها؛ لأنها إما ظلمة جهل؛ وإما ظلمة كفر؛ وإما ظلمة فسق؛ أما ظلمة الجهل فظاهرة: فإن الجاهل بمنزلة الأعمى حيران لا يدري أين يذهب كما قال تعالى: {أومن كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس}[الأنعام: ١٢٢]، وهذا صاحب العلم؛ {كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}[الأنعام: ١٢٢]: وهذا صاحب الجهل؛ وأما ظلمة الكفر فلأن الإيمان نور يهتدي به الإنسان، ويستنير به قلبه ووجهه؛ فيكون ضده – وهو الكفر – على العكس من ذلك؛ أما ظلمة الفسق فهي ظلمة جزئية تكبر وتصغر بحسب ما معه من

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الولي} مفصلًا عند تفسير الآية (٩) من سورة الشورى.

المعاصي؛ ودليل ذلك أن النبي ﷺ أخبر أن العبد إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء[١]- والسواد ظلمة، وتزول هذه النكتة بالتوبة، وتزيد بالإصرار على الذنب؛ فالظلمات ثلاث: ظلمة الجهل، والكفر، والمعاصي؛ يقابلها نور العلم، ونور الإيمان، ونور الاستقامة.

قال الطبري: وإنما عنى ب{الظلمات} في هذا الموضع، الكفر. وإنما جعل {الظلمات} للكفر مثلًا، لأن الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحته وصحة أسبابه. فأخبر تعالى ذكره عباده أنه وليُّ المؤمنين، ومبصرهم حقيقة الإيمان وسبله وشرائعه وحججه، وهاديهم فموفِّقهم لأدلته المزيلة عنهم الشكوك بكشفه عنهم دواعي الكفر، وظُلَمَ سواتر أبصار القلوب.

قال أبو زهرة: فهذه الجملة تتضمَّن ثلاثة أمور:

أوَّلها: نصرة الله القوي القادر، فلا يصح لمؤمن أن يضعف أمام جبروت الملوك الطغاة أو الجبابرة العتاة، أو الكبراء المضلِّين.

وثانيها: أن الله سبحانه وتعالى هو المسيطر على النفوس يوجه القلوب المؤمنة إلى الحق فيلوح لها نوره، وتشرق فيها حججه.

وثالثها: أن الذين يفيض الله عليهم بهذا النور ويؤيدهم بنصره هم الذين ارتضوا الحق بإرادتهم المختارة، ورفضوا طغيان الكبراء والجبابرة، وقاوموا نزغات الشيطان؛ فإن هؤلاء هم الذين ينصرهم رب العالمين، ويهديهم بنوره.

قال ابن العثيمين: {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت}؛ إذا تأمّلت هذه الجملة والتي قبلها، تجد فرقًا بين التعبيرين في الترتيب: ففي الجملة الأولى قال تعالى: {الله ولي الذين آمنوا} لأمور ثلاثة؛ أحدها: أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب، أولًا استبشر به؛ ثانيًا: التبرُّك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل؛ ثالثًا: إظهار المِنَّة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتنَّ عليهم أولًا، فأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ أما الجملة الثانية: {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت}؛ ولو كانت الجملة على سياق الأولى لقال: (والطاغوت أولياء الذين كفروا)؛ ومن الحكمة في ذلك:

أوَّلًا: ألَّا يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله.

ثانيًا: أن الطاغوت أهون وأحقر من أن يبدأ به، ويقدم.

ثالثًا: أن البداءة بقوله تعالى: {الذين كفروا} أسرع إلى ذمِّهم مما لو تأخَّر ذكره.

١- أخرجه مسلم ص٧٠٢، كتاب الإيمان، باب ٦٤: رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ... ، حديث رقم ٣٦٩ [٢٣١] ١٤٤.

وقوله تعالى: {والذين كفروا}: أي كفروا بكل ما يجب الإيمان به سواء كان كفرهم بالله، أو برسوله، أو بملائكته، أو باليوم الآخر، أو بالقدر، أو غيرها مما يجب الإيمان به.

وقوله تعالى: {أولياؤهم} جمع (وليّ)؛ وجمعت لكثرة أنواع الشرك والكفر؛ بخلاف سبيل الحق؛ فإنها واحدة؛ وهذه كقوله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}[الأنعام: ١٥٣].

قوله تعالى: {يخرجونهم}: أتى بضمير الجمع؛ لأن المراد بالطاغوت اسم الجنس؛ فيعمّ جميع أنواعه.

وقوله تعالى: {يخرجونهم من النور إلى الظلمات}: استشكل؛ لأن ظاهره: الذين آمنوا أولًا فدخلوا في النور، ثم كفروا فخرجوا منه؛ مع أنه يشمل الكافر الأصلي؛ فالجواب: إما أن يراد بهذا من كانوا على الإيمان أولًا، ثم أخرجوا كما هو ظاهر اللفظ؛ أو يقال: هذا باعتبار الفطرة؛ فإن كل مولود يولد على الفطرة؛ فكانوا على الفطرة السليمة والإيمان، ثم أخرجوهم، كقوله ﷺ: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه[١]))؛ و{من النور إلى الظلمات} سبق الكلام عليها.

قال السعدي: فتولَّوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليًّا ووالَوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلَّطهم عليهم عقوبة لهم، فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزًّا، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجًا، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حُرِموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرَّات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

قال أبو زهرة: وفي الجملة الكريمة السامية إشارات بيانية يجب التنبيه إليها:

أوَّلها: أن الله سبحانه وتعالى قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} ففي التعبير بالذين كفروا إشارة بيانية إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يجعلوا الطغيان متحكّمًا في قلوبهم، إذ كفرهم واستيلاء الشهوات على نفوسهم هو الذي سهَّل استمراء ولاية الطاغوت عليهم، وتحكُّمه فيهم، وسيطرته على نفوسهم، وحيث كانت الشهوات مستحكمة فللأوهام سلطان، وللجبابرة سلطان، ولكبراء المضلين مكان.

والثانية: أنه أفرد الطاغوت، وجمع الأولياء، ففي ذلك إشارة بيانية إلى أن الطاغوت مهما تعدَّد ضروبه، وأشكاله ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد، أساسه أن يتحكَّم الوهم والهوى والذُّل والضعف في النفس ولكن مع ذلك يتعدَّد سلطانه، فهو مرَّة يظهر في مظهر ذي سلطان متجبِّر تخضع الرقاب لطغيانه لتحكُّم الذِّلة أو الشهوة الرديَّة في نفوس الذين يتحكَّم فيهم، ومرَّة يظهر سلطان الطاغوت في دعوة إلى الباطل زخرفها تمويه داعيةٍ مضل، وأحيانا تكون في أوهام مسيطرة على

١- أخرجه البخاري ص١٠٨، كتاب الجنائز، باب ٩٢: ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم ١٣٨٥، وأخرجه مسلم ص١١٤١، كتاب القدر، باب ٦: معنى كل مولود يولد على الفطرة ... ، حديث رقم ٦٧٥٥ [٢٢] ٢٦٥٨.

الجماعة تجعلها تعبد حجرًا أصم لَا يسمع ولا يبصر، وعلى ذلك يكون الطاغوت واحدًا؛ لأنه ضلال كيفما كان، ولكن لتعدُّد مظاهر سلطانه تعدَّدت ولاياته وكلها لَا قوة لها أمام قوة الله سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا.

والثالثة من الإشارات البيانية: ما تضمَّنه قوله تعالى: {يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}: أي الضَّلالات الرديَّة المختلفة الأنواع، فإن في ذلك إشارة إلى أن الفطرة في أصلها نور، ففي الفطرة الإنسانية نور الحق ووجدان الهداية، والإيمان الفطري، حتى يكون الضلال، إذ تتحكَّم الاهواء والأوهام، فكل مولود يولد على الفطرة، وهي نور، حتى يكون الضلال بما في النفس من استعداد له مع وجود ذلك النور.

قال ابن العثيمين: {أولئك أصحاب النار هم فيها}؛ المشار إليه الذين كفروا ودعاتهم؛ و{أصحاب} جمع صاحب؛ و (الصاحب): هو الملازم لغيره؛ فلا يسمَّى صاحبًا إلَّا الملازم صاحبًا واحدًا – وهم أصحاب النبي ﷺ؛ فإن صحبة النبي ﷺ تطلق على من اجتمع به – ولو لحظة، ومات على ذلك؛ وهذا من خصائص النبي ﷺ؛ فأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها؛ وقدَّم الجار والمجرور لإفادة الحصر، ولمراعاة الفواصل.

قال الطبري: هؤلاء الذين كفروا {أصحاب النار}، أهل النار الذين يخلدون فيها – يعني في نار جهنم – دون غيرهم من أهل الإيمان، إلى غير غاية ولا نهاية أبدًا.

قال أبو زهرة: وفي قوله تعالى: {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} تأكيد لبقائهم فيها واختصاصها بهم دون غيرها؛ ذلك لأن التعبير بالجملة الاسمية فيه تأكيد، وتكرار المسند إليه بذكر كلمة {هم}، فيه فضل تأكيد، وتقديم الجار والمجرور وهو {فيها} دليل على اختصاصها بخلودهم فيها فلا منفذ لهم في غيرها؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب النور في الدنيا، فسدت عليهم أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– فضيلة الإيمان، وأنه تحصل به ولاية الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا}.

٢– إثبات الولاية لله عز وجل؛ أي أنه سبحانه وتعالى يتولَّى عباده؛ وولايته نوعان؛ الأول: الولاية العامة؛ بمعنى أن يتولَّى شؤون عباده؛ وهذه لا تختص بالمؤمنين، كما قال تعالى: {وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون} [يونس: ٣٠] يعني الكافرين؛ والنوع الثاني: ولاية خاصة بالمؤمنين، كقوله تعالى: {ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن

الكافرين لا مولى لهم}[محمد: ١١]، وكما في قوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا}؛ ومقتضى النوع الأول أن لله تعالى كمال السلطان، والتدبير في جميع خلقه؛ ومقتضى النوع الثاني: الرأفة، والرحمة، والتوفيق.

٣- أنَّ من ثمرات الإيمان هداية الله للمؤمن؛ لقوله تعالى: {يخرجهم من الظلمات إلى النور}.

٤- أنَّ الكافرين أولياؤهم الطواغيت سواء كانوا متبوعين، أو معبودين، أو مطاعين.

٥- براءة الله عز وجل من الذين كفروا؛ يؤخذ من المنطوق، والمفهوم؛ فالمفهوم في قوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا} فمفهومه: لا الذين كفروا؛ المنطوق من قوله تعالى: {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت}؛ وهذا مقابل لقوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا}.

٦- سوء ثمرات الكفر، وأنه يهدي إلى الضلال - والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: {يخرجونهم من النور إلى الظلمات}؛ وهذا الإخراج يشمل ما كان إخراجًا بعد الوقوع في الظلمات، وما كان صدًّا عن النور؛ وعلى الثاني يكون المراد بإخراجهم من الظلمات، استمرارهم على الظلمات.

٧- أنَّ الكفر مقابل الإيمان؛ لقوله تعالى: {ولي الذين آمنوا والذين كفروا ... } إلخ؛ ولكن هل معنى ذلك أنه لا يجتمع معه؟ الجواب أنه قد يجتمع معه على القول الراجح الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ لقول النبي ﷺ: ((سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر([1]))؛ وهذا الكفر لا يرفع الإيمان لقول الله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ... }[الحجرات: ٩] إلى قوله تعالى: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}[الحجرات: ١٠]؛ فأثبت الأخوة الإيمانية مع الاقتتال الذي قال عنه النبي ﷺ: إنه كفر؛ وانظر إلى الإنسان يكون فيه كذب - وهو من خصال المنافقين؛ ويكون فيه حسد - وهو من خصال اليهود؛ ويكون فيه صدق - وهو من خصال المؤمنين؛ ويكون فيه إيثار - وهو من صفات المؤمنين أيضًا؛ لكن الكفر المطلق - وهو الذي يخرج من الإسلام - لا يمكن أن يجامع الإيمان.

٨- إثبات النار؛ لقوله تعالى: {أولئك أصحاب النار}؛ والنار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}[آل عمران: ١٣١]؛ فقال تعالى: {أعدَّت} بلفظ الماضي؛ والإعداد هو التهيئة؛ وثبت عن النبي ﷺ في غير حديث أنه رآها: ففي صلاة الكسوف عرضت عليه النار، ورأى فيها عمرو بن لحي يجر قصبه في النار([2])؛ ورأى المرأة التي تعذب في هرة؛ ورأى صاحب المحجن يعذب([3])؛ المهم أن النار موجودة أبدية؛ وليست أزلية؛ لأنها مخلوقة بعد أن

١- أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٦: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، حديث رقم ٤٨، وأخرجه مسلم ص٦٩١، كتاب الإيمان، باب ٢٨: بيان قول النبي ﷺ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ، حديث رقم ٢٢١ [١١٦] ٦٤.

٢- راجع البخاري ص٢٨٧، كتاب المناقب، باب ٩: قصة خزاعة، حديث رقم ٣٥٢١؛ ومسلما ص١١٧٣، كتاب الجنة، باب ١٣: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٧١٩٢ [٥٠] ٢٨٥٦.

٣- راجع مسلما ص٨٢٠، كتاب الكسوف، باب ٣: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، حديث رقم ٢١٠٢ [١٠] ٩٠٤.

لم تكن؛ ولكنَّها أبديَّة لا تفنى، قال تعالى: {والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفَّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور}[فاطر: ٣٦]؛ وذكر تأبيد أهلها في ثلاثة مواضع من القرآن؛ وبهذا يعرف بطلان قول من يقول: (إنها تفنى)؛ وأنه قول باطل مخالف للأدلة الشرعية.

٩- أنَّ الكافرين مخلدون في النار؛ لقوله تعالى: {أولئك أصحاب النار}؛ والصاحب للشيء، الملازم له.

١٠- أنَّ الخلود خاص بالكافرين؛ وأن من يدخل النار من المؤمنين لا يخلد؛ لقوله تعالى: {هم فيها خالدون}؛ يعني: دون غيرهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

قال أبو زهرة: بعد أن بيَّن سبحانه تحكُّم الطغيان في نفوس الكافرين ذكر سبحانه وتعالى لونًا من ألوان الطغيان أو أظهر ألوانه فقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي...}.

قال ابن العثيمين: {ألم تر} الهمزة للاستفهام؛ والمراد به هنا التقرير والتعجيب؛ (التقرير) يعني تقرير هذا الأمر، وأنه حاصل؛ و(التعجيب) معناه: دعوة المخاطب إلى التعجُّب من هذا الأمر العجيب الغريب الذي فيه المحاجَّة لله عز وجل؛ {تر} أي تنظر نظر قلب؛ لأنه لم يدرك زمنه حتى يراه بعينه؛ والخطاب في قوله تعالى: {ألم تر} إما للنبي ﷺ؛ وإما لكل من يتأتَّى خطابه ممَّن نزل عليهم القرآن؛ وهذا أعم؛ وقد ذكرنا قبل ذلك أن ما جاء بلفظ الخطاب في القرآن فله ثلاث حالات؛ إما أن يدلّ الدليل على أنه للرسول ﷺ وللأمة؛ أو يدلّ الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ؛ أو لا يكون هذا، ولا هذا: والحكم فيه أنه عام للرسول ﷺ ولغيره؛ ولكن هل هذا الخطاب المعيَّن يراد به الأمة، وخوطب إمامها لأنهم تبعٌ له؛ أو يراد به النبي ﷺ وغيره، يفعله على سبيل الأسوة؟ قولان لأهل العلم؛ ومؤداهما واحد؛ فمن أمثلة ما دلَّ الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ قوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك}[الشرح: ١، ٢]؛ ومن الأمثلة التي دلَّ الدليل على أنه للرسول، ولغيره قوله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء}[الطلاق: ١]؛ فوجَّه الخطاب إلى النبي ﷺ، ثم قال تعالى: {إذا طلقتم} وهو عام؛ فدلَّ على أن المراد به العموم؛ ومما يحتمل، مثل قوله تعالى: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك}[الزمر: ٦٥]؛ فهذا يحتمل أنه للرسول ﷺ وحده؛ ولكن أمته تبع له؛

وهو ظاهر اللفظ – وإن كان هذا الشرك لا يقع منه؛ لأن {إن} قد يراد بها فرض الشيء دون وقوعه – وهنا {ألم تر} يحتمل الأمرين؛ يعني: ألم تنظر يا محمد، أو: ألم تنظر أيها المخاطب.

{إلى الذي حاج إبراهيم في ربه}: ذكر {إبراهيم} في الآية ثلاث مرات؛ وفيها قراءتان: {إبراهيم}، و{إبراهام}؛ وهما سبعيتان؛ و{حاج}: هذه صيغة مفاعلة؛ وصيغة المفاعلة لا تكون غالبًا إلَّا بين اثنين، كـ(قاتل)، و(ناظر)، و(دافع) – أقول: غالبًا؛ لئلَّا يرد علينا مثل: (سافر)؛ فإنها من واحد؛ ومعنى (حاجه) أي ناظره، وأدلى كل واحد بحجَّته؛ و(الحج) هي الدليل والبرهان؛ و{في ربه}: أي في وجوده، وفي ألوهيته؛ فإبراهيم يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ وهذا ينكر الله رأسًا – كما أنكره من بعده فرعون – وقال: أين الدليل على وجود ربك؟

{أن آتاه الله الملك}، {أن}: مصدرية دخلت على الفعل الماضي؛ وإذا دخلت على الفعل الماضي لا تنصبه؛ لكنها لا تمنع أن يسبك بمصدر؛ والتقدير هنا: أنه حاج إبراهيم لكونه أعطي ملكًا؛ و{أل} في قوله تعالى: {الملك} الظاهر أنها لاستغراق الكمال – أي ملكًا تامًّا لا ينازعه أحد في مملكته؛ لأن الله لم يعطه ملك السموات والأرض؛ بل ولا ملك جميع الأرض؛ وبهذا نعرف أن فيما ذكر عن بعض التابعين من أنه ملك الأرض أربعة – اثنان مؤمنان؛ واثنان كافران – نظرا؛ ولم يملك الله جميع الأرض لأي واحد من البشر؛ ولكن يملك بعضا لبعض؛ والله عز وجل يقول: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض}[البقرة: ٢٥١]؛ أما أن يملك واحد من البشر جميع الأرض فهذا مستحيل في سنة الله عز وجل فيما نعلم.

فهذا رجل ملك – ولا يعنينا أن نعرف اسمه: أهو (نمرود بن كنعان)، أم غيره؛ المهم هو القصة – لما آتاه الله ملكًا دام مدة طويلة، وملك أراضي واسعة ملكًا تامًّا لا ينازعه أحد – وكما قال تعالى: {إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ... }[يونس: ٢٤] الآية – استطال والعياذ بالله، واستكبر، وعلا، وأنكر وجود العلي الأعلى، فكان يحاج إبراهيم لطغيانه بأن آتاه الله الملك؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى: {كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى}[العلق: ٦، ٧] ؛ إذا رأى الإنسان نفسه استغنى، فقد يطغى ويزيد عتوه وعناده.

قال ابن كثير: وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الطُّغْيَانِ وَالْكُفْرِ الْغَلِيظِ وَالْمُعَانَدَةِ الشَّدِيدَةِ إِلَّا تَجَبُّرُهُ، وَطُولُ مُدَّتِهِ فِي الْمُلْكِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ مَكَثَ أَرْبَعَمِائَةِ سَنَةٍ فِي مُلْكِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} وَكَأَنَّهُ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}: أَيِ الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِهِ حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُشَاهَدَةِ بَعْدَ عَدَمِهَا، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وُجُودِهَا. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ضَرُورَةً؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا وَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

قال ابن العثيمين: هذا بيان المحاجة؛ وهذه لا شك –كما يعلم من سياق اللفظ – أنها جواب لسؤال؛ كأنه قال: ما ربك؟ أو: من هو؟ أو: ما شأنه؟ أو: ما فعله؟ فقال: {ربي الذي يحيي ويميت} كما قال فرعون لموسى: {وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض ... }[الشعراء: ٢٣، ٢٤]، ومعنى ال{رب([1])} الخالق المالك المدبِّر؛ وهذه الأوصاف لا تثبت على الكمال والشمول إلّا لله عز وجل؛ و{يحيي ويميت}: أي يجعل الجماد حيًّا؛ ويميت ما كان حيًّا، فبينما نرى الإنسان ليس شيئًا مذكورًا إذا به يكون شيئًا مذكورا، كما قال تعالى: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا}[الإنسان: ١]؛ ثم يبقى في الأرض؛ ثم يعدم ويفنى، فإذا هو خبر من الأخبار:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بينا يرى الإنسان فيها مخبرًا ... حتى يرى خبرًا من الأخبار

قال إبراهيم هذا الكلام؛ كأنه يقول له: هو الذي يوجِد، ويُعدِم؛ ثم أتى بمثال – وهو الإحياء والإماتة التي لا يقدر عليها أحد؛ لكن هذا المعاند المكابر قال: {أنا أحيي وأميت}؛ قالها إمَّا تلبيسًا؛ وإما مكابرة؛ إما تلبيسًا كما قاله أكثر المفسرين؛ وقالوا: إنه أتى باثنين، فقتل أحدهما وأبقى الآخر، فقال: (أمتُّ الأول، وأحييت الثاني)؛ هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين.

قال الطبري: قال: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأميت، أستحيي من أردت قتله فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياء له – وذلك عند العرب يسمى (إحياء)، كما قال تعالى ذكره: (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)[سورة المائدة: ٣٢] – وأقتل آخر، فيكون ذلك منِّي إماتة له.

قال ابن العثيمين: وعلى هذا فيكون قوله: {أنا أحيي وأميت} تلبيسًا؛ والحقيقة أنه ما أحيا، ولا أمات هنا؛ وإنما فعل ما يكون به الموت في دعوى الإماتة؛ واستبقى ما كان حيًّا في دعواه الإحياء؛ فلم يوجد حياة من عنده؛ وقال بعضهم: بل قال ذلك مكابرة؛ يعني: هو يعلم أنه لا يحيي ولا يميت؛ كأنه يقول لإبراهيم: إذا كان ربك يحيي ويميت، فأنا أحيي وأميت.

قال ابن كثير: وَلِهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا ادَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} أَيْ: إِذَا كُنْتَ كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تُحْيِي وَتُمِيتُ فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ وَحَرَكَاتِهِ فَهَذِهِ الشَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتَ إِلَهًا كَمَا ادَّعَيْتَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَأْتِ بِهَا

١– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرب} مفصلًا عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

مِنَ الْمَغْرِبِ. فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزَهُ وَانْقِطَاعَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُكَابَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ بُهِتَ أَيْ: أُخْرِسَ فَلَا يَتَكَلَّمُ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ.

قال ابن العثيمين: {فبُهت الذي كفر}: أي تَحيَّر، واندهش، ولم يحر جوابًا؛ فغلبَ إبراهيمُ الذي كفر؛ لأن وقوف الخصم في المناظرة عجز.

قال ابن كثير: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}: أَيْ لَا يُلْهِمُهُمْ حُجَّةً وَلَا بُرْهَانًا بَلْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

وَهَذَا التَّنْزِيلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مِمَّا ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَنْطِقِيِّينَ: أَنَّ عُدُولَ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ إِلَى الْمَقَامِ الثَّانِي انْتِقَالٌ مِنْ دَلِيلٍ إِلَى أَوْضَحَ مِنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ يُطْلِقُ عِبَارَةً رَدِيَّةً. وَلَيْسَ كَمَا قَالُوهُ بَلِ الْمَقَامُ الْأَوَّلُ يَكُونُ كَالْمُقَدَّمَةِ لِلثَّانِي ويُبَيّن بُطْلَانَ مَا ادَّعَاهُ نُمْرُوذُ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

قال أبو زهرة: ختم الله سبحانه وتعالى الآية بهذه الجملة السامية وهي تدلُّ على ثلاثة أمور:

أولها: إن الذين يعاندون الحق ظالمون دائمًا: يظلمون أنفسهم لأنهم يسدُّون منافذ النور فلا يصل إلى قلوبهم، ويظلمون أقوامهم لأنهم يحملونهم على الضلال، ويظلمون الحق لأنَّهم يحاربونه.

ثانيها: إن ظلمهم يسبق كامل ضلالهم؛ ذلك لأن الشهوات تتحكَّم فيهم فتدفعهم إلى طلب ما ليس لهم ثم يستهويهم الشيطان بالطمع بعد المطمع، فيتجاوزون الحدود ويطغون ثم يكون الضلال الكامل الذي تطمس فيه البصيرة فتغلف القلوب عن الحق وتقسو فلا تلين.

ثالثها: إن الظلم إذا استحكم في النفس أصبحت كل البراهين لَا تجدي بل تزيده عنادًا وإصرارًا؛ ولذلك لم يكتب الله الهداية لمن استمرأ الظلم آحادًا أو جماعات والله ولي المتقين.

قال السعدي: ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكُّل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جدًّا، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمَّن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملةً بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له ربًّا قادرًا قاهرًا متصرِّفًا فيه إحياءً وإماتةً، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهًا حتى يتخذ الصنم على صورته، ويعبد من دونه؟! وكذلك الكواكب أظهرُها وأكبرها للحسّ هذه الشمس، وهي مربوبة مدبَّرة مسخَّرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بلاغة القرآن الكريم في عرض الأمور العجيبة معرض التقرير والاستفهام؛ لأن (التقرير) يحمل المخاطب على الإقرار؛ و(الاستفهام) يثير اهتمام الإنسان؛ فجمع بين الاستفهام والتقرير.

٢- بيان كيف تصل الحال بالإنسان إلى هذا المبلغ الذي بلغه هذا الطاغية؛ وهو إنكار الحق لمن هو مختصٌّ به، وادعاؤه المشاركة؛ لقوله: {أنا أحيي وأميت}.

٣- أن المحاجَّة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحق من مقامات الرسل؛ لقوله تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه}.

٤- الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلَّم طرق المناظرة والمحاجة؛ لأنها سُلَّمٌ ووسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل؛ ومن طالع كتب شيخ الإسلام ونحوها تعلَّم المناظرة – ولو لم يدرسها فنًّا.

٥- أن النِّعم قد تكون سببًا للطغيان؛ لأن هذا الرجل ما طغى وأنكر الخالق إلَّا لأن الله آتاه الملك؛ ولهذا أحيانًا تكون الأمراض نعمة من الله على العبد؛ والفقر والمصائب تكون نِعمة على العبد؛ لأن الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رغد، وفي عيش هنيء فإنه ربما يطغى وينسى الله عز وجل.

٦- صحة إضافة الملكية لغير الله؛ لقوله تعالى: {أن آتاه الله الملك}.

٧- أنَّ ملك الإنسان ليس ملكًا ذاتيًا من عند نفسه؛ ولكنه معطى إيَّاه؛ لقوله تعالى: {أن آتاه الله الملك}؛ وهذه الآية كقوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء}[آل عمران: ٢٦].

٨- فضيلة إبراهيم ﷺ، حيث قال مفتخِرًا، ومعتزًا أمام هذا الطاغية: {ربي}؛ فأضافه إلى نفسه، كأنه يفتخر بأن الله سبحانه وتعالى ربه.

٩- إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يحيي ويميت}؛ وهذه المسألة أنكرها كثير من علماء الكلام؛ وعلَّلوا ذلك بعلل عليلة؛ بل ميتة لا أصل لها؛ لأنهم قالوا: إن الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث؛ وإن الحوادث إن كانت كمالًا كان فقدها نقصًا؛ وإن كانت نقصًا فكيف يتَّصف الله بها؟! إذًا هي ممتنعة، لأنها نقص على كل تقدير؛ وحينئذ يجب أن ننزِّه الله عنها، وأن تكون ممتنعة عليه؛ والجواب عن ذلك أن قولكم: (الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث)، مجرَّد دعوى؛ ونحن نعلم أن الحوادث تحدث منَّا، ولكنها ليست سابقة بسبقنا؛ ولا يُعَدُّ ذلك فينا نقصًا؛ فالحوادث تحدث بعد من أحدثها؛ ولا مانع من ذلك؛ فمن الممكن أن يكون المتَّصِف بها قديمًا وهي حادثة؛ وأما قولكم: (إنها إن كانت كمالًا كان فقدها نقصًا؛ وإن كانت نقصًا فكيف يوصف بها)؟ فنقول: هي كمال حال وجودها؛ فإذا اقتضت الحكمة وجودها كان وجودها هو الكمال؛ وإذا اقتضت الحكمة عدمها كان عدمها هو الكمال.

١٠- أنَّ الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يحيي ويميت}؛ إذًا فاعتمِد على الله عز وجل ولا تخف، ولا تُقدِّر أسبابًا وهمية؛ مثلًا دُعيتَ إلى أي عمل صالح فقلت: أخشى إن عملت هذا العمل أن أموت؛ نقول: هذا إذًا كان مجرَّد وهم، فإن هذه الخشية لا ينبغي أن يبني عليها حكمًا، بحيث تمنعه من أمر فيه مصلحته وخيره.

١١- أنَّ الإنسان المجادل قد يكابر فيدَّعي ما يعلم يقينًا أنه لا يملكه؛ لقول الرجل الطاغية: {أنا أحيي وأميت}؛ ومعلوم أنَّ هذا إنَّما قاله في مضايقة المحاجَّة؛ والإنسان في مضايقة المحاجَّة ربما يلتزم أشياء هو نفسه لو رجع إلى نفسه لعلم أنها غير صحيحة؛ لكن ضيق المناظرة أوجب له أن يقول هذا إنكارًا، أو إثباتًا.

١٢- حكمة إبراهيم ﷺ، وجودته في المناظرة سواء قلنا: إن هذا من باب الانتقال من حجة إلى أوضح منها، أو قلنا: إنه من باب تفريع حجة على حجة.

١٣- الرَّد على علماء الهيئة الذين يقولون: إن إتيان الشمس ليس إتيانًا لها بذاتها؛ ولكن الأرض تدور حتى تأتي هي على الشمس؛ ووجه الرَّد أن إبراهيم قال: {فإن الله يأتي بالشمس من المشرق}؛ إذًا الله أتى بها من المشرق؛ وهم يقولون: إن الله لم يأت بها من المشرق؛ ولكن الأرض بدورتها اطَّلعت عليها؛ ونحن نقول: إن الله لم يقل: إن الله يدير الأرض حتى ترى الشمس من المشرق؛ فأدرها حتى ترى من المغرب! ويجب علينا أن نأخذ في هذا الأمر بظاهر القرآن، وألَّا نلتفت لقول أحد مخالف لظاهر القرآن؛ لأننا متعبِّدون بما يدلُّ عليه القرآن؛ هذا من جهة؛ ولأن الذي أنزل القرآن أعلم بما خلق: قال الله تعالى: {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}[الملك: ١٤]؛ فإذا كان يقول في كلامه إن الشمس: (تأتي)، و(تطلع)، و(تغرب)، و(تزول)، و(تتوارى)؛ كل هذه الأفعال يضيفها إلى الشمس؛ لماذا نحن نجعلها على العكس من ذلك ونضيفها إلى الأرض؟! ويوم القيامة سيقول الله لنا: {ماذا أجبتم المرسلين}[القصص: ٦٥]؛ لا يقول: ماذا أجبتم العالم الفلكي الفلاني؛ على أن علماء الفلك قديمًا وحديثًا مختلفون في هذا؛ لم يتَّفقوا على أن الأرض هي التي بدورانها يكون الليل والنهار؛ وما دام الأمر موضع خلاف بين الفلكيين أنفسهم؛ فإننا نقول كما نقول لعلماء الشرع إذا اختلفوا: (إن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول)؛ بل نقول: لو جاء علماء الفلك بأجمعهم ما عدلنا عن ظاهر القرآن حتى يتبيَّن لنا أمر محسوس؛ وحينئذ نقول لربنا إذا لاقيناه: إنك قلت – وقولك الحق: {لا يكلف الله نفسا إلَّا وسعها}، وقلت: {اتَّقوا الله ما استطعتم}[التغابن: ١٦]؛ ونحن ما وسعنا إلَّا أن نقول: إن قولك: {وترى الشمس إذا طلعت}[الكهف: ١٧] أي إذا طلعت رأي العين؛ لا في حقيقة الواقع؛ لأننا علمنا بحسنا، وبصرنا بأن الذي يكون به تعاقب الليل والنهار هو دوران الأرض؛ أما والحسُّ لم يدلّ على هذا؛ ولكنه مجرَّد أقيسة ونظريات، فإنني أرى أنه لا يجوز لأحد أن يعدل عن كلام ربه الذي خلق، والذي أنزل القرآن تبيانًا لكل شيء لمجرَّد قول هؤلاء.

١٤- أنَّ الحقَّ لا تمكن المجادلة فيه؛ لقوله تعالى: {فبهت الذي كفر}.

١٥- إثبات أنَّ من جحد الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: {فبهت الذي كفر}؛ وهذه هي النكتة في الإظهار مقام الإضمار؛ لأجل أن نقول: كل من جادل كما جادل هذا الرجل فهو كافر.

١٦- الإشارة إلى أن محاجَّة هذا الرجل محاجَّة بباطل؛ لقوله تعالى: {الذي كفر}؛ لأن الذين كفروا هم الذين يحاجُّون حجَّة باطلة؛ قال الله تعالى: {ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق}[الكهف: ٥].

١٧- الرَّد على القدرية؛ لقوله تعالى: {والله لا يهدي القوم الظالمين}؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان حر: يهتدي بنفسه، ويضل بنفسه؛ وهذه الآية واضحة في أن الهداية بيد الله.

١٨- التَّحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: {والله لا يهدي القوم الظالمين}؛ ومن الظلم أن يتبيَّن لك الحق فتجادل لنصرة قولك؛ لأن العدل أن تنصاع للحق، وألَّا تكابر عند وضوحه؛ ولهذا ضل من ضل من أهل الكلام؛ لأنه تبيَّن لهم الحق؛ ولكن جادلوا؛ فبقوا على ما هم عليه من ضلال.

١٩- أنَّ الله لا يمنع فضله عن أحد إلَّا إذا كان هذا الممنوع هو السبب؛ لقوله تعالى: {والله لا يهدي القوم الظالمين}؛ فلظلمهم لم يهدهم الله؛ وهذا كقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}[الصف: ٥].

٢٠- أنَّه كلَّما كان الإنسان أظلم كان عن الهداية أبعد؛ لأن الله علَّق نفي الهداية بالظلم؛ وتعليق الحكم بالظلم يدلُّ على عليَّته؛ وكلَّما قويت العلَّة قوي الحكم المعلَّق عليه.

٢١- أنَّ من أخذ بالعدل كان حَريًّا بالهداية؛ لمفهوم المخالفة في قوله تعالى: {والله لا يهدي القوم الظالمين}؛ فإذا كان الظالم لا يهديه الله، فصاحب العدل حَريٌّ بأن يهديه الله عز وجل؛ فإن الإنسان الذي يريد الحق ويتَّبع الحق – والحق هو العدل – غالبًا يهدى، ويوفَّق للهداية؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية عبارة من أحسن العبارات؛ قال: (من تدبَّر القرآن طالباً الهدى منه، تبيَّن له طريق الحق)؛ وهذه كلمة مأخوذة من القرآن منطوقًا ومفهومًا.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

ولقد كان احتجاج إبراهيم عليه السلام على الطاغية الذي يدَّعي الربوبية بأن الله هو الذي يحيي ويميت، فتجاهل الطاغية معنى الحياة والموت، وحرَّف الكلم عن مواضعه فلوى خليلُ الله عنقه حتى أراه عَجْزَه وقدرة الله على نحو ما ذكر سبحانه: {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}.

إن الأمر الذي يحيِّر العقول التي لَا تربط بين بدء الحياة وانتهائها هو أمر الحياة بعد الموت، وقد ذكر سبحانه ما يزيل أسباب الحيرة أولًا بأن الله سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وأن ذلك من أوصاف الربوبية التي اختصَّت بها الذات العليَّة، وأزال الرَّيب ثانيًا ببيان ما كان منه سبحانه للذين أرادوا أن يروا بالحسِّ الحياة بعد الموت والإعادة بعد الفناء فذكر سبحانه وتعالى قصَّتين تكشفان عن القدرة الإلهية في الإعادة والإبقاء كما هي قادرة على الإنشاء الأول: قصَّة القرية التي خوت على عروشها وتعجَّب من رآها من إعادتها وسأل متعجِّبًا {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا}، والثانية: قصة إبراهيم عليه السلام وقد سأل ربه أن يريه كيف يحي الموتى.

أما القصة الأولى فقد قال سبحانه: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ .....}.

قال ابن العثيمين: {أو كالَّذي مر على قرية}؛ {أو}: حرف عطف؛ والكاف: قيل إنها زائدة للتوكيد؛ وقيل: إنها اسم بمعنى (مثل)؛ وعلى كلا القولين فهي معطوفة على {الذي} في قوله تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه} [البقرة: ٢٥٨]: يعني أو ألم تر إلى مثل الذي مرَّ – إذا جعلنا الكاف بمعنى (مثل)؛ فإن جعلنا الكاف زائدة، فالتَّقدير: أو ألم تر إلى الذي مرَّ على قرية ... إلخ.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بقوله: {أو كالَّذي مرَّ على قرية}، نظير الذي عنى بقوله: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه}، من تعجيب محمد ﷺ منه. {أو كالَّذي مرَّ على قرية} عطف على قوله: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه}، وإنما عطف قوله: {أو كالَّذي} على قوله: {إلى الذي حاج إبراهيم في ربه}، وإن اختلف لفظاهما لتشابه معنييهما. لأن قوله: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه}، بمعنى: هل رأيت يا محمد، كالَّذي حاج إبراهيم في ربه؟ ثم عطف عليه بقوله: {أو كالَّذي مرَّ على قرية} لأن من شأن العرب العطف بالكلام على معنى نظير له قد تقدَّمه، وإن خالف لفظه لفظه.

واختلف أهل التأويل في {الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها}.

فقال بعضهم: هو عزير. وقال آخرون: هو أورميا بن حلقيا، وزعم محمد بن إسحاق أن أورميا هو الخضر.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عجب نبيه ﷺ ممَّن قال - إذ رأى قرية خاوية على عروشها- {أنى يحيي هذه الله بعد موتها}، مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أنَّى يحييها الله بعد موتها! ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قِبَلِهِ البيان على اسم قائل ذلك. وجائز أن يكون ذلك عزيرًا، وجائز أن يكون أورميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك([1])، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت - من قريش، ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب - وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل، باطِّلاعه نبيه محمدًا ﷺ على ما يزيل شكَّهم في نبوته، ويقطع عذرهم في رسالته، إذ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيه محمد ﷺ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومه، ولم يكن علم ذلك إلَّا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم، بل كان أميًّا، وقومه أميُّون، فكان معلومًا بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجَرِهِ أن محمدًا ﷺ لم يعلم ذلك إلَّا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبًا يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذمُّ قِيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه.

واختلف أهل التأويل في {القرية} التي مرَّ عليها القائل: {أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها}.

فقال بعضهم: هي بيت المقدس. وقال آخرون: بل هي القرية التي كان الله أهلك فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا.

والصواب من القول في ذلك كالقول في اسم القائل: {أنَّى يحيي هذ الله بعد موتها} سواءً لا يختلفان.

قال ابن العثيمين: وقد اختلف المفسرون في تعيين القرية، والذي مرَّ بها؛ وهو اختلاف لا طائل تحته؛ إذ لم يثبت فيه شيء عن معصوم؛ والمقصود العبرة بما في هذه القصة - لا تعيين الرجل، ولا القرية - ومثل هذا الذي يأتي مبهمًا ولم يعيَّن عن معصوم، طريقنا فيه أن نبهمه كما أبهمه الله عز وجل.

١- (قلت): الصواب ما قاله السعدي والله أعلم: (بأن الظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرًا، وأن يجعله آية ودليلًا للناس).أنظر كلامه مفصلًا في آخر الآية.

قال السعدي: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}: أي قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها فلم يبق بها أنيس، بل بقيت موحشة من أهلها مُقْفَرَّة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجِّبًا و{قال أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها}، استبعادًا لذلك وجهلًا بقدرة الله تعالى.

قال ابن العثيمين: وفي قوله تعالى: {أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها} تقديم المفعول على الفاعل؛ لأن {هذه} مفعول مقدَّم؛ ولفظ الجلالة فاعل مؤخر.

{أنَّى} اسم استفهام للاستبعاد؛ وسياق الآية يرجحه؛ أي أنه استبعد حسب تصوُّره أن الله سبحانه وتعالى يعيد إلى هذه القرية ما كان سابقًا، وقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؛ وقال بعضهم: إنه للاستعجال والتمني؛ كأنه يقول: متى يحيي الله هذه القرية بعد موتها وقد كانت بالأمس قرية مزدهرة بالسكان والتجارة وغير ذلك؛ فمتى يعود عليها ما كان قبل؟.

{فأماته الله}: أي قبض روحه.

{مائة}: منصوبة على أنها نائبة مناب الظرف؛ لأنها مضافة إليه؛ والظرف هي كلمة {عام}؛ وهي متعلّقة بـ{أماته}؛ وقيل: متعلّقة بفعل محذوف؛ والتقدير: فأبقاه مائة عام؛ قالوا: لأن الموت لا يتأجل؛ الموت موت؛ ولكن الذي تأجَّل هو بقاؤه ميتًا مائة عام.

قوله تعالى: {مائة} فيها ألف بين الميم، والهمزة؛ والميم مكسورة، والألف عليها دائرة إشارة إلى أن الألف هذه تكتب، ولا ينطق بها؛ وبهذا نعرف خطأ من ينطقون بها: (مائة) بميم مفتوحة؛ ومن قرأ بها في القرآن فقد لحن لحنا يجب عليه أن يعدله؛ وبعض الكتَّاب المعاصرين يكتبها بدون ألف كـ(فئة) يعني: ميم، وهمزة، وتاء؛ وهذا أحسن إلَّا في رسم المصحف؛ فيتبع الرسم العثماني؛ وإلَّا إذا أضيف إليها عدد كـ(ثلاثمائة) و(أربعمائة)؛ فتكتب الألف ولا ينطق بها.

{عام}: مشتقة من العوم؛ وهو السباحة؛ لأن الشمس تسبح فيه على الفصول الأربعة؛ وهي الربيع؛ الصيف؛ الخريف؛ الشتاء؛ كل واحد من هذه الفصول له ثلاثة من البروج المذكورة في قوله: (حمل فثور فجوزاء فسرطان فأسد سنبلة ميزان فعقرب قوس فجدي فكذا دلو وذي آخرها الحيتان) هذه اثنا عشر برجًا للفصول الأربعة؛ كل واحد من الفصول له ثلاثة؛ وقيل: إن كلمة {عام} غير مشتقة؛ فهي مثل كلمة (باب) و(ساج) و(سنة)؛ وما أشبه ذلك من الكلمات التي ليس لها اشتقاق؛ وأيًّا كان فالمعنى معروف.

{ثم بعثه}: أي أحياه؛ ولعلَّ قائلًا يقول: إن المتوقَّع أن يقول: (ثم أحياه) ليقابل {أماته}؛ لكن (البعث) أبلغ؛ لأن البعث فيه سرعة؛ ولهذا نقول: انبعث الغبار بالريح، وما أشبه ذلك من الكلمات الدالَّة على أن الشيء يأتي بسرعة واندفاع؛ فهذا الرجل بعثه الله بكلمة واحدة؛ قال مثلًا: (كن حيًّا)، فكان حيًّا.

{قال كم لبثت}: القائل هو الله عز وجل؛ يعني كم لبثت من مدة؛ والمدة مائة عام. واختلفت الحركة في التاء باعتبار من ترجع إليه؛ و{كم} مفعول مقدَّم لـ{لبثت}: يعني كم مدة لبثت.

{قال لبثت يومًا أو بعض يوم}؛ {أو}: للشك؛ قال العلماء: وإنما قال ذلك؛ لأن الله أماته في أول النهار، وأحياه في آخر النهار؛ فقال: لبثت يومًا إن كان هذا هو اليوم الثاني من موته؛ أو بعض يوم إن كان هو اليوم الذي مات فيه.

{بل لبثت مائة عام}؛ {بل}: هذه للإضراب الإبطالي؛ يعني لم تلبث يومًا، أو بعض يوم؛ بل لبثت مائة عام.

قال السعدي: فلمَّا أراد الله به خيرًا أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب، {فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم} استقصارًا لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه وكان عهد حاله قبل موته، فقيل له {بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه}: أي لم يتغيَّر بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا.

قال ابن العثيمين: {فانظر}: أي بعينك، {إلى طعامك}: أبهمه الله عز وجل فلم يبيِّن من أي نوع هو؛ و(الطعام) كل ما له طعم من مأكول ومشروب؛ لكنه إذا قرن بالشراب صار المراد به المأكول.

{وشرابك}: لم يبيَّن نوع الشراب؛ {لم يتسنه}: أي لم يتغير.

{لم يتسنه} فيها قراءتان: {لم يتسنه} بالهاء الساكنة؛ و{لم يتسن} بحذفها عند الوصل؛ فالقراءتان تختلفان في حال الوصل؛ لا في حال الوقف؛ في حال الوقف: بالهاء الساكنة على القراءتين: {لم يتسنه}؛ وفي حال الوصل: بحذف الهاء في قراءة سبعية: {لم يتسن وانظر}.

{وانظر إلى حمارك}: أي انظر إليه بعينك؛ فنظر إلى حماره تلوح عظامه ليس فيه لحم، ولا عصب، ولا جلد.

{ولنجعلك آية للناس}: أي لنصيرك علامة للناس على قدرتنا.

قال السعدي: {ولنجعلك آية للناس} على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجًا محسوسًا مشاهَدًا بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل.

قال ابن العثيمين: {وانظر إلى العظام كيف ننشزها}؛ وفي قراءة: (ننشرها) بالراء؛ {ننشزها} بالزاي يعني: نركِّب بعضها على بعض؛ من النشز؛ وهو الارتفاع، كقوله تعالى: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا}[النساء: ١٢٨]؛ فـ{ننشزها}: يعني نعلي بعضها على بعض؛ فنظر إلى العظام يأتي العظم، ويركب على العظم الثاني في مكانه حتى صار الحمار عظامًا؛ كل عظم منها راكب على الآخر في مكانه، ثم بعد ذلك كسا الله العظام لحمًا بعد أن أنشز بعضها ببعض

بالعصب؛ أما قراءة (ننشرها) بالراء فمعناها: نحييها؛ لأن العظام قد يبست، وصارت كالرميم ليس فيها أي مادة للحياة، ثم أحييت بحيث صارت قابلة لأن يركب بعضها على بعض.

{ثم نكسوها لحمًا}: أي نسترها باللحم؛ فشاهد ذلك بعينه، فاجتمع عنده آيتان من آيات الله؛ إبقاء ما يتغير على حاله – وهو طعامه، وشرابه؛ وإحياء ما كان ميتًا – وهو حماره.

{فلمَّا تبيَّن له}: أي تبيَّن لهذا الرجل – الذي مرَّ على القرية، واستبعد أن يحييها الله بعد موتها؛ أو استبطأ أن الله سبحانه وتعالى يحييها بعد موتها، وحصل ما حصل من آيات الله عز وجل بالنسبة له، ولحماره، ولطعامه وشرابه – تبيَّن له الأمر الذي تحقَّق به قدرة الله عز وجل.

{أعلم}: بفتح الهمزة على أنه فعل مضارع؛ فالجملة خبرية؛ والقراءة الثانية (اعلم) بهمزة الوصل على أنه فعل أمر؛ وعلى هاتين القراءتين يختلف عود الضمير في {قال}؛ فعلى القراءة الأولى مرجعه: {الذي مر على قرية}؛ وعلى الثانية يرجع إلى الله.

{قال أعلم أن الله على كل شيء قدير}؛ وفي قراءة: {اعلم أن الله على كل شيء قدير}؛ والفائدة من القراءتين: كأنه أمر أن يعلَم، فعلِمَ وأقرَّ؛ و(العلم) – كما سبق – هو إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا لما هو عليه؛ وعدم الإدراك هو الجهل البسيط؛ وإدراك الشيء على غير ما هو عليه: هو الجهل المركَّب؛ وعدم الجزم: شك؛ أو ظن؛ أو وهم؛ فإن تساوى الأمران فهو شك؛ وإن ترجح أحدهما فالراجح ظن؛ والمرجوح وهم.

و(القدرة) صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ لقوله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا}[فاطر: ٤٤]: لمَّا نفى أن يعجزه شيء قال تعالى: {إنه كان عليمًا قديرًا} فلمَّا نفى العجز، ذكر القدرة والعلم مقابلها.

قال السعدي: والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرًا، وأن يجعله آيةً ودليلًا للناس لثلاثة أوجه أحدها: قوله: {أنى يحيي هذه الله بعد موتها}، ولو كان نبيًّا أو عبدًا صالحًا لم يقل ذلك.

والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقرَّ بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمِّرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدلُّ على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالَّة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنَّما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله.

والثالث: في قوله: {فلمَّا تبيَّن له}: أي تبيَّن له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بلاغة القرآن، حيث ينوّع الأدلة والبراهين على الأمور العظيمة؛ لقوله تعالى: {أو كالَّذي مرَّ على قرية}؛ فهذه الآية وما قبلها، وما بعدها كلُّها في سياق قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى.

٢- الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يهتمَّ الإنسان بأعيان أصحاب القصة؛ إذ لو كان هذا من الأمور المهمة لكان الله يبيِّن ذلك: يقول: فلان؛ ويبيِّن القرية.

٣- أنَّ العبرة بالمعاني والمقاصد دون الأشخاص.

٤- إطلاق القرية على المساكن؛ لقوله تعالى: {وهي خاوية على عروشها} مع أنه يحتمل أن يراد بهذه الآية المساكن، والساكن؛ لأن كونها خاوية على عروشها يدلُّ على أن أهلها أيضًا مفقودون، وأنهم هالكون.

٥- قصور نظر الإنسان، وأنه ينظر إلى الأمور بمعيار المشاهد المنظور لديه؛ لقول هذا الرجل: {أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها}؛ فكونك ترى أشياء متغيرة لا تستبعد أن الله عز وجل يزيل هذا التغيير؛ وكم من أشياء قدَّر الناس فيها أنها لن تزول، ثم تزول؛ كم من أناس أملوا دوام الغنى، ودوام الأمن، ودوام السرور، ثم أعقبه ضد ذلك؛ وكم من أناس كانوا على شدَّة من العيش، والخوف، والهموم، والغموم، ثم أبدلهم الله سبحانه وتعالى بضدِّ ذلك.

٦- أنَّ الإنسان إذا استبعد وقوع الشيء – ولكنه لم يشك في قدرة الله – لا يكفر بهذا.

٧- بيان قدرة الله عز وجل في إماتة هذا الرجل لمدة معيَّنة، ثم إحيائه؛ لقوله تعالى: {فأماته الله مائة عام ثم بعثه}.

٨- إثبات الكلام لله عز وجل، والقول، وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: {قال كم لبثت}؛ والأولى الأخذ بظاهر القرآن، وأن القائل هو الله عز وجل.

٩- جواز امتحان العبد في معلوماته؛ لقوله تعالى: {كم لبثت}.

١٠- الرَّد على الأشاعرة الذين قالوا: (إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن هذه الأصوات التي سمعها موسى، ومحمد – عليهما الصلاة والسلام – وغيرهما ممن كلمه الله هي أصوات خلقها الله عز وجل لتعبِّر عمَّا في نفسه)؛ وأن هذا القول مقتضاه إنكار القول من الله عز وجل.

١١- بيان حكمة الله، حيث أمات هذا الرجل، ثم بعثه ليتبيَّن له قدرة الله عز وجل.

١٢- جواز إخبار الإنسان بما يغلب على ظنِّه، وأنه إذا خالف الواقع لا يعدُّ مخطِئًا؛ لقوله تعالى: {قال لبثت يومًا أو بعض يوم} مع أنه لبث مائة عام.

١٣- أنَّ الله قد يمنُّ على عبده بأن يريه من آياته ما يزداد به يقينه؛ لقوله تعالى: {فانظر إلى طعامك ... } إلخ.

١٤- أنَّ قدرة الله فوق ما هو معتاد من طبيعة الأمور، حيث بقي هذا الطعام والشراب مائة سنة لم يتغير.

١٥- الرَّد على أهل الطبيعة الذين يقولون: إن السنن الكونية لا تتغير؛ لقوله تعالى: {لم يتسنه}: لكون هذا الطعام والشراب لم يتغير لمدة مائة سنة، والرياح تمر به، والشمس، والحَرُّ.

١٦- جواز الانتفاع بالحُمر؛ لقوله تعالى: {وانظر إلى حمارك}.

١٧- ثبوت الملكية فيها: لأن الله أضاف الحمار إلى صاحبه؛ فقال تعالى: {حمارك}؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قول النبي ﷺ: ((إن الله عز وجل إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه([1])))؛ وإثبات الملكية يقتضي حل الثمن؟

فالجواب: أنها إذا بيعت للأكل فهو حرام؛ لأنه هو المحرَّم؛ وأما إذا بيعت للانتفاع فهذا حلال؛ لأن الانتفاع بها حلال؛ إذًا فهذا لا يعارض الحديث؛ فإذا اشترى الحمار للأكل فالثمن حرام؛ وإن اشتراه للمنفعة فالمنفعة حلال، وثمنها حلال.

١٨- أنَّ الله يحدث للعبد ما يكون عبرة لغيره؛ لقوله تعالى: {ولنجعلك آية للناس}؛ ومثل ذلك قوله تعالى في عيسى بن مريم، وأمه: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين}[الأنبياء: ٩١].

١٩- أنه ينبغي التَّفكُّر فيما خلقه الله عز وجل، وأحدثه في الكون؛ لأن ذلك يزيد الإيمان، حيث إن هذا الشيء آية من آيات الله.

٢٠- أنَّه ينبغي النظر إلى الآيات على وجه الإجمال، والتفصيل؛ لقوله تعالى: {وانظر إلى حمارك}: مطلق؛ ثم قال تعالى: {وانظر إلى العظام كيف ننشزها ... } إلخ؛ فيقتضي أن نتأمل أولا في الكون من حيث العموم، ثم من حيث التفصيل؛ فإن ذلك أيضًا يزيدنا في الإيمان.

٢١- أنَّ الله عز وجل جعل اللحم على العظام كالكسوة؛ بل هو كسوة في الواقع؛ لقوله تعالى: {ثم نكسوها لحمًا}، وقال تعالى: {فكسونا العظام لحمًا}[المؤمنون: ١٤]؛ ولهذا تجد اللحم يقي العظام من الكسر والضرر؛ لأن الضرر في العظام أشدُّ من الضرر في اللحم.

٢٢- أنَّ الإنسان بالتدبُّر، والتأمُّل، والنظر يتبيَّن له من آيات الله ما لا يتبيَّن لو غفل؛ لقوله تعالى: {فلما تبيَّن له ... } إلخ.

٢٣- بيان عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {على كل شيء قدير}.

٢٤- الرَّد على القدرية؛ لقوله تعالى: {على كل شيء قدير}؛ لأن من الأشياء فعل العبد؛ والله سبحانه وتعالى قادر على فعل العبد؛ وعند القدرية المعتزلة أن الله ليس بقادر على أفعال العبد؛ لأن العبد عندهم مستقل خالق لفعله، وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق أفعاله.

---

[1]- أخرجه أحمد ١/٢٩٥، حديث رقم ٢٦٧٨، واللفظ له، وأخرجه أبو داود ص١٤٨٣، كتاب البيوع، باب ٦٤: في ثمن الخمر والميتة، حديث رقم ٣٤٨٨، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٢/٣٧٠: صحيح.

٢٥- الرَّد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: {فأماته الله ... ثم بعثه}؛ وهذه أفعال متعلِّقة بمشيئته، واختياره: متى شاء فعل، ومتى شاء لم يفعل؛ متى شاء خلق، ومتى شاء أمات؛ ومتى شاء أذلَّ، متى شاء أعزَّ.

٢٦- أنَّ كلام الله عز وجل بحروف، وأصوات مسموعة؛ لقوله تعالى: {كم لبثت}، وقوله تعالى: {بل لبثت مائة عام}؛ فإن مقول القول حروف بصوت سمعه المخاطب، وأجاب عليه بقوله: {لبثت يومًا أو بعض يوم}؛ ولكن الصوت المسموع من كلام الله عز وجل ليس كصوت المخلوقين؛ الحروف هي الحروف التي يعبر بها الناس؛ لكن الصوت: لا؛ لأن الصوت صفة الرب عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى يقول: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[الشورى: ١١].

٢٧- أنَّه يلزم من النظر في الآيات العلم واليقين؛ لقوله تعالى: {فلما تبيَّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير}.

٢٨- أنه يمكن الرَّد على الجبرية على قراءة: {اعلم}؛ لأنه لو كان الإنسان مجبورًا لكان توجَّه الخطاب إليه بالأمر والتكليف، لغوًا وعبثًا.

٢٩- ثبوت كرامات الأولياء؛ وهي كل أمر خارق للعادة يجريه الله عز وجل على يد أحد أوليائه تكريمًا له، وشهادة بصدق الشريعة التي كان عليها؛ ولهذا قيل: كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ و(الوليّ) كل مؤمن تقي؛ لقوله تعالى: {ألا إنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون}[يونس: ٦٢، ٦٣].

٣٠- وجوب العلم بأن الله على كل شيء قدير.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قال ابن العثيمين: في {إبراهيم} قراءتان؛ {إبراهيم} بكسر الهاء، وياء بعدها؛ و{إبراهام} بفتح الهاء، وألف بعدها؛ وكذلك في {أرني} قراءتان: {أرني} بكسر الراء؛ و{أرني} بسكونها؛ وفي {فصرهن} قراءتان أيضًا: {فصرهن} بضم الصاد؛ و{فصرهن} بكسرها؛ وفي {جزءا} قراءتان أيضًا: {جزءا} بسكون الزاي؛ و{جزءا} بضمها؛ وكل هذه القراءات سبعية.

{وإذ قال إبراهيم رب أرني} {إذ}: مفعول فعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ و{أرني}: الرؤية هنا بصرية، فتنصب مفعولًا واحد؛ لكن لما دخلت عليها همزة التعدية صارت تنصب مفعولين؛ الأول: الياء؛ والثاني: جملة: {كيف تحيي الموتى}.

{أو لم تؤمن} فيها إعرابان مشهوران؛ أحدهما: أن الهمزة دخلت على مقدر عطف عليها قوله تعالى: {ولم تؤمن}؛ وهذا المقدَّر يكون بحسب السياق؛ وعلى هذا فالهمزة في محلها؛ الثاني: أن الواو حرف عطف على ما سبق؛ والهمزة للاستفهام؛ وأصل محلها بعد الواو؛ والتقدير: (وألم تؤمن)؛ والثاني أسهل وأسلم؛ لأن الإنسان ربما يقدر فعلًا ليس هو المراد؛ وأسهل؛ لئلَّا يُتعِب الإنسان نفسه في طلب فعل يكون مناسبًا.

قوله تعالى: {وإذ قال إبراهيم}؛ إبراهيم ﷺ هو الأب الثالث للأنبياء؛ فالأول: آدم؛ والثاني: نوح؛ والثالث: إبراهيم، كما قال الله سبحانه وتعالى: {ملَّة أبيكم إبراهيم}[الحج: ٧٨]، وقال تعالى في نوح: {وجعلنا ذريته هم الباقين}[الصافات: ٧٧]؛ وآدم معلوم أنه أبو البشر: قال الله تعالى: {يا بني آدم}[الأعراف: ٢٦].

قوله تعالى: {رب}: منادى منصوب بفتحة مقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتَّخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ وحرف النداء محذوف للعلم به.

قال أبو زهرة: هذه مجاوبة بين رب العالمين وخليله إبراهيم. لقد كان إبراهيم قانتًا لله حنيفًا وكان غوَّاصًا طالبًا للمعرفة يتأمَّل في كل شيء ويتقصَّى بفكره باحثًا وراء الحقيقة طالبًا لها، قال لربه الذي اتَّخذه له خليلًا: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى} نادى ربه ذلك النِّداء، فيشير بأنه مقرٌّ بأنه خالقه ومربيه والقائم على أمره، وطلبه هو طلب الكيفية، فهو مقرٌّ بالأصل مذعن له خاضعٌ كل الخضوع لحكمه مؤمن بالبعث والنشور، وأن الله سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وأنه القاهر فوق عباده، ولكنه يريد أن يعلم بالحس كما علم بالقول الحق وبالعيان كما علم بالبرهان.

قال القرطبي: اختلف الناس في هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا؟ فقال الجمهور: لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكًّا في إحياء الله الموتى قط وإنَّما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا قال عليه السلام: ((ليس الخبر كالمعاينة([١]))، رواه ابن عباس ولم يروه غيره، قاله أبو عمر. قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والربيع: سأل ليزداد يقينًا إلى يقينه.

١- أخرجه أحمد ٢٥١/١، حديث رقم ١٨٤٣، وفيه هشيم بن بشير، ثقة ثبت كثير التدليس والإرسال الخفي، وقد عنعن في هذا الحديث، وقال الترمذي: (سمعت إسحاق بن منصور يقول: قال أحمد بن حنبل: لم يسمع هشيم حديث أبي بشر: ليس الخبر كالمعاينة، وأخرج ابن حبان له شاهدا ٣٣/٨، باب، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن هذا الخبر تفرد به هشيم، حديث رقم ٦١٨١، وأخرج الحاكم الشاهد له، ٣٨٠/٢، كتاب التفسير، سورة الأنبياء، وقال صحيح على شرط الشيخين، واقره الذهبي وقال: سمعه من أبي بشر ثقتان.

وإنَّما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقَّى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله: {أَرِنِي كَيْفَ} طلب مشاهدة الكيفية.

قال ابن العثيمين: {أرني كيف تحيي الموتى}: أي اجعلني أنظر وأرى بعيني؛ والسؤال هنا عن الكيفية لا عن الإمكان؛ لأن إبراهيم لم يشك في القدرة؛ ولا عن معنى الإحياء؛ لأن معنى الإحياء عنده معلوم؛ لكن أراد أن يعلم الكيفية: كيف يحيي الله الموتى بعد أن أماتهم وصاروا ترابًا وعظامًا.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج١ص٤٦٩: فَطَلَبَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَكُونَ الْيَقِينُ عِيَانًا، وَالْمَعْلُومُ مُشَاهَدًا، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالشَّكِّ فِي قَوْلِهِ: ((نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ([1]))) حَيْثُ قَالَ {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}، وَهُوَ ﷺ لَمْ يَشُكَّ وَلَا إِبْرَاهِيمُ، حَاشَاهُمَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ. هَذَا أَحَدُ الْأَقْوَالِ فِي الْحَدِيثِ.

وَفِيهِ قَوْلٌ ثَانٍ: أَنَّهُ عَلَى وَجْهِ النَّفْيِ، أَيْ لَمْ يَشُكَّ إِبْرَاهِيمُ حَيْثُ قَالَ مَا قَالَ، وَلَمْ نَشُكَّ نَحْنُ، وَهَذَا الْقَوْلُ صَحِيحٌ أَيْضًا، أَيْ: لَوْ كَانَ مَا طَلَبَهُ لِلشَّكِّ لَكُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُ، لَكِنْ لَمْ يَطْلُبْ مَا طَلَبَ شَكًّا، وَإِنَّمَا طَلَبَ مَا طَلَبَهُ طُمَأْنِينَةً.

فَالْمَرَاتِبُ ثَلَاثٌ، عِلْمُ يَقِينٍ يَحْصُلُ عَنِ الْخَبَرِ، ثُمَّ تَتَجَلَّى حَقِيقَةُ الْمُخْبَرِ عَنْهُ لِلْقَلْبِ أَوِ الْبَصَرِ، حَتَّى يَصِيرَ الْعِلْمُ بِهِ عَيْنَ يَقِينٍ، ثُمَّ يُبَاشِرُهُ وَيُلَابِسُهُ فَيَصِيرُ حَقَّ يَقِينٍ، فَعِلْمُنَا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ الْآنَ عِلْمُ يَقِينٍ، فَإِذَا أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ فِي الْمَوْقِفِ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ، وَشَاهَدُوهُمَا عِيَانًا، كَانَ ذَلِكَ عَيْنَ يَقِينٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ - ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٦ - ٧]، فَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، فَذَلِكَ حَقُّ الْيَقِينِ، وَسَنَزِيدُ ذَلِكَ إِيضَاحًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ.

قال ابن العثيمين: وقوله تعالى: {الموتى}: هل مراد إبراهيم ﷺ أي موتى يكونون؛ أو أن المراد به الموتى من بني آدم، فضرب الله له مثلًا بالطيور الأربعة؟ إذا نظرنا إلى لفظ {الموتى} وجدناه عامًّا؛ يعني أي شيء يحييه الله أمامه فقد أراه؛ فيترجَّح الاحتمال الأول.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في (تخريج المشكاة) (٥٧٣٨)، و(تخريج الطحاوية) (٣١٥). وقال رحمه الله في تحقيق الإيمان لأبن تيمية: (سنده جيد بلفظ ليس الخبر كالمعاينة). وانظر حديث رقم : ٥٣٧٤ في صحيح الجامع.

١- أخرجه البخاري ص٢٧٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ١١، قوله تعالى: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم ...) ... ، حديث رقم ٣٣٧٢، وأخرجه مسلم ص٧٠٣، كتاب الإيمان، باب ٦٩: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث رقم ٣٨٢ [٢٣٨] ١٥١.

- (قلت): والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي})))، وَقَدْ تَرَكَ الْبُخَارِيُّ ذِكْرَ قَوْلِهِ: ((بِالشَّكِّ)) لَمَّا خَافَ فِيهَا مِنْ تَوَهُّمِ بَعْضِ النَّاسِ.

{قال أو لم تؤمن}: هذا الاستفهام للتقرير؛ وليس للإنكار، ولا للنفي؛ فهو كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك}[الشرح: ١]؛ يعني: قد شرحنا لك؛ فمعنى {أو لم تؤمن}: ألست قد آمنت؛ لتقرير إيمان إبراهيم ﷺ.

وقد فسَّر كثير من الناس الإيمان في اللغة بـ(التصديق)؛ وهذا التفسير ليس بدقيق؛ لكنه تفسير بما يقارب؛ كتفسيرهم (الريب) بالشك؛ وتفسيرهم (الرهن) بالحبس؛ وتفسير قوله تعالى: {أن تبسل نفس}[الأنعام: ٧٠] أي تحبس؛ وما أشبه ذلك ممَّا يفسرونه بالمعنى المقارب الذي يقرب للفهم؛ وإلَّا فإن بين الإيمان والتصديق فرقًا؛ وقد سبق بيان ذلك.

{بلى}: حرف يجاب بها النفي المَقرون بالاستفهام لإثباته؛ فإذا قلت: ألست حاضرًا معنا في الدرس؟ فالجواب: (بلى) – إن كنت حاضرًا.

{ولكن ليطمئنَّ قلبي}: أي ليزداد طمأنينة؛ وإلَّا فقد كان مطمئنًا؛ و(الطمأنينة) هي الاستقرار، كما قال النبي ﷺ: ((اركع حتى تطمئن راكعًا ... اسجد حتى تطمئن ساجدًا[١]))، أي تستقر؛ فأراه الله سبحانه وتعالى الآية: قال تعالى: {فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا}.

{فخذ أربعة من الطير}: لم يعيِّنها الله عز وجل؛ ولهذا تعتبر محاولة تعيينهن لا فائدة منها؛ لأنه لا يهمنا أكانت هذه الطيور إوَزًا، أم حمامًا، أم غربانًا، أم أي نوع من أنواع الطيور؛ لأن الله لم يبيِّنها لنا؛ ولو كان في تبيينها فائدة لبيَّنها الله عز وجل.

{فصرهن إليك}: بكسر الصاد من صار يصير؛ وبضمها من صار يصور؛ أي أمِلهن إليك؛ و(الصور): الميل؛ ومنه الرجل الأصور – التي مالت عينه إلى جانب من جفنه؛ ويسمى (الأحول)؛ فمعنى {صرهن}: أي أملهن واضممهن إليك.

قال السعدي: أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. {ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا}: أي مزِّقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء

قال ابن العثيمين: والله أعلم بالحكمة من تعيين العدد والجبال.

{ثم ادعهن}: ففعل عليه الصلاة والسلام فجمع الأربعة، وذبحهن، وقطعهن أجزاء، وجعل على كل جبل جزءًا؛ ثم دعاهن فأقبلن.

{يأتينك سعيًا}: قيل: إنها جواب لفعل الأمر في قوله تعالى: {ادعهن}؛ وقيل: إنها جواب لفعل شرط مقدَّر؛ والتقدير: (إن تدعهن يأتينك)؛ فعلى القول الأول يكون جوابًا لقوله: {ادعهن}؛ لأن من لازم أمر الله إيَّاه بدعائهن أن يدعوهن؛ فكأن الشرط معلوم من الأمر؛ وعلى القول الثاني لا إشكال إذا جعلت {يأتينك} جوابًا لفعل شرط محذوف – يعني: إن تدعهن يأتينك؛ و{يأتينك} مبنيَّة على السكون في محل جزم؛ وإنَّما بنيت على السكون لاتصالها بنون النسوة.

١- أخرجه البخاري ص٦٠، كتاب الآداب، باب ٩٥: وجوب القراءة للإمام والمأموم ... ، حديث رقم ٧٥٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٤٠، كتاب الصلاة، باب ١١: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ... ، حديث رقم ٨٨٥ [٤٥] ٣٩٧.

وقوله تعالى: {سعيًا} مصدر؛ لكن هل هو مصدر عامله محذوف، والتقدير: يسعين سعيًا؛ أو هو مصدر في موضع الحال، فيكون بمعنى: ساعيات؟ يحتمل هذا، وهذا؛ والثاني أولى؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ والقاعدة أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام محذوفًا منه، أو غير محذوف فهو غير محذوف منه.

وقوله تعالى: {سعيًا}؛ هل نفسر السعي في كل موضع بحسبه؛ أو نقول: سعيًا على الأرجل؟ في هذا قولان للمفسرين؛ أحدهما أن السعي هنا بمعنى الطيران؛ فالمعنى: يأتينك طيرانًا لا نقص فيهن؛ لأن سعي كل شيء بحسبه؛ وسعي الطيور هو الطيران؛ الثاني: أن المراد بالسعي المشي بسرعة على الأرجل؛ ولكن الأولى – فيما يظهر لنا – هو الطيران؛ لأن كونهن يمشين على الأرجل لا يدلُّ على كمالهن؛ إذ إن الطائر إذا كسر جناحه صار يمشي؛ لكن كونهن يطرن أبلغ؛ لأنه كأنهن أتين على أكمل الحياة والوجوه.

قال السعدي: أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد، وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إيَّاه في قوله: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين}.

قال الطبري: فإن قال قائل: أمِر إبراهيم أن يدعوهنَّ وهنَّ ممزَّقات أجزاء على رؤوس الجبال أمواتًا، أم بعد ما أحيِين؟ فإن كان أمر أن يدعوهنَّ وهنَّ ممزقات لا أرواح فيهن، فما وجه أمر من لا حياة فيه بالإقبال؟ وإن كان أمر بدعائهن بعد ما أحيين، فما كانت حاجة إبراهيم إلى دعائهن، وقد أبصرهن يُنْشرن على رؤوس الجبال؟ قيل: إن أمر الله تعالى ذكره إبراهيم ﷺ بدعائهن وهن أجزاء متفرِّقات، إنما هو أمر تكوين – كقول الله للذين مسخهم قِرَدة بعد ما كانوا إنسًا: {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[البقرة: ٦٥] – لا أمرَ عبادةٍ، فيكون محالًا إلَّا بعد وجُود المأمور المتعبِّد.

قال ابن العثيمين: {واعلم أن الله عزيز حكيم}: الخطاب لإبراهيم ﷺ؛ فإذا علمت ذلك علمت كمال قدرته عز وجل لكمال عزته، وكمال حكمته؛ لأنه حكيم؛ والله سبحانه وتعالى يقرن كثيرًا بين هذين الاسمين: {العزيز} و{الحكيم}([1])؛ لأن العزيز من المخلوقين قد تفوته الحكمة لعزته: يرى نفسه عزيزًا غالبًا، فيتهوَّر في تصرُّفاته، ويتصرَّف بدون حكمة؛ والحكيم من المخلوقين قد لا يكون عزيزًا؛ فإذا اقترنت حكمته بعزة صار له سلطان وقوة، ولم تفته الأمور؛ فجمع الله لنفسه بين العزة والحكمة؛ وسبق الكلام عليهما مفصلًا.

قال السعدي: أي: ذو قوة عظيمة سخَّر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئًا عبثًا.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله { العزيز}، وإسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

قال أبو زهرة: وقد ذيَّل سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: {وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} وكان ذلك التذييل الكريم للدلالة على ثلاثة أمور:

أولها: إن العزَّة لله وحده فلا يركن إليه مؤمن إلَّا عزَّ، ولا يبعد عنه أحد إلَّا ذلَّ، فمن اعتزَّ بغير الله فهو الذليل، ومن آوى إلى فضل الله فقد آوى إلى ركن شديد. وأن مناسبة هذا للآيات السابقة كلِّها واضحة، لأن إبراهيم كان يغالب طاغيةً جبَّارًا عاتيًا قد استهان بالناس جميعًا كما دلَّت عليه الآية الأولى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}.

فالله العلي القدير يدعو خليله أن يتقدَّم لدعوة ذلك الجبَّار معتزًّا بالله فلا عزَّة إلَّا من الله، والله غالب على النمرود ومن هو أكبر من النمرود.

وثانيها: الإشعار بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، وعزَّته هي عزَّة القادر الغالب، لَا عزَّة الضعيف العاجز.

وثالثها: إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بحكمته وبعث الرسل يدعون إلى عبادته وحده وهو الذي قدَّر الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا وكل ذلك من مقتضى الحكمة الإلهية التي لَا تصل العقول إلى العلم بها؛ لأنها لَا تعلم من الكون إلَّا مظاهره وأشكاله وألوانه، ولا تعلم شيئًا عن كيفيته وأسراره، إن ذلك كله عند علَّام الغيوب، وفوق كل ذي علم عليم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن التوسل إلى الله بربوبيته من آداب الدعاء التي يتوسل بها الرسل؛ لقوله تعالى: {رب}؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية؛ إذ إنه فعل؛ وكل ما يتعلّق بأفعال الرب فهو من مقتضيات الربوبية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه إلى السماء: ((يقول: يا رب! يا رب!([1]))؛ ولو تأمّلت أكثر أدعية القرآن لوجدتها مصدِّرة بـ(الرب)؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية.

٢- أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب ما يزداد به يقينه، لقوله تعالى: {أرني كيف تحيي الموتى}؛ لأنه إذا رأى بعينه ازداد يقينه.

٣- أن عين اليقين أقوى من خبر اليقين؛ لقوله تعالى: {أرني كيف تحيي الموتى}؛ لأن إبراهيم عليه السلام عنده خبر اليقين بأن الله قادر؛ لكن يريد عين اليقين؛ ولهذا جاء في الحديث: ((ليس الخبر كالمعاينة))؛ وقد ذكر العلماء أن اليقين

١- أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم ٢٣٤٦ [٦٥] ١٠١٥.

ثلاث درجات: علم؛ وعين؛ وحق؛ كلها موجودة في القرآن؛ مثال (علم اليقين) قوله تعالى: {كلا لو تعلمون علم اليقين}[التكاثر: ٥]؛ ومثال (عين اليقين) قوله تعالى: {ثم لترونها عين اليقين}[التكاثر: ٧]؛ ومثال (حق اليقين) قوله تعالى: {إن هذا لهو حق اليقين}[الواقعة: ٥٦]؛ نضرب مثالًا يوضح الأمر: قلت: إن معي تفاحة حلوة – وأنا عندك ثقة؛ فهذا علم اليقين: فإنك علمت الآن أن معي تفاحة حلوة؛ فأخرجتها من جيبي، وقلت: هذه التفاحة؛ فهذا عين اليقين؛ ثم أعطيتك إيَّاها وأكلتها وإذا هي حلوة؛ هذا حق اليقين.

٤– إثبات أفعال الله الاختيارية؛ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى له أفعال تتعلق بمشيئته؛ لقوله تعالى: {تحيي الموتى}.

٥– تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإحياء الموتى؛ وقد قرر الله ذلك في آيات كثيرة.

٦– إثبات الكلام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {قال أو لم تؤمن}، وقوله تعالى: {قال فخذ أربعة}؛ والله سبحانه وتعالى؛ يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء؛ بما شاء: من القول؛ متى شاء: في الزمن؛ كيف شاء: في الكيفية.

٧– أن كلام الله سبحانه وتعالى بحروف، وأصوات مسموعة؛ لوقوع التحاور بين الله عز وجل، وإبراهيم ﷺ.

٨– إثبات أن إبراهيم مؤمن بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: {قال أو لم تؤمن قال بلى}؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا، وبين ما ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم))؛ فأثبت شكا فينا، وفي إبراهيم، وأننا أحق بالشك من إبراهيم؟ فالجواب أن الحديث لا يراد به هذا المعنى؛ لأن هذا معنى يخالف الواقع؛ فليس عند الرسول ﷺ شك في إحياء الموتى؛ وإنما المعنى أن إبراهيم لم يشك؛ فلو قدِّر أنه يشك فنحن أحق بالشك منه؛ وما دام الشك منتفيًّا في حقِّنا فهو في حقِّه أشدُّ انتفاءً؛ فإذا علم أننا الآن نؤمن بأنه تعالى هو القادر، فإبراهيم أولى منَّا بالإيمان بذلك؛ هذا هو معنى الحديث، ولا يحتمل غيره؛ فإن قلت: لا زال هنا إشكال؛ وهو: هل إبراهيم أكمل إيمانًا من محمد ﷺ؟ فالجواب: لا؛ ولكن قاله ﷺ على سبيل التواضع؛ ولهذا قرن بينه وبين قوله ﷺ: ((ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي))؛ فيوسف بقي في السجن بضع سنين، وجاءه رسول الملك يدعوه؛ فقال له: لا أخرج، {ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن}[يوسف: ٥٠]؛ مع أن غيره لو حبس سبع سنين، وقالوا له: (اخرج)، فإنه يخرج؛ هذا مقتضى الطبيعة؛ لكن يوسف – عليه الصلاة والسلام – كان حليمًا حازمًا؛ قال: لا أخرج حتى تظهر براءتي كاملة؛ فتبين من هذا أنه لا يلزم من قول الرسول ﷺ هذا أن يكون إبراهيم أقوى إيمانًا.

٩– إثبات زيادة الإيمان في القلب؛ لقوله تعالى: {بلى ولكن ليطمئن قلبي}؛ ففيه ردٌّ على من قال: إن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص؛ ولا ريب أن هذا القول ضعيف؛ لأن الواقع يكذبه؛ والنصوص تكذبه أيضًا: ففي القرآن قال الله تعالى: {ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم}[الفتح: ٤]، وقال تعالى: {فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون}[التوبة: ١٢٤]؛

وفي السنة: ((ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن[1]))؛ فالإيمان يزيد كمية وكيفية؛ فمثال زيادة الكمية: أن الذي يسبح عشرًا أزيد إيمانًا من الذي يسبح خمسًا؛ والذي يصلِّي عشر ركعات أزيد إيمانًا من الذي يصلِّي ستًّا؛ وأمَّا زيادة الكيفية فمثالها: رجل صلَّى ركعتين بطمأنينة وخشوع وتأمُّل، فإيمانه أزيد ممَّن صلَّاهما بسرعة؛ كذلك يزداد الإيمان بحسب إقرار القلب: كلَّما كثرت الآيات لدى الإنسان فلا شك أن إيمانه يزداد قوةً ورسوخًا؛ اقرأ قوله تعالى: {ومن الناس من يعبد الله على حرف}[الحج: ١١]: أي على طرف، {فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة}[الحج: ١١]: هذا إيمانه ضعيف مهزوز: إن لم تأته فتنة فهو مستقر؛ وإن أتته فتنة – شبهة، أو شهوة – انقلب على وجهه؛ فمثلًا نحن الآن في المملكة العربية السعودية ليس عندنا – ولله الحمد – أحد يعارضنا في العقيدة؛ فليس عندنا معتزلة، ولا جهمية، ولا جبرية ... ، فنحن ثابتون على الفطرة؛ ولكن لو يبتلى الإنسان، فيأتيه واحد من عفاريت الإنس جيد في المجادلة والمحاجَّة من المعتزلة لأوشك أن يؤثر عليه وينقله، إذا لم يكن لديه رسوخ في العلم والإيمان؛ كذلك لو أن إنسانًا عنده إيمان لكن تعرَّضت له امرأة ذات منصب وجمال وأغرَته حتى وقع في الفاحشة؛ وإنسان آخر تعرَّضت له هذه المرأة فقال: (إني أخاف الله) تجد الفرق بينهما؛ فالمهم أن القول الراجح الذي لا شك فيه، والذي تدلُّ عليه الأدلة السمعية والواقعية أن الإيمان يزيد وينقص.

١٠– جواز الاقتصار في الجواب على الحرف الدَّال عليه؛ لقوله تعالى: {بلى}؛ وعليه فلو قيل للرجل: ألم تطلِّق زوجتك؟ فقال: (بلى): طلَّقت؛ ولو قيل للرجل عند عقد النكاح: أقبِلت النكاح، وقال: (نعم) انعقد النكاح؛ لأن حرف الجواب يغني عن ذكر الجملة.

١١– امتنان الله على العبد بما يزداد به إيمانه، لقوله تعالى: {فخذ أربعة من الطير ... } إلى قوله تعالى: {يأتينك سعيًا}.

١٢– إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: {العزيز} و{الحكيم}؛ وإثبات ما تضمَّناه من الصفة؛ وهي العزة، والحكمة؛ لأن كل اسم من أسماء الله فهو متضمِّن لصفة ولا عكس؛ يعني: ليس كل صفة يؤخذ منها اسم؛ لكن كل اسم يؤخذ منه صفة؛ لأن أسماء الله عز وجل أعلام وأوصاف؛ فكلُّ اسم من أسمائه متضمِّن للصفة التي دلَّ عليها اشتقاقه، أو لوازمها.

١– (قلت): البخاري (٣٠٤).

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

قال أبو زهرة: المؤمن الحق يشعر أن الحق يتقاضاه دائمًا الجهاد لأجله، والسعي في سبيل رفعته؛ لأنه منذ أن أخرج إبليس وآدم وحواء من جنة الله، والعداوة مستحكمة بين الحق والباطل، وإبليس يغوي الأشرار، والله سبحانه يهدي المؤمنين إلى الحق، ويوفِّقهم لنصرته. وإن الجهاد في سبيل الحق له ميادين ثلاثة:

أولها: الإقناع بالحجة والبرهان، كما قال سبحانه وتعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن....}.

وإن ذلك الجدال مع أهل الشر الذين مردت نفوسهم على النِّفاق والمغالبة بالباطل ليس أمرًا سهلًا يسيرًا، بل هو أمرُّ الأمور؛ لأن التقاء العقل الذي أناره نور الحق بالعقل الذي طمس الله على بصيرته ليس من الأمور التي يستطيعها كل العقلاء.

والميدان الثاني من ميادين الجهاد: الجهاد المسلَّح، بمنع اعتداء الباطل، وخضد شوكته وفَلّ حدَّته، وحمله على الجادة، ومنع أهله من أن يفتنوا الناس في دينهم؛ وإن ذلك أظهر ميادين الجهاد، وهو باب من أبواب الجنة.

والميدان الثالث من ميادين الجهاد: البر وإعطاء المال، وبذله مع طيبة النفس ببذله وعطائه؛ وإذا كان المال قد سمِّي النَّفيس؛ فلأنه قطعة من نفس من يبذله، وإن بذل المال هو الذي يقوي وحدة المؤمنين؛ لأنه من التعاون بين الفقير والغني، والتعاون جماع كل القوى، وفوق ذلك فإن إمداد الجند بالمال إنما هو إمداد بذخيرة القتال، وعدَّة النِّزال، والمال في الحروب من عصبها، كما هو عصب كل إصلاح في الأمة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى قصص القتال بين الحق والباطل، وكيف ينتصر الحق مع الإيمان به وقلَّة العدد والعُدد، وينهزم الباطل مع كثرة العدد، وذكر عمل المرسلين، وتبليغهم رسالات ربهم؛ وذكر من ذلك مجادلة إبراهيم خليله لطاغية من طغاة الدنيا. وفى هذه الآية الكريمة يذكر سبحانه ميدان الجهاد الثالث، وهو ميدان الصدقة غير الممنونة ولا الممنوعة.

قال السعدي: هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله: {من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة} وهنا قال: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله}: أي في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله.

قال ابن العثيمين: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة}؛ يطلق ال{مثل} على الشبه؛ ويطلق على الصفة؛ فإن ذكر مماثل، فالمراد به الشبه؛ وإلّا فالمراد به الصفة؛ ففي قوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ... }[محمد: ١٥] المراد بالمثل الصفة؛ لأنه لم يذكر المماثل؛ أما إذا قيل: (مَثَل هذا كمَثَل هذا) فهذا يعني الشبه، كقوله تعالى: {مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا ... }[البقرة: ١٧]، وكما في هذه الآية: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة}: فهذا المراد به الشبه؛ يعني شبه هؤلاء كشبه هذا الشيء؛ والذي يظهر من الآية أنه لا يوجد فيها مطابقة بين الممثَّل، والممثَّل به؛ لأن (الممثَّل): هو العامل؛ و(الممثَّل به): هو العمل؛ فال{حبة} ليست بإزاء المنفِق؛ لكنها بإزاء المنفَق؛ والذي يكون بإزاء المنفِق زارع الحبة؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن الآية فيها تقدير: إمَّا في المبتدأ؛ وإمَّا في الخبر: فإمَّا أن يقدَّر: (مثل عمل الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة)؛ أو يقدَّر: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زارِع حبة أنبتت سبع سنابل)؛ والحكمة من هذا الطي أن يكون المثل صالحًا للتمثيل بالعامل، والتمثيل بالعمل؛ وهذا من بلاغة القرآن؛ و(الإنفاق) معناه البذل؛ و{أموال}: جمع مال؛ وهو كل ما يتموَّله الإنسان من أعيان، أو منافع؛ الأعيان كالدراهم، والدنانير، والسيارات، والدور، وما أشبه ذلك؛ والمنافع كمنافع العين المستأجرة؛ فإن المستأجر مالك للمنفعة.

وقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ {سبيل}: بمعنى طريق؛ وسبيل الله سبحانه وتعالى هو شرعه؛ لأنه يهدي إليه، ويوصل إليه؛ قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتّبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله}[الأنعام: ١٥٣]؛ وأضيف إلى الله لسببين؛ السبب الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده وشرعه لهم؛ والسبب الثاني: أنه موصل إليه؛ ويضاف {السبيل} أحيانًا إلى سالك السبيل؛ فيقال: سبيل المؤمنين، كما قال الله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتَّبع غير سبيل المؤمنين}[النساء: ١١٥]؛ ولا تناقض بينهما؛ لأنه يضاف إلى المؤمنين باعتبار أنهم هم الذين سلكوه؛ وإلى الله باعتبار أنه الذي شرعه، وأنه موصل إليه.

{كمثل حبَّة أنبتت سبع سنابل}: حبَّة بذرها إنسان، فأنبتت سبع سنابل {في كل سنبلة مائة حبة}؛ فتكون الجميع سبعمائة؛ فالحسنة إذًا في الإنفاق في سبيل الله تكون بسبعمائة؛ وهذا ليس حدًّا.

قال ابن كثير: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، وَأَنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، فَقَالَ: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فِي طَاعَةِ اللَّهِ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: يَعْنِي بِهِ: الْإِنْفَاقَ فِي الْجِهَادِ، مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ وَإِعْدَادِ السِّلَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ بِشْرٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْجِهَادُ وَالْحَجُّ، يُضْعِفُ الدِّرْهَمَ فِيهِمَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ}. وَهَذَا الْمَثَلُ أَبْلَغُ فِي النُّفُوسِ، مِنْ ذِكْرِ عَدَدِ السَّبْعِمِائَةِ، فَإِنَّ هَذَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى

أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَالِحَةَ يُنَمِّيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَصْحَابِهَا، كَمَا يُنَمِّي الزَّرْعَ لِمَنْ بَذَرَهُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِتَضْعِيفِ الْحَسَنَةِ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ)). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْران، عَنِ الْأَعْمَشِ، بِهِ. وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ: ((لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ([1]))).

قال السعدي: وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مذعنة للإنفاق سامحة بها مؤمِّلة لهذه المضاعفة الجزيلة والمِنَّة الجليلة.

قال ابن العثيمين: {والله يضاعف لمن يشاء}: أي يزيد ثوابًا لمن يشاء حسب ما تقتضيه حكمته.

قال السعدي: أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحلِّها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون {والله يضاعف} أكثر من هذه المضاعفة {لمن يشاء} فيعطيهم أجرهم بغير حساب.

قال ابن العثيمين: {والله واسع}: أي ذو سعة في جميع صفاته؛ فهو واسع العلم، والقدرة، والرحمة، والمغفرة، وغير ذلك من صفاته؛ فإنها صفات واسعة عظيمة عُليا؛ و{عليم}: أي ذو علم – وهو واسع فيه – وعلمه شامل لكل شيء جملةً وتفصيلًا؛ حاضرًا ومستقبلًا وماضيًا.

قال السعدي: {والله واسع([2])}الفضل واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهَّم المنفِق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو {عليم} بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

قال أبو زهرة: وقد ذيَّل سبحانه الآية بهذين الوصفين للذات العليَّة، لكيلا يقع في نفس قارئ وهم بالاستكثار أو الاستبعاد، فإنه لا بعيد على قدرته سبحانه، ولا كثير أمام إرادته، وإن كل شيء عند الله بمقدار، وهو يدبِّر كل أمر بعلمه وحكمته، وهو العزيز الحكيم، وهو بكل شيء عليم.

١- صحيح مسلم برقم (١٨٩٢)، وسنن النسائي (٦/٤٩).

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله { الواسع} مفصلًا عند تفسير الآية (١١٥) من سورة البقرة، وإسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ضرب الأمثال؛ وهو تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لأن ذلك أقرب إلى الفهم.

٢- أن القرآن على غاية ما يكون من البلاغة والفصاحة، لأن الفصاحة هي الإفصاح بالمعنى، وبيانه؛ وضرب الأمثال من أشدُّ ما يكون إفصاحًا وبيانًا: قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلَّا العالمون}[العنكبوت: ٤٣].

٣- فضيلة الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه ينمو للمنفِق حتى تكون الحبة سبعمائة حبة.

٤- الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله} بأن يقصدوا بذلك وجه الله عز وجل.

٥- الإشارة إلى موافقة الشرع؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ لأن {في} للظرفية؛ والسبيل بمعنى الطريق؛ وطريق الله شرعه؛ والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله؛ والإنفاق الذي يكون موافقًا للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا}[الفرقان: ٦٧].

ومعنى إنفاقهم في شرع الله أن يكون ذلك إخلاصًا لله، واتِّباعًا لشرعه؛ فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله؛ مثل (المرائي): رجل أنفق في الجهاد، أو أنفق في الصدقة على المساكين؛ لكنه أنفق ليقال: إن فلانًا جواد؛ أو أنه كريم؛ هذا ليس في سبيل الله، لأنه مُراء؛ لم يقصد وجه الله عز وجل؛ إذا لم يرد السبيل الذي يوصل إلى الله؛ ولا يهمه أن يقبل الله منه، أو لا يقبل؛ المهم عنده أنه يقال عند الناس: إنه رجل كريم أو جواد.

وأما أن يكون على حسب شريعة الله: فإن أنفق في وجه لا يرضى به الله فليس في سبيل الله – وإن أخلص لله – كرجل ينفق على البدع يريد بذلك وجه الله – وهذا كثير: كبناء الربط للصوفية المنحرفة، وبناء البيوت للأعياد الميلادية، وبناء القصور للمآتم، وطبع الكتب المشتملة على بدع؛ هذا قد يريد الإنسان بذلك وجه الله لكنَّه خلاف شريعة الله؛ فلا يكون في سبيل الله.

٦- إثبات الملكية للإنسان؛ لقوله تعالى: {أموالهم}؛ فإن الإضافة هنا تفيد الملكية.

٧- وجه الشبه في قوله تعالى: {كمثل حبة أنبتت سبع سنابل}؛ فإن هذه الحبة أنبتت سبع سنابل؛ وشبهها الله بذلك؛ لأن السنابل غذاء للجسم والبدن؛ كذلك الإنفاق في سبيل الله غذاء للقلب والروح.

٨- أن ثواب الله وفضله أكثر من عمل العامل؛ لأنه لو عومل العامل بالعدل لكانت الحسنة بمثلها؛ لكن الله يعامله بالفضل، والزيادة؛ فتكون الحبة الواحدة سبعمائة حبة؛ بل أزيد؛ لقوله تعالى: {والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم}.

٩- إثبات الصفات الفعلية – التي تتعلَّق بمشيئة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يضاعف}؛ و(المضاعفة) فعل.

١٠- إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: {لمن يشاء}؛ ولكن هل هذه المشيئة مشيئة مجرَّدة؛ أي أن الترجيح يكون فيها بدون سبب؛ أو هي مشيئة مقيَّدة بما تقتضيه المصلحة والحكمة؟ الجواب أنها مشيئة مقيَّدة بما تقتضيه المصلحة

والحكمة؛ وعليه فخُذ هذا مقياسًا؛ كل شيء علَّقه الله على المشيئة فإنه مقيَّد بالحكمة؛ ودليله قوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}[الإنسان: ٣٠].

١١- أنَّ الله له السلطان المطلق في خلقه؛ ولا أحد يعترض عليه؛ لقوله تعالى: {يضاعف لمن يشاء}؛ ولهذا لما تناظر رجل من المعتزلة، وآخر من أهل السنة قال له المعتزلي: أرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالرَّدى أحسن إليَّ أم أساء؟ - يريد أن يبيِّن أن أفعال العباد لا تدخل في إرادة الله؛ لأنه إذا دخلت في إرادة الله فإن هذا الذي قضى عليه بالشقاء ومَنْعَ الهدى يكون إساءة من الله إليه؛ فقال له السُّنِّيُ: إن مَنعك ما هو لك فقد أساء؛ وإن منعك فضله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ فغُلب المعتزلي؛ لأنه ليس لك حق على الله واجب؛ والله سبحانه وتعالى يؤتي فضله من يشاء.

١٢- إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: {الواسع}، و{العليم}؛ لقوله تعالى: {واسع عليم}؛ وإثبات ما تضمَّناه من صفة؛ وهما السعة والعلم.

١٣- الحثُّ والتَّرغيب في الإنفاق في سبيل الله؛ يؤخذ هذا من ذكر فضيلة الإنفاق في سبيل الله، فإن الله لم يذكر هذا إلا من أجل هذا الثواب؛ فلابدَّ أن يعمل له.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

قال أبو زهرة: الإنفاق في سبيل الله، سبيل النفع العام، يثمر ثمراته من الخير العميم؛ لأن العطاء المادي ينتج نتائجه من معونة في الجهاد، وسدٌّ للثغور، ومنعٌ للأذى، ودفعٌ للكرب، ولكن المنفِق لَا يستحق ثواب الإنفاق إلَّا إذا كان طيِّب النفس في عطائه لَا يُتبعه منٌّ ولا أذىً ولا رياءً؛ فالصدقة تنتج آثارها في الجماعة حتمًا، مهما تكن نيَّة صاحبها، ولكن صاحبها لَا ينال أجر المنفِق إلَّا إذا خلصت نفسه من هذه العناصر الثلاثة: المنُّ، والأذى، والرياء؛ فإن النتائج للأعمال، أمَّا الثواب فللنيَّات؛ كما قال: ((إنمَّا الأعمال بالنيَّات، وإنمَّا لكل امرئ ما نوى([1]))).

قال ابن العثيمين: {الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله}: ذكره مرة أخرى ليبني عليها ما بعدها؛ وهي قوله تعالى: {ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى}.

١- (قلت): البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

قوله تعالى: {ثمَّ لا يُتبعون ما أنفقوا مَنًّا}: أي لا يحصل منهم بعد الصَّدقة مَنٌّ بأن يظهر المنفِق مظهر المترفِّع على المنفِق عليه؛ {ولا أذًى}: أي أذى المنفَق عليه بأن يقول المنفِق: (لقد أنفقت على فلان كذا، وكذا أمام الناس)؛ فإن هذا يؤذي المنفَق عليه.

{لهم أجرهم}؛ (الأجر): ما يعطاه العامل في مقابلة عمله؛ ومنه أجرة الأجير؛ وسمَّى الله سبحانه وتعالى الثواب أجرًا؛ لأنه عز وجل تكفَّل للعامل بأن يجزيه على هذا العمل؛ فصار كأجر الأجير.

{عند ربهم}: أصل العندية تكون في المكان؛ وقد يراد بها ما يعمُّ المكان والالتزام؛ كما تقول: عندي لفلان كذا وكذا؛ أي في عهدي، وفي ذمتي له كذا وكذا – حتى وإن لم يكن ذلك عنده في مكانه – فالعندية قد يراد بها المكان؛ وقد يراد بها ما يلتزم به الإنسان في ذمَّته وعهده؛ وهنا {عند ربهم} يحتمل المعنيين؛ يحتمل أنه عند الله سبحانه وتعالى ملتزم به، ولابدَّ أن يوفيه؛ ويحتمل معنًى آخر – وكلاهما صحيح – أن الثواب هذا يكون في الجنة التي سقفها عرش الرحمن؛ وهذه عندية مكان – ولا ينافي ما سبق من عندية العهد، والالتزام بالوفاء؛ فتكون الآية شاملة للمعنيَين.

{ولا خوف عليهم}: أي مما يستقبل، {ولا هم يحزنون}: أي على ما مضى – لكمال نعيمهم – لأن المنعَم لو أصابه الحزن أو الخوف لتنغَّص نعيمه.

قال السعدي: أي الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المَنِّ بها على المنفَق عليه بالقلب أو باللِّسان، بأن يعدِّد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر لأنهم عملوا عملًا خالصًا لله سالمًا من المفسِدات.

قال أبو زهرة: وقد بيَّن سبحانه جزاء الذين ينفقون على هذا الوجه لَا يبتغون إلَّا رضاءه سبحانه، ولا يرجون ثوابًا من أحد سواه، فذكر جزاءين عظيمين:

أولهما: {لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ}: أي لهم جزاؤهم مكافأة لهم على أعمالهم، وسمَّاه سبحانه وتعالى أجرًا، وهو المعطي الوهاب، توثيقًا للعطاء، وقال سبحانه: {لهم}، ولم يقل مثلًا: (أعطيهم)، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى للإشارة إلى أنه كان لهم بنيَّاتهم، واستحقُّوه باحتسابهم، وليعلمهم كيف يكون العطاء من غير أجر؛ إنه سبحانه وتعالى هو الذي منحهم المال الذي أعطوا منه، وهو الذي وفَّقهم لأن يعطوا، وهو الذي يملكهم وما ينفقون وما يعملون، ومع ذلك يسمِّي ما يعطيهم أجرًا.

الجزاء الثاني الذي ذكره رب العالمين هو الأمن والاطمئنان؛ ولذا قال سبحانه: {وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}، وقد نفَى سبحانه وتعالى الخوف، ولم يقل لَا يخافون؛ لأن الخوف أمر نفسي، وقد يكون من غير مخوَّف، وتكون الخشية

والخوف من شأن المؤمن شعورًا بتحمُّل التَّبعة؛ ولذا نفَى سبحانه الخوف أي الأمر المخوَّف، أي لَا ينزل بهم أمر من شأنه أن يخافوه، ولم ينف الخشية النفسية في ذاتها؛ إذ الحال النفسية من قوة الإحساس؛ أمَّا الحزن وهو الهم الذي يصيب القلب فهو منفي في كل صورة ولا يصح أن يكون حالًا من حالات الإيمان.

وما الخوف المنفي والحزن؟ أهما ما يكونان في الآخرة؛ جُلَّ العلماء على ذلك، ولكن لماذا لَا يراد ما هو أعمُّ من أحوال الدنيا والآخرة؛ وإن ذلك ما نختاره؛ لأن الإنفاق في سبيل الله يدفع خطر الأعداء من خارج الأمة، ويجمع الوحدة ويقضي على أسباب الفتن الداخلية، فيكون الأمن في الداخل والخارج معًا، فالمنفقون في سبيل الله لَا خوف عليهم في الدنيا، ولا يحزنون في الدنيا أيضًا كما أنهم لَا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون.

وقبل أن ننتقل إلى الآية الثالثة من آيات الإنفاق ننبِّه إلى بحثين لفظيين: أولهما: أن الله سبحانه وتعالى كرَّر النفي فقال: {ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى} لتأكيد النفي، بألَّا يصدر عنهم أي نوع من أنواع الأذى، فلا يكون مَنٌّ، ولا شبهة منٍّ، ولا أذىً، سواء أكان أذىً عن قرب أو بعد؛ حتى لقد قال بعض الصالحين: (لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه الله، فلا تسلِّم عليه).

وثانيهما: إنه سبحانه وتعالى عطف بـ{ثُمَّ} في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى} فلماذا كان العطف بـ{ثُمَّ} دون الفاء؟ فهل مقتضى هذا أنه يسوغ المنُّ والأذى عند العطاء، ولا يسوغ بعده بفترة من الزمان؟ والجواب عن ذلك أن التعبير بـ{ثُمَّ} أفاد النفي المطلق على عدم اتِّباع الإنفاق بالمنِّ والأذى في زمن قريب أو بعيد؛ لأن المنفِق في غالب الأحوال يكون عند إنفاقه في حال حماسية نفسية تدفعه إلى الإنفاق، فما يفكر في مَنٍّ ولا أذىً وقته، وإن خطر له ذلك فقد يمنعه من الإعطاء، إنَّما يكون التفكير في المَنِّ أو الأذى بعد ذهاب فورة الخير في النفس، فإذا كان الله سبحانه قد صدَّر النفي بـ{ثم} فليحثَّ المنفِق على الاستمرار على نزعة الخير، ولا ينكص على عقبيه، فيفسد نيَّته بأذىً يؤذي به من أجرى الخير على يديه، أو من يمنُّ به على من أعطاه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله؛ لقوله تعالى: {لهم أجرهم عند ربهم}.

٢- الإشارة إلى الإخلاص لله، ومتابعة الشرع؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}.

٣- أنَّ من أتَّبع نفقته مَنًّا أو أذًى فإنَّه لا أجر له؛ لقوله تعالى: {ثم لا يتبعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذًى لهم أجرهم عند ربهم}؛ فإذا أتبع مَنًّا أو أذًى بطل أجره، كما هو صريح قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى}[البقرة: ٢٦٤].

٤- أنَّ المَنَّ والأذى يبطل الصدقة؛ وعليه فيكون لقبول الصدقة شروط سابقة، ومبطلات لاحقة؛ أما الشروط السابقة فالإخلاص لله والمتابعة؛ وأما المبطلات اللاحقة فالمنُّ والأذى.

(مسألة)

هل مجرَّد إخبار المنفِق بأنه أعطى فلانًا دون مَنٍّ منه بذلك يعتبر من الأذى؟ الجواب: نعم؛ لأن المعطى تنزل قيمته عند من علم به؛ لكن لو أراد بالخبر أن يقتدي الناس به فيعطوه فليس في هذا أذى؛ بل هو لمصلحة المعطى؛ أما إن ذكر أنه أعطى، ولم يعيِّن المعطى، فهذا ليس فيه أذى؛ ولكن يخشى عليه الإعجاب أو المراءاة.

(مسألة أخرى)

هل المنفَق عليه إذا أحسَّ بأن المنفِق مَنَّ عليه، أو ربما أذاه، هل الأفضل أن يبقى قابِلًا للإنفاق أو يردَّه؟ الجواب الأفضل أن يردَّه لئلَّا يكون لأحد عليه مِنَّة؛ ولكن إذا ردَّه بعد القبض فهل يلزم المنفِق قبوله؟ الجواب: لا يلزمه قبوله؛ لأنه خرج عن ملكه إلى ملك المنفَق عليه؛ فيكون ردَّه إيَّاه ابتداء عطية.

٥- إثبات العندية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {عند ربهم}؛ والعندية تفيد القرب؛ فيكون الله عز وجل في مكان، وبعض الأشياء عنده، وبعض الأشياء بعيدة عنه؛ ولكن كلها قد أحاط الله بها؛ كلها بالنسبة إليه - إلى علمه، وقدرته، وسلطانه، وربوبيته - كلها سواء - لكن لا شك أن من كان حول العرش ليس كمن حول الفرش؛ ولكن يجب أن نعلم أن المكان ليس محيطًا به، كما قال تعالى: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه} [الزمر: ٦٧]؛ لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء؛ لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

٦- أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ويسلمون من المحبطات لا ينالهم خوف في المستقبل، ولا حزن على الماضي؛ لقوله تعالى: {ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

قال ابن العثيمين: {قول} مبتدأ؛ و{خير} خبره؛ وساغ الابتداء به هنا وهو نكرة؛ لأنه وصف؛ وإن شئت فقل: لأنه أفاد؛ وطريق إفادته الوصف؛ وإذا عللت بأنه أفاد صار أحسن؛ لأنه أعم.

{قول معروف}: أي ما نطق به اللِّسان معروفًا في الشرع، ومعروفًا في العرف.

قال السعدي: أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه ردُّ السائل بالقول الجميل والدعاء له.

قال ابن العثيمين: {ومغفرة}: أي مغفرة الإنسان لمن أساء إليه؛ قال تعالى: {ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور} [الشورى: ٤٣]؛ القول المعروف إحسان؛ والمغفرة إحسان؛ ولكن الفرق بينهما أن ال{قول المعروف} إسداء المعروف القولي إلى الغير؛ وال{مغفرة} تسامح الإنسان عن حقه في جانب غيره.

{خيرٌ من صدقة يتبعها أذًى}؛ ال{صدقة}: بذل الإحسان المالي؛ الإنسان قد ينتفع بالمال أكثر مما ينتفع بالكلمة؛ وقد ينتفع بالكلمة أكثر مما ينتفع بالمال؛ لكن لا شك أن القول المعروف خير من الصدقة التي يتبعها أذى – وإن نفعت؛ لأنك لو تعطي هذا الرجل ما تعطيه من المال صدقة لله عز وجل، ثم تتبعها الأذى؛ فإن هذا الإحسان صار في الحقيقة إساءة – وإن كان هذا قد ينتفع به في حاجاته – لكن هو في الحقيقة إساءة له.

قال السعدي: {ومغفرة} لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عمَّا يصدر من السائل ممَّا لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضًا بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذًى بمنٍّ أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المنُّ بالصدقة مفسِدًا لها محرَّما، لأن المِنَّة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يَمُنُّ بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضًا فإن المانُّ مستعبِد لمن يَمُنُّ عليه، والذُّل والاستعباد لا ينبغي إلَّا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلُّها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم.

قال ابن العثيمين: {والله غني}: أي عن غيره؛ فهو سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد؛ وكل من في السموات والأرض فإنه محتاج إلى الله تعالى؛ هو غني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ فله الغنى المطلق من جميع الوجوه.

{حليم[١]}: (الحلم): تأخير العقوبة عن مستحقها؛ قال ابن القيم في النونية:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٢٥) من سورة البقرة.

وجمع الله في هذه الآية بين (الغنى) و(الحلم)؛ لأن الآية في سياق الصدقة، فبيَّن عز وجل أن الصدقات لا تنفع لله؛ وإنَّما تنفع من يتصدَّق؛ والآية أيضًا في سياق من أتبع الصدقة أذًى ومِنَّة؛ وهذا حريٌّ بأن يعاجل بالعقوبة، حيث آذى هذا الرجل الذي أعطاه المال لله؛ ولكن الله حليم يحلم على عبده لعلَّه يتوب من المعصية.

قال السعدي: {والله غني} عنها، ومع هذا فهو {حليم} على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المثلات أنزل بهم عقابه وحرمهم جزيل ثوابه.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٦٧: فأخبر – سبحانه – أن القول المعروف وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره، والمغفرة وهي العفو عمَّن أساءَ إليك خير من الصدقة المقرون بالأذى. فالقول المعروف إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها.

ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة. ويدخل في هذا (القول المعروف) الرَّد الجميل على السائل والعدة الحسنة والدعاء الصالح له ونحو ذلك.

ويدخل فى المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى بسبب ردِّه، فيكون عفوه عنه خيرًا من أن يتصدق عليه ويؤذيه، هذا على المشهور من القولين فى الآية، والقول الثاني: أن المغفرة من الله، أي مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرَّد الجميل خير من صدقة يتبعها أذًى. وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رُدَّ وتعذر المسؤول، خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذًى.

وأصح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جدًّا لأن الخطاب إنما هو للمنفِق المسؤول لا للسائل الآخذ، والمعنى أن قول المعروف له، والتجاوز والعفو، خير لك من أن تتصدَّق عليه وتؤذيه.

قال أبو زهرة: وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله تعالى: {وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} لإثبات أن الذين يعطون إنما يقصدون وجه الله بعطائهم لينفعوا عباده، فإذا لم يقصدوا وجهه تبارك وتعالى؛ ويطلبوا رضوانه، فإنه غنيٌّ عنهم، وهو بغناه الذي يعلو فوق كل تقدير يستطيع أن يجعل الفقير غنيًّا يعطي، والغني فقيرًا يسأل، فالمال مال الله، وهو غاد ورائح والله سبحانه وتعالى حليم، وعلى الناس أن يتخلَّقوا بأخلاق الله تعالى، ولله المثل الأعلى، وليس كمثله شيء، فلا يصحُّ أن يدفعهم حمقهم لأن يقولوا للفقير ما يؤلم، أو للقائم بالمصلحة العامة التي أنفقوا في سبيلها ما يثبِّط همَّته، وينهنه من عزيمته. وفي ذكر هذا الوصف الكريم في هذا المقام إشعار بأن المنِّ والأذى ذنب كبير يستحق العقاب، ولكن لحلم الله تعالى، ولأن رحمته سبقت عذابه أمهل ولم يهمل.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٦٧: ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمَّنته فقال: {وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}، وفيه معنيان: أحدهما أن الله غنيٌّ عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم فى الصدقة، فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى، فكيف يمُنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التَّام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حليم إذ لا يعاجل المانُّ بالعقوبة، وضمَّن هذا، الوعيد له والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى مع غناه التَّام من وجه، فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصَّفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنِّه وأذاه مع قلَّة ما يعطي ونزارته وفقره؟!.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الغني} فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وسمَّاه به رسوله صلى الله عليه وسلم في النصوص النبوية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، كما ورد في قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}[الأنعام: ١٣٣]، فغناه غنًى مطلق لا يفتقر إلى خلقه إن أطاعوه أو أعرضوا عنه، {قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُون}[يونس: ٦٨]، ويقول تعالى عن دعوة الأغنياء إلى الإنفاق: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[محمد: ٣٨].

وغالبًا ما يقترن اسم الله {الغني} باسمه {الحميد}، كقوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[الحج: ٦٤]، {لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[لقمان: ٢٦]{الذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[الحديد:٢٤]، {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[البقرة: ٢٦٧]، واقترن اسم الله {الغني} أيضًا باسمه {الحليم} في قوله تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦٣]، واسمه {الكريم} في قوله تعالى: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[النمل: ٤٠].

وفي سنن أبي داود وحسنه الشيخ الألباني والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، من حديث عروة عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قَالَتْ: ((شَكَى النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُحُوطَ الْمَطَرِ فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ فَوُضِعَ لَهُ فِي الْمُصَلى وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَكَبَّرَ ث وَحَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَل ثُمَّ قَال: إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ وَاسْتِئْخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ

وَجَل أَنْ تَدْعُوهُ وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ اللهُمَّ أَنْتَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلاَغًا إِلَى حِينٍ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَا بَيَاضُ إِبْطَيْهِ ثُمَّ حَوَّلَ عَلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ وَقَلَبَ أَوْ حَوَّلَ رِدَاءَهُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَنَزَلَ فَصَلَى رَكْعَتَيْنِ فَأَنْشَأَ اللهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللهِ فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ ضَحِكَ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ – الكِنُّ هو ما يَرُدّ الحَرَّ والبَرْد من الأبنِيَة والمساكن – فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ وَأَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ([١])).

و{الغني}: هو المستغني عن الخلق بذاته وصفاته وسلطانه، والخلق جميعًا فقراء إلى إنعامه وإحسانه، و{الغني} أصله صفة مشبهة للموصوف بالغنى، والغني في حقّنا يعني قلة الاحتياج أو عدم الاحتياج، ويتحقّق بالأموال أو الأقوات التي يقتنيها الإنسان لدفع الضرر والحاجات، وأي غنًى في حق ما سوى الله فهو نسبيٌّ مقيَّد، أما غنى الحق سبحانه، فهو كامل مطلق، فمهما بلغ المخلوق في غناه فهو فقير إلى الله، فالله غنيٌّ لا يحتاج لأحد في شيء لأنه المالك لكل شيء المتصرف بمشيئته في خلقه أجمعين، خزائنه لا تنقص ولا تنفد، يعطي من يشاء ما يشاء من فضله، وقسّم لكل مخلوق ما يخصُّه في رزقه، وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث أَبِي ذَرٍّ الغفاري أن النَّبِيِّ ﷺ قال فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ([٢]))).

ف{الغني} على سبيل الإطلاق وعدم الحاجة هو الله، وليس ذلك لأحد سواه، فهو المستغني عن الخلائق أجمعين، الغني بذاته عن العالمين، واتّصاف غير الله بالغني لا يمنع كون الحق متوحِّد في غناه، لأن الغني في حق غيره مقيَّد، وفي حق الله مطلق، وهذا واضح معلوم، وذلك مطَّرد في جميع أوصافه باللُّزوم.

واسم الله {الغني} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة (الغنى) بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى صفة الغنى وحدها بدلالة التضمُّن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والقوة والأحدية، والقدرة والصمدية، والعزة والكبرياء، والملك والعلياء، وكل ما يلزم لمعنى الغنى وما يترتَّب عليه، واسم الله {الغني} دلَّ على صفة من صفات الذات.

كيف ندعو الله باسمه {الغني} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في حديث الاستسقاء في قوله ﷺ: ((وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَل أَنْ تَدْعُوهُ وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ،

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٠٦٤).

٢- (قلت): مسلم (٢٥٧٧).

لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ اللهُمَّ أَنْتَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلاَغًا إِلَى حِينٍ))، وعند البخاري من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: ((اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللهُمَّ اغْسِلْ عَنِّى خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا، كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ([١]))).

أما دعاء العبادة فيظهر من خلال فهم العبد لمعنى الغني الذي يؤدّي إلى كمال الإيمان، فيتواضع الغني على الرغم من غناه، لعلمه أن المتوحّد في الغنى هو الله، ويظهر الفقير بمظهر الغني وهو يعاني من شدَّة الفقر تعفُّفًا من سؤال الناس إلحافًا، كما قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٧٣].

فالغني الحقيقي هو غني النفس وعلو الإيمان كما ثبت في السنة مما روى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ([٢])))، وفي صحيح البخاري من حديث الْحَسَنَ أنه قال: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ ((أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِمَالٍ أَوْ سَبْيٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالاً وَتَرَكَ رِجَالاً فَبَلَغَهُ أَنَّ الذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَ اللهِ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الذِي أُعْطِي وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، فِيهِمْ([٣])عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ فَوَ اللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ)). تَابَعَهُ يُونُسُ.

ولا يمنع ذلك الأخذ بالأسباب طلبًا للغِنى والتَّقوِّي على طاعة الله، وإعانة الأمَّة، وإغناء الفقراء من فضل الله، مع توحيد الأغنياء لله في اسمه {الغني}، واعتقادهم أنهم فقراء إلى ربهم مهما بلغت أموالهم ومناصبهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[فاطر: ١٥]، وفي صحيح مسلم من حديث عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ قَالَ: كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ: اسْكُتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ

١- (قلت): البخاري (٦٣٦٨) واللفظ له، ومسلم (٥٨٩).

٢- (قلت): البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((العرض)): هو متاع الدنيا. ومعنى الحديث: الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة، لأن من كان طالبا للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى.

٣- (قلت): البخاري (٩٢٣).

التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ[١]))، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنه قَال: جَاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَال يَا رَسُول اللهِ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا قَال: ((أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ[٢])).

وعند البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: ((قَال رَجُلٌ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ؛ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلى سَارِقٍ، فَقَال اللهُمَّ لكَ الْحَمْدُ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ؛ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَيْلةَ عَلى زَانِيَةٍ، فَقَال اللهُمَّ لكَ الْحَمْدُ عَلى زَانِيَةٍ، لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ؛ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلى غَنِيٍّ فَقَال اللهُمَّ لكَ الحَمْدُ، عَلى سَارِقٍ وَعَلى زَانِيَةٍ وَعَلى غَنِيٍّ ، فَأُتِيَ فَقِيل لهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلى سَارِقٍ فَلعَلهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلعَلهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلعَلهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ[٣])).

وعند البخاري من حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أن رَسُول اللهِ ﷺ قال له: ((إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ[٤]))، وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: ((مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، فَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلى مَلِيٍّ فَلْيَتْبَعْ[٥])).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة القول المعروف؛ لقوله تعالى: {قول معروف ومغفرة خير من صدقة ...}؛ و(القول المعروف) كل ما عرفه الشرع، والعادة؛ مثال ذلك: أن يأتي رجل يسأل مالا بحاله، أو قاله؛ فكلمه المسؤول، وقال: ليس عندي شيء، وسيرزق الله، وإذا جاء شيء فإننا نجعلك على البال، وما أشبه ذلك؛ فهذا قول معروف ليِّن، وهيِّن.

١- (قلت): مسلم (٢٩٦٥).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي)) المراد بالغني غنى النفس، هذا هو الغني المحبوب لقوله ﷺ: ((ولكن الغنى غنى النفس))، وأما ((الخفي)) فبالخاء المعجمة هذا هو الموجود في النسخ والمعروف في الروايات ومعناه: الخامل المنقطع إلى العبادة والاشتغال بأمور نفسه.

٢- (قلت): البخاري (١٤١٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٢) بزيادة ((أَمَا وَأَبِيكَ لَتُنَبَّأَنَّهُ)) في أولها.

٣- (قلت): البخاري (١٤٢١) واللفظ له، ومسلم (١٠٢٢).

٤- (قلت): البخاري (١٢٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

٥- (قلت): البخاري (٢٢٨٧).

٢- الحثُّ على المغفرة لمن أساء إليك؛ لكن هذا الحثُّ مقيَّد بما إذا كانت المغفرة إصلاحًا؛ لقوله تعالى: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله}[الشورى: ٤٠]؛ أمَّا إذا لم تكن المغفرة إصلاحًا، مثل أن أغفر لهذا الجاني، ثم يذهب ويسيء إلى الآخرين، أو يكرِّر الإساءة إليَّ، فإن الغفر هنا غير مطلوب.

٣- أنَّ الأعمال الصالحة تتفاضل، ويلزم من تفاضلها تفاضل العامل، وزيادة الإيمان، أو نقصانه.

٤- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {الغني} و{الحليم}؛ وإثبات ما دلَّا عليه من الصفات.

٥- المناسبة في ختم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين؛ لأن في الآية إنفاقًا؛ وإذا كان الله عز وجل هو الذي يخلف هذا الإنفاق فإنه لكمال غناه؛ كذلك المغفرة عمَّن أساء إليك: فإن المغفرة تتضمَّن الحلم، وزيادة؛ فختم الله الآية بالحلم؛ وقد يقال: إن فيه مناسبة أخرى؛ وهي أن المنَّ بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ والله سبحانه وتعالى حليم على أهل الكبائر؛ إذ لو يؤاخذ الناس بما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة، والله أعلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا}: تصدير الخطاب بالنداء يدلُّ على الاهتمام به؛ لأن النداء يحصل به تنبيه المخاطب؛ فيدلُّ على العناية بموضوع الخطاب؛ ولهذا قال ابن مسعود: (إذا سمعت الله يقول: {يا أيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك: فإنه خير تأمر به؛ أو شر ينهى عنه)؛ وصدق رضي الله عنه.

ثم في توجيه النداء للمؤمنين بوصف الإيمان فيه فوائد؛ الفائدة الأولى: الحثُّ على قبول ما يلقى إليهم، وامتثاله؛ وجه ذلك: أنه إذا عُلِّق الحكم بوصف كان ذلك الوصف علَّة للتأثُّر به؛ كأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا، وكذا؛ أو لا تفعلوا كذا؛ الفائدة الثانية: أن ما ذكر يكون من مكمِّلات الإيمان ومقتضياته؛ الفائدة الثالثة: أن مخالفة ما ذكر نقص في الإيمان.

{لا تبطلوا صدقاتكم}: الإبطال للشيء يكون بعد وجوده؛ فالبطلان لا يكون غالبًا إلَّا فيما تمَّ؛ وال{صدقات} جمع صدقة؛ وهي ما يبذله الإنسان تقرُّبًا إلى الله.

{بالمنِّ والأذى}؛ الباء: للسببية؛ و(المنُّ) إظهار أنك مانٌّ عليه، وأنك فوقه بإعطائك إياه؛ و{الأذى} أن تذكر ما تصدقت به عند الناس فيتأذَّى به.

قال السعدي: ينهى عباده تعالى لطفًا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمنِّ والأذى ففيه أن المنَّ والأذى يبطل الصدقة، ويُستدَلُّ بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: {ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون}، فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢ص٤١٧: فَبَيَّنَ أَنَّ الْمَنَّ وَالْأَذَى يُبْطِلُ الصَّدَقَةَ فَيَجْعَلُهَا بَاطِلًا، لَا حَقًّا كَمَا يُبْطِلُ الرِّيَاءُ وَعَدَمُ الْإِيمَانِ الْإِنْفَاقَ أَيْضًا. وَقَدْ عَمَّمَ بِقَوْلِهِ: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}: أَيْ لَا تَجْعَلُوهَا بَاطِلَةً لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا وَلَا ثَوَابَ وَلَا فَائِدَةَ.

قال أبو زهرة: هذا نهي صريح واضح عن المنِّ والأذى، وقد تضمَّن هذا النهيَ الحَاسم أن الصدقات يبطلها المنُّ والأذى، فلا يكون لها أجر من الله، ولا يكون لها شكر ممَّن أسدى إليه، سواء أكان الإنفاق في سبيل النفع العام، أم كان لبعض آحاد الأمة بسدِّ الخلة، ودفع الحاجة؛ وقد أكَّد سبحانه النهي عن المنِّ والأذى بثلاثة توكيدات:

أولها: تصدير الآية الكريمة بنداء للبعيد وفي ذلك فضل مبين، وبأن النداء للذين آمنوا، وفي هذا إشعار بأن الأذى في الصدقات ليس من صفات أهل الإيمان، إنما هو من صفات أهل الصلف والكبرياء والذين يمُنُّون على الله وعلى الناس إن فعلوا الخير، وليست الكبرياء والاستطالة بفضل العطاء من صفات المؤمنين.

وثانيها: أنَّه صرح سبحانه بأن المنَّ يبطل الصدقة، ولا يجعل لها ثوابًا عند الله، ولا شكرًا من الناس.

وثالثها: أنَّه سبحانه وتعالى جعل المنفق مع المنِّ والأذى كالمنفق رئاء الناس، والمنفق للرياء والسمعة مشرك شركًا خفيًّا؛ ولذا وصف سبحانه وتعالى الذي ينفق ماله رئاء الناس، بأنه لَا يؤمن بالله واليوم الآخر، فأفعاله كقلبه ليست أفعال المؤمنين، وقلبه ليس قلب مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وإذا كان المنفِق الذي يتبع صدقته بالمنِّ والأذى مثله، فإنَّ إبطال الصدقات أقل ما يناله.

ولماذا شدَّد سبحانه في النهي عن المنِّ والأذى، وكرَّر ذلك في ثلاث آيات متواليات، وأكثر من التشبيه لتقبيح المنِّ والأذى في الصدقة؟

الجواب عن ذلك: أنَّ المنَّ والأذى في الإنفاق ينشأ عن استطالة الغني بفضل غناه، والمباهاة بثروته وقدرته، وإنه لَا شيء يرمض نفس الفقير إلَّا إحساسه باستعلاء الغني بسبب الغنى، وصغار الفقير بسبب الفقر، وإن ذلك يدفع بلا شك إلى تفكيك الروابط، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، فإن الفقراء لَا يتألَّمون لذات الفقر إنما يتألَّمون من مرارته باعتزاز الغني عليهم، وإشعارهم بذلِّ الحاجة، وعندئذ تتمرَّد النفوس، وتتعرَّض الأمم للخراب، وتذهب الوحدة الجامعة.

إنَّ الغنى والفقر أمران لَا يخلو الوجود منهما، ولا يمكن أن تخلو أمة من غني وفقير، ما دامت القوى متفاوتة، والفرص لَا تواتي الجميع بقدر واحد، والأقدار لَا تسعف الجميع في زمن واحد، وما دامت تلك حقيقة مقرَّرة، فعمل الشرائع هو تخفيف ويلات الفقر، ومنع استطالة الغني.

قال ابن كثير: وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمَنِّ فِي الصَّدَقَةِ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((ثلاثة لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ([1]))).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، ولا مكذب بقدر([2]))).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى([3]))). وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ([4])، وَعَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أبي هريرة، نحوه([5]).

قال ابن العثيمين: {كالذي ينفق ماله رئاء الناس}؛ الكاف هنا للتشبيه؛ وهي خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: مثلكم كالذي ينفق ماله رئاء الناس؛ و{رئاء} مفعول لأجله؛ وهي مصدر راءى يرائي رئاء ومراءاة، كقاتل يقاتل قتالًا ومقاتلةً؛ وجاهد يجاهد جهادًا ومجاهدةً؛ وال{رياء} فعل العبادة ليراه الناس، فيمدحوه عليها.

{ولا يؤمن بالله واليوم الآخر} معطوف على {ينفق}؛ وسبق معنى الإيمان بالله، واليوم الآخر؛ وهذا الوصف ينطبق على المنافق؛ فالمنافق – والعياذ بالله – لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر؛ ولا ينفق إلَّا مراءاةً للناس؛ ومع ذلك لا ينفق إلَّا وهو كاره، كما قال تعالى: {وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس}[النساء: ١٤٢]، وقال في [سورة التوبة]: {ولا ينفقون إلا وهم كارهون}[التوبة: ٥٤]؛ هؤلاء لا ينفقون إلَّا وهم كارهون؛ لأنهم لا يرجون من هذا الإنفاق ثوابًا؛ إذ إنه لا إيمان عندهم، و{اليوم الآخر} هو يوم القيامة؛ وسمِّيَ {اليوم الآخر}؛ لأنه لا يوم بعده؛ كلٌّ يذهب إلى مستقرِّه، أهل الجنة إلى مستقرّهم؛ وأهل النار إلى مستقرّهم؛ فهو يوم آخر لا يوم بعده؛ ولذلك فهو مؤبَّد، إما في جنة؛ وإما في نار.

قال السعدي: وقوله: {كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر}: أي أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المِنَّة والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراءاة الناس، ولا يريد به الله والدار

١- صحيح مسلم برقم (١٠٦).
٢- صحيح: السلسلة الصحيحة (٦٧٥).
٣- صحيح: صحيح الجامع (٣٥٧١).
٤- سنن النسائي الكبرى برقم (٤٩٢٠) .
٥- سنن النسائي الكبرى برقم (٤٩٢٢) .

الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده، وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة، وسعيه غير مشكور، فمثله المطابق لحاله {كمثل صفوان}.

قال أبو زهرة: وفي هذا التشبيه إشارة إلى أن الذي ينفق ماله رئاء الناس، أي لأجل الرياء والسمعة، وأن يقول الناس: إنه سخي جواد، أو لتملق ذي جاه – أسوأ حالًا عند الله من ذي المنِّ والأذى، لأن المشبَّه به أقوى دائمًا من المشبَّه. ولقد ذكر سبحانه حال المرائي بنفقته على أنه أمر مقرَّرٌ سوءه، وليس في حاجة إلى بيان، لأنه لَا اشتباه في بطلان ما أنفق، إذ إنه ما قصد الخير حتى يبطل قصده، فالفرق بينه وبين الأول أن الأول قصد الخير واحتسبه، ولكنه أفسد عمله بما خالطه به من مَنٍّ وأذى؛ أما الثاني وهو المرائي فلم يقصد خيرًا قط، حتى يبطله سواه، فشبه سبحانه حال قاصد الخير المنان في إبطال عمله، بحال من لم يقصد خيرًا قط، بل الرياء والسمعة، وهو من فعل الشرك الخفي.

ولهذا الفارق الجوهري بين المنفق المنَّان، والمنفق رئاء الناس، ذكر الله عمل الأول بأنه صدقة، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى}، ولم يصف عمل الثاني بأنه صدقة، ولا في سبيل الله، ولذا قال سبحانه: {كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ}، فما الصدقة ابتغاها ولا الخير أراده، بل الشَّر كل الشَّر ما عمله.

قال ابن العثيمين: {كمثل صفوان}: أي كشبه صفوان؛ وهو الحجر الأملس، {عليه تراب}؛ والتراب معروف؛ {فأصابه وابل}: أي مطر شديد الوقع سريع التَّتابع؛ فإذا أصاب المطر ترابًا على صفوان فسوف يزول التراب؛ ولهذا يقول تعالى: {فتركه صلدًا}: أي ترك الوابل هذا الصفوان أملس ليس عليه تراب؛ وجه الشبه بين المرائي والصفوان الذي عليه تراب، أن من رأى المنافق في ظاهر حاله ظنَّ أن عمله نافع له؛ وكذلك من رأى الصفوان الذي عليه تراب ظنه أرضًا خصبة طينية تنبت العشب؛ فإذا أصابها الوابل الذي ينبت العشب سحق التراب الذي عليه، فزال الأمل في نبات العشب عليه من الوابل؛ ولهذا قال تعالى: {لا يقدرون على شيء ممَّا كسبوا}؛ وصح عود واو الجماعة في {يقدرون} على {الذي} في قوله تعالى: {كالذي ينفق ماله}؛ لأن {الذي} اسم موصول يفيد العموم؛ فهو بصيغته اللفظية مفرد، وبدلالته المعنوية جمع؛ لأنه عام؛ وسمَّى الله عز وجل ما أنفقوا كسبًا باعتبار ظنهم أنهم سينتفعون به.

قال السعدي: فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظنَّ أنه أرض زكيَّة قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبيَّن أن عمله بمنزلة السَّراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرِّياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا {لا يقدرون على شيء} من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضررًا ولا نفعًا، وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: {والله لا يهدي القوم الكافرين}.

قال ابن العثيمين: {والله لا يهدي القوم الكافرين}: أي لا يهدي سبحانه الكافرين هداية توفيق؛ أما هداية الدلالة فإنه سبحانه لم يدع أمة إلَّا بعث فيها نبيًّا؛ لكن الكافر لا يوفِّقه الله لقبول الحق؛ و{الكافرين}: أي الذين حقَّت عليهم كلمة الله، كما قال تعالى: {إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم}[يونس: ٩٦، ٩٧].

قال أبو زهرة: ختم سبحانه وتعالى الآيات بهذه الجملة الحكيمة للإشارة إلى أن الإنفاق من غير مَنٍّ ولا أذى هو من خواص الإيمان، فالله سبحانه وتعالى يهدي إليه المؤمنين ولا يهدي إليه الكافرين، وللإشارة إلى أن المَنَّ والأذى والرياء إنَّما هي صفات الكافرين فيجب أن يقلع عنها أهل الإيمان، فهي صفات لَا تليق بهم، ولا ينبغي أن يكونوا عليها؛ لأن فيها كفرًا للنعمة التي أنعم الله بها، والصدقة رياء وسمعة فيها شرك خفي، فيجب على المؤمن أن يطهِّر نفسه من هذه الأهواء المردية، وليضبط نفسه إذا أعطى، فلا ينطق لسانه بالمَنِّ، ولينقِّ قلبه من الرياء فإنَّه يأكل الحسنة فيجعلها سيئة.

وفي الجملة إشارة إلى أن الله غني عن عطاء المنَّان المؤذي أو المرائي، إن أعطوا لنفع عام أو لدفع أذى الكافرين، فإن الله سيتولَّى الكافرين، وهو لَا يهديهم إلى سبيل الانتصار على المؤمنين الصادقينِ في إيمانهم؛ لأنهم أولياء الله الذين قال فيهم: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تحريم المنِّ والأذى في الصدقة؛ لقوله تعالى: {لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}.

٢- بلاغة القرآن، حيث جاء النهي عن المنِّ والأذى بالصدقة بهذه الصيغة التي توجب النفور؛ وهي: {لا تبطلوا صدقاتكم}؛ فإنها أشدُّ وقعًا من (لا تمُنُّوا، ولا تؤذوا بالصدقة).

٣- أنَّ المنَّ والأذى بالصدقة يبطل ثوابها؛ لقوله تعالى: {لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى}.

٤- أنَّ المنَّ والأذى بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ وجه ذلك: ترتيب العقوبة على الذنب يجعله من كبائر الذنوب؛ وقد قال شيخ الإسلام في حدِّ الكبيرة: (كل ذنب رُتِّب عليه عقوبة خاصة، كالبراءة منه، ونفي الإيمان، واللعنة، والغضب، والحدّ، وما أشبه ذلك)؛ وهذا فيه عقوبة خاصة؛ وهي إبطال العمل؛ ويؤيد ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي

ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب([1]))).

٥- أن المنَّ والأذى بالصدقة مناف لكمال الإيمان؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى}؛ كأنه يقول: (إن مقتضى إيمانكم ألَّا تفعلوا ذلك؛ وإذا فعلتموه صار منافيًا لهذا الوصف، ومنافيًا لكماله).

٦- تشبيه المعقول بالمحسوس ليقربه إلى الذهن؛ لقوله تعالى: {فمثله كمثل صفوان ... } إلخ.

٧- تحريم مراءاة الناس بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: {كالذي ينفق ماله رئاء الناس}؛ والتسميع كالمراءاة؛ والفرق بينهما أن المراءاة فيما يرى – كالأفعال – والتَّسميع بما يقال.

٨- أنَّ من راءى الناس بإنفاقه ففي إيمانه بالله، وباليوم الآخر نقص؛ لقوله تعالى: {ولا يؤمن بالله وباليوم الآخر}؛ لأن الذي يرائي لو كان مؤمنًا بالله حق الإيمان لجعل عمله لله خالصًا لله؛ ولو كان يؤمن باليوم الآخر حق الإيمان لم يجعل عمل الآخرة للدنيا؛ لأن مراءاة الناس قد يكسب بها الإنسان جاهًا في الدنيا فقط؛ مع أنه لابدَّ أن يتبيَّن أمره؛ وإذا تبيَّن أنه مراء نزلت قيمته في أعين الناس؛ يقول الشاعر:

ثوب الرياء يشف عمَّا تحته ... فإذا اكتسيت به فإنَّك عاري

أنت لا تظن أنَّك إذا راءيت الناس أنك ستبقى مخادعًا لهم؛ بل إن الله سبحانه وتعالى سيظهر ذلك؛ ما أسر إنسان سريرة إلَّا أظهرها الله سبحانه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

٩- إثبات اليوم الآخر؛ وهو يوم القيامة.

١٠- بلاغة القرآن في التشبيه؛ لأنَّك إذا طابقت بين المشبَّه، والمشبَّه به، وجدت بينهما مطابقة تامَّة.

١١- إثبات كون القياس دليلًا صحيحًا؛ وجه ذلك: التمثيل، والتشبيه؛ فكل تمثيل في القرآن فإنه دليل على القياس؛ لأن المقصود به نقل حكم هذا المشبَّه به إلى المشبَّه.

١٢- أنَّ الرِّياء مبطل للعمل؛ وهو نوع من الشرك؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه([2])))؛ فإن قصد بعمله إذا رآه الناس أن يتأسَّى الناس به، ويسارعوا فيه فهي نيَّة حسنة لا تنافي الإخلاص؛ لأن النبي ﷺ صلَّى على المنبر، وقال: ((إنما صنعت هذا لتأتمُّوا بي، ولتعلموا صلاتي([3])))؛

١- أخرجه مسلم ص٦٩٦، كتاب الإيمان، باب ٤٦: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية ... ، حديث رقم ٢٩٣ [١٧١] ١٠٦.

٢- (قلت): مسلم (٢٩٨٥).

٣- (قلت): البخاري (٩١٧) واللفظ له، ومسلم (٥٤٤).

وفي الحج كان ﷺ يقول: ((لتأخذوا مناسككم[١])) ؛ وهو داخل في قول النبي ﷺ: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة[٢])).

١٣- الإشارة إلى تحسُّر هؤلاء عند احتياجهم إلى العمل، وعجزهم عنه؛ لقوله تعالى: {لا يقدرون على شيء مما كسبوا}؛ وعجز الإنسان عن الشيء بعد محاولة القدرة عليه أشدُّ حسرة من عدمه بالكليَّة؛ ألم تر إلى قوله تعالى: {أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطامًا}[الواقعة: ٦٣ – ٦٥]؛ وكونه حطامًا ينظرون إليه أشدُّ حسرةً من كونه لم ينبت أصلًا؛ وقوله تعالى: {أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجًا}[الواقعة: ٦٨ – ٧٠]؛ وكونه بين أيديهم أجاجًا لا يستسيغون شربه أشدُّ ممَّا لو لم يوجَد أصلًا؛ والإنسان العاقل يجعل العمل لله، لله؛ والعمل للناس، للناس؛ أنا قد أحب أن أخرج للناس في ثوب جميل، لا بأس أن أتجمل ليراني الناس على هذه الحال؛ لكن هل يصح أن أصلِّي ليراني الناس أصلِّي؟! لا يصح؛ لأن العمل لله يجب أن يكون لله لا يشاركه فيه أحد.

١٤- أنَّ من قضى الله عليه بالكفر لا تمكَّن هدايته؛ لقوله تعالى: {والله لا يهدي القوم الكافرين}؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين الواقع من أن الله سبحانه وتعالى هدى قومًا كافرين كثيرين؟ فالجواب أن من هدى الله لم تكن حقَّت عليهم كلمة الله؛ فأمَّا من حقَّت عليه كلمة الله فلن يُهدى، كما قال تعالى: {إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم}[يونس: ٩٦، ٩٧].

١٥- أنَّ المنافق كافر؛ لقوله تعالى: {والله لا يهدي القوم الكافرين} بعد أن ذكر ما يتعلَّق بصفة المنافق؛ وهو الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وهذا ينطبق تمامًا على المنافقين؛ ولا ريب أن المنافقين كفار – وإن تظاهروا بالإسلام – ولكن هل نعاملهم معاملة الكفار؟ الجواب: لا نعاملهم معاملة الكفار؛ لأن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ وأحكام الآخرة تجري على الباطن والسرائر، كما قال تعالى: {أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور * وحصل ما في الصدور}[العاديات: ٩، ١٠]، وقال تعالى: {يوم تبلى السرائر}[الطارق: ٩]؛ ولأنه لو عومل الناس في الدنيا على السرائر لكان في ذلك تكليف ما لا يطاق من وجه؛ وكان في ذلك الفوضى التي لا نهاية لها من وجه آخر؛ أما تكليف ما لا يطاق فلأننا لا نعلم ما في صدور الناس؛ فلا يمكن أن نحكم عليه؛ وأما الفوضى فلأنه يستطيع كل ظالم له ولاية أن يعاقب هذا

١- أخرجه مسلم ص٨٩٣، كتاب الحج، باب ٥١: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا حديث رقم ٣١٣٧ [٣١٠] ١٢٩٧.

٢- (قلت): مسلم (١٠١٧). والحديث بتمامه: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)).

الرجل، أو يعدم هذا الرجل بحجة أنه مبطن للكفر؛ ولما استؤذن النبي ﷺ في قتل المنافقين قال: ((لا أقتلهم؛ لا يتحدث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه[١])).

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

قال ابن العثيمين: {مثل}: مبتدأ؛ وخبره قوله تعالى: {كمثل جنة}؛ وقوله تعالى: {ينفقون}: أي يبذلون؛ وقوله تعالى: {ابتغاء مرضات الله}: أي طلب رضوان الله.

قوله تعالى: {وتثبيتًا} معطوفة على {ابتغاء}؛ وقوله تعالى: {من أنفسهم}؛ {من} ابتدائية؛ يعني: تثبيتًا كائنًا في أنفسهم لم يحملهم عليه أحد؛ ومعنى يثبتونها: يجعلونها تثبت وتطمئن؛ أي لا تتردَّد في الإنفاق، ولا تشك في الثواب؛ وهذا يدلُّ على أنهم ينفقون طيبة نفوسهم بالنفقة.

قال السعدي: هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى: {ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله}: أي قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربه {وتثبيتًا من أنفسهم}: أي صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخيَّة به، لا على وجه التردُّد وضعف النفس في إخراجها، وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان: إمَّا أن يقصد الإنسان بها محمَدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردُّد، فهؤلاء سلِموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتًا من أنفسهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٩٤: لِمَا ذَكَرَ – سُبْحَانَهُ – مَا يُبْطِلُ الصَّدَقَةَ مِنْ الْمَنِّ وَالْأَذَى وَمِنْ الرِّيَاءِ، وَمَثَّلَهُ بِالتُّرَابِ عَلَى الصَّفْوَانِ[٢] إذَا أَصَابَهُ الْمَطَرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}[البقرة: ١٦٤]، لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِأَحَدِهِمَا لَا يَنْفَعُ هُنَا، بِخِلَافِ قَوْلِهِ فِي النِّسَاءِ: {إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} إلَى قَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ}[النساء: ٣٦- ٣٨].

فَإِنَّهُ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ، فَذَكَرَ غَايَتَهُ وَذَكَرَ مَا يُقَابِلُهُ وَهُمْ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

فَالْأَوَّلُ الْإِخْلَاصُ.

١- أخرجه البخاري ص٤٢٠، كتاب التفسير، باب ٥: قوله تعالى: {سواء عليهم استغفرت لهم} الآية، حديث رقم ٤٩٠٥، وأخرجه مسلم ص١١٣٠، كتاب البر والصلة، باب ١٦: نصر الأخ ظالما أو مظلوما، حديث رقم ٦٥٨٣ [٦٣] ٢٥٨٤.

٢- أي: الحجارة الملس. انظر: المصباح المنير، مادة (صفو).

والتَّثْبِيتُ: هُوَ التَّثَبُّتُ كَقَوْلِهِ: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا}[النساء: ٦٦]، كَقَوْلِهِ: {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا}[المزمل: ٨]، وَيُشْبِهُ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ بَابِ قَدَّمَ وَتَقَدَّمَ كَقَوْلِهِ: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}[الحجرات: ١]، فَتَبَتَّلْ وَتَثَبَّتْ لَازِمٌ بِمَعْنَى ثَبَتَ لِأَنَّ التَّثَبُّتَ هُوَ الْقُوَّةُ وَالْمُكْنَةُ، وَضِدُّهُ الزَّلْزَلَةُ وَالرَّجْفَةُ، فَإِنَّ الصَّدَقَةَ مِنْ جِنْسِ الْقِتَالِ، فَالْجَبَانُ يَرْجُفُ، وَالشُّجَاعُ يَثْبُتُ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((وَأَمَّا الْخُيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْحَرْبِ، وَاخْتِيَالُهُ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الصَّدَقَةِ(١))، لِأَنَّهُ مَقَامُ ثَبَاتٍ وَقُوَّةٍ، فَالْخُيَلَاءُ تُنَاسِبُهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ الْمُخْتَالُ الْفَخُورُ الْبَخِيلُ الْآمِرُ بِالْبُخْلِ، فَأَمَّا الْمُخْتَالُ مَعَ الْعَطَاءِ أَوْ الْقِتَالِ فَيُحِبُّهُ.

وَقَوْلُهُ: {مِنْ أَنْفُسِهِمْ}: أَيْ لَيْسَ الْمُقَوِّي لَهُ مِنْ خَارِجٍ كَالَّذِي يَثْبُتُ وَقْتَ الْحَرْبِ لِإِمْسَاكِ أَصْحَابِهِ لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}[الشورى: ٣٧]، بَلْ تَثَبُّتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ – فِي الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ الْأَقْسَامَ الْأَرْبَعَةَ فِي الْعَطَاءِ. إمَّا أَنْ لَا يُعْطِيَ فَهُوَ الْبَخِيلُ الْمَذْمُومُ فِي النِّسَاءِ، أَوْ يُعْطِي مَعَ الْكَرَاهَةِ وَالْمَنِّ وَالْأَذَى، فَلَا يَكُونُ بِتَثْبِيتٍ وَهُوَ الْمَذْمُومُ فِي الْبَقَرَةِ، أَوْ مَعَ الرِّيَاءِ فَهُوَ الْمَذْمُومُ فِي السُّورَتَيْنِ، فَبَقِيَ الْقِسْمُ الرَّابِعُ: ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

وقال رحمه الله أيضاً في ص٣٣٠: وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُحْسِنُ إلَى غَيْرِهِ لِيَمُنَّ عَلَيْهِ، أَوْ يَرُدَّ الْإِحْسَانَ لَهُ بِطَاعَتِهِ إلَيْهِ وَتَعْظِيمِهِ، أَوْ نَفْعٍ آخَرَ، وَقَدْ يَمُنُّ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا فَعَلْت بِك كَذَا، فَهَذَا لَمْ يَعْبُدْ اللَّهَ وَلَمْ يَسْتَعِنْهُ، وَلَا عَمِلَ لِلَّهِ، وَلَا عَمِلَ بِاَللَّهِ. فَهُوَ الْمُرَائِي.

وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ صَدَقَةَ الْمَنَّانِ، وَصَدَقَةَ الْمُرَائِي، قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[البقرة: ١٦٤، ١٦٥].

قَالَ قتادة: {وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}: احْتِسَابًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: يَقِينًا وَتَصْدِيقًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ. وقال الشعبي: يقينًا وتصديقًا من أنفسهم. وَكَذَلِكَ قَالَ الْكَلْبِيُّ. قِيلَ: يُخْرِجُونَ الصَّدَقَةَ طَيِّبَةً بِهَا أَنْفُسُهُمْ، عَلَى يَقِينٍ بِالثَّوَابِ، وَتَصْدِيقٍ بِوَعْدِ اللَّهِ، يَعْلَمُونَ: أَنَّ مَا أَخْرَجُوهُ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا تَرَكُوهُ.

١– أبو داود في الجهاد (٢٦٥٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٨)، وأحمد ٥/٤٤٥، ٤٤٦ كلهم عن جابر بن عتيك.

– (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح وضعيف أبي داود (٢٦٥٩). وانظر حديث رقم: (٢٢٢١) في صحيح الجامع.

قُلْت: إذَا كَانَ الْمُعْطِي مُحْتَسِبًا لِلْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، مُصَدِّقًا بِوَعْدِ اللَّهِ لَهُ، طَالِبٌ مِنْ اللَّهِ، لَا مِنْ الَّذِي أَعْطَاهُ، فَلَا يَمُنُّ عَلَيْهِ. كَمَا لَوْ قَالَ رَجُلٌ لِآخَرَ: أَعْطِ مَمَالِيكك هَذَا الطَّعَامَ، وَأَنَا أُعْطِيك ثَمَنَهُ؛ لَمْ يَمُنَّ عَلَى الْمَمَالِيكِ، لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ يَعْلَمُ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْإِعْطَاءِ.

قال السعدي: فمثل نفقة هؤلاء: {كمثل جنة}: أي كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو السَّتر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة {بربوة}: أي محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره، فثماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس، فـ{أصابها}: أي تلك الجنة التي بربوة {وابل}: وهو المطر الغزير {فآتت أكلها ضعفين}: أي تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها.

قال ابن العثيمين: {فإن لم يصبها وابل فطل}: الجملة شرطية؛ الشرط: {إن}؛ وفعل الشرط: {لم يصبها}؛ و{طل}: أي فهو طل – والجملة جواب الشرط؛ والمعنى: فإن لم يصبها المطر الشديد أصابها طل – وهو المطر الخفيف، ويكفيها عن المطر الكثير؛ لأنها في أرض خصبة مرتفعة بينة للشمس، والهواء؛ والمثل منطبق: فقد شبه هذا الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله، وتثبيتًا من نفسه بهذه الجنة.

وهل المشبه نفس الرجل أو النفقة؟ الجواب: المشبه هو النفقة؛ ولهذا قال بعضهم: إن التقدير: (مثل إنفاق الذين ينفقون أموالهم كمثل جنة)؛ ويحتمل أن التقدير: (كمثل صاحب جنة)؛ فيكون المشبه (المنفق) لا (الإنفاق)؛ وقال بعضهم: لا حاجة إلى التقدير للعلم به من السياق، وأن هذا من بلاغة القرآن، حيث طوى ذكر الشيء لدلالة السياق عليه.

قال السعدي: {فإن لم يصبها وابل فطل}: أي مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمى له ما أنفق أتم تنمية وأكملها، والمنمي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، فيالله لو قدّر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتها وشدَّة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهدًا في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقَّن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجَّهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا قال تعالى: {والله بما تعملون بصير} فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتمَّ الجزاء.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين ج١ص١٤١: شبه الله سبحانه نفقة المنفِق في سبيله – سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير، من كل – بمن بذر بذرًا فأنبتت كل حبة سبع سنابل اشتملت كل سنبلة على مائة حبة. والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، بحسب حال المنفِق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها.

فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غير جزع ولا هلع، ولا متَّبعه نفسه ترجف يده وفؤاده. ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق بحسب مصادفته لموقعه، وبحسب طيب المنفَق وزكائه.

وتحت هذا المثل من الفقه: أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفَق ماله الطيب لله، لا لغيره، باذر ماله في أرض زكية. فمغله بحسب بذره، وطيب أرضه وتعاهد البذر بالسقي ونفي الدغل والنبات الغريب عنه. فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم يحرق الزرعِ نارٌ ولا لحقته جائحة، جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بربوة. وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح فتتربى الأشجار هناك أتمّ تربية. فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع. فرواها ونماها. فأتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها، لسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطلّ، أي مطر صغير القطر يكفيها، لكرم منبتها تزكو على الطل وتنمو عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل. فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلًّا. والله لا يضيع مثقال ذرة.

قال ابن العثيمين: {والله بما تعملون بصير}: قدَّم الجار والمجرور – وهو متعلِّق بـ{بصير} – لإفادة الحصر ومراعاة الفواصل؛ والحصر هنا إضافي للتهديد؛ لأن الله بصير بما نعمل، وبغيره.

وهل {بصير(١)}هنا من البصر بالعين؛ أو من العلم؟ الجواب: كونه من العلم أحسن ليشمل ما نعمله من الأقوال؛ فإن الأقوال تسمع، ولا ترى؛ وليشمل ما في قلوبنا؛ فإن ما في قلوبنا لا يسمع، ولا يرى؛ وإنما يعلم عند الله عز وجل، كما قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه}[ق~: ١٦].

قال أبو زهرة: ختم سبحانه وتعالى هذه الآية بتلك الجملة السامية ليعلم الناس عظيم مراقبته سبحانه وتعالى لأحوالهم، واطِّلاعه على خفايا نفوسهم، فيراقبوه سبحانه في أفعالهم وأقوالهم، كما يراقبهم سبحانه، فتمتلئ قلوبهم عند العمل بعظمته، فيعملوا ما يعملون محسِّين بأنه مطَّلع على ما تخفي صدورهم، فتتَّجه القلوب – تحت تأثير هذه الرقابة المسيطرة العليمة التي لَا تغادر صغيرة ولا كبيرة – إليه سبحانه وحده، ولا تتَّجه إلى سواه.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله { البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١١٠) من سورة البقرة.

وفوق ذلك فإن لذلك التذييل السامي معنىً آخر مناسبًا مناسبة أخص للسياق الخاص بحسن القصد في الإنفاق، وهو بيان أن الله سبحانه وتعالى يعلم الذين أخلصت قلوبهم في الصدقة فلم تبتغ رضا أحد غير الله تعالى، فيجازيها على إخلاصها في النيَّة، واحتسابها الخير لوجه الله الكريم، ويعلم من ينفق رياء أو يتبع ما ينفق بالمنِّ والأذى فيحبط عمله.

وإن عبارات التذييل في ذاتها تربِّي المهابة للذات العليَّة في النفس التي تريد ما عند الله تعالى؛ فإنَّه قد صدَّر الجملة السامية بلفظ الجلالة الذي يدلُّ في ذاته على العلو والسلطان والألوهية الحق؛ ثم إن هذا القاهر فوق عباده يعلم علم من يبصر ويعاين ويرى بكل ما يعمله الناس من خير وشر، وما يقصدون في صدقاتهم، فإن أرادوا رضاه فقد آووا إلى ركن حصين، وإن قصدوا سواه فهم على شفا جرف هار، وسينهار بهم في نار جهنم، فلا أموالهم بقيت لهم، ولا الثواب نالوا، بل العقوبة تستقبلهم ومقت الناس يلحقهم، والله من ورائهم محيط.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين من فوائد الآية: ١- أنَّه لا إنفاق نافع إلَّا ما كان مملوكًا للإنسان؛ لقوله تعالى: {أموالهم}؛ فلو أنفق مال غيره لم يقبل منه إلَّا أن يكون بإذن من الشارع أو المالك.

فإن قال قائل: عندي مال محرَّم لكسبه، وأريد أن أتصدَّق به فهل ينفعني ذلك؟

فالجواب: إن أنفقه للتقرُّب إلى الله به، لم ينفعه ولم يسلم من وزر الكسب الخبيث؛ والدليل قوله ﷺ: ((إن الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا([1]))؛ وإن أراد بالصدقة به التخلُّص منه، والبراءة من إثمه، نفعه بالسلامة من إثمه، وصار له أجر التوبة منه - لا أجر الصدقة.

ولو قال قائل: عندي مال اكتسبته من ربا فهل يصح أن أبني به مسجدًا، وتصح الصلاة فيه؟

فالجواب: بالنسبة لصحة الصلاة في هذا المسجد هي صحيحة بكل حال؛ وبالنسبة لثواب بناء المسجد: إن قصد التقرُّب إلى الله بذلك لم يقبل منه، ولم يسلم من إثمه؛ وإن قصد التخلُّص سلِم من الإثم، وأثيب - لا ثواب باني المسجد - ولكن ثواب التائب.

٢- بيان ما للنيَّة من تأثير في قبول الأعمال؛ لقوله تعالى: {ابتغاء مرضات الله}.

٣- اشتراط الإخلاص لقبول الأعمال؛ لقوله تعالى: {ابتغاء مرضات الله}.

١- (قلت): مسلم (١٠١٥).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((إن الله طيب)): قال القاضي: الطيب في صفة الله تعالى بمعنى المنزه عن النقائص وهو بمعنى القدوس وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث.

٤- أنَّ الإنفاق لا يفيد إلَّا إذا كان على وفق الشريعة؛ لقوله تعالى: {ابتغاء مرضات الله}؛ وجه ذلك أن من ابتغى شيئًا فإنه لابدَّ أن يسلك الطريق الموصل إليه؛ ولا طريق يوصل إلى مرضات الله إلَّا ما كان على وفق شريعته في الكم والنوع والصفة؛ كما قال تعالى في الكم: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا}[الفرقان: ٦٧]؛ وقال تعالى في النوع: {ولكل أمة جعلنا منسكًا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام}[الحج: ٣٤]، وقال النبي ﷺ: ((لا يقبل الله إلَّا الطيب))؛ وفي الصفة قال الله تعالى: {كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ... } إلخ [البقرة: ٢٦٤].

٥- إثبات رضا الله؛ لقوله تعالى: {مرضات الله}؛ وهو من الصفات الفعلية.

٦- بيان أن تثبيت الإنسان لعمله واطمئنانه به من أسباب قبوله؛ لقوله تعالى: {وتثبيتًا من أنفسهم}؛ لأن الإنسان الذي لا يعمل إلَّا كارهًا، فيه خصلة من خصال المنافقين؛ كما قال تعالى: {ولا ينفقون إلَّا وهم كارهون}[التوبة: ٥٤].

٧- فضل الإنفاق على وجه التَّثبيت من النفس؛ لأنه يندفع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره أو نصيحة.

٨- إثبات القياس؛ لقوله تعالى: {مثل ... كمثل ... }؛ وقد ذكرنا قاعدة فيما سبق أن كل مثال في القرآن سواء كان تمثيليًّا أو إفراديًّا، فهو دليل على ثبوت القياس.

٩- أنَّه يحسن في التعليم أن يبيَّن المعقول بالمحسوس؛ لقوله تعالى: {كمثل جنة بربوة}؛ وهذا من البلاغة؛ لأنه يقرب المعقول إلى أذهان الناس.

١٠- اختيار المكان الأنفع لمن أراد أن ينشئ بستانًا؛ لقوله تعالى: {كمثل جنة بربوة}.

١١- بركة آثار المطر؛ لقوله تعالى: {فآتت أكلها ضعفين}؛ ولهذا وصف الله المطر بأنه مبارك في قوله تعالى: {ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد}[ق~: ٩] الآيتين.

١٢- أنَّه إذا كان مكان البستان طيبًا فإنه يكفي فيه الماء القليل؛ لقوله تعالى: {فإن لم يصبها وابل فطل}.

١٣- إثبات علم الله وعمومه؛ لقوله تعالى: {بما تعملون بصير}(١).

١٤- التَّحذير من مخالفة الله عز وجل؛ لكونه عالمًا بما نعمل.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

قال ابن العثيمين: {أيود أحدكم} الاستفهام هنا بمعنى النفي، كما سيتبيَّن من آخر الآية؛ و{يود}: أي يحب؛ و(الود): خالص المحبة.

{أن تكون له جنة}: أي بستان {من نخيل وأعناب}؛ وهذه من أفضل المأكولات؛ فالتمر حلوى وقوت وفاكهة؛ والعنب كذلك: حلوى وقوت وفاكهة؛ وظاهر كلمة {أنهار}: أي الماءُ عذب؛ وجمع {الأنهار} باعتبار تفرقها في الجنة، وانتشارها في نواحيها؛ إذًا يعتبر هذا البستان كاملًا من كل النواحي: نخيل، وأعناب، ومياه، وثمرات؛ وهو أيضًا جنة كثيرة الأشجار والأغصان والزروع وغير ذلك – هذا هو المشهد الأول من الآية.

والمشهد الثاني قوله تعالى: {وأصابه الكبر}: أي أصاب صاحب الجنة الكبر، فعجز عن تصريفها، والقيام عليها؛ {وله ذرية ضعفاء}: يعني صغارًا أو عاجزين؛ فالأب كبير؛ والذرية ضعفاء – إما لصغرهم أو عجزهم.

{فأصابها}: أي أصاب هذه الجنة {إعصار}: أي ريح شديدة؛ وقيل: ريح منطوية التي ينطوي بعضها على بعض؛ وهذا الإعصار {فيه نار}: أي حرارة شديدة؛ مرَّ الإعصار على هذه الجنة {فاحترقت} حتى تساقطت أوراقها وثمراتها، ويبست أغصانها وعروقها؛ فماذا يكون حال هذا الرجل؟! يكون في غاية ما يكون من البؤس؛ لأنه فقد هذه الجنة في حال الكبر، والذرية الضعفاء؛ فهو في نفسه لا يكتسب، وذريته لا يكتسبون له ولا لأنفسهم؛ فتكون عليه الدنيا أضيق ما يكون، ويتحسَّر على هذه الجنة أشدُّ ما يكون من التحسُّر.

هذا الأمر الذي بيَّنه الله هنا ضربه الله مثلًا للمنفق المانُّ بنفقته؛ انظر كيف يبدئ الله ويعيد في القرآن العظيم للتَّنفير من المنِّ بالصدقة؛ والذي يشبه الإعصار نفس المنّ؛ فهذا الرجل تصدَّق بألف درهم، فهذه الصدقة تنمو له، الألف يكون بسبعمائة ألف إلى أضعاف كثيرة؛ لكنه – والعياذ بالله – منَّ بهذه الصدقة، فصار هذا المنُّ بمنزلة الإعصار الذي أصاب تلك الجنة الفيحاء؛ ولا يمكن أن تنزل هذه الصورة على المرائي؛ لأن المرائي لم يغرس شيئًا أصلًا.

قال السعدي: وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالًا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرَّته، ثم

إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كَلٌّ عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عمَّا لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدِّر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملًا لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثورًا، ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه.

والله سريع الحساب فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يَقْدِم على ما فيه مضرَّته ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلَّة البصيرة يصيِّر صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا، فلهذا أمر تعالى بالتفكُّر وحثَّ عليه، فقال: {كذلك يبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون}.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين ج١ص١٤١: فإن عرض لهذا العامل ما يحرق أعماله ويبطل حسناته، كان بمنزلة رجل {له جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ، لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ، وَأَصابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ، فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ، فَاحْتَرَقَتْ} فإذا كان يوم استيفاء الأعمال، وإحراز الأجور، وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة. فحسرته حينئذ أشدُّ من حسرة هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه للحسرة بسلب النِّعمة عند شدَّة الحاجة إليها، مع عظم قدرها ومنفعتها. والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف، فهو أحوج ما كان إلى نعمته. ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفقته والقيام بمصالحه، بل هم في عياله. فحاجته إلى جنَّته أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته. فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجلُّ الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يومًا وقد وجده محترقًا كله كالصريم. فأيُّ حسرة أعظم من حسرته؟.

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره. وقال مجاهد: هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت. وقال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه.

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يومًا عن هذه الآية فقالوا له: الله أعلم. فغضب عمر. وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء، يا أمير المؤمنين. قال: قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك. قال: ضرب مثلًا لعمل. قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله كلها.

قال الحسن: هذا مثل، قلَّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه، فقد جنته أحوج ما كان إليها. وإن أحدكم والله لأفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

قال أبو زهرة: وفي هذا التشبيه فوائد كثيرة:

أولها: الإشارة إلى أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي متاع قليل، وعلى المؤمن أن ينتفع بكل لحظة بعمل الخير يحتسبه عند ربه، كالرجل الذي يكون في شيخوخة فانية فعليه أن يتوقع الموت دائمًا كما يتوقع صاحب هذه الشيخوخة، وعليه أن يعمل الخير عمل من يخشى الفوت، وقد قرب منه الموت.

ثانيها: أن الرياء والمباهاة والاستطالة بعمل الخير تذهب به بل تحرقه، كما يحرق الإعصار الحديقة الغنَّاء.

ثالثها: أن عمل الخير ينمو ويربو وينتج كالحديقة الغنَّاء التي فيها من كل الثمرات والمياه تجري من تحت أغراسها والشمس تمدُّ ثمارها، فتؤتي أكلها بإذن ربها، فهي في نماء مستمر دائم.

رابعها: أن من مطالب الحياة التي يقرُّها الدين أن يحرص الرجل على أن يترك لأولاده إذا كانوا ذرية ضعافًا، فضلًا من المال يستعينون به في شدائد الحياة، ولا يكونون كلًّا على الناس، كما قال النبي ﷺ لسعد بن مالك في مرض كان يتوقَّع الموت منه، وقد أراد أن يتصدَّق بماله كله فنهاه وأقرَّه على التصدق بالثلث: ((إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس([١]))).

هذه بعض إشارات الآية الكريمة وإنَّها لتشعُّ منها معان سامية متعدِّدة كما يشعُّ الثمر الجيِّد من الغصن المثمر، تعالت كلمات الله العليم الحكيم. ومن أجل هذه المعاني السامية المنبعثة من ذلك النص الكريم المفهومة من عباراته أو إشارته، دعا سبحانه إلى التفكير فيها وتدبُّرها مع غيرها، فقال عز مِن قائل: {كَذَلِكَ يُبَيِّن اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتفَكَّرُونَ}.

قال ابن العثيمين: {كذلك يبيِّن الله لكم الآيات}: أي مثل ذلك البيان؛ وهذا التعبير يرد كثيرًا في القرآن، وتقديره كما سبق؛ وإذا كان هذا التقدير فإننا نقول: الكاف اسم بمعنى مثل؛ وهي منصوبة على أنها مفعول مطلق؛ وعاملها {يبيِّن}؛ و {الآيات}: يشمل الآيات الكونية والشرعية – يبيِّنها الله ويوضِّحها.

{لعلكم تتفكَّرون}: {لعل}: هنا للتعليل؛ و(التفكُّر) إعمال الفكر فيما يراد.

قال أبو زهرة: هذا ختام هذه الآية الكريمة، والآيات المقصودة هنا هي الآيات القرآنية، والمراد من التفكُّر هو التدبُّر والتأمُّل وتعرُّف مرامي العبارات القريبة والبعيدة، والتفكُّر في عواقب الاعمال ونتائجها، وفى أسبابها وغاياتها. والتشبيه في قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتفَكَّرُونَ} فيه تشبيه الكلي العام من بيان الله سبحانه وتعالى في كل

١- (قلت): البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

آياته، بهذه الصورة الجزئية التي رأيناها في تلك التشبيهات الرائعة وذلك السياق المحكم، وتلك المعاني الجليَّة التي يتدبَّرها المتدبِّر، فتجلَّى له معان كريمة سامية كلَّما أعمل فكره وتفكَّر وقدَّر، ومثل ذلك كما يجري في عباراتنا – ولكلام الله المثل الأعلى – أن يقول عندما يعمل عملًا جيِّدًا يعمله فيستحسن، فيقول: كذلك أعمل دائمًا، أي كهذا العمل الذي استحسنتموه كل عمل. ومعنى التشبيه في الآية الكريمة على هذا يكون هكذا: كهذا البيان الجلي الرائع الذي بدا في هذا المثل المحكم بيان الله الكلِّي لكل آياته في كتابه الحكيم.

والمعنى الإجمالي لذلك الختام الكريم لهذا المثل السامي الحكيم: يبيِّن الله سبحانه وتعالى آياته دائمًا، كذلك البيان الذي اتَّضح لكم في هذا المثل الرائع المحكم الذي تتَّسع آفاق الفكر في إدراكه، فينال كل منه بمقدار إدراكه، فبيان الله دائمًا من ذلك النوع، لتتفكَّروا وتتأمَّلوا آيه، وتدركوا مراميها القريبة والبعيدة.

(فصل)

فإن عرض لهذه الأعمال – من الصدقات – ما يبطلها من المنِّ والأذى والرياء. فالرياء يمنع انعقادها سببًا للثواب. والمنِّ والأذى، يبطل الثواب التي كانت سببًا له، فمَثل صاحبها وبطلان عمله، كَمَثَلِ صَفْوانٍ، وهو الحجر الأملس؛ عليه تراب فَأَصابَهُ وابِلٌ، وهو المطر الشديد؛ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا شيء عليه. وتأمَّل أجزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء الممثَّل به، تعرف عظمة القرآن وجلالته.

فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي المانّ والمؤذي. فقلبه في قسوة عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر. والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر. فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل. فليس له مادة متَّصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلاء. وكذلك المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر. فإذا نزل عليه وابل الوحي تكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه. فبرز ما تحته حجرًا صلدًا، لا نبات فيه. وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه، أحوج ما كان إليه. وبالله التوفيق.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– بيان تثبيت المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة؛ لأنه أقرب إلى الفهم؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلًا للمانِّ بالصدقة بصاحب هذه الجنة؛ ووجه الشبه سبقت الإشارة إليه.

٢– جواز ضرب المثل بالقول؛ فهل يجوز ضرب المثل بالفعل – وهو ما يسمى بالتمثيل؟

الجواب: نعم، يجوز لكن بشرط ألَّا يشتمل على شيء محرم؛ ولنضرب لذلك أمثلة للأشياء المحرمة في التمثيل:

أولًا: أن يكون فيه قيام رجل بدور امرأة، أو قيام امرأة بدور رجل؛ لأن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال([1]).

ثانيًا: أن يتضمَّن ازدراء ذوي الفضل من الصحابة، وأئمة المسلمين؛ لأن ازدراءهم واحتقارهم محرَّم؛ والقيام بتمثيلهم يحطُّ من قدرهم – لا سيما إذا علم من حال الممثِّل أنه فاسق؛ لأن الغالب إذا كان فاسقًا وقد تقمص شخصية هذا الرجل التَّقي الذي له قدره، وفضله في الأمة، فإن هذا قد يحط من قدره بهذا الذي قام بدور في التمثيلية.

ثالثًا: أن يكون فيه تقليد لأصوات الحيوانات، مثل أن يقوم بدور تمثيل الكلب، أو الحمار؛ لأن الله لم يذكر التشبيه بالحيوانات إلَّا في مقام الذم، كقوله تعالى: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار}[الجمعة: ٥]، وقوله: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ... }[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] الآيتين؛ وكذلك السنة لم تأت بالتشبيه بالحيوان إلا في مقام الذم، كقول النبي ﷺ: ((العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه([2]))).

رابعًا: أن يتضمَّن تمثيل دور الكافر أو الفاسق؛ بمعنى أن يكون أحد القائمين بأدوار هذه التمثيلية يمثل دور الكافر، أو دور الفاسق؛ لأنه يخشى أن يؤثر ذلك على قلبه: أن يتذكَّر يومًا من الدهر أنه قام بدور الكافر، فيؤثر على قلبه، ويدخل عليه الشيطان من هذه الناحية؛ لكن لو فعل هل يكون كافرًا؟

الجواب: لا يكون كافرًا؛ لأن هذا الرجل لا ينسب الكفر إلى نفسه؛ بل صور نفسه صورة من ينسبه إلى نفسه، كمن قام بتمثيل رجل طلق زوجته؛ فإن زوجة الممثل لا تطلق؛ لأنه لم ينسب الطلاق إلى نفسه؛ بل إلى غيره.

وقد ظنَّ بعض الناس أنه إذا قام بدور الكافر فإنه يكفر، ويخرج من الإسلام، ويجب عليه أن يجدِّد إسلامه، واستدلَّ بالقرآن، وكلام أهل العلم؛ أما القرآن فاستدلَّ بقوله تعالى: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم}[التوبة: ٦٥، ٦٦]: وهؤلاء القوم يدَّعون أنهم يخوضون، ويلعبون؛ يعني: على سبيل التسلية ليقطعوا بها عناء الطريق؛ ويقول أهل العلم: إن من أتى بكلمة الكفر – ولو مازحًا – فإنه يكفر؛ قالوا: وهذا الرجل مازح ليس جادًّا؛ فالجواب أن نقول: إن النبي ﷺ قال: ((ثلاث جدهن جد وهزلهن جد:

١– أخرجه البخاري ص٥٠١، كتاب اللباس، باب ٦١: المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال، حديث رقم ٥٨٨٦.

٢– أخرجه البخاري ص٢٠٤، كتاب الهبة، باب ١٤: هبة الرجل لامرأته، والمرأة لزوجها، حديث رقم ٢٥٨٩، وأخرجه مسلم ص٩٦٠، كتاب الهبات، باب ٢: تحريم الرجوع في الصدقة بعد القبض ... ، حديث رقم ٤١٧٠ [٥] ١٦٢٢.

النكاح، والطلاق، والرجعة([1]))؛ فلو قال الرجل لزوجته: أنت طالق يمزح عليها فإنها تطلق؛ فهل تقولون: إذا قام الممثِّل بدور رجل طلق امرأته فإنها تطلق امرأته؟ سيقولون: لا؛ وكلنا يقول: لا؛ والفرق ظاهر؛ لأن المازح يضيف الفعل إلى نفسه، والممثل يضيفه إلى غيره؛ ولهذا لا تطلق زوجته لو قام بدور تمثيل المطلق؛ ولا يكفر لو قام بدوره تمثيل الكافر؛ لكن أرى أنه لا يجوز من ناحية أخرى؛ وهي أنه لعلَّه يتأثر قلبه في المستقبل، حيث يتذكر أنه كان يومًا من الدهر يمثل دور الكافر؛ ثم إنه ربما يعيَّر به فيقال مثلًا: أين أبو جهل؟! إذا قام بدوره.

ويمكن أن نأتي بدليل على جواز التمثيل؛ وذلك في قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأقرع، والأعمى، والأبرص؛ فالملك أتى الأبرص، والأقرع، والأعمى، وسألهم ماذا يريدون؛ كل ذكر أمنيته؛ فأعطاه الله سبحانه وتعالى أمنيته؛ ثم عاد إليهم الملك مرة أخرى؛ عاد إلى الأبرص بصورته، وهيئته – يعني أبرص فقيرًا – وقال له: ((إني رجل فقير، وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك([2]))؛ فالملك يمثل دور رجل فقير – وهو ليس بفقير – وأبرص – وليس بأبرص – وكذلك بالنسبة للأقرع، والأعمى؛ فبعض العلماء استدل بهذا الحديث على جواز التمثيل.

فعليه نقول إذا كان التمثيل لا يشتمل على شيء محرَّم من الأمثلة التي ذكرناها، أو غيرها، فإنه لا بأس به، وليس من الكذب في شيء؛ لأن الكذب يضيف الإنسان الأمر إلى نفسه، فيأتي إليك يقرع الباب؛ تقول: من؟ يقول: أنا زيد – وليس هو بزيد؛ فهذا كاذب؛ لكن يأتي إنسان يقول: أنا أمثل دور فلان، ويعرف الناس أنه ليس فلانًا؛ فليس بكذب؛ لكنه إذا نسب القول إلى شخص معين فهذا يحتاج إلى ثبوت هذا القول عن هذا الشخص المعين؛ أما إذا حكى قصة رجل بوصفه – لا بعينه – فليس بكذب.

٣– أن الله سبحانه وتعالى يبيِّن لعباده الآيات الشرعية، والكونية؛ كلها مبيِّنة في كتابه سبحانه وتعالى أتمُّ بيان.

٤– الحثُّ على التفكُّر، وأنه غاية مقصودة؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتفكرون}؛ فالإنسان مأمور بالتفكُّر في الآيات الكونية، والشرعية؛ لأن التفكُّر يؤدي إلى نتائج طيبة؛ لكن هذا فيما يمكن الوصول إليه بالتفكُّر فيه؛ أمَّا ما لا يمكن الوصول إليه بالتَّفكُّر فيه فإنَّ التَّفكُّر فيه ضياع وقت، وربما يوصل إلى محظور، مثل التفكُّر في كيفية صفات الله عز وجل: هذا لا يجوز؛ لأنك لن تصل إلى نتيجة؛ لأن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه؛ وغاية لا تمكن الإحاطة بها، كما قال تعالى: {لا

١– أخرجه أبو داود ص١٣٨٤، كتاب الطلاق، باب ٩: في الطلاق على الهزل، حديث رقم ٢١٩٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٦٩، كتاب الطلاق واللعان، باب ٩: ما جاء في الجد والهزل في الطلاق، حديث رقم ١١٨٤، وأخرجه ابن ماجة ص٢٥٩٩، كتاب الطلاق، باب ١٣: من طلق أو نكح أو راجع لاعبا، حديث رقم ٢٠٣٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١٩٨/٢، كتاب الطلاق، وقال: [حديث صحيح الإسناد وعبد الرحمن بن حبيب هذا هو ابن أردك من ثقات المدنيين] ، وعقب الذهبي: [قلت: فيه لين] : وقال الحافظ: [مختلف فيه، قال النسائي: منكر الحديث ووثقه غيره فهو على هذا أحسن ا. هـ التلخيص الحبير ٢٣٦/٣) ، وقال الألباني: حسن (صحيح أبي داود ٩/٢) ..

٢– أخرجه البخاري ص٢٨٢ – ٢٨٣، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥١: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث رقم ٣٤٦٤، وأخرجه مسلم ص١١٩١ – ١١٩٢، كتاب الزهد والرقائق، باب ١: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، حديث رقم ٧٤٣١ [١٠] ٢٩٦٤.

تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار}[الأنعام: ١٠٣]؛ فلا يجوز لأحد أن يتفكَّر في كيفية استواء الله عز وجل على العرش؛ بل يجب الكفَّ عنه؛ لأنه سيؤدي إلى نتيجة سيئة؛ إما إلى التكييف، أو التمثيل، أو التعطيل – ولابدَّ؛ وأما التفكُّر في معاني أسماء الله فمطلوب؛ لأن المعنى كما قال الإمام مالك – رحمه الله – لما سئل: {الرحمن على العرش استوى} [طه: ٥]: كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

قال أبو زهرة: بيَّن سبحانه وتعالى الإنفاق الذي يعدُّ برًّا، ويؤتي ثمراته في الدنيا والآخرة، وهو الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا ابتغاء تسهيل مطلب من مطالب الدنيا، ولا طلبًا لجاه، ولا ملَقًا لذي جاه، ويشترط في ثواب الآخرة مع ذلك ألَّا يعقب العطاء مَنٌّ أو أذى، فلا يُشعر المعطي من أعطاه بمنَّة العطاء، ويستكثر عليه ما أعطاه، ولا يؤذيه بإعلان عطائه أو توجيه كلمات مذلَّة، فحسبه أن يده هي الدنيا، ويد المعطي العليا، والنبي ﷺ قال: ((اليد العليا خير من اليد السفلى([1]))، فلا يصح أن يجمع عليه بين هذا الضعف مع المنِّ وأذى الكشف والإعلان في مواطن لَا يحسن الإعلان فيها. وفي هذه الآيات التي نتكلم في معانيها السامية الآن بيان المال الذي يكون منه العطاء، ففي الآيات السابقة كان بيان مقاصد العطاء وما يقترب به وما يعقبه، وفي هذه الآيات بيان المال الذي يكون منه العطاء؛ وأن تخيُّر المال واصطفاءه يدلُّ على مقدار الصفاء في النيَّة، فمن اختار عند العطاء أجود ماله، كان ذلك دليلًا على حسن القصد إن لم يصحب العطاء مَنٌّ أو أذى أو رياء، وإن اتَّجه إلى غير الجيِّد من ماله يعطيه كان ذلك دليلًا على ضعف العزيمة وشح النفس {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

ولذلك بيَّن سبحانه عقب المطالبة بأن يكون ابتغاء مرضاة الله أنه لَا يسوغ أن يكون الإنفاق من الرديء دون الجيِّد، ومن الخبيث دون الطيِّب، فقال تعالت كلماته: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيات مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ}.

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا}: سبق مرارًا وتكرارًا أن تصدير الخطاب بالنداء يدلُّ على أهميته والعناية به؛ لأن النداء يتضمَّن التنبيه؛ والتنبيه على الشيء دليل على الاهتمام به، وأن تصديره بـ{يا أيها الذين آمنوا} يفيد عدَّة فوائد:

١- (قلت): البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤).

أولًا: الإغراء؛ و(الإغراء): معناه الحثُّ على قبول ما تخاطَب به؛ ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: (إذا قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه)؛ ولهذا لو ناديتك بوصفك، وقلت: (يا رجل، يا ذكي، يا كريم)، معناه: يا من توصف بهذا اجعل آثار هذا الشيء باديًا عليك.

ثانيًا: أن امتثال ما جاء في هذا الخطاب من مقتضيات الإيمان؛ كأنه تعالى قال: {يا أيها الذين آمنوا} إن إيمانكم يدعوكم إلى كذا وكذا.

ثالثًا: أن مخالفته نقص في الإيمان؛ لأنه لو حقَّق هذا الوصف لامتثل ما جاء في الخطاب.

{أنفِقوا من طيبات ما كسبتم}: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى فيما سبق فضيلة الإنفاق ابتغاء وجهه وسوء العاقبة لمن منَّ بصدقته أو أنفق رياءً، حثَّ على الإنفاق؛ لكنَّ الفرق بين ما هنا وما سبق: أن ما هنا بيان للذي يُنفَق منه؛ وهناك بيان للذي ينفَق عليه.

وقوله تعالى: {من طيّبات ما كسبتم}: أي مما كسبتموه بطريق حلال؛ و{كسبتم}: أي ما حصَّلتموه بالكسب، كالذي يحصل بالبيع والشراء والتأجير وغيرها؛ وكل شيء حصل بعمل منك فهو من كسبك.

{ومما أخرجنا لكم من الأرض}: قال بعضهم: إنه معطوف على {ما} في قوله تعالى: {ما كسبتم}: يعني (ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض)؛ ولكن الصحيح الذي يظهر أنه معطوف على قوله تعالى: {طيّبات}: يعني (أنفقوا من طيبات ما كسبتم، وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض)؛ لأن ما أُخرج الله لنا من الأرض كله طيِّبٌ ملكٌ لنا، كما قال تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا}[البقرة: ٢٩].

وقوله: {ممَّا}: لو قلنا: إن {من} للتبعيض يكون المعنى: أنفقوا بعض طيبات ما كسبتم، وبعض ما أخرجنا لكم من الأرض؛ وهناك احتمال أن {من} لبيان الجنس؛ فيشمل ما لو أنفق الإنسان كل ماله؛ وهذا عندي أحسن؛ لأن التي للجنس تعمُّ القليل والكثير.

{أخرجنا لكم من الأرض}: يشمل ما أخرج من ثمرات النخيل، والأعناب، والزروع، والفاكهة، والمعادن، وغير ذلك ممَّا يجب أن ننفق منه.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٣: أضاف سبحانه الكسب إليهم وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه لأنه ليس فعلًا لهم، ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم وأضاف مفعوله الذى لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرَّد على من سوَّى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأْثيره عنها بالكلية.

وخصَّ سبحانه هذين النوعين – وهما الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي – إما بحسب الواقع فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب والأنصار كانوا أصحاب

حرث وزرع، فخصَّ هذين النوعين بالذِّكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، وإمَّا لأنهما أُصول الأموال، وما عداهما فعنهما يكون، ومنهما ينشأ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلَّق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

قال ابن كثير: يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ – وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقَةُ هَاهُنَا؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ – مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي التِّجَارَةَ بِتَيْسِيرِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَطْيَبِ الْمَالِ وَأَجْوَدِهِ وَأَنْفَسِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّصَدُّقِ بِرُذَالَةِ الْمَالِ ودَنِيئه – وَهُوَ خَبِيثُهُ – فَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلِهَذَا قَالَ: {وَلا تَيَمَّمُوا}: أَيْ تَقْصِدُوا، {الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ}: أَيْ لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ مَا أَخَذْتُمُوهُ، إِلَّا أَنْ تَتَغَاضَوْا فِيهِ، فَاللَّهُ أَغْنَى عَنْهُ مِنْكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مَا تَكْرَهُونَ.

عَنِ الْبَرَاءِ: قَالَ: نَزَلَتْ فِينَا، كُنَّا أَصْحَابَ نَخْلٍ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ نَخْلِهِ بِقَدْرِ كَثْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، فَيَأْتِي الرَّجُلُ بالقِنو فَيُعَلِّقُهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا جَاعَ جَاءَ فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَيَسْقُطُ مِنْهُ الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ، فَيَأْكُلُ، وَكَانَ أُنَاسٌ مِمَّنْ لَا يَرْغَبُونَ فِي الْخَيْرِ يَأْتِي بالقِنو فِيهِ الحَشَف والشِّيص، وَيَأْتِي بِالْقِنْوِ قَدِ انْكَسَرَ فَيُعَلِّقُهُ، فَنَزَلَتْ: {وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ} قَالَ: لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أُهْدِيَ لَهُ مِثْلَ مَا أَعطَى مَا أَخَذَهُ إِلَّا عَلَى إِغْمَاضٍ وحَياء، فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ يَجِيءُ الرَّجُلُ مِنَّا بِصَالِحِ مَا عِنْدَهُ(١). عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ لَوْنَيْنِ مِنَ التَّمْرِ: الجُعْرُور وَلَوْنِ الحُبَيق. وَكَانَ النَّاسُ يَتيمّمون شِرَارَ ثِمَارِهِمْ ثُمَّ يُخْرِجُونَهَا فِي الصَّدَقَةِ، فَنَزَلَتْ: {وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ}(٢). عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مغفل فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} قَالَ: كَسْبُ الْمُسْلِمِ لَا يَكُونُ خَبِيثًا، وَلَكِنْ لَا يَصَّدَّقُ بِالْحَشَفِ، وَالدِّرْهَمِ الزَّيْفِ، وَمَا لَا خير فيه. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَبٍّ فَلَمْ يَأْكُلْهُ وَلَمْ يَنْهَ عَنْهُ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُطْعِمُهُ الْمَسَاكِينَ؟ قَالَ: ((لَا تُطْعِمُوهُمْ مِمَّا لَا تَأْكُلُونَ(٣))). ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ عَفَّانَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ألا أُطْعِمَهُ الْمَسَاكِينَ؟ قَالَ: ((لَا تُطْعِمُوهُمْ مَا لَا تَأْكُلُونَ)).

١- صحيح: سنن الترمذي برقم (٢٩٨٧) .
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٩٨٧)، وابن ماجة (١٨٢٢).
٢- صحيح: أخرجه النسائي في المجتبى (١٦٠٧)، ورواه الحاكم في المستدرك (١/٤٠٢) والطبراني في المعجم الكبير (٦/٧٦) من طريق أبي الوليد الطيالسي به، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط البخاري.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٢٤٩٢)، وفي صحيح أبي داود (١٤٢٥).
٣- حسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٦٤).

قال ابن العثيمين: {ولا تيمَّموا الخبيث منه تنفقون}: أي لا تقصدوا الخبيث منه فتنفقونه؛ لأن (التيمم) في اللغة: القصد؛ ومنه قوله تعالى: {فتيمَّموا صعيدًا طيِّبًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه}[المائدة: ٦]؛ والمراد بـ{الخبيث} هنا الرديء؛ يعني: لا تقصدوا الرديء تخرجونه، وتبقون لأنفسكم الطيب؛ فإن هذا ليس من العدل؛ ولهذا قال تعالى: {ولستم بآخذيه إلَّا أن تغمضوا فيه}.

وقوله تعالى: {منه تنفقون} يحتمل في {منه} وجهان؛ أحدهما: أنها متعلِّقة بـ{الخبيث} على أنها حال؛ أي الخبيث حال كونه ممَّا أخرجنا لكم من الأرض؛ وعلى هذا يكون في {تنفقون} ضمير محذوف؛ والتقدير: تنفقونه؛ الوجه الثاني: أنها متعلِّقة بقوله تعالى: {تنفقون}: يعني ولا تقصدوا الخبيث تنفقون منه؛ وقدِّمت على عاملها للحصر؛ والوجهان من حيث المعنى لا يختلفان؛ فإن معناها أن الله ينهانا أن نقصد الخبيث – وهو الرديء – لننفِق منه.

{ولستم بآخذيه}: أي لستم بآخذي الرديء عن الجيد لو كان الحق لكم {إلَّا أن تغمضوا فيه}: أي تأخذوه عن إغماض؛ و(الإغماض) أخذ الشيء على كراهيته – كأنه أغمض عينيه كراهية أن يراه.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٤: فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء – كما هو عادة أكثر النفوس تمسك الجيد لها وتخرج الرديء – للفقير، ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيمُّمه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك، لا عن قصد وتيمُّم، بل إمَّا عن اتفاق إذا كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمَّم الخبيث بل تيمَّم إخراج بعض ما منَّ الله عليه، وموقع قوله: {مِنْهُ تُنْفِقُونَ} موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال تعالى: {وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ}: أي لو كنتم أنتم المستحقين له وبذل لكم لم تأخذوه في حقوقكم إلَّا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخَّصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقِّه، ويقال للبائع: أغمِض – أي لا تستقص – كأنَّك لا تبصر، وحقيقته من إغماض الجفن فكأَن الرَّائي لكراهته له لا يملأُ عينه منه، بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضًا، ومنه قول الشاعر: لم يفتنا بالوتر قوم وللضي ... م رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم، ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له، والله أحق من يخير له خيار الأشياءِ وأنفسها؟

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم وهو سبحانه طيِّب لا يقبل إلَّا طيبًا؟!

قال ابن العثيمين: {واعلموا أن الله غني[١]حميد}؛ فهو لم يطلب منكم الإنفاق لفقره واحتياجه؛ {حميد}: يحتمل أن تكون بمعنى حامد؛ وبمعنى محمود؛ وكلاهما صحيح؛ لأن (فعيلًا) تأتي بمعنى فاعل؛ وبمعنى مفعول؛ إتيانها بمعنى فاعل مثل: (رحيم) بمعنى راحم؛ و(سميع) بمعنى سامع؛ وإتيانها بمعنى مفعول مثل: (قتيل)، و(جريح)، و(ذبيح)، وما أشبه ذلك؛ وهنا {حميد} تصح أن تكون بمعنى حامد، وبمعنى محمود؛ أمَّا كون الله محمودًا فظاهر؛ وأما كونه حامدًا فلأنه سبحانه وتعالى يحمد من يستحق الحمد من عباده؛ ولهذا أثنى على أنبيائه ورسله والصالحين من عباده؛ وهذا يدلُّ على أنه عز وجل حامد لمن يستحق الحمد.

ووجه المناسبة في ذكر {الحميد} بعد {الغني} أن غناه عز وجل غنىً يُحمد عليه؛ بخلاف غنى المخلوق؛ فقد يحمد عليه، وقد لا يحمد؛ فلا يحمد المخلوق على غناه إذا كان بخيلًا؛ وإنَّما يحمد إذا بذله؛ والله عز وجل غني حميد؛ فهو لم يسألكم هذا لحاجته إليه؛ ولكن لمصلحتكم أنتم.

قال ابن كثير: أَيْ: وَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَاتِ وَبِالطَّيِّبِ مِنْهَا فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيُسَاوِيَ الْغَنِيُّ الْفَقِيرَ، كَقَوْلِهِ: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}[الْحَجِّ: ٣٧] وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَجَمِيعُ خَلْقِهِ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ لَا يَنْفَدُ مَا لَدَيْهِ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، فليَعلمْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ، كَرِيمٌ جَوَادٌ، سَيَجْزِيهِ بِهَا وَيُضَاعِفُهَا لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ، وَهُوَ الْحَمِيدُ، أَيِ: الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٤: ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما فقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِي حَمِيدٌ}، فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث إمَّا أن يقبله لحاجته إليه، وإمَّا أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأمَّا الغنى عنه، الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله.

قال أبو زهرة: ختم سبحانه وتعالى الآية بهذه الجملة السامية، وهي تتضمَّن التذكير بالله تعالى ذي الجلال والإكرام، وإشعارهم برقابته على أفعالهم وصدقاتهم، ولذا ذكر لفظ الجلالة الذي يربِّي المهابة وخشيته سبحانه في النفوس؛ لأنه المعبود وحده، المسيطر على كل ما في الوجود وحده، وقد تضمَّنت الجملة وصف الله سبحانه وتعالى بوصفين كريمين مناسبين:

أولهما: وصفه بأنه سبحانه غني، فمن يعطي الفقراء فهو يقرض غنيًّا يضاعف ما أقرض عند العطاء، وهو غني فلا يقبل إلَّا الجيِّد الذي يقدم بنفس سمحة، وبقلب مطمئن ممَّن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وهو الحميد، أي الذي

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغني} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٦٣) من سورة البقرة.

يستحق أن يحمد، ولا يحمد سواه؛ لأنه المعطي الوهاب؛ فهو الذي وهب الغني غناه، واختبر الفقير بفقره، وكان حقًّا على من أعطاه أن يحمده، والحمد أن يجود من ماله سمحًا في جوده، قاصدًا إلى الطيِّب من ماله يجود به، فإن خالف ذلك فقد أخطأ مرتين: مرة لأنه لم يقرض الله قرضًا حسنًا، وهو الغني المعطي، ومرة ثانية؛ لأنه أخلَّ بواجب الحمد، فالاعتراف بالنعمة للمنعِم كان يوجب عليه أن يعطي خير ما في يده، ورجاء الثواب، ورجاء دوام هذه النعمة، كان يوجب عليه مضاعفة العطاء، لَا تحرِّي البخس منه.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الحميد}، فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه كما ورد في قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[إبراهيم: ١]، وقال تعالى: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ}[الحج: ٢٤].

وقد اقترن اسم الله {الحميد} باسمه {الغني} كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[فاطر: ١٥]، وفي قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[الحج: ٦٤]، وقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[الممتحنة: ٦]، واقترن اسمه {الحميد} ب{العزيز} كما في قوله تعالى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[سبأ:٦]، {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[البروج: ٨]، واقترن بالوليّ: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}[الشورى: ٢٨]، واقترن بالمجيد: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}[هود: ٧٣]، واقترن بالحكيم: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[فصلت: ٤٢].

وفي صحيح البخاري من حديث عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ أَلاَ أُهْدِى لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ بَلَى، فَأَهْدِهَا لي، فَقَالَ سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَيْفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ؟ قَالَ: ((قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ([١])).

١- (قلت): البخاري (٣٣٧٠) واللفظ له، ومسلم (٤٠٦).

{الحميد} في اللغة صيغة مبالغة على وزن فعيل بمعنى اسم المفعول وهو المحمود، فعله حمد يحمد حمدًا، والحمد نقيض الذَّم بمعنى الشكر والثناء، وهو المكافأة على العمل، والحمد والشكر مُتَقاربان لكن الحمد أعَمُّ من الشكر، لأنّك تحمَد الإنسان على صِفاته الذَّاتِّية وعلى عطائه ولا تَشْكُره على صِفاته، والتحميد كثرة حمد اللَّه سبحانه بالمحامد الحسنة، والمحمود المشهور بفعل الخير للغير، ومنه ما ورد عند النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث جَابِرٍ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ إِلاَّ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ([1]))، ومعنى ابْعَثْه المقام المحمود الذي وَعَدْتَه: أي الذي يَحمْدَه فيه جميع الخلق لتعْجيل الحساب والإراحة من طُول الوقوف.

و{الحميد} في أسماء الله هو المستحق للحمد والثناء، والله تعالى هو {الحميد} له الحمد، حمد نفسه فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الفاتحة: ٢]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}[الأنعام: ١]، {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}[النمل: ٥٩]، وكذلك هو {الحميد} الذي يحمده عباده الموحدون يحمدونه على السراء والضراء كما قال تعالى في وصفهم: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}[فاطر: ٣٤]، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}[الأعراف: ٤٣].

واسم الله {الحميد} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة الحمد بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن وعلى صفة الحمد بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية والسمع والبصر والمشيئة والحكمة والغنى والعزة والجلال والعظمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال، واسم الله {الحميد} دلَّ على صفة من صفات الأفعال.

كيف ندعو الله باسمه {الحميد} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة، كما في حديث البخاري السابق: ((قَالَ قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ))، وعند البخاري من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: ((سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي([2]))، وعند مسلم من حديث عُمَر بْنَ الْخَطَّابِ أنه كَانَ يَجْهَرُ بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ يَقُولُ: ((سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ([3]))، وعند البخاري من حديث ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ

١- (قلت): البخاري (٦١٤).
- وصححه الإمام الألباني في الارواء (٢٤٣) ، والروض (٢٤٢)، تخريج الكلم الطيب (٧٢)، صحيح أبي داود (٥٤٠)، الظلال (٨٢٦)، تخريج فقه السيرة (٤١٨).
٢- (قلت): البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).
٣- (قلت): مسلم (٣٩٩).

مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: ((اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ([1]))، وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ([2]))).

أما دعاء العبادة فهو ظهور الحمد في سلوك العبد فيحمده في القلب أن وفقه للإيمان، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}[الأعراف: ٤٣].ويحمده باللسان في كل زمان ومكان، فالحمد لله تملأ الميزان كما ثبت عند مسلم من حديث أبي مالك الأشعري أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ([3])))، وعند مسلم من حديث سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: ((أَحَبُّ الْكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ([4]))). ويحمده بالجوارح والأركان فيشكر الله بمزيد من الطاعة والإيمان {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}[سبأ: ١٣].

قال السعدي: فقد تضمَّنت هذه الآية أمورًا عظيمة:

منها: الحثُّ على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك.

ومنها: وجوب الزكاة من النقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: {من طيِّبات ما كسبتم}.

ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن.

ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله {أخرجنا لكم} فمن أخرجت له وجبت عليه.

ومنها: أن الأموال المعدَّة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي

١- (قلت): البخاري (١١٢٠).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٤٣٣).

٣- (قلت): مسلم (٢٢٣).

٤- (قلت): مسلم (٢١٣٧).

يحصل فيها النَّماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدَّة لذلك ولا مقدورًا عليها، فليس فيها هذا المعنى.

ومنها: أن الرَّديء ينهى عن إخراجه ولا يجزئ في الزكاة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة الإيمان؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}؛ فإن هذا وصف يقتضي امتثال أمر الله؛ وهذا يدلُّ على فضيلة الإيمان.

٢- أنَّ من مقتضى الإيمان امتثال أمر الله، واجتناب نهيه؛ ووجهه أن الله تعالى قال: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا}؛ فلولا أن للإيمان تأثيرًا لكان تصدير الأمر بهذا الوصف لغوًا لا فائدة منه.

٣- وجوب الإنفاق من طيِّبات ما كسبنا؛ لقوله تعالى: {أنفقوا}؛ والأصل في الأمر الوجوب حتى يقوم دليل صارف عن الوجوب.

٤- وجوب الزكاة في عروض التجارة؛ لقوله تعالى: {ما كسبتم}؛ ولا شك أن عروض التجارة كسب؛ فإنها كسب بالمعاملة.

٥- أنَّ المال الحرام لا يؤمر بالإنفاق منه؛ لأنه خبيث؛ والله تعالى طيب لا يقبل إلَّا طيِّبًا.

فإذا قال قائل: ماذا أصنع به إذا تبت؟

فالجواب: أنَّه يردَّه على صاحبه إن أخذه بغير اختياره؛ فإن كان قد مات ردَّه على ورثته؛ فإن لم يكن له ورثة فعلى بيت المال؛ فإن تعذر ذلك تصدَّق به عمَّن هو له؛ أما إذا أخذه باختيار صاحبه كالرِّبا، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، فإنه لا يردَّه عليه؛ ولكن يتصدَّق به؛ هذا إذا كان حين اكتسابه إيَّاه عالمًا بالتحريم؛ أمَّا إن كان جاهلًا فإنه لا يجب عليه أن يتصدَّق به؛ لقوله تعالى: {فله ما سلف وأمره إلى الله}[البقرة: ٢٧٥].

٦- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {أنفقوا من طيبات ما كسبتم}؛ ووجه الدِّلالة: أنَّه لو كان الإنسان مجبرًا على عمله لم يصح أن يوجَّه إليه الأمر بالإنفاق؛ لأنَّه لا يقدر على زعم هؤلاء الجبرية؛ ولأنَّ الله أضاف الكسب إلى المخاطب في قوله تعالى: {ما كسبتم}؛ ولو كان مجبرًا عليه لم يصح أن يكون من كسبه؛ وليعلم أن مثل هذا الدليل في الرَّد على الجبرية كثير في القرآن، وإنما نذكره عند كل آية لينتفع بذلك من يريد إحصاء الأدلة على هؤلاء؛ وإلَّا فالدليل الواحد كاف لمن أراد الحق.

٧- وجوب الزكاة في الخارج من الأرض؛ لقوله تعالى: {وممَّا أخرجنا لكم من الأرض}؛ وظاهر الآية وجوب الزكاة في الخارج من الأرض مطلقًا سواء كان قليلًا، أم كثيرًا؛ وسواء كان مما يوسق ويكال، أم لا؛ وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم؛ وهو أن الزكاة تجب في الخارج من الأرض مطلقًا لعموم الآية؛ ولكن الصواب ما دلَّت عليه السنة من أن الزكاة لا تجب إلَّا في شيء معيَّن جنسًا وقدرًا؛ فلا تجب الزكاة في القليل؛ لقول النبي ﷺ: ((ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة[1]))؛ و(الوسق) هو الحمل؛ ومقدار خمسة أوسق: ثلاثمائة صاع بالصاع النبوي.

ولا تجب الزكاة إلَّا فيما يكال؛ وذلك من قوله ﷺ: ((ليس فيما دون خمسة أوسق))؛ و(الوسق) كما ذكرت هو الحمل؛ وهو ستون صاعًا؛ وعليه فلا تجب الزكاة في الخضراوات مثل: التفاح، والبرتقال، والأترج، وشبهها، لأن السنة بيَّنت أنه لابدَّ من أن يكون ذلك الشيء مما يوسق.

(تنبيه)

لم يبيَّن في الآية مقدار الواجب إنفاقه من الكسب، والخارج من الأرض؛ ولكن السنة بيَّنت أن مقدار الواجب فيما حصل من الكسب ربع العشر؛ ومقدار الواجب في الخارج من الأرض العشر فيما يسقى بلا مؤونة؛ ونصفه فيما يسقى بمؤونة.

٨- ما يتبيَّن من اختلاف التعبير في قوله تعالى: {من طيِّبات ما كسبتم وممَّا أخرجنا لكم من الأرض}؛ فلماذا عبر في الأول تعبيرًا يدلُّ على أن ذلك من فعل العبد؛ وفي الثاني عبَّر تعبيرًا يدلُّ على أنه ليس من فعل العبد؟ الأمر في ذلك واضح؛ لأن نمو التجارة بالكسب، وغالبه من فعل العبد: يبيع، ويشتري، ويكسب؛ أما ما خرج من الأرض فليس من فعل العبد في الواقع، كما قال تعالى: {أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون}[الواقعة: ٦٣، ٦٤].

٩- وجوب الزكاة في المعادن؛ لدخولها في عموم قوله تعالى: {ومما أخرجنا لكم من الأرض} لكن العلماء يقولون: إن كان المعدن ذهبًا أو فضة وجبت فيه الزكاة بكل حال؛ وإن كان غير ذهب، ولا فضة، كالنحاس، والرصاص، وما أشبههما ففيه الزكاة إن أعدَّه للتجارة؛ لأن هذه المعادن لا تجب الزكاة فيها بعينها؛ إنما تجب الزكاة فيها إذا نواها للتجارة.

وهل يستفاد من الآية وجوب الزكاة في الركاز – والركاز هو ما وجد من دفن الجاهلية – أي مدفون الجاهلية؛ يعني ما وجد من النقود القديمة، أو غيرها التي تنسب إلى زمن بعيد بحيث يغلب على الظن أنه ليس لها أهلٌ وقت وجودها؟ لا

١- أخرجه البخاري ص١١٤، كتاب الزكاة، باب ٣٢، زكاة الورق، حديث رقم ١٤٤٧؛ وأخرجه مسلم ص٨٣١، كتاب الزكاة، باب ١: ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، حديث رقم ٢٢٦٣ [١] ٩٧٩.

يستفاد؛ لكن السنة دلت على أن الواجب فيه الخمس([1])؛ ثم اختلف العلماء ما المراد بالخمس: هل هو الجزء المشاع – وهو واحد من خمسة؛ أو هو الخمس الذي مصرفه الفيء؟ على قولين؛ وبسط ذلك مذكور في كتب الفقه.

١٠– تحريم قصد الرديء في إخراج الزكاة؛ لقوله تعالى: {ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون}.

١١– إذا ضمَّت هذه الآية إلى حديث ابن عباس حين بعث النبي معاذًا إلى اليمن، وقال: ((إيَّاك وكرائم أموالهم، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ([2]))، تبيَّن لك العدل في الشريعة الإسلامية؛ لأن العامل على الزكاة لو قصد الكرائم من الأموال صار في هذا إجحاف على أهل الأموال؛ ولو قصد الرديء صار فيه إجحاف على أهل الزكاة؛ فصار الواجب وسطًا؛ لا نلزم صاحب المال بإخراج الأجود؛ ولا نمكنه من إخراج الأردأ؛ بل يخرج الوسط.

١٢– الإشارة إلى قاعدة إيمانية عامة؛ وهي قول الرسول ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه([3]))؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى قال: {ولستم بآخذيه إلَّا أن تغمضوا فيه}؛ فالإنسان لا يرضى بهذا لنفسه فلماذا يرضاه لغيره؟! فإذا كنت أنت لو أعطيت الرديء من مال مشترك بينك وبين غيرك ما أخذته إلَّا على إغماض، وإغضاء عن بعض الشيء؛ فلماذا تختاره لغيرك، ولا تختاره لنفسك؟! وهذا ينبغي للإنسان أن يتَّخذه قاعدة فيما يعامل به غيره؛ وهو أن يعامله بما يحب أن يعامله به؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: ((من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه([4]))، هذه قاعدة في المعاملة مع الناس؛ ومع الأسف الشديد أن كثيرًا من الناس اليوم لا يتعاملون فيما بينهم على هذا الوجه؛ كثير من الناس يرى أن المكر والكذب غنيمة.

١٣– إثبات القياس؛ وذلك لقوله تعالى: {ولستم بآخذيه إلَّا أن تغمضوا فيه}؛ يعني إذا كنت لا ترضاه لنفسك فلا ترضاه لغيرك؛ أي قس هذا بهذا.

١٤– إثبات اسمين من أسماء الله، وما تضمَّناه من صفة؛ وهما {غني} و{حميد}.

١– راجع البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦٦: في الركاز الخمس، حديث رقم ١٤٩٩؛ ومسلما ص٩٨١، كتاب الحدود، باب ١١: جرح العجماء والمعدن والبئر جبار، حديث رقم ٤٤٦٥ [٤٥] ١٧١٠.

٢– (قلت): البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((وكرائم أموالهم)): الكرائم جمع كريمة، قال صاحب المطالع: هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف، ((فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)): أي أنها مسموعة لا ترد.

٣– أخرجه البخاري ص٣، كتاب الإيمان، باب ٧: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم ١٣.

٤– أخرجه مسلم ص١٠٠٩، كتاب الإمارة، باب ١٠: وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول، حديث رقم ٤٧٧٣ [٤٤] ١٨٤٢.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

قال ابن العثيمين: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء}؛ {الشيطان} مبتدأ؛ وخبره جملة: {يعدكم}؛ و{يأمركم} فيها قراءتان: الضم، والسكون؛ فأمَّا الضم فواضح؛ لأنه فعل مضارع لم يدخل عليه ناصب، ولا جازم؛ وأمَّا السكون فللتَّخفيف سماعًا لا قياسًا.

{الشيطان} اسم من أسماء إبليس؛ قيل: إنه مشتق من (شطن) إذا بعد – وعلى هذا فالنون أصلية؛ وقيل: إنه مشتق من (شاط) إذا تغيظ وغضب؛ لأن صفته هو التغيظ، والغضب، والحمق، والجهل؛ ولكن الأول أقرب: أنه من (شطن) إذا بعد؛ بدليل أنه مصروف؛ و{أل} فيه للجنس؛ فليس خاصًّا بشيطان واحد.

{يعدُكم الفقر}: أي يهدِّدكم الفقر إذا تصدَّقتم؛ وقوله تعالى: {بالفحشاء}: أي البخل؛ وإنما فُسِّر بالبخل؛ لأن فحش كل شيء بحسب القرينة والسياق؛ فقد يراد به الزنى، كقوله تعالى: {ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة}[الإسراء: ٣٢]؛ وقد يراد به اللواط، كما في قوله تعالى عن لوط إذا قال لقومه: {أتأتون الفاحشة}[الأعراف: ٨٠]؛ وقد يراد به ما يستفحش من الذنوب عمومًا كقوله تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش}[الشورى: ٣٧].

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان ج١ص١٠٧: والصواب: أن الفحشاء على بابها وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم: أي بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره: يأمرهم بالشر ويخوِّفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان، فإنه إذا خوَّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيَّنها له ارتكبها، وسمَّى سبحانه تخويفه وعد الانتظار الذي خوَّفه إيَّاه، كما ينتظر الموعود ما وعد به، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة: وقاية الشر، والفضل: إعطاء الخير، وفي الحديث المشهور: ((إن للمَلَك بقلب ابن آدم لمَّة وللشيطان لمَّة، فلمَّة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمَّة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد، ثم قرأ: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء}(١))). فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره وآخر بضدِّه، ومنهم من يكون زمنه نهارًا كله وآخر بضدِّه، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١/ ٢٧/٧٤/التحقيق الثاني).

قال ابن كثير: وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ}: أَيْ يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ، لِتُمْسِكُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ، {وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ}: أَيْ مَعَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ، يَأْمُرُكُمْ بِالْمَعَاصِي وَالْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَمُخَالَفَةِ الأخلاق.

قال ابن العثيمين: {والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا}: هذه الجملة مقابلة لما سبقها: الفضل ضد الفقر؛ والمغفرة ضد الفحشاء؛ لأن الفحشاء تكسب الذنوب؛ والمغفرة تمحو الذنوب؛ ففرق بين هذا وهذا؛ والجملة مكوَّنة من مبتدأ وخبر؛ المبتدأ: لفظ الجلالة: {الله}؛ والخبر: جملة: {يعدكم}.

{والله يعدكم مغفرة}: أي لذنوبكم إن تصدَّقتم؛ {وفضلًا}: أي زيادة؛ فالصدقة تزيد المال؛ لقوله تعالى: {وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون}[الروم: ٣٩]، وقوله ﷺ: ((ما نقصت صدقة من مال(١))).

قال أبو زهرة: صدَّر سبحانه القول بلفظ الجلالة للإشارة إلى أن الوعد الذي وعد به المنفقين وعد حق، لَا يمكن أن يجيء الشك في صدقه؛ لأنَّه وعد الله ذي الجلال والإكرام المعبود بحق، الذي لَا يستحق العبادة سواه سبحانه وتعالى عن الشريك والمثيل، وإذا كان الشيطان يهدِّد بالفقر عند العطاء، فالولي تعالت حكمته يعدُ المنفق بأمرين: أولهما المغفرة، وثانيهما الفضل، وهو الزيادة في الدنيا والآخرة.

فأمَّا المغفرة، فلأن الصدقة التي يقصد بها وجه الله تعالى لَا لأحد سواه، وليس فيها رياء ولا نفاق، ولم يعقبها مَنٌّ ولا أذى، تدلُّ على نفس صافية خالصة مخلصة، متَّجهة إلى الله تعالى منصرفة، فإن كان منها في ماضيها ما يؤاخذ المرء عليه، فإن الله تعالى يغفر له، ويتوب عليه، ولقد قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ....}، وقال: ((الصدقة تطفئ الخطيئة(٢)))، ولأن النفس تكون صافية إذا كانت الصدقة على هذا الوجه، قال الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا....}، فالصدقة التي تؤدَّى ابتغاء وجه الله تعالى تطهِّر النفس كما تطهِّر المال، وتوجُّه النفس نحو الخير، كما تنمي المال.

هذه هي المغفرة التي يعدُ الله سبحانه وتعالى بها، وأما الفضل وهو النَّماء والزيادة فإن ذلك يتحقَّق بالصدقات؛ لأنها تُحدث البركة في الرزق فيكون القليل في يد المتصدِّق كثيرًا بتوفيق الله تعالى، وبتوجيه من الله تعالى إلى السبل الناجحة، وإبعاده عمَّا يذهب فيه المال ضياعًا، وإن الفضل يتحقَّق بسيادة المرء على نفسه، ومن ساد على نفسه فقد ساد على

١- (قلت): مسلم (٢٥٨٨).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((ما نقصت صدقة من مال)): ذكروا فيه وجهين أحدهما معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية وهذا مدرك بالحس والعادة؛ والثاني أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (١١٧).

غيره، والمنفق يغالب الأهواء فينتصر، فيشرف في نفسه، ويشرف أمام الناس؛ ثم إن الله سبحانه مخلف الرزق في الدنيا بالتيسير والتسهيل والرزق الوفير، وفي الآخرة بالنعيم المقيم؛ ولقد قال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يخْلِفُهُ وَهوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، وقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: ((ما من يوم يصبح فيه العباد إلَّا ملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا(١)))، وإن ذلك مشاهد محسوس بين الناس اليوم، فإن الممسك إن لم يتلف ماله تلف جسمه، فإن لم يتلف جسمه تلفت نفسه، أو شرفه، وتقطعت صِلات المودَّة بينه وبين الناس حتى أقرب الناس إليه.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٤: هذه الآية تتضمَّن الحضُّ على الإنفاق والحثُّ عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوِّفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل فيجد فى قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه.

فإذا صوَّر له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل، فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكاذب فى وعده، الغارّ الفاجر فى أمره. فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلى من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد. كما قال:

دلَّاهم بغُرور ثم أوردهم ... إن الخبيث لمن والاه غرّار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة فى بقائه غنيًا، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأَمره إيَّاه بالبخل ليسيء ظنّه بربه ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه فإنه يعدُ عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه إمَّا فى الدنيا أو فى الدنيا والآخرة، فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق أيُّ الوعدين هو أوثق، وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفِّق من يشاءُ ويخذل من يشاءُ وهو الواسع العليم.

وتأمَّل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء، عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله، فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله وهو بكل شيء عليم.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

فتأمَّل هذه الآيات ولا تستطل بسط الكلام فيها، فإن لها شأْنًا لا يعقله إلَّا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت: ٤٣].

قال ابن العثيمين: {والله واسع عليم[١]}جملة خبرية مكونة من مبتدأ، وخبر؛ المبتدأ: لفظ الجلالة: {الله}؛ والخبر: {واسع}؛ و{عليم} خبر ثان.

قال أبو زهرة: ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بتلك الجملة السامية تأكيدًا لوعده الذي وعد به عباده المتَّقين المتصدِّقين؛ فإنه سبحانه وتعالى قد وعدهم بأن يعطيهم من فضله، فبيَّن سبحانه وتعالى أنه واسع المغفرة، واسع الفضل، يعطي من يشاء؛ فإذا كان هو الذي أعطى الغني من فضله ابتداءً، فهو الذي يمدُّه إن تصدَّق بفضله أيضًا، وهو مع سعة فضله ومغفرته عليم بموضع المغفرة وموضع الفضل، وهو الصادق فيما يَعِد، يعلم نتيجة العطاء، وأنها لَا تنتج فقرًا كما يوسوس الشيطان، بل يعلم الغيب، وقد أكنَّ في قدره أنها تنتج مغفرةً وفضلًا، فصدِّقوا أيها المنفقون من يعلم الغيب، ولا تسيروا وراء وسوسة الشيطان الرجيم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات إغواء الشياطين لبني آدم؛ لقوله تعالى: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء}.

٢- أنَّ للشيطان تأثيرًا على بني آدم إقدامًا، أو إحجامًا؛ أما الإقدام: فيأمره بالزنى مثلًا، ويزيِّن له حتى يقدم عليه؛ وأمَّا الإحجام: فيأمره بالبخل، ويعده الفقر لو أنفق؛ وحينئذ يحجم عن الإنفاق.

٣- أن أبواب التشاؤم لا يفتحها إلَّا الشياطين؛ لقوله تعالى: {يعدكم الفقر}؛ فالشيطان هو الذي يفتح لك باب التشاؤم يقول: (إذا أنفقت اليوم أصبحت غدًا فقيرًا؛ لا تنفق)؛ والإنسان بشر: ربما لا ينفق؛ ربما ينسى قول الله تعالى: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين}[سبأ: ٣٩]، وقول رسوله ﷺ: ((ما نقصت صدقة من مال)).

٤- بيان عداوة الشيطان للإنسان؛ لأنه في الواقع عدوٌّ له في الخبر، وعدو له في الطلب؛ في الخبر: يعده الفقر؛ في الطلب: يأمره بالفحشاء؛ فهو عدو مخبرًا وطالبًا - والعياذ بالله.

٥- أنَّ البخل من الفواحش؛ لأنَّ المقام مقام إنفاق؛ فيكون المراد بالفاحشة: البخل، وعدم الإنفاق.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الواسع}، وإسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (١١٥) من سورة البقرة.

٦- أنَّ من أمر شخصًا بالإمساك عن الإنفاق المشروع؛ فهو شبيه بالشيطان؛ وكذلك من أمر غيره بالإسراف فالظاهر أنه شيطان؛ لقوله تعالى: {إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا}[الإسراء: ٢٧].

٧- البشرى لمن أنفق بالمغفرة، والزيادة؛ لقوله تعالى: {والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا}؛ شتَّان ما بين الوعدين: {الشيطان يعدكم الفقر}؛ {والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا}؛ فالله يعدنا بشيئين: المغفرة، والفضل؛ المغفرة للذنوب؛ والفضل لزيادة المال في بركته ونمائه.

فإن قال قائل: كيف يزيد الله تعالى المنفِق فضلًا، ونحن نشاهد أن الإنفاق ينقص المال حسًّا؛ فإذا أنفق الإنسان من العشرة درهمًا صارت تسعة؛ فما وجه الزيادة؟

فالجواب: أمَّا بالنسبة لزيادة الأجر في الآخرة فالأمر ظاهر؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ ومن تصدَّق بما يعادل تمرة من طيب – ولا يقبل الله إلَّا الطيب – فإن الله يربيها له حتى تكون مثل الجبل؛ وأما بالنسبة للزيادة الحسية في الدنيا فمن عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الله قد يفتح للإنسان باب رزق لم يخطر له على بال؛ فيزداد ماله.

الوجه الثاني: أن هذا المال ربما يقيه الله سبحانه وتعالى آفات لولا الصدقة لوقعت فيه؛ وهذا مشاهد؛ فالإنفاق يقي المال الآفات.

الوجه الثالث: البركة في الإنفاق بحيث ينفق القليل، وتكون ثمرته أكثر من الكثير؛ وإذا نزعت البركة من الإنفاق فقد ينفق الإنسان شيئًا كثيرًا في أمور لا تنفعه؛ أو تضره؛ وهذا شيء مشاهد.

٨- أنَّ هذه المغفرة التي يعدنا الله بها مغفرة عظيمة؛ لقوله تعالى: {منه}؛ لأن عظم العطاء من عظم المعطي؛ ولهذا جاء في الحديث الذي وصى به النبي ﷺ أبا بكر: ((فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني([1])).

٩- أنَّه ينبغي للمنفق أن يتفاءل بما وعد الله؛ لقوله تعالى: {والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا}؛ فإذا أنفق الإنسان وهو يحسن الظن بالله عز وجل أن الله يغفر له الذنوب، ويزيده من فضله كان هذا من خير ما تنطوي عليه السريرة.

١٠- إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: {واسع}، و{عليم}؛ وما تضمَّناه من صفة؛ ويستفاد من الاسمين، والصفتين إثبات صفة ثالثة باجتماعهما؛ لأن الاسم من أسماء الله إذا قرن بغيره تضمن معنىً زائدًا على ما إذا كان منفردًا مثل قوله تعالى: {فإن الله كان عفوًا قديرًا}[النساء: ١٤٩]؛ فالجمع بين العفو والقدرة لها ميزة: أن عفوه غير مشوب بعجز إطلاقًا؛ لأن بعض الناس قد يعفو لعجز؛ فقوله تعالى: {واسع عليم}: فالصفة الثالثة التي تحصل باجتماعهما: أن علمه واسع.

١- أخرجه البخاري ص٨٣٤، كتاب الأذان، باب ١٤٩: الدعاء قبل السلام، حديث رقم ٨٣٤؛ وأخرجه مسلم ١١٤٨، كتاب الذكر والدعاء، باب ١٤: الدعوات والتعوذ، حديث رقم ٦٨٦٩ [٤٨] ٢٧٠٥.

وكل صفاته واسعة؛ وهذا مأخوذ من اسمه {الواسع}؛ فعلمه، وسمعه، وبصره، وقدرته، وكل صفاته واسعة.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)

قال أبو زهرة: بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى نوازع الشَّر في نفس الإنسان وإلهام الله له بالخير، وأن الشيطان يعد بالفقر ويحرِّض على الفحشاء والبخل، وأن الله يعدُ بالمغفرة والفضل، بعد ذلك بيَّن أن الحكمة في أن يجيب داعيَ الله، وأن هذه الحكمة إنَّما هي من الله سبحانه وتعالى وأن من نالها فقد أعطاه الله خيرًا كثيرًا.

قال ابن العثيمين: {يؤتي الحكمة من يشاء}؛ {يؤتي} بمعنى يعطي؛ وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر؛ فالمفعول الأول هنا: {الحكمة}؛ والمفعول الثاني: {من} في قوله تعالى: {من يشاء}؛ والمعنى: أن الله يعطي الحكمة من يشاء؛ و{الحكمة} من أحكم بمعنى أتقن؛ وهي وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وتستلزم علمًا ورشدًا، فالجاهل لا تأتي منه الحكمة إلَّا مصادفة؛ والسفيه لا تأتي منه الحكمة إلَّا مصادفة.

قال ابن كثير: عَنْ مُجَاهِدٍ: يَعْنِي بِالْحِكْمَةِ: الْإِصَابَةَ فِي الْقَوْلِ. وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاء} لَيْسَتْ بِالنُّبُوَّةِ، وَلَكِنَّهُ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ وَالْقُرْآنُ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فسلَّطه عَلَى هَلَكته فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا[١])).

قال أبو زهرة: فالمعطي للحكمة هو الله، ولكنه العليم بكل شيء يضع الأمور في مواضعها، فهو لَا يعطيها إلَّا لمن يخلص قلبه، ويسلم وجهه، وإن كان كل شيء بمشيئته سبحانه، إنه على ما يشاء قدير.

وأصل الحكمة مأخوذ من حكَم بمعنى منع، وهي في الإنسانية صفة نفسية هي أساس المعرفة الصحيحة التي تصيب الحق، وتوجّه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهي فيه مانعة ضابطة حاكمة للنفس مسيرة لها نحو الكمال. ولقد قال الراغب الأصفهاني في معنى الحكمة: (الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله عز وجل: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...}، ونبَّه على جملتها بما وصفه بها، والمعاني التي أشار إليها الراغب هي في قوله تعالى: {... أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ

١- صحيح البخاري (٧٣) ومواضع، وصحيح مسلم (٨١٥).

لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، إلى آخر الآيات التي تدلُّ على معرفته للحق وإدراكه له وإيمانه به، وعمله على منهاج ما علم وإرشاده الناس إلى فعل الخير.

فالحكمة إذن في حقيقتها تتضمَّن معاني العلم الصائب والإيمان بالحق والإذعان له وطلبه، والعمل على وفق ما علم، وإرشاد الناس إلى المنهاج المستقيم؛ ولذا قال الله تعالى {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٩ص٣٠٩: فَصَلَاحُ الْقَلْبِ وَحَقُّهُ، وَالَّذِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ، هُوَ أَنْ يَعْقِلَ الْأَشْيَاءَ، لَا أَقُولُ أَنْ يَعْلَمَهَا فَقَطْ، فَقَدْ يَعْلَمُ الشَّيْءَ مَنْ لَا يَكُونُ عَاقِلًا لَهُ، بَلْ غَافِلًا عَنْهُ مُلْغِيًا لَهُ، وَالَّذِي يَعْقِلُ الشَّيْءَ هُوَ الَّذِي يُقَيِّدُهُ وَيَضْبُطُهُ وَيَعِيهِ وَيُثْبِتُهُ فِي قَلْبِهِ، فَيَكُونُ وَقْتَ الْحَاجَةِ إلَيْهِ غَنِيًّا، فَيُطَابِقَ عَمَلُهُ قَوْلَهُ، وَبَاطِنُهُ ظَاهِرَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي أُوتِيَ الْحِكْمَةَ، {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُؤْتَى عِلْمًا وَلَا يُؤْتَى حُكْمًا، وَإِنَّ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ مِمَّنْ أُوتِيَ عِلْمًا وَحُكْمًا.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٤: حذَّرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش وأخبر أن استجابتهم لدعوته وثقتهم بوعده أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته التي يؤتيها من يشاءُ من عباده، وأن من أُوتيها فقد أُوتي خيرًا كثيرًا: أُوتي ما هو خير وأفضل من الدنيا كلِّها، لأنه سبحانه وصف الدنيا بالقلَّة فقال تعالى: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ} [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: {وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِي خَيْرًا كَثِيرًا}. فدلَّ على أن ما يؤتيه عبده من حكمته خير من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد، بل لا يعقله إلَّا من له لُبٌّ وعقل زكي، فقال تعالى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ}.

قال ابن العثيمين: فإن قال قائل: ما وجه اختلاف التعبير بين قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء}، وقوله تعالى: {ومن يؤت الحكمة}؟

فالجواب: – والله أعلم – أن الحكمة قد تكون غريزة؛ وقد تكون مكتسبة؛ بمعنى أن الإنسان قد يحصل له مع المران ومخالطة الناس من الحكمة وحسن التصرف ما لا يحصل له لو كان منعزلًا عن الناس؛ ولهذا أتى بالفعل المضارع المبني للمفعول ليعمّ كل طرق الحكمة التي تأتي – سواء أوتي الحكمة من قبل الله عز وجل، أو من قبل الممارسة والتجارب؛ على أن ما يحصل من الحكمة بالممارسة والتجارب فهو من الله عز وجل؛ هو الذي قيَّض لك من يفتح لك أبواب الحكمة، وأبواب الخير.

قال السعدي: لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرًا كثيرًا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقِّف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوَّتيهِ العلمية والعملية، فتكميل قوته

العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكَّن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكِّرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصِّلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين، قسم أجابوا دعوتهم فتذكَّروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرُّهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامَّة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى: {وما يذَّكر إلَّا أولو الألباب}.

قال الطبري: {وما يذَّكر إلَّا أولو الألباب}: يعني بذلك جل ثناؤه: وما يتَّعِظ بما وعظ به ربه في هذه الآيات التي وعظ فيها المنفقين أموالهم بما وعظهم به غيرهم فيها وفي غيرها من آي كتابه، فيذكر وعده ووعيده فيها، فينزجر عمَّا زجره عنه ربه، ويطيعه فيما أمره به {إلَّا أولوا الألباب}، يعني: إلَّا أولوا العقول، الذين عقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه. فأخبر جل ثناؤه أن المواعظ غير نافعة إلَّا أولي الحجا والحلوم، وأن الذكرى غير ناهية إلَّا أهل النُّهى والعقول.

قال أبو زهرة: أي وما يتذكَّر ويعتبر بأوامر الله تعالى، ويستولي على نفسه ويحارب أهواءه حتى يقذف الله في قلبه بنور الحكمة إلَّا أولو الألباب، أي أصحاب العقول التي تصيب الحق وتدركه، وتتَّجه إليه غير متأشِّب[١]بلذَّة من لذَّات الجسد، أو شهوة من شهوات الدنيا المردية.

فاللُّبُ معناه العقل، ولكنه لَا يستعمل في القرآن إلَّا في العقول المستقيمة المدركة التي تخلَّصت وسلمت من شوائب الهوى، ومعايب اللَّذات، فهي العقول المسيطرة التي تستخدم لطلب الحق وتوصل إليه، لَا العقول المسخَّرة للأهواء واللَّذائد تتحكَّم فيها وتسيرها.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بذلك الختام الحكيم، للإشارة إلى أن الله سبحانه الذي يعطي حكمته من يشاء لَا يعطيها إلَّا لِلَّذين خلَّصوا قلوبهم من الفاسد والملاذِّ الأرضية، ولم يجعلوها حاكمة على قلوبهم، متحكِّمة في تفكيرهم.

وللإشارة إلى أن الذين يجيبون داعيَ الله، ويردُّون داعيَ الشيطان هم ذوو العقول المستقيمة، فلا يتحكَّم الشيطان إلَّا في غفوة من غفوات العقل المدرك وللحثِّ على وجوب تذكُّر الله دائمًا، وأن على ذوي العقول أن يتَّجهوا بعقولهم دائمًا لله ليتذكَّروا ويعتبروا، ويستبصروا، فإنها لَا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، والله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء الهادي إلى سواء السبيل.

١- (قلت): غير متأشب: يعني غير مخلوط.

وقد يقول قائل: ما موضع هذه الآية من آيات الصدقات؛ فنقول: إن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن المنفق عليه أن يستولي على نفسه، وأن يدفع دواعي الشر، ويحمي قلبه منها، وأن يجيب نداء الله تعالى؛ وفي هذه الآية أن تلك هي الحكمة، فالحكمة في ضبط النفس، ومنعها من أهوائها والسيطرة عليها، وإطاعة الله تعالى.

ومن الناس من يحسب الحرص والضنَّ بالمال حكمة، ويدَّعي أن ذلك من الاقتصاد، وأن الإنفاق إسراف، فأشار سبحانه أن التصدق هو الحكمة، بذكر آية الحكمة في آيات الصدقة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات أفعال الله المتعلِّقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: {يؤتي الحكمة}؛ وهذه من الصفات الفعلية.

٢- أن ما في الإنسان من العلم والرشد فهو فضل من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء}؛ فإذا منَّ الله سبحانه وتعالى على العبد بعلم، ورشد، وقوة، وقدرة، وسمع، وبصر فلا يترفع؛ لأن هذه الصفات من الله عز وجل؛ ولو شاء الله لحرمه إيَّاها، أو لسلبه إيَّاها بعد أن أعطاه إيَّاها؛ فقد يسلب الله العلم من الإنسان بعد أن أعطاه إيَّاه؛ وربَّما يسلب منه الحكمة؛ فتكون كل تصرفاته طيشًا، وضلالًا، وهدرًا.

٣- إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {من يشاء}؛ واعلم أن كل شيء علَّقه الله سبحانه وتعالى بمشيئته فإنه تابع لحكمته البالغة؛ وليس لمجرَّد المشيئة؛ لكن قد نعلم الحكمة؛ وقد لا نعلمها؛ قال الله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}[الإنسان: ٣٠].

٤- إثبات الحكمة لله عز وجل؛ لأن الحكمة كمال؛ ومعطي الكمال أولى به؛ فنأخذ من الآية إثبات الحكمة لله بهذا الطريق.

٥- الفخر العظيم لمن آتاه الله الحكمة؛ لقوله تعالى: {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا}.

٦- وجوب الشكر على من آتاه الله الحكمة؛ لأن هذا الخير الكثير يستوجب الشكر.

٧- أنَّ بلوغ الحكمة متعدِّد الطرق؛ فقد يكون غريزيًّا جَبِلَ الله العبد عليه؛ وقد يكون كسبيًّا يحصل بالمران ومصاحبة الحكماء.

٨- منَّة الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده بإيتائه الحكمة؛ لقوله تعالى: {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا}.

٩- فضيلة العقل؛ لقوله تعالى: {وما يذَّكَّر إلَّا أولو الألباب}؛ لأن التذكُّر بلا شك يحمد عليه الإنسان؛ فإذا كان لا يقع إلَّا من صاحب العقل دلَّ ذلك على فضيلة العقل؛ والعقل ليس هو الذكاء لأن العقل نتيجته حسن التصرف – وإن لم يكن الإنسان ذكيًّا؛ والذكاء؛ قوة الفطنة – وإن لم يكن الإنسان عاقلًا؛ ولهذا نقول: ليس كل ذكي عاقلًا، ولا كل عاقل ذكيًّا؛ لكن قد يجتمعان؛ وقد يرتفعان؛ وهناك عقل يسمَّى عقل إدراك؛ وهو الذي يتعلَّق به التكليف، وهذا لا يلحقه مدح، ولا ذم؛ لأنه ليس من كسب الإنسان.

١٠- أنَّ عدم التَّذكُّر نقص في العقل – أي عقل الرشد؛ لقوله تعالى: {وما يذَّكَّر إلَّا أولو الألباب}؛ فإن الحكم إذا علَّق بوصف ازداد قوة بقوة ذلك الوصف، ونقص بنقص ذلك الوصف.

١١- أنَّه لا يتَّعظ بالمواعظ الكونية أو الشرعية إلَّا أصحاب العقول الذين يتدبَّرون ما حصل من الآيات سابقًا ولاحقًا؛ فيعتبرون بها؛ وأمَّا الغافل فلا تنفعه.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

قال أبو زهرة: النفقة هي العطاء العاجل في باب من أبواب البر، فهي عطاء منجز، توجبه حاجة من يعطيه، أو حاجة الجماعة التي يعيش فيها، والضرورات الاجتماعية، أو السياسية أو العسكرية لها.

أمَّا النَّذر فهو التزام طاعة من الطاعات، أو عطاء في بر. ويقول الراغب: النَّذْر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر، يقال نذرت قال تعالى: {إِنِي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ايوْمَ إِنسِيًّا}، وأصل مادة نذر من الخوف؛ لأن الإنسان إنما يلتزم ما يلتزمه على نفسه مما ليس بلازم عليه خوف التقصير وخوف أن تضعف الإرادة البشرية في القيام بذلك الفعل الذي ليس واجبًا في أصله. والصيغة المشهورة للنذر أن يقول: (لله عليَّ نذر أو نذرت لله كذا)، فهي في معناها تتضمَّن العهد الموثَّق لله.

قال ابن العثيمين: {وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر}؛ {ما} هنا شرطية؛ والدليل على أنها شرطية، أنها مركَّبة من شرط، وجواب؛ والشرط هو: {أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر}؛ والجواب: {فإن الله يعلمه}؛ و{من} زائدة؛ أي زائدة إعرابًا زائدة معنى؛ لأنها تفيد النص على العموم؛ وهي حرف جر زائد من حيث الإعراب؛ ولهذا نعرب: {نفقة} على أنها مفعول به – أي: ما أنفقتم نفقة أو نذرتم نذرًا فإن الله يعلمه؛ ويجوز أن تكون بيانًا لاسم الشرط {ما} في قوله تعالى: {ما أنفقتم}؛ لأنَّ {ما} الشرطية مبهمة؛ والمبهم يحتاج إلى بيان.

{فإنَّ الله يعلمه}: هذه جملة جواب الشرط؛ والفاء هنا واقعة في جواب الشرط وجوبًا؛ لأنه جملة اسمية؛ وإذا وقع جواب الشرط جملة اسمية وجب اقترانه بالفاء؛ وفي ذلك يقول الناظم فيما يجب اقترانه بالفاء:

اسمية طلبية وبجامد ... وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وقوله تعالى: {وما أنفقتم من نفقة}: أي أيُّ شيء تنفقونه من قليل أو كثير فإن الله يعلمه.

وقوله تعالى: {أو نذرتم من نذر}: أي أوجبتم على أنفسكم من طاعة، مثل أن يقول القائل: (لله عليَّ نذر أن أتصدَّق بكذا)؛ أو (أن أصوم كذا)؛ {فإنَّ الله يعلمه}؛ وذكر العلم يستلزم أن الله يجازيهم، فلا يضيع عند الله عز وجل.

قال أبو زهرة: ومعنى الجملة السامية: ما أنفقتم من نفقة عاجلة وأدَّيتموها، أو التزمتم بنفقة قابلة وعاهدتم الله على القيام بها، فإن الله تعالى سبحانه وتعالى يعلمه، فيعلم الباعث عليه أقَصَدَ ابتغاء مرضاة الله أم قصد به رئاء الناس، أو كان من الطيِّب الذي يقبله الله، أم تيمَّم الخبيث فلم يختر لله سواه، وأتبعه مَنًّا وأذىً، وجرحًا للكرامة وعزة النفس، أم كان بطيب النفس، ومن غير ذلٍّ ولا امتهان؛ ثم يعلم سبحانه أَوَفَّى الناذر بنذره على الوجه الأكمل أم نكث عهده، وأبطل ذمَّته؟ يعلم الله سبحانه وتعالى ذلك كله، يعلمه علم القادر القائم على كل شيء، الذي يجازي المحسن إحسانًا والمسيء إساءةً؛ فقوله تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ}: مع إيجازها أفادت فوائد جمَّة: أفادت الوعد والوعيد، أفادت التبشير بالثواب والنعيم المقيم ورضوان الله تعالى، وأفادت الإنذار بالعقاب، لمن فسد قلبه، فلم يقصد بعطائه وجه الله تعالى، ولمن نقض عهده، وأخلَّ بذمَّته؛ ثم أفادت مع ذلك تربية المهابة في قلب المؤمن؛ فإن المؤمن إذا ذكر أن الله تعالى يعلم عمله، أحسَّ برقابته في خلجات نفسه، وخصوصًا أن الجملة السامية: {فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ} صُدِّرت بما يؤكِّدها. وذكر العليم الحكيم بلفظ الجلالة الدالُّ على الاستحقاق الكامل للألوهية، وانفراده سبحانه وتعالى بها، فإن ذلك كلَّه من شأنه أن يجعل المؤمن يحسُّ بمقام الألوهية، ويشعر بحق العبودية، فتخلَّص نيَّته، ويخلص قلبه من كل الشَّوائب والأغراض الدنيوية.

قال ابن العثيمين: {وما للظالمين من أنصار} جملة منفية؛ والمبتدأ فيها قوله تعالى: {من أنصار}؛ و{من} فيها زائدةٌ إعرابًا زائدةٌ معنًى؛ يعنى تزيد المعنى – وهو النص على العموم – وإن كانت في الإعراب زائدة؛ ولهذا نعرب {أنصار} على أنها مبتدأ مؤخَّر مرفوع بالابتداء؛ وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجرّ الزائد.

قوله تعالى: {وما للظالمين}: أي للمانعين ما يجب إنفاقه، أو الوفاء به من النذور {من أنصار}: أي مانعين للعذاب عنهم.

قال الطبري: ثم أوعد جل ثناؤه من كانت نفقته رياء ونذوره طاعة للشيطان فقال: {وما للظالمين من أنصار}، يعني: وما لمن أنفق ماله رئاء الناس وفي معصية الله، وكانت نذوره للشيطان وفي طاعته {من أنصار}، وهم جمع (نصير)، كما (الأشراف) جمع (شريف). ويعني بقوله: {من أنصار}، من ينصرهم من الله يوم القيامة فيدفع عنهم عقابه يومئذ بقوة وشدة

بطش، أو بفدية. وقد دللنا على أن {الظالم} هو الواضع للشيء في غير موضعه. وإنَّما سمَّى الله المنفق رياء الناس، والناذر في غير طاعته ظالمًا، لوضعه إنفاق ماله في غير موضعه، ونذره في غير ماله وضعه فيه، فكان ذلك ظلمه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الإنفاق قليله وكثيره يثاب عليه المرء؛ وذلك لقوله تعالى: {وما أنفقتم من نفقة}، وكلمة {نفقة} نكرة في سياق الشرط؛ فهي تعمّ؛ وعلى ذلك تشمل القليل والكثير؛ لكن الثواب عليها مشروط بأمرين: الإخلاص لله؛ وأن تكون على وفق الشرع.

٢- أنَّه ينبغي للإنسان إذا أنفق نفقة أن يحتسب الأجر على الله؛ لقوله تعالى: {فإن الله يعلمه}؛ لأنك إذا أنفقت وأنت تشعر أن الله يعلم هذا الإنفاق، فسوف تحتسب الأجر على الله.

٣- أنَّ ما نذره الإنسان من طاعة فهو معلوم عند الله.

٤ - هل تدلُّ الآية على جواز النذر؟

الجواب: الآية لا تدلُّ على الجواز، كما لو قال قائل مثلًا: (إن سرقت فإن الله يعلم سرقتك)؛ فإن هذا لا يعني أن السرقة جائزة؛ وعلى هذا فالآية لا تعارض نهي النبي ﷺ عن النذر([1])؛ لأن النهي عن النذر يعني إنشاءه ابتداءً؛ فأمَّا الوفاء به فواجب إذا كان طاعة؛ لقول النبي ﷺ: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه([2]))).

٥- عموم علم الله بكل ما ينفقه الإنسان، أو ينذره من قليل أو كثير.

٦- الرَّد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه تدخُّل إطلاقًا؛ وجه ذلك: أنه إذا كان الله يعلمه فلابدَّ أن يقع على حسب علمه؛ وإلَّا لزم أن يكون الله غير عالم؛ ولهذا قال بعض السلف: جادلوهم بالعلم؛ فإن أقروا به خصموا؛ وإن أنكروه كفروا.

٧- أنَّ الله سبحانه وتعالى لا ينصر الظالم؛ لقوله تعالى: {وما للظالمين من أنصار}؛ ولا يرد على هذا ما وقع في أحد من انتصار الكافرين لوجهين:

الوجه الأول: أنَّه نوع عقوبة، حيث حصل من بعض المسلمين عصيانهم لأمر النبي ﷺ، كما قال تعالى: {حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون}[آل عمران: ١٥٢].

١- راجع البخاري ص٥٥٣، كتاب القدر، باب ٦: إلقاء العبد النذر إلى القدر، حديث رقم ٦٦٠٨؛ ومسلما ص٩٦٤، كتاب النذر، باب ٢: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا، رقم ٤٢٣٧ [٢] ١٦٣٩.

٢- أخرجه البخاري ص٥٥٩، كتاب الأيمان والنذور، باب ٢٨: النذر في الطاعة (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر)، حديث رقم ٦٦٩٦.

الوجه الثاني: أن هذا الانتصار من أجل أن يمحق الله الكافرين؛ لأن انتصارهم يغريهم بمقاتلة المسلمين حتى تكون العاقبة للمسلمين، كما قال تعالى: {وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين}[آل عمران: ١٤١].

٨- أنَّ من دعا على أخيه وهو ظالم له فإنَّ الله لا يجيب دعاءه؛ لأنَّه لو أجيب لكان نصرًا له؛ وقد قال تعالى: {إنه لا يفلح الظالمون}[الأنعام: ٢١].

٩- الثواب على القليل والكثير؛ وفي القرآن ما يشهد لذلك، مثل قوله تعالى: {ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديًا إلَّا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون}[التوبة: ١٢١]، وقوله تعالى في آخر سورة الزلزلة: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره}[الزلزلة: ٧، ٨].

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

قال ابن العثيمين: {إن تبدوا الصدقات}: أي تظهروها، {فنِعِمَّا هي}: جملة إنشائية للمدح؛ وقرنت بالفاء وهي جواب الشرط لكونها فعلًا جامدًا، {وإن تخفوها}: أي تصدَّقوا سرًّا، {وتؤتوها الفقراء}: أي تعطوها المعدَمين؛ وذكر {الفقراء} هنا على سبيل المثال؛ {فهو خير لكم}: أي من إظهارها؛ والجملة: جواب الشرط؛ وقرنت بالفاء لكونها اسمية.

قال ابن كثير: فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِسْرَارَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا؛ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ، إِلَّا أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى الْإِظْهَارِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنَ اقْتِدَاءِ النَّاسِ بِهِ فَيَكُونَ أَفْضَلَ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ والمُسِر بِالْقُرْآنِ كالمُسِر بِالصَّدَقَةِ(١))).

وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِسْرَارَ أَفْضَلُ، لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ

١- رواه أحمد في المسند (٤/١٥١) وأبو داود في السنن برقم (١٣٣٣) والترمذي في السنن برقم (٢٩١٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن غريب). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٠٢).

مَنْصِبٍ وَجِمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ([1]))، وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ: ((صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، عَزَّ وَجَلَّ([2]))).

قال السعدي: ففي هذا أن صدقة السِّر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأمَّا إذا لم تؤت الصدقات الفقراء، فمفهوم الآية أن السِّر ليس خيرًا من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدِّين وحصول الاقتداء ونحوه فهو أفضل من الإسرار، ودلَّ قوله: {وتؤتوها الفقراء} على أنه ينبغي للمتصدِّق أن يتحرَّى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجًا وغيره أحوج منه، ولمَّا ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدِّق ويتضمَّن ذلك حصول الثواب قال: {ويكفِّر عنكم من سيئاتكم} ففيه دفع العقاب.

قال ابن العثيمين: {ويكفِّر عنكم من سيئاتكم} الجملة استئنافية؛ ولذلك كان الفعل مرفوعًا؛ و(التكفير) بمعنى الستر؛ {سيئاتكم} جمع سيئة؛ وهي ما يسوء المرء عمله أو ثوابه.

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ: {وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُم}: أَيْ بَدَلَ الصَّدَقَاتِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ سِرًّا يَحْصُلُ لَكُمُ الْخَيْرُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمُ السَّيِّئَاتِ.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٦: أخبر سبحانه عن أحوال المتصدِّقين لوجهه فى صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها إن أبدوها أو كتموها بعد أن تكون خالصة لوجهه فقال: {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِي}: أي فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهَّم مبديها بطلان أَثره وثوابه فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاءَ فتفوت أو تعترضه الموانع، ويحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخِّر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السِّر، وهذه كانت حال الصحابة، فأخبر أن إعطاءَها للفقير فى خفية، خير للمنفق من إظهارها وإعلانها. وتأمَّل تقييده تعالى الإخفاءَ بإيتاءِ الفقراءِ خاصة ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش وبناءِ قنطرة وإجراءِ نهر أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد السَّتر عليه وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السُّفلى وأنه فقير لا شيء له، فيزهدون فى معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرَّد الصدقة مع تضمُّنه الإخلاص وعدم المراءَاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير خيرًا من إظهارها بين الناس، ومن هذا مدح النبى ﷺ صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر أنه

١- صحيح البخاري برقم (٦٦٠، ١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) .

٢- رواه الترمذي في السنن برقم (٢٣٨٦) من حديث أنس، ﷺ، وروي عن جماعة من الصحابة وهو حديث متواتر. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٩).

أحد السبعة الذين هم فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة. ولهذا جعله سبحانه خيرًا للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نيَّاتكم، فإنه بما تعملون خبير.

قال ابن العثيمين: {والله بما تعملون خبير}: أي عليم ببواطن الأمور كظواهرها.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: {والله بما تعملون} في صدقاتكم، من إخفائها، وإعلان وإسرار بها وجهار، وفي غير ذلك من أعمالكم {خبير[1]}: يعني بذلك ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فهو بجميعه محيط، ولكله محص على أهله، حتى يوفيهم ثواب جميعه، وجزاء قليله وكثيره.

قال أبو زهرة: ختم سبحانه الآية الكريمة بذلك الختام السامي؛ والمعنى فيه أن الله ذا الجلال والإكرام المعبود بحق، الذي انفرد بالألوهية خبير، أي عليم علمًا دقيقًا صادقًا بما تعملون أيها المؤمنون.

فهذه الجملة السامية تشعر المؤمن برقابة الله تعالى على أعماله، وعلى بواعث هذه الأعمال وعلى القلوب التي تنبعث منها النيَّات والمقاصد، عليم سبحانه بكل ذلك؛ فإذا أحسَّ العبد برقابة الله القوي القادر بهذا العلم السامي نقَّى قلبه من كل شوائب الرياء في صدقاته كلّها، جهرها وسرَّها، خافيها وظاهرها. ثم هذه الجملة كما تربِّي في نفس المؤمن المهابة من الله، والشعور بمراقبته تتضمَّن وعدًا ووعيدًا؛ لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى عليمًا علمًا دقيقًا بكل ما يعمل العبد من خير وشر، فإنه يكافئ العبد بما ينتج فعله، إن خيرًا فالثواب والنعيم المقيم، وإن شرًّا فالعذاب الأليم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الحثُّ على الصَّدقة والترغيب فيها، سواء أبداها أو أخفاها.

٢- أنَّ إخفاء الصَّدقة أفضل من إبدائها؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص؛ وأستر للمتصدَّق عليه؛ لكن إذا كان في إبدائها مصلحة ترجح على إخفائها – مثل أن يكون إبداؤها سببًا لاقتداء الناس بعضهم ببعض، أو يكون في إبدائها دفع ملامة عن المتصدِّق، أو غير ذلك من المصالح – فإبداؤها أفضل.

٣- أنَّ الصدقة لا تعتبر حتى يوصلها إلى الفقير؛ لقوله تعالى: {وتؤتوها الفقراء}.

ويتفرَّع على هذا فرعان:

أحدهما: أنَّ مؤونة إيصالها على المتصدِّق.

الثاني: أنَّه لو نوى أن يتصدَّق بماله، ثم بدا له ألَّا يتصدَّق فله ذلك؛ لأنَّه لم يصل إلى الفقير.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الخبير} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٣٤) من سورة البقرة.

٤- تفاضل الأعمال - أي أن بعض الأعمال أفضل من بعض؛ لقوله تعالى: {فهو خير لكم}؛ وتفاضل الأعمال يكون بأسباب:

أ - منها التفاضل في الجنس، كالصلاة - مثلا - أفضل من الزكاة وما دونها.

ب - ومنها التفاضل في النوع؛ فالواجب من الجنس أفضل من التطوع؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: ((ما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ ممَّا افترضت عليه(١))).

ج - ومنها التفاضل باعتبار العامل لقوله ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه(٢))).

د - ومنها التفاضل باعتبار الزمان، كقوله ﷺ في العشر الأول من ذي الحجة: ((ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر(٣)))، وكقوله تعالى: {ليلة القدر خير من ألف شهر}[القدر: ٣].

هـ - ومنها التفاضل بحسب المكان، كفضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره.

ومنها التفاضل بحسب جودة العمل وإتقانه، كقوله ﷺ: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة؛ والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران(٤))).

ز - ومنها التفاضل بحسب الكيفية، مثل قوله ﷺ: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله ...))، وذكر منهم: ((ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه(٥))).

وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ لأن الإنسان يشرَّف ويفضَّل بعمله؛ وتفاضل الأعمال يستلزم زيادة الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل؛ فإذا تفاضلت الأعمال تفاضل الإيمان - أعني زيادة الإيمان، ونقصانه - وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

١- (قلت): البخاري (٦٥٠٢).

٢- (قلت): البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٨٩٠) وقال: خرجه البخاري (٢/٣٨٢ . ٣٨٣ . فتح)، وكذا أبو داود (٢٤٣٨)، والترمذى وصححه (١/١٤٥)، والدارمي (٢/٢٥)، وابن ماجه (١٧٢٧)، والطحاوي فى (مشكل الآثار) (٤/١١٤)، والطيالسي فى (مسنده) (رقم ٢٦٣١) (١)، وأحمد (١/٣٤٦) والطبراني في (المعجم الكبير)، والمخلص فى (الفوائد المنتقاة) (١١/٢٣٩ . ٢٤٠)، والبيهقي (٤/٢٨٤) من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، واللفظ لأبي داود، وكذا الترمذي وابن ماجه إلا أنهم قالوا: ((بنفسه وماله))، ولفظ البخاري: ((ما العمل فى أيام أفضل منها في هذه، قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء)).

٤- أخرجه البخاري ص٤٢٥، كتاب تفسير القرآن، باب ٨٠: سورة عبس، حديث رقم ٤٩٣٧؛ وأخرجه مسلم ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، باب ٣٨، فضل الماهر بالقرآن ... ، حديث رقم ١٨٦٢ [٢٤٤] ٧٩٨ واللفظ له.

٥- أخرجه البخاري ص٥٣، كتاب الأذان، باب ٣٦: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ... ، حديث رقم ٦٦٠؛ وأخرجه مسلم ص٨٤٠، كتاب الزكاة، باب ٣٠: فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم ٢٣٨٠ [٩١] ١٠٣١.

٥- أنَّ الصَّدقة سبب لتكفير السيئات؛ لقوله تعالى: {ويكفر عنكم من سيئاتكم}؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: ((الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا ﷺ: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع ... } [السجدة: ١٦]([1]))).

٦- إثبات أفعال الله الاختيارية – كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ لقوله تعالى: {ويكفر عنكم من سيئاتكم}؛ فإن تكفير السيئات حاصل بعد العمل الذي يحصل به التكفير.

٧- بيان آثار الذنوب، وأنها تسوء العبد؛ لقوله تعالى: {من سيئاتكم}.

٨- إثبات اسم الله عز وجل {الخبير}؛ وإثبات ما دلَّ عليه من صفة.

٩- تحذير العبد من المخالفة؛ لقوله تعالى: {والله بما تعملون خبير}؛ فإن إخباره إيَّانا بذلك يستلزم أن نخشى من خبرته عز وجل فلا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يرانا حيث نهانا.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

قال أبو زهرة: كان المسلمون الأوَّلون قلَّة في أرض العرب، وكان المشركون يحيطون بهم، واليهود يجاورونهم، وكان يربطهم بالفريقين صلة قرابة، أو على الأقل صلة جوار. فكان بعض المسلمين يمتنع عن مد يد المعونة بالمال ليهوديٍّ أو مشرك، مع شديد حاجته إليه، وكان ذلك الامتناع من قبل المعاملة بالمثل من جهة، ولأن فقراء المسلمين الأَولى، ولحمل أولئك على الدخول في الإسلام دين الوحدانية والعزة؛ فبيَّن الله سبحانه وتعالى أن الصدقة واجب إذا وجد سببها، ووجدت الحاجة إلى العطاء من غير نظر إلى الموضع الذي يستحقُّها، فإنك تكرِّم إنسانيته، لَا يهوديته، ولا نصرانيته ولا إشراكه.

١- أخرجه أحمد ٢٣١/٥، حديث رقم ٢٢٣٦٦، وأخرجه الترمذي ص١٩١٥، كتاب الإيمان، باب ٨: ما جاء في حرمة الصلاة، حديث رقم ٢٦١٦، وأخرجه ابن ماجة ص٢٧١٥، كتاب الفتن، باب ١٢، كف اللسان في الفتنة، حديث رقم ٣٩٧٣، وفيه عاصم بن أبي النجود قال الذهبي فيه في الحديث دون الثبت صدوق يهم (ميزان الاعتدال ٣٥٧/٢) ، لكن أخرج الحاكم من طويق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتبة عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ ... مثله (٤١٢/٢ - ٤١٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال الألباني في صحيح ابن ماجة ٣٥٩/٢: صحيح، وقال شعيب في تخريج جامع العلوم والحكم ١٣٤/٢ حاشية (١): حديث صحيح بطرقه.

قال ابن كثير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لِأَنْسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسَأَلُوا، فَرَخَّصَ لَهُمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}([1]).

قال أبو زهرة: وبهذا الخبر يتبيَّن أن هذه الآية الكريمة نزلت لبيان أن الصدقة تسوغ على غير المسلم، بل تجب إذا كان غير المسلم في حاجة شديدة، ويخشى عليه إن لم يقدِّم له عطاء ينقذه. وإن هذه الآية وما يليها من آيات تبيِّن من يستحقُّون الصدقات ومن يؤْثرون، فصدَّرها سبحانه وتعالى بالإشارة إلى أنه يسوغ إعطاء غير المسلمين، وبذلك التصدير يتبيَّن موضع الإسلام من احترام الإنسانية، والإخاء الإنساني العام.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: ليس عليك يا محمد هدى المشركين إلى الإسلام، فتمنعهم صدقة التطوع، ولا تعطيهم منها ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليها، ولكن الله هو يهدي من يشاء من خلقه إلى الإسلام فيوفِّقهم له، فلا تمنعهم الصدقة.

قال ابن العثيمين: {ليس عليك هداهم}؛ الخطاب هنا للرسول ﷺ؛ و{هداهم}: الضمير يعود على بني آدم؛ والهدى المنفيُّ هنا هدى التوفيق؛ وأما هدى البيان فهو على الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك}[المائدة: ٦٧]؛ ولقوله تعالى: {إن عليك إلا البلاغ}[الشورى: ٤٨]، وقوله تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر}[الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقوله تعالى: {فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب}[الرعد: ٤٠] ... إلى آيات كثيرة تدلُّ أن على الرسول ﷺ أن يهدي الناس هداية الدلالة والإرشاد؛ أما هداية التوفيق فليست على الرسول، ولا إلى الرسول؛ لا يجب عليه أن يهديهم؛ وليس بقدرته ولا استطاعته أن يهديهم؛ ولو كان بقدرته أن يهديهم لهدى عمَّه أبا طالب؛ ولكنه لا يستطيع ذلك؛ لأن هذا إلى الله سبحانه وتعالى وحده.

{ولكن الله يهدي من يشاء}؛ وهذا كالاستدراك لما سبق؛ أي لمَّا نفى كون هدايتهم على الرسول ﷺ بيَّن أن ذلك إلى الله عز وجل وحده؛ فيهدي من يشاء ممن اقتضت حكمته هدايته.

{وما تنفقوا من خير فلأنفسكم}: أي وليس لله عز وجل؛ فالله سبحانه وتعالى لا ينتفع به؛ بل لأنفسكم تقدِّمونه؛ وما لا تنفقونه فقد حرمتم أنفسكم؛ و{ما} هذه شرطية بدليل اقتران الجواب بالفاء في قوله تعالى: {فلأنفسكم}؛ وقوله تعالى:

١- (قلت): في مستدرك الحاكم: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانُوا ((يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لِأَنْسَابِهِمْ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ، فَنَزَلَتْ {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}[البقرة: ٢٧٢] حَتَّى بَلَغَ {وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[البقرة: ٢٧٢] قَالَ: فَرَخَّصَ لَهُمْ)). (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ). [التعليق - من تلخيص الذهبي] ٣١٢٨ - على شرط البخاري ومسلم.

{من خير} بيان لـ{ما} الشرطية؛ لأن {ما} الشرطية مبهمة تحتاج إلى بيان؛ يعني: أي خير تنفقونه فلأنفسكم؛ والمراد بالـ{خير} كل ما بذل لوجه الله عز وجل من عين، أو منفعة؛ وأغلب ما يكون في الأعيان.

وقوله تعالى: {فلأنفسكم}: الفاء رابطة للجواب؛ والجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فهو لأنفسكم؛ يعني: وليس لغيركم.

{وما تنفقون إلَّا ابتغاء وجه الله}: يعني لا تنفقون إنفاقًا ينفعكم إلَّا ما ابتغيتم به وجه الله؛ فأمَّا ما ابتُغيَ به سوى الله، فلا ينفع صاحبه؛ بل هو خسارة عليه.

وقوله تعالى: {إلَّا ابتغاء}: أي إلَّا طلب؛ و{وجه الله}: المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن من دخل الجنة نظر إلى وجه الله.

قوله تعالى: {وما تنفقوا من خير يوف إليكم}؛ {ما} هذه أيضًا شرطية بدليل جزم الجواب: {يوفَّ}؛ فإنه مجزوم بحذف حرف العلة؛ وهو الألف؛ يعني: أي خير تنفقونه من الأعيان والمنافع، قليلًا كان أو كثيرًا يوفَّ إليكم؛ أي: تعطونه وافيًا من غير نقص؛ بل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

{وأنتم لا تظلمون}: أي لا تنقصون شيئًا منه.

قال ابن كثير: قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: نَفَقَةُ الْمُؤْمِنِ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُنْفِقُ الْمُؤْمِنُ – إِذَا أَنْفَقَ – إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ. وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: يَعْنِي إِذَا أَعْطَيْتَ لِوَجْهِ اللَّهِ، فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عمله وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ إِذَا تصدَّق ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ فَقَدْ وَقَعَ أجره عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَ: الْبَرّ أَوْ فَاجِرٍ أَوْ مُسْتَحَقٍّ أَوْ غَيْرِهِ، هُوَ مُثَابٌ عَلَى قَصْدِهِ، ومستَنَدُ هَذَا تَمَامُ الْآيَةِ: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} وَالْحَدِيثُ الْمُخَرَّجُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((قال رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدق عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدق اللَّيْلَةَ عَلَى غني! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصدق اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ؛ وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ([١]))).

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٧: أخبر أن هذا الإنفاق إنَّما نَفْعُهُ لأنفسهم، يعود عليهم أحوج ما كانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختصٌّ بها، عائدٌ إليها.

١- صحيح البخاري برقم (١٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٢) .

وإن نفقة المؤمنين إنَّما تكون ابتغاءَ وجهه خالصًا لأنها صادرة عن إيمانهم، وأن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة. وصدر هذا الكلام بأن الله سبحانه هو الهادي الموفِّق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم، بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفِّق من يشاءُ لمرضاته.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن هداية الخلق لا تلزم الرسل؛ ونعنى بذلك هداية التوفيق؛ أما هداية الدلالة فهي لازمة عليهم؛ لقوله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته}[المائدة: ٦٧]

٢- أن الإنسان إذا بلَّغ شريعة الله برئت ذمَّته؛ لقوله تعالى: {ليس عليك هداهم}؛ ولو كانت ذمَّته لا تبرأ لكان ملزمًا بأن يهتدوا.

٣- إثبات أن جميع الأمور دقيقها، وجليلها بيد الله؛ لقوله تعالى: {ولكن الله يهدي من يشاء}.

٤- الرَّد على القدرية؛ لقوله تعالى: {ولكن الله يهدي من يشاء}؛ لأنهم يقولون: (إن العبد مستقل بعمله، ولا تعلُّق لمشيئة الله سبحانه وتعالى فيه).

٥- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: {من يشاء}.

٦- أنَّ هداية الخلق بمشيئة الله؛ ولكن هذه المشيئة تابعة للحكمة؛ فمن كان أهلًا لها هداه الله؛ لقوله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته}[الأنعام: ١٢٤]؛ ومن لم يكن أهلًا للهداية لم يهده؛ لقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}[الصف: ٥]، ولقوله تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم}[يونس: ٩٦، ٩٧].

٧- أنَّ أعمال الإنسان لا تنصرف إلى غيره؛ لقوله تعالى: {وما تنفقوا من خير فلأنفسكم}؛ وليس في الآية دليل على منع أن يتصدَّق الإنسان بعمله على غيره؛ ولكنها تبيِّن أن ما عمله الإنسان فهو حق له؛ ولهذا جاءت السنة صريحة بجواز الصَّدقة عن الميت، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في قصة الرجل الذي قال: ((يا رسول الله، إن أمي أفتلتت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: نعم تصدق عنها(١)))؛ وكذلك حديث سعد بن عبادة حين تصدق ببستانه لأمِّه(٢)؛ إذًا فالآية لا تدلُّ على منع الصدقة عن الغير؛ وإنَّما تدلُّ على أن ما عمله الإنسان لا يصرف إلى غيره.

١- أخرجه البخاري ص٢٢٢، كتاب الوصايا، باب ١٩: ما يستحب لمن توفي فجاءة أن يتصدقوا عنه، حديث رقم ٢٧٦٠؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٦، كتاب الزكاة، باب ١٥: وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، حديث رقم ٢٣٢٦ [٥١] ١٠٠٤؛ واللفظ للبخاري.

٢- أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١٦: إذا قال: أرضي وبستاني صدقة الله، حديث رقم ٢٧٥٦.

٨- أنَّ الإنفاق الذي لا يبتغى به وجه الله لا ينفع العبد؛ لقوله تعالى: {وما تنفقون إلَّا ابتغاء وجه الله}.

٩- التنبيه على الإخلاص: أن يكون الإنسان مخلصًا لله عز وجل في كل عمله؛ حتى في الإنفاق وبذل المال ينبغي له أن يكون مخلصًا فيه؛ لقوله تعالى: {وما تنفقون إلَّا ابتغاء وجه الله}؛ فالإنفاق قد يحمل عليه محبة الظهور، ومحبة الثناء، وأن يقال: فلان كريم، وأن تتَّجه الأنظار إليه؛ ولكن كل هذا لا ينفع؛ إنما ينفع ما ابتُغيَ به وجه الله.

١٠- إثبات وجه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {إلَّا ابتغاء وجه الله}؛ وأهل السنة والجماعة يقولون: إن لله سبحانه وتعالى وجهًا حقيقيًّا موصوفًا بالجلال والإكرام لا يماثل أوجه المخلوقين؛ وأنه من الصفات الذاتية الخبرية؛ و(الصفات الذاتية الخبرية) هي التي لم يزل، ولا يزال متَّصفًا بها، ونظير مسمَّاها أبعاض وأجزاء لنا.

وأهل التعطيل ينكرون أن يكون لله وجه حقيقي، ويقولون: المراد بـ{الوجه} الثواب، أو الجهة، أو نحو ذلك؛ وهذا تحريف مخالف لظاهر اللفظ، ولإجماع السلف؛ ولأن الثواب لا يوصف بالجلال والإكرام؛ والله سبحانه وتعالى وصف وجهه بالجلال والإكرام، فقال تعالى: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}[الرحمن: ٢٧].

١١- الإشارة إلى نظر وجه الله؛ لقوله تعالى: {إلَّا ابتغاء وجه الله}؛ وهذا – أعني النظر إلى وجه الله – ثابت بالكتاب والسنة، وإجماع السلف؛ لقوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة}[القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}[يونس: ٢٦]؛ فقد فسر النبي ﷺ ((الزيادة)) بأنها النظر إلى وجه الله([1])... إلى آيات أخرى؛ وأمَّا السنة فقد تواترت بذلك؛ ومنها قوله ﷺ: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته([2])))؛ وأمَّا إجماع السلف فقد نقله غير واحد من أهل العلم.

١٢- أن الإنسان لا ينقص من عمله شيئًا؛ لقوله تعالى: {وما تنفقوا من خير يوف إليكم}.

١٣- الإشارة إلى أن الإنفاق من الحرام لا يقبل؛ وذلك لقوله تعالى: {من خير}؛ ووجهه: أن الحرام ليس بخير؛ بل هو شر.

١٤- نفي الظلم في جزاء الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وأنتم لا تظلمون}؛ وهذا يستلزم كمال عدله؛ فإن الله عز وجل كلَّما نفى عن نفسه شيئًا من الصفات فإنه مستلزم لكمال ضده.

١- راجع مسلما ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٨٠: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم ٤٤٩ [٢٩٧] ١٨١، ٤٥٠ [٢٩٨] ١٨١.

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لا تضامون)): يجوز ضم التاء وفتحها وهو بتشديد الميم من الضم أي لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا يقول أرينيه بل كل ينفرد برؤيته. وروي بتخفيف الميم من الضيم وهو (الظلم) يعني: لا ينالكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض بل تستوون كلكم في رؤيته تعالى.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

قال أبو زهرة: بيَّن سبحانه وتعالى في الآيات السابقة آفات الصدقات التي تذهب بخيرها بالنسبة لمعطيها من منٍّ وأذى ورياء وقصد إلى الخبيث دون الطيب ينفق منه، مع أن الله طيب لَا يقبل إلَّا طيبًا؛ ثم بيَّن أنه لَا يصح أن يكون الكفر أو العصيان سببًا للمنع حيث يجب العطاء، ليُحْمَل الشرك على الإيمان، والعاصي على الطاعة. بعد هذا بيَّن سبحانه موضع الصدقات والصفات التي تُوجب العطاء في مستحقِّها؛ وقد قصد سبحانه وتعالى إلى بيان موضع الأولوية فيها؛ فقال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}: أي أن الصدقة تكون للفقراء الذين اتصفوا بهذه الصفات.

قال السعدي: ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أَولى الناس بها فوصفهم بست صفات أحدها: الفقر؛ والثاني: قوله: {أحصروا في سبيل الله}: أي قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبوسون له؛ والثالث: عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: {لا يستطيعون ضربًا في الأرض}: أي سفرًا للتكسُّب؛ والرابع: قوله: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف} وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعفُّفهم؛ والخامس: أنه قال: {تعرفهم بسيماهم}: أي بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: {يحسبهم الجاهل أغنياء} فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرَّس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرِّس فمجرَّد ما يراهم يعرفهم بعلامتهم؛ والسادس: قوله: {لا يسألون الناس إلحافًا}: أي لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحُّوا على من سألوا، فهؤلاء أولى الناس وأحقُّهم بالصَّدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبِرٌّ يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فلهذا قال: {وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم}.

قال ابن العثيمين: و{الفقراء} جمع فقير؛ و(الفقير) هو المُعدم؛ لأن أصل هذه الكلمة مأخوذة من (الفقر) الموافق لـ(القفر) في الاشتقاق الأكبر – الذي يتماثل فيه الحروف دون الترتيب؛ و(القفر) الأرض الخالية، كما قال الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

فـ(الفقير) معناه الخالي ذات اليد؛ ويقرن بـ(المسكين) أحيانًا؛ فإذا قرن بـ(المسكين) صار لكل منهما معنى؛ وصار (الفقير) من كان خالي ذات اليد؛ أو من لا يجد من النفقة إلَّا أقلَّ من النصف؛ والمسكين أحسن حالًا منه، لكن لا يجد جميع الكفاية؛ أمَّا إذا انفرد أحدهما عن الآخر صار معناهما واحدًا؛ فهو من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت.

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}: يَعْنِي الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ قَدِ انْقَطَعُوا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، وَسَكَنُوا الْمَدِينَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ سَبَبٌ يَرُدُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا يُغْنِيهِمْ.

قال ابن العثيمين: أي يظنُّهم الجاهل بأحوالهم أغنياء؛ وفي {يحسبهم} قراءتان: فتح السين، وكسرها؛ و{من التَّعفُّف} أي بسبب تعفُّفهم عن السؤال، وإظهار المسكنة؛ لأنك إذا رأيتهم ظننتهم أغنياء مع أنهم فقراء، كقول النبي ﷺ: ((ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة، واللقمتان والتمرة، والتمرتان؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غنًى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس([1]))).

{تعرفهم بسيماهم}: أي تعرف أحوالهم بعلامتهم؛ والعلامة التي فيهم هي أن الإنسان إذا رآهم ظنَّهم أغنياء؛ وإذا دقَّق في حالهم تبيَّن له أنهم فقراء؛ لكنهم متعفِّفون؛ وكم من إنسان يأتيك بمظهر الفقير المدقع: ثياب ممزقة، وشعر منفوش، ووجه كالح، وأنين، وطنين؛ وإذا أمعنت النظر فيه عرفت أنه غني؛ وكم إنسان يأتيك بزي الغني، وبهيئة الإنسان المنتصر على نفسه الذي لا يحتاج إلى أحد؛ لكن إذا دقَّقت في حاله علمت أنه فقير؛ وهذا يعرفه من منَّ الله عليه بالفراسة؛ وكثير من الناس يعطيهم الله سبحانه وتعالى علمًا بالفراسة، يعلمون أحوال الإنسان بملامح وجهه ونظراته، وكذلك بعض عباراته، كما قال الله عز وجل: {ولتعرفنهم في لحن القول}[محمد: ٣٠].

{لا يسألون الناس إلحافًا}؛ هل النفي للقيد؛ أو للقيد والمقيَّد؟ إن نظرنا إلى ظاهر اللفظ فإن النفي للقيد؛ أي أنهم لا يلحون في المسألة؛ ولكن يسألون؛ وإن نظرنا إلى مقتضى السياق ترجح أنهم لا يسألون الناس مطلقًا؛ فيكون النفي نفيًا للقيد – وهو الإلحاف، والمقيَّد – وهو السؤال؛ والمعنى أنهم لا يسألون مطلقًا؛ ولو كانوا يسألون ما حسبهم الجاهل أغنياء؛ بل لظنَّهم فقراء بسبب سؤالهم؛ ولكنه ذكر أعلى أنواع السؤال المذموم – وهو الإلحاح؛ ولهذا تجد الإنسان إذا ألحَّ – وإن كان فقيرًا – يثقل عليك، وتملُّ مسألته؛ حتى ربما تأخذك العزة بالإثم ولا تعطيه؛ فتحرمه، أو تنهره مع علمك باستحقاقه؛ وتجد الإنسان الذي يظهر بمظهر الغني المتعفِّف تَرِقُّ له، وتعطيه أكثر مما تعطي السائل.

قال القرطبي: قال ابن عبد البر: من أحسن ما روي من أجوبة الفقهاء في معاني السؤال وكراهيته ومذهب أهل الورع فيه ما حكاه الأثرم عن أحمد بن حنبل وقد سئل عن المسألة متى تحل قال: إذا لم يكن ما يغذيه ويعشيه على حديث سهل بن الحنظلية. قيل لأبي عبدالله: فإن اضطر إلى المسألة؟ قال: هي مباحة له إذا اضطر. قيل له: فإن تعفَّف؟ قال: ذلك خير له. ثم قال: ما أظن أحدًا يموت من الجوع! الله يأتيه برزقه. ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري: ((من استعفَّ أعفَّه

١- أخرجه البخاري ص١١٧، كتاب الزكاة، باب ٥٣: قول الله تعالى: {لا يسألون الناس إلحافا} وكم الغنى ... ، حديث رقم ١٤٧٩؛ وأخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٤: المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ... ، حديث رقم ٢٣٩٣ [١٠١] ١٠٣٩.

الله([1]))). وحديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال له: ((تعفّف([2]))). قال أبو بكر: وسمعته يسأل عن الرجل لا يجد شيئًا أيسأل الناس أم يأكل الميتة؟ فقال: أيأكل الميتة وهو يجد من يسأله، هذا شنيع. قال: وسمعته يسأله هل يسأل الرجل لغيره؟ قال لا، ولكن يعرض، كما قال النبي ﷺ حين جاءه قوم حفاة عراة مجتابي([3])النّمار فقال: ((تصدقوا))، ولم يقل أعطوهم. قال أبو عمر: قد قال النبي ﷺ رَحِمَهُ اللهُ ((اشفعوا تؤجروا([4]))). وفيه إطلاق السؤال لغيره. والله أعلم. وقال: ((ألا رجل يتصدَّق على هذا؟([5]))) قال أبو بكر: قيل له – يعني أحمد بن حنبل – فالرجل يذكر الرجل فيقول: إنه محتاج؟ فقال: هذا تعريض وليس به بأس، إنما المسألة أن يقول أعطه. ثم قال: لا يعجبني أن يسأل المرء لنفسه فكيف لغيره؟ والتعريض هنا أحب إليَّ.

فإن جاءه شيء من غير سؤال فله أن يقبله ولا يردَّه، إذ هو رزق رزقه الله. روى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ أرسل إلى عمر بن الخطاب بعطاء فردَّه، فقال له رسول الله ﷺ: ((لم رددته؟)) فقال: يا رسول الله، أليس أخبرتنا أن أحدنا خير له ألَّا يأخذ شيئًا؟ فقال رسول الله ﷺ: ((إنما ذاك عن المسألة فأمَّا ما كان من غير مسألة فإنما هو رزق رزقكه الله)). فقال عمر بن الخطاب: والذي نفسي بيده لا أسأل أحدًا شيئًا ولا يأتيني بشيء من غير مسألة إلَّا أخذته([6]). وهذا نص. وخرج مسلم في صحيحه والنسائي في سننه وغيرهما عن ابن عمر قال سمعت عمر يقول: كان النبي ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالًا فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال رسول الله ﷺ: ((خذه وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك([7]))). زاد النسائي – بعد قوله ((خذه – فتموَّله أو تصدَّق به)). وروى مسلم من حديث عبدالله بن السعدي المالكي عن عمر فقال لي رسول الله ﷺ: ((إذا أعطيت شيئًا من غير أن تسأل فكل وتصدق)). وهذا يصحح لك حديث مالك المرسل. قال الأثرم: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يسأل عن قول النبي ﷺ: ((ما أتاك من غير مسألة ولا إشراف)) أي الإشراف أراد؟ فقال: أن تستشرفه وتقول: لعله يبعث إليَّ، بقلبك. قيل له: وإن لم يتعرَّض، قال نعم إنما هو بالقلب. قيل له: هذا شديد قال: وإن

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٣١٤).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٢٤٥١).

٣- آجتاب فلان ثوبًا إذا لبسه. والنِّمار (بكسر النون جمع نمرة) وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب، كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض. أراد أنه جاء قوم لابسي أزر مخططة من صوف (عن نهاية ابن الأثير).

- (قلت): مسلم (١٠١٧).

٤- (قلت): البخاري (١٤٣٢).

٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٥٨٩).

٦- (قلت): صححه الإمام الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٨٤٦).

٧- (قلت): البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥).

كان شديدًا فهو هكذا. قيل له: فإن كان الرجل لم يعودني أن يرسل إليَّ شيئًا إلَّا أنه قد عرض بقلبي فقلت: عسى أن يبعث إليَّ. قال: هذا إشراف، فأما إذا جاءك من غير أن تحتسبه ولا خطر على قلبك فهذا الآن ليس فيه إشراف. قال أبو عمر: الإشراف في اللغة رفع الرأس إلى المطموع عنده والمطموع فيه، وأن يهش الإنسان ويتعرَّض. وما قاله أحمد في تأويل الإشراف تضييق وتشديد وهو عندي بعيد، لأن الله عز وجل تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله جارحة. وأما ما اعتقده القلب من المعاصي ما خلا الكفر فليس بشيء حتى يعمل له، وخطرات النفس متجاوز عنها بإجماع.

والإلحاح في المسألة والإلحاف فيها مع الغنى عنها حرام لا يحل. قال رسول الله ﷺ: ((من سأل الناس أموالهم تكثرًا فإنَّما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر([1]))) رواه أبو هريرة خرجه مسلم. وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ((لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم([2]))) رواه مسلم أيضًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٨ص٣٢٨: – جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْعِفَّةِ وَالْغِنَى فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ، مِنْهَا: قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُخَرَّجُ فِي الصَّحِيحَيْنِ: ((مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ([3]))). وَمِنْهَا: قَوْلُهُ فِي فِي حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ((أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ، وَرَجُلٌ غَنِيٌّ عَفِيفٌ مُتَصَدِّقٌ([4]))). وَمِنْهَا: قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْخَيْلِ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: ((وَرَجُلٌ ارْتَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا. وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ([5]))). وَمِنْهَا: قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ عُمَرَ وَغَيْرِهِ: ((مَا أَتَاك مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ([6]))، فَخُذْهُ([6]))، فَالسَّائِلُ بِلِسَانِهِ، وَهُوَ ضِدُّ الْمُتَعَفِّفِ، وَالْمُشْرِفُ بِقَلْبِهِ، وَهُوَ ضِدُّ الْغِنَى.

قَالَ فِي حَقِّ الْفُقَرَاءِ: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ}: أَيْ عَنْ السُّؤَالِ لِلنَّاسِ. وَقَالَ: ((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ([7]))، فَغِنَى النَّفْسِ الَّذِي لَا يَسْتَشْرِفُ إلَى الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّ الْحُرَّ عَبْدٌ مَا طَمِعَ، وَالْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنِعَ. وَقَدْ قِيلَ: (أَطَعْت مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي).

فَكَرِهَ أَنْ يَتَّبِعَ نَفْسَهُ مَا اسْتَشْرَفَتْ لَهُ لِئَلَّا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ فَقْرٌ وَطَمَعٌ إلَى الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ خِلَافُ التَّوَكُّلِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَخِلَافُ غِنَى النَّفْسِ.

١- (قلت): مسلم (١٠٤١).

٢- (قلت): البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

٣- البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣/١٢٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤).

٤- مسلم في الجنة (٢٨٦٥/٦٣).

٥- البخاري في الإعتصام (٧٣٥٦)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٣) كلاهما عن أبي هريرة.

٦- البخاري في الزكاة (١٤٧٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٥/١١١،١١٠). وقوله: ((مشرف)): أي متطلع إليه، وطامع فيه. انظر: النهاية ٤٦٢/٢.

٧- البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١/١٢٠) كلاهما عن أبي هريرة.

قال ابن العثيمين: إذًا في قول الله تعالى: {الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا} خمس صفات والسادسة أنهم فقراء؛ فهؤلاء هم المستحقون حقًّا للصدقة، والإنفاق؛ وإذا تخلفت صفة من الصفات فالاستحقاق باق؛ لكن ليست كما إذا تمَّت هذه الصفات الست.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٧: فوصفهم بست صفات: إحداها: الفقر، الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها فى أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله فى سبيله، الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسُّب، والضرب فى الأرض هو السفر، قال تعالى: {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}[المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ}[النساء: ١٠١]، الرابعة: شدَّة تعفُّفهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى حتى يحسبهم الجاهل أغنياءَ من تعفُّفهم وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم، الخامسة: أنهم يُعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالَّة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسبان الجاهل أنهم أغنياءُ لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف هو المتوسِّم المتفرِّس الذي يعرف الناس بسيماهم – ولهذا وصف الجاهل أغنياء وقال يعرفهم بسيماهم –، فالمتوسِّمون خواص المؤمنين كما قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}[الحجر: ٧٥]، السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم شيئًا؛ والإلحاف هو الإلحاح والنفي، متسلِّط عليهما معًا، أي لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف. وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال هو سؤال الإلحاف، فأمَّا السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف فالأفضل تركه ولا يحرم.

فهذه ستة صفات للمستحقِّين للصدقة، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيِّه من غير حقيقته، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز، والله يختصُّ بتوفيقه من يشاءُ. فهؤلاء هم المحسنون فى أموالهم.

قال ابن العثيمين: قوله تعالى: {وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم[1]}: هذه الجملة شرطية ذيِّلت بها الآية المبيِّنة لأهل الاستحقاق حثًّا على الإنفاق؛ لأنه إذا كان الله عليمًا بأي خير ننفقه فسيجازينا عليه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قال أبو زهرة: هذه الجملة السامية ختمت بها الآية الكريمة، لثلاثة أمور:

---

١ – (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

أولها: تربية الشعور بمراقبة الله في نفس المؤمن، فإنه إذا أحسَّ أن الله سبحانه وتعالى مطَّلع دائمًا على كل ما يعمل من خير ومن شر، أحسَّ بمراقبته سبحانه، ودام ذكره له، وشعوره بعظمته، فيكون في مقام العبودية الرفيع، ويعبد الله كأنه يراه، كما قال ﷺ: ((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك([1]))).

ثانيها: هو الإحساس برضا الله عنه عند فعل الخير، إذ إن الله يراه وهو يفعله، والإحساس بمرضاة الله مقام جليل، فرضوان الله أكبر من كل نعيم.

ثالثها: العلم بالجزاء الأخروي؛ فإن الله إذا كان يعلم الخير من الأخيار، فإنه يثيبه عليه؛ لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه لا يجوز أن نعطي من يستطيع التكسُّب؛ لقوله تعالى: {لا يستطيعون ضربًا في الأرض}؛ لأنه علم منه أنهم لو كانوا يستطيعون ضربًا في الأرض، والتكسُّب فإنهم لا يعطون؛ ولهذا لما جاء رجلان إلى الرسول ﷺ يسألانه الصدقة صعد فيهما النظر وصوبه، ثم قال: ((إن شئتما أعطيتكما؛ ولا حظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب([2])))؛ فإذا كان الإنسان يستطيع الضرب في الأرض والتجارة والتكسُّب، فإنه لا يعطى؛ لأنه وإن كان فقيرًا بماله؛ لكنه ليس فقيرًا بعمله.

٢- فضيلة التعفُّف؛ لقوله تعالى: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف}.

٣- التَّنبيه على أنَّه ينبغي للإنسان أن يكون فطنًا ذا حزم، ودقَّة نظر؛ لأن الله وصف هذا الذي لا يعلم عن حال هؤلاء بأنه جاهل؛ فقال تعالى: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف}؛ فينبغي للإنسان أن يكون ذا فطنة، وحزم، ونظر في الأمور.

٤- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: {من التعفف}؛ فإن {من} هنا سببية؛ أي بسبب تعففهم يظن الجاهل بحالهم أنهم أغنياء.

٥- الإشارة إلى الفراسة والفطنة؛ لقوله تعالى: {تعرفهم بسيماهم}؛ فإن السِّيما هي العلامة التي لا يطَّلع عليها إلَّا ذوو الفراسة؛ وكم من إنسان سليم القلب ليس عنده فراسة، ولا بعد نظر يخدع بأدنى سبب؛ وكم من إنسان عنده قوة فراسة، وحزم، ونظر في العواقب يحميه الله سبحانه وتعالى بفراسته عن أشياء كثيرة.

١- (قلت): البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

٢- أخرجه أحمد ٤/٢٢٤، حديث رقم ١٨١٣٥، أخرجه أبو داود ص١٣٤٤، كتاب الزكاة، باب ٢٤: من يعطى من الصدقة وحد الغنى، حديث رقم ١٦٣٣؛ وأخرجه النسائي ص٢٢٥٦، كتاب الزكاة، باب ٩١: مسالة القوي المكتسب، حديث رقم ٢٥٩٩، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح ٢/٢٢٨، والإرواء ٣/٣٨١، حديث رقم ٨٧٦.

٦- الثناء على من لا يسأل الناس؛ لقوله تعالى: {لا يسألون الناس إلحافًا}؛ وقد كان من جملة ما بايع النبي ﷺ أصحابه: ألَّا يسألوا الناس شيئًا؛ حتى إن الرجل ليسقط سوطه من على بعيره، فينزل، فيأخذه ولا يقول لأخيه: أعطني إيَّاه(١)؛ كل هذا بعدًا عن سؤال الناس.

والسؤال - أي سؤال المال - لغير ضرورة محرَّم إلَّا إذا علمنا أن المسؤول يفرح بذلك ويسر؛ فإنه لا بأس به؛ بل قد يكون السائل مثابًا مأجورًا لإدخاله السرور على أخيه؛ كما لو سأل إنسان صديقًا له يعرف أنه يكون ممتنًّا بهذا السؤال؛ وقد قال النبي ﷺ في اللحم الذي تُصُدِّقَ بِهِ عَلَى بَرِيرَةَ: ((هو على بريرة صدقة؛ ولنا هدية(٢))).

٧- بيان عموم علم الله؛ لقوله تعالى: {وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم}؛ فأي خير يفعله العبد فإن الله به عليم.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

قال ابن العثيمين: {الذين} مبتدأ؛ وجملة: {فلهم أجرهم} خبر المبتدأ؛ واقترنت بالفاء لمشابهة المبتدأ بالشرط في العموم؛ لأن المبتدأ هنا اسم موصول؛ واسم الموصول يشبه الشرط في العموم.

قوله تعالى: {الذين ينفقون أموالهم} يحتمل أن يراد بال{أموال} هنا كل الأموال؛ ويحتمل أن يراد الجنس فيشمل الكل والبعض.

قال السعدي: ثم ذكر حالة المتصدِّقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: {الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله}: أي طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشهوات أنفسهم.

قال أبو زهرة: فيه بيان عموم الأزمان، فليس للصدقات وقت معلوم تقبل فيه، وآخر تردُّ وترفض، بل هي خير كلُّها، المقصود منها النفع العام، وهو متحقَّق فيها ليلًا ونهارًا، وغدوةً وعشيًّا، وفي الضحى وفي الأصيل، فالعبرة بالفعل ونيَّته ونتيجته لَا بزمانه ولا بوقته.

١- راجع صحيح مسلم ص٨٤٢، كتاب الزكاة، باب ٣٥: كراهة المسألة، حديث رقم ٢٤٠٣ [١٠٨] ١٠٤٣.

٢- أخرجه البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦١: الصدقة على موالي أزواج النبي ﷺ، حديث رقم ١٤٩٣، وأخرجه مسلم ص٨٤٩، كتاب الزكاة، باب ٥٢، إباحة الهدية للنبي ﷺ ولبني هاشم وبني المطلب ... ، حديث رقم ٢٤٨٥ [١٧٠] ١٠٧٤.

قال ابن العثيمين: {بالليل والنهار}؛ الباء هنا للظرفية وفيه عموم الزمن؛ وقوله تعالى: {سرًّا وعلانية} فيه عموم الأحوال؛ أي على كل حال وفي كل زمان؛ و{سرا}: أي خفاء؛ وهو مفعول مطلق لـ{ينفقون}: يعني إنفاقا سرًّا و{علانية}: أي جهرًا.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٦٦: فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاءِ في الخبر ليدلَّ على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أية حالة وجد من سرٍّ وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخِّر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السِّر، ولا بنفقة السِّر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه، فتدبَّر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك في التفاسير، والمِنَّة والفضل لله وحده لا شريك له.

قال أبو زهرة: وقوله تعالى: {سِرًّا وَعَلانِيَةً} فيه بيان عموم الأحوال، ما دامت الصدقة قد خلت ممَّا يرنِّق صفو الإخلاص فيها، ولا يجعلها خالصة لوجه الله الكريم. ولقد قالوا إن تقديم الليل على النهار، والسِّر على العلانية فيه إيماء إلى أن الأولى الإخفاء والسَّتر؛ وإن ذلك واضح؛ لأن في الإخفاء والسَّتر احتياطًا للنَّفس وصونًا لها عن كل ما يؤدِّي إلى الرياء؛ فإن الإعلان قد يؤدَّي إلى الحمد والثناء، وقد يستمرئ المعطي ذلك، ويستطيبه، ثم يطلبه ويقصده، وعند ذلك يدخل الرياء، إذ يجد الثَّغرة في هذا الموضع فينفذ إلى النفس منها.

وهناك نوع من التَّعميم آخر في الآية غير عموم الزمان والحال، وهو عموم الإنفاق؛ فقد قال تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم} ولم يقل مثلًا: (يطعمون)، فالإنفاق باب واسع يشمل الإطعام والكسوة، كما يشمل سداد الدَّين ودفع المغارم، وإعداد العدَّة في سبيل الله تعالى، وإمداد المحاربين، وشراء ما يخصص للنفع العام، كشراء عثمان بئر رومة؛ فكل هذا من الإنفاق، وعمَّم مع الإنفاق الأموال التي تنفق، فكلُّه خير وكلُّه له جزاؤه.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنةج٧ص٢٣١: وَالْجَاهِلُ بِمَعْنَى الْآيَةِ، لِتَوَهُّمِهِ أَنَّ الَّذِي أَنْفَقَهُ سِرًّا وَعَلَانِيَةً غَيْرُ الَّذِي أَنْفَقَهُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ – يَقُولُ: نَزَلَتْ فِيمَنْ أَنْفَقَ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، إِمَّا عَلِيٍّ وَإِمَّا غَيْرِه، وَلِهَذَا قَالَ: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} * لَمْ يَعْطِفْ بِالْوَاوِ، فَيَقُولُ: وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً. بَلْ هَذَانِ دَاخِلَانِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، سَوَاءٌ * قِيلَ: هُمَا مَنْصُوبَانِ عَلَى الْمَصْدَرِ؛ لِأَنَّهُمَا نَوْعَانِ مِنَ الْإِنْفَاقِ، أَوْ قِيلَ: عَلَى الْحَالِ. فَسَوَاءٌ قُدِّرَا سِرًّا وَعَلَانِيَةً، أَوْ مُسِرًّا وَمُعْلِنًا، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي كَذَّبَ هَذَا كَانَ جَاهِلًا بِدَلَالَةِ الْقُرْآنِ. وَالْجَهْلُ فِي الرَّافِضَةِ لَيْسَ بِمُنْكَرٍ.

وَأَنَّا لَوْ قَدَّرْنَا أَنَّ عَلِيًّا فَعَلَ ذَلِكَ، وَنَزَلَتْ فِيهِ الْآيَةُ، فَهَلْ هُنَا إِلَّا إِنْفَاقُ أَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فِي أَرْبَعَةِ أَحْوَالٍ؟! وَهَذَا عَمَلٌ مَفْتُوحٌ بَابُهُ مُيَسَّرٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَالْعَامِلُونَ بِهَذَا وَأَضْعَافِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا، وَمَا مِنْ أَحَدٍ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا وَلَا بُدَّ أَنْ يُنْفِقَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَارَةً بِاللَّيْلِ وَتَارَةً بِالنَّهَارِ، وَتَارَةً فِي السِّرِّ وَتَارَةً فِي الْعَلَانِيَةِ. فَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْخَصَائِصِ، فَلَا يَدُلُّ عَلَى فَضِيلَةِ الْإِمَامَةِ.

قال ابن العثيمين: {فلهم أجرهم عند ربهم}: أي ثوابهم عند الله؛ وسمِّي أجرًا؛ لأنه يشبه عقد الإجارة التي يعوَّض فيه العامل على عمله؛ وهذا الأجر قد بيَّن فيما سبق بأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: {كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء}[البقرة: ٢٦١].

{ولا خوف عليهم}: أي فيما يستقبل؛ {ولا هم يحزنون}: أي فيما مضى؛ فهم لا يحزنون على ما سبق؛ ولا يخافون من المستقبل؛ لأنهم يرجون ثواب الله عز وجل ولا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم أنفقوه عن طيب نفس.

قال أبو زهرة: هذا جزاء الذين ينفقون بإخلاص غير مقيَّدين بزمان ولا حال ولا مكان، ولا قدر من الإنفاق، ولا نوع منه. والجملة موقعها من الإعراب أنها خبر والمبتدأ الذين ينفقون، ودخلت الفاء في الخبر، لأن الموصول في معنى الشرط فتدخل الفاء في خبره جوازًا، كما تدخل جواب الشرط.

والجزاء الذي ذكره سبحانه وتعالى ثلاثة أنواع:

أولها: الثواب يوم القيامة، وفي الدنيا، وذلك بالبركة، وبفضل التعاون الذي توجده الصدقة والإنفاق في سبيل الله؛ ثم بالنعيم المقيم يوم القيامة. وقد سمَّى سبحانه وتعالى ذلك أجرًا، وسمَّاه في مواضع أخرى جزاء، مع أنه المعطي والمانع، والرازق والباسط، وذلك تفضُّل منه وكرم.

والثاني من الجزاء: الأمن من الخوف؛ إذ قال سبحانه: {وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} والصدقة تؤمِّن من الخوف في الدنيا وفي الآخرة، فهي أمن من عذاب الله يوم القيامة؛ إذ إنها تكفِّر السيئات، كما قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...}، وكما قال ﷺ: ((الصدقة تطفئ الخطيئة([1]))، أما الأمن من الخوف في الدنيا، فلأن الإنفاق في مواضع الإنفاق وقاية للمجتمع من غوائل الفقر، وعوامل التَّخريب، فلا يحصَّن مال الغني إلَّا الإنفاق في كل ما يعود على الفقير والمجتمع بالنفع، وإن الأمن من الخوف بالإنفاق واضح كل الوضوح في الإنفاق لإمداد القوات المجاهدة في الدفاع عن الأمة، كما هو واضح في سد حاجات الفقير، وتهيئة فرص الحياة الرفيعة والعمل له.

والثالث من أنواع الجزاء: نفي الحزن، والبعد عن أسبابه. والحزن همٌّ نفسي؛ ولذا عبَّر عنه بالفعل الذي يصوِّر النفس والشخص فقال سبحانه: {وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} وهَمُّ النفس يُدْفع بالاعتماد على الله، وطلب رضاه، واطمئنان الضمير، وبرد اليقين، وذلك كلُّه يتحقَّق في الدنيا بالصدقة، وزوال الحزن في الآخرة بها أعظم وأكبر.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (١١٧)،، وقال: صحيح أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم. والحديث بتمامه: ((الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار)).

هذا والآية عامة تشمل كل من يسارع إلى الإنفاق في وقت الحاجة إليه في سرٍّ أو في إعلانٍ في ليلٍ أو في نهارٍ، غير قاصدٍ بما أنفق إلَّا الخير يبتغيه، ومرضاة الله سبحانه وتعالى، لَا يرائي ولا يمنُّ ولا يؤذي، ولقد ذكر العلماء أن الآية مع عمومها وجدت روايات في سبب نزولها؛ وهذه الروايات كلُّها لَا تمنع عمومها، وإنها تبيِّن فضل المنفِق المخلص الذي يعمُّ إنفاقه، ويجيء في وقت الحاجة إليه، ((والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه([1]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلًا أو نهارا، أو سرًّا أو جهارًا.

٢- كثرة ثوابهم؛ لأنه سبحانه وتعالى أضاف أجرهم إلى نفسه، فقال تعالى: {فلهم أجرهم عند ربهم}؛ والثواب عند العظيم يكون عظيمًا.

٣- أن الإنفاق يكون سببًا لشرح الصدر، وطرد الهمِّ والغم؛ لقوله تعالى: {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}؛ وهذا أمر مجرَّب مشاهد أن الإنسان إذا أنفق يبتغي بها وجه الله انشرح صدره، وسرَّت نفسه، واطمأن قلبه؛ وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – في زاد المعاد أن ذلك من أسباب انشراح الصدر.

٤- كرم الله عز وجل حيث جعل هذا الثواب الذي سببه منه وإليه أجرًا لفاعله؛ كالأجير إذا استأجرته فإن أجره ثابت لازم.

٥- كمال الأمن لمن أنفق في سبيل الله؛ وذلك لانتفاء الخوف والحزن عنهم.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)

قال أبو زهرة: في هذه الآية الكريمة يبيِّن سبحانه قبح الربا، وإن المناسبة بين الإنفاق في سبيل الله والربا، هي المناسبة بين الضدين؛ فإنه إذا تذكَّر الشخص أحد الضدين سبق إلى ذهنه ضدَّه؛ وإن التضادَّ ثابت بين الإنفاق في سبيل الجماعة

١- (قلت): مسلم (٢٦٩٩).

والربا من عدَّة نواحٍ: من ناحية النفس التي ينبعث منها الربا، والنفس التي تنبعث منها الصدقة، فنفس الربوي نفس محبٌّ لذاته يريد أن يحتاز كل شيء، ونفس المنفق في سبيل الله نفس محبٌّ للناس ألوف، يُؤْثِرُ على نفسه ولو كان به خصاصة، ومن ناحية الحقيقة، فالربا أكل لأموال الناس بالباطل، والإنفاق بذل لمال النفس في سبيل الغير ورفعة شأن الجماعة، وأكل أموال الناس نقيض لإعطاء الناس من حُرِّ ماله. ومن ناحية النتيجة فالربا يقطع التعاون بين الناس، أو يكون التعاون قائمًا على الإثم والعدوان، بينما الإنفاق في سبيل الله يقيم التعاون بين الجماعة والآحاد على أساس من الفضيلة، والبر والتَّقوى، ثم الربا يوجد قلق المرابي، والصدقة توجد اطمئنانًا وقرارًا.

فالربا والإنفاق في سبيل الله نقيضان لَا يجتمعان؛ ولذا جعلهما سبحانه وتعالى متقابلين تقابل الأضداد، في قوله تعالى: {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ومَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}.

وقد ابتدأ سبحانه في بيان حقيقة الربا وحكمه ببيان أثره في نفس المرابي، ليعلم كل إنسان أن أثره شرٌّ في نفس صاحبه، وأن أول من يناله الضَّرر هو المرابي نفسه، فهو بمقدار ما يكثر من مال يكثر من الهموم؛ ولذا قال سبحانه: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} فهذه الجملة السامية تصوير لحال المرابي، واضطراب نفسه، وقلقه في حياته، فالله سبحانه وتعالى يمثل المرابي في قلقه المستمر وانزعاجه الدائم بحال الشخص الذي أصيب بجنون واضطراب، فهو يتخبط في أموره وفي أحواله، وهو في قلق مستمر.

قال ابن العثيمين: {الذين} مبتدأ؛ و{لا يقومون} خبره؛ و{الذين يأكلون الربا}: أي الذين يأخذون الربا فينتفعون به بأكل، أو شرب، أو لباس، أو سكن، أو غير ذلك؛ لكنه ذكر الأكل؛ لأنه أعمّ وجوه الانتفاع، وأكثرها إلحاحًا؛ و{الربا} في اللغة: الزيادة؛ ومنه قوله تعالى: {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت}[الحج: ٥]: أي زادت؛ وفي الشرع: زيادة في شيئين منع الشارع من التفاضل بينهما.

قال الطبري: و(الإرباء) الزيادة على الشيء، يقال منه: (أربى فلان على فلان)، إذا زاد عليه، (يربي إرباءً)، والزيادة هي {الربا}، و(ربا الشيء)، إذا زاد على ما كان عليه فعظُم، فهو (يَرْبو رَبْوًا). وإنما قيل للرابية رابية، لزيادتها في العظم والإشراف على ما استوى من الأرض ممَّا حولها، من قولهم: (ربا يربو). ومن ذلك قيل: (فلان في رَبَاوَة قومه)، يراد أنه في رفعة وشرف منهم، فأصل {الربا}، الإنافة والزيادة، ثم يقال: (أربى فلان): أي أناف ماله حين صيَّره زائدًا. وإنما قيل للمربي: (مُرْبٍ)، لتضعيفه المال، الذي كان له على غريمه حالًا أو لزيادته عليه فيه لسبب الأجل الذي يؤخّره إليه فيزيده إلى أجله الذي كان له قبلَ حِلّ دينه عليه. ولذلك قال جل ثناؤه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً}[آل عمران: ١٣١].

قال ابن العثيمين: {لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المس}؛ اختلف المفسرون في هذا القيام، ومتى يكون؛ فقال بعضهم – وهم الأكثر: إنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ يعني: كالمصروع الذي يتخبطه الشيطان؛ و(التخبط) هو الضرب العشوائي؛ فالشيطان يتسلَّط على ابن آدم تسلُّطًا عشوائيًا فيصرعه؛ فيقوم هؤلاء من قبورهم يوم القيامة كقيام المصروعين – والعياذ بالله – يشهدهم الناس كلهم؛ وهذا القول هو قول جمهور المفسرين؛ وهو مروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

القول الثاني: إنهم لا يقومون عند التعامل بالربا إلّا كما يقوم المصروع؛ لأنهم – والعياذ بالله – لشدَّة شغفهم بالربا كأنَّما يتصرَّفون تصرُّف المتخبِّط الذي لا يشعر؛ لأنهم سكارى بمحبة الربا، وسكارى بما يربحونه – وهم الخاسرون؛ فيكون القيام هنا في الدنيا؛ شبَّه تصرفاتهم العشوائية الجنونية المبنيَّة على الربا العظيم – الذي يتضخَّم المال من أجل الربا – بالإنسان المصروع الذي لا يعرف كيف يتصرَّف؛ وهذا قول كثير من المتأخِّرين؛ وقالوا: إن يوم القيامة هنا ليس له ذكر؛ ولكن الله شبَّه حالهم حين طلبهم الربا بحال المصروع من سوء التَّصَرُّف؛ وكلّما كان الإنسان أشدُّ فقرًا كانوا له أشدُّ ظلمًا؛ فيكثرون عليه الظلم لفقره؛ بينما حاله تقتضي الرأفة والتخفيف؛ لكن هؤلاء ظلمة ليس همهم إلّا أكل أموال الناس.

فاختلف المفسرون في معنى (القيام)، ومتى يكون؛ لكنَّهم لم يختلفوا في قوله تعالى: {يتخبطه الشيطان من المس}: يعني متَّفقين على أن الشيطان يتخبَّط الإنسان؛ و{من المس}: أي بالمس بالجنون؛ وهذا أمر مشاهد: أن الشيطان يصرع بني آدم؛ وربما يقتله – نسأل الله العافية –؛ يصرعه، ويبدأ يتخبَّط، ويتكلَّم، والإنسان نفسه لا يتكلَّم – يتكلَّم الشيطان الذي صرعه.

قال ابن كثير: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْأَبْرَارَ الْمُؤَدِّينَ النَّفَقَاتِ، الْمُخْرِجِينَ الزَّكَوَاتِ، الْمُتَفَضِّلِينَ بِالْبِرِّ وَالصِّلَاتِ لِذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْقَرَابَاتِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْآنَاتِ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ أَكَلَةِ الرِّبَا وَأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا إِلَى بَعْثِهِمْ وَنَشُورِهِمْ، لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَصْرُوعُ حَالَ صَرَعِهِ وَتَخَبُّطَ الشَّيْطَانِ لَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا.

قال السعدي: أي: يصرعه الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال، فكما تقلَّبت عقولهم و{قالوا إنما البيع مثل الربا} وهذا لا يكون إلّا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين.

قال ابن العثيمين: {ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا}: المشار إليه قيامهم كقيام المصروع؛ {بأنهم قالوا ... } إلخ: الباء للسببية؛ يعني أنهم عمي عليهم الفرق بين البيع والربا؛ أو أنهم كابروا فألحقوا الربا بالبيع؛ ولذلك عكسوا التَّشبيه، فقالوا: إنما البيع مثل الربا، ولم يقولوا: (إنما الربا مثل البيع)، كما هو مقتضى الحال.

قال ابن كثير: أَيْ: إِنَّمَا جُوزُوا بِذَلِكَ لِاعْتِرَاضِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ، وَلَيْسَ هَذَا قِيَاسًا مِنْهُمْ لِلرِّبَا عَلَى الْبَيْعِ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّةِ أَصْلِ الْبَيْعِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ لَقَالُوا: إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}: أَيْ هُوَ نَظِيرُهُ، فَلِمَ حَرَّمَ هَذَا وَأُبِيحَ هَذَا؟ وَهَذَا اعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى الشَّرْعِ، أَيْ: هَذَا مِثْلُ هَذَا، وَقَدْ أَحَلَّ هَذَا وَحَرَّمَ هَذَا!

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ رَدًّا عَلَيْهِمْ، أَيْ: قَالُوا: مَا قَالُوهُ مِنَ الِاعْتِرَاضِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِتَفْرِيقِ اللَّهِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا حُكْمًا، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا، وَمَا يَنْفَعُ عِبَادَهُ فَيُبِيحُهُ لَهُمْ، وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا الطِّفْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}.

قال السعدي: قال الله تعالى رادًّا عليهم ومبيِّنًا حكمته العظيمة {وأحل الله البيع}: أي لما فيه من عموم المصلحة وشدَّة الحاجة وحصول الضَّرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التَّصرُّفات الكسبية حتى يرد ما يدلُّ على المنع {وحرم الربا} لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٤ص٢١٨: قُصِدَ فِيهِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْبَيْعِ وَالرِّبَا، فِي أَنَّ أَحَدَهُمَا حَلَالٌ وَالْآخَرَ حَرَامٌ، وَلَمْ يُقْصَدْ فِيهِ بَيَانُ مَا يَجُوزُ بَيْعُهُ وَمَا لَا يَجُوزُ، فَلَا يُحْتَجُّ بِعُمُومِهِ عَلَى جَوَازِ بَيْعِ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ قَوْلَهُ (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ) يَعُمُّ بَيْعَ الْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْخَمْرِ وَالْكَلْبِ وَأُمِّ الْوَلَدِ وَالْوَقْفِ وَمِلْكِ الْغَيْرِ وَالثِّمَارِ قَبْلَ بُدُوِّ صَلَاحِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَانَ غَالِطًا.

قال عبدالعظيم بن بدوي في الوجيز: الربا محرَّم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وقال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}، وقال تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}. وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزَّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات([1]))). وعن جابر قال: ((لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال هم سواء([2]))). وعن ابن مسعود قال : قال النبي ﷺ: ((الربا ثلاثة وسبعون بابًا أيسرها

١- (قلت): صحيح : البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (١٤٥).

٢- (قلت): صحيح مسلم ، باب لعن آكل الربا وموكله (٤١٧٧).

مثل أن ينكح الرجل أُمَّه([1]))). وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: ((ما أحد أكثر من الربا إلّا كان عاقبة أمره الى قلّة([2]))).

قال ابن كثير: وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ فِي حَدِيثِ الْمَنَامِ الطَّوِيلِ: ((فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ- حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَحْمَرُ مِثْلُ الدَّمِ - وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ، مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الْحِجَارَةَ عِنْدَهُ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا([3]))) وَذَكَرَ فِي تَفْسِيرِهِ: أَنَّهُ آكِلُ الرِّبَا.

قال شيخ الإسلام في تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء ج٢ص٥٩٧: قد تدبَّرت الربا مرَّات عَودًا على بدءٍ وما فيه من النصوص والمعاني والآثار، فتبيَّن لي ولا حول ولا قوة إلا بالله بعد استخارة الله أن أصل الربا هو الإنساء، مثل أن يبيع الدراهم إلى أجل بأكثر منها.

ومنها أن يؤخِّر دينه ويزيد في المال، وهذا هو الربا الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وقد سئل أحمد بن حنبل عن الربا الذي لا شك فيه، فذكر هذا، وهو أن يكون له دين فيقول له أتقضي أم تربي، فإن لم يقضه زاده في المال، وزاده هذا في الأجل فيربو المال على المحتاج من غير نفع حصل له، ويزيد مال المربي من غير نفع حصل منه للمسلمين. فهذا حرَّمه الله تعالى لأن فيه ضرارًا على المحاويج وفيه أكل المال بالباطل.

وقد كان من العلماء المشهورين في زماننا غير واحدٍ يقولون لا نعرف حِكم تحريم الربا، وذلك أنهم نظروا في جملة ما يُحرم، فلم يروا فيه مفسدة ظاهرة. والتحقيق أن الربا نوعان جلي وخفي. فالجلي حرم لما فيه من الضرر والظلم.

والخفي حرم لأنه ذريعة إلى الجلي؛ فربا النَّساء من الجلي، فإنَّه يضر بالمحاويج ضررًا عظيمًا ظاهرًا وهذا مجرَّب، والغني يأكل أموال الناس بالباطل لأن ماله رَبَا من غير نفع حصل للخلق، ولهذا جعل الله الربا ضد الصدقات فقال: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}، وقال: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}.

وقال لنبيه ﷺ في أول ما أنزل عليه: {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً} الآيات إلى قوله: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}. فنهى عن الربا الذي فيه ظلم للناس وأمر بالإحسان إلى الناس المضاد للربا.

١- (قلت): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((الرِّبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ، وَإِنَّ أَرْبَى الرِّبَا عِرْضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ))، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" [التعليق - من تلخيص الذهبي] ٢٢٥٩ - على شرط البخاري ومسلم.

٢- (قلت): في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله موثقون. لأن العباس بن جعفر وثقه ابن أبي حاتم وابن المديني وذكره ابن حبان في الثقات. وباقي رجال الإسناد على شرط مسلم. وفي الفتح إسناده حسن. وقال الشيخ الألباني : صحيح.

٣- صحيح البخاري (٧٠٤٧).

وفي الصحيحين عن ابن عباس عن أسامة أن النبي ﷺ قال: ((إنما الربا في النسيئة)) وهذا الحصر يراد به حصول الكمال فإن الربا الكامل هو في النسيئة، كما قال ابن مسعود: (إنما العالِم الذي يخشى الله)، وكما قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} الآية ومثل ذلك كثير. فأما ربا الفضل فإنما نهي عنه لسد الذريعة.

قال الشيخ صالح الفوزان في الملخص الفقهي: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى ج٢٠ص٣٢١: (وتحريم الربا أشدُّ من تحريم الميسر، وهو القمار؛ لأن المرابي قد أخذ فضلًا محقَّقًا من محتاج، والمقامر قد يحصل له فضل وقد لا يحصل له فضل؛ فالربا ظلم محقَّق؛ لأن فيه تسليط الغني على الفقير؛ بخلاف القمار؛ فإنه قد يأخذ فيه الفقير من الغني، وقد يكون المتقامران متساويين في الغنى والفقر؛ فهو وإن كان أكلًا للمال بالباطل، وهو محرَّم؛ فليس فيه ظلم المحتاج وضرره ما في الربا، ومعلوم أن ظلم المحتاج أعظم من ظلم غير المحتاج). انتهى.

وأكل الربا من صفات اليهود التي استحقُّوا عليها اللعنة الخالدة والمتواصلة، قال الله تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}.

والحكمة في تحريم الربا: أولًا: أن فيه أكلًا لأموال الناس بغير حق؛ لأن المرابي يأخذ منهم الربا من غير أن يستفيدوا شيئًا في مقابله.

ثانيًا: وأن فيه إضرار بالفقراء والمحتاجين بمضاعفة الديون عليهم عند عجزهم عن تسديدها.

ثالثًا: أن فيه قطعًا للمعروف بين الناس، وسدًّا لباب القرض الحسن، وفتحًا لباب القرض بالفائدة التي تثقل كاهل الفقير.

رابعًا: فيه تعطيل للمكاسب والتجارات والحرف والصناعات التي لا تنتظم مصالح العالم إلَّا بها؛ لأن المرابي إذا تحصل على زيادة ماله بواسطة الربا بدون تعب؛ فلن يلتمس طرقًا أخرى للكسب الشّاق، والله تعالى جعل طريق تعامل الناس في معايشهم قائمًا على أن تكون استفادة كل واحد من الآخر في مقابل عمل يقوم به نحوه أو عين يدفعها إليه، والربا خال عن ذلك؛ لأنه عبارة عن إعطاء المال مضاعفًا من طرف لآخر بدون مقابلة من عين ولا عمل.

أقسام الربا: ينقسم الربا إلى قسمين: ربا النسيئة، وربا الفضل.

بيان ربا النسيئة: وربا النسيئة مأخوذ من النسء، وهو التأخير. وهو نوعان:

أحدهما: قلب الدَّين على المعسر، وهذا هو أصل الربا في الجاهلية أن الرجل يكون له على الرجل المال المؤجَّل، فإذا حلَّ الأجل؛ قال له: أتقضي أم تربي؟ فإن وفَّاه، وإلَّا؛ زاد هذا في الأجل وزاد هذا في المال، فيتضاعف المال في ذمة المَدين، فحرَّم الله ذلك بقوله: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ}، فإذا حلَّ الدَّين وكان الغريم معسِرًا؛ لم يجز أن

يقلِّب الدَّين عليه، بل يجب إنظاره، وإن كان موسرًا؛ كان عليه الوفاء؛ فلا حاجة إلى زيادة الدين مع يسر المَدين ولا مع عسره.

النوع الثاني من ربا النسيئة: ما كان في بيع كل جنسين اتفقا في علَّة ربا الفضل مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما؛ كبيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، وكذا بيع جنس بجنس من هذه المذكورات مؤجلًا.

بيان ربا الفضل: وربا الفضل مأخوذ من الفضل، وهو عبارة عن الزيادة في أحد العوضين.

وقد نصَّ الشارع على تحريمه في ستة أشياء هي: الذهب، والفضة، والبر، والشعير، والتمر، والملح. فإذا بيع أحد هذه الأشياء بجنسه؛ حرم التفاضل بينهما قولًا واحدًا؛ لحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعا: ((الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح؛ مثلاً بمثل، يدًا بيد))، رواه الإمام أحمد ومسلم، فدلَّ الحديث على تحريم بيع الذهب بالذهب إلَّا مثلًا بمثل، يدًا بيد، سواء بسواء، وعن بيع البر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر؛ بجميع أنواعها، والملح بالملح؛ إلَّا متساوية، مثلًا بمثل، سواءً بسواء، يدًا بيد.

قال الشوكاني في السيل الجرار: وآعلم أن من أعظم الربا وأشدُّه ربا الجاهلية الذى وضعه رسول الله ﷺ ودلَّت عليه الأحاديث الصحيحة وثبت إجماع الأئمة جميعًا على تحريمه وهو أن يحضر أجل الدَّين فلا يردَّه من هو عليه فيزيد عليه من هو له شيئًا ويمهله إلى أجل آخر، فهذا ربا ثابت وإن لم يكن التبايع الكائن في تلك الأجناس المنصوص عليها([1])، ثم آعلم أنه لا ينافي ثبوت ربا الفضل في تلك الأجناس ما ثبت في الصحيحين [البخاري (٢١٨٧)، مسلم (١٠١، ١٠٢، ١٥٩٦/١٠٣)] وغيرهما [النسائي: (٤٥٨٠، ٤٥٨١)، ابن ماجة (٢٢٥٧)، أحمد (٢٠٠/٥)]، من حديث أسامة بن زيد مرفوعًا بلفظ: ((إنَّما الربا في النسيئة))، زاد مسلم في رواية عن ابن عباس: ((لا ربا فيما كان يدًا بيد)) لأنه وقع الاختلاف في الجمع بين هذا الحديث وبين الأحاديث المصرِّحة بالربا في الأجناس المنصوص عليها إذا لم يكن مثلًا بمثل سواءً بسواء فقيل إن حديث أسامة هذا منسوخ ولكن النَّسخ لا يثبت بالاحتمال، ولعل القائل بالنَّسخ لمَّا بلغه رجوع ابن عباس عن العمل به ظن أنه منسوخ. وقيل: معنى قوله: ((إنما الربا في النسيئة))، الربا الأغلظ الشديد التحريم، فيكون من الحصر الادِّعائي وهو خلاف الظاهر. والأَولى أن يقال إن حديث: ((إنما الربا في النسيئة))، دلَّ بمفهومه على نفي ربا الفضل في الأجناس المنصوص عليها وفي غيرها، وأحاديث ربا الفضل المنصوص عليه في الأجناس المنصوص عليها

---

[1]- (قلت): قال القرطبي: وهذا الربا هو الذي نسخه النبي ﷺ بقوله يوم عرفة لما قال: ((ألا إن كل ربًا موضوع وإن أول ربا أضعه ربانا ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كلُّه)). فبدأ ﷺ بعمه وأخص الناس به. وهذا من سنن العدل للإمام أن يفيض العدل على نفسه وخاصته فيستفيض حينئذ في الناس.

مخصِّصة لهذا العموم، وأيضًا الأحاديث الدالَّة على تحريم ربا الفضل تدلُّ على ذلك بمنطوقها، ودلالة المنطوق أرجح من دلالة المفهوم.

وأما رواية مسلم عن ابن عباس بلفظ: ((لا ربا فيما كان يدًا بيد)) فلم يثبت ذلك من قول رسول الله ﷺ ولو كان ثابتًا لَبَقِيَ عليه ابن عباس ولم يرجع عن قوله، وقد روى الحازمي رجوع ابن عباس واستغفاره عند أن سمع عمر بن الخطاب وابنه عبد الله يحدثان عن رسول الله ﷺ بما يدلُّ على تحريم ربا الفضل وقال: (حَفِظا من رسول الله ﷺ ما لم أحفظ)، ولو سلَّمنا ثبوت تلك الزيادة عن رسول الله ﷺ لكان عمومها المدلول عليه بالنكرة الواقعة في سياق النفي مخصَّص بأحاديث ربا الفضل في تلك الأجناس المنصوص عليها، ولو سلَّمنا التَّعارض تنزُّلًا، لكانت الأحاديث المصرحة بربا الفضل أرجح، لثبوتها في الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة؛ قال الترمذي بعد أن ذكر حديث أبي سعيد المصرِّح بالأجناس المثبِت لربا الفضل: وفي الباب عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي وهشام بن عامر والبراء بن أرقم وفضالة بن عبيد وأبي بكرة وابن عمر وأبي الدرداء وبلال، وبما ذكرناه يرتفع الإشكال على كل تقدير.

قال علي بن نايف الشحود في تعليقه على كتاب الحسبة لشيخ الإسلام: وأمَّا ربا الفضل فتحريمه من باب سدِّ الذَّرائع. فمنعَهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النَّسيئة، وذلك أنَّهم إذا باعوا درهمًا بدرهمين – ولا يفعل هذا إلَّا للتَّفاوت الذي بين النَّوعين – إمَّا في الجودة، وإمَّا في السكَّة، وإمَّا في الثقل والخفة، وغير ذلك – تدرَّجوا بالرِّبح المعجَّل فيها إلى الربح المؤخَّر، وهو عين ربا النَّسيئة، وهذا ذريعة قريبة جدًّا، فمن حكمة الشارع أن سدَّ عليهم هذه الذريعة، وهي تسدُّ عليهم باب المفسدة.

الأصناف التي يحرم فيها الربا: قال عبدالعظيم بن بدوي في الوجيز: ولا يجري الربا إلَّا في الأصناف الستة المنصوص عليها في هذا الحديث: وذكر حديث عبادة ابن الصامت الذي سبق ذكره.

وقال ابن القيم في اعلام الموقعين: وأقدم من يروى هذا عنه: قتادة، وهو مذهب أهل الظاهر، واختيار ابن عقيل في آخر مصنفاته مع قوله بالقياس، قال: لأن علل القياسيين في مسألة الربا ضعيفة، واذا لم تظهر فيه علَّة امتنع القياس. أ. هـ.

وقال الإمام الشوكاني في السيل الجرار، ردًّا على قول المصنف: (إذا اختلف المالان في الجنس والتقدير بالكيل والوزن يجوز التفاضل والنساء).

قد أشار المصنف ها هنا إلى ثبوت الربا في كل مالين اتفقا جنسًا وتقديرًا، ثمَّ خصَّ التَّقدير بالكيل والوزن، وهذا هو أحد الأقوال في تعيين العلَّة التي تقتضي الربا مع الاتفاق في الجنس، وقد قيل: إنه قال بهذا العترة جميعًا، وحكى عن أبي حنيفة واصحابه، واستدلُّوا على ذلك لذكر النبي ﷺ للوزن كما في حديث أبي سعيد عند مسلم (١٥٨٤/٧٧)، وغيره أحمد (٥٣/٢، ٦١) بلفظ: ((لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق إلَّا وزنًا بوزن مثلًا بمثل سواءً بسواء))، ومثل هذا

عند مسلم (١٨٩١/٩١)، وغيره أحمد (٢٦٢/٢)، النسائي (٤٥٦٩)، من حديث أبي هريرة قال فيه: ((الذهب بالذهب وزنًا بوزن مِثلًا بمثل، والفضة بالفضة وزنًا بوزن مِثلًا بمثل))، وهكذا في حديث فضالة بن عبيد بن مسلم وغيره قال: ((لا تبيعوا الذهب بالذهب إلَّا وزنًا بوزن))، وورد ذكر الكيل في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن المزابنة أن يبيع الرجل تمر حائطه إن كان نخلًا بتمر كيلًا وإن كان كرمًا أن يبيعه بزبيب كيلًا وإن كان زرعًا أن يبيعه بكيل طعام))، وورد في حديث آخر: ((لا صاعين بصاع))، ولا يخفاك أن ذكره ﷺ للكيل والوزن في الأحاديث لبيان ما يتحصَّل به التساوي في الأجناس المنصوص عليها، فكيف كان هذا الذِّكر سببًا لإلحاق سائر الأجناس المتفقة في الكيل والوزن بهذه الأجناس الثابتة في الأحاديث، وأيُّ تعدية حصلت بمثل ذكر ذلك، وأيُّ مناط استفيد منها؟! مع العلم أن الغرض بذكرها هو تحقيق التساوي كما قال: ((مثلا بمثل سواء بسواء))؛ وقال الشافعي ومن وافقه إن العلَّة هي الاتفاق في الجنس والطعام، واستدلُّوا على ذلك بما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث معمر بن عبد الله، قال: كنت اسمع النبي ﷺ يقول: ((الطعام بالطعام مِثلًا بمثل))، وكان طعامنا يومئذ الشعير.

وأقول: ذكر النبي ﷺ الطعام فكان ماذا؟! وأيُّ دليل دلَّ على أنه أراد بهذا الذكر الإلحاق؛ وأيُّ فهم يسبق الى كون ذلك هو العلَّة المعدية حتى تركب على ذلك القناطر وتبنى عليه القصور ويقال هذا دليل على أن كل ما به طعم كان بيعه ما به طعم متفاضلا ربا؟! مع أن أوَّل ما يدفع هذا الاستدلال ويفت في عضده الذهب والفضة اللذان هما أوَّل منصوص عليه في الأحاديث المصرِّحة لذكر الأجناس التي يحرم فيها الربا؛ وممَّا يدفع القولين جميعًا، أنه قد ثبت في الأحاديث أن النبي ﷺ ذكر العددي كما في حديث عثمان عند مسلم بلفظ: ((لا تبيعوا الدينار بالدينارين))، وفي رواية من حديث أبي سعيد: ((ولا درهمين بدرهم))، ولم يعتبر العدد أحد من أهل هذين القولين ولا من غيرهم، وقد وافقت المالكية الشافعي في الطعام وزادت عليه الإدخار والاقتيات، فوسَّعوا الدائرة بما ليس بشيء.

والحاصل أنه لم يرد ما تقوم به الحجة على إلحاق ما عدا الأجناس المنصوص عليها بها، ولكنه روى الدار قطني والبزار عن الحسن بن عبادة وأنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: ((ما وزن مثل بمثل إذا كان نوعًا واحدًا، وما كيل فمثل ذلك، فإذا اختلف النوعان فلا بأس به))، وقد ذكره ابن حجر في التلخيص ولم يتكلَّم عليه وفي إسناده الربيع بن صبيح، قال أحمد: لا بأس به، وقال يحيى بن معين في رواية عنه: إنه ضعيف، وفي أخرى ليس به بأس ربما دلَّس؛ وقال ابن سعد والنسائي: ضعيف؛ وقال أبو زرعة: شيخ صالح؛ وقال أبو حاتم: رجل صالح. انتهى. ولا يلزم من وصفه بالصلاح أن يكون ثقة في الحديث؛ وقال في التقريب: صدوق سيء الحفظ؛ ولا يخفاك أن الحجة لا تقوم بمثل هذا الحديث لا سيَّما في مثل هذا الأمر العظيم، فإنَّه حكم بالربا الذى هو من أعظم معاصي الله سبحانه على غير الأجناس التي نصَّ عليها رسول الله ﷺ،

وذلك يستلزم الحكم على فاعله بأنه مرتكب لهذه المعصية التي هي من الكبائر ومن قطعيات الشريعة، ومع هذا فإن هذا الإلحاق قد ذهب إليه الجمع والجم والسواد الأعظم ولم يخالف في ذلك إلَّا الظاهرية فقط. أ. هـ.

وقال الشنقيطي: مذهب أهل الظاهر ومن وافقهم أنه لا ربا أصلًا في غير الستة، ويروى هذا القول عن طاووس ومسروق وقتادة وعثمان البتّي. أ. هـ.

قال عبدالعظيم بن البدوي في الوجيز: فإذا بيع جنس من هذه الستة بجنسه كذهب بذهب، أو تمر بتمر، حرِّم التفاضل وحرِّم النّساء، ولابدَّ من المماثلة في الوزن أو في الكيل بغض النظر عن الجودة والرَّداءة، ولابدَّ من التقابض في المجلس. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تبيعوا الذهب بالذهب إلَّا مثل بمثل، ولا تُشِفّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الوَرِق بالوَرِق إلَّا مثلًا بمثل، ولا تُشِفُّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائبًا بناجز)). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الذهب بالذهب ربا إلَّا هاء وهاء، والبرّ بالبرّ ربا إلَّا هاء وهاء، والشعير بالشعير ربا إلَّا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلَّا هاء وهاء)). وعن أبي سعيد قال: كنا نُرزق تمر الجمع على عهد رسول الله ﷺ وهو الخلط من التمر، وكنا نبيع صاعين بصاع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ((لا صاعَي تمر بصاع، ولا صاعَي حنطة بصاع، ولا درهم بدرهمين)).

وإذا بيع جنس من هذه الستة بغير جنسه كذهب بفضة، أو بُرّ بشعير جاز التفاضل بشرط أن يكون التقابض في المجلس لقوله ﷺ في حديث عبادة السابق: ((فإذا آختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم اذا كان يدًا بيد)).

ولقوله ﷺ أيضًا في حديث عبادة عند أبي داود وغيره: ((ولا بأس ببيع الذهب بالفضة، والفضة أكثرهما يدًا بيد، وأمَّا النسيئة فلا، ولا بأس ببيع البر بالشعير، والشعير أكثرهما يدًا بيد، وأمَّا النسيئة فلا)).

وإذا بيع جنس من هذه الستة بما يخالفه في الجنس والعلة كذهب ببر، وفضة بملح جاز التفاضل والنسيئة. عن عائشة رضي الله عنها: ((أن النبي ﷺ اشترى طعامًا من يهودي الى أجل، مرهنة درعه)).

وقال الأمير الصنعاني في سبل السلام: (٣/٣٨): واعلم أنه اتفق العلماء على جواز بيع ربوي بربوي لا يشاركه في الجنس مؤجَّلًا ومتفاضلًا كبيع الذهب بالحنطة والفضة بالشعير وغيره من المكيل. أ. هـ.

حكمة تحريم الربا في الأصناف الستة: قال علي بن نايف الشحود في تعليقه على كتاب (الحسبة) لشيخ الإسلام: أمّا هذه الأصناف فقد أجمل ابن القيم حكمة تحريم الربا فيها حيث قال: وسِرُّ المسألة أنَّهم منعوا من التجارة في الأثمان – أي الذّهب والفضّة – بجنسها لأنّ ذلك يفسد عليهم مقصود الأثمان، ومنعوا التّجارة في الأقوات – أي البرّ والشعير والتمر والملح – بجنسها لأن ذلك يفسد عليهم مقصود الأقوات.

وفصَّل ابن القيم فقال([١]): الصحيح بل الصواب أنَّ العلَّة في تحريم الربا في الذهب والفضة هي الثمنية، فإنَّ الدَّراهم والدنانير أثمان المبيعات، والثَّمن هو المعيار الذي يعرف به تقويم الأموال، فيجب أن يكون محدودًا مضبوطًا لا يرتفع ولا ينخفض، إذ لو كان الثَّمن يرتفع وينخفض كالسِّلع لم يكن لنا ثمن نعتبر به المبيعات، بل الجميع سلع، وحاجة الناس إلى ثمنٍ يعتبرون به المبيعات حاجة ضروريَّة عامَّة، وذلك لا يعرف إلَّا بسعرٍ تُعرف به القيمة، وذلك لا يكون إلَّا بثمنٍ تقوَّم به الأشياء ويستمر على حالةٍ واحدةٍ، ولا يقوَّم هو بغيره، إذ يصير سلعةً يرتفع وينخفض، فتفسد معاملات الناس ويقع الخلف ويشتدُّ الضَّرر. فالأثمان لا تقصد لأعيانها، بل يقصد التوصُّل بها إلى السِّلع، فإذا صارت في أنفسها سلعًا تقصد لأعيانها فسد أمر الناس.

وأضاف: وأمَّا الأصناف الأربعة المطعومة فحاجة الناس إليها أعظم من حاجتهم إلى غيرها، لأنَّها أقوات العالم، فمن رعاية مصالح العباد أن منعوا من بيع بعضها ببعضٍ إلى أجلٍ، سواء اتّحد الجنس أو اختلف، ومنعوا من بيع بعضها ببعضٍ حالًا متفاضلًا وإن اختلفت صفاتها، وجوّز لهم التفاضل مع اختلاف أجناسها.

فقد قال ابن القيم: وسِرُّ ذلك – واللّه أعلم – أنَّه لو جوَّز بيع بعضها ببعضٍ نساءً لم يفعل ذلك أحد إلَّا إذا ربح، وحينئذٍ تسمح نفسه ببيعها حالةً لطمعه في الرِّبح، فيعزُّ الطَّعام على المحتاج ويشتدَّ ضرره. فكان من رحمة الشارع بهم وحكمته أن منعهم من ربا النّساء فيها كما منعهم من ربا النّساء في الأثمان، إذ لو جوَّز لهم النّساء فيها، لدخلها إمَّا أن تقضي وإمَّا أن تربي، فيصير الصَّاع الواحد لو أخذ قفزانًا كثيرةً، ففطموا عن النَّساء، ثمّ فطموا عن بيعها متفاضلًا يدًا بيدٍ، إذ تجرُّهم حلاوة الرِّبح وظفر الكسب إلى التِّجارة فيها نَساءً وهو عين المفسدة، وهذا بخلاف الجنسين المتباينين فإنَّ حقائقهما وصفاتهما ومقاصدهما مختلفة، ففي إلزامهم المساواة في بيعها إضرار بهم، ولا يفعلونه، وفي تجويز النَّساء بينها ذريعة إلى إمَّا أن تقضي وإمَّا أن تربي، فكان من تمام رعاية مصالحهم أن قصَّرهم على بيعها يدًا بيدٍ كيف شاءوا، فحصلت لهم المبادلة، واندفعت عنهم مفسدة إمَّا أن تقضي وإمَّا أن تربي، وهذا بخلاف ما إذا بيعت بالدَّراهم أو غيرها من الموزونات نَساءً فإنَّ الحاجة داعية إلى ذلك، فلو منعوا منه لأضرَّ بهم، ولآمتنع السّلم الذي هو من مصالحهم فيما هم محتاجون إليه، والشريعة لا تأتي بهذا، وليس بهم حاجة في بيع هذه الأصناف بعضها ببعضٍ نَساءً، وهو ذريعة قريبة إلى مفسدة الربا، فأبيح لهم في جميع ذلك ما تدعو إليه حاجتهم وليس بذريعةٍ إلى مفسدةٍ راجحةٍ، ومنعوا ممَّا لا تدعو الحاجة إليه ويتذرَّع به غالبًا إلى مفسدةٍ راجحةٍ.

البيوع المحرمة بسبب الربا: قال محمد بن ابراهيم بن عبدالله التويجري في موسوعة الفقه الإسلامي:

١- بيع العينة:

١- (قلت): اعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/١٠٥).

وهو أن يبيعه سلعة إلى أجل، ثم يشتريها منه بأقلّ من قيمتها نقدًا.

فاجتمع فيه بيعتان في بيعة، وهذا البيع حرام وباطل؛ لأنه ذريعة إلى الربا، ولأنه حيلة ظاهرة، فإن اشتراها البائع بعد قبض ثمنها، أو بعد تغير صفتها، أو من غير مشتريها، جاز البيع.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((إذا تَبَايَعْتُمْ بالعِينَةِ وَأَخَذتُمْ أَذنَابَ البَقَرِ وَرَضِيتُمْ بالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ([1]))). اذًا هو محرَّم، بل من كبائر الذنوب([2]).

قال محمد بن ابراهيم بن عبدالله التويجري من أنواع بيع العينة ما يلي:

١- أن يحتاج رجل سيارة، فيقول للتاجر أنا أحتاج تلك السيارة في معرض فلان، فيذهب التاجر إليه، ويشتريها بعشرين ألفًا نقدًا، ثم يبيعها عليه بثلاثين ألفًا مؤجَّلة، ثم يشتريها التاجر منه بعشرين ألفًا نقدًا.

فهذه حيلة ظاهرة على أكل الربا.

٢- أن يحتاج فقير إلى ألف ريال، فيأتي إلى التاجر، ثم يذهب التاجر إلى صاحب دكان ويشتري منه أكياس أرز بألف ريال مثلًا، ثم يبيعها على الفقير وهي في مكانها بألف وثلاثمائة ريال مؤجَّلة، ولم يقبضها هذا ولا هذا، ثم يبيعها الفقير على صاحب الدكان بأقل مما اشتراها منه التاجر، أو هو من التاجر.

فيؤكل الفقير من جهتين:

من جانب التاجر الأول، ومن صاحب الدكان، وهذه حيلة ثلاثية ماكرة كادهم بها الشيطان.

٣- أن يقوم شخص ببناء بيت لفقير، فيكلفه مائة ألف، ثم يبدأ يقبض من صاحب البيت مائة وثلاثين ألف مؤجَّلة، فهذه كلها حيل باطلة محرمة.

وكلَّما احتال الإنسان على محرَّم لم يزدَد إلَّا خبثًا، فالمحرَّم خبيث، فإذا احتَلْت عليه صار أخبث؛ لأنه جمع بين حقيقة المحرَّم، وبين خداع الرب عز وجل، وكلَّما احتال صارت الزيادة عليه أكثر.

٢- بيع المزابنة:

هو بيع كل شيء من الجزاف الذي لا يُعلم كيله ولا وزنه ولا عدده بشيء من الكيل أو الوزن أو العدد، ظنًّا وتقديرًا.

كأن يقدِّر الرطب على النخل بألف كيلو، ثم يبيعه بقدره من التمر، وهذا البيع باطل ومحرَّم؛ لأنه ربا.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ المُزَابَنَةِ: أنْ يَبِيعَ ثَمَرَ حَائِطِهِ إنْ كَانَ نَخْلًا بِتَمْرٍ كَيْلًا، وَإنْ كَانَ كَرْمًا أنْ يَبِيعَهُ بِزَبِيبٍ كَيْلا، وَإنْ كَانَ زَرْعًا، أنْ يَبِيعَهُ بِكَيْلِ طَعَامٍ، وَنَهَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. متفق عليه([1]).

١- صحيح: أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وانظر الصحيحة (١١).

٢- راجع الشرح الممتع لابن عثيمين رحمه الله تعالى (٨/٢٢٣).

- حكم بيع العرايا:

العرايا: هي بيع الرطب على النخل بتمر في الأرض.

والعرايا جزء من المزابنة، إلَّا أنه رُخِّص فيها بالشيء اليسير للحاجة، كحاجة صاحب الحائط إلى البيع، أو حاجة المشتري إلى الرطب.

١- عَنْ سَهْل بن أَبِي حَثْمَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعِ الثَّمَرِ بِالتَّمْرِ، وَقَالَ: ((ذَلِكَ الرِّبَا، تِلْكَ المُزَابَنَةُ)). إِلَّا أَنَّهُ رَخَّصَ فِي بَيْعِ العَرِيَّةِ النَّخْلَةِ وَالنَّخْلَتَيْنِ يَأْخُذُهَا أَهْلُ البَيْتِ بِخَرْصِهَا تَمْرًا، يَأْكُلُونَهَا رُطَبًا. متفق عليه([٢]).

٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَخَّصَ فِي بَيْعِ العَرَايَا بِخَرْصِهَا فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ أَوْ فِي خَمْسَةِ. متفق عليه([٣]).

٣- بيع المحاقلة:

هو بيع حبٍّ في سنبله بحب صاف بالظن والتقدير، كأن يبيع حنطة في سنبلها بحنطة صافية مِثلًا، وهذا البيع باطل، لأنه ربا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنِ المُحَاقَلَةِ وَالمُزَابَنَةِ وَالمُخَابَرَةِ وَأَنْ تُشْتَرَى النَّخْلُ حَتَّى تُشْقِهَ - وَالإِشْقَاهُ أَنْ يَحْمَرَّ أَوْ يَصْفَرَّ أَوْ يُؤْكَلَ مِنْهُ شيء - وَالمُحَاقَلَةُ أَنْ يُبَاعَ الحَقْلُ بِكَيْلٍ مِنَ الطَّعَامِ مَعْلُومٍ وَالمُزَابَنَةُ أَنْ يُبَاعَ النَّخْلُ بِأَوْسَاقٍ مِنَ التَّمْرِ وَالمُخَابَرَةُ الثُّلُثُ وَالرُّبُعُ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ. متفق عليه([٤]).

٤- بيع اللَّحم بالحيوان:

فلا يجوز بيع اللَّحم بالحيوان؛ لما فيه من التفاضل، ولما فيه من الغرر، ولما فيه من المزابنة، ولما فيه من الربا. وكذلك لا يجوز بيع اللحم باللحم متفاضلًا من جنس واحد([٥]).

٥- بيع الأشياء بجنسها مع التفاضل، أو بغير جنسها نسيئة:

كالبر مع زيادة أحدهما، أو الذهب بالفضة نسيئة، فهذا كله ربا محرَّم.

١- متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٢٠٥)، واللفظ له، ومسلم برقم (١٥٤٢).

٢- متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٣٨٣)، ومسلم برقم (١٥٤٠)، واللفظ له.

٣- متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢١٩٠)، ومسلم برقم (١٥٤١)، واللفظ له.

٤- متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٣٨١)، ومسلم برقم (١٥٣٦)، واللفظ له.

٥- (قلت): في صحيح فقه السنة: عن سعيد بن المسيب: ((أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع اللحم بالحيوان)). أخرجه مالك في الموطأ (٢/٦٥٥)، قال ابن عبد البر: لا أعلم هذا الحديث يتصل من وجه ثابت من الوجوه عن النبي ﷺ وأحسن أسانيده مرسل سعيد ابن المسيب هذا. التمهيد (١٢/١٣٥). وقال البغوي: حديث ابن المسيب وإن كان مرسلاً، لكنه يتقوى بعمل الصحابة، واستحسن الشافعي مرسل ابن المسيب. شرح السنة (٨/٧٧).

١- عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((الذّهَبُ بِالذّهَبِ، وَالفِضّةُ بِالفِضّةِ، وَالبُرّ بِالبُرّ، وَالشّعِيرُ بِالشّعِيرِ، وَالتّمْرُ بِالتّمْرِ، وَالمِلْحُ بِالمِلْحِ، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ، فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ، إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ([1]))). أخرجه مسلم.

٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((الدينَارُ بِالدينَارِ لاَ فَضْلَ بَيْنَهُمَا، وَالدرْهَمُ بِالدرْهَمِ لاَ فَضْلَ بَيْنَهُمَا([2]))). أخرجه مسلم.

٦- بيع الكالىء بالكالىء (الدَّين بالدَّين):

قال كمال بن السيد سالم في صحيح فقه السنة: وقال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن بيع الدَّين بالدَّين لا يجوز. وذلك أن يشتري الرجل شيئًا إلى أجل، فإذا حلَّ الأجل لم يجد ما يقضي به، فيقول: بعنيه إلى أجل آخر بزيادة شيء، فيبيعه منه ولا يجري بينهما تقابض([3]).

- وهذه الصورة محرَّمة بإجماع الأمة، لما فيها من الربا الحرام تطبيقًا لقاعدة ((زدني في الأجل وأزيدك في القدر)).

ولكن لبيع الدَّين صور أخرى منها ما هو جائز ومنها ما هو حرام؛ فمثلًا: بيع الدَّين على الغير: فلا يجوز أن يباع بالدَّين بل ولا بالعين؛ مثال ذلك: إنسان في ذمَّته لشخص مائة صاع بُر، فجعل هذا الرجل يطلبه، يقول: أعطني يا فلان، وهو يماطل به، فقيل للرجل الذي له الحق نعطيك عنها مائة درهم ونحن نأخذها من المطلوب، فلا يجوز، حتى وإن كان بعين فإنه لا يجوز. فلو قيل لهذا الرجل الذي له مائة صاع في ذمة فلان: سوف نعطيك عنها مائة ريال تأخذها نقدًا فإنه لا يجوز، لأنه يشبه أن يكون غير مقدور على تسليمه، وإذا كان كذلك فإنه يكون فيه غرر إذ إن المطلوب قد يوفَّى كاملًا وقد لا يوفَّى فلا يصح. لكن لو كان الذي اشترى دَين فلان قادرًا على أخذه منه كرجل له سلطة يستطيع أن يأخذ هذا المال الذي في ذمَّة الرجل في ساعة، فالصحيح أنه يجوز، لأن العلة عن نهي بيع ما في الذِّمم إنما هي الخوف من الغرر، وعدم الإستلام، فإذا زالت العلَّة زال المعلول وزال الحكم؛ ولكن إذا قلنا: يجوز إذا كان قادرًا على أخذه، لابدَّ أن يكون المَدين قد أقرَّ بالدَّين، أما إذا كان منكرًا، وجاء انسان وقال: أنا أريد أن أشتري دَين فلان الذي هو لك، وهو منكر ولم يُقرّ، ولكن قال: أُخاطر فأشتريه وأطالبه عند القاضي، فلا يجوز، لأنه مخاطرة، لكن كلامنا فيما إذا باع دَينًا في ذمة مُقِرّ على شخص قادر على استخراجه، فالصواب أنه جائز.

١- أخرجه مسلم برقم (١٥٨٧).

٢- أخرجه مسلم برقم (١٥٨٨).

٣- النهاية لآبن الأثير (٤/١٩٤).

ومن صوره بيع الدَّين على من هو في ذمته:

مثاله: أنا أطلب شخصًا مائة صاع بُر فجاء إليَّ وقال: أنا ليس عندي بُر، ولكن أنا أُعطيك عن المائة صاع مائتي ريال، فهنا بيع دَين بدَين ففيه تفصيل: إن كان باعه بسعر وقته فلا بأس، وإن باعه بأكثر فإنه لا يجوز، والدليل: حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((كنا نبيع الإبل بالدراهم فنأخذ عنها الدنانير ونبيع بالدنانير فنأخذ عنها الدراهم)) فسألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: ((لا بأس أن تأخذها بسعر يومها ما لم تتفرَّقا وبينكما شيء[1])) فاشترط النبي ﷺ شرطين:

الشرط الأول: أن تأخذها بسعر يومها.

الشرط الثاني: أن لا يتفرَّقا وبينهما شيء.

فالعلة في الشرط الأول: إذ إنه اذا أخذها بأكثر فقد ربح فيما لم يدخل في ضمانه.

وقد نهى النبي ﷺ: ((عن ربح ما لم يضمن[2])).

مثاله: الدينار يساوي عشرة فقال: أنا آخذ منك: بأحد عشر فهذا لا يجوز، لأن الذي أخذ بأحد عشر بدل الدينار ربح درهمًا فربح في شيء لم يدخل في ضمانه، لأن الدنانير في ضمان من هو في ذمَّته، ولم يدخل عليه الى الآن.

والمعنى: أن ربح ما لم يضمن: هو أن يبيعه سلعة قد اشتراها ولم يكن قبضها فهي من ضمان البائع الأول ليس من ضمانه فهذا لا يجوز بيعه حتى يقبضه فيكون في ضمانه.

أما العلَّة في الشرط الثاني: لأنه سيأخذ عن الدنانير دراهم، وبيع الدنانير بالدراهم لابدَّ فيها من القبض في مجلس العقد، وحينئذ لو لم يقبض لبطل العقد، كما لو باع دنانير بدراهم ولم يقبض، فإنه يبطل العقد.

والخلاصة: أن الأصل عدم جواز بيع الدَّين في الصرف، لأنه يؤدِّي الى ربا.

وأما في غير الصرف والسَّلَم فبيع الدَّين إذا كان من المَدين نفسه فجائز في أكثر صوره لحصول القبض من قبل، وإذا كان لغير المَدين فإن كان بثمن عين فيجوز في أكثر صوره، بشرط كون الدَّين مستقرًّا، وكون المَدين مليًّا ومُقِرًّا، لإمكان

---

١ – حسن: أخرجه أحمد (٢/٨٣)، وأبو داود (٣٣٥٤) وغيرهما.

– (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل: وروى البيهقي من طريق أبى داود الطيالسي قال: سئل شعبة عن حديث سماك هذا؟ فقال: سمعت أيوب عن نافع عن ابن عمر، ولم يرفعه. وأخبرنا قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر، ولم يرفعه، وأخبرنا يحيى بن أبى إسحاق، عن سالم عن ابن عمر، ولم يرفعه.

ورفعه لنا سماك بن حرب ، وأنا أفرقه.

قلت: ومما يقوى وقفه، أن أبا هاشم ـ وهو الرماني الواسطي، وهو ثقة ـ قد تابع سماكًا عليه، ولكنه خالفه فى متنه، فقال: عن سعيد بن جبير عن ابن عمر: (أنه كان لا يرى بأسا (يعنى) فى قبض الدراهم من الدنانير، والدنانير من الدراهم). أخرجه النسائي (٢/٢٢٤) من طريق مؤمل قال: حدثنا سفيان عن أبى هاشم به.

قلت: وهذا إسناد حسن. وقد تابع حمادا إسرائيل بن يونس عن سماك به. أخرجه الطحاوي وأحمد (٢/١٠١ و١٥٤) .

٢ – صحيح: أخرجه أحمد (٢/١٧٤)، وأبو داود (٣٥٠٤) وغيرهما.

– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٦٤٤)، والمشكاة (٢٨٧٠)، والإرواء (١٣٠٦)، أحاديث البيوع.

التسليم والقبض، وعدم الغرر والضرر، وأمَّا بيع الدَّين لغير المَدين بالدَّين فإنه لا يجوز في أكثر صوره، لما فيه من الغرر والجهالة، والنهي الوارد في ذلك من عدم جواز بيع الكالىء بالكالىء.

٧- بيع بيعتين في بيعة:

قال محمد بن ابراهيم بن عبدالله التويجري في موسوعة الفقه الإسلامي:

وصورته: أن يقول بعتك هذا الثوب نقدًا بعشرة، ونسيئة بخمسة عشر، ثم يفترقان وهو لم يختر أحدهما، أو يبيعه السلعة بمائة مؤجلة، ثم يشتريها منه بثمانين حالة. فهذه صورة البيعتان في بيعة. فهذا البيع باطل؛ لما فيه من الربا، وحيلة الربا، والجهالة والغرر. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ. أخرجه أحمد والترمذي([١]).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٩ص٤٤٦، حينما سُئِلَ عَنْ الرَّجُلِ يَبِيعُ سِلْعَةً بِثَمَنٍ مُؤَجَّلٍ ثُمَّ يَشْتَرِيهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِأَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَنِ حَالًّا. هَلْ يَجُوزُ؟ أَمْ لَا؟

فَأَجَابَ: أَمَّا إذَا بَاعَ السِّلْعَةَ إلَى أَجَلٍ، وَاشْتَرَاهَا مِنْ الْمُشْتَرِي بِأَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ حَالًّا، فَهَذِهِ تُسَمَّى (مَسْأَلَةُ الْعِينَةِ)، وَهِيَ غَيْرُ جَائِزَةٍ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ؛ كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَأَحْمَد، وَغَيْرِهِمْ. وَهُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ الصَّحَابَةِ؛ كَعَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ حَرِيرَةٍ بِيعَتْ إلَى أَجَلٍ، ثُمَّ اُشْتُرِيَتْ بِأَقَلَّ. فَقَالَ: دَرَاهِمُ بِدَرَاهِمَ دَخَلَتْ بَيْنَهُمَا حَرِيرَةٌ.

وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: إذَا اسْتَقَمْت بِنَقْدِ، ثُمَّ بِعْت بِنَسِيئَةِ، فَتِلْكَ دَرَاهِمُ بِدَرَاهِمَ. فَبَيَّنَ أَنَّهُ إذَا قَوَّمَ السِّلْعَةَ بِدَرَاهِمَ، ثُمَّ بَاعَهَا إلَى أَجَلٍ، فَيَكُونُ مَقْصُودُهُ دَرَاهِمَ بِدَرَاهِمَ، وَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ. وَهَذِهِ تُسَمَّى (التَّوَرُّقُ).

فَإِنَّ الْمُشْتَرِيَ تَارَةً يَشْتَرِي السِّلْعَةَ لِيَنْتَفِعَ بِهَا، وَتَارَةً يَشْتَرِيهَا لِيَتَّجِرَ بِهَا، فَهَذَانِ جَائِزَانِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَتَارَةً لَا يَكُونُ مَقْصُودُهُ إلَّا أَخْذَ دَرَاهِمَ، فَيَنْظُرُ كَمْ تُسَاوِي نَقْدًا، فَيَشْتَرِي بِهَا إلَى أَجَلٍ، ثُمَّ يَبِيعُهَا فِي السُّوقِ بِنَقْدِ، فَمَقْصُودُهُ الْوَرِقُ، فَهَذَا مَكْرُوهٌ فِي أَظْهَرِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ، كَمَا نُقِلَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد.

وَأَمَّا عَائِشَةُ فَإِنَّهَا قَالَتْ لِأُمِّ وَلَدِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ - لَمَّا قَالَتْ لَهَا: إنِّي ابْتَعْت مِنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ غُلَامًا إلَى الْعَطَاءِ بِثَمَانِمِائَةٍ وَبِعْته مِنْهُ بِسِتِّمِائَةٍ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ -: بِئْسَ مَا بِعْت، وَبِئْسَ مَا اشْتَرَيْت، أَخْبِرِي زَيْدًا أَنَّ جِهَادَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَطَلَ، إلَّا أَنْ يَتُوبَ. قَالَتْ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْت إنْ لَمْ آخُذْ إلَّا رَأْسَ مَالِي، فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}.

وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: لِمَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ: ((فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا، أَوْ الرِّبَا([٢]))، وَهَذَا إنْ تَوَاطَآ عَلَى أَنْ يَبِيعَ، ثُمَّ يَبْتَاعَ، فَمَا لَهُ إلَّا الْأَوْكَسُ، وَهُوَ الثَّمَنُ الْأَقَلُّ، أَوْ الرِّبَا.

١- حسن/ أخرجه أحمد برقم (٩٥٨٤) ، وأخرجه الترمذي برقم (١٢٣١).

٢- أبو داود في البيوع (٣٤٦١)، والبيهقي في الكبرى في البيوع ٥/٣٤٣، كلاهما عن أبي هريرة.

وَأَصْلُ هَذَا الْبَابِ: أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى. فَإِنْ كَانَ قَدْ نَوَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ فَلَا بَأْسَ، وَإِنْ نَوَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَتَوَصَّلَ إلَيْهِ بِحِيلَةِ، فَإِنَّ لَهُ مَا نَوَى. وَالشَّرْطُ بَيْنَ النَّاسِ مَا عَدُّوهُ شَرْطًا، كَمَا أَنَّ الْبَيْعَ بَيْنَهُمْ مَا عَدُّوهُ بَيْعًا، وَالْإِجَارَةُ بَيْنَهُمْ مَا عَدُّوهُ إجَارَةً، وَكَذَلِكَ النِّكَاحُ بَيْنَهُمْ مَا عَدُّوهُ نِكَاحًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ الْبَيْعَ وَالنِّكَاحَ، وَغَيْرَهُمَا فِي كِتَابِهِ، وَلَمْ يَرِدْ لِذَلِكَ حَدٌّ فِي الشَّرْعِ، وَلَا لَهُ حَدٌّ فِي الْفِقْهِ.

وَالْأَسْمَاءُ تُعْرَفُ حُدُودُهَا تَارَةً بِالشَّرْعِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحجِّ، وَتَارَةً بِاللُّغَةِ،؛ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَتارَةً بِالْعُرْفِ كَالْقَبْضِ وَالتَّفْرِيقِ.

وَكَذَلِكَ الْعُقُودُ كَالْبَيْعِ وَالْإِجَارَةِ وَالنِّكَاحِ وَالْهِبَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا تَوَاطَأَ النَّاسُ عَلَى شَرْطٍ، وَتَعَاقَدُوا، فَهَذَا شَرْطٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعُرْفِ.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين: فإنه إذا باعه السلعة بمائتين مؤجَّلة، ثم اشتراها منه بمائة حالة، فقد باع بيعتين في بيعة([1])، فإن أخذ بالثمن الزائد أخذ بالربا، وإن أخذ بالناقص أخذ بأوكسهما، وهذا من اعظم الذرائع إلى الربا، وأبعد كل البعد من حمل الحديث على البيع بمائة مؤجلة أو خمسين حالة وليس ههنا ربا ولا جهالة ولا غرر ولا قمار ولا شيء من المفاسد فإنه خيَّره بين أي الثمنين شاء.

– بيع التقسيط: قال محمد بن ابراهيم بن عبدالله التويجري في موسوعة الفقه الإسلامي:

بيع التقسيط: هو أن يبيعه سلعة حاضرة بثمن مؤجل يدفعه المشتري على دفعات معلومة المقدار والوقت.

– حكم بيع التقسيط:

١– بيع التقسيط صورة من بيع النسيئة، وهو عقد جائز.

فبيع النسيئة مؤجل لأجل واحد، وبيع التقسيط مؤجل لآجال متعددة.

٢– تجوز الزيادة في ثمن السلعة لأجل التأجيل أو التقسيط، كأن يبيعه سلعة قيمتها مائة حالة بمائة وعشرين مؤجلة لأجل واحد، أو آجال محدَّدة، بشرط ألَّا تكون الزيادة فاحشة، أو يستغل حاجة المضطرين.

٣– البيع إلى أجَل، أو بالتقسيط، يكون مستحبًّا إذا قصد به الرفق بالمشتري، والإحسان إليه، وبذلك يثاب فيه البائع على إحسانه، إذا لم يزد في الثمن من أجْل الأجَل.

ويكون مباحاً إذا قصد به الربح والمعاوضة، فيزيد في الثمن لأجْل الأجَل، ليسدد له المشتري بالتقسيط المؤجل.

١– **(قلت):** وهذا هو المفهوم الصحيح للحديث. وليس تخيره بأن يأخذه بمائة مؤجلة أو بثمانين نقدًا وهو يختار أحدهما، فليس في هذا ربا ولا جهالة ولا غرر ولا قمار ولا شيء من المفاسد كما قاله ابن القيم. بل يجوز هذا النوع من البيع.

٤- لا يجوز للبائع أن يأخذ من المشتري زيادة على الدَّين إذا تأخَّر في دفع الأقساط؛ لأن ذلك ربًا محرَّم، لكن له رهن المبيع حتى يستوفي دينه من المشتري.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ)) زَادَ أَحْمَدُ: إِلاَّ صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلاَلًا، وَزَادَ سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُدَ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ[١])). أخرجه أبو داود.

قال ابن العثيمين: {فمن جاءه موعظة من ربه}: أي من بلغه حكم الربا بعد أن تعامل به {فانتهى}: أي كفَّ عن الربا بالتوبة منه.

{فله ما سلف}: أي ما أخذه من الربا قبل العلم بالحكم.

قال السعدي: {فله ما سلف}: أي ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر {وأمره إلى الله} في مجازاته وفيما يستقبل من أموره.

قال ابن العثيمين: {وأمره إلى الله}: أي شأنه إلى الله – تبارك وتعالى – في الآخرة؛ {ومن عاد} أي ومن رجع إلى الربا بعد أن أتته الموعظة {فأولئك}: أتى باسم الإشارة الدال على البعد؛ وذلك لسفوله – أي هوى بعيدًا؛ {أصحاب النار}: أي أهلها الملازمون لها؛ وأكَّد ذلك بقوله تعالى: {هم فيها خالدون}.

قال السعدي: اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتَّب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتَّب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحًا للخلود فيها بقطع النظر عن كفره.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- التَّحذير من الربا، حيث شبه آكله بمن يتخبَّطه الشيطان من المس.

٢- أن من تعامل بالربا فإنه يصاب بالنُّهمة العظيمة في طلبه.

٣- أن الشيطان يتخبَّط بني آدم فيصرعه؛ ولا عبرة بقول من أنكر ذلك من المعتزلة، وغيرهم؛ وقد جاءت السنة بإثبات ذلك؛ والواقع شاهد به؛ وقد قسم ابن القيم – رحمه الله – في زاد المعاد الصرع إلى قسمين: صرع بتشنج الأعصاب؛

١- حسن/ أخرجه أبو داود برقم (٣٥٩٤).

وهذا يدركه الأطباء، ويقرُّونه، ويعالجونه بما عندهم من الأدوية، والثاني: صرع من الشيطان؛ وذلك لا علم للأطباء به؛ ولا يعالج إلَّا بالأدوية الشرعية كقراءة القرآن، والأدعية النبوية الواردة في ذلك.

٤- بيان علَّة قيام المرابين كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ وهي: {أنهم قالوا إنما البيع مثل الربا}: يعني فإذا كان مثله فلا حرج علينا في طلبه.

٥- مبالغة أهل الباطل في ترويج باطلهم؛ لأنهم جعلوا المقيس هو المقيس عليه؛ لقولهم: {إنما البيع مثل الربا}؛ وكان مقتضى الحال أن يقولوا: إنَّما الربا مثل البيع.

٦- أن الحكم لله - تبارك وتعالى - وحده؛ فما أحله فهو حلال؛ وما حرمه فهو حرام سواء علمنا الحكمة في ذلك، أم لم نعلم؛ لأنه تعالى رد قولهم: {إنما البيع مثل الربا} بقوله تعالى: {وأحل الله البيع وحرم الربا}؛ فكأنه قال: ليس الأمر إليكم؛ وإنما هو إلى الله.

٧- أن بين الربا والبيع فرقًا أوجب اختلافهما في الحكم؛ فإنا نعلم أن الله تعالى لا يفرِّق بين شيئين في الحكم إلَّا وبينهما فرق في العلَّة، والسبب المقتضي لاختلافهما؛ لقوله تعالى: {أليس الله بأحكم الحاكمين}[التين: ٨]، وقوله تعالى: {ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}[المائدة: ٥٠].

٨- أن ما أخذه الإنسان من الربا قبل العلم فهو حلال له بشرط أن يتوب، وينتهي؛ لقوله تعالى: {فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف}.

٩- أنه لو تاب من الربا قبل أن يقبضه فإنه يجب إسقاطه؛ لقوله تعالى: {فانتهى}؛ ومن أخذه بعد العلم فإنه لم ينته؛ ولهذا قال النبي ﷺ في عرفة في حجة الوداع: ((ألا وإن ربا الجاهلية موضوع؛ وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله[1]))؛ فبيَّن ﷺ أن ما لم يؤخذ من الربا فإنه موضوع.

١٠- رأفة الله تعالى بمن شاء من عباده؛ لقوله تعالى: {فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى}؛ وهذه ربوبية خاصة تستلزم توفيق العبد للتوبة حتى ينتهي عما حرَّم الله عليه.

١١- التحذير من الرجوع إلى الربا بعد الموعظة؛ لقوله تعالى: {ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

١٢- التخويف من التفاؤل البعيد لمن تاب من الربا؛ لأنه تعالى قال: {فله ما سلف وأمره إلى الله}؛ يعني أن الإنسان يتفاءل، ويؤمِّل؛ لأن الأمر قد لا يكون على حسب تفاؤله.

١٣- بيان عظم الربا؛ لقوله تعالى: {ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

١- أخرجه مسلم ص ٨٨٠ - ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

قال ابن العثيمين: {يمحق الله الربا}؛ (المحق) بمعنى الإزالة؛ أي يزيل الربا؛ والإزالة يحتمل أن تكون إزالة حسيَّة أو إزالة معنويَّة، فالإزالة الحسيَّة: أن يسلِّط الله على مال المرابي ما يتلفه؛ والمعنويَّة: أن ينزع منه البركة.

قال السعدي: أي: يذهبه ويذهب بركته ذاتًا ووصفًا، فيكون سببًا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه بل يكون زادًا له إلى النار.

قال ابن العثيمين: {ويربي الصدقات}: أي يزيدها: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قال السعدي: أي: ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان، ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى ج٦ص١٦٩: فجعل الربا نقيض الصدقة؛ لأن المُرْبي يأخذ فضلًا في ظاهر الأمر يزيد به ماله، والمتصدِّق ينقص ماله في الظاهر؛ لكن يمحق الله الربا ويربي الصدقات. وقال سبحانه في الآية الأخرى: {وما ءاتيتم من ربًا ليربوَا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما ءاتيتم من زكاةٍ تريدون وجه اللهِ فأولئك هم المضعفون}[الروم: ٣٩]. فكمَّا أن الشارع أوجب الصدقة التي فيها الإعطاء للمحتاجين حرَّم الربا الذي فيه أخذ المال من المحتاجين؛ لأنه سبحانه علِم أن صلاح الخلق في أن الغني يؤخذ منه ما يعطى للفقير، وأن الفقير لا يؤخذ منه ما يعطى للغني، ثمّ رأيت هذا المعنى مأثورًا عن علي بن موسى الرضا رضي الله عنه وعن آبائه أنه سئل لِمَ حرَّم الله الربا؟ فقال: لئلَّا يتمانع الناس المعروف(١).

قال ابن كثير: قَالَ الْبُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((من تصدق بعدل تمرة مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ(٢)، حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ(٣))).

١- هذا الأثر معروف عن جعفر بن محمد الصادق رحمه الله، رواه أبو نعيم في الحلية (٣/١٩٤)، والذهبي في السير (٦/٢٦٢)، والمزي في تهذيب الكمال (٥/٨٨).

٢- فَلُوَّهُ : مُهرهُ.

٣- صحيح البخاري (١٤١٠)، وصحيح مسلم (١٠١٤).

قال ابن العثيمين: {والله لا يحب كل كفَّار أثيم}؛ إذا نفى الله تعالى المحبة، فالمراد إثبات ضدها – وهي الكراهة؛ و{الكفَّار} كثير الكفر، أو عظيم الكفر؛ وال{أثيم} بمعنى الآثم، كالسميع بمعنى السامع، والبصير بمعنى الباصر، وما أشبه ذلك.

قال ابن كثير: أَيْ: لَا يُحِبُّ كَفُورَ الْقَلْبِ أَثِيمَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُنَاسَبَةٍ فِي خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُرَابِيَ لَا يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحَلَالِ، وَلَا يَكْتَفِي بِمَا شَرَعَ لَهُ مِنَ التَّكَسُّبِ الْمُبَاحِ، فَهُوَ يَسْعَى فِي أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الْخَبِيثَةِ، فَهُوَ جَحُودٌ لِمَا عَلَيْهِ مِنَ النِّعْمَةِ، ظَلُومٌ آثِمٌ بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

قال أبو زهرة: فالذين يرابون ويأكلون أموال الناس بالباطل يدخلون في عموم قوله تعالى: {كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}؛ وقد جمع سبحانه وتعالى بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه، وهم كفار إن استحلوه؛ وهم في الحالين آثمون معاقَبون، ولكل حال مقدارها من الإثم، فليس إثم من جحد بآيات الله كإثم من نقص إيمانه بترك العمل بها، فذلك كافر، وهذا فاسق، وفرق ما بين الأمرين عظيم. ويصح أن نقول: إن الكافر هو الكفَّار بنعمة الله والتمادي في كفرانها، بأن يتَّخذ ما أنعم الله به عليه من نعم كالمال، في الإيذاء لا في النفع، فيأكل أموال الناس بالباطل بسبب ما أعطاه الله من مال، وإن ذلك توجيه حسن، وهو في هذا المقام مناسب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– محق الربا: إما حسًّا، وإما معنى، كما سبق.

٢– التحذير من الربا، وسد أبواب الطمع أمام المرابين.

٣– أن الله يربي الصدقات – أي يزيدها؛ والزيادة إما أن تكون حسيَّة؛ وإما أن تكون معنويَّة؛ فإن كانت حسيَّة فبالكميَّة، مثل أن ينفق عشرة، فيخلف الله عليه عشرين؛ وأما المعنويَّة فأن ينزل الله البركة في ماله.

٤– مقابلة الضِّد بالضِّد؛ فكما أن الربا يُمحق ويزال؛ فالصدقة تزيد المال وتنميه؛ لأن الربا ظلم، والصدقة إحسان.

٥– إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {والله لا يحب كل كفَّار أثيم}؛ ووجه الدلالة أن نفي المحبة عن الموصوف بالكفر، والإثم يدلُّ على إثباتها لمن لم يتَّصف بذلك – أي لمن كان مؤمنًا مطيعًا؛ ولولا ذلك لكان نفي المحبة عن ال{كفَّار الأثيم} لغوًا من القول لا فائدة منه؛ ولهذا استدلَّ الشافعي – رحمه الله – بقوله تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون}[المطففين: ١٥] على أن الأبرار يرون الله عز وجل؛ لأنه لما حجب الفجار عن رؤيته في حال الغضب دلَّ على ثبوتها للأبرار في حال الرضا؛ وهذا استدلالٌ خفيٌّ جيد؛ والمحبة الثابتة لله عز وجل هي محبة حقيقيَّة تليق بجلاله

وعظمته؛ وليست – كما قال أهل التعطيل – الثواب، أو إرادة الثواب؛ لأن إرادة الثواب ناشئة عن المحبة؛ وليست هي المحبة؛ وهذه القاعدة – أعني إجراء النصوص على ظاهرها في باب صفات الله – اتفق عليها علماء السلف وأهل السنة والجماعة؛ لأن ما يتحدَّث الله به عن نفسه أمور غيبية يجب علينا الاقتصار فيها على ما ورد.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

قال ابن كثير: ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَادِحًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ، الْمُطِيعِينَ أَمْرَهُ، الْمُؤَدِّينَ شُكْرَهُ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، مُخْبِرًا عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّبِعَاتِ آمِنُونَ، فَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

قال ابن العثيمين: {إن الذين آمنوا}: أي آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به؛ {وعملوا الصالحات}: أي عملوا الأعمال الصالحات؛ وهي المبنيَّة على الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ {وأقاموا الصلاة}: أي أتَوا بها قويمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكمِّلاتها؛ وعطفها على العمل الصالح من باب عطف الخاص على العام؛ لأن إقامة الصلاة من الأعمال الصالحة، ونص عليها لأهميتها؛ {وآتوا الزكاة}: أي أعطوا الزكاة مستحقها؛ وعلى هذا فتكون {الزكاة} مفعولًا أوَّلًا بـ{آتوا}؛ والمفعول الثاني محذوف – أي آتوا الزكاة مستحقُّها؛ و{الزكاة} هي النصيب الذي أوجبه الله عز وجل في الأموال الزكوية؛ وهو معروف في كتب الفقه.

قال أبو زهرة: ذكر سبحانه ذلك الصنف الفاضل الذي جعله الله تعالى من صفوة عباده، فوصفه بأربع صفات، هي: الإيمان، والعمل الصالح، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ أمَّا الوصف الأول فهو الإيمان، فهو نور القلب به يُشَرَّف وبه يهتدي، وإذا قوي الإيمان تطهَّرت النفس من كل أدران الهوى ومقاصد السوء؛ وذكر القرآن الإيمان في أول أوصاف الأبرار لثلاثة أمور:

أولها: إن الإيمان بالله ورسوله إذا استغرق النفس، واستولى على القلب وُجد الإخلاص للناس وطلب الحق، فاتَّجه الإنسان بكل جوارحه إليه؛ والإخلاص هو النور الذي يهتدي به الإنسان ويحميه من كل حيرة.

وثانيها: إن الإيمان الذي هو الوصف الثابت للمؤمنين، هو والربا نقيضان لا يجتمعان؛ فما من شخص يأكل الربا أو يبيحه إلَّا كان منشأ ذلك نقصًا في إيمانه، واضطرابًا في يقينه، إذ يكون إيمانه بالمال أكثر من إيمانه بالله.

وثالثها: إن الإيمان يتضمَّن معنى الإذعان للحق، ومن ادَّعى الإيمان ولم يذعن للحق، فقد جافى حقيقته.

من أجل هذه المعاني صُدِّرت أوصاف الذين لَا يأكلون الربا بوصف الإيمان.

والوصف الثاني من أوصاف الذين لَا يأكلون الربا: هو العمل الصالح، والعمل الصالح هو كل عمل فيه خير للمجتمع الذي يعيش فيه المؤمن، يبتدئ فيه بالأسرة: الأقرب فالأقرب، ثم بالجيران: الأدنى فالأدنى، ثم بالعشيرة كلِّها، ثم بقومه، ثم بأمَّته.

وإن اقتران الإيمان دائمًا بالعمل الصالح يدلُّ على أن الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي للخير، فليس الإيمان في الإسلام مجرَّد نزاهة روحية، وتعبد في الصوامع، إنَّما الإيمان مظهره عمل إيجابي فيه نفع للناس؛ فالإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي، لَا مجرَّد التَّقديس السلبي.

وإذا كان العمل الصالح هو النفع العام والنفع الخاص، فإنه يفترق عن الصلاة والزكاة، من حيث إن هذه هي الفرائض الوقتية المنظمة للعلاقات بين العبد وربه، وبين العبد والناس، أما العمل الصالح فهو الحال الدائمة للمؤمن التي لا تتقيَّد بزمان ولا مكان، ولا حال، فكما أن الإيمان حال دائمة، فالعمل الصالح، أي النفع الدائم المستمر للإنسان هو الذي ينبغي أن يكون حالًا دائمةً مستمرةً للمؤمن.

وذكر هذا الوصف في مقابل أكل الربا فيه إشارة إلى التقابل بين الشر والخير، والإثم والبر، فإن الإثم إيذاء للناس ومن ذلك الربا، وأخلاق المؤمن العمل النافع الدائم للناس، وهو الخير وهو البر.

والوصف الثالث: إقامة الصلاة، أي الإتيان بها مقوَّمة غير معوَّجة بحيث يستذكر فيها المصلِّي ربه، ولا يسهو فيها عن ذكره سبحانه، وما ذكرت الصلاة في مقام المدح للمصلِّين إلَّا ذكرت بالإقامة، لأن إقامتها هي التي تهذِّب النفس، وتبعدها عن الفواحش والمنكرات، كما قال تعالى: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ....}.

وإنَّ ذكر الصلاة بجوار العمل الصالح فيه إشارة إلى أن الإسلام يلتقى فيه وصفان جليلان: التهذيب الروحي، والنزاهة النفسية التي تكون بالصلاة والمداومة على إقامتها، والعمل النافع المستمر وجلب الخير للناس، ففيه نزاهة الروح والنفع العام.

والوصف الرابع من أوصاف المؤمنين إيتاء الزكاة، والزكاة هي الفريضة الاجتماعية التي فرضها الله سبحانه وتعالى، وبها يأخذ ولي الأمر من مال الغني ما يسد به حاجة الفقير، فهي قدر معلوم قدَّره الشارع الحكيم، بحيث يأخذه من مال الغني قسرًا أو اختيارًا، وذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الجملة أولئك الذين يؤتون الزكاة طوَّاعية واختيارًا، فهم يعطونها محتسبين النيَّة معتقدين أن الزكاة مغنم لهم ومطهِّرة لأموالهم، وليست مغرمًا لهم، ولا منقصة لأموالهم.

وذكرت الزكاة في هذا المقام؛ لأنها مقابلة للربا كما بيَّنا في الآية السابقة، وقد تلونا فيما سبق قول الله تعالى: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}.

قال ابن العثيمين: {لهم أجرهم عند ربهم}: أي لهم ثوابهم عند الله؛ والجملة هذه خبر {إن} في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا..}.

{ولا خوف عليهم}: أي فيما يستقبل من أمرهم؛ {ولا هم يحزنون}: أي فيما مضى من أمرهم.

قال أبو زهرة: {لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}: هذا جزاء الذين يؤمنون، ويعملون العمل الصالح في سبيل النفع، ويطهِّرون نفوسهم بالصلاة، ويطهِّرون أموالهم بالزكاة، وقد ذكر سبحانه وتعالى لهم أنواعًا ثلاثة من الجزاء. أولها: الأجر، وهو عوض ما قاموا به من خير، واعتبر إنعامه عليهم بأضعاف ما صنعوا أجرًا وعوضًا وهو المنعِم المتفضل، حثًّا على فعل الخير، وتعليم الناس الشكر، ومقابلة الخير بالخير.

والثاني من أنواع الجزاء: الأمن وعدم الخوف، فلا مزعج يزعج فاعل الخير، إذ إنه بالعمل للنفع العام، وتطهير النفس، وإعطاء الفقير حقَّه المعلوم قد وقى نفسه ووقى مجتمعه من ذرائع الفتن ونوازع الشر، هذا في الدنيا؛ أما في الآخرة، فالأمن من عذاب الله تعالى.

والجزاء الثالث: أنهم لَا يحزنون، وذلك لأنهم باستقامة قلوبهم، وامتلائها بالإيمان وتهذيب أرواحهم وأدائهم ما عليهم من واجب في حق أنفسهم ومجتمعهم – قد حصنوا أنفسهم من أسباب الهمِّ والغمِّ، فلا يأسون على ما يفوتهم، ولا يجزعون لما يصيبهم، لأن نفوسهم روحانية تعلو عن متنازع الأهواء التي تملأ النفس بأسباب الهمِّ والغمِّ.

وإن ذكر هذه الأحوال في مقام مقابل لحال الربويين الذين لَا يقومون إلَّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ – له مغزاه ومعناه، إذ فيه بيان للنعيم في مقابل الجحيم، وللراحة والاطمئنان، في مقابل الجزع والاضطراب، وكل امرئ بما كسب رهين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– الحثُّ على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن ذكر الثواب يستلزم التشجيع، والحث، والإغراء.

٢– أنه لابدَّ مع الإيمان من العمل الصالح؛ فمجرَّد الإيمان لا ينفع العبد حتى يقوم بواجبه – أي واجب الإيمان: وهو العمل الصالح.

٣- أن العمل لا يفيد حتى يكون صالحًا؛ والصلاح أن ينبني العمل على أمرين: الإخلاص لله عز وجل – وضده الشرك؛ والمتابعة – وضدها البدعة؛ فمن أخلص لله في شيء، ولكنه أتى بعمل مبتدع لم يقبل منه؛ ومن أتى بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه؛ وأدلَّة هذا معروفة.

٤- بيان أهمية إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

٥- أن هذين الركنين – أعني إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة – أعلى أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ للنَّص عليهما من بين سائر الأعمال الصالحة.

٦- أن الله سبحانه وتعالى ضَمِن الأجر لمن آمن، وعمل صالحًا، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة؛ لقوله تعالى: {لهم أجرهم عند ربهم}.

٧- الإشارة إلى عظمة هذا الثواب؛ لأنه أضافه إلى نفسه – تبارك وتعالى – والمضاف إلى العظيم يكون عظيمًا.

٨- أن هؤلاء الذين اتَّصفوا بهذه الصفات الأربع – الإيمان، والعمل الصالح، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة – ليس عليهم خوف من مستقبل أمرهم؛ ولا حزن فيما مضى من أمرهم؛ لأنهم فعلوا ما به الأمن التام، كما قال الله تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}[الأنعام: ٨٢].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)

قال السعدي: لمَّا ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا ينفعهم لم يصدر منهم ما صدر، ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتَّقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص٥١١: وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ، وَكَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا وَصَلَّوْا وَصَامُوا، لَكِنْ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالرِّبَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا بِتَرْكِ مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا.

قال أبو زهرة: في هذه الآية الكريمة يبيِّن سبحانه وتعالى طريق التوبة من الربا، والخروج من مآثمه، ويحثُّ على هذه التوبة بإثبات أنها من مقتضيات الإيمان، وأول طرق التوبة لمَّا خوطبوا بالقرآن أول نزوله، أن يتركوا ما بقي من الربا، فما كسبوه قبل الخطاب بالتحريم فإنه في مرتبة العفو، أما ما يجيء من بعد ذلك ولو كان بعقد سابق فإنه حرام، ولذا خاطبهم

سبحانه وتعالى بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} وفي ذلك نهي عن أخذ ما استحقَّ بالعقود السابقة. وقد تأكّد النهي بثلاثة مؤكّدات:

أولها: تصدير النداء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: فإن ذلك التصدير لبيان أن ترك الربا من شأن الإيمان ومقتضياته، فليس من خلق أهل الإيمان بالله ورسوله وكتابه وما اشتمل عليه من أخلاق سامية ومبادئ اجتماعية عالية، أن يأكلوا الربا وأن يتعاملوا به، لأنه ضد تهذيب النفس وسموُّ الروح، إذ هو شَرَهٌ مادي وكسب بغير الطريق الطبعي، ولأنه يقوّض بنيان الاجتماع، ويجعل كل واحد من آحاده ينظر إلى الآخر نظر القنيصة التي يقتنصها والفريسة التي يفترسها، فتنقطع الأوصال، وينتثر العقد الجامع.

ثانيها: قوله تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ}: فهذا النص يفيد أن من مقتضيات التَّقوى اجتناب الربا، لأن التَّقوى معناها أن يجعل المؤمن بينه وبين الآثام وقاية، وأن يجعل بينه وبين غضب الله تعالى وقاية، وأن يجعل بينه وبين إيذاء الناس وقاية. والربا ضد هذا كله، لأنه يعرض المرء للمآثم، فإنه بمجرَّد أن يعجز المَدين عن الوفاء – وذلك كثير – تتوالى المطالبة المصحوبة بالأذى والترصُّد المستمر حتى يصبح عيشة المَدين ضنكًا، وقد يبخع نفسه تخلصًا من تلك المآثم المتوالية المستمرة.

ثالثها: أنه سبحانه جعل ترك الربا شرطًا للاستمرار على الإيمان، فقال في ختام الآية الكريمة: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}: أي إن كنتم مستمرين على حكم الإيمان، مذعنين لأحكام الديَّان.

قال ابن كثير: {وذروا ما بقي من الربا}: أَيِ اتْرُكُوا مَا لَكُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ، بَعْدَ هَذَا الْإِنْذَارِ.
{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}: أَيْ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ، وَتَحْرِيمِ الرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قال ابن العثيمين: {إن كنتم مؤمنين}: هذا من باب الإغراء، والحثُّ على الامتثال؛ يعني: إن كنتم مؤمنين حقًّا فدعوا ما بقي من الربا؛ وهذه الجملة يقصد بها الإغراء، وإثارة الهمة.

فإن قلت: كيف يوجّه الخطاب للمؤمنين، ويقول: {إن كنتم مؤمنين}؛ أفلا يكون في هذا تناقض؟ فالجواب: ليس هنا تناقض؛ لأن معنى الثانية التَّحدِّي؛ أي إن كنتم صادقين في إيمانكم فاتَّقوا الله، وذروا ما بقي من الربا.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٨: فصدَّر الآية بالأمر بتقواه المضادَّة للربا، وأمر بترك ما بقى من الربا بعد نزول الآية وعفا لهم عمَّا قبضوه به قبل التحريم، ولولا ذلك لردُّوا ما قبضوه به قبل التحريم، وعلَّق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلَّق على شرطٍ منتفٍ عند انتفائه.

وقال رحمه الله أيضًا في بدائع الفوائد ج٤ص١٦٨: فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض، ولم يأمرهم بردِّ المقبوض لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرَّهم عليه، بل أهل قِبا صلُّوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها ولم يعيدوا ما صلَّوا، بل استداروا في صلاتهم وأتَمُّوها، لأن الحكم لم يثبت في حقِّهم إلَّا بعد بلوغه إليهم.

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء وهي لأصحاب أحمد هذا أحدها وهو أصحُّها. وهو اختيار شيخنا رضي الله عنه.

الثاني: أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتَّب في حق غيرهم، ولزمهم كما لزم من بلغه. وهذا اختيار كثير من اصحاب الشافعي وغيرهم.

الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائي يعمُّ ثبوته من بلغه وغيره، والخطاب الناسخ لا يترتَّب في حق المخاطب إلَّا بعد بلوغه، والفرق بين الخطابين؛ أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به بخلاف الخطاب الابتدائي، ذكره القاضي أبو يعلي في بعض كتبه ونصوص القرآن والسنة تشهد للقول الأول.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بلوغ القرآن أكمل البلاغة؛ لأن الكلام في القرآن يأتي دائمًا مطابقًا لمقتضى الحال؛ فإذا كان الشيء مهما أحاطه بالكلمات التي تجعل النفوس قابلة له؛ وهذا أكمل ما يكون من البلاغة.

٢- أنه إذا كان الشيء هامًّا فإنه ينبغي أن يصدر بما يفيد التنبيه من نداء، أو غيره.

٣- وجوب تقوى الله، لقوله تعالى: {اتَّقوا الله}؛ و(التَّقوى) وصية الله لعباده الأولين والآخرين؛ قال الله تعالى: {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتَّقوا الله}[النساء: ١٣١].

٤- وجوب ترك الربا - وإن كان قد تمَّ العقد عليه؛ لقوله تعالى: {وذروا ما بقي من الربا}؛ وهذا في عقد استوفي بعضه، وبقي بعضه.

٥- أنَّه لا يجوز تنفيذ العقود المحرَّمة في الإسلام - وإن عقدت في حال الشرك؛ لعموم قوله تعالى: {وذروا ما بقي من الربا}، ولقول النبي ﷺ في خطبته في عرفة عام حجة الوداع: ((وربا الجاهلية موضوع؛ وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله))؛ ولكن يجب أن نعلم أن العقود التي مضت في الكفر على وجه باطل، وزال سبب البطلان قبل الإسلام فإنها تبقى على ما كانت عليه؛ مثال ذلك: لو تبايع رجلان حال كفرهما بيعًا محرَّمًا في الإسلام، ثم أسلما فالعقد يبقى بحاله؛ ومثال آخر: لو تزوج الكافر امرأة في عدَّتها، ثم أسلما بعد انقضاء عدتها، فالنكاح باقٍ؛ ولهذا أمثلة كثيرة.

٦- تحريم أخذ ما يسمَّى بالفوائد من البنوك؛ لقوله تعالى: {وذروا ما بقي من الربا}؛ وزعم بعض الناس أن الفوائد من البنوك تؤخذ لئلَّا يستعين بها على الربا؛ وإذا كان البنك بنك كفَّار فلئلَّا يستعين بها على الكفر؛ فنقول: أأنتم أعلم أم الله، وقد قال الله تعالى: {ذروا ما بقي من الربا}؛ والاستحسان في مقابلة النص باطل؟!.

فإن قال قائل: إذا كان البنك بنكًا غير إسلامي، ولو تركناه لهم صرفوه إلى الكنائس، وإلى السلاح الذي يقاتل به المسلمون، أو أبقوه عندهم ونما به رباهم؛ فنقول: إنَّا مخاطَبون بشيء، فالواجب علينا أن نقوم بما خوطبنا به؛ والنتائج ليست إلينا؛ ثم إننا نقول: هذه الفائدة التي يسمُّونها فائدة، هل هي قد دخلت في أموالنا حتى نقول: إننا أخرجنا من أموالنا ما يستعين به أعداؤنا على كفرهم، أو قتالنا؟

والجواب: أن الأمر ليس كذلك؛ فإن هذه الزيادة التي يسمُّونها فائدة ليست نماء أموالنا؛ فلم تدخل في ملكنا؛ ثم إننا نقول له: إذا أخذته فأين تصرفه؟ قال: أصرفه في صدقة؛ في إصلاح طرق؛ في بناء مساجد تخلُّصًا منه، أو تقرُّبًا به؛ نقول له: إن فعلت ذلك تقرُّبًا لم يقبل منك، ولم تسلم من إثمه؛ لأنَّك صرفته في هذه الحال على أنه ملكك؛ وإذا صرفته على أنه ملكك لم يقبل منك؛ لأنه صدقة من مال خبيث؛ ومن اكتسب مالًا خبيثًا فتصدَّقَ به لم يقبل منه؛ لقول النبي ﷺ: ((إن الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا))؛ وإن أخرجته تخلُّصًا منه فأيُّ فائدة من أن تلطِّخ مالك بالخبيث، ثم تحاول التَّخلُّص منه؛ ثم نقول أيضًا: هل كل إنسان يضمن من نفسه أن يخرج هذا تخلُّصًا منه؟! فربَّما إذا رأى الزيادة الكبيرة تغلبه نفسه ولا يخرجها؛ أيضًا إذا أخذتَ الربا، وقال الناس: إن فلانًا أخذ هذه الأموال التي يسمُّونها الفائدة؛ أفلا تخشى أن يقتدي الناس بك؟! لأنه ليس كل إنسان يعلم أنك سوف تخرج هذا المال، وتتخلَّص منه. ولهذا أرى أنه لا يجوز أخذ شيء من الربا مطلقًا؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا}؛ ولم يوجِّه العباد إلى شيء آخر.

٧- أنَّ ممارسة الربا تنافي الإيمان؛ لقوله تعالى: {إن كنتم مؤمنين}؛ ولكن هل يخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر؟ مذهب الخوارج أنه يخرجه من الإيمان إلى الكفر؛ فهو عند الخوارج كافر، كفرعون، وهامان، وقارون؛ لأنه فعل كبيرة من كبائر الذنوب؛ ومذهب أهل السنة والجماعة أنه مؤمن ناقص الإيمان؛ لكنه يخشى عليه من الكفر لا سيَّما آكل الربا؛ لأنه غذي بحرام؛ وقد قال النبي ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام: ((فأنَّى يستجاب لذلك([١]))) – نسأل الله العافية.

٨- رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث حرَّم عليهم ما يتضمَّن الظلم؛ وأكَّد هذا التحريم، وأنزل القرآن فيه بلفظ يحمل على ترك هذا المحرَّم؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}، وقوله تعالى: {اتقوا الله}، وقوله تعالى: {إن كنتم مؤمنين}؛ والحكم: {ذروا ما بقي من الربا}.

١- أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم ٢٣٤٦ [٦٥] ١٠١٥.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

قال أبو زهرة: أي فإن لم تفعلوا وأخذتم ما بقي من الربا فأنتم معاندون لله ولرسوله، وأنتم في حرب معهما، ومن حارب الله فإن الله غالبه، وهو مهزوم لَا محالة، وإن الله سيعاقبه على عظيم ما ارتكب.

وهنا عدَّة كلمات فيها إشارات بيانية تبيِّن عظيم ما يتعرَّض له من يعاند الله ورسوله، ويخالف أحكامه التي يقرِّرها الله تعالى لتنظيم المجتمع الإسلامي، وتبيِّن أيضًا عظيم عمل من يحترم أحكام الله تعالى:

أولى هذه الكلمات: إن الله تعالى يقول: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا}: أي لم تتركوا ما بقى من الربا؛ فعبَّر عن الترك هنا بالفعل، فلم يقل: (فإن لم تتركوا)، بل قال: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا}، وذلك لأن الذين يتركون ما بقي من عقود عقدوها، يقاومون رغباتهم ويقاومون أهواءهم وشهواتهم، فهذه المقاومة، وذلك الكفُّ فعل نفسي جليل يحرِّضهم سبحانه وتعالى عليه، ويدعوهم إليه، فإن فعلوه كان لهم الثواب المقيم والرضا الكريم، وإن لم يفعلوا فقد أعلنوا الحرب على الله ورسوله.

والكلمة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى يقول للذين لَا يتركون ما حرم الله من ربا: {فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ}: أي فاعلموا بأنَّكم في حرب؛ وذلك لأن {أذن} هنا بمعنى علم.

والكلمة الثالثة: إنه تعالى قال في الحرب: {فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، ولم يقل: (في حرب الله ورسوله)، وقد بيَّن السِّر في ذلك الزمخشري في الكشاف بقوله: (كان هذا أبلغ؛ لأن المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله): أي أن في هذا التعبير الكريم تهويلًا لشأن هذه الحرب من ناحيتين: ناحية التنكير، فهي حرب هائلة لم يدركوا كنهها، والناحية الثانية ناحية التَّصريح بإضافتها إلى الله ورسوله، فهي حرب معهما، والنتيجة في هذا مؤكَّدة محتومة.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٣٧٨: ففي ضمن هذا الوعيد، أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد فى كبيرة سوى الربا، وقطع الطريق والسعي فى الأرض بالفساد، لأن كل واحد منهما مفسد فى الأرض، قاطع الطريق على الناس، هذا بقهره لهم وتسليطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلَّا بتحميلهم كرباتٍ أشدُّ منها. فأخبر عن قطَّاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله وآذن هؤلاءِ إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله.

قال ابن العثيمين: {وإن تبتم}: أي رجعتم إلى الله سبحانه وتعالى من معصيته إلى طاعته؛ وذلك هنا بترك الربا؛ والتوبة من الربا كالتوبة من غيره – لابدَّ فيها من توافر الشروط الخمسة المعروفة.

{فلكم رؤوس أموالكم}: {رؤوس} جمع رأس؛ و(الرأس) هنا بمعنى الأصل؛ أي لكم أصول الأموال؛ وأمَّا الربا فليس لكم، ثم علَّل الله عز وجل هذا الحكم بقوله تعالى: {لا تظلمون}؛ لأنَّكم لم تأخذوا الزيادة؛ {ولا تظلمون}؛ لأنها لم تنقص رؤوس أموالكم.

قال الطبري: {لا تَظلمون} بأخذكم رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل الإرباء على غُرمائكم منهم، دون أرباحها التي زدتموها ربًا على من أخذتم ذلك منه من غرمائكم، فتأخذوا منهم ما ليس لكم أخذُه، أو لم يكن لكم قبلُ.

و{لا تُظلمون}، يقول: ولا الغريم الذي يعطيكم ذلك دون الربا الذي كنتم ألزمتموه من أجل الزيادة في الأجل، يبخسُكم حقًّا لكم عليه فيمنعكموه، لأن ما زاد على رؤوس أموالكم لم يكن حقًّا لكم عليه، فيكون بمنعه إيَّاكم ذلك ظالمًا لكم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٩ص٤١٢: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِرَدِّ مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا فِي الذِّمَمِ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِرَدِّ مَا قَبَضُوهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَجَعَلَ لَهُمْ مَعَ مَا قَبَضُوهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ رُءُوسَ الْأَمْوَالِ. فَعُلِمَ أَنَّ الْمَقْبُوضَ بِهَذَا الْعَقْدِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ، أَمَّا إذَا طَرَأَ الْإِسْلَامُ وَبَيْنَهُمَا عَقْدُ رِبًا فَيَنْفَسِخُ، وَإِذَا انْفَسَخَ مِنْ حِينِ الْإِسْلَامِ اسْتَحَقَّ صَاحِبُهُ مَا أَعْطَاهُ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ، وَلَمْ يَسْتَحِقَّ الزِّيَادَةَ الرِّبَوِيَّةَ الَّتِي لَمْ تُقْبَضْ، وَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ مَا قَبَضَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ مَلَكَهُ بِالْقَبْضِ فِي الْعَقْدِ الَّذِي اعْتَقَدَ صِحَّتَهُ، وَذَلِكَ الْعَقْدُ أَوْجَبَ ذَلِكَ الْقَبْضَ، فَلَوْ أَوْجَبْنَاهُ عَلَيْهِ لَكُنَّا قَدْ أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ رَدَّهُ، وَحَاسَبْنَاهُ بِهِ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ الَّذِي اسْتَحَقَّ الْمُطَالَبَةَ بِهِ، وَذَلِكَ خِلَافُ مَا تَقَدَّمَ.

وَهَكَذَا كُلُّ عَقْدٍ اعْتَقَدَ الْمُسْلِمُ صِحَّتَهُ بِتَأْوِيلِ مِنْ اجْتِهَادٍ أَوْ تَقْلِيدٍ؛ مِثْلُ الْمُعَامَلَاتِ الرِّبَوِيَّةِ الَّتِي يُبِيحُهَا مُجَوِّزُوا الْحِيَلِ، وَمِثْلُ بَيْعِ النَّبِيذِ الْمُتَنَازَعِ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ، وَمِثْلُ بُيُوعِ الْغَرَرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا عِنْدَ مَنْ يُجَوِّزُ بَعْضَهَا؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعُقُودَ إذَا حَصَلَ فِيهَا التَّقَابُضُ مَعَ اعْتِقَادِ الصِّحَّةِ لَمْ تُنْقَضْ بَعْدَ ذَلِكَ؛ لَا بِحُكْمِ، وَلَا بِرُجُوعِ عَنْ ذَلِكَ الِاجْتِهَادِ.

وَأَمَّا إذَا تَحَاكَمَ الْمُتَعَاقِدَانِ إلَى مَنْ يَعْلَمُ بُطْلَانَهَا قَبْلَ التَّقَابُضِ، أَوْ اسْتَفْتَيَاهُ إذَا تَبَيَّنَ لَهُمَا الْخَطَأُ، فَرَجَعَ عَنْ الرَّأْيِ الْأَوَّلِ، فَمَا كَانَ قَدْ قُبِضَ بِالِاعْتِقَادِ الْأَوَّلِ أُمْضِيَ. وَإِذَا كَانَ قَدْ بَقِيَ فِي الذِّمَّةِ رَأْسُ الْمَالِ وَزِيَادَةٌ رِبَوِيَّةٌ، أُسْقِطَتْ الزِّيَادَةُ وَرَجَعَ إلَى رَأْسِ الْمَالِ. وَلَمْ يَجِبْ عَلَى الْقَابِضِ رَدُّ مَا قَبَضَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِالِاعْتِقَادِ الْأَوَّلِ، كَأَهْلِ الذِّمَّةِ وَأَوْلَى؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الِاعْتِقَادَ بَاطِلٌ قَطْعًا.

وقال رحمه الله أيضًا في تفسير آيات أُشكلت ج٢ص٥٧٤: قوله: {فَلَهُ مَا سَلَفَ}: أي ممَّا كان قبضه من الربا جعله له، {وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}: قد قيل الضمير يعود إلى الشخص وقيل إلى {ما}. وبكلِّ حال فالآية تقتضي أن أمره إلى الله لا إلى الغريم الذي عليه الدَّين، بخلاف الباقي فإن للغريم أن يطلب إسقاطه.

كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ}: أي ذروا ما بقي من الزيادة في ذمم الغرماء، وإن تبتم فلكم رأس المال من غير زيادة.

فقد أمرهم بترك الزيادة وهي الربا، فيسقط عن ذمَّة الغريم ولا يطالب بها، وهذه للغريم فيها حق الامتناع من أدائها، والمخاصمة على ذلك، وإبطال الحجَّة المكتتبة بها.

وأمَّا ما كان قبضه فقد قال: {فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}، فاقتضى أن السَّالف له، للقابض، وأن أمره إلى الله وحده لا شريك له، ليس للغريم فيه أمر، وذلك أنه لمَّا {جاءه موعظة من ربه فانتهى}، كان مغفرة ذلك الذنب والعقوبة عليه إلى الله، وهذا قد انتهى في الظاهر {فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}، إن علِم من قلبه صحَّة التَّوبة غفر له وإلَّا عاقبه.

ثم قال: {اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، فأمر بترك الباقي ولم يأمر برد المقبوض.

وقال: {وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ}، لا يشترط منها ما قبض.

وهذا الحكم ثابت في حق الكافر إذا عامل كافرًا بالربا وأسلما بعد القبض وتحاكما إلينا، فإن ما قبضه يحكم له به كسائر ما قبضه الكفار بالعقود التي يعتقدون حلَّها، كما لو باع خمرًا وقبض ثمنها ثم أسلم، فإن ذلك يحل له كما قال النبي ﷺ: ((من أسلم على شيء فهو له([1]))).

وأما المسلم فله ثلاثة أحوال:

- تارة يعتقد حل بعض الأنواع باجتهاد أو تقليد.
- وتارة يعامل بجهل ولا يعلم أن ذلك ربًا مُحَرَّم.
- وتارة يقبض مع علمه بأن ذلك محرَّم.

أما الأول والثاني ففيه قولان إذا تبيَّن له فيما بعد أن ذلك ربًا محرَّم، قيل: يرد ما قبض كالغاصب، وقيل: لا يرُّده، وهو أصح؛ لأنه كان يعتقد أن ذلك حلال، والكلام فيما إذا كان مختَلَفًا فيه مثل الحيل الربوية، فإذا كان الكافر إذا تاب يغفر له ما استحله، ويباح له ما قبضه، فالمسلم المتأوِّل إذا تاب يغفر له ما استحله، ويباح له ما قبضه، لأن المسلم إذا تاب أولى أن يُغفر له إن كان قد أخذ بأحد قولي العلماء في حل ذلك، فهو في تأويله أعذر من الكافر في تأويله.

وأمَّا المسلم الجاهل فهو أبعد، لكن ينبغي أن يكون كذلك فليس هو شرًّا من الكافر.

وقد ذكرنا فيما يتركه المسلم الجاهل من الواجبات التي لم يعرف وجوبها هل عليه قضاء؟ قولان، أظهرهما: أنه لا قضاء عليه. وأصل ذلك أن حكم الخطاب هل يثبت في حق المسلم قبل بلوغ الخطاب؟ فيه قولان في مذهب أحمد وغيره.

١- البيهقي (٩/١١٣)، وسعيد بن منصور (١/٧٦) والحديث حسنه الألباني.

ولأحمد روايتان فيما إذا صلَّى في معاطن الإبل، أو صلَّى وقد أكل لحم الجزور، ثم تبيَّن له النص، هل يعيد؟ على روايتين.

وقد نصَرتُ في موضع أنه لا يعيد([١])، وذكرت على ذلك أدلَّة متعدِّدة، منها: قصة عمر وعمار لما كانا جُنبين([٢])، ولم يصلِّ عمر ولم يأمره النبي ﷺ بالإعادة.

ومنها: أبو ذر لم يأمره أيضًا بالإعادة([٣]).

ومنها: المستحاضة التي قالت: ((منعتني الصوم والصلاة([٤]))).

ومنها: الأعرابي المسيء في صلاته الذي قال: ((والله ما أحسن غير هذا([٥]))). فأمره أن يعيد الصلاة الحاضرة؛ لأن وقتها باق، وهو مأمور بها، ولم يأمره بإعادة ما صلَّى قبل ذلك.

ومنها: الذين أكلوا حتى تبيَّن لهم الخيط الأبيض والأسود، ولم يؤمروا بالإعادة([٦]).

والشريعة أمْرٌ ونهْيٌ، فإذا كان حُكم الأمر لا يثبت إلَّا بعد بلوغ الخطاب، وكذلك النهي، فمن فعَلَ شيئًا لم يعلم أنه محرَّم، ثم علم لم يعاقب، وإذا عامل معاملات ربوية يعتقدها جائزة وقَبِض منها ما قبض، ثم جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف، ولا يكون شرًّا من الكافر، ولو كان قد باع خمرًا أو حشيشة أو كلبًا لم يعلم أنها حرام، وقبض ثمنها.

وسَمُرة لما باع، وقبض ثمنها قال عمر: قاتل الله سَمُرة ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله إذا حَرَّم على قوم أكل شيء حَرَّم عليهم ثمنه؟([٧]))).

وكانوا يقبضون الخمر جزية عن أهل الذمة، ثم يبيعونهم إيَّاها، فقال عمر: (ولُّوهم بيعها ثم خذوا ثمنها([٨]))، وما قبضه سَمُرة لم يذكر أن عمر أمر بردِّه، وكيف يردُّه وقد أخذوا الخمر، ولا نهاه عن الانتفاع به؟

وذلك أن هذا الذي قبضه قبل أن يعلم أنه محرَّم، لا إثم عليه في قبضه، فإنه لم يكن يعلم أنه محرَّم، والكافر إذا غفر له قبضه لكونه قد تاب، فالمسلم أولى بطريق الأولى.

والقرآن يدلُّ على هذا بقوله: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ}، وهذا عام في كل ما جاءه موعظة من ربه فقد جعل الله له ما سلف، ويدلُّ على أن ذلك ثابت في حق المسلم ما بعد هذا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا

١- يراجع مجموع الفتاوى (٢٢/٢٨).
٢- البخاري (١/٢٨٠-٢٨١)، ومسلم (١/٢٢٨-٢٢٩).
٣- أبو داود (٣٣٣)، والترمذي (١٢٤)، وأحمد (٥/١٤٦)، والحديث صحيح.
٤- أبو داود (٢٨٧)، والترمذي (١٢٨)، وأحمد (٦/٤٣٩)، والحديث صحيح.
٥- متفق عليه.
٦- متفق عليه.
٧- البخاري (٣/٤٠)، ومسلم (٢/١٢٠٧).
٨- عبدالرزاق في (مصنفه) (٨/١٩٥)، وأبو عبيد في الأموال (١٢٨).

بَقِيَ مِنَ الرِّبَا}: فأمرهم بترك ما بقي، ولم يأمرهم بردِّ ما قبضوه. فدلَّ على أنه لهم مع قوله: {فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ} والله يقبل التوبة عن عبادة.

فإذا قيل: هذا مختص بالكافرين. قيل: ليس في القرآن ما يدلُّ على ذلك، إنما قال: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ}، وهذا يتناول المسلم بطريق الأولى.

وعائشة قد أدخلت فيه المسلم في قصة زيد بن أرقم لما قالت لأم ولده: (بئس ما شريتِ، وبئس ما اشتريتِ، أخبري زيدًا أنه قد حبط جهاده مع رسول الله ﷺ إلَّا أن يتوب، فقالت: يا أم المؤمنين، أرأيت إن لم آخذ إلَّا رأس مالي؟ فقالت عائشة: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}([1])).

بل قد يقال: إن هذا يتناول من كان يعلم التحريم إذا جاءته موعظة من ربه فانتهى، فإن الله يغفر لمن تاب بتوبته فيكون ما مضى من الفعل وجوده كعدمه، والآية تتناوله: {فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}، ويدلُّ على ذلك قوله بعد هذا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} إلى قوله: {وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ}.

والتوبة تتناول المسلم العاصي، كما تتناول الكافر، ولا خلاف أنه لو عَامَله بربا يحرم بالإجماع لم يقبض منه شيئًا ثم تاب، أن له رأس ماله، فالآية تناولته، وقد قال فيها: {اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا}، ولم يأمر بردِّ المقبوض، بل قال قبل ذلك: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ}.

وهذا وإن كان ملعونًا على ما أكله وأوكله([2])، فإذا تاب غفر له، ثم المقبوض قد يكون اتَّجر فيه وتقلَّب، وقد يكون أكله ولم يبق منه شيء، وقد يكون باقيًا، فإن كان قد ذهب وجعل دَينًا عليه، كان في ذلك ضرر عظيم، وكان هذا مُنفِرًا عن التوبة، وهذا الغريم يكفيه إحسانًا إليه إسقاطه ما بقي في ذمته، وهو برضاه أعطاه، وكلاهما ملعون.

ولو فرض أن رجلًا أمر رجلًا بإتلاف ماله وأتلفه، لم يضمنه وإن كانا ظالمين، وكذلك إذا قال: اقتل عبدي. هذا هو الصحيح، وهو المنصوص عن أحمد وغيره.

فكذلك هذا هو سلَّط ذاك على أكل هذا المال برضاه، فلا وجه لتضمينه وإن كانا آثمين، كما لو أتلفه بفعله، إذ لا فرق بين أن يتلفه بأكله أو بإحراقه، بل أكله خير من إحراقه، فإن لم يضمنه في هذا بطريق الأولى.

وأيضًا: فكثير من العلماء يقولون: إن السارق لا يغرم لئلَّا يجتمع عليه عقوبتان، من أن الحدَّ حقٌّ لله، والمال حقٌّ للآدمي.

وهذا أولى لئلَّا يجتمع على المُربي عقوبتان: إسقاط ما بقي، والمطالبة بما أكل.

١- ابن أبي حاتم (البقرة-٢-٣٣٠٢)، وعبدالرزاق (١٤٨١٢)، والدار قطني (٥٢/٣)، والبيهقي (٣٣٠/٥).

٢- لما روى مسلم (١٢١٩) حديث: ((لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله...)).

وإن كان عين المال باقيًا، فهو لم يقبضه بغير اختيار صاحبه كالسارق الغاصب، بل قبضه باتفاقهما ورضاهما بعقد من العقود، وهو لو كان كافرًا ثم أسلم لم يرده، وقد قال تعالى: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}.

وقد يقال: لا يكون لواحدٍ منهما، كما لو كان ثمن خمر، أو مهر بغي، أو حلوان كاهن، فإن هذا إذا تاب لا يعيده إلى صاحبه، بل يتصدَّق به في أظهر قولي العلماء.

وكذلك لو استأجر رجلًا لحمل خمر، نص عليه أحمد على أنه يُقضى له بالكراء ولا يأكله؛ لأن الحمل عمل مباح فيستحق أجرته، ولكن لقصد المستأجر لا يأكله.

وكذلك لو باع عنبًا، أو عصيرًا ممن يتخذه خمرًا فإنه يُقضى له بالثمن بلا ريب إذا تعذر ردُّ العنب والعصير. ولا يقول عاقل: إن الذي أخذ العنب وعصره خمرًا يُعطى مع ذلك الثمن، لكن غاية ما يقال: إن هذا يتصدَّق بالثمن.

فإن قيل مثل هذا في الربا قياسًا على هذا، فقد يقال: هنا التحريم لحقِّ الله؛ لأن نفس عوض الخمر محرَّم، وهناك التحريم لما فيه من ظلم الآدمي، وإن كان لو رضي به لم يجز لأنه سفيه في ذلك.

وأيضًا ففي ردِّه عليه تسليط لمن يحتال على الناس بأن يأخذها بعقود ربوية فينتفع بها، ثم يطالبهم بما قبضوه، وقد انتفع برأس ماله مدَّة بغير رضاهم، فإنهم لم يعطوه قرضًا.

وهذه المسألة تحتاج إلى نظر وتحقيق، وأما الذي لا ريب فيه عندنا فهو ما قبضه بتأويل أو جهل فهنا له ما سلف بلا ريب، كما دلَّ عليه الكتاب والسنة والاعتبار، وأما مع العلم بالتحريم فيحتاج إلى نظر، فإنه قد يقال: طرد هذا أن من اكتسب مالًا من ثمن خمر مع علمه بالتحريم، فله ما سلف.

وكذلك كل من كسب مالًا محرَّمًا، ثم تاب إذا كان برضا الدافع، ويلزم مثل ذلك في مهر البغي، وحلوان الكاهن.

وهذا ليس ببعيد عن أصول الشريعة، فإنها تفرق بين التائب وغير التائب، كما في قوله: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ}، وقال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ}.

وهذا في الكفار ظاهر متواتر عن الرسول ﷺ، متفق عليه بين المسلمين. فإن الكافر إذا أسلم لم يجب عليه قضاء ما تركه من صيام وصلاة وزكاة، ولا يحرم ما اكتسبه من الأموال التي كان يعتقدها حلالًا، ولا ضمان عليه فيما أتلفه لأنه كان يعتقد حل ذلك.

الى أن قال رحمه الله: وأما الربا فإنه قبض برضا صاحبه، والله سبحانه يقول: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ} ولم يقل: فمن أسلم، ولا من تبيَّن له التحريم، بل قال: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى}

والموعظة تكون لمن علم التحريم أعظم ممَّا تكون لمن لم يعلمه، قال الله تعالى: {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}.

وأيضًا: فهذا وسط بين الغريمين، فإن الغريم المدين ينهى أن يسقط عنه الزيادة، وهذا عنده غاية السعادة، وذاك لا ينهى أن يبقى له ما قبض، وقد عفا الله عما مضى، وأما تكليف هذا إعادة القرض فذلك مثل مطالبة الغريم بما بقي، وكلاهما فيه شطط، وتسلط، وشدة عظيمة، فهذا هذا والله أعلم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {فإن لم تفعلوا}؛ لأن الجبرية يقولون: إن الإنسان لا يستطيع الفعل، ولا الترك؛ لأنه مجبر؛ وحقيقة قولهم تعطيل الأمر والنهي؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل ما أمر به، ولا ترك ما نهي عنه.

٢- أنَّ المُصرَّ على الربا معلِنٌ الحرب على الله ورسوله؛ لقوله تعالى: {فأذنوا بحرب من الله ورسوله}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة أنه إذا كان معلنا الحرب على الله، ورسوله فهو معلن الحرب على أولياء الله، ورسوله – وهم المؤمنون؛ وذلك بدلالة الالتزام؛ لأن كل مؤمن يجب أن ينتصر لله، ورسوله؛ فالمؤمنون هم حزب الله عز وجل ورسوله.

٣- عظم الربا لعظم عقوبته؛ وإنما كان بهذه المثابة ردعًا لمتعاطيه عن الاستمرار فيه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك؛ ولهذا جاء في الحديث الذي طرقه متعددة: ((إن الربا ثلاثة وسبعون بابًا أيسرها مثل أن يأتي الرجل أُمَّه([1])))؛ وهذا كل يستبشعه؛ فالربا ليس بالأمر الهين؛ والمؤمن ترتعد فرائصه إذا سمع مثل هذه الآية.

٤- أنَّه يجب على كل من تاب إلى الله عز وجل من الربا ألَّا يأخذ شيئًا ممَّا استفاده من الربا؛ لقوله تعالى: {وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم}.

٥- أنه لا يجوز أخذ ما زاد على رأس المال من الربا لأي غرض كان؛ سواء أخذه ليتصدَّق به، أو ليصرفه في وجوه البر تخلُّصًا منه، أو لغير ذلك؛ لأن الله أمر بتركه؛ ولو كان هنا طريق يمكن صرفه فيه لبيَّنه الله عز وجل.

٦- الإشارة إلى الحكمة من تحريم الربا – وهي الظلم؛ لقوله تعالى: {لا تظلمون ولا تظلمون}.

١- أخرجه ابن ماجة بلفظ: ((الربا ثلاثة وسبعون بابا)) بدون ((أيسرها ...)) ص٢٦١٣، كتاب التجارات، باب ٥٨: التغليظ في الربا، حديث رقم ٢٢٧٥؛ وقال الألباني في صحيح ابن ماجة: (صحيح) ٢/٢٧ – ٢٨، وأخرجه الحاكم بتمامه ٢/٣٧، كتاب البيوع، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

فإن قال قائل: إن بعض صور الربا ليس فيه ظلم، مثل أن يشتري صاعًا من البر الجيد بصاعين من الرديء يساويانه في القيمة؛ فإنه لا ظلم في هذه الصورة؛ قلنا: إن العلّة إذا كانت منتشرة لا يمكن ضبطها فإن الحكم لا ينتقض بفقدها؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه أتي إليه بتمر جيد فسأل: ((من أين هذا؟ فقال بلال: تمر كان عندنا ردي فبعت منه صاعين بصاع، فقال النبي ﷺ: أوه أوه! عين الربا عين الربا لا تفعل[١])). ثم أرشدهم إلى أن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم؛ ويشتروا بالدراهم تمرًا جيِّدًا؛ فدلَّ هذا على أن تخلف الظلم في بعض صوَر الربا لا يخرجه عن الحكم العام للرِّبا؛ لأن هذه العلّة منتشرة لا يمكن ضبطها؛ ولهذا أمثلة كثيرة؛ ودائمًا نجد في كلام أهل العلم أن العلّة إذا كانت منتشرة غير منضبطة فإن الحكم يعمُّ، ولا ينظر للعلّة.

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: {ورسوله}.

٨- رحمة الله سبحانه وتعالى بالعباد، حيث أرسل إليهم الرسل؛ لأن العقول لا يمكن أن تستقل بمعرفة ما ينفعها ويضرُّها على وجه التفصيل لقصورها؛ إنما تعرفه على سبيل الجملة؛ لقوله تعالى: {وما أوتيتم من العلم إلّا قليلًا}[الإسراء: ٨٥]؛ فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل؛ فكان في هذا رحمة عظيمة للخلق.

٩- مراعاة العدل في معاملة الناس بعضهم مع بعض؛ لقوله تعالى: {فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون}.

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)

قال ابن العثيمين: {وإن كان ذو عسرة} {كان}: تامَّة تكتفي بمرفوعها؛ و{ذو}: فاعل رفعت بالواو؛ لأنها من الأسماء الستة؛ والجملة شرطية؛ والجواب: جملة: {فنظرة إلى ميسرة}.

قوله تعالى: {إن كنتم تعلمون} جملة شرطية، نقول في إعرابها ما سبق في قوله تعالى: {إن كنتم مؤمنين}.

أما القراءات في هذه الآية: قوله تعالى: {ميسرة} فيها قراءتان: {ميسرة} بفتح السين؛ و {ميسرة} بضمها؛ و{تصدَّقوا} فيها قراءتان: {تصدقوا} بتخفيف الصاد؛ و{تصَّدقوا} بتشديدها؛ أي تتصدقوا؛ لكن أدغمت التاء في الصاد.

قوله تعالى: {وإن كان ذو عسرة}: أي إن وجد ذو عسرة؛ أي صاحب إعسار لا يستطيع الوفاء؛ والجملة شرطية؛ وجواب الشرط قوله تعالى: {فنظرة إلى ميسرة}؛ ويجوز في {نظرة} في إعرابها وجهان؛ أحدهما: أن تكون مبتدأ، والخبر

١- أخرجه البخاري ص١٨١، كتاب الوكالة، باب ١١: إذا باع الوكيل شيئا فاسدا فبيعه مردود، حديث رقم ٢٣١٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٤، كتاب المساقاة، باب ١٨: بيع الطعام مِثلًا بمثل، حديث رقم ٤٠٨٣ [٩٦] ١٥٩٤.

محذوف؛ والتقدير: فعليكم نظرة؛ أو فله نظرة؛ وأما أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب عليه نظرة؛ أي إنظار إلى ميسرة؛ أي: إيسار.

قال أبو زهرة: أي إن كان المدين غير قادر على الأداء لعسرة ملازمة له كملازمة الصاحب لصاحبه فانتظار إلى وقت يتيسر فيه، فلا يزيد عليه ليرهقه، فيعجز عن الوفاء، بل ينتظر حتى يجيء الوقت الذي يستطيع الأداء وهنا بعض عبارات فيها إشارات بيانية جديرة بالتنبيه:

أولها: التعبير بذو عسرة في قوله (وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ) أي كان صاحب عسرة وضيق شديد يلازمه كملازمة الصاحب، لأن كلمة ذو تدل على المصاحبة؛ وفرض أن بعض المدينين ذو عسرة يدل على أن مدينين آخرين يستطيعون الوفاء، ومنهم الذين يقترضون للاستغلال.

ثانيها: قوله تعالى: (فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) معناها: فالحكم أو الأمر انتظار إلى ميسرة، وهناك قراءة أخرى، وهي (فَنَاظِرُهُ إِلَى مَيْسَرَةَ) أي فمنتظره إلى ميسرة.

ثالثها: قوله (إِلَى مَيْسَرَةٍ) فالميسرة بفتح السين وضمها كمَقبَرة ومقبُرة: هي حال اليسر، فليست الميسرة هي مجرد اليسار، بل هي اليسار المستقر الثابت الذي يتمكن فيه المدين من وفاء دينه كله مقدما القوي على الضعيف، أي أن الدائن ينتظر المدين حتى يقف من عثرة العسرة ويستقيم أمره، لَا أن يترقب أي مال حتى يأخذه كما يأخذ الصائد قنيصته.

قال ابن العثيمين: {وأن تصدَّقوا خير لكم}: أي تُبرِءوا المعسر في دينه؛ و{أن} وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ، خبره قوله تعالى: {خير لكم}: أي من إنظاره.

{إن كنتم تعلمون}: هذه الجملة الشرطية مستقلة يراد بها الحثُّ على العلم؛ (مستقلة): أي أنها لا توصل بما قبلها؛ لأنها لو وصلت بما قبلها لأوهم معنًى فاسدًا: أوهم أن التصدُّق خيرٌ لنا إن كنَّا نعلم؛ فإن لم نكن نعلم فليس خيرًا لنا؛ ولا شك أن هذا معنى فاسد لا يراد بالآية؛ لكن المعنى: إن كنتم من ذوي العلم فافعلوا – أي تصدَّقوا.

قال أبو زهرة: أي أنه إذا ثبت العجز وتقرر، وأصبح احتمال اليسار غير قريب فتصدقوا بالدين على صاحبه وأبرئوه منه؛ فإن ذلك يكون خيرًا لكم في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فلأنكم إذا فقدتم الأمل في الاستيفاء فكل جهد في سبيله ضائع، وكل تعقب في سبيله يورث الإحن من غير جدوى؛ ويثير الأحقاد المستمرة من غير فائدة، فيكون من الخير العفو والإبراء، والإبقاء على الأخوة، والعلاقات الاجتماعية، وأما في الآخرة فالنعيم المقيم.

وهذا الجزء من النص الكريم فيه إشعار للدَّائنين بأنه إذا ذهب دَينهم بالتَّوى[١] وعجز المَدين عن الوفاء فلا تذهب أنفسهم حسرات، وليعلموا أن التَّصدُّق أجدى إن كانوا يعلمون. وذكر سبحانه هذه الجملة السامية: {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} لأن غمرة الألم لفقد الدَّين قد تنسيهم ما ينبغي في مثل هذه الحال فنبَّههم إلى ما ينبغي ليكونوا في حال وعي نفسي دائم، ولا ينسيهم المال الحال والآل.

قال الطبري: وأن تتصدَّقوا برؤوس أموالكم على هذا المعسر، {خير لكم}: أيها القوم من أن تنظروه إلى ميسرته، لتقبضوا رؤوس أموالكم منه إذا أيسر، {إن كنتم تعلمون}: موضع الفضل في الصدقة، وما أوجب الله من الثواب لمن وضع عن غريمه المعسر دينه.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح (٥/٥٩): وَالْقُرْآنُ بَيَّنَ أَنَّ السُّعَدَاءَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ نَوْعَانِ: أَبْرَارٌ مُقْتَصِدُونَ، وَمُقَرَّبُونَ سَابِقُونَ؛ فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى تَحْصُلُ بِالْعَدْلِ: وَهِيَ أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالثَّانِيَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْفَضْلِ: وَهُوَ أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ.

فَالشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ تَجْمَعُ الْعَدْلَ وَالْفَضْلَ؛ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى –: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ}[البقرة: ٢٨٠].

فَهَذَا عَدْلٌ وَاجِبٌ، مَنْ خَرَجَ عَنْهُ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ قَالَ: {وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة: ٢٨٠]. فَهَذَا فَضْلٌ مُسْتَحَبٌّ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، مَنْ فَعَلَهُ أَثَابَهُ اللَّهُ وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ، وَمَنْ تَرَكَهُ لَمْ يُعَاقِبْهُ.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي أَخْبَرَنَا أَبُو الطِّيبِ سَهْلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمِيكَالِيُّ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُوسَى بْنِ عَبْدَانَ الْحَافِظُ، أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ السَّرْحِ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وهب عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ، عَنْ أيوب عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ كَانَ يَطْلُبُ رَجُلًا بِحَقٍّ فَاخْتَبَأَ مِنْهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: الْعُسْرَةُ، فَاسْتَحْلَفَهُ عَلَى ذَلِكَ فَحَلَفَ فَدَعَا بِصَكِّهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ أنظر معسرًا أو وضع له، أَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[٢])).

١- التَّوى: الهلاك والخسارة – الوسيط.

٢- إسناده صحيح على شرط مسلم، ابن وهب هو عبد الله، أيوب هو ابن أبي تميمة. وهو في (شرح السنة) (٢١٣١) بهذا الإسناد.

وأخرجه مسلم ١٥٦٣ من طريق أبي الطاهر أحمد بن عمرو بهذا الإسناد. وأخرجه مسلم أيضًا ١٥٦٣ ح ٣٢ من طريق حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ به بنحوه.

وأخرجه الطبراني في (الأوسط) (٤٥٨٩) مقتصرًا على اللَّفظ المرفوع من طريق إسماعيل بن عيَّاش، عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عن أبيه، عن أبي قتادة وجابر بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((من سرَّه أن ينجيه اللَّهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وأن يظلَّه تحت عرشه فلينظر معسرًا)).

– وله شاهد من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو بن عباد أخرجه مسلم ٣٠٠٦ وابن حبان ٥٠٤٤ والطبراني ١٩/ ٣٧٩ والحاكم ٢/ ٢٨ والبيهقي ٥/ ٣٥٧ من طريق حاتم بن إسماعيل، عن يعقوب بن مجاهد، عن عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيِّ ... فذكره.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ محمد السمعاني، أخبرنا أبو جعفر مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ الرَّيَّانِيُّ أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ زَنْجَوَيْهِ أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إن الملائكة لتلقّت بروح رجل كان قبلكم فقالوا له: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ قَالَ: لَا، قَالُوا: تَذْكُرُ؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنِّي رَجُلٌ كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَكُنْتُ آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُوسِرَ وَيَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تَجَاوَزُوا عَنْهُ(١))).

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ السَّمْعَانِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّيَّانِيُّ أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ زَنْجَوَيْهِ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَخْبَرَنَا زَائِدَةُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ أَبِي الْيُسْرِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّه(٢))).

– وللمرفوع منه شواهد كثيرة: منها حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ٢٦٩٩ وأبو داود ٤٩٤٦ والترمذي ١٩٣٠ وابن ماجه ٢٢٥ و٢٤١٧ وابن أبي شيبة ٩/ ٨٥-٨٦ وأحمد ٢/ ٢٥٢ وابن حبان ٥٠٤٥ والقضاعي ٤٥٨.

– ومن حديث بريدة عند ابن ماجه ٢٤١٨ وأحمد ٥/ ٣٥١ والحاكم ٢/ ٢٩ والبيهقي في الشعب (١١٢٦١).

١– إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم. إسرائيل هو ابن يونس السّبيعي، منصور هو ابن المعتمر، وربعي هو ابن حراش وأبو مسعود هو البدري اسمه عقبة بن عمرو مشهور بكنيته.

– وهو في (شرح السنة) (٢١٣٣) بهذا الإسناد.

وأخرجه البخاري ٣٤٥٠- ٣٤٥١ من طريق عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ ربعي قال: قال عقبة بن عمرو- أبو مسعود-:

ألا تحدثنا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:.... فذكره بنحوه.

وكذا أخرجه مسلم ١٥٦٠ من طريق ربعي بن حراش. قال: اجتمع حذيفة أبو مسعود فقال حذيفة: ... فذكر الحديث بنحوه وفي آخره قال أبو مسعود: هَكَذَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول.

– وأخرجه مسلم ١٥٦١ والترمذي ١٣٠٧ وأحمد ٤/ ١٢٠ وابن حبان ٥٠٤٧ والطبراني ١٧/ ٥٣٧ والبيهقي ٥/ ٣٥٦ من طرق، عن أبي مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وائل، عن أبي مسعود بنحوه.

– وأخرجه مسلم ١٥٦٠ ح ٢٦ والبيهقي في «الشعب» (١١٢٤٧) من طريق منصور، عن ربعي أن حذيفة حدثهم ... فذكره بهذا اللفظ.

– وفي الباب من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ٣٤٨٠ ومسلم ١٥٦٢ والطيالسي ٢٥١٤ وأحمد ٢/ ٢٣٩ من طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله أنه سمع أبا هريرة.... فذكره.

وأخرجه النسائي ٧/ ٣١٨ وابن حبان ٥٠٤٣ وأحمد ٢/ ٣٦١ والحاكم ٢/ ٢٨ من طريق الليث بن سعد، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة.

٢– إسناده صحيح، حميد بن زنجويه ثقة، ومن دونه ثقات، وقد توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري، أحمد بن عبد الله هو ابن يونس التميمي، زائدة هو ابن قدامة، ربعي هو ابن حراش.

– وهو في (شرح السنة) (٢١٣٥) بهذا الإسناد.

– وأخرجه أحمد ٣/ ٤٢٧ والطبراني في (الكبير) (١٩/ (٣٧٢) والقضاعي في (الشهاب) (٤٦٠) من طريق زائدة بهذا الإسناد.

– وأخرجه ابن ماجه ٢٤١٩ وأحمد ٣/ ٤٢٧ والطبراني ١٩/ (٣٧٣) و(٣٧٤) و(٣٧٥) و(٣٧٦) والقضاعي ٤٦١ من طرق عن أبي اليسر.

– وأخرجه مسلم ٣٠٠٦ والطبراني ١٩/ ٣٧٩) في أثناء حديث مطول، وانظر التعليق على الحديث المتقدم برقم: ٣٣٥.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ثبوت رحمة الله عز وجل؛ وجه ذلك أنه أوجب على الدائن إنظار المدين؛ وهذا رحمة بالمعسر.

٢- حكمة الله عز وجل بانقسام الناس إلى موسر، ومعسر؛ الموسر في الآية: الدائن؛ والمعسر: المَدين؛ وحكمة الله عز وجل هذه لا يمكن أن تستقيم أمور العباد إلا بها، ولذلك بدأ الشيوعيون – الذين يريدون أن يساووا بين الناس – يتراجعون الآن؛ لأنهم عرفوا أنه لا يمكن أن يصلح العباد إلّا هذا الخلاف؛ قال عز وجل: {أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريًا}[الزخرف: ٣٢]؛ ولولا هذا الاختلاف لم يمكن أن يسخر لنا أحد ليعمل ما نريد؛ لأن كل واحد ندٌّ للآخر؛ فلا يمكن إصلاح الخلق إلّا بما تقتضيه حكمة الله عز وجل وشرعه من التفاوت بينهم؛ فهذا موسر؛ وهذا فقير؛ حتى يتبيَّن بذلك حكمة الله عز وجل، وتقوم أحوال العباد.

٣- وجوب إنظار المعسر – أي إمهاله حتى يوسر؛ لقوله تعالى: {فنظرة إلى ميسرة}؛ فلا تجوز مطالبته بالدَّين؛ ولا طلب الدَّين منه.

٤- أن الحكم يدور مع علَّته وجودًا وعدمًا؛ لأنه لما كان وجوب الإنظار معلَّلًا بالإعسار، صار مستمرًا إلى أن تزول العلَّة – وهي العسرة – حتى تجوز مطالبته.

ولو أن الناس مشَوا على تقوى الله عز وجل في هذا الباب لسلمت أحوال الناس من المشاكل؛ لكن نجد الغني يماطل، يأتيه صاحب الحق يقول: اقضني حقِّي؛ فيقول: غدًا؛ ويأتيه غدًا فيقول: بعد غد؛ وهكذا؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((مطل الغني ظلم([1]))؛ ونجد أولئك القوم الأشحاء ذوي الطمع لا ينظرون المعسر، ولا يرحمونه؛ يقول له: أعطني؛ وإلَّا فالحبس؛ ويحبس فعلًا – وإن كان لا يجوز حبسه إذا تيقنًا أنه معسر، ولا مطالبته، ولا طلب الدين؛ بل يعزَّر الدائن إذا ألحَّ عليه في الطلب وهو معسر؛ لأن طلبه مع الإعسار معصية؛ والتعزير عند أهل العلم واجب في كل معصية لا حدَّ فيها، ولا كفارة.

٥- فضيلة الإبراء من الدَّين، وأنه صدقة؛ لقوله تعالى: {وأن تصدَّقوا خير لكم}؛ والإبراء سنة؛ والإنظار واجب؛ وهنا السنة أفضل من الواجب بنص القرآن؛ لقوله تعالى: {وأن تصدَّقوا خير لكم}؛ ووجه ذلك أن الواجب ينتظم في السنة؛ لأن إبراء المعسر من الدَّين إنظار وزيادة؛ وعلى هذا فيبطل إلغاز من ألغز بهذه المسألة، وقال: (لنا سنة أفضل من

١- أخرجه البخاري ص١٧٨، كتاب الحوالات، باب ١: الحوالة وهل يرجع في الحوالة، حديث رقم ٢٢٨٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٥٠، كتاب المساقاة، باب ٧: تحريم مطل الغني وصحة الحوالة ... ، حديث رقم ٤٠٠٢ [٣٣] ١٥٦٤.

الواجب)، ومثل ذلك قول بعضهم في الوضوء ثلاثا: (إنه أفضل من الوضوء واحدة مع أن الواحدة واجب، والثلاث سنة)؛ فيلغز بذلك، ويقول: (هنا سنة أفضل من واجب)؛ فيقال له: هذا إلغاز باطل؛ لأن هذه السنة مشتملة على الواجب؛ فهي واجب وزيادة؛ وصدق الله حيث قال في الحديث القدسي: ((ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ ممَّا افترضتُ عليه([1])))؛ وهذا الحديث يبطل مثل هذه الألغاز التافهة.

٦- تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: {وأن تصدَّقوا خير لكم}؛ وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل، وأن العاملين بعضهم أفضل من بعض؛ وهذا أمر معلوم بالضرورة الشرعية والعقلية أن العمال يختلفون، كما قال تعالى: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم}[النساء: ٩٥]، وكما قال تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلًا وعد الله الحسنى}[الحديد: ١٠].

ويتفرَّع على تفاضل العمال بتفاضل الأعمال، تفاضل الإيمان؛ لأن الأعمال من الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ فإذا تفاضلت لزم من ذلك تفاضل الإيمان؛ ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

٧- فضيلة العلم، وأن العلم يهدي صاحبه إلى الخير؛ لقوله تعالى: {إن كنتم تعلمون}.

٨ – وهل يستفاد من الآية الكريمة: أن إبراء الغريم يجزئ من الزكاة: فلو أن إنسانًا أبرأ فقيرًا، ثم قال: أبرأته عن زكاتي؛ لأن الله سمَّى الزكاة صدقة؛ فقال تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... }؟

فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه لا يجزئ؛ لأن الله عز وجل قال: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وممَّا أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلَّا أن تغمضوا فيه}[البقرة: ٢٦٧]؛ وجعل الدَّين زكاة للعين هذا، من تيمُّم الخبيث، لإخراجه عن الطيِّب؛ والمراد بالخبيث هنا الرَّديء – وليس الحرام؛ لأن العين ملك قائم بيد المالك يتصرف فيه كيف يشاء؛ والدَّين الذي على معسر مال تالف؛ لأن الأصل بقاء الإعسار؛ وحينئذ يكون هذا الدَّين بمنزلة المال التالف؛ فلا يصح أن يجعل هذا المال التالف زكاة عن العين؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن إبراء الغريم المعسر لا يجزئ من الزكاة بلا نزاع؛ ولو قلنا: يجزئ لكان كل إنسان له غرماء لا يستطيعون الوفاء يقول: أبرأتكم ونويتها من الزكاة؛ فتبقى الأموال عنده، والديون التالفة الهالكة التي لا يرجى حصولها تكون هي الزكاة؛ وهذا لا يجوز؛ ولهذا لو خيَّرت شخصًا، وقلت له: أنا أعطيك عشرة ريالات نقدًا، أو أحولك على إنسان فقير معسر عنده العشرة فإنه يختار العشرة نقدًا؛ ولا يتردَّد؛ بل لو خيرته بين عشرة نقدًا، وعشرين في ذمَّة معسِر لاختار العشرة؛ فصارت العشرة المنقودة بالنسبة للدَّين من باب الطيِّب؛ وذاك من باب الرديء؛ وبهذا يتبيَّن أنه لا يجزئ إبراء المَدين المعسر عن زكاة

١- (قلت): البخاري (٦٥٠٢).

مال بيد مالكه؛ لأنه من باب تيمُّم الخبيث؛ إذًا نقول: لا يجوز إبراء الفقير، واحتساب ذلك من الزكاة؛ نعم لو فرض أنه سيجعلها زكاة عن الدَّين الذي في ذمَّة المعسر – إذا قلنا بوجوب الزكاة في الدَّين – لكان ذلك مجزئًا؛ لأن هذا صار من جنس المال الذي أُدِّيَت الزكاة عنه.

الخلاصة: تبيَّن ممَّا ذكر من الآيتين أن المعاملة بالدَّين ثلاثة أقسام:

الأول: أن يأخذ به ربا؛ وهذا محرَّم؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين} [البقرة: ٢٧٨].

الثاني: أن يكون المَدين معسرًا؛ فلا تجوز مطالبته، ولا طلب الدَّين منه حتى يوسر؛ لقوله تعالى: {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة}.

الثالث: أن يبرئ المعسر من دينه؛ وهذا أعلى الأقسام؛ لقوله تعالى: {وأن تصدَّقوا خير لكم}.

(تتمة)

في هذه الآية وجوب الإنظار إلى ميسرة؛ ومن المعلوم أن حصول الميسرة مجهول؛ وهذا لا يضر؛ لأنه ليس من باب المعاوضة؛ ولكن لو اشترى فقير من شخص، وجعل الوفاء مقيَّدًا بالميسرة فهل يجوز ذلك؟ فيه قولان؛ فأكثر العلماء على عدم الجواز لأن الأجل مجهول؛ فيكون من باب الغرر المنهي عنه؛ والقول الثاني: أن ذلك جائز لحديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: ((قدم لفلان اليهودي بز من الشأم لو أرسلت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة؛ فأرسل إليه فامتنع[1]))؛ ولأن هذا مقتضى العقد إذا علم البائع بإعسار المشتري؛ إذ لا يحل له حينئذ أن يطلب منه الثمن حتى يوسر؛ وهذا القول هو الراجح.

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

قال الطبري: وقد قيل إنَّ هذه الآيات في أحكام الربا، هنَّ آخر آيات نزلت من القرآن.

١- أخرجه أحمد ١٤٧/٦ حديث رقم ٢٥٦٥٦، وأخرجه الترمذي ص١٧٧٢، كتاب البيوع، باب ٧: ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل، حديث رقم ١٢١٣، وأخرجه النسائي ص٢٣٨٦، كتاب البيوع، باب ٧٠: البيع إلى الأجل المعلوم، حديث رقم ٤٦٣٢؛ وأخرجه الحاكم ٢٣/٢ – ٢٤، كتاب البيوع، وقال: صحيح على شرط البخاري وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي ٤/٢ – ٥: صحيح.

عن ابن عباس: {واتَّقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ... } الآية، فهي آخر آية من الكتاب أنزلت([1]).

قال ابن العثيمين: {واتَّقوا يومًا}: أي اتَّقوا عذاب يوم؛ أي احذروه؛ والمراد به يوم القيامة؛ لقوله تعالى: {ترجعون فيه إلى الله}؛ وعلى هذا تكون {يومًا} منصوبة على المفعولية؛ لأن الفعل وقع عليها – لا فيها.

قوله تعالى: {ترجعون} صفة لـ{يومًا}؛ لأنه نكرة؛ والجمل بعد النكرات صفات؛ وهي بضم التاء، وفتح الجيم على أنه مبنيٌّ لما لم يسمَّ فاعله؛ وفي قراءة بفتح التاء وكسر الجيم على أنه مبنيٌّ للفاعل.

{ثمَّ توفَّى كل نفس}: أي تعطى؛ والتوفية بمعنى الاستيفاء؛ وهو أخذ الحق ممَّن هو عليه؛ فـ{توفَّى كل نفس}: أي تعطى ثوابها، وأجرها المكتوب لها – إن كان عملها صالحًا؛ أو تعطى العقاب على عملها – إن كان عملها سيئًا.

{ما كسبت}: أي ما حصلت عليه من ثواب الحسنات، وعقوبة السيئات.

{وهم لا يظلمون}: جملة استئنافية؛ ويحتمل أن تكون جملة حالية؛ لكن الأول أظهر؛ والمعنى: لا ينقصون شيئًا من ثواب الحسنات، ولا يزاد عليهم شيئًا من عقوبة السيئات.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس يومًا ترجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه، أن تردوا عليه بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم، فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم، فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قبل لكم به، وإنه يوم مجازاة بالأعمال لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، توفَّى فيه كل نفس أجرها على ما قدَّمت واكتسبت من سيءٍ وصالح، لا تغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشر إلَّا أحضرت، فوفِّيت جزاءها بالعدل من ربها، وهم لا يظلمون. وكيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها؟! كلا بل عدلٌ عليك أيُّها المُسيء وتكرَّم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن، فاتَّقى امرؤ ربه، وأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه، وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حذر فأعذر، ووعظ فأبلغ.

---

[1] – وهذا إسناد صحيح. والحديث ذكره الحافظ في الفتح ٨: ١٥٣، ونسبه للطبري فقط.
وذكره ابن كثير ٢: ٦٩، عن رواية النسائي، فهو يريد بها السنن الكبرى. وكذلك صنع السيوطي في الإتقان ١: ٣٣.
وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٦: ٣٢٤، وقال: (رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات).
وفي الدر المنثور ١: ٣٦٩-٣٧٠ زيادة نسبته لأبي عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل.
وظاهر هذه الرواية عن ابن عباس، يعارض ظاهر الرواية السابقة عنه: ٦٣١٠، أن آخر آية زلت هي آية الربا.
فقال الحافظ في الفتح: (وطريق الجمع بين هذين القولين، [يريد الروايتين]: أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا، إذ هي معطوفة عليهن).
ويشير إلى ذلك صنيع البخاري، بدقته وثقوب نظره، فإنه روى الحديث الماضي تحت عنوان: (باب {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله}). فجعل بهذه الإشارة الموضوع واحدا، والروايتين متحدتين غير متعارضتين. رحمه الله.

قال الشيخ صالح الفوزان في الملخص الفقهي: فاحذروا من دخول الربا في معاملاتكم، واختلاطه بأموالكم؛ فإنَّ أكل الربا وتعاطيه من أكبر الكبائر، وما ظهر الربا والزِّنى في قوم إلَّا ظهر فيهم الفقر والأمراض المستعصية وظلم السلطان، والربا يهلك الأموال ويمحق البركات.

لقد شدَّد الله الوعيد على أكل الربا، وجعل أكله من أفحش الخبائث وأكبر الكبائر، وبين عقوبة المرابي في الدنيا والآخرة، وأخبر أنه محارب لله ولرسوله؛ فعقوبته في الدنيا أنه يمحق بركة المال ويعرضه للتَّلف والزوال؛ فكم تسمعون من تلف الأموال العظيمة بالحريق والغرق والفيضان، فيصبح أهلها فقراء بين الناس، وإن بقيت هذه الأموال الربوية بأيدي أصحابها؛ فهي ممحوقة البركة، لا ينتفعون منها بشيء، إنما يقاسون أتعابها، ويتحمَّلون حسابها، ويصلون عذابها، والمرابي مبغوض عند الله وعند خلقه؛ لأنه يأخذ ولا يعطي، يجمع ويمنع، لا ينفق ولا يتصدَّق، شحيح جشع، جموع منوع، تنفر منه القلوب، وينبذه المجتمع، وهذه عقوبة عاجلة، وعقوبته الآجلة أشدُّ وأبقى؛ كما بيَّنها الله في كتابة، وما ذاك إلَّا لأن الربا مكسب خبيث، وسحت ضار، وكابوس ثقيل على المجتمعات البشرية.

وقال حفظه الله أيضًا: وخطر الربا عظيم، ولا يمكن التحرُّز منه إلَّا بمعرفة أحكامه، ومن لم يستطع معرفتها بنفسه؛ فعليه أن يسأل أهل العلم عنها، ولا يجوز له أن يقدم على معاملة إلَّا بعد تأكده من خلوها من الربا؛ ليسلم بذلك دينه، وينجو من عذاب الله الذي توعد به المرابين، ولا يجوز تقليد الناس فيما هم عليه من غير بصيرة، خصوصًا في وقتنا هذا الذي كثر فيه عدم المبالاة بنوعية المكاسب، وقد أخبر النبي ﷺ أنه في آخر الزمان يكثر استعمال الربا، ومن لم يأكله؛ ناله من غباره.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب اتِّقاء هذا اليوم الذي هو يوم القيامة؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله}؛ واتِّقاؤه يكون بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

٢- أن التَّقوى قد تضاف لغير الله – لكن إذا لم تكن على وجه العبادة؛ فيقال: اتَّق فلانا، أو: اتَّق كذا؛ وهذا في القرآن والسنة كثير؛ قال الله سبحانه وتعالى: {واتَّقوا الله لعلكم تفلحون * واتَّقوا النار التي أعدت للكافرين}[آل عمران: ١٣٠، ١٣١]؛ لكن فرق بين التَّقويين؛ التَّقوى الأولى تقوى عبادة وتذلُّل وخضوع؛ والثانية تقوى وقاية فقط: يأخذ ما يتَّقي به عذاب هذا اليوم، أو عذاب النار؛ وفي السنة قال النبي ﷺ: ((اتَّقِ دعوة المظلوم([1])))؛ فأضاف (التَّقوى) هنا إلى (دعوة

١- (قلت): البخاري (٢٤٤٨)، والحديث بتمامه: ((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ)).

المظلوم)؛ واشتهر بين الناس: اتَّق شر من أحسنت إليه؛ لكن هذه التَّقوى المضافة إلى المخلوق ليست تقوى العبادة الخاصة بالله عز وجل؛ بل هي بمعنى الحذر.

٣- إثبات البعث؛ لقوله تعالى: {ترجعون فيه إلى الله}.

٤- أن مرجع الخلائق كلها إلى الله حكمًا، وتقديرًا، وجزاءً؛ فالمرجع كله إلى الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: {وأن إلى ربك المنتهى}[النجم: ٤٢]، وقال تعالى: {إن إلى ربك الرجعى}[العلق: ٨]، أي في كل شيء.

٥- إثبات قدرة الله عز وجل؛ وذلك بالبعث؛ فإن الله سبحانه وتعالى يبعث الخلائق بعد أن كانوا رميمًا وترابًا.

٦- الرَّد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا يومًا}؛ لأن توجيه الأمر إلى العبد إذا كان مجبرًا من تكليف ما لا يطاق.

٧- أن الإنسان لا يوفَّى يوم القيامة إلَّا عمله؛ لقوله تعالى: {ثمَّ توفَّى كل نفس ما كسبت}؛ واستدلَّ بعض العلماء على أنه لا يجوز إهداء القرب من الإنسان إلى غيره؛ أي أنك لو عملت عملًا صالحًا لشخص معيَّن؛ فإن ذلك لا ينفعه، ولا يستفيد منه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {توفَّى كل نفس ما كسبت}؛ لا ما كسب غيرها؛ فما كسبه غيره فهو له؛ واستثني من ذلك ما دلَّت السنة على الانتفاع به من الغير كالصوم؛ لقول النبي ﷺ: ((من مات وعليه صيام صام عنه وليُّه([1])))؛ والحج؛ لقول النبي ﷺ للمرأة التي استفتته أن تحج عن أبيها وكان شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة قالت: أفأحج عنه قال: ((نعم([2])))؛ وكذلك المرأة التي استفتته أن تحج عن أمها التي نذرت أن تحج، ولم تحج حتى ماتت قالت: أفأحج عنها قال ﷺ: ((نعم([3])))؛ وكذلك الصدقة؛ لقول النبي ﷺ لمن استفتاه أن يتصدَّق عن أمه: ((نعم))؛ وأذن لسعد بن عبادة أن يتصدق بمخرافه عن أمه([4])؛ وأما الدعاء للغير إذا كان المدعو له مسلمًا فإنه ينتفع به بالنص والإجماع؛ أما النص ففي الكتاب والسنة؛ أما الكتاب ففي قوله تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} [الحشر: ١٠]؛ وأما السنة ففي قوله ﷺ: ((ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفَّعهم الله فيه([5])))، وكان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: ((استغفروا لأخيكم،

١- أخرجه البخاري ص١٥٢، كتاب الصوم، باب ٤٢: من مات وعليه صوم، حديث رقم ١٩٥٢؛ وأخرجه مسلم ص٨٦١، كتاب الصيام، باب ٢٧: قضاء الصوم عن الميت حديث رقم ٢٦٩٢ [١٥٣] ١١٤٧.

٢- أخرجه البخاري ص١٢٠، كتاب الحج، باب ١، وجوب الحج وفضله ... ، حديث رقم ١٥١٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٠، كتاب الحج، باب ٧١: الحج عن العاجز لزمانه وهرم ... ، حديث رقم ٣٢٥١ [٤٠٧] ١٣٣٤.

٣- أخرجه البخاري ص١٤٥، كتاب الحج، باب ٢٢: الحج والنذور عن الميت، حديث رقم ١٨٥٢.

٤- أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١٦: إذا قال: أرضي أو بستاني صدقة لله، حديث رقم ٢٧٥٦..

٥- أخرجه مسلم ٨٢٧، كتاب الجنائز، باب ١٩: من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، حديث رقم ٢١٩٩ [٥٩] ٩٤٨.

واسألوا له التَّثبيت؛ فإنه الآن يسأل([1]))؛ وأما الإجماع: فإن المسلمين كلُّهم يصلُّون على الأموات، ويقولون في الصلاة: ((اللهم اغفر له، وارحمه))؛ فهم مجمعون على أنه ينتفع بذلك.

والخلاف في انتفاع الميت بالعمل الصالح من غيره فيما عدا ما جاءت به السنة معروف؛ وقد ذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أن أي قربة فعلها، وجعل ثوابها لميت مسلم قريب، أو بعيد نفعه ذلك؛ ومع هذا فالدعاء للميت أفضل من إهداء القرب إليه؛ لأنه الذي أرشد إليه النبي ﷺ في قوله: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له([2]))؛ ولم يذكر العمل مع أن الحديث في سياق العمل. وأمَّا ما استدلَّ به المانعون من إهداء القرب من مثل قوله تعالى: {وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى}[النجم: ٣] فإنه لا يدلُّ على المنع؛ بل على أن سعي الإنسان ثابت له؛ وليس له من سعي غيره شيء إلَّا أن يجعل ذلك له؛ ونظير هذا أن تقول: (ليس لك إلَّا مالك)، فإنه لا يمنع أن يقبل ما تبرَّع به غيره من المال. وأما الاقتصار على ما ورد، فيقال: إن ما وردت قضايا أعيان؛ لو كانت أقوالًا من الرسول ﷺ قلنا: نعم، نتقيد بها؛ لكنها قضايا أعيان، جاءوا يسألون، قالوا: فعلت كذا، قال: نعم يجزئ؛ وهذا ممَّا يدلُّ على أن العمل الصالح من الغير يصل إلى من أهدي له؛ لأننا لا ندري لو جاء رجل وقال: يا رسول الله، صلَّيت ركعتين لأمي، أو لأبي، أو لأخي أفيجزئ ذلك عنه، أو يصل إليه ثوابه؟ لا ندري ماذا يكون الجواب؛ ونتوقع أن يكون الجواب: (نعم)([3])؛ أما لو كانت هذه أقوال، بأن قال: (من تصدق لأمه أو لأبيه فإنه ينفعه)، أو ما أشبه ذلك لقلنا: إن هذا قول، ونقتصر عليه.

٨- أن الصغير يكتب له الثواب؛ وذلك لعموم قوله تعالى: {ثم توفَّى كل نفس}.

١- أخرجه أبو داود ص١٤٦٥، كتاب الجنائز، باب: ٦٧ الاستغفار عند القبر للميت، حديث رقم ٣٢٢١، وأخرجه الحاكم ٣٧٠/١، كتاب الجنائز، وقال: صحيح، وقال الذهبي: صحيح (المرجع السابق ٣٧١/١) وقال: عبد الله بن بحير ليس بالعمدة، ومنهم من يقويه، وهانئ روى عنه جماعة، وليس له ذكر في الكتب الستة (المرجع السابق) ، وقال النسائي: ليس به بأس (ت التهذيب ٢٣/٩)، أخرج له أبو داود هذا الحديث، وأخرج الترمذي وابن ماجة حديثا آخر: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى ...)، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٣٠٥/٢: صحيح؛ وقال عبد القادر في تخريج جامع الأصول ١٤٩/١١، حديث رقم ٨٦٥٨ حاشية (١): 'إسناده حسن.

٢- (قلت): مسلم (١٦٣١).

٣- (قلت): لو قلنا بصواب هذا القول لفتحنا بابًا واسعًا للبدعة؛ مثلًا يأتيك من يحتفل بمولد النبي ﷺ ويقول: (إن الرسول ﷺ لم يقل لا تحتفلوا بمولدي - لو كانت قولًا من الرسول ﷺ قلنا: نعم، نتقيد بها ولكننا لا ندري لو جاء رجل وقال: يا رسول الله، احتفلتُ بمولدك هل أنال ثوابه؟ لا ندري ماذا يكون الجواب؛ ونتوقع أن يكون الجواب: (نعم) -!!). بل الصواب ما قاله ابن كثير في تفسيره: (ومن هذه الآية الكريمة: {وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى} استنبط الشافعي، رحمه الله، ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثَّهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، رضي الله عنهم، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما) انتهى.

- (قلت): وليعلم أن كل ما حدث من قول أو فعل أو إقرار من الرسول ﷺ والصحابة كان قدرًا مقدورًا من الله جل وعلا، وبها كملت الدين، وما لم يحدث ولم يثار ولم يسأل عنه فليس من الدين في شيء، ودعنا لا نفتح على أنفسنا وديننا بابًا للبدعة لا نستطيع أغلاقها.

فإن قال قائل: وهل يعاقب على السيئات.

فالجواب: (لا)؛ لقول النبي ﷺ: ((رفع القلم عن ثلاثة ...))، وذكر منها: ((الصغير حتى يحتلم[1]))؛ ولأنه ليس له قصد تام لعدم رشده؛ فيشبه البالغ إذا أخطأ أو نسي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

قال أبو زهرة: وجه المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أن الآيات كلها موضوعها المال، فالآيات الأولى كانت في بيان الحقوق المتعلّقة بالمال، وهي الإنفاق في سبيل الله، وإعطاء السائل والمحروم؛ وآيات الربا كانت في الحدود المحرَّمة التي لَا يصح لصاحب المال أن يرتع فيها، وهي أكل أموال الناس بالباطل؛ وهذه الآية في بيان حق صاحب المال إن خرج من يده، وهو الاستيثاق من الوفاء، وذلك بكتابة الدَّين والإشهاد عليه، ويشمل الإشهاد على المعاملات المالية ذات الأثر الباقي بين المتعاملين.

١- أخرجه أحمد ٦/١٠٠ – ١٠١: حديث رقم ٢٥٢٠١؛ وأخرجه أبو داود ص١٥٤٤، كتاب الحدود، باب ١٧: في المجنون يسرق أو يصيب حدا، حديث رقم ٤٣٩٨؛ وأخرجه النسائي ص٢٣١٢، كتاب الطلاق باب ٢١: من لا يقع طلاقه من الأزواج، حديث رقم ٣٤٦٢؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٥٩٩، كتاب الطلاق، باب ١٥: طلاق المعتوه والصغير والنائم، حديث رقم ٢٠٤١، وأخرجه الدارمي ٢/٢٢٥، كتاب الحدود، باب ١: رفع القلم عن ثلاثة، حديث رقم ٢٢٩٦، وأخرجه الحاكم ٢/٥٩، كتاب البيوع، وقال: صحيح على شرط مسلم؛ وأقره الذهبي، ومدار الحديث على حماد بن أبي سليمان: اختلفوا فيه؛ وقال الذهبي: وثقه ابن معين وغيره (الميزان ١/٥٩٥) ؛ فهو حسن الحديث (تحرير التقريب ١/٣١٩) ، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٣/٥٥: صحيح، وقال عبد القادر في تخريج جامع الأصول ٣/٦١١، حاشية (٣) : إسناده حسن.

وثمَّة مناسبة خاصة بين هذه الآية وآيات الربا؛ فإن الربا استغلال آثم غير حلال ويؤدِّي إلى الأكل لأموال الناس بالباطل؛ إذ إنه كسب لَا يتعرَّض للخسارة، فهو غنم لَا غرم فيه، بل لَا تعرُّض فيه للغرم؛ وفي آية الديون إشارة إلى طريق كسب حلال؛ فإن من الدُّيون ما يكون سَلَمًا وهو أن يبيع شخص لآخر شيئًا غير حاضر، ولكنه معرَّف بجنسه ونوعه ووصفه، ويكون التسليم مؤَجَّلًا إلى أجل معلوم على أن يقبض البائع الثَّمن معجَّلًا فيكون البائع مَدينًا بذلك المبيع المعرَّف بالأوصاف، فقد ثبت دينًا في الذِّمة؛ وإن هذا السَّلَم باب حلال من أبواب الاستغلال، فدافع النقود ينتفع لأنه سينتفع من فرق السِّعر بين العقد وبين التَّسليم، وفى غالب الأحوال يكون علوُّ السِّعر متوقَّعًا، وينتفع البائع من أخذ الثَّمن يستغله في أي باب من أبواب الاستغلال؛ فالدافع ينتفع مع التَّعرُّض للخسارة. وهذا هو الفرق بين الربا والسَّلم في المعنى.

وثمَّة وجه خاص للمناسبة بين هذه الآية وآخر آية الربا؛ فإن آخر آية الربا: {وَإِن كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ} وقد بيَّن سبحانه وتعالى طريق الاستيثاق من وفاء الدَّين وعدم جحوده، وهو كتابته والإشهاد عليه، وإن الدَّين المؤجَّل يحتاج دائمًا إلى الاستيثاق من الوفاء.

قال ابن العثيمين: هذه الآية الكريمة أطول آية في كتاب الله؛ وهي في المعاملات بين الخلق؛ وأقصر آية في كتاب الله قوله تعالى: {ثم نظر}[المدثر: ٢١]؛ لأنها خمسة أحرف؛ وأجمع آية للحروف الهجائية كلها آيتان في القرآن فقط؛ إحداهما: قوله تعالى: {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا}[آل عمران: ١٥٤] الآية؛ والثانية قوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه ... }[الفتح: ٢٩] الآية؛ فقد اشتملت كل واحدة منهما على جميع الحروف الهجائية.

قال ابن كثير: وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي السَّلَمِ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ فِي الثِّمَارِ السَّنَتَيْنِ وَالثَّلَاثَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم[١])).

قال الطبري: {يا أيها الذين آمنوا} : يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله.

قال أبو زهرة: وإن تصدير الآية الكريمة بالنداء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا} يشير إلى أمرين:

أحدهما: أنه ليس من مقتضى الإيمان أن تلزموا المساجد والصوامع، بل إن الإيمان أن تهذِّبوا نفوسكم، وترهفوا وجدانكم وتشعروا بمراقبة ربكم، لتكون دنياكم فاضلة، ويكون تعاملكم، وإدارة المال بينكم على نهج ديني فاضل، فالمال ليس طلبه ممنوعًا، بل إنه من طريقه الحلال مشروع ومطلوب.

١- صحيح: البخاري (٢٢٣٩)، ومسلم (١٦٠٤) .

الأمر الثاني: أن الإسلام ليست أوامره مقصورة على العبادات، بل جاء لتنظيم المعاملات، بل إن العبادات فيه طريق لإصلاح التعامل الإنساني؛ وكذلك كل الشرائع السماوية، فإنه من الجهل الادعاء بأن الشرائع جاءت لتنظيم العلاقة بين العبد والرب فقط، ولا تتدخَّل في العلاقة بين الإنسان والإنسان.

قال ابن العثيمين: {إذا تداينتم بدَين}: أي إذا داين بعضكم بعضًا؛ وال{دَّين} كل ما ثبت في الذِّمة من ثمن بيع، أو أجرة، أو صداق، أو قرض، أو غير ذلك.

{إلى أجل مسمَّى}: أي إلى مدَّة محدودة {فاكتبوه}: أي اكتبوا الدَّين المؤجَّل إلى أجله؛ والفاء هنا رابطة لجواب الشرط في {إذا}.

قال أبو زهرة: ولقد يرد سؤال: لماذا صرَّح بقوله: {بِدَيْنٍ} مع أن {تَدَايَنتُم} لَا يتحقق معناها إلَّا في الديون؟

ولقد أجيب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: بأن معنى تداينتم هو تعاملتم، والتعامل يكون بالدَّين وغيره، فلمَّا ذكرت كلمة {بِدَيْنٍ} كانت صريحة في أن التعامل كان بالدَّين. وعندي أن استعمال تداين بمعنى تعامل هو توسُّع، وإن التفسير الخاص لها هو أن التداين معناه التعامل بالدَّين، لَا مطلق تعامل.

والجواب الثاني: هو ما أجاب به الزمخشري في الكشاف بقوله: (ذكر الدين ليرجع الضمير إليه في قوله: {فاكتبوه} إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدَّين فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدَّين إلى مؤجَّل وحالّ). ومقتضى هذا الكلام أنه صرَّح بالدَّين لأنه موضوع القول لَا مجرَّد التَّعامل به؛ وإن هذا التخريج أوجه من قول غيره إن ذكره لمجرَّد التأكيد، مثل قوله تعالى: {وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ...}.

وعبَّر سبحانه وتعالى ب{تداينتم} بدل (استدنتم)، أو (أدنتم)، لأن تداينتم تعمُّ الفريقين: الدائن والمدين، فكلاهما متداين؛ ذلك بالعطاء، وهذا بالأخذ. أمَّا (استدنتم) فإنَّها تطلق على المَدين فقط، والثانية تطلق على الدَّائن، والمطالبة بالكتابة موجَّهة إلى الدَّائن والمَدين معًا، فالكتابة ليست حقًّا للدَّائن، بل هي واجب عليه، وإن كان الذي يتولَّاها هو المَدين.

ووصف الأجل بالمسمَّى، للإشارة إلى وجوب إعلام الأجل، فيذكر الشهر الفلاني، أو إلى وقت الحصاد، ونحو ذلك مما يكون معرَّفًا تعريفًا يمنع من الجهالة.

قال القرطبي: قال ابن المنذر: دلَّ قول الله {إلى أجل مسمَّى} على أن السَّلَم إلى الأجل المجهول غير جائز، ودلَّت سنة رسول الله ﷺ على مثل معنى كتاب الله تعالى. ثبت أن رسول الله ﷺ قدِم المدينة وهم يستلفون في الثمار السنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: ((من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم))، رواه ابن عباس. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. وقال ابن عمر: كان أهل الجاهلية يتبايعون لحم الجزور إلى حَبَل الحَبَلة. وحبل

الحبلة: أن تنتج الناقة ثم تحمل التي نتجت. فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك. وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن السلم الجائز أن يسلم الرجل إلى صاحبه في طعام معلوم موصوف، من طعام أرض عامة لا يخطئ مثلها. بكيل معلوم، إلى أجل معلوم بدنانير أو دراهم معلومة، يدفع ممَّن ما أسلم فيه قبل أن يفترقا من مقامهما الذي تبايعا فيه، وسمَّيا المكان الذي يقبض فيه الطعام. فإذا فَعَلا ذلك وكان جائز الأمر كان سَلَمًا صحيحًا لا أعلم أحدًا من أهل العلم يبطله.

قلت: وقال علماؤنا: إن السَّلم إلى الحصاد والجذاذ والنيروز والمهرجان جائز، إذ ذاك يختص بوقت وزمن معلوم.

حدَّ علماؤنا رحمة الله عليهم السَّلم فقالوا: هو بيع معلوم في الذِّمة محصور بالصفة بعين حاضرة أو ما هو في حكمها إلى أجل معلوم. فتقييده بمعلوم في الذِّمة يفيد التحرُّز من المجهول، ومن السَّلم في الأعيان المعيَّنة، مثل الذي كانوا يستلفون في المدينة حين قدم عليهم النبي ﷺ فإنهم كانوا يستلفون في ثمار نخيل بأعيانها، فنهاهم عن ذلك لما فيه من الغرر، إذ قد تخلف تلك الأشجار فلا تثمر شيئًا.

وقولهم (محصور بالصِّفة): تحرُّز عن المعلوم على الجملة دون التفصيل، كما لو أسلم في تمر أو ثياب أو حيتان ولم يبيِّن نوعها ولا صفتها المعيَّنة.

وقولهم (بعين حاضرة): تحرُّز من الدَّين بالدَّين.

وقولهم (أو ما هو في حكمها): تحرُّز من اليومين والثلاثة التي يجوز تأخير رأس مال السَّلم إليه، فإنه يجوز تأخيره عندنا ذلك القدر، بشرط وبغير شرط لقرب ذلك، ولا يجوز اشتراطه عليها. ولم يجز الشافعي ولا الكوفي تأخير رأس مال السَّلم عن العقد والافتراق، ورأوا أنه كالصرف. ودليلنا أن البابين مختلفان بأخص أوصافهما، فإن الصرف بابه ضيق كثرت فيه الشروط بخلاف السَّلم فإن شوائب المعاملات عليه أكثر. والله أعلم.

وقولهم: (إلى أجل معلوم): تحرز من السَّلم الحال فإنه لا يجوز على المشهور وسيأتي. ووصف الأجل بالمعلوم تحرُّز من الأجل المجهول الذي كانوا في الجاهلية يسلمون إليه.

السَّلم والسلف عبارتان عن معنى واحد وقد جاءا في الحديث، غير أن الاسم الخاص بهذا الباب (السَّلم) لأن السلف يقال على القرض. والسَّلم بيع من البيوع الجائزة بالاتفاق، مستثنى من نهيه ﷺ عن بيع ما ليس عندك. وأرخص في السَّلم، لأن السَّلم لمَّا كان بيع معلوم في الذِّمة، كان بيعُ غائبٌ تدعو إليه ضرورة كل واحد من المتابعين، فإن صاحب رأس المال محتاج إلى أن يشتري الثمرة، وصاحب الثمرة محتاج إلى ثمنها قبل إبانها لينفقه عليها، فظهر أن بيع السَّلم من المصالح الحاجيَّة، وقد سمَّاه الفقهاء بيع المحاويج، فإن جاز حالًا بطلت هذه الحكمة وارتفعت هذه المصلحة، ولم يكن لاستثنائه من بيع ما ليس عندك فائدة. والله أعلم.

قوله تعالى: { فَاكْتُبُوهُ}: يعني الدَّين والأجل. ويقال: أمر بالكتابة ولكن المراد الكتابة والإشهاد، لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجَّة. ويقال: أمرنا بالكتابة لكيلا ننسى.

ذهب بعض الناس إلى أن كتب الديون واجب على أربابها، فرض بهذه الآية، بيعًا كان أو قرضًا، لئلَّا يقع فيه نسيان أو جحود، وهو اختيار الطبري. وقال ابن جريج: من أَدان فليكتب، ومن باع فليُشهِد. وقال الشعبي: كانوا يرون أن قوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}[البقرة : ٢٨٣]، ناسخ لأمره بالكتب. وحكى نحوه ابن جريج، وقاله ابن زيد، وروي عن أبي سعيد الخدري. وذهب الربيع إلى أن ذلك واجب بهذه الألفاظ، ثم خفَّفه الله تعالى بقوله: {فإن أمن بعضكم بعضًا}. وقال الجمهور: الأمر بالكتب ندب إلى حفظ الأموال وإزالة الرَّيب، وإذا كان الغريم تقيًّا فما يضرُّه الكتاب، وإن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف([١])في دينه وحاجة صاحب الحق. قال بعضهم: إن أشهدت فحزم، وإن ائتمنت ففي حلٍّ، وسَعة. ابن عطية: وهذا هو القول الصحيح. ولا يترتَّب نسخ في هذا، لأن الله تعالى ندب إلى الكتاب فيما للمرء أن يهبه ويتركه بإجماع، فندبه إنَّما هو على جهة الحيطة للناس.

قال ابن العثيمين: {وليكتب} اللام للأمر؛ وسكنت لوقوعها بعد الواو؛ وهي تسكن إذا وقعت بعد الواو، كما هنا؛ وبعد (ثم). والفاء، كما في قوله تعالى: {ثم ليقطع فلينظر}[الحج: ١٥] بخلاف لام التعليل؛ فإنها مكسورة بكل حال؛ و{بينكم}: أي في قضيتكم؛ و{كاتب}: نكرة يشمل أي كاتب؛ {بالعدل}: أي بالاستقامة – وهو ضد الجور؛ والمراد به ما طابق الشرع؛ وهو متعلِّق بقوله تعالى: {ليكتب}.

قال القرطبي: قال عطاء وغيره: واجب على الكاتب أن يكتب، وقاله الشعبي، وذلك إذا لم يوجد كاتب سواه فواجب عليه أن يكتب. السدي: واجب مع الفراغ. وحذفت اللام من الأول وأثبتت في الثاني لأن الثاني غائب والأول للمخاطب. وقد ثبتت في المخاطب، ومنه قوله تعالى: { فلتفرحوا} بالتاء. وتحذف في الغائب، ومنه:

محمد تفد نفسك كل نفس ... إذا ما خفت من شيء تبالا

قوله تعالى: {بِالْعَدْلِ}: أي بالحق والمعدلة، أي لا يكتب لصاحب الحق أكثر ممَّا قاله ولا أقل. وإنَّما قال: {بينكم} ولم يقل: (أحدكم)، لأنه لمَّا كان الذي له الدَّين يتَّهم في الكتابة الذي عليه الدَّين وكذلك بالعكس، شرع الله سبحانه كاتبًا غيرهما يكتب بالعدل، لا يكون في قلبه ولا قلمه موادة لأحدهما على الآخر. وقيل: إن الناس لمَّا كانوا يتعاملون حتى لا يشذُّ أحدهم عن المعاملة، وكان منهم من يكتب ومن لا يكتب، أمر الله سبحانه أن يكتب بينهم كاتب بالعدل.

قوله تعالى: {وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ}: نهى الله الكاتب عن الإباء، واختلف الناس في وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد، فقال الطبري والربيع: واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب. وقال الحسن: ذلك واجب عليه في

١ – ثقاف: فطنة وذكاء.

الموضع الذي لا يقدر على كاتب غيره، فيضر صاحب الدَّين إن امتنع، فإن كان كذلك فهو فريضة، وإن قدر على كاتب غيره فهو في سعة إذا قام به غيره. السدي: واجب عليه في حال فراغه، وقد تقدَّم. وحكى المهدوي عن الربيع والضحاك أن قوله: {ولا يأب} منسوخ بقوله: {وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ}.

قلت: هذا يتمشى على قول من رأى أو ظن أنه قد كان وجب في الأول على كل من اختاره المتبايعان أن يكتب، وكان لا يجوز له أن يمتنع حتى نسخه قوله تعالى: { وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ}. وهذا بعيد، فإنه لم يثبت وجوب ذلك على كل من أراده المتبايعان كائنًا من كان. ولو كانت الكتابة واجبة ما صحَّ الاستئجار بها، لأن الإجارة على فعل الفروض باطلة، ولم يختلف العلماء في جواز أخذ الأجرة على كتب الوثيقة. ابن العربي: والصحيح أنه أمر إرشاد فلا يكتب حتى يأخذه حقَّه.

قال ابن العثيمين: {كما علَّمه الله}: يحتمل أن تكون الكاف للتشبيه؛ فالمعنى حينئذ: أن يكتب كتابة حسب علمه بحيث تكون مستوفية لما ينبغي أن تكون عليه؛ ويحتمل أن تكون الكاف للتعليل؛ فالمعنى: أنه لمَّا علَّمه الله، فليشكر نعمته عليه، ولا يمتنع من الكتابة.

قوله تعالى: {فليكتب}؛ الفاء للتفريع: واللَّام لام الأمر؛ ولكنها سكنت؛ لأنها وقعت بعد الفاء؛ وموضع: {فليكتب} ممَّا قبلها في المعنى قال بعض العلماء: إنها من التوكيد؛ لأن النهي عن إباء الكتابة يستلزم الأمر بالكتابة؛ فهي توكيد معنوي؛ وقيل: بل هي تأسيس تفيد الأمر بالمبادرة إلى الكتابة، أو هي تأسيس توطئة لما بعدها؛ والقاعدة: أنه إذا احتمل أن يكون الكلام توكيدًا أو تأسيسًا حُمل على التأسيس؛ لأنه فيه زيادة معنى؛ وبناء على هذه القاعدة يكون القول بأنها تأسيس أرجح.

قال القرطبي: {وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ}: وهو المديون المطلوب يقرُّ على نفسه بلسانه ليُعلم ما عليه. والإملاء والإملال لغتان، أملَّ وأملى، فأملَّ لغة أهل الحجاز وبني أسد، وتميم تقول: أمليت. وجاء القرآن باللغتين، قال عز وجل: {فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[الفرقان : ٥]. والأصل أمللت، أبدل من اللام ياء لأنه أخف. فأمر الله تعالى الذي عليه الحق بالإملاء، لأن الشهادة إنما تكون بسبب إقراره. وأمره تعالى بالتَّقوى فيما يمل، ونهى عن أن يبخس شيئًا من الحق. والبخس النقص. ومن هذا المعنى قوله تعالى : {وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}[البقرة: ٢٢٨].

قال ابن العثيمين: {وليتَّق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا}؛ لما أمر الله عز وجل بأن الذي يملي هو الذي عليه الحق دون غيره وجَّه إليه أمرًا ونهيًا؛ الأمر: {وليتَّق الله ربه}: يعني يتَّخذ وقاية من عذاب الله، فيقول الصدق؛ والنهي: {ولا يبخس منه شيئًا}: أي لا ينقص لا في كميته، ولا كيفيته، ولا نوعه.

{فإن كان الذي عليه الحق سفيهًا}: أي لا يحسن التصرف؛ {أو ضعيفًا}؛ الضعف هنا ضعف الجسم، وضعف العقل؛ وضعف الجسم لصغره؛ وضعف العقل لجنونه؛ كأن يكون الذي عليه الحق صغيرًا لم يبلغ؛ أو كان كبيرًا لكنه مجنون، أو معتوه؛ فهذا لا يملل؛ وإنما يملل وليُّه؛ {أو لا يستطيع أن يُمِلَّ هو}: أي لا يقدر أن يملي لخرس، أو غيره؛ وقوله تعالى: {أن يملَّ} مؤولة بمصدر على أنه مفعول به؛ والضمير: {هو} للتوكيد؛ وليست هي الفاعل؛ بل الفاعل مستتر في {يملَّ}.

قوله تعالى: {فليملل}: اللام هنا لام الأمر؛ وسكنت لوقوعها بعد الفاء؛ {وليُّه}: أي الذي يتولَّى شؤونه من أب، أو جد، أو أخ، أو أم، أو غيرهم.

قوله تعالى: {بالعدل} متعلِّق بقوله تعالى: {فليُملِل}: يعني إملاء بالعدل بحيث لا يجور على من له الحق لمحاباة قريبه، ولا يجور على قريبه خوفًا من صاحب الحق؛ بل يجب أن يكون إملاؤه بالعدل؛ و{العدل}: هنا هو الصدق المطابق للواقع؛ فلا يزيد، ولا ينقص.

قال القرطبي: {وَاسْتَشْهِدُوا}: الاستشهاد طلب الشهادة. واختلف الناس هل هي فرض أو ندب، والصحيح أنه ندب على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

{شَهِيدَيْنِ}: رتَّب الله سبحانه الشهادة بحكمته في الحقوق المالية والبدنية والحدود وجعل في كل فن شهيدين إلَّا في الزنا؛ وشهيد بناء مبالغة، وفي ذلك دلالة على من قد شهد وتكرَّر ذلك منه، فكأنه إشارة إلى العدالة. والله أعلم.

{مِنْ رِجَالِكُمْ}: نص في رفض الكفار والصبيان والنساء، وأما العبيد فاللَّفظ يتناولهم. وقال مجاهد: المراد الأحرار، واختاره القاضي أبو إسحاق وأطنب فيه. وقد اختلف العلماء في شهادة العبيد، فقال شريح وعثمان البتي وأحمد وإسحاق وأبو ثور: شهادة العبد جائزة إذا كان عدلًا، وغلبوا لفظ الآية. وقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد، وغلبوا نقص الرِّق، وأجازها الشعبي والنخعي في الشيء اليسير. والصحيح قول الجمهور، لأن الله تعالى قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ}، وساق الخطاب إلى قوله: {مِنْ رِجَالِكُمْ}، فظاهر الخطاب يتناول الذين يتداينون، والعبيد لا يملكون ذلك دون إذن السادة. فإن قالوا: إن خصوص أول الآية لا يمنع التعلُّق بعموم آخرها. قيل لهم: هذا يخصه قوله تعالى: { وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا} على ما يأتي بيانه. وقوله: {من رجالكم}: دليل على أن الأعمى من أهل الشهادة لكن إذا علِم يقينًا، والذي يمنع أداء الأعمى فيما تحمل بصيرًا، لا وجه له، وتصح شهادته بالنِّسب الذي يثبت بالخبر المستفيض، كما يخبر عما تواتر حكمه من الرسول ﷺ. ومن العلماء من قبل شهادة الأعمى فيما طريقه الصوت، لأنه رأى الاستدلال بذلك يترقَّى إلى حد اليقين، ورأى أن اشتباه الأصوات كاشتباه الصور والألوان. وهذا ضعيف يلزم منه جواز الاعتماد على الصوت للبصير.

قلت: مذهب مالك في شهادة الأعمى على الصوت جائزة في الطلاق وغيره إذا عرف الصوت. قال ابن قاسم: قلت لمالك: فالرجل يسمع جاره من وراء الحائط ولا يراه، يسمعه يطلق امرأته فيشهد عليه وقد عرف الصوت؟ قال: قال مالك: شهادته جائزة. وقال ذلك علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد وشريح الكندي والشعبي وعطاء بن أبي رباح ويحيى بن سعيد وربيعة وإبراهيم النخعي ومالك والليث.

قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ}: المعنى إن لم يأت الطالب برجلين فليأت برجل وامرأتين، هذا قول الجمهور. {فرجل} رفع بالابتداء، {وامرأتان} عطف عليه والخبر محذوف. أي: فرجل وامرأتان يقومان مقامهما. ويجوز النصب في غير القرآن، أي: فاستشهدوا رجلًا وامرأتين. وقال قوم: بل المعنى فإن لم يكن رجلان، أي لم يوجدا فلا يجوز استشهاد المرأتين إلَّا مع عدم الرجال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، فلفظ الآية لا يعطيه، بل الظاهر منه قول الجمهور، أي: إن لم يكن المستشهد رجلين، أي إن أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لعذر ما فليستشهد رجلًا وامرأتين. فجعل تعالى شهادة المرأتين مع الرجل جائزة مع وجود الرجلين في هذه الآية، ولم يذكرها في غيرها، فأجيزت في الأموال خاصة في قول الجمهور، بشرط أن يكون معهما رجل. وإنما كان ذلك في الأموال دون غيرها، لأن الأموال كثَّر الله أسباب توثيقها لكثرة جهات تحصيلها وعموم البلوى بها وتكرُّرها، فجعل فيها التوثُّق تارة بالكتبة، وتارة بالإشهاد، وتارة بالرهن، وتارة بالضمان، وأدخل في جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال. ولا يتوهَّم عاقل أن قوله تعالى: { إذا تداينتم بدين} يشتمل على دَين المهر مع البضع، وعلى الصلح على دم العَمَد، فإن تلك الشهادة ليست شهادة على الدَّين، بل هي شهادة على النكاح. وأجاز العلماء شهادتهن منفردات فيما لا يطَّلع عليه غيرهن للضرورة.

قال ابن كثير: {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ}: وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ وَمَا يُقْصَدُ بِهِ الْمَالُ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتِ الْمَرْأَتَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ لِنُقْصَانِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ، كَمَا قَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رأيتكن أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ))، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلة: وَمَا لَنَا – يَا رَسُولَ اللَّهِ – أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: ((تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وتكفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رأيتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍ مِنْكُنَّ)). قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: ((أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلِهَا فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدل شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدين([١]))).

قال ابن العثيمين: {ممَّن ترضون من الشهداء}: الجار والمجرور متعلِّق بمحذوف صفة؛ أي رجل وامرأتان كائنون ممَّن ترضون من الشهداء؛ والخطاب في قوله تعالى: {ترضون} موجَّه للأمة؛ يعني بحيث يكون الرجل والمرأتان مرضيين عند الناس؛ لأنه قد يرضى شخص عند شخص ولا يرضى عند آخر؛ فلابدَّ أن يكون هذان الشاهدان؛ أو هؤلاء الشهود – أي

١- صحيح مسلم (٨٠).

الرجل والمرأتان – ممَّن عُرف عند الناس أنهم مرضيون؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس وبعد العصر حتى تغرب([1]))؛ إذًا العبرة بالرضى عند عموم الناس؛ لا برضى المشهود له؛ لأنه قد يرضى بمن ليس بمرضي.

وقوله تعالى: {من الشهداء}: بيان لـ{من} الموصولة؛ لأن الاسم الموصول من المبهمات؛ فيحتاج إلى بيان؛ فإذا قلت: (يعجبني من كان ذكيًا) فهذا مبهم؛ فإذا قلت: (يعجبني من كان ذكيًا من الطلاب) صار مبيَّنًا.

قال القرطبي: لما قال الله تعالى: { مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} دلَّ على أن في الشهود من لا يرضي، فيجيء من ذلك أن الناس ليسوا محمولين على العدالة حتى تثبت لهم، وذلك معنى زائد على الإسلام، وهذا قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: كل مسلم ظاهر الإسلام مع السلامة من فسق ظاهر فهو عدل وإن كان مجهول الحال. وقال شريح وعثمان البتي وأبو ثور: هم عدول المسلمين وإن كانوا عبيدًا.

قال ابن العثيمين: {أن تضل إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى} فيها قراءات؛ القراءة الأولى بفتح همزة {أن}؛ وعلى هذا يجوز قراءتان في قوله تعالى: {فتذكِّر}: تخفيف الكاف: {فتذكرَ}، وتشديدها: {فتذكِّرَ}؛ مع فتح الرَّاء فيهما؛ والقراءة الثالثة: بكسر همزة {إن} مع ضم الرَّاء في قوله تعالى: {فتذكِّرُ}، وتشديد الكاف.

وقوله تعالى: {فتذكِّرَ إحداهما الأخرى} من التَّذكير؛ وهو تنبيه الإنسان الناسي على ما نسي؛ ومن غرائب التفسير أن بعضهم قال: {فتذكِّرَ}: معناه تجعلها بمنزلة الذِّكر – لا سيَّما على قراءة التَّخفيف؛ أي تكون المرأتان كالذكر؛ وهذا غريب؛ لأنه لا يستقيم مع قوله تعالى: {أن تضلَّ إحداهما} فالذي يقابل الضلال بمعنى النسيان: التَّذكير – أي تنبيه الإنسان على نسيانه.

قال أبو زهرة: هذا بيان العلَّة في أن المرأتين تقومان مقام الرجل؛ فالمعنى كانت المرأتان بدل رجل لتوقُّع أن تضل إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى؛ فإن المرأة لقوَّة عاطفتها، وشدَّة انفعال نفسها بالحوادث، قد تتوهَّم ما لم تر، وهذا هو الضلال؛ فهو نسيان مع اعتقاد غير الواقع، أو ظن غير الواقع، وهذا النوع من الضلال يكثر في النساء والأطفال؛ فالحوادث تفعل في نفوس هؤلاء ما يجعلهم يتخيَّلون ما لم يقع واقعيًا؛ ولهذا الضلال كان لابدَّ أن يكون مع المرأة أخرى بحيث يتذاكران الحق فيما بينهما، وليس من المعقول أن يتَّحد الضلال؛ ولذلك كان من المقرَّرات الفقهية أن الرجال تسمع شهاداتهم على انفراد بحيث يسمع كل شاهد منفردًا من غير أن يسمعه الآخرون من الشهود؛ أما المرأتان فتسمعان معًا، لتتذاكرا إن كان ضلال من إحداهما أو منهما بحيث تذكِّر كل واحدة الأخرى بما غاب عنها متوهِّمة سواه.

١- أخرجه البخاري ص٤٧، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٣٠: الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس، حديث رقم ٥٨١.

قال ابن العثيمين: وفي قوله تعالى: {أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى} من البلاغة: إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه لم يقل: فتذكرها الأخرى؛ لأن النسيان قد يكون متفاوتًا، فتنسى هذه جملة، وتنسى الأخرى جملة؛ فهذه تذكِّر هذه بما نسيت؛ وهذه تذكر هذه بما نسيت؛ فلهذا قال تعالى: {فتذكِّر إحداهما الأخرى}: لئلَّا يكون المعنى قاصرًا على واحدة هي النَّاسية، والأخرى تذكِّرها.

قوله تعالى: {ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا}: أي لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا لتحمل الشهادة، أو أدائها؛ و{ما} هذه زائدة لوقوعها بعد {إذا}؛ وفيها بيت مشهور يقول فيه: يا طالبًا خذ فائدة ... ما بعد إذا زائدة

واستعمالات {ما} عشر؛ هي كما جاءت في بيت من الشعر:

محامل (ما) عشر إذا رمت عدها ... فحافظ على بيت سليم من الشعر

ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكف ونفي زيد تعظيم مصدر

ولكن يجب أن نعلم أنه ليس في القرآن شيء زائد، بمعنى: أنه لا معنى له؛ بل زائد إعرابًا فقط؛ أما في المعنى فليس بزائد.

قال القرطبي: { وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا} قال الحسن: جمعت هذه الآية أمرين، وهما ألَّا تأبى إذا دعيت إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دعيت إلى أدائها، وقاله ابن عباس. وقال قتادة والربيع وابن عباس: أي لتحملها وإثباتها في الكتاب. وقال مجاهد: معنى الآية إذا دعيت إلى أداء شهادة وقد حصلت عندك. وأسند النقاش إلى النبي ﷺ أنه فسر الآية بهذا، قال مجاهد: فأمَّا إذا دعيت لتشهد أولًا فإن شئت فاذهب وإن شئت فلا، وقاله أبو مجلز وعطاء وإبراهيم وابن جبير والسدي وابن زيد وغيرهم. وعليه فلا يجب على الشهود الحضور عند المتعاقدين، وإنما على المتداينين أن يحضرا عند الشهود، فإذا حضراهم وسألاهم إثبات شهادتهم في الكتاب فهذه الحالة التي يجوز أن تراد بقوله تعالى: {وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا} لإثبات الشهادة فإذا ثبتت شهادتهم ثم دعوا لإقامتها عند الحاكم فهذا الدعاء هو بحضورهما عند الحاكم، على ما يأتي. وقال ابن عطية: والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة الندب، فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم، فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود والأمن من تعطيل الحق فالمدعو مندوب، وله أن يتخلَّف لأدنى عذر، وإن تخلَّف لغير عذر فلا إثم عليه ولا ثواب له. وإذا كانت الضرورة وخيف تعطل الحق أدنى خوف قوي الندب وقرب من الوجوب، وإذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيام بها، لا سيَّما إن كانت محصلة وكان الدعاء إلى أدائها، فإن هذا الظرف آكد، لأنها قلادة في العنق وأمانة تقتضي الأداء.

قلت: وقد يستلوح من هذه الآية دليل على أن جائزًا للإمام أن يقيم للناس شهودًا ويجعل لهم من بيت المال كفايتهم، فلا يكون لهم شغل إلَّا تحمل حقوق الناس حفظًا لها، وإن لم يكن ذلك ضاعت الحقوق وبطلت. فيكون المعنى ولا يأب

الشهداء إذا أخذوا حقوقهم أن يجيبوا. والله أعلم. فإن قيل: هذه شهادة بالأجرة، قلنا: إنما هي شهادة خالصة من قوم استوفوا حقوقهم من بيت المال، وذلك كأرزاق القضاة والولاة وجميع المصالح التي تعِن للمسلمين، وهذا من جملتها. والله أعلم. وقد قال تعالى: { وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا }[التوبة : ٦٠] ففرض لهم.

ولمَّا قال تعالى: {وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا} دلَّ على أن الشاهد هو الذي يمشي إلى الحاكم، وهذا أمر بني عليه الشرع وعمل به في كل زمان وفهمته كل أمة، ومن أمثالهم: (في بيته يؤتى الحكم).

وإذا ثبت هذا فالعبد خارج عن جملة الشهداء، وهو يخصُّ عموم قوله: {من رجالكم} لأنه لا يمكنه أن يجيب، ولا يصح له أن يأتي، لأنه لا استقلال له بنفسه، وإنَّما يتصرَّف بإذن غيره، فانحطَّ عن منصب الشهادة كما انحطَّ عن منزل الولاية. نعم! وكما انحطَّ عن فرض الجمعة والجهاد والحج.

قال علماؤنا: هذا في حال الدعاء إلى الشهادة. فأمَّا من كانت عنده شهادة لرجل لم يعلمها مستحقها الذي ينتفع بها، فقال قوم: أداؤها ندب لقوله تعالى: { وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا} ففرض الله الأداء عند الدعاء، فإذا لم يدع كان ندبًا، لقوله ﷺ: ((خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها[١])) رواه الأئمة. والصحيح أن أداءها فرض وان لم يسألها إذا خاف على الحق ضياعه أو فوته، أو بطلاق أو عتق على من أقام على تصرفه على الاستمتاع بالزوجة واستخدام العبد إلى غير ذلك، فيجب على من تحمل شيئًا من ذلك أداء تلك الشهادة، ولا يقف أداؤها على أن تسأل منه فيضيع الحق، وقد قال تعالى: { وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}[الطلاق: ٢]، وقال: {إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[الزخرف: ٨٦]. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا[٢])). فقد تعين عليه نصره بأداء الشهادة التي له عنده إحياء لحقه الذي أماته الإنكار.

قال ابن عثيمين: {ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله}: أي لا تملُّوا أن تكتبوا الدَّين صغيرًا كان أو كبيرًا إلى أجله المسمَّى.

{ذلكم}: المشار إليه كل ما سبق من الأحكام؛ {أقسط عند الله}: أي أقوم، وأعدل؛ {وأقوم للشهادة}: أي أقرب إلى إقامتها؛ {وأدنى ألا ترتابوا}: أي أقرب إلى انتفاء الريبة عندكم.

١- (قلت): بهذا اللفظ رواه الترمذي في سننه (٢٢٩٧)، وروي الحديث بلفظ آخر وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٥٨): ((ألا أخبرُكم بخيرِ الشُّهداءِ؟! الذي يأتي بشهادتِهِ قبل أن يُسألَها)). وقال: رواه مسلم (١٣٢/٥- ١٣٣)، وأبو عوانة في صحيحه (١٩/٤) ، والبخاري في التاريخ الكبير (١٨٧/١١) ، وأبو داود (٣٥٩٦) ، والترمذي (٢٢٩٥)، والنسائي في الكبرى (٦٠٢٩)، ومالك (١٩٨/٢)، وابن حبان (٥٠٧٩)، وأحمد (١١٥/٤ و ١١٦و١١٧) (١٩٨/٥ و١٩٣)، وعبد الرزاق (١٥٥٥٧) (١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٥٢/٤)، والبيهقي (١٥٩/١٠)، والبغوي (١٣٨/١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣٤٧/٦)، والطبراني في الكبير (٥١٨٢ و ٥١٨٣ و٥١٨٤) من طرق عن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن ابن أبي عمْرة (وفي بعض المصادر: أبي عَمْرة) الأنصاري عن زيد بن خالد الجُهني أن النبي ﷺ قال: ... فذكره.

٢- (قلت):البخاري (٢٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٤).

قال القرطبي: {ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}: معناه أعدل، يعني أن يكتب القليل والكثير ويشهد عليه. {وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ}: أي أصح وأحفظ. {وأدنى}: معناه أقرب. و{ تَرْتَابُوا}: تشكُّوا.

قال أبو زهرة: وقد تعلَّلت هذه الأوامر والوصايا بثلاثة أمور: أولها: أنها {أقسط عند الله}: أي أنها أعدل في ذاتها، لأنها أعدل عند الله تعالى، وكل ما يكون أعدل في علم الله تعالى فهو الأعدل في ذاته، وكانت الأعدل في ذاتها؛ لأنها حماية لنفس المَدين من الجحود، وحماية لحق الدَّائن من الضياع، فهي حماية للفريقين.

والأمر الثاني: أنها {أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ}: أي أن الكتابة والشهادة على الكتابة أشد تقويمًا للشهادة والإتيان بها مقوَّمة عادلة ثابتة لَا زيف فيها ولا اضطراب؛ والمراد بالشهادة الإثبات، أي أن الكتابة والإشهاد عليها أقوم طريق للإثبات والحكم. وقد فهم بعض العلماء من هذا أنه يجوز أن يستعين الشاهد بما كتب وقت المعاينة عند تحمُّل الشهادة.

والأمر الثالث: أنها {أَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا}: أي الأوامر السابقة والوصايا إذا نفذت على وجهها أقرب إلى ألَّا يكون ريبًا وتظنُّنًا في التعامل، والرَّيب والتَّظنُّن ونحوهما يفقد الثقة، وإذا فقدت الثقة بين المتعاملين فسد التعامل، وانحلَّت عرى التَّضافر الاجتماعي، والتعاون الإسلامي، والاقتصادي.

قال ابن العثيمين: {إلَّا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم}: فيها قراءتان؛ إحداهما بنصب {تجارة}، و{حاضرة}؛ والثانية برفعهما؛ على الأول اسم {تكون} مستتر؛ والتقدير: إلا أن تكون الصفقة تجارة حاضرة؛ وجملة: {تديرونها} صفة ثانية لـ{تجارة}؛ أما على قراءة الرفع فإن {تجارة} اسم {تكون}؛ و{حاضرة} صفة؛ وجملة: {تديرونها} خبر {تكون}.

والتجارة هي كل صفقة يراد بها الربح؛ فتشمل البيع، والشراء، وعقود الإجارات؛ ولهذا سمَّى الله سبحانه وتعالى الإيمان، والجهاد في سبيله تجارة، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم} [الصف: ١٠].

وأما قوله تعالى: {حاضرة} فهي ضد قوله تعالى: {إذا تداينتم بدَين}؛ فالحاضر ما سوى الدَّين.

وقوله تعالى: {تديرونها}: أي تتعاطونها بينكم بحيث يأخذ هذا سلعته، والآخر يأخذ الثمن، وهكذا.

{فليس عليكم جناح}: الفاء عاطفة، أو للتفريع؛ يعني ففي هذه الحال ليس عليكم إثم في عدم كتابتها؛ والضمير في قوله تعالى: {تكتبوه} يعود على التجارة؛ فهذه التجارة المتداولة بين الناس ليس على الإنسان جناح إذا لم يكتبها؛ لأن الخطأ فيها، والنسيان بعيد؛ إذ إنها حاضرة تدار، ويتعاطاها الناس بخلاف المؤجلة.

{وأشهدوا إذا تبايعتم}: أي باع بعضكم على بعض.

قال القرطبي: {وَأَشْهِدُوا }: قال الطبري: معناه وأشهدوا على صغير ذلك وكبيره. واختلف الناس هل ذلك على الوجوب أو الندب، فقال أبو موسى الأشعري وابن عمر والضحاك وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي وابنه

أبو بكر. هو على الوجوب، ومن أشدّهم في ذلك عطاء قال: أشهد إذا بعت وإذا اشتريت بدرهم أو نصف درهم أو ثلث أو أقل من ذلك، فإن الله عز وجل يقول: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ}. وعن إبراهيم قال: أشهد إذا بعت وإذا اشتريت ولو دَسْتَجَةَ بَقْلٍ. وممن كان يذهب إلى هذا ويرجحه الطبري، وقال: لا يحل لمسلم إذا باع وإذا اشترى إلّا أن يشهد، وإلّا كان مخالفًا كتاب الله عز وجل، وكذا إن كان إلى أجل فعليه أن يكتب ويشهد إن وجد كاتبًا. وذهب الشعبي والحسن إلى أن ذلك على الندب والإرشاد لا على الحتم. ويحكى أن هذا قول مالك والشافعي وأصحاب الرأي. وزعم ابن العربي أن هذا قول الكافة، قال: وهو الصحيح.

قال ابن كثير: وَهَذَا الْأَمْرُ مَحْمُولٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ عَلَى الْإِرْشَادِ وَالنَّدْبِ، لَا عَلَى الْوُجُوبِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ خُزَيمة بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ فَيُسَاوِمُونَهُ بِالْفَرَسِ، وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ، حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الْأَعْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَى ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي ابْتَاعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَنَادَى الْأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسَ فابتَعْه، وَإِلَّا بعتُه، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: ((أو ليس قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟))، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا وَاللَّهِ مَا بِعْتُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((بَلْ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ)). فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُوذُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْأَعْرَابِيِّ وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ، فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُم شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ. فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: وَيْلَكَ! إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ إِلَّا حَقًّا. حَتَّى جَاءَ خزَيْمة، فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ هَلُمَّ شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ. قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ. فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: ((بِمَ تَشْهَدُ؟))، فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَجَعَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزيمة بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ(١).

قال القرطبي: { وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ} فيه ثلاثة أقوال:

الأول: لا يكتب الكاتب ما لم يُملَ عليه، ولا يزيد الشاهد في شهادته ولا ينقص منها. قاله الحسن وقتادة وطاوس وابن زيد وغيرهم.

الثاني: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء أن المعنى لا يمتنع الكاتب أن يكتب ولا الشاهد أن يشهد. {ولا يضار} على هذين القولين أصله يضارر بكسر الراء، ثم وقع الإدغام ، وفتحت الراء في الجزم لخفة الفتحة. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول، قال: لأن بعده. {وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ} فالأولى أن تكون، من شهد بغير الحق أو حرَّف في الكتابة أن يقال له: فاسق، فهو أولى بهذا ممَّن سأل شاهدًا أن يشهد وهو مشغول. وقرأ عمر بن الخطاب وابن عباس وابن أبي إسحاق يضارر بكسر الراء الأولى.

١- صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في الروض (١٢٨٦).

الثالث: وقال مجاهد والضحاك وطاوس والسدي وروي عن ابن عباس: معنى الآية: {وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ} بأن يدعى الشاهد إلى الشهادة والكاتب إلى الكتب وهما مشغولان، فإذا اعتذرا بعذرهما أخرجهما وآذاهما، وقال: خالفتما أمر الله، ونحو هذا من القول فيضرّ بهما. وأصل {يضار} على هذا يضارر بفتح الرَّاء، وكذا قرأ ابن مسعود (يضارر) بفتح الرَّاء الأولى، فنهى الله سبحانه عن هذا، لأنه لو أطلقه لكان فيه شغل لهما عن أمر دينهما ومعاشهما. ولفظ المضارة، إذ هو من اثنين، يقتضي هذه المعاني. والكاتب والشهيد على القولين الأولين رفع بفعلهما، وعلى القول الثالث رفع على المفعول الذي لم يسمَّ فاعله.

{وَإِنْ تَفْعَلُوا}: يعني المضارة. {فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ}: أي معصية، عن سفيان الثوري. فالكاتب والشاهد يعصيان بالزيادة أو النقصان، وذلك من الكذب المؤذي في الأموال والأبدان، وفيه إبطال الحق. وكذلك إذايتهما إذا كانا مشغولين معصية وخروج عن الصواب من حيث المخالفة لأمر الله. وقوله {بكم} تقديره فسوق حال بكم.

قال ابن العثيمين: {فسوق بكم}: أي خروج بكم عن طاعة الله إلى معصيته؛ وأصل (الفسق) في اللغة الخروج؛ ومنه قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها.

{واتَّقوا الله}: أي اتَّخذوا وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

{ويعلِّمكم الله}: الواو هنا للاستئناف؛ ولا يصح أن تكون معطوفة على {اتَّقوا الله}؛ لأن تعليم الله لنا حاصل مع التَّقوى، وعدمها – وإن كان العلم يزداد بتقوى الله، لكن هذا يؤخذ من أدلة أخرى.

{والله بكل شيء عليم[١]}: يشمل كل ما في السماء والأرض.

قال القرطبي: وعدٌ من الله تعالى بأن من اتَّقاه علَّمه، أي يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداءً فرقانًا، أي فيصلًا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً}[الأنفال: ٢٩]. والله أعلم.

قال أبو زهرة: ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بما يربِّي المهابة للأوامر العليَّة والوصايا الإلهية؛ وقد اشتمل ذلك الختام الكريم على ثلاثة أمور:

أولها: تقوى الله، فإنها نور القلب، وهي الشعور بمراقبة الله، وفي ذلك إشارة إلى وجوب مراقبة الله عند التعامل، ونيَّة الأداء، ثانيها: الإشعار بأن هذا تعليم من الله اللطيف الخبير، ليحسن التعامل، ويقوم على أسس من الثقة والاطمئنان ومنع الرِّيب.

---

١ – (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

ثالثها: الإشعار بإحاطة علم الله، فما يأمر به هو أمر عليم حكيم يعلم وجه المصلحة، وهو عليم بالضَّمائر، وهو الذي يتولَّى السرائر.

قال السعدي: هذه آية الدَّين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكرًا أحكامها، وذلك يدلُّ على الجواز.

الثاني والثالث: أنه لابدَّ للسلم من أَجَل، وأنه لابدَّ أن يكون معيَّنًا معلومًا فلا يصح حالًا ولا إلى أجل مجهول.

الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إمَّا وجوبًا وإمَّا استحبابًا لشدَّة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم.

الخامس: أمر الكاتب أن يكتب.

السادس: أن يكون عدلًا في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته.

السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك.

الثامن: أن يكون الكاتب عارفًا بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثُّق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلَّا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: {وليكتب بينكم كاتب بالعدل}.

التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا.

العاشر: قوله: {ولا يأب كاتب أن يكتب} أي: لا يمتنع من منّ الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم.

الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق.

الثاني عشر: أن الذي يملي من المتعاقدين من عليه الدَّين.

الثالث عشر: أمره أن يبيِّن جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئًا.

الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطًا أو سهوًا.

الخامس عشر: أن من عليه حقًّا من الحقوق التي البيِّنة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه، إلَّا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته. هـ

السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئًا من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجل، أو غير ذلك من توابعه ولواحقه.

السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار.

الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله: {بالعدل}.

التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق.

العشرون: ثبوت الولاية في الأموال.

الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم.

الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئًا لطفًا بهم ورحمة، خوفًا من تلاف أموالهم.

الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر.

الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتداينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلّا به فهو مشروع.

الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلّا بالتعلُّم.

السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلَّفين، نعم إن كان المتصرف وليٌّ يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجبا.

السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضا أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي.

الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل.

التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم.

الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: {فاستشهدوا شهيدين من رجالكم} والعبد البالغ من رجالنا.

الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منَّا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل.

الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها.

الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: {فتذكر إحداهما الأخرى}.

الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب.

والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعيَ للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: {ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا}.

السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء.

السابع والثلاثون: النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود.

الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه {أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا} فإنها متضمِّنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والرَّيب والتَّنازع والتَّشاجر.

التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لابدَّ من اليقين.

الأربعون: قوله: {إلَّا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألَّا تكتبوها} فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرًا بحاضر، لعدم شدَّة الحاجة إلى الكتابة.

الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: {وأشهدوا إذا تبايعتم}.

الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يُدعى وقت اشتغال وحصول مشقَّة عليه.

الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضًا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشقُّ عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: {ولا يضار كاتب ولا شهيد} مبنيًّا للمجهول، وأما على جعلها مبنيًّا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك.

وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون والسادس والأربعون: أن ارتكاب هذه المحرَّمات من خصال الفسق لقوله: {وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم}.

السابع والأربعون: أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزَّأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: {فإنه فسوق بكم} ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق.

الثامن والأربعون: وحقه أن يتقدَّم على ما هنا لتقدم موضعه – اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: {ممَّن ترضون من الشهداء}.

التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضيًّا معتبَرًا عند الناس قبلت شهادته.

الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، ولله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– العناية بما ذكر من الأحكام؛ وذلك لتصدير الحكم بالنداء، ثم توجيه النداء إلى المؤمنين؛ لأنه هذا يدلُّ على العناية بهذه الأحكام، وأنها جديرة بالاهتمام بها.

٢– أن التزام هذه الأحكام من مقتضى الإيمان؛ لأنه لا يوجه الخطاب بوصف إلَّا لمن كان هذا الوصف سببًا لقبوله ذلك الحكم.

٣– أنَّ مخالفة هذه الأحكام نقص في الإيمان كأنه قال: {يا أيها الذين آمنوا} لإيمانكم افعلوا كذا؛ فإن لم تفعلوا فإيمانكم ناقص؛ لأن كل من يدَّعي الإيمان، ثم يخالف ما يقتضيه هذا الإيمان فإن دعواه ناقصة إما نقصًا كليًّا، أو نقصًا جزئيًّا.

٤– بيان أن الدين الإسلامي كما يعتني بالعبادات – التي هي معاملة الخالق – فإنَّه يعتني بالمعاملات الدائرة بين المخلوقين.

٥– دحر أولئك الذين يقولون: إن الإسلام ما هو إلَّا أعمال خاصة بعبادة الله عز وجل، وبالأحوال الشخصية، كالمواريث وما أشبهها؛ وأمَّا المعاملات فيجب أن تكون خاضعة للعصر، والحال؛ وعلى هذا فينسلخون من أحكام الإسلام فيما يتعلَّق بالبيوع والإجارات وغيرها، إلى الأحكام الوضعية المبنيَّة على الظلم والجهل.

١– (قلت): أنظر الأحاديث الواردة في الدَّين عند تفسير الآية (١٦٩) من سورة آل عمران.

فإن قال قائل: لهم في ذلك شبهة؛ وهو أن الرسول ﷺ حين قدم المدينة، ورآهم يلقِّحون الثمار قال: ((لو لم تفعلوا لصلح)) فخرج شيصًا، أي: فاسدًا؛ فمرَّ بهم فقال: ((ما لنخلكم؟)) قالوا: قلت كذا، وكذا؛ قال: ((أنتم أعلم بأمر دنياكم [١])) ؛ قالوا: (والمعاملات من أمور الدنيا، وليست من أمور الآخرة).

فالجواب: أنه لا دليل في هذا الحديث لما ذهبوا إليه؛ لأن الحادثة المذكورة من أمور الصنائع التي من يمارسها فهو أدرى بها، وتدرك بالتجارب؛ وإلَّا لكان علينا أن نقول: لابدَّ أن يعلِّمنا الإسلام كيف نصنع السيارات والمسجلات والطوب، وكل شيء! أما الأحكام – الحلال والحرام – فهذا مرجعه إلى الشرع؛ وقد وفَّى بكل ما يحتاج الإنسان إليه.

٦– جواز الدَّين؛ لقوله تعالى: {تداينتم بدين} سواء كان هذا الدَّين ثمن مبيع، أو قرضًا، أو أجرة، أو صداقًا، أو عوض خلع، أو أي دَين يكون؛ المهم أن في الآية إثبات الدَّين شرعًا.

٧– أن الدَّين ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مؤجَّل بأجَل مسمَّى؛ ومؤجَّل بأجَل مجهول؛ وغير مؤجَّل؛ لقوله تعالى: {بدَين إلى أجلٍ مسمَّى}؛ والدَّين إلى غير أجل جائز، مثل أن أشتري منك هذه السلعة، ولا أعطيك ثمنها، ولا أعيِّنه لك؛ فهذا دَين غير مؤجَّل؛ وفي هذه الحال لك أن تطالبني بمجرَّد ما ينتهي العقد؛ وأمَّا الدَّين إلى أجل غير مسمَّى فلا يصح؛ وأخذ هذا القسم من قوله تعالى: {مسمَّى} – مثل أن أقول لك: (اشتريت منك هذه السلعة إلى قدوم زيد) – وقدومه مجهول؛ لأن فيه غررًا؛ وقد قال النبي ﷺ: ((من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم إلى أجل معلوم([٢]))؛ والدَّين إلى أجلٍ غير مسمًّى لا يكتب؛ لأنه عقد فاسد، والدَّين إلى أجل مسمَّى جائز بنص الآية.

٨– جواز السَّلَم – وهو تعجيل الثمن، وتأخير المُثَمَّن، مثل أن أشتري مائة صاع من البُر إلى سنة، وأعطيك الدراهم؛ فيسمَّى هذا سَلَمًا؛ لأن المشتري أسلَم الثَّمن، وقدَّمه.

٩– وجوب كتابة الدَّين المؤجَّل؛ لقوله تعالى: {فاكتبوه}؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى في آخر الآية: {إلَّا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألَّا تكتبوها}؛ وذهب الجمهور إلى عدم وجوب الكتابة – أعني كتابة الدَّين المؤجَّل؛ لقوله تعالى في الآية التي تليها: {فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته}[البقرة: ٢٨٣]؛ وينبغي على هذا القول أن يستثنى من ذلك ما إذا كان الدائن متصرِّفًا لغيره، كولي اليتيم فإنه يجب عليه أن يكتب الدَّين الذي له لئلَّا يضيع حقَّه.

١٠– حضور كل من الدَّائن والمدين عند كتابة الدَّين؛ لقوله تعالى: {بينكم}؛ ولا تتحقَّق البينيَّة إلَّا بحضورهما.

١– أخرجه مسلم ص١٠٩٣، كتاب الفضائل، باب ٣٨: وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم ٦١٢٨ [١٤١] ٢٣٦٣.

٢– أخرجه البخاري ص١٧٤، كتاب السلم، باب ٢: السلم في وزن معلوم، حديث رقم ٢٢٤١، وأخرجه مسلم ص٩٥٧، كتاب المساقاة، باب ٢٥: السلم، حديث رقم ٤١١٨ [١٢٧] ١٦٠٤.

١١- أنه لابدَّ أن يكون الكاتب محسنًا للكتابة في أسلوبه وحروفه؛ لقوله تعالى: {وليكتب بينكم كاتب}.

١٢- أنه يجب على الكاتب أن يكتب بالعدل بحيث لا يجحف مع الدَّائن، ولا مع المدين؛ و{العدل} هو ما طابق الشرع؛ لقوله تعالى: {وتمت كلمت ربك صدقًا وعدلًا}[الأنعام: ١١٥].

ويتفرَّع على ذلك أن يكون الكاتب ذا عِلم بالحكم الشرعي فيما يكتب.

١٣- أنه لا يشترط تعيين كاتب للناس بشخصه، وأن أي كاتب يتَّصف بإحسان الكتابة والعدل، فكتابته ماضية نافذة؛ لقوله تعالى: {كاتب بالعدل}؛ وهي نكرة لا تفيد التَّعيين.

١٤- تحريم امتناع الكاتب أن يكتب كما علَّمه الله؛ لقوله تعالى: {ولا يأب كاتب أن يكتب كما علَّمه الله}؛ ولهذا أكَّد هذا النهي بالأمر بالكتابة في قوله تعالى {فليكتب} – هذا ظاهر الآية – ويحتمل أن يقال: إن توقف ثبوت الحق على الكتابة كانت الكتابة واجبة على من طلبت منه؛ وإلا لم تجب، كما قلنا بوجوب تحمل الشهادة إذا توقف ثبوت الحق عليها.

١٥- أنه يجب على الكاتب أن يكتب على حسب علمه من الشريعة؛ لقوله تعالى: {ولا يأب كاتب أن يكتب كما علَّمه الله}.

١٦- تذكير هؤلاء الكتبة بنعمة الله، وأن من شكر نعمة الله عليهم أن يكتبوا؛ لقوله تعالى: {كما علَّمه الله}؛ وهذا مبني على أن الكاف هنا للتعليل.

فإن قيل: (إنها للتشبيه) صار المعنى: أنه مأمور أن يكتب على الوجه الذي علَّمه الله من إحسان الخط، وتحرير الكتابة.

١٧- أن الإنسان لا يستقل بالعلم؛ لقوله تعالى: {كما علَّمه الله}؛ حتى في الأمور الحسيَّة التي تدرك عن طريق النظر، أو السمع، أو الشم، لا يستطيع الإنسان أن يعلمها إلَّا بتعليم الله عز وجل.

١٨- مبادرة الكاتب إلى الكتابة بدون مماطلة؛ لقوله تعالى: {فليكتب}.

١٩- أن الرجوع في مقدار الدَّين، أو نوعه، أو كيفيَّته؛ بل في كل ما يتعلق به إلى المَدين الذي عليه الحق – لا إلى الدَّائن؛ لقوله تعالى: {وليملل الذي عليه الحق}؛ لأنه لو أملل الذي له الحق فربما يزيد.

لكن إذا قال قائل: وإذا أملى الذي عليه الحق فربما ينقص؟!

فالجواب: أن الله حذره من ذلك في قوله تعالى: {وليتَّق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا}.

٢٠- أن من عليه الحق لا يكتب؛ وإنما يكتب كاتب بين الطرفين؛ لأن الذي عليه الحق وظيفته الإملال؛ ولكن لو كتب صحَّت كتابته؛ إلَّا أن ذلك لا يؤخذ من هذه الآية؛ يؤخذ من أدلَّة أخرى، مثل قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين

بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم}[النساء: ١٣٥]؛ وكتابة الإنسان على نفسه إقرار؛ وإقرار الإنسان على نفسه مقبول.

٢١- وجوب تقوى الله عز وجل على من عليه الحق، وأن يتحرَّى العدل؛ لقوله تعالى: {وليتّق الله ربه}.

٢٢- أنه ينبغي في مقام التحذير أن يذكر كل ما يكون به التحذير؛ لقوله تعالى: {وليتَّق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا}؛ ففي مقام الألوهية يتَّخذ التَّقوى عبادة؛ لأن الألوهية هي توحيد العبادة؛ وفي مقام الخوف من الانتقام يكون مشهده الربوبية؛ لأن الرب عز وجل خالق مالك مدبِّر.

٢٣- أنه يحرم على من عليه الدَّين أن يبخس منه شيئًا، لا كميةً ولا نوعًا ولا صفةً؛ لقوله تعالى: {ولا يبخس منه شيئًا}.

٢٤- أن الولي يقوم مقام المولى عليه في الإملال؛ لقوله تعالى: {فإن كان الذي عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يملَّ هو فليُملِل وليُّه بالعدل}.

٢٥- أن أسباب القصور ثلاثة: السفه؛ والضعف؛ وعدم الاستطاعة؛ السفه: ألَّا يحسن التصرف؛ والضعيف يشمل الصغير والمجنون؛ ومن لا يستطيع يشمل من لا يقدر على الإملال لخرس أو عيي أو نحو ذلك.

٢٦- قبول قول الولي فيما يقر به على مولاه؛ لقوله تعالى: {فليملل وليُّه}.

٢٧- وجوب مراعاة العدل على الولي؛ لقوله تعالى: {بالعدل}؛ فلا يبخس من له الحق؛ ولا يبخس من عليه الحق ممَّن هو مولى عليه.

٢٨- طلب الإشهاد على الحق.

٢٩- أن البيِّنة إما رجلان؛ وإما رجل وامرأتان؛ وجاءت السنة بزيادة بينة ثالثة – وهي الرجل ويمين المدَّعي؛ وأنواع طرق الإثبات مبسوطة في كتب الفقهاء.

٣٠- أنه لابدَّ في الشاهدين من كونهما مرضِيَّين عند المشهود له، والمشهود عليه.

٣١- قصر حفظ المرأة وإدراكها عن حفظ الرجل، وهذا باعتبار الجنس؛ فلا يرد على ذلك من نبوغ بعض النساء، وغفلة بعض الرجال.

٣٢- جواز شهادة الإنسان فيما نسيه إذا ذكِّر به فذَكَر؛ لقوله تعالى: {أن تضل إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى}؛ فإن ذكِّر ولم يُذَكِّر لم يشهد.

٣٣- تحريم امتناع الشاهد إذا دعيَ للشهادة؛ وهذا تحته أمران:

الأمر الأول: أن يدعى لتحمُّل الشهادة؛ وقد قال العلماء في هذا: إنه فرض كفاية؛ وظاهر الآية الكريمة أنه فرض عين على من طلبت منه الشهادة بعينه؛ وهو الحق؛ لأنه قد لا يتسنَّى لطالب الشهادة أن يشهد له من ترضى شهادته.

الأمر الثاني: أن يدعى لأداء الشهادة؛ فيجب عليه الاستجابة؛ لهذه الآية، ولقوله تعالى: {ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه}[البقرة: ٢٨٣].

٣٤- النهي عن السأم في كتابة الدَّين سواء كان صغيرًا أو كبيرًا؛ والظاهر أن النهي هنا للكراهة.

٣٥- أنه إذا كان الدَّين مؤجَّلًا فإنه يبيِّن الأجَل؛ لقوله تعالى: {إلى أجله}.

٣٦- أن ما ذكر من التوجيهات الإلهية في هذه الآية فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: أنه أقسط عند الله – أي أعدل عنده، لما فيه من حفظ الحق لمن هو له أو عليه.

الثانية: أنه أقوم للشهادة؛ لأنه إذا كتب لم يحصل النسيان.

الثالثة: أنه أقرب لعدم الارتياب.

٣٧- العمل بالكتابة واعتمادها حجَّة شرعية إذا كانت من ثقة معروف خطه؛ ويؤيد هذا قوله ﷺ: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلَّا ووصيته مكتوبة عنده([1]))).

٣٨- أن الشهادات تتفاوت؛ فمنها الأقوم؛ ومنها القيم؛ ومنها ما ليس بقيم؛ فالذي ليس بقيم هو الذي لم تتم فيه شروط القبول؛ والقيم هو الذي صار فيه أدنى الواجب؛ والأقوم ما كان أكمل من ذلك؛ بدليل قوله تعالى: {وأقوم للشهادة}. فإذا قيل: ما مثال القيم؟ فنقول: مثل شاهد ويمين؛ لكن أقوم منه الشاهدان؛ لأن الشاهدين أقرب إلى الصواب من الشاهد الواحد؛ ولأن الشاهدين لا يحتاج معهما إلى يمين المدَّعي؛ فكانت شهادة الشاهدين أقوم للشهادة.

٣٩- أنه ينبغي للإنسان أن يتجنَّب كل ما يكون له فيه ارتياب وشك؛ لقوله تعالى: {وأدنى ألَّا ترتابوا}. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن دين الإسلام يريد من معتنقيه أن يكونوا دائمًا على اطمئنان وسكون.

ويتفرَّع أيضًا منها: أن دين الإسلام يحارب ما يكون فيه القلق الفكري أو النفسي؛ لأن الارتياب يوجب قلق الإنسان، واضطرابه.

ويتفرَّع عليه أيضًا: أنه ينبغي للإنسان إذا وقع في محل قد يستراب منه أن ينفي عن نفسه ذلك؛ وربما يؤيِّد هذا الأثر المشهور: ((رحم الله امرئ كفَّ الغيبة عن نفسه([2]))؛ لا تقل: إن الناس يحسنون الظَّن بي، ولن يرتابوا في أمري؛ لا تقل هكذا؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فربما لا يزال يوسوس في صدور الناس حتى يتَّهموك بما أنت منه بريء.

١- أخرجه البخاري ص٢٢٠، كتاب الوصايا، باب ١: الوصايا، حديث رقم ٢٧٣٨، وأخرجه مسلم ص٩٦٢، كتاب الوصية، باب ١: وصية الرجل مكتوبة عنده، حديث رقم ٤٢٠٤ [١] ١٦٢٧، واللفظ لمسلم.

٢- ذكره العجلوني في كتاب "كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس بلفظ: ((رحم الله امرءًا جب الغيبة عن نفسه)) ٥١٣/١، حديث رقم ١٣٦٧، ولم يذكر أصلا لهذا الأثر.

٤٠- جواز الاتِّجار؛ لقوله تعالى: {إِلَّا أن تكون تجارة حاضرة}؛ ولكن هذا الإطلاق مقيَّد بالشروط التي دلَّت عليها النصوص؛ فلو اتَّجر الإنسان بأمر محرَّم فهذا لا يجوز من نصوص أخرى؛ ولو رابى الإنسان يريد التجارة والربح قلنا: هذا حرام من نصوص أخرى؛ إذا هذا المطلق الذي هو التجارة مقيَّد بالنصوص الدالَّة على أن التجارة لابدَّ فيها من شروط.

٤١- أن التجارة نوعان: تجارة حاضرة، وتجارة غير حاضرة؛ فأما الحاضرة فهي التي تدار بين الناس بدون أجل؛ وأما غير الحاضرة فهي التي تكون بأجَل، أو على مسمى موصوف غير حاضر.

٤٢- أن الأصل في التجارة الدوران؛ لقوله تعالى: {تديرونها بينكم}؛ فأمَّا الشيء الرَّاكد الذي لا يدار فهل يسمَّى تجارة؟ يرى بعض العلماء أنه ليس تجارة؛ ولذلك يقولون: ليس فيه زكاة، وأن الزكاة إنما هي في المال الذي يدار – يعني يتداول؛ ويرى آخرون أنها تجارة؛ ولكنَّها تجارة راكدة؛ وهذا يقع كثيرًا فيما إذا فسدت التجارة، وكسد البيع؛ فربما تبقى السلع عند أصحابها مدة طويلة لا يحرِّكونها؛ لكن هي في حكم المدارة؛ لأن أصحابها ينتظرون أي إنسان يأتي، فيبيعون عليه.

٤٣- أنه لا يجب كتابة التجارة الحاضرة المدارة – ولو كان ثمنها غير منقود؛ بخلاف ما إذا تداين بدَين إلى أجَلٍ مسمى؛ فإنه تجب كتابة الدَّين على ما سبق من الخلاف في ذلك؛ لقوله تعالى: {فليس عليكم جناح ألَّا تكتبوها}.

٤٤- الأمر بالإشهاد عند التبايع؛ وهل الأمر للوجوب؛ أو للاستحباب؛ أو للإرشاد؟ فيه خلاف؛ والراجح أنه ليس للوجوب؛ لأن النبي ﷺ اشترى، ولم يشهد([1])؛ والأصل عدم الخصوصية؛ ولأن إيجابه فيه شيء من الحرج والمشقَّة؛ لكثرة تداول التجارة؛ اللهم إلَّا أن يكون التَّصرف للغير، كالوكيل، والولي؛ فربما يقال بوجوب الإشهاد في المبايعات الخطيرة.

٤٥- أن الإشهاد ينبغي أن يكون حين التبايع؛ بمعنى أنه لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر؛ لقوله تعالى: {إذا تبايعتم}؛ لأن العقد لم يتم إذا كان الإشهاد قبله؛ وإذا كان بعده فربما يكون المبيع قد تغيَّر.

٤٦- تحريم مضارة الكاتب، أو الشهيد: سواء وقع الإضرار منهما، أو عليهما.

٤٧- أن المضارة سواء وقعت من الكاتب، أو الشاهد، أو عليهما، فسوق؛ والفسق يترتَّب عليه زوال الولايات العامة والخاصة إلَّا ما استثني؛ والفاسق يهجر إمَّا جوازًا؛ أو استحبابًا، أو وجوبًا – على حسب الحال – إن كان في الهجر إصلاح له.

١- راجع أحمد ص١٦١٤ – ١٦١٥، حديث رقم ٢٢٢٢٨؛ وأبا داود ص١٤٩٠ – ١٤٩١، كتاب القضاء، باب ٢٠: إذا علم الحاكم صدق شهادة الواحد يجوز له أن يقضي به، حديث رقم ٣٦٠٧؛ والنسائي ص٢٣٨٨، كتاب البيوع، باب ٨١: التسهيل في ترك الإشهاد على البيع، حديث رقم ٤٦٥١؛ ومستدرك الحاكم ١٧/٢ – ١٨، كتاب البيوع؛ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ورجاله باتفاق الشيخين ثقات، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي (المرجع السابق)؛ وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود ٣٩٩/٢، حديث رقم ٣٦٠٧).

فإن قال قائل: أفلا يشكل هذا على القاعدة المعروفة أن الفسق لا يتصف به الفاعل إلّا إذا تكرَّر منه، أو كان كبيرة؟.
فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى حكم على المضارة بأنها فسوق؛ والقرآن يحكم، ولا يحكم عليه.
٤٨- أن هذا الفعل فسوق لا يخرج من الإيمان؛ لأنه لم يصف الفاعل بالكفر؛ بل قال تعالى: {فإنه فسوق بكم}؛ ومجرَّد الفسق لا يخرج من الإيمان؛ ولكن الفسق المطلق يخرج من الإيمان؛ لأن الخروج عن الطاعة خروجًا عامًّا يخرج من الإيمان، ويوجب الخلود في النار، كما قال الله تعالى: {أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون * أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلًا بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون}[السجدة: ١٨ - ٢٠].
٤٩- وجوب تقوى الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {واتَّقوا الله}.
٥٠- امتنان الله عز وجل على عباده بالتعليم، حيث قال تعالى: {ويعلمكم الله}.
٥١- أن الدين الإسلامي شامل للأحكام المتعلّقة بعبادة الله عز وجل، والمتعلّقة بمعاملة عباد الله؛ لأنه بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التوجيهات قال تعالى: {ويعلِّمكم الله}؛ فيكون في ذلك إبطال لزعم من زعم أن الدين الاسلامي في إصلاح ما بين العبد وبين ربه؛ ولا علاقة له بالمعاملة بين الناس.
٥٢- أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: {ويعلِّمكم الله}؛ قال الله عز وجل: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون}[النحل: ٧٨].
٥٣- ثبوت صفة العلم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {ويعلِّمكم الله}؛ لأن المعلِّم عالم.
٥٤- أن العلمَ من منَّة الله عز وجل على عباده؛ لقوله تعالى: {ويعلِّمكم الله}، وكما قال تعالى: {لقد منَّ الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}[آل عمران: ١٦٤]؛ ولا شك أن العلم من أكبر النعم، حيث قال الله عز وجل: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}[المجادلة: ١١]؛ والعلماء كذلك ورثة الأنبياء؛ فالعلم أفضل من المال - ولا مقارنة؛ وهو كالجهاد في سبيل الله؛ لأن الدين الإسلامي لم ينتشر إلّا بالعلم والسلاح؛ فالسلاح يذلِّل العدو؛ والعلم ينير له الطريق؛ ولهذا إذا ذلَّ العدو للإسلام، وخضع لأحكامه، وبذل الجزية وجب الكف عنه، ولا يقاتل؛ لكن العلم جهاد، يجب أن يكون لكل أحد؛ ثم الجهاد بالسلاح لا يكون إلّا للكافر المعلِن كفره، ولا يكون للمنافق؛ والجهاد بالعلم يكون لهذا، ولهذا - للمنافق، وللكافر المعلِن بكفره؛ والعلم أفضل بكثير من المال؛ والعلم جهاد في سبيل الله - ولا سيَّما في وقتنا الحاضر؛ فإن الناس قد انفتح بعضهم على بعض، واختلط بعضهم ببعض، وصاروا يأخذون الثقافات من يمين ويسار، واحتاج الناس الآن للعلم الراسخ المبني على الكتاب والسنة حتى لا يقع الناس في ظلمات بعضها فوق بعض؛ لذلك تجد

رجلًا يمر به حديث، أو حديثان، ثم يقال: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا! من ينال مرتبتي! أنا الذي أفتي بعشرة مذاهب! ثم مع ذلك يندِّد بمن خالفه – ولو كان من كبار العلماء؛ وربما يضخم الخطأ الذي يقع منه – ولو كان ممَّن يشار إليه بالفضل، والعلم، والدين؛ وهذه خطيرة جدًّا؛ لأن العاميُّ وإن كان وثق بشخص لا يهمه هذا الكلام؛ لكن كلَّما كرَّر الضرب على الحديد لابدَّ أن يتأثر؛ لذلك نرى أن طلب العلم من أهم الأمور خصوصًا في هذا الوقت.

٥٥– إثبات هذا الاسم من أسماء الله – وهو {عليم}؛ وإثبات ما دلَّ عليه من الصفة – وهي العلم.

٥٦– إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: {وهو بكل شيء عليم}.

٥٧– الرَّد على القدرية سواء الغلاة منهم، أو غيرهم؛ فإن غلاتهم يقولون: إن الله لا يعلم شيئًا من أفعال العباد حتى يقع؛ يقول شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية: إن هؤلاء قليل – وهذا في عهده؛ ولا ندري الآن هل زادوا، أم نقصوا؛ لكن في الآية ردٌّ حتى على غير الغالية منهم – وهم الذين يقولون: إن الله يعلم؛ لكنه لم يرد أفعال الإنسان، وأن الإنسان مستقل بإرادته وفعله؛ وجه ذلك ما قاله الشافعي – رحمه الله: (ناظروهم بالعلم؛ فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا)؛ وعلى هذا نقول: في هذه الآية الكريمة دليل على أن أفعال العباد مرادة لله عز وجل؛ لأنها إن لم تكن مرادة فهي إمَّا أن تقع على وفق علمه، أو على خلافه؛ فإن كان على خلافه فهو إنكار لعلمه؛ وإن كان على وفقه فلابدَّ أن تكون مرادة له؛ لأنه أراد أن تقع على حسب علمه.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

قال القرطبي: لما ذكر الله تعالى النَّدب إلى الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال والأديان، عقَّب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكتب، وجعل لها الرهن، ونص من أحوال العذر على السفر الذي هو غالب الأعذار، لا سيَّما في ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل في ذلك بالمعنى كل عذر. فرب وقت يتعذَّر فيه الكاتب في الحضر كأوقات أشغال الناس وبالليل، وأيضًا فالخوف على خراب ذمَّة الغريم عذر يوجب طلب الرَّهن.

قال جمهور من العلماء: الرَّهن في السفر بنص التنزيل، وفي الحضر ثابت بسنة الرسول ﷺ، وهذا صحيح. وقد بيَّنا جوازه في الحضر من الآية بالمعنى، إذا قد تترتَّب الأعذار في الحضر، ولم يرو عن أحد منعه في الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود، متمسكين بالآية. ولا حجة فيها، لأن هذا الكلام وإن كان خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال. وليس

كون الرهن في الآية في السفر مما يحظر في غيره. وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة أن النبي ﷺ اشترى من يهودي طعامًا إلى أجل ورهنه درعًا له من حديد. وأخرجه النسائي من حديث ابن عباس قال: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير لأهله([1]).

قال ابن العثيمين: {وإن كنتم على سفر}: أي مسافرين؛ وذلك كقوله تعالى في آية الصيام: {ومن كان مريضًا أو على سفر}[البقرة: ١٨٥]؛ وأتى بكلمة: {على} لتحقُّق هذا الأمر – وهو السفر؛ لأن {على} تدلُّ على الاستعلاء؛ فكأنه متمكِّن من السفر، كالراكب على الراحلة؛ وال{سفر} مفارقة الوطن؛ وبعضهم قال: مفارقة محل الإقامة؛ لأن الإنسان قد لا يستوطن؛ ولكن يقيم دائمًا؛ والمفارقة قد تكون طويلة – ويسمَّى سفرًا طويلًا؛ وقد تكون قصيرة – ويسمَّى سفرًا قصيرًا.

{ولم تجدوا كاتبًا}: أي يكتب بينكم؛ وهذا كما سبق يحتاج إليه فيما إذا تداينًا بدَين إلى أجل مسمًّى؛ فيكون المعنى: إن كنتم على سفر، وتداينتم بدَين إلى أجل مسمًّى ولم تجدوا كاتبًا {فرهان مقبوضة}.

{فرهان مقبوضة}: فيها قراءاتان؛ القراءة الأولى: {فرهان} بكسر الراء، ومدُّ الهاء؛ والثانية: {فرهن} بضم الرَّاء والهاء بدون مَدّ؛ ولهذا تكتب بالألف في خط المصحف لكي تصلح للقراءتين؛ ومعنى {فرهان} أي فعليكم رهن؛ أو فالوثيقة رهن – أو رهان؛ وعلى هذا فتكون إمَّا مبتدأ خبره محذوف؛ وإمَّا خبر مبتدأ محذوف؛ والجملة في محل جزم على أنها جواب الشرط؛ وقرنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية فإنه يقترن بالفاء وجوبًا؛ ولا تحذف إلَّا شذوذًا، أو اضطرارًا؛ ومن حذفها قول الشاعر: من يفعل الحسنات الله يشكرها .... ولم يقل: فالله يشكرها؛ ولكن هذا على سبيل الضرورة، أو الندرة، والشذوذ.

وال{رهان} جمع رهن؛ و(الرهن) في اللغة الحبس؛ ومنه قوله تعالى: {كل نفس بما كسبت رهينة}[المدثر: ٣٨]: أي محبوسة بما عملت؛ ولكنه في اصطلاح الفقهاء: توثقة دَين بعين يمكن استيفاؤه، أو بعضه منها، أو من بعضها، مثل ذلك: زيد مدين لعمرو بعشرة آلاف ريال، فأرهنه سيارة تساوي عشرين ألف ريال؛ هنا يمكن استيفاء الدَّين من بعضه؛ لأن الرهن أكثر من الدَّين؛ مثال آخر: زيد مدين لعمرو بعشرين ألف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء بعضه منها؛ لأن الدَّين أكثر من الرهن؛ فإذا كان الدَّين مساويا للرهن، كما لو كان دَينه عشرة آلاف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء الدَّين كله من كل الرهن.

١- (قلت): في صحيح البخاري (٢٠٦٩): حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ (ح)، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوْشَبٍ، حَدَّثَنَا أَسْبَاطٌ أَبُو الْيَسَعِ الْبَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ الدَّسْتُوَائِيُّ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، رضي الله عنه، أَنَّهُ مَشَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ، وَلَقَدْ رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لأَهْلِهِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ مَا أَمْسَى عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَاعُ بُرٍّ، وَلاَ صَاعُ حَبٍّ وَإِنَّ عِنْدَهُ لَتِسْعَ نِسْوَةٍ.

وقوله تعالى: {مقبوضة}: أي يقبضها من يتوثق بها – وهو الطالب – من المطلوب الذي هو الراهن؛ والطالب الذي قبض الرهن يسمَّى مرتهنًا؛ فهنا راهن، ومرتهن، ورهن، ومرهون به؛ فالرهن: العين؛ والراهن: معطي الرهن؛ والمرتهن: آخذ الرهن؛ والمرهون به: الدَّين؛ فأركان الرهن أربعة.

ولم يبيِّن سبحانه وتعالى كيف القبض؛ فيرجع في ذلك إلى العرف؛ ومعناه: أن يكون الشيء في قبضة الإنسان، وتحت سيطرته.

قال السعدي: {فرهان مقبوضة}: أي يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقَّه، ودلَّ هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودلَّ أيضًا على أن الرَّاهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنت به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضًا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرًا وسفرًا، وإنَّما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه.

قال القرطبي: قال أبو علي: ولما كان الرهن بمعنى الثبوت، والدوام فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن إلى الرَّاهن بوجه من الوجوه، لأنه فارق ما جعل باختيار المرتهن له.

قلت: هذا هو المعتمد عندنا في أن الرهن متى رجع إلى الراهن باختيار المرتهن بطل الرهن، وقاله أبو حنيفة، غير أنه قال: إن رجع بعارية أو وديعة لم يبطل. وقال الشافعي: إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقًا لا يبطل حكم القبض المتقدِّم، ودليلنا {فرهان مقبوضة}، فإذا خرج عن يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغة، فلا يصدق عليه حكمًا، وهذا واضح.

وإذا رهنه قولًا ولم يقبضه فعلًا لم يوجب ذلك حكمًا، لقوله تعالى: {فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ} قال الشافعي: لم يجعل الله الحكم إلَّا برهن موصوف بالقبض، فإذا عدمت الصفة وجب أن يعدم الحكم، وهذا ظاهر جدًّا. وقالت المالكية: يلزم الرهن بالعقد ويجبر الراهن على دفع الرهن ليحوزه المُرتهن، لقوله تعالى: {أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[المائدة: ١] وهذا عقد، وقوله: {بِالْعَهْدِ}[الإسراء: ٣٤]، وهذا عهد. وقوله ﷺ: ((المؤمنون عند شروطهم([١]))) وهذا شرط، فالقبض عندنا شرط في كمال فائدته. وعندهما شرط في لزومه وصحته.

قوله تعالى: {مَقْبُوضَةٌ} يقتضي بينونة المرتهن بالرهن. وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله.
واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه، فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء: قبض العدل قبض.

ولو وضع الرهن عل يدَي عدل فضاع لم يضمن المرتهن ولا الموضوع على يده، لأن المرتهن لم يكن في يده شيء يضمنه. والموضوع على يده أمين والأمين غير ضامن.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (١٦١١).

ولمَّا قال تعالى: {مَقْبُوضَةٌ} قال علماؤنا: فيه ما يقتضي بظاهره ومطلقه جواز رهن المشاع. خلافًا لأبي حنيفة وأصحابه، لا يجوز عندهم أن يرهنه ثلث دار ولا نصفًا من عبد ولا سيف، ثم قالوا: إذا كان لرجلين على رجل مال هما فيه شريكان فرهنهما بذلك أرضًا فهو جائز إذا قبضاها. قال ابن المنذر: وهذا إجازة رهن المشاع، لأن كل واحد منهما مرتهن نصف دار. قال ابن المنذر: رهن المشاع جائز كما يجوز بيعه.

ورهن ما في الذِّمة جائز عند علمائنا، لأنه مقبوض خلافًا لمن منع ذلك، ومثاله رجلان تعاملا لأحدهما على الآخر دَين فرهنه دينه الذي عليه. قال ابن خويز منداد: وكل عرض جاز بيعه جاز رهنه، ولهذه العلَّة جوَّزنا رهن ما في الذِّمة، لأن بيعه جائز، ولأنه مال تقع الوثيقة به فجاز أن يكون رهنًا، قياسًا على سلعة موجودة. وقال من منع ذلك: لأنه لا يتحقَّق إقباضه والقبض شرط في لزوم الرهن، لأنه لابدَّ أن يستوفي الحق منه عند المحل، ويكون الاستيفاء من ماليته لا من عينه ولا يُتصوَّر ذلك في الدَّين.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((الظهر يركب بنفقته إذا كان مرهونًا ولبن الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهونًا وعلى الذي يركب ويشرب النفقة([1]))). وأخرجه أبو داود وقال بدل ((يشرب)) في الموضعين: ((يحلب([2]))).

قال الخطابي: هذا كلام مبهم ليس في نفس اللفظ بيان من يركب ويحلب، هل الراهن أو المرتهن أو العدل الموضوع على يده الرَّهن؟.

قلت: قد جاء ذلك مبيَّنًا مفسَّرًا في حديثين، وبسببهما اختلف العلماء في ذلك، فروى الدار قطني من حديث أبي هريرة ذكر النبي ﷺ قال: ((إذا كانت الدابة مرهونة فعلى المرتهن علفها ولبن الدر يشرب وعلى الذي يشرب نفقته([3]))). أخرجه عن أحمد بن علي بن العلاء حدثنا زياد بن أيوب حدثنا هشيم حدثنا زكريا عن الشعبي عن أبي هريرة. وهو قول أحمد وإسحاق: أن المرتهن ينتفع من الرهن بالحلب والركوب بقدر النفقة. وقال أبو ثور: إذا كان الراهن ينفق عليه لم ينتفع به المرتهن. وان كان الراهن لا ينفق عليه وتركه في يد المرتهن فأنفق عليه فله ركوبه واستخدام العبد. وقاله الأوزاعي والليث.

الحديث الثاني خرجه الدار قطني أيضا، وفي إسناده مقال ويأتي بيانه – من حديث إسماعيل بن عياش عن ابن أبي ذئب عن الزهري عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ((لا يغلق الرهن([4])ولصاحبه غنمه([5])وعليه

١- (قلت): البخاري (٢٥١٢). ولكن بلفظ: ((الرهن (الظهر) يركب)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٥٢٦).

٣- (قلت): قال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٤- غلق الرهن: من فعل الجاهلية أن الراهن إذا لم يؤد ما عليه في الوقت المعين ملك المرتهن الرهن، فأبطله الإسلام. (عن النهاية).

٥- (قلت): قَالَ الشَّافِعِيُ: غُنْمُهُ: زِيَادَتُهُ، وَغُرْمُهُ: هَلاكُهُ وَنَقْصُهُ.

غرمه([1]))). وهو قول الشافعي والشعبي وابن سيرين. وهو قول مالك وأصحابه. قال الشافعي: منفعة الرهن للراهن، ونفقته عليه، والمرتهن لا ينتفع بشيء من الرهن خلا الإحفاظ للوثيقة. قال الخطابي: وهو أولى الأقوال وأصحها، بدليل قوله ﷺ: ((لا يغلق الرَّهن من صاحبه الذي رهنه له غنمه وعليه غرمه)). قال الخطابي: وقوله: ((من صاحبه)): أي (لصاحبه). والعرب تضع (من) موضع اللام، كقولهم: أمِن أمِّ أوفى دمنة لم تكلم ...

قلت: قد جاء صريحًا (لصاحبه) فلا حاجة للتأويل. وقال الطحاوي: كان ذلك وقت كون الرِّبا مباحًا، ولم ينه عن قرض جرَّ منفعة، ولا عن أخذ الشيء بالشيء وإن كانا غير متساويين، ثم حرِّم الربا بعد ذلك. وقد أجمعت الأمة على أن الأمة المرهونة لا يجوز للرَّاهن أن يطأها، فكذلك لا يجوز له خدمتها. وقد قال الشعبي: لا ينتفع من الرهن بشيء. فهذا الشعبي روى الحديث وأفتى بخلافه، ولا يجوز عنده ذلك إلَّا وهو منسوخ. وقال ابن عبد البر وقد أجمعوا أن لبن الرهن وظهره للرَّاهن. ولا يخلو من أن يكون احتلاب المرتهن له بإذن الراهن أو بغير إذنه، فإن كان بغير إذنه ففي حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: ((لا يحتلبن أحد ماشية أحد إلَّا بإذنه([2]))، ما يردُّه ويقضي بنسخه. وإن كان بإذنه ففي الأصول المجتمع عليها في تحريم المجهول والغرر وبيع ما ليس عندك وبيع ما لم يخلق، ما يردُّه أيضًا، فإن ذلك كان قبل نزول تحريم الربا. والله أعلم.

وقال ابن خويز منداد: ولو شرط المرتهن الانتفاع بالرهن فلذلك حالتان: إن كان من قرض لم يجز، وإن كان من بيع أو إجارة جاز، لأنه يصير بائعًا للسلعة بالثمن المذكور ومنافع الرَّهن مدَّة معلومة فكأنه بيع وإجارة، وأما في القرض فلأنه يصير قرضًا جرَّ منفعة، ولأن موضوع القرض أن يكون قربة، فإذا دخله نفع صار زيادة في الجنس وذلك ربا.

ولا يجوز غلق الرهن، وهو أن يشترط المرتهن أنه له بحقِّه إن لم يأته به عند أجله. وكان هذا من فعل الجاهلية فأبطله النبي ﷺ بقوله: ((لا يغلق الرهن)) هكذا قيَّدناه برفع القاف على الخبر، أي: (ليس يغلق الرهن). تقول: أغلقت الباب فهو مغلق. وغلق الرَّهن في يد مرتهنه إذا لم يُفْتَكَّ.

ونماء الرهن داخل معه إن كان لا يتميز كالسُّمن، أو كان نسلًا كالولادة والنتاج، وفي معناه فسيل النخل، وما عدا ذلك من غلة وثمرة ولبن وصوف فلا يدخل فيه إلَّا أن يشترطه. والفرق بينهما أن الأولاد تبع في الزكاة للأمهات، وليس كذلك

١- (قلت): وفي سنن الدار قطني: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ صَاعِدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِمْرَانَ الْعَابِدِىُّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ زِيَادِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ الزُّهْرِىِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لاَ يَغْلَقُ الرَّهْنُ لَهُ غُنْمُهُ وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ)). زِيَادُ بْنُ سَعْدٍ أَحَدُ الْحُفَّاظِ الثِّقَاتِ وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ مُتَّصِلٌ.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٢٥٢٢)، وقال: حديث ابن عمر: ((لا يحلب أحد ماشية أحد إلا بإذنه)) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢/٩٥)، ومسلم (١٣٧/٥)، وأبو داود (٢٦٢٣)، والبيهقي (٣٥٨/٩) كلهم عن مالك، وهو فى الموطأ (١٧/٩٧١/٢) عن نافع عن ابن عمر مرفوعا: ((لا يحلبن أحد ماشية أحد إلَّا بإذنه، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته، فتكسر خزانته، فينقل طعامه، إنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعمتهم، فلا يحلبن أحدًا ماشية أحد إلَّا بإذنه)).

وأخرجه أحمد (٦/٢) عن أيوب عن نافع به. ثم أخرجه (٥٧/٢) عن عبيد الله عن نافع به مختصرا بلفظ: ((نهى أن تحتلب المواشي من غير إذن أهلها)).

الأصواف والألبان وثمر الأشجار، لأنها ليست تبعًا للأمهات في الزكاة ولا هي في صورها ولا في معناها ولا تقوم معها، فلها حكم نفسها لا حكم الأصل خلاف الولد والنتاج. والله أعلم بصواب ذلك.

ورهن من أحاط الدَّين بماله جائز ما لم يفلس، ويكون المرتهن أحق بالرهن من الغرماء، قاله مالك وجماعة من الناس.

قال ابن العثيمين: {فإن أمن بعضكم بعضًا}: أي اتَّخذه أمينًا؛ بمعنى أنه وثق منه أن لا ينكر، ولا يبخس، ولا يغيِّر؛ والجملة شرطية جوابها قوله تعالى: {فليؤد الذي اؤتمن أمانته}؛ والفاء في {فليؤد} رابطة لجواب الشرط؛ وهو قوله تعالى: {إن أمن ... }؛ وجاءت الفاء رابطة مع أن جواب الشرط فعل مضارع؛ لأنه مقترن بلام الأمر الدالَّة على الطلب؛ ومتى كانت الجملة الجزائية طلبية وجب اقترانها بالفاء؛ واللام هنا جاءت ساكنة لوقوعها بعد الفاء؛ ولام الأمر تقع ساكنة إذا وقعت بعد الفاء، أو الواو، أو (ثم)؛ بخلاف لام التعليل فإنها تكون مكسورة على كل حال؛ و{اؤتمن} فعل ماض مبني لما لم يسمَّ فاعله؛ و{أمانته}: أي ما ائتمن عليه.

{وليتَّق الله ربه}؛ {يتَّق} مجزومة بحذف حرف العلة – وهو الياء؛ والكسرة دليل عليها – وهنا أردف الاسم الأعظم: {الله} بقوله تعالى: {ربه} تحذيرًا من المخالفة؛ لأن {الرب} هو الخالق المالك المدبِّر؛ فاخشَ هذا الرب الذي هو إلهك أن تخالف تقواه([1]).

قال السعدي: فما كان صاحب الحق آمنًا من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن، فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملًا غير ظالم له، ولا باخس حقَّه، {وليتَّق الله ربه} في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظَّن بالإحسان.

قال أبو زهرة: وفى النص الكريم عدَّة إشارات بيانية، تتضافر في مجموعها، وتؤكِّد وجوب أداء الأمانة.

أولها: في قوله تعالى: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} فإن التعبير بـ{أَمِنَ} بدل (أعطى)، أو (أودع)، إشارة إلى الجانب الذي أعتمد عليه وهو خُلق الأمانة في صاحبه، فهو لَا يرى فيه إلَّا جانبًا مأمونًا لَا يتوقَّع منه شرًّا من جحود أو خيانة.

ثانيها: ذكر الظاهر بدل الضمير في قوله تعالى: {فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ}، فإن التَّعبير بالموصول هنا يشير إلى علَّة وجوب الأداء، أو إلى توثيق الأداء؛ لأنه ائتمنه، فحقٌّ عليه أن يؤدي الأمانة.

ثالثها: في إضافة الأمانة في قوله تعالى: {أَمَانَتَهُ}، فإن الأمانة هي في الواقع للدَّائن أو المعطي من حيث إنه مالك للدَّين وللوديعة ونحوها، ولكن أضيفت إلى المَدين من حيث إنَّها عبء عليه يجب أن يُؤَدَّى، وبأدائه يزيل ما عليه من عبء فإن الأمانة عبء ثقيل لمن عرف حقَّها.

---

١ – (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرب} مفصلًا عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

رابعها: قوله تعالى: {وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ} فإذا كان صاحب الحق لم يوثّق حقَّه بكتاب أو شهادة أو رهن، فإن التَّقوى هي الوثيقة الكبرى التي لَا تعدلها وثيقة.

وقوله تعالى: {وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ} فيه طلب للتَّقوى مؤكَّد بالأمر، وبالتَّعبير بلفظ الجلالة الذي يربِّي ذكره الهابة في النفس، إذ يحسُّ القارئ بعظمة الخالق وجبروته وألوهيته، ومؤكَّد أيضًا بالتَّعبير بربِّه؛ إذ فيه إشارة إلى أنه خالقه وبارئه ومربيه، والمهيمن الدائم عليه.

قال ابن العثيمين: {ولا تكتموا الشهادة}؛ {لا} ناهية؛ و(الكتمان) الإخفاء؛ و{الشهادة}: ما شهد به الإنسان؛ أي لا تخفوا ما شهدتُم به لا في أصله، ولا في وصفه؛ في أصله بأن ينكر الشهادة رأسًا؛ وفي وصفه بأن يزيد فيها أو ينقص.

قال السعدي: {ولا تكتموا الشهادة}، لأن الحق مبنيٌّ عليها لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويترتَّب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: {ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم}.

قال ابن العثيمين: {ومن يكتمها فإنه آثم قلبه}: أي من يخفيها أصلًا، أو وصفًا، فقد وقع قلبه في الإثم؛ وإنَّما أضاف الإثم إلى القلب؛ لأن الشهادة أمر خفي؛ فالإنسان قد يكتمها، ولا يعلم بها؛ فالأمر هنا راجع إلى القلب؛ ولأن القلب عليه مدار الصلاح، كما قال النبي ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب[١])).

قال أبو زهرة: وهنا يسأل سائل: إن ما يهمُّ به القلب لَا يحاسب عليه الشخص؛ ألا ترى أن من همَّ بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شيء، فكيف يكون إثم في عدم أداء الشهادة، وهي ليست إلَّا عملًا قلبيًّا لَا أثر له في الجوارح؟ والجواب عن ذلك: أن أعمال القلب ليست معفاة من الإثم دائمًا، إنَّما الذي يعفى من العقاب ما يجول بخاطره ويتمنَّاه من غير أن يكون له أثر في الجوارح، أما ما يعتزمه ويصمِّم عليه، ويتَّجه إليه، ولكن يفوت التَّمام لأمر خارج عن إرادته وليس له قبل به، كمن يعتزم قتل شخص ويذهب إليه ليفترسه، وقد عقد النيَّة، واستحصد العزيمة، ولكن أفلت من يده، أفلا يكون ثمَّة إثم؟ وأحيانًا تكون عزيمة القلب وحدها هي موضع المؤاخذة، وذلك إذا كان عمل القلب كفّ الجوارح عن العمل في موضع يجب فيه العمل، فترك الواجبات كلها موضع مؤاخذة، ومن ذلك ترك الشهادة. وفي الشرع الإسلامي جرائم تسمَّى جرائم التَّرك، وهي الجرائم التي يكون الجزاء فيها ليس على الفعل، ولكن على ترك واجب، كمن يرى شخصًا يموت جوعًا

١- (قلت): البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ومعه مال ولا يسدُّ غائلة جوعه، وكمن يرى أعمى يتردَّى في بئر ويتركه قاصدًا بالتَّرك أن يموت، وهكذا؛ ومن ذلك النوع كتمان الشهادة، فهو ترك الواجب، وهو إثم وجريمة بسبب ذلك الترك.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}: ختمت الآية الكريمة بهذه الجملة السامية، للوعد والوعيد، ببيان علم الله ذي الجلال والإكرام المنتقم الجبار علمًا دقيقًا بما يعمله كل إنسان؛ يعلم الخير والشر، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تُكِنُّه القلوب، وما يظهر على الجوارح، فيجازي على الإحسان إحسانًا، وعلى السوء سوءًا؛ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره، ومن يأكل أموال الناس بالباطل إنَّما يأكلون في بطونهم نارًا ويصلون سعيرًا.

قال ابن العثيمين: {والله بما تعملون عليم}؛ {ما} هذه موصولة تفيد العموم، وتشمل كل ما يعمله الإنسان من خير أو شر في القلب، أو في الجوارح؛ وقدَّم {بما تعملون} على متعلِّقها لقوة التحذير، وشدَّته؛ فكأنه حصر علمه فيما نعمل؛ فيكون هذا أشدُّ في بيان إحاطته بما نعمل؛ فيتضمَّن قوة التحذير؛ وليس مقتضاه حصر العلم على ما نعمل فقط([١]).

قال السعدي: وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلَّت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

قال القرطبي: روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله([٢])))، وروى النسائي عن ميمونة زوج النبي ﷺ أنها استدانت، فقيل: يا أم المؤمنين، تستدينين وليس عندك وفاء؟ قالت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من أخذ دَينًا وهو يريد أن يؤديه أعانه الله عليه([٣]))). وروى الطحاوي وأبو جعفر الطبري والحارث بن أبي أسامة في مسنده عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تخيفوا الأنفس بعد أمنها)) قالوا: يا رسول الله، وما ذاك؟ قال: ((الدَّين([٤]))). وروى البخاري عن أنس عن النبي ﷺ في دعاء ذكره : ((اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال([٥]))). قال العلماء: ضلع الدين هو الذي لا يجد دائنه من حيث يؤديه. وهو مأخوذ من قول العرب: حمل مضلع أي ثقيل، ودابة مضلع لا تقوى على الحمل، قاله صاحب العين. ولهذا كان ﷺ يتعوذ من المأثم والمغرم، وهو الدَّين. فقيل له: يا رسول

١- (قلت): أنظر معنى أسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٢- (قلت): البخاري (٢٣٨٧).

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: بالجملة فالحديث صحيح بمجموع الطرق.

٤- (قلت): قال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند الإمام أحمد: إسناده حسن من أجل شعيب بن زرعة.

٥- (قلت): البخاري (٢٨٩٣).

الله، ما أكثر ما تتعوَّذ من المغرم؟ فقال: ((إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف([1]))). وأيضًا فربما قد مات ولم يقض الدَّين فيرتهن به كما قال ﷺ: ((نسمة المؤمن مرتهنة في قبره بدينه حتى يقضى عنه([2]))). وكل هذه الأسباب مشائن في الدَّين تذهب جماله وتنقص كماله. والله اعلم.

ولما أمر الله تعالى بالكتب والإشهاد وأخذ الرهان كان ذلك نصًّا قاطعًا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردًّا على الجهلة المتصوفة ورعاعها الذين لا يرون ذلك، فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم، ثم إذا احتاج وافتقر عياله فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظلمتهم، وهذا الفعل مذموم منهي عنه.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ أَخْبَرَنَا سَلَمَةُ بْنُ كَهَيْلٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بِمِنًى يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: ((دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا، وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ))، قَالُوا: لَا نَجِدُ إِلَّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: ((اشْتَرُوهُ فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فإن خيركم أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً([3]))).

وأَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ، أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ السَّرَخْسِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ([4]))).

١- **(قلت):** البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

٢- **(قلت):** لم أجده بهذا اللفظ. ولكن صحح الإمام الألباني حديثًا في المشكاة (٢٩١٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ)). رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيب.

٣- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أبو الوليد هو الطيالسي اسمه هشام بن عبد الملك، شعبة هو ابن الحجاج، أبو سلمة هو ابن عبد الرحمن بن عوف.

- وهو في شرح السنة (٢١٣٠) بهذا الإسناد.

- أخرجه المصنف من طريق البخاري وهو في صحيحه برقم (٢٣٩٠) بهذا الإسناد.

- وأخرجه القضاعي ٩٨٤ من طريق مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ مُحَمَّدِ بن إسماعيل البخاري، عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك، عن شعبة به.

- وأخرجه البخاري ٢٣٠٥ و٢٣٠٦ و٢٣٩٢ و٢٣٩٣ و٢٤٠١ و٢٦٠٦ ومسلم ١٦٠١ والترمذي ١٣٣١ وأحمد ٢/ ٤١٦ و٤٥٦ من طرق من حديث أبي هريرة.

٤- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أبو الزناد اسمه عبد الله بن ذكوان، والأعرج هو عبد الرحمن بن هرمز.

- وهو في شرح السنة (٢١٤٥) بهذا الإسناد.

- وأخرجه المصنف من طريق مالك، وهو في الموطأ (٢/ ٦٧٤) بهذا الإسناد.

ومن طريق مالك أخرجه البخاري ٢٢٨٧ ومسلم ٢٢٨٧ ومسلم ١٥٦٤ وأبو داود ٣٣٤٥ والنسائي ٧/ ٣١٧ وأحمد ٢/ ٣٧٩- ٣٨٠ و٤٦٥ وابن حبان ٥٠٥٣ و٥٠٩٠ والطحاوي في المشكل (٤/ ٨) والبيهقي ٦/ ٧٠.

- وأخرجه الترمذي ١٣٠٨ وابن ماجه ٢٤٠٣ وعبد الرزاق في المصنف (١٥٣٥٦) وأحمد ٢/ ٤٦٣ والطحاوي ١/ ٤١٤ وابن الجارود ٥٦٠ والبيهقي ٦/ ٧٠ من طرق عن أبي الزناد به.

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ الشِّيرَزِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ السَّرَخْسِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((نَعَمْ))، فَلَمَّا أَدْبَرَ نَادَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَوْ أَمَرَ بِهِ، فَنُودِيَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَيْفَ قُلْتَ؟)) فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((نَعَمْ إِلَّا الدَّيْنَ، كَذَلِكَ قَالَ جبريل(١))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنه إذا لم يجد كاتبًا في السفر فإنه يوثق الحق بالرهن المقبوض.

٢- عناية الله عز وجل بحفظ أموال عباده؛ يعني أنه سبحانه وتعالى ذكر حتى هذه الصورة: أن الإنسان إذا داين غيره، ولم يجد كاتبًا فإنه يرتهن رهنًا حفظًا لماله، وخوفًا من النِّزاع، والشقاق في المستقبل.

٣- جواز الرَّهن؛ لقوله تعالى: {فرهان}؛ ولكن ذلك مشروط - حسبما في الآية - بالسفر سواء كان قصيرًا، أو طويلًا؛ وبألّا نجد كاتبًا؛ فهل هذا الشرط معتبَر؟ الجواب: دلَّت السنة على عدم اعتباره: فقد اشترى النبي ﷺ ثلاثين صاعًا من الشعير لأهله، ورهن درعه عند يهودي حتى مات(٢)؛ وهذا يدلُّ على جواز الرهن في الحضر حتى مع وجود الكاتب.

فإذا قال قائل: إذا كان الأمر هكذا فما الجواب عن الآية؟ فالجواب عن الآية أن الله عز وجل ذكر صورة إذا تعذَّر فيها الكاتب فإن صاحب الحق يتوثق لحقه بالرهن المقبوض؛ فذكر هذه الصورة لا على أنها شرط للحكم؛ يعني كأنه قال: إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه؛ وإن كنتم في السفر، وليس عندكم كاتب فرهان مقبوضة.

٤- أن بعض العلماء استدلَّ بهذه الآية على لزوم القبض في الرهن؛ وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال:

- وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٧٩ والبخاري ٢٢٨٨ من طريق عبد الله بن ذكوان، عن الأعرج به.
- وأخرجه البخاري ٢٤٠٠ ومسلم ١٥٦٤ وعبد الرزاق ١٥٣٥٥ وأحمد ٢/ ٢٦٠ والقضاعي ٤٣ والبيهقي ٦/ ٧٠ من طرق عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة به.

١- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

- وهو في شرح السنة (٢١٣٧) بهذا الإسناد.
- أخرجه المصنف من طريق مالك، وهو في الموطأ (٢/ ٤٦١) ومن طريق مالك أخرجه النسائي ٦/ ٣٤ وابن حبان ٤٦٥٤.
- وأخرجه مسلم ١٨٨٥ والترمذي ١٧١٢ والنسائي ٦/ ٣٤- ٣٥ من طريق قتيبة عن اللَّيْثُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سعيد المقبري به.
- وأخرجه مسلم ١٨٨٥ وابن أبي شيبة ٥/ ٣١٠ من طريق يزيد بن هارون، عن يحيى بن سعيد به.
- وأخرجه مسلم ١٨٨٥ والنسائي ٦/ ٣٥ وسعيد بن منصور في سننه ٢٥٥٣ عن محمد بْنِ قَيْسٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن أبي قتادة به.

٢- راجع البخاري ص٢٣٤، كتاب الجهاد، باب ٨٩: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، حديث رقم ٢٩١٦.

القول الأول: أن قبض الرهن شرط لصحته؛ لأن الله جعل القبض وصفًا في الرَّهن؛ والوصف لازم للموصوف.

والقول الثاني: أن القبض شرط للزوم الرَّهن – لا لصحته؛ وعلى هذا القول يكون الرهن صحيحًا – وإن لم يقبض – لكنه ليس بلازم؛ فللرَّاهن أن يتصرَّف فيه بما شاء.

والقول الثالث: أن القبض – أعني قبض الرهن – ليس بشرط لا للصحة، ولا للزوم؛ وإنما ذكر الله القبض في هذه الحال؛ لأن التوثُّق التَّام لا يحصل إلَّا به لكون المتعاقدين في سفر؛ وليس ثمة كاتب، فلا يحصل تمام التوثقة بالرهن إلَّا بقبضه؛ وهذا القول هو الراجح؛ وعليه فالرهن لازم صحيح بمجرَّد عقده – وإن لم يقبض؛ لقول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}[المائدة: ١]، وقوله تعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولًا}[الإسراء: ٣٤]؛ وعلى هذا القول عمل الناس: فترى الرجل يكون راهنًا بيته وهو ساكن فيه، أو راهنًا سيارته وهو يستعملها؛ ولا تستقيم حال الناس إلَّا بذلك.

٥- أنه إذا حصل الائتمان من بعضنا لبعض لم يجب رهن، ولا إشهاد، ولا كتابة؛ لقوله تعالى: {فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته}؛ ولهذا قال كثير من العلماء: إن هذه ناسخة لما سبق في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه}[البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: {وأشهدوا إذا تبايعتم}[البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: {وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا فرهان مقبوضة}؛ والصحيح أنها ليست ناسخة؛ بل مخصِّصة لما سبق.

٦- وجوب أداء الأمانة على من اؤتمن؛ لقوله تعالى: {فليؤد الذي اؤتمن أمانته}؛ فإذا وجب أداء الأمانة حرمت الخيانة.

٧- أنه لو تلفت العين بيد الأمين فإنه لا ضمان عليه ما لم يتعدَّ، أو يفرط؛ لقوله تعالى: {فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته}؛ فسمَّاها الله سبحانه وتعالى أمانة؛ والأمين يده غير متعدِّية؛ فلا يضمن إلَّا إذا حصل تعدٍّ أو تفريط؛ ومن التعدِّي إذا أعطى الإنسان أمانة للحفظ تصرَّف فيها – كما يفعل بعض الناس – ببيع أو شراء أو نحو ذلك؛ وهذا حرام لا يجوز؛ وإذا أردت أن تفعل فاستأذن من صاحبها؛ فإن أذن لك صارت عندك قرضًا.

٨- أنه يجب على هذا الذي اؤتمن ألَّا يغتر بثقة الناس به، فيفرط فيما يجب عليه من أداء الأمانة؛ لقوله تعالى: {وليتَّق الله ربه}؛ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يتَّقي الله: قال تعالى: {وليتَّق الله}، وأردفها بقوله تعالى: {ربه}؛ ففيه فائدة – وهي أن الإنسان في هذه المقامات ينظر إلى مقام الربوبية كما ينظر إلى مقام الألوهية؛ فبنظره إلى مقام الألوهية يفعل هذا تعبُّدًا لله سبحانه وتعالى، وتقرُّبًا له؛ وبنظره إلى مقام الربوبية يحذر المخالفة؛ لأن الرب هو الذي له الخلق، والملك، والتَّدبير؛ فلابدَّ أن يقرن الإنسان بين مقام الألوهية ومقام الربوبية.

٩- إثبات ما دلَّ عليه هذان الاسمان؛ وهما {الله}، و{الرب}؛ فالأول فيه إثبات الألوهية؛ والثاني فيه إثبات الربوبية؛ لأن المعبود لابدَّ أن يكون أهلًا للعبادة؛ والرب لابدَّ أن يكون أهلًا للربوبية؛ ولا يتحقَّق ذلك إلَّا بكمال الصفات؛ ولهذا نقول:

توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ والتوحيدان يستلزمان كمال الأسماء والصفات؛ ولهذا قال إبراهيم ﷺ لأبيه: {يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا}[مريم: ٤٢].

١٠- تحريم كتمان الشهادة؛ يعني إخفاءها سواء كان كتمان أصلها أو وصفها؛ وسواء كان الحامل لها القرابة والغنى؛ أو البعد والفقر؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما ... }[النساء: ١٣٥] الآية.

١١- أن كتم الشهادة من الكبائر؛ لوجود العقوبة الخاصة بها - وهي قوله تعالى: {فإنه آثم قلبه}.

١٢- عظم كتم الشهادة؛ لأنه أضاف الإثم فيها إلى القلب؛ وإذا أثم القلب أثمت الجوارح؛ لقول النبي ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله))؛ وقوله ﷺ: ((التّقوى هاهنا([1]))) وأشار إلى صدره؛ فالتّقوى في القلب، وليست في اللّسان، ولا في الأفعال، ولا في الأحوال؛ فقد يكون الإنسان متّقيًا بفعله متّقيًا بقوله غير متّق بقلبه: تجده بفعله يتّزي بزي المسلم الخالص - من إعفاء اللّحية، والوقار، والسكينة، وكذلك يقول قول المسلم الخالص: (أستغفر الله)، (اللهم اغفر لي)، ويذكر الله، ويكبّر؛ هذه لا شك تقوى في الظاهر؛ والغالب أنها دليل على تقوى الباطن.

١٣- عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل؛ لقوله تعالى: {بما تعملون عليم}؛ فإن {ما} اسم موصول؛ والاسم الموصول يفيد العموم، فيشمل كل ما نعمل من أعمال القلب، وأعمال الجوارح.

إذا قال قائل: ما فائدة التّقديم هنا - إن قيل: لمراعاة الفواصل قلنا: فالنون تأتي في الفواصل كثيرًا، مثل قوله تعالى: {إنه خبير بما تفعلون}[النمل: ٨٨]؛ وإن قيل: للحصر قلنا: لا يصح؛ لأن الله يعلم كل شيء؛ لا يختص علمه بما نعمل فقط؛ فلا وجه للحصر؛ إذًا ما الفائدة؟.

فالجواب: الفائدة شدّة التحذير، والتنبيه، كأنه يقول: لو لم يعلم شيئًا - وحاشاه من ذلك - لكان عالمًا بعملنا؛ فمن قوة التّحذير والإنذار جاء الكلام على وجه الحصر الإضافي.

١٤- إذا قال قائل: هل نستفيد من هذا أن من أسماء الله {العليم}؟ قلنا: ربما نقول ذلك؛ وقد لا نقوله؛ قد نقول: إن الاسم إذا قيّد بمتعلّق فإنه ينقلب إلى وصف، فيكون (عليم بكذا) ليس كقوله تعالى: {وهو السميع العليم}[البقرة: ١٣٧]؛ لأن هذا قيد: (عليم بـ ...)، فكان وصفًا، وليس اسمًا؛ أما لو قال تعالى: {وهو العليم الحكيم}[الزخرف: ٨٤] لكان هذا اسمًا بلا شك.

١- (قلت): مسلم (٢٥٦٤). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا)) وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ)).

١٥- التَّحذير من المخالفة بكون الله سبحانه وتعالى عالمًا بما نعمل؛ وجه التَّحذير: تقديم المعمول.

١٦- الرَّد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم بأفعال العباد إلَّا إذا وقعت؛ فإن قوله تعالى: {بما تعملون عليم}، يتضمَّن ما قد عملناه بالفعل، وما سنعمله.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

قال أبو زهرة: في هذه الجملة السامية بيان لشمول ملك الله سبحانه وتعالى، وفي ذكر هذا الشمول بعد الآيات التي بينت أحكام الأموال ببيان مصارف البر، ومواضع التحريم، وطرق التعامل، وما يوجد الثقة – إشارة إلى معان عامة وخاصة: أما العامة فهي بيان أن ما في يد الإنسان عارية مُستردَّة، وأن المالك في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، فلا يغتر ذو مال بماله، ولا تذهب به النهمة إلى طلبه من غير حلال، فإن يده زائلة عنه لَا محالة، وعليه أن يجمل في الطلب، وأن ينتهز فرصة وجود المال بين يديه ليكثر من البر وفعل الخير، فهو الباقي والدائم، وأنه سبحانه وتعالى المسيطر على كل شيء المعطي الوهاب، فهو الذي أعطى ذا المال وبسط له الرزق، وهو الذي قدر رزق الفقير، فليس لغني أن يعتز بغناه، ولا ذي فقر أن يذل لفقره، فالعزة لله وحده، والخضوع له وحده؛ وإنه سبحانه إذا كان المالك لكل ما في السماوات والأرض، فله وحده العقاب والثواب، وليس لأحد من عباده إلا ما ينعم به عليه من نعم.

وأما الإشارة إلى المعنى الخاص، فهو أنه سبحانه وتعالى ذكر في الآية السابقة أنه عليم بكل ما يعملون؛ وإن من أسباب هذا العلم الدقيق أنه مالك لكل ما في السماوات والأرض، لأنه خالق ما في السماوات والأرض (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)، وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليما بكل ما يعمله الناس، ومالكا لكل ما في السماوات وما في الأرض فإنه سبحانه وتعالى يحاسب على كل ما يفعله الإنسان سواء أكان من حركات النفس أم كان من حركات الجوارح، ولذا قال سبحانه: {وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ}.

قال ابن العثيمين: {لله ما في السموات وما في الأرض} جملة خبرية قدّم فيها الخبر لإفادة الحصر؛ يعني: أن كل شيء في السموات أو في الأرض فهو لله خلقًا، وملكًا، وتدبيرًا؛ وليس لأحد غيره فيه ملك.

{وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه}؛ جملة شرطية جوابها: {يحاسبكم به الله}.

وقوله تعالى: {وإن تبدوا}: أي وإن تظهروا؛ {ما في أنفسكم}: أي ما في قلوبكم؛ {أو تخفوه}: يعني تسروه، فلا يطَّلع عليه أحد.

{يحاسبكم به الله}: أي يطلِعكم عليه على وجه المحاسبة؛ ولا يلزم من المحاسبة العقوبة؛ ولهذا قال تعالى: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}.

قوله تعالى: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} فيها قراءتان؛ قراءة بالسكون؛ وقراءة بالرفع؛ وجه قراءة السكون أنه معطوف على {يحاسبكم} الذي هو جواب الشرط؛ والمعطوف على المجزوم مجزوم؛ ووجه قراءة الرفع أنه على سبيل الاستئناف؛ فالفاء استئنافية تفيد قطع الجملة التي بعدها عما قبلها؛ و(المغفرة) ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأن مادة (غفر) مأخوذة من المغفر – وهو ما يلبسه المقاتل على رأسه ليتّقي بها السهام؛ وهو جامع بين ستر الرأس، والوقاية؛ و {يعذب من يشاء}: أي يعاقب.

{والله على كل شيء قدير}: أي يوجد المعدوم، ويعدم الموجود بدون عجز؛ لقوله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا}[فاطر: ٤٤].

قال أبو زهرة: هذا ختام الآية الكريمة، وهو في بيان شمول قدرة الله تعالى وعموم إرادته سبحانه، فهو القادر على الثواب والعقاب، وهو القاهر فوق عباده، ولا سلطان فوق سلطانه، وهو الذي يلهم التوفيق لمن كتب له التوفيق، وهو الذي يترك من يقع في غواية الشيطان، وهو الذي يسهّل التوبة لمن يتوب، غافر الذَّنب، قابل التَّوب، شديد العقاب؛ فالإنسان وما يملك، وخواطره وهواجسه، وأحاسيسه، ونيَّاته واعتزاماته؛ كل ذلك تحت سلطان القادر، وقوة القاهر.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١٢٩: اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَبَارَكَ، خَوَاتِيمَ [سُورَةِ الْبَقَرَةِ] مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُؤْتَ مِنْهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَفَهِمَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ، وَقَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الْخَمْسِ، وَالرَّدِّ عَلَى كُلِّ مُبْطِلٍ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ كَمَالِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذَا النَّبِيِّ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وَمَحَبَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ وَتَفْضِيلِهِ إيَّاهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، فَلْيَهْنَهُ الْعِلْمُ، وَلَوْ ذَهَبْنَا نَسْتَوْعِبُ الْكَلَامَ فِيهَا لَخَرَجْنَا عَنْ مَقْصُودِ الْكِتَابِ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ كليمات يَسِيرَةٍ تُشِيرُ إلَى بَعْضِ ذَلِكَ فَنَقُولُ:

لَمَّا كَانَتْ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ] سَنَامَ الْقُرْآنِ، وَأَكْثَرَ سُوَرِهِ أَحْكَامًا، وَأَجْمَعَهَا لِقَوَاعِدِ الدِّينِ، أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى ذِكْرِ أَقْسَامِ الْخَلْقِ؛ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكُفَّارِ، وَالْمُنَافِقِينَ، وَذِكْرِ أَوْصَافِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

وَذِكْرِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى إثْبَاتِ الْخَالِقِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَذِكْرِ نِعَمِهِ، وَإِثْبَاتِ نُبُوَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَتَقْرِيرِ الْمَعَادِ، وَذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ.

ثُمَّ ذِكْرِ تَخْلِيقِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ.

ثُمَّ ذِكْرِ خَلْقِ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ بِالتَّعْلِيمِ وَإِسْجَادِ مَلَائِكَتِهِ لَهُ، وَإِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ ثُمَّ ذِكْرِ مِحْنَتِهِ مَعَ إِبْلِيسَ، وَذِكْرِ حُسْنِ عَاقِبَةِ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ ذِكْرِ (الْمُنَاظَرَةِ) مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ، وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، ثُمَّ ذِكْرِ النَّصَارَى وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَتَقْرِيرِ عُبُودِيَّةِ الْمَسِيحِ، ثُمَّ تَقْرِيرِ النَّسْخِ، وَالْحِكْمَةِ فِي وُقُوعِهِ.

ثُمَّ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَتَقْرِيرِ تَعْظِيمِهِ، وَذِكْرِ بَانِيهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَقْرِيرِ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَسْفِيهِ مَنْ رَغِبَ عَنْهَا، وَوَصِيَّةِ بَنِيهِ بِهَا وَهَكَذَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَخَتَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِآيَاتِ جَوَامِعَ مُقَرِّرَةٍ لِجَمِيعِ مَضْمُونِ السُّورَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

فَأَخْبَرَ – تَعَالَى – أَنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مُلْكُهُ وَحْدَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مُشَارِكٌ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ انْفِرَادَهُ بِالْمُلْكِ الْحَقِّ، وَالْمُلْكِ الْعَامِّ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ رُبُوبِيَّتِهِ وَتَوْحِيدَ إِلَهِيَّتِهِ، فَتَضَمَّنَ نَفْيَ الْوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالشَّرِيكِ؛ لِأَنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِذَا كَانَ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِمْ وَلَدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ وَلَا شَرِيكٌ.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ سُبْحَانَهُ بِعَيْنِ هَذَا الدَّلِيلِ فِي [سُورَةِ الْأَنْعَامِ]، وَ[سُورَةِ مَرْيَمَ]، فَقَالَ تَعَالَى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[الأنعام: ١٠١]، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}[مريم: ٩٢، ٩٣]، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّغْبَةَ وَالسُّؤَالَ وَالطَّلَبَ وَالِافْتِقَارَ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَيْهِ وَحْدَهُ؛ إِذْ هُوَ الْمَالِكُ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَلَمَّا كَانَ تَصَرُّفُهُ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ تَصَرُّفٌ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مُلْكُهُ، فَمَا تَصَرَّفَ خَلْقًا وَأَمْرًا إِلَّا فِي مُلْكِهِ الْحَقِيقِيِّ، وَكَانَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ مُشْتَمِلَةً مِنَ الْأَمْرِ وَالْخَلْقِ عَلَى مَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْهِ سُورَةٌ غَيْرُهَا – أَخْبَرَ تَعَالَى – أَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُ فِي مُلْكِهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} فَهَذَا مُتَضَمِّنٌ لِكَمَالِ عِلْمِهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بِسَرَائِرِ عِبَادِهِ وَظَوَاهِرِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِهِ ، كَمَا لَمْ يَخْرُجْ شَيْءٌ مِمَّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَنْ مُلْكِهِ، فَعِلْمُهُ عَامٌّ وَمُلْكُهُ عَامٌّ.

ثُمَّ أَخْبَرَ – تَعَالَى – عَنْ مُحَاسَبَتِهِ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَهِيَ تَعْرِيفُهُمْ مَا أَبْدَوْهُ أَوْ أَخْفَوْهُ، فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ عِلْمَهُ بِهِمْ وَتَعْرِيفَهُمْ إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ قِيَامَهُ عَلَيْهِمْ بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ فَضْلًا، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ عَدْلًا، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ الْمُسْتَلْزِمَ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، الْمُسْتَلْزِمِ لِلرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١)}، فَتضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ قُدْرَتِهِ أَلْبَتَّةَ، وَأَنَّ كُلَّ مَقْدُورٍ وَاقِعٌ بِقَدَرِهِ، فَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الْمَجُوسِ الثنوية، وَالْفَلَاسِفَةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ أَخْرَجَ شَيْئًا مِنَ الْمَقْدُورَاتِ عَنْ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ – وَهُمْ طَوَائِفُ كَثِيرُونَ.

فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ إِثْبَاتَ التَّوْحِيدِ، وَإِثْبَاتَ الْعِلْمِ بِالْجُزْئِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ، وَإِثْبَاتَ الشَّرَائِعِ وَالنُّبُوَّاتِ، وَإِثْبَاتَ الْمَعَادِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَقِيَامِ الرَّبِّ عَلَى خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، وَإِثْبَاتَ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَعُمُومِهَا، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُدُوثَ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ؛ لِأَنَّ الْقَدِيمَ لَا يَكُونُ مَقْدُورًا وَلَا مَفْعُولًا.

ثُمَّ إِنَّ إِثْبَاتَ كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ سَائِرِ صِفَاتِهِ الْعُلَى، وَلَهُ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ اسْمٌ حَسَنٌ، فَيَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَكَمَالُ الْقُدْرَةِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ مَا يُضَادُّ كَمَالِهِ، فَيَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَنِ الظُّلْمِ الْمُنَافِي لِكَمَالِ غِنَاهُ وَكَمَالِ عِلْمِهِ؛ إِذْ الظُّلْمُ إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ مُحْتَاجٍ أَوْ جَاهِلٍ، وَأَمَّا الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ مِنْهُ الظُّلْمُ، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَجْزُ الْمُنَافِي لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَالْجَهْلُ الْمُنَافِي لِكَمَالِ عِلْمِهِ.

فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ هَذِهِ الْمَعَارِفَ كُلَّهَا بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ، وَأَفْصَحِ لَفْظٍ، وَأَوْضَحِ مَعْنًى.

وَقَدْ عَرَفْت بِهَذَا أَنَّ الْآيَةَ لَا تَقْتَضِي الْعِقَابَ عَلَى خَوَاطِرِ النُّفُوسِ الْمُجَرَّدَةِ؛ بَلْ إِنَّمَا تَقْتَضِي مُحَاسَبَةَ الرَّبِّ عَبْدَهُ بِهَا، وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الْعِقَابِ، وَالْأَعَمُّ لَا يَسْتَلْزِمُ الْأَخَصَّ، وَبَعْدَ مُحَاسَبَتِهِ بِهَا يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَعَلَى هَذَا فَالْآيَةُ مُحْكَمَةٌ لَا نَسْخَ فِيهَا، وَمَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: نَسَخَهَا مَا بَعْدَهَا فَمُرَادُهُ بَيَانُ مَعْنَاهَا وَالْمُرَادِ مِنْهَا، وَذَلِكَ يُسَمَّى نَسْخًا فِي لِسَانِ السَّلَفِ ، كَمَا يُسَمُّونَ الِاسْتِثْنَاءَ نَسْخًا.

قال ابن العثيمين: ولمَّا نزلت على رسول الله ﷺ: {لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير} اشتدَّ ذلك على الصحابة، فأتَوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الرُّكب، فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها؛ قال رسول الله ﷺ: ((أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا! بل قولوا: {سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير})). قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير؛ فلمَّا اقترأها القوم ذلَّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[البقرة: ٢٨٥]؛ فلمَّا فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: {لا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن

١– (قلت): أنظر تفسير {إن الله على كل شيء قدير} عند تفسير الآية (٢٠، ١٠٦) من سورة البقرة، والآية (١٨٩) من سورة آل عمران.
– وانظر معنى إسم الله {القدير} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة.

نسينا أو أخطأنا} قال تعالى: ((نعم))؛ {ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا} قال تعالى: ((نعم))؛ {ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به} قال تعالى: ((نعم))؛ {واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} قال تعالى: ((نعم([١])))).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١٠٠: وَلِهَذَا قَالَ كَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: إنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا}، كَمَا نُقِلَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عُمَرَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَالْحَسَنِ، وَالشَّعْبِيِّ، وَابْنِ سِيرِين، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وقتادة، وَعَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، والسدي، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَمُقَاتِلٍ، وَالْكَلْبِيِّ، وَابْنِ زَيْدٍ، وَنُقِلَ عَنْ آخَرِينَ أَنَّهَا لَيْستْ مَنْسُوخَةً، بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ فِي الْمُحَاسَبَةِ عَلَى الْعُمُومِ، فَيَأْخُذُ مِنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، كَمَا نُقِلَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَالْحَسَنِ، وَاخْتَارَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى، وَقَالُوا: هَذَا خَبَرٌ وَالْأَخْبَارُ لَا تُنْسَخُ.

وفَصْلُ الْخِطَابِ: أَنَّ لَفْظَ (النَّسخِ) مُجْمَلٌ، فَالسَّلَفُ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا يُظَنُّ دَلَالَةُ الْآيَةِ عَلَيْهِ، مِنْ عُمُومٍ أَوْ إطْلَاقٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ مَنْ قَالَ: إنَّ قَوْلَهُ: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}[آل عمران: ١٠٢]، {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}[الحج: ٧٨]، نُسِخَ بِقَوْلِهِ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}[التغابن: ١٦]، وَلَيْسَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ تَنَاقُضٌ، لَكِنْ قَدْ يَفْهَمُ بَعْضَ النَّاسِ مِنْ قَوْلِهِ: {حَقَّ تُقَاتِهِ} و{حَقَّ جِهَادِهِ} الْأَمْرَ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُهُ الْعَبْدُ فَيَنْسَخُ مَا فَهِمَهُ هَذَا، كَمَا يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ وَيُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسْخُ ذَلِكَ نَسْخَ مَا أَنْزَلَهُ، بَلْ نَسْخُ مَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ، إمَّا مِنْ الْأَنْفُسِ أَوْ مِنْ الْأَسْمَاعِ أَوْ مِنْ اللِّسَانِ.

وَكَذَلِكَ يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يَقَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ فَهْمٍ مَعْنًى، وَإِنْ كَانَتْ الْآيَةُ لَمْ تَدُلَّ عَلَيْهِ لَكِنَّهُ مُحْتَمَلٌ وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ} الْآيَةَ إنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُ بِمَا فِي النُّفُوسِ، لَا عَلَى أَنَّهُ يُعَاقِبُ عَلَى كُلِّ مَا فِي النُّفُوسِ، وَقَوْلُهُ: {لِمَنْ يَشَاءُ} يَقْتَضِي أَنَّ الْأَمْرَ إلَيْهِ فِي الْمَغْفِرَةِ وَالْعَذَابِ لَا إلَى غَيْرِهِ.

وَلَا يَقْتَضِي أَنَّهُ يَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ بِلَا حِكْمَةٍ وَلَا عَدْلٍ، كَمَا قَدْ يَظُنُّهُ مَنْ يَظُنُّهُ مِنْ النَّاسِ، حَتَّى يُجَوِّزُوا أَنَّهُ يُعَذِّبُ عَلَى الْأَمْرِ الْيَسِيرِ مِنْ السَّيِّئَاتِ مَعَ كَثْرَةِ الْحَسَنَاتِ وَعِظَمِهَا، وَأَنَّ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ لَهُمَا حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ يَغْفِرُ لِأَحَدِهِمَا مَعَ كَثْرَةِ سَيِّئَاتِهِ وَقِلَّةِ حَسَنَاتِهِ، وَيُعَاقِبُ الْآخر عَلَى السَّيِّئَةِ الْوَاحِدَةِ مَعَ كَثْرَةِ حَسَنَاتِهِ، وَيَجْعَلُ دَرَجَةَ ذَاكَ فِي الْجَنَّةِ فَوْقَ دَرَجَةِ الثَّانِي.

إلى أن قال رحمه الله: والْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ قَوْله تَعَالَى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} حَقٌّ، وَالنَّسْخُ فِيهَا هُوَ رَفْعُ فَهْمِ مَنْ فَهِمَ مِنْ الْآيَةِ مَا لَمْ تَدُلَّ عَلَيْهِ، فَمَنْ فَهِمَ أَنَّ اللَّهَ يُكَلِّفُ نَفْسًا مَا لَا تَسَعُهُ فَقَدْ نَسَخَ اللَّهُ فَهْمَهُ وَظَنَّهُ، وَمَنْ فَهِمَ مِنْهَا أَنَّ الْمَغْفِرَةَ وَالْعَذَابَ بِلَا حِكْمَةٍ وَعَدْلٍ فَقَدْ نَسَخَ فَهْمَهُ وَظَنَّهُ، فَقَوْلُهُ: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا

١- أخرجه مسلم ص٦٩٩، كتاب الإيمان، باب ٥٧: بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس ... ، حديث رقم ٣٢٩ [١٩٩] ١٢٥.

وُسْعَهَا} رَدٌّ لِلْأَوَّلِ، وَقَوْلُهُ: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} رَدٌّ لِلثَّانِي، وَقَوْلُهُ: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} كَقَوْلِهِ فِي آلِ عِمْرَانَ: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[آل عمران: ١٢٩]، وَقَوْلُهُ: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[المائدة: ٤٠]، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَدْ عَلَّمَنَا أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} الْآيَةَ.

وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – يُحَاسِبُ بِمَا فِي النُّفُوسِ، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ: زِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا. والْمُحَاسَبَةُ تَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ يُحْسَبُ وَيُحْصَى.

وَأَمَّا الْمَغْفِرَةُ وَالْعَذَابُ، فَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ الْكُفْرُ وَبُغْضُ الرَّسُولِ وَبُغْضُ مَا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ كَافِرٌ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَدْ عَفَا اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ – وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا الَّذِينَ لَمْ يَرْتَابُوا – عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَا تَتَكَلَّمُ بِهِ أَوْ تَعْمَلُ، كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ([1])، وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: ((أَنَّ الَّذِي يَهِمُّ بِالْحَسَنَةِ تُكْتَبُ لَهُ، وَالَّذِي يَهِمُّ بِالسَّيِّئَةِ لَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا([2]))، إذَا كَانَ مُؤْمِنًا مِنْ عَادَتِهِ عَمَلُ الْحَسَنَاتِ وَتَرْكُ السَّيِّئَاتِ، فَإِنْ تَرَكَ السَّيِّئَةَ لِلَّهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِذَا أَبْدَى الْعَبْدُ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ الشَّرِّ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ صَارَ مِنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، وَإِنْ أَخْفَى ذَلِكَ وَكَانَ مَا أَخْفَاهُ مُتَضَمِّنًا لِتَرْكِ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالرَّسُولِ مِثْلُ الشَّكِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ أَوْ بُغْضِهِ كَانَ مُعَاقَبًا عَلَى مَا أَخْفَاهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ الْإِيمَانَ الَّذِي لَا نَجَاةَ وَلَا سَعَادَةَ إلَّا بِهِ، وَأَمَّا إنْ كَانَ وَسْوَاسًا وَالْعَبْدُ يَكْرَهُهُ فَهَذَا صَرِيحُ الْإِيمَانِ، كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الصَّحِيحِ.

وَهَذِهِ (الْوَسْوَسَةُ) هِيَ مِمَّا يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ، فَإِذَا كَرِهَهُ الْعَبْدُ وَنَفَاهُ كَانَتْ كَرَاهَتُهُ صَرِيحَ الْإِيمَانِ، وَقَدْ خَافَ مَنْ خَافَ مِنْ الصَّحَابَةِ مِنْ الْعُقُوبَةِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا}.

وَ(الْوُسْعُ) فِعْلٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، أَيْ مَا يَسَعُهُ لَا يُكَلِّفُهَا مَا تُضِيقُ عَنْهُ فَلَا تَسَعُهُ، وَهُوَ الْمَقْدُورُ عَلَيْهِ الْمُسْتَطَاعُ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إنَّ " الْوُسْعَ " اسْمٌ لِمَا يَسَعُ الْإِنْسَانَ وَلَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ بَلْ مَا يَسَعُ الْإِنْسَانَ هُوَ مُبَاحٌ لَهُ، وَمَا لَمْ يَسَعْهُ لَيْسَ مَأْمُورًا بِهِ فَمَا يَسَعُهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِهِ وَأَمَّا مَا لَا يَسَعُهُ فَهُوَ الْمُبَاحُ يُقَالُ: يَسَعُنِي أَنْ أَفْعَلَ كَذَا، وَلَا يَسَعُنِي أَنْ أَفْعَلَ كَذَا، وَالْمُبَاحُ هُوَ الْوَاسِعُ، وَمِنْهُ بَاحَةُ الدَّارِ، فَالْمُبَاحُ لَك أَنْ تَفْعَلَهُ هُوَ يَسَعُك وَلَا تَخْرُجُ عَنْهُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: رَحِمَ اللَّهُ مِنْ وَسِعَتْهُ

١– البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (٢٠١/١٢٧).

٢– البخاري في الرقاق (٦٤٩١)، ومسلم في الإيمان (٢٠٧/١٣١) كلاهما عن ابن عباس، والحديث جاء من طرق أخرى عن أبي هريرة.

السُّنَّةُ فَلَمْ يَتعدَّهَا إِلَى الْبِدْعَةِ، أَيْ: فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمَا أَبَاحَهُ مَا يَكْفِي الْمُؤْمِنَ الْمُتَّبِعَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُخْرَجَ عَنْهُ إِلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ.

وَأَمَّا مَا كُلِّفت بِهِ فَهُوَ مَا أُمِرْت بِفِعْلِه، وَذَلِكَ يَكُونُ مِمَّا تَسَعُهُ أَنْتَ لَا مِمَّا يَسَعُك هُوَ، وَقَدْ يُقَالُ: لَا يَسَعُنِي تَرْكُهُ؛ بَلْ تَرْكُهُ مُحَرَّمٌ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا}[البقرة: ١٨٧]، وَهُوَ أَوَّلُ الْحَرَامِ، وَقَالَ: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا}[البقرة: ١٢٩]، وَهِيَ آخِرُ الْحَلَالِ، وَقَالَ: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[الأنفال: ٥٣] وَهَذَا التَّغْيِيرُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُبْدُوا ذَلِكَ فَيَبْقَى قَوْلًا وَعَمَلًا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الذَّمُّ وَالْعِقَابُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يُغَيِّرُوا الْإِيمَانَ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ بِضِدِّهِ مِنْ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ وَالْبُغْضِ، وَيَعْزِمُوا عَلَى تَرْكِ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَيَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ هُنَا عَلَى تَرْكِ الْمَأْمُورِ، وَهُنَاكَ عَلَى فِعْلِ الْمَحْظُورِ.

وَكَذَلِكَ مَا فِي النَّفْسِ مِمَّا يُنَاقِضُ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ وَالشُّكْرَ لَهُ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ كُلَّهَا وَاجِبَةٌ فَإِذَا خُلِّيَ الْقَلْبُ عَنْهَا وَاتَّصَفَ بِأَضْدَادِهَا اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ عَلَى تَرْكِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ.

وَبِهَذَا التَّفْصِيلِ تَزُولُ شُبَهٌ كَثِيرَةٌ، وَيَحْصُلُ الْجَمْعُ بَيْنَ النُّصُوصِ، فَإِنَّهَا كُلَّهَا مُتَّفِقَةٌ عَلَى ذَلِكَ، فَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ يُعَاقَبُونَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ؛ بَلْ أَضْمَرَتْ الْكُفْرَ، قَالَ تَعَالَى: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}[الفتح: ١١]، وَقَالَ: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}[البقرة: ١٠]، وَقَالَ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ}[المائدة: ٤١]، فَالْمُنَافِقُ لَا بُدَّ أَنْ يُظْهِرَ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِ وَمَا أَضْمَرَهُ، كَمَا قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عفان: مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنْ الْمُنَافِقِينَ: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ}، ثُمَّ قَالَ: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}[محمد: ٣٠]، وَهُوَ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: وَاَللَّهِ لَتَعْرِفَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ فَمَعْرِفَةُ الْمُنَافِقِ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ لَا بُدَّ مِنْهَا، وَأَمَّا مَعْرِفَتُهُ بِالسِّيمَا فَمَوْقُوفَةٌ عَلَى الْمَشِيئَةِ.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} خَبَرًا مِنَ اللَّهِ؛ لَيْسَ فِيهَا إثْبَاتُ إيمَانٍ لِلْعَبْدِ، بِخِلَافِ الْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ([1]))) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَهُمَا قَوْلُهُ: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ} إلَى آخِرِهَا.

وَكَلَامُ السَّلَفِ يُوَافِقُ مَا ذَكَرْنَاهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذِهِ الْآيَةُ لَمْ تُنْسَخْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إذَا جَمَعَ الْخَلَائِقَ يَقُولُ: إنِّي أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَخْفَيْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِمَّا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ مَلَائِكَتِي فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُخْبِرُهُمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ مَا حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ:

١- البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٨، ٥٠٠٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٨/٢٥٨). كلاهما عن أبي مسعود الأنصاري.

{يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} يَقُولُ: يُخْبِرُكُمْ بِهِ اللَّهُ، وَأَمَّا أَهْلُ الشِّرْكِ وَالرَّيْبِ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَا أَخْفَوْهُ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالشَّعْبِيِّ، وَكِتْمَانُ الشَّهَادَةِ مِنْ بَابِ تَرْكِ الْوَاجِبِ، وَذَلِكَ كَكِتْمَانِ الْعَيْبِ الَّذِي يَجِبُ إِظْهَارُهُ، وَكِتْمَانِ الْعِلْمِ الَّذِي يَجِبُ إِظْهَارُهُ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّهُ الشَّكُّ وَالْيَقِينُ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ بَابِ تَرْكِ الْوَاجِبِ؛ لِأَنَّ الْيَقِينَ وَاجِبٌ. وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ: مَا أَعْلَنْت فَإِنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُك بِهِ، وَأَمَّا مَا أَخْفَيْت فَمَا عُجِّلَتْ لَك بِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا. وَهَذَا قَدْ يَكُونُ مِمَّا يُعَاقَبُ فِيهِ الْعَبْدُ بِالْغَمِّ، كَمَا سُئِلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ غَمٍّ لَا يُعْرَفُ سَبَبُهُ قَالَ: هُوَ ذَنْبٌ هَمَمْت بِهِ فِي سِرِّك وَلَمْ تَفْعَلْهُ، فَجُزِيت هَمًّا بِهِ.

وَقَدْ رَوَى الروياني فِي مَسْنَدِهِ مِنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ([١]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {لله ما في السموات وما في الأرض}؛ وليس معلوما لنا سوى السموات والأرض؛ ويدخل في السموات الكرسي، والعرش، والملائكة، وأرواح بني آدم التي تكون في السماء، كأرواح المؤمنين في الجنة؛ لأن المراد بذلك كل ما علا؛ بل ويشمل ما بين السماء والأرض من الأفلاك، والنجوم، وغير ذلك؛ لأنها داخلة في السموات؛ لأنها في جهتها؛ ويدخل في الأرض العاقل، وغير العاقل؛ فيشمل بني آدم، والجن، ويشمل الحيوانات الأخرى، ويشمل الأشجار، والبحار، والأنهار، وغير ذلك.

٢- أن الله عز وجل هو القائم على هذه السموات والأرض يدبّرها كما يشاء؛ لأنها ملكه.

٣- أن الله لا شريك له في ذلك الملك؛ يستفاد ذلك من تقديم الخبر الذي حقه التأخير؛ وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ و(الحصر) إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه.

٤- وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية؛ لأن الإقرار بالربوبية يستلزم الإقرار بالألوهية - ولابد؛ ولهذا قال الله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم}[البقرة: ٢١]؛ فجعل الربوبية موجبا لعبادته؛ وفي سورة النمل قال تعالى:

١- الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)، وقال: (حديث حسن غريب من هذا الوجه)، والحاكم في المستدرك ٤/٦٠٨ وسكت عنه، كلاهما عن أنس، وأحمد ٤/٨٧ عن عبدالله بن مغفل.

(قلت): وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (١٢٢٠)، والمشكاة (١٥٦٥).

{أمن خلق السموات والأرض ... }[النمل: ٦٠] إلى آخر الآيات التي فيها تختم كل آية بقوله تعالى: {أإله مع الله}[النمل: ٦٠] يعني: فإذا كان هو المنفرد بما ذكر فإنه المنفرد بالألوهية.

٥- إثبات صفات الكمال لله عز وجل؛ لأننا إذا تأملنا في هذا الملك الواسع العظيم، وأنه يدبِّر بانتظام لا مثيل له علمنا بأن الذي يدبِّره كامل الصفات؛ فيؤخذ منه كل صفة كمال لله، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والعزة، والحكمة، وغير ذلك من صفاته عز وجل؛ لأنه لا يمكن أن يقوم بملك هذه الأشياء العظيمة إلَّا من هو متصف بصفات الكمال.

٦- إثبات أن السموات أكثر من واحدة؛ وهي سبع بنص القرآن، والسنة، والإجماع؛ أما القرآن فمثل قوله تعالى: {قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم}[المؤمنون: ٨٦]، وقوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن}[الطلاق: ١٢]؛ وأما السنة فمثل قوله ﷺ: ((اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الرياح وما ذرين ... ([1]))) الحديث؛ وأما الأرض فإنها جاءت بلفظ الإفراد في القرآن، وجاءت في السنة بلفظ الجمع؛ وعددها سبع: جاء ذلك في صريح السنة، وفي ظاهر القرآن؛ ففي ظاهر القرآن: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن}[الطلاق: ١٢]؛ لأن المماثلة في الوصف متعذِّرة؛ فلم يبق إلَّا العدد؛ وأمَّا في السنة فمثل قوله ﷺ: ((من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوَّقه الله إيَّاه يوم القيامة من سبع أرضين([2]))).

٧- عموم علم الله وسعته؛ لقوله تعالى: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله}؛ ولا محاسبة إلَّا من بعد علم.

٨- تحذير العبد من أن يخفي في قلبه ما لا يرضاه الله عز وجل؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله عالم بما يبدي وبما يخفي فسوف يراقب الله سبحانه وتعالى خوفًا من أن يحاسب على ما أخفاه كما يحاسب على ما أبداه.

٩- إثبات أن العبد يحاسب على ما في نفسه؛ وظاهره العموم؛ لقوله تعالى: {ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله}؛ ولكن جاءت النصوص الأخرى بالتفصيل في ذلك على النحو التالي:

الأول: أن يكون ما يطرأ على النفس وساوس لا قرار لها، ولا ركون إليها؛ فهذه لا تضر؛ بل هي دليل على كمال الإيمان؛ لأن الشيطان إذا رأى من قلب الإنسان إيمانًا ويقينًا حاول أن يفسد ذلك عليه؛ ولهذا لمَّا شكا الصحابة إلى رسول الله ﷺ

١- أخرجه ابن حبان ٤/١٧٠، ذكر ما يقول المسافر إذا رأى قرية يريد دخولها، حديث رقم ٢٦٩٨، وأخرجه ابن خزيمة ٤/١٥٠، حديث رقم ٢٥٦٥؛ وأخرجه الحاكم ١/٤٤٦، كتاب المناسك، وقال: حديث صحيح الإسناد؛ وأقره الذهبي.

٢- (قلت): مسلم (١٦١٠).

ما يجدونه في أنفسهم من هذا قال ﷺ: ((وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم؛ قال: ذاك صريح الإيمان([1]))؛ وفي حديث آخر: ((الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة([2]))).

الثاني: أن يهم بالشيء المحرَّم، أو يعزم عليه، ثم يتركه؛ وهذا أنواع:

النوع الأول: أن يتركه لله؛ فيثاب على ذلك، كما جاءت به السنة فيمن هم بسيئة فلم يعملها أنها تكتب حسنة كاملة؛ قال الله تعالى: ((لأنه تركها من جرائي([3]))، أي من أجلي.

النوع الثاني: أن يهم بها، ثم يتركها عزوفًا عنها؛ فهذا لا له، ولا عليه؛ لقول النبي ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات؛ وإنما لكل امرئ ما نوى([4]))).

النوع الثالث: أن يتمنَّاها، ويحرص عليها؛ ولكن لا يعمل الأسباب التي يحصلها بها؛ فهذا يعاقب على نيَّته دون العقاب الكامل، كما جاء في الحديث في فقير تمنَّى أن يكون له مثل مال غني كان ينفقه في غير مرضاة الله؛ فقال النبي ﷺ: ((فهو بنيَّته؛ فهما في الوزر سواء([5]))).

النوع الرابع: أن يعزم على فعل المعصية، ويعمل الأسباب التي توصل إليها؛ ولكن يعجز عنها؛ فعليه إثم فاعلها؛ لقول النبي ﷺ: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه([6]))).

١٠- إثبات محاسبة العبد؛ لقوله تعالى: {يحاسبكم به الله}؛ ولهذا يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا([7]))؛ فينبغي للإنسان أن يكون كيِّسًا يحاسب نفسه قبل أن يحاسب؛ وإني لأعجب أن كثيرًا من الناس إذا كان له تجارة دنيوية فإنه لا ينام حتى ينظر في الدفاتر: ما الذي خرج؟ وما الذي دخل؟ وما الذي بقي في ذمم

١- أخرجه مسلم ص٧٠٠، كتاب الإيمان، باب ٦٠: بيان الوسوسة في الإيمان ... ، حديث رقم ٣٤٠ [٢٠٩] ١٣٢.

٢- أخرجه أحمد ١/٢٣٥، حديث رقم ٢٠٩٧، وأخرجه أبو داود ص١٥٩٧، كتاب الأدب، باب ١٠٨، في رد الوسوسة، حديث رقم ٥١١٢، قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح ٣/٢٥٦.

٣- أخرجه مسلم ص٦٩٩ - ٧٠٠، كتاب الإيمان، باب ٥٩: إذا هم العبد بحسنة ... ، حديث رقم ٣٣٦ [٢٠٥] ١٢٩.

٤- أخرجه البخاري ص١: كتاب بدء الوحي، باب ١: كيف كان بدء الوحي، حديث رقم ١، وأخرجه مسلم ص١٠١٩، كتاب الإمارة، باب قوله: إنما الأعمال بالنية حديث رقم ٤٩٢٧ [١٥٥] ١٩٠٧.

٥- أخرجه أحمد ٤/٢٣٠، حديث رقم ١٨١٨٧، وأخرجه الترمذي ص١٨٨٥ - ١٨٨٦، كتاب الزهد، باب ١٦: ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن، حديث رقم ٢٣٢٥؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٣ كتاب الزهد، باب ٢٦: النية، حديث رقم ٤٢٢٨، وقال الألباني في صحيح الترمذي ٢/٢٧٠ حديث رقم ١٨٩٤: صحيح.

٦- أخرجه البخاري ص٤، كتاب الإيمان، باب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ...) ، حديث رقم ٣١، وأخرجه مسلم ص١١٧٨، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ٤: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم ٧٢٥٢ [١٤] ٢٨٨٨.

٧- نقله الترمذي عن عمر بن الخطاب ص٨٩٩، كتاب صفة القيامة، باب ٣٥: حديث الكيس من دان نفسه، في سياق حديث رقم ٢٤٥٩، وإخرجه ابن أبي شيبة ٨/١١٥، كتاب الزهد، كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم ٣٤٤٤٨؛ وفيه راو لم يسمه.

- (قلت): وقفه الإمام الألباني على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في السلسلة الضعيفة (١٢٠١).

الناس؟ وما الذي بيع؟ وما الذي اشتري؟ إمَّا بنفسه؛ وإمَّا بمن يجعلهم على هذا؛ ولكننا في أعمالنا الأخروية عندنا تفريط – يعني يندر يومًا من الأيام أن تقول: ماذا عملت اليوم؟ وتستغفر مما أسأت فيه، أو فرَّطت؛ وتحمد الله على ما قمت به من طاعته.

١١– أن الله سبحانه وتعالى لم يصرِّح بالمعاقبة؛ ولا يلزم من المحاسبة المؤاخذة؛ لقوله تعالى: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}؛ ويؤيده ما ثبت في الصحيح أن الله عز وجل يخلو بعبده المؤمن، فيقرِّره بذنوبه، ويقول: ((عملت كذا في يوم كذا)) حتى يقرُّ؛ فإذا رأى أنه قد هلك يقول الله عز وجل: ((قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم))(١).

١٢– سعة علم الله عز وجل، وكان من أسمائه: (الواسع): أي ذو السعة في جميع صفاته.

١٣– إثبات المشيئة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}؛ ومشيئته تعالى مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}[الإنسان: ٣٠]؛ كل شيء أضافه الله إلى مشيئته فاعلم أنه مقرون بحكمة؛ لا يشاء شيئًا إلَّا لحكمة – أيًّا كان هذا الشيء.

١٤– أنه بعد المحاسبة إما أن يغفر للإنسان؛ وإما أن يعذبه؛ لقوله تعالى: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} فإن كان كافرًا عذب؛ وإن كان مسلمًا كان تحت المشيئة، كما قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}[النساء: ٤٨].

١٥– إثبات القدرة لله، وعمومها في كل شيء؛ لقوله تعالى: {والله على كل شيء قدير}؛ فلا أحد يقدر على كل شيء إلَّا الله عز وجل؛ وأما المخلوق فقدرته محدودة.

فإن قيل: لماذا ختم الآية بالقدرة من بعد قوله تعالى: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}؛ ولم يختمها بالرحمة، ولا بالعقوبة؟

فالجواب: أن المحاسبة تكون بعد البعث؛ والبعث يدلُّ على القدرة؛ كما قال تعالى: {أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير}[الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: {إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير}[فصلت: ٣٩].

وجه آخر: لو ختمت الآية بما يقتضي الرحمة وفيها التعذيب لم يكن هناك تناسب؛ ولو ختمت بما يقتضي التعذيب وفيها مغفرة لم يكن هناك تناسب؛ والقدرة تناسب الأمرين: تناسب المغفرة، وتناسب التعذيب؛ لأن المغفرة، والتعذيب كل لا يكون إلَّا بقدرة الله عز وجل.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

قال ابن العثيمين: {آمن}؛ سبق مرارًا وتكرارًا بأنه الإقرار المستلزم للقبول والإذعان – لقبول الخبر، والإذعان للحكم، أو لما يقتضيه؛ أمَّا مجرَّد التَّصديق والإقرار فلا ينفع؛ ولهذا كان أبو طالب مقرًّا ببعثة الرسول ﷺ، وأنه على حق؛ لكن لما لم يكن منه قبول وإذعان لم ينفعه هذا الإقرار؛ فالإيمان شرعًا هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان[١].

{الرسول}: {أل} هنا للعهد؛ والمراد به محمد ﷺ؛ {الرسول} بمعنى مرسل؛ و{الرسول} – كما قال العلماء – هو من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه؛ هذا الذي عليه أكثر أهل العلم؛ و(النبي) هو الذي لم يؤمر بتبليغه ما لم يدلُّ الدليل على أن المراد به الرسول؛ ففي القرآن الكريم كل من وصف بالنبوة فهو رسول؛ لقوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ... }[النساء: ١٦٣] إلى قوله تعالى: {رسلًا مبشرين ومنذرين لئلَّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}[النساء: ١٦٥]؛ ولقوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلَّا بإذن الله}[غافر: ٧٨].

قال صالح آل الشيخ في شرحه للعقيدة الطحاوية: وقالت طائفة أخرى، وهو قولٌ أيضا مشهور عند عدد من المحقِّقين وهو الذي اختاره ابن تيمية رحمه الله في أول كتاب النبوات أنَّ الرسول والنبي يشتركان في وقوع الإرسال عليهما. الرسول مُرْسَلْ والنبي مُرْسَلْ لظاهر قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ}، فالرسول مُرْسَلْ والنبي أيضا مُرْسَلْ لكن جهة الإرسال مختلفة، قال: الرسول: يُرْسَلْ إلى قوم يخالفونه في أصل الدين فيأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك.

وأمَّا النبي: فإنه يُرْسَلْ إلى قوم موافقين يُجَدِّدُ بإرساله شِرْعَةَ الرسول الذي أُمروا باتباعه. مثل أنبياء بني إسرائيل كلما مات نبي خلفه نبي وكُلُّهُم تَبَعٌ لموسى عليه السلام.

وهذا التعريف أو هذا التقريب لتعريف الرسول والنبي هذا أقرب للدليل وأوضح في فهم الأدلة الشرعية. ولذلك نقول: هو المختار في أنَّ النبي مُوحًا إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه إلى قوم موافقين أو لم يُؤْمَرْ بالتبليغ، قد يكون مُقْتَصِرْ على نفسه وقد يُؤْمَرْ بالتبليغ إلى من يوافقه في اتِّباعِ الرسول الذي يَتَّبِعُهُ النبي ويَتَّبِعُهُ الناس.

وأمَّا الرسول فمن أوحي إليه بشرع أو بكتاب وأُمِرَ بإبلاغه أو بتبليغه إلى قوم مخالفين له في أصل الدين.

١- (قلت): انظر تفصيل الكلام عن الإيمان عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

قال ابن العثيمين: {بما أنزل إليه من ربه}: أي بالذي أنزل إليه من ربه؛ والذي أنزل إلى الرسول ﷺ بيّنه الله سبحانه وتعالى في قوله: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة}[النساء: ١١٣]– فهو القرآن والسنة؛ والرسول ﷺ كيف آمن بهما؟ الرسول آمن بأن القرآن من عند الله أنزله إليه ليبلغه إلى الناس، وآمن بأن ما أوحي إليه من السنة هو من الله عز وجل؛ أوحي به ليبلغه إلى الناس؛ ثم هو أيضًا آمن بما يقتضيه هذا المنزل من قبول، وإذعان؛ ولهذا كان الرسول ﷺ أشدُّ الناس تصديقًا بما أنزل إليه، وأقواهم إيمانًا بلا شك، وكان أيضًا أعظمهم تعبُّدًا لله عز وجل حتى إنه كان يقوم في الليل حتى تتورَّم قدماه مع أنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه، وما تأخَّر([١])؛ وقام معه ابن مسعود رضي الله عنه ذات ليلة يقول: فقام فأطال حتى همَمْتُ بأمر سوء؛ قالوا: بم هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال: (هممت أن أجلس، وأدعه([٢]))؛ لأن الرسول كان يقوم قيامًا طويلًا – صلوات الله وسلامه عليه؛ إذًا فهو أقوى الناس إيمانًا، وأشدُّهم رغبة في الخير، وأكثرهم عبادة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١٣٣: فَهَذِهِ شَهَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِيمَانِهِ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ إعْطَاءَهُ ثَوَابَ أَكْمَلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ – زِيَادَةً عَلَى ثَوَابِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ – لِأَنَّهُ شَارَكَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمَانِ وَنَالَ مِنْهُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ وَامْتَازَ عَنْهُمْ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ....إلى أن قال رحمه الله: ثُمَّ شَهِدَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا آمَنَ بِهِ رَسُولُهُمْ، ثُمَّ شَهِدَ لَهُمْ جَمِيعًا بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ إيمَانَهُمْ بِقَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الْخَمْسَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ أَحَدٌ مُؤْمِنًا إلَّا بِهَا، وَهِيَ: الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

قال ابن العثيمين: {من ربه}: يراد بها الربوبية أخص الخاصة؛ لأن ربوبية الله عز وجل عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ فالعامة الشاملة لكل الخلق، مثل: {رب العالمين}[الفاتحة: ١]؛ والخاصة للمؤمنين؛ وخاصة الخاصة للرسل – عليهم الصلاة والسلام –؛ فالذين يقولون: {ربنا إننا آمنا فاغفر لنا}[آل عمران: ١٦] هذه ربوبية خاصة لكل المؤمنين؛ ومثل: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه} هذه أخص الخاصة، ومثلها: {فلا وربك لا يؤمنون}[النساء: ٦٥]؛ يقابل ذلك (العبودية): عبودية عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ العامة مثل قوله تعالى: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا}[مريم: ٩٣]؛ والخاصة مثل قوله تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا}[الفرقان: ٦٣]؛

١– راجع البخاري ص٤١٣، كتاب تفسير القرآن، باب ٢: قوله تعالى: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ...) ، حديث رقم ٤٨٣٦، وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب صفات المنافقين، باب ١٨: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم ٧١٢٤ [٧٩] ٢٨١٩.

٢– راجع البخاري ص٨٨، كتاب التهجد، باب ٩: طول القيام في صلاة الليل، حديث رقم ١١٣٥؛ وصحيح مسلم ص٨٠٠، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٧: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم ١٨١٥ [٢٠٤] ٧٧٣.

وخاصة الخاصة مثل قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}[الفرقان: ١]، وقوله تعالى: {وإن كنتم في ريب ممَّا نزَّلنا على عبدنا}[البقرة: ٢٣]؛ ولا شك أن الربوبية الخاصة تقتضي تربية خاصة لا يماثلها تربية أحد من العالمين([1]).

{والمؤمنون}: بالرفع عطفًا على {الرسول}: يعني المؤمنون كذلك آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ من الله؛ فيؤمنون بثلاثة أشياء: بالمرسِل – وهو الله عز وجل؛ والمرسَل – وهو الرسول ﷺ؛ والمرسَل به – وهو الوحي: الكتاب والسنة.

فإن قال قائل: كيف قال تعالى: {والمؤمنون}: فوصفهم بالإيمان مع أنهم مؤمنون؟ فنقول: هذا من باب التحقيق؛ يعني: أن المؤمنين حقَّقوا الإيمان، وليس إيمانهم إيمانًا ظاهرًا فقط – كما يكون من المنافق الذي يظهر الإيمان، ولكنه مبطن للكفر.

{كل}: يعني من الرسول، والمؤمنين؛ {آمن بالله}: أي بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته – كما تقدم ذلك مبسوطًا.

قوله تعالى: {وملائكته} معطوف على الاسم الكريم: {الله}؛ والملائكة عالم غيبي خلقهم الله عز وجل من نور، وأعطاهم قوة وقدرة على تنفيذ ما يريد منهم؛ قال الله تعالى في ملائكة النار: {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}[التحريم: ٦].

{وكتبه}: وفي قراءة: {وكتابه}؛ ولا منافاة؛ لأن المفرد المضاف يعم؛ والكتب المنزلة على الأنبياء الذي يظهر من نصوص الكتاب والسنة أنها بعدد الأنبياء، كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان}[الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}[البقرة: ٢١٣]؛ ولكن مع ذلك فنحن لا نعرف على التَّعيين إلَّا عددًا قليلًا منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى – إن كانت غير التوراة؛ وإن كانت هي التوراة فالأمر ظاهر؛ نعرف هذه الكتب، ونؤمن بها على أعيانها؛ والباقي نؤمن بها على سبيل الإجمال؛ ولكن كيف الإيمان بهذه الكتب؟ نقول: الإيمان بالقرآن هو الإيمان بأنه كلام الله منزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين؛ ونصدق بكل أخباره؛ ونلتزم بكل أحكامه؛ وأما الإيمان بالكتب السابقة فهو أن نؤمن بأن الله أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وآتى داود الزبور، وأنزل صحفًا على إبراهيم، وموسى؛ وأن كل ما جاء فيها من خبر فهو حق صدق؛ وأما الأحكام فما جاءت شريعتنا بخلافه فالعمل على ما جاءت به شريعتنا؛ لأنه منسوخ؛ وأما ما لا يخالف شريعتنا فاختلف العلماء في العمل به؛ والصحيح أنه يعمل به؛ وبسط ذلك في أصول الفقه؛ وليعلم أن التوراة التي بأيدي اليهود اليوم، والإنجيل الذي بأيدي النصارى لا يوثق بهما؛ لأنهم حرَّفوا، وبدَّلوا، وكتموا الحق.

---

١ – (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرب} مفصلًا عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

قال السعدي: {ورسله}: جمع رسول، والإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمَّنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي.

{لا نفرِّق بين أحد من رسله}: هنا التفات من الغيبة إلى التكلم؛ ومقتضى السياق لو كان على نهج واحد لقال: (لا يفرقون بين أحد من رسله)؛ ولكنه تعالى قال: {لا نفرق}؛ وفائدة الالتفات هي التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم معه، وربما يغيب فكره؛ وأما إذا جاء الالتفات فكأنه يقرع الذهن يقول: انتبه! فالالتفات هنا من الغيبة إلى التكلُّم له فائدة زائدة على التنبيه – وهي أن يقول هؤلاء المؤمنون: {لا نفرِّق} بقلوبنا وألسنتنا {بين أحدٍ من رسله}؛ فالكلُّ عندنا حق؛ فمحمد ﷺ صادق فيما جاء به من الرسالة، وعيسى بن مريم ﷺ صادق، وموسى ﷺ صادق، وصالح ﷺ صادق، ولوط ﷺ صادق، وإبراهيم ﷺ صادق ... وهكذا؛ لا نفرق بينهم في هذا الأمر – أي في صدق رسالتهم، والإيمان بهم؛ ولكن نفرق بينهم فيما كلُّفنا به: فنعمل بشريعة محمد ﷺ؛ وأما شريعة أولئك فعلى ما ذكرنا من الخلاف.

قال الطبري: والمؤمنون كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا يفرق الكل منهم بين أحد من رسله، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، ولكنهم يصدقون بجميعهم، ويقرون أن ما جاءوا به كان من عند الله، وأنهم دعوا إلى الله وإلى طاعته، ويخالفون في فعلهم ذلك اليهود الذين أقروا بموسى وكذبوا عيسى، والنصارى الذين أقرُّوا بموسى وعيسى وكذبوا بمحمد ﷺ، وجحدوا نبوته، ومن أشبههم من الأمم الذين كذبوا بعض رسل الله، وأقروا ببعضه، كما قال ابن زيد : (لا نفرق بين أحد من رسله) كما صنع القوم – يعني بني إسرائيل – قالوا: فلان نبي، وفلان ليس نبيًّا، وفلان نؤمن به وفلان لا نؤمن به.

قال ابن العثيمين: {سمعنا وأطعنا}: أي سمعنا ما أمرتنا به، أو نهيتنا عنه؛ وأطعنا فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور.

{غفرانك}: مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: نسألك غفرانك؛ والمغفرة ستر الذنب، والتجاوز عنه.

{ربنا}: أي يا ربنا؛ وحذفت (يا) النداء للبداءة باسم الله.

{وإليك المصير}: أي المرجع في أمور الدنيا، والآخرة؛ ومن المصير إليه: يوم القيامة؛ وقدم الخبر لإفادة الحصر.

قال الطبري: وقال الكل من المؤمنين: {سمعنا} قول ربنا وأمره إيانا بما أمرنا به، ونهيه عما نهانا عنه – {وأطعنا}: يعني أطعنا ربنا فيما ألزمنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته، وسلمنا له – وقوله: {غفرانك ربنا}: يعني وقالوا: {غفرانك ربنا}: بمعنى اغفر لنا ربنا غفرانك، كما يقال: (سبحانك) : بمعنى نسبحك سبحانك.

وقد بيَّنا فيما مضى أن (الغفران) (المغفرة)، الستر من الله على ذنوب من غفر له، وصفحة له عن هتك ستره بها في الدنيا والآخرة، وعفوه عن العقوبة – عليه. وأما قوله: {وإليك المصير}: فإنه يعني جل ثناؤه أنهم قالوا: وإليك يا ربنا مرجعنا ومعادنا، فاغفر لنا ذنوبنا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن محمدًا ﷺ مكلَّف بالإيمان بما أنزل إليه؛ ولهذا قال ﷺ: ((أشهد أني رسول الله[١]))، في قصة دَين جابر رضي الله عنه - كما في صحيح البخاري.

٢- أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: {بما أنزل إليه من ربه}؛ والمنزل هو الوحي؛ والكلام وصف لا يقوم إلا بمتكلم؛ لا يمكن أن يقوم بنفسه؛ وعلى هذا يكون في الآية دليل على أن القرآن كلام الله - الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ.

٣- إثبات علو الله عز وجل؛ لأن النزول لا يكون إلَّا من أعلى؛ لقوله تعالى: {بما أنزل إليه}.

٤- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: {الرسول}، وقوله تعالى: {بما أنزل إليه من ربه}.

٥- عظم ربوبية الله، وأخصيتها بالنسبة إلى الرسول ﷺ، حيث قال تعالى: {بما أنزل إليه من ربه}.

ويتفرَّع على ذلك أن الله سبحانه وتعالى سينصره؛ لأن الربوبية الخاصة تقتضي ذلك - لا سيما وأنه سوف يبلِّغ ما أنزل إليه من ربه.

٦- أن المؤمنين تبعٌ للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون}؛ وجه التبعية أنه ذكر ما آمن به قبل أن يذكر التابع - يعني ما قال: (آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه)، وهذا يدلُّ على أنهم أتباع للرسول ﷺ لا يستقلون بشريعة دونه.

٧- أنه كلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالرسول ﷺ كان أشدُّ اتِّباعًا له؛ وجهه أنه تعالى قال: {بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون}: يعني والمؤمنون آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ من ربه؛ وعليه فكل من كان أقوى إيمانًا كان أشدُّ اتِّباعًا.

٨- أن إيمان الرسول ﷺ والمؤمنين شامل لكل أصول الدين؛ لقوله تعالى: {كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله}؛ ويبقى عندنا إشكال؛ وهو أنه ليس في الآية ذكر الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر؟ والجواب من أحد وجهين:

أحدهما: أن يقال: إن هذا داخل في عموم قوله تعالى: {بما أنزل إليه من ربه}.

والوجه الثاني: أن يقال: إن الإيمان بالكتب والرسل، متضمِّن للإيمان باليوم الآخر والقدر.

٩- إثبات الملائكة.

١٠- أن الإيمان بالرسل ليس فيه تفريق؛ لا تقول مثلًا: نؤمن بمحمد ﷺ، ولا نؤمن بعيسى لأن عيسى من بني إسرائيل؛ نحن لا نفرق بين الرسل؛ وقد سبق لنا معنى قوله تعالى: {لا نفرِّق}.

١١- أن من صفات المؤمنين السمع والطاعة؛ لقوله تعالى: {وقالوا سمعنا وأطعنا}؛ وهذا كقوله تعالى: {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله

١- أخرجه البخاري ص٤٦٩، كتاب الأطعمة، باب ٤١: الرطب والتمر وقول الله تعالى: {وهزي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًّا}، حديث رقم ٥٤٤٣.

ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون}[النور: ٥١، ٥٢]، وكقوله تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}[الأحزاب: ٣٦]؛ والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من لا يسمع ولا يطيع؛ بل هو معرض؛ لم يرفع لأمر الله ورسوله رأسًا.

القسم الثاني: من يسمع ولا يطيع؛ بل هو مستكبر؛ اتَّخذ آيات الله هزوًا، كقوله تعالى: {وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرًا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرًا فبشره بعذاب أليم}[لقمان: ٧]، وكقوله تعالى: {وقالوا سمعنا وعصينا}[البقرة: ٩٣]؛ وهذا أعظم جرمًا من الأول.

القسم الثالث: من يسمع ويطيع؛ وهؤلاء هم المؤمنون الذين قالوا سمعنا وأطعنا، وقال الله سبحانه وتعالى فيهم: {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا}[الأحزاب: ٧١].

١٢- أن كل أحد محتاج إلى مغفرة الله؛ لقوله تعالى: {غفرانك}؛ فكل إنسان محتاج إلى مغفرة – حتى النبي ﷺ محتاج إلى مغفرة؛ ولهذا لما قال ﷺ: ((لن يدخل الجنة أحدًا عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة(١)))؛ وقال الله سبحانه وتعالى: {إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر}[الفتح: ١، ٢]، وقال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات}[محمد: ١٩]؛ واعلم أن الإنسان قد يكون بعد الذنب أعلى مقامًا منه قبل الذنب؛ لأنه قبل الذنب قد يكون مستمرئًا للحال التي كان عليها، وماشيًا على ما هو عليه معتقِدًا أنه كامل، وأن ليس عليه ذنوب؛ فإذا أذنب، وأحس بذنبه رجع إلى الله، وأناب إليه، وأخبت إليه، فيزداد إيمانًا، ويزداد مقامًا – يرتفع مقامه عند الله عز وجل؛ ولهذا قال الله تعالى في آدم: {وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه}[طه: ١٢١، ١٢٢] – فجعل الاجتباء بعد هذه المعصية – {فتاب عليه وهدى}[طه: ١٢٢]؛ وهذا كثيرًا ما يقع: إذا أذنب الإنسان عرف قدر نفسه، وأنه محتاج إلى الله، ورجع إلى الله، وأحسَّ بالخطيئة، وأكثر من الاستغفار، وصار مقامه بعد الذنب أعلى من مقامه قبل الذنب.

١٣- تواضع المؤمنين، حيث قالوا: {سمعنا وأطعنا}، ثم سألوا المغفرة خشية التقصير.

١٤- إثبات أن المصير إلى الله عز وجل في كل شيء؛ لقوله تعالى: {وإليك المصير}؛ وقد سبق في التفسير أن المراد بذلك المصير إلى الله في الآخرة، والمصير إلى الله في الدنيا أيضًا؛ فهو الذي يحكم بين الناس في الدنيا والآخرة – كما قال تعالى: {وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله}[الشورى: ١٠]: هذا في الدنيا؛ والآخرة: كما قال تعالى: {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم}[الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: {فالله يحكم بينكم يوم القيامة}[النساء: ١٤١].

١- أخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب صفات المنافقين، باب ١٧: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، حديث رقم ٧١٢٢ [٧٨] ٢٨١٨.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

قال ابن العثيمين: هذه الآية، والتي قبلها وردت فيها نصوص تدلُّ على الفضل العظيم؛ منها: ١- أنَّها من كنز تحت العرش([١]).

٢ – أنَّها فتحت لها أبواب السماء عند نزولها([٢]).

٣ – أنَّها لم يعطها أحد من الأنبياء قبل رسول الله ﷺ.

٤ – أنَّ من قرأهما في ليلة كفتاه([٣]).

قوله تعالى: **{لا يكلِّف الله}**؛ (التكليف) الإلزام بما فيه مشقة؛ يعني لا يلزم الله؛ **{نفسًا إلَّا وسعها}**: أي إلَّا طاقتها؛ فلا يلزمها أكثر من الطاقة.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: لا يكلف الله نفسًا فيتعبدها إلَّا بما يسعها، فلا يضيق عليها ولا يجهدها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١٣٧: فَنَفَى بِذَلِكَ مَا تَوَهَّمُوهُ مِنْ أَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ بِالْخَطَرَاتِ الَّتِي لَا يَمْلِكُونَ دَفْعَهَا، وَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ تَكْلِيفِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُهُمْ إلَّا وُسْعَهُمْ، فَهَذَا هُوَ الْبَيَانُ الَّذِي قَالَ فِيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فَنَسَخَهَا اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا}** وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ أَمْرًا وَنَهْيًا فَهُمْ مُطِيقُونَ لَهُ قَادِرُونَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ صَرِيحٌ عَلَى مَنْ زَعَمَ خِلَافَ ذَلِكَ.

١- راجع أحمد ص١٥٧١، حديث رقم ٢١٦٧٢، وص١٥٩٠، حديث رقم ٢١٨٩٧، من حديث أبي ذر؛ قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/٣١٥)؛ وقال الساعاتي: (وهو الذي أثبته هنا) (الفتح الرباني ١٨/٩٩ – ١٠١)؛ وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم (السلسلة الصحيحة ٣/٤٧١، حديث رقم ١٤٨٢)؛ ومن حديث حذيفة راجع أحمد ص١٧٢٦، حديث رقم ٢٣٦٤٠؛ والمعجم الكبير للطبراني ٣/١٦٩، حديث رقم ٣٠٢٥؛ مسند أبي داود الطيالسي ص٥٦، حديث رقم ٤١٨؛ قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/٣٢٧، ٣١٥)؛ وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم (السلسلة الصحيحة ٣/٤٧١، حديث رقم ١٤٨٢).

٢- راجع مسلما ص٨٠٤، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٣: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ... ، حديث رقم ١٨٧٧ [٢٥٤] ٨٠٦؛ لكن فيه: "هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم ... ".

٣- راجع البخاري ص٣٢٧، كتاب المغازي، باب ١٢: حديث رقم ٤٠٠٨؛ ومسلما ص٨٠٤، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٣: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ...، حديث رقم ١٨٧٨ [٢٥٥] ٨٠٧.

وَاللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ، وَضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، فَكَلَّفَهُمْ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا يَسَعُونَهُ، وَأَعْطَاهُمْ مِنْ الرِّزْقِ مَا يَسَعُهُمْ فَتَكْلِيفُهُمْ يَسَعُونَهُ وَأَرْزَاقُهُمْ تَسَعُهُمْ فَهُمْ فِي الْوُسْعِ فِي رِزْقِهِ وَأَمْرِهِ: وَسِعُوا أَمْرَهُ، وَوَسِعَهُمْ رِزْقَهُ، فَفَرْقٌ بَيْنَ مَا يَسَعُ الْعَبْدَ، وَمَا يَسَعُهُ الْعَبْدُ وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِرَحْمَتِهِ وَبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ وَغِنَاهُ؛ لَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ إنَّهُ كَلَّفَهُمْ مَا لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ أَلْبَتَّةَ وَلَا يُطِيقُونَهُ، ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَا لَا يَعْمَلُونَهُ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِلَّا وُسْعَهَا} كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَهُ أَنَّهُمْ فِي سَعَةٍ وَمِنْحَةٍ مِنْ تَكَالِيفِهِ؛ لَا فِي ضِيقٍ وَحَرَجٍ وَمَشَقَّةٍ؛ فَإِنَّ الْوُسْعَ يَقْتَضِي ذَلِكَ فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ أَنَّ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ مَقْدُورٌ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرٍ لَهُمْ وَلَا ضِيقٍ وَلَا حَرَجٍ؛ بِخِلَافِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الشَّخْصُ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَقْدُورًا لَهُ وَلَكِنْ فِيهِ ضِيقٌ وَحَرَجٌ عَلَيْهِ، وَأَمَّا وُسْعُهُ الَّذِي هُوَ مِنْهُ فِي سَعَةٍ فَهُوَ دُونَ مَدَى الطَّاقَةِ وَالْمَجْهُودِ؛ بَلْ لِنَفْسِهِ فِيهِ مَجَالٌ وَمُتَّسَعٌ، وَذَلِكَ مُنَافٍ لِلضِّيقِ وَالْحَرَجِ {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} بَلْ {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة فِي قَوْلِهِ: {إِلَّا وُسْعَهَا} إلَّا يُسْرَهَا لَا عُسْرَهَا، وَلَمْ يُكَلِّفْهَا طَاقَتَهَا، وَلَوْ كَلَّفَهَا طَاقَتَهَا لَبَلَغَ الْمَجْهُودُ.

قال ابن العثيمين: {لها ما كسبت}: أي ما عملت من خير لا ينقص منه شيء؛ {وعليها ما اكتسبت}: أي ما اقترفت من إثم لا يحمله عنها أحد؛ و(الكسب)، و(الاكتساب) بمعنى واحد؛ وقيل بينهما فرق؛ وهو أن (الكسب) في الخير، وطرقه أكثر؛ و(الاكتساب) في الشر، وطرقه أضيق – والله أعلم.

قال الطبري: {لها}: للنفس التي أخبر أنه لا يكلفها إلَّا وسعها. يقول: لكل نفس ما اجترحت وعملت من خير، {وعليها}: يعني وعلى كل نفس، {ما اكتسبت}، ما عملت من شر.

فتأويل الآية إذًا: لا يكلِّف الله نفسًا إلَّا ما يسعها فلا يجهدها، ولا يضيق عليها في أمر دينها، فيؤاخذها بهمَّة إن همَّت، ولا بوسوسة إن عرضت لها، ولا بخطرة إن خطرت بقلبها.

قال ابن العثيمين: {ربنا لا تؤاخذنا}: هذه الجملة مقول لقول محذوف – أي: (قولوا ربنا)؛ أو: (قالوا ربنا) عَودًا على {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون} – أي: و{قالوا سمعنا وأطعنا}، وقالوا: {ربنا لا تؤاخذنا..}؛ و{ربنا} منادى حذفت منه (يا) النداء اختصارًا، وتيمُّنًا بالبداءة باسم الله عز وجل؛ و{لا تؤاخذنا}: أي لا تعاقبنا بما أخطأنا فيه.

قوله تعالى: {إن نسينا أو أخطأنا}: (النسيان): هو ذهول القلب عن معلوم؛ يكون الإنسان يعلم الشيء، ثم يغيب عنه؛ ويسمَّى هذا نسيانًا، كما لو سألتك: ماذا صنعت بالأمس؟ تقول: (نسيت)؛ فأنت فاعل؛ ولكن غاب عنك فعله؛ و(الخطأ): المخالفة بلا قصد للمخالفة؛ فيشمل ذلك الجهل؛ فإن الجاهل إذا ارتكب ما نهي عنه فإنه قد ارتكب المخالفة بغير قصد للمخالفة.

قال الطبري: وهذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه، وما يقولونه في دعائهم إيّاه. ومعناه: قولوا: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا} شيئًا فرضت علينا عمله فلم نعمله، {أو أخطأنا} في فعل شيء نهيتنا عن فعله ففعلناه، على غير قصد منا إلى معصيتك، ولكن على جهالة منَّا به وخطأ.

قال ابن كثير: وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ عَطَاءٍ – قَالَ ابْنُ مَاجَهْ فِي رِوَايَتِهِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ: عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمير، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ([1]))).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١٣٩: ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ عُهُودًا مِنْهُ وَوَصَايَا، وَأَوَامِرَ تَجِبُ مُرَاعَاتُهَا وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا وَأَنْ لَا يُخِلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا؛ وَلَكِنَّ غَلَبَةَ الطِّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ تَأْبَى إلَّا النِّسْيَانَ وَالْخَطَأَ وَالضَّعْفَ وَالتَّقْصِيرَ أَرْشَدَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى إلَى أَنْ يَسْأَلُوهُ مُسَامَحَتَهُ إيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَرَفْعَ مُوجَبَهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِمْ: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}: أَيْ لَا تُكَلِّفْنَا مِنْ الْآصَارِ الَّتِي يَثْقُلُ حَمْلُهَا مَا كَلَّفْته مَنْ قَبْلَنَا؛ فَإِنَّا أَضْعَفُ أَجْسَادًا وَأَقَلُّ احْتِمَالًا.

قال الطبري: إن قال لنا قائل: وهل يجوز أن يؤاخذ الله عز وجل عباده بما نسوا أو أخطأوا، فيسألوه أن لا يؤاخذهم بذلك؟

قيل: إن (النسيان) على وجهين: أحدهما على وجه التضييع من العبد والتَّفريط، والآخر على وجه عجز الناسي عن حفظ ما استحفظ ووكّل به، وضعف عقله عن احتماله.

فأمَّا الذي يكون من العبد على وجه التضييع منه والتَّفريط، فهو ترك منه لما أمر بفعله. فذلك الذي يرغب العبد إلى الله عز وجل في تركه مؤاخذته به، وهو (النسيان) الذي عاقب الله عز وجل به آدم صلوات الله عليه فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}[طه: ١١٥]، وهو (النسيان) الذي قال جل ثناؤه: {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا}[الأعراف: ٥١]. فرغبة العبد إلى الله عز وجل بقوله: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}، فيما كان من نسيان منه لمَّا أمر بفعله على هذا الوجه الذي وصفنا، ما لم يكن تركه ما ترك من ذلك تفريطًا منه فيه وتضييعًا كفرًا بالله عز وجل. فإن ذلك إذا كان كفرًا بالله، فإن الرغبة إلى الله في تركه المؤاخذة به غير جائزة، لأن الله عز وجل قد أخبر عباده أنه لا يغفر لهم الشرك به، فمسألته فعل ما قد أعلمهم أنه لا يفعله، خطأ. وإنما تكون

١- **صحيح:** سنن ابن ماجة برقم (٢٠٤٥) وصحيح ابن حبان برقم (١٤٩٨) "موارد". و صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٦٢٨٤).

مسألته المغفرة، فيما كان من مثل نسيانه القرآن بعد حفظه بتشاغله عنه وعن قراءته، ومثل نسيانه صلاةً أو صيامًا، باشتغاله عنهما بغيرهما حتى ضيعهما.

وأمَّا الذي العبد به غير مؤاخذ، لعجز بنيَّته عن حفظه، وقلَّة احتمال عقله ما وكل بمراعاته، فإن ذلك من العبد غير معصية، وهو به غير آثم، فذلك الذي لا وجه لمسألة العبد ربه أن يغفره له، لأنه مسألة منه له أن يغفر له ما ليس له بذنب، وذلك مثل الأمر يغلب عليه وهو حريص على تذكُّره وحفظه، كالرجل يحرص على حفظ القرآن بجد منه فيقرأه، ثم ينساه بغير تشاغل منه بغيره عنه، ولكن بعجز بنيَّته عن حفظه، وقلة احتمال عقله ذكر ما أودع قلبه منه، وما أشبه ذلك من النسيان، فإن ذلك مما لا تجوز مسألة الرب مغفرته، لأنه لا ذنب للعبد فيه فيغفر له باكتسابه.

وكذلك (الخطأ) وجهان:

أحدهما: من وجه ما نهي عنه العبد فيأتيه بقصد منه وإرادة، فذلك خطأ منه، وهو به مأخوذ. يقال منه: (خطئ فلان وأخطأ) فيما أتى من الفعل، و(أثم)، إذا أتى ما يأثم فيه وركبه، ومنه قول الشاعر:

الناس يلحون الأمير إذا هم ... خطئوا الصواب ولا يلام المرشد

يعني: أخطأوا الصواب. وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صفح ما كان منه من إثم عنه، إلَّا ما كان من ذلك كفرًا.

والآخر منهما: ما كان عنه على وجه الجهل به، والظن منه بأن له فعله، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلًا وهو يحسب أن الفجر لم يطلع، أو يؤخر صلاة في يوم غيم وهو ينتظر بتأخيره إياها دخول وقتها، فيخرج وقتها وهو يرى أن وقتها لم يدخل. فإن ذلك من الخطأ الموضوع عن العبد، الذي وضع الله عز وجل عن عباده الإثم فيه، فلا وجه لمسألة العبد ربه أن لا يؤاخذه به.

قال ابن العثيمين: {ربنا ولا تحمل علينا إصرًا}: أتى بالواو ليفيد أن هذه الجملة معطوفة على التي قبلها؛ وكرَّر النداء تبرُّكًا بهذا الاسم الكريم، وتعطُّفًا على الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا من أسباب إجابة الدعاء؛ وال{إصر} هو الشيء الثقيل الذي يثقل على الإنسان من التكاليف أو العقوبات.

{كما حملته على الذين من قبلنا}: أي اليهود، والنصارى، وغيرهم.

قال ابن كثير: أَيْ: لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ وَإِنْ أَطَقْنَاهَا، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَغْلَالِ وَالْآصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، الَّتِي بعثتَ نبيك مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ بِوَضْعِهِ فِي شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ، مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ السَّهْلِ السَّمْحِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ)). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ)).

{ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به}: أَيْ مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ، لَا تَبْتَلِينَا بِمَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ.
وَقَدْ قَالَ مَكْحُولٌ فِي قَوْلِهِ: {رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قَالَ: العزمة وَالْغُلْمَةُ.
قال ابن العثيمين: أي لا قدرة لنا على تحمله من الأمور الشرعية والكونية.
قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١٣٩: ثُمَّ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُنْفَكِّينَ مِمَّا يَقْضِيهِ وَيُقَدِّرُهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُنْفَكِّينَ مِمَّا يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ، سَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، كَمَا سَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَقَالُوا: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} فَهَذَا فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْمَصَائِبِ، وَقَوْلُهُمْ {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّكْلِيفِ، فَسَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي النَّوْعَيْنِ.
وقال رحمه الله في ص١٠٢ أيضاً: قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي قَوْلِهِ: {وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}: أَيْ لَا تُحَمِّلْنَا مَا يَثْقُلُ عَلَيْنَا أَدَاؤُهُ وَإِنْ كُنَّا مُطِيقِينَ لَهُ عَلَى تَجَشُّمٍ وَتَحَمُّلِ مَكْرُوهٍ، قَالَ: فَخَاطَبَ الْعَرَبَ عَلَى حَسَبِ مَا تَعْقِلُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَقُولُ لِلرَّجُلِ مَا أُطِيقُ النَّظَرَ إلَيْك وَهُوَ مُطِيقٌ لِذَلِكَ؛ لَكِنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَيْهِ النَّظَرُ إلَيْهِ قَالَ: وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ}[هود: ٢٠].
قُلْت: لَيْسَتْ هَذِهِ لُغَةُ الْعَرَبِ وَحْدَهُمْ، بَلْ هَذَا مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ. وَالِاسْتِطَاعَةُ فِي الشَّرْعِ هِيَ مَا لَا يَحْصُلُ مَعَهُ لِلْمُكَلَّفِ ضَرَرٌ رَاجِحٌ، كَاسْتِطَاعَةِ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، فَمَتَى كَانَ يَزِيدُ فِي الْمَرَضِ أَوْ يُؤَخِّرُ الْبُرْءَ لَمْ يَكُنْ مُسْتَطِيعًا؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مُضَرَّةً رَاجِحَةً؛ بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ لِبُغْضِ الْحَقِّ وَثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ؛ إمَّا حَسَدًا لِقَائِلِهِ، وَإِمَّا اتِّبَاعًا لِلْهَوَى وَرَيْنِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي عَلَى الْقُلُوبِ، وَلَيْسَ هَذَا عُذْرًا، فَلَوْ لَمْ يَأْمُرْ الْعِبَادَ إلَّا بِمَا يَهْوُونَهُ لَفَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ.
قال ابن العثيمين: {واعف عنَّا}: أي تجاوز عما قصَّرنا فيه من الواجبات؛ {واغفر لنا}: أي تجاوز عما اقترفناه من السيئات؛ {وارحمنا}: أي تفضَّل علينا بالرحمة حتى لا نقع في فعل محظور، أو في تهاون في مأمور.
{أنت مولانا}: الجملة هنا خبرية مكونة من مبتدأ، وخبر كلاهما معرفة؛ وقد قال علماء البلاغة: إن الجملة المكونة من مبتدأ، وخبر كلاهما معرفة تفيد الحصر؛ والمراد: متولِّي أمورنا.
{فانصرنا على القوم الكافرين}: الفاء هنا للتفريع؛ يعني فبولايتك الخاصة انصرنا على القوم الكافرين – أي اجعل لنا النصر عليهم؛ وهو عام في كل كافر.
قال ابن كثير: {وَاعْفُ عَنَّا}: أَيْ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مِمَّا تَعْلَمُهُ مِنْ تَقْصِيرِنَا وَزَلَلِنَا، {وَاغْفِرْ لَنَا}: أَيْ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادِكَ، فَلَا تُظْهِرُهُمْ عَلَى مُسَاوِينَا وَأَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ، {وَارْحَمْنَا}: أَيْ فِيمَا يُسْتَقبل، فَلَا تُوقِعْنَا بِتَوْفِيقِكَ فِي ذَنْبٍ آخَرَ،

وَلِهَذَا قَالُوا: إِنَّ الْمُذْنِبَ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ عِبَادِهِ فَلَا يَفْضَحُهُ بِهِ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يَعْصِمَهُ فَلَا يُوقِعُهُ فِي نَظِيرِهِ.

وَقَوْلُهُ: {أَنْتَ مَوْلانَا}: أَيْ أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ {فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أَيِ: الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ، وَأَنْكَرُوا وَحْدَانِيَّتَكَ، وَرِسَالَةَ نَبِيِّكَ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ، فَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، أَنَّ مُعَاذًا، رضي الله عنه، كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ {فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} قَالَ: آمِينَ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص١٤٠: ثُمَّ سَأَلُوهُ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ؛ فَإِنَّ بِهَذِهِ الْأَرْبَعَةِ تَتِمُّ لَهُمْ النِّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ، وَلَا يَصْفُو عَيْشٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إلَّا بِهَا، وَعَلَيْهَا مَدَارُ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ، فَالْعَفْوُ مُتَضَمِّنٌ لِإِسْقَاطِ حَقِّهِ قِبَلهم وَمُسَامَحَتِهِمْ بِهِ، وَالْمَغْفِرَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِوِقَايَتِهِمْ شَرَّ ذُنُوبِهِمْ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ؛ بِخِلَافِ الْعَفْوِ الْمُجَرَّدِ؛ فَإِنَّ الْعَافِيَ قَدْ يَعْفُو وَلَا يُقْبِلُ عَلَى مَنْ عَفَا عَنْهُ وَلَا يَرْضَى عَنْهُ فَالْعَفْوُ تَرْكٌ مَحْضٌ، وَالْمَغْفِرَةُ إحْسَانٌ وَفَضْلٌ وَجُودٌ، وَالرَّحْمَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْأَمْرَيْنِ مَعَ زِيَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالْعَطْفِ وَالْبِرِّ، فَالثَّلَاثَةُ تَتَضَمَّنُ النَّجَاةَ مِنْ الشَّرِّ وَالْفَوْزَ بِالْخَيْرِ، وَالنُّصْرَةُ تَتَضَمَّنُ التَّمْكِينَ مِنْ إعْلَانِ عِبَادَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ، وَشِفَاءِ صُدُورِهِمْ مِنْهُمْ، وَإِذْهَابِ غَيْظِ قُلُوبِهِمْ، وحزازات نُفُوسِهِمْ، وَتَوَسَّلُوا فِي خِلَالِ هَذَا الدُّعَاءِ إلَيْهِ بِاعْتِرَافِهِمْ أَنَّهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُمْ سِوَاهُ فَهُوَ نَاصِرُهُمْ، وَهَادِيهِمْ، وَكَافِيهِمْ، وَمُعِينُهُمْ، وَمُجِيبُ دَعَوَاتِهِمْ، وَمَعْبُودُهُمْ.

فَلَمَّا تَحَقَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِهَذِهِ الْمَعَارِفِ وَانْقَادَتْ وَذَلَّتْ لِعِزَّةِ رَبِّهَا وَمَوْلَاهَا وَأَجَابَتْهَا جَوَارِحُهُمْ، أُعْطُوا كُلَّمَا سَأَلُوهُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ يَسْأَلُوا شَيْئًا مِنْهُ إلَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ فَعَلْت، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ذَلِكَ(١).

فَهَذِهِ كَلِمَاتٌ قَصِيرَةٌ مُخْتَصَرَةٌ فِي مَعْرِفَةِ مِقْدَارِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الشَّأْنِ، الْجَلِيلَةِ الْمِقْدَارِ، الَّتِي خَصَّ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأُمَّتَهُ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ.

وَبَعْدُ، فَفِيهَا مِنْ الْمَعَارِفِ وَحَقَائِقِ الْعُلُومِ مَا تَعْجِزُ عُقُولُ الْبَشَرِ عَنْ الْإِحَاطَةِ بِهِ، وَاَللَّهُ الْمَرْغُوبُ إلَيْهِ أَنْ لَا يَحْرِمَنَا الْفَهْمَ فِي كِتَابِهِ، إنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ.

١- مسلم في الإيمان (١٢٦/٢٠٠).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث لا يكلِّفهم إلَّا ما استطاعوه؛ ولو شاء أن يكلِّفهم ما لم يستطيعوا لفعل.

فإذا قال قائل: كيف يفعل وهم لا يستطيعون؟ وما الفائدة بأن يأمرهم بشيء لا يستطيعونه؟

فالجواب: أن الفائدة أنه لو كلفهم بما لا يستطيعون، وعجزوا عاقبهم على ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة من أصول الشريعة؛ ولها نظائر في القرآن، وكذلك في السنة.

٢- إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم؛ وهي: لا واجب مع العجز؛ ولا محرَّم مع الضرورة؛ لكن إن كان الواجب المعجوز عنه له بدل وجب الانتقال إلى بدله؛ فإن لم يكن له بدل سقط؛ وإن عجز عن بدله سقط؛ مثال ذلك: إذا عجز عن الطهارة بالماء سقط عنه وجوب التطهر بالماء؛ لكن ينتقل إلى التيمُّم؛ فإن عجز سقط التيمُّم أيضًا – مثال ذلك: شخص محبوس مكبل لا يستطيع أن يتوضأ، ولا أن يتيمم: فإنه يصلِّي بلا وضوء، ولا تيمُّم؛ مثال آخر: رجل قتل نفسًا معصومةً خطأً: فعليه أن يعتق رقبة؛ فإن لم يجد فعليه أن يصوم شهرين متتابعين؛ فإن لم يستطع سقطت الكفارة؛ مثال ثالث: رجل جامع زوجته في نهار رمضان: فعليه أن يعتق رقبة؛ فإن لم يجد فعليه صيام شهرين؛ فإن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكينًا؛ فإن لم يجد فلا شيء عليه.

ومثال سقوط التحريم مع الضرورة: رجل اضطر إلى أكل الميتة بحيث لا يجد ما يسد رمقه سوى هذه الميتة: فإنه يحل له أكلها؛ وهل له أن يشبع؛ أو يقتصر على ما تبقى به حياته؟

والجواب: إن كان يرجو أن يجد حلالًا عن قرب فيجب أن يقتصر على ما يسدُّ رمقه؛ وإن كان لا يرجو ذلك فله أن يشبع، وأن يتزوَّد منها – وأن يحمل معه منها – خشية أن لا يجد حلالًا عن قرب.

ومعنى الضرورة أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا المحرَّم؛ وأن ضرورته تندفع به – فإن لم تندفع فلا فائدة؛ مثال ذلك: رجل ظن أنه في ضرورة إلى التداوي بمحرَّم؛ فأراد أن يتناوله: فإنه لا يحل له ذلك لوجوه:

الأول: أن الله حرَّمه؛ ولا يمكن أن يكون ما حرَّمه شافيًا لعباده، ولا نافعًا لهم.

الثاني: أنه ليس به ضرورة إلى هذا الدواء المحرَّم؛ لأنه قد يكون الشفاء في غيره، أو يشفى بلا دواء.

الثالث: أنَّنا لا نعلم أن يحصل الشفاء في تناوله؛ فكم من دواء حلال تداوى به المريض ولم ينتفع به؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحبة السوداء: ((إنها شفاء من كل داء إلَّا السام – يعني الموت[١]))؛ فهذه مع كونها شفاء لا تمنع الموت؛ ولذلك لو اضطر إلى شرب خمر لدفع لقمة غصَّ بها جاز له ذلك، لأن الضرورة محقَّقة، واندفاعها بهذا الشرب محقَّق.

الخلاصة الآن: أخذنا من هذه الآية الكريمة: {لا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وسعها} قاعدتين متَّفقا عليهما؛ وهما:

أ – لا واجب مع العجز.

ب – ولا محرَّم مع الضرورة.

٣– أن الإنسان لا يحمل وزر غيره؛ لقوله تعالى: {وعليها ما اكتسبت}.

إذا قال قائل: ما تقولون في قول النبي ﷺ: ((من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))؟

فالجواب: أن هذا لا يرد؛ لأن الذي فعلها أولًا اقتدى الناس به؛ فكان اقتداؤهم به من آثار فعله؛ ولما كان هو المتسبِّب، وهو الدالُّ على هذا الفعل كان مكتسِبًا له.

٤– يسر الدين الإسلامي؛ لقوله تعالى: {لا يكلِّف الله نفسها إلَّا وسعها}.

ويتفرَّع على هذا أن يختلف الناس فيما يلزمون به؛ فالقادر على القيام في الفريضة يلزمه القيام؛ والعاجز عن القيام يصلِّي قاعدًا؛ والعاجز عن القعود يصلِّي على جنب؛ وكذلك القادر على الجهاد ببدنه يلزمه الجهاد ببدنه إذا كان الجهاد فرضًا؛ والعاجز لا يلزمه؛ وكذلك القادر على الحج ببدنه وماله يلزمه أداء الحج ببدنه، والعاجز عنه ببدنه عجزًا لا يرجى زواله القادر بماله يلزمه أن ينيب من يحج عنه؛ والعاجز بماله وبدنه لا يلزمه الحج.

٥– أن للإنسان طاقة محدودة؛ لقوله تعالى: {إلَّا وسعها}؛ فالإنسان له طاقة محدودة في كل شيء: في العلم، والفهم، والحفظ، فيكلف بحسب طاقته.

٦– أن للإنسان ما كسب دون أن ينقص منه شيء، كما قال تعالى: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا}[طه: ١١٢].

٧– أن الأعمال الصالحة كسب؛ وأن الأعمال السيئة غرم؛ وذلك مأخوذ من قوله تعالى: {لها}، ومن قوله تعالى: {عليها}؛ فإن (على) ظاهرة في أنها غرم؛ واللام ظاهرة في أنها كسب.

١– أخرجه البخاري ص٤٨٧، كتاب الطب، باب ٧: الحبة السوداء، حديث رقم ٥٦٨٧؛ وأخرجه مسلم ص١٠٧٠، كتاب السلام، باب ٢٩: التداوي بالحبة السوداء، حديث رقم ٥٧٦٦ [٨٨] ٢٢١٥.

٨- رحمة الله سبحانه وتعالى بالخلق، حيث علمهم دعاء يدعونه به، واستجاب لهم إيَّاه في قوله تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}.

٩- أنه ينبغي للإنسان أن يتوسل في الدعاء بالوصف المناسب، مثل الربوبية – التي بها الخلق، والتدبير؛ ولهذا كان أكثر الأدعية في القرآن مصدرة بوصف الربوبية، مثل: {ربنا}، ومثل: (رب).

١٠- رفع المؤاخذة بالنسيان، والجهل؛ لقوله تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}، فقال الله تعالى: ((قد فعلت))؛ ولا يلزم من رفع المؤاخذة سقوط الطلب؛ فمن ترك الواجب نسيانًا، أو جهلًا، وجب عليه قضاؤه، ولم يسقط الطلب به؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((من نسي صلاة فليصلِّها إذا ذكرها([1])))؛ ولمَّا صلَّى الرجل الذي لا يطمئن في صلاته قال له: ((ارجع فصلِّ؛ فإنَّك لم تصلِّ([2])))؛ ولم يعذره بالجهل مع أنه لا يحسن غير هذا؛ إذا فعدم المؤاخذة بالنسيان، والجهل لا يسقط الطلب؛ وهذا في المأمورات ظاهر؛ أما المنهيات فإن من فعلها جاهلًا، أو ناسيًا فلا إثم عليه، ولا كفارة؛ مثال ذلك: لو أكل وهو صائم ناسيًا فلا إثم عليه؛ لقول النبي ﷺ: ((من نسي وهو صائم فأكل، أو شرب، فليتم صومه([3])))؛ وكذلك لو أكل وهو صائم جاهلًا فإن صومه صحيح سواء كان جاهلًا بالحكم، أو بالوقت؛ لأن أسماء بنت أبي بكر قالت: ((أفطرنا على عهد رسول الله ﷺ يوم غيم، ثم طلعت الشمس([4])))؛ ولم يؤمروا بالقضاء؛ ولكن لو فعل المحرَّم عالمًا بتحريمه جاهلًا بما يترتَّب عليه لم يسقط عنه الإثم، ولا ما يترتَّب على فعله؛ مثل أن يجامع الصائم في نهار رمضان وهو يجب عليه الصوم عالمًا بالتحريم – لكن لا يعلم أن عليه الكفارة: فإنه آثم، وتجب عليه الكفارة؛ لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: ((يا رسول الله، هلكت قال: ما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم))؛ فألزمه النبي ﷺ بالكفارة([5])؛ لأنه كان عالمًا بالحكم بدليل قوله: ((هلكت)).

فإن قال قائل: (قد ذكرتم أن المأمور لا يسقط بالجهل والنسيان)، فما الفائدة من عذره الجهل؟

فالجواب: أن الفائدة عدم المؤاخذة؛ لأنه لو فعل المأمور على وجه محرَّم يعلم به لكان آثمًا؛ لأنه كالمستهزئ بالله عز وجل وآياته، حيث يعلم أن هذا محرَّم، فيتقرَّب به إلى الله.

١- أخرجه البخاري ص٤٨، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٣٧: من نسي صلاة فليصلها ... ، حديث رقم ٥٩٧، وأخرجه مسلم ص٧٨٥، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٥٥: قضاء الصلاة الفائتة ... ، حديث رقم ١٥٦٦ [٣١٤] ٦٨٤.

٢- أخرجه البخاري ص٦٠، كتاب الأذان، باب ٩٥: وجوب القراءة للإمام والمأموم ... ، حديث رقم ٧٥٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٤٠، كتاب الصلاة، باب ١١: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ... ، حديث رقم ٨٨٥ [٤٥] ٣٩٧.

٣- أخرجه مسلم ص٨٦٣، كتاب الصيام، باب ٣٣: أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، حديث رقم ٢٧١٦ [١٧١] ١١٥٥.

٤- أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٦: إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، حديث رقم ١٩٥٩..

٥- أخرجه البخاري ص١٥١، كتاب الصوم، باب ٣٠: إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء ... ، حديث رقم ١٩٣٦.

١١- أن فعل الإنسان واقع باختياره؛ لقوله تعالى: {لا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وسعها}؛ فيكون فيها ردٌّ على الجبرية الذين يقولون: (إنه لا اختيار للعبد فيما فعل)؛ وبيان مذهبهم، والرَّد عليهم بالتفصيل مذكور في كتب العقائد.

١٢- أن النسيان وارد على البشر؛ والخطأ وارد على البشر؛ وجهه: قوله تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}، فقال الله تعالى: ((قد فعلت))؛ وهذا إقرار من الله سبحانه وتعالى على وقوع النسيان، والخطأ من البشر.

فإذا قال قائل: ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى يجعل البشر ينسى ويخطئ؟

فالجواب: ليتبيَّن للإنسان ضعفه، وقصوره: ضعفه في الإدراك، وضعفه في الإبقاء، وفي كل حال؛ وليتبيَّن بذلك فضل الله عليه بالعلم والذاكرة وما أشبه ذلك؛ وليعرف الإنسان افتقاره إلى الله عز وجل في دعائه في رفع النسيان، والجهل عنه؛ فيلجأ إلى الله عز وجل، فيقول: (رب علمني ما جهلت، وذكرني ما نسيت)، وما أشبه ذلك.

١٣- امتنان الله على هذه الأمة برفع الآصار التي حملها من قبلنا؛ لقوله تعالى: {ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا}، فقال الله تعالى: ((قد فعلت)).

١٤- أن من كان قبلنا مكلَّفون بأعظم ممَّا كلِّفنا به؛ لقوله تعالى: {ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا}؛ مثال ذلك: قيل لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل: لن تقبل توبتكم حتى تقتلوا أنفسكم – أي يقتل بعضكم بعضًا؛ قيل: أنهم أمروا أن يكونوا في ظلمة، وأن يأخذ كل واحد منهم سكينًا، أو خنجرًا، وأن يطعن من أمامه سواء كان ابنه، أو أباه، أو عمه، أو أخاه، أو غيرهم؛ وهذا لا شك تكليف عظيم، وعبء ثقيل؛ أما نحن فقيل لنا – حتى في الشرك: {والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلَّا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا * إلَّا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات}[الفرقان: ٦٨ – ٧٠].

١٥- أن ينبغي للإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالى العافية، فلا يحمله ما لا طاقة له به؛ ففيه ردٌّ على الصوفية الذين قالوا: نحن لا نسأل الله تعالى أن يقينا ما يشق علينا؛ لأننا عبيده؛ وإذا حصل لنا ما يشق فإنَّا نصبر عليه لنكسب أجرًا.

١٦- أنه ينبغي للإنسان سؤال الله العفو؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير في المأمورات؛ فيسأل الله العفو عن تقصيره؛ لقوله تعالى: {واعف عنا}؛ وسؤال الله المغفرة من ذنوبه التي فعلها؛ لقوله تعالى: {واغفر لنا}؛ لأن الإنسان إن لم يغفر له تراكمت عليه الذنوب، ورانت على قلبه، وربما توبقه، وتهلكه.

١٧- أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله أن يرحمه في مستقبل أمره؛ فيعفو عما مضى، ويغفر؛ ويرحم في المستقبل؛ لقوله تعالى: {وارحمنا}؛ وبه نعرف اختلاف هذه الكلمات الثلاث: طلب العفو عن التفريط في الطاعات؛ والاستغفار عن فعل المحرمات؛ والرحمة فيما يستقبله الإنسان من زمنه – أن الله يرحمه، ويوفقه لما فيه مصلحته.

١٨- أن المؤمن لا وليَّ له إلَّا ربه؛ لقوله تعالى: {أنت مولانا}؛ وولاية الله نوعان: خاصة، وعامة؛ فالولاية الخاصة ولاية الله للمؤمنين، كقوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}[البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالى: {والله ولي المؤمنين}، وقوله تعالى: {إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين}[الأعراف: ١٩٦]؛ والعامة: ولايته لكل أحد؛ فالله سبحانه وتعالى ولي لكل أحد بمعنى أنه يتولى جميع أمور الخلق؛ مثاله قوله تعالى: {ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون}[يونس: ٣٠].

١٩- التوسل إلى الله تعالى في الدعاء بما يقتضي الإجابة؛ لقوله تعالى: {أنت مولانا} بعد أن ذكر الدعاء في قوله تعالى: {واعف عنا واغفر لنا وارحمنا}.

٢٠- أنه يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل في النصرة على القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: {فانصرنا على القوم الكافرين}؛ والنصر على الكافرين يكون بأمرين: بالحجة، والبيان؛ وكذلك بالسيف، والسلاح؛ وأما السيف، والسلاح فظاهر؛ وأما الحجة، والبيان فقد يجتمع كافر، ومسلم، ويتناظران في أمر من أمور العقيدة فإن لم ينصر الله المسلم خذل، وكان في ذلك خذلان له، وللدين الذي هو عليه؛ وهذا النوع من النصر يتعين في المنافقين؛ لأن المنافق لا يجاهد بالسيف، والسلاح؛ لأنه يظهر أنه معك؛ ولهذا لما استؤذن الرسول ﷺ في قتل المنافقين قال: ((لا يتحدَّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه[١])).

تمَّ تفسير سورة البقرة بعون الله وفضله

١- (قلت): البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم {١} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ {٢}

قد أتينا على البيان عن معنى قوله: {ألم} فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع(١).

قال ابن العثيمين: {الله لا إله إلَّا هو الحي القيوم}: هذه الجملة مكوَّنة من مبتدأ وخبر؛ فالله مبتدأ، وجملة {لا إله إلَّا هو} خبر مبتدأ؛ لكن هذه الجملة جملة أيضًا لكنَّها تسمَّى عند النحويين جملة صغرى؛ لأن الخبر إذا وقع جملة فهو جملة صغرى؛ والكبرى: مجموع المبتدأ والخبر. وقوله: {الحي القيوم} خبران آخران {الحي} خبر ل{الله} الثاني؛ و{القيوم} خبر ثالث؛ فقوله: {الله}: علم على الذَّات المقدَّسة، علم على الرب عز وجل؛ وأصله الإله بمعنى المألوه، وحذفت الهمزة تخفيفًا كما حذفت الهمزة من خير وشر في مثل قول الرسول ﷺ: ((خير صفوف الرجال أوَّلها وشرُّها آخرها)): أي أخيرها وأشرُّها؛ وكما حذفت الهمزة أيضًا من: الناس، وأصلها: أناس؛ {الله}: علم على الذات المقدسة وهو أعلم المعارف على الإطلاق، هو أعلم معارف على الإطلاق نعم؟ ومعناه: المعبود حبًّا وتعظيمًا؛ فهو فعال بمعنى مفعول وما أكثر ما يأتي فعال بمعنى مفعول كغراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني.

وقوله: {لا إله إلَّا هو}: أي لا معبود حق إلَّا هو؛ ف{إله} اسم لا النافية للجنس، وخبرها محذوف تقديره: حق؛ وهناك آلهة باطلة ولكنَّها آلهة وضعت عليها الأسماء بدون حق؛ كما قال الله تعالى: {ما تعبدون من دونه إلَّا أسماء سميتموها}، وقال تعالى: {أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هي إلَّا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان}. وبهذا التقدير للخبر في {لا إله إلَّا هو} يزول الإشكال وهو أنه كيف ينفى الإله في مثل هذه الجملة ويثبت في مثل قوله: {فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء} والجمع: أن تلك الآلهة باطل؛ وأما الإله في: {لا إله إلَّا هو} فهو إله حق {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل} وقوله: {هو} هذا ضمير وليس اسمًا، هذا ضمير وليس اسم؛ بدليل قوله: {فاعلم أنه لا إله إلَّا الله واستغفر لذنبك} هذا علم؛ وبدليل قوله: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلَّا نوحي إليه أنه لا إله إلَّا أنا فاعبدون} و{أنا} هنا ضمير؛ وعلى هذا نقول: {أنا} وهو في قوله: {لا إله إلَّا أنا}، وقوله: {لا إله إلَّا هو} كلاهما ضمير رفع منفصل؛ فكما أن الذَّاكر لا يقول: (لا إله إلَّا أنا)؛ أو كما أن الذاكر لا يجعل {أنا} اسمًا لله فلا يجوز أن يجعل {هو} اسمًا لله؛ وبهذا نعرف بطلان ذكر الصوفية الذي يذكرون الله بلفظ: هو هو، ويرون أن هذا الذكر أفضل الأذكار؛ وهو ذكر باطل.

١- (قلت): انظر كلام ابن العثيمين عند تفسير الآية (١) من سورة البقرة. وكلام الشنقيطي على الحروف الهجائية في الآية (١) من سورة هود. وانظر تفسير لفظ الجلالة ومعنى إسم الله {الإله} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

قال الطبري: {لا اله إلّا هو}، فإنه خبرٌ من الله جل وعز، أخبرَ عبادَه أن الألوهية خاصةٌ به دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وأن العبادة لا تصلحُ ولا تجوز إلّا له لانفراده بالربوبية، وتوحُّده بالألوهية، وأن كل ما دونه فملكه، وأنّ كل ما سواه فخلقه، لا شريك له في سلطانه ومُلكه احتجاجًا منه تعالى ذكره عليهم بأن ذلك إذْ كان كذلك، فغيرُ جائزة لهم عبادةُ غيره، ولا إشراك أحد معه في سلطانه، إذ كان كلُّ معبود سواه فملكه، وكل معظَّم غيرُه فخلقهُ، وعلى المملوك إفرادُ الطاعة لمالكه، وصرفُ خدمته إلى مولاه ورازقه وَمُعَرِّفًا مَنْ كَانَ مِنْ خَلْقِهِ يَوْمَ أَنْزَلَ ذَلِكَ إِلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِتَنْزِيلِهِ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَإِرْسَالِهِ بِهِ إِلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، مُقِيمًا عَلَى عِبَادَةِ وَثَنٍ أَوْ صَنَمٍ أَوْ شَمْسٍ أَوْ قَمَرٍ أَوْ إِنْسِيٍّ أَوْ مَلَكٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ بَنُو آدَمَ مُقِيمَةً عَلَى عِبَادَتِهِ وَإِلَاهَتِهِ، وَمُتَّخِذَتَهُ دُونَ مَالِكِهِ وَخَالِقِهِ إِلَهًا وَرَبًّا، أَنَّهُ مُقِيمٌ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَمُنْعَزِلٌ عَنِ الْمَحَجَّةِ، وَرَاكِبٌ غَيْرَ السَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمَةِ بِصَرْفِهِ الْعِبَادَةَ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا أَحَدَ لَهُ الْأُلُوهِيَّةُ غَيْرُهُ. وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ ابْتَدَأَ اللَّهُ بِتَنْزِيلِهِ فَاتِحَتَهَا بِالَّذِي ابْتَدَأَ بِهِ مِنْ نَفْيِ الْأُلُوهِيَّةِ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ، وَوَصْفِهِ نَفْسَهُ بِالَّذِي وَصَفَهَا بِهِ ابْتِدَاءَهَا؛ احْتِجَاجًا مِنْهُ بِذَلِكَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَجْرَانَ، فَحَاجُّوهُ فِي عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَلْحَدُوا فِي اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَمْرِهِمْ وَأَمْرِ عِيسَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ نَيِّفًا وَثَلَاثِينَ آيَةً مِنْ أَوَّلِهَا، احْتِجَاجًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَقَالَتِهِمْ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَبَوْا إِلَّا الْمُقَامَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، فَأَبَوْا ذَلِكَ وَسَأَلُوا قَبُولَ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ، فَقَبِلَهَا ث مِنْهُمْ، وَانْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ. غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ وَإِيَّاهُمْ قَصَدَ بِالْحِجَاجِ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ مَعْنَاهُ مِنْ سَائِرِ الْخَلْقِ مَعْنَاهُمْ فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَاتِّخَاذِ مَا سِوَى اللَّهِ رَبًّا وَإِلَهًا وَمَعْبُودًا، مَعْمُومُونَ بِالْحُجَّةِ الَّتِي حَجَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَا مَنْ نَزَلَتْ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهِ، وَمَحْجُوجُونَ فِي الْفُرْقَانِ الَّذِي فَرَّقَ بِهِ لرسوله ﷺ بينه وبينهم.

عن الربيع في قوله: {ألم * اللهُ لا إله إلا هو الحي القيوم}، قال: إنّ النصارى أتوا رسول الله ﷺ، فخاصموه في عيسى ابن مريم وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذبَ والبهتانَ، لا إله إلّا هو لم يتّخذ صاحبة ولا ولدًا، فقال لهم النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلّا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن ربّنا حيّ لا يموت، وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن ربنا قَيِّمٌ على كل شيء يكلأهُ ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى! قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا! قال: أفلستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى! قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟ قالوا: لا! قال: فإنّ ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يُحدِث الحدَث؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمُّه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّي كما يغذّى الصبيُّ، ثم كان يَطعم

الطعام، ويشرب الشرابَ ويُحدث الحدَث؟ قالوا بلى! قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا، ثم أبوا إلَّا جحودًا، فأنزل الله عز وجل: {ألم * اللهُ لا إله إلا هو الحي القيوم([1])}.

قال السعدي: افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بألوهيته، وأنه الإله الذي لا إله إلَّا هو الذي لا ينبغي التألُّه والتَّعبُّد إلَّا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتَّصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيُّومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلَّا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعزِّ الذي لا يرام {القيُّوم} الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح.

قال ابن العثيمين: {الحي}: {أل} هنا للاستغراق أي كامل الحياة؛ وحياة الله عز وجل كاملة في وجودها وكاملة في زمنها؛ حياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال؛ هي أيضًا كاملة حال وجودها لا يدخلها نقص بوجه من الوجوه؛ فهو كامل في سمعه، وعلمه، وقدرته، وجميع صفاته؛ إذا رأينا الآدمي بل إذا رأينا غير الله عز وجل وجدنا أنه ناقص في حياته زمنًا ووجودًا؛ فحياته مسبوقة بعدم، ملحوقة بزوال وفناء؛ هي أيضًا ناقصة في وجودها؛ هل هو كامل السمع؟ الحي ليس كامل السمع، ولا البصر، ولا العلم، ولا القدرة؛ كل حي فهو ناقص؛ إذا حياته ناقصة في الوجود والزمن؛ ففي الزمن مسبوقة بعدم وملحوقة بزوال؛ وفي الوجود ناقصة في جميع الصفات.

وقوله: {القيُّوم}: على وزن فيعول وهو مأخوذ من القيام؛ ومعناه: القائم بنفسه، القائم على غيره؛ القائم بنفسه فلا يحتاج إلى أحد؛ والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه؛ وفي الجمع بين الاسمين الكريمين: {الحيُّ القيُّوم} في الجمع بينهما استغراق لجميع ما يوصف الله به لجميع الكمالات؛ ففي {الحيُّ} كمال الصفات، وفي {القيُّوم} كمال الأفعال؛ وباجتماعهما كمال الذات؛ فهو كامل الصفات والأفعال والذات([2]).

١- (قلت): قال عبدالرزاق المهدي (محقق تفسير البغوي): أخرجه الطبري ٦٥٤٠ وابن هشام في السيرة (٢/ ١٦٤) من طريق ابن إسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بن الزبير به. وكذا ذكره ابن كثير في التفسير (١/ ٣٧٦) من طريق ابن إسحاق، وعزاه المصنف للكلبي والربيع بن أنس وغيرهما، وإسناده إليهما أول الكتاب، وتقدم، وذكره الواحدي في أسباب النزول (١٩٠) نقلًا عن المفسرين. وانظر دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٨٢ - ٣٨٤) وهذه المراسيل تتأيَّد بمجموعها.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحي}، وإسم الله {القيوم} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ {٣} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ {٤}

قال ابن العثيمين: {نزَّل}: التنزيل يكون من أعلى إلى أسفل، ويكون بالتَّدريج شيئًا فشيئًا؛ كما قال الله تعالى: {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا}، وقال تعالى: {وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك}: يعني نزَّلناه ليس جملة واحدة؛ فقوله: {نزل}: يفيد أن هذا القرآن من عند الله، وأنه نزل بالتَّدريج ليس مرة واحدة؛ وقوله: {عليك}: الضمير يعود على الرسول ﷺ؛ وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى أنه نزل على قلب الرسول ﷺ ليكون أدلَّ على وعيه لهذا القرآن الذي نزل عليه.

وقوله: {نزَّل عليك الكتاب}: {الكتاب} وهو هذا القرآن، وهو فعال بمعنى مفعول؛ لأنه مكتوب؛ فهو كتاب لأنه مكتوب في لوح المحفوظ كما قال تعالى: {إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون} لوح المحفوظ؛ وهو كتاب في الصحف التي بأيدي الملائكة {فمن شاء ذكره في صحف مكرمة} وهو كتاب في الصحف التي بأيدينا فهو مكتوب بأيدينا ونقرأه من هذه الكتب.

وقوله: {الكتاب بالحق}: الباء هذه يجوز أن تكون من باب أنه متلبس بالحق؛ أي مشتمل على الحق؛ فهو نازل بحق لا بالباطل؛ ويحتمل أن يكون عائدًا التنزيل؛ يعني أنه نزل حق ليس بباطل؛ قال تعالى: {وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون} بعد قوله: {وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين} فيكون بالحق يعني أنه نازل عليك نزولًا حقًّا ليس بباطل ويحتمل أن يكون نازلًا بالحق يعني مشتملًا عليه ومتلبِّسًا به؛ والمعنيان صحيحان لا يتنافيان؛ والقاعدة: أن النص إذا دلَّ على معنيين صحيحين لا يتنافيان حمل عليهما جميعًا.

قال الطبري: يقول جل ثناؤه: يا محمد، إنّ ربك وربَّ عيسى وربَّ كل شيء، هو الرّبّ الذي أنزل عليك الكتاب – يعني بـ{الكتاب}، القرآن – {بالحق}: يعني بالصِّدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل، وفيما خالفك فيه محاجُّوك من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم – {مُصَدِّقًا لما بين يديه}: يعني بذلك القرآن، أنه مصدِّق لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رُسل الله من عنده. لأن منزل جميع ذلك واحد، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلاف كثير.

عن محمد بن جعفر بن الزبير: {نزل عليك الكتاب بالحق}: أي بالصِّدق فيما اختلفوا فيه.

عن مجاهد: {مصدِّقًا لما بين يديه}: لما قبله من كتاب أو رسول.

قال أبو زهرة: وقد عبر – سبحانه وتعالى – عن نزول القرآن الكريم بـ{نَزَّلَ} للإشارة إلى أن النزول كان تدريجيًّا، ولم يكن دفعة واحدة، إذ إن التَّنزيل يدلُّ على التَّدرُّج في النزول، وكذلك كان القرآن الكريم؛ فقد نزل منجَّمًا ينزل في الوقائع، أو

الأسئلة ليكون السبب الذي اقترن بنزوله معِينا على فهمه وإدراك بعض مغازيه. وقد ذكر تنزيل القرآن مقترنًا بأمرين متَّصِلًا بهما:

أولهما: أنَّه حقٌّ في ذاته، ومبيِّنٌ للحق مشتمل عليه، وداعٍ إليه، فقال الله تعالى: {بِالْحَقِّ}: أي مصاحبًا له مقترنًا به ملازمًا له، فهو حق لأنه نزل من عند رب العالمين، واشتمل على الحق، فكل ما فيه من قصص وأخبار وشرائع وأحكام وعقائد حقٌّ لا شك فيه، وهو يدعو إلى الحق والعدل، فهو الحق الملازم للحق، الناصر للحق.

وثاني الأمرين: أنه مصدِّقٌ لما بين يديه؛ أي الشرائع الإلهية التي سبقته؛ ولذا قال سبحانه: {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} فهو في لبِّه ومعناه مبيِّن لكل الشرائع مصدِّقٌ لصدقها؛ وهذا يدلُّ على أن الشرائع الإلهية واحدة في لبِّها ومعناها وأصولها؛ ولذا قال سبحانه: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .....}؛ فالإسلام هو لبُّ الأديان وغايتها؛ ولذا قال سبحانه: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ .....}.

قال ابن العثيمين: قوله: {مصدِّقًا لما بين يديه}{مصدِّقًا}: حال من الكتاب ولا يصح أن نجعلها صفة؛ لماذا؟ لأن {مصدِّقًا} نكرة، و{الكتاب} معرفة؛ والصفة يجب أن تتبع الموصوف في المعرفة والنكرة؛ وقوله: {مصدِّقًا لما بين يديه}: يعني من الكتب السابقة؛ وتصديقه لما بين يديه له وجهان: الوجه الأول: لأن الكتب أخبرت به فوقع؛ وإذا وقع صار تصديقًا لها؛ والثاني: {مصدِّقًا لما بين يديه}: أي حاكمًا عليها بالصدق؛ فيكون هذا تصديق لما بين يديه يشمل الوجهين جميعًا؛ فالقرآن شاهد بأن التوراة حق، والإنجيل حق، وأن الزبور حق، وأن صحف ابراهيم حق، وأن الله أنزل على كل رسول كتابًا؛ كذلك مصدِّق للكتب التي أخبرت به؛ فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن أنه سينزل، ووصفت النبي ﷺ الذي ينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبنائهم. وقوله: {لما بين يديه}: أي لما سبقه؛ لأن الذي بين يديك سابق عليك، لأنه أمامك فهو متقدِّم عليك.

قال أبو زهرة: {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}: هذا تصريح ببعض ما تضمَّنته الجملة السامية السابقة؛ إذ قد تضمَّنت الجملة السابقة أن القرآن يصدِّق الثابت النازل من عند الله في الشرائع السابقة، وهي تتضمَّن أنها كانت هداية للناس؛ وهذه الجملة تصرِّح بأن التوراة أنزلت هي والإنجيل من عند الله هداية للذين أنزلت لهم. وفي هذه الجملة إشارة إلى معنى آخر، وهو أن لكلِّ أمة كتابًا وهداية خاصة، وإن كانت في معناها مشتقَّة من الهدى الإلهي العام، حتى إذا كانت دعوة محمد ﷺ كانت هي الهدى العام الخالد إلى يوم القيامة.

قال ابن العثيمين: {وأنزل التوراة والإنجيل}، قال: {نزل عليك الكتاب}، {وأنزل التوراة} اختلف التعبير، واختلاف التعبير يدلُّ على اختلاف المعنى؛ قال أهل العلم: إن التوراة والإنجيل نزلتا دفعة واحدة بدون تدريج بخلاف القرآن فإنه نزل بالتدريج؛ وهذا من رحمة الله عز وجل على هذه الأمة؛ لأنه إذا نزل بالتَّدريج صارت أحكامه أيضًا بالتَّدريج؛ لكن لو نزل دفعة

واحدة لزم الأمة أن تعمل به جميعًا بدون تدريج؛ وهذا من الآصار التي كتبت على من سبقنا إذا نزلت عليهم الكتب مرة واحدة ألزموا بالعمل بها من حين أن تنزل فيما ألفوه وفيما لم يألفوه بخلاف القرآن الكريم.

وقوله: {التوراة والإنجيل}: التوراة هي كتاب الذي نزله الله على موسى؛ والإنجيل هو الذي نزله الله على عيسى عليه الصلاة والسلام؛ وهذان الاسمان قيل: إنهما غير عربيين؛ وقيل: بل هما عربيان؛ ولكن الذي يظهر أنهما ليسا بعربيين؛ ولكنه إذا نزل القرآن بشيء صار اللفظ الذي نزل به القرآن عربيًّا بالتَّعريف، صار عربيًّا بالتَّعريف.

قال: {وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس}: {هدًى} هذه مفعول لأجله متعلّقة ب{نزّل}، و{أنزل}؛ أي نزَّل عليك الكتاب هدًى للناس؛ {وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدًى للناس}؛ فهي مفعول من أجله؛ أي لأجل هداية الناس؛ والمراد بالهداية هنا هداية الدِّلالة التي يترتَّب عليها هداية التوفيق؛ لكن الأصل في هذه الكتب أنها هداية الدِّلالة؛ ولهذا قال: {هدًى للناس} عمومًا حتى الكفَّار تهديهم وتدلُّهم، تبيِّن لهم الحق من الباطل؛ لكن قد يوفَّقون لقبول الحق والعمل به وقد لا يوفَّقون؛ والهدى ضد الضلال، واهتدى بمعنى صار على الطريق الصواب؛ وضلَّ بمعنى انحرف وتاه وضاع؛ ومنه سمِّيَت الضَّالة يعني البعير الضائع التَّائه.

قال الطبري: ويعني بقوله: {هُدًى للناس}: بيانًا للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق رسله، ونَعْتِك يا محمد بأنك نبيي ورسولي، وفي غير ذلك من شرائع دين الله.

عن قتادة: {وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس}، هما كتابان أنزلهما الله، فيهما بيانٌ من الله، وعصمةٌ لمن أخذ به وصدَّق به، وعمل بما فيه.

قال ابن العثيمين: {وأنزل الفرقان}: المراد بالفرقان هنا المعنى وليس المراد به القرآن؛ فالمراد أنزل ما يبيِّن به الفرق بين الحق والباطل؛ وإنَّما قلنا ذلك لأنَّنا لو خصَّصناه بالقرآن لكان في ذلك تكرار مع قوله: {نزل عليك الكتاب} وكان فيه فصل لكون التوراة والإنجيل فرقانًا مع أن التوراة والإنجيل فرقان لاشك أن فيها تفريقًا بين الحق والباطل؛ إذا أنزل الفرقان الذي تضمَّنته هذه الكتب الثلاثة وهي: القرآن، والتوراة، والإنجيل؛ ففيها الهدى وفيها الفرقان، فيها التفريق بين الحق والباطل، وفيها التَّفريق بين أهل الحق وأهل الباطل جميعًا؛ ففيها تفريق بين العامل والمعمول، بين الحق في ذاته يقول هذا حق وهذا باطل؛ وبين أهل الحق وأهل الباطل؛ فيها تفريق بين النافع والضار؛ فيها تفريق بين الأنفع والنافع؛ فيها تفريق بين الأضرِّ والضَّار؛ لأن كلمة الفرقان كلمة واسعة تشمل كل ما به الفرق من جميع الوجوه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٣ص٧: قَالَ جَمَاهِيرُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ الْقُرْآنُ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادِهِ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: هُوَ الْفُرْقَانُ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. قَالَ: وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ ومقسم وقتادة وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ نَحْوُ ذَلِكَ، وَرُوِيَ بِإِسْنَادِهِ عَنْ شيبان، عَنْ قتادة فِي قَوْلِهِ: {وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} قَالَ: هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، فَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ

الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيَّنَ فِيهِ دِينَهُ وَشَرَعَ فِيهِ شَرَائِعَهُ، وَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَحَدَّ حُدُودَهُ، وَأَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَعَنْ عَبَّادِ بْنِ مَنْصُورٍ: سَأَلْت الْحَسَنَ عَنْ قَوْله تَعَالَى: {وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} قَالَ: هُوَ كِتَابٌ بِحَقٍّ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ لَفْظَ {الْفُرْقَانِ} إذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَصْدَرُ كَانَ الْمُرَادُ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْفَصْلَ وَالْفَرْقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا مُنَزَّلٌ فِي الْكِتَابِ؛ فَإِنَّ فِي الْكِتَابِ الْفَصْلَ، وَإِنْزَالُ الْفَرْقِ هُوَ إنْزَالُ الْفَارِقِ، وَإِنْ أُرِيدَ بِالْفُرْقَانِ مَا يُفَرِّقُ فَهُوَ الْفَارِقُ أَيْضًا. فَهُمَا فِي الْمَعْنَى سَوَاءٌ، وَإِنْ أُرِيدَ بِالْفُرْقَانِ نَفْسُ الْمَصْدَرِ فَيَكُونُ إنْزَالُهُ كَإِنْزَالِ الْإِيمَانِ وَإِنْزَالِ الْعَدْلِ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ فِي الْقُلُوبِ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِالْقُرْآنِ، كَمَا جَعَلَ فِيهَا الْإِيمَانَ وَالْعَدْلَ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ، وَالْمِيزَانُ قَدْ فُسِّرَ بِالْعَدْلِ، وَفُسِّرَ بِأَنَّهُ مَا يُوزَنُ بِهِ لِيُعْرَفَ الْعَدْلُ، وَهُوَ كَالْفُرْقَانِ يُفَسَّرُ بِالْفَرْقِ، وَيُفَسَّرُ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْفَرْقُ، وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ؛ فَإِذَا أُرِيدَ الْفَرْقُ نَفْسُهُ فَهُوَ نَتِيجَةُ الْكِتَابِ وَثَمَرَتُهُ وَمُقْتَضَاهُ، وَإِذَا أُرِيدَ الْفَارِقُ فَالْكِتَابُ نَفْسُهُ هُوَ الْفَارِقُ، وَيَكُونُ لَهُ اسْمَانِ، كُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى صِفَةٍ لَيْسَتْ هِيَ الصِّفَةَ الْأُخْرَى، سُمِّيَ كِتَابًا باعتبار أَنَّهُ مَجْمُوعٌ مَكْتُوبٌ تُحْفَظُ حُرُوفُهُ وَيُقْرَأُ وَيُكْتَبُ، وَسُمِّيَ فُرْقَانًا باعتبار أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ كَمَا تَقَدَّمَ، كَمَا سُمِّيَ هُدًى باعتبار أَنَّهُ يَهْدِي إلَى الْحَقِّ، وَشِفَاءً باعتبار أَنَّهُ يَشْفِي الْقُلُوبَ مِنْ مَرَضِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد ج٢ص١٥: فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل، وسرُّ اقتران النصر بالهدى؛ أن كلًّا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل ولهذا سمَّى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا، كما قال تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرَّق الله تعالى فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم. ومن هذا قوله تعالى: {ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا للمتَّقين} فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذِّكر التوراة، هذا هو معنى الآية.

قال ابن العثيمين: ولمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى منّته على عباده بإنزال هذه الكتب العظيمة قال: {إن الذين كفروا بآيات الله}: يعني بعد إنزال هذه الكتب الواضحة الهادية المفرقة انقسم الناس إلى قسمين: قسم آمن، وقسم كفر؛ فذكر الله حكم الكافر، وبذكر حكم الكافر يتبيَّن حكم المؤمن قال: {إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد}: {كفروا} يقال: إن أصل الكفر من السَّتر؛ ويطلق على الجحد؛ لأن الجاحد ساتر؛ ف{كفروا بآيات الله}: أي جحدوا بها وأنكروها؛ وقلنا: إن الكفر من السَّتر لأن منه الكفرة؛ الكفرة وعاء التلع، تلع النخل؛ فيه الغلاف يسمَّى كفرة، وفي اللغة العاميَّة يسمَّى كافور؛ تجدونه يستر التلع؛ فالكافر في الحقيقة ساتر؛ أي جاحد للحق، مخفي له.

وقوله: {كفروا بآيات الله} {آيات}: جمع (آية) وهي العلامات الدالَّة على الله عز وجل، على وجوده، وعلى كماله الذاتي، وكماله الفعلي؛ وهي أي الآيات نوعان:

آيات كونية ومنها: السموات، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، والإنسان، واختلاف اللغات، واختلاف الألوان، والنوم، واليقظة، وأشياء كثيرة؛ هذه آيات كونية.

آيات شرعية وهي: الوحي المنزل على الرسل. فإذا قيل: ما وجه ذلك؟ قلنا: أما الآيات الكونية فوجه كونها آية أنه لا يستطيع أحد أن يفعل مثل فعل الله عز وجل أبدًا، قال الله: {إن الذين تدعون من دون الله} كل الذين تدعون من دون الله {لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له} لا يخلقون ذبابًا؛ ولا جملًا، ولا بعوضًا، ولا غير ذلك، لا يستطيعون أن يخلقوا هذا أبدًا؛ لا يستطيع أحد أن يذهب بالنهار إذا جاء ولا أن يأتي بالليل إذا جاء النهار أبدًا، إلَّا الله عز وجل؛ إذًا فهذه الآيات الكونية من آيات الله عز وجل؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها؛ الآيات الشرعية هي أيضًا من آيات الله؛ وجه ذلك: أنه لا يستطيع أحد بمثل شرع الله في هداية الخلق وإصلاحه أبدًا؛ لو اجتمع جميع مفكري العالم ليأتوا بدستور يصلح الخلق كما يصلحه ما جاء في الوحي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا}؛ لكن الآيات الكونية قد يعقلها كثير من الناس؛ لأنها آيات محسوسة مشهودة؛ حتى الكافر؛ أما الآيات الشرعية فليس كل أحد يدركها، قال الله تعالى: {كلا إن كتاب الفجَّار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلَّا كل معتدٍ أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} لا يتبيَّن له أنها آيات والعياذ بالله؛ قال الله تعالى مكذِّبًا لقوله: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} فالإنسان إذا اجتمعت الذنوب على قلبه صار لا يرى الحق حقًّا ولا الباطل باطلًا، عميَ والعياذ بالله يتلى عليه القرآن فيقول: هذه أساطير الأولين ليس كلام رب العالمين؛ ولهذا نقول: الآيات الشرعية هي التي فيها الامتحان والابتلاء؛ ومن ثم لم ينكر أحد الربوبية، ربوبية الله، كل يقرُّ بأن الله رب العالمين وأنه الذي خلق السموات والأرض؛ لكن الآيات الشرعية أنكرت؛ قريش إذا سئلوا من خلق السموات والأرض قالوا: الله؛ لكن قالوا في القرآن إنه كهانة، والشعر، والسحر، وما أشبه ذلك؛ المهم أن قوله: {إنَّ الذين كفروا بآيات الله}: يشمل الآيات الكونية والشرعية؛ وبينا وجه كون كل منها آية.

قال الطبري: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}: يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ الذين جحدوا أعلام الله وأدلته على توحيده وألوهته، وأن عيسى عبدٌ له، واتَّخذوا المسيح إلهًا وربًّا، أو ادَّعوه لله ولدًا، لهم {عذاب} من الله {شديدٌ} يوم القيامة، و{الذين كفروا}، هم الذين جحدوا آيات الله. و{آيات الله}: أعلامُ الله وأدلَّته وحججه.

وهذا القول من الله عز وجل ينبئ عن معنى قوله: {وأنزل الفرقان} أنه معنِيٌّ به الفصل الذي هو حجة لأهل الحق على أهل الباطل. لأنه عقب ذلك بقوله: {إنَّ الذين كفروا بآيات الله}: يعني إن الذين جحدوا ذلك الفصل والفرقانَ الذي أنزله فرقًا بين المحق والمبطل، {لهم عذاب شديدٌ}: وعيدٌ من الله لمن عاند الحقّ بعد وضوحه له، وخالف سبيلَ الهدى بعد قيام الحجة عليه.

قال ابن العثيمين: {لهم عذاب شديد}: {العذاب} هنا بمعنى العقوبة؛ و{الشديد}: القوي؛ يعني العقوبة قويَّة والعياذ بالله؛ وقد ذكر الله في القرآن وذكر نبي الله ﷺ في السنة أصنافًا وأنواعًا من هذا العذاب تقشعرُّ منه الجلود وتوجل منه القلوب، قال الله تبارك وتعالى: {إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاث بماء كالمهل يشوي الوجوه} {وإن يستغيثوا} ولا يستغيثون إلّا لشدَّة الحر والظمأ؛ إذا استغيثوا يؤتون بماء يشوي الوجوه، أذا أقبلوا به إلى أفواههم ليشربوه شوا وجوههم والعياذ بالله، قال الله تعالى: {بئس الشراب} هذا شرابهم؛ وقال الله سبحانه وتعالى: {إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم} هذا طعامهم؛ {سرابيلهم من قطران} هذا لباسهم؛ {يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزًا حكيمًا} هذا مقرُّهم ومأواهم.

والسنة مملوءة بذكر أصناف العقاب الذي يعاقب به هؤلاء فهو عذاب شديد، لأهله الصراخ والعويل، فهم يصطرخون فيها {ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنَّا نعمل} فيقال لهم توبيخًا: {أولم نؤمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم من نذير فذوقوا فما للظالمين من نصير} هذه حقائق نحن إن شاء الله تعالى في الإيمان بها كأنها مشاهدة عندنا بل أعظم؛ ولهذا قال: {لهم عذاب شديد}.

وقوله: {والله عزيز ذو انتقام} {عزيز(١)} من العزَّة وهي ثلاثة أصناف: عزَّة القدر، وعزَّة القهر، وعزَّة الامتناع؛ عزَّة القدر بمعنى: أن الله ذو قدر شريف عظيم؛ كما قال النبي ﷺ: ((السيد الله(٢))) هذه عزَّة القدر؛ عزَّة القهر: أنه قاهر لكل شيء لا يغلب بل هو الغالب، قال الله تعالى: {وهو القاهر فوق عباده}.

وقال الشاعر الجاهلي: أين المفر والإله طالب ... والأشرم المغلوب ليس غالب

فالله سبحانه وتعالى غالب على كل شيء؛ عزَّة الامتناع: أي أنه عز وجل يمتنع أن يناله سوء أو نقص؛ ومن هذا المعنى قولهم: هذه أرض عزاز، أي صلبة قوية ما تؤثر فيها المعاوي؛ ونحن نقول في لغتنا: عزا، يعني شديدة صلبة؛ إذا فمعنى {عزيز}: أي ذو العزَّة؛ والعزَّة ثلاثة أقسام: عزَّة القدر، وعزَّة القهر، وعزَّة الامتناع؛ ولهذا الذي يفسِّر العزيز بالغالب فقط نقول: إن تفسيره قاصر؛ بل هو يشمل المعاني الثلاثة.

وقوله: {ذو انتقام}: أي صاحب انتقام؛ والانتقام أخذ المجرم بإجرامه؛ تقول: انتقمت من زيد، يعني أخذت بحقِّي منه؛ فأخذ المجرم بإجرامه يسمَّى إنتقامًا؛ كما قال الله تعالى: {إنَّا من المجرمين منتقمون} وهنا قال: {ذو انتقام} ولم يقل: ذو الانتقام؛ وفي الرحمة قال: {وربك الغفور ذو الرحمة} ولم يقل: ذو رحمة؛ وإن كان قال في آية أخرى: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}؛ لأن الانتقام ليس من أوصاف الله المطلقة، وليس من أسماء الله المنتقم، بل المنتقم لا يوصف الله به إلَّا مقيَّدًا؛ فيقال: المنتقم من المجرمين؛ كما قال تعالى: {إنَّا من المجرمين منتقمون} أما {ذو انتقام} فهي لا تعطي الانتقام

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٤٩٠١)، وإصلاح المساجد رقم (١٠٣)، وصحيح الجامع (٣٧٠٠).

المطلق؛ لأن الانتقام نكرة فلا تعطي المعنى على الإطلاق؛ يعني له انتقام مقيَّد، انتقام من المجرمين؛ انتبه! وبهذا نعرف أن الأسماء المسرودة في الحديث الذي رواه الترمذي لا تصح عن النبي ﷺ؛ لأنه ذكر فيها من أسماء الله المنتقم وهذا لا يصح؛ وحذف من أسماء الله ما ثبتت به الأحاديث ولم يذكر فيها مثل: الشافي، والرب. فالمهم أن الله قال: {ذو انتقام} ولم يقل: ذو الانتقام، ولم يصف نفسه بالمنتقم إلَّا مقيَّدًا.

قال أبو زهرة: {وَاللَّه عَزِيزٌ ذو انتِقَامٍ}: أي أنه سبحانه بعزَّته غالب على كل شيء، مسيطر على كل شيء، ليس فوقه أحد، وهو القاهر فوق عباده. وهو ذو انتقام؛ أي أنه سبحانه له انتقام شديد لَا يدرك كنهه؛ ولذلك نكَّر الانتقام. والانتقام إنزال النِّقمة والشِّدَّة في مقابل ما يرتكبه الشخص؛ فإن كان من عادل حكيم كان عقوبة عادلة، وجزاءً وفاقًا؛ وكذلك يكون عقاب الله تعالى، فانتقام الله ليس تشفِّيًا وشفاء غيظ كما هو الشأن من البشر، بل انتقام الله عقوبة عادلة، وقصاص رادع. وعبر بـ{ذو انتِقَام}: أي صاحب انتقام، للإشارة إلى أن هذا الانتقام في قدرته سبحانه وسلطانه ينزله أنَّى شاء، ومتى شاء بمقتضى حكمته وإرادته وقدرته، وعلمه الذي يحيط بكل شيء.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيات السابقة: ١- إثبات ألوهية الله عز وجل؛ لقوله: {الله}.

٢- إنفراده بهذه الألوهية في قوله: {لا إله إلَّا هو}.

٣- إثبات إسمين من أسماء الله: {الحي القيُّوم} وقد ورد أنهما اسم الله الأعظم لاشتمالهما على كمال الذات والصفات والأفعال.

٤- إثبات حياته وقيوميته؛ تؤخذ من {الله لا إله إلَّا هو الحي القيوم} الحي معرف عامة؛ كل اسم فإنه متضمِّن للصفة وقد يتضمَّن أمرًا زائدًا وهو الحكم الذي يسمَّى الأثر.

٥- أنَّ كلَّ شيءٍ مفتقر إلى الله، وأن الله غني عمَّا سواه؛ وجه ذلك: لأن كمال حياته يستلزم غناه عن كل أحد؛ وكمال قيوميته يستلزم افتقار كل شيء إليه وهو كذلك؛ قال الله تعالى: {ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره}، وقال تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}.

٦- إثبات علو الله؛ لقوله: {نزل} و{أنزل} والنزول لا يكون إلَّا من أعلى.

٧- أنَّ القرآن الكريم منزل؛ لقوله: {نزل عليك}. ومجرَّد كونه منزَّلًا لا يستلزم أن لا يكون مخلوقًا؛ لأن الله قد ينزل المخلوق {ونزلنا من السماء ماء مباركًا} والماء مخلوق، {أنزل من السماء ماء} والماء مخلوق؛ لكن بالنظر لكون القرآن كلامًا يستلزم أن لا يكون مخلوقًا؛ لأن الكلام صفة المتكلِّم؛ وصفة الخالق غير مخلوق؛ إذا فيؤخذ أن القرآن مخلوق لكونه

نزل من عند الله وهو؛ أن القرآن يؤخذ كون القرآن غير مخلوق أنه نزل من عند الله وهو كلام والكلام صفة المتكلِّم والصفة تابعة للموصوف.

٨- فضل رسول الله ﷺ وميزته؛ لقوله: {عليك الكتاب بالحق}. ولكن قد يرد علينا أن الله سبحانه وتعالى قد يضيف الإنزال إلى الناس كما قال تعالى في سورة آل عمران: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم}، وفي آيات للبقرة: {قولوا آمنَّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم}؟ فالجواب أن نقول: هو أنزل إلى الرسول مباشرة وإلينا بواسطة، بواسطة الرسول ﷺ هو الذي بلغه إلينا؛ ومعلوم أن الأصل أشرف من الفرع.

٩- أنَّ هذا الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ مشتمل على الحق؛ لقوله: {بالحق} فقد جاء بالحق ونزل به، قال الله تعالى: {وبالحق أنزلناه وبالحق نزل}، ما في القرآن إما أخبار وإمَّا أحكام؛ فالحق في الأخبار الصدق؛ والحق في الأحكام العدل، كما قال تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا} إذا نقول: القرآن كل ما فيه من الأخبار فهو صدق؛ وكل ما فيه من الأحكام فهو عدل.

هل يشمل ذلك أن هذه الأخبار وهذه الأحكام نافعة مصلحة للخلق؟ الجواب: نعم؛ قال الله تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن} وقال: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} فكل ما فيه من الخبر فهو نافع، وكل ما فيه من حكم فهو أيضًا نافع متضمّن بالمصالح ودفع المفاسد.

١٠- أنَّ القرآن نفسه حق؛ لقوله: {بالحق}: يعني أنه نزل نزولًا بحق ليس نزولًا كذبًا باطلًا.

١١- فضيلة القرآن؛ لوصفه بالحق نزولًا وتضمّنًا، ولوصفه بالتَّصديق لما بين يديه؛ أنه مصدِّق لما بين يديه من كل الكتب؛ لقوله: {مصدِّقًا لما بين يديه}.

١٢- أنَّ هذا القرآن قد أخبرت عنه الكتب السابقة؛ من قوله: {مصدِّقًا لما بين يديه} لأنه أحد الوجهين في كلمة {مصدِّق}.

١٣- جواز التعبير بما يخالف الظاهر إذا دلَّ عليه السياق؛ في قوله: {لما بين يديه} إذ قد يقول القائل: ليس للقرآن يد فكيف يصح أن يقول: {لما بين يديه}؟ نقول: صحيح أن القرآن ليس له يد ونحن لا نقول: إن {لما بين يديه} أن القرآن له أيدي، أو له يدان، وأنه صدق ما بين يديه؛ لكن نقول: إن الكلمة إذا دلَّت على معناها في سياقها وإن كان يخالف أصل الوضع؛ وقد سبق أن المراد {لما بين يديه} ما سبقه، ما سبقه من الكتب.

١٤- أن التوراة النازلة على موسى، والإنجيل النازل على عيسى عليهم الصلاة والسلام حق؛ لقوله: {وأنزل التوراة والإنجيل}.

١٥- الإشارة إلى أن التوراة والإنجيل قد نسخا بالقرآن. هل يمكن أن نقول إن {من قبل} تشير إلى أن هذين الكتابين قد مضى عهدهما وانقضى؟ على كل حال في المسألة ثقل، أو في الاستدلال بهذا على ما قلناه ثقل يعني أننا لا نجزم بذلك؛

لكن لنا دليل من غير هذه الآية وهو ما في سورة المائدة حيث قال الله: {مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمِنًا عليهم}.

١٦- رحمة الله عز وجل بعباده، وعنايته بهم، حيث كان ينزل الكتب على رسله هدًى للناس؛ {هدًى للناس}.

١٧- إثبات الحكمة لله تعالى في أحكامه الشرعية كما تثبت في أحكامه الكونية؛ لقوله: {هدًى للناس} لأننا ذكرنا أن {هدًى} هذه مفعول لأجله؛ أي من أجل ذلك؛ ففيها إثبات الحكمة لله؛ وهو كذلك؛ ومن أسماء الله تعالى: الحكيم؛ وهو ذو الحكمة، والحكمة هي إصابة الصواب، وإن شئت فقل: وضع الشيء في موضعه، وإن شئت فقل: إتقان الشيء وإحكامه؛ والتعبيرات كلها تنصب إلى أن فعل الله عز وجل، أو إلى أن حكم الله الكوني والشرعي كله مشتمل للحكمة.

فإن قال قائل: إذا أثبتت لله الحكمة ووقع من أفعال الله أو من شرع الله ما لا نعلم له الحكمة، أو ما نظن أن الحكمة في خلافه فما هو الجواب؟

فالجواب: أننا إذا ظننَّا أن هذا ليس له حكمة فليس ذلك إلَّا لقصور فهمنا، عجزنا عن إدراك الحكمة؛ وإذا ظننَّا أنه على خلاف الحكمة فما ذاك إلَّا لسوء فهمنا؛ فالذي يظن أنه ليس له حكمة قاصر الفهم، والذي يظن أنه على خلاف الحكمة سيئ الفهم؛ أما سليم الفهم هو الذي يعطيه الله تعالى فهما فستتبيَّن له الحكمة؛ ومع ذلك لا يمكن أن ندرك كل وجوه الحكمة أبدًا؛ لأن حكمة الله عز وجل لا تدرك غايتها؛ والإنسان بشر ناقص؛ وكم من أشياء أو كم من أحكام شرعية تظن أن حكمتها كذا وكذا ثم يتبيَّن لك أن لها حِكَمًا أخرى؛ أو ربما يتبيَّن لك أنه ليس هذه هي الحكمة بل الحكمة شيء آخر؛ إنَّما يجب عليك أن تؤمن بأنه ما من حكم لله كوني أو شرعي إلَّا وله حكمة.

فإن قلت: يلزم على قولك هذا أن تذهب مذهب المعتزلة في وجوب الصلاح أو وجوب الأصلح؛ يعني إذا تعارض فعلان أحدهما أصلح من الآخر فهل يجب على الله أن يفعل الأصلح؟ إن قلت: لا، منعت الحكمة؛ وإن قلت: نعم، ففيه إشكال؛ فيقال أولًا: قد تظنُّ أن هذا هو الأصلح وليس الأصلح؛ ولنضرب لهذا مثلًا: نحن نظن أن الأصلح نزول الغيث، وخصب الأرض؛ فإذا امتنع المطر وأجدبت الأرض فقد يكون هذا هو المصلح أليس كذلك؟ ونحن لم نفهم؛ إذًا لا يمكن أن نقول يجب على الله كذا لأن الأصلح إذًا: قد يكون لما قلنا أنه الأصلح هو الأفسد.

ثانيًا: إذا تحقَّقنا أنه الأصلح فإن له يجب بمقتضى الحكمة لا بمقتضى العقل، فنحن لا نوجب على الله بعقولنا والعقل لا يوجب على الله شيئًا؛ لأنه مخلوق ناقص فلا يوجب على الكامل الأزلي الأبدي شيئًا؛ فإذا وجب فعل الأصلح، فإنَّما الذي أوجبه على نفسه الله، قال الله تعالى: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} كتب عليه هو الذي أوجب؛ وقال: {إن علينا للهدى} فأوجب على نفسه أن يهدي الناس ويدلَّهم؛ إذًا نحن نقول: إذا ثبت أن هذا هو الأصلح فقد وجب على الله بمقتضى حكمته وإيجابه نفسه، لا بمقتضى عقولنا وإيجابنا عليه؛ وبهذا ننفكُّ عن قول المعتزلة الذين يرون أن العقل هو الذي يوجب الشيء، أو الذي يمنع الشيء، أو الذي يقبح الشيء، أو الذي يحسن الشيء.

من ذلك مثلًا: البيان للخلق، بيان الشرائع للخلق وما يجب عليهم نحو ربهم وما يجب عليه نحو عباد الله، هذا واجب على الله بمقتضى الحكمة {إن علينا للهدى} علينا، وهذا تفيد الوجوب.

١٨- أنَّ القرآن، أو أن هداية القرآن نوعان: عامة، وخاصة؛ فالعامة مثل هذه الآية: {هدًى للناس}؛ والخاصة مثل قوله: {هدًى للمتَّقين}، والفرق أن الهداية التي بمعنى الدِّلالة عامة؛ والهداية التي بمعنى التوفيق والاهتداء هذه خاصة بالمتَّقين؛ فالهداية التي تتضمَّن الاهتداء هذه للمتَّقين؛ وأما التي تتضمَّن البيان والإيضاح فهذه للناس عامة؛ لقول الله تعالى: {رسلًا مبشرين ومنذرين لئلَّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}.

١٩- أنَّ الكتب كلها فرقان تتضمَّن الفرق بين الحق والباطل، وبين الصدق والكاذب، وبين المؤمن والكافر، وبين الضَّار والنَّافع؛ كل ما يمكن أن يكون فيه الفرق فإن الكتب تفرِّقه.

٢٠- أنَّه يمتنع أن تجمع الكتب السماوية بين متفرقين؛ أو أن تفرِّق بين متماثلين أبدًا؛ لأن الفرقان هو الذي يفرِّق بين شيئين مختلفين؛ أما شيئان لا يختلفان فلا تفريق بينهما. ومن هنا يمكن أن نأخذ يعني يتفرَّع على هذه الفائدة: إثبات القياس؛ لأن القياس: إلحاق فرع بأصل في حكم لعلَّة جامعة؛ فهو جمع بين متماثلين؛ وعدم الأخذ بالقياس تفريق بين متماثلين؛ والكتب السماوية كلُّها فرقان.

٢١- أنَّه كلَّما اهتدى الإنسان للفروق كان أعظم اهتداء بالكتب المنزَّلة من الله؛ لأن الكتب كلُّها فرقان؛ فمثلًا: إذا كان الإنسان يفرِّق بين الشرك الأصغر والأكبر؛ وبين النفاق الاعتقادي والعملي؛ وبين الكفر الأكبر والأصغر؛ وبين أشياء الحلَّة والحرام؛ كان أشدُّ اهتداءً بالكتب ممَّن لا يفرِّق. ربما يؤخذ من هذا أيضًا: الإشارة إلى أنه ينبغي الاعتناء بمعرفة الفروق بين الأشياء المتشابهة؛ وهذا فن أخذ به بعض أهل العلم؛ ولاسيَّما في كتب الفقه؛ مثلًا يقول: أنا أذكر الفروق بين البيع والإجارة؛ بين الإجارة والجعالة؛ بين الرَّهن والضمان؛ بين الضمان والكفالة؛ بين الفرض والتطوع؛ وهذه من فنون العلم الشريفة التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها؛ كذلك في العقائد والتوحيد يفرق بين الشرك الأكبر والأصغر؛ رجل حلف بغير الله نقول هو مشرك؛ ورجل عبد صنمًا نقول هو مشرك؛ لكن بينهما فرق عظيم؛ العابد للصنم شركه أكبر، والحالف بغير الله شركه أصغر إلَّا أن يجعل المحلوف عليه كالله تعالى في التعظيم فحينئذ يكون شركًا أكبر لا من حيث القسم لكن من حيث أنه جعل رتبة المخلوق كرتبة الخالق.

٢٢- بيان عقوبة الكفار؛ وهو العذاب الشديد؛ وذكر عقوبة الكافر تستلزم التَّحذير من الكفر؛ فيكون في هذا فائدة متفرِّعة على الأول: التَّحذير من الكفر.

٢٣- الإشارة إلى أن الناس ينقسمون إلى قسمين: كافر له العذاب الشديد؛ ومؤمن له الثواب الجزيل؛ لأنه إذا ذكر عقوبة الضِّد فإن ضدَّه يثبت له ضد تلك العقوبة؛ ولهذا لما قال الرسول ﷺ: ((وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي

أحدنا شهوته وله فيه أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضع في الحلال كان له أجر([1]))، وقد يكون هذا من جملة الفرقان، من جملة الفرقان الذي يحصل حيث نفرِّق بين الكفار وبين المؤمنين؛ فكما اختلفوا وتفرَّقوا في أعمالهم فإنه يلزم أن يفترقوا في ثواب تلك الأعمال.

٢٤- إثبات اسم من أسماء الله وهو {العزيز} بالمعاني الثلاثة السابقة.

٢٥- أنَّ الله تعالى موصوف بانتقام؛ لقوله: {ذو انتقام} ولكنه ليس على سبيل الإطلاق بل هو ينتقم ممَّن يستحقُّ ذلك، وهم المجرمون؛ كما قال الله تعالى: {إنا من المجرمين منتقمون} ولهذا لم يرد من أسماء الله (المنتقم) على سبيل الإطلاق وإنَّما ورد مقيَّدًا، أو ورد صفة منكرة مثل: {ذو انتقام} أي صاحب انتقام، وهذا لا يدلُّ على الوصف المطلق، أنَّه موصوف بالمنتقم؛ لأنَّ الانتقام يكون مدحًا في موضعه، وأمَّا في غير موضعه فلا يكون مدحًا؛ فإذا كان الانتقام تقتضيه الحكمة صار ممدوحًا وإلَّا فلا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ {٥}

قال ابن العثيمين: {إنَّ الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء} هذه الجملة خبرية مؤكَّدة بإن، وخبرها منفي؛ والخفاء ضد الظهور؛ وفيها شيء نكرة في سياق النَّفي فتعمُّ كل شيء؛ {في الأرض ولا في السماء} متعلِّقة ب{يخفى}: يعني {لا يخفى عليه شيء} لا في هذا ولا في هذا؛ والمراد ب{الأرض والسماء}: الجنس فيشمل الأرضين والسموات جميعًا.

في هذه الآية الكريمة يخبر الله عز وجل بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ وهي صفة سلبية المراد بها بيان كمال علمه؛ لأن الصفات المنفيَّة لا يراد بها مجرَّد النَّفي كما مرَّ علينا في العقيدة وإنَّما يراد بها كمال ضد ذلك المنفي؛ فإذا قال: {لا يخفى عليه شيء} لماذا؟ لكمال علمه لا يخفى عليه شيء؛ فالله عز وجل كامل العلم، {لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء}، والغرض من هذه الجملة تربية الإنسان نفسه في امتثال أمر الله واجتناب نواهيه، وأنك لا تظن أن عملك يخفى على الله بل هو معلوم له فعليك أن تقوم بطاعته وتجتنب معصيته لا تقل أنا في بيتي، أنا في حجرة، أنا في غرفة لا يطَّلع عليَّ أحد، لأن الله مطَّلع عليك، {إنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء}.

قال القرطبي: هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله في القرآن كثير. فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهًا أو إبن إله وهو تخفى عليه الأشياء.

١- (قلت): مسلم (١٠٠٦).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- التَّحذير من مخالفة الله؛ وكيف ذلك؟ خوفًا منه أن يعلم بك بمخالفتك إيَّاه.
٢- الرَّد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم الشيء الذي يفعله العبد إلَّا بعد وقوعه؛ وهؤلاء غلاتهم.
٣- أن الله عالم بالكليَّات والجزئيَّات؛ مأخوذ من قوله: {شيء} النَّكرة في سياق النَّفي فيعمُّ كلُّ شيء.
٤- إثبات الأرض والسماء وهذا أمر معلوم لكن إذا قال قائل: وما سوى الأرض والسماء هل يخفى على الله؟ الجواب: لا؛ لكنَّه خصَّ الأرض والسماء لأنه هو المشهود لنا؛ فنحن لا نشهد إلَّا الأرض والسماء وما عدا ذلك لا نعلمه إلَّا عن طريق الغيب، فذكر الأرض والسماء.
٥- أنَّ صفات الله عز وجل إمَّا منفيَّة وإمَّا مثبتة؛ فالمثبتة يسمُّونها ثبوتيَّة، والمنفيَّة يسمُّونها سلبيَّة؛ وقلنا إن المنفيَّة متضمِّنة للثُّبوت لابدَّ، ولكنَّه ينفى نقص ذلك الثابت ولكمال علمه {لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء}.

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {٦}

قال أبو زهرة: فهذه الآية الكريمة في مقام التعليل للآية السابقة؛ إذ الأولى بيَّنت أنَّ الله لَا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي تتضمَّن الإشارة إلى أن ما تخفيه السرائر من بواعث على الإيمان أو الكفر، والوفاق أو العناد، يعلمه سبحانه لأنه لَا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا في السماء. وهذه الآية تفيد أن الله سبحانه وتعالى يعلم الإنسان لا بعد أن استوى وصار في أحسن تقويم، بل يعلمه وهو نطفة لُفِظَت، ثم استقرَّت في الأرحام، ويعلمه كذلك علم المكوِّن المنشئ المربِّي الذي يتولَّى بقدرته تصويره حتى يصير بَشَرًا سَوِيًّا.
والتَّصوير: مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحوَّل إليه، أو من صَارَهُ إلى كذا بمعنى أماله وحوَّله، فالتصوير معناه إذن تحويل شيء من حال إلى حال مغمَّرا في شكله وهيئته بإمالته من مشابهة شيء إلى مشابهة شيء آخر؛ وكذلك صنع الله تعالى في النطفة؛ فإنَّه يحوِّلها إلى علقة، ومن علقة إلى مضغة، ثم يجعل المضغة عظامًا، وهكذا، وتحويل الله وتصويره ليس تغييرًا في الشَّكل، بل هو تنمية، وتكوين، وتدرُّج في هذا التكوين يستمر من وقت إيداع النُّطفة في مستودعها، حتى يصير إنسانًا في أحسن تقويم، بل يستمر التكوين حتى يبلغ أشدَّه.
قال ابن العثيمين: {هو الذي يصوِّركم في الأرحام} وهذا من جملة معلوماته التي تخفى على كثير من الناس وهي معلومة له. {يصوِّركم}: أي يجعلكم على صورة معيَّنة يختارها ويريدها.

وقوله: {يصوِّركم في الأرحام}: الأرحام جمع رحم وهو وعاء الجنين في بطن أمه؛ وقد بيَّنه الله في آية ثانية أن الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث؛ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرَّحم، وظلمة المشيمة، المشيمة يعني الوعاء المائي الذي يكون فيه الجنين ويسمَّى عند العامة القمقم.

قال القرطبي: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ(١)}: أخبر تعالى عن تصويره للبشر في أرحام الأمهات وأصل الرحِم من الرحمة، لأنَّها ممَّا يتراحم به. واشتقاق الصورة من صاره إلى كذا إذا أماله؛ فالصورة مائلة إلى شَبَه وهيئة. وهذه الآية تعظيم لله تعالى، وفي ضمنها الرَّد على نصارى نجران، وأن عيسى من المصوَّرين، وذلك ممَّا لا ينكره عاقل.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمُلَيْحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ محمد الْأَنْصَارِيُّ أَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَغَوِيُّ أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ أَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: ((إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ أَوْ قَالَ: يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، قَالَ: وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ غَيْرُ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ غَيْرُ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا(٢))).

أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجُرْجَانِيُّ أَنَا عَبْدُ الْغَافِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَارِسِيُّ أَنَا أَبُو أَحْمَدَ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى الْجُلُودِيُّ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سُفْيَانَ أَنَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ ثنا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيْدٍ: يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النطفة بعد ما تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ ذَلِكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ ثُمَّ تُطْوَى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص(٣))).

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {المصور} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٤) من سورة الحشر.

٢- إسناده على شرط البخاري، الأعمش هو سليمان بن مهران.

- وهو في شرح السنة (٧٠) بهذا الإسناد.

- أخرجه المصنف من طريق أبي القاسم البغوي في الجعديات (٢٦٨٨) بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ٣٢٠٨ و٣٣٣٢ ومسلم ٢٦٤٣ وأبو داود ٤٧٠٨ والترمذي ٢١٣٧ والنسائي في الكبرى (١١٢٤٦)، وابن ماجه ٧٦ والحميدي ١٢٦ وأحمد ١/ ٣٨٢ و٤٣٠ وابن أبي عاصم في السنة (١٧٥ و١٧٦)، وأبو يعلى ٥١٥٧ واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٤٠ و١٠٤١ و١٠٤٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٣٨٧)، وفي الاعتقاد ص (١٣٧- ١٣٨) من طرق عن الأعمش به.

- وأخرجه البخاري ٦٥٩٤ و٧٤٥٤ ومسلم ٢٦٤٣ وأبو داود ٤٧٠٨ والطيالسي ٢٩٨ والدارمي في الرد على الجهمية ص (٨١) وابن حبان ٤١٧٤ من طرق عن شعبة عن الأعمش به.

٣- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أبو الطفيل اسمه عامر بن واثلة، صحابي صغير أكثر رواياته عن الصحابة، توفي سنة ١١٠، وهو آخر من مات من الصحابة قاله مسلم وغيره.

قال ابن العثيمين: وقوله: {كيف يشاء} هذه حال من فاعل {يشاء}: يعني أنه يصوِّرنا على أي كيفية شاء؛ وأما قوله: {في الأرحام}: فهي حال من الضمير من الكاف {يصوِّركم}: يعني حال كونكم في الأرحام؛ وقوله: {كيف يشاء}: يعني لا خيار لنا في اختيار صورة معيَّنة للجنين الذي في البطن.

قال القرطبي: {كَيْفَ يَشَاءُ}: يعني من حسن وقبح وسواد وبياض وطول وقصر وسلامة وعاهة، إلى غير ذلك من الشَّقاء والسعادة. وذكر عن إبراهيم بن أدهم أن القرَّاء اجتمعوا إليه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث، فقال لهم: إني مشغول عنكم بأربعة أشياء، فلا أتفرَّغ لرواية الحديث. فقيل له: وما ذاك الشغل؟ قال: أحدها أنِّي أتفكَّر في يوم الميثاق حيث قال: ((هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي))، فلا أدري من أي الفريقين كنت في ذلك الوقت. والثاني حيث صُوِّرت في الرحم فقال الملك الذي هو موكل على الأرحام: ((يا رب شقي هو أم سعيد))، فلا أدري كيف كان الجواب في ذلك الوقت والثالث حين يقبض ملك الموت روحي فيقول: ((يا رب مع الكفر أم مع الإيمان))، فلا أدري كيف يخرج الجواب. والرابع حيث يقول: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}[يس: ٥٩]، فلا أدري في أي الفريقين أكون.

قال ابن العثيمين: {لا إله إلَّا هو العزيز الحكيم}: هذه الجملة الخبرية منفيَّة مثبتة فيها الحصر الذي طريقه النفي والإثبات؛ والإله بمعنى المألوه؛ وقوله: {إلَّا هو} الضمير هو بدل من الخبر المحذوف؛ أي: لا إله حق إلَّا هو؛ وليس اسمًا من أسماء الله كما تقوله الصوفية الذين يدعون أنه {هو} اسم من أسماء الله ويدعون به ويقولون: هو هو هو كما وهذا من شطحاتهم.

قال القرطبي: {لا إِلَهَ(١) إِلاَّ هُوَ}: أي لا خالق ولا مصوِّر سواه وذلك دليل على وحدانيته، فكيف يكون عيسى إلهًا مُصَوِّراً وهو مُصَوَّر. {الْعَزِيزُ} الذي لا يغالب. {الْحَكِيمُ} والحكمة أو المُحْكِم، وهذا أخصُّ بما ذكر من التصوير.

قال ابن العثيمين: {العزيز الحكيم} {العزيز}، أنه ذو العزَّة الكاملة وأن عزَّة الله عز وجل ثلاثة أقسام: عزَّة القدر، والقهر، والامتناع. و{الحكيم} فعيل بمعنى مفعل، وفعيل بمعنى فاعل؛ فعيل بمعنى فاعل، وفعيل بمعنى مفعل؛ أما فعيل بمعنى فاعل فهي كثير في اللغة العربية مثل قدير بمعنى قادر، سميع بمعنى سامع، وأمَّا سميع بمعنى مسمع فهي واردة في اللغة العربية

قال الشاعر: أمن ريحانة الداع السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

السميع بمعنى: المسمع الذي يسمعني؛ يؤرقني وأصحابي هجوع؛ فتكون حكيم هنا بمعنى محكم وبمعنى حاكم؛ فالله عز وجل حاكم مُحكِمٌ لما حَكَم؛ الحاكم ينقسم حكمه إلى قسمين: حكم كوني، وحكم شرعي؛ فالحكم الكوني ما قضاه الله

- أخرجه المصنف من طريق مسلم، وهو في صحيحه (٢٦٤٤) بهذا الإسناد.
- وأخرجه أحمد ٤/ ٦ - ٧ والآجري في الشريعة ص (١٨٢- ١٨٣)، وابن أبي عاصم في السنة ٨٠ من طريق سفيان بن عيينة به.
- وورد من وجه آخر عن أبي الطفيل عامر بن واثلة به. أخرجه مسلم ٢٦٤٥ والحميدي ٨٢٦ وابن حبان ٦١٧٧ واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٤٥ و١٠٤٧)، والآجري ص ١٨٣- ١٨٤ والطبراني ٣٠٣٦ و٣٠٤٣ و٣٠٤٥.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الإله} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

على عباده كونًا، وهذا يخضع له كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر، ولا يستطيع أحد أن يتهرَّب منه أبدًا؛ والحكم الشرعي ما قضاه الله على عباده شرعًا؛ وهذا هو الذي اختلف فيه الناس فمنهم كافر ومنهم مؤمن خضع لهذا الحكم الشرعي وقام بما يجب عليه نحوه؛ ومنهم من استكبر عنه وكذَّب به ولم يرفع به رأسًا؛ أي: ينقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم قابل لهذا الحكم قائم به؛ وقسم غير قابل ولا قائم به.

قلنا: إنَّه من حاكم ومن مُحكِم بمعنى متقِن؛ وهنا يكون بمعنى ذي الحكمة؛ أي: متقِن لكلِّ ما حكَم به؛ فكل ما حكَم الله به من حُكم كوني أو شرعي فهو على أتمُّ وجه وأتقنه وأحسنه {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثمَّ ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير}، {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}، هذا الحكم الكوني محكَم، متقِن ليس فيه خلل ولا نقص؛ ثم هو أيضًا محكَم في صفته وصورته التي هو عليها، متقِن في غايته المرادة منه؛ فالحكمة قد تكون صوَريَّة أي على صورة معيَّنة موافقةً للحكمة؛ وقد تكون غائية، أي الغاية منها والمصلحة والمنفعة ودفع المضار وما أشبه ذلك؛ المهم أن تكون الغاية محمودة؛ فالحكمة إذًا في الحكم الكوني وفي الحكم الشرعي؛ وهي إما صوريَّة بأن يكون الشيء على صورة مطابقة للحكمة؛ أو غائية بأن يكون الغرض منها والغاية منها غاية حميدة؛ كل هذا داخل في قولنا محكَم.

فمثلًا إذا نظرنا إلى الشرع وإذا جميع المشروعات على صورة مطابقة للحكمة كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج؛ ثم الغرض منها أيضًا موافقة للحكمة، الغرض منها إصلاح القلوب وإصلاح الأعمال، وإصلاح الفرد، و إصلاح المجتمع فكلُّها غاية حميدة؛ كل هذا داخل في قوله تعالى: {الحكيم}.

وقال رحمه الله في المجلّى في شرح القواعد المثلى: فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيرًا. فيكون كلٌّ منهما دالًّا على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم. والجمع بينهما دالٌّ على كمال آخر، وهو أن عزَّته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزَّته لا تقتضي ظلمًا وجورًا وسوء فعل، كما قد يكون من أعزَّاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزَّة بالإثم فيظلم ويجور ويسيئ التَّصرف. وكذلك حُكمه تعالى وحِكمته مقرونان بالعزِّ الكامل، بخلاف حُكم المخلوق وحِكمته فإنَّهما يعتريهما الذُّل([1]).

قال أبو زهرة: ثمَّ ختم سبحانه وتعالى بالعزَّة والحكمة، لبيان كمال سلطانه في ملكه الذي خلقه، وإثبات أنه لَا سلطان لأحد معه حي يشترك في عبادته سبحانه وتعالى، وكيف يكون إله لَا سلطان له! ولبيان أن الله سبحانه يدبِّر هذا الكون بواسع علمه وعظيم حكمته، إنه على كلِّ شيء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

١- (قلت): أنظر كلام ابن العثيمين عن معنى {العزيز الحكيم} عند تفسير الآية (٦٢) من سورة آل عمران. وانظر معنى إسم الله {العزيز} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩)، وإسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان قدرة الله عز وجل حيث كان يصوِّر المخلوقات في الأرحام؛ {هو الذي يصوِّركم في الأرحام}.

٢- أنَّ الصور يكون تصويرها بأمر الله، بإذنه كيف يشاء، هذا أبيض، وهذا أسود، وهذا جميل، وهذا قبيح، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا غليظ، وهذا دقيق، وهكذا بل ممكن أن نقول: إنه يشمل وهذا ذكر وهذا أنثى لأن صورة الذكر تختلف عن صورة الأنثى.

٣- بيان رحمة الله عز وجل حيث يتولَّى شئون الجنين ويصوِّره، لا يخرج غير مصوَّر، لوشاء الله لخرج الجنين غير مصوَّر، ثم صار يصوَّر شيئًا فشيئًا، كما ينموا عقله، ولكن حكمة الله ورحمته أنه لا يخرج إلَّا على الصورة التي أرادها الله عز وجل.

إذا قال قائل: {كيف يشاء} يستفاد منها: أن هذا التصوير لا يرجع إلى فعل العبد وإنَّما يرجع إلى مشيئة الله عز وجل وهو كذلك؛ لكن هذا لا ينافي أن تكون الصورة قريبة من صورة الأب، أو من صورة الأم، أو الجد، أو الجدة؛ يعني أن يكون هذا الجنين قد نزعه العرق من آبائه، وأمهاته، وأقاربه هذا لا يمنع؛ لأن الله عز وجل قد جعل لكل شيء سببًا؛ ويدلُّ لهذا قصة الرجل الذي جاء إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلامًا أسود؛ وكان الرجل وزوجته أبيضين فكأنه يعرض بزوجته ما الذي أتى بالأسود؟! فقال له النبي ﷺ: ((هل لك من إبل؟ قال نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق([١])قال: أنَّى لها ذلك؟ قال: لعلَّه نزعه عرق، فقال رسول الله ﷺ: فابنك هذا لعلَّه نزعه عرق([٢]))، فاقتنع الرجل؛ لأن هذا قياس جلي واضح؛ المهم الشاهد قوله: ((لعلَّه نزعه عرق)) فيستفاد من ذلك: أن هذه الكيفية التي يريد الله عز وجل في الأرحام لا يمنع أن يكون نزعها عرق من آبائه، أو أمهاته، أو أجداده، أو جداته.

٤- إثبات المشيئة؛ لقوله: {كيف يشاء} وقد ثبت لنا أن المشيئة إذا أطلقت فهي مقرونة بالحكمة فما من شيء يشاء الله إلَّا لحكمة. فإن قال قائل: هل في الآية دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يعمل عملية تجميل؛ لقوله: {كيف يشاء} حيث جعل التصوير راجعًا إلى مشيئته وحده نعم؟ قد وقد يعني قد يقال وقد لا يقال؛ قد لا يقال لأن الله أخبر في آيات كثيرة بأنه يبسط الرزق لمن يشاء، يقبض ويبسط، يقدر ويبسط؛ يعني يقدر بضيق؛ وهل نقول إنه ممنوع من أن يفعل الأسباب التي يكون بها بسط الرزق؟ لأن البسط راجع إلى مشيئة الله؟ لا، لا نقول؛ ولكن نقول: إن هنالك فرقًا بين مسألة بسط الرزق وطلب البسط وبين هذه المسألة؛ لأن النصوص وردت بمنع التجميل فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه لعن النامصة والمتنمصة،

١- الأورق: الفضي بين البياض والسواد.

٢- (قلت): البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠)، والحديث بتمامه عند مسلم: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي ولدَتْ غُلَاما أسودَ وَإِنِّي نكرته فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟)) قَالَ: نَعَمْ قَالَ: ((فَمَا أَلْوَانُهَا؟)) قَالَ: حُمْرٌ قَالَ: ((هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟)) قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا قَالَ: ((فَأَنَّى تُرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟)) قَالَ: عِرْقٌ نَزَعَهَا. قَالَ: ((فَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ)) وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ فِي الِانْتِفَاءِ مِنْهُ.

والواشرة والمستوشرة، والواشمة والمستوشمة؛ وهذا يدلُّ على أن الإنسان ممنوع من التجميل؛ التجميل الذي يكون دائمًا. أما التجميل الطارئ كتجمل المرأة بالحناء وشبهه هذا لا بأس به؛ طيِّب إذا قال قائل: هل في الآية ما يدلُّ رفع العيوب وإزالة العيوب لقوله: {كيف يشاء}؟ إذا خرج هذا الصبي له ستة أصابع في كل يد فهل يجوز أن نقطع الأصبع الزائد؟ يقال: هذا ليس من باب التجميل قطع هذا ما هو من باب التجميل لكن من باب إزالة العيب، وإزالة العيب جاءت السنة بجوازها؛ فإن الرجل الذي أصيب أنفه وقطع أذن له الرسول ﷺ أن يتَّخذ أنفًا من ورق يعني من فضة فأنتنت فأذن له أن يتَّخذ أنفًا من ذهب[١]؛ لئلَّا يبقى أنفه مقطوعًا فيه تشوه؛ فهذا يدلُّ على أن إزالة العيب ليست كجلب الجمال، تجميل لا يجوز والعيب تجوز إزالته؛ لأنه خلاف الأصل؛ وبناء على ذلك نقول: يجوز قطع الأصبع الزائدة؛ ولكن بعض أهل العلم صرح بالتحريم وقال: إنه يحرم إلَّا أنَّهم علَّلوا ذلك لأنه يخشى على من قطعت أصبعه أن يموت بنزيف الدم، وهذه العلَّة في الزمن الحاضر منتفي؛ وعلى هذا فيجوز قطع الأصبع الزائد. لو فرض أن هناك لحمة زائدة في الأذن، أو في الرأس، أو في الرقبة أتجوز إزالتها؟ نعم تجوز كالأصبع.

٥- إثبات انفراد الله عز وجل بالألوهية؛ لقوله: {لا إله إلَّا هو}.

٦- إثبات الأسمين الكريمين: {العزيز}، {الحكيم}؛ وما تضمَّناه من صفة؛ لأن كل اسم من أسماء الله دالٌّ على الذات وعلى الوصف المشتق منه، كل اسم؛ فإن كان متعديًّا ففيه دلالة ثالثة وهي: الأثر المترتِّب على ذلك؛ فالسميع مثلًا فيه إثبات للسمع وهو السميع، والصفة وهي السمع، والأثر وهو أنه يسمع؛ وهكذا العليم؛ أما ما لا يتعدَّى للغير ففيه إثبات الاسم والصفة فقط مثل: الحي، العظيم، العلي هذا لا يتعدى للغير.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {٧}

قال أبو زهرة: في الآيات السابقة ذكر سبحانه منزلة القرآن بين الكتب السماوية، وأنه فرقانُها وميزانها، وذكر أنه سبحانه وتعالى العليم بكلِّ شيء، الذي لَا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو العليم بخلقه، والعليم بما ينزل عليهم من آيات بيِّنات، والعليم بمداركهم البشرية، وطاقاتهم العقلية، يطالبهم بما يدركون ويكلِّفهم ما يستطيعون؛ وفي هذه الآية يبيِّن أقسام القرآن من حيث قوة إدراكهم له، وتطلُّعهم لفهمه، وتباين مقاصدهم في طلب حقيقته ومعناه، وغايته ومرماه؛ وفيها بيان

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٤٤٠٠).

أنَّه قسمان: قسم لَا تدركه كلُّ العقول، وقسم تدركه كل العقول الميِّزة، وأن ما يعلو على الإدراك، أصله ما أدركه كل الناس. ولذا قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ}، الضمير يعود إلى الذَّات العليَّة التي وصفت في الآيات السابقة، إذ قد وصف ذاته – جلَّت قدرته – بأنَّه الحي القائم على كلِّ شيء، والذي به يقوم كلُّ شيء، وبأنَّه منزل الكتب من السماء، وجاعل القرآن ميزانها، وأنَّه سبحانه لَا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنَّه سبحانه الذي يعلم الإنسان منذ يكون نطفة في بطن أمِّه إلى أن يصير إنسانًا مستويًا كامل التَّكوين، وهو الذي يصوِّره ذلك التصوير، ويكونه ذلك التَّكوين، وهو العزيز الغالب المسيطر على كل شيء خلقه، ولا شيء في الوجود إلَّا كان خلقه، الذي يتصرَّف في هذا الكون بمقتضى حكمته وعلمه بكلِّ شيء؛ فقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ} الضمير يعود إلى المتَّصف بهذه الصفات. وقوله: {الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} معناه أنَّ هذا الكتاب العظيم الشأن الذي هو ميزان الكتب السابقة وفرقانها، أنزله الله العلي القدير المتَّصف بهذه الصفات عليك، وقد اختارك موضع رسالته، وأداء أمانته، و{اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...}. وهو أعلم بشأن الكتاب وما جاء فيه، وتلقِّي الناس له، ومقدار إدراكهم لما فيه، وقد شاء بحكمته الواسعة أن يجعله قسمين؛ أحدهما: يدركه كل الناس، والثاني: فوق مستوى عامة الناس، ولذا قال بعد ذلك: {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}: أي أن القرآن من حيث بيانه وإدراك الناس له: محكم، ومتشابه.

قال ابن العثيمين: {هو}: الضمير يعود على {الله}، وتأمَّل هنا ترابط الآيات بعضها من بعض، لمَّا ذكر الله عز وجل أنَّه هو المصوِّر وأنَّه ابتدأ الخلق، ذكر بعده إنزال الكتاب الذي به الهداية مثل: {الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان}، فأحيانًا يبيِّن الله النعمة الدينية قبل، وأحيانًا يبيِّن الله النعمة الدنيوية قبل؛ فالتَّصوير هنا بدأ الله به ثمَّ ذكر إنزال القرآن؛ لكن {الرحمن علم القرآن} ذكر تعليم القرآن قبل خلق الإنسان.

ثمَّ قال: {هو الذي أنزل عليك الكتاب}: والمراد به القرآن وسبق معنى كونه كتابًا: أنه مكتوب في لوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي الصحف التي بأيدينا.

ثمَّ قسَّم الله هذا الكتاب فقال: {منه آيات محكمات هنَّ أمُّ الكتاب وأخر}: يعني ومنه أخر {متشابهات}، وهنا يتعيَّن أن نقول: (ومنه أخر) ليتمَّ التقسيم؛ قوله: {آيات}: جمع (آية) وهي العلامة وكل آية في القرآن فهي آية على منزلها لما فيها من الإعجاز والتَّحدِّي؛ وقوله: {محكمات}: أي متقَنات في الدّلالة والحُكم والخبر؛ يعني أخبارها وأحكامها متقَنة معلومة ما فيها إشكال.

ثمَّ قال: {هنَّ أمُّ الكتاب}: قدَّم وصف هذه المحكمات وبيان هذه ليتبادر إلى الذِّهن أوَّل ما يتبادر أنَّه يردُّ المتشابهات إلى المحكمات لأنها أُمٌّ؛ وأُمُّ الشَّيء مرجعه وأصله؛ قال الله تعالى: {يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أمُّ الكتاب}: أي المرجع وهو اللوح المحفوظ الذي ترجع الكتابات كلُّها إليه؛ ومنه سمِّيت الفاتحة أم الكتاب لأن مرجع القرآن إليها؛ فهذه المحكمات يجب أن تُردَّ المتشابهات إليها، إلى هذه المحكمات.

{وأخر متشابهات}: يعني أن أحكامها غير معلومة أو أخبارها غير معلومة فصار المحكم المتقن في الدِّلالة سواء كان خبرًا أو حكمًا؛ المتشابه الذي دلالته غير واضح سواء كان خبرًا أو حكمًا.

قال السعدي: القرآن العظيم كلُّه محكَم كما قال تعالى: {كتاب أحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير}، فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان {ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}، وكلُّه متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظًا ومعنًى، وأمَّا الإحكام والتَّشابه المذكور في هذه الآية فإنَّ القرآن كما ذكره الله {منه آيات محكمات}: أي واضحات الدِّلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال، {هنَّ أمُّ الكتاب}: أي أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، {و} منه آيات {أخر متشابهات}: أي يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بيِّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يُرَدَّ المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريقة يصدِّق بعضه بعضًا ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج٢ص٣٣٧: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ}: يعني أنَّ بعضًا منه آيات محكمات {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}: يعني يُرْجَعُ إليها في تفسير الكتاب، {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}، وقوله: {أُخَرُ} يدلُّ على قلَّة المتشابه بالنسبة إلى المحكم.

فإذًا أقسام القرآن ثلاثة:

١- محكم كلُّه.

٢- متشابه كلُّه.

٣- منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه.

وكلٌّ من هذه الأقسام دلَّتْ عليها آية أو آيات من القرآن العظيم.

المحكم والمتشابه الذي هو الأخير: عُرِّفَ المُحْكَمْ بأنه: ما اتَّضحت دلالته. وهو يختلف عن المَبَيَّنْ عند الأصوليين – يعني المجمل والمبيَّن –؛ لأنَّ ذاك من عوارض الألفاظ يعني ما اتَّضحت دلالة لفظه وهذا ما اتَّضحت دلالة الآية في معناه.

والثاني المتشابه: وهو ما اشتبهت دلالته.

والمتشابه للعلماء في تفسيره وبيان نوعه أقوال كثيرة. لكن المُحَقَّقْ عند أهل السنة والجماعة أنَّ المتشابه في القرآن إنَّما هو متشابه على من نُزِّلَ عليه. متشابه على بعض هذه الأمَّة.

أمَّا المتشابه الكلِّي بحيث إنه يوجد في القرآن ما لا يُعَلَمُ معناه ولا يُعْلَمُ تأويله مطلقًا لِكُلِّ الأمَّة، فإنَّ هذا ممتنِع؛ لأنَّ القرآن جاء بلسان عربيٍّ مبين.

وما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما ساقه ابن كثير وغيره في (أنَّ من القرآن ما لا يعلم تأويله إلا الله) – يعني لا أحد يعلم تأويله –، فيريد به نوعًا من التأويل والتفسير. فالمتشابه مُتَشَابِهٌ نسبي.

المُتَشَابِهْ الكلِّي: آية لا أحد يعلم معناها لا النبي ﷺ ولا صحابته ولا العلماء إلى وقتنا الحاضر، فهذا ممتنع.

حتى الأحرف المقطَّعة فإنَّ دلالتها عَلِمَهَا بعض هذه الأمَّة.

وأمَّا المشتبه النسبي، اشْتَبَهَ عليَّ، اشتبه على من هو أعظم وأجل، على بعض الصحابة، فهذا موجود.

أبو بكر رضي الله عنه سأل عن الأب ما (الأب)؟ ثم قال: (أيُّ سماء تظلُّني وأيُّ أرض تقلُّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم).

عمر رضي الله عنه سأل الصحابة عن بعض الآيات. وابن عباس خَفِيَ عليه بعض الآيات وسأل عنها وهكذا.

فالمتشابه النسبي الذي يشتبه معناه، تشتبه دلالته، إما لعدم معرفة معنى اللفظ أو لمعارضة آية لها أخرى تحتاج إلى تَأَمُلْ، فإنَّ هذا يكون نسبيًّا. مثل ما سئل ابن عباس أنَّ الله – عز وجل – أخبر أنَّ الناس في يوم القيامة يُوقَفُونَ فَيُسْأَلُونْ {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}[الصافات:٢٤]، وفي آيات أُخَرْ أَخْبَرَ الله – عز وجل – أنهم لا ينطقون ولا يُسْأَلُونْ ونحو ذلك، فكيف يُجمع بينهما؟ هذا متشابه، يعني آيات يَشْتَبِهِ معناها فيجب رَدُّهَا إلى المحكم. لهذا أثنى الله – عز وجل – على الرَّاسخين في العلم بأنهم يَرُدُّونَ المتشابه إلى المحكم، ويقولون آمنَّا به.

ما عَلِمْتَ معنى الآية، ما علمت معنى سورة، معنى آية، ما علمت وجهه، ما علمت كيف تجيب عن الإشكال الوارد عليها، فنقول: {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}، ونعلم أنَّ كلام الله – عز وجل – مُحْكَمْ وذلك كما قال سبحانه: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء:٨٢]؛ لكن الله ابتلى الأمَّة بوجود المتشابه لينظر كيف تُسَلِّمْ وتستسلم لكتاب الله – عز وجل –.

المقصود من ذلك أنَّ أصل الضَّلال في الفِرَقْ وُجِدَ من المجادلة في القرآن، والمجادلة في القرآن بأنَّهم اعتمدوا المتشابه ولم يُرْجِعُوا المتشابه إلى المحكم.

قال السعدي: ولكنَّ الناس انقسموا إلى فرقتين: {فأما الذين في قلوبهم زيغ}: أي ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد، {فيتَّبعون ما تشابه منه}: أي يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه {ابتغاء الفتنة} لمن يدعونهم لقولهم، فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلَّا فالمحكم الصريح ليس محلًّا للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتِّباعه.

قال ابن العثيمين: {ابتغاء تأويله}: أي طلب تأويله لما يريدون هم لا لما يريد الله عز وجل؛ وهذا كثير كل أهل البدع من الرافضة، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، وغيرهم، كلُّهم اتَّبعوا ما تشابه منه؛ لكن منهم مقل ومستكثر؛ فهؤلاء يتَّبعون

المتشابه لهذين الغرضين، أو لأحدهما؛ ابتغاء الفتنة أي صدُّ الناس عن دين الله؛ لأن الفتنة بمعنى الصَّدُّ عن دين الله كما قال الله تعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} فتنوهم يعني صَدُّوهم عن دين الله ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم. {وابتغاء تأويله}: أي طلب تأويله لما يريدون هم، يفسرونه على مرادهم لا على مراد الله سبحانه وتعالى.

الاشتباه يكون في المعنى، يعني المعنى غير واضح، أو اشتباه في العارض يظنُّ الظانُّ أن القرآن يعارض بعضه بعضًا؛! لا يمكن أبدًا أن يكون في القرآن شيء من التَّعارض، لا يمكن إطلاقًا؛ لأن الله يقول: {لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا}: يعني ولمَّا كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف؛ فهو يصدِّق بعضه بعضًا؛ ولكن التَّعارض الذي ما يفهمه من يفهمه من الناس يكون إما لقصور في العلم، أو قصور في الفهم؛ أو تقصير في التدبُّر؛ أو سوء ظنٍّ من حيث يظنُّ أنَّ القرآن يتعارض؛ فإذا ظنَّ هذا الظنَّ لم يوفَّق للجمع بين النصوص، يحرم الخير؛ لأنَّه ظنَّ ما لا يليق بالقرآن؛ فهذا هو أسباب ظنُّ التَّعارض ممَّن يظنُّ التَّعارض؛ حينئذ يحصل التَّشابه.

أمَّا من أعطاه الله علمًا وفهمًا وحسن القصد وحسن الظَّن فإنه لا يحصل لديه تعارض في القرآن الكريم؛ لأن عنده كمال في العلم وكمال في الفهم ونشاط في التدبُّر وحسن النيَّة والقصد، فهذا يوفِّقه الله تعالى فيعرف كيف يجمع بين ما ظاهره التَّعارض، أو كيف يعرف هذا متشابه.

واعلم أنَّ كثيرًا من الناس الذين يتكلَّمون في العقائد فسَّروا المتشابه بآيات الصِّفات، قالوا: إن المتشابهات هنَّ آيات الصِّفات؛ ولكن لاشكَّ أنَّ تفسير المتشابهات بآيات الصِّفات على الإطلاق ليس بسليم ولا بصحيح؛ لأن آيات الصِّفات معلومة مجهولة؛ فهي من حيث المعنى معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله عز وجل ويحدِّثنا عن نفسه بأمر مجهول لا نستفيد منه، وليس هو بالنسبة إلينا إلَّا كنسبة الحروف الهجائية التي ليس فيها معنى؛ هذا غير ممكن إطلاقًا؛ نعم هي مجهولة من جهة أخرى وهي الحقيقة والكيفية التي هي عليها، فهذا مجهول لنا، لا نعلم كيفية الله ولا ندرك حقيقته، لا نعلم كيف وجه الله ولا ندرك حقيقته؛ لا ندرك حقيقة علم الله عز وجل، ولا ندرك كل صفاته لا ندرك حقائقها؛ لأن الله يقول: {ولا يحيطون به علمًا}. فمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه على سبيل الإطلاق فقد أخطأ؛ فالواجب التفصيل؛ فنقول: إن أردت بكونها من المتشابه، تشابه الحقيقة التي هي عليها، فأنت مصيب؛ وإن أردت بالمتشابه، تشابه المعنى، وأن معناها مجهول لنا، فأنت مخطئ غاية الخطأ؛ وقد ذهب إلى هذا من ذهب من الناس، وقال: إن آيات الصفات وأحاديثها مجهولة لا نعلمها، لا يعلمها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، ولا ابن مسعود، ولا ابن عباس، ولا فقهاء الصحابة، ولا فقهاء التابعين، ولا أئمة الإسلام كلهم لا يدرون ما معناها؛ تقول لهم: ما معنى استوى على العرش؟ فيقول: الله أعلم؛ تقول لهم: ما معنى: {بل يداه مبسوطتان}؟ يقول: الله أعلم ؛ ما معنى: {ويبقى وجه ربك}؟ الله أعلم كل شيء الله أعلم؛ كلُّ شيءٍ يتعلَّق بصفات الله يقول: الله أعلم؛ والغريب أن هذا القوم في غاية ما يكون من السقوط؛ وإن كان بعض الناس يظنُّ أنه

مذهب أهل السنة، أو أنه مذهب السلف؛! حتى أدَّى بهم الأمر إلى هذه الكلمة الكاذبة؛ (طريقة السلف أسلم وطريقة – الخلف أعلم وأحكم)؛ هذه الجملة والقضية من أكذب القضايا أن تكون طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم؛ لكن نقول: طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم؛ المهم أن من الناس من يظنُّ أن مذهب السلف هو التَّفويض وعدم معرفة المعنى وعدم الكلام به، حتى النبي ﷺ على زعمهم يقول: ((يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة[١]))، لو سألته تقول: يا رسول الله ما معنى يضحك؟ قال: ما أدري؛ ((ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر))، لو سألته ما معنى ينزل؟ قال: لا أدري؛ وأنا أعجب كيف يستقيم لسان شخص يدعي أن هذا مذهب سلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم القيمة؛ هذا بعيد عن الصواب؛ إذا نقول: آيات الصفات من المتشابه في الحقيقة والكيفية التي عليها لأن الإنسان بشر لا يمكن يدرك هذه الصفات العظيمة؛ لكن في المعنى محكمة معلومة لا تخفى على أحد؛ كلُّنا يعرف ما معنى العلم، كلُّنا يعرف ما معنى الاستواء، كلنا يعرف ما معنى الوجه، ما معنى اليد؛ ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله قوله المشهور الذي روي عن شيخه قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

مثلًا: نحن نعلم معنى العين، لكن حقيقة عين الله وكيفيته غير معلوم؛ مع أن عيننا معروفة مكوَّنة من طبقات متعدِّدة ومن عروق ومن كذا ومن كذا معروفة؛ لكن عين الله لا يمكن أن تقول انَّها هكذا، مجهولة لك؛ إذًا حقيقتها غير معلومة، ولكن معنى العين وهي التي يحصل بها النظر والرؤية أمر معلوم.

مثال آخر: يد الله عز وجل هي معلومة حقيقة؛ اليد معروف، والأصابع معروفة، والقبض باليد معروف، والأخذ باليد، ولكن حقيقة هذه اليد وكيف هي؟ لا نعرف، لا نستطيع أن نتكلم فيها؛ ومن ادعى العلم فيها فهو كافر؛ هذا معنى الحقائق؛ فالحقائق شيء والمعاني شيء آخر. ولو إننا نقول: لا نعلم معاني آيات الصفات، أنه سيفوتنا ثلاثون في المائة من معاني القرآن أو أكثر؛ لأنك لا تجد آية إلَّا وفيها اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته.

قال السعدي: فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حدَّ لنا، فأهل الزيغ يتَّبعون هذه الأمور المشتبهات تعرُّضًا لما لا يعني، وتكلُّفًا لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلَّا الله، وأمَّا الرَّاسخون في العلم فيؤمنون بها ويَكِلون المعنى إلى الله فَيَسلِمون ويُسلِّمون.

١- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٨١٠٠)، والصحيحة (١٠٧٤). وهو في مختصر مسلم ١٠٩٨، والحديث بتمامه: ((يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيقاتل في سبيل الله فيستشهد)).

وللمفسرين في الوقوف على {الله} من قوله: {وما يعلم تأويله إلّا الله} قولان: جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها {والرَّاسخون في العلم}، وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على {إلَّا الله}، لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلَّا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرُّض لما لا يمكن معرفته.

وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف {الرَّاسخون} على {الله} فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلَّا هو تعالى والرَّاسخون في العلم يعلمون أيضًا، فيؤمنون بها ويردُّونها للمحكم ويقولون {كلٌّ} من المحكم والمتشابه {من عند ربنا} وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متَّفق يصدِّق بعضه بعضًا ويشهد بعضه لبعض وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقينًا أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٢٥٥: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}: يعني آمنَّا بالمُحْكَمْ وآمنَّا بالمتشابه كلٌّ من عند الله – عز وجل – لا نفرِّق بين كلام الله – عز وجل –.

{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}: هم أهل الثُّبُوت والقوَّة في العلم الموروث عن النبي ﷺ، لأنَّ الرسوخ هو الثبات والاستقرار والقوة والتمكُّن؛ فهؤلاء يعلمون لأنَّ وصفهم بكونهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون؛ لأنَّ الذي لا يعلم لا يُوصَفُ بالرُّسوخ في العلم، وهم متميِّزون عن غيرهم بالعلم والإيمان. والرُّسُوخُ في العلم هو الرُّسُوخُ في أنواع العلم الثلاثة:

١ – العلم بالتوحيد.

٢ – العلم بالفقه.

٣ – العلم باليوم الآخر والغيبيَّات.

فهؤلاء هم الراسخون في العلم، وقد يكون الرُّسُوخُ في العلم يتنوَّع أيضًا ولكن من لم يصح علمه بالتوحيد فإنَّه ليس بذي رسوخ في العلم مهما كان، لأنَّ أصل الأصول هو الاعتقاد، أصل الأصول هو التوحيد الذي معه يصح الفقه، يصح العمل، تصح العبادة، يصح الحكم والإفتاء إلى آخره. فإذًا أهل الرسوخ في العلم يعلمون أنَّ العلم – ممَّا في القَدَرْ – علمان:

علم في الخلق موجود، يعني جعله الله – عز وجل – موجودًا في الخلق بما أنزل في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ وشيءٌ كثير من مسائل القَدَرْ حجبها الله – عز وجل –.

لهذا فإنَّ أهل الرُّسوخ في العلم يبسطون من مسائل القَدَرْ بما جاء في الأدلَّة، ويطوون من مسائل القَدَرْ ما لم يأتِ في الأدلَّة.

ولذلك كل ما لم يكن مبسوطًا عند أهل العلم الرَّاسخين من أهل الحديث والسنة والجماعة، فإنَّ هذا العلم – يعني الذي تكلَّم فيه الآخرون – ينبغي أن لا يتكلَّم فيه كل أحد.

قال ابن العثيمين: مَن الرَّاسخون في العلم؟ الثَّابتون الذين وصلوا إلى عمق العلم؛ لأن الرسوخ في العلم الثبوت والاستقرار.
{يقولون آمنَّا به} بالمحكم وبالمتشابه، أما المحكم فظاهر أنهم يؤمنون به لأنَّهم عرفوا معناه واطمئنوا إليه؛ وأمَّا المتشابه فإيمانهم به هو التَّسليم؛ ولهذا قال فيه: {كلٌّ من عند ربنا} ولا يمكن أبدًا أن يكون فيه تعارض أو تناقض.

قال السعدي: ولمَّا رغب تعالى في التَّسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتِّباع المتشابه قال: {وما يذَّكَّر}: أي يتَّعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلَّا {أولوا الألباب}: أي أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التَّذكير إلى عقولهم، فيتذكَّرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرُّهم فيتركونه، وأمَّا من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزَّجر والتَّذكير لخلوِّهم من العقول النَّافعة.

قال ابن العثيمين: {وما يذكر إلَّا أولوا الألباب} ما نافية؛ {يذكر} أصلها: يتذكر لكن قلبت التاء ذالًا وأدغمت في الذَّال الأخرى صارت {وما يذَّكَّر}: أي لا يتَّعظ وينتفع بالقرآن إلَّا أولوا الألباب؛ أي: إلَّا أصحاب العقول؛ لأن الألباب جمع لب، واللُّب هو العقل؛ والمراد بالعقل هنا عقل الإدراك وعقل التصرف؛ عقل الإدراك الذي ضده الجنون؛ وعقل التصرف الذي ضده السفه؛ فالذي يتذكَّر بالقرآن هو الإنسان الذي أعطاه الله عقلًا يدرك به الأشياء، وأعطاه الله تعالى رشدًا يحسن به التصرف هذا هو الذي يتذكَّر؛ وأمَّا من أعطاه الله تعالى عقلًا يدرك به أشياء وهو العقل المضاد للجنون ولم يعطه عقلًا يحسن به التصرف وهو العقل المضاد للسفه فهذا لا ينتفع بالقرآن؛ لا ينتفع إلَّا العاقل عقل إدراك وعقل تصرف.
هنا قسَّم الله القرآن إلى قسمين ولكنه في موضع آخر جعله قسمًا واحدًا؛ فقال الله: {نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ... } وقال في آية أخرى: {آلمر تلك آيات الكتاب الحكيم} وقال: {كتاب أحكمت آياته ثم فصلت} ولم يترك تشابه؛ نقول: هذا أيضًا من المتشابهات، لأنه كيف يوصف القرآن بأوصاف ظاهرها تعارض؟! فنقول: الرَّاسخون في العلم يعلمون أن لا تعارض؛ فيقولون: المتشابه الذي وصف به القرآن غير مقرون بالمحكم يراد به الكمال والجود والهداية؛ نعم في الكمال والجود والهداية فهو متشابه؛ كل آياته متشابهة كلُّها كاملة بلاغة، كلُّها كاملة في الخبر، كاملة في الأمر والنهي، فهو متشابه من حيث الكمال والجودة والأحكام والأخبار وغير ذلك؛ محكم إذا ذكرت محكم بدون ذكر المتشابه أنه متقَن، متقَن ليس فيه تناقض ولا تعارض، لا في الخبر، ولا في الحكم؛ فإذا ذكر الأحكام والتشابه حمل الأحكام على معنى والتشابه على معنى آخر؛ يحمل الأحكام على الوضوح إذا ذكر الأحكام والتشابه؛ إذا ذكر الأحكام وذكر التشابه صار كل واحد منهما قسيم للآخر؛ فإذا كان تشابه، فقسيمه الواضح البيِّن. ف{منه آيات محكمات}: أي بيِّنات واضحات؛ {وأخر متشابهات} قسيمتها ضدُّها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٣ص٢٧٠: قَوْله تَعَالَى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} إلَى قَوْلِهِ: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ

الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الحج: ٥٢ – ٥٤].

جَعَلَ اللَّهُ الْقُلُوبَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: قَاسِيَةً، وَذَاتَ مَرَضٍ، وَمُؤْمِنَةً مُخْبِتَةً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا إمَّا أَنْ تَكُونَ يَابِسَةً جَامِدَةً لَا تَلِينُ لِلْحَقِّ اعْتِرَافًا وَإِذْعَانًا، أَوْ لَا تَكُونُ يَابِسَةً جَامِدَةً.

فالْأَوَّلُ: هُوَ الْقَاسِي: وَهُوَ الْجَامِدُ الْيَابِسُ بِمَنْزِلَةِ الْحَجَرِ لَا يَنْطَبِعُ، وَلَا يُكْتَبُ فِيهِ الْإِيمَانُ، وَلَا يَرْتَسِمُ فِيهِ الْعِلْمُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي مَحَلًّا لَيِّنًا قَابِلًا.

والثَّانِي: لَا يَخْلُو إمَّا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ ثَابِتًا فِيهِ لَا يَزُولُ عَنْهُ لِقُوَّتِهِ مَعَ لِينِهِ، أَوْ يَكُونَ لِينُهُ مَعَ ضَعْفٍ وَانْحِلَالٍ. فَالثَّانِي هُوَ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْقَوِيُّ اللَّيِّنُ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ بِمَنْزِلَةِ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ – كَالْيَدِ مَثَلًا – فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ جَامِدَةً يَابِسَةً لَا تَلْتَوِي وَلَا تَبْطِشُ، أَوْ تَبْطِشُ بِعُنْفٍ، فَذَلِكَ مِثْلُ الْقَلْبِ الْقَاسِي، أَوْ تَكُونَ ضَعِيفَةً مَرِيضَةً عَاجِزَةً لِضَعْفِهَا وَمَرَضِهَا، فَذَلِكَ مِثْلُ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ، أَوْ تَكُونَ بَاطِشَةً بِقُوَّةٍ وَلِينٍ فَهُوَ مِثْلُ الْقَلْبِ الْعَلِيمِ الرَّحِيمِ، فَبِالرَّحْمَةِ خَرَجَ عَنْ الْقَسْوَةِ، وَبِالْعِلْمِ خَرَجَ عَنْ الْمَرَضِ؛ فَإِنَّ الْمَرَضَ مِنْ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ.

وَلِهَذَا وُصِفَ مَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِخْبَاتِ. وَفِي قَوْلِهِ: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}[الحج: ٥٤] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ يَدُلُّ عَلَى الْإِيمَانِ، لَيْسَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ ارْتَفَعُوا عَنْ دَرَجَةِ الْإِيمَانِ – كَمَا يَتَوَهَّمُهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ – بَلْ مَعَهُمْ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}[النساء: ١٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ} الْآيَةَ [الروم: ٥٦].

وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ. فَإِنَّهُ أَخْبَرَ هُنَا أَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَخْبَرَ هُنَاكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي الْمُتَشَابِهِ: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، وَكِلَا الْمَوْضِعَيْنِ مَوْضِعُ رَيْبٍ وَشُبْهَةٍ لِغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ هُنَاكَ فِي الْمُتَشَابِهِ، وَهُنَا فِيمَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ مِمَّا يَنْسَخُهُ اللَّهُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَجَعَلَ الْمُحْكَمَ هُنَا ضِدَّ الَّذِي نَسَخَهُ اللَّهُ مِمَّا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ؛ وَلِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ: إنَّ (الْمُحْكَمَ) هُوَ النَّاسِخُ، و(الْمُتَشَابِهَ) الْمَنْسُوخُ. أَرَادُوا – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – قَوْلَهُ: {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ}[الحج: ٥٢]. وَالنَّسْخُ هُنَا رَفْعُ مَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ لَا رَفْعُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ.

وَقَدْ أَشَرْت إلَى وَجْهِ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ، وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْمُحْكَمَ مُقَابِلَ الْمُتَشَابِهِ تَارَةً، وَمُقَابِلَ الْمَنْسُوخِ أُخْرَى. وَالْمَنْسُوخُ يَدْخُلُ فِيهِ فِي اصْطِلَاحِ السَّلَفِ – الْعَامِّ – كُلُّ ظَاهِرٍ تُرِكَ ظَاهِرُهُ لِمُعَارِضٍ رَاجِحٍ، كَتَخْصِيصِ الْعَامِّ وَتَقْيِيدِ الْمُطْلَقِ؛ فَإِنَّ هَذَا مُتَشَابِهٌ، لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمُجْمَلُ فَإِنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَإِحْكَامُهُ رَفْعُ مَا يُتَوَهَّمُ فِيهِ مِنْ الْمَعْنَى الَّذِي لَيْسَ بِمُرَادٍ،

وَكَذَلِكَ مَا رُفِعَ حُكْمُهُ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ جمِيعِهِ نَسْخًا لِمَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ؛ وَلِهَذَا كَانُوا يَقُولُونَ: هَلْ عَرَفْت النَّاسِخَ مِنْ الْمَنْسُوخِ؟ فَإِذَا عُرِفَ النَّاسِخُ عُرِفَ الْمُحْكَمُ. وَعَلَى هَذَا فَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: الْمُحْكَمُ وَالْمَنْسُوخُ، كَمَا يُقَالُ الْمُحْكَمُ وَالْمُتَشَابِهُ.

وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: {ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} جَعَلَ جَمِيعَ الْآيَاتِ مُحْكَمَةً، مُحْكَمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا، كَمَا قَالَ: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ}[هود: ١]، وَقَالَ: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}[يونس: ١]عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ. وَهُنَالِكَ جَعَلَ الْآيَاتِ قِسْمَيْنِ: مُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، كَمَا قَالَ: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}. وَهَذِهِ الْمُتَشَابِهَاتُ مِمَّا أَنْزَلَهُ الرَّحْمَنُ لَا مِمَّا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ وَنَسَخَهُ اللَّهُ. فَصَارَ الْمُحْكَمُ فِي الْقُرْآنِ تَارَةً يُقَابَلُ بِالْمُتَشَابِهِ، وَالْجَمِيعُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَتَارَةً يُقَابَلُ بِمَا نَسَخَهُ اللَّهُ مِمَّا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُهُ مُقَابِلًا لِمَا نَسَخَهُ اللَّهُ مُطْلَقًا، حَتَّى يَقُولَ: هَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً، وَيَجْعَلُ الْمَنْسُوخَ لَيْسَ مُحْكَمًا، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ أَنْزَلَهُ أَوَّلًا اتِّبَاعًا لِظَاهِرِ قَوْلِهِ: {فَيَنْسَخُ اللَّهُ}{ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ}.

فَهَذِهِ ثَلَاثُ مَعَانٍ تُقَابِلُ الْمُحْكَمَ، يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهَا.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ: أَنَّ (الْإِحْكَامَ) تَارَةً يَكُونُ فِي التَّنْزِيلِ، فَيَكُونُ فِي مُقَابَلَتِهِ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ. فَالْمُحْكَمُ الْمُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَحْكَمَهُ اللَّهُ أَيْ: فَصَلَهُ مِنْ الِاشْتِبَاهِ بِغَيْرِهِ، وَفَصَلَ مِنْهُ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْإِحْكَامَ هُوَ الْفَصْلُ وَالتَّمْيِيزُ وَالْفَرْقُ وَالتَّحْدِيدُ الَّذِي بِهِ يَتَحَقَّقُ الشَّيْءُ وَيَحْصُلُ إتْقَانُهُ؛ وَلِهَذَا دَخَلَ فِيهِ مَعْنَى الْمَنْعِ كَمَا دَخَلَ فِي الْحَدِّ فَالْمَنْعُ جُزْءُ مَعْنَاهُ لَا جَمِيعُ مَعْنَاهُ.

وَتَارَةً يَكُونُ (الْإِحْكَامُ) فِي إبْقَاءِ التَّنْزِيلِ عِنْدَ مَنْ قَابَلَهُ بِالنَّسْخِ الَّذِي هُوَ رَفْعُ مَا شُرِعَ وَهُوَ اصْطِلَاحِيٌّ، أَوْ يُقَالُ – وَهُوَ أَشْبَهُ بِقَوْلِ السَّلَفِ – :كَانُوا يُسَمُّونَ كُلَّ رَفْعٍ نَسْخًا، سَوَاءٌ كَانَ رَفْعَ حُكْمٍ أَوْ رَفْعَ دَلَالَةٍ ظَاهِرَةٍ. وَإِلْقَاءُ الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّتِهِ قَدْ يَكُونُ فِي نَفْسِ لَفْظِ الْمُبَلِّغِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي سَمْعِ الْمُبَلَّغِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي فَهْمِهِ كَمَا قَالَ: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} الْآيَةَ [الرعد: ١٧]. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ سَمِعَ النَّصَّ الَّذِي قَدْ رُفِعَ حُكْمُهُ أَوْ دَلَالَةٌ لَهُ، فَإِنَّهُ يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي تِلْكَ التِّلَاوَةِ اتِّبَاعَ ذَلِكَ الْمَنْسُوخِ فَيُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ بِالنَّاسِخِ الَّذِي بِهِ يَحْصُلُ رَفْعُ الْحُكْمِ وَبَيَانُ الْمُرَادِ. وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: الْمُتَشَابِهُ الْمَنْسُوخُ بِهَذَا الِاعتبار، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وَتَارَةً يَكُونُ (الْإِحْكَامُ) فِي التَّأْوِيلِ وَالْمَعْنَى، وَهُوَ تَمْيِيزُ الْحَقِيقَةِ الْمَقْصُودَةِ مِن غَيْرِهَا حَتَّى لَا تَشْتَبِهَ بِغَيْرِهَا. وَفِي مُقَابَلَةِ الْمُحْكَمَاتِ الْآيَاتُ الْمُتَشَابِهَاتُ الَّتِي تُشْبِهُ هَذَا وَتُشْبِهُ هَذَا، فَتَكُونُ مُحْتَمِلَةً لِلْمَعْنَيَيْنِ. قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: (الْمُحْكَمُ): الَّذِي لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ، وَالْمُتَشَابِهُ الَّذِي يَكُونُ فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَفِي مَوْضِعٍ كَذَا.

وَلَمْ يَقُلْ فِي الْمُتَشَابِهِ: لَا يَعْلَمُ تَفْسِيرُهُ وَمَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ، وَإِنَّمَا قَالَ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}، وَهَذَا هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا هُوَ. وَالْوَقْفُ هُنَا عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُمْهُورُ التَّابِعِينَ وَجَمَاهِيرُ الْأُمَّةِ.

وَلَكِنْ لَمْ يَنْفِ عِلْمَهُمْ بِمَعْنَاهُ وَتَفْسِيرِهِ، بَلْ قَالَ: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}[ص: ٢٩]، وَهَذَا يَعُمُّ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ وَالْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ، وَمَا لَا يُعْقَلُ لَهُ مَعْنًى لَا يُتَدَبَّرُ. وَقَالَ: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}[محمد: ٢٤] وَلَمْ يَسْتَثْنِ شَيْئًا مِنْهُ نَهَى عَنْ تَدَبُّرِهِ. وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا ذَمَّ مَنْ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، فَأَمَّا مَنْ تَدَبَّرَ الْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ – كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ وَطَلَبَ فَهْمَهُ وَمَعْرِفَةَ مَعْنَاهُ – فَلَمْ يَذُمَّهُ اللَّهُ، بَلْ أَمَرَ بِذَلِكَ وَمَدَحَ عَلَيْهِ.

يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ التَّأْوِيلَ قَدْ رَوَى أَنَّ مِنْ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْمَدِينَةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ – كَحيي بْنِ أَخْطَبَ وَغَيْرِهِ – مَنْ طَلَبَ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ تَأْوِيلَ بَقَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا سَلَكَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مُوَافَقَةً لِلصَّابِئَةِ الْمُنَجِّمِينَ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ سِتُّمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ وَتِسْعُونَ عَامًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ عَدَدُ مَا لِلْحُرُوفِ فِي حِسَابِ الْجُمَّلِ بَعْدَ إسْقَاطِ الْمُكَرَّرِ، وَهَذَا مِنْ نَوْعِ تَأْوِيلِ الْحَوَادِثِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا الْقُرْآنُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَرُوِيَ أَنَّ مِنْ النَّصَارَى الَّذِينَ وَفَدُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ مَنْ تَأَوَّلَ {إنَّا} و{نَحْنُ} عَلَى أَنَّ الْآلِهَةَ ثَلَاثَةٌ لِأَنَّ هَذَا ضَمِيرُ جَمْعٍ. وَهَذَا تَأْوِيلٌ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، فَأُولَئِكَ تَأَوَّلُوا فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهَؤُلَاءِ تَأَوَّلُوا فِي اللَّهِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ: {إنَّا} و{نَحْنُ} مِنْ الْمُتَشَابِهِ، فَإِنَّهُ يُرَادُ بِهَا الْوَاحِدُ الَّذِي مَعَهُ غَيْرُهُ مِنْ جِنْسِهِ، وَيُرَادُ بِهَا الْوَاحِدُ الَّذِي مَعَهُ أَعْوَانُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ جِنْسِهِ، وَيُرَادُ بِهَا الْوَاحِدُ الْمُعَظِّمُ نَفْسَهُ الَّذِي يَقُومُ مَقَامَ مَنْ مَعَهُ غَيْرُهُ لِتَنَوُّعِ أَسْمَائِهِ، الَّتِي كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا يَقُومُ مَقَامَ مُسَمًّى، فَصَارَ هَذَا مُتَشَابِهًا؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ وَاحِدٌ وَالْمَعْنَى مُتَنَوِّعٌ.

و(الْأَسْمَاءُ الْمُشْتَرَكَةُ فِي اللَّفْظِ) هِيَ مِنْ الْمُتَشَابِهِ، وَبَعْضُ (الْمُتَوَاطِئَةِ) أَيْضًا مِنْ الْمُتَشَابِهِ، وَيُسَمِّيهَا أَهْلُ التَّفْسِيرِ (الْوُجُوهُ وَالنَّظَائِرُ)، وَصَنَّفُوا (كُتُبَ الْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ)، فَالْوُجُوهُ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُشْتَرَكَةِ، وَالنَّظَائِرِ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُتَوَاطِئَةِ. وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا الْمُصَنِّفِينَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْوُجُوهَ وَالنَّظَائِرَ جَمِيعًا فِي الْأَسْمَاءِ الْمُشْتَرَكَةِ. فَهِيَ نَظَائِرُ باعتبار اللَّفْظِ، وَوُجُوهٌ باعتبار الْمَعْنَى، وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالَهُ، بَلْ كَلَامُهُمْ صَرِيحٌ فِيمَا قُلْنَاهُ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَدَعُونَ الْمُحْكَمَ الَّذِي لَا اشْتِبَاهَ فِيهِ مِثْلَ {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}[البقرة: ١٦٣]. {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}[طه: ١٤]، {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}[المؤمنون: ٩١]، {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}[الفرقان: ٢]، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[الإخلاص: ٣، ٤]. وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ لِيَفْتِنُوا بِهِ النَّاسَ إذَا وَضَعُوهُ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَهُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا.

وَذَلِكَ أَنَّ (الْكَلَامَ نَوْعَانِ): إنْشَاءٌ فِيهِ الْأَمْرُ، وَإِخْبَارٌ، فَتَأْوِيلُ الْأَمْرِ هُوَ نَفْسُ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ، كَمَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ: إنَّ السُّنَّةَ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ. قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا –: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: ((سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي[١])) يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ، تَعْنِي قَوْلَهُ: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[النصر: ٣]. وَأَمَّا الْإِخْبَارُ فَتَأْوِيلُهُ عَيْنُ الْأَمْرِ الْمُخْبَرِ بِهِ إذَا وَقَعَ لَيْسَ تَأْوِيلُهُ فَهْمَ مَعْنَاهُ.

١- مسلم في الصلاة (٤٨٤/٢١٧).

وَقَدْ جَاءَ اسْمُ (التَّأْوِيلِ) فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَهَذَا مَعْنَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}[الأعراف: ٥٢، ٥٣]، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ فَصَّلَ الْكِتَابَ، وَتَفْصِيلُهُ بَيَانُهُ وَتَمْيِيزُهُ بِحَيْثُ لَا يَشْتَبِهُ، ثُمَّ قَالَ: {هَلْ يَنْظُرُونَ} أَيْ يَنْتَظِرُونَ {إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ مَجِيءُ مَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِوُقُوعِهِ مِنَ الْقِيَامَةِ، وَأَشْرَاطِهَا؛ كَالدَّابَّةِ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَمَجِيءِ رَبِّكَ وَالْمَلَكِ صَفًّا صَفًّا، وَمَا فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصُّحُفِ، وَالْمَوَازِينِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنْوَاعِ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُونَ: {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}[الأعراف: ٥٣].

وَهَذَا الْقَدْرُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا يُعْلَمُ وَقْتُهُ وَقَدْرُهُ وَصِفَتُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[السجدة: ١٧] وَيَقُولُ: ((أَعْدَدْت لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ([١]))، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ خَمْرًا وَلَبَنًا وَمَاءً وَحَرِيرًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ لَيْسَتْ مُمَاثِلَةً لِهَذِهِ، بَلْ بَيْنَهُمَا تَبَايُنٌ عَظِيمٌ مَعَ التَّشَابُهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}[البقرة: ٢٥] عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ أَنَّهُ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَ مِثْلَهُ، فَأَشْبَهَ اسْمُ تِلْكَ الْحَقَائِقِ أَسْمَاءَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ كَمَا أَشْبَهَتْ الْحَقَائِقُ الْحَقَائِقَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ. فَنَحْنُ نَعْلَمُهَا إذَا خُوطِبْنَا بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمَا، وَلَكِنْ لِتِلْكَ الْحَقَائِقِ خَاصِّيَّةٌ لَا نُدْرِكُهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى إدْرَاكِنَا لَهَا لِعَدَمِ إدْرَاكِ عَيْنِهَا أَوْ نَظِيرِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ. وَتِلْكَ الْحَقَائِقُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ هِيَ تَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ.

وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ أَكْلٌ وَشُرْبٌ وَلِبَاسٌ وَنِكَاحٌ، وَيَمْنَعُونَ وُجُودَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ. وَمَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ وَنَافَقَ الْمُؤْمِنِينَ تَأَوَّلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ أَمْثَالٌ مَضْرُوبَةٌ لِتَفْهِيمِ النَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ إنْ كَانَ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ الصَّابِئَةِ الْمُنْكِرَةِ لِحَشْرِ الْأَجْسَادِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مُنَافِقَةِ الْمِلَّتَيْنِ الْمُقِرِّينَ بِحَشْرِ الْأَجْسَادِ تَأَوَّلَ ذَلِكَ عَلَى تَفْهِيمِ النَّعِيمِ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الرُّوحَانِيِّ وَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَالرَّوَائِحِ الْعَطِرَةِ، فَكُلُّ ضَالٍّ يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ إلَى مَا اعْتَقَدَ ثُبُوتَهُ.

وَكَانَ فِي هَذَا أَيْضًا مُتَّبِعًا لِلْمُتَشَابِهِ؛ إذْ الْأَسْمَاءُ تُشْبِهُ الْأَسْمَاءَ، وَالْمُسَمَّيَاتُ تُشْبِهُ الْمُسَمَّيَاتِ، وَلَكِنْ تُخَالِفُهَا أَكْثَرَ مِمَّا تُشَابِهُهَا. فَهَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَ هَذَا الْمُتَشَابِهَ {ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ} بِمَا يُورِدُونَهُ مِنَ الشُّبُهَاتِ عَلَى امْتِنَاعِ أَنْ تَكُونَ فِي الْجَنَّةِ هَذِهِ الْحَقَائِقُ، {وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} لِيَرُدُّوهُ إلَى الْمَعْهُودِ الَّذِي يَعْلَمُونَهُ فِي الدُّنْيَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}، فَإِنَّ تِلْكَ الْحَقَائِقَ قَالَ اللَّهُ فِيهَا: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[السجدة: ١٧] لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

١- البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤/٢ – ٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٩٧) كلهم عن أبي هريرة.

وَقَوْلُهُ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ} إمَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى الْكِتَابِ، أَوْ عَلَى الْمُتَشَابِهِ؛ فَإِنْ كَانَ عَائِدًا عَلَى الْكِتَابِ كَقَوْلِهِ: {مِنْهُ}، و{مِنْهُ} {فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} فَهَذَا يَصِحُّ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُحْكَمَةِ وَالْمُتَشَابِهَةِ الَّتِي فِيهَا إخْبَارٌ عَنْ الْغَيْبِ الَّذِي أُمِرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، لَا يَعْلَمُ حَقِيقَةَ ذَلِكَ الْغَيْبِ وَمَتَى يَقَعُ إلَّا اللَّهُ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لِهَذَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ التَّأْوِيلَ لِلْكِتَابِ كُلِّهِ مَعَ إخْبَارِهِ أَنَّهُ مُفَصَّلٌ بِقَوْلِهِ: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ}[الأعراف: ٥٢، ٥٣] فَجَعَلَ التَّأْوِيلَ الْجَائِيَ لِلْكِتَابِ الْمُفَصَّلِ.

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ذَلِكَ التَّأْوِيلَ لَا يَعْلَمُهُ – وَقْتًا وَقَدْرًا وَنَوْعًا وَحَقِيقَةً – إلَّا اللَّهُ، وَإِنَّمَا نَعْلَمُ نَحْنُ بَعْضَ صِفَاتِهِ بِمَبْلَغِ عِلْمِنَا لِعَدَمِ نَظِيرِهِ عِنْدَنَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}[يونس: ٣٩].

وَإِذَا كَانَ التَّأْوِيلُ لِلْكِتَابِ كُلِّهِ وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ ارْتَفَعَتْ الشُّبْهَةُ، وَصَارَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} إلَى قَوْلِهِ: {إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ}[الأعراف: ١٨٧]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[الأحزاب: ٦٣]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ عِلْمُهَا إلَّا عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ عِلْمُ وَقْتِهَا الْمُعَيَّنِ وَحَقِيقَتِهَا، وَإِلَّا فَنَحْنُ قَدْ عَلِمْنَا مِنْ صِفَاتِهَا مَا أَخْبَرَنَا بِهِ. فَعِلْمُ تَأْوِيلِهِ كَعِلْمِ السَّاعَةِ، وَالسَّاعَةُ مِنْ تَأْوِيلِهِ. وَهَذَا وَاضِحٌ بَيِّنٌ، وَلَا يُنَافِي كَوْنَ عِلْمِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ نَعْلَمَ مِنْ صِفَاتِهَا وَأَحْوَالِهَا مَا عَلِمْنَاهُ، وَأَنْ نُفَسِّرَ النُّصُوصَ الْمُبَيِّنَةَ لِأَحْوَالِهَا فَهَذَا هَذَا.

وَإِنْ كَانَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إلَى مَا تَشَابَهَ، كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ؛ فَلِأَنَّ الْمُخْبَرَ بِهِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مُتَشَابِهٌ بِخِلَافِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ وَلِهَذَا فِي الْآثَارِ: (الْعَمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَالْإِيمَانُ بِمُتَشَابِهِهِ). لِأَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْخَبَرِ الْإِيمَانُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُخْبَرَ بِهِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فِيهِ مِنْ التَّشَابُهِ مَا ذَكَرْنَاهُ بِخِلَافِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: (الْمُتَشَابِهُ): الْأَمْثَالُ وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، و(الْمُحْكَمُ): الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، فَإِنَّهُ مُتَمَيِّزٌ غَيْرُ مُشْتَبِهٍ بِغَيْرِهِ، فَإِنَّهُ أُمُورٌ نَفْعَلُهَا قَدْ عَلِمْنَاهَا بِالْوُقُوعِ، وَأُمُورٌ نَتْرُكُهَا لَا بُدَّ أَنْ نَتَصَوَّرَهَا.

وَمِمَّا جَاءَ مِنْ لَفْظِ (التَّأْوِيلِ) فِي الْقُرْآنِ قَوْله تَعَالَى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}[يونس: ٣٩]، وَالْكِنَايَةُ عَائِدَةٌ عَلَى الْقُرْآنِ، أَوْ عَلَى مَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَهُوَ يَعُودُ إلَى الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ}[يونس: ٣٧-٤٠].

فَأَخْبَرَ – سُبْحَانَهُ – أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَا كَانَ لِيُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الصِّيغَةُ تَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ الْمَنْفِيِّ كَقَوْلِهِ: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ}[هود: ١١٧]، وَقَوْلِهِ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}[الأنفال: ٣٣]، لِأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ

الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، كَمَا تَحَدَّاهُمْ وَطَالَبَهُمْ لَمَّا قَالَ: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[يونس: ٣٨]، فَهَذَا تَعْجِيزٌ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}[يونس: ٣٧]: أَيْ مُصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، {وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ}[يونس: ٣٧]: أَيْ مُفَصِّلَ الْكِتَابِ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَمُفَصِّلُ الْكِتَابِ. وَالْكِتَابُ اسْمُ جِنْسٍ، وَتَحَدَّى الْقَائِلِينَ: {افْتَرَاهُ}، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمُ الْمُفْتَرُونَ، قَالَ: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}[يونس: ٣٩]: أَيْ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْإِحَاطَةِ بِعِلْمِهِ وَبَيْنَ إتْيَانِ تَأْوِيلِهِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُحِيطَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، وَأَنَّ الْإِحَاطَةَ بِعِلْمِ الْقُرْآنِ لَيْسَتْ إتْيَانَ تَأْوِيلِهِ؛ فَإِنَّ الْإِحَاطَةَ بِعِلْمِهِ مَعْرِفَةُ مَعَانِي الْكَلَامِ عَلَى التَّمَامِ، وَإِتْيَانُ التَّأْوِيلِ نَفْسُ وُقُوعِ الْمُخْبَرِ بِهِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ مَعْرِفَةِ الْخَبَرِ وَبَيْنَ الْمُخْبَرِ بِهِ، فَمَعْرِفَةُ الْخَبَرِ هِيَ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَمَعْرِفَةُ الْمُخْبَرِ بِهِ هِيَ مَعْرِفَةُ تَأْوِيلِهِ.

و(نُكْتَةُ ذَلِكَ) أَنَّ الْخَبَرَ لِمَعْنَاهُ صُورَةٌ عِلْمِيَّةٌ وُجُودُهَا فِي نَفْسِ الْعَالِمِ، كَذِهْنِ الْإِنْسَانِ مَثَلًا، وَلِذَلِكَ الْمَعْنَى حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْعِلْمِ، وَاللَّفْظُ إنَّمَا يَدُلُّ ابْتِدَاءً عَلَى الْمَعْنَى الذِّهْنِيِّ ثُمَّ تَتَوَسَّطُ ذَلِكَ أَوْ تَدُلُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ الْخَارِجَةِ، فَالتَّأْوِيلُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الْخَارِجَةُ، وَأَمَّا مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ وَمَعْنَاهُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ الصُّورَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ إنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيُعْلَمَ وَيُفْهَمَ وَيُفْقَهَ وَيُتَدَبَّرَ وَيُتَفَكَّرَ فِيهِ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ تَأْوِيلُهُ.

وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ عَنْ الْكُفَّارِ: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}[الإسراء: ٤٥، ٤٦]، فَقَدْ أَخْبَرَ – ذَمًّا لِلْمُشْرِكِينَ – أَنَّهُ إذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ حُجِبَ بَيْنَ أَبْصَارِهِمْ وَبَيْنَ الرَّسُولِ بِحِجَابٍ مَسْتُورٍ، وَجَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا. فَلَوْ كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوا بَعْضَهُ لَشَارَكُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: {أَنْ يَفْقَهُوهُ}، يَعُودُ إلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ، فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُفْقَهَ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً إلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُعْلَمَ فِي مَاذَا أُنْزِلَتْ وَمَاذَا عَنَى بِهَا، وَمَا اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ، لَا مُتَشَابِهًا وَلَا غَيْرَهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ أَوَّلِهِ إلَى آخِرِهِ مَرَّاتٍ، أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا. فَهَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ حَبْرُ الْأُمَّةِ، وَهُوَ أَحَدُ مَنْ كَانَ يَقُولُ: لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ، يُجِيبُ مُجَاهِدًا عَنْ كُلِّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَمَلَ مُجَاهِدًا وَمَنْ وَافَقَهُ كَابْنِ قُتَيْبَةَ عَلَى أَنْ جَعَلُوا الْوَقْفَ عِنْدَ قَوْلِهِ: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} فَجَعَلُوا الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ؛ لِأَنَّ مُجَاهِدًا تَعَلَّمَ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ كُلِّهِ وَبَيَانَ مَعَانِيهِ، فَظَنَّ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الْمَنْفِيُّ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ.

وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ (التَّأْوِيلِ) فِيهِ اشْتِرَاكٌ بَيْنَ مَا عَنَاهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ وَبَيْنَ مَا كَانَ يُطْلِقُهُ طَوَائِفُ مِنْ السَّلَفِ، وَبَيْنَ اصْطِلَاحِ طَوَائِفَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَبِسَبَبِ الِاشْتِرَاكِ فِي لَفْظِ التَّأْوِيلِ اعْتَقَدَ كُلُّ مَنْ فَهِمَ مِنْهُ مَعْنًى بِلُغَتِهِ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ. وَمُجَاهِدٌ إمَامُ التَّفْسِيرِ. قَالَ الثَّوْرِيُّ: إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ. وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فَشَأْنٌ آخَرُ.

وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ لَمْ يَمْتَنِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا قَالَ: هَذِهِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يُعْلَمُ مَعْنَاهُ، وَلَا قَالَ قَطُّ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمَتْبُوعِينَ: إنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ جَمِيعُهُمْ، وَإِنَّمَا قَدْ يَنْفُونَ عِلْمَ بَعْضِ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ، وَهَذَا لَا رَيْبَ فِيهِ. وَإِنَّمَا وَضَعَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ – الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ الطَّوَائِفِ بِسَبَبِ الْكَلَامِ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ وَآيَاتِ الْقَدَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَقَّبُوهَا: (هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَشْتَمِلَ الْقُرْآنُ عَلَى مَا لَا يُعْلَمُ مَعْنَاهُ).

وَأَمَا (تَعَبُّدَنَا بِتِلَاوَةِ حُرُوفِهِ بِلَا فَهْمٍ) فَجَوَّزَ ذَلِكَ طَوَائِفُ مُتَمَسِّكِينَ بِظَاهِرِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَبِأَنَّ اللَّهَ يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ وَمَنَعَهَا طَوَائِفُ لِيَتَوَصَّلُوا بِذَلِكَ إلَى تَأْوِيلَاتِهِمْ الْفَاسِدَةِ، الَّتِي هِيَ تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ. وَالْغَالِبُ عَلَى كِلَا الطَّائِفَتَيْنِ الْخَطَأُ، أُولَئِكَ يُقَصِّرُونَ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قِيلَ فِيهِ: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ}[البقرة: ٧٨] وَهَؤُلَاءِ مُعْتَدُونَ بِمَنْزِلَةِ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

وَمِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مَنْ وَضَعَ الْمَسْأَلَةَ بِلَقَبِ شَنِيعٍ فَقَالَ: (لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ بِكَلَامٍ وَلَا يَعْنِي بِهِ شَيْئًا خِلَافًا لِلْحَشْوِيَّةِ). وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ مُسْلِمٌ إنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ.

وَإِنَّمَا النِّزَاعُ هَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ؟ وَبَيْنَ نَفْيِ الْمَعْنَى عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ وَنَفْيِ الْفَهْمِ عِنْدَ الْمُخَاطَبِ بَوْنٌ عَظِيمٌ.

ثُمَّ احْتَجَّ بِمَا لَا يَجْرِي عَلَى أَصْلِهِ فَقَالَ: هَذَا عَبَثٌ، وَالْعَبَثُ عَلَى اللَّهِ مُحَالٌ. وَعِنْدَهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبُحُ مِنْهُ شَيْءٌ أَصْلًا بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَيْس لَهُ أَنْ يَقُولَ: الْعَبَثُ صِفَةُ نَقْصٍ، فَهُوَ مُنْتَفٍ عَنْهُ؛ لِأَنَّ النِّزَاعَ فِي الْحُرُوفِ وَهِيَ عِنْدَهُ مَخْلُوقَةٌ مِنْ جُمْلَةِ الْأَفْعَالِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَمِلَ الْفِعْلُ عِنْدَهُ عَلَى كُلِّ صِفَةٍ، فَلَا نَقْلٌ صَحِيحٌ وَلَا عَقْلٌ صَرِيحٌ.

وَمَثَارُ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ وَمَحَارُ عُقُولِهِمْ: أَنَّ مُدَّعِي التَّأْوِيلِ أَخْطَئُوا فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ، وَفِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ تَأْوِيلُهُمْ الَّذِي هُوَ تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ فَإِنَّ الْأَوَّلِينَ لِعِلْمِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ وَصِحَّةِ عُقُولِهِمْ، وَعِلْمِهِمْ بِكَلَامِ السَّلَفِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ، عَلِمُوا يَقِينًا أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي يَدَّعِيهِ هَؤُلَاءِ لَيْس هُوَ مَعْنَى الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُمْ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَصَارُوا مَرَاتِبَ مَا بَيْنَ قَرَامِطَةٍ وَبَاطِنِيَّةٍ يَتَأَوَّلُونَ الْأَخْبَارَ وَالْأَوَامِرَ، وَمَا بَيْنَ صَابِئَةٍ فَلَاسِفَةٍ يَتَأَوَّلُونَ عَامَّةَ الْأَخْبَارِ عَنْ اللَّهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ حَتَّى عَنْ أَكْثَرِ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ – وَمَا بَيْنَ جهمية وَمُعْتَزِلَةٍ يَتَأَوَّلُونَ بَعْضَ مَا جَاءَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ وَفِي آيَاتِ الْقَدَرِ وَيَتَأَوَّلُونَ آيَاتِ الصِّفَاتِ. وَقَدْ وَافَقَهُمْ بَعْضُ مُتَأَخِّرِي الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ، وَبَعْضُهُمْ فِي بَعْضِ مَا جَاءَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ وَآخَرُونَ مِنْ أَصْنَافِ الْأُمَّةِ، وَإِنْ كَانَ تَغْلِبُ عَلَيْهِمْ السُّنَّةُ، فَقَدْ يَتَأَوَّلُونَ أَيْضًا مَوَاضِعَ يَكُونُ تَأْوِيلُهُمْ مِنْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

وَالَّذِينَ ادَّعَوْا الْعِلْمَ بِالتَّأْوِيلِ مِثْلُ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَأَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْبِدَعِ، رَأَوْا أَيْضًا أَنَّ النُّصُوصَ دَلَّتْ عَلَى مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَرَأَوْا عَجْزًا وَعَيْبًا وَقَبِيحًا أَنْ يُخَاطِبَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِكَلَامٍ يقرؤونه وَيَتْلُونَهُ وَهُمْ لَا يَفْهَمُونَهُ، وَهُمْ مُصِيبُونَ فِيمَا اسْتَدَلُّوا بِهِ مِنْ سَمْعٍ وَعَقْلٍ، لَكِنْ أَخْطَئُوا فِي مَعْنَى التَّأْوِيلِ الَّذِي نَفَاهُ اللَّهُ، وَفِي التَّأْوِيلِ الَّذِي أَثْبَتُوهُ. وَتَسَلَّقَ بِذَلِكَ

مُبْتَدِعَتُهُمْ إِلَى تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَصَارَ الْأَوَّلُونَ أَقْرَبَ إِلَى السُّكُوتِ وَالسَّلَامَةِ بِنَوْعٍ مِنَ الْجَهْلِ، وَصَارَ الْآخَرُونَ أَكْثَرَ كَلَامًا وَجِدَالًا وَلَكِنْ بِفِرْيَةٍ عَلَى اللَّهِ، وَقَوْلٍ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَهُ، وَإِلْحَادٍ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ، فَهَذَا هَذَا.

وَمَنْشَأُ الشُّبْهَةِ الِاشْتِرَاكُ فِي لَفْظِ التَّأْوِيلِ. فَإِنَّ (التَّأْوِيلَ) فِي عُرْفِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُحَدِّثَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَنَحْوِهِمْ هُوَ: صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى الرَّاجِحِ إِلَى الْمَعْنَى الْمَرْجُوحِ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِهِ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ، فَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: هَذَا الْحَدِيثُ أَوْ هَذَا النَّصُّ مُؤَوَّلٌ أَوْ هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى كَذَا، قَالَ الْآخَرُ: هَذَا نَوْعُ تَأْوِيلٍ، وَالتَّأْوِيلُ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وَالْمُتَأَوِّلُ عَلَيْهِ وَظِيفَتَانِ: بَيَانُ احْتِمَالِ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى الَّذِي ادَّعَاهُ، وَبَيَانُ الدَّلِيلِ الْمُوجِبِ لِلصَّرْفِ إِلَيْهِ عَنِ الْمَعْنَى الظَّاهِرِ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَتَنَازَعُونَ فِيهِ فِي مَسَائِلِ الصِّفَاتِ إِذَا صَنَّفَ بَعْضُهُمْ فِي إِبْطَالِ التَّأْوِيلِ، أَوْ ذَمِّ التَّأْوِيلِ، أَوْ قَالَ بَعْضُهُمْ: آيَاتُ الصِّفَاتِ لَا تُؤَوَّلُ. وَقَالَ الْآخَرُ: بَلْ يَجِبُ تَأْوِيلُهَا، وَقَالَ الثَّالِثُ: بَلِ التَّأْوِيلُ جَائِزٌ يُفْعَلُ عِنْدَ الْمَصْلَحَةِ وَيُتْرَكُ عِنْدَ الْمَصْلَحَةِ أَوْ يَصْلُحُ لِلْعُلَمَاءِ دُونَ غَيْرِهِمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالَاتِ وَالتَّنَازُعِ.

وَأَمَّا (التَّأْوِيلُ) فِي لَفْظِ السَّلَفِ فَلَهُ مَعْنَيَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَفْسِيرُ الْكَلَامِ وَبَيَانُ مَعْنَاهُ، سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ خَالَفَهُ، فَيَكُونُ التَّأْوِيلُ وَالتَّفْسِيرُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مُتَقَارِبًا أَوْ مُتَرَادِفًا، وَهَذَا – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – هُوَ الَّذِي عَنَاهُ مُجَاهِدٌ أَنَّ الْعُلَمَاءَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ. وَمُحَمَّدُ بْنُ جرِيرٍ الطبري يَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ: الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ كَذَا وَكَذَا، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمُرَادُهُ التَّفْسِيرُ.

وَالْمَعْنَى الثَّانِي: – فِي لَفْظِ السَّلَفِ – وَهُوَ الثَّالِثُ مِنْ مُسَمَّى التَّأْوِيلِ مُطْلَقًا –: هُوَ نَفْسُ الْمُرَادِ بِالْكَلَامِ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنْ كَانَ طَلَبًا كَانَ تَأْوِيلُهُ نَفْسَ الْفِعْلِ الْمَطْلُوبِ، وَإِنْ كَانَ خَبَرًا كَانَ تَأْوِيلُهُ نَفْسَ الشَّيْءِ الْمُخْبَرِ بِهِ.

وَبَيْنَ هَذَا الْمَعْنَى وَالَّذِي قَبْلَهُ بَوْنٌ؛ فَإِنَّ الَّذِي قَبْلَهُ يَكُونُ التَّأْوِيلُ فِيهِ مِنْ بَابِ الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ، كَالتَّفْسِيرِ وَالشَّرْحِ وَالْإِيضَاحِ، وَيَكُونُ وُجُودُ التَّأْوِيلِ فِي الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ لَهُ الْوُجُودُ الذِّهْنِيُّ وَاللَّفْظِيُّ وَالرَّسْمِيُّ. وَأَمَّا هَذَا فَالتَّأْوِيلُ فِيهِ نَفْسُ الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَاضِيَةً أَوْ مُسْتَقْبَلَةً. فَإِذَا قِيلَ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَتَأْوِيلُ هَذَا نَفْسُ طُلُوعِهَا، وَيَكُونُ (التَّأْوِيلُ) مِنْ بَابِ الْوُجُودِ الْعَيْنِيِّ الْخَارِجِيِّ. فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ هُوَ الْحَقَائِقُ الثَّابِتَةُ فِي الْخَارِجِ بِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهَا وَشُؤُونِهَا وَأَحْوَالِهَا، وَتِلْكَ الْحَقَائِقُ لَا تُعْرَفُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِمُجَرَّدِ الْكَلَامِ وَالْإِخْبَارِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَمِعُ قَدْ تَصَوَّرَهَا أَوْ تَصَوَّرَ نَظِيرَهَا بِغَيْرِ كَلَامٍ وَإِخْبَارٍ، لَكِنْ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِهَا وَأَحْوَالِهَا قَدْرَ مَا أَفْهَمَهُ الْمُخَاطِبُ؛ إِمَّا بِضَرْبِ الْمَثَلِ، وَإِمَّا بِالتَّقْرِيبِ، وَإِمَّا بِالْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا، وَإِمَّا بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَهَذَا الْوَضْعُ وَالْعُرْفُ الثَّالِثُ هُوَ لُغَةُ الْقُرْآنِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا، وَقَدْ قَدَّمْنَا التَّبْيِينَ فِي ذَلِكَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ يَعْقُوبَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِيُوسُفَ: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}[يوسف: ٦]، وَقَوْلُهُ: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا}[يوسف: ٣٦، ٣٧]، وَقَوْلُ الْمَلَأِ: {أَضْغَاثُ

أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ}[يوسف: ٤٤، ٤٥]، وَقَوْلُ يُوسُفَ – لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ مِصْرَ – {آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}[يوسف: ٩٩، ١٠٠].

فَتَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي هِيَ رُؤْيَا الْمَنَامِ هِيَ نَفسُ مَدْلُولِهَا الَّتِي تُؤَوَّلُ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} وَالْعَالِمُ بِتَأْوِيلِهَا: الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ: {لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ}: أَيْ فِي الْمَنَامِ، {إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا}: أَيْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا التَّأْوِيلُ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[النساء: ٥٩] قَالُوا: أَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَصِيرًا. فَالتَّأْوِيلُ هُنَا تَأْوِيلُ فِعْلِهِمْ الَّذِي هُوَ الرَّدُّ إلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالتَّأْوِيلُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ تَأْوِيلُ أَحَادِيثِ الرُّؤْيَا، وَالتَّأْوِيلُ فِي الْأَعْرَافِ وَيُونُسَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى وَالْعَالِمِ: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} إلَى قَوْلِهِ: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[الكهف: ٧٨– ٨٢]، فَالتَّأْوِيلُ هُنَا تَأْوِيلُ الْأَفْعَالِ الَّتِي فَعَلَهَا الْعَالِمُ مِنْ خَرْقِ السَّفِينَةِ بِغَيْرِ إذْنِ صَاحِبِهَا، وَمِنْ قَتْلِ الْغُلَامِ، وَمِنْ إقَامَةِ الْجِدَارِ. فَهُوَ تَأْوِيلُ عَمَلٍ لَا تَأْوِيلُ قَوْلٍ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ مَصْدَرُ أَوَّلَهُ يُؤَوِّلُهُ تَأْوِيلًا، مِثْلَ حَوَّلَ تَحْوِيلًا، وَعَوَّلَ تَعْوِيلًا. وَأَوَّلَ يُؤَوِّلُ تُعَدِّيهِ آلَ يؤول أَوْلًا مِثْلَ حَالَ يَحُولُ حَوْلًا. وَقَوْلُهُمْ: آلَ يؤول، أَيْ: عَادَ إلَى كَذَا وَرَجَعَ إلَيْهِ، وَمِنْهُ (الْمَآلُ) وَهُوَ مَا يؤول إلَيْهِ الشَّيْءُ وَيُشَارِكُهُ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ (الْمَوْئِلُ)، فَإِنَّهُ مِنْ وَأَلَ وَهَذَا مِنْ أَوَلَ. وَالْمَوْئِلُ الْمَرْجِعُ، قَالَ تَعَالَى: {لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}[الكهف: ٥٨].

وقال رحمه الله في ج١٧ص٤١٨ أيضاً: وَالْأَئِمَّةُ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَمَنْ قَبْلَهُمْ – كُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِيمَا يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ، وَيُرَجِّحُونَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ بِالْأَدِلَّةِ فِي جَمِيعِ مَسَائِلِ الْعِلْمِ الْأُصُولِيَّةِ والفروعية، لَا يُعْرَفُ عَنْ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ قَالَ عَنْ نَصٍّ احْتَجَّ بِهِ مُحْتَجٌّ فِي مَسْأَلَةٍ: إنَّ هَذَا لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ فَلَا يُحْتَجُّ بِهِ، وَلَوْ قَالَ أَحَدٌ ذَلِكَ لَقِيلَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَإِذَا ادَّعَى فِي مَسَائِلِ النِّزَاعِ الْمَشْهُورَةِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ أَنَّ نَصَّهُ مُحْكَمٌ يَعْلَمُ مَعْنَاهُ، وَأَنَّ النَّصَّ الْآخَرَ مُتَشَابِهٌ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ قُوبِلَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ. وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِنَا: إنَّ مِنْ النُّصُوصِ مَا مَعْنَاهُ جَلِيٌّ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ لَا يَحْتَمِلُ إلَّا وَجْهًا وَاحِدًا لَا يَقَعُ فِيهِ اشْتِبَاهٌ، وَمِنْهَا مَا فِيهِ خَفَاءٌ وَاشْتِبَاهٌ يَعْرِفُ مَعْنَاهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ فَإِنَّ هَذَا تَفْسِيرٌ صَحِيحٌ. وَحِينَئِذٍ فَالْخِلَافُ فِي الْمُتَشَابِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُلَّهُ يُعرفُ مَعْنَاهُ، فَمَنْ قَالَ إنَّهُ يُعْرَفُ مَعْنَاهُ يُبَيِّنُ حُجَّتَهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَيْضًا، فَمَا ذَكَرَهُ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِي الْمُتَشَابِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُلَّهُ يُعْرَفُ مَعْنَاهُ. فَمَنْ قَالَ: إنْ الْمُتَشَابِهَ هُوَ الْمَنْسُوخُ، فَمَعْنَى الْمَنْسُوخِ مَعْرُوفٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ مَأْثُورٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ. وَابْنِ عَبَّاسٍ وقتادة والسدي وَغَيْرِهِمْ. وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وقتادة، هُمْ الَّذِينَ نُقِلَ عَنْهُمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ مَعْنَى

الْمَنْسُوخِ، وَأَنَّهُ مَنْسُوخٌ، فَكَانَ هَذَا النَّقْلُ عَنْهُمْ يُنَاقِضُ ذَلِكَ النَّقْلَ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَذِبٌ إِنْ كَانَ هَذَا صِدْقًا، وَإِلَّا تَعَارَضَ النَّقْلَانِ عَنْهُمْ. وَالْمَنْقُولُ عَنْهُمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: مَأْثُورٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: الْمُحْكَمُ: مَا عَلِمَ الْعُلَمَاءُ تَأْوِيلَهُ، وَالْمُتَشَابِهُ: مَا لَمْ يَكُنْ لِلْعُلَمَاءِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ سَبِيلٌ كَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. فَإِذَا أُرِيدَ بِلَفْظِ التَّأْوِيلِ هَذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ لَا يَعْلَمُ وَقْتَ تَأْوِيلِهِ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا حَقٌّ، وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الْخِطَابِ بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ إِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ حَقَائِقُ مَا يُوجَدُ، وَقِيلَ: لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، فَهَذَا قَدْ قَدَّمْنَاهُ، وَذُكِرَ أَنَّهُ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ مَنْ وَقَفَ عِنْدَ قَوْلِهِ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ. وَأَمَّا أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ التَّفْسِيرُ، وَمَعْرِفَةُ الْمَعْنَى وَيُوقَفَ عَلَى قَوْلِهِ: {إِلَّا اللَّهُ} فَهَذَا خَطَأٌ قَطْعًا مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَإِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ، يَقُولُ ذَلِكَ، وَيَقُولُ مَا يُنَاقِضُهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَيُوجِبُ الْقَدْحَ فِي الرِّسَالَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الَّذِي قَالُوهُ لَمْ يَتَدَبَّرُوا لَوَازِمَهُ وَحَقِيقَتَهُ، بَلْ أَطْلَقُوهُ وَكَانَ أَكْبَرُ قَصْدِهِمْ دَفْعَ تَأْوِيلَاتِ أَهْلِ الْبِدَعِ لِلْمُتَشَابِهِ، وَهَذَا الَّذِي قَصَدُوهُ حَقٌّ، وَكُلُّ مُسْلِمٍ يُوَافِقُهُمْ عَلَيْهِ؛ لَكِنْ لَا نَدْفَعُ بَاطِلًا بِبَاطِلٍ آخَرَ، وَلَا نَرُدُّ بِدْعَةً بِبِدْعَةٍ، وَلَا يُرَدُّ تَفْسِيرُ أَهْلِ الْبَاطِلِ لِلْقُرْآنِ بِأَنْ يُقَالَ: الرَّسُولُ ﷺ وَالصَّحَابَةُ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ تَفْسِيرَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَفِي هَذَا مِنَ الطَّعْنِ فِي الرَّسُولِ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ مَا قَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ خَطَأِ طَائِفَةٍ فِي تَفْسِيرِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَالْعَاقِلُ لَا يَبْنِي قَصْرًا وَيَهْدِمُ مِصْرًا.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُتَشَابِهَ: الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ. يُرْوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ لَيْسَتْ كَلَامًا تَامًّا مِنَ الْجُمَلِ الِاسْمِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءٌ مَوْقُوفَةٌ؛ وَلِهَذَا لَمْ تُعْرَبْ، فَإِنَّ الْإِعْرَابَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْعَقْدِ وَالتَّرْكِيبِ، وَإِنَّمَا نُطِقَ بِهَا مَوْقُوفَةً، كَمَا يُقَالُ: (أ ب ت ث)؛ وَلِهَذَا تُكْتَبُ بِصُورَةِ الْحَرْفِ، لَا بِصُورَةِ الِاسْمِ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، فَإِنَّهَا فِي النُّطْقِ أَسْمَاءٌ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ الْخَلِيلُ أَصْحَابَهُ عَنِ النُّطْقِ بِ(الزَّايِ) مِنْ (زَيْدٍ)، قَالُوا: (زا)، قَالَ: نَطَقْتُمْ بِالِاسْمِ، وَإِنَّمَا النُّطْقُ بِالْحَرْفِ (زَهْ)، فَهِيَ فِي اللَّفْظِ أَسْمَاءٌ، وَفِي الْخَطِّ حُرُوفٌ مُقَطَّعَةٌ، {الم} لَا تُكْتَبُ أَلِفٌ لَامْ مِيمٌ، كَمَا يُكْتَبُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: ((مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: {الم} حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ(١))).

وَالْحَرْفُ فِي لُغَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ يَتَنَاوَلُ الَّذِي يُسَمِّيهِ النُّحَاةُ اسْمًا وَفِعْلًا وَحَرْفًا؛ وَلِهَذَا قَالَ سِيبَوَيْهِ فِي تَقْسِيمِ الْكَلَامِ: اسْمٌ وَفِعْلٌ وَحَرْفٌ جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مَعْرُوفًا مِنَ اللُّغَةِ أَنَّ الِاسْمَ حرف. وَالْفِعْلَ حرف خُصَّ هَذَا

١- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ. ولكن صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٦٠) بلفظ: ((اقرءوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه أما إني لا أقول: (ألم) حرف ولكن ألف عشر ولام عشر وميم عشر، فتلك ثلاثون)). وأنظر صحيح الجامع رقم (٦٤٦٩).

الْقِسْمُ الثَّالِثُ الَّذِي يُطْلِقُ النُّحَاةُ عَلَيْهِ الْحَرْفَ أَنَّهُ جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ، وَهَذِهِ حُرُوفُ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْكَلَامُ.

وَأَمَّا حُرُوفُ الْهِجَاءِ، فَتِلْكَ إِنَّمَا تُكْتَبُ عَلَى صُورَةِ الْحَرْفِ الْمُجَرَّدِ، وَيُنْطَقُ بِهَا غَيْرَ مُعْرَبَةٍ، وَلَا يُقَالُ فِيهَا: مُعْرَبٌ وَلَا مَبْنِيٌّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقَالُ فِي الْمُؤَلِّفِ، فَإِذَا كَانَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ كُلُّ مَا سِوَى هَذِهِ مُحْكَمٌ حَصَلَ الْمَقْصُودُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ إِلَّا مَعْرِفَةَ كَلَامِ اللَّهِ، وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ ثُمَّ يُقَالُ: هَذِهِ الْحُرُوفُ قَدْ تَكَلَّمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ فَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا مَعْرُوفًا فَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا – وَهِيَ الْمُتَشَابِهُ –، كَانَ مَا سِوَاهَا مَعْلُومَ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْمَطْلُوبُ.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – قَالَ: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} وَهَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ آيَاتٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا يَعُدُّهَا آيَاتٍ الْكُوفِيُّونَ.

وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الصَّحِيحُ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَيْرَهَا – أَيْضًا – مُتَشَابِهٌ، وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُوَافِقُ مَا نُقِلَ عَنِ الْيَهُودِ مِنْ طَلَبِ عِلْمِ الْمُدَدِ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ.

وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْمُتَشَابِهَ مَا اشْتَبَهَتْ مَعَانِيهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، وَكُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْمُتَشَابِهِ، وَيُبَيِّنُ مَعْنَاهُ.

وَالْخَامِسُ: أَنَّ الْمُتَشَابِهَ مَا تَكَرَّرَتْ أَلْفَاظُهُ، قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: الْمُحْكَمُ: مَا ذَكَرَ اللَّهُ – تَعَالَى– فِي كِتَابِهِ مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ فَفَصَّلَهُ وَبَيَّنَهُ، وَالْمُتَشَابِهُ: هُوَ مَا اخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُهُ فِي قَصَصِهِمْ عِنْدَ التَّكْرِيرِ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ: {احْمِلْ فِيهَا}[هود: ٤٠]. وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: {فَاسْلُكْ فِيهَا}[المؤمنون: ٢٧]، وَقَالَ فِي عَصَا مُوسَى: {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}[طه: ٢٠]، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ. {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ}[الشعراء: ٣٢]، وَصَاحِبُ هَذَا الْقَوْلِ جَعَلَ الْمُتَشَابِهَ اخْتِلَافَ اللَّفْظِ مَعَ اتِّفَاقِ الْمَعْنَى، كَمَا يَشْتَبِهُ عَلَى حَافِظِ الْقُرْآنِ هَذَا اللَّفْظُ بِذَاكَ اللَّفْظِ، وَقَدْ صَنَّفَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمُتَشَابِهِ؛ لِأَنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ يَتَشَابَهُ مَعْنَاهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ، فَاشْتَبَهَ عَلَى الْقَارِئِ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ بِالْآخَرِ، وَهَذَا التَّشَابُهُ لَا يَنْفِي مَعْرِفَةَ الْمَعَانِي بِلَا رَيْبٍ، وَلَا يُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا: إِنَّ الرَّاسِخِينَ يَخْتَصُّونَ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ، فَهَذَا الْقَوْلُ إِنْ كَانَ صَحِيحًا كَانَ حُجَّةً لَنَا وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا لَمْ يَضُرَّنَا.

وَالسَّادِسُ: أَنَّهُ مَا احْتَاجَ إِلَى بَيَانٍ كَمَا نُقِلَ عَنْ أَحْمَد.

وَالسَّابِعُ: أَنَّهُ مَا احْتَمَلَ وُجُوهًا، كَمَا نُقِلَ عَنْ الشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَد. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ: إِنَّكَ لَا تَفْقَهُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَرَى الْقُرْآنَ وُجُوهًا. وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ (كُتُبَ الْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ)، وقد سبق الكلام عليه.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ سَلَفُهُمْ وَخَلَفُهُمْ فِي مَعَانِي الْوُجُوهِ، وَفِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ وَمَا يَحْتَمِلُ وُجُوهًا، فَعُلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ مِمَّا يُمْكِنُ الْعُلَمَاءَ مَعْرِفَةُ مَعَانِيهِ وَعُلِمَ أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ، وَلَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَالثَّامِنُ: أَنَّ الْمُتَشَابِهَ هُوَ الْقَصَصُ وَالْأَمْثَالُ وَهَذَا – أَيْضًا – يُعْرَفُ مَعْنَاهُ.

وَالتَّاسِعُ: أَنَّهُ مَا يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ، وَهَذَا – أَيْضًا – مِمَّا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ.

وَالْعَاشِرُ: قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ: إِنَّ الْمُتَشَابِهَ آيَاتُ الصِّفَاتِ، وَأَحَادِيثُ الصِّفَاتِ، وَهَذَا – أَيْضًا – مِمَّا يُعْلَمُ مَعْنَاهُ، فَإِنَّ أَكْثَرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ يُعْرَفُ مَعْنَاهَا. وَالْبَعْضُ الَّذِي تَنَازَعَ النَّاس فِي مَعْنَاهُ إِنَّمَا ذَمَّ السَّلَفُ مِنْهُ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّة، وَنَفَوْا عِلْمَ النَّاسِ بِكَيْفِيَّتِهِ، كَقَوْلِ مَالِكٍ: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ. وَكَذَلِكَ قَالَ سَائِرُ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ. وَحِينَئِذٍ فَفَرْقٌ بَيْنَ الْمَعْنَى الْمَعْلُومِ، وَبَيْنَ الْكَيْفِ الْمَجْهُولِ، فَإِنْ سُمِّيَ الْكَيْفُ تَأْوِيلًا سَاغَ أَنْ يُقَالَ: هَذَا التَّأْوِيلُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلًا.

وَأَمَّا إِذَا جَعَلَ مَعْرِفَةَ الْمَعْنَى وَتَفْسِيرَهُ تَأْوِيلًا كَمَا يَجْعَلُ مَعْرِفَةَ سَائِرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَأْوِيلًا، وَقِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ ث وَجِبْرِيلَ وَالصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: ٥] وَلَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}[ص: ٧٥] وَلَا مَعْنَى قَوْلِهِ: {غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}[الفتح: ٦]، بَلْ هَذَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ الْعَجَمِيِّ، الَّذِي لَا يَفْهَمُهُ الْعَرَبِيُّ، وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: كَانَ عِنْدَهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}[الزمر: ٦٧]، وَقَوْلُهُ: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}[الأنعام: ١٠٣]، وَقَوْلُهُ: {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[النساء: ١٣٤]، وَقَوْلُهُ: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}[المائدة: ١١٩]، وَقَوْلُهُ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}[محمد: ٢٨]، وَقَوْلُهُ: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: ١٩٥]، وَقَوْلُهُ: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[التوبة: ١٠٥] إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ.

فَمَنْ قَالَ عَنْ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ – صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا – وَعَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْجَمَاعَةِ: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ مَعَانِي هَذِهِ الْآيَاتِ، بَلْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ مَعْنَاهَا، كَمَا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِ وَقْتِ السَّاعَةِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَقْرَءُونَ أَلْفَاظًا لَا يَفْهَمُونَ لَهَا مَعْنًى، كَمَا يَقْرَأُ الْإِنْسَانُ كَلَامًا لَا يَفْهَمُ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَدْ كَذَبَ عَلَى الْقَوْمِ، وَالنُّقُولُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْهُمْ تَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ هَذَا، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَ هَذَا كَمَا يَفْهَمُونَ غَيْرَهُ مِنْ الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَ كُنْهُ الرَّبِّ – عَزَّ وَجَلَّ – لَا يُحِيطُ بِهِ الْعِبَادُ، وَلَا يُحْصُونَ ثَنَاءً عَلَيْهِ، فَذَاكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَعْلَمُوا مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مَا عَلَّمَهُمْ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – كَمَا أَنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَعْرِفُوا كَيْفِيَّةَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَإِذَا عَرَفُوا أَنَّهُ حَقٌّ مَوْجُودٌ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَعْرِفُوا كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ.

وَهَذَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ فَإِنَّ النَّاسَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ تَأْوِيلَ الْمُحْكَمِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّةَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فِي الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ بِالْكَيْفِيَّةِ لَا يَنْفِي الْعِلْمَ بِالتَّأْوِيلِ الَّذِي هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ وَبَيَانُ مَعْنَاهُ، بَلْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّةَ الرَّبِّ لَا فِي هَذَا، وَلَا فِي هَذَا.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا يَقْدَحُ فِيمَا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّفْسِيرُ، وَبَيْنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي فِي كِتَابِ اللَّهِ – تَعَالَى – قِيلَ: لَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ تَفْسِيرِ اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ وَتَصَوُّرَ ذَلِكَ فِي الْقَلْبِ غَيْرُ مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ الْمُرَادَةِ بِذَلِكَ الْكَلَامِ، فَإِنَّ الشَّيْءَ لَهُ وُجُودٌ فِي الْأَعْيَانِ، وَوُجُودٌ فِي الْأَذْهَانِ، وَوُجُودٌ فِي اللِّسَانِ، وَوُجُودٌ فِي الْبَنَانِ، فَالْكَلَامُ لَفْظٌ لَهُ مَعْنًى فِي الْقَلْبِ، وَيُكْتَبُ ذَلِكَ اللَّفْظُ بِالْخَطِّ، فَإِذَا عُرِفَ الْكَلَامُ وَتُصُوِّرَ مَعْنَاهُ فِي الْقَلْبِ، وَعُبِّرَ عَنْهُ بِاللِّسَانِ، فَهَذَا غَيْرُ الْحَقِيقَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عَرَفَ الْأَوَّلَ، عَرَفَ عَيْنَ الثَّانِي.

مِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَخَبَرِهِ وَنَعْتِهِ، وَهَذَا مَعْرِفَةُ الْكَلَامِ وَمَعْنَاهُ وَتَفْسِيرُهُ، وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ هُوَ نَفْسُ مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ، فَالْمَعْرِفَةُ بِعَيْنِهِ مَعْرِفَةُ تَأْوِيلِ ذَلِكَ الْكَلَامِ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ قَدْ يَعْرِفُ الْحَجَّ وَالْمَشَاعِرَ كَالْبَيْتِ وَالْمَسْجِدِ وَمِنًى وَعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَيَفْهَمُ مَعْنَى ذَلِكَ، وَلَا يَعْرِفُ أَعْيَانَ الْأَمْكِنَةِ حَتَّى يُشَاهِدَهَا، فَيَعْرِفُ أَنَّ الْكَعْبَةَ الْمُشَاهَدَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}[آل عمران: ٩٧]، وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَرَفَاتٍ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ}[البقرة: ١٩٨]، وَكَذَلِكَ الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ هِيَ الْمُزْدَلِفَةُ الَّتِي بَيْنَ مَأْزِمَيْ عَرَفَةَ، وَوَادِي مُحَسِّرٍ، يُعْرَفُ أَنَّهَا الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}[البقرة: ١٩٨].

وَكَذَلِكَ الرُّؤْيَا قَدْ يَرَاهَا الرَّجُلُ، وَيَذْكُرُ لَهُ الْعَابِرُ تَأْوِيلَهَا فَيَفْهَمُهُ وَيَتَصَوَّرُهُ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ كَذَا، وَيَكُونُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهُوَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا لَيْسَ تَأْوِيلُهَا نَفْسَ عِلْمِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَكَلَامِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ}[يوسف: ١٠٠]، وَقَالَ: {لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا}[يوسف: ٣٧] فَقَدْ أَنْبَأَهُمَا بِالتَّأْوِيلِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ التَّأْوِيلُ، وَالْإِنْبَاءُ لَيْسَ هُوَ التَّأْوِيلُ، فَالنَّبِيُّ ث عَالِمٌ بِالتَّأْوِيلِ، وَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ لَمْ يَقَعْ بَعْدُ، وَإِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مَتَى يَقَعُ فَنَحْنُ نَعْلَمُ تَأْوِيلَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْرِفُ مَتَى يَقَعُ هَذَا التَّأْوِيلُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} الْآيَةُ [الأعراف: ٥٣]. وَقَالَ تَعَالَى: {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ}[الأنعام: ٦٧]، فَنَحْنُ نَعْلَمُ مُسْتَقَرَّ نَبَإِ اللَّهِ، وَهُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا، وَلَا نَعْلَمُ مَتَى يَكُونُ، وَقَدْ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهَا وَقَدْرَهَا، وَسَوَاءٌ فِي هَذَا تَأْوِيلِ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}[الأنعام: ٦٥]، فَقَدْ عُرِفَ تَأْوِيلُهَا، وَهُوَ وُقُوعُ الِاخْتِلَافِ وَالْفِتَنِ، وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ مَتَى يَقَعُ، وَقَدْ لَا يَعْرِفُ صِفَتَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ، فَإِذَا وَقَعَ عَرَفَ الْعَارِفُ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ، وَغَيْرُهُ قَدْ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ أَوْ يَنْسَاهُ بَعْدَ مَا كَانَ عَرَفَهُ، فَلَا يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً}[الأنفال: ٢٥]، قَالَ الزُّبَيْرُ: لَقَدْ قَرَأْنَا هَذِهِ الْآيَةَ زَمَانًا وَمَا أُرَانَا مِنْ أَهْلِهَا، وَإِذَا نَحْنُ الْمَعْنِيُّونَ بِهَا: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً}.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ذَمَّ فِي كِتَابِهِ مَنْ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ وَلَا يَفْقَهُ مَعْنَاهُ، وَذَمَّ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْهُ وَمَدَحَ مَنْ يَسْمَعُهُ وَيَفْقَهُهُ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ} الْآيَةُ [محمد: ١٦]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ: مَاذَا قَالَ

الرَّسُولُ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَقَدِّمِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ مَعَانِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُمْ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ مُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت: ٤٣]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَالِمِينَ يَعْقِلُونَهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ لَا يَعْقِلُهَا.

وَالْأَمْثَالُ: هِيَ الْمُتَشَابِهُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ السَّلَفِ، وَهِيَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ أَقْرَبُ مِنْ غَيْرِهَا لِمَا بَيْنَ الْمُمَثَّلِ وَالْمُمَثَّلِ بِهِ مِنْ التَّشَابُهِ، وَعَقْلُ مَعْنَاهَا هُوَ مَعْرِفَةُ تَأْوِيلِهَا الَّذِي يَعْرِفُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَيُشْبِهُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[سبأ: ٦]، فَلَوْلَا أَنَّهُمْ عَرَفُوا مَعْنَى مَا أُنْزِلَ كَيْفَ عَرَفُوا أَنَّهُ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ وَهَلْ يُحْكَمُ عَلَى كَلَامٍ لَمْ يُتَصَوَّرْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ؟! وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد: ٢٤]، وَقَالَ: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء: ٨٢]، فَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُهُ مِمَّا لَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ، لَمْ يَكُنْ الْمُتَدَبَّرُ الْمَعْقُولُ إِلَّا بَعْضَهُ، وَهَذَا خِلَافُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، لَا سِيَّمَا عَامَّةُ مَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَهُ كَالْآيَاتِ الْخَبَرِيَّةِ، وَالْإِخْبَارِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَوْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَعَنْ نَفْيِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ عَنْ اللَّهِ، وَتَسْمِيَتِهِ بِالرَّحْمَنِ، فَكَانَ عَامَّةَ إِنْكَارِهِمْ لِمَا يُخْبِرُهُمْ بِهِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَمَا يُخْبِرُهُمْ بِهِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ مَنْ لَا يَعْقِلُ ذَلِكَ وَلَا يَفْقَهُهُ وَلَا يَتَدَبَّرُهُ.

فَعُلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِعَقْلِ ذَلِكَ وَتَدَبُّرِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}[يونس: ٤٢، ٤٣]، وَقَالَ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} الْآيَةُ [الأنعام: ٢٥]. وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} الْآيَةُ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْفِ عَنْ غَيْرِهِ عِلْمَ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ مُنْفَرِدًا بِهِ، كَقَوْلِهِ: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}[النمل: ٦٥]، وَقَوْلِهِ: {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}[الأعراف: ١٨٧]، وَقَوْلِهِ: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}[المدثر: ٣١].

فَيُقَالُ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ هَذَا بِحَسَبِ الْعِلْمِ الْمَنْفِيِّ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ قِيلَ فِيهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا عَلَّمَهُ بَعْضَ عِبَادِهِ ذَكَرَ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[البقرة: ٢٥٥]، وَقَوْلِهِ: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} إِلَى قَوْلِهِ: {رَصَدًا}[الجن: ٢٦، ٢٧]، وَقَوْلِهِ: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}[الرعد: ٤٣]، وَقَوْلِهِ: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ}[آل عمران: ١٨]، وَقَوْلِهِ: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} إِلَى قَوْلِهِ: {شَهِيدًا}[النساء: ١٦٦]، وَقَوْلِهِ: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ}[الكهف: ٢٢]، وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة: ٣٠]، وَقَالَتْ الْمَلَائِكَةُ: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا

عَلَّمْتنَا}[البقرة: ٣٢]، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ: ((أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسَك، أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك، أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مِنْ خَلْقِك، أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك(١))).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}[النساء: ٥٩]، وَأَوَّلُ النِّزَاعِ، النِّزَاعُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ الرَّسُولُ عَالِمًا بِمَعَانِيهِ امْتَنَعَ الرَّدُّ إلَيْهِ. وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَسَائِرُ أَئِمَّةِ الدِّينِ أَنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْ مُجْمَلِهِ، وَأَنَّهَا تُفَسِّرُ مُجْمَلَ الْقُرْآنِ مِنْ الْأَمْرِ وَالْخَبَرِ، وَقَالَ تَعَالَى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} إلَى قَوْلِهِ: {فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ}[البقرة: ٢١٣].

وَمِنْ أَعْظَمِ الِاخْتِلَافِ، الِاخْتِلَافُ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ الْخَبَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ حَاكِمًا بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا إنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرِفَةُ مَعْنَاهُ مُمْكِنًا، وَقَدْ نَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ دَلِيلًا، وَإِلَّا فَالْحَاكِمُ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا فِي نَفْسِهِ لَا يَحْكُمُ بِشَيْءِ، وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ: هُوَ الْحَاكِمُ بِالْكِتَابِ، فَإِنَّ حُكْمَهُ فَصْلٌ يَفْصِلُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ بِالْبَيَانِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ: {إنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}[الطارق: ١٣]: أَيْ فَاصِلٌ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَكَيْفَ يَكُونُ فَصْلًا إذَا لَمْ يَكُنْ إلَى مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ سَبِيلٌ؟

وَأَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ}[البقرة: ٧٨]، فَذَمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ، كَمَا ذَمَّ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ مَعْنَاهُ وَيُكَذِّبُونَ. فَقَالَ تَعَالَى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} إلَى قَوْلِهِ: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[البقرة: ٧٥، ٧٦]، فَهَذَا أَحَدُ الصِّنْفَيْنِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ}: أَيْ تِلَاوَةً {وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ}، ثُمَّ ذَمَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ كُتُبًا يَقُولُونَ هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} إلَى قَوْلِهِ: {يَكْسِبُونَ}[البقرة: ٧٩].

قال محمد رشيد رضا: اعْلَمْ أَنَّ مَا تَلَقَّيْنَاهُ فِي كُتُبِ الْعَقَائِدِ الَّتِي تُقْرَأُ لِلْمُبْتَدِئِينَ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي دِيَارِ مِصْرَ وَالشَّامِ كَالْجَوْهَرَةِ وَالسَّنُوسِيَّةِ الصُّغْرَى وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِمَا مِنْ شُرُوحٍ وَحَوَاشٍ هُوَ أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَشَابِهَاتِ فِي الصِّفَاتِ مَذْهَبَيْنِ: مَذْهَبُ السَّلَفِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِظَاهِرِهَا مَعَ تَنْزِيهِ اللهِ – تَعَالَى – عَمَّا يُوهِمُهُ ذَلِكَ الظَّاهِرُ وَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ فِيهِ إِلَى اللهِ – تَعَالَى –، وَمَذْهَبُ الْخَلَفِ وَهُوَ تَأْوِيلُ مَا وَرَدَ مِنَ النُّصُوصِ فِي ذَلِكَ بِحَمْلِهِ عَلَى الْمَجَازِ أَوِ الْكِتَابَةِ لِيَتَّفِقَ النَّقْلُ مَعَ الْعَقْلِ. وَقَالُوا: إِنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ أَسْلَمُ لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ اللَّفْظُ الْمُتَشَابِهُ غَيْرَ مُرَادِ اللهِ – تَعَالَى –، وَمَذْهَبُ الْخَلَفِ أَعْلَمُ لِأَنَّهُ يُفَسِّرُ النُّصُوصَ جَمِيعَهَا وَيَحْمِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، فَلَا يَكُونُ صَاحِبُهُ مُضْطَرِبًا فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ. وَقَالُوا: إِنَّ الْخِلَافَ فِي التَّأْوِيلِ وَالتَّفْوِيضِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخِلَافِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى –: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ هَلْ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ أَمِ الْوَاوُ لِلِاسْتِئْنَافِ وَالرَّاسِخُونَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ... إِلَخْ؛ هَذَا مُلَخَّصُ مَا يُلَقَّنُ الطُّلَّابُ فِي هَذَا الْعَصْرِ، كَتَبْنَاهُ مِنْ غَيْرِ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (١٩٩)، وقال: رواه أحمد وهو صحيح.

مُرَاجَعَةٍ لِهَذِهِ الْكُتُبِ الْقَاصِرَةِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا بَعْضُ الدَّارِسِينَ فَلْيُرَاجِعْهَا مَنْ شَاءَ فِي حَاشِيَةِ الْجَوْهَرَةِ لِلْبَاجُورِيِّ عِنْدَ قَوْلِ الْمَتْنِ: وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا ... أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهَا

وَكُنَّا نَظُنُّ فِي أَوَائِلِ الطَّلَبِ أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ ضَعِيفٌ وَأَنَّهُمْ لَمْ يُأَوِّلُوا كَمَا أَوَّلَ الْخَلَفُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ لَا سِيَّمَا الْحَنَابِلَةُ كُلُّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ. وَلَمَّا تَغَلْغَلْنَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَظَفِرْنَا بَعْدَ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي هِيَ مُنْتَهَى فَلْسَفَةِ الْأَشَاعِرَةِ فِي الْكَلَامِ بِالْكُتُبِ الَّتِي تُبَيِّنُ مَذْهَبَ السَّلَفِ حَقَّ الْبَيَانِ لَا سِيَّمَا كُتُبُ ابْنِ تَيْمِيَةَ عَلِمْنَا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ غَايَةٌ وَلَا مَطْلَبٌ وَأَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهُ فَهُوَ ظُنُونٌ وَأَوْهَامٌ لَا تُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ هذا القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: {هو الذي أنزل عليك الكتاب}.

فإن قال قائل: يرد عليك {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد}، و{أنزل من السماء ماء} فهل تقول: إنَّ الحديد كلام الله، وإن الماء كلام الله؟! فلماذا جعلتم أنَّ هذا يدلُّ على أن القرآن كلام الله؟ نقول: لأن الكلام صفة لا تقوم بذاته، لا تقوم إلَّا بمتكلِّم، بخلاف الماء، وبخلاف الحديد، فإنه عين قائمة بنفسه فتكون مخلوقة، وأما القرآن فليس بمخلوق؛ لأنه صفة الخالق عز وجل؛ والمخلوق شيء بائن عن الخالق، منفصل عنه؛ لكن الكلام صفة هي فعله، فليس بمخلوقة.

٢- إثبات علو الله عز وجل؛ والإنزال لا يكون إلَّا من الأعلى إلى الأسفل؛ فإذا كان القرآن كلامه ونزل، إذًا، الله فوق، وهو كذلك؛ ومذهب أهل السنة والجماعة بل مذهب الرسل كلُّهم أن الله تعالى فوق كلِّ شيء؛ ألم تروا إلى فرعون: {قال يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطَّلع إلى إله موسى} وهذا يدلُّ على أن موسى قال له إن الله فوق. والعلو لله عز وجل ثابت بالقرآن، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ خمسة أنواع من الأدلَّة: الكتاب، السنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ أما الكتاب فأدلَّته أكثر من أن تحصى وهي أدلَّة متنوعة تارةً بذكر العلو، وتارةً بالفوقية، وتارةً بنزول الأشياء منه، وتارة بصعود الأشياء إليه، وتارة بذكر في السماء؛ والسنة كذلك متواترة بذكر علو الله ومتنوعة: فتارة بقول الرسول ﷺ، وتارةً بفعله، وتارةً بإقراره؛ أما قوله: فكان يقول في كل صلاة: سبحان ربي الأعلى؛ وأما فعله: فقد أشار إلى السماء غير مَرَّة، يشير إلى السماء في الدعاء يرفع يديه إلى السماء، وأشار إلى السماء حين أشهد ربه على أمَّته أنهم أقروا لإبلاغه الرسالة، متى؟ في حجة الوداع في يوم عرفة في أكبر مجمع للمسلمين في عهد الرسول ﷺ؛ وأما إقراره: ((فسأل الجارية أين الله؟ قالت: في السماء قال أعتقها فإنَّها مؤمنة[١]))، وأمَّا الإجماع فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى بعدهم على أنَّ الله تعالى فوق كلِّ شيءٍ، ولم ينقل عن واحد منهم أنه قال إن الله في كل مكان ولا أنَّه قال: إنَّ الله لا

١- (قلت): مسلم (٥٣٧)، وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٣٠٣)، والصحيحة (٣١٦١)، والإرواء (٢/ ١١١ . ١١٣)، وصحيح أبي داود (٨٦٢): م.

يوصف بأنَّه فوق العالم، ولا تحته، ولا خارج العالم، ولا داخله، ولا متَّصل، ولا منفصل، أبدًا ما أحد قال هذا؛ وأمَّا العقل، فإنَّا لو سألنا أي إنسان، ما تقول في العلو، أهو صفة كمال أو نقص؟ لقال: صفة كمال؛ والعقل يقول: كلُّ صفة كمال فهي ثابت لله عز وجل، فيثبت العلو لله بدلالة العقل من هذه الناحية؛ أمَّا الفطرة فحدِّث ولا حرج؛ الإنسان الذي لم يتعلَّم، ولا يدري عن كلام العلماء في هذا، إذا سأل الله أين يرفع يديه؟ إلى السماء؛ ما رأينا أحدًا لمَّا أراد أن يدعوا وضع يديه على الأرض أبدًا، ولا يمين ولا يسار، يرفعها إلى السماء؛ ولهذا استدلَّ أبو على الهمداني على أبي المعالي الجويني بهذا الدليل، حتى إنَّ الجويني لم يتمالك إلَّا أن صرخ وضرب على رأسه وقال: حيرني؛ لأن أبو المعالي الجويني رحمه الله كان يحدِّث الناس ويقول: كان الله ولا شيء، هو الأول الذي ليس قبله شيء؛ وهو الآن على ما كان عليه؛ وهذه كلمة موهمة؛ ماذا يريد وهو الآن على ما كان عليه؟ يعني غير مستوي على العرش؛ لأن العرش لم يكن، وقد كان الله ولا شيء، وهو الآن على ما كان عليه؛ إذًا فلم يستوي على العرش؛ فقال له أبو على الهمداني قال له: يا أستاذ دعنا من ذكر العرش لأن الإستواء على العرش غير عقلي، لا عقلي ولا فطري؛ دليله خبري؛ لأنه لو لا أن الله أخبرنا بأنه استوى على العرش ما علمنا ذلك ولا علمنا العرش؛ كل ما نعلم؛ أخبِرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا، ما قال عارف قط يا الله إلَّا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو؟ فصرخ وضرب على رأسه قال: حيَّرني الهمداني، حيَّرني الهمداني؛ لأنه لا يجد جوابًا يدفع به هذه الفطرة.

فعلو الله، والحمد لله قد دلَّ عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ ولو لا قول من الشياطين ما كان يحلم الإنسان أو يفكر في أن الله تعالى في كل شيء، في كل مكان أبدًا، ولا يخطر على باله، ولا يفكر أننا نسلب الله عنه كل صفة؛ فنقول: لا فوق العالم ولا تحته، ولا يمين العالم ولا شمال العالم، ولا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم، أين يذهب؟! هذا عدم أعوذ بالله والغريب أن هؤلاء يرون أنهم نزهوا الله، وهم لو قيل لهم: صفوا لنا العدم ما وجد أحسن من هذا الوصف. نسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا.

٣- أنَّ هذا القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه؛ لقوله: {منه آيات محكمات}، و{وأخر متشابهات} وذكرنا أنه يشكل على هذا التَّقسيم أن الله ذكر في آية أخرى أن القرآن كلُّه متشابه؛ وفي آية ثانية أنه كلُّه محكم؛ وذكرنا الجمع.

٤- وجوب الرجوع إلى المحكم إزاء المتشابه؛ لقوله: {هنَّ أمُّ الكتاب}: يعني مرجعه؛ وهذا لا يختص بالقرآن، بل حتى في السنة، إذا وجد أحاديث متشابهة وأحاديث واضحة محكمة فالواجب ردُّ المتشابه إلى المحكم ليكون الجميع محكمًا؛ سواء كان التشابه في مدلولات الألفاظ أو كان التشابه في ثبوت الخبر؛ وهذا الأخير يختصُّ بالسنة؛ لأن القرآن ليس فيه اشتباه بالنسبة إلى ثبوته؛ أو كان الاشتباه بأقوال أهل العلم، بمعنى أن العلماء يكون أكثرهم على قول، وهو مشتبه عليك بالنسبة للأدلَّة، فإن الغالب أن الحق يكون مع من هو أوثق وأقرب إلى الكتاب والسنة، إمَّا بالعلم أو بالأمانة أو بالكثرة.

٥- حكمة الله عز وجل في جعل القرآن ينقسم إلى قسمين؛ وجه الحكمة: أن بهذا يحصل الابتلاء والامتحان؛ فالمؤمن لا يضِل بهذا الانقسام؛ والذي في قلبه زيغ يضِل؛ وهذا كما يمتحن الله العباد بالأوامر والنواهي يمتحنهم أيضًا بالأدلَّة فيجعل

هذا محكمًا وهذا متشابهًا ليتبيَّن المؤمن من غير المؤمن؛ لو كان القرآن كله محكمًا لم يحصل الابتلاء، ولو كان كلُّه متشابهًا لم يحصل البيان والله سبحانه وتعالى جعل القرآن بيانًا؛ وجعله محكمًا متشابهًا للاختبار والامتحان.

٦- أنَّ من علامة الزيغ أن يتَّبع الإنسان متشابهًا من القرآن، سواء تبعه بالنسبة لتصوُّره فيما بينه وبين نفسه وصار يورد على نفسه آيات متشابهات؛ أو كان ذلك بالنسبة لعرض القرآن على غيره؛ فيقول للناس مثلًا: ما تقولون في كذا وكذا؟ ويأتي بالآيات المتشابهات بدون أن يحلَّها؛ ولهذا من الخطر العظيم أن تورد سواء للطلبة أو للعامة آيات متشابهة دون أن تبيِّن حلّ إشكالها؛ لأنَّك إذا فعلت هذا أوقعتهم في الحيرة والشك وصرت كمن ألقى الإنسان في بحر لا يستطيع الخلاص منه ولم تخلِّصه؛ وهذا يقع من بعض المتحذلقين من طلبة العلم أنه يورد الآيات المتشابهات ثم يقف ولا يبيِّن للناس وجه هذا التَّشابه فيوقع الناس في الحيرة وهو لا يشعر.

٧- أنَّ هؤلاء الذين يتَّبعون المتشابه تارةً يبتغون الفتنة وصد الناس عن دينهم ونزع الثقة من قلوبهم بالنسبة للقرآن؛ لقوله: {ابتغاء الفتنة} وتارةً يريدون بذلك أي بعرض هذا المتشابه أن يحرِّفوهم إلى المعنى الذي يريدون؛ وذلك لأنهم لو أرادوا أن يحرِّفوا المحكم ما قبلوا، ولكن يأتون بالمتشابه ليتمكَّنوا من تحريفه على ما يريدون؛ لأنه إذا كان تشابهًا فإن المخاطب الذي يخاطبونه يكون قد اشتبه عليه الأمر فيقبل ما جاءوا به من التحريف؛ وبهذا يزول الإشكال الذي قد يعرض الإنسان بقوله: {وابتغاء تأويله} لأن ابتغاء التأويل على الوجه المراد أمر مطلوب، وليس من شأن ذوي الزَّيغ، بل هو من شأن ذوي الإيمان؛ لكن ذوي الزَّيغ يأتون بهذا المتشابه من أجل أن يحرِّفوه على ما يريدون، لأنه ليس محكمًا واضحًا حتى يعارضهم الناس؛ لكنه متشابه فيحصل بذلك ما يريدون من التحريف.

مسألة

أنَّ كثيرًا من المتكلِّمين قالوا: إن آيات الصفات من المتشابه؛ وقالوا: إن المتشابه لا يعلم تأويله إلّا الله؛ فصارت النتيجة أن آيات الصفات لا يعرف معناها؛ ولهذا قالوا: إن قول الحق في آيات الصفات هو التفويض؛ انتبهوا للمعنى؛ فقولهم: إن الحق هو التفويض وأن لا تتكلَّم فيها بشيء ناتج عن هذين الأمرين: أولًا: أن آيات الصفات من المتشابه؛ وثانيًا: أن المتشابه لا يعلم تأويله إلَّا الله؛ فتكون النتيجة أن لا نخوض في معاني آيات الصفات لأنَّها من المتشابه، ولا يعلم تأويله إلَّا الله، وما لا يمكن الوصول إلى علمه، لا يجوز الخوض فيه، انتبه؛ ولكن نقول: إن هذا القول قول باطل؛ أولًا نقول: ماذا تعنون بالمتشابه؟ أو ماذا تعنون بالتشابه في آيات الصفات؟ إن قالوا: نريد اشتباه المعنى وهو الذي يريدونه؛ قلنا: هذا خطأ؛ لماذا؟ لأن معاني آيات الصفات واضحة معلومة وليس فيها اشتباه إطلاقًا؛ كما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء غير مجهول، بل هو معلوم، معلوم لكل أحد؛ استوى على العرش يعني علا عليه، ليس فيه إشكال. وإن أرادوا بالتَّشابه اشتباه الحقيقة والكيفية فهم صادقون، ولكنهم لا يريدون هذا؛ لأنَّهم لو قالوا: نحن نعلم المعنى، ونجهل الحقيقة والكيفية، قلنا: هذا مذهب

صحيح؛ لكن يقولون نحن نجهل المعنى والكيفية والحقيقة، ولهذا سمُّوا أهل التفويض وأهل التجهيل؛ لأنهم يقولون: كل آيات الصفات وأحاديثها غير معلومة لأحد، وأن قراءتنا بمنزلة قراءة الأعجمي للخطاب العربي، أو بمنزلة قراءة العربي للخطاب العجمي، أو بمنزلة قراءة الحروف الهجائية: ألف، باء، ثاء، إلى آخرها؛ هذا نظرهم بالنسبة لآيات الصفات، وهو نظر بلا شك خاطئ؛ كيف نعلم معنى آيات الوضوء، والصلاة وما أشبهها؟ وما لا يعدُّ شيئًا بالنسبة لصفات الله، ونجهل معاني آيات الصفات، وهي أولى بالعلم من غيره؟! فنقول: لو أردتم أنها لا تعرف الحقيقة التي عليها؛ قلنا: صدقتم؛ أما أن تقولوا: لا يعرف معناها، وأنها مجهولة فهذا خطأ؛ فصار الآن إذا قال قائل: هل آيات الصفات من المتشابه؟ نقول: لا يصح القول بالإطلاق لا نفيًا ولا إثباتًا؛ مع أنه يمرُّ بكم في كتب أصول الفقه إذا أرادوا أن يمثلوا بالمتشابه قالوا: مثل آيات الصفات؛ وهذا خطأ، هذا خطأ؛ لأنه لابدَّ من التَّفصيل؛ إذا أرادوا التشابه المعنوي، فهذا خطأ، بل هي من الآيات الواضحة المحكمة؛ وإن أرادوا اشتباه الحقيقة بأنَّنا لا نعلم كيفية هذه الصفات، ولا نحيط بها، فهذا حق؛ لكنهم لا يريدون هذا إنَّما يريدون الأول.

٨- فضيلة الرُّسوخ في العلم؛ ومعنى الرُّسوخ في العلم؛ الثبات فيه والتعمُّق فيه حتى نصل إلى جذوره؛ لقوله: {والرَّاسخون في العلم يقولون آمنَّا به}. ضد الرُّسوخ في العلم السَّطحية في العلم؛ وما أكثر السَّطحية اليوم فينا؛ أكثر الناس اليوم علومهم سطحية؛ ولهذا تجدهم إذا ألفوا أو كتبوا يكثرون من النقول؛ لأن ما عندهم حصيلة، قال فلان وقال فلان وقال فلان للسبب أنه ليس عندهم حصيلة علمية، لا يستطيع الإنسان أن يعبِّر لأنه ما عنده علم فيجعل نفسه في حل من الكلام؛ وإذا رجعت إلى أهل العلم، أهل العلم حقًّا، وجدت أنهم يتكلَّمون بالعلم من صدورهم بدون نقل؛ ولهذا تجد أحيانًا عباراتهم لا تخالف عبارات العلماء الآخرين؛ ومن أجلِّ وأوضح ما يكون، كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، تجد أنهم يتكلَّمون عن علم راسخ، وأمثالهم كثير، لكن القصد إن هذا من أوضح ما مرَّ بي؛ إنَّ الرُّسوخ في العلم يجعل الإنسان كأن العلم ينبع من القلب.

٩- أنَّه ينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون راسخًا في العلم، لا جامعًا كثيرًا منه؛ لأن العبرة الرُّسوخ في العلم؛ فإنَّ الإنسان إذا كان عنده رسوخ في العلم صار عنده ملكة يستطيع أن يقرب العلم بعضه من بعض ويقيس ما لم ينص عليه على ما نصَّ عليه، ويكون العلم لديه كالطبيعة الرَّاسخة.

١٠- أنَّ الرَّاسخين في العلم يعلمون أن الذي من عند الله لا يكون فيه تناقض؛ لقوله: {يقولون آمنَّا به كلٌّ من عند ربنا}.

١١- أن مقتضى الربوبية أن الله تعالى لا ينزل على عباده كتابًا يكون فيه اختلاف ليوقعهم في الشك والاشتباه؛ لقوله: {كلٌّ من عند ربنا} وما كان من عند الرب المعتني بعباده بربوبيته فلن يكون فيه شيء يتناقض ويختلف.

١٢- أنه لا يتذكَّر بهذا القرآن ولا بغيره إلَّا أصحاب العقول؛ لقوله: {وما يذَّكَّر إلَّا أولوا الألباب}.

١٣– أنَّه كلَّما ازداد الإنسان عقلًا ازداد تذكُّرًا بكلام الله عز وجل؛ وكلَّما نقص تذكُّره بالقرآن دلَّ على نقص عقله؛ لأنه إذا كان الله حصر التَّذكُّر بأولي الألباب فإنه يقتضي انتفاع هذا التَّذكُّر من ليس عنده لب.

١٤– أن العقل غير الذكاء؛ لأنَّنا نجد كثيرًا من الناس أذكياء ولكن لا يتذكَّرون بالقرآن؛ إذاً هؤلاء لا نسمِّيهم عقلاء؛ لكن الذي انتفى عنهم هو عقل التصرف والرشد؛ أما عقل الإدراك فهم يدركون؛ ولهذا تقوم عليهم الحجَّة.

١٥– أنَّ من القرآن ما لا يعلم تأويله إلَّا الله على قراءة الوقف {وما يعلم تأويله إلَّا الله}. فإن قال قائل: ما الفائدة في تنزيل شيء لا يعلم تأويله؟ قلنا الفائدة امتحان العباد بتأدُّبهم مع الله عز وجل؛ هل يحاولون أن يصلوا إلى شيء لا تدركه عقولهم، أو يقفون على حدود ما تدركه عقولهم؛ لأن من الناس من يذهب ويتجرَّأ على محاولة إدراك ما لا يصل إليه العقل؛ ومن الناس من يتأدَّب فيتواصل إلى أن يصل إلى مالا يبلغه العقل فيتوقَّف.

١٦– سعة علم الله عز وجل؛ لقوله: {وما يعلم تأويله إلَّا الله} على قراءة وقف.

١٧– أنَّ كلام الله عز وجل يختلف: منه محكم، ومنه متشابه، ومنه أمر، ومنه نهي، ومنه خبر، ومنه استخبار، إلى أنواع لا يحصيها إلَّا الله؛ خلافًا لمن قال: إن كلام الله نوع واحد، وأن اختلاف الصيغ أو السور لا يدلُّ على تنوُّعه واختلافه، مثل الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأنه شيء واحد، إن عبَّر عنه بالعربية صار قرآنًا، وإن عبَّر عنه بالعبرية صار توراةً، وإن عبَّر عنه بالسريانية صار إنجيلًا، وإن أتى بصيغة النهي صار نهيًا، وإن عبَّر عنه بصيغة الأمر صار أمرًا وهكذا، وإلَّا فهو شيء واحد؛ ولاشك أن هذا قول باطل يبطله العقل والسمع.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ {٨}

قال ابن العثيمين: والدُّعاء يصدر غالبًا بالرب لأنَّ الدُّعاء يتطلَّب الإجابة؛ والإجابة من الأفعال والأفعال علاقتها بالربوبية أكثر من علاقتها بالألوهية؛ ولهذا غالب الأدعية يأتي مصدَّرًا بالرب، ربنا؛ وقوله: {ربنا} هذه منصوبة بياء النداء المحذوفة؛ وأصل الكلام: (يا ربنا)، ولكن حذف الياء تخفيفًا وتيمُّنًا بالبداءة باسم الله عز وجل.

{ربَّنا لا تزغ قلوبنا} {لا تزغ}: هذه جملة دعائية وإن كانت بصيغة النهي لأن النهي لا يمكن أن يرد من المخلوق للخالق؛ إذ أن النهي طلب الكفِّ على وجه الاستعلاء ولا يمكن أن يطلب المخلوق من ربه أن يكفَّ على وجه الاستعلاء أبدًا؛ إذا وجّه الطلب من الأدنى إلى الأعلى سمِّيَ دعاءً؛ فلهذا نقول: {لا} دعائية ولا نقول: {لا} ناهية؛ لأنه لا نهي من المخلوق للخالق؛ {تزغ}: بمعنى تمل؛ ومنه (زاغت الشمس): أي مالت عن كبد السماء؛ {لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا}: أي لا تزغها عن الهداية بل إهدها هداية دلالة، وهداية توفيق.

وقوله: {لا تزغ قلوبنا} سلَّط الفعل على القلب؛ لأن القلب عليه مدار العمل؛ لقول النبي ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب([1]))، والقلب هو هذا الجزء المستقر في الصدر؛ لقول الله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} وفي هذه القلوب يكون العقل؛ لقوله تعالى: {أفلم يسيروا فتكون لهم قلوب يعقلون بها}، وبناءً على هذه الأدلَّة يتبيَّن أن العقل في القلب وليس في الدماغ.

والعلماء اختلفوا قديمًا وحديثًا هل العقل في الدماغ أو العقل في القلب؛ والذي دلَّ عليه القرآن أنه في القلب؛ والقرآن كلام الخالق، والخالق عز وجل أعلم بما خلق؛ فالعقل بالقلب؛ لكن عقل القلب هو عقل التصرف والتدبير ليس عقل الإدراك والتصور؛ فإن عقل الإدراك والتصور يكون في المخ؛ فالمخ يتصور ويعقل وهو بمنزلة السكرتير للقلب، يشرح ما يريد رفعه إلى القلب، ثم يرفعه إلى القلب ثم يصدر القلب الأوامر؛ والذي يبلغ الأوامر إلى الرَّعيَّة هو الدماغ، ولهذا تنشط العضلات بنشاط الدماغ فصارت المسألة سلسلة، الذي يتصور ويدرك وفيه عقل إدراك هو الدماغ؛ وأما عقل التصرف والتدبير والرشاد والفساد فهو عقل القلب؛ فالدماغ يتصور ويدرك الأشياء وينظر فيها ثم يرفعها مكتوبة ليوقع عليها القلب؛ ترد على القلب، والقلب يأمر وينهى، لكن القلب لا يباشر بنفسه، لأنه أعلى من أن يباشر مخاطبة هؤلاء الجنود؛ يرسل القضية إلى الدماغ مرة ثانية؛ والدماغ يوجه الأوامر ويقول: الملك يأمركم بكذا وكذا فتمتثل الأوامر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله))، وحينئذ يزول الإشكال وتجتمع الأدلَّة الحسية والشرعية؛ فالعقل الإدراكي محله الدماغ والعقل التصرف الإرشادي الذي به الإرشاد والفساد هو القلب. يقول الله عز وجل: {ربنا لا تزغ قلوبنا} فإذا استقامت القلوب ولم تمل استقامت الجوارح عقيدة وقولًا وعملًا.

قال الطبري: أنَّ الرَّاسخين في العلم يقولون: آمنَّا بما تشابه من آي كتاب الله، وأنَّه والمحكم من آية من تنزيل ربنا ووحيه.

ويقولون أيضًا: {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا}: يعني أنهم يقولون رغبةً منهم إلى ربهم في أن يصرف عنهم ما ابتلى به الذين زاغت قلوبهم من اتِّباع متشابه آي القرآن، ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله الذي لا يعلمه غيرُ الله، يا ربنا لا تجعلنا مثل هؤلاء الذين زاغت قلوبهم عن الحق فصدوا عن سبيلك، {لا تزغ قلوبنا}، لا تملها فتصرفها عن هُدَاك {بعد إذ هديتنا} له، فوفقتنا للإيمان بمحكم كتابك ومتشابهه.

قال ابن العثيمين: وقوله: {بعد إذ هديتنا} هذه الجملة لا يراد بها الافتخار وإنما يراد بها التوسل بالنِّعم السابقة إلى النعمة اللاحقة؛ فكأنهم يقولون: ربنا إنك مننت علينا بالهداية أولًا، فنسألك أن تمنَّ علينا بثبوت هذه الهداية فلا تزغنا؛ فيكون في هذا الدعاء ثناء على الله عز وجل بالهداية السابقة؛ ولو أنهم قالوا: {ربنا لا تزغ قلوبنا} كفى؛ لكن قالوا: {بعد إذ هديتنا} ليتوسَّلوا بنعمة الله السابقة إلى نعمه اللاحقة وليثنوا على الله عز وجل بنعمه السابقة وأنه عز وجل أهل للفضل والإنعام.

١- (قلت): البخاري ((٥٢)، ومسلم (٤١٧٨)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣١٩٣)..

{بعد إذ هديتنا} هداية الدلالة وهداية التوفيق؛ فالمؤمنون هداهم الله هداية التوفيق، وهداية الدلالة؛ هداية الدلالة أن بيَّن لهم الحق؛ وهداية التوفيق أن وفقهم لسلوك الحق؛ فمن الناس من يحرم الهداية الثانية؛ {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} يعني لا توفقه للهداية ولكن الله يهدي من يشاء؛ أما هداية الدلالة فلاشك أن الرسول ﷺ قد هدى الناس ودلَّهم: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم}.

{وهب لنا من لدنك رحمة} {هب}: بمعنى أعطي؛ والهبة هي العطاء بلا عوض وكمالها بلا منَّة؛ الإعطاء بلا عوض هبة وكمالها أن لا يصحبها منَّة؛ والله سبحانه وتعالى له المنَّة علينا كما قال الله تعالى: {بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان} والأمر هنا للدعاء؛ {وهب لنا}: أي أعطنا، {من لدنك}: أي من عندك؛ وأضافوا هذه الهبة إلى الله لئلَّا يكون لأحد عليهم منَّة سواه؛ هذا من وجه؛ ولأنها إذا كانت من عند الله وهو أكرم الأكرمين صارت هبة عظيمة؛ لأن العطاء على قدر المعطي؛ ولهذا قالوا: {هب لنا من لدنك}: أي هبة لا يُمنُّ بها علينا أحد سواك، وهبة عظيمة لأنها تأتي من عندك؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأبي بكر حين سأله أن يعلمه دعاء يدعوا به في صلاته قال: قل: ((اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلَّا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني([1]))).

قال الطبري: {وهب لنا} يا ربنا {من لدنك رحمة}: يعني من عندك رحمة، يعني بذلك: هب لنا من عندك توفيقًا وثباتًا للذي نحن عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه.

عن محمد بن جعفر بن الزبير: {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا}: أي لا تمل قلوبنا وإن ملنا بأحداثنا، {وهب لنا من لدنك رحمة]}.

قال ابن العثيمين: الرحمة صفة من صفات الله عز وجل؛ وتطلق على نعمه؛ لأنها من آثار رحمته كما قال الله تعالى: {وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته}، وقال الله للجنة: ((أنت رحمتي أرحم بك من أشاء([2])))، ومنه قول الله تعالى: {وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون}، فتطلق الرحمة على هذا وهذا؛ والرحمة المذكورة في هذه الآية: {هب لنا من لدنك رحمة} من النوع الثاني التي هي النِّعم، وهي من آثار رحمته؛ والرحمة يحصل بها المطلوب وينجوا بها الإنسان من المرهوب؛ فإن جمعت مع المغفرة صارت بالرحمة حصول المطلوب وبالمغفرة النجاة من المرهوب.

قال الطبري: وفي مدح الله جل ثناؤه هؤلاء القوم بما مدحهم به من رغبتهم إليه في أن لا يزيغ قلوبهم، وأن يعطيهم رحمةً منه معونةً لهم للثَّبات على ما هُم عليه من حسن البصيرة بالحق الذي هم عليه مقيمون، ما أبان عن خطأ قول الجهَلة من

١- (قلت): البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥). وصححه الإمام الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٣٨٣٥.

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦). وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٨٥)، والحديث بتمامه: ((تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ رِجْلَهُ. تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنشئ لَهَا خلقا)).

القدَرية، أن إزاغة الله قلب من أزاغ قلبه من عباده عن طاعته، وإمالته له عنها، جَوْرٌ، لأن ذلك لو كان كما قالوا، لكان الذين قالوا: {ربنا لا تزغ قلوبنا بعدَ إذ هدَيتنا}، بالذَّم أولى منهم بالمدح، لأن القول لو كان كما قالوا، لكان القوم إنما سألوا ربَّهم مسألتهم إيَّاه أن لا يزيغ قلوبهم، أن لا يظلمهم ولا يجورَ عليهم، وذلك من السائل جهلٌ، لأن الله جل ثناؤه لا يظلم عبادَه ولا يجور عليهم، وقد أعلم عبادَه ذلك، ونَفاه عن نفسه بقوله: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ}[فصلت: ٤٦]. ولا وجه لمسألته أن يكون بالصفة التي قد أخبرهم أنه بها، وفي فساد ما قالوا من ذلك، الدليلُ الواضح على أنَّ عدلًا من الله عز وجل إزاغةُ من أزاغَ قلبه من عباده عن طاعته، فلذلك استحقَّ المدحَ مَنْ رغب إليه في أن لا يزيغه، لتوجيهه الرغبة إلى أهلها، ووضعه مسألته موضعها، مع تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ برغبته إلى ربه في ذلك، مع محلِّه منه، وكرامته عليه.

حدثنا أبو كريب قال، حدثنا وكيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: ((يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك! ثم قرأ: {ربنا لا تُزغ قُلوبنا بعدَ إذ هديتنا}، إلى آخر الآية(١))).

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَرَجِ الْمُظَفَّرُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ التَّمِيمِيُّ، أَنَا أَبُو الْقَاسِمِ حَمْزَةُ بْنُ يُوسُفَ السَّهْمِيُّ أَنَا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيٍّ الْحَافِظُ، أَنَا أَبُو بكر عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ الْقُرَشِيُّ، يُعْرَفُ بِابْنِ الرَّوَّاسِ الْكَبِيرِ بِدِمَشْقَ، أَنَا أَبُو مُسْهِرٍ عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ مُسْهِرٍ الْغَسَّانِيُّ أَنَا صَدَقَةُ، أنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جابر حدّثني بسر بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ يَقُولُ: حَدَّثَنِي النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ الْكِلَابِيُّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابع الرحمن، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ، وإن شاء أن يقيمه أقامه))، قال: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ يَا مقلّب القلوب ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ. وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ قَوْمًا وَيَضَعُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٢))).

أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْحِيرِيُّ أَنَا حَاجِبُ بْنُ أَحْمَدَ الطُّوسِيُّ أَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ مُنِيبٍ أَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَنَا سَعِيدُ بْنُ إِيَاسٍ الْجُرَيْرِيُّ عَنْ غُنَيْمِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

١- هذا إسناد صحيح.

- (قلت): صححه الإمام الألباني في ظلال الجنة (٢٢٣).

٢- حديث صحيح. إسناده صحيح على شرط البخاري، عبد الأعلى فمن فوقه رجال البخاري ومسلم غير صدقة، فإنه من رجال البخاري، ومن دون عبد الأعلى توبعوا، صدقة هو ابن خالد الأموي الدمشقي، أبو إدريس هو عَائِذُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ.

- وهو في شرح السنة بإثر رقم: (٨٨) بهذا الإسناد.

- وأخرجه ابن ماجه ١٩٩ وابن أبي عاصم في «السنة» (٢١٩) من طريق صدقة بن خالد بهذا الإسناد.

- وأخرجه ابن منده في التوحيد (٥١١) والبغوي في شرح السنة (٨٨) من طريق الوليد بن مسلم قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يزيد.... فذكره بهذا الإسناد.

- وأخرجه النسائي في الكبرى (٧٧٣٨) وأحمد ٤/ ١٨٢ والآجري في الشريعة ص (٣١٧) وابن حبان ٩٤٣ والحاكم ٢/ ٢٨٩ وابن منده ٥١١ من طريق عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جابر به. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح اهـ.

- ومن وجه آخر، أخرجه ابن منده في التوحيد (٥١٢) من حديث النواس وقال: هذا إسناد متصل صحيح اهـ. وله شواهد.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَثَلُ الْقَلْبِ كَرِيشَةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ تقلّبها الرياح ظهرًا لبطن[١])).

قال القرطبي: {وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً}: أي من عندك ومن قبلك تفضُّلًا لا عن سبب منَّا ولا عمل. وفي هذا استسلام وتطارح.

قال السعدي: {وهب لنا من لدنك رحمة}: أي عظيمة توفِّقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات {إنك أنت الوهَّاب}: أي واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عمَّ جودك جميع البريَّات.

قال شيخ الإسلام في مختصر الفتاوى المصرية ص١٠٣: فَللهِ رَحْمَة قد عَمَّت الْخلق برَّهم وفاجرهم سعيدهم وشقيَّهم ثمَّ لَهُ رَحْمَة خص بهَا الْمُؤمنِينَ خَاصَّة وَهِي رَحْمَة الْإِيمَان ثمَّ لَهُ رَحْمَة خصَّ بهَا الْمُتَّقِينَ وَهِي رَحْمَة الطَّاعَة لله تَعَالَى وَللَّه رَحْمَة خص بهَا الْأَوْلِيَاء نالوا بهَا الْوَلَايَة وَله رَحْمَة خص بهَا الْأَنْبِيَاء ونالوا بهَا النُّبُوَّة وَقَالَ الراسخون فِي الْعلم: {وهب لنا من لَدُنْك رَحْمَة} فَسَأَلُوهُ رَحْمَة من عِنْده.

قال ابن العثيمين: وقوله: {إنك أنت الوهَّاب}؛ الجملة هنا استئنافية للتعليل والتوسل: يعني أننا إنما طلبنا منك الهبة، هبة رحمة، لأنك أنت الوهاب؛ والوهاب يعني كثيرة الهبة؛ يصح أن تكون للنسبة ويصح أن تكون للمبالغة؛ ويمكن أن نقول إنها للأمرين جميعًا؛ فهو الوهاب يعني كثير العطاء؛ وهذه صفة لازمة له؛ والذين يعطيهم الله كثيرون لا يحصون؛ قال النبي ﷺ: ((يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ[٢]))، وقال الله في الحديث القدسي: ((يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلَّا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر[٣]))، وهل ينقص في البحر شيئًا؟ لا؛ فالله عز وجل لا يحصي أحد هباته أبدًا حتى بالنسبة لك أنت بنفسك لا تحصي هبات الله لك {وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها}.

١- حديث صحيح. عبد الرحيم بن منيب لم أجد من ترجمه إلا أنه ذكر بأنه ممن روى عنهم حاجب بن أحمد الطوسي كما تقدم، وبكل حال، فقد توبع هو ومن دونه، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم غير غنيم، فإنه من رجال مسلم.

- وهو في شرح السنة (٨٦) بهذا الإسناد.

- وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٣) عن حاجب بن أحمد بهذا الإسناد.

- وأخرجه أحمد ٤/ ٤١٩ وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٧) من طريق آخر عن يزيد بن هارون به، وهذا إسناده صحيح على شرط مسلم.

- وأخرجه ابن ماجه ٨٨ وابن أبي عاصم ٢٢٨ من طريق يزيد الرقاشي عن غنيم بن قيس به.

- وأخرجه أحمد ١٩١٦٣ والبيهقي ٧٥٢ من طريق عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، عَنِ عاصم الأحول، عن أبي كبشة، عن أبي موسى به. وصدره عند أحمد ((مثل الجليس الصالح ...)) وعند البيهقي ((إنما سمي القلب من تقلبه ...)) وحسّن إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ٤٦).

- وله شاهد من حديث أنس أخرجه البزار (٤٤) والقضاعي في مسند الشهاب (١٣٦٩) والبيهقي ٧٥١ من طريق أبي بكر بْنُ عَيَّاشٍ عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أبي سفيان عنه. وإسناده ضعيف. لكن يصلح شاهدا لما قبله، وفي الباب أحاديث.

٢- (قلت): (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣). وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٩٢).

٣- (قلت): مسلم (٦٧٣٧).

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {الوهَّاب}:

فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في النصوص القرآنية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه، في قوله تعالى: {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[آل عمران: ٨]، وفي قوله: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ}[صّ: ٩]، وفي قوله عن دعاء سليمان: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[صّ: ٣٥].

وفي صحيح البخاري كتاب الصلاة من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: {رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي}(١)))، قَالَ رَوْحٌ فَرَدَّهُ خَاسِئًا.

و{الوهَّاب} في اللغة صيغة مبالغة على وزن فعال من الواهب وهو المعطي للهبة، فعله: (وهب، يهب، وهبا، وهبة)، والهبة عطاء الشيء بلا عوض، والله وهاب يعطي بلا عوض ولا مقابل، {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[الشورى: ٥٠]، وينبغي أن يعلم أن عطاء الله في الدنيا ابتلاء وفي الآخرة إنعام وجزاء، فعطاؤه علَّقه في الدنيا بمشيئته ابتلاءً للناس بحكمته، ليتعلَّق العبد بربه في الدعاء والطلب والرَّجاء كما قال تعالى عن زكريا: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً}[مريم: ٥]، {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً}[الفرقان: ٧٤]، فالله عز وجل من أسمائه الحسنى {الوهَّاب} ومن صفاته أنه يهب ما يشاء لمن يشاء وكيفما يشاء: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}[الشورى: ٤٩]، فالعبد إن أعطاه شكر وإن منعه صبر وازداد في التَّقوى والدعاء توحيد لله في اسمه {الوهَّاب} وتعلُّقًا بتحقيق ما يشاء، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}[إبراهيم: ٣٩]، وقال عن زكريا لمَّا دعاه: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[الأنبياء: ٩٠]، ولا يجب على الله شيء فما يعطيه لعباده ظاهرًا وباطنًا ودنيويًّا وأخرويًّا، هي نِعَمٌ وهبات وهي من الكثرة بحيث لا تحصيها الحسابات: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[النحل: ١٨].

ونعم الله كامنة في الأنفس وفي سائر المخلوقات، تراها ظاهرة بادية في سائر الآيات، نعم وعطاء وجود وهبات أنعم بها المتوحِّد في اسمه {الوهَّاب} سبحانه وتعالى، {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[صّ:٣٠]، {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}[الأنعام: ٨٤]، هو الوهَّاب الذي يهب النِّعم لمن يشاء من خلقه {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ

١- (قلت): البخاري (٤٨٠٨) واللفظ له، ومسلم (٥٤١).

عَلِيّاً}[مريم: ٥٠]، {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً}[مريم: ٥٣]، {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ}[الأنبياء: ٧٢].

واسم الله {الوهّاب} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة العطاء والهبة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتَّضمُّن، وصفة العطاء والهبة وحدها بدلالة التَّضمُّن، ويدلُّ باللُّزوم على الحياة والقيومية، والعلم والقدرة، والصمدية الأحدية، والغنى والعزة، والجلال والقوة، والملك والعظمة، واسم الله {الوهَّاب} دلَّ على صفة من صفات الفعل.

كيف ندعو الله باسمه {الوهَّاب} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة (كما ورد في الآية([١]))، أما دعاء العبادة فهو أثر الإيمان بالاسم وتوحيد الله فيه بأن يتَّصف العبد بالكرم والعطاء، كما ورد عند البخاري كتاب الحيل عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ، لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ([٢]))). وفي سنن أبي داود والنسائي وصححه الشيخ الألباني، قال: ((لاَ يَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَهَبَ هِبَةً ثُمَّ يَرْجِعَ فِيهَا إِلاَّ مِنْ وَلَدِهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ يَأْكُلُ ثُمَّ يَقيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ([٣]))). وعند البخاري من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قَالَتْ: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ([٤]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين من فوائد الآية: ١- مشروعية الدعاء بهذه الصيغة لأنه دعاء الرَّاسخين في العلم وأولي الألباب.

٢- مشروعية تصدير الدعاء باسم الرب {ربنا}.

٣- أنَّ الإنسان لا يملك قلبه؛ ولهذا تسأل الله أن لا يزيغ قلبك؛ فلا تغتر بنفسك أنك مؤمن؛ فكم من إنسان مؤمن زل والعياذ بالله، ولكن اسأل الله دائما أن يثبتك وأن لا يزيغ قلبك؛ وقد أخبر النبي ﷺ: ((أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أزاغها وإن شاء هداها([٥]))، يصرفها كيف يشاء.

١- (قلت): ما بين القوسين من قولي، لأنني حذفت الحديثين الذين استشهد بهما المؤلف لضعفهما.

٢- (قلت): البخاري (٦٩٧٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٢).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٣٦٩٢) بما قبله. والحديث الذي قبله: عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: ((العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه)).

٤- (قلت): البخاري (٢٦٨٨).

٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١٩٩)، وصحيح الظلال (٢١٩ و ٢٣٠ و ٥٥٢) ، والصحيحة (٢٠٩١). والحديث بتمامه: ((ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه وكان رسول الله ﷺ يقول يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك قال والميزان بيد الرحمن يرفع أقوامًا ويخفض آخرين إلى يوم القيامة)).

٤- الدِّلالة على أنَّ في صلاح القلب صلاح جميع الجسد؛ لأنَّهم قالوا: {ربَّنا لا تزغ قلوبنا}.
٥- أنَّ للقلب حالين: حال استقامة؛ وحال الزَّيغ؛ والإنسان مضطر إلى أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يزيغ قلبه حتى يكون مستقيمًا.
٦- التَّوسُّل إلى الله تعالى بِنعمه؛ لقولهم: {بعد إذ هديتنا}. وهذا داخل في قوله تعالى: {وأمَّا بنعمة ربك فحدِّث}.
٧- أنَّ التَّخلية تكون قبل التَّحلية؛ يعني يفرغ الطريق من الشوائب والأذى ثم يطهَّر؛ يؤخذ من {ربنا لا تزغ قلوبنا} ثم قال: {وهب لنا من لدنك رحمة}.
٨- أنَّ الإنسان مضطرٌّ إلى ربه في الدَّفع والرَّفع، وإن شئت فقل: في الجلب والدَّفع؛ لأنَّهم سألوا أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وسألوا أن يهب لهم منه رحمة؛ فدعائهم أن لا يزيغ قلوبهم هذا دعاء بالدفع يعني: هب لنا من لدنك رحمة ندفع بها السوء ولا تزغ قلوبنا ترفع عنا الهداية بعد أن اهتدينا.
٩- أنَّ العطاء يكون على قدر المعطي؛ لقوله: {وهب لنا من لدنك رحمة}. ويمكن أن نقول: إن هذا من باب التوسل بصفات الله عز وجل.
١٠- التَّوسُّل بأسماء الله؛ لقوله: {إنَّك أنت الوهَّاب} فإنَّ من مقتضى كونه وهَّابًا أن يهب لنا من لدنه رحمة.
١١- أنَّ الإنسان مفتقر إلى رحمة الله عز وجل؛ ولهذا سأل الله أن يهب له من لدنه رحمة.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ {٩}

قال الطبري: أنَّهم يقولون أيضًا مع قولهم: آمنَّا بما تشابه من آي كتاب ربنا كل المحكم والمتشابه الذي فيه من عند ربنا: يا ربنا، إنَّك جامعُ الناس ليومٍ لا ريب فيه إنَّ الله لا يخلف الميعاد.
وهذا من الكلام الذي استغنى بذكر ما ذكر منه عمَّا ترك ذكره. وذلك أن معنى الكلام: ربنا إنك جامع الناس ليوم القيامة، فاغفر لنا يومئذ واعف عنا، فإنَّك لا تخلف وَعْدك، أنَّ من آمن بك، واتَّبع رَسُولك، وعمل بالذي أمرتَه به في كتابك، أنَّك غافره يومئذ. وإنَّما هذا من القوم مسألة ربَّهم أن يثبّتهم على ما هم عليه من حُسن بَصيرتهم بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يقبضهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم، فإنه إذا فعل ذلك بهم، وجبتْ لهم الجنة، لأنه قد وعد من فعل ذلك به من عباده أنه يُدخله الجنة. فالآية، وإن كانت قد خرجت مخرج الخبر، فإن تأويلَها من القوم: مسألةٌ ودعاءٌ ورغبة إلى ربهم. وأمَّا معنى قوله: {ليوم لا ريب فيه}، فإنَّه: لا شكَّ فيه.

قال ابن العثيمين: يجمعهم لهذا الوقت؛ فاللام هنا للتوقيت؛ فهي كقوله: {أقم الصلاة لدلوك الشمس}: أي وقت دلوكها، أو كقوله: {إذا طلقتم الناس فطلقوهن لعدَّتهن}: أي وقت عدَّتهن؛ فالله تعالى جامع الناس لهذا الوقت، {ليوم لاريب فيه}: أي لاشك؛ ولكنَّ الرَيب أبلغ من الشك وإن كان معناهما متقاربًا؛ لأن الرَّيب فيه زيادة قلق واضطراب مع الشك؛ والشك خال من ذلك؛ ولهذا جاءت كلمة ريب الدالَّة لمفهومها اللفظي على أن هناك نوعًا من القلق والاضطراب الحاصل بالشك؛ لأن من الشكوك ما لا يولد همًّا ولا غمًّا ولا اضطرابًا ولا يهتم به الإنسان؛ ومن الشكوك ما يهتم به الإنسان ويضطرب ويقلق مثل هذه الأمور العظيمة الواردة في الأخبار باليوم الآخر فإن الإنسان لابدَّ أن يطمئن اطمئنانًا كاملًا.

وقوله: {لاريب فيه} إعرابها: أن {لا} نافية للجنس؛ و{ريب} اسمها؛ وفيه جار ومجرور متعلِّق بمحذوف خبره {إن الله لا يخلف الميعاد}. الجملة تأكيد لما سبق من كونه تعالى جامع الناس ليوم لاريب فيه؛ في هذه الآية يقول الله عن هذه السادة: إنهم بعد أن يدعوا الله بما سبق يخبر هذا الخبر المعبر عن إيمانهم ويقينهم بأنهم يؤمنون بأن الله جامع الناس ليوم لاريب فيه ومن ثم دعوا الله بأن لا يزيغ قلوبهم وأن يهب لهم منه رحمة؛ لأنهم يؤمنون بأن هناك يومًا يجمع الله فيه الناس ليجازيهم بأعمالهم؛ فيقول الله عز وجل مخبرًا عن هؤلاء: إنَّهم يقرُّون بهذا اليوم الآخر، وأن الله تعالى سيجمع الناس أوَّلهم وآخرهم كما قال تعالى: {قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم}، وقال تعالى: {ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود}، ما أكثر الناس الذين سبقونا؛ وما أكثر الناس يلحقوا بنا والله أعلم؛ ومع هذا كل الناس سوف يجمعون في صعيد واحد يسمعهم الدَّاعي وينفذهم البصر؛ يسمعهم الدَّاعي لأنه لا يحول بينهم وبين صوته لا شجر ولا جدار ولا جبال ولا أودية؛ وكذلك ينفذهم البصر لأنهم في أرض مبسوطة غير كروية فيكون البصر يرى أقصاهم مثل ما يرى أدناهم؛ وهذا ظاهر أنه إذا كانت الأرض كلها مبسوطة البسط الأديم كما أخبر بذلك النبي ﷺ فإن أقصاها سيكون مثل أقصاها؛ لكن على شكلها الحاضر كروية، كلَّما بعد الشيء اختفى عنك منه جزء فيختفي عنك الجزء الأسفل، ثم لا يزال يختفي شيئًا فشيئًا حتى لا تراه؛ فالله تعالى يجمع الناس كلهم في ذلك اليوم من أولهم إلى آخرهم. وكذلك يجمع الجن؛ ويجمع الوحوش والبهائم: {وإذا الوحوش حشرت وإذا العشار عطلت} والملائكة؛ {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلَّمون} {وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا} إذًا هذا اليوم يوم عظيم، يوم عظيم كل عاقل سوف يأمن الله، سوف يسأله الله تعالى أن يقيه شر ذلك اليوم؛ {ليوم لاريب فيه} لاشك فيه، لا يرتاب فيه المؤمن؛ لأنَّه دلَّ عليه السمع، ودلَّ عليه العقل، ودلَّت عليه الفطرة؛ ونقول: دلَّ عليه إجماع المسلمين، واليهود، والنصارى وكل متديِّن بدين؛ فلا أدلَّة تجتمع على هذا الاجتماع على مثل الإيمان باليوم الآخر؛ ولهذا قال: {لاريب فيه}؛ دلَّ عليه الكتاب في عدَّة آيات لا تحصى، ودلَّت عليه السنة أيضًا بأحاديث كثيرة لا تحصى، ودلَّ عليه العقل؛ ليس دلَّ على إمكانه بل دلَّ على وجوبه وهذا هو المراد هنا؛ {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} إن الذي فرض عليك القرآن وأوجبه عليك لابدَّ أن يردك إلى معاد فلا يمكن أن يدعك سدًى؛ إذ ما الفائدة في قرآن ينزل، ورسل ترسل، ودماء تراق للمخالفين والنتيجة لا شيء؛ إذًا لا فائدة، فلابدَّ من يوم يجازى فيه الناس

على هذه الأعمال؛ فالعقل يدلُّ على أنه لابدَّ من أن نحشر إلى الله عز وجل، وأن نجازى بعملنا، وأن لا يمكن أن تفرق السموات والأرض ويرسل الرسل وتنزل الكتب ويكون النتيجة والغاية أن نرمس في الأرض ولا نعود؛ لابد من عودة؛ ولهذا نقول إن العقل دل على وجود اليوم الآخر ووقوعه وأنه لابد واقع؛ ودل عليه أيضا الفطرة، فإن الإنسان لو ترك وفطرته لعلم أن له ربا يجازيه، وأن الجزاء يكون في الآخرة ويكون في الدنيا؛ ودل عليه الإجماع، إجماع المسلمين أمر متواصل معلوم بالضرورة من الدين بل هو إجماع اليهود والنصارى، حتى اليهود والنصارى يؤمنون باليوم الآخر؛ ولهذا إلى يومنا هذا إذا مات منهم ميت يصلون عليه ويدعون به بالرحمة والمغفرة لأنهم يؤمنون بيوم الحساب؛ لكن على كل حال هم آمنوا وحرموا فائدة الإيمان، فلم يؤمنوا برسول الله ﷺ فكان إيمانهم بهذا اليوم حجة عليهم وليس حجة لهم.

{إنَّ الله لا يخلف الميعاد} هذه الجملة موقعها ممَّا قبلها للتأكيد، تأكيد وقوع ذلك اليوم؛ وجه ذلك: أن الله وعد به وهو لا يخلف الميعاد؛ أي لا يخلف ما وعد به عز وجل من وقوع هذا اليوم؛ وهذه الجملة أيضًا إذا تأمَّلتها وجدتها أنَّها تخالف ما قبلها في السياق؛ لأن ما قبلها السياق فيه للمخاطب {ربَّنا إنَّك جامع الناس ليوم لاريب فيه}، وأمَّا فيها السياق فيها للغائب {إنَّ الله لا يخلف الميعاد} ولم يقل: (إنَّك لا تخلف الميعاد) فهل هذا من باب الالتفات؟ والكلام من متكلِّم واحد، أو هذا من باب الاستئناف، وهو من الله، لا من قول الرَّاسخين في العلم؟ على قولين للمفسِّرين؛ فمنهم من قال: إن قوله: {إن الله لا يخلف الميعاد} من كلام الله وليس فيه التفات على هذا التقدير؛ ومنهم من قال: إنه من كلام الرَّاسخين في العلم؛ وعلى هذا التقدير يكون فيه التفات؛ ولكل منهما مرجِّح؛ فمن رجَّح الأول قال: إن الالتفات خروج بالكلام عن المألوف والأصل عدمه؛ وعليه فيكون الكلام من كلام الله؛ ومن قال: إنه من كلام الرَّاسخين وفيه التفات قال: لأن الأصل أن الكلام من متكلِّم واحد لاسيَّما وأن بعضه مرتبط ببعض {إنك جامع الناس} (إنَّك لا تخلف الميعاد) فهو مرتبط بعضه ببعض؛ وهذا القول عند التأمُّل أرجح؛ ويكون فائدة الالتفات أولًا تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا كان الكلام على نسق واحد بقي الإنسان منسجمًا معه لا يتفطَّن وتمر به الأشياء وهو ماشي؛ فإذا اختلف أسلوب الكلام وتغيَّر عليه الأسلوب فحينئذ ينتبه، فيكون فيه فائدة تنبيه المخاطب؛ أمَّا من حيث المعنى فلأن مجيئه بصيغة الغائب أبلغ في التعظيم؛ لأن الرب عز وجل الذي هو الله، ملك عظيم سبحانه وتعالى، يتحدَّث عنه بصيغة الغائب تفخيمًا وتعظيمًا، كما يقول الملك الذي يعظم نفسه للجنود: إن الملك يأمركم بكذا وكذا؛ أو يقول القائد: إن القائد يأمركم بكذا وكذا بدلًا أن يقول: إني آمركم؛ وعلى كل تقدير فالصفة هنا من باب الصفات السلبية؛ لأنَّها صفة نهي؛ وقد مرَّ علينا أنه لا يوجد في صفات الله صفة سلبية محضة، وأنَّ النفي الموجودة في صفة الله متضمِّن لثبوت كمال ضده، وأنَّه لكمال ضده لا يوجد هذا الشيء؛ فهنا {لا يخلف الميعاد} ضد عدم إخلاف الميعاد. ما هو إخلاف الميعاد؟ إخلاف الميعاد إمَّا يكون لكذب الواعد، وإمَّا لعجزه؛ كل من وعدك فأخلفك فهو لأحد أمرين: إمَّا لأنه كذوب يَعِد فيخلِف؛ وإمَّا لأنَّه عاجز. إذًا انتفاء إخلاف الله الميعاد لكمال صدقه، وكمال قدرته عز وجل، فلكمال صدقه

وكمال قدرته لا يخلف الميعاد؛ وهذه الجملة كالتأكيد لما سبق {ربَّنا إنَّك جامع الناس ليوم لاريب فيه} لأنَّك لا تخلف الميعاد، ومن لا يخلف الميعاد فلابدَّ أن ينجز ما وعد ويحقِّقه.

قال السعدي: ربَّنا إنَّك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنَّك لا تخلف الميعاد فمجازيهم بأعمالهم حسنها وسيِّئها، وقد أثنى الله تعالى على الرَّاسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد:

إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبيِّن لأحكامه وشرائعه.

الثانية: الرُّسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرَّد العلم، فإن الرَّاسخ في العلم يقتضي أن يكون عالمًا محقِّقًا، وعارفًا مدقِّقًا، قد علَّمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علمًا وحالًا وعملًا.

الثالثة: أنَّه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه، وردُّ لمتشابهه إلى محكمه، بقوله: {يقولون آمنا به كل من عند ربنا}.

الرابعة: أنَّهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون.

الخامسة: اعترافهم بمنَّة الله عليهم بالهداية وذلك قوله: {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا}.

السادسة: أنَّهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسَّلوا إليه باسمه الوهَّاب.

السابعة: أنَّه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرَّادع عن الزلل.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ يوم القيمة آتٍ لاريب فيه؛ لقوله: {ليوم لاريب فيه}.

٢- تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بجمع الناس كلهم في هذا اليوم؛ ومع هذا فإن هذا الجمع لا يحتاج إلى مدَّة {فإنَّما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة}.

٣- حكمة الله عز وجل في جمع الناس لهذا اليوم؛ لأن هذا الجمع له ما بعده وهو جزاء كل عامل بما عمل كما قال تعالى: {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير}، إذًا فهذا الجمع لحكمة وهو: جزاء العامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

٤- أنَّه يجب علينا أن نؤمن إيمانًا لاشكَّ فيه بهذا اليوم؛ فإن شك أحد أو أنكر فليس بمؤمن فهو كافر؛ والناس في هذا المقام أربعة أقسام: مؤمن إيمانًا لاريب فيه؛ وشاك؛ وكافر منكر؛ وكافر مجادل؛ يعني مع كونه منكرًا، يجادل ويخاصم؛ كفار قريش من أي الأنواع؟ من النوع الرابع، المنكر المجادل؛ ومن الناس من هو منكر لا يجادل لكنَّه في نفسه منكر، ما صدَّق؛ ومن الناس من هو متردِّد شاك؛ ومن الناس من هو مؤمن إيمانًا يقينيًّا كأنه رأي العين في قلبه.

٥- انتفاء صفة خلف الوعد عن الله عز وجل؛ لقوله: {إن الله لا يخلف الميعاد} وانتفاء هذه الصفة يتضمَّن كماله في شيئين وهما: الصدق والقدرة؛ فلكمال صدق الله عز وجل ولكمال قدرته لا يخلف الميعاد بل لابدَّ أن يقع ما وعد به.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ {١٠} كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ {١١}

قال ابن العثيمين: ثمَّ قال عز وجل مبيِّنًا حال الكفار في ذلك اليوم فقال: {إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا وأولئك هم وقود النار}، {إن الذين كفروا}: أي كفروا بما يجب الإيمان به، فكفروا بالله، أو باليوم الآخر، أو بالملائكة، أو بالكتاب، أو بالنبيِّين، أو بالقدر؛ إذا كفروا بأيِّ واحدٍ من هذه الأشياء الستة فهم كفار، كفار لأن الإيمان لا يتبعض كما قال الله تعالى: {ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلًا أولئك هم الكافرون حقًّا}، وقال الله تعالى: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلَّا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيمة يردون إلى أشدِّ العذاب}، فالذين كفروا بما يجب الإيمان به وهي الأركان الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ جوابًا لجبريل حين سأله عن الإيمان؟ فقال: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره([١]))؛ اذا كفر بواحد منها فهو كافر. الكفار لهم أموال، ولهم أولاد، وربما يؤتيهم الله من الأموال والأولاد أكثر مما يعطي المؤمنين، فهل ينتفعون بهذا؟ يقول الله عز وجل: {لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا}، {تغني}: لها معنيان: تمنع أو تدفع؛ فهؤلاء الأموال والأولاد لا يمنعون عن هؤلاء الكفار شيئًا، ولا يدفعون عنهم شيئًا؛ فهم إن وقع بهم شيء من عذاب الله، ما استطاع هؤلاء الأولاد أو هذه الأموال أن ترفعهم؛ وإن قضى الله عليهم بشيء لم يستطيعوا أن يمنعوه ويدفعوه؛ إذًا {لن تغني}: لم تمنع، ولم تدفع، ولم ترفع، {أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا}: لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا تجد الواحد منهم عنده من الأموال العظيمة الكثيرة شيءٌ كثير، ولكن لو جاءه ملك الموت، ما منعته هذه الأموال؛ عنده من الأولاد والحشم والخدم الشيء الكثير ولا تغني عنه شيئًا. و{أولادهم}: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين}.

{وأولئك هم وقود النار}، {أولاء}: مبتدأ؛ و{هم}: مبتدأ ثاني أو ضمير فصل؛ {وقود}: خبر إمَّا للمبتدأ الثاني وإمَّا للمبتدأ الأول؛ فإن جعلت {هم} مبتدأ ثاني ف{وقود} خبر للمبتدأ الثاني، وإن جعلت {هم} ضمير فصل ف{وقود} خبر للمبتدأ الأول؛ وال{وَقود}: بفتح الواو ما يوقد به كالطهور ما يتطهَّر به.

١- (قلت): مسلم (٨).

وهنا يقول: {وقود}: يعني ما توقد به النار مثل الحطب، الحطب وقود النار؛ هؤلاء الكفار هم وقود النار؛ ولها وقود آخر وهي الحجارة كما قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا وقودها الناس والحجارة}، فهؤلاء وقود النار؛ وإذا كانوا والعياذ بالله وقودها فإنها تَتَسعَّر بهم، أو تُسْعَر بهم، وهي في نفس الوقت تحرقهم. نسأل الله العافية.

قال: {وقود النار}: والنار اسم من أسماء جهنم، وهي الدار التي أعدَّها الله تعالى للمكذِّبين لرسلهم، وحرُّها شديد، وفيها زمهرير برده شديد، قال النبي ﷺ عن حرِّها: ((إنَّها فضِّلت على ناركم هذه بتسعة وستين جزءًا([1])))، كم يكون مقدارها؟ سبعين يعني بالإضافة إلى نار الدنيا تكون أشدُّ منها فتكون مثلها سبعين مرة.

قال أبو زهرة: والجملة السامية: {وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} دالَّة على عقابهم الشديد يوم القيامة. وقد أكَّد الخبر بثلاثة مؤكِّدات:

أوَّلها: الإشارة إلى البعيد بـ{وَأُوْلَئِكَ} الدالَّة على غلوِّهم في الكفر، وإيغالهم فيه، وكلَّما قوى السبب قوى المسبَّب، وكلَّما اشتدَّت الجريمة اشتدَّ العقاب، فهي مَثُلَةٌ للجزاء.

وثانيها: ذكر ضمير الفصل {هم}، فهو يؤكِّد، إذ فيه تكرار لذكر الموضوع الذي يَرِد عليه الحكم، وكل تكرار فيه تأكيد فوق ما يدلُّ عليه من الاختصاص.

وثالثها: التَّعبير عن العقوبة النارية التي تنزل بهم، بأنَّهم يكونون وقود النار؛ فإن الوَقُودَ هو الحطب الذي تُحرَق به النار، وأصله من وقدت النار تقد إذا اشتعلت، والمصدر الوُقود، وبالفتح ما يكون به الاتقاد والاشتعال. والمعنى على هذا أن الكافرين يكونون وقود النار؛ أي أن النار يشتدُّ اشتعالها فيهم حتى كأنَّهم هم مادَّتها التي بها تتَّقد وتشتعل.

قال السعدي: يخبر تعالى أنَّ الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقُّوا العقاب وشدَّة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنَّه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئًا، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النَّكبات التي ترد عليهم، ويقولون {نحن أكثر أموالًا وأولادًا وما نحن بمعذَّبين} فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون {وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون} وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنَّما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلَّا من آمن وعمل صالحًا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون} وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائمًا أبدًا، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئًا، سنَّته الجارية في الأمم السابقة.

١- (قلت): الحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ))، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: ((فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ. وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: ((نَارُكُمُ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ)). وَفِيهَا: ((عَلَيْهَا)) و((كلها)) بدل ((عَلَيْهِنَّ))، و((كُلُّهنَّ))، وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٥٦٦٥)، وقال: (مُتَّفق عَلَيْهِ).

قال ابن العثيمين: {كدأب}: الكاف للتشبيه والجار والمجرور خبر لمبتدأ مقدم أي دأب هؤلاء كدأب آل فرعون؛ والدأب يطلق على الشأن، ويطلق على العادة؛ فمثل هذه الآية: {كدأب آل فرعون} يعني كشأنهم؛ وإذا قلت: فلان هذا دأبه أي هذه عادته.

قال شيخ الإسلام في النبوات ج٢ص٩٧٥: ال{دأب}: العادة وهو مصدر يضاف الى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى فاذا أضيف الى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون وإذا أضيف إلى المفعول كان المعنى كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه ولما يصيبهم وهي عادة الرب وسنّته فيهم والتحقيق أن اللفظ يتناول الأمرين جميعًا.

قال ابن العثيمين: {آل فرعون} أي أتباعه؛ وفرعون اسم عَلَم لكلِّ من ملَك مصر كافرًا؛ كلُّ من ملك مصر كافرًا يسمَّى فرعون؛ كما أنَّ كلُّ مَن ملَك الروم يسمَّى قيصر؛ ومن ملك الفرس يسمَّى كسرى. {آل فرعون والذين من قبلهم} وقبل آل فرعون أمم؛ فقوم ابراهيم قبلهم؛ وقوم لوط قبلهم؛ وقوم نوحٍ قبلهم؛ وقوم هود قبلهم؛ وقوم عاد قبلهم؛ يعني قبلهم أمم؛ ولهذا قال: {والذين من قبلهم}. ودأبهم بيَّنه بقوله: {كذَّبوا بآياتنا}: أي كذَّبوا بكلِّ ما يدلُّ علينا من الآيات الكونية والآيات الشرعية؛ وأكثر ما يكون أن يكذِّبوا بالآيات الشرعية لأن الآيات الكونية قلَّ من يكذِّب بها، فالآيات الكونية مخلوقات الله وقلَّ من ينكر أن يكون الخالق هو الله؛ لكن الآيات الشرعية التي هي الوحي التي جاءت به الرسل، هو الذي يقع فيه التَّكذيب؛ فآل فرعون كذبوا بآيات الله؛ قال فرعون لموسى: إنَّك لمجنون؛ {قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون}، وقال: إنه ساحر، ووصفه بأوصاف بالغة وهدَّده: {قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنَّك من المسجونين}، وكان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نسائهم، ويقول لقومه: أنا ربكم الأعلى؛ ويقول: {أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلو لا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين}؛ وقد ذكر الله تعالى قصته في كتابه كثيرًا من أجل اليهود الذين كانوا في المدينة، ومن أجل الأنصار الذين تلقَّوا من علوم اليهود شيئًا كثيرًا.

قال أبو زهرة: وقد شبَّه الله سبحانه وتعالى حال الكافرين الذين كفروا بمحمد ﷺ وما جاء به، بحال آل فرعون والذين سبقوا فرعون من الطغاة العتاة القساة المغرورين، وقد كان وجه الشبه في أمرين:

أوَّلهما: أنَّ الغرور هو الذي دفع إلى الجحود واللُّجاجة فيه والإصرار عليه، حتى إنهم ليردُّون الدليل تلو الدليل، وما تزيدهم الآيات إلَّا كفورًا، وما تزيدهم الموعظة إلَّا عُتوًّا في الأرض وفسادًا. وثانيهما: في الجزاء.

وهنا يرد سؤالان أوَّلهما: لِمَ ذكر آل فرعون، ولم يذكر فرعون؟، والثاني: لماذا نصَّ على قوم فرعون من بين الذين سبقوهم بالكفر والجحود ومعاندة النبيِّين؟ والجواب عن السؤال الأول: أنَّ ذكر آل فرعون يتضمَّن ذكر فرعون؛ لأنه إذا كان العناد في التابع فهو في المتبوع أشد؛ وفوق ذلك فإن آل فرعون وحاشيته ونصراءه هم السبب في طغيانه، وهم الذين سهَّلوا له سبيل

الطغيان وضنُّوا بالموعظة في إبَّانها، وهم الذين حرَّضوه على الاستمرار في الشرِّ والإيغال فيه، فهم اتَّبعوه أوَّلًا، ثمَّ حرَّضوه على الطغيان ثانيًا بمبالغتهم في مرضاته، واستحسان ما يفعل.

وأمَّا الجواب عن السؤال الثاني، وهو اختصاص فرعون وآله بالذِّكر، فلأنَّ فرعون كان أقوى الطغاة وأشدُّهم، وكان أكثرهم مالًا، وأعزَّهم نفرًا، وأكثرهم غرورًا، أليس هو القائل: {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ....}، أليس هو الذي ذهب به فرط غروره إلى أن يقول في حماقة ظاهرة: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ....}، ولقد كان مستكبرًا يصمُّ آذانه عن سماع الحق حتى لقد قال سبحانه فيه: {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .....}.

ولقد بيَّن سبحانه وتعالى نتيجة الغرور في آل فرعون والذين من قبلهم، وهو التَّكذيب بآيات الله، وقد ترتَّب على التَّكذيب نؤول العقاب الشديد، سنة الله في الذين كفروا ولجوا ولم يثوبوا إلى رشدهم، وينيبوا إلى ربهم، فقال سبحانه: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} هذا هو الدأب والعادة، وهو الغرور المُرْدي، وهذه نتائجه التي تجمع بين المغرورين دائمًا، وهو التَّكذيب بآيات الله تعالى.

قال ابن العثيمين: {والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم}، {أخذهم}: يعني أهلكهم؛ {بذنوبهم}: أي بسبب ذنوبهم؛ والذنب هو المعصية، ومعاصي هؤلاء كلُّها كفر والعياذ بالله، ولهذا أخذه بغرق فأهلك بما كان يفتخر به؛ كان يقول لقومه: {أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي} فأهلك بالماء الذي كان يجري جنسه من تحته، وكان مفخرة له، أهلكه الله عز وجل بالماء والقصة معروفة، فإن فرعون جمع جميع أهل المدائن من أجل الكيد لموسى فخرج موسى من مصر هو وقومه واتَّجهوا بأمر الله إلى جهة بحر القلزم وهو البحر الأحمر المعروف الذي يفرق بين قارة أفريقيا وآسيا من ناحية جدة، فلمَّا وصلوا إلى البحر قال أصحاب موسى: {إنَّا لمدركون} لأن البحر أمامهم وفرعون وقومه خلفهم، فهم هالكون على كل حال، إن ذهبوا إلى البحر هلكوا بالبحر، وإن بقوا هلكوا بفرعون وجنوده، فقال موسى عليه الصلاة والسلام: {كلَّا}: يعني لستم بمدركين؛ ثم علَّل ذلك بقوله: {إن معي ربي سيهدين}. الله أكبر، أنظر الإيمان عند الشدائد كيف يكون؟ يرى أن البحر أمامه وفرعون وجنوده خلفه وأصحابه على ما عندهم من الإيمان قالوا: {إنا لمدركون} لكنه قال: {كلَّا إن معي ربي سيهدين}، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضرب البحر بعصاه فانفلق في الحال بلحظة؛ والدليل أنه بلحظة؟ لأنه قال: {فانفلق}، {أن اضرب بعصاك البحر فانفلق} أنظر حذف الله حتى الفعل الذي حصل به الانفلاق لأن هذا البحر لما أمر الله موسى أن يضربه، هيأ للانفلاق بمجرَّد هذه الضربة التي وقعت عليه انفلق؛ كان اثني عشر طريقًا يبسًا، يبس في الحال وصاروا يمشون عليها على أقدامهم، وكانت المياه ككتل الجبال؛ وذكر بعض المفسرين من خبر بني إسرائيل أن الله جعل في هذه الكتل نوافذ يرى بعضهم بعضًا كل هذه يرى بعضهم بعضًا ليطمئن بعضهم على بعض؛ لمَّا تكامل موسى وقومه خارجين وإذا بفرعون قد دخل هو وقومه فأمر الرب عز وجل البحر فانطبق عليه في الحال فغرقوا عن آخرهم، ولما أدرك فرعون الغرق

قال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين}، لمَّا رأى العذاب وعاين آمن أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، ولكن لم ينفعه ذلك، كما قال الله تعالى في أمثاله: {فلمَّا رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنَّا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لمَّا رأوا بأسنا} ولهذا قيل لفرعون: {آلآن}: يعني آلآن تؤمن أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل؟ {وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}: يعني هذا الاستفهام للإنكار عليه ونفي انتفاعه بذلك الإيمان؛ ولكن قال الله تعالى: {فاليوم ننجِّيك ببدنك} لا لمصلحتك ولكن لتكون لمن خلفك آية؛ من الذي خلفه؟ بنو إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل كان فرعون قد أرهبهم ولو لم يظهر لهم بدنه على سطح الماء لكانوا يشكون لعلَّه ما دخل في قومه، لعلَّه سلم؛ فأبقى الله جسده {فاليوم ننجِّيك ببدنك} فقط لا بروحك؛ لماذا؟ {لتكون لمن خلفك آية} حتى يعلموا أنك قد مت. ما أشدَّ هذا النَّكال والعياذ بالله بهذا الرجل الطاغية! نكال بالغ، جمع قومه وظهر مظهر العزة ليقضي على موسى وقومه فأخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر {ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآيتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} عز وجل، أخذ عزيز غالب لا يغلب، مقتدر لا يعجز سبحانه وتعالى؛ وأهلكوا بهذا الماء الذي كان فرعون يفتخر به. ولهذا قال الله: {فأخذهم الله بذنوبهم} والباء هنا سببية من وجه وللعوض من وجه آخر؛ كيف ذلك؟ السببية يعني أنه بسبب ذنوبهم لأن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون؛ ولم يأخذ الله أحدًا إلَّا بذنب. وللعوض من جهة أخرى أنه لم يظلمهم بل جعل جزاءهم من جنس العمل {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلَّا مثلها}، {والله شديد العقاب} ختم الآية بهذا الوصف مناسب جدًّا؛ لأن هؤلاء الذين أخذوا بذنوبهم أخذوا بالعقاب الشديد الذي لا أشدَّ منه؛ ولا أظن أن أحدًا إلى يومنا هذا يستطيع أن يهلك عدوه كما أهلك الله فرعون؛ هل يستطيع أكبر دولة في العالم الآن أن تبرح الماء بهذه السرعة حتى يدخل العدو ثم تطبق الماء عليهم؟ أبدًا، لا يمكن؛ ولكن شديد العقاب عز وجل، الرب عز وجل، الذي ينزل عقابه بأعدائه لحكمة، كان قادرًا على ذلك وبلحظة {فاضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا لا تخاف دركًا ولا تخشى}.

قال أبو زهرة: وفي هذه الجملة السامية يقرِّر الله سبحانه ثلاث حقائق ثابتة، اثنتان منها تتعلَّقان بالكافرين المغرورين، وهما: التكذيب بآيات الله تعالى، والعقاب الذي يأخذهم سبحانه وتعالى به، والثالثة بيان شأن من شئون الله تعالى جلَّت قدرته، وهو أنَّه سبحانه وتعالى شديد العقاب، كما أنه سبحانه غفور رحيم، وأنَّه المنتقم الجبار، كما أنه اللطيف الخبير.

فأمَّا الحقيقة الأولى فقد قال سبحانه فيها: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}: أي كَذَّبوا بالآياتِ والأدلَّة التي تثبت رسالات الرسل، وتثبِّت وحدانية الله تعالى. وأضاف سبحانه الآيات إليه جلَّت قدرته، للإشارة إلى عظم دلالتها وقوة إثباتها، وأنها آيات الخالق لتعريف خلقه، وأدلَّة الواحد الأحد لإثبات وحدانيته، ومع ذلك لجُّوا واستمروا في غيِّهم يعمهون.

والحقيقة الثانية: قال سبحانه وتعالى فيها: {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}: أي أنه سبحانه وتعالى يعاقبهم على هذه الذنوب بما يساويها، وبما يقابلها، وعبر عن العقاب بهذا التعبير، لأنه يفيد أُمورًا ثلاثة: أوَّلها: أن الأخذ يفيد الوقوع التَّام في سلطان الله تعالى، فهو سبحانه أخذهم كما يؤخذ الأسير، لَا يستطيع من أمره فكاكًا.

ثانيها: أنَّ التعبير بالباء يفيد أمرين: المصاحبة والمقابلة؛ فهم قد أخذوا مصاحبين ومتلبِّسين بذنوبهم لم يقلعوا، ولم يتوبوا، بل استمروا على حالهم ملابسين لها ومقترنة بهم، كما تدل على أن العقاب مقابل للذنوب، فهو بدل ببدل، وكما أنَّهم قدموا الذنب، فليتسلَّموا العقاب.

وثالثها: أن هذا التعبير فيه إشارة إلى عدل الله سبحانه وتعالى الكامل؛ فالذنب هو الذي ولد العقاب، وهو يماثله تمام المماثلة، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

والحقيقة الثالثة: قال سبحانه وتعالى فيها: {وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، وفي ذكر هذا الوصف للذات العليَّة إشارة إلى شدَّة العقاب لشدَّة الجريمة، وإشارة إلى أن العدالة الإلهية تقتضي شدة العقاب؛ لأنه لَا يستوي الذين يحسنون والذين يسيئون، ولا يستوي الأخيار والأشرار؛ فإنَّ المساواة هي الظلم في هذه الحال.

ثمَّ في هذا الوصف للذات العليَّة تعليم للناس بأن كل فعل يجب أن يكون له جزاؤه {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}.

وهذا النص الكريم فوق ذلك يربِّي المهابة في النفس، ويجعل كل مؤمن يغلِّب الخوف على الرجاء، فإن الخوف يجعل العابد يستشعر الطاعة دائمًا ولا يَدِل بالعبادة، وتغليب الرجاء يمكن للنفس الأمَّارة بالسوء أن تسيطر، ويجعل العابد يَدِل بعبادته.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- أنَّ الكفار لا ينتفعون بأموالهم ولا أولادهم.

٢- إنَّ الكفار لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا.

٣- أنَّ المؤمنين قد ينتفعون بأموالهم وأولادهم وهو كذلك؛ فالمؤمن يتصدَّق بماله فينتفع، ويدعوا له ولده في حياته وبعد موته فينتفع؛ أما الكافر فلا ينتفع ولو دعا له ولده، ولا يحلُّ لولده أن يدعوا له إلَّا إذا كان حيًّا فيحلُّ أن يدعوا له بالهداية، وأمَّا أن يدعوا له بعد موته فلا يمكن أن يدعوا له.

٤- أنَّ الكافر يملك ماله لقوله: {أموالهم} فأضاف المال إليه وهو دليل على أن الكافر يملك ماله. واختلف العلماء في المرتد الذي يكفر بعد إسلامه؛ هل يزول ملكه عما تحت يده أو لا؟ فمن العلماء من قال: إنه إذا ارتدَّ إنسان زال ملكه عمَّا تحت يده؛ وعلى هذا فلا يصحُّ أن يتصرَّف فيه؛ ولكن القول الراجح: أنه لا يزول ملكه؛ إلَّا إذا مات على ردَّته فإن ملكه لا ينتقل إلى ورثته بل إلى بيت المال؛ ولا يرثه أحد من ورثته لقول النبي ﷺ: ((لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم[1])).

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤)، وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٢٧٢٩)، والإرواء (١٦٧٥)، وصحيح أبي داود (٢٥٨٤).

٥- بيان قدرة الله عز وجل، وأنَّه لا ينفع مال ولا بنون من الله شيئًا؛ لقوله: {لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا}؛ ولكن من غير الله تغني، يمكن يدفع شيئًا من ماله ويسلم من القتل، ويمكن أن يكون عنده أولاد شجعان إذا أراده أحد بسوء دافعوا عنه؛ لكن من الله لا يغني عنه مال ولا ولد.

٦- تشجيع قلوب المؤمنين على الكافرين؛ لأنَّ أموالهم وأولادهم لا تغني من الله شيئًا؛ فإذا انتصرنا بالله فإن ما عندهم من الأسلحة، والذخائر، والأموال، والأولاد لا يغنيهم من الله شيئًا ؛ ولهذا لو شاء الله عز وجل أن يبطل جميع ما فعلوه لأبطله؛ وأظنكم لا تنسون ما يحصل من الزلازل التي تدمر كثيرًا مما صنعوا؛ ولا تنسون أيضًا أن ما صنعوه قد يفسد بأيديهم، فكم من انفجارات حصلت في مخازن القنابل الذرية والنووية وحصل بذلك شرٌّ كثير عليهم وعلى من حولهم؛ لو شاء الله سبحانه وتعالى لأعتم الجو فقط إعتامًا بالضباط ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قدرته وقوته لا يقهرها شيء؛ ولهذا قال: {لا تغني عنهم من الله شيئًا}.

٧- أنَّ الكفار في النار؛ لقوله: {وأولئك هم وقود النار} ولكن لا نشهد لكل كافر بعينه أنه في النار؛ لكن نشهد على سبيل العموم ونقول: كل كافر في النار؛ كما نقول: كل مؤمن في الجنة لكن لا نشهد لواحد معين بالجنة، ففرق بين العموم وبين الخصوص.

٨- إثبات النار لقوله: {وقود النار}.

٩- أنَّ الكفار المتأخرين كالكفار السابقين؛ لأنَّ سنَّة الله تعالى بالخلق واحدة؛ لأنَّه عز وجل ليس بينه وبين الخلق نسب يراعيه ويحابي من يتّصل به؛ فالناس عند الله تعالى سواء؛ أكرمهم عند الله أتقاهم؛ لقوله: {كدأب آل فرعون ...}.

١٠- أنَّ فرعون وآله قد عذبوا في الدنيا كما سيعذبون في الآخرة؛ لقوله:{فأخذهم الله بذنوبهم}.

١١- الرَّد على من زعم أنَّ فرعون أسلم فنفعه إسلامه؛ لأنَّ الله تعالى ذكر ذلك على وجه المؤاخذة والمعاقبة؛ ولو كان تائبًا توبة تنفعه ما ذكر ذنبه بدون ذكر توبته؛ لأن الله تعالى عدل لا يذكر أحدا بذنب تاب منه إلَّا أن يبيِّن توبته؛ فآدم عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة وحصل له ما حصل وتاب إلى الله {فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه} ذكر الله تعالى معصيته وذكر أنه تاب وذكر أنه بعد التوبة كان خيرًا منه قبله {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى}.

١٢- إثبات الآية لله وهي العلامات الدالَّة على الله عز وجل على وجوده وعلى ما تتضّمنه هذه الآيات من صفاته؛ فمثلًا نزول الرحمة نزول الغيث دليل على الرحمة، آية على رحمة الله على وجوده وعلى رحمته؛ نزول العقوبات دليل على وجود الله وعلى غضبه؛ وهكذا كل آية تدل على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى ما تقتضيه تلك الآية من الصفات سواء كانت آية رحمة أو آية عذاب .

١٣- أنَّ الله لا يظلم الناس شيئًا وإنَّما يؤاخذهم بالذنوب؛ {فأخذهم الله بذنوبهم}؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير}.

١٤- الرَّدُّ على الجبرية الذين لا ينسبون فعل العبد إليه؛ لقوله: {بذنوبهم} فأضاف الذنوب إليهم؛ والفعل لا ينسب إلَّا لمن قام به حقيقةً؛ والجبرية يقولون: إن الفعل لا ينسب إلى الإنسان على وجه الحقيقة.

١٥- إثبات صفة شدة العقاب لله؛ لقوله: {والله شديد العقاب}.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ {١٢}

قال ابن العثيمين: {قل} الخطاب للنَّبي ﷺ، واعلم أن الخطاب الموجَّه للنَّبي ﷺ تارةً يكون شاملًا له وللأمَّة بالنَّص المقترن بذلك الخطاب؛ وتارةً يكون خاصًّا به؛ وتارةً يكون عامَّة، له وللأمَّة لمقتضى كونه إمامًا للأمَّة، يعني ليس بالخطاب ما يدلُّ على العموم لكن باعتبار أنَّه إمام الأمَّة يكون الخطاب وحكمه له، يشمله ويشمل الأمَّة؛ مثال الأول الخطاب الموجَّه للنَّبي ﷺ واقترن به ما يدلُّ على أنه عام له وللأمَّة: قوله تعالى: {يا أيها النَّبي إذا طلقتم النساء فطلِّقوهن لعدَّتهن} فقال: {يا أيها النَّبي} ثم قال: {إذا طلقتم النساء} ولم يقل: إذا طلقت فدلَّ هذا على أن هذا الخطاب موجَّه له ولأمَّته؛ ومثال العام الذي ليس فيه نصٌّ مقترن به أنه عام أكثر خطابات الموجَّه للرسول ﷺ من هذا القسم؛ مثل هذ الآية: {قل للذين كفروا} هذا شامل له وللأمَّة حتى نحن نقول للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم؛ ومثال الثالث: قوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} {ألم يجدك يتيمًا فآوى} هذا خاصٌّ للرسول ﷺ.

قال الله تعالى: {قل للذين}: يعني قل يا محمد، وأمَّته تقول ذلك أيضًا للكفار على وجه الاقتداء به والتأسِّي به؛ قل لهم {ستغلبون وتحشرون} وفي قراءة: {سيغلبون ويحشرون} قراءة سبعية؛ {ستغلبون} الذي يغلبهم هم المؤمنون كما قال الله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}، وقال الله تعالى: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز}، ولكنَّ المؤمن الغالب هو الذي آمن حقًّا، وقام بالعمل الصالح، ليس مجرَّد الإيمان هو القول باللِّسان {ومن الناس من يقول آمنَّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}، لابدَّ من إيمان صادق يشهد له العمل فيكون صالحًا؛ والله عز وجل يقول: {إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، فالذين آمنوا إيمانًا حقيقيًّا مصدَّقًا بالعمل([1])سوف يغلبون بلا شك، سوف يغلبون الكفار. ولكن إذا قال قائل: ما تقول في الأمَّة الإسلامية اليوم؟ فإنها مغلوبة على أمرهم والكفار يستذلونها غاية الظلم ويحاربونهم من كل وجه بكل أنواع السلاح؟ فجوابنا أن نقول: أقول في الأمة الإسلامية إنها يصدق على عامتها ما هو على كل فرد منها أنه ليس لهم من الإسلام إلَّا اسمه فقط ولا من القرآن إلَّا رسمه؛ ولذلك تجد واحدًا منهم يعظِّم القرآن تعظيمًا متعدِّيًا لحدود الشرع؛ لكن تعظيم رسمي فقط، يقبِّل القرآن ويحبُّه ويضمُّه على جبهته لكن ما يعمل بما فيه إلَّا نادرًا، حتى

١- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن الإيمان، وكون العمل ركنٌ أساسيٌّ فيه، عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

إنَّه ربما يفعل ذلك وهو يشرك بالله، يدعوا غير الله، أين العمل بالقرآن؟ ما في عمل بالقرآن؛ وإذا نظرت نظرة فاحصة في العالم الإسلامي اليوم وجدت أنه لا يمثل الإسلام حقيقة، وجدت في العبادة أنواع كثيرة من الشرك بالأموات وبالأحياء، وجدت أنواعًا كثيرة من البدع العقدية والعملية، وجدت أنواعًا كثيرة من نقض العهد والغدر والخيانة والكذب والغش فأين الإسلام؟ ليس هو إلَّا اسمه؛ ومن ثم لم نغلب الذين كفروا، بل الذين كفروا هم الذين غلبونا في الواقع وهم الذين لهم السيطرة الآن السيطرة على العالم اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا. وإذا قال قائل: كيف تصدق مقتضى هذه الآية ما نشاهد اليوم؟ الجواب: أنَّنا لم نصدق الله حتى يكون لنا النصر {ولو صدقوا الله لكان خيرًا لهم}.

{ستُغلبون وتحشرون إلى جهنم} في الدنيا تغلبون، في الآخرة تحشرون إلى جهنم والعياذ بالله يجمعون إليها ويدخلونها ويخلدون فيها، فيكون هؤلاء الكفار قد خسروا الدنيا والآخرة؛ خسروا الدنيا بالغلبة، غُلبوا، والذُّل؛ وخسروا الآخرة بأنهم يحشرون إلى جهنم وهذا كقوله عز وجل: {إن الذين ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} هذه الآية نظير هذه الآية.

وقوله: {وبئس المهاد} هذا قدح للنار والعياذ بالله وأنها بئس المهاد يعني بئس ما يتمهَّد به الإنسان كالذي يتمهَّد في فراشه ويلتحف بلحافه: {لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل}، والعياذ بالله {يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون}، {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش}: أيُّ شيء يغشيهم ويغطيهم من العذاب؛ فهم والعياذ بالله حالهم حال لا يمكن أن يتصورها الإنسان لعظمها وشدَّتها وهم خالدون فيها أبدًا.

قال السعدي: ثم قال تعالى: {قل} يا محمد {للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد}، وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج١ص٤١٠: فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَهُمْ غُلِبُوا فِي الدُّنْيَا كَمَا شَاهَدَهُ النَّاسُ، وَهَذَا يُصَدِّقُ الْخَبَرَ الْأَخِيرَ وَهُوَ أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ رسول الله ﷺ عبدٌ توَجَّه إليه الأوامر؛ لقوله: {قل} فهو عبدٌ لا يعبد، ورسولٌ لا يُكَذَّب.

٢- أهمية هذا الخبر الذي أمر الله نبيَّه أن يبلِّغه للكافرين.

٣- تقوية المؤمنين حيث يقال لأعدائهم الكفار: ستغلبون في الدنيا وليس لكم عاقبة في الآخرة فإنَّكم ستحشرون إلى جهنم.

٤- إرعاب الكفار وتحذيرهم؛ لقوله: {ستغلبون وتحشرون إلى جهنم}.

٥- أنَّ الله تعالى يجمع الكفار بين العقوبتين: عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة؛ أما عقوبة الدنيا ففي قوله: {ستغلبون} حتى وإن بذلوا أموالًا كثيرة: {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم يكون عليه حسرة ثم يغلبون}؛ وأمَّا العقوبة الثانية فقوله: {وتحشرون إلى جهنم}؛ أمَّا المؤمن فإن الله إذا عاقبه في الدنيا لم يعاقبه في الآخرة، لن يجمع الله له بين العقوبتين: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير}.

٦- البشرى لنا نحن في هذا الزَّمن أن الكفار لو صدقنا الله تعالى في الإيمان لكانوا مغلوبين؛ لأنه قال: {قل للَّذين كفروا ستغلبون} والذي يغلب: {كتب الله لأغلبنَّ ورسلي إن الله قوي عزيز}، {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا}، فلو أننا رجعنا إلى الإيمان حقًّا بالعقيدة، والقول، والعمل، والأخلاق، والآداب وجميع ما يتعلَّق بشريعة الإسلامية، لكان الكفار أمامنا مغلوبين؛ ويشهد لهذا الواقع الذي حصل في سلف هذه الأمَّة، حيث ملكوا مشارق الأرض ومغاربها.

٧- إثبات عذاب النار؛ لقوله: {وتحشرون إلى جهنم} وهذا أمر ثابت في الكتاب والسنة وإجماع المسلمين؛ ومن أنكر فقد كفر.

٨- غاية الذنب للنار؛ لقوله: {وبئس المهاد}.

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ {١٣}

قال القرطبي: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ}: أي علامة. وقال: {كان} ولم يقل: (كانت) لأن {آية} تأنيثها غير حقيقي. وقيل: ردها إلى البيان، أي: قد كان لكم بيان؛ فذهب إلى المعنى وترك اللفظ؛ كقول امرئ القيس:

برهرهة رؤدة رخصة ... كخرعوبة البانة المنفطر

ولم يقل المنفطرة؛ لأنه ذهب إلى القضيب. وقال الفراء: ذكره لأنه فرق بينهما بالصفة، فلمَّا حالت الصفة بين الاسم والفعل ذكر الفعل.

قال الطبري: قُلْ، يا محمد، للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهرانَيْ بلدك: {قد كان لكم آية}: يعني علامةٌ ودلالةٌ على صدق ما أقول: إنَّكم ستغلبون، وعبرة.

عن قتادة: {قد كان لكم آية}، عبرةٌ وتفكُّر. عن الربيع، مثله، إلَّا أنه قال: ومُتَفَكَّر {في فئتين}: يعني في فرقتين وحزبين. و(الفئة): الجماعة من الناس {التقتا} للحرب، وإحدى الفئتين رسولُ الله ﷺ ومن كان معه ممن شهد وقعة بدر، والأخرى مشركو قريش {فئة تُقاتل في سبيل الله}، جماعة تقاتل في طاعة الله وعلى دينه، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه {وأخرى كافرة}، وهم مشركو قريش.

عن ابن عباس: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله}، أصحابُ رسول الله ﷺ ببدر {وأخرى كافرة}، فئة قريش الكفار[١].

قال ابن العثيمين: والقتال في سبيل الله يتضمَّن أمورًا؛ الأول: إخلاص النيَّة لله؛ الثاني: أن يكون فيه موافقًا أمر الله؛ الثالث: أن تتجنَّب فيه محارم الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: {من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله} الأول: أن يكون مرادًا بها وجه الله، وأن تكون كلمة الله هي العليا وهذا الإخلاص؛ لا يقصد الإنسان بقتاله السيطرة على العالم وأن يملك الأرض ويغنم الأموال ويسبي الذرية؛ إن قصد هذا فليس قتاله في سبيل الله.

الثاني: أن يكون القتال في حدود شريعته بحيث لا يكون فيه عدوان على أحد؛ فإن كان فيه عدوان على أحد فإنه ليس في سبيل الله؛ ومثاله: أن يكون بيننا وبين المشركين عهد ثم ننقضه ونقاتل، فهذا حرام، وليس هذا قتال في سبيل الله بل هو معصية لله عز وجل؛ لأن الله تعالى قال: {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم} ونهى أن نقاتل في حال العهد وقال: {وإمَّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء} يعني حتى إذا عاهدت قومًا من الكفار وخفت أن يخونوا لا يجوز أن تنقض العهد ولكن انبذ إليهم على سواء؛ يعني قل لهم لا عهد بيننا وبينكم على سواء حتى تكون على سواء يعني على علم بأن العهد قد نقض؛ أمَّا أن تقاتل مع العهد فهذا ليس في سبيل الله.

الأمر الثالث: أن تجتنب فيه محارم الله؛ فإن لم تجتنب فيه محارم الله فإنه وإن كان أصله في سبيل الله لكن لا تتحقَّق فيه الغلبة والنصر؛ بدليل ما وقع للمسلمين في غزوة أحد فإن المسلمين في غزوة أحد كان الأمر في أول النهار في أيديهم والغلبة لهم ولكنَّهم عصوا الرسول ﷺ فخذلوا، فكانت الدائرة للمشركين، يقول الله عز وجل: {حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون}: يعني حصلت الهزيمة، {منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم} الله أكبر، الله عز وجل صرف المسلمين عنهم فلم يقاتلوهم {ليبتليكم ولقد عفا عنكم}، قال بعد هذا التوبيخ الذي يتَّعظ به من يأتي بعدهم: {ولقد عفا عنكم}، ونحن لو فعلنا كما فعلوا هل نحن ضامنون أن يعفوا الله عنَّا؟ لا؛ لكن الصحابة عفا الله عنهم وصار ما فعلوه كأن لم يكن؛ المهم أن نقول: في سبيل الله لابدَّ فيه من شروط؛ ماذا تقولون في قوم يقاتلون للقومية! هل هذا في سبيل الله؟ ليس في سبيل الله؛ ولهذا سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل ليرى مكانه أي ذلك في سبيل الله؟ قال: {من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله}: يعني هذا كلُّها ليست في سبيل

١- سيرة ابن هشام ٣: ٥١ باختلاف في اللفظ، لاختلاف الرواية عنه.

الله؛ الرجل يقاتل لشجاعة لأنه شجاع والشجاع يحب أن يقاتل؛ لأن الشجاعة من سجيَّته والإقدام من سجيَّته فيحبُّ هذا؛ والثاني يقاتل حميَّة وحدبًا على قومه؛ والثالث قاتل رياء وسمعة ليرى مكانه أي ذلك في سبيل الله قال: {من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله}.

{وأُخرى كافرة} ولم يقل الله عز وجل: (تقاتل في سبيل كذا)؛ وهذا من باب اكتفاء بأحد الوصفين عن الآخر؛ الأولى قال: {فئة تقاتل}، ولم يقل: (فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله)؛ والثاني قال: {وأخرى كافرة} ولم يقل: (تقاتل في سبيل الطاغوت)؛ فحذف من الأول مقابل ما ذكر في الثاني؛ حذف من الأول مؤمنة، التي تقابلها كافرة؛ وحذف من الثاني ضد ما ذكر في الأول، فحذف في سبيل الطاغوت، وقد ذكر في الأولى: في سبيل الله؛ وهذا من اعتبار بذكر أحد الوصفين على الآخر وهو من البلاغة الإيجازية؛ قال: {وأخرى كافرة}: يعني تقاتل في سبيل الطاغوت.

قال ابن كثير: {يرونهم مثليهم رأي العين}: قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي: جعل الله ذلك فيما رأوه سببًا لنصرة الإسلام عليهم، وهذا لا إشكال عليه إلَّا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، وهكذا كان الأمر. كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ثمَّ لمَّا وقع القتال أمدَّهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

والقول الثاني: أن المعنى في قوله: {يرونهم مثلَيهم رأي العين}: أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي: ضعفَيهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم، وهذا لا إشكال فيه، والمعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف.

قال الطبري: وقرأ آخرون ذلك: (تُرَوْنَهُمْ) بضم التاء، بمعنى: يريكموهم الله مثلَيهم.

وأولى هذه القراءات بالصواب، قراءةُ من قرأ: {يرونهم} بالياء، بمعنى: وأخرى كافرة، يراهم المسلمون مثلَيهم – يعني: مثلَي عدد المسلمين، لتقليل الله إيَّاهم في أعينهم في حال، فكان حَزْرهم إيَّاهم كذلك، ثم قلَّلهم في أعينهم عن التقليل الأول، فحزروهم مثل عدد المسلمين، ثم تقليلًا ثالثًا، فحزروهم أقلَّ من عدد المسلمين.

قال ابن العثيمين: {والله يؤيد بنصره من يشاء} {يؤيد}: يقوي؛ والباء هنا باء الوسيلة: أي يؤيد بسبب نصره من يشاء؛ وقلت إن الباء للوسيلة كما يقال: ذبحت بالسكين؛ وضربت بالعصا؛ فالنصر إذًا وسيلة التأييد، فهو يقوّي عز وجل بنصره من يشاء.

{من يشاء}: ممَّن تقتضي الحكمة نصره أو ممَّن تقتضي الحكمة تأييده؛ ويجب أن نقيِّد كل آية جاءت بلفظ المشيئة أو جاءت معلَّقة بالمشيئة، بالحكمة لقول الله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}.

{إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار}، {إن في ذلك} المشار إليه ما سبق من ذكر هذه القضية؛ أي: إن في ذلك المذكور لعبرة يعني لَإعتبارًا، والاعتبار مأخوذ من العبور من شيء إلى شيء؛ يعني: كأن الإنسان يعبِّر بعقله من المذكور إلى المعقول؛ فهنا ذكرت لنا القصة؛ نأخذ منها العبرة بأن الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة؛ فيكون فيها تحقيق لقوله تعالى: {قل للذين كفروا ستغلبون} فإذا افتخر الكفار بكثرتهم، نقول لهم: إن كثرتكم لا تغني عنكم شيئًا؛ فهذه فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ومع ذلك صارت الغلبة للتي تقاتل في سبيل الله. {إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار} الأبصار جمع بصر كأسباب جمع سبب؛ والمراد بالأبصار هنا هو بصر الرؤية الحسيَّة، وبصر العقل، مادام أنهم يرونهم رأي العين فيكون فيه عبرة لأولي الأبصار للذين رأوا بأعينهم؛ وكذلك هو عبرة لأولي الأبصار بالعقول، بعقولهم ولو كانوا لم يروا ذلك رأي العين؛ لأنهم إذا سمعوا اعتبروا فكان في ذلك عبرة لهم.

{والله يؤيِّد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}: أي إن في ذلك لمعتبَرًا لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

قال السعدي: فنصر الله المؤمنين وأيَّدهم بنصره فهزموهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيرًا منهم، وما ذاك إلَّا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطلة، وإلَّا فلو نظر الناظر إلى مجرَّد الأسباب الظاهرة والعَدد والعُدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلَّا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكُّل على الله والثِّقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

قال الشنقيطي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ وَقْعَةَ بَدْرٍ آيَةٌ أَيْ: عَلَامَةٌ عَلَى صِحَّةِ دِينِ الْإِسْلَامِ إِذْ لَوْ كَانَ غَيْرَ حَقٍّ لَمَا غَلَبَتِ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ الضَّعِيفَةُ الْمُتَمَسِّكَةُ بِهِ الْفِئَةَ الْكَثِيرَةَ الْقَوِيَّةَ الَّتِي لَمْ تَتَمَسَّكْ بِهِ.

وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ وَقْعَةَ بَدْرٍ بَيِّنَةٌ أَيْ: لَا لَبْسَ فِي الْحَقِّ مَعَهَا وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}[٨ \ ٤٢].

وَصَرَّحَ أَيْضًا بِأَنَّ وَقْعَةَ بَدْرٍ فُرْقَانٌ فَارِقٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ} الْآيَةَ [٨ \ ٤١].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- ضرب الأمثال بالأمور الواقعة؛ لأن ذلك أبلغ في التَّصديق والطمأنينة. ويتفرَّع على ذلك: أنه ينبغي للواعظ والدَّاعية لله عز وجل أن يضرب المثل للمدعوِّين بالأمور الواقعة؛ لأن ذلك أبلغ؛ فمثلًا: إذا أراد أن يدعوا إلى ترك المنكرات والقيام بالواجبات قال: انظر إلى البلد الفلاني حيث كان يسمَّى منذ عهد ليس ببعيد زهرة الشرق

الأوسط وكل من أراد المتعة من الشرق الأوسط ومن أوروبا ومن غيرها يذهب إلى هذا البلد لأنَّه يجد غاية ما يكون من المتعة، أصبح الآن أنهارًا تجري من الدماء، جعل الله تعالى بأسهم بينهم حتى فرُّوا من ديارهم، فبدلًا أن كانت مدينتهم تزيد على المليون أصبح الآن ليس فيها إلَّا مائتين ألف، يعني ذهب أكثر من ثلاثة أرباع في البلد من الفتن والمحن؛ فإذا ضربت هذا المثل الواقع لمن تحذِّرهم أن يقعوا في الترف فيهلكوا صار في هذا عبرة؛ ولهذا ضرب الله هذا المثل بقوله: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا}.

٢- أنَّ الإنسان مهما بلغ من الصِّدق فإن عرضه الأشياء الواقعة تجعل كلامه حقَّ اليقين؛ والمراتب قد سبق لنا أنها ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحقُّ اليقين؛ علم اليقين هو خبر الصادق؛ وعين اليقين ما تراه بعينك مشاهدًا؛ وحقُّ اليقين ما تدركه بحسِّك؛ فإذا قال لك القائل: هذه تفاحة، أو عندي تفاحة في جيبي وهو رجل صادق فالذي أدركت أنه يوجد تفاحة أدركت بعلم اليقين؛ فإذا أخرجها ونظرت إليها فهذا عين اليقين؛ فإذا أكلتها فهو حقُّ اليقين لأن هذا هو الواقع؛ إذا نقول: إنه ينبغي للإنسان مهما بلغ من ثقة الناس به أن يضرب الأمثال للناس حتى يقتنعوا بقوله؛ لأننا نحن لا نشك في أن أصدق الكلام كلام الله، وقد قال الله تعالى: {قل للذين كفروا ستغلبون} ثمَّ ضرب مثلًا واقعيًّا بأنَّ الكفَّار غلبوا مع أنهم أكثر من المؤمنين.

٣- أنَّ النصر ليس بكثرة العدد، ولا بقوة العدد؛ ولكنه من الله؛ لأنَّ الله لمَّا ضرب هذا المثل قال: {والله يؤيد بنصره من يشاء}؛ ولكن إذا قيل: ما هي الوسيلة الحقيقية لنصر الله الذي به التأييد؟ فالجواب: ما ذكره الله عز وجل بقوله: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنًا}، إلى الآن لم يأت سبب النصر قال: {يعبدونني لا يشركون بي شيئًا} هذا واحد، إخلاص العبادة لله عز وجل، هذا من أسباب النصر؛ هناك أيضًا أسباب أخرى ذكر الله في قوله: {ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر}.

٤- أنَّ القتال لا يكون سببًا للنصر إلَّا إذا كان في سبيل الله إخلاص واتِّباع وموافقة الشرع؛ واجتناب المحارم. فإذا تمَّت هذه الأمور الثلاثة: الإخلاص؛ وأن يكون موافقًا للشرع؛ وأن تتجنَّب فيه المحارم المعاصي، فهذا هو الذي في سبيل الله.

٥- أنَّه لا إلفة بين المؤمنين والكافرين؛ لقوله: {فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة}، فمن حاول أن يجمع بين المؤمنين والكافرين فقد حاول الجمع بين النار والماء وهذا شيء غير ممكن، لا يمكن لأولياء الله أن يكونوا متآلفين مع أعداء الله؛ ومن حاول أن يؤلف بين أولياء الله وأعداء الله فمعناه أنه سوف يقضي على ولاية الله؛ لقول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}، وكيف يمكن لشخص يقول إنه من أولياء الله، وأنه مؤمن بالله، أن يوالي أعداء الله الكافرين بالله؟! هذا لا يمكن؛ ولهذا نجد أن

الصراع بين أتباع الرسل وأعداء الرسل قائم دائم إمَّا بالقول، وإمَّا بالفعل؛ إمَّا بالقول: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيدهم وألسنتهم بالسوء} وإمَّا بالصِّراع المسلَّح كما هو معروف.

٦- أنَّ الله تعالى قد يري المجاهدين الأمر على الواقع، أو على خلاف الواقع لحكمة، كما تشهد بذلك آية الأنفال: {وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلًا ويقللكم في أعينهم} لأن الإنسان إذا رأى عدوه قليلًا نشط، نشط على القتال؛ وإذا رآه كثيرًا انخذل؛ فالله سبحانه وتعالى أرى المؤمنين الكفار قليلًا وأرى الكافرين المؤمنين قليلًا لأجل تنشيط كل واحد على القتال.

٧- إثبات الفعل أو إثبات أفعال الله؛ لقوله: {والله يؤيد بنصره من يشاء}.

٨- الرَّدُّ على الجبرية في قوله: {تقاتل في سبيل الله} فأضاف الفعل إليها؛ والجبرية يقولون: إنه لا يضاف الفعل إلى الفاعل إلَّا على سبيل المجاز كما تقول: أكلت النار الحطب؛ وإلَّا فإنَّ الإنسان لا يفعل باختياره بل يجبر على فعله.

٩- إثبات المشيئة لله؛ لقوله: {من يشاء}.

١٠- أنَّه لا يعتبر في الأمور إلَّا أولوا البصائر؛ لقوله: {إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار}. أنَّك إذا وجدت من نفسك عدم الاعتبار والتَّعاظم بما يجري فاعلم أنك ضعيف البصيرة؛ لأنَّ الله إذا أثبت العبرة لأولي الأبصار فإنَّ انتفاء العبرة تدلُّ على ضعف البصيرة أو عدمها بالكليَّة.

١١- الثَّناء على أهل البصيرة؛ لأن السِّياق سياق مدح فيكون فيه الثناء على أهل البصيرة، وقدح في عمي القلب.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ {١٤}

قال أبو زهرة: في الآيات السابقة بيَّن سبحانه اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وكثرتهم، وكثرة النَّفر الذين يعاضدونهم، وأشار إلى اغترار آل فرعون بسلطانهم، وعاقبة أمرهم؛ وفي هذه الآية يبين سبحانه مصدر الغرور وأسباب الإغترار في هذه الدنيا، وما ركَّز في قلوب الناس من حب الشهوات التي يؤدي الاشتداد في طلبها إلى الانحراف في التفكير وإلى أن يطمس على البصيرة فلا تدرك الأمور على وجهها؛ ثم يبيِّن سبحانه منزلة ما في هذه الدنيا من مُتَع فانية بجوار ما في الآخرة من نعيم دائم. وإذا كان قد بيَّن سبحانه وتعالى أولًا مآل المغترين بأعراض الدنيا، فقد بيَّن في هذه الآيات مآل المتَّقين وأوصافهم، ومقدار فهمهم لزخارف هذه الحياة وما فيها من شهوات مردية عند الانحراف في طلبها. ولقد ابتدأ سبحانه بما ركَّز في فطرة كل إنسان من حب وطلب لهذه الشهوات في مواضعها، فقال سبحانه: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ...}.

قال القرطبي: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ} زيّنَ من التَّزيين واختلف الناس من المزيِّن؛ فقالت فرقة: الله زيَّن ذلك؛ وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكره البخاري. وفي التنزيل: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا}[الكهف: ٧]؛ ولمَّا قال عمر: الآن يا رب حين زيَّنتها لنا! نزلت: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ}[آل عمران: ١٥]؛ وقالت فرقة: المزيِّن هو الشيطان؛ وهو ظاهر قول الحسن، فإنَّه قال: من زيَّنها؟ ما أحد أشدُّ لها ذمًّا من خالقها. فتزيِّين الله تعالى إنَّما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلة على الميل إلى هذه الأشياء. وتزيِّين الشيطان إنَّما هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية على كلا الوجهين ابتداءً وعظٌ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم.

قال ابن القيم في شفاء العليل ج١ص١٠٣: وأما التزيين فقال تعالى: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم}، وقال: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}، وقال: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فأضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقًا ومشيئةً، وحذف فاعله تارةً، ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارةً، وهذا التزيين منه سبحانه حسن، إذ هو ابتلاء واختبار، ليتميَّز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} وهو من الشيطان قبيح، وأيضًا، فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده، وعبوديته، وإيثار سيء العمل على حسنه، فإنه لابدَّ أن يعرِّفه سبحانه السيئ من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره، وأحبَّه، ورضيه لنفسه، زيَّنه سبحانه له أعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحًا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لابدَّ أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحًا، فإذا تمادى عليه، ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربَّما رآه حسنًا عقوبةً له، فإنَّه إنَّما يُكشَف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، وهو حجَّة الله عليه، فإذا تمادى في غيِّه وظلمه، ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم، ومع هذا فحجَّة الله قائمة عليه بالرسالة، وبالتعريف الأول، فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم، وهو السبب الخارج عن العبد، والسبب الداخل فيه حبه، وبغضه، وإعراضه، والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وقال رحمه الله أيضاً في ص١٧١: فَإِنَّ إِضَافَةَ التَّزْيِينِ إِلَيْهِ قَضَاءً وَقَدَرًا، وَإِلَى الشَّيْطَانِ تَسَبُّبًا، مَعَ أَنَّهُ تَزْيِينُهُ تَعَالَى عُقُوبَةٌ لَهُمْ عَلَى رُكُونِهِمْ إِلَى مَا زَيَّنَهُ الشَّيْطَانُ لَهُمْ، فَمِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، وَمِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا.

وقال رحمه الله: فالبلاء مركب من تزيين الشيطان وجهل النفس، فإنَّه يزيِّن لها السيِّئات، ويريها أنها في صور المنافع واللَّذات والطيِّبات، ويغفلها عن مطالعتها لمضرَّتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والأنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدُّها بأنواع التزيين فلا يزال يقوى حتى يصير عزمًا جازمًا يقترن به الفعل، كما زُيِّن للأبوين الأكل من الشجرة وأغفلها عن مطالعة مضرَّة المعصية. فالتزيين هو سبب إيثار الخير والشر، كما قال تعالى: {وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون}، وقال: {أفمن زيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا}، وقال في تزيين الخير: {ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم}، وقال في تزيين النوعين:

{كذلك زيَّنا لكل أمَّة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون}، وتزيين الخير والهدى بواسطة الملائكة والمؤمنين، وتزيين الشر والضلال بواسطة الشياطين من الجن والإنس، كما قال تعالى: {وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم}، وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل، لأنه يلبس له الباطل والضَّار المؤذي، صورة الحق والنافع الملائم، فأصل البلاء كله من الجهل، وعدم العلم، ولهذا قال الصحابة كل من عصى الله فهو جاهل([1]).

قال القرطبي: و{الشهوات}: جمع شهوة وهي معروفة. ورجل شهوان للشيء، وشيء شهي أي مشتهى واتِّباع الشهوات مرد وطاعتها مهلكة. وفي صحيح مسلم: ((حفَّت الجنة بالمكاره وحفَّت النار بالشهوات([2]))، رواه أنس عن النبي ﷺ. وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تنال إلَّا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها. وأن النار لا ينجى منها إلَّا بترك الشهوات وفطام النفس عنها.

قال ابن العثيمين: {زيِّن للناس}: أي زيَّنها الله عز وجل في قلوبهم ابتلاءً واختبارًا؛ لأنه لو لا تزيين هذه الأشياء في قلوب الناس ما عرف المؤمن حقًّا؛ لو كان الإنسان لا يهتم بمثل هذه الأمور لم يكن له ما يصده عن دين الله؛ فإذا ألقي في قلبه حب هذه الشهوات، فإن قوي الإيمان لا يقدِّمها على محبة الله عز وجل؛ ألم تروا إلى قول الرسول ﷺ: ((رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله([3]))، هذا ممَّن يظلُّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه؛ والمرأة ذات المنصب والجمال هي من أشدُّ ما يتعلَّق بالإنسان في النساء؛ منصب وجمال ومع ذلك قال: إني أخاف الله، ودعته في موضع خال

١- (قلت): لتبسيط فهم مسألة التزيين من كلام العلماء رأيت أن نقسمها الى أقسام:

أولًا: تزيين الله جل وعلا لأشياء في الفطرة وإنشاء الجبلَّة على الميل إلى هذه الأشياء بالإيجاد والتهيئة للانتفاع بها، كما قال تعالى: {زين للنَّاس حب الشَّهَوَات....}، فَإِن المزيَّن نفس الْحبّ لَهَا لم يَجْعَل المزيَّن هُوَ المحبوب بل هُوَ حب الشَّهَوَات، أي مثلًا جعل فينا حب شهوة الجماع، وهذا هو حب الشهوة التي زيَّنها الله جل وعلا في الفطرة، ولم يجعل فينا حب الزنا ولم يزيِّنه لنا، بل جعل الوصول الى هذه الشهوة من طريقين، طريق حلال وهو الزواج، وطريق حرام وهو الزنا، إختبارًا وابتلاءً من الله لعباده ليتميَّز بذلك المطيع من العاصي، كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

ثانيًا: تزيين الله جل وعلا للأعمال، وتكون قضاءً وقدرًا، وذلك بتزيين الخير والهدى في قلوب عباده المؤمنين بتقدير كوني، ويباشر هذا التزيين بنفسه، وذلك بقذف النور في قلوبهم حتى يكون الخير والهدى حسنًا ومحبوبًا عندهم، كما قال جل وعلا: {ولكنَّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم}.

ثالثًا: الأنبياء والرسل والملائكة والمؤمنون يزيِّنون الخير بمباشرتهم للأسباب، وذلك بدعوتهم الناس الى الخير والهدى، فإذا شاء الله جل وعلا واقتضت حكمته، أكمله بتزينه في قلبه كما بيَّنَّاه في (ثانيًا)، وذلك جزاءً له لإيثاره الخير على الشر جزاءً وفاقًا.

رابعًا: شياطين الجن والأنس يزيِّنون الشر بمباشرتهم للأسباب أيضًا، وذلك بدعوتهم الناس الى الشر والضلال، فإذا شاء الله جل وعلا واقتضت حكمته منع عنه النور الذي به يكشف له عن قبح الشر والضلال، أو يذهبه عنه بعد أن كان موجودًا، ويَكِله الى نفسه، ويُسلِّط عليه شياطين الجن والأنس عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده، وعبوديته، وإيثار سيء العمل على حسنه، - وفي عقوبته لعبده جل وعلا حكمة- فيتبعهم على ما زيَّنوه له من الشر والضلال، لأنه لا حفيظ ولا معاذ للعبد من الشياطين إلَّا الله جل وعلا، فإذا تخلَّى عنه الحفيظ جل وعلا بما قدَّمت يديه، فلا مناص من اتِّباعهم، لأن ليس هناك إلَّا الهوى والجهل. فهذا هو معنى تزيين الله لأعمال الكافرين في هذه الآيات: {كذلك زيَّنا لكل أمَّة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون}، {إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيَّنا لهم أعمالهم}، وليس ما قد يتبادر الى الذِّهن في معنى الآية، بأن الله يزين القتل والزنا لعباده، لأن الله جل وعلا لا يأمر بالفحشاء، وهو منزَّه عن ذلك. وهذا التزيين من الله جل وعلا عدل، ومن الشيطان ظلم وغواية، وفي عقوبته جل وعلا لعباده حكمة، والتزيين من الله جل وعلا في كلتا الحالتين يكون قضاءً وقدرًا. والله أعلم.

٢- (قلت): مسلم (٢٨٢٢).

٣- (قلت): البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

ليس فيه أحد؛ لأنه لو كان فيه أحد لقال: عندنا أحد كيف تقولين هذا الكلام؟ لكن قال: إنِّي أخاف الله؛ الموضع الخالي كالموانع منتفي، وأسباب الفاحشة موجودة منتشرة ومع ذلك قال: إني أخاف الله؛ إذا هذا التزيين نقول: إنه ابتلاء واختبار من الله عز وجل.

قال ابن كثير: {مِنَ النِّسَاءِ}: فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهنَّ أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: ((ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء([1]))). فأمَّا إذا كان القصد بهنَّ الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، ((وإن خير هذه الأمَّة من كان أكثرها نساء([2]))), وقوله ﷺ: ((الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله([3]))), وقوله في الحديث الآخر: ((حُبِّب إلي النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة([4]))). وحب البنين تارة للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممَّن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: ((تزوَّجوا الودود الولود، فإنِّي مكاثر بكم الأمم يوم القيامة([5]))).

قال محمد رشيد رضا: فَاكْتَفَى بِذِكْرِ مَا كَانَ حُبُّهُ أَقْوَى وَالْفِتْنَةُ بِهِ أَعْظَمَ عَلَى طَرِيقِ التَّغْلِيبِ أَوْ لِدَلَالَةِ مَا حُذِفَ فِيمَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ كَدَلَالَتِهِ هُوَ عَلَى مَا حُذِفَ مِمَّا قَبْلَهُ عَلَى طَرِيقِ الِاحْتِبَاكِ أَوْ شِبْهِ الِاحْتِبَاكِ، وَأَخَّرَ فِي الذِّكْرِ عَنْ حُبِّ النِّسَاءِ لِمَا تَقَدَّمَ وَلِتَأَخُّرِهِ فِي الْوُجُودِ إِذِ الْأَوْلَادُ مِنَ النِّسَاءِ. قُلْنَا: إِنَّ الْعِلَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ لِحُبِّ النِّسَاءِ أَوِ الْأَزْوَاجِ هِيَ دَاعِيَةُ النَّسْلِ، فَهَذِهِ الدَّاعِيَةُ تُحْدِثُ فِي النَّفْسِ انْفِعَالًا يُحَفِّزُ صَاحِبَهُ إِلَى الزَّوَاجِ. وَأَمَّا حُبُّ الْأَوْلَادِ فَيَكَادُ يَكُونُ كَحُبِّ النَّفْسِ لَا عِلَّةَ لَهُ غَيْرَ ذَاتِهِ إِلَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ عَاطِفَةَ رَحْمَةِ الْوَالِدَيْنِ بِالْوَلَدِ - مُنْذُ يُولَدُ - هِيَ غَيْرُ عَاطِفَةِ حُبِّهِمَا لَهُ وَهِيَ عِلَّتُهُ، وَلَكِنَّ حِكْمَةَ الْخَالِقِ فِي حُبِّ الزَّوْجِيَّةِ وَحُبِّ الْوَلَدِ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ تَسَلْسُلُ النَّسْلِ وَبَقَاءُ النَّوْعِ وَهِيَ حِكْمَةٌ مُطَّرِدَةٌ فِي غَيْرِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ. هَذَا هُوَ حُبُّ الْوَلَدِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَلَدٌ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْوَلَدِ مَحَبَّاتٌ أُخْرَى فِي قُلُوبِ الْوَالِدَيْنِ كَحُبِّ الْأَمَلِ فِي نُصْرَتِهِ وَمَعُونَتِهِ وَحُبِّ الِاعْتِزَازِ بِهِ، وَهَذَا مِمَّا يُشَارِكُ الْأَوْلَادَ فِيهِ غَيْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ يَكُونُ فِيهِمْ أَقْوَى؛ لِأَنَّ وُجُوهَ الْمَحَبَّةِ إِذَا تَعَدَّدَتْ يُغَذِّي بَعْضُهَا بَعْضًا، وَحُبُّ

١- صحيح: البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

٢- رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٦٩) موقوفًا على ابن عباس.

٣- صحيح لغيره: لم يرد الحديث متَّصلًا بهذا السياق، إنما أخرجه بنحوه أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم في المستدرك (٥٦٧/١) (٣٦٣/٢) من حديث عمر، وفيه جعفر بن إياس، ثقة إلَّا أن شعبة طعن في سماعه من مجاهد، وهذا الحديث عنه عن مجاهد، وله شاهد مرسل قوي أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥٠١)، وشاهد آخر من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد (٢٥١/٢)، وشطره الأول في صحيح مسلم، وثم شواهد أخرى.

٤- حسن: أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥)، والنسائي في الكبرى (٢٨٠/٥).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٥٢٦١)، والروض النضير (٥٣)، وصحيح الجامع الصغير (٣١٢٤).

٥- حسن: أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) من حديث معقل بن يسار، وقوله: ((إني مكاثر بكم الأمم)) له شاهد من حديث الصنابحي أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٤) بإسناد صحيح.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٧٨٤).

الْوَلَدِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَلَدٌ يَظْهَرُ فِي وَقْتِ ذَهَابِ الْأَمَلِ فِي فَائِدَتِهِ بِأَشَدَّ مِمَّا يَظْهَرُ مَعَ الْأَمَلِ فِيهَا كَحَالِ الصِّغَرِ وَالْمَرَضِ، وَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ أَصْحَابِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ: أَيُّ وَلَدِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: صَغِيرُهُمْ حَتَّى يَكْبُرَ، وَغَائِبُهُمْ حَتَّى يَحْضُرَ، وَمَرِيضُهُمْ حَتَّى يَبْرَأَ.

أَمَّا كَوْنُ حُبِّ الْبَنِينَ أَقْوَى وَالتَّمَتُّعِ بِهِ أَعْظَمَ فَلَهُ أَسْبَابٌ:

مِنْهَا: الْأَمَلُ فِي نُصْرَةِ الذَّكَرِ وَكَفَالَتِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي الضَّعْفِ وَالْكِبَرِ، وَقَدْ قُلْنَا آنِفًا: إِنَّ الْحُبَّ أَنْوَاعٌ يُغَذِّي بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَمِنْهَا: كَوْنُهُ فِي عُرْفِ النَّاسِ عَمُودُ النَّسَبِ الَّذِي تَتَّصِلُ بِهِ سِلْسِلَةُ النَّسْلِ، وَيَبْقَى بِهِ مَا يَحْرِصُونَ عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُرْجَى بِهِ مِنَ الشَّرَفِ مَا لَا يُرْجَى مِنَ الْأُنْثَى، كَقِيَادَةِ الْجَيْشِ وَزَعَامَةِ الْقَوْمِ وَالنُّبُوغِ فِي الْعُلُومِ وَالْأَعْمَالِ.

وَمِنْهَا: مَا مَضَى بِهِ الْعُرْفُ مِن اعتبار نَقْصِ الْأُنْثَى وَخُرُوجِهَا عَنِ الصِّيَانَةِ مُجْلِبَةً لِأَكْبَرِ الْعَارِ، وَتَوَقُّعُ ذَلِكَ أَوْ تَصَوُّرُ احْتِمَالِهِ يُذْهِبُ بِشَيْءٍ مِنْ غَضَاضَةِ الْحُبِّ فَيَلْحَقُهُ الذُّبُولُ أَوِ الذُّوِيُّ.

وَمِنْهَا: الشُّعُورُ بِأَنَّ الْأُنْثَى إِنَّمَا تُرَبَّى لِتَنْفَصِلَ مِنْ بَيْتِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَتَتَّصِلَ بِبَيْتٍ آخَرَ تَكُونُ عُضْوًا مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَمَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا وَمَا تُعْطَاهُ يُشْبِهُ الْغُرْمَ وَخِدْمَةَ الْغُرَبَاءِ، فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْفُرُوقَ الْوُجُودِيَّةَ - وَإِنْ لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا طَبِيعِيَّةً - ظَهَرَ لَهُ وَجْهُ تَخْصِيصِ الْبَنِينَ بِالذِّكْرِ، وَوَجْهُ كَمَالِ التَّمَتُّعِ بِهِمْ وَكَوْنُهُمْ هُمُ الَّذِينَ قَدْ يَغْتَرُّ بِهِمُ الْوَالِدُ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ بِهِمْ أَوْ يَشْتَغِلَ بِهِمْ وَبِالْجَمْعِ لَهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَيَنْسَى الْآخِرَةَ ؛ عَلَى أَنَّ حُبَّ الْوَالِدِيَّةِ الْخَالِصِ لِلْبَنَاتِ قَدْ يَكُونُ مُسَاوِيًا أَوْ أَقْوَى مِنْ حُبِّ الْبَنِينَ، وَلَكِنْ مَا يُغَذِّيهِ وَيُقَوِّيهِ أَقَلُّ فَهُوَ مَثَارٌ لِلْفِتْنَةِ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [٦٤: ١٥]، فَذَكَرَ الْأَوْلَادَ عَامَّةً وَلِذَلِكَ قُلْنَا بِأَنَّ تَخْصِيصَ الْبَنِينَ بِالذِّكْرِ لَيْسَ لِلْحَصْرِ.

{وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ}: أَيْ كَثْرَةُ الْمَالِ وَهُوَ مِمَّا أُودِعَ فِي الْغَرَائِزِ، وَعِلَّتُهُ أَنَّ الْمَالَ وَسِيلَةٌ إِلَى الرَّغَائِبِ وَمُوَصِّلٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَائِذِ، وَرَغَائِبُ الْإِنْسَانِ غَيْرُ مَحْدُودَةٍ، وَأَفْرَادُ لَذَائِذِهِ غَيْرُ مَعْدُودَةٍ، فَهُوَ لِاسْتِعْدَادِهِ الَّذِي لَا مُنْتَهَى لَهُ يَطْلُبُ الْوَسَائِلَ إِلَى رَغَائِبَ لَا مُنْتَهَى لَهَا، وَهَذِهِ الرَّغَائِبُ يَتَوَلَّدُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

فَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلَا انْتَهَى أَرَبٌ إِلَّا إِلَى أَرَبِ

فَلَا جَرَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَكْثِرُ الْمَالَ مَهْمَا كَثُرَ، بَلْ إِنَّ كَثْرَتَهُ هِيَ الَّتِي تَزِيدُ فِيهِ نَهْمَتَهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنْسَى أَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى غَيْرِهِ فَيَجْعَلُ جَمْعَهُ مَقْصِدًا يَتَفَنَّنُ فِي طُرُقِهِ كُلَّمَا سَلَكَ طَرِيقًا عَنَّ لَهُ مِنَ السُّلُوكِ فِيهِ طُرُقٌ أُخْرَى. قَالَ ﷺ: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَالتَّعْبِيرُ بِالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْكَثْرَةَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مَظِنَّةَ الِافْتِتَانِ لِأَنَّهَا تُشْغِلُ بِالتَّمَتُّعِ بِهَا الْقَلْبَ، وَتَسْتَغْرِقُ فِي تَدْبِيرِهَا الْوَقْتَ، حَتَّى لَا يَكَادُ يَبْقَى فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا مَنْفَذٌ لِلشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ طَلَبِ الْحَقِّ وَنُصْرَتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَالِاسْتِعْدَادِ لِمَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُتَّقِينَ فِي الْأُخْرَى، وَمَا بَعَثَ اللهُ رَسُولًا فِي أُمَّةٍ وَلَا مُصْلِحًا فِي قَوْمٍ إِلَّا وَكَانَ الْأَغْنِيَاءُ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ

وَعَانَدَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ، وَإِنَّ مُؤْمِنِي الْأَغْنِيَاءِ أَقَلُّهُمْ عَمَلًا وَأَكْثَرُهُمْ زَلَلًا. قَالَ – تَعَالَى –: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا}[١١ : ٤٨]. وَقَالَ: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[٢٨ : ٨]. فَقَدَّمَ الْفِتْنَةَ بِالْأَمْوَالِ عَلَى الْفِتْنَةِ بِالْأَهْلِينَ، وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا أَخَّرَ ذِكْرَ الْأَمْوَالِ هُنَا عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي طَبِيعَةِ الْحُبِّ لَا فِي الِاشْتِغَالِ وَالْفِتْنَةِ بِهِ خَاصٌّ، وَحُبُّ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ مَقْصِدٌ، وَحُبُّ الْمَالِ وَسِيلَةٌ لَا يَجْعَلُهُ مَقْصِدًا إِلَّا مَنْ أَعْمَتْهُ الْفِتْنَةُ عَنِ الْحَقِيقَةِ. وَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخُوضَ فِي شَرْحِ فِتْنَةِ النَّاسِ بِالْمَالِ وَكَيْفَ تَشْغَلُهُمْ عَنْ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ الْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ وَحُقُوقِ مَنْ يُعَامِلُهُمْ، بَلْ وَعَنْ حُقُوقِ بُيُوتِهِمْ وَعِيَالِهِمْ، بَلْ وَعَنْ حُقُوقِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يُثْلِمُونَ شَرَفَهُمْ أَوْ يُقَصِّرُونَ فِي النَّفَقَةِ الَّتِي تَلِيقُ بِهِمْ لَأَطَلْنَا وَخَرَجْنَا عَنْ حَدِّ الْوُقُوفِ عِنْدَ بَيَانِ كَوْنِ الْمَالِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمِقْدَارِ مَا نَفْهَمُ الْعِبْرَةَ مِنَ الْآيِ، وَنَكُونُ قَدْ جَعَلْنَا الْكَلَامَ فِي الْمَالِ مَقْصِدًا كَمَا جَعَلَهُ الْأَشِحَّةُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مَقْصِدًا، أَمَّا لَفْظُ (الْقِنْطَارِ) فَمَعْنَاهُ الْعُقْدَةُ الْمُحْكَمَةُ مِنَ الْمَالِ، وَهُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ التُّجَّارُ الْآنَ بِالصَّرِّ أَوِ الصُّرَّةِ. هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِيهِ عِنْدِي وَسَائِرُ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَاهُ تَرْجِعُ إِلَيْهِ، فَمِنْهَا أَنَّهُ الْمَالُ الْكَثِيرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا أَنَّهُ وَزْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ. وَرُوِيَ مَرْفُوعًا عِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ أَوْ أَلْفٌ وَمِائَتَا أُوقِيَّةٍ. وَرُوِيَ عَنْ مُعَاذٍ أَوْ أَلْفُ دِينَارٍ وَمِائَتَا دِينَارٍ، وَرُوِيَ عَنْ أُبَيٍّ مَرْفُوعًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ثَمَانُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ كَذَا فِي الْمُخَصَّصِ، وَرُوِيَ عَنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ.

قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل.

قال ابن العثيمين: {وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ}: وسمّي خيلًا لأن صاحبها غالبًا يبتلى بالخيالات بأنّها أفخر المراكب؛ فالرَّاكب لها يكون في قلبه خيلاء؛ أو أنها هي تختال في مشيتها؛ ولهذا ترى الخيل عند مشيتها ليست كغيرها، تشعر بأن فيها ترفُّعًا واختيالًا؛ قال بعضهم: أو لأنها يخيل إليها أنه لا شيء يساميها، وهذا لا ندري عنه اللهم إلَّا ما يظهر من أثر مثل اختيالها في مشيتها؛ على كل حال الخيل معروفة؛ وأصحابها لاشك أنهم يرون أنهم فوق الناس لأنها أفخر المراكب في ذلك الوقت وإلى الآن قال النبي ﷺ: ((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيمة([١]))).

قال ابن كثير: {وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ}: وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارةً يكون ربطها أصحابها معدَّة لسبيل الله تعالى متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون، وتارةً تربط فخرًا ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر، وتارةً للتعفُّف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر([٢])، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: {وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم}[الأنفال: ٦٠].

وأمَّا {المسوَّمة}: فعن ابن عباس، رضي الله عنهما: المسوَّمة الرَّاعية، والمطهمة الحسان، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة وغيرهم؛ وقال مكحول: {المسوَّمة}: الغرة والتحجيل. وقيل غير ذلك.

١– (قلت): البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (٩٨٧). وصححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٤٧).

٢– (قلت): أي: فلا إثم ولا أجر ولا وزر.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ليس من فرس عربي إلّا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين، يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب ماله وأهله إليه([1]))).

قال الشنقيطي: {وَالْأَنْعَامِ}: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا كَمْ يَدْخُلُ تَحْتَ لَفْظِ الْأَنْعَامِ مِنَ الْأَصْنَافِ. وَلَكِنَّهُ قَدْ بَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّهَا ثَمَانِيَةُ أَصْنَافٍ هِيَ الْجَمَلُ، وَالنَّاقَةُ، وَالثَّوْرُ، وَالْبَقَرَةُ، وَالْكَبْشُ، وَالنَّعْجَةُ، وَالتَّيْسُ، وَالْعَنْزُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا}[٦: ١٤٢]، ثُمَّ بَيَّنَ الْأَنْعَامَ بِقَوْلِهِ: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ}[٦: ١٤٣]، يَعْنِي الْكَبْشَ وَالنَّعْجَةَ: وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، يَعْنِي: التَّيْسَ وَالْعَنْزَ إِلَى قَوْلِهِ: {وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ}[٦: ١٤٤]: يَعْنِي الْجَمَلَ وَالنَّاقَةَ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، يَعْنِي: الثَّوْرَ وَالْبَقَرَةَ وَهَذِهِ الثَّمَانِيَةُ هِيَ الْمُرَادَةُ بِقَوْلِهِ: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [٣٩: ٦]، وَهِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} الْآيَةَ [٤٢: ١١].

- تَنْبِيهٌ -

رُبَّمَا أَطْلَقَتِ الْعَرَبُ لَفْظَ النَّعَمِ عَلَى خُصُوصِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: ((مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ)): يَعْنِي الْإِبِلَ. وَقَوْلُ حَسَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [الْوَافِرِ]:

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ ... خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ

أَيْ: إِبِلٌ وَشَاءُ.

قال القرطبي: {وَالْحَرْثِ}: هنا اسم لكل ما يحرث، وهو مصدر سمِّي به؛ تقول: حرث الرجل حرثًا إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة؛ فيقع اسم الحراثة على زرع الحبوب وعلى الجنات وعلى غير ذلك من نوع الفلاحة. وفي صحيح البخاري عن أبي أمامة الباهلي قال وقد رأى سكّة وشيئًا من آلة الحرث فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا يدخل هذا بيت قوم إلّا أُدْخِلَهُ الذُّل([2]))). قيل: إنَّ الذُّل هنا ما يلزم أهل الشغل بالحرث من حقوق الأرض التي يطالبهم بها الأئمَّة والسلاطين. وقال المهلَّب: معنى قوله في هذا الحديث والله أعلم: الحثُّ على معالي الأحوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات؛ وذلك لمَّا خشيَ النبي ﷺ على أمَّته من الاشتغال بالحرث وتضييع ركوب الخيل والجهاد في سبيل الله؛ لأنَّهم إن اشتغلوا بالحرث غلبتهم الأمم الراكبة للخيل المتعيِّشة من مكاسبها؛ فحثَّهم على التعيش من الجهاد لا من الخلود إلى عمارة الأرض ولزوم المهنة. ألا ترى أن عمر قال: تمعددوا([3])واخشوشنوا واقطعوا الركب([4])وثبوا على الخيل وثبًا لا تغلبنَّكم عليها رعاة الإبل.

١- صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٧٠)، والنسائي في المجتبى (٣٥٧٩)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٤١٤).

٢- (قلت): البخاري (٢٣٢١).

٣- يقال: تمعدد الغلام اذا شبّ وغلظ. وقيل: أراد تشبهوا بعيش معد بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف؛ أي كونوا مثلهم ودعوا التنعم وزي العجم.

٤- في مسند الإمام أحمد: ((وألقوا الركب)) جمع ركاب: هي الرواحل من الإبل، أو جمع ركوب وهي كل ما يركب من دابة.

فأمرهم بملازمة الخيل، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: ((ما من مسلم غرس غرسًا أو زرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلَّا كان له به صدقة[١])).

قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس؛ أما الذهب والفضة فيتموَّل بها التجار، وأما الخيل المسوَّمة فيتموَّل بها الملوك، وأمَّا الأنعام فيتموَّل بها أهل البوادي، وأمَّا الحرث فيتموَّل بها أهل الرساتيق[٢]. فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتموَّل، فأمَّا النساء والبنون ففتنة للجميع.

قال الطبري: {ذلك}: جميعَ ما ذُكر في هذه الآية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضَّة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث. فكنى بقوله: {ذلك} عن جميعهنَّ. وهذا يدلُّ على أن {ذلك} يشتمل على الأشياء الكثيرة المختلفة المعاني، ويكنَّى به عن جميع ذلك.

قال ابن العثيمين: لماذا قال: {ذلك} بالمفرد المذكر مع أنَّها جماعة؟ والجماعة للعقلاء يقال: هؤلاء، ويقال لغير العقلاء هذه؟ الجواب والله أعلم أنه أعاد اسم الإشارة على مفرد مذكر على تقدير: ذلك المذكور؛ فطوى ذكر هذه السبعة كلُّها وعبَّر وكنى عنها بمذكور وذلك لاحتقارها بالنسبة لنعيم الآخرة.

وقوله: {ذلك متاع الحياة الدنيا}: أي المتعة التي يتمتَّع الناس بها في الحياة الدنيا؛ وغايتها الزوال؛ فإمَّا أن تزول عنها وإمَّا أن تزول عنك؛ أمَّا أن تخلد لك أو تخلد لها فذلك مستحيل لابدَّ أن تفارقها أو أن تفارقك هي؛ وهذا أمر لا يحتاج إلَّا إقامة برهان؛ فهذه الأشياء لو اجتمعت كلُّها للمرء فما هي إلَّا متاع الحياة الدنيا يتمتَّع بها الإنسان ثم يفارقها أو تفارقه هي.

وقوله: {الحياة الدنيا}: فيه حياة لدنيا وحياة أخرى؛ ما هي الحياة الحقيقية؟ قال الله تعالى: {وإنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان} هي الحياة الحقيقية، أما الدنيا فهي حياة بسيطة ليست بشيء، قال النبي ﷺ: ((لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها[٣])).

والدنيا مؤنث أدنى ووصفت بهذا الوصف لدنو مرتبتها بالنسبة إلى الآخرة، وكذلك سمِّيت دنيا لأنها أدنى من الآخرة باعتبار الترتيب الزمني؛ {وللآخرة خير لك من الأولى}، فهي أولى باعتبار الترتيب الزمني، دنيا إذاً قريبة للناس؛ {ذلك متاع الحياة الدنيا}، إذًا ما دمنا نعرف أن هذا متاع الحياة الدنيا فلننظر إلى هذه الأشياء لا نظرة الشهوة ولكن نظرة جد؛ إذا كان ذلك ينفعنا في الآخرة فالنظر إليه طيب ونافع ويكون من حسنة الدنيا والآخرة؛ أمَّا إذا نظرنا إليه مجرَّد نظر الشهوة فإنَّه يخشى

١- (قلت): البخاري (٦٠١٢) عن أنس، ومسلم (١٥٥٢) عن جابر قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((ولا يرزؤه)): أي لا ينقصه ويأخذ منه.

٢- الرساتيق: السواد والقرى واحدها رستاق، وفي ز: البساتين.

٣- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (١٩٧٨).

على المرء أن يغلب جانب الشهوة على جانب الحق؛ ولهذا أدنى الله مرتبة هذه الأشياء ووضعها حيث قال: {ذلك متاع الحياة الدنيا}.

قال الطبري: وأمَّا قوله: {متاع الحياة الدنيا}: فإنَّه خبر من الله عن أن ذلك كلَّه ممَّا يَستمتع به في الدنيا أهلها أحياءً، فيتبلَّغون به فيها، ويجعلونه وُصْلة في معايشهم، وسببًا لقضاء شهواتهم، التي زُيِّن لهم حبُّها في عاجل دنياهم، دون أن تكون عُدَّة لمعادهم، وقُرْبة لهم إلى ربهم، إلَّا ما أسلِك في سبيله، وأنفق منه فيما أمَر به.

قال القرطبي: أي ما يتمتع به فيها ثم يذهب ولا يبقى. وهذا منه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة. روى ابن ماجة وغيره عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة[1])). وفي الحديث: ((إزهد في الدنيا يحبُّك الله[2])): أي في متاعها من الجاه والمال الزائد على الضروري. وسئل سهل بن عبدالله: بم يسهل على العبد ترك الدنيا وكل الشهوات؟ قال: بتشاغله بما أمر به.

قال الطبري: {والله عنده حسن المآب}: يعني: حسن المرْجع، عن السدِّي: {والله عنده حسن المآب}، يقول: حسن المنقلب، وهي الجنة. وهو مصدر على مثال (مَفْعَل) من قول القائل: (آب الرجل إلينا)، إذا رجع، (فهو يؤوب إيابًا وأوبة وأيبةً وَمآبًا).

فإن قال قائل: وكيف قيل: {والله عنده حسن المآب}، وقد علمتَ ما عنده يومئذ من أليم العذاب وشديد العقاب؟

قيل: إن ذلك معنيٌّ به خاصٌ من الناس، ومعنى ذلك: والله عنده حسن المآب للذين اتَّقوا ربهم. وقد أنبأنا عن ذلك في هذه الآية التي تليها.

فإن قال: وما {حسن المآب}؟ قيل: هو ما وصفه به جل ثناؤه، وهو المرجع إلى جنات تجري من تحتها الأنهار مُخلَّدًا فيها، وإلى أزواج مطهرة ورضوان من الله.

قال السعدي: يخبر تعالى أنَّه زيّن للناس حبُّ الشهوات الدنيوية، وخصَّ هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالى: {إنَّا جعلنا ما على الأرض زينة لها}، فلمَّا زيِّنت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلَّقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عمَّا خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتَّعون بلذَّاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده، ليعلم من يقدِّم طاعته

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه رقم: (١٥٠٤).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٩٤٤) عن سهل بن سعد؛ والحديث بتمامه: ((ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس)).

ومرضاته على لذَّاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقًا يتزوَّدون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتَّعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها: {ذلك متاع الحياة الدنيا} فجعلوها معبّرًا إلى الدار الآخرة ومتَّجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم. وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغترين بها وتزهيد لأهل العقول النيِّرة بها.

قال ابن القيم في عدة الصابرين ج١ص١٦٧: فأخبر سبحانه أنَّ هذا الذي زُيِّن به الدنيا من ملاذها وشهواتها وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة وهو سبعة أشياء ..... ثم أخبر سبحانه أن ذلك كلُّه متاع الحياة الدنيا ثمَّ شوَّق عباده الى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- حكمة الله عز وجل في ابتلاء الناس بتزيين حب الشهوات لهم في هذه الأمور السبعة؛ ووجه الحكمة: أنه لو لا هذه الشهوات التي تنازع الإنسان في اتِّجاهه إلى ربه لم يكن للاختبار في الدِّين فائدة؛ يعني لو كان الإنسان لم يغرس في قلبه أو في فطرته هذا الحب لم يكن في الابتلاء في الدين فائدة؛ السبب: لأن الانقياد إلى الدين إذا لم يكن له منازع يكون سهلًا ميسَّرًا؛ ولهذا من أول من يجيب إلى الرسل؟ الفقراء الذين حرموا من الدنيا؛ لأنه ليس عندهم شيء ينازعهم لا المال ولا رئاسة ولا غير ذلك؛ فهذا من حكمة الله أن زيَّن في قلوب الناس حب الشهوات.

٢- أنه لا يذمُّ من أحب هذه الأمور على غير هذا الوجه؛ وهي محبة شهوة؛ وذلك لأنه إذا زين له محبة هذه الأمور لا لأجل الشهوة لم يكن ذلك سببًا لصدِّه عن دين الله، لأن أكثر ما يفتن الإنسان الشهوة إذا لم يكن هناك شبهة، فإن كان هناك شبهة واجتمع عليه شبهة وشهوة حصلت له الفتنتان، ويدلُّ لذلك أن النبي ﷺ قال: ((حبِّب إلي من دنياكم النساء والطيب)) ويدلُّ لذلك أيضًا أنَّ النبي ﷺ رغَّب في النكاح وحثَّ عليه، وأمر به الشباب؛ وممَّا يدلُّ لذلك أيضًا أنَّ النبي ﷺ حثَّ على تزوُّج المرأة الولود، والولود كثيرة الولادة، وإذا كانت ولودًا كثر نسلها ومن نسلها البنون؛ فالمهم أن محبَّة هذه الأشياء لا من أجل الشهوة أمر لا يذم عليه الإنسان.

٣- قوة التعبير للقرآن؛ وأنه أعلى أنواع الكلام في الكمال؛ ولهذا قال: {حب الشهوات} ولم يقل حب النساء، أو حب البنين، أو حب القناطير المقنطرة، بل قال حب الشهوات من هذه الأشياء؛ فسلَّط الحب على الشهوات لا على هذه الأشياء لأن هذه الأشياء حبُّها قد يكون محمودًا كما عرفت.

٤- تقديم الأشدُّ فالأشد؛ ولهذا قدَّم النساء؛ ففتنة شهوة النساء أعظم فتنة، ولهذا قال النبي ﷺ: ((ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء))، ولهذا بدأ بها فقال: {من النساء}.

٥- أن البنين قد يكونون فتنة؛ ويشهد لذلك قوله تعالى: {إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة} والأولاد أعمُّ من البنين.

٦- أنَّ الذهب والفضة من أشدُّ الأموال خطرًا على الإنسان؛ ولهذا قدَّمهما على بقية الأموال؛ فقال: {والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث} لأنها أعظم فتنة من المال، لاسيَّما الموصوفة بهذه الصفات أنها قناطير مقنطرة.

٧- أنه كلَّما كثر المال ازدادت الفتنة في شهوته؛ من أين نأخذه؟ لقوله: {القناطير المقنطرة من الذهب والفضة} ولهذا نجد بعض الفقراء يجود بكل ماله والغني لا يجود بكل ماله، بل بعض الأغنياء نسأل الله العافية يبتلون كلَّما كثر مالهم اشتد بخلهم ومنعهم.

٨- أن الخيل أعظم المركوبات فخرًا؛ ولهذا قال: {الخيل المسومة}، ولاسيَّما إذا كانت مسوَّمة أي معتنًى بها، أو مسوَّمة مطلقة في المرعى معتنًى بها في رعيها فإنَّها تكون أعظم المركوبات فتنة.

٩- أن فتنة الأنعام الإبل والبقر والغنم دون فتنة الخيل بناء على الترتيب وأن الترتيب في هذه الآية من الأعلى إلى الأدنى.

١٠- أن من الناس من يفتن في الحرث، في الزراعة فيفتن بها ويزدرع على الوجه المشروع وغير المشروع.

١١- أن هذه الأشياء كلُّها لا تعدوا أن تكون متاع الحياة الدنيا؛ لقوله: {ذلك متاع الحياة الدنيا}.

١٢- التزهيد في التعلُّق بهذه الأشياء؛ لقوله: {ذلك متاع الحياة الدنيا} وكل ما كان للدنيا فلا ينبغي للإنسان أن يتبعه نفسه؛ لأنه زائل؛ لا تتبع نفسك شيئًا من الدنيا، إلَّا شيئًا تستعين به على طاعة الله حتى ينفعك، وأنت سوف تنال منه ما يناله من أتبع نفسه متاع الحياة الدنيا للدنيا؛ يعني مثلًا أن الرجل الذي يأكل العشاء، من الناس من يأكله لأجل أن يحفظ بدنه، أو أن يحفظ جسمه، يأكله امتثالًا لأمر الله، يأكله استعانة به على طاعة الله، يأكله تمتُّعًا بِنعم الله فيؤجر على ذلك، ومن الناس من يأكله لمجرَّد الشهوة ليملأ بطنه فيحرم هذا الأجر، يحرم هذا الأجر لأنَّه نوى به مجرَّد الشهوة فقط.

١٣- تنقيص هذه الحياة؛ لقوله: {الحياة الدنيا}.

١٤- أنَّ ما عند الله خير من هذه الدنيا؛ لقوله: {والله عنده حسن المآب}.

١٥- أنَّ من تعلَّق بهذه الأشياء تعلُّق شهوة، فإن عاقبته لا تكون حميدة؛ لأنَّ الله لمَّا ذكر التَّعلُّق على وجه الشهوة بهذه الأشياء قال: {والله عنده حسن المآب} فكأنَّه يقول: ولا حسن مآب لهذا المتعلِّق بهذه الأشياء؛ أي أنَّ عاقبته ليست حميدة؛ هكذا ذكر بعضهم؛ ولكن في نفسي منها شيء والذي يظهر لي أنَّ الآية ختمت بهذا {والله عنده حسن المآب} من أجل ترغيب الإنسان بما عند الله عز وجل وأن لا يتعلَّق بهذا المتاع في الحياة الدنيا.

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{١٥}

قال ابن العثيمين: الخطاب في {قل} للنبي ﷺ؛ وقد ذكرنا في ما سبق أن الله إذا صدَّر القول ب{قل} كان في ذلك دليل على عناية الله به، وأنه أمر رسوله ﷺ أمرًا خاصًّا وأنَّه أمَر رسوله ﷺ بإبلاغه على وجه الخصوص؛ وإلَّا فإنَّ كل القرآن قد قيل للرسول ﷺ: {قل يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك}، لكن أحيانًا يذكر الله عز وجل شيئًا يصدره ب{قل} للدلالة على العناية به. ولننظر العناية بما يذكر جاءت من أكثر من وجه؛ أولًا: لأن الله صدَّرها ب{قل}؛ وثانيًا: أنه صدَّرها بالاستفهام {أؤنبئكم بخير من ذلكم}: يعني أأخبركم بخير من ذلكم؟ يعني المشار إليه في الآية السابقة؛ والاستفهام يفيد تنبيه المخاطب، وحضور قلبه لما سيلقى إليه فهو كقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم}؛ ثمَّ فيه أيضًا في هذا الاستفهام معنى غير التنبيه وهو التَّشويق {أؤنبئكم بخير من ذلكم}: يعني بعد أن قصَّ الله علينا متاع الحياة الدنيا أمر نبيه أن يقول للناس: {أؤنبئكم بخير من ذلكم} ليشوِّقهم إلى ذلك الخير. وقوله: {أؤنبئكم بخير من ذلكم}، قال: {أؤنبئكم} ولم يقل: أأخبركم؛ لأن النبأ إنَّما يقال في أمور الهامَّة كقوله: {عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم}، ولهذا قيل للنَّبي: نبي ولم يقل: مخبر؛ فهذا أمر هام يحتاج إلى الإنباء عنه؛ وقوله: {بخير من ذلكم} ولم يقل: من ذلك؛ لأن المخاطب جميع الناس.

وقوله: {أؤنبئكم} الاستفهام هنا للتَّشويق لما ذكر متاع الحياة الدنيا السبعة الأنواع السابقة قال: {أؤنبئكم} يشوِّقنا إلى ما هو خير من ذلك {أؤنبئكم}: أي أخبركم بخير من ذلك.

قال أبو زهرة: فالإستفهام للتنبيه، وقد حوى من طرق التنبيه ثلاثة: أولها: التعبير ب{أَؤُنَبِّئُكُم}؛ لأنَّ الإنباء معناه الخبر العظيم الخطير الشأن، وثانيها: التعبير ب{ذَلِكُمْ} بالإشارة للبعيد للدلالة على عظيم شأن ما سيخبرهم به، وبالتعبير ب{كم} كأنَّه يدعوهم جميعًا ليستمعوا إلى ما سيخبرهم به، وثالثها: التعبير ب{خير} الدَّالة على الأفضلية، وأنَّ نعيم الجنة خير لَا شر فيه قط، وأنَّ نعيم الدنيا لَا يخلو من شر.

قال ابن العثيمين: {بخير من ذلكم} المشار إليه ما سبق من متاع الحياة الدنيا بأنواعها السبعة؛ ولكن قد يقال، قد يقول قائل: لماذا أشار إليه بلفظ المفرد المذكر؟ نقول: لأجل طي ذكره بشيء واحد؛ كأنه قال: بخير من ذلكم المذكور؛ حتى لا يشار إلى التفصيل فيه لأن الدنيا كلُّها في الواقع ينبغي أن يزهد فيها الإنسان ولا يهتم بها، ألم ترى إلى قوله ﷺ: ((فمن

كانت هجرته إلى الله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه([١]))، ولم يُذكر تحقيرًا لها.

وقوله: {قل أؤنبئكم بخير من ذلكم}، هذا كما قلت استفهام؛ الجواب: هو مضمون قول: {للذين اتَّقوا عند ربهم ...} هذا {للذين اتَّقوا عند ربهم جنت تجري}.

وقوله: {للذين اتَّقوا} لا يخفى علينا جميعًا إنَّه خبر مقدَّم، و{جنات} مبتدأ مؤخَّر؛ وتقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن من الفوائد المعروفة في البلاغة أن تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر. {للذين اتَّقوا عند ربهم} اتَّقوا الله عز وجل؛ {يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله}. وأحيانًا يؤمر باتّقاء اليوم يوم القيمة كما في قوله: {واتَّقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله}. وأحيانًا نؤمر بتقوى النار؛ {واتَّقوا النار التي أعدَّت للكافرين}، ولكن المعاني وإن اتَّفقت في أصل الوقاية لكنَّها تختلف؛ لأن تقوى الله عز وجل تستلزم الخوف منه وتعظيمه؛ أمَّا النار فإن تقواها تستلزم الخوف منها فقط لكنَّها ليست تقوى عبادة وإنابة وتعلُّق بها، بل تقوى فرارًا منه؛ وكذلك تقوى اليوم الذي نرجع فيه إلى الله وهو يوم القيمة. المهم أن قوله: {للذين اتَّقوا} ينبغي أن نحملها على أعلى أنواع التَّقوى وأفضلها وهي تقوى الله عز وجل؛ لا تقوى اليوم الآخر ولا تقوى النار؛ لأن تقوى الله يحمل على تقوى اليوم الآخر وعلى تقوى النار.

قال بعض العلماء في تقوى الله: أن تعمل في طاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ وهذا يتضمَّن الإخلاص والعلم؛ العلم قوله: على نور من الله؛ والإخلاص: ترجوا ثواب الله وتخشى عقاب الله؛ يعني لا يحملك على هذا حب الدنيا، أو الجاه، أو الرئاسة، أو ما أشبه ذُلَّ.

وقال بعض العلماء: إن تقوى الله: أن يخلي الإنسان جميع الذنوب صغيرها وكبيرها وعلى هذا قول الشاعر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى

واعمل كماش فوق أرض ... الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنَّ صغيرة ... إن الجبال من الحصى

وقال بعض العلماء تقوى الله عز وجل: اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في التَّقوى؛ إنها اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ ثمَّ اعلم أن التَّقوى أحيانا تقرن بالبر، وأحيانًا تفرد؛ فإن قرنت بالبر صار معناها اجتناب المعاصي؛ والبر فعل الطاعات؛ وإن أفردت عنه صارت شاملة لفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ ولهذا الاستعمال في الكلمات شواهد كثيرة، أو نظائر كثيرة على الأصح كالفقير والمسكين؛ الفقير والمسكين إن ذُكِرا جميعًا صار لكل واحد منهما معنى؛ وإن أفرد أحدهما صارا بمعنى واحد؛ كذلك الإيمان والإسلام عند الإفراد يدخل أحدهما في الآخر وعند الجمع يكون لكل واحد منهما معنى غير الآخر. قوله: {للذين اتَّقوا} إذا اتَّقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

١- (قلت): البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

{عند ربهم} العندية هنا تفيد فضلًا عظيمًا لأنَّها هي القرب من الله عز وجل {عند ربِّهم} كما قال الله تعالى: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون}، كما قال تعالى: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون} ثواب المتَّقين عند الله والعندية تفيد القرب ولا أقرب من شيء يكون سقفه عرش الله عز وجل كالفردوس الأعلى أسأل الله أن يجعلني وإيَّاكم من أهلها هذه العندية تفيد القرب {إن المتَّقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر}. وقوله: {عند ربهم} الرب كما سبق هو الخالق المالك المدبِّر؛ وسبق أيضًا قريبًا أن ربوبية الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى عامة وخاصة؛ والربوبية هنا {عند ربهم} ربوبية خاصة؛ لأن الله تعالى وفَّقهم لما حرمه كثير من عباده.

قال القرطبي: منتهى الاستفهام عند قوله: {مِنْ ذَلِكُمْ}، {للذين اتَّقوا} خبر مقدَّم، و{جنات} رفع بالابتداء. وقيل: منتهاه {عند ربهم}، و{جنات} على هذا رفع بابتداء مضمر تقديره ذلك جنات. ويجوز على هذا التأويل {جنات} بالخفض بدلًا من {خير} ولا يجوز ذلك على الأول. قال ابن عطية: وهذه الآية والتي قبلها نظير قوله ﷺ: ((تنكح المرأة لأربع لمالها وحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك(١)))، خرجه مسلم وغيره. فقوله: ((فاظفر بذات الدين)) مثال لهذه الآية. وما قبل مثال للأولى. فذكر تعالى هذه تسلية عن الدنيا وتقوية لنفوس تاركيها.

قال ابن العثيمين: {عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار} جنات كثيرة متنوعة ذكر الله تعالى في سورة الرحمان أن أنواعها أربعة: فقال: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ثم قال: {ومن دونهما جنتان} وأخبر النبي ﷺ أن جنتين من ذهب وجنتين من فضة؛ وهذا باعتبار الجنس أما الأنواع فكثيرة لأن لكل أمَّة ما يختص بها من الثواب؛ ولكل فرد من الأمَّة ما يختصُّ به من الثواب؛ ونحن نعرف الآن أن الفواكه في الدنيا اسمها واحد ولكن تختلف فالرمان مثلًا يكون في هذا البستان يكون جيِّدًا وفي البستان الثاني يكون رديئًا؛ وكذلك بقيَّة الفواكه؛ كذلك الجنة تختلف؛ حتى وإن اشتركت أنَّ كلُّها رمَّان، كلُّها فواكه وما أشبه ذلك تختلف من شخص لأخر كما قال الله تعالى: {ولكلٍّ درجات ممَّا عمل}، وأخبر النبي ﷺ أن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف العالية كما تتراءون الكوكب الدريُّ الغابط في الأفق، فهي درجات عظيمة؛ فهنا قال: {جنات} بالجمع لتعدُّد أجناسها، وأنواعها، وأفرادها؛ والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار؛ ولكن الجنات التي وعد الله بها المتَّقين هي دار النعيم المقيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. يقول: {جنات تجري من تحتها الأنهار}: تجري من تحتها، ليس من تحت أرضها بل فوق أرضها لكن من تحت أشجارها وقصورها، أنهار مطَّردة، وأنهار مختلفة الأنواع، أربعة أنواع: {أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه وأنهار من خمر لذَّةٍ للشاربين وأنهار من عسل مصفى} هذا الماء لم يخرج من الآبار ولم يذب من الجليد؛ وهذا العسل لم يخرج من النحل؛ وهذا اللَّبن لم

١- (قلت): البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

يخرج من بهيمة ولكن الذي خلق هذا في الدنيا من هذه الأشياء المعلومة قادر على أن يخلقه عز وجل في الآخرة ابتداء؛ لبن مخلوق نهر يجري؛ عسل كذلك؛ خمر لذَّةٍ للشاربين كذلك؛ فهذه الأنواع الأربعة تجري من تحت هذه القصور الفخمة والأشجار اليانعة تبهت الناظرين، تسرُّ القلب، لا يتصوَّر الإنسان ما فيها من النعيم. يقول: {تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها}، {خالدين فيها} هذا أيضًا من كمال النعيم؛ الخلد، {لا يذوقون فيها الموت} بل يقال لهم خلود ولا موت فيسرُّون؛ بل يقال لهم: إنَّ لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدًا وأن تصحوا فلا تسقموا أبدًا وأن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا وأن تحيوا فلا تموتوا أبدًا.

{وأزواج مطهَّرة} معطوفة على {جنات} جنات وأزواج؛ وعطفها عليها لاختلاف نوع التلذُّذ؛ فتلذُّذ الجنات تلذُّذ شهوة البطن؛ والتلذُّذ بالأزواج تلذُّذ آخر، من نوع آخر؛ ولهذا قال: {أزواج} من الحور العين ومن نساء الدنيا؛ والإنسان الذي له زوجة في الدنيا تبقى له زوجة في الآخرة؛ وإذا كان ذات زوجين فإنَّه تخيَّر بينهما، وإذا لم يكن للإنسان زوجة في الدنيا فإنَّ في الجنة من ليس لهنَّ أزواج في الدنيا يزوِّج هذا من هذه، وهناك أيضًا أزواج من نوع آخر وهن الحور العين، والحور العين أيضًا داخلة في قوله: {وأزواج مطهَّرة}، {مطهَّرة} من كل رجس حسي أو معنوي، مطهَّرة من كل رجس حسي أو معنوي؛ فالحسي: مثل البول والغائط والحيض والعرق المنتن والنخامة وما أشبه ذلك؛ والمعنوي: الغل والحقد والفجور وكراهة الزوج وما أشبه ذلك؛ المهم أن الله أطلق قال: {مطهَّرة} ولم يقل من كذا وكذا من أجل إفادة العموم؛ لأن من القواعد المعروفة أن حذف المعمول يؤذن بعموم العامل، قاعدة معروفة عندهم أن حذف المعمول يؤذن بعموم العامل؛ ولهذا أمثلة كثيرة مثلًا: قوله تعالى للرسول ﷺ: {ألم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالًا فهدى ووجدك عائلًا فأغنى}، قال: {ألم يجدك يتيمًا}، لم يقل: (فآواك)؛ {ووجدك ضالًّا} ولم يقل: (فهداك) مع أن الخطاب له؛ {ووجدك عائلًا}، ولم يقل: (فأغناك)، بل حذف المفعول ليؤذن على عموم العام؛ فالرسول ﷺ وجده ربه يتيمًا فآواه لكن ما آواه وحده، آواه وآوى به حتى جعله فيئة لكل مؤمن؛ ضالًّا فهداه وهدى به؛ عائلًا فأغناه وأغنى به؛ من أين للعرب هذه الغنائم العظيمة التي ما فكروا أن يغنموه، كيف يغنم العرب رعاء الشاه والإبل أرض فارس والروم إلَّا بالنبي ﷺ وبدينه. المهم أن هذه القاعدة معروفة مقرَّرة وهو أن حذف المعمول يؤذن بعموم العام؛ إذًا {أزواج مطهَّرة}، لم يذكر المعمول فيدلُّ على أنها مطهَّرات من كل رجس حسي أو معنوي؛ وقوله: {أزواج مطهَّرة} لم يقل: مطهَّرات لماذا؟ لأن نعت الجمع يجوز أن يكون مجموعًا وأن يكون مفردًا إلَّا جمع المؤنث السالم فإنه يكون مجموعًا؛ فتقول مثلًا: مررت بنساء مؤمنة ونساء مؤمنات، وتقول: مررت بمسلمات صالحات ولا تقل: بمسلمات صالح؛ وهنا أزواج جمع تكسير فيجوز في وصفه الإفراد والجمع، يجوز أزواج مطهَّرات، وأزواج مطهَّرة؛ قال ابن مالك: والله يقضي بعباد وافرة؛ ولو قال وافرات لصح.

{ورضوان من الله}، الله أكبر هذا أعظم شيء {رضوان من الله} أن الله سبحانه وتعالى يحلُّ عليهم رضاه فلا يسخط عليه بعده أبدًا([1])، ما يسخط عليهم؛ وهذا أعظم ما يكون كما قال الله سبحانه وتعالى لمَّا أعدد نعيم أهل الجنة قال: {ورضوان من الله أكبر}، أكبر من هذا كلُّه لأنه إذا رضي عليك محبوبك الذي تسعى إلى الوصول إليه منذ عرفت ومنذ ميَّزت فإن هذا أعظم مقصود للإنسان أن ينال رضا الله عز وجل؛ وأعظم من ذلك النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى كما قال الله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} ولا ألذَّ وأمتع وأحسن لأهل الجنة من النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى؛ فأعلى الشيء النظر إلى وجه الله، الرضوان يليه، المتعة الجسدية في الجنة تلي هذا؛ ولهذا قال: {ورضوان من الله} فأفرده بالذِّكر لأنه نعيم قلب؛ وما سبقه نعيم بدن وجسد أمَّا هذا فنعيم قلب؛ ولهذا يقول الله عز وجل: ((إني أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)).

قال أبو زهرة: هذه متع الآخرة، وهي أعلى مقامًا، وأعظم مكانًا من نعيم الدنيا، وهي أربعة:

أولها: {جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}، وفي هذه الجنات ما لَا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وثانيها: الخلود، وهو نعمة وحده، فكل ما في الدنيا عرض زائل يعروه الفناء، وما فى الآخرة دائم البقاء.

وثالثها: {وَأَزْوَاجٌ مطَهَّرَةٌ} لَا دنس فيها، ولا ما يشينهن أو يوجد الريب، فلا معكر من شر أو ما يشبهه.

ورابعها: وهو أعظمها بل أعظم ما في الوجود، وهوِ {وَرِضْوَانٌ منَ اللَّهِ}: أي رضا عظيم من خالق الخلق، ومبدع الكون ومنشئ الوجود، فالرضوان مصدر كالرضا، ولكن يزيد عليه أنه الرضا العظيم؛ لأن زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، ولأنَّ التنكير قصد به التفخيم والتعظيم، ولأنَّه إبهامه ثمَّ بيان مصدره فيه إشارة إلى شرف هذا الرضا بإضافة لأعظم نسبة إذ هو منسوب إلى الله جل جلاله.

قال ابن العثيمين: {والله بصير بالعباد}: الله سبحانه وتعالى بصير بالعباد الذين يريدون الدنيا والذين يريدون الآخرة فهو بصير بهم؛ فهو بصير بالعباد بصر نظر لا يغيب عن نظره شيء، بصير بهم بصر علم {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

وقوله: {بالعباد} المراد به العبودية العامة؛ بصير بكل العباد مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، متَّقيهم وعاصيهم، كل العباد فالله تعالى بصير بهم، وهو سبحانه وتعالى بصير بمن يستحق أن يكون من المتَّقين ومن يستحق أن يكون من العاصين؛ فالمعصية بحكمته وعدله، والطاعة برحمته وفضله.

١- (قلت): يقصد الشيخ الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (١٨٣): إذا دخل أهل الجنة يقول الله تعالى لهم: ((تريدون شيئًا أزيدكم؟)) فيقولون: يا ربنا وأيُّ شيءٍ أفضل من هذا؟ فيقول: ((رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)).

قال الطبري: {والله بصير[١]بالعباد}: يعني بذلك، واللهُ ذو بصر بالذي يتَّقيه من عباده فيخافه، فيطيعه، ويؤْثر ما عنده ممَّا ذكر أنَّه أعدَّه للذين اتَّقوه على حُبِّ ما زُيِّنَ له في عاجل الدنيا من شهوات النساء والبنين وسائر ما عدَّد منها تعالى ذكره، وبالذي لا يتَّقيه فيخافه، ولكنه يعصيه، ويطيع الشيطان، ويؤثر ما زيّن له في الدنيا من حب شهوة النساء والبنين والأموال، على ما عنده من النَّعيم المقيم، عالمٌ تعالى ذكره بكلِّ فريق منهم، حتى يجازي كلَّهم عند معادهم إليه جزاءَهم، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

قال أبو زهرة: وصدَّر سبحانه القول بلفظ الجلالة لتربية المهابة في القلوب، وإشعارها بعظمته. وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليمًا بخفي أحوالهم، فإنه سيجزي المحسن إحسانًا والمسيء عقابًا؛ فهذه الجملة السامية فيها وعد ووعيد، وفيها إشعار برقابة العلي القدير، مما يجعل المؤمن التَّقي يشعر دائمًا بأن الله يراه، وإن لم يكن هو يراه، ويتحقَّق قول الرسول ﷺ: ((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٢])).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أهميَّة هذا النبأ، وذلك من وجهين هما: تصديره بقل؛ والثاني: إتيانه بصيغة الإستفهام الدالَّة على التشويق؛ أما الأول فقد قلنا: إن كل شيء يصدر الله بقل فهو أمر بتبليغه على وجه الخصوص، وهذا يدلُّ على العناية به، وإلَّا فكل القرآن قد أمر النبي ﷺ أن يقوله للأمَّة.

٢- أنَّ النبي ﷺ عبد يُؤمر ويُنهى؛ لقول الله تعالى: {قل أؤنبئكم} وليس له الحق في الربوبية أبدًا، فهو لا يحيي ولا يميت، ولا يرزق، ولا يدفع الضر عن نفسه، ولا عن غيره، ولا يعلم الغيب. ولكن يمتاز عن الناس بالرسالة، {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي} ونعمت الميزة هذه؛ وهو أيضًا ﷺ نفسه شخصيًّا هو عنده من الاستعداد لتحمل أباء الرسالة ما ليس عند غيره كما قال الله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته}.

٣- عناية الله سبحانه وتعالى بخلقه؛ فإنه لمَّا ذكر ما زيّن لهم من الشهوات في الأمور السبعة، يخشى أن ينصرف الناس إلى هذه الشهوات، فمن عناية الله بهم أن أمر رسوله ﷺ أن ينبئهم بما هو خير من ذلك.

٤- حسن أسلوب التعليم والدعوة، وأنه ينبغي للإنسان في مقام الدعوة أن يأتي بالألفاظ التي توجب الانتباه؛ لأن الإنسان إذا قيل له: ألا أنبِّئك بكذا وكذا؟ سوف يتشوَّق وينتبه ما هذا الذي تريد أن تنبئني به، بخلاف ما لو جاء الكلام مرسلًا لم يكن له هذا الوقت.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء.

٢- (قلت): البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

٥- جواز المفاضلة بين شيئين بينهما فرق عظيم؛ لقوله: {بخير من ذلكم} ومعلوم أن كل ما ذكر من الشهوات السبع لا يساوي شيئًا أبدًا بالنسبة لثواب الآخرة؛ قال النبي ﷺ: ((لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها([1]))).

ولقد جاء مثل هذه الصيغة في القرآن، تفاضل بين شيئين بينهما فرق عظيم {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا وأحسن مقيلًا} بل إنَّ الله قال تنزُّلًا مع الخصم أو موافقة الخصم في دعواه قال: {آلله خير أمَّا يشركون}.

٦- أن هذا الخير الذي شوّق الله العباد إليه ثابت للمتَّقين؛ لقوله: {للذين اتَّقوا عند ربهم} وسبق معنى التَّقوى.

٧- أن هذا الخير لهؤلاء المؤمنين في أكرم الجوار، وهو جوار رب العالمين؛ لقوله: {عند ربهم جنات} فأقرب الناس إلى الله هم أصحاب الجنة، ولهذا جعلهم الله عنده، كما في قوله تعالى: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يستجدون}.

٨- عظم هذه الجنات لكونها عند الله في جواره سبحانه وتعالى.

٩- أن جزاء هؤلاء المتَّقين هذه الدار العظيمة المشتملة على النعيم الذي لا نظير له؛ لقوله: {جنات تجري من تحتها الأنهار}.

١٠- الحثُّ على تقوى الله لأن ذكر ثواب المتَّقين يتضمَّن الحثُّ على التَّقوى.

١١- عناية الله سبحانه وتعالى بهؤلاء القوم؛ لقوله: {عند ربهم} والربوبية هنا خاصة.

١٢- أن هؤلاء السادة يتنعمون في ثواب الله بكل أنواع النعيم بالأكل والشرب والنكاح؛ الأكل والشرب في قوله: {جنات تجري من تحتها الأنهار} فمن الجنات يأكلون، ومن الأنهار يشربون؛ أمَّا النكاح فقال: {وأزواج مطهَّرة} وهذه أصول لذائذ البدن، الأكل والشرب والنكاح.

١٣- فضيلة الأزواج في الجنة بكونهنَّ مطهَّرات {وأزواج مطهَّرة} وسبق لنا معنى التطهير أنه الحسي ومعنوي.

١٤- أن تمام نعيم هؤلاء برضوان الله؛ لقوله: {ورضوان من الله} وقد بيَّن الله تعالى في سورة التوبة أن هذا الرضوان أكبر النعيم فقال: {ورضوان امن الله أكبر}.

١٥- إثبات صفة الرضا لله؛ لقوله: {ورضوان من الله} والرضا من الصفات الفعلية لأنه يتعلَّق بمشيئته، متى وجد سبب الرضا وجد الرضا؛ وكل صفة معلَّقة بسبب فإنها من الصفات الفعلية.

١٦- إحاطة الله سبحانه وتعالى بالعباد علمًا ورؤية؛ لقوله: {والله بصير بالعباد}.

١٧- بيان حكمة الله عز وجل حيث قسم الناس إلى قسمين: متَّقين، وعصاة؛ وأخذنا ذلك من قوله: {للذين اتَّقوا عند ربهم} بعد قوله: {زين للناس حب الشهوات}، فدلَّ هذا على أن الناس قسمان: قسم متَّقي وقسم غير متَّقي عاصي.

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (١٩٧٨).

١٨– أن الله سبحانه وتعالى حكيم حيث جعل التَّقوى في أهله؛ لقوله: {والله بصير بالعباد} فمن بصره بعباده أن جعل هؤلاء متَّقين والآخرين عصاة، وهؤلاء ثوابهم الجنة وأولئك ثوابهم النار؛ ولاشك أن هذا من حكمة الله سبحانه وتعالى فإن الله كما هو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعل ميراث رسالته، وميراث رسالته هو العلم، العلم المتضمِّن للدعوة والعباد.

١٩– أنَّ كل الخلق عباد لله؛ لقوله: {والله بصير بالعباد}؛ وجه الدلالة؟ إنَّ الله بصير بعباده؛ وجه الدلالة أنَّه عام؟ لأنه قال: {للعباد}؛ مع قوله: {للذين اتَّقوا عند ربهم جنات} فدلَّ هذا على أنه بصير بجميع العباد: المتَّقي وغير المتَّقي.

٢٠– التَّحذير من مخالفة أمره؛ لأنه متى علم الإنسان أن الله بصير به فسوف يرتدع، أو فسوف يردع نفسه عن مخالفة ربه؛ لأنه إذا خالف ربه فالله بصير به وسوف يجازيه بحسب مخالفته.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {١٦}

قال أبو زهرة: هذه أوَّل أوصاف المؤمنين الذين استحقُّوا ذلك الجزاء الكريم من رب العالمين: {الَّذِينَ يَقُولُونَ}، وهذا الوصف يدلُّ على أنَّهم دائمًا متذكِّرون للإيمان وحالهم إنَّما هو تصديق للنبي ﷺ في كل ما جاء به، فلسان حالهم دائمًا أنَّهم يقولون {آمَنَّا}: أي أنَّهم يقولون إنَّهم يذعنون ويصدِّقون كل ما جاء به القرآن الكريم، وهدي النبي الأمين، ومن كان لسان حاله تذكُّر الإيمان والإذعان لأمر الله تعالى لَا تكون منه معصية كبيرة، ولا إهمال لأوامر الله تعالى، لأنَّ ارتكاب المعاصي يتنافى مع الإذعان المطلق، وتذكُّر الإيمان الدائم؛ إذ المعصية تكون في غفلة القلب وعدم تذكُّر الإيمان؛ ولذا قال ﷺ: ((لا يزني الزاني وهو مؤمن([1]))).

قال ابن العثيمين: {الذين يقولون ربنا إننا آمنا} هذه بيان {للذين اتَّقوا} لا للعباد؛ لأن العباد كلُّهم لا يتَّصفون بهذه الصفات؛ لكن المتَّقين هم الذين يتَّصفون بهذه الصفات، {الذين يقولون ربنا إنَّنا آمنَّا} قوله: {يقولون} يريد بذلك القول باللسان والاعتقاد بالجنان؛ لأن الله تعالى إذا أطلق القول بالإيمان ولم يتعقب كان المراد به القول باللسان والعقد بالجنان؛ ودليل ذلك: قوله تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}، لما كان المراد بهذا القول، القول باللِّسان فقط قال: {وما هم بمؤمنين}؛ أمَّا إذا أطلق الله القول بالإيمان عامًّا، فإنَّه يريد به القول باللسان والعقد بالجنان؛ ولهذا قال عز وجل: {قولوا آمنا بالله} لا يريد أن نقول ذلك باللِّسان فقط بل باللِّسان والجنان؛ إذًا {الذين يقولون ربنا آمنَّا} بألسنتهم نطقًا وبقلوبهم عقدًا يعني اعتقادًا.

١– (قلت): متفق عليه. البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

وقوله: {الذين يقولون ربنا}: توسلوا إلى الله بربوبيته للإخبار بحالهم في الإيمان به؛ كأنهم يقولون: ربنا آمنَّا، ولكنَّنا لم نصل إلى الإيمان إلَّا بربوبيتك لنا تلك الربوبية الخاصة المقتضية للعناية التامَّة، يقولون: {ربنا إنَّنا آمنَّا} فهذا كالإشعار بأنَّهم لم يصلوا إلى الإيمان إلَّا بمقتضى هذه الربوبية الخاصة المقتضية للعناية التامة. {إنَّنا آمنَّا} آمنَّا بكل ما يجب الإيمان به. وقد سأل جبريل النبي ﷺ ما الإيمان؟ قال: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره))، وقال الله تعالى: {كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله}، فالإيمان هنا يشمل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به وهي ستة أنواع: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. الإيمان ليس هو مجرَّد التصديق، لأن مجرَّد التصديق ليس بإيمان؛ ولهذا يقال: (آمنا به)؛ ويقال: (آمنا له)، وبينهما فرق؛ ويقال: (صدَّقه) وبينهما فرق أيضًا؛ فالإيمان لابدَّ أن يكون مقرونًا بقبول وإذعان، يعني: يصدِّق، ثم يقبل، ثم يذعن؛ ولهذا يقال: (آمنت به)؛ ولا يقال: (آمنته)؛ ولو كان الإيمان مرادفًا للتَّصديق لصحَّ أن يقال: (آمنته) كما يقال: (صدَّقته)، إذًا الإيمان يتضمَّن معنًى زائدًا على مجرَّد التَّصديق، بل هو تصديق متضمِّن لقبول وإذعان؛ ولهذا كلُّنا يعلم حسب ما جاء في التاريخ أن أبا طالب مصدِّق لرسول الله ﷺ، مصدِّق له، ويرى أن ما أخبر به مثل الشمس حتى إنه ليقرُّ بذلك في قصائده، يقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذَّب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطيل

أنظر، ليس مكذِّبًا ولا يعنى بقول الأباطيل؛ إذًا يكون عنده مصدِّق؛ ويقول: {ولقد علمت بأن دين محمد خير أديان البرية دينا لو لا الملائمة أو حذار مسبة لرأيتني سمحًا بذاك مبينًا}؛ إذًا هو مصدِّق لكن لم يكن تصديقه متضمِّنًا للقبول والإذعان، ما قبل ولا أذعن؛ إذًا لابدَّ في الإيمان من القبول والإذعان.

{فاغفر لنا ذنوبنا}: الفاء هنا للسببية: أي بسبب إيماننا فاغفر لنا؛ لأن الإيمان لاشكَّ أنَّه وسيلة للمغفرة، وكلَّما قوي الإيمان قويت أسباب المغفرة، وصارت حسناته تذهب سيئاته؛ ولهذا قال: {فاغفر لنا}: أي بسبب الإيمان اغفر لنا؛ وهذا من باب التوسل بالطاعة لقبول الدعاء.

{اغفر} فعل دعاء وليس فعل أمر؛ لأن الله لا يؤمر؛ العبد لا يأمر الله لكنَّه يدعوه؛ إذًا كل فعل بصيغة الأمر وجِّه إلى الله فهو دعاء، يسمَّى فعل دعاء ولا يسمَّى فعل أمر.

والمغفرة مأخوذة من الغفر وهو الستر مع الوقاية ومنه المغفر الذي يلبسه المقاتل في رأسه ليستر الرأس ويقيه السِّهام؛ فليست المغفرة مجرَّد الستر بل هي ستر ووقاية؛ ولهذا نقول: مغفرة الذنوب سترها عن الناس والعفو عن عقوباتها؛ ويدلُّ لهذا: أن الله سبحانه وتعالى يخلوا يوم القيمة بعبده المؤمن ويقرِّره بذنوبه يقول: ((عملت كذا وعملت كذا حتى

يقر))، فيقول الله عز وجل: ((قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم[١])): يعني لا أجازيك عليه؛ والحمد لله رب العالمين أن الله عز وجل يستر الذنوب على عباده والله لو لا هذا لا فتضح كثير من الناس؛ يقال: إن بني إسرائيل كان واحد منهم إذا أذنب ذنبًا أصبح وذنبه مكتوب على بابه والعياذ بالله، فضيحة؛ أمَّا هذه الأمَّة فستر عليها ولله الحمد ولكن فتح عليها أبواب التوبة على كما يقولون: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا}، فالله عز وجل يمهل الإنسان ويحلم عليه، وإذا وفِّق اتَّعظ من نفسه بنفسه، هو نفسه يفكر ماذا عملت، فيستحيي من الله عز وجل، ويخشى أن يفضحه الله، لأن الإنسان إذا تجرَّأ على ربه في السِّر فربَّما يفضحه بالعلانية إذا لم يتب إلى الله عز وجل؛ فإن تاب تاب الله عليه، وأبدل سيئاته حسنات.

{فاغفر لنا ذنوبنا}: الذنوب هي المعاصي؛ وهي إما قبائح، وإما دون ذلك، وكلها تحتاج إلى مغفرة والى أن يستغفر الإنسان منها، ولا تظن أن الصغائر إذا كفرت بالحسنات لا تظن أنَّها كما لو كفرت بالتوبة؛ لأن بينهما فرقًا عظيمًا؛ إذا كفرت بالتوبة أبدلت السيئات بالحسنات؛ وإذا كفرت بالطاعات فإنَّها تمحى فقط، لكنَّها لا تبدَّل بالحسنات؛ يقول الله عز وجل: {إن الحسنات يذهبن السيئات}، ويقول: {إلَّا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات}، وهناك فرق بين الأمرين؛ فرق بين أن تذهب السيئة بالحسنة وبين أن تبدل السيئة حسنة.

قال أبو زهرة: وإذا كان الإيمان بالله مستوليًا على شعورهم فهم دائمًا يغلبون الخوف على الرجاء والضراعة على الطمع، ولذا رتَّبوا على هذه الحالة طلبهم المغفرة وقالوا: {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فهم دائمًا يحسُّون بعظم أخطائهم، وذلك من قوَّة إيمانهم، وقوَّة إذعانهم، ولذلك يطلبون الستر والغفران، والوقاية من النار، وذلك كلُّه من قوَّة الوجدان الديني، وعظم سلطان النفس اللَّوامة، والضمير المستيقظ، فتكبُر في نظرهم هفواتهم، وتصغُر حسناتهم، ويعتقدون أنه لَا جزاء إلَّا أن يتغمَّدهم الله برحمته.

قال ابن العثيمين: {وقنا عذاب النار}: من الوقاية، يعني: قنا إيَّاه؛ وهل المراد {قِنا} عند استحقاقنا له؟ أو {قِنا العذاب} حتى لا نعمل الذي يوصلنا إلى العذاب؟ أو الأمرين جميعًا؟ الظاهر أن المراد الأمران جميعًا، فيكون هؤلاء السادة قد دعوا بأن يقيهم الله تعالى عذاب أهل النار، ودعوا بأن الله سبحانه وتعالى يقيهم النار إذا هم عملوا عمل أهلهم؛ ولكن كيف يقيهم

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في ظلال الجنة (٦٠٤ و ٦٠٥)، والحديث بتمامه: (يَدْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ثُمَّ يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ثُمَّ يُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الكافر والمنافق فيُنادى على رؤوس الأشهاد: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين}[هود: ١٨].

عمل أهل النار إذا هم عملوا أهلها؟ يقيهم ذلك بأمور متعدِّدة. وقد ذكر العلماء أسباب مغفرة الذنب فبلغت نحو عشرة أسباب منها: أن يوفَّق الإنسان للتوبة؛ فإذا تاب الإنسان من الذنب وقاه الله تعالى عقاب ذلك الذنب {قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا}؛ ومنها: الأعمال الصالحة، والصدقة، ودعاء المؤمنين، وغير ذلك؛ المهم أنهم ذكروها نحو عشرة أسباب، كلُّها من أسباب وقاية عذاب النار، فيكون دعائهم وقاية من عذاب النار يشمل معنيين: المعنى الأول: أن يقيهم أعمال أهل النار؛ الثاني: أن يقيهم العذاب بعد فعل موجب العذاب بأن ييسر لهم أسباب التوبة ومحو هذه الذنوب ولو بمشيئته عز وجل: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}.

وقوله: {عذاب النار}: هذا مجمل لكنَّه مفصَّل في آيات كثيرة قد بيَّن الله سبحانه وتعالى عذاب أهل النار، وأنَّه عذاب تتفطَّر منه الأكباد وتتفجَّر منه القلوب {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}.

قال الطبري: الذين يقولون: إنَّنا صدَّقنا بك وبنبيِّك، وما جاء به من عندك؛ {فاغفر لنا ذنوبنا}، يقول: فاستر علينا ذنوبنا، بعفوك عنها، وتركك عقوبتنا عليها؛ {وقنا عذاب النار}، ادفع عنَّا عذابك إيَّانا بالنار أن تعذِّبنا بها. وإنما معنى ذلك: لا تعذبنا يا ربنا بالنار. وإنَّما خصُّوا المسألةَ بأن يقيهم عذاب النار، لأن من زُحزح يومئذ عن النار فقد فاز بالنجاة من عذاب الله وحسن مآبه. وأصل قوله: {قنا} من قول القائل: (وقى الله فلانًا كذا)، يراد: دفع عنه، (فهو يقيه). فإذا سأل بذلك سائلٌ قال: (قِنِى كذا).

قال السعدي: توسَّلوا بمنَّة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقيهم شر آثارها وهو عذاب النار، ثم فصَّل أوصاف التَّقوى. فقال: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ صفات المتَّقين إعلانهم بالإيمان بالله؛ لقوله: {الذين يقولون} والقول هنا يكون باللِّسان ويكون بالقلب.

٢- اعترافهم بالعبودية وأنَّهم مربوبون لله بقولهم: {ربنا}.

٣- أنَّ من صفات المتَّقين عدم الإعجاب بالنفس وأنَّهم يرون أنَّهم مقصِّرون؛ لطلبهم المغفرة من الله لقولهم: {فاغفر لنا ذنوبنا}.

٤- أنَّ التَّقوى لا تعصم العبد من الذنوب، بل قد يكون له ذنوب، لكنَّ المتَّقي يبادر بالتوبة إلى الله عز وجل.

٥- جواز التوسُّل بالإيمان؛ لقوله: {ربنا إنَّنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا} فإن الفاء هنا للسببية، تدلُّ على أن ما بعدها مسبِّب عمَّا قبلها.

٦- أنَّه ينبغي للإنسان أن يسأل الله المغفرة والوقاية من النار؛ لقوله: {وقنا عذاب النار}، فإن قال قائل: سؤال المغفرة يغني عن سؤال الوقاية من النار؛ لأن الإنسان إذا غفر له وقي من النار؟ فالجواب: أن الأمر كذلك، وأن الإنسان إذا غفر له وقي من عذاب النار؛ لكن باب الدعاء ينبغي فيه البسط لسببين: السبب الأول: أن يستحضر الإنسان جميع ما يدعوا به في أنواعه؛ والثاني: أن الدعاء مخاطبة لله عز وجل، وكلَّما تبسَّط الإنسان مع الله بالمخاطبة كان ذلك أشوق وأحب إليه ممَّا لو دعا على سبيل الاختصار؛ ثالثا: أنه كلَّما ازداد دعاء ازداد قربة إلى الله عز وجل؛ رابعًا: أنَّ كلَّما ازداد دعاء كان فيه إظهار لافتقار الإنسان إلى ربه؛ ولهذا نجد أنه جاءت في النصوص: ((اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجلَّه علانيته وسرَّه وأوَّله وآخره([1]))، وهذه يغني عنها قوله: ((اللهم اغفر لي ذنبي))، بل لو قيل يغني عنها: ((اللهم اغفر لي))، لكان صحيحًا؛ لكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط؛ ولهذا قالوا: {فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار}.

٧- إثبات عذاب النار؛ لقوله: {وقنا عذاب النار} وعذاب النار إمَّا دائم مستمر، وهذا لأصحاب النار الذين هم أصحابها، وإمَّا مؤقَّت، وهذا لأصحاب المعاصي فإنَّهم يعذَّبون بحسب معاصيهم إذا لم يغفر الله لهم.

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ {١٧}

قال أبو زهرة: هذه خمسة أوصاف للمؤمنين الصادقي الإيمان، والمذعنين حقَّ الإذعان:

أوَّلها: أنَّهم صابرون، والصبر صفة الإيمان حقًّا وصدقًا، وقد حثَّ عليه القرآن في أكثر من سبعين موضعًا، والصَّبر له شعب كثيرة، منها وهي أدناها الصبر عند الشديدة، وتحمُّلها من غير أنين ولا شكوى، وهذا هو الصبر الجميل، فإن ضجَّ الصابر وشكا فصبره غير جميل، ومنها الصبر بضبط النفس عن الشهوات وقدعها([2])عن الأهواء المردية، وجعل العقل متحكِّمًا دائمًا، وهذه مرتبة عالية في الصبر. ومنها الصبر على تحمُّل النِّعم؛ فإنَّ النِّعم تحتاج إلى صبر لكيلا يطغى الإنسان بسبب النعمة فتؤدِّي إلى الكفر بدل الشكر. ولقد قال تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٨٧٨)، وصفة صلاة النبي، وقال: أخرجه مسلم (٢/٥٠)، (وأبو عوانة)[٢/١٨٥ - ١٨٦]، وأبو داود (١/١٤٠)، والطحاوي (١/١٣٨)، والحاكم (١/٢٦٣).

٢- (قلت): قدعها: إمضائها. أنظر (لسان العرب).

قال ابن العثيمين: {الصابرين}: وهذه نعت لقوله: {للذين اتَّقوا عند ربهم}، {للذين يقولون ربنا إنَّنا آمنَّا}. و{الصابر} اسم فاعل من الصبر وهو في الأصل حبس، والمراد به شرعًا: حبس النفس عن محارم الله؛ وأنواعه ثلاثة: صبر على طاعة الله؛ وصبر عن معصية الله؛ وصبر على أقدار الله المؤلمة.

الأول: الصبر على الطاعة، فإنَّ الإنسان يجد منه معاناة عظيمة، لأنَّه عندما يهمُّ بالطاعة تجد نفسه الأمَّارة بالسوء والشيطان يحاولان أن يصدَّاه عن طاعة الله، وتجده في عراك مع النفس الأمَّارة بالسوء، حتى إذا أعانه الله عز وجل على ذلك، تغلب على هذين العدوين: الشيطان، والنفس الأمَّارة بالسوء، وفعل ما أمر الله به.

الثاني: وفي الصبر عن المعصية تجد الإنسان، لاسيَّما مع وجود الأسباب المقتضية لها، في عراك شديد مع نفسه، لاسيَّما مع قوة الدَّاعي لها وعدم المعارض؛ فإنَّه إذا قوي الدَّاعي إلى المعصية وعدم المعارض، لا ينجوا منها إلَّا من عصمه الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ في جملة من يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: ((رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنِّي أخاف الله([1]))، هذا الرجل صبر هذا الصبر العظيم عن محارم الله مع قوة الدَّاعي وعدم المعارض؛ لم يقل هذا الرجل: والله ما بي شهوة، لا، الرجل فيه شهوة؛ لم تكن المرأة قبيحة لا تشتهى بل هي ذات جمال؛ لم تكن المرأة من السوقة الذين ليس فيه خير، بل هي ذات منصب وشرف ودعته؛ لم يكن المكان فيه أحد يعارض الوصول إلى المقصود لأنه لم يقل حولنا أحد نخشى منه؛ لكن فيه شيء واحد وهو: الخوف من الله عز وجل وهذا صبر عن معصية الله، ولاشك إن في هذا مشقَّة عظيمة؛ شاب، في مكان خالي، عنده شهوة، دعته امرأة ذات منصب وجمال هي دعته لنفسه؛ وكثير من الناس لا يملك نفسه إذا حدثته المرأة الشابة الجميلة فيكف وهي تدعوه؟ ومع ذلك يقول: إني أخاف الله؛ هذا صبر عظيم؛ ومنه صبر يوسف عليه الصلاة والسلام عندما دعته امرأة العزيز وهي سيِّدته، ولاشك أنَّها تجملت له، وأنَّها فعلت جميع المغريات لتصل إلى مقصودها؛ ولكنه عليه الصلاة والسلام رأى برهان ربه، وإلَّا فالأمر قد تمَّ: {همَّت به وهمَّ بها لو لا أن رأى برهان ربه} فعند آخر لحظة عصمه الله عز وجل؛ وهذا أشدُّ ما يكون من العفَّة وأقوى ما يكون من العفَّة. ألم ترى إلى الرجل الإسرائيلي الذي كان يراود ابنة عمِّه عن نفسها وتأبى عليه فلمَّا ألمَّت بها سِنة جاءت إليه ومكَّنته من نفسها فلمَّا جلس منها مجلس الرجل من امرأته في أشدِّ ما يكون من التهيُّؤ قالت له: اتَّق الله ولا تفض الخاتم إلَّا بحق؛ فقام عنها وهي أحبُّ الناس إليه، ليس كرهًا، لم تزل نفسها تطلبها؛ لكن لمَّا ذكَّرته بالله عز وجل اتَّقى الله؛ فأقول: هذا من الصبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ وهذا كثير، ومن ذلك أيوب عليه الصلاة والسلام فإنه صبر صبرًا عظيمًا قال الله تعالى: {إنَّا وجدناه صابرًا نعم العبد إنَّه أوَّاب}، فقد صبر على ما ألمَّ به من الضُّر صبرًا عظيمًا؛ والصبر أيضًا على أقدار الله المؤلمة المترتِّبة على طاعة الله أعظم أجرًا، فصبر الرسل على أذية الناس من أجل الدعوة إلى الله؛ لأن هؤلاء صبروا على الأقدار المؤذية المترتبة على فعل اختياري منهم، وهو طاعة الله بتبليغ رسالته.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٥٩١٦)، وانظر حديث رقم: (٣٦٠٣) في صحيح الجامع.

المهم أن الصبر درجة عظيمة يمتدح الله الصابرين ويبيّن أنَّه يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب، وهو درجة عالية لا تنال إلَّا بأمر يصبر عليه؛ لا تظن أن الصبر درجة بسيطة؛ لابدَّ من شيءٍ تصبر عليه؛ ولهذا على أهل العلم من المسئولية التي يجب أن يصبروا على أذى الناس فيها ما ليس على غيرهم؛ كل من حمَّله الله علمًا فإن تحميله ذلك العلم عهد وميثاق بينه وبين ربه أن يبلِّغه إلى الناس، وأن يدعوا اليه الناس قال الله تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه}، بماذا أخذ؟ هل أحد منكم أنتم الآن أعطاكم الله الكتاب هل أحد منكم شعر بأن الله أخذ عليه العهد والميثاق؟ لا؛ لكن تعليم الله لكم هو عهد وميثاق، اختصَّكم الله للعلم من بين سائر الجهلاء هذا هو العهد والميثاق، يعني ما هو بالمبايعة الحسِّية، يشهدها الناس في المساجد أو في الفلوات، لكنه نعمة ينعم الله بها على الإنسان، فمتى أنعم الله بالعلم على إنسان فهذا هو العهد والميثاق الذي أخذه الله.

المهم أن الصبر درجة عالية وأنتم بما منَّ الله عليكم من العلم والحمد لله وفضَّلكم به على كثير من عباده المؤمنين يجب عليكم أن تبثُّوا العلم وأن تصبروا على الأذى فيه؛ فلذلك نقول: الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله؛ وصبر عن محارم الله؛ وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ وأفضلها الصبر على طاعة الله؛ ثم الصبر عن معصية الله؛ ثم الصبر على أقدار الله؛ هذا من حيث الأصل، لكن قد يعاني الإنسان من الصبر على الأقدار أكثر مما يعاني من الصبر على الأوامر، فيؤجر من هذه الناحية من حيث المشقَّة؛ وقد يعاني من الصبر عن محارم الله أكثر مما يعاني من الصبر على طاعة الله، فيكون من هذه الناحية أكثر أجرًا بسبب المشقَّة، ولكن أفضلها بلا شك الصبر على طاعة الله؛ لأن الصبر على طاعة الله جامع بين أمرين: بين حمل النفس الباطنة على هذا العمل، وبين حمل الجسد الظاهر على هذا العمل، لأن الطاعة فعل، والفعل يحتاج أوَّلًا عزمًا، وثانيًا فعلًا، ففيه أمران؛ لكن الصبر عن المعصية، فيه عمل باطن فقط، وهو حبس النفس عن الفعل، ليس فيه تعب بدني، لا فيه ركوع، ولا سجود، ولا قيام، ولا قعود، ولا بذل المال، ولا شيء، كفٌّ فقط، ففيه معاناة باطنة فقط؛ ولهذا صار أقلُّ درجة.

وأمَّا الصبر على الأقدار، ليس فيه لا هذا ولا هذا، لأنَّه ليس باختياره، أصيب الإنسان بحادث فانكسرت رجله أو يده هل هو باختياره؟ هذا ليس باختياره؛ فهو إمَّا أن يصبر صبر الكرام وإمَّا أن يسلوا سلوا البهائم؛ ولهذا صار أقل درجة من القسمين الأوليين، لأن القسمين الأوليين من فعل الإنسان واختياره.

قال أبو زهرة: والوصف الثاني: أنَّهم صادقون، والصِّدق من أكمل الصفات الإنسانية، وهو شُعَبٌ أيضًا فمنها الإخبار بالحق، ومنها أن يصدق نفسه، فلا يخدعها، ويزين لها سوء الأعمال، ويغالط قلبه وحسَّه؛ ومنها أن يتعرَّف عيوب نفسه بالحق ويتكشَّفها ويَتعرَّفها ولا يسترها عن نفسه، لتكون بين يديه ماثلة دائمًا فيستيقظ ضميره، وهذا هو طريق التَّهذيب الروحي الحق.

قال ابن العثيمين: {الصادقين}: الصدق هو المطابق للواقع، فالصادق هو الذي يكون خبره مطابقًا للواقع؛ والكاذب خلاف ذلك؛ الصدق أربعة أقسام: يكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون مع الله، ويكون مع عباد الله.

أمَّا الصِّدق بالقول: فهو مطابقة القول للواقع؛ فإذا قال لك: جاء زيد، وكان قد جاء، فهو مطابق للواقع، فيكون صدقًا؛ والصِّدق من صفات المؤمنين، والكذب من صفات المنافقين؛ وقد حثَّ النبي ﷺ على الصِّدق وقال: ((عليكم بالصِّدق فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصِّدق حتى يكتب عند الله صديقًا([1]))، والصديقية ليست مرتبة دنية، بل هي التي تلي مرتبة النبيين، ولهذا كانت الصديقية في المرتبة الثانية {من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين}.

وأمَّا الصِّدق بالفعل: أن يكون مطابقًا للقلب؛ فرجل يظهر لك المودَّة وقلبه يبغضك هذا ليس بصادق؛ ورجل يظهر أنه مؤمن ويصلِّي ويتصدَّق ويحضر مجالس العلم، لكن قلبه منطو على الكفر والعياذ بالله هذا ليس بصادق، بل هذا كاذب كذبًا فعليًّا؛ أظهر خلاف ما يبطن.

وأمَّا الصِّدق مع الله ومع عباد الله: فالمنافق كاذب مع الله، والذي يظهر لك التودُّد وهو يكرهك فهذا كاذب مع الناس لم يصدق معك؛ إذًا الصادقون في قوله: {الصادقين} يشمل هذا وهذا، الصِّدق في القول مع الله، ومع عباد الله، وقد أمر الله عز وجل بالصِّدق في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وكونوا مع الصادقين} والنبي ﷺ حثَّ عليه حثًّا عظيمًا قال: ((عليكم بالصِّدق))؛ وعاقبة الصادقين لا تخفى عليكم، ولو لم يكن منها إلَّا ذلك المثال الفذ فيما نعلم الذي جرى من كعب بن مالك رضي الله عنه وهلال بن أمية ومرارة بن ربيع حيث تخلَّفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، لكان كافيًا. المهم أن الصِّدق خلق عظيم عال رفيع، لا يناله إلَّا من وفِّق حتى يكون في الدرجة الثانية ممَّن أنعم الله عليه.

قال أبو زهرة: والوصف الثالث: أنَّهم قانتون، والقانت هو الطائع المديم للطاعة غير مُتَمَلْمِل منها، ولا متبرِّم([2])بها، ولا خارج على حدودها، فالقنوت يصوِّر الإذعان المطلق.

قال ابن العثيمين: {القانتين}: القنوت أيضًا من صفاتهم، والقنوت يطلق على عدَّة معاني وأنسبها لهذه الآية، أن المراد بالقنوت دوام الطاعة مع الخشوع والخضوع لله عز وجل، بحيث يكون الإنسان مديمًا لطاعة الله، مقبلًا على الله سبحانه وتعالى في طاعته، قال الله تعالى: {حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين}: أي خاشعين؛ ولهذا لما نزلت

١- (قلت): البخاري (٦٠٩٤)، مسلم (٢٦٠٧).

٢- (قلت): تبرَّمَ بـ/ تبرَّمَ من يتبرَّم، تَبَرُّمًا، فهو متبرِّم، والمفعول مُتبرَّم به.

• تبرَّم الشَّخصُ بالانتظار/ تبرَّم من الانتظار: تضجّر وأظهر استياءه (يُكثر من التَّبرُّم عند تكليفه بأيّ واجب- إنه يتبرَّم من أيّة صعوبة تواجهه). أنظر معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر.

هذه الآية أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام؛ فالقانت إذًا، المديم لطاعة الله مع خشوع القلب وحضوره والتزامه للإقبال على الله عز وجل.

قال الطبري: ويعني بـ{القانتين} المطيعين له. وقد كان قتادة يقول في ذلك قوله: {الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين} {الصادقين}: قوم صدَقت أفواههم واستقامت قُلوبهم وألسنتهم، وصَدقوا في السر والعلانية، {والصابرين}، قوم صبروا على طاعة الله، وصَبروا عن محارمه، {والقانتون}، هم المطيعون لله.

قال أبو زهرة: والوصف الرابع: أنَّهم المنفقون، أي أنَّهم ينفقون المال في مصارفه سواء أكانت عامَّة أم كانت خاصة، وقد بيَّنَّا مناهج الإنفاق الديني فيما أسلفنا.

قال الطبري: وأمَّا {المنفقون}: فهم المؤتون زكوات أموالهم، وواضعوها على ما أمرهم الله بإتيانها، والمنفقون أموالهم في الوجوه التي أذن الله لهم جل ثناؤه بإنفاقها فيها.

قال ابن العثيمين: {والمنفقين}: من أنفق، أي بذل النفقة؛ والنفقة هي إخراج المال، وأطلق الله سبحانه وتعالى هنا الإنفاق، ولكنه سبحانه وتعالى ذكر في آيات أخرى الميزان للإنفاق، وذكر ما ينفق عليه، أو ما ينفق له، فقال تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا}، وقال سبحانه وتعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} فهذا هو الميزان في الإنفاق، أن لا يكون الإنسان مقترًا ولا مسرفًا؛ وإذا جعلنا هذا هو الميزان، صار هذا الميزان يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والبلدان؛ فقد يكون الإنفاق إنفاق بالنسبة لشخص، وإسراف بالنسبة لآخر، فإنفاق الفقير ليس كإنفاق الغني، ولهذا قال الله تعالى: {لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله}، وإنفاق المتوسط بينهما. كذلك يختلف باختلاف الزمان، ففي بعض الأحيان تكون الأموال كثيرة متوفرة فيكون الإنفاق الكثير فيها غير إسراف وأحيانًا يكون الأمر بالعكس.

والذي ينفق فيه أو ينفق له، قال الله سبحانه وتعالى: {يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل}، فكل جهة من جهات الصرف محتاجة، أو يحتاج إليها المسلمون، إمَّا أن تكون هي محتاجة، وإمَّا أن يكون المسلمون محتاجين إليها، فالإنفاق في سبيل الله لحاجة المسلمين، والإنفاق في الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله عز وجل وحفظ شريعته؛ والإنفاق للفقير لحاجة الفقير ليس لحاجة المسلمين، بل هي لحاجة الفقير، فأنت ترى دائمًا الإنفاق إما لدفع حاجة المحتاج وإمَّا لدفع حاجة المسلمين عمومًا، يعني في المصالح العامَّة؛ المهم أن هؤلاء منفقون، هؤلاء الذين هم من أهل الجنة منفقون لكن إنفاقهم منضبط بضوابط شرعية.

قال أبو زهرة: والوصف الخامس: أنَّهم مستغفرون بالأسحار، والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل، وهذا الوقت وقت التهجُّد، وتذكُّر ما كان من عمل، واستقبال ما يكون من أعمال، فالاستغفار فيه باستشعار الضراعة وتذكُّر الله، والشعور

بمراقبته، يجعل المؤمن يستقبل أعمال الحياة بقلب سليم نقي كما هو، فلا يكون فيه إلَّا خير، وليس الاستغفار هو ترداد كلمة أستغفر، إنَّما هو الشعور بالخضوع، ومراقبة الله والضَّراعة إليه سبحانه، وليس كذلك أكثر المستغفرين. ولقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: ((سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لَا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لَا يغفر الذنوب إلا أنت. ومن قالها بالنهار موقنا فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة([1]))).

قال ابن العثيمين: {والمستغفرين بالأسحار}: المستغفرين، السائلين لمغفرة الله، والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من الغفر، وهو الستر بوقاية، ومنه مغفر الذي يجعل على الرأس عند الحرب فإنه جامع بين الستر والوقاية.

وقوله: {بالأسحار} الباء هنا للظرفية، أي: فيها، والأسحار جمع سحر وهو آخر الليل؛ أي: يسألون المغفرة في هذا الوقت من الزمن في آخر الليل؛ لأنه وقت نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا؛ فإن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: ((من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له([2])))؛ والثاني، أنه وقت فراغهم من التهجُّد والعمل، والإنسان مطلوب منه إذا فرغ من العبادة أن يستغفر الله، ولهذا يشرع لنا أن نستغفر الله تعالى ثلاثًا بعد الصلاة، وأمر الله سبحانه وتعالى أن نستغفر في الحج أيضًا، {ثمَّ أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إنَّ الله غفور رحيم}، كذلك أيضًا في آخر الليل بعد التهجُّد، يسأل اللهَ المتهجدُ المغفرة، وهذا، أي سؤال المغفرة بعد الانتهاء من العبادة، فيه كمال الذُّل لله عز وجل، وأن الإنسان لا يعجب بعلمه، بل يخشى من التَّقصير فيه، فلهذا يستغفر عما يكون منه من نقصان وتقصير في هذه العبادة.

قال الطبري: عن قتادة: {والمستغفرين بالأسحار}، قال: يصلُّون بالأسحار.

حدثنا نافع: أن ابن عمر كان يحيي الليل صلاةً ثم يقول: يا نافع، أسحَرْنا؟ فيقول: لا. فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم! قعد يستغفر ويدعو حتى يُصْبح.

١- (قلت): البخاري (٦٣٠٦).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٨٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخَرُ، فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يستغفرني فأغفر له؟)).

قلت: هذا الحديث بهذا اللفظ صحيح متواتر، كما شهد بذلك حفاظ الحديث، منهم ابن عبد البر في (التمهيد((١٢٨/٧)، وقال: (وفيه دليل على أن الله عز وجل في السماء على العرش من فوق سبع سماوات كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم: إن الله عز وجل في كل مكان).

قلت: ومن أذنابهم من يتظاهر بتكفيرهم لقولهم هذا، ثم يصرح بما هو شر منه، وهو جحد وجوده تعالى، فيصفه بما يصف به المعدوم، فيقول: (ليس داخل العالم ولا خارجه)!! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنِ أَحْمَدَ الْمَخْلَدِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ السَّرَّاجُ، أنا قتيبة أَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى الثلث الأخير، فيقول: أَنَا الْمَلِكُ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، مَنْ ذَا الذي يستغفرني فأغفر له(١))).

وَحُكِيَ عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ لَا تَكُنْ أَعْجَزَ مِنْ هَذَا الدِّيكِ يصوّت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

قال السعدي: لمَّا بيَّن صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم، حالًا ولا مقامًا، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصِّرين فيستغفرون ربهم، ويتوقَّعون أوقات الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتضمَّنت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع ينقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تنبيها على أنه يجب إيثارها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتَّقون، ثم فصَّل خصال التَّقوى، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟ ودلَّ على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار.

قال ابن كثير: وقد قيل: إنَّ يعقوب، عليه السلام، لمَّا قال لبنيه: {سوف أستغفر لكم ربي}[يوسف:٩٨] أنه أخَّرهم إلى وقت السحر. وثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: ((ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟(٢))) الحديث وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدار قطني في ذلك جزءًا على حدا فرواه من طرق متعدِّدة. وفي الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ، من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر(٣).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة الصبر، وأنه من الصفات التي يثنى بها على الإنسان لأن السياق مدح وثناء.

١- إسناده صحيح، أبو العباس السراج فمن دونه ثقات، وقد توبعوا، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، سوى سهيل تفرد عنه مسلم، قتيبة هو ابن سعيد، أبو صالح والد سهيل اسمه ذكوان مشهور بكنيته.

- وهو في شرح السنة (٩٤١) بهذا الإسناد. وأخرجه مسلم ٧٥٨ من طريق قتيبة بن سعيد به.

- وأخرجه الترمذي ٤٤٦ وأحمد ٢/ ٢٨٢ و٤١٩ وابن خزيمة في التوحيد ص (١٣٠) من طريق سهيل بن أبي صالح به.

- أخرجه البخاري ١١٤٥ و٦٣٢١ ومسلم ٧٥٨ وأبو داود ١٣١٥ وابن خزيمة في التوحيد ص (١٢٧) وابن أبي عاصم ٤٩٢ وابن حبان ٩٢٠ والبيهقي ٣/ ٢ من طريق مالك عن الزهري، عن الأغر وأبي سلمة، عن أبي هريرة به وهو في الموطأ (١/ ٢١٤) . وأخرجه مسلم ٧٥٨ والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٧٧ و٤٧٨ و٤٨٣) وأحمد ٢/ ٢٥٨ و٥٠٤ والدارمي ١/ ٣٤٦ وابن أبي عاصم ٤٩٥ وابن خزيمة ص ١٢٩ وابن حبان ٩١٩ من طرق من حديث أبي هريرة.

٢- (قلت): البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، واللفظ له. وقد مرّ معنا قريبًا تحقيق الإمام الألباني للحديث مفصلًا.

٣- (قلت): مسلم (٧٤٥).

٢- فضيلة الصِّدق لأن الله وصف به المتَّقين فقال: {والصادقين}.

٣- فضائل: فضيلة القنوت؛ لأن الله وصف بها المتَّقين؛ وفضيلة الإنفاق لأن الله وصف به المتَّقين؛ وفضيلة الاستغفار؛ وفضيلة الأسحار وهكذا.

٤- الحثُّ على الاتِّصاف بهذه الصِّفات وهي: الصبر والصِّدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار. من أين أخذ الحثُّ على هذه الصفات؟ لأنَّها سيقت مساق المدح والثناء؛ والشيء يعلم طلبه إمَّا بالأمر به، أو بالنهي عن تركه، أو بالثناء على فاعله، أو بترتيب الثواب عليه، أو ما أشبه ذلك؛ المهم أن علامات كون الشيء مأمورًا به متعدِّدة. وهل يؤخذ من الآية أن الصبر أفضل هذه الصفات؟ لأن الله بدأ به؟ نعم قد يؤخذ؛ فيقال: في هذه الآية دليل أنَّ الصبر أفضل هذه الصفات؛ وفي الحقيقة أنَّ الإنسان إذا حقَّق الصبر حقَّق جميع هذه الصفات؛ لأن من أقسام الصبر الصبر على طاعة الله وعن معصيته.

٥- ذمُّ الاتِّصاف بضد هذه الصفات؛ الجزع والكذب، قلَّة الطاعة، الرابع: البخل والشح، والخامس: الاستكبار عن الاستغفار وأن الإنسان يرى نفسه أنه غير مذنب فإن هذه من البلية التي يبتلى بها كثير من الناس. أظنُّ أنَّنا نبَّهنا أن العطف هنا عطف صفات وليس عطف ذوات؛ لأنَّ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار شيء واحد تعود إلى شيء واحد، وعطف الصفات جائز لأن فيه تغايرًا إذ أنَّ كل صفة تغاير الصفة الأخرى ألم تروا إلى قوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى} وهو واحد عز وجل لكن هذا من باب عطف الصفات.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {١٨} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {١٩}

قال أبو زهرة: بَيَّنَ سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أوصاف المؤمنين في تبتلهم، وصدق إيمانهم، وإذعان نفوسهم، وصبرهم وضبط شهواتهم؛ وهنا يبين حقيقة الإيمان والإسلام وأن الإسلام شريعة النبيين أجمعين، وهو دين الله المتين؛ وابتدأ سبحانه بحقيقة الإيمان فقال: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ}.

قال السعدي: هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم. أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، و{أنَّه لا إله إلَّا هو}، فنوع الأدلَّة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلَّا أنه ما قام أحد بتوحيده إلَّا ونصره على المشرك

الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلَّا منه ولا يدفع النِّقم إلَّا هو، والخلق كلُّهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأمَّا شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأمَّا شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصًا في أعظم الأمور وأجلِّها وأشرفها وهو التوحيد، فكلُّهم من أوَّلهم إلى آخرهم قد اتَّفقوا على ذلك ودعوا إليه وبيَّنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأنَّ الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلَّا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر(١).

قال ابن القيم في التفسير القيم: تضمَّنت هذه الآية الكريمة: إثبات حقيقة التوحيد، والرَّد على جميع هذه الطوائف – التي فصل عقائدها الباطلة قبل هذا – والشهادة ببطلان أقوالهم، ومذاهبهم. وهذا إنَّما يتبيَّن بعد فهم الآية، ببيان ما تضمَّنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية. فتضمَّنت هذه الآية: أجلُّ شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها من أجلِّ شاهد، بأجل مشهود. وعبارات السلف في {شهد} تدور على: الحكم والقضاء، والإعلام والبيان والإخبار.

قال مجاهد: حكم وقضى. وقال الزجاج: بيَّن. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلُّها حقٌّ، لا تنافي بينها. فإن الشهادة تتضمَّن كلام الشاهد، وخبره وقوله: وتتضمَّن إعلامه وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأوَّل مراتبها: علم ومعرفة، واعتقاد لصحَّة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلُّمه بذلك ونطقه به. وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبِّينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمَّنت هذه المراتب الأربع: علم الله سبحانه بذلك، وتكلُّمه به، وإعلامه، وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

١- (قلت): قال صالح آل الشيخ في التمهيد: تتضمن أشياء:

الأول: الاعتقاد بما سينطق به، والاعتقاد بما شهده، فكونه يشهد أن لا إله إلَّا الله يستلزم: أنه اعتقد بقلبه معنى هذه الكلمة، عن علم، ويقين، لأنَّ الشهادة فيها الاعتقاد، والاعتقاد لا يسمَّى اعتقادًا إلا إذا كان ثم علم ويقين.

الثاني: التكلم بها فالشهادة كما أنها تقتضي اعتقادا، فإنها تقتضي أيضًا إعلامًا ونطقًا.

والثالث: الإخبار بذلك، والإعلام به فينطقه بلسانه وهذا من جهة الواجب، وأيضًا لا يسمَّى شاهدًا حتى يخبر غيره بما شهد، هذا من جهة الشهادة، فيكون: أشهد أن لا إله إلَّا الله: أعتقد وأتكلم وأعلم، وأخبر بأن لا إله إلَّا الله.

فافترقت بذلك عن حال الاعتقاد، وافترقت عن حال القول، كما افترقت أيضًا عن حال الإخبار المجرَّد عن الاعتقاد، فلابدَّ لتحققها من حصول الثلاثة مجتمعة؛ ولهذا نقول في الإيمان: إنه اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

أمَّا مرتبة العلم: فإنَّ الشهادة بالحق تتضمَّنها ضرورة، وإلَّا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال الله تعالى: {شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[٤٣: ٨٦].

وأمَّا مرتبة التكلُّم والخبر: فمن تكلَّم بشيء وأخبر به فقد شهد به. وإن لم يتلفَّظ بالشهادة. قال تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ}[٦: ١٥٠]، وقال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ}[٤٣: ١٩]، فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفَّظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدُّوها عند غيرهم.

وشهادة الزُّور: هي قول الزُّور، كما قال تعالى: {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ}[٢٢: ٣١]، فسمَّى قول الزُّور شهادة. وسمَّى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة، قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ}[٤: ١٣٥]. فشهادة المرء على نفسه: هي إقرار المرء على نفسه.

وفي الحديث الصحيح في قصة ما عز: ((فلمَّا شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ([١]))).

وقال تعالى: {قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ}[٧: ٣٧].

وهذا وأضعافه يدلُّ على أن الشاهد عند الحاكم وغيره لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفَّظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد. ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك.

وقد قال ابن عباس: ((شهد عندي رجال مرضيُّون – وأرضاهم عندي عمر – أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس([٢]))).

ومعلوم أنَّهم لم يتلفَّظوا بلفظ الشهادة، والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة: لم يتلفَّظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة، بل قال: ((أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة([٣])))– الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: (لا إله إلَّا الله محمد رسول الله) فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة. وقد دخل في قوله ﷺ: ((حتى يشهدوا: أن لا إله إلَّا الله))، وفي اللَّفظ الآخر: ((حتى يقولوا: لا إله إلَّا الله([٤]))). فدلَّ على أن قولهم: ((لا إله إلَّا الله)) شهادة منهم، وهذا أكثر من أن تذكر شواهده في الكتاب والسنة. فليس مع من اشترط لفظ الشهادة دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

وأمَّا مرتبة الإعلام والإخبار: فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٣٢٢).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الروض (١١٧٨)، وصحيح أبي داود (١١٥٧): وأخرجه البخاري ومسلم .

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع حديث رقم : (٥٠ و٤٠١٠).

٤- (قلت): البخاري (١٨)، ومسلم (٢٢).

وهذا شأن كل معلِّم لغيره بأمر: تارةً يعلِّمه بقوله، وتارةً بفعله. ولهذا كان من جعل دارًا مسجدًا وفتح بابها لكلِّ من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها – معلِّما أنَّها وقف، وإن لم يتلفَّظ به. وكذلك من وجد متقرِّبًا إلى غيره بأنواع المسار – معلِّمًا له ولغيره: أنه يحبه، وإن لم يتلفَّظ بقوله. وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارةً، وبفعله تارةً أخرى.

فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، ممَّا قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه ب{أنَّه لا إله إلَّا هو)). وأخبر بذلك. وأمر عباده أن يشهدوا به.

وشهادته سبحانه: {أنَّه لا إله إلَّا هو} معلومة من جهة كل من بلَّغ عنه كلامه.

وأمَّا بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمَّنه خبره تعالى عن الأدلَّة الدالَّة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة.

وهذا أيضًا يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان، فإن الدليل يبيِّن المدلول عليه ويظهره، كما يبيِّنه الشاهد والمخبر بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمَّى شاهد الحال نطقًا وقولًا له وكلامًا، لقيامه مقامه، وأدائه مؤدَّاه. كما قيل: وقالت العينان: سمعا وطاعة ... وحدّرتا بالدّر لمّا يثقّب

وقال الآخر: شكا إليّ جملي طول السّرى ... صبرًا جميلي، فكلانا مبتلى

وقال الآخر: امتلأ الحوض، وقال: قطني ... مهلا رويدا، قد ملأت بطني

ويسمَّى هذا شهادة أيضًا، كما في قوله تعالى: {ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}[٩: ١٧]، فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله، فهي شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت بها عليهم.

والمقصود: أنَّه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالَّة عليه. فإنَّ دلالتها إنَّما هي بخلقه وجعله، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل، كما قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}[٤١: ٥٣]: أي أن القرآن هو الحق. فأخبر أنَّه يدلُّ بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية: قد ذكرها غير واحد من أئمَّة العربية والتفسير.

قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه: {أنَّه لا إله إلَّا هو}.

وأمَّا المرتبة الرابعة: وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرَّد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدلُّ عليه، وتتضمَّنه. فإنَّه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به كما قال تعالى: {وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}[١٧: ٢٣]، وقال تعالى: {وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ}[١٦: ٥١]، وقال تعالى: {وَما أُمِرُوا

إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[٩٨: ٥]، وقال تعالى: {لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ}[١٧: ٢٢]، وقال تعالى: {فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ}[٢٦: ٢١٣]، والقرآن كلُّه شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنَّه إذا شهد: {أنَّه لا إله[١]إلَّا هو} فقد أخبر، وبيَّن، وأعلم وحكم وقضى: أنَّ ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتّخاذه وحده إلهًا، والنهي عن اتّخاذ غيره معه إلهًا. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلًا يستفتي، أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلًا لذلك، ويدع من هو أهل، فتقول له: هذا ليس بمفت، ولا شاهد، ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان. فإنَّ هذا أمر منك ونهي.

وأيضًا فإنَّ الآية دلَّت أنَّه وحده هو المستحق للعبادة. فإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمَّن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقُّه الرب تعالى عليهم، وأنَّ القيام بذلك هو خالص حقِّه عليهم. فإذا شهد سبحانه أنَّه لا إله إلَّا هو تضمَّنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضًا: فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية، ويقال للجمل الخبرية: قضية وحكم وقد حكم فيها بكيت وكيت. قال تعالى: {أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ * ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[٣٧: ١٥١- ١٥٤]، لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء ب{أنَّه لا إله إلَّا هو}: متضمِّن للإلزام. والله سبحانه أعلم.

وقوله تعالى: {قائِمًا بِالْقِسْطِ}: {القسط} هو العدل. فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله. والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال. فإنَّ التوحيد يتضمَّن تفرُّده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه. والعدل يتضمَّن وقوع أفعاله كلُّها على السَّداد والصواب، وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات حقائق الأسماء والصفات على ما يليق بالرب سبحانه، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر، والحكم والغايات المحمودة بفعله وأمره، لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية. الذي هو إنكار الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذي هو التَّكذيب بالقدر، أو نفي الحكم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الرب لأجلها ويأمر.

وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمَّن أمورًا:

أحدها: أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أظلم الظلم على الإطلاق. فلا أعدل من توحيد الرسل، ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا، حيث شهد بها وأخبر، وأعلم عباده وبيَّن لهم تحقيقها وصحَّتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به، وجعل الثواب والعقاب عليها، وجعل

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الإله} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها. فالدِّين كلُّه من حقوقها. والثواب كلُّه عليها. والعقاب كلُّه على تركها. وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة. فأوامره كلُّها تكميل لها. وأمر بأداء حقوقها. ونواهيه كلُّها صيانة لها عمَّا يهدمها ويضادها. وثوابه كلُّها عليها. وعقابه على تركها، وترك حقوقها. وخلقه السموات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها. وهي الحق الذي خلقت به المخلوقات. وضدُّها: هو الباطل والعبث الذي نزَّه الله نفسه عنه، وأخبر أنَّه لم يخلق به السموات والأرض. قال تعالى ردًّا على المشركين المنكرين لهذه الشهادة: {وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}[٣٨: ٢٧]، وقال تعالى: {حم * تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ}[٤٦: ١– ٣]، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[١٠: ٥]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ}[٣٠: ٨]، وقال تعالى: {وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ}[١٥: ٨٥]، وهذا كثير في القرآن.

والحق الذي خلقت به السموات والأرض، ولأجله: هو التوحيد وحقوقه: من الأمر والنهي. والثواب والعقاب، والشرع والقدر، والخلق، والثواب والعقاب: قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنهما. وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب سبحانه وتعالى. قال تعالى حكاية عن نبيه هود أنه قال: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١١: ٥٦]، فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله. فهو يقول الحق ويفعل العدل: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٦: ١١٥]، {وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}[٣٣: ٤]. فالصراط المستقيم الذي عليه ربنا تبارك وتعالى: هو مقتضي التوحيد والعدل. قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١٦: ٧٦]. والصنم مثل العبد الذي هو كلٌّ على مولاه، أينما يوجِّهه لا يأت بخير.

والمقصود: أنَّ قوله تعالى: {قائِمًا بِالْقِسْطِ}: هو كقوله: {إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

وقوله: {قائِمًا بِالْقِسْطِ}: نصب على الحال. وفيه وجهان.

أحدهما: أنَّه حال من الفاعل في {شهد الله} والعامل فيه معنى الفعل. والمعنى على هذا على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: {أنَّه لا إله إلَّا هو}.

والثاني: أنه حال من قوله: {هو} والعامل فيها معنى النفي، أي لا إله إلَّا هو حال كونه قائمًا بالقسط.

وبين التقديرين فرق ظاهر. فإن التقدير الأول يتضمَّن أن المعنى: شهد الله متكلِّمًا بالعدل به، آمرًا به، فاعلًا له، مجازيًا عليه: {أنَّه لا إله إلَّا هو}. فإن العدل يكون في القول والفعل، و(المقسط) هو العادل في قوله وفعله. فشهد الله قائمًا بالعدل قولًا

وفعلًا: {أنَّه لا إله إلَّا هو}. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهي أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل الشيء، وأصحُّه وأحقُّه.

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل: كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد، وهو قائم بالعدل عالم به، لا بالظلم. فإنَّ هذه الشهادة تضمَّنت قولًا وعملًا. فإنَّها تضمَّنت أنَّه هو الذي يستحق العبادة وحده دون غيره، وأنَّ الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء. وأنَّ الذين أشركوا به غيره: هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائمًا بالعدل المتضمِّن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار: كان هذا من تمام موجب الشهادة، وتحقيقها. وكان قوله: {قائمًا بالقسط} تنبيهًا على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

وأمَّا التقدير الثاني– وهو أن يكون قوله: {قائمًا} حالًا ممَّا بعد {إلَّا} – فالمعنى: (أنَّه لا إله إلَّا هو قائمًا بالعدل). فهو وحده المستحق الإلهية، مع كونه قائمًا بالقسط.

قال شيخنا: وهذا التقدير أرجح. فإنَّه يتضمَّن أنَّ الملائكة وأولي العلم، يشهدون له بأنَّه لا إله إلَّا هو، وأنَّه قائم بالقسط.

قلت: مراده: أنَّه إذا كان قوله: {قائمًا بالقسط} حالًا من المشهود به: فهو كالصفة له. فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها، كان كلاهما مشهودًا به. فيكون الملائكة وأولوا العلم قد شهدوا بأنَّه قائم بالقسط، كما شهدوا ب{أنَّه لا إله إلَّا هو}.

والتقدير الأول لا يتضمَّن ذلك. فإنَّه إذا كان التقدير: شهد الله قائمًا بالقسط: {أنَّه لا إله إلَّا هو}، والملائكة وأولو العلم يشهدون أنَّه لا إله إلَّا هو – كان القيام بالقسط حالًا من اسم الله وحده.

وأيضًا: فكونه قائمًا بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالًا من مجرَّد الشهادة.

فإن قيل: فإذا كان حالًا من {هو} فهلَّا اقترن به؟ ولِمَ فصَّل بين صاحب الحال وبيَّنها بالمعطوف، فجاء متوسِّطًا بين صاحب الحال وبينها؟.

قلت: فائدته ظاهرة. فإنَّه لو قال: شهد الله أنَّه لا إله إلَّا هو قائمًا بالقسط والملائكة وأولو العلم – أوهم عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله: {قائمًا بالقسط} ويحسن العطف لأجل الفَّصل. وليس المعنى على ذلك قطعًا. وإنَّما المعنى على خلافه. وهو أن قيامه بالقسط مختصٌّ به كما أنَّه مختصٌّ بالإلهية. فهو وحده الإله المعبود المستحق للعبادة. وهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل.

قوله: {لا إله إلَّا هو} ذكر محمد بن جرير الطبري أنه قال: الأولى وصف وتوحيد. والثانية: رسم وتعليم، أي قولوا: لا إله إلَّا هو. ومعنى هذا: أنَّ الأولى تضمَّنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والتالي للقرآن إنَّما يخبر عن شهادة الله، لا عن شهادته هو. وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه، فأعاد سبحانه ذكرها مجرَّدة ليقولها التالي. فيكون شاهدًا هو بها أيضًا.

وأيضًا: فالأولى خبر عن الشهادة بالتوحيد. والثانية خبر عن نفس التوحيد وختم بقوله: {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فتضمَّنت الآية توحيده وعدله، وعزته وحكمته.

فالتوحيد يتضمَّن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمَّن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئًا منها إلَّا بمخصِّص اقتضى ذلك، وأنَّه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وان كان هو الذي جعله مستحقًّا. والعزة تتضمَّن كمال قدرته، وقوته وقهره. والحكمة تتضمَّن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهي، وخلق وقدر، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحقُّ عليها كمال الحمد.

فاسمه {العزيز} يتضمَّن الملك. واسمه {الحكيم} يتضمَّن الحمد.

وأول الآية يتضمَّن التوحيد، وذلك حقيقة (لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير).

وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيُّون من قبله.

و{الحكيم} الذي إذا أمر بأمر كان المأمور به حسنًا في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان المنهي عنه قبيحًا في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقًا، وإذا فعل فعلًا كان صوابًا. وإذا أراد شيئًا كان أولى بالإرادة من غيره. وهذا الوصف على الكمال: لا يكون إلَّا لله وحده([1]).

قال أبو زهرة: وفي هذا التكرار إشارات إلى معان جديدة.

منها: الإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى لَا يترك الناس سدًى، فهو بمقتضى انفراده بالربوبية والألوهية والعبودية، قد شرع الشرائع بمقتضى حكمته، وهو يحميها بعزته وسلطانه؛ ولذا وصف سبحانه بأنه {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}: أي الذي يدير هذا الكون وأمور الناس، ويشرع لهم الشرائع ويحميها؛ لأنه العزيز الحكيم.

ثم في هذا النَّص أيضًا إشارة إلى كمال سلطانه وانفراده وحده بهذا السلطان.

وفيه أيضًا ردٌّ على الذين يتَّخذون لله شفعاء يحسبون أنَّ لهم سلطانًا، وما لأحد عند رب العالمين من سلطان، فكلُّ خلقه بالنسبة لقدرته وعلمه وإرادته سواء.

قال ابن القيم في التفسير القيم: فتضمَّنت هذه الآية وهذه الشهادة وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب.

ففيها: الشهادة له بالتوحيد والعدل والقوة، والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة. ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف. إلَّا أهل السنة، وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩)، وإسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

فإن قيل: فلِمَ لَم يذكر سبحانه شهادة رسله مع الملائكة. فقال: شهد الله أنه لا إله إلّا هو والملائكة والرسل، وهم أعظم شهادة من أولي العلم؟.

قيل: في ذلك عدَّة فوائد:

أحدها: أنَّ أولي العلم أعمُّ من الرسل والأنبياء. فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أنَّ في ذكر أولي العلم في هذه الشهادة، وتعليقها بهم: ما يدلُّ على أنَّها من موجبات العلم. ومقتضياته، وأنَّ من كان من أولي العلم، فإنه يشهد بهذه الشهادة، كما يقال: إذا طلع الهلال، واتَّضح: كل من كان من أهل النظر يراه. وإذا فاحت رائحة ظاهرة: كل من كان من أهل الشم يشمُّ هذه الرائحة. قال تعالى: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}[٧٩: ٣٦]، كل من له رؤية يراها حينئذٍ عيانًا.

ففي هذا بيان أن من لم يشهد له سبحانه بهذه الشهادة، فهو من أعظم الجهال وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره. فهو من أولي الجهل، لا من أولي العلم.

وقد بيَّنَّا أنَّه لم يقم بهذه الشهادة وأداها على وجهها إلّا أتباع الرسل أهل الإثبات. فهم أولو العلم. وسائر من عداهم أولو الجهل، وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة: أنَّهم أولو العلم.

فشهادته سبحانه لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطِّلة، والفرعونية لهم بأنهم جهال، وأنَّهم حشويه، وأنَّهم مشبِّهة، وأنَّهم مجسَّمة، ونوابت ونواصب.

فكفاهم شهادة أصدق الصادقين لهم: بأنَّهم من أولي العلم، إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل. وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة بكلِّ مضمونها. وخصومهم نفوا عنه حقائقها، وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها.

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية: الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم. فإنَّه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته. واستشهد بهم جل وعلا على أجل مشهود به، وجعلهم حجَّة على من أنكر هذه الشهادة، كما يحتجُّ بالبيِّنة على من أنكر الحق. فالحجة قامت بالرسل على الخلق، وهؤلاء نواب الرسل، وخلفاؤهم في إقامة حجج الله على العباد.

وقد فسِّرت شهادة أولي العلم: بالإقرار. وفسِّرت بالتَّبيين والإظهار.

والصحيح: أنَّها تتضمَّن الأمرين. فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام، وهم شهداء لله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى: {وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}[٢: ١٤٢]، وقال تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ}[٢٢: ٧٨]، فأخبر أنَّه جعلهم عدولًا خيارًا، ونوَّه بذكرهم قبل أن يوجدهم، لما سبق في علمه من اتِّخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة. فمن لم يقم بهذه الشهادة علمًا وعملًا ومعرفةً وإقرارًا ودعوةً وتعليمًا وإرشادًا، فليس من شهداء الله. والله المستعان.

قال السعدي: ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أنَّ الله خصَّهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أنَّ الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلًا، ومنها: أنَّه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتَّصفون بصفته، ومنها: أنَّه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أنَّ إشهاده تعالى أهل العلم يتضمَّن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنَّهم أمناء على ما استرعاهم عليه.

قال ابن القيم في التفسير القيم: قوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ}: اختلف المفسِّرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة. فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبنيٌّ على القراءتين في كسر {إن} وفتحها. فالأكثرون على كسرها. على الاستئناف. وفتحها الكسائي وحده.

والوجه: هو الكسر. لأنَّ الكلام الذي قبله قد تمَّ. فالجملة الثانية مقرِّرة مؤكِّدة لمضمون ما قبلها. وهذا أبلغ في التقرير، وأدخل في المدح والثناء. ولهذا كان كسر (إن) من قوله: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}[٥٢: ٢٨]، أحسن من الفتح. وكان الكسر في قول الملبِّي (لبيك إن الحمد والنعمة لك) أحسن من الفتح.

وقد دل قوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ} على أنه دين أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه. قال أوَّل الرسل نوح: {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، وقال إبراهيم وإسماعيل: {رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، {وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[٢: ١٣٢]، وقال يعقوب لبنيه عند الموت: {ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ} – إلى قوله – {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، وقال موسى لقومه: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}، وقال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}، وقالت ملكة سبأ: {إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ}.

فالإسلام دين أهل السموات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه. فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن وخمسة للشيطان. فدين الرحمن هو الإسلام والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ودين المشركين.

قال السعدي: {وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب}: وإنَّما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثُّهم على الاجتماع على دين الله، بغيًا بينهم، وظلمًا وعدوانًا من أنفسهم، وإلَّا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتَّبعوا الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم.

قال أبو زهرة: ولماذا قدم سبحانه وتعالى كلمة {إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ} إذ إنَّ السياق هكذا: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيًا بينهم إلَّا من بعد ما جاءهم العلم، فقدَّم حينئذ المستثنى على بعض المستثنى منه؟ والجواب عن ذلك: أنَّ هذا البيان موضع التوبيخ والاستنكار، إذْ إن ذلك الاختلاف ما كان عن تعذُّر العلم بالحقائق، ولكنَّه كان مع أنَّ العلم بها قد جاءهم، وكان في قدرتهم أن يصلوا إلى الحق في الأمر من غير اختلاف ولا نزاع ولا إثارة للشك، وكيف يختلفون مع أن العلم قد جاءهم، وكان بين أيديهم أن يعرفوا السائغ منه، والحق أنَّ العلم كالنور لا ينتفع فيه إلَّا الذين أوتوا بصرًا يميِّزون به وينظرون، وكذلك لابدَّ لإدراك العلم من بصيرة نافذة، وقلب يخضع للحق؛ أمَّا إذا كانت البصيرة غير نافذة، والقلب قد ران الله عليه، فإنَّه لَا يدرك، وإنَّ كسب السيِّئات يضع غلافًا على القلب يمنعه من إدراك الحق؛ ولذا قال سبحانه وتعالى في شأن الضالين: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، فأسباب العلم لَا تكفي للوصول إلى الحقائق، بل لابدَّ معها من قلب منير، والذين أوتوا الكتاب لم يكن أكثرهم على ذلك من الإخلاص في طلب الحقيقة والإذعان لحكمها، ذلك لأنَّ الشهوات تحكَّمت في قلوبهم واستولت على نفوسهم، فجعلتهم يبتغون الباطل، ويطلبونه طلبًا شديدًا، ولهذا جعل الاختلاف مع وجود العلم أساسه البغي فيما بينهم، إذ إنهم يبتغون بالأمر السيطرة والسلطان واحتيازًا للسيطرة الدينية، ولذا قال: {بَغْيًا بَيْنَهُمْ}: أي ظلمًا وتحاسدًا، وتغالبًا بالباطل بينهم.

وهؤلاء جاءهم العلم ولم يلازموه ولم يصاحبوه ولم يذعنوا لحكمه؛ ولذا لم يقل سبحانه: (أوتوا العلم)، بل قال: {جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} إذ قد جاءهم ولم يردوا موارده العذبة، والعلم كالمطر الغزير لَا تستفيد منه إلَّا الأرض الطيبة، وكذلك لا يستفيد من العلم إلَّا النُّفوس الطيِّبة، فأولئك الظالمون جاءهم العلم، ولم يكونوا علماء يخشون الله، ولم يكونوا أولي العلم الذين يشهدون بوحدانية الله.

قال ابن العثيمين: {ومن يكفر بآيات الله فإنَّ الله سريع الحساب} الجملة هنا شرطية وفعل الشرط {يكفر} وفي {إن الله} جواب الشرط وقرن بالفاء لأن الجواب جملة اسمية، والمعروف أن الجواب إذا كان جملة اسمية فإنه يجب اقترانه بالفاء، وقد لا يقترن لكنَّه نادر.

يقول الله عز وجل: {ومن يكفر بآيات الله} والكفر بآيات الله يدور على أمرين: على الجحد والتكذيب، وعلى الاستكبار والعناد؛ يعلم الحق ويقرُّ به لكن يستكبر عنه ويعاند مثال الاستكبار والعناد: كفر إبليس؛ فإن إبليس يعلم أن ما حصل حق لكنه أبى واستكبر وكان من الكافرين؛ ومثال التكذيب أن يكذب بأن هذا رسول الله كما فعل المشركون مع النبي ﷺ وكما فعل أعداء الرسل من قبل؛ والحقيقة أن كلًّا منهما ملازم للآخر فإنَّ المكذِّب مستكبر والمستكبر وإن لم يكذِّب بلسانه فهو مكذِّب بعمله لأنَّه لم ينقد لأمر الله.

{ومن يكفر بآيات الله} الآيات نوعان: كونية وشرعية؛ فالكفر بالآيات الكونية أن ينكر أن الله عز وجل هو الذي خلقه، أو أن يعتقد بأنَّ لله تعالى شريكًا فيها، أو أن يعتقد بأنَّ لله معينًا فيها كل هذا كفر بالآيات الكونية، نفي أن يكون الله خلقها، اعتقاد

أنَّ لله شريكًا، اعتقاد أنَّ لله معينًا كل هذا من الكفر بآيات الله، وقد قال الله تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير}، نفى ثلاثة أشياء: {لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض} على سبيل الاستقلال؛ {وما لهم فيهما من شرك} على سبيل المشاركة؛ {وما له منهم من ظهير} معين؛ ثم قال في الرابع: {ولا تنفع الشفاعة عنده إلَّا لمن أذن له} لكمال سلطانه لا أحد يشفع إلَّا من أذن له؛ فالحاصل أن الكفر في الآيات الكونية يتضمَّن ثلاثة أمور: نفي كون الله خلقه؛ اعتقاد أنَّ له شريكًا فيه؛ ثالث: اعتقاد أنَّ الله له معينًا في ذلك؛ أمَّا الكفر في الآيات الشرعية يدور على أمرين وهما الجحد والتكذيب؛ والاستكبار والعناد.

{فإنَّ الله سريع الحساب} وهذه جملة خبرية يقصد بها التهديد، أي سيحاسبه وهو سريع الحساب عز وجل؛ والسرعة في الزمن والتقدير، أمَّا في الزمن فإنَّ الدنيا مهما طالت سريعة في الزوال، ونحن إذا قسنا ما مرَّ علينا بما يستقبل وجدنا أن كل الذي مرَّ علينا وإن طالت السنين كأنَّه لا شيء؛ كم مرَّ على الإنسان من سنة ومع ذلك كأنَّه خلق الآن، سرعة عظيمة؛ كذلك أيضًا سريع الحساب يوم القيمة؛ فإنَّ الله تعالى يفرغ من الخلائق كلُّهم في مقدار نصف يوم ودليل ذلك قوله تعالى: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا وأحسن مقيلًا}، والقيلولة تكون في نصف النهار هذا سرعة الحساب ولكن قد يشكل على الإنسان كيف يحاسب الله الخلائق يوم القيمة وهو واحد وهم لا يحصيهم إلَّا الله؟ والجواب على هذا الإشكال من رسول الله ﷺ حين سأله أبو رزين العقيل قال: يا رسول الله كيف يحاسبنا الله في يوم وهو واحد ونحن جميع؟ الجماعة كثير فقال: ((ألا أخبرك أو قال ألا أنبِّئك على شيء من آلاء الله؟)) يعني تستدل به على إمكان ذلك قال: بلى، قال: هذا القمر قمر واحد والذي يشاهده كل من على وجه الأرض إذا لم يكن هناك حائل، فإنَّه يشاهد مع أن القمر من أصغر مخلوقات الله، آية من آيات الله، من أصغر آياته، ومع ذلك يحيط بالعالم على مقابل له على سطح الأرض، وهذا مثال تقريب وإلَّا فإنَّ الأمر فيما يتعلَّق بالخالق أعظم وأجل، لكن الرسول ﷺ يضرب الأمثال من أجل التقريب للذهن لا التحديد؛ ألم تروا إنَّه قال: ((إنَّكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته(١))). ولاشك أن يقين الرؤية التي تحصل للإنسان بالنسبة إلى الله عز وجل أعظم بكثير من يقين الرؤية التي تحصل له لرؤية القمر أو برؤية الشمس؛ لكن الرسول ﷺ أراد بذلك التقريب، {فإنَّ الله سريع الحساب} الحساب أن يحاسب الإنسان ويناقش، لكن لكلٍّ صفة، فالمؤمن لا يناقشه الله عز وجل، لكنَّه سبحانه وتعالى يقرِّره بذنوبه ويقول: عملت كذا وكذا في يوم كذا فيقرُّ ولا يمكن أن ينكر، لو أنكر أحد من يشهد؟ جوارحه، جوارحه التي هي جزء منه تشهد عليه: {اليوم نختم على أفواههم وتكلِّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون}، لكن يقرِّر الله عز وجل عبده المؤمن بالذنوب ويقرُّ ويقول: قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها

١- (قلت): البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣). والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً، يَعْنِي الْبَدْرَ – فَقَالَ: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأَ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ})). قَالَ إِسْمَاعِيلُ: افْعَلُوا لاَ تَفُوتَنَّكُمْ.

لك اليوم؛ الحمد لله؛ وما أكثر الذنوب التي ستر الله علينا لو أحصينا ما ستر الله علينا من الذنوب ما استطعنا أن نعدُّها من منَّا يكمل صلاته على وجه مطلوب؟ إلَّا من شاء الله ما نستطيع ننفي نفيًا قاطعًا لكن إلَّا من شاء الله؛ من منَّا لم يحصل المغيبة لأحد؟ أو عدوان أو نظرة محرَّمة أو غش ولو في الاختبار نعم؟ فالمهم أن الإنسان لا يخلوا من الذنوب ولكن مستورة، ستره الله عز وجل برحمته وفضله ولو شاء لبيَّنه، لكن لا تغتر بهذا، ربما مع كثرة الذنوب يبيِّن أمرك للناس. طيب حساب الكفار يحاسبون فيوقَّفون على أعمالهم ويخزون بها والعياذ بالله ويقال: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} إذًا الحساب يختلف باعتبار الإيمان والكفر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- بيان فضيلة التوحيد حيث أخبر الله به عباده بلفظ الشهادة.

٢- فضيلة الملائكة حيث جعلهم الله تعالى في المرتبة الأولى للشهادة بهذا التوحيد.

٣- فضيلة العلم وأهله؛ لقوله: {وأولوا العلم}.

٤- الإشارة إلى ذم الجهل، حيث إنَّ الجاهل لا يشهد بأنه لا إله إلَّا الله؛ يعني ليس في قلبه ما يؤيِّد بذلك وإن كان يقول بلسانه؛ فشهادة العالم أن لا إله إلَّا الله، ليس كشهادة العامَّة من جهة تقدير الله عز وجل حقَّ قدره، لأنَّه يقولها عن عاطفة وعن تعظيم لله، لكن ليس كالعامِّي {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون}.

٥- تأكيد الشيء الهام وإن كان المخبر به من أهل الصدق؛ يؤخذ من قوله: {شهد الله أنَّه لا إله إلَّا هو} مع أنَّه لو قال عز وجل: لا إله إلَّا الله كفى؛ لكن لمَّا كان هذا الأمر هامًّا وعظيمًا صدَّره الله تعالى بالشهادة، وبيَّن أن هذه الشهادة ليست له وحده بل له وللملائكة ولأولوا العلم.

٦- وصف الله تعالى بتمام العدل؛ لقوله: {قائمًا بالسقط} أي بالعدل سواء ما يتعلَّق بفعله أو بالحكم بين عباده يعني سواء ما يتعلَّق بالحكم بينه وبين عباده أو بين عباده بعضهم مع بعض فالله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا، والله سبحانه وتعالى يقضي للناس بالعدل. ويتفرَّع على هذه المسألة فائدة عظيمة يخشاها بعض الناس وهي: أنَّ بعض الظلمة يدعوا على المظلوم فهل يقبل دعائه؟ لا؛ لأن هذا خلاف العدل الذي اتَّصف الله به. بعض الناس أيضًا يدعوا على القاضي الذي حكم بالحق، فهل يقبل منه؟ لا؛ لأن هذا عدوان؛ حدثني بعض القضاة أنَّه حكم على شخص فلمَّا انتهى الحكم قام هذا الشخص وقال واستقبل القبلة ومدَّ يديه إلى الله يدعوا على هذا القاضي نعم؟ فالقاضي يعني كأنه خائف من هذه الدعوة فقلت له لا تخف، لا تخف مهما دعا وأنت على حق فإنَّ الله لن يقبل دعائه ولن يستجيب له؛ لأنَّ الله يقول: {أدع ربكم تضرُّعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين} فمن كان لا يحب المعتدين لا يمكن أن يجيبه، وهذا معتدي ما دمت تعلم أنَّك على حق وأنَّك حكمت بمقتضى الشرع فلا يهمَّنَّك دعاء الدَّاعي.

٧- أنَّ الله عز وجل لمَّا أخبر بل لما شهد لنفسه بالألوهية أو بانفراده بالألوهية أكَّد ذلك بالحكم بها لنفسه فقال: {لا إله إلَّا هو} وهذا ليس توكيدًا لما سبق أي ليس إعادة للشهادة بلفظ الخبر ولكنَّه حكم من الله.

٨- انفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية. فيتفرَّع على ذلك أنَّ من أشرك مع الله أحدًا في العبادة أي عبده كما يعبد الله فإنَّه مشرك وعمله منافٍ لهذا التوحيد.

٩- إثبات العزَّة والحكمة لله في قوله: {العزيز الحكيم}.

١٠- أنَّ عزة الله ومنها الغلبة والقهر لغيره عزة مبنيَّة على الحكمة وتنزيل الأشياء في منازلهم، وهذا مأخوذ من ضم الاسمين الكريمين بعضهما إلى بعض؛ لأن العزيز للمخلوق من المخلوقين قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقول الحق ولا يهدي إليها، أمَّا الله عز وجل فإنَّه يقول الحق مع كمال عزته.

١١- أنَّ من ادَّعى أنَّ دين اليهودية أو دين النصرانية أو غيرهما من الأديان مقبول عند الله الآن فهو كافر لماذا؟ لأنَّه مكذِّب للقرآن {إنَّ الدِّين عند الله الإسلام}.

١٢- بيان ضلال أولئك القوم الذين إذا تكلَّموا عن الديانات قرنوا بين دين الإسلام واليهود والنصارى وقالوا هذه هي الأديان السماوية، حتى إن الجاهل لا يظنُّ أن اختلاف الأديان الثلاثة كاختلاف المذاهب الفقهية في الأمَّة الإسلامية، وهذا ضلال عظيم ومصانعة ومداهنة لليهود والنصارى، بل نقول إن الأديان السماوية اليهودية والنصرانية كانت أديانًا مقبولة عند الله، أمَّا الآن فقد نسخه الله عز وجل وصار الدين السماوي المقبول الذي لا يمكن أن يشركه دين آخر هو ما جاء به محمد ث.

١٣- أنَّ اختلاف اليهود والنصارى كان عن علم، بعد أن جاءهم العلم اختلفوا، ولهذا قال: {وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلَّا من بعد ما جاءهم العلم}.

١٤- أنَّ اختلاف هؤلاء ليس لقصد الحق بل لقصد البغي والعدوان بعضهم على بعض، حتى يضلل بعضهم بعضًا بل ويكفِّر بعضهم بعضًا.

١٥- الإشارة إلى التحذير ممَّا وقع فيه هؤلاء الكفار الذين أوتوا الكتاب؛ وجه ذلك: قوله: {وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلَّا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم}، والبغي معلوم أنه محذر منه غير مرغوب فيه؛ فلهذا القول في هذه الآية التحذير من هذا الاختلاف الذي وقع لأهل الكتاب.

١٦- الإشارة إلى أنه يجب على الإنسان إذا خالفه غيره أن لا يتطاول عليه وأن لا يقصد بسوق الأدلَّة المؤيِّدة لقوله البغي والتطاول عليه، بل يقصد إظهار الحق لينتفع هو وينفع غيره؛ أمَّا أن يأتي بالأدلَّة من أجل أن يعلوا على أخيه ويكون قوله هو الأعلى فهذا خطأ عظيم، بل الواجب أن يؤيد الإنسان الحق وإن خالفه غيره، ويأتي بالأدلَّة التي تؤيد الحق قاصدًا بذلك إظهار الحق ونصره، لا أن يغلب ويبغي على غيره.

١٧- التَّحذير من الكفر بآيات الله؛ لقوله: {ومن يكفر بآيات الله فإنَّ الله سريع الحساب}.

١٨- أنَّه إذا كان التحذير من الكفر بآيات الله، فعلى العكس من ذلك مدح الإيمان بآيات الله؛ لأن القدح في الشيء مدح لضدِّه.

١٩- بيان قدرة الله عز وجل بكونه سريع الحساب.

٢٠- أنه لابدَّ أن يحاسب الإنسان على عمله {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنَّكم إلينا لا ترجعون} هذا الحسُّ لاشك إنَّه ضلال مخالف لما تقتضيه الحكمة؛ ما الفائدة من أن تخلق هذه الخليقة العظيمة، تنزل عليها الكتب وترسل إليها الرسل وتؤمر وتنهى ثم في النهاية أن تؤول إلى التراب ما الفائدة؟ لا فائدة؛ إذا لابدَّ من حساب.

٢١- بيان أنه ينبغي للعاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، كما قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله: {حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا} فكون الإنسان يحاسب نفسه ليصلح ما عساه فسد، أولى من سكوته وإهماله وعدم حساب نفسه؛ لأنَّ الذنوب تتراكم عليه ثمَّ يهلك. هل يستفاد منها الرَّد على الجبرية؟ نعم؛ وجه ذلك أنَّ الله أسند ذلك الأفعال إلى فاعلها {وما اختلف الذين} {ومن يكفر بالله} {بغيًا بينهم} وما أشبه ذلك كل هذا يفيد أن الإنسان إرادةً وفعلًا اختياريِّين خلافًا للجبرية الذين قالوا: إن أفعال العباد تجبر عليه الإنسان.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {٢٠}

قال أبو زهرة: ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، واختلافهم على أنبيائهم بعد أن جاءتهم البيِّنات من ربهم؛ وفي هذه الآية يبيِّن سبحانه محاجَّتهم للنبي ﷺ، وأشار إلى أنها محاجَّة ليس أساسها الإذعان للحق إذا تبيَّن، بل أساسها محاولة طمس الحق، واللُّجاجة بالباطل، وذلك لأنَّ المجادلة قسمان: قسم يراد به طلب الحق وتمحيصه، ودراسة الأمر من كل نواحيه، وتبادل الأدلَّة ليستبين من بينها نور الحق، وهذا القسم محمود لَا شك فيه. والقسم الثاني لَا يقصد به طلب الحق، بل يقصد به الدفاع عن فكرته من غير نظر إلى كونها حقًّا أو باطلًا، فهو يجادل ليغالب خصمه، لَا ليهتدي إلى أقوم المناهج، ومن ذلك النوع الأخير مجادلة أولئك الذين اختلفوا من أهل الكتاب، ومجادلة أولئك الذين جحدوا بالآيات من المشركين الذين قال الله سبحانه وتعالى في أمثالهم: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ...}، وإذا كان جدل هؤلاء من ذلك النوع الذي لَا يقصد به رفع منار الحق أو طلب الحق، فإنَّ النبي ﷺ بأمر ربه طلب إليهم أن يخلصوا في طلب الحقيقة كما أخلص هو، ولذا قال سبحانه: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ}.

قال ابن العثيمين: {فإن حاجُّوك}: الخطاب للرسول ﷺ، وضمير الغائب حاجُّوك، الواو هل هي لليهود، أو للنصارى، أو للمشركين، أو للعامة؟ على ثلاثة أقوال: قيل: لليهود؛ وقيل: للنصارى لأن الآيات التي في أول سورة آل عمران كلُّها نزلت في النصارى؛ وقيل: للمشركين لأنَّه كانوا يحاجُّون الرسول ﷺ؛ قالوا له: إنَّك يا محمد تزعم الذين يدعون أحدًا غير الله يكون هو ومن يدعوه من نار {إنَّكم وما تعبدون حصب جهنم} إذًا عيسى في النار لأنَّه يعبد من دون الله، هذا محاجٌّ؛ فأنزل الله بعد الآية مباشرة: {إنَّ الذين سبقت لهم منَّا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون}. فالمهم أنَّ الرسول ﷺ يحاجّ يجادله المشركون ويجادله اليهود ويجادله النصارى، ولكن يقول الله عز وجل: إن حاجُّوك فقل لهم قولًا تخلص به منهم {قل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن} وإذا أسلم الإنسان وجهه لله، قَبِل كل ما يخبر الله به، وامتثل كل ما يأمر به، وانتهى عن كل ما ينهى عنه؛ لأنَّه مسلمٌ وجهه لله، والمراد بالوجه هنا ليس الوجه الجارحة التي في الرأس، ولكن مرادها كما قال الشاعر: – رب العباد إليه الوجه والعمل –

تقصد لوجهك، أي الوجه الذي هو وجه القلب تسلِّمه لله؛ وربما نقول: إنَّه يشمل هذا وهذا؛ لأنَّ الإنسان يسلم وجهه لله، فتجد يضع وجهه الذي هو أشرف أعضاءه يضعه على التراب ذلًّا لله واستسلامًا له، لو أنَّ أكبر ملوك الدنيا قال لك اسجد ولو على فراش، لقلت: لا سمعًا ولا طاعةً، لا أسجد لك؛ لكن الرب عز وجل يأمرك أن تسجد، فتسجد على الأرض وعلى التراب، فهذا استسلام لله تعالى، استسلام لوجه الله.

إذا قلت: {أسلمت وجهي لله ومن اتبعن} يترتَّب عليه تصديق خبر الله، وامتثال أمره واجتنابه نهيه؛ فأنا الآن هذه طريقتي، ومن ذلك أمرت أن أبلغكم، فبلَّغت وليس على أكثر من ذلك {ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء}، وبهذا نعرف وجه مطابقة الجواب للشرط، وإلَّا فإنَّ الإنسان قد يتوقَّع جوابًا غير هذا، قد يتوقَّع أن يقال: فإن حاجُّوك فحاجِّهم، قد يتوقَّع هذا؛ لكن قال: إن حاجُّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتعبن وآمنت به وانقدت لأوامره ومن ذلك أنَّني أبلِّغكم وقد فعلت فإن اهتديتم فلأنفسكم وإن ظللتم فعليكم.

وقوله: {لله ومن اتبعن}: {من} هذه معطوفة على {أسلمت}، وعلى {ت} الضمير في {أسلمت}، ولا يجوز أن يكون معطوفًا على لفظ الجلالة لأن الرسول لا يسلم لمن اتَّبعه، إنَّما يسلم وجهه لله، ومثل ذلك قوله تعالى: {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتَّبعك من المؤمنين} فإنَّ بعض المعربين قالوا إنَّ {من} معطوفة على لفظ الجلالة يعني: حسبك الله، وحسبك من اتَّبعك من المؤمنين؛ وهذا غلط لأن النبي ﷺ حسبه الله وحده، وحسب من اتَّبعه من المؤمنين، كأن الذين قالوا إن من اتَّبعك من المؤمنين معطوف على لفظ الجلالة استندوا على قوله تعالى: {هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين}، ولكن بينهما فرق عظيم لأن أيَّدك أي أسند التأييد إلى الله؛ وجعل النصر والمؤمنين وسيلة، فالمؤيِّد هو الله فبينها وبين قوله: {حسبك الله ومن اتَّبعك} فرق ظاهر؛ على كل حال أن قوله: {ومن اتبعن} معطوفة على التاء في {أسلمت}: أي على الضمير.

وقوله: {وجهي لله} فيها قراءتان: قراءة: سكون الياء؛ وقراءة: فتح الياء؛ {وجهي لله} الثاني: {وجهي لله} أما الهاء فهي مكسورة؛ ويشكل على هذا: كيف تكون معطوفة على ما هو في محل الرفع وهو التاء ثم تكون مكسورة؟ إذًا الضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلّم باشتغال المحل بحركة المناسبة لأن الياء لا يمكن أن تطابق غير الكسرة، لا يمكن أن تطابق يكسر الشيء الذي قبلها من أجلها؛ فلهذا نقول: اشتغال المحل بحركة مناسبة وهي الكسرة.

وقوله: {ومن اتَّبعن}: اتَّبعن على ما جئت به من العقيدة والقول والعمل؛ وعلامة المتَّبع للرسول ﷺ حقًّا هو الذي إذا قيل له: (قال رسول الله)، صار كقول من قال له: (قال الله)، وإذا قيل له: (فعل رسول الله)، لم يعدل بفعله فعل أحد من الناس هذه حقيقة المتَّبع؛ أمَّا من قال شيئًا أو فعل شيئًا أو اعتقد شيئًا ثمَّ حاول أن يصرف كلام الرسول ﷺ إليه فهذا حقيقة ليس بمتَّبع لأنَّه لم يذعن لما جاء به الرسول، إنَّما اتَّبع هواه ثم حاول أن يلوي أعناق النصوص إلى ما يوافق هواه، وهذه مسألة خطيرة؛ ولهذا إذا قرأت في بعض الأحيان كتب العلماء في باب المناقشة تتعجَّب كيف يبنون الأدلَّة على عقائدهم، على ما يعتقدون من الأحكام، أو من العقائد القلبية، فيحاولون أن يصرفوا هذه النصوص إلى ما يعتقدون وتستكبر هذا الأمر منهم وهم علماء أجلَّة، وهذه المهنة لا يسلم منها إلَّا من عصمه الله، نسأل الله أن يعصمني وإيَّاكم منها؛ محنة عظيمة أن تجعل الهدى تابعًا لهوى، والواجب أن تكون الهوى تابعً قال ابن القيم في التفسير القيم: ا للهدى.

قال السعدي: ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجَّة النصارى وغيرهم ممَّن يفضِّل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد {أسلمت وجهي لله ومن اتبعن}: أي أنا ومن اتَّبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجَّة على من اشتبه عليه الأمر، لأنَّه قد تقدَّم أنَّ الله استشهد على توحيده بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرَّر توحيد الله ودينه بأدلَّته الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلهذا قال: {وقل للذين أوتوا الكتاب} من النصارى واليهود {والأمِّيِّين} مشركي العرب وغيرهم.

قال الطبري: قال ابن عباس: {وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين}، قال: الأميون الذين لا يكتبون.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٥٥: وَلَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ إلَّا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَوْ الْأُمِّيِّينَ، وَكُلُّ أُمَّةٍ لَمْ تَكُنْ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فَهُمْ مِنْ الْأُمِّيِّينَ؛ كَالْأُمِّيِّينَ مِنْ الْعَرَبِ وَمِنْ الْخَزَرِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالْهِنْدِ وَالسُّودَانِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ أُمِّيُّونَ، وَالرَّسُولُ مَبْعُوثٌ إلَيْهِمْ كَمَا بُعِثَ إلَى الْأُمِّيِّينَ مِنْ الْعَرَبِ. وَقَوْلُهُ: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} – وَهُوَ إنَّمَا يُخَاطِبُ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَانِهِ بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ – يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ دَانَ بِدِينِ

الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَهُوَ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَا يَخْتَصُّ هَذَا اللَّفْظُ بِمَنْ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمْ وَأَوْلَادِ غَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ أَوْلَادَهُمْ إذَا كَانُوا بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ مِمَّنْ أُوتُوا الْكِتَابَ فَكَذَلِكَ غَيْرُهُمْ إذَا كَانُوا كُلُّهُمْ كُفَّارًا وَقَدْ جَعَلَهُمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِقَوْلِهِ: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} وَهُوَ لَا يُخَاطِبُ بِذَلِكَ إلَّا مَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَتُهُ؛ لَا مَنْ مَاتَ.

قال ابن العثيمين: {وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم}، هذا ممَّا يدل على أن الواو في {حاجُّوك} يشمل اليهود والنصارى والمشركين؛ يعني وقل هل أنتم تفعلون مثل فعلي؟ {قل للذين أوتوا الكتاب} وهم اليهود والنصارى {والأميين} وهم العرب وسمُّوا أميِّين نسبة للأم لأنَّهم كانوا جاهلين؛ ولهذا يقال: أهل الجاهلية إذ لم يأتهم رسولهم بعد إسماعيل عليه السلام فكانوا جاهلين؛ ومنهم من يتعلَّم ويأخذ العلم ويأخذ العلم للرسالات الإلهية عن النصارى مثل ورقة بن نوفل وإلَّا فعامتهم جهَّال.

{قل للذين أوتوا الكتاب والأميِّين أأسلمتم} فيها قراءتان: {آأسلمتم}، و{أأسلمتم}: أي بتحقيق الهمزتين وإدخال ألف بينهما، والاستفهام هنا يراد به الأمر على قول لأهل العلم، يعني: (قل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا)؛ فالاستفهام بمعنى الأمر؛ ومثله قوله تعالى: {قل إنَّما يوحى إليَّ أنَّما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون}، {فهل أنتم مسلمون}: يعني فأسلموا؛ وقيل بل المراد بذلك: النداء على بداهتهم، يعني إنَّه ينادي عليهم بالبراءة يعني: (أأسلمتم بعد هذا البيان وهذا الوضوح؟ أم أنَّكم لم تفقهوا حتى الآن)؛ وهذا المعنى أبلغ من المعنى الأول فيكون المراد بذلك النداء على بداهتهم وعلى التنديد بهم وأنهم لم يسلموا مع ظهور المعنى ووضوحه قال الله عز وجل: {فإن أسلموا فقد اهتدوا}: إن أسلموا بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ فقد اهتدوا؛ هداية التوفيق يعني فقد سلكوا طريق الهداية؛ لأن الهداية نوعان: هداية دلالة، وهذه شاملة لكل أحد، قال الله تعالى: {وإن من أمَّة إلَّا خلا فيها نذير}. لابدَّ أن يهدي الله سبحانه وتعالى كلَّهم؛ وهداية التوفيق وهذه خاصة بمن هدي للإسلام في كل زمان ومكان بحسبه؛ فمن اهتدى هداية التوفيق فهو محل المدح والثناء وأمَّا الأول الذي اهتدى هداية الدلالة يعني معناه علم الحق فهذا إذا خالف الحق كان أشدُّ ذمًّا ممَّن لم يعلم الحق؛ فإن قلت لو فرض أن أحدًا من الناس لم يعرف، لم يعلم بالشريعة مثل أصحاب الفطرة فما حكم هؤلاء؟ الجواب أن حكمهم ما هم عليه إذا كانوا على باطل فهم على باطل ولا يفهم بأنَّهم مسلمون لأنَّهم لم يسلموا ولكن في الآخرة أمرهم إلى الله عز وجل لا نعلم فقد يختبرهم الله تعالى بما شاء على الوجه الذي يريده فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصى دخل النار.

قال السعدي: قوله: {أأسلمتم فإن أسلموا}: أي بمثل ما أمنتم به {فقد اهتدوا} كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

قال الطبري: فإن قال قائل: وكيف قيل: {فإن أسلموا فقد اهتدوا} عقيب الاستفهام؟ وهل يجوز على هذا في الكلام أن يقال لرجل: (هل تقوم؟ فإن تقم أكرمك)؟

قيل: ذلك جائز، إذا كان الكلام مرادًا به الأمر، وإن خرج مخرج الاستفهام، كما قال جل ثناؤه: {وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}[سورة المائدة: ٩١]: يعني انتهوا، وكما قال جل ثناؤه مخبرًا عن الحواريين أنَّهم قالوا لعيسى: {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}[سورة المائدة: ١١٢]، وإنَّما هو مسألة، كما يقول الرجل: (هل أنت كافٌّ عنَّا)؟ بمعنى: اكفف عنَّا، وكما يقول الرجل للرجل: (أينَ، أين)؟ بمعنى: أقم فلا تبرح، ولذلك جُوزي في الاستفهام كما جوزي في الأمر في قراءة عبد الله: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ آمِنُوا}[الصف: ١٠، ١١]، ففسَّرها بالأمر، وهي في قراءتنا على الخبر. فالمجازاة في قراءتنا على قوله: (هل أدلُّكم)، وفي قراءة عبد الله على قوله: (آمنوا)، على الأمر، لأنَّه هو التفسير.

قال ابن العثيمين: {وإن تولَّوا}: يعني أعرضوا عن الإسلام فلم ينقادوا بظواهرهم ولا بواطنهم فقد أدَّيت ما عليك؛ ولهذا قال: {فإنَّما عليك البلاغ}. {وإن تولَّوا فإنَّما عليك البلاغ} الجملة هذه جواب الشرط في قوله: {فإن تولَّوا} وهي تفيد الحصر يعني ما عليك إلَّا البلاغ، وقد بلَّغ البلاغ المبين ﷺ؛ أمَّا الهداية فهي بيد الله سبحانه وتعالى، ولو كان بيد النبي ﷺ شيء من هداية التوفيق لكان أول من يحرص عليه أو من يهتدي على يديه عمه أبا طالب، لكن ليس عليه هدى الناس إنَّما عليه البلاغ، أي إبلاغ الرسالة إلى الأمَّة، فإن اهتدوا فلهم، وإن أساءوا فعليهم.

{والله بصير بالعباد}: بصير بهم، أي عليم بأحوالهم، وعليم بأهليتهم، من يصلح للهداية ومن لا يصلح؛ والبصر هنا بصر الرؤية، وبصر العلم، فالله تعالى بصير بالعباد بالرؤية لا يخفي عليه شيء منهم، وبصير بالعباد بالعلم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

{والله بصير بالعباد}: والعباد هنا يشمل جميع الخلق لأنَّه ما من شيء في السموات والأرض، بل ما من أحد في السماء والأرض إلَّا آتي الرحمن عبدًا {إن كل من في السموات والأرض إلَّا آتي الرحمن عبدًا}. ولهذا قال: {والله بصير بالعباد}، فإذا كان الله بصيرًا بالعباد وأنت قد أدَّيت ما عليك من البلاغ فمن الذي يحاسبهم؟ الله؛ كما قال تعالى: {إنَّما عليك البلاغ وعلينا الحساب}.

قال السعدي: {وإن تولَّوا} عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه {فإنَّما عليك البلاغ} فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجَّة، ولم يبق بعد هذا إلَّا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال: {والله بصير[١]بالعباد}.

قال الطبري: {وإن تولَّوا} وإن أدبروا مُعرضين عمَّا تدعوهم إليه من الإسلام وإخلاص التوحيد لله رب العالمين، فإنَّما أنت رسولٌ مبلِّغ، وليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقي، وأداء ما كلَّفتك من طاعتي {والله بصيرٌ بالعباد}،

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء.

يعني بذلك: والله ذو علم بمن يقبل من عباده ما أرسلتك به إليه فيطيعك بالإسلام، وبمن يتولَّى منهم عنه معرضًا فيردُّ عليك ما أرسلتك به إليه، فيعصيك بإبائه الإسلامَ.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٢ص١٢٧: فَقَدْ أَمَرَهُ – تَعَالَى – بَعْدَ قَوْلِهِ: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}، أَنْ يَقُولَ: {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}، وَأَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ – وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَالْأُمِّيِّينَ وَهُمُ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ –: {أَأَسْلَمْتُمْ}؟ فَالْعَرَبُ الْأُمِّيُّونَ يَدْخُلُونَ فِي لَفْظِ الْأُمِّيِّينَ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ. وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ: فَإِمَّا أَنْ يَشْمَلَهُ هَذَا اللَّفْظُ أَوْ يَدْخُلَ فِي مَعْنَاهُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُبَيِّنَةِ أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ.

قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}، فَقَدَ أَمَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِسْلَامِ كَمَا أَمَرَ بِهِ الْأُمِّيِّينَ وَجَعَلَهُمْ إِذَا أَسْلَمُوا مُهْتَدِينَ، وَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا فَقَدْ قَالَ: {إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}، أَيْ تُبَلِّغُهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّكَ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُحَاسِبُهُمْ فَدَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ أَنْ يُبَلِّغَ أَهْلَ الْكِتَابِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يُبَلِّغُ الْأُمِّيِّينَ، وَأَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُهُمْ عَلَى تَرْكِ الْإِسْلَامِ كَمَا يُحَاسِبُ الْأُمِّيِّينَ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– {فإن حاجُّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتَّبعن} في هذه الآية دليل على أن النبي ﷺ له من يحاجَّه من أعدائه، وهو كذلك، فإنَّهم حاجُّوه في أصل الدين وفي فروع الدين، وسخروا منه وأوجدوا شبهات كثيرة، والناس يثيرون الشبهات حول الدين الإسلامي منذ بعث وإلى يومنا هذا، ولكن يأبى الله إلَّا أن يتمَّ نوره لأنَّهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره.

٢– أنَّ هؤلاء الذين يحاجُّون الرسول ﷺ لا يحتاجون إلى كبير عناء لأنَّهم يحاجُّون على أمر واضح؛ ولهذا أمره الله أن يسفِّهم وأن يقول: {أسلمت وجهي لله ومن اتَّبعن} فإن أسلمتم فهو لكم وإن لم تسلموا فعليكم. ويتفرَّع على ذلك: أنَّ من علمت أنَّه إنَّما يحاجُّك لقصد نصر قوله ولو كان باطلًا فلك أن تعرض عنه وتقول: هذا ما أدين الله به، وهذا ما أستسلم له وتدعه، لأنَّ هذا معاند مكابر وليس أهلًا لأن تدخل معه في محاجَّة أو خصومة لأنَّه لا يريد الحق، لو كان يريد الحق ما حصلت محاجَّة.

٣– أن أتباع رسول الله ﷺ يحذون حذوه في إسلامهم لله وتفويض الأمر إليه؛ لقوله: {أسلمت وجهي لله ومن اتَّبعن}.

٤– أن الوجه أشرف الأعضاء وهو الذي يكون به الانقياد وعدم الانقياد؛ لقوله: {أسلمت وجهي لله} فإن إسلام الوجه هو الذي يكون به الانقياد؛ ولهذا كان أذلَّ ما يكون الإنسان لربه إذا كان ساجدًا، وأقرب ما يكون من ربه إذا كان ساجدًا، لأنَّ هذا هو تمام الذُّل أن تضع أشرف أعضاءك على موقع الأقدام على الأرض.

٥- أن النبي ﷺ متبوع لا تابع؛ لقوله: {ومن اتَّبعن}. ويتفرَّع على ذلك: أن الواجب على من تبيَّن له الحق أن يأخذ به إذا كان يريد أن يكون من أتباع الرسول ﷺ، أمَّا من يلوي أعناق النصوص إلى قوله فهذا ليس بمتَّبع حقيقةً؛ لأنَّ بعض الناس إذا قال قولًا وجاء في نص القرآن أو السنة النبوي ما يخالف قوله حاول أن يلوي عنق النص، ويحرِّف النص من أجل أن يكون موافقًا لقوله، وهذا حرام لأنَّك أنت تابع ولست بمتبوع.

٦- أنَّه لا يمكن أن يكون قول أحد من أهل العلم حجَّة على الآخرين؛ لأنَّ الكل تابعون لا متبوعون، ومن أراد أن يكون الناس أتباعًا له، لا للحق، فقد جعل نفسه شريكًا في الرسالة؛ والواجب أنَّك إذا دعوت إلى الحق أن لا تريد أن يتَّبعك الناس لأنَّك فلان ابن فلان، بل أن يتَّبع الناس قولك لأنَّه هو قول الذي دلَّ عليه الدليل.

٧- النداء بالسَّفه والبلاهة على من جادل وعارض دون أن يستسلم لله؛ لقوله: {فقل أأسلمتم} وإن جعلناها أمرًا فالأمر واضح.

٨- بيان عظيم منَّة الله عز وجل على العرب ببعثة الرسول ﷺ؛ وجه ذلك: أنَّه قال: {للذين أوتوا الكتاب والأميين} فرق بين الوصفين، بين من أوتي الكتاب وبين الأمِّي الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ فالذين أوتوا الكتاب أصحاب علم وأصحاب كتاب، والأمِّيون أصحاب جهل لكنَّهم ببعثة الرسول ﷺ كانوا هم أهل الكتاب حقًّا؛ لأنَّ هذا الكتاب الذي نزل على رسول الله ﷺ وصفه الله بأنَّه مصدِّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه؛ فصار والحمد لله هؤلاء الأمِّيون هم أهل الكتاب الحق؛ فيكون في هذا بيان عظيم منَّة الله عز وجل على العرب ببعثة الرسول ﷺ حيث كانوا في الأول أمِّيين جاهلين، وفي الثاني أهل كتاب وذكاء {لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}.

٩- وجوب الإسلام لله سواء قلنا: إنَّ الاستفهام لاستبلاه هؤلاء القوم والإنكار عليهم، أو قلنا: إنَّه للأمر، فإنَّه يدلُّ على وجوب الإسلام والاستسلام لله عز وجل.

١٠- أنَّ أهل الهدى هم المسلمون؛ لقوله: {فإن أسلموا فقد اهتدوا}.

١١- أنَّ من لم يسلم فهو ضال؛ فإن كان قد علم الحق كان من الضالين المغضوب عليهم، لأنَّ كل من علم الحق ولم يتَّبع فهو مغضوب عليهم. يقول الله عز وجل: {فإن تولَّوا فإنَّما عليك البلاغ} في هذه الجملة التحذير من التَّولي بعد أن دعي، فإنَّ قوله: {والله بصير بالعباد} لاشك أنَّه يحذِّرهم من مخالفتهم، لأنَّ الرسول ﷺ بلَّغ.

١٢- أنَّه لا يجب على من بلَّغ إلَّا البلاغ، أمَّا الهداية فإلى الله؛ لقوله: {فإنَّما عليك البلاغ}.

١٣- وجوب البلاغ على رسول الله ﷺ؛ لقوله: {فإنَّما عليك البلاغ}.

١٤- أنَّ من آتاه الله علمًا بهذا الوحي فعليه البلاغ خلفًا لرسول الله ﷺ.

١٥- الإشارة إلى أن الإنسان لا يُسأل عن عمل غيره أن يقوم بما يجب عليه وأمَّا غيره فأمره إلى الله؛ لقوله: {فإن تولَّوا فإنَّما عليك البلاغ}؛ ولم يقل: (فإنَّما عليك إثمهم)، {عليك البلاغ} وأنت سالم من إثمهم. فأنت تقوم بفعلك وهم يحاسبون على فعلهم؛ ولهذا قال: {والله بصير بالعباد}.

١٦- إثبات اسم البصير لله عز وجل على أنه يحتمل أن يكون المراد بالبصير هنا الصفة لأنَّه قيَّدها قال: {بصير بالعباد} واسم الله غير مقيَّد مثل: {والله سميع بصير}، وما أشبهها.

١٧- عموم علم الله عز وجل؛ لقوله: {بصير بالعباد} أي بجميع أحوالهم.

١٨- التحذير من مخالفة الله؛ كيف؟ إذا كان الله بصيرًا به فكل إنسان يخجل أو يستحيي أن يفعل ما نهاه الله عنه أو أن يترك ما أمره الله به لأنَّه يعلم أن الله بصير به وسوف يعاقبه .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {٢١}

قال ابن العثيمين: {يكفرون بآيات الله} الكونية والشرعية؛ وال{آيات}: جمع (آية): وهي في اللُّغة العلامة؛ وهذه الآيات الكونية التي نشاهدها ممَّا لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها، فيها آية تدلُّ على الله؛ آية تدلُّ على أنَّ الخالق واحد لا شريك له، وعلى أنَّه لا يشبهه شيء؛ لأنَّ الناس لو اجتمعوا كلُّهم على أن يخلقوا جبلًا واحدًا ما استطاعوا، أو أن يخلقوا حيوانًا واحدًا ما استطاعوا، {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له}، آيات الله الشرعية أيضًا لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها، {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله} فالآيات الشرعية، علامات دالَّة على أنَّ الذي أنزل هذه الآيات إله واحد وأنَّه كامل الحكمة؛ هؤلاء الذين يكفرون بهذه الآيات يقول الله عز وجل بعد أن ذكر معطوفات متعدِّدة: {فبشِّرهم بعذابٍ أليم}. ولكن كيف يكون الكفر بالله؟ نقول أولًا الكفر بالآيات الكونية، يجحد الله سبحانه وتعالى عمَّا خلقه؛ أن يدَّعي أنَّ الذي خلقها غير الله، أو أنَّ له شريكًا في خلقه؛ أو أنَّ له معينًا في خلقه. وثانيًا الكفر بالآيات الشرعية، الكفر بالجحود أو بالاستكبار؛ إمَّا بجحودها وتكذيبها أو بالاستكبار والعناد؛ ومن تكذيبها أو الاستكبار عنها تحريف النصوص، فإنَّ تحريف النصوص نوعٌ من الكفر بلا شك.

يقول الله تعالى: {إنَّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيِّين بغير حق}: يقتلون النبيِّين الذي أرسلهم الله إليهم بغير حق؛ والنبيُّون هنا يشمل الرسل، ومن لم يرسل من النبيِّين، وأكثر ما وجد هذه الصفة في اليهود، لأنَّ اليهود أعتى المخالفين للرسل وأشدُّهم غلظة والعياذ بالله، فصار منهم من قتل الأنبياء بغير حق، وعبد الطاغوت، وهنا يقول: {النبيِّين بغير حق} هذه الصفة

لا يراد بها إخراج ما خالفها وإنَّما يراد بها بيان الواقع والدلالة على أن هذا القتل كان عدوانًا؛ فيراد بها شيئان: أولًا بيان الواقع وأنَّهم يقتلونهم وهم غير محقِّين، يعني لا يقتلونهم قصاصًا مثلًا؛ ثانيًا: أنَّ قتلهم كان بباطل بغير حق؛ وإلَّا فليس هناك قتل بالحق لأحد من النبيِّين. {ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس} وفي قراءة: {يقاتلون} من الذين يأمرون بالقسط من الناس؟ الرسل وغير الرسل، أهل العلم يأمرون من الناس بالقسط، الخلفاء الراشدون يأمرون الناس بالقسط، النبيُّون يأمرون الناس بالقسط؛ وحينئذ فعطفه على النبيِّين من باب عطف العام على الخاص ولكنَّه خصَّ الأنبياء لأن قتلهم أعظم من قتل غيرهم، فلا قتل أعظم جرمًا من قتل النبيِّين بغير حق.

{ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس}، {بالقسط}: أي بالعدل؛ {من الناس} يشمل النبيِّين وغيرهم، وقد مرَّ علينا إذا عطف العام على الخاص أو الخاص على العام هل هذا يدلُّ على إخراج الخاص من الحكم العام؟ أو على التنصيص عليه لأهميته فيكون قد ذُكر مرتين؟ مرة بطريق العموم، ومرة بطريق الخصوص، الثاني هو الأقرب، ولكن خصِّص من بين سائر الأفراد أو أعيد الحكم عليه من بين سائر الأفراد للاعتناء به والاهتمام به.

قال أبو زهرة: ولماذا قال سبحانه {مِنَ النَّاسِ} مع أنهم حتما من الناس؟ والجواب عن ذلك أنَّ هذا للإشارة إلى أنَّهم ليسوا بأنبياء بل من الناس غير المبعوثين، وفي قرنهم بالأنبياء، وإثبات أنَّ الاعتداء عليهم قرين الاعتداء على الأنبياء إشارة إلى بيان منزلتهم، وأنَّهم يعملون عمل النبيِّين وأنَّهم حقيقة ورثة الأنبياء، بالقيام بحق هذا الواجب المقدَّس، فإن لم يقوموا بهذا الواجب فليس لهم من وراثة الأنبياء شيء.

قال الطبري: إنَّ الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون آمريهم بالعدل في أمر الله ونهيه، الذين يَنهونهم عن قتل أنبياء الله وركوب معاصيه.

{فبشِّرهم بعذابٍ أليم}: الخطاب إمَّا للرسول ﷺ أو لكلِّ من يتأتّى خطابه، و{بشِّرهم}: أخبرهم، {بعذاب أليم}: والعذاب العقوبة، و{أليم}: بمعنى المؤلم؛ وهذه البشارة هل هي على سبيل التهكُّم بهؤلاء؟ أو هو من باب التَّشبيه، بالبشارة بما يسوء، بالبشارة بما يسر بجامع أنَّ كل واحد منهما تتأثَّر على البشرة وتتغيَّر؟ يحتمل الواقع هذا وهذا؛ ولكن إذا قلنا إنَّه من باب التهكُّم استفيد بذلك زيادة الألم على هؤلاء المبشَّرين كقوله تعالى: {خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق}: يعني قولوا له ذق، {إنَّك أنت العزيز الكريم}، فإن هذه الكلمة أو الجملة لاشك أنَّها تبلغ في قلبه كل مبلَغ لأنَّه سيتذكَّر أين العزة؟ وأين الكرم؟ أين العزة التي بها أغلب؟ والكرم الذي به أجود؟ فيكون أشدُّ وقعًا وأشدُّ تحسُّرًا أنَّه فاته هذا الوصف التي كان في الدنيا يرى نفسه من أهله.

{أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين} {أولئك} المشار إليه هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيِّين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وهم أهل الخير الآمرون بالمعروف والنَّاهون عن المنكر؛ هؤلاء الذين قامت بهم هذه الصفات، هم الذين حبطت أعمالهم؛ حبوط الشيء يعني ذهابه وزواله وعدم الاستفادة منه؛

فهؤلاء حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة؛ أمَّا في الآخرة فظاهر لأنَّهم لن يستفيدوا من أعمالهم وإن كانت خيرًا، حتى الإنسان الكافر إذا عمل خيرًا في الدنيا كالإحسان إلى الناس خصوصًا أو عمومًا فإنَّ ذلك لا ينفعه في الآخرة؛ لقوله تعالى: {وقدمنا إلى ما علموا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا}؛ لكن كيف حبطت أعمالهم في الدنيا؟ حبطت أعمالهم في الدنيا لأنَّهم لمَّا لم يستفيدوا منها صاروا كأنَّهم لم يعملوها، فأعمالهم لم تنفعهم؛ وشاهد هذا قوله تعالى: {قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيمة ألا ذلك هو الخسران المبين}. ثم قال: {وما لهم من ناصرين} هذه الجملة كما نعلم جميعًا جملة منفية ب{ما}؛ و{ما} ليست عاملة عمل ليس، لأنَّه تقدَّم الخبر؛ يعني هؤلاء الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ليس لهم أحد ينصرهم؛ وأكَّد سبحانه وتعالى النفي هنا ب{من} الزائدة؛ يعني ما لهم أحد ينصرهم لا على سبيل الاجتماع ولا على سبيل الانفراد؛ لأنَّ {من} الزائدة إذا دخلت تجعل النفي نصًّا في العموم ك(لا) النافية للجنس.

قال السعدي: هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشدُّ الناس جرمًا، وأيُّ جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدلُّ دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد؟ ويقتلون أنبياء الله الذين حقُّهم أوجب الحقوق على العباد بعد حقِّ الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضًا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شرَّ مقابلة، فاستحقُّوا بهذه الجنايات المنكرات أشدَّ العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشِّدَّة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح.

وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبَّحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

قال القرطبي: دلَّت هذه الآية على أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجبًا في الأمم المتقدِّمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة. وفي التنزيل: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ}[التوبة: ٦٧]، ثم قال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[التوبة: ٧١]، فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين؛ فدلَّ على أنَّ أخصَّ أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه. ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكلِّ أحد، وإنَّما يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتَّعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفي والتغريب؛ فينصب في كل بلدة رجلًا صالحًا قويًّا عالمًا أمينًا ويأمره بذلك، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة. قال الله تعالى: { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ}[الحج: ٤١].

وليس من شرط الناهي أن يكون عدلًا عند أهل السنة، خلافًا للمبتدعة حيث تقول: لا يغيِّره إلَّا عدل. وهذا ساقط؛ فإنَّ العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس. فإن تشبَّثوا بقوله تعالى : {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}[البقرة: ٤٤]، وقوله: {كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}[الصف: ٣]، ونحوه، قيل لهم: إنَّما وقع الذَّم ههنا على ارتكاب ما نهي عنه لا على نهيه عن المنكر. ولا شك في أنَّ النهي عنه ممَّن يأتيه أقبح ممَّن لا يأتيه، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالرحى، كما بيَّنَّاه في البقرة عند قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ}[البقرة: ٤٤].

وأجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وإنَّه إذا لم يلحقه بتغييره إلَّا اللَّوم الذي لا يتعدَّى إلى الأذى فإنَّ ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره؛ فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدَّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. قال: والأحاديث عن النبي ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدًّا ولكنَّها مقيَّدة بالاستطاعة. قال الحسن: إنَّما يكلَّم مؤمن يرجى أو جاهل يعلم؛ فأمَّا من وضع سيفه أو سوطه فقال: اتَّقني اتَّقني فما لك وله. وقال ابن مسعود: بحسب المرء إذا رأى منكرًا لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنَّه له كاره.

وهذه الآية تدلُّ على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل. وقال تعالى: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ}[لقمان: ١٧]. وهذا إشارة إلى الإذاية.

روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[١])). قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللِّسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء، يعني عوام الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللِّسان للناهي فليفعله، وإن لم يمكنه إلَّا بالعقوبة أو بالقتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل؛ وهذا تُلُقيَ من قول الله تعالى: {فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}[الحجرات: ٩]. وعليه بنى العلماء أنَّه إذا دفع الصائل على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شيء عليه. ولو رأى زيد عَمْرًا وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادرًا عليه ولا راضيًا به[٢].

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٢٥٠).

٢- (قلت): أنظر كلام العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند تفسير الآية (٤٤) من سورة البقرة، والآية (١٠٤) من سورة آل عمران، وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند تفسير الآية (١٠٤) من سورة آل عمران في الفوائد رقم (٦).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّه ينبغي أن يعلن لهؤلاء الكفار بما أمر الله تعالى أن يبشِّرهم به {فبشِّرهم بعذاب أليم} والنبي ﷺ لاشك أنَّه كلَّما كانت الحكمة في تبشيرهم بالعذاب الأليم بشَّرهم؛ وهكذا من ورث النبي ﷺ في العلم والدعوة ينبغي أن يبشِّر كل كافر بآيات الله بالعذاب الأليم؛ لكن يجب أن يكون هذا تابعًا لحكمة، قد لا يكون من الحكمة إذا دعوت رجلًا إلى الإسلام أن تقول تعال أنت كافر؟ فإذا قال: نعم، قلت: ابشر بالعذاب الأليم وأسلم؛ يصلح هذا؟ ما يستقيم لكن لكل مقام مقال؛ إذا دعوته وعاند واستكبر حينئذ يناسب أن تقول إن بقيت على ما أنت عليه فأبشر بالعذاب الأليم؛ أو يأتيك رجل يمدح لك هؤلاء الكفار ويقول: فيهم وفيهم وفيهم، تقول: يا أخي بشِّرهم بعذاب أليم ماذا ينفعهم هذا يوم القيمة؟.

٢- وجوب الإيمان بآيات الله؛ لأنَّ الله تعالى توعَّد هؤلاء الكافرين بها بالعذاب الأليم. والإيمان بالآيات الكونية له معنًى وبالآيات الشرعية له معنًى؛ فالإيمان بالآيات الشرعية قلنا إنَّه هو: تصديق الأخبار والعمل بالأحكام وأن لا يتعرَّض بتحريفها، ثلاثة أشياء؛ وبالكونية أن لا يعتقد أنَّ لله فيها مشاركًا أو معينًا أو مستقلًّا بملك.

٣- تحريم قتل النبيِّين وأنَّه بغير حق مهما كان؛ لقوله تعالى: {ويقتلون النبيِّين بغير حق} مع أن قتل النبيِّين بغير حق من جملة الكفر لكن نصَّ عليه لشدَّة شناعته والعياذ بالله.

٤- تحريم أو شناعة كل من يقتل أو قاتل من يأمر بالقسط من الناس؛ قلنا: إنَّهم علماء وأمراء؛ فالعلماء يبيِّنون الشرع والأمراء ينفذون الشرع فإذا قتلهم قاتل دخل في هذه الآية إذا كانوا يأمرون بالقسط.

٥- ثبوت العذاب على هؤلاء المتَّصفين بهذه الصفات؛ لقوله: {فبشِّرهم بعذاب أليم}.

٦- أن العذاب الذي يبشرون به ليس عذابًا هيِّنًا يتحمَّل، ولكنَّه عذابٌ مؤلم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {٢٢}

قال الطبري: وأمَّا قوله: {أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة}، فإنَّه يعني بقوله: {أولئك}، الذين يكفرون بآيات الله. ومعنى ذلك: أنَّ الذين ذكرناهم، هم {الذين حبطت أعمالهم}: يعني بطلت أعمالهم {في الدنيا والآخرة}. فأمَّا في الدنيا، فلم ينالوا بها محمدةً ولا ثناءً من الناس، لأنَّهم كانوا على ضلال وباطل، ولم يرفع الله لهم بها ذكرًا، بل لعنهم وهتك أستارهم، وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيت

الدنيا مذمَّةً، فذلك حبوطها في الدنيا. وأمَّا في الآخرة، فإنَّه أعدَّ لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه، وأعلم عباده أنَّ أعمالهم تصير بُورًا لا ثوابَ لها، لأنَّها كانت كفرًا بالله، فجزاءُ أهلها الخلودُ في الجحيم.

وأمَّا قوله: {وما لهم من ناصرين}، فإنَّه يعني: وما لهؤلاء القوم من ناصر ينصرهم من الله، إذا هو انتقم منهم بما سلف من إجرامهم واجترائهم عليه، فيستنقذُهم منه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أن هؤلاء الذين كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه وقتلوا الآمرين بالقسط من الناس، هؤلاء حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فلا يستفيدون منها، أمَّا في الآخرة فظاهر، وأمَّا في الدنيا فلأنَّهم ينتفعون بها فكأنَّها لم تكن.

٢- أن الكفر محبط للأعمال؛ لقوله: {أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة} ويدلُّ لذلك أيضًا قوله تعالى: {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

٣- أنَّ هؤلاء الكفار ليس لهم ناصر {وما لهم من ناصرين} المراد ليس لهم ناصر في الآخرة؛ أمَّا في الدنيا فقد ينصرهم من كان على شاكلتهم، ولكن هم ومن نصرهم مآلهم إلى الذُّل والخذلان؛ لأنَّ الله تعالى يقول: {كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إنَّ الله قوي عزيز}.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ {٢٣}

قال ابن العثيمين: {ألم تر} الاستفهام هنا للتعجُّب؛ فإنَّ هذه الحال يتعجَّب منها كلُّ عاقل؛ و{تر} يحتمل أن يكون رؤية عين، ويحتمل أن يكون رؤية علم، والثاني أَولى لأنه أشمل، ولأنَّه يتعلَّق بالحال، والحال تعلم وليست ترى بالعين، يعني ألم تعلم إلى هؤلاء. {الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب}: يعني أوتوا نصيبًا من العلم، والذي آتاهم النصيب هو الله عز وجل، وحذفه للعلم به، لأنَّ الله تعالى هو الذي يعطي العلم، قال الله تعالى: {يعطي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا}، وقال تعالى: {وعلَّمناه من لدنَّا علمًا}، فالذي يؤتي النصيب من العلم هو الله عز وجل.

وقوله: {نصيبًا من الكتاب}: يفيد التقليل أو التكثير؟ يحتمل أن يكون المراد أوتوا نصيبًا كبيرًا من الكتاب بحيث يكون حاملًا لهم على الاهتداء ولكنَّهم والعياذ بالله استكبروا؛ ويحتمل أنَّه ليس عندهم إلَّا علم قليل، وأنه لو فرض أنَّ عندهم علمًا كثيرًا فإنَّ هذا العلم لم ينفعهم، فصاروا كالذي أوتي نصيبًا قليلًا من العلم.

قال أبو زهرة: وقوله تعالى: {أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ} يشير إلى أمرين:

أولهما: أنَّهم يتعلَّقون باسم الكتاب ولكن لَا يأخذون به؛ فالنصيب المراد به الجزء المعنوي من الكتاب، وهو أنَّهم تلقَّوا كتاب التوراة وأخذوا منه ترديده وذكره، ولم يأخذوا منه الهداية والإيمان.

وثانيهما: أنَّهم حرَّفوا هذا الكتاب وغيَّروه، فما عندهم هو نصيب من الكتاب أي جزء منه، وليس كل الكتاب.

وعبر هنا بقوله تعالى: {أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ} وفي الآيات السابقة قال سبحانه: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُم الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ...}، وذلك لأنَّ الكلام هنا في الذين كانوا يعاصرون النبي ﷺ، والذين كانوا يعاصرون النبي ﷺ لم يكن عندهم قطعًا إلَّا حظ من الكتاب، ولم يكن عندهم كل الكتاب؛ أمَّا في الآيات السابقة فقد كان الكلام في الذين عاصروا النبيِّين السابقين من بني إسرائيل، وقد كان عندهم الكتاب كله، ومع ذلك ضلوا على علم، وذلك لسيطرة الهوى على قلوبهم، وغلبته على نفوسهم، فبغَوا وطغَوا، وقتلوا النبيِّين والذين يأمرون بالقسط من الناس.

قال ابن العثيمين: وقوله: {يدعون إلى كتاب الله}: هذا محل التعجُّب، يعني أنَّهم مع ما عندهم من العلم يدعون إلى كتاب الله؛ والدَّاعي لهم هو رسول الله ﷺ ومن دعى بدعوته إلى يوم القيمة؛ هؤلاء يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم؛ إسناد الحكم هنا يحتمل أن يكون إلى الله عز وجل ليحكم الله بينهم بكتابه؛ ويحتمل أن يكون إلى الكتاب، وأسند الحكم إليه لأن الحكم صار به، ويضاف الشيء إلى سببه كثيرًا؛ على كل حال سواء قلنا إن الضمير في {يحكم} يعود إلى الله، أو إلى الكتاب.

قال الطبري: واختلف أهل التأويل في {الكتاب} الذي عنى الله بقوله: {يدعون إلى كتاب الله}. وأَولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن طائفة من اليهود الذين كانوا بين ظَهراني مُهاجَر رسول الله ﷺ في عهده، ممَّن قد أوتيَ علمًا بالتوراة أنَّهم دُعوا إلى كتاب الله الذي كانوا يقرُّون أنَّه من عند الله – وهو التوراة – في بعض ما تنازعوا فيه هم ورسولُ الله ﷺ. – وإنَّما قلنا إن ذلك {الكتاب} هو التوراة، لأنَّهم كانوا بالقرآن مكذِّبين، وبالتوراة بزعمهم مصدِّقين، فكانت الحجَّة عليهم بتكذيبهم بما هم به في زعمهم مقرُّون، أبلغَ، وللعذر أقطعَ – وقد يجوز أن يكون تنازعهم الذي كانوا تنازعوا فيه، ثم دعوا إلى حكم التوراة فيه فامتنعوا من الإجابة إليه، كان أمْرَ محمد ﷺ وأمرَ نبوته، ويجوز أن يكون ذلك كان أمرَ إبراهيم خليل الرحمن ودينه، ويجوز أن يكون ذلك ما دُعوا إليه من أمر الإسلام والإقرار به، ويجوز أن يكون ذلك كان في حدّ. فإنَّ كلُّ ذلك ممَّا قد كانوا نازعوا فيه رسول الله ﷺ، فدعاهم فيه إلى حكم التوراة، فأبى الإجابة فيه وكتمه بعضهم.

ولا دلالة في الآية على أيّ ذلك كان من أيٍّ، فيجوز أن يقال: هو هذا دون هذا. ولا حاجة بنا إلى معرفة ذلك، لأنَّ المعنى الذي دُعوا إلى حكمه، هو ممَّا كان فرضًا عليهم الإجابة إليه في دينهم، فامتنعوا منه، فأخبر الله جل ثناؤه عنهم بردَّتهم، وتكذيبهم بما في كتابهم، وجحودهم ما قد أخذ عليهم عهودَهم ومواثيقهم بإقامته والعمل به. فلن يعدُوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدًا وما جاء به من الحق، مثلهم في تكذيبهم موسى وما جاء به وهم يتولَّونه ويقرُّون به.

قال ابن العثيمين: هؤلاء يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ولكنَّهم لا يقبلون هذا؛ ولهذا قال: {ثم يتولَّى فريق منهم وهم معرضون}: يتولَّى فريق منهم لا كلُّهم لأنَّ بعض هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب قد هداهم الله وهم كثير، لكن تولَّى فريق منهم ومع تولِّيهم فإنَّهم معرضون والعياذ بالله، ليس عندهم إقبال لا في الظاهر ولا في الباطن، بل هم متولُّون معرضون، وإنَّما قال: {وهم معرضون} لأن الإنسان قد يتولَّى لسبب طارئ لكن في قلبه شيء من الإقبال؛ أمَّا هؤلاء فإنَّهم متولُّون وهم قد امتلئوا إعراضًا عن كتاب الله ليحكم بينهم.

قال أبو زهرة: وعبَّر هنا بِ{ثُمَّ} التي تفيد التَّراخي للإشارة إلى تباين حالهم مع ما كان ينبغي منهم؛ وذلك لأنَّهم ليسوا أمِّيِّين أو جاهلين فيعذروا، بل هم قوم أهل علم ودين، ونزلت بين أيديهم كتب السماء، فهم كانوا جديرين بأن يرضوا بحكم الكتب المقدسة، ولكنهم بدل أن يخضعوا ويذعنوا أعرضوا، واستمروا في غيِّهم يعمهون، فكان هذا التفاوت بين ما كان ينبغي، وما هو كائن، سببًا في التعبير ب{ثم} المفيدة للتَّراخي بين المعطوف والمعطوف عليه، والتباعد بينهما زمانًا أو معنًى.
وقوله تعالى: {وَهُم مُّعْرِضُونَ}: قال بعض المفسرين: إنَّه تأكيد لمعنى التَّولِّي، والحق أنَّها أفادت معنًى جديدًا، إذ أفادت أمرين: أولهما: أنَّ حال هؤلاء الناس حال إعراض دائم عن الحق، فليس تولِّيهم إذ دعوتهم إلى أن يحكم كتاب الله بينهم أمر عارض لحال وقتيَّة اقتضته، بل الإعراض صفة مستمرة لفريق منهم لَا تنفصل دائمًا عن تفكيرهم.
الأمر الثاني: أنَّ تلك الحال المستمرة الدائمة من الإعراض هي سبب تولِّيهم عن الحق عندما يدعون إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم.
والقرآن الكريم ينصف الحق في أخباره، كما هو الحق في ذاته؛ ولذلك لم يعمِّم الحكم على كل الذين أوتوا الكتاب بل قرَّر أن التَّولي كان من فريق منهم، ولم يكن من كلِّهم، وهذا كقوله تعالى: {مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}.

قال السعدي: وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذَّم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دُعيَ إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى {إنَّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّه ليس كل من أعطي علمًا يوفَّق للعمل به؛ لقوله: {يدعون إلى كتاب الله ثم يتولَّى}.

٢- التَّعجُّب من هؤلاء، وما أعظم التَّعجُّب أن يعطيهم الله العلم ثمَّ بعد ذلك لا يقبِلون على كتاب الله عز وجل.

٣- أنَّ هؤلاء قد قامت عليهم الحجَّة بكونهم دُعوا وهذا هو محطُّ الذَّم، أمَّا لو لم يُدعَون ولم يعلموا بالحق فإنَّهم لا يُذَمُّون على ذلك إذا لم يفرطوا بطلب الحق.

٤- أنَّ الواجب التَّحاكم إلى كتاب الله؛ لقوله: {يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم}.

٥- أنَّه لا حكم إلَّا لله بما جاء في كتابه؛ فلا أحد من الحكام يستطيع أن يشرع أحكامًا مخالفة لأحكام الله، بل من شرع مخالفة لأحكام الله وألزم العباد بها فهو كافر بالله عز وجل، كافر اللهم إلَّا أن يعذر بتأويل سائغ فهذا قد يخرجه من الكفر؛ لكن فعله من حيث هو فعل يؤدِّي إلى كفره.

٦- أنَّ الحكم في كتاب الله يكون في كلِّ شيء، كالعبادات والمعاملات والأخلاق والأعمال، كلِّ شيء؛ لأنَّه لم يخصِّص بل {ليحكم بينهم} في كلِّ شيء. ويتفرَّع على هذه الفائدة: الرَّد على من قال: إن الشرع إنَّما جاء لتنظيم العبادات فقط، أمَّا المعاملات فهي للخلق، واستدلُّوا لذلك بأنَّ النبي ﷺ قدم المدينة ورأى الناس يعبرون النخل معنى يعبرونها: يلقِّحونها، فقال ﷺ: ما أرى ذلك يغني شيئًا هذا أو معناه، فتركوا التعبير ففسدت التمر؛ لأنَّ النخل إذا لم يعبر فسدت؛ فلمَّا فسدت الثمار جاءوا إلى النبي ﷺ يخبرونه فقال: ((أنتم أعلم بأمور دنياكم)) قالوا: فوكَّل علم أمور الدنيا إليهم بل جعلهم أعلم منه بهذا؛ وعلى هذا فأمور الدنيا لا يتدخَّل فيها الشرع؛ ولكن هذا فهم خاطئ باطل؛ وذلك لأنَّ أمور الدنيا إمَّا أحكام شرعية كالتحليل والتحريم فهذه مرجعها إلى الشرع، وإمَّا أمور فنيَّة تدرك بالتجارب والتَّعلم فهذه مرجعها إلى أهل الخبرة؛ فكم من عالم عنده علم غزير واسع في أمور الشرع لا يستطيع أن يصنع بابًا ولا إبرة ويأتي رجل جاهل ويستطيع أن يصنع بابًا من أحسن الأبواب وإبرة من أحسن الإبر؛ ومسألة الصحابة رضي الله عنهم في التعبير مسألة فنية بلا شك تدرك بالتجارب، والنبي ﷺ كما نعلم ولد بمكة، ومكة ليست ذات نخل ولا يعلم عن هذا شيئًا، فصار أهل المدينة الذين مارسوا التجارب في هذه الأمور صاروا أعلم منه بذلك؛ أمَّا المسألة الشرعية فلاشك أن الله ورسوله أعلم؛ المهم أن الحكم لله ولا يجوز أن يكون الحكم لأي شيء سوى الله. فإن قال قائل: ألستم ترجعون إلى العرف في أمور كثيرة؟ بلى؛ لكن من الذي رجعنا إلى العرف؟ الشرع؛ إتيان العرف {عاشروهن بالمعروف}، {أمسكوهن بالمعروف أو فارقوهن بالمعروف}، فالشرع هو الذي أمرنا أن نرجع إلى العرف؛ وإذا أمرنا أن نرجع إلى العرف رجعنا إليه وحكَّمناه؛ ولهذا إذا تنازع الزوجان في قدر النفقة لا نذهب إلى الكتاب الفلاني أو الكتاب الفلاني البخاري أو مسلم أو أبو داود أو ما أشبه ذلك لا نرجع إلى هذا؛ نرجع إلى من؟ إلى أهل الخبرة في العرف في كل زمان ومكان بحسبه؛ إذًا الحكم فيما ردَّ إلى العرف للشرع، هو الذي أمرنا أن نرجع إلى العرف فأهل العرف حكموه.

٧- أنَّ هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله ممَّن أوتوا نصيبًا من الكتاب لم يتولَّوا جميعًا بل تولَّى فريق منهم؛ والأمر كذلك، فإنَّ كثيرًا من اليهود والنصارى أسلموا وحسن إسلامهم وكان لهم قدم صدقٍ في الإسلام.

٨- ذمُّ من يتولَّى بإعراض؛ لقوله: {ثم يتولَّى فريق منهم وهم معرضون}؛ لأنَّ التَّولِّي كما ذكرنا في التفسير قد يكون عن إعراض وقد يكون عن غير إعراض؛ والتَّولِّي مذموم كلُّه لكن إذا كان عن إعراض وعدم مبالاة كان أشدّ.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {٢٤} فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {٢٥}

قال ابن العثيمين: {ذلك بأنَّهم قالوا لن تمسنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات} {ذلك}: المشار إليه التولِّي والإعراض، بأنَّهم خدعوا أنفسهم وقالوا لن تمسنا النار، أي: لن تصيبنا إلَّا أيَّامًا معدودات، أيَّامًا قلائل لأنَّ كلُّ معدود فهو قليل، ودليل ذلك قوله تعالى: {وما نؤخِّره إلى لأجل معدود}، وقال: {قل متاع الدنيا قليل}، فكلُّ شيءٍ معدود فهو قليل لأنَّ شيئًا يمضي واحد اثنين ثلاثة أربعة لابدَّ أن ينتهي؛ هؤلاء يقولون: {لن تمسنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات} ثم من يخلفهم فيها؟ يدَّعون أنَّ الذي يخلفهم النبي ﷺ وأصحابه أبد الآبدين، وكذبوا في ذلك؛ فهم ستمسُّهم النار ويبقون فيها أبد الآبدين لكن غرُّوا أنفسهم وخدعوا عوامهم بهذا القول المفترى {ذلك بأنَّهم قالوا لن تمسَّنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون}، غرَّهم، الغرور والخداع بمعنى واحد متقارب، يعني هؤلاء خَدعوا أو هم خُدِعوا في دينهم حيث ظنُّوا أنَّهم على حق، وبعضهم عاند الحقِّ عالمًا به مفتريًا كذابًا، {غرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون}: أي الذي كانوا يفترونه؛ ومنه قولهم: {لن تمسَّنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات}.

قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: {بأنَّهم قالوا}: بأنَّ هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق فيما نازعوا رسول الله ﷺ، إنَّما أبوا الإجابة إلى حكم التوراة وما فيها من الحق: من أجل قولهم: {لن تمسنا النارُ إلَّا أيَّامًا معدودات} وهي أربعون يومًا، وهنَّ الأيام التي عبدوا فيها العجل ثم يخرجنا منها ربنا، اغترارًا منهم {بما كانوا يفترون}: يعني بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل، في ادِّعائهم أنَّهم أبناء الله وأحِبَّاؤه، وأنَّ الله قد وعد أباهم يعقوبَ أن لا يُدْخل أحَدًا من ولده النار إلَّا تَحِلَّةَ القسم. فأكذبهم الله على ذلك كلُّه من أقوالهم، وأخبر نبيه محمدًا ﷺ أنَّهم هم أهل النار هم فيها خالدون، دون المؤمنين بالله ورُسله وما جاءوا به من عنده.

عن الربيع في قوله: {ذلك بأنَّهم قالوا لن تمسَّنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات}، الآية، قال: قالوا: لن نعذَّب في النار إلَّا أربعين يومًا، قال: يعني اليهود قال: وقال قتادة مثله، وقال: هي الأيَّام التي نَصَبوا فيها العجل. يقول الله عز وجل: {وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون}، حين قالوا: {نحن أبناء الله وأحباؤه}.

قال مجاهد قوله: {وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون}، قال: غرَّهم قولهم: {لن تمسنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات}.

قال أبو زهرة: ذلك الإعراض عن الحق، والتولِّي عن الداعي إليه، واللجاجة في الباطل؛ بسبب أنَّهم يقولون: {لن تمسنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات}. وليس المراد إحصاء الأيام، بل المراد الاستخفاف بالعقاب والاستهانة به، وعدم الالتفات إلى وعيد الله، وزعمهم الباطل أنَّهم ينالون ما وعد به من ثواب ونعيم مقيم من غير عمل يعملونه، ولا كسب يكسبونه، فهم بهذا قد استناموا إلى الأماني وغرَّتهم الأوهام.

ولماذا كان الاستخفاف بالعقاب وعدم الاهتمام بالوعيد سببًا في الإعراض عن الحق؟ الجواب عن ذلك أن الحق يصل إليه المؤمن بأحد أمور ثلاثة: إمَّا بإشراق النفس، واستقامة القلب، وسلامة الفكر من الهوى والغرض، وذلك شأن من زكت نفوسهم وعلت قلوبهم؛ وإمَّا شكر للنعمة، ووفاء لحق المنعِم، وذلك شأن عباد الله الأخيار، وإمَّا خوف العقاب والحساب، وذلك شأن المتَّقين وأولئك قد حرموا الأول والثاني، فلم يبق إلَّا الثالث، فاستهانوا بالعقاب فكانوا قومًا بُورًا. وإنَّ المؤمن يجب أن يصون نفسه دائمًا بخوف العقاب، وأن يغلب الخوف على الرجاء، فإنَّه إن زاد الرجاء عن الخوف تسرَّبت الاستهانة إلى النفس وإذا تسربت الاستهانة هانت النفس فأركست في السيئات، وارتكبت الموبقات، وذلك شأن كثيرين من المنتسبين للأديان، وشأن كثيرين من المسلمين في هذه الأيام. وإنَّه يجب على المؤمن ألَّا يغتر، ولا يأخذه الغرور فيستهين بعقاب.

قال ابن العثيمين: {فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفِّيت كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون}: أي فكيف تكون حالهم في هذا الوقت إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه؛ والاستفهام للتعظيم، يعني ما أعظم ما تكون حالهم في تلك اليوم، وما أشد حسرتهم إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه، أي جمعناهم لهذا اليوم أي فيه؛ واللام تأتي دائمًا بمعنى (في) ويسمُّونها لام التوقيت، ومنه قوله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلِّقوهن لعدَّتهن}: أي في قبل عدَّتهن أي في استقبال عدَّتهن؛ فاليوم لاريب فيه، أي جمعوا لهذا اليوم، أي فيه وهو يوم القيمة.

قال الطبري: يعني بقوله جل ثناؤه: {فكيف إذا جمعناهم}، فأيُّ حال يكون حالُ هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وفعلوا ما فعلوا من إعراضهم عن كتاب الله، واغترارهم بربهم، وافترائهم الكذب، وذلك من الله عز وجل وعيدٌ لهم شديد، وتهديدٌ غليظٌ.

وإنَّما يعني بقوله: {فكيف إذا جمعناهم} الآية: فما أعظم ما يلقوْن من عقوبة الله وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليومٍ يُوفَّى كلّ عامل جزاءَ عمله على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه، لأنَّه لا يعاقب فيه إلَّا على ما اجترم، ولا يؤاخذُ إلَّا بما عمل، يُجزَي المحسنُ بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يخاف أحدٌ من خلقه منه يومئذ ظلمًا ولا هضمًا.

قال ابن العثيمين: وقوله: {لاريب فيه} إمَّا أنه خبر بمعنى النهي والمعنى: لا ترتابوا فيه؛ أو أنَّه خبر على حقيقته والمعنى أن الله عز وجل يخبر عن هذا اليوم بأنَّه لاريب فيه، أي لاريب في وقوعه؛ وهذا اليوم قد دلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل، أمَّا الكتاب فما أكثر الآيات التي فيها إثبات اليوم الآخر، وما أكثر الأمثال التي يضربها الله عز وجل لإثبات هذا اليوم ببعث الخلائق، وأمَّا في السنة فكثير أيضًا إثبات هذا اليوم، وأمَّا في العقل، فلأن العقل يدلُّ بالضرورة على أن هذه الخليقة لابدَّ أن يكون لها معاد تحاسب عليه على ما أمرت به، لأنه ليس من المعقول أن ينشئ الله خليقة يأمرها، وينهاها، ويبعث إليه الرسل، وينزل عليها الكتب، ويستباح دماء من لم ينقد لهذه الكتب ويتَّبع هؤلاء الرسل، ثم تكون النتيجة أن تموت هذه البشرية ولا تبعث، تكون ترابًا؛ لو وقع هذا الفعل من أي أحد لقيل هذا سفه من أسفه السَّفه؛ لو أن الإنسان صنع ثوبًا وخاطه وأتقنه ومن أحسن ما يكون ثم في النهاية أحرقه لعدَّ الناس كلُّهم هذا سفهًا فكيف بهذه الخليقة التي خلقها الله عز وجل وأنزل عليها الكتب وأرسل إليها الرسل وأباح دماء وأموال من لم ينقد لهذه الكتب ويتبع هؤلاء الرسل ثم تكون النتيجة أن تتلف هذه الخليقة بدون أيِّ معاقبة وبدون أيِّ حساب؛ فالكتاب والسنة والإجماع والعقل كلُّها دلَّت على ثبوت هذا اليوم الذي قال الله فيه: {فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفِّيت كلُّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}. {وفِّيت}: يعني أعطيت، ومنه قولهم: وفَّاه حقَّه: أي أعطاه حقَّه وافيًا؛ وقوله: {كلُّ نفس} من البشر والجن، يعني من المكلَّفين الذين أمروا ونهوا، هم الذين يوفون أجورهم، أمَّا من لم يتوجَّه إليه أمر ولا نهي فإنَّهم يجمعون يوم القيمة ولكن ليس لهم أعمال يجازون عليه فلا يشملهم قوله: {ووفِّيت كلُّ نفس ما كسبت} كيف تكون حال هؤلاء الذين تولَّوا وهم معرضون؟ تكون أسوأ حال والعياذ بالله لأنَّهم ينظرون إلى الناس وقد جوزوا بالثواب العظيم وإلى أنفسهم وقد جوزوا بالعذاب المهين فتكون أعمالهم حسرات عليهم والعياذ بالله يوم القيمة ولا يستفيدون لا من دنياهم ولا من أخراهم.

وقوله: {كلُّ نفس ما كسبت}: يعني من خير أو شر بدليل العموم في كلمة: {ما}؛ ولكن كيف توفَّى؟ أمَّا الخير فيوفَّى العامل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأمَّا في الشر فيوفى السيئة بمثلها إن لم يعفوا الله عنه، قد يعفوا الله عنه وقد يكون له أعمال صالحة تكفِّر هذه السيئات؛ فجزاء الله عز وجل وتوفيته للأعمال دائر بين الفضل والعدل، بين الفضل في أهل الخير، والعدل في أهل السوء؛ أمَّا القسم الثالث وهو الجور والظلم فهذا ممتنع، ولهذا قال: {وهم لا يظلمون}: فلا ينقص من حسناته ولا يزاد في سيئاته؛ ونحن نعلم أنَّ من أوفى غيره حقَّه فلا يخلوا من ثلاث حالات؛ إمَّا أن يوفِّيه بالفضل أو بالعدل أو بالجور إلَّا الله عز وجل فإنَّ وفائه دائر بين العدل والفضل، وأمَّا الجور والظلم فهذا ممتنع كقوله تعالى: {ولا يظلم ربك أحدًا}، {وما ربك بظلام للعبيد}، {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا}، وفي الحديث القدسي أنَّ الله تعالى قال: ((يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا(١))).

١- (قلت): مسلم (٢٥٧٧).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٨ص١٣٧: أَمَّا قَوْله تَعَالَى: ((يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي)) فَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ كَبِيرَتَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا ذَاتُ شُعَبٍ وَفُرُوعٍ: إحْدَاهُمَا: فِي الظُّلْمِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَنَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}، وَقَوْلِهِ: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، وَقَوْلِهِ: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، وَقَوْلِهِ: {إنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}، وَقَوْلِهِ: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}. وَنَفَى إرَادَتَهُ بِقَوْلِهِ: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}، وَقَوْلِهِ: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ}. وَنَفَى خَوْفَ الْعِبَادِ لَهُ بِقَوْلِهِ: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}، فَإِنَّ النَّاسَ تَنَازَعُوا فِي مَعْنَى هَذَا الظُّلْمِ تَنَازُعًا صَارُوا فِيهِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ وَوَسَطٍ بَيْنَهُمَا وَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا وَذَلِكَ بِسَبَبِ الْبَحْثِ فِي الْقَدَرِ وَمُجَامَعَتِهِ لِلشَّرْعِ؛ إذْ الْخَوْضُ فِي ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ تَامٍّ أَوْجَبَ ضَلَالَ عَامَّةِ الْأُمَمِ وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ عَنْ التَّنَازُعِ فِيهِ.

فَذَهَبَ الْمُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ الْقَائِلُونَ: بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَكُونَ إلَّا مَا أَمَرَ بِأَنْ يَكُونَ. وَغُلَاتُهُمْ الْمُكَذِّبُونَ بِتَقَدُّمِ عِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ بِمَا سَيَكُونُ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، إلَى أَنَّ الظُّلْمَ مِنْهُ هُوَ نَظِيرُ الظُّلْمِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ، وَشَبَّهُوهُ وَمَثَّلُوهُ فِي الْأَفْعَالِ بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ حَتَّى كَانُوا هُمْ مُمَثِّلَةَ الْأَفْعَالِ، وَضَرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ وَلَمْ يَجْعَلُوا لَهُ الْمَثَلَ الْأَعْلَى، بَلْ أَوْجَبُوا عَلَيْهِ وَحَرَّمُوا مَا رَأَوْا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعِبَادِ وَيَحْرُمُ بِقِيَاسِهِ عَلَى الْعِبَادِ وَإِثْبَاتِ الْحُكْمِ فِي الْأَصْلِ بِالرَّأْيِ، وَقَالُوا عَنْ هَذَا: إذَا أَمَرَ الْعَبْدَ وَلَمْ يُعِنْهُ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعَانَةِ كَانَ ظَالِمًا لَهُ، وَالْتَزَمُوا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَهْدِيَ ضَالًّا، كَمَا قَالُوا: إنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُضِلَّ مُهْتَدِيًا، وَقَالُوا مِنْ هَذَا: إذَا أَمَرَ اثْنَيْنِ بِأَمْرِ وَاحِدٍ وَخَصَّ أَحَدَهُمَا بِإِعَانَتِهِ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَ ظَالِمًا، إلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مِنْ بَابِ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ جَعَلُوا تَرْكَهُ لَهَا ظُلْمًا. وَكَذَلِكَ ظَنُّوا أَنَّ التَّعْذِيبَ لِمَنْ كَانَ فِعْلُهُ مُقَدَّرًا ظُلْمٌ لَهُ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ التَّعْذِيبِ لِمَنْ قَامَ بِهِ سَبَبُ اسْتِحْقَاقِ ذَلِكَ وَمَنْ لَمْ يَقُمْ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الِاسْتِحْقَاقُ خَلَقَهُ لِحِكْمَةٍ أُخْرَى عَامَّةٍ أَوْ خَاصَّةٍ. وَهَذَا الْمَوْضِعُ زَلَّتْ فِيهِ أَقْدَامٌ وَضَلَّتْ فِيهِ أَفْهَامٌ، فَعَارَضَ هَؤُلَاءِ آخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ فَقَالُوا: لَيْسَ لِلظُّلْمِ مِنْهُ حَقِيقَةٌ يُمْكِنُ وُجُودُهَا، بَلْ هُوَ مِنْ الْأُمُورِ الْمُمْتَنِعَةِ لِذَاتِهَا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَقْدُورًا وَلَا أَنْ يُقَالَ: إنَّهُ هُوَ تَارِكٌ لَهُ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الْجَمْعِ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ وَجَعْلِ الْجِسْمِ الْوَاحِدِ فِي مَكَانَيْنِ، وَقَلْبِ الْقَدِيمِ مُحْدَثًا وَالْمُحْدَثِ قَدِيمًا، وَإِلَّا فَمَهْمَا قُدِّرَ فِي الذِّهْنِ وَكَانَ وُجُودُهُ مُمْكِنًا وَاَللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَيْسَ بِظُلْمٍ مِنْهُ؛ سَوَاءٌ فَعَلَهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ. وَتَلَقَّى هَذَا الْقَوْلَ عَنْ هَؤُلَاءِ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ مِنْ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمْ وَمِنْ شُرَّاحِ الْحَدِيثِ وَنَحْوِهِمْ وَفَسَّرُوا هَذَا الْحَدِيثَ بِمَا يَنْبَنِي عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَرُبَّمَا تَعَلَّقُوا بِظَاهِرٍ مِنْ أَقْوَالٍ مَأْثُورَةٍ كَمَا رَوَيْنَا عَنْ إيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ: مَا نَاظَرْت بِعَقْلِي كُلِّهِ أَحَدًا إلَّا الْقَدَرِيَّةَ قُلْت لَهُمْ: مَا الظُّلْمُ؟ قَالُوا: أَنْ تَأْخُذَ مَا لَيْسَ لَك أَوْ أَنْ تَتَصَرَّفَ فِيمَا لَيْسَ لَك. قُلْت: فَلِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ. وَلَيْسَ هَذَا مِنْ إيَاسٍ إلَّا لِيُبَيِّنَ أَنَّ التَّصَرُّفَاتِ الْوَاقِعَةَ هِيَ فِي مِلْكِهِ فَلَا يَكُونُ ظُلْمًا بِمُوجِبِ حَدِّهِمْ وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ بَيْنَ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ فِيهِ؛ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ مَعَ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَهُ اللَّهُ فَهُوَ عَدْلٌ. وَفِي حَدِيثِ الْكَرْبِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُك ابْنُ عَبْدِك ابْنُ أُمَّتِك نَاصِيَتِي بِيَدِك مَاضٍ فِيَّ حُكْمُك عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُك أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسَك أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مِنْ خَلْقِك أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي إلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا)). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: ((بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ(١))), فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ كُلَّ قَضَائِهِ فِي عَبْدِهِ عَدْلٌ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ. وَيُقَالُ: أَطَعْتُك بِفَضْلِك وَالْمِنَّةُ لَك وَعَصَيْتُك بِعِلْمِك – أَوْ بِعَدْلِك – وَالْحُجَّةُ لَك فَأَسْأَلُك بِوُجُوبِ حُجَّتِك عَلَيَّ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي إلَّا مَا غَفَرْت لِي. وَهَذِهِ الْمُنَاظَرَةُ مِنْ إيَاسٍ كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِغَيْلَانَ حِينَ قَالَ لَهُ غَيْلَانُ: نَشَدْتُك اللَّهَ أَتَرَى اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُعْصَى؟ فَقَالَ: نَشَدْتُك اللَّهَ أَتَرَى اللَّهَ يُعْصَى قَسْرًا؟ يَعْنِي: قَهْرًا. فَكَأَنَّمَا أَلْقَمَهُ حَجَرًا؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: يُحِبُّ أَنْ يُعْصَى لَفْظٌ فِيهِ إجْمَالٌ وَقَدْ لَا يَتَأَتَّى فِي الْمُنَاظَرَةِ تَفْسِيرُ الْمُجْمَلَاتِ خَوْفًا مِنْ لَدَدِ الْخَصْمِ فَيُؤْتَى بِالْوَاضِحَاتِ فَقَالَ: أَفَتَرَاهُ يُعْصَى قَسْرًا؟ فَإِنَّ هَذَا إلْزَامٌ لَهُ بِالْعَجْزِ الَّذِي هُوَ لَازِمٌ لِلْقَدَرِيَّةِ وَلِمَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُمْ مِنْ الدَّهْرِيَّةِ الْفَلَاسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَكَذَلِكَ إيَاسُ رَأَى أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ الْمُطَابِقَ لِحَدِّهِمْ خَاصِمٌ لَهُمْ وَلَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِي التَّفْصِيلِ الَّذِي يَطُولُ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}، قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ مِنْ السَّلَفِ: لَا يَخَافُ أَنْ يُظْلَمَ فَيُحْمَلَ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ، وَلَا يُهْضَمَ فَيُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الظُّلْمُ هُوَ شَيْءٌ مُمْتَنِعٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ لَا يَخَافُ مَا هُوَ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ خَارِجٌ عَنْ الْمُمْكِنَاتِ وَالْمَقْدُورَاتِ؛ فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا إذَا لَمْ يَكُنْ وُجُودُهُ مُمْكِنًا حَتَّى يَقُولُوا: أَنَّهُ غَيْرُ مَقْدُورٍ وَلَوْ أَرَادَهُ كَخَلْقِ الْمِثْلِ لَهُ فَكَيْفَ يُعْقَلُ وُجُودُهُ؟ فَضْلًا أَنْ يُتَصَوَّرَ خَوْفُهُ حَتَّى يَنْفِي خَوْفَهُ ثُمَّ أَيُّ فَائِدَةٍ فِي نَفْيِ خَوْفِ هَذَا؟ وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ أَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ أَنَّ هَذَا الْعَامِلَ الْمُحْسِنَ لَا يُجْزَى عَلَى إحْسَانِهِ بِالظُّلْمِ وَالْهَضْمِ. فَعُلِمَ أَنَّ الظُّلْمَ وَالْهَضْمَ الْمَنْفِيَّ يَتَعَلَّقُ بِالْجَزَاءِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَجْزِيهِ إلَّا بِعَمَلِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّوَابُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ: أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ فِي الْآخِرَةِ إلَّا مَنْ أَذْنَبَ؛ كَمَا قَالَ: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}، فَلَوْ دَخَلَهَا أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ أَتْبَاعِهِ لَمْ تَمْتَلِئْ مِنْهُمْ؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي حَدِيثِ تَحَاجِّ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ: ((إنَّ النَّارَ لَا تَمْتَلِئُ مِمَّنْ كَانَ أُلْقِيَ فِيهَا حَتَّى يَنْزَوِيَ بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ وَتَقُولَ قَطْ قَطْ بَعْدَ قَوْلِهَا: {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَيَبْقَى فِيهَا فَضْلٌ عَمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ(٢))).

وَلِهَذَا كَانَ الصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ فِيمَنْ لَمْ يُكَلَّفْ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ وَنَحْوِهِمْ مَا صَحَّ بِهِ الْحَدِيثُ وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ(٣)، فَلَا نَحْكُمُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ بِالْجَنَّةِ وَلَا لِكُلٍّ مِنْهُمْ بِالنَّارِ بَلْ هُمْ يَنْقَسِمُونَ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْعِلْمِ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (١٩٩).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٩١٩).

٣- (قلت): يقصد الحديث المتفق عليه. الذي رواه البخاري (٦٥٩٧)، ومسلم (٢٦٦٠)، ما نصه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ((سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ)).

إذَا كُلِّفُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْآثَارُ([١]). وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، يَدُلُّ الْكَلَامُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ مُحْسِنًا فَيُنْقِصهُ مِنْ إحْسَانِهِ أَوْ يَجْعَلُهُ لِغَيْرِهِ وَلَا يَظْلِمُ مُسِيئًا فَيَجْعَلَ عَلَيْهِ سَيِّئَاتِ غَيْرِهِ بَلْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلَّا مَا سَعَى}، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ وِزْرِ غَيْرِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ إلَّا مَا سَعَاهُ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَإِنْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ تَعْذِيبَ الْمَيِّتِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ يُنَافِي الْأَوَّلَ

١- (قلت): يقصد الحديث الذي روي من طرق كلُّها ضعيفة، وصحَّحه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٤٦٨) بطرقه، وقال: (يفيد الحديث امتحان من لم تبلغه الدعوة يوم القيامة). وتمامه: ((يؤتى بأربعة يوم القيامة؛ بالمولود، وبالمعتوه، وبمن مات في الفترة، والشيخ الفاني، كلُّهم يتكلَّم بحجَّته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز، فيقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلًا من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه، فيقول من كتب عليه الشقاء: يارب! أين ندخلها ومنها كنَّا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعًا، قال: فيقول تبارك وتعالى: أنتم لرسلي أشدُّ تكذيبًا ومعصيةً، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار)). والأحاديث الصحيحة الواردة بأن أطفال المشركين في الجنة كالحديث الذي صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٠٢٤): ((أطفال المشركين خدم أهل الجنة))، والحديث الذي رواه البخاري عن سمرة بن جندب الذي سيأتي قريبًا لا يُرَدُّ بأحاديث ضعيفة، ولنا أن نقول: أنَّ الحديث دليل على تكليف الثلاثة أصناف الذين ذُكروا في الحديث ما عدا المولود، لأنَّهم – أي الأصناف الثلاثة – أدركوا الميثاق الآخر ولكن كان لهم العذر في عدم الإتيان به، فلابدَّ من إمتحانهم؛ بعكس المولود الذي مات على الفطرة والميثاق الأول ولم يدرك الميثاق الآخر، فلا يكون مطلوبًا بالإتيان به، وكذلك لأن دخول المولود معهم جاء في أحاديث ضعيفة مخالفة لأحاديث صحيحة ورد فيها بأن أطفال المشركين مصيرهم الى الجنة فتعتبر زيادة ((المولود)) في الحديث زيادة منكرة، والصواب في هذه المسألة والله أعلم، ما جاء في الخبر الصحيح الذي نقله الطبري وابن كثير في تفسيريهما، والسيوطي في الدر المنثور (١٤٣:١) عن ابن عباس: (أن الله مسح صلب آدم، فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وتكفّل لهم بالأرزاق، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفَّى به نفعه الميثاق الأوّل، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يفِ به لم ينفعه الميثاق الأوّل، ومن مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة).

وكذلك قال بصواب هذا القول جمع كبير من العلماء منهم النووي الذي قال في شرح صحيح مسلم: الْأَصَحُّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَالْجَوَابُ عَنْ حَدِيثِ ((اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ))، أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ فِي النَّارِ، وَحَقِيقَةُ لَفْظِهِ: (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْ بَلَغُوا)، وَلَمْ يَبْلُغُوا، إِذِ التَّكْلِيفُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْبُلُوغِ.

– وقال الإمام الألباني في السلسلة الضعيفة: وذكرت في ظلال الجنة (١ / ٩٤ – ٩٥)، أنَّ القول الراجح في أطفال المشركين أنَّهم في الجنة، فضلًا من الله ورحمة. وقد جاء في بعض الأحاديث: ((أطفال المشركين خدم أهل الجنة))، وهو صحيح بطرقه؛ رغم أنف من أنكره من المعاصرين الذين لا سابقة لهم في هذا العلم – والله المستعان –، وهو مخرج في المجلد الثالث من الصحيحة (١٤٦٨).

– وقال ابن البطال في شرح صحيح البخاري بعد ما أورد الأقوال الواردة في ذلك: وقال آخرون: أولاد المشركين فى الجنة مع أولاد المسلمين، واحتجوا بحديث سمرة ابن جندب، ذكره البخاري فى كتاب التعبير (٧٠٤٧): ((وأمَّا الرجل الطويل الذي في الروضة فإنَّه إبراهيم، وأمَّا الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، قال بعض المسلمين: يا رسول الله، فأولاد المشركين؟ فقال رسول الله: وأولاد المشركين)). وهذه الحجَّة قاطعة، وهذه الرواية يفسرها ما جاء فى حديث هذا الباب أن الشيخ إبراهيم والصبيان حوله أولاد الناس، لأنَّ هذا اللفظ يقتضى عمومه لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وهذا القول أصح ما فى هذا الباب من طريق الآثار وصحيح الاعتبار. فإن قيل: فإذا صحَّ هذا القول فى أطفال المشركين، فما معنى قوله: ((الله أعلم بما كانوا عاملين؟))، وهذا يعارض حديث سمرة الذى بيَّن فيه حكمهم، أنَّهم فى الجنة مع أولاد المسلمين. قيل: هذا يحتمل وجوهًا من التأويل: أحدها: أن يكون قوله: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))، قيل: أن يعلمه الله أنهم فى الجنة مع أولاد المسلمين، لأنه لم يكن ينطق عن الهوى، وإنَّما ينطق عن الوحى. ويحتمل قوله: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)): أي على أيّ دين كان يميتهم لو عاشوا فبلغوا العمل، فأمَّا إذ عدم منهم العمل، فهم فى رحمة الله التي ينالها من لا ذنب له. وقيل: قوله: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)) مجمل يفسره قوله: {وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم}[الأعراف: ١٧٢] الآية، فهذا إقرار عام يدخل فيه أولاد المشركين والمسلمين، فمن مات منهم قبل بلوغ الحنث ممَّن أقرَّ الإقرار أولاد الناس كلُّهم، فهو على إقراره المتقدِّم لا يقضى له بغيره، لأنَّه لم يدخل عليه ما ينقضه إلى أن يبلغ الحنث، فسقطت المعارضة بين الآثار، فهذه الوجوه المحتملة. وأمَّا من قال: حكمهم حكم آبائهم، فهو مردود بقوله تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى}[الأنعام: ١٦٤]، وإنَّما حكم لهم بحكمهم في الدنيا لا في أحكام الآخرة، أي: أنَّهم إن أصيبوا فى التبييت والغارة لا قود فيهم ولا دية، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان فى الحرب. وأمَّا من قال: إنَّهم يمتحنون فى الآخرة، فهو قول لا يصح، لأنَّ الآثار الواردة بذلك ضعيفة لا تقوم بها حجَّة.

– (قلت): لا يمتحنون لما ذكرناه، لا لأن الآثار الواردة بذلك ضعيفة لا تقوم بها حجَّة.

فَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ إِذْ ذَلِكَ النَّائِحُ يُعَذَّبُ بِنَوْحِهِ، لَا يُحَمَّلُ الْمَيِّتُ وِزْرَهُ، وَلَكِنَّ الْمَيِّتَ يَنَالُهُ أَلَمٌ مِنْ فِعْلِ هَذَا كَمَا يَتَأَلَّمُ الْإِنْسَانُ مِنْ أُمُورٍ خَارِجَةٍ عَنْ كَسْبِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَزَاءَ الْكَسْبِ. وَالْعَذَابُ أَعَمُّ مِنْ الْعِقَابِ كَمَا قَالَ ﷺ: ((السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ([١]))).
وَكَذَلِكَ ظَنَّ قَوْمٌ أَنَّ انْتِفَاعَ الْمَيِّتِ بِالْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ مِنْ الْحَيِّ يُنَافِي قَوْلَهُ: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ انْتِفَاعَ الْمَيِّتِ بِالْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ مِنْ الْحَيِّ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْآيَةِ كَانْتِفَاعِهِ بِالْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ، وَمَنْ ادَّعَى أَنَّ الْآيَةَ تُخَالِفُ أَحَدَهُمَا دُونَ الْآخَرِ فَقَوْلُهُ ظَاهِرُ الْفَسَادِ، بَلْ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْآيَةِ كَانْتِفَاعِهِ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالشَّفَاعَةِ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا يُبَيِّنُ انْتِفَاعَ الْإِنْسَانِ بِسَعْيِ غَيْرِهِ؛ إذْ الْآيَةُ إنَّمَا نَفَتْ اسْتِحْقَاقَ السَّعْيِ وَمِلْكَهُ؛ وَلَيْسَ كُلُّ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ الْإِنْسَانُ وَلَا يَمْلِكُهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُحْسِنَ إلَيْهِ مَالِكُهُ وَمُسْتَحِقُّهُ بِمَا يَنْتَفِعُ بِهِ مِنْهُ فَهَذَا نَوْعٌ وَهَذَا نَوْعٌ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ كُلُّ مَا لَا يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ لَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ مَنْفَعَةٌ؛ فَإِنَّ هَذَا كَذِبٌ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ([٢]). وَهَذِهِ النُّصُوصُ النَّافِيَةُ لِلظُّلْمِ تُثْبِتُ الْعَدْلَ فِي الْجَزَاءِ؛ وَأَنَّهُ لَا يُبْخَسُ عَامِلٌ عَمَلَهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِيمَنْ عَاقَبَهُمْ: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}، وَقَوْلُهُ {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}، بَيَّنَ أَنَّ عِقَابَ الْمُجْرِمِينَ عَدْلًا لِذُنُوبِهِمْ لَا لِأَنَّا ظَلَمْنَاهُمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. وَالْحَدِيثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ: ((لَوْ عَذَّبَ اللَّهُ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ([٣])))، يُبَيِّنُ أَنَّ الْعَذَابَ لَوْ وَقَعَ لَكَانَ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ ذَلِكَ؛ لَا لِكَوْنِهِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ مِنَ الظُّلْمِ الْمَنْفِيِّ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ}، يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا الْعِقَابَ لَمْ يَكُنْ ظُلْمًا؛ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ ذَلِكَ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرِيدُ الظُّلْمَ؛ وَالْأَمْرُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَمْدَحَ الْمَمْدُوحَ بِعَدَمِ إرَادَتِهِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَدْحُ بِتَرْكِ الْأَفْعَالِ إذَا كَانَ الْمَمْدُوحُ قَادِرًا عَلَيْهَا، فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى مَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْهُ مِنَ الظُّلْمِ وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ وَبِذَلِكَ يَصِحُّ قَوْلُهُ: ((إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي))، وَأَنَّ التَّحْرِيمَ هُوَ الْمَنْعُ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيمَا هُوَ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ: حَرَّمْت عَلَى نَفْسِي أَوْ مَنَعْت نَفْسِي مِنْ خَلْقِ مِثْلِي؛ أَوْ جَعْلِ الْمَخْلُوقَاتِ خَالِقَةً؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمُحَالَاتِ. وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ مَا يَكُونُ مَعْنَاهُ: إنِّي أَخْبَرْت عَنْ نَفْسِي بِأَنَّ مَا لَا يَكُونُ مَقْدُورًا لَا يَكُونُ مِنِّي. وَهَذَا الْمَعْنَى مِمَّا يَتَيَقَّنُ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ لَيْسَ مُرَادَ الرَّبِّ؛ وَأَنَّهُ يَجِبُ تَنْزِيهُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَنْ إرَادَةِ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي لَا يَلِيقُ الْخِطَابُ بِمِثْلِهِ، إذْ هُوَ مَعَ كَوْنِهِ شِبْهَ التَّكْرِيرِ وَإِيضَاحَ الْوَاضِحِ: لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا ثَنَاءٌ وَلَا مَا يَسْتَفِيدُهُ الْمُسْتَمِعُ، فَعُلِمَ أَنَّ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ هُوَ أَمْرٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ؛ لِأَنَّهُ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ فِعْلِهِ مُقَدَّسٌ عَنْهُ.

١- (قلت): البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧).
٢- (قلت): الإنتفاع ليس على اطلاقه وانّما ينتفع الميت فقط بما جاء في الأحاديث الصحيحة، وأنظر الفائدة رقم (٧) عند تفسير الآية (٢٨١) من سورة البقرة.
٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١١٥).

يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ مَا قَالَهُ النَّاسُ فِي حُدُودِ الظُّلْمِ يَتَنَاوَلُ هَذَا دُونَ ذَلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، كَقَوْلِهِمْ: مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ. أَيْ: فَمَا وَضَعَ الشَّبَهَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حَكَمٌ عَدْلٌ لَا يَضَعُ الْأَشْيَاءَ إلَّا مَوَاضِعَهَا وَوَضْعُهَا غَيْرَ مَوَاضِعِهَا لَيْسَ مُمْتَنِعًا لِذَاتِهِ؛ بَلْ هُوَ مُمْكِنٌ لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُهُ؛ بَلْ يَكْرَهُهُ وَيُبْغِضُهُ؛ إذْ قَدْ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: الظُّلْمُ إضْرَارٌ غَيْرُ مُسْتَحَقٍّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا بِغَيْرِ حَقٍّ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: هُوَ نَقْصُ الْحَقِّ؛ وَذَكَرَ أَنَّ أَصْلَهُ النَّقْصُ كَقَوْلِهِ: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا}. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: هُوَ التَّصَرُّفُ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ فَهَذَا لَيْسَ بِمُطَّرِدِ وَلَا مُنْعَكِسٍ فَقَدْ يَتَصَرَّفُ الْإِنْسَانُ فِي مِلْكِ غَيْرِهِ بِحَقِّ وَلَا يَكُونُ ظَالِمًا وَقَدْ يَتَصَرَّفُ فِي مِلْكِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَيَكُونُ ظَالِمًا، وَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: فِعْلُ الْمَأْمُورِ خِلَافُ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، إنْ سَلِمَ صِحَّةُ مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، فَهُوَ لَا يَفْعَلُ خِلَافَ مَا كَتَبَ وَلَا يَفْعَلُ مَا حَرَّمَ. وَلَيْسَ هَذَا الْجَوَابُ مَوْضِعَ بَسْطِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي نَبَّهْنَا عَلَيْهَا فِيهِ، وَإِنَّمَا نُشِيرُ إلَى النُّكَتِ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ الْقَوْلُ الْمُتَوَسِّطُ وَهُوَ: أَنَّ الظُّلْمَ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ مِثْلَ: أَنْ يَتْرُكَ حَسَنَاتِ الْمُحْسِنِ فَلَا يَجْزِيهِ بِهَا؛ وَيُعَاقِبَ الْبَرِيءَ عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلْ مِنْ السَّيِّئَاتِ؛ وَيُعَاقِبَ هَذَا بِذَنْبِ غَيْرِهِ؛ أَوْ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِغَيْرِ الْقِسْطِ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُنَزَّهُ الرَّبُّ عَنْهَا لِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ لِأَنَّهُ تَرَكَ هَذَا الظُّلْمَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ. وَكَمَا أَنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ فَهُوَ أَيْضًا مُنَزَّهٌ عَنْ أَفْعَالِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ. وَعَلَى قَوْلِ الْفَرِيقِ الثَّانِي: مَا ثَمَّ فِعْلٌ يَجِبُ تَنْزِيهُ اللَّهِ عَنْهُ أَصْلًا، وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ مُتَكَلِّمِي أَهْلِ الْإِثْبَاتِ لَمَّا نَاظَرُوا مُتَكَلِّمَةَ النَّفْيِ، أَلْزَمُوهُمْ لَوَازِمَ لَمْ يَنْفَصِلُوا عَنْهَا إلَّا بِمُقَابَلَةِ الْبَاطِلِ بِالْبَاطِلِ، وَهَذَا مِمَّا عَابَهُ الْأَئِمَّةُ وَذَمُّوهُ كَمَا عَابَ الأوزاعي وَالزُّبَيْدِيُّ وَالثَّوْرِيّ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمْ مُقَابَلَةَ الْقَدَرِيَّةِ بِالْغُلُوِّ فِي الْإِثْبَاتِ وَأَمَرُوا بِالِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَمَا عَابُوا أَيْضًا عَلَى مَنْ قَابَلَ الْجَهْمِيَّةَ نفاة الصِّفَاتِ بِالْغُلُوِّ فِي الْإِثْبَاتِ حَتَّى دَخَلَ فِي تَمْثِيلِ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى (مَسْأَلَةِ تَحْسِينِ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحِهِ) فَمَنْ قَالَ: الْعَقْلُ يُعْلَمُ بِهِ حُسْنُ الْأَفْعَالِ وَقُبْحُهَا فَإِنَّهُ يُنَزِّهُ الرَّبَّ عَنْ بَعْضِ الْأَفْعَالِ، وَمَنْ قَالَ: لَا يُعْلَمُ ذَلِكَ إلَّا بِالسَّمْعِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ جَمِيعُ الْأَفْعَالِ عَلَيْهِ لِعَدَمِ النَّهْيِ فِي حَقِّهِ، قِيلَ لَهُ: لَيْسَ بِنَاءُ هَذِهِ عَلَى تِلْكَ بِلَازِمِ، وَبِتَقْدِيرِ لُزُومِهَا، فَفِي تِلْكَ تَفْصِيلٌ وَتَحْقِيقٌ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَذَلِكَ أَنَّا فَرَضْنَا أَنَّا نَعْلَمُ بِالْعَقْلِ حُسْنَ بَعْضِ الْأَفْعَالِ وَقُبْحَهَا؛ لَكِنَّ الْعَقْلَ لَا يَقُولُ: إنَّ الْخَالِقَ كَالْمَخْلُوقِ؛ حَتَّى يَكُونَ مَا جَعَلَهُ حَسَنًا لِهَذَا أَوْ قَبِيحًا لَهُ جَعَلَهُ حَسَنًا لِلْآخَرِ أَوْ قَبِيحًا لَهُ؛ كَمَا يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ الْقَدَرِيَّةُ؛ لِمَا بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ مِنْ الْفُرُوقِ الْكَثِيرَةِ. وَإِنْ فَرَضْنَا أَنَّ حُسْنَ الْأَفْعَالِ وَقُبْحَهَا لَا يُعْلَمُ إلَّا بِالشَّرْعِ، فَالشَّرْعُ قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ أَفْعَالٍ وَأَحْكَامٍ – فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهَا – تَارَةً بِخَبَرِهِ مُثْنِيًا عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهَا؛ وَتَارَةً بِخَبَرِهِ أَنَّهُ حَرَّمَهَا عَلَى نَفْسِهِ. وَهَذَا يُبَيِّنُ الْمَسْأَلَةَ الثَّانِيَةَ. فَنَقُولُ: النَّاسُ لَهُمْ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ بِاعْتِبَارِ مَا يَصْلُحُ مِنْهُ وَيَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ مِنْهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ.

فَالطَّرَفُ الْوَاحِدُ: طَرَفُ الْقَدَرِيَّةِ وَهُمْ الَّذِينَ حجَرُوا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ إِلَّا مَا ظَنُّوا بِعَقْلِهِمْ أَنَّهُ الْجَائِزُ لَهُ حَتَّى وَضَعُوا لَهُ شَرِيعَةَ التَّعْدِيلِ وَالتَّجْوِيزِ، فَأَوْجَبُوا عَلَيْهِ بِعَقْلِهِمْ أُمُورًا كَثِيرَةً وَحَرَّمُوا عَلَيْهِ بِعَقْلِهِمْ أُمُورًا كَثِيرَةً؛ لَا بِمَعْنَى: أَنَّ الْعَقْلَ آمِرٌ لَهُ وَنَاهٍ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ بَلْ بِمَعْنَى: أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالَ مِمَّا عُلِمَ بِالْعَقْلِ وُجُوبُهَا وَتَحْرِيمُهَا وَلَكِنْ أَدْخَلُوا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمُنْكَرَاتِ مَا بَنَوْهُ عَلَى بِدْعَتِهِمْ فِي التَّكْذِيبِ بِالْقَدَرِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ.

وَالطَّرَفُ الثَّانِي: طَرَفُ الْغُلَاةِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الَّذِينَ قَالُوا: لَا يُنَزَّهُ الرَّبُّ عَنْ فِعْلٍ مِنْ الْأَفْعَالِ وَلَا نَعْلَمُ وَجْهَ امْتِنَاعِ الْفِعْلِ مِنْهُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ خَبَرِهِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ الْمُطَابِقِ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ. وَهَؤُلَاءِ مَنَعُوا حَقِيقَةَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ كِتَابًا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي([١]))، وَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْخَبَرَ الْمُجَرَّدَ الْمُطَابِقَ لِلْعِلْمِ لَا يُبَيِّنُ وَجْهَ فِعْلِهِ وَتَرْكِهِ؛ إِذْ الْعِلْمُ يُطَابِقُ الْمَعْلُومَ؛ فَعِلْمُهُ بِأَنَّهُ يَفْعَلُ هَذَا وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ هَذَا لَيْسَ فِيهِ تَعَرُّضٌ لِأَنَّهُ كَتَبَ هَذَا عَلَى نَفْسِهِ وَحَرَّمَ هَذَا عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا لَوْ أَخْبَرَ عَنْ كَائِنٍ مَنْ كَانَ أَنَّهُ يَفْعَلُ كَذَا وَلَا يَفْعَلُ كَذَا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا بَيَانٌ لِكَوْنِهِ مَحْمُودًا مَمْدُوحًا عَلَى فِعْلِ هَذَا وَتَرْكِ هَذَا؛ وَلَا فِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ قِيَامَ الْمُقْتَضِي لِهَذَا وَالْمَانِعِ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّ الْخَبَرَ الْمَحْضَ كَاشِفٌ عَنْ الْمُخْبِرِ عَنْهُ؛ لَيْسَ فِيهِ بَيَانُ مَا يَدْعُو إِلَى الْفِعْلِ وَلَا إِلَى التَّرْكِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، وَ(حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ)، فَإِنَّ التَّحْرِيمَ مَانِعٌ مِنْ الْفِعْلِ وَكِتَابَتُهُ عَلَى نَفْسِهِ دَاعِيَةٌ إِلَى الْفِعْلِ؛ وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ؛ إِذْ لَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مُجَرَّدَ كِتَابَتِهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ وَهُوَ كِتَابَةُ التَّقْدِيرِ كَمَا قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: ((أَنَّهُ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ([٢]))؛ فَإِنَّهُ قَالَ: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، وَلَوْ أُرِيدَ كِتَابَةُ التَّقْدِيرِ لَكَانَ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْغَضَبَ كَمَا كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ؛ إِذْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ الْخَبَرِ عَمَّا سَيَكُونُ وَلَكَانَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ كُلَّ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ مِنْ الْإِحْسَانِ كَمَا حَرَّمَ الظُّلْمَ. وَكَمَا أَنَّ الْفَرْقَ ثَابِتٌ فِي حَقِّنَا بَيْنَ قَوْله تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}، وَقَوْلِهِ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}، وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُقَالُ لَهُ: اُكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ([٣]))، فَهَكَذَا الْفَرْقُ أَيْضًا ثَابِتٌ فِي حَقِّ اللَّهِ. وَنَظِيرُ مَا ذَكَرَهُ مِنْ كِتَابَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا تَقَدَّمَ قَوْله تَعَالَى: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قُلْت؟ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:

١- (قلت): البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

٢- (قلت): مسلم (٢٦٥٣).

٣- (قلت): البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٦).

حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ(١)))، وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ: ((كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ كَذَا)). فَهَذَا الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ هُوَ أَحَقَّهُ عَلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ. وَنَظِيرُ تَحْرِيمِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَإِيجَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ قَسَمِهِ لَيَفْعَلَن وَكَلِمَتُهُ السَّابِقَةُ كَقَوْلِهِ: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ}، وَقَوْلِهِ: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ}، {لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}، {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ}، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ صِيَغِ الْقَسَمِ الْمُتَضَمِّنَةِ مَعْنَى الْإِيجَابِ وَالْمَعْنَى بِخِلَافِ الْقَسَمِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْخَبَرِ الْمَحْضِ. وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ: الْيَمِينُ إمَّا أَنْ تُوجِبَ حَقًّا؛ أَوْ مَنْعًا؛ أَوْ تَصْدِيقًا؛ أَوْ تَكْذِيبًا. وَإِذَا كَانَ مَعْقُولًا فِي الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَكُونُ آمِرًا مَأْمُورًا كَقَوْلِهِ: {إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}، وَقَوْلِهِ: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}، مَعَ أَنَّ الْعَبْدَ لَهُ آمِرٌ وَنَاهٍ فَوْقَهُ، وَالرَّبُّ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ لَأَنْ يَتَصَوَّرَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْآمِرَ الْكَاتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ وَالنَّاهِيَ الْمُحَرِّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ أَوْلَى وَأَحْرَى، وَكِتَابَتُهُ عَلَى نَفْسِهِ ذَلِكَ تَسْتَلْزِمُ إرَادَتَهُ لِذَلِكَ وَمَحَبَّتَهُ لَهُ وَرِضَاهُ بِذَلِكَ وَتَحْرِيمُهُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ يَسْتَلْزِمُ بُغْضَهُ لِذَلِكَ وَكَرَاهَتَهُ لَهُ وَإِرَادَتَهُ وَمَحَبَّتُهُ لِلْفِعْلِ تُوجِبُ وُقُوعَهُ مِنْهُ وَبُغْضَهُ لَهُ وَكَرَاهَتَهُ لِأَنْ يَفْعَلَهُ يَمْنَعُ وُقُوعَهُ مِنْهُ. فَأَمَّا مَا يُحِبُّهُ وَيُبْغِضُهُ مِنْ أَفْعَالِ عِبَادِهِ فَذَلِكَ نَوْعٌ آخَرُ، فَفَرْقٌ بَيْنَ فِعْلِهِ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ مَفْعُولٌ مَخْلُوقٌ لَهُ وَلَيْسَ فِي مَخْلُوقِهِ مَا هُوَ ظُلْمٌ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ بِالنِّسْبَةِ إلَى فَاعِلِهِ الَّذِي هُوَ الْإِنْسَانُ هُوَ ظُلْمٌ كَمَا أَنَّ أَفْعَالَ الْإِنْسَانِ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ تَكُونُ سَرِقَةً وَزِنًا وَصَلَاةً وَصَوْمًا وَاَللَّهُ تَعَالَى خَالِقُهَا بِمَشِيئَتِهِ وَلَيْسَتْ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ كَذَلِكَ إذْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ هِيَ لِلْفَاعِلِ الَّذِي قَامَ بِهِ هَذَا الْفِعْلُ كَمَا أَنَّ الصِّفَاتِ هِيَ صِفَاتٌ لِلْمَوْصُوفِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ لَا لِلْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَهَا وَجَعَلَهَا صِفَاتٍ، وَاَللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ(٢)، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ مَوْصُوفٍ وَصِفَتَهُ. ثُمَّ صِفَاتُ الْمَخْلُوقَاتِ لَيْسَتْ صِفَاتٍ لَهُ: كَالْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ لِعَدَمِ قِيَامِ ذَلِكَ بِهِ. وَكَذَلِكَ حَرَكَاتُ الْمَخْلُوقَاتِ لَيْسَتْ حَرَكَاتٍ لَهُ وَلَا أَفْعَالًا لَهُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ لِكَوْنِهَا مَفْعُولَاتٍ هُوَ خَلَقَهَا. وَبِهَذَا الْفَرْقِ تَزُولُ شُبَهٌ كَثِيرَةٌ وَالْأَمْرُ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ تَرْكِ هَذَا الَّذِي لَوْ تُرِكَ لَكَانَ تَرْكُهُ نَقْصًا، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ عَلَى تَرْكِهِ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ فِعْلِهِ الَّذِي لَوْ كَانَ لَأَوْجَبَ نَقْصًا.

وَهَذَا كُلُّهُ بَيِّنٌ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ عِنْدَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ، وَهُوَ أَيْضًا مُسْتَقِرٌّ فِي قُلُوبِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْقَدَرِيَّةَ شَبَّهُوا عَلَى النَّاسِ بِشُبَهِهِمْ فَقَابَلَهُمْ مَنْ قَابَلَهُمْ بِنَوْعٍ مِنَ الْبَاطِلِ كَالْكَلَامِ الَّذِي كَانَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ يَذُمُّونَهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ قَالُوا: قَدْ حَصَلَ الِاتِّفَاقُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَالظَّالِمُ مَنْ فَعَلَ الظُّلْمَ كَمَا أَنَّ الْعَادِلَ مَنْ فَعَلَ الْعَدْلَ هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ مُسَمَّى هَذَا الِاسْمِ سَمْعًا وَعَقْلًا؛ قَالُوا: وَلَوْ كَانَ اللَّهُ خَالِقًا لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ الَّتِي هِيَ الظُّلْمُ لَكَانَ ظَالِمًا. فَعَارَضَهُمْ هَؤُلَاءِ بِأَنْ قَالُوا: لَيْسَ الظَّالِمُ مَنْ فَعَلَ الظُّلْمَ، بَلْ الظَّالِمُ مَنْ قَامَ بِهِ الظُّلْمُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الظَّالِمُ

١- (قلت): البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٧)، والحديث بتمامه: ((إنَّ الله تعالى صانع كل صانع وصنعته)).

مَنْ اكْتَسَبَ الظُّلْمَ وَكَانَ مَنْهِيًّا عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الظَّالِمُ مَنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِ أَوْ مَا نُهِيَ عَنْهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مَنْ فَعَلَ الظُّلْمَ لِنَفْسِهِ. وَهَؤُلَاءِ يَعْنُونَ: أَنْ يَكُونَ النَّاهِي لَهُ وَالْمُحَرِّمُ عَلَيْهِ غَيْرَهُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ تَصَوُّرُ الظُّلْمِ مِنْهُ مُمْتَنِعًا عِنْدَهُمْ لِذَاتِهِ؛ كَامْتِنَاعِ أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُ آمِرٌ لَهُ وَنَاهٍ. وَيَمْتَنِعُ عِنْدَ الطَّائِفَتَيْنِ أَنْ يَعُودَ إلَى الرَّبِّ مِنْ أَفْعَالِهِ حُكْمٌ لِنَفْسِهِ. وَهَؤُلَاءِ لَمْ يُمْكِنْهُمْ أَنْ يُنَازِعُوا أُولَئِكَ فِي أَنَّ الْعَادِلَ مَنْ فَعَلَ الْعَدْلَ بَلْ سَلَّمُوا ذَلِكَ لَهُمْ وَإِنْ نَازَعَهُمْ بَعْضُ النَّاسِ مُنَازَعَةً عنادية.

وَالَّذِي يَكْشِفُ تَلْبِيسَ الْمُعْتَزِلَةِ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: الظَّالِمُ وَالْعَادِلُ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ وَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لِلظُّلْمِ وَالْعَدْلِ فَذَلِكَ يَأْثَمُ بِهِ أَيْضًا وَلَا يَعْرِفُ النَّاسُ مَنْ يُسَمَّى ظَالِمًا وَلَمْ يَقُمْ بِهِ الْفِعْلُ الَّذِي بِهِ صَارَ ظَالِمًا بَلْ لَا يَعْرِفُونَ ظَالِمًا إلَّا مَنْ قَامَ بِهِ الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلَهُ وَبِهِ صَارَ ظَالِمًا؛ وَإِنْ كَانَ فِعْلُهُ مُتَعَلِّقًا بِغَيْرِهِ وَلَهُ مَفْعُولٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ. لَكِنْ لَا يَعْرِفُونَ الظَّالِمَ إلَّا بِأَنْ يَكُونَ قَدْ قَامَ بِهِ ذَلِكَ، فَكَوْنُكُمْ أَخَذْتُمْ فِي حَدِّ الظَّالِمِ أَنَّهُ مَنْ فَعَلَ الظُّلْمَ وَعَنَيْتُمْ بِذَلِكَ مَنْ فَعَلَهُ فِي غَيْرِهِ. فَهَذَا تَلْبِيسٌ وَإِفْسَادٌ لِلشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَاللُّغَةِ كَمَا فَعَلْتُمْ فِي مُسَمَّى الْمُتَكَلِّمِ حَيْثُ قُلْتُمْ: هُوَ مِنْ فِعْلِ الْكَلَامِ وَلَوْ فِي غَيْرِهِ. وَجَعَلْتُمْ مَنْ أَحْدَثَ كَلَامًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ قَائِمًا بِغَيْرِهِ مُتَكَلِّمًا وَإِنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ هُوَ كَلَامٌ أَصْلًا. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْبُهْتَانِ وَالْقَرْمَطَةِ وَالسَّفْسَطَةِ. وَلِهَذَا أَلْزَمَهُمْ السَّلَفُ أَنْ يَكُونَ مَا أَحْدَثَهُ مِنْ الْكَلَامِ فِي الْجَمَادَاتِ وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا خَلَقَهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ وَلَا يُفَرِّقُ حِينَئِذٍ بَيْنَ نَطَقَ وَأَنْطَقَ وَإِنَّمَا قَالَتْ الْجُلُودُ: {أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}، وَلَمْ تَقُلْ نَطَقَ اللَّهُ بِذَلِكَ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ كَسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُد الْهَاشِمِيِّ وَغَيْرِهِ مَا مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عَلَى هَذَا يَكُونُ الْكَلَامُ الَّذِي خُلِقَ فِي فِرْعَوْنَ حَتَّى قَالَ: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، كَالْكَلَامِ الَّذِي خُلِقَ فِي الشَّجَرَةِ حَتَّى قَالَتْ: {إنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا}، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِرْعَوْنُ مُحِقًّا أَوْ تَكُونُ الشَّجَرَةُ كَفِرْعَوْنَ. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِنَحْوِ الِاتِّحَادِيَّةِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَيُنْشِدُونَ: وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ وَهَذَا يَسْتَوْعِبُ أَنْوَاعَ الْكُفْرِ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ الْأَمْرِ الْبَيِّنِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ أَنَّ مَنْ قَالَ: الْمُتَكَلِّمُ لَا يَقُومُ بِهِ كَلَامٌ أَصْلًا. فَإِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِ أَنَّهُ لَيْس بِمُتَكَلِّمِ؛ إذْ لَيْسَ الْمُتَكَلِّمُ إلَّا هَذَا، وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُوهُمْ يَقُولُونَ: لَيْس بِمُتَكَلِّم. ثُمَّ قَالُوا: هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِطَرِيقِ الْمَجَازِ وَذَلِكَ لِمَا اسْتَقَرَّ فِي الْفِطَرِ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ بِهِ كَلَامٌ وَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ فَاعِلًا لَهُ كَمَا يَقُومُ بِالْإِنْسَانِ كَلَامُهُ وَهُوَ كَاسِبٌ لَهُ. أَمَّا أَنْ يَجْعَلَ مُجَرَّدَ إحْدَاثِ الْكَلَامِ فِي غَيْرِهِ كَلَامًا لَهُ: فَهَذَا هُوَ الْبَاطِلُ. وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي الظُّلْمِ فَهَبْ أَنَّ الظَّالِمَ مَنْ فَعَلَ الظُّلْمَ فَلَيْس هُوَ مَنْ فَعَلَهُ فِي غَيْرِهِ وَلَمْ يَقُمْ بِهِ فِعْلٌ أَصْلًا بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَامَ بِهِ فِعْلٌ وَإِنْ كَانَ مُتَعَدِّيًا إلَى غَيْرِهِ فَهَذَا جَوَابٌ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: الظُّلْمُ فِيهِ نِسْبَةٌ وَإِضَافَةٌ فَهُوَ ظُلْمٌ مِنْ الظَّالِمِ بِمَعْنَى: أَنَّهُ عُدْوَانٌ وَبَغْيٌ مِنْهُ وَهُوَ ظُلْمٌ لِلْمَظْلُومِ بِمَعْنَى أَنَّهُ بَغْيٌ وَاعْتِدَاءٌ عَلَيْهِ. وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَدًّى عَلَيْهِ بِهِ وَلَا هُوَ مِنْهُ عُدْوَانٌ عَلَى غَيْرِهِ فَهُوَ فِي حَقِّهِ لَيْسَ بِظُلْم لَا مِنْهُ وَلَا لَهُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ إذَا خَلَقَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ فَذَلِكَ مِنْ جِنْسِ خَلْقِهِ لِصِفَاتِهِمْ فَهُمْ الْمَوْصُوفُونَ بِذَلِكَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ إذَا جَعَلَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ أَسْوَدَ وَبَعْضَهَا أَبْيَضَ أَوْ طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا أَوْ مُتَحَرِّكًا أَوْ سَاكِنًا أَوْ عَالِمًا أَوْ جَاهِلًا أَوْ قَادِرًا أَوْ عَاجِزًا أَوْ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا أَوْ مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا أَوْ سَعِيدًا أَوْ شَقِيًّا أَوْ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا: كَانَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ هُوَ الْمَوْصُوف بِأَنَّهُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَالطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ وَالْحَيُّ وَالْمَيِّتُ وَالظَّالِمُ وَالْمَظْلُومُ وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا إحْدَاثُهُ لِلْفِعْلِ الَّذِي هُوَ

ظُلْمٌ مِنْ شَخْصٍ وَظُلْمٌ لِآخَرَ بِمَنْزِلَةِ إحْدَاثِهِ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ الَّذِي هُوَ أَكْلٌ مِنْ شَخْصٍ وَأَكْلٌ لِآخَرَ وَلَيْسَ هُوَ بِذَلِكَ آكِلًا وَلَا مَأْكُولًا. وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ. وَإِنْ كَانَ فِي خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ لَازِمِهَا وَمُتَعَدِّيهَا حِكَمٌ بَالِغَةٌ كَمَا لَهُ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فِي خَلْقِ صِفَاتِهِمْ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ تَفْصِيلِ ذَلِكَ. وَقَدْ ظَهَرَ بِهَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ تَدْلِيسُ الْقَدَرِيَّةِ. وَأَمَّا تِلْكَ الْحُدُودُ الَّتِي عُورِضُوا بِهَا فَهِيَ دَعَاوٍ وَمُخَالِفَةٌ أَيْضًا لِلْمَعْلُومِ مِنْ الشَّرْعِ وَاللُّغَةِ وَالْعَقْلِ أَوْ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَوْعٍ مِنْ الْإِجْمَالِ، فَإِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: الظَّالِمُ مَنْ قَامَ بِهِ الظُّلْمُ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ بِهِ، لَكِنْ يُقَالُ لَهُ: وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلًا لَهُ آمِرًا لَهُ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ فَاعِلًا لَهُ مَعَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَرَادَ الْأَوَّلَ كَانَ اقْتِصَارُهُ عَلَى تَفْسِيرِ الظَّالِمِ بِمَنْ قَامَ بِهِ الظُّلْمُ كَاقْتِصَارِ أُولَئِكَ عَلَى تَفْسِيرِ الظَّالِمِ فِي فِعْلِ الظُّلْمِ، وَالَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ عَامُّهُمْ وَخَاصُّهُمْ أَنَّ الظَّالِمَ فَاعِلٌ لِلظُّلْمِ، وَظُلْمُهُ فِعْلٌ قَائِمٌ بِهِ، وَكُلٌّ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ جحدَ بَعْضَ الْحَقِّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: مَنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِ أَوْ مَنْهِيًّا عَنْهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَالْإِطْلَاقُ صَحِيحٌ. لَكِنْ يُقَالُ: قَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَجْزِيَ الْمُطِيعِينَ، وَأَنَّهُ حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي حَرَّمَ بِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَتَبَ بِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ مُحَرِّمًا عَلَيْهِ أَوْ مُوجِبًا عَلَيْهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ بِعَقْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهَذَا الظُّلْمُ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ هُوَ ظُلْمٌ بِلَا رَيْبٍ، وَهُوَ أَمْرٌ مُمْكِنٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتْرُكُهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِأَنَّهُ عَادِلٌ لَيْسَ بِظَالِمٍ كَمَا يَتْرُكُ عُقُوبَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَكَمَا يَتْرُكُ أَنْ يَحْمِلَ الْبَرِيءُ ذُنُوبَ الْمُعْتَدِينَ.

قال أبو زهرة: وفى الآية الكريمة بعض البحوث اللفظية نشير إليها واحدًا واحدًا؛ لأنَّ في بيانها توجيها إلى معانٍ دقيقةٍ في النص الكريم:

أول هذه الأمور: الفاء في قوله تعالى: {فَكَيْفَ} فإنّها هي ما تسمَّى فاء الإفصاح، وهي التي تفصح عن شرط مقدَّر، أي أنه إذا كانت العقوبة المقرَّرة عليكم أيَّامًا معدودات في اعتقادكم مهما ارتكبتم، فماذا تكون حالكم إذا كانت المفاجأة التي لم تقدروها وطُمس عليكم فلم تعلموها؟.

وثاني هذه المباحث اللفظية قوله تعالى: {جَمَعناهُمْ} فإنَّ التعبير بلفظ الجمع فيه إشارة إلى معنى المساواة التامَّة، وأنَّه لَا فضل لجنس على جنس، وإضافة هذا الجمع إلى رب العالمين، خالق الناس أجمعين يزكي هذه المساواة؛ لأنَّه خالق الجميع، ورب الجميع، وجامع الجميع يوم القيامة، فالجميع بين يديه سواء في الأصل والتكوين وفي الربوبية والحفظ، وفي الجمع يوم القيامة فيكونون سواء في الحساب والعقاب والثواب، وكلٌّ عمله.

وثالث هذه الأمور: تنكير {يوم} في قوله تعالى: {لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} فإنَّ ذلك التَّنكير للتَّهويل، وبيان عظم شأنه وأنَّه يومٌ عبوسٌ، وأنَّه مع شدَّته وشدَّة الحساب لَا ريب في وجوده ولا شك وذكر قوله: {لَا رَيْبَ فِيهِ} في هذا المقام لأنَّ من اليهود طائفة تنكر البعث، فالتأكيد لأجل هذه الطائفة المنكرة الملحدة في دين الله، الخارجة على كل أديان السماء، والباقون إن اعتقدوا بعقولهم لم يذعنوا بأفعالهم.

ورابع هذه المباحث اللفظية في التعبير بقوله تعالى: {ووُفِيَتْ كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ} إسناد التوفية إلى ما كسبت وعدم ذكر الجزاء، فيه إشارة إلى عدل الله اللطيف الخبير، وهو مساواة الجزاء للعمل، وكأنَّ المثاب يُوفَّى عمله، لَا جزاء عمله، وذلك لشدَّة المساواة بينهما. وقد أكَّد سبحانه وتعالى معنى العدالة وأنَّ كل شيء بالقسطاس المستقيم بقوله: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}: أي سيجزون بأعمالهم، وسينالون ما يستحقُّون، وكل ما ينالهم بسبب ما فعلوا هو العدل عينه، ولا ظلم، فإذا ألقوا في السعير فليس في ذلك ظلم بل هو العدل. وإن سبب ضلال اليهود أنَّهم زيِّن لهم سوء عملهم فرأوه حسنًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- بطلان الأماني، وأنَّ النفس قد تمنِّي الإنسان ما لا يكون؛ لأن هؤلاء منَّتهم أنفسهم حيث قالوا: {لن تمسنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات}.

٢- تحذير الإنسان أن يتَّكل الأماني؛ لأنَّ هذا من صنع اليهود والنصارى؛ وكثير من العامة الآن يقعون في المعاصي ويمنُّون أنفسهم المغفرة؛ إذا وقع في المعصية قال يا أخي اتَّق الله لا تعص الله؛ قال: الله غفور رحيم؛ صحيح؟ صحيح إن الله غفور رحيم؛ لكن الله قال: {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم}، وقال: {اعلموا أنَّ الله شديد العقاب وأنَّ الله غفور رحيم}، فلمَّا أمر نبيه أن ينبئ بدأ بالمغفرة، ولمَّا أخبر عن نفسه بدأ بالعقوبة؛ لأنَّ المقام مقام سلطان وعلو قال: {اعلموا أنَّ الله شديد العقاب وأنَّ الله غفور رحيم}؛ إذًا ماذا نقول لهذا الذي قال: الله غفور رحيم؟ نقول: والله شديد العقاب أيضًا؛ يتمنَّى بعض العاصين الأماني ويقول: {إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، فهو يريد أن يزني ويسرق ويشرب الخمر ويعمل كل شيء دون الشرك ثم يقول: إنَّ الله يقول: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وهذا خطأ، نقول: يغفر ما دون ذلك مطلقًا لمن يشاء، ومن لا يشاء لا يغفر له، فهل أنت تجزم بأنَّك ممَّن شاء الله أن يغفر له؟ أبدًا، لا تجزم لا بهذا ولا بهذا، إذًا فأنت على خطأ، على أنَّ الذي يستخف بمعصية ويلبس على نفسه وعلى الناس قد يكون ممَّن لا يشاء الله أن يغفر له نعوذ بالله، لأنَّ هذا مستهزئ مستهين؛ إذًا الذين يتمنُّون على الله الأماني مع استمرارهم على المعاصي يشبهون اليهود والنصارى.

٣- أنَّ هؤلاء يؤمنون بالبعث ولكن لم ينفعهم الإيمان؛ من أين يؤخذ؟ من قولهم: {لن تمسنا النار إلَّا أيَّامًا معدودات}؛ ويتفرَّع على هذا: أنَّه لا يكفي في الإيمان أن يؤمن الإنسان بوجود الله وباليوم الآخر دون أن يستلزم هذا الإيمان قبولًا وإذعانًا، مجرَّد التصديق لا يعتبر إيمانًا لابدَّ من القبول والإذعان؛ ودليل هذا نصوص كثيرة منها: أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان يقرُّ بأنَّ رسول الله ﷺ حق، ويقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطيل

ويقول: ولقد علمت أن دين محم ... د من خير أديان البرية دينا

ومع ذلك لم ينفعه هذا الإقرار؛ لأنَّه لم يصحبه قبول وإذعان، وختم له في الآخر والعياذ بالله بأنه قال: على ملَّة عبد المطلب؛ ولكن نظرًا لما حصل منه من دفاع عن الإسلام أذن الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ أن يشفع له فشفع فكان في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه أبد الآبدين والعياذ بالله وهذا أهون أهل النار عذابًا أجارني الله وإيَّاكم منها، ولم نعلم أنَّ كافرًا نفعت فيه الشفاعة على الإطلاق بمعنى أنَّه سلم من العذاب أبدًا ولم نعلم أنَّ كافرًا خفِّف عنه العذاب بالشفاعة إلَّا أبا طالب؛ إذًا نقول: إنَّ الإيمان باليوم الآخر وبأنَّ هنالك نارًا لا يكفي في الإيمان بل لابدَّ من القبول والإذعان.

٤– أنَّ الإنسان قد يغرُّه ما هو عليه من الدِّين، لقوله: {وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون} فيغتر بأنَّه يصلِّي، ويزكِّي، ويصوم، ويحج؛ ثم يقول في نفسه: لن أعذَّب، وهذا قصور في النظر؛ لأنَّه ليس الشأن أن تصلِّي أو تزكِّي أو تصوم أو تحج، الشأن كل الشأن أن يقبل منك هذا العمل، كم من عامل ليس له من عمله إلَّا التَّعب لوجود مبطل سابق أو لاحق؛ سابق كفوات الإخلاص مثلًا؛ لاحق كالإعجاب للعمل والادلال به على الله عز وجل، وأن يرى الإنسان لنفسه حقًّا على الرب وهذا قد يبطل العمل؛ فعملك محفوف بأخطار سابقة وأخطار لاحقة؛ ولهذا لا تغتر بما أنت عليه من الدِّين بل اسأل ربك دائمًا التوفيق والقبول؛ التوفيق سابق، والقبول لاحق حتى الإنسان ربما يريد الخير ويحب الخير ولكن يبتلى بالبدعة؛ كم من أناس يحبون الخير وعندهم محبَّة لله ورسوله، ولكن يبتلون بالجهل فيبتدعون في دين الله ما ليس منه؛ ويكون عملهم هذا حابطًا لأنَّ من شرط قبول العمل أن يكون موافقًا لما جاء به الرسول ﷺ ؛ لقول النبي ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد[١])).

٥– وقال الله عز وجل: {فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفِّيت كلُّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}. في هذه الآية دليل على عظم ذلك اليوم؛ لقوله: {فكيف إذا جمعناهم} {ووفِّيت كل نفس}. وفيها دليل أيضًا: على النداء بالنعي على هؤلاء الذين ليس لهم في ذلك اليوم إلَّا الخيبة والخسران؛ ولهذا قال: كيف تكون الحال في ذلك اليوم؟

والجواب: أنَّ حالهم أخيب حال، والعياذ بالله؛ لأنَّهم ليس عندهم شيء، خسروا دينهم ودنياهم.

٦– إثبات اليوم الآخر؛ لقوله: {ليوم لاريب فيه}.

٧– أنَّ من كفر باليوم الآخر أو شك فيه فهو كافر؛ لأنَّه مكذِّب لقوله تعالى: {لاريب فيه} فالله أخبر بأنَّ هذا اليوم لاريب فيه، أمر واقع ولابدَّ أن تجتمع مع أمك وأبيك وأختك وأخيك في ذلك اليوم؛ لكن تجتمع بهم وأنت تفرُّ منهم {يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبته وبنيه لكلِّ امرئ منهم يومئذٍ شان يغنيه}، حتى يستقر الناس في منازلهم فإذا استقرَّ الناس في منازلهم واجتمع بهم في الجنة فهذه غاية المنى {والذين آمنوا واتَّبعتهم ذريَّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريَّتهم وما ألتناهم من

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٨٨)، وقال: رواه البخاري موصولًا (٢/١٦٦)، ومعلقًا مجزومًا (٢/٢٥ ، ٤/٤٣٧)، ومسلم (٥/١٣٢)، وأبو داود (رقم ٤٦٠٦)، وابن ماجه (رقم ١٤)، والدار قطني (ص ٥٢ . ٥٢١)، وأحمد (٦/١٤٦ ، ١٨٠ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٧٠)، وأبو بكر الشافعي فى الفوائد (٢/١٠٦)، وعنه القضاعي فى مسند الشهاب (١/٢٩)، والهروي فى ذم الكلام (١/٤/١)، وغيرهم من طرق عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن القاسم بن محمد عن عائشة مرفوعًا.

عملهم من شيء}، الصغار الذي ماتوا وهم لم يكن لهم ذرية يلحقون بآبائهم ليجتمعوا إليهم؛ يلحق الأدنى إلى الأعلى؛ أمَّا من كان له ذرية من الأولاد فهو مستقل بنفسه في منزلته لأنَّ هذا له ذرية؛ على كل حال في قوله: {فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه}، دليل على أنَّ من شك في هذا اليوم أو أنكره فهو كافر لتكذيبه لله عز وجل.

٨- أن يوم التَّوفية الكاملة هو يوم القيمة؛ لقوله: {ووفِّيت كل نفس ما كسبت}، وإنَّما قلت التوفية الكاملة لأن الإنسان قد يوفَّى شيئًا من عمله في الدنيا، ولكن يوفَّى في الآخرة أيضًا، توفَّى النفوس ما عملت؛ قال الله تعالى: {ومن يتَّق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب}، مخرجًا من كل ضيق وسعة في الرزق ويرزقه من حيث ما يحتسب هذا في الدنيا وهذا جزاء؛ وهناك جزاء آخر أعظم وأنفع وهو الهدى، الهدى قال الله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم }، الهدى والعمل الصالح هذا أفضل من المال، لأن الهدى إذا زاد انشرح صدره واستنار قلبه واطمئن؛ ثم صارت التَّقوى عنده أسهل من كل شيء، وصارت الأعمال الصالحة رياض قلبه وسرور نفسه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: ((جعلت قرَّة عيني في الصلاة))، والمؤمن كل الأعمال الصالحة قرَّة عينه لأنه يشعر في كل عمل صالح يشعر بأمرين عظيمين؛ الأمر الأول: أنه يتعبَّد لله بالعمل الصالح فيزداد ذلًّا لربه ومحبة له وإنابة إليه؛ والأمر الثاني: أنَّه بذلك متَّبع لرسول الله ﷺ؛ فهو يشعر حين فعل العبادة أن إمامه محمد ﷺ فيزداد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيمًا لقوله، بل وتعظيمًا لهديه وسنته؛ وهذا أعظم كسب أن يحصل لك هذا الأمر في العبادة والتَّقوى.

٩- انتفاء الظلم عن الله عز وجل؛ لانَّ قوله: {ووفِّيت}، و{وهم لا يظلمون}؛ فاعلها معروف؛ من الموفي؟ الله؛ والذي لا يظلم الله، ولكن انتفاء الظلم عن الله سبحانه وتعالى هو من الصفات المنفية التي يسمُّونها بالسلبية، إلَّا أنَّنا نقول: لا يظلم: أي ليس في جزائه أدنى ظلم، فيكون نفي الظلم لكمال العدل؛ انتبه لأن الظلم قد يكون كاملًا وقد يكون ناقصًا؛ يعني قد يكون كاملًا بحيث لا يعطى شيئًا من جزاء عمله؛ وقد يكون ظلمًا ناقصًا يعطى بعض الشيء؛ فإذا نفى الله عن نفسه الظلم صار ذلك مستلزمًا لكمال عدله؛ وكذلك {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنا من لغوب}، اللغوب يعني تعب والإعياء؛ فالله عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه لغوب أي تعب وإعياء؛ لكمال قوته وقدرته عز وجل؛ الإنسان يعمل العمل لكن يتعب، أمَّا الرب عز وجل لكمال قدرته وقوته خلق السموات والأرض وما بينهما في أيام يسيرة، ستة أيَّام وما مسَّه من لغوب؛ إذًا نأخذ من هذا قاعدة مفيدة في باب الصفات وهي: أنَّ كلَّ صفة نفاها الله عن نفسه فإنَّما يراد بها ثبوت كمال الضد؛ فضد الظلم العدل، إذا انتفى الظلم فهو لكمال العدل؛ ضد القدرة والقوة: التعب؛ فإذا انتفى التعب؟ ثبت كمال القدرة والقوة وعلى هذا فقس.

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٢٦}

قال ابن العثيمين: الخطاب لا يخفى أنَّه لرسول الله ﷺ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها، أنَّ الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم تولَّوا، يريدون أن تكون السيادة لهم لا لغيرهم؛ فأمر النبي ﷺ أن يدعوا الله بهذا الدعاء المتضمّن لهذه الصفات العظيمة التي مقتضاها قدرة الله سبحانه وتعالى على أن ينقل الرسالة التي يتبعها المُلك من بني إسرائيل إلى العرب بمحمد ﷺ، فهذا وجه ارتباط هاتين الآيتين بما قبلهما، أي: أنَّ هؤلاء الذين تولَّوا وأعرضوا إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم لاشك أنَّهم يريدون أن تبقى السيادة لهم وأن يمنعوها غيرهم، فأمر الله نبيَّه أن يبتهل إلى الله بهذا الدعاء المتضمّن قدرة الله على نقل النبوة التي يتبعها المُلك من بني إسرائيل إلى العرب فقال: {قل اللهم مالك الملك}.

قال السعدي: {قل اللهم مالك الملك}: أي أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كلُّه لك، ثمَّ فصَّل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: {تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء}، وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمَّة محمد، وقد فعل ولله الحمد.

قال ابن العثيمين: وقوله: {اللهم مالك الملك}: أي يا الله؛ وقوله: {مالك}: اسم فاعل، و{الملك}: يحتمل أن يكون بمعنى المملوك أي مالك المملوكات كلّها، ويحتمل أن يكون المراد بها التدبير، أي مالك تدبير الخلائق كلّها؛ والأمران ثابتان لله عز وجل؛ فهو مالك المملوكات كلّها بأعيانها؛ وهو مالك التصرف فيها لا يشركه فيها أحد، هو الذي يدبِّر الأمر ويملك المأمور.

قال أبو زهرة: إن قوله تعالى: {مَالِكَ الْمُلْكِ} أبلغ من صاحب الملك أو صاحب السلطان؛ لأنَّ من يملك شأن أمَّة لا يملك مُلكُها، ولكنَّه يستولي على ملكِها ويده فيها ليست يدَ مِلك ولكنَّها يدٌ عارية؛ أمَّا سلطان الله تعالى ذي الملكوت فسلطان مالك متصرِّف في السلطان، يعطيه من يشاء عطاء عارية، ويمنعه ممَّن يشاء، ويسترد عاريته ممَّن يشاء؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ}.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله {المالك}، فقد ورد في القرآن على سبيل الإضافة والتقييد مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية، وإن كانت الإضافة تحمل معنى الإطلاق في الملكية، لكنَّه ورد في السنة على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا أيضًا على الوصفية، ففي القرآن ورد مضافًا في قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلكِ تُؤْتِي المُلكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[آل عمران:٢٦]، ومالك الملك هو مالك عالم الشهادة، أي يملك ما في عالم الشهادة، {قُل يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الذي لَهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذي يُؤْمِنُ بِاللهِ كَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَكُمْ تَهْتَدُونَ}[الأعراف: ١٥٨]، {إِنَّ اللهَ لَهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}[التوبة: ١١٦]، فالمالك هو المنفرد بملكية الملك والملكوت، والحمد لله أنَّه المالك الوحيد، فلو كان له شريك لشق ذلك على سائر الخلق، ولمَّا انصلح الحال في الملك: {وَقُلِ الحَمْدُ لِلهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}[الإسراء:١١١]، {الذي لَهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَخَلَقَ كُل شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[الفرقان:٢]، {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا}[النساء: ٥٣]، {قُل لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإنسان قَتُورًا}[الإسراء:١٠٠]، {أَمْ لَهُمْ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ}[ص: ١٠]، فتوحيد الله في اسمه {المالك}: يعني أنَّ المنفرد بالملك هو الله: {لَهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}[الحديد:٥]، {وَلِلهِ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ}[النور: ٤٢]، ودائمًا ما يأتي قبل ذكر انفراد الله بالملك أو بعد انفراده بالحمد: {يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[التغابن: ١]، {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}[الإسراء: ١١١]، {تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[الملك: ١].

هذا عن ملكية الله لعالم الملك، أمَّا ملكيته عن عالم الملكوت أو عالم الغيب: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، فمالك يوم الدين هو الذي له الملك في عالم الملكوت أو عالم الغيب: {المُلكُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[الحج: ٥٦]، {قُل مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[المؤمنون:٨٨]، {فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[يس: ٨٣]، {وَتَبَارَكَ الذي لَهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[الزخرف:٨٥]، {وَلِلهِ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المُبْطِلُونَ}[الجاثية: ٢٧].

وإذا كان هو سبحانه وتعالى مالك لكلِّ شيءٍ في عالم الغيب وعالم الشهادة، فهو المالك على سبيل الإطلاق والمالك على الدوام أزلًا وأبدًا، وإن كان نصوص القرآن لا تكفي وحدها لحصره أو عدِّه ضمن الأسماء نظرًا لعدم الإطلاق، فالذي ورد في القرآن يعدُّ وصفًا أكثر من كونه اسمًا، لكن الذي يجعله اسمًا لا وصفًا هو ما سمَّاه به رسوله ﷺ فيما ثبت من السنة، فقد ثبت عند الإمام مسلم رواية أَبِي بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى؟ مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللّهُ عَزَّ وَجَل(١)))، فالرسول ﷺ سمَّاه مالكًا على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية

١- (قلت): البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

ودالًّا على الوصفية، كما أنَّه ورد في القرآن علميًّا مقيَّدًا، والقاعدة التي نسير عليها في حصر الأسماء أن يفيد الثناء بنفسه من غير إضافة، وأن يرد نصٌّ صريح صحيح في ذلك.

ومعنى مالك الملك أي الذي كان ملكه عن استحقاك، فعلة استحقاق الملك أمران: الأول صناعة الشيء وإنشائه وإيجاده واختراعه، فالمخترع يأخذ براءة الاختراع، والمؤلف يأخذ حق التأليف والطبع، وفي صحيح البخاري أن عُمَر بن الخطاب قال: (مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ)، وَيُرْوَى ذلك أيضًا عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(١).

وإذا كان ملوك الدنيا لا يمكن لأحدهم أن يؤسّس ملكه ويصنعه بمفرده، فلابدَّ له من ظهير معين سواء من أهله وقرابته، أو حزبه وجماعته، أو عشيرته وقبيلته، فمن الذي ساعد الحق في إنشاء الملك؟ ومن الذي عاونه على إنشاء الخلق، ومن الذي أمسك السماء أن تقع على الأرض؟ من الذي كان مع الحق عند إنشاء الخلق؟ {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلينَ عَضُدًا}[الكهف: ٥١].

وعند البخاري من حديث عَمرانَ بن حُصينٍ أن النبيَّ ﷺ قال: ((كان اللهُ ولم يكن شيء قبلهُ، وكان عرشه على الماء، ثم خلقَ السماواتِ والأرضَ، وكتب في الذكر كلّ شيء(٢))).

وما أحسن التعبير عن الملكية المطلقة بالتَّفصيل الذي ورد في قوله تعالى لنبيه ﷺ: {طه مَا أَنزَلنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ العُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِن تَجْهَرْ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الحُسْنَى}.

أمَّا العلَّة الثانية لاستحقاق الملك: فهي دوام الحياة، فدوام الحياة يوجب انتقال الملكية وثبوت التملك، ومعلوم أنَّ كلَّ من على الأرض زائلٌ فانٍ، كما قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَليْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلال والإكرام}[الرحمن: ٢٧] ، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إِليْنَا تُرْجَعُونَ}[العنكبوت: ٥٧]، وإذا كانت الحياة وصف ذاته والإحياء وصف فعله، فإن الملك بالضرورة لمالكه: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفي عَلى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ المُلكُ اليَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ}[غافر: ١٦]، {وَلا يَحْسَبَنَّ الذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لهُمْ بَل هُوَ شَرٌّ لهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[آل عمران: ١٨٠]، فالملك لله في المبتدأ عند إنشاء الخلق فلم يكن أحد سواه، والملك لله في المنتهى عند زوال الأرض لأنه لن يبقى من الملوك سواه، فلا خالق إلَّا الله ولا مدبِّر للكون سواه، ومن ثمَّ فإنَّه المنفرد بالملك هو الله، فالمَلك هو المتصرف بالأمر والنهي في مملكته وهو القائم بسياسة خلقه إلى غايتهم، وملكه هو الحق الدائم له بحق دوام الحياة، ولمَّا كان الحق سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق والتَّدبير، فإنَّه إلزامًا ينفرد بالملك والتقدير، وينفرد بأنه المالك المستحق للملك.

١- (قلت): وكذلك رواه الترمذي وصححه عن جابر مرفوعًا: ((من أحيا أرضًا ميتة فهي له)). وصححه الإمام الألباني في الإرواء (١٥٥٠).

٢- (قلت): البخاري (٧٤١٨).

واسم الله {المالك} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة الملكية المطلقة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى وصفه بالملكية المطلقة للأشياء بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللزوم على الحياة والقيومية والعلم والأحدية والمشيئة والقدرة والرزق والقوة، والقبض والبسط وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الفعل لبقاء اتصافه بملكية الملك.

كيف ندعو الله باسمه {المالك} دعاء مسألة ودعاء عبادة، دعاء المسألة كما ورد عند رواه الطبراني في الصغير وحسَّنه الشيخ الألباني من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: ((ألا أعلِّمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينًا لأداه الله عنك، قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممَّن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ارحمني رحمةً تغنيني بها عن رحمة من سواك([١]))).

أمَّا دعاء العبادة فعمل واعتقاد، يوجَّه المسلم في حياته على أنَّه عبد في ملك سيِّده مستخلف في أرضه أمين على ملكه، قد ابتلاه فيما أعطاه، وامتحنه فيما خوَّله واسترعاه، أيرد الملك إلى المالك؟ أم ينسب لنفسه أوصاف الخالق؟ يتكبَّر على الخلق بنعم الله، ويتعالى على العباد بما منحه وأعطاه، يفهم أن المال مال الله، وأنَّ الحياة ابتلاء من الله، فالصادق يتحرَّى في قوله وفعله توحيد الله في اسمه المالك، لا يتوكَّل إلَّا عليه لعمله أنَّ الأرزاق بيديه، وأنَّه سبحانه وتعالي هو الخالق الرازق وأنَّه هو المالك.

قال أبو زهرة: وكلمة {الملك} ليس المراد منها ما تعارفه الناس من الحكم بمقتضى الوراثة في أسرة، إنَّما المراد بالملك السلطانُ في هذه الأرض، سواء أكان سلطانًا بالغَلَب، أم كان سلطانًا بالاختيار والانتخاب، أم كان سلطانًا بالوراثة، وسواء أكان محدودًا بجزء من الدولة، أم ناحية من نواحيها، أم كان عامًّا شاملًا لكل أجزائها تجتمع في يد صاحبه كل السلُطات فيها، فكل هذا ملك لأنَّه سلطان.

قال ابن العثيمين: {تؤتي الملك من تشاء}: والأصح أن {تؤتي} هذه جملة استئنافية لبيان كيف يكون ملك الله عز وجل لهذا المملوك فقال: {تؤتي الملك من تشاء}، وقال: {تؤتي}: أي تعطي ولم يقل تملك؛ لأن ما يكون للبعد من الملك إنَّما هو من إعطاء الله تعالى إيَّاه وتسليطه عليه؛ ولهذا لا يتصرَّف المالك من المخلوقين بما ملك إلَّا على حسب الشريعة التي شرعها الله عز وجل؛ لان الإتيان من الله، فالتَّصرف في هذا المؤتى إلى الله عز وجل لا إلى الإنسان؛ فالإنسان لا يملك أن يتصرَّف تصرُّفًا مطلقًا فيما ملكه الله.

وقوله: {تؤتي الملك من تشاء} هي الجملة، الفعل {تؤتي} من الأفعال التي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، ومفعولها الأول الملك، ومفعولها الثاني {من}.

١- (قلت): حسنه امام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢١)، وقال: رواه الطبراني في الصغير بإسناد جيد.

وقوله: {تؤتي الملك من تشاء}: نحن نعلم أنَّ من سنة الله عز وجل أنَّ كلُّ شيءٍ له سبب إمَّا شرعي وإمَّا كوني لأنَّها مقتضى حكمة الله سبحانه وتعالى، وإذا كان كذلك فإنَّ إتيان الله الملك لمن يشاء مقيَّد بسبب فلابدَّ أن يكون له سبب؛ فالملك قد يكون مستقلًّا عن الرسالة وقد يكون تابعًا للرسالة؛ فإذا كان مبنيًّا على الشريعة صار تابعًا للرسالة، وإذا كان غير مبني على الشريعة كان مستقلًّا، قال الله تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك} وهذا الملك مستقل ما متّبع للرسالة لأنَّه كافر هذا الذي يحاج ابراهيم في ربّه؛ وأمَّا قول النبي ﷺ: ((إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأنَّ ملك أمَّتي سيبلغ ما زوى لي منها([1]))، فالمراد بالملك هنا الملك التابع للنبوة؛ فهنا يقول: {تؤتي الملك من تشاء} يشمل الملك المستقل الذي قد يكون مبنيًّا على الكفر والملك التابع للرسالة وهو المبني على الشريعة.

قال: {تؤتي الملك من تشاء}، ثم إن: {من تشاء} ككثير من الآيات الكريمة المقيدة للحكم بالمشيئة أو المعلّقة للحكم بالمشيئة، تقيَّد كلها بما تقتضي الحكمة.

{وتنزع الملك ممن تشاء} قوله: {وتنزع الملك} يحتمل الوجهين؛ الوجه الأول: نزع بعد ثبوت؛ والوجه الثاني: نزع بمعنى المنع؛ فعلى الأول يكون فيه إشارة إلى أن الله تعالى يملك من يشاء من خلقه ثمَّ ينزع عنه الملك؛ وكم من مَلِك مَلَك ثمَّ زال ملكه إمَّا بالغلبة له أو بموته أو بغير ذلك؛ ويحتمل أن تكون بمعنى المنع، أي: تملك من شئت ولا تملك من شئت؛ وكِلا المعنيين صحيح؛ فالله تعالى قد يملك الإنسان الملك وقد ينزع الملك منه بعد ثبوته له وكِلاهما صحيح؛ إذًا الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، فهذا يملكه وهذا لا يملكه وهذا يملكه ثم ينزع الملك منه وهذا يملكه ويستمر الملك له حتى يتوفَّاه الله.

{وتنزع الملك ممن تشاء} ولكن يكون هذا بالحكمة أيضًا؛ فقد يكون هذا الملك الذي ينزع منه الملك غير صالح للملك لكونه من أصحاب الفساد في الأرض فيسلَّط عليه من ينزع الملك منه؛ وقد يكون هذا الملك ضعيفًا هو لا يريد الفساد لكنَّه ضعيف لا يقيم الإصلاح فيسلَّط عليه من ينزع الملك منه؛ وهذا كثير في التاريخ لو تدبَّرتموه؛ والله سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا إلَّا لحكمة.

قال أبو زهرة: وهنا أمران لابدَّ من الإشارة إليهما:

أولهما: التعبير عن إزالة الملك بقوله تعالى: {وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ} فالتعبير بالنَّزع مع تكرار كلمة ملك، فيه إشارة إلى أنَّه يأخذه منه بعد أن استقرَّ فيه وثبت له وظنَّ أنَّه لَا مزيل لسلطانه، فيأتيه الله من حيث لَا يحتسب، ويأخذ ملكه أخذ عزيزٍ مقتدر ثمَّ إنَّ في النَّزع إشارة إلى أن من يؤتى سلطانًا يطغى فيه ويبغي ولا يسير بسنة الحق والعدل لَا يتركه طائعًا، بل لابدَّ أن يُمكِّن الله منه من ينزعه من يده، وقد يأخذه منه من كان يأتمنه (ومِنْ مَأمَنِه يُؤتي الحَذِر). وفي كثير من الأحيان يكون السبب في زواله هو من كان السبب في طغيانه.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة (٢) وقال: رواه مسلم ١٧١ / ٨، وأبو داود ٤٢٥٢، والترمذي ٢٧ / ٢، وصححه وابن ماجه ٢٩٥٢، وأحمد ٢٧٨ / ٥ و ٢٨٤ من حديث ثوبان وأحمد أيضًا ١٢٣ / ٤ من حديث شداد بن أوس إن كان محفوظًا.

الأمر الثاني الذي تجب الإشارة إليه: أنَّ الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته وما سَنَّ من نظم في هذا الوجود، وما تسير عليه أعماله في خلفه، لَا يعطي الملك إلَّا من يستحقُّه، ويأخذ بالأسباب العادلة في طلبه، ويقصد به رفعة قومه، ولا ينزعه إلَّا ممَّن يسيء ويطغى، ويفهم أن الملك متعة تشتهَى وليس تَبِعات تؤدَّى، فينزعه منه غيره، وكذلك سنة الله تعالى في الحكم بين الناس: من لا يسوس الملك يُخلَعه، ومن حلَّ محلَّه ينزل به ما نزل بسابقه إن سار سيرته.

قال السعدي: فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنَّها كلُّها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلُّها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سببًا لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتِّفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم} الآية فأخبر أنَّ الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: {هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم} الآية، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلَّكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنَّ الله مع الصابرين}، فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدِّين والتَّفرُّق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم.

قال ابن العثيمين: {وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء}: والإعزاز هنا يعني التَّقوية؛ أي: تجعله عزيزًا قويًّا غالبًا على غيره؛ وكذلك تذلُّ من تشاء؛ وهذا ليس ملازمًا للملك، أي: تعزُّ من تشاء من الملوك أو تذلُّ من تشاء بل هو عام؛ قد يعزُّ الله الإنسان بدينه وعلمه وإيمانه وإن لم يكن ملكًا؛ وقد يعزُّه بملكه؛ وكذلك في الذُّل، قد يذلُّه بالمعصية وبالغلبة؛ بالمعصية هذا في مقابل العزِّ بالإيمان، وبالغلبة في مقابل العزِّ بالملك؛ المهم أنَّ الإعزاز والإذلال لا يستلزمان الملك ولا يستلزمهما الملك؛ فمن الذي يعزَّه الله؟ يعزُّ الله من ذكره بقوله: {ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين} فالعزَّة لله، لكن الذي يعزَّهم الله هم الرُّسل وأتباعه، كما قال الله تعالى: {كتب الله لأغلبنَّ إنا ورسلي إن الله قوي عزيز}، فمن أسباب العزَّة الإيمان، سواء كان الإنسان ملكًا أم غير ملك؛ ومن أسباب العزَّة الاستعداد والحذر والحزم والقوة والنشاط، كل هذه من أسباب العزَّة لكن هذه الأسباب مادية وحسية، والإيمان سبب معنوي؛ على أن الإيمان قد يكون من ثمرته ونتيجته أن يكون الإنسان قويًّا حازمًا ينظر إلى الأمور بمنظار الحكمة فتحصل له بذلك العزَّة.

قال أبو زهرة: العزَّة ليست مرادفة للسلطان، وإن كان الأصل في كلمة (عَزَّ) معناها (غَلَبَ)، ومن ذلك قوله تعالى: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}، ولكن العزَّة صارت تستعمل بعد ذلك في معنى نفسي، وهو عدم الخضوع إلَّا للحق، والتَّسامي عن الخضوع الذي ينافي المروءة والخلق الكريم، وقد يكون ذلك في ضعيف في بدنه مستضعف عند الناس، ما دام قد علا عن الخضوع إلَّا لذات الله تعالى، وإنَّ صهيبًا وآل ياسر، وخباب بن الأرتِّ وغيرهم، كانوا وهم المستضعفون في مكة الأعزَّاء في أنفسهم؛

لأنَّهم لم يجعلوا قلوبهم مرامًا للأقوياء، فلا عزَّة إلَّا مع الإيمان بالله وحده، والاعتماد عليه وحده؛ ولذلك لَا يكون المنافقون مهما يؤتوا من مال ونسب وسلطان إلَّا أذلاء. ولما قال المنافقون في شأن المؤمنين: {لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ...}. نفى سبحانه وتعالى عنهم العزَّة فقال سبحانه {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}.

وكيف يكون المنافق عزيزًا وهو الذي جعل نفسه وفكره ولسانه ملكًا لغيره؛ فهو قد سلب كل شيء حتى قلبه ولسانه.

ومشيئة الله تعالى في العزَّة والذِّلَّة تسير على مقتضى حكمته، فهو لَا يعطي العزَّة إلَّا لمن خلَّص قلبه من كل أدران الهوى والشهوة، فالشهوات مردية، ولا يكون عزيزًا بين الناس من يكون عبد شهوته فإنَّ العزَّة تبتدئ من النفس، فإن ضبَط المرء أهواءه وشهواته وسيطر عليها أعطاه العزَّة، فكان بين الناس عزيزًا؛ ومن سيطرت عليه أهواؤه ومطامعه وشهواته كتب الله عليه الذِّلَّة، وكان الذَّليل وإن ظهر أنه العزيز، ولذا كان من حكمة السلف الصالح قولهم: (أذلَّ الحرص أعناقَ الرجال).

قال ابن العثيمين: {وتذلُّ من تشاء}: يذلُّ الله من يشاء ممَّن آتاه الله الملك وممَّن لم يؤته حتى الملك، ربما يكون ملكًا ولكنَّه ذليل ضعيف خائف، كلُّ شيء يخاف منه ولا يكون عنده حزم وقوة ونشاط؛ وقد يذلُّ الله سبحانه وتعالى الإنسان في ملكه وقد يذلُّ الله من لم يكن ملكًا؛ ومن أسباب الذُّل أن يعجب الإنسان بنفسه وأن يتعرض لما لا يمكنه دفعه؛ فهذان شيئان: إعجابه بالنفس قد يخذله ويذلُّه؛ كذلك تعرضه لما لا يمكنه دفعه قد يكون سببًا لذلِّه أيضًا وخذلانه؛ وكلا الأمرين يقع فيهما كثير من الناس؛ فكثير من الناس يتكلَّم أو يفعل غير ملتفت إلى الاستعانة بالله عز وجل فيخذل؛ وكثير من الناس يتعرض للأمور التي لا يمكنها دفعها، تكون أمورًا كبيرة فوق مستواه ثم يخذل ويذل؛ فالإنسان ينبغي له أن لا يعرِّض نفسه للذُّل، أن يكون معجبًا بنفسه، يقول القول أو يفعل الفعل غير ملتفت للاستعانة بالله؛ والثاني: يتعرَّض نفسه لأمور لا يمكنه دفعها أمور أكبر من مستواه؛ ولنفرض واحد يريد يتكلَّم بالفقه وهو لا يعرف الفقه فيخذل ويذل، يتكلَّم في النحو وهو لا يعرف النحو، يتكلَّم في الأصول وهو لا يعرف الأصول فيظهر ذلَّه أمام الناس؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يتحرَّى في قوله حتى لا يقع في شبكة الذُّل.

{بيدك الخير} الخير بيد الله عز وجل؛ كلُّ ما فيه مصلحة ومنفعة للعبد فهو خير، سواء كان ذلك في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة؛ فالرزق والصحة والعلم خير، والعمل الصالح أيضًا خير؛ فكل ما ينتفع الإنسان في دينه ودنياه فهو خير؛ وهذا كلُّه بيد الله كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله} وهنا ذكر أن الخير بيده ولم يذكر الشر مع أن الخير من الله والشر من الله؛ فقال بعض المفسرين: إن هذا من باب حذف المقابل المعلوم كقوله: {وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر} وزعموا أنَّ تقدير الآية: بيده الخير والشر؛ ولكن هذا وهم باطل، وليس المقام مقام حذف وقصر أو اختصار؛ المقام مقام الثناء، والثناء ينبغي فيه البسط والتَّوسع في الكلام، فالحذف غير مناسب لفظًا وهو باطل معنى؛ لأنَّ الله لا يضاف إليه الشَّر، ولا يجوز أن

نقول بيده الشَّر؛ لأنَّه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((والشَّر ليس إليك[١]))، فلا ينسب إلى الله الشَّر قولًا ولا فعلًا، فالله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويفعل الخير ولا يفعل الشر؛ وإذا وجد شر في المفعولات فهو شر من وجه خير من وجه آخر؛ لكن إيجاد الله لهذه الأشياء الشريرة ليس شرًّا بل هو خير، خير محض؛ ففعل الله ليس فيه شر إطلاقًا؛ والشَّر إنَّما هو في المفعولات لا في الأفعال؛ أمَّا الخير فهو في المفعولات والأفعال؛ ولهذا ينسب إلى الله لأنَّه قال: {بيدك الخير}، لكن الشر ليس إلى الله؛ ولنضرب لهذا مثلًا بالسباع والهوام، فالسباع فيها شر والهوام اللاسعة واللادغة فيها شر بلا شك؛ الشياطين كلُّها شر؛ لكن إيجاد الله لهذه الأشياء خير، والحكمة توجبه؛ لأنَّه لا يمكن أن تعرف تمام خلق الله إلَّا بخلق أشياء مضادَّة؛ ثمَّ في خلق هذه الأشياء من إصلاح العبد ورجوعه إلى ربه واستعاذته به من هذه الأمور الشريرة خير كثير؛ ثمَّ إنَّ الخير لا يعرف إلَّا بضدِّه، لا يمكن أن يعرف الخير إلَّا اذا عرف ضدَّه حتى يعرف قدر الخير؛ ثمَّ إنَّ الخليقة لابدَّ لها من امتحان، فلو كانت في خير دائمًا لزال هذا الامتحان لأنَّها دائمًا في خير؛ فإذا وجد شر فحينئذ يعرف أو حينئذ يتبيَّن الامتحان؛ لو كان الإنسان دائمًا في الصحة ودائمًا في غنى ودائمًا في العقل ودائمًا في السَّعة ما حصل في هذا امتحان، ولا عرف قدر النعمة ولا شكر عليها؛ لكن إذا أصيب بمرض عرف قدر الصحة؛ بفقر عرف قدر الغناء؛ بخوف عرف قدر الأمن وهكذا؛ فوجود هذه الأشياء فيه فوائد عظيمة فيكون إيجادها خيرًا وليس بشر؛ لكن هي نفسها فيها شر؛ كذلك وجود الأشياء المدمِّرة كالزلازل والعواصف والفيضانات وما أشبهها هي شرٌّ في نفسها، لكن فيها خير عظيم، فيكون إيجادها خيرًا وليس بشر؛ إذًا فيجب أن نبقي الآية على ظاهرها بدون تقدير وهو قوله: {بيدك الخير} ولا شرَّ ينسب إلى الله؛ أمَّا المفعولات فلاشك فيها خيرًا وشرًّا.

{إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير[٢]}: ومن قدرتك تغيير هذه الأشياء العظيمة: إيتاء الملك، نزعه، الإعزاز، والإذلال كل هذه أمور عظيمة لا يقوم بها إلَّا قادر سبحانه وتعالى؛ وقوله: {إنَّك على كل شيء قدير}: الآية عامة فهو قدير على كلِّ شيء على ما شاءه وما لم يشأه، فما لا يشاؤه قدير على إيجاده وما شاءه قدير على إيجاده إذا كان مقيَّدًا بوقت، على إعدامهم إن كان موجودًا؛ المهم أنَّ الله قدير على كلِّ شيء، على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود سواء أراده أم لم يرده؛ وبهذا نعرف أنَّ تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، الذين يقولون: (إنَّه على ما يشاء قدير)، هذا خطأ؛ لأنَّ الله قادر على ما يشاء وما لا يشاء؛ ولكن ما شاءه لا يمكن أن يعجز عنه؛ وبهذا التقدير الأخير أنَّ ما شاءه لا يمكن أن يعجز عنه، يتبيَّن الجواب عن قوله تعالى: {وهو على جمعهم إذا يشاء قدير} وذلك أنَّ المشيئة هنا ليست عائدة على القدرة ولكنَّها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجز عنه[٣].

١- (قلت): مسلم (٧٧١).

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {القدير} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة.

٣- (قلت): أنظر تفسير {ان الله على كل شيء قدير} عند تفسير الآية (٢٠، ١٠٦) من سورة البقرة، و(١٨٩) من سورة آل عمران.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تعليم الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ أن يفوض الأمر إليه في قوله: {قل اللهم مالك الملك} والخطاب الموجّه للرسول ﷺ، موجّه لأمّته، إمَّا عن طريق التأسّي، وإمَّا لأنَّه إمام والخطاب للإمام خطاب له ولمن تبعه، إلَّا إذا دلَّ الدليل على أنَّه خاصٌّ به فيكون خاصًّا به.

٢- بيان تمام ملك الله سبحانه وتعالى وسلطانه؛ لقوله: {قل اللهم مالك الملك} كل ملك فالله مالكه؛ وسبق لنا أنَّ المراد بالملك إمَّا المملوك أو جنس الملك.

٣- أنَّ الله سبحانه وتعالى يؤتي الملك من يشاء؛ لقوله: {تؤتي الملك}.

٤- أنَّ ملك المخلوقين ليس ملكًا استقلاليًّا بل هو بإعطاء؛ لقوله: {تؤتي الملك} والملك الذي بإعطاء لاشك أنه ناقص عن ملك المؤتي؛ وقد جاء في الحديث الصحيح: ((اليد العليا خير من اليد السفلى([١]))).

٥- إثبات المشيئة لله في قوله: {من تشاء} وكل أمر قرن الله بالمشيئة فإنه مبنيٌّ على الحكمة متى اقتضته شاءه الله؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا}.

٦- تمام ملك الله وسلطانه أيضًا في كونه يحرم الملك من يشاء وينزعه بعد ثبوته ممَّن يشاء؛ لقوله: {وتنزع الملك ممَّن تشاء}.

٧- بيان أيضًا تمام ملك الله وسلطانه بكون العزَّة من عنده {تعزُّ من تشاء} ولكن سبق لنا في التفسير أن للعزَّة أسبابًا منها الإيمان؛ لقوله: {ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين}.

٨- أنَّ الله سبحانه وتعالى تام الملك والسلطان لكونه يذلُّ من يشاء ولو بلغ ما بلغ من العزَّة البشرية، فإنَّ يد الله فوقه مهما بلغ الإنسان من العز فالله قادر على إذلاله، ولذلك أمثلة كثيرة منها قصة فرعون، فإن فرعون طغى وبغى وقال أنا ربكم الأعلى وافتخر بما عنده من الأنهار فأهلكه الله بمثل ما افتخر به، غرق بالماء؛ عاد استكبروا في الأرض وقالوا: من أشدُّ منَّا قوة؟ فأهلكهم الله تعالى بالريح وهي من ألطف الأشياء؛ لكنَّها من أشد الأشياء مع لطافته؛ فالله عز وجل يذلُّ من يشاء. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّنا متى علمنا أن الإعزاز والإذلال بيد الله فإنَّنا لا نطلب العزَّة إلَّا به عز وجل؛ ولهذا نقول: من ابتغى العزَّة من غير الله فهو ذليل؛ فالعزَّة لا تطلب إلَّا من الله. وكذلك أيضًا يتفرَّع على هذا: أنَّه ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله دائمًا من الذُّل الحسي والمعنوي؛ لأنَّ الله تعالى هو الذي بيده الإذلال من شاء أذلَّه ومن شاء أعزَّه.

٩- أنَّ الله سبحانه وتعالى بيده الخير. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّه إذا كان الخير بيده فلا يطلب الخير إلَّا منه؛ لأنَّه لا أحد بيده الخير إلَّا الله سبحانه وتعالى؛ فهو الذي يطلب منه الخير.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤).

١٠- أنَّ الشَّر لا يضاف إلى الله، وإن كان عز وجل هو الذي خلق كلَّ شيء، لكنَّ الشَّر لا يضاف إلى الله؛ لأنَّ أفعاله كلُّها خير؛ والشَّر في المفعولات؛ ثمَّ هذا الشَّر في المفعولات قد يكون خيرًا حتى في المفعولات نفسها؛ فكم من مرض صار سببًا لصحَّة الجسم؛ وكم من آفاة في الزروعِ وغيرها صارت أسبابًا لنمو اقتصادي من جهة أخرى مثلًا؛ فالمهم أنَّ الشر لا يضاف إلى الله عز وجل لأن فعله كلَّه خير سبحانه وتعالى.

١١- عموم قدرة الله؛ لقوله: {إنَّك على كلِّ شيء قدير} وهذا يشمل ما كان من أفعاله، وما كان من أفعال الخلق؛ فيكون في ذلك ردٌّ على القدرية الذي يقولون إنَّ الله لا يخلق أعمال العباد ولا يريدها، وأنَّ الإنسان مستقل بعمله وإرادته؛ فنقول هل هذا بقدرة الله أو لا؟ إن قالوا بغير قدرة الله فقد كذَّبوا عموم قوله تعالى: {إنَّك على كلِّ شيء قدير} وإن قالوا بقدرة الله قلنا يلزم أن يكون مرادًا ومخلوقًا لله؛ لأنَّه مادام الأمر بقدرته فلابدَّ أن يكون مخلوقًا له ومرادًا له.

١٢- الرَّد على كلمة وقعت من بعض المفسرين ومنهم الجلال السيوطي في قوله تعالى: {لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كلِّ شيء قدير} حيث قال: (خصَّ العقل ذاته فليس عليها بقادر)؛ فإنَّ هذه الكلمة كلمة باطلة؛ هو أراد معنى والله أعلم، لكن تعبير كهذا خطأ؛ نقول إنَّ الله تعالى قادر على كلِّ شيء يتعلَّق بفعله أو بفعل عباده، كلُّ شيءٍ يفعله الله فهو بقدرته سبحانه وتعالى، كلُّ شيءٍ يفعل في العباد فهو أيضًا بقدرته؛ وهذا الاستثناء أو هذا التخصيص غير صحيح بل العقل يشهد لله بكمال أو بعموم القدرة وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير.

١٣- الاستغناء بالثناء عن الدعاء؛ لأنَّك إذا تأمَّلت الآية هذه لم تجد فيها دعاء، أي طلبًا لكن الثناء ممَّا يتوسَّل به إلى الله؛ وقد مرَّ علينا أنَّ الدعاء تارةً يكون بذكر حال الدَّاعي، وتارةً يكون بالثناء، وتارةً يكون بهما، وتارةً يكون بالطلب وحده، وكلُّ ذلك جاءت به السنة؛ هنا الثناء يتضمَّن ما تدلُّ عليه هذه الجمل؛ فإذا قلت: أنت الذي تعزُّ وأنت الذي تذلُّ فمعنى هذا أو فمقتضى هذا أنَّك تسأل الله أن يعزَّك ولا يذلَّك؛ ولهذا قال الشاعر:

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

أي: ثناءه عليك يكفي عن تعرُّضه وسؤاله.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {٢٧}

قال ابن العثيمين: {تولج الليل في النهار}: أي تدخل الليل في النهار وتدخل النهار في الليل؛ بمعنى أنَّ الليل يدخل على النهار فيزيد الليل وينقص النهار؛ {وتولج النهار في الليل} بالعكس يدخل النهار على الليل فيطول النهار ويقصر الليل؛ وهذا

الفعل من الأفعال التي لا يقدر عليها إلَّا الله وحده، هو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل؛ ومع هذا فإنَّ هذا الإيلاج إيلاج بحكمة وبتدرُّج، يأتي قليلًا قليلًا حتى ينتهي ثمَّ يعود؛ ما ظنُّكم لو أن الليل قفز من أطول ليل إلى أقصره؟ لاختلَّ نظام العالم وفسد العالم وفسدت مواقيته، ولكنَّ الله عز وجل يجعله بالتَّدريج ليعلم الناس أوقاتهم وينبني أيضًا على هذا الإدراج تغير الفصول؛ فإنَّه إذا طال النهار طال زمن وجود الشمس على سطح الأرض فيحتر الجو؛ وأيضًا يكون شعاء الشمس عموديًّا فيكون أشدُّ تأثيرًا في الحرارة ممَّا إذا كان غير عمودي؛ والعكس بالعكس للشتاء؛ فيترتَّب على هذا الإيلاج زمن الفصول ومن رحمة الله عز وجل أنَّ هذا الزمن الفصلي لا يأتي أيضًا دفعةً واحدة؛ ما ظنُّك لو انتقل الناس من أحر يوم في السنة إلى أبرد يوم؟ ضرٌّ عظيم؛ أو بالعكس؟ لكن الرب الرحيم الحكيم يأتي بهذا الشيء بالتَّدرُّج؛ فمن الذي يستطيع أن يزيد في الليل ساعة أو في النهار ساعة؟ لا أحد يستطيع لو اجتمعت الأمَّة كلُّها، كل الخلائق على أن يزيدوا ساعة في الليل أو ساعة في النهار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وقوله: {وتخرج الحي من الميت} {الميت} في الموضعين فيها قراءتان: {الميِّت} و{الميت}: يعني بالتشديد والتخفيف؛ {تخرج الحي من الميت}، هل المراد من {الحي} حياة حسية أو معنوية أو كلاهما؟ الثالث هو المراد؛ وذلك لأنَّ اللفظ صالح للمعنيين وإذا صلح اللفظ للمعنيين بدون تنافي بينهما فالواجب حمله عليهما؛ {الحي} حياة حسية أمثلتها كثيرة؛ فالإنسان مخلوق من نطفة وهي ميتة، ميتة بالمعنى اللغوي فصار حيًّا من جماد؛ ولهذا قال الله تعالى: {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا ثمَّ فأحياكم ثمَّ يميتكم ثمَّ يحييكم} كنتم في أرحام أمهاتكم أمواتًا ليس فيكم أرواح ثمَّ نفخ في الإنسان الروح فصار حيًّا؛ إذًا {يخرج الحي من الميت}: أي يجعل الميت حيا؛ كما قال تعالى: {ثم أنشأناه خلقا آخر} أو يخرج حياً نامياً متحركاً من شيء لا ينموا فهو ميت كإخراج الفرخ من البيضة؛ فإن البيضة ميتة يخرج منها فرخ حي؛ طيب هذا الموت الحسي والحياة الحسية؛ والمعنوي: {يخرج الحي من الميت}: أي المؤمن من الكافر؛ لأن المؤمن حيٌّ حياة قلبية والكافر ميت. {يخرج الحي} العالم {من الميت} الجاهل كما قال تعالى: {أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها} الأول هو العالم والثاني جاهل؛ هذا حياة الحسية والمعنوية.

قال: {وتخرج الميت من الحي} الميت من الحي بالنسبة للحياة الحسية مثل البيضة من الدجاجة، ميت من حي؛ الحَب من الشجر، الحب لا ينموا والشجر ينموا، وهذه حياة خاصة حياة نباتية. المعنوي: يخرج الكافر من المؤمن، ويخرج الجاهل من العالم وهكذا.

قال: {وترزق من تشاء بغير حساب} {ترزق}: تعطي؛ {من تشاء بغير حساب}: أي بغير عوض؛ لأنَّ المحاسبة إنَّما تكون مع المعاوضة؛ فإنَّ من لا يريد العوض لا يحاسبه لكن من يريد العوض هو الذي يحاسب حتى يعلم هل ما أخذه مقابل لما أعطاه أم لا؛ وأمَّا من لا يحتاج إلى عوض أو من لا يأخذ عوضًا فلا يحاسب؛ إذًا ترزق من تشاء بغير عوض؛ لكن نفى الحساب الذي مقتضاه الذي لا يكون إلَّا بالمعاوضة، أو من لازمه المعاوضة فالله سبحانه وتعالى يعطي بلا عوض؛ وما أكثر النِّعم التي

أنعم الله به علينا ولكن لا يحاسبنا، يعطينا منه سبحانه وتعالى تفضُّلًا وكرمًا؛ وإن أمرنا بالشكر فشكرناه فهذا عطاء ثاني؛ فشكر الإنسان ربه على نعمته هو من نعمته أيضًا؛ ولهذا قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلَّا بفضله ... وإن طالت الأيام واتَّصل العمر

البيتان معناها واضح يعني أنَّ الله إذا وفقك لشكر نعمته فهذه نعمة تحتاج إلى شكر، فإذا شكرتها يحتاج الشكر إلى شكر آخر، وإذا شكرت الثالث يحتاج إلى رابع وهكذا؛ ولهذا قال: فيكف بلوغ الشكر إلَّا بفضله وإن طالت الأيام واتَّصلت العمر.

قال أبو زهرة: معناه أنَّه ليس فوقه أحد يحاسبه، تعالى الله علوًّا كبيرًا، وأنَّ عطاءه كثير يعلو على العدِّ والحساب، وهو يعطي من يشاء بسنَّة الحكمة والعدل والفضل، وإليه مصير كلِّ شيء، ولا ينتج عمل عامل نتيجته إلَّا بفضلٍ من الله.

قال ابن العثيمين: {ترزق من تشاء بغير حساب}: أي تعطي من تشاء بغير حساب؛ واعلم أن رزق الله عز وجل نوعان: رزق به قوام البدن، ورزق به قوام القلب والروح؛ أمَّا الأول فيشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر والمطيع والفاسد وحتى البهائم؛ هذا شامل لكل أحد حتى الكافر مرزوق؛ وهل يدخل فيه الحرام؟ نعم يدخل فيه الحرام، حتى الذي لا يأكل ولا يشرب إلَّا حرامًا فهو برزق من الله رُزِق؛ لكنَّه رزق يقوم به البدن؛ والثاني ما يقوم به القلب والروح، وهذا خاص بأهل الإيمان والعلم؛ هؤلاء رزقهم الله عز وجل ما تقوم به قلوبهم وأرواحهم؛ العلم لأن العلم للقلب بمنزلة الماء للشجرة لا يمكن أن تنموا بدونه؛ الإيمان كذلك، لا يمكن أن يقوم القلب ويصلح قلب إلَّا بالإيمان، وكلَّما ازداد القلب إيمانًا بالله ازداد صلاحًا؛ إذًا الرزق نوعان: عام وخاص؛ فالعام ما به قوام البدن، والخاص ما به قوام القلب والروح؛ إذًا كل من رزقه الله ما به قوام القلب والروح فقد رزقه ما به قوام البدن، وليس كل من رزق ما به قوام البدن يكون قد رزق ما به قوام القلب والروح.

قال: {وترزق من تشاء بغير حساب} كلمة: {من تشاء} نقول فيه ما سبق، أي: ما اقتضت حكمتك أن ترزقه؛ وأسباب الرزق كثيرة: إمَّا حركة من الإنسان أو إمداد من الله؛ والحركة أيضًا لا تنفع إلَّا بإمداد من الله؛ لكن أحيانًا يرزق الإنسان بدون كسب بدون عمل مثل أن يموت له قريب فيرث منه، وأحيانًا لابدَّ من ممارسة عمل وتجارة وكلُّ هذا من أسباب الرزق؛ بل من أسباب الرزق تقوى الله وليس معنى التَّقوى أن تعكف في المسجد وتتعبَّد، التَّقوى أعمُّ من ذلك؛ السَّاعي على الأرملة والمساكين الذي يذهب ويطلب لهم الرزق ويقوم عليه، يقول الرسول ﷺ: ((السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسَاكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ(١)))، إذًا هذا دين أو غير دين؟ فليس تقوى الله بأن يلزم الإنسان المساجد، تقوى الله أن يقوم بطاعة الله من أي جنس كانت حتى طلب الرزق لمن تجب عليك معونته يعتبر من تقوى الله عز وجل.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٤) - بَابُ فَضْلِ من يعول يتيمًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تمام قدرة الله عز وجل وسلطانه في كونه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

٢- إثبات حكمة الله؛ لأنَّ هذا الإيلاج له حكمة عظيمة لا تقوم مصالح الخلق إلَّا بها؛ لأنه يترتَّب على هذا الإيلاج كما قلنا اختلاف فصول السنة التي يترتَّب على اختلافها نمو الأجساد والنَّبات؛ من النَّبات ما يكون شتويًّا ومن النَّبات ما يكون صيفيًّا.

٣- أنَّ الإنسان يعرف به ضعفه وافتقاره إلى ربه؛ إن جاء البرد صار يتطلَّب ما يدفئه، وإن جاء الحرُّ صار يتطلَّب ما يبرده، فهو محتاج إلى ربه في الحالين؛ ففي هذا وهذه من فوائد الحر والبرد.

٤- أن هناك أشياء مؤذية كالجراثيم لا يقتلها إلا شدة البرد؛ وأخرى لا يقتلها إلا شدة الحر وهذا شيء مشاهد؛ هذا أيضا من حكمة الله عز وجل المترتبة على إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل.

٥- أن هذا الإيلاج يدلُّ على كمال القدرة إذ أنَّه لا أحد يستطيع أن يزيد ساعة من الليل في النهار أو من العكس؛ ولكنَّ الله عز وجل هو الذي يقدر على هذا.

٦- تمام قدرة الله بسلطانه بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي؛ ووجه ذلك ظاهر؛ فإنَّ القادر على إخراج الشيء من ضدِّه دليل على أنَّ قدرته تامَّة وسلطانه نافذ سبحانه وتعالى.

٧- أنَّ الرزق بيد الله؛ لقوله: {ترزق من تشاء}؛ ويترتَّب على هذا أنَّه ينبغي للعاقل فضلًا عن المؤمن أن لا يطلب الرزق من أيدي الناس وإنَّما يطلبه من الله عز وجل؛ ولهذا جاءت النصوص بفضيلة العفَّة أن يستعف الإنسان عمَّا في أيدي الناس، ولا يسأل؛ وكان من جملة ما بايع الصحابة رضي الله عنهم عليه رسول الله ﷺ أن لا يسألوا الناس شيئًا فكان سوط أحدهم يسقط من على بعيره وينزل إلى الأرض ليأخذه ولا يقول ناولني إيَّاه؛ لأنَّهم بايعوا على أن لا يسألوا الناس شيئًا؛ وهذا لاشك يجعل الإنسان يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى؛ ولكن لا بأس أن يسأل الإنسان ما يباح له سؤاله إنما تمام العفَّة أن لا يسأل الناس شيئًا بل يجعل الأمر موكولًا إلى الله سبحانه وتعالى.

٨- أن عطاء الله بلا عوض؛ لقوله: {بغير حساب} فالله تعالى لا يبيع عليك ثمر الذي تأكل أو الثوب الذي تلبس أو البيت الذي تسكن لا بل هو يرزق ويعطي بغير حساب؛ كل ما بنا من النعمة فمن الله.

٩- إثبات المشيئة لله عز وجل؛ في قوله: {من تشاء} وقد مرَّ علينا في التوحيد أن لله مشيئة وإرادة، وأنَّ المشيئة ليس فيها انقسام، وأنَّ الإرادة تنقسم إلى كونية وشرعية؛ أمَّا المشيئة فهي كونية[1].

١- (قلت): المشيئة: هي الإرادة الكونية. أي: أنَّ المشيئة جزء من الإرادة، لأنَّ الإرادة تنقسم الى (الإرادة الشرعية، والإرادة الكونية).

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {٢٨}

قال أبو زهرة: بيَّن سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أنَّ الملك كلُّه بيد الله سبحانه وتعالى، وأنَّه هو الذي يعطي بعض عباده سلطانًا، وهو الذي ينزع السلطان من أيديهم إن لم يحسنوا القيام عليه؛ وفي هذه الآية يبيِّن سبحانه أنَّه لَا يصح للمؤمن أن يستعين بسلطان غير المؤمن على المؤمن لما يراه من قوة سلطان غير المؤمن، فإنَّ الملك بيد الله، قد يديل سبحانه من دولة الشرك والكفر[١]، ويكون لله ولرسوله الكلمة العليا؛ فكأنَّ الآيات السابقة مقدِّمة، وهذه الآية نتيجة؛ أي أنَّه إذا كان الملك لله سبحانه، وهو مالك الملك، فلا يسوغ لمؤمن أن يدخل في سلطان غير مؤمن وولايته؛ لأنَّه بذلك يخرج من ولاية الله مالك الملك إلى ولاية كافر أُعير الملك، والعارية مستردَّة لصاحبها في أي وقت، وهو الحق سبحانه الذي لا سلطان فوق سلطانه.

قال ابن العثيمين: {لا} ناهية؛ ودليل كونها ناهية: أن الفعل بعدها مجزوم؛ ولكن كسر الفعل لالتقاء الساكنين لأجل أن ينتقل اللسان من هذا المكسور إلى الساكن بسهولة؛ ولهذا صار أنسب ما يكون في التقاء الساكنين الكسر {لا يتخذ} لأن الكسر فيه انخفاض من أجل أن يترقع اللسان من المكسور إلى الساكن.

يقول الله عز وجل: {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء}: أي لا يجعلوهم أولياء فيتخذوهم؛ وكلمة {اتَّخذ} تدل على اصطناع الشيء والركون إليه والإلتجاء إليه، مثل قولك: (اتخذت هذا صاحبًا): أي جعلته واصطنعت واخترت؛ فالمعنى: لا يختار المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

وقوله: {المؤمنون الكافرين}: كيف صار الكافرين مع أنها بعد اسم مرفوع؟ {الكافرين} مفعول اتخذ الأول؛ و {أولياء} مفعول ثاني.

وقوله: {المؤمنون الكافرين أولياء} {أولياء} هل يتخذونهم أولياء من أعلى؟ أو أولياء من أسفل؟ أوكلاهما؟ كلاهما، يشمل هذا وهذا، أي لا ينصروهم ولا ينتصروا بهم؛ فلا يتولون الكفار ولا يجعلون الولاية للكفار عليهم؛ النهي من الأمرين؛ اللهم إلا كما سيأتي إن شاء الله تعالى فيما استثني؛ لكن إذا كان الأمر فيه سعة والمؤمنون في قوة فإنهم لا يجوز لهم أن يتخذوا من الكافر من ينصرهم؛ لأن الكفار مهما كانوا فليس لنا الحق أن نستعين بهم {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدروهم أكبر}، إلا إذا دعت الحاجة فلنا أن ننتصر بهم بأخذ السلاح وما أشبه ذلك، بل هو بالعهد معهم أيضا؛ فإن النبي ﷺ استعار من صفوان بن أمية دروعا فقال له: أغصباً

١- يُديلنا: من الدَّوْلَة. والإدالَةُ: الغَلَبَةُ. ودالَت الأيَّامُ: دارَتْ، والله تعالى يُداولها بينَ الناسِ. (القاموس المحيط – فصل الدال – الدولة).

يا محمد؟ قال: ((بل عارية مؤداة[١]))، فدل هذا على جواز الاستعانة بالمشرك بالسلاح؛ كذلك حالف النبي ﷺ خزاعة كما في صلح الحديبية؛ لكن كان الناس في ذلك الوقت ليسوا على قوة، فيجوز أيضا أن يحالف المسلمون الكفار إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأنه قد يكون هذا من مصلحة المسلمين، فإن المسلمين إذا كانوا ضعفاء تسلط عليهم كفار آخرون فإذا حال كفار أقوياء انتصروا بهم فصار في ذلك مصلحة؛ وأصل النهي عن ولاية الكفار هو من أجل أن لا يذل الإسلام بين أيديهم، فإذا كان في مثل هذه الأمور مصلحة للمسلمين وقوة صار ذلك جائزا؛ هذا بالنسبة للانتصار بهم، ونحن ذكرنا أن قوله: {أولياء} يشمل الوجهين؛ أما بالنسبة للانتصار لهم فهذا لا يجوز أبدا؛ لا يجوز أن ننصر كافرا على مؤمن بأي حال من الأحوال؛ ولكن هل يجوز أن ننصر كافرا على كافر إذا اقتضت المصلحة ذلك؟ نقول: إن المؤمنين فرحوا حين غلبت الروم على الفرس وهم كفار على كفار كما قال تعالى: {ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء} فإذا كان هناك عدو مشترك لنا ولهذه الطائفة من الكفار ونحن نعلم أننا إن لم ننصر الكفار على هذا الكافر غلبه واستعصى لنا، فحينئذ يكون عونه للحاجة جائزا لأننا نعينه لا لذاته لأنه كافر ولكن لمصلحة المسلمين؛ وهذا كله يعود على المصلحة؛ أما لو رأينا كافرا يطلب العون على مسلم فهذا لا يجوز بأي حال من الأحوال؛ ولهذا قال: {لا يتخذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين}: يعني من سوى المؤمنين يعادون المؤمنين ويوالون الكفار فهذا لا يمكن.

{ومن يفعل ذلك}: المشار إليه الإتِّخاذ، وعادت الإشارة هنا على المفهوم من الفعل؛ لأن الفعل يدل على الحدث وفاعله؛ على الحدث هنا هو (الإتِّخاذ)؛ والفاعل هو (المؤمن)؛ فهنا نقول: عاد الضمير إلى الإتِّخاذ المفهوم من {لا يتخذ}، مثل قوله تعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى} فهو عاد على العدل المفهوم من كلمة {اعدلوا}، {ومن يفعل ذلك}: أي يتخذهم أولياء من دون المؤمنين {فليس من الله في شيء}: يعني فالله بريء منه؛ لأن الله تعالى لا يرضى أن يتولى أحد من المؤمنين أحداً من الكافرين؛ لأن الكافر عدو لله بل هو عدو لك أيضا {لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} مهما كان، فإن الكافر لا يمكن أن يضمر لك المحبة أو الولاية أبداً، ولا يمكن أن يناصرك إلا لمصلحته هو؛ لأنه عدو والعدو لا يمكن أن يريد منفعة عدوه؛ ولهذا قال: {فليس من الله في شيء}: أي فالله منه بريء والعياذ بالله.

قال السعدي: {ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء}: أي فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض} فمن والى – الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤوا نور الله ويفتنوا أولياءه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم} وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم، والميل إليهم والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولّى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين.

١- (قلت): قال الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥١٣) بعد بحث دقيق لطرق الحديث: وبالجملة فالحديث صحيح بمجموع هذه الطرق.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٦ص٤٢١: وَالرَّافِضَةُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَسَائِرُ أَهْلِ الْقِبْلَةِ كُفَّارٌ، مَعَ أَنَّ لَهُمْ فِي تَكْفِيرِ الْجُمْهُورِ قَوْلَيْنِ. لَكِنْ قَدْ رَأَيْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ يُصَرِّحُ فِي كُتُبِهِ وَفَتَاوِيهِ بِكُفْرِ الْجُمْهُورِ، وَأَنَّهُمْ مُرْتَدُّونَ، وَدَارُهُمْ دَارُ رِدَّةٍ، يَحْكُمُ بِنَجَاسَةِ مَائِعِهَا، وَأَنَّ مَنِ انْتَقَلَ إِلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ الَّذِي يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ الرُّجُوعُ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَهَذَا فِي الْمُرْتَدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ قَوْلٌ لِبَعْضِ السَّلَفِ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ. قَالُوا: لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا فَأَسْلَمَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ، بِخِلَافِ مَنْ يُولَدُ مُسْلِمًا.

فَجَعَلَ هَؤُلَاءِ هَذَا فِي سَائِرِ الْأُمَّةِ، فَهُمْ عِنْدَهُمْ كُفَّارٌ، فَمَنْ صَارَ مِنْهُمْ إِلَى مَذْهَبِهِمْ كَانَ مُرْتَدًّا. وَهَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ خُوطِبَ بِهَا أَوَّلًا مَنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقِيلَ لَهُمْ: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}. وَهَذِهِ الْآيَةُ مَدَنِيَّةٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ كُلَّهَا مَدَنِيَّةٌ، وَكَذَلِكَ الْبَقَرَةُ وَالنِّسَاءُ وَالْمَائِدَةُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَدِينَةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَلَا يُظْهِرُ لِلْكُفَّارِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، كَمَا يَفْعَلُهُ الرَّافِضَةُ مَعَ الْجُمْهُورِ.

وَالرَّافِضَةُ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ إِظْهَارًا لِمَوَدَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَا يُظْهِرُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ مِنْ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، وَالْقَصَائِدِ الَّتِي فِي مَدْحِهِمْ، وَهِجَاءِ الرَّافِضَةِ مَا يَتَوَدَّدُونَ بِهِ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَا يُظْهِرُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ، كَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يُظْهِرُونَ دِينَهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ. فَعُلِمَ أَنَّهُمْ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

قال السعدي: {إِلَّا أن تتَّقوا منهم تقاة}: أي تخافوهم على أنفسكم فيحلُّ لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التُّقية باللِّسان وإظهار ما به تحصل التُّقية.

قال ابن العثيمين: {إلَّا أن تتَّقوا منهم تقاة} و{إلَّا} هنا لاشك أنها حرف استثناء منقطع لأنه في حالة التقاة لا نتَّخذهم أولياء، لكن نوافقهم في الظاهر ونخالفهم في الباطن؛ وأيضًا {إلَّا أن تتَّقوا}: معناه أن هؤلاء الكفار لهم سيطرة وقوة وقدرة، نخشاهم فنتقي منهم، أي نتَّخذ وقاية من بطشهم وتنكيلهم بنا لكن في الظاهر دون الباطن؛ إذًا انتبه فهذا لا يجوز إلَّا في حال الخوف على النفس؛ لضعف المسلمين وقوة الكفار؛ ثانيًا: لابدَّ أن تكون هذه الموالاة باللِّسان فقط، بالظاهر؛ أمَّا في الباطن فيجب أن نضمر لهم العداوة والبغضاء وعدم الولاية.

قال الطبري: عن ابن عباس في قوله: {إلَّا أن تتَّقوا منهم تقاة}، فالتُّقية باللِّسان. مَنْ حُمل على أمر يتكلَّم به وهو معصية لله، فيتكلَّم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان، فإنَّ ذلك لا يضرُّه. إنَّما التُّقية باللِّسان.

قال ابن العثيمين: وقوله: {إلَّا أن تتَّقوا منهم تقاة} في هذا الالتفات من الغيبة إلى الحضور، والخطاب للحضور؛ لأنَّه لو لا الالتفات لقال: إلَّا أن يتَّقوا منهم تقاة؛ والالتفات له فوائد؛ الفائدة العامة والفائدة الخاصة؛ الفائدة العامة التنبيه، تنبيه للمخاطب؛ وذلك أنَّ الخطاب إذا كان على نسق واحد استمر الإنسان يسير فيه دون أن ينتبه؛ فإذا اختلف انتبه؛ وهذا الانتباه عند التَّغير موجود في كل سير، سواء السير الذهني أو السير الحسي؛ لو كنت تمشي ثمَّ وجدت حفرة في الطريق انتبهت، أو وجدت ارتفاع في الطريق انتبهت. كذلك في الكلام لو كنت على نسق واحد وأنت خطيب كانت خطبتك تأتي بالنوم لكن إذا كانت الخطبة فيها أمر ونهي، واستفهام وعرض وتحذير، صار في ذلك تنبيه للمخاطب؛ وكذلك أيضًا في القرآن أحيانًا يأتي الله عز وجل عن سياق أول إلى سياق آخر جديد من أجل التنبيه؛ أما الفائدة الثانية فتتقيَّد بحسب القرار.
{ويحذِّركم الله نفسه} {يحذِّركم} فيها فعل ومفعول به، ولفظ الجلالة {الله} فاعل و{نفسه} مفعول ثاني {يحذِّركم الله نفسه}: أي يخوفكم من نفسه عز وجل ويحذِّركم من عقابه إذا اتَّخذتموهم أولياء، إلَّا في الحال التي تكون ولايتهم تقاة وليس عن قصد واختيار.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٩ص٢٩٢: وَيُرَادُ بِنَفْسِ الشَّيْءِ ذَاتُهُ وَعَيْنُهُ كَمَا يُقَالُ: رَأَيْت زَيْدًا نَفْسَهُ وَعَيْنَهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}[المائدة: ١١٦]، وَقَالَ: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[الأنعام: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ: ((لَقَدْ قُلْت بَعْدَك أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ لَوْ وُزِنَّ بِمَا قلتيه لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ([1]))، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْته فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْته فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ([2]))). فَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ الْمُرَادُ فِيهَا بِلَفْظِ النَّفْسِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ: اللَّهُ نَفْسُهُ الَّتِي هِيَ ذَاتُهُ الْمُتَّصِفَةُ بِصِفَاتِهِ، لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا ذَاتًا مُنْفَكَّةً عَنْ الصِّفَاتِ، وَلَا الْمُرَادُ بِهَا صِفَةً لِلذَّاتِ، وَطَائِفَةٌ مِنْ النَّاسِ يَجْعَلُونَهَا مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ، كَمَا يَظُنُّ طَائِفَةٌ أَنَّهَا الذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ عَنْ الصِّفَاتِ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ.

قال ابن العثيمين: {ويحذِّركم الله نفسه وإلى الله المصير} والجملة كما تشاهدون جملة اسمية قدم فيها الخبر لفائدة الحصر، يعني: المرجع إلى الله لا إلى غيره، المصير المرجع؛ وأي مرجع هذا؟ هل المراد المرجع في الآخرة؟ أو المرجع في جميع الأمور؟ الجواب: المرجع في جميع الأمور كما قال الله تعالى: {وإلى الله ترجع الأمور} فإلى الله المصير يعني بعد الانتقال من الدنيا؛ وإلى الله المصير المرجع في كلِّ الأحوال وفي كل الأمور.

١- مسلم في الذكر والدعاء (٧٩/٢٧٢٦).

٢- البخاري في التوحيد (٧٤٠٥).

قال السعدي: {وإلى الله المصير}: أي مرجع العباد ليوم التناد، فيحصي أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فإيَّاكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقُّون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة.

قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية ج٧ص٤٨٢: فتحذير الله نفسه بمنزلة الأمر بالخوف منه والأمر بتقواه، ومن المعلوم أنَّ الله تعالى نفسه هو الذي يُخاف، وعقوبته ممَّا يخاف منه، وهو الذي يُتَّقى، وعقابه يُتَّقى بتقواه، وهو الذي يُحذر عقابه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تحريم اتِّخاذ الكافر أولياء؛ لقوله: {لا يتَّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين}.

٢- أن مقتضى الإيمان الحقيقي أن يتَّخذ الإنسان الكافرين أعداءً؛ لقوله: {لا يتَّخذ المؤمنون} فعلَّق هذا الحكم بالمؤمنين وهو دليل على أن مقتضى إيمانهم أن لا يتَّخذهم أولياء، بل أن يتَّخذهم أعداءً؛ لأنَّ هؤلاء الكفار شيعة الشيطان وأولياءه وقد قال الله عز وجل: {إنَّ الشيطان لكم عدو فاتَّخذوه عدوًّا إنَّما يدعوا حزبه ليكون من أصحاب السعير}.

٣- أنَّ اتِّخاذ الكافرين أولياء منافي إمَّا للإيمان أصلًا وإمَّا للإيمان كمالًا؛ يعني أنَّه ينافي أصل الإيمان أو كمال الإيمان؛ لماذا؟ لأن الحكم إذا علِّق بوصف فإنَّه يتبع ذلك الوصف قوةً وضعفًا؛ فكلَّما كمل الإيمان كملت المعاداة وانتفت الموالاة؛ وإذا وجدت الموالاة ضعف الإيمان وإذا ضعف الإيمان أيضًا وجدت الموالاة.

٤- إشارة إلى أنَّه يجب أن يتَّخذ المؤمن أولياء من المؤمنين؛ لقوله هنا: {من دون المؤمنين} وهذا لاشك هو مقتضى الإيمان قال الله تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} فالواجب على المؤمن أن يتَّخذ له أولياء من المؤمنين.

٥- أنَّ اتِّخاذ الكافرين أولياء من كبائر الذنوب؛ وجه الدلالة: أنَّ الله تبرأ منهم، وتعليق الحكم أو تعليق البراءة بحكم من الأحكام يدلُّ على أنَّه من كبائر الذنوب؛ والكبائر جمع كبيرة وأحسن ما قيل في تعريفها: ما رتِّبت عليه عقوبة خاصة؛ وذلك لأنَّ المحرمات نوعان: إمَّا منهي عنها أو مذكورة بلفظ التحريم ولكن ليس على فاعلها عقوبة خاصة فهذه من الصغائر؛ وإمَّا أن يرتَّب على فعلها عقوبة خاصة وحينئذ تكون من الكبائر؛ ولكن كما أنَّ الصغائر تختلف حتى يصل بعضها إلى قريب الكبائر كذلك الكبائر تختلف؛ ليس قطيعة الرحم بين العم وابن أخيه كعقوق الوالدين مع أن كلًّا منهما من كبائر الذنوب؛ والمهم أن الكبائر تختلف وكذلك الصغائر.

٦- أنَّ الله سبحانه وتعالى ولي المؤمنين؛ ووجهه؟ أنَّ الذي يتَّخذ الكافرين أولياء ويدع المؤمنين يتبرَّأ الله منه؛ لأنَّه ليس في المؤمنين في شيء، فلم يكن الله منه في شيء؛ وهذا له شاهد من القرآن مثل قوله تعالى: {إنَّما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا} ومثل قوله: {والله وليُّ المؤمنين} مثل قوله: {الله وليُّ الذين آمنوا} والآيات في هذا المعنى كثيرة أنَّ الله وليُّ المؤمنين فيوالي من والاهم، ويعادي من عاداهم؛ وقد صحَّ في الحديث عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّه أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: ((من عادا ليَّ وليًّا فقد آذنته بالحرب)).

٧- سهولة الإسلام ويسره حيث رفع الحرج عن الأمة؛ وذلك بما أباح من اتِّخاذ التقاة عند الضرورة إليهم؛ لقوله: {إلَّا أن تتَّقوا منهم تقاة}.

٨- أنَّه لا تجوز المداهنة لأعداء الله وإظهار الرِّضا بما هم عليه؛ لقوله: {إلَّا أن تتَّقوا منهم تقاة} ومعلوم أن التُّقاة لا تجوز إلَّا عند الضرورة ومع ذلك ينوي بها الإنسان أنَّها وقاية ممَّا يخاف منهم، لا رضا بما فعلوا أو اطمئنانًا إليهم.

٩- أنَّ الله عز وجل مع كمال رحمته وشمولها ومحبَّته للتَّوبة في مقام الوعيد يذكر من الآيات أو من الكلمات الشديدة القوية؛ لقوله: {ويحذِّركم الله نفسه} لأنَّ المقام مقام يقتضي الشدَّة في ذلك فإنَّه من أعظم الأشياء أن يتَّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ ولهذا قال: {ويحذِّركم الله نفسه}.

١٠- إطلاق النَّفس على الذَّات؛ لأنَّ المراد نفسه أي ذاته {يحذِّركم الله نفسه}: أي ذاته؛ والتعبير بالنَّفس أولى بالتعبير من الذات، وإن كان التعبير بالذات هو المشهور عند العلماء؛ لكن التعبير بالذات عن النفس ليس من اللغة العربية الفصيحة كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وإنَّما هو متلقى من اصطلاح عرفي؛ وأصله أن ذات تستعمل مضافًا فيقال: ذات جمال، ذات دين، ذات مال، وما أشبه ذلك؛ فيعبرون عن الذات العين المتصفة بصفاته؛ ثم سلبوها من الإضافة وعبروا بكلمة ذات مجرَّدة عن الإضافة، هذا هو الأصل في استعمال كلمة ذات وإلَّا فإنَّها ليست عربية محضة.

١١- وجوب ردِّ الأشياء إلى الله عز وجل؛ لقوله: {وإلى الله المصير}.

١٢- تكرار التَّحذير، وأنَّه إذا كان المقام يقتضي ذلك كان تكراره من أعلى أنواع البلاغة؛ لأنَّ قوله: {ويحذِّركم الله نفسه} هذا تحذير {وإلى الله المصير} هذا أيضًا تحذير؛ فإنَّه تهديد ووعيد لمن خالف ما حذَّر الله منه.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٢٩}

قال ابن العثيمين: {قل}: الخطاب للرسول ﷺ؛ ولكن لا بأس أن يقوله من يحتاج إليه وإن كان غير الرسول ﷺ.

{تخفوا ما في صدوركم}: والذي في الصدور هو ما تكنُّه القلوب وجعله في الصدور، لأنَّ القلوب في الصدور كما قال الله تعالى: {فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}، وقوله: {إن تخفوا ما في صدوركم}: من الخير أو من الشر أو العداوة أو الولاية أو غير ذلك، كل ما يخفي الإنسان في صدره أو يبديه للناس؛ قال: {أو تبدوه يعلمه الله}، {يعلمه}: للجزم جوابًا للشرط قوله: {إن تخفوا} يعلمه الله عز وجل؛ وهو سبحانه وتعالى عالم به قبل أن تخلق الصدور وما فيها؛ ولكن يعلمه أيضًا بعد أن يقع في الصدور علم وقوع؛ وأمَّا علمه السابق فهو علم بما سيكون؛ وأمَّا بعد وقوع الشيء فهو علم بالشيء بعد كونه؛ فلله سبحانه وتعالى فيما يكون بالنسبة للعلم اعتباران: الاعتبار الأول باعتبار ما سيكون؛ والثاني باعتبار ما كان؛ وبهذا التقدير يزول الإشكال الذي يرد على النفس ويورده كثير من الناس في مثل قوله: {ولنبلونَّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين}، فيقول: أليس الله عز وجل قد علم المجاهدين والصابرين من غيرهم في الأزل؟

الجواب: بلى؛ لكن علمه في الأزل علم بما سيكون، وعلمه بعد كون الشيء علم به كائنًا وفرق بين الأمرين هذا من وجه ومن وجه آخر: أنَّ علمه الأزلية لا يترتَّب عليه عقاب ولا ثواب؛ وعلمه بالشيء بعد كونه هو الذي يترتَّب عليه الثواب والعقاب؛ فيكون معنى {حتى نعلم}: أي علمًا يترتَّب عليه الثواب والعقاب وإلَّا فالله عالم من قبل أن يبتلينا.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: {قل} يا محمد، للذين أمرتهم أن لا يتَّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين {إن تخفوا ما في صدوركم} من موالاة الكفار فتُسِرُّوه، أو تبدوا ذلكم من نفوسكم بألسنتكم وأفعالكم فتظهروه {يعلمه الله}، فلا يخفى عليه. يقول: فلا تُضمروا لهم مودَّةً ولا تظهروا لهم موالاة، فينالكم من عقوبة ربكم ما لا طاقة لكم به، لأنَّه يعلم سرَّكم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء منه، وهو مُحصيه عليكم حتى يجازيَكم عليه بالإحسان إحسانًا، وبالسيِّئة مثلها.

قال ابن العثيمين: {يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض} يعلم بالرفع على الاستئناف؛ والتقدير: وهو يعلم؛ ولا يجوز في مثل هذا الجزم عطفًا على: {يعلمه الله} بخلاف قوله تعالى: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر}، فإنه يجوز {فيغفر لمن يشاء}، ويجوز {فيغفر}، ثلاثة أوجه؛ لكن في هذه الآية لا يجوز سوى الرفع؛ لأنَّنا لو جعلناه بالجزم صار علم الله بما في السموات وبما في الأرض مقيَّدًا بقوله: {قل إن تخفوا ما في صدروكم أو تبدوه}، لأن المعطوف على جواب الشرط له حكم جواب الشرط، وجواب الشرط معلَّق بفعل الشرط؛ وعلى هذا فيتعيَّن في قوله: {يعلمه} الاستئناف والرفع، ولا يجوز الجزم؛ {ويعلم ما في السموات وما في الأرض} {ما} من صيغ الموصول أو من الأسماء الموصولة؛ وكلُّ اسم موصول فإنَّه يفيد العموم سواء كان من صيغ الجمع ك(الذين) و(اللائي)، أو من صيغ المفرد ك(الذي) و(التي)، أو من الصيغ المشتركة ك(ما) و(من)؛ وعليه فجميع الأسماء الموصولة بأصنافها الثلاثة كلُّها تفيد العموم؛ ألم تروا إلى قول الله تعالى: {والذي جاء بالصدق وصدَّق به} أين الخبر؟ {أولئك هم المتَّقون} فجعل الخبر جمعًا مع أن المبتدأ مفرد؛ لأنَّه مفرد لكنَّه عام؛ طيب هنا {ما في السموات وما في الأرض} أقول إنَّ {ما} اسم موصول تفيد العموم فكلُّ ما في السموات فهو معلوم لله عز وجل، وكلُّ ما في الأرض فهو معلوم لله عز وجل بعلمه الأزلي قال الله: {إنَّ الله لا يخفى عليه

شيءٌ في الأرض ولا في السماء}، وأخبر النبي ﷺ: ((أنَّ الله كتب مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة([1]))، ولا يكتب إلَّا ما كان معلومًا عنده عز وجل.

قال الطبري: وأمَّا قوله: {ويعلم ما في السموات وما في الأرض}: فإنه يعني أنه إذ كان لا يخفى عليه شيء هو في سماء أو أرض أو حيث كان، فكيف يخفى عليه – أيها القوم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين – ما في صدوركم من الميْل إليهم بالمودة والمحبة، أو ما تبدونه لهم بالمعونة فعلا وقولا.

وأمَّا قوله: {والله على كلِّ شيءٍ قدير([2])}: فإنَّه يعني والله قديرٌ على معاجلتكم بالعقوبة على مُوالاتكم إيّاهم ومظاهرتكموهم على المؤمنين.

قال ابن العثيمين: ختم الآية ببيان عموم قدرته إشارة إلى أنَّ الله تعالى قد وسع كلَّ شيءٍ علمًا وقدرةً وأنَّه قادر على الانتقام منكم فيما إذا أخفيتم ما لا يرضيه، ولكنَّه لحكمته قد يؤخِّر الانتقام.

قوله: {والله على كلِّ شيءٍ قدير} الصيغة عامَّة كما تشاهدون؛ على كل شيء قدير سواءً كان ذلك من أفعاله أو من أفعال العباد، فهو قادر على كلِّ شيء؛ وسواء شاء ذلك الشيء أم لم يشأه فهو قادر على كلِّ شيء؛ وكل شيء شاءه فهو قادر عليه؛ فلدينا الآن عمومان: العموم الأول في القدرة فنقول هو قادر على كلِّ شيء سواء شاءه أم لم يشأه؛ والعموم الثاني: المشيئة، فكلُّ ما شاء الله فهو قادر عليه([3]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– وجوب إبلاغ الناس بعلم الله تعالى بما في صدورهم؛ لقوله: {قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله}.

٢– عموم علم الله عز وجل؛ لما أخفاه الإنسان وما أبداه.

٣– أنَّ العقل في القلب، والتدبير في القلب، والإرادة في القلب؛ لأنَّه قال: {إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه} وهذه المسألة اختلف فيها أهل الكلام، هل العقل في القلب أو في الدماغ؟ ولكن من تأمَّل الآيات القرآنية وجد أن العقل في القلب، بل من تأمَّل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ قال الله تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها}، {فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} وهذه الآية نص صريح على أنَّ العقل في القلب، ونص صريح على أنَّه ليس المراد بالعقل القوة المعنوية الحقيقية التي في المخ وإنَّما المراد بالقلب القلب الحقيقي قطعة اللَّحم

١– (قلت): مسلم (٢٦٥٣)، وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٧٩).

٢– (قلت): أنظر معنى إسم الله {القدير} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة.

٣– (قلت): أنظر تفسير {ان الله على كلِّ شيءٍ قدير} عند تفسير الآية (٢٠، ١٠٦) من سورة البقرة، و(٢٦، ١٨٩) من سورة آل عمران.

الذي في الصدر؛ ولهذا قال: {التي في الصدور} والكلام هنا كلام الخالق عز وجل، والخالق أعلم بما خلق؛ ولكن الدماغ لاشك له تأثيرًا؛ لأنَّ الدماغ يتصوَّر الشيء ويرتِّبه ويجهِّزه ثم يرسله إلى القلب وينتظر الأوامر ثمَّ يصدر القلب الأوامر إلى المخ ما هو إلى العقل، العقل هو في القلب يرسله إلى المخ، والمخ خادم أمين مطيع على طول يوجِّه الأوامر إلى الجنود، الجوارح؛ ولا تستغرب هذا الأمر، كيف في لحظة يكون فيه الأمر إصدار وإيراد؟ نقول: الله عز وجل على كلِّ شيءٍ قدير، فالمخ يتصور ويصلح الأشياء ثمَّ يرسل إلى القلب، والقلب يأمر وينهى، ثم هذا المخ ينفِّذ فورًا لا يؤخِّر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب))، وإمَّا ما اشتهر عند الأطباء الآن أن القلب فقط يصفِّي الدم ويرسل، يستقبل الدم الفاسد وينظِّفه ويرسله إلى العروق والشرايين فهذا ليس بصحيح؛ لأنَّنا نقول لهم أأنتم أعلم أم الله؟ لاشك أنَّ الله أعلم لأنَّه الخالق؛ لكنَّنا نوافقكم على أن للدماغ تأثيرًا ولكن وجه التأثير فيه أنَّه بإذن الله قابل لكل ما يأمره به القلب.

٤- في هذه الآية أيضًا ردٌّ على الجبرية الذين يقولون إنَّ الإنسان مجبر على عمله وليست له فيه إرادة؛ ووجه الرَّد عليهم: أنَّ الله أضاف الفعل إلى الإنسان؛ فقال: {إن تخفوا}، {أو تبدوه}.

٥- أنَّ الله محيط بكل شيءٍ علمًا حتى ما بين جوانب الإنسان؛ لقوله: {إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله} فلا يخفى عليه شيءٌ ممَّا في نفس الإنسان؛ بل زد على ذلك أنَّه يعلم ما لم يحدث به نفسه بأنه سيحدث به نفسه في الوقت والمكان المعيَّن.

٦- التحذير من أن يُسِرُّ الإنسان في نفسه ما لا يرضي الله؛ لأنَّ الله إنَّما أخبرنا بذلك تحذيرًا لنا من أن نخفي في صدورنا ما لا يرضى.

٧- عموم علم الله؛ لقوله: {ويعلم ما في السموات وما في الأرض} والآيات في العلم متنوعة، تارةً تكون مجملة، وتارةً تكون مفصَّلة، وتارةً تكون فيما يتعلَّق بفعل الإنسان، وتارةً تكون فيما يتعلَّق بفعل الله عز وجل؛ لأنَّ صفة العلم متى آمن بها الإنسان أوجب له ذلك أمرين: الأمر الأول: الهروب من معصية الله؛ فلا يجده الله عز وجل حيث نهاه؛ والثاني: الاجتهاد في طاعة الله؛ فلا يفقده حيث أمره؛ لأنَّه يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يعلمه.

٨- إثبات السموات، وأنَّها جمع؛ وقد صرَّح الله في كتابه أنَّها سبع؛ فقال: {قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم} وأمَّا الأرض فإنَّها تأتي مفردة ولم تأت في القرآن مجموعة؛ ولكن جاءت في السنة مجموعة؛ وفي القرآن إشارة إلى أنَّها سبع في قوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنَّ} فإنَّ المثلية هنا بالكيفية متعذِّرة؛ وإذا تعذَّرت المثلية في الكيفية لزم أن تكون المثلية في العدد كما تقول: سبحان الله عدد خلقه والحمد لله مثل ذلك؛ يعني عدد خلقه.

٩- إثبات قدرة الله عز وجل؛ لقوله: {والله على كلِّ شيءٍ قدير} وعموم هذه القدرة؛ لقوله: {على كلِّ شيءٍ}.

١٠- إرشاد الإنسان إلى أن يتعلَّق بربِّه؛ لأنَّك متى علمت أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير، فإنَّه لن يمنعك مانع من أن تلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى بسؤال ما تريد؛ لا تستبعد شيئًا؛ ولهذا قال الله تعالى منبِّهًا على هذا الأمر: {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودَّةً} ومعلوم أنَّ العداوة بين المؤمنين والكافرين أمر ثابت، وأنَّ الإنسان قد يستبعد أن يجعل الله في قلبه مودَّةً لهذا الكافر بإيمانه؛ فقال الله تعالى: {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودَّةً} والله قدير والله غفور، {قدير} بالنسبة لتقليب القلوب عز وجل؛ {غفور} بأن ييسِّر هؤلاء الكفار إلى الإسلام فيغفر لهم؛ وقع هذا فإنَّه أسلم عام الفتح وقبل عام الفتح أمَّة من الكفار وصارت العداوة في قلوب المؤمنين لهم صارت مودَّة؛ المهم أنَّك متى علمت قدرة الله عز وجل فإنَّ ذلك يوجب لك التعلُّق بربِّك سبحانه وتعالى وأن لا تستبعد شيئًا تسأله إيَّاه.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ {٣٠}

قال ابن العثيمين: {يوم تجد}: فيه ظرف زمان ولابدَّ لها من متعلِّق؛ والمتعلِّق محذوف، تقديره: اذكر يوم تجد؛ أذكر بالناس وذكِّرهم بهذا اليوم العظيم.

{تجد كلُّ نفسٍ ما عملت من خير محضرًا} {كلُّ نفس} والمراد بالكليَّة هنا كليَّة النفوس المكلَّفة وهم الإنس والجن؛ فإنَّ هؤلاء مكلَّفون بعبادة الله؛ لقول الله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلَّا ليعبدون}، أمَّا البهائم فإنَّها لا تجد ما عملت؛ لكن يوفَّى لها الظلم إن ظلمت؛ كما أخبر النبي ﷺ بأنَّه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء يوم القيمة، وأمَّا هي فهي غير مكلَّفة، لا تؤمر ولا تنهى؛ {يوم تجد كلُّ نفسٍ} إذًا {كلُّ نفسٍ} مقيَّد ب(مكلفة)، كلُّ نفس تؤمر وتنهى.

{ما عملت من خير محضرًا} {ما} هنا اسم موصول مفعول أول، {محضرًا} مفعول الثاني؛ {من خير} جار ومجرور بيان ل{ما} في قوله: {ما عملت}، وجملة {عملت} صلة الموصول وعائد الموصول محذوف، والتقدير: ما عملته من خير محضرًا؛ وقوله: {ما عملت} يشمل كل ما عمل قلَّ أو كثر، قال الله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا يره}، كلُّ ما عمل.

قال السعدي: وال{خير}: اسم جامع لكل ما يقرِّب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أنَّ السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيِّئة صغيرها وكبيرها.

قال ابن العثيمين: وقوله: {محضرًا} الذي يحضره هو الله عز وجل إمَّا بقوله وإمَّا بملائكته، يحضره الملائكة أو هو جل وعلا يأمر فيحضر؛ وقوله: {محضرًا} قد يتبادر للذهن أنَّ هذا العمل يكون جسمًا فيحضر كما يحضر الدراهم لمن يستوفيها؛ وإذا كان هذا مراد الله عز وجل فليس بغريب بأن تجعل الأعمال وهي أمر معنوي تجعل أجسامًا وهو ظاهر القرآن الكريم بأن

الأعمال توزن، والوزن لا تكون إلَّا لجسم كثيف؛ فتوزن الأعمال توضع في كفة الحسنات والسيئات؛ وليس هذا بغريب على قدرة الله سبحانه وتعالى؛ فها هو الموت وصف، وهو زوال الحياة يمثل يوم القيمة بكبش، ويوقف بين الجنة والنار، ويقال يا أهل الجنة ويا أهل النار، فيطَّلعون فيقال لهم تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت فيذبح ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت؛ وحينئذ يزداد أهل الجنة سرورًا إلى سرورهم وأهل النار حزنًا إلى حزنهم والعياذ بالله.

وقوله: {وما عملت من سوء تودُّ} الواو هذه يحتمل أن يكون استئنافية؛ فتكون {ما} مبتدأ؛ ويحتمل أن تكون عاطفة؛ فتكون {ما} معطوفة على {ما} الأولى، يعني: ما عملت من خير محضرًا وتجد ما عملت من سوء محضرًا كذلك؛ فعلى الأول تكون {ما} مبتدأ، و{تودُّ لو أنَّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا} خبره؛ وعلى الثاني تكون {ما} معطوفة على ما تجد في الأولى ويكون في الكلام حذف وتقديره: (وما عملت من سوء محضرًا تودُّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا)؛ ولكن المعنى الأول أظهر؛ لأنَّ الأصل عدم الحدّ؛ والاستئناف كثير وارد في اللغة العربية وهو أيضًا أبلغ؛ لأنَّ {ما عملت من سوء} قد يحضر وقد يقرَّر به الإنسان ولا يحضر، والكلام هنا عام يشمل المؤمنين والكافرين؛ والمؤمن في حسابه لا يحضر له عمله السيِّئ وإنَّما يقرَّر بذنوبه فيقرَّر ويقال: عملت كذا عملت كذا فيقول نعم؛ فيقول الله له: ((قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم([1]))، أمَّا الكفار فيحضر عملهم، قال الله تعالى: {ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممَّا فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا} لأنَّ سيِّئات الكفار لا تمحى، تحضر ويحاسبون عليها؛ وبهذا يتبيَّن أنَّ إعراب الواو استئنافية، و{ما} مبتدأ أظهر من أن تكون عاطفة، وما معطوفة على ما سبق؛ إذًا {ما عملت من سوء} لا تفرح به، {تودُّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا}: يعني زمنًا طويلًا أو مكانًا بعيدًا؛ تودُّ أنَّها لم تعمل ولم تذكَّر به ولم يحضر لها إن كانت ممَّن يحضر لها عمله السيِّئ؛ والود خالص المحبَّة؛ إذًا تحبُّ محبَّة شديدة من كل قلبها لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا، وقوله: {أنَّ بينها وبينه أمدًا} {أمدًا} بالنصب قال إنَّه اسم أن مؤخَّر.

قال السعدي: {وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا}: أي مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدَّة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لابدَّ أن يحزن عليها أشدُّ الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول: {يا حسرتا على ما فرَّطت في جنب الله}، {يومئذٍ يودُّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوَّى بهم الأرض}، {ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتَّخذت مع الرسول سبيلًا يا ويلتا ليتني لم أتَّخذ فلانًا خليلًا}، {حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين}، فو الله لترك كلُّ شهوةٍ ولذةٍ وان عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلَّا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدِم على ما ينفعه عاجلًا وآجلًا ويحجم عن ما يضرُّه عاجلًا وآجلًا، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رأفةً بنا ورحمةً لئلَّا يطول علينا الأمد

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧٣١١)، وظلال الجنة (٦٠٤ و ٦٠٥)، وصحيح الجامع الصغير وزيادته (١٨٩٤).

فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال: {ويحذِّركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}.

قال ابن العثيمين: قال الله تعالى: {ويحذِّركم الله نفسه} كرَّر ذلك لأنَّ المقام يقتضيه، يقتضي التحذير؛ فاحذر الله عز وجل، احذر الله أن يصيبك بعقابه إذا عصيته وخالفت أمره؛ والأول {يحذِّركم الله نفسه} في العمل؛ والثاني في الجزاء؛ الأول في العمل في موالاة الكفار؛ الثاني في الجزاء؛ لأنَّه ذكره بعد أن ذكر الجزاء الذي يكون يوم القيمة.

قال أبو زهرة: ولقد كرَّر الله سبحانه التحذير من نفسه تذكيرًا، وليكون في بال المؤمن دائمًا، ولبيان أنَّ ذلك التحذير من دواعي الرحمة كما هو من تربية الرَّهبة، فهو قد ذُكر تمهيدًا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} فتذكير العباد وتحذيرهم من رحمته بهم حتى لَا يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر؛ وختمت الآية بهذا التذييل الكريم؛ لإثبات أن عقاب المسيء وثواب المحسن من الرحمة، فليس من الرحمة في شيء أن يتساوى المحسن والمسيء، ولإثبات أنَّ ولاء المؤمنين ومعاداة الكافرين من الرحمة بالعباد، حتى لَا يعُمَّ الظلم وينتشر الفساد.

قال ابن العثيمين: {والله رءوف بالعباد} و{الرءوف[١]}: فعول من (الرأفة): وهي أشدُّ الرحمة، وأرقُّ الرحمة؛ لأنَّ الرأفة فيها شيءٌ من الرِّق واللِّين أكثر ممَّا في الرحمة؛ وقوله: {بالعباد} جمع عبد؛ والمراد بهم الخلق؛ فهو من العبودية العامَّة.

استشكل بعض العلماء إتيان قوله: {والله رءوف بالعباد} بعد قوله: {ويحذِّركم الله نفسه} وقال: كان مقتضى الحال أن يقال: ويحذِّركم الله نفسه والله شديد العقاب؛ لأنَّ مقام التحذير يقتضي الوعيد؛ فأجيب عن ذلك بأنَّ من رأفته عز وجل بالعباد أن حذَّرهم نفسه؛ وأخبرهم بأن الأمر عظيم؛ لأنَّ إخبار الإنسان بحقيقة الحال لاشك أنَّه من الرأفة به، وإلَّا فليس من المناسب أن يهدَّد الإنسان بالتحذير ثم يقال ولك رأفة ورحمة؛ ولكن قالوا إن الرأفة بالعباد عائدة إلى إخبار العباد بحقيقة الأمر وتحذيرهم من مغبَّتهم؛ وهذا لاشك أنَّه وجه حسن وطيب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- التَّحذير والتَّذكير لهذا اليوم العظيم الذي يجد فيه الإنسان ما عمل من خير أو سوء.

٢- وجوب، أو على الأقل استحباب تذكُّر الإنسان لهذا اليوم؛ لأن قوله: {اذكر} يشمل ذكر الخبري والذكر الفكري؛ يعني التدبُّر في القلب.

٣- ثبوت الجزاء لكلِّ الناس؛ وهل هذا على عمومه؟ أو يستثنى منه من لا يكلَّف؟ يحتمل؛ إن نظرنا إلى عموم اللَّفظ قلنا

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرؤوف} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٠) من سورة النور.

إنَّه شامل، وغير المكلَّف يكتب له ولا يكتب عليه؛ فيكون ما عمل من خير محضرًا وما عمل من سوء فهو مرفوع عنه؛ ويحتمل أن يراد بها النفوس التي يلحقها الجزاء عقوبة وكرامة وهي الأنفس المكلَّفة؛ ولاشك أنَّه ليس على عمومه فيما يتعلَّق بالبهائم؛ فإنَّ البهائم لا تدخل في هذا.

٤- كمال قدرة الله عز وجل لإحضار ما عمله الإنسان من قليل وكثير؛ ومن أين يؤخذ أنَّه من قليل وكثير؟ من {ما} الموصولة التي تفيد العموم.

٥- كمال رقابته عز وجل، وأنَّه لا يفوته شيء، كلُّ ما يعمله الإنسان سوف يجده؛ فأنت ونفسك! انظر ماذا تقدِّم لهذا اليوم من خير أو من ضده.

٦- إثبات اليوم الآخر الذي هو يوم الجزاء، وهو معلوم.

٧- أنَّ الشر يسوء صاحبه؛ من أين يؤخذ؟ لأنَّ قوله: {وما عملت من سوء} عديل لقوله: {من خير} وكان مقتضى المعادلة أن يقول: وما عملت من شر؛ لأنَّه قال: {من خير} ضدَّه الشر؛ لكنَّه عبر بالشَّر بعاقبتهم بالسوء؛ لأن الشَّر يسوء فاعله {من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها}.

٨- إثبات الشعور في ذلك اليوم؛ لقوله: {تودُّ} لأنَّ المودَّة خالص المحبَّة؛ وهي عن الشعور بالشيء.

٩- كراهة الناس، أو كراهة المسيء لما علمه في ذلك اليوم، وأنَّه يحبُّ أن يكون بينها وبينه ما بين المشرق والمغرب؛ لقوله: {تودُّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا} وهكذا يودُّ الإنسان أن يكون بينه وبين عمله السيِّئ الأمد البعيد، وبينه وبين قرين السوء الأمد البعيد، قال الله تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين وإنَّهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنَّهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين} في الدنيا هم أصدقاء لكنَّهم في الآخرة أعداء.

١٠- رحمة الله بعباده بتحذيرهم نفسه لئلَّا يقعوا في عقوبته ونقمته؛ لقوله: {ويحذِّركم الله نفسه}.

١١- أنَّه ينبغي استعمال الأسلوب المناسب للحال؛ فالله عز وجل قال في هذه الآية: {ويحذِّركم الله نفسه} وفي آيات كثيرة يتحبَّب إلى عباده عز وجل ويتودَّد إليهم؛ لأنَّ هذا المقام الذي نحن فيه مقام تحذير وتهديد، ومقام التحذير والتهديد ينبغي أن يؤتى فيه بالأساليب المناسبة؛ ولهذا يقال: إن غاية البلاغة صيغة الكلام مطابقًا لمقتضى الحال، هذه غاية البلاغة أن يصاغ الكلام مطابقًا لمقتضى الحال؛ لأنَّه لو صيغها غير مطابق لعدَّ عيًّا، لو جاء صدوق لك وقال إنَّ فلان قدِم والله إنَّه قدِم، والله إنَّه قدِم، والله الذي لا إله إلا هو إنَّه قدِم، ماذا تقول إنَّه بلاغة، ولَّا غير بلاغة؟ غير بلاغة؛ أنت تقول: قف، أنا ما حلفتك، إلى الآن ما قلت لك إنَّك كاذب حتى تحلف؛ فالإتيان بالكلام مطابقًا لمقتضى الحال لاشك أنه غاية البلاغة كما في هذه الآية.

١٢- إثبات الرأفة لله عز وجل؛ بل إثبات الاسم والصفة؛ لقوله: {رءوف} والرأفة أشدُّ الرحمة وأرقُّها، وتأمَّل قوله تعالى عن نفسه: {والله رءوف بالعباد}، وقوله عن نبيه: {بالمؤمنين رءوف رحيم} فإنَّ رأفة الله عامَّة؛ أمَّا رأفة النبي ﷺ فهي خاصة بالمؤمنين؛ الكفار والمنافقون لا يرأف بهم {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير}، هذه وصية الله لنبيِّه في الكفار والمنافقين؛ وفي جلب الزاني قال الله تعالى: {ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله}، لكنَّ الرب رءوف بعباده يسعهم حلمه ورحمته وعافيته ورزقه.

١٣- أنَّه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه بالنسبة إلى ربِّه؛ فما نسبته إلى ربِّه؟ أنَّه عبد، وأنَّ الرب رب؛ وأنَّ العبد يجب أن يكون قابل لأمر الرب وأن يكون دليلًا له شرعًا كما أنَّه دليل له قدرًا، كل الناس أدلَّةٌ لله قدرًا ما يستطيعون أن يخالفوا قدره؛ اكبر واحد في الدنيا وأشدُّهم عتوًّا يمرض ويموت؛ وهذا خضوع للربوبية القدرية؛ لكن من ليس بمؤمن ليس بخاضع لربوبيته الشرعية {والله رءوف بالعباد}.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {٣١}

قال ابن العثيمين: {قل إن كنتم تحبون الله}: الخطاب للرسول ﷺ؛ وقد مرَّ علينا غير مرة أنَّ النبي ﷺ إذا وجِّه إليه {قل} في القرآن فهو دليل على العناية بهذا القول الذي أمر أن يقوله؛ لأنَّ هذا أمر بالتَّبليغ الخاص لهذا القول؛ أمَّا القرآن كلُّه فقد أمر أن يقوله كلُّه؛ لكن بعض الأشياء يخص ويقال: (قل)، مثل: {قل للمؤمنين يغضُّون من أبصارهم}، {وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن}، {قل يا أيها الناس إنِّي رسول الله إليكم جميعًا} وما أشبه ذلك؛ هذا أمر بتبليغ هذا الشيء الخاص بعينه؛ فيكون في ذلك توكيد ودليل على العناية به؛ وهذا لاشك أنَّه يجب العناية بها؛ يجيء إنسان ويقول والله أنا أحب الله، أنا حبيب الله؛ فيغرُّ العامَّة فيقال: (الحمد لله، ننظر)؛ كما يدَّعي الآن في الوقت الحاضر أناس أنَّهم أولياء لله؛ ولكن الذي يزعم أنَّه من أولياء الله نمتحنه، نقول له تمنى الموت؟ لا هذا لليهود {قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت} لكن نمتحنه بما دون ذلك ننظر هل هو مؤمن تقي صادق؛ هل هو عاص فاسق دجال يريد أن يشرك به مع الله في المحبة والطاعة فهو عدو وليس بولي؛ لأنَّ الله قال في الميزان في الأولياء: {ألا إنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتَّقون}.

{إن كنتم تحبون الله} لاشك أنَّ الخطاب هنا {إن كنتم} غير معلوم بالشخص، المخاطب غير معلوم بالشخص؛ لكنَّه معلوم بالمعنى؛ يستفاد المعنى ممَّا بعد {إن كنتم تحبون الله}: أي قل لمن ادَّعى أنَّه يحب الله {إن كنتم تحبون الله فاتبعوني} الجملة هنا شرطية؛ وفعل الشرط {كنتم} وجوابه: {فاتَّبعوني} وجاءت الفاء للجواب، وإذا كانت الجملة للجواب طلبية وجب اقترانها بالفاء.

{فاتَّبعوني يحببكم الله}: اتَّبعوني على ما أنا عليه من الشريعة عقيدةً وقولًا وفعلًا وتركًا؛ فمن اتَّبع الرسول ﷺ في هذه الأربعة صدق في اتِّباعه، ومن خالف فهو غير صادق. عقدية بحيث تكون عقيدته على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ لا تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا شك، ولا ترديد؛ إيمان كامل خال من جميع الشوائب، قولًا لا يزيد ولا ينقص عمَّا جاءت به الشريعة من الأقوال. وفعلًا كذلك لا يزيد ولا ينقص. وتركًا بحيث يترك ما لم يعمله الرسول ﷺ؛ كل ما لم يتعَّد به الرسول يجب أن لا يتعبَّد به؛ فإن تعبَّد به ولو أنَّه يقول إنَّه يحب الرسول فإنَّ دعواه كاذب؛ إذا تعبَّد بشيء ترك الرسول التعبُّد لله به، لم يتعبَّد به لله، وقال والله أنا أحب الرسول، أتعبَّد لله بهذا الشيء محبَّة للرسول ﷺ؛ قلنا دعواك كاذب؛ لو كنت تحبُّه حقًّا لاتَّبعته حقًّا في العقيدة والقول والفعل والترك؛ أمَّا أن تُحدِث في دينه ما ليس منه فأين محبَّتك له؟ نحن نجد في بني آدم إذا أحبَّ شخصًا غير الرسول تجد يترسَّم خطاه، يعجب به فيترسَّم خطاه وينظر ماذا يفعل ويفعل حتى وإن كان الشيء سيِّئًا يكون في عين الحبيب حسنًا كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أنَّ عين السخط تبدي المساوي

وهذا شيء مجرَّب؛ الحاصل أنَّ الله قال للرسول ﷺ: {قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبعوني يحببكم الله} {يحببكم} هذه فك إدغامها ولذلك ظهر السكون فيها؛ وفي غير القرآن لو قيل: (يحبكم الله) لكان صحيحًا؛ لأنَّ الإدغام هنا يجوز وفك الإدغام يجوز أيضًا.

قال السعدي: وهذه الآية فيها وجوب محبَّة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال {قل إن كنتم تحبون الله}: أي ادَّعيتم هذه المرتبة العالية والرتبة التي ليس فوقها رتبة، فلا يكفي فيها مجرَّد الدعوى، بل لابدَّ من الصِّدق فيها، وعلامة الصِّدق اتِّباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتَّبع الرسول دلَّ على صدق دعواه محبَّة الله تعالى، وأحبَّه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدَّده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتَّبع الرسول فليس محبًّا لله تعالى، لأن محبَّته لله توجب له اتِّباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دلَّ على عدمها وأنَّه كاذب إن ادَّعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظِّهم من اتِّباع الرسول يكون إيمانهم وحبَّهم لله، وما نقص من ذلك، نقص.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٣٦٠: وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ مَحَبَّتَهُ مُوجِبَةً لِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ. فَقَالَ {قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}، وَهَذَا لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يَدْعُو إلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ إلَّا وَالرَّسُولُ يَدْعُو إلَيْهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَدْعُو إلَيْهِ الرَّسُولُ إلَّا وَاَللَّهُ يُحِبُّهُ، فَصَارَ مَحْبُوبُ الرَّبِّ وَمَدْعُوُّ الرَّسُولِ مُتَلَازِمَيْنِ، بَلْ هَذَا هُوَ هَذَا فِي ذَاتِهِ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الصِّفَاتُ.

فَكُلُّ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ، وَلَمْ يَتَّبِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ كَذَبَ، لَيْسَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، بَلْ إنْ كَانَ يُحِبُّهُ فَهِيَ مَحَبَّةُ شِرْكٍ، فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ مَا يَهْوَاهُ كَدَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ لَوْ أَخْلَصُوا لَهُ الْمَحَبَّةَ لَمْ يُحِبُّوا إلَّا مَا أَحَبَّ، فَكَانُوا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ، فَلَمَّا أَحَبُّوا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ مَعَ دَعْوَاهُمْ حُبَّهُ كَانَتْ مَحَبَّتُهُمْ مِنْ جِنْسِ مَحَبَّةِ الْمُشْرِكِينَ.

وَهَكَذَا أَهْلُ الْبِدَعِ، فَمَنْ قَالَ: إنَّهُ مِنْ الْمُرِيدِينَ لِلَّهِ الْمُحِبِّينَ لَهُ، وَهُوَ لَا يَقْصِدُ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ وَالْعَمَلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرْكَ مَا نَهَى عَنْهُ، فَمَحَبَّتُهُ فِيهَا شَوْبٌ مِنْ مَحَبَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنْ الْبِدْعَةِ، فَإِنَّ الْبِدَعَ الَّتِي لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً وَلَيْسَتْ مِمَّا دَعَا إلَيْهِ الرَّسُولُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، فَإِنَّ الرَّسُولَ دَعَا إلَى كُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، فَأَمَرَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ.

وَأَيْضًا فَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بُغْضُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}[المجادلة: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[المائدة: ٨٠، ٨١]، وَقَالَ تَعَالَى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}[الممتحنة: ٤]. فَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَأَسَّوْا بِإِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ مَعَهُ، حَيْثُ أَبْدَوْا الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِمَنْ أَشْرَكَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ حَالِ مَنْ لَا يَسْتَحْسِنُ حَسَنَةً وَلَا يَسْتَقْبِحُ سَيِّئَةً؟!

وَهَؤُلَاءِ سَلَكُوا طَرِيقَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ، مُجْمَلًا مِنْ غَيْرِ اعْتِصَامٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا سَلَكَ أَهْلُ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ طَرِيقَ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ، مِنْ غَيْرِ اعْتِصَامٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَوَقَعَ هَؤُلَاءِ فِي ضَلَالَاتٍ وَهَؤُلَاءِ فِي ضَلَالَاتٍ.

وقال رحمه الله أيضًا في قاعدة في المحبَّة ج١ص٧٢: فإنَّ اتِّباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبَّه، وهو سبحانه أعظم شيء بغضًا لمن لم يتَّبع رسوله، فمن كان صادقًا في دعوى محبَّة الله اتَّبع رسوله لا محالة وكان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما.

والذنوب تنقص من محبَّة الله تعالى بقدر ذلك لكن لا تزيل المحبَّة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب، حديث حمار الذي كان يشرب الخمر وكان النبي ﷺ يقيم عليه الحدّ فلمَّا كثر ذلك منه لعنه رجل فقال النبي ﷺ: ((لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله(١))، وفيه دلالة على أنَّا منهيون عن لعنة أحد بعينه وإن كان مذنبًا إذا كان يحب الله ورسوله، فكما أنَّ المحبَّة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات، وكمال المحبَّة المستحبَّة

١- (قلت): البخاري (٦٧٨٠)، والحديث بتمامه: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لاَ تَلْعَنُوهُ فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)).

تستلزم لفعل كمال المستحبَّات، والمعاصي تنقض المحبَّة، وهذا معنى قول الشبلي لما سئل عن المحبَّة فقال ما غنَّت به جارية فلان:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس شنيع

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع

وهذا كقوله ﷺ: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن([1]))). وقد تكلمنا على هذا في غير هذا الموضع.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين وباب السعادتين ج١ص٣٠٢: وقال الجنيد: ادَّعى قوم محبَّة الله، فأنزل الله آية المحبَّة {قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبعوني يحببكم الله}: يعني أنَّ متابعة الرسول هي موافقة حبيبكم، فإنَّه المبلِّغ عنه ما يحبه وما يكرهه، وقال مالك في هذه الآية: من أحبَّ طاعة الله، أحبَّه الله وحبَّبه إلى خلقه، وإنَّما كانت موافقة المحبوب دليلًا على محبَّته، لأنَّ من أحبَّ حبيبًا فلابدَّ أن يحبَّ ما يحبُّه ويبغض ما يبغضه، وإلَّا لم يكن محبًّا له محبَّة صادقة، بل إن تخلَّف ذلك عنه لم يكن محبًّا له، بل يكون محبًّا لمراده منه، أحبَّه محبوبه أم كرهه، ومحبوبه عنده وسيلة إلى ذلك المراد، فلو حصل له حظَّه من غيره ترحَّل عوضه، فهذه المحبَّة المدخولة الفاسدة، وإذا كانت المحبَّة الصحيحة تستدعي حب ما يحبُّه المحبوب وبغض ما يبغضه، فلابدَّ أن يوافقه فيه، ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدَّعين للمحبَّة، وهي: أنَّ موافقة المحبوب في مراده ليس المعنيُّ بها مراده الخلقي الكوني، فإنَّ كلَّ الكون مراده، وكلُّ ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيئته وإرادته الكونية، فلو كانت موافقته في هذا المراد هي محبَّته، لم يكن له عدوٌّ أصلًا، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عبَّاد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإنَّما يظنُّ ذلك من يظنُّه من أعدائه الجاحدين لمحبَّته ودينه، والذين يسوون بين أوليائه وأعدائه، قال الله تعالى: {أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتَّقين كالفجار}، وقال الله تعالى: {أم حسبت الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون}، وقال الله تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون}، وبيَّن المطيعين والمفسدين، مع أنَّ الكل تحت المراد الكوني والمشيئة العامَّة، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: قال لي بعض شيوخ هؤلاء: المحبَّة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كلُّه مراده؟! فأيُّ شيءٍ أبغض منه؟ قال: فقلت له: فإذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون، فأبغض قومًا ومقتهم ولعنهم وعاداهم، فأحببتهم أنت وواليتهم، تكون مواليًا للمحبوب موافقًا له؟ أو مخالفًا له معاديًا له؟ قال: فكأنَّما ألقم حجرًا، ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حدٍّ بحيث إذا فعل محظورًا يزعم أنَّه مطيع لله سبحانه وتعالى، ويقول أنا مطيع لإرادته وينشد في ذلك:

أصبحت منفعلًا لما يختار ... ه مني ففعلي كله طاعات

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

ويقول أحدهم: إبليس وإن عصى الأمر لكنَّه أطاع الإرادة، يعني أنَّ فعله طاعة لله من حيث موافقة إرادته، وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدِّين، وخروج عن الشرائع كلِّها، فإنَّ الطاعة إنَّما هي موافقة الأمر الديني الذي يحبُّه الله ويرضاه، وأمَّا دخوله تحت القدر الكوني الذي يبغضه ويسخطه ويكفر فاعله ويعاقبه، فهي المعصية والكفر ومعاداته ومعاداة دينه، ولا ريب أن المسرفين على أنفسهم المنهمكين في الذنوب والمعاصي المعترفين بأنهم عصاة مذنبون، أقرب إلى الله من هؤلاء العارفين المنسلخين عن دين الأنبياء كلِّهم الذين لا عقل لهم ولا دين، فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه.

قال ابن العثيمين: {ويغفر لكم ذنوبكم} الله أكبر {يحببكم الله} هذه الثمرة والنتيجة التي يسعى إليها كلُّ إنسان أن يكون محبوبًا لدى الله سبحانه وتعالى؛ الثاني: {ويغفر لكم ذنوبكم} أنظر، الله اكبر، فائدتان عظيمتان؛ محبَّة الله لك، ومغفرة ذنوبك؛ {يغفر لكم ذنوبكم}: أي كلُّ ما عملتم من الذنوب يغفر لكم؛ ولكن هل نقول: إنَّه يغفر؛ وإن لم يستغفر الإنسان منه؛ لأنَّ حسنة الاتِّباع تمحوا هذا الذنب ومحبَّة الله للإنسان توجب عدم عقوبته؟ أو نقول: {يغفر لكم ذنوبكم} لأن ييسِّر لكم أسباب المغفرة إن لم يغفر لكم بدون السبب؟ الله أعلم؛ يحتمل أنه سبحانه وتعالى أراد أنه يغفر الذنوب بسبب هذا الاتِّباع والمحبَّة، أو أنَّه وإن فعل الإنسان ما فعل، فإنَّه ييسَّر له أسباب المغفرة بأن يعود من معصية الله إلى طاعته، الله أعلم[1]؛ لكن على كل حال الوعد منهم محقَّق وهو مغفرة الذنوب إمَّا بسبب من العبد، أو مجرَّد فضل الله.

وقوله: {ذنوبكم} الذنب هو المعصية؛ وهو كما ترون جمع مضاف لمعرفة، والجمع المضاف إلى معرفة تفيد العموم.

{والله غفور رحيم} الجملة هنا اسمية اشتملت على ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، والغفور، والرحيم؛ أمَّا معنى {الله} فقد سبق لنا مرارًا وتكرارًا بأنَّه المألوه أي المعبود حبًّا وتعظيمًا؛ وأنَّ الأصل (الإله) فحذفت الهمزة تخفيفًا لكسرة الاستعمال كما حذفت من الناس ومن الشر والخير؛ وأمَّا ال{غفور[2]} فالغفور هنا يحتمل أن تكون صيغة المبالغة ويحتمل أن تكون صفة مشبهة؛ والمعنيان لا يتنافيان؛ فتكون صفة مشبهة وصيغة مبالغة؛ صفة مشبهة لأن الله لم يزل ولا يزال غفورًا؛ وصيغة مبالغة لكثرة من يفغر له، وكثرة ما يغفره من الذنوب؛ والمغفرة ستر الذنب والتَّجاوز عنه؛ وليست مجرَّد الستر لوجهين: لغوي وسمعي؛ أمَّا اللغوي فلأن المغفرة مأخوذة من المغفر الذي يستر به المقاتل رأسه ويتقي به السهام؛ والمغفر جامع للستر والوقاية. وأمَّا السمعي فلمَّا ورد في كيفية محاسبة الله لعبده المؤمن أنَّه يخلوا به ويقرِّره بذنوبه فيقول: ((قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم[3]))، وأمَّا {رحيم[4]} فهو ذو الرحمة وهو صالح أيضًا ليكون صفة مشبهة أو صيغة مبالغة؛ والرحمة صفة تقتضي العطف والإحسان على المرحوم. والجمع بينهما، بين الغفور والرحيم لفائدة عظيمة وهي الجمع بين الوقاية والعناية؛ بين الوقاية بالمغفرة يقيك الله سبحانه وتعالى شر الذنوب؛ والعناية بالرحمة، يعتني الله بك فييسرك لليسرى

١- (قلت): من كان متَّبعًا للرسول ﷺ فلابدَّ أن يستغفر الله ويتوب اليه كل يوم.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧٣١١)، وظلال الجنة (٦٠٤ و ٦٠٥)، وصحيح الجامع الصغير وزيادته (١٨٩٤).

٤- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

ويجنبك العسرى؛ فالجمع بينهما لهذه الفائدة العظيمة جمع بين الوقاية والعناية؛ فالمغفرة فيها الوقاية من الذنوب، والرحمة فيها العناية للعبد حتى ييسّره الله اليسرى ويجنبه العسرى.

قال أبو زهرة: ولقد ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}: وصفان كريمان للذات العلية: أولهما أنَّه غفور؛ أي أنَّه كثير الغفران لعباده؛ لأنَّ فعول تدلُّ على المبالغة، ووصف الله تعالى نفسه بهذا الوصف للإشارة إلى أنَّه يحب من عباده الطاعة، ويحب من عباده التوبة، فهو ليس كحكام الدنيا الذين يفرضون العقاب ولا يتمنُّون لرعاياهم الخلاص منه، بل يتمنُّون إنزال العقوبة بهم، والله سبحانه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم يقبل التوبة عن عباده، ويحب المغفرة، ولذلك وصف بالتواب، فالعقاب ليس لذاته، ولكن لكيلا يتساوى المسيء بالمحسن، وليحمل المسيء على الطاعة ويستمر المحسن على إحسانه.

والوصف الثاني الذي وصف به ذاته العلية: أنَّه رحيم. وكان من رحمته أن قبل التوبة وغفر الذنب، ومن رحمته أنَّه أرسل الرسل بالبيِّنات ليقيموا القسط بين الناس، وَيُعَلِّمُوا هذه الشرائع التي بها صلاح الدنيا، وبها تقوم على الخير والفضيلة، ولذا قال سبحانه وتعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}، وكان من رحمته أن سنَّ العقاب للمسيء المستمر على إساءته الموغل في الفساد، فإنَّ من يفسد في الأرض يكون من الرحمة عقابه، ومن لا يرحم الناس كان من مقتضى الرحمة بالناس أن لَا يرحم؛ ولذا قال النبي ﷺ: ((من لَا يَرحم لَا يُرحم([١]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الله أمر نبيه ﷺ أن يتحدَّى هؤلاء المدَّعين لمحبَّته بهذا الميزان القسط وهو إتِّباعهم للرسول ﷺ.

٢- جواز مخاطبة المدَّعي بالتَّحدِّي؛ لأنَّ هذا هو الحق؛ لا تستحي من شخص يدَّعي ما لم يتَّصف به لأنَّه لو كان يعرف نفسه ما ادَّعى اتِّصافه بشيءٍ لم يتَّصف به؛ فهو الذي أذلَّ نفسه في الحقيقة فلا تخش منه تحدِّيه؛ ليقيم البرهان والدليل على دعواه.

٣- أنَّها مصداق لقول النبي ﷺ: ((البيِّنة للمدَّعي([٢]))) وهذه وإن كانت في دعوى الناس بعضهم مع بعض لكنَّها حقيقةً قاعدة عامَّة؛ كل إنسان مدَّعي لابدَّ أن يقيم دعوى بيِّنة عن دعواهم.

١- (قلت): البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

٢- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ، ولكن صحح الإمام الألباني حديثاً رواه البيهقي من طريق أبى القاسم الطبراني عن الفريابي حدثنا سفيان عن نافع ... بلفظ: ((البيّنة على المدَّعي، واليمين على المدَّعى عليه)). وقال: (قال أبو القاسم: لم يروه عن سفيان إلَّا الفريابي).

٤– أنَّ محبَّة الله تعالى غاية لكلِّ الناس حتى غير المؤمن يقول أنا أحبُّ الله، كذا؛ لقوله: {إن كنتم تحبون الله فاتَّبعوني}.

٥– أنَّ رسول الله ﷺ رسول الله حقًّا؛ وجه ذلك: أنَّ الله جعل اتِّباعه سببًا لمحبَّة الله للعبد.

٦– أنَّه كلَّما قوي اتِّباع الإنسان للرسول ﷺ كان أقوى برهانًا على صدق محبَّته لله؛ فهذه من علامة محبة الإنسان من ربه؛ فإذا رأيت الإنسان شديد الإتِّباع لرسول الله ﷺ فاعلم أنه شديد المحبَّة لله؛ كل إنسان يتَّبع الرسول يريد الوصول إلى الله عز وجل؛ ولا شيء يراد الوصول إليه إلَّا هو محبوب للإنسان؛ الذي تكرهه لا تسعى للوصول إليه؛ تسعى في الهرب منه والبعد منه.

٧– أنَّ اتِّباع النبي ﷺ سبب لمحبَّة الله للعبد؛ لقوله: {فاتَّبعوني يحببكم الله}.

٨– أنه ينبغي للإنسان أن يجيب غيره بما هو أكثر من سؤاله إذا كان محتاجًا إليه، إذا دعت إليه الحاجة؛ لأنَّه لم يقل: فاتَّبعوني تحبون الله، أو تحب الله؛ بل قال: {يحببكم الله} ولا أحد يحبُّه الله إلَّا وهو يحبُّ الله؛ لأنَّك إذا أحببت الله عملت فأحبَّك الله؛ فلهذا أتى بالثمرة المهمة وهي محبَّة الله للعبد.

٩– إثبات المحبَّة بين العبد والرب من الجانبين؛ لأنَّه قال: {تحبون الله} فأثبتَ أنَّ الإنسان يحب الله {فاتَّبعوني يحببكم الله}، أثبتَ أنَّ الله يحب الإنسان؛ وهي محبَّة حقيقية خلافًا لمن أوَّلها قال: {تحبون الله} تحبون ثوابه؛ {يحببكم الله} يثبكم الله، فإنَّ هذا تحريف؛ وسبب هذا التَّحريف القاعدة الباطلة بالسمع والعقل وهي تحكيم العقل فيما يثبت وينفى عن الله عز وجل؛ فإنَّ قومًا ادَّعوا العقلية قالوا نحن الذين نحكم على الله بما يجب له أو يجوز أو يمتنع؛ وليس ما أخبر الله هو الذي يحكم بيننا، أعوذ بالله، هذا لازم قولهم وإن كانوا لا يصرِّحون بهذا، لكن هذا لازم قولهم؛ {فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه} ما يعني ب{يحبهم}؟ يثيبهم {يحبُّونه} يحبُّون ثوابه، سبحان الله، والله إنَّ الإنسان يجد طعمًا لا شيء يشبهه في محبَّة الله، ومحبَّة الله ما هي محبَّة الثواب؛ إذا وقع في قلبك محبَّة الله نسيت كلَّ شيءٍ حتى الجنة، تحبُّ الله نفسه عز وجل، تحبُّه حتى أنَّك ترى أنَّ كلُّ شيءٍ يضمحل ويكون عبدًا لله أمامك؛ {وما بكم من نعمة فمن الله} وأكبر نعمة على الإنسان والله هي: أن يهديه للإسلام، {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} الإنسان الذي هداه الله للإسلام ليس أحد مثله في النعمة إلَّا من أنعم عليه بها؛ فأنت في الحقيقة تحب الله نفسه لذاته ولما أنعم عليكم به من النِّعم؛ وليست محبَّة الله كمحبَّة الزوجة، كمحبَّة الطعام، كمحبَّة الشراب، كمحبَّة اللِّباس، كمحبَّة السكن، كمحبَّة السيارة، لا، محبَّة لا يشبهها شيء؛ وجرِّب تجد؛ خلِّ قلبك صافيًا يومًا من الدَّهر وصلِّ وكن متَّصِلًا بالله في صلاتك تجد شيئًا ما يخطر ببال، وتجد شيئًا يبقى أثره مدَّة طويلة وأنت تتذكَّر تلك اللحظة التي كنت فيها متَّصِلًا بربك عز وجل؛ فالحاصل أنَّنا نقول: لا أحد ينكر محبَّة الله نفسه إلَّا من حرمها؛ والله لو نعتقد إنَّا نحب ثواب الله دون الله ما حرصنا كلَّ الحرص على الأعمال الصالحة مع أنَّنا مقصِّرون ما عملنا شيئًا، لكن نقول يعني أنَّ الإنسان يعمل العمل الصالح لله؛ ولا يعني ذلك أنَّنا لا نلاحظ الثواب لا، نلاحظ الثواب لسنا صوفية يقولون: من عمل للثواب فهو للتراب؛ نقول نحن نحب الله ونحب ثوابه؛ لكن الأصل ما هو؟ محبَّة الله؛ ولهذا

قال الله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} ما هي الحسنى؟ الجنة كلُّها بما فيها من النعيم {وزيادة} النظر لوجه الله؛ فجعل النظر لوجه الله عملًا زائدًا عن النعيم؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى ربه فهذا أكمل ما يجد من النَّعيم واللَّذة؛ فلهذا نقول: إنَّ محبَّة الله محبَّة لله عز وجل حقيقةً ولا مانع. يقولون: إنَّ المحبَّة لا تكون إلَّا بين متلائمين، ولا ملائمة بين الخالق والمخلوق؛ ماذا نقول لهم؟ دعوى باطلة يبطلها الواقع؛ ألستم تحبُّون منازلكم وثيابكم ومركوباتكم؟ إنسان عنده بعير صلف شديد لا يحجزه اللِّجام وبعير سهل للانقياد سلس المشي هملاج أيهما أحبُّ إليك؟ الثاني؛ ولا الأول؟ الثاني يحبُّه، يقول روح أئتني ببعير؟ فأتى له بالبعير الصلف قال: لا أذهب ردّه هات الثاني؛ لماذا؟ لأن الثاني أحب إليه؛ من قال إن المحبَّة لا تكون إلَّا بين المتلائمين؟! المحبَّة ثابتة، ثمَّ على فرض أنَّ هذا يكون بين المخلوقات فليس هذا بين الخالق والمخلوق؛ أثبتَ الله وهو أعلم أنَّه يُحِب ويُحَب؛ إذًا في هذه الآية ردٌّ على من ينكر محبَّة الله؛ المحبَّة بين الإنسان وبين الرب. والناس في هذا ثلاثة أقسام؛ قسم قال: لا محبَّة بين العبد والرب، من الجانبين؛ وقسم قال: لا بل تثبت المحبَّة بين الرب والعبد من الجانبين؛ والثالث قال: إن الله يُحَب ولا يُحِب؛ والقرآن والسنة يردُّ على طائفتين ويؤيِّد طائفة؛ من نفى المحبَّة بين الطرفين فقوله باطل؛ ومن تناقض فأثبتها من جانب دون الرب فقد تناقض أيضًا، فقد تناقض؛ الأول قوله مطَّرد؛ لكنَّه باطل؛ والثاني قوله متناقض وهو باطل؛ ومن أثبتها بين العبد والرب فهذا هو الذي على الحق؛ لأنَّ الله أثبت ذلك.

١٠- الثمرة الجليلة لإتِّباع الرسول ﷺ؛ وذلك بمحبَّة الله.

١١- أنَّه ينبغي للإنسان إذا عمل عملًا أن يشعر نفسه أو أن يستشعر أنَّه متَّبع بذلك لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ هذه نيَّة مهمة؛ فينوي الإنسان عند فعل العبادة نيَّتين؛ النيَّة الأولى: الإخلاص لله عز وجل، وأنَّه لم يفعل ذلك إلَّا طاعة لله و وابتغاء لمرضاته؛ والثانية: أن يشعر بأنَّه متَّبع لرسول الله ﷺ حتى يتقن العمل؛ لأنَّه إذا أخلص لله وأخلص لرسول الله ﷺ بالإتِّباع أكمل عبادته أكثر وأكثر.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: {فاتَّبعوني يحببكم الله} حيث جعلها برهانًا على صدق دعوى المحبَّة وجعل الجزاء من جنسه أنَّ الله يحبُّ العبد.

١٣- أنَّ إتِّباع الرسول ﷺ سبب لمغفرة الذنب؛ لقوله: {ويغفر لكم ذنوبكم} وهذا ظاهر أن إتباع الرسول ﷺ من أسباب المغفرة؛ قال الله تعالى: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم} وقال الله تعالى: {إنَّ الحسنات يذهبن السيئات}.

١٤- كمال إحسان الله سبحانه وتعالى بجزائه على العمل أكثر منه؛ لأنَّ الذي يتَّبع الرسول يحصل له محبَّة الله ومغفرة الذنوب؛ ويتبيَّن لك هذا الفضل بأن الذي منَّ عليك بالعمل أولًا هو الله؛ ثم منَّ عليك ثانيًا بالجزاء عليه جزاءً أكثر؛ ولهذا ما أعظم شكر الله تعالى للعبد حيث يقول: {هل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان} مع أنَّ إحسان العبد إنَّما كان بإحسان الله إليه،

فالله تعالى يحسن إليك بالعمل أولًا وثانيًا؛ أولًا بالتوفيق له وثانيًا بالجزاء عليه {إنَّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا} أنظر الفضل العظيم؛ كأن الأمر منَّة {وكان سعيكم مشكورًا} مع أن التوفيق من الله سبحانه وتعالى.

١٥- إثبات هذين الاسمين وما تضمَّناه من صفة؛ قوله: {والله غفور رحيم} ففيهما إثبات الاسمية لله في هذين الاسمين؛ والثاني الصفة التي تضمَّناها؛ ومعلوم أنَّ كل اسم من أسماء الله يدلُّ على معناه الخاص به؛ لكن اجتماع الاسمين يدلُّ على معنى ثالث وهو الجمع بين مغفرة المعائب، والرحمة بالعناية بالفضائل؛ لأنَّ المغفرة مقابل الذنوب، والرحمة مقابل العناية بالإنسان، أنَّ الله تعالى يرحم الإنسان؛ فيحصل من اجتماع هذين الاسمين صفة ثالثة وهي جمع الرب سبحانه وتعالى بين الإحسان والعناية وبين الوقاية من الذنوب وآثارها بالمغفرة.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ {٣٢}

قال السعدي: وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعمِّ الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأنَّ اجتنابه امتثالًا لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون.

قال ابن العثيمين: الخطاب في قوله: {قل} للرسول ﷺ و{أطيعوا الله}: الطاعة هي عبارة عن الإنقياد والموافقة سواء كانت في الفعل أو في الترك؛ فإن كانت أمرًا فالطاعة فعل المأمور به، وإن كانت نهيًا فالطاعة اجتناب المنهي عنه؛ وقوله: {أطيعوا الله والرسول} أتى بالواو الدالَّة على التَّشريك؛ لأنَّ طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر بالشريعة من طاعة الله؛ وأمَّا فيما لا يأمر به من الشريعة فلاشك أنَّه أعظم الناس حقًّا علينا؛ ولكن قد يشير الشيء ولا يلزم، أو قد يشفع الشيء ولا يلزم طاعته في الشفاعة، كما في قصة بريرة حيث قالت: ((يا رسول الله إن كنت تأمرني فسمعًا وطاعة وإن كنت تشير عليَّ فلا حاجة لي فيه[١]))؛ أمَّا طاعة الرسول فيما يأمر به من شرع الله فإنَّها كطاعة الله سواء؛ فإذا أمر ﷺ بشيءٍ فإن طاعته طاعة لله سبحانه وتعالى؛ ولهذا جاءت الواو {أطيعوا الله والرسول} وأنظر إلى الأمر الشرعي حتى في الإتيان {ولو أنَّهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله} ولم يقل: ثم رسوله؛ لأنَّ هذا إتيان شرعي لا قدري؛ في الأمور القدرية ما يمكن أن يشرك الرسول مع الله بالواو؛ في الأمور الشرعية يشرك لأنَّ النبي ﷺ لا يشرع إلَّا بشرع الله؛ ولهذا قال: {أطيعوا الله والرسول}.

١- (قلت): البخاري (٥٢٨٣)، والحديث بتمامه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ: ((يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ رَاجَعْتِهِ)) قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ تَأْمُرُنِي قَالَ إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ قَالَتْ لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ.

وقوله: {الرسول} {أل} فيها للعهد وليست للاستغراق؛ المعهود، رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله؛ وهذا العهد ذهني ليس حضوريًّا ولا ذِكريًّا؛ لأنَّ العهود ثلاثة: عهد ذكري، وذهني، وحضوري؛ فإذا قلت: أكرم هذا الرجل، هذا حضوري؛ وإذا قلت: رأيت رجلًا فدعوت الرجل، هذا ذكري؛ وإذا قلت: جاء القاضي، هذا ذهني.

يقول: {أطيعوا الله والرسول} والرسول عند عامة العلماء من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه؛ والنبي من أوحي إليه بشرع يتعبَّد به ولكن لم يكلَّف بتبليغه؛ فآدم نبي لأنَّه أوحي إليه بشرع لكنَّه ليس برسول؛ لأنَّه لم يلزم بتبليغه([١])؛ لكن ذريته في ذلك الوقت كانوا يتَّبعونه؛ لأنَّهم قلَّة ولم يكثروا فيحصل النزاع بينهم؛ ولم تفتنهم الدنيا؛ فكانوا يتَّبعون أباهم فيما يتعبَّد به من شريعة الله؛ فلمَّا كثر الناس واختلفوا بعث الله النبيِّين كما قال الله تعالى: {كان الناس أمَّة واحدة فبعث الله النبيِّين مبشرين ومنذرين}، فصار الرسول أخصُّ من النبي؛ وعليه فنقول كل رسول نبي وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا؛ لكن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن بلفظ النبوة هم أنبياء ورسل بقوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك}، فأفادت الآية الكريمة أنَّ كلُّ من قصَّه الله علينا في القرآن فهو رسول وإن كان لم يرد ذكره إلَّا بلفظ النبوة.

قال أبو زهرة: {فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}: أي فإن أعرضوا عن اتِّباع ما تدعوهم وهو اتِّباعك الذي به تكون إطاعة الله ومحبَّته، فإنهم لا ينالون محبَّة الله تعالى؛ لأنَّهم كافرون؛ إذ تعمدوا ألَّا يطيعوك، وأنكروا أنَّ اتِّباعك طريق محبَّة الله رب العالمين. ففي هذا النَّص الكريم دلالة على أنَّ محبة الله لا ينالها إلَّا من يتَّبع الرسول بأبلغ ما يكون من بيان، وذلك لوجوه: أوَّلها: أنَّه سبحانه عبر بأنَّه لا يحبُّهم، وليس بعد نفي الحب إلَّا البغض والسَخط، فالله ساخط على من لا يتَّبعون الرسول، وإذا كان رب العالمين ساخطًا عليهم، فمن المؤكَّد أنَّه لم يعتبر حالهم حال من يحبُّونه ويبتغون رضاه.

وثانيها: أنَّه عبَّر عن تركهم اتِّباع الرسول بالتَّولِّي وهو الإعراض، وكيف يكون طالبًا لمحبة الله من يعرض عن طاعة الله.

وثالثها: أنَّه سبحانه وتعالى عبَّر عنهم في حال الإعراض متعمدين منكرين بأنَّهم كافرون، وكيف يكون محبًّا لله ومحبوبًا من الله من يكون كافرًا بأوامره، منكرًا لرسالته، معاندًا لرسوله! إنَّ ذلك في القياس غريب.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ أَنَا فُلَيْحٌ أَنَا هِلَالُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى))، قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: ((مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى([٢]))).

١- (قلت): أنظر كلام صالح آل الشيخ عن الفرق بين الرسول والنبي عند تفسير الآية (٤٩) من سورة آل عمران.

٢- إسناده صحيح على شرط البخاري، فليح هو ابن سليمان. أخرجه المصنف من طريق البخاري وهو في صحيحه (٧٢٨٠) عن محمد بن سنان بهذا الإسناد.

- وأخرجه أحمد ٢/ ٣٦١ والحاكم ١/ ٥٥ من طريق فليح بن سليمان به.

- وفي الباب من أبي سعيد الخدري أخرجه ابن حبان ١٧ والطبراني في الأوسط (٨١٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٠) : ورجاله رجال الصحيح اهـ.

- ومن حديث أبي أمامة الباهلي أخرجه أحمد ٥/ ٢٥٨ والحاكم ١/ ٥٥ و٤/ ٢٤٧ والطبراني في الأوسط (٣١٧٣).

قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح غير علي بن خالد، وهو ثقة اهـ.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَادَةَ أَنَا يزيد أنا سُلَيْمُ بْنُ حَيَّانَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، أَنَا سَعِيدُ بْنُ مِينَاءَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَوْ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ : الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي: مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرَّقَ بَيْنَ الناس(١).

قال شيخ الإسلام في الرّد على الإخنائي: والناس محتاجون إلى الإيمان بالرسول وطاعته في كل مكان وزمان، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، سرًّا وعلانيةً، جماعةً وفرادى، وهم أحوج إلى ذلك من الطعام والشراب بل من النفس، فإنَّهم متى فقدوا ذلك فالنار جزاء من كذَّب بالرسول، وتولَّى عن طاعته، كما قال تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى}[الليل: ١٤ – ١٦]: أي كذَّب به وتولَّى عن طاعته، كما قال في موضع آخر: {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}[القيامة: ٣١ – ٣٢]، وقال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِدًا عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذًا وَبِيلًا}[المزمل: ١٥ – ١٦]. وقال تعالى: {فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيدًا}[النساء: ٤١].

وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ}[النساء: ٤٢]، والله تعالى قد سمَّاه سراجًا منيرًا، وسمَّى الشمس سراجًا وهَّاجًا، والناس إلى هذا السراج المنير أحوج منهم إلى السراج الوهاج، فإنَّهم محتاجون إليه سرًّا وعلانيةً، ليلاً ونهارًا، بخلاف الوهَّاج، وهو أنفع لهم فإنَّه منير ليس فيه أذى؛ بخلاف الوهَّاج فإنَّه ينفع تارةً ويضرُّ أخرى.

ولمَّا كانت حاجة الناس إلى الرسول والإيمان به، وطاعته ومحبته، وموالاته وتعظيمه، وتعزيره وتوقيره، عامَّة في كلِّ زمان ومكان؛ كان ما يؤمر به من حقوق عامًّا لا يختص بغيره، فمن خصَّ قبره بشيء من الحقوق كان جاهلًا بقدر الرسول ﷺ وقدر ما أمر الله به من حقوقه.

وكلُّ من اشتغل بما أمر الله به من طاعته شغله ذلك عمَّا نهى عنه من البدع المتعلّقة بقبره وقبر غيره، ومن اشتغل بالبدع المنهيِّ عنها ترك ما أمر به الرسول من حقِّه، فطاعته هي مناط السعادة والنجاة.

١– إسناده صحيح على شرط البخاري، يزيد هو ابن هارون وهو في شرح السنة (٩٣) بهذا الإسناد.

– أخرجه المصنف من طريق البخاري وهو في صحيحه (٧٢٨١) عن محمد بن عبادة بهذا الإسناد.

والذين يحجُّون إلى القبور ويدعون الموتى من الأنبياء وغيرهم عصوا الرسول وأشركوا بالرب، ففاتهم ما أمروا به من تحقيق التوحيد والإيمان بالرسول، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وجميع الخلق يأتون يوم القيامة فيسألون عن هذين الأصلين: (ماذا كنتم تعبدون، وبماذا أجبتم المرسلين؟).

قال ابن العثيمين: {قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا}: يعني أعرضوا عن الطاعة ولم يمتثلوا لها ولم ينقادوا {فإن تولّوا فإنَّ الله لا يحب الكافرين} إن تولوا عن طاعة الله فإنَّ هذا كفر؛ ولكنه قد يكون مخرجًا من الإسلام وقد لا يكون مخرجًا؛ إن كان كفرًا مطلقًا بكل ما أمروا به فهو كفر مخرج من الإسلام؛ وإن كان كفرًا مقيَّدًا ببعض الأوامر فهو كفر دون كفر لا يخرج من الإسلام؛ والميزان في ذلك النصوص؛ فما دلَّت النصوص على أنَّه كفر كانت التولِّي به كفرًا مخرجًا عن الملَّة؛ وما دلَّت النصوص على أنَّه معصية فهو كفر لا يخرج من الملَّة؛ وفي قوله: {فإنَّ الله لا يحب الكافرين} فسَّر بعضهم المحبَّة هنا بأنَّ المعنى لا يثيبهم؛ ولكن هذا تحريف؛ والصواب أنَّه لا يحبهم، وهو إذا لا يحبُّهم لن يثيبهم؛ فهذا انتفاء محبَّة الله عنهم.

وقوله: {الكافرين}: هو إظهار في محل الإضمار؛ ومقتضى السياق أن يقال: فإن تولَّوا فإنَّ الله لا يحبُّهم؛ ولكنَّه أظهر في موضع الإضمار لفائدتين؛ إحداهما لفظية والثانية معنوية؛ والمعنوية تتضمَّن ثلاث فوائد؛ الفائدة اللفظية مراعاة الفواصل، فواصل الآيات؛ لو قال: فإن تولَّوا فإنَّ الله لا يحبُّهم، لم تتناسب هذه الفاصلة مع الفواصل التي قبلها وبعدها؛ ومراعاة الفواصل من البلاغة؛ ألم تروا إلى قوله تعالى في سورة طه: {قالوا آمنَّا برب هارون وموسى} مع أنَّه في الآية الأخرى يقدِّم موسى، وموسى أفضل من هارون لاشك وأحقُّ بالتَّقديم؛ لكن قدَّم هارون على موسى في هذه الآية، آية طه من أجل مراعاة الفواصل؛ ولاشك أنَّ القرآن في قمَّة البلاغة؛ فمراعاة الفواصل من البلاغة. أمَّا الفائدة المعنوية فنقول: إنَّ قوله: {لا يحب الكافرين} إظهار في موضع الإضمار له ثلاث فوائد معنوية؛ الفائدة الأولى: الحكم على هؤلاء بالكفر، يعني بأنَّهم كفَّار؛ ولو قال: (فإنَّه لا يحبهم) لم تحصل هذه الفائدة أنَّهم كفَّار؛ الفائدة الثانية: التَّعميم، بحيث تكون محبَّة الله منتفية عن كلِّ كافر، ولو قال: (لا يحبُّهم) لاختصَّ نفي المحبَّة بهؤلاء فقط؛ الفائدة الثالثة: التعليل، وذلك لأنَّ الحكم إذا علِّق بالوصف دلَّ على عليَّة ذلك الوصف فيه، {إنَّ الله لا يحب الكافرين} لكفرهم؛ فتعليق الحكم بالوصف يدلُّ على عليَّة ذلك الوصف في الحكم، يعني أنَّ سببه ذلك الحكم؛ فإذا قلت: أكرم المجتهد؛ لماذا؟ لاجتهاده؛ إذا علِّق الإكرام بوصف وهو الاجتهاد؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الاجتهاد هو العلَّة؛ فصار الإظهار في موضع الإضمار له ثلاث فوائد معنوية وفائدة لفظية؛ لكنَّ الفائدة اللفظية قد لا تثبت أو لا تحصل في كلِّ موضع؛ لكن في هذا الموضع حصلت.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب طاعة الرسول ﷺ؛ لقوله: {والرسول} وهذا مكرَّر في آيات متعدِّدة.

٢- الرَّدُّ على من قال إنَّ السنة لا يعمل بها إلَّا ما وافق القرآن؛ وجهه؟ أنَّ الله قال: {أطيعوا الله والرسول} ومن المعلوم لو قلنا إنَّ الرسول ﷺ لا يطاع إلَّا فيما أمر الله به لم يكن للأمر بطاعته فائدة؛ لأنَّ كل من أمر بما أمر الله به فهو مطاع، مطاع لا لأمره ولكن لأمر الله؛ فطاعة الرسول بأمره طاعة مستقلة؛ على أنَّنا نقول إنَّ الذي يقول إنَّه لا يعمل بالسُّنَّة إلَّا ما وافق القرآن متناقض؛ وجهه؟ أنَّ قوله: إلَّا ما وافق القرآن يحكم عليه؛ لأنَّه ليس في السنة ما يخالف القرآن؛ لأنَّ القرآن أمر بالعمل بالسنة؛ فالعمل بها موافَقة للقرآن وليس بمخالفة، فهذا تناقض. سمعت أنَّ بعض الناس أنكر على من استدلَّ بقوله تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } وقال: إنَّ هذا في قسم الفيء؛ وهذا صحيح أن الآية في قسم الفيء؛ ولكن إذا كان يجب علينا أن نقبل ما قسمه الرسول ﷺ في الفيء وأن ننتهي عمَّا نهى عنه؛ فما بالك بالأمور الشرعية؟ أليس قبولنا بما جاء به شرعًا أَولى من قبولنا بما قسّمه مالًا؟ ليس فيه شك؛ يعني لو سلَّمنا جدلًا وحقيقةً إنَّها في الفيء لكنَّها تشير إلى أنَّه إذا قبلنا قسمته في الأموال، فيجب علينا أن نقبل ما حكم به في شرع الله.

٣- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: {أطيعوا الله والرسول}.

٤- وجوب الطاعة؛ لقوله: {فإن تولَّوا فإنَّ الله لا يحب الكافرين} واعلم أن ترك امتثال الطاعة إن كان سببه كراهة ما جاء به الرسول ﷺ فهذا كفر مخرج عن الملَّة كما قال تعالى: {ذلك بأنَّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم}، وإن كان تكاسل وكراهة لهذا العمل لنفسه لا لأنَّ الرسول ﷺ جاء به فهذا لا يخرج من الملَّة؛ وهذه مسألة يجب التفطُّن لها والتنبُّه؛ لأنَّ بعض الناس إذا رأى أنَّ شخصًا لا يطبّق السُّنَّة قال: هذا كره ما أنزل الله فهو كافر؛ وهذا غلط عظيم؛ والكفر ليس نقدًا سهلًا تعطيه من شئت وتمنع من شئت؛ الكفر أمره صعب جدًّا لا يجوز أن نكفر إلَّا من تيقَّنَّا أنَّه صدق عليه أنَّه كافر؛ ولهذا ربما يكره الإنسان هذا العمل من شخص ولا يكرهه من شخص آخر؛ إذًا هو لا يكره العمل لأنَّه سنَّة؛ لكن قد يكره هذا الرجل نفسه؛ لأنَّه عمل به، وهذا شيء كثير مشاهد؛ لو أن أحدًا من الناس الموثوقين عند العامَّة فعل هذا الفعل لوجدتهم يتحدَّثون أرى هذه سنَّة، ما كنت أدري أنَّها سنَّة فيأخذون بها؛ أو على الأقل لا ينكرونه؛ لكن لو فعله واحد غير موثوق تجده ينتقدونه ويكرهونه. فالمهم إنَّ هذه مسائل يجب علينا أن نفرّق بين من كره العمل لأنَّه شرع الله، فهذا لاشك في كفره {ذلك بأنَّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم} وعلامة ذلك أنَّه لو جاء من غير شرع الله لقبِله؛ فهذا كافر؛ وأمَّا من كره العمل لأنَّه عمل، فهذا لا يصل إلى حدِّ الكفر ولكن ينظر في أمره؛ ونزلوا هذه المسائل بارك الله فيكم على كثير ممَّن يتسرَّع فيه بعض الناس فيحكم على فاعله بالكفر؛ وما علم أنَّ من دعى رجلًا بالكفر أو قال: يا عدو الله وليس كذلك، فإنَّه يرجع عليه، والذي قال هذا رسول الله ﷺ؛ فمعنى يرجع عليه أنَّه سيكفر هذا الرجل، يكفر؛ لأنَّه قال: ((إلَّا حار عليه(١)))؛ ولم يقل: إلَّا أوشك أن يحور عليه؛ قال: ((إلَّا حار عليه)): يعني أنَّك ستكفر اليوم أو غدًا إلَّا أن يمنَّ الله عليك بالتوبة؛ كلُّ هذا من أجل حماية أديان الناس؛ فإذا كان الشرع يحمي أعراض الناس بأن من قذف شخصًا وجب عليه الحدُّ ثمانين جلدةً، فأديان الناس حماها

١- (قلت): متفق عليه. وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣١).

أيضًا؛ بأنَّك إذا كفَّرت شخصًا أو قلت: يا عدو الله رجع عليك؛ حتى لو قلت: يا عدو الله فيما يفسقه رجع عليك وبليت بالفسق والعياذ بالله، فالمهم إنَّه يجب أن لا نتسرَّع في هذه الأمور وأن نعلم أنَّ الأمر عظيم لا يتصوَّر الإنسان عظمه؛ لكن الحمد لله يسع ما دلَّ عليه شرع الله عز وجل؛ من كفَّره الله ورسوله فكفِّره؛ لكن تيقَّن؛ لابدَّ أن تتيقَّن أنَّ هذا الرجل بعينه محكوم عليه بالكفر؛ وإذا كنَّا لا نشهد للمؤمن بعينه بالجنة وإن كان داخلًا في عموم المؤمنين؛ فلا نشهد للرجل بالكفر وإن كان داخلًا في عموم الكافرين؛ يعني إذا جاء نص يقول: من فعل هذا فهو كافر؛ فلا نطبِّق هذا الحكم على كل من فعله بعينه؛ كما أنَّه جاءت النصوص بأن المؤمنين يدخلون الجنة هل نحكم بدخول الجنة على كل مؤمن بعينه؟ لا، ما نشهد بالجنة بعينه إلَّا من شهد له الرسول ﷺ؛ فكذلك أحكام الكفر كأحكام الإيمان تمامًا؛ واعلم أنَّك إذا حكمت عليه بالكفر فقد أبحت ماله، أبحت دمه وماله وحرمته الجنة وأوجبت له النار وأوجبت فسخ نكاح زوجاته منه وأن لا يرث أحدًا من أقاربه وأن لا يصلَّى عليه وأن لا يدفن مع المسلمين؛ ما هي أحكام الكفر ما هي هينة حتى تكون على ألسنة كل أحد.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {٣٣} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {٣٤}

قال أبو زهرة: بيَّن سبحانه وتعالى وحدة الإنسانية التي ما كان يسوغ معها خلاف إلَّا ممَّن ضلَّ سبيل الهداية، ووحدة النبوة والرسالة الإلهية، التي وحَّدت بها شريعته تعالى، وما كان يسوغ بعد هداية الله تعالى خلاف إلَّا إذا كان الضلال. ثم بيَّن سبحانه من يجتبيهم ومن يصطفي ويحبُّ من عباده، وكيف يحبُّونه هم ويخلِّصون لذاته العليَّة: بأن يسلموا وجوههم له سبحانه وتعالى، ويحرِّرون أولادهم لعبادة الله تعالى.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذا أربع قصص، كلُّها يصوِّر قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته في خلقه، ولا تخلو واحدة منها من خوارق العادات.

وأولى هذه القصص: قصة مريم البتول، وكيف كانت خالصة لله تعالى مذ حملت بها أمُّها، حتى ولدت، ولزمت المحراب، وكفَّلها زكريا، وكيف كانت مرزوقة مكفولة يأتيها رزقها رغدًا بغير حساب.

والقصة الثانية: قصة زكريا، وكون الله سبحانه وتعالى قد وهب له يحيى، مع أنَّه كان قد بلغ من الكبر عتيًّا، وامرأته عاقر، وبذلك خرقت العادة المعروفة، وهو أنَّ العاقر لَا تلد قط، وهذا قد أنجب وقد أصابته الشيخوخة، وامرأته عاقر لا تلد.

والقصة الثالثة: قصة ولادة السيد المسيح عليه السلام، وقد كان ذلك أعظم خرق للعادات، إذ ولد من غير أب، وفي ذلك تتسلسل القصص الثلاث في خوارق تبتدئ بالخارق القريب من المعروف ثمَّ بغير المعروف مطلقًا، ثمَّ بالخارق الغريب الذي لم يعرف قط لغير عيسى بعد أن انتشر بنو آدم في الأرض.

القصة الرابعة: قصة حياة عيسى، التي اشتملت على خوارق كثيرة كانت في ذاتها أغرب من ولادته؛ منها: إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله على يديه، وهكذا غيرها.

وقصص القرآن ليس المقصود منه مجرَّد السَّرد التاريخي، كما يسجِّل التاريخ وتدوّن قصصه، إنَّما قصص القرآن المقصود به أولًا: العظَّة والاعتبار، كما قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ...}.

ثانيًا: إثبات صدق الرسول ﷺ؛ وذلك لأن هذا القصص الحق يتّفق مع الصادق من كتب أهل الكتاب يجري على لسان أمي لَا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلِّم، ولم تعرف ملازمته لأحد من أهل الكتاب حتى يطلعه على ذلك، بل كان المنقطع في بلد أمي ليس به علم يدرس، ولا فلسفة تبحث.

ثالثًا: ثمَّ المقصود بيان وحدة الشرائع الإلهية السماوية؛ لأنَّها جميعها تنبعث عن مصدر واحد، وهو رب السماوات والأرض وما فيهما؛ فبيان قصص النبيين السابقين وما كانوا يلقون في الدعوة إلى التوحيد دليل على أن التوحيد هو الوحدة الجامعة – بين كل الشرائع، وهو الحدُّ الفاصل بين ما هو من السماء، وما هو من إفك أهل الأرض. وفي بيان قصص النبيِّين تسليةً للنبي ﷺ، وتسرية عن شدائده بالاستبصار فيما لقيه غيره من عنت.

وفى قصص النبيِّين وكفر أقوامهم مع الآيات الحسيَّة التي أتى بها النبيُّون بيان أنَّ الكفر ليس منشؤه نقصًا في البيِّنات، ولكنَّه ينشأ من الجحود وغلبة الهوى، والإعراض عن مناهج الاستدلال الصحيح. ولعلَّ أوضح مثل لذلك، الآيات التي أجراها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام، فما كانت وراءها آيات تقرع الحس، وتدلُّ على خوارق العادات كهذه الآيات، – ومع ذلك كفروا وما آمنوا، وما ازدادوا إلَّا طغيانًا وعتوًّا.

هذه تقدمة نقدِّم بها قصة أولئك الأبرار الأطهار، ونبتدئ بما ابتدأ به القرآن الكريم من قصة مريم البتول: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}.

قال ابن العثيمين: {إنَّ الله اصطفى آدم ونوحًا} هذه الجملة جملة مؤكَّدة ب{إن}، لأنَّ المقام يقتضي ذلك؛ إذ أنَّ المقصود بيان أنَّ الله تعالى يصطفي من الناس من شاء {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس}: يعني ومن الناس رسلًا؛ فيقول الله تعالى: {إنَّ الله اصطفى آدم}: وآدم هو أبو البشر خلقه الله تعالى خلقًا مستقلًّا وليس متطوّرًا من جنس آخر أو نوع آخر قبله كما يقوله أهل الإلحاد؛ ومن ادَّعى ذلك فقد كفر بالله؛ لأنَّ الله أخبر في كتابه في عدَّة مواضع أنَّ الله خلق آدم من تراب من صلصال كالفخار من طين؛ خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته؛ فمن زعم غير ذلك فهو كافر؛ مصدِّق لغير الله مكذِّب لله والعياذ بالله، مع العلم بأنَّه لن يأتي أحد بكلام عن آدم وابتداء خلقه وكيفية خلقه غير مستند في

ذلك إلى الوحي فإنَّ قوله غير مقبول؛ لأنَّه لم يشاهده، قال الله تعالى: {ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم}، وقال الله تعالى: {ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلَّا الله}، فمن ادَّعى علم شيءٍ ممَّا سبق فهو كاذب إلَّا ببرهان؛ وآدم كما نعلم بيننا وبينه أزمنة طويلة جدًّا؛ فلا يمكن أن نقبل قولًا فيه إلَّا عن طريق الوحي الصحيح.

وسمِّي آدم، قيل: لأدمته، يعني: لأنَّ لونه ليس الأبيض الباحق ولا الأسود الحالك لكنَّه بين ذلك؛ {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين}، فأمرهم أن يسجدوا له إكرامًا له؛ وآدم عليه الصلاة والسلام أوحي إليه كما في القرآن الكريم؛ ولاشك أنَّه أوحي إليه أيضًا من الناحية العقلية؛ وذلك لأنَّه لا يستقل بعبادة الله، أي: لا يمكن أن يعرف كيف يعبد الله إلَّا بوحيٍ من الله؛ وهو مخلوقٌ للعبادة، {وما خلقت الجن والإنس إلَّا ليعبدون}، فدلَّ السمع والعقل على أنَّه موحى إليه؛ ولكن ليس برسول لدلالة الكتاب والسنة؛ أمَّا في الكتاب ففي قوله: {إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبِّيين من بعده}، فجعل النبِّيين من بعد نوح؛ وقال تعالى: {ولقد أرسلنا نوحًا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب}، وفي الحديث الصحيح حديث الشفاعة الطويل أنَّ الناس سيأتون إلى نوح ويقولون له: ((أنت أوَّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[١]))، وعليه فآدم نبيٌّ أوحي إليه بشرع وتعبَّد لله به، وبقي الناس على هذا الشرع لأنَّهم قلَّة، ولم يحصل منهم اختلاف، فلمَّا اختلفوا، {فبعث الله النبِّيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}.

قال السعدي: أنَّه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: {ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلًا}.

واصطفى نوحًا فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاءه واجتباءه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجَّاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

قال ابن العثيمين: وقوله: {آدم ونوحًا} نوح ذكره الله عز وجل بعد ذكر آدم؛ لأنَّه الأب الثاني للبشرية؛ فإنّ نوحًا لمَّا كذَّبه قومه إلَّا القليل أهلكهم الله تعالى بالغرق، فجعل الله ذريته هم الباقين كما في سورة الصافات: {وجعلنا ذريته هم الباقين}، فصار الأب الثاني للبشرية؛ وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ولبث في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله وما آمن معه إلَّا قليل، ألف سنة وما آمن معه إلَّا قليل؛ ونحن إذا دعونا عشرة أنفار وتلكَّئوا قليلًا ثمَّ استجاب واحد من

١- (قلت): حديث الشفاعة متفق عليه، ولكن بهذا اللفظ صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢٦)، وصحيح ابن ماجه (٣٤٨١).

العشرة قلنا: ما قبلت دعوتنا واستحسرنا عن الدعوة إلى الله وأيَّسنا؛ وهذا رسول بقي ألف سنة إلَّا خمسين عامًا في قوم وما آمن معه إلَّا قليل، ومع ذلك قال الله تعالى في كتابه: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}.

{وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين}: آل ابراهيم لاشك أنَّه يدخل فيهم ابراهيم بالأَولى؛ لكن نصَّ على آله لكثرة الرسل فيهم، ولا سيَّما أنَّ فيهم أفضل الرسل محمدًّا ﷺ؛ فإنَّ محمدًا ﷺ من آل إبراهيم.

قال السعدي: واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصَّه الله بخُلَّته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان، ودعا إلى ربِّه ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهارًا، وجعله الله أسوة يقتدي به مَن بعدَه، وجعل في ذريَّته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنَّهم من ذريته، وقد خصَّهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرَّق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم.

قال ابن العثيمين: {وآل عمران}: اختلفوا في المراد بهم؛ فقيل: آل عمران أبي موسى؛ لأنَّ موسى أفضل أنبياء بني إسرائيل؛ وقيل: آل عمران أبي مريم {ومريم ابنت عمران} فذكر آل عمران لأنَ فيهم آخر الرسل قبل محمد ﷺ وهو عيسى بن مريم الذي ينتمي إليه النصارى؛ وخصَّ آل عمران بذلك لأنَّ المقام يقتضيه، ولأنَّ هذه السورة نزلت أوَّلها في وفد نجران وهم من النصارى؛ وسواء كان هذا أو ذلك فإنَّه يدلُّ على أنَّ الله اصطفى قبيلة ابراهيم فهو مصطفى من مصطفى؛ اصطفى آدم، هذا الاصطفاء الأول؛ ونوحًا، هذا الاصطفاء الثاني، وآل ابراهيم، هذا ثالث، وآل عمران، الرابع؛ فكان هؤلاء السادة من البشر هم الذين اصطفاهم؛ ومعنى الاصطفاء أنَّ الله اختارهم وفضَّلهم على كثير ممَّن خلق تفضيلًا كما قال تعالى: {ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلًا}، ليس على كل ما خلقنا، {على كثير ممَّن خلقنا تفضيلًا}.

الاصطفاء بمعنى الاختيار لأنَّ أصله مأخوذ من الصفوة، وصفوة الشيء خياره؛ {واصطفى}: أي أخذ صفوته.

وقوله: {على العالمين}: المراد بالعالمين من سوى الله؛ لقوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين} وسيأتي إن شاء الله في الفوائد ما ينبني على هذا الخلاف.

وقوله: {ذريةً بعضها من بعض} {ذرية} بالنصب بدل من {آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران}، ذرية يعني هؤلاء الأربعة أصناف ذرية بعضها من بعض؛ والذرية مأخوذة من ذرأ بمعنى خلق كقوله تعالى: {يذرأكم فيه}: أي يخلقكم؛ وقيل: من (وذر) بمعنى ترك؛ فعلى الأول تكون ذرية شاملة للأصول والفروع، لأنَّ الأصول مخلوقون والفروع كذلك مخلوقون؛ أمَّا إذا جعلناها من (وذر) بمعنى ترك فهي للفروع فقط وهذا هو المعروف عند عامة الناس؛ أنَّ الذرية هم الفروع يعني من نشئوا عن الإنسان وتركهم بعده؛ وفي القرآن ما يدلُّ على أنَّ الذرية تطلق على الأصول {وآية لهم أنَّا حملنا ذريَّتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله}، فإنَّ الذين حملوا في الفلك من الذرية هم الذين آمنوا مع نوح وهم سابقون.

قال أبو زهرة: الذريَّة هم الفروع من الأولاد وأولادهم مهما نزلوا وأصلها من مادة (ذرأ)، وقيل من (الذرو)، وقيل من (الذر)، وكلُّ هذه الألفاظ تنتهي إلى التَّكوين والتَّفريع فرعًا من بعد فرع؛ ومعنى النص الكريم أنَّ أولئك المصطفين الأخيار بعضهم ذريَّة من بعض، فهم متَّصلو النسب بسلسلة لَا تنقطع، فنوح من ذرية آدم، وآلُ إبراهيم من ذريَّة نوح، وآل عمران من ذريَّة آل إبراهيم، وهكذا، فهي سلسلة متَّصل بعضها ببعض في النسب والهداية. ويترتَّب على أنَّ بعضهم من بعض أن تتشابه صفاتهم في الخير والفضيلة ما داموا جميعًا مصطفين، وما داموا جميعًا من سلسلة ونسبة واحدة.

قال ابن العثيمين: وقوله: {بعضها من بعض} في جنس الخلقة؟ أو {بعضها من بعض} في العمل والآداب والأخلاق؟ الظاهر الشمول؛ لأنَّ الآدميين كلُّهم من جنس واحد؛ ليس في آدمي كان بالأول قرد كما يقوله إخوان القردة، ومن أقروا على أنفسهم بأنَّهم قردة؛ الآدمي أصله آدمي خلق الله أباه بيده ابتداءً؛ لكن هؤلاء أبَوا إلَّا أن يجعلوا أنفسهم من القرود؛ ف {بعضها من بعض} في الخلقة؛ من آدم إلى يومنا هذا لم تتغير الخلقة إلَّا في قوَّة الجسم وضخامة الجسم؛ لأنَّ آدم خلق طوله في السماء ستون ذراعًا وعرضه أيضًا على ما في أحاديث كثيرة سبعة أذرع؛ وهذا الخلق نقص حتى وصل إلى هذه الأمَّة وانتهى؛ لأنَّ هذه الأمَّة هي آخر الأمَّة؛ ولا يرد على ذلك أنَّه في بعض المناطق يكون الجنس البشري ضخمًا وفي بعض المناطق يكون دون ذلك؛ لأنَّ هذا من تغير المناخ والوراثة؛ لكنَّ الأصل أنَّنا نعتبر في آخر مرحلة لبني آدم لأنَّنا نحن آخر الأمم؛ كذلك {بعضها من بعض} في الآداب، والأخلاق، والديانات إلَّا من كان منهم ظالمًا خارجًا عن هذا الأصل؛ فإنَّه يكون خارجًا بما خرج به.

{بعضها من بعض والله سميع(١)عليم} ختمها بالسمع والعلم إشارة إلى أنَّ كلَّما يقوله هؤلاء المصطفون أو يفعلونه فإنَّه معلوم عند الله؛ فهو يسمع ما يقولون ويعلم ما يفعلون؛ بل ويعلم ما لا يفعلون ممَّا يكون في قلوبهم؛ بل ويعلم ما سيفعلونه وإن لم يكن في قلوبهم؛ لأنَّ الله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون.

قال السعدي: {والله سميع عليم(٢)}: يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودلَّ هذا على أنَّ هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلًا منه وكرمًا، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفِّقنا لما وفَّقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخُّرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضًا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلَّا أنَّ أذكارهم مخلَّدة ومناقبهم مؤبَّدة لكفى بذلك فضلًا.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآيتين: ١- بيان أنَّ الله اصطفى هؤلاء المخلوقات على بقيَّة المخلوقات.

٢- أنَّ لله أن يختار من خلقه ما شاء؛ كما قال تعالى: {وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عمَّا يشركون}.

٣- أنَّ التفاضل كما يكون في الأعمال يكون في الأعيان كما يكون في الأعمال وفي الأوصاف يكون كذلك في الأشخاص؛ ولهذا نقول: إنَّ جنس العرب أفضل من غيره من الأجناس؛ لكن هذا الجنس الفاضل إذا اجتمع معه التَّقوى صار له الفضل المطلق وإن تخلَّفت التَّقوى صار معدنه طيب وعمله خبيث فيزداد خبثًا لكون منشأه أو أصله طيِّبًا ثمَّ ارتدَّ بنفسه إلى الخبث؛ لأنَّ من كان منشأه طيِّبًا ثمَّ نزل بنفسه إلى مستوى الأدنى صار أكثر لومًا ممَّن لم يكن كذلك؛ ولذلك لو زنت الحرَّة لجلدت مائة جلدة إن كانت غير محصنة ورجمت إن كانت محصنة؛ ولو زنت الأَمَة لم ترجم ولو كانت متزوجة ولم تجلد مئة جلدة، تجلد خمسين جلدة؛ لأنَّ هناك فرقًا بين إنسان أصله كريم وشريف؛ وبين شخص كان في الأصل على خلاف ذلك؛ ويدلُّ لهذا - أي لأنَّ الناس يختلفون في أجناسهم - أنَّ الله قال في كتابه: {الله يعلم حيث يجعل رسالته} وقد جعلها الله تعالى في العرب في محمد ﷺ؛ فإذا كان محمد أطيب الخلق وأشرفه لزم أن يكون جنس العرب أطيب الأجناس وأفضلها وأشرفها وهو كذلك؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا([1]))). فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: {يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}؟ فالجواب: أن نقول إن الجواب عن هذه الآية الكريمة: أنَّ الله تعالى أراد أن يمحوا ما كان أهل الجاهلية يعتدون من الفخر بالأنساب حيث يقول أنا من قبيلة الفلانية أنا من قبيلة الفلانية؛ فبيَّن الله أنَّ هذه الشعوب والقبائل من أجل التعارف لا التفاخر؛ وأنَّ فخركم لا يقربكم إلى الله؛ الذي يقرِّبكم إلى الله هو التَّقوى {إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم}، وهذا لا ينافي أن يكون جنس العرب أفضل من غيرهم كما حقَّقه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (اقتضاء صراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) وأدلته ما سمعتم.

٤- ما ذكره بعض أهل العلم من أنَّ الصالحين من البشر أفضل من الملائكة، قال: لقوله: {العالمين} والملائكة عالم؛ فيكون المصطفون من هؤلاء أفضل من الملائكة؛ واستدلُّوا بأدلَّة أخرى كأمر الله للملائكة بالسجود لآدم وغير ذلك؛ وعندي أنَّ البحث في هذه المسألة من فضول العلم؛ لأنَّه أي فائدة لنا إذا قلنا إنَّ فلانًا أفضل من جبريل أو جبريل أفضل من فلان؟ أو إنَّ الصالحين من بني آدم أفضل من الملائكة أو الملائكة أفضل من الصالحين؛ نحن نعلم أن الملائكة مقرَّبون عند الله؛ {يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون} وأنَّهم كرام {وإنَّ عليكم لحافظين كرامًا كاتبين}، {كلَّا إنَّها تذكرة فمن شاء ذكره في

١- (قلت): متفق عليه. وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٢٦٧).

صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة}، أمَّا أنَّه أفضل من بني آدم، أو الصالحون من بني آدم أفضل منهم، فهذا شيء لم نكلَّف به؛ ولذلك ما جاءت السنة بالتمييز بين هؤلاء وهؤلاء، أو بالتفضيل؛ أعط لهؤلاء فضلهم ولهؤلاء فضلهم، ولو كان هذا من الأمور التي لابدَّ من اعتقادها ولا يتمُّ الإيمان إلَّا بها لكان الله ورسوله يبيِّنه؛ ولكن إذا ابتلينا بمن يقول بين أيُّهما أفضل؟ فنقول: العلماء في ذلك اختلفوا؛ وجمع شيخ الإسلام رحمه الله بين هذين القولين؛ فقال: إن الملائكة أفضل باعتبار البداية؛ وصالح البشر أفضل باعتبار النهاية؛ كيف هذا؟ قال: نعم لأنَّ النور أفضل من الطين والملائكة خلقوا من نور من مادة مشيعة مضيئة محبوبة بخلاف الطين؛ وأمَّا في النهاية فإنَّ الجنة تكون للصالحين من بني آدم ومن الجن على القول الراجح؛ وقد ذكر الله عز وجل أن الملائكة يدخلون على أهل الجنة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم، يهنئونهم ويبشرونهم؛ ومع ذلك فإنِّي أرى أنَّ الإمساك عن هذا أَولى؛ وأن نعرف فضل الملائكة ونعرف فضل الرسل الذين اصطفاهم الله من بني آدم؛ وأمَّا أيهما أفضل، فهذا أمر لم نكلَّف به.

٥- بيان أنَّ البشر جنس واحد بعضهم من بعض؛ لقوله: {ذريتا بعضها من بعض}.

٦- الرَّد على من قال: إنَّ الإنسان متطور من جنس لآخر، من قردة للآدميين للبشر؛ وجدير بأن نسمِّي هذا القائل قردًا؛ لأنَّه رضيَ لنفسه أن يكون أصله قردًا؛ أمَّا نحن فنقول: إنَّ أصلنا آدم عليه الصلاة والسلام الذي خلقه الله بيده من تراب، وأنَّه جنس مستقل بنفسه لا متطوِّر.

٧- إثبات اسمين من أسماء الله وهما: السميع والعليم؛ فالسميع يتعلَّق بالأصوات؛ والعليم يتعلَّق بكلِّ شيء، بالأصوات، والأحوال، والأعيان، بكلِّ شيء؛ وقد مرَّ علينا أنَّ أسماء الله سبحانه وتعالى يتضمَّن الإيمان بها ثلاثة أشياء إن كانت متعدِّية، وشيئين إن كانت لازمة؛ إن كانت متعدِّية يتضمَّن الإيمان بها ثلاثة أشياء؛ أولًا إثباتها اسمًا من أسماء الله، يعني أن تثبت أنَّها اسم من أسماء الله، لا تنكرها؛ الثاني؛ إثبات ما تضمَّنته من صفة، أو استلزمته، التضمُّن جزء ممَّا دلَّ عليه الاسم بلفظه؛ فمثلًا اسم الخالق يتضمَّن الدلالة على ذات الله عز وجل، والدلالة على صفة الخلق هذا تضمُّن، ويتضمَّن العلم والقدرة على وجه الالتزام؛ لأنَّه لا خلق إلَّا بعلم وقدرة؛ والثالث: إثبات الحكم الناتج عن هذه الصفة؛ فالمهم أنَّه لا يتمُّ لك الإيمان به إلَّا بإثبات هذه الأشياء الثلاثة؛ أولًا إثبات أنَّه اسم من أسماء الله؛ والثاني: إثبات ما تضمَّنه أو استلزمه من صفة؛ والثالث: الحكم المترتِّب؛ فمثلًا اسم (الخالق)؛ والصفة المتضمِّنة (الخلق)؛ والمستلزمة (العلم والقدرة)؛ والأثر أو الحكم (أنه يخلق) ؛ فهو خالق بخلق؛ الرحمان اسم؛ تضمُّنه للرحمة صفة؛ يرحم حكم أو أثر؛ أمَّا إذا كان لازمًا فإنَّه لا يتمُّ الإيمان به إلَّا بإثبات اسم من أسماء الله، وإثبات ما تضمَّنه من الصفة؛ فالحي مثلًا لا يتعدَّى لغير الله نثبته اسمًا من أسماء الله، ونثبت ما تضمَّنه من الصفة وهي الحياة؛ هذه هي القاعدة في إثبات أسماء الله وصفاته؛ إذا طبقنا هذه القاعدة على الإسمين الموجودين معنا؛ فالسميع يتضمَّن الإيمان به على أنَّه اسم من أسماء الله؛ والإيمان بالصفة التي تدلُ عليها وهي السمع؛ والأثر أو الحكم أنَّه يسمع؛ وكذلك نقول في العليم.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٣٥} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {٣٦} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {٣٧}

قال ابن العثيمين: {إذ قالت امرأة عمران}: يعني اذكر إذ قالت؛ وهذا التركيب موجود في القرآن كثيرًا، وإنَّما حذف العامل لدلالة السياق عليه؛ وتلك قاعدة مشهورة عند النحويين أشار إليها ابن مالك فقال:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيد بعد من عندكما

فهنا العامل المحذوف معلوم بالسياق؛ اذكر إذ قالت، يعني: اذكر هذه الحال التي صدَّر فيها هذا القول من امرأة عمران {إذ قالت امرأة عمران} هي أم مريم، يعني جدَّة عيسى بن مريم؛ {إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا فتقبَّل منِّي} {رب} منادى حذفت منه ياء النداء وأصله يا رب؛ ولكن تحذف ياء النداء في مثل هذا التركيب اختصارًا لكثرة استعماله؛ وحذف منه ضمير المتكلِّم الياء وأصلها: (ربي إني)، حذفت تخفيفًا؛ وقولها: {رب إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا} {نذرت}: بمعنى التزمت أن يكون ما في بطني محرَّرًا من خدمته وتقيده بها ليكون خادمًا للمسجد الأقصى؛ وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك، أي: أنَّ الإنسان منهم ينذر ولده ليكون قائمًا بخدمة المسجد الأقصى تعظيمًا له؛ فتقول: {رب إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا}.

قال الطبري: عن قتادة قوله: {إذ قالت امرأة عمران رَبِّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا}، الآية، كانت امرأة عمران حَرَّرَتْ لله ما في بطنها، وكانوا إنَّما يحرِّرُون الذكور، وكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل في الكنيسة لا يبرَحها، يقوم عليها ويكنُسها.

قال ابن العثيمين: وقولها: {ما في بطني} اسم موصول يفيد العموم؛ فيشمل ما لو وضعت واحدًا أو اثنين، وذكرًا أو أنثى. فإذا قال قائل: كيف تقول إنَّه يشمل ما لو وضعت اثنين وهي تقول: {إنِّي نذرت لك ما في بطني محرَّرًا} ومحرَّرًا واحد؟ ولم تقل: محررين؟ فالجواب: أنَّ الأسماء الموصولة المشتركة أي التي تصلح للمفرد وغيره يجوز فيها مراعاة لفظها بالإفراد، ومراعاة لفظها بالإفراد إن كان مرادًا بها مفرد والتثنية إن كان مرادًا بها المثنى، والجمع إن كان المراد بها الجمع مذكَّرًا كان أو مؤنَّثًا؛ وعليه فلا يمنع أن يكون قولها: {محررًا} أن يكون شاملًا لما تضعه ولو كان أكثر من واحد؛ لأنَّه أفرد باعتبار اللفظ؛ تقول: {إني نذرت لك ما في بطني} عام يشمل كلَّ ما في بطنها من ذكور أو إناث، واحد أو متعدِّد؛ {محرَّرًا} من قيد

خدمتي إلى خدمة المسجد الأقصى؛ {فتقبَّل منِّي} يعني تقبَّل منِّي هذا التقرُّب إليك بنذر هذا الحمل الذي نذرته ليقوم بخدمة بيتك؛ {إنَّك أنت السميع العليم} هذه الجملة استئنافية للتعليل يعني أنِّي سألتك أن تتقبَّل منِّي لأنَّك السميع العليم؛ {السميع(١)} تشمل هنا سمع الإدراك وسمع الإجابة؛ يعني أنَّك تسمع دعائي وتستجيبه؛ وقد مرَّ علينا أنَّ السميع من أسماء الله يتضمَّن سمع الإدراك وسمع الإجابة؛ وأنَّ السميع تأتي بمعنى استجابة كما في قول المصلِّي: {سمع الله لمن حمده}: أي استجاب؛ فهنا {السميع العليم} يشمل الأمرين؛ لكن فائدة الدَّاعي بالاستجابة؛ وقولها: {إنَّك أنت السميع العليم}: يعني السامع لدعائي المستجيب له؛ {العليم(٢)} بما يكون صالحًا، وبكلِّ شيء؛ لكن ذكر العلم هنا لأنَّ الإنسان قد يسأل الشيء وليس من صالحه حصوله فيسند الأمر إلى علم الله عز وجل؛ ومن المعلوم أنَّ الدَّاعي إذا دَعى فإنَّه يحصل له واحد من أمور ثلاثة؛ إمَّا أن يستجيب الله له الدعاء؛ وإمَّا أن يدخَّر له ذلك يوم القيمة، فيعطيه مثل ما دعا به؛ وإمَّا أن يصرف عنه من السوء ما أعظم؛ هذا بالإضافة إلى أنَّ الدعاء نفسه عبادة يثاب عليه الإنسان.

{فلمَّا وضعتها}: فلمَّا وضعتها وكان قد نذرته محرَّرًا بناءً على أنَّه ذكر؛ اعتذرت إلى ربها {قالت رب إنِّي وضعتها أنثى}، وهذا اعتذار منها إلى الله أنَّها وضعتها أنثى والأنثى ليس من العادة أن تخدم المسجد فكأنها تعتذر من الله عز وجل من هذا النذر.

قال محمد رشيد رضا: قَالُوا: إنَّ هَذَا خَبَرٌ لَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِخْبَارُ، بَلِ التَّحَسُّرُ وَالتَّحَزُّنُ وَالِاعْتِذَارُ. فَهُوَ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ وَذَلِكَ أَنَّهَا نَذَرَتْ تَحْرِيرَ مَا فِي بَطْنِهَا لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ وَالِانْقِطَاعِ لِعِبَادَتِهِ فِيهِ، وَالْأُنْثَى لَا تَصْلُحُ لِذَلِكَ عَادَةً لَا سِيَّمَا فِي أَيَّامِ الْحَيْضِ.

قال ابن العثيمين: قال: {والله أعلم بما وَضَعَتْ} وفي قراءة: {والله أعلم بما وَضَعْتُ} قراءة سبعية؛ ونفسِّرها على الوجهين؛ أمَّا قولها: {ربِّ إنِّي وضعتها أنثى} فقد علمتم أنَّ الغرض من هذه الجملة الاعتذار، لا إخبار الله بما وضعت لأنَّه عالم عز وجل؛ هو الذي خلقها وهو الذي وضعت بإذنه وأمره؛ فالأمر لا يخفى عليه؛ لكن ذكرتها اعتذارًا؛ وعلى هذا فنقول على قراءة: {والله أعلم بما وضعتُ} تكون الجملة من باب الاحتراس، حتى لا يظنَّ بها أنَّها تعتقد أنَّ الله لم يعلم فقالت: {رب إنِّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت} فلستُ أُخبِرُ الله بأمر يخفى عنه؛ بل أنَّني أؤمن بأنَّه عالم بما وضعتُ، هذا على قراءة ضم التاء؛ أمَّا على قراءة السكون {والله أعلم بما وضعتْ} فالكلام من الله؛ وفيه دفاع عن هذه المرأة بأنَّ الله تعالى يعلم أنَّها لم تقل: {إنِّي وضعتها أنثى} إخبارًا منها لله؛ لأنَّه سبحانه وتعالى زكَّاها بقوله: {والله أعلم بما وضعت} هذا من وجه؛ من وجه آخر ليبيِّن عز وجل أنَّ قولها: {ربِّ إنِّي وضعتها أنثى} لا يعني أنَّ الله لا يعلم بما وضعت بل هو عالم وإن قالت: {رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعتْ}.

قال الطبري: وأَولى القراءتين بالصواب ما نقلته الحجة مستفيضة فيها قراءته بينها، لا يتدافعون صحتها. وذلك قراءة من قرأ {والله أعلم بما وضَعَتْ}، ولا يعترض بالشاذِّ عنها عليها.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

فتأويل الكلام إذًا: والله أعلم من كل خلقه بما وضعتْ، ثمَّ رجع جلَّ ذكره إلى الخبر عن قولها، وأنَّها قالت – اعتذارًا إلى ربِّها ممَّا كانت نذرتْ في حملها فحرَّرته لخدمة ربها –: {وليس الذَّكر كالأنثى}.

قال ابن العثيمين: و{أعلم}: اسم تفضيل يدلُّ على أنَّ المفضَّل زائد على المفضَّل عليه في هذا الوصف؛ كما لو قلت: فلان أكرم من فلان، معناه أنَّ هذا المفضَّل وهو فلان زائد في الكرم على المفضَّل عليه؛ ف{أعلم} هنا يعني: أعلم من كلِّ أحد بما وضعتْ؛ ففيه إثبات العلم لله عز وجل مع الزيادة؛ وبهذا التقرير نعلم ضعف قول من قال: إنَّ اسم التفضيل هنا بمعنى اسم الفاعل، وأنَّ معنى قوله: {والله أعلم بما وضعتْ}: أي والله عالم بما وضعتْ؛ فإنَّ هذا القول لاشك قصور في تفسير كلام الله؛ لأنَّ إثبات العلم بلا تفضيل أنقص من إثبات العلم مع التفضيل، لأنَّك إذا قلت: فلان عالم لا يمنع أن يكون غيره مساويًا له في العلم؛ لكن إذا قلت: فلان أعلم من فلان صار فاضلًا غيره بالعلم، وغيره مفضول؛ سبحان الله، لا أعلم كيف يفرُّ بعض العلماء من إثبات المفاضلة بين الله سبحانه وتعالى وبين خلقه، مع أن المفاضلة لا تدلُّ على أيِّ نقص؛ بل اللفظ الذي يقتضي المشاركة هو الذي قد يحتمل النقص والمماثلة؛ لكن اللفظ الدالُّ على المفاضلة ليس فيه نقص بوجه من الوجوه؛ فالله أعلم من كل أحد سواء كان هذا العلم مقيَّدًا أو مطلقًا.

{وليس الذَّكر كالأنثى}: في هذه الجملة بيان أن الذكر لا يماثل الأنثى وكأن الإنسان يحدث نفسه ويقول: إن مقتضى الحال أن تكون العبارة: وليس الأنثى كالذكر؛ لأنَّ العادة أن الأدنى هو الذي يشبه بالأعلى؛ فهنا: ليس الأنثى كالذكر، أقرب إلى بادئ الرأي من: {وليس الذكر كالأنثى} ولهذا ادَّعى بعض العلماء أنَّ في التشبيه قلبًا، والتشبيه المقلوب أسلوب من أساليب اللغة العربية، ولاسيَّما عند الشعراء في العصور الوسطى حتى إن بعضهنَّ يبالغ في التشبيه المقلوب حتى يقول:

وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

الصباح الذي يملأ الأفق ويضيء الدنيا كأنَّ غرته، بياضه وجه الخليفة إذا امتدح؛ هذه من المبالغة الكريهة في الواقع؛ المهم أنَّ بعضهم قال: إنَّه على تشبيه المقلوب؛ وبعضهم قال: إنَّه تشبيه على أصله ووضعه؛ {فليس الذكر كالأنثى}؛ وشرف الذكر على الأنثى يعرف من أدلَّة أخرى ومن قرائن أخرى؛ ولكن ليس الذكر في خدمته لبيت المقدس كالأنثى؛ يعني ليس مساويًا للأنثى، وإذا انتفت مساواة الذكر للأنثى انتفت مساواة الأنثى للذكر؛ لأنَّ التساوي يكون بين الشيئين؛ فإذا انتفت المساواة في أحدهما لزم أن تكون منتفية في الآخر؛ فلا سواء بين الذكر والأنثى؛ بل لكلِّ واحد منهما ميِّزاته وخصائصه؛ الأنثى تفوق الرجل في شيء والرجل يفوق الأنثى في شيء؛ لكن الغالب أنَّ الصالح لخدمة المساجد هو الرجل لأنَّه أقوى وأذكى وأعقل وأدون في العمل؛ الأنثى إذا حاضت مثلًا ما تستطيع أن تخدم المسجد لأنَّها تخرج منه لا تجلس؛ هذا إن كانت شريعتهم كشريعتنا؛ وأيضًا الأنثى لا تتحمَّل من الأعمال ما هو شاق؛ بل هي أضعف من الرجل وإن كان قد يكون عندها من الجلد والصبر أكثر ممَّا عند الرجل في معاناة الأشخاص لا في معاناة المصائب؛ فإنَّ المرأة في معاناة المصائب أدنى بكثير من الرجل كما هو معروف.

قال الطبري: {وليس الذكر كالأنثى}، لأنَّ الذَّكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأنَّ الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدْس والقيام بخدمة الكنيسة، لما يعتريها من الحيض والنفاس.

عن الربيع قال: كانت امرأة عمران حرَّرت لله ما في بطنها، وكانت على رَجاء أن يهبَ لها غلامًا، لأنَّ المرأة لا تستطيع ذلك – يعني القيامَ على الكنيسة لا تَبرحها، وتكنُسها – لما يصيبها من الأذى.

عن عكرمة: {فلمَّا وضعتها قالت رَبِّ إنِّي وضعتها أنثى} – {وليس الذكر كالأنثى}: يعني في المحيض، ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال – أمُّها تقول ذلك.

قال البغوي: {وإنِّي سمَّيتها مريم}: وهي بِلُغَتِهِمُ الْعَابِدَةُ وَالْخَادِمَةُ، وَكَانَتْ مَرْيَمُ من أَجْمَلَ النِّسَاءِ فِي وَقْتِهَا وَأَفْضَلَهُنَّ.

قال ابن العثيمين: {وإنِّي أعيذها بك}: أعيذ أي أستجير بك لها؛ لأنَّ الاستعاذة معناها الاستجارة من أمر مكروه؛ ولهذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ونستعيذ بالله من عذاب جهنم وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال؛ قالوا أي أهل اللغة: العياذ من المكروه واللياذ في رجاء المحبوب، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمِّله ... ومن أعوذ به ممَّا أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

هو يخاطب ملكًا من الملوك وهذا الوصف لا يليق إلَّا بالله عز وجل؛ لكن الشعراء يتَّبعهم الغاوون؛ إذًا: {أعيذها بك وذريَّتها من الشيطان الرجيم}: يعني أستجير بك لها من الشيطان الرجيم؛ والشيطان هو أبو الجن كما قال الله تعالى: {أفتتَّخذونه وذريَّته أولياء من دوني وهم لكم عدو}، وهنا نقول: (شيطان)، من (شطن)، أو من (شاط)، قولان؛ فمنهم من قال: إنَّه من (شطن): أي (بَعُدَ)؛ ومنهم من قال: من (شاط): أي (غضب)؛ بأنَّ طبيعة الشيطان الغضب والسرعة وعدم التأنِّي، وهو أيضًا قد بعد من رحمة الله؛ ولكن الظاهر أنَّه من (شطن) وأنَّ النون أصلية ولذلك لا يمنع من الصرف؛ وقوله: {الشيطان الرجيم} {الرجيم}: بمعنى المرجوم، وأصل الرجم القذف بالحجارة؛ ومنه رجم الزاني؛ وعلى هذا فيكون في الكلام استعارة، أي: أنَّنا استعرنا الرجم بالحجارة الدَّالُّ على إبعاد المرجوم للمبعد المطرود؛ فالرجيم هنا فعيل بمعنى مفعول، أي: مطرود مبعد عن رحمة الله عز وجل؛ ومن العلماء من قال: إنَّ الرجم يأتي بمعنى الطرد حقيقة لا استعارة؛ وعلى كل حال فإذا اتَّضح المعنى فسواء كان الرجم استعارة أو كان أصليًّا حقيقة؛ {من الشيطان الرجيم} وإنَّما استعاذت لها من الشيطان الرجيم لأنَّ الشيطان الرجيم مبعد عن رحمة الله؛ والمبعد عن الرحمة يريد أن يبعد كلُّ إنسان عن الرحمة لاسيَّما بنو آدم؛ لأنَّ بني آدم أعداء للشيطان؛ قال الله تعالى: {إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتَّخذوه عدوًّا إنَّما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير}، فهو عدو، والعدو لا يريد من عدوِّه إلَّا ما فيه هلاكه؛ ولهذا استعاذت بربِّها عز وجل لهذه الأنثى من الشيطان الرجيم لئلَّا يغويها ويذلَّها؛ قال الله تعالى: {ويريد الشيطان أن يضلَّهم ضلالًا بعيدًا}؛ يقول: {وإنِّي أعيذها بك وذريَّتها من الشيطان الرجيم}، لم يكن لها

ذريةً إلَّا واحدة؛ عيسى بن مريم؛ وهل لعيسى ذرية؟ الله أعلم قد يكون له ذرية وقد لا يكون؛ لكن مهما كان هي قالت: {وذريَّتها} بناء على الأصل والغالب أنَّ الأنثى تتزوج ويكون لها ذرية؛ ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أرادبهذه المرأة شيئًا آخر.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَا من بني آدم من مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ الصَّبِيُّ صَارِخًا مِنَ مسّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا([١]))، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ}.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَنَا شُعَيْبٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ بِأُصْبُعِهِ حِينَ يُولَدُ غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يطعن فطعن في الحجاب([٢]))).

قال ابن العثيمين: {فتقبَّلها ربُّها بقبول حسن} {تقبَّل}: قال أهل اللغة بمعنى قبل؛ ولهذا قال: {قبول}، ولم يقل: (تقبّل)؛ {فتقبّلها بقبول} ولم يقل: (بتقبل)؛ والمصدر الموافق ل{تقبُّلها}: (تقبل)؛ أمَّا (قبول): فهو في هذا الموضع اسم مصدر وليس بمصدر كقوله: {والله أنبتكم من الأرض نباتًا}، ولم يقل: إنباتًا؛ لكن هل {تقبَّل}، و(قبل) بمعنى واحد؟ أو أنَّ في {تقبَّل} شدَّة العناية والمبالغة؟ قولان، قول: إنَّ {تقبَّل}: بمعنى (قبل)، ك(تعجَّب): بمعنى (عجب)، و(تبرأ): بمعنى (برئ)؛ تقول: (تبرأ من فلان): بمعنى (برئ منه)؛ والقول الثاني: أنَّ {تقبَّل} أبلغ من (قبل)، وعلَّلوا ذلك بعلَّة الغالبيَّة، وهي أنَّ الغالب أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى؛ يعني إذا جعلت البيت طابقين صار الطابق الواحد يفسح لمائة نفر مثلًا؛ والطابقين مائتين؛ لكن هم لا يريدون هذا، يريدون أنَّ زيادة بِنْيَةَ الكلمة تدلُّ على زيادة معناها؛ وهذا كما مرَّ علينا كثيرًا ليس مطَّرِدًا بل هذا هو الغالب وقد يكون الأمر بالعكس؛ كنمل ونملة وشجر وشجرة وبقر وبقرة؛ أيهنَّ أكثر؟ النَّاقص أكثر.

{تقبَّلها ربُّها} {رب([١])}: بمعنى الخالق المالك المدبِّر، هذا رب بالنسبة لله عز وجل، إذا أضيفت الربوبية إلى الله عز وجل فهذا معناه، أنَّه الخالق فلا خالق غيره، المالك فلا مالك غيره، المدبِّر فلا مدبِّر غيره؛ وهذا النفي باعتبار الإطلاق؛ فلا خالق

١- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أبو اليمان هو الحكم بن نافع البهراني، وشعيب هو ابن دينار، والزهري هو محمد بن مسلم بن شهاب.
- وهو في شرح السنة (٤١٠٤) بهذا الإسناد.
- أخرجه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (٣٤٣١) عن أبو اليمان بهذا الإسناد.
- وأخرجه مسلم ٢٣٦٦ والطبري ٦٨٨٧ من طريق الزهري به.
- وأخرجه البخاري ٤٥٤٨ ومسلم ٢٣٦٦ وأحمد ٢/ ٢٣٣ و٢٧٤- ٢٧٥ والطبري ٦٨٩١ وابن حبان ٦٢٣٥. الواحدي ١/ ٤٣١.
٢- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أبو اليمان هو الحكم بن نافع، شعيب هو ابن دينار، أبو الزناد هو عبد الله بن ذكوان، الأعرج هو عبد الرحمن بن هرمز.
- أخرجه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (٣٢٨٦) بهذا الإسناد. وأخرجه الحميدي ١٠٤٢ من طريق أبي الزناد به. وأخرجه مسلم ٢٣٦٦ ح ١٤٧ والطبري ٦٨٨٩ وابن حبان ٦٢٣٤ من طريق ابن وَهْبٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، عن أبي يونس مولى أبي هريرة، عن أبي هريرة. وأخرجه الطبري ٦٨٧٩ و٦٨٨٠ من طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُسَيْطٍ عَنْ أبي هريرة مرفوعا. وانظر ما تقدم.

على سبيل الإطلاق إلَّا الله؛ وإذا أضيف الخلق إلى غيره فإنَّما هو باعتبار التغيير والتصيير لا باعتبار الأصل؛ فخلق الباب من خشبة ليس أصليًّا؛ بل هو تغيير وتصيير صيَّر الخشبة بابًا فخلقه؛ لكن أصل هذه الخشبة من خلقها؟ الله عز وجل ولا يستطيع أحد من الخلق أن يخلق خشبة واحدة ولا غصن شجرة؛ والمالك على الإطلاق وإضافة الملك إلى الله إضافة جزئية وإلَّا فقد قال الله تعالى: {إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم} فأضاف الله الملك إلى الإنسان؛ وقال تعالى: {أو ما ملكتم مفاتحه}، فأضافه الله أيضًا إلى الإنسان؛ لكن هذا مقيَّد غاية التقييد؛ وكذلك المدبِّر؛ التدبير على الإطلاق هو لله عز وجل؛ أمَّا الإنسان فإنَّه وإن أضيف إلى التَّدبير فهو تدبير خاص محصور؛ على كل حال الرب المضاف إلى الله معناه الخالق المالك المدبِّر. وربوبية الله نوعان: عامة وخاصة؛ {ربِّ السموات والأرض وما فيهن} هذه عامَّة؛ خاصَّة {ربِّ موسى وهارون} وهنا {ربُّها} من الخاصة؛ واعلم أنَّ كل خاص من الربوبية والمعية والسمع والبصر وما أشبه ذلك، ممَّن قال من العلماء إنَّه ينقسم إلى عام وخاص، أنَّ الخاص يتضمَّن العام ولا عكس؛ فكلُّ من كان ربُّه على وجه الخصوص فهو ربُّه على وجه العموم، وكل من كان الله معه على وجه الخصوص فهو معه على وجه العموم، وكلُّ من سمع الله على وجه الخصوص فقد سمعه على وجه العموم وهلمَّ جرا؛ وهنا أضاف الربوبية إلى مريم لأنَّه عز وجل تقبَّلها هذا القبول الحسن {بقبول حسن} والقبول من الله حسن أنَّه سبحانه وتعالى يَسَّرها لليسر، وسهَّل أمرها، وجعلها من خيرة نساء العالمين، حتى ألحقها بالرجال في صلاحها فقال: {فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين}، وتأمَّل أنَّ الله قال: {من القانتين}، ولم يقل: من (القانتات)؛ لأنَّه كما جاء في الحديث كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلَّا عدد قليل لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة؛ إذًا إنَّ هذا القبول هو ما حصل لها من الرفعة عند الله عز وجل وتيسير الأمور والذكرى الحسنة وغير ذلك ممَّا أفاض الله عليها من نعمه.

{وأنبتها نباتًا حسنًا}: هذا قد يعود إلى المعنى وقد يعود إلى الحس؛ قد يعود إلى المعنى فيكون {أنبتها نباتًا حسنًا}: يعني في كمال الآداب والعفَّة والحشمة وغير ذلك؛ وقد يكون {أنبتها نباتًا حسنًا} باعتبار الجسم، يعني: أنَّه نماها تنمية جيِّدة لم يتعثَّر فيها جسمها حتى إن بعضهم ولعلها من الإسرائيليات قال: (إنَّها تنموا في العام ما ينموا غيرها في عامين) فالله أعلم، إنَّما يكفي من ذلك أنبتها نباتًا حسنًا، لو لم يكن من ذلك إلَّا أنَّه سلَّمها من الأمراض المؤلمة المتعبة لكان هذا كافيًا؛ المهم أنَّ الله سبحانه وتعالى تقبَّلها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا معنويًّا وحسِّيًّا.

قال ابن كثير: يخبر ربنا أنَّه تقبَّلها من أمِّها نذيرة، وأنَّه {وأنبتها نباتًا حسنًا}: أي جعلها شكلًا مليحًا ومنظرًا بهيجًا، ويسَّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلَّم منهم الخير والعلم والدِّين؛ ولهذا قال: {وكفَّلها زكريا}: أي جعله كافلًا لها.
قال ابن إسحاق: وما ذاك إلَّا أنَّها كانت يتيمة؛ وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب، فكفَّل زكريا مريم لذلك. ولا منافاة بين القولين. والله أعلم.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرب} مفصلًا عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

وإنَّما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علمًا جمًّا نافعًا وعملًا صالحًا؛ ولأنَّه كان زوج أختها، كما ورد في الصحيح: ((فإذا بيحيي وعيسى، وهما ابنا الخالة([١]))، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها. وقد ثبت في الصحيحين أنَّ النبي ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال: ((الخالة بمنزلة الأم([٢]))).

قال ابن العثيمين: {كلَّما دخل عليها زكريا المحراب} والمحراب مفعال من الحرب وهو مكان العبادة وليس المحراب هو طاق القبلة كما هو عند الناس؛ فيجعلون الإمام مريم وهم لا يشعرون؛ ويخطئون أيضًا في اللفظ؛ لأنَّ المحراب قلت: مكان العبادة سواء كان طاقًا وسواء كان مقوَّسًا أو مربعًا أو حجرًا، حتى الحجرة التي يتعبَّد فيها الإنسان محراب؛ ولهذا قال الله تعالى في قصة داود: {إذ تسوروا المحراب}، المحراب المكان الذي يتعبَّد فيه؛ قالوا: فهو مفعال من الحرب؛ وسمِّيَ الحرب لأنَّ المتعبِّد فيه يحارب الشيطان فلذلك سميِّ محرابًا.

{وجد عندها رزقًا} وهي امرأة منقطعة للعبادة دائمًا في محرابها ويجد عندها رزقًا، والرزق هنا ما يقوم به البدن، يعني: رزقًا تأكله ليقوم بدنها وتحفظ حياتها؛ هذا الرزق قال بعض المفسِّرين وهو من الإسرائيليات: يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، وليس بلازم؛ فلذلك نقول: كلمة رزق ما يقوم به البدن وليكن فاكهةً أو طعامًا أو تمرًا أو أي شيءٍ آخر؛ المهم أنَّه يجد عندها رزقًا تتقوَّت به وهذا من الآيات؛ كيف امرأة متعبِّدة منقطعة للعبادة يوجد عندها رزق.

{قال يا مريم أنَّى لك هذا}: أي من أين لك هذا؟ وخاطبها بقوله: {يا مريم} إشارة إلى أنَّها في حال لا تقتضي أن يكون عندها ذلك؛ لأنَّها امرأة لا تكتسب، امرأة منقطعة للعبادة، والمنقطعة للعبادة ولو كان ذَكَرًا قد لا يتيسَّر له الرزق؛ ولهذا ناداها بالاسم قال: {يا مريم}: يعني انتبهي أيَّتها الأنثى كيف يأتيك هذا الرزق؛ {أنَّى لك هذا}؛ فكان جوابها جوابًا عجيبًا: {قالت هو من عند الله}.

قال السعدي: {وجد عندها رزقًا}: أي من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا {أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله} فضلًا وإحسانًا، {إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب}: أي من غير حسبان من العبد ولا كسب، قال تعالى: {ومن يتَّق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب}.

قال ابن العثيمين: الرزق بمعنى العطاء، والعطاء ينقسم إلى قسمين: عطاء كوني؛ وعطاء شرعي؛ فالعطاء الكوني ما يرزق الله به سائر الحيوان؛ الإنسان والحيوان الحلال والحرام؛ هذا عطاء كوني؛ لا يختصُّ به المؤمنين ولا بالطيب من الرزق؛ والثاني: العطاء الشرعي وهو ما يعطاه المؤمن من الرزق الحلال، ويشمل أيضًا ما ثبت إعطاءه بمقتضى الشرع كإعطاء الفقراء من الزكاة مثلًا وإعطاء الغانمين من الغنيمة؛ فهذا إيتاء شرعي؛ دليله قوله تعالى: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه}،

١- صحيح: البخاري (٣٥٩٨).

٢- صحيح: البخاري (٢٥٠١).

الإيتاء هنا شرعي؛ وقوله تعالى: {ولو أنَّهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنَّا إلى الله راغبون إنَّما الصدقات للفقراء . . .}، هذا أيضًا إيتاء شرعي؛ إذًا الرزق إمَّا كوني وإمَّا شرعي؛ فما كان للانتفاع في الدنيا أو ما كان به قوام الجسد فهو كوني؛ وما كان به قوام الروح والقلب أو كان بإذن من الشرع فهو شرعي. العلم والإيمان هذا شرعي؛ لأنَّه به قوام الروح والقلب.

وقوله: {من يشاء}: هذه لاشك أنَّها عائدة إلى مشيئة الله، الرزق لا يكون إلَّا بمشيئة الله؛ ولكن أتحسبون أنَّ المشيئة مطلقة مجرَّدة؟ لا؛ بل هي مربوطة بالحكمة، يعطي لمن يشاء لحكمة، ويمنع عن من يشاء لحكمة؛ والدليل على أنَّ كلَّما أثبت الله به المشيئة فهو مقرون بالحكمة قوله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا}، فلا يشاء إلَّا ما اقتضت حكمته ومشيئته.

وقوله: {بغير حساب}: أي بغير مكافئة، يطعِم ولا يطعَم، يَرزق ولا يُرزق، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إنَّ الله هو الرزاق}، بخلاف غيره فإنَّه قد يعطي ليعطى، أمَّا الله عز وجل فإنَّه يعطي لا ليعطى؛ بل يرزق بغير حساب، أي: بلا مكافئة، لا يطلب من أحد مكافئة؛ وأمَّا الحساب على ما أعطاه الله من الرزق ممَّا اكتسبه وأين أنفقه وما أشبه ذلك فإنَّ هذا سوف يكون، قال الله تعالى: {ثم لتسألنَّ يومئذ عن النعيم}، فصار المراد بالحساب هنا يحاسبهم لينظر أو ليعلم عز وجل ماذا أنفقوا ممَّا أعطاهم.

قال السعدي: وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافًا لمن نفى ذلك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآيات: ١- تعظيم هذه القصة؛ لأنَّ الله أمر رسوله أن يبيِّنها للناس؛ إذ أنَّ التقدير: (أذكر إذ قالت امرأة عمران).

٢- جواز النذر في الأمر المهول؛ لقولها: {ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا}.

٣- أنَّ الولد يخدم والده من أم أو أب؛ لأن الله قال: نذرته محرَّرًا، يعني محرَّرًا عن الخدمة بحيث لا أستخدمه ولا أستغل حياته.

٤ – طرد الإعجاب بالنفس؛ وذلك بأنَّ الإنسان إذا عمل عملًا لا يدلِّل به على الله يقول: أنا عملت أنا عملت؛ بل يعمل ويشعر أنَّه مفتقر إلى الله عز وجل في قبول ذلك العمل؛ ولهذا قالت: {فتقبَّل مني}، وقال إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: {ربَّنا تقبل منَّا إنَّك أنت السميع العليم}. والإنسان إذا علم أنَّه مفتقر إلى الله عز وجل في العمل وفي قبول العمل زال عنه الإعجاب؛ وإذا زال عنه الإعجاب صار حَريًا بأن الله تعالى يقبل منه ويثيبه.

٥-إثبات اسمين من أسماء الله وهما: السميع والعليم؛ وقد سبق لنا الكلام على السميع وما يدلُّ عليه من الصفة وأنَّه يكون بمعنى القبول بمعنى استجابة الدعاء؛ وبمعنى إدراك المسموع؛ وأمَّا العليم فسبقت أيضًا؛ العليم هو إدراك الشيء على ما هو عليه؛ فمن لم يدرك فليس بعالم؛ ومن أدركه على خلاف ما هو عليه فليس بعالم؛ والأول جاهل بسيط والثاني جاهل مركَّب؛ والبسيط أحسن حالًا من المركَّب؛ لأنَّ المركَّب يجهل ويجهل أنَّه يجهل، فيبقى كأنَّه عالم وهو جاهل؛ لكنَّ البسيط يقول أنا ما أعرف جاهل.

٦- أنَّ الأم تتكلَّف الحمل كما يشعر به كلمة: {وضعتها} أنَّها حاملة لها وهو كذلك لاشك أنَّها تتكلَّف بالحمل؛ وإذا فرضنا أنَّ هذا الطفل الذي في بطنها سيبقى تسعة شهور وهي حاملة له في بطنها في أرق ما يكون في البدن قائمة وقاعدة ومستيقظة ونائمة؛ فماذا نتصوَّر من التَّعب؛ ولهذا قال الله تعالى: {حملته أمنه كرهًا ووضعته كرهًا} {حملته أمه وهنًا على وهن}؛ ثم مع ذلك هل هو مجمد هذا الطفل ببطن؟ لا، غير مجمد؛ يتحرَّك وهي تحسُّ به؛ ولو لا لطف الله بعباده ما استطاعت أن تحمل هذا ولكن الله عز وجل يعينها. فيتفرَّع على هذه الفائدة فائدة أخرى وهي: عظم حق الأم على ولدها؛ لأنَّ من أحسن إليك وأتعبته كان أحقَّ الناس ببرك؛ ولهذا جعلها النبي ﷺ أحقُّ الناس بحسن الصحبة.

٧ – اعتذار الإنسان عند ربه إذا وقع الأمر خلاف ما أراد؛ لقوله: {رب إنِّي وضعتها أنثى} فإنَّ هذا شبه اعتذار لقولها: {إنِّي نذرت لك ما في بطني محرَّرًا} والأنثى لا تخدم المساجد عندهم فلهذا اعتذرت.

٨- التوسل إلى الله تعالى بربوبيته؛ يؤخذ من {رب} {رب إنِّي وضعتها أنثى}.

٩- أنَّه من تمام البلاغة الاحتراز أو بالسين إن شئت الاحتراس عن كل موهم لأمر خطأ، الإنسان ينبغي أن يحترس عن كلِّ موهم لأمر خطأ سواء كان في المقال أو في الفعال؛ يؤخذ من قوله: {والله أعلم بما وضعت}؛ على القراءتين؛ على قراءة الضم {والله أعلم بما وضعتُ}؛ قلنا إن الإنسان يعتذر سواء وقع منه ما يكون في المقال أو في الفعال؛ في المقال كما رأيتم؛ في الفعال مثل: قول النبي ﷺ لما خرج بصفية رضي الله عنها حين جاءت إليه وهو معتكف وتحدَّثت معه فقامت وخرجت بالليل فخرج معها ﷺ وإذا برجلين من الأنصار يمران فأسرعا فقال لهما ﷺ: على رسلكما إنَّها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله، يعني ما عندنا إشكال في الموضوع حتى تعتذر؛ فقال: ((إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدَّم وإنِّي خفت أن يقذف في قلوبكما شرًّا أو قال شيئًا[١])) هذا صحيح لاشك أن أبعد الناس عن سوء الظنِّ هو الرسول الله ﷺ لاسيَّما من أصحابه لا يمكن أن يظنُّوا به سوء الظنِّ ومع ذلك خاف عليهم خاف أنَّ الشيطان يلقي في قلوبهما شرًّا أو شيئًا؛ وهذا ينبغي للإنسان أيضًا أن يدرأ الغيبة عن نفسه ما استطاع، لا يقول أنا ما أبالي بالناس، حسبنا الله ونعم الوكيل هذا طيب لكن افعل الأسباب التي تدرأ عنك الشر حتى لا يظنَّ الناس بك سوءًا.

١- (قلت): البخاري (٧١٧١)، ومسلم (٢١٧٤)، وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢١٣٣ -٢١٣٤)، وصحيح الجامع (١٦٥٨).

١٠– إثبات التفضيل في أوصاف الله؛ لقوله: {أعلم بما وضعت} خلافًا لمن منع ذلك؛ وفسَّر {أعلم} بـ(عالم)؛ لأنَّه في الواقع فرَّ من شيءٍ ووقع في شرٍّ منه؛ إذا قال: (عالم)؛ فإنَّه لم يمنع الاشتراك، لا يمنع الاشتراك لأنَّه عالم وغيره عالم؛ فإذا قال: {أعلم}، منع الاشتراك؛ لأنَّ اسم التفضيل يقتضي أن يكون المفضل في القمة لا يساويه أحد؛ إذًا {أعلم} أولى من (عالم)؛ بل نقول: إنَّ الله قال: {ولله المثل الأعلى} عني الوصف الأكمل {لله المثل الأعلى} هل تقول: لله المثل العلي؟ ما يستطيع {الأعلى}؛ هم يقولون: إذا قلت: {أعلم}؛ فإنَّ المقارنة بين الشيئين: العالي والنازل تجعل العالي نازلًا؛ لقول الشاعر: ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

على كلِّ حال الصواب بلا شك أنَّه يجوز التفضيل في أوصاف الله {أعلم بما وضعت}.

١١– إثبات كمال علم الله وأنَّه فوق كلِّ علم؛ لقوله: {أعلم}.

١٢– أنَّه لا يستوي الذكور والإناث {وليس الذكر كالأنثى} لا في الطبيعة ولا في الأخلاق ولا في المعاملة؛ بل ولا في الأحكام في بعض الأحيان؛ الذكر ليس كالأنثى؛ وإذا كان الذكر ليس كالأنثى فالأنثى أيضًا ليست كالذكر.

١٣–تسمية المولود حين يولد؛ لقوله: {وإنِّي سميتها مريم} وهذا هو السنة أن يسمَّى الإنسان حين يولد إلَّا إذا لم يتهيَّأ الاسم فإنَّه يسمَّى في اليوم السابع؛ وبهذا تجتمع الأدلة؛ فإنَّ النبي ﷺ لمَّا ولد إبراهيم قال: ((ولد لي الليلة غلام فسمَّيته بأبي إبراهيم([1]))، ففي حديث العقيقة قال: ((تذبح يوم السابع ويحلق ويسمَّى([2]))، فيكون الجمع بين هذا وهذا: أنَّ من كان مهيَّئًا للاسم من قبل الولادة فالأفضل أن يسمِّيه حال الولادة ومن لم يهيِّئ فالأفضل أن يؤجِّله إلى اليوم السابع.

١٤– أنَّ التسمية تعود للأم؛ لما قالت: {وإنِّي سميتها مريم}؟ فيه احتمال لكن أن يقال: إنَّ في هذا دليل على جواز تصرف الفضول، أي: أنَّ الإنسان يتصرَّف في حق غيره فينفذ إذا وقف عليه الغير. مثلًا رجل باع ساعة رجل بدون إذن فأجازه صاحب الساعة ووافق على البيع نقول هذا البيع صحيح؛ لأنَّه أجازه؛ فهنا يحتمل أنَّ الاتفاق كان جاريًا بين الأم والأب في التسمية؛ أو أنَّ الأم رأت أنَّ الأب لا يعارض فسمَّت وإلَّا فالأصل أن التسمية تكون للأب؛ لقول النبي ﷺ: ((ولد لي غلام فسمَّيته بأبي إبراهيم))، ولكنَّ الأفضل أن لا يتنازع الأبوان في تسمية الولد وأن يكون الاتفاق بينهما؛ أحيانًا تصرُّ الأم أن تسمِّي ولدها بفلان أو ابنتها بفلانة؛ وأحيانًا يصرُّ الأب على العكس بذلك؛ والذي ينبغي أن لا يكون هذا موضع نزاع بينهما وأن يتَّفقا على الاسم؛ فإذا اختلفا يرجع إلى أفضل الأسماء؛ لو قالت الأم: أنا أريد أن يسمَّى ابني على اسم جَدِّي واسم جدِّه ناصر؛ وقال الأب أنا أحب أن يسمَّى بعبد الله؛ فالحق للأب وأيضًا جانبه أرجح لأنَّ أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، ولكن عند النِّزاع وعدم المرجح من حيث التسمية لاشك أنَّ الحق للأب.

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧١٢١)، والصحيحة (٢٤٩٣).

٢– (قلت): صححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٤١٥٣). والحديث بتمامه: ((الْغُلَامُ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ)).

١٥ – مشروعية إعاذة الإنسان أبنائه بالله عز وجل من الشيطان الرجيم ومن شرِّ الخلق؛ لقولها: {وإنِّي أعيذها بك وذريَّتها من الشيطان الرجيم}.

١٦ – جواز الدُّعاء للمعدوم؛ يؤخذ من قوله: {ذريته} لأنَّ الذرية لم تأت بعد؛ فهي امرأة صغيرة طفلة؛ لكن يجوز أن يقال: أصلح الله وذريتك، غفر الله لك ولذريتك، وما أشبه ذلك. هل يقال: إن في هذه الآية كرامة لامرأة عمران؟ نعم؛ كيف؟ من قوله: {وذريَّتها} فإنَّها توقعت أن يكون لها ذريَّة؛ فصار لها ذريَّة وهو عيسى عليه الصلاة والسلام؛ وإذا فقد يقال: كيف تقول: {ذريَّتها}؟ هل هي على علم بأنَّ هذه الطفلة ستبقى وستكون لها أولاد؟ ليست على علم بلا شك؛ لكن كونها تقول هكذا جازمة بذلك فيأتي الأمر فيقع على حسب ما توقَّعت هذا نوع من الكرامة.

١٧ – أنَّ الشيطان عدوٌّ لبني آدم، حيث يطلب الإنسان من الله عز وجل أن يعيذه منه.

١٨ – بيان قدرة الله عز وجل على كلِّ شيء، ومن ذلك الإجارة من الشيطان؛ وإلَّا لكان الاستعاذة به من الشيطان عبثًا.

١٩ – أنَّ الله عز وجل سميع قريب مجيب؛ لأنَّها دعت فسمعها الله، ولأنَّها دعت فأجابها الله، وفي القرآن الكريم: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع أذا دعان}.

٢٠ – الرَّد على الملاحدة؛ لقوله: {فتقبَّلها ربها بقبول حسن} لأنَّها لمَّا دعت قال: {فتقبَّلها} والفاء هذه عاطفة تدلُّ على السببية وعرف التَّرتيب والفورية.

٢١ – أنَّ الله عز وجل منَّ على هذه الطفلة بشيئين: بالقبول الحسن؛ والنبات الحسن؛ فصار في ذلك تنمية لأخلاقها ولجسمها وبدنها.

٢٢ – أنَّ تطور الإنسان في حياته بأمر الله؛ لقوله: {أنبتها} وما الغذاء والعناية بالطفل إلَّا سببًا والله تعالى هو المسبِّب وهو المكوِّن للإنسان والمنتج له.

٢٣ – أنَّ الله عز وجل قد ييسِّر للإنسان من يكفله من أهل الخير فيكون ذلك من أسباب إعاذته من الشيطان الرجيم؛ لقوله: {وكفَّلها زكريا}.

٢٤ – إثبات الحضانة للطفل؛ الدليل؟ قوله: {وكفَّلها زكريا}. هل يؤخذ من ذلك أنَّ الكفالة تكون للأب دون الأم؟

الجواب: ليس بظاهر؛ لأنَّه قد يراد بالكفالة هنا كفالة التأديب والتربية وإيجاد النفقة دون القيام عليه بالحضن؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأم الطفل: ((أنت أحق به ما لم تنكحي(١))).

٢٥ – أنَّ هذه الطفلة صارت من العابدات القانتات؛ لقوله: {كلَّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا}.

٢٦ – أنَّ الله عز وجل قد ييسِّر للإنسان من الرزق ما لا يكون فيه حسبانه؛ لقوله: {قال يا مريم أنَّى لك هذا}.

٢٧ – أنَّ في كلِّ ضعف لطفًا؛ فهذه المرأة الضعيفة التي منَّ الله عليها بالاشتغال بالعبادة يهيِّئ الله لها من يأتيها بالرزق.

---

١ – (قلت): حسنه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢١٨٧)، وقال: وإنَّما هو حسن فقط للخلاف المعروف فى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

٢٨- أنَّ الأشياء تضاف إلى الله وإن كان لها سبب؛ لقوله: {هو من عند الله} وإضافة الأشياء إلى أسبابها ليست إلَّا مجرَّد إضافة مسبِّب إلى سببه لا إلى موجده، وإلَّا فإنَّ الموجد هو الله عز وجل.

٢٩- أنَّ الأنبياء لا يعلمون الغيب؛ لقوله: {يا مريم أنَّى لك هذا}.

٣٠- إثبات أنَّ الله عز وجل يرزق بغير مكافئة ولا انتظار لمكافئة؛ لقوله: {إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب}.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ {٣٨}

قال السعدي: فلمَّا رأى زكريا عليه السلام ما منَّ الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعيٍ منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلهذا قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}.

قال ابن العثيمين: {هنالك} هذه اسم إشارة إلى المكان؛ واللام يقولون إنَّها للبعد؛ والكاف حرف خطاب؛ يعني في ذلك الزمن. والإشارة هنا يحتمل أن تكون للزمن أي في ذلك الزمان؛ أو في المكان الذي هو محراب مريم؛ {هنالك}: أي في ذلك المكان وفي ذلك الزمان.

{دعا زكريا ربه} و{زكريا} فيها قراءتان: المد والقصر، {زكرياء ربه} هذا مد، {زكريا ربه} هذا القصر.

{قال رب هب لي من لدنك ذريَّة طيِّبة} {هب لي}: أعطني؛ والهبة هي التبرع بالشيء بلا عوض؛ لكن قال العلماء: إنَّه هناك هبة وهدية وصدقة؛ ثلاثة أشياء؛ فالصدقة ما أريد به ثواب الآخرة؛ والهدية ما أريد به التودُّد والتقرُّب بين المهدي والمهدى إليه؛ والهبة ما قصد به مجرَّد انتفاع الموهوب له؛ وهنا {قال رب هب لي}: أي أعطني عطاء بلا عوض.

قال شيخ الإسلام في مختصر الفتاوى المصرية ص١١٤: وَقد قَالَ زَكَرِيَّا: {هَب لي من لَدُنْك ذُرِّيَّة طيِّبَة}، وَلم تكن الذُّرِّيَّة مُخْتَصَّة بِهِ، وَلَا بالأنبياء، بل الله يخرج الْأَنْبِيَاء من الْكفَّار إِذا شَاءَ، وَلَكِن بمشيئته، وَالله أعلم أَنَّه إِذا قَالَ: (من عندك) وَ{من لَدُنْك} كَانَ مَطْلُوبًا بِغَيْر فعل العَبْد. فَإِنَّ مَا يُعْطِيهِ الله العَبْد على وَجْهَيْن: مِنْهُ مَا يكون بِسَبَب فعله، كالرزق الَّذِي يرزقه الله بِكَسْبِهِ، والسيئات الَّتِي يغفرها الله بِالْحَسَنَاتِ الماحية، وَالْولد الَّذِي يُعْطِيهِ الله بِالنِّكَاحِ الْمُعْتَاد، وَالْعلم الَّذِي يَنَالهُ بالتعلُّم، وَمِنْه مَا يُعْطِيهِ للْعَبد ولايحوجه إِلَى السَّبَب الَّذِي ينَال بِهِ فِي غَالب الْأُمُور، كَمَا أعْطى زَكَرِيَّا الْوَلَد مَعَ أَن امْرَأَته كَانَت عاقرًا وَقد بلغ هُوَ من الْكبر عتيًّا، فَهَذَا وهبه لَهُ الله من لَدنه، لَيْسَ بالأسباب الْمُعْتَادَة.

قال ابن العثيمين: {من لدنك ذريَّة طيِّبة}، {من لدنك}: من عندك؛ وأضافه إلى عندية الله عز وجل ليكون أبلغ وأعظم، لأنَّ هدية الكريم أكرم.

قال أبو زهرة: والتعبير بـ{لَدُنكَ} التي لَا تكاد تستعمل في القرآن إلَّا في جانب الله تعالى يفيد العندية العالية السامية، لَا العندية القريبة المقارنة، ولا العندية المقاربة.

ودعاء نبي الله أن يهب له ذريَّة طيبة، فلم يذكر الله سبحانه عنه في هذه الآية سوى أنه يطلب ذريَّة طيبة، وال{ذريَّة}: قد بيَّنَّا معناها من قبل. وال{طيِّبة}: هي الذريَّة الحسنة المرغوب فيها التي تكون ذات أثر طيِّب، لأن الطيِّب هو الأمر الحسن المحبوب المرغوب فيه الذي لَا ينتج إلَّا خيرًا، ويأتي بخير الثمرات وأحسن النتائج، ومن ذلك قوله تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ..}.

قال ابن العثيمين: وقوله: {ذريَّة}: بمعنى مذروئة، أي: مخلوقة؛ وقوله: {طيِّبة}: أي طيبة في أقوالها وأفعالها وأجسامها؛ فهو متناول لطيِّب حسِّي وطيِّب معنوي؛ {إنَّك سميع الدعاء}: أي مجيبه؛ والدعاء هو سؤال الإنسان ربه حاجته إمَّا بجلب منفعة وإمَّا بدفع مضرة.

قال أبو زهرة: وبعد أن ضرع هذه الضَّراعة بدأ رجاؤه في الإجابة بقوله: {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}: أي إنَّك تعلم بدعائي علم من يسمع، وإنَّ الأمر إليك إذ علمته وسمعته؛ فإن أجبتَ فبرحمتك، وإن لم تجب فبحكمتك، فأنت العليم الحكيم، والرحمن الرحيم. والصيغة تفيد قرب الرجاء وإمكان الإجابة. وفى هذه السورة لم يبيِّن سبحانه شكل الدعاء أكان جهرًا أم كان خفيًّا، وفى سورة مريم بيَّن حاله، وبيَّن نوع ما يطلب من الذريَّة، فقال سبحانه: {كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}، وفى هذا النَّص الكريم يتبيَّن أنَّه مع رجائه كان يذكر شيخوخته الفانية، وكون امرأته عاقرًا لَا تلد، ومع ذلك تغلب عليه جانب الرجاء، فدعا ذلك الدعاء، وضرع إلى الله تعالى تلك الضَّراعة، وقد أجاب الله تعالى دعاءه فور طلبه.

قال القرطبي: دلَّت هذه الآية على طلب الولد، وهي سنَّة المرسلين والصدِّيقين، قال الله تعالى : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً}[الرعد: ٣٨]. وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتَّل فنهاه رسول الله ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا(١). وخرج ابن ماجة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: ((النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس منِّي وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنَّه له وجاء(٢))). وفي هذا ردٌّ على بعض جهال المتصوفة حيث قال: (الذي يطلب الولد أحمق)، وما عرف أنَّه هو الغبي الأخرق؛

١- (قلت): البخاري (٥٠٧٤)، ومسلم (١٤٠٢).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٣٨٣)، وقال: قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٤٩٧) : أخرجه ابن ماجة (١٨٤٦) عن عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: فذكره. قلت: وإسناده ضعيف، رجاله ثقات، غير عيسى بن ميمون - وهو المدني مولى القاسم بن محمد - وهو ضعيف كما في (التقريب). قلت: لكن الحديث صحيح، فقد جاء مفرقًا في أحاديث.

قال الله تعالى مخبرًا عن إبراهيم الخليل: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ}[الشعراء: ٨٤]، وقال: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}[الفرقان: ٧٤]. وقد ترجم البخاري على هذا (باب طلب الولد). وقال ﷺ لأبي طلحة حين مات ابنه: ((أعرستم الليلة؟)) قال: نعم. قال: ((بارك الله لكما في غابر ليلتكما([1])). قال فحملت. في البخاري: قال سفيان فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن. وترجم أيضًا: (باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة)، وساق حديث أنس بن مالك قال: قالت أم سُليم: يا رسول الله، خادمك أنس أدع الله له. فقال: ((اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته([2]))). وقال ﷺ: ((اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين([3]))). خرجه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: ((تزوَّجوا الودود الولود فإنِّي مكاثر بكم الأمم([4]))). أخرجه أبو داود. والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعة في حياته وبعد موته. قال ﷺ: ((إذا مات أحدكم انقطع عمله إلَّا من ثلاث))، فذكر ((أو ولد صالح يدعو له([5]))). ولو لم يكن إلَّا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

فإذا ثبت هذا، فالواجب على الإنسان أن يتضرَّع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا: {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}[مريم: ٦]، وقال: {ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}. وقال: { هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}[الفرقان: ٧٤]. ودعا رسول الله ﷺ لأنس فقال: ((اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه([6]))). خرجه البخاري ومسلم، وحسبك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ جميع الخلق مفتقرون إلى الله حتى الأنبياء لا يستغنون عن دعاء الله؛ لقوله: **{دعا زكريا ربه}**.

٢- إثبات القياس؛ من أين؟ لأنَّه لمَّا رأى أنَّ الله يرزق هذه المرأة بدون سبب معلوم علم أنَّ الذي يسوق لها الرزق وهي امرأة منقطعة التَّكسُّب بمحرابها قادر على أن يرزقه ولدًا؛ فيكون انتقال من الشيء إلى نظيره؛ وهذا هو نفس القياس، إذًا هو استدلَّ أو أخذ من هذه القصة عبرة وهو أن يسأل الله أمرًا وإن كان مستبعدًا.

١- (قلت): البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

٢- (قلت): البخاري (٦٣٣٤)، ومسلم (٢٤٨٠).

٣- (قلت): مسلم (٩٢٠).

٤- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢٠٥٠) حسن صحيح.

٥- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٠)، وقال: رواه الجماعة إلَّا البخاري وابن ماجه.

٦- (قلت): مسلم (٦٦٠). ولم يروه البخاري بهذا اللفظ بل بلفظ: ((وبارك له فيما أعطيته)) بدلًا من ((وبارك له فيه)).

٣- أنَّ الصيغة التي يتوسَّل بها بالدعاء هي اسم الرب؛ لقوله: {ربه} ولم يقل: الله؛ ولهذا تجدون أكثر الأدعية مصدَّرة بالرب؛ لأنَّ إجابة الدَّاعي من مقتضى الربوبية، لأنَّها فعل، وكلُّ الأفعال من مقتضى الربوبية؛ فلهذا يتوسَّل الدَّاعي دائمًا إلى الله بالرب، قال النبي ﷺ: ((يمدُّ يديه إلى السماء يقول يا رب يا رب([1]))).

٤- أنَّ زكريا عليه الصلاة والسلام بلغ سنًّا بعيدًا دون أن يأتيه ولد؛ يؤخذ من قوله: {وقد بلغني الكبر}.

٥- ما يستفاد من قوله: {هب لي من لدنك} حيث أضاف الهبة إلى الله عز وجل وهبة الكريم تكون كبيرة؛ ونظير هذا قول الرسول ﷺ فيما علمه أبو بكر في الدعاء الذي يدعوا به في صلاته قال: ((فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني([2])))، وكما أشرنا إليه أن الشيء من الكريم يكون عظيمًا.

٦- أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يسأل مطلق الذرية؛ لأنَّ الذرية قد يكونون نكدًا وفتنة، وإنَّما يسأل الذرية الطيبة.

٧- ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي تكون بها ذريَّته طيبة ومنها دعاء الله وهو من أكبر الأسباب؛ ولاشك أنَّ صلاح الذريَّة أمر مطلوب؛ لأنَّ الذريَّة الصالحة تنفعك في الحياة والممات؛ لقول النبي ﷺ: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلَّا من ثلاث إلَّا من صدقة أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوا له)).

٨- التوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه المناسبة للحاجة؛ لقوله: {إنَّك سميع الدعاء} أي مجيبه؛ وهكذا ينبغي أن تكون الأسماء التي يتوسَّل بها الإنسان في دعائه مناسبة للمدعو به؛ الدَّاعي بالمغفرة يتوسَّل باسمه الغفور؛ وبالرزق باسم الرزاق وهكذا؛ ويدلُّ لهذا أيضًا قوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}؛ فإنَّ قوله: {فادعوه بها} يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ دعاء المسألة أن تجعلها وسيلة لدعائك، ودعاء العبادة أن تتعبَّد لله بمقتضاه.

٩- إثبات سمع الله وكرم الله وقدرة الله؛ إثبات الكرم لله لكونه عز وجل يجب من دعاه. فإن قال قائل: أحيانًا يدعوا المرء ولا يستجيب الله دعائه؟ وهنا زكريا عليه السلام يقول: {إنَّك سميع الدعاء}، وقال إبراهيم عليه السلام: {إن ربي لسميع الدعاء}، فما الجواب؟ الجواب أن يقال: إنَّ عدم إجابة الله الدعاء إمَّا أن تكون لوجود مانع، وإمَّا أن تكون لمصلحة الدَّاعي، أو لفوات شرط؛ فأمَّا إذا تمَّت الشروط وانتفت الموانع ولم تقتض المصلحة خلاف ما دعا به الدَّاعي فإنَّ الله تعالى يستجيب الدعاء قطعًا؛ لأنَّ الله تعالى يقول: {وقال ربكم ادعوني استجب لكم}؛ فإذا دعا الإنسان ربه وقلبه لا يقول: (اللهم إنِّي

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في غاية المرام (١٧)، ورواه مسلم في صحيحه (٦٥-١٠١٥)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟)).

٢- (قلت): البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٤٠٠). والحديث بتمامه: ((اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)).

أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل[١])؛ هذا غافل، لا يستجيب الدعاء من قلب غافل؛ كيف تسأل الله سبحانه وتعالى وهو يعلم ما في نفسك، وتناجيه يا رب أعطني كذا وقلبك مشغول بشيء آخر؟ هذا والله سوء أدب مع الله؛ هذا تتخلَّى إجابة الدعوة لعدم وجود الشرط، لم يحضر قلبه؛ وقد يكون ذلك لوجود مانع ومنها: أن يكون الإنسان آكلًا للحرام والعياذ بالله، فإنَّ أكل الحرام من أكبر موانع إجابة الدعاء؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: ((إنَّ الله طيب لا يقبل إلَّا طيِّبًا وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))، قال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا}، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقكم واشكروا لله}، ثمَّ ذكر نبي الله ﷺ ((الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بحرام فأنَّى يستجاب لذلك؟![٢])))، أعوذ بالله، استبعد أنَّ الله يجيب هذا الدَّاعي؛ فهنا تخلَّفت إجابة الدعاء لماذا؟ لوجود مانع. أربعة أسباب من أسباب عدم إجابة الدعاء: قد تكون لمصلحة الدَّاعي، يدخِّر الله له عنده ما هو أعظم ممَّا سأل؛ أو يعلم سبحانه وتعالى أنَّه لو أجابه لحصل عليه مضرَّة في دينه؛ مثل أن تكون إجابته سببًا لفتنته عن دينه؛ فبرحمة الله وحكمته لا يستجيب له هذا الدعاء، لمصلحة هذا الدَّاعي؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن لا يضجر إذا دعا الله فلم يستجب له وأن لا يسأل ويستحسر فيقول: دعوت ثم دعوت فلم يستجب لي؛ فإنَّه إذا قال ذلك لم يستجب له؛ فزال الإشكال الذي قد يرد على قوله: {إنَّك سميع الدعاء} الآن. وبقي إشكال آخر وهو أن يقال: لا فائدة من الدعاء؛ لأنَّ المدعو به إن كان قد كتب لك فسوف يأتيك بلا دعاء، وإن لم يكتب لك فلن يأتيك ولو دعوت؛ هكذا يقول بعض الناس فبماذا نجيب؟ نجيب أولًا: أنَّ هذا قول باطل؛ لأنَّه يقتضي أنَّ الرسل والأنبياء والصالحين؛ بل يقتضي أنَّ الله عز وجل يأمر بما لا فائدة فيه؛ فإنَّ الله قال: {وقال ربكم ادعوني}، فكيف يأمر عز وجل بأمر لا فائدة منه، هذا مستحيل؛ فهذا قول باطل من أصله؛ ثم نقول: الشيء يكتب لك لكن بسبب؛ فإذا كان الله قد كتب لك ذرية طيبة بسبب دعائك فإنَّه إذا انتفى الدعاء انتفت الذريَّة الطيبة؛ لأنَّ الله قدره قدرها أي ذريَّة طيبة مقرونة بالدعاء؛ وهل يقول عاقل: أنا لا أتزوج إن كان الله قد أراد لي ولدًا جاء بلا نكاح، وإن لم يرد لي ولدًا لم يأت ولو تزوجت؛ هل يقول هذا عاقل؟ نقول: إنَّ الله قدر لك الولد بالنكاح تزوج يأتيك الولد وهكذا الدعاء؛ إذًا فالدعاء لاشك أنَّه من أقوى الأسباب لحصول المطلوب وزوال المكروه وهذا أمر معلوم؛ ويكون الله تعالى قد قدَّر هذا الشيء الذي هو حصول مطلوبك أو زوال مكروهك قد قدَّره مقرونًا بهذا السبب، بالدعاء؛ فيكون الدعاء مقدَّرًا والمدعو به مقدَّرًا من عند الله عز وجل؛ لكن أنت لا تدري، أنت عليك

١- (قلت): جزء من حديث قال عنه الإمام الألباني في صفة صلاة النبي: رواه أحمد والطيالسي والبخاري في (الأدب المفرد)، وقد خرجته في الصحيحة (١٢٧٦) وأمر عائشة رضي الله عنها أن تقول: ((اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك – وفي رواية: ((اللهم إني أسألك)) الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل وأسألك – وفي رواية: ((اللهم إني أسألك)) من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته لي رشدًا)).

٢- (قلت): مسلم (١٠١٥)، وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٢٧٦٠).

فعل السبب الذي تعلمه وهو الدعاء وما وراء ذلك فليس إليك؛ وهكذا جميع المقدورات كلُّها يرد عليها هذا الإيراد ولكن الإيجاب بهذا الجواب بأنَّ الله قدَّر هذه الأشياء مقرونةً بأسبابها.

ثمَّ إنَّنا نقول: إنَّ نفس الدعاء عبادة؛ إذا رفعت يديك إلى ربك يا رب، هذا ذلٌّ وخضوعٌ لله عز وجل، وهو من أجلِّ العبادات؛ فالدعاء نفسه عبادة سواء أجيب أم لم تجب؛ فلماذا لا تكثر من الدعاء؟!

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ {٣٩}

قال أبو زهرة: والتعبير بالفاء يفيد أنَّ النداء كان في زمن قريب من الدعاء. وهنا ثلاث نقط نريد أن نوضِّحها:

أولاها: في النداء ونسبته إلى الملائكة، فهل خاطبه بهذا عدد منهم؛ لقد أجاب المفسِّرون عن ذلك بجوابين؛ أحدهما: أن الذي ناداه هو جبريل الذي ينزل بالوحي على النبيِّين، ولقد قال في ذلك التفسير ابن جرير الطبري: (يقال خرج فلان على بغال البريد، وإنَّما ركب بغلًا واحدًا، وركب السفن، وإنَّما ركب سفينة واحدة، وكما يقال: ممَّن سمعت هذا؟ فيقال: من الناس، وإنَّما سمعه من رجل واحد، وقد قيل إنَّ منه: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ...}، والقائل فيما ذكروا كان واحدًا). هذا توجيه من قال إنَّ المراد جبريل.

وفي ذكر الملائكة بالجمع إشارة إلى الجنس، أي: أنَّ الله سبحانه كان من رحمته به أن أجاب دعاءه، وسارع بتبشيره بإجابته، وكانت الإجابة بملائكته، وإن كان المبلِّغ واحدًا.

وأمَّا التخريج الثاني: فهو أنَّ المراد الجمع من الملائكة؛ لأنَّ من كمال عناية الله تعالى بعباده أن ألقى إليه بالبشرى عدد كبير من الملائكة لَا واحد منهم، وهذا ما رجَّحه ابن جرير، ولذا قال: (والصواب من القول في تأويله أن يقال إنَّ الله جل ثناؤه. أخبر أنَّ الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنَّ جماعة الملائكة دون الواحد، وجبريل واحد، فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلَّا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل، ما وجد إلى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنَّه بمعنى واحد، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفي من الكلام والمعاني). ولا شك أنَّ العدد فيه مبالغة بالتبشير.

النقطة الثانية: أنَّ النِّداء الذي وجَّهته الملائكة كان وهو قائم يصلِّي في المحراب، فهو في وقت مواجهته لربِّه، ومناجاته لخالقه، وإنَّه بابتداء القول بالفاء الدَّالَّة على التعقيب من غير تراخ، وكون خطاب زكريا لمريم كان وهو في المحراب، وأنَّ الدعاء كان وهو في المحراب، يتبيَّن أنَّ إجابة الدعاء كانت فور الدعاء، فهو قد ضرع إلى الله خالص النيَّة، طاهر النفس

والحس فأجاب الله دعاءه على سنته في إجابة المهديين من خلقه دعاءهم، كما قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}.

النقطة الثالثة: في قوله تعالى: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى}، وهنا قراءتان في {أن}، إحداهما بالكسر على تضمين النداء معنى القول، أي فنادته الملائكة قائلين: {إنَّ الله يبشرك بيحيى}، والفتح على أنَّ الباء محذوفة والتقدير: (فنادته الملائكة بأنَّ الله يبشرك بيحيى)، واقتران التَّبشير بالتَّسمية بيحيى للإشارة إلى أنَّ ذلك المولود سيحيى اسمه وذكره بعد موته، وبذلك تتحقَّق الإجابة الكاملة للدعاء، إذ قال كما في سورة مريم {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}.

قال ابن العثيمين: {فنادته الملائكة} وفي قراءة: {فناداه الملائكة} فأمَّا على قراءة الجمع {فنادته الملائكة} فالتأنيث في الفعل ظاهر؛ لأن {الملائكة} جمع وكل جمع يجوز تأنيث فعله إلَّا جمع المذكر السالم فإنَّه لا يؤنَّث إلَّا نادرًا جدًّا.

قال ابن كثير: أي: خاطبته الملائكة شفاهًا خطابًا أسمعته، وهو قائم يصلِّي في محراب عبادته، ومحلُّ خلوته، ومجلس مناجاته، وصلاته.

قال ابن العثيمين: {وهو قائم يصلِّي في المحراب} جملة {وهو قائم} في محل نصب على الحال، الحال من ضمير الهاء في قوله: {نادته}؛ وقوله: {قائم يصلِّي في المحراب} المحراب هو مكان الصلاة أو مكان العبادة؛ وسمِّي بذلك لأنَّه مكان حربٍ للشياطين؛ فإنَّ العبادة حربٌ للشياطين؛ وليس المراد بالمحراب طاق القبلة كما يظنُّه بعض الناس فيفسِّر الآية به؛ فيقول: إنَّ هذه المحاريب موجودة من قديم الزمان ألا تسمع إلى قوله تعالى: {كلَّما دخل عليها زكريا المحراب} وإلى قوله تعالى: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلِّي في المحراب}، ولكن هذا ليس بصحيح.

{أنَّ الله يبشِّرك}، {أن} قراءة بالفتح وقراءة بالكسر؛ فأمَّا على قراءة الكسر {إنَّ الله} فلأنَّ النداء قول، ومقول القول إذا صدر بإن يجب فيه كسر {إن} كقوله تعالى: {إنِّي عبد الله} ولا يجوز أن تقول: قال أنِّي عبد الله؛ وأمَّا على قراءة الفتح فهي على تقدير حرف الجر {فنادته الملائكة بأنَّ الله يبشرك}: أي ببشرى، بشرى الله تعالى بهذا النبي يحيى؛ وأيضًا بقوله: {يبشرك} قراءتان {يبشرك} {يبشرك} كلاهما سبعيتان؛ فصار في هذه الآية في ثلاث كلمات منها كلُّ كلمة فيها قراءتان: {فنادته}، {فناداه}؛ {أنَّ الله يبشرك}، {إنَّ الله يبشرك}؛ {إن الله يبشرُك}، {إن الله يبشْرك}؛ والبشارة الإخبار بما يسر؛ وسمِّيت بذلك لتأثر البشرة بالخبر؛ لأنَّ الإنسان إذا بشِّر بما يسرُّه يفرح ويظهر ذلك على وجهه.

إذا قال قائل: إن قلتم هكذا فاجعلوا الإخبار بما يسوء بشرى؛ لأنَّ البشرة تتأثَّر بذلك؛ الرجل إذا أخبرته بما يسوءه تغير وجهه فسمِّها بشرى؟

الجواب: نقول هذا قد يطلق عليه، أي: الخبر بما يسوء قد يطلق عليه بشارة، ومنه قوله تعالى: {فبشِّرهم بعذاب أليم}، {بشِّر المنافقين بأنَّ لهم عذابًا أليمًا}، لأنَّ هذا يؤثِّر في البشرة.

{يبشّرك بيحيى}: هذا المبشَّر به؛ وعندنا بشارة كما أسلفنا ومبشِّر ومبشَّر به ومبشَّر، هذه أربعة كلُّها تضمنَّها قوله تعالى: {يبشرك بيحيى}، ويحيى قيل أنَّه من الحياة، وأنَّ الله سمَّاه بذلك إشارة إلى أنَّه سيحيى ويبقى؛ على هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، والعلمية ووزن الفعل علَّتان توجبان المنع من الصرف؛ وقيل: بل هو اسم أعجمي، والأسماء الأعجمية ليست بمشتقَّة لأنَّها غير عربية؛ وعلى هذا فالمانع له من الصرف العلمية والعجمة؛ لأنَّ العلمية والعجمة علَّتان مانعتان من الصرف.

قال ابن كثير: {أنَّ الله يبشّرك بيحيى}: أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة وغيره: إنَّما سمِّيَ يحيى لأنَّ الله تعالى أحياه بالإيمان.

قال ابن العثيمين: {مصدِّقًا بكلمةٍ من الله وسيِّدًا}، {مصدِّقًا}: حال من {يحيى} {بكلمةٍ من الله}: هو عيسى بن مريم؛ يعني مصدِّقًا بعيسى؛ لأنَّ عيسى كلمة من الله، أو كلمة الله؛ وسمِّيَ بذلك لأنَّه كان بكلمة الله، لم يكن من أب كما يكون البشر بل كان بكلمة الله عز وجل، قال الله تعالى: {إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه}: أي آدم، {من تراب ثمَّ قال له كن فيكون}؛ ولهذا سمِّيَ عيسى بالكلمة، بكلمة الله؛ لأنَّه كان بكلمته وليس هو كلمة الله؛ لأنَّ كلمة الله وصف لله عز وجل؛ فالكلام وصف للموصوف؛ ولا يمكن أن يكون وصف الله عينًا بائنةً منه؛ بل هو يعني يتعيَّن أن يكون معنى كونه كلمة أنَّه كان بكلمة الله.

وقوله: {من الله}: بيان لابتداء الأمر وليست للتبعيض؛ بل {كلمة} ليست هنا بعضًا من الله؛ بل منشأها منه؛ ف{من} للإبتداء لأنَّ منشأ الكلمة {من الله}؛ لأنَّه هو الذي تكلَّم؛ {وسيِّدًا} معطوفة على {مصدِّقًا} فتكون منصوبة على الحال، تكون منصوبة، و(السيد): من ساد غيره وشرف عليه بالعلم والدين والمعاملة والخُلق، ويشمل الخُلق: كل خلق يسود به الإنسان غيره من الجود والشجاعة والإيثار وغير ذلك؛ المهم أنَّ السيد من ساد غيره في الكمالات، يعني فضل عليه وزاد عليه؛ فيكون جامعًا لصفات الكمال، الكمال الممكنة في المخلوق.

{وحصورًا} معطوفة على {مصدِّقًا} فهي منصوبة على الحال؛ {حصورًا}: فعول بمعنى فاعل، أي: حاصرًا نفسه عن أراذل الأخلاق؛ فيكون هذا المبشَّر به موصوفًا بصفات الكمال الدَّالُّ عليها قوله: {سيِّدًا} مبرَّأً من النقص وسوء الأخلاق الدَّالُّ عليه {حصورًا}، فيكون له جمع النفي والإثبات؛ وذلك لأنَّ الإنسان لا يكمل إلَّا بوجود صفات الكمال وانتفاء صفات النقص؛ ولاحظوا صفات الكمال والنقص هنا لا يعني صفات المطلق وكمال المطلق؛ هذا لا يكون إلَّا لله؛ لكنَّه أمر نسبي؛ قد يكون الإنسان عنده كمال في الصفات، لكن عنده سوء من جهة أخرى، هذا ناقص؛ وقد يكون عنده سوء ونقص في الكمال فيكون أنقص؛ وقد يكون عنده كمال في الأخلاق وتنزَّه عن نقص كما وصف به يحيى عليه السلام.

وأمَّا من قال من المفسِّرين: إنَّ الحصور الممنوع عن إتيان النساء يعني ما يقدر على النساء؛ فإنَّ في هذا نظرًا واضحًا؛ لأنَّ عدم قدرة الإنسان على إتيان النساء ليس كمالًا؛ إذ أنَّ ذلك ليس منه بتخلُّق ولكنَّه عيب؛ فيها قول آخر: أنَّه لا يأتي من

النساء من لا تحلُّ له؛ فيكون وصفًا له بكمال العِفَّة هذا يمدح عليه الإنسان، لكن ما قلناه أشمل من هذا القول، ومعلوم أنَّه إذا وجد قول أشمل فهو مقدَّم على المعنى الأقل؛ لأنَّ الأقل داخل في الأشمل ولا عكس؛ المهم الحصور هو الذي منع نفسه عن مساوي الأخلاق وأراذله؛ فيكون في الآية وصف له بكمال الأخلاق وانتفاء المساوي؛ وهذا غاية الكمال.

قال ابن كثير: وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أنَّ ثناء الله تعالى على يحيى أنَّه كان {حصورًا} ليس كما قاله بعضهم: إنَّه كان هيوبًا، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذَّاق المفسِّرين ونقَّاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنَّما معناه: أنَّه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنَّه حصر عنها، وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء.

وقد بان لك من هذا أنَّ عدم القدرة على النكاح نقص، وإنَّما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها: إمَّا بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل، كيحيى، عليه السلام. ثم هي حق من أقدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة علياء، وهي درجة نبينا محمد ﷺ الذي لم يشغله كثرتهنَّ عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحصينهنَّ وقيامه عليهنَّ، واكتسابه لهنَّ، وهدايته إيَّاهنَّ. بل قد صرَّح أنَّها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: ((حبِّب إليَّ من دنياكم))، هذا لفظه. والمقصود أنَّه مدح يحيى بأنَّه حصور، ليس أنَّه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنَّه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهنَّ وإيلادهنَّ، بل قد يفهم وجود النَّسل له من دعاء زكريا المتقدِّم حيث قال: {هب لي من لدنك ذريَّةً طيِّبةً} كأنَّه قال: ولدًا له ذريَّة ونسل وعقب، والله أعلم.

قوله: {ونبيًّا من الصالحين}: هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى كقوله تعالى لأم موسى: {إنَّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين}[القصص: ٧].

قال ابن العثيمين: {وحصورًا ونبيًّا من الصالحين} هذه معطوفة أيضًا على {مصدِّقًا} فهو مصدِّق ونبي؛ ولا يلزم من تصديقه بعيسى أن يكون تابعًا له؛ فها هو محمد ﷺ مصدِّق لجميع الأنبياء؛ وهم يَتَّبعونه ولا يُتَّبعون؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلَّا اتِّباعي(١)))، ولهذا صار إمامًا لهم ليلة المعراج؛ ولهذا إذا نزل عيسى في آخر الزمان يحكم بشريعة النبي ﷺ؛ المهم أنَّ تصديقه لعيسى بن مريم لا ينافي أن يكون نبيًّا؛ فهو نبي مصدِّق بالأنبياء.

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩)، والحديث بتمامه: ((أنَّ النبي ﷺ غضب حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقيَّة؟ لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلَّا اتِّباعي)).

وقال رحمه الله: أخرجه أحمد (٣/٣٨٧) من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله: ((أنَّ عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي ﷺ، فغضب، فقال: أمتهوِّكون فيها يا ابن الخطاب، والذى نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسي بيده، لو أن موسى ﷺ كان حيًّا ما وسعه إلَّا أن يتَّبعني)).

وكذا أخرجه الدارمي (١/١١٥) وابن أبي عاصم فى السنة (٥/٢) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/٤٢) والهروي في ذم الكلام (٤/٦٧ . ٢) والضياء المقدسي في المنتقى من مسموعاته بمرو (٢/٣٣) كلهم عن مجالد به.

قلت: وهذا سند فيه ضعف، من أجل مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال الحافظ فى التقريب: (ليس بالقوى، وقد تغير فى آخر عمره).

{من الصالحين}: أي من جملتهم؛ وإنَّما قلنا ذلك، لأنَّ النبوة وصف أعلى من الصلاح؛ لكن هو في جملة الصالحين؛ النبوة صلاح وزيادة؛ والدليل على ذلك قوله تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين} فالصالحون في المرتبة الرابعة، كلُّ من قبلهم داخل فيها، فكلُّ نبيٍّ صالح ولا عكس؛ كلُّ صديق صالح ولا عكس؛ كلُّ شهيد صالح ولا عكس، على كل حال قوله: {من الصالحين}: أي من جملتهم؛ لأنَّ النبي ﷺ أخذ بوصف النبوة والصلاح؛ فهو من جملتهم.

قال أبو زهرة: وصفه الله سبحانه وتعالى بصفات أربع كلُّها بجعلٍ من الله وتكوينه وخلقه:

وأُولى هذه الأوصاف: أنَّه كان مصدِّقًا بكلمة من الله، وتصديقه بكلمة من الله، اختلف المفسرون في تحرير معناها، لاختلافهم في معنى: {كلمة}، فمنهم من اتَّجه إلى أنَّ كلمة الله هو المسيح عيسى ابن مريم، ما قال تعالى من بعد ذلك لمريم: {ويَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ....}، ويكون المدح في يحيى حينئذ بأنَّه صدَّق عيسى وأذعن للحقِّ إذ تبيَّن له، فلم يكن من المعاندين الذين يجحدون بآيات الله تعالى، ويكفرون ببيِّناته، وسمِّي عيسى {كلمة من الله}، {من الله}، لأنَّه نشأ بكلمة منه سبحانه، ومن المفسِّرين من قال إنَّ المراد من كلمة الله تعالى كتابُه؛ وذلك لأنَّه تطلق الكلمة ويراد منها الكلام، وذلك من هذا القبيل، والظاهر عندي هو الأول؛ لأنَّه في هذا المقام ذكرت كلمة الله على أنَّها المسيح عليه السلام، والاسم المكرَّر في مقام واحد تكون فيه وحدة المقام دليلًا على وحدة المسمَّى. وكان في هذا التعبير إيذان بأنَّ ولادة المسيح ستكون قريبًا من ولادة يحيى وفيه إيماء إلى أنَّ زكريا نبي الله قد أوتي علمًا بأنَّ المسيح عهده قريب.

والوصف الثاني من أوصاف يحيى: أنَّه سيد، والسيد فيْعل من السيادة، وهي الشرف والتفوُّق والعلو، وتبتدئ السيادة بسيادة الإنسان على نفسه بأن يملك زمامها، ويضبطها ويأخذ بعنانها، فلا تذلّ، ولا تتكبَّر ولا تجمح، ولا يزال يترقَّى في معنى السيادة من ضبط النفس والعلو عن سفساف الأمور، والاستغناء عمَّا في أيدي الناس حتى يفوق الناس. وإنَّه يروى أن أعرابيًّا مرَّ بالبصرة، فسأل من سيد هذا المصر؟ فقيل له: الحسن البصري فقال: وبم ساده؟ قيل استغني عمَّا في أيدي الناس، واحتاج الناس إلى ما في يده، فقال: ذلك هو السيد حقًّا. فكلمة (السيد) في النص القرآني الكريم تتضمَّن كلَّ معاني السؤْدَد ومكارم الأخلاق.

والوصف الثالث: أنَّه حصور. وأصل الحصر معناه الحبس، والمراد أنَّه حبس نفسه عن الشهوات، حتى لقد روى أنَّه امتنع عن النساء زهادة واستعفافًا، واتِّجاها إلى الروحانية. وقيل إنَّه كان لَا يأتي النساء عجزا، وذلك غير صحيح، والحقُّ أنَّه إن كان قد امتنع عن النساء فعن قدرة واختيار لَا عن عجز؛ وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى ساق ذلك الوصف في مقام المدح والثناء، ولا

وقال الحافظ فى الفتح (١٣/٢٨٤): (رواه أحمد وابن أبي شيبة والبزار، ورجاله موثَّقون، إلَّا أنَّ فى مجالد ضعفًا).

قلت: لكن الحديث قوى، فإنَّ له شواهد كثيرة. (فذكره رحمه الله).

يتحقَّق معنى المدح والثناء إلَّا إذا كان فيه اختيار، ولم يكن عجزًا وجبرًا. ولأنَّ {حصور}، صيغة مبالغة لحاصر، أي أنَّه يبالغ في منع نفسه من الشهوات.

وليس في النص ما يدلُّ على أنَّه امتنع عن النساء بخاصة، بل النص يدلُّ على أنَّه حبس نفسه عن الشهوات، وقدعها([1])عن أهوائها.

الوصف الرابع: أنَّه نبيٌّ من الصالحين، وفي هذا بشارة أخرى لزكريا بأنَّ الله سيختار ابنه نبيًّا؛ فإنَّ الأوصاف السابقة فيها إجابة لدعائه، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى مَنَّ عليه بأعظم ممَّا دعا به، وأعطاه النبوة؛ وقوله: {مِّنَ الصَّالِحِينَ}، إشارة إلى موطن النبوة. وموضع اختيارها، والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه وتعالى لَا يختارهم إلَّا من الصالحين، فالله سبحانه يقيهم الانغماس في الشَّر قبل النبوة، ويعصمهم عن المعاصي بعدها.

قال السعدي: فأيُّ بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبيًّا من الصالحين، فقال زكريا من شدَّة فرحه: {ربِّ أنَّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر} وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات الملائكة؛ وقد سبق عن قريب شيء من الكلام عليه؛ وأنَّهم عالم غيبي مخلوقون من نور، خلقهم الله عز وجل لما أعدَّهم له، فقاموا به على حسب ما أراد خالقهم عز وجل؛ كانوا يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، وأخبر النبي ﷺ بقوله: ((أطَّت السماء وحقَّ لها أن تئط))، التأطيت، ما يسمع من صرير الرحل على البعير المحمل حملًا ثقيلًا؛ ((ما من موضع أربع أصابع إلَّا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد([2])))؛ ففي هذه الآية: {فنادته الملائكة} إثبات الملائكة. ما حكم إنكار الملائكة؟ حكمه الكفر؛ لأنَّه تكذيب للقرآن. لو قال قائل: أنا لا أنكرهم، وأقول في ملائكة، لكن الملائكة هي قوى الخير، والشياطين قوى الشر؛ فأجعلهم معاني لا ذوات؛ نقول: وهذا أيضًا إنكار لهم؛ لأنَّ الله قال: {جاعل الملائكة رسلًا أولي أجنحة}، كيف تكون قوة؟ وأجنحته: {مثنى وثلاث ورباع}.

٢- أنَّ الملائكة تتكلَّم بصوت مسموع؛ لقوله: {فنادته الملائكة}.

١- (قلت): قدعها: إمضائها. أنظر (لسان العرب).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩). والحديث بتمامه: ((إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطَّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلَّا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجدًا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)).

٣- جواز تكليم المصلِّي؛ لقوله: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلِّي في المحراب}؛ وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يكلِّم بعضهم بعضًا في الصلاة؛ لكنَّ المكلَّم هو يصلِّي لا يخاطب الآخر؛ لكن يفهم ما يقول ويجيبه بالإشارة؛ لكن هل هذا على إطلاقه بالنسبة لجواز الكلام مع المصلِّين؟ الجواب: الأفضل تركه إلَّا لحاجة؛ وذلك لأنَّك إذا كلَّمته وهو يصلِّي فإنَّك تشوِّش عليه؛ وربما ينسى ويخاطب كما يقع هذا كثيرًا.

٤- مشروعية تبشير الإنسان بما يسرُّه؛ لقوله تعالى: {إنَّ الله يبشِّرك بيحيى}، وهذا أمر مشروع في نوعه وجنسه؛ ففي النوع سبق أنَّ الله تعالى أخبر عن الملائكة أنَّها بشَّرت إبراهيم بإسماعيل وبإسحاق؛ إسماعيل قال الله فيه: {فبشَّرناه بغلام حليم}؛ وإسحاق {فبشَّرناه بغلام عليم}.

٥- البشارة بالجنس أنَّ الإنسان يبشِّر بأيِّ خيرٍ كان، بأيِّ شيءٍ كان؛ جاءت به السنة من مفهوم قوله ﷺ: ((لا يتناجى اثنان دون الثالث حتى يختلطوا بالناس من أجل أنَّ ذلك يحزنه))[1]، فإنَّ هذا يدلُّ على إدخال السرور على المسلم، وهو كذلك سواء كان بالإشارة أو بغيرها.

٦- جواز تقديم التَّسمية على اليوم السابع؛ وهو كذلك أنَّه يجوز أن يسمِّي الإنسان مولوده من ذكر أو أنثى قبل اليوم السابع؛ وهذا إذا كان الاسم مهيَّئًا، أمَّا إذا كان غير مهيَّأٍ فإنَّه ينبغي أن يؤخَّر إلى اليوم السابع لقوله: {إنَّ الله يبشِّرك بيحيى مصدِّقًا بكلمة....}.

٧- الثناء على من صدق المرسلين؛ لقوله: {مصدِّقًا بكلمة من الله}، فإنَّ الله تعالى قال ذلك على سبيل الثناء على يحيى؛ ولاشك أنَّ من صدَّق من قامت البيِّنات على صدقه فإنَّه محمود حتى في الأمور الدنيوية؛ إذا صدَّقت من قامت البيِّنة على صدقه فهذا لاشك أنَّه خير؛ وأمَّا إذا صدَّقت من لم تقم البيِّنة على صدقه فهذا استعجاب؛ وأمَّا إذا صدَّقت من قامت البيِّنة على كذبه فهذا خبال؛ خبال أن تصدِّق من قامت البيِّنة على كذبه؛ فالأحوال ثلاث: من قامت البيِّنة على كذبه فتصديقه خبال وسفه في العقل وضلالة في الدِّين؛ ومن قامت البيِّنة على صدقه فتصديقه كمال يحمد الإنسان عليه؛ ومن لم تقم البيِّنة على صدقه ولا كذبه فتصديقه استعجال؛ لأنَّ مثل هذا الخبر ينبغي أن يتأنَّ الإنسان فيه؛ ولهذا قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا} لم يقل عز وجل: ردُّوه ولا اقبلوه؛ نتبيَّن حتى نثق لأنَّه قد يكون صادقًا.

٨- أنَّ يحيى عليه الصلاة والسلام سيكون سيدًا؛ وذلك لأنَّه أحد الأنبياء، والأنبياء هم سادة الخلق وأفضل الخلق.

٩- أنَّ يحيى عليه الصلاة والسلام مع توافر صفات الكمال في حقِّه بالسيادة، فإنَّه بالإضافة إلى ذلك كان ممنوعًا من سوء الأخلاق؛ لقوله: {وحصورًا}؛ فإنَّ أصحَّ وأعمَّ ما قيل فيها أنَّه ممنوع عن مساوئ الأخلاق.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٥٨٢).

١٠- أنَّ يحيى من الأنبياء؛ لقوله: {نبيًّا} وكل من وصف في القرآن بالنبوة فإنَّه رسول؛ قال الله تعالى: {إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيِّين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم ... } وقال تعالى: {ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك} وما قصَّهم علينا يقصُّهم بلفظ النبوة في الأكثر؛ فيكون كل من ذكر في القرآن بوصف النبوة فهو رسول.

١١- أنَّ الأنبياء من الصالحين؛ بل هم في أعلى مراتب الصلاح؛ فإنَّ مراتب الصلاح أربعة: النبوة والصديقية والشهادة والصلاح؛ هذا إذا ذكرت جميعًا صارت مراتب، وإن لم تذكر جميعًا صار الصلاح عامًّا؛ لقول النبي ﷺ: ((إذا قلتم ذلك عباد الله الصالحين فقد سلَّمتم على كلِّ عبد صالح في السماء والأرض(١))).

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {٤٠}

قال ابن العثيمين: {قال ربِّ أنَّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر}: قال لمَّا بشَّره الله عز وجل: {أنَّى يكون لي غلام وقد بلغني}: يعني كيف؛ يقول ذلك ليس استبعادًا ولا استنكارًا ولكن تثبُّتًا؛ وإلَّا فإنَّا نعلم أنَّ زكريا عليه السلام قد آمن بما بشَّره الله به ولا يمكن أن يستبعدها، ولكنَّه قال ذلك من أجل التثبُّت؛ والإنسان بشر ناقص في الإدراك والعلم يحتاج إلى شيء يثبت له الأمور؛ إبراهيم عليه السلام لاشك أنَّه يؤمن إيمانًا كاملًا لاشك معه بأنَّ الله يحيي الموتى ومع ذلك قال: {رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنَّ قلبي}، لأنَّه ليس الخبر كالمعاينة؛ إذا أخبرك إنسان بخبر مهما بلغ في الصِّدق لن يكون خبره عندك بمثل المعاينة؛ فزكريا عليه السلام سأل الله {أنَّى يكون لي غلام وقد بلغنيَ الكبر}؟ القصد التثبُّت وتَثْبيت هذا الأمر، لا استبعادًا لقدرة الله عز وجل، ولا شكًّا في خبره عز وجل؛ بل هو مؤمن بذلك، ومؤمن بقدر الله عز وجل وأنَّه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون لاسيَّما وأنَّه كان قد رأى عند مريم الرزق فقال: {أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله}.

قال البغوي: قال الحسن: أَنَّهُ لَمْ يَشُكَّ فِي وَعْدِ اللَّهِ إِنَّمَا شَكَّ فِي كَيْفِيَّتِهِ، أَيْ: كَيْفَ ذلك، أتجعلني وامرأتي شابّين، أم ترزقنا ولدا على الكبر منّا أم ترزقني من امرأة أخرى؟! قاله مستفهما لا شاكًّا.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٩٤٥)، وصحيح أبي داود (٨٨٩). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا إِذَا جَلَسْنَا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الصَّلَاةِ نَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ فالتفت إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ فَقُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سلمتم عَلَى كلِّ عبدٍ صالح في السماوات والأرض)).

قال ابن العثيمين: {أنّى يكون لي غلام} قال: {غلام} مع أنَّه لم يولد بعد؛ لكن هذا باعتبار ما سيكون؛ والتعبير بما سيكون أمر سائغ في اللغة وارد في القرآن، {قال أحدهما إنِّي أراني أعصر خمرًا}: يعني أعصر عنبًا يكون خمرًا؛ لأنَّ الخمر ما هو يعصر، الذي يعصر هو العنب وعصير وهي تتحوَّل إلى خمر، فعبَّر عن الشيء بما يؤول إليه.

{وقد بلغني الكبر} الواو هذه يسميها العلماء: واو الحال؛ يعني أنَّها تدلُّ على أنَّ الجملة التي بعدها في موضع نصب على الحال؛ يعني والحال أنَّه قد بلغني الكبر، فهي في موضع نصب على الحال من الياء في قوله: {بلغني الكبر}: يعني وصل إليَّ الكبر؛ والحقيقة أنَّه قد يتراءى للإنسان أنَّ في المعنى قلبًا؛ هل الكبر بلغت أو أنت بلغت الكبر؟ أو يجوز هذا وهذا؟ قال الله تعالى: {وقد بلغت من الكبر عتيًّا} فصار هو الذي بلغ الكبر؛ وهنا يقول: {قد بلغني الكبر}، إذًا فالتعبير صحيح في هذا وهذا؛ فأنت إذا بلغت الكبر فقد بلغك الكبر، وإذا بلغك الكبر فقد بلغته؛ {وقد بلغني الكبر}: يعني أصابني؛ وعادةً أنَّ الكبير إذا لم يولد له في سنِّ الشباب فإنَّه لن يرى الأولاد؛ لأنَّ الإنجاب والإخصاب إنَّما يكون في حال الشباب؛ وكلَّما تقدَّمتِ السنُّ بالإنسان من رجل أو امرأة قلَّ إنجابه، فيقول كيف، لمَّا كنت شابًّا لا يأتيني ولد، والآن يأتيني ولد؟! أيضًا المرأة {امرأته عاقر}: عاقر يعني لا تحمل، وعاقر لفظه مذكَّر لكن معناه هنا مؤنَّث؛ ويطلق على الذَكر والأنثى، يقال: ذكرٌ عاقر، وامرأةٌ عاقر؛ وهو الذي لا يولد له؛ فالآن كلٌّ من الزوجين يعني ليسا بصدد الولادة ولكنَّ الله على كلِّ شيء قدير؛ {إذا أراد شيئًا فإنَّما يقول له كن فيكون}، ولهذا قال: {قال كذلك الله يفعل ما يشاء} {كذلك الله} كذلك يجوز عندي فيها وجهان: الوجه الأول: أنَّها خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: الأمر كذلك؛ يعني أنَّك بلغت الكبر وامرأتك عاقر، ولكن الله يفعل ما يشاء؛ والوجه الثاني: أن تكون في موضع نصب على المفعولية المطلقة، إي مثل ذلك الفعل يفعله الله؛ لأنَّه يفعل ما يشاء؛ وكلا الوجهين صحيح؛ فإنَّه سيكون له ولد ولو كان بلغه الكبر ولو كانت امرأته عاقرًا؛ لأنَّ الله يفعل ما يشاء؛ فكلُّ ما شاءه الله فعله؛ لأنَّه عز وجل لا يمنعه مانع كما نقول نحن في دبر كل صلاة: ((اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت))، فالله عز وجل يفعل ما يشاء؛ لأنَّ له الملك المطلق في خلقه فلا أحد يمنعه ولا أحد يسأله لم فعلت؟ {لا يسأل عمَّا يفعل وهم يسألون}.

قال ابن كثير: {كذلك الله يفعل ما يشاء}: أي هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر.

قال السعدي: فكما أنَّه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل، لأنَّه لا يستعصي عليه شيء.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٣ص٢٢٥: {كذلك اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} وَهَذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ إثْبَاتًا لِقُدْرَتِهِ لَا نَفْيًا لِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ؛ بَلْ بَيَّنَ – سُبْحَانَهُ – أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فَلَا أَحَدَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُعَارِضَهُ إذَا شَاءَ شَيْئًا بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ مَا يَشَاءُ؛ بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَشَاءُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((لَا يَقُولَن

أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْت، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْت؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ[١]))، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ: افْعَلْ كَذَا إِنْ شِئْت لِمَنْ قَدْ يَفْعَلُهُ مُكْرَهًا فَيَفْعَلُ مَا لَا يُرِيدُ لِدَفْعِ ضَرَرِ الْإِكْرَاهِ عَنْهُ وَاَللَّهُ تَعَالَى لَا مُكْرِهَ لَهُ، فَلَا يَفْعَلُ إلَّا مَا يَشَاءُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}[الحج: ١٨]، و{يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}[المائدة: ١٨]، وَنَحْوُ ذَلِكَ هُوَ لِإِثْبَاتِ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَهَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّهُ لَمْ يَشَأْ كُلَّ مَا كَانَ، بَلْ لَا يَشَاءُ إلَّا الطَّاعَةَ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ شَاءَهَا وَلَمْ تَكُنْ مِمَّنْ عَصَاهُ، وَلَيْسَ هُوَ قَادِرًا عِنْدَهُمْ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدَ لَا مُطِيعًا وَلَا عَاصِيًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّه لا حرج على الإنسان في طلب ما تطمئن به نفسه؛ لأنَّ زكريا عليه الصلاة والسلام لم يشك في خبر الله؛ لكن أراد أن يتقدَّم إليه الفرح والاستبشار بقوة البراهين؛ لأنَّ خبر الله لاشك أنَّه برهان، لكن كلَّما ازدادت البراهين ازدادت قوة اليقين؛ فهنا سأل {أنَّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر}: يعني تعجُّبًا من قدرة الله عز وجل أن يكون له غلام وقد بلغه الكبر؛ لأنَّ الغالب أنَّ الإنسان إذا بلغ الكبر يقل إنجابه، وربما عدم بالكليَّة؛ والعقر إلى النساء أقرب منه إلى الرجال؛ ولهذا تكون المرأة عاقرًا قبل أن يكون الرجل عاقرًا.

٢- اللام لا تتعيَّن للملك؛ قد تكون للاختصاص؛ لأنَّ الإنسان لا يملك ولده كما يملك عبده؛ لو أراد أن يبيع ولده ما صحَّ؛ وأمَّا قول النبي ﷺ: ((أنت ومالك لأبيك))، فالمراد بذلك المنافع؛ أو أن المراد بذلك المبالغة؛ لأنَّ هذا الرجل لما جاء يشكوا إلى الرسول ﷺ أنَّ أباه أخذ ماله قال له: ((أنت ومالك لأبيك[٢])) فيكون هذا إمَّا من باب المبالغة أو أن منافعك لأبيك كما أن مالك لأبيك.

٣- جواز وصف الإنسان بما يكره إذا كان المراد مجرَّد البيان لا القدح والعيب؛ لقوله: {وامرأتي عاقر}؛ لأنَّك لو وصفت المرأة بأنَّها عاقر لكرهت، ولكن إذا كان المراد بيان الأمر على وجهه دون العيب والقدح فإنَّ هذا لا بأس به؛ ودليل ذلك أن الرسول ﷺ قال: ((أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه[٣]))، لكن هذا من باب المشورة ولكن لم يقصد الرسول ﷺ أن يعيب الرجل، بل قصد أن يبيِّن حاله ليكون الإنسان معه على بصيرة.

١- البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) وفي التوحيد (٧٤٧٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٨/٢٦٧٩) كلاهما عن أبي هريرة.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٨٣٨)، وقال رحمه الله: ليس على إطلاقه، بحيث أن الأب يأخذ من مال ابنه ما يشاء، كلَّا، وإنَّما يأخذ ما هو بحاجة إليه.

٣- (قلت): مسلم (١٤٨٠)، والحديث بتمامه: عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصٍ طَلَّقَهَا الْبَتَّةَ، وَهُوَ غَائِبٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وَكِيلُهُ بِشَعِيرٍ، فَسَخِطَتْهُ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا لَكِ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ، فَجَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: ((لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ))، فَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَّ فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ، ثُمَّ قَالَ: ((تِلْكِ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي، اعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ، فَإِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي))، قَالَتْ: فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ))، فَكَرِهْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: ((انْكِحِي أُسَامَةَ))، فَنَكَحْتُهُ، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا، وَاغْتَبَطْتُ بِهِ.

٤– إثبات فعل الله؛ لقوله: {كذلك الله يفعل ما يشاء}. ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات أفعال الله الاختيارية المتعلِّقة به والمتعدِّية إلى غيره؛ أفعال الله الاختيارية يعني التي تقع باختياره، ولا شيء يقع من أفعال الله إلَّا باختياره؛ لكن منها شيء متعلِّق به مثل: الاستواء والنزول والضحك والفرح، وأشياء متعلِّقة في غيره مثل: الخلق؛ فأنَّ الخلق يتعدَّى إلى الغير؛ فأهل السنة والجماعة يثبتون النوعين: الفعل الخاصة به عز وجل التي لا يتعدَّى إلى غيره؛ والفعل الذي يتعدَّاه إلى غيره؛ يقولون بلا شك أنَّ الرب الذي يفعل ما يشاء أكبر من الرب الذي لا يستطيع الفعل؛ غالب الأشاعرة إن لم نقل كل الأشاعرة والمعتزلة ومن ضاهاهم يقولون إنَّ الله ليس له أفعال اختيارية؛ لا يستوي ولا ينزل ولا يجيء ولا يضحك ولا يفرح ولا يحب ولا يكره، إلى آخر ما يقولون في نفي الأفعال الاختيارية؛ قالوا: العلَّة: لأنَّ الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث والله عز وجل أزلي أبدي؛ فيقال لهم أوَّلًا: من قال لكم هذا، إنَّ الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث من قال لكم هذا؟ هل عندهم لذلك وحي، أو مجرَّد قياس عقلي فاسد ذكرتموه؟! الحقيقة أنَّ هذا قياس عقلي فاسد؛ فإنَّ الحوادث لا يلزم أن لا تقوم إلَّا بحادث؛ لأنَّ من المعلوم أنَّ المحدَث سابق على الحدث، وإذا كان الحادث سابق على الحدث لم يلزم أن يكون المحدَث حادثًا؛ أنت الآن تأكل غداء اليوم، والغداء اليوم بنسبة لك حادث متى؟ وقت حدوثه وأنت موجود من قبل؛ فالرب عز وجل عندما يفعل هذه الأفعال، في وقت فعلها لم يزل موجودًا سبحانه؛ لكن على زعمكم أنتم وعلى مذهبكم الباطل يلزم أن يكون الله سبحانه وتعالى لم يفعل أي فعل، معطِّلًا عن الأفعال؛ وهذا عيب؛ لأنَّ من يفعل أكمل ممَّن لا يفعل باتِّفاق الناس، ولا يعتري الله عز وجل بإثبات الفعل في حقِّه أي نقص، بأي وجه من الوجوه؛ والآيات كثيرة بإثبات فعل الله {كذلك الله يفعل ما يشاء}، {فعَّال لما يريد}، {ويفعل الله ما يشاء}، والنصوص في هذا كثيرة ولله الحمد وأهل السنة والجماعة يؤمنون به.

٥– إطلاق الجمع على الواحد؛ لقوله: {قال كذلك الله يفعل ما يشاء}، إن كان القائل هو الله فهذه الفائدة لاغية؛ وإن كانت الملائكة فهذه الآية تدلُّ على أنَّ القائل واحد وأنَّ قوله: {فنادته الملائكة}: يعني واحدًا منهم؛ وقد سبق في التفسير الخلاف في ذلك.

٦– إثبات المشيئة لله عز وجل؛ لقوله: {ما يشاء}، ولكن كلُّ شيءٍ قيَّده الله بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة؛ ما دليلك على هذا؟ قوله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا} فقال: {إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا} فدلَّ على أنَّه لا يشاء إلَّا ما تقتضيه الحكمة، وهو كذلك.

٧– سرعة إجابة الله تعالى للدعاء؛ لقوله: {فنادته} فإنَّ الفاء تدلُّ على التَّرتيب والتَّعقيب.

٨– يستفاد من عموم {ما يشاء}، شمول الخير والشر؛ ولكنَّ الشر لا يضاف إلى الله كما قال النبي ﷺ: ((والشر ليس إليك([1])))؛ ولهذا جاء في الثناء على الله: {بيدك الخير} ولم يقل: والشر؛ لأن الشر لا ينسب إليه وإنَّما الشر في المفعولات

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٧٦٠): والحديث بتمامه: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثم قال: ((وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين (إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له

البائنة منه؛ أمَّا فعله نفسه يعني نفس الفعل فليس فيه شر؛ لأنَّ الله لا يفعل شيئًا فيه شر إلَّا لخير؛ فمثلًا شرٌّ يشاؤه الله عز وجل، ومشيئته ليست شرًّا، بل هي خير لوجوه متعدِّدة؛ الأول: أنَّه لا يمكن أن يتبيَّن الخير إلَّا إذا وجد الشر؛ إذ لا تتبيَّن الأشياء إلَّا بضدها ولو كانت كل مفعولات الله خيرًا ما عرف الشر، ولا وجد الشر أصلًا؛ فلا يتبيَّن الخير وخيريته إلَّا بوجود ما يقابله وهو الشر؛ هذه من الحكمة؛ ومن الحكم أيضًا: ابتلاء الناس وامتحانهم فإنَّ الطريق لو كان كلُّه خيرًا ما حصل في ذلك ابتلاء وامتحان؛ إنَّما يكون ابتلاء وامتحان إذا وجد طريقان أحدهما خير وقيل للناس اسلكوه، والثاني شر وقيل للناس لا تسلكوه؛ تبيَّن بذلك الصادق من الكاذب؛ ولا يمكن الامتحان إلَّا بذلك؛ ومن الحكمة في إيجاد الشر: أنَّه لا يستقيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فضِّلت به هذه الأمة إلَّا بوجود الشر حتى يؤمر بالخير الذي يقابله، والشَّر الذي هو المفسدة؛ لو كانت كل الأمر خيرًا ومعروفًا لم يكن هناك أمر بالمعروف ونهي عن منكر. ومن الحكم أيضًا: إقامة الجهاد في سبيل الله؛ فإنَّه لو لا الخير والشر ما قام الجهاد في سبيل الله؛ إذ أنَّ الجهاد صراع بين أولياء الله القائمين بالخير وأعداء الله القائمين بالشر؛ ولو لا هذا، ما حصل الجهاد في سبيل الله. ومن الحكم في ذلك بيان قدرة الله عز وجل في خلق الأشياء المتضادَّة؛ فإنَّ خلق الأشياء المتضادَّة لاشك أنَّه فيه دليلًا على قدرة الله سبحانه وتعالى؛ ولو لا خلق وإيجاد هذه المتضادَّات لم يتبيَّن كمال القدرة؛ لأنَّ خلق الشيء مع ضدِّه أبلغ في القدرة من خلق الشيء الذي لا ضد له. ومن حكم إيجاد الشَّر: أنَّه حافظ على لجوء الإنسان إلى ربه؛ وكثيرًا ما يحمل الناس على اللجوء إلى الله والأوراد والاحترازات وجود الشر؛ ولو لا وجود الشر ما لجأ الناس إلى الله؛ لأنَّهم في خير. ومنها أي من حكم إيجاد الشر: أنَّ الإنسان يعرف به قدر نعمة الله عليه، حيث يوجد أناس كثيرين من أهل الشر والفساد، وقد منَّ الله عليه هو بالخير والصلاح والإصلاح؛ فيعرف بذلك قدر نعمة الله عليه فيشكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعمة التي منَّ بها عليه بمحبة الخير والسعي فيه؛ ثم يحمد الله مرة ثانية أن نجَّاه من الشر والفساد وأهله؛ والنجاة من الشر والفساد وأهله لاشك أنَّها نعمة عظيمة {فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين}. ومن الحكم في خلق الشر: إظهار ضعف الإنسان وعجزه أمام قوى الشر؛ فإنَّ الإنسان تؤرِّقه عن منامه بعوضة من أوهن المخلوقات، تمنعه من النوم، وإذا كان شابًّا ثقيل النوم منعته من لذَّة النوم، وهي ما هي؟ شيء ضعيف بعوضة، فيعرف الإنسان بذلك قدر نفسه، وأنَّه ضعيف أمام قوة الشر حتى لا يتكبَّر ويتعاظم؛ ولهذا ذكر أنَّ ملكًا من ملوك الجبابرة كان يتحدَّث مع قومه ويسخر ويقول: ما الحكمة من خلق الذباب؟

وبذلك أمرت وأنا أوَّل المسلمين اللهم أنت الملك لا إله لي إلَّا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت واصرف عني سيِّئها لا يصرف سيِّئها إلَّا أنت لبيك وسعديك والخير كلُّه في يديك والشَّر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك وإذا ركع قال اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظامي وعصبي وإذا رفع قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد وإذا سجد قال اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره فأحسن صورته وشق سمعه وبصره وتبارك الله أحسن الخالقين وإذا سلم من الصلاة قال اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم والمؤخر لا إله إلَّا أنت)).

الذباب يحمل الجراثيم ويحمل الأمراض وما أشبه ذلك فما الحكمة منها؟ فقال أحد الحاضرين: الحكمة منه أن يذلُّ، أو أن يلغم أنوف الجبابرة مثلك؛ لأنَّ هذا الذباب المهين يقع على أنف هذا الرجل الجبار الذي لا يدخل البشر إليه إلَّا باستئذان، وله حاجب من وراء حاجب وهذا الذباب المهين يأتي ويقع على أنفه وربما يصيبه بعذرته أيضًا؛ على كل حال هذا أيضًا من حكمة الله سبحانه وتعالى في خلق الشر؛ وهناك حكم ربما يظهر للمتأمِّل منها شيء كثير؛ وبهذا نعرف كمال حكمة الله سبحانه وتعالى وربوبيته؛ ومن عرف الله ازداد في عبادته كما قيل: من كان بالله أعرف كان منه أخوف وله أطوع.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {٤١}

قال السعدي: فقال زكريا عليه السلام استعجالًا لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة: {ربِّ اجعل لي آية}: أي علامة على وجود الولد.

قال ابن العثيمين: فلمَّا أيقن بأنَّ الله تعالى سيهب له الولد، قال: {قال ربِّ اجعل لي آية}: أي صَيِّر لي علامة تدلُّ على هذا الولد، يعني كأنَّه يقول متى تكون هذه العلامة؛ ربِّ اجعل لي آية تدلُّ على حصول هذا الولد، وأنَّ الولد بدأ ينشأ؛ ليزداد طمأنينة فيما بشَّره الله به؛ اجعل لي آية أستدِلُّ بها على أنَّ الولد بدأ ينشأ؛ أو {اجعل لي آية} أزداد بها طمأنينة على ما بشَّرتني به؛ والآية في اللغة العلامة، وآيات الله عز وجل كونية وشرعية؛ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أُيِّدوا بالآيات الدَّالَّة على صدقهم، الآيات الكونية والآيات الشرعية؛ وكثير من الناس يسمِّي آيات الأنبياء معجزات، وهذه التسمية وإن اشتهرت على الألسن لكن فيها قصورًا؛ والتعبير الصحيح السليم أن نسمِّها آيات كما سمَّاها الله، ما يحصل من خوارق العادات على أيدي الأنبياء نسمِّيها آيات؛ ولهذا لا تجد آية في القرآن سمَّى الله هذه الخوارق معجزات أبدًا؛ بل كان يسمِّيها آيات علامات على الصِّدق؛ أمَّا المعجزات فهي قاصرة لأنَّها لو أخذناها على ظاهرها لشملت ما يأتي به السحرة؛ أو ما تأتي به الجن؛ لأنَّ ما يأتي به السحرة والجن معجز، لكن هل هو آية؟ لا؛ لهذا كان التعبير الذي في القرآن خيرًا من التعبير الذي عبَّر به بعض العلماء بتسمية خوارق العادات التي يجريها الله على أيدي الأنبياء معجزات.

قال أبو زهرة: في تفسير هذا النَّص الكريم اتِّجاهان:

أولهما: أنَّ سيدنا زكريا عليه السلام طلب علامة تدلُّ على موعد الحمل، فقال: {اجْعَل لِّي آيَةً}: أي علامة أعرف منها موعد الحمل، فقال له ربه: {آيتك}: أي علامتك ألَّا تكلِّم الناس ثلاثة أيَّامٍ إلَّا رمزًا، أي لا تستطيع أن تكلِّم الناس إلَّا بالرمز والإشارة، وأن تستطيع ذكر الله، فاذكر ربك كثيرًا وسبِّح بالعشيِّ والإبكار، أي في المساء، وفي الصباح من وقت الفجر إلى

الضحى، وقد وضَّح هذا الاتِّجاه الزمخشري فقال: (آيتك ألّا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيّام، وإنَّما خصَّ تكليم الناس ليعلم أنَّه يُحبَس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصَّة مع إبقاء قدرته على التَّكلُّم بذكر الله؛ ولذلك قال: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}، يعني في أيّام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة. فإن قلت: لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت: ليخصَّ المدَّة بذكر الله، لَا يشغل لسانه بغيرها، توفُّرًا منه على قضاء حق تلك النِّعمة الجسيمة، وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنَّه لمَّا طلب الآية لأجل الشكر قيل له آيتك أن تحبس لسانك إلَّا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقًّا من السؤال ومنتزعًا منه).

هذا هو الاتِّجاه الأول. وأساسه أنَّ ثمة أمرًا آخر خارقًا للعادة، وهو عجزه عن كلام الناس مع قدرته على الذِّكر.

أمَّا الاتِّجاه الثاني، فأساسه غير ذلك، إذ إنَّ معنى النص الكريم على هذا الاتِّجاه أن زكريا شعر بإكرام الله تعالى إكرامًا خصَّه به، وكانت آية ذلك الإكرام بين الناس أنَّه قد أنجب من عاقر وعجوز ولدًا، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، فدعا ربَّه أن يجعل له بين الناس آية تدلُّ على عظيم شكره، وأن يختصَّ من بين الناس بهذا الشكر، ليعلم الناس علامة شكره كما علموا علامة إكرامه، فقال سبحانه: {آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا} بأن تحبس أنت لسانك عن حديث الناس وتجعله خاصًّا لله ثلاثة أيَّام لذكره وتسبيحه طرفي النهار وزلفًا من الليل، فهذه آية شكر في نظير آية إنعام.

قال ابن العثيمين: {قال آيتك}: يعني الآية التي تدلُّك؛ فأضافها إلى زكريا مع أنَّه ليس هو الذي أوجدها لكن لأنَّها علامة له، آيتك يعني العلامة التي أعطيك إيَّاها، {أن لا تكلِّم الناس ثلاثة أيَّام إلَّا رمزًا } {أن لا تكلِّم الناس}: يعني لا تخاطبهم؛ {ثلاثة أيام} بلياليها بدليل قوله تعالى في سورة مريم: {ثلاث ليالٍ سويًّا}؛ {إلَّا} هذه أداة استثناء، والواقع أنَّ المفسِّرين اختلفوا هل الاستثناء متَّصل فتكون الإشارة من الكلام؛ لأنَّ الكلام ما يعبِّر عمَّا في النفس من قول أو إشارة أو كتابة؛ وبعض المفسِّرين يقول: إنَّ الاستثناء منقطع؛ لأنَّ الرمز ليس بكلام؛ ولذلك لو رمز الإنسان في الصلاة لم تبطل صلاته؛ ولو كان كلامًا لبطلت؛ لقول النبي ﷺ: ((إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس[١])) فمن نظر إلى المعنى قال: إنَّ الرمز كلام؛ لأنَّه ينبِّئ عمَّا في النفس؛ وقد يعتبره الشارع إشارة، أليس النبي ﷺ قتل اليهودي بإشارة الجارية الأنصارية التي قالت حينما قالوا من قتلك فلان وفلان وفلان فأشارت نعم، فاعتبر الإشارة؛ ولاشك أنَّ الإشارة تعبِّر عَّما في النفس؛ لكنَّها ليست القول الذي هو الصوت لاشك في هذا؛ فمن لاحظ المعنى قال: الاستثناء متَّصل ومن لاحظ اللفظ وأنَّ الكلام هو الصوت قال: الاستثناء منقطع؛ لكن على القولين المعنى واحد؛ لم يستطيع أن ينطق بلسانه مع الناس، ولكن يشير إليهم إشارة؛ ووجه كون هذا آية: أنَّه عجز عن النطق مع الناس، لا مع الله، مع أنَّه سليم، وهذا شيءٌ غريب؛ يعني إنسان يتكلَّم يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله أكبر؛ إنسان سوي لم يأته الآفة ولا علَّة في لسانه ولا يستطيع أن يكلِّم الناس، هذه آية؛

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الإرواء (٢/ ١١١ ـ ١١٣)، وصحيح أبي داود (٨٦٢): م. والحديث بتمامه: ((إنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ)).

عجز عن كلام الناس في مقام القدرة على الكلام مع الله بالتسبيح وغيره، فهذا آية من الله عز وجل ليرى أنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على كلِّ شيء.

{واذكر ربك كثيرًا}: أمره الله تعالى بأن يذكر ربه كثيرًا؛ لأنَّ بذكر الله تطمئن القلوب ويزداد الإيمان ويستنير القلب؛ فلهذا أمره الله أن يذكر ربه كثيرًا؛ وفائدة الأمر بالذِّكر كثيرة هنا؛ لأنَّ الله لما أخبره بأنَّه سيمنعه من مكالمة الناس بشَّره بأنَّه لم يمتنع من ذكر الله الذي هو أجلُّ وأشرف من مخاطبة الناس وكلامهم؛ فقال: {واذكر ربك كثيرًا} لأنَّه ربما يقع في قلبه لماذا قال الله له: {أن لا تكلم الناس ثلاثة أيَّام إلَّا رمزًا} ربما يقع في قلبه أن يمنع من الكلام فأراد الله تعالى أن يسري عنه وأن يذهب عنه ما يقع في قلبه وقال له: {واذكر ربك كثيرًا} وهنا لم يقل له: وإنَّك ستذكر ربك؛ بل قال: {واذكر ربك} فأمره بذكر الله ليكون ذكره لله تعالى في حال امتناع مكالمة الناس عبادة خاصة مأمورًا بها؛ لمَّا منع من مخاطبة الناس صار متفرِّغًا فأمر بأن يشغل هذا الفراغ بذكر الله عز وجل؛ وهذا أحسن وأفيد له ممَّا لو قال الله له: وإنَّك ستذكر ربك كثيرًا؛ ووجهه: أنَّه إذا أمر به صار فارغًا وإن كان الذِّكر من أصله طاعة، لكن هذا يكون طاعة خاصة في هذه الحال التي يمتنع فيها من مكالمة الناس.

وقوله: {واذكر ربك كثيرًا} {كثيرًا}: صفة لمصدر محذوف، أي: ذكرًا كثيرًا، كما قال الله تعالى: {يا أيها الناس اذكروا الله ذكرًا كثيرًا وسبحوه بكرة وأصيلًا}، وهنا قال: {وسبِّح بالعشيِّ والإبكار}: {العشيَّ}: آخر النهار، {والإبكار}: آخر الليل؛ وهذان الوقتان قد أمر الله بذكره فيهما فقال: {وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب}، والآيات في هذا كثيرة لأنَّ في الإشراق مستقبل النهار وفي العشي مستدبر النهار؛ فيكون الإنسان شاغلًا وقته أوله وآخره بذكر الله؛ من أين يبتدئ العشي؟ العشي يبتدئ من زوال الشمس بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((صلَّى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي[1]))، وهي أمَّا الظهر وإمَّا العصر؛ وقيل: العشي ما بعد صلاة العصر إلى منتصف الليل؛ ولكن الأول أصح؛ المساء يطلق من صلاة العصر إلى منتصف الليل؛ وأما العشي فهو آخر النهار.

وقوله تعالى: {والإبكار}: الإبكار ليست جمعًا لبكر؛ لأنَّ جمع بكر أبكار، كسبب وأسباب؛ لكنَّها مصدر أو اسم لهذا الوقت المعيَّن الذي هو أوَّل النهار.

قال الطبري: و{العَشيّ}: من حين تزُول الشمس إلى أن تغيب، كما قال الشاعر:

فَلا الظِّلَّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ ... وَلا الفَيْءَ مِنْ بَرْدِ العَشِيِّ تَذُوقُ

فالفيء، إنَّما تبتدئ أوْبته عند زوال الشمس، وَيتناهى بمغيبها.

١- (قلت): البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٤٠٣).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((العشي)): قال الأزهري: العشي عند العرب ما بين زوال الشمس وغروبها.

وأمَّا {الإبكار} فإنَّه مصدر من قول القائل: (أبكر فلان في حاجة فهو يُبْكِر إبكارًا)، وذلك إذا خرج فيها من بين مطلع الفجر إلى وقت الضُّحى، فذلك {إبكار}. يقال فيه: (أبكر فلان) و(بكر يَبكُر بُكورًا).

عن مجاهد: {وسبِّح بالعشيِّ والإبكار}، قال: الإبكار أوَّل الفجر، والعشيّ مَيْل الشمس حتى تغيب.

قال ابن العثيمين: وقوله: {وسبِّح بالعشيِّ والإبكار} يشمل تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به؛ وقد مرَّ علينا أنَّ تسبيح الله يكون عن أمور ثلاثة: عن صفة عين؛ وعن نقص في كمال؛ وعن مماثلة المخلوقين؛ قولوا: (مماثلة)، لأنَّ هذا هو اللفظ الذي جاء به القرآن وليس المشابهة، فيسبَّح الله عن هذه الأمور الثلاثة، فالنقص كقوله تعالى: {وتوكَّل على الحي الذي لا يموت}، والنقص في الكمال مثل قوله: {لا تأخذه سنة ولا نوم}، {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيَّام وما مسَّنا من لغوب}؛ ومماثلة المخلوقين مثل قوله: {ليس كمثله شيء}.

{وسبِّح بالعشيِّ والإبكار} الباء في قوله: {بالعشي} يحتمل أن يكون للاستيعاب يعني في كل الوقت، وأن تكون للظرفية أي في العشي؛ فإن جعلناها للظرفية لم يلزم أن نستوعب الوقت بالتسبيح؛ لقوله تعالى: {إنَّكم لتمرُّون عليهم مصبحين وبالليل} هم يمرُّون عليهم في آخره في أوله في وسطه؛ وإذا كانت للاستيعاب، فالمعنى أنَّ الله أمره أن يستوعبه هذين الوقتين كلَّهما؛ بالتَّسبيح.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- جواز البحث عمَّا يزيد به الإيمان وإن كان الإيمان موجودًا؛ بل نقول وجوب البحث عمَّا يزيد به الإيمان؛ لأنَّ الإنسان مطلوب منه أن يقوِّي إيمانه بكلِّ وسيلة.

٢- تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بخوارق العادات؛ فإنَّ كون زكريا عليه الصلاة والسلام لا يكلِّم الناس إلَّا رمزًا لكن في باب التَّسبيح ينطلق لسانه، هذا من آيات الله؛ ولهذا قال: {آيتك أن لا تكلِّم الناس ثلاثة أيَّام إلَّا رمزًا}.

٣- أنَّ الآية قد تكون على عكس ما طلبت منه؛ فهو قد طلب لتحقق وجود فيما بشر به؛ والآية كانت على العكس، كانت إعدام موجود وهو الكلام، كان قادرًا على الكلام فمنع من الكلام، كان في الأول كبير السن وامرأته عاقر فوجد له الولد؛ فالآية وما كانت آية له بينهما تضاد، هذا وجود وهذا عدم.

٤- أنَّ الإشارة تقوم مقام العبارة عند العجز عن التَّعبير لقوله: {ثلاثة أيَّام إلَّا رمزًا}؛ وجه المأخذ؟ فلا يكون كلامًا لكنَّه يكون مقامه عند العجز عنه.

٥- أنَّ الإنسان ينبغي له إذا انقطع عن الناس أن يشغل وقته بذكر الله؛ من قوله لمَّا منع من الكلام مع الناس وصار لا يكلِّمهم إلَّا رمزًا، ومعلوم أنَّ الإنسان الذي لا يكلِّم الناس إلَّا رمزًا سوف لا يكون حريصًا على مكالمتهم لئلَّا يَتعَب ويُتعِب؛ أمره الله قال: {واذكر ربك كثيرًا وسبِّح بالعشيِّ والإبكار}.

٦- فضيلة التَّسبيح والذكر في هذين الوقتين: العشي آخر النهار، والإبكار أول النهار؛ ومنه قوله تعالى: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب}.

٧- أنَّ الذِّكر ينبغي أن يكون مقرونًا بالتَّسبيح إلَّا ما ورد النص بإفراد أحدهما عن الآخر؛ لأنَّه قال: {اذكر ربك وسبِّح}؛ ولكن الذِّكر قال: {كثيرًا}، والتَّسبيح قال: {بالعشيِّ والإبكار}، فهل نقول: إنَّ الذِّكر لا يتقيَّد بالعشيِّ والإبكار؟ أو نقول: إنه متقيِّد لكن يكثر منه؟ يحتمل هذا وهذا؛ لكن الآيات الأخرى تدلُّ على أنَّ الإنسان مأمور بأن يذكر الله كثيرًا؛ قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا وسبِّحوه بكرةً وأصيلًا}، وقال الله تعالى في وصف أهل الصلاح: {والذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات}؛ وعلى هذا فيكون الذِّكر أكثر من التَّسبيح؛ لكن القرن بينهما أيضًا فيه فائدة وهو أنَّه يجمع بين الثناء على الله وتنزيهه من النقائص.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ {٤٢}

قال أبو زهرة: بيَّن الله سبحانه الأمر الخارق للسنن التي سنَّها في خروج الحيِّ من الحي، بالنسبة لولادة يحيى من عجوز عاقر، وإنَّ الذي خرق هذه السن هو خالق السنن، وإنَّما خرقها الذي خلقها ليعلم الناس أنَّه سبحانه خلقها بإرادته وحكمته فإنَّه سبحانه وتعالى فعال لما يريد. وبعد أن بيَّن ذلك، وهو العليم، مهَّد سبحانه لخارق أعظم وأبين، ليقرع حسّ الناس في عصر غلب فيه التفكير المادي على التفكير الروحي؛ وذلك هو خلق عيسى ابن مريم من غير أب، كما خلق من قبل آدم من غير أب ولا أم، وكان ذلك التمهيد ببيان الإرهاصات التي سبقت ولادة عيسى عليه السلام، وهو اصطفاء مريم واختيارها لتكون محل تلك الوديعة التي يودعها الله رحمها من غير علاقة ذكر بأنثى، وكان الاصطفاء بالطَّهارة والعفَّة والقنوت، والركوع والخضوع لرب العالمين، ثمَّ باختيارها النهائي للوديعة الربانية؛ ولذا قال تعالى: {وإذ قالت الملائكة يا مريم ...}.

قال ابن العثيمين: {وإذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله اصطفاك وطهَّرك واصطفاك على نساء العالمين} الواو حرف عطف؛ و{إذ} نقول فيها مثل ما قلنا فيما سبق في قوله: {إذ قالت امرأة عمران}: يعني أنَّها منصوبة بفعل محذوف تقديره: أذكر؛ وتضمُّن الجملة لهذا يدلُّ على العناية بها وأنَّه ينبغي إشهارها وإظهارها حتى تتبيَّن وتتَّضح للناس؛ وإنَّما ذكر الله قصة زكريا ومريم هنا، وعيسى فيما بعد في أول هذه السورة، لأنَّها نزلت في وفد نجران الذين قدموا على النبي ﷺ وهم من النصارى، فأراد الله أن يبيِّن للنبي ﷺ ومن حوله قصة المسيح كاملة، حتى يتبيَّن لهم الأمر تمامًا؛ فإذا احتاج إلى محاجَّة النصارى، وإذا عنده علمٌ قريب ممَّا عندهم.

قال أبو زهرة: {وإذ قالت الملائكة}: وتفسَّر كلمة الملائكة هنا بعدد منهم، لَا بواحد، كما استظهرنا مع ابن جرير في خطاب الملائكة لنبي الله تعالى زكريا عليه السلام.

قال ابن العثيمين: {يا مريم إنَّ الله اصطفاك وطهَّرك} ونداؤها باسم العلم نوع من التكريم، إذ لم يقل: (يا هذه) باسم الإشارة بل أتى باسمها العلم تكريمًا لها؛ {إنَّ الله اصطفاك}: أي اختارك؛ وذلك لأنَّ (اصطفى) أصلها (اصتفى) بالتاء؛ لكن لعلَّة تصريفية قلب التَّاءُ طاءً؛ وهي مأخوذة من الصَّفوة يعني جعلك من صفوة الخلق؛ واصطفائه إيَّاها سبحانه وتعالى من عدَّة وجوه:

الوجه الأول: أنَّه تقبَّلها بقبول حسن حين قالت أمُّها: {إنِّي نذرت لك ما في بطني محرَّرًا}، مع أنَّ المعروف عندهم أنَّه لا يخدم المساجد إلَّا الرجال لكن هي قبلت.

ومنها: أنَّ اصطفائه لها أنَّه أنبتها نباتًا حسنًا؛ قد سبق الكلام على معنى الكلمتين وأنَّهما تتضمَّنان التربيتين الروحية والجسدية.

ومن اصطفائه لها أيضًا: أنَّ الله اختار أن تكون عند نبي من الأنبياء حتَّى تتربَّى ببيت نبوة.

وقوله: {طهَّرك}: طهَّرك من الأرجاس المعنوية، لأنَّها بالنسبة للأرجاس الحسية كالبول والغائط والحيض كغيرها من النساء؛ لكنَّه طهَّرها من الأرجاس المعنوية فبرَّأه الله تعالى ممَّا رماها به اليهود؛ وكذلك طهَّرها من الأخلاق السافلة حتى كانت دائمًا في عبادة الله تعالى، فهي مطهَّرة من العيوب الظَّاهرة ومن العيوب الباطنة، ونصَّ الله تعالى على ذلك دفعًا لقول اليهود قاتلهم الله ولعنهم إنَّها كانت بغيًا وإنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام كان ولد زنا.

ثمَّ قال: {واصطفاك على نساء العالمين}: الواو حرف عطف؛ {واصطفاك على نساء العالمين}: أي ميَّزك من بينهن؛ فالاصطفاء الأول اصطفاء عام وهذا اصطفاء خاص بالنساء، اصطفاها الله تعالى من بين سائر النساء حيث جعلها من نساء الكُمَّل؛ وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ مريم خير نساء البشر؛ هي وخديجة بنت خويلد وآسية امرأة فرعون؛ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام؛ فهي من نساء الكمل رضي الله عنها؛ ولهذا قال: {اصطفاك على نساء العالمين}، وهل المراد نساء العالمين في زمنها؛ لأنَّ النساء اللاتي في زمن النبي ﷺ لاشك أنَّهنَّ في أمَّة هي خير الأمم؛ أو المراد العموم؟ فيه قولان للعلماء؛ والراجح إنَّه خاص بنساء زمانهم كما ذكر الله عن بني إسرائيل أنَّه فضَّلهم على العالمين ومع ذلك هذه الأمَّة أفضل منهم، {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنِّي فضَّلتكم على العالمين} ومن المعلوم أنَّهم ليسوا أفضل من هذه الأمَّة؛ لقوله تعالى: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بن أبي رَجَاءٍ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ عَنْ هِشَامٍ أخبرني أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عمران، وخير نسائها خديجة([1]))).

وَرَوَاهُ وَكِيعٌ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، وَأَشَارَ وَكِيعٌ إِلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وأَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بن يوسف أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا آدَمُ أَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو بن مرة عن مُرَّةَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ([2]))).

أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيد عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ الطَّاهِرِيُّ أَخْبَرَنَا جَدِّي عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَزَّازُ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا الْعَذَافِرِيُّ أَخْبَرَنَا إِسْحَاقُ الدَّبَرِيُّ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ([3]))).

قال ابن العثيمين: وقوله: {على نساء العالمين}: العالمين هم كل من سوى الله في الأصل كما قال تعالى: {الحمد لله رب العالمين} فالرب والمربوب لا يوجد سواهما؛ وعليه فالعالم كل من سوى الله، هذا في الأصل؛ وسمِّيَ عالَمًا لأنَّه علم على

١- إسناده صحيح على شرط البخاري، أبو رجاء اسمه عبد الله بن أيوب، النضر هو ابن شميل المازني، هشام هو ابن عروة بن الزبير، وقد توبع أحمد بن أبي رجاء عند مسلم وغيره، ومن فوقه على شرطهما.

- وهو في شرح السنة (٣٨٤٧) بهذا الإسناد.

- أخرجه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (٣٤٣٢) عن أحمد بن أبي رجاء بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ٣٨١٥ ومسلم ٢٤٣١ والترمذي ٣٨٨٧ وأحمد ١/ ٨٤ و١٣٢ و١٤٣ وأبو يعلى ٥٢٢ من طرق عن هشام بن عروة به.

٢- إسناده صحيح على شرط البخاري، آدم هو ابن أبي إياس عبد الرحمن العسقلاني، روى له البخاري دون مسلم، ومن فوقه رجال الشيخين، شعبة هو ابن الحجاج، عمرو هو ابن مرة بن عبد الله الجملي، ومرة هو ابن شراحيل الهمداني.

- وهو في شرح السنة (٣٨٥٧) بهذا الإسناد. أخرجه المصنف من طريق البخاري وهو في صحيحه (٣٤٣٣) عن آدم بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ٥٤١٨ ومسلم ٢٤٣١ وابن ماجه ٣٢٨٠ وابن حبان ٧١١٤ من طريق محمد بن بشار، عن غندر مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ به.

- وأخرجه البخاري ٣٤١١ و٣٧٦٩ والنسائي ٧/ ٦٨ وابن أبي شيبة ١٢/ ١٢٨ وأحمد ٤/ ٣٩٤ و٤٠٩ والطبراني ٢٣/ (١٠٦) من طرق عن شعبة به.

٣- إسناده صحيح رجاله رجال البخاري ومسلم، سوى إسحق، وهو ثقة، معمر هو ابن راشد، قتادة هو ابن دعامة السدوسي. وهو في شرح السنة (٣٨٤٨) بهذا الإسناد.

- أخرجه المصنف من طريق عبد الرزاق وهو في مصنفه (٢٠٩١٩) عن معمر بهذا الإسناد.

- ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الترمذي ٣٨٧٨ وأحمد ٣/ ١٣٥ وابن حبان ٧٠٠٣ والطحاوي في المشكل (١٤٧) والطبراني في الكبير (٢٢/ (١٠٠٣) والحاكم ٣/ ١٥٧. قال الترمذي: هذا حديث صحيح اهـ.

- وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٣٢ و١٣٣٨) ومن طريقه الحاكم ٣/ ١٥٧- ١٥٨ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن أنس به وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي.

- وله شاهد من حديث ابن عباس بلفظ: ((أفضل نساء أهل الجنة خديجة ...)). أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣ والطحاوي في المشكل (١٤٨) وأبو يعلى ٢٧٢٢ وابن حبان ٧٠١٠ والطبراني ١١٩٢٨ و٢٢/ (١٠١٩) والحاكم ٢/ ٥٩٤ و٣/ ١٦٠ و١٨٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

خالقه عز وجل؛ فإنَّ ما في هذه المخلوقات من الآيات الدالَّة على كمال الله سبحانه وتعالى وعلى كل ما تتضمَّنه هذه المخلوقات علم واضح على ما تتضمَّنه هذه المخلوقات من الصفات الكاملة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تعظيم شأن مريم رضي الله عنها، حيث أمر الله نبيه أن يذكر قصَّتها لهذه الأمَّة؛ لأنَّنا قلنا: {إذ قالت} مفعول لفعل محذوف تقديره: {اذكر إذ قالت}.

٢- فضيلة مريم، حيث خاطبتها الملائكة؛ لقولها: {إنَّ الله اصطفاك ...}.

٣- ما ذهب إليه بعض أهل العلم: أنَّ مريم نبية؛ لأنَّ الملائكة أوحت إليها وقالت: {إنَّ الله اصطفاك ...}، ولكن في هذا الاستدلال نظر؛ لأنَّه ليس بصريح بأنَّها نبئت ومجرَّد خطاب الملائكة لها لا يثبت نبوتها؛ لأنَّ النبوة إنَّما هي لمن أوحي إليه بشرع لا لمن أوحي إليه بثناء، أو بتهيئته لما سيكون؛ بل من أوحي إليه بشرع، وهي لم يوحى إليها بشرع؛ فالأمر ليس بصريح؛ ولدينا آية تدلُّ على أنَّه لا يبعث من النساء نبي قال الله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلَّا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى}، {إلَّا رجالًا}، و{إلَّا} تفيد الحصر فتدلُّ على أنَّه لا يمكن أن تكون امرأة من النساء نبية؛ وكذلك أيضًا قال النبي ﷺ حين بلغه أنَّ الفرس أمَّروا عليهم بنت كسرى قال: ((لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة([1]))، وإذا كان القوم لا يفلحون مع الانتخاب فإنَّهم هم الذين انتخبوها وولُّوها، فكيف يمكن أن يرسل الله تعالى امرأة ليفلح الناس على يدها؛ صحيح أنَّ امرأة تكون عالمة تكون داعية كما هو الواقع، أمَّا أن تكون نبية يوحى إليها لتتولَّى السلطة كما يقولون تشريعية وتنفيذية فهذا بعيد؛ فالصواب أنَّ مريم من الصالحات القانتات وليست من الأنبياء والرسل.

٤- أنَّ الله تعالى يصطفي من الناس من يشاء؛ لقوله: {إنَّ الله اصطفاك} أي اختارك اختيارًا لم يشاركها فيه أحد؛ لأنَّها صارت خادمة لبيت المقدس مع أنَّه لا يخدمه عندهم إلَّا الرجال؛ فهذا نوع من الاصطفاء.

٥- براءة مريم ممَّا ادَّعاه اليهود من كونها بغيَّة؛ لقوله: {وطهَّرك} واليهود قبَّحهم الله اعتدوا على مريم في ابنها؛ فقالوا في مريم إنَّها بغي؛ وقالوا في ابنها إنَّه ولد زنا، وكذبوه وقتلوه إثمًا لا حقيقة؛ لأنَّهم أمضوا هذا الأمر الذي يظنون أنَّهم قتلوا عيسى وصلبوه وقالوا: إنَّا قتلنا عيسى بن مريم رسول الله؛ قال الله تعالى: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم} فكانوا قتلةً إثمًا لا حقيقةً لأنَّ عيسى باق إلى الآن.

٦- أنَّ مريم مفضَّلة ومصطفاة على نساء العالمين؛ ولكن هل هذا يتناول نساء العالمين إلى يوم القيمة؟ أو نساء العالمين في زمنها؟ يحتمل المعنيين؛ ولكن الراجح أنَّ المراد نساء العالمين في زمنها، ويكون قول الرسول ﷺ: ((كمل من الرجال كثير

١- (قلت): البخاري (٤٤٢٥)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٤٥٦).

ولم يكمل من النساء إلَّا آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد))، يكون هذا ممَّا أطْلَع الله عليه نبيه ولم تُطْلِع الملائكة على هذا؛ والملائكة بلَّغت مريم ما بلَّغت به.

٧- تكرار أو جواز تكرار المناقب؛ لأنَّ أوصاف الكمال كلَّما كرِّرت ظهر من كمال الموصوف ما لم يكن معلومًا من قبل.

٨- ننطلق من هذه الفائدة إلى فائدة تتعلَّق بصفات الله عز وجل وهي: أنَّ أكثر ما وصف الله به نفسه الصفات الثبوتية التي يثبتها لنفسه؛ أمَّا الصفات التي ينفيها عن نفسه فوصفه بها قليل بالنسبة لوصفه بصفات الإثبات؛ لأنَّ صفات الإثبات كمالات وصفات النفي نقائص تنفى لا لذاتها ولكن لإثبات كمال ضدِّها مع أنَّها هي منفية أيضًا حقيقةً.

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ {٤٣}

قال ابن العثيمين: {يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} هذا من خطاب الملائكة أيضًا، تقول لها: {يا مريم اقنتي لربك}: والقنوت هو دوام الطاعة؛ واللام في قوله: {لربك} للاختصاص: أي قنوتًا خالصًا لله، أي طاعة خالصة له؛ لأنَّ من شرط الطاعة أن تكون خالصة لله سبحانه وتعالى؛ وقوله: {لربك(١)}: الربوبية هنا ربوبية خاصة؛ وقد مرَّ علينا أنَّ الربوبية تنقسم إلى ربوبية عامَّة وربوبية خاصَّة؛ فالعامَّة هي الشاملة لكل أحد؛ والخاصَّة تختصُّ بمن خصَّها الله به؛ لكنَّها تفيد التربية، أكثر اعتناءً واختصاصًا من الربوبية العامَّة.

وقوله: {واسجدي} الواو حرف عطف؛ {واسجدي} يعني السجود المعروف؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّ هذه الأمَّة أمرت أن تسجد على سبعة أعظم؛ وعطف السجود على القنوت من باب عطف الخاص على العام؛ وذكر الخاص بعد العام يدلُّ على فضله ومزيَّته؛ ولاشك أنَّ السجود من أفضل أنواع الطاعة؛ ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. وقوله: {اركعي مع الراكعين} الركوع معروف وهو انحناء الظهر؛ وقوله: {مع الراكعين}: أي في جملتهم؛ وليس المراد أنَّها تصلِّي مع الجماعة؛ لأنَّ المرأة لا تخاطب بالصلاة مع الجماعة؛ لكن كوني في جملة الراكعين الذين يركعون لله عز وجل.

قال شيخ الإسلام في الصلاة وأحكام تاركها ج١ص١٠١: ووجه الاستدلال بالآية: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، أنَّه سبحانه أمرهم بالركوع وهو الصلاة وعبَّر عنها بالركوع لأنَّه من أركانها، والصلاة يعبَّر عنها بأركانها وواجباتها كما سماها الله سجودًا وقرآنًا وتسبيحًا فلابدَّ لقوله: {مَعَ الرَّاكِعِينَ}، من فائدة أخرى وليست إلَّا فعلها مع جماعة المصلِّين، والمعيَّة تفيد ذلك.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرب} مفصلًا عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

إذا ثبت هذا الأمر المقيَّد بصفة أو حال لا يكون المأمور ممتثلًا إلَّا بالإتيان به على تلك الصفة والحال، فإن قيل: فهذا ينتقض بقوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}، والمرأة لا يجب عليها حضور الجماعة، قيل: الآية لم تدلُّ على تناول الأمر بذلك لكلِّ امرأة بل مريم بخصوصها أمرت بذلك، بخلاف قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، ومريم كانت لها خاصَّة لم تكن لغيرها من النساء فإنَّ أمها نذرتها أن تكون محرَّرة لله ولعبادته ولزوم المسجد، وكانت لا تفارقه، فأمرت أن تركع مع أهله، ولمَّا اصطفاها الله وطهَّرها على نساء العالمين أمرها من طاعته بأمر اختصَّها به على سائر النساء، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}، فإن قيل كونهم مأمورين أن يركعوا مع الراكعين لا يدلُّ على وجوب الركوع معهم حال ركوعهم بل يدلُّ على الإتيان بمثل ما فعلوا، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، فالمعيَّة تقضي المشاركة في الفعل ولا تستلزم المقارنة فيه. قيل: حقيقة المعيَّة مصاحبة ما بعدها لما قبلها، وهذه المصاحبة تفيد زائدًا على المشاركة ولا سيَّما في الصلاة فإنَّه إذا قيل صلِّ مع الجماعة أو صلَّيت مع الجماعة لا يفهم منه إلَّا اجتماعهم على الصلاة.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج٢٣ص٢٢٨: خَصَّ الرُّكُوعَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ تُدْرَكُ بِهِ الصَّلَاةُ، فَمَنْ أَدْرَكَ الرَّكْعَةَ فَقَدْ أَدْرَكَ السَّجْدَةَ، فَأَمَرَ بِمَا يُدْرَكُ بِهِ الرَّكْعَةُ، كَمَا قَالَ لِمَرْيَمَ: {اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}، فَإِنَّهُ لَوْ قِيلَ: (اُقْنُتِي مَعَ الْقَانِتِينَ)، لَدَلَّ عَلَى وُجُوبِ إدْرَاكِ الْقِيَامِ، وَلَوْ قِيلَ: اُسْجُدِي، لَمْ يَدُلَّ عَلَى وُجُوبِ إدْرَاكِ الرُّكُوعِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: {وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ بِإِدْرَاكِ الرُّكُوعِ وَمَا بَعْدَهُ دُونَ مَا قَبْلَهُ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد ج١ص٦٨: وممَّا قُدِّم بالفضل قوله: {واسجدي واركعي مع الراكعين}، لأنَّ السجود أفضل، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. فإن قيل: فالركوع قبله بالطبع والزمان والعادة لأنَّه انتقال من علو إلى انخفاض، والعلو بالطبع قبل الانخفاض فهلَّا قدَّم الركوع؟ الجواب أن يقال انتبه لمعنى الآية من قوله: {اركعي مع الراكعين}، ولم يقل: (اسجدي مع الساجدين)، فإنَّما عبَّر بالسجود عن الصلاة وأراد صلاتها في بيتها لأنَّ صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها مع قومها ثمَّ قال لها: {اركعي مع الراكعين}: أي صلِّي مع المصلِّين في بيت المقدس، ولم يرد أيضًا الركوع وحده دون أجزاء الصلاة، ولكنَّه عبَّر بالركوع عن الصلاة كما تقول: (ركعت ركعتين)، و(أربع ركعات)، يريد الصلاة لا الركوع بمجرَّده، فصارت الآية متضمِّنة لصلاتين: صلاتها وحدها، عبر عنها بالسجود لأنَّ السجود أفضل حالات العبد، وكذلك صلاة المرأة في بيتها أفضل لها، ثمَّ صلاتها في المسجد عبَّر عنها بالركوع لأنَّه في الفضل دون السجود، وكذلك صلاتها مع المصلِّين دون صلاتها وحدها في بيتها ومحرابها وهذا نظم بديع وفقه دقيق.

قال الطبري: فتأويل الآية، إذًا: يا مريم أخلصي عبادةَ ربك لوجهه خالصًا، واخشعي لطاعته وعبادته مع من خشع له من خلقه، شكرًا له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتَّطهير من الأدناس، والتَّفضيل على نساء عالم دَهرك.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان أنَّه كلُّ ما منَّ الله على إنسان بشيءٍ كانت مطالبته بالعبادة أكثر؛ لأنَّ الملائكة لمَّا قالت: {إنَّ الله اصطفاك وطهَّرك واصطفاك على نساء العالمين}، أمر بالقنوت والسجود والركوع؛ فدلَّ هذا على أنَّه ينبغي للإنسان كلَّما ازدادت عليه نعم الله أن يزداد على ذلك شكرًا بالقنوت لله، والركوع والسجود وسائر العبادات.

٢- فضيلة القنوت لله؛ والقنوت هو دوام الطاعة والخشوع والاشتغال بالطاعة عمَّا سواه؛ ولهذا لمَّا نزلت هذه الآية: {حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى وقوموا لله قانتين}، أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام ليشتغلوا بالطاعة عمَّا سواها؛ فالقنوت دوام الطاعة مع الاشتغال بها عن غيرها([1]).

٣- فضيلة السجود والركوع؛ لقوله: {واسجدي واركعي مع الراكعين}، مع أنَّه من القنوت لكن لفضيلتهما نصَّ عليهما.

٤- جواز ترك التَّرتيب لمصلحة أو لمراعاة شيء آخر؛ وهو قوله: {اسجدي واركعي}. ولا يقول قائل: لعلَّ الصلاة في عهدهم يقدَّم فيها السجود وفي هذه الشريعة يقدَّم فيها الركوع، لأنَّ الأصل خلاف ذلك؛ لكن بدأ بالسجود لأنَّه أبلغ في القنوت من الركوع كما ذكرناه في أثناء التفسير.

٥- أنَّ العباد من الرجال أظهر منها من النساء؛ لقوله: {اركعي مع الراكعين}، ولم يقل: مع الراكعات؛ إشارة إلى أنَّ الكمال في الرجال وكثرة العمل في الرجال أظهر منها في النساء؛ ولهذا كانت النساء أكثر أهل النار كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ {٤٤}

قال أبو زهرة: هذه قصة مريم في ولادتها، وتهيئتها للآية الكبرى الدَّالَّة على أنَّ الخالق فاعل مختار، قد قصَّها الله جل شأنه في القرآن الذي جاء به أمِّي لَا يقرأ ولا يكتب، لم يتعلَّم ولم يجلس إلى معلِّم، ولم يختلط باليهود والنصارى، وفوق ذلك هذه القصة لم تكتب في التوراة قط، ولم يتعرَّض لها الإنجيل، وجاء بها القرآن الكريم. وهي صادقةٌ كلَّ الصِّدقِ، فمن أين جاء علم هذا إلى ذلك الأُمِّي؟ إنَّه من عند الله. أشار المولى إلى هذا المعنى بقوله: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نوحيه إِلَيْكَ}.

قال ابن العثيمين: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك} {ذلك}: المشار إليه كل ما سبق من قصة زكريا وقصة مريم؛ وقوله: {من أنباء الغيب}: أي من أخبار الشيء الغائب الذي لا يعلم؛ لكن ليس المراد من وقع في زمنه؛ لأنَّ من وقع في زمنه فهم

---

[1]- قلت: أنظر كلام شيخ الإسلام وابن العثيمين في الفوائد عن (القنوت) عند تفسير الآية (١١٦) من سورة البقرة.

يعلمونه؛ لكنَّ المراد لا يعلمها النبي ﷺ ولا قومه كما قال تعالى في سورة هود: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت ولا قومك تعلمها أنت من قبل هذا فاصبر إنَّ العاقبة للمتَّقين}، إذًا هي غيب نسبي بالنسبة لمن لم تكن في زمنه، أمَّا من كانت في زمنه فهي مشاهدة؛ ولكن الرسول ﷺ وقومه كانوا أميِّين لا يعلمون شيئًا عن الأمم السابقين، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ما أوحى من أخبار السابقين التي ما كان يعلمها لا هو ولا قومه، وهو دليل على أنَّه رسول الله حقًّا وأنَّ الوحي يأتيه من الله.

وقوله: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك}: الوحي في اللغة الإعلام بسرعة وخفاء؛ فإذا أعلمك إنسان بسرعة على وجه خفي يسمَّى في اللغة وحيًا؛ ولكن الوحي في الشرع: إخبار الله سبحانه وتعالى لنبيٍّ من أنبياءه بما يشاء من شرعه، هذا هو الوحي، ثمَّ إن كلَّفه بتبليغه(١) كان رسولًا وإلَّا كان نبيًّا.

قال الطبري: أخبر تعالى ذكره نبيه محمدًا ﷺ أنَّه أوحى ذلك إليه، حجَّةً على نبوَّته، وتحقيقًا لصدقه، وقطعًا منه به عذرَ منكري رسالته من كفار أهل الكتابين، الذين يعلمون أنَّ محمدًا لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خُمولها عند أهلها، إلَّا بإعلام الله ذلك إيَّاه. إذ كان معلومًا عندهم أنَّ محمدًا ﷺ أمِّيٌّ لا يكتب فيقرأ الكتب، فيصل إلى علم ذلك من قِبَل الكتب، ولا صاحبَ أهل الكتُب فيأخذ علمه من قِبَلهم.

قال ابن العثيمين: وقوله: {وما كنت لديهم}: أي ما كنت عندهم، يعني عند زكريا وقومه.

{إذ يلقون أقلامهم أيُّهم يكفل مريم} {إذ}: أي حين؛ وهي متعلِّقة بقوله: {كنت}: يعني ما كنت في ذلك الوقت عندهم {إذ يلقون أقلامهم أيُّهم يكفل مريم} {أقلامهم}: اختلف العلماء في تفسيره؛ فقيل: إنَّها على ظاهرها أنَّهم ألقوا أقلامهم التي يكتبون بها؛ وقيل: إنَّ المراد بها سهامهم التي تكون في النسل يرمون بها، وسمِّيت قلمًا لأنَّها تشبهه في الاستطالة ودقَّة الرأس؛ والسهم عندهم بمنزلة الرصاصة عندنا في الوقت الحاضر؛ على كل حال، ظاهر القرآن أنَّ المراد بالأقلام، الأقلام الحقيقية التي يكتب بها؛ ولا نعدل عنها إلَّا بدليل؛ هذه هي القاعدة الشرعية في تفسير القرآن؛ بل هو تفسير الحديث النبوي؛ بل هو في كلام الغير حتى كلام الناس يجب أن نعمل بظاهره إلَّا بدليل.

قال الطبري: عن ابن عباس قوله: {وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم}، وإنّ مريم لما وضعت في المسجد، اقترع عليها أهلُ المصلَّى وهم يكتبون الوَحْى، فاقترعوا بأقلامهم أيُّهم يكفُلها، فقال الله عز وجل لمحمد ﷺ: {وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيُّهم يكفل مريم وما كنت لدَيهم إذْ يختصمون}.

قال ابن العثيمين: ولكن كيف ألقوا هذه الأقلام؟ المعروف أنَّهم ألقوها في النهر، في الماء الذي يمشي؛ فمن حبس منها فهو صاحبه الذي يكفل مريم، وما جرى فهو الذي لا يكفله؛ ولكن القرآن ليس فيه بيان ذلك، يعني ليس فيه أنَّهم وضعوا

١- (قلت): بتبليغه لقوم مخالفين له في الدِّين. أنظر الفرق بين الرسول والنبي عند تفسير الآية (٤٩) من سورة آل عمران.

هذه الأقلام في النهر، إنَّما ألقوا أقلامهم على وجهٍ الله أعلم بكيفيته؛ لكنَّهم ألقوها من باب الاقتراع، يعني قرعة أيُّهم يكفل مريم؛ فخرجت القرعة لزكريا كما قال تعالى في أول القصة: {وكفَّلها زكريا}.

{وما كنت لديهم إذ يختصمون}: يعني وما كنت عندهم أيضًا في حال اختصامهم أيُّهم يكفل مريم؛ هذا الاختصام الظاهر أنَّه قبل إلقاء الأقلام، لكن أخِّرت الذِّكر لمناسبة رؤوس الآيات، {إذ يختصمون} هذا هو الذي يظهر؛ على أنَّه قد يقال: إنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر النتيجة قبل المقدمة أو قبل السبب لأنَّها هي الغاية؛ فإنَّ إلقاء الأقلام والإستهام هو غاية الاختصام؛ فاختصموا أيُّهم يكفلها فقالوا: لنسهم بإلقاء الأقلام.

وقوله: {وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم} هذا كالدليل لقوله: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك}: يعني فأنت ما قلت لأنَّك شاهد؛ ولكن قلت لأنَّها أوحيت إليك. وأيضًا فيه إشارة إلى أنَّ هذا الذي أنبئ به كأنَّما يراه بعينه، كأنَّه حاضر؛ وهو كذلك، بل كما قلنا فيما سبق إنَّ إخبار الله عز وجل أشدُّ ثبوتًا وحقيقةً ممَّا يرى بالعين.

قال محمد رشيد رضا: أَمَّا الْمُجَاحِدُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا سِيَّمَا دُعَاةُ النَّصْرَانِيَّةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَهُمْ يَقُولُونَ فِيمَا وَافَقَ الْقُرْآنُ بِهِ كُتُبَهُمْ إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْهَا بِدَلِيلِ مُوَافَقَتِهِ لَهَا، وَفِيمَا خَالَفَهَا إِنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ بِدَلِيلِ أَنَّهُ خَالَفَهَا، وَفِيمَا لَمْ يُوَافِقْهَا وَلَمْ يُخَالِفْهَا بِهِ إِنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ لِأَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَنَا، وَهَذَا مُنْتَهَى مَا يُكَابِرُ بِهِ مُنَاظِرٌ مُنَاظِرًا، وَأَبْطَلُ مَا يَرُدُّ بِهِ خَصْمٌ عَلَى خَصْمٍ. وَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّنَا نَحْتَجُّ عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ هُوَ الْحَقُّ بِمَا قَامَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ حِفْظِ كِتَابِهِ، وَنَقْلِهِ بِالتَّوَاتُرِ الصَّحِيحِ، وَمِنْ تِلْكَ الدَّلَائِلِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ مَعْرِفَةُ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْ كَوْنِهِ أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا – كَمَا تَقَدَّمَ – فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ نَفْسِهَا، وَمَا جَاءَ فِيهَا مُخَالِفًا لِمَا فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ نَعُدُّهُ مُصَحِّحًا لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ الْغَلَطِ وَالنِّسْيَانِ بِانْقِطَاعِ أَسَانِيدِهَا حَتَّى أَنَّ أَعْظَمَهَا وَأَشْهَرَهَا كَالْأَسْفَارِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَا يُعْرَفُ كَاتِبُهَا وَلَا زَمَنَ كِتَابَتِهَا وَلَا اللُّغَةَ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا أَوَّلاً.

قال شيخ الإسلام في الصفدية ج١ص١٤٢: فإنَّ القرآن فيه من الأخبار عن الأمم الماضية كقصة آدم وإبليس ونوح وقومه ومخاطبته لهم، وقصة عاد وثمود وفرعون وما جرى من الأمم وقومهم من المخاطبات في الأمور الجزئية ممَّا لا يمكن أن تعلم بالحدس وقوى النفس التي تنال بواسطة العلم بالحدِّ الأوسط. وكذلك الخبر عن الأمور المستقبلة المفصَّلة، فإنَّ هذه كلُّها لا يمكن في الجبلة أن تعلم إلَّا بمخبر يخبر بها الإنسان، وأمَّا علمه بها بدون الخبر فممتنع من قوى النفس. ولهذا يقول سبحانه وتعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا}[القصص: ٤٦]، {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِي}[القصص: ٤٤]، {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ}.

قال الطبري: وذلك من الله عز وجل، وإن كان خطابًا لنبيه ﷺ، فتوبيخٌ منه عز وجل للمكذِّبين به من أهل الكتابين. يقول: كيف يشكُّ أهل الكفر بك منهم وأنت تنبِّئهم هذه الأنباءَ ولم تشهدْها، ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمورَ، ولست ممَّن قرأ الكتب فعَلِم نبأهم، ولا جالَس أهلها فسمع خبَرَهم؟!

قال أبو زهرة: وهنا بعض مباحث نشير إليها:

أولها: أنَّ (لدى) معناها (عند)، و (لدى) هنا تشير إلى معنى ليس في (عند)؛ ذلك أنَّها تشير إلى عندية بعيدة غير حاضرة ولا قريبة في الزمن؛ فهي تشير إلى أنَّ خبر مريم وولادتها خبر بعيد موغل في القِدم بالنسبة للإنسان، فما كانت هذه العندية متصورة، وما كان لأحد أن يعلم ما عند القوم علم من يشاهد ويعاين؛ لأنَّ كثيرًا منها كان نفسيًّا قلبيًّا، وبعضه كان حسِّيًّا ماديًّا ولكن لم يعلم للناس.

وثانيها: أنَّ هذه القصة ليست معلومة على هذا الوجه عند المسيحيين، ولا يسعهم تكذيبها؛ لأنَّها أقرب إلى العقول ممَّا ينسبونه لمريم من أنَّها كانت ذات بعل، أو مخطوبة أو نحو ذلك، فما عندهم مدعاة للشك، وما ذكره القرآن مدعاة للصِّدق والطُّهر والنَّقاء، وهذا الذي يرشِّح للآية الكبرى بولادتها من غير حمل، فأي الخبرين أصدق قيلًا؟

وثالثها: وهو أنَّ هذه القصة بما تشير إليه الآية الكريمة: {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ} تشير إلى بعض معاني الإعجاز في القرآن الكريم، وهو حكاية أخبار الأولين التي لم يكن يعلمها أحد إلَّا ربُّ العالمين، وهي حكاية دلائل الصِّدق فيها واضحة، وبيِّنات الحق فيها لائحة، وإذا كان النبي لَا يعلمها عن مشاهدة ولا عن سماع، فطريق العلم بها هو الله، وهذا يدلُّ على أنَّ القرآن من عند الله العزيز الحكيم، وهو سجل الشرائع السماوية الخالد إلى يوم القيامة، ولو كره الكافرون، كما قال منزله سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.

قال القرطبي: استدلَّ بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكلِّ من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجَّة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظنَّة عمَّن يتولَّى قسمتهم، ولا يفضَّل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد اتِّباعًا للكتاب والسنة.

وردَّ العمل بالقرعة أبو حنيفة وأصحابه، وردُّوا الأحاديث الواردة فيها، وزعموا أنَّها لا معنى لها وأنَّها تشبه الأزلام التي نهى الله عنها. وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة أنه جوزها وقال: القرعة في القياس لا تستقيم، ولكنَّا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنة. قال أبو عبيد: وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس وزكريا ونبينا محمد ﷺ. قال ابن المنذر: واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردِّها.

وقد ترجم البخاري في آخر كتاب الشهادات (باب القرعة في المشكلات وقول الله عز وجل: {إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ})، وساق حديث النعمان بن بشير: ((مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن(١) فيها مثل قوم استهموا على سفينة...(٢))) الحديث.

١- المدهن: الذي يرائي.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٨٣٢). والحديث بتمامه: ((مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم و ما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)).

وحديث أم العلاء، وأن عثمان بن مظعون طار لهم سهمه في السكنى حين اقترعت الأنصار سكنى المهاجرين، الحديث، وحديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها؛ وذكر الحديث([1]). وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك؛ فقال مرة: يقرع للحديث. وقال مرة: يسافر بأوفقهنَّ له في السفر. وحديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثمَّ لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه لاستهموا([2]))). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وكيفية القرعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف. واحتج أبو حنيفة بأن قال: إنَّ القرعة في شأن زكريا وأزواج النبي ﷺ كانت ممَّا لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز. قال ابن العربي: وهذا ضعيف، لأنَّ القرعة إنَّما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح([3])؛ فأمَّا ما يخرجه التراضي فيه فباب آخر، ولا يصحُّ لأحد أن يقول: (إنَّ القرعة تجري مع موضع التَّراضي)، فإنَّها لا تكون أبدًا مع التَّراضي وإنَّما تكون فيما يَتَشَاحّ الناس فيه ويُظَنُّ به([4]).

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {٤٥}

قال أبو زهرة: والملائكة الذين خاطبوا مريم بذلك الخطاب يتَّضح من السياق أنَّهم الذين خاطبوها بالاصطفاء؛ فكأنَّهم قد بشَّروها بالاصطفاء على نساء العالمين، وبشَّروها مع ذلك بنوع الاصطفاء. وقد استظهرنا كما استظهر ابن جرير الطبري أنَّ الملائكة الذين بشَّروا بالاصطفاء كانوا عددًا ولم يكونوا واحدًا، فلابدَّ إذًا أنَّ الذين بشَّروا بحقيقته كانوا عددًا أيضًا، ولكن سورة مريم فيها بيان أنَّ الذي أنبأها نهائيًّا بهبة الله تعالى لها كان ملكًا تمثَّل في صورة بشر قد أودعها ما يكون منه الولد من غير تلقيح جنسي؛ لأنَّ الملك ليس له تلك الشهوة الإنسانية؛ ولذا قال سبحانه: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}.

١- (قلت): متفق عليه. وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٦٦١).

٢- (قلت): متفق عليه. وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣٩).

٣- تشاح الخصمان: أراد كل أن يكون هو الغالب.

٤- (قلت): الصحيح ما قاله مخالفوا أبي حنيفة. ولمن أراد المزيد مراجعة كتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) لآبن القيم رحمه الله.

وإنَّ التوفيق بين هذا النص الكريم، والنص الذي نتكلَّم في معناه سهل لا يحتاج إلى إعمال فكر؛ ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل ملائكته إليها يبشِّرونها بالاصطفاء ويبشِّرونها بنوع الاصطفاء، ثم أرسل إليها بعد هذه البشارات المتكرِّرة ملكًا تمثَّل لها بشرًا سويًّا. ليودع رحمها نهائيًّا تلك الهبة التي أهداها رب العالمين إليها.

قال ابن العثيمين: {إذ قالت الملائكة يا مريم}: يعني اذكر إذ قالت الملائكة يا مريم؛ والمراد جنس الملائكة؛ لأن القائل واحد والمشهور أنه جبريل، قال: {إنَّ الله يبشِّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ... } قوله: {يبشِّرك}: سبق أنَّ معنى البشارة في الأصل: الإخبار بما يسر، وأنَّها قد تطلق على الإخبار بما يسوء بجامع أنَّ كلًّا ممَّا يسر وما يسوء يغير البشرة ويؤثِّر فيها.

قوله: {بكلمة}: تحتمل وجهين؛ الوجه الأول: أن الكلمة هي المُبَشَّر به كما تقول: بشرته بولد؛ فتكون الكلمة هي المُبَشَّر به؛ والوجه الثاني: أنَّ المراد بالكلمة هنا الصيغة التي حصلت بها البشارة أي يبشِّرك بشارة عن طريق النطق بها، كما تقول: بشرته بالقول لا بالكتابة؛ فأنت مثلا تبشر الإنسان إما بواسطة النطق أو بواسطة الكتابة وإمَّا بواسطة الإشارة؛ فقوله: {يبشرك بكلمة}: أي أن الوسيلة التي حصلت هي البشارة هي الكلمة؛ يعني أن الله تعالى قال كلمة فيها البشرى بالمسيح عيسى بن مريم؛ فالوجهان محتملان؛ الوجه الأول ما هو؟ المراد بالكلمة عيسى يعني المُبَشَّر به كما تقول: بشَّرته بولد؛ أو أن المراد بالكلمة الصيغة التي حصلت بها البشارة، أي أن البشارة حصلت من الله بالقول كما تقول: بشَّرته بالنطق، بشرته بالكتابة، بشَّرته بالإشارة.

فأمَّا على الاحتمال الثاني فلا إشكال أن تقع البشارة بالنطق؛ لكن على الاحتمال الأول أنَّ الكلمة هي المُبَشَّر به؛ فكيف يكون المُبَشَّر به كلمة مع أنَّه إنسان؟ أجاب العلماء عن ذلك بأنَّه أطلق عليه الكلمة لأنَّه كان بالكلمة لا بالوسائل الحسِّيَّة المعلومة؛ لأنَّ الولد في العادة يأتي بواسطة النكاح؛ لكن هذا لم يأت بالنكاح أتى بالكلمة {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}؛ فلهذا صح أن يطلق عليه الكلمة.

وفي هذه الآية إشكال وهو إشكال آخر: إذا قلنا إن قوله: {بكلمة}: تعني المُبَشَّر به وهو قوله: {منه} {بكلمة منه}، فإنَّ {منه} لها معاني؛ منها: التبعيض، فهل معنى ذلك أنَّ عيسى بعض من الله كما قال ذلك النصارى؟

الجواب: لا ليس بعضًا من الله؛ لأنَّ الله واحد أحد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد؛ ولا يتَّبع أحد هذه الآية ويَدَّعي البعضية، إلَّا من في قلبه زيغ، {فأمَّا الذين في قلوبهم زيغ فيتَّبعون ما تشابه منه}، والنصراني كما اتَّبع المتشابه في هذه الآية، اتَّبع المتشابه في قوله: {إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون} قالوا هذا كلام الله يقول: {إنَّا} إنَّا تفيد الجمع؛ فاتَّبَعَ المتشابه انتصاراً لرأيه الفاسد؛ ولا يخفى على كلِّ ذي لب أنَّ المراد بقوله: {إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر}، وما أشبهها التعظيم لا التَّعدُّد؛ كذلك هنا {بكلمة منه} لا يقتضي أن يكون عيسى بعضًا من الله عز وجل؛ لأنَّه إذا ادَّعيتَ أنَّه بعض من الله فلتدَّعي أنَّه كلمة الله؛ ومعلوم أنَّه لا أحد يدَّعي أنَّ عيسى كلمة، عيسى بشر له روح يأكل ويشرب؛ فأنت إذا ادَّعيت أنَّه من الله فادَّعي أنَّ

عيسى كلمة؛ ومعلوم أنَّ عيسى ليس بكلمة؛ إذًا فيتعيَّن أن تكون {منه} إمَّا ابتدائية، وإمَّا للبيانية، يعني بكلمة صادرة من الله عز وجل بأن قال: كن فكان؛ نظير هذه الآية قوله تعالى: {وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه}، هل يدَّعي أحد أنَّ ما في السموات وما في الأرض بعض من الله؟ لا، حتى النصراني لا يدَّعي ذلك؛ ولكن هنا {منه} إمَّا للابتداء، يعني ابتداء التَّسخير من الله، أو للبيان، بيان من المسخِّر، أو من أين جاء هذا التَّسخير.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص٤٩٣: وَأَمَّا قَوْلُهُ: إنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ الْمُرَادُ بِهَا عِيسَى نَفْسُهُ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمَصْدَرَ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ الْمَفْعُولِ بِهِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، كَقَوْلِهِمْ: هَذَا دِرْهَمُ ضَرْبُ الْأَمِيرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ}[لقمان: ١١]، وَمِنْهُ تَسْمِيَةُ الْمَأْمُورِ بِهِ أَمْرًا، وَالْمَقْدُورِ قُدْرَةً، وَالْمَرْحُومِ بِهِ رَحْمَةً، وَالْمَخْلُوقِ بِالْكَلِمَةِ كَلِمَةً، لَكِنَّ هَذَا اللَّفْظَ إنَّمَا يُسْتَعْمَلُ مَعَ مَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِمَّا يُبَيِّنُ الْمُرَادَ، كَقَوْلِهِ: {يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} فَبَيَّنَ أَنَّ الْكَلِمَةَ هُوَ الْمَسِيحُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَسِيحَ نَفْسَهُ لَيْسَ هُوَ الْكَلَامُ {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران: ٤٧]، فَبَيَّنَ لَمَّا تَعَجَّبَتْ مِنْ الْوَلَدِ أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ؛ {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْوَلَدَ مِمَّا يَخْلُقُهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: {كُنْ فَيَكُونُ} وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: عِيسَى مَخْلُوقٌ بالكن؛ لَيْسَ هُوَ نَفْسَ الكن، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران: ٥٩] فَقَدْ بَيَّنَ مُرَادَهُ أَنَّهُ خُلِقَ بكن لَا أَنَّهُ نَفْسُ كُنْ وَنَحْوِهَا مِنْ الْكَلَامِ(١).

وقال رحمه الله أيضًا في الجواب الصحيح ج٤ص٦٣: قَالَ تَعَالَى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ – وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ – قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران: ٤٥ – ٤٧]. فَفِي هَذَا الْكَلَامِ وُجُوهٌ تُبَيِّنُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ وَلَيْسَ هُوَ مَا يَقُولُهُ النَّصَارَى:

مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ: {بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}، وَقَوْلُهُ: {بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}: نَكِرَةٌ فِي الْإِثْبَاتِ تَقْتَضِي أَنَّهُ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ اللَّهِ، لَيْسَ هُوَ كَلَامَهُ كُلَّهُ كَمَا يَقُولُ النَّصَارَى.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُبَيِّنُ مُرَادَهُ بِقَوْلِهِ: بِكَلِمَةٍ مِنْهُ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ حَيْثُ قَالَ: {كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران: ٤٧]. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران: ٥٩]. وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ كهيعص: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ – مَا كَانَ لِلَّهِ

١- (قلت): أنظر كلام شيخ اسلام عن (كن فيكون) عند تفسير الآية (١١٧) من سورة البقرة.

أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[مريم: ٣٤ – ٣٥]، فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ تُبَيِّنُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: {كُنْ فَيَكُونُ} وَهَذَا تَفْسِيرُ كَوْنِهِ كَلِمَةً مِنْهُ.

وَقَالَ: {اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}، أَخْبَرَ أَنَّهُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ وَجِيهٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَهَذِهِ كُلُّهَا صِفَةُ مَخْلُوقٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَكَلَامُهُ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ لَا يُقَالُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ مَرْيَمُ: {أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ}، فَبَيَّنَ أَنَّ الْمَسِيحَ الَّذِي هُوَ الْكَلِمَةُ هُوَ وَلَدُ مَرْيَمَ، لَا وَلَدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(١).

قال الطبري: عن قتادة قوله: {بكلمة منه}، قال: قوله: {كن}. فسمَّاه الله عز وجل: (كلمته)، لأنَّه كان عن كلمته، كما يقال لما قدَّر الله من شيء: (هذا قدَرُ الله وقضاؤُه): يعنى به هذا عن قدر الله وقضائه حدث، وكما قال جل ثناؤه: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}[سورة النساء: ٤٧ \ الأحزاب: ٣٧]: يعني به ما أمر الله به، وهو المأمور به الذي كان عن أمر الله عز وجل.

عن ابن عباس في قوله: {إذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله يبشِّرك بكلمة منه}، قال: عيسى هو الكلمة من الله.

قال ابن العثيمين: {بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم} اسم مبتدأ و{المسيح} خبر؛ و{عيسى} خبر ثاني؛ و{بن مريم} خبر ثالث؛ وإنَّما قلنا ذلك لأنَّك لو أفردت كلُّ واحدةٍ عن الآخر لاستقام الكلام؛ لو قلت: اسمه ابن مريم صح؛ اسمه عيسى صحَّ؛ اسمه المسيح صحَّ؛ وعلى هذا فكلٌّ واحد منها خبر؛ مثل قوله تعالى: {وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعَّال لما يريد}.

{اسمه المسيح}: واختار الله له اسم المسيح؛ لأنَّه كان لا يمسح ذا عاهة إلَّا برأ، أو لكثرة مسحه الأرض وسيره فيها؛ أو من المسحة وهي الجمال؛ والمعنى الأول أشهر، يعني أنه لا يمسح ذا عاهة إلَّا برأ(٢)، فهو يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى ويخرجهم من قبورهم؛ وهذه أمور لا تتم لكل أحد بل لا تتم لأحد أبدًا إلَّا بإذن الله عز وجل.

{عيسى ابن مريم} {ابن مريم}، ولم ينسبه إلى أب لأنَّه لا أب له؛ لكن لماذا نسبه إلى أمِّه؟ إشارة إلى أن لا يقول قائل: إنَّه ينسب إلى كافله زكريا يعني لئلَّا يقول قائل: مادام هذا الطفل ليس له أب فلينسب إلى كافله حتى يعرف به، فبدت الملائكة وبيَّنت أنَّ هذا الرجل ينسب إلى أمِّه {عيسى ابن مريم}.

قال الطبري: وأمَّا قوله: {اسمهُ المسيح عيسى ابن مريم}، فإنَّه جل ثناؤه أنبأ عباده عن نسبة عيسى، وأنَّه ابن أمِّه مريم، ونفى بذلك عنه ما أضاف إليه الملحدون في الله جل ثناؤه من النصارى، من إضافتهم بنوَّته إلى الله عز وجل، وما قَرَفَتْ أمَّه به المفتريةُ عليها من اليهود.

قال ابن العثيمين: {وجيهًا في الدنيا والآخرة} {وجيهًا}: هذه منصوبة على الحال كونه وجيهًا في الدنيا؛ والوجيه ذو الجاه وهو الشرف والمكانة والسيادة؛ وقد كان كذلك عليه الصلاة والسلام؛ أمَّا وجاهته في الدنيا؛ فلأنَّه كان أحد الرسل الكرام؛

١- (قلت): أنظر ردّ شيخ الإسلام رحمه الله على كفر النصارى وأقوالهم الباطلة في عيسى عليه الصلاة والسلام عند تفسير الآية (٥٩) من سورة آل عمران.

٢- (قلت): قال ابن عباس رضي الله عنهما: سمِّي مسيحًا، لأنَّه ما مسح ذا عاهة إلَّا برأ.

بل هو من أولي العزم؛ وأعظم الناس جاهًا في الدنيا والآخرة كما قال الله تبارك وتعالى عن موسى: {وكان عند الله وجيهًا}، وأمّا وجاهته في الآخرة فكما قلنا أيضًا لأنَّه من أولي العزم من الرسل الذين هم في أعلى درجات الجنة، ولهم في الآخرة مقامات لا تكون لغيرهم.

وقوله: {ومن المقرَّبين}: هذا وصف ثالث أنَّه من المقرَّبين إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ المقرَّب يكون مقرَّبًا في الدنيا ويكون كذلك مقرَّبًا في الآخرة؛ فعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كان وجيهًا في الدنيا والآخرة، وكان من المقرَّبين إلى الله؛ وهل هذا الوصف حاصل لغيره من الأنبياء؟ الجواب: نعم؛ أولوا العزم من الرسل لاشك لهم وجاهة في الدنيا والآخرة وأنَّهم مقرَّبون إلى الله.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {٤٦}

قال ابن العثيمين: {ويكلِّم الناس في المهد} الواو حرف عطف ومعطوفة على ما سبق؛ {يكلِّم الناس في المهد}: أي في حال الصغر، وأصل المهد أو المهاد الفراش يوضع للإنسان فيطأه ويستريح عليه؛ وقوله: {في المهد}: أي في الفراش وهو صغير؛ وهذا من آيات الله عز وجل؛ لأنَّ العادة التي أجرى الله سبحانه وتعالى البشر عليها أن لا يتكلَّم أحدٌ إلَّا في سن معيَّن؛ وفي المهد لم يتكلَّم إلَّا ثلاثة؛ منهم المسيح عيسى بن مريم؛ وتكلَّم بكلام من أبلغ الكلام لمَّا جاءت به قومها تحمله {قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريًّا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًّا فأشارت إليه قالوا كيف نكلِّم من كان في المهد صبيًّا}، فقال حين سمعهم: {قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا وجعلني مباركًا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًّا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا} كلام من أفصح الكلام وأعظمه وهو في المهد؛ وهذا من آيات الله عز وجل الدالة على قدرته؛ ولهذا كانت آيات عيسى كلُّها تدور حول هذا الأمر، حول خوارق العادات في الأمور الكونية؛ فهو نفسه آية خلق بلا أب، وكلَّم الناس في المهد وهذا من الآيات، يصنع من الطين طيرًا فينفخ فيكون طيرًا، يبرئ الأكمه والأبرص ولا أحد يبرئهما من الأطباء، يحيي الموتى ويخرجهم من القبور؛ قال أهل العلم: لأنَّه بعث في زمن ترقَّى فيه الطب ترقِّيًا عظيمًا فجاء بآيات من جنس الأعمال التي يعملوا بها ليكون ذلك أبلغ في الإعجاز، كما جاء موسى عليه الصلاة والسلام بالعصا واليد التي تبطل سحر السحرة، وكان السحر في وقته قد زاد وانتشر؛ وكما أتى محمد ﷺ بكلام أبلغ الكلام وأفصحه لانتشار الفصاحة في زمنه وعهده، حتى يعجز هؤلاء البلغاء ويتبيَّن أنَّه ليس من كلام البشر.

{يكلِّم الناس في المهد وكهلًا}: ويكلِّمهم وهو كهل من الحادي والثلاثين إلى أربعين، يكلِّمهم في هذه الحال؛ في هذه الحال ليس غريبًا أن يكلِّم الناس؛ ولكنَّه أتى بها لفائدة، وهي أنَّ كلامه في المهد ككلامه وهو كهل، يعني ليس ككلام الصبي الذي يتكلَّم في المهد يا بابا، يا ماما، وما أشبه ذلك؛ بل كلام فصيح من أبلغ الكلام كما يتكلَّم به وهو كهل.

قال الطبري: وإنَّما عنى جل ثناؤه بقوله: {ويكلِّم الناسَ في المهد وكهلًا}: ويكلِّم الناس طفلًا في المهد، دلالةً على براءَة أمه ممَّا قَرَفها به المفترون عليها، وحجَّة له على نبوَّته، وبالغًا كبيرًا بعد احتناكه، بوحي الله الذي يوحيه إليه، وأمره ونهيه، وما ينزل عليه من كتابه.

وإنَّما أخبر الله عز وجل عبادَه بذلك من أمر المسيح، وأنَّه كذلك كان، وإن كان الغالب من أمر الناس أنَّهم يتكلَّمون كهولًا وشيوخًا، احتجاجًا به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى الباطلَ، وأنَّه كان منذ أنشأه مولودًا طفلًا، ثمَّ كهلًا يتقلَّب في الأحداث، ويتغيَّر بمرُور الأزمنة عليه والأيَّام، من صِغر إلى كبر، ومن حال إلى حال، وأنَّه لو كان كما قال الملحدون فيه، كان ذلك غيرَ جائز عليه. فكذَّب بذلك ما قاله الوفدُ من أهل نجران الذين حاجُّوا رسول الله ﷺ فيه، واحتجَّ به عليهم لنبيه محمد ﷺ، وأعلمهم أنَّه كان كسائر بني آدم، إلَّا ما خصَّه الله به من الكرامة التي أبانه بها منهم.

عن محمد بن جعفر بن الزبير: {ويكلِّم الناس في المهد وكهلًا ومن الصالحين}: يخبرهم بحالاته التي يتقلَّب بها في عمره، كتقلُّب بني آدم في أعمارهم صغارًا وكبارًا، إلَّا أنَّ الله خَصَّه بالكلام في مهده آيةً لنبوَّته، وتعريفًا للعباد مواقع قدرته(١).

قال ابن العثيمين: {ومن الصالحين}: يعني (وهو من الصالحين)، وسبق لنا أنَّ الصالح من صلحت سريرته وعلانيته، يعني ظاهره وباطنه؛ ظاهره بالإخلاص لله والطَّهارة من كلِّ شرك ونفاق وشكٍّ وأحقاد وبغضاء للمؤمنين وما أشبه ذلك؛ ظاهره بالمتابعة للرسول ﷺ وعدم الابتداع؛ فهو عليه الصلاة والسلام من الصالحين الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم وإن شئت فقل سرائرهم علانيتهم.

قال الطبري: {ومن الصالحين}: فإنَّه يعني من عِدَادهم وأوليائهم، لأنَّ أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدِّين والفضل.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {٤٧} وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ {٤٨}

قال ابن العثيمين: {قالت ربِّ أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر} {قالت ربِّ أنَّى يكون}: هي الآن تخاطب الله والذي كان يخاطبها الملائكة أو جبريل؛ لكنَّها لما قالوا: {إنَّ الله يبشِّرك} وعلمت أنَّها من الله وجَّهت الخطاب إليه سبحانه وتعالى؛

١– سيرة ابن هشام ٢: ٢٣٠.

فقالت: {ربِّ أنَّى يكون لي ولد}: وتأمَّل هذا الاستعطاف منها حيث قالت: {ربِّ} ومعلوم أنَّ كلمة {رب} هنا مضافة إلى ياء المتكلِّم التي حذفت للتَّخفيف وأصلها (ربِّي أنَّى يكون لي ولد)، وقولها: {أنَّى يكون لي ولد} هذا استفهام، يعني: من أين يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟ وهذا الاستفهام ليس على سبيل الشك، وليس على سبيل الاستبعاد، ولكنَّه على سبيل الاستثبات وزيادة الطمأنينة كقول إبراهيم: {ربِّ أرني كيف تحي الموتى}، وإلَّا ما عنده شك.

وقوله: {ولم يمسسني بشر}: الجملة حالية يعني: والحال أنَّه لم يمسسني بشر؛ أي لم يجامعني؛ لأنَّ المس يطلق على الجماع، يعني يكنى به أن يجمع؛ كما قال تعالى: {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسُّوهن}: أي تجامعوهن؛ {ولم يمسسني بشر}: يعني لا بنكاح ولا بغير نكاح؛ فمن أين يكون ولد؟

قال الطبري: من أيِّ وجه يكون لي ولد؟ أمِن قبل زوجٍ أتزوجه وبعل أنكحه، أمْ تبتدئ فيَّ خلقه من غير بعل ولا فحل، ومن غير أن يمسَّني بشر؟ فقال الله لها: {كذلك الله يخلق ما يشاء}.

قال ابن العثيمين: {قال كذلك}: القائل هو الله عز وجل؛ لأنَّها نادت الله، {ربِّ أنَّى يكون لي ولد} {قال كذلك}: يعني الأمر كذلك؛ فالجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر؛ وعلى هذا فيحسن الوقوف هنا، أي يحسن أن تقف؛ فتقول: {كذلك}، ثم تبتدئ فتقول: {الله يخلق ما يشاء}، وهذا التركيب له نظائر في القرآن مثل قوله: {كذلك وزوجناهم بحور عين}، وإنَّما تأتي هذه الصيغة للتقدير والتثبيت، يعني الأمر مثل ما وقع تمامًا؛ وقوله: {الله يخلق ما يشاء} سبحانه وتعالى؛ {الله} مبتدأ؛ و{يخلق} الجملة خبر، يعني أن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء سواء كان على وفق العادة، أو على خلاف العادة؛ فعيسى عليه الصلاة والسلام جاء على خلاف العادة؛ لكن مثَله: {مَثَلُ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب}: أي خلق آدم من تراب ثمَّ قال له: كن فيكون، والله على كلِّ شيء قدير، وقد ذكر أهل العلم أنَّ البشر منهم من خلق بلا أم ولا أب، ومنهم من خلق من أم بلا أب، ومنهم من خلق من أب بلا أم، وأكثر الخلق من أم وأب؛ فالذي خلق من غير أم ولا أب آدم؛ ومن أب بلا أم حواء امرأة آدم؛ ومن أم بلا أب عيسى؛ وسائر الناس من أم وأب.

{الله يخلق ما يشاء}: أي الذي يشاء كمًّا وكيفًا، وعلى سبب معلوم وعلى سبب غير معلوم؛ والنوعية أيضًا، فالله سبحانه وتعالى لا معقِّب لحكمه يخلق ما يشاء؛ ما أكثر أنواع الخلق، لا يحصيها الإنسان فضلًا عن أفرادها؛ وما أكثر الخلق، لو أردت أن تحصى الخلائق ما استطعت؛ والله تعالى قد أحصاهم، ورزقهم، وأمدَّهم، وأعدَّ كل مخلوق لما خلق له؛ قال فرعون: {فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثم هدى}، كلَّ شيءٍ أعطاه الخلق المناسب له، ثم هداه لما خُلِق له. فالمهم أنَّ الله تعالى يخلق ما يشاء كمًّا وكيفًا ونوعًا، وبسبب معتاد وبسبب غير معتاد؛ لا حرج على الله عز وجل يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء.

قال الطبري: هكذا يخلق الله منك ولدًا لك من غير أن يمسَّك بشر، فيجعله آيةً للناس وعبرة، فإنَّه يخلق ما يشاء ويصنعُ ما يريد، فيعطي الولد من يشاء من غير فحلٍ ومن فحل، ويَحرِمُ ذلك من يشاءُ من النساء وإن كانت ذات بعلٍ، لأنَّه لا يتعذَّر

عليه خلق شيء أراد خلقه، إنَّما هو أن يأمر إذا أراد شيئًا ما أراد خلقه فيقول له: {كن فيكون} ما شاء، ممَّا يشاء، وكيف شاء. عن محمد بن جعفر بن الزبير: {قالت ربِّ أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشرٌ قال كذلك الله يخلق ما يشاء}، يصنع ما أراد، ويخلق ما يشاء، من بشر أو غير بشر، {إذا قضى أمرًا فإنَّما يقول له كن}، ممَّا يشاء وكيف يشاء، {فيكون} ما أراد.

قال ابن العثيمين: عبَّر هنا بالخلق {الله يخلق ما يشاء}، وفي قصة زكريا بالفعل {يفعل}، وهناك نكتة، أو اختلاف تعبير، وهو من باب التفنُّن في التعبير كما يقولون، وهو أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام خلق من غير ما جرت به العادة، خلق على وجه لم تجري العادة بمثله إطلاقًا؛ فناسب التعبير بالخلق الدَّال على الإبداع؛ ولهذا يقال: خلق الله السموات؛ ولا يقال: فعل الله السموات مع أنَّ الخلق فعله؛ لكنَّ الخلق فيه نوع من الإبداع فلذلك قال: خلق.

الوجه الثاني: الرَّد على شبه النصارى الذين يقولون: إنَّ عيسى هو الله ثالث ثلاثة؛ فيكون فيه التصريح بأنَّه مخلوق، ويكون هذا قطعًا لدابر قولهم. ففيه إذًا نكتة كونية ونكتة شرعية؛ يعني حكمة كونية وشرعية.

قال أبو زهرة: وهذه الجملة السامية تفيد أمورًا ثلاثة:

أوَّلها: أنَّ هذا النوع من التكوين، وهو إنجاب من غير أب هو في قدرة الله تعالى؛ لأنَّه الخالق المبدع، وما هو غريب عليكم هو في قدرته سبحانه؛ لأنَّ من خلق الخلق الأول وخلق السنن الكونية وغيرها قادر على تغييرها؛ لأنَّه مبدعها ومنشئها.

ثانيها: أنَّ خلق عيسى أمر من أمر الله تعالى، وعيسى ليس إلَّا مخلوقًا من مخلوقاته، فهو أبدعه كما أبدع غيره من المخلوقات، فليس إلها ولا ابن إله.

ثالثها: أنَّ خلق الله تعالى بمشيئته وإرادته، وهذا فيه إشارة إلى السبب الذي من أجله خلقه الله تعالى من غير أب وهو أنَّ المخلوقات لَا تصدر عن الله صدور المعلول عن علَّته، ولكنَّها توجد بإيجاده وتنشأ بإبداعه: {بديع السماوات والأرض أَنَّى يكون له ولد}، وفي ذلك ردٌّ عملي على أهل الفلسفة المادية التي تقول إنَّ العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن علَّته.

قال ابن العثيمين: {إذا قضى أمرًا فإنَّما يقول له كن فيكون} {إذا قضى}: قضى أي قضاءً كونيًّا؛ لأنَّ القضاء له معنيان: كوني وشرعي؛ فمن أمثلة الشرعي قوله تعالى: {وقضى ربك ألَّا تعبدوا إلَّا إياه}، هذا قضاء شرعي؛ ومن أمثلة الكوني هذه الآية وقوله تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرتين ولتعلنَّ علوًّا كبيرًا}، قضينا كونًا؛ لا يصحُّ شرعًا، لأنَّ الله لا يقضي بفساد أبدًا؛ فهو لا يحب الفساد لكنَّه قضاء كوني؛ والفرق بينهما أنَّ القضاء الشرعي متعلِّق بما يحبه الله من فعل المأمور أو ترك المحظور؛ ثانيًا: القضاء الشرعي قد يقع وقد لا يقع، قد يقع من المقضي عليه وقد لا يقع؛ القضاء الكوني يتعلَّق فيما أحبه الله وما لا يحبه الله؛ القضاء الكوني لابدَّ أن يقع من المقضي عليه؛ فصار الفرق أربعة أوجه.

قوله تعالى: {فلمَّا قضينا عليه الموت ما دلَّهم على موته إلَّا دابَّة الأرض}، هذا كوني، قوله تعالى: {وغيض الماء وقضي الأمر}، كوني؛ {والله يقضي بالحق}، شامل حتى الكوني الذي يقضيه الله وإن كان شرًّا لكن في المفعولات، أمَّا في نفس القضاء فهو حق.

يقول الله عز وجل: {إذا قضى أمرًا}: {أمرًا}: مفرد، جمعه أمور، والمراد بالأمر هنا، شأنًا، أي شأن من الشئون، {فإنَّما يقول له كن فيكون}، لا يحتاج إلى عمل، ولا إلى آلات، ولا إلى أيِّ سبب، كلُّ الخلائق مسلمة له عز وجل: {وله أسلم من في السموات والأرض}، تنتظر الأوامر، إذا صدر الأمر من الله عز وجل، كان المأمور الأمر الكوني، فقط يقول: {كن} {فيكون}؛ قال الله تعالى عن البعث، بعث الخلائق كلُّها: {فإنَّما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة}؛ وبيَّن الله تعالى في سورة القمر كيف هذا الأمر هل يكرَّر؟ هل يتأخَّر المأمور؟ فقال: {وما أمرنا إلَّا واحدة} ليس فيه تكرار، واحدة؛ {كلمح بالبصر}: يعني لو شاء ربنا عز وجل لَأَمر هذه الأرض أن تزول ومن فيها بلحظة، {إذا قضى أمرًا فإنَّما يقول له كن فيكون} الفاء هذه تفيد الترتيب، وإن شئت فقل إنَّها تفيد السببية؛ فإن قلت إنَّها تفيد السببية، فاقرأها بالنصب؛ وإن قلت إنَّها تفيد الترتيب، فاقرأها بالرفع؛ وكلتا القراءتين سبعية صحيحة؛ {أن يقول له كن فيكونُ} {أن يقول له كن فيكونَ}؛ فعلى قراءة الرفع تكون استئنافية، والفاء عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، {كن} فهو يكون في الحال، وعلى قراءة النصب تكون الفاء للسببية، {كن} سبب {فيكون} مُسَبَّب؛ ومن المعلوم أن المُسَبَّب يأتي عقب السبب فورًا لأنَّه سببه، والسبب مقارن للمُسَبَّب؛ وعلى هذا فتكون كل من القراءتين مفيدة لمعنى غير المعنى الثاني لكنَّهما متلازمان، {كن فيكون} ما ذكر الله سبحانه وتعالى {كن} على أيِّ شيءٍ يكون، فقط يقول: {كن} فيقع الشيء على مراد الله.

قال السعدي: فأخبرها أنَّ هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: {كن فيكون}، فمن تيقَّن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجُّب، ومن حكمة الباري تعالى، أن تَدرَّج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ليدلَّ عباده أنَّه الفعَّال لما يريد وأنَّه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن.

قال ابن العثيمين: ((لمَّا خلق الله القلم قال له: اكتب؛ قال رب ماذا أكتب؟ قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيمة[١]))، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيمة، الله أكبر، فالظاهر والله أعلم، أنَّ الشيء إذا قال الله له: كن، فلابدَّ أن يعين ماذا يكون بدليل حديث القلم؛ ولكنَّه إذا عيِّن ما يكون، فلابدَّ أن يكون الشيء على ما عيِّن؛ فالقلم لا يعلم الغيب؛ لكن لمَّا قال له الرب عز وجل: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيمة، كتب إلى ما هو كائن إلى يوم القيمة؛ لأنَّ الله أعلمه فكتب؛ وبيان مجمل الأمر لابدَّ منه؛ فهذا هو الظاهر، وإذا كان الله عز وجل أمره فقال: كن، كان على مراد الله، فليس هذا

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧)، والحديث بتمامه: ((إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم فقال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد)).

بغريب على قدرة الله؛ إذًا أنَّ الله تعالى يجعل هذا الشيء يخضع لأمر الله الذي أراده عز وجل، وإن كان لم يطلعه عليه؛ لكن الذي يترجَّح عندي بناءً على حديث القلم، أنَّ الله عز وجل يأمره أن يكون ويبيِّن ماذا يكون عليه؛ {كن فيكون}([1]).

{ويعلِّمه الكتاب والحكمة} {يعلِّمه} الضمير يعود على عيسى؛ والفاعل الله عز وجل {يعلِّمه الكتاب} لأنَّ عيسى عليه السلام كغيره من البشر، يعني لا يعلم إلَّا ما علَّمه الله، قال الله تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه إلَّا من ارتضى من رسول}. {ويعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} المراد بالكتاب، المكتوب؛ وهل المراد أنَّه يعلِّمه الكتابة يعني يحسن الخط؟ أو المراد يعلِّمه الكتب السابقة؟ كلاهما لا يتنافيان؛ فعلَّمه الكتابة فكتب، وعلَّمه الكتب السابقة وعلَّمه التوراة والإنجيل؛ والتوراة من باب عطف الخاص على العام لشرفها؛ وأمَّا الإنجيل فهو لم ينزل على أحد قبل عيسى؛ وقوله: {الحكمة}: الشريعة، لأنَّ الشريعة من الله، وكل ما كان من الله فهو متضمِّن للحكمة؛ قال الله تعالى لمحمد ﷺ: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا}؛ فالحكمة هي الشرع، وهو موافق لمن فسَّر ذلك بالسُّنَّة؛ لأنَّ سنَّة النبي ﷺ هي شرعه الذي جاء به من عند الله؛ فعلمه الله عز وجل الحكمة؛ {والتوراة والإنجيل}: التوراة، الكتاب الذي أنزله الله على موسى؛ والإنجيل، الكتاب الذي أنزله الله على عيسى؛ التوراة كتبها الله تعالى كتابة، {وكتبنا له في الألواح من كل شيء}، ولهذا قال أهل العلم من علماء السلف: إنَّ الله تعالى غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده سبحانه وتعالى، فالتوراة مكتوبة من الله نعم كتبها بيده سبحانه وتعالى ونزلت الألواح على موسى وفيها ما تقتضيه المصلحة والحاجة والضرورة في ذلك الوقت.

وأمَّا الإنجيل، فهو كتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى؛ وهو بالنسبة للتوراة كالمُكَمِّل لها، كما قال تعالى فيما يأتي بالآيات: {ولأحلَّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم}، فهو كالمتمم للتوراة؛ لأنَّه في الحقيقة نزل على بني إسرائيل الذين أنزلت عليهم التوراة؛ ومن المعلوم أن حال بني إسرائيل تغيَّرت من وقت موسى إلى عيسى؛ فكان في الإنجيل تعديل أو زيادة؛ المهم أنَّه متمم للتوراة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٤٣: قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَنْ الْمَسِيحِ أَنَّهُ عَلَّمَهُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ بِقَوْلِهِ: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِبَعْضِ مَا فِي التَّوْرَاةِ لَمْ يَكُنْ تَعَلُّمُهَا لَهُ مِنَّةً، أَلَا تَرَى أَنَّا نَحْنُ لَمْ نُؤْمَرْ بِحِفْظِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ شَرَائِعِ الْكِتَابَيْنِ يُوَافِقُ شَرِيعَةَ الْقُرْآنِ، فَهَذَا وَغَيْرُهُ يُبَيِّنُ مَا ذَكَرَهُ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنَّ الْإِنْجِيلَ لَيْس فِيهِ إلَّا أَحْكَامٌ قَلِيلَةٌ، وَأَكْثَرُ الْأَحْكَامِ يَتْبَعُ فِيهَا مَا فِي التَّوْرَاةِ؛ وَبِهَذَا يَحْصُلُ التَّغَايُرُ بَيْنَ الشرعتين.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن {كن فيكون} عند تفسير الآية (١١٧) من سورة البقرة.

وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى مُتَّفِقِينَ عَلَى حِفْظِ التَّوْرَاةِ وَتِلَاوَتِهَا، كَمَا يَحْفَظُونَ الْإِنْجِيلَ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ النَّجَاشِيُّ الْقُرْآنَ، قَالَ: إنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ(١)، وَكَذَلِكَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَأْتِيهِ قَالَ: هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى(٢).

وَكَذَلِكَ قَالَتْ الْجِنُّ: {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى}[الأحقاف: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا }[القصص: ٤٨]: أَيْ مُوسَى وَمُحَمَّدٌ، وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى: {سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}: أَيْ التَّوْرَاةُ وَالْقُرْآنُ.

وَكَذَلِكَ قَالَ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} إلَى قَوْلِهِ: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}[الأنعام: ٩١، ٩٢]، فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا فِيهِ اقْتِرَانُ التَّوْرَاةِ بِالْقُرْآنِ وَتَخْصِيصُهَا بِالذِّكْرِ يُبَيِّنُ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ التَّوْرَاةَ هِيَ الْأَصْلُ، وَالْإِنْجِيلَ تَبَعٌ لَهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَحْكَامِ، وَإِنْ كَانَ مُغَايِرًا لِبَعْضِهَا.

فَلِهَذَا يَذْكُرُ الْإِنْجِيلَ مَعَ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ}[آل عمران: ٢، ٣]، وَقَالَ: {وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ}[التوبة: ١١١]، فَيَذْكُرُ الثَّلَاثَةَ تَارَةً، وَيَذْكُرُ الْقُرْآنَ مَعَ التَّوْرَاةِ وَحْدَهَا تَارَةً؛ لِسِرٍّ، وَهُوَ: أَنَّ الْإِنْجِيلَ مِنْ وَجْهٍ: أَصْلٌ، وَمِنْ وَجْهٍ: تَبَعٌ؛ بِخِلَافِ الْقُرْآنِ مَعَ التَّوْرَاةِ؛ فَإِنَّهُ أَصْلٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، بَلْ هُوَ مُهَيْمِنٌ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ، وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِلتَّوْرَاةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ، وَكُتُبِهِ مِنْ الشَّرَائِعِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {٤٩}

قال ابن العثيمين: ثمَّ قال: {ورسولًا إلى بني إسرائيل}، {ورسولًا}: الواو حرف عطف؛ {ورسولًا} معطوفة بجملتها على ما سبق، أي: ويرسله رسولًا إلى بني إسرائيل. والرسول هو الذي أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بالتَّبليغ فهو نبي؛

١- أحمد ١/٢٠١-٢٠٣، ٥/٢٩٠-٢٩٢ عن أم سلمة، وقال الهيثمي في المجمع ٦/٢٦-٣٠: (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرَّح بالسماع)، وصححه الشيخ شاكر (١٧٤٠).

٢- البخاري في الأنبياء (٣٣٩٢)، ومسلم في الإيمان (٢٥٢/١٦٠)، (وأحمد ٦/٢٢٣، ٢٣٣)، كلهم عن عائشة.

هذا هو المشهور عند عامَّة العلماء رحمهم الله. وقيل: إنَّ النَّبي لم يوحى إليه بشرع، وإنَّما كان مؤيِّدًا لشريعة من قبله؛ يعني يوحى إليه بتأييد الشريعة التي قبله؛ فكانت الأنبياء فيما سبق كالعلماء في هذه الأمَّة؛ وهذا وإن كان له وجه كما قال تعالى: {إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} فقال: {يحكم بها}: أي بالتوراة {النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء}؛ لكن هذا القول يعكِّر عليه قضية آدم؛ فإنَّ آدم نبي ومع ذلك لم يكن مجدِّدًا لشريعة سابقة إذ لم تنزل شريعة قبل آدم عليه السلام؛ ولهذا يترجَّح تعريف الجمهور في النبي والرسول؛ وإذا قلنا النبي من أوحي إليه بشرع، فلا يمنع أن يكون هذا الشرع الذي أوحي إلى النبي هو شرع من قبله، يوحى إليه تأكيدًا وتثبيتًا.

قال صالح آل الشيخ في العقيدة الطحاوية في تعريف النَّبي: النَّبِيُّ في القرآن جاء فيه قراءتان {النَّبي}، والقراءة الأخرى {النبيء} بالهمز، {يا أيها النبيُّ}، والقراءة الثانية: {يا أيها النبيءُ} كما هي قراءة نافع وغيره. وفرق ما بين النبي والنبيء. فالنبيء: هو مَنْ نُبِّئَ. والنبي: من صار في نَبْوَةٍ؛ يعني في ارتفاع عن غيره. فإذًا نقول: {النبي} و{النبيء} هو من اختصَّه الله – عز وجل – بالإنباء والوحي، فصار مرتفعًا عن غيره في المقام لأجل ما أوحى الله – عز وجل – إليه.

هذا ليس تعريف – يعني حد – ليس حدًّا ولكن هذا تقريب.

أمَّا الرُّسُلْ، الرسول، فظاهرٌ من اللفظ أنَّهُ أُرسِلْ. فلفظ نبيء ونبي من جهة اللغة واللفظ الذي جاء في القرآن هذا، فيه الإنباء وفيه الرفعة، والرسول فيه الإرسال. ولهذا اختلف العلماء هل النبي والرسول واحد أو بينهما فرق؟

على أقوال كثيرة؛ لكن نذكر لك ملخَّص الكلام:

١– القول الأول: من أهل العلم من قال النبي والرسول بمعنىً واحد، فكلُّ رسولٍ نبي وكلُّ نبيٍ رسول، وذهب إلى هذا جمع من أهل العلم من المفسِّرين ومن الفقهاء وغيرهم.

٢– القول الثاني: هو أنَّ النبي غير الرسول، ودلَّ على الفرق بينهما:

أ – قول الله – عز وجل – في سورة الحج {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ}[الحج: ٥٢]، قال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ}، فدَلَّ ظاهر الآية قوله {مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} أنَّ النبي غير الرسول، وظاهر الدلالة على أنَّهُ ثَمَّ فرق بينهما، ولو كان النبي هو الرسول لما صحَّ أن يُقَال: {مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ}، لأنَّ النبي هو الرسول كيف يقول: {وَلَا نَبِيٍّ}، قد يكون بالعطف بالواو من رسول ونبي فتكون هنا مُغَايَرَةْ، في الصفات، لكن لمَّا أُدْخِلَتْ {لاَ} دلَّ على أنَّ هذا غير هذا {مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ}.

ب – أنَّ النبي ﷺ ذَكَرَ الرسل والأنبياء الذين يأتون يوم القيامة فقال: ((يأتي النبي ومعه الرهط، ويأتي النبي ومعه كذا، ويأتي النبي وليس معه أحد(١))، ووجه الدِّلالة من الحديث أنَّ قوله: ((ويأتي النَّبي وليس معه أحد)) يحتمل:

١– (قلت): البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

– أن يكون لم يُرْسَلْ إلى أحد.

– ويحتمل أن يكون لم يستجب له.

ويتّجه الاحتمال أنَّه لم يرسل إلى أحد؛ بل هو نبيّ لقوله ﷺ: ((ما بعث الله من نبيٍ إلّا وأعطاه من الآيات ما على مثله آمن

البشر وكان الذي أوتيته وحيًا يُتلى([1]))، الحديث الذي رواه مسلم في الصحيح حديث عياض بن حمار المجاشعي، فدلَّ على أنَّ كل نبيٍّ أعطي آية وآمن من آمن بتلك الآية.

لهذا نقول: قوله ﷺ: ((ويأتي النبي وليس معه أحد)) هذا لأجل قَصْر الرسالة على هذا النبي وحده؛ يعني أنَّهُ ليس مُرْسلًا إلى غيره([2]).

ج – حديث أبي ذر المشهور الذي رواه ابن حبان في الصحيح ورواه غيره من أنَّ النبي ﷺ ذَكَرَ عِدَةَ الأنبياء، هو حديث طويل منه جمل ثابتة صحيحة بشواهدها، ومنه جمل مُخْتَلَفْ فيها، فمنها أنَّهُ ذَكَرَ عِدَّةَ الأنبياء و ذَكَرَ عِدَةَ المرسلين، فقال في عدد الأنبياء إنَّهم مائة وأربعة وعشرين ألف، وقال في عدة المرسلين إنَّهم كعدَّة أهل بدر يعني نحو أربعة عشر وثلاثمائة رسول، فدلَّ الحديث على الفرق بينهما، وكون هذا هو العدد أو أقل ليس هو هذا محل الشاهد، وإنما قوَّى صحة التَّفريق ما بين النبي والرسول أنَّه في الحديث الإختلاف في العدد، ودِلالة الآية والحديث الذي قبله يقوي الاستدلال بحديث أبي ذر هذا.

المقصود دَلَّت هذه على ترجيح قول من قال إنَّ الرسول والنبي مختلفان وهذا ظاهر في الاستدلال كما ترى.

ما الفرق بينهما في التعريف؟

١– (قلت): رواه البغوي في شرح السنة (٣٦١٥)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ((مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إلا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). وقال شعيب الأرنؤوط: هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ، أَخْرَجَهُ مُحَمَّدٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، عَنْ قُتَيْبَةَ، كِلاهُمَا عَنِ اللَّيْثِ.

٢– (قلت): هذا القول فيه نظر والله أعلم، لأنَّ هذا الحديث يتكلَّم عن الأمم الذين عرضوا على الرسول ﷺ، وأنبيائهم المرسلين اليهم، لأنَّ الأمم ينتسبون الى الرسل لا الى الأنبياء، بل حتى الأنبياء ينتسبون الى الرسول الذي هم جاءوا لإقامة شريعته ويعتبرون من آحاد أمَّته كأنبياء بني اسرائيل. ويشهد له حديث صحيح أخرجه مسلم وغيره: ((ما صدق نبي من الأنبياء ما صدقت؛ إن من الأنبياء من لم يصدقه من أمّته إلّا رجل واحد)). وكلمة ((لم يصدّقه)) لا يطلق الّا على قوم كافرين مخالفين لرسلهم.

– وسئل الإمام الألباني في ألف فتوى للشيخ الألباني ج٢ص٢٢: كيف يمكن الجمع بين قولي الرسول ﷺ: ((ما بعث الله من نبي إلّا كان في أمّته قوم يهتدون بهديه ويستنون بسنته))، والحديث الآخر: ((رأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد؟)).

فقال رحمه الله: الذي يبدو لي – والله أعلم – أنَّ الحديث: ((ما بعث الله من نبي إلّا كان في قومه من يهتدي بهديه))، هذا من النصوص العامة التي تخصَّص بالحديث الآخر، الذي عرض فيه على الرسول ﷺ: النبي وليس معه أحد أي: أن الغالب – وهذا أمر مقطوع به نظرًا وبصرًا – الغالب أنَّ الله عز وجل حين بعث الأنبياء، فلابدَّ أن يكون هناك من يستجيب لدعوتهم؛ ولكن ما بيَّن أن يكون المستجيب قليلًا أو كثيرًا؛ ولكن هذا لا ينفي أن يكون هناك بعض الأفراد من الأنبياء لم يستجب لهم أحد، فالحديث الأول يحمل على الغالب من شأن الدعاة مع المدعوين، أي: شأن الأنبياء مع المدعوين، فعلى الغالب أن يستجيب المدعوون لدعوة الأنبياء؛ لأنَّها دعوة حق، مع الاختلاف – كما قلنا – في الكثرة والقلَّة، ولكن أحيانًا لا يستجيب للرسول أحد إطلاقًا، وهذا من جملة الامتحان والاختبار من الله عز وجل.

اختلف العلماء في تعريف النبي والرَّسول فقال مِمَّنْ قَالَ بالفرق بينهما:

فقالت طائفة كثيرة من أهل العلم: إنَّ النَّبي: هو من أُوحِيَ إليه بشرع ولم يُؤْمَر بتبليغه. والرسول: من أُوحِيَ إليه بشرع وأُمِرَ بالتَّبليغ. فجعلوا الفرق ما بين النَّبي والرَّسول هو الأمر بالتَّبليغ.

وقالت طائفة أخرى، وهو قولٌ أيضًا مشهور عند عدد من المحقِّقين وهو الذي اختاره ابن تيمية رحمه الله في أول كتاب النبوات أنَّ الرسول والنبي يشتركان في وقوع الإرسال عليهما.

الرسول مُرْسَلْ والنبي مُرْسَلْ لظاهر قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ}، فالرسول مُرْسَلْ والنبي أيضًا مُرْسَلْ لكن جهة الإرسال مختلفة، قال: الرسول: يُرْسَلْ إلى قوم يخالفونه في أصل الدين، فيأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك.

وأمَّا النبي: فإنَّه يُرْسَلْ إلى قوم موافقين يُجَدِّدُ بإرساله شِرْعَةَ الرسول الذي أُمروا باتِّباعه. مثل أنبياء بني إسرائيل كلَّما مات نبي خلفه نبي، وكُلُّهُم تَبَعٌ لموسى عليه السلام.

وهذا التعريف أو هذا التقريب لتعريف الرسول والنبي هذا أقرب للدليل وأوضح في فهم الأدلة الشرعية.

ولذلك نقول هو المختار في أنَّ: النبي مُوحَى إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه إلى قوم موافقين أو لم يُؤْمَرْ بالتبليغ. قد يكون مُقْتَصِرْ على نفسه وقد يُؤْمَرْ بالتبليغ إلى من يوافقه في اتِّبَاعِ الرسول الذي يَتَّبِعُهُ النبي ويَتَّبِعُهُ الناس. وأمَّا الرسول فمن أوحي إليه بشرع أو بكتاب وأُمِرَ بإبلاغه أو بتبليغه إلى قوم مخالفين له يعني في أصل الدِّين.

قال ابن العثيمين: قال: {ورسولًا إلى بني إسرائيل} بني إسرائيل اسم قبيلة، كما يقال: بنو تميم؛ وإسرائيل هو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم؛ وهم بني عم لبني إسماعيل، بنو عم للنَّبي إسماعيل؛ ولهذا لمَّا بعث النبي ﷺ في بني عمِّهم بني اسماعيل، غارت اليهود من ذلك وأنكروه؛ وكانوا بالأول يستفتحون على الذين كفروا، يقولون سيبعث نبي ونتَّبعه ونكتسحكم ونغلبكم ظنًّا منهم أنَّه سيكون من بني إسرائيل وليس ظنًّا حقيقيًّا بل هو وهم، لأنَّهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبنائهم ويعلمون أنَّه سيبعث في مكة؛ لكن توهَّموا ذلك، أوهمتهم أنفسهم الكاذبة؛ فلمَّا بعث ببني اسماعيل أنكروه وكذبوه. وإسرائيل في السريانية قالوا إنَّ معناها أو في العبرية: معناها عبد الله؛ الآن تسمَّى الدولة اليهودية إسرائيل.

{أنِّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير} فيها قراءتان، فيها قراءة بكسر الهمزة وفتحها، وبفتح الياء مع فتح الهمزة، ثلاث قراءات: إنِّي ، أَنِّي ، أَنِّيَ.

وقوله: {أخلق لكم من الطين كهيئة الطير}: أي كمثله وصورته، فينفخ فيه {فيكون طيرًا بإذن الله} يكون هذا الشيء طيرًا؛ وفي قراءة سبعية: {فيكون طائرًا بإذن الله} والقراءتان لكل واحدة منهما معنى يكمل الأخرى؛ فقوله: {يكون طيرًا} أي: طيرًا حيًّا بعد أن كان على صورة الطير وليس فيه الروح؛ يكون طائرًا أي تشاهدونه يطير بالفعل؛ فعندنا ثلاث مراتب: تصوير على هيئة الطير؛ الثاني: طير فيه روح، على قراءة: {فيكون طيرًا}؛ الثالث: طير يطير بالفعل، على قراءة: {طائرًا بإذن الله}؛ وعلى هذا فيكون يخلق شيئًا على هيئة الطير فينفخ فيه الروح ثمَّ يطير.

قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل: يصوِّر من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيطير عيانًا بإذن الله، عز وجل، الذي جعل هذا معجزة يدلُّ على أنَّ الله أرسله.

قال ابن العثيمين: وقوله: {بإذن الله}: أي بإذنه الكوني والشرعي؛ لأنَّ كونه يصوِّر مضاهيًا لخلق الله يحتاج إلى إذن شرعي؛ لأنَّ الأصل أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يصوِّر على تصوير الله عز وجل، قال الله تعالى: ((ومن أظلم ممَّن ذهب يخلق كخلقي))؛ لكن الله تعالى أذن لعيسى عليه الصلاة والسلام لحكمة؛ هذا على تفسير {بإذن الله} الإذن الشرعي؛ كذلك الإذن الكوني، يعني: {بإذن الله} الإذن الكوني؛ لأنَّ خلق هذا الطير حتى يطير يكون بإذن الله الكوني، أي فيطير بإذن الله إذنًا كونيًّا؛ فعيسى عليه الصلاة والسلام يخلق كهيئة الطير بإذن الله الشرعي؛ فيكون طيرًا إذا نفخ فيه ويطير بإذن الله الكوني؛ وقوله: {بإذن الله} هذا من أجل تحقيق التوحيد، حتى لا يظنَّ ظانٌّ أنَّه يخلق استقلالًا؛ لأنَّه لولا هذا التقيد {بإذن الله} لتوهَّم النصراني وغير النصراني أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام يخلق كما خلق الله آدم من طين على صورته ثم نفخ فيه الروح فصار بشرًا؛ فيظنُّ الظَّانُّ أنَّ عيسى يخلق كخلق الله.

{وأبرئ الأكمه والأبرص} {أبرئ}: بمعنى أشفي؛ والبرء في الأصل من البراءة، والبراءة من الشيء السلامة منه؛ ومنه برئ من دينه أي سلم من غائلته، غائلة الدين وضيق الدين؛ فالبرء من المرض يعني السلامة والشفاء منه؛ وقوله: {الأكمه}: قيل: إنَّه الذي لا يبصر ليلًا ويبصر نهارًا؛ وقيل: هو الذي لا يبصر إلَّا بمشقَّة؛ وقيل: الذي ولد بلا عين؛ فإن كان الأكمه في اللغة العربية يحتمل هذه المعانيَ كلُّها، فهو للمعانيَ كلِّها، وإن كان لا يحتمل إلَّا معنًى واحدًا فأقرب الأقوال في ذلك أنَّ الأكمه من ولِد بلا عين؛ لأنَّ هذا أبلغ في القدرة؛ لأنَّه كلَّما كان أبلغ في القدرة كان أعظم في الآية؛ فنحن نقول: إن كانت اللغة العربية تطلق الأكمه على كلُّ ما قيل، فلتكن الآية شاملة؛ وإن لم تحتمل إلَّا معنًى واحدًا فأقرَّ بها أنَّ الأكمه من ولد بلا عين؛ لأنَّ هذا أبلغ في القدرة.

قال ابن كثير: {وأبرئُ الأكمه} قيل: هو الذي يبصر نهارًا ولا يبصر ليلًا. وقيل بالعكس. وقيل: هو الأعشى. وقيل: الأعمش. وقيل: هو الذي يولد أعمى. وهو أشبه؛ لأنَّه أبلغ في المعجزة وأقوى في التَّحدِّي، {والأبرص([1])} معروف.

قال ابن العثيمين: {والأبرص}: من به البرص، والبرص عيب يخرج في الإنسان من العيوب الجلدية وهو قد يؤثر على الصحة العامَّة في البدن وقد لا يؤثر؛ لكن البرص ليس له دواء؛ فلهذا قال: أبرئ الأبرص بإذن الله.

وقوله: {وأحيي الموتى بإذن الله} {أحيي الموتى}: الذين ماتوا أحيِّيهم بإذن الله؛ وليس المراد بالموتى هنا موتى معيَّنين؛ بل هو للجنس؛ فأيّ واحدٍ من الأموات يمكن أن يقع عليه هذا الأمر؛ أمَّا قول من قال: إنَّه أحيا سام بن نوح أو أحيا فلانًا أو أحيا فلانًا فهذا من الإسرائيليات؛ لكن الآية أنَّه يحيي الموتى؛ أي ميت يقف عليه وهو ميت يأمره فيحيى بإذن الله.

١- (قلت): البرص: هو بياض يعتري الجسد.

قال ابن كثير: قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى، عليه السلام، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلمَّا استيقنوا أنَّها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأمَّا عيسى، عليه السلام، فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلَّا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التَّناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلَّا لأنَّ كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا.

قال ابن العثيمين: {وأنبِّئكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم } {أنبئكم}: أخبركم بما تأكلونه اليوم، وما تدَّخرونه للغد في بيوتكم من غير أن يأتي أحد يخبره بذلك؛ وهذا فيه شيء من علم الغيب، فأخبرهم أن من جملة آياته أنَّه يخبر الإنسان يقول: أكلت اليوم كذا وكذا، وادَّخرت لغد أو بعد غد كذا وكذا، مع أنَّه لم يبعث أحدًا يطلع على ما في بيته؛ وهذا لا يكون إلَّا بوحي من الله؛ إذا لم يكن هناك بشر يطلعه على ما في البيوت، فإنَّه يكون من وحي الله؛ وقد يكون بواسطة الجن، فإنَّ الجن ربما تخدم الإنس فتذهب إلى الأمكنة البعيدة أو تتسور الجدران وتخبر بما في البيوت؛ لكن الجن الذي على هذا الوصف، لا يجوز الاستمتاع به، أو الاتصال به؛ لأنَّ اطلاعه على أحوال الناس ظلم وعدوان؛ ولا يجوز لإنسان أن يستعين بظالم على ظلمه؛ ولهذا يمتنع هذا التقدير في حق عيسى عليه الصلاة والسلام.

يعني لو قال قائل: إنَّ الذين يستعينون بالجن ربَّما يطَّلعون على ما يؤكل و يدَّخر في البيوت؟ قلنا لكن هذا لا يرد بالنسبة إلى عيسى؛ لأنَّ الاستمتاع بالجن على هذا الوجه محرَّم لما فيه من العدوان والظلم، وعيسى لا يمكن أن يفعل هذا؛ فتبيَّن أنَّه يأتيه عن طريق الوحي؛ والحكمة من إخبارهم بهذا هو إطِّلاعهم على أنَّه عليه الصلاة والسلام يأتيه الوحي من الله في أمور خاصة، بما في البيوت؛ والثاني والله أعلم تحذيرهم من أن يأكلوا شيئًا محرَّمًا عليهم؛ ولهذا سيأتي أنَّه قال لهم: {ولأحلَّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم}؛ لأنَّهم إذا كانوا يعلمون أنَّه يعلم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم فسوف يتوقَّفون عن الشيء المحرَّم، وهم إذا توقَّفوا عن الشيء المحرَّم ربما ييسِّر الله لهم فيحلَّه لهم.

قال شيخ الإسلام في النبوات ج٢ص٨٧٨: ولفظ الإنباء: يتضمَّن معنى الإعلام والإخبار، لكنَّه في عامَّة موارد استعماله أخصَّ من مطلق الإخبار؛ فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصَّة، دون المشاهدة المشتركة: كما قال: {وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ}.

قال ابن العثيمين: {إنَّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين} {إنَّ في ذلك} المشار إليه ما سبق من عدَّة أمور؛ قوله: {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله}، {وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله}، {أنبِّئكم بما تأكلون وبما تدَّخرون في بيوتكم} هذه ثلاث آيات كلُّها تدلُّ على صدق عيسى عليه الصلاة والسلام وأنَّه رسول الله حقًّا؛ لأنَّ مثل هذا لا يستطيعه البشر؛ وآيات الأنبياء التي جاءت هي علامات على صدقهم لا يستطيع أن يأتي بمثلها البشر؛ لأن الآية لو أمكن أن يأتي البشر بمثلها لم تكن آية؛ إذ أنَّ كل إنسان يستطيع أن يفعل مثل هذا؛ وقوله: {إن كنتم مؤمنين}: يعني أنَّها آية بهذا القيد، أي: إن كنتم مؤمنين؛ فأمَّا غير المؤمن، فإنَّه لا ينتفع بالآيات، ولا تكون الآية آية له، قال الله تعالى: {وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}، لأنَّ قلوبهم قاسية مطبوع عليها والعياذ بالله، لا يصل إليها الخير، ولا تلين، من أجل العقوبات والنذر، لأنَّها قاسية؛ فالمؤمن هو الذي ينتفع بالآيات؛ بل إنَّ غير المؤمن يرى أنَّ هذه الآيات العظيمة أساطير الأولين {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين}، وذلك بسبب ما كان على قلبه من ظلمات المعاصي والعياذ بالله، لقوله: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}. والإيمان سبق لنا معناه كثيرًا بأنَّه التصديق المستلزم للقبول والإذعان وليس مجرَّد التصديق، ودليل ذلك أنَّه لا يتعدَّى بما يتعدَّى به التصديق؛ فإنَّه لا يقال: آمنته ويقال: صدَّقته؛ بل إنَّه يتضمَّن الإقرار والاعتراف والانقياد والتسليم؛ ومن صدق ولم يذعن فليس بمؤمن؛ فأبو طالب عم النبي ﷺ كان مصدِّقًا برسالته لكنَّه لم يقبل ولم يذعن؛ فلم يكن مؤمنًا وإلَّا فإنَّه يصدِّق بما يقول بأشعاره وفي أحواله؛ لكنَّه والعياذ بالله ليس بمؤمن؛ إذًا الإيمان معنى زائد على التصديق، وليس هو مجرَّد التصديق.

قال السعدي: وأي: آية أعظم من جعل الجماد حيوانًا، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنَّها موجبة للإيقان وداعية للإيمان.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ عيسى بن مريم قد جاء بالبيِّنة من الله؛ لأنَّ كلَّ رسول يرسله الله إلى البشر لابدَّ أن يأتي بآية؛ يؤخذ من قوله: {قد جئتكم بآية من ربكم}.

٢- الإشارة إلى قبول رسالته؛ لقوله: {من ربكم} يعني فإذا كان ربكم وجب أن تكونوا له عبيدًا فتقبلوا ما جاءت به رسله.

٣- قدرة الله عز وجل، حيث يخلق عيسى بن مريم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله في الحال؛ بينما الأمور العادية لا يكون طيرًا إلَّا بعد مدَّة.

٤- إطلاق وصف الخلق على المخلوق، أي أنَّ المخلوق يكون خالق؛ لقوله: {أخلق لكم} وهذا له نظائر: قال الله تعالى: {فتبارك الله أحسن الخالقين} وقال النبي ﷺ في المصورين: ((يقال لهم أحيوا ما خلقتم[١]))؛ لكن خلق غير الخالق جل وعلا، ليس خلقًا حقيقةً، ولكنَّه تغيير أو تحويل؛ فالإنسان مثلًا يخلق من الطين صورة؛ لكن من الذي خلق الطين؟ الله عز وجل؛ لا يمكن أن يخلق جميع الخلق شيئًا على وجه الاستقلال، وإنَّما خلقهم للأشياء تغير صور الأشياء، أو تحويلها من شيءٍ إلى شيء، أو ما أشبه ذلك.

٥- هذه المعجزة العظيمة لعيسى بن مريم وهو أنَّه ينفخ في هذا التمثال حتى يكون طيرًا، وفي قراءة طائرًا وليس هناك فرقًا في الواقع؛ وذلك لأنَّ الطير قد يطير وقد لا يطير ولكنَّه يصير طيرًا يطير بإذن الله في الحال.

٦- أنَّ من آيات عيسى عليه الصلاة والسلام أنَّه يبرئ الأكمه والأبرص لكن لا استقلالًا بل بإذن الله، وإلَّا لا أحد يشفي من المرض أيِّ مرض كان إلَّا بإذن الله عز وجل حتى الأشياء التي جعلها الله تعالى بطبيعتها شفاء للأمراض لا تشفي إلَّا بإذن الله؛ وكم من دواء كان مفيدًا ونافعًا لهذا المرض المعيَّن ثم يستعمله المريض فلا ينتفع به.

٧- الآية العظيمة وهي إحياء الموتى، من آيات الله؛ وفي الآية الثانية: {وإذ تخرج الموتى بإذني} ففي الآيتين إحياء الموتى وإن كانوا على ظهر الأرض، وإحياء الموتى في القبور وإخراجهم من القبور إحياء، يعني إذا ضممت هذه إلى هذه استفدت فائدتين: أنَّه يحيي الموتى وهم على ظهر الأرض؛ ويحييهم وهم في بطن الأرض فيخرجون.

٨- إثبات الحكمة لله عز وجل؛ وجهه أن الله جعل لعيسى من الآيات ما يكون مناسبًا لزمنه وعصره حيث أوتي من الآيات ما يعجز عنه من كانوا محل تعظيم للناس في ذلك الوقت وهم الأطباء؛ في عهد عيسى ترقَّى الطب ترقِّيًا عظيمًا؛ ولكن مهما ترقَّى الطب لم يصلوا إلى ما وصل إليه عيسى، لا يبرئون الأكمه ولا الأبرص ولا يحيون الموتى ولا يخرجونها من القبور؛ لكن عيسى يأتي بهذه الآيات بإذن الله عز وجل؛ قال أهل العلم: وفي عهد موسى ترقَّى السحر ترقِّيًا عظيمًا فكانت آياته معجزة تقهر السحرة وذلك بالعصا واليد؛ ومحمد ﷺ أتى وبعث في قوم يفخرون بالبلاغة والفصاحة ويرونها هي محل التقدير والاحترام؛ فكانت آياته أن جاء بكلام يعجز عن مثله البشر في بلاغته وفي معانيه وأحكامه إلى آخر وجوه الإعجاز في القرآن.

٩- إثبات الإذن لله؛ الإذن لا الأُذن؛ الأُذن هي الجارحة أو العضو الذي يكون في الإنسان لتلقِّي الأصوات؛ وأمَّا الإذن فهو الإباحة والترخيص وما أشبه ذلك؛ أمَّا الأُذن فلا يجوز أن نثبتها لله ولا أن ننفيها عنه؛ لأنَّ الصفات توقيفية؛ والله عز وجل لم يثبت له أُذنًا ولم ينفي عنه الأُذن، أثبت لنفسه السمع، والسمع ليس بشرط أن يكون من ذي أُذن، فها هي الأرض تسمع وتحدث أخبارها وليس لها آذان؛ المهم أنَّ الإذن هنا غير الأُذن؛ وإذن الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي؛ وإذن كوني؛ فما تعلَّق بالخلق فهو إذن كوني؛ وما تعلَّق بالشرع فهو إذن شرعي، هذا ضابط، ففي قوله: {أم لهم شركاء شرعوا لهم

١- (قلت): البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧). وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٤٤٩٢)، وصحيح الجامع (٩٩٩).

من الدِّين ما لم يأذن به الله} الإذن هنا شرعي وليس كونيًّا، لأنَّه كونيًّا قد أذن الله له فيه؛ لكن لم يأذن به شرعًا؛ {من ذا الذي يشفع عنده إلَّا بإذنه} كوني، وكذلك هنا {فيكون طيرًا بإذن الله}.

١٠- أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يملكون شيئًا من الربوبية؛ يؤخذ من تقييد فعل عيسى بإذن الله.

١١- الرَّد على النصارى في زعمهم أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام له حق في الربوبية، وكذبوا في هذا؛ فعيسى عبد الله ورسوله قال لقومه: {وإنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه}، وقال الله تعالى عنه: {إن هو إلَّا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلًا لبني إسرائيل} فهو عبد لا يملك من الربوبية شيئًا أبدًا؛ لأنَّ الربوبية من حق الله الخاص الذي لا يشرك فيه أحد.

١٢- أنَّ الله تعالى أطلع نبيه عيسى بن مريم على ما يأكل قومه وما يدَّخرون؛ ممَّا يخفى على غيرهم؛ لقوله: {وأنبِّئكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم}.

١٣- إثبات الحكمة لله سبحانه وتعالى في أنَّ الله أطلع نبيه عيسى على ذلك حتى يخافوا أن يخفوا شيئًا لا يرضاه الله ورسوله؛ لأنَّه إذا كان ينبِّئهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، معناه أنَّه يطلع على أسرارهم البيتية؛ وهذا يلزمهم أن لا يبيتوا شيئًا لا يرضاه.

١٤- أنَّه ينبغي التكرار في المقام الهام؛ لقوله: {إنَّ في ذلك لآية لكم}، مع أنَّه قال في الأول: {قد جئتكم بآية من ربكم} وذلك لأنَّ الأمور الهامَّة ينبغي تكرارها، أولًا: من أجل أن يتبيَّن للمخاطب أهميتها، وعند المتكلِّم وأنَّه ذو عناية بها؛ والثاني: من أجل أن تترسَّخ في الذِّهن؛ لأنَّه كلَّما تكرَّر شيء ازداد رسوخًا.

١٥- أنَّ الإيمان يحمل صاحبه على قبول الآيات التي جاءت بها الرسل؛ لقوله: {إن كنتم مؤمنين}، وكلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا، كان أقوى قبولًا لما جاءت به الرسل من الآيات الكونية والآيات الشرعية.

١٦- أنَّه يجوز تعليق الأحكام بالأوصاف؛ لقوله: {لآية لكم إن كنتم مؤمنين}.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ {٥٠}

قال ابن العثيمين: {ومصدِّقًا لما بين يدي من التوراة}: هذه معطوفة على ما سبق، يعني: أنَّها تكون منصوبة على الحال، يعني: وجئتكم مصدِّقًا لما بين يدي من التوراة وما سبق؛ ويطلق ما بين اليدين على ما مضى، ويطلق على ما يستقبل؛ فإن قرن بالخلف فهو للمستقبل، وإلَّا فإنَّه صالح للمستقبل والماضي؛ ففي قوله تعالى: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم} المراد

المستقبل؛ لقوله: {وما خلفهم}، وفي هذه الآية: {مصدِّقًا لما بين يدي}: أي لما سبقنا من التوراة؛ وتصديقه للتوراة له وجهان؛ الوجه الأول: أنَّه يقرِّر صدقها ويقول إنَّها كتاب حق؛ والوجه الثاني: أنَّه يصدِّق ما أخبرت به.

وقوله: {من التوراة}: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى ﷺ؛ وهي أصل الكتب المنزلة على بني إسرائيل وأعظمه؛ بل هي أعظم الكتب فيما نعلم بعد القرآن.

قال السعدي: أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض، بخلاف من ادَّعى دعوى كاذبة، خصوصًا أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لابدَّ أن يظهر لكلِّ أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربَّانية بعباده، إذ لا يشتبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبدًا، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنَّه قد يشتبه فيها الصادق بالكاذب، وأمَّا النبوة فإنَّه يترتَّب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أنَّ الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبيَّن لكلِّ من له عقل.

قال ابن العثيمين: {ولأحلَّ لكم}: يعني وجئتكم أيضًا {لأحلَّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم}، قوله: {ولأحلَّ لكم بعض الذي} ولم يقل: (كلّ)؛ والمحرَّم عليهم ذكره الله في قوله: {وعلى الذين هادوا حرَّمنا كلَّ ذي ظفر ومن البقر والغنم حرَّمنا عليهم شحومهما إلَّا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم}، وقال تعالى: {فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أحلَّت لهم}؛ فلمَّا حرِّمت عليهم هذه الطيِّبات بظلمهم وطغيانهم وبعث الله عيسى ﷺ، أحلَّ لهم بعض ما حرِّم عليهم؛ ولم يذكر في القرآن بيان هذا البعض فيكون باقيًا على إطلاقه ولو كان لنا مصلحة في تعيين ذلك لبيَّنه الله.

وقوله: {بعض الذي حرِّم عليكم}: الفعل هنا مبنيٌّ للمجهول، ولكن فاعله معلوم؛ هو الله عز وجل، كما قال تعالى: {وعلى الذين هادوا حرَّمنا كلَّ ذي ظفر}.

قال السعدي: ثمَّ أخبر عيسى عليه السلام أنَّ شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال: {ولأحلَّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم}، فدلَّ ذلك على أنَّ أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمِّمًا لها ومقرِّرًا.

قال ابن العثيمين: {وجئتكم بآية من ربكم}: كرَّر هذا مرة بعد قوله: {إنَّ في ذلك لآية لكم}، فإمَّا أن يقال: إن الآية التي ذكرت هنا {وجئتكم بآية} تقتصر على تصديقه لما بين يديه من التوراة، وعلى إحلاله بعض الذي حرِّم عليهم؛ وحينئذ لا يكون في الآية تكرار؛ وإمَّا أن يقال: إنَّ قوله: {وجئتكم بآية} يشمل كل ما جاء به من الآيات، ويكون هذا من باب التأكيد وإقامة الحجَّة عليهم؛ فكرَّر مجيئه بالآيات احتجاجًا عليهم بما كذَّبوا.

{فاتَّقوا الله}: يعني اتَّخذوا وقاية من عذابه؛ لأنَّ التَّقوى مأخوذة من الوقاية؛ فتكون الوقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وهذا هو المعنى الشامل للتَّقوى عند الإطلاق؛ وإذا قرنت التَّقوى بالبر صارت المراد بها اجتناب المحارم، مثل قوله تعالى: {وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى}.

{وأطيعون}: وأطيعون فيما أمرتكم به، وفيما نهيتكم عنه؛ وطاعته من التَّقوى بلا شك؛ لكن نصَّ عليها لأنَّها تقوى خاصة فيما جاء به عيسى؛ لأنَّ التَّقوى يؤمر بها كلُّ إنسان؛ فإذا قال: {أطيعون}، صارت تقوى خاصة في طاعة هذا الرسول الذي بعث إلى قومه؛ والطاعة قال العلماء في تفسيرها: إنَّها موافقة الأمر تجنُّبًا للنهي وفعلًا للمأمور؛ فمن تجنَّب النهي ناويًا بذلك امتثال الأمر فهو مطيع؛ ومن فعل الأمر ناويًا بذلك امتثال الأمر أيضًا فهو مطيع؛ أمَّا من ترك المنهي عنه عجزًا عنه فإنَّ هذا ليس بمطيع؛ بل إذا سعى حتى عجز، كان كمن فعله؛ لقول النبي ﷺ: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول كلاهما في النار قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه([1]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ عيسى بن مريم قد جاء بما يصدق به التوراة؛ لقوله: {ومصدِّقًا لما بين يديَّ} وقد سبق لنا أن معنى مصدِّقًا أو أنَّ كلمة مصدِّقًا ذات وجهين، {لما بين يدي من التوراة} يعني شاهد لها بالصِّدق هذه واحدة؛ وأنَّها أخبرت بعيسى؛ يعني وقعت مطابقًا لما أخبرت به؛ وإذا جاء الشيء مطابقًا لما أخبر به فهذا تصديق، شهادة بصدق.

٢- جواز النسخ في الشرائع؛ لقوله: {ولأحلَّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم} وهذا نسخ؛ والنسخ في الشرائع ثابت منذ نوح إلى محمد ﷺ؛ وأنكرت اليهود وجود النسخ وقالت لا يمكن أن ينسخ الله الحكم؛ لأنَّ هذا يستلزم نقصًا في حقِّ الله؛ وقالوا لهم: متى وصفتم الله بالكمال؟ أنقصكم الله وأذلَّكم، ألم تقولوا إنَّ يد الله مغلولة؟ ألم تقولوا إنَّ الله فقير؟ ألم تقولوا إنَّ الله استراح حين خلق السموات والأرض تعب؟ كيف تقولون النسخ يستلزم النقص على الله؟ يقولون لأنَّه يستلزم العلم بعد الجهل، كأنَّ الله إذا نسخ الحكم الأول تبيَّن له أنَّ الصواب في الحكم الثاني وهذا نقص؛ فنقول لهم: نحن نردُّ عليكم بشريعتكم قال الله تعالى: {كلُّ الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزَّل التوراة}، وقال: {فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أحلَّت لهم}، وأنتم تعتقدون أنَّ التوراة ناسخة للكتب السابقة المنزلة على بني إسرائيل؛ وأنَّه يجب على كل واحد من بني إسرائيل أن يؤمن بها ويتبعها أليس هذا نسخ؟ ثمَّ إنَّ النسخ في الحقيقة من مقتضى الحكمة، لا منافي للحكمة؛ لأنَّ الله عز وجل يشرع الأحكام مناسبة للواقع أو ملائمة لمن شرعت له؛ فقد يكون هذا

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٠٣)، وغاية المرام ص (٢٥٦)، ونقد الكتاني (٣٩).

الحكم ملائمًا لزمن غير ملائم لزمن آخر؛ أو ملائمًا لقوم غير ملائم للآخرين، وكون الأحكام تتّبع الحكم هذا هو الكمال، وليس نقصًا. وهنا قال عيسى بن مريم: {ولأحلّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم}.

٣- جواز نسبة الحكم إلى من بلغه؛ لأنَّه قال: {أحلّ لكم}، وأصل التحريم والتحليل من عند الله عز وجل؛ ولكن إضافته إلى من أظهره وأبانه لا بأس بها؛ ولهذا أضاف الله القرآن إلى نفسه وإلى جبريل وإلى محمد؛ أمَّا إلى نفسه فقال: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله}؛ وأمَّا إلى جبريل فقال: {إنَّه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين}؛ وأمَّا إلى محمد فقال: {إنَّه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون}؛ لكن الكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، وأمَّا من قاله مبلِّغا مؤدِّيًا، فإنَّما يضاف إليه لكونه أظهره وأبانه.

٤- تكرار الأمور الهامة لقوله في المرة الثالثة: {وجئتكم بآية من ربكم}.

٥- أنَّ الطاعة أمر مشترك بين الرسول وبين الله عز وجل؛ وأمَّا التَّقوى فهي خاصة بالله؛ لقوله: {فاتَّقوا الله وأطيعون}، وطاعة الله هي الأصل، لكن طاعة الرسول طاعة المرسِل الذي أرسله.

٦- أنَّ التَّقوى واجبة في كلِّ شريعة؛ لقوله هنا: {فاتَّقوا الله}، ولكن المتَّقى قد يختلف باختلاف الشرائع؛ لقوله تعالى: {لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا}: يعني الذي يُتَّقى الله به، قد يختلف باختلاف الشرائع.

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {٥١}

قال ابن العثيمين: لمَّا أمرهم بتقوى الله، ذكر ما هو كالسَّبب في ذلك؛ فقال: {إنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبدوه}، و(الرب([١])) هو الخالق المالك المتصرِّف؛ وتوحيد الله في الربوبية: أن نؤمن بأنَّه لا خالق ولا مالك ولا مدبِّر إلَّا الله سبحانه وتعالى؛ وما يضاف من الخلق أو الملك أو التدبير لغير الله فإنَّه على وجه ناقص من حيث الشمول ومن حيث التَّصرف؛ فمثلًا: الخلق يضاف إلى غير الله وقد مرَّ علينا قريبًا أنَّ عيسى قال: {أخلق لكم من الطين}؛ وقال الله تعالى: {فتبارك الله أحسن الخالقين}، وقال الله في الحديث القدسي: ((ومن أظلم ممَّن ذهب يخلق كخلقي([٢]))، وقال النبي ﷺ: ((أشدُّ الناس عذابًا

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرب} مفصلًا عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

٢- (قلت): البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٥٦)، والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي دَارِ مَرْوَانَ فَرَأَى فِيهَا تَصَاوِيرَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)): معناه فليخلقوا ذرة فيها روح تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي هي خلق الله تعالى كذلك فليخلقوا حبة حنطة أو شعير أي فليخلقوا حبة فيها طعم تؤكل وتزرع وتنبت ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة والشعير ونحوهما من الحب الذي يخلقه الله تعالى وهذا أمر تعجيز كما سبق.

يوم القيمة المصوِّرون يقال لهم أحيوا ما خلقتم[١]»)، ولكنَّ الخلق المضاف إلى غير الله عز وجل خلق ناقص، ليس إيجادًا حقيقةً؛ ولكنَّه تغيير لصورة، فمثلًا: الإنسان يخلق من الخشب بابًا، هل هو الذي خلق الخشب؟ ومن الحديد سيارة هل هو الذي خلق الحديد؟ أبدًا، ولكن غيَّره وحوَّله من حال إلى حال فصار هذا خلقًا؛ لكنه ليس هو الذي أوجد الحديد أو الخشب حتى يقال إنَّه خلقه. لأنَّ كلَّ إنسانٍ يخلق ما صنع فقط؛ وما لم يصنعه فليس من خلقه.

كذلك المُلك {لله ملك السموات والأرض}، {قل من بيده ملكوت السموات والأرض}، والآيات في إثبات الملك لله وحده كثيرة؛ ومع ذلك أضاف الله إلى غيره الملك في قوله تعالى: {على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم}، وفي قوله تعالى: {أو ما ملكتم مفاتحه}؛ فهل نقول: إن هذا الملك كملك الله؟ لا؛ لا من حيث الشمول ولا من حيث التصرف؛ أمَّا من حيث الشمول فلأن كلَّ إنسانٍ لا يملك أكثر ممَّا تحت يده؛ ولذلك لا تملك كتابي ولا أملك كتابك؛ أمَّا ملك الله فهو عام شامل؛ وأمَّا من حيث التصرف فملك غير الله قاصر؛ لأنَّ الإنسان لا يملك التصرف المطلق كما يريد؛ وإنَّما يتصرَّف بحسب ما تقتضيه شريعة الله وحسب ما يأذن به الله؛ لو أراد الإنسان أن يمزِّق كتابه هل يملك ذلك؟ لا يملك ذلك، حرام عليه يأثم؛ ولو أراد أن يمزِّق كتاب غيره كان حرامًا من وجهين: من وجه إفساد المال؛ ومن وجه العدوان على الغير؛ فالحاصل أنَّ ملك الإنسان قاصر من ناحيتين: فهو قاصر بالتصرف، فهو قاصر من حيث الشمول.

أمَّا التدبير الذي هو المعنى الثالث للربوبية، فكذلك، فالتدبير أيضًا يكون لغير الله، لكنه تدبير ناقص من حيث الشمول ومن حيث التصرف أيضًا؛ فالإنسان لا يدبِّر كلَّ شيء، لا يدبِّر إلَّا ما يملك تدبيره ومع ذلك تدبيره له تدبير ناقص حسبما يقتضيه الشرع؛ لو أراد أن يدبِّر بعيره على وجه يشقُّ عليه، يمشِّيها على النار وما أشبه ذلك هل يجوز؟ لا يجوز، فهو تدبير ناقص؛ لو أراد أن يرسل عليه شواظًا من نار؛ يملك؟ لا يملك؛ لكنَّ الله عز وجل يملك هذا كلَّه، ولا معارض له؛ المهم أنَّ الربوبية هي إنفراد الله بالخلق والملك والتدبير؛ ولا يعني ذلك أن لا أحد يشاركه في خلق أو ملك أو تدبير؛ لكن على وجه لا يماثل ما يثبت للخالق من ذلك؛ فالإنسان قد يخلق يقال إنَّه خلق، ويقال إنَّه ملك، ويقال إنَّه دبَّر؛ لكنَّه ناقص.

قوله: {ربِّي وربُّكم}: بدأ بنفسه ليكون أوَّل مذعن لهذا الرَّب عز وجل؛ لأنَّ الرَّب خالق مالك مدبِّر؛ فبدأ بنفسه ليكون هو أوَّل من يذعن وينقاد لهذا الرَّب.

قال السعدي: {إنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبدوه} استدلَّ بتوحيد الربوبية الذي يقرُّ به كلُّ أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أنَّ الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعمًا ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الجامع الصغير وزيادته (١٠٠١)، وقال: انظر حديث رقم : (٩٩٩) في صحيح الجامع.

قال ابن العثيمين: {فاعبدوه} الفاء هنا عاطفة وتفيد السببية أيضًا، أي بسبب كونه ربًّا اعبدوه؛ ولهذا نقول: إنَّ الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية، وأنَّ من أقرَّ بتوحيد الربوبية وأنكر توحيد الألوهية فقد تناقض؛ ولذلك سفَّه الله المشركين الذين كانوا يقرُّون بتوحيد الربوبية ثمَّ ينكرون توحيد الإلهية فيقول: {أنَّى تؤفكون}، {أنَّى تصرفون}، وما أشبه ذلك ممَّا يدلُّ على أنَّه من السَّفه أن يقرَّ الإنسان أنَّ الله هو الخالق المالك المدبِّر ثمَّ يعبد غيره؛ فنقول مثلًا للمشرك: ألست تؤمن بالله؟ سيقول: بلى؛ أنَّه الخالق؟ بلى؛ أنَّه المالك؟ بلى؛ أنَّه المدبِّر؟ بلى؛ أنَّه لا خالق معه ولا مالك ولا مدبِّر؟ بلى أؤمن بهذه كلِّه؛ إذًا كيف تجعل معه إلهًا تعبده؟ ومن كان غير الله فهو معبود أو عابد؟ عابد، عابد مربوب وعبد مربوب لله عز وجل؛ فكيف تجعله معبودًا مع الله؟ ولهذا قال: {فاعبدوه} فالفاء إذا عاطفة تفيد السببية، أي: فبسبب كونه ربِّي وربُّكم، اعبدوه وحده. والعبادة مأخوذة من الذُّل، عبد بمعنى ذلَّ؛ ومنه قولهم: طريق معبَّد، أي مذلَّل لسالكيه؛ فأصلها الذُّل؛ لكنَّها بالنسبة لله عز وجل ذلٌّ مقرون بالمحبَّة والتعظيم، فكلُّ من تعبَّد لله فإنَّ تعبُّده هذا مقرون بهذين الأمرين: بالمحبَّة والتعظيم؛ فبالمحبَّة يكون الطلب، وبالتعظيم يكون الهرب؛ فالإنسان إذا أحبَّ شيئًا طلبه، وإذا عظَّم شيئًا هابه وهرب منه وخاف منه؛ ولهذا كانت العبادة مبنيَّة على الرجاء والخوف؛ والعبادة أحيانًا تطلق على هذا المعنى؛ التَّذلُّل لله مع المحبَّة والتعظيم؛ وتطلق أحيانًا على اسم المفعول؛ أو على الشيء المتعبَّد به؛ وحينئذ نقول: إنَّها اسم جامع لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة و الباطنة؛ فالصلاة مثلًا عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، وبرُّ الوالدين عبادة، وصلة الأرحام عبادة، وهكذا؛ فأحيانًا تطلق على الفعل وأحيانًا تطلق على المفعول، على الفعل فنفسِّرها بأنَّها التَّذلُّل لله عز وجل حبًّا وتعظيمًا؛ وباعتبار المعمول أو المفعول اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه وأمر به ورسوله.

قال: {فاعبدوه هذا صراط مستقيم} {هذا}، المشار إليه إمَّا كل ما سبق؛ من قوله: {فاتَّقوا الله وأطيعون}، أو أقرب مذكور {إنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبدوه هذا} أي: تقوى الله وطاعة رسوله وتحقيق العبادة له صراط مستقيم، أي طريق، ولا يسمَّى الطريق صراطًا إلَّا إذا اجتمع فيه السعة والاعتدال، السعة والاعتدال؛ لأنَّه مأخوذ من الصراط وهو الابتلاع بسرعة؛ والطريق الواسع المستقيم يبتلع سالكيه بسرعة؛ لأنَّ الضيق لا يمشي الناس فيه إلَّا رويدًا رويدًا ببطء، وغير المستقيم لا يوصل إلى الغاية إلَّا ببطء، سواء كان انحرافه من يمين وشمال، أو من حيث الصعود والنزول؛ فإنَّه إذا كان صاعدًا نازلًا، أتعب السالك، فإذا كان الصراط مستقيمًا في الانحرافات يمينًا وشمالًا، وكذلك في الصعود والنزول اختصر الطريق؛ وهكذا أيضًا الصراط، إذا قدَّرنا إنَّ الغاية تصل إليه بالطريق المستقيم في ثلاثين متر؛ وهذا فيه تعريج كل تعريجة عشرة أمتار وفيه عشر تعاريج بكم تصل إلى الغاية بالمتر؟ بمائة؛ فالحاصل أنَّ الصراط لا يكون صراطًا، إلَّا إذا كان واسعًا مستقيمًا، وهو مأخوذ من الصرط أو الزرط، والزرط معناه: أعطيته اللقمة، والفم فورًا زرطه.

{مستقيم}: يعني لا اعوجاج فيه؛ ووصفه بالاستقامة بعد أن قلنا إن الطريق هو الواسع المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج من باب التوكيد([1]).

قال السعدي: {هذا}: أي عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله {صراط مستقيم} موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم.

قال الطبري: يعني بذلك: وجئتكم بآية من ربكم تعلمون بها يقينًا صدقي فيما أقول {فاتَّقوا الله}، يا معشرَ بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه {وأطيعون}، فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربِّي وربُّكم، فاعبدوه، فإنَّه بذلك أرسلني إليكم، وبإحلال بعض ما كان محرَّمًا عليكم في كتابكم، وذلك هو الطريق القويمُ، والهدى المتينُ الذي لا اعوجاج فيه. عن محمد بن جعفر بن الزبير: {فاتَّقوا الله وأطيعون إنَّ الله ربِّي وربُّكم}، تبرِّيًا من الذي يقولون فيه – يعني: ما يقول فيه النصارى – واحتجاجًا لربِّه عليهم، {فاعبدوه هذا صراط مستقيم}: أي هذا الذي قد حملتُكم عليه وجئتكم به([2]).

قال السعدي: وفي هذا ردٌّ على النصارى القائلين بأنَّ عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنَّه عبدٌ مدبَّرٌ مخلوق، كما قال: {إنِّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا}، وقال تعالى: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته} إلى قوله: {ما قلت لهم إلَّا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربِّي وربَّكم}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أنَّ الطاعة لله ورسوله والتَّقوى لله فقط؛ لأنَّه قال: {فاتَّقوا الله} ولم يقل: اتَّقوني؛ وقال في الطاعة: {وأطيعون} ووجوب طاعة الله معلومة في آية أخرى، {إنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبدوه}.

٢– عموم ربوبية الله للبشر؛ لقوله: {ربِّي وربُّكم} وربوبية الله ثابتة لكلِّ السموات والأرض ومن فيهن: {قل لمن الأرض ومن فيها}، {قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم}، فالربوبية ربوبية الله سبحانه وتعالى لكلِّ شيء؛ لكن عيسى قال: {ربِّي وربُّكم} ليقيم عليهم الحجَّة؛ لأنَّه إذا كان ربهم سبحانه وتعالى، فإنَّه يشرع فيهم وعليهم ما يشاء، ولا أحد يعقب حكمه.

٣– أنَّ عيسى مربوب وليس ربًّا؛ لقوله: {ربِّي وربُّكم}.

١– (قلت): أنظر كلام ابن القيم عن (الصراط المستقيم) عند تفسير الآية (٦) من سورة الفاتحة.

٢– الأثر: سيرة ابن هشام ٢: ٢٣١.

٤- الرَّد على النصارى في دعواهم أنَّ لله ثالث ثلاثة؛ وقد كفَّرهم الله بذلك، فقال: {لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة} كفَّرهم بهذا؛ وهم بلا شك كافرون مخلَّدون في نار جهنم أبد الآبدين.

٥- وجوب العبادة؛ لقوله: {فاعبدوه}.

٦- أنَّ الإقرار بالربوبية مستلزم للإقرار بالعبودية؛ يعني أنَّ من أقرَّ بربوبية الله لزمه أن يقرَّ بعبوديته؛ ولهذا قال: {فاعبدوه} فأتى بالفاء الدالِّ على السببية؛ أي فبسبب اختصاصه بالربوبية يجب أن تخصوه بالعبادة؛ ومن ثمَّ نجد الله سبحانه وتعالى في كتابه يقيم الحجَّة على المشركين الذين يقرُّون بربوبيته لا بألوهيته، يقولون إنَّه منفرد بالربوبية لكن بالألوهية لا يفردونه؛ يتَّخذون معه آلهة؛ كل قوم لهم ربٌّ يعبدونه، وهذا لا شك من السَّفه؛ إذا كنت تعلم وتعتقد بأنَّ الله وحده هو الرب، لزمك أن تعتقد بأنَّه وحده الإله المعبود الذي يستحق العبادة، وأنَّه لا إله غيره.

٧- أنَّ الصراط المستقيم عبادة الله؛ لقوله: {هذا صراط مستقيم} ولا شك أنَّ أعدل السُّبل وأقومها عبادة الله؛ وعبادة الله كما يعلم هي إتِّباع شرعه الموصل إليه سبحانه وتعالى.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {٥٢}

قال أبو زهرة: هذا النص الكريم كان معقِّبًا للآيات الباهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وتصوير الطين كهيئة الطير فيكون طيرًا بإذن الله. وتعقيبه لهذه الآيات، وكون الكثرة لم يكونوا مؤمنين كما يشير النص، يدلُّ على أنَّ الآية مهما تكن باهرة قاهرة لَا تحمل الجاحدين الذين غلفت قلوبهم دون نور الهداية على الإيمان، والفاء هنا كأنَّها فاء التَّعقيب على الآيات الباهرة، أي أنَّهم فور هذه الآيات كفروا ولم يتدبَّروا، وأحسَّ منهم عيسى هذا الكفر، {فلمَّا أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله}. والإحساس هو العلم الذي يكون بالحواس، وإطلاقه على العلم المجرَّد بعد ذلك من قبيل تشبيه العلم اليقيني القاطع البديهي بالعلم المدرك بالحواس.

ولمَّا أحسَّ عيسى الذي أوتي هذه البيِّنات الكفر من قومه، وعلم ذلك علمًا يقينيًّا، اتَّجه إلى من يدعوهم يتعرَّف من أصاب الإيمان قلبه ليتَّخذ منهم قوَّة للدَّعوة وليكونوا صورة للمهتدين الصادقين، ولذلك قال: {مَنْ أَنصارِي إِلَى اللَّهِ}: أي من الذين رضوا؛ أن يكونوا أنصاري لأواجه بهم الذين يحاربون دعوتي، على أن يكون أولئك الأنصار منصرفين متَّجهين إلى الله تعالى لَا يبغون غير رضاه.

قال الطبري: {فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر}: فلمَّا وَجد عيسى منهم الكفر.

و(الإحساس)، هو الوجود، ومنه قول الله عز وجل: {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ}[سورة مريم: ٩٨]. فأمَّا (الحَسُّ)، بغير (ألف)، فهو الإفناء والقتل، ومنه قوله: {إذ تحسُّونهم بإذنه}[سورة آل عمران: ١٥٢]. (والحَسُّ) أيضًا العطف والرِّقَّة، ومنه قول الكميت: هَلْ مَنْ بَكَى الدَّارَ رَاجٍ أَنْ تَحِسَّ لَهُ ... أَوْ يُبْكِيَ الدَّارَ مَاءُ العَبْرَةِ الخَضِلُ؟

يعني بقوله: (أن تحسَّ له)، أن ترقَّ له.

قال ابن العثيمين: {فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله} وفي قراءة: {من أنصاريَ إلى الله} لأنَّ ياء المتكلِّم يجوز فيها ثلاث لغات: الفتح بناء؛ والسكون بناء؛ والحذف تخفيفًا؛ فتقول: هذا غلامي؛ هذا غلاميَ؛ هذا غلام؛ لكن تبيَّن أنَّه مضاف. يقول هنا: {فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر} {أحسَّ}: بمعنى أدرك بحاسَّته؛ وتيقَّن أنَّهم كفروا. والعياذ بالله؛ مع هذه الآيات الكريمة التي يشاهدونها لم يؤمنوا؛ لأنَّ الله إذا ختم على القلب لا يؤمن صاحبه أبدًا، {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم}، وقال في الآية التي قبلها: {صمٌّ بكم عمي فهم لا يرجعون}؛ وقال عز وجل: {إنَّ الذين حقَّت عليهم كلمة ربِّك لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آية}.

فهم مع هذه الآيات لم يؤمنوا؛ لمَّا أحسَّ منهم الكفر وأدركه، وتبيَّن له، لجأ إلى الاختيار وانتخاب الأكِفَّاء، فقال: {من أنصاري إلى الله}، {من أنصاري}: يعني إذا كان الإيمان تعذر منكم جميعًا فمن الذي يكون ناصرًا؛ وقوله: {من أنصاري إلى الله} إلى هنا للغاية، ولم يقل: من أنصاري في الله، ليكون النصر مبنيًّا للإخلاص؛ لأنَّ {إلى} للغاية، فيريد أن يكون نصرًا موصلًا إلى الله عز وجل؛ و{من} هذه مبتدأ، و{أنصاري} خبر؛ و{إلى الله} متعلِّق بأنصار.

قال ابن كثير: قال مجاهد: أي من يتَّبعني إلى الله؟ والظاهر أنَّه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: ((من رجل يؤويني على أن أبلِّغ كلام ربِّي، فإنَّ قريشًا قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربي([1]))، حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتَّبعوا النور الذي أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم: {قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنَّا مسلمون. ربَّنا آمنَّا بما أنزلت واتَّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين}.

قال أبو زهرة: وهذا التعبير الكريم فيه إشارة إلى معانٍ ثلاثة:

أوَّلها: أنَّ الأكثرين لم يكونوا مؤمنين، ولذلك عبر بقوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ}، فنسب الكفر إليهم، وذلك لَا يكون إلَّا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلَّة المغمورة، حتى بحث عنهم السيد المسيح عليه السلام بقوله: من أنصاري إلى الله تعالى.

١- رواه أحمد في المسند (٣/٣٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه. وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٤٧).

- (قلت): والحديث بتمامه: ((كان يعرض نفسه على الناس في الموقف، فيقول: ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربِّي)).

المعنى الثاني: الذي يشير إليه النص الكريم: أنَّ السيد المسيح عليه السلام أحسَّ بأنَّه أصبح مقصودًا بالأذى، وأنَّ الدَّعوة الحق أصبحت مهاجمة من تلك الكثرة الساحقة، ولذلك طلب أن يكون له نصراء يجعلون للحق منعة وقوة من جهة، ويكونون مدرسة الدِّعاية له، والخليَّة التي تدرس فيها حقائقه من جهة أخرى.

المعنى الثالث: الذي يشير إليه النص: هو أنَّ النُّصرة الحقيقيَّة في مثل هذا المقام أساسها إخلاص النيَّة لله تعالى، والاتِّجاه إليه، وتفويض الأمور إليه، فإنَّهم إن كانوا قليلًا فهم بمعونة الله كثيرون، {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}، ولذلك كان في سؤال السيد المسيح عليه السلام إضافة النصراء إلى الله، فقال: {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}.

قال ابن العثيمين: {قال الحواريُّون نحن أنصار الله}، {الحواريُّون}: جمع حواري بتشديد الياء، وهو من الحور، وهو البياض؛ وسموا حواريين لسلامة قلوبهم من أثر المعاصي؛ لأنَّ المعاصي - نسأل الله العافية - نكت سوداء تكون في القلب، كلَّما عصى اللهَ الإنسانُ نُكِت في قلبه نكتة سوداء؛ فإن تاب سقط وعاد إلى الاستنارة، وإن لم يتب وأحدث معصية أخرى زادت نكتة أخرى، وهكذا حتى يطبع على القلب؛ فالحواريون إذًا، الذين أخلصوا دينهم ولم يتلطَّخوا بالمعاصي.

قال ابن كثير: والصحيح أنَّ الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثمَّ ندبهم فانتدب الزبير ثمَّ ندبهم فانتدب الزبير فقال: ((إنَّ لكلِّ نبيٍّ حواريًّا وحواريَّ الزبير([1]))).

قال ابن العثيمين: {نحن أنصار الله}: يعني لا غيرنا؛ ووجه قولنا لا غيرنا: أنَّ الجملة هنا مكوَّنة من مبتدأ وخبر؛ فهي جملة اسمية طرفها معرفة، والجملة الإسمية التي يكون طرفها معرفة تفيد الحصر؛ لكن لاشك أنَّ إفادة الحصر ضعيف، ليس كإفادة {إنَّما}، أو النفي والإثبات.

قال أبو زهرة: وهم بذلك بيَّنوا اهتداءهم لأمرين:

أوَّلهما: أنَّهم علموا أنَّه يتكلَّم عن الله تعالى وأنَّه رسول أمين؛ ولذلك اعتبروا إجابة دعوته هي من إجابة دعوة الله، وأنَّهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى؛ ولذا قالوا: نحن أنصار الله، ولم يقولوا نحن أنصارك.

الأمر الثاني: أنَّهم فهموا أنَّ نصرته تكون بإخلاص النيَّة لله تعالى، وتصفية نفوسهم من كل أدران الهوى، حتى تكون خالصة لله تعالى، ولذلك أردفوا قولهم هذا بما حكاه سبحانه وتعالى عنهم بقوله تعالى: { آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }.

قال ابن العثيمين: {آمنَّا بالله}، {آمنَّا} الإيمان في اللغة أخصُّ من التصديق؛ لأنَّه تصديق بإقرار؛ ولهذا عديَ بالباء؛ فيقال: أمنت به؛ ولا يمكن أن نجعله بمعنى التصديق، وذلك لأنَّ الشيء إذا كان مرادفًا للشيء، أي بمعناه تعدَّى بتعديته، ولزم بلزومه؛ ومعلوم أنَّ (آمن) تتعدَّى بما لا تتعدَّى به صدق؛ فيقال: صدَّق بالخبر، ولا يقال: صدَّق له؛ ويقال: صدَّق زيدًا، ولا يقال: آمن زيدًا؛ بل آمن به وآمن له؛ فلمَّا اختلف في المتعلِّق وجودًا وعدمًا، علم أنهما ليسا بمعنى واحد؛ مع أنَّ كثيرًا من

١- صحيح: البخاري (٢٦٣٤)، ومسلم (٤٤٣٦).

الذين يعرِّفون الإيمان في اللغة يقولون: الإيمان في اللغة التصديق؛ وهذا فيه نظر؛ بل هو أخص من التصديق؛ أمَّا الإيمان في الشرع، فهو التصديق؛ وإن شئت فقل: الإقرار المستلزم للقبول والإذعان؛ لا يكفي التصديق فقط، بل لابدَّ من قبول ما جاء به الرسول والإذعان له؛ وأنتم تعلمون أن أبا طالب كان مصدِّقا لرسول الله ﷺ، ويعلن ذلك على الملأ بأنَّه مصدِّق له؛ فيقول في لاميته المشهورة: لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطيل

أنظر، لا مكذب لدينا، وأنَّه لا يعنى بقول الأباطيل، ولا يهتم له؛ ويقول:

ولقد علمت بأن دين محم ... د من خير أديان البرية دينًا

وهذا تصديق، لكن لم يحصل القبول والإذعان، والعياذ بالله، ما اتَّبع الرسول ﷺ، ولا أذعن له، بل كان آخر كلامه أن قال: إنَّه على ملَّة عبد المطلب، على الكفر؛ فشفع له النبي ﷺ لأنَّه أبلى بلاءً حسنًا في الدفاع عن الرسول ﷺ، لا لأنَّه عمُّه؛ لأنَّه لو كان العلَّة الحاملة لشفاعة الرسول العمومة لشفع لأبي لهب؛ لكن العلَّة الحاملة على الشفاعة هو أنه أبلى بلاءً حسنًا في الدفاع عن الرسول ﷺ كما هو معروف؛ يقول ﷺ: ((فكان في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه([1]))، نسأل الله العافية اللهم نجّنا من النار قال: ((ولو لا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار([2]))، الشاهد أن الرسل عليهم الصلاة والسلام إنَّما يدعون إلى صراط الله، {من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنَّا مسلمون}.

وأمَّا الإيمان، لا يكون إلَّا بالتصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ أمَّا بدون قبول ولا إذعان، فليس بإيمان شرعًا([3]).

ثمَّ قالوا: {آمنَّا بالله واشهد بأنَّا مسلمون}: أشهدوا نبيهم عليه الصلاة والسلام على إسلامهم، مع أنَّه شهيد عليهم سواء استشهدوه أم لم يستشهدوه، كما قال الله تعالى: {لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا}، فكلُّ رسول فهو شهيد على أمَّته؛ بأنَّ الله تعالى أرسله إليهم، وأنَّه بلَّغهم رسالة؛ فقوله: {واشهد بأنَّا مسلمون} من باب التوكيد وإعلان الإسلام.

قال الطبري: وهذا خبرٌ من الله عز وجل أن الإسلامَ دينُه الذي ابتعثَ به عيسى والأنبياءَ قبله، لا النصرانية ولا اليهوديةَ، وتبرئةٌ من الله لعيسى ممَّن انتحل النصرانية ودان بها، كما برّأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام، وذلك احتجاجٌ من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على وفد نجران.

عن محمد بن جعفر بن الزبير: {فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر} والعدوان، {قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنَّا بالله}، وهذا قولهم الذي أصابوا به الفضلَ من ربهم، {واشهد بأنَّا مسلمون}، لا كما يقول هؤلاء الذين يحاجُّونك فيه – يعني وفدَ نصارَى نجران([1]).

١– (قلت): لم أجده بهذا اللفظ. والحديث رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ بهذا اللفظ: قال: ((إن أهون أهل النار عذابًا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه)). وصححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترغيب (٣٦٨٨)، وفي صحيح الجامع (٢٥٣٢).

٢– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٤١٦٤)، وقال: انظر حديث رقم (٢٣٩٩) في صحيح الجامع.

٣– (قلت): أنظر الكلام عن الإيمان مفصلًا عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- عتو بني إسرائيل، وأنَّهم مع هذه الآيات العظيمة التي جاء بها عيسى لم يؤمن منهم أحد؛ لقوله: {فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر}.

٢- أنَّه إذا اشتبه الأمر فينبغي أن يداعي الدَّاعية بالإخلاص فيقول: من المخلص؟ أي أن ينتدب الصفوة من القوم؛ لقوله: {قال من أنصاري إلى الله} فهو لمَّا رأى أنَّ القوم تمرَّدوا، والكفر ظهر، انتدب من يرى أنَّه من صفوته.

٣- أنَّ الرسل صلَّى الله عليهم وسلَّم دعوتهم إلى الله، لا لأنفسهم؛ لقوله: {من أنصاري إلى الله}.

٤- أنَّ الرسل محتاجون لمن ينصرهم؛ لقوله: {من أنصاري}، وقال تعالى لمحمد ﷺ: {هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين}.

٥- فضيلة الحواريين رضي الله عنهم، حيث أعلنوا أنَّهم أنصار الله مع كفر قومهم؛ لقوله: {قال الحواريون نحن أنصار الله}؛ وهكذا ينبغي للإنسان أن يعلن إتِّباعه للرسول بين أئمة الكفر حتى لا يداهن في دين الله؛ لأنَّ المداهنة في دين الله والتُّقية نفاق؛ بل يجب على الإنسان أن يكون صريحًا في دين الله؛ وقد سبق لنا الفرق بين المداهنة والمداراة؛ المداهنة أن يقرَّهم على ما هم عليه من الباطل؛ والمداراة أن ينكر عليهم ولكن يداريهم لئلَّا يمنعوه من الحق.

٦- أنَّ إشهاد الإنسان على نفسه بالإيمان أو بالإسلام أو ما أشبه ذلك لا يعدُّ من الرياء، لاسيَّما في مقام الإتِّباع؛ لأنَّ في ذلك فائدة وهي تقوية المتبوع. إذا قال: أشهد بأنِّي مسلم، أو مؤمن، أو ممَّن اتَّبعك، أو ما أشبه ذلك، لاشك أنَّ فيه فائدة، وهي تقوية المتبوع؛ ولا يعدُّ هذا من الرِّياء.

٧- أنَّ الرسل لا يعلمون الغيب؛ لقولهم: {واشهد بأنَّا مسلمون} إذ لو كان عنده علم من ذلك ما احتاج إلى الإشهاد اللهم إلَّا على سبيل إقرارهم الظاهرية.

٨- يؤخذ من الآية الكريمة جواز قول الإنسان: (أنا مؤمن)، لقولهم: {واشهد بأنَّا مسلمون}؛ ولاشك أن هذا جائز؛ ولكن الذي وقع فيه الخلاف بين أهل العلم، هل يجوز أن يستثني في الإيمان، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله؟ في هذا خلاف بين العلماء، منهم من قال: إنَّه لا يجوز، ومنهم من قال: إنَّه يجب، ومنهم من قال: إنَّه يجوز باعتبارين.

القول الأول: الذين قالوا: إنَّه لا يجوز، فقالوا: إنَّ هذا الاستثناء يوحي بالشك، أنَّه شاك وإلَّا كيف يقول إن شاء الله؟ فمادام الإيمان قد وقر في قلبه، لا يقل إن شاء الله؛ ثمَّ قال مؤيدين لتعليلهم: أرأيت لو صلَّى شخص فقيل له: أصلَّيت؟ قال: إن شاء الله؛ ذلك قريب من اللَّهو؛ لو قيل له: لبست ثوبك؟ قال: لبست إن شاء الله وهو عليه؛ هذا لغو من القول؛ فإذا كان جازم بإيمانه فلماذا يقول: إن شاء الله؟! فالاستثناء على هذا حرام، لأنَّه يؤذن بالشك، وإن لم يكن فهو لغو من القول.

١- الأثر: سيرة ابن هشام ٢: ٢٣٠.

القول الثاني: أنَّه يجب أن يقول: إن شاء الله، فلو قال: (أنا مؤمن)، وسكت كان ذلك حرامًا عليه؛ وعلَّلوا لذلك بأمرين؛ أحدهما: أنَّ الإيمان النافع هو ما مات عليه الإنسان؛ والإنسان لا يدري على ماذا يموت. وإذا كان الأمر كذلك، وجب أن يقول: إن شاء الله وجوبًا.

قال أصحاب القول الأول: هذا الوجه ليس بصحيح، ليس بعلَّة؛ لأنَّ الإنسان إنَّما يتكلَّم عن حاضره، وحاضره يعلم أنَّه مؤمن والمستقبل علمه عند الله؛ نعم لو قال: سأموت على الإيمان قلنا له: قل إن شاء الله.

ثانيًا: أنَّه إذا قال: أنا مؤمن، وجزم، فإنَّ في ذلك نوعًا من تزكية النفس، وقد قال الله تعالى: {فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتَّقى}؛ ولهذا نقول له مقتضى جزمك بالإيمان أنَّك جازم بأنَّك من أهل الجنة؛ فشهدت لنفسك أنَّك من أهل الجنة، ولا يشهد بالجنة لأحد بعينه إلَّا من شهد له الرسول ﷺ؛ وحينئذ لابدَّ أن تقول: إن شاء الله؛ ليس من أجل أنَّك لا تدري على ماذا تموت، ولكن من أجل أن لا تزكي نفسك، فيلزم من تزكيتك إيَّاها أن تشهد لها بالجنة، وهذا ممنوع.

القول الثالث: وفصَّل بعض العلماء في هذه المسألة فقال: قد يكون الاستثناء حرامًا، وقد يكون واجبًا، وقد يكون جائزًا، باعتبارات:

أولًا: فإذا كان الإنسان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، كان بمشيئة الله؛ فهذا جائز، فإذا قال: أنَّا لم أقل إن شاء الله شكًّا، ولا تزكية، ولكن قلت: إن شاء الله يعني أن إيماني واقع بمشيئة الله، أو قلتها تبرُّكًا؛ نقول: الاستثناء هنا جائز، إن شئت فقل إن شاء الله وإن شئت فلا تقل. الاستثناء في المشيئة في الأمر الواقع جائز شرعًا. قال الله تعالى: {لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شاء الله} فقال: إن شاء الله مع أنَّهم سيدخلونه؛ كما قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب: ((إنَّك آتيه ومطوِّفٌ به))، في صلح الحديبية؛ لمَّا حصل ما حصل من الصلح بين رسول الله ﷺ وقريش. ومن جملة بنود الصلح أن يرجع النبي ﷺ؛ ولكن هل أنا قلت إنَّك تأتيه هذا العام؟ قال: لا؛ قال: إنَّك آتيه ومطوِّفٌ بالبيت([١]))). وفي زيارة المقابر، يقول: ((وإنا إن شاء الله بكم لاحقون([٢]))، مع أنَّ لحوقنا بهم مؤكَّد؛ لكن هذا من باب بيان أنَّ لحوقنا بهم مقرون بمشيئة الله.

ثانيًا: وإن كان الحامل على الاستثناء شك، حرم أن يستثنى؛ إذا قال: إن شاء الله، لأنَّه متردِّد، فهذا حرام؛ لأنَّ الشك في الإيمان منافي للإيمان، إذ أنَّ الإيمان لابدَّ أن يكون جزمًا؛ ولكن حذاري أن يتلاعب الشيطان بكم في مسألة الوساوس التي كثر الشاكُّون فيها فيما منَّ الله عليهم من الثَّبات، لمَّا أقبل الشباب الآن، صار الشيطان يأتيهم بالوساوس، بالشكوك، لأجل

١- (قلت): هو قطعة عن حديث صلح الحديبية الطويل عند البخاري وغيره، صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٠)، وأخرجه البخاري (٢/١٧٧ - ١٨٣)، وأحمد (٤/٣٢٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٧٧٦)، وقال: أخرجه مسلم (١/١٥٠)، ومالك (١/٢٨/٢٨)، وأبو داود (٣٢٣٧)، والنسائي (١/٣٥)، وابن السنى (١٨٩)، وأحمد (٢/٣٠٠ ، ٣٧٥ ، ٤٠٨).

أن يخلخل إيمانه؛ لكن هذا والحمد لله كيد كائد لمن كاد به، كما جاء في الحديث: ((الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة[١]))، وأخبر النبي ﷺ أنَّ هذا صريح الإيمان.

ومن جملة ما يوسوس به ما أخبر به الرسول ﷺ: ((لا يزال الناس يتساءلون من خلق كذا ومن خلق كذا حتى يقولون من خلق الله فإذا بلغوا ذلك فليستعذ بالله ولينته[٢])). قل أعوذ بالله وانتهي، اعرض، ولا تلتفت إلى هذا.

فالمهم أنَّ الإنسان إذا قال: إن شاء الله كأنَّه إذا كان الحامل له على قول إن شاء الله شك، كان الاستثناء حرامًا، يحرم أن يقول إن شاء الله لوجوب اليقين.

ثالثًا: إذا كان الإنسان يخشى من تزكية نفسه إذا قال: إن شاء الله؛ أو يخشى أن يوكل إلى نفسه إن ظهر فيه الإعجاب؛ لأنَّ الإنسان أعوذ بالله، إذا أعجب بعمله وكِّل إلى نفسه ونزعت بركته؛ فإذا كان يخشى من ذلك، كان الاستثناء واجبًا؛ لئلَّا يزكِّي نفسه، أو يعجب بنفسه.

هذا القول أو هذا التفسير الذي ذكرناه هو القول الصحيح؛ وإذا تأمَّلت تعليلات القولين السابقين وجدت أنَّ هذا القول أو هذا التفسير يجمع بين الأقوال[٣].

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الظلال (٦٥٨)، وتحقيق الإيمان لآبن تيمية ج١ص٢.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في تحقيق الإيمان لآبن تيمية ج١ص١٠٣.

٣- (قلت): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٤٢٩: وَأَمَّا (الِاسْتِثْنَاءُ فِي الْإِيمَانِ)، بِقَوْلِ الرَّجُلِ: أَنَا مُؤْمِنٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ فَالنَّاسُ فِيهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَرِّمُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجَوِّزُ الْأَمْرَيْنِ بِاعتبارَيْنِ؛ وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ.

فَالَّذِينَ يُحَرِّمُونَهُ هُمْ الْمُرْجِئَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ مِمَّنْ يَجْعَلُ الْإِيمَانَ شَيْئًا وَاحِدًا يَعْلَمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ كَالتَّصْدِيقِ بِالرَّبِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا فِي قَلْبِهِ؛ فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي مُؤْمِنٌ كَمَا أَعْلَمُ أَنِّي تَكَلَّمْت بِالشَّهَادَتَيْنِ وَكَمَا أَعْلَمُ أَنِّي قَرَأْت الْفَاتِحَةَ وَكَمَا أَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ؛ وَأَنِّي أُبْغِضُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى. فَقَوْلِي: أَنَا مُؤْمِنٌ كَقَوْلِي: أَنَا مُسْلِمٌ وَكَقَوْلِي: تَكَلَّمْت بِالشَّهَادَتَيْنِ وَقَرَأْت الْفَاتِحَةَ وَكَقَوْلِي: أَنَا أُبْغِضُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الْحَاضِرَةِ الَّتِي أَنَا أَعْلَمُهَا وَأَقْطَعُ بِهَا وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: أَنَا قَرَأْت الْفَاتِحَةَ إنْ شَاءَ اللَّهُ كَذَلِكَ لَا يَقُولُ: أَنَا مُؤْمِنٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ لَكِنْ إذَا كَانَ يَشُكُّ فِي ذَلِكَ فَيَقُولُ: فَعَلْته إنْ شَاءَ اللَّهُ قَالُوا: فَمَنْ اسْتَثْنَى فِي إيمَانِهِ فَهُوَ شَاكٌّ فِيهِ وَسَمَّوْهُمْ الشَّكَّاكَةَ.

وَالَّذِينَ أَوْجَبُوا الِاسْتِثْنَاءَ لَهُمْ مَأْخَذَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَا مَاتَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ؛ وَالْإِنْسَانُ إنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا بِاعْتِبَارِ الْمُوَافَاةِ وَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهِ وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا عِبْرَةَ بِهِ. قَالُوا: وَالْإِيمَانُ الَّذِي يَتَعَقَّبُهُ الْكُفْرُ فَيَمُوتُ صَاحِبُهُ كَافِرًا لَيْسَ بِإِيمَانِ كَالصَّلَاةِ الَّتِي يُفْسِدُهَا صَاحِبُهَا قَبْلَ الْكَمَالِ؛ وَكَالصِّيَامِ الَّذِي يُفْطِرُ صَاحِبُهُ قَبْلَ الْغُرُوبِ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ عِنْدَ اللَّهِ كَافِرٌ لِعِلْمِهِ بِمَا يَمُوتُ عَلَيْهِ وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي الْكُفْرِ وَهَذَا الْمَأْخَذُ مَأْخَذُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ الْكُلَّابِيَة وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْصُرَ مَا اُشْتُهِرَ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَنَا مُؤْمِنٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ؛ وَيُرِيدُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتَفَاضَلُ؛ وَلَا يَشُكُّ الْإِنْسَانُ فِي الْمَوْجُودِ مِنْهُ وَإِنَّمَا يَشُكُّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَأَمَّا مَذْهَبُ سَلَفِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ كَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابِهِ وَالثَّوْرِيِّ وَابْنِ عُيَيْنَة وَأَكْثَرِ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ وَيَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ فِيمَا يَرْوِيه عَنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ فَكَانُوا يَسْتَثْنُونَ فِي الْإِيمَانِ. وَهَذَا مُتَوَاتِرٌ عَنْهُمْ لَكِنْ لَيْسَ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ قَالَ: أَنَا أَسْتَثْنِي لِأَجْلِ الْمُوَافَاةِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ إنَّمَا هُوَ اسْمٌ لِمَا يُوَافِي بِهِ الْعَبْدُ رَبَّهُ؛ بَلْ صَرَّحَ أَئِمَّةُ هَؤُلَاءِ بِأَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ إنَّمَا هُوَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ الْوَاجِبَاتِ فَلَا يَشْهَدُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ كَمَا لَا يَشْهَدُونَ لَهَا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَهُ وَهُوَ تَزْكِيَةٌ لِأَنْفُسِهِمْ بِلَا عِلْمٍ. وَأَمَّا الْمُوَافَاةُ؛ فَمَا عَلِمْت أَحَدًا مِنْ السَّلَفِ عَلَّلَ بِهَا الِاسْتِثْنَاءَ، وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ يُعَلِّلُ بِهَا مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ، مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ؛ كَمَا يُعَلِّلُ بِهَا نُظَّارُهُمْ كَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَأَكْثَرِ أَصْحَابِهِ لَكِنْ لَيْسَ هَذَا قَوْلَ سَلَفِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {٥٣}

قال ابن العثيمين: ثمَّ قالوا: {ربَّنا آمنَّا بما أنزلت واتَّبعنا الرسول} الذين يقولون هذا الحواريون رضي الله عنهم: {ربَّنا آمنَّا بما أنزلت} وهو الإنجيل الذي جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام؛ ولا يخفى الإعراب في هذه الآية؛ فإنَّ قوله: {ربَّنا} منادى حذفت منه ياء النداء لسببين: السبب الأول: كثرة استعمال هذا الاسم الكريم في الدعاء؛ والثاني: التَّبرُّك بالبداءة باسم الله عز وجل؛ لأنَّ الرَّب من أسماء الله؛ وقوله: {بما أنزلت} فيها عائدة محذوف يعود على الموصوف، والتقدير: (بما أنزلته)؛ {ما} هنا اسم موصول تعمُّ كل {ما}؛ والظاهر أنَّها تشمل الإنجيل الذي أنزل على عيسى وما قبله وهي التوراة التي أنزلت على موسى؛ بل تتناول كلَّ ما أنزل الله؛ ممَّا أخبرهم به نبيهم.

والإيمان في اللغة التصديق المتضمّن للقبول والإذعان وليس مجرَّد التصديق؛ بل يتضمَّن انقيادًا وإذعانًا؛ ولهذا لا يكون موافقًا للتصديق في التعدِّي واللزوم فيقال: (آمنت به وصدَّقت به)، ويقال: (آمنت له وصدَّقت له)؛ لكن لا يقال: (آمنته)، كما يقال: (صدَّقته)؛ فافترقت؛ يقول: {آمنا}، والمراد بالإيمان هنا كلُّ ما جاء في القرآن؛ فالمراد به الإيمان في الحقيقة الشرعية لا في الحقيقة اللغوية؛ والإيمان في الحقيقة الشرعية: التصديق بما أوجب الله الإيمان به مع القبول والإذعان مع الانقياد التَّام؛ ولهذا لو أنَّ أحدًا قال: آمنت بالله لكن لم يذعن له ولم ينقد لا يصبح مؤمن شرعًا.

{واتَّبعنا الرسول} {أل} هنا في الرسول للعهد الذهني وهو عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّه لا رسول لهؤلاء القوم من بني إسرائيل إلَّا عيسى؛ فالَّذي عيَّن أنَّ المراد بالرسول عيسى هو العهد الذهني الذي كان معلومًا عندهم؛ ويحتمل أن يراد بالرسول الجنس، أي واتَّبعنا كل من كان رسولًا من عندك؛ فيكون هذا إقرارًا بأنَّهم آمنوا بجميع الرسل، وذلك أنَّه يجب على كلِّ أمَّة متأخِّرة أن تؤمن بجميع الرسل السابقة؛ فنحن مثلًا، آخر الأمم، يجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل في أصل الإيمان، وإن كنَّا نفرِّق بين الرسل من جهة الإتِّباع، فإنَّنا لا نتَّبع إلَّا محمدًا ﷺ، وما أذن لنا فيه من شرع من سبق؛ أمَّا الإيمان، فيجب الإيمان بجميعهم، {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرِّق بين أحد من رسله}.

وقولهم: {واتَّبعنا الرسول} هذا في الحقيقة هو ثمرة الإيمان، الإتِّباع؛ وكلَّما صار الإنسان أقوى إيمانًا كان أشدُّ إتِّباعًا لمن آمن به؛ وكلَّما قلَّ الإيمان قلَّ الإتِّباع؛ وقلَّة الإتِّباع علامة على نقص الإيمان؛ لأنَّ الإيمان حقًّا، لابدَّ أن يطلب الإنسان الوصول إلى ما آمن به؛ وهذا يقتضي أنَّ الجدَّ كلَّ الجدِّ في العمل الذي يوصله.

وقوله: {فاكتبنا مع الشاهدين} {مع} هنا للمصاحبة، والمصاحبة لا تقتضي المخالطة أو الموافقة بالزمن؛ فقد تكون المصاحبة مع قوم سبقونا؛ لكن في النهاية يكونون معنا؛ هؤلاء الحواريون لمَّا أعلنوا إسلامهم وأشهدوا على ذلك نبيَّهم توجَّهوا إلى الله عز وجل بالإقرار التَّام فقالوا: {ربَّنا آمنَّا بما أنزلت فاكتبنا مع الشَّاهدين }.

المراد بالشَّاهدين أمَّة محمد ﷺ؛ لأنَّ الشَّهادة المطلقة ليست إلَّا لهم؛ لأنَّهم آخر الأمم فهم شهداء على جميع الرسل وعلى جميع الأمم؛ والشهداء الذين كانوا من قبلهم ليسوا شهداء إلَّا على من سبقهم فقط؛ لكن الشهادة المطلقة العامَّة لأمَّة محمد ﷺ، كما قال الله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمَّة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس}؛ فقوله: {فاكتبنا مع الشاهدين}: يعني اكتبنا مع أمَّة محمد ﷺ.

فإن قال قائل: يرد على هذا التَّفسير أنَّهم سبقوا أمَّة محمد فكيف يطلبون أن يكتبوا معهم؟

الجواب عن ذلك أن نقول: إنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام قد بشَّرهم بمحمد ﷺ فقال: {يا بني إسرائيل إنِّي رسول الله إليكم مصدِّقًا لما بين يدي من التوراة ومبشِّرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد}، فكان عندهم علم في هذه الأمَّة بواسطة البشارة التي ألقاها إليهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

والقول الثاني: أنَّ المراد بالشاهدين الذين شهدوا لرسلك بالحق؛ وهذا يتناول من سبقوا، ويتناول أمَّة محمد إن كان ذلك بعد أن أخبرهم بذلك وبشَّرهم بهذا؛ وهذا القول الثاني أعمُّ من القول الأول، وأقلُّ إشكالًا منه؛ المهم أنَّ القول الصحيح هو كلُّ من شهد للرسل بالحق.

قال الطبري: وقوله: {فاكتبنا مع الشاهدين}، يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرُّوا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتَّبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرِّمهم به من كرامتك، وأحلنا محلهم، ولا تجعلنا ممَّن كفر بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك. يعرِّف خلقه جل ثناؤه بذلك سبيلَ الذين رضي أقوالهم وأفعالهم، ليحتذوا طريقهم، ويتَّبعوا منهاجهم، فيصِلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذِّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة، في دعواهم على أنبياء الله أنَّهم كانوا على غيرها، ويحتجُّ به على الوفد الذين حاجوا رسول الله ﷺ من أهل نجران: بأن قِيلَ مَنْ رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قِيلهم، ومنهاجهم غير منهاجهم.

قال الشنقيطي: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الْحِكْمَةَ فِي ذِكْرِ قِصَّةِ الْحَوَارِيِّينَ مَعَ عِيسَى، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي [سُورَةِ الصَّفِّ] أَنَّ حِكْمَةَ ذِكْرِ قِصَّتِهِمْ هِيَ أَنْ تَتَأَسَّى بِهِمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي نُصْرَةِ اللَّهِ وَدِينِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} الْآيَةَ [١٤].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فضيلة الحواريين في لجوئهم إلى الله عز وجل، حيث قالوا: {ربَّنا آمنَّا بما أنزلت} فإنَّه بعد أن أشهدوا نبيَّهم لجئوا إلى ربِّهم عز وجل.

٢– التوسل إلى الله تعالى بربوبيته؛ لأنَّ الربوبية تدور على ثلاثة أشياء وهي: الخلق والملك والتَّدبير؛ وإجابة الدعاء داخل في هذه الثلاثة؛ فلذلك كان كثيرًا ما يتوسَّل دعاة الله بالربوبية كما جاء في الحديث الصحيح: ((يمدُّ يديه إلى السماء يا رب يا رب)).

٣– أنَّه يجب أن يكون الإيمان شاملًا لكلِّ ما أنزل الله؛ {ربَّنا آمنَّا بما أنزلت}.

٤– حسن الاحتراز في قول الحواريين؛ {بما أنزلت} ولم يطلقوا الإيمان، مثلًا بالتوراة؛ لأنَّ التوراة التي بيد اليهود محرَّفة مبدَّلة، يبدون شيئًا ويخفون أشياء، فلهذا قالوا: {بما أنزلت}؛ ونحن نقول: آمنَّا بما أنزل الله من التوراة والإنجيل، لا بالتوراة المحرَّفة التي بين أيدي اليهود، ولا بالإنجيل المحرَّف الذي بأيدي النصارى.

٥– أنَّ الإيمان لابدَّ له من إتِّباع؛ لقوله: {واتَّبعنا الرسول}؛ ولهذا يقرن الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح في آيات كثيرة، لأنَّ الإيمان المجرَّد لا ينفع؛ العمل الصالح بمنزلة سقي الشجرة، إن لم تسقها ماتت؛ ولهذا ينبغي لنا عندما نتكلَّم على الإسلام، أن لا نحاول أن نجعل الإسلام عقيدة فحسب؛ بل هو عقيدة وعمل، العقيدة لا تكفي؛ لأنَّ الكلَّ الآن يدَّعي أنَّه معتقِد، اليهود والنصارى يقولون نحن نؤمن بالله واليوم الآخر، الآن يقولون نؤمن بالله وباليوم الآخر، نؤمن بأنَّ هناك ربًّا مدبِّرًا للخلق، وأنَّه عز وجل خالق، ونؤمن بالله؛ ولكن هذا ليس بإيمان، وإن كان عندهم هذه العقيدة، هذه عقيدة فاسدة، فلابدَّ من إقتران العقيدة بالعمل الصالح، حتَّى لا يتَّكل الناس على ما عندهم من العقيدة، ويقول لا حاجة إلى العمل؛ ولهذا قال: {آمنَّا} وماذا بعد؟ {واتَّبعنا الرسول} لابدَّ من هذا؛ وتأمَّل قوله: {آمنَّا واتَّبعنا الرسول} يؤخذ منها وجوب الإيمان بكلِّ ما أنزل الله من كتاب، وأمَّا الإتِّباع فيكون للرسول الخاص، لأنَّهم قالوا: {آمنَّا بما أنزلت} عام؛ {واتَّبعنا الرسول} خاص وهو كذلك؛ فالإيمان واجب بجميع ما أنزل الله {وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم}، ولكن الإتِّباع الخاص بالرسول الذي أرسل إليك؛ وأمَّا الرسول الذي لم يرسل إليك فلست مأمورًا بإتِّباعه إلَّا إن دلَّت شريعتك على اتِّباعه.

٦– أنَّه إذا كان هناك وصفان، وكان أحد الوصفين أخصُّ من الآخر بالعمل، أو بالحال التي أنت فيها، فإنَّ الأَولى أن تأخذ بالأخصّ؛ لقوله: {الرسول} لأنَّ الرسول مرسل إلينا، ولم يقولوا: بالنبي، واتَّبعنا النبي، {واتَّبعنا الرسول} لأنَّ الرسول مرسل إلينا مبعوث؛ لكنَّ النبي لا يؤمر بالتَّبليغ على قول جمهور العلماء؛ وهنا الإتِّباع ألصق بالرسالة، فلهذا اختاروا وصف الرسول.

فإن قال قائل: في حديث البراء بن عازب لمَّا قرأ النبي ﷺ: ((آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيِّك الذي أرسلت))، فلمَّا أعادها البراء قال: ((وبرسولك الذي أرسلت؛ فقال: قُل وبنبيك الذي أرسلت([1])))، ومعلوم أنَّ المقام مقام الإتِّباع فلماذا قال: ورسولك الذي أرسلت والرسالة تتضمَّن النبوة؟ قال: قُل ونبيك؟

فالجواب على هذا من وجهين؛ الوجه الأول: أنَّ دلالة الرسالة على النبوة من باب دلالة الالتزام؛ ودلالة النبوة على النبوة من باب دلالة المطابقة، ودلالة المطابقة أقوى بلا شك؛ لأنَّ دلالة الإلتزام قد يمانع فيها الخصم، قد يقول هذا ليس بلازم؛

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في الروض النضير (١٥٤)، والصحيحة (٢٨٨٩): ق.

فلهذا اختار وصف النبوة، مع أنَّ الرسالة جاءت بعده ((الذي أرسلت))، لو قال: رسولك الذي أرسلت يدلُّ على النبوة بأي طريق؟ الالتزام، لأنَّ كلُّ رسولٍ نبي؛ لكن إذا قال: بنبيِّك الذي أرسلت دلَّ على النبوة بطريق المطابقة؛ لأنَّه صرَّح بلفظه؛ ومعلوم أنَّ الدِّلالة بالمطابقة أقوى من الدِّلالة بالالتزام لجواز منع الملازمة.

الوجه الثاني: أنَّه إذا قال: (برسولك الذي أرسلت)، لم يكن وصفًا مخصَّصًا لمحمد ﷺ؛ إذ قد يراد بذلك جبريل مثلًا، جبريل رسول مرسل كما قال تعالى: {إنَّه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين}، فجبريل مرسل فلو قال: (برسولك الذي أرسلت)، لم يحدِّد أنَّ هذا الإيمان بمحمد ﷺ؛ أمَّا (بنبيِّك الذي أرسلت)، تحدِّد الوصف بالرسول، بمحمد ﷺ لأنَّ جبريل لا يسمَّى نبيًّا، وإنَّما يسمَّى رسولًا؛ وبهذا يزول الإشكال الذي أشرنا إليه، وهو أنَّه ينبغي أن يذكر الوصف المطابق للحال التي عليه المتكلِّم، لأنَّ حديث براء اختير فيه النبوة على الرسالة من أجل هذين الوجهين.

٧- الحرص على صحبة الأخيار؛ نأخذها من {فاكتبنا مع الشاهدين}، ولاشك أنَّ صحبة الأخيار خير، حتى إنَّ الرسول ﷺ مثَّلها بحامل المسك قال: ((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تبتاعَ مِنْهُ وإِمَّا أَن تجدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثيابَكَ وإِمَّا أَنْ تجدَ مِنْهُ رِيحًا خبيثةً(١))). ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار من الجلساء أصلحهم، لأنَّ الجليس الصالح كلُّه خير، وجليس السوء شر.

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {٥٤}

قال ابن العثيمين: {ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}، {مكروا}: الضمير يعود على الذين كفروا بعيسى؛ والمكر هو أن يتوصَّل إلى الانتقام من خصمه بأسباب غير متوقعة، يعني بأسباب خفية ينتقم من خصمه والمضاد له؛ ويشبه الخداع، فإن الإنسان يتوصل إلى أن ينتقم من خصمه من حيث لا يشعر بأسباب خفيَّة.

وقوله: {ومكروا ومكر الله}: يعني أنَّ الله سبحانه وتعالى مكر بهم حينما مكروا بعيسى، {والله خير الماكرين}: يعني أقواهم في المكر، وأشدُّهم وأعلمهم بالأسباب التي تحيط بأعدائه.

فإذا قال قائل: ما الذي دلَّنا على أنَّ الضمير في قوله: {مكروا} يعود على الذين كفروا بعيسى؟

فالجواب: لأنَّ قوله: {ومكروا ومكر الله} لا يصدر من قوم قالوا: {آمنَّا بالله واشهد بأنَّا مسلمون}، وقالوا: {ربَّنا آمنَّا بما أنزلت واتَّبعنا الرسول}، لا يمكن هذا؛ بل لا يصدر إلَّا من قوم كفروا، وهو قوله: {فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر}.

فإن قيل: ما هذا المكر الذي مكروه؟

١- (قلت): متفق عليه، البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٨).

فالجواب: على هذا أنَّهم مكروا بعيسى حيث تمالئوا على قتله فأنجاه الله منهم؛ ومكر بهم فجعل شبهه في رجل إمَّا من الذين جاءوا لقتله؛ وإمَّا من أصحاب عيسى، ألقى الله شبهه على واحد منهم فقُتل؛ المهم أنَّ هؤلاء تمالئوا على القتل، وجاءوا إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فدخلوا عليه، لم يشعروه أنَّهم يريدون قتله لأنَّ لا يستنجد بأحد، أو يدافع عن نفسه وما أشبهه؛ ولكن الله عز وجل ألقى شبهه على واحد منهم؛ أو على واحد من أصحابه الحواريين؛ في هذا قولان لأهل العلم؛ منهم من قالوا: إنَّ الله ألقى شبهه على واحد منهم وهو زعيمهم، جعل الله شبه عيسى في هذا الرجل، فلمَّا أرادوا أن يقتلوه قال: أنا صاحبكم؛ قالوا: كذبت لست صاحبنا بل أنت عيسى فقتلوه وصلبوه؛ وهذا مكر عظيم، أعظم من مكرهم؛ لأنَّ هذا الرجل الذي جاءه متزعِّمًا هؤلاء القوم ليقتل عيسى صار هو القتيل؛ وهذا القول أقوى من حيث إنَّ فيه مكرًا عظيمًا بهؤلاء.
أمَّا القول الثاني فيقولون: لمَّا دخلوا على عيسى عليه الصلاة والسلام ليقتلوه، قال لأحد أصحابه: من يقبل أن يلقي الله عليه شبهي فأضمن له الجنة؟ فانتدب واحد منهم لذلك وألقى الله شبهه عليه؛ وقيل: بل ألقى الله شبهه على جميع من كانوا مع عيسى حتى إنَّ هؤلاء القوم لمَّا دخلوا كان كل واحد يقول: أيُّكم عيسى، أيُّكم عيسى، أيُّكم عيسى؟ لم يعلموه؛ فاشتبه على الذين دخلوا هذان قولان رئيسيان؛ والمسألة ليس فيها نص عن النبي المعصوم ﷺ؛ فالله أعلم؛ لكن قوله تعالى: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم} قد يؤيِّد القول الأخير، أنَّه صار كل واحد ممَّن مع عيسى يشبه عيسى، فاشتبه عليهم من هو عيسى([1]).
المهم هذا هو مكرهم أنَّهم جاءوا إلى عيسى عليه الصلاة السلام ليقتلوه على وجه لا يشعر بذلك؛ أمَّا مكر الله بهم، فهو أنَّه ألقى الشبه إمَّا على واحد منهم، أو من أتباع عيسى فقتلوه وصلبوه فظنُّوا أنَّهم قتلوا عيسى، وصاروا يعلنون قتلنا عيسى؛ وهم ما قتلوه وما صلبوه.

قال ابن كثير: قال تعالى مخبرًا عن ملأ بني إسرائيل فيما همُّوا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب، حين تمالئوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافرًا، أنَّ هاهنا رجلًا يضلُّ الناس ويصدَّهم عن طاعة الملك، ويفسد الرعايا، ويفرِّق بين الأب وابنه إلى غير ذلك ممَّا تقلَّدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنَّه ولد زنيَّة حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلمَّا أحاطوا بمنزله وظنُّوا أنَّهم قد ظفروا به، نجَّاه الله من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممَّن كان عنده في المنزل([2])، فلمَّا دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنَّه نجَّى

١- (قلت): الأقرب الى الصواب والله أعلم القول الأول، لأنَّ الآية تتكلَّم عن مكر الكفار بعيسى عليه الصلاة والسلام، ومقابلة الله جل وعلا مكرهم بمكر أقوى. وعندما يكون شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ألقي على الواشي به، يكون مكر الله جل وعلا بهم أقوى وأعظم من أن يلقى على أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام. ومفهوم الآية {ولكن شبِّه لهم} يتلائم مع هذا القول أيضًا، لأنَّه شبِّه للملك وأعوانه وجنوده الذين أرسلهم لقتل عيسى عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن الواشي من جملتهم. وكذلك لا يليق بمقامه عليه الصلاة والسلام أن يطلب من أحد أتباعه أن يقتل في سبيل الله دونه فتأمَّل.

٢- (قلت): الأقرب الى الصواب ما ذكرناه، وهو كون شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ألقي على الواشي به؛ والله أعلم.

نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنَّهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوةً وعنادًا للحق ملازمًا لهم، وأورثهم ذلَّة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: {ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}.

قال ابن العثيمين: وفي قول الله عز وجل: {ومكروا ومكر الله} إثبات صفة المكر لله عز وجل؛ والبحث في هذا أوَّلًا: هل المكر على حقيقته؟ أو هو عبارة عن المجازاة على المكر فسمِّي المجازاة على المكر مكرًا من باب المقابلة اللفظية لا المعنوية؟ فهو كقوله: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه} والمقتص لنفسه لا يسمَّى معتديًا؛ لكنَّه يشبهه في اللفظ من باب المقابلة اللفظية لا المعنوية؟ أو أنَّه مكر حقيقي لأنَّ صنيع الله بهم مكر؟ حيث كان القتيل منهم على أحد الأقوال؛ أو اشتبه عليهم الأمر على القول الثاني؟ والصحيح في هذا، أنَّ الله تعالى يوصف بما وصف به نفسه، ولسنا أعلم بالله من نفسه، هو أعلم بنفسه وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا؛ ولكنَّه يجب أن ينزه عن كل نقص؛ فالمكر هل هو من صفات النقص على سبيل الإطلاق؟ يعني ليس مدح إطلاقًا؟ أو هو نقص في حال دون حال؟ الثاني هو الصواب، أنَّ المكر في مقام المكر مدح، وصفة كمال؛ والمكر في غير موضعه، صفة نقص؛ لأنَّ المكر في غير موضعه خيانة، والخيانة صفة ذم؛ ولهذا لم يصف الله تعالى بها نفسه، ولا في باب المقابلة، قال تعالى: {وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل}، وقال بعدها: {فأمكن منهم} ولم يقل: فخانهم؛ لأنَّ الخيانة صفة ذم مطلقة، بخلاف {ومكروا ومكر الله} فقابل الله مكرهم بمكر، ولم يقابل خيانتهم بخيانة؛ إذًا يجب أن نصف الله بما وصف به نفسه من المكر في الحال التي وصف الله نفسه فيها بالمكر، وذلك في مقابلة مكر أعدائه؛ فنقول: إن الله يمكر بمن يمكرون به وبرسله وبآياته؛ أمَّا أن نصف الله بالمكر على الإطلاق فنقول: إنَّ الله ماكر ونطلق فهذا لا يجوز؛ لماذا؟ لاحتمال النقص؛ لأنَّ المكر كما قلنا ليس كمالًا في كل حال، ولا نقصًا في كل حال؛ فإذا أطلق صار قابلًا لأن يكون نقصًا؛ فإذا قيِّد بالحال التي يكون فيها كمالًا، لم يحتمل أن يكون نقصا؛ إذاً نقول: المكر يوصف الله به لا على سبيل الإطلاق لكن في الحال التي وصف الله نفسه فيها به؛ ولهذا جاء في الحديث: ((الحرب خدعة([1])))، وكلٌّ يعرف أنَّ الخدعة في الحرب كمال([2]).

١- (قلت): رواه البخاري (٣٠٢٩)، ومسلم (١٨-١٧٤٠)، وصححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٤٧٤٣)، وصحيح أبي داود (٢٣٦٩ و ٢٣٧٠)، وتخريج فقه السيرة (٣٠٧): ق ، وهو متواتر.

٢- (قلت): قال ابن العثيمين في القول المفيد: وفي قوله تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ}، دليل على أنَّ لله مكرًا، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث: ((الحرب خدعة)).

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر، مع أنَّ ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إنَّ المكر في محله محمود، يدلُّ على قوة الماكر، وأنَّه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق؛ فلا يجوز أن تقول: إنَّ الله ماكر، وإنَّما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحًا، مثل قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}، وقال تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}، [النمل:٥٠]، ومثل قوله تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ}، ولا تنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنَّها في المقام التي تكون مدحًا؛ يوصف بها، وفي المقام التي لا تكون مدحًا لا يوصف بها، وكذلك لا يسمى الله بها؛ فلا يقال: إنَّ من أسماء الله الماكر.

وأمَّا الخيانة؛ فلا يوصف الله بها مطلقًا لأنَّها ذمٌّ بكلِّ حال؛ إذ إنَّها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ}[الأنفال: من الآية ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين ج٣ص١٧٢: وَقَدْ قِيلَ: إنَّ تَسْمِيَةَ ذَلِكَ مَكْرًا وَكَيْدًا وَاسْتِهْزَاءً وَخِدَاعًا مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ وَمَجَازِ الْمُقَابَلَةِ نَحْوُ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}[الشورى: ٤٠]، وَنَحْوُ قَوْلِهِ: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[البقرة: ١٩٤].

وَقِيلَ وَهُوَ أَصْوَبُ: بَلْ تَسْمِيَتُهُ بِذَلِكَ حَقِيقَةً عَلَى بَابِهِ؛ فَإِنَّ الْمَكْرَ إيصَالُ الشَّيْءِ إلَى الْغَيْرِ بِطَرِيقٍ خَفِيٍّ، وَكَذَلِكَ الْكَيْدُ وَالْمُخَادَعَةُ، وَلَكِنَّهُ نَوْعَانِ: قَبِيحٌ: وَهُوَ إيصَالُ ذَلِكَ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَحَسَنٌ: وَهُوَ إيصَالُهُ إلَى مُسْتَحِقِّهِ عُقُوبَةً لَهُ؛ فَالْأَوَّلُ مَذْمُومٌ وَالثَّانِي مَمْدُوحٌ، وَالرَّبُّ تَعَالَى إنَّمَا يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ عَدْلًا مِنْهُ وَحِكْمَةً، وَهُوَ تَعَالَى يَأْخُذُ الظَّالِمَ وَالْفَاجِرَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ لَا كَمَا يَفْعَلُ الظَّلَمَةُ بِعِبَادِهِ.

الى أن قال رحمه الله: وَمَكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا وَهُوَ الْأَغْلَبُ: أَنْ يَفْعَلَ تَعَالَى فِعْلًا خَارِجًا عَنْ قُدْرَةِ الْعَبْدِ الَّذِي كَادَ لَهُ؛ فَيَكُونُ الْكَيْدُ قَدْرًا زَائِدًا مَحْضًا لَيْسَ هُوَ مِنْ بَابٍ لَا يَسُوغُ، كَمَا كَادَ أَعْدَاءَ الرُّسُلِ بِانْتِقَامِهِ مِنْهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ.

الثاني: هُوَ أَنْ يُلْهِمَهُ تَعَالَى أَمْرًا مُبَاحًا أَوْ مُسْتَحَبًّا أَوْ وَاجِبًا يُوَصِّلُهُ بِهِ إلَى الْمَقْصُودِ الْحَسَنِ(١).

قال ابن العثيمين: {والله خير الماكرين}: هذه صفة ثابتة مطلقة، يعني لا تحتاج الى قيد، لأنَّها وصفت بكمال؛ وهو {خير}، {والله خير الماكرين}: يعني ما من أحد يمكر إلَّا ومكر الله فوقه خير منه. والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنَّها تتعلَّق بمشيئته، وكلُّ صفة من صفات الله لها سبب فهي متعلّقة بالمشيئة؛ لأنَّ مقدِّر السبب هو الله، فإذا قدَّر السبب فقد شاءه، ويترتَّب عليه ما يترتَّب من الصفات.

قال الإمام الألباني في – كيف يجب علينا أن نفسِّر القرآن الكريم – بعدما سئل عن: إنَّ الله عز وجل يُخبر عن نفسه فيقول: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[آل عمران: ٥٤]، فربما يضيق عقل بعض الناس عن فهم هذه الآية على ظاهرها، وبما أنَّنا لسنا بحاجة للتأويل، فكيف يكون الله خير الماكرين؟!

الجواب: المسألة سهلة بفضل الله، وذلك لأنَّنا نستطيع أن نعرف أن المكر – من حيث هو مكر – لا يوصف دائمًا وأبدًا بأنَّه شر، كما إنَّه لا يوصف دائمًا وأبدًا بأنَّه خير، فرُبَّ كافر يمكر بمسلم، لكن هذا المسلم كيس فطن ليس مغفَّلًا ولا غبيًّا، فهو متنبه لمكر خصمه الكافر، فيعامله على نقيض مكره هو، بحيث تكون النتيجة أنَّ هذا المسلم بمكره الحسن قضى على الكافر بمكره السيئ، فهل يقال: إنَّ هذا المسلم حينما مكر بالكافر تعاطى أمرًا غير مشروع؟ لا أحد يقول هذا.

وأمَّا الخداع؛ فهو كالمكر يوصف الله به حيث يكون مدحًا؛ لقوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}[النساء: من الآية١٤٢]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنَّها تتعلَّق بمشيئة الله– سبحانه–.

١– (قلت): أنظر كلام الطبري عن صفة المكر عند تفسير الآية (١٥) من سورة البقرة.

ومن السهل أن تفهموا هذه الحقيقة من قوله ﷺ: ((الحرب خدعة))، فالذي يقالُ في الخدعة يُقال في المكر تمامًا، فمخادعة المسلم لأخيه المسلم حرام، لكن مخادعة المسلم للكافر عدو الله وعدو رسوله هذا ليس حرامًا، بل هو واجب، كذلك مكر المسلم بالكافر الذي يريد المكر به – بحيث يبطل هذا المسلم مكر الكافر – هذا مكر حسن، وهذا إنسان وذاك إنسان.

فماذا نقول بالنسبة لرب العالمين القادر العليم الحكيم؟

ها هو يبطل مكر الماكرين جميعًا، لذلك قال: {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، فحينما وصف ربنا عز وجل نفسه بهذه الصفة؟ قد لفت نظرنا بأنَّ المكر حتى من البشر ليس دائمًا شر، لأنَّه قال: {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} فهناك ماكر بخير، وماكر بشر، فمن مكر بخير لم يُذم، والله عز وجل كما قال: {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

وباختصار أقول: كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فإذا توهم الإنسان أمرًا لا يليق بالله، فليعلم رأسًا أنَّه مخطئ، فهذه الآية هي مدح لله عز وجل، وليس فيها أي شيء لا يجوز نسبته إلى الله تبارك وتعالى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ أعداء الرسل يكيدون ويمكرون بهم؛ لقوله: {ومكروا}. وننتقل من هذا إلى أنَّ أعداء الرسل أيضًا يمكرون بأتباع الرسل؛ لأنَّ أعداء الرسل ليسوا يمكرون بالرسل من أجل أنَّهم فلان وفلان، لكن من أجل دعوتهم، ودعوتهم إذا ورث العلماء من بعدهم، فإنَّ الذين يمكرون بالرسل سيمكرون بأتباع الرسول وورثة الرسل. وينبني على هذه الفائدة: أنَّه يجب على أهل العلم أن يتحفَّظوا تحفُّظًا كاملًا من أعداء الرسل الذين يتربَّصون بهم الدوائر، وأن يتَّقوا شرَّهم بما استطاعوا لئلَّا يمكروا بهم؛ والمكر ووسائله وطرقه كثيرة؛ لكنَّ العاقل الذكي ينتبه؛ ولهذا قال الله عز وجل للرسول ﷺ في المنافقين: {هم العدو فاحذرهم}، فبيَّن أنَّهم هم العدو حقيقة وأمر بالحذر منهم.

٢- وصف الله عز وجل بالمكر؛ لكنَّه لا يوصف به على الإطلاق؛ بل يقال: (إنَّ الله ماكر بمن يمكر به)، ليعود المكر صفة كمال؛ لأنَّ المكر إذا ذكر مطلقًا صار محتمِلًا للنقص؛ فإذا ذكر مقيَّدًا بأن قيل: (إنَّ الله ماكر بمن يمكر به وبأوليائه)، صار صفة كمال يدلُّ على قوة الله عز وجل وإحاطة علمه، وأنَّ علمه أدقُّ من علم هؤلاء الماكرين الذين يأتون بالأسباب الخفيَّة والطرق الملتوية ليوقعوا عباد الله في الشَّر؛ فيكون الله سبحانه وتعالى أقوى منهم في هذا المكر، إذا مكروا مكر الله عز وجل؛ وسبق لنا أنَّه وصف الله نفسه بالمكر والكيد والسخرية والخداع والاستهزاء ولم يصف نفسه بالخيانة أبدًا؛ لأنَّ الخيانة صفة ذم بكلِّ حال؛ {وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم} ولم يقل: فخانهم؛ لأنَّ الخيانة خديعة في مقام الائتمان، والخديعة في مقام الائتمان صفة ذم ونقص؛ ولا يجوز أن يسمَّى الله (الماكر) مطلقًا.

٣- جواز المفاضلة بين الخالق والمخلوق في الوصف؛ كما قال: {والله خير الماكرين} و{خير} اسم تفضيل فيجوز أن يفاضل بين الخالق والمخلوق لأنَّ هذا مطابق للواقع تمامًا؛ الله تعالى أكمل من كل ذي كمال. ومنه تتفرَّع قاعدةٌ وهي: خطأ بعض أهل العلم رحمهم الله، حيث يفسِّرون اسم التفضيل المنصوب إلى الله باسم الفاعل؛ فيكون مثلًا في قوله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} يقولون: (الله عالم حيث يجعل رسالته)؛ ولم يتفطَّنوا أنَّهم إذا قالوا: (الله عالم)، لم يمنع مشاركة غيره في العلم مع المساواة؛ لكن إذا قالوا: (الله أعلم)، امتنع مشاركة غيره له في العلم الذي هو أعلم به من غيره.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {٥٥}

قال أبو زهرة: هذه الآيات موصولة بالقصص السابق، والذي تدلُّ عليه الآيات قبلها هو أنَّ معركة قائمة بين الخير والشر؛ فعيسى عليه السلام ينادي أنصاره إلى الله تعالى، ويجيبه الحواريون بالإيمان والإخلاص والاستعداد للابتلاء في سبيل إيمانهم ونصرتهم للسيد المسيح عليه السلام، والشرُّ يدبِّر التدبير السيئ، والله من ورائهم محيط، يدبِّر الخير ويهدي إليه {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، وفي هذه الآيات يبيِّن سبحانه خيبة تدبيرهم ونجاته عليه السلام من شرِّهم.

قال ابن العثيمين: {إذ قال الله يا عيسى إنِّي متوفِّيك} يحتمل أن تكون {إذ} متعلِّقة ب{مكر الله}: يعني: (ومكر الله إذ قال الله يا عيسى إنِّي متوفِّيك)؛ ويحتمل أنَّها متعلِّقة بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد منوِّهًا بفضل عيسى، {إذ قال الله يا عيسى إنِّي متوفِّيك ورافعك إليَّ ومطهِّرك من الذين كفروا}. قال بقول مسموع سمعه عيسى لأنَّه يخاطب؛ {يا عيسى إنِّي متوفِّيك}.

قال ابن كثير: اختلف المفسِّرون في قوله: {إنِّي متوفِّيك ورافعك إلي}، فقال قتادة وغيره: هذا من المقدَّم والمؤخَّر، تقديره: إنِّي رافعك إلي ومتوفِّيك، يعني بعد ذلك، وقال ابن جرير: توفِّيه هو رفعه. وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: {وهو الذي يتوفَّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار}[الأنعام: ٦٠] وقال تعالى: {الله يتوفَّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمًّى إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}[الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول – إذا قام من النوم –: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور(١)))، وقال الله تعالى: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا * وقولهم إنَّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} إلى قوله تعالى: {وما قتلوه يقينًا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا * وإن من أهل الكتاب إلَّا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون

١- (قلت): البخاري (٦٣١٢)، ومسلم (٢٧١١).

عليهم شهيدًا}[النساء: ١٥٦ - ١٥٩]، والضمير في قوله: {قبل موته} عائد على عيسى عليه السلام، أي: (وإن من أهل الكتاب إلَّا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى)، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلُّهم؛ لأنَّه يضع الجزية ولا يقبل إلَّا الإسلام.

قال ابن العثيمين: {إنِّي متوفِّيك}: للعلماء فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: قابضك، إنِّي قابضك؛ مأخوذة من قولهم: (توفَّى الدَّائن دَينه): أي قبضه؛ وعيسى قد قبضه الله تعالى إليه في السماء ورفعه حتى ينزل في آخر الزمان.

القول الثاني: متوفِّيك وفاة نوم، يعني مُنَيِّمُكَ؛ لأنَّ النائم متوفًّى؛ قال الله تعالى: {الله يتوفَّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها}، وقال: {وهو الذي يتوفَّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه}.

القول الثالث: أنَّها وفاة حقيقية، توفاه الله وفاة حقيقيَّة، وسَيُحْيِهِ وينزل في آخر الزمان.

والصحيح أنَّها وفاة نوم، وأنَّ الله عز وجل لمَّا أراد أن يرفعه إلى السماء، أنامه ليسهل عليه الانتقال من الأرض إلى السماء؛ لأنَّ الانتقال من الأرض إلى السماء ليس بهيِّن لطول المسافة، وبعدها، ورؤية الأحوال فيما بين السماء والأرض، وفي السموات أيضًا؛ فأنامه الله ثمَّ رفعه نائمًا حتى وصل إلى السماء؛ لكن هذا القول لا ينافي القول الأول الذي معناه قابضك؛ لأنَّ نهايتهما واحدة؛ أمَّا القول الثالث أنَّها وفاة موت فقول ضعيف، يضعفه قوله تعالى: {وإن من أهل الكتاب إلَّا ليؤمنن به قبل موته}: أي قبل موت عيسى؛ وهذا يدلُّ على أنَّه لم يمت؛ ولأنَّ الله تعالى لم يبعث أحدًا بعد الموت، فيبقى كما في نزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان؛ ولأنَّ إطلاق الوفاة على النوم كثير في القرآن، يعني ليس بمعنى غريب حتى نقول لا يصح الحمل عليه؛ بل هو معنى له كثرة في القرآن.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٤ص٣٢٢: عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيٌّ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((يَنْزِلُ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا وَإِمَامًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ([1]))، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ ((أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَى الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ وَأَنَّهُ يَقْتُلُ الدَّجَّالَ([2]))). وَمَنْ فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ لَمْ يَنْزِلْ جَسَدُهُ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِذَا أُحْيِيَ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ قَبْرِهِ.

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: {إنِّي مُتَوَفِّيك وَرَافِعُك إلَيَّ وَمُطَهِّرُك مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْنِ بِذَلِكَ الْمَوْتَ؛ إذْ لَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمَوْتَ لَكَانَ عِيسَى فِي ذَلِكَ كَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ وَيَعْرُجُ بِهَا إلَى السَّمَاءِ، فَعُلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ

١- البخاري في الأنبياء (٣٤٤٨)، ومسلم في الإيمان (١٥٥/٢٤٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٧٨)، وأحمد ٢٧٢/٢، ٣٩٤.

٢- أبو داود في الملاحم (٤٣٢١)، والترمذي في الفتن (٢٢٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٧٥).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤١٦٦).

خَاصِّيَّةٌ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وَلَوْ كَانَ قَدْ فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ لَكَانَ بَدَنُهُ فِي الْأَرْضِ كَبَدَنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}[النساء:١٥٧، ١٥٨]، فَقَوْلُهُ هُنَا: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}، يُبَيِّنُ أَنَّهُ رَفَعَ بَدَنَهُ وَرُوحَهُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ يَنْزِلُ بَدَنُهُ وَرُوحُهُ؛ إِذْ لَوْ أُرِيدَ مَوْتُهُ لَقَالَ: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ؛ بَلْ مَاتَ.

وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}: أَيْ: قَابِضُك، أَيْ: قَابِضُ رُوحِك وَبَدَنِك، يُقَالُ: تَوَفَّيْت الْحِسَابَ وَاسْتَوْفَيْته، وَلَفْظُ التَّوَفِّي لَا يَقْتَضِي نَفْسُهُ تَوَفِّيَ الرُّوحِ دُونَ الْبَدَنِ، وَلَا تَوَفِّيهُمَا جَمِيعًا، إلَّا بِقَرِينَةٍ مُنْفَصِلَةٍ.

وَقَدْ يُرَادُ بِهِ تَوَفِّي النَّوْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}[الزمر: ٤٢]، وَقَوْلِهِ: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}[الأنعام: ٦٠]، وَقَوْلِهِ: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}[الأنعام: ٦١]، وَقَدْ ذَكَرُوا فِي صِفَةِ تَوَفِّي الْمَسِيحِ مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ. وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال ابن العثيمين: يقول: {ورافعك إلي}: {رافعك} مضافة إلى الكاف كما أنَّ {متوفِّيك} مضافة إلى الكاف، والكاف فيهما هو في محل جر؛ لأنَّ عمل الاسم فيه الذي هو اللفظ، أقوى من عمل المعنى؛ ومن المعلوم أنَّ الاسم دائمًا يضاف إلى فاعله، ويضاف إلى مفعوله. قال: {ورافعك إلي}، الى أي مكان؟ إلى السماء؛ لأنَّ الرفع يكون من نازل؛ فمعنى {رافعك إليّ}: يعني في السماء؛ فرفعه الله سبحانه وتعالى إلى السماء إلى الله.

قال السعدي: وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلَّت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم.

قال ابن العثيمين: {ومطهِّرك من الذين كفروا}: مطهِّرك منهم، التطهير هنا تطهير معنوي لا تطهير حسي؛ وذلك لأنَّ الذين كفروا ليسوا يلطِّخون عيسى بالقاذورات الحسيَّة، لكنَّهم يلطِّخونه بالقاذورات المعنوية، قالوا إنَّه كذَّاب، وأنَّه ابن زنا والعياذ بالله، وأنَّ أمَّه زانية، واتَّهموه بأشياء كثيرة فطهَّره الله تعالى منهم، وذلك بما أنزل من براءته في عهده وفيما بعد عهده.

وقوله: {من الذين كفروا}: أي كفروا بعيسى لأنَّ الحواريين آمنوا به كما سبق.

{وجاعل الذين اتَّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة}: هذا أيضًا من جملة ما قال الله له، {جاعل} هنا مضافة إلى المفعول؛ {فوق} محلُّها النصب، هي ظرف متعلِّق بمحذوف على أنَّه مفعول ثاني؛ لأنَّ {جاعل} اسم فاعل من (جعل)، و(جعل) تنصب مفعولين؛ إذًا {فوق} ظرف متعلِّق بمحذوف لمفعول ثاني؛ {فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة}.

{اتَّبعوك} اتَّبعوا شريعتك؛ {فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة} فوق الكفار إلى يوم القيمة؛ هذه الآية يقبل بها النصارى ويقولون: نحن لنا العلو إلى يوم القيمة، لا إلى أن بعث محمد، بل إلى يوم القيمة؛ فنقول: نعم، صدق الله العظيم، إنَّ الذين يتَّبعون عيسى لهم النُّصرة على الكافرين إلى يوم القيمة؛ ولكن من الذي يتَّبع عيسى؟ هم الذين ردُّوا بشارته وكذَّبوا من بشَّر

به؟ أبدًا؛ أنتم لم تتَّبعوا عيسى، والله لو خرج عيسى لكان يقاتلكم حتى ترجعوا إلى الإسلام؛ ولهذا في آخر الزمان لا يقبل إلَّا الإسلام، لا يقبل الجزية، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، في آخر الزمان لا يقبل حتى الجزية التي كانت تقبل قبل نزوله من شدَّة كراهته لما عليه النصارى واليهود؛ الآن نحن نقرُّ اليهود والنصارى بالجزية، نقول ابقوا على دينكم؛ لكن أعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون؛ لكن إذا نزل عيسى لا يقبل حتى الجزية، يقول أسلم وإلَّا فالقتل، لكراهته لما هم عليه لا يريد أن يقرَّهم. المهم أن نقول إنَّ الذين اتَّبعوا عيسى هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ بعد بعثة محمد، أمَّا بعد بعثة محمد فنعم لاشك أنَّ أتباع عيسى هم المسلمون وأنَّهم على الحق قبل أن يحرِّفوا ويبدِّلوا.

فإذا قال: كيف تجيبون عن قوله: {إلى يوم القيمة}؟ قلنا نعم آمِنوا بمحمد ولكم النُّصرة إلى يوم القيمة.

فإن قال قائل: أفلا يمكن أن يراد بالذين اتَّبعوك أي الذين انتسبوا إليه، وتكون لهم الغلبة على الكافرين لا على المسلمين، يعني مثلًا: النصارى يغلبون على اليهود، أنَّ النصارى يغلبون الوثنيين وما أشبه ذلك؛ ويخرج من هذا المسلمون، ويكون الله تعالى قد وعد عيسى بأن يكون من انتسب إليه فوق الذين كفروا به؟

فالجواب: لا يمكن هذا، هو بعيد متعذِّر؛ لأنَّ هؤلاء ما اتَّبعوا عيسى؛ ألم تسمعوا أنَّ الله يقول يوم القيمة: {وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتَّخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنَّك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلَّا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربِّي وربُّكم} وهل النصارى يقولون بهذا؟ أبدًا؛ إذًا ما اتَّبعوه؛ فالآية وإن كان قد يتراءى لبعض الناس أن يقول: إنَّ النصارى يغلبون غيرهم من الكفار لهذه الآية؛ فإنَّنا نقول: لا؛ لأنَّ الله يقول: {وجاعل الذين اتَّبعوك}، والنصارى الآن لم يتَّبعوه؛ ثمَّ إنَّ الآية يعني لو فسِّرت بهذا التفسير، لكان الواقع يخالفها؛ فالأمَّة الصليبية لم تظهر على الأمَّة الشيوعية؛ بل هي خائفة منها فأين الفوقية؟ ليس هناك فوقية؛ الآن كل دول أوروبا الغربية بأسطولها وحلفها الأطلسي عجزت أن تكون فوق الشيوعية، وكلُّ واحد منهم الآن يخاف من الآخر؛ وقد يكون أتى في يوم من الأيام أوروبا تخاف من الشيوعية أكثر مما تخاف منها اليوم؛ فالحاصل أنَّ الآية لا يمكن أن تحمل على النصارى الموجودين اليوم بأيِّ حال من الأحوال.

قال ابن كثير: {وجاعل الذين اتَّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة}، وهكذا وقع؛ فإنَّ المسيح عليه السلام لمَّا رفعه الله إلى السماء تفرَّقت أصحابه شيَعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنَّه عبد الله ورسوله وابن أَمَته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله. وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن وردَّ على كلِّ فريق، فاستمَرُّوا كذلك قريبًا من ثلاثمائة سنة، ثمَّ نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده فإنَّه كان فيلسوفًا، وقيل: جهلًا منه، إلَّا أنَّه بدَّل لهم دين المسيح وحرَّفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى – التي هي الخيانة الحقيرة – وأحلَّ في زمانه لحم الخنزير، وصلُّوا له إلى المشرق، وصوَّروا له الكنائس والمعابد والصوامع، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين

قسطنطين إلَّا أنَّه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتَّبعه الطائفة الملكية منهم. وهم في هذا كلِّه قاهرون لليهود، أيَّدهم الله عليهم لأنَّهم أقرب إلى الحق منهم، - وإن كان الجميع كفارًا، عليهم لعائن الله -. فلمَّا بعث الله محمدًا ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كلُّ نبيٍّ على وجه الأرض - إذ قد صدَّقوا الرسول النَّبي الأمِّي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أَولى بكل نبي من أمَّته، الذين يزعمون أنَّهم على ملَّته وطريقته، مع ما قد حرَّفوا وبدَّلوا، ثمَّ لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث به محمدًا ﷺ من الدِّين الحق الذي لا يغيَّر ولا يبدَّل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائمًا منصورًا ظاهرًا على كلِّ دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسَّروا كسرى، وقصَّروا قيصر، وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيُّهم عن ربِّهم، عز وجل، في قوله: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنًا}[النور: ٦٥]. ولهذا لمَّا كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًّا سلبوا النصارى بلاد الشام وألجئوهم إلى الروم، فلجئوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمَّته بأنَّ آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدًّا لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها.

قال السعدي: إنَّ النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتِّباع عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبيُّنا محمدًا ﷺ فكان المسلمون هم المتَّبعين لعيسى حقيقة، فأيَّدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفَّار، وإنَّما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتِّباع الرسول ﷺ.

قال أبو زهرة: والفوقية ليست هي القوة؛ فإنَّ الأسد أقوى من الإنسان، ولكنَّه ليس فوقه ولا أعلى منه، بل الفوقية هي فوقية الإدراك والإيمان والإخلاص؛ وذلك لأنَّ سبب الفوقية هو الاتِّباع، والمسبِّب من جنس السبب، فالسبب معنوي روحي، فالفوقية روحية معنوية، فليست الفوقية إذن فوقية سيف وسنان، بل فوقية حجة وبرهان.. ولقد قال الزمخشري في ذلك: يعلونهم بالحجَّة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتَّبعوه هم المسلمون؛ لأنَّهم متَّبعوه في أصل الإسلام، وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه، والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى.

قال ابن العثيمين: ثمَّ قال: {ثمَّ إليَّ مرجعكم} {ثم} يعني بعد يوم القيمة {إليَّ مرجعكم}؛ ويوم القيمة هو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين ليجازوا على أعمالهم؛ وسمِّيَ يوم القيمة لثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنَّ الناس يقومون فيه لرب العالمين كما قال الله تعالى: {يوم يقوم الناس لرب العالمين}.

والوجه الثاني: أنَّه يقوم فيه الأشهاد؛ فالرسل يشهدون على أممهم، وهذه الأمَّة تشهد على الأمم السابقة، قال الله تعالى: {إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}.

والوجه الثالث: أنَّه يقام فيه العدل، قال الله تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئًا} فهو يقام فيه العدل؛ ولهذا أقسم النبي ﷺ وهو الصادق البار المصدوق ﷺ قال: ((والله لتؤدينَّ الحقوق إلى أهلها حتى إنَّه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء([1]))، هذا عدل، أكبر العدل؛ فلهذا سمِّيَ يوم القيمة لوجوه ثلاثة.

{ثمَّ إليَّ مرجعكم}: يعني ثمَّ بعد هذا الغلبة في الدنيا أو المغالبة في الدنيا حتى يكون بعضكم فوق بعض {إليَّ مرجعكم}: أي مصيركم؛ وكلُّ المصير إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة، قال الله عز وجل: {وأنَّ إلى ربِّك المنتهى}، {وما اختلفتم من شيء فحكمه إلى الله}؛ الأمر إلى الله أوَّلًا وآخرًا، لكن ظهور هذا الرجوع لا يكون إلَّا يوم القيمة، يتبيَّن فيه للناس جميعًا أنَّ الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، يجازي كلُّ نفس بما عملت؛ ولهذا قال: {ثمَّ إليَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون}. الله أكبر ما أعدل هذا الحكم! {فأحكم بينكم} بين من؟ بين الخلائق {فيما كانوا فيه يختلفون}؛ وهل الناس يختلفون في شيء؟ نعم {فمنكم كافر ومنكم مؤمن}[سورة التغابن: ٢]، اختلاف عظيم؛ فيحكم الله عز وجل بين هؤلاء وهؤلاء، ويحكم كذلك بين الرسل وأتباعهم، وتقيم الرسل البيِّنة على أنَّها بلَّغت الرسالة؛ وقد ينكر أتباع الرسل؛ لكن لا يتم لهم مقصودهم؛ فالحكم بين الناس يوم القيمة فيما اختلفوا فيه إلى الله.

قال السعدي: كلٌّ يدَّعي أنَّ الحق معه وأنَّه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرَّد دعاوى تحتاج إلى برهان.

قال ابن العثيمين: وقوله: {فأحكم بينكم} هذه فعل مضارع؛ فهل يشتقُّ منها اسم من أسماء الله؟ القاعدة أنَّ الفعل لا يشتقُّ به؛ لكن قد وجد الاسم من دون الرجوع إلى هذا الفعل وهو الحكيم؛ فإنَّ الحكيم مأخوذ من الحكم والحكمة؛ ومن أسماء الله (الحَكَم) كما قال النبي ﷺ: ((فإنَّ الله هو الحكم وإليه الحكم([2])))، وهذا من الحكم؛ فالله هو الحكم الذي يرجعون الناس إلى تحاكمهم؛ واعلم أنَّ الحكم لله ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي؛ فهو الحاكم كونًا وهو الحاكم شرعًا؛ أمَّا الحكم الكوني، فهو نافذ لكلِّ أحد، ولا يستطيع أحد أن يتخلَّص منه، ولا أن يعانده؛ وأمَّا الحكم الشرعي، فإنَّه باختيار المحكوم عليه؛ {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}، إذًا حكم الله ينقسم إلى قسمين: كوني؛ وشرعي؛

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٥١٢٨)، والحديث بتمامه: ((لتؤدّنَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)). أخرجه مسلم (٨/ ١٨ / ١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١٨٣)، والترمذي (٢ / ٦٨)، وأحمد (٢ / ٢٣٥ و ٣٢٣)، وابن أبي الدنيا في الأهوال (٩١ / ٢)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٦١٥)، وقال: أخرجه النسائي (٣٠٥/٢)، وفى الكبرى له (ق ١/٤)، وكذا البخاري فى الأدب المفرد (٨١١)، وفى الكبير (٢٢٧/٢/٤)، وأبو داود (٤٩٥٥)، وعنه البيهقي (١٤٥/١٠)، عن طريق يزيد بن المقدام بن شريح عن أبيه شريح عن أبيه هانئ: ((أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ سمعهم وهم يكنون هانئا أبا الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال له: إنَّ الله هو الحكم، وإليه الحكم فلم تكنى أبا الحكم؟ فقال: (إن قومي ...) الحديث وزاد: ((فمالك من الولد))؟ قال: لي شريح وعبد الله ومسلم، قال: ((فمن أكبرهم))؟ قال شريح، قال: ((فأنت أبو شريح))، فدعا له ولولده.

قلت: وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات رجال مسلم غير يزيد بن المقدام قال الحافظ فى التقريب: صدوق، أخطأ عبد الحق فى تضعيفه.

فالحكم الكوني ما يقدِّره الله على عباده ولا يمكن التخلُّف عنه، ويتعلَّق فيما يحبه وما لا يحبه؛ فيحكم كونًا بوقوع الطاعات؛ وهذا ممَّا يحبه؛ ويحكم كونًا لوقوع السيئات والمعاصي؛ وهذا ممَّا لا يحبه؛ لكنَّه عز وجل يحكم به كونًا لحكمة ومصالح عظيمة؛ أمَّا الحكم الشرعي، فهو ما قضاه بين العباد شرعًا، وهو الذي جاءت به الرسل؛ وأصله أوامر ونواهي، افعلوا كذا لا تفعلوا كذا؛ ولا يلزم من الحكم الشرعي وقوع المحكوم به بل قد يتخلَّف عنه كثير من الناس؛ وها هو الرسل يرسلهم الله عز وجل يتبعهم أناس قليلون وأناس كثيرون؛ بل قد قال النبي ﷺ: ((رأيت النبي ومعه الرهط والنبي مع الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد[١]))، فيتخلَّف حكم الشرع.

قال بعض العلماء: إنَّ هناك قسمًا ثالثًا للحكم وهو الحكم الجزائي الذي يحكم الله فيه الجزاء على من عمل، إن خيرًا فخير وشرًّا فشر؛ وعليه يتنزَّل قوله هنا: {فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون}: أي أحكم بينكم حكمًا جزائيًّا؛ ويعقُب هذا الحكم المآل، إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله **{الحكم}:**

فقد سماه به النبي ﷺ على سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا على الوصفية فيما ثبت عنه في السنة النبوية، وقد ورد المعنى محمولا عليه مسندا إليه في الحديث الذي رواه أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِئٍ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِي كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قَالَ: لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ.

فالنص صريح في إثبات الاسم، وقد ورد الوصف الذي دلَّ عليه الاسم في القرآن: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[الرعد: ٤١]، وكذلك في قوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[الحج: ٥٦]، وفي قول يعقوب عليه السلام: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}[يوسف: ٦٧]، وقد ورد أنَّ الله هو أحكم الحاكمين وليس ضمن حصرنا للأسماء لأنَّه مقيَّد بالمقارنة وأفعل التفضيل ونحن كما علمنا من شرطنا الإطلاق، قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}[هود: ٤٥]، {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}[التين: ٨]، وقد اعتبره البعض اسمًا ولكنَّه في الحقيقة وصفٌ.

{الحكم} في اللغة هو الذي يحكم ويفصل ويقضي في سائر الأمور، فعله يحكم حُكْما وحَكَم له وحكم عليه والحَكَمُ، بفتحتين هو الحاكم وحَكَّمه في ماله تحكِيمًا إذا جعل إليه الحُكْمَ فيه، واحتكموا إلى الحاكم وتَحَاكمُوا بمعنى واحد

١- (قلت):البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠)، وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٧٤٤)، وقال انظر حديث رقم : (٣٩٩٩) في صحيح

والمُحاكَمَةُ هي المخاصمة إلى الحاكم، والله عز وجل حكم يحكم في خلقه، وحكمه في خلقه نوعان، حكم يتعلّق بالتَّدبير الكوني، وآخر يتعلَّق بالتَّدبير الشرعي، فالذي يتعلَّق بالتَّدبير الكوني كقوله: {قَال رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ المُسْتَعَانُ عَلى مَا تَصِفُونَ}[الأنبياء: ١١٢]: أي افعل ما تنصر به عبادك وتخذل به أعداءك، ومثال الحكم الكوني أيضًا: {قُل إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الحُكْمُ إِلا للهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ}[الأنعام: ٥٧]، ومثال الحكم الكوني أيضًا: {وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالذِي أُرْسِلتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ}[الأعراف: ٨٧]؛ أمَّا الحكم الشرعي فمثاله ما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ أُحِلتْ لكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلى عَليْكُمْ غَيْرَ مُحِلي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}[المائدة: ١]، ومثال الحكم الشرعي: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلى اللهِ ذَلكُمُ اللهُ رَبِّي عَليْهِ تَوَكَّلتُ وَإِليْهِ أُنِيبُ}[الشورى:١٠]، {كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلكَ وَمَا أُولئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ}[المائدة: ٤٣].

واسم الله {الحكم} يدلُّ على ذات الله وعلى الحكم والقضاء كصفة فعل بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى الحكم كصفة فعل بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللُّزوم على الحياة والقيومية والمشيئة والإرادة، والسمع والبصر، والعلم والقدرة، والعزة والعظمة، والعدل والحكمة، والغنى والقوة، وكل ما يلزم من صفات الكمال، واسم الله {الحكم} دلَّ على صفة من صفات الأفعال.

كيف ندعو الله باسمه {الحكم} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة كما في قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[الزمر: ٤٦]، وعند مسلم من حديث أبي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِي اللَّهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلاَتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: ((كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاَتَهُ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ([١])).

أمَّا دعاء العبادة، فهو أثر الاسم على إيمان الشخص، فلا يبتغي حكمًا يحكم له في منهج حياته إلَّا الله كما قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}[يوسف: ٤٠]، وقال أيضًا عن اليهود: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}[المائدة: ٤٣]، وقال تعالى عن نبيه ﷺ: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[الأنعام: ١١٤]، روى البخاري أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزبيرَ بن العوام رضي الله عنه فِي شِرَاجِ الحَرَّةِ التِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخل، اختلفا على قناة الماء التي تروي أرضهما، فَقَال الأنصاري: سَرِّحِ المَاءَ يَمُرُّ فَأَبَى

١- (قلت): مسلم (٧٧٠).

عَلَيْهِ – وكانت أرض الزبير قبل أرضه والماء يمرُّ أوَّلًا على نخله – فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إلِي جَارِكَ، فَغَضِبَ الأنصاري وَقَال: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ – أي حكمت لصالحه من أجل قرابته – فَتلَوَّنَ وَجْهُ رَسُول اللهِ ﷺ وغضب، فقَال: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حتى يَرْجِعَ إلى الجَدْرِ – ويعني اسق حتى يغطي الماء أصول نخلك ويبلغ إلي مقدار الكَعْبَيْنِ ولا عليك منه – فاسْتَوْعَى لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ، فَنزل قول الله تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلمُوا تَسْليمًا}([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- التنبيه على أنَّه ينبغي أن نذكِّر الناس بأحوال الأنبياء السابقين؛ وجه ذلك أنَّنا قدرنا: {إذ قال الله} بأذكر إذ قال الله؛ فينبغي أن يذكِّر الإنسان الناس بأحوال الأنبياء السابقين، لما فيه من محبَّتهم، والثناء عليهم، ومعرفة أحوالهم، وإبقاء ذكراهم، وغير ذلك من المصالح العظيمة.

٢- إثبات القول لله، وأنَّه بحروف وأصوات مسموعة؛ لقوله: {يا عيسى إنِّي متوفِّيك} وهذا خطاب من يسمع، ثم هو كلمات من حروف؛ ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة أنَّ الله يتكلَّم كلامًا مسموعًا بحرف وصوت.

٣- الرَّد على من قال: إنَّ كلام الله هو المعنى النفسي، المعنى القائم بنفسه؛ فإنَّ هذا لا يسمَّى قولًا، وإن أطلق عليه القول فلابدَّ أن يقيَّد كما في قوله: {ويقولون في أنفسهم لو لا يعذبنا الله بما نقول} فلمَّا أراد القول لنفسك، قيَّدها {يقولون بأنفسهم}. أمَّا إذا جاء القول غير مقيد، فالمراد به ما يسمع؛ فيه الرَّد على الأشاعرة الذين يقولون إنَّ كلام الله هو الكلام النفسي القائم بنفسه، وأنَّه أزلي لا يحدث، ولا يسبق بعضه بعضًا؛ لأنَّه معنًى قائم بالنفس. والحقيقة أنَّ مضمون هذا القول إنكار كلام الله؛ ولهذا قال بعض منصفيهم: ليس بيننا وبين المعتزلة فرق؛ لأنَّنا نقول جميعًا إنَّ هذا القرآن الذي في المصحف مخلوق؛ لأنَّ الأشاعرة يقولون إنَّ الله تعالى لا يتكلَّم بما يُسمع؛ لكن يخلق كلامًا يعبِّر به عمَّا في نفسه؛ وعلى هذا فالمسموع والمقروء والمكتوب مخلوق فيتَّفق المعتزلة والأشاعرة؛ بل المعتزلة خير منهم من جهة النسبة؛ لأنَّهم يقولون: هذا كلام الله؛ وأولئك يقولون: هذا عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله. المهم أنَّ هذه الآية وأمثالها فيها الرَّد على الأشاعرة.

٤- فضيلة عيسى ومنقبته بخطاب الله إيَّاه؛ فإن من خاطبه الله فذلك فخر له بلا شك؛ خصوصًا وأنَّه قال له: {إنِّي متوفِّيك ورافعك إلي ...}.

٥- أنَّ الله سبحانه وتعالى رفع عيسى بجسمه؛ لقوله: {ورافعك}، والخطاب لعيسى المكون من بدن وروح؛ فيكون رفعه بجسمه ببدنه.

١- (قلت): البخاري (٢٣٦٠)، ومسلم (٢٣٥٧).

٦- إثبات منقبة لرسول الله ﷺ؛ وذلك أن النبي ﷺ أسري به إلى السموات السبع حتى اخترقها كلَّها وهو يقضان؛ وعيسى لم يرفع إلَّا وهو نائم؛ لأنَّ قوله: {إنِّي متوفِّيك}: أي منيِّمك على أحد الأقوال وهو أقربها؛ ومعلوم أنَّ ثبات قلب من يباشر الشيء وهو يقضان أقوى من ثبات من يباشره وهو نائم؛ ولهذا تجد بعض الناس إذا سمع رعد الشديد والبرق الخاطف يغمض ويضع أصبعه في أذنيه حتى لا يسمع، ويقول ليتني نمت قبل هذا؛ والإنسان الثابت الذي يقول: لن يصيبنا إلَّا ما كتب الله لنا تجده لا يهمه؛ المهم أنَّ الرسول ﷺ أسري به يقظة بروحه وبدنه، وعيسى عندما أراد الله أن يرفعه أنامه.

٧- منقبة لعيسى أخرى، حيث قال: {ورافعك إلي}، فأضاف رفعه إلى نفسه عز وجل؛ وهذا لاشك أنَّه منقبة، لأنَّ الله ضمَّه ورفعه إليه ليكون أقرب إليه ممَّا لو كان في الأرض.

٨- أنَّ الله عز وجل منع الأذى عن عيسى الذي يمكن أن يلحقه به الكفار؛ {مطهِّرك من الذين كفروا} وذلك بالدفاع عنه؛ فإنَّ الذين كفروا قالوا إنَّه ولد زنا، قاتلهم الله؛ فطهَّره الله؛ لما قالوا: {يا مريم لقد جئت شيئًا فريًّا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وكانت أمُّك بغيًّا} من أين جاءك الزنا، لأنَّ هذا تعريض، يقولون: ما كان أبوك امرأ سوء، بل هو نظيف، وأمُّك كذلك، فمن أين جاءك الزنا؟! لم تجاوبهم {أشارت إليه}، اسألوا الطفل، {قالوا كيف نكلِّم من كان في المهد صبيًّا} فأجابهم قبل أن يسألوه، {قال إنِّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا ... } هذا تطهير عظيم له ولأمِّه رضي الله عنهما.

٩- أنَّ كلَّ من رمى عيسى بهذا السوء فهو كافر؛ لأنَّه لم يقل: مطهِّرك من الذين قدحوا فيك؛ بل قال: {من الذين كفروا} فيستفاد من هذا، أوَّلًا: كفر هؤلاء. وثانيًا: أنَّ كل من رماه بذلك فهو كافر.

١٠- أنَّ نصرة الأتباع نصرة للمتبوع؛ من أين؟ {وجاعل الذين اتَّبعوك فوق الذين كفروا} لو لا أنَّه يفرح بذلك ويسر ما بشره الله به؛ لكن من المعلوم أنَّ كلَّ إنسان يدلُّ على هدًى وينتصر أتباعه من المعلوم أنَّه سيفرح؛ لأنَّه كلَّما انتصر أتباعه قوي الهدى الذي قاد الناس إليه، فعظم أجره؛ فإنَّ من دلَّ على هدًى كان له مثل أجر فاعله.

١١- أن أتباع عيسى منصورون إلى يوم القيمة؛ لقوله: {فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة} وسبق لنا من أتباعه؟ بعد بعثة الرسول ﷺ هم أمَّة محمد، ومن كفر بمحمد فإنَّه لم يتَّبع عيسى؛ وذكرنا وجهًا آخر أنَّ النصارى سيكونون فوق غيرهم من ملل الكفر؛ لكن الإسلام فوق الجميع؛ ولكن متى يكون الإسلام فوق الجميع؟ إذا رجع المسلمون إلى الإسلام حقيقة؛ أمَّا إذا لم يرجعوا إلى الإسلام حقيقةً فيخشى أن يكون النصارى فوقهم؛ والواقع الآن مع الأسف يشهد بهذا.

١٢- إثبات يوم القيمة؛ لقوله: {إلى يوم القيمة}، وهو يوم يبعث فيه الناس للجزاء إن خيرًا فخير وشرًّا فشر؛ وسمِّي يوم القيمة لأنَّه يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ ويقوم فيه الأشهاد؛ ويقام فيه العدل.

١٣- إطلاق الفوقية على الفوقية المعنوية؛ ليس معناه أنَّهم يكونون على سقف فوق رؤوسهم حسيًّا؛ بل فوقية معنوية؛ إذًا إثبات الفوقية المعنوية كالفوقية الحسيَّة.

١٤- أنَّ مرجع الخلائق إلى ربه عز وجل، الذي ابتدأ خلقه ستكون النهاية إليه؛ لقوله: {ثمَّ إليَّ مرجعكم} ولابدَّ؛ ولهذا قال الله تعالى: {يا أيها الإنسان إنَّك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه} يخاطب كلَّ إنسان، وليس المؤمن فقط، وآنظر إلى الغاية، النهاية إلى الله، ثمَّ أكَّد هذه النهاية بقوله: {فملاقيه} يعني فاستعد لهذا اللقاء.

١٥- إثبات حكم الله في الدنيا والآخرة؛ لقوله: {فأحكم بينكم} هذا في الآخرة؛ وفي الدنيا {وما اختلفتم من شيء فحكمه إلى الله}، فالحكم كلُّه راجع إلى الله عز وجل، والله تعالى هو الحكم في الدنيا والآخرة.

١٦- بشارة المؤمنين بأنَّ خلافهم مع الكفار سوف يجري فيه الحكم على يد الواحد القهار، فيحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون؛ وقد أخبرنا الله عز وجل أنَّ الخاصم الغالب هم المؤمنون، قال الله تعالى: {فالله يحكم بينكم يوم القيمة} وماذا بعدها؟ {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا}؛ {سبيلًا}: نكرة في سياق النفي؛ فتشمل كلُّ سبيل، أيُّ سبيل، لا قليل، ولا كثير، وهذه بشرى، يعني أي خصم في الدنيا يقال له: أنت فائز على كل حال، يعني القاضي يقول للخصم: تخاصموا عندي وأنت الغالب؛ هل جرت مثل هذه الخصومة؟ أبدًا؛ لكن خصومتنا مع الكافرين والحمد لله الحكم لنا فيه مقدَّم: {فالله يحكم بينكم يوم القيمة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا}.

١٧- ثبوت علو الله بذاته؛ لقوله: {ورافعك إلي}؛ لأنَّ الرفع معروف أنَّه الصعود إلى الأعلى؛ فإذا قال {إلي} علم يقينًا أن الله عز وجل فوق؛ وهو كذلك هو فوق كلِّ شيءٍ بذاته؛ ولا ينافي هذا ما ثبت من أنَّه عز وجل ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ هو نازل وهو عالي؛ ولا ينافي هذا أيضًا أنَّه مع الخلق كما قال عز وجل: {وهو معكم أين ما كنتم} فهو مع الخلق وهو عالٍ عليه كما قال شيخ الإسلام في الواسطية: عليٌّ في دنوِّه قريبٌ في علوِّه؛ ولا ينافي هذا أيضًا أنَّه يأتي يوم القيمة للفصل بين العباد فهو يأتي ولكنَّه فوق كلِّ شيء؛ ولا ينافي هذا أنَّه يدعوا عشية يوم عرفة يباهي بأهل الموقف الملائكة. إذا قال قائل: كيف لا ينافي هذا؟ أنا لا أتصوَّر أنَّ شيئًا يكون عاليًا نازلًا أبدًا؟ قلنا: تبًّا لك أنت لا تتصوَّر هذا بالنسبة لمن؟ للمخلوق؛ أمَّا بالنسبة للخالق فكلُّ ما أخبر الله عن نفسه فهو حق، حق لا يتناقض؛ وليس فيه (لا يمكن) أبدًا؛ إذا قلت: (لا يمكن)، معناه أنَّك لن تصدِّق أخبار الله ورسوله إلَّا إذا وافقت هواك وإلَّا فلا؛ ولهذا ضلَّ من ضلَّ من الناس في مثل هذه الأمور، حيث قالوا: هذا غير ممكن، وهذا غير ممكن؛ وبنوا عقيدتهم على أهوائهم؛ إذًا تريد تبنِّي عقيدتك على هواك فما الفائدة من الرسل؟ لا فائدة من الرسل؛ وإذا جاءت الرسل بكلام يخالف ما عندك، ذهبت تحرِّفه، إذًا لا فائدة من الرسل؛ ولهذا أنصحكم دائمًا وأبدًا وأكرِّر أن تقبلوا كلَّ ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله عز وجل ومن صفات اليوم الآخر أيضًا؛ لأنَّ في اليوم الآخر أشياء لا تكون في الدنيا. دنوُّ الشمس من الناس قدر ميل يوم القيمة لو كان في الدنيا احترق الأرض ومن عليها؛ لكن في الآخرة شيء آخر؛ كون الناس هذا في نور، و هذا في ظلمة والموقف واحد، في الدنيا لا يمكن، لو جئت بأدنى سراج لانتفع به من إلى جنبك، في الآخرة ممكن؛ في الآخرة ناس يعرقون على قدر أعمالهم، منهم من يلجمهم العرق ومنهم من إلى الكعبين والمقام واحد؛ في الدنيا لا يمكن؛ فأمور الآخرة أمور الغيب كلُّها لا يجوز لك

أن تقيسها بما تشاهدها في الدنيا، لأنَّ القياس هنا ممتنع، فهو قياس مع الفارق، لاسيَّما في صفات الخالق عز وجل، فإنَّ الفارق فارق بعيد بين صفات الخالق وصفات المخلوق؛ ولذلك حذار أن تقيس بما أثبت الله لنفسه من صفات بما تعرفه من صفات المخلوقين فإنَّك ستضل.

١٨- أنَّ مرجع الخلائق إلى الله نهاية وحكمًا؛ فإنَّ الناس يبعثون يوم القيمة إلى ربِّهم حكمًا يحكم بينهم.

١٩- إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: {فأحكم بينكم} وهذا حكم جزائي.

٢٠- أنَّ الخصومة تقع بين المؤمنين والكافرين يوم القيمة؛ لقوله: {فأحكم بينكم}؛ ويحتمل أن يقال: إنَّ هذا حكم سبقت الخصومة فيه في الدنيا، حيث كان الكفار والمنافقون يختصمون؛ ولكن الأول أقرب، ويؤيِّده قوله تعالى: {إنَّك ميِّت وإنَّهم ميِّتون ثمَّ إنَّكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون}.

٢١- أنَّ الاختلاف بين المسلمين والكفار اختلاف جوهري يحكم الله به بين هؤلاء وهؤلاء يوم القيمة؛ وأن الاختلاف بين المسلمين فيما ما مصدره الاجتهاد فإنَّه لا يحكم بينهم؛ لأنَّ المهتدين وإن اختلفوا في الحكم فإنهم لم يختلفوا في الحقيقة لأنَّ كلَّ واحد منهم يعذر الآخر ولا يرى أنَّه مخالف له وإن خالفه في القول والرأي، لكنَّه لم يخالفه في المنهج والطريقة، كلُّ واحد منهم يريد الحق، ولكن اختلفوا في كيفية الوصول إليه.

إثبات علم الله؛ لقوله: {فأحكم بينكم} إذ لا حكم إلَّا بعد علم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((إنَّما أقضي على نحو ما أسمع[١])).

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {٥٦}

قال أبو زهرة: هذا هو الجزء الأول من الحكم، وهو عذاب الذين كفروا، وفي التَّعبير بالموصول إشارة إلى أنَّ سبب العذاب هو كفرهم، وقد أكَّد سبحانه وتعالى شدَّة العذاب بعدة تأكيدات، أوَّلها: بنسبة التَّعذيب إليه، وهو القويُّ القهَّار الغالب على كلِّ شيء، وفيه إشعار بعدالة العذاب عدالة مطلقة، وثانيها: بالتَّأكيد بالمصدر، وثالثها: بالوصف بالشدَّة، ورابعها: بعدم رجائه إنهاءه أو إزالته؛ إذ لَا يوجد لهم من ناصر؛ ولذا قال سبحانه: {وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}، وهو نفي مؤكَّد مستغرق، أي ليس لهم من ناصر أيًّا كان هذا الناصر، وأيًّا كانت نصرته، ولو كانت ضئيلة.

قال ابن العثيمين: {فأمَّا الذين كفروا}: الفاء هذه عاطفة على ما سبق عطف تفريع، أي أنَّ ما بعدها فرع عمَّا قبلها، يعني هذا الحكم يكون على هذا الوجه: {فأمَّا الذين كفروا فأعذِّبهم}، و{أما} هنا شرطية تفصيلية يعني أنَّها تفيد التفصيل كما في قوله: {فأمَّا من أعطى واتَّقى}، {وأمَّا من بخل واستغنى}.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٦٣١).

فهنا قال: {فأمَّا الذين كفروا}، {وأمَّا الذين آمنوا}؛ وقوله: {فأمَّا الذين كفروا فأعذِّبهم}: أي كفروا بالله ورسله؛ و(الكفر) في اللغة الستر، ومنه سمِّيَ الكفرة الذي هو غطاء طلع النخل، ويسمَّى في لغة العامية الكافور؛ فالذين كفروا، ستروا ما أنعم الله به عليهم من نعمة العقل، ونعمة المال والصحة وغير ذلك، حيث لم تظهر عليهم آثار هذه الأشياء؛ فآثار العقل أنَّ الإنسان يفعل ما ينفعه، ويدع ما يضرُّه، ومنه سمِّيَ العقل حجرًا لأنَّه يَحْجُر صاحبه عمَّا يضرُّه؛ لكن الذين كفروا ستروا ما يقتضيه العقل من حسن التصرف، وذلك بالإيمان بالله ورسله؛ فلذلك سمُّوا كفَّارًا، أي ساترين لما أنعم الله عليهم من نعمة العقل الذي مقتضاها الإيمان بالله ورسله.

قال: {فأعذِّبهم عذابًا شديدًا}، {فأعذِّبهم}: العذاب فعل ما به مشقَّة، أو حصول ما به مشقَّة، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، كما قال النبي ﷺ: ((إنَّ السفر قطعة من العذاب(١))، وقال: ((إنَّ الميت يعذب ببكاء أهله عليه(٢))): يعني هذا عذاب مشقَّة؛ ومن عذاب المشقَّة عذاب العقوبة لأنَّه شاقٌّ على المعاقَب.

وهنا الموارد بالعذاب، عذاب مشقَّة العقوبة {أعذِّبهم عذابًا شديدًا}: الشديد يعني قوي عظيم، {في الدنيا والآخرة}، قال العلماء: إنَّ العذاب في الدنيا ما يحصل لقلوبهم من الضِّيق، والضَّنك، والقلق، والحسرة، وغير ذلك، وما يحصل لهم على أيدي المؤمنين من القتل، والأسر، والجزية، وغير ذلك؛ فعذابهم يكون بألمهم القلبي، وألمهم البدني؛ ولهذا قال: {أعذِّبهم

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧). وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٦)، والحديث بتمامه عند البخاري: ((السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه فإذا قضى أحدكم نهمته من وجهه فليعجل الرجوع إلى أهله)).

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨). وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٧).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((إنَّ الميت يعذب ببكاء أهله عليه))، وفي رواية: ((ببعض بكاء أهله عليه))، وفي رواية: ((ببكاء الحي))، وفي رواية: ((يعذب في قبره بما نيح عليه))، وفي رواية: ((من يبك عليه يعذَّب))، قال الإمام النووى: وهذه الروايات من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما، وأنكرت عائشة ونسبتهما إلى النسيان والاشتباه عليهما وأنكرت أن يكون النبي ﷺ قال ذلك، واحتجَّت بقوله تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى}، قالت: وإنَّما قال النبي ﷺ في يهودية إنَّها تعذَّب وهم يبكون عليها، يعني تعذَّب بكفرها في حال بكاء أهلها لا بسبب البكاء.

واختلف العلماء في هذه الأحاديث، فتأوَّلها الجمهور على من وصى بأن يبكى عله ويناح بعد موته فنفذت وصيته، فهذا يعذَّب ببكاء أهله عليه ونوحهم لأنَّه بسببه ومنسوب إليه، قالوا: فأمَّا من بكى عليه أهله وناحوا من غير وصية منه فلا يعذَّب لقول الله تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى}، قالوا: وكان من عادة العرب الوصية بذلك ومنه قول طرفة بن العبد: إذا مت فانعينى بما أنا أهله ... وشقي على الحبيب يا ابنة معبد

قالوا فخرج الحديث مطلقًا حملًا على ما كان معتادًا لهم.

وقالت طائفة: هو محمول على من أوصى بالبكاء والنوح أولم يوص بتركهما فمن أوص بهما أو أهمل الوصية بتركهما يعذَّب بهما لتفريطه بإهمال الوصية بتركهما، فأمَّا من وصى بتركهما فلا يعذَّب بهما، إذاً لا صنع له فيهما ولا تفريط منه. وحاصل هذا القول إيجاب الوصية بتركهما ومن أهملها عذِّب بهما.

وقالت طائفة: معنى الأحاديث أنَّهم كانوا ينوحون على الميت ويندبونه بتعديد شمائله ومحاسنه في زعمه وتلك الشمائل قبائح في الشرع يعذَّب بها كما كانوا يقولون: يا مرمِّل النسوان ومخرِّب العمران ومفرِّق الأخدان ونحو ذلك مما يرونه شجاعةً وفخرًا وهو حرام شرعًا.

وقالت طائفة: معناه أنه يعذب بسماعه بكاء أهله ويرق لهم، وإلى هذا ذهب محمد بن جرير الطبري وغيره، وقال القاضي عياض: وهو أولى الأقوال واحتجوا بحديث فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم زجر امرأة عن البكاء على أبيها، وقال: ((إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم)). وقالت عائشة رضي الله عنها: معنى الحديث: أن الكافر أو غيره من أصحاب الذنوب يعذب في حال بكاء أهله عليه بذنبه لا ببكائهم، والصحيح من هذه الأقوال ما قدمناه عن الجمهور وأجمعوا على اختلاف مذاهبهم على أن المراد بالبكاء هنا البكاء بصوت ونياحة لا مجرد دمع العين.

عذابًا شديدًا في الدنيا}، أمَّا عذابهم في الآخرة فظاهر، يعذَّبون في الآخرة بالنار، وهم لا تتخطَّاهم العقوبتان أو إحداهما، يعني إمَّا أن يحصل لهم هذا، وهذا وهو الغالب، وإمَّا أن يحصل لهم عذاب الآخرة لابدَّ؛ ولكن ظاهر الآية الكريمة: {في الدنيا والآخرة}، أنَّه يحصل لهم العذاب في الدَّارين؛ قال: {في الدنيا والآخرة} الدنيا هي هذه الحياة التي نحياها؛ ووصفت بذلك لوجهين؛ الوجه الأول لدنوِّها؛ لأنَّها سابقة على الآخرة فهي دانية؛ والوجه الثاني: لنزول مرتبتها كما يقال: دنيا وعليا؛ فالدنيا نازلة مرتبة على الآخرة، مهما بلغ نعيمها فإنَّها نازلة عن الآخرة؛ لأنَّ نعيم الدنيا إذا حصل فهو مشوب بالكدر كما قال الشاعر: فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

وقال الثاني: لا طيب للعيش مادامت مناقصة ... لذاته بإدكار الموت والهرم

فمهما نعم الإنسان في هذه الدنيا فنعيمها دان؛ ولهذا وصفت بالدنيا؛ أمَّا نعيم الآخرة فقد قال الله تعالى: {فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين وأنتم فيها خالدون}، وقال تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}، إذًا الدنيا وصفت بذلك لوجهين؛ الأول: لدنوِّها من الآخرة؛ الثاني: دنو مرتبتها ومنزلتها.

وأمَّا قوله: {الآخرة} فوصفت بذلك لأنَّها متأخِّرة زمنًا لا مرتبةً؛ فهي في المرتبة فوق الدنيا لكن زمنًا متأخِّرة.

قال: {وما لهم من ناصرين}: يعني هذا العذاب الشديد الذي يوقعه الله فيهم، لا يجدون من ينصرهم منه، أي من يدفع عنهم هذا العذاب، لا أهل، ولا مال، ولا صديق، ولا قريب، ولا أحد من الناس، {يودُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤيه ومن في الأرض جميعًا ثم ينجيه كلَّا}.

قال السعدي: {وما لهم من ناصرين} ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنَّهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتَّخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون.

قال ابن العثيمين: وقوله: {وما لهم من ناصرين} {ما} هذه نافية؛ هنا قدّم خبرها على اسمها؛ لأنَّ {لهم} خبر مقدَّم؛ {من} حرف جر زائد إعرابًا، و{ناصرين} مبتدأ مؤخَر مرفوع بالواو المقدَّر وجودها في محل الياء، ومنع من ظهورها اشتغال المحل بالحرف المناسب، أو الذي جلب من أجل الحرف الزائد؛ ولو لا {من} لكانت ناصرون، وما لهم ناصرون.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات العذاب للكافرين؛ لقوله: {وأمَّا الذين كفروا فأعذِّبهم عذابًا شديدًا}.

٢- أنَّ العذاب في الدنيا قد لا يكفي عن العذاب في الآخرة بالنسبة للكفَّار؛ أو نقول: أنَّ العذاب في الدنيا لا يغني عن العذاب في الآخرة بالنسبة للكفَّار؛ لقوله: {وأمَّا الذين كفروا فأعذِّبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة}، ولهذا يعذَّب الكفار في الدنيا فيهزمون ويؤسرون، وتسبى ذريَّتهم ونسائهم، وتغنم أموالهم، وهذا عذاب أليم، ومع ذلك لا ينجون من عذاب النار.

٣- إثبات الجزاء؛ لقوله: {وأمَّا الذين كفروا فأعذِّبهم}.

٤- أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فكلَّما كان الجزاء أسوأ كان الجزاء أشدّ؛ ولهذا قال: {فأعذِّبهم عذابًا شديدًا}.

٥- أنَّ عذاب الكافرين يكون في الدنيا ويكون في الآخرة؛ وأمَّا عذاب الدنيا فهو بالأسر والقتل والفيضانات وما أشبه ذلك، كما قال الله تعالى: {قاتلوهم يعذِّبكم الله بأيديكم} وهذا بماذا؟ بالقتل والأسر؛ وأمَّا العذاب الزلازل وما شابهها كقوله تعالى: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم}؛ هذا عذاب من الله عز وجل؛ والأول عذاب بأيدي المؤمنين.

٦- أنَّ الكفار لا ناصر لهم من عذاب الله، لا أحد يمنعهم؛ لقوله: {وما لهم من ناصرين}؛ أمَّا في الآخرة فظاهر، لأنَّ الشفاعة لا تنفع فيهم؛ لقوله تعالى: {ولا يشفعون إلَّا لمن ارتضى}، وأمَّا في الدنيا فكذلك؛ لأنَّ هؤلاء الكفَّار إذا عذِّبوا بأيدي المؤمنين فالمقاتلة منهم يقتلون، والنساء والذريَّة يسْبون، والأموال والأراضي تغنم، وهذا لا ناصر لهم فيه.

فإن قال قائل: أليس الإمام يخير في الأسرى بين أمور أربعة؟ بين القتل؛ والفداء بالمال أو بنفس مؤمنة؛ والاسترقاق؛ والمنُّ؛ بين أمور أربعة إمَّا القتل؛ وإمَّا الفداء بمال أو بأسير مسلم؛ أو الاسترقاق يجعله رقيقًا يباع ويشترى؛ أو المنُّ مجَّانًا، لا إشكال في الثلاثة الأولى؛ الإشكال في الأخير وهو المنُّ وهذا ليس بعذاب.

فالجواب عن ذلك أن نقول: إنَّه لا يجوز للإمام أن يختار واحدة من هذه الأربع إلَّا حيث يرى للمسلمين فيها مصلحة؛ فالتَّخيير هنا تخيير مصلحة وليس تخيير تشهِّي واختيار؛ وإذا كان للمسلمين مصلحة فلابدَّ أن يكون هذا عذابًا للكافرين؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ فيه مصلحة للمسلمين ففيه عذاب للكافرين؛ وعلى هذا فلا ناصر لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {٥٧}

قال أبو زهرة: هذا هو الجزء الثاني من الحكم وهو جزاء الذين آمنوا، وقد ذكر جزاءهم الحكيم العليم بأنَّه يوفِّيهم أجورهم، أي جزاءهم على ما قدَّموا من أعمال استحقُّوا عليها ذلك الجزاء، وهو النعيم المقيم؛ وقد جعل ذلك الوفاء وهذا الجزاء مبنيًّا على أمرين، أحدهما: إيمان صادق، والثاني: عمل صالح، فهما اللذان نيط بهما الجزاء، وفي الحق إنَّ الإيمان الصادق يتبعه العمل الصالح، وليس بمؤمن حقَّ الإيمان من يتخلَّى عمله عن اعتقاده، ولم يذكر سبحانه وتعالى نعمته في ثوابه، وهو المنعم دائمًا المتفضِّل بالثواب؛ للإشعار بأنَّ إنعامه سبحانه منوط بعمل، ولْيُعلمْنا العدالة بأن نربط الجزاء بالعمل.

قال ابن العثيمين: ثم جاء بالقسيم الثاني قال: {وأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات}: آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم؛ والرَّب يكرِّر هذا دائمًا في القرآن، يجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنَّه لا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان؛ بل لابدَّ من الأمرين(١).

{آمنوا}؛ هنا حذف المؤمن به؛ فنقدِّره على أعمّ ما يكون ونقول: آمنوا بما يجب الإيمان به، وذلك بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ {وعملوا الصالحات}: أي عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي التي تكون لله وفي الله؛ أي أنَّها خالصًا لله وفي حدود شريعة الله؛ يعني خالصةً صوابًا كما قال فضيل بن عياض رحمه الله: خالصًا: يعني لله، صوابًا: يعني على السُّنَّة، هذا هو العمل الصالح؛ فإن لم تكن خالصةً فليس عملًا صالحًا؛ بل هي مردودة على صاحبها؛ لقوله تعالى: {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربّه أحدًا}، وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه(٢)))، وأمَّا الموافقة أو الصواب كما قال فضيل: فلقوله ﷺ: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ(٣)))، فلا يقبل عمل إلَّا بموافقة الشرع.

قال السعدي: {فيوفِّيهم أجورهم}: دلَّ ذلك على أنَّه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنَّما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدَّموه من الخيرات محضرًا موفَّرًا، فيعطي منهم كلَّ عاملٍ أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه.

قال ابن العثيمين: {فيوفِّيهم أجورهم}: الفاء واقعة في جواب {أمَّا} الشرطية؛ و{يوفِّيهم} فيها قراءتان: {يوفِّيهم} و{نوفِّيهم}؛ فأمَّا على قراءة: {فيوفِّيهم}، ففيها الالتفات من ضمير المتكلِّم إلى ضمير الغائب، لأنَّه قال في الأول: {فأعذِّبهم}، وهنا قال: {فيوفِّيهم}، وهذا ضمير غائب؛ وأمَّا على قراءة النون: {فنوفِّيهم} ففيها نوع من الالتفات من ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع {فأعذِّبهم}، وهنا قال: {فنوفيهم}.

على كلِّ حال سواء {نوفِّيهم}، أو {يوفِّيهم}، ففيها شيء من الالتفات؛ وقد ذكرنا فيما سبق أنَّ للالتفات فائدة؛ وهي تنبيه المخاطب؛ لأنَّ المخاطب الذي كان يقرأ في وتيرة واحدة ثم يتغيَّر؛ إذا كان الكلام على نسق واحد ثم تغيَّر هذا النسق فينتبه. وطرق تنبيه المخاطب كثيرة منها: إذا كنت تتكلَّم بلسانك بعض الكلمات، مثلًا ترفع صوتك أو تخفض صوتك أو ما أشبه ذلك، هذا من التنبيه؛ كذلك الالتفات من ضمير إلى آخر هذا يوجب تنبيه المخاطب.

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن (الإيمان) مفصلًا عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): رواه مسلم (٢٩٨٥)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٣).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٨٨)، وقال: رواه البخاري موصولًا (١٦٦/٢)، ومعلَّقًا مجزومًا (٢٥/٢ ، ٤٣٧/٤)، ومسلم (١٣٢/٥)، وأبو داود (٤٦٠٦)، وابن ماجه (١٤)، والدار قطني (ص ٥٢ . ٥٢١)، وأحمد (١٤٦/٦ ، ١٨٠ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٧٠)، وأبو بكر الشافعي فى (الفوائد) (١٠٦/٢)، وعنه القضاعي فى مسند الشهاب (١/٢٩)، والهروي فى (ذم الكلام) (١/٤/١)، وغيرهم من طرق عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن القاسم بن محمد عن عائشة مرفوعًا.

الفائدة الثانية: أنَّه إذا قال: {فيوفِّيهم أجورهم}، صار فيه شيء من تعظيم الموَفِّي، لأن تعبير المتكلِّم عن نفسه بصيغة الغيبة قد يوحي بالتعظيم، كما يقول: الملك يأمر بكذا وكذا يعني نفسه؛ هذا فيه شيء من التعظيم.

فيه أيضًا شيءٌ من إكرام الذين عملوا الصالحات، لأنَّ ذكر منَّة الله عليهم بصيغة الغائب أعظم من ذكر المنَّة بصيغة التكلُّم، يعني أنَّ فيه شيء من الإكرام لهم، وقد قال الله تعالى: {هل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان}، فجعل كأنَّهم هم الذين أحسنوا، مع أنَّ المحسن هو الله، المحسن إليهم في العمل وفي ثواب العمل؛ وقال تعالى: {إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا}، فمن أجل إكرام هؤلاء لم يخاطبهم الله بصريح المنَّة فيقول: فنوفِّيكم، أو فأوفِّيكم؛ بل قال: {فيوفِّيهم}، إذًا فائدتان: تعظيم المتكلِّم نفسه؛ ثاني: إكرام المثاب.

أمَّا على قراءة النون فالتعظيم فيها واضح، {فنوفِّيهم}؛ لأنَّ ضمير الجمع المضاف إلى الله عز وجل، أو الذي يراد به الله عز وجل نعلم علم اليقين أنَّه لا يراد به الجمع الذي هو التَّعدُّد إنَّما يراد به التعظيم؛ فيه أيضًا إكرام المثاب بالنون؛ لأنَّه إذا ظهر إكرامهم بصيغة التعظيم بإنَّ الثواب الواقع من العظيم عظيم، يكون عظيمًا؛ وعلى هذا فيكون على القراءتين؛ فيها ثلاث فوائد، الأولى: تنبيه وهذا عام؛ الثاني: تعظيم الموَفِّي؛ والثالث: إكرام الموفَّى.

{فيوفِّيهم أجورهم}، {أجورهم}: أي جزاء أعمالهم؛ انظر إلى هذه المنَّة، كأنَّ هؤلاء عمال يستحقُّون الأجر ولابدَّ، حيث سمَّى الله جزائهم أجرًا، والأجر من المستأجر حقٌّ يجب دفعه؛ ولكن هذا من فضل الله عز وجل وكرمه؛ لأنَّ الله عز وجل هو الذي أوجب الأجر على نفسه، لم يوجبه عليه أحد؛ لو شاء لأمرنا، ونهانا، ولزمنا أن نطيعه بدون عوض، لأنَّه ربُّنا وخالقنا؛ وما نعمل فإنَّه لا يقابل ولا واحد بالملايين من نعمه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يتغمدني الله برحمته([1]))؛ فهذه الأجور التي هي جزاء الأعمال والتي سمَّاها الله أجرًا كالأجرة المفروضة على المستأجر لم يوجبها أحد على الله؛ بل هو الذي أوجب على نفسه هذا الأجر؛ قال ابن القيم رحمه الله:

١- (قلت): البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، وغيرهما، وصححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٩٨). والحديث بتمامه: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها كانت تقول: قال رسول الله ﷺ: ((سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يدخل أحدا الجنة عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)).

- وقال الإمام الألباني في الصحيحة (٦/ ١/١٩٥، ١٩٨): واعلم أنَّ هذا الحديث قد يشكل على بعض الناس، ويتوهَّم أنَّه مخالف لقوله تعالى: {وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون} ونحوها من الآيات والأحاديث الدالَّة على أنَّ دخول الجنة بالعمل، وقد أجيب بأجوبة أقربها إلى الصواب: أنَّ الباء في قوله في الحديث: ((بعمله)) هي باء الثمنية، والباء في الآية باء السببية، أي أنَّ العمل الصالح سبب لابدَّ منه لدخول الجنة، ولكنَّه ليس ثمنًا لدخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والدرجات ... قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بعض فتاويه: (ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون سببًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليَّة قدح في الشرع، ومجرَّد الأسباب لا يوجب حصول المسبَّب، فإنَّ المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات، بل لابدَّ من ريح مربية بإذن الله، ولابدَّ من صرف الانتفاء عنه، فلابدَّ من تمام الشروط وزوال الموانع، وكلُّ ذلك بقضاء الله وقدره. وكذلك الولد لا يولد بمجرَّد إنزال الماء في الفرج، بل كم ممَّن أنزل ولم يولد له، بل لابدَّ من أنَّ الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم وسائر ما يتمُّ به خلقه من الشروط وزوال الموانع. وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرَّد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب، ولهذا قال النبي ﷺ: (فذكر الحديث)، وقد قال تعالى: {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون}. فهذه باء السبب، أي بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة، كما يقال: اشتريت هذا بهذا. أي ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لابدَّ من عفو الله وفضله ورحمته، فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف الدرجات. وفي هذا الموضع ضلَّ طائفتان من الناس:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والفضل للمنان

فالحاصل أنَّنا ليس لنا حقٌّ على الله واجب {كتب ربكم على نفسه الرحمة أنَّه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثمَّ تاب من بعده وأصلح فأنَّه غفور رحيم}.

قال: {والله لا يحب الظالمين}: ختم الآية بهذا مناسب؛ لأنه لمَّا بيَّن أن هؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات فيوفون أجورهم، بيَّن أنَّ هؤلاء قد قاموا بما يلزمهم، وأنَّهم لم يظلموا أنفسهم، ولذلك أثابهم الله عز وجل هذا الثواب العظيم؛ وأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يحب الظالمين؛ فلو ظلموا أنفسهم ما استحقُّوا هذا الثواب؛ كما قال تعالى: {إنَّ الشرك لظلم عظيم}، فلو أشركوا بالله لحبط عنهم ما كانوا يعملون، وبطل عملهم، لكنهم أخلصوا لله؛ ولو ابتدعوا في دين الله، ما قبل الله منهم؛ ولكنَّهم اتبعوا شريعة الله، فانتفى عنهم الظلم في الإخلاص وفي العمل؛ فكانوا أهلًا لإكرام الله عز وجل؛ أمَّا الذين كفروا واستحقُّوا العذاب، فإنَّهم ظلموا أنفسهم فحصلوا على مقت الله وعقابه، والعياذ بالله وعدم محبَّته.

قال أبو زهرة: ذيَّل سبحانه وتعالى الآية بقوله: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}، لإعلان عدالته ولإثبات أنَّ الكفر والظلم قرينان، وأنَّ الإيمان والعدل متلازمان، ولبيان استحقاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات لما أعطوا من ثواب ونعيم مقيم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بلاغة القرآن وحكمة القرآن؛ بلاغته في الإتيان بالمعاني المتقابلة؛ لأن الإتيان بالمعاني المتقابلة توجب نشاط الإنسان، حيث ينتقل الذهن من معنى إلى ما يقابله؛ فيزداد نشاطا وشغفا؛ وأما من جهة الكمال والبلاغة، فلأن المعاني إذا تنوعت على وجوه التقابل ازداد اللفظ حسنا، وهذا معروف عند علماء البلاغة باسم

١- فريق آمنوا بالقدر وظنُّوا أنَّ ذلك كافٍ في حصول المقصود فأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة. وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ورسله ودينه.

٢- وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر، متَّكلين على حولهم وقوتهم وعملهم، وكما يطلبه المماليك. و هؤلاء جهَّال ضلَّال: فإنَّ الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عمَّا نهاهم عنه بخلًا به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عمَّا فيه فسادهم. وهو سبحانه كما قال: ((يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)). فالملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم، وهم فعلوه بقوتهم التي لم يخلقها لهم فيطالبون بجزاء ذلك، والله تعالى غني عن العالمين، فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساءوا فلها. لهم ما كسبوا، وعليهم ما اكتسبوا، {من عمل صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها وما ربُّك بظلَّام للعبيد}. انتهى كلام شيخ الإسلام رحمه الله منقولًا من مجموعة الفتاوى (٨ / ٧٠ - ٧١)، ومثله في مفتاح دار السعادة لتلميذه المحقق العلامة ابن قيم الجوزية (ص ٩ - ١٠) وتجريد التوحيد المفيد (ص ٣٦ - ٤٣) للمقريزي.

علم البديع؛ وفيه أيضًا تربية للنفس؛ لأنَّ النفس إذا سمعت عقاب الكافرين خافت ووجلت، وربما يستولي عليها اليأس؛ فإذا جاء ثواب المؤمنين طمعت ورجت، فسار سيرها إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

٢- أنَّ وفاء الأجر مرتبط بين وصفين: الإيمان والعمل الصالح؛ فالإيمان وحده لا يكفي، بل لابدَّ من عمل صالح ينمي هذا الإيمان ويشهد بصحَّته، أمَّا مجرَّد العقيدة فإنَّها لا تكفي، على أنَّ العقيدة إذا كانت سليمة استلزمت العمل الصالح؛ لقول الرسول ﷺ: ((ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب(١))).

٣- أنَّ العمل لا ينفع إلَّا إذا كان صالحًا؛ والعمل الصالح من جمع وصفين: الإخلاص لله؛ والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ أي ما كان خالصًا صوابًا كما قال فضيل بن عياض رحمه الله.

٤- منَّة الله سبحانه وتعالى على عباده، حيث جعل هذا الجزاء كالأجور اللازم وفائها؛ لقوله: {فيوفيهم أجورهم}؛ والفرق بين التَّعبيرين؛ هناك قال: {فأعذبِّهم عذابًا شديدًا}، وهنا قال: {فيوفِّيهم أجورهم}.

٥- إثبات المحبَّة لله؛ لقوله: {والله لا يحبُّ الظالمين}.

فإن قال قائل: كيف تستدلُّون على إثبات المحبَّة لنفي المحبَّة؟ لأنَّه قال: {لا يحبُّ الظالمين}؟ فالجواب: أنَّ نفي المحبَّة عن الظالمين دليل على ثبوتها لغيرهم؛ ولو كانت منتفية عن الجميع لم يكن لتخصيصها بالظالمين فائدة؛ ولهذا استدلَّ الشافعي رحمه الله على ثبوت رؤية المؤمنين لله بقول الله تعالى عن الفجَّار: {كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبون}، وقال في وجه الاستدلال: ما حجب أعدائه عن رؤيته في الغضب، إلَّا لثبوت رؤية أوليائه له في الرضا؛ وهذا واضح.

٦- شؤم الظلم على الإنسان وأنَّه سبب لانتفاء محبَّة الله له؛ وإذا انتفت محبَّة الله للعبد فقد هلك.

٧- أنَّ الظلم من كبائر الذنوب؛ لأنَّه رتَّب عليه وعيد وهو انتفاء محبَّة الله سبحانه وتعالى؛ ولكنَّ الظاهر أنَّ هذا ليس على سبيل الإطلاق؛ بل الظلم يكون كبيرة ويكون صغيرة، لأنَّ جميع المعاصي ظلم.

٨- ومن فوائد الآية التي قبلها: التَّنوع في الأسلوب، وهو الانتقال من ضمير التكلُّم إلى ضمير الغيبة؛ {فأعذِّبهم} وهنا قال: {فيوفِّيهم}. فهل هناك فرق من حيث المعنى؟ الجواب: نعم فرق من حيث المعنى؛ أمَّا اللفظ فظاهر، ففيه التفات من ضمير التكلُّم إلى ضمير الغيبة؛ لكن نريد الفرق في المعنى؛ الفرق في المعنى أنَّ العذاب عقوبة يستدعي سلطة وقهر وقوة وعزة؛ فكان الأنسب التعبير ب(أعذب) الدَّالَّة على قوة السلطان؛ أمَّا هذه فللتودُّد مع هؤلاء وبيان فضلهم قال: {فيوفِّيهم أجورهم}، ولم يسند الإيفاء إلى نفسه ليعطيهم شيئًا من الشكر على عملهم؛ لأنَّ فرق بين أن تخاطب الإنسان بالتَّعبير عن فعلك به بضمير التكلُّم أو أن تعبِّر بضمير الغيبة؛ لأنَّ المواجهة أشدُّ من الغيبة، وتأمَّل قوله تعالى: {عبس وتولَّى أن جاءه الأعمى وما يدريك}؛ فقال: {عبس} ولم يقل: عبست؛ وقال: {وما يدريك} ولم يقل: وما أدراه، أو وما يدريه؛ فهذه – والله أعلم – الحكمة من أنَّه جاء التَّعبير بالعذاب بالفعل مسندًا إلى ضمير المتكلِّم بخلافه في الجزاء؛ ويدلُّ لهذا الاعتبار قوله

١- (قلت): البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

تعالى في سورة الرحمن: {هل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان} فجعل فعلهم إحسانًا يشكرون عليه ويحسن إليهم مع أنَّ الإحسان كلُّه من الله؛ فإنَّ التوفيق للعمل الصالح من إحسان الله إلى العبد؛ لكن هذا من كمال رحمة الله عز وجل وثوابه وجزائه؛ وقال تعالى في سورة الإنسان: {إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا}؛ من الذي وفَّقهم للسَّعي؟ الله؛ ومع ذلك يقول: {وكان سعيكم مشكورًا}، فصار في تغيير الأسلوب في الآيتين صار فيه فائدتان: لفظية؛ ومعنوية؛ اللفظية هو الالتفات التي يوجب الانتباه؛ والثاني المعنوية هو: إظهار السلطة والعظمة والعزَّة في باب التعذيب؛ وإظهار الفضل والإحسان للعاملين في باب المثوبة.

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ {٥٨}

قال أبو زهرة: ذلك القصص الذي ذكرت فيه قصة آل عمران، وقصة مريم وولادتها وزكريا ونداءه وإجابته، وعيسى وروحانيته وآياته الباهرة، نتلوه، أي نقصه عليك بعضه تلو بعض فنتلوه في بيان رائع، وهو من الآيات البيِّنات المثبتة لرسالتك، فما كنت لديهم إذ حدثت هذه الوقائع الثابتة التي لَا مجال للريب ولا للشك في صدقها، وما كنت تقرأ في كتاب، ولا تلقيته بيمينك، إنَّما هو وحي به إليك لتثبت به رسالتك، وتؤيد به دعوتك، وهذا القصص مع دلالته على نبوَّتك هو في ذاته يحمل العظَّة والاعتبار؛ ولذلك كان هو من {وَالذكرِ الْحَكِيمِ}.

قال ابن العثيمين: {نتلوه عليك}: أي نقرأه عليك متتاليًا؛ يتلوا بعضه بعضًا؛ ولكن بواسطة جبريل عليه الصلاة السلام كما قال الله تعالى: {وإنَّه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين}.

وقوله: {من الآيات}: قال بعضهم: إنَّها بيانية تبيِّن المشار إليه في قوله: {ذلك}؛ وقال بعضهم: إنَّها تبعيضية أي بعض الآيات؛ ولكنَّ الصواب هو الأول، وأنَّ ما تلاه الله على رسوله محمدًا ﷺ كلُّه آيات؛ والآيات جمع آية، وهي في اللغة علامة، العلامة على الشيء تسمَّى آية؛ كما قال الله تعالى: {أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل}، وقال تعالى: {وآيةً لهم اللَّيل نسلخ منه النهار}: يعني علامة على قدرته، وما أشبه ذلك من الآيات.

قال: {والذِّكر} والمراد بما تلاه الله من الآيات: القرآن، وكذلك الذِّكر، والذِّكر يطلق على معانٍ، منها: الشرف، كما قال تعالى: {وإنَّه لذكر لك ولقومك}: أي شرف عظيم؛ ومنه قوله تعالى: {ورفعنا لك ذكرك}: أي شرفك؛ ويطلق الذِّكر على ما يحصل به التَّدبُّر؛ فيسمَّى الكلام الجيد المشتمل على الموعظة يسمَّى ذكرًا، قال الله تعالى: {فذكِّر إن نفعت الذِّكرى}: أي تذكرة؛ ويطلق الذِّكر على ذكر الله عز وجل، كما قال تعالى: {فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقعودًا}؛ والمراد به في هذه الآية المعنيان الأوليان: الشرف، وما يحصل به التَّذكير؛ فإنَّ هذا القرآن لاشك شرف لمن تمسَّك به وقام بحقِّه؛ فإنَّه

يناله شرف الدنيا والآخرة، وسعادة الدنيا والآخرة؛ ولم يشعر العرب بالشرف، ولم ينالوا السعادة والنصر والظهور إلَّا حين تمسَّكوا به؛ ولذلك لمَّا تخلَّوا عنه، زالوا عنهم وصف الشرف والظهور والنصر وصاروا إلى ما ترون؛ ولن يعود لهم مجدهم السابق مهما طنطنوا بالعروبة والقومية وما أشبه ذلك إلَّا إذا رجعوا إلى الإسلام؛ مهما بلغوا في الدعاية فيما يتعلَّق بالقومية والعروبة وما أشبه ذلك فإنَّها لن تنفعه، لن تزيدهم إلَّا دمارًا كالذين يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا، لن تزيدهم إلَّا ذلًّا، إلَّا إذا رجعوا إلى دين الله الذي انتصروا به من قبل.

هذا القرآن إذًا ذكر من جهة التَّذكير، وذكر من جهة الشرف؛ وذكر من جهة التَّذكير، لأنَّ كلَّ إنسان يقرأ القرآن بحضور القلب، فلابدَّ أن يتأثَّر به {إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}، لابدَّ أن يتذكَّر به؛ فهو موعظة عظيمة حتى لغير المؤمنين؛ إذا سمعوه وهم يعرفون آياته، أي معانيه فسوف يتَّعظون به، وما وقع لبعض العرب في ذلك أمر مشهور في التاريخ حتى إنَّه ذكر أنَّ النبي ﷺ لمَّا قرأ عليهم: {فإن تولَّوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} قالوا: أمسك أو هم أمسكوه ووضعوا أيديهم على فمه من شدَّة ما يعلمون من هذه المعاني العظيمة(١).

وقوله: {الحكيم}: يعني ذا الحكمة؛ فالقرآن كلُّه حكمة، وهو فعيل بمعنى مفعل، أي محكم متقن؛ وهو فعيل بمعنى فاعل أي حاكم؛ لأنَّ القرآن بلا شك حاكم بين الناس؛ {إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله}.

قال أبو زهرة: أي الذِّكر الذي يربي الحكمة في القلوب التي تقرأ وتعي وتدرك، إذ هو يذكِّر القارئ بِأنَّ الأدلَّة مهما تكن قوَّتها لَا تجعل الضَّال يهتدي ما لم يفتح قلبه لها، فالأدلَّة كالنور لَا يراه إلَّا من له بصر يبصر به.

قال السعدي: وهذا منَّة عظيمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمَّته، حيث أنزل عليهم هذا الذِّكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصَّل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقصُّ علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد.

قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية ج٨ص٢٣٣: و{الحكيم}: فعيل، سواء كان بمعنى الفاعل وهو الحاكم، أو بمعنى المفعول وهو المحكم، فلا يكون حاكمًا ولا محكمًا إلَّا إذا كان له معنى يمكن فهمه ومعرفته، وإلَّا فاللفظ الذي لا يمكن أحدًا فهم معناه ليس بمُحكم ولا حاكم ولا محكِّم.

١- (قلت): قال الإمام الألباني في نصب المجانيق: جاء مصرَّحا به في حديث عن ابن عباس. ذكره السيوطي في أول (الإتقان) فلمَّا سمع عتبة بن ربيعة قوله تعالى فيها: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}[فصِّلت: ١٣]! أمسك على فم رسول الله ﷺ، وناشده الرحم واعتذر لقومه حين ظنُّوا به أنَّه صبأ وقال: (كيف وقد علمتم أنَّ محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب؟ فخفت أن ينزل بكم عذاب)، وقد أخرج ذلك البيهقي في (الدلائل)، وابن عساكر في حديث طويل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الله عز وجل تكلَّم بالقرآن؛ فقال: {ذلك نتلوه عليك} إذًا كانت التلاوة لله حقيقةً ونقلها جبريل إلى الرسول ﷺ؛ ويحتمل أن تكون التلاوة لجبريل لكن لمَّا كان جبريل لله، نسب فعله إلى الله؛ فهو كقوله تعالى: {لا تحرِّك به لسانك لتعجل به إنَّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه} ومعلوم أنَّ الذي يقرأه جبريل.

٢- أنَّ القرآن الكريم آيات كما قال الله تعالى: {بل هو آيات بيِّنات في صدور الذين أوتوا العلم} آيات عظيمة؛ فآياته كثيرة؛ كلُّ آية فيها عدَّة آيات؛ ولكن لا يفهم هذه الآيات إلَّا من فتح الله قلبه بالإيمان، والعلم، واعتقاد أنَّ هذا القرآن كلام الله، وأنَّ فيه آيات بيِّنات؛ أمَّا الذي تمرُّ عليه مثل هذه الجملة من الآيات مرور الكرام، ولا يتحرَّك به قلبه، ولا يتأمَّل هذه الآيات، فإنَّه لن ينتفع بما في القرآن من الآيات؛ لابدَّ أن تؤمن بأنَّ فيه آيات، وأن تحاول استخراج هذه الآيات بالتدبُّر؛ والإنسان إذا تدبَّر القرآن وجد فيه آيات عظيمة لا يحصيها البشر.

٣- أنَّ القرآن ذكر؛ لكن هل هو ذكر يتقرَّب إلى الله به؟ أو هو ذكر يتذكَّر به الإنسان؟ ذكرنا أنَّ المعنى شامل لهذا وهذا؛ فهو ذكر يقرِّب إلى الله؛ لأنَّه متى تلاه فله بكل حرف عشر حسنات؛ وهو ذكر يتذكَّر به الإنسان، قال الله تعالى: {إنَّ فيها لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}؛ قيل: وهو ذكر رفع الله به شأن الذين تمسَّكوا به، كما قال الله تعالى: {وإنَّه لذكر لك ولقومك}، وكقوله تعالى: {ورفعنا لك ذكرك}: أي شأنك علوناه؛ وعلى هذا فيكون الذِّكر ثلاثة معاني: ذكر يتقرَّب به إلى الله بتلاوته؛ وذكر يتذكَّر به الإنسان؛ و{ذكر}: يعني شرفًا لمن تمسَّك به.

٤- وصف القرآن الكريم بهذا الوصف العظيم وهي الحكمة {والذِّكر الحكيم}: والحكيم هنا بمعنى الحاكم والمُحكَم؛ لأنَّ القرآن حكم بين الناس {فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرسول}: أي إلى كتابه؛ فهو حكم وهو أيضًا محكم، محكم ليس فيه اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض .

٥- أنَّه لا يوجد حكم دلَّ عليه القرآن إلَّا وهو في موضعه اللائق به؛ من أين يؤخذ؟ من {الحكيم} لأنَّ الحكيم هو الذي يضع الشيء في موضعه؛ فكل حُكم حَكم به القرآن فإنَّه في موضعه؛ لا يقول العقل ليته لم يحكم به، أبدًا سواء كان ثبوتيًّا أم سلبيًّا.

٦- فضيلة الرسول ﷺ في قوله: {نتلوه عليك}، أخصَّه ﷺ بالتلاوة عليه لأنَّه ﷺ أشرف من يتلقَّى القرآن، وأقوم الناس عملًا به، فكأنَّه هو المخصوص بالتلاوة عليه {نتلوه عليك}.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {٥٩}

قال أبو زهرة: في الآيات السابقة بيَّن الله سبحانه وتعالى كيف كان الحمل بعيسى، وما أجراه الله تعالى على يديه من معجزات، وكيف كان عبدًا من عباده الصالحين، وذكر دعوته إلى ربِّه، ومعاداة قومه له، وتقدَّم الحواريين ليكونوا أنصاره إلى الله، وكيف مكر القوم به وأحبط الله مكرهم، ثمَّ توفَّاه سبحانه، ورفعه إليه، وجعل فوقية للذين اتَّبعوه في هدايته، فآمنوا بوحدانية الله وبرسالته، وليس منهم قطعًا أولئك الذين قالوا إنَّا نصارى وادَّعَوا ألوهيته، أو أنَّه ابن الله، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

وإنَّه في هذه الآيات يبيِّن الله سبحانه وتعالى حقيقة تكوين عيسى، ويزيل وجه الغرابة في ولادته، وأنَّ الله تعالى لَا يتقيَّد بالأسباب والمسبِّبات؛ لأنَّه خالق كلِّ شيء، وهو الفاعل المختار، يخلق الأشياء بإرادته واختياره، ولا تصدر عنه المخلوقات صدور المعلول عن علَّته، كما يتوهَّم الماديُّون الذين عاصروا عيسى عليه السلام، والذين يعاصروننا اليوم، وإنَّ الله سبحانه كما خلق الإنسان الأول آدم من غير أب ولا أم، فكذلك خلق عيسى من غير أب، وهو سبحانه ذو القوة المتين.

قال ابن العثيمين: {إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم}، لقد مرَّ علينا أنَّ هذه الآيات نزلت حين قدم وفد نجران إلى رسول الله ﷺ، وكانوا نصارى، وكان قدومهم في تسع من الهجرة، لأنَّ تلك السنة كثر فيها الوافدون إلى رسول الله ﷺ؛ ولهذا تسمَّى سنة الوفود؛ وهذا أحد الأسباب الذي منعت النبي ﷺ أن يحج في العام التاسع مع أنَّ مكة قد فتحت.

{إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم}: يعني إنَّ شأن عيسى عند الله كشأن آدم لا يختلف عنه؛ فكما أنَّنا متَّفقون على أنَّ آدم خلقه الله عز وجل من غير أب ولا وأم حتى النصارى يؤمنون بهذا؛ فما بال النصارى يقولون: كيف خلق الله عيسى بلا أب؟! ما هو إلَّا ابنه، نعوذ بالله، فقالوا: إنَّه ابن الله جزء منه، ولم يقولوا إنَّ آدم ابن الله، مع أنَّه لو كان أحد يدَّعي البنوَّة في أحد من البشر لكان الأحقُّ بها آدم؛ لأنَّه ليس له أم ولا أب؛ أمَّا عيسى فله أم، والأم أحد الوالدين؛ فأنتم أيُّها النصارى أقررتم بأنَّ آدم ليس ابنًا لله، فيلزمكم أن تقرّوا بأنَّ عيسى ليس ابنًا لله؛ لأنَّ مثل عيسى كمثل آدم {خلقه من تراب}، {خلقه}: يعني ابتدأ خلقه من تراب؛ وضمير المفعول في خلقه يعود إلى آدم لأنَّه هو المخلوق من التراب.

قال السعدي: وهذا ليس بشبهة فضلًا أن يكون حجَّة، لأنَّ خلقه كذلك من آيات الله الدَّالَّة على تفرُّد الله بالخلق والتَّدبير وأنَّ جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدلُّ، وعلى أنَّ أحدًا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أَولى.

قال القرطبي: قوله تعالى : {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} دليل على صحة القياس. والتشبيه واقع على أنَّ عيسى خلق من غير أب كآدم، لا على أنَّه خلق من تراب. والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن

يجتمعا في وصف واحد؛ فانَّ آدم خلق من تراب ولم يخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنَّهما خلقهما من غير أب؛ ولأنَّ أصل خلقتهما كان من تراب لأنَّ آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنَّه جعل التراب طينًا ثمَّ جعله صلصالًا ثمَّ خلقه منه، فكذلك عيسى حوَّله من حال إلى حال، ثمَّ جعله بشرًا من غير أب.

قال ابن العثيمين: {ثمَّ قال له كن فيكون}؛ نحن قلنا: ابتدأ خلقه ثمَّ قال: كن؛ والأمر هذا لتمام الخلق؛ وإنَّما قلنا ذلك لئلَّا يقول قائل: كيف تكون كلمة {كن} بعد الخلق؛ لأنَّ التَّرتيب العقلي يقتضي أن تكون كلمة كن قبل الخلق، {كن} فكان؛ فنقول: إنَّ معنى {خلقه}: يعني ابتدأ خلقه من تراب، {ثمَّ قال له كن فيكون}: ثمَّ قال له كن بشرًا، فكان بشرًا؛ وهذا القول: {كن}؛ قول قدري، والقول القدري لا يتخلَّف عنه المقول؛ لأنَّه أمر حتمي بخلاف القول الشرعي فإنَّ من الناس من يستكبر عنه، يقول الله: {أقيموا الصلاة}، فيقول: لا، لا أقيم الصلاة؛ أمَّا القول الكوني فإنَّه لا مردَّ له، {كن فيكون}، ولم يقل: (فكان) على حكاية الحال؛ يعني لمَّا قال: {كن} فعلًا، شرع بالكينونة حتى تمَّت.

في هذه الآية بيان إقامة الحجَّة بمثل ما يحتجُّ الخصم به؛ لأنَّه أقام الحجَّة على النصارى بمثل ما احتجُّوا به؛ فقال: إذا قلتم: إنَّ عيسى ابن لله لأنَّه خلق بلا أب، فقولوا: إنَّ آدم ابن الله، وإلَّا فأنتم متناقضون.

قال شيخ الإسلام في جموع الفتاوى ج١٧ص٢٧٤: فَإِنْ قِيلَ: أَمَّا عَوَامُّ النَّصَارَى، فَلَا تَنْضَبِطُ أَقْوَالُهُمْ، وَأَمَّا الْمَوْجُودُ فِي كَلَامِ عُلَمَائِهِمْ وَكُتُبِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ أُقْنُومَ الْكَلِمَةِ، وَيُسَمُّونَهَا الِابْنَ تَدَرَّعَ[1] الْمَسِيحَ، أَيْ: اتَّخَذَهُ دِرْعًا، كَمَا يَتَدَرَّعُ الْإِنْسَانُ قَمِيصَهُ، فَاللَّاهُوتُ[2] تَدْرَعُ النَّاسُوتَ[3]. وَيَقُولُونَ: بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إلَهٌ وَاحِدٌ. قِيلَ قَصْدُهُمْ: أَنَّ الرَّبَّ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ، فَالْمَوْجُودُ هُوَ الْأَبُ، وَالْعِلْمُ هُوَ الِابْنُ، وَالْحَيَاةُ هُوَ رُوحُ الْقُدُسِ. هَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ مَوْجُودٌ عَالِمٌ قَادِرٌ. وَيَقُولُ: الْعِلْمُ هُوَ الْكَلِمَةُ، وَهُوَ الْمُتَدَرِّعُ. وَالْقُدْرَةُ هِيَ رُوحُ الْقُدُسِ؛ فَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي أَنَّ الْمُتَدَرِّعَ هُوَ أُقْنُومُ الْكَلِمَةِ وَهِيَ الِابْنُ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي التَّدَرُّعِ وَاخْتَلَفُوا: هَلْ هُمَا جَوْهَرٌ أَوْ جوهران؟ وَهَلْ لَهُمَا مَشِيئَةٌ أَوْ مَشِيئَتَانِ؟ وَلَهُمْ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ كَلَامٌ مُضْطَرِبٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ. فَإِنَّ مُقَالَةَ النَّصَارَى فِيهَا مِنْ الِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ مَا يَتَعَذَّرُ ضَبْطُهُ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ مَأْخُوذًا عَنْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ، وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَلَا هُوَ مُوَافِقٌ لِعُقُولِ الْعُقَلَاءِ، فَقَالَتْ الْيَعْقُوبِيَّةُ: صَارَ جَوْهَرًا وَاحِدًا، وَطَبِيعَةً وَاحِدَةً، وَأُقْنُومًا وَاحِدًا، كَالْمَاءِ فِي اللَّبَنِ. وَقَالَتْ النسطورية: بَلْ هُمَا جوهران وَطَبِيعَتَانِ وَمَشِيئَتَانِ؛ لَكِنْ حَلَّ اللَّاهُوتُ فِي النَّاسُوتِ حُلُولَ الْمَاءِ فِي الظَّرْفِ. وَقَالَتْ الْمَلَكِيَّةُ: بَلْ هُمَا جَوْهَرٌ وَاحِدٌ، لَهُ مَشِيئَتَانِ وَطَبِيعَتَانِ، أَوْ فِعْلَانِ، كَالنَّارِ فِي الْحَدِيدِ.

١- تَدَرَّعَ: دَخَلَ. انظر: القاموس المحيط، مادة (درع).

٢- اللاهوت: من الألوهية، أي: هو الإله. انظر: المعجم الوسيط ٨٤١/٢.

٣- الناسوت: يراد به طبيعة الإنسان، والمقصود أن الإله قد حلّ في طبيعة الإنسان. انظر: المعجم الوسيط ٨٤١/٢.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}[المائدة: ٧٢]، هُمْ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَفِي قَوْلِهِ: {وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}[التوبة: ٣٠]، هُمْ الْمَلَكِيَّةُ، وَقَوْلِهِ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}[المائدة: ٧٣]، هُمْ النسطورية وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، بَلْ الْفِرَقُ الثَّلَاثُ تَقُولُ الْمَقَالَاتِ الَّتِي حَكَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ النَّصَارَى، فَكُلُّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ اللَّهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ فِي أَمَانَتِهِمْ الَّتِي هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهَا، يَقُولُونَ إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: {ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}[المائدة: ١١٦].

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي قَوْلِهِ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ النَّصَارَى قَالُوا بِأَنَّ الْإِلَهِيَّةَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَعِيسَى وَمَرْيَمَ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَهٌ. وَذُكِرَ عَنْ الزَّجَّاجِ: الْغُلُوُّ: مُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ فِي الظُّلْمِ، وَغُلُوُّ النَّصَارَى فِي عِيسَى قَوْلُ بَعْضِهِمْ: هُوَ اللَّهُ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فَعُلَمَاءُ النَّصَارَى الَّذِينَ فَسَّرُوا قَوْلَهُمْ: هُوَ ابْنُ اللَّهِ بِمَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ الْكَلِمَةَ هِيَ الِابْنُ، وَالْفِرَقُ الثَّلَاثُ مُتَّفِقَةٌ عَلَى ذَلِكَ، وَفَسَادُ قَوْلِهِمْ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ تَسْمِيَةُ صِفَةِ اللَّهِ ابْنًا – لَا كَلَامُهُ وَلَا غَيْرُهُ – فَتَسْمِيَتُهُمْ صِفَةَ اللَّهِ ابْنًا تَحْرِيفٌ لِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَمَا نَقَلُوهُ عَنْ الْمَسِيحِ مِنْ قَوْلِهِ: عَمِّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ، لَمْ يُرِدْ بِالِابْنِ: صِفَةَ اللَّهِ الَّتِي هِيَ كَلِمَتُهُ، وَلَا بِرُوحِ الْقُدُسِ: حَيَاتَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ إِرَادَةُ هَذَا الْمَعْنَى، كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ – الَّتِي هِيَ الِابْنُ – أَهِيَ صِفَةُ اللَّهِ قَائِمَةٌ بِهِ؟ أَمْ هِيَ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ؟ فَإِنْ كَانَتْ صِفَتَهُ؛ بَطَلَ مَذْهَبُهُمْ مِنْ وُجُوهٍ.

أَحَدُهَا: أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَكُونُ إِلَهًا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَالْمَسِيحُ عِنْدَهُمْ إِلَهٌ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، فَإِذَا كَانَ الَّذِي تَدَرَّعَهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، فَهُوَ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ إِلَهًا.

الثَّانِي: أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَقُومُ بِغَيْرِ الْمَوْصُوفِ فَلَا تُفَارِقُهُ، وَإِنْ قَالُوا: نَزَلَ عَلَيْهِ كَلَامُ اللَّهِ أَوْ قَالُوا: إِنَّهُ الْكَلِمَةُ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَهَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَّحِدُ، وَتَتَدَرَّعُ شَيْئًا إِلَّا مَعَ الْمَوْصُوفِ، فَيَكُونُ الْأَبُ نَفْسُهُ هُوَ الْمَسِيحَ، وَالنَّصَارَى مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الْأَبُ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ مُتَنَاقِضٌ: يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، يَجْعَلُونَهُ إِلَهًا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَلَا يَجْعَلُونَهُ الْأَبَ الَّذِي هُوَ الْإِلَهُ، وَيَقُولُونَ: إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَقَدْ شَبَّهَهُ بَعْضُ مُتَكَلِّمِيهِمْ كَيَحْيَى بْنِ عَدِيٍّ بِالرَّجُلِ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ طَبِيبٌ وَحَاسِبٌ وَكَاتِبٌ، وَلَهُ بِكُلِّ صِفَةٍ حُكْمٌ، فَيُقَالُ: هَذَا حَقٌّ، لَكِنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ نَظِيرُ هَذَا، فَإِذَا قُلْتُمْ: أَنَّ الرَّبَّ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَالِمٌ، وَلَهُ بِكُلِّ صِفَةٍ حُكْمٌ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُتَّحِدَ إِنْ كَانَ هُوَ الذَّاتَ الْمُتَّصِفَةَ، فَالصِّفَاتُ كُلُّهَا تَابِعَةٌ لَهَا، فَإِنَّهُ إِذَا تَدَرَّعَ زَيْدٌ الطَّبِيبُ الْحَاسِبُ الْكَاتِبُ دِرْعًا كَانَتْ الصِّفَاتُ كُلُّهَا

قَائِمَةً بِهِ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَدَرِّعُ صِفَةً دُونَ صِفَةٍ عَادَ الْمَحْذُورُ، وَإِنْ قَالُوا: الْمُتَدَرِّعُ الذَّاتُ بِصِفَةٍ دُونَ صِفَةٍ، لَزِمَ افْتِرَاقُ الصِّفَتَيْنِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ؛ فَإِنَّ الصِّفَاتِ الْقَائِمَةَ بِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ – وَهِيَ لَازِمَةٌ لَهُ – لَا تَفْتَرِقُ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِينَ قَدْ يُمْكِنُ عَدَمُ بَعْضِهَا مَعَ بَقَاءِ الْبَاقِي، بِخِلَافِ صِفَاتِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الرَّابِعُ: إِنَّ الْمَسِيحَ – نَفْسَهُ – لَيْسَ هُوَ كَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَا شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَسُمِّيَ كَلِمَةً، لِأَنَّهُ خُلِقَ بكن مِنْ غَيْرِ الْحَبْلِ الْمُعْتَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[مريم: ٣٤، ٣٥]، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَفْسَهُ كَلَامُ اللَّهِ، كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ كَلَامِ اللَّهِ، لَمْ يَكُنْ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَا شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِهِ خَالِقًا وَلَا رَبًّا وَلَا إِلَهًا. فَالنَّصَارَى إِذَا قَالُوا: إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ الْخَالِقُ، كَانُوا ضَالِّينَ مِنْ جِهَةِ جَعْلِ الصِّفَةِ خَالِقَةً، وَمِنْ جِهَةِ جَعْلِهِ هُوَ نَفْسَ الصِّفَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَخْلُوقٌ بِالْكَلِمَةِ، ثُمَّ قَوْلُهُمْ بِالتَّثْلِيثِ وَأَنَّ الصِّفَاتِ ثَلَاثٌ بَاطِلٌ، وَقَوْلُهُمْ – أَيْضًا – بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ بَاطِلٌ، فَقَوْلُهُمْ يَظْهَرُ بُطْلَانُهُ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ وَغَيْرِهَا.

فَلَوْ قَالُوا: إِنَّ الرَّبَّ لَهُ صِفَاتٌ قَائِمَةٌ بِهِ، وَلَمْ يَذْكُرُوا اتِّحَادًا وَلَا حُلُولًا، كَانَ هَذَا قَوْلَ جَمَاهِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُثْبِتِينَ لِلصِّفَاتِ، وَإِنْ قَالُوا: إِنَّ الصِّفَاتِ أَعْيَانٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، فَهَذَا مُكَابَرَةٌ، فَهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضَيْنِ.

وَأَيْضًا، فَجَعْلُهُمْ عَدَدَ الصِّفَاتِ ثَلَاثَةً بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ – سُبْحَانَهُ – مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ. وَالْأَقَانِيمُ عِنْدَهُمْ الَّتِي جَعَلُوهَا الصِّفَاتِ لَيْسَتْ إِلَّا ثَلَاثَةً؛ وَلِهَذَا تَارَةً يُفَسِّرُونَهَا بِالْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ، وَتَارَةً يُفَسِّرُونَهَا بِالْوُجُودِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ، وَاضْطِرَابُهُمْ كَثِيرٌ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ فِي نَفْسِهِ بَاطِلٌ، وَلَا يَضْبُطُهُ عَقْلُ عَاقِلٍ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: لَوْ اجْتَمَعَ عَشَرَةٌ مِنَ النَّصَارَى، لَافْتَرَقُوا عَلَى أَحَدَ عَشَرَ قَوْلًا.

وَأَيْضًا، فَكَلِمَاتُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}[الكهف: ١٠٩]، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاهِيرِ النَّاسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَمْ يَزَلْ – سُبْحَانَهُ – مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ. وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى الْكَلَامِ لَكِنْ تَكَلَّمَ بِمَشِيئَتِهِ، كَلَامًا قَائِمًا بِذَاتِهِ حَادِثًا، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: كَلَامُهُ مَخْلُوقٌ فِي غَيْرِهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: كَلَامُهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ قَدِيمُ الْعَيْنِ، فَهَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ أُمُورٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا مَعَ ذَلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ، وَلَكِنَّ الْعِبَارَاتِ عَنْهُ مُتَعَدِّدَةٌ. وَهَؤُلَاءِ يَمْتَنِعُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَائِمًا بِغَيْرِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَقُومُ بِغَيْرِهِ عِنْدَهُمْ الْعِبَارَاتُ الْمَخْلُوقَةُ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمَسِيحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ، فَإِذَا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْمَسِيحُ غَيْرَ كَلَامِ اللَّهِ – عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ – فَعَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ أَشَدُّ امْتِنَاعًا؛ لِأَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ كَثِيرَةٌ، وَالْمَسِيحُ لَيْسَ هُوَ جَمِيعَهَا، بَلْ وَلَا مَخْلُوقًا بِجَمِيعِهَا، وَإِنَّمَا خُلِقَ بِكَلِمَةٍ مِنْهَا، وَلَيْسَ هُوَ عَيْنُ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، فَإِنَّ الْكَلِمَةَ صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ، وَالْمَسِيحُ عَيْنٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ.

ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: تَسْمِيَتُكُمْ الْعِلْمَ وَالْكَلِمَةَ وَلَدًا وَابْنًا تَسْمِيَةٌ بَاطِلَةٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَالْعُقَلَاءِ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

قَالُوا: لِأَنَّ الذَّاتَ يَتَوَلَّدُ عَنْهَا الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ كَمَا يَتَوَلَّدُ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِ الرَّجُلِ الْعَالِمِ مِنْهَا، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَاتِهِ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْكَلَامُ؛ فَلِهَذَا سُمِّيَتْ الْكَلِمَةُ ابْنًا، قِيلَ: هَذَا بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ صِفَاتِنَا حَادِثَةٌ تَحْدُثُ بِسَبَبِ تَعَلُّمِنَا وَنَظَرِنَا وَفِكْرِنَا وَاسْتِدْلَالِنَا، وَأَمَّا كَلِمَةُ الرَّبِّ وَعِلْمُهُ، فَهُوَ قَدِيمٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُوصَفَ بِالتَّوَلُّدِ، إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ الْمُدَّعِي أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ لَازِمَةٌ لِمَوْصُوفِهَا مُتَوَلِّدَةٌ عَنْهُ، وَهِيَ ابْنٌ لَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْأُمُورِ فِي الْعُقُولِ وَاللُّغَاتِ؛ فَإِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ وَنُطْقَهُ – وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ لَهُ – لَا يُقَالُ: إِنَّهَا مُتَوَلِّدَةٌ عَنْهُ، وَإِنَّهَا ابْنٌ لَهُ، وَأَيْضًا فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ حَيَاةُ الرَّبِّ – أَيْضًا – ابْنَهُ وَمُتَوَلِّدَةً، وَكَذَلِكَ قُدْرَتُهُ؛ وَإِلَّا فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ تَوَلُّدِ الْعِلْمِ وَتَوَلُّدِ الْحَيَاةِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ؟!

وَثَانِيهَا: أَنَّ هَذَا إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ تَوَلُّدِ الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْيَانِ الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهَا؛ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَصْلَيْنِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْأَصْلِ جُزْءٌ. وَأَمَّا عِلْمُنَا وَقَوْلُنَا، فَلَيْسَ عَيْنًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ صِفَةً قَائِمَةً بِمَوْصُوفٍ، وَعَرَضًا قَائِمًا فِي مَحَلٍّ كَعِلْمِنَا وَكَلَامِنَا، فَذَاكَ – أَيْضًا – لَا يَتَوَلَّدُ إِلَّا عَنْ أَصْلَيْنِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَحَلٍّ يَتَوَلَّدُ فِيهِ. وَالْوَاحِدُ مِنَّا لَا يَحْدُثُ لَهُ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ إِلَّا بِمُقَدِّمَاتٍ تَتَقَدَّمُ عَلَى ذَلِكَ، وَتَكُونُ أُصُولًا لِلْفُرُوعِ، وَيَحْصُلُ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ فِي مَحَلٍّ لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: إِنَّ عِلْمَ الرَّبِّ كَذَلِكَ، لَزِمَ أَنْ يَصِيرَ عَالِمًا بِالْأَشْيَاءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهَا، وَأَنْ تَصِيرَ ذَاتُهُ مُتَكَلِّمَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا. وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ كُفْرٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأُمَمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ فَهُوَ بَاطِلٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ؛ فَإِنَّ الذَّاتَ الَّتِي لَا تَكُونُ عَالِمَةً يَمْتَنِعُ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَهَا عَالِمَةً بِلَا أَحَدٍ يُعَلِّمُهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّمًا مِنْ خَلْقِهِ، وَكَذَلِكَ الذَّاتُ الَّتِي تَكُونُ عَاجِزَةً عَنِ الْكَلَامِ، يَمْتَنِعُ أَنْ تَصِيرَ قَادِرَةً عَلَيْهِ بِلَا أَحَدٍ يَجْعَلُهَا قَادِرَةً، وَالْوَاحِدُ مِنْهَا لَا يُوَلَّدُ جَمِيعَ عُلُومِهِ، بَلْ ثَمَّ عُلُومٌ خُلِقَتْ فِيهِ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهَا، فَإِذَا نَظَرَ فِيهَا حَصَلَتْ لَهُ عُلُومٌ أُخْرَى، فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ يُوَلِّدُ عُلُومَهُ كُلَّهَا، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّهُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مُتَكَلِّمَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ مُتَكَلِّمَةً، بَلْ الَّذِي يُقَدِّرُهُ عَلَى النُّطْقِ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّ الرَّبَّ يُوَلِّدُ بَعْضَ عِلْمِهِ، وَبَعْضَ كَلَامِهِ دُونَ بَعْضٍ، بَطَلَ تَسْمِيَةُ الْعِلْمِ – الَّذِي هُوَ الْكَلِمَةُ مُطْلَقًا – الِابْنَ – وَصَارَ لَفْظُ الِابْنِ إِنَّمَا يُسَمَّى بِهِ بَعْضُ عِلْمِهِ، أَوْ بَعْضُ كَلَامِهِ، وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ الْكَلِمَةُ، وَهُوَ أُقْنُومُ الْعِلْمِ مُطْلَقًا، وَذَلِكَ لَيْسَ مُتَوَلِّدًا عَنْهُ كُلِّهِ، وَلَا يُسَمَّى كُلَّهُ ابْنًا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ.

وَثَالِثُهَا: أَنْ يُقَالَ: تَسْمِيَةُ عِلْمِ الْعَالِمِ وَكَلَامِهِ وَلَدًا لَهُ لَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْمَشْهُورَةِ، وَهُوَ بَاطِلٌ بِالْعَقْلِ؛ فَإِنَّ عِلْمَهُ وَكَلَامَهُ كَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَإِنْ جَازَ هَذَا، جَازَ تَسْمِيَةُ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ كُلِّهَا الْحَادِثَةِ مُتَوَلِّدَاتٍ عَنْهُ لَهُ، وَتَسْمِيَتُهَا أَبْنَاءَهُ. وَمَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْقَدَرِيَّةِ: إِنَّ الْعِلْمَ الْحَاصِلَ بِالنَّظَرِ مُتَوَلِّدٌ عَنْهُ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ: إِنَّ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ مُتَوَلِّدٌ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، لَا يَقُولُ: إِنَّ الْعِلْمَ ابْنُهُ وَوَلَدُهُ، كَمَا لَا يَقُولُ: إِنَّ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ ابْنُهُ وَلَا وَلَدُهُ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَوَلُّدِ الْأَعْرَاضِ وَالْمَعَانِي الْقَائِمَةِ

بِالْإِنْسَانِ، وَتِلْكَ لَا يُقَالُ: إِنَّهَا أَوْلَادُهُ وَأَبْنَاؤُهُ. وَمَنْ اسْتَعَارَ فَقَالَ: بُنَيَّاتُ فِكْرِهِ، فَهُوَ كَمَا يُقَالُ: بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ، وَيُقَالُ: ابْنُ السَّبِيلِ. وَيُقَالُ لِطَيْرِ الْمَاءِ: ابْنُ مَاءٍ. وَهَذِهِ تَسْمِيَةٌ مُقَيَّدَةٌ، قَدْ عُرِفَ أَنَّهَا لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا مَا هُوَ الْمَعْقُولُ مِنَ الْأَبِ وَالِابْنِ وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ. وَأَيْضًا، فَكَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ابْنًا، فَمَنْ حَمَلَ شَيْئًا مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مِمَّا يُقِرُّ بِهِ عُلَمَاءُ النَّصَارَى وَمَا وُجِدَ عِنْدَهُمْ مِنْ لَفْظِ الِابْنِ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ وَإِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمَا، فَهُوَ اسْمٌ لِلْمَخْلُوقِ لَا لِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ مُكَرَّمٌ مُعْظَّمٌ.

وَرَابِعُهَا: أَنْ يُقَالَ: فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، فَالَّذِي حَصَلَ لِلْمَسِيحِ إِنْ كَانَ هُوَ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ مِنْ عِلْمِهِ وَكَلَامِهِ، فَهَذَا مَوْجُودٌ لِسَائِرِ النَّبِيِّينَ، فَلَا مَعْنَى لِتَخْصِيصِهِ بِكَوْنِهِ ابْنَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْكَلَامَ إِلَهٌ اتَّحَدَ بِهِ فَيَكُونُ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ هُوَ الْأَبَ فَيَكُونُ الْمَسِيحُ هُوَ الْأَبَ، وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ جَوْهَرًا آخَرَ، فَيَكُونُ إِلَهَانِ قَائِمَانِ بِأَنْفُسِهِمَا، فَتَبَيَّنَ فَسَادَ مَا قَالُوهُ بِكُلِّ وَجْهٍ.

وَخَامِسُهَا: أَنْ يُقَالَ: مِنَ الْمَعْلُومِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي خُصَّ بِهِ الْمَسِيحُ إِنَّمَا هُوَ أَنْ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ مِنَ الْبَشَرِ، جَعَلَ النَّصَارَى الرَّبَّ أَبَاهُ، وَبِهَذَا نَاظَرَ نَصَارَى نَجْرَانَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالُوا: إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ، فَقُلْ لَنَا مَنْ أَبُوهُ؟ فَعُلِمَ أَنَّ النَّصَارَى إِنَّمَا ادَّعَوْا فِيهِ الْبُنُوَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ، وَأَنَّ مَا ذُكِرَ مِنْ كَلَامِ عُلَمَائِهِمْ هُوَ تَأْوِيلٌ مِنْهُمْ لِلْمَذْهَبِ؛ لِيُزِيلُوا بِهِ الشَّنَاعَةَ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا عَاقِلٌ، وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي جَعْلِهِ ابْنَ اللَّهِ وَجْهٌ يَخْتَصُّ بِهِ مَعْقُولٌ، فَعُلِمَ أَنَّ النَّصَارَى جَعَلُوهُ ابْنَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَحْبَلَ مَرْيَمَ، وَاللَّهُ هُوَ أَبُوهُ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِنْزَالِ جُزْءٍ مِنْهُ فِيهَا، وَهُوَ – سُبْحَانَهُ – الصَّمَدُ، وَيَلْزَمُهُمْ أَنْ تَكُونَ مَرْيَمُ صَاحِبَةً وَزَوْجَةً لَهُ؛ وَلِهَذَا يتألهونها كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَأَيُّ مَعْنًى ذَكَرُوهُ فِي بُنُوَّةِ عِيسَى غَيْرَ هَذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَرْقٌ بَيْنَ عِيسَى وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلَا صَارَ فِيهِ مَعْنَى الْبُنُوَّةِ، بَلْ قَالُوا – كَمَا قَالَ بَعْضُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ -: إِنَّهُ صَاهَرَ الْجِنَّ فَوَلَدَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةَ. وَإِذَا قَالُوا: اتَّخَذَهُ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ الِاصْطِفَاءِ، فَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْفِعْلِيُّ وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْطَالُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَرُوحٌ مِنْهُ}[النساء: ١٧١]، لَيْسَ فِيهِ أَنَّ بَعْضَ اللَّهِ صَارَ فِي عِيسَى، بَلْ مِنْ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، كَمَا قَالَ: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}[الجاثية: ١٣]، وَقَالَ: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}[النحل: ٥٣]، وَمَا أُضِيفَ إِلَى اللَّهِ أَوْ قِيلَ هُوَ مِنْهُ فَعَلَى وَجْهَيْنِ: إِنْ كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا؛ فَهُوَ مَمْلُوكٌ لَهُ، وَمِنْ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}[مريم: ١٧]، وَقَالَ فِي الْمَسِيحِ: {وَرُوحٌ مِنْهُ}. وَمَا كَانَ صِفَةً لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ كَالْعِلْمِ وَالْكَلَامِ فَهُوَ صِفَةٌ لَهُ، كَمَا يُقَالُ: كَلَامُ اللَّهِ، وَعِلْمُ اللَّهِ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}[النحل: ١٠٢]، وَقَالَ: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}[الأنعام: ١١٤].

وَأَلْفَاظُ الْمَصَادِرِ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ الْمَفْعُولِ، فَيُسَمَّى الْمَأْمُورُ بِهِ أَمْرًا، وَالْمَقْدُورُ قُدْرَةً، وَالْمَرْحُومُ بِهِ رَحْمَةً، وَالْمَخْلُوقُ بِالْكَلِمَةِ كَلِمَةً، فَإِذَا قِيلَ فِي الْمَسِيحِ: إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ، فَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ خُلِقَ بِكَلِمَةِ قَوْلِهِ: {كُنْ}، وَلَمْ يُخْلَقْ عَلَى الْوَجْهِ الْمُعْتَادِ مِنَ الْبَشَرِ، وَإِلَّا فَعِيسَى بَشَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَيْسَ هُوَ كَلَامًا صِفَةً لِلْمُتَكَلِّمِ يَقُومُ بِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ عَنِ الْمَخْلُوقِ: إِنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ، فَالْمُرَادُ أَنَّ

اللَّه كَوَّنَهُ بِأَمْرِهِ، كَقَوْلِهِ: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}[النحل: ١]، وَقَوْلِهِ: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}[هود: ٨٢]، فَالرَّبُّ تَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَبَعَّضَ وَيَتَجَزَّأَ، فَيَصِيرُ، بَعْضُهُ فِي غَيْرِهِ، سَوَاءٌ سُمِّيَ ذَلِكَ رُوحًا أَوْ غَيْرُهُ، فَبَطَلَ مَا يَتَوَهَّمُهُ النَّصَارَى مِنْ كَوْنِهِ ابْنًا لَهُ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

وَقَدْ قِيلَ: مَنْشَأُ ضَلَالِ الْقَوْمِ أَنَّهُ كَانَ فِي لُغَةِ مَنْ قَبْلَنَا يُعَبَّرُ عَنِ الرَّبِّ بِالْأَبِ، وَبِالِابْنِ عَنِ الْعَبْدِ الْمُرَبَّى الَّذِي يَرُبُّهُ اللَّهُ وَيُرَبِّيهِ، فَقَالَ الْمَسِيحُ: عَمِّدُوا النَّاس بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُوا بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْمَسِيحِ، وَيُؤْمِنُوا بِرُوحِ الْقُدُسِ جِبْرِيلَ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لِلَّهِ، وَلِرَسُولِهِ الْمَلَكِيِّ، وَرَسُولِهِ الْبَشَرِيِّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}[الحج: ٧٥].

وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى: فِي غَيْرِ آيَةٍ أَنَّهُ أَيَّدَ الْمَسِيحَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}[البقرة: ٨٧]، فَعِنْدَ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ، بَلْ هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وقتادة وَالضَّحَّاكِ والسدي وَغَيْرِهِمْ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[النحل: ١٠١، ١٠٢]. وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ الِاسْمُ الَّذِي كَانَ يُحْيِي بِهِ الْمَوْتَى. وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّهُ الْإِنْجِيلُ. وَقَالَ تَعَالَى: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}[المجادلة: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}[الشورى: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}[النحل: ٢]، فَمَا يُنَزِّلُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ مِمَّا تَحْيَا بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ يُسَمِّيهِ رُوحًا، وَهُوَ مَا يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ فَكَيْفَ بِالْمُرْسَلِينَ مِنْهُمْ؟! وَالْمَسِيحُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ جُمْهُورِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ تَعَالَى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}[البقرة: ٢٥٣]، وَقَدْ ذَكَرَ الزَّجَّاجُ فِي تَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَيَّدَهُ بِهِ لِإِظْهَارِ أَمْرِهِ وَدِينِهِ.

الثَّانِي: لِدَفْعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْهُ إِذْ أَرَادُوا قَتْلَهُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ أَيَّدَهُ بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ الِابْنِ فِي لُغَتِهِمْ لَيْسَ مُخْتَصًّا بِالْمَسِيحِ، بَلْ عِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي التَّوْرَاةِ لِإِسْرَائِيلَ: أَنْتَ ابْنِي بِكْرِيّ، وَالْمَسِيحُ كَانَ يَقُولُ: أَبِي وَأَبُوكُمْ فَيَجْعَلُهُ أَبًا لِلْجَمِيعِ، وَيُسَمِّي غَيْرَهُ ابْنًا لَهُ، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَا اخْتِصَاصَ لِلْمَسِيحِ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ: هُوَ ابْنُهُ بِالطَّبْعِ، وَغَيْرُهُ ابْنُهُ بِالْوَضْعِ، فَيُفَرِّقُونَ فَرْقًا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَوْلُهُمْ: هُوَ ابْنُهُ بِالطَّبْعِ يَلْزَمُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُحَالَاتِ عَقْلًا وَسَمْعًا مَا يَبِينُ بُطْلَانُهُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان قدرة الله سبحانه وتعالى حيث خلق آدم من غير أم ولا أب؛ وخلق عيسى من أم بلا أب؛ و خلق حواء بلا أم؛ وسائر البشر من بين أم وأب.

٢- إثبات القياس؛ من أين يؤخذ؟ {كمثل آدم}، وكلُّ مثل مضروب في القرآن، فإنَّه دليل على ثبوت القياس؛ لأنَّه إلحاق المورد بالمضرب؛ يعني أنَّك ألحقت الممثَّل بالممثَّل به.

٣- إثبات القول للرب عز وجل؛ لقوله: {ثمَّ قال له}.

٤- أنَّ قول الله بصوت مسموع وبحروف مرتبة؛ لقوله: {قال له كن} فسيسمع هذا القول؛ والحرف مرتَّب؛ الكاف قبل النون.

٥- إثبات صفة الخلق لله؛ {خلقه}. والخلق صفة من الصفات الفعلية؛ لكن قد مرَّ علينا أنَّ جنس الصفات الفعلية ذاتية؛ لأنَّ الله لم يزل ولا يزال فعَّالًا.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {٦٠}

قال ابن العثيمين: {الحقُّ} خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك الحق، أي: الخبر الذي يقصُّ عليك هو الحق؛ وعلى هذا فتكون شبه الجملة وهي {من ربّك} تكون في موضع نصب على الحال من {الحق}؛ ويحتمل على بُعد أن يكون {الحق} مبتدأ، و{من ربك} خبره؛ وفائدة هذا التركيب على هذا الإعراب، أنَّك لا تطلب الحق من غير الله؛ فكأنَّه يقول: مصدر الحق من الله فلا تطلبه من غيره؛ {الحقُّ} يوصف به الحكم، ويوصف به الخبر؛ فإن وصف به الحكم، صار معناه العدل؛ وإن وصف به الخبر، صار معناه العدل والصدق، كلاهما ثابت؛ ولهذا وصفا بالحق؛ وأصل الحق، من حق الشيء إذا ثبت، كما قال الله تعالى: {وحقَّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنَّهم لا يؤمنون}، {حقَّت}: يعني ثبتت.

{من ربِّك}: هنا أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ لتكون ربوبية خاصَّة؛ لأنَّ الربوبية كما مرَّ علينا كثيرًا عامَّة وخاصَّة؛ فالعامَّة هي شاملة لجميع الخلق من مؤمن وكافر، وبرٍّ وفاجر، وآدمي وحيوان وجماد؛ والخاصَّة هي التي تختصُّ بالمؤمنين وتستلزم تربية أخصُّ من التربية العامَّة؛ {من ربِّك}؛ {فلا تكن من الممترين}، {لا}: هذه ناهية، ولهذا جزم الفعل بعدها.

قال أبو زهرة: أي هذا الذي أخبرك الله به سبحانه من أنَّ عيسى خلق من غير أب، وكونه كذلك، وكون خلق آدم من طين، وكون هذا التكوين العام هو بإرادة مختارة، لَا قيد يقيِّدها، وأنَّها خالقة الأسباب، هذا هو الحق، والحق هو الثابت اليقيني الذي لَا مجال للشَّكِّ فيه. وقد أكَّد سبحانه وتعالى كونه الحق الذي لَا مجال للريب فيه بثلاثة تأكيدات:

أوَّلها: بتعريف كلمة الحق بأل، فإنَّ مؤدَّى ذلك أن خلق الله بإرادته المختارة على النحو الذي بيَّنه هو الحق وحده، ولا حق سواه.

ثانيها: أنَّه بيَّن أنَّ إثبات ذلك الحق هو من ربّك الذي ذرأك وحفظك، وفي ذلك ما يدلُّ على صدق الإثبات صدقًا لَا ريب فيه.

ثالثًا: أنَّه نهى عن الامتراء والشَّكِّ في ذلك الحق، فقال سبحانه: {فَلا تَكن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ}: أي أنَّه لَا مجال فيه للشَّكِّ، أو للجدال والمراء المثير للشَّك.

قوله: {فلا تكن من الممترين}: أي فلا تكن من الشَّاكين؛ وقد أشكل هذا التعبير على كثير من الناس وقال: أفيشكُّ الرسول ﷺ؟! والجواب عن هذا أن نقول: هذه الآية أو هذا التَّعبير لا يدلُّ على وقوع الشكِّ من الرسول ﷺ، بل ولا على إمكانه؛ وإنَّما يراد به التَّعريض بالممترين وذمِّهم؛ فلو قلت لرجل صالح: لا تكن من الفاسقين؛ هل معنى ذلك أنَّ الرجل فاسق؟ لا؛ ولكن معناه التَّعريض بالفاسقين وأنَّهم على خلق ينبغي أن يفرَّ منهم كل عاقل؛ فكذلك {فلا تكن من الممترين} ليس معناها أنَّ الرسول يمكن أن يكون منهم، أو أنَّه منهم؛ لكن المعنى التَّعريض بالممترين الشَّاكِّين؛ ومنهم في هذه المسألة النصارى؛ لأنَّ النصارى يعتقدون بأنَّ عيسى ابن الله، فهم ممترون بخبر الله شاكُّون فيه، وإلَّا فليس في التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن ولا غيرها من الكتب المنزَّلة أنَّ عيسى ابن الله؛ وليس فيها أيضًا ما يفيد ظاهرًا ولا احتمالًا أنَّ عيسى ابن الله، ومع ذلك شكَّك هؤلاء النصارى وصاروا يبثون عقيدتهم الفاسدة بأنَّ عيسى ابن الله.

إذًا {فلا تكن من الممترين}، ينهاه الله تعالى أن يكون من الممترين، لا لأنَّه منهم، ولا لأنَّه يمكن أن يكون منهم؛ ولكن تعريضًا لهؤلاء الممترين بالذَّم؛ ونظير ذلك كما قلت لكم: أن تقول لشخص مستقيم: لا تكن من الفاسقين؛ سيقول لك: أنا فاسق؟ الله يهديك؛ أقول: ما قلت أنَّك فاسق؛ لكنَّني أعرض بذمِّ هؤلاء الفاسقين.

وقال بعض أهل العلم حلًّا لهذا الإشكال المتوهَّم قال: إنَّ الخطاب للرسول ﷺ والمراد أمَّته، لكن هذا القول ضعيف جدًّا؛ لأنَّ الخطاب صريح بأنَّه للرسول ﷺ؛ وكذلك المحادثة مع الرسول {الحقُّ من ربِّك} كيف نقول: المراد: الحقُّ من ربِّك فلا تكونوا يا أمَّة محمد من الممترين؛ هذا مؤدَّى هذا المعنى أو هو القول؛ وهو بعيد من الأسلوب القرآني ولكنَّ المعنى الذي ذكرته هو الصواب، أنَّ الرسول ﷺ لم يمتري ولن يمتري، ولكن هذا من باب التَّعريض؛ كأنَّه يقول: استمر على ما أنت عليه من اليقين وما أقبح حال هؤلاء الممترين(١).

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: الذي أنبأتك به من خبر عيسى، وأنَّ مثله كمثل آدم خلقه من تراب ثمَّ قال له ربه {كن}، هو الحقُّ من ربك، يقول: هو الخبر الذي هو من عند ربك {فلا تكن من الممترين}: يعني فلا تكن من الشَّاكِّين في

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن {فلا تكوننَّ من الممترين} عند تفسير الآية (١٤٧) من سورة البقرة.

أنَّ ذلك كذلك. عن الربيع قوله: {الحقُّ من ربّك فلا تكن من الممترين}، يقول: فلا تكن في شكٍّ ممَّا قصصنا عليك أنَّ عيسى عبدُ الله ورسوله، وكلمةٌ منه ورُوحٌ، وأنَّ مَثله عند الله كمثل آدم خلقه من تُراب ثمَّ قال له كن فيكون.

قال السعدي: وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أنَّ ما قامت الأدلَّة على أنَّه حقٌّ وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنَّه يجب أن يجزم بأنَّ كلَّ ما عارضه فهو باطل، وكلُّ شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلِّها أم لا فلا يوجب له عجزه عن حلِّها القدح فيما علِمه، لأنَّ ما خالف الحقَّ فهو باطل، قال تعالى: {فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال}، وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلِّمون ويرتِّبها المنطقيون، إنْ حلَّها الإنسان فهو تبرُّعٌ منه، وإلَّا فوظيفته أن يبيِّن الحقَّ بأدلَّته ويدعو إليه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الله تعالى لا يصدر منه إلَّا الحقُّ؛ {الحقَّ من ربك}.

٢- فضيلة رسول الله ﷺ لإضافة الربوبية إليه؛ وذلك لأنَّ هذه الربوبية خاصَّة تفيد معنًى أخصُّ من الربوبية العامَّة.

٣- النهي عن الشَّك فيما أخبر الله به؛ لقوله: {فلا تكن من الممترين}.

٤- أنَّ الممترين كثيرون؛ لقوله: {من الممترين}؛ وإن كان يحتمل أن يراد به الجنس فيصدق بواحد؛ لكن الظاهر الأول؛ ولاشكَّ أنَّ الممترين من بني آدم كثيرون؛ لأنَّ منهم تسع مائة وتسعة وتسعون من ألف كلُّهم من أهل النار.

٥- جواز المخاطبة بالتَّعريض؛ لأنَّ قوله: {فلا تكن من الممترين}، لا يعني أنَّ الرسول يمكن أن يكون منهم بل هو تعريض بهؤلاء وأنَّهم ذووا خلق سيء فلا تكن منهم؛ وإن كان هو ليس منهم لا باعتبار الواقع ولا بالمستقبل.

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ {٦١}

قال ابن العثيمين: {فمن حاجَّك فيه}، {حاجَّك}: أي جادلك، وسمِّيت المجادلة محاجَّة، لأنَّ كلَّ واحد من المتجادلين يدلي بحجَّته من أجل أن يخصم الآخر ويحجَّه، ومنه الحديث: ((تحاجَّ آدم وموسى[١])): أي طلب كلُّ واحدٍ منهما أن يحجَّ الآخر؛ وآدم الذي حجَّ موسى.

وقوله: {فمن حاجَّك}، {من} هذه شرطية، وجواب الشرط: {فقل تعالوا}؛ وقوله: {فمن حاجَّك فيه}: الضمير يعود على عيسى؛ والمراد بالمحاجَّة في عيسى ليس في ذاته لأنَّ عيسى معلوم أنَّه بشر؛ لكن في شأنه وقضيته؛ وقوله: {فمن حاجَّك فيه}، الذين يمكن أن يحاجَّ النبي ﷺ في عيسى، هم النصارى؛ وهذه الآية وما قبلها كلُّها نزلت في وفد نجران من النصارى.

{من بعد ما جاءك من العلم}: يعني بعد أن علمت قضيته وشأنه وتيقَّنته؛ فالذي يحاجَّك فيه أدعه للمباهلة؛ وفي قوله: {من بعد ما جاءك}، أتى ب{من} الدَّالَّة على أنَّ النبي ﷺ أمر بالمباهلة بعد أن تروى من العلم؛ لأنَّ {من بعد} تدلُّ على أنَّ هناك مهلة بين العلم الذي جاءه وبين المحاجَّة التي وقعت بخلاف لو قال: فمن حاجَّك فيه بعد ما جاءك؛ فإنَّها تفيد البَعدية لكن لا تفيد على التَّراخي والمباعدة؛ ومعلوم أنَّ الإنسان كلَّما تمعَّن النظر فيما علم ازداد به علمًا ويقينًا؛ وقوله: {من بعد ما جاءك من العلم} عن طريق الله عز وجل؛ فإنَّ الله تعالى أوحى إلى نبيِّه محمد ﷺ في شأن عيسى ما لم يكن عند غيره.

قال السعدي: أي {فمن} جادلك {وحاجَّك} في عيسى عليه السلام وزعم أنَّه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته {من بعد ما جاءك من العلم} بأنَّه عبد الله ورسوله وبيَّنت لمن جادلك ما عندك من الأدلَّة الدَّالَّة على أنَّه عبد أنعم الله عليه، دلَّ على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأنَّ الحقَّ قد تبيَّن، فجداله فيه جدال معاند مشاقٌّ لله ورسوله، قصده اتِّباع هواه، لا اتِّباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيَّه أن ينتقل إلى مباهلته وملاعنته، فيدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحبُّ الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولَّوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنَّهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهليهم وأولادهم فلم يجدوا أهلًا ولا مالًا وعوجلوا بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد.

١- (قلت): أخرجه البخاري ومسلم بنفس المعنى ولكن بألفاظ أخر. وورد الحديث بهذا اللفظ في صحيح ابن حبان (٦٢١٠)، وتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: إن رسول الله ﷺ قَالَ: ((تحاجَّ آدَمُ وَمُوسَى فحجَّ آدمُ مُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ وَاصْطَفَاهُ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فتلومُني عَلَى أمرٍ قُدِّر عَليَّ قبلَ أنْ أُخْلَقَ؟!)). وقال شعيب أرناؤوط في تحقيقه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

قال الإمام مسلم في صحيحه ج٧ص١٢٠: - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ - وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ - قَالاَ حَدَّثَنَا حَاتِمٌ - وَهُوَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ - عَنْ بُكَيْرِ بْنِ مِسْمَارٍ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَمَرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِى سُفْيَانَ سَعْدًا فَقَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسُبَّ أَبَا التُّرَابِ فَقَالَ أَمَّا مَا ذَكَرْتُ ثَلاَثًا قَالَهُنَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَنْ أَسُبَّهُ لأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ خَلَّفَهُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ خلفتني مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نُبُوَّةَ بَعْدِى)). وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: ((لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)). قَالَ فَتَطَاوَلْنَا لَهَا فَقَالَ: ((ادْعُوا لِي عَلِيًّا)). فَأُتِىَ بِهِ أَرْمَدَ فَبَصَقَ فِى عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ} دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أهلي([1]))).

قال ابن العثيمين: والمراد بالأنفس والأبناء والنساء، أنَّهم يريدون أن يجمعوا جماعة، معهم أبنائهم ونسائهم وأنفسهم؛ وهذا أعزُّ ما يكون عند الإنسان في الدنيا، يحضرون ويحضر الخصم أيضًا نفسه وأبنائه ونسائه؛ قال: {ثمَّ نبتهل}: أي نتضرَّع ونبالغ في الدعاء؛ ثم فسَّر الابتهال بقوله: {فنجعل لعنة الله على الكاذبين}؛ وهذا القول في أن {نبتهل}: يعني نتضرَّع ونلحُّ في الدعاء أصحُّ من القول بأن معنى {نبتهل}: نلتعن؛ لأنَّنا إذا فسَّرنا {نبتهل} بنلتعن، لم نكسب معنًى جديدًا عند قوله: {فنجعل لعنة الله على الكاذبين}، تكون الثانية بالنسبة للأولى مكرَّرة؛ وإذا قلنا {نبتهل} نتضرَّع بالدعاء ونلح، استفدنا زيادة معنى وهو المبالغة في التضرُّع والإلحاح؛ ولهذا يقال: ابتهل إلى الله في الدعاء ولا يفهم المخاطب إلَّا أنَّ المعنى تضرَّع وألحَّ في الدعاء الصالح، ولا يمكن أن يكون المراد ب{نبتهل} الدعاء السيِّئ إلَّا إذا قرن بما يدلُّ عليه.

{فنجعل لعنة الله على الكاذبين}: {نجعل} معطوفة على {ندعوا}، لأنَّه مرَّ علينا قاعدة: أنَّه إذا تكرَّرت المعطوفات فالعطف على الأول؛ لأنَّ المعطوف فرع والمعطوف عليه هو الأصل، والمعطوف عليه هو الأول. {لعنة الله}: أي طرده وإبعاده عن الرحمة. {على الكاذبين} منَّا أو منكم؛ وهذا عدل وإنصاف؛ لأنَّ الله يعلم من الكاذب؛ فإذا جعلنا {لعنة الله على الكاذبين} فمن كان كاذبًا فعليه اللعنة. والحكمة في إحضار الأبناء والزوجات أنَّه إذا كانت عامًّا فاللَّعنة تشمل الجميع؛ ولهذا لمَّا دعاهم الرسول ﷺ إلى المباهلة امتنعوا، قالوا ننظر، ثمَّ تشاوروا فيما بينهم ورجعوا إلى النبي ﷺ من الغد وقالوا: لا نلاعن، لا نبتهل؛ لأنَّهم قالوا: لو أننا الْتَعَنَّا ورجعنا إلى أهلينا ما وجدناهم، فلا نلتعن؛ يعرفون أنَّ النبي ﷺ على حقٍّ وأنَّهم على باطل؛ وقوله: {على الكاذبين}: من قال بغير الصِّدق فهو الكاذب([2]).

---

[1]- (قلت): رواه مسلم في صحيحه (٦٣٧٣).

[2]- (قلت): وفي تفسير المنار نقل محمد رشيد رضا عن أستاذه محمد عبده، قولًا يطعن فيه بالحديث الصحيح الوارد في آية المباهلة بأنه من وضع الشيعة!، وقال: قال الأستاذ الإمام (يقصد محمد عبده): (الرِّوَايَاتُ مُتَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتَارَ لِلْمُبَاهَلَةِ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَوَلَدَيْهِمَا، وَيَحْمِلُونَ كَلِمَةَ وَنِسَاءَنَا عَلَى فَاطِمَةَ، وَكَلِمَةَ وَأَنْفُسَنَا عَلَى عَلِيٍّ فَقَطْ، وَمَصَادِرُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الشِّيعَةُ وَمَقْصِدُهُمْ مِنْهَا مَعْرُوفٌ، وَقَدِ اجْتَهَدُوا فِي تَرْوِيجِهَا مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّى رَاجَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَكِنَّ وَاضِعِيهَا لَمْ يُحْسِنُوا تَطْبِيقَهَا عَلَى الْآيَةِ.....)، ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي ومن بعدهم يوسف القرضاوي ينتمون للمدرسة العقلية التي تُقَدِّم العقل على النقل،

وصدور هذا الكلام منه ليس بغريب، لأنَّ المنتمين لهذه المدرسة لا يردُّون الأحاديث الصحيحة فحسب، بل يردُّون حتى الآيات القرآنية اذا لم تتوافق مع عقولهم القاصرة وأهوائهم الحائرة، فأصبح ردُّ الأحاديث الصحيحة والآيات القرآنية والإعتراض على ما دلَّتا عليه سجيَّتهم،- ولكن العجب كل العجب من قول ابن العثيمين رحمه الله في تفسيره بعد أن ظنَّ بأنَّ هذا القول هو قول محمد رشيد رضا، وقال رحمه الله: (فقال بعض أهل العلم: المراد ندعوا نحن المسلمين؛ {ندعوا أبنائنا}: يعني أبناء المسلمين، يعني ننتخب طائفة منَّا تأتي هي وأبنائها ونسائها. وأنتم كذلك تنتخبون جماعة يأتون بأبنائهم ونسائهم وأنفسهم نجتمع ونبتهل؛ وهذا القول لاشكَّ أنَّه موافق تمامًا لظاهر الآية؛ لأنَّ الآية بصيغة الجمع، والعادة جرت بأن التَّباهل وكذلك التَّفاخر وغيره يكون بين جماعات، وقد ذهب إلى هذا محمد رشيد رضا في تفسيره؛ وهو لاشكَّ تفسير مطابق لظاهر الآية تمامًا؛ لكن أكثر المفسرين يختارون القول الأول لحديث ورد في ذلك؛ وهذا القول لا يوافق ظاهر الآية؛ أولًا: أن {أبناء} جمع و(نا) جمع وإذا قلنا: الحسن والحسين صارا اثنين ابنان لواحد؛ وأيضًا النساء، لم يكن في اللغة العربية أن المراد ب(النساء) البنات، المراد بالنساء في اللغة العربية الزوجات، وأيضًا {أنفسنا}، كيف يعبر الرسول ﷺ عن علي بن أبي طالب بنفسه ولا يعبِّر عن الحسن والحسين بنفسه؛ أيُهما الأقرب؟ الحسن والحسين، حتى إنَّ الحسن سمَّاه الرسول ابنه فقال: ((إن ابني هذا سيد))، ولهذا ظاهر الآية لا يطابق هذا التفسير؛ وقد زعم محمد رشيد رضا أن تفسيرها بالأربعة من تفسير الرافضة، وقال: إن الآية لا تنطبق عليها. لكن الحديث الوارد في ذلك يدلُّ على أنَّ له أصلًا؛ ولاشك أن آل البيت يدخل فيهم هؤلاء الأربعة لاشكَّ في هذا؛ لكن انطباقها على الآية في النفس منه شيء)-. أنتهى كلامه رحمه الله.

- والصحيح أنه مادام صحَّ الحديث في هذه الواقعة فلا نملك الَّا أن نستسلم لما ورد فيه، ونعتقده بقلوبنا، وندعو إليه، ونردُّ على هذا المذهب الخبيث،- لا أن يكون في النفس منه شيء -! لاسيَّما أنَّ الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢٤٠٤)، ورواه الترمذي وصححه الإمام الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٣٢). ولو أنَّنا تركنا كلُّ حديث وآية ادَّعى الشيعة فيها دعوى باطلة دون أن نردَّ عليهم ونبيِّن الحقَّ من الباطل فيها ونميِّزه، لما بقي لنا من الكتاب والسنة شيء يذكر. ولقصور في فهم وعلم محمد عبده ردَّ هذا الحديث الصحيح بدلًا من أن يردَّ على الشيعة. ولو أن شيخ الإسلام –رحمه الله – كفى الأمَّة مؤنة الردِّ عليهم، حيث قال في الإمامة في ضوء الكتاب والسنة ج١ص٨٤: قال الرافضي: (البرهان التابع: قوله تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}[آل عمران: ٦١]. نقل الجمهور كافَّة أن {أبناءنا} إشارة إلى الحسن والحسين، و{نساءنا} إشارة إلى فاطمة. و{أنفسنا} إشارة إلى عليّ. وهذه الآية دليل على ثبوت الإمامة لعليّ لأنَّه تعالى قد جعل نفس رسول الله ﷺ، والاتحاد محال، فيبقى المراد بالمساواة له الولاية. وأيضًا لو كان غير هؤلاء مساويًا لهم وأفضل منهم في استجابة الدعاء لأمره تعالى بأخذهم معه لأنَّه في موضع الحاجة، وإذا كانوا هم الأفضل تعيَّنت الإمامة فيهم. وهل تخفى دلالة هذه الآية على المطلوب إلَّا على من استحوذ الشيطان عليه، وأخذ بمجامع قلبه، وحُبِّبت إليه الدنيا التي لا ينالها إلَّا بمنع أهل الحقِّ من حقِّهم؟).

والجواب أن يقال: أمَّا أخذه عليًّا وفاطمة والحسن والحسين في المباهلة فحديث صحيح، رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص، قال في حديث طويل (١٦٢): ((لمَّا نزلت هذه الآية: {فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ}[آل عمران: ٦١]، دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسنًا وحُسينًا فقال: ((اللهم هؤلاء أهلي)). ولكن لا دلالة في ذلك على الإمامة ولا على الأفضلية.

وقوله: (قد جعله الله نفس رسول الله ﷺ، والاتحاد محال، فبقي المساواة له، وله الولاية العامة، فكذا المساوية).

قلنا: لا نسلِّم أنَّه لم يبق إلَّا المساواة، ولا دليل على ذلك، بل حمله على ذلك ممتنع، لأنَّ أحدًا لا يساوي رسول الله ﷺ: لا عليًّا ولا غيره. وهذا اللفظ في لغة العرب لا يقتضي المساواة. قال تعالى في قصة الإفك: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا}[النور: ١٢]، ولم يوجب ذلك أن يكون المؤمنون والمؤمنات متساوين. وقد قال تعالى في قصة بني إسرائيل: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ}[البقرة: ٥٤]: أي يقتل بعضكم بعضًا، ولم يوجب ذلك أن يكونوا متساوين، ولا أن يكون من عبد العجل مساويًا لمن لم يعبده. وكذلك قد قيل في قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}[النساء: ٢٩]: أي لا يقتل بعضكم بعضًا، وإن كانوا غير متساوين. وقال تعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}[الحجرات: ١١]: أي لا يلمز بعضكم بعضًا، فيطعن عليه ويعيبه. وهذا نهي لجميع المؤمنين، أن لا يفعل بعضهم ببعض هذا الطَّعن والعيب، مع أنَّهم غير متساوين لا في الأحكام، ولا في الفضيلة، ولا الظالم كالمظلوم، ولا الإمام كالمأموم. ومن هذا الباب قوله تعالى: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ}[البقرة: ٨٥]: أي يقتل بعضكم بعضًا. وإذًا كان اللفظ في قوله: {وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ} كاللفظ في قوله: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}[الحجرات: ١١]، {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا}[النور: ١٢]، ونحو ذلك، مع أنَّ التساوي هنا ليس بواجب بل ممتنع، فكذلك هناك وأشدُّ. بل هذا اللفظ يدلُّ على المجانسة والمشابهة. والتجانس والمشابهة يكونان بالاشتراك في بعض الأمور، كالاشتراك في الإيمان، فالمؤمنون إخوة في الإيمان، وهو المراد بقوله: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا}[النور: ١٢]، وقوله: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}[الحجرات: ١١]. وقد يكون بالاشتراك في الدِّين، وإن كان فيهم المنافق، كاشتراك المسلمين في الإسلام الظاهر، وإن كان مع ذلك الاشتراك في النسب فهو أوكد. وقوم موسى كانوا أنفسنا بهذا الاعتبار.

قوله تعالى: {تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ}[آل عمران: ٦١]: أي رجالنا ورجالكم، أي الرجال الذين هم من جنسنا في الدِّين والنَّسب، والرجال الذين هم من جنسكم. أو المراد التَّجانس في القرابة فقط، لأنَّه قال: {أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ}، فذكر الأولاد وذكر النساء والرجال، فعُلم أنَّه أراد الأقربين إلينا من الذكور والإناث، من الأولاد والعصبة. ولهذا دعا الحسن والحسين من الأبناء، ودعا فاطمة من النساء، ودعا عليًّا من رجاله، ولم يكن عنده أحد أقرب إليه نسبًا

قال ابن كثير: وقال البخاري: عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فو الله لإن كان نبيًّا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا إنَّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلَّا أمينًا. فقال: ((لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين))، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: ((قم يا أبا عبيدة بن الجراح)) فلمَّا قام قال رسول الله ﷺ: ((هذا أمين هذه الأمة(١))).

وعن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على رقبته، قال: فقال: ((لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا، ولو أنَّ اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا(٢))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات أنّض ما جاء النبي ﷺ حق؛ وجه ذلك أنَّ الله أمر بأن يلتعن مع هؤلاء.

٢- أنَّه لا تجوز المباهلة إلَّا بعلم، بأن يكون عند الإنسان العلم اليقيني؛ أمَّا إذا كان شاكًّا فلا يجوز؛ فلابدَّ أن يكون عنده علم؛ لقوله: {من بعد ما جاءك من العلم}.

٣- جواز طلب المباهلة عند عناد الخصم؛ لقوله: {فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم ... }.

من هؤلاء، وهم الذين أدار عليهم الكساء. والمباهلة إنَّما تحصل بالأقربين إليه، وإلَّا فلو بأهلهم بالأبعدين في النَّسب، وإن كانوا أفضل عند الله، لم يحصل المقصود؛ فإنَّ المراد أنَّهم يدعون الأقربين، كما يدعو هو الأقرب إليه. والنفوس تحنو على أقاربها ما لا تحنو على غيرهم، وكانوا يعلمون أنه رسول الله ﷺ، ويعلمون أنَّهم إن باهلوه نزلت البهلة عليهم وعلى أقاربهم، واجتمع خوفهم على أنفسهم وعلى أقاربهم، فكان ذلك أبلغ في امتناعهم، وإلَّا فالإنسان قد يختار أن يهلك ويحيا ابنه، والشيخ الكبير قد يختار الموت إذا بقيت أقاربه في نعمة ومالٍ. وهذا موجود كثير. فطلب منهم المباهلة بالأبناء والنساء والرجال والأقربين من الجانبين، فلهذا دعا هؤلاء. وآية المباهلة نزلت سنة عشر، لمَّا قدم وفد نجران، ولم يكن النبي ﷺ قد بقي من أعمامه إلَّا العباس، والعباس لم يكن من السابقين الأوّلين، ولا كان له به اختصاص كعليّ. وأما بنو عمّه فلم يكن فيهم مثل عليّ، وكان جعفر قد قُتل قبل ذلك. فإنَّ المباهلة كانت لمَّا قدم وفد نجران سنة تسعٍ أو عشر، وجعفر قتل بمؤتة سنة ثمان، فتعيَّن عليّ رضي الله عنه. وكونه تعيَّن للمباهلة، إذ ليس في الأقارب من يقوم مقامه، لا يوجب أن يكون مساويًا للنبي ﷺ في شيءٍ من الأشياء، بل ولا أن يكون أفضل من سائر الصحابة مطلقًا، بل له بالمباهلة نوع فضيلة، وهي مشتركة بينه وبين فاطمة وحسن وحسين، ليست من خصائص الإمامة، فإنَّ خصائص الإمامة لا تثبت للنساء، ولا يقتضي أن يكون من باهل به أفضل من جميع الصحابة، كما لم يوجب أن تكون فاطمة وحسن وحسين أفضل من جميع الصحابة.

وأمَّا قول الرافضي: (لو كان غير هؤلاء مساويًا لهم. أو أفضل منهم في استجابة الدعاء لأمره تعالى بأخذهم معه، لأنَّه في موضع الحاجة).

فيقال في الجواب: لم يكن المقصود إجابة الدعاء؛ فإن دعاء النبي ﷺ وحده كافٍ، ولو كان المراد بمن يدعوه معه أن يستجاب دعاؤه، لدعا المؤمنين كلَّهم ودعا بهم، كما كان يستسقي بهم، وكما كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، وكان يقول: ((وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟ بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم؟)) (١٦٤).

فكذلك {أنفسنا} ليس مختصًا بعليّ، بل هذه صيغة جمع، كما أن {نساءنا} صيغة جمع وكذلك {أبناءنا} صيغة جمع، وإنما دعا حسنًا وحسينًا لأنَّه لم يكن ممَّن ينسب إليه بالبنوة سواهما، فإنَّ إبراهيم إن كان موجودًا إذ ذاك فهو طفل لا يُدعى، فإنَّ إبراهيم هو ابن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب مصر، وأهدى له البغلة ومارية وسيرين، فأعطى سيرين لحسَّان بن ثابت، وتسرَّى مارية فولدت له إبراهيم، وعاش بضعة عشر شهراً ومات، فقال النبي ﷺ: ((إنَّ له مرضعًا في الجنة تتمُّ رضاعه)) (١٦٥). وكان إهداء المقوقس بعد الحديبية، بل بعد حُنين.

١- صحيح: البخاري (٤٣٨٠).

٢- صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٤٨، ٣٦٨)، والترمذي (٣٣٤٨). وأخرجه البخاري مختصراً (٤٥٧٦)، ومسلم بسياق مختلف (٥٠٠٥) من حديث أبي هريرة.

٤- أنَّ من آداب الإلتعان إحضار الأبناء والنساء؛ لأنَّ ذلك أشدُّ خوفًا بالنسبة للمباهل، يخاف أن يعمَّ الهلاك جميع هؤلاء.

٥- جواز الدعاء باللَّعنة على من خالف الحق؛ لكن بالوصف لا بالشخص؛ لأنَّ الكاذبين وصف، وأمَّا الشَّخص فلا يجوز الدعاء عليه باللَّعن ولو كان كافرًا، الشخص لا يجوز أن تعلنه ولو كان كافرًا؛ لأنَّ النبي ﷺ لمَّا لعن أبا جهل وغيره من طغاة قريش نهاه الله عن ذلك، وقال: {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذِّبهم فإنَّهم ظالمون}.

٦- جواز المباهلة؛ لكن اشترط العلماء للمباهلة شرطين؛ الشرط الأول العلم؛ والشرط الثاني أن تكون في أمر هام؛ أمَّا الأمور التي ليست هامَّة فلا ينبغي للإنسان أن يعرِّض نفسه للخطر.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {٦٢}

قال ابن العثيمين: {إنَّ هذا لهو القصص الحق}: هذه الجملة مؤكَّدة بمؤكِّدين؛ المؤكِّد الأول: {إنَّ}؛ والمؤكِّد الثاني: ال{لام}؛ والمؤكِّد الثالث: {هو}؛ لأنَّ {هو} ضمير الفصل، وضمير الفصل له ثلاث فوائد؛ الفائدة الأولى: الحصر؛ الثانية: التوكيد؛ الثالثة: الفرق بين الصفة والخبر.

{إنَّ هذا} المشار إليه ما ذكره الله تعالى في شأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام؛ وتعرفون أنَّ الله سبحانه وتعالى تحدَّث عن عيسى بن مريم في هذه الآيات حديثًا مسهبًا طويلًا عنه وعن أمِّه.

وقوله: {لهو القصص الحق}: {القصص} مصدر قصَّ يقصُّ قصًّا وقصصًا؛ لكنَّه هنا يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى الفعل، ويحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول، أي: (إنَّ هذا لهو المقصوص الحق)، وسواء قلنا بهذا أو هذا فالمؤدَّى واحد؛ فإنَّ هذا القصص حق؛ و{الحق} هنا صفة للقصص؛ والحقُّ إن قيل: في مقابلة الحكم فهو بمعنى العدل، وإن قيل: في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصِّدق، كما في قوله تعالى: {وتمَّت كلمة ربك صدقًا وعدلًا}.

فإذا قيل لك: حكم القاضي على فلان لفلان بكذا، فقلت: هذا حكم حق؛ أي عدل؛ وإذا قيل لك: أخبرنا فلان بكذا؛ فقلت: (هذا حقّ) أي صدق؛ فالحقُّ إن كان في مقابلة الحكم فهو بمعنى العدل، وإن كان في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق؛ وهنا هو في مقابل الخبر، لأنَّ القصص خبر {نحن نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق}.

{إنَّ هذا لهو القصص الحقّ}: أي الصدق الذي لا يخالف الواقع بل يطابقه تمام المطابقة؛ فما قاله النصارى في عيسى بن مريم ممَّا خرج عن خبر الله عنه، فهو كذلك باطل.

قال القرطبي: سمِّيت قصصًا لأنَّ المعاني تتابع فيها؛ فهو من قولهم: فلان يقصُّ أثر فلان، أي يتبعه.

قال الطبري: إنَّ هذا الذي أنبأتك به، يا محمد، من أمر عيسى فقصصته عليك من أنبائه، وأنَّه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتها إلى مريم وروح منِّي، لهو القصَص والنبأ الحق، فاعلم ذلك.

قال ابن العثيمين: {وما من إله إلَّا الله}: هذه الجملة أيضًا فيها حصر وفيها توكيد؛ أمَّا الحصر فطريقه النفي والإثبات؛ النفي في قوله: {ما}؛ والإثبات في قوله: {إلَّا}؛ وأمَّا التوكيد ففي قوله: {من إله} لأنَّ {من} حرف جر زائد من حيث الإعراب؛ لكنَّه يزيد المعنى توكيدًا؛ ولهذا نقول إنَّ الحروف الزائدة في القرآن الكريم هي زائدة من حيث الإعراب، زائدة من حيث المعنى، أي أنَّها تفيد معنى زائد على ما لو لم تكن موجودة.

وقوله: {إله}: بمعنى مألوه؛ و المألوه هو المعبود محبَّة وتعظيمًا؛ ولا يصدق هذا حقًّا إلَّا على الله عز وجل؛ وكلمة {إله} هنا على وزن فعال؛ ولكنَّها بمعنى المفعول؛ بمعنى المألوه، وهو المعبود محبَّة وتعظيمًا.

وقوله: {وما من إله إلَّا الله}: {إلَّا} أداة استثناء، والجملة التي قبلها فيها شيء محذوف تقديره: {وما من إله حق إلَّا الله}؛ وعلى هذا، فنعرب كلمة {الله} بدل من خبر محذوف الذي تقديره: (ما من إله حق إلَّا الله)؛ {إلا الله}: يعني خالق السموات والأرض عز وجل؛ فعيسى ليس بإله، وأمُّه ليست بإله؛ وجبريل ليس بإله وميكائيل ليس بإله ؛ ولا أحد يستحقُّ هذا الوصف إلَّا خالق السموات والأرض عز وجل؛ ولهذا قال: {ما من إله إلَّا الله}. وكلمة {الله} هي علم خاص بالرب عز وجل لا يسمَّى به غيره ولا يوصف به غيره؛ وهو في الأصل {إله} لكن لكثرة الاستعمال حذفوا الهمزة وقالوا: {الله}؛ كما حذفوا الهمزة في قولهم: (الناس) وأصله (أناس).

قال الطبري: واعلم أنَّه ليس للخلق معبودٌ يستوجبُ عليهم العبادةَ بملكه إيَّاهم إلَّا معبودك الذي تعبُدُه، وهو الله العزيز الحكيم.

قال ابن العثيمين: {وإنَّ الله لهو العزيز الحكيم}: ففيها توكيد بثلاث أدوات: {إنَّ}، وال{لام} وضمير الفصل؛ كما قلنا آنفًا إنَّ ضمير الفصل تفيد الحصر، فيكون: {لهو العزيز الحكيم}: يعني لا غيره، {وإنَّ الله لهو} لا غيره {العزيز الحكيم}، {العزيز}: من أسماء الله سبحانه وتعالى، وله العزَّة جميعًا: {قل لله العزَّة جميعًا}. والعزَّة قال العلماء: إنَّها ذات ثلاث معاني: عزَّة بمعنى القدر؛ وعزَّة بمعنى القهر والغلبة؛ والثالث: عزَّة بمعنى الامتناع. العزَّة بمعنى القدر: يعني أنَّه عز وجل ذو قدر عظيم لا يقدره إلَّا الله عز وجل؛ ومنه قول القائل: فلان عزيز عليَّ، يعني له قدر عندي؛ فالله تعالى عزيز، بمعنى ذو قدر رفيع عظيم؛ هذه عزَّة القدر. وعزَّة القهر: أي أنَّه عز وجل هو الغالب الذي لا يغلب؛ ومنه قوله تعالى: {فقال أكفلنيها وعزَّني في الخطاب}: أي غلبني في الخطاب؛ فهذه عزَّة الغلبة؛ ويقول الشاعر الأول:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

والثالث: عزَّة الامتناع، أي أنَّه ممتنع أن يناله سوء؛ ومنه قولهم: أرض عزاز لقوَّتها وصلابتها.

و{الحكيم}: مشتقَّة من الحكم والإحكام، وكل عزيز إذا اقترن في عزَّته الحكمة والحكم كملت عزَّته؛ وذلك لأنَّ العزيز إذا غلب ولم يكن له الحكمة أدَّاه غلبته إلى الطيش وعدم ضبط النفس؛ فإذا اجتمعت العزَّة والحكمة كمل الموصوف بهما؛ فهو سبحانه وتعالى حاكم، ولا حاكم غيره، وهو المحكم، أي المتقن لما حكم به، سواء كان الحكم كونيًّا أو شرعيًّا؛ والحكمة أو الإحكام الذي بمعنى الإتقان هو وضع الشيء في موضعه اللائق به بحيث لا يقال إنَّ هذا غير لائق أو غير موافق؛ بل يكون موافقًا به مطابقًا لما تقتضيه المصلحة.

والحكم نوعان: حكم كوني وحكم شرعي؛ فالحكم الكوني ما قضى به الله قدرًا؛ والحكم الشرعي ما قضى به شرعًا. والفرق بينهما ظاهر: الحكم الشرعي ما قضاه شرعًا وجاءت به الرسل، ويتعلَّق فيما يحبُّه الله عز وجل فعلًا أو تركًا؛ فإن نهى عن شيءٍ فهو يحب تركه، وإن أمر بشيءٍ فهو يحب فعله؛ ويمكن أن يتخلَّف الحكم الذي حكم الله به، أي يمكن أن يقع ويمكن أن لا يقع. والحكم الكوني ما قضاه الله تعالى قدرًا، ويتعلَّق فيما يحب، وما لا يحب، ولا يمكن أن يتخلَّف، لابدَّ أن يكون؛ لابدَّ أن يقع.

والحكم الكوني والشرعي كلاهما مقرون بالحكمة؛ لأنَّ الله حاكم محكم؛ فلا يمكن أن يكون يحكمه إلَّا على وفق الحكمة؛ والحكمة إمَّا في الصورة والهيئة وإمَّا في الغاية؛ وكلاهما أيضًا موجود في الشرع والقدر، يعني شرعًا وكوناً؛ فالمخلوقات وجودها على هذا الوصف والهيئة التي هي عليه الآن موافق للحكمة. يعني لو تفكَّر في الكليات والجزئيات، فكِّر في الإنسان كونه على هذا الوصف لاشكَّ أنَّه موافق للحكمة، ثمَّ فكِّر في أجزائه الصغيرة والكبيرة تجدها كلُّها موافقة للحكمة. والشرع نجدها أيضًا موافقًا للحكمة؛ إن نظرت إلى الصلاة وإذا في غاية الحكمة، روضة من رياض العبادات، قيام، قعود، ركوع، سجود وقراءة؛ تسبيح، تعظيم، ودعاء، روضة {فيها من كلِّ زوج بهيج}، وإن نظرت إلى الزكاة فكذلك؛ الصيام؛ الحج؛ كل العبادات تجد أنَّها مطابقة للحكمة في الهيئة التي هي عليها؛ ثمَّ الغاية من هذا الخلق، أو من هذا الشرع لاشكَّ أنَّه غاية حميدة يحمد الله عز وجل عليها {وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلَّا بالحق}، فالغاية من خلق السموات والأرض غاية حميدة، والغاية من الشرع غاية حميدة، لا صلاح للعباد إلَّا بالشَّرع الذي يشرعه الله له؛ حينئذ نقول: بناء على ذلك يتبيَّن أنَّ القول في {الحكيم} يتضمَّن أربع حالات: حكم كوني وحكمة صورية وغائية؛ حكم شرعي وحكمة صورية وغائية؛ الأقسام أربعة كلُّها مأخوذة من قوله: {وإنَّ الله لهو العزيز الحكيم}.

قال الطبري: ويعني بقوله: {العزيز[١]}، العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، وادعى معه إلهًا غيرَه، أو عبد ربًّا سواه، {الحكيم[٢]} في تدبيره، لا يدخل ما دبَّره وَهَنٌ، ولا يلحقه خللٌ.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

قال أبو زهرة: معناه أنَّ الله سبحانه وتعالى المنفرد بالألوهية وحده هو العزيز الغالب الذي لَا يقهر، الحكيم الذي يدبِّر كلَّ شيءٍ بكمال سلطانه وسيطرته على هذا الوجود الذي لَا ينازعه السلطان فيه غيره كائنا من كان. وإنَّ الجملة السامية فيها تأكيد لمعنى العزَّة والسلطان الكامل بالتعبير بإن، وباللام، وبضمير الفصل، وبتعريف الطرفين.

وفى هذا الكلام ردٌّ على أولئك الذين يزعمون أنَّ المسيح إله، ويعتقدون مع ذلك أنَّه غُلب على أمره وصُلب ولم يستطع لنفسه حولًا ولا طَولًا، ولا حيلةً يخرج بها من ذلك المأزق، ولكن هكذا يعتقدون، وبه يؤمنون.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تأكيد أنَّ ما أخبر الله به عن عيسى بن مريم هو الحق. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ كلُّ ما خاله ممَّا تكلَّمت فيه النصارى في شأن عيسى فهو كذب باطل لا يوافق الواقع.

٢- أنَّ من بلاغة الكلام أن يكون مطابقًا للواقع، أو موافقًا لمقتضى الحال، وجه ذلك: أنَّ هذه الجملة: {إنَّ هذا لهو القصص الحق} أكِّدت بثلاثة مؤكِّدات؛ لأنَّ المقام يقتضي هذا؛ إذ أنَّ دعاية النصارى قوية لا يبطلها إلَّا كلام مؤكَّد إمَّا بالمقال، وإمَّا بالحال؛ وهكذا ينبغي لكلِّ إنسان يتكلَّم بكلام، تقتضي الحال أن يكون مؤكَّدًا، فإن مقتضى البلاغة أن يؤكِّده.

٣- أنَّ القصص من حيث هو من قطع النظر عن القاص قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا كذبًا؛ يؤخذ من وصف القصص بالحق؛ لأنَّ الأصل في الصفة أن تكون مخرجة لما عدا الموصوف، هذا الأصل؛ ولهذا لو جاءت صفة غير مخرجة لموصوف يسمُّونها صفة كاشفة لا مانعة، إذًا نقول: {القصص الحق} الأصل أنَّ {الحق} صفة مانع؛ يعني تمنع ما سواه؛ وعلى هذا فتكون الأخبار فيها كذب وفيها صدق من حيث هي خبر؛ وإنَّما قيَّدنا ذلك بقولنا: من حيث هي خبر، يخرج بذلك خبر الله ورسوله، فإنَّه لا يحتمل الكذب بوجه من الوجوه.

٤- أنَّه لا إله في الوجود إلَّا الله؛ ولكن المراد لا إله حق؛ ويتعيَّن أن يكون ذلك هو المراد؛ لأنَّ هناك آلهة موجودة تعبد من دون الله وتسمَّى آلهة، وينكر حصر الآلهة بواحد؛ قالت قريش في مخاطبتها للنبي ﷺ: {وقال الكافرون هذا ساحر كذَّاب أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنَّ هذا لشيء عجاب}، الله أكبر، العجاب أن تكون الآلهة إلهًا واحدًا؟ أو أن تكون الآلهة متعدِّدة؟ الثاني هذا العجاب؛ أمَّا أن يكون الإله واحدًا فهذا هو الصواب؛ لكن هم مكابرون؛ على كل حال لا يوجد في الكون إله حق؛ يجب أن نقيد هذا، إله حق سوى الله عز وجل؛ أمَّا الآلهة الباطلة فهي آلهة باطلة؛ وإن سمِّيت آلهة فهي كما قال الله تعالى: {إن هي إلَّا أسماء سمَّيتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان}.

٥- أنَّ سلامة العقيدة فيها الراحة التَّامَّة؛ لأنَّك إذا سلَّمت عقيدتك وآمنت بأنَّه ما من إله إلَّا الله، فإنَّك لن تتَّجه إلى من سوى الله؛ ولاشك أنَّ هذا راحة؛ انحصار الهدف والمقصود من أكبر أسباب راحة الإنسان؛ إذا تعدَّدت الأهداف والمقاصد

تبلبل الإنسان؛ ولهذا يذكر عن عمر بن الخطاب أنَّه قال: (من بورك له في شيء فليلزمه): أيُّ شيء بارك لك فيه وترى إنَّك مطمئن فيه، سيارة، بيت، زوجة، صاحب، أي شيء فالزمه.

على كل حال إذا كانت العقيدة سليمة بأن لا يتَّجه الإنسان إلَّا إلى الله، ولا يعبد إلَّا الله فإنَّه يجد الرَّاحة التَّامَّة؛ ولهذا قال: {وما من إله إلَّا الله} وفي هذا ردٌّ على النصارى الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة؛ لأنَّه قال: {وما من إله إلَّا الله}. والعجيب أن من سفه النصارى وضلالهم يقولون: الآلهة ثلاثة لكنَّها واحد؛ كيف ثلاثة واحد؟ هل يمكن الثلاثة واحد؟ إذا جعلت الثلاثة واحد صار ثلث، صاروا إله ثلث، وإله الثاني ثلث، وإله الثالث ثلث؛ أمَّا أن يكون كل واحد مستقلًّا ثم تقول هم واحد هذا مكابرة للمعقول؛ إذًا في الآية الكريمة {وما من إله إلَّا الله} ردٌّ على النصارى الذين يقولون إنَّ المسيح عيسى بن مريم إله.

٦- إثبات العزَّة؛ بل تمام العزَّة لله؛ لقوله: {وهو العزيز} و{أل} هنا تفيد الاستغراق أي جميع أنواع العزَّة ثابتة لله سبحانه وتعالى.

٧- إثبات الحكمة لله في قوله: {الحكيم} وإثبات الحكم أيضًا. فيتفرَّع على هذا أنَّه لا حاكم إلَّا الله، الحكومة السلطانية القدرية، والحكومة الشرعية هي لله وحده؛ فمن سيطر على الخلق بالحكم السلطاني ولم يراقب الرب، فقد جعل نفسه شريكًا لله في هذا الحكم؛ ومن شرع للناس قوانين مخالفا لشرعه فقد جعل نفسه شريكا مع الله، واتخذ لنفسه منصبا لا يستحقه؛ لأنَّ الذي يشرع ويحكم هو الله عز وجل {وإنَّ الله لهو} لا سواه {العزيز الحكيم}. ويتفرَّع على هذا أيضًا: أنَّ واجبنا نحو أحكام الله الكونية والشرعية التسليم والرضا والقناعة وأن لا نطلب سواه؛ لأنَّنا نعلم أنَّها مبنيَّة على الحكمة؛ ولهذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم إذا قضى الله؛ بل كل مؤمن ما هو السلف الصالح فقط كل مؤمن إذا قضى الله ورسوله أمرًا لم يكن لهم الخيرة من أمره؛ حتى إنَّهم يجيبون إذا سئلوا عن الحكمة يجيبون بقال الله وقال الرسول؛ عائشة لمَّا سألتها المرأة: ((ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة[١])؛ والمؤمن حقًّا، العابد حقًّا، هو الذي يقتنع بما لا يعرف حكمته كما يقتنع بما يعرف حكمته، أمَّا لا يقتنع بحكم الله إلَّا إذا عرف حكمته فهو في الحقيقة ليس عابد لله على وجه الكمال؛ بل عابد لهواه، إن تبيَّن له الحكمة اقتنع وإن لم تتبيَّن لم يقتنع؛ ولهذا نرى أن في إيجاب رمي الجمرات وهي الحصا في مكان معين نرى أن فيها مع إقامة ذكر الله عز وجل الذي نصَّ عليه الرسول ﷺ تمام العبودية وكمالها؛ لأنَّ كون الإنسان يحمل حصا يرميها في مكان معين تعبُّدًا لله هذا من كمال العبودية. كون الإنسان مثلًا يصلِّي رجاء للثواب في الصلاة، أو يتجنَّب الزنا خوفًا من الله واضح الحكمة فيها؛ لكن كونه يرمي الحجرات الحصاة في مكان معين قد لا تتبع الحكمة لو لا أنَّ الرسول أخبرنا بأنَّها لإقامة ذكر الله وفيها تمام العبودية؛ فالمهم أنَّك متى آمنت بأنَّ الله له الحكمة في حكمه الكوني والشرعي ازددت القناعة والرضا بما حكم به؛ أمَّا

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٠٠)، وقال: أخرجه مسلم (١/١٨٢)، وأبو عوانة فى صحيحه (١/٣٢٤)، وأبو داود (٢٦٢)، والنسائى (١/٣١٩)، والبيهقي (١/٣٠٨)، وأحمد (٦/٢٣١ . ٢٣٢).

الحكم الكوني سينفذ عليك رضيت أو ما رضيت؛ لكن الشأن كلّ الشأن في الحكم الشرعي هو الذي باختيارك؛ أمَّا الكوني فليس باختيارك سيكون عليك مهما كان الأمر.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ {٦٣}

قال أبو زهرة: أي فإن أعرضوا ولم يبتهلوا لتكون لعنة الله على الكاذبين، وكلمة الحق هي الغالبة المسيطرة، فاعلم أنَّهم ليسوا طلاب حقٍّ وهداية ولكنَّهم دعاة باطل، وفي دعاوى الباطل يكون الفساد في الأرض؛ لأنَّه لَا فساد في الأرض أكثر من فساد الاعتقاد، فإنَّ فساد الاعتقاد، يدفع إلى فساد العمل.

قال ابن العثيمين: {فإن تولَّوا}: الضمير يعود على هؤلاء النصارى الذين طلب منهم النبي ﷺ المباهلة، {فإن تولَّوا}: يعني عن المباهلة، وعن إتِّباعك يا محمد، فإنَّما هم مفسدون؛ ولهذا قال: {فإنَّ الله عليم بالمفسدين}، ولم يقل: عليم بهم؛ بل أظهر في موضع الإضمار؛ الإظهار في موضع الإضمار له فوائد:

الفائدة الأولى: التسجيل أو انطباق الوصف في هذا المظهر على من يعود عليه؛ فكأنَّه قال: فإن تولَّوا فإنَّ الله عليم بهم؛ لكن وصفهم بالفساد.

الفائدة الثانية: العموم؛ لأنَّه لوجاء الضمير هنا حسب السِّياق فإنَّ الله عليم بهم، اختصَّ العلم بهم هُم؛ فإذا قال: {بالمفسدين}، صار عامًّا فيهم وفي غيرهم.

الفائدة الثالثة: أنَّ هذا الفعل الذي حصل من هؤلاء الذين جعل الإظهار في موضع الإضمار عنهم، هو نوع من هذا الوصف الذي عبَّر به في موضع الضمير يعني أنَّ فعلهم فساد وهو التولِّي والإعراض عن دين الله.

قال الطبري: فإن أدبر هؤلاء الذين حاجُّوك في عيسى، عمَّا جاءك من الحق من عند ربك في عيسى وغيره من سائر ما آتاك الله من الهدى والبيان، فأعرضوا عنه ولم يقبلوه {فإن الله عليم(١)بالمفسدين}، يقول: فإنَّ الله ذو علم بالذين يعصون ربَّهم، ويعملون في أرضه وبلاده بما نهاهم عنه، وذلك هو إفسادهم. يقول تعالى ذكره: فهو عالم بهم وبأعمالهم، يحصيها عليهم ويحفظها، حتى يجازيهم عليها جزاءَهم.

قال أبو زهرة: وهذه الجملة السامية تتضمَّن في ذاتها تهديدًا شديدًا، إذ إنَّ الله تعالى إذا علم بالمفسد لَا يسكت عنه، ولا يتركه يعيث في الأرض فسادًا، بل إنَّه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، ويوم القيامة يأخذه بالنَّواصي والأقدام، وكذلك الشأن في كلِّ من يعرضون عن الحق إذا دعوا إليه.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تهديد من تولَّى عن دين الله عز وجل؛ ووجه ذلك: قوله: {فإنَّ الله عليم بالمفسدين}، لأنَّ المقصود من ذكر علمهم بهم تهديده؛ وأنَّه لا يخفى عليه حالهم وسيعاقبهم بما تقتضيه حالهم.

٢- أنَّ التَّولِّي عن دين الله فساد، كما قال الله تعالى: {ظهر الفساد في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس}. وهل التَّولِّي نفسه فساد أو أنَّه سبب للفساد؟ الجواب على هذا أن نقول: هو فساد وسبب للفساد؛ ووجه كونه فسادًا أنَّه إذا تولَّى عن دين الله حلَّ محلَّه ما سواه؛ ومعلوم أنَّ دين الله صلاح وما سواه فساد؛ ولهذا نجد القوانين المحكمة في عباد الله لا يصلح الخلق منها إلَّا ما وافق الشرع؛ وأمَّا ما خالف الشرع فإنَّه فساد مهما كان واضع القوانين في الذَّكاء والفهم لأحوال الناس، فإنَّهم إذا وضعوا القوانين الذي يخالف شرع الله، فإنَّه فساد في كل حال؛ إذًا نفس التَّولِّي فساد، ثمَّ هو أيضًا سبب للفساد؛ لأنَّ القحط وضيق الرزق والفتن كلُّها سببها المعاصي، قال الله تعالى: {ظهر الفساد في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلَّهم يرجعون}، وقال الله تعالى: {ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}، وقال الله تعالى: {وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كلِّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقه الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}؛ إذًا فالتَّولِّي عن شريعة الله فساد وسبب للفساد.

٣- أنَّ كلُّ من تولَّى عن دين الله فهو مفسد وإن زعم أنَّه مصلح؛ لقوله: {فإنَّ الله عليم بالمفسدين}، ولهذا قال كثير من المفسرين في قوله تعالى: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها}: أي لا تفسدوها بالمعاصي؛ فكلُّ عاصٍ فهو مفسد شاء أم أبى؛ وكل مطيع لله فهو مصلح؛ لأنَّ بضدِّها تتبيَّن الأشياء؛ فإذا كان العاصي مفسدًا فالطائع مصلح؛ لكن الطائع في الحقيقة قد يكون صالحًا بنفسه غير مصلح لغيره، وقد يكون صالحًا لنفسه مصلحًا لغيره؛ فإذا كان عابدًا داعيًا إلى الله صار صالحًا مصلحًا، وإذا كان عابدًا غير داعيًا لله صار صالحًا غير مصلح، لكنَّه ليس على وجه التَّمام في الصلاح، لأنَّ من تمام الصلاح أن تدعوا إلى الله عز وجل.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {٦٤}

قال ابن العثيمين: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} الخطاب في قوله: {قل}، للرسول ﷺ؛ وقد مرَّ بنا قاعدة: أنَّ الله تعالى إذا صدَّر الشيء ب{قل} الموجَّه للرسول ﷺ فإنَّه يقتضي زيادة العناية به؛ لأنَّه أمر بأن يبلغ هذا

الشيء لخصوصه؛ وإلَّا فجميع القرآن مأمور به النبي ﷺ أن يقوله؛ {قل يا أهل الكتاب}، {أهل الكتاب}: يعني بهم اليهود والنصارى، وعلى هذا فالمراد بالكتاب الجنس، ليكون شاملًا للتوراة والإنجيل؛ فيا أهل الكتاب، يعني يا أهل التوراة والإنجيل؛ وإنَّما خاطب هؤلاء بأهل الكتاب، أو وصفهم بذلك، لأنَّه لا يوجد كتب منزَّلة باقية آثارها إلَّا التوراة والإنجيل؛ ولهذا سمُّوا أهل الكتاب، وإلَّا فإنَّه ما من رسول إلَّا ومعه كتاب يدعوا به، كما قال الله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم}: يعني مع الرسل {الكتاب والميزان}، لكن الكتب التي بقيت وإن كان فيها شيء من التغيير هي التي عند اليهود والنصارى.

هنا لو قال لنا قائل: {أهل الكتاب} فسِّرها بمرادها وبلفظها؟ نقول نفسِّرها بلفظها: أي يا أصحاب الكتاب، يا من حملتم الكتاب؛ هذا يسمَّى التفسير لفظًا؛ أمَّا تفسير المراد، يعني مراده اليهود والنصارى؛ فالتَّفسير اللفظي هو الذي يفسِّر الكلمة بقطع النظر عن المراد بها؛ وتفسير المراد الذي هو مقصود الكلام، من يراد بالكلام.

{تعالوا}: يعني أقْبِلوا؛ و(تعال)، فعل أمر وليس اسم فعل خلافًا لمن زعم من النحويين أنَّها اسم فعل؛ والدليل على أنَّها فعل: يعني لاتصال الضمير بها، واسم الفعل لا يتَّصل به الضمير؛ تقول تعالوا للجماعة؛ تعاليا للمثنى؛ تعاليين لجماعة الإناث؛ تعالي للواحدة؛ فإذًا هي فعل، يعني أقبلوا؛ بخلاف هلم، هلم هذه اسم فعل؛ الدليل؟ لأنَّها لا تتغيَّر ولا يلحقها الضمير {والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا} ولم يقل: (هلمُّوا إلينا)؛ {تعالوا}: أقبلوا إلينا؛ إلى كلمة، وفسَّرها بقوله: {ألَّا نعبد إلَّا الله}؛ لكن وصف هذه الكلمة قبل أن يفسِّرها ب{سواء}، سواء يعني عدل؛ لأنَّ سواء هنا مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي مستوية ليس فيها حيل؛ مستوية بيننا وبينكم، والمستوية بين الضِّدِّ وضدِّه، يعني أنَّها عدل ليس فيها جنف من هؤلاء ولا من هؤلاء، سواء؛ إذًا {سواء}: مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي مستوية بيننا وبينكم، يعني: عدل، لا فيها ميل لنا، ولا ميل لكم؛ الضمير في {بيننا} يعود على المسلمين، {وبينكم} الضمير يعود على أهل الكتاب؛ والكلمة هي: {ألَّا نعبد إلَّا الله}، هذه الكلمة {سواء}، كلُّ الرسل من نوح إلى محمد ﷺ متَّفقون على هذه الكلمة؛ {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلَّا نوحي إليه أنَّه لا إله إلَّا أنا فاعبدون}، فإذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام متَّفقين على هذه الكلمة، إذًا فإذا دعوناكم إليها فهذا عدل، هي {ألَّا نعبد إلَّا الله}، وعلى هذا فيكون موضع قوله: {ألَّا نعبد إلَّا الله} الجرّ على أنَّها عطف بيان ل{كلمة}؛ ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هي {ألَّا نعبد}: أي لا نخضع ولا نذلَّ الذُّلَّ المطلق إلَّا لله وحده عز وجل؛ لأنَّ العبادة يراد بها الذُّلُّ والخضوع الكامل المطلق، ويراد بها المتعبَّد به، يعني تطلق على معنيين: تطلق على فعل العبد، وتطلق على مفعول العبد؛ فإذا كانت على فعله فهي التذلُّل والخضوع، وإذا كانت على مفعوله فهي العبادات التي يقوم بها والتي فسَّرها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: اسم جامع لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه. وهنا {ألَّا نعبد}، إمَّا أن يقال بشمولها للمعنيَين، وإمَّا المراد بها فعل العبد، يعني ذلَّ العبد وخضوعه؛ {إلَّا الله} وحده؛ واستفدنا الوحدانية هنا من الحصر؛ وإذا جاء الكلام بهذه الصيغة نفي

وإثبات صار دالًّا على الحصر. يخالف في هذا النصارى، لا يعبدون الله وحده؛ يعبدون عيسى وأمَّه؛ وكذلك اليهود قالوا عزير ابن الله.

{ولا نشرك به شيئًا}، {لا نشرك}: الإشراك معناه التسوية؛ و{شيئًا}: نكرة في سياق النفي فتعمُّ كلَّ شيء؛ وهذا تحقيق للتوحيد؛ لأنَّ المراد بهذا النفي، إثبات كمال الضِّد؛ فهنا المنفي الإشراك، لإثبات كمال الضِّد وهو التوحيد، أي أن نعبده عز وجل عبادة لا شرك فيها؛ وذلك أنَّ العبادة قد يكون فيها شرك، قد يكون الإنسان عابدًا لله لكن العبادة مخلوطة بالشرك؛ فإذا قلت: أعبد ربك ولا تشرك به، صارت عبادة خالية من الشرك؛ ولهذا نار الجملة الثانية {ولا نشرك به شيئًا} نارها من حيث المعنى توكيدًا للتوحيد في قوله: {ألَّا نعبد إلَّا الله}، وقوله: {شيئًا}: يشمل أي شيءٍ كان من بشر، أو ملك، أو جن، أو جماد، أي شيء؛ واستفدنا هذا العموم من أنَّها نكرة في سياق الشرط؛ في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي للعموم.

أضرب لكم مثلًا يبيِّن لكم هذا: إذا قلت لك: (افعل شيئًا)، ففعلت شيئًا من الأشياء وتركت أشياء هل هذا للعموم؟ لا؛ شيئًا ما هي للعموم؛ لأنَّها نكرة، لكنها في سياق الإثبات؛ وإذا قلت: (لا تفعل شيئًا)، صارت للعموم، يعني: أيُّ شيءٍ تفعله فأنت مخالف؛ ولهذا من قواعد الأصول عندهم أنَّ النَّكرة في سياق الإثبات للإطلاق، والنَّكرة في سياق النفي للعموم.

ونأتي بمثال أوضح: (أعتق رقبة)، هذا للإطلاق، يعني: أيّ رقبة تكون أعتق يحصل المقصود؛ (لا تعتق رقبة)؛ هذا للعموم لو عتقت أيَّ رقبة فأنت مخالف، وذاك لو أعتقت أي رقبة أجزأ فالفرق هو هذا.

قال السعدي: فنفرد الله بالعبادة ونخصَّه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيًّا ولا ملَكًا ولا وليًّا ولا صنمًا ولا وثنًا ولا حيوانًا ولا جمادًا.

قال ابن العثيمين: {ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله}: يعني لا تتَّخذونا نحن نحرِّم ونحلِّل ونفرض عليكم ما نحلِّل ونحرِّم؛ ولا تفرضوا علينا أنتم ما تحلِّلون وتحرِّمون؛ لأنَّ الذي يحلِّل ويحرِّم ويطاع قد اتُّخِذَ ربًّا كما جاء في الحديث في قوله تعالى: {اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله}، قال عدي بن حاتم: ((يا رسول الله إنَّا لسنا نعبدهم؛ قال: أليس يحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه ويحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه؟ قال: نعم؛ قال: فتلك عبادتهم([1]))).

والأمر ظاهر، طاعة الغير في التحليل والتحريم شرك في الطاعة والتشريع؛ فهو يقول: (نعبد الله ولا نشرك به شيئًا)، هذه باعتبار العبادة؛ (لا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله)، هذا باعتبار التشريع، يعني: لا نلزمكم بما نقول ولا تلزمونا بما تقولون؛ إذًا من المرجع؟ ولهذا قال: {من دون الله}. أمَّا إذا كان بالله فأنتم تلزموننا ونحن نلزمكم؛ نحن لم نقل: اجعلونا ربًّا نفرض عليكم ما نشاء، أو نجعلكم ربًّا تفرضون علينا ما تشاءون من دون الله؛ لكن إذا كان هذا بإذن الله ووحيه وشرعه واجب عليكم؛ وهذا هو تمام العدل والإنصاف في المحاجَّة والمناظرة، أن تكون الكلمة سواء لا نجنف ولا يجنف علينا.

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣)، وقال: أخرجه البخاري في التاريخ (١٠٦/١/٤)، والترمذي في السنن (٣٠٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٨/٩٢/١٧ و ٢١٩)، وابن جرير في التفسير(١٠/ ٨٠- ١٨)، والبيهقي في السنن (١١٦/١٠).

قال القرطبي: وهذا يدلُّ على بطلان القول بالاستحسان المجرَّد الذي لا يستند إلى دليل شرعي؛ قال الكيا الطبري: مثل استحسانات أبي حنيفة في التقديرات التي قدَّرها دون مستندات بيِّنة. وفيه ردٌّ على الروافض الذين يقولون: يجب قبول قول الإمام دون إبانة مستند شرعي، وإنَّه يحلُّ ما حرَّمه الله من غير أن يبيِّن مستندًا من الشريعة. و{أربابًا} جمع رب. و{دون} هنا بمعنى غير.

قال ابن العثيمين: {فإن تولَّوا}: أعرضوا ولم يأتوا لهذه الكلمة السواء، فأعلنوها أنتم من أجل أن يبوئوا بالإثم؛ ولهذا قال: {فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون}: يعني منقادون لله تمام الانقياد، ولن نعبأ بكم؛ فصارت هذه الآية تدعوا اليهود والنصارى إلى العبادة، إلى التوحيد والإسلام، وإلى العدل، تفضَّلوا احضروا {تعالوا الى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألَّا نعبد إلَّا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله}، هذا هو العدل؛ {فإن تولَّوا}، فإنَّهم لا يريدون الخير، أعلنوها أنتم {فقولوا اشهدوا}، لاحظ التَّحدِّي {اشهدوا بأنَّا مسلمون}؛ وإذا أشهدناهم بأنَّنا مسلمون، فهو إعلان بأنَّهم غير مسلمين، إذ لو كانوا مسلمين لانقادوا لهذه الكلمة السواء بيننا وبينهم، ومعلوم أنَّهم لو انقادوا لهذه الكلمة، لزمهم أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ؛ لأنَّ الذي جاء بالعبادة الصحيحة هو محمد ﷺ.

قال القرطبي: {فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}: أي متَّصفون بدين الإسلام منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا في ذلك من المنن والإنعام، غير متَّخذين أحدًا ربًّا لا عيسى ولا عزيزًا ولا الملائكة؛ لأنَّهم بشر مثلنا محدث كحدوثنا، ولا نقبل من الرهبان شيئًا بتحريمهم علينا ما لم يحرِّمه الله علينا، فنكون قد اتَّخذناهم أربابًا.

قال السعدي: ولعلَّ الفائدة في ذلك أنَّكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجَّة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجَّة على المعاندين، وأيضًا فإنَّكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويَّتهم، كما قال تعالى {قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرُّون للأذقان سجَّدًا} الآية؛ وأيضًا فإنَّ في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية ممَّا يوجب للمؤمن أن يجدِّد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارًا بيقينه وشكرًا لنعمة ربه.

قال ابن كثير: في شرح البخاري، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أنَّ أبا سفيان كان إذ ذاك مشركًا لم يسلم بعد، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، كما هو مصرَّح به في الحديث، ولأنَّه لمَّا قال هل يغدر؟ قال: فقلت: لا ونحن منه في مدَّة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: ولم يمكنِّي كلمة أزيد فيها شيئًا سوى هذه. والغرض أنَّه قال: ثمَّ جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتَّبع الهدى. أمَّا بعد، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن تولَّيت فإنَّ عليك إثم الأريسيين، و {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء

بيننا وبينكم ألَّا نعبد إلَّا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون} ([1]))).

قال خالد بن عبد الله بن محمد المصلح في شرح العقيدة الطحاوية: (دعوة النبي عامَّة للإنس والجن): لقد بيَّن النبي ﷺ أنَّه مبعوث إلى الناس كافَّة؛ وهذا يوجب على كلِّ أحد يبلغه خبر النبي ﷺ أن يتبعه وينقاد له، ويشهد له بالرسالة ﷺ.

وممَّا يدلُّ على عموم رسالة النبي ﷺ: أنَّ الله أمره بمخاطبة اليهود والنصارى، وهم بقيَّة من الأمم السابقة الذين معهم كتب، وخاطبهم ﷺ وأمرهم بالاستجابة إليه: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[آل عمران: ٦٤].

فكلُّ من لم يأت بما أمر به النبي ﷺ من الإقرار له بالرسالة فهو كافر بالله العظيم، وما يدَّعيه أهل الكتاب من أنَّ رسالة النبي ﷺ خاصة بالعرب أو بالأمِّيِّين فهو كذب وضلال، وهذا في الحقيقة طعن وتكذيب للنبي ﷺ، فأهل الكتاب الذين يقولون: نحن نؤمن بالنبي محمد ﷺ لكنَّه خاص بالعرب، هؤلاء كاذبون مكذِّبون للنبي ﷺ ؛ لأنَّ النبي ﷺ أخبر – وهو لا ينطق عن الهوى– بعموم رسالته، وإنَّما نحتاج إلى تقرير هذا حتى نردَّ على الذين يقولون في هذه الأزمان المتأخِّرة: اليهود على حق والنصارى على حق، ويسوون بين أهل الإسلام وغيرهم من أهل الكتاب ولا سواء؛ فهؤلاء يؤمنون بالله الواحد القهار الذي لا إله غيره، ويصدِّقون النبي ﷺ بالرسالة وبما جاء به، وأولئك يكذِّبونه في الأصلين، فهم يشركون بالله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: ٣٠]، ويكذِّبون النبي ﷺ حيث قالوا: إنَّه إنَّما بعث للعرب خاصة وليس لعموم الناس.

وأمَّا عموم رسالة النبي ﷺ للجن، فذلك مستفاد من سورة الجن، فإنَّ سورة الجن الدلالة فيها ظاهرة في مواضع عديدة على أنَّ النبي ﷺ مبعوث إليهم، ويدلُّ على ذلك أيضًا ما ذكره الله جل وعلا في سورة الأحقاف حيث قال سبحانه وتعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ}[الأحقاف: ٢٩]، أي: قضيت قراءة القرآن وقضي سماعه {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}[الأحقاف: ٢٩]، منذرين بأيِّ شيء؟ بما سمعوه وتلقَّوه عن النبي ﷺ، ثمَّ قالوا لمَّا ولَّوا إلى قومهم منذرين وبيَّنوا وجه الإنذار: {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى}[الأحقاف: ٣٠]، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا متعبِّدين لله، أو أنَّ منهم من كان يعبد الله بشريعة موسى عليه الصلاة والسلام: {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ}[الأحقاف: ٣٠– ٣١]، فهذا فيه وجوب اتِّباع ما جاء عن النبي ﷺ، ووجوب الانقياد لما سمعوه من القرآن العظيم.

١– صحيح: قصة هرقل مع أبي سفيان رواها البخاري مطولة في صحيحه برقم (٧).

ولا ريب أنَّ الجن مخاطبون برسالة النبي ﷺ، وعلى هذا دلَّ الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمَّة، ولا خلاف بينهم في أنَّ الجن مخاطبون بدعوة النبي ﷺ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أمر الرسول ﷺ أن يدعوا أهل الكتاب إلى هذه الكلمة السواء؛ لقوله: {قل يا أهل الكتاب}.

وهنا سؤال: هل الرسول قال ذلك؟ نعم قالها حتى كان يكتب بها إلى الملوك، من كمال أدبه؛ إذا قال: {قل يا أهل الكتاب} فكأنَّه يقول: إنما كتبت لكم هذه الآية بأمر الله؛ لكن لو قال: {يا أهل الكتاب} بدون {قل}، لكان فيه احتمال أنَّه كتبها من عند نفسه؛ المهم أنَّ الرسول ﷺ قال ذلك، ودعاهم إلى هذه الكلمة؛ لكنَّهم أبوا وامتنعوا؛ لأنَّهم مصرُّون معاندون، إلَّا من هدى الله من النصارى أقوامًا، ومن اليهود أقوامًا، ومن المشركين أقوامًا.

٢- التنزُّل مع الخصم لإلزامه بالحق؛ لأنَّه قال: {سواء بيننا وبينكم} مع أنَّ الحق مع الرسول ﷺ؛ لكن من أجل إلزام الخصم وإقامة الحجَّة عليه أتنزَّل معه.

٣- وجوب استعمال العدل في المناظرة حتى مع العدو؛ لأنَّ الرسول أمر بأن يعلن هذا؛ وإذا كان هذا واجبًا في مناظرة المسلمين مع الكفار، فهو في مناظرة المسلمين بعضهم مع بعض أوجب وأوكد؛ ولهذا نقول: من الخطأ العظيم أنَّ بعض الناس إذا رأى رأيًا قال إنَّ ما سواه خطأ، يخطِّأ غيره. وقد يكون خطأ باعتبار اعتقاده، لا ننكر عليه، لأنَّه من المعلوم أنَّه إذا اختار ضدَّه فهو عنده خطأ ولا ينكر عليه؛ لكنَّ الإنكار أن يخطِّأ من قال به، وهذا فرق دقيق، فرق بين أن أعتقد أنَّ هذا القول خطأ ولا آخذ به، وبين أن أخطِّأ من قال به؛ لأنِّي إذا خطَّأته ادَّعيت العصمة لي والزَّلل له وهذا خطأ، ولهذا يجب في المناظرة بين المسلمين كما يجب في المناظرة بين المسلمين والكفار أن تكون بالعدل؛ من المعلوم أنَّ الميزان العدل في ذلك، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٤- أنَّ جميع الرسل متَّفقون على هذه الكلمة {أن لا نعبد إلَّا الله ولا نشرك به شيئًا} لأنَّها مادام كلمة سواء بيننا وبينهم، معناه أنَّها عندهم كما هي عندنا؛ وهذا هو الواقع، أنَّ جميع الرسل متَّفقون على هذه الكلمة؛ بل إنَّ الله قال في كتابه العظيم: {وما خلقت الجن والإنس إلَّا ليعبدون}، الذين خلقوا من آدم ومن قبل آدم من الجن، ما خلقوا إلَّا لهذا الأمر العظيم، لعبادة الله؛ ما خلقوا ليتمتَّعوا بالدنيا؛ ولكن لعبادة الله ومع هذا إذا عبدوا الله صلحت دنياهم؛ لكن لا يلزم من صلاح الدنيا صلاح

الدِّين، كما قال الرسول ﷺ: ((والله ما الفقر أخشى عليكم وإنَّما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم([1]))).

٥- أنَّ الحكم لله بين الناس؛ وأنَّه ليس لأحد أن يشرع من دون الله؛ لقوله: {ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله}.

٦- أنَّ الحكم بين الناس والعبادة مقترنان؛ لأنَّ الله قرن بينهما {لا نعبد إلَّا الله} {ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله} لأنَّك أنت لن تعبد الله إلَّا بشريعته؛ إذًا يلزم أن يكون المشرِّع هو الله المعبود؛ مادمت تعبد الله، فلن تعبد الله إلَّا بشريعته؛ وإذًا فالمشرع هو المعبود الذي يعبد؛ لأنَّه وضع طريقًا، قال اسلكوا هذا الطريق لتصلوا إليَّ؛ إذًا كلُّ طريقٍ يخالفه فلن يوصل إلى الله؛ وهذا وجه التَّلازم بين قوله: {ألَّا نعبد} وقوله: {ألَّا يتَّخذ} فإنَّ من اتَّخذ ربًّا من دون الله يتبعه في التحليل والتحريم، فإنَّه لم يعبد الله؛ لأنَّ عبادة الله لا تكون إلَّا بموافقة الشرع.

٧- أنَّ من دعى الناس إلى حِلٍّ أو حُرم بإذن الله وشرعه فهو على حق؛ تؤخذ من قوله: {من دون الله}؛ انتبهوا ما قال: {لا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا} وبس؛ قال: {من دون الله}؛ فإذا دعوتك إلى حِلٍّ أو تحريم بإذن الله، أقول: هذا شرع الله، فإنَّني لم أدعك أن تتَّخذني ربًّا؛ وإنَّما بيَّنت لك الطريق لتتَّخذ الربّ وهو الله عز وجل.

٨- أنَّه إذا تولَّى الخصم بعد إقامة الحجَّة عليه فإنَّه يعلن له بالبراءة منه والتزام الحق؛ لقوله: {اشهدوا بأنَّا مسلمون}.

٩- أنَّه ينبغي للمسلم أن يعتزَّ بدينه وأن يعلنه ويشهره خلافًا للضعفاء الذين عندهم ضعف الشخصية وقلَّة الدِّين الذين يتسترون بدينهم مخافة أن يعيَّروا به، حتى إنَّ بعضهم كما قيل لي يخجل أن يصلِّي بين الناس، يقول أخشى أن أنسب إلى الدِّين والعياذ بالله، وهذا يدلُّ على قلَّة الإيمان، وعلى ضعف الشخصيَّة.

١٠- إشهاد الخصم على الحال التي يكون عليها خصمه؛ لقوله: {اشهدوا بأنَّا مسلمون} لما في ذلك من الغضاضة عليه وكسر جبروته وعدم انقياده للحق.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {٦٥}

قال ابن العثيمين: الظاهر أنَّ هذه الآية منفصلة عمَّا قبلها وأنَّها من كلام الله عز وجل؛ يقول: {يا أهل الكتاب}: ويعني بهم اليهود والنصارى؛ ووصفوا وحدهم بذلك لأنَّهم هم الذين بقيت كتبهم قائمة يهتدى بها إلى أن بعث النبي ﷺ.

١- (قلت): البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٠٣٦)، وصحيح الترغيب والترهيب (٣٢٥٥)، والحديث بتمامه: عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ انصرف فتعرَّضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثمَّ قال: ((أظنُّكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين قالوا أجل يا رسول الله قال أبشروا وأمِّلوا ما يسُّركم فو الله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)).

{لم تحاجُّون في إبراهيم}: الاستفهام هنا للإنكار والتَّوبيخ؛ وكلُّنا يعلم أن قوله: {لم} اسم استفهام مجرور ب{اللام}، و{ما} استفهامية، إذا جرت بالحرف فإنَّها تحذف ألفها {لم} ليس فيها ألف؛ {عمَّ يتساءلون} ليس فيها ألف؛ (علام تفعل)، هذه أيضًا ليس فيها ألف، وتغيَّرت (على) من أجلها لأنَّ (على) تكتب ألفها ياء؛ لكنَّها إذا دخلت على ما استفهامية كتب ألفها ألفًا (علام).

قوله: {لم تحاجُّون}: أي تخاصمون؛ وسمِّيت المخاصمة محاجَّة لأنَّ كل واحد من المتخاصمين يدلي بحجَّته يريد أن يخصم صاحبه.

وقوله: {في إبراهيم}: أي في شأنه، وفي حاله وفي دينه، وليس المراد في ذاته لأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بشر متَّفَق عليه ولا محاجَّة فيه؛ لكنَّ المحاجَّة في شأنه وحاله، لم تحاجُّون فيه. وكيفية هذه المحاجَّة على قولين لأهل العلم:

القول الأول: إدِّعائهم أنَّهم على ملَّة إبراهيم؛ فهم كلُّهم يقولون نحن على ملَّة إبراهيم؛ اليهود يقولون نحن على ملَّة إبراهيم والنصارى يقولون نحن على ملَّة إبراهيم.

القول الثاني: يحاجُّون فيه لأنَّ اليهود يقولون إنَّ إبراهيم يهودي على دين اليهود، والنصارى يقولون إنَّ إبراهيم نصراني على دين النصارى؛ وهذا الوجه عكس الوجه الذي قبله؛ لأنَّ الوجه الذي قبله يدَّعون هم أنَّهم على دين إبراهيم؛ وهذا الوجه يدَّعون أنَّ إبراهيم على دينهم.

وننظر الآن سياق الآية ما الذي يؤيد من هذين الوجهين؛ {لم تحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلَّا من بعده}، كيف تحاجُّون فيه وتقولون إنَّ إبراهيم على ديننا، أو تقولون إنَّنا نحن على دين إبراهيم؟ كيف المحاجَّة؟! وكيف يكون إبراهيم على دينكم والتوراة لم تنزل بعد أيُّها اليهود؟! وكيف يكون إبراهيم على دينكم والإنجيل لم ينزل بعد أيُّها النصارى؟! أو تقول من إنَّكم على دينه وأنتم على الإنجيل، والإنجيل ليس هو دين إبراهيم؛ أو على دين التوراة ليست هي دين إبراهيم؛ إبراهيم له شرعة خاصة: {لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا}، فيكف تحاجُّون في هذا؟! تدَّعون أنَّ إبراهيم على التوراة أو على الإنجيل، أو تدَّعون أنَّكم أيها المتمسِّكون بالتوراة أو أيُّها المتمسِّكون بالإنجيل على دين إبراهيم، مع أنَّ التوراة والإنجيل ما أنزلت إلَّا من بعده؛ وهذا عقل أم هوس؟! هذا هوس. كيف يكون إبراهيم على دين كتاب لم ينزل بعد؟! التوراة نزلت على موسى؛ والإنجيل نزل على عيسى، وهم بعد إبراهيم بأزمنة كثيرة، فكيف يكون إبراهيم على هذا؟! ولهذا قال: {أفلا تعقلون}، والهمزة استفهام للتوبيخ، يعني: أفلا يكون لكم عقول تعقلون بها ما تقولون؛ وهذا فيه غاية اللَّوم والتَّوبيخ.

{أفلا تعقلون} فيها وجهان؛ الوجه الأول: أنَّ الهمزة للاستفهام والفاء للعطف، لكنَّها قدِّمت الهمزة للاستفهام عليها لأنَّ لها الصدارة؛ وعلى هذا فلا حاجَّة إلى تقدير لأنَّ الجملة تكون معطوفة على الجملة التي قبلها.

والوجه الثاني: أنَّ الفاء حرف عطف وأنَّ المعطوف محذوف يقدَّر بما يناسب السياق، والذي يناسب هنا {أسَفِهتم} مثلًا، لأنَّ العقل ضد السَّفه.

وقوله: {أفلا تعقلون}: المراد بالعقل هنا عقل الرشد وليس عقل الإدراك؛ لأنَّ هؤلاء عندهم عقل إدراك؛ والفرق بينهما: أنَّ عقل الإدراك مناط التكليف؛ وعقل الرشد مناط التصرف؛ يعني بمعنى أنَّ عقل الرشد يكون به حسن التصرف من العاقل؛ وعقل الإدراك يكون به توجيه التكليف إلى العقل؛ ولهذا يقال للرجل العاقل الذكي إذا أساء في تصرفه يقال: هذا مجنون، هذا غير عاقل، مع أنَّه من حيث عقل الإدراك عاقل. هنا في حق هؤلاء؛ يعني أفلا يكون لكم عقل ترشدون به؟.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- توبيخ هؤلاء أعني أهل الكتاب بكونهم يحاجُّون ويجادلون في إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٢- علو شأن إبراهيم ومنزلته بين جميع الطوائف: اليهود والنصارى والمسلمين.

٣- بيان الاحتجاج بالعقل؛ لقوله: {لم تحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلَّا من بعده} فكيف تحاجُّون به مع أنَّ التوراة والإنجيل لم تنزل إلَّا من بعده، وهذا خلاف العقل. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّه لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال كما لا ينبغي الاعتماد عليه وترك النص؛ فالناس في الاستدلال بالعقل طرفان ووسط؛ طرف غالى فيه حتى قدَّمه على السمع، وذلك بالنسبة للفقهاء في أصحاب الرأي والقياسيين الذين يعتمدون على الرأي وإن خالف النص؛ وفي باب النص باب العقائد، جميع أهل البدع يعتمدون على العقل ويدَعون السمع، مع أنَّ العقل الذي يعتمدون عليه ليس براهين ودلالات، ليس إلَّا شبهات؛ لكن هم يظنُّون أنَّ العقل يقتضي كذا فيثبتونه، ويقتضي نفي كذا فينفونه، ولا يرجعون في هذا إلى السمع؛ ومن ذلك الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم. وكلُّ من نفى صفة أثبتها الله لنفسه بشبهة عقلية، وعلى الأصح ليست بحجَّة، فإنَّه داخل فيمن يغالي في الاستدلال بالعقل.

ومن الناس، الطرف الثاني: من أنكر الاعتماد على العقل بالكليَّة وقال ليس للعقل دخل في إثبات أي حكم، أو أي خبر، فأنكروا القياس نهائيًا وذلك مثل أهل الظاهر، أنكروا وقالوا: لا يمكن أن نرجع إلى العقل في شيء.

ومن الناس من هم وسط؛ رجعوا إلى العقل فيما لا يخالف الشرع؛ لأنَّ العقل إذا لم يخالف الشرع فإنَّ الله تعالى يحيل عليه في مسائل كثيرة؛ مثل: {أتأمرون الناس بالبرِّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}، ومثل هذه الآية: {وما أنزلت التوراة والإنجيل إلَّا من بعدها أفلا تعقلون}؛ واستدلال الله تعالى على إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها دلالة، استدلال عقلي وحسي؛ فهو حسي لأنَّه مشاهد، وهو عقلي لأنَّه يستدلُّ به على نظيره الذي لا يخالفه تمامًا؛ فالحاصل أنَّ في هذه الآية اعتبار العقل دليلًا؛ ولكن كما قلت بشرط أن لا يخالف الشرع؛ فإن خالف الشرع فالأصح أن نقول إنَّه ليس بعقل؛ لأنَّ صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول أبدًا؛ لكن إذا ظنَّ أنَّ العقل يخالف السمع، فإمَّا أن يكون لا مخالفة، وإمَّا أن يكون السمع غير ثابت، وإمَّا أن يكون العقل غير صحيح ملوَّث بالشبهات والشهوات.

٤- إثبات أنَّ التوراة والإنجيل منزَّل من عند الله؛ لقوله تعالى: {وما أنزلت التوراة والإنجيل إلَّا من بعده}.

فإن قال قائل: كيف تستدلُّون بهذه الآية على أنَّ التوراة والإنجيل منزَّل من عند الله مع أنَّ الفعل هنا {وما أنزلت التوراة} مع أنَّ الفعل مبنيٌّ للمجهول؟

قلنا من السورة في أوَّلها: {وأنزل التوراة والإنجيل هدًى للناس}؛ وهذا نظير قوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفًا}، من الخالق؟ الله؛ لكن حذف للعلم به؛ ولكن لمَّا كان الضعف صفة نقص بني الفعل للمجهول كما بني للمجهول في قوله: {وأنا لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربُّهم رشدًا}، الشر ما أضافوه إلى الله مباشرة، قال: {أشرٌّ أريد}، والرشد أضافوه إلى الله مباشرة {أم أراد بهم ربُّهم رشدًا}.

٥- إثبات علو الله؛ إذا ثبت الآن أنَّ الإنزال من عند الله؛ فالنزول لا يكون إلَّا من أعلى.

٦- أنَّ كلام الله متعلِّق بمشيئته، لأنَّه حدث التوراة بعد إبراهيم وهذا مشيئة الله؛ وهذا بمشيئة الله ولاشك أنَّ التوراة منزَّلة من عند الله لكن الله كتب التوراة؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: لا نستطيع أن نثبت بأنَّ التوراة من كلام الله؛ لكنَّ الله كتبها لاشك وهي نازلة من عنده؛ أمَّا الإنجيل فهو كالقرآن، ما فيها أنَّ الله تعالى كتبه قال: أنزله؛ فهو كلام فيكون كلامًا؛ أمَّا التوراة فقال الله تعالى: {وكتبنا له في الألواح من كلِّ شيء موعظةً وتفصيلًا لكلِّ شيء}.

٧- النداء على بني إسرائيل بالسَّفه؛ وأن تصرفاتهم كما هي مخالفة للمنقول فهي مخالفة للمعقول؛ ومن أراد أن يعرف سفاهة هؤلاء القوم فليرجع إلى كتاب (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) لابن القيم رحمه الله؛ ذكر أشياء عجيبة من سفه الأمَّة الغضبية والأمَّة الضالَّة، الأمَّة الغضبية هم اليهود، والأمَّة الضَّالَّة هم النصارى؛ فاليهود أمَّة غضبية، جاهلية، أبعد ما يكون عن الرشد.

٨- الإشادة بالعقل؛ وأنَّ العقل لا يحمل صاحبه إلَّا على السداد والصواب؛ لقوله: {أفلا تعقلون}؛ والمراد بالعقل هنا كما ذكرنا في التفسير عقل الرشد، يعني عقل التصرف الذي به الرشد لا عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف؛ لأنَّ هؤلاء اليهود والنصارى عندهم العقل الذي هو عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف، ولو لا ذلك ما كلِّفوا.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {٦٦}

قال ابن العثيمين: أوَّلًا الإعراب في هذه الآية لأنَّ فيها شيءٌ من الإشكال؛ {ها أنتم هؤلاء} {ها} للتنبيه، و{أنتم} ضمير منفصل مبتدأ؛ و{هؤلاء} {هاء} للتنبيه، و{أولاء} منادى؛ والتقدير: (ها أنتم يا هؤلاء) حاججتم فيما لكم به علم. يعني

خاصمتم فيما لكم به علم وهو التوراة بالنسبة لليهود والإنجيل بالنسبة للنصارى؛ يعني: أنَّكم إذا حاججتم في التوراة والإنجيل، وكانت المحاجَّة في التوراة من اليهود، وفي الإنجيل من النصارى، فهذه محاجَّة فيما فيه علم لكم؛ لكن لم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم، وهو إبراهيم وما هو عليه من الدِّين؛ وقيل: المراد بقوله: {حاججتم فيما لكم به علم} في دين الإسلام، يعني حاججتم فيه وخاصمتم، تقولون ليس على دين إبراهيم، دين إبراهيم دين اليهود والنصارى، وأنتم تعلمون أنَّ الإسلام دين الله الحق؛ لأنَّ اليهود والنصارى يعلمون أنَّ دين محمد ﷺ هو دين الحق؛ قال الله تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم وإنَّ فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} فصار المحاجَّة الآن في دين الإسلام وما جاء به الرسول ﷺ.

{فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم}: والمحاجَّة التي يراد بها إثبات الباطل وإبطال الحق مذمومة، حتى وإن كانت عن علم؛ بل عن علم أشدُّ ذنبًا؛ فكيف تحاجُّون فيما ليس لكم به علم وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}: والله يعلم الأمر على ما هو عليه في شأن إبراهيم، وفي شأن محمد ﷺ، وفي شأن موسى وعيسى؛ وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الله تعالى من هذا وغيره؛ ونفي العلم عنهم هنا ليس رفعًا للإثم عنهم، ولكنَّه إيذان بجهلهم وجهالتهم، وأنَّ تصرفهم كتصرف الجاهل؛ فهو في الأول قال: {لا تعقلون}، وفي الثاني قال: {لا تعلمون}، فجمع بين السَّفه في الرأي والتَّدبير، وبين الجهل في العلم والتصور؛ ولهذا قال: {والله يعلم وأنتم لا تعلمون}([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- التنزُّل مع الخصم، يعني فرضنا أنَّه قبلت منكم المحاجَّة فيما لكم به علم؛ لكن لا تقبل المحاجَّة فيما ليس لكم به علم.

٢- ذمُّ المحاجَّة بغير علم؛ لقوله: {فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم}؛ وما أكثر هذا الواقع المؤسف المرّ في زمننا هذا، كثير من الناس اليوم يحاجُّون فيما ليس لهم به علم؛ بل بما تقتضيه عقولهم القاصرة؛ فيقول مثلًا: لم صار كذا ولم صار كذا؛ لماذا كان هذا حرامًا وكان هذا حلالًا؛ لماذا كان هذا واجبًا وكان هذا غير واجب، وما أشبه ذلك؛ فيحاجُّون فيما ليس لهم به علم؛ بل مجرَّد للمجادلة.

٣- إقرار الإنسان على المحاجَّة بالعلم؛ ولكن بشرط أن يكون القصد حسنًا، بحيث يكون المقصود بالمجادلة الوصول إلى الحق، فيثبت الحق ويبطل الباطل، أمَّا الذي يجادل ولو فيما ليس له به علم، قصده إبطال الحق وإثبات الباطل فلاشك أنَّه مذموم؛ {والذين يحاجُّون في الله من بعد ما استجيب له حجَّتهم داحضة عند ربِّهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد}.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٤- إثبات العلم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {والله يعلم وأنتم لا تعلمون}.

٥- أنَّ المحاجَّة فيما ليس له به علم، ليس عنده علم ولو حاج؛ لقوله: {وأنتم لا تعلمون} بل ليس عنده عقل أيضًا؛ لأنَّ المحاجَّة فرع عن العلم، فمن حاج بغير علم فلا عقل له، كما أنَّه لا علم عنده.

٦- إثبات علم الله في الحاضر؛ {يعلم} فعل مضارع، والأصل في المضارع أنَّه موضوع للحاضر والمستقبل، فهنا يقول: {يعلم} يعني أنَّ علمه عز وجل مستمر دائم.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٦٧}

قال ابن العثيمين: ثمَّ ذكر الله عز وجل حال إبراهيم ذكرًا صادرًا عن علم لا عن جهل فقال: {ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا} يعني ليس على ملَّتكم أيُّها اليهود، ولا على ملَّتكم أيُّها النصارى. هذا على قول من يقول: إنَّ محاجَّتهم في إبراهيم أنَّ اليهود يقولون هو منَّا والنصارى يقولون هو منَّا؛ فنفى الله ذلك وقال: {ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا}.

وعلى القول الثاني: يعني ما كان إبراهيم على ما أنتم عليه من التعصب والتمسُّك بدينكم وإن كان منسوخًا بدين الإسلام، ولكن كان حنيفًا مسلمًا؛ فلو أن إبراهيم كان حيًّا لاتَّبع محمدًا ﷺ، ولم يكن كحالكم يبقى على ما هو عليه من دينه كما بقيتم أنتم؛ فالآية الآن تحتمل الوجهين بناء على القولين السابقين؛ أي ما كان إبراهيم يسير سير اليهود فيتعصَّب، ولا يسير سير النصارى فيتعصَّب؛ وليس المعنى على القول الثاني، أي أنَّه {ما كان يهوديًّا}: أي على دين اليهود، أو على دين النصارى، بل ما كان على طريقتهم في التَّعصُّب لما هم عليه وإن تبيَّن أنَّ الحقَّ في خلافه؛ {ولكن كان حنيفًا}: أي مائلًا عن الشِّرك؛ لأنَّ الحنف في الأصل الميل؛ فهو مائل عن الشِّرك مثبت للتوحيد ولهذا قال: {مسلمًا}، فهو جامع عليه الصلاة والسلام بين البراءة من الشِّرك براءة كاملة، وبين تحقيق الإسلام تحقيقًا كاملًا.

وقوله: {مسلمًا}: يعني مسلمًا لله ظاهرًا وباطنًا؛ فيشمل الإسلام الذي هو عمل الجوارح، والإيمان الذي هو اعتقاد القلوب وأعمال القلوب؛ وهذه قاعدة مهمة وهي أنَّه إذا أطلق الإسلام وأفرد شمل الإيمان، وإذا أطلق الإيمان وأفرد شمل الإسلام؛ وإذا اقترنا صار الإسلام في الظاهر والإيمان في الباطن؛ وهذه هي قاعدة أهل السنة والجماعة وعليها يدلُّ الكتاب والسنة؛ فقد وصف النبي ﷺ الإيمان لوفد عبد قيس بالإسلام ب((شهادة أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . . ([1]))) ووصف الله الصلاة بالإيمان في قوله: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}: أي صلاتكم إلى بيت المقدس؛ وقال

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧)، والحديث بتمامه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنِ الْقَوْمُ؟ أَوْ: مَنِ الْوَفْدُ؟)) قَالُوا: رَبِيعَةُ. قَالَ: ((مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ: بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى)). قَالُوا: يَا رَسُول الله إِنَّا لَا نستطيع أَن نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فصل نخبر بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرِبَةِ. فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ قَالَ:

الله تعالى: {إنَّ الدِّين عند الله الإسلام}: وهو يشمل كلَّ الدِّين بالإيمان وأفعال الجوارح؛ ف{مسلمًا} هنا مسلمًا لله ظاهرًا وباطنًا فيشمل الإيمان والإسلام.

{وما كان من المشركين}: هذا تأكيد لقوله: {حنيفا}: يعني هذه الجملة وإن كانت معطوفة بالواو لكنَّها في المعنى مؤكِّدة لما سبق؛ يعني ما كان من الذين يشركون بالله لا شركًا خفيًّا ولا شركًا ظاهرًا بل كان يحارب الشرك وصبر على الدعوة إلى التوحيد إلى أن ألقي في النار عليه الصلاة والسلام؛ ولكن كان جزائه على ذلك أن قيل للنار: {كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تبرئة إبراهيم من دين اليهود والنصارى، أو من طريق اليهود والنصارى؛ لأنَّنا ذكرنا أنَّ الآية لها معنيان هي قولان؛ فإبراهيم عليه السلام ليس يتديَّن بدين اليهود، لأنَّ دين اليهود من بعده؛ ولا دين النصارى، لأنَّ دين النصارى من بعده؛ كذلك أيضًا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليس كالنصارى واليهود يتعصَّبون لما هم عليه بحق أو بباطل، بل كان حنيفًا مسلمًا منقاد لأمر الله، يأتمر بأمر الله وينتهي بنهي الله.

٢- أنَّه ينبغي لمن لم يتَّصف بوصف، أن يبيِّن براءته منه؛ ولو كان هذا الوصف في أصله محمودًا؛ لكن إذا كان لم يتَّصف به فالواجب أن يبيِّن؛ لأنَّ الله تعالى نفى أن يكون إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا مع أنَّ اليهودية والنصرانية بعد بعثة موسى بالنسبة لليهودية، وبعد بعثة عيسى بالنسبة للنصرانية كانت حقًّا قبل أن تنسخ.

٣- الثناء على إبراهيم؛ لقوله: {ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين}؛ وجه الثناء عليه أنَّه وصف بالتوحيد الخالص الذي لا يشوبه أي نوع من الشِّرك؛ لقوله: {وما كان من المشركين}.

٤- الإشارة إلى ما اشتهر عند الناس من أنَّ التَّخلية قبل التَّحلية؛ يعني البداءة بالنفي قبل الإثبات؛ لأنَّ النفي تخلية والإثبات تحلية؛ فهنا بدأ بالنفي وهو {ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا}، ثمَّ أثبت في قوله: {ولكن كان حنيفًا مسلمًا}، والظاهر أن هذا التَّرتيب موافق للطبيعة لأنَّك تخلي الشيء مما يشينه أوَّلًا، ثم تضيف إليه ما يزينه. عندما تريد أن تنظف ثوبًا وسخًا تزيل الوسخ أوَّلًا ثمَّ تضيف ما يكون به الكمال. وفي حديث الاستفتاح: ((اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللَّهم نقِّني من خطاياي كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس اللَّهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد[١]))، فالمباعدة أن لا أمارس الذنوب والخطايا؛ والتَّنقية أن يزال هذا الأذى، والغسل أن يطهر وينظف.

((أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟)) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ)). وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ وَقَالَ: ((احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ)). وَلَفظه لِلْبُخَارِيِّ.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨)، وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٨)، وصحيح أبي داود (٧٥٠).

٥- أنَّه لابدَّ في التوحيد من شيئين: نفي وإثبات؛ النفي في قوله:{ولكن كان حنيفًا}، والإثبات في قوله: {مسلمًا}، لأنَّ الحنيف هو المائل عن الشرك، وعن كل دين يخالف الإسلام؛ والإسلام هو الإثبات، الاستسلام لله عز وجل؛ وأكَّد ذلك بقوله: {وما كان من المشركين}، التوحيد لا يتمُّ إلَّا بإثبات ونفي، والتعليل ظاهر جدًّا؛ لأنَّ النفي تعطيل، والإثبات بدون نفي لا يمنع المشاركة؛ والجمع بينهما إثبات مع نفي المشاركة. مثلًا إذا قلت: ليس هنا أحد قائم؛ هذا نفي، ليس هنا أحد قائم، هذا تعطيل، يعني صفة القيام الآن معطَّلة لم يتَّصف به أحد؛ إذا قلت: زيد قائم، هذا إثبات أنَّ زيدًا قائم، فأثبتَّ القيام الآن لواحد من الناس؛ لكن هل هذه العبارة تمنع أن يكون غير زيد قائمًا؟ ما تمنع، قد يكون فيه واحد آخر غير زيد قائم؛ ولهذا إذا قلت أنا: زيد قائم، فقلت أنت: وعمرو قائم؛ هل يعتبر قولك ردًّا على كلامي أو إضافة إلى كلامي؟ إضافة إلى كلامي. فإذا قلت: لا قائم إلَّا زيد؛ هذا فيه نفي وإثبات؛ حينئذ حصل التوحيد صار المتفرِّد بالقيام هو زيد؛ فتبيَّن أنَّه لا توحيد إلَّا بنفي وإثبات؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى هنا عن وصف إبراهيم: {ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين}.

٦- أنَّ الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان؛ وجهه: أنَّ الله وصف إبراهيم بالإسلام وهو كذلك؛ فالإسلام إذا أفرد دخل فيه الإيمان، والإيمان إذا أفرد دخل فيه الإسلام؛ وإذا اقترنا افترقا صار الإسلام علانية والإيمان في القلب. في حديث جبريل اجتمع فافترقا؛ ولهذا فسَّر النبي ﷺ الإسلام بشيء، وفسَّر الإيمان بشيء آخر؛ وفي قوله تعالى: {قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا}، اجتمعا فافترقا، فصار الإيمان الذي ادَّعوه غير الإسلام الذي أثبت الله لهم. وفي قوله تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}، اجتمع فافترق؛ الإخراج لم يكن إلَّا للمؤمنين لوط وأهله إلَّا امرأته؛ فصار الذين أخرجوا هم المؤمنين الخلَّص؛ البيت يشتمل الذين آمنوا إيمانًا خالصًا وعلى امرأته التي هي خانت فهي مسلمة[1] وليست مؤمنة؛ إذًا البيت كلُّه باعتبار الكلِّ مسلم؛ ولهذا قال: {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}. وأمَّا من زعم أنَّ الإسلام هو الإيمان واستدلَّ بالآية فقد أبعد النجعة للفرق بين التعبيرين {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين} ولم يقل من المسلمين قال: {من المؤمنين}، {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}. إذًا الإسلام الذي في الآية الكريمة {ولكن كان حنيفًا مسلمًا} يشمل الإيمان لأنَّه أُفرد.

٧- الثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنَّه لم يكن فيه صفة من صفات المشركين؛ ولهذا قال: {وما كان من المشركين}، ولم يقل: {لم يكن مشركًا}؛ فليس فيه صفة من صفات المشركين أبدًا لا الشرك ولا غيره؛ وهكذا ينبغي لكلِّ مؤمن أن لا يتَّصف بأي صفة من صفات المشركين. فمثلًا: من صفات المشركين الشِّرك و كراهتهم للتوحيد؛ المشركون يكرهون التوحيد وينكرونه، ويقولون: {أجعل الآلهة إلهًا واحدًا}، فمن كره التوحيد وإن لم يكن مشركًا فإنَّ فيه من صفات المشركين بل قد يكون كافرًا.

١- (قلت): يقصد الشيخ رحمه الله: بأنَّ في ظاهرها كانت مسلمة كالمنافقين في زمن الرسول ﷺ.

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ {٦٨}

قال أبو زهرة: أي إنَّ أشدُّ الناس ولاية بإبراهيم وأجدرهم بالاتِّصال به، لَلَّذين اتَّبعوه، وهذا النَّبيُّ والذين آمنوا بهذا النَّبي، فهم أصناف ثلاثة قد أكَّد سبحانه اتِّصالهم بإبراهيم بثلاثة تأكيدات؛ أوَّلها: {إنَّ}، وثانيها: أفعل التفضيل، وثالثها: اللام في قوله تعالى: {لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}. والذين اتَّبعوه موصول عام يشمل الذين اتَّبعوا هدايته في حياته، وأجابوا دعوته، ولم يخالفوه، والذين اتَّبعوه من بعد وفاته، وإنَّهم لكثيرون، وكان يمكن أن يكون من هؤلاء اليهودُ والنصارى، لو اتَّبعوا هديه فطلبوا الحق وأخلصوا لله في طلبه، وتجنَّبوا الشِّرك بكل ضروبه وبكل أشكاله، وفي هذا توبيخ لهم على أنَّهم لم يتَّبعوه، وادَّعَوا الانتماء إليه. وقد ذكر النبي ﷺ بالنَّص عليه بالذَّات على أنَّه أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ولم يذكره في ضمن الذين اتَّبعوه؛ لأنَّ النبي ﷺ تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم، ولأنَّ محمدًا ﷺ خاتم النَّبيِّين، ولأنَّه آخر دعامة في بناء صرح الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض. وفي ذكر النبي ﷺ تمهيد لبيان أولوية الذين آمنوا به ﷺ وبسيدنا إبراهيم من اليهود والنصارى؛ لأنَّهم حنفاء طلبوا الحق، وتحرَّوْهُ وآمنوا به واهتدوا، وأخلصوا دينهم لله تعالى، وصار الله ورسوله أحبُّ إليهم من أنفسهم. والذين آمنوا في الآية هم من آمنوا بمحمد ﷺ، ولقد قال النَّبي ﷺ: ((إنَّ لكلِّ نبي ولاة من النَّبيين، وإنَّ وليِّي منهم أبي وخليل ربِّي عز وجل. ثم قرأ: {إنَّ أولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتَّبعوه}([1]))).

قال ابن العثيمين: {إنَّ أولى الناس}: هذا الحكم بين هؤلاء الخصوم؛ الخصوم ثلاثة: اليهود والنصارى والمسلمون؛ أنظر الحكم العدل: {إنَّ أولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتَّبعوه}: قدَّم هنا ما كان ينبغي أن يكون خبرًا وجعله هو المبتدأ الذي هو ركن الجملة التي يسند إليها الخبر فقال: {إنَّ أَولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتَّبعوه}، ولم يقل: (إنَّ الذين اتَّبعوه أولى به)؛ لأجل أن يحكم بأنَّ الأوَّلية لهؤلاء لا لغيرهم؛ {أَولى الناس} من اليهود والنصارى والمشركين وأصحاب الأوثان وغيرهم.

{لَلَّذين اتَّبعوه وهذا النَّبي والذين آمنوا}، الجملة مؤكَّدة بمؤكِّدين: ب{إن}، وال{لام}؛ قال: (لَلَّذين اتَّبعوه من بني إسرائيل ممَّن سبق النبي ﷺ)، ولاشكَّ أنَّه تبعه كثير من المؤمنين الذين آمنوا به في حياته والذين اتَّبعوا طريقته بعد مماته. {وهذا النَّبي} المشار إليه محمد ﷺ، وكفى به فخرًا أن يشير إليه رب العالمين، هذا شرف عظيم لرسول الله ﷺ أن يكون الله يشير إليه بهذه الإشارة المفيدة للقرب؛ لم يقل: (وذلك النَّبي)؛ بل قال: {وهذا النَّبي} إشارة إلى قربه؛ لأنَّه ﷺ أقرب الناس منزلة إلى الله سبحانه وتعالى.

١- صحيح: صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢١٥٨).

{وهذا النّبي والذين آمنوا}: فيها قراءة: {النبيء} كذا؟ على هذه القراءة النّبي مشتقٌ من النّبأ فهو فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول. أمَّا على قراءة: {النّبي} بدون الهمزة ففيها وجهان؛ الوجه الأول: أنَّه مسهلة من {النبيء} بالهمزة، مسهّلة، يعني أنَّ الهمزة جعلت ياء للتّسهيل وهذا موجود في اللغة العربية، {النّبي} نقول هذه أصلها {النبيء}، لكن جعلت الهمزة ياء للتّخفيف؛ وعلى هذا الوجه يكون {النبيء}، {النبي} من النبأ؛ وقيل: إن ال{ياء} أصلية لا مسهّلة. وعلى هذا فيكون مشتقًّا من (النّبوة) وهي الشيء المرتفع يقال: (نبا، ينبوا) يعني: (ارتفع)؛ فيكون مشتقٌ من (النّبوة) وهي الارتفاع وذلك لارتفاع مرتبة النّبي؛ لأنَّ الرسل صلى الله عليهم وسلم ومنهم خاتمهم محمد ﷺ أرفع الناس قدرًا عند الله، ولهذا بدأ الله بهم في صدر من أنعم عليهم {فأولئك أنعم الله عليهم من النّبيين ....}.

لو قال قائل: اجعلوها من الأمرين: من النّبأ ومن النبوة؟ نقول يمكن لأنَّ القول الراجح أنَّه إذا احتمل اللّفظ معنيين بدون تضادّ حمل عليهما، لأنَّ ذلك وسع في المعنى؛ أمَّا التّضاد فإنَّه ينظر للراجح ويحمل عليه؛ لكن مع إمكان الجمع يجب أن يحمل على المعنَيين جميعًا.

فإذا قال قائل: هذا استعمال للمشترك في معنيين؛ (اللفظ المشترك) ما اتَّحد لفظه وتعدَّد معناه كالعين، العين تقال للباصرة عينك التي في وجهك؛ وتقال للعين الجارية، وتقال للعين الذهب؛ ولهذا يقال: عين موروودة وعين منقودة، عين منقودة الذهب، والموروودة الماء.

يقول بعض العلماء إنَّ المشترك لا يمكن أن يحمل على معنَيين؛ لأنَّ كلُّ معنًى منهما يضادُّ الآخر؛ ولكن الصحيح الذي عليه أكثر أهل العلم أنَّه يجوز أن يحمل على معنيين بشرط عدم التّعارض؛ فإن تعارضا وجب طلب المرجح.

قوله: {وهذا النبي} معطوف على قوله: {لَلّذين اتّبعوه} فهو في محل رفع؛ بل هو مرفوع {النبي} بدل من اسم الإشارة، واسم الإشارة كما نعلم مبنيٌّ على السكون.

{والذين آمنوا} بهذا النبي؛ والإيمان بالنبي ﷺ يتضمَّن الإيمان بكلِّ شريعته؛ وهذا الإيمان أيضًا يستلزم القبول والإذعان؛ أن يقبل بما جاء به النبي ﷺ وأن يذعن له.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٥٧٢: قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: رَغِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ، وَابْتَدَعُوا الْيَهُودِيَّةَ والنصرانية، وَلَيْسَتْ مِنْ اللَّهِ، وَتَرَكُوا دِينَ إبْرَاهِيمَ. وَكَذَلِكَ قَالَ قتادة: بَدَّلُوا دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَعُوا الْمَنْسُوخَ. فَأَمَّا مُوسَى وَالْمَسِيحُ، وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فَهُمْ عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ مُتَّبِعُونَ لَهُ، وَهُوَ إمَامُهُمْ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: {إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا}. فَهُوَ يَتَنَاوَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ وَبَعْدَ مَبْعَثِهِ. وَقِيلَ إنَّهُ عَامٌّ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كُلُّ مُؤْمِنٍ وَلِيُّ إبْرَاهِيمَ مِمَّنْ مَضَى وَمِمَّنْ بَقِيَ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ صَدَّقُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ. وَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلَيْسُوا عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ.

وقال رحمه الله في تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء ج١ص٢٧٩: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا}: وهم الذين اتَّبعوه من الأمم الماضية كأولاد إسماعيل قبل التَّبديل، وكأهل التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل. فالحنيفية ملَّة إبراهيم تتناول كل من عبد الله وحده بما أمره به، كما قال تعالى {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ١١١، ١١٢]. فكل الأنبياء الذين يعيشون بعد إبراهيم وأتباعهم على ملَّة إبراهيم، لكن محمد ﷺ أولاهم به وشرعه أقرب إلى شرع إبراهيم من وجوهٍ متعددةٍ كأمره بحجِّ البيت وغيره، فإنَّه سبحانه جعل في ذرية إبراهيم الكتاب والحكم والنبوة.

وقوله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا}، نفي أن يكون على ما اختصَّ به شرع التوراة والإنجيل وليس على ملَّة إبراهيم بل ملَّة إبراهيم أن يعبد الله وحده بما أمر، ومحمد أُمِرَ بملَّة إبراهيم وأُمر بها أن يعبد الله وحده، ورفع به الآصار والأغلال التي كانت على أهل الكتاب ولم تكن مشروعة لإبراهيم فكان الشرع الذي بعث به أَولى بإبراهيم.

وأمَّا اليهودية والنصرانية المتضمِّنة للمنسوخ المبدَّل وهي التي عليها اليهود والنصارى الذين كذبوا محمدًا فهذه ليست دين أحدٍ من الأنبياء لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: {كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى}، فقد أمرهم الله أن يقولوا: {بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}. فلا يجوز لنا اتِّباع ما اختصَّ به أهل التوراة والإنجيل من الشرع المنسوخ فكيف بالمبدَّل، بل نتَّبع ملَّة إبراهيم وهي عبادة الله وحده بما أمر به، وهي التي كان عليها موسى وعيسى لكن كان لهم شرع اختصُّوا به دون إبراهيم، وكان من الدِّين في حق أولئك الذين أمروا به خاصة، وإبراهيم ومن كان قبله لم يؤمروا به، وكذلك محمد ﷺ ومن آمن به لم يؤمروا بتلك الآصار والأغلال، بل رفعت عنهم كما كانت مرفوعة عن إبراهيم، ولهذا قال ﷺ: ((بُعِثت بالحنيفية السمحة([1]))، وقال: ((لا رهبانية في الإسلام([2]))).

قال ابن العثيمين: {والله وليُّ المؤمنين} وليُّ كلُّ مؤمن هؤلاء وغيرهم، كلُّ مؤمن فالله سبحانه وتعالى وليُّهم، كما في قوله تعالى: {الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات}، وهذه الولاية ولاية خاصة تقتضي أن ييسِّر المؤمن اليسرى ويجنب العسرى؛ وهناك ولاية عامَّة شاملة لكل أحد؛ فالله تعالى وليُّ كل أحد؛ ولهذا قال الله تعالى: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفَّته رسلنا وهم لا يفرِّطون ثمَّ ردُّوا إلى الله

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤) - والحديث بتمامه: ((إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفسي بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة)).

2- (قلت): قال الإمام الألباني في الصحيحة (٤/٣٨٥): وبالجملة فالحديث بهذه الشواهد صحيح عندي. والله أعلم.

مولاهم الحق}، فجعل الله تعالى مولًا لهؤلاء وهم كفار؛ لكن هذا بالولاية العامَّة؛ والولاية العامَّة هي ولاية التصرف والتدبير في الكون؛ والولاية الخاصَّة ولاية العناية بالمولى عليه، أنَّ الله تعالى يعتني به وييسِّره اليسرى ويجنبه العسرى.

قال السعدي: لمَّا ادَّعى اليهود أنَّ إبراهيم كان يهوديًّا، والنصارى أنَّه نصراني، وجادلوا على ذلك، ردَّ تعالى محاجَّتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّ جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجُّوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المحاجَّة في شأن إبراهيم.

الوجه الثاني: أنَّ اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلَّا من بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدِّم عليهم، فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال {أفلا تعقلون} أي: فلو عقلتم ما تقولون، لم تقولوا ذلك.

الوجه الثالث: أنَّ الله تعالى برَّأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفًا مسلمًا، وجعل أَولى الناس به من آمن به من أمَّته، وهذا النَّبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم الذين اتَّبعوه وهم أَولى به من غيرهم، والله تعالى وليُّهم وناصرهم ومؤيِّدهم، وأمَّا من نبذ ملَّته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرَّد الانتساب الخالي من الصواب.

وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجَّة والمجادلة بغير علم، وأنَّ من تكلَّم بذلك فهو متكلِّم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح له فيه، وفيها أيضًا حثٌّ على علم التاريخ، وأنَّه طريق لردِّ كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ.

قال أبو زهرة: وفى هذه الجملة السامية إشارة إلى عدَّة معانٍ عالية:

أوَّلها: أنَّ اتصال النبي ث والذين اتَّبعوه، والذين اتَّبعوا إبراهيم بخليل الله، لأنَّهم اتَّصلوا بالله تعالى، والمؤمنون بعضهم لبعض وليٌّ ونصير، لأنَّهم جميعًا أولياء الله. فالمؤمنون برسالة إبراهيم والمؤمنون برسالة محمد كلُّهم أولياء، لأنَّهم جميعًا أولياء الله تعالى، وفي ذلك يبيِّن سبحانه لليهود وغيرهم الطريق الحق الذي يجعلهم أَولى بإبراهيم كالنَّبي ومن اتَّبعه.

ثانيها: الإشارة إلى أنَّ ولاية الله هي الغاية الكبرى التي يجب أن يطلبها كلُّ مؤمن، وطريقها الإحسان في كلِّ شيء، وأساس الإحسان الإخلاص، ولذا يقول النبي ﷺ: ((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك(١))).

ثالثها: الإشارة إلى منزلة أهل الإيمان عند الله والوعد بنصرتهم مهما يتكاثف عددهم: {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- في الآية دليل على أنَّ الأولويات تختلف، أي: الناس يتفاوتون بالأَوْلَيَّة والولاية؛ لقوله: {إنَّ أَولى الناس}، و{أَولى}: اسم تفضيل، والتفضيل يدلُّ على مفضَّل ومفضَّل عليه؛ ولاشك أنَّ الولاية درجات؛ فأحقُّ الناس بالولاية لإبراهيم من اتَّبعه؛ يعني القوم الذين اتَّبعوه في عهده؛ لأنَّهم اتَّبعوه في أصل الدِّين وفي فروع الدِّين يعني في جليل الدِّين وفي دقيقه اتَّبعوه؛ ولهذا قدَّم الذين اتَّبعوه على النَّبي والذين آمنوا؛ لأنَّ النَّبي والذين آمنوا لم يتَّبعوا إبراهيم في فروع الشريعة بل {لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا} لكن اتَّبعوه في أصل الدِّين والاستسلام لله عز وجل؛ وإلَّا لاشك أنَّ النَّبي محمدًا ﷺ أفضل من الذين اتَّبعوا إبراهيم بلا شك، بل أتباع الرسول أفضل من أتباع إبراهيم.

٢- شرف النبي ﷺ ومن آمن معه؛ بكونهم أَولى الناس بإبراهيم الذي تتنازعه الأمم، كلُّ الأمم تقول أنا أَولى به.

٣- الرَّد على اليهود والنصارى، حيث ادَّعوا أنَّهم أولى الناس بإبراهيم فكذَّبهم الله.

٤- تشريف النبي ﷺ بالإشارة إليه من رب العالمين؛ في قوله: {وهذا النَّبي}.

٥- إثبات نبوة الرسول ﷺ؛ وهذا أمر لاشك فيه؛ وكل من وصف بالنبوة في القرآن فهو رسول؛ قال الله تعالى: {إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنَّبيِّين من بعده} ثمَّ قال في هؤلاء النبيِّين: {رسلًا مبشِّرين ومنذرين}؛ إذًا فكلُّ من وصف بالنبوة في القرآن فهو رسول بدليل آية النساء: {رسلًا مبشِّرين}.

٦- إثبات ولاية الله للمؤمنين في قوله: {والله وليُّ المؤمنين} وهذه الولاية كما قلنا آنفًا ولاية خاصة تقتضي عناية تامَّة، وكلُّ من كان أكمل إيمانًا فولاية الله له أكمل. هذه الفائدة أخذناها من قاعدة معروفة عند أهل العلم وهي: الحكم المعلَّق بوصف يزداد قوة بقوة هذا الوصف الذي علِّق عليه الحكم؛ فإذا قلت مثلًا: أنا أحب الصالحين؛ معناه كلُّ ما كان أصلح فهو أحبُّ إليَّ؛ لأنَّ المحبَّة علِّقت بالصلاح؛ فكلَّما ازداد الصلاح ازداد المحبَّة؛ {والله وليُّ المؤمنين} علِّقت الولاية بالإيمان؛ فكلُّ ما كان الإنسان أقوى إيمانًا كانت ولاية الله له أتمُّ وأخصُّ. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّه ينبغي للإنسان أن يحقِّق إيمانه ويكمِّله بقدر استطاعته من أجل أن ينال ولاية الله؛ لأنَّ كلَّ إنسان في الحقيقة عاقل يسعى أن يكون الله له وليًّا؛ نقول: حقِّق الإيمان يكن الله لك وليًّا؛ وكلَّما ازداد تحقيقك للإيمان ازدادت ولاية الله لك؛ وإلَّا فكلُّنا يطلب ذلك، ونسأل الله أن يجعلني وإيَّاكم من أوليائه، كلُّنا يطلب هذا، لكن فقط حقِّق الإيمان، من أسباب الولاية أن يكون حبُّك وبغضك وكراهتك وعداوتك وولايتك لله عز وجل لا للدنيا.

٧- إثبات الأسباب؛ يؤخذ من قوله: {والله وليُّ المؤمنين}، وجهه ذلك: جعل الله الإيمان سببًا لولاية الله؛ ولاشك أنَّ الأسباب ثابتة؛ والأسباب شرعية، وعقلية، وحسية؛ فالأسباب الشرعية ما جعلها الله تعالى سببًا في القرآن، فمثلًا الإيمان سبب لدخول الجنة هذا سبب شرعي، دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة؛ العسل سبب للشفاء؛ علمناه من طريق الشرع يعني من طريق الوحي. وكون الماء سببًا لنبات الأرض حسي؛ نعم هو أخبر الله به لكن نحن نشاهد؛ لو فرض أنَّه ما في

القرآن يدلُّنا على هذا، شاهَدنا بأنفسنا فهو سبب حسي؛ الأدوية الطبيعية التي تستخرج بالتجارب أسباب حسية؛ أمَّا الأسباب العقلية فكثير جدًّا، كلُّ شيءٍ يترتَّب على شيءٍ عقلًا فهو سبب عقلي؛ والأسباب الشرعية والحسية والعقلية كلُّها مؤثِّرة بذاتها حيث أودع الله فيها التأثير؛ وإنَّما قلت ذلك لأنَّ بعض الناس غالى في التنزيه فقال إنَّ الأسباب في ذاتها لا تؤثِّر، وإنَّما يكون التأثير عندها لا فيها، فقالوا مثلًا إنَّ الاحتراق بالنار ليس بالنار لكن حصل الاحتراق عند تماس النار بما يقبل الاحتراق فحصل الاحتراق، أمَّا النار لا تحرق؛ لو جعلت النار تُحرق وتُقلِّب الشيء ممَّا كان عليه، لَأَثبتَّ مع الله خالقًا وصرت مشركًا؛ من الذي يقلِّب هذا العود إلى رماد؟ الله سبحانه وتعالى؛ يقول ما يقلِّب هذا إلَّا الله؛ أنت لو قلت: النار هي التي قلبت، أشركت بالله؛ إذًا لا تقول: النار أحرقت، احترق عندها. أخذت حجرًا فرميت به كأس زجاج فانكسر، قال لا تقل إنَّ الحجر هو الذي كسره؛ إذا قلت إنَّ الحجر هو الذي كسرها كنت مشركًا؛ فإثبات تأثير الأسباب شرك؛ قال انكسر عندها لا بها، انكسر عندها عند الحجر لا بالحجر؛ لكن نقول: الأسباب مؤثِّرة؛ لكن الله أودع فيها هذا التأثير، لو لا أودع الله فيها هذا التأثير ما أثَّرت؛ ولهذا لمَّا ألقي إبراهيم في النار فقال الله لها: {كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم} أثَّرت؟ ما أثَّرت؛ إذًا عرفنا الآن أنَّ الأسباب جعله الله مؤثِّرة بذاتها، ليست هي التي تخلق أو خلقت بذاتها، ولكنَّ الله أودع فيها هذه القوة التي يكون بها المسبِّب؛ وهذا هو المعقول، فنحن لا نغالي أيضًا في إثبات الأسباب ونقول إنَّ هذا يكون بدون الله، ولا نغالي في التنزيه فنقول إنَّ الأسباب لا تؤثِّر، وإنَّما يحصل الأثر عندها لا بها كلا الأمرين خطأ؛ والوسط في الغالب يكون هو الحق؛ لأنَّك تجد المتطرِّفين كلُّ واحدٍ أخذ بجانبٍ من الحق وترك جانبًا، والوسط يأخذ بالجانبين فيكون وسطًا.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {٦٩}

قال ابن العثيمين: {ودَّت}: أي أحبَّت؛ والودُّ خالص المحبَّة؛ ومن أسماء الله تعالى (الودود) بمعنى الوادُّ، والودود؛ فهو سبحانه وتعالى وادٌّ لأوليائه وأصفيائه، وهو أيضًا مودود من أوليائه وأصفيائه؛ فالودُّ إذًا خالص المحبَّة، يعني أحبَّ هؤلاء أو هذه الطائفة بخالص المحبَّة.

وقوله: {طائفة من أهل الكتاب}: الطائفة بمعنى الجماعة؛ والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى؛ ولكن الأغلب هم اليهود لأنَّهم أكثر مماسَّة للعرب من النصارى؛ فإنَّ اليهود كانوا في المدينة قدموا من الشام ينتظرون النبي الذي بشَّرت به التوراة؛ يعني قدِموا من بلاد الشام لأنَّهم علموا أنَّ مهاجر هذا النبي المدينة حسب ما في التوراة من البشارة به؛ فقالوا نذهب إلى هناك لنكون معه: {وكانوا من قبل يستفتحون على الذي كفروا فلمَّا جاءهم ما عرفوا كفروا به}.

{من أهل الكتاب} اليهود والنصارى؛ والغالب أنَّهم اليهود.

{لو يضلُّونكم}: {لو} هذه مصدرية بمعنى (أن)؛ والقاعدة في {لو} أنَّها إذا أتت بعد ما يفيد الودُّ والمحبَّة، تكون مصدرية {ودُّوا لو تدهن فيدهنون}: أي ودُّوا أن تدهنوا؛ {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم كفارًا}: أي ودُّوا أن يردُّوكم؛ فهي هنا مصدرية؛ وقد علم أنَّها تأتي شرطية حرف امتناع لامتناع، مثل لو جاء زيد لأكرمتك؛ فهنا امتناعي إيَّاك لامتناع مجيء زيد.
يقول عز وجل: {لو يضلُّونكم}: يعني ودُّوا أن يضلُّوكم؛ والإضلال بمعنى الإتاحة عن الحق؛ يعني ودُّوا أن يخرجوكم من الهدى إلى الضلال؛ وما نوع هذا الضلال الذي أرادوه بالمسلمين؟ يمكن أن يفسَّر بالآية الثانية التي في البقرة: {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفَّارًا حسدًا من عند أنفسهم}.
{وما يضلُّون إلَّا أنفسهم}: يعني بمحاولتهم وودِّهم هذا، لا يضلُّون إلَّا أنفسهم؛ وبماذا يضلُّون أنفسهم؟ المعروف عند أكثر المفسِّرون المعنى: وما يهلكون إلَّا أنفسهم وذلك لأنَّهم إذا تمنَّوا لكم الضلال أثِموا على ذلك فصاروا هم كالضَّالين؛ وقيل: بل المعنى: أنَّهم إذا اشتغلوا بمحاولة إضلالكم اشتغلوا عمَّا فيه هداهم، كما هو الواقع أنَّ الإنسان إذا أراد أن يردَّ الحق، وأن يضلَّ غيره، اشتغل بمحاولة إضلال غيره عن محاولة هداية نفسه؛ فيكون المعنى: لأنَّهم اشتغلوا بمحاولة إضلالهم إيَّاكم عن طلب هدايتهم؛ لأنَّ العادة أنَّ الإنسان إذا اشتغل بمحاولة إضلال غيره تجده يطرق كلَّ باب ويسلك كلَّ طريق يحاول به إضلال الغير وينسى نفسه، وهذا واقع كثيرًا حتى بين طلبة العلم، أحيانًا يريد الإنسان أن ينتصر لنفسه أو لقوله ولو كان خطأً، فتجده يحاول أن يلتمس الأعذار والتحويلات والتصريفات، وصرف النصوص عن ظاهرها من أجل أن توافق قوله، وينسى أن يكون الواجب عليه إذا عورض أن يطلب الحق، وأن يراجع نفسه لعلَّ الصواب مع غيره، كما يقع كثيرًا عندما يختار الإنسان قولًا أو يقول قولًا ثمَّ يراجع فيه يتبيَّن له أنَّ الصواب في خلاف ما كان يعتقد أوَّلًا؛ إذًا {وما يضلُّون الَّا أنفسهم} فيها رأيان؛
الرأي الأول: ما يضلُّون إلَّا أنفسهم بالإهلاك وكثرة العقاب حيث حاولوا صدُّ الناس عن دين الله.
والثاني: ما يضلُّون إلَّا أنفسهم بانشغالهم بمحاولة إضلالكم عن طلب هداية أنفسهم.
قال أبو زهرة: وكان ضلالهم لأنفسهم من ناحيتين:
إحداهما: أنَّ إيرادهم للشَّك في الأمر الذي كانوا يعلمون الحقَّ فيه قد أوجد فيهم هم أنفسهم حيرة بعد أن كانوا يعلمون، ومثل هذا مثل الكذوب الذي يكذب ويكرِّر كذبته حتى يعتقد صدقها.
الناحية الثانية: أنَّهم كلَّما لجُّوا في الدَّعوة إلى الباطل الذي استمسكوا به بعدوا عن الإذعان للحقِّ، فبمقدار ما كانوا يثيرون حول الحق من أكاذيب كانوا يبتعدون من الإيمان والإذعان، فيزدادون ضلالًا فوق ضلالهم، وتلك حالٌ نفسية يقيمون فيها ولا يشعرون بها.
قال ابن العثيمين: {وما يشعرون}: يعني ما يشعرون أنَّهم أضاعوا الوقت في محاولة إضلالكم ونسوا أنفسهم؛ لأنَّ الإنسان في غمرة حبُّ الغلبة وسكرة حبُّ الظهور ينسى ولا يشعر بالوقت إذا ضاع عليه؛ فهؤلاء لا يشعرون، لأنَّ الوقت ضاع عليهم

بانشغالهم بمحاولة إضلالكم؛ و(الشعور): هو المعنى النفسي الذي يشعر به الإنسان في نفسه توبيخًا وتنديمًا أحيانًا، أو عكس ذلك تفريحًا وتفاؤلًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان عداوة أهل الكتاب للمسلمين، حيث يودُّون لهم الإضلال؛ والطائفة من القوم، الغالب أنَّ مشربة بقية القوم مشربها؛ فإذا كانت هذه الطائفة تودُّ هذا فغيرها كذلك.

٢- التحذير من أهل الكتاب وأنَّهم يحاولون صد المسلمين عن دينهم كالمشركين؛ وكل من الطائفتين يودُّون الضلال من المسلمين؛ قال الله تعالى: {ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء}، وقال تعالى عن مشركي قريش: {ودُّوا لو تكفرون}، فكلُّ المشركين، وكلُّ الملحدين، وكلُّ من ادَّعى أنَّه صاحب كتاب، كلُّهم يودُّون من المسلمين أن يكفروا ويضلُّوا بعد هدايتهم وإيمانهم؛ وإذا كان كذلك فيجب علينا الحذر منهم واعتقاد أنَّهم أعداء وألدَّاء يودُّون أن يقضوا علينا وعلى ديننا بين عشية وضحاها.

٣- أنَّ المعتدي يجازى بمثل عدوانه ويبتلى بمثل ما ابتلى غيره به؛ لقوله: {وما يضلُّون إلَّا أنفسهم}.

٤- تعزية المسلمين بما يريد بهم هؤلاء من الإضلال فكأنَّ الله قال: لا تخافوا منهم فإنَّ الإضلال إنَّما يعود عليهم؛ ولكن هذا في حق المؤمنين حقًّا، الذين يؤمنون بدينهم تمامًا، ويفخرون به، ويعتزُّون به، دون الذين يجعلون دينهم أقوالًا باللِّسان أو حروفًا بالأوراق وهم في الحقيقة يتَّبعون غيرهم ويعظِّمون غيرهم في نفوسهم، فإنَّ هؤلاء ربما يصابون برجس هؤلاء الكفَّار الذين يريدون إضلالهم.

٥- أنَّ الإنسان قد يعمى عن الباطل مع ممارسته له؛ لقوله تعالى: {وما يضلُّون إلَّا أنفسهم وما يشعرون}.

٦- إحاطة علم الله عز وجل بما في قلوب الخلق؛ لقوله: {ودَّت طائفة} فإنَّ الودَّ محلَّه القلب، ولا يعلم ما في القلوب إلَّا الله عز وجل.

٧- أنَّنا نردُّ على كلِّ شخص يدَّعي أو يتوهَّم أنَّ الكفَّار يريدون الخير بالمسلمين؛ لأنَّنا نقول له: إنَّك لا تعلم ما في قلوبهم واسمع إلى علَّام الغيوب ماذا يقول: {ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلُّونكم} فأنت لا تعلم، ولا تغتر بمصانعتهم ومخادعتهم ومكرهم.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ {٧٠}

قال أبو زهرة: وجَّه الله سبحانه وتعالى بهذه الآية النداء إلى أهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان مبيِّنًا لهم في صيغة استفهام إنكاري توبيخي أنَّ دواعي الإيمان قائمة، ودواعي الكفر غير ثابتة، ولذا يستفهم عنها، إنكارًا وتوبيخًا، وابتدأهم بهذا النداء الكريم، إذ قال: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، وفي هذا النداء إشارة إلى أن ما أُعطَوْه كان يقتضي أن يسارعوا إلى الإيمان لَا أن يكفروا.

قال ابن العثيمين: {يا أهل الكتاب}: خطاب من الله لأهل الكتاب على سبيل التوبيخ وبالأخص اليهود.

{لم تكفرون}: {م} اسم استفهام حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها؛ والاستفهام للتوبيخ؛ {لم تكفرون بآيات الله}، {آيات الله}: جمع {آية}، وهي العلامة الدَّالَّة على الله عز وجل؛ وكل آية من آيات الله تدلُّ على صفة من صفاته؛ فالانتقام، آية تدلُّ على الغضب، وبسط الرزق إذا لم يكن الإنسان على معصية الله، آية تدلُّ على الرضا والرحمة؛ فالآيات تتنوَّع بحسب متعلِّقها؛ هؤلاء كفروا بآيات الله؛ الآيات الشرعية التي نزلت على رسلهم وعلى محمد ﷺ؛ فاليهود كفروا بآيات الله وهي التوراة؛ والنصارى كفروا بآيات الله وهي الإنجيل، كفروا بذلك؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: {الذين يتَّبعون الرسول النبيَّ الأمِّي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم}، موجود بهذا الوصف؛ وقال الله تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم}، ما قال: أولادهم أو بناتهم؛ لأنَّ معرفة الإنسان لابنه أقوى لمعرفته لبنته لشدَّة تعلُّقه به، فهو لا يجهل شيئًا منه؛ فهم يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبنائهم، لأنَّ نعته موجود عندهم في التوراة والإنجيل، ولكنَّهم كفروا بآيات الله {فلمَّا جاءهم ما عرفوا كفروا به}، إذًا: {بآيات الله} تشمل التوراة والإنجيل والقرآن، كفروا بآيات الله الثلاثة كلِّها.

{وأنتم تشهدون}؛ لم يقل: وأنتم تعلمون لأنَّ الشهادة أقوى؛ لأنَّ الشهادة تقتضي أن يكون العالم كالمشاهد للشيء بحسِّه، والمشاهد بالحسِّ أقوى من العلم بالذِّهن؛ فهم يشهدون الآيات ويعلمونها ومع ذلك يكفرون بهذه الآيات.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج١ص٩١: يَعْنِي تكفرون بِالْقُرْآنِ وبمن جَاءَ بِهِ وانتم تَشْهَدُون بِصِحَّتِهِ وبأنَّه الْحق، فكفركم كفر عناد وجحود عَن علم وشهود، لَا عن جهل وخفاء.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- توبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله.

٢- أنَّ هذا التوبيخ واقع موقعهم؛ لأنَّهم كفروا بآيات الله وهم يشهدون.

٣- الحكم الصريح الذي لا يقبل التأويل على أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بالكفر؛ {لم تكفرون بآيات الله}، ولا يوبَّخ إلَّا على أمر واقع؛ والكفر بالله كفر بالله؛ وبه نعلم أنَّهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالله، فهم كافرون به كفرًا صريحًا خالصًا.

٤- أنَّ هؤلاء الكفَّار كفروا عن علم وشهادة؛ لقوله: {وأنتم تشهدون}.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٧١}

قال ابن العثيمين: {يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل}: وهم في كفرهم مخادعون؛ يلبسون الحق بالباطل، ومعنى لبس الحق بالباطل، خلط الحق بالباطل؛ فهم يأتون بالباطل ويموِّهونه بحق؛ ووجه ذلك أنَّهم لو جاءوا بالباطل صراحًا ما قبل، لكنَّهم يأتون به مخلوطًا بحق من أجل أن يكون في ذلك تمويه على من لا يعرف الحقائق، وهذا مكر وخداع، ولكلِّ مبطل يموِّه الحق بالباطل، مكر وخداع. ومن ذلك أن يأتي بعبارة مجملة تحتمل حقًّا وباطلًا لكن هو يريد بها الباطل، ومن سمعها قد يحملها على إرادة الحق؛ هذا أيضًا من لبس الحقِّ بالباطل، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد.

قال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ج١ص١٣٤: فَنَهَى عَنْ لَبْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَلَبْسُهُ بِهِ: خَلْطُهُ بِهِ حَتَّى يَلْتَبِسَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَمِنْهُ التَّدْلِيسُ، وَهُوَ التَّدْلِيسُ وَالْغِشُّ الَّذِي بَاطِنُهُ خِلَافُ ظَاهِرِهِ، فَكَذَلِكَ الْحَقُّ إِذَا لُبِسَ بِالْبَاطِلِ يَكُونُ فَاعِلُهُ قَدْ أَظْهَرَ الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ وَتَكَلَّمَ بِلَفْظٍ لَهُ مَعْنَيَانِ، مَعْنًى صَحِيحٌ وَمَعْنًى بَاطِلٌ، فَيَتَوَهَّمُ السَّامِعُ أَنَّهُ أَرَادَ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ، وَمُرَادُهُ الْبَاطِلُ، فَهَذَا مِنَ الْإِجْمَالِ فِي اللَّفْظِ.

قال ابن العثيمين: {وتكتمون الحق}: أي تخفونه. وهنا قد يقول قائل: كيف قال: {تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق}؟ أليس فيها تناقض؟ الجواب: لا، ليس فيه تناقض؛ لأنَّهم يكتمون الحق الصريح ويأتون به مخلوطًا مموَّها بالباطل؛ وليس قصدهم - أيضًا - الحق إذا جاءوا بالحق مخلوطًا بالباطل؛ بل قصدهم الباطل؛ وهذا الحقُّ الذي جاءوا به كالثوب الذي يخفي العيب تحت الثياب.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٩ص١٩٤: ذمَّهم على الوصفين وكلٌّ منهما مقتضٍ للذَّم وهما متلازمان، ولهذا نهى عنهما جميعًا في قوله: { ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون}[البقرة: ٤٢]، فانَّه من لبس الحق بالباطل فغطَّاه به فغلط به لزم أن يكتم الحق الذى تبيَّن أنَّه باطل إذ لو بيَّنه زال الباطل الذي لبس به الحق.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: ولم تكتمون، يا أهل الكتاب، الحقَّ؟ والحق الذي كتموه: ما في كتُبهم من نعت محمد ﷺ ومبعثه ونبوَّته. عن قتادة قوله: {وتكتمون الحق وأنتم تعلمون}، كتموا شأنَ محمد، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وَينهاهم عن المنكر.

عن الربيع قوله: {وتكتمون الحق وأنتم تعلمون}، يقول: يكتمون شأن محمد ﷺ، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

قال السعدي: فوبَّخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنَّهم بهذين الأمرين يضلُّون من انتسب إليهم، فإنَّ العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميِّزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتَّب على ذلك من خفاء الحقِّ وظهور الباطل ما ترتَّب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحقَّ لمعرفته حتى يؤْثروه، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحقَّ ويعلنوا به، ويميِّزوا الحقَّ من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيِّب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون ويرجع الضَّالون وتقوم الحجَّة على المعاندين قال تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّنَنَّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم}.

قال ابن العثيمين: {وأنتم تعلمون}: أي تعلمون الحقَّ؛ بل وتعلمون حالكم أنَّكم لابس الحقِّ بالباطل؛ فهم يعلمون أمرين: يعلمون الحقَّ الصريح، ويعلمون أنَّهم قد خلطوا الحق بالباطل؛ ولاسيَّما اليهود، لأنَّ اليهود عصوا الله وهم يعلمون أنَّهم عصوه، عصوا الله على بصيرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ هؤلاء الكفار من أهل الكتاب كانوا يخادعون ويمكرون بلبس الحقَّ بالباطل؛ وما أكثر ما يموِّهون بالقرآن الكريم على بطلان ما ذهبوا إليه، مثل قوله تعالى: {إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون} فيقول: {إنَّ الذين آمنوا} المسلمون؛ {والذين هادوا والنصارى} اليهود والنصارى؛ {والصابئين} الصابئة؛ {من آمن منهم بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربِّهم}؛ فجعلنا نحن وأنتم في صف واحد، المؤمن منَّا بالله واليوم الآخر له الأجر، ولو كنَّا مخالفين لكم ما كان لنا أجر؛ ويقولون: عيسى بن مريم بشَّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد؛ ولم يأت بعد لأنَّ الذي جاء اسمه محمد {وما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل}، {محمد رسول الله والذين معه} فنحن ننتظر أحمد؛ فهم يلبسون الحقَّ بالباطل ويمكرون؛ ولكن من أعطاه الله علمًا وفهمًا تبيَّن له أنَّهم ملبسون؛ وقد ألَّف علماء المسلمين ولله الحمد في بيان باطلهم ودحض حججهم ما هو كالشمس إضاءةً ونورًا يخفي ضوئه كلَّ ساطع؛ الآية الأولى مثلًا: قيَّد الله عز وجل من له الأجر من

هؤلاء الأصناف ب{من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا}، فأنتم ما آمنتم بالله واليوم الآخر، وبنص هذه الآية: {لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون} أنتم كفار؛ أنتم مؤمنون لمَّا كانت رسالة النبي الذي أرسل إليكم قائمًا؛ أمَّا وقد نسخت فإذا بقيتم عليه فأنتم كفار. وأمَّا قوله: {ومبشِّرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد}، فلا مانع من تعدُّد الأسماء على مسمًّى واحد؛ وقد جاءكم أحمد؛ ولهذا قال الله تعالى في الآية نفسها: {فلمَّا جاءهم بالبيِّنات قالوا هذا سحر مبين}، إذًا فأحمد جاءهم، ولا نعلم أنَّ نبيًّا جاء بعد عيسى إلَّا محمد ﷺ؛ فعلى هذا فيكون هذا التمويه لا يخفى على الإنسان الذي يعطيه الله تعالى علمًا وبصيرة؛ وقد ألَّف شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كتابًا في جزأين سماه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، والرَّد على النصارى من أئمة المسلمين كثير.

٢- أنَّه يجب الحذر من أهل الباطل ومن لبسهم الحقَّ بالباطل، وأن لا نغتر بهم؛ لأنَّهم يأتون بزخرف القول غرورًا؛ ومن هذا ما حصل للمبتدعة من هذه الأمَّة، فإنَّك إذا سمعت كلامهم قلت لا أعدل بذلك شيء، هذا هو الحقُّ، ولن أتجاوزه؛ ولكنَّه كما قيل: حجج تهافت كالزجاج تخا ... لها حقا وكل كاسر مكسور

حججهم كلُّها متهافتة ليس لها ما يقومها على قدميها فضلًا عن أن يجعلها مهاجمة، هي لا تدافع عن نفسها فضلًا أن تهاجم غيرها، لكن مع ذلك يموِّهون؛ ومرَّ علينا في كتاب العقيدة شيء كثير من تمويههم ودجلهم وزخرفهم للقول؛ فعلى الإنسان أن يحترز من هؤلاء الذين يلبسون الحق بالباطل.

٣- توبيخ من سلك هذا المسلك؛ ووجه ذلك أنَّ تخصيص التوبيخ لأهل الكتاب ليس تخصيصًا بالشَّخص والعين، ولكنَّه بالجنس والنوع والوصف؛ فكلُّ من كان على شاكلتهم فإنَّه يستحق هذا التوبيخ.

٤- وجوب بيان الحق لمن علمه؛ لقوله: {وتكتمون الحق وأنتم تعلمون}، أمَّا من لم يعلم، فعذره ظاهر، لكن من علم وجب عليه بيان الحق، ثمَّ اعلم أنَّ بيان الحق يجب عند السؤال عنه إمَّا بلسان الحال وإمَّا بلسان المقال؛ السؤال بلسان المقال أن يأتيك شخص ويقول ما حكم كذا وكذا؛ السؤال بلسان الحال أن يقع الناس في معصية يحتاجون إلى أن تبيِّن لهم، لا تقل والله الناس لم يأتوا إليَّ فأنا ما ملزوم؛ بل أنت ملزوم؛ لابدَّ أن تبيِّن، لا تكتم.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {٧٢}

قال أبو زهرة: بيَّن الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أنَّ أهل الكتاب يودُّون أن يضلَّ المؤمنون، ويعملون على إضلالهم، وكلَّما أمعنوا في هذا الطريق ازدادوا ضلالًا، وما ازداد المؤمنون إلَّا إيمانًا، وإن وجدوا في ضعاف الإيمان ما يشبع نهمتهم وقتيًّا فإنَّهم سرعان ما يقوى إيمانهم بالحق، ويرتدُّ أولئك المضلُّون في طغيانهم يعمهون.

وفى هذه الآيات يبيِّن سبحانه طريق طائفة منهم في إضلال المؤمنين، وإثارة الشَّك في قلوب ضعاف المؤمنين، وهي أن يظهروا الإيمان والإذعان والاطمئنان إلى الحقائق الإسلامية، ليظنَّ فيهم الظنَّ الحسن من لم يعرف مكرهم وكيدهم، حتى إذا اطمأن الناس إليهم أعلنوا كفرهم، بعد مظهر الإيمان ليوهموا المؤمنين أنَّهم كانوا مخلصين في إيمانهم طالبين الحق بهذا الإيمان، فلمَّا تبيَّن لهم البطلان خرجوا، فقد يخرج بهذا الخروج ضعاف الإيمان، ويلقون بذلك بين المسلمين شكًّا عمليًّا.

قال القرطبي: والطائفة: الجماعة، من طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة.

قال ابن العثيمين: {آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا}: يعني القرآن؛ وإن شئت فقل: الشريعة كلُّها؛ آمنوا به وجه النهار، أي أوَّله؛ والدليل على أنَّ المراد بوجه النهار أوَّله قوله: {واكفروا آخره} وهذا أحد الطرق الذي يعرف به معنى الكلمات في القرآن الكريم، أن يعلم معنى الكلمة بذكر مقابلها؛ كقوله تعالى: {فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا}؛ لو قال لك قائل: ما معنى {ثبات}؟ ننظر قسيمها؛ {أو انفروا جميعًا}، إذًا {انفروا ثبات}: يعني وحدانًا متفرِّقين. هنا {وجه النهار}: لو قال قائل: ما الذي علَّمنا أنَّ وجه النهار أوَّله؟ لماذا لا يكون وجه النهار وسطه؟ قلنا: دلَّنا على ذلك قوله في آخره: {لعلَّهم}، الضمير يعود على {المؤمنين}؛ {يرجعون}: أي يرجعون عن دينهم؛ لأنَّكم أنتم أهل الكتاب فإذا آمنتم أوَّل النهار ثمَّ رجعتم قال الناس لو لا أنَّهم علموا أن هذا دين باطل لم يرجعوا؛ كيف المكر؛ ادخلوا معهم في أوَّل النهار وصلُّوا كما يصلُّون واحضروا مجالس الذِّكر وإن وجد بكاء فابكوا كونوا معهم تمامًا، وإذا كان في آخر النهار اكفروا قولوا كفرنا بهذا الدِّين؛ لأنَّ الناس إذا فعلتم هكذا قالوا لو لا هذا الدِّين باطل ما كفر هؤلاء بعد إيمانهم؛ لأنَّ الإنسان إذا آمن بالدِّين وكان الدِّين حقًّا ثبت عليه، لم يرجع؛ والدليل على هذا: أنَّ هرقل سأل أبا سفيان حينما لاقاه في الشام سأله عن أصحاب الرسول ﷺ قال: هل يرجع أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا؛ قال: هكذا الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب لم يرجع أو كلمة نحوها؛ المهم أنَّ هؤلاء يموِّهون على الناس بفعلهم، فإنَّ الناس يقولون لو لا أنَّهم علموا بطلانه ما رجعوا عنه؛ لأنَّ الإنسان بطبيعته لا يرجع عن دين الحق.

قال القرطبي: وقال مقاتل: معناه أنَّهم جاؤوا محمدًا أوَّل النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسَّفلة: هو حقٌّ فاتَّبعوه، ثمَّ قالوا: حتى ننظر في التوراة ثمَّ رجعوا في آخر النهار فقالوا: قد نظرنا في التوراة فليس هو به. يقولون إنَّه ليس بحقٍّ، وإنَّما أرادوا أن يلبسوا على السَّفلة وأن يشكّكوا فيه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بيان كيد الكفار للمسلمين وذلك بسلوك طرق الحيل المتنوعة؛ بأنَّهم قالوا: {آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار و اكفروا آخره لعلَّهم يرجعون}.

٢- أنَّ أهل الكتاب قد يكون فيهم منافقون؛ لقوله: {آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره} فإنَّ المؤمن حقًّا لابدَّ أن يستقر الإيمان في قلبه ولا يكفر ويرجع.

٣- أنَّ المؤمن قد يخدع بمثل هذه الخديعة، فيتظاهر عدوّه بأنَّه موافق له، ثمَّ يتبرَّأ به في النهاية؛ لقوله: {آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلم يرجعون}، فيريدون أن يرجع المسلمون عن دينهم من أجل أنَّ هؤلاء رجعوا؛ وقد سبق في تفسيرها من يبيِّن هذا تمامًا.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٧٣}

قال ابن العثيمين: {ولا تؤمنوا إلَّا لمن تبع دينكم}: هذا من قول الطائفة، يعني آمنوا ولا تؤمنوا؛ أي: لا تظهروا ما أنتم عليه إلَّا لمن تبع دينكم؛ لأنَّكم لو أظهرتم للمسلمين أنَّكم آمنتم ثمَّ رجعتم من أجل إفساد دينهم، ما قبلوا منكم هذا ولا رجعوا؛ لكن إذا أخبرتم بهذا المكر والخديعة من تبع دينكم، سلم لكم الأمر، يعني كأنَّهم يقولون أخفوا هذه الطريقة إلَّا على من تبع دينكم، فمن تبع دينكم أخبروه لا مانع، أمَّا غيرهم فلا تخبروهم.

قال السعدي: هذا الذي أرادوه عجبًا بأنفسهم وظنًّا أنَّ الناس سيحسنون ظنَّهم بهم ويتابعونهم على ما يقولون ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلَّا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون.

قال ابن العثيمين: {قل إنَّ الهدى هدى الله}: وهذه جملة معترضة لكنَّها في محل موافق تمامًا؛ لأنَّه لمَّا كان الغرض من هذا ا لعمل الماكر أن يضلُّوا الناس عن دينهم، صار من المناسب تمامًا أن يفسَد هذا المكر ببيان أنَّ الهدى والتوفيق بيد الله، يعني قل لن ينفعكم هذا المكر والخداع فإنَّ الهدى هدى الله، حتى لو عملتم بهذه الطريقة الماكرة الخادعة فإنَّ ذلك

لن يضرَّ المسلمين شيئًا، لأنَّ الهدى هدى الله؛ وبهذا عرفنا أن هذه الجملة المعترضة، لها فائدة كبيرة في هذا المقام؛ لأنَّ هذا المكر مكر عظيم يخدِع، ولكن من علم أنَّ الهداية بيد الله سبحانه وتعالى لم يهتم بهذا المكر وهذه الخديعة.

قال السعدي: فمادة الهدى من الله تعالى لكلِّ من اهتدى، فإنَّ الهدى إمَّا علم الحق، أو إيثارة، ولا علم إلَّا ما جاءت به رسل الله، ولا موفَّق إلَّا من وفَّقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلَّا قليلا، وأمَّا التوفيق فقد انقطع حظُّهم منه لخبث نيَّاتهم وسوء مقاصدهم، وأمَّا هذه الأمَّة فقد حصل لهم ولله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كلِّ أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلهذا قال تعالى: {قل إنَّ الفضل بيد الله}.

قال ابن العثيمين: {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم}: هذه أشكلت على المفسِّرين والمعرِّبين كثيرًا؛ لكن اذا نظرنا في سياق الآية الكريمة، أظهرُ ما نقول فيها أنَّها متعلِّقة بقوله: {ولا تؤمنوا}: يعني ولا تؤمنوا إلَّا لمن تبع دينكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؛ يعني لا تخبروا أحدًا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؛ لأنَّكم لو قلتم للناس إنَّكم ستعطون مثل ما أوتينا من الكتاب والفضائل وغيرها؛ لأنَّ بني إسرائيل آتاهم الله التوراة التي فيها هدى ونور، وآتاهم فضائل، ظلَّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، وقتل عدوَّهم اللَّدود حتى شاهدوه، إلى آخره؛ يقول: لا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلَّا لمن تبع دينكم، لأنَّكم لو قلتم للناس: إنَّ هذه الأمَّة الإسلامية ستؤتى مثل ما أوتينا من الفضائل والشرائع وغيرها، لكان في ذلك حثٌّ على تمسُّكهم بدينهم.

قال السعدي: أي: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدِّقوا إلَّا من تبع دينكم، واكتموا أمركم، فإنَّكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم.

قال ابن العثيمين: وقيل المعنى: أي لا تخبروا أحدًا بهذا المكر والخداع أنَّكم تؤمنون أوَّل النهار وتكفرون آخره من أجل أن يرجع المسلمون عن دينهم، إلَّا لمن تبع دينكم.

{أو يحاجُّوكم عند ربكم}: يعني ولا تؤمنوا أيضًا أن يحاجُّوكم عند الله؛ لأنَّكم لو آمنتم بذلك وأنَّكم يوم القيمة سيحاجُّكم هؤلاء عند الله ما قبل أحد منكم هذه الحيلة؛ فصارت الآية: {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجُّوكم به عند ربكم}، متعلِّقة بقوله: {ولا تؤمنوا}: يعني لا تؤمنوا لأحد بل أخفوا عنهم أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يحاجُّوكم عند ربكم؛ طيِّب لماذا قالوا: {لا تؤمنوا إلَّا من تبع دينكم}؟ لأنَّ من تبع دينهم يعلمون أنَّ الله سيظهر محمدًا ﷺ ويكون له من الشريعة والفضائل ما كان لهم أو أكثر، ويؤمنون كذلك بأنَّهم سوف يحاجُّونهم عند الله كما قال الله: {ثمَّ إنَّكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون}، وقال الله تعالى: {إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إنَّ الله يفصل بينهم يوم القيمة}، فأنتم لا تخبرون الناس بهذا إلَّا لمن تبع دينكم. إذًا هم يؤمنون بأنَّهم سوف يحاجُّهم المسلمون يوم القيمة عند الله.

قال السعدي: أو حاجُّوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنَّها قامت عليكم الحجَّة وتبيَّن لكم الهدى فلم تتَّبعوه، فالحاصل أنَّهم جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعًا عنهم العلم، لأنَّ العلم بزعمهم لا يكون إلَّا عندهم وموجبًا للحجَّة عليهم، فردَّ الله عليهم بأنَّ {الهدى هدى الله}.

قال ابن العثيمين: {قل إنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}: أنَّهم لمَّا قالوا: (لا تؤمنوا لأحد أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم)، قال الله تعالى: {إنَّ الفضل بيد الله}: حتى لو حاولتم أن تخفوا ما يمنُّ الله به من الفضائل على هذه الأمَّة، فإنَّ ذلك لن يمنع الأمر الواقع، لأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء؛ وقد آتى الله هذه الأمَّة ولله الحمد من الفضائل ما يربوا بكثير على الفضائل التي أوتيها بنو إسرائيل.

قال السعدي: أي الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان {يؤتيه من يشاء} ممَّن أتى بأسبابه.

قال ابن العثيمين: {والله واسع عليم}: واسع في كل صفاته، واسع في العلم، واسع الرحمة، واسع الحكمة، واسع القدرة، في كل الصفات؛ عليم بمن يستحق الفضل سبحانه وتعالى، فهو يعطي فضله من يشاء على علم وحكمة.

قال السعدي: {والله واسع[1]} الفضل كثير الإحسان {عليم[2]} بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إيَّاه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تعصُّب أهل الكتاب لدينهم على ضلالهم؛ لقوله: {ولا تؤمنوا إلَّا لمن تبع دينكم}.

٢- أنَّ المسلم يردُّ كيد هؤلاء بإعلان أنَّ الهدى هدى الله؛ وأنَّهم مهما حاولوا أن يصدُّوننا عن ديننا وقد أراد الله هدايتنا فإنَّ ذلك لا يضرُّنا. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّه ينبغي للعبد أن يعتمد على ربِّه في طلب الهدى وأن لا يعتمد على نفسه؛ لأنَّه إذا اعتمد على نفسه خذل مهما كان من الذكاء والحيلة.

٣- أنَّ هؤلاء الذين صنعوا هذه الخديعة بيَّنوا وأظهروا أنَّ الذي حملهم على ذلك هو الحسد؛ لقولهم: {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم} لأنَّ اليهود من أبرز صفاتهم الحسد {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله}، {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم}.

٤- أنَّ أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والحساب؛ لقوله: {أو يحاجُّوكم عند ربكم}؛ ولهذا اتَّفقت الأديان الثلاثة، اليهودية

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الواسع} مفصلًا عند تفسير الآية (١١٥) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

والنصرانية والدِّين الإسلامي على الإيمان بالبعث؛ لكن كلٌّ من آمن بالبعث عمل له؛ فاليهود والنصارى ما داموا على كفرهم بمحمد ﷺ فإنَّهم لم يعملوا لهذا البعث؛ إذ لو عملوا له لآمنوا بالرسول ﷺ.

٥- إثبات أنَّ العطاء عطاء الله عز وجل، وأنَّ الله إذا منَّ على أحدٍ بفضل، فلن يستطيع أحدٌ منعه؛ لقوله: {إنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء}.

إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله: {بيد الله} وهذه اليد يد حقيقيَّة يقبضها الله عز وجل ويقبض بها ويأخذ بها كما قال الله تعالى: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيمة والسموات}، وأخبر النبي ﷺ: ((أنَّ الله تعالى يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار وفي النهار ليتوب مسيء الليل([١]))، وأخبر ﷺ: ((أنَّ الإنسان إذا تصدَّق بعدل تمر – أي بما يعادل تمرة – من كسب طيِّب ولا يقبل الله إلَّا الطيِّب فإنَّ الله يأخذها بيمينه فيربِّيها كما يربِّي أحدكم فلوَّه([٢]))) الحديث؛ أهل السنة والجماعة يؤمنون بأنَّ ذلك حقٌّ على حقيقته؛ لأنَّ الله تعالى أخبر به عن نفسه وهو أعلم بنفسه وأعلم بغيره؛ وأخبر به عن نفسه بكلام فصيح بيِّن لا يحتمل الشَّك قال الله تعالى: {ومن أحسن من الله حديثًا}، وأخبر به عن نفسه بخبر هو أصدق الأخبار لقول الله تعالى: {ومن أصدق من الله قيلًا}، فخبر الله أصدق الأخبار؛ وأخبر به عن نفسه ليهتدي الناس به كما قال الله تعالى: {يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام}، وقال تعالى: {يبيِّن الله لكم أن تضلوا}، وقال تعالى: {يريد الله أن يبيِّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم}؛ فهذه أربعة أوصاف اتَّصف بها خبر الله تعالى عن نفسه؛ الوصف الأول: أنَّه خبر صادق عن علم فإنَّ الله عالم بنفسه وبغيره.

الثاني: أنَّ كلام الله أحسن الحديث يعني بالفصاحة والبيان والوضوح .

الثالث: أنَّ خبر الله عن نفسه أصدق خبر.

الرابع: أنَّ الله تعالى يريد بما أخبر به عن نفسه أن يهتدي الناس به لئلَّا يضلُّوا.

فإذا اجتمعت هذه الأوصاف الأربعة في كلامٍ، لم يبقى فيه أدنى شك، ولا يمكن أن نقول إنَّه من المتشابه خلافًا لمن زعم أنَّ آيات الصفات من المتشابه؛ ولهذا قالوا إنَّها من المتشابه، وإن فرضنا نحوها أن نمرِّرها بدون أن نتعرَّض لمعناها؛ وهذا كما مرَّ علينا كثيرًا خطأ؛ بل نقرأ آية الصفات ونتعرَّض لمعناها ونسأل عن معناها؛ لكن لا نسأل عن الكيفية، يعني نسأل ما معنى استوى على العرش؟ لكن لا نقول ولا نسأل كيف استوى؟ هنا {يد الله} نسأل ما هذه اليد هل هي حسية أو معنوية؟ الجواب: حسية يأخذ بها ويقبض عز وجل؛ ولكن لا نسأل عن كيفيتها؛ لا نقول كيف هذه اليد؟ وهل كفُّ الرحمن ككفِّ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥١٣)، وقال: أخرجه مسلم (٨/٩٩ – ١٠٠)، والبيهقي في سننه (٨/١٣٦ و١٠/١٨٨)، وفي الأسماء والصفات (٣٢١)، وأحمد (٤/٣٩٥ و٤٠٤) من طريق أبي عبيدة يحدث عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

والحديث بتمامه: ((إنّ الله عز وجل يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)).

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦١٥٢)، والحديث بتمامه: ((مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)).

الإنسان أو لا؟ فاليد ثابتة لله على الوجه اللائق به من غير مماثلة؛ نجزم ونعلم علم اليقين أنَّه لا مماثلة بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

٦- أنَّه ينبغي للإنسان أن يعلِّق الرجاء بالله خوفًا وطمعًا؛ لقوله: {قل إنَّ الفضل بيد الله}، فإذا علمت أنَّ الفضل بيد الله، فممَّن تسأل الفضل؟ من الله؛ وإذا علمت أنَّ الفضل بيد الله، فمن الذي تخاف أن يمنع الفضل عنك؟ الله؛ إذًا فيجب على المؤمن أن يعلِّق قلبه بالله تعالى رجاءً وخوفًا.

٧- إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ معنى هذا أنَّ الله تعالى يوصف بصفات الأفعال المتعلَّقة بمشيئته؛ لقوله: {يؤتيه من يشاء} فالإتيان فعل علِّق بالمشيئة؛ إذًا فنؤمن بأنَّ الله تعالى له أفعال يفعلها، يحدثها، تتعلَّق بمشيئته؛ ففيه ردٌّ على المعطِّلة الذين قالوا إنَّ الله تعالى لا يوصف بالصفات الفعلية الاختيارية؛ لأنَّه لا صفة له عندهم، لا صفة لله تتعلَّق بمشيئته، كلُّ الصفات أزلية ليس فيه صفات تحدث بمشيئة الله؛ وهذه الآية تردُّ عليهم؛ لماذا يقولون إنَّ الله لا يفعل؟ يقولون إنَّ الله لا يستوي على العرش استواءً فعليًّا؛ ولا ينزل إلى السماء الدنيا؛ ولا يأتي للفصل بين عباده؛ لماذا؟ قالوا لأنَّ الحوادث لا تقوم إلَّا بالحادث، والله عز وجل ليس بحادث، والله عز وجل أبدي أزلي؛ فإذا أثبتَّ له الأفعال الاختيارية المتعلِّقة بالمشيئة، أثبتَّ قيام فعل حادث به، ولا يقوم الحادث إلَّا بحادث؛ فما هو الجواب عن هذا؟

الجواب: أوَّلًا: أنَّ هذه القضية أو هذا الحكم حكم عقلي معارض للنَّص، لأنَّه يتضمَّن ردُّ كلُّ نصٍّ يدلُّ على قيام الأفعال الاختيارية بالله؛ وما تضمَّن ردُّ النصوص فهو باطل؛ لأنَّ ما تضمَّن ردُّ الحقِّ فهو باطل.

ثانيًا أن نقول: هذه القاعدة التي ذكرتم قاعدة باطلة؛ فإنَّ الأفعال تأتي بعد الفاعل ولا يلزم أن تكون قديمة بقِدمه ولا يلزم أن تكون حادثة بحدوثها؛ ولذلك نحن نأكل اليوم، وأكلنا بالأمس وما قبل أمس؛ هل يلزم إذا أكلنا اليوم أنَّنا لم نوجد إلَّا اليوم؟ يعني وجودنا يسبق أفعالنا؛ فكذلك أفعال الله الاختيارية، وجود الله سابق عليها، ولا يلزم أن نقول إذا أثبتنا الأفعال الحادثة فقد أثبتنا حدوث الفاعل، أبدًا؛ فهذه الملازمة العقلية ملازمة باطلة لذاتها، وهي أيضًا ملازمة باطلة لمصادمتها للنصوص.

٨- إثبات المشيئة لله؛ لقوله: {من يشاء}؛ ولا أحد ينكر إثبات المشيئة لله فيما يتعلَّق بفعله؛ أنَّه تابع لمشيئته، ولا يكون إلَّا بمشيئته؛ لكن اختلفت الأمَّة في فعل العبد هل يكون بمشيئة الله؟ أو لا يكون؟

فأهل السنة والجماعة قالوا: إنَّه يكون بمشيئة الله مع إثبات إرادة العبد له؛ وذهبت القدرية - مجوس هذه الأمة - إلى أنَّ فعل العبد لا يقع بمشيئة الله، وأنَّ العبد حرٌّ يفعل ما يشاء، ولا تعلُّق لإرادة الله ومشيئته بفعله؛ ولهذا سمُّوا مجوس هذه الأمَّة لأنَّهم اعتقدوا أنَّ العبد مستقل بما يحدثه؛ فجعلوا للحوادث خالقين: الله عز وجل بما يتعلَّق بفعل نفسه؛ والإنسان بما يتعلَّق بفعل نفسه أيضًا؛ فالله خالق لأفعاله والإنسان خالق لأفعاله؛ ولا تعلُّق لمشيئة الله بفعل العبد.

طائفة أخرى قابلتهم، قالت: أفعال العبد بمشيئة الله ولا إرادة للعبد فيها؛ هؤلاء هم الجبرية؛ قالوا إنَّ أفعال العبد بمشيئة الله ولا إرادة له فيها أبدًا؛ إن قام فهو مجبر، وإن جلس فهو مجبر، وإن نزل من السطح على الدَّرج فهو مجبر، وإن تدحرج فهو

مجبر، وإن مات فهو مجبر، وإن شرب فهو مجبر، كلُّه إجبار ليس له اختيار؛ وهؤلاء أيضًا خالفوا المنقول والمعقول والمنصوص؛ لو أنَّ أحدًا منهم وقف أمامنا وقال: الإنسان مجبر عن فعله، فقام إنسان وضربه كفًّا، قال: والله هذا غصبًا عليَّ؛ أنا مجبر، عليَّ أن أضربك كفًّا؛ ماذا يقول؟ لا يرضى؛ إن قال: أبدًا لماذا تَعدَّى عليَّ؟! يقول: الآن أبطلت قاعدتك؛ ولهذا يُذكر أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع إليه سارق فأمر بقطع يده قال: اقطعوا يده {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما}، فقال مهلًا يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت إلَّا بقدر الله؛ يعني غصبًا عليَّ؛ فقال: ونحن لا نقطع يدك إلَّا بقدر الله؛ فردَّ عليه بحجَّته، مع أنَّ أمير المؤمنين يقطع يد السارق بقدر الله وشرع الله، والسارق يسرق بقدر الله لا بشرع الله، لأنَّ الله ينهاه عن السرقة؛ المهم أنَّ إثبات المشيئة لله في الآيات الكثيرة، وهي شاملة لفعله ولفعل المخلوقين.

وهنا نقول: هل مشيئة الله مطلقة؟ أو مقيَّدة بالحكمة؟

فالجواب، مقيَّدة بالحكمة، كلُّ ما مرَّ بك من آية فيها إثبات المشيئة فإنَّها مقيَّدة بالحكمة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {وما تشاؤون إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا}، فقوله: {إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا}، يدلُّ على أنَّ مشيئة الله عز وجل مقرونة بالعلم والحكمة وهو كذلك؛ فلا يشاء الله سبحانه وتعالى شيئًا إلَّا لحكمة، ولكن الحكمة قد تُبيَّن لنا وقد تخفى علينا؛ لأنَّ عقولنا قاصرة؛ قد نظنُّ مثلًا أن نزول المطر في هذا الوقت ضرر، وليس بضرر؛ قد نظنُّ أنَّ حبس المطر عنَّا ضرر، وليس بضرر؛ فنحن نؤمن بأنَّه ما من شيء يشاؤه الله سبحانه وتعالى إلَّا لحكمة؛ ولكن الحكمة قد تخفى علينا وقد تظهر لنا.

٩- إثبات اسمين من أسماء الله، وهما {واسع} و{عليم}؛ الواسع في كل صفاته؛ رحمته وسعت كل شيء، وعلمه وسع كلَّ شيء، وسلطانه شمل كلَّ شيء، وقدرته على كلِّ شيء، واسع بكل معناه؛ حتى إنَّ الله قال: {فأينما تولُّوا فثمَّ وجه الله إنَّ الله واسع عليم}: أي مكان تولِّي وجهك له فالله أمامك؛ إذا كنت في الصلاة فإنَّ الله تعالى يناجيك وهو أمامك كما قال النبي ﷺ: ((إذا قام أحدكم يصلِّي فإنَّ الله قِبَلَ وجهه[١])) أيُّ إنسان، الذين يستقبلون المشرق كالذين يقعون غربًا عن مكة والذين يستقبلون المغرب كالذين يقعون شرقًا عن مكة، والذين يستقبلون الجنوب كالذين يقعون عنها شمالًا؛ والذين يستقبلون الشمال كالذين يقعون عنها جنوبًا، كلُّ هؤلاء أينما تولُّوا فإنَّ ثمَّ وجه الله؛ لأنَّ الله واسع عليم؛ ولكن لا تظن أنَّ الله سبحانه وتعالى في الأرض قِبَل وجهك وأنت تصلِّي؛ فإنَّه قِبَلَ وجهك وهو في السماء؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فإذا كان يمكن للمخلوق أن يكون قبل وجه المخلوق وهو في السماء فما بالك بالخالق؛ لو استقبلت الشمس حين شروقها لكانت قبل وجهك وأين هي؟ في السماء؛ وكذلك عند الغروب تكون قبل وجهك وهي في السماء؛ فالحاصل أنَّ الله تعالى واسع بجميع صفاته وبكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٠).

١٠ – إثبات علم الله سبحانه وتعالى في قوله: {عليم} علم الله، فما هو العلم؟ العلم إدراك الشيء على ما هو عليه؛ فمن لم يدرك الشيء فليس بعالم؛ ومن أدركه على خلاف ما هو عليه فليس بعالم؛ والأوَّل جاهل بسيط، والثاني جاهل مركَّب؛ فلو سألنا سائل: متى كانت غزوة بدر؟ فقيل له: كانت في السنة الثالثة من الهجرة؛ فالقائل جاهل جهلًا مركَّبًا؛ ولو سألنا سائل فقال: متى كانت غزوة بدر؟ فقال له: الله أعلم؛ فالقائل جاهل لكن جهله بسيط؛ أيُّهما أشد؟ الأول أشد؛ لأنَّه جاهل، وهو جاهل أنَّه جاهل؛ ولهذا قيل: إنَّ الجهل المركَّب أشدُّ قبحًا من الجهل البسيط؛ فعالم لم ينتفع بعلمه أشدُّ إثمًا من الجاهل؛ لأنَّ العالم الذي لم ينتفع بعلمه عَلِمَ ولم يعمل بعلمه؛ ولو سألنا سائل: متى كانت غزوة البدر؟ فقيل له: في السنة الثانية من رمضان، لكان عالمًا؛ إذًا الله تعالى عالم مدرك الأشياء على ما هو عليه، وعلمه سبحانه وتعالى تامٌّ من كلِّ وجه أزلًا وأبدًا؛ فلم يزل عالمًا يعلم ما سيكون، وإذا علم وهو عالم عز وجل فلن ينسى، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: {في كتاب لا يضلُّ ربِّي ولا ينسى}. وهل يوصف الله تعالى بأنَّه عارف؟

قال أهل العلم أوَّلًا: لا يوصف الله بأنَّه عارف؛ لأنَّ المعرفة انكشاف بعد لبس، انكشاف بعد خفاء؛ ولهذا إذا علمت الصبي، تقول هل عرفته؟ فيقول نعم، يعني بعد أن كان خافيًا عليه صار الآن معلومًا له؛ فمن أجل أنَّها انكشاف بعد خفاء لم يصح إطلاقها على الله؛ لأنَّ الله لم يزل ولا يزال عليم.

ثانيًا: أنَّ المعرفة تطلق على العلم والظَّن؛ ولهذا إذا قلنا العلم معرفة الحقِّ بدليله، شمل العلم والظَّن؛ لأنَّ المعلومات إمَّا علمية وإمَّا ظنيَّة؛ لهذا لا يصحُّ أن يطلق على الله بأنَّه عارف.

فإن قال قائل: كيف تقولون هذا وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((تعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك في الشدَّة[١]))، يعرفك وهذا فعل؟

فالجواب عن ذلك: أنَّ هذه معرفة خاصة تستلزم العناية، العناية بالذي تعرَّف إلى الله من قبل؛ والدَّليل على أنَّها ليست معرفة علم بل هي معرفة العناية، الدَّليل أنَّه قال: ((تعرَّف إلى الله)) مع أنَّ الله يعرفك سواء قمت بعبادته أم لم تقم يَعْلَمُكَ عز وجل يعلمك سواء قمت بعبادته أم لم تقم؛ لكن إذا قمت بعبادته فقد تعرَّفت إليه؛ فإذا تعرَّفت إليه في الرَّخاء عرفك في الشدَّة[٢].

١ – (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢٩٦١).

٢ – (قلت): أنظر كلام ابن القيم عن (المعرفة والعلم)، والفرق بينهما عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة البقرة.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {٧٤}

قال أبو زهرة: اختصَّ تستعمل لازمة ومتعديَّة، فيقال اختصَّه الله بفضله، ويقال اختصَّ بفضل الله، والله سبحانه وتعالى بمقتضى علمه وحكمته يختصُّ برحمة معيَّنة من رحماته خلقًا من خلقه، فقد يقول قائل إنَّ كلُّ من في الوجود في رحمة الله تعالى، ما من أحد من خلق الله تعالى إلَّا ناله نصيب من رحمة الله، ومنهم من يشكر، ومنهم من يكفر، فَلِمَ عبَّر سبحانه وتعالى بهذا الاختصاص، ولا عامٌّ أعمُّ من رحمة الله، ولا عموم إلَّا في فضل الله تعالى؟.

والجواب عن ذلك أنَّ الرحمة التي يختصُّ الله تعالى بعض عباده بها هي الرحمة النوعية، فيختصُّ سبحانه هذا بالعلم، وذلك بالمال، وهذا بالجَّاه، وذلك بالرَّاحة، وهذا الفريق بالرسالة والهداية، وذلك الفريق بالغلب والسلطان؛ و كلٌّ ميسر لما خُلق له.

فإذا كان بنو إسرائيل وأشباههم قد نَفِسُوا على بني إسماعيل([1])أن تكون فيهم النبوة الكبرى التي تختتم بها رسالة السماء إلى الأرض، فذلك ممَّا اختصَّ به سبحانه وتعالى بعض عباده بالرحمة، وليس لأحد أن يعترض على فعل الله، فإنَّ فضله على من اختصَّه عميم، وفضله أيضًا على من لم يمنحه هذا النوع من الرحمة عظيم؛ ولذا ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

قال ابن العثيمين: {يختصُّ برحمته من يشاء}: بمعنى يخصُّ بالرحمة من يشاء؛ ولكنَّه عز وجل يختصُّ برحمته من هو أهل بالرحمة كما قال تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته}، وقد مرَّ علينا قاعدة أنَّ كلَّ فعل من أفعال الله قُرِن بالمشيئة فهو تابع للحكمة، واستدللنا لذلك بقوله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا}، فهو سبحانه وتعالى عليم حكيم يؤتي فضله من يشاء ممَّن يستحقُّ ذلك الفضل.

قال ابن العثيمين: {والله ذو الفضل العظيم}: أي صاحب الفضل العظيم، يعني الواسع الكثير، فلا فضل أعظم من فضل الله عز وجل؛ وانظر إلى ما أنعم الله بها إلى العباد من أوَّل الدنيا وآخرها وكلُّ ذلك لم ينقص من عند الله شيئًا، قال الله تعالى في الحديث القدسي: ((لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلَّ إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك ممَّا عندي شيئًا إلَّا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر([2]))، اغمس المخيط في البحر وأخرجها هذا البلل

١-(قلت): نَفِسُوا: أي حسدوا.

٢- (قلت): صحيح: مختصر مسلم ١٨٢٨: حم ٥/ ١٦٠، ١٥٤، ١٧٧. وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣٤٥). والحديث بتمامه: ((قال الله تعالى: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرَّمًا بينكم فلا تظالموا، يا عبادي! كلكم ضال إلَّا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي! كلكم جائع إلَّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلُّكم عارٍ إلَّا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي! إنَّكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في

الذي يحمل المخيط هل ينقص البحر شيئًا؟ أبدًا ولا شيء؛ فهكذا كلُّ فضل آتاه الله عز وجل؛ لو فرض أنَّه خارج عن ملكه وإلَّا هو في ملكه؛ لكن لو فرض أنَّه خارج عن ملكه فإنَّه لن ينقص في ملك الله شيئًا إلَّا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر وهذا لا ينقص المخيط شيئًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الله عز وجل قد يرحم بعض العباد رحمة خاصة؛ لقوله: {يختصُّ برحمته من يشاء} وقد بيَّن الله في آيات أخرى: أنَّ الله تعالى يرحم من يستحق أن يرحم، وهو الذي تعرَّض لأسباب الرحمة مثل قوله تعالى: {يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام}، وأنَّ من كان على العكس لم يأت بما يقتضي الرحمة فإنَّه ليس أهلًا لها، قال الله تعالى: {ورحمتي وسعت كلَّ شيء فسأكتبها للَّذين يتَّقون}؛ وقال عز وجل: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين}.

٢- أنَّه لا اعتراض على الله في كونه يختصُّ برحمته زيدًا ويمنع رحمته عن عمرو؛ لأنَّ الأمر إليه وهو فضل إن شاء منعه وإن شاء أعطاه. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ من منعوا فضل الله لم يكونوا قد ظُلِموا شيئًا؛ لأنَّ فضل الله يؤتيه من يشاء ويختصُّ برحمته من يشاء؛ أرأيت لو أمامك عشرة رجال فأعطيت واحدًا عشرة وواحدًا تسعة وواحدًا ثمانية وواحدًا سبعة وواحدًا ستة وواحدًا خمسة وواحدًا أربعة وواحدًا ثلاثة وواحدًا اثنين وواحدًا واحد؛ هل ظلمت من لم تعطه إلَّا درهمًا واحدًا؟ لا ما ظلمته لأنَّ هذا فضل منك؛ فلا يقال إنَّك ظلمت من أعطيته درهمًا واحدًا لأنَّك أعطيت الأول عشرة دراهم. ولو استأجرت عشرة أُجَراء على عشرة دراهم كل يوم فقاموا بالعمل؛ عملوا يومًا كاملًا والثاني كلُّهم عملوا على يوم كامل؛ أعطيت واحدًا عشرة والثاني تسعة والثالثة ثمانية وهكذا تنقص؛ لَعُدِدتَّ ظالمًا؛ لأنَّ هذا ليس من العدل أن يقوم الجميع بما استأجرهم عليه ثمَّ تعطي بعضهم وتحرم بعضًا؛ والفرق بين هذه والتي قبلها: أنَّ الأولى مجرَّد فضل وإحسان؛ وهذه الثانية عدل، والعدل يجب أن يعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

٣- جواز وصف غير الله بالعظم؛ لقوله: {ذو الفضل العظيم} لأنَّ الفضل هنا يحتمل أن يراد بها فضل الله الذي هو فضل الله أي عطائه؛ أو أنَّ المراد بها المتفضِّل به وهو المعطى؛ فعلى الثاني لا إشكال في استنباط الفائدة التي ذكرناها، أنَّ العظم يوصف به غير الله؛ وعلى الأول إذا قلنا إنَّ الفضل هو نفس فعل الله، فوصفه بالعظم لا إشكال فيه؛ لماذا؟ لأنَّه من صفة الله

ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي! إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثمَّ أوفيكم إيَّاها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه)).

وصفات الله كذاته عظيمة.

فإن قال قائل: مادام الاحتمالان قائمين فلا دلالة على أنَّه يوصف بالعظم من سوى الله؛ ما دمنا نقول يحتمل أن يكون الفضل هنا صفة الله وصفة الله عظيمة كذات الله.

فالجواب عن هذا أن يقال: إذا لم تقتنع بهذا فاقرأ قول الله تعالى: {ولها عرش عظيم} فوصف العرش بالعظم مع أنَّ العرش مخلوق؛ فيصح أن نقول والله هذا الفعل عظيم، ويصح أن نقول هذا رجل عظيم، هذه سيارة عظيمة، هذا بيت عظيم، وما أشبه ذلك ولا يضر؛ كما أنَّه يصح أن نقول فلان عزيز، فلان قوي ولا حرج في ذلك؛ ولكن يجب أن نعلم أن ما نصف به المخلوق من صفات الله لا يماثل بصفات الله ولا يدانيها أيضًا؛ لأنَّها صفة كلِّ موصوف تناسبه.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {٧٥}

قال ابن العثيمين: لما ذكر الله سبحانه وتعالى خيانة أهل الكتاب في الأمور الدينية ولبسهم الحق بالباطل وعتوّهم وعنادهم ونفاقهم وتغريرهم بالمؤمنين ذكر حالهم في الأمور الدنيوية في المال؛ فقسَّمهم الله تعالى إلى قسمين، فقال: {ومن أهل الكتاب}: وهذا يشمل اليهود والنصارى، وسمُّوا أهل كتاب لأنَّهم هم الذين عندهم بقايا من الدِّين النازل على الأنبياء؛ فاليهود عندهم بقايا من التوراة والنصارى عندهم بقايا من الإنجيل.

{من إن تأمنه}: هنا يجب الإظهار؛ لأنَّ الهمزة همزة قطع؛ فيقال: {من إن}، خلافًا لما يصدر من بعض الناس حتى من أئمة المساجد فيقول: (من آن تأمنه) هذا خطأ؛ لأنَّه إذا قال: (منِ آن تأمنه) جعل الهمزة همزة وصل وهي همزة قطع لأنَّها {إن} الشرطية {من إن تأمنه} الخطاب في قوله: {إن تأمنه} يعود على المخاطب يعني: {من إن تأمنه} أيها المخاطب {بقنطار}: يعني على قنطار يؤدِّه إليك؛ والقنطار يعبِّر عن المال الكثير من الذهب، حدَّه بعضهم بألف دينار وبعضهم بملء مسك الثوب يعني جلد الثوب من الدنانير؛ وعلى كلِّ حال يعني من إن تأمنه بدينار كثير من الذهب {يؤدِّه إليك}: أي يردُّه إليك من غير تغيير ولا نقص؛ والأداء هو إبلاغ الشيء، ومنه أداء الحديث، ومنه أداء الأمانات، أي إبلاغه إلى مستحقِّها؛ فمعنى {يؤدِّه إليك}: أي يعطه إيَّاك سالمًا من كلِّ نقص؛ وهذا أمين. وفي قوله: {يؤدِّه إليك} قراءتان: قراءة بكسر الهاء {يؤدِّهِ إليك}، وقراءة أخرى بالسكون: {يؤدِّهْ إليك}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٤ص١١٤: فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ فِيهِمْ الْمُؤْتَمَنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيْك وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إلَيْك إلَّا مَا دُمْت عَلَيْهِ قَائِمًا}، وَلِهَذَا جَازَ ائْتِمَانُ أَحَدِهِمْ عَلَى الْمَالِ، وَجَازَ أَنْ يَسْتَطِبَّ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ إذَا كَانَ ثِقَةً، نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الْأَئِمَّةُ، كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، إذْ ذَلِكَ مِنْ قَبُولِ خَبَرِهِمْ فِيمَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَائْتِمَانٌ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ جَائِزٌ إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ، مِثْلُ وِلَايَتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَعُلُوِّهِ عَلَيْهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَأَخْذ عِلْمِ الطِّبِّ مِنْ كُتُبِهِمْ مِثْلُ الِاسْتِدْلَالِ بِالْكَافِرِ عَلَى الطَّرِيقِ وَاسْتِطْبَابُهُ، بَلْ هَذَا أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ كُتُبَهُمْ لَمْ يَكْتُبُوهَا لِمُعَيَّنٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَدْخُلَ فِيهَا الْخِيَانَةُ، لَيْس هُنَاكَ حَاجَةٌ إلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ بِالْخِيَانَةِ، بَلْ هِيَ مُجَرَّدُ انْتِفَاعٍ بِآثَارِهِمْ، كَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَزَارِعِ وَالسِّلَاحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال ابن العثيمين: {ومنهم}: القسم الثاني الخائن الذي لا يؤتمن، {من إن تأمنه بدينار لا يؤِّده إليك}: والدينار هو الوحدة من النقد الذهبي؛ {لا يؤدِّه}: نقول فيها كما قلنا في {يؤدِّه}، {لا يؤدِّهِ إليك}، أو {لا يؤدِّهْ إليك}: أي لا يردُّه إليك سالمًا بل ينقصه ويخون فيه {إلَّا ما دمت عليه قائمًا}: يعني إلَّا إذا بقيت قائم عليه مراقبًا له ناظرًا في أحواله، فحينئذٍ تَسلم من خيانته؛ أمَّا إذا غفلته أدنى غفلة فإنَّه سوف يخونك؛ فقسَّم الله عز وجل أهل الكتاب الآن إلى قسمين؛ قسم أمين إذا ائتمنته على المال الكثير لم ينقصه شيء، وإن ائتمنته على المال القليل لم ينقص من باب أولى؛ لأنَّه إذا لا ينقص المال الكثير شيئًا مع أنَّ المال الكثير إذا أخذ منه شيء قليل لا يتبيَّن؛ فائتمانه عند المال القليل من باب أولى؛ والقسم الثاني من هو خائن لو ائتمنته على أقلِّ القليل، على واحد من النقود فإنَّه لا يؤدِّه إليك إلَّا إن كنت قائمًا عليه مراقبًا له فحينئذ تسلم من شرِّه، وإلَّا فإنَّه يمكن أن ينقص الواحد من الدنانير؛ وإن ائتمنته على أقلِّ من دينار، فكذلك لا يؤدِّيه؛ وعلى أكثر منه من باب أَولى.

قال ابن كثير: ومناسب أن يكون هاهنا الحديث الذي علَّقه البخاري في غير موضع من صحيحه، ومن أحسنها سياقه في كتاب الكفالة حيث قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ فَقَالَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا قَالَ فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً قَالَ صَدَقْتَ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلاً فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ فَقَالَ وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ

قَالَ هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا([١]))).

قال ابن العثيمين: {ذلك}: أي ما ذكر من خيانتهم، {بأنَّهم قالوا ليس علينا} الباء هنا للسببية: أي عدم أمانتهم؛ {بأنَّهم قالوا}: أي بسبب قولهم {ليس علينا في الأمّيين سبيل}، فالأمِّيُّون هم العرب، وسمُّوا أمِّيِّين نسبة إلى الأم، والإنسان الأمِّي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب قال الله تعالى: {ومنهم أمِّيُّون لا يكتبون الكتاب إلَّا أماني}: يعني لا يعلمونه إلَّا قراءة؛ أمَّا الأمِّي في الأصل فهو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ ولهذا كان العرب لا يقرءون ولا يكتبون إلَّا بعد أن بعث الرسول ﷺ فكانت لهم القراءة والكتابة؛ وقال بعض المفسِّرين: المراد بالأمِّيِّين من سوى أهل الكتاب؛ فيكون المراد بالأمِّي من ليس له الكتاب؛ ويكون هؤلاء اليهود والنصارى يقولون: كلُّ الناس سوى أهل الكتاب ليس علينا فيهم سبيل، لنا أن نظلمهم، نأخذ أموالهم، نقتلهم، نسبي نسائهم؛ لأنَّنا نحن المختارون عند الله؛ وغيرنا عبيد لنا، والإنسان يفعل في عبيده ما يشاء؛ ولهذا تقول اليهود إنَّهم شعب الله المختار؛ ولكن الله اختارهم على عالم زمانهم، ولكنَّهم لم يشكروا هذه النعمة.

من نظر إلى سياق الآية وأنَّها في سياق الائتمان على المال؛ قيَّد هذا بأنَّه {ليس علينا في الأمِّيِّين سبيل} فيما يتعلَّق بالمال؛ ومن نظر إلى العموم قال: إنَّها تشمل أنَّهم يدَّعون أنَّه لا سبيل عليهم في الأمِّيِّين في أموالهم ودمائهم؛ وهذا المعنى أعمُّ؛ وإذا كان المعنى أعمُّ واللفظ لا ينافيه فالاختيار أن تأخذ بالأعمِّ؛ لأنَّ الأعمَّ يشمل الأخصَّ ولا عكس؛ إذًا: {ليس علينا في الأمِّيِّين سبيل} لا في أموالهم، ولا في دمائهم؛ و{السبيل} في الأصل الطريق؛ والمراد به هنا اللَّوم: يعني ليس علينا سبيل إلى اللَّوم؛ أي أنَّنا لا نلام ولا نذمُّ ولا نأثم فيما يتعلَّق بالأمِّيِّين؛ هذا القول الذي يقولونه ليسوا ينسبونه لأنفسهم وأنَّهم هم الذين أباحوا لأنفسهم الاعتداء على الأمِّيِّين وإنَّما يجعلون هذا شرعًا من عند الله، يقولون إنَّ الله أباح لنا ذلك، ولم يجعل علينا سبيلًا فيما يتعلَّق بالأمِّيِّين؛ ولهذا قال الله عز وجل: {ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون}: أي أنَّهم يكذبون على الله ويفترون على الله ويدَّعون هذا شرعًا من الله، وهم يعلمون أنَّ الله حرَّم عليهم أكل أموال الناس بالباطل، وحرَّم دماء الناس وأعراضهم، يعلمون هذا، لكنَّهم يكذبون على الله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- جواز الاقتصار على المثال ليقاس عليه ما يشبهه؛ لأنَّه قال: قنطار ودينار؛ طيِّب ولو ائتمنته على سيارة أو على لعبة صبي مثلها؟ نعم من أهل الكتاب من إن تأمنه بلعبة صبي لا يؤدِّها إليك إلَّا مادمت عليه قائمًا؛ ومنهم من إن تأمنه على السيارة هو يردُّها إليك سالمًا؛ لكن ذكر الله الدينار والقنطار على سبيل التمثيل.

١- (قلت): البخاري (٢٢٩١).

٢- أنَّ هؤلاء الخونة من اليهود عندهم ما يلبسون به باطلهم في قولهم: {ذلك بأنَّهم قالوا ليس علينا في الأمِّيِّين سبيل}.

٣- إعجاب أهل الكتاب بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم؛ لأنَّهم قالوا: {ليس علينا في الأمِّيِّين سبيل}، وهذا يدلُّ على العجب بالنفس واحتقار الغير.

٤- أنَّ أهل الكتاب لا يقتصرون على الظلم والعدوان ويجعلون ذلك انتقاء أنفسهم؛ بل ينسبونه إلى شريعة الله؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {ويقولون على الله الكذب} فهنا يقولون على الله الكذب في هذا وفي غيره.

٥- أنَّ من افترى الكذب على الله فيما يفتي به أو يحكم به بين الناس، ففيه شبه باليهود والنصارى؛ وقد وجد في هذه الأمَّة من يفتري الكذب على الله سواء في الحكم بين الناس أو في الفتوى التي ليست بحكم ولكنَّها إخبار عن الشرع.

٦- أنَّ من افترى على الله الكذب وهو يعلم أشدُّ إثمًا وعدوانًا ممَّن لا يعلم؛ وإن كان كلٌّ منهم على خطأ، لكن ليس المتعمِّد كغير المتعمِّد؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((من كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النار([1]))).

٧- الإشارة إلى أنَّ الجهل المركب أقبح من الجهل البسيط؛ لأنَّ الذي يكذب وهو يعلم، أقبح من الذي يكذب ولا يعلم؛ فالجاهل المركب الذي يتقدَّم بالشَّيء وهو يعلم أنَّه ليس عنده علم، أقبح من الشخص الذي يرى أنَّ هذا هو العلم.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ {٧٦}

قال ابن العثيمين: {بلى} حرف إبطال في هذا سياق؛ لمَّا قالوا: {ليس علينا في الأمِّيِّين سبيل}: أي بلى عليهم سبيل؛ لأنَّهم إذا خانوا الأمانة فإنَّ عليهم سبيل، كل من خان أمانته فعليه سبيل، هم أو غيرهم؛ فيكون قوله: {بلى} حرف جيء به لإبطال ما ادَّعوه في قولهم: {ليس علينا في الأمِّيِّين سبيل}.

{من أوفى بعهده واتَّقى}: {من} الجملة هذه استئنافية؛ {أوفى}: بمعنى أتمَّ، فهي فعل ماضي وليست اسم تفضيل؛ {من أوفى}: يعني أتمَّ بعهده؛ أي: بما عاهد غيره واتَّقى الله في هذا الإيفاء، فإنَّ الله يحبُّ المتَّقين.

{بعهده}: أي بالعقد الذي عاقد عليه؛ وهل العقد عهد؟ نعم العقد عهد؛ فإنَّ المتعاقدين يعاهد كلُّ واحدٍ منهما الآخر على إتمام ما تمَّ العقد عليه وإن لم يذكر العهد باللَّفظ؛ لكن هذا مقتضى العقد أنِّي إذا عاقدت معك أن أوفي لك بما تمَّ العقد عليه؛ فيكون كلُّ عقدٍ عهدًا. إذا ائتمنتك على شيءٍ فقد عاهدتك على حفظه.

قال السعدي: والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقِّه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتَّقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتِّقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الروض النضير (٧٠٧): ق. وقال: صحيح متواتر.

قال أبو زهرة: وإنَّ معنى هذا النص السامي أنَّ الذي ينال محبة الله تعالى رضاه سبحانه، لابدَّ أن يتحقَّق فيه وصفان:
أولهما الوفاء بالعهد، فكلُّ ما يلتزمه من عهود، سواء أكان موضوعها أمرًا ماديًّا كأداء الأمانات أم كان الموضوع أمرًا معنويًّا كالقيام بحقٍّ من الحقوق – الوفاء به يستوجب رضا الله سبحانه، وكلُّ غدرٍ يكون فيه إبعاد عن رضوان الله سبحانه ومحبَّته. ويدخل في العهود ما أودعه الله سبحانه قلب كلَّ إنسان من إدراك للحقِّ، وفهم له وإدراك لمعنى الدليل، فإذا لم يذعن له ويعلنه لَا يكون موفيًا للعهد.
الوصف الثاني المستوجب لرضا الله ومحبَّته – هو التَّقوى بأن يشعر بحقِّ الغير عليه ويؤمن به، ويجعل بينه وبين الاعتداء أيا كان نوعه وقاية.
هذان هما الوصفان اللَّذان يستوجبان محبَّة الله تعالى، وقد خلا اليهود منهما، فليسوا من محبَّة الله في شيء، وإنَّ هذين الوصفين متداخلان فالوفاء بالعهد داخل في التَّقوى، ولذلك قال سبحانه في جزاء الوصفين معًا: {فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}.
قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص١٥٧: فَإِنَّ قَوْلَهُ: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ} بَعْدَ ذِكْرِهِ لِلْإِيمَانِ يَقْتَضِي أَنَّهُ الْوَفَاءُ بِمُوجَبِ الْعُقُودِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَنَحْوِهَا، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْبَيْعِ: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ} [البقرة: ٢٨٣]، فَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ هُوَ الْوَفَاءُ بِمُوجَبِ الْعُقُودِ فِي الْمُعَامَلَاتِ مِنْ الْقَبْضِ وَالتَّسْلِيمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ بِعَقْدِهِ فَقَطْ.
قال ابن العثيمين: وقوله: {واتَّقى}: أي اتَّقى الله بوفائه بالعهد؛ ومن اتّقاء الله اتّقاء الخيانة، والتَّقوى مأخوذة من الوقاية؛ وهي اسم جامع لفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه؛ فإن ذكرت مع البّر اختصَّت بالمناهي واختصَّ البر بالأوامر كقوله: {تعاونوا على البرِّ والتَّقوى}: أي على فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ أمَّا إذا ذكرت التَّقوى وحدها فهي شاملة بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ إذًا التَّقوى اسم جامع لفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه؛ ولفظها يدلُّ على هذا لأنَّها مأخوذة من الوقاية، ولا وقاية من عذاب الله إلَّا بفعل أوامره واجتناب نواهيه هذه هي التقوى. وقال بعض العلماء: التَّقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله؛ فجمع بين العلم والعمل والاحتساب؛ أن تعمل بطاعة الله، هذا العمل؛ على نور من الله، هذا العلم؛ ترجوا ثواب الله، هذا الإحتساب؛ وأن تترك ما نهى الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله؛ أيضًا جمع بين العلم والعمل والاحتساب.
قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٠ص٧٦: فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ مِنْ التَّقْوَى الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ هُوَ جُمْلَةُ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ إمَّا بِالشَّرْعِ، أَوْ بِالشَّرْطِ وَكُلُّ ذَلِكَ فِعْلٌ مَأْمُورٌ بِهِ، وَذَلِكَ وَفَاءٌ بِعَهْدِ اللَّهِ وَعَهْدِ الْعَبِيدِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ التَّقْوَى، إمَّا تَقْوَى اللَّهِ؛ وَإِمَّا تَقْوَى عَذَابِهِ، كَمَا قَالَ: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[البقرة: ٢٤]، {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[آل عمران: ١٣١]، فَالتَّقْوَى اتِّقَاءُ الْمَحْذُورِ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَبِتَرْكِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَهُوَ بِالْأَوَّلِ أَكْثَرُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ تَقْوَى؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْمَأْمُورِ بِهِ وَفِعْلَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ سَبَبُ الْأَمْنِ مِنْ ذَمِّ اللَّهِ وَسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِ

اللَّهِ، فَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ خَوْفُ الْإِثْمِ، بِخِلَافِ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ مَضَرَّةٌ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَحَبُّ الَّذِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ وَلَهُ أَنْ لَا يَفْعَلَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ بِاسْمِ التَّقْوَى لِيُبَيِّنَ وُجُوبَ ذَلِكَ، وَأَنَّ صَاحِبَهُ مُتَعَرِّضٌ لِلْعَذَابِ بِتَرْكِ التَّقْوَى.

قال ابن العثيمين: هنا قال: {فإنَّ الله يحبُّ المتَّقين}، ولم يقل: (فإنَّ الله يحبه)؛ ومثل هذا التعبير يسمَّى الإظهار في موضع الإضمار. والإظهار في موضع الإضمار له فوائد منها: تنبيه المخاطب، ووجه ذلك:

أوَّلًا: أنَّ الكلام إذا كان على نسق واحد لم يكن فيه ما يستدعي الانتباه، فإذا تغيَّر الأسلوب وجاء الاسم مظهرًا في موضع الإضمار فإنَّ الإنسان ينتبه لما قال: فإنَّ الله يحبك.

ثانيًا: أنَّ في الإظهار في موضع الإضمار التعليل للحكم الذي جاء فيه الإظهار في موضع الإضمار؛ وذلك أنَّ قوله: فإنَّ الله يحبُّه ليست فيه إظهار العلَّة كقوله: {فإنَّ الله يحبُّ المتَّقين} لأنَّه إذا قال: {فإنَّ الله يحبُّ المتَّقين} لماذا؟ لتقواهم، فأفاد العلَّة.

ثالثا: أنَّها تفيد التعميم، أي كلُّ من يعمَّه هذا المظهر؛ واقرأ قول الله تعالى: {من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإنَّ الله عدوٌّ للكافرين} ولم يقل: (فإنَّ الله عدوٌّ له)؛ لأجل أن يشمل كلَّ كافر سواء كان كُفرُه بهذه العداوة أو بغيره؛ فيكون في هذا تعميم للحكم.

قال أبو زهرة: أي من أوفى بعهده واتَّقى فقد استحقَّ محبَّة الله، لأنَّ محبَّة الله تعالى لَا يعطيها إلَّا لأهل التَّقوى الذين يجعلون بينهم وبين غضب الله تعالى وقاية، فيوفون بالعهد ويعطون كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ويخشون مقت الله وعذابه، وأنَّ الذي يسهل عدم الوفاء بالعهد أعراض الدنيا، وهي ثمن لَا يساوي شيئًا في جانب عدم رضا الله تعالى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الثناء على الموفين بالعهد؛ لقوله: {بلى من أوفى بعهده واتَّقى فإنَّ الله يحبُّ المتَّقين}.

٢- أنَّ الوفاء بالعهد من أسباب محبَّة الله؛ لقوله: {فإنَّ الله يحبُّ المتَّقين}.

٣- أنَّ تقوى الله عمومًا سبب لمحبَّته.

٤- الرَّد على الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل الذين أنكروا محبة الله، وقالوا إنَّه لا يجوز أن تثبت أنَّ الله يحِب؛ إذا أثبتَّ أنَّ الله يحِب فقد وصفت الله بالنقص والعيب؛ لأنَّ هذا من خصائص المحدثات؛ ولأنَّ المحبَّة لا تكون إلَّا بين شيئين متناسبين؛ فكيف تثبت أنَّ الله يحِب؟ أثبتها الله لنفسه، قالوا ليس المراد بإثبات المحبَّة نفس المحبَّة، المراد بذلك لازمها وهو الإثابة فمعنى {يحبُّ المتَّقين}: يعني: (يثيب المتَّقين)؛ أمَّا أن يكون يحبُّهم فكلَّا وبلا؛ العلَّة؟ قالوا: لا تكون المحبَّة إلَّا

بشيئين متناسبين، ولأنَّ المحبَّة من صفات المحدَثين فلا تليق لله عز وجل. ولكنَّنا نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعها؛ لأنَّ النصوص لا تكاد تحصر في إثبات محبَّة الله، وأنَّه يُحِبُّ ويُحَب؛ {فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه}، والمحبَّة غير الثواب؛ إذا أحب الله العبد أثابه؛ فالإثابة من لازم المحبَّة؛ وقولهم: إنَّها لا تكون إلَّا بين المتناسبين. هذا غير صحيح؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال في أحد: ((جبل يحبُّنا ونحبّه([١]))، وأين المناسبة بين البشر والجبل؟ وثبت بالواقع المحسوس أنَّ بعض الحيوان يحبُّ البشر؛ فالناقة تحب صاحبها وتأتي إليه من بين الناس وتبرك عنده ولو جاء أحد غير صاحبها لنفحته برجلها أو أبعدته بفمها، لكن صاحبها تحن إليه وتجلس عنده، وإذا سمع صوته وإن لم تره حنَّت، وكذلك بقيَّة الحيوانات هذا شيء مشاهد، وهذا محبَّة. فدعواهم الآن بأنَّ المحبَّة لا تكون إلَّا بشيئين يكذِّبها السمع والواقع؛ السمع لقول النبي ﷺ في أحد: ((جبل يحبُّنا ونحبُّه)) والواقع ما يحتاج إلى إقامة البيِّنة لأنَّ كلَّ واحدٍ يعرف {بلى من أوفى بعهده واتَّقى فإنَّ الله يحبُّ المتَّقين}.

٥- الحثُّ على تقوى الله؛ لأنَّ كلَّ إنسان يحب أن يحبَّه الله عز وجل؛ فإذا أردت ذلك فما عليك إلَّا أن تقوم بتقوى الله. محبَّة الله سبحانه وتعالى متعلِّقة بالعامل كما في هذه الآية: {يحبُّ المتَّقين}، وكما في قوله تعالى: {إنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا}، وكما في قوله: {وأحسنوا إنَّ الله يحب المحسنين}. ومتعلِّقة بالعمل: ((أحبُّ الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها([٢]))، الصلاة أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها. متعلِّقة بالزمان: ((ما من أيَّام العمل الصالح فيهنَّ أحبُّ إلى الله من هذه الأيَّام العشرة([٣]))، وقد يقال إنَّ هذا متعلِّق بالعمل لا بالزَّمن. متعلِّقة بالمكان: كمحبَّة الله سبحانه وتعالى لمكة كما جاء عن النبي ﷺ أنَّه قال فيها: ((إنَّك لأحبُّ البقاع إلى الله([٤]))). فمحبَّة الله إذًا متعلِّقة بالعامل، والعمل، والزمان، والمكان.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٩١). والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو مَوْلَى الْمُطَّلِبِ بْنِ حَنْطَبٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعًا وَبَدَا لَهُ أُحُدٌ قَالَ: ((هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا كَتَحْرِيمِ إِبْرَاهِيمَ مَكَّةَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٦٤). والحديث بتمامه: ((أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله)).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٨٩٠). وقال: أخرجه البخاري (٣٨٢/٢ . ٣٨٣ . فتح)، وكذا أبو داود (٢٤٣٨)، والترمذى وصححه (١٤٥/١)، والدارمي (٢٥/٢)، وابن ماجه (١٧٢٧)، والطحاوي فى مشكل الآثار (١١٤/٤)، والطيالسي فى مسنده (٢٦٣١)، (١)، وأحمد (٣٤٦/١)، والطبراني فى المعجم الكبير والمخلص فى الفوائد المنتقاة (٢٣٩/١١ . ٢٤٠)، والبيهقي (٢٨٤/٤). والحديث بتمامه: عن ابن عباس مرفوعًا: ((ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام . يعنى أيام العشر . قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بماله ونفسه، ثم لم يرجع من ذلك بشيء)).

٤- (قلت): لم أجد هذا الحديث، ولكنَّني وجدت حديثًا آخر صحيح يفي بالغرض وهو: عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنَّ رجلًا قال: ((يا رسول الله أي البلدان أحبُّ إلى الله وأي البلدان أبغض إلى الله قال لا أدري حتى أسأل جبريل عليه السلام فأتاه فأخبره جبريل أنَّ أحسن البقاع إلى الله المساجد وأبغض البقاع إلى الله الأسواق)).
وقال الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٥) – حسن صحيح، رواه أحمد والبزار واللفظ له وأبو يعلى والحاكم وقال صحيح الإسناد.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {٧٧}

قال البخاري في صحيحه (٢٣٥٦، ٢٣٥٧): حَدَّثَنَا عَبْدَانُ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ شَقِيقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ))، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} الْآيَةَ فَجَاءَ الْأَشْعَثُ فَقَالَ: مَا حَدَّثَكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِيَّ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ كَانَتْ لِي بِئْرٌ فِي أَرْضِ ابْنِ عَمٍّ لِي فَقَالَ لِي شُهُودَكَ قُلْتُ: مَا لِي شُهُودٌ قَالَ فَيَمِينُهُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذًا يَحْلِفَ فَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْحَدِيثَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ تَصْدِيقًا لَهُ.

قال ابن العثيمين: {إنَّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا}، هذه الآية لها صلة بما قبلها، وهي أنَّ هذا العمل من جنس العمل السابق، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، فهذه الآية فيها أيضًا نوع من أكل أموال الناس بالباطل. يعني انَّ الذين يأخذون ثمنًا قليلًا بعهد الله فينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويحلفون على الكذب بالأَيمان من أجل الدنيا؛ وقوله: {بعهد الله}: يحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الله عليه، ويحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الخلق عليه؛ فأمَّا على الأوَّل أي: بما عاهدوا الله عليه فهو ظاهر من الآية، لأنَّ الله أراد العهد إليه؛ فمثاله، أن يكتم العالم علمه من أجل عرض من الدنيا؛ فإنَّ الله عهد إلى العلماء أن يبيّنوا العلم {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننَّه للناس ولا تكتمونه}.

فإن قال قائل: كيف أخذ الله العهد على العلماء، ونحن لم نعلم أنَّ أحدًا من العلماء أجرى صفقة عهد مع الله؟ هل علمتم أنَّ عالمًا من العلماء أجرى صفقة عهد مع الله؟ لا؛ لكن لمَّا أعطى الله العلماء العلم كان إعطائهم إيَّاه عهدًا بأن يقوموا بنشره وإعلانه بين الخلق؛ فإذا لم يقوموا بذلك فإنَّهم لم يفوا بعهد الله.

القول الثاني: {يشترون بعهد الله}: أي بعهدهم مع الناس، وأضافه الله إلى نفسه بعهد الله لأنَّه أمر بالوفاء به؛ قال الله تعالى: {وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدها}: فسمَّى الله معاهدة الناس المؤمنين لغيرهم عهدًا له مع أنَّهم ما عاهدوا الله وإنَّما عاهدوا الخلق؛ لكنَّه أضافه إلى نفسه لأنَّه أمره بالوفاء به فصح أن قال: {أوفوا بعهد الله}.

إذًا: {إنَّ الذين يشترون بعهد الله} يشمل المعنيين جميعًا، أي: بما عاهدوا الله عليه؛ أو بما عاهد الخلق عليه؛ فعلى الوجه الأول المعنى ظاهر واضح ليس فيه إشكال؛ وعلى الثاني فيه شيء من الإشكال حيث سمِّي عهد المخلوقين عهدًا لله، ولكن الجواب عنه أنَّه قال أضافه الله لنفسه لأنَّه أمر بوفائه.

وقوله: {وأيمانهم}: يعني ويشترون أيضًا بأيمانهم ثمنًا قليلًا؛ والأَيمان جمع يمين وهي الحلف بالله عز وجل؛ فيشترون باليمين ثمنًا قليلًا، مثل أن يحلف على جحد حقٍّ واجب عليه؛ أو يحلف على دعوى حقٍّ ليس له وهو كاذب؛ وهذه هي

اليمين الغموس التي قال عنها رسول الله ﷺ: ((من حلف على يمين وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقيَ الله وهو عليه غضبان([1]))، وقوله: هو فيها فاجر يعني كاذب؛ فهذا اشترى باليمين ثمنًا قليلًا؛ مثال اليمين في دعوى ما ليس له: أن يدَّعيَ على شخص أنَّ له في ذمَّته مائة درهم، فيقول الشخص: ليس عليَّ شيء؛ فيقول القاضي للمدَّعي: هل عندك بيِّنة؟ فيقول المدَّعي: لا؛ فيقول القاضي للمنكر: احلف؛ فيقول لا أحلف؛ حلِّفْهُ هو، وإذا حلف أنا أعطيك؛ فيحلف المدَّعي بأنَّ له في ذمة فلان مائة درهم وهو يكذب؛ هذا حلف على دعوى ما ليس له؛ هذا اشترى باليمين ثمنًا قليلًا.

الحلف على إنكار ما يجب عليه مثل أن يدَّعي على شخص بأنَّ له في ذمَّته مائة درهم، فينكر المدَّعى عليه وهو يعلم أنَّ في ذمَّته مائة درهم لفلان، ويحلف على أنَّه ليس له في ذمَّته شيء؛ هذا حلف على إنكار ما يجب عليه؛ القاضي في مثل هذه الحال يبرئ المدَّعى عليه ويخلي سبيله لأنَّه حلف؛ فكلا الرجلين اشترى بيمينه ثمنًا قليلًا.

قال ابن كثير: عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثة لا يكلِّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذابٌ أليم))، قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: ((المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنَّان([2]))).

{أولئك لا خلاق لهم في الآخرة}: {أولئك}، المشار إليهم الذين اشتروا بعهد الله وأَيمانهم ثمنًا قليلًا؛ وقوله: {لا خلاق لهم في الآخرة}: أي لا نصيب لهم في الآخرة كما قال تعالى: {وما لهم في الآخرة من خلاق}، {فمنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق}: أي نصيب، {ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب}، قال: {أولئك لهم نصيب} في مقابل قوله: {لا خلاق}، فدلَّ هذا على أنَّ الخلاق هو النصيب؛ {لا خلاق لهم في الآخرة}: يعني في الدار الآخرة وذلك يوم القيمة؛ وسمِّيَ يوم القيمة دارًا آخرة، لأنَّه هو آخر مراحل البشر بل الخلق؛ فالإنسان له مراحل في هذه الدنيا، في بطن الأم، وفي الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة؛ أربعة دور؛ وفي الدار الأولى له حالان: حال الحياة وحال الموت؛ فهو قبل أن تنفخ فيه الروح ميت؛ وبعد أن تنفخ فيه الروح حي؛ آخر مرحلة هي الآخرة، إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار؛ ولهذا قال: {لا خلاق لهم في الآخرة}؛ وفي الدنيا يمكن أن يكون لهم الخلاق، يمكن أن يكون لهم نصيب من هذا الذي اشتروه، أرأيت لو حلف على دعوى مليون درهم لجاءه المليون درهم؛ هذا نصيب في الدنيا.

{ولا يكلِّمهم الله}: يعني وأولئك أيضًا لا يكلِّمهم الله تكليم رضا، ولكن قد يكلِّمهم تكليم إهانة؛ فإنَّ الله يقول لأهل النار: {اخسئوا فيها ولا تكلِّمون}، وهذا كلام من الله؛ لكنَّه كلام تقريري وتوبيخ وإهانة؛ والمنفي هو تكليم الرضا.

١- (قلت): مسلم (١٠٦). وصححه الإمام الألباني في الروض (٢٤٠ و ٦٤٠).

٢- صحيح: مسلم (١٥٤).

{ولا ينظر إليهم}: يعني ولا ينظر إليهم نظر رحمة وعطف ورأفة؛ وذلك لأنَّهم ليسوا أهلًا للرحمة قال الله تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة}، وأمَّا غيرهم، فليس لهم من رحمة الله نصيب في الآخرة.

{ولا ينظر إليهم يوم القيمة}: {يوم القيمة} هو يوم البعث، وسمِّي يوم القيمة لأمور ثلاثة؛ الأول: لقيام الناس من قبورهم؛ والثاني: يوم يقوم الأشهاد؛ والثالث: يقام فيه العدل {وضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئًا}.

{ولا يزكِّيهم}: يعني لا يطهِّرهم من آثار رجسهم التي تلوَّثوا بها في الدنيا؛ فآثامهم باقية لا تغفر؛ فلا زكاء عند الله لأنَّهم ليسوا أهلًا للتزكية؛ ولهذا ينادى يوم القيمة على الظالمين: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين}: يعني طرد وإبعادهم عن رحمته.

{ولهم عذاب أليم}: {العذاب} معناه النكال والعقوبة؛ و{أليم}: بمعنى مؤلم؛ لأنَّ فعيل في اللغة العربية تأتي على عدة أوجه، فتأتي بمعنى فاعل وتأتي بمعنى مفعول، وتأتي بمعنى مفعل؛ ثلاث؛ مثالها بمعنى فاعل: سميع، بصير، رحيم كلُّها بمعنى فاعل. مثالها بمعنى المفعول: قتيل، جريح، ذبيح وما أشبهها. مثالها بمعنى مفعل هنا هذه الآية: {أليم}: بمعنى مؤلم.

ومنه قول الشاعر: أمن ريحانة الدَّاعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجور

الشاهد قوله: السميع؛ ليس معناه الدَّاعي الذي يَسمع، بل معناه الدَّاعي الذي يُسمع، يعني الدَّاعي المسمِع يؤرقني: يعني يطرد النوم عني وأصحابي هجور؛ إذًا {أليم} بمعنى مؤلم؛ هذا هو معنى الآية في كلماتها.

قال السعدي: {ولهم عذاب أليم}: أي موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

قال أبو زهرة: أربعة أنواع من الجزاء تنالهم؛ أوَّلها: أنَّ الله لَا يكلِّمهم، وهذا كناية عن عدم محبَّته، لأنَّ المحبَّ مقبل على حبيبه، متحدِّث إليه، ومن فقد محبَّة الله فقدْ فقدَ معنى الوجود.

وثانيها: أنَّه لَا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يرعاهم، لأنَّهم إذا فقدوا النظر إليهم منه سبحانه فقدوا كلاءته وحمايته، فعدم النظر كناية عن أنَّه لا يحميهم من العقاب، ولا ينزل بهم نعيمًا.

والنوع الثالث: أنَّه لَا يزكِّيهم، وذلك كناية عن عدم رضاه سبحانه، لأنَّ من يرضى عن شخص يزكِّيه ويطريه ويثني عليه.

والجزاء الرابع الذي هو نتيجة ما سبق من بغض الله، وسخطه، ومنع حمايته هو: أنَّ لهم عذابًا مؤلمًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تحريم اليمين الغموس؛ لقوله: {وأيمانهم}.

٢- أنَّ اليمين الغموس وعدم القيام بعهد الله من كبائر الذنوب؛ كون ذلك من كبار الذنوب أمر زائد على كونِّه محرَّمًا؛ لأنَّ

الكبيرة أعظم من مطلق التحريم؛ وما وجه كونها كبيرة؟ لأنَّ فيها وعيدًا؛ وكلُّ ذنب رتَّب عليها وعيد فهو من كبائر الذنوب.

٣- أنَّ من وفَّى بعهد الله وحلف على صدق فإنَّه لا يحرم النصيب في الآخرة؛ ووجهه: أنَّه إذا اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا، أو بيمينه، لا خلاق له في الآخرة فإنَّ ضده له خلاق؛ وهذا الطريق من الاستدلال أخذناه من قول الشافعي رحمه الله تعالى على قوله تعالى: {كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبون} قال: في هذه الآية دليل على رؤية المؤمنين لله؛ لأنَّه لمَّا حجب هؤلاء في حال الغضب، كان دليلًا على رؤية الآخرين في حال الرضا.

٤- إثبات الآخرة؛ لقوله: {لا خلاق لهم في الآخرة}.

٥- أنَّه ينبغي للإنسان أن تكون الآخرة هي هدفه ومغزاه وما يريد؛ ولهذا قال: {لا خلاق لهم في الآخرة} ولم يقل: في الدنيا؛ لأنَّه قد يكون لهم نصيب في الدنيا ولكن لا خير فيه.

٦- إثبات الكلام لله؛ لقوله: {ولا يكلِّمهم الله} ووجه ذلك: أنَّه لو كان الله لا يتكلَّم، لم يكن لنفي الكلام مع هؤلاء فائدة؛ فلو لا أنَّه يُكلِّم، ما صار عدم تكليمه لهؤلاء عقوبة.

٧- أنَّ كلام الله من أفعاله الاختيارية التي يفعلها متى يشاء؛ لأنَّ هذا الكلام الذي نفى الله عنهم نفاه في وقت معيَّن؛ وهو يوم القيمة؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الكلام من أفعال الله الاختيارية التي تكون بمشيئته سبحانه وتعالى.

٨- أنَّ من عقوبة هؤلاء مع حرمانهم من النصيب في الآخرة أنَّ من عقوبتهم أنَّ الله لا يكلِّمهم؛ وهذا من أعظم العقوبات والعياذ بالله؛ ولهذا كان النظر إلى وجه الله من أفضل الثواب وأعظمه وأعلاه بل هو غاية الثواب والفضل.

٩- إثبات نظر الله؛ لقوله: {ولا ينظر إليهم}. لا يلزم من ثبوت نظر الله ثبوت العين، ولكن العين ثابتة بنصوص أخرى؛ فإنَّ لله تعالى عينين اثنتين لا تماثلان أعين الخلق؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {ولتصنع على عيني}، وقوله: {واصبر لحكم ربك فإنَّك بأعيننا}، وقوله: {تجري بأعيننا}؛ وقول النبي ﷺ: ((إنَّ ربَّكم ليس بأعور[1]))، فكان إثبات العينين ليس من هذه الآية ولكن من أدلَّة أخرى .

١٠- إثبات ما تضمَّنه هذا الوصف وهو أنَّه يقام فيه العدل؛ ويقوم فيه الناس من قبورهم لرب العالمين؛ ويقام فيه الأشهاد.

١١- أنَّ هؤلاء المشترين بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا يزكِّيهم الله لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا جاءت الكلمة {ولا يزكِّيهم} بعد قوله: {يوم القيمة}؛ فهؤلاء لا يزكِّيهم الله تعالى في الدنيا بل يظهر عوارهم ويفضحهم في الدنيا حتى يعرفهم العباد ويعرفوا سقوط عدالتهم وزوال زكائهم؛ كذلك لا يزكِّيهم الله يوم القيمة، فلا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا.

١٢- إثبات العذاب؛ لقوله: {ولهم عذاب أليم}، والعذاب قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة؛ والكائن في الدنيا قد

١- (قلت): مُتَّفَقٌ عَلَيْه. البخاري (٧٤٠٨)، ومسلم (٢٩٣٣). وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٥٤٧١). والحديث بتمامه: ((مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر)).

يكون بفعل الله وقد يكون بفعل عباد الله الذين هم حزبه؛ فمن أمثلة ما يكون من على يد عباد الله قوله تعالى: {قاتلوهم يعذِّبهم الله بأيديكم}، وما حصل على الكفار في غزوة بدر وغيرهم؛ وممَّا يكون من فعل الله، ما حصل يوم الأحزاب فإنَّ الأحزاب تفرَّقوا عن المدينة لا بفعل الرسول ﷺ وأصحابه، ولكن بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود.

١٣- أنَّ إشتراء الثَّمن القليل لعهد الله واليمين من كبائر الذنوب؛ فإنَّ هذه اليمين هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثمَّ في النار.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {٧٨}

قال ابن العثيمين: {وإنَّ منهم}: الضمير يعود على أهل الكتاب؛ لأنَّ الآيات سياقها واحد وفي أوَّل الآيات قال: {ومن أهل الكتاب من إن تأمنه}، وهنا قال: {وإنَّ منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب}، ال{لَّي}: معناه العطف، ومنه: ليِّ الحبل؛ فمعنى {يلوون ألسنتهم}: أي يعطفونها؛ وال{لَّي} هنا يشمل اللَّيِّ اللفظي واللَّيِّ المعنوي؛ واللَّيِّ اللفظي تارةً يأتون بالكلام من عندهم ويقرؤونه قراءة الكتاب المنزَّل، فيتوهَّم من يسمعه من الناس أنَّه من الكتاب المنزَّل، يعني يلحن الكلام كما يلحن القرآن؛ فيظنَّه السامع أنَّه من عند الله؛ هذا نوع، والنوع الثاني من اللَّيِّ اللفظي التَّحريف: تحريف الكلمة بلفظه، كما حرَّف بعض المبتدعة قول الله تعالى: {وكلَّم اللهُ موسى تكليمًا} إلى قوله: (وكلَّم اللهَ موسى تكليمًا)؛ يريد بذلك أن يكون التَّكليم من موسى إلى الله.

أمَّا التَّحريف المعنوي فهو تحريف الكلام بغير ما أراده الله به، فيقول معنى الآية كذا وكذا على خلاف ما أراد الله به؛ فصار اللَّي ثلاثة أقسام: ليٌّ باللفظ لكنَّه لا يتعلَّق بنفس الكلام المنزَّل، إنَّما يأتي بكلام من عنده فيتغنَّى به كما يتغنَّى بالكتاب المنزَّل، فيظنُّ السامع أنَّه من عند الله. والثاني من اللَّيِّ اللفظي: ليٌّ يتعلَّق بتغيير هيئة الكتاب المنزَّل؛ وذلك ما يسمَّى بالتَّحريف اللفظي. والثالث: اللَّيِّ المعنوي: فيقول معنى الآية كذا وكذا؛ وهذا لاشك أنَّه ليٌّ باللِّسان {يلوون ألسنتهم بالكتاب}، لأنَّ الكتاب يريد كذا، وهم يقولون المراد كذا؛ هؤلاء المحرِّفة الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه.

{لتحسبوه من الكتاب}: اللام هذه يحتمل أن تكون للتعليل، ويحتمل أن تكون للعاقبة؛ والفرق بينهما أنَّ (لام التعليل) تحمل على الشيء، و(لام العاقبة) تكون غاية للشيء؛ فمثلًا إذا قلت: حضرت لأقرأ؛ فاللام، لام التعليل؛ لأنَّ الذي حملني على الحضور هو القراءة؛ وإذا قلت: اصطدت هذا الصيد ليكون عذابًا لي؛ هذه عاقبة، ومنه قوله تعالى: {فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزنًا}، فإنَّ آل فرعون لم يلتقطوه لهذا السبب أبدًا؛ ولو علموا أنَّه سيكون عدوًّا وحزنًا لهم ما التقطوه.

هنا {لتحسبوه}: هل المعنى أنَّهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من أجل أن يضلُّوكم فتظنُّوا أنَّه من عند الله؟ أو أنَّهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من غير قصد فتظنُّونه من عند الله؟ الظاهر الأول، أنَّهم يفعلون هذا ليوهموا الناس أنَّه من عند الله، {لتحسبوه من الكتاب}: أي لتظنُّوه من الكتاب المنزَّل، وهو الكتاب الملوي الذي حصل فيه اللَّي والتَّبديل.

{وما هو من الكتاب}: هذا إبطالي، لما أرادوه من ليِّهم ألسنتهم بالكتاب؛ فيظنَّ الظَّانُّ أنَّه من الكتاب فقال الله: {وما هو من الكتاب}، الكتاب الذي أشير إليه هنا التوراة إذا كان هذا اللَّيُّ واقعًا من اليهود؛ والإنجيل إذا كان هذا اللَّيُّ واقعًا من النصارى؛ والكتاب اسم جنس صالح لهذا وهذا.

{ويقولون هو من عند الله}: {هو} الضمير على ما لوَّوا ألسنتهم بالكتاب؛ {من عند الله} فأبطل الله تعالى هذا الدَّعوى بقوله: {وما هو من عند الله}، ولهذا يحسن للقارئ أن يقف، فيقول مثلًا: {لتحسبوه من الكتاب}، ويقف ثمَّ يقول: {وما هو من الكتاب}؛ {ويقولون هو من عند الله}، ويقف ثمَّ يقول: {وما هو من عند الله}.

{ويقولون على الله الكذب}: أيضًا هم يقولون على الله الكذب، سواء بالتَّحريف اللَّفظي، أو بالتَّحريف المعنوي. إنَّ {يقولون} هنا مضمَّنة معنى (يفترون)؛ ولهذا تعدَّت بِ{على}؛ {ويقولون على الله الكذب}: يقولون على الله الكذب في أحكامه، وفي أفعاله، وفي أسماءه، وفي صفاته، وفي كلِّ ما يتعلَّق به سبحانه وتعالى؛ فهم مثلًا قالوا: {يد الله مغلولة}، وكذبوا؛ وقالوا: {إنَّ الله فقير}، وكذبوا؛ وقالوا:(إنَّ الله تعب واستراح)، وكذبوا، وكلُّ ما وصفوا الله به ممَّا لا يليق به فهم كاذبون فيه.

{وهم يعلمون}: الجملة حالية؛ حال من الواو في {يقولون}: يعني يقولون الكذب وهم عالمون بأنَّه كذب، فيكون هذا أشدُّ إثمًا ممَّن قال الكذب وهو لا يعلم أنَّه كذب.

قال السعدي: وهذا أعظم جرمًا ممَّن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللَّفظ الدَّالُّ على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

قال أبو زهرة: وقد أكَّد سبحانه وتعالى شناعة تصرُّفهم وتبجُّحهم بأربعة مؤكِّدات:

أوَّلها: أنَّ كذبهم لم يكن تعريضًا، ولا بلسان الفعال، بل كان بالقول الصريح.

وثانيها: أنَّ المفترى عليه هو الله سبحانه وتعالى، فهم لَا يفترون على بشر مثلهم، ربما لَا يعلم افتراءهم عليه، بل إنَّهم يكذِّبون على علَّام الغيوب الذي يعلم ما تنطق به الألسنة وما تكنُّه القلوب، وإذا كانوا ينكرون علمه واطِّلاعه، فقد كفروا بهذا الإنكار قبل أن يكفروا بهذا البهتان.

وثالثها: أنَّهم يعلمون الحق، وينطقون بالباطل، ويعلمون حكم الله تعالى، ويكذبون عليه، ويتقوَّلون الأقاويل، وهم يعلمون أنَّها غير صادقة.

ورابعها: أنَّه أكَّد علمهم بذكر الضمير، في قوله: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}: أي هم بأعيانهم وأشخاصهم يعرفون كذبهم، وذلك هو الضلال البعيد.

وإنَّ أعظم فريَّة افتراها بعض أهل الكتاب هي ادِّعاؤهم أنَّ بعض النَّبيِّين دعوهم إلى أن يعبدوهم من دون الله تعالى، أو يتَّخذوهم أربابًا، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى – إلى هذه الفريَّة العظيمة ببيان أنَّها غير معقولة في ذاتها، وأعظم الافتراء ما كان منافيًا لطبيعة من ينسب إليه؛ ولقد قال تعالى في بطلان هذه الفريَّة: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ...}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– أنَّ فريقًا من أهل الكتاب يحرِّفون الكتاب إمَّا لفظًا وإمَّا معنًى.

٢– سوء مقصد هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ ليوهموا الناس ليحسبوه من الكتاب.

٣– أنَّ الله عز وجل يحب من عباده الهدى وأن يهتدوا؛ ولهذا قال: {وما هو من الكتاب} حتى لا يغتر الناس بهذا اللَّي الذي حصل على الكتاب من هؤلاء.

٤– الحذر من الكفار، ومن زخارف القول التي تصدر منهم؛ لأنَّهم يلبسون الحق بالباطل، ويريدون أن يضلُّوا الناس.

٥– الحذر ممَّن اتَّصف بصفاتهم من هذه الأمَّة فصاروا يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ وإنَّما قلنا ذلك لأنَّ الرسول ﷺ قال: ((لتركبنَّ سنن من كان قبلكم([1]))، فإذا كان مِن أهل الكتاب مَن يلوون ألسنتهم بالكتاب فسيوجد في هذه الأمَّة أيضًا من يلوي لسانه بالكتاب.

٦– أنَّ أهل الكتاب منهم من يفتري الكذب على الله؛ ومن ذلك كذبهم في عقوبة الزاني المحصن، فإنَّ عقوبة الزاني المحصن عندهم يرجم حتى يموت؛ ولكن لمَّا كثر الزنا في أشرافهم عدلوا عن هذا وقالوا كيف نقتل أشرافنا؛ إذًا ماذا نعمل؟ قالوا نسود وجهه ونطوف به هو والمرأة التي زنا بها على حمار يكون دبر أحدهما إلى دبر الآخر وهما راكبان على الحمار ونطوف بهم في العشائر بين الناس ثمَّ تنتهي القضية؛ فحرَّفوا وكتموا، حرَّفوا حيث ادَّعوا أنَّ هذا هو حد الزنا للمحصن؛ وكتموا حيث قالوا ليس في التوراة الرجم؛ ولهذا لمَّا أنكروا أن يكون في التوراة الرجم طلب النبي ﷺ منهم أن يأتوا بالتوراة، فأَتَوا بها، فجعل القارئ يقرأ ووضع يده على آية الرجم لأجل أن يخفيها؛ ولكن أمر أن يرفع يده فلمَّا رفع يده وإذا بآية الرجم تلوح بيِّنة واضحة؛ فأمر النبي ﷺ برجمهما، أي: رجم الزاني والزانية؛ فالحاصل أنَّ من طريق أهل الكتاب أنَّهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

---

[1]– (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٤٨).

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {٧٩}

قال ابن العثيمين: {ما كان لبشرٍ}: كلمة {ما كان} تستعمل في الشيء الممتنع، قال الله تعالى: {وما كان ربُّك نسيًّا}، النسيان شيءٌ ممتنعٌ عليه، ممتنعٌ شرعًا وممتنعٌ قدرًا؛ فقوله تعالى: {ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثمَّ يقول} هذا ممتنعٌ شرعًا وقدرًا؛ {وما كان ربك نسيًّا} ممتنع وصفًا لأنَّه لا يتصوَّر أن يأتي به القدر، مستحيل أن يكون الله تعالى ناسيًا أو نسيًّا؛ {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم} ممتنع شرعًا ولو شاء أن يعذبهم وهو فيهم لعذَّبهم؛ لكنَّه ممتنع شرعًا. هنا {ما كان لبشر} قلنا إنَّه ممتنع شرعًا وقدرًا؛ وال{بشر}: هو الإنسان من بني آدم، وسمِّيَ بشرًا لظهور بشرته؛ فإنَّ بشرة الإنسان ظاهرة بارزة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا بادية؛ وقيل: سمِّيَ بشرًا لظهور أثر البشارة عليه فيما إذا أخبر بما يسرُّه؛ ولا مانع من أن يكون سمِّيَ بشرًا لهذا ولهذا؛ والحكمة من أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل الآدمي بارز البشرة ليعلم الآدمي أنَّه مفتقر إلى اللِّباس الحسِّي فينتقل من ذلك إلى العلم بأنَّه مفتقر إلى اللِّباس المعنوي وهو التَّقوى؛ وأنَّه بحاجة إلى أن يعمل الأسباب التي تستره معنًى كما هو يعمل الأسباب التي تستره حسًّا؛ وهذا من حكمة الله عز وجل.

يقول: {ما كان لبشر}: أي لواحد من البشر، أيِّ إنسانٍ {أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة} {أن يؤتيه الكتاب}: أي يعطيه إيَّاه إيتاءً شرعيًّا؛ وكذلك إيتاءً قدريًّا؛ ثمَّ و{الحكم}: يعني بما أوتي من الكتاب، كما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: {وأن احكم بما أنزل الله}. {والنبوة}: يعني الإخبار بالوحي؛ وإنما قال: {والنبوة} مع قوله: {أن يؤتيه الله الكتاب} لأنَّه قد يطلق إيتاء الكتاب على من أُرسل إليهم به، لا من أُرسل به، كما في قوله تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم}، {الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به}؛ فالذين أوتوا الكتاب هنا ليسوا أنبياء؛ إذًا لا يلزم ممَّن أوتي الكتاب أن يكون نبيًّا؛ ولهذا قال: {والنبوة}، لئلَّا يتوهَّم الواهم أنَّ الذين أوتوا الكتاب هم الذين أُرسلوا إليهم بالكتاب. والمراد بالذي أوتي الكتاب هنا الذي أُرسل بالكتاب، لا الذي أُرسل إليهم به؛ بل الذي أُرسل بالكتاب إلى غيره.

وقوله: {والنبوَّة}: بتشديد الواو، إمَّا أنَّها من {النَبوة} وهي الارتفاع وعلى هذا فتكون الواو أصلية؛ لأنَّ رتبة النبي أعلى طبقات الخلق، قال الله تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا}؛ وإمَّا أن تكون الواو مسهلة وأصلها {نبوءة} فتكون مأخوذة من {النبأ} وهو الخبر؛ وذلك لأنَّ الرسول منبَّأ ومنبِّئ؛ منبَّأ من قبل الله عز وجل؛ منبِّئ لمن أُرسل إليهم، يخبرهم ويبشِّرهم وينذرهم. لم ينته الكلام بعد؛ لكن الممتنع هو: {ثمَّ يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله} هذا هو الممتنع، وهو الذي انصب عليه النفي أي: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب بالرسالة، والحكم بين الناس بهذا الكتاب، والنبوة وهي الرفعة، ثم بعد ذلك مع هذا يقول للناس:

{كونوا عبادًا لي من دون الله}: أي كونوا متعبِّدين لي، اعبدوني من دون الله، اعبدوني بالطاعة، اسجدوا لي، اركعوا لي، انذروا لي، وما أشبه ذلك، هذا لا يمكن؛ لأنَّ ما آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة، إنَّما جاء لضدِّ هذه الأشياء، ليمحق هذا الشيء لا ليدعوا الناس إليه.

وقوله: {كونوا عبادًا لي من دون الله} إذا قال قائل: هل المراد: اعبدوني ولا تعبدوا الله؟ أو المراد: اعبدوني وإن عبدتم الله؟ لأنَّ المسألة إمَّا أن يكون الإنسان عابدًا لله وحده؛ أو عابدًا لغيره؛ أو عابدًا معه غيره؛ أمَّا العابد لله وحده، فهذا مخلص؛ والعابد لغير الله دون الله، هذا مشرك أو نقول مستكبر عن عبادة الله ومتعبِّد لغيره؛ والعابد لله ولغيره، هذا مشرك؛ فنقول: من دعى الناس إلى عبادته وحده دون الله، فهذا قد دعاهم إلى عبادته دون الله؛ ومن دعى الناس إلى عبادة نفسه ولم ينهاهم عن عبادة الله، فإنَّ حقيقة دعوته أنَّه دعى الناس ليعبدوه دون الله؛ لأنَّ الله غني عن عبادة هؤلاء؛ فإذا أشركوا بالله غيره تمخضَّت العبادة لغير الله، لقول الله تعالى في الحديث القدسي: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه([1]))؛ وبهذا يزول الإشكال في قوله: {كونوا عبادًا لي من دون الله}.

فنقول: هل أحد قال للناس اعبدوني ولا تعبدوا الله؟ أو هل إنَّ المراد بالآية هذه هذا المعنى؟ نقول: لا، لا يتعيَّن؛ فالآية تشمل الوجهين جميعًا؛ تشمل من دعى إلى عبادة نفسه وأن لا يعبد الله، ومن دعى إلى عبادة نفسه وإن عبد معه الله؛ لأنَّ الأول: يقول اعبدوني ولا تعبدوا الله؛ والثاني: من لازم الإشراك أن لا تكون العبادة لله؛ لأنَّ الإنسان إذا أشرك مع الله أحدًا فإنَّ عبادته لله باطلة سواء وجدت أم لم توجد.

ويحتمل أن يكون المراد ب{دون} هنا: بمعنى (سِوى)، {عبادا لي من دون الله}: أي من سوى الله؛ أي معه؛ فإن صح هذا التفسير فلا إشكال وإن لم يصح فقد علمتم الإشكال وجوابه.

قال السعدي: أي: يمتنع ويستحيل على بشر منَّ الله عليه بإنزال الكتاب، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وإرساله للخلق {أن يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله}، فهذا من أمحل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأنَّ هذا أقبح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرون إلَّا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس نهيًا عن الأمور القبيحة، فلهذا قال {ولكن كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون}.

قال ابن العثيمين: {ولكن كونوا ربَّانيِّين}: هذا الاستدراك، استدراك واقع في مقابلة النفي الذي صدرت به الآية {ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله} ثم يقول: {ولكن}، إذًا لابدَّ أن يكون هناك حدًّا؛ وتقديره: (ولكن يقول كونوا ربَّانيِّين)؛ أن يقول للناس كونوا ربَّانيِّين كونًا شرعيًّا؛ لأنَّه لا يملك أن يقول له: {كونوا} كونًا قدريًّا؛ لكن يملك أن يأمرهم شرعيًّا بأن يكونوا ربَّانيِّين؛

١- (قلت): رواه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٣).

{ربَّانيِّين}، نسبة إلى الرب ونسبة إلى التربية؛ فالرَّبَّاني هو من كان عبدًا للرب عز وجل؛ والرَّبَّاني هو الذي يربِّي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة؛ إذًا الرَّبَّاني، منسوب إلى التربية وإلى الربوبية؛ فباعتباره مضافًا إلى الله ربوبية؛ وباعتباره مضافًا إلى الإصلاح تربية؛ {ولكن كونوا ربَّانيِّين}: أي مخلصين للرب متعبِّدين له؛ وكونوا ربَّانيِّين أي مربِّين للخلق على ما تقتضيه الشريعة.

قال أبو زهرة: والربَّانيُّون، نسبة إلى الرب سبحانه وتعالى وقويت النسبة بزيادة الألف والنون، ومعنى هذه النسبة إلى الله تعالى يتضمَّن أنوارًا يتخلَّق بها المؤمن.

أوَّلها: ألَّا يعبد إلَّا الله وحده، فيكون بعقله وقلبه وأحاسيسه خالصًا لله سبحانه وتعالى ولا يشرك فيها أحدًا سواه.

وثانيها: ألَّا يعرف حقيقة شرعٍ إلَّا عن الله.

ثالثها: ألَّا ينفذ من الأحكام إلَّا أحكام الرب سبحانه وتعالى.

رابعها: أن تكون كلُّ أعماله خالصةً لوجه الله فلا يماري ولا ينافق.

خامسها: أن يخضع للحقِّ لذات الحقِّ، وقد بيَّن سبحانه – حكاية عمَّا ينبغي أن يقوله الرسل وقد قالوه – كيف تتربَّى الرَّبَّانيَّة في نفس المؤمن، فذكر أنَّها علم الكتاب المنزَّل والعكوف على دراسته، فقال: {بِمَا كنتمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كنتمْ تَدْرُسُونَ}.

قال ابن العثيمين: {بما كنتم تعلِّمون الكتاب}: الباء هنا للسببية، أي بسبب تعليمكم الكتاب؛ لأنَّ الذي يعلِّم الكتاب مربِّي؛ ولهذا كل ما كثر الطلبة عند شخص كثرت تربيته للناس؛ لأنَّ المفروض للمعلِّم أن لا يكون معلِّمًا للناس تعليمًا نظريًّا جدليًّا؛ لأنَّ هذا يمكن أن يدركوه في الكتب؛ لكن ينبغي أن يعلِّمهم تعليمًا نظريًّا وتعليمًا تربويًّا؛ وهذا هو حدُّ النَّبي ﷺ وأصحابه؛ إذا نظرتم إلى السيرة النبوية وجدتم كيف كان النبي ﷺ يعلِّم الناس تعليمًا مقرونًا بالتربية مصحوبًا بها؛ وإذا تأمَّلتهم سيرة الخلفاء الراشدين وجدتموها كذلك؛ انظروا مثلًا إلى عمر بن الخطاب رفع عقوبة الخمر إلى ثمانين لردع الناس؛ ومنع المطلَّق ثلاثًا من الرجوع إلى زوجته من أجل أن يردع الناس؛ فالحقيقة إنَّ العالم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علمًا، أو المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علمًا، ولكنَّ الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علمًا وأخلاقهم تربيةً.

فقوله: {بما كنتم}: أي بقولكم تعلِّمون؛ وقوله: {تعلِّمون} فيها قراءتان: إحداهما: {تُعلِّمون}: أي تعلِّمون غيركم، من التعليم؛ وقراءة أخرى: {بما كنتم تَعْلمون}: أي تعلمون أنتم بأنفسكم؛ وأيُّهما أعم؟ {تعلِّمون}، لأنَّه لن يعلِّم إلَّا من علَّم؛ ولكن مع ذلك نقول إنَّ القراءتين كل واحدة منهما تدلُّ على معنًى لازم من الآخر؛ فيكون المعنى بما كنتم تعْلمون وتعلِّمون؛ وقوله: {الكتاب}: المراد به الجنس، ليشمل التوراة والإنجيل، والبعض منها والكلُّ.

{وبما كنتم تدرسون}: أي وبما كنتم تقرؤون أنتم، فيكون عندكم للكتاب علم لفظي وعلم معنوي؛ فالعلم اللفظي يكون بالدراسة، والمعنوي يكون بالعلم والتعليم؛ وقوله: {بما كنتم تدرسون} نقول فيها كما قلنا فيما سبقها بأن الباء للسببية، و{ما} مصدرية.

قال أبو زهرة: أي: أنَّ الذي يربِّي الرَّبَّانيَّة هو الاستمرار والدءوب على أمرين اثنين: أولهما: دراسة الكتاب المنزَّل الذي بيَّنه الرسول، فهو يدرسه مع شارحه، ويقطع كلَّ الحجزات التي تحول بينه وبين هذه الدراسة، فلا يأخذ دين الله عن غير كتاب الله الذي بيَّنه رسول الله تعالى.

ثانيهما: استيعاب علم الكتاب وتعليمه من البعض ليتمكَّن الدَّارسون من أن يعرفوا حقيقة كتاب الله، والاهتداء بهديه. وقُدِّم تعليم علم الكتاب على دراسته لأمرين:

أولهما: الإشارة إلى جرم أهل الكتاب الذين اتَّجهوا إلى تعليم الناس أهواءهم بدل أن يعلِّموهم كتاب الله.

وثانيهما: أنَّ بيان الدراسة من غير تعليم وتدريس خبطٌ عشواء. وسير في ظلماء؛ كما يحاول ملاحدة اليوم الذين يريدون أن يفهموا القرآن من غير أن يعلموا شيئًا.

قال السعدي: أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمِّن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيِّه، التي بدرسها يرسَّخ العلم ويبقى، تكونون ربَّانيِّين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الرَّد على النصارى الذين زعموا أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام له الحقُّ في أن يعبد من دون الله؛ ولهذا يقول الله له يوم القيمة: {أأنت قلت للناس اتَّخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله}، فيقول: {سبحانك}: يعني لا يمكن أن أقول هذا؛ والنصارى يدَّعون أنَّ من دينهم التثليث أي أنَّ الله ثالث ثلاثة.

٢- أنَّ من منَّ الله عليه بالعلم النافع فإنَّه لا يمكن أن يدعوا الناس إلى عبادة نفسه فيقول كونوا عبادًا لي من دون الله.

٣- أنَّ من ألزم الناس أو أراد منهم أن يتَّبعوا قوله مهما كان، فإنَّه قد جعلهم عبادًا له؛ لأنَّ طاعة الشخص من العبادة، كما قال الله تعالى: {اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله}، فقال له عدي بن حاتم: يا رسول الله إنَّا لسنا نعبدهم؛ قال: ((أليس يحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه ويحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه؟ قال: نعم؛ قال: فتلك عبادتهم([1])))، فقد لا يقول الإنسان للناس اعبدوا لي اركعوا لي واسجدوا، لكن قد يقول التزموا بما يقول؛ وهذا نوع من العبادة.

٤- أنَّ من منَّ الله عليه بالكتاب والحكمة والحكم والنبوَّة فإنَّه لا يأمر إلَّا بالخير؛ لقوله: {ولكن كونوا ربَّانيِّين}.

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في غاية المرام (٦).

٥- الإشارة إلى أنَّه ينبغي للإنسان أن يكون معلِّمًا ربَّانيًّا؛ لقوله: {ولكن كونوا ربَّانيِّين}. أمَّا ما يحصل من بعض الناس وهو أن يكون معلِّمًا لا ربَّانيًّا فإنَّ علمه قاصر جدًّا؛ لأنَّ فائدة العلم وثمرته هو العمل والتأدُّب بآداب العلم؛ فإذا كان هذا الرجل يملأ أدمغة الطلاب علمًا ولكن ليس هناك سلوك وأخلاق وأعمال وعبادة فإنَّ تعليمه ناقص جدًّا؛ ولهذا قال: {ولكن كونوا ربَّانيِّين}.

٦- الرَّد على منكري الأسباب؛ لقوله: {بما كنتم تعلِّمون الكتاب} والباء للسببية؛ ولاشكَّ أنَّ الأسباب ثابتة؛ ولكنَّها ليست مستقلَّة بالإيجاد أو الإعدام، بل هي مؤثِّرة بما أودع الله فيها من قوَّة التأثير؛ وبهذا ندفع شبهة من قالوا بنفي الأسباب، محتجِّين بأنَّ إثبات الأسباب يستلزم إثبات خالق مع الله؛ ونحن نقول لهم: إنَّا نثبت الأسباب، لكنَّها لا تؤثِّر بنفسه، بل بما أودع الله فيها من القوة؛ والدليل على هذا أنَّ ابراهيم عليه الصلاة والسلام لمَّا ألقي في النار قال الله للنار: {كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم} فكانت بردًا وسلامًا عليه، لم يتأثَّر به مع أنَّها محرقة؛ قال أهل العلم: ولو قال الله تعالى: كوني بردًا ولم يقل: وسلامًا لأهلكته البرد؛ لأنَّها تمتثل أمر الله عز وجل.

٧- أنَّ المعلِّم للناس يصح أن نسمِّيه ربَّانيًّا؛ لأنَّه قال: {ولكن كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تعلمون الكتاب}؛ ولهذا نجد في تراجم العلماء رحمهم الله كثيرًا ما يصفون العالم بأنَّه العالم الرَّبَّاني.

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {٨٠}

قال ابن العثيمين: {ولا يأمركم} فيها قراءتان: أمَّا على قراءة النصب {ولا يأمرَكم} فهي معطوفة على قوله: {ثمَّ يقول للناس}: يعني: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يأمركم أن تتخذوا الملائكة)؛ فيكون معطوفة على قوله: {ثمَّ يقول للناس}. وأمَّا على قراءة التسكين فإنَّ الفتحة تقدَّر عليها؛ لأن التسكين هنا ليس تسكين إعراب، لكنَّه تسكين تخفيف اللَّفظ؛ لأنَّ قول القائل: (ولا يأمرْكم) أخف من قوله: {ولا يأمرَكم}؛ فالتَّسكين هنا ليس تسكين إعراب ولكنَّه تسكين تخفيف؛ ولهذا نقول هو منصوب على القراءتين؛ لكنَّه منصوب على قراءة الفتح، بالفتح الأصل؛ ومنصوب على قراءة التسكين بفتحة مقدَّرة على آخره وسكن للتَّخفيف. {ولا يأمركم أن تتَّخذوا الملائكة والنَّبيِّين أربابًا}: يعني: (وما كان له أن يأمركم أن تتَّخذوا الملائكة والنَّبيِّين أربابًا، كما أنَّه لا يقول لكم كونوا عبادًا لي)، فإن هذا مستحيل غاية الاستحالة أن يمنَّ الله على شخصٍ بالكتاب والحكمة ثمَّ يأمر الناس بعبادته، أو يقول اعبدوا الملائكة والنَّبيِّين اتَّخِذوهم أربابًا، هذا شيءٌ مستحيل.

وقوله: {الملائكة}: الملائكة جمع ملك وأصله من الألوكة وهي الرسالة؛ ولهذا قال الله تعالى: {جاعل الملائكة رسلًا}، وعلى هذا فيكون أصلها مألك ثمَّ نقلت الهمزة إلى محل اللَّام، واللَّام إلى محل الهمزة، فصار (ملأك)، و(ملأك) جمع (ملائك) والتاء للتأنيث اللفظي، ثم خفِّفت أيضًا (ملأك) بحذف الهمزة فصارت ملكًا؛ الملائكة هم عالم غيبي، خلقهم الله

عز وجل من نور، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون وإنَّما هم عباد لله مكرمون، {لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون}، ولهم أعمال وأوصاف سبق لنا الكلام عليها بما يغني عن إعادته.

{والنَّبِيِّين}: فيها قراءة: {والنبيئين} على تحقيق الهمزة؛ {أربابًا} جمع رب: يعني: أربابًا تعبد من دون الله، وتقصد من دون الله، فإنَّ هذا مستحيل أن يقع ممَّن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة.

قال شيخ الإسلام في الإستغاثة ص٢٣٩: فتخصيص الملائكة والنَّبِيِّين بالذِّكر تنبيه على من دونهم، فإنَّه أن لا يأمر باتِّخاذ الصالحين أربابًا بطريق الأَولى.

وقال رحمه الله أيضًا في الواسطة بين الحق والخلق ج١ص٢٢: فبيَّن سبحانه: أنَّ اتِّخاذ الملائكة والنَّبِيِّين أربابًا كفر. فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكَّل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسدُّ الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين.

قال ابن العثيمين: {أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون}: الاستفهام هنا للنفي: يعني لا يمكن أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؛ وفي قوله: {يأمركم} قولان: {يأمرْكم} تخفيفًا؛ و{يأمرَكم} على الأصل؛ وقوله: {بعد إذ أنتم مسلمون}: يعني بعد أن تقرَّرَ إسلامكم وثبت، فإنَّه لا يمكن أن يأمركم بالكفر.

قال السعدي: هذا ما لا يكون ولا يتصوَّر أن يصدر من أحد منَّ الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثمًا عظيمًا وكفرًا وخيمًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- إثبات الملائكة؛ والإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة؛ فلا يتمُّ إيمان العبد حتى يؤمن بالملائكة.

٢- أنَّ هذا الذي منَّ الله عليه بالكتاب والحكم والنبوة، لا يمكن أن يأمر غيره باتِّخاذ الملائكة والنَّبِيِّين أربابًا، كما أنَّه لا يدعوا الناس إلى عبادة نفسه.

٣- أنَّ من أمر غيره أن يكون عبدًا له فقد أمر بالكفر؛ ومن أمر أن تُتَّخذ الملائكة والنَّبيُّون أربابًا فقد أمر بالكفر؛ لقوله تعالى: {أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون}.

٤- أنَّ هذا الكفر مخرج من الملَّة؛ لقوله: {بعد إذ أنتم مسلمون}.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {٨١}

قال أبو زهرة: الميثاق مأخوذ من الوثاق، وهو ما يشدُّ به الأمر، ويثبَّت ويؤكَّد؛ والميثاق الذي أخذه الله على النَّبيِّين هو ميثاق بمقتضى الهداية التي جاءوا بها، والحق الذي يناصرونه، وهو مشتقٌّ من معنى النبوة، والرسالة الإلهية؛ فإنَّ هذه الرسالة بمقتضى وظيفتها وعملها هي عهد موثَّق بين العبد المختار، والرب الذي اختاره، كمن يرسل رسولًا، فإنَّه يكون ثمَّة عهد بين الرسول ومن أرسله، بأن يقوم بواجب الرسالة على الوجه الأكمل.

وإنَّه بمقتضى هذا العهد الموثَّق الذي اشتقَّ من منصب الرسالة الأسمى، تكون الرسالة الإلهية واحدة في مقصدها وغايتها، وهي إسعاد البشرية، وتنظيم العلاقات الإنسانية على دعائم من الأخلاق الفاضلة المنبعثة من النفس العابدة، والروح الزاهدة، التي لَا تحرِّم طيبات ما أحل الله. وإذا كانت الوسائل تختلف أحيانًا قليلة، فالغاية واحدة، وهي الرحمة، وإقامة الحق والقسط بين الناس.

وكلُّ نبيٍّ يؤكِّد ما جاء به النبي الذي سبقه، ويوثِّقه ويقويه، حتى ختم الله أنبياءه بمحمد ﷺ، فكان خاتم النَّبيِّين، ولذلك كان حقًّا على كلِّ نبيٍّ أن يصدِّق ويؤمن بما يجيء به النبي الذي بعده، والذي أعلمه الله تعالى به، وإذا كان حقًّا على النبي المبعوث أن يؤمن بمن سبقه، ومن يجيئون بعده ممَّن أخبره الله تعالى بمجيئهم، فإنَّه بلا ريب حقٌّ على الذين يتبَّعونه أن يصدِّقوا ذلك النبي الذي يجيء بعده؛ لأنَّهم يتَّبعونه في كلِّ ما يؤمن به؛ فحقٌّ على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذي أخذه الله على النَّبيِّين، وبمقتضى إيمان هؤلاء النَّبيِّين، وتنفيذًا لهذا العهد، أن يؤمنوا بالنبي ﷺ، وإلَّا ما كانوا متَّبعين لموسى وعيسى عليهما السلام، إنَّما يكونون متَّبعين لأهوائهم وشهواتهم؛ ولذا يقول النبي ﷺ فيما رواه جابر: ((لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلَّا أن يتَّبعني)).

هذا هو معنى النص الكريم بالإجمال، بقي أن ننظر في تخريج هذه المعاني السامية من الألفاظ المقدسة.

قال ابن العثيمين: {وإذ أخذ الله ميثاق النَّبيِّين}: {إذ} مفعول لفعل محذوف تقديره: اذكر؛ يعني: اذكر يا محمد لمن أرسلناك إليهم هذا العهد والميثاق؛ و{الميثاق}: هو العهد، وسمِّيَ الميثاق عهدًا لأنَّ كلًّا من المتعاهدين يتوثَّق به مع الآخر؛ كالوثاق الحبل الذي يشدُّ به الإنسان. وقوله: {ميثاق النَّبيِّين}: يشمل الرشد؛ لأنَّ كلَّ رسول فهو نبي.

{لما آتيتكم من كتاب وحكمة}: فيها ثلاث قراءات: {لَمَّ آتيتكم}، {لِما آتيتكم}، {لَمَّ آتيناكم}؛ وعلى كل القراءات ففيها التفات من الغيبة إلى الحضور؛ وقوله: {لما آتيتكم} في اللام قراءتان: الكسر والفتح؛ وقوله: {آتيتكم}: يعني أعطيتكم؛

والإيتاء هنا يراد به ما آتاه الله النبيين من أمور الشريعة؛ ولهذا قال: {من كتاب وحكمة}: {الكتاب} معروف كالتوراة والإنجيل؛ و{الحكمة}: الحكم بين الناس وإصابة الصواب، لأن الحكم بين الناس وإصابة الصواب من تنزيل الأشياء منازله وهذا هو الحكمة.

{ثمَّ جاءكم رسول مصدِّق لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرُنَّه}: يعني ما آتيتكم من الكتاب والحكمة إذا جاءكم رسول مصدّق لما معكم فإنَّه تؤمنون به وتنصرنه.

وقوله: {مصدِّقًا لما معكم} له معنيان؛ المعنى الأول: أنَّه يصدِّق ما سبق من الكتب، فيقول مثلًا: إنَّ التوراة حقٌّ والإنجيل حقٌّ وما أشبه ذلك؛ المعنى الثاني: أنَّه يقع مصداقًا لما سبقه من الكتب؛ أي: أنَّ رسالته كانت مصداقًا لما أخبرت به الكتب السابقة بأنَّ الله تعالى يقول في النبي ﷺ: {الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر}، فإذا جاء على الوصف الذي جاءت به التوراة والإنجيل صار وقع مصداقًا لها لأنَّها أخبرت بشيءٍ فجاء هذا الشيء، فيكون مصدِّقًا؛ أرأيت لو أنَّ أحدًا من الناس قال: إنَّ فلانًا سيقدم اليوم بعد الظهر؛ فقدم؛ صار هذا الذي قدم مصدِّقا لما أخبر به؛ إذًا لمَّا قالت الرسل إنَّ محمدًا رسول الله يبعث على الوجه الذي ذكر الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فجاء مطابقًا لما أخبرت به صار مصدِّقًا لها.

{مصدِّقٌ لما معكم}: أي للذي معكم من الكتب السابقة التي جاءوا بها؛ {لتؤمنُنَّ به} هذا محل الميثاق؛ يعني: إذا جاءكم هذا الرسول المصدّق لما معكم، فإنَّ ميثاقي عليكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرنَّه؛ {لتؤمنُنَّ به}: أي تؤمنُنَّ بأنَّه حقٌّ؛ {ولتنصرُنَّه}: أي تعينونه على نشر رسالته وعلى قتال أعدائه؛ لأنَّ النصر هنا يشمل النصر بالعلم وبالسلاح.

قال السعدي: يخبر تعالى أنَّه أخذ ميثاق النَّبِيِّين وعهدهم المؤكَّد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزَّل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنَّه إن بعث الله رسولًا مصدِّقًا لما معهم أن يؤمنوا به ويصدِّقوه ويأخذوا ذلك على أممهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدِّق بعضهم بعضًا لأنَّ جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد عُلم أنَّ محمدًا ﷺ هو خاتمهم، فكلُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتِّباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علوِّ مرتبته وجلالة قدره، وأنَّه أفضل الأنبياء وسيِّدهم ﷺ، لمَّا قرَّرهم تعالى: {قالوا أقررنا}.

قال شيخ الإسلام في الرد على المنطقيين ص٤٥١: وعن علي بن أبي طالب أنَّه قال: (لم يبعث الله نبيًّا – آدم ومن بعده – إلَّا أخذ عليه العهد في محمد، وأمره وأخذ العهد على قومه ليؤمننَّ به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنَّه)، وكذلك عن ابن عباس أنَّه قال: (ما بعث الله نبيًّا إلَّا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليؤمننَّ به. وأمره أن يأخذ الميثاق على أمَّته أن بعث محمد وهم أحياء ليؤمننَّ به ولينصرنَّه).

وقال بعض العلماء: (أخذ الميثاق على النَّبِيِّين وأمّتهم، فاجتزأ بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم، لأنَّ في أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على التابع. وحقيقة الأمر أنَّ الميثاق إذا أخذ على الأنبياء دخل فيه غيرهم لكونه تابعًا لهم، ولأنَّه إذا وجب على الأنبياء الإيمان به ونصره فوجوب ذلك على من اتَّبعهم أولى وأحرى. ولهذا ذكر عن الأنبياء فقط).

وقد قيل: أنَّ المراد بأخذ الميثاق على الأنبياء هو أخذه على قومهم، فإنَّهم هم الذين يدركون النبي الآتي. وقالوا هي في قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب)، وزعم بعضهم أنَّ هذه القراءة هي الصواب والأُولى غلط من الكتاب. وهذا قول باطل، ولولا أنَّه ذكر لما حكيته، فإنَّ ما بين لوحي المصحف متواتر. والقرآن صريح في أنَّ الله أخذ الميثاق على النَّبِيِّين، فلا يلتفت إلى من قال: إنَّما أخذ على أممهم.

لكن الأنبياء أمروا أن يلتزموا هذا الميثاق مع علم الله وعلم من اعلمه منهم أنَّهم لا يدركونه؛ كما نؤمن نحن بما تقدَّمنا من الأنبياء والكتب وإن لم ندركهم. وأمر الجميع بتقدير إدراكه أن يؤمنوا به وينصروه، كما أنَّ النبي ﷺ اخبرنا بنزول عيسى ابن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقي دمشق، واخبر أنه يقتل المسيح الدجال.

فنحن مأمورون بالإيمان بالمسيح ابن مريم وطاعته إن أدركناه، وإن كان لا يأمرنا إلَّا بشريعة محمد، ومأمورون بتكذيب المسيح الدجال، وأكثر المسلمين لا يدركون ذلك بل إنَّما يدركه بعضهم.

قال طاووس: (أخذ الله ميثاق النَّبِيِّين بعضهم على بعض، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، هذه الآية لأهل الكتاب، أخذ الله ميثاقهم أن يؤمنوا بمحمد ويصدِّقوه): يعني بذلك أنَّ من أدرك نبوة محمد منهم. يعنى هم الذين أدركهم العمل بالآية، وإلَّا فذِكر أنَّ الميثاق أخذ على النَّبِيِّين بعضهم على بعض، لكن ذلك عهد وإقرار مع العلم بأنَّهم لا يدركونه. وكذلك عن السدي: (لم يبعث الله نبيًّا قط من لدن نوح إلَّا أخذ ميثاقه ليؤمننَّ بمحمد ولينصرنَّه إن خرج وهو حي، وإلَّا أخذ على قومه أن يؤمنوا به وينصروه إن خرج وهم أحياء). وقال محمد بن اسحق: (ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى أنبيائهم الميثاق بتصديقه إذا هو جاءهم وإقرارهم به على أنفسهم، فقال: {وَإِذْ أخذ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ} الآية).

وقوله: {رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ}: متناول لمحمد بالاتِّفاق، فانَّ رسالته كانت عامَّة. وقد قال الله له: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ}[المائدة: ٤٨]، فكتابه مهيمن على ما بين يديه من كتب السماء وقد أوجب الله على أهل الكتابين وسائر أهل الأرض الإيمان به. وهذا مذكور في غير موضع من القران والحديث. وهو مع أنَّه إجماع من المسلمين فهو معلوم بالاضطرار من دينه متواتر عنه، كما تواتر عنه غزوه اليهود والنصارى.

وهل يدخل في ذلك غيره من الرسل؟ فيه قولان:

قيل: أنَّ الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يصدِّق الثاني وينصره، وأمره أن يأخذ الميثاق على قومه بذلك. وقيل بل هذا الرسول هو محمد خاصَّة، وهذا قول الجمهور، وهو الصواب؛ لأنَّ الأنبياء قبله إنَّما كانت دعوتهم خاصة، لم يكونوا مبعوثين

إلى كلِّ أحد. فإذا لم يدخل في دعوته جميع أهل زمنهم ومن بعدهم كيف يدخل فيها من أدركهم من الأنبياء قبلهم؟ والله تعالى قد بعث في كلِّ قوم نبيًّا، كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ}[فاطر: ٢٤]، وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[النحل: ٣٦]، وكذلك قوله: {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ}، والنصرة مع الإيمان به هو الجهاد، ونوح وهود ونحوهم من الرسل لم يؤمروا بالجهاد، ولكن موسى وبنوا إسرائيل أمروا بالجهاد.

وقوله: {لما} هذه اللام تسمى (الموطئة للقسم). فانَّ الكلام إذا كان فيه شرط متقدِّم وقسم كان جواب القسم يسدُّ مسدَّ جواب الشرط والقسم جميعًا. وأدخلت اللّام الموطئة على أداة الشرط، و{ما} هنا شرطية واللام في قوله: {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ} هي جواب القسم ونظير (اللام الموطئة) في قوله: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَك}[البقرة: ١٤٥]، ونظير هذه الآية قوله: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}[العنكبوت: ١٠]، وقوله: {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}[الإسراء: ٨٦]، {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ}[هود: ٨].

ولهذا قال النحاة كالمبرد والزجاج: (هذه لام التحقيق دخلت على {ما} الجزاء، أي الشرطية، كما تدخل على (إن). ومعناه: (لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنُنَّ به). واللام في {لتؤمنُنَّ به} جواب الجزاء).

قال ابن العثيمين: {قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا}: لمَّا أخبر أنَّه أخذ عليهم العهد والميثاق، قرَّرهم في هذا. وقوله: {أأقررتم} أي اعترفتم والتزمتم بذلك؛ وقوله: {أخذتم على ذلكم إصري} أي أخذتم العهد الثقيل؛ لأنَّ الإصر الذي جمعه الآصار بمعنى الأشياء الثقيلة؛ فإصري أي عهدي الثقيل.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٥٣١: في تفسير معنى الإقرار فِي قَوْله تَعَالَى: {أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}. وَلَيْس هُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْخَبَرِ الْمُجَرَّدِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي}. فَهَذَا الِالْتِزَامُ لِلْإِيمَانِ وَالنَّصْرِ لِلرَّسُولِ وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْإِيمَانِ فِيهِ إخْبَارٌ وَإِنْشَاءٌ وَالْتِزَامٌ؛ بِخِلَافِ لَفْظِ التَّصْدِيقِ الْمُجَرَّدِ، فَمَنْ أَخْبَرَ الرَّجُلَ بِخَبَرٍ لَا يَتَضَمَّنُ طُمَأْنِينَةً إلَى الْمُخْبِرِ؛ لَا يُقَالُ فِيهِ: آمَنَ لَهُ بِخِلَافِ الْخَبَرِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ طُمَأْنِينَةً إلَى الْمُخْبِرِ، وَالْمُخْبِرُ قَدْ يَتَضَمَّنُ خَبَرُهُ طَاعَةَ الْمُسْتَمِعُ لَهُ، وَقَدْ لَا يَتَضَمَّنُ إلَّا مُجَرَّدَ الطُّمَأْنِينَةِ إلَى صِدْقِهِ، فَإِذَا تَضَمَّنَ طَاعَةَ الْمُسْتَمِعِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا لِلْمُخبِرِ؛ إلَّا بِالْتِزَامِ طَاعَتِهِ مَعَ تَصْدِيقِهِ؛ بَلْ قَدْ اسْتَعْمَلَ لَفْظَ الْكُفْرِ - الْمُقَابِلِ لِلْإِيمَانِ - فِي نَفْسِ الِامْتِنَاعِ عَنْ الطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ؛ فَقِيَاسُ ذَلِكَ أَنْ يُسْتَعْمَلَ لَفْظُ الْإِيمَانِ كَمَا أُسْتُعْمِلَ لَفْظُ الْإِقْرَارِ فِي نَفْسِ الْتِزَامِ الطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ إبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ.

قال ابن العثيمين: {قالوا أقررنا}: يعني اعترفنا والتزمنا بأن نؤمن به وننصره؛ {قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين}: يعني ليشهد بعضكم على بعض، ولتشهدوا كلُّكم على الميثاق الذي بيني وبينكم، واشهدوا أيضًا على أنفسكم كما قال الله تعالى:

{وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريَّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا}، فكذلك النبيُّون أشهد الله على أنفسهم أنَّهم سيؤمنون بمحمد ﷺ لأنَّ هذا الوصف لا ينطبق إلَّا عليه. وقال بعض العلماء: إنَّ المراد بالرسول، الرسول الذي يتلوا من قبله، لأنَّ كلُّ رسول يصدق من قبله؛ فعيسى مصدِّق لموسى، ومحمد مصدِّق لهما ولجميع الأنبياء؛ لكن الصحيح الأوَّل، أنَّ المراد به محمد ﷺ. {وأنا معكم من الشاهدين}: وكفى بالله شهيدًا؛ فاستشهدهم على أنفسهم، وشهد عليهم عز وجل بما حصل. وهذه المعية معية خاصة مصاحبة في هذه الشهادة؛ لأنَّه قال: {وأنا معكم من الشاهدين}، فإنَّ معية الله عز وجل معية عامَّة شاملة لكلِّ الخلق؛ ومعية خاصة مقيَّدة ببعض الخلق، أو مخصَّصة ببعض الخلق؛ ففي قوله تعالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلَّا هو رابعهم ولا خمسة إلَّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلَّا هو معهم أين ما كانوا}، هذه معية عامَّة؛ وقوله: {هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير}، هذه أيضًا معية عامَّة لجميع الخلق؛ وقوله تعالى: {اصبروا إنَّ الله مع الصابرين}، هذه خاصة، خاصة للصابرين؛ وقوله للنبي ﷺ: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ الله معنا}، هذه أيضًا معية خاصة، خاصة في الذات والمكان؛ المعية العامَّة مقتضاها العلم والإحاطة بالخلق قدرةً وسلطانًا وتدبيرًا وغير ذلك، هذه من مقتضياتها، لأنَّ كلَّ الخلق تحت قدرة الله وسلطانه وتدبيره؛ والمعية الخاصة مقتضاها التسديد والنصر والتأييد والتَّقوية وما أشبه ذلك من مقتضياتها، والذي يحدِّد هذه المقتضيات هو السياق. فإذا قال قائل: هل معية الله تنافي علوَّ الله؟

فالجواب: لا، لا تنافيه هو مع الخلق وإن كان فوق العرش؛ لأنَّ الله لا يشبه شيءٌ من مخلوقاته، أو لا يماثله شيءٌ من مخلوقاته؛ ولهذا جمع الله بينهما في الآية التي ترونها أخيرًا: {هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثمَّ استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم}، فجمع بين علوِّه ومعيَّته ولا تناقض بينهما؛ وقال النبي ﷺ: ((إنَّ الله ينزل إلى السماء الدنيا))، ومع ذلك نزوله حقيقي وهو على عرشه؛ فنزوله لا ينافي علوَّه؛ وإذا شئت أن نذكر مثلًا يقرب لك هذا فانظر إلى القمر موضعه في السماء وهو مع الإنسان إن كنَّا في البلد فهو معنا، إن كنَّا مسافرين فهو معنا، مع أهل عنيزة وأهل الرياض وأهل مكة وأهل المدينة وكل من على سطح الأرض من جهة القمر؛ العرب يقولون: ما زلنا نسير والقمر معنا؛ ومع ذلك فإنَّ كلُّ الخلق يعرفون أنَّ القمر في السماء؛ فإذا كان لا منافاة بين العلو وبين المعية التي هي المصاحبة في المخلوقات فما بالك بالخالق؛ ولهذا لا يجوز أن تظنَّ أنَّ كلام الله يناقض بعضه بعضًا أبدًا؛ كلام الله يصدِّق بعضه بعضًا، {ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا}، لكن مقتضيات هذه المعية كما عرفتم تختلف؛ فمقتضاها للعموم ليس كمقتضاها للخصوص.

قال: {وأنا معكم من الشاهدين}، هذا الشاهد وصف اشترك فيه الخالق والمخلوق فقال: {من الشاهدين}، وجعل نفسه عز وجل أحد الشهود؛ لكن هل هذه المشاركة في الشهادة تقتضي المماثلة؟ لا؛ كما أن المشاركة في الحياة لا تقتضي المماثلة، {يخرج الحي من الميت}، فأثبت للمخلوق الحي؛ {الله لا إله إلّا هو الحي القيوم}، أثبت أنَّ اسمه الحي؛ فاشتراك الخالق والمخلوق في الحياة لا يستلزم المماثلة؛ إذًا فكون الله من الشاهدين لا يستلزم أن تكون شهادته كشهادة الخلق، شهادة الله شهادة ثابتة حق لا يسبقها خفاء ولا يلحقها نسيان؛ وشهادة المخلوق بالعكس مسبوقة بخفاء وملحوقة بنسيان؛ فبينهما فرق.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مربوبون متعبِّدون لله عز وجل كما أنَّ غيرهم كذلك؛ وجهه من الآية: أنَّ الله أخذ عليهم الميثاق بالتَّكليف؛ وهذا يدلُّ على أنَّهم كغيرهم مربوبون متعبِّدون لله كما يتعبَّد غيرهم.

٢- إثبات أنَّ الميثاق يكون بما آتاهم الله من الكتاب والحكمة بناء على القراءة الثانية: {لما آتيتكم من كتاب}؛ أمَّا القراءة الأولى التي في المصحف {لم} فإنَّه يستفاد منها فائدة وهي: أنَّ الله سبحانه وتعالى آتاهم العهد أو أخذ منهم العهد والميثاق بما آتاهم الكتاب والحكمة يعني لكونهم أوتوا الكتاب والحكمة صاروا أهلًا لهذا الميثاق العظيم؛ وأنَّه مهما أوتوا فلابدَّ أن يؤمنوا بهذا الرسول.

٣- ما منَّ الله به على النَّبيِّين من الكتاب والحكمة. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ من ورث هذا الكتاب والحكمة فإنَّه قد أخذ بحظٍ وافر ممَّا أنعم به على النَّبيِّين؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: ((أنَّ العلماء ورثة الأنبياء[1]))، فجيب عليهم إذا ورثهم الله علم الأنبياء أن يقوموا مقام الأنبياء في الدعوة إلى الله ونشر العلم والجهاد في سبيله، ومن توانى منهم عن ذلك فقد قصر.

٤- فضيلة رسول الله ﷺ، لكون الله أخذ على جميع الأنبياء الميثاق والعهد أن يؤمنوا به. فإن قال قائل: كلمة {رسول} نكرة فما الذي جعلك تجعلها للنبي ﷺ؟ والأصل في النكرة أنَّها اسم جنس شائع لا يختص به واحد دون الآخر؟

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧- ٢١١٧)، والحديث بتمامه: ((من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنَّما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)).

فالجواب على ذلك أن يقال: إن هذا الوصف الذي وصف الله به هذا الرسول ينطبق تمامًا على النبي ﷺ؛ ويدلُّ لذلك أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمر: ((لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلَّا إتِّباعي[١]))، ويدلُّ لذلك أيضًا أنَّ النبي ﷺ لمَّا جمع الله له الأنبياء ليلة المعراج صار هو إمامهم، فصار هو المتبوع لا تابع عليه الصلاة والسلام.

٥- أنَّ رسالة النبي ﷺ جامعة للتصديق بجميع رسالاته؛ لقوله: {مصدِّق لما معهم} ولهذا كانت هذه الأمَّة هي المصدِّقة تمامًا لجميع الرسل، وهذه الميزة ليست لغيرها.

٦- أنَّه يجب على الأنبياء أن يؤمنوا بهذا الرسول الذي يأتيهم مصدِّقًا لما معهم وأن ينصروه؛ لقوله: {لتؤمننَّ به ولتنصرنه} وإذا كان هذا واجبًا على الأنبياء، كان واجبًا على أممهم، لأنَّ ما وجب على الإمام وجب على تابعه؛ فيجب على جميع الأمم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينصروه؛ ومن لم يكن كذلك فقد كفر برسوله؛ لأنَّ الله قد أعطى رسوله هذا الميثاق؛ ومعلوم أنَّهم إذا كانوا صادقين في إتِّباع رسولهم، أن يتبعوا ما التزم به رسولهم.

٧- أنَّه يشرع في الأمور الهامَّة أن يقرِّر من أخذ عليه العهد، حتى يقرَّ ويعترف زيادة على العقد الأول الذي جرى بينه وبين معاهده؛ لقوله: {أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري}، وهذا يرد في الأمور العظيمة الهامَّة؛ ونظيره من بعض الوجوه أنَّ النبي ﷺ لمَّا قرَّر من اعترف بالزنا سأله، ((أفعلت كذا؟ أفعلت كذا؟ حتى قال له: أنكتها؟ ولم يكني، قال: نعم، قال: كما يغيب الرِّشَاءُ في البئر والمرود في المكحلة؟ قال: نعم[٢]))؛ كلُّ هذا من أجل التَّثبيت[٣].

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩)، والحديث بتمامه: ((أن النبي ﷺ غضب حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية؟ لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلَّا اتِّباعي)).

٢- (قلت): ضعيف بهذا اللفظ، ضعفه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٩٥٧). ولكن الحديث صحيح، رواه البخاري في صحيحه (٦٨٢٤):- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا أَتَى مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: ((لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ))، قَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ((أَنِكْتَهَا)) لَا يَكْنِي قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِرَجْمِهِ.

٣- (قلت): ويجب أن نذكر مع ما ذكره ابن العثيمين: معنى هذا الكلام الإشارة إلى تلقينه الرجوع عن الإقرار بالزنا واعتذاره بشبهة يتعلَّق بها، وفي هذا دليل على أنَّ دين الإسلام دين رحمة ورأفة، ورسول الله ﷺ رأف بحاله وأراد منه أن ينصرف ويستغفر الله ويتوب اليه فيما بينه وبين الله ولا يظهره للعلن، لأنَّ الذنب الذي فيه الحدُّ على مرتكبه اذا أعلن فلابدَّ من إقامة الحدِّ عليه، كما جاء في الحديث الذي صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٦٦٣)، عن ابن عمر: ((اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله تعالى عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله وليتب إلى الله، فإنَّه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)).

وليُعلم أنَّ في إقامة الحدِّ أيضًا رحمة؛ رحمة للمذنب بتطهيره من الذنب، ورحمة للمسلمين ليرتدعوا عن الوقوع في المعاصي، ورحمة للمجتمع بصيانته من الفساد والمحافظة عليه. ومن تأمَّل الحديث بتمامه يظهر له صحة ما قلنا، وأنَّ الحدود ليست مرادًا لذاتها، والحديث رواه البخاري (٦٨٢٤)، ومسلم (١٦٩٥). والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: ((وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ))، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ))، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: ((فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟)) فَقَالَ: مِنَ الزِّنَا، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أَبِهِ جُنُونٌ؟)) فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: ((أَشَرِبَ خَمْرًا؟)) فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أَزَنَيْتَ؟)) فَقَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ،- وفي رواية البخاري: قَالَ لَهُ: ((لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ)) قَالَ: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: ((أَنِكْتَهَا لاَ يَكْنِي)).- فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ، قَائِلٌ يَقُولُ: لَقَدْ هَلَكَ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ، أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: ((اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ))، قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ))، قَالَ: ثُمَّ جَاءَتْهُ

٨- إثبات كلام الله عز وجل، وأنَّه متعلِّق بمشيئته؛ لقوله: {قال أأقررتم}، {قالوا أقررنا قال فاشهدوا}، وكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ كلامه سبحانه وتعالى بصوت مسموع، وأنَّه متعلِّق بمشيئته؛ فيكون فيه الرَّد على الأشاعرة الذين قالوا إنَّ كلام الله هو المعنى القائم بنفسه وأنَّه لا يتعلَّق بمشيئته، لأنَّه وصف لازم له لزوم العلم والحياة.

٩- جواز إشهاد الإنسان على نفسه إذا قلنا {قال فاشهدوا} إنَّها خطاب لكلِّ إنسان على حِدى؛ وأمَّا إذا قلنا: اشهدوا بعضكم على بعض فليس في الآية دليل لذلك؛ لكن الإشهاد على النفس أمر جاءت به الشريعة {يا أيها الذين كونوا قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم}.

١٠- تقوية هذا العهد بهذه التقريرات والاشهادات المختومة بقوله: {وأنا معكم من الشاهدين} وما أعظم شهادة الله عز وجل في أمر من الأمور؛ وهذا كلُّه ممَّا يزيد الفضيلة لرسول الله ﷺ، أن يؤخذ مثل هذا العهد المؤكَّدة بهذه المؤكِّدات من أجل الإيمان به ﷺ ونصرته.

١١- أنَّه إذا كان واجبًا على الأنبياء والأمم السابقين أن يؤمنوا برسول الله ﷺ وينصروه، كان إيماننا به ونصرته من باب أَولى، لأنَّنا ننتسب وننتمي إليه، ونعتقده إمامنا صلوات الله وسلامه عليه، فكان واجبًا علينا أن ننصره؛ ومن المعلوم أن نصره في حياته هو الجهاد معه، وأمَّا نصره بعد وفاته فهو نصر سنته، ونشرها وبيانها للناس والدفاع عنها، والجهاد في نصرتها، كل هذا واجب على الأمَّة الإسلامية؛ وبناء على ذلك يجب على الأمَّة الإسلامية أن ترفض كلَّ واردٍ إليها من أعداء الله إذا كان مخالفًا للسُّنَّة، كلُّ شيءٍ يرد علينا من الكفار من عقائد وأخلاق وأعمال ومعاملات وغيرها إذا كان مخالفًا لسنَّة الرسول ﷺ فإنَّ أقلَّ ما يقال في النصرة أن يرفض هذا الشيء، وأن يضرب به وجه مورده، وأن لا يكون له مكان بين الأمَّة الإسلامية؛ لأنَّه كيف يكون نصرة ونحن نستورد من أعداء هذه النصرة ما يخالف هذه النصرة؛ من ادَّعى ذلك فإنَّه كاذب، فإنَّ فعله يكذِّب قوله؛ ولو كان قوله صادقًا لكان أوَّل ما يقوم به من نصرة شريعة الله أن يرفض كلَّ ما خالف شريعة الله.

امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الْأَزْدِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: ((وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ))، فَقَالَتْ: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: ((وَمَا ذَاكِ؟))، قَالَتْ: إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَا، فَقَالَ: ((آنْتِ؟)) قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهَا: ((حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ))، قَالَ: فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ، قَالَ: فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: ((قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ))، فَقَالَ: ((إِذًا لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ))، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَالَ: ((فَرَجَمَهَا)).

- وروى البخاري في صحيحه (٦٨٢٣): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، قَالَ: وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ، قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللهِ، قَالَ: ((أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا))، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ((فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ، أَوْ قَالَ حَدَّكَ)). إذًا بما ذكرناه من الأدلَّة تبيَّن أن الحدود ليست مرادًا لذاتها، واذا استوجب إقامة الحدِّ في حالٍ ما، ففي إقامته رحمة كما ذكرنا.

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٨٢}

قال ابن العثيمين: {فمن تولَّى بعد ذلك}: أي بعد ما ذكر هذا البيان والإيضاح وأنَّ محمدًا ﷺ قد أخذ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به، وأن ينصروه؛ وما أخذ على الأنبياء مأخوذ على أتباعهم أيضًا؛ فإذا كان واجبًا على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه، كان واجبًا على أتباعهم أن يؤمنوا به وينصروه؛ ولهذا لما رأى النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب شيئًا من التوراة غضب وقال: ((ألم آت بها بيضاء نقية؟ لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلَّا اتِّباعي([١]))، كيف تأتي بالتوراة؟ القرآن فيه غنى عن كلِّ كتاب، كلُّ ما في الدنيا من الكتب فالنافع منها موجود في القرآن، ليست الحاجة إليها لاسيَّما وأنَّها الآن ليست نفس الكتب المنزَّلة من السماء، بل فيها من التحريف والتبديل والإخفاء ما الله به عليم.

قال ابن كثير: وقد قال الإمام أحمد: عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ رسولًا قال: فسري عن رسول الله ﷺ وقال: ((والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثمَّ اتَّبعتموه وتركتموني لضللتم، إنَّكم حظِّي من الأمم، وأنا حظُّكم من النَّبيِّين([٢]))).

قال ابن العثيمين: إذًا نقول: {فمن تولَّى بعد ذلك}: أي بعد هذا البيان والإيضاح الذي بيَّنه الله عز وجل وأنَّ الله أخذ على جميع الأنبياء ميثاق النَّبيِّين كلِّهم أنَّهم إذا جاءهم رسول مصدِّقٌ لما معهم ليؤمنُنَّ به ولينصرنَّه؛ أفبعد ذلك يتولَّى المُتولِّين؟ لا؛ {فمن تولَّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}، ولا ترد هذه الشرطية على الأنبياء، لأنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شهدوا على أنفسهم وشهد الله معهم؛ لكن إنَّما ترد هذه الشرطية على أتباعهم، يعني فمن تولَّى من أتباع الأنبياء بعد ما ذكر هذا الميثاق العظيم فهو فاسق.

قال السعدي: فعلى هذا كلُّ من ادَّعى أنَّه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولَّوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقُّوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

قال ابن العثيمين: {فأولئك هم الفاسقون}: {هم} ضمير فصل؛ الفاسقون الذين خرجوا عن مستوى العدل وعن مستوى الرجولة وعن مستوى الإيمان؛ خرجوا عن الطاعة، تولَّوا، أعرضوا؛ هؤلاء هم الفاسقون؛ والمراد بالفسق هنا فسق الكفر؛ لأنَّ

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩)، والحديث بتمامه: ((أن النبي ﷺ غضب حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية؟ لو كان أخي موسى حيا ما وسعه إلَّا اتِّباعي)).

٢- حسن: أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٧٠)، (٤/٢٦٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٠٨).

الفسق يطلق على فسق المعاصي، وعلى فسق الكفر؛ فمن الأول قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا}، هذا فسق المعصية؛ ومن الثاني قوله تعالى: {أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون أمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلًا بما كانوا يعملون وأمَّا الذين فسقوا فمأواهم النار كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها}، فهنا المراد بالفسق، فسق الكفر لأنَّه جاء في مقابل الإيمان، جاء قسيما للإيمان، وقسيم الشيء غير الشيء؛ فأمَّا قوله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون}، فهل هو فسق كفر أو فسق معصية؟ قيل: معصية؛ وقيل: كفر؛ وقيل: بالتفصيل.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ الفسق يطلق على الكفر؛ ومن شواهد ذلك قوله عز وجل: {أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون أمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنت المأوى نزلًا بما كانوا يعملون وأمَّا الذين فسقوا فمأواهم النار}.

٢- أنَّ من تولَّى قبل قيام الحجَّة عليه لم يحكم عليه بالفسق؛ لقوله: {فمن تولَّى بعد ذلك}. ويتفرَّع على هذا فائدة مهمة وهي: أنَّ الشرائع لا تلزم قبل العلم؛ وهذه مسألة عظيمة جدًّا، اختلف فيها العلماء اختلافًا طويلًا عريضًا جدًّا؛ لكن من تأمَّل نصوص الكتاب والسنة، وتأمَّل أيضًا ما لله من صفات عظيمة، تبيَّن له أنَّ الشرائع لا تلزم قبل العلم؛ لأنَّ الله كتب على نفسه أنَّ رحمته سبقت غضبه؛ ولو قلنا وجب الشرائع قبل العلم لكان الغضب سابقًا على الرحمة؛ لأنَّنا نلزم الإنسان بشيءٍ لم يعلمه؛ لكن ربما يكون من الإنسان تفريط في السؤال، لا يسأل، فحينئذٍ قد يلزمه قبل أن يعلم من أجل تفريطه[١]؛ أمَّا لو لم

١- (قلت): وفي موسوعة الألباني في العقيدة ج٥ص٧٥١ سئل الإمام الألباني عن: [هل يعذر الإنسان بجهله في هذا الزمان مع انتشار العلم؟]
فأجاب رحمه الله: هذا ليس على إطلاقه، وكثيرًا ما سئلنا مثل هذا السؤال في هذه البلاد وفي غيرها، السؤال التقليدي: هل يعذر الجاهل بجهله أم لا؟ فجوابي: أنَّه قد يعذر وقد لا يعذر، إذا كان الجاهل يعيش في بلاد إسلامية يغلب عليها العلم الإسلامي وخاصة بعقائده وبصورة أخص ما يتعلق منها بالتوحيد فهنا لا يعذر هذا الإنسان بجهله؛ لأنَّه يعيش في جو إسلامي يفترض أن يكون قد عرف من الجو الصالح الذي يعيش فيه العقيدة الصحيحة وهذا بلا شك أيضًا يستطيع الإنسان أن يتصور صورًا متعدِّدة: جو إسلامي والحمد لله أنَّ بلاد السعودية لا تزال من حيث صلاح عقيدتها هي في القمَّة ولكن يقصدها كثير من المسلمين العرب أو العجم لقضاء مصالحهم وأحيانًا عباداتهم من الحج أو العمرة، فقد يكون الواحد منهم أقام في هذه البلاد مدَّة من الزمن لم يتمكَّن في المدَّة لقصرها أن يتعرف على عقيدة التوحيد مثلًا فهو لا يزال يحمل في أفكاره بعض الانحرافات عن التوحيد الصحيح، فهذا بالرغم أنَّه أقام في جو إسلامي وتوحيده صحيح لا يمكن أن يقاس به من ولد في هذه البلاد وعاش فيها وترعرع ونشأ وتعلَّم فهناك فرق كبير بين الأول وبين الثاني؛ ولذلك إذا أخذنا هذا الإنسان الأول أي: البلد الإسلامي الصحيح توحيده وعقيدته ثم قابلناه ببلد آخر ليس بلدًا إسلاميًّا فالمسلمون الذين يسلمون في بلاد الكفر كأوروبا مثلًا .. أو نحو ذلك، فهؤلاء إذا لم يفهموا بعض العقائد الإسلامية على وجهها الصحيح .. هؤلاء يعذرون لأنَّهم لا يجدون الجو الذي يعطينا المعنى الذي أشرت أنت إليه آنفًا بقول: صار من المعلوم من الدِّين بالضرورة، هذا إنَّما هو في المجتمع الأول وفي التفصيل الذي ذكرته: من نشأ وترعرع به وليس بالنسبة لمن زاره حالاً فيه لمدة قصيرة من الزمن.
ثمَّ نأخذ مثلًا بل أمثلة أخرى ما بين المثل الأول الطالح والمثل الآخر الصالح نأخذ مثلًا كالبلاد المصرية حيث يوجد فيها مشايخ وعلماء الأزهر وما أدراك ما علماء الأزهر من حيث الأزهر الشريف وإلى آخره، ومع ذلك فتجد هناك الشرك ضاربًا أطنابه في الأزهر وفي المساجد التي في الحسين وغيره، فيعيش المصري هناك مسكينًا ولا يسمع

يكن مفرطًا كإنسان نشأ في بادية ولا يعلم شيئًا عن الدِّين وليس عنده عالم، فكان يصلِّي على جنابة بدون اغتسال وبقي على هذا عشر سنوات أو أكثر فجاء يسأل، ماذا نقول له؟ نقول ليس عليك شيءٌ لأنَّك لم تعلم بوجوب الغسل من الجنابة؛ لكن لو كان في البلد ويسمع ويستطيع أن يسأل فربما يلزمه بقضاء ما مضى؛ ومن ذلك ما يحدث لكثير من النساء التي تبلغ بالحيض وهي صغيرة، ولكنَّها لا تصوم بناء على أنَّها صغيرة، وأنَّ الصوم لا يلزم إلَّا من تمَّ لها خمس عشرة سنة؛ ثم تأتي تسأل فإذا علمنا من حالها أنَّها معذورة بالجهل، فإنَّنا لا نلزمها بقضاء ما فات من الصيام؛ لأنَّها معذورة؛ وهذا في الذي ينتسب للإسلام نعذره ونحكم بإسلامه ونصلِّي عليه إذا مات؛ أمَّا من لا ينتسب للإسلام فهذا كافر، كافر في الدنيا وأمَّا في الآخرة فعلمه عند الله؛ فقوم الذين لم تبلغهم الدعوة وهم كفار، هؤلاء كفار في الدنيا، لو ماتوا لا نصلِّي عليهم ولا ندعوا لهم، لكن في الآخرة، الصحيح أنَّ أمرهم إلى الله، وأنَّ الله تعالى يمتحنهم بما يشاء من التكليف([1])فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار؛ أمَّا من ينتسب للإسلام، ولكنَّه على حال تكفِّره مِن ترك واجب أو فعل محرَّم وهو لم يبلغه الشرع، فإنَّ القول الراجح أنَّه لا يحكم بكفره لأنَّه معذور؛ ولهذا تجد نصوص الكتاب والسنة كلُّها أو غالبها مقيَّدًا ببلاغ الرسالة بالعلم بالتَّبين وما أشبه ذلك؛ وهذا هو مقتضى صفة الله عز وجل وهي أنَّ رحمته سبقت غضبه والحمد لله رب العالمين؛ ولهذا يقول: {فمن تولَّى بعد ذلك}، وأمَّا من قال: إنَّ هذا القيد {بعد ذلك}، من أجل عظم الشناعة عليهم، وأنَّ من تولَّى وإن لم يتبيَّن له الأمر فهو فاسق، لكن قيده بالبعدية من أجل عظم الشناعة عليهم، فهذا خلاف الأصل؛ لأنَّ الأصل أنَّ ما قيِّد بوصف، فالوصف عائد له نفسه لا إلى شيءٍ آخر؛ وهنا الذي قيِّد بالبعدية هو {التولِّي}؛ فإذا تولَّى بعد أن جاءه العلم فهو فاسق.

صوت التوحيد إطلاقًا، فهذا ليس كهذا الذي عاش في المجتمع الأول؛ فلذلك فمن الخطورة بمكان مع استحضارنا لهذا التفصيل وما أشير إليه مما لم يذكر .. من الخطورة بمكان أن يقال بأنَّ الجاهل لا يعذر؛ لأنَّه يعيش في بلد إسلامي، يشترط في هذا البلد الإسلامي أن تكون عقائده مشهورة وكما قلت معلومة من الدِّين بالضرورة.

لنفترض كما قلنا آنفًا رجل فرنسي أو ألماني أسلم، ما الذي دفعه للإسلام؟ شيء من عظمة الإسلام، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمد رسول الله، لكن يا ترى هل مجرَّد أن أعلن إسلامه وعودي من قومه عرف الإسلام بتفاصيله؟ طبعًا الجواب: لا، فقد يكون يعيش هو وزوجته، وزوجته لا تزال سافرة متبرجة كما كان قبل إسلامه بل وكما كانت هي قبل إسلامها ويعيشون مع بعضهم البعض أشقاء وإخوة وتظهر أمامهم كما تظهر أمام زوجها، هل يعذر أم لا؟ يعذر؛ لأنَّه حديث عهد بالإسلام؛ ولذلك نجد في بعض الأحاديث ما يمكن اتخاذه حجَّة؛ لأنَّ القول بأنَّ الجاهل لا يعذر قول يخالف سنة الرسول عليه السلام العملية.

[1]- (قلت): بل ورد كيفية تكليفهم في حديث صحيح ما نصه: ((يؤتى بأربعة يوم القيامة؛ بالمولود وبالمعتوه وبمن مات في الفترة والشيخ الفاني كلُّهم يتكلَّم بحجَّته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز فيقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم ادخلوا هذه فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب! أين ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا قال: فيقول تبارك وتعالى: أنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار)). وقال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٤٦٨): (صحيح بطرقه). يفيد الحديث امتحان من لم تبلغه الدعوة يوم القيامة.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {٨٣}

قال ابن العثيمين: {أفغير دين الله يبغون}: الدِّين يطلق على الجزاء وعلى الشرع؛ يعني على العمل وجزائه؛ يعني أحيانًا يطلق على العمل الذي هو شريعة الله؛ وأحيانًا على الجزاء؛ فمن إطلاقه على الجزاء قول الله تبارك وتعالى: {إنَّ الأبرار لفي نعيم وإنَّ الفجَّار لفي جحيم يصلونها يوم الدِّين وما هم عنها بغائبين وما أدراك ما يوم الدين ثمَّ ما أدراك ما يوم الدِّين يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئًا والأمر يومئذٍ لله}؛ وقال تعالى في سورة الفاتحة: {مالك يوم الدين}، الدِّين هنا بمعنى الجزاء. ومن إتيان الدِّين بمعنى العمل والشريعة قوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين}، وقوله تعالى: {ورضيت لكم الإسلام دينًا}: أي شريعةً؛ وهنا {أفغير دين الله يبغون}: يعني شريعته التي شرع لعباده؛ وأضافها الله لنفسه بيانًا لأهميته، وأنَّها الشريعة العادلة النافعة التي لا يقوم الخلق إلَّا بها؛ لأنَّها شريعة الله؛ فهي أصل الشرائع؛ وأضافها إلى نفسه أيضًا لأنَّه الذي شرعها. أحيانًا يضاف الدِّين إلى العامل مثل قوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين} أصلها (ولي ديني)؛ فيضاف إلى العامل باعتبار أنَّه أخذ به وتمسَّك به؛ ويضاف إلى الله باعتبار أنَّه هو الذي شرعه ووضعه لعباده.

وقوله: {يبغون}: أي يطلبون؛ وهذا الاستفهام للإنكار والتَّوبيخ، ينكر على من يبغي غير دين الله ويوبِّخهم؛ و{أفغير دين الله يبغون} قراءة سبعية؛ فيها قراءة: {تبغون}، وعلى هذا يحسن أن نقرأ أحيانًا: {أفغير دين الله تبغون}، وأحيانا نقول: {أفغير دين الله يبغون}، إلَّا إذا كنَّا بحضرة عوام؛ فلا نقرأ القراءتين وإنَّما نقرأ عندهم ما يعرفون؛ أمَّا فيما بينك وبين الله فاقرأ هذا أحيانًا وهذا أحيانًا بشرط أن تكون متيقِّنا لهذه القراءة؛ لأنَّ هذا كلام الله لابدَّ أن تتيقَّن.

قال السعدي: أي: أيطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنَّه لا أحسن دينًا من دين الله.

قال أبو زهرة: هذه الجملة السامية فيها تصريح بوحدة الرسالة، فإنَّ ما يجيء به الرسل جميعًا واحد لَا يتغيَّر، وهو دين الله تعالى؛ ومن خالفه فقد خالف دينه سبحانه، ومن آمن ببعض الرسل، وكفر ببعض آخر، فهو يبغى غير دين الله، ويطلب سواه، ومعنى النص الكريم: أنَّهم إذا أعرضوا عن تصديق محمد طلبوا غير دينه سبحانه.

والاستفهام هنا للتوبيخ، واستنكار ما يفعلون، وبيان أنَّ مؤدَّاه أنَّهم يطلبون غير دين الله سبحانه وتعالى، وأنَّهم لَا يمكن أن يكونوا مؤمنين بنبيٍّ قط، إذا أنكروا رسالة نبيٍّ من الأنبياء، وخصوصًا محمد ﷺ الذي جاء بكتاب مصدِّقًا لما بين يديه من الكتب.

وفي هذا الكلام إشارة إلى أنَّ دين الله واحد لَا يتجزَّأ، فمن كفر ببعضه، فقد كفر بكلِّه، وأنَّ حقيقة هذا الدِّين تتجلَّى في كلِّ ما جاء به الرسل لَا في بعضه، وأنَّه يتلاقى كلُّه في مجموعه، ولا يتعارض إلَّا ما يكون من جزئيات عملية ضئيلة، فلا تختلف رسالات الرسل في قواعد كليَّة.

وهنا مباحث لفظية. أوَّلها: أنَّ الفاء هنا للتَّرتيب والتَّعقيب، وهي مؤخَّرة عن تقديم؛ الاستفهام له الصدارة دائمًا، والمعنى أنَّه ترتَّب على كفرهم بمحمد ﷺ أنَّه وجَّه إليهم ذلك الاستفهام الإنكاري توبيخًا لهم على ما فعلوا وما أنكروا، وما ضلَّلوا.

وثانيها: إسناد الدِّين إلى الله تعالى، ففيه إشارة إلى أنَّ من يكفر ببعضه إنَّما يكفر بالله، لَا بنبيٍّ من الأنبياء فقط.

وثالثها: تقديم المفعول على الفعل، أي تقديم كلمة {غير دين الله} على {يبغون} ففيه تنبيه إلى موضع الإستنكار وهو أنَّهم أرادوا غير دين الله تعالى، فقدَّم المفعول لأهميَّته، إذ هو موضع التنبيه والتوبيخ.

ورابعها: التعبير بـ{يَبْغُونَ} بدل يريدون، فإنَّه يفيد شدَّة إلحافهم وإصرارهم، وفي ذلك إشارة إلى أنَّهم بذلك ظالمون.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ ذلك الأمر الذي ابتغوه وطلبوه كان تمرُّدًا على الله، وخروجًا على طاعته، مع أنَّه سبحانه قد أسلم له كلُّ من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا؛ ولذلك قال سبحانه: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السمَوَات وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}.

قال ابن العثيمين: {وله أسلم من في السموات}: الواو هذه للحال: يعني والحال أنَّه أسلم له من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا؛ أسلم إسلامًا كونيًّا؛ لأنَّ الإسلام الشرعي ليس فيه إكراه؛ ولأنَّ الإسلام الشرعي لا يعمُّ من في السموات والأرض؛ بل يعمُّ من في الأرض فقط.

قوله: {وله أسلم}: أي انقاد انقيادًا كونيًّا؛ وإنَّما قال: {وله أسلم} بعد قوله: {أفغير دين الله يبغون}، لإقامة الحجَّة على من لم يسلم لله شرعًا ولم يتبع دينه، كأنَّما يقال: لقد أسلمتَ لله كونًا فيجب أن تسلم له شرعًا؛ لأنَّ الرب الذي يدبِّر الخلق كما شاء، شاءوا أو كرهوا، هو الذي يجب أن نتمشَّى على شرعه؛ فيكون هذا كالدليل لما سبق.

وقوله: {من في السموات والأرض}: أتى ب{من} الدَّالَّة على العاقل تغليبًا لجانب العقلاء؛ لأنَّنا لو قسنا من في السموات والأرض لكان الأكثر عقلاء؛ لأنَّ السموات ما من موضع أربعة أصابع إلَّا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد؛ والسماء واسعةٌ جدًّا ما يعلم سعتها إلَّا الله، {والسماء بنيناها بأيدٍ وإنَّا لموسعون}، سماء الدنيا أوسع بكثير من الأرض؛ والسماء الثانية أوسع بكثير من سماء الدنيا وهلمَّ جرا.

وقوله: {والأرض}: الأرض مفرد لكن المراد بها الجنس، فيشمل الأرضون السبع بظاهر القرآن وصريح السنة؛ ظاهر القرآن بقوله: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنَّ}، فإنَّ المثلية هنا ليست بالكيفية؛ وليست بالكمية يعني قصدي بالكميَّة بمعنى الثقل؛ السماء أعظم من الدنيا، لكنَّها بالعدد مثلهنَّ.

ومن صريح السنة قوله ﷺ: ((ومن اقتطع من الأرض شبرًا يعني ظلمًا طوقه يوم القيمة بسبع أرضين(١)))، وفي هذا الحديث دليل على أنَّ السبع متطابقة يعني بعضها داخل بعض؛ لأنَّه يقول: ((طوقه يوم القيمة سبع أرضين))، فإذًا الأولى تكون الثانية في جوفها والثالث في جوف الثانية وهلمَّ جرا، تكون متطابقة؛ وبه نعرف أنَّ من قال إنَّ المراد بالسبع، السبع قارات فقد أخطأ؛ لأنَّه لو كانت السبع قارات، فما هي صلة الأرض الثانية والثالثة وما بعدها بالأرض التي حصل فيها الأخذ بغير حقِّه؟! . مثلًا أنت دخلت على أرض فأخذت منها شبرًا تطوق يوم القيمة بسبع أرضين؛ لأنِّي أملك سطح الأرض التي أنت أخذت، وأملك ما تحتها إلى الأرض السابع؛ ولهذا كنت ظالمًا لي إلى الأرض السابع.

وقوله: {طوعًا وكرهًا}: {طوعًا} يحتمل أن يكون مصدرًا منصوبًا على أنَّه صفة لمصدر محذوف؛ وتقديره: أسلم إسلامًا طوعًا؛ ويحتمل أنَّه مصدر منصوب على الحال مؤوَّل باسم الفاعل؛ حال من قوله: {من أسلم} تقديره: (وله أسلم من في السموات والأرض طائعين ومكرهين)؛ الطوع ما فعل بالاختيار؛ والإكراه ما فعل بغير الاختيار.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٠ص٢٠٠: فَذَكَرَ إسْلَامَ الْكَائِنَاتِ طَوْعًا وَكَرْهًا، لِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعَهَا مُتَعَبِّدَةٌ لَهُ التَّعَبُّدَ الْعَامَّ سَوَاءٌ أَقَرَّ الْمُقِرُّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ وَهُمْ مَدِينُونَ مدبرون؛ فَهُمْ مُسْلِمُونَ لَهُ طَوْعًا وَكَرْهًا لَيْسَ لِأَحَدِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَمَلِيكُهُمْ يصرفهم كَيْفَ يَشَاءُ وَهُوَ خَالِقُهُمْ كُلُّهُمْ وَبَارِئُهُمْ وَمُصَوِّرُهُمْ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ مَرْبُوبٌ مَصْنُوعٌ مَفْطُورٌ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ مُعَبَّدٌ مَقْهُورٌ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٣٠: وَهَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ فَوَصْفٌ لَازِمٌ، إذَا أُرِيدَ بِهَا جَرَيَانُ الْقَدَرِ عَلَيْهِ وَتَصْرِيفُ الْخَالِقِ لَهُ قَالَ تَعَالَى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}، وَعَامَّةُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِسْلَامِ: اسْتِسْلَامُهُمْ لَهُ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، لَا مُجَرَّدَ تَصْرِيفِ الرَّبِّ لَهُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، وَهَذَا الْخُضُوعُ وَالذُّلُّ هُوَ – أَيْضًا – لَازِمٌ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَعْرِضُ لَهُ أَحْيَانًا الْإِعْرَاضُ عَنْ رَبِّهِ وَالِاسْتِكْبَارُ، فَلَا بُدَّ لَهُ عِنْدَ التَّحْقِيقِ مِنْ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ لَهُ؛ لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يُسَلِّمُ لَهُ طَوْعًا فَيُحِبُّهُ وَيُطِيعُ أَمْرَهُ، وَالْكَافِرَ إنَّمَا يَخْضَعُ لَهُ عِنْدَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُ ذَلِكَ أَعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إلَى ضُرٍّ مَسَّهُ}[يونس: ١٢]، وَقَالَ: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}[الإسراء: ٦٤].

وَفَقْرُ الْمَخْلُوقِ وَعُبُودِيَّتُهُ أَمْرٌ ذَاتِيٌّ لَهُ لَا وُجُودَ لَهُ بِدُونِ ذَلِكَ، وَالْحَاجَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِكُلِّ الْمَصْنُوعَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِذَلِكَ هِيَ أَنَّهَا لِخَالِقِهَا وَفَاطِرِهَا؛ إذْ لَا قِيَامَ لَهَا بِدُونِهِ، وَإِنَّمَا يَفْتَرِقُ النَّاسُ فِي شُهُودِ هَذَا الْفَقْرِ وَالِاضْطِرَارِ وَعُزُوبِهِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيح الجامع (٧٥٧٧ – ٢٧١١)، والحديث بتمامه: ((لا يأخذ أحد شبرًا من الأرض بغير حقِّه إلَّا طوَّقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة)).

وأَيْضًا، فَالْعَبْدُ يَفْتَقِرُ إِلَى اللَّهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ مَعْبُودُهُ الَّذِي يُحِبُّهُ حُبَّ إِجْلَالٍ وَتَعْظِيمٍ، فَهُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ وَمُرَادِهِ وَمُنْتَهَى هِمَّتِهِ، وَلَا صَلَاحَ لَهُ إِلَّا بِهَذَا، وَأَصْلُ الْحَرَكَاتِ الْحُبُّ، وَالَّذِي يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ لِذَاتِهِ هُوَ اللَّهُ، فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَحُبُّهُ فَسَادٌ؛ وَإِنَّمَا الْحُبُّ الصَّالِحُ النَّافِعُ حُبُّ اللَّهِ وَالْحُبُّ لِلَّهِ، وَالْإِنْسَانُ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ مِنْ جِهَةِ عِبَادَتِهِ لَهُ وَمِنْ جِهَةِ اسْتِعَانَتِهِ بِهِ لِلِاسْتِسْلَامِ وَالِانْقِيَادِ لِمَنْ أَنْتَ إِلَيْهِ فَقِيرٌ وَهُوَ رَبُّكَ وَإِلَهُكَ.

وَهَذَا الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَعْلَمُ فَقْرَهَا إِلَى خَالِقِهَا، وَتَذِلُّ لِمَنْ افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ، وَغِنَاهُ مِنْ الصَّمَدِيَّةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا، فَإِنَّهُ {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[الرحمن: ٢٤]، وَهُوَ شُهُودُ الرُّبُوبِيَّةِ بِالِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالدُّعَاءِ وَالسُّؤَالِ، ثُمَّ هَذَا لَا يَكْفِيهَا حَتَّى تَعْلَمَ مَا يُصْلِحُهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَذَلِكَ هُوَ عِبَادَتُهُ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا خُلِقَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ، فَصَلَاحُهُ وَكَمَالُهُ وَلَذَّتُهُ وَفَرَحُهُ وَسُرُورُهُ فِي أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ وَيُنِيبَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَسْأَلَتِهِ وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ حَادِثَةٌ بِمَشِيئَتِهِ، قَائِمَةٌ بِقُدْرَتِهِ وَكَلِمَتِهِ، مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فَقِيرَةٌ إِلَيْهِ، مُسَلِّمَةٌ لَهُ طَوْعًا وَكَرْهًا، فَإِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ ذَلِكَ وَأَسْلَمَ لَهُ وَخَضَعَ، فَقَدْ آمَنَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَرَأَى حَاجَتَهُ وَفَقْرَهُ إِلَيْهِ صَارَ سَائِلًا لَهُ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مُسْتَعِينًا بِهِ، إمَّا بِحَالِهِ أَوْ بِقَالِهِ، بِخِلَافِ الْمُسْتَكْبِرِ عَنْهُ الْمُعْرِضِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ. ثُمَّ هَذَا الْمُسْتَعِينُ بِهِ السَّائِلُ لَهُ إمَّا أَنْ يَسْأَلَ مَا هُوَ مَأْمُورٌ بِهِ أَوْ مَا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ أَوْ مَا هُوَ مُبَاحٌ لَهُ؛ ف (الْأَوَّلُ) حَالُ الْمُؤْمِنِينَ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ حَالُهُمْ {إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، و(الثَّانِي) حَالُ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ وَالْعُصَاةِ الَّذِينَ فِيهِمْ إيمَانٌ بِهِ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا كَمَا قَالَ: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ مُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٧٢٩: الإسلام ينقسم إلى قسمين وهو:

– الإسلام العام.

– والإسلام الخاص.

الإسلام العام وهو: الاستسلام لله عز وجل بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

فهذا الإسلام وهو الاستسلام، هو الذي اجتمعت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، فدَعَوا إلى توحيد الله وإلى الاستسلام له بالتوحيد بعبادته وحده دونما سواه وخلع الآلهة والأنداد والبراءة من كل معبودٍ سوى الله عز وجل ومن كل عبادة لِمَا سوى الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه. والانقياد لله عز وجل ظاهرًا بطاعته عز وجل فيما أمر وبالانتهاء عما نهى عنه جل جلاله هذا هو الإسلام العام، وهو الذي ينطبق على رسالة كلِّ رسول، وهو الذي ينطبق على إِسْلَامِ كلِّ شيءٍ له كما قال عز وجل: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}.

فقوله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ}: يعني أفغير دين الإسلام يبغون، فكلُّ ما في السماوات والأرض، وكلُّ من في السماوات والأرض أَسْلَمْ لله عز وجل طوعًا أو كرهًا، يعني اسْتَسْلَمْ ولابدَّ، إلَّا المشرك فإنَّ استسلامه كان استسلامَ انقيادٍ لأمر الله الكوني دون استسلامٍ وانقيادٍ لأمر الله الشرعي.

والنوع الثاني الإسلام الخاص: وهو شريعة محمد ﷺ.

دين كلُّ الأنبياء هو الإسلام بمعناه العام، ودين محمد ﷺ هو الإسلام، وهو شريعة الإسلام، الإسلام الخاص. وهذا الإسلام الخاص هو الذي جاء تفسيره في قول النبي ﷺ: ((بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أَنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصوم رمضان([1]))، حديث ابن عمر، وهو الذي جاء في جوابه ﷺ لجبريل حينما سأله عن الإسلام فقال: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله))، ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، ثم قال في آخره ((هذا جبريل جاءكم يعلِّمكم أمر دينكم([2]))).

فالإسلام الخاص يشمل هذه المراتب الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان أيضًا. وكلُّ واحدةٍ منها من شريعة محمد ﷺ. وطبعًا تفاصيل الشريعة قد تدخل مع العقيدة؛ يعني في ما دعا إليه جميع الأنبياء في الإسلام العام.

يعني مثلًا الإيمان: أنْ تؤمن بالله وملائكته هذه تدخل في الإسلام العام الذي اشترك فيه جميع الأنبياء، كذلك شهادة أن لا إله إلَّا الله هذه أيضًا لكلِّ المرسلين.

فهذا الإسلام الخاص هو الشريعة التي جاءت في قول الله عز وجل {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[المائدة: ٤٨]، فالشِّرْعَةْ هي ما خَصَّ الله عز وجل به كل نَبِيٍّ عن النبي الآخر، خَصَّهُ بهذه الرسالة خَصَّهُ بهذا الوحي، فهذا هو الإسلام.

قال ابن العثيمين: {وإليه يرجعون} وفي قراءة: {ترجعون} بناء على قراءة في {تبغون}: يعني هؤلاء الذين هم مسلمون لله سوف يرجعون إلى الله سبحانه وتعالى، وينبئهم بما عملوا ويحاسبهم على ما أرسل إليهم من الرسل؛ يعني كما أنَّه له السلطان الكامل في الدنيا، فإنَّهم أيضًا يرجعون إليه في الآخرة؛ وتقديم المتعلق يدلُّ على التخصيص، لأنَّ المتعلِّق هو مفعول الفعل، وتقديم المفعول يفيد الحصر، يعني يرجعون إلى الله لا إلى غيره وسوف ينبِّئهم بما عملوا إذا رجعوا إليه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الإنكار الشديد على من ابتغى غير دين الله.

٢- أنَّ من ابتغى غير دين الله ولو في التنظيم وما يسمَّى بالقانون فإنَّه مستحَقٌّ لهذا التوبيخ العظيم؛ ويدلُّ لذلك قوله تعالى في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل: {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}، وكلُّ ما خالف حكم الشرع فهو حكم جاهلي؛ لأنَّ حكم الشرع مبنيٌّ على العلم، فما سواه مبني على الجهل؛ وهذا في غاية ما يكون من التوبيخ والتقريع أن تبتغي حكمًا جاهليةً وتدَع حكم العلي الكبير {ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}؛ وبه نعرف أنَّ من

١- (قلت): البخاري (٨)، مسلم (١٦).

٢- (قلت): البخاري (٤٧٧٧)، مسلم (٨).

ابتغي حكمًا بغير حكم الله فهو من أضلِّ عباد الله وأسفه عباد الله وأخسر عباد الله، وأنَّه لن تصلح أمور دينه ولا دنياه والعياذ بالله.

٣- أنَّ من شرط صحة العمل وقبوله أن يكون موافقًا لشرع الله؛ وجهه؟ أنَّ الله أنكر على من بغى دينًا غير دين الله؛ ولهذا من شرط العبادة الإخلاص لله وموافقة شريعة الله.

٤- تشريف هذا الدِّين الذي شرعه الله؛ لأنَّه أضافه إلى نفسه، فقال: {أفغير دين الله يبغون}.

٥- إقامة الحجَّة على أنَّه لا يليق بالإنسان أن يبغي دينًا غير دين الله وهو مربوب مملوك لله؛ لقوله: {وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا}، وقد مرَّ علينا في التفسير أنَّ هذه الجملة يحتمل أن تكون حالية ويحتمل أن تكون استئنافية.

٦- عموم ملك الله وسلطانه؛ تؤخذ من {وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا}، وهذا تمام السلطان والملك أنَّ كلُّ من في السموات والأرض فهو مستسلم لله طائعًا كان أم مكرهًا؛ ولذلك لا أحد يمكنه أن يشذَّ أو يقاوم قدر الله؛ لو جاء أعتى خلق الله يريد أن يقاوم ما أراد الله قدرًا، هل يمكنه ذلك؟ أبدًا؛ فرعون جبار عنيد، أُغرق بما كان يفتخر به {قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون}، بأيِّ شيءٍ أهلك؟ بالماء الذي كان يفتخر به؛ وعاد استكبروا في الأرض وقالوا من أشدُّ منَّا قوة؟ فأهلكوا بالريح، هواء سخَّره الله عليهم حتى دمَّرهم، أصبحوا لا يرى إلَّا مساكنهم؛ هذا تمام القوة والقدرة؛ وضعفاء الإيمان اليوم إذا قيل لهم ارجعوا إلى دينكم تُنصروا على أعدائكم، قالوا لا نعرف نخرم الإبر كيف نقاوم أهل الصواريخ وأهل المدافع وأهل القنابل الموجَّهة؟! لم يعلموا أنَّ الأمر بيد الله عز وجل وأنَّه سبحانه وتعالى إذا شاء طبق عليهم الأرض تطبيقًا، خسف بهم إلى السابعة بكلمة واحدة؛ لو صدَّقْنا الله لصَدَقَنا الله، لكنَّنا في الحقيقة ضيَّعنا أمر الله فلمَّا نسينا الله نسيَنا الله عز وجل تركنا؛ سمعت أنا قبل سنوات أنَّ الله أرسل صواعق على واشنطن عاصمة أمريكا، صواعق من هذا الغمام الذي مثل القطن، دمَّرتها تقريبًا حتى قطعت سلك الكهرباء وسكت المكائن وصارت هذه العاصمة التي هي من أكبر عواصم الدنيا دامسة، وحصل سطو عظيم على الفنادق وعلى المحال التجارية، وصارت شيء رهيب؛ وهذه الصواعق من أدنى الشيء. الزلزال يضرب الأرض وفي لحظة واحدة يدمِّر مئات المدن والقرى؛ وبماذا حصل هذا الزلزال؟ بكلمة واحدة وهي: (كن)؛ فقط (كن) انقلب أعلى الأرض أسفلها وتغيَّرت معالم الأرض كلِّها؛ يذكر أن سعد بن أبي وقاص وهو يطارد الفرس من مدينة إلى مدينة حتى وصل إلى دجلة لما وصل دجلة انتقل الفرس إلى المدائن من وراء دجلة من الشرق وأغرقوا السفن وكسروا الجسور من أجل أن لا يعبر إليهم المسلمون؛ وقف سعد ليس معه إلَّا إبل وخيول وراجلة، وقف لا يقدر على العبور؛ فنادى سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال له: يا سلمان أعطنا من تصميمك الحرب، يعني هو الذي أشار على الرسول ﷺ بالخندق؛ قال: والله يا سعد ليس هناك مدد ولا حيلة، إلَّا ما كان من تقوى الله؛ ولكن دعني أنظر في الجند إن كانوا على تقوى من الله، فإنَّ الذي فلق البحر لموسى سيسهل لنا العبور على هذا البحر لأنَّ هذه الأمَّة

خير من أمة موسى. الله أكبر أنظر قوة الإيمان!؛ فذهب سلمان ونظر في الجند في الليل يبيتون لربهم سجَّدًا وقيامًا وفي النهار في شأن الحرب وما يصلح للحرب؛ فرجع إليه بعد ثلاث وقال والله هم على خير ما يرام؛ ولكن استعن بالله واعبر؛ فنادى سعد بن أبي وقاص في القوم وقال: إنَّا عابرون إن شاء الله، ولكن سأقف وسأقول: بسم الله، والله أكبر ثلاثًا، فإذا كبَّرتُ الثالثة فاعبروا؛ ففعل فقال بسم الله، ثم كبَّر ثلاثًا، ولمَّا كبَّر ثالثًا عبر الناس يمشون على الماء والنهر يقذف بزبده يمشي يسير؛ يقول أهل التاريخ حتى إنَّ الفَرس إذا تعب أنشأ الله تعالى له ربوة من الأرض فوقف الفرس عليها يستريح حتى عبروا دجلة؛ فلمَّا رآهم الفرس ضجُّوا وصاحوا وقالوا إنّكم إنَّما تقاتلون جنًّا لا طاقة لكم بهؤلاء فِرُّوا، ففَرُّوا وخرجوا من المدائن وانكسروا ولله الحمد براية التوحيد والجهاد الذي أنشئ على التَّقوى لتكون كلمة الله هي العليا، ليس من أجل القومية أو العصبية أو الوطن؛ ولكن لتكون كلمة الله هي العليا، يكون هذا القرآن هو القانون لأهل الأرض؛ أهل المدائن عاصمة الفرس هربوا منها، فجاء المسلمون وفتحوها وكسبوا من الأموال ما لا يعلمه إلَّا رب العباد، مثل ما قال النبي ﷺ: ((لتنفقنَّ كنوزهما كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله([1]))، وأخذ تاج كسرى وهو الذي يجلس تحته وهو فوق رأسه مرصَّع باللآلئ والذهب وما شاء الله من حليِّ الدنيا؛ فأرادوا أن يقِلُّوه فلم يجدوا إلَّا جملين كبيرين يحملان من المدائن إلى المدينة؛ لأنَّ في ذاك الوقت ما في السفن كبيرة ولا السيارات كبيرة فحملوه على جملين من المدائن إلى المدينة فوضعوه بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما أدراك ما عمر الذي عدل فعدلوا وأمن فأمنوا؛ قال وهو ينظر إليه: والله إنَّ قومًا أدُّوا هذا لأمناء؛ قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نعم يا أمير المؤمنين أنَّهم أمناء لأنَّك كنت أمينًا، ولو أنَّك رتعت لرتعوا. الله أكبر؛ فهذا تاج كسرى من المدائن يوزَّع في المسلمين في المدينة؛ من الذي نصرهم حتى عبروا النهر بخيلهم ورجلهم؟ الله عز وجل؛ لماذا لا نؤمن بهذا؟ والله إنَّنا ضعفاء الإيمان لماذا لا نؤمن؟ أليس الرب عز وجل وهو أصدق القائلين وأقدر الفاعلين يقول: {ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيز الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}، في الآيتين تأكيدات لفظية ومعنوية من الله عز وجل، فلو كان عندنا إيمان حقيقي لكنَّا أوَّل من يأخذ بهذه الآية. والحاصل أنَّ الله ينكر على هؤلاء الذين يبغون غير دين الله ويقول كيف تبغون غير دين الله؟ والأمر كلَّه لله {وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا}.

٧- إثبات السموات وأنَّها عدد؛ وقد جاءت الأدلَّة بأنَّها سبع، وكذلك الأرض هي سبع، لكن لم يفصح الله تعالى بها في القرآن بل قال: {ومن الأرض مثلهنَّ}، وجاء يفصح بها في السنة.

٨- أنَّ الرجوع إلى الله؛ لقوله: {وإليه يرجعون}، يرجعون في الدنيا ويرجعون في الآخرة؛ أمَّا في الدنيا فإنَّ المرجع إلى الله في الأحكام؛ الحكم لله، العبادة لله، الأمر لله، النهي لله؛ نرجع إليه شرعًا لا إلى رأي فلان وفلان، ولا إلى قانون فلان وفلان،

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٨٤٦)، والحديث بتمامه: ((إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله)).

ولا إلى نظام فلان وفلان، وإنَّما نرجع إلى الله؛ كذلك الرجوع إلى الله في الآخرة، وسوف يحاسب كلَّ إنسانٍ على ما عمل، {فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرًّا يره}.

٩- إثبات البقاء لله؛ لجميع الخلق.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {٨٤}

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: {أفغير دين الله تبغون}، يا معشر اليهود، {وله أسلم مَنْ في السموات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه ترجعون}، فإن ابتغوا غيرَ دين الله، يا محمد، فقل لهم: {آمنَّا بالله}، فترك ذكر قوله: (فإن قالوا: نعم)، أو ذكر قوله: (فإن ابتغوا غير دين الله}، لدلالة ما ظهر من الكلام عليه.

قال ابن العثيمين: {قل آمنَّا بالله}: الخطاب للرسول ﷺ؛ ويجوز أن يكون المراد به كلُّ من يتأتّى خطابه، ويتبيَّن للمتأمِّل أنَّ الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ على ثلاثة أقسام؛ قسم دلَّ الدليل على أنَّه خاص به، وقسم دلَّ الدليل على أنه له وللأمَّة، وقسم ليس فيه دليل؛ أمَّا ما دلَّ الدليل على أنَّه خاص به فهو له يختصُّ به؛ مثل قوله تعالى: {إنَّا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلًا}، {ألم نشرح لك صدرك}؛ وأمَّا ما دلَّ الدليل على العموم، فهو على العموم، مثل قوله تعالى: {يا أيُّها النبي إذا طلقتم النساء فطلِّقوهن لعدَّتهن وأحصوا العدَّة ... }؛ وما سوى ذلك فإنَّه يكون عامًّا له وللأمَّة؛ وإذا جاء الخطاب مفردًا ولم يوجد دليل أو قرينة على أنَّه خاص بالرسول، فإنَّ الأَولى أن نحمله على أن يكون لكلِّ من يتأتّى خطابه؛ قل أيُّها الإنسان؛ أو قل أيُّها النبي؛ فإن كان أيُّها الإنسان فإنَّ قوله: {آمنَّا بالله} جمع موزع على كلِّ فرد؛ وإن كان للرسول ﷺ {قل آمنَّا} فهو يقوله لأنَّه إمام الأمَّة، فيكون إيمانه إيمانًا لأمَّته، يعني: أن أمَّته تتبعه في الإيمان، لكن وجِّه الخطاب إليه باعتباره الأمام لأمَّته ﷺ، والخطاب الموجَّه للإمام موجَّه له ولمن كان مؤتمًّا به؛ ولهذا لو وجَّه الضابط أمرًا إلى القائد لكان هذا الأمر للقائد ولمن كان تبعًا له.

فهنا يقول الله عز وجل: {قل آمنَّا بالله}، فالخطاب للرسول ﷺ، والمراد هو وأمَّته، وبيان أنَّ هذا هو المراد قوله في سورة البقرة: {قولوا آمنَّا بالله وما أنزل إلينا}، فقال: {قولوا آمنَّا}، والإيمان هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان؛ فمن قال: آمنت بالله، وأقرَّ بالله عز وجل، ولكن لم يقبل شريعته، أو قبلها ولكن لم يذعن، فليس بمؤمن.

والإيمان بالله يتضمَّن أمورًا: الأمر الأول: الإيمان بوجوده؛ والثاني: الإيمان بربوبيته؛ الثالث: الإيمان بألوهيته؛ والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته؛ لكن الثلاثة الأخيرة لابدَّ من توحيده بذلك، أي توحيده بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات؛ أمَّا الوجود

فهو شامل له ولغيره، وإن كان وجود الخالق يختلف عن وجود المخلوق؛ فمن لم يؤمن بوجود الله فهو ليس بمؤمن؛ ومن آمن بوجود الله ولم يؤمن بربوبيته على وجه عام شامل فهو لم يؤمن بالله؛ ومن آمن بالله وربوبيته ولكن لم يؤمن بألوهيته فليس بمؤمن؛ ومن آمن بذلك كلِّه ولم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمؤمن؛ لكنَّ الأخير فيه تفصيل قد يخرج من الإيمان بالكلية وقد لا يخرج.

{وما أنزل علينا}: وهو القرآن الكريم والسنة النبوية، كلاهما منزَّل؛ قال الله تعالى: {الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم}، فيشمل القرآن والسنة، ودليل ذلك قوله تعالى: {وأنزلنا عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم}.

{وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط}، ما أنزل على إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وهو أبو الأنبياء؛ صحفه كما ذكر الله ذلك في موضعين في القرآن في سورة النجم وفي سورة الأعلى، فقال الله تعالى في سورة النجم: {أم لم ينبَّأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى}، وقال في سورة الأعلى: {إنَّ هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى}، هذا ما أنزل على إبراهيم؛ وإسماعيل لم يصل إلينا كتابه الذي نزل إليه، ولكن مع هذا يجب علينا أن نؤمن بما أنزل على اسماعيل؛ واسماعيل هو الولد الأول لإبراهيم، وهو أبو العرب، وهو الذي صبر ذلك الصبر العظيم حين قال له أبوه: {يا بنيَّ إنِّي أرى في المنام أنِّي أذبحك فانظر ماذا ترى}، فقال هذا الابن الحليم: {يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين}، وهو الذبيح بلا شك، لأنَّ الله لمَّا ذكر قصة الذبح في سورة صافات قال بعدها: {وبشَّرناه بإسحاق}.

{وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق} ذكره بعده للتَّرتيب الزمني، والظاهر والله أعلم والتَّرتيب المنزلي، وأنَّ إسماعيل أفضل من إسحاق، لأنَّ إسماعيل أب لأشرف الخلق محمد ﷺ؛ وإن كان إسحاق أب لأكثر الأنبياء، فالأنبياء من ولد إسحاق أكثر من الأنبياء من ولد إسماعيل؛ لكن العبرة بالأفضلية؛ محمد ﷺ أشرف الخلق من ذريَّة إسماعيل؛ فالظاهر والعلم عند الله أنَّه أخَّره ذكرًا لأنَّ إسماعيل أفضل منه قدرا وأسبق زمنًا؛ ومع ذلك فكلٌّ منهم في المرتبة الأولى من مراتب الخلق {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله من النَّبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا}.

{ويعقوب}: يعقوب ابن إسحاق وهو الملقَّب بإسرائيل، والذين ينسبون إليه بنو إسرائيل؛ وأخَّره عن الأثنين لأنَّه متأخِّر عنهما زمنًا.

{والأسباط}: جمع سبط، وأصل السبط في اللغة ابن البنت، ولهذا يقال في الحسن والحسين رضي الله عنهما سبطا رسول الله ﷺ؛ وابن الابن يسمَّى حفيدًا {وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة} أي أبناء ابن؛ والأسباط هو ابن البنت. ولكن ما المراد بهم؟ قيل: المراد بهم أولاد يعقوب، وكان أولاد يعقوب اثني عشر ولدًا ومنهم تفرَّعت قبائل بني إسرائيل، قال الله تعالى: {وقطَّعناهم اثنتي عشرة أسباطًا أممًا}؛ السِّبط في بني إسرائيل كالعشيرة أو الفخذ أو القبيلة في العرب؛ فقال بعض أهل العلم إنَّ المراد بالأسباط أولاد يعقوب الاثنا عشر وأنَّهم أنبياء؛ وقال آخرون بل الأسباط شعوب بني إسرائيل؛ وأنَّ المراد ب{وما أنزل على الأسباط}: أي على أنبياء الأسباط الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل؛ فهذان قولان؛ القول الأول: أنَّ

المراد بالأسباط أولاد يعقوب وأنَّهم أنبياء؛ والثاني أنَّ المراد بهم شعوب بني إسرائيل الذين فيهم الأنبياء؛ وعلى هذا المعنى يكون في الآية تقدير، أي وما أنزل على أنبياء الأسباط. ويؤيِّد القول الأول أنَّه لا يحتاج إلى تقدير؛ لأنَّ الثاني يحتاج إلى تقدير؛ وإذا دار الكلام بين أن يكون ذا تقدير أو خاليًا منه، حمل على الخالي منه لأنَّه الأصل، والأصل عدم التَّقدير؛ لكن يضعفه أنَّ الأسباط هم أبناء البنات، وهنا لا يتناسب مع الآية لأنَّ أولاد يعقوب أحفاد لإسحاق، أو أحفاد لإبراهيم وليسوا أسباطًا؛ والقرآن نزل باللغة العربية فيجب أن تحمل الكلمة في القرآن على المعنى اللغوي ما لم تكن حقيقة شرعية تمنع من حمله على المعنى اللغوي؛ فإذا وجدت حقيقة شرعية تمنع من حمله على المعنى اللغوي اتَّبعنا الحقيقة الشرعية، كالصلاة مثلًا في اللغة الدعاء، وفي الشرع هي التعبُّد لله تعالى بذات الأقوال أو الأفعال المعلومة مبتدئة بالتَّكبير ومختتمة بالتَّسليم.
ويضعفه كذلك أنَّه لم يقم دليل على نبوة أولاد يعقوب إلَّا يوسف، أمَّا أولاده الآخرون الإحدى عشرة فإنَّه لم يقم دليل على كلِّ واحدٍ منهم بخصوص أنَّه نبي؛ والنبوة وصف عظيم يحتاج إلى بيِّنة ودليل وبرهان تدلُّ على أنَّ هذا الشخص متَّصف بها.
ثمَّ يضعفه أمر ثالث وهو فعل أبناء يعقوب بأخيهم يوسف وما حصل منهم من الكذب حيث جاءوا على قميصه بدم كذب، {وقالوا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب}، ثمَّ اتِّهامهم لأبيهم: {وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين}، المهم أنَّ هناك قرائن تدلُّ على ضعف أن يكون المراد بالأسباط أولاد يعقوب؛ ويخرج منه يوسف لدلالة الكتاب والسنة على أنَّه نبي؛ إذًا يترجَّح القول الثاني أنَّ المراد بالأسباط الشعوب، يعني وما أنزل على الأسباط بواسطة أنبيائهم لأنَّ المنزَّل على أنبيائهم منزَّل عليهم، {وقولوا آمنَّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد}، نقول نحن للكفار؛ إذًا يكون هذا القول هو المعتمد أنَّ المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل، والمنزَّل عليهم يكون بواسطة أنبيائهم؛ وإن شئت فقل في الآية حذف دلَّ عليه السياق ويكون التقدير: وما أنزل على أنبياء الأسباط([١]).

{وما أوتي موسى وعيسى}: العدول عن التعبير بالإنزال بالإيتاء قد يسأل السائل عنه لماذا قال: {وما أوتي موسى وعيسى والنَّبيُّون}، ولم يقل: (وما أنزل على موسى وعيسى والنَّبيِّين)؟.
فقال بعضهم: لأنَّ ما أوتيه موسى وعيسى نوعان: وحي؛ وآيات كونية محسوسة بقي ذكرها إلى نزول القرآن الكريم؛ ومعلوم أنَّ الوحي يسمَّى إيتاء قال الله تعالى: {وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل}، والآيات المؤيِّدة للرسالة هي أيضًا إيتاء وليس وحي؛ فقوله: {وما أوتي موسى}، يشمل ما نزل من الوحي وما حصل من الآيات؛ وذَكَرَ هذا لأنَّ ذِكر الآيات والعلم بها بقي إلى نزول القرآن الكريم؛ وما أوتي موسى، وحي وآيات؛ أمَّا الوحي فهي التوراة التي هي أفضل وأشمل وأعمُّ وأهدى كتاب بعد القرآن {قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتَّبعه}، فقرنها الله مع القرآن؛ هذه التوراة نزلت على موسى وهذا إيتاء الوحي؛ أمَّا إيتاء الآيات فمن أعظم ما حصل له العصا واليد، العصا حصل فيه ثلاث آيات عظيمة: ألقاه على سحر سحرة آل فرعون فالتهم جميع حبالهم وعصيِّهم، التهمها التهامًا وهي ثعبان، والحبال والعصي قد ملأت الأرض

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن (الأسباط) عند تفسير الآية (١٣٦) من سورة البقرة.

ومع ذلك هذا الثعبان يأكلها ولا يدرى أين تذهب لأنَّها أكبر منه حجمًا؛ ولكن مع ذلك قدرة الله عز وجل فوق كلِّ شيء؛ ولم يتماسك السحرة لمَّا رأوا هذه الآية العظيمة حتى سجدوا {فأُلقي السحرة ساجدين}، كلمة {أُلقي}: كأنَّهم سجدوا من غير عقل لقوة ما وقع على قلوبهم من الآيات التي يعرفونها أنَّها ليست سحرًا.

والآية الثانية لهذا العصا أنَّه ضرب به البحر فانفلق صار اثني عشر طريقًا، بين كل طريق وآخر كتل من الماء كأنَّها جبال، كلُّ جبل كالطود العظيم، وقد ذكر أهل العلم أنَّ الله جعل لهذا الماء فُرَجًا من أجل أن يطمئنَّ الناس بعضهم إلى بعض يشاهد بعضهم بعضًا من هذه الفرج.

الثالث من الآيات العظيمة في هذا العصا أنَّهم إذا استسقوا يعني حصل عليهم نقص في الماء ضرب موسى الحجر بهذا العصا فتفجَّر اثني عشر عينًا كلُّ عين لسبط من أسباط بني إسرائيل حتى لا يقع النزاع بينهم والمزاحمة والمشاقَّة؛ هذه من الآيات التي أوتيها موسى ﷺ.

أمَّا عيسى فأوتي أيضًا وحيًا وآيات؛ الوحي هو الإنجيل الذي كان متمِّمًا للتوراة ومبنيًّا عليها؛ وآيات حسية منها أنَّه يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى ويخرجهم من القبور، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا يطير، قال الله تعالى: {فأنفخ فيه فيكون طيرًا} وفي قراءة: {طائرًا}؛ والفائدة من القراءتين أنه يكون طيرًا ويطير؛ قد يكون الشيء على هيئة الطير ولكن لا يطير، وقد يطير ولكن ليس بطير كالطائرة مثلًا؛ لكن هذا يكون طيرًا يطير، يخلق بإذن الله شيئًا على صورة الطير؛ {يبرئ الأكمة والأبرص}، من هو الأكمه؟ الذي خلق بلا عين، ممسوح العين، يبرئه، يحيي الموتى يقف على الميت جثَّة فيحييه يقول له كلمةٌ فيحيى، أبلغ من هذا يخرج الموتى من القبور يقف على القبر ويكلِّم صاحب القبر ويقوم صاحب القبر حيًّا يخرج من القبر؛ هذه من أعظم الآيات الدَّالَّة على كمال قدرة الله، وعلى إمكان البعث يوم القيمة، يخرج الناس من قبورهم بزجرة واحدة {فإنَّما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة}. إذًا هذه الآيات التي أعطيها عيسى فيها دليل على إمكان البعث.

{والنَّبيُّون من ربِّهم}: لما جاء الجمع والنَّبيُّون دون التخصيص جاء الإيتاء دون الإنزال من أجل أن يشمل الآيات التي قد يكون أعطيها بعض النبيِّين فجاءت والنبيون من ربِّهم عطفًا على {موسى وعيسى}، كما جاء ذلك في سورة البقرة: {وما أوتي النبيُّون من ربهم}؛ والنبيون المراد بهم الرسل، وكلُّ من وصف بالنبوة في القرآن فإنَّه رسول لقوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك}؛ إذًا فكلُّ من قصَّ الله علينا فهو رسول وإن كان لم يوصف في القرآن إلَّا بالنبوة، لكنَّه رسول بدليل هذه الآية: {آمنَّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنَّبيُّون من ربِّهم لا نفرِّق بين أحدٍ منهم}، لا نفرِّق نحن بين أحدٍ منهم؛ كلُّ هؤلاء نؤمن بهم على سبيل السواء بدون تفريق؛ لكن يرد إشكال وهو: أنَّ الإيمان بهؤلاء، هل هو إيمان مجمل أو مفصَّل؟ الجواب: إيمان مجمل لكن كلُّ ما صحَّ عنهم أخبروا به وجب علينا الإيمان به، ولو تفصيل هذا في الأخبار؛ لكن في الأحكام لا نتبع

إلَّا ما حكمت به شريعة محمد ﷺ، فهو الذي كُلِّفنا به ووجب علينا اتِّباعه كما قال الله تعالى: {قل يا أيُّها الناس إنِّي رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلَّا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمِّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتَّبعوه لعلكم تهتدون}، فالإتباع لمحمد ﷺ؛ أمَّا الإيمان فهو عام لجميع الرسل بدون تفريق؛ فإذا صحَّ عن موسى أنَّه أخبر بخبرٍ يتعلَّق بالله، أو بخبرٍ يتعلَّق بيوم القيمة، أو بالجنة أو بالنار وجب علينا أن نؤمن به؛ لكن إذا صحَّ. أمَّا ما يروى من الإسرائيليات فقد يكون صحيحًا وقد لا يكون. واعلم أنَّ شريعتنا في الأحكام بالنسبة لمن سبق على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما وردت شريعتنا بخلافهم فهذه لا نعمل بها، لأنَّ شريعتنا ناسخة لجميع الأديان، مثال ذلك: القصاص في النفس والأطراف كان في التوراة واجبًا مفروضًا ليس فيه عفو، ولكن في الشريعة الإسلامية كان مخيَّرًا فيه؛ فهل نتَّبع التوراة أو نتَّبع القرآن؟ القرآن.

القسم الثاني: وما ورد شرعنا بوفاقه فإنَّنا نعمل به إتِّباعًا لشريعتنا المصدِّقة لما سبق من الشرائع ولا نخالفه، وهذا كثير مثل: الطيِّبات أحلَّ الله لنا ولغيرنا ولكن حرَّم على بني إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم.

القسم الثالث: ما لم يرد في شرعنا له وفاق ولا خلاف؛ فما الحكم فيه؟ هذا محل نزاع بين أهل العلم، وبحثه موجود في أصول الفقه؛ فمن العلماء من قال: إنَّه شرع لنا؛ ومنهم من قال: إنَّه ليس بشرع؛ والصحيح أنَّه شرع لنا لدلالة شرعنا عليه قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}، وقال تعالى: {شرع لكم من الدِّين ما وصَّى به نوحًا والذي أوحينا إليك}، وقال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}، وكذلك النبي ﷺ أحيانًا كان يسند الحكم إلى أنَّه فعله أخي فلان من الأنبياء وما أشبه ذلك؛ والمعنى يقتضي ذلك أيضًا، ومن الفوائد أن نعتبر ونعمل بما عملوا.

{لا نفرِّق بين أحدٍ منهم}: في الإيمان بأنَّهم رسل صادقون فيما أخبروا به واجب إتِّباعهم فيما أمروا به أو نهوا عنه؛ لكن بالنسبة لنا لا يجب علينا متابعتهم في الأحكام على التفصيل الذي سمعتم.

{ونحن له مسلمون}: الضمير يعود على الله لأنَّه الأصل في سياق هذا الكلام {قل آمنا بالله}، كلُّ الذي بعدها معطوف عليها.

فإن قال قائل: لماذا لا تجعل الضمير يعود على قوله: {أحد} في {لانفرِّق بين أحدٍ منهم} لأنَّه أقرب مذكور؟ أي ونحن لهذا العهد مسلمون؟ قلنا: لا يستقيم الكلام لأنَّ أصل الكلام مداره على أول جملة فيه {آمنَّا بالله} فيكون مرجع الضمير في قوله: {ونحن له}، الله عز وجل، يعني ونحن لله مسلمون، أي مستسلمون ظاهرًا وباطنًا، بالقلب واللسان والجوارح؛ والله المستسلم له، لأنَّ من لم يستسلم لله استسلم لغيره ولابدَّ؛ انتبه لهذه القاعدة المفيدة: (من لم يستسلم لله، استسلم لغيره ولابدَّ)، إمَّا أن تستسلم لله وتنقاد لأمره، وإلَّا فإنَّك سوف تستسلم لهواك وتنقاد لهواك، وهواك تابع للشيطان، فتكون مستسلمًا للشيطان؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ لابدَّ له من إرادة وهمَّة، ليس هناك أحد يخلوا من إرادة أبدًا، كلٌّ له إرادة؛ فإمَّا أن يكون مرادك مرضات الله عز وجل فتستسلم له، أو مرضات نفسك فتستسلم لهواك والشيطان.

وقوله: {ونحن له مسلمون}: قدَّم المتعلِّق على المتعلَّق لإفادة الحصر يعني ونحن له لا لغيره مسلمون؛ ولهذا نقول: إنَّ المؤمن إذا تعارض عنده أمرُ الله وأمرُ الخلق، يقدِّم أمر الله مهما كان الآمر، حتى أمُّك وأبوك لو أمرتك بخلاف أمر الله فقدِّم أمر الله. لو قالت لك أمُّك: يا ابني لا تخرج لصلاة الفجر لا تخرج، المسجد بعيد ويخشى عليك من كلب، هل تطاع؟ لا ما تطاع؛ قال أبوه: يا بني لا تطلب العلم، لا تطلب العلم تذهب تطلب العلم ثم باكر تأتينا مشدِّدًا علينا، فهل الإنسان يمتثل أمر أبيه في هذه الحال؟ لا؛ وهذه المسألة تشكل على طالب العلم وعلى غير طالب العلم هل يطيع أباه في مثل هذه الأمور أم لا؟ ومن أحسن ما رأيت في هذا الموضوع، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنَّه لا تجب طاعة الوالدين في أمر ينفع الابن ولا يضرُّهما؛ هذا كلام جيِّد لو يكتب بماء الذهب، كلُّ شيءٍ ينفعك ولا يضرُّ والديك فإنَّه لا تجب طاعتهما فيه؛ فإذا طلبت العلم هل يضرُّ والداك؟ أبدًا، لا يضرُّهما. ولا يرد على هذا مسألة الجهاد أنَّ برَّ الولدين أفضل من الجهاد لأنَّ الجهاد فيه تعريض للنفس بالقتل والقتل يقلق راحة الوالدين، الأم لا تنام بالليل ولا بالنهار، ولهذا يتحايل بعض الناس الذي يذهب للجهاد، يقول أريد أسافر لمدَّة أيَّام وأرجع، ثم يسافر وقد لا يرجع، يخدع؛ فالمهم أنَّه يجاب عن مسألة الجهاد بهذا الجواب.

وقوله: {ونحن له مسلمون}: قلنا مستسلمون، شرعًا وقدرًا، لكن الاستسلام القدري لا مدح فيه؛ لأنَّه سيكون، سواء قلته أم لم تقله، الاستسلام القدري يعني كون الإنسان لا يتمكن الخلاص من قدر الله، هذا أمر سيكون ولا يمدح عليه المرء، لأنَّ هذا أمر قهري فلا يحمد عليه الإنسان، نعم يحمد على الصبر عليها لأنَّ الصبر على المصائب استسلام شرعي.

قال الطبري: يعني: ونحن ندين لله بالإسلام لا ندين غيره، بل نتبرأ إليه من كلِّ دين سواه، ومن كلِّ ملَّة غيره، ونحن له منقادون بالطاعة، متذلِّلون بالعبودة، مقرُّون لهُ بالألوهة والربوبية، وأنَّه لا إله غيره.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجب الإقرار بالإيمان باللِّسان كما هو واجب بالقلب؛ لأنَّ قوله: {قل}: يعني باللِّسان المعبِّر عمَّا في القلب.

٢- أنَّ الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ خطاب له وللأمَّة؛ لقوله: {قل آمنَّا} ولم يقل: {قل آمنت}؛ فهذا له وللأمَّة.

٣- أنَّ الإيمان هو أصل كلِّ شيء ومقدَّم على كلِّ شيء؛ لقوله: {آمنَّا بالله} وجعل ما بعده معطوفًا عليه.

٤- وجوب الإيمان بما أنزل علينا وهو القرآن؛ يجب الإيمان به تصديقًا بالخبر وامتثالًا للأمر واجتنابًا للنهي؛ لأنَّه شريعة ومنهاج لنا.

٥- وجوب الإيمان بما أنزل على الرسل السابقين؛ لقوله: {وما أنزل على إبراهيم ... }، ولكنَّ الإيمان بما أنزل إليهم، هو التصديق بما جاءت به هذه الكتب من الأخبار؛ أمَّا الأحكام فإنَّ ما خالف شرعنا ليس شرع لنا بالاتفاق؛ وما وافق شرعنا فهو شرع لنا بالاتفاق لثبوته بشرعنا؛ وما لا هذا، ولا هذا، ففيه خلاف بين العلماء، والصحيح أنَّه شرع لنا.

٦- ثبوت نبوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب؛ لقوله: {وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب}.

٧- وجوب الإيمان بالأسباط؛ وقد سبق لنا أنَّ القول الراجح أنَّ المراد بهم شعوب أنبياء بني إسرائيل، أي ما أنزل عليهم بواسطة رسلهم.

٨- وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى والنَّبيُّون من ربهم من الآيات الكونية التي يسمِّيها بعض العلماء المعجزات؛ ومن الآيات الشرعية التي هي الشريعة التي يمشي عليها هؤلاء فنؤمن بما أوتي؛ لكن العمل بالشرائع السابقة عرفتم حكمه.

٩- ثبوت نبوة موسى وعيسى؛ لقوله: {وما أوتي موسى وعيسى}.

١٠- أنَّه يجب علينا أن نؤمن بكلِّ الأنبياء إجمالًا لأنَّه خصَّص ثم عمَّم.

١١- أنَّ هذا الدين الإسلامي ليس فيها عصبية، ولا يجوز أن يتَّخذ الإنسان منه عصبية؛ لقوله: {لا نفرِّق بين أحدٍ منهم} بخلاف ما يسلكه بنو إسرائيل، حيث لا يؤمنون إلَّا بما جاء عن أنبيائهم فقط؛ أمَّا دين الإسلام فلا {لا نفرِّق بين أحدٍ منهم} كلُّهم عندنا رسل الله؛ لكن نفرِّق في العبادات، لا نتعبَّد إلَّا بما أُمِرنا بالتعبُّد به. ويذكر أنَّ شخصًا حاج عالمًا من علماء المسلمين فقال له: لماذا تجيزون لأنفسكم أن تتزوَّجوا بناتنا ولا تجيزون لنا أن نتزوج بناتكم؟ فقال له العالم: لأنَّنا نؤمن برسولكم ولا تؤمنون برسولنا؛ فألقمه حَجَرا.

١٢- وجوب الاستسلام لله عز وجل وحده؛ لقوله: {ونحن له مسلمون} وجه التخصيص قدَّم المتعلِّق على المتعلَّق، والمتعلِّق معمول للمتعلَّق وتقديم المعمول يفيد الحصر؛ إذًا في قوله: {ونحن له مسلمون} فائدتان: إخلاص الإسلام لله؛ ووجوب الإسلام له.

١٣- أن لا نستسلم لأحد استسلامًا يخالف الاستسلام لله؛ وجه الدلالة أنَّ هذا هو فائدة الاختصاص، أن لا نستسلم لأحدٍ إلَّا لله؛ فإذا جاءنا أمر من مخلوق يخالف أمر الله فإنَّنا لا نستسلم له؛ لأنَّنا لو استسلمنا له لم نكن أخلصنا الاستسلام لله عز وجل.

١٤- أنَّه ينبغي للإنسان أن يشعر في كلِّ حياته العملية قولًا كانت أو فعلًا أو تركًا أنَّه مستسلم لله، حتى يستفيد من العمل. عندما أتوضأ أشعر أنَّني أنفِّذ قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ... } هل أنت أيها المسلم تستشعر هذا؟ الله أعلم، لكنَّه يغيب عن كثير من الناس هذا الأمر؛ لا يشعر الإنسان حينما يتوضَّأ، يغسل وجهه ويديه ويمسح رأسه ويغسل رجليه أنَّه يمتثل أمر الله، أبدًا؛ ولذلك أنا أقول: ينبغي أن تستشعر في هذه الحال أمرين: امتثال أمر الله؛ إتِّباع رسول الله ﷺ؛ يعني تشعر وأنت تغسل وجهك كأنَّ الرسول ﷺ أمامك يغسل وجهه لتكون متَّبعًا له؛ وكذلك نقول في

الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرهم؛ المهم أن نستشعر أو أن نشعر أنفسنا بأنَّا نفعل ذلك امتثالًا لأمر الله وإتِّباعًا لرسول الله ﷺ حتى نحقِّق شرطي العبادة في كلِّ عمل.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {٨٥}

قال ابن العثيمين: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا}: {من} شرطية، {يبتغ} بمعنى يطلب؛ {غير الإسلام}: المراد بالإسلام هنا الإسلام الخاص، وهو الذي جاء به محمد ﷺ؛ وإن كان في الإسلام يطلق على الاستسلام لله في كلِّ زمان ومكان، {قالت ربِّ إنِّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين}، والآيات في هذا كثيرة أنَّ الرسل وأتباعهم مسلمون، لكن هذا إسلام عام؛ أمَّا بعد بعثة الرسول ﷺ فكلُّ ما يسمَّى إسلامًا فهو ما جاء به الرسول ﷺ فقط؛ إذًا {غير الإسلام}: أي غير شريعة محمد ﷺ؛ لأنَّنا نقول المراد بالإسلام هنا الإسلام الخاص الذي هو شريعة محمد ﷺ.

{دينًا}: أي عملًا يدين به لله ويرجوا أن يدان به بالثواب من عند الله؛ لأنَّ الدِّين يطلق على العمل وعلى الجزاء؛ ففي قوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين}: المراد به العمل؛ وفي قوله: {وما أدراك ما يوم الدِّين ثمَّ ما أدراك ما يوم الدِّين}: الجزاء؛ وفي قوله هنا: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا}: المراد به العمل؛ لكنَّ الدِّين لا يكون إلَّا في عمل يرجوا الإنسان ثوابه، يعني يرجوا أن يدان به؛ ولهذا يقال: كما تدين تدان.

{فلن يقبل منه}: الفاء رابطة للجواب؛ أي: فلن يقبل ذلك الدِّين؛ وقوله: {فلن يقبل منه}، لم يقل: {فلن يقبل الله}، ليعمَّ الرَّفض والرَّد من الله عز وجل ومن الرسول ومن المسلمين؛ ولهذا لا يجوز للمسلمين أن يقرُّوا أحدًا على دين خلاف شريعة الرسول ﷺ؛ وقوله: {فلن يقبل منه} المراد بالقبول هنا قبول الصحة، ودليل ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ([1]))؛ فمن دان بغير الإسلام سواء في الأصل أو في الفرع فإنَّ دينه هذا مردود ومرفوض. وهل يعطى ثوابًا في الآخرة على عمله؟ لا؛ ولهذا قال: {وهو في الآخرة من الخاسرين}، وهذه والله هي الخسارة العظيمة أن يعيش الإنسان في الدنيا ما شاء الله أن يعيش ثم لا يكتسب ما ينفعه في الآخرة، إذا قَدِم على ربِّه لم يجد شيئًا، كما قال الله تعالى: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة}، (القيعة): يعني الأرض المستوية الواسعة، هذه الأرض إذا كان في شدَّة الحر يتراءى للإنسان من بعيد أنَّ فيها ماء، يسمَّى السَّراب، فإذا جاء الإنسان ظمآن ووجد هذا السَّراب الذي كأنَّه ماء بحر فرح وأسرع إليه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فصارت خيبة الأمل بعد قوة الرَّجاء؛ وهذا أشدُّ ما يكون حسرة على الإنسان أن تكون خيبة أمله عند قوَّة رجائه؛ لأنَّ الإنسان لو لم يرجوا من

١- (قلت): البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

الأصل ما هَمَّ؛ لكن المشكل كونه يرجوا ثم ينتكس، هذا يكون أشدُّ؛ {حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب}؛ كلُّ من لم يدِن بالإسلام فإنَّه في الآخرة خاسر، {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا}.

وقوله: {وهو في الآخرة من الخاسرين}: يشمل خسارة النفس، وخسارة المال، وخسارة الأهل؛ أمَّا خسارة النفس؛ فإنَّه لن يستفيد من عمله شيئًا؛ وأمَّا خسارة المال؛ فإنَّه لو أنفق ماله كلَّه في ما ينفع الخلق لم ينتفع به في الآخرة؛ يعني لو أصلح الطرق وبنى المساجد، وبنى المدارس، فإنَّه لا ينفع.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- بطلان كلُّ عمل ليس على دين الإسلام؛ فأيُّ عملٍ يكون على غير دين الإسلام فهو باطل؛ لقوله: {فلن يقبل منه}.

٢- أنَّ جميع الأديان غير دين الإسلام غير مقبولة عند الله ولا نافعة للمتديِّن بها؛ لعموم قوله: {غير الإسلام} فيشمل دين المسيحية ودين اليهودية ودين البوذية ودين الهندوسية، وكلُّ دين غير الإسلام فإنَّ الله لا يقبله.

٣- الثناء على دين الإسلام، وأنَّه هو المقبول المحبوب إلى الله؛ ويؤخذ هذا من مفهوم قوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه} مفهومه أنَّ من ابتغى الإسلام دينًا يقبل منه.

٤- أنَّ هؤلاء الذين يدينون بدين الإسلام يتعبون أبدانهم، ويهلكون أموالهم، وربما يموتون جوعًا وعطشًا وحرًّا وبردًا في الدعوة إلى غير دين الإسلام، كالذين يسمُّونهم المبشِّرين وهم في الحقيقة مُنَصِّرون مضلِّلون، هؤلاء ينفقون أموالًا كثيرة ويتعبون تعبًا عظيمًا، ويتعرَّضون للهلاك، كلُّ هذه الأعمال نتيجتها هباء {وهو في الآخرة من الخاسرين}، قال الله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا}، لا يستفيدون منه إطلاقًا لأنَّه على غير شريعة الله، وقال الله تعالى: {إنَّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثمَّ تكون عليهم حسرةً ثمَّ يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون}.

٥- إثبات الآخرة؛ لقوله: {وهو في الآخرة من الخاسرين}. وفيها: أنَّ الآخرة فيها خسارة وربح أعظم من خسارة الدنيا وربحها، قال الله تعالى: {ويوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن}، ليس التغابن في الدنيا أن يكون عند الرجل قصور وسيارات ونساء وأولاد وحشم وخدم والآخر ليس له إلَّا ثوب يكسو عورته، هذا ليس بغبن، حقيقة الغبن يوم القيمة حينما يحشر المتَّقون إلى الرحمن وفدًا ويساق المجرمون إلى جهنم وردًا؛ هذا الغبن العظيم، وهذه الخسارة العظيمة؛ ولهذا يجب أن نعلم أنَّ الخسران المبين هو خسارة يوم القيمة {قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيمة ألا ذلك هو الخسران المبين}.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {٨٦}

قال ابن كثير: عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ ولحق بالشِّرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سلوا لي رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: {كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم} إلى قوله: {إلَّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم} فأرسل اليه فأسلم([1]).

قال ابن العثيمين: {كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم} {كيف} استفهام بمعنى الاستبعاد، أي يبعد جدًّا إن لم يمتنع أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، يعني ارتدُّوا بعد أن آمنوا وعرفوا الحق، فإنَّ هدايتهم بعيدة؛ وذلك لأنَّ من عرف الحق ثمَّ ارتدَّ عنه فهو أعظم جرمًا ممَّن لم يعرف الحق ولم يدخل فيه وبقي على كفره؛ ولهذا نقول: الكافر المرتدُّ أعظم جرمًا من الكافر الأصلي في الدنيا وفي الآخرة؛ ففي الدنيا يُترك الكافر الأصلي على دينه ولا يُجبر على تركه؛ لكنَّ المرتدُّ لا يُقَرُّ على ردَّته؛ بل يجبر على أن يعود إلى الإسلام أو يقتل لقول النبي ﷺ: ((من بدَّل دينه فاقتلوه([2])))؛ الله عز وجل يقول: يبعد أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم؛ أمَّا من كانوا على الكفر أصلًا، فما أكثر الذين اهتدوا بعد أن كانوا على الكفر.

{وشهدوا أنَّ الرسول حقٌّ}: {الرسول} هنا {أل} للعهد الذهني، لأنَّه لم يسبق له ذكر، لكنَّه معلوم ذهنًا. وبالمناسبة نقول: إنَّ (أل) العهدية تنقسم إلى ثلاثة أقسام: للعهد الذهني؛ والعهد الذكري؛ والعهد الحضوري، ثلاثة أقسام: فالعهد الذكري: أن تكون داخلة على ما سبق ذكره؛ والعهد الحضوري أن تكون داخلة على شيءٍ حاضر؛ والعهد الذهني أن تكون داخلة على شيءٍ معلومٍ في الذِّهن؛ فمثلًا قوله تعالى: {وشهدوا أنَّ الرسول حقٌّ}: المراد به رسول الله محمد ﷺ؛ لأنَّ قوله: {كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم}: معناه أنَّه كيف يتوقَّع أن يهدهم، وهذا لا يمكن بعد نزول القرآن إلَّا أن يكون الرسول محمدًا ﷺ؛ وتقول مثلًا وأنت في البلد: جاء القاضي؛ أي قاضي هو؟ قاضي البلد المعروف. والعهد الذكري أن تدخل على شيءٍ قد سبق ذكره مثل قوله تعالى: {كما أرسلنا إلى فرعون رسولًا فعصى فرعون الرسول} من المراد بالرسول؟ الرسول الأول الذي أرسل إلى فرعون وهو موسى؛ وهنا العهد الذكري. العهد الحضوري أن تكون داخلة على شيءٍ حاضر وهذه أكثر ما تكون في {أل} الواقعة بعد اسم الإشارة للعهد الحضوري؛ لأنَّ الإشارة تدلُّ على مشار إليه، والمشار إليه يكون حاضرًا فتقول مثلًا: هذا اليوم شديد الحرِّ، أيُّ يوم؟ الحاضر؛ وكقوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم} {اليوم}: يعني اليوم الحاضر.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٠٦٦).

٢- (قلت): البخاري (٣٠١٧)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٤٧١)، وقال: رواه الجماعة إلَّا مسلمًا.

{وشهدوا أنَّ الرسول حقٌّ}: أي حقٌّ ثابت، صادق فيما أخبر به، عادل فيما حكم به ﷺ.

{وجاءهم البيِّنات}: يعني الآيات البيِّنات التي تبيِّن صدق ما جاء به الرسول ﷺ؛ والبيِّنات مؤنَّث، لكن لم يؤنَّث فعله لوجهين؛ الوجه الأول: أنَّ تأنيثه غير حقيقي؛ والوجه الثاني: أنَّه فصل بينه وبين الفعل؛ وقد جاء في القرآن مؤنَّثة: {جاءتهم البيِّنات}، لأنَّه يجوز هذا وهذا؛ {وجاءهم البيِّنات}.

{والله لا يهدي القوم الظالمين}: الجملة استئنافية، وهي كالتعليم لما قبلها من حيث المعنى، كأنَّه يقول إنَّما لا يهديهم الله لأنَّهم ظلمة؛ الظالمين الذين ظلموا أنفسهم حيث بانت لهم الحق واتَّضحت وجهه ومع ذلك كفروا.

قال الطبري: والله لا يوفِّق للحقِّ والصَّواب الجماعة الظَّلمة، وهم الذين بدَّلوا الحقَّ إلى الباطل، فاختارُوا الكفر على الإيمان.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية بهذا النص الحكيم للإشارة إلى أنَّهم ظالمون، فهم ظلموا أنفسهم، وظلموا الرسول! وظلموا الحقائق وطمسوا على بصائرهم، فلا يمكن أن تدخل الهداية إلى قلوبهم، وفي النص الكريم إشارة إلى أنَّ الظلم يحدث في نفس الظالم ظلمة شديدة لَا ينفع معها ضوء. فتغلق كلُّ الأبواب التي ينفذ منها النور إلى موضع الإدراك، إذ إنَّ أساس الظلم هو تسلُّط الهوى والغرض الفاسد والحقد والحسد على النفس، فتنحرف عن مدارك الحق ومشارق العرفان، فلا يمكن أن يكون للهداية موضع في النفس، فلا يهديه الله سبحانه، وإنَّ الظلم بطبيعته يفسد الإدراك كلَّه؛ لأنَّ إدراك الحقائق يستلزم صدق النفس في طلبها، وصدق النفس في طلب الحقائق لَا يمكن أن يكون مع الظلم. الذي يجعل الهوى مسيطرًا، فالظلم ظلماتٌ في النفس، وظلماتٌ يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٢٨: وَقَوْلُهُ: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ}: أَيْ أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ مَعَ كَوْنِهِمْ مُرْتَدِّينَ ظَالِمِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، فَمَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ إلَّا ضَالًّا لَا يَحْصُلُ لَهُ الْهُدَى إلَى أَيِّ دِينٍ ارْتَدَّ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ إلَّا أَنْ يَتُوبُوا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ من ضلَّ عن بصيرة فإنَّه يبعد عن الهدى؛ لقوله: {كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم ... }.

٢- أنَّ من فسق عن بصيرة فإنَّه يبعد أن يكون من العدول؛ فإذا قيل لشخص هذا حرام وهو مسلم، وبُيِّن له الحقُّ ثمَّ عصى واستمر على فسقه، فإنَّه يبعد أن يُهدى.

٣- أنَّ الهداية والإضلال بيد الله؛ لقوله: {كيف يهدي الله} فنسب الهداية إليه؛ وفي آية أخرى أنَّ الله نسب الإضلال إليه مثل: {ويضلُّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء}، ولكن يجب أن تعلموا أنَّ هداية الله وإضلاله لحكمة؛ فمن كان أهلًا للهداية هداه الله، ومن كان أهلًا للضلال أضلَّه الله، قال الله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته}، وقال تعالى: {فلمَّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، والله عز وجل يعلم إذا علم من المرء أنَّه لا يريد الهداية، أضلَّه الله؛ وإذا علم أنَّه يريد الهداية وأنَّه حريص عليها يطلبها أينما كانت، ويسلك ما كان عليه الدليل، فإنَّ الله تعالى يهديه ويعينه ويوفِّقه ويفتح بصيرته حتى يرى الحق كأنَّما يتلقَّاه عن فم رسول الله ﷺ.

٤- أنَّ الإنسان قد يستكبر ويعاند بعد أن تبيَّن له الحقُّ؛ لقوله: {كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنَّ الرسول حقٌّ وجاءتهم البيِّنات}.

٥- أنَّ الكفر بعد الإيمان أغلظ من الكفر الأصلي؛ لأنَّ الله تعالى استبعد أن يهتدي هؤلاء؛ وأمَّا الكافرون فإنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر في سورة الممتحنة أنَّ الله تعالى قد يهديهم فقال الله: {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودَّة} وذلك بالإيمان، والله قدير، والله غفور رحيم.

٦- أنَّ النبي ﷺ حقٌّ؛ لأنَّه لامَ هؤلاء على الكفر بعد أن شهدوا بأنَّ الرسول حقٌّ؛ ولاشك أنَّ رسول الله ﷺ حقٌّ من عند الله، صادق فيما قال وفيما أخبر به عن ربه.

٧- أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يَدَع الخلق هَملًا، بل أقام لهم الحجج وأقام البيِّنات حتى لا يكون للناس على الله حجَّة؛ لقوله: {وجاءهم البيِّنات}. هذه البيِّنات تنقسم إلى أقسام: شرعية؛ وعقلية؛ وحسية؛ أمَّا السمعية فهو القرآن؛ وأمَّا العقلية فهو أنَّ كل عاقل يتدبَّر ما جاء به الرسول ﷺ يعلم أنَّه حقٌّ؛ فإنَّه ما أمر بشيءٍ فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيءٍ فقال العقل: ليته لم ينه عنه؛ وأمَّا الحسية فظاهرة، انتصاراته العظيمة في هذه المدَّة الوجيزة، وانتصار أصحابه حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها مع أنَّهم كانوا أذلَّة مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، هذا من أكبر الأدلَّة على أنَّه رسول الله حقًّا؛ إذًا فالآيات: شرعية؛ وعقلية؛ وحسية.

٨- أنَّ من أضلَّهم الله، فإنَّ ذلك ليس لظلم منه للذين أضلَّهم؛ لقوله: {والله لا يهدي القوم الظالمين}؛ وأمَّا الذين طلبوا الحقَّ وتحرَّوا وتشوَّقوا له، فإنَّهم جديرون بالهداية.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {٨٧}

قال ابن العثيمين: {أولئك}: أي المشار إليهم هم الذين كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنَّ الرسول حقٌّ وجاءهم البيِّنات؛ وأتى بصيغة الإشارة على وجه البعد إشارة إلى انحطاط مرتبتهم؛ لأنَّ الإشارة إلى القريب بصيغة البعد قد تكون إشارة إلى علو

المرتبة وقد تكون إشارة إلى انحطاط المرتبة؛ وهنا إشارة إلى انحطاط مرتبتهم فهم لانحطاط مرتبتهم بعيدون يشار إليهم إشارة البعد.

{جزائهم}: أي مكافئتهم على عملهم، {أنَّ عليهم لعنة الله}: {عليهم} هذه، تفيد أنَّ اللَّعنة أتتهم على وجه الاستحقاق ومن أمرٍ عالٍ؛ لأنَّها لعنة، ولعنة الله هي طرده وإبعاده عن رحمته، أي أنَّ الله سبحانه وتعالى طردهم وأبعدهم عن رحمة الله.

{والملائكة}: أي ولعنة الملائكة؛ والملائكة جمع ملك وأصله مألك من الألوكة وهي الرسالة، لكن صار فيه الإعلال بالقلب يعني بالقلب قلب المكان ليس قلب الحرف، وذلك بأن قدّمت اللّام وأُخِّرت الهمزة فصار ملأك وجمع ملأك ملائكة ثمَّ سُهِّل وقيل ملك بدل ملأك؛ الملائكة هم جنس من المخلوقات عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور وجعلهم صمدًا لا يأكلون ولا يشربون؛ فإذا لم يأكلوا ولم يشربوا فهم لا يبولون ولا يتغوّطون؛ ولهذا وصفهم الله تعالى بأنَّهم مطهَّرون فقال: {إنَّه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسُّه إلَّا المطهَّرون}.

{والناس أجمعين}: الناس هم بنو آدم وأصلها أناس فحذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال؛ وقوله: {أجمعين}، توكيد لما قبلها وما قبل الذي ما قبلها، الملائكة أجمعين والناس أجمعين.

ذكر الله لعنة الملائكة والناس ولم يذكر لعنة الجنِّ مع أنَّ الجنَّ مكلَّفين لأنَّه – والله أعلم – لمَّا كان الجنُّ غالبهم شياطين تضلُّ الناس ذكر الذين أكمل منهم وهم الإنس والملائكة.

قال أبو زهرة: وكونُ اللَّعنة تكون من الناس أجمعين معناه أنَّ الفطرة الإنسانية السليمة كلُّها تتنكَّر وتلعنُ تلك القلوب المنحرفة التي لَا تخضع لحقٍّ، ولا تؤمن للبيِّنات، بل تتَّجه إلى طمس المعالم التي تنير وتهدي.

قال الطبري: يعني: هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وبعد أن شهدوا أنَّ الرسول حَق، {جزاؤهم}: ثوابهم من عملهم الذي عملوه، {أنَّ عليهم لعنة الله}: يعني أن يحلَّ بهم من الله الإقصاء والبعد، ومن الملائكة والناس الدُّعاءُ بما يسوؤهم من العقاب، {أجمعين}: يعني من جميعهم، لا من بعض من سمَّاه جل ثناؤه من الملائكة والناس، ولكن من جميعهم. وإنَّما جعل ذلك جل ثناؤه ثواب عملهم، لأنَّ عملهم كان بالله كفرًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– في هذه الآية إثبات الجزاء، وفيها أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فإنَّ هؤلاء لمَّا ارتكبوا ثلاثة أمور في كفرهم كان عليهم لعنة الله والملائكة والناس، ثلاث بثلاث.

٢– أنَّ الملائكة ذو عقول يفهمون ويفعلون، وليس كما قال بعضهم إنَّهم ليس لهم عقول، وما أغرب هذا القول وما أبعده من الصواب؛ لأنَّنا إذا قلنا إنَّ الملائكة ليس لهم عقول فإنَّنا نطعن في القرآن؛ لأنَّ الوسيط الذي بين محمد ﷺ وبين الله ملك،

فإذا قلنا لا عقل له، لا نأمن؛ لأنَّ العاقل لا يمكن أن يحتمل قوله ولا نقبل؛ من أين نأخذ أنَّ لهم عقولًا؟ من إثبات أنَّهم تصدر منهم اللعنة.

٣- أنَّ أمثال هؤلاء يلعنهم الناس جميعًا؛ لقوله: {والناس أجمعين}؛ لكن هذا فيه إشكالًا وهو أنَّه يوجد من الناس من يزمِّر وراء الكافرين ويصفِّق ورائهم ويفزع معهم فكيف قال: {والناس أجمعين}؟ نقول: لأنَّه إذا صفَّق معهم وزمَّر ورائهم فهو منهم؛ فيكون هو ملعونًا من الناس الآخرين - الغير ظالمين - أجمعين؛ لأنَّ من أعان ضالًّا فهو ضالٌّ، ومن أعان كافرًا فهو كافر(١)، قال الله تعالى: {ومن يتولَّهم منكم فإنَّه منهم إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين}.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ {٨٨}

قال أبو زهرة: هذا تأكيد للجزاء الأوَّل وتصريح يلازمه، فاللَّعنة دائمة مستمرة، وهم فيها خالدون لَا تزايلهم ولا تنفصل عنهم أبدًا، فهم في سخط من الله مستمر، وسخط من الملائكة والناس دائم، وإنَّه يترتَّب على سخط الله عذابه، وإذا كان سخط الله دائمًا فعذابه دائم لا يقبل التَّخفيف.

قال ابن العثيمين: {خالدين فيها}: ويكونون خالدين في هذه اللَّعنة بلسان الحال لا بلسان المقال، ماكثين فيها إمَّا على سبيل الأبد وإمَّا على سبيل المكث الطويل؛ لأنَّ الخلود كما قال أهل اللغة يستعمل في المكث الطويل ويستعمل في المكث الدائم؛ ولكن هنا يراد به المكث الدائم، لأنَّ هؤلاء كفرة، والكفرة خالدون خلودًا دائمًا في العذاب.

{لا يخفَّف عنهم العذاب}: التَّخفيف ضد التَّشديد، أي لا يمكن أن يهوَّن عليهم العذاب يومًا واحدًا؛ ولهذا، {قال الذين في النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفِّف عنَّا يومًا من العذاب}، طلبوا دعاء الملائكة ليكونوا واسطة بينهم وبين الله، ثمَّ مع ذلك لم يقولوا: (أدعوا ربَّنا)، قالوا: {أدعوا ربَّكم}، من شدَّة خجلهم وانكسارهم أمام الله، ثمَّ قالوا: {يخفِّف عنَّا يومًا من العذاب} ولم يطلبوا الإنقاذ من العذاب مطلقًا، ولم يطلبوا أن يخفِّف عنهم العذاب دائمًا؛ لأنَّهم عارفون بأنَّهم خاطئون؛ فلهذا طلبوا أن يخفِّف العذاب يومًا واحدًا؛ ولكن لن يكون ذلك؛ ولهذا قال: {لا يخفَّف عنهم العذاب}: العذاب يعني العقوبة.

{ولا هم ينظرون}: أي يمهَّلون ويؤخَّرون بل يبادرون بالعذاب؛ وتأمَّلوا قوله تعالى في أهل النار: {وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم}، وقال في أهل الجنة: {وسيق الذين اتَّقوا ربِّهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها}، {جاءوها وفتحت أبوابها}، إذًا فصار هناك فرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ لأنَّ أهل النار يبادرون بفتحها فيقابلهم العذاب أوَّل ما يقدمون عليها؛ أمَّا أهل الجنة فإنَّهم إذا وصلوا إلى الجنة وقفوا على

١- (قلت): يقصد الشيخ: من أعان ضالًّا ليستمر على ضلالته وظهور الباطل على الحق فهو ضال، وأعان الكافر ليستمر على كفره وظهور دينه فهو كافر؛ لا أن يعينه في الأمور الدنيوية، فتنبه.

قنطرة بين الجنة وبين النار فيقتصّ لبعضهم من بعض اقتصاصًا خاصًّا غير اقتصاص الأوَّل الذي يكون في عرصات القيمة، من أجل أن يزال ما في قلوبهم من الغلِّ والحقد، حتى يدخلوا الجنة وهم على أصفى ما يكونون من المادَّة، {إخوانًا على سرر متقابلين}؛ ولهذا نقول في الواو هنا إنَّها عاطفة على جواب الشرط المحذوف، حتى إذا جاءوها حصل كيت وكيت، وفتحت أبوابها وليست زائدة كما قيل به؛ بل هي واو عاطفة على الوجه المعتاد، والمعطوف عليه محذوف؛ إذًا: {ولا هم ينظرون}: يعني ولا هم يُمهَّلون ويؤخَّر عنهم العذاب، بل إنَّهم يبادَرون به قبل أن تقوم الساعة كما قال الله تعالى لآل فرعون: {النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب}، بل إنَّهم يبادرون بالعذاب قبل أن يموتوا، {ولو ترى إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق}، ويوبَّخون قبل أن يموتوا {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحقِّ وكنتم عن آياته تستكبرون}، وتأمَّل قوله: {أخرجوا أنفسكم}، إنَّهم والله لأشحَّاء في هذه الأنفس، أشحَّاء؛ لأنَّ النفس إذا بشِّرت بالعذاب نكست واشمأزَّت ورجعت في الجسد، فيقولون: {أخرجوا أنفسكم}: أعطونا إيَّاها؛ إلى أيِّ شيءٍ؟ إلى العذاب {اليوم تجزون عذاب الهون}، فما بالكم والعياذ بالله بهذه البشارة الحسية القبيحة في حال خروجه من الدنيا ومفارقة الأهل والأموال والأوطان، حالة حرجة، فهم لا يمهلون ولا ينظرون في العذاب من حين يأتيهم الأجل إلى أبد الآبدين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فيها إثبات أنَّ هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنَّ الرسول حقٌّ وجاءهم البيِّنات خالدون في لعنة الله، أي في الطرد والإبعاد عن رحمته، وليس بعد الجنة إلَّا النار، وليس بعد الهدى إلَّا الضلال.

٢- أنَّهم دائمًا في عذاب لا يخفَّف عنهم أبدًا ولا ينتظرون الفرج، لا بالتَّخلُّص منه ولا بتخفيفه؛ لقوله: {لا يخفَّف} وهذه الجملة خبرية وخبر الله تعالى لا يخلف.

٣- أنَّ هؤلاء يبادرون بالعذاب إمَّا في الدنيا أو عند الموت، وعند دخول النار؛ ففي الدنيا قال الله تعالى: {ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلَّهم يرجعون}؛ وقال الله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}؛ وعند الموت {تتوفَّاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم}؛ وفي يوم القيمة حدِّث ولا حرج.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {٨٩}

قال ابن العثيمين: اللهم لك الحمد، رحمة الله سبقت غضبه؛ هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنَّ الرسول حقٌّ وجاءهم البيِّنات وقامت عليهم الحجَّة من كلِّ وجه؛ إذا تابوا إلى الله تاب الله عليهم.

{إلَّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا}: أي رجعوا إلى الله؛ فالتوبة الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته؛ ومن الهرب منه إلى اللُّجوء إلى بابه. وللتوبة خمسة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص لله؛ بأن يقصد الإنسان بتوبته وجه الله بأن يتوب عليه ويتجاوز عنه، لا أن يقصد بتوبته مراعاة الخلق أو شيئًا من أمور الدنيا؛ لأنَّ التائب قد يريد مراعاة الخلق ليعلم الناس أنَّه تاب ورجع فيمدحوه على ذلك؛ هذا لا تنفعه التوبة ولا تقبل منه؛ أو يقصد بتوبته شيئًا من أمور الدنيا، يسمع أنَّ الله يقول: {ومن يتّق الله يجعل له من أمره يسرًا} وهو يريد زوجة، قال: لَعَلّي أتَّقي الله حتى ييسّر لي زوجة؛ هذه التَّقوى أو هذه التوبة ضعيفة جدًّا؛ ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب التوحيد: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)؛ هذه إرادة نازلة لكنَّها ليست كالأول، الأول يريد أن يتقرَّب إلى الناس بما يتقرَّب به إلى الله، وهذا شيءٌ عظيم أن يجعل ما لله للخلق؛ أمَّا هذا، لا، ما أراد هذا الشَّيء، أراد أن يتقرَّب إلى الله من أجل أن ييسّر له شيئًا من أمور الدنيا؛ وأمَّا الآخرة فهو في غفلة عنها؛ إذًا هذا الذي أراد بالتوبة أحد الأمرين توبته مردودة عليه، بالنسبة للأوَّل الذي أراد الرِّياء؛ وبالنسبة للثاني، الإخلاص لله ضعيفة جدًّا.

الشرط الثاني: النَّدم على ما فعل من الذنب؛ ومعنى النَّدم أن يشعر الإنسان بالحسرة على ما فعل، لا أن يكون الفعل وعدمه عنده سواء.

الشرط الثالث: أن يقلع عن المعصية في الحال؛ فإن كانت لله، فإمَّا أن ترك واجب أو فعل محرَّم؛ فإن كان فعل محرَّم أقلع عنه، فارقه حتى لو كانت شربة الخمرة في فمه وجب عليه أن يمجَّها. وإن كانت للمخلوق فلابد أن يعطيه حقَّه أو يتحلَّله منه؛ إن كان ماليًّا أو بدنيًّا أو عرضًا علم به صاحبه، بدنيا مثل الضَّرب، ماليًّا مثل أخذ المال أو جحد مال يجب عليه لشخص، عرضيًّا مثل الغيبة؛ هذه إن كان الذي جني عليه قد علم بالغيبة فلابدَّ من استحلاله، وإن لم يعلم فلا حاجة إلى إخباره ثمَّ استحلاله، لأنَّه ربما إذا علم لا يحل؛ ولكن بدل أن دنَّس سمعته في مجلس من المجالس، يمدحه بما فيه في نفس ذلك المجلس؛ لأنَّ الحسنات يذهبن السيئات؛ هذه إذا كان حقًّا للمخلوق، فلابدَّ من استحلاله إن كان ماليًّا أو بدنيًّا أو عرضيًّا علِّم به. وإذا كان لله قلنا إن كان فعل المحرَّم يقلع عنه فورًا؛ وإن كان ترك واجب وجب عليه أن يتلافاه إن كان يمكن تلافيه، وإن كان لا يمكن سقط. ما تقولون في رجل غصب أرضًا وجعل فيها زرعًا وفي أثناء وجوده فيها تاب إلى الله فماذا يصنع؟ الآن هو مستولِّي عليها الآن واذا مشى من أثنائها إلى طرفها مشى في معصية، وبقائه إن بقي فهو في معصية، فماذا يفعل؟ يخرج؛ قال العلماء: إنَّ خروجه هذا ليس بمعصية لأنَّه خروج للتَّخلُّص من المعصية، والتَّخلُّص من الشَّيء لا

يعطى حكم الشيء؛ ولهذا لو أراد الإنسان أن يستنجي يباشر النجاسة بيده؛ وهذه المباشرة مباشرة للنجاسة باليد جائزة لأنَّها من أجل التخلُّص من هذه النجاسة وإزالتها؛ فكذلك هذا الذي تاب من أرض مغصوبة وكان في وسط الأرض ومشى، أقول: هذا المشي طاعة، لأنَّك إنَّما مشيت من أجل التخلُّص.

الشرط الرابع: أن يعزم على أن لا يعود؛ فإن تاب وهو لم يعزم على عدم العود فإنَّ توبته لا تصحُّ، كرجل من عادته أن يسهر في شرب الخمر في البارات، وفي ليلة من الليالي صارت السماء ممطرة وجاء إلى البار وإذا هي مغلقة فقال: تبت؛ ولكن من نيَّته أنَّه إذا كانت صحوًا وفتحت البار فسيحضر ويشرب الخمر؛ هذا ليس بتائب، هذا أقرب ما له أن تكون توبته سخرية. العزم على أن لا يعود، معناه لو أنَّه عزم أن لا يعود، ولكن سوَّلت له نفسه فيما بعد فعاد، هل تبطل التوبة الأولى أو لا؟ لا تبطل التوبة الأولى؛ لكن يحتاج إلى توبة جديدة للعودة الأخيرة أمَّا التوبة الأولى فقد تمَّت؛ ولهذا نقول الشرط العزم أن لا يعود، لا أن لا يعود. لو أنَّه عاد وتاب توبةً نصوحًا، ثمَّ عاد يتوب، ثمَّ عاد يتوب، وقد أخبر النبي ﷺ ((أنَّ رجلًا كان يذنب ذنبًا فتاب منه، ثمَّ أذنب ذنبًا فتاب منه، ثم أذنب فتاب، فقال الله تعالى: علم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء([1]))، لأنَّ هذا الرجل كان مخلصًا؛ ولكن هذا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: لا ينطبق على كلِّ تائب، إنَّما أخبرنا الرسول ﷺ عن رجل حصل منه هذا الشَّيء، ولكن لا يحصل لكلِّ تائب.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول؛ فإن انقطع وقت القبول فلا توبة؛ وانقطاع وقت القبول نوعان: عام، وخاص؛ فالخاص حضور الأجل لكلِّ إنسان بعينه؛ فإذا حضر الأجل فإنَّ التوبة لا تنفع لقول الله تعالى: {وليست التوبة للَّذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنِّي تبت الآن}، وإذا كان هذا الشرط محقَّقًا دلَّ هذا على أنَّ التوبة واجبة على الفور؛ لأنَّ أحدًا لا يعلم متى يأتيه الموت؛ فإذا كنت لا تعلم متى يأتيك الموت لزم من ذلك أن تبادر بالتوبة وأن يكون دائمًا على بالك أنَّك تائب إلى ربك راجع إليه، حتى إذا قُدِّر أنَّ الأجل أتاك بغتة وإذا أنت على أتمِّ الاستعداد حسابًا، والواجب أنَّ الإنسان يحسب لهذا الشيء حسابًا، يكون دائمًا على ذكر التوبة؛ ولهذا كان نبيُّنا ﷺ يستغفر الله أكثر من سبعين مرة ويتوب إليه أكثر من سبعين مرة([2]).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٢١٠٣)، والحديث بتمامه: ((إنَّ عبدًا أصاب ذنبًا فقال: رب أذنبت فاغفره، فقال ربه: أعلم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثمَّ مكث ما شاء الله ثمَّ أصاب ذنبًا فقال: ربي أذنبت آخر فاغفر لي، قال: أعلم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثمَّ أصاب ذنبًا فقال: رب أذنبت آخر فاغفر لي، قال: أعلم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء)).

٢- (قلت): نص الحديث الوارد في ذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سبعينَ مرَّةً)). قال الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: أخرجه البخاري (٦٣٠٧ – فتح)، والنسائي (٤٣٥-٤٣٧ و ٤٣٩)، وابن حبان أيضاً (٢٤٥٦ – موارد)، وابن السني في عمله (٣٦١)، وأحمد (٢/ ٢٨٢،٣٤١)، والطبراني في (الدعاء (١٨٣٨)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٦٩/ ١٢٨٥)، وكذا الترمذي (٩/ ١٣/ ٣٢٥٥) من طرق عنه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٠٩١).

أمَّا العام فهو طلوع الشمس من مغربها؛ لأنَّ الشمس هذه تدور بإذن الله منذ خلقها الله إلى أن يأذن الله بوقوفها؛ والعجيب أنَّها لا تتقدَّم ولا تتأخَّر؛ انظر إلى طلوعها مثلًا اليوم، اليوم الثاني من برج السنبلة تطلع في الساعة الفلانية والدقيقة الفلانية إلى يوم القيمة، وهي إذا غربت كما أخبر النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إذا غربت تسجد تحت العرش تعظيمًا لله عز وجل وتستأذن هل تخرج أم ترجع، إمَّا أن يؤذن لها فتخرج، وإمَّا أن يقال ارجعي من حيث جئت؛ فترجع من حيث جاءت وتخرج من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا كلُّهم؛ لأنَّهم حينئذ يعلمون أنَّ لها ربًّا مدبِّرًا؛ أمَّا الآن فيظن أنَّ طبيعة هذا العالم على هذا النظام؛ لكن إذا اختلت النظام رجعت الشمس من المغرب آمنوا كلُّهم، المؤمن والكافر كلُّهم يؤمنون؛ ولكن كما قال الله تعالى: {يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا}، لا ينفعهم الإيمان؛ لأنَّ هؤلاء آمنوا كإيمان الذين نزل بهم العذاب والله تعالى يقول: {فلمَّا رأوا بأسنا قالوا آمنَّا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لمَّا رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون}. فالمهم أنَّ شروط التوبة إذًا خمسة؛ وقد قال بعض العلماء إنَّها ثلاثة فأسقطوا الإخلاص وأسقطوا أن تكون في وقت القبول؛ ولكن لابدَّ من هذين الشرطين، لابدَّ من الإخلاص وأن تكون في وقت القبول.

{إلَّا الذين تابوا من بعد ذلك}: {إلَّا}: أداة استثناء؛ و {الذين}: مستثنى؛ والأصل في المستثنى أن يكون من جنس المستثنى منه؛ وإن خرج عن جنسه فهو على خلاف الأصل، ولابدَّ من دليل يدلُّ على أنَّه ليس من الجنس؛ ويسمَّى المستثنى الذي من غير الجنس منقطعًا، لكن الاستثناء هنا متَّصل قال: {إلَّا الذين تابوا}، هذا مستثنى من قوله: {كفروا بعد ايمانهم} إلى قوله: {إلَّا الذين تابوا من بعد ذلك}: يعني إلَّا الذين تابوا من بعد الكفر بعد الإيمان؛ يعني فإنَّ الحكم يختلف فيه.

{من بعد ذلك}: المشار إليه ما سبق من الكفر؛ وأوتي بالإشارة للبعيد لانحطاط مرتبتهم؛ لأنَّ البعد قد يكون من عالٍ وقد يكون من نازل؛ فإن كان البعد من عالٍ، يعني أنَّه أشير إليهم إشارة البعيد لعلوِّه، فهو ثناء، وإن كان أشير إليه إشارة البعيد لدنوِّه وسفوله فهو قدح.

{وأصلحوا}: يعني أصلحوا ما جرى، أو ما كان فعلهم سببًا في فساده، يعني: أصلحوا ما أفسدوه مباشرة أو تسبُّبًا؛ فمثلًا إذا كانوا هؤلاء أئمة، قادة، لمَّا كفروا كفر من يتعبهم، فإنَّ توبتهم لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد على أيديهم، وذلك بمحاولة إرجاع الذين كفروا تبعًا لهم إلى الإيمان. إذا كان الإنسان كفر كتابة، بكتابة ما يخالف الدِّين، فلا يكفي أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ولن أعود إلى كتابة ما يخالف الدِّين، بل يجب أن يصلح ما أفسد، بأن يكتب ردًّا على ما كتب أوَّلًا؛ لأنَّ المفاسد المتعديَّة لابدَّ فيها من إصلاح؛ ولهذا قال: {إلَّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم}، والجواب هنا قد يبدوا غير مطابق بما سبق؛ لأنَّه قد يتوقَّع السامع أن يكون الجواب فإنَّ الله يتوب عليهم؛ ولكن الجواب كان ثناء على

الله باسمين من أسمائه وهما الغفور الرحيم، قال: {فإنَّ الله غفور رحيم}، ولكن يؤخذ من هذين الاسمين أنَّ هؤلاء الذين تابوا وأصلحوا يغفر الله لهم؛ لأنَّ مقتضى هذين اسمين يعمهم، فيغفر الله لهم ويرحمهم.

{الغفور(١)}؛ هو من يغفر الذنوب؛ ومغفرة الذنوب هو سترها والتَّجاوز عنها. و{الرحيم(٢)}؛ هو من يرحم العباد، والرحمة صفة تقتضي الإحسان والإنعام؛ وفي الجمع بين الغفور والرحيم، زيادة معنى على ما يتضمَّنه الاسمان، وهو أنَّ الله تعالى قد جمع بين المغفرة التي بها زوال المكروه وآثار الذنب؛ والرحمة التي بها حصول المطلوب وهو النعمة والإحسان؛ إذًا إذا تابوا وأصلحوا غفر الله لهم.

قال الطبري: فإنَّ الله لمن فعل ذلك بعد كفره {غفور}: يعني ساتر عليه ذنبه الذي كان منه من الرِّدَّة، فتاركُ عقوبته عليه، وفضيحته به يوم القيامة، غيرُ مؤاخذِهِ به إذا مَات على التوبة منه {رحيم}، متعطِّف عليه بالرحمة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ التوبة تَجُبُّ ما قبلها؛ لقوله: {فإنَّ الله غفور رحيم}.

٢- أنَّه لابدَّ من الإصلاح مع التوبة؛ لقوله: {وأصلحوا}، وهذا واجب في كلِّ ما يتعدَّى جرمه إلى غيره أن يقوم بإصلاح ما ترتَّب على هذا الجرم.

٣- الثَّناء على المصلحين؛ ويستلزم الإصلاح أن يكون المصلح صالحًا؛ هذا هو الأصل، أنَّ كلَّ مصلح فهو صالح؛ وقد يكون المصلح غير صالح، فإنَّ من الناس مثلًا من ينهى عن المنكر وهو يفعله ويأمر بالمعروف وهو لا يفعله؛ لكنَّ الغالب أنَّ المصلح حقًّا يكون صالحًا؛ لأنَّه لا يمكن أن يسعى لإصلاح غيره وهو مضيِّع لإصلاح نفسه.

٤- إثبات اسمين من أسماء الله وهما: {الغفور} و{الرحيم}؛ وإثبات ما تضمَّناه من الصفة وهي المغفرة الرحمة؛ ولهذا نقول: كلُّ اسم من أسماء الله فإنَّه دالٌّ على ثلاثة أشياء: على ذات الله؛ وعلى الصفة؛ والثالث: على الأثر الذي يترتَّب على هذه الصفة؛ لكن هذا الثالث لا يطَّرد في كلِّ اسم من أسماء الله؛ لأنَّ الأسماء الغير متعدِّية لا يدخل فيها إثبات الأثر؛ فالعلي مثلًا فيها إثبات الاسم، وصفة العظمة، والكبير كذلك؛ لكن السميع فيها إثبات الاسم والصفة والأثر، الاسم السميع، والصفة السمع، والأثر يسمع؛ ومن هنا يعلم أنَّ كلَّ اسم فلابدَّ أن يكون متضمِّنًا لصفة؛ بدون استثناء؛ وليس كلُّ صفة مستلزمة لإسم؛ قد يوصف الله بالشيء، ولا يسمَّى بما دلَّت عليه هذه الصفة؛ ولهذا نقول: الصفات أوسع من الأسماء؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ متضمِّنٌ لصفة ولا عكس.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ {٩٠}

قال أبو زهرة: فهذا قسم ممَّن كفروا بعد إيمان؛ لأنَّ أولئك قسمان أحدهما يرجى توبته، وذلك هو الذي لم يوغل في طريق الكفر والإمعان فيه، وقد أشار سبحانه بقبول توبته بقوله تعالى مستثنيًا له: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}، والقسم الثاني هم الذين كفروا بعد أن آمنوا، ولم يكتفوا بذلك بل لجُّوا في العناد، واسترسلوا في الغيِّ، واستمروا في مقاومة الحقِّ، فإنَّهم كلَّما أوغلوا في الباطل بعُدوا عن التوبة والرجوع، ومثلهم كمثل من يسير في صحراء وقد ضلَّ الطريق، فإنَّه كلَّما أوغل فيها ازداد ضلاله. وهذا القسم لَا تقبل توبته، لأنَّه لَا يتوب توبةً نصوحًا، وقد عبَّر سبحانه عن إيغالهم في الشَّرِّ بقوله: {ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا}: أي أنَّ الكفر درجات، وكلُّ إيغالٍ فيه ازدياد، ذلك لأنَّ الكفر جحود القلب مع قيام الأمارات والأدلَّة، وكلَّما اشتدَّ العناد اشتدَّ الجحود، واستغلظت الحجب التي تحول بين المرء والهداية، فإذا كان الحجاب عن الإيمان بالحقِّ رقيقًا أوَّلًا، فبالإمعان في العناد يغلَّظ الحجاب، ويستمر في الغلظ حتى يُحكَم الإغلاق، وهو الذي عبَّر الله عمَّن تصاب قلوبهم به بقوله تارة: {طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ....}، وتارةً: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ...}، وقوله تعالى مرةً ثالثة: {بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

قال ابن العثيمين: {إنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم}: وهؤلاء المرتدُّون؛ لأنَّهم آمنوا أوَّلًا ثمَّ كفروا ثانيًا؛ {ثمَّ ازدادوا كفرًا}: لأنَّهم صاروا ينحدرون في دركات الكفر؛ {لن تقبل توبتهم}: إذا تابوا قبل الموت عند حضور الأجل فإنَّ توبتهم لن تقبل؛ لقول الله تعالى: {وليست التوبة للَّذين عملوا السيِّئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن}؛ إذًا يكون قوله: {ثمَّ ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم}: إذا حضرهم الموت؛ أمَّا إذا تابوا من قبل حضور الموت، فقد سبق أنَّهم إذا تابوا وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم.

قال أبو زهرة: وقد أكَّد سبحانه النفي بكلمة {لن} التي تدلُّ على تأكيد النفي، كما أكَّده ببيان استمرار ضلالهم فقال سبحانه: {وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}: وفي هذه الجملة السامية أكَّد سبحانه ضلالهم بثلاثة أمور: أوَّلها الجملة الاسمية، وثانيها ضمير الفصل الذي يدلُّ على تأكيد النسبة بين المسند والمسند إليه، وثالثها القصر والتخصيص، فقد قصر عليهم الضلال كأنَّه لكماله فيهم لا يوجد في غيرهم، وإنَّ السبب في استمرار ضلالهم هو لجاجتهم وعنادهم، فهم كلَّما لجُّوا في مقاومة الحقِّ ازدادت نفوسهم بعدًا عنه. وكلَّما بعدوا عنه أوغلوا في الضلال، والإشارة في قوله سبحانه: {أولئك} هي إليهم متَّصفين بما اتَّصفوا به من كفرٍ بعد إيمان، وازديادٌ ولجاجةٌ في هذا الكفر والجحود، فتلك الصفات هي السبب في هذا الاستمرار وتأكَّد الضلال، وإنَّ هؤلاء الضالين سيموتون بلا شك وهم كفار فيندرجون تحت حكم الآية الكريمة الآتية: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ .....}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ المرتدَّ إذا بقي على ردَّته فإنَّه لا تقبل توبته عند الموت؛ لقوله: {إنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم}، وهذا لا يكون إلَّا بالرِّدَّة.

٢- أنَّه كلَّما تمادى الإنسان في الكفر ولم يتب فإنَّه يزداد؛ لأنَّ كل وقت يمرُّ عليه يزداد وزرًا إلى وزر، كما أنَّ المؤمن يزداد أيضًا بزيادة الأيمان إيمانًا؛ لأنَّ كلَّ يوم يمرُّ عليه وهو مؤمن فإنَّه يضيف إيمانًا إلى إيمانه.

٣- أنَّ من تاب قبل أن يحضر أجله فإنَّ الله تعالى يتوب عليه، كما في الآيات السابقة وهي قوله تعالى: {إلَّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا}.

٤- أنَّ من استمر على كفره فهو ضالٌّ؛ وذلك لأنَّه اجتنب طريق الحقِّ، وكلُّ من اجتنب طريق الحقِّ فهو ضالٌّ؛ لقول الله تعالى: {فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال}، فالطرق إمَّا حقٌّ وإمَّا ضلالة؛ فمن لزم الشريعة فهو مع الحقِّ، ومن خالف الشريعة فهو في الضَّلالة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {٩١}

قال ابن العثيمين: {إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفَّار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولوا افتدى به}: وهذه المرتبة الثالثة؛ كفروا وبقوا على الكفر إلى الموت؛ فهؤلاء قال: {لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به}، ولم يقل: فلم تقبل توبتهم؛ لأنَّهم لم يتوبوا، ماتوا على الكفر؛ فلم يبق أمامهم إلَّا الفداء أن يفتدوا أنفسهم بشيء؛ يقول: {فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به}: يعني لو جاءوا بملء الأرض ذهبًا وطلبوا أن يكون فداءً لهم فإنَّ ذلك لن يقبل منهم؛ وحينئذ تكون هذه الآيات قسَّمت الكفَّار الذين ارتدُّوا إلى ثلاثة أقسام؛ قسم تاب وأصلح؛ فحكمه تقبل توبتهم؛ وقسم تاب عند حضور الأجل، فلا تقبل توبتهم؛ وقسم ثالث مات على الكفر، فلن تقبل فديته، ولا نقول فلا تقبل توبته لأنَّه لم يتب؛ وهذا كالذي في سورة النساء تمامًا حيث قال الله تعالى: {إنَّما التوبة على الله للَّذين يعملون السوء بجهالة ثمَّ يتوبون من قريب}: يعني قبل حضور الأجل، {فأولئك يتوب الله عليه وكان الله عليمًا حكيمًا * وليست التوبة للَّذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنِّي تبت الآن}، هذا القسم الثاني؛ {ولا الذين يموتون وهم كفَّار}، هذا القسم الثالث؛ فتكون هذه الآيات كالآيات التي في سورة النساء.

قال ابن كثير: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان – وكان يقري الضيف، ويفكُّ العاني، ويطعم الطعام –: هل ينفعه ذلك؟ فقال: لا إنَّه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدِّين(١).

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبًا ما قبل منه كما قال تعالى: {ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة}[البقرة: ١٢٣]، وقال: {لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة}[البقرة: ٢٥٤]، وقال: {لا بيع فيه ولا خلال}[إبراهيم: ٣١]، وقال {إنَّ الذين كفروا لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم}[المائدة: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: {إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفَّار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به} فعطف {ولو افتدى به} على الأول، فدلَّ على أنَّه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إنَّ الواو زائدة، والله أعلم. ويقتضي ذلك ألَّا ينقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبَرِّها وبحرها.

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ((يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ، أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم. قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم ألَّا تشرك بي شيئًا، فأبيت إلَّا أن تشرك(٢))).

قال أبو زهرة: وهنا بحث لفظي أثاره إمام اللغة الزمخشري، وهو لماذا عبَّر في الآية السابقة في الخبر من غير فاء، في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}، وفي هذه الآية أتى بالفاء فقال: {إِنَّ الَّذِين كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ} إلى آخره، وقد أجاب عن ذلك بقوله: (قد أوذن بالفاء أنَّ الكلام بني على الشرط والجزاء، وأنَّ سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أنَّ الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبُّب، كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سببًا في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم.

وإنَّ ذلك الكلام مغزاه أنَّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يبيِّن لهم أنَّ هذا الجزاء نتيجة للعمل، وأنَّه مسبَّب عنه لأنَّ الجزاء من جنس العمل دائمًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. وأمَّا في الآية الأولى فلأنَّ عدم قبول التوبة ليس جزاءً، إذ معناه عدم وجود توبةً صالحةً للقبول، أجرى القول مجرى الإخبار كأنَّه وصف ملازم لحالهم، أو هو حال أخرى من أحوالهم، وإذا كان الجزاء من جنس العمل دائمًا فإنَّ الله بعد أن بيَّن جزاء الشَّرِّ بيَّن سبحانه جزاء الخير فقال تعالت كلماته: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ...}.

١– (قلت): مسلم (٢١٤). عَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: ((لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)).

٢–(قلت): البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

قال ابن العثيمين: {أولئك}: المشار إليه من مات على الكفر، ومن لم تقبل توبته، وهو من مات عند حضور الأجل؛ {لهم عذاب أليم}: بمعنى مؤلم.

{وما لهم من ناصرين}: يعني ما لهؤلاء أحد ينصرهم ويمنع العذاب عنهم أو يرفعه عنهم؛ لأنَّهم حقَّ عليهم العذاب ولا يجدون لهم ناصرًا.

قال السعدي: لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيَّسوا من كلِّ خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسَّخط، فعياذًا بالله من حالهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص٢٧: قَوْلُهُ: {يَغْفِرُ الذُّنوبَ}[الزمر: ٥٣]، عَامٌّ فِي الذُّنُوبِ مُطْلَقٌ فِي أَحْوَالِهَا؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهُ تَائِبًا مِنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ مُصِرًّا، وَاللَّفْظُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِذَلِكَ، بَلْ الْكَلَامُ يُبَيِّنُ أَنَّ الذَّنْبَ يُغْفَرُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِفِعْلِ مَا تُغْفَرُ بِهِ الذُّنُوبُ، وَنَهَى عَمَّا بِهِ يَحْصُلُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَا مَغْفِرَةٍ، فَقَالَ: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[الزمر: ٥٤ – ٥٩]، فَهَذَا إخْبَارٌ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذِّبُ نُفُوسًا لَمْ يَغْفِرْ لَهَا، كَالَّتِي كَذَّبَتْ بِآيَاتِهِ وَاسْتَكْبَرَتْ وَكَانَتْ مِنْ الْكَافِرِينَ، وَمِثْلُ هَذِهِ الذُّنُوبِ غَفَرَهَا اللَّهُ لِآخَرِينَ لِأَنَّهُمْ تَابُوا مِنْهَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}[آل عمران: ٩٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}[النساء: ١٣٧]؟

قِيلَ: إنَّ الْقُرْآنَ قَدْ بَيَّنَ تَوْبَةَ الْكَافِرِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ ارْتَدَّ ثُمَّ عَادَ إلَى الْإِسْلَامِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[آل عمران: ٨٦ – ٨٩]، وَقَوْلُهُ: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ}: أَيْ أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ مَعَ كَوْنِهِمْ مُرْتَدِّينَ ظَالِمِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، فَمَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ إلَّا ضَالًّا، لَا يَحْصُلُ لَهُ الْهُدَى إلَى أَيِّ دِينٍ ارْتَدَّ.

(وَالْمَقْصُودُ): أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ إلَّا أَنْ يَتُوبُوا. وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ}[النحل: ١٠٦]، وَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ مِنْ غَيْرِ إكْرَاهٍ فَهُوَ مُرْتَدٌّ، قَالَ: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[النحل: ١١٠].

وَهُوَ – سُبْحَانَهُ – فِي آلِ عِمْرَانَ ذَكَرَ الْمُرْتَدِّينَ، ثُمَّ ذَكَرَ التَّائِبِينَ مِنْهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا؛ فَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[آل عمران: ٩٠، ٩١].

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ قَدْ ذَكَرُوا فِيهِمْ أَقْوَالًا؛ قِيلَ: لِنِفَاقِهِمْ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ تَابُوا مِمَّا دُونَ الشِّرْكِ وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْهُ، وَقِيلَ: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ، كَالْحَسَنِ وقتادة وَعَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ والسدي: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ حِينَ يَحْضُرُهُمُ الْمَوْتُ، فَيَكُونُ هَذَا كَقَوْلِهِ: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}[النساء: ١٨]. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}[النساء: ١٣٧]، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: ازْدَادُوا كُفْرًا ثَبَتُوا عَلَيْهِ حَتَّى مَاتُوا.

قُلْت: وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّائِبَ رَاجِعٌ عَنِ الْكُفْرِ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَإِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ يَزْدَادُ كُفْرًا بَعْدَ كُفْرٍ، فَقَوْلُهُ: {ثُمَّ ازْدَادُوا}، بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الْقَائِلِ: ثُمَّ أَصَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ، وَدَامُوا عَلَى الْكُفْرِ، فَهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إسْلَامِهِمْ ثُمَّ زَادَ كُفْرُهُمْ مَا نَقَصَ، فَهَؤُلَاءِ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ، وَهِيَ التَّوْبَةُ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَابَ قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ فَقَدْ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ وَرَجَعَ عَنْ كُفْرِهِ، فَلَمْ يَزْدَدْ، بَلْ نَقَصَ؛ بِخِلَافِ الْمُصِرِّ إلَى حِينِ الْمُعَايَنَةِ، فَمَا بَقِيَ لَهُ زَمَانٌ يَقَعُ لِنَقْصِ كُفْرِهِ فَضْلًا عَنْ هَدْمِهِ.

وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى قَالَ: {لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا، قِيلَ: لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ إذَا تَابَ غُفِرَ لَهُ كُفْرُهُ، فَإِذَا كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَاتَ كَافِرًا حَبِطَ إيمَانُهُ، فَعُوقِبَ بِالْكُفْرِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالَ: ((مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ(١)))، فَلَوْ قَالَ: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ، كَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي آلِ عِمْرَانَ فَقَالَ: {إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}[آل عمران: ٩٠]، بَلْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا بَعْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمُرْتَدُّ التَّائِبُ؛ فَهَذَا إذَا كَفَرَ وَازْدَادَ كُفْرًا لَمْ يُغْفَرْ لَهُ كُفْرُهُ السَّابِقُ أَيْضًا، فَلَوْ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا، لَمْ يَكُونُوا قَدْ ازْدَادُوا كُفْرًا فَلَا يَدْخُلُونَ فِي الْآيَةِ.

وَالْفُقَهَاءُ إذَا تَنَازَعُوا فِي قَبُولِ تَوْبَةِ مَنْ تَكَرَّرَتْ رِدَّتُهُ، أَوْ قَبُولِ تَوْبَةِ الزِّنْدِيقِ، فَذَاكَ إنَّمَا هُوَ فِي الْحُكْمِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوثَقُ بِتَوْبَتِهِ، أَمَّا إذَا قُدِّرَ أَنَّهُ أَخْلَصَ التَّوْبَةَ لِلَّهِ فِي الْبَاطِنِ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر: ٥٣].

١- البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢١)، ومسلم في الإيمان (١٢٠/١٩٠).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ من مات على الكفر فلن يقبل منه شيء يمنعه من عذاب الله؛ ولهذا قال: {لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به}.

٢- أنَّ الأمر يسير على المؤمن، لأنَّه يفتدي من عذاب الله بما هو أقل من ملء الأرض ذهبًا؛ فإذا آمن وقام بالعمل الصالح وأدَّى ما يجب عليه من الحقوق المالية نجا من هذا العذاب مع أنَّه أقلُّ بكثير من ملء الأرض ذهبًا.

٣- إثبات العذاب لهؤلاء الكفار؛ لقوله: {أولئك لهم عذاب أليم}.

٤- أنَّ هذا العذاب عذاب شديد مؤلم؛ لقوله: {أليم}.

٥- أنَّ هذا الألم ألم بدني وألم نفسي؛ لأنَّهم مع العذاب الشديد العظيم على البدن يعذبن عذابًا نفسيًّا، وذلك بالتَّوبيخ والإهانة.

٦- أنَّ هؤلاء الكفار الذين ماتوا على الكفر لن يجدوا أحدًا ينصرهم، حتى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تلقى في نار جهنم إهانة لها وإذلالًا، وإهانة لعابديها وإذلالًا؛ لأنَّهم إذا كانوا يتعلَّقون بهذه الآلهة وألقيت في النار، صار هذا أشدُّ حسرةً عليهم.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ {٩٢}

قال ابن العثيمين: {لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون}: {لن} تفيد النفي، وتحول الفعل من الحال إلى الاستقبال، وتعمل تغير الفعل الظاهر وهو النصب؛ فهي تغير الفعل شكلًا ومعنى؛ أمَّا شكلًا فهي تنقله من الرفع إلى النصب، وأمَّا معنىً، فتنقله من الحال إلى الاستقبال؛ وأيضًا وجه آخر في المعنى تنقله من الإثبات إلى النفي.

{لن تنالوا البِرَّ}: أي لن تدركوه؛ والبِر في الأصل هو الخير والعطاء، ومنه بِرُّ الوالدين وذلك بالإحسان إليهما؛ فالبرُّ في الأصل هو الخير والعطاء ويقرن أحيانًا بالتَّقوى؛ فإذا قرن بالتَّقوى صار معناه فعل الطاعات واجتناب المحرَّمات؛ لأنَّ الإنسان يتَّقيها ويحذرها ويبتعد عنها؛ إذًا البرُّ هو الخير الكثير والعطاء؛ فلن تنالوا ذلك {حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون}، {حتى} هذه للغاية، وهي من أدوات النصب، فالقول بعدها منصوب.

وقوله: {تنفقوا ممَّا}: {من} يحتمل أن تكون لبيان الجنس ويحتمل أن تكون للتَّبعيض؛ والفرق بينهما أنَّنا إذا جعلناها لبيان الجنس شمل المدح من تصدَّق بجميع ماله؛ وإذا جعلناها للتبعيض صار مختصًّا بمن تصدَّق ببعض ماله؛ ويمكن أن نقول إنَّها صالحة للأمرين. فأحيانًا التصدُّق ببعض المال أفضل من التصدُّق بكلِّه وأحيانًا يكون العكس.

وقوله: {ممَّا تحبُّون}: أي من المال؛ لأنَّ الله تعالى قال: {وتحبُّون المال حبًّا جمًّا}؛ ولكن كلَّ ما كان المال أحبُّ كان إنفاقه أقوى إيمانًا وأدلُّ على محبَّة الإنسان للخير؛ لأنَّ الشيء الذي تكون الرغبة فيه قليلة يسهل على الإنسان أن ينفقه؛ لكن الشيء الذي تتعلَّق به النفس كثيرًا هو الذي تشحُّ النفس في إنفاقه؛ فإذا أنفقه الإنسان مع قوة تعلُّق نفسه به كان ذلك دليلًا على قوَّة إيمانه؛ لأنَّه لا يدفع القوي إلَّا بما هو أقوى منه.

قال ابن كثير: روى وكيع في تفسيره عن شريك، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون: {لن تنالوا البِرَّ} قال: البر الجنة. عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلمَّا نزلت: {لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون}، قال أبو طلحة: يا رسول الله، إنَّ الله يقول: {لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون}، وإنَّ أحب أموالي إليَّ بيرحاء وإنَّها صدقة لله أرجو برَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: ((بخ بخ(١)، ذاك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين)). فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه. أخرجاه(٢).

وفي الصحيحين أنَّ عمر قال: يا رسول الله، لم أصب مالًا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: ((حبس الأصل وسبل الثمرة(٣))).

١- (قلت): قال ابن العثيمين في تفسيره: (هذه كلمة تقال مثل ما نقول: ما أحسن هذا، ما أحسن هذا).

٢- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨). وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (١٩٤٥)، وصحيح الجامع (٨٦٦). والحديث بتمامه: عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ))، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ.

تَابَعَهُ رَوْحٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى وَإِسْمَاعِيلُ ، عَنْ مَالِكٍ رَايِحٌ.

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((بيرحى)): اختلفوا في ضبط هذه اللفظة على أوجه، قال القاضي رحمه الله: روينا هذه اللفظة عن شيوخنا بفتح الراء وضمها مع كسر الباء، وبفتح الباء والراء، وهذا الموضع يعرف بقصر بني جديلة قبلي المسجد، وهو حائط يسمى بهذا الاسم، ومعنى الحائط هنا: البستان، وقال في الفائق: إنها فيعلى من البراح، وهي الأرض المنكشفة الظاهرة. ((أرجو برها وذخرها)): يعني لا أريد ثمرتها العاجلة الدنيوية الفانية، بل أطلب مثوبتها الآجلة الأخروية الباقية. ((بخ)): قال أهل اللغة: ((بخ)) بإسكان الخاء وتنوينها مكسورة، قال ابن دريد: معناه تعظيم الأمر وتفخيمه. ((مال رابح)): ضبطناه هنا بوجهين: بالياء وبالباء، وقال القاضي: روايتنا فيه في كتاب مسلم بالباء الموحدة، واختلفت الرواة فيه عن مالك في البخاري والموطأ وغيرهما، فمن رواه بالموحدة فمعناه ظاهر، ومن رواه رايح بالمثناة فمعناه رايح عليك أجره ونفعه في الأخرة.

٣- (قلت): البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢). والحديث بتمامه عند مسلم: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَصَابَ عُمَرُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ هُوَ أَنْفَسُ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ؟ قَالَ: ((إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا))، قَالَ: فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ، أَنَّهُ لَا يُبَاعُ أَصْلُهَا، وَلَا يُبْتَاعُ، وَلَا يُورَثُ، وَلَا يُوهَبُ، قَالَ: فَتَصَدَّقَ عُمَرُ فِي الْفُقَرَاءِ، وَفِي الْقُرْبَى، وَفِي الرِّقَابِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالضَّيْفِ، لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ

قال ابن العثيمين: وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيءٌ يتصدَّق به يتأول قول تعالى: {لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون}، أمَّا نحن فإذا أعجبنا شيء من مالنا جعلناه في الصناديق واستعملنا الرديء وتركنا الباقي، يمكن يكون لورثتنا، لا يكون لنا؛ ولكن هكذا الشح؛ أمَّا الذين يريدون الآخرة فهم يرون أنَّ مالهم هو الذي يقدِّمونه؛ ولهذا لما سأل النبي ﷺ أصحابه ذات يوم قال: ((أيُّكم ماله أحبُّ إليه من مال وارثه؟))، قالوا: يا رسول الله ما منَّا أحدٌ إلَّا وماله أحبُّ إليه من مال وارثه؛ قال: ((فإنَّ ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر(١)))؛ يعني معناه أنَّك إذا بخلت بالمال وأبقيته فإنَّك سوف تذهب عنه، سوف يورث من بعدك؛ لكن إذا تصدَّقت به وأمضيته تجده أمامك؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يتأوَّل هذه الآية ولو مرة واحدة، إذا أعجبه شيءٌ من ماله أن يتصدَّق به لعلَّه ينال هذا البر.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣١ص٢٥١: فَمَا كَانَ أَحَبَّ إلَى الْمَرْءِ إذَا تَقَرَّبَ بِهِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْضَلَ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ؛ وَإِنْ اسْتَوَيَا فِي الْقِيمَةِ؛ فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ وَالْأُضْحِيَّةَ عِبَادَةٌ بَدَنِيَّةٌ وَمَالِيَّةٌ؛ لَيْسَتْ كَالصَّدَقَةِ الْمَحْضَةِ؛ بَلْ إذَا ذَبَحَ النَّفِيسَ مِنْ مَالِهِ لِلَّهِ تَعَالَى كَانَ أَحَبَّ إلَى اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا يَهْدِي أَحَدُكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى مَا يَسْتَحِي أَنْ يَهْدِيَهُ لِكَرِيمِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ}[البقرة: ٢٦٧]، وَقَدْ قَرَّبَ ابْنَا آدَمَ قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الْآخَرِ. وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَرَّبَ نَفِيسَ مَالِهِ وَالْآخَرَ قَرَّبَ الدُّونَ مِنْ مَالِهِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

قال ابن العثيمين: {وما تنفقوا من شيءٍ فإنَّ الله به عليم}: يعني أي شيء تنفقونه ممَّا تحبُّون وما لا تحبون، من قليل أو كثير، من نفائس الأموال أو صغائرها {فإنَّ الله به عليم}.

قوله: {به عليم(٢)} قُدِّمت الجار والمجرور على متعلِّقه، والمعروف أنَّ تقديم المعمول يفيد الحصر؛ فهنا نقول إنَّه قدَّم المعمول لفائدتين: الفائدة الأولى: لفظية وهي مراعاة فواصل الآيات؛ والفائدة الثانية: معنوية وهي بيان الاعتناء بهذا المقدَّم حتى كأن الله تعالى حصر علمه به؛ فتقديم المعمول هنا يدلُّ على العناية والاهتمام بهذا الشَّيء الذي قدَّمه الإنسان لنفسه وأنَّ الله به عليم.

مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ يُطْعِمَ صَدِيقًا غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ مُحَمَّدًا، فَلَمَّا بَلَغْتُ هَذَا الْمَكَانَ: غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ، قَالَ مُحَمَّدٌ: غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا، قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: وَأَنْبَأَنِي مَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ أَنَّ فِيهِ: غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا.

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((أصاب عمر أرضا)): أي أخذها وصارت إليه بالقسم حين فتحت خيبر عنوة وقسمت أرضها. ((يستأمره)): أي يستشيره طالبا في ذلك أمره. ((هو أنفس عندي منه)): أنفس: معناه أجود، والنفيس: الجيد، وقد نفس نفاسة. ((غير متأثل)): معناه غير جامع، وكل شيء له أصل قديم أو جمع حتى يصير له أصل فهو مؤثل، ومنه مجد مؤثل: أي قديم وأثلة الشيء أصله.

١– (قلت): البخاري (٦٤٤٢)، وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (١٤٨٦)، والحديث بتمامه عند البخاري: عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ عَبْدُ اللهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟))، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: ((فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ)).

٢– (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

فإن قال قائل: عَلِمنا أنَّ الله به عليم ولا ننكر ذلك، لكن ما فائدتها؟ فالجواب: أنَّ الله تعالى لم يذكر هذا العلم إلَّا لما يترتَّب عليه من المجازاة؛ فإنَّ الله إذا علمه لا يمكن أبدًا أن يضيِّعه، {فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرًّا يره}، والله تعالى عليم بكلِّ شيء.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الحثُّ على الإنفاق ممَّا يحبُّه الإنسان.

٢- أنَّ بالإنفاق ممَّا يحبُّ، نيل البرِّ الذي يطلبه كلَّ إنسان.

٣- إثبات الأسباب؛ تؤخذ من أنَّ الله أثبت للبرِّ سببًا وهو الإنفاق من ماله.

٤- أنَّه كلَّما أنفق الإنسان ممَّا هو أحبُّ إليه، كان أكثر لبرِّه؛ وذلك لأنَّ من قواعد الأصول أنَّ ما علِّق بوصف فإنَّه يزداد وينقص بحسب ذلك الوصف.

٥- عموم علم الله عز وجل؛ لقوله: {وما تنفقوا من شيءٍ فإنَّ الله به عليم}.

٦- إثبات الجزاء، وأنَّ كلَّ إنسانٍ سيجازى بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ يؤخذ من قوله: {فإنَّ الله به عليم}، لأنَّ المراد من إثبات العلم إثبات ما يترتَّب عليه وهو الجزاء. أمَّا بالنسبة للإعراب فإنَّ قوله: {لن تنالوا البرَّ حتى}: {حتى} هذه للغاية؛ وعلى هذا فلا ينال البرَّ إلَّا من أنفق ممَّا يحبُّ؛ وثانيًا: {حتى تنفقوا}، أين ذهبت النون؟ لأنَّ الفعل منصوب إمَّا ب(أن) مضمرة بعد {حتى}، وإمَّا بحتى على خلافها. وقوله: {حتى تنفقوا}، هذه جملة شرطية؛ فعل الشرط فيها {تنفقوا}، وجوابه جملة {فإنَّ الله به عليم}، وقرنت جملة الجزاء بالفاء لأنَّها جملة اسمية.

٧- جواز إنفاق المرء جميع ماله؛ بناءً على أنَّ {من} للجنس؛ وهذه المسألة اختلف فيها العلماء هل يثاب الإنسان إذا تصدَّق بجميع ماله ويمدح؟ أو نقول: الأفضل ألَّا تتصدق بجميع المال لأن الرسول ﷺ قال: ((إنَّك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس[١]))، فجعل إبقاء المال للورثة لئلَّا يتكفَّفوا الناس خيرًا من أن يحرموا من المال

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨). وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨٢)، والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: ((لاَ))، فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ؟ فَقَالَ: ((لاَ))، ثُمَّ قَالَ: ((الثُّلُثُ، وَالثُّلْثُ كَبِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً، تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ، إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ))، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: ((إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحًا، إِلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، ثُمَّ لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ)). يَرْثِي لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ.

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لكن البائس سعد بن خولة)) البائس هو الذي عليه أثر البؤس وهو الفقر والقلَّة.

(رثى له رسول ﷺ من أن توفى بمكة): قال العلماء: هذا من كلام الراوي وليس هو من كلام النبي ﷺ بل انتهى كلامه ﷺ بقوله: ((لكن البائس سعد بن خولة))، فقال الراوين تفسيرا لمعنى هذا الكلام: إنه يرثيه النبي ﷺ ويتوجع له ويرق عليه، لكونه مات بمكة واختلفوا في قصة سعد بن خولة، فقيل: لم يهاجر من مكة حتى مات بها،

فيتكفَّفوا الناس، وإذا كان هذا بالنسبة للورثة فهو بالنسبة للنفس أَولى؛ ولمَّا نظر أبو لبابة أن يتصدَّق بجميع ماله قال له النبي ﷺ: ((أمسك عليك بعض مالك([1]))، فأمره أن يمسك بعض ماله وأن يتصدَّق بالثلث.

من العلماء من قال: بل يمدح الإنسان إذا تصدق بجميع ماله لأنَّ النبي ﷺ لمَّا حثَّ على الصدقة ذات يوم جاء أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله وجاء عمر بشطر ماله، بنصفه؛ وأثنى النبي ﷺ على أبي بكر قال له: ((ماذا تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله([2]))، والصحيح في هذه المسألة أنَّ ذلك يختلف؛ فمن علم من نفسه أنَّه إذا تصدَّق بماله لم يخنع لأحد ولم يذلَّ لأحد، وكان عنده من قوة التوكُّل على الله، ولعمل ما يغنيه عن السؤال، فهنا يمدح على الصدقة بجميع ماله؛ وكذلك لو فرض أنَّ المسألة تحتاج إلى الصدقة بجميع المال، لكون الناس في ضرورة إلى ذلك كان الصدقة بجميع المال أفضل؛ وأمَّا إذا كان الإنسان يخشى على نفسه أن يتصدق بماله ويتكفَّف الناس فلا يتصدَّق، لأنَّه لا يمكن أن يفعل شيئًا مستحبًّا ويدع شيئًا واجبًا، لأنَّ إعفاف نفسه وأهله واجب؛ فكونه يتصدَّق ثمَّ يذهب يقول للناس أعطوني أعطوني لاشك أنَّ هذا إذلال نفسي؛ فالصحيح أنَّ المسألة تختلف باختلاف الأحوال واختلاف الأشخاص.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {٩٣}

قال ابن العثيمين: {كلُّ الطعام}: {الطعام} ما يطعم، فإن قرن به الشراب وقيل: طعام وشراب؛ صار المراد به ما يحتاج إلى مضي، والشراب ما لا يحتاج إلى مضي؛ وأمَّا إذا أطلق وقيل: طعام، صار شاملًا لما يؤكل وما يشرب، قال الله تعالى: {فلمَّا فصل طالوت بالجنود قال إنَّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منِّي ومن لم يطعمه فإنَّه منِّي}، فسمَّى شرب الماء طعامًا؛ أمَّا إذا ذكر مع الشراب فالطعام ما يمضى ويؤكل والشراب ما ليس كذلك.

وذكر البخاري أنَّه هاجر وشهد بدرًا ثمَّ انصرف الى مكة ومات بها، وقال ابن هشام: إنَّه هاجر الى الحبشة الهجرة الثانية وشهد بدرًا وغيرها وتوفِّي بمكة حجة الوداع سنة عشر، وقيل: توفِّي بها سنة سبع في الهدنة خرج مجتازًا من المدينة، فقيل: سبب بؤسه سقوط هجرته لرجوعه عنها مختارًا وموته بها، وقيل: سبب بؤسه موته بمكة على أي حال كان وإن لم يكن باختياره لما فاته من الأجر والثواب الكامل بالموت في دار هجرته والغربة عن وطنه الذي هجره لله تعالى.

١- (قلت): ضعفه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣٣٢٠). ولكن الحديث وارد عن كعب بن مالك وليس أبو لبابة، البخاري (٢٧٥٧)، وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٣٨٢٦)، والحديث بتمامه عند البخاري: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ قَالَ: ((أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ))، قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ.

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٦٠٣٠)، والحديث بتمامه: وَعَن عُمَرَ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ وَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا. قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟))، فَقُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ. فَقَالَ: ((يَا أَبَا بَكْرٍ؟ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟)). فَقَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَأَبُو دَاوُد.

{كان حلًّا لبني إسرائيل}: بمعنى حلالًا لبني إسرائيل سواء كان من النبات أو من الحيوان أو من أيِّ شيءٍ كان، يعني: أنَّ كلَّ شيءٍ حلال له في الأول.

{لبني إسرائيل}: بنو إسرائيل هم أبناء يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم؛ وإسرائيل بمعنى عبد الله؛ وبنو عمِّهم هم بنو إسماعيل بن إبراهيم؛ فإسماعيل وإسحاق أخوان أبوهما إبراهيم؛ ويعقوب هو ابن إسحاق وقد بشَّر الله به جدَّته على لسان الملائكة {وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن رواء إسحاق يعقوب}.

{إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه}: يعني ما حرَّم إسرائيل على نفسه فكان حرامًا؛ إذًا فهناك حلال في أول الأمر، وهناك حرام في ثاني الأمر؛ {إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه}؛ أكثر المفسرين على أنَّ المراد بإسرائيل يعقوب؛ فهو عَلَم على شخص معيَّن لا على قبيلة معيَّنة، يعني إلَّا ما حرَّم إسرائيل نفسه على نفسه. وقيل: المراد بإسرائيل القبيلة كما تقول قريش؛ فإنَّ قريشًا كان اسمًا لشخص معيَّن ثمَّ انتقل من اسم الشخص إلى اسم ذريَّته، القبيلة التي تنسب إليه؛ فيكون المراد بإسرائيل على هذا القول بنو إسرائيل؛ وإلى هذا ذهب صاحب المنار أن المراد بإسرائيل بنو إسرائيل؛ وعلى هذا القول الذي حرَّم بنو إسرائيل على أنفسهم مبيَّن في القرآن، {وعلى الذين هادوا حرَّمنا كلَّ ذي ظفر ومن البقر والغنم حرَّمنا عليهم شحومهما إلَّا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم}، هذا ما اختاره صاحب المنار؛ لكن هذا الرأي ضعيف؛ لأنَّ الله فرَّق بين بني إسرائيل وإسرائيل فقال: {حلًّا لبني إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل} ولم يقل: (إلَّا ما حرَّموا على أنفسهم)؛ ثمَّ إنَّه يرد عليه إشكالًا آخر بأنَّ بني إسرائيل لم يحرِّموا على أنفسهم شيئًا، وإنَّما حرِّم عليهم شيء بسبب ظلمهم، والأصل أنَّ الشيء إذا أضيف فهو لما إليه مباشرة لا تسبُّبًا؛ فالصحيح أنَّ المراد بإسرائيل عَلَم الشخص.

قال ابن كثير: عن ابن عباس قال: أقبلت يهود الى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنَّك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: {والله على ما نقول وكيل}[يوسف: ٦٦]. قال: ((هاتوا)). قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: ((تنام عيناه ولا ينام قلبه)). قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: ((يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة أنثت)). قالوا: أخبرنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: ((كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئًا يلائمه إلَّا ألبان كذا وكذا – قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل – فحرَّم لحومها)). قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ((ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده – أو في يديه – مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله عز وجل)). قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: ((صوته)). قالوا: صدقت، إنَّما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، فإنَّه ليس من نبي إلَّا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: ((جبريل عليه السلام)). قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدوُّنا. لو قلت: ميكائيل الذي

ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله عز وجل: {قل من كان عدوًّا لجبريل فإنَّه نزله على قلبك بإذن الله مصدِّقًا لما بين يديه وهدًى وبشرى للمؤمنين}[البقرة: ٩٧]، والآية بعدها([١]).

وقال ابن جريج والعوفي، عن ابن عباس: كان إسرائيل – وهو يعقوب عليه السلام – يعتريه عرق النسا بالليل، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم، ويقلع الوجع عنه بالنهار، فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عرقًا ولا يأكل ولد ما له عرق. وهكذا قال الضحاك والسدي. كذا حكاه ورواه ابن جرير في تفسيره. قال: فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استنانًا به واقتداءً بطريقه.

قال ابن العثيمين: وقوله: {من قبل أن تنزَّل التوراة}: فيها قراءتان: {تنزَّل} بتشديد الزاي؛ و{تنزِل} بالتخفيف؛ وكلتا القراءتين سبعيتان، والقاعدة في القراءتين أنَّ السنة أن تقرأ بهذه مرة وبهذه مرة، لأنَّ كلتا القراءتين ثبتت عن رسول الله ﷺ؛ فإذا قرأت بواحدة وهجرت الأخرى لم تأت بالسنة كاملة، بل اقرأ بهذا مرة وهذا مرة؛ لكن بشرط أن تكون متأكِّدًا من القراءة لأنَّ القرآن كلام الله؛ فلو قرأت شيئًا لم تتأكَّد وكان خلاف ما أنزل الله، كنت مفتريًا على الله كذبًا؛ الشرط الثاني: أن لا يحصل في ذلك تشويش؛ فإن حصل في ذلك تشويش كما لو قرأت بقراءة ثانية عند العامة الذين لا يعرفون إلَّا ما في مصاحفهم فإنَّ ذلك حرام لا يجوز، لأنَّه يؤدِّي إلى تشكُّك العامَّة وإلى رميك أنت بالسوء، يقول هذا الرجل يحرِّف كلام الله يقرأ بغير ما أنزل الله فتكون عرضة لسبِّ الناس واغتيابهم إيَّاك، ورحم الله امرأ كفَّ الغيبة عن نفسه؛ أمَّا فيما بينك وبين نفسك فاقرأ بها، اقرأ بالقراءة الثانية إذا كنت متقنًا لها وعارفًا بها؛ وكذلك إذا كنت بين طلبة العلم حتى يعرفون القراءات وينتفع بها؛ أمَّا بالنسبة للفرق بينهما، فسواء قيل: {تنزَّل} و{تنزِل} فلا فرق؛ لأنَّ التوراة نزلت جملة واحدة؛ أمَّا القرآن فإنَّه نزل مفرَّقًا؛ فإذا جاء {نزَّلنا عليك}: فالمراد نزوله شيئًا فشيئًا؛ وإذا قيل: {أنزلنا الذِّكر}: باعتبار أنَّه سيكون تامًّا وبتمامه قد نزل كلَّه؛ و{التوراة}: هي الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى؛ وقد نزلت التوراة مكتوبًا، كتب الله تعالى التوراة في الألواح، فأخذها موسى وتلاها على الناس وعلَّمهم إيَّاها؛ وبقيت التوراة إلى أن جاء محمد ﷺ، ولكن صار فيها تحريف كما قال الله تعالى: {تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا}.

{من قبل أن تنزَّل التوراة}: يعني أنَّ هذا أمر مقرر من قديم الزمان؛ وبين إسرائيل وبين نزول التوراة دهور طويلة وأزمان كثيرة؛ لكنَّ الله أراد أن يقرِّر بأنَّ التحريم – أي تحريم ما أحلَّ – كان سابقًا متقدِّمًا بكثير على التوراة.

قال ابن كثير: قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدَّم مناسبتان:

إحداهما: أنَّ إسرائيل عليه السلام حرَّم أحبَّ الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغا في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممَّا تحبون}، فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق في طاعة الله ممَّا يحبه العبد ويشتهيه، كما قال: {وآتى المال على حبِّه}[البقرة: ١٧٧]، وقال: {ويطعمون الطعام على حبِّه}[الإنسان: ٨].

١- صحيح: السلسلة الصحيحة (١٨٧٢).

المناسبة الثانية: لمَّا تقدم السياق في الرَّد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح، وتبيَّن زيف ما ذهبوا إليه وظهور الحقِّ واليقين في أمر عيسى وأمَّه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى، شرع في الرَّدِّ على اليهود، قبَّحهم الله، وبيان أنَّ النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإنَّ الله عز وجل قد نص في كتابهم التوراة أنَّ نوحًا عليه السلام لمَّا خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرَّم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك، وكان الله عز وجل، قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرَّم ذلك بعد ذلك، وكان التسرِّي(١)على الزوجة مباحًا في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرَّى بها على سارة، وقد حرَّم مثل هذا في التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعًا وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، ثمَّ حرِّم ذلك عليهم في التوراة، وهذا كلُّه منصوص عليه في التوراة عندهم، وهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرِّم في التوراة، فما بالهم لم يتَّبعوه بل كذَّبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الدِّين القويم والصراط المستقيم، وملَّة أبيه إبراهيم، فما بالهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى: {كلُّ الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزَّل التوراة}: أي كان حلًّا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلَّا ما حرَّمه إسرائيل.

قال ابن القيم في التفسير القيم: تضمَّنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحًا في إبطال النسخ. فإنَّه سبحانه وتعالى أخبر أنَّ الطعام كلُّه كان حلالًا لبني إسرائيل قبل أن تنزَّل التوراة، سوى ما حرَّم إسرائيل على نفسه منه. ومعلوم أنَّ بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملَّته، وأن الذي كان لهم حلالًا إنَّما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده، إلى حين تنزَّل التوراة. ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التي كانت حلالًا لبني إسرائيل. وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ}: أي كانت حلالًا لهم قبل نزول التوراة. وهم يعلمون ذلك ثم قال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ}، هل تجدون فيها أنَّ إسرائيل حرَّم على نفسه ما حرَّمته التوراة عليكم، أم تجدون فيها تحريم ما خصَّه بالتَّحريم، وهي لحوم الإبل وألبانها خاصَّة؟ وإذا كان إنَّما حرَّم هذا وحده، وكان ما سواه حلالًا له ولبنيه، وقد حرَّمت التوراة كثيرًا منه: ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها.

فتأمَّل هذا الوضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسِّرين، وما وردوه. وهذا أَولى من احتجاج كثير من أهل الكلام، عليهم بأنَّ التوراة حرَّمت أشياء كثيرة من المناكح والذبائح، والأفعال والأقوال. وذلك نسخ بحكم البراءة الأصلية. فإنَّ هذه المناظرة ضعيفة جدًّا. فإنَّ القوم لم ينكروا رفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب. إذ هذا شأن كلُّ الشرائع. وإنَّما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالى، فيجعله حرامًا، وتحليل ما كان حرَّمه فيجعله مباحًا. وأمَّا رفع البراءة والاستصحاب. فلم ينكره أحد من أهل الملل.

١- (قلت): التسرِّي: من سرر: والسِّر: الجماع، وتسرى تسريًّا: اتَّخذ أَمَة للجماع (دخله الابدال تخفيفًا) وأصل التسرِّي: التسرُّر. أنظر (معجم لغة الفقهاء) ج١ص١٥٤.

قال ابن العثيمين: {قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين} هذا من باب التَّحدِّي، الأمر هنا {فأتوا} للتَّحدِّي وإقامة الحجَّة على ما ادَّعوا، يعني هاتوا فاتلوها وانظروا أنَّ ما قلته فهو حقٌّ؟ أي كان الطعام حلًّا لنبي إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه.

ثم نسِخ أيضًا حلَّ أشياءٍ كثيرةٍ، كما قال عيسى: {ولأحلَّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم}، إذًا هناك أشياء كثيرة حرِّمت فأحلَّه لهم عيسى بعد ما حرِّمت.

{فاتلوها} أنتم أيضًا لا نحن حتى لا تتَّهموننا بأنَّا حذفنا شيئًا أو أضفنا شيئًا، اتلوها أنتم بأنفسكم حتى يتبيَّن لكم أنَّ ما جئت به فهو حقٌّ.

{إن كنتم صادقين}: يعني فيما تدعونه من كذب ما جئت به، فأتوا بالتوراة فاتلوها؛ و{إن كنتم}: هذه شرطية لتمام التَّحدِّي، كما أقول لك للكلام العابر: إن أنت صادق فافعل كذا؛ فهذا من كمال التَّحدِّي وتمامه؛ وكان سبب هذا أنَّ اليهود كانوا ينكرون ما جاء به النبي ﷺ، ينكرونه ويقولون إنَّك أحللت شيئًا وحرَّمت شيئًا، والشرائع لا تتبدَّل ولا تتغيَّر لأنَّها من عند الله؛ ولهذا كانوا ينكرون النسخ ويقولون إنَّ النسخ في أحكام الله مستحيل لأنَّ النسخ إنَّما يكون لحكمة أو عبثًا؛ فإن كان عبثًا فالله منزَّه عنه؛ وإن كان لحكمة لزم منه أنَّ الله تعالى تظهر له الحكمة بعد أن كانت خافيةً عليه؛ وهذا يلزم منه الظهور بعد الجهل، وهو أيضًا مستحيل على الله؛ أنظر كيف الشبهة؟ إذًا النسخ مستحيل؛ ولهذا كذَّبوا موسى وكذَّبوا عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّهم قالوا هذا نسخ، والنسخ على الله مستحيل، لا يمكن أن تنسخ الشرائع؛ فيقول: هاتوا التوراة؛ التوراة تثبت وتقرِّر أنَّ الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل، كلَّما يطعم، ثم حرَّم إسرائيل على نفسه أشياء وبقي هذا التحريم في ذريته حرامًا عليهم؛ إذًا هذا نسخ؛ لكنَّه في الحقيقة ليس بالنسخ الكامل الذي يرفع الحكم كلَّه؛ ولكنَّه نسخ لبعض أفراده، فهو ما يسمَّى عند الأصوليين بالتخصيص، ويسمَّى عند السلف بالنسخ؛ التخصيص يسمَّى في لغة الصحابة والتابعين نسخًا؛ إذًا في هذا إقامة الحجَّة عليهم بما ادَّعوا من أنَّه لا يمكن أن تنسخ الشرائع، وأنَّك يا محمد كاذب وأنَّ عيسى كاذب؛ فأراد الله أن يبيِّن كذبهم وافترائهم من كتبهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ لله تعالى أن يحلَّ ما يشاء ويحرِّم ما يشاء؛ لقوله: {كلُّ الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه}، ومعلوم أنَّ الله أقرَّه على ذلك وهذا تشريع من الله.

٢- الرَّدُّ على اليهود الذين زعموا أنَّه لا نسخ في الشرائع. فإن قال قائل: هم يقولون لا نسخ في الشرائع ويعلِّلون بعلَّة تبدو وكأنَّها صحيحة، فما الجواب عن هذه العلَّة؟ فهمتم العلَّة السابقة؟ يقولون: إن كان لغير الحكمة فهو عبث وسفه ينزَّه الله عنه وإن كان لحكمة لزم أن تكون هذه الحكمة مجهولة لله؛ إمَّا في الأول أو في الثاني يعني إمَّا في الناسخ أو في المنسوخ؛ وهذا

يستلزم أن يكون الله تعالى جاهلًا ظهر له العلم من بعد أن كان خفيًّا عليه؛ جوابنا عن ذلك أن نقول: إنَّ النسخ لا يستلزم لا هذا ولا هذا؛ بل إنَّ النسخ لحكمة؛ لكن هذه الحكمة تتبع مصالح العباد، والعباد مصالحهم تختلف، قد تكون من المصلحة أن يشرع لهم الحلُّ في هذا الزمن والتحريم في زمن آخر؛ قد تكون هذه الأمَّة من المصلحة أن يشرع لها الحلُّ والأمَّة الأخرى من المصلحة أن يشرع لها التحريم؛ فهنا الحكمة لا تتعلَّق بفعل الله ولكن تتعلَّق بالمخلوق الذي شرع له هذا الحكم؛ وهذا أمر يختلف بلا شك؛ فمثلًا الناس في بدء الإسلام لا يتحمَّلون جميع شرائع الإسلام؛ ولهذا جاءت الشرائع بالتَّدريج؛ بقي النبي ﷺ عشرة سنوات لا يوجب على الناس لا صلوات ولا زكاة ولا صوم ولا حج، عشرة سنوات بعد البعثة كلُّ هذا لتقرير التوحيد؛ لأنَّ قلوب الناس في ذلك الوقت لا تحتمل أن يضاف إلى تحقيق التوحيد شيء آخر، ثم شرعت الصلاة، ثم شرعت الزكاة، ثم شرع الصوم، ثم شرع الحج في آخر الأمر؛ كلُّ هذا من أجل مراعاة أحوال الناس؛ وكذلك في الخمر، الخمر كان حلًّا[1]، ثم كان عرض بتحريمه، ثم حرِّم في أوقات معيَّنة، ثم حرِّم إلى الأبد، أربع مراحل؛ لأنَّ الناس كانوا قد ألفوه، قال الله تعالى: {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا}، وهذه الآية في سورة النحل وقد نزلت في مكة {تتَّخذون منه سكرًا}، العنب والرطب هما مادة الخمر؛ ثم قال: {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}، والعاقل إذا علم أنَّ إثمهما أكبر من نفعهما يهديه عقله إلى تركه؛ ثم قال: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون}، إذًا نجتنب الخمر وقت الصلاة؛ لأنَّه إن لم نجتنب، لزم أن نقرب الصلاة ونحن سكارى، وهذا منهيٌّ عنه؛ إذًا نجتنب الخمر خمس مرات في اليوم والليلة؛ يضعف شربه ولا لا؟ يضعف؛ جاءت آية المائدة: {فاجتنبوه}، انتهى؛ إذًا نقول: إنَّ ما ادَّعاه اليهود من أنَّ النسخ يستلزم وصف الله بالنَّقص كذب.

٣- إقامة الحجَّة ممَّا يعتقد صحَّته، يعني أن تقيم الحجَّة على خصمك من شيءٍ يؤمن به ويعتقد صحته؛ كيف؟ أنَّ الله قال: {قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين}، التوراة التي أنتم تقرُّون بأنَّ ما فيها حقٌّ ائتوا بها واتلوها يتبيَّن أنَّ النسخ كان موجودًا فيها ومن قديم الزمان.

٤- أنَّ التوراة منزَّلة كالقرآن؛ وهذا يدلُّ على علوِّ الله جل وعلا وأنَّه فوق كلِّ شيء؛ وهذا هو عقيدة أهل السنة والجماعة، يقولون: إنَّ الله سبحانه وتعالى نفسه فوق كلِّ شيء؛ ليس الله فوق كلِّ شيءٍ في القدرة والسلطان والقهر فحسب، بل في هذا وفي نفسه فوق كلِّ شيء؛ ووجه دلالتها على علوِّ الله؛ أنَّ التوراة من عند الله والنازل يكون من أعلى إلى أسفل.

١- (قلت): الصواب من القول والله أعلم أن الخمر لم تكن حلالًا في يوم من الأيام بتشريع الهي، ولكن لمّا جاء الإسلام وجد الناس مدمنين على الخمر أشدَّ الإدمان فسكت عنه لحكمة الى حين؛ ومفهوم هذه الأية: {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا}، تدلُّ على أن الخمر مشروب غير مباح، وإذا كان قد ترك زمانًا فهو في هذه الأزمان كان محل عفو، حتى جاء التحريم القاطع الذي لا ريب فيه في آية سورة المائدة؛ لا كما قال بعضهم: أنَّ هذه الآية أحلَّ الخمر. (أنظر تفصيل الكلام عن هذه المسالة عند تفسير الآية (٢١٩) من سورة البقرة، والآية (٦٧) من سورة النحل).

٥- أنَّه ينبغي للإنسان أن يقابل الخصم بشيءٍ يقطع نزاعه بالكلية، حيث قال: {فاتلوها}، ولم يقل: نتلوها؛ قال: فاتلوها أنتم بأنفسكم حتى تقيموا الحجَّة على أنفسكم من أنفسكم؛ لو أنَّها أخذناها نحن وتلوناها ربما تقول أسقطت آية أو زدت آية، فإذا تلوتها أنت بنفسك انقطعت حجَّتك.

٦- أنه ينبغي للإنسان أن يتحدَّى خصمه بما تبيِّن به الحجَّة على وجه لا مفرَّ له منه؛ لقوله: {فاتلوها إن كنتم صادقين}، وهكذا ينبغي في المناظرة أنَّ الإنسان لا يأتي بحجَّة واهية؛ لأنَّه إذا أتى بحجَّة واهية ثم كسرت أمامه ضعفت عزيمته وبان خلله؛ وإذا أتى بحجَّة لا يمكن أن يلحقها احتجاج ونقص، صار هذا أقوى لعزيمته وأنكى لخصمه؛ كمحاجَّة إبراهيم للَّذي حاجَّه في ربه.

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ {٩٤}

قال ابن العثيمين: {فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك}: {من} عامَّة، يعني: أيُّ إنسان يفتري على الله الكذب؛ و{الافتراء}: معناه التقوُّل بغير حق، يعني أن تنسب إلى الشخص ما لم يقله، هذا افتراء؛ وقوله: {الكذب}: أي الإخبار بخلاف الواقع، لأنَّ الإخبار بالواقع يسمَّى صدقًا، وبما يخالف الواقع يسمَّى كذبًا؛ فمن قال بعد هذا البيان إنَّه لا يمكن أن تنسخ الشرائع بعضها ببعض يقول الله عز وجل: {فأولئك هم الظالمون}.

{أولئك}: المشار إليه {من افترى}؛ {هم الظالمون} الجملة اسمية؛ و{هم} ضمير فصل، وليس له محل من الإعراب، وإنَّما جيء به للفصل بين الخبر والصفة؛ وقد ذكرنا أنَّه يفيد ثلاثة أمور: التوكيد؛ والحصر؛ والفصل بين الخبر والصفة؛ فإذا قلت: (محمد هو الفاضل)؛ فأنت ترى أنَّ (هو) أكَّدت الجملة، وترى أيضًا أنَّها حصرت الفضل فيه؛ ومعلوم أنَّ محمدًا ﷺ أفضل الخلق؛ وأنَّها فرَّقت بين الخبر والصفة؛ لأنَّه لو قيل: محمد الفاضل لاحتمل أن يكون الفاضل صفة لمحمد وأنَّ الخبر لم يأت بعد؛ فإذا قيل: هو الفاضل فعيِّن أن تكون الفاضل خبرًا.

{فأولئك هم الظالمون}: يعني متَّصفين بالظلم؛ الظلم في الأصل هو النقص كما قال تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}: أي لم تنقص منه شيئًا؛ وهو في الحقيقة إمَّا تفريط في واجب، وإمَّا انتهاك في المحرَّم؛ الظلم يدور على شيئين: تفريط في واجب وانتهاك في محرَّم؛ وكلاهما نقص، لأنَّ المنتهك للمحرَّم أو المفرِّط في الواجب قد نقص الأمانة والرعاية، لأنَّه أمين على نفسه وراعٍ عليها، فإذا أقدم على فعلٍ محرَّم، فقد أخلَّ بما يجب عليه من الرعاية وخان الأمانة؛ وإذا فرَّط في الواجب فكذلك؛ ولهذا نقول: إنَّ الظلم يدور على أمرين: إمَّا تفريط أو انتهاك لمحرَّم.

قال ابن كثير: أي: فمن كذب على الله وادَّعى أنَّه شرعَ لهم السبت والتمسُّك بالتوراة دائمًا، وأنَّه لم يبعث نبيًّا آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيَّناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه {فأولئك هم الظالمون}.

قال السعدي: وأيُّ ظلم أعظم من ظلم من يُدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادًا وتكبُّرًا وتجبُّرًا، وهذا من أعظم الأدلَّة على صحَّة نبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ وقيام الآيات البيِّنات المتنوِّعات على صدقه وصدق من نبَّأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلَّا بإخبار ربِّه له بها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّه متى ظهر الحقُّ فحاصر الإنسان عنه صار أشدُّ ظلمًا؛ لقوله: {فمن افترى على الله كذبًا من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون} كأنَّه لا ظالم سواهم، كأنَّهم هم الذين أخذوا الظلم كلَّه؛ لأنَّه إذا قامت الحجَّة ما بقي للإنسان محجَّة، يعني ما بقي له أيُّ طريقٍ يمكن أن يتوصَّل إليه أو أن يفرَّ منه.

٢- أنَّ من عباد الله من يفتري الكذب على الله؛ والذي يفتري الكذب على الله يفتري الكذب على الرسول؟ من باب أَولى؛ والذي يفتري على الرسول يفتري على الناس من باب أَولى أيضًا؛ إذا افترى عليك إنسان شيئًا فلا تستغرب، افترى الناس على الله الكذب، وافتروا على الرسول الكذب، أفلا يفترون عليك؟! من أنت بالنسبة إلى الله ورسوله؟.

٣- أنَّه لا إثم مع الجهل؛ لقوله: {من بعد ذلك}: أي من بعد أن يتبيَّن الحقُّ؛ فهذا هو الظالم؛ أمَّا من ارتكب محرَّمًا قبل أن يتبيَّن له الحقُّ فإنَّه لا يلحقه إثم ذلك المحرَّم لاشك، لا في الواجبات ولا في المحرَّمات؛ من ارتكب شيئًا بغير علم فإنَّه لا إثم عليه ما لم يفرِّط لا في الواجبات ولا في المحرَّمات؛ ولكن بالنسبة للمحرَّمات لا يترتَّب عليه شيءٌ من آثارها أبدًا لا إثم ولا كفارة فيما فيه الكفارة، ولا شيء أبدًا؛ فلو أنَّ رجلًا فعل محظورًا من محظورات الإحرام وهو جاهل أنَّه محظور فلا شيء عليه؛ بل لو أنَّ الإنسان جامع وهو محرم يظن أنَّه لا شيء عليه في الجماع، فلا شيء عليه لا كفارة ولا غير ذلك؛ أمَّا في الواجبات إذا ترك واجبًا أو فعل ما يبطل ذلك الواجب وهو جاهل فلا إثم عليه؛ لكن يجب أن يتدارك هذا الواجب مادام في وقته؛ مثال ذلك: رجل جاءنا وقال: إنَّه صلى صلاة الظهر ولكنَّه ما قرأ الفاتحة، لم يعلم أنَّ الفاتحة واجب، فجاء يسألنا ماذا تقولون نقول: لا إثم عليك، مع أنَّك لو تركت الفاتحة وأنت تعلم إنَّها واجبة لأثمت بلا شك، لأنَّ هذا من اتِّخاذ آيات الله هزوًا، لكن الآن لا إثم عليك؛ وهل يجب عليك أن يعيد الصلاة؟ يجب؛ لأنَّ ذمَّته الآن مشغولة بهذه الصلاة فلابدَّ أن يعيدها؛ أمَّا الصلوات الماضية فإنَّه لا يجب عليه إعادتها ولو كان قد ترك الفاتحة فيها؛ لأنَّه جاهل؛ والدليل على ذلك،

حديث المسيء في صلاته حيث قال له الرسول ﷺ: ((ارجع فصلِّ فإنَّك لم تصلِّ[١]))، ولم يأمره بإعادة أو بقضاء ما سبق من الصلوات.

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٩٥}

قال ابن العثيمين: {قل صدق الله}: {قل} الخطاب للرسول ﷺ؛ ويحتمل أن يكون الخطاب لكلِّ من يصحُّ توجُّه الخطاب إليه، أي: للرسول ﷺ ولغيره؛ فعلى القول الثاني لا إشكال فيه إذا قلنا إنَّ كلُّ واحدٍ من الناس يجب عليه أن يصدِّق الله فيقول صدق الله؛ وعلى القول الأول يكون الخطاب للرسول ﷺ مرادًا به الخطاب مباشرة للرسول وللأمَّة بالتَّبع لأنَّ الخطاب الموجَّه لإمام القوم خطاب للجميع؛ فلو قلت للقائد مثلًا اذهب إلى الجبل الفلانية وتحته جنود يمشون بأمره، صار هذا الأمر أمرًا له ولمن كان تابعًا له؛ والرسول ﷺ قائد الأمَّة وإمام الأمَّة، فإذا وجِّه إليه الخطاب كان موجِّها له ولأمَّته ما لم يكن دليل على التخصيص.

وقوله: {صدق الله}: جملة تتضمَّن الثناء على الله بالصدق؛ وقد قال الله تعالى: {ومن أصدق من الله قيلًا}، فلا أحد أصدق من الله؛ والصدق مطابقة الخبر للواقع؛ والكذب مخالفة الخبر للواقع؛ فإذا قلت: غربت الشمس وقد غربت فعلًا، فهذا صدق وإذا لم تغرب فهذا كذب؛ فإذًا الصِّدق موافقة الخبر للواقع، والكذب مخالفة الخبر للواقع. هل يضاف إلى ذلك مع اعتقاد الوقوع؟ بمعنى أنَّه لو أنَّ شخصًا أخبر بما يطابق الواقع ولكنَّه يعتقد في نفسه أنَّه كاذب فهل نقول إنَّ خبره هذا صدق أو كذب؟ هو صدق لأنَّه موافقٌ للواقع؛ لكن عليه إثم الكاذب إذا كان يعتقد هو أنَّه كاذب في ذلك؛ الكذب مخالفة الخبر للواقع؛ هل نقول بحسب اعتقاد المتكلِّم أو سواء كان موافقًا لاعتقاده أو لا؟ نعم سواء كان موافقًا لاعتقاده أو لا حتى لو اعتقد أنه صدق وقد خالف الواقع فهو كذب؛ ولهذا نقول: إنَّ اليهود الذين زعموا أنَّهم صلبوا المسيح عيسى بن مريم وإن كانوا يعتقدون الصِّدق فهم كاذبون، والنصارى الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة، هم أيضًا كاذبون وإن كانوا قد اعتقدوا الصِّدق؛ إذًا لا يشترط اعتقاد القائل موافقة ما أخبر به للواقع أو مخالفته للواقع؛ المهم أنَّ هذا الخبر إن وافق الواقع فهو صدق وإن اعتقد قائله أنَّه كاذب؛ وإن خالف الواقع فهو كذب وإن اعتقد قائله أنَّه صادق.

قلنا: إنَّ {صدق الله}، جملة خبرية تتضمَّن الثناء على الله؛ وإذ كانت تتضمَّن الثناء على الله فهي عبادة؛ فقول القائل: صدق الله، ثناء على الله تعالى بالصِّدق، فهي عبادة؛ لأنَّ كلَّ ثناءٍ على الله، فهو ذكرٌ لله وتعبُّدٌ له؛ {صدق الله} بأيِّ شيء؟ لم يذكر

١- (قلت): البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٨٩).

الخبر الذي حكم عليه بالصِّدق، فيكون ذلك عامًّا شاملًا، أي صدق الله في كلِّ شيء، كلُّ ما أخبر الله به فهو صدقٌ؛ ومن ذلك ما أخبر به ممَّا أحلَّ لبني إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه.

قال السعدي: {قل صدق الله}: أي فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلَّة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها، ومن هنا تعلم أنَّ أعظم الناس تصديقًا لله أعظمهم علمًا ويقينًا بالأدلَّة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم أمرهم باتِّباع ملَّة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أنَّ اليهود وغيرهم ممَّن ليس على ملَّة إبراهيم مشركون غير موحدين.

قال ابن العثيمين: {فاتَّبعوا ملَّة إبراهيم حنيفًا}: {فاتَّبعوا} الخطاب للأمَّة، كما أنَّ الله أمر نبيه ﷺ بذلك في قوله: {ثم أوحينا إليك أن اتَّبع ملة إبراهيم حنيفًا}، فالنبي ﷺ مأمور بأن يتَّبع ملَّة إبراهيم حنيفًا، وكذلك نحن مأمورون بأن نتَّبع ملَّة إبراهيم حنيفًا؛ والملَّة هي الشريعة التي يكون عليها الإنسان؛ فكلُّ شريعةٍ يكون عليها الإنسان فهي ملَّة([1])؛ فالإسلام ملَّة واليهودية ملَّة والنصرانية ملَّة؛ وقد جاء في الحديث: ((لا يتوارث أهل ملَّتين شتَّى([2]))): أي مفترقتين؛ وقوله: {ملَّة إبراهيم}، هل المراد إتِّباع هذه الملَّة في كلِّ الشرائع والشعائر أو في الأصل فقط وهو التوحيد؟ المراد هذا الثاني، يعني: اتَّبعوا ملَّة إبراهيم في التوحيد وعدم الشرك؛ ولهذا قال: {حنيفًا وما كان من المشركين} {حنيفًا}: أي مائلًا عن كلِّ شرك، {وما كان من المشركين}، هذه الجملة معطوفة على ما سبق من باب عطف المرادف على مرادفه؛ فالحنيف معناه المائل عن كلِّ شرك، {وما كان من المشركين}، توكيد لذلك؛ وإذا انتفى الشرك في ملَّة إبراهيم لزم من ذلك أن يكون مخلصًا في التوحيد وهو كذلك؛ ولهذا يسمَّى إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء؛ وقوله: {حنيفًا}: يعني مائلًا عن كلِّ شرك، ثم قال: {وما كان من المشركين}: أي الذين يدخلون الشرك في عبادتهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب تصديق الله عز وجل في كلِّ ما أخبر به؛ لقوله: {قل صدق الله}.

٢- وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات؛ وهذا يستلزم تحريم تغييرها عن المراد بها، أي تغيير النصوص التي أخبر الله بها عن نفسه من الأسماء والصفات.

١- (قلت): أنظر كلام القرطبي عن معنى (الملَّة) عند تفسير الآية (١٢٠) من سورة البقرة.

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٦١٤).

٣- وجوب اتِّباع ملَّة ابراهيم؛ لكن في أصل الشرائع. فإن قال قائل: ما الدليل على تقييدكم إيَّاها بأصل الشرائع مع أنَّ الآية عامَّة؟ قلنا: الدليل قوله تعالى: {لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا}، فدلَّ ذلك على أنَّ الشرائع تختلف بحسب حاجات الناس ومصالحهم؛ أمَّا أصلها وهو التوحيد، فإنَّ جميع الشرائع تتَّفق فيه {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلَّا نوحي إليه أنَّه لا إله إلَّا أنا فاعبدون}.

٤- الثناء على ابراهيم عليه الصلاة والسلام بأنَّه حنيف وإمام، ولهذا أُمِرنا بإتِّباعه.

٥- أنَّه يجب على الإنسان أن يتَّبع الحقُّ أين ما كان؛ سواء كان من الرسول الذي أرسل إليه مباشرةً، أو من الرسل السابقين.

٦- انتفاء الشرك عن ابراهيم انتفاءً كاملًا؛ لقوله: {حنيفًا وما كان من المشركين}. هل يؤخذ من هذا ذمُّ الشرك والنهي عن اتِّباعه؟ كيف ذلك؟ لأنَّ الأمر بالشيء نهي عن ضدِّه؛ فإذا أُمِرنا بالإخلاص فهذا يستلزم أنَّنا منهيُّون عن الإشراك.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ {٩٦}

قال ابن العثيمين: {إنَّ أوَّل بيت وضع للناس}: أي وضع لعبادة الناس، وليس أوَّل بيتٍ وضع في الأرض، يعني ممَّا يبنى، ولكنَّه أوَّل بيتٍ وضع للناس للعبادة والتعبُّد؛ {للَّذي ببكَّة}: وهو الكعبة زاده الله تشريفًا وتعظيمًا؛ و{بكَّة}: اسم من أسماء مكة، وقالوا: سمِّيت بذلك لأنَّها تبك أعناق الجبابرة، أي تقطعها؛ وقيل: لأنَّه لا يوصل إليها إلَّا بمشقَّة وتعب؛ وقيل غير ذلك؛ ولكن المهم أنَّ المراد ببكَّة مكة؛ وقد ذكرها الله تعالى بهذا الاسم، وذكرها في سورة الفتح باسم مكة في قوله: {وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكَّة}، إذًا فله أسماء من القرآن، أمَّا القرية فهي اسم جامد لمكَّة وغيرها، كما قال الله تعالى: {وكأيِّن من قرية هي أشدُّ قوةً من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم}.

قال السعدي: يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنَّه أوَّل بيت وضعه الله للناس، يتعبَّدون فيه لربِّهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: {مباركًا}: أي فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى: {ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام}.

قال ابن العثيمين: {مباركًا}: أي أنَّ فيه البركة؛ وبركاته متعدِّدة؛ فمن ذلك أنَّ من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمَّه، ومن ذلك أنَّ الحسنات فيه مضاعفة؛ ولهذا قال أهل العلم إنَّ العبادة فيه أفضل من العبادة في غيره سواء كانت صلاة أم صدقةً أم صيامًا أم غير ذلك؛ ومن بركته أيضًا أن تجبى إليه ثمرات كلِّ شيء فإنَّ مكة يأتيها رزقها رغدًا من كلِّ مكان؛ ومن بركته أيضًا أنَّ فيه ماءً من شربه لأيِّ شيءٍ بنية صادقة فإنَّه يكون له، وهو ماء زمزم فقد قال النبي ﷺ: ((ماء زمزم لما شرب

له[١])). ومن بركته ما يحصل من المكاسب التي تكون فيه أيَّام المواسم وغير أيَّام المواسم؛ ومن بركته أنَّه بعث فيه محمد ﷺ الذي جعل الله شريعته أفضل شريعة كانت للخلق.

{وهدًى للعالمين}: أي منارًا يُهتدى به؛ لأنَّه يجتمع فيه المسلمون من كلِّ جانب يأوون إليه من كلِّ فجٍّ عميق فيهتدي الضَّال منهم بالمهتدي، ويحصل له التعليم والأسوة الحسنة؛ وكذلك أيضًا {هدًى للعالمين}، لأنَّ الأمَّة الإسلامية كلُّها تأوي إليه وتتَّجه إليه في كلِّ يوم خمس مرات وجوبًا، يعني يجب أن نولِّي وجوهنا كل يوم خمس مرات على الأقل؛ ومن هدايته للعالمين أنَّ فيه إقامة الحج وإقامة العمرة، وذلك هدى، لأنَّ الأمَّة تزداد إيمانًا وهدًى بالحج والعمرة.

قال السعدي: والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبُّدات المختصَّة به، وأمَّا هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحقِّ بسبب الآيات البيِّنات التي ذكر الله تعالى في قوله {فيه آيات بيِّنات}.

قال ابن العثيمين: {للعالمين} المراد بهم الإنس؛ فهو عام أريد بهم الخاص، وليس المراد بهم من سوى الله، لأنَّ العالمين في بعض المواضع يراد بها من سوى الله، وفي بعض المواضع يراد به الإنسان فقط، وقد يراد بها الإنس والجن مثل قوله تعالى: {تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا}، وسمُّوا عالمين من العلامة، لأنَّهم علم على خالقهم؛ فإنَّ هؤلاء البشر بل وهذا المخلوقات كلُّها تدلُّ على خالقها؛ ففي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنَّه واحد.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ أوَّل بيتٍ وضع للعبادة هو الكعبة الذي ببكَّة؛ فيكون سابقًا على بيت المقدس؛ وآخر بيت وضع للعبادة المسجد النبوي؛ وهذه المساجد الثلاثة التي تشدُّ إليها الرِّحال كما قال النبي ﷺ: ((لا تَشدُّ الرِّحال))، إن قلنا: لا تَشُدَّ الرِّحال؛ وإن قلنا: لا تُشَدُّ الرِّحال فهي بالضم؛ ((إلَّا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى[٢]))).

٢- فضيلة هذا البيت بكونه أوَّل بيتٍ وضع للناس.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١١٢٣)، وقال: أخرجه أحمد (٣/٣٥٧ ، ٣٧٢)، وابن ماجه (٣٠٦٢)، والعقيلي فى الضعفاء (ص ٢٢٢)، والبيهقي (٥/١٤٨)، والخطيب فى تاريخ بغداد (٣/١٧٩)، والأزرقي فى أخبار مكة (٢٩١) من طرق سبع عن ابن المؤمل به.

٢- (قلت): البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧). وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٧٧٣)، وقال: حديث: ((لا تشدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد ...)) صحيح متواتر.

٣- أنَّ الكعبة معظَّمة عند جميع الناس، عند جميع الخلق؛ لأنَّه إذا كان أوَّل بيتٍ وضع للناس فسوف يعظِّمه الناس؛ ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى أنَّ القبلة هي الكعبة لليهود والنصارى والمسلمين وجميع أهل الأديان كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ ولكنَّ اليهود صاروا يتَّجهون إلى بيت المقدس، والنصارى صاروا يتَّجهون إلى المشرق وهو من جملة ما حرَّفوه من دينه وإلَّا فالأصل أنَّ الكعبة قبلة لجميع الناس.

٤- أنَّ تقدُّم المكان في العبادة له أثر في تفضيله؛ لقوله: {إنَّ أوَّل بيتٍ وضع للناس للذي ببكَّة} وهذا المراد به التفضيل؛ ولهذا قال العلماء: إنَّ المسجد الأسبق في إقامة الجماعة فيه أفضل من المسجد الحديث؛ فإذا كان حول الإنسان مسجدان أحدهما قديم والآخر جديد ولم يميز أحدهما عن الآخر فضيلة أخرى، فإنَّ القديم أفضل من الجديد لسبقه في العبادة فيه.

٥- الرَّدُّ على بني إسرائيل؛ وهو أنَّ محمدًا ﷺ بعث من البلد الذي فيه أول مسجد وضع للناس، وأنبياء بني إسرائيل بعثوا في بيت المقدس؛ فيكون في هذا ردٌّ على اليهود الذين يقدِّسون بيت المقدس، وكذلك النصارى الذين يقدِّسونه؛ فقيل لهم: إنَّ الكعبة التي بعث منها رسول ﷺ أفضل من بيت المقدس.

٦- أنَّ الناس لابدَّ لهم من بيت يجتمعون إليه وتهوي قلوبهم إليه؛ ولهذا وضع الله لهم ما كان بمكة.

٧- أنَّ من أسماء مكة بكَّة؛ ولها أسماء كثيرة ذكرها من تكلَّموا في تاريخ مكة، ومن أراد الاطِّلاع عليها فليرجع إلى (الجامع اللطيف في بناء البيت الشريف) أو نحو هذا العنوان؛ أو يرجع إلى (أخبار مكة) للأزرقي.

٨- أنَّ هذا البيت مبارك؛ مبارك قدرًا ومبارك شرعًا؛ وقد مرَّ علينا في التفسير بيان وجوه بركته؛ لقوله: {مباركًا}.

٩- أنَّ هذا البيت هدًى ومنارًا للعالمين، يعني أنَّ الناس يهتدون به لما يقيمونه من الشعائر، أو يهتدون به حيث يتوجَّهون إليه في صلواتهم، ويهتدون إليه ويئمُّونه في عباداتهم؛ وقد جاء في الحديث: ((الكعبة قبلتكم أحياءً وأمواتًا([1]))).

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ {٩٧}

قال ابن العثيمين: {فيه آيات بيّنات}: {فيه} الضمير يعود على قوله: {للّذي ببكَّة}: يعني على البيت الذي ببكَّة؛ {آيات}: أي علامات، {بيّنات}: واضحات؛ هذه الآيات البيّنات هي ما يشرع فيه من المناسك، والمواضع بهذه المناسك، وهي قائمة لم تزل من عهد ابراهيم إلى يومنا هذا كلُّها آياتٌ علاماتٌ؛ فعرفة هي عرفة، ومزدلفة مزدلفة، ومنى منى لم تزل

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٧٤٨).

هكذا من عهد ابراهيم إلى اليوم؛ والكعبة هي الكعبة، يعني ليس هذا البيت خفيًّا لا يعلم الناس به، بل لم يزل مشهورًا بيِّنًا من عهد ابراهيم إلى يومنا هذا.

قال السعدي: {فيه آيات بيِّنات}: أي أدلَّة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلَّة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما منَّ به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات {مقام إبراهيم}.

قال ابن العثيمين: {مقام إبراهيم} بدل من {آيات}، أو عطف بيان؛ ومقام ابراهيم مكان قيامه؛ فهل المراد بذلك الحجر المسمَّى بالمقام؟ لقوله ﷺ: ((واتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى[1]))، حين تقدم إليه بعد انتهاء الطواف؛ أو المراد بالمقام مقامه في المناسك عمومًا؟ على قولين لأهل العلم؛ فمنهم من قال: إنَّ المراد به المقام الخاص، وهو الحجر الذي صار يرتفع عليه حين ارتفع بناء الكعبة؛ أو أنَّ المراد به كلَّ مقامٍ قامه في مناسك الحج؛ وإذا دار الأمر بين العموم والخصوص فالأَولى الأخذ بالعموم، لأنَّ الأخذ بالعموم يتناول الخاص ولا عكس؛ وعلى هذا فيقال: مقام ابراهيم مكان قيامه في مناسك الحج؛ وهذا المقام موجود من عهد إبراهيم إلى أن بعث الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا ولم يتغيَّر إلَّا بحميَّة الجاهلية حميَّة قريش فإنَّهم غيَّروا الوقوف بعرفة وجعلوه بمزدلفة، وقالوا نحن أهل الحرم ولا يمكن أن نخرج إلى الحلّ، والخروج إنَّما يكون من أهل الحلّ؛ ولهذا كانت قريش في يوم عرفة لا تقف بعرفة، تقف في المزدلفة حتى يأتي الناس إليها؛ فأمر الله تعالى أن أفيضوا من حيث أفاض الناس، يعني أن يفيضوا من عرفة، ودلَّ على ذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: ((فأجاز حتى أتى عرفة[2]))، أجاز ﷺ حتى أتى عرفة فوقف بها لأنَّها هي التي كانت على زمن إبراهيم.

قال السعدي: والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمُّل كلَّ مشقَّة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها.

{ومن دخله كان آمنًا} {من دخله} أي من دخل هذا البيت كان آمنًا؛ والمراد الضمير في قوله: {من دخله}: المراد به جميع الحرم وإن كان ظاهره أنَّ المراد به نفس البناء الذي هو الكعبة، لكنَّ السُّنَّة دلَّت على أنَّ الحكم عام في جميع الحرم.
وقوله: {من دخله كان آمنًا}، هل هذه الجملة تابعة لقوله: {فيه آياتٌ بيِّنات}، فتكون خبرًا عن حال هذا البيت؟ أو أنَّها جملة إنشائية معنًى، يعني أنَّ الله تعالى أمر بأن يكون الداخل له آمنًا على قولين لأهل العلم؛ فمنهم من قال: إنَّ هذه الجملة تابعة لما سبق أي تابعة لقوله: {مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا}، فتكون من الآيات البيِّنات، وهي أمن من دخله حتى في زمن الجاهلية. ومن العلماء من قال: إنَّها جملة مستأنفة وهي خبرية لفظًا إنشائية معنًى، أي من دخله فليكن آمنًا ولا يتعرَّض

١- (قلت): مسلم (١٢١٨)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١١١٩).
٢- (قلت): مسلم (١٢١٨)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٥٩٤).

له؛ وعلى كلِّ حال فإنَّ المعنيين يتَّفقان في وجوب تأمين من دخله؛ لأنَّه وإن كان خبرًا عمَّا كان عليه البيت، فإنَّه خبر أقرَّه الله عز وجل وأتى به للاستدلال على الآيات البيِّنات التي في هذا البيت؛ وإن كانت إنشائية فالأمر واضح.

قال السعدي: ومن الآيات البيِّنات فيها أنَّ من دخله كان آمنًا شرعًا وقدرًا، فالشرع قد أمر الله رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج([١])، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها([٢])وأشجارها ونباتها، وقد استدلَّ بهذه الآية من ذهب من العلماء أنَّ من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنَّه يأمن ولا يقام عليه الحدُّ حتى يخرج منه، وأمَّا تأمينها قدَرًا فلأنَّ الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس – حتى نفوس المشركين به الكافرين بربِّهم – احترامه، حتى إنَّ الواحد منهم مع شدَّة حميَّتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، ومن جعله حَرَمًا أنَّ كلَّ من أراده بسوء فلابدَّ أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم.

قال ابن العثيمين: {كان آمنًا} يعني آمنًا من أبناء جنسه، وليس آمنًا من عذاب الله، ولا آمنًا ممَّا يريده الله منه، لكنَّه آمن من بني جنسه، حتى إنَّ قاتل أب الإنسان يراه الإنسان في مكَّة ولا يتعرَّض له حتى يخرج، هكذا كان محترمًا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٢٠١ لما سُئِلَ – رَحِمَهُ اللَّهُ –: عَنْ قَوْله تَعَالَى: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} الْمُرَادُ بِهِ أَمْنُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ الْكُفْرِ عِنْدَ عَرْضِ الْأَدْيَانِ؟ أَمْ الْمُرَادُ بِهِ إذَا أَحْدَثَ حَدَثًا لَا يُقْتَصُّ مِنْهُ مَا دَامَ فِي الْحَرَمِ؟.

فَأَجَابَ: التَّفْسِيرُ الْمَعْرُوفُ فِي أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَرَمَ بَلَدًا آمِنًا قَدْرًا وَشَرْعًا، فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَسْفِكُ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ خَارِجَ الْحَرَمِ، فَإِذَا دَخَلُوا الْحَرَمَ، أَوْ لَقِيَ الرَّجُلُ قَاتِلَ أَبِيهِ، لَمْ يَهْجُرُوا حُرْمَتَهُ، فَفِي الْإِسْلَامِ كَذَلِكَ وَأَشَدُّ.

لَكِنْ لَوْ أَصَابَ الرَّجُلُ حَدًّا خَارِجَ الْحَرَمِ ثُمَّ لَجَأَ إلَيْهِ فَهَلْ يَكُونُ آمِنًا لَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ فِيهِ أَمْ لَا؟ فِيهِ نِزَاعٌ. وَأَكْثَرُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ يَكُونُ آمِنًا، كَمَا نُقِلَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالْإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا.

وَقَدْ اسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَبِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدِ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدِ بَعْدِي وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُولُوا: إنَّمَا أَحَلَّهَا اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يُحِلَّهَا لَكَ([٣]))). وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّسُولَ إنَّمَا أُبِيحَ لَهُ فِيهَا دَمُ مَنْ كَانَ مُبَاحًا فِي الْحِلِّ وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ أُبِيحَ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ. وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ {وَمَنْ دَخَلَهُ}، الْحَرَمُ كُلُّهُ.

قال ابن العثيمين: {ولله على الناس حجُّ البيت}: فيها قراءتان: {حِج}، و{حَج }، وهم بمعنى واحد؛ اللام للاستحقاق في قوله: {ولله} و{على} للوجوب، أي يجب على الناس حقًّا لله أن يحجُّوا البيت، {حجُّ البيت}: أي قصده؛ لأنَّ الحج في اللغة القصد، والمراد به قصده على الوجه الذي شرعه الله بأن يأتيَ الإنسان بالمناسك المشروعة.

١– (قلت): لا يهاج: لا يردُّ.

٢– (قلت): صيودها: ما يصطاد فيها.

٣– (قلت): البخاري (١١٣)، ومسلم (١٣٥٤/٤٤٦).

قال ابن كثير: هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: {وأتمُّوا الحجَّ والعمرة لله}[البقرة: ١٩٦]، والأول أظهر. وقد وردت الأحاديث المتعدِّدة بأنَّه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريا، وإنَّما يجب على المكلَّف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع.

وعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: ((أيُّها الناس، قد فرض عليكم الحجَّ فحجُّوا)). فقال رجل: أكلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله ﷺ: ((لو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم)). ثم قال: ((ذروني ما تركتكم، فإنَّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه([1]))).

عن سراقة بن مالك قال: يا رسول الله، متعتُنا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ قال: ((لا بل للأبد)). وفي رواية: ((بل لأبد الأبد)). وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، من حديث واقد بن أبي واقد الليثي، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال لنسائه في حجَّته هذه: ((ثم ظهور الحصر – يعني ثم الزمن ظهور الحصر – ولا تخرجنَّ من البيوت([2]))).

قال ابن العثيمين: {من استطاع}: {من} هذه بدل من {الناس}، بدل بعض من كل؛ وذلك لأنَّ الناس قسمان: مستطيع وغير مستطيع؛ فالمستطيع بعض من الناس؛ ولهذا قلنا إنَّ هذا البدل بدل بعض من كل؛ والبدل البعض من الكلِّ كثير في اللغة العربية تقول مثلًا: أكلت الرغيف ثلثه؛ هذا بدل بعض من كل؛ وقال الله تعالى: {قم الليل إلَّا قليلًا نصفه أو انقص منه قليلًا أو زد عليه}، إذا جعلنا نصفه بدلًا من الليل فهو بدل بعض من كل؛ وقد يبدل الكلُّ من البعض لكنَّه قليل في اللغة؛ ومنه قول الشاعر: رحم الله أعظما دفنوها ... بسجستان طلحة الطلحات

الشاهد قوله: طلحة بدل من أعظم، والأعظم بعض الإنسان. قال: {ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلًا}: أي من استطاع طريقًا إلى البيت ووصولًا إليه؛ والاستطاعة يعني بذلك القدرة يعني بها القدرة؛ فمن لم يستطع فلا حجَّ عليه.

فإن قال قائل: هذا الشرط ثابت في كلِّ عبادة؛ لقوله تعالى: {فاتَّقوا الله ما استطعتم}، فلماذا قيَّد وجوب الحج بالاستطاعة مع أنَّه شرط مفهوم معلوم؟ فالجواب عن ذلك: أنَّه لمَّا كان الوصول إلى البيت أشقُّ بكثير من العبادات الأخرى نص على اشتراط الاستطاعة، وإلَّا فلاشك أنَّ كلَّ العبادات لا تجب إلَّا باستطاعة {اتَّقوا الله ما استطعتم}، ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))؛ هل المراد الاستطاعة بالبدن أو بالمال أو بهما؟ نقول: الآية مطلقة فمن استطاع الوصول ببدنه وجب عليه وإن لم يكن عنده مال، كما لو استطاع أن يمشي إلى مكة ويأتي بأفعال المناسك؛ ومن استطاع بماله دون بدنه وجب عليه الحجُّ لكن عن طريق الاستنابة؛ ومن كان عنده مال وهو قادر بالبدن، فالحج عليه واجب ولا إشكال؛ إذًا الاستطاعة لا نقيِّدها بالبدن والمال فقط، بل نقول: سواء استطاع ببدنه أو بماله أو بهما؛ فإن عجز بماله وبدنه بأن كان فقيرًا ولا يمكنه أن يحجَّ

١– (قلت): البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

٢– صحيح: أخرجه أبي داود (١٧٢٢)، وأحمد في مسنده (٢/٤٤٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٠٠٨).

لضعف في بدنه فهنا ينتفي عنه الوجوب؛ لأنَّه غير قادر؛ إذًا القادر بماله أو بدنه أو بهما؛ والقدرة هي القدرة الحسية، أمَّا القدرة الشرعية ففيها خلاف؛ فمنهم من قال إنَّه يشترط أيضًا الاستطاعة الشرعية؛ فلو كان هناك امرأة غنية قادرة ببدنها لكن ليس لها محرم فإنَّ الحج لا يجب عليها؛ لماذا ؟ لأنَّها عاجزة شرعًا عن الحج؛ أمَّا حسًّا فليست بعاجزة لأنَّها عندها مال، وعندها قدرة بدنية، لكنَّها عاجزة شرعًا لعدم وجود المحرم، وسفر المرأة بلا محرم ولو للحج غير جائز لأنَّ النبي ﷺ لمَّا خطب وقال: ((لا تسافر امرأة إلَّا مع ذي محرم[١]))، سأله رجل وقال: إنَّ امرأتي خرجت حاجَّة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا فقال: ((انطلق فحج مع امرأتك[٢]))؛ اختلف العلماء في هذه المسألة في مسألة الإستطاعة الشرعية هل هي شرط للوجوب أو شرط للأداء؛ ويختلف الحكم باختلاف القولين؛ فإذا قلنا إنها شرط للأداء فقط، لزم المرأة أن تنيب من يحجُّ عنها إذا كانت قادرة بمالها وبدنها؛ أمَّا الأداء فلا يلزمك لأنَّك لا تستطيعين ذلك شرعًا؛ وإذا قلنا إنَّه أي الاستطاعة الشرعية شرط للوجوب فإنَّ هذه المرأة لا يلزمها أن تنيب من يحجُّ عنها؛ هذا فرق. والفرق الثاني: لو ماتت هذه المرأة القادرة بمالها وبدنها على الحج، لكن ليس لها المحرم، لو ماتت فهل يكون الحج دَينًا في تركتها فيلزم الورثة أن يقيموا من يحجُّوا عنها أو لا؟ نقول: بأنَّ الاستطاعة الشرعية شرط للوجوب فإنَّه لا يلزم الورثة أن يقيموا من يحجُّوا عنها؛ لأنَ هذه المرأة كالمرأة الفقيرة سواء، ليس عليها حج؛ وإن قلنا بأنَّه شرط للأداء لزم على الورثة أن ينيبوا من يحجُّ عنها، أو أن يحجُّوا هم بأنفسهم عنها؛ المهم أنَّه يلزمهم إذا خلَّفت مالًا.

{ومن كفر فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين}: يعني أنَّ من حجَّ البيت عند الاستطاعة فقد أدَّى فريضته؛ {ومن كفر}: يعني فلم يحج فكفر هذه الفريضة ولم يقم بها، {فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين}: عن كلِّ أحد؛ لأنَّ المراد بالعالمين هنا من سوى الله فهي كقوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين}، وقد يطلق العالم على بعض أفراده مثل قوله تعالى: {تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا}: فإنَّ المراد بالعالمين هنا الإنس والجن، فإنَّ الرسول ﷺ لم يرسل إلى البهائم، وإلى الملائكة، وإنَّما أرسل إلى الإنس والجن فقط؛ فالعالمون تارةً يراد بها ما سوى الله، وتارةً يراد بها بعض منهم حسب ما يقتضيه السياق والمعنى.

وقوله: {ومن كفر}: الجملة هنا {من} يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، ويحتمل أن تكون شرطية؛ أمَّا على كونها شرطية، فالفاء في قوله: {فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين}، رابطة؛ وإنَّما احتيج إليها لأنَّ جواب الشرط جملة اسمية؛ وأمَّا على كون {من} اسمًا موصولًا، فإنَّما وقعت الفاء في خبرها، لأنَّ الاسم الموصول مشبَّه للشرط في عموم فيعطى حكمه، يعني: (والذي كفر فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين)؛ وفي قوله: {غنيٌّ عن العالمين}، إظهار في موضع الإضمار؛ لأنَّ مقتضى السياق أن يقول: (ومن

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٩٩٥)، وقال: حديث ابن عباس: ((لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم)). رواه أحمد بإسناد صحيح (ص ٢٤٠).

٢- (قلت): البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٨١٣).

كفر فإنَّ الله غنيٌّ عنه)؛ كما في قوله تعالى في آية أخرى: {إن تكفروا فإنَّ الله غنيٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر}؛ فهنا قال: {غنيٌّ عن العالمين}. والإظهار في موضع الإضمار ذكرنا أنَّه يفيد عدَّة فوائد:

منها: إرادة العموم؛ لأنَّه لو قال: (فإنَّ الله غنيٌّ عنه)؛ لم تفد في العموم ما أفاده قوله: {غنيٌّ عن العالمين}.

ومنها: الإشارة إلى أنَّ هذا الذي وضع فيه الظاهر في موضع المضمر من هؤلاء العالمين؛ يعني: (أن الله غنيٌّ عنه كما أنَّه غني عن جميع العالمين).

ومنها: لكن لا يستقيم هنا القياس عليه في العلَّة والمعنى الذي أفاده هذا الظاهر.

قال السعدي: وقد رأيت لابن القيم هاهنا[١] كلامًا حسنًا أحببت إيراده لشدَّة الحاجَّة إليه قال: (فائدة بديعة)

{ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلًا} {حجُّ البيت}: مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: {على الناس} لأنَّه وجوب، والوجوب يقتضي {على} ويجوز أن يكون في قوله: {ولله} لأنَّه متضمِّن الوجوب والاستحقاق، ويرجِّح هذا التقدير أنَّ الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نيَّة التأخير، فكان الأحسن أن يكون {ولله على الناس}. ويرجِّح الوجه الأول بأن يقال قوله: (حج البيت على الناس) أكثر استعمالًا في باب الوجوب من أن يقال: (حج البيت لله): أي حقٌّ واجبٌ لله، فتأمَّله. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأوَّل وليس بخبر فائدتان:

إحداهما: أنَّه اسم للموجب للحج، فكان أحقَّ بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمَّنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره، والثاني: مؤدِّي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحقُّ المتعلِّق به إيجابًا، وبهم وجوبًا وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أنَّ الاسم المجرور من حيث كان اسمًا لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفًا من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأمَّا قوله: {من} فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنَّها فاعل بالمصدر، كأنَّه قال: (أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلًا)، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أنَّ الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنَّه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأنَّ المعنى يؤل إلى: (ولله على الناس حج البيت مستطيعهم)، فإذا أدَّى المستطيعون الواجب لم يبق واجبًا على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كلِّ أحد، حجَّ المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حجَّ سقط الفرض عن نفسه، وليس حجُّ المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلُّق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت

١- (قلت): في بدائع الفوائد (ج٢ص٤٢).

واجب على الناس كلّهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلِّقًا بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: (ولله حجُّ البيت على المستطيعين)، هذه النكتة البديعة فتأمَّلها.

الوجه الثاني: أنَّ إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلَّا بدليل منقول، فلو كان من هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: (ولله على الناس حج من استطاع)، وحمله على باب (يعجبني ضرب زيد عمرًوا) وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه. وإذا ثبت أنَّ {من} بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى {الناس} كأنَّه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه هاهنا أمور منها: أنَّ {من} واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدَّل منه فارتبطت به، ومنها: أنَّها موصولة بما هو أخصُّ من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعمُّ لقبُح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: (رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق منهم كان قبيحًا، لأنَّ الذاهب إلى السوق أعمُّ من الإخوة، وكذلك لو قلت: (البس الثياب ما حسن وجمل)، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأنَّ لفظ (ما حسن) أعمُّ من الثياب.

وباب البعض من الكلِّ أن يكون أخصَّ من المبدَّل منه، فإذا كان أعمُّ وأضفته إلى ضمير أو قيَّدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، وممَّا حسن حذف المضاف في هذه أيضًا مع ما تقدَّم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأمَّا المجرور من قوله {لله} فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنَّه نعت نكرة قدِّم عليها، لأنَّه لو تأخَّر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلِّقًا بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلَّق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لمَّا كان عبارة هاهنا عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلُّق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير، لأنَّه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدِّمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهيلي، وهذا بعيد جدًّا؛ بل الصواب في متعلِّق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله: {على الناس}: أي يجب لله على الناس الحج، فهو حقٌّ واجب لله، وأمَّا تعليقه بالسبيل وجعله حالًا منها، ففي غاية البعد فتأمَّله، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنَّه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرِّمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، وبلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو: {كتب عليكم الصيام}، {حرِّمت عليكم الميتة}، {قل تعالوا أتل ما حرَّم ربكم عليكم}، وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدَّال على تأكُّد الوجوب من عشرة أوجه، أحدها: أنَّه قدَّم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق و الاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (على) أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذانًا بأنَّه يجب الحج على أي: سبيل تيسَّرت، من قوت أو مال، فعلَّق الوجوب بحصول ما يسمَّى سبيلًا ثم

أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: {ومن كفر}: أي لعدم التزامه هذا الواجب وتركه ثمَّ عظَّم الشأن وأكَّد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حجِّ أحد، وإنَّما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكَّد ذلك بذكر اسم {العالمين} عمومًا، ولم يقل: (فإنَّ الله غنيٌّ عنه)، لأنَّه إذا كان غنيًّا عن العالمين كلِّهم فله الغنى الكامل التَّامُّ من كلِّ وجه بكلِّ اعتبار، فكان أدلُّ لعظم مقته لتارك حقِّه الذي أوجبه عليه، ثم أكَّد هذا المعنى بأداة {إن} الدَّالَّة على التأكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكُّد هذا الفرض العظيم. وتأمَّل سرُّ البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيده بتكرُّر الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمَّل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمَّن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلَّتين، اعتناءً به وتأكيد لشأنه، ثم تأمَّل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحجِّه وان لم يطلب ذلك منها، فقال: {إنَّ أول بيت} إلخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنَّه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرًا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنَّه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنَّه نفس الهدى، الرابع ما تضمَّن من الآيات البيِّنات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجِّه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكَّد بتلك التأكيدات، وهذا يدلُّ على الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلَّا إضافته إيَّاه إلى نفسه بقوله: {وطهِّر بيتي} لكفى بهذه الإضافة فضلًا وشرفًا، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقًا إلى رؤيته، فهذه المثابة للمحبِّين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا أبدًا، كلَّما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبًّا وإليه اشتياقًا، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد الطواف تداني
وألثم منه الركن أطلب برد ما ... بقلبي من شوق ومن هيمان
فو الله ما ازداد إلا صبابة ... ولا القلب إلا كثرة الخفقان
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى ... ويا منيتي من دون كل أمان
أبت غلبات الشوق إلا تقربا ... إليك فما لي بالبعاد يدان
وما كان صدى عنك صد ملالة ... ولي شاهد من مقلتي ولسان
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا ... فلبى البكا والصبر عنك عصاني
وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... سيبلى هواه بعد طول زمان

ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا ... دواء الهوى في الناس كل زمان
بلى إنه يبلى والهوى على ... حاله لم يبله الملوان
وهذا محب قاده الشوق والهوى ... بغير زمام قائد وعنان
أتاك على بعد المزار ولو ونت ... مطيته جاءت به القدمان

انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ في هذا البيت آيات بيِّنات ظاهرة لكلِّ أحد؛ منها: مقام ابراهيم؛ ومنها: من دخله كان آمنًا؛ ومنها: فريضة حجه على جميع الناس؛ فإنَّ هذه كلُّها آيات تدلُّ على أنَّ هذا البيت أشرف البيوت، كما أنَّه أوَّل بيت وضع للناس.

٢- أنَّ الآيات كما تكون شرعية، تكون كذلك حسية كونية؛ كما في هذه الآيات التي ذكرت للبيت العتيق.

٣- التنويه بفضل ابراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله: {مقام إبراهيم}، لأنَّ القول الراجح أنَّه ليس المراد بمقامه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة فحسب؛ بل كلُّ مقاماته في مكة وما حولها من المناسك.

٤- وجوب تأمين من دخل المسجد الحرام؛ لقوله: {ومن دخله كان آمنًا}، وقد حرَّم النبي ﷺ أن يسفك في مكة دم وأن يقطع فيها شجرة وأن ينفر صيدها فضلًا عن قتله؛ إذا رأيت الصيد في مكة على شجرة أو في فرجة فإنَّه لا يجوز لك أن تنفره منها؛ لأنَّ الرسول ﷺ قال: ((لا ينفر)) كلُّ ذلك من باب توطيد الأمن في مكة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قتال النبي ﷺ لأهل مكة؟ فالجواب: أن قتال الرسول ﷺ لأهل مكة من أجل توطيد أمنها، لأنَّ أهل مكة صاروا يتحكَّمون في البيت؛ ولهذا منعوا الرسول ﷺ من أداء العمرة في غزوة الحديبية؛ فكان في هذا الإحلال الذي أحلَّه الله لرسوله ﷺ في ذلك النهار كان في ذلك مصلحة لتوطيد الأمن في البيت، وحمايته من الظلمة كما قال الله تعالى: {وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلَّا المتَّقون ولكن أكثرهم لا يعلمون}، وأيضًا فإنَّ هذا الإحلال ليس إحلالًا مطلقًا بل هو إحلال مقيَّد؛ هي ساعة من نهار كما قال النبي ﷺ: ((إنَّما أحلَّت لي ساعة من نهار وإنَّها لم تحلُّ لأحدٍ بعدي))، فقد كان القتال فيها محرَّمًا ثم أُحِلَّ ثم عاد تحريمه إلى يوم القيمة[١].

٥- أنَّ حرمة المسلم أعظم من حرمة البيت؛ فالذين ينتهكون دماء المسلمين وأموال المسلمين أشدُّ من الذين ينتهكون حرمة البيت عند الله؛ لأنَّ حرمة المسلم أعظم عند الله تعالى؛ ودليل ذلك أن القتال في مكة محرَّم ولكنَّ الله قال: {فإن

١- (قلت): أنظر كلام الطبري عن (الأمان في الحرم)، عند تفسير الآيتين (١٢٥،١٢٦) من سورة البقرة.

قاتلوكم فاقتلوهم}؛ فلمَّا أرادوا هتك دماء المسلمين وقاتلوا المسلمين، أمر الله بقتلهم مع أنَّ في قتلهم انتهاكًا لأمن البيت؛ لكن لمَّا أرادوا الاعتداء على حرمة المسلم أبيحت دمائهم؛ ولهذا تجدون الآية الكريمة على القراءة المشهورة: {إن قاتلوكم فاقتلوهم}، ولم يقل: فقاتلوهم؛ وإن كان فيها قراءة فقاتلوهم لكنَّ المراد قاتلوهم حتى تقتلوهم؛ والقتل أبلغ من المقاتلة؛ اقتلوهم لأنَّ هم الذين انتهكوا حرمة البيت فلم يبق لهم حرمة.

٦- وجوب حجُّ البيت على من استطاع اليه سبيلًا؛ لقوله: {ولله على الناس حجُّ البيت}. ووجه الوجوب أنَّ {على} كما قال الأصوليون ظاهرة في الوجوب.

٧- أنَّ الحج لا يجب على غير المستطيع؛ لقوله: {من استطاع إليه سبيلًا}. وسبق لنا أنَّ الاستطاعة تكون بالمال والبدن وبهما جميعًا، يعني بالمال أو البدن أو بهما جميعًا على ما سبق.

٨- بيان رحمة الله عز وجل، حيث لم يفرض على عباده ما كان شاقًّا عليهم ولا يستطيعونه؛ لقوله: {من استطاع إليه سبيلًا}.

٩- أنَّ من لم يحج فهو كافر؛ لقوله: {ومن كفر فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين}. واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الكفر هل هو نوع من الكفر، أو هو الكفر المطلق؟ على قولين لأهل العلم وهما روايتان عن الإمام أحمد؛ فعلى القول بأنَّه الكفر المطلق، يكون من ترك الحج وهو مستطيع مرتدًّا خارجًا عن الإسلام يستتاب فإن تاب وإلَّا قتل؛ وعلى الثاني: أنَّ المراد بالكفر هنا نوع منه، فإنَّه لا يكفَّر؛ وهذا القول هو الذي عليه الجمهور من أهل العلم، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد وهو ظاهر ما روي عن الصحابة؛ كقوله ﷺ: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر([1]))، مع أنَّ قتال المسلم لا يخرج من الإيمان، كما قال الله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} إلى قوله: {إنَّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}، وهذا هو الأقرب أنَّ المراد بالكفر هنا نوعًا منه وليس الكفر المطلق.

١٠- بيان غنى الله عز وجل عن كلِّ أحد؛ فهو لم يأمر عباده بالعبادة من أجل أن ينتفع بها كما جاء في الحديث القدسي حديث أبي ذر الغفاري الطويل: ((يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضرِّي فتضروني يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئًا([2]))، فالله عز وجل غنيٌّ عنَّا إنَّما أمرنا ونهانا لتستقيم أمورنا وتصلح أحوالنا ونسعد في الدنيا والآخرة؛ أمَّا لو كنَّا على أفجر قلب رجل من الناس فإنَّ ذلك لا يضرُّ الله شيئًا؛ لكن لما كان بنو آدم قد أعطوا من العقل ما استحقُّوا به أن توجَّه إليهم التكاليف بالأمر والنهي صاروا أهلًا للأمر والنهي؛ ولهذا لا يوجَّه الأمر والنهي إلى البهائم؛ لأنَّها لم تعط عقولًا؛ فكان إعطاء العقل لبني آدم مقتضاه إلزامهم بالتكاليف حتى ينالوا السعادة في الدنيا والآخرة؛ أمَّا البهائم فآخر أمرها أن تكون ترابًا تبعث يوم القيمة ويقتص من بعضها لبعض ثم يقال: كوني ترابًا فتكون ترابًا.

١- (قلت): البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٦).

٢- (قلت): مسلم (٢٥٧٧)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣٤٥).

١١– أنَّه إذا كان الله غنيًّا عن العالمين لزم أن يكون العالمون مفتقرين إليه، وليس فيهم غنًى عن الله؛ وهو كذلك، فإنَّ الخلق مفتقرون إلى الله تعالى غاية الافتقار؛ ولهذا ينبغي لك أن تسأل ربك بلسان الحال أو لسان المقال كلَّ أمورك، استعن بالله في كلِّ أمورك، {إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين}، لا يغفل عن بالك تعلُّقك بالله سبحانه وتعالى في كلِّ شيء؛ وقد جاء في الحديث: ((ليسأل أحدكم ربه حتى شراك نعله[1]))، شراك النعل الزهيد الذي لا يساوي شيئًا لا تغفل عن سؤال الله إيَّاه، إمَّا بلسان الحال وإمَّا بلسان المقال.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ {٩٨}

قال ابن كثير: هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب، على عنادهم للحقِّ، وكفرهم بآيات الله، وصدِّهم عن سبيله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأنَّ ما جاء به الرسول حقٌّ من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشَّروا به ونوَّهوا به من ذكر النبي ﷺ الأمِّي الهاشمي العربي المكي، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد توعَّدهم الله تعالى على ذلك بأنَّه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقاتلتهم الرسول المبشَّر بالتكذيب والجحود والعناد.

قال ابن العثيمين: {والله شهيد على ما تعملون}، {شهيد}: أي شاهد، وأتى بصيغة المبالغة أو بصفة مشبَّهة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى شهيد على أعمالهم، وأعمالهم كثيرة؛ وإذا كثر المشهود عليه كثرت الشهادة؛ وقوله: {والله شهيد على ما تعملون}، يحتمل أنَّه داخل في ضمن التوبيخ في قوله: {لم تكفرون}، فيكون المعنى: (لم تكفرون بآيات الله مع علمكم بأنَّ الله تعالى شهيد على ما تعملون)؛ ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وأن يكون التوبيخ انتهى عند قوله: {لم تكفرون بآيات الله}، ثم استأنف فقال: {والله شهيد على ما تعملون}، فيكون في ذلك تهديد لهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله؛ بكون الله شهيدًا على ما يعملون، وإذا كان الله شهيدًا على ما يعملون فسوف يجازيهم عليه في الدنيا وفي الآخرة بما يستحقُّوه.

قال أبو زهرة: وقوله تعالى: {وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}: أي عالم علم المعاين الحاضر القائم الحاكم على ما يعملون دائمًا، سواء أكان العمل عمل القلب أم كان العمل عمل الجوارح.

والإنكار في الآية الكريمة منصبٌّ على كفرهم مع هذه الحال، والمعنى: يا أهل الكتاب الذين أوتوا علم النبوات لِمَ تكفرون بالأدلَّة القائمة على صدق رسالته، والحال أنَّ الله تعالى شهيد عالم معاين حاكم قوام على ما تعملون من خير ومن شر،

١– (قلت): حسنه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٢٢٥١)، والحديث بتمامه بهذا اللفظ: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعله إِذا انْقَطع)).

فالنص السامي يتضمَّن توبيخًا على الكفر، وتهديدًا بالعقاب الشديد على ما يعملون، لأنَّ الله تعالى إذا كان شهيدًا على ما يفعلون، وهو الحكم العدل القادر على الثواب والعقاب، فإنَّه بلا ريب مجازيهم على فعلهم، ومحاسبهم على مقاصدهم في أقوالهم وأفعالهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أمر النبي ﷺ أن يوبِّخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله؛ ويتعدَّى هذا الحكم إلى غيرهم. فيتفرَّع من هذه الفائدة: أنَّ كلَّ من كفر بآيات الله فهو مستحقٌّ للتوبيخ؛ وقد سبق لنا أنَّ الكفر بآيات الله يشمل الكونية والشرعية، وبيَّنَّا أنواع الكفر فيهما.

٢- إثبات شهادة الله سبحانه وتعالى على كلِّ ما يعمل بنو آدم؛ لقوله: {والله شهيد على ما تعملون}، و{ما}: اسم موصول يفيد العموم.

٣- تهديد من يكفر بآيات الله؛ لأنَّ مثل هذه الصيغة: {والله شهيد على ما تعملون}، يراد بها التوبيخ من فعل ما لا يرضي الله عز وجل بأنَّ الله شهيد عليه وسوف يجازيه على ذلك.

٤- إحاطة الله تعالى بكلِّ شيءٍ وأنَّه وسع كلَّ شيء؛ لقوله: {على ما تعملون}، فمن يحصي بني آدم من أهل الكتاب وغيرهم، ومن يحصي أعمالهم؟؛ لكنَّ الله عز وجل واسع عليم، يحصي كلَّ شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

وربما يستفاد من هذه الآية من قوله: {والله شهيد على ما تعملون}، أنَّه لا يحاسب العبد على ما حدَّث به نفسه، كما صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ: ((إنَّ الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلَّم به([1]))، فحديث النفس عن الوساوس التي تكون في الصدر لا يؤاخذ عليه الإنسان إلَّا إذا عمل وركن إليها واعتقدها وجعلها من أعمال القلب، فحينئذ يحاسب عليها؛ أو نطق بها بلسانه؛ أو عمل بمقتضاها بجوارحه فحينئذ يحاسب عليه.

١- (قلت): البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧) واللفظ له، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٢٠٦٢).

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {٩٩}

قال ابن العثيمين: {قل يا أهل الكتاب لم تصدُّون عن سبيل الله}: هذا أمر آخر للنبي ﷺ من ربه أن يوبِّخ أهل الكتاب على عدوانهم لغيرهم؛ لأنَّ التوبيخ الأول: {لم تكفرون بآيات الله}، توبيخ على عملهم القاصر عليهم؛ الثاني: {قل يا أهل الكتاب لم تصدُّون عن سبيل الله}، توبيخ على عدوانهم على الغير، حيث يصدُّون عن سبيل الله؛ قال: {لم تصدُّون عن سبيل الله}: يعني لأيِّ شيءٍ وبأيِّ حجَّة، {تصدُّون}: أي تصرفون، {عن سبيل الله}: أي عن دينه وعن شريعته؛ وسمِّيَ الدين سبيلًا لله لأنَّه موصل إليه، وأضيف إلى الله لوجهين: الوجه الأول: أنَّ الله هو الذي وضعه سبيلًا للخلق يمشون عليه؛ والوجه الثاني: أنَّه موصل إلى الله؛ فمن سلك السبيل الذي وضعه الله للعباد فسيصل إلى الله عز وجل؛ إذًا المراد بسبيل الله دينه؛ لأنَّه الطريق الموصل إليه.

{من آمن}: {من} هذه مفعول، {تصدُّون}: يعني تصرفون الذي آمن عن سبيل الله؛ وهذا شأن بني إسرائيل من اليهود والنصارى يصدُّون عن سبيل الله من آمن؛ وإنَّما ذكر من آمن مع أنَّهم يصدُّون من آمن حتى يرتدَّ عن إيمانه، ويصدُّون من لم يؤمن حتى لا يدخل في الإيمان؛ لأنَّ صدُّ من آمن أشدُّ عدوانًا من صدِّ من لم يؤمن؛ لأنَّ من آمن يصدُّونه ليكون مرتدًّا؛ ومن لم يؤمن يصدُّونه عن سبيل الله من أجل أن يبقى على كفرهم؛ والبقاء على الكفر أهون من الرِّدَّة كما هو ظاهر؛ وقوله: {من آمن}، يشمل الرجال والنساء، ولكن خطابات القرآن غالبها للرجال؛ لأنَّ الرجل هو الأصل وهو الأمير على المرأة {الرجال قوَّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض}.

{تبغونها عوجًا}: {تبغونها} الجملة حال من الواو في قوله: {تصدُّون}: يعني حال كونكم تبغون سبيل الله، أي: تطلبون، {عوجًا}: أي لأجل العوج أو أنَّها؛ {تبغونها عوجًا}: أي لأجل العوج فيكون مفعولًا من أجله؛ ويجوز أن تكون مفعولًا به، أي: تطلبونها عوجًا، أي: تصيِّرونها عوجًا. والعوج ضد المستقيم؛ ويقال عوج في المعاني؛ وعوج في الأعيان فتقول مثلًا: هذا العصا عَوَج لأنَّه عين؛ وتقول: هذا القول عِوج لأنَّه معنى؛ ففي المعاني بكسر العين وفي المحسوسات بفتحها؛ وأصل العوج الميل وضدَّه الاستقامة. والعوج عن شريعة الله موضوعه أمران؛ الأول في الأوامر؛ والثاني في النواهي؛ أمَّا في الأوامر فعجاجها إمَّا بالتَّهاون بها والتَّفريط، وإمَّا بالإفراط فيها والغلو؛ فالناس بالنسبة لأوامر الله ثلاثة أقسام؛ قسم وسط؛ وقسم مُفَرِّط؛ وقسم مُفْرِط يعني غالي متجاوز الحدِّ؛ فالمتوسط هو المستقيم؛ والمفرِّط عوج؛ والزائد عوج أيضًا، هذا في الأوامر؛ وفي النواهي هو انتهاكها وارتكابها هذا عوج؛ لأنَّ الصراط المستقيم في النواهي أن تدعها وأن تتجاوزها؛ فإذا أنت فعلتها وانتهكتها فهذا هو

العوج فيها؛ فهؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتاب يريدون العوج في الأوامر والنواهي؛ في الأوامر بالتفريط والتهاون أو بالغلو والإفراط؛ وفي النواهي بانتهاكها وارتكابها.

{تبغونها عوجًا وأنتم شهداء}: الواو هذه للحال، يعني والحال أنّكم شهداء على ما تفعلون؛ فأنتم تعلمون أنّكم بفعلكم هذا تصدُّون عن سبيل الله؛ تعلمون هذا وتشهدون به؛ ووجه ذلك أنّه يوجد في كتبهم أنَّ محمد بن عبد الله ﷺ سوف يبعث، وأنّه رسول الله، وأنّه الذي بشَّر به عيسى؛ ولكنَّهم يحرِّفون الكلم عن مواضعه من أجل صدِّ الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، فصاروا يصدُّون عن سبيل الله وهم شهداء يشهدون بالحقِّ، لكن والعياذ بالله استكبروا عنه. {وأنتم شهداء}: شهداء على أنّكم تصدُّون عن سبيل الله، لأنّكم تعلمون أنَّ ما جاء به محمد ﷺ فهو سبيل الله.

{وما الله بغافل عمَّا تعملون}: يعني نفى الله أن يكون غافلًا عن عملهم القليل والكثير؛ وهنا نجد أنَّ هذه الصفة من الصفات السلبية؛ لأنَّ صفات الله كما مرَّ علينا قسمان: ثبوتية؛ وسلبية؛ يعني شيءٌ ثابت لله وشيءٌ منفي عنه؛ فهنا صفة سلبية؛ والذي نفي عن الله، الغفلة؛ والقاعدة عند أهل السنة أنَّ الصفات السلبية تتضمَّن شيئين؛ الأول: انتفاء هذه الصفة التي نفاها الله عن نفسه؛ والثاني ثبوت الكمال في ضدِّها؛ لأنّها ما نفيت عنه إلَّا لأنَّه كامل؛ فيكون قوله: {وما الله بغافل عمَّا تعملون}، متضمِّنًا لنفي الغفلة عن الله؛ والثاني: ثبوت كمال المراقبة؛ لأنَّ من كان كامل المراقبة فإنَّه ليس عنده غفلة؛ فتكون هذه الآية مثبتة لله كمال المراقبة كما قال الله تعالى: {وكان الله على كلِّ شيءٍ رقيبًا}، وانتفاء الغفلة عنه؛ والجملة تفيد التهديد لهؤلاء الذين يصدُّون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أمر رسول الله ﷺ أن يوبِّخ أهل الكتاب على عدوانهم على الغير؛ وذلك بالصدِّ عن سبيل الله.

٢- أنَّ من صدَّ عن سبيل الله من المسلمين ففيه شبه من أهل الكتاب اليهود والنصارى؛ فإذا وجد أحد يثبِّطك عن فعل الخير أو يرغِّبك في فعل الشر ففيه شبه من اليهود والنصارى، لأنَّ هذه سبيلهم.

٣- إثبات أنَّ الشياطين ليست شياطين الجن فقط؛ فكما أنَّ للجن شياطين يصدُّون عن سبيل الله، ففي الإنسان أيضًا شياطين يصدُّون عن سبيل الله؛ وعلى هذا يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: {وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غرورًا}.

٤- الحثُّ على لزوم الشرع لأنَّه سبيل الله؛ وكلَّ إنسان عاقل فإنَّه يسعى إلى الوصول إلى الله عز وجل؛ لأنَّه غاية المطالب؛ ولا وصول إلى الله إلَّا بسلوك شرعه.

٥- أنَّ من صدَّ عن سبيل الله من آمن به، فإنَّه في غاية ما يكون من العدوان؛ وهو أعظم ممَّن صدَّ عن سبيل الله من لم يؤمن؛ لأنَّ هذا رفع والأول منع؛ ورفع الخير أشدَّ عقوبة من منعه وأشدَّ جناية.

٦- سوء القصد في أهل الكتاب حيث يبغون أن تكون سبيل الله عوجًا؛ وهذا الوصف لأهل الكتاب لا يزال منطبقًا عليهم إلى اليوم؛ فللنصارى دعاة يُنَصِّرون الناس ويسعون بكلِّ جهدهم إلى أن يصدُّوا عن سبيل الله من آمن؛ لأنَّهم يريدون أن يسلك الناس سبيل العوج؛ لا يريدون أن يسلكوا السبيل السَّوي؛ وما زالوا إلى اليوم، ولهم إذاعات خاصة تدعوا الناس إلى النصرانية والعياذ بالله، النصرانية الباطلة التي يحاربها عيسى عليه الصلاة والسلام كما قال الله:{يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتَّخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنَّك أنت علَّام الغيوب ما قلت لهم إلَّا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم}، فهم الآن يَدَّعون أنَّ دين عيسى عليه الصلاة والسلام القول بالتثليث، ويَدَّعون إنَّ الله ثالث ثلاثة، ثم يضحكون على أنفسهم وعلى الناس يقولون إنَّه ثلاثة في واحد، هل معقول هذا؟!! لكن هذا من ضلال النصارى، لأنَّ النصارى ضالُّون حتى الأمور العقلية لا يهتدون إليها؛ وكيف يكون ثلاثة في واحد؟!! هذا لا يمكن؛ على كلِّ حال هم يريدون أن يضلُّوا الناس منذ عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا؛ ومن ثم يجب على المسلمين الحذر منهم والتشهير بهم حتى ينفروا الناس منهم، وأن يقابلوا دعوتهم الإلحادية الكفرية بدعوة التوحيد والإخلاص؛ والإخلاص والتوحيد موافقان للفطرة السليمة لو وجدا من يعرضهما عرضًا حقيقيًّا شيِّقًا، لكن مع الأسف أنَّ المسلمين في غفلة؛ فالمسلمون الذين هم على الحقِّ لا تجد منهم الدُّعاة الذين يدعون إلى الحقِّ إلَّا قليلًا؛ وأيضًا إلَّا قليلًا في بلادهم؛ أمَّا أولئك النصارى المنصِّرون فإنَّهم يذهبون مشارق الأرض ومغاربها ويغرون الناس بالمال وبحسن الخلق حتى ينخدع الناس بهم.

٧- أنَّ أهل الكتاب الذين يصدُّون عن سبيل الله يعلمون أنَّهم على باطل وأنَّ الحقَّ في خلافهم؛ لقوله: {وأنتم شهداء}، لكن الذي يمنعهم هو الاستكبار.

٨- إثبات إحاطة الله سبحانه وتعالى بكلِّ شيءٍ علمًا ورقابة؛ لقوله: {وما الله بغافل عمَّا تعملون}.

٩- أنَّ من صفات الله ما هو سلبي أي منفي؛ وهذا كثير في القرآن؛ قال الله تعالى: {ليس كمثله شيء هل تعلم له سميًّا}.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ {١٠٠}

قال السعدي: لمَّا توعَّدهم ووبَّخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذَّر عباده المؤمنين منهم لئلَّا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون، فقال: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين}، وذلك لحسدهم وبغيهم عليكم، وشدَّة حرصهم على ردِّكم عن دينكم.

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا}، أوَّلًا هذا الحكم مصدر بالنداء {يا أيها الذين آمنوا}، وتصدير الحكم بالنداء يدلُّ على الاهتمام به والعناية به؛ وذلك لأنَّ النداء يتضمَّن تنبيه المخاطب، والتنبيه لا يكون إلَّا لأمرٍ هام تجب العناية به؛ ثمَّ صار النداء موجَّهًا للذين آمنوا من باب الإغراء؛ لأنَّ وصفهم بالإيمان يقتضي أن يقوموا بمقتضى هذا الخطاب الموجَّه لهم، كما لو قلت لشخص يا رجل افعل كذا؛ يعني أنَّ مقتضى رجوليتك أن تفعل هذا؛ فإذا قلت: يا مؤمن افعل هذا؛ فالمعنى أنَّه من مقتضى إيمانك أن تفعل هذا. {يا أيها الذين آمنوا}: يعني من مقتضى إيمانكم أن تنتبهوا لما سيلقى إليكم؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإمَّا خير تؤمر به وإمَّا شر تنهى عنه)؛ ثم إنَّ الخطاب بوصف الإيمان يقتضي أنَّ امتثال ذلك من مقتضيات الإيمان، ويقتضي أيضًا أنَّ مخالفته نقص في الإيمان لأنَّ المؤمن يقتضي إيمانه أن يقوم بما أمر به وأن يدع ما نهي عنه.

ثم إنَّ الخطاب بقوله: {يا أيها الذين آمنوا} وفي توجيه الخطاب بهذا الوصف إغراء لقبول ما يأتي تصديقًا به إن كان خبرًا، وامتثالًا له إن كان طلبًا أمرًا أو نهيًا؛ وفيه أيضًا أنَّ عدم قبوله ممَّا ينافي الإيمان؛ فهذه أربعة أمور: الأمر الأول: إذا صدر الخطاب بالنداء فهو دليل على الاعتناء به وأهميته؛ وجه ذلك إنَّ النداء يوجب الانتباه مثلما أنِّي لمَّا ناديتك انتبهت. الثاني: اختيار الإيمان؛ ثم إنَّ الخطاب بقوله: {يا أيها الذين آمنوا}، وفي توجيه الخطاب بهذا الوصف إغراء لقبول ما يأتي تصديقًا به إن كان خبرًا وامتثالًا له إن كان طلبًا أمرًا أو نهيًا؛ كأنَّه يقول: يا أيها الذين آمنوا إن كنتم مؤمنين حقًّا فالأمر كذا وكذا؛ فيكون فيه إغراء لقبول ما يأتي بعده؛ كما لو قلت: يا أيها الرجل افعل كذا وكذا؛ أي أنَّه بمقتضى رجولتك تفعل كذا وكذا. وفي تصديره بهذا الوصف أو باختيار هذا الوصف دليل على أنَّ ما سيأتي قبوله من مقتضيات الإيمان، تصديقًا به إن كان خبرًا وامتثالًا له إن كان طلبًا. وفيه أيضًا أنَّ عدم قبوله ممَّا ينافي الإيمان.

{إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب}، {فريقًا}: بمعنى طائفة؛ و{من الذين أوتوا الكتاب}: وهم اليهود والنصارى؛ فالكتاب لليهود هو التوراة، والكتاب للنصارى هو الإنجيل؛ وقوله: {فريقًا من الذين أوتوا الكتاب}: يعني لا جميعهم، لأنَّ بعض أهل الكتاب ليسوا على هذا الوصف، فإنَّ منهم من آمن، فآمن من النصارى النجاشي وآمن من اليهود عبد الله بن سلام؛ وهؤلاء من خيار المؤمنين؛ لكن فريقًا منهم يقول: {يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين}: يعني يوجبوا لكم أن ترتدُّوا عليه بعد إيمانكم، من أهل الكتاب من يريدون منَّا أن نرتدَّ عن الإيمان، وقد صرَّح الله ذلك في آيات أخرى: {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفارًا}، {ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلُّونكم}، فأهل الكتاب يودُّون هذا، وتعلمون أن من ودَّ شيئًا سعى في تحصيله؛ إذًا فنحن نعلم أنَّ أهل الكتاب يسعون بكل ما يستطيعون أن يردُّوا المسلمين عن دينهم، سواء منعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام أو أخرجوهم من دين الإسلام بعد دخولهم فيه.

{يردُّوكم بعد إيمانكم}: والرِّدَّة بعد الإيمان أعظم من منع الإيمان من الأصل؛ لأنَّها إخراج من الإيمان إلى الكفر؛ ومن المعلوم أنَّ الإنسان لن يخرج من الإيمان إلى الكفر إلَّا بمحاولات شديدة؛ إذ أنَّ من لم يدخل في الشيء إبعاده عنه أهون

ممَّن دخل فيه وآمن به؛ ولهذا قال: {من بعد إيمانكم}؛ وقوله: {كافرين}: المراد به الكفر المخرج عن الملَّة؛ لكنَّهم قد لا يستطيعون أن يخرجون من الإيمان بالكلية، لكن بالتَّدريج بما يضعونه أمامنا من معوِّقات كمال الإيمان حتى ينحلَّ الإيمان شيئًا فشيئًا ولا يبقى فيه في القلوب شيئًا وحينئذ يكون الكفر المحض.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- تحذير المؤمنين من طاعة الكفار؛ لقوله: {إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم}.

٢- أنَّ الكفار ولو كانوا أهل الكتاب يحاولون غاية المحاولة أن يردُّوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر؛ وقائل هذا هو الله العالم بما في صدورهم؛ قد يتظاهرون لنا بالمسالمة والمداهنة وأنَّهم أولياء وأنَّهم أصدقاء ولكن في قلوبهم الحقد والغلُّ، ومحبَّة أن نرتدَّ على أعقابنا كافرين؛ من أين نعلم هذا الذي في قلوبهم وهم يبدون لنا الودُّ والصداقة والمحبَّة؟ من القرآن.

فإن قال قائل: إن الله يقول: {فريقًا من الذين أوتوا الكتاب}، والفريق مبهم ما ندري ربما بعضهم على خلاف ذلك؛ وإذا وجد الاحتمال بطل الاستدلال، فلا يمكن أن تعيِّن من أهل الكتاب وتقول هؤلاء يحبُّون أن نرتدَّ على أعقابنا كافرين، لا يمكن أن تعيِّن، مادام الله يقول: {فريقًا}، فريق مبهم؛ فإذا قلت إنَّهم هؤلاء؛ قلنا لك: لا بل هؤلاء بل أولئك؛ فما هو الميزان في ذلك؟

نقول: آيات أخرى بيَّنت أنَّ كلَّ اليهود والنصارى يريدون إضلال المسلمين عن سواء السبيل؛ مثل قوله تعالى: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتَّبع ملَّتهم}، وهذا عام. إذًا لنا على هذا جوابان؛ الجواب الأول أنَّ الله ذكر في آيات أخرى أنَّ جميع الكفار يودُّون منَّا أن نكفر؛ وهو شامل لأهل الكتاب وغيرهم: {ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء}، {وودُّوا لو تكفرون}، {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم}، {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يضلُّونكم}، نعم كثير؛ إذًا نقول هناك آيات تدلُّ على أنَّ جميع الكفار ومن ضمنهم أهل الكتاب يودُّون منَّا ذلك؛ الوجه الثاني أن نقول: هذا الفريق المبهم يبيِّنه الواقع، وهو أنَّ من أهل الكتاب من آمن؛ ومن آمن لا يمكن أن يحب من غيره أن يكفر؛ وحينئذ نقول: المراد بالفريق هنا من لم يؤمن منهم؛ فكلُّ من لم يؤمن فهو داخل في هذا الفريق.

٣- أنَّ هؤلاء الفريق من أهل الكتاب لا يرضون منَّا بما دون الكفر إلَّا أن يكون وسيلة إلى الكفر؛ لأنَّ الغاية قال: {يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين}، وأساليب أهل الكتاب في إضلال المسلمين كثيرة جدًّا ومتنوِّعة؛ منها أن يفتحوا عليهم باب الشهوات؛ فإنَّ باب الشهوات باب واسع، والضيق من أبواب الشهوات يتَّسع بسرعة، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: ((ما تركت بعدي فتنة

أضرَّ على الرجال من النساء([١]))، ولهذا قبَّحهم الله ولعنة الله على اليهود والنصارى هم جميعًا يسعون جادين بأن يعطوا المرأة ما يسمُّونه بالحرية وهي في الحقيقة رقٌّ وليست حرية؛ لأنَّ المرأة إذا خرجت عن حدود الله خرجت من رقِّ الدِّين إلى رقِّ الشيطان، تخرج من رقِّ الدِّين الذي هو الرِّقُّ الحقيقي لأنَّ العبودية لله، إلى رقِّ الشيطان؛ وإذا خرجت إلى رقِّ الشيطان واسترقَّ الشيطان صارت عبدًا له هلكت وأهلكت؛ قال ابن القيم رحمه الله:

هربوا من الرِّق الذي خلقوا له ... فبلوا برقِّ النفس والشيطان

وما هو الرِّقُّ الذي خلقنا له؟ عبادة الله عز وجل؛ و(بلوا): يعني ابتلاهم الله برقِّ النفس والشيطان؛ ولهذا تجدونهم يركِّزون على المرأة على أن تتدهور وتتحرَّر من عبودية الله لتقع في عبودية الشيطان؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ أشدَّ فتنةٍ على الرجال هي المرأة؛ يسعون بكلِّ جهدهم على أن تختلط بالرجال وتشاركهم في الأعمال، ويلصقوا منكبها بمنكبه وساقها بساقه، ويذوق حرارتها وتذوق حرارته، ويشم نفسها وتشم نفسه، وتصافحه وربما تعانقه؛ لأنَّهم يعلمون إذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة بقي حيوانيًّا بهيميًّا ليس له أيُّ غرضٍ إلَّا أن يشبع غريزته والعياذ بالله، وحينئذ ينسى الدِّين وما وراء الدِّين، ويرجع بعد ذلك إلى الكفر؛ لا يستطيعون أن يقولوا للمسلمين اكفروا لأنَّهم لو قالوا اكفروا ما كفروا، لقالوا نكفر بالطاغوت ونؤمن بالله؛ لكنَّهم يأتون بهذه الأساليب التي توجب أن ينزلق الناس بالفسوق، والفسوق بريد الكفر؛ ثانيًا: يلقون الأفكار الرَّديئة الإلحادية الكفرية بين المسلمين باسم: الناس أحرار؛ دعوا كلُّ أحدٍ يعتنقوا ما شاء، دعوا كلَّ أحدٍ يقولوا ما شاء، لا تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، وما أشبه ذلك من الكلمات الرنانة التي إذا سمعها الإنسان قال هذا هو الدِّين، ثم تحلَّل الناس وصار كلٌّ يعمل على ما يريد؛ ولكن ما هي الطريق التي يتوصَّلون به إلى هذا؟ الطريق أن يضربوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجعل الناس لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن منكر، لأنَّهم يعرفون أنَّه إذا أمر بالمعروف قام المعروف، وإذا نهي عن منكر غاب المنكر؛ فيحاولون أن يقلِّلوا ويضعفوا من هذه الناحية حتى يبقى الناس لا آمر ولا ناهي كلٌّ يركب ما شاء؛ وأيضًا شيءٌ آخر يضربون عليه مسألة الحدود والتعزيرات يشوِّهون الإسلام بأنَّه يقطع يد السارق ويرجم الزاني، يشوِّهون هذا حتى يضعفوا هذه الناحية؛ ومن المعلوم أنَّه إذا ضعف الإيمان فلابدَّ من ردع السلطان؛ فإنَّ ضعف الإيمان وعدم ردع السلطان صارت المسألة فوضى، كلٌّ يفعل ما يشاء، يكفر، يزني، يسرق، يشرب الخمر، ما يهمُّه لأنَّه ليس هناك حدود رادعة، والإيمان ضعيف، بناء على أن نقول على أنَّهم يقولون اجعلوا كلَّ إنسانٍ حرًا في نفسه، ويتحلَّل الناس بالدِّين بمثل هذه الطرق، يعني إلقاء الأفكار الرَّديئة في المسلمين، هذه من أساليب اليهود والنصارى التي يضلِّلون بها الناس ويردُّونهم بعد إيمانهم كافرين؛ كذلك أيضًا من أساليبهم التي يردُّون بها الناس عن الكفر أن يزيِّنوا للناس محبَّة المال وجباية المال بكلِّ ما يكون، بحلالٍ أو حرام؛ فيزيِّنوا لهم المكاسب الربوية بشتى أنواعها، والمكاسب الميسرية بشتى أنواعها؛ الربوية معروفة والميسرية هي التي تتمثَّل في التأمينات وما أشبهها، فإنَّ التأمينات لاشك أنَّها من الميسر، لأنَّ المُؤَمِّن والمُؤَمَّن له، عقدهما دائر بين الغمِّ والغرم

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٥٠٩٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٠)، وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٧٠١).

وهذا هو الميسر تمامًا، والنفس إذا اعتاد على ذلك نسي كلَّ شيء، صار أكبر همِّها أن تكتسب هذا المال بالربا لأنَّ الربا يوجب زيادة المال باطِّراد، وزيادة الظلم باطِّراد؛ زيادة المال لآخذ الربا؛ والظلم لموكل الربا، فتأخذ النفس على الجشع والشُّح وحبَّ المال وتنسى ما خلق له؛ وكذلك الميسر، وعلى رأسه القمار، يجلس المتقامران في مجلس كلُّ واحدٍ عنده خمسة ملايين من المال فتحصل لعبة القمار فإذا بأحدهما يكتسب مال الآخر كلَّه خمسة ملايين فيصبح هذا عنده عشرة ملايين والثاني ما عنده إلَّا ثيابه، يخرج من قاعة المقامرة ليس عليه إلَّا ثيابه، يمكن يقامر على ثيابه ويقول خذه مني إذا غلبه في القمار في ثيابه وأخذ ثيابه قال أنا أبيعه عليك أنا ما أتركك عاريًا لكن اشترها مني؛ على كلِّ حال مثل هذه الأساليب التي يلقيها اليهود والنصارى وأشباههم بين المسلمين يجب على المسلمين الحذر منها لأنَّ الله يقول: {إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين}، يجب على المسلمين أن يستمدوا حياتهم ومنهاجهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ وأنا واثق كلَّ الثقة أنَّهم إذا اعتمدوا في ذلك على الكتاب والسنة فسيقطعون أعناق هؤلاء الكفار لأنَّ الله يقول: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه}، هذا كلام الله عز وجل الذي يقدر على كلِّ شيء، يعني هو وعدٌ مِن الله، مِنْ قادر صادق في وعده؛ فإذا كان كذلك فلماذا لا نتمسك بدينه؟! لماذا لا نتمسك تمسُّكًا تامًا ونظهِر الأمَّة الإسلامية من جديد؟! نتمسَّك بدينها نصًّا وروحًا لا نصًّا فقط، لأنَّ التَّمسُّك بالدِّين نصًّا لا روحًا فقط ليس بشيء، هو تمسُّك ظاهري يتلاشى عند حدوث النوازل وأمَّا التمسُّك نصًّا وروحًا فهو الذي ينتفع به الإنسان في دنياه وآخرته؛ إذًا علينا أن نحذر كيد الذين أوتوا الكتاب وكيد كلِّ كافر؛ لأنَّ الله يقول في الكافرين: {ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء}، وقال في سورة الممتحنة: {وودُّوا لو تكفرون}، فعلينا أن نأخذ بهذه الإرشادات التي أرشدنا الله تعالى إليها وأن نصير في طريقنا مهتدين بهدي الله مقتدين برسول الله ﷺ حتى يحصل لنا النصر والسعادة والعزة والكرامة في الدنيا والآخرة. بالنسبة أنَّنا نرى آثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظاهر في العالم الإسلامي لكن بعض الشباب الملتزمين يلقي العبء الكامل على بعض الهيئات ويقول لم يقم بدورها الكامل وكذا وكذا فما رأيكم؟ أنا أقول رأيي في هذا أنَّ كلَّ واحد مقصِّر، ما كلُّ واحد قام بالواجب عليه، كلُّ واحد في الشعوب الإسلامية و ولاة المسلمين مقصِّر، ما قام بالواجب، ولا ينبغي أن نقصِّر التقصير على طائفة معيَّنة أو على هيئة معيَّنة؛ كلُّنا مقصِّرون؛ الآن الشعب فيما بينهم هل الإنسان إذا رأى منكرًا في أخيه يقول يا أخي تعال ترى هذا حرام لا يجوز اتَّق الله؟ لا؛ مع أنَّه هذا محلُّ كلُّ مؤمن لم يمنع منه أحد، ومع هذا ما تجد من يقوم بهذا إلَّا النادر؛ والمعروف لا يشترط أن يكون له طائفة معينة من قبل الولاة؛ كلُّ يأمر بالمعروف ينهى عن المنكر لكن بالحكمة؛ وأنا أقول دائمًا إنَّ الأمر بالمعروف غير تغيير المنكر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس هو تغيير المنكر؛ تغيير المنكر يحتاج إلى السلطة لكنَّ الأمر ما يحتاج إلى السلطة كلُّ يأمر وينهى؛ وقد ذكرنا أنَّ هناك ثلاثة أشياء تشتبه على بعض الناس وهي مختلفة: الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتغيير، هي مختلفة والناس كثير منهم يظنُّها أنَّها واحدة وليست كذلك.

٤– أنَّ طاعة الكفار مخالفة للإيمان لقوله: {يا أيها الذين آمنوا} فتكون طاعتهم مخالفة لكمال الإيمان؛ وقد تصل إلى انتفاء الإيمان بالكلية.

٥– أنَّ حرص الكفار على ذلك من أجل إيماننا؛ وبناء عليه إننا ننزل القاعدة السابقة أن ما علق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف وقوته؛ وعلى هذا فتقوا أنَّه كلّما ازداد المؤمنون تمسُّكًا بدينهم ستزداد شراسة الكفار في صدِّهم عن دينهم؛ مادام الوصف هو الإيمان فإنَّه كلّما ازددنا تمسُّكًا بالإيمان ازداد الكفار شراسة في صدِّنا عن الإيمان؛ ومثل ذلك أيضًا الطاعة والمعصية كلّما ازداد الناس في الإقبال على الله والتمسك بهديه ازداد أهل الفسوق شراسة في القضاء على هذه القوة في الطاعة.

٦– أنَّ من أهل الكتاب من لا يحاول إضلالنا عن ديننا؛ يؤخذ من قوله: {إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب}، وقد ذكرنا الآن أنَّ أهل الكتاب النسبة لهذا الأمر ثلاثة أقسام.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {١٠١}

قال السعدي: ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيقانهم، وأنَّ ذلك من أبعد الأشياء، فقال: {وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله}.

قال ابن العثيمين: {وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله}: {كيف} استفهامية لكن تحتمل وجهين؛ الوجه الأول: الاستبعاد؛ والوجه الثاني: التعجُّب؛ فإذا نظرنا إلى حالهم أنَّهم تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله، قلنا إنَّ ارتدادهم بعيد، بعيد أن يرتدُّوا على أدبارهم وهم يتلى عليهم كتاب الله وفيهم رسوله، يشاهدون النبي ﷺ صباحًا ومساءً، ويسمعون الآيات التي تنزل عليه فردَّتهم بعيدة؛ ولهذا لم تكن الرِّدَّة إلَّا بعد موت الرسول ﷺ، والرِّدَّة في حياته قليلة جدًّا؛ والوجه الثاني: أن تكون للتعجُّب؛ فيكون هذا تعجُّبًا من حال من يمكن أن يرتدَّ؛ فإنَّ الذي يرتدُّ وتتلى عليه آيات الله وفيه رسوله لاشك أنَّ حاله عجيبة؛ لأنَّ الإنسان لو ارتدَّ وهو لم يشاهد الرسول ﷺ ولم يسمع الآيات تنزل يومًا فيومًا لكان له شيءٌ من العذر؛ لكن في هذه الحال يسمع آيات الله ويشاهد الرسول ﷺ ليس له عذر إطلاقًا؛ فيكون الاستفهام للتعجُّب، يعني ما أعجب حالكم لو كفرتم؛ إذًا يكون في الآية على الوجهين تأييس للذين أوتوا الكتاب أن ينالوا مرادهم من المؤمنين لمحاولة ردَّتهم.

{وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله}: والتلاوة تأتي بمعنى القراءة، أي تقرأ عليكم؛ وإذا وقعت من الفاعل فقيل: تلى؛ صار لها معنيان؛ المعنى الأول: القراءة؛ والمعنى الثاني: الاتِّباع؛ ففي قوله تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به}، {يتلونه}: يعني يقرؤونه ويتبعونه؛ فهنا {تتلى عليهم آيات الله}: أي تقرأ؛ والذي يقرأها عليهم رسول الله ﷺ؛ السند رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله: {وإنَّه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك}، فهم يتلى عليهم بواسطة الرسول ﷺ؛ وقوله: {آيات الله}: جمع آية وهي العلامة؛ والمراد بها هنا القرآن، والقرآن آيات؛ كلُّ آية منه دليل على المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالى على ما له من الصفات المقتضية لتلك الآيات؛ ولهذا كلُّ آيةٍ من القرآن فإنَّها معجزة، كما قال الله تعالى: {فليأتوا بحديث مثله}، حديث، آية أو عشر آيات أو سورة أو عشر سور أو القرآن كلُّه، كلُّه معجز؛ وقوله: {وفيكم رسوله}: {في}: للظرفية؛ {فيكم}: أي في مجتمعكم، وليس حالًا فيهم ﷺ لكنَّه في مجتمعهم، كما قال حسان بن ثابت: وفينا رسول الله يتلوا كتابه؛ فالرسول ﷺ كان في مجتمعهم يشاهدونه صباحًا ومساءً، ويغشاهم في مجالسهم، ويعودهم إذا مرضوا، ويزورهم ﷺ في بيوتهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة؛ فمن كان في هذه الحال هل يمكن لشرذمة من أهل الكتاب أن يردُّوه عن دينه؟ لا.

قال السعدي: أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كلَّ وقت، وهي الآيات البيِّنات التي توجب القطع بموجبها والجزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلَّت عليه بوجه من الوجوه، خصوصًا والمبيِّن لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكلِّ طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلَّغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالًا ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالًا ثمَّ أخبر أنَّ من اعتصم به فتوكَّل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كلِّ شر، واستعان به على كلِّ خير {فقد هدي إلى صراط مستقيم} موصل له إلى غاية المرغوب، لأنَّه جمع بين اتِّباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

قال ابن العثيمين: {ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم}، {من يعتصم}: أي يستمسك ويطلب العصمة بالله عز وجل فقد هدي إلى صراط مستقيم؛ وقوله: {من يعتصم بالله}، يشمل الاعتصام به توكُّلًا عليها والاعتصام به تعبُّدًا له؛ لأنَّ في كلٍّ منهما عصمة، {إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين}، فمن اعتصم بالله تعبُّدًا واستعانة، {فقد هدي إلى صراط مستقيم}، وأتى هنا بفعل ماضي {هدي} إشارة إلى أنَّ هذا قد ثبت له الهدى سابقًا وواقعًا؛ سابقًا في اللوح المحفوظ وفي الكتابة حينما تنفخ فيه الروح في بطن أمِّه؛ وواقعًا لأنَّه اعتصم بالله؛ وقوله: {هدي إلى صراط مستقيم}، حذف الفاعل وذلك لتعدُّد طرق الهداية؛ فأعلى الهداة الله عز وجل، {يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}؛ ثم الرسول ﷺ، {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم}؛ ثم ورثة الرسول ﷺ وهم علماء، {وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون}؛ إذًا {هدي}، الهداية الأولى من الله ثم الرسول ثم أولوا العلم؛ لكن هداية التوفيق خاصة بالله؛ لو اجتمع جميع الخلق على أن يهدوا أحدًا هداية توفيق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولكنَّهم يدُلُّون ويحثُّون ويرغِّبون. وقوله: {هدي إلى صراط مستقيم} فيها قراءتان: بالسين والصاد؛

{صراط}، و{سراط} لأنَّ الصاد والسين تتناوبان دائمًا؛ والصراط هو الطريق الواسع، وأصله من الزرط بالزاء وهو الانطلاق بسرعة لأنَّ الطريق الواسع يلجه الناس ويخرجون منه بسرعة بخلاف الضيق فإنَّ الناس يزدحمون فيه ولا يكادون يخرجون منه إلَّا بمشقَّة؛ وقوله: {مستقيم}: أي غير معوج بل هو مستقيم معتدل وليس فيه نزول ولا ارتفاع؛ لأنَّ الصراط وهو الطريق، إذا كان فيه انحراف لم يكن مستقيمًا؛ وتطول المسافة ويبطئ الوصول إلى الغاية؛ كذلك إذا كان مختلفًا نزولًا وارتفاعًا فإنَّه ليس بمستقيم إلى أنَّه تطول المسافة ويحصل المشقَّة عند الارتفاع وعند النزول.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- استبعاد أن يكون المؤمن يرتدُّ كافرًا وهو يتلى عليه كتاب الله وفيهم رسوله؛ والواقع شاهد بذلك ولهذا لم تحصل الرِّدَّة إلَّا بعد موت الرسول ﷺ.

٢- أنَّ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والإقبال عليهما أعظم مانع يمنع من الكفر؛ يؤخذ من قوله: {وكيف تكفرون} يعني بعيد منكم الكفر إذا كانت تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؛ آيات الله تتلى علينا الآن؛ رسوله ليس فينا هو ولكن فينا سنَّته فنأخذ من هذا أنَّه كلَّما تمسَّكنا بكتاب الله وسنة رسوله فإنَّ ذلك سيكون حصنًا منيعًا لنا من الكفر.

٣- إثبات أن القرآن الكريم آية من آيات الله؛ لقوله: {آيات الله}. ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّه إذا كان آية من آيات الله فإنَّه لا يمكن أن يأتي أحد بمثله؛ إذ أنَّ الآية هي العلامة التي تعيِّن معلومها؛ ولو أمكن أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن ما كانت آية لله.

٤- أنَّه ربما نقول إنَّ القرآن آية شرعية وكذلك يتضمَّن آيات كونية بما أودع الله فيه من الإشارات العظيمة إلى ما في الكون من الآيات من أجل أن نجعل آيات الله تشمل الشرعية وما دلَّت عليه هذه الشرعية من الآيات الكونية؛ وإلَّا ما في شك أنَّ الذي يتلى هو الشرعية، لكن هي تضمَّنت آيات كونية دلَّت عليها مثل قوله: {والشمس تجري لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدَّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون}، إلى آيات كثيرة كونية أشار الله إليه ومثل قوله: {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون}، فإنَّ هذه الآية آخر الجملة فيها تشمل كلَّ ما يمكن الركوب عليه إلى يوم القيمة؛ ومثل قوله: {وما من دابَّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلَّا أمم أمثالكم}، عند بعض العلماء فإنَّ قوله: {يطير بجناحيه}، يخرج الذي يطير بقوة مثل الطائرات الحديدية هذه فإنَّها ليست من الأمم التي هي أمثالنا.

٥- الحثُّ على الاعتصام بالله؛ لقوله: {ومن يعتصم بالله فقد هدي}.

٦- بشارة من وفق للاعتصام بالله بأنَّه مهدي؛ وهذه فرد من أفراد البشارات الكثيرة التي إذا تدبَّرها الإنسان حمد الله سبحانه وتعالى على نعمته أنَّه قد هداه وأنعم عليه.

٧- أنَّ دين الله عز وجل دين مستقيم؛ لقوله: {إلى صراط مستقيم} المراد به صراط الله، وهو مستقيم في كلِّ شيء؛ إن نظرت إلى الحقوق وجدته مستقيمًا فيها ليس فيه جور، فلله علينا حقوق، ولأنفسنا علينا حقوق، ولأهلنا علينا حقوق، ولزائرنا علينا حقوق، ولكلِّ أحدٍ حقٌّ على أحد؛ قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: ((فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه([١]))، إذًا هذا عدل، وهذا من الاستقامة، هذا الدِّين. ولكن نبَّهنا فيما سبق على مسألة وهي أنَّ بعض الناس يقول: إنَّ دين الإسلام دين المساواة؛ وبيَّنَّا أنَّ هذا خطأ، بل دين الإسلام دين العدل، لأنَّ أكثر ما في القرآن نفي المساواة لا إثبات المساواة؛ {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون}، {قل هل يستوي الأعمى والبصير}، {أم هل تستوي الظلمات والنور}، وآيات كثيرة فيها نفي الاستواء لأنَّ ما يستوي هذا وهذا؛ لكن العدل {إنَّ الله يأمر بالعدل}، وذكرنا أنَّ هذه العبارة دخل فيها من قال إنَّه يساوى بين الرجل والمرأة، وبين العالم والجاهل، وبين كلِّ إنسان وآخر مع التَّميز في الصفات مع الاختلاف في الصفات، وتميز كلِّ واحد عن الآخر بصفاته، وهذا لاشك أنَّه خطأ ولا يأتي الإسلام به؛ الإسلام يأتي بالعدل أن تعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {١٠٢}

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حقَّ تقاته}، بيَّنَّا فيما سبق أنَّ الله إذا صدَّر الخطاب بالنداء فهو دليل على العناية والاهتمام به، ثمَّ إذا وجَّه الخطاب إلى المؤمنين ففيه فوائد:

أوَّلًا: الإغراء والحثُّ كأنَّه قال: (يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم ولكونكم مؤمنين افعلوا كيت وكيت، أو لا تفعلوا كذا وكذا).

ثانيًا: أنَّ ما يذكر فهو من مقتضى الإيمان؛ ولهذا وجِّه للمؤمنين.

ثالثًا: أنَّ المخالفة في هذا الشيء تنقص الإيمان؛ فانتبهوا لهذا.

فصار عندنا أربعة أمور؛ تصدير الخطاب بالنداء يدلُّ على الاهتمام به؛ وتوجيهه إلى المؤمنين يفيد ثلاث فوائد؛ الإغراء؛ وأنَّ القيام بذلك من مقتضيات الإيمان؛ وأنَّ المخالفة به نقص في الإيمان.

١- (قلت): لم أجد هذا الحديث، بل ورد الحديث عن سلمان وصححه الإمام الألباني في آداب الزفاف (٣٢)، والحديث بتمامه: عن أبي جحيفة أن رسول الله ﷺ آخى بين سلمان وبين أبي الدرداء قال: فجاءه سلمان يزوره فإذا أم الدرداء متبذلة فقال: ما شأنك يا أم الدرداء؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار وليس له في شيء من الدنيا حاجة! فجاء أبو الدرداء فرحب به وقرب إليه طعاما فقال له سلمان: اطعم قال: إني صائم قال: أقسمت عليك لتفطرنه ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل معه ثم بات عنده فلما كان من الليل أراد أبو الدرداء أن يقوم فمنعه سلمان وقال له: يا أبا الدرداء إن لجسدك عليك حقًّا ولربك عليك حقًّا [ولضيفك عليك حقًّا] ولأهلك عليك حقًّا صم وأفطر وصلِّ وائت أهلك وأعط كل ذي حقٍّ حقَّه فلمَّا كان في وجه الصبح قال: قم الآن إن شئت قال: فقاما فتوضآ ثم ركعا ثم خرجا إلى الصلاة فدنا أبو الدرداء ليخبر رسول الله ﷺ بالذي أمره سلمان فقال له رسول الله ﷺ: ((يا أبا الدرداء! إنَّ لجسدك عليك حقًّا، مثل ما قال سلمان))، وفي رواية: ((صدق سلمان)). رواه البخاري ٤/١٧٠ - ١٧١ والترمذي ٣/٢٩٠ والبيهقي ٤/٢٧٦ والسياق له وقال الترمذي: (حديث صحيح). والزيادة والرواية الأخيرة للأولين.

يقول الله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله}، وما أكثر ما أمر الله بالتَّقوى في كتابه في آيات كثيرة، بل جعلها الله تعالى وصية لجميع الخلق، {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيَّاكم أن اتَّقوا الله}، والتَّقوى مأخوذة من الوقاية؛ والوقاية اتِّخاذ الإنسان ما يقيه الذي يضرُّه؛ ولهذا نقول: إنَّ أجمع تفسير للتَّقوى أن يقال: التَّقوى اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ هذا أجمع ما يقال.

وقول الله عز وجل: {اتَّقوا الله حقَّ تقاته}: {حقَّ} هذا مفعول مطلق مبيِّن لنوع التَّقوى التي أمرنا بها، أي اتَّقوا الله على هذا الوجه {حقَّ تقاته}؛ ومعنى {حقَّ تقاته}: أن تتَّقوا الله ما استطعتم، لأنَّ هذه هي التَّقوى التي أمرنا بها في آيات أخرى: {فاتَّقوا الله ما استطعتم}: أي ابذلوا كل ما تستطيعون في تقوى الله؛ ولهذا لا تظنُّوا أنَّ هذه الآية: {فاتَّقوا الله ما استطعتم}، أنَّها تُهوِّن التَّقوى؛ لأنَّ بعض الناس يتَّخذ من هذه الآية تهوينًا لأمر التَّقوى ويقول: اتَّقوا الله ما استطعتم؛ والحقيقة أنَّها بالعكس، يعني اتَّقوا الله بقدر ما تستطيعون، ابذلوا كلَّ الجهد في تقوى الله عز وجل؛ فيكون قوله: {حقَّ تقاته}، موازيًا لقوله: {ما استطعتم}؛ وبناء على هذا تكون الآية محكمة أي غير منسوخة؛ وهذا القول هو الراجح، ومقابله أنَّ الآية منسوخة وأنَّها أمر بما فيه مشقَّة وأنَّ المراد بتقوى الله أن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر؛ ولكن لدينا قاعدة مهمة جدًّا توجب أن لا يتسرَّع الإنسان في دعوى النسخ، لأنَّ دعوى النسخ ليس دعوى بسيطة، فإنَّ النسخ يتضمَّن إبطال حكم من الأحكام الشرعية؛ وإبطال حكم من أحكام الشرعية ليس بالأمر السهل وإن كان بعض العلماء يتساهل، وإذا عجز أن يوفِّق بين النصوص أو يرجِّح ادَّعى النسخ، وهذا غلط لأنَّه يترتَّب عليه إلغاء حكم شرعي؛ فنحن نقول: ما دام النص من القرآن أو السنة يمكن أن يحمل على وجه صحيح لا يعارض النصوص الأخرى فهذا هو الواجب؛ لأنَّنا إذا سلكنا هذا المسلك عملنا بكلِّ النصوص؛ أمَّا إذا قلنا أن أحدهما منسوخ فإننا نلغي نصًّا جاء به الوحي وهذا ليس بالأمر الهيِّن؛ فالصحيح أنَّ الآية غير منسوخة لأنَّها لا تخالف الآيات، هي مثل قوله تعالى: {لا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وسعها}، والغريب أنَّ الذين قالوا بالنسخ قالوا إنَّها نسختها هذه الآية {لا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وسعها}، لكن لا وجه لهذا؛ فالصحيح أنَّ معنى {حقَّ تقاته}: أي بقدر ما تستطيعون؛ وحقَّ تقاته ما أمرنا به عز وجل في قوله: {اتَّقوا الله ما استطعتم}.

قال القرطبي: وقيل: إنَّ قوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، بيان لهذه الآية. والمعنى: فاتَّقوا الله حقَّ تقاته ما استطعتم، وهذا أصوب؛ لأنَّ النسخ إنَّما يكون عند الجمع والجمع ممكن فهو أولى. وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} لم تنسخ، ولكن {حقَّ تقاته}، أن يجاهد في سبيل الله حقَّ جهاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم. قال النحاس: وكلَّما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ.

قال ابن العثيمين: {ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون}، هذه ممَّا يدخل تحت الخطاب؛ {إلَّا وأنتم مسلمون}: يعني إلَّا وأنتم مسلمون لله ظاهرًا وباطنًا؛ والإسلام هنا يدخل فيه الإيمان؛ وكما في آيات كثيرة الدعاء بأن يموت الإنسان مسلمًا: {ربنا أفرغ

علينا صبرًا وتوفنا مسلمين}، وفي سورة يوسف قال: {أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلمًا وألحقني بالصالحين}؛ لكن جاء في السنة أنَّ الرسول ﷺ كان يقول في دعاء الميت: ((اللهم من أحييته منَّا فأحيه على الإسلام ومن توفَّيته فتوفَّه على الإيمان([1]))، ففرَّق بين حال الحياة وحال الموت؛ والجواب عن ذلك أن نقول: إنَّما غاير النبي ﷺ بينهما لأنَّ صلاح الأمَّة على سبيل العموم بالإسلام، إذا حيَّت الأمَّة مسلمة، انتظم أمرها ولم يكن فيها ما يوجب العناد والاستكبار، لأنَّ الإسلام معناه الاستسلام؛ ولمَّا قال: ((من أحييته فأحيه على الإسلام))، ثم قال: ((ومن توفَّيته فتوفَّه على الإيمان))، لأنَّ المدار عند الموت على ما في القلب؛ لكن في هذه الآية وكذلك في الآيات الأخرى التي أشرنا إليها لم يذكر الإيمان معه فيكون الإسلام هنا شاملًا للإيمان؛ قوله: {ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون}: لا تمت إلا وأنت مسلم؛ هذا يقتضي أن تكون مسلمًا، من الآن لا تنتظر، تقول سأسلم إذا جاء الموت؛ كن مسلمًا من الآن؛ لأنَّك لا تدري متى يفجأك الموت؛ فالآية لا تعني أن تؤخِّر الإسلام إلى عند الموت لأنَّك لا تدري؛ بل فيها أمر بالمبادرة بالإسلام وبالثبات عليه إلى الموت([2]).

قال ابن كثير: {ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون}: أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإنَّ الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنَّه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك. وقال الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتدركه منيَّته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه([3]))). وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: ((لا يموتنَّ أحدكم إلَّا وهو يحسن الظَّنَّ بالله عز وجل([4]))). وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إنَّ الله قال: أنا عند ظنِّ عبدي بي، فإن ظنَّ بي خيرًا فله، وإن ظنَّ بي شرًّا فله)). وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من وجه آخر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((يقول الله عز وجل أنا عند ظنِّ عبدي بي([5]))).

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٧٥)، وقال: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ. والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ قَالَ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا. اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ. اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ)).

٢- (قلت): أنظر كلام الطبري والسعدي عن معنى قوله تعالى: {ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} عند تفسير الآية (١٣٢) من سورة البقرة.

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤١).

٤- (قلت): مسلم (٢٨٧٧).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن))، وفي رواية: ((إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل))، قال العلماء: هذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة وقد سبق في الحديث الآخر قوله سبحانه وتعالى: ((أنا عند ظن عبدي بي))، قال العلماء: معنى (حسن الظن بالله تعالى) أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفا راجيا ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء، أو محضه لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له، ويؤيده الحديث المذكور بعده: ((يبعث كل عبد على ما مات عليه))، ولهذه عقبة مسلم للحديث الأول، قال العلماء: معناه يبعث على الحالة التي مات عليها، ومثله الحديث الآخر بعده: ((ثم بعثوا على نياتهم)).

٥- (قلت): البخاري (٧٤٠٥، و٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب تقوى الله حقَّ تقاته؛ بالأمر بذلك في قوله: {اتَّقوا الله حقَّ تقاته}.

٢- العناية والاهتمام بالتَّقوى؛ يؤخذ من تصدير هذا الأمر بالنداء.

٣- أنَّ التَّقوى من مقتضيات الإيمان؛ لتوجيه النداء إلى المؤمنين.

٤- أنَّ ترك التَّقوى من نواقص الإيمان؛ لأنَّه إذا نودي الإنسان بوصف فإنَّه يزداد وصفه هذا بحسب زيادة ما وجِّه إليه.

٥- وجوب البقاء على الإسلام والمبادرة به؛ لقوله: {ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون}.

٦- أنَّ المدار على الخاتمة؛ لقوله: {ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون}؛ ومصداق ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها([1]))، لكنَّ الأول ورد فيه قيد والحمد لله يريح البال ويزيل الخوف، ((إنَّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدوا للناس وهو من أهل النار))، ورد هذا الحديث في قصة الرجل الذي كان مع النبي ﷺ في غزاة وكان شجاعًا مقدامًا لا يدع شاذَّة ولا فاذَّة فقال النبي ﷺ هذا من أهل النار، فعظم ذلك على الصحابة وشقَّ عليهم كيف يكون هذا الرجل من أهل النار وهو في هذه المثابة في الجهاد؟ فقال رجل: والله لألزمنَّه، لألزمنَّه يعني لأصاحبنه حتى أنظر ما عاقبته فذهب الرجل فأصابه سهم، أصاب هذا الرجل الشجاع سهم فجزع فأخذ سيفه واتَّكأ عليه حتى خرج من ظهره، أعوذ بالله، جعله هكذا في صدره فخرج من ظهره ومات؛ فلمَّا أصبح الرجل غدا إلى الرسول ﷺ وقال إنَّ الذي قلت؛ قال: أشهد أنَّك رسول الله قال وبم؟ قال إنَّ الرجل الذي قلت إنه من أهل النار فعل كيت وكيت؛ ثم قال الرسول ﷺ: ((إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدوا للناس، وهو من أهل النار([2]))): يعني يكون في قلبه سرٌّ خبيث يطيح به في مواضع الشدَّة والضيق، يعني أنَّه تخونه

١- (قلت): متفق عليه. وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٥٤٣)، والحديث بتمامه: عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقِ المصدوق: ((إِنَّ أحدكُم يجمع خلقه فِي بطن أمه أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثمَّ يكون فِي ذَلِك علقَة مثل ذَلِك ثمَّ يكون فِي ذَلِك مُضْغَة مثل ذَلِك ثمَّ يُرْسل الْملك فينفخ فِيهِ الرّوح وَيُؤمر بِأَرْبَع كَلِمَات بكتب رزقه وأجله وَعَمله وشقي أَو سعيد فو الذي لَا إِلَه غَيره إن أحدكم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا)).

٢- (قلت): البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٥٩)، والحديث بتمامه: عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقالوا ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان فقال رسول الله ﷺ: ((أما إنه من أهل النار))، وفي رواية: فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار فقال رجل من القوم أنا صاحبه أبدا قال فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه قال فجرح الرجل جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: ((وما ذاك))، قال: الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ: ((إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)).

سريرته عند الموت؛ لأنَّ قلبه فيه شيء(١)؛ ولهذا يجب عليَّ وعليكم أن نطهِّر قلوبنا دائمًا وأبدًا نغسلها؛ ليس العبرة أن يقوم الإنسان يصلِّي أو أن يصوم إذا كان قلبه خربًا؛ لأنَّ كلَّ إنسان يستطيع أن يصلِّي أحسن صلاة لأنَّه عمل الجوارح، لكن الكلام على عمل القلب، احرصوا بارك الله فيكم على ملاحظة القلوب وإصلاحها، وإخراج النفاق منها، وإخراج الشك وإبعاده، وإخراج الحسد والغلِّ والحقد على المسلمين؛ لأنَّ كلَّ هذه من خصال اليهود الذين هم أحسد الناس وأشدُّهم غلًّا؛ ترضى أن يكون في قلبك خلق من أخلاق اليهود؟ لا أحد يرضى بهذا؛ فالمهم احرصوا حرصًا شديدًا على إصلاح القلوب؛ لمَّا جيء بالرجل كان يشرب الخمر في عهد الرسول ﷺ ويكرِّر الشرب فدعا عليه رجل من الصحابة، سبَّه وقال: ما أكثر ما يؤتى به إلى رسول الله ﷺ ليعاقبه على شرب الخمر؛ فقال: أما علمت أنَّه يحب الله ورسوله؟ سبحان الله أنظر طهارة قلبه، لكن قلبه مملوء بمحبَّة الله ورسوله؛ فالمدار كلُّه على القلب؛ ولذلك يجب علينا أن نحرص حرصًا كثيرًا على صلاح القلب؛ لأنَّ هذا يوجب حسن الخاتمة؛ ولهذا قال الله تعالى: {ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون}.

٧- أنَّ الإسلام يدخل فيه الإيمان عند الإطلاق وهو كذلك، الإسلام يدخل فيه الإيمان عند الإطلاق؛ والدليل قول النبي ﷺ: ((ومن توفَّيته منَّا فتوفَّه على الإيمان))، فالإسلام عند الإطلاق يدخل فيه الإيمان؛ وأمَّا عند الجمع فالإسلام عمل الجوارح والإيمان عمل القلب كما قال بعض السلف: الإيمان سر والإسلام علانية.

فإن قال قائل: ما تقولون في قوله تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}، فهذا ظاهره أنَّ الإيمان والإسلام شيء واحد مع أنهما ذكرا جميعًا في موضع واحد؟

فالجواب أن يقال: البيت لم يخرج كلُّها، إنَّ الذي خرج المؤمنون من أهل البيت والقصة في لوط امرأته كافرة لم يخرج بها لكنَّها في البيت مسلمة لم تظهر أنَّها كافرة، والدليل على أنَّها لم تظهر أنَّها كافرة أنَّ الله تعالى قال: {ضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما}، فهي لم تظهر أنَّها كافرة؛ فالبيت بيت إسلام؛ ولهذا قال: {غير بيت من المسلمين}، لكنَّ الإيمان ليس لأهل البيت كلِّهم ولهذا بقيت الزوجة وخرج الأهل؛ فالقاعدة على كلِّ حال الآن القاعدة الصحيحة أنَّ الإسلام والإيمان يكونان مترادفين ويكونا متباينين؛ متى يكونان مترادفين؟ إذا افترقا؛

- وفي رواية أخرى للبخاري: عَن أبي هريرة قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ: ((هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ))، فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ مِنْ أَشَدِّ الْقِتَالِ وَكَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحُ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَرَأيت الَّذِي تحدثت أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَدْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَشَدِّ الْقِتَالِ فَكَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحُ، فَقَالَ: ((أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ))، فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَابُ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ وَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الْجِرَاحِ فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ فَانْتَزَعَ سَهْمًا فَانْتَحَرَ بِهَا، فَاشْتَدَّ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ، قَدِ انْتَحَرَ فُلَانٌ وَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ يَا بِلَالُ قُمْ فَأَذِّنْ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدين بِالرجلِ الْفَاجِرِ)).

١- (قلت): هذا القيد الذي ذكره الشيخ رحمه الله لا يشمل حديث ابن مسعود، لأنَّه ورد في سوء الخاتمة، والقيد الذي ورد في حديث سهل بن سعد ورد في المنافقين، كما قال ابن حجر في الفتح الباري: (وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ يَعْمَلُ بِذَلِكَ حَقِيقَةً وَيُخْتَمُ لَهُ بِعَكْسِهِ وَسَيَأْتِي فِي حَدِيثِ سَهْلٍ بِلَفْظِ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُنَافِقِ وَالْمُرَائِي بِخِلَافِ حَدِيثِ الْبَابِ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِسُوءِ الْخَاتِمَةِ).

ويكونا متباينين؟ إذا اجتمعا. {قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا}، وهذا واضح على أنَّ هناك فرقًا بين الإيمان والإسلام.

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {١٠٣}

قال السعدي: ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التَّقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإنَّ في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكَّنون من كلِّ أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقَّف على الائتلاف ما لا يمكن عدُّها، من التعاون على البرِّ والتَّقوى، كما أنَّ بالافتراق والتَّعادي يختلُّ نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كلَّ واحدٍ يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدَّى إلى الضَّرر العام.

قال ابن العثيمين: {واعتصموا بحبل الله جميعًا}: هذا داخل تحت قوله: {يا أيها الذين آمنوا}، فهي معطوفة على {اتَّقوا الله}؛ هنا قال: {واعتصموا بحبل الله جميعًا}، وفيما سبق قال: {ومن يعتصم بالله}، والاعتصام بالله، الاعتماد والتوكُّل عليه، والاستعانة به، والاعتصام بشرعه؛ فحبل الله هو شرعه؛ وسمِّيَ الشرع حبلًا لأنَّه موصل إليه؛ فإنَّ الإنسان إذا أراد أن يشرب من البئر أدلى الدَّلو بالحبل؛ فحبل الله هو شرعه الموصل إليه؛ وأضيف إلى الله عز وجل لأمرين؛ الأمر الأول أنَّه هو الذي وضعه سبحانه وتعالى؛ والأمر الثاني أنَّه موصل إليه.

قال ابن كثير: {بحبل الله}: أي بعهد الله، كما قال في الآية بعدها: {ضربت عليهم الذِّلَّة أين ما ثقفوا إلَّا بحبل من الله وحبل من الناس}[آل عمران: ١١٢]: أي بعهد وذمَّة. وقيل: {بحبل من الله}: يعني القرآن، وقد ورد في ذلك حديث خاص بهذا المعنى، فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ((كتاب الله، هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض(١))).

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج١ص٤٥٧: الإعتصام نَوْعَانِ: اعْتِصَامٌ بِاللَّهِ، وَاعْتِصَامٌ بِحَبْلِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}، وَقَالَ: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[الحج: ٧٨].

١- صحيح: صحيح الجامع (٤٤٧٣).

وَالِاعْتِصَامُ افْتِعَالٌ مِنَ الْعِصْمَةِ، وَهُوَ التَّمَسُّكُ بِمَا يَعْصِمُكَ، وَيَمْنَعُكَ مِنَ الْمَحْذُورِ وَالْمَخُوفِ، فَالْعِصْمَةُ: الْحِمْيَةُ، وَالِاعْتِصَامُ: الِاحْتِمَاءُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْقِلَاعُ: الْعَوَاصِمَ، لِمَنْعِهَا وَحِمَايَتِهَا.

وَمَدَارُ السَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ عَلَى الِاعْتِصَامِ بِاللَّهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهَاتَيْنِ الْعِصْمَتَيْنِ.

فَأَمَّا الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِهِ فَإِنَّهُ يَعْصِمُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَالِاعْتِصَامُ بِهِ يَعْصِمُ مِنَ الْهَلَكَةِ، فَإِنَّ السَّائِرَ إِلَى اللَّهِ كَالسَّائِرِ عَلَى طَرِيقٍ نَحْوَ مَقْصِدِهِ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى هِدَايَةِ الطَّرِيقِ، وَالسَّلَامَةِ فِيهَا، فَلَا يَصِلُ إِلَى مَقْصِدِهِ إِلَّا بَعْدَ حُصُولِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ لَهُ، فَالدَّلِيلُ كَفِيلٌ بِعِصْمَتِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الطَّرِيقِ، وَالْعُدَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالسِّلَاحِ الَّتِي بِهَا تَحْصُلُ لَهُ السَّلَامَةُ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا.

فَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ يُوجِبُ لَهُ الْهِدَايَةَ وَاتِّبَاعَ الدَّلِيلِ، وَالِاعْتِصَامُ بِاللَّهِ، يُوجِبُ لَهُ الْقُوَّةَ وَالْعُدَّةَ وَالسِّلَاحَ، وَالْمَادَّةَ الَّتِي يَسْتَلْئِمُ بِهَا فِي طَرِيقِهِ، وَلِهَذَا اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي الِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ، بَعْدَ إِشَارَتِهِمْ كُلِّهِمْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى.

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَمَسَّكُوا بِدِينِ اللَّهِ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الْجَمَاعَةُ، وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّهَا حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَإِنَّ مَا تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الْفُرْقَةِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: بِعَهْدِ اللَّهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: هُوَ الْقُرْآنُ.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَلَا تَفَرَّقُوا كَمَا تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى.

وَفِي الْمُوَطَّأِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ([١]))). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ.

قَالَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ: الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ هُوَ الْمُحَافَظَةُ عَلَى طَاعَتِهِ، مُرَاقِبًا لِأَمْرِهِ؛ وَيُرِيدُ بِمُرَاقَبَةِ الْأَمْرِ الْقِيَامَ بِالطَّاعَةِ لِأَجْلِ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهَا وَأَحَبَّهَا، لَا لِمُجَرَّدِ الْعَادَةِ، أَوْ لِعِلَّةٍ بَاعِثَةٍ سِوَى امْتِثَالِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ فِي التَّقْوَى: هِيَ الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَتَرْكُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ.

وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ وَالِاحْتِسَابُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ كَقَوْلِهِ: ((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ([٢]))). فَالصِّيَامُ وَالْقِيَامُ: هُوَ الطَّاعَةُ وَالْإِيمَانُ: مُرَاقَبَةُ الْأَمْرِ. وَإِخْلَاصُ الْبَاعِثِ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ الْآمِرَ لَا شَيْءَ سِوَاهُ. وَالِاحْتِسَابُ: رَجَاءُ ثَوَابِ اللَّهِ. فَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ يَحْمِي مِنَ الْبِدْعَةِ وَآفَاتِ الْعَمَلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

١- (قلت): مسلم (١٧١٥).

٢- (قلت): البخاري (٢٠١٤)، مسلم (٧٦٠). والحديث بتمامه: ((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)).

وَأَمَّا الِاعْتِصَامُ بِهِ فَهُوَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالِامْتِنَاعُ بِهِ، وَالِاحْتِمَاءُ بِهِ، وَسُؤَالُهُ أَنْ يَحْمِيَ الْعَبْدَ وَيَمْنَعَهُ، وَيَعْصِمَهُ وَيَدْفَعَ عَنْهُ، فَإِنَّ ثَمَرَةَ الِاعْتِصَامِ بِهِ هُوَ الدَّفْعُ عَنِ الْعَبْدِ، وَاللَّهُ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، فَيَدْفَعُ عَنْ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا اعْتَصَمَ بِهِ كُلَّ سَبَبٍ يُفْضِي بِهِ إِلَى الْعَطَبِ، وَيَحْمِيهِ مِنْهُ، فَيَدْفَعُ عَنْهُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَيْدَ عَدُوِّهِ الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ، وَشَرَّ نَفْسِهِ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ مُوجِبَ أَسْبَابِ الشَّرِّ بَعْدَ انْعِقَادِهَا، بِحَسَبِ قُوَّةِ الِاعْتِصَامِ بِهِ وَتَمَكُّنِهِ، فَتُفْقَدُ فِي حَقِّهِ أَسْبَابُ الْعَطَبِ، فَيَدْفَعُ عَنْهُ مُوجِبَاتِهَا وَمُسَبِّبَاتِهَا، وَيَدْفَعُ عَنْهُ قَدَرَهُ بِقَدَرِهِ، وَإِرَادَتَهُ بِإِرَادَتِهِ، وَيُعِيذُهُ بِهِ مِنْهُ.

قال ابن العثيمين: وقوله: {جميعًا}: حال من الواو في {اعتصموا}: يعني اعتصموا كلُّكم لا يشذّ أحدٌ عن هذا الاعتصام؛ {ولا تفرَّقوا}: في حبل الله، كونوا جميعًا تحت المظلة الشرعية لا يشذّ أحد منكم، ولا تفرَّقوا أحزابًا ولا أفرادًا.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٨ص٣٤٩: أَمَرَهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ وَنَهَاهُمْ عَنْ الِافْتِرَاقِ، فَلَوْ كَانَ فِي حَالِ الِاجْتِمَاعِ قَدْ يَكُونُونَ مُطِيعِينَ لِلَّهِ تَارَةً وَعَاصِينَ لَهُ أُخْرَى لَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ اجْتِمَاعًا عَلَى طَاعَةٍ؛ وَاللَّهُ أَمَرَ بِهِ مُطْلَقًا؛ وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ الِاجْتِمَاعِ وَالِافْتِرَاقِ، لِأَنَّ الِافْتِرَاقَ إِذَا كَانَ مَعَهُ طَاعَةٌ كَانَ مَأْمُورًا بِهِ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ نَوْعَيْنِ نَوْعٌ يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَنَوْعٌ يَعْصِيهِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمُطِيعِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ فُرْقَةٌ، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِطَاعَةِ اللَّهِ.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٧١٧: فالجماعة نوعان:

١ – أوّلًا: جماعةٌ في الدِّين: وهي الأساس الأعظم لما أنزل الله عز وجل به كتبه وأرسل به رسله، فإنَّ الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجل أن يجتمع الناس في دينهم، وهو توحيد الله عز وجل، عبادته وحده دون ما سواه والبراءة من الشرك وأهله، وطاعة رسوله الذي أرسله على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وهذا هو الذي جاء في نحو قوله جل جلاله في سورة الشورى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}[الشورى: ١٣]: يعني واجتمعوا عليه، وهو المذكور في قوله: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}[آل عمران: ١٠٣].

وهذا الاجتماع في الدِّين هو أَعْظَمُ أَمْرٍ لأجله بُعِثَتْ الرسل وأُنْزِلَتْ الكتب، وهو الذي من أجله يجاهد المجاهد ويدعو الدَّاعِي، وهو الذي من أجله آتى الله عز وجل الرسل الآيات والبيِّنات، أن يجتمعوا لأجل تحقيق الدِّين، لأجل ألَّا يفترق الناس في الالتزام بما يُرْضِي الله عز وجل فيما يستحقُّه في العبادة والطاعة له ولرسوله ﷺ.

فيدخل هنا في الاجتماع: الاجتماع في ملازمة الإسلام، والالتزام به، وألَّا نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض، وأن يُدْخَلَ في الإسلام كافَّةً دون تفريقٍ ما بين مسألة ومسألة – يعني من حيث الاعتقاد والإقرار والإذعان والالتزام –.

٢ – ثانيًا: جماعة الأبدان: يعني اجتماع الأبدان والدنيا بملازمة طاعة من وَلَّاهُ الله عز وجل الأمر، والسمع والطاعة في غير معصية الله عز وجل.

وهذا النوع وسيلة لتحقيق الأوَّلْ. فالأمْرُ به والنهي عن الخروج عن الولاة والأمْرْ بالاجتماع فيما أَحَبَّ الإنسان وكَرِهْ، كما جاء في الحديث ((على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره([1]))، هذا به يتحقَّق الاجتماع في الدِّين.

والتفريط في الأول أو في بعضه يُعَاقِبُ الله عز وجل به بالفرقة في الثاني أو بعضه، وكذلك التفريط في الثاني وهو: السمع والطاعة لولاة الأمور في غير المعصية والاجتماع وعدم الخروج، التفريط في الثاني يُنْتِجُ التفريط في الأول أو في بعضه.

ولهذا ما مِنْ فُرْقَةٍ في الأبدان حصلت في الأمَّة إلَّا وكان معها وبعدها من الافتراق في العقائد ونفوذ البدع والمُحْدَثَات ما لا يدخل في حُسْبَان.

فالأمران مترابطان، والجماعة مطلوبَةٌ في هذا وهذا ومأمورٌ بها، وجماعة الدِّين واجتماع الناس في دينهم حقٌ وصواب، وإحداث المحدَثَات باطل وغلط وضلال، وكذلك الاجتماع في الأبدان والدنيا حقٌ وصواب وخلافه بالفُرْقَةْ والخروج باطلٌ وزيغٌ وضلال.

وجماعة الدِّين حصل فيها الافتراق أو حصل فيها الخلل ووقعت الفُرْقَة قبل الافتراق في الأبدان أو قبل اختلال جماعة الأبدان، وذلك حين نشأت الخوارج في عهد عثمان رضي الله عنه، وحدث منهم ما حدث حتى آل الأمر إلى قتل عثمان ثم بعد ذلك وقعت الفُرْقَة واخْتَلَّتْ الجماعة.

وهذا يؤخذ منه أنَّ من دعا إلى الدين والاجتماع عليه وتحقيق التوحيد ونبذ البدع ووسائل الشّرك والبدع وإحلال الحلال وتحريم الحرام والأمر بما أوجب الله عز وجل والنهي عن ضد ذلك أنَّ هذا في الحقيقة يدعو إلى الاجتماع في الأبدان، لأنَّه إذا اجتمع الناس في دينهم آل الأمر إلى اجتماعهم في أبدانهم، والمسائل مرتَبِطٌ بعضها ببعض.

لهذا كان من اللَّوازِمْ على كلِّ من يطلب معرفة منهج السلف والأئمة وأهل الحديث أن ينظر إلى التلازم العظيم ما بين الجماعة الأولى والجماعة الثانية أو الاجتماع الأول والاجتماع الثاني.

والتوازن فيما بينهما هو سبيل أهل العلم، فإنَّ الناس في هذين الأمرين على ثلاثة أنحاء:

الفئة الأولى: منهم من قَدَّمَ تحقيق المطالب الدينية ورَعَاهُ حتى ولو حصل خلل في الاجتماع في الأبدان – يعني بحسب اعتقادهم –.

وهذا هو طريقة من ضلَّ في هذا الباب وغلا من الخوارج والمعتزلة، ومن رَأَى رأيًا يشابه ما قاله الخوارج والمعتزلة ونحوهما.

الفئة الثانية: من تساهلت فرَأَتْ المحافظة على الجماعة في الأبدان والدنيا سبيلًا لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة الواجبة وإعلان الحق بضوابطه الشرعية في أمر الجماعة، فَتَرَكُوا إنكار المنكر من الشرك والبدع تَسَاهُلًا وضَعْفًا.

---

[1]– (قلت): البخاري (٧١٤٤)، مسلم (١٨٣٩). والحديث بتمامه: ((السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ، وَلاَ طَاعَةَ)).

الفئة الثالثة: هم الرَّاسخون في العلم ومن تَوَلَّاهُ الله عز وجل بتوفيقه، فإنَّهم أخذوا بهذا وهذا، فدعوا إلى الاجتماع في الدِّين وتحقيق ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبنشر العلم النافع والدعوة إلى ذلك وبالنصيحة بطرقها الشرعية، ولم يروا ذلك مُخَالِفًا لما أوجب الله عز وجل من الاجتماع في الأبدان والدنيا، فوازنوا بين هذا وهذا وأَجْرَوا الحكمة في هذا وهذا.

ولا شك أَنَّ أحوال الناس تختلف في مثل هذه المقامات ما بين مقام الأمن ومقام الخوف ومقام الفتنة ومقام الاستقرار. والرَّاسخون في العلم ومن تبعهم يضعون لكلِّ شيءٍ موضعه، فلا يتركون الأمر والنهي والدعوة والنصيحة لأجل تَوَهُّم أَنَّ هذا يُفَرِّقْ، ولا يأمرون مع مَظِنَّةِ وجود الفرقة.

ولهذا يقول ابن تيمية رحمه الله في رسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (أَنَّ الآمر والناهي إذا ظَنَّ أنَّه ستحدث مفسدة لأمره ونهيه أكبر ممَّا أَمَرَ به ونَهَى، فإنَّه لا يُنْكِرْ، وقال: يأثم إذا أنكر).

لأنَّ الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها. وهذا بخلاف التَّوَهُّمْ، لأنَّ التَّوَهُّمْ غير الظنُّ الراجح، غير ما يعلمه أهل العلم مما ستُحْدِثُهُ الأمور. والتَّوَهُّمْ هذا راجع للخوف، فمن الناس من يخاف أن يقول لفلان: اتَّقِ الله في كذا وكذا أو صلِّ الصلاة، يَتَوَهَّمْ أَنَّ كلَّ شيءٍ سيؤثِّر على النفوس وأنَّ كلَّ شيء سَيَغَيِّرْ، الخ.

وهذه حيلة وطريقة مَنْ تَرَكَ ما أوجب الله عز وجل، وهي طريقة بني إسرائيل التي ذمَّ الله عز وجل الناس عليها.

لهذا يجب في هذه المسائل أن يؤخذ بطريقة أئمة الإسلام الرَّاسخين في العلم ممَّن رَعَوا هذا وهذا، وأَنَّ الاجتماع في الدِّين هو الأصل الذي يجب أن يُدْعَى إليه، وأنَّ الاجتماع في الأبدان والدنيا أنَّ هذا أصل عظيم يجب المحافظة عليه، والموازنة بين هذا وهذا إنَّما يدركه أهل العلم الرَّاسخون.

وما ضلَّت الخوارج – يعني في أصلها – إلَّا لأجل أنَّهم رأوا أنَّ تحقيق ما يَظُنُّونْ من الشريعة يحصل بقتل عثمان وبجمع الناس على ما يرون، ثم حصل من المعتزلة ما حصل، الخ، فحَصَلَ الفساد والشرّ بسبب التفريط في الموازنة والوسط في هاتين المسألتين العظيمتين.

قال ابن العثيمين: {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم}: اذكروا بألسنتكم، واذكروا بقلوبكم؛ الذكر بالقلب هو التذكُّر، تذكُّر الإنسان حتى لو كان وحده في بيته يتذكَّر الحال التي أشار الله تعالى إليها؛ اذكروا أيضًا بألسنتكم ثناءً على الله بذلك وتحدُّثًا بنعمته، {اذكروا نعمة الله عليكم}، والنعمة بمعنى العطاء والرزق؛ وهذه النعمة التي ذكر الله هنا وأمرنا أن نذكرها هي من أكبر النِّعم؛ ولهذا قال: {إذ كنتم أعداء}، هذا بيان هذه النعمة: أي أنَّ بعضكم عدوٌّ لبعض؛ ولاشك أنَّه مع العداوة لا يمكن أن تستقيم الأمَّة؛ فالعداوة كانت بينهم قبل الإسلام أزاله الله تعالى بالإسلام؛ ومن ذلك ما كان بين قبائل العرب من قريش وهوازن وغيرهم، وما كان بين قبائل الأنصار بين أوس و خزرج حروب وفتن وعداوات وثارات، يعني إذا قرأه الإنسان في التاريخ يقول إنَّ من أكبر نعم الله على العرب أن جاء بهذا الإسلام؛ ولهذا ذكَّر النبي ﷺ الأنصار بذلك حين قسَّم غنائم حنين، وكان رسول الله ﷺ حكيمًا أعطى المؤلفة قلوبهم عطاء كثيرًا حتى إنَّه يعطي للإنسان مائة ناقة، فصار

في قلوب بعض الأنصار شيءٌ حتى إنَّهم قالوا: وجد أصحابه فأعطاهم أو كلمة نحوها؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمرهم أن يجتمعوا وأن لا يدخل معهم أحد اجتمعوا فجاء إليهم وذكرهم بنعمة الله عز وجل عليهم وقال لهم: ((ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟[١]))، الشاهد من هذا أنَّه ذكَّرهم ﷺ أنَّهم كانوا متفرِّقين فجمعهم الله به وألَّفهم به؛ ولهذا يذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء فقال: {إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم}، {ألَّف}: يعني جمع، ومنه قولنا: ألَّف فلان كتابًا يعني جمعه؛ وقوله: {بين قلوبكم}، ولم يقل: (بينكم)، لأنَّ الائتلاف في القلوب؛ وهذا هو الذي عليه المدار، ليس المدار الائتلاف بالأجسام؛ كم من أمَّة ائتلفت بأجسامها لكن قلوبها متفرِّقة كما قال الله تعالى عن اليهود: {تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتَّى}، ولا فائدة من اجتماع الأبدان مع تفرق القلوب؛ الفائدة باجتماع القلوب وتآلف القلوب ولو تباعدت الأبدان؛ وكم من إنسان يكون بينك وبينه مودَّة وصداقة وهو بعيد عنك؛ وكم من إنسان بالعكس تشعر بأنَّه ينافقك وأنَّه لا يكِنُّ لك محبَّة ولا صداقة ومع ذلك هو كالملازم لك ملازمة الظِّل؛ فالشأن كلَّ الشأن بما في القلوب ولهذا قال الله تعالى: {فألَّف بين قلوبكم}؛ والذي يستطيع أن يؤلِّف بين قلوب الناس هو الله سبحانه وتعالى؛ لا أحد يستطيع ذلك أبدًا؛ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: {لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألَّفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّف بينهم}، صحيح أنَّ المال يؤلِّف، ولهذا جعل الله تعالى للمؤلَّفة قلوبهم نصيبًا من الزكاة، وكان النبي ﷺ يؤتي المؤلَّفة قلوبهم؛ لكن ثقوا أنَّ ما كان مؤلِّفا لشيءٍ فإنَّه سوف ينعدم تأليفه بزوال هذا الشيء وفقد هذا الشيء؛ لكن التأليف الذي يكون على الإيمان ومن الرحمن عز وجل هذا لا ينفصل؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: {فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا}.

قوله: {فأصبحتم}: أصل الإصباح الدخول في الإصباح الذي هو أوَّل النهار؛ لكنَّه يطلق أحيانًا مجرَّدًا من الزمان ويراد به الصيرورة أي صرتم إخوانًا؛ وهذا هو المراد هنا: يعني صرتم إخوانًا في الصباح وفي المساء؛ وقوله: {بنعمته}: الباء هنا للسببية أي بسبب إنعامه عليكم بعد العداوة أصبحتم إخوانًا، يعني إخوة؛ والأخوة في الأصل المقارنة أو القران بين شيئين؛ فكلُّ شيئين اتَّفقا في الشيء واقترنا به فهما أخوان؛ فمعنى إخوانًا أي مقترنين مؤتلفين كأنَّ ما بينكم رابطة النسب، بل أعظم من رابطة النسب، لأنَّ أخوَّة الدِّين أعظم من أخوَّة النسب؛ بل إنَّ أخوَّة النسب تتلاشى إذا لم توجد أخوَّة الدِّين؛ ودليل هذا أنَّ نوحًا عليه الصلاة والسلام قال: {ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنَّه ليس من أهلك}: ليس من أهلك مع أنَّه ابنه بضعة منه؛ لكنَّه ليس من أهله {إنَّه عمل غير صالح}: يعني أنَّه عمل عملًا غير صالح، فهو كافر وأنت رسول فليس بينكما قرابة؛ فالأخوة الإيمانية أقوى رابطة من الأخوة النسبية فإذا اجتمعا قوى بعضهما بعضًا، إذا كان أخاك من النسب وهو أيضا أخوك في الدِّين صار هذا أقوى وأقوى، وقوله: {فأصبحتم بنعمته إخوانًا}، وقد

١- (قلت): البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٠)، والحديث بتمامه: ((يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلَّالًا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)).

ظهرت هذه الأخوَّة؛ فإنَّ الأنصار رضي الله عنهم لمَّا قدم إليهم المهاجرون صاروا يؤثرونهم في أموالهم، يتنازل الإنسان عن ماله لأخيه المهاجر؛ بل ربما يتنازل عن إحدى زوجتيه له من شدّة الأخوَّة والمحبَّة بينهما.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٩ص٩٢: فَلَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ التَّفَرُّقِ مُطْلَقًا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى بَاطِلٍ؛ إذْ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى بَاطِلٍ لَوَجَبَ اتِّبَاعُ الْحَقِّ الْمُتَضَمِّنِ لِتَفَرُّقِهِمْ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا، كَمَا قَالَ: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}[الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فَإِذَا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مُتَأَلِّفَةً غَيْرَ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ كَانَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ وَمِمَّا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ اجْتِمَاعًا عَلَى بَاطِلٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ.

قال ابن العثيمين: {وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها}، {كنتم}: أي قبل الإسلام، {على شفا حفرة من النار}: أي على طرف؛ وشفا الشيء طرفه، كشفا البئر أي طرفها؛ وقوله: {حفرة من النار}: أي من نار جهنم؛ لأنَّهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام والأوثان فهم على شفا حفرة لو ماتوا على تلك الحال لسقطوا في الحفرة، لكن قبل أن يسقطوا في الحفرة أنقذكم الله بالإسلام ولله الحمد والمنَّة؛ فبيَّن الله عز وجل هنا حالهم الاجتماعية وحالهم الدينية؛ حالهم الاجتماعية كانوا أعداء مختلفين متفرِّقين فألَّف بين قلوبهم؛ وحالهم الدينية أنَّهم على شفا حفرة من النار ما بقي عليهم أن يتساقطوا في النار إلَّا أن يموتوا على الكفر، ولكنَّ الله أنقذهم بنعمته بهذا الدِّين الذي قال الله فيه: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا}. {فأنقذكم منها}، كلمة {أنقذ} تدلُّ على أنَّ هذا الشَّفا كان هلكًا وهو كذلك، فإنَّه لا هلكة أعظم من هلكة من كان في النار فأنقذهم الله منها إنقاذًا.

{كذلك يبيِّن الله لكم آياته}: {كذلك} يذكرها الله سبحانه وتعالى كثيرًا في كتابه العزيز، وهي على تقدير {مثل ذلك}؛ فكذلك: أي مثل ذلك، ثم هي تختلف باختلاف السياق؛ ففي مثل هذا السياق الذي نحن فيه تكون مفعولًا مطلقًا، وإن شئتم فقولوا نائبة مناب المصدر؛ لأنَّ التقدير: مثل ذلك البيان يبيِّن الله لكم آياته؛ أي أنَّ الله سبحانه وتعالى أظهر لنا آياته الكونية وآياته الشرعية بيانًا واضحًا ظاهرًا ليس فيه لبس؛ لأنَّ هنا لمَّا ذكَّرهم حالهم الاجتماعية والدينية، وهي حال ظاهرة لا تشكِل عليهم، جعل ذلك بيانًا فقال: {كذلك يبيِّن الله لكم آياته} أي العلامات الدَّالَّة عليه على وحدانيته، وربوبيته، وسلطانه، وعلمه، وقدرته وغير ذلك مما تقتضيه تلك الآية؛ لأنَّ كلَّ آية من آيات الله تدلُّ على معنى من معاني ربوبيته سبحانه وتعالى.

قال السعدي: {كذلك يبيِّن الله لكم آياته}: أي يوضِّحها ويفسِّرها، ويبيِّن لكم الحقَّ من الباطل، والهدى من الضلال {لعلكم تهتدون} بمعرفة الحقِّ والعمل به.

قال ابن العثيمين: {لعلَّ} هنا للتعليل: أي لأجل أن تهتدوا؛ والهداية هنا شاملة لهداية التوفيق، وهداية الإرشاد والدِّلالة، أي تهتدوا اهتداءً علميًّا، وتهتدوا اهتداءً عمليًّا؛ الاهتداء العلمي هو هداية الإرشاد والدِّلالة؛ والاهتداء العملي هداية التوفيق لأنَّ الإنسان بفطرته كلَّما تبيَّن له شيءٌ من آيات الله ازداد إيمانًا ويقينًا وعملًا؛ ذكرنا أنَّ {لعل} للتعليل وهي كثيرة في القرآن بهذا المعنى، وتأتي للرَّجاء وتأتي للإشفاق؛ الرَّجاء ضد الإشفاق، الإشفاق الخوف؛ والرَّجاء الأمل؛ فإذا قلت لشخص: استغفر الله لعلَّ الله أن يغفر لك؛ هذا رجاء؛ وإذا قلت: لا تمشي في هذا الطريق فلعلك تهلك؛ هذا إشفاق؛ والتعليل أيضًا معروف من السياق.

قال السعدي: وفي هذه الآية ما يدلُّ أنَّ الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرًا له ومحبَّة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإنَّ من أعظم ما يذكر من نِعَمِه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتِّباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرُّقها.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب الاجتماع على شرع الله؛ لقوله: {جميعًا}.

٢- وجوب التحاكم إلى شرع الله؛ لأنَّ الاعتصام به يقتضي أن يكون هو المُحَكِّم.

٣- أنَّ الاجتماع عصمة؛ لقوله: {اعتصموا} فاجتماع الأمَّة الإسلامية عصمة لها داخليًّا وعصمة لها خارجيًّا؛ أمَّا خارجيًّا فإنَّ الأمَّة الإسلامية إذا اجتمعت هابها الأعداء ورأوا أنَّها أمامهم كالجبال الأشمِّ التي لا يستطيعون لها صعودًا؛ وإذا تفرَّقت تمزَّقت فدخل الأعداء؛ أيضًا عصمةً داخليةً لأنَّهم إذا اجتمعوا على شرع الله تآمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ودعوا إلى الخير وصاروا أمَّة واحدة؛ كلُّ إنسانٍ يخشى الله في أخيه لا يعتدي عليه لا على ماله ولا على عرضه ولا على دمه؛ لأنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، جميع؛ ففي الاجتماع عصمة في الداخل وعصمة في الخارج.

٤- تحريم التَّفرُّق في القلوب؛ المدار على التَّفرُّق في القلوب؛ ضروري أن يتفرَّق الناس في الأبدان، كلٌّ الآن في بيته؛ في الأقوال أيضًا يتفرَّقون؛ وما أكثر الخلاف بين أهل العلم قديمًا وحديثًا في المسائل العلمية؛ لكن في القلوب هو الذي يجب على المسلمين أن يبعدوا التفرُّق بينهم في القلوب؛ لأنَّه هو الذي عليه المدار؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: ((لا تختلفوا فتختلف قلوبكم[1]))، فالمدار على القلوب؛ إذًا هذه الآية دليل على تحريم التَّفرُّق في القلوب حتى لو تفرَّقت الأبدان أو تفرَّقت الأقوال فالقلوب لا تتفرَّق؛ وما أكثر ما نعرض عليكم اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد المؤدِّي إلى التَّفرُّق في الأقوال لكنَّ القلوب واحدة، لا تتفرَّق ولا يكره بعضهم بعضًا إذا خالفه في الرأي؛ بل إنه ينبغي للإنسان العاقل أنَّه إذا خالفه

١- (قلت): مسلم (٤٣٢)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٢٥٦).

أخوه في رأيه بمقتضى دليل عنده، أن يكون ذلك أدعى إلى قوة المحبة له؛ لأنَّه خالفه للدليل، والثاني أيضًا خالفه للدليل فكان ينبغي عليه أن تكون محبته أقوى؛ لأنَّ الرجل لم يحابني في ذات الله وإنَّما قدَّم محبة الله، وأنا حينما أخالفه تقديمًا لمحبة الله عز وجل؛ فالإنسان العاقل المؤمن هو الذي لا يزيد مخالفة أخيه له في الرأي المخالفة المبنيَّة على الاجتهاد إلَّا محبَّةً له وتمسُّكًا به خلافًا لما يفعل بعض الناس الآن ومع الأسف أنَّهم طلبة علم، إذا خالفه أخوه في الرأي، مع أنَّه لا يعلم هل الصواب عنده أو عند أخيه! أبغضه وكرهه وهاجره، وربما يلاقيه فاسق فيسلِّم عليه ويلاقيه أخوه الذي خالفه في الرأي ولا يسلِّم عليه؛ وما ذاك إلَّا من الشيطان، الشيطان هو الذي يريد أن يوقع العداوة بين المسلمين ولا سيَّما بين طلبة العلم حتى ينبذ بعضهم بعضًا، لأنَّ الشيطان يعلم أنَّ الشريعة لا تقوم إلَّا بالعلم والعلماء؛ فإذا تنابذوا وتقاطعوا فيما بينهم، وصار يكره بعضهم بعضًا حينئذ على الشريعة السلام، إذا قلنا عليه السلام معناه سلمت وهي لم تسلم؛ لكنَّ الناس يلقون عليه السلام كناية على التَّوديع والذهاب.

٥- وجوب تذكُّر نعمة الله؛ وهذه مسألة مهمة لأنَّ الغفلة عن تذكُّر النِّعمة يستلزم الغفلة عن الشكر؛ والشكر واجب {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}، فالغفلة عن تذكُّر النعمة موجب أو مستلزم للغفلة عن الشكر، بحيث إنَّ الإنسان لا يعترف بنعمة الله، يجب أن تتذكَّر نعمة الله على كلِّ شيء، في الأمور الدينية، والدنيوية، والمالية، والجاهية، والخلقية، كلُّ شيء، مثلًا اذكر نعمة الله عليك بالعلم لأنَّك تعرف أنَّ في الناس من هو جاهل، لا تقل: والله إنعام الله على شيخ الإسلام ابن تيمية أكبر ممَّا أنعم عليَّ؛ لا، قل: نعمة الله عليَّ أكبر من نعمته على من هو دوني في العلم؛ اذكر نعمة الله عليك في الصحة فإنَّ من الناس بل إنَّ كثيرًا من الناس يئنُّ من المرض وأنت في صحة، اذكر هذه النعمة، حتى لو فيك مرض أو عيب في عضو من أعضائك فاذكر من هو أشدُّ؛ من هو مريض بعضوين ومعيب بعيبين؛ أيضًا اذكر نعمة الله عليك بالدِّين، إذا أنعم الله عليك بالدِّين هذا أكبر نعمة، لأنَّه هو الربح في الدنيا والآخرة؛ اذكر نعمة الله عليك في الدين في مقابلة الكفار، هذا في أصل الإيمان؛ ثم اذكر نعمة الله عليك بالثبات على الإسلام وتطبيق أحكام الإسلام، حيث إنه يوجد من هو مسلم ولكن مخالف عاصي عنده فسوق؛ إذًا ذكر نعمة الله علينا واجب، حتى نعرف قدر نعمة الله ونشكر ربنا سبحانه وتعالى على نعمه التي حرِّم منها كثير من الناس.

٦- أنَّ من أكبر نعم الله على الأمَّة أن يؤلِّف بين قلوبهم؛ لقوله: {نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم}، ولاشك أنَّ هذا من أكبر النِّعم أن يؤلِّف الله بين القلوب ويجمع بينها؛ لأنَّه إذا تفرَّقت القلوب فسد كلُّ شيء؛ فتأليف القلوب من أكبر نعم الله سبحانه وتعالى على الأُمَّة ومن تحتها القبيلة ومن تحتها الأخوَّة؛ فإذا ألَّف الله تعالى بين القلوب ابدأ من الأولاد والآباء إلى ما شاء الله؛ فهذه من أكبر النِّعم؛ أما إذا تعادت القلوب، فبئس المجتمع مجتمع تعادت قلوبه وتنافرت؛ وقد ذكَّر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بهذه النِّعمة فقال تعالى: {هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في

الأرض جميعًا ما ألَّفت بين قلوبهم} لو كلُّ الذي في الأرض تنفقه من ذهب وفضة وثمار وزروع ومواشي وغيرها لو أنفقته عليهم ما ألَّفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّف بينهم؛ إذًا نقول إنَّ من أكبر نعم الله على الأمَّة التأليف بين القلوب.

٧- أن نتيجة التأليف أن يصبح الناس إخوانًا، كالأخ مع أخيه تمامًا؛ بل إنَّ الرابطة الدينية أقوى من رابط النَّسَبية.

٨- أنَّك إذا رأيت الناس متفرِّقين فإن ذلك عنوان على شقائهم وأنَّ النعمة سلبت منهم؛ لأنَّ الله قال: {فأصبحتم بنعمته إخوانًا} فإذا لم تتحقَّق الأخوة والتأليف بين القلوب فإنَّ ذلك دليل على أنَّ النعمة في ذلك الأمر سلبت منهم.

٩- منَّة الله سبحانه وتعالى على الصحابة بالذات حيث ألَّف بين قلوبهم، بعد أن كانوا أعداء فأصبحوا إخوانًا رضي الله عنهم، وهم الذين طبقوا مقتضى الأخوَّة الحقيقية الصادقة التي بنيت على الإيمان، لا الأخوَّة المبنية على القومية أو الوطنية؛ هذه أخوة فاشلة باطلة، ولا أدلَّ على فشلها ممَّا عليها العرب اليوم حيث يعتزّون بالقومية العربية ومع ذلك فشلوا فشلًا؛ وكذلك الوطنية، اعتزاز الإنسان بوطنه فشل؛ لا يمكن أن يكون هناك أخوَّة إلَّا بالدِّين، بالإيمان والإسلام؛ الأنصار من الأوس والخزرج، والعرب طائفة أخرى، هؤلاء قحطانيون وهؤلاء عدنانيون مع ذلك اجتمعوا على قلب واحد؛ بل جاءهم أناس من غيرهم جاء صهيب من الروم وسلمان من فارس وبلال من الحبشة وصاروا إخوانًا لهؤلاء؛ إذًا نقول: إنَّ الأخوَّة الحقيقة هي الأخوَّة الإيمانية، ولن يقوم للعرب قائمة حتى يرجعوا إلى الأخوَّة الإيمانية، وإلَّا فهم فاشلون مهما كان ولا يمكن أن يسعدوا بظفر أو نصر ما داموا بالقومية وما أشبهها.

١٠- منَّة الله سبحانه وتعالى على أهل الخطاب الذين خوطبوا بهذه الآيات، حيث كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها يعني أنَّ الله بعث فيهم محمدًا ﷺ فاهتدوا به قبل أن يموتوا؛ وإذا كان هذا نعمة على هؤلاء فهو أيضًا نعمة على من بعدهم إلى يوم القيمة؛ فأكبر نعمة ينعم الله بها على الإنسان أن ينقذه من النار.

١١- إثبات العقوبة بالنار؛ لقوله: {وكنتم على شفا حفرة من النار}.

١٢- أنَّ الله سبحانه وتعالى خالق لعمل العبد، تؤخذ من قوله: {فأنقذكم} لأنَّ الله أنقذهم بعملهم، فأضاف هذا الإنقاذ المبنيُّ على العمل إلى نفسه وهو كذلك، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى خالق العبد وخالق عمل العبد؛ فالعبد ليس مستقلًّا بل هو مخلوق في ذاته وفي إرادته وفي عمله {والله خلقكم وما تعملون}: أي (وعملكم) على قول، أو (والذي تعملونه) على قول آخر؛ وإذا خلق المعمول فهو خالق للعمل لأنَّ المعمول نتيجة العمل؛ فالنتيجة دالَّة على أنَّ الله خالق لأعمال العباد سواء جعلت {ما} مصدرية أو موصولة.

١٣- أنَّ الله عز وجل بيَّن لنا الآيات الكونية والشرعية؛ وجه هذا أنَّ {آيات} جمع مضاف، والجمع المضاف يفيد العموم؛ وبيان الآيات الكونية ظاهرة: الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والأنهار وغير ذلك؛ والشرعية كذلك ظاهرة، لمَّا فتح الله عليه معرفة ما أنزل الله على رسله عز وجل؛ ثم الآيات الكونية بيانها ليس مجرَّد أن تعرف أنَّ هذه الآية لا يقدر على خلقها وتصريفها إلَّا الله فقط، لكن أن تستدل بالسنن الماضية على السنن الحاضرة، مثلًا: إهلاك الله الأمم السابقين، نستدلُّ

به على أنَّ سنة الله في الخلق واحدة؛ فالذي أهلك الأمم السابقة بذنوبهم يهلك هذه الأمَّة أيضًا بذنوبهم كما قال الله تعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها}.

١٤- الرَّدُّ على أهل البدع الذين حرَّفوا نصوص الكتاب والسنة إلى معانٍ لا يدلُّ عليه ظاهرها؛ ووجه ذلك أنَّنا إذا قلنا إنَّ المراد بهذه الآيات والأحاديث خلاف الظاهر بدون بيان من الله ورسوله صارت هذه الآيات مبهمة؛ يعني مثلًا إذا قالوا المراد باستواء الله على عرشه استيلائه عليه بدون بيان من الله ورسوله؛ نقول: طيِّب كون الله يعبِّر بإستوى على العرش بدل استولى هذا بيان أم إيهام؟ هذا إيهام؛ إذا قالوا المراد باليد النعمة والقوة؛ قلنا: سبحان الله كيف يعبِّر الله باليد عن النعمة والقوة وهو يريد النعمة والقوة بدون بيان؛ ما هذا إلَّا إيهام؛ فالمهم أنَّه على طريقة ومنهاج أهل البدع وغيرهم ممَّن يحرِّفون الكلم عن مواضعه بدون بيان من الله ورسوله يكون القرآن ليس هدى ولا بيانًا للناس، وكذلك السنة وهو خلاف هذه الآية وغيرها.

١٥- محبة الله عز وجل لهداية الخلق؛ لأنَّه يبيِّن ليهتدي الناس؛ إذًا فهو يحب من العباد أن يهتدوا.

١٦- إثبات العلل في أفعال الله؛ تؤخذ من قوله: {لعلَّكم}، لأنَّ (لعل) للتعليل؛ والحكمة من مقتضى كمال الله عز وجل؛ لأنَّه لو لا الحكمة لكانت أحكامه عبثًا، الأحكام الكونية والشرعية كما قال الله تعالى: {وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلَّا بالحق}؛ إذًا فإنكار الحكمة طعن عظيم في الله عز وجل. والذين يقولون إنَّ الله ليس له حكمة والعياذ بالله، وإنَّما فعله وأمره بمجرَّد المشيئة، شاء أن يكون هذا فكان، شاء أن يأمر بهذا فأمر، شاء أن ينهى عن هذا فنهى؛ هؤلاء طعنوا في الله أيما طعن؛ لأنَّه أصبح فعله مجرَّدًا عن الحكمة؛ وإذا تجرَّد عن الحكمة ما بقي إلَّا أن يكون سفهًا؛ والله عز وجل منزَّه عن ذلك.

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٤}

قال أبو زهرة: بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله تعالى؛ والاستمساك بالقرآن الكريم، والالتفاف حوله، وعدم التفرُّق والانقسام – بيَّن سبحانه وتعالى السبيل لهذا الاعتصام، والطريق للوحدة الفاضلة، التي لَا تفرُّق فيها، ولا اختلاف يفكُّ عراها، ويهدم بنيانها، وذلك السبيل هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك فرضه سبحانه وتعالى بقوله تقدَّست كلماته: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

قال ابن العثيمين: {ولتكن منكم أمَّة يدعون إلى الخير}: اللام في قوله: {ولتكن} لام الأمر؛ ودليل ذلك جزم الفعل بها{ولتكن}، ولام الأمر تجزم الفعل المضارع؛ {أمَّة}: طائفة يدعون إلى الخير؛ والأمَّة في القرآن الكريم وردت على معان

متعدِّدة: منها الطائفة، ومنها الزمن، ومنها الإمامة، ومنها الملَّة؛ فمثالها في الطائفة هذه الآية: {ولتكّن منكم أمَّة}؛ ومثالها في الملة قوله تعالى: {إنا وجدنا على أمَّة}: أي على ملَّة؛ ومثالها في الإمامة: {إنَّ إبراهيم كان أمَّة}؛ ومثالها في الزمن: {وادَّكر بعد أمَّة}: أي بعد زمن. وقوله: {ولتكن منكم أمَّة يدعون إلى الخير}: {من} يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ فعلى الأول يكون المعنى: وليكن بعضكم يدعوا إلى الخير؛ وعلى الثاني: ولتكونوا جميعًا دعاة إلى الخير؛ لأنَّنا إذا جعلناها لبيان الجنس صار المعنى أنَّ كلَّ الأمَّة يجب أن تكون من هذا الطراز يعني وتكون أمَّة تدعون إلى الخير؛ وإذا جعلناها للتبعيض صار المعنى: وليكن بعضكم يدعوا إلى الخير؛ وسيأتي إن شاء الله في الفوائد ما يترتَّب على ذلك.

قال: {يدعون إلى الخير}: يدعون من؟ المفعول محذوف؛ فهل المراد يدعون أنفسهم أو يدعون غيرهم من الأقارب أو غيرهم من المسلمين أو غيرهم من جميع الناس؟ يشمل؛ يدعون إلى الخير كلَّ من تتوجَّه الدعوة إليه، أيُّ إنسان تتوجَّه الدعوة إليه فيدعوه. وهل يدعون الجن؟ نعم يدعون الجن؛ ولهذا كان المفعول محذوفًا من أجل العموم؛ {يدعون إلى الخير}، والخير كل ما جاء به الشرع فهو خير؛ ويشمل ما كان خيرًا في الدِّين وما كان خيرًا في الدنيا؛ أمَّا ما كان خيرًا في الدِّين فأمره ظاهر، {فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرًّا يره}، وأمَّا ما كان من أمر الدنيا فلأنَّ ما كان من مصالح الدنيا التي لا تعارض الدِّين فهو من الأمور الخيرية المطلوبة؛ فيكون الخير هنا يشمل خير الدِّين وخير الدنيا؛ فمثلًا يدعون إلى فعل الطاعات: صلِّ، زكِّي، صم، حج، برّ والديك، صل أرحامك، انصح في البيع والشراء، بيِّن، وما أشبه ذلك كلُّ هذا دعوة في الخير؛ لا تزني، لا تسرق، لا تشرب الخمر، لا تقتل النفس بغير حقٍّ، لا تعق والديك، لا تقطع أرحامك، لا تغشَّ الناس، هذا أيضًا دعوة إلى الخير لأنَّ هذا طلب كفٍّ، النهي طلب كف؛ فهو في الحقيقة دعوة إلى الخير لأنَّ ترك الشر خير.

ثانيًا: {ويأمرون بالمعروف}: جعل الأمر بالمعروف بعد الدعوة، لأنَّ الدعوة سابقة على الأمر؛ فأنت تدعوا أوَّلًا، ثم تأمر ثانيًا، ثم تغير ثالثًا؛ وهذا يلتبس على كثير من الطلبة، يظنون أنَّ الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر شيء واحد وليس كذلك؛ فالدعوة إلى الخير عامة؛ فالخطيب إذا خطب الناس في الجمعة وأمر ونهى يقال: داعٍ إلى الخير؛ الرجل إذا أمسك بك وقال: يا أخ صلِّ اتَّق الله؛ يا أخي لا تغشَّ الناس اتَّق الله؛ فهذا أمر بالمعروف ونهي عن المنكر؛ وليُّ الأمر إذا رأى آلة عزف وكسرها، هذا تغيير منكر؛ لكن كلمة {يأمرون} تدلُّ على أنَّهم يتكلَّمون مع الناس على وجه الاستعلاء، يعني على وجه أنَّني آمر، والآمر بالخير أعلى مرتبة من المأمور ولكلٍّ درجات.

وقوله: {يأمرون بالمعروف}: {المعروف}، كلُّ ما عرفه الشرع وأقرَّه من العبادات فعلًا كانت أم تركًا، أو فعلًا فقط لأنَّه قال: {وينهون عن المنكر}، لَمَّا جمع بينهما صار المراد بالمعروف كلَّما عرفه الشرع وأقرَّه من العبادات المأمور بها؛ فالأمر بالتوحيد أمر بمعروف، الأمر باتِّباع السلف في العقيدة أمر بمعروف، الأمر بالصلاة أمر بمعروف، الأمر ببرِّ الوالدين أمر بمعروف، وهلمَّ جرا؛ هذا الأمر بالمعروف.

قال: {وينهون عن المنكر}: النهي طلب الكفِّ على وجه الاستعلاء، يعني يطلبون من الناس أن يكفُّوا عن المنكر؛ وما أنكره الشرع من الأعمال والأخلاق فهو منكر؛ الزنا، السرقة، شرب الخمر، قتل النفس، العدوان على الناس بأخذ أموالهم، انتهاك أعراضهم كلُّ هذه منكرات؛ فهم ينهون عن المنكر.

قال السعدي: {يدعون إلى الخير}: وهو اسم جامع لكلِّ ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه، {ويأمرون بالمعروف}: وهو ما عرف بالعقل والشرع حسَّنه، {وينهون عن المنكر}: وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدِّية للدَّعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلِّمون للدِّين، والوعَّاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدُّون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقُّد المكاييل والموازين وتفقُّد أهل الأسواق ومنعهم من الغشِّ والمعاملات الباطلة، وكلِّ هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدلُّ عليه الآية الكريمة في قوله: {ولتكن منكم أمَّة} إلخ، أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرَّر أنَّ الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلَّا به فكلُّ ما تتوقَّف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعزِّ الإسلام، وتعلُّم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقَّف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدَّة للدَّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواصُّ المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: {وأولئك هم المفلحون}: الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج٢ص٣٣٧: فإنكار المنكرات التي تكون في المجتمعات هذا واجب شرعي على أهل العلم وعلى من يُوَجِّه الناس، لكن إيجاب إنكار المنكر هذا واجب مستقل، وإيجاب الطريقة في إنكاره هذا واجب مستقل، فهناك واجبان: واجب الإنكار وواجب الطريقة، قال شيخ الإسلام: (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ): يعني ليس المقصود الأمر والنهي هذا الواجب فقط، بل الواجب أن يكون الأمر والنهي على ما توجب الشريعة، فمثل هذه المعاصي والذنوب من الكبائر وغيرها، الطريقة الشرعية فيها أنَّه يُنهى عن المنكر بدون نَظَرٍ إلى الواقع فيه، فيقال: الربا محرَّم، يذكر الربا كحكم شرعي، هذا هو الذي يجب شرعًا، وما عدا ذلك من الأساليب وغير ذلك، هذه هي التي يكون فيها النظر، هل هي أساليب موافقة لطريقة أهل السنة أم غير موافقة؟ لأنَّ بعضهم يتَّخذ أساليب غير مأذون بها شرعًا مثل تحديد الواقع في المنكر، يقول مثلًا المُنْكَر الفلاني وقع في الوزارة الفلانية أو وقع في المؤسسة الفلانية، ويعدُّ هذا التشخيص من الإنكار للمنكر بطريقة شرعية، وهذا غلط، النبي ﷺ كان إذا بلغه شيء وأراد إنكاره كما جاء في عدَّة أحاديث كان يقول: ((ما بال أقوام يقولون كذا وكذا))، ((ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله))، ونحو ذلك، وهذه هي طريقة أهل العلم والدِّين من قديم الزمن، يعني في عهد أئمة الدعوة إلى وقتنا هذا، هذه

هي طريقة السلف الصالح، لأنَّهم ينهون عن المنكر النهي العام بسماع الناس عامَّة، لكن لا يحدِّدون من الذي أتى بالمنكر أو من الواقع فيه بل ينهون عنه لأنَّ الحديث فيه: ((من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده))، والآية فيها: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}، فثَمَّ واجبان: واجب الإنكار هذا متعيِّن فلو تركت الأمَّة الإنكار لكانت أمَّة ملعونة كما لعن الله جل وعلا بني إسرائيل.

والواجب الثاني: أن يكون إنكار المنكر من الخطيب أو من الدَّاعية أو من الشاب في بيته أو في سوقه أو في أي مكان، أن يكون الإنكار بطريقة شرعية.

إذا اشتبه عليه وهي من المسائل المشكلة في بعض المسائل، ما هي الطريقة التي يسلم بها من الإثم، لابدَّ من الإستفتاء.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: (إنَّ الآمر والناهي إذا أمر ونهي وقد غلب على ظنِّه أنَّ المصلحة راجحة وأنَّ المفسدة مرجوحة فإنَّه يأثم)، إذا غلب على ظنِّه بإنكاره أنَّ المصلحة راجحة والمفسدة مرجوحة يأثم، لم؟ قال: لأنَّه لابدَّ من اليقين ما يُكتفى بغلبة الظَّنِّ في هذا، لأنَّه لابدَّ من اليقين بتحصيل المصالح وبدرء المفاسد، تعلم أنَّ المصلحة راجحة بيقين، أمَّا تقول والله يمكن فلنفعلها، والله يمكن لعلَّها تنفع، هذا تأثم به، لأنَّك لا تدري ربما يحدث شيءٌ أعظم ممَّا نهيت عنه، ودرء المفاسد كما هو معلوم مقدَّم على جلب المصالح، فتترك الأمر حتى تتيقَّن أنَّ فعلك فيه تحصيل المصلحة ودرء المفسدة، فإذًا تحصيل هذا الكلام لأنَّ الشباب في هذه المسألة ما فهموا كلام المحقِّقين من أهل العلم، فظنُّوا أنَّ إنكار المنكر في الدعوة أو في الخطب أو في المجالس ونحو ذلك أنَّ هذا مخالف لطريقة السلف، بل هذا غلط كبير على منهج السلف، بل يجب إنكار المنكر لكن يجب أن يكون بالطريقة الشرعية، هذه هي طريقة أهل السنة والجماعة. فمن أوجب إنكار المنكر على أي طريقة هذا مخالف لطريقة أهل السنة. ومن قال: لا تنكر بل الإنكار على أهل العلم فقط في كلِّ المسائل هذا غلط.

والصواب التفصيل: فما كان من العلم ممَّا يشترك فيه الناس هذا الإنكار، إنكار المنكر والدَّعوة إليه واجب على من علمه.

وما كان خاصًّا أو ما يتعلَّق بمصلحة عامَّة في الأمَّة فهذا مختصٌّ بالرَّاسخين في العلم.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الْقَاهِرِ قَالَ: أَنَا عَبْدُ الْغَافِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عيسى الْجُلُودِيُّ أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سُفْيَانَ ثَنَا مُسْلِمُ بْنُ الحجاج حدثنا أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ أَخْبَرَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ(١))).

١- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، وكيع هو ابن الجراح، سفيان هو ابن سعيد الثوري.

- أخرجه المصنف من طريق مسلم، وهو في صحيحه (٤٩) من طريق ابن أبي شيبة به. وأخرجه أحمد ٣/ ٥٤ وابن حبان ٣٠٦ من طريق وكيع بهذا الإسناد.

- وأخرجه الترمذي ٢١٧٢ والنسائي ٨/ ١١١ وأحمد ٣/ ٤٩ من طريق سفيان الثوري به.

- وأخرجه مسلم ٤٩ والطيالسي ٢١٩٦ وأحمد ٣/ ٢٠ والنسائي ٨/ ١١٢ من طريق شعبة عن قيس به.

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ الْخِرَقِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ الطَّيْسَفُونِيُّ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْجَوْهَرِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْكُشْمِيهَنِيُّ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ أَنَا عَمْرُو بْنُ أَبِي عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرحمن الأشهليّ عن حذيفة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ([1]))).

أَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمِشٍ الزِّيَادِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْقَطَّانُ أَنَا عَلِيُّ بن الحسين الدارابجردي أَخْبَرَنَا أَبُو النُّعْمَانِ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ الْقَسْمَلِيُّ أَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تقرؤون هَذِهِ الْآيَةَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[المائدة: ١٠٥]، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ تعالى بعقابه([2]))).

- وأخرجه مسلم ٤٩ ح ٧٩ وأبو داود ١١٤٠ و٤٣٤٠ وابن ماجه ١٢٧٥ و٤٠١٣ وابن حبان ٣٠٧ من طرق عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ. وعن قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بن شهاب، عن أبي سعيد.
- وذكره المصنف في شرح السنة بإثر (٤٠٥٢) معلّقا بدون إسناد. [.....].

١- حسن صحيح بشواهده. علي بن حجر فمن فوقه رجال البخاري ومسلم غير عبد الله بن عبد الرحمن، وهو مقبول كما في (التقريب) فحديثه لين، ويحسن عند المتابعة، وقد توبع على معنى حديثه. أبو عمرو هو ميسرة مولى المطلب.
- وهو في شرح السنة (٤٠٤٩) بهذا الإسناد.
- أخرجه الترمذي ٢١٦٩ وأحمد ٥/ ٣٩١ والبيهقي في الشعب (٧٥٥٨) من طريق عمرو بن أبي عمرو بهذا الإسناد. وحسنه الترمذي، وأقرّه العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٣٠٨) وكذا المنذري في الترغيب (٣/ ٢٢٧).
- وله شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه أبو داود ٤٣٣٦ و٤٣٣٧ والترمذي ٣٠٥٠ و٣٠٥١ وابن ماجه ٤٠٠٦ وأحمد ١/ ٣٩١ وأبو يعلى ٥٠٣٥ والطحاوي في المشكل (١١٦٤) والطبري ١٢٣٠٧ و١٢٣١٠ والطبراني ١٠٢٦٤ و١٠٢٦٥ و١٠٢٦٦ والدار قطني في العلل (٥/ ٢٨٨)، وإسناده منقطع، وقال الترمذي: حسن غريب! - ومن حديث أبي موسى أخرجه الطحاوي في المشكل (١١٦٣) والطبراني كما في المجمع (٧/ ٢٦٩) ورجاله ثقات إلا أن إسناده منقطع.
- ومن حديث أبي هريرة أخرجه الطبراني في الأوسط (١٤٠١) وقال الهيثمي ٧/ ٢٦٦: فيه حبان بن منقذ متروك، ووثقه يحيى في رواية اهـ. وضعّفه العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٣٠٨).
- ومن حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في الأوسط (١٣٨٩) وقال الهيثمي: وفيه من لم أعرفهم.
- ومن حديث عائشة أخرجه ابن ماجه ٤٠٠٤ وأحمد ٦/ ١٥٩ وابن حبان ٢٩٠ والبزار ٣٣٠٤ و٣٣٠٥ وقال الهيثمي: وفيه عاصم بن عمر أحد المجاهيل.

الخلاصة: هو حديث حسن صحيح بمجموع طرقه وشواهده.
- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠).

٢- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أبو النعمان هو محمد بن الفضل - عارم - وقد توبع هو ومن دونه وكذا شيخه القسملي.
- وهو في شرح السنة (٤٠٤٨) بهذا الإسناد.
- وأخرجه أبو داود ٤٣٣٨ والترمذي ٢١٦٨ و٢٠٥٧ وابن ماجه ٤٠٠٥ والحميدي ٣ وأحمد ١/ ٢ و٥ والطحاوي في المشكل (١١٦٥- ١١٧٠)، وابن حبان ٣٠٤ والبيهقي ١٠/ ٩١ وفي الشعب (٧٥٥٠) من طرق عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ به. وإسناده صحيح.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد رواه غير واحد عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ نحو هذا الحديث مرفوعا وروى بعضهم عن إسماعيل، عن قيس، عن أبي بكر قوله ولم يرفعوه اهـ. قلت: رواه غير واحد من الأئمة الثقات: شعبة والقسملي وغيرهما عن إسماعيل به مرفوعًا. فلا يضره وقف من وقفه، والله أعلم.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٥١٤٢).

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ أَخْبَرَنَا أَبِي أَنَا الْأَعْمَشُ حَدَّثَنِي الشَّعْبِيُّ أَنَّهُ سمع النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَثَلُ الْمُدَاهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمرّ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا فَتَأَذَّوْا بِهِ فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: ما لك؟ قال: تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ وَإِنْ تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم([١]))).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٢٨ص١٢٥: وَلِهَذَا كَانَ إجْمَاعُ هَذِهِ الْأُمَّةِ حُجَّةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَيَنْهَوْنَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ. فَلَوْ اتَّفَقُوا عَلَى إبَاحَةِ مُحَرَّمٍ أَوْ إسْقَاطِ وَاجِبٍ؛ أَوْ تَحْرِيمِ حَلَالٍ أَوْ إخْبَارٍ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ خَلْقِهِ بِبَاطِلِ؛ لَكَانُوا مُتَّصِفِينَ بِالْأَمْرِ بِمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْ مَعْرُوفٍ: مِنْ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. بَلْ الْآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ مَا لَمْ تَأْمُرْ بِهِ الْأُمَّةُ فَلَيْسَ مِنْ الْمَعْرُوفِ، وَمَا لَمْ تَنْهَ عَنْهُ فَلَيْسَ مِنْ الْمُنْكَرِ، وَإِذَا كَانَتْ آمِرَةً بِكُلِّ مَعْرُوفٍ نَاهِيَةً عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تَأْمُرَ كُلُّهَا بِمُنْكَرِ أَوْ تَنْهَى كُلُّهَا عَنْ مَعْرُوفٍ؟ وَاَللَّهُ تَعَالَى كَمَا أَخْبَرَ بِأَنَّهَا تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ، فَقَدْ أَوْجَبَ ذَلِكَ عَلَى الْكِفَايَةِ مِنْهَا بِقَوْلِهِ: {وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

وَإِذَا أَخْبَرَ بِوُقُوعِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ مِنْهَا، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَرْطِ ذَلِكَ أَنْ يَصِلَ أَمْرُ الْآمِرِ وَنَهْيُ النَّاهِي مِنْهَا إلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي الْعَالَمِ؛ إذْ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَرْطِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ: فَكَيْفَ يُشْتَرَطُ فِيمَا هُوَ مِنْ تَوَابِعِهَا؟ بَلْ الشَّرْطُ أَنْ يَتَمَكَّنَ الْمُكَلَّفُونَ مِنْ وُصُولِ ذَلِكَ إلَيْهِمْ. ثُمَّ إذَا فَرَّطُوا فَلَمْ يَسْعَوْا فِي وُصُولِهِ إلَيْهِمْ مَعَ قِيَامِ فَاعِلِهِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، كَانَ التَّفْرِيطُ مِنْهُمْ لَا مِنْهُ.

وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ لَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ، بَلْ هُوَ عَلَى الْكِفَايَةِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَلَمَّا كَانَ الْجِهَادُ مِنْ تَمَامِ ذَلِكَ، كَانَ الْجِهَادُ – أَيْضًا كَذَلِكَ، فَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ مَنْ يَقُومُ بِوَاجِبِهِ، أَثِمَ كُلُّ قَادِرٍ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ؛ إذْ هُوَ وَاجِبٌ

١- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، الأعمش هو سليمان بن مهران، والشعبي هو عامر بن شراحيل.
- خرجه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (٢٦٨٦) عن عمر بن حفص بهذا الإسناد.
- وهو في شرح السنة (٤٠٤٦) من وجه آخر عن يعلى، عن الأعمش به.
- وأخرجه البخاري ٢٤٩٣ والترمذي ٢١٧٣ وابن حبان ٢٩٧ و٢٩٨ وأبو الشيخ في الأمثال (٣١٧ و٣٤٨)، الرامهرمزي في الأمثال (٦١ و٦٢ و٦٣)، والبيهقي ١٠/ ٩١ و٢٨٨ من طرق عن الشعبي به.
- (قلت): وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٦٩).

عَلَى كُلِّ إنْسَانٍ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ(١))).

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَإِتْمَامَهُ بِالْجِهَادِ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي أُمِرْنَا بِهِ وَلِهَذَا قِيلَ: لِيَكُنْ أَمْرُك بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُك عَنْ الْمُنْكَرِ غَيْرَ مُنْكَرٍ. وَإِذَا كَانَ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْوَاجِبَاتِ والمستحبات، فَالْوَاجِبَاتُ والمستحبات لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْمَصْلَحَةُ فِيهَا رَاجِحَةً عَلَى الْمَفْسَدَةِ؛ إذْ بِهَذَا بُعِثَتْ الرُّسُلُ وَنَزَلَتْ الْكُتُبُ، وَاَللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ؛ بَلْ كُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ صَلَاحٌ. وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى الصَّلَاحِ وَالْمُصْلِحِينَ وَاَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَذَمَّ الْمُفْسِدِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَحَيْثُ كَانَتْ مَفْسَدَةُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَعْظَمَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ لَمْ تَكُنْ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تُرِكَ وَاجِبٌ وَفُعِلَ مُحَرَّمٌ؛ إذْ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ هُدَاهُمْ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْله تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ}[المائدة: ١٠٥]، وَالِاهْتِدَاءُ إنَّمَا يَتِمُّ بِأَدَاءِ الْوَاجِبِ، فَإِذَا قَامَ الْمُسْلِمُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ كَمَا قَامَ بِغَيْرِهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ، لَمْ يَضُرَّهُ ضَلَالُ الضُّلَّالِ.

وَذَلِكَ يَكُونُ تَارَةً بِالْقَلْبِ؛ وَتَارَةً بِاللِّسَانِ؛ وَتَارَةً بِالْيَدِ. فَأَمَّا الْقَلْبُ فَيَجِبُ بِكُلِّ حَالٍ؛ إذْ لَا ضَرَرَ فِي فِعْلِهِ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِمُؤْمِنِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((وَذَلِكَ أَدْنَى))، أَوْ ((أَضْعَفُ الْإِيمَانِ))، وَقَالَ: ((لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ(٢))). وَقِيلَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ؟ فَقَالَ: الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا. وَهَذَا هُوَ الْمَفْتُونُ الْمَوْصُوفُ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ.

وَهُنَا يَغْلَطُ فَرِيقَانِ مِنْ النَّاسِ: فَرِيقٌ يَتْرُكُ مَا يَجِبُ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ تَأْوِيلًا لِهَذِهِ الْآيَةِ؛ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطْبَتِهِ: إنَّكُمْ تقرؤون هَذِهِ الْآيَةَ: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ}، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْت النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابِ مِنْهُ(٣))).

وَالْفَرِيقُ الثَّانِي: مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى إمَّا بِلِسَانِهِ وَإِمَّا بِيَدِهِ مُطْلَقًا؛ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ وَحِلْمٍ وَصَبْرٍ وَنَظَرٍ فِيمَا يَصْلُحُ مِنْ ذَلِكَ وَمَا لَا يَصْلُحُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَمَا لَا يَقْدِرُ، فَيَأْتِي بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ مُطِيعٌ فِي ذَلِكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَهُوَ مُعْتَدٍ فِي حُدُودِهِ، كَمَا انْتَصَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ؛ كَالْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ؛ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ غَلِطَ فِيمَا أَتَاهُ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْجِهَادِ عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ فَسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ صَلَاحِهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الْأَئِمَّةِ؛ وَنَهَى عَنْ قِتَالِهِمْ مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ،

١- مسلم في الإيمان (٤٩/٧٨) عن أبي سعيد.

٢- جزء من حديث أخرجه مسلم في الإيمان (٥٠/٨٠) عن عبدالله بن مسعود.

٣- ابن ماجة في الفتن (٤٠٠٥)، وأحمد ٥/١.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في مشكاة المصابيح (٥١٤٢).

وَقَالَ: ((أَدُّوا إِلَيْهِمْ حُقُوقَهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حُقُوقَكُمْ([١]))). وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لُزُومُ الْجَمَاعَةِ وَتَرْكُ قِتَالِ الْأَئِمَّةِ، وَتَرْكُ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْأَهْوَاءِ –كَالْمُعْتَزِلَةِ – فَيَرَوْنَ الْقِتَالَ لِلْأَئِمَّةِ مِنْ أُصُولِ دِينِهِمْ([٢]).

قال ابن العثيمين: {وأولئك هم المفلحون}: أولئك المشار إليه الأمَّة الدَّاعية إلى الخير الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر؛ وهي مبتدأ أولئك؛ و{هم}: ضمير فصل لا محلَّ له من الإعراب؛ و{مفلحون}: خبر المبتدأ. أولئك هم النَّاجون من الكربات الحاصلون على المطلوبات؛ فالفلاح هو النجاة من المكروهات والحصول على المطلوبات؛ إذًا ففيه أمران؛ سلامة وكسب؛ السلامة من المرهوبات؛ والكسب للمطلوبات؛ ولهذا تعتبر كلمة (فلاح) من أجمع الكلمات؛ فالمفلح إذًا الفائز بمطلوبه النَّاجي من مرهوبه هذا هو المفلح.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١– وجوب الدَّعوة إلى الخير؛ تؤخذ من لام الأمر {ولتكن}، والأصل في الأمر الوجوب.

٢– أنَّ ذلك على الكفاية؛ لقوله: {منكم}، وهذا على القول بأنَّ {من} للتبعيض؛ أمَّا إذا قيل: إنَّ {من} لبيان الجنس، فإنَّه يدلُّ على أنَّه يجب على الأمَّة كلِّها أن تكون أمَّةً داعية إلى الخير، بمعنى أنَّه لا ينتظر بعضهم بعضًا هل يأمر أو لا يأمر؛ بل كلُّهم يكونون مستعدِّين لذلك كلُّهم دعاة؛ فمثلًا إذا قيل لشخص قم فادع إلى الخير؛ قال والله هناك فلان يدعوا إلى الخير فيه الكفاية؛ هذا لا ينبغي، كلٌّ ينبغي أن يدعوا إلى الخير ما استطاع؛ لأنَّ الله قال: {ولتكن منكم أمَّة} تكون الأمَّة بمجموعها تدعوا إلى الخير.

٣– ملاحظة الإخلاص؛ لقوله: {يدعون إلى الخير} لا إلى أنفسهم، لأنَّ بعض الناس يدعوا إلى نفسه، وبعض الناس يدعوا إلى الخير؛ وعلامة الدَّاعي إلى نفسه أنَّه لا يريد من الناس أن يخالفه ولو كان على خطأ؛ وهذا لاشك أنَّه داع إلى نفسه؛ ثانيًا من علامة ذلك أنَّه يكره أن يقوم غيره بذلك أي بالدَّعوة إلى الخير، يريد أن يستبدَّ به من بين سائر الناس؛ هذا أيضًا داع إلى نفسه ليصرف وجوه الناس إليه نسأل الله الحماية والعافية؛ أمَّا إذا كان يودُّ أن يقوم هو بالأمر لينال الأجر لا ليحرم غيره أو ليصرف الناس إلى نفسه، فهذا ليس عليه شيء؛ لأنَّه كلُّ واحدٍ يحب أن يكون داعية للخير.

٤– أنَّ اتِّباع الخير في كلِّ شيء مطلوب للشرع؛ والخير قسمان: خير بنفسه؛ وخير لغيره؛ يعني خير يكون وسيلة لغيره.

١– الترمذي في الفتن (٢١٩٠)، وقال (حسن صحيح)، وأحمد ٣٨٤/١ كلاهما عن عبدالله بن مسعود.

– (قلت): وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٥٥)، والحديث بتمامه: ((إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها))، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟! قال: ((أدّوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم)). أخرجه البخاري (٧٠٥٢)، ومسلم (١٧/٦– ١٨)، والترمذي (٢١٩٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٦/٤)، وأحمد (٤٣٣/١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٠٧٣) من طريق زيد بن وهب قال: سمعت عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ... فذكر الحديث.

٢– (قلت): أنظر كلام العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند تفسير الآية (٤٤) من سورة البقرة، والآية (٢١) من سورة آل عمران.

٥- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله: {ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}؛ ولكن هل هو فرض كفاية أو فرض عين؟ ينبني على الخلاف في {من} هل هي للتبعيضية أو لا؛ ولكن لاشك أنَّنا إذا رأينا منكرًا وجب علينا أن ننكر أن ننهى عنه؛ لكن لا يجب على كلِّ واحد أن ينهى عن منكر معيَّن، مثل لو أنَّ شخصًا اغتاب عندنا ونحن عشرة هل نقول: كلُّنا نأمر بالمعروف وننهى عنه؟ إذا نهى واحد وحصلت به الكفاية كفى؛ لكن لو أنَّه نهاه ولم ينته وجب على الآخرين أن يكونوا معه؛ وهذا عكس ما يفعله الآن بعض الناس نسأل الله العافية إذا نهى الناهي عن المنكر قاموا ضدَّه؛ هؤلاء يخشى عليهم أن يطبع الله على قلوبهم لأنَّهم خذلوا من يجب نصره وهذا خطر عظيم جدًّا.

٦- أنَّه لابدَّ من الحثِّ على العلم، لأنَّه لا يمكن أن يدعوا إلى الخير من لا يعلم الخير؛ ولا يمكن أن يأمر بالمعروف من لا يعرف المعروف، ولا يمكن أن ينهى عن المنكر من لا يعرف المنكر؛ فلابدَّ من العلم؛ فيستفاد من هذه الآية الكريمة: الحثُّ على العلم لأنَّ ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشترط فيه:

أوَّلًا: العلم بالشرع، وثانيًا: العلم بالحال، يعني العلم بالشرع وبالحال؛ العلم بالشرع بأن أعرف أنَّ هذا ممَّا أمر الله به حتى آمر به؛ أمَّا إذا كنت لا أدري هل هو مأمور به أو لا فلا يحلُّ لي أن آمر به؛ لأنَّ الله يقول: {قل إنَّما حرَّم ربِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقِّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}؛ ويقول الله عز وجل: {ولا تقف ما ليس لك به علم إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولًا}. العلم بالحال بأن أعلم بأنَّ هذا الرجل ترك المعروف أو فعل المنكر؛ أمَّا أن آمره بالمعروف وأنا لا أدري هل هو فعله أو لا فهذا لا يجوز، لأنَّ هذا من قفو ما ليس لي به علم؛ وكذلك لو نهيته عن منكر وأنا لا أدري هل هو ارتكب المنكر أو لا؛ فإنَّ ذلك لا يجوز لأنَّه من قفو ما ليس لي به علم؛ مثال ذلك: دخل رجل المسجد فجلس وأنا ما رأيته من حين دخل فهل أقول له: قم فصلِّ ركعتين أو أسأله هل صلَّى أو لم يصلِّ؟

اذا وجدت شخصًا يمشي وإلى جانبه امرأة؛ قلت يا أخي اتَّق الله كيف تمشي مع المرأة؛ هذا لا يجوز؛ لأنَّه من الممكن أنَّ هذه المرأة من محارمه؛ فكيف تنهى عن شيء على أنَّه منكر وأنت لا تعلم أنَّه منكر؛ إذًا لابدَّ من العلم بالحال، حال المأمور وحال المنهي؛ كما أنَّه لابدَّ من العلم بالشرع، أن أعلم بأنَّ هذا من المعروف الذي أمر به الشرع أو من المنكر الذي نهى عنه الشرع؛ هذان شرطان.

الشرط الثالث: أن لا يتغيَّر المنكر إلى ما هو أنكر منه؛ لأنَّ النهي عن المنكر يراد به تقليل المنكر؛ فإذا كان يترتَّب عليه أن يقع المنهي عن المنكر في منكر أعظم فإنَّه لا ينهى عنه؛ فلو فرضنا أنَّ شخصًا يشرب الدخان، الدخان شربه منكر لكن لو نهيناه لذهب يشرب الخمر؛ فهل ننهاه عن هذا؟ لا؛ لأنَّنا نعلم أنَّه سينتقل إلى نكارة أكبر ممَّا عليه؛ ومن ذلك ما يذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّه مر ومعه صاحب له بطائفة من التتار يشربون الخمر فلم يقل لهم شيئًا؛ فسأله صاحبه لماذا لا ننكر عليهم؟ قال: (هؤلاء لو أنكرنا عليهم لذهبوا ينهبون أموال الناس ويستحلُّون حرماتهم فيتعدَّى ضررهم؛ أمَّا

شربهم الخمر فهو على أنفسهم). فإن قال قائل: هل لهذا الشرط من دليل؟ قلنا: نعم دليله قوله تعالى: {ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عدوا بغير علم}، فهنا نهى الله المسلمين أن يسبُّوا أصنام الكفار مع أنَّ هذه الأصنام جديرة أن تُسَبَّ وسبُّها قربة؛ لكن لمَّا كان يترتَّب على سبِّها مفسدة أكبر نهى الله عن سبِّها مع أنَّ السكوت عن سبِّ آلهة المشركين حُكمه أنَّه منكر؛ لكن نسكت على هذا المنكر الأخفِّ درئًا لمنكر أعظم؛ إذًا لابدَّ من هذا الشرط.

الشرط الرابع: أن يعلم أنَّ هذا مفيد، بمعنى أنَّه يحتمل عنده أنَّ هذا الفاعل للمنكر أو التارك للواجب كان على جهل وأنَّه قريب الرجوع إلى الحقِّ؛ فإن كان يعلم أنَّ صاحبه عالم بالحكم لكنَّه متمرِّد مستكبر فإنَّه لا يجب حينئذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذا نقول في هذا الشرط: يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء ظننت أنَّه مفيد أو لم يفد لكن في حدود الاستطاعة؛ لأنَّ جميع الواجبات إنَّما تجب بالاستطاعة، {فاتَّقوا الله ما استطعتم}، فإذا كان يشقُّ على الإنسان أن يمسك كلَّ واحدٍ يمرُّ به في السوق على منكر من حلق لحية أو غيره فإنَّه لا يلزمه إلَّا ما يقدر عليه لأنَّ الله يقول: {وما جعل عليكم في الدِّين من حرج}.

الشرط الخامس: أن يكون الآمر بالمعروف فاعلًا له والناهي عن المنكر تاركًا له؛ يعني لا تأمر بالمعروف وأنت لا تفعله ولا تنهى عن منكر وأنت تفعله؛ فإذا كان هذا الرجل مثلًا يتعامل بالربا وجد إنسان يتعامل بالربا فإنَّه لا يلزمه أن يقول للثاني: يا فلان اترك الربا، الربا حرام ملعون فاعله، لا يجب عليه هذا لأنَّه هو يفعله؛ كيف ينهى عن شيء يفعله هو؟! واستُدِلَّ لذلك بقوله تعالى: {أتأمرون الناس بالبرِّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}، فوبَّخ الله هؤلاء على أمرهم بالبر ونسيان أنفسهم وبيَّن أنَّ هذا خلاف العقل؛ كيف تأمر الناس وتترك نفسك؛ هذا ليس بمعقول؛ فأنتم خالفتم الشرع وأنكرتم العقل؛ واستُدِلَّ أيضًا بما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ: ((أنَّه يؤتى بالرجل يوم القيمة فيلقى في النار حتى تندلق أقطاب بطنه يعني أمعاءه فيدور عليها كما يدور الحمار على رحاه فيجتمع إليه أهل النار ويقولون مالك يا فلان ألست تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه([1]))، قالوا وهذا يدلُّ على شدَّة عقابه إذا أمر بالمعروف ولم يأته ونهى عن المنكر فأتاه؛ وهذا لاشك خلاف الأدب وخلاف العقل وحرام عليه لكنَّه يجب أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبدأ بنفسه؛ فإذا فرَّط في حقِّ نفسه فليس له الحقُّ في أن يفرط في حقِّ غيره؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عليه ولو كان هو لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن المنكر، لأنَّه لو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه لا يفعل المعروف ولا ينهي عن منكر أتى محظورين: ترك الواجب على نفسه لنفسه،

١- (قلت): مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢٢)، والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قِيلَ لأُسَامَةَ: لَوْ أَتَيْتَ فُلاَنًا فَكَلَّمْتَهُ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَرَوْنَ أَنِّي لاَ أُكَلِّمُهُ إِلاَّ أُسْمِعُكُمْ، إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلاَ أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ)).

وترك الواجب على نفسه لغيره؛ وهذا القول هو الصحيح؛ لكن عليه أن يوبِّخ نفسه ويقول: كيف آمر ولا آتيه و أنهى عن منكر وآتيه هذا خلاف المعقول والمنقول وخلاف الأدب مع الله وخلاف الأدب عند عباد الله؛ ولهذا كان الرسول ﷺ من أوصافه أنَّه ما أُمِرَ بشيءٍ إلَّا كان أوَّل فاعل له ولا نهى عن شيءٍ إلَّا كان أوَّل تارك له ﷺ؛ ولهذا قال الله له: {قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوَّل المسلمين} ليس معنى أوَّل المسلمين زمنًا يعني في أمم مسلمة قبله، لكن أوَّل المسلمين فعلًا، يعني: أنا أوَّل المستسلمين لله والمنقادين لأمره، فهي أوَّليةُ مَرتبةٍ وليس أوَّليةُ زمن.

٧- فضيلة الدَّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وهذه أرجوا أن تكونوا على جانب كبير منها؛ الدليل على هذه الفضيلة قوله: {وأولئك هم المفلحون}: إذا خسر الناس فهؤلاء هم المفلحون الرابحين.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٠٥}

قال ابن العثيمين: نهى الله أن يكون كهؤلاء الذين جمعوا بين وصفين ذميمين: التَّفرُّق، والاختلاف؛ ورتَّب على هذا الجزاء المشين وهو قوله: {وأولئك لهم عذاب أليم} قوله: {ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا}: أي لا تكونوا مثل الذين؛ وعلى هذا فنعرب الكاف هنا اسمًا لتكون خبر {تكونوا}، تكونوا مثل الذين تفرَّقوا؛ فالكاف هنا اسم بمعنى مثل، وهي خبر {كالذين تفرَّقوا} أتى بها بعد قوله: {ولتكن منكم أمَّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}، لأنَّ الأمَّة إذا تركت هكذا فلابدَّ أن تتفرَّق، إذا تركت الدَّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلابدَّ أن تتفرَّق؛ لأنَّه لا يكون لهم في هذه الحال كلمة جامعة، كلُّ واحدٍ يعمل على هواه لأنَّه لا يدعو إلى الخير؛ والنفوس لها نزاعات متباينة مختلفة؛ وكذلك إذا لم يكن أمر بمعروف ولا نهي عن منكر تفرَّق الناس ولابدَّ؛ لأنَّ هذا يريد الزنا وهذا يشرب الخمر وهذا يسرق وهذا يريد أشياء غير الأولى فيحصل التفرُّق؛ فإذا أمروا بالمعروف صاروا كلُّهم على المعروف، وإذا نهوا عن المنكر صاروا كلُّهم على ترك المنكر.

قال: {ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا}: مثل من؟ {وما تفرَّق الذين أوتوا الكتاب إلَّا من بعد ما جاءتهم البيِّنة}، إذًا أوَّل ما نمثِّل بهم أهل الكتاب اليهود والنصارى، اختلفوا اختلافًا عظيمًا من بعد ما جاءتهم البيِّنات، فنهانا الله تعالى أن نكون مثلهم، ولا تكونوا مثلهم في أيِّ شيء؟ ننظر للوصف الذي نهينا أن نكون مثلهم فيه، وهو التفرُّق والاختلاف؛ إذًا من بعد ما جاءتهم البيِّنات؛ إذا نهينا عن التفرُّق والاختلاف فهو أمر بالاجتماع والائتلاف؛ الاجتماع ضدَّ التَّفرُّق، والائتلاف ضدَّ الاختلاف؛ كأنَّ الله يقول: (اجتمعوا وائتلفوا ولا يكون فيكم افتراق ولا اختلاف فتكونوا مثل اليهود والنصارى).

قال شيخ الإسلام في الإقتضاء ج١ص١٠١: وقال سبحانه: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}، وهم: اليهود والنصارى، الذين افترقوا على أكثر من سبعين فرقة، ولهذا نهى النبي ﷺ عن متابعتهم في نفس التَّفرُّق والاختلاف، مع أنَّه ﷺ قد أخبر أنَّ أمَّته: ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة مع أنَّ قوله: (لا تكن مثل فلان)، قد يعمُّ مماثلته بطريق اللفظ أو المعنى، وإن لم يعمُّ دلَّ على أنَّ جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم أمر مشروع، ودلَّ على أنَّه كلَّما بعد الرجل عن مشابهتهم فيما لم يشرع لنا كان أبعد عن الوقوع في نفس المشابهة المنهي عنها، وهذه مصلحة جليلة.

قال السعدي: نهاهم عن التَّشبُّه بأهل الكتاب في تفرُّقهم واختلافهم، فقال: {ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا}، ومن العجائب أنَّ اختلافهم {من بعد ما جاءهم البيِّنات} الموجبة لعدم التَّفرُّق والاختلاف، فهم أَولى من غيرهم بالاعتصام بالدِّين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقُّوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: {وأولئك لهم عذاب عظيم}.

قال أبو زهرة: وقد بيَّن سبحانه نتائج هذا الضلال في الآخرة فقال سبحانه: {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}: أي أولئك الذين فرَّقتهم الأهواء فضلُّوا ولم يدركوا الحقَّ مع قيام البيِّنات عليه لهم عذاب عظيم في الآخرة، وهذا التهديد الشديد مقابل للنتيجة الحسنة التي تكون ثمرة التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصبر، وهي الثابتة بقوله تعالى: {وَأولَئِكَ هُم الْمُفْلِحُونَ}. فالافتراق نتيجته خسران في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة.

قال ابن العثيمين: {وأولئك لهم عذاب عظيم}: وأولئك؛ اختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّنات؛ تفرَّقوا واختلفوا؛ تفرَّقوا في أبدانهم ولم يجتمعوا وصاروا أحزابًا، واختلفوا في قلوبهم وفي مناهجهم فصار لكلِّ حزب منهج معيَّن يفرح به ولا يتزحزح عنه ويرى أنَّ من سواه على ضلالة. قال: {وأولئك لهم عذاب عظيم}: أشار إليهم بصيغة البعد لأنَّ {أولئك} اسم إشارة للبعيد؛ وذلك لانحطاط مرتبتهم يعني كأنَّهم لانحطاط مرتبتهم نزلهم المتكلِّم منزلة البعيد منه؛ لأنَّه يتبرَّأ منهم ومن أعمالهم؛ {لهم عذاب عظيم}: العذاب هو العقوبة، لأنَّه يؤلم صاحبه ويعذِّبه؛ و{العظيم}: هو الشيء المستعظم في كيفيته وفي كميته؛ لأنَّ عذابهم شديد متنوِّع؛ وكذلك أيضًا عظيم في دوامه، مستمر أَبدي نسأل الله العافية([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- النهي عن التَّفرُّق؛ لقوله: {ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا}، وقد ذكرنا في التفسير أنَّ المراد بذلك تفرُّق القلوب لا الآراء؛ لأنَّ تفرُّق الآراء لابدَّ منه لأنَّ الناس يختلفون في العلم والحفظ والفهم والإيمان والعمل، وهذه الأمور الخمسة كلُّها من أسباب اختلاف الناس في الرأي لكن الواجب اتِّفاق القلوب.

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن (الإختلاف والتَّفرُّق) عند تفسير الآيتين (١٧٦، ٢١٣) من سورة البقرة.

٢- أنَّ ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتَّفرُّق؛ لأنَّه أعقب الآية السابقة بهذه الآية، ممَّا يدلُّ على أنَّ ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ للتَّفرُّق.

٣- أنَّ التَّفرُّق بعد أن تبيَّن الحقُّ أشدُّ قبحًا من التَّفرُّق حين خفاء الحقِّ؛ يؤخذ من قوله: {من بعد ما جاءهم البيِّنات}، وذلك لأنَّه إذا جاءت البيِّنات واتَّضح الحقُّ فلا وجه للتَّفرُّق؛ لكن إذا كان الحقُّ خفيًّا فقد يحصل التَّفرُّق؛ والحقُّ ولله الحمد في هذه الشريعة واضح بيِّن، لأنَّه في كتاب الله محفوظ إلى يوم القيمة.

٤- الوعيد الشديد على الذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّنات؛ لقوله تعالى: {وأولئك لهم عذاب عظيم}.

٥- أنَّ العقاب يختلف باختلاف الجرم؛ لأنَّه لمَّا كان فعل هؤلاء عظيمًا كان عذابهم عظيمًا.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {١٠٦}

قال السعدي: يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمَّن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال: {يوم تبيض وجوه} وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله.

قال ابن العثيمين: {يوم تبيض وجوه}: يحتمل أنَّها جملة استئنافية وأنَّها متعلِّقة بمحذوف تقديره: اذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، يعني واذكر هذا اليوم الذي ينقسم فيه الناس إلى هذين القسمين؛ ويحتمل أنّها متعلِّقة بالخبر لقوله: {أولئك لهم عذاب عظيم}: يعني لهم عذاب عظيم في ذلك اليوم. وقوله: {يوم تبيض وجوه}: البيضاء معروف أي تكون بيضاء؛ وهذه الوجوه التي تكون بيضاء هي وجوه المؤمنين، وتختصُّ هذه الأُمّة بأنَّها يكون لبياضها نور تعرف به يوم القيمة كما قال النبي ﷺ: ((سيما ليست لغيركم تدون يوم القيمة غُرًّا محجَّلين من أثر الوضوء[١])).

قال السعدي: وأولئك ابيضَّت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: {ولقَّاهم نضرةً وسرورًا}، نضرةً في وجوههم وسرورًا في قلوبهم.

١- (قلت): مسلم (٢٤٧)، وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٩٥٢)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: ((نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ)).

قال ابن العثيمين: قوله: {وتسود وجوه}: أي تكون سوداء؛ وسبب هذا البياضات والسوادات والله أعلم أنَّه ممّا يبشَّر به هؤلاء ويوبَّخ به هؤلاء؛ فإنَّ المؤمنين يبشَّرون إذا بعثوا من قبورهم برحمة الله عز وجل: {وتتلقَّاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون}، وأمَّا الكافرون فبالعكس؛ ومن المعلوم أنَّ الإنسان إذا بشِّر بما يسرُّه يستنير وجهه ويظهر عليه علامة السرور.

قال الشنقيطي: بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ اسْوِدَادِ الْوُجُوهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكُفْرُ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}. وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ}[٣٩ \ ٦٠]. وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ اكْتِسَابَ السَّيِّئَاتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا}[١٠ \ ٢٧]، وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْكُفْرَ وَالْفُجُورَ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}[٨٠ \ ٤٠ \ ٤٢].

وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ فِي الْحَقِيقَةِ شَيْءٌ وَاحِدٌ عَبَّرَ عَنْهُ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ شِدَّةَ تَشْوِيهِ وُجُوهِهِمْ بِزُرْقَةِ الْعُيُونِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}[٢٠ \ ١٠٢]، وَأَقْبَحُ صُورَةً أَنْ تَكُونَ الْوُجُوهُ سُودًا وَالْعُيُونُ زُرْقًا، أَلَا تَرَى الشَّاعِرَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُصَوِّرَ عِلَلَ الْبَخِيلِ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ، وَأَشْوَهِهَا اقْتَرَحَ لَهَا زُرْقَةَ الْعُيُونِ، وَاسْوِدَادَ الْوُجُوهِ فِي قَوْلِهِ: وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ ... زُرْقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهٌ سُودُ

قال القرطبي: واختلفوا في التعيين؛ فقال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة. قال عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسود وجوه بني قريظة والنضير. وقال أبي بن كعب: الذين اسودَّت وجوههم هم الكفار، وقيل لهم: أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أخرجتم من ظهر آدم كالذر. هذا اختيار الطبري. الحسن: الآية في المنافقين. قتادة هي في المرتدِّين. عكرمة: هم قوم من أهل الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائهم مصدِّقين بمحمد ﷺ قبل أن يبعث فلمَّا بعث عليه السلام كفروا به؛ فذلك قوله: {أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، وهو اختيار الزجاج. مالك بن أنس: هي في أهل الأهواء. روى الترمذي عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسًا منصوبة على باب دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار شرُّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه – ثم قرأ –: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} إلى آخر الآية. قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثًا – حتى عدَّ سبعًا – ما حدَّثتكموه. قال: هذا حديث حسن([١]).

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٦ص٤٩٠: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ.

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٣٥٥٤)، وقال في سنن ابن ماجة (١٧٦) حسن صحيح.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ قَصْدِ الصِّدْقِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْبِرِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ قَدْ يَظْهَرُ عَلَى الْوَجْهِ حَتَّى يُعْلَمَ ذَلِكَ عِلْمًا ضَرُورِيًّا مِنْ أَبْلَغِ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ، وَكَذَلِكَ مَا فِيهَا مِنْ قَصْدِ الْكَذِبِ وَالْبُغْضِ وَالْفُجُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْإِنْسَانُ يُرَافِقُ فِي سَفَرِهِ مَنْ لَمْ يَرَهُ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ السَّاعَةَ فَلَا يَلْبَثُ إِذَا رَآهُ مُدَّةً، وَسمعَ كَلَامَهُ أَنْ يَعْرِف هَلْ هُوَ مَأْمُونٌ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ؟ أَوْ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ وَقَدْ يُشْتَبَهُ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَرُبَّمَا غَلِطَ، لَكِنَّ الْعَادَةَ الْغَالِبَةَ أَنَّهُ يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ بَعْدُ لِعَامَّةِ النَّاسِ.

وَكَذَلِكَ الْجَارُ يَعْرِفُ جَارَهُ، وَالْمُعَامِلُ يَعْرِفُ مُعَامِلَهُ، وَلِهَذَا لَمَّا شَهِدَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَجُلٌ فَزَكَّاهُ آخَرُ قَالَ: هَلْ أَنْتَ جَارُهُ الْأَدْنَى تَعْرِفُ مَسَاءَهُ وَصَبَاحَهُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: هَلْ عَامَلْتَهُ فِي الدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ الَّذِين تُمْتَحَنُ بِهِمَا أَمَانَاتُ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: هَلْ رَافَقْتَهُ فِي السَّفَرِ الَّذِي يَنْكَشِفُ فِيهِ أَخْلَاقُ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَلَسْتَ تَعْرِفُهُ وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: لَعَلَّكَ رَأَيْتَهُ يَرْكَعُ رَكَعَاتٍ فِي الْمَسْجِدِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يُظْهِرُ الصَّلَاةَ فَمَنْ لَمْ يَخْبُرْهُ لَا يَعْرِفُ بَاطِنَ أَمْرِهِ.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج١٩ص١١٥: وَذَكَرَ أَنَّهُ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ: {أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، وَهَذَا عَائِدٌ إلَى قَوْلِهِ: {وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، فَأَمَرَ بِمُلَازَمَةِ الْإِسْلَامِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْمُسَوَّدَةَ وُجُوهُهُمْ أَهْلُ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ؟ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كُفْرِهِمْ وَارْتِدَادِهِمْ، وَقَدْ تَأَوَّلَهَا الصَّحَابَةُ فِي الْخَوَارِجِ.

وقال رحمه الله في ج٣ص٢٧٩ – أيضًا –: وَفِي التِّرْمِذِيِّ: عَنْ أَبِي أمامة الْبَاهِلِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْخَوَارِجِ: ((أَنَّهُمْ كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ)). وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ([1])}. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: صَحَّ الْحَدِيثُ فِي الْخَوَارِجِ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ. وَقَدْ خَرَّجَهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَخَرَّجَ الْبُخَارِيُّ طَائِفَةً مِنْهَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ([2]))) – وَفِي رِوَايَةٍ – ((يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ([3]))).

وَالْخَوَارِجُ هُمْ أَوَّلُ مَنْ كَفَّرَ الْمُسْلِمِينَ يُكَفِّرُونَ بِالذُّنُوبِ، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي بِدْعَتِهِمْ، وَيَسْتَحِلُّونَ دَمَهُ وَمَالَهُ. وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ؛ يَبْتَدِعُونَ بِدْعَةً وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهَا. وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَيَتَّبِعُونَ الْحَقَّ، وَيَرْحَمُونَ الْخَلْقَ.

وَأَوَّلُ بِدْعَةٍ حَدَثَتْ فِي الْإِسْلَامِ بِدْعَةُ الْخَوَارِجِ وَالشِّيعَةِ، حَدَثَتَا فِي أَثْنَاءِ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَعَاقَبَ الطَّائِفَتَيْنِ. أَمَّا الْخَوَارِجُ فَقَاتَلُوهُ فَقَتَلَهُمْ، وَأَمَّا الشِّيعَةُ فَحَرَّقَ غَالِيَتَهُمْ بِالنَّارِ، وَطَلَبَ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ فَهَرَبَ مِنْهُ، وَأَمَرَ

١– الترمذي في التفسير (٣٠٠٠) وقال: (هذا حديث حسن).

– **(قلت):** حسنه الإمام الألباني في المشكاة (٣٥٥٤)، وقال في سنن ابن ماجة (١٧٦) حسن صحيح.

٢– البخاري في المغازي (٤٣٥١)، وفي فضائل القرآن (٥٠٥٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤/١٤٣–١٤٨)، (١٠٦٥/١٤٩–١٥٣)، كلاهما عن أبي سعيد الخدري.

٣– البخاري في الأنبياء (٣٣٤٤)، وفي التوحيد (٧٤٣٢) عن أبي سعيد الخدري.

بِجَلْدِ مَنْ يُفَضِّلُهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَرُوِيَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَرَوَاهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ([١]).

قال القرطبي: وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنِّي فرطكم على الحوض من مرَّ عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم)). قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: أهكذا سمعت من سهل بن سعد؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: ((فأقول إنَّهم منِّي فيقال إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقًا سحقًا لمن غيَّر بعدي([٢]))). وعن أبي هريرة أنَّه كان يحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((يرد عليَّ الحوض يوم القيامة رهط من أصحابي فيُجْلَون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول إنَّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنَّهم ارتدُّوا على أدبارهم القهقرى([٣]))). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. فمن بدَّل أو غيَّر أو ابتدع في دين الله مالا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبتدعين منه المسودي الوجوه، وأشدُّهم طردًا وإبعادًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم؛ كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها؛ فهؤلاء كلُّهم مبدِّلون ومبتدعون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحقِّ وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخِفُّون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع؛ كلٌّ يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بالآية، والخبر كما بيَّنَّا، ولا يخلد في النار إلَّا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبَّة خردل من إيمان. وقد قال ابن القاسم: وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شرٌّ من أهل الأهواء. وكان يقول: تمام الإخلاص تجنُّب المعاصي.

قال ابن العثيمين: قد يبدوا للإنسان من أوَّل وهلة أنَّ هذين القسمين متساويان لأنَّ الله قال: {تبيض وجوه وتسود وجوه}، ولكن هذا غير مراد وذلك لأنَّ أكثر بني آدم من أهل النار وجوههم مسودَّة والعياذ بالله، فإنَّ من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعين كلُّهم في النار وواحد من الألف في الجنة كما صح في ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ([٤]).

١- البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧١) عن علي ابن أبي طالب.

٢- (قلت): البخاري (٦٥٨٤).

٣- (قلت): البخاري (٦٥٨٥).

٤- (قلت): الحديث الوارد في ذلك: عن عمران بن حصين قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} إلى قوله: {ولكن عذاب الله شديد} فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي وعرفوا أنه عند قول يقوله، فقال: ((هل تدرون أي يوم ذلك))، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((ذاك يوم ينادي الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول: يا آدم ابعث بعث النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة))، فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة فلما رأى رسول الله ﷺ الذي بأصحابه قال: ((اعملوا وأبشروا فو الذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس))، قال فسري عن القوم بعض الذي يجدون، فقال: ((اعملوا وأبشروا فو الذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة)). صححه الإمام الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣٤)، وأخرجه البخاري (٤٧٤١)، وأخرجه مسلم (٢٢٢) عن أبي سعيد.

{فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم}: الفاء للتفريع وأمَّا للتفصيل؛ لأنَّه قال بعدها: {وأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم}. بدأ بذكر الذين اسودَّت وجوههم مع أنَّه أخَّر ذكرها فيما قبل؛ لأنَّه قال: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم}، وكان المتوقَّع أن يقول: فأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم؛ لأنَّ هذا هو التَّرتيب ولكنَّه كان الأمر بخلاف المتوقَّع، ويسمِّي علماء البلاغة هذا النوع من السياق: لفًّا ونشرًا غير مرتَّب([1])؛ {فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم}، الجواب أمَّا محذوف والتقدير: فيقال: (أكفرتم)؛ وأما الجملة: {أكفرتم بعد إيمانكم}، فهي مقوَّل للقول المحذوف أي: فيقال: (أكفرتم)؛ ومن القائل؟ يحتمل أن يكون القائل هو الله عز وجل، ويحتمل أن يكون القائل الملائكة؛ وعلى كلِّ تقدير فالمراد بالاستفهام هنا التَّوبيخ، يقال لهم: {أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب}: أي أنَّ هؤلاء يوبَّخون فيجمع لهم بين الألم البدني والألم القلبي النفسي؛ وذلك لأنَّ العذاب قد يكون على البدن وقد يكون على النفس وقد يكون عليهما جميعًا؛ من الناس من تضربه ولا توبِّخه، نقول هذا العذاب على البدن؛ ومن الناس من يوبِّخه في مقامٍ يرى فيه الإكرام والاحترام فتهينه، فهذا عذاب نفسي قلبي؛ ومن الناس من يجمع له بين الأمرين كالكفار، فإنَّ الكفار يوبَّخون في عرصات القيامة ويوبَّخون عند دخول النار: {كلَّما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذَّبنا وقلنا ما نزَّل الله من شيء إن أنتم إلَّا في ضلالٍ كبير}، ويوبَّخون أيضًا بعد ذلك كما في قوله تبارك وتعالى: {قال اخسئوا فيها ولا تكلِّمون}، فإنَّهم يوبَّخون أيضًا في حال دخولهم النار ومكثهم فيها ما شاء الله وطلبهم أن ينجوا منها.

قوله: {بعد إيمانكم}: المراد بالإيمان هنا إيمان الفطرة لأنَّ كلَّ مولود يولد على الفطرة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((كلُّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه([2]))). ويحتمل أن يكون المراد بالإيمان الإيمان الفطري الاختياري وتكون الآية في سياق من ارتدُّوا بعد إيمانهم؛ لكن الأوَّل أَولى لأنَّه أعمُّ. قال: {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}: أي العذاب البدني والنفسي؛ وقوله: {فذوقوا العذاب}: أي مسَّه؛ والذَّوق هنا ليس ذوقًا باللِّسان، بل هو ذوق بالبدن كلِّه، لأنَّ الذَّوق قد يكون باللِّسان وقد يكون بالقلب وقد يكون بالبدن؛ فقول الرسول ﷺ: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا([3]))، المراد به ذوق القلب لا ذوق اللِّسان؛ وإذا قيل: (ذاق الثمرة) هذا ذوق اللِّسان؛ (ذاق العذاب) هذا ذوق البدن؛ فلكلِّ مقامٍ مقال. قوله: {فذوقوا العذاب}: أي يقال لهم أيضًا ذوقوا العذاب، وهو العقوبة على الذنب، {بما كنتم تكفرون}: أي بسبب كفركم؛ الباء هنا للسببية؛ و{ما}: مصدرية: أي بكونكم تكفرون بالله؛ وأمَّا {كنتم تكفرون}: فإعرابها ظاهر: كان واسمها وخبرها لكن خبرها جملة؛ وقوله: {بما كنتم تكفرون}: تكفرون بالله وبما يجب الإيمان به.

١- (قلت): أنظر التنبيه الذي ذكره أبو زهرة عن سبب هذا التقديم والتأخير في الآية التالية.

٢- (قلت): البخاري (١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٢٢٠).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٤٢٥) - والحديث بتمامه: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا)).

... [حم م ت] عن العباس بن عبد المطلب. مختصر مسلم ٢٥.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- وجوب التّذكير بهذا اليوم العظيم الذي ينقسم فيه الناس إلى قسمين؛ لقوله: {يوم تبيض وجوه}، وهذا على تقدير قولنا: اذكر يوم؛ أمَّا إذا جعلناه متَّصلًا بما قبله فإنَّه لا يستفاد منه هذه الفائدة؛ ولكن يستفاد منه: التذكير بهذا اليوم يعني أنَّ الله يذكرنا بهذا اليوم.

٢- إثبات البعث والجزاء وهو أحد أركان الإيمان الستة؛ والإيمان باليوم الآخر ليس معناه أن يؤمن الإنسان بأنَّ الناس يبعثون فقط؛ بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في العقيدة الواسطية قال: (ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكلِّ ما أخبر به النبي ﷺ ممَّا يكون بعد الموت)، فالإيمان بفتنة القبر ونعيمه وعذابه والإيمان بالصراط والميزان والشفاعة هو من الإيمان باليوم الآخر.

٣- أنَّ الناس ينقسمون في ذلك اليوم إلى قسمين؛ قسم مبيضة وجوههم وهم أهل الإيمان والطاعة؛ وقسم مسودَّة وهم أهل الكفر والعصيان.

فإذا قال قائل: الآية هنا بيَّنت أنَّ الوجوه تسودُّ وفي آية أخرى كذلك: {ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودَّة} وفي آية أخرى: {ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقًا} فكيف نجمع بين الآيتين اللَّتين تثبتان اسوداد الوجوه والآية التي تثبت أنَّ المجرمون يحشرون يوم القيمة يحشر زرقًا؟

قال أهل العلم في الجمع هذا وبين أمثاله: إنَّ يوم القيمة ليس زمنًا متَّحدًا قصيرًا تتعارض فيه الأحوال، لكنَّه زمن طويل مقداره خمسون ألف سنة؛ فيمكن أن تكون الوجوه في وقت من هذا اليوم مسودَّة وفي وقت آخر مزرقَّة زرقًا؛ هذا جمع.

الجمع الثاني: أنَّ المراد بالسواد الزُّرقة؛ لأنَّ الزُّرقة كلَّما اشتدَّت مالت إلى السواد؛ وحينئذٍ يكون زرقًا واسودَّت بمعنى واحد.

الجمع الثالث: أنَّ الناس يختلفون في الجرم والكفر فتسودُّ وجوههم أو تزرقُّ بحسب كفرهم وجرمهم؛ فمنهم من يكون جرمه شديدًا عظيمًا فتسودُّ وجوههم، ومنهم من يكون أخفُّ فتكون زرقاء.

الوجه الرابع: قالوا إنَّهم سود البشرة زرق العيون، فزرقًا باعتبار أعينهم؛ واسوداد الوجوه باعتبار لون البشرة؛ وأنَّ هذا أعظم في القبح، إذا كان الوجه أسود والعين زرقاء صار هذا أقبح منظرًا؛ على كلِّ حال هذه أوجه جمع العلماء بها بين هذا الظاهر الذي يظهر أنَّه متعارض؛ وهنا نقف لنقول: إنَّه ليس في القرآن شيءٌ متعارض لا يمكن الجمع بينه وبين الآخر؛ لأنَّ التَّعارض يقتضي أن يكون أحد المتعارضين حقًّا والثاني باطلًا لأنَّه ليس معنا إلَّا الحقُّ والضلال {فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال}، ولا يمكن أن يكون شيءٌ في كتاب الله باطلًا ضلالًا كما قال الله تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا}، نعم يمكن أن يتعارض نصَّان ولكن يكون أحدهما ناسخًا للآخر كقوله تعالى: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنَّهم قوم لا يفقهون}، ثم قال: {الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين}، والنسخ يكون إبطال المنسوخ من عند الله؛ فلا

يكون هناك تعارض؛ فإن وجد من القرآن ما ظاهره التعارض فلابدَّ أن يكون هناك انفكاك بين النصين ينتفي به التَّعارض؛ وأمَّا أن يبقى متعارضًا فهذا شيء ممتنع؛ ومن أحسن ما أُلِّف في الجمع بين الآيات المتعارضة كتاب الشنقيطي رحمه الله المسمَّى (دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب)، وهو كتاب جيد مفيد لطالب العلم.

٤- أنَّه يجمع بهؤلاء الكافرين بين العذاب البدني والعذاب النفسي؛ نأخذه من {فذوقوا} عذاب بدني، ومن قوله: {أكفرتم بعد إيمانكم} هذا عذاب نفسي، لأنَّ التقدير يقال لهم أكفرتم فهذا عذاب نفسي.

٥- شدَّة التَّنكيل بهؤلاء المكذِّبين حيث يجمع لهم بين العذابين البدني والنفسي ثم يقال: {فذوقوا العذاب}، فهذا لاشك أنه من أشدِّ ما يكون تنكيلًا بهم.

٦- إثبات الأسباب؛ يؤخذ من قوله: {بما كنتم تكفرون} لأنَّ الباء للسببية؛ والناس في إثبات الأسباب طرفان ووسط، منهم من أنكر الأسباب رأسًا، وقال إنَّ الأسباب ليس لها تأثير إطلاقًا؛ ومنهم من أثبت تأثير الأسباب بنفسها؛ ومنهم من توسط وقال: إنَّ الأسباب مؤثِّرة لا بنفسها ولكن بما أودع الله فيها من القوة المؤثِّرة، وهذا القول هو الصحيح وهو الحقُّ، مثال ذلك: لو أنَّ رجلًا لو أنَّ شيئًا ألقي في النار فاحترق بها فالذين أنكروا الأسباب قالوا: إنَّ هذا الاحتراق لم يحصل بالنار إنَّما حصل عندها، حين ملامسة النار احترق أمَّا النار نفسها فإنَّها لا تحرق؛ ومنهم من قال: بل النار أحرقت بطبيعتها فهذه هي الطبيعة؛ ومنهم من قال: بل أحرقت النار ما يلقى فيها بما أودعها الله تعالى من القوى المحرقة؛ وهذا الأخير هو الحقُّ بلا شك، ويدلُّ لهذا أنَّ النار التي ألقي فيها إبراهيم لم تحرقه بل كانت بردًا وسلامًا عليه، ولو كانت الأسباب مؤثِّرة بطبيعتها لأحرقته بكلِّ حال؛ والذين أنكروا الأسباب هم في الحقيقة طاعنون في حكمة الله، مدَّعون أنَّ الله ليس له حكمة، لأنَّ ربط المسبِّبات بأسبابها هو عنوان الحكمة؛ فإذا قيل: إنَّه ليس هناك سبب يؤثِّر فهذا طعن في حكمة الله عز وجل؛ والعجيب أنَّ هؤلاء أنكروا الأسباب ظنًّا منهم أن إثباتها يستلزم الإشراك بالله، يقول إنَّك إذا أثبتت أنَّ السبب فاعل أو أنَّ السبب مؤثِّر فقد جعلت مع الله خالقًا، وهذا شرك لأنَّك مثلًا إذا قلت: النار هي التي أحرقت معناه أنَّ النار فاعل، فاعلة للإحراق؛ فيكون هذا شركًا بالله عز وجل؛ فيقال: نحن لا نقول إنَّ النار مستقلَّة بالإحراق؛ بل هي محرقة بما أودع الله فيها من قوة الإحراق لا أنَّها بنفسها محرقة[١].

٧- يؤخذ من هذه الآية {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}: أنَّ الجزاء من جنس العمل، لأنَّ المسبَّب يتقدَّر بقدر السبب.

٨- أنَّ من فيه خصلة من خصال الكفر فله من عذاب الكافرين بقدره؛ لأنَّ لدينا قاعدة وهي أنَّ الحكم المعلَّق بوصف يقوى ويضعف بحسب ذلك الوصف، إن وجد فيه جملة كبيرة من الوصف استحقَّ من الحكم الذي رتِّب عليه بقدر هذه الجملة الكبيرة وإلَّا فبحسبه.

١- (قلت): أنظر في الفوائد رقم (٦) الآية (١٥١) من سورة آل عمران.

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {١٠٧}

قال ابن العثيمين: {وأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم ففي رحمة الله}: الواو حرف عطف و{أما} تفصيلية كما مرَّ في الأولى؛ {الذين ابيضَّت وجوههم} وهم المؤمنون؛ وهذا البياض يكون على قسمين: بياض عام لكلِّ مؤمن؛ وبياض خاص لهذه الأمَّة حيث قال النبي ﷺ: ((سيما ليست لغيركم، يعني: فيكم؛ إنَّكم تدعون يوم القيمة غرًّا محجَّلين من أثر الوضوء[١]))، فهذه الأمَّة تكون وجوهها بيضاء ولكن لها نورًا بخلاف غيرها؛ أيضًا هذه الأمَّة يكون النور لها حيث يبلغ الوضوء، يعني يكون في اليدين وفي الرِّجلين ولهذا قال: ((غرًّا محجَّلين))، وأمَّا من سواها فلم نعلم إلَّا أنَّ وجوههم فقط هي التي تكون بيضاء؛ الذين ابيضَّت وجوههم هم المؤمنون.

{ففي رحمة الله}: {في} للظرفية؛ ورحمة الله هنا ليست هي الرحمة المذكورة في قوله: {وربك الغفور ذو الرحمة}، لأنَّ هذه صفة الله؛ أمَّا هنا {ففي رحمة الله}، فهي مخلوق الله؛ والمراد بها الجنة كما جاء في الحديث الصحيح أنَّ الله قال للجنة: ((أنت رحمتي أرحم بك من أشاء[٢]))، ويمتنع أن يكون المراد بها الصفة؛ لأنَّ الصفة لا تكون ظرفًا للبشر؛ وإذا امتنع أن تكون ظرفًا للبشر امتنع أن يراد بالرحمة هنا الرحمة التي هي صفة الله، بل هي الرحمة المخلوقة لله، وأطلق عليها اسم الرحمة لأنَّها كانت برحمة الله، يرحم الله بها من يشاء من عباده.

وقوله: {هم فيها خالدون}: {هم} مبتدأ وليست ضمير فصل، بل لها محل من الإعراب؛ و{خالدون}: خبر المبتدأ؛ وفيها جار ومجرور متعلِّق بخالدون، {هم فيها خالدون}: أي ماكثون؛ وقد دلَّت الآيات على أنَّ هذا الخلود مؤبَّد، فذكر الله التأبيد في عدَّة آيات من كتابه على أنَّ هذا الخلود خلود أبدي.

قال أبو زهرة: ويجب التنبيه هنا إلى أمرين:

أوَّلهما: أنَّه ذكر بياض الوجوه قبلُ، ثم ذكر حال الذين اسودَّت وجوههم قبل الذين ابيضَّت، ليختتم الآية برحمته، كما اختتم الآية السابقة ببيان من يفوز بهذه الرحمة.

الأمر الثاني: أنه سبحانه ذكر وصف الخلود في النعيم، ولم يثبت الخلود لمقابله، وقد صرَّح به في غير هذا الموضع، وذلك أيضًا من باب الرحمة ورجاء التوبة.

١- (قلت): مسلم (٢٤٧)، وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٩٥٢).

٢- (قلت): مُتَّفق عَلَيْهِ. البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٨٥)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ رِجْلَهُ. تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خلقا)).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ أهل الإيمان الذين ابيضَّت وجوههم في الجنة؛ لقوله: {ففي رحمة الله}.

٢- خلود أهل الجنة فيها؛ لقوله: {هم فيها خالدون}.

٣- أنَّ هذا الخلود دائم؛ لأنَّه جاء بالصيغة الاسمية {هم فيها خالدون} الدَّالَّة على الثبوت والاستمرار.

٤- أنَّ الرحمة تطلق على غير صفة الله بل على مخلوقاته، كما أسلفنا في التفسير أنَّ المراد بالرحمة هنا الجنة؛ وأمَّا قوله: {وربك الغفور ذو الرحمة}: فالمراد الصفة. رحمة الله هي صفته غير مخلوقة، كلُّ صفات الله غير مخلوقة؛ ورحمة الله التي هي الجنة مخلوقة. قال الله تعالى: {فانظر إلى آثار رحمة}، لمَّا ذكر نزول المطر وأنَّه يحيي به الأرض قال: {فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها}، ما المراد بالرحمة هنا؟ المخلوق الذي هو المطر أو الصفة؟ يحتمل أن يكون المراد آثار رحمة الله المطر فيكون مخلوقًا؛ أو آثار رحمة الله التي هي صفته والتي من آثارها وما ينشأ عنها هذا المطر؛ {وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته}، مخلوقة لأنَّها هي التي تنشر؛ المهم أنَّ الرحمة قسمان: قسم مخلوق وهو ما كان بائنًا عن الله، وقسم غير مخلوق وهو ما كان صفة له.

٥- أنَّ الله سبحانه وتعالى أكرم من الخلق؛ لأنَّ عمل الذين ابيضَّت وجوههم لو نسب إلى الثواب لم يكن شيئًا، ومع ذلك يجزون في الرحمة التي يخلدون فيها أبد الآبدين؛ وهذا تصديق قوله تعالى: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها}.

٦- أنَّ أهل الجنة مخلدون فيها؛ لقوله: {هم فيها خالدون}، والخلود هنا أبدي كما ذكره الله تعالى في آيات كثيرة.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ {١٠٨}

قال أبو زهرة: بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى ما كان من اليهود في ماضيهم، وكيف أضلَّهم الهوى، والعصبية العنصرية، ومنعتهم من أن يصل نور الحقِّ إلى قلوبهم، حتى إنَّهم ليرون النور يمشي بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، ومع ذلك يصمُّون آذانهم عن سماعه، ويحجبون أضواءه عن نفوسهم؛ ذكر سبحانه أنَّه بيَّن ذلك في آياته ليعتبر من يعتبر، ولينتفع الحاضرون بنتائج ما وقع فيه الغابرون، فيستبصروا ويستبينوا ويتَّعظوا ويعتبروا، ولذا قال سبحانه: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}.

قال ابن العثيمين: {تلك آيات الله نتلوها عليك}، {تلك}: المشار إليه ما سبق من الآيات التي ذكر الله سبحانه وتعالى؛ ويحتمل أن يكون المراد بها كلَّ القرآن؛ فتكون الإشارة هنا شاملة لجميع القرآن؛ وقوله: {آيات الله}: أي العلامات الدَّالَّة على الله عز وجل، على وجوده وعلى ما تضمَّنته من الأسماء والصفات والأفعال؛ وهنا المراد بالآيات الآيات الشرعية.

وقوله: {نتلوها عليك بالحق}: أي نقرأها عليك؛ وهل المراد أن الله سبحانه وتعالى يقرأها على النبي ﷺ مباشرة أو بواسطة جبريل؟ الثاني؛ لأنَّ الله تعالى يقول: {وإنَّه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك}، وظاهر الآية أنَّ جميع القرآن نزل به الروح الأمين جبريل؛ وعلى هذا فتكون إضافة التلاوة إلى الله في هذه الآية يراد بها تلاوة جبريل؛ ونسبت إلى الله لأنَّه أي جبريل أرسل بها من عنده؛ وهذا كقوله تعالى: {لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنَّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ثم إنَّ علينا بيانه}، {فإذا قرأناه}: والقارئ هو جبريل كما ثبت به الحديث أنَّ الرسول ﷺ إذا سمع قراءة جبريل تعجَّل في القراءة خوفًا من أن ينسى شيئًا، فكان يتعجَّل فقال الله تعالى: {لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنَّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه}، حتى لو نزل آيات كثيرة في آن واحد فلن تنساها؛ ولهذا قال: {إذا قرأناه فاتّبع قرآنه}، سيبقى ولا تنسى منه شيئًا؛ {ثم إنَّ علينا بيانه}، لابدَّ أن نبيِّنه للناس بلفظه ومعناه.

يقول: {نتلوها عليك بالحق}: هل الباء هنا للمصاحبة؟ يعني: أنَّها مصحوبة بالحقِّ ونازلة بالحقِّ، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام؟ أو أنَّ المعنى: أنها نزلت من عند الله حقًّا؟ فالباء هنا للملابسة، يعني: متلبسة بالحقِّ، أي أنَّها نزلت من عند الله نزولًا حقًّا لا شبهة فيه ولا باطل؟ يشمل المعنيين جميعًا، فهي نازلة من عند الله حقًّا بلا شك وهي أيضًا نازلة بالحقِّ؛ والقاعدة في علم التفسير أنَّ الآية إذا تضمَّنت معنيين لا يتنافيان فالواجب حملها على المعنيين؛ فإن كانا يتنافيان غلب المرجِّح، فما ترجَّح منهما فهو المراد.

قال أبو زهرة: لكي يكون التَّصريح باسم الله سبحانه وتعالى مربيًّا في النفس الهابة والإجلال له، وهو المستحقُّ وحده لوصف الألوهية، فلا إله سواه، ولا معبود بحقٍّ غيره، وهو ذو الجلال والإكرام، وهو المنشئ الموجد لهذا الكون وما فيه ومن فيه، وهو العليُّ القدير، فالتَّصريح باسمه الكريم يزيد البيان جلالًا، ويتضمَّن معنى الحساب لمن يعرض عن آيات ربه، ويجعل النفس لَا تسير وراء الهوى، ويتضمَّن معنى القدرة على إنزال العقاب والثواب بعد الحساب، وإنَّه إذا كان كلَّ شيءٍ في هذا الوجود أوجده ربه بالحقِّ، وأخبر عنه، فالظلم منفي عنه سبحانه وتعالى، ولذا قال سبحانه: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلعَالَمِينَ}.

قال ابن العثيمين: قال الله تعالى: {وما الله يريد ظلمًا للعالمين}: {ما} نافية وهي حجازية، لأنَّ الشروط تامَّة، لكن اسمها مفرد كما هو العادة في المبتدأ أن يكون مفردًا، وخبرها جملة {يريد} والترتيب موجود، ولم ينتقض النفي، ولم تقترن بإن؛ فالشروط تامَّة إذًا؛ وليس مرادنا بقولنا: (حجازية): أنَّه لا يتكلَّم بها إلَّا الحجاز، بل يتكلَّم بها جميع العرب؛ لكن أهل الحجاز يعملونها عمل ليس وبني تميم يهملونها؛ فمثلًا إذا خاطبك شخص وقال: (ما زيد موجودًا)، تعرف أنَّه حجازي؛ وإذا خاطبك شخص آخر فقال: (ما زيد موجود)؛ عرفت أنَّه تميمي؛ عرفت؟ والمراد لو خاطبك أحد بلسان الحجازيين الأول، أمَّا لسان الحجازيين الآن فليس بحجَّة. و{الله} اسمها، وجملة: {يريد} خبرها. الله عز وجل ينفي عن نفسه سبحانه وتعالى أن يريد ظلمًا للعالمين؛ فهؤلاء الذين ابيضَّت وجوههم أو اسودّت وجوههم لم يُظلموا؛ الذين ابيضَّت وجوههم نالوا هذا بعملهم

أي بسببه؛ والذين اسودَّت وجوههم نالوه أيضًا بعملهم؛ فالأوَّلون عملوا صالحًا فأثيبوا هذا الثواب، والآخرون عملوا سيِّئًا فأثيبوا هذا الثواب، لأنَّ الله لا يمكن أن يظلم أحدًا.

وقوله: {للعالمين}: العالمين المراد بهم كلُّ من سوى الله؛ {إنَّ الله لا يظلم الناس شيئًا ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون}.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّه يعاقب الذين كفروا بعد إيمانهم بما ذكر أنَّه معاقبهم به من العذاب العظيم وتسويد الوجوه، ويثيب أهلَ الإيمان به الذين ثبتوا على التصديق والوفاء بعهودهم التي عاهدوا عليها بما وصفَ أنَّه مثيبهم به من الخلود في جنانه، من غير ظلم منه لأحد الفريقين فيما فعل، لأنَّه لا حاجة به إلى الظلم. وذلك أنَّ الظالم إنَّما يظلم غيره ليزداد إلى عزِّه عزَّة بظلمه إيَّاه، أو إلى سلطانه سلطانًا، أو إلى ملكه ملكًا، أو إلى نقصان في بعض أسبابه يتمِّم بها ظلم غيره فيه ما كان ناقصًا من أسبابه عن التَّمام. فأمَّا من كان له جميع ما بين أقطار المشارق والمغارب، وما في الدنيا والآخرة، فلا معنى لظلمه أحدًا، فيجوز أن يظلم شيئًا، لأنَّه ليس من أسبابه شيء ناقصٌ يحتاج إلى تمام، فيتمَّ ذلك بظلم غيره، تعالى الله علوًّا كبيرًا. ولذلك قال جل ثناؤه عَقِيب قوله: {وما الله يريد ظلمًا للعالمين}، {ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور}([1]).

قال أبو زهرة: ويلاحظ أنَّ النص القرآني لم ينف فقط الظلم عن الله سبحانه، بل نفَى عنه إرادة الظلم، فهو أمر لَا يليق بذاته ولا يُتصوَّر وقوعه منه. وإنَّه سبحانه وتعالى مالك كلِّ شيءٍ، فهو مانح الحقوق ومعطيها {وَخَلَقَ كلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}؛ ولذا قال سبحانه بعد أن نفَى عن نفسه إرادة الظلم: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ القرآن كلام الله؛ لأنَّ الله تعالى أضافه إلى نفسه فقال: {آيات الله}؛ وما أضيف إلى الله ولم يكن عينًا قائمة بنفسها فهو من صفاته؛ لأنَّه لابدَّ أن يكون هذا المضاف قائمًا بشيء؛ فإذا كان صفة فلن يكون إلَّا صفة لله عز وجل؛ فإذا قلنا: (كلام الله)؛ فهذا إضافة صفة؛ وإذا قلنا: (هذا مخلوق الله)؛ فهذا ليس إضافة صفة؛ لأنَّ المخلوق عين قائمة بنفسها؛ و(ناقة الله)، ليست صفة لأنَّها عين قائمة بنفسها؛ و(بيت الله)، كذلك ليس صفة لأنَّه عين قائمة بنفسها؛ وقوله: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي}، عين مخلوقة لأنَّها لو كانت صفة الله ما بانت منه؛ وهنا بانت الروح من الله وحلَّت في جسد آدم، إذًا فليست صفة من صفات الله لأنَّها بائنة منه؛ فإضافة الروح هنا من باب إضافة المخلوق إلى الخالق؛ ولهذا لا يمكن أن نقول هذه جزء من روح الله التي هي صفته؛ هذا شيءٌ مستحيل، إذ لو قلنا بهذا لحلَّ شيءٌ من الله في مخلوقاته.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن (تحريم الله جل وعلا الظلم على نفسه) عند تفسير الآية (٢٥) من سورة آل عمران.

الرحمة هنا التي في الآية: {ففي رحمة الله}، من قسم المخلوق؛ لو أنَّ أحدًا جادل وقال: بل هي صفة من صفات الله؛ لأجبناه بأنَّ هذا مستحيل لأنَّ صفة الله لا تكون ظرفًا للبشر؛ وهنا قال: {ففي رحمة الله}؛ إذًا نأخذ من هذا أنَّ الرحمة المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين؛ مخلوقة وغير مخلوقة؛ فما كان بائنًا عن الله فهي مخلوق وما لا فهي صفة من صفاته.

فإن قال قائل: لماذا أطلق الله عليه الرحمة؟ نقول: لأنَّها من آثار رحمة الله.

فإن قال قائل: إذا قلت: إنَّه أبدي فما جوابك عن قوله تعالى: {وأمَّا الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلَّا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ} فاستثنى فقال: {إلَّا ما شاء ربك}؟

الجواب: أنَّ القول الذي يريح الإنسان ويجعل هذا القيد والقيد الذي في أهل النار: {خالدين فيها إلَّا ما شاء ربك}، من الأمور المتشابهة فيحمل على النصوص المحكمة، يستريح ويقول: إنَّ الله قال: {إلَّا ما شاء ربك}، مع أنَّه قد شاء أن يبقى هذا أبد الآبدين، هو كقول الرسول ﷺ في زيارة القبور: ((وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون))، فعلقه بالمشيئة مع أنَّ اللُّحوق بهم لابدَّ منه؛ هذا يستريح به الإنسان ولا يعترض عليه معترض كما اعترض ابن قيم رحمه الله بأنَّ الله قال في أهل النار: {خالدين فيها إلَّا ما شاء ربك إنَّ ربك فعَّال لما يريد}، وقال في أهل الجنة: {عطاء غير مجذوذ}، قال: (فاختلاف ختم الآيتين يدلُّ على أنَّ أهل النار ليس خلودهم أبديًّا بخلاف أهل الجنة، لأنَّه قال في أهل الجنة: {عطاءً غير مجذوذ}، وقال في أهل النار: {إنَّ ربك فعَّال لما يريد}). وهذا في الحقيقة يدلُّك على أنَّ الإنسان مهما بلغ في العلم والذكاء فلن يسلم من الغلط؛ والفرق بين الآيتين ظاهر؛ لأنَّ آية السعادة فضل فقال: {عطاء غير مجذوذ}، وآية الشقاء عدل فقال: {إن ربك فعَّال لما يريد}، وهذا من فعله الذي أراد، وليس المعنى: {إنَّ ربك فعَّال لما يريد}، سيفعل في المستقبل خلاف ذلك كما فهم ابن القيم رحمه الله؛ فإنَّ هذا فهم غير سديد بلا شك؛ بل إنَّ مناسبة ختم قوله: {إنَّ ربك فعأَّل لما يريد}، هو أنَّه لمَّا كان الشقاء غير محمود، قال هذا من فعل الله، والله تعالى يفعل ما يريد مع أنَّه لم يظلمهم.

٢- أنَّ من كان وكيلًا عن الغير فله حكم ذلك الذي وكَّله؛ لأنَّ الله أضاف التلاوة إليه مع أنَّ التالي رسوله؛ فدلَّ هذا على أنَّ حكم ما نفذه الرسول بما أرسل به حكم ما قاله المرسل.

٣- أنَّ كتاب الله عز وجل كلُّه حقّ ليس فيه باطل؛ وإذا أخذنا هذه الكلمة على عمومها قلنا: جميع أحكامه حقٌ وجميع أخباره حقٌ وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنَّه لو كان فيه تناقض أو اختلاف لكان أحد المتناقضين باطلًا، والقرآن ليس فيه شيءٌ باطل كلُّه حقٌ.

٤- إثبات رسالة النبي ﷺ، حيث قال: {نتلوها عليك بالحقِّ}، فيكون المتلو عليه هذه الآيات يكون قطعًا رسولًا لله رب العالمين.

٥- إثبات إرادة الله؛ لقوله: {وما الله يريد ظلمًا للعالمين}.

فإن قال قائل: الآية هنا نفي {وما الله يريد}، فكيف تقول إنَّها دالَّة على إثبات؟

نقول: هذا النفي ليس مطلقًا بل هو نفي لإرادة شيءٍ معيَّن وهو الظلم؛ إذًا فغير الظلم يريده.

٦- أنَّ الظلم ممكن في حقِّ الله؛ لكنَّه لا يريد الظلم لكمال عدله؛ قال: {وما الله يريد ظلمًا للعباد}، ولم يقل: وما يمكن أن يريد الله ظلمًا؛ على أنَّه لو قال: وما يمكن، ما يدلُّ على انتفاء الظلم لو أراده؛ وحينئذ يكون فيه ردٌّ على القائلين بأنَّ الظلم في حقِّ الله محال لذاته وهم الجهمية؛ يقولون إنَّ الظلم في حقِّ الله مستحيل لذاته لا لأنَّه غير مراد لله؛ بل لذاته؛ وعلى قولهم يكون تمدح الله سبحانه وتعالى بنفي الظلم عنه لغوًا لا فائدة منه، لأنَّ ما لا يمكن لا يصح أن يكون مدحًا، أو أن يتمدح به من كان ممتنعًا عليه؛ فالظلم في حقِّ الله ممكن عقلًا ولكنَّه ممتنع شرعًا وعدلًا؛ لو شاء الله تعالى أن يعذِّب المطيع لأمكن، لكنَّه لكمال عدله لا يمكن أن يعذِّبه لأنَّه ظلم؛ هم يقولون: لا يمكن أن يظلم الله أحدًا، الظلم مستحيل؛ لماذا؟ أليس يمكن أنَّ الله يعذِّب المطيع الذي أمضى طول عمره بطاعة الله؟ قالوا: نعم يمكن، لكن هذا ليس بظلم لأنَّه فعله فيما يملكه؛ فالعبد ملك لله لو فعل به أيَّ شيءٍ فليس بظالم له؛ هذا وجهة نظرهم، لكنَّها وجهة فاسدة، لأنَّه لو قال لك قائل: افعل كذا فأثيبك؛ لا تفعل كذا فإن فعلت عاقبتك، ثم فعلت ما أمرك به وما وعدك الإثابة عليه ثم عذَّبك أشدَّ العذاب هل هذا ظلم عقلًا أو غير ظلم؟ ظلم؛ هذا ظلم حتى لو كان مالكًا لك؛ لو أنَّ السيد قال لعبده: يا عبدي أصلح الغداء واجعل فيه كذا وكذا وقدِّمه لي في الساعة الفلانية؛ ففعل ما أمر، فعله على الوصف الذي قال، وأتى في الزمن الذي قال، ثم أخذ خشبة وجعل يضرب به؛ يكون ظالمًا ولو كان عبده، عقلًا يكون ظالم؛ هم يقولون يجوز أنَّ الإنسان يمضي عمره كلَّه في طاعة الله امتثالًا لأمر الله وإذا مات يخلده في النار؛ وإذا فعل ذلك فليس بظالم؛ لأنَّه إنَّما فعله في ملكه؛ نقول: إذا كان الأمر كذلك وكان الظلم على زعمكم محالًا فإنَّ الله تعالى لا يصحُّ أن يقال إنه ينفي الظلم عن نفسه تمدُّحًا بذلك.

٧- أنَّه إذا انتفت إرادة الظلم انتفى الظلم؛ لأنَّ الله لا مُكره له؛ فإذا كان لا يريد الظلم فلا يمكن أحدًا أن يجبره على الظلم؛ إذًا نفي إرادة الظلم نفي للظلم؛ وحينئذ لا يكون بين هذه الآية وبين قوله تعالى: {وما ربك يريد ظلمًا للعبيد}، لا يكون بينهما تعارض؛ لأنَّ نفي إرادة الظلم تستلزم نفي الظلم؛ ونفي الظلم يستلزم نفي إرادة الظلم؛ لأنَّه لو أراد أن يظلم لظلم.

لو أن أحدًا من الناس قال لي: كيف تجمع بين هذه الآية: {وما الله يريد ظلمًا للعالمين}، وبين قوله: {وما ربك بظلَّام للعبيد}؟

أقول: لا منافاة لأنَّه إذا انتفت إرادة الظلم لزم انتفاء الظلم؛ وإذا انتفى الظلم لزم انتفاء إرادته؛ لأنَّ الله قادر، لو أراد أن يظلم لظلم.

٨- إثبات الصفات السلبية؛ لأنَّ ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى قسمين: ثبوتي، وانتفائي؛ أو إن شئتم قولوا سلبي؛ فالثبوتي كلُّه صفات كمال، كلُّ صفة أثبتها الله لنفسه فهي صفة كمال؛ والانتفائي كلُّه صفات نقص لكنَّه متضمِّن لثبوت كمال؛ ففي قوله تعالى: {وما الله بغافل عمَّا تعملون}، نفي الغفلة؛ لكمال علمه ومراقبته؛ {وما الله يريد ظلمًا للعباد}، لكمال

عدله؛ {وما مسَّنا من لغوب}، لكمال قوته؛ كذا {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض}، لكمال قدرته وعلمه، وهلمَّ جرا.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {١٠٩}

قال ابن العيمين: {ولله ما في السموات وما في الأرض}: الخبر هنا مقدَّم لفائدة وهي الحصر، يعني التخصيص لأنَّك إذا قدَّمت ما حقَّه التأخير أفاد بذلك الحصر؛ كلَّما قدَّمت شيئًا حقُّه التأخير فهذا حصر، سواء كان خبرًا، أو مفعولًا به، أو جار ومجرورًا؛ فمثلًا: {إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين}، قدَّم المفعول به لإفادة الحصر؛ يعني: (لا نعبد إلَّا إياك ولا نستعين إلَّا إيَّاك)؛ وهنا: {لله ما في السموات}: يعني لا لغيره؛ فقدَّم الخبر لأجل الحصر؛ {ما}: اسم موصول لا يشمل البشر والجن والشجر والأنهار والبحار وغير ذلك فيما نعلم والعلم عند الله؛ إنَّما {ما في السموات وما في الأرض}: يشمل كلَّ هذا، ما فيها من الملائكة، وما في الأرض من البشر والجن والأشجار والأحجار وكلَّ شيءٍ ما في السموات وما في الأرض؛ وأتى ب{ما}، تغليبًا لغير العاقل لأنَّهم الأكثر، فغلبوا؛ هذا من وجه، ومن وجه آخر أنَّه إذا أريدت الصفة فإنَّه يعبِّر ب{ما}، بدل {من}، ولو في العاقل؛ ومثَّلوا لذلك بقوله تعالى: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء}، ولم يقل: {من طاب}؛ لأنَّه لم يقصد عين الشخص العاقل بل قصد الوصف والجنس والكم؛ انكح ما طاب من جميل وقبيح وواحد ومتعدِّد من النساء. قال: {ما في السموات وما في الأرض}، هو ملكٌ لله خلقًا وإيجادًا وتصريفًا وتدبيرًا.

وقوله: {وإلى الله ترجع الأمور}: هذه أيضًا مفيدة للحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلِّق وهي {ترجع}، وقوله: {ترجع الأمور}: يعمُّ كلَّ أمر؛ والأمور هنا جمع أمر بمعنى الشأن؛ لأنَّ كلمة أمر يراد بها الشأن كما قال تعالى: {وما أمر فرعون برشيد}: أي ما شأنه؛ ويراد بالأمر الخطاب الموجَّه على وجه طلب الفعل على وجه الاستعلاء؛ جمع أمر الأول: أمور؛ وجمع أمر الثاني: أوامر؛ وعلى هذا فيكون الأمور جمع أمر وهي الشئون؛ كلُّ الشئون تعود إلى الله عز وجل وترجع إليه لأنَّه الخالق الذي ابتدئها فوجب أن ترجع إليه.

قال الطبري: إلى الله مصير أمر جميع خلقه، الصالح منهم والطالح، والمحسن والمسيء، فيجازي كلًّا على قدر استحقاقهم منه الجزاء، بغير ظلم منه أحدًا منهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- عموم ملك الله عز وجل؛ لقوله: {ما في السموات وما في الأرض}، و{ما}: موصولة تفيد العموم.

٢- انفراد ملك الله سبحانه وتعالى بذلك؛ أي: أنَّ الله وحده هو المالك لها؛ وهذا يؤخذ من تقديم الخبر؛ لأنَّ القاعدة المقرَّرة عند البلاغيِّين وأصحاب الأصول أنَّ تقديم المعمول يفيد الحصر.

٣- إثبات السموات والأرض؛ وهو أمر معلوم ولا ينكر؛ لكن الفائدة من هذه الفائدة: بيان عظمة الله سبحانه وتعالى بخلق هذه المخلوقات العظيمة التي قال الله عنها: {لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.

٤- أنَّ مرجع الأمور إلى الله وحده؛ لقوله: {وإلى الله ترجع الأمور}.

٥- أنَّ من حاول أن يشرع للخلق شيئًا سوى ما شرعه الله فقد جعل نفسه شريكًا مع الله؛ وجه ذلك: أنَّ الله حصر مرجع الأمور إليه فقال: {وإلى الله}؛ فمن حاول أن يشرع للناس أمورًا لم يشرعها الله فقد جعل نفسه شريكًا مع الله سبحانه وتعالى.

٦- بيان سعة الله سبحانه وتعالى، حيث كانت جميع الأمور ترجع إليه؛ لأنَّ {الأمور} جمع (أمر)، وهو محلَّى ب{أل} فيفيد العموم؛ فكلُّ الأمور ترجع إليه الدقيقة والجليلة قال الله تعالى: {ما من دابةٍ إلَّا هو آخذ بناصيتها}، كلَّ الدَّواب صغيرها وكبيرها فالله سبحانه وتعالى آخذ بناصيتها، هو الذي يوجِّهها ويدبِّرها العاقل منها وغير العاقل.

٧- إثبات أنَّ السموات جمع؛ وقد جاءت آيات أخرى تبيِّن أنَّ عددها سبع سموات؛ أمَّا الأرض فجاءت في القرآن مفردة ولكن الله أشار إلى عددها في قوله: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنَّ}، وجاءت السنة صريحة في ذلك في قول النبي ﷺ: ((من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوَّقه الله به يوم القيمة من سبع أراضين([1]))).

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ {١١٠}

قال ابن العثيمين: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}: الخطاب لهذه الأمَّة؛ وقوله: {كنتم}: قيل: في علم الله؛ وذلك لأنَّ (كان) للماضي؛ ومعلوم أنَّ هذه الأمَّة آخر الأمم فلا يمكن أن يتحدَّث عنها على أنَّها أمَّة بائدة؛ فمن ثم قال بعض العلماء: إنَّ فعل الماضي هنا باعتبار لعلم الله، يعني كنتم في علم الله {خير أمَّة}، وعلم الله سابق على وجود الأمم؛ وقيل: وهو الصحيح إن (كان) هنا مبيِّنة لاتِّصاف المبتدأ بالخبر وتحقُّق وجوده فيه وليست دالَّة على زمان؛ وهذا هو الأصح، ولهذا أمثلة

١- (قلت): مسلم (١٦١٠).

منها قوله تعالى: {وكان الله غفورًا رحيمًا}، {وكان الله عزيزًا حكيمًا}، هل نقول إن {كان} هنا تدلُّ على الماضي وأنَّ هذه صفة زالت عن الله؟ لا؛ لكنَّها مسلوبة الزمان تدلُّ على تحقُّق اتِّصاف اسمها بما دلَّ عليه خبرها.

{أمَّة}: أي طائفة؛ وسبق لنا أنَّ كلمة {أمَّة} تطلق في القرآن على أربعة معان([1]).

{أخرجت للناس}: يعني أخرجها الله عز وجل وأظهرها وبيَّنها وأبرزها. ولم يقل: خلقت؛ لأنَّها هذه الأمَّة من وصفها الخروج وهو الظهور والبروز؛ خير أمَّة ظهرت وبرزت هي هذه الأمَّة؛ هناك أمم أخرجت للناس وظهرت وبانت لكنَّها لم تحصل لها الخيرية التي كانت لهذه الأمَّة.

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن هذه الأمَّة المحمدية بأنَّهم خير الأمم فقال: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}. قال البخاري: عن أبي هريرة: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}، قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام([2]). وهكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعطية العوفي، وعكرمة، وعطاء، والربيع بن أنس: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}: يعني خير الناس للناس؛ والمعنى: أنَّهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: {تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}، والصحيح أنَّ هذه الآية عامَّة في جميع الأمَّة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: {وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطًا}: أي خيارًا {لتكونوا شهداء على الناس} الآية. وعن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنتم توفون سبعين أمَّة، أنتم خيرها، وأنتم أكرم على الله عز وجل([3]))). وهو حديث مشهور، وإنَّما حازت هذه الأمَّة قصب السبق([4])إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ فإنَّه أشرف خلق الله أكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًّا قبله ولا رسولًا من الرسل. فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، وعن محمد بن علي، وهو ابن الحنفية، أنَّه سمع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: ((أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء)). فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: ((نصِّرت بالرُّعب وأعطيت مفاتيح الأرض، وسمِّيت أحمد، وجعل التراب لي طهورًا، وجعلت أمتي خير الأمم([5]))).

١- (قلت): أنظر معاني الأمة عند تفسير الآية (١٠٤) من سورة آل عمران.

٢-(قلت): البخاري (٤٥٥٧).

٣- حسن: حسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٣٠١).

٤- (قلت): في المصباح المنير: (وَقَوْلُهُمْ أَحْرَزَ قَصَبَ السَّبْقِ أَصْلُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْصِبُونَ فِي حَلْبَةِ السِّبَاقِ قَصَبَةً فَمَنْ سَبَقَ اقْتَلَعَهَا وَأَخَذَهَا لِيُعْلَمَ أَنَّهُ السَّابِقُ مِنْ غَيْرِ نِزَاعٍ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى أُطْلِقَ عَلَى الْمُبَرِّزِ وَالْمُشَمِّرِ).

٥- إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده (٩٨/١، ١٥٨)، وابن عقيل فيه خلاف مشهور، والراجح أنه حسن الحديث يحتج به ما لم يخالف، وقد احتج به أحمد وإسحاق، وقال البخاري: مقارب الحديث.

عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((أعطيت سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي، عز وجل، فزادني مع كلّ واحدٍ سبعين ألفًا([١]))). قال أبو بكر، رضي الله عنه: فرأيت أنَّ ذلك آتٍ على أهل القرى، ومصيب من حافات البوادي.

حديث آخر: ثبت في الصحيحين من رواية الزهري، عن سعيد بن المسيب، أنَّ أبا هريرة حدثه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفًا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر)). قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع، نمرة عليه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ﷺ: ((اللهم اجعله منهم)). ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم فقال: ((سبقك بها عكاشة([٢]))).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: عطاء بن يسار أنَّ رفاعة الجهني حدثه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنَّا بالكديد – أو قال بقديد – فذكر حديثًا، وفيه: ثم قال: ((وعدني ربي، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب، وإنِّي لأرجو ألَّا يدخلوها حتى تبوؤوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة([٣]))). قال الضياء المقدسي وهذا عندي على شرط مسلم.

من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها بكرامتها على الله، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة، ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: ((أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟)) فكبَّرنا. ثم قال: ((أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟)) فكبَّرنا. ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة([٤]))).

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}، فمن اتَّصف من هذه الأمَّة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجَّةٍ حجَّها رأى من الناس سرعة فقرأ هذه الآية: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}، ثم قال: من سرَّه أن يكون من تلك الأمَّة فليؤدِّ شرط الله فيها. رواه ابن جرير. ومن لم يتَّصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمَّهم الله بقوله: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه} الآية.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج٨ص٣٤٥: فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَيَنْهَوْنَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ إِيجَابَ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَتَحْرِيمَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ هُوَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَجِبُ أَنْ يُوجِبُوا كُلَّ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيُحَرِّمُوا كُلَّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ وَحِينَئِذٍ فَيَمْتَنِعُ

١– صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (١/١٩٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٠٥٧).

٢– صحيح: البخاري (٣٤١٠)، ومسلم (٢١٨).

٣– صحيح: الجامع الصغير (٧٠٦٢) للعلامة الألباني رحمه الله.

٤–(قلت): البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

أَنْ يُوجِبُوا حَرَامًا، وَيُحَرِّمُوا وَاجِبًا بِالضَّرُورَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ السُّكُوتُ عَنِ الْحَقِّ فِي ذَلِكَ فَكَيْفَ نُجَوِّزُ السُّكُوتَ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّكَلُّمَ بِنَقِيضِهِ مِنَ الْبَاطِلِ؟ وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَانُوا قَدْ أَمَرُوا بِالْمُنْكَرِ وَنَهَوْا عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَهُوَ خِلَافُ النَّصِّ.

قال ابن العثيمين: وقوله: {تؤمنون بالله}: هذا يشمل الإيمان بكلِّ ما أمر الله بالإيمان به، وتشمل أيضًا تطبيق كلَّ ما أمر الله به فعلًا وكلَّ ما نهى الله عنه تركًا؛ لأنَّ من مقتضى الإيمان بالله أن تؤمن بما أخبر به؛ وعلى هذا فيكون جميع ما أخبر الله به من أمور الغيب داخلًا في الإيمان بالله؛ من تحقيق الإيمان بالله أن تذعن له وتقبل حكمه؛ وهذا يشمل جميع الإسلام جميع الأعمال الصالحة؛ ولذلك كان من مذهب أهل السنة والجماعة أنَّ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ وتأمَّل كيف أخَّر الإيمان بالله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنَّ شأن الأمَّة أن تكون قاهرة، غالبة، آمرة ناهية؛ فقدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون إيمان بالله لا ينفع، ولكن لما كانت الأمَّة بمظهرها عنوان قوَّتها أن تكون آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر([1]).

يقول الله عز وجل: {وتؤمنون بالله}: الإيمان بالله دائمًا نسمع من كثير من المؤلفين رحمهم الله يقولون: إنَّ الإيمان هو الإقرار وبعضهم يقول الإيمان هو التصديق؛ ولكن هذا على إطلاقه لا يصح باعتبار الإيمان الشرعي؛ لأنَّ الإيمان الشرعي هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان؛ فمن صدق وأقرَّ ولكن لم يقبل ويذعن فليس بمؤمن؛ ودليل ذلك أنَّ أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان مقرًّا ومعترفًا بصدق رسول الله ﷺ ومع ذلك لم يكن مؤمنا، لأنه لم يقبل ما جاء به ولم يذعن له؛ وإلا فإنه يقول في قصائده: وقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

يقوله أبو طالب؛ لقد علموا يعني قريشا؛ أن ابننا وهو محمد ﷺ؛ لا مكذِّب لدينا؛ يعني يصدقه؛ ولا يعنى بقول الأباطل؛ لا يهتم بالقول الكذب أو الباطل؛ أعوذ بالله ومع ذلك لم ينفعه هذا الإيمان بل مات على الكفر؛ إذًا الإيمان شرعًا هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

قال الله تعالى: {ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم}: {لو} هذه شرطية وفعل الشرط فيها {آمن}، وجوابه: {لكان خيرًا لهم}؛ ولو الشرطية إذا كان جوابها إثباتًا فالأفصح أن يقرن باللام، كما في هذه الآية: {ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم}، {لو نشاء لجعلناه حطامًا}، {ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون}، والأمثلة على هذا كثيرة؛ وربما حذفت اللام، ومنه قوله تعالى: {لو نشاء جعلناه أجاجًا}، ولم يقل: (لجعلناه أجاجًا)؛ أمَّا إذا كان خبرها منفيًّا فإنَّ الغالب حذف اللام، قال الله تعالى: {ولو شاء ربك ما فعلوه}، ولم يقل: لما فعلوه؛ وقال: {ولو شاء الله ما اقتتلوا}، ولا تقترن بها اللام إلَّا نادرًا، يعني قولك: (لو شئت لما فعلت)؛ هذا نادر لكنَّه قد يرد؛ ووجه كونه نادرًا أنَّ اللام تفيد التوكيد و(ما) تفيد النفي، وبينهما شبه تضاد ولا يجمع بين الشيء وضده.

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند تفسير الآية (٤٤) من سورة البقرة، والآيتين (٢١، ١٠٤) من سورة آل عمران.

تأتي (لو) مصدرية مثل (أن) وذلك إذا جاءت بعد (ود) ونحوها فإنها تكون مصدرية قال الله تعالى: {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم}: أي ودُّوا ردكم؛ {ودُّوا لو تدهنوا فيدهنون}: أي إدهانك، وهكذا؛ فهنا {لو}: نقول إنها مصدرية فصارت تأتي مصدرية إذا جاءت بعد (ود) وما أشبهها ممَّا يدلُّ على المحبة؛ تقول: (أحب لو تذهب)، (أحب لو تفهم): أي (أحب ذهابك)، (وأحب فهمك).

قال: {لكان خيرًا لهم}: لو آمنوا لكان خيرًا لهم؛ خيرًا لهم من أيِّ شيء؟ من الكفر، كما قال تعالى: {ولو أنَّهم آمنوا واتَّقوا لمثوبة من عند الله خير}، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم}، إذًا لكان خيرًا لهم من بقائهم على كفرهم؛ ويحتمل أن يقال: {لكان خيرًا لهم}: أي لكان خيرًا مضاعفًا كما أخبر النبي ﷺ: ((أنَّ الرجل من أهل الكتاب إذا آمن برسوله وآمن بمحمد ﷺ آتاه الله أجره مرتين[١])).

ثم قال: {منهم المؤمنون}، {منهم}: أي من أهل الكتاب؛ {المؤمنون}: يعني الذين آمنوا مثل النجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود، هؤلاء آمنوا إيمانا وقر في قلوبهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٩ص٢٢٤: وَهَذِهِ الْآيَةُ قِيلَ: إنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ. وَقِيلَ: إنَّ قَوْلَهُ {مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ.

وَهَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ نَمَطِ الَّذِي قَبْلَهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مَا بَقُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ فِي الظَّاهِرِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ لَكِنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُهَاجِرُونَ الْمُجَاهِدُونَ، كَمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، هُوَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} [غافر: ٢٨]، فَهُوَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ.

وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}، وَقَدْ قَالَ قَبْلَ هَذَا {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}.

قال ابن العثيمين: {وأكثرهم الفاسقون}: {الفاسقون} هنا يراد بها الخروج عن طاعة الله خروجًا مطلقًا وهو الكفر؛ لأنَّ الفسق يراد به الخروج عن الطاعة خروجا مقيَّدًا؛ ويراد به الخروج عن الطاعة خروجًا مطلقًا؛ فالخروج عن الطاعة خروجًا مقيَّدًا كما قال الفقهاء رحمهم الله: إنَّ فاعل الكبيرة فاسق لأنَّه خرج عن الطاعة خروجًا مقيَّدا بهذه المعصية التي فسق بها؛

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الروض النضير (١٠٣٣)، صحيح أبي داود (١٧٩٢)، الإرواء (١٨٢٥)، والحديث بتمامه في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١٩٥٦): عن أبي بردة عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: ((من كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد فله أجران وأيما عبد مملوك أدى حق الله عليه وحق مواليه فله أجران)). قال صالح: قال الشعبي: قد أعطيتكها بغير شيء إن كان الراكب ليركب فيما دونها إلى المدينة.

والخروج عن الطاعة خروجًا مطلقًا يكون بالفسق ومنه قوله تعالى: {وأمَّا الذين فسقوا فمأواهم النار كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ... }.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ هذه الأمَّة خير الأمم؛ لقوله: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الخيرية وبين ما جاء في بني إسرائيل أنَّ الله فضَّلهم على العالمين؛ ومعلوم أنَّ المفضَّلة خير من المفضَّل عليه؟

فنقول: لدينا نصَّان متعارضان كلاهما على سبيل العموم؛ فهذه الآية: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس}، عامَّة تشمل بني إسرائيل وغيرهم؛ وقوله: ببني إسرائيل، {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنِّي فضَّلتكم على العالمين}، تقتضي التفضيل العام على هذه الأمَّة وعلى غيرها؛ فبين النصَّين الآن عموم متعارض؛ فإن ادَّعيت تخصيص عموم آية بني إسرائيل بخصوص هذه الآية قال لك الإسرائيلي: وأنا أدَّعي تخصيص عموم هذه الآية بخصوص بني إسرائيل فأقول: أنتم خير أمَّة أخرجت للناس ما عدا بني إسرائيل؛ فيقال: إنَّ النبي ﷺ بين لنا أيُّ العمومين مراد؛ فقال: ((توفون سبعين أمَّة أنتم خيرها وأكرمها على الله[١]))؛ فبيَّن الرسول ﷺ أن هذه الأمة خير الأمم التي أوفتها وختمت بها؛ وهذا من رسول الله ﷺ نص؛ فيكون عموم قوله: {كنتم خير أمَّة أخرجت للناس} مقدَّمًا على عموم قوله: {وأنِّي فضَّلتكم على العالمين}، وحينئذ يكون مخصوصًا بقوله في هذه الأمَّة: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} بنص كلام الرسول ﷺ؛ وقال بعض العلماء: إنَّ المراد بالعالمين العام خصوص عالمي زمانهم؛ فيكون من باب العام الذي يراد به الخاص؛ من الأصل لم يرد به العموم؛ والعام الذي يراد به الخاص كثير؛ في القرآن والسنة ومن ذلك قوله تعالى: {الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم} فإنَّ الناس في قوله: {قال لهم الناس}، لا يراد به عموم الناس بل القائل واحد؛ وقوله: {إنَّ الناس قد جمعوا لكم}، أيضًا لا يراد به جميع الناس؛ لأنَّه لم يجمع لهم إلَّا قريش؛ عامة البشر ما جمعوا للرسول ﷺ وأصحابه؛ فيكون قوله: {وأنِّي فضَّلتكم على العالمين}، عامًّا أريد به الخاص؛ وعلى هذا فلا يكون في الآية عموم إطلاقًا؛ وحينئذ لا تعارض هذه الآية.

٢- أنَّ هذه الأمَّة فضِّلت غيرها بالخيرية لوصف ليس في غيرها؛ وهي أنَّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ أمَّا من سبقها فلا؛ يقول الله تعالى في بني إسرائيل: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه}. أنَّه متى زال هذا الوصف الذي به فُضِّلت هذه الأمَّة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زالت كونها خير أمَّة أخرجت للناس؛ وذلك لأنَّ الحكم المعلَّل بعلَّة يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها، ويقوى

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦١)، والحديث بتمامه: ((إنَّكم وفَّيتم سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله)). وفي لفظ آخر: ((إنكم تتمُّون سبعين أمَّة أنتم خيرها وأكرمها على الله)).

بقوَّتها ويضعف بضعفها.

٣- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنَّ ترتُّب الخيرية عليه يدلُّ على أهميته.

٤- أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلَّما وجد في الأمة وجد الخير فيها، وكلَّما ضعف فيها ضعف الخير؛ ولهذا لمَّا كانت الأمَّة قوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بلادنا هذه كانت البلاد على خير ما يرام، ولمَّا ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فات هذه البلاد من الخير بقدر ما فاتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- أنَّ العاملين يتفاضلون؛ يؤخذ من قوله: {خير أمَّة}؛ وتفاضل العمال بتفاضل الأعمال، وتفاضل الأعمال ثابت بالكتاب والسنة: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضَّرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة}، فهذا تفضيل العامل لفضل العمل؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ وأنَّ العامل يزيد وصفه بالطاعة وينقص بحسب ما معه من العمل.

٦- التنديد بأهل الكتاب حيث كفروا برسول الله ﷺ مع أنَّهم يدَّعون أنَّهم يريدون الخير، ولو كانوا صادقين في إرادة الخير لكانوا يؤمنون بالرسول ﷺ.

٧- أنَّ من أهل الكتاب من هو مؤمن ومنهم من هو فاسق وهم الأكثر، الأكثر فاسقون.

فإن قال قائل: هل معنى ذلك أنَّ أهل الكتاب الموجودين اليوم مؤمنون؟ لا؛ ولهذا قال: {منهم المؤمنون}، و{أل} هنا للعهد الذهني، يعني الإيمان المعروف وهو الإيمان بمحمد ﷺ؛ ولم يقل: (منهم مؤمنون)؛ قال: {منهم المؤمنون}: يعني الإيمان المعهود عندكم أيُّها المسلمون وهو الإيمان برسول الله ﷺ.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ {١١١}

قال ابن العثيمين: {لن يضروكم}: الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه المتمسِّكين بهديه؛ والفاعل في {يضرُّوكم} يعود على أهل الكتاب، أي: لن يضرَّكم أهل الكتاب إلَّا أذى؛ قوله: {إلَّا أذى}: اختلف المفسرون فيها هل هي استثناء منقطع أو استثناء متَّصل؛ فمنهم من قال: إنَّها استثناء متَّصل لأنَّ هذا هو الأصل في الاستثناء؛ وعلى هذا الرأي يكون في الآية شيئًا من الحذف تقديره: لن يضرُّوكم إلَّا ضرر أذى؛ ليس ضرر عدوان حسِّي ببتر عضو أو أخذ مال وإنَّما هو أذى؛ وذلك بأنَّ يسمِعوكم ما تكرهون؛ بالتَّوبيخ والاستهزاء وما أشبه ذلك؛ هذا إذا قلنا إنه استثناء متَّصل؛ ولاشك أنَّ الأذى نوع من الضَّرر، لكنه ليس الضرر الذي يطلق عليه اسم ضرر.

والقول الثاني: أنَّ الاستثناء هنا منقطع؛ وعلى هذا القول يكون المعنى: لن يضرُّوكم ولكن يؤذونكم؛ والأذية لا يلزم منها الضَّرر؛ ولهذا قال الله تعالى: {إنَّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة}، فأثبت أنَّهم يؤذون الله ورسوله؛

وقال الله تعالى: {إنَّهم لن يضروا الله شيئًا}، وفي الحديث القدسي: ((يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني([1]))، فالضَّرر منتفٍ عن الله. وأمَّا الأذيَّة، فحاصلة؛ ومن أمثلتها قوله تعالى في الحديث القدسي: ((يؤذيني ابن آدم يسب الدَّهر وأنا الدَّهر ([2]))؛ ويوضِّح هذا أنَّه لو صلَّى إلى جانبك رجلٌ قد أكل بصلًا أو ثومًا فإنَّك تتأذَّى برائحته ولكن لا يضرُّك؛ وهذا القول أصح أن الاستثناء منقطع، وهو وإن كان خلاف الأصل لكنَّه أعلى في البلاغة؛ (لن يضرُّوك)، ولكن الأذى ستصبرون عليه والأذى ليس بضرر: {لن يضرُّوكم إلَّا أذًى}.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: لن يضركم، يا أهل الإيمان بالله ورسوله، هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب بكفرهم وتكذيبهم نبيِّكم محمدًا ﷺ شيئًا {إلَّا أذًى}: يعني بذلك، ولكنَّهم يؤذونكم بشِركهم، وإسماعكم كفرهم، وقولهم في عيسى وأمِّه وعزير، ودعائهم إيَّاكم إلى الضلالة، ولن يضرُّوكم بذلك.

وهذا من الاستثناء المنقطع الذي هو مخالف معنى ما قبله، كما قيل: (ما اشتكى شيئًا إلَّا خيرًا)، وهذه كلمة محكية عن العرب سماعًا. عن الحسن في قوله: {لن يضرُّوكم إلَّا أذًى} الآية، قال: تسمعون منهم كذبًا على الله، يدعونكم إلى الضلالة.

قال ابن العثيمين: فإن قال قائل: هل هذه الآية محكمة، عامَّة إلى يوم القيمة أو هي منسوخة خاصَّة بما كان قبل النسخ؟

فالجواب: الأول.

فإن قال قائل: يرد على دعواكم أنَّ المراد الأول، أنَّ اليهود يعملون بنا اليوم ما هو من أشدِّ الأضرار، ومعلوم أنَّ خبر الله تعالى لا يخلف؛ فما الجواب؟

الجواب أن نقول: الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه ومن كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فلن يضرَّه اليهود ولا النصارى؛ أمَّا أناس يعتقدون الدين الإسلامي دين رجعية وتخلُّف ويبدِّلونه بغيره من القوانين الرجعية الوضعية فهؤلاء لا يكتب لهم النصر ويضرونهم بالأذى القولي والفعلي والاقتصادي وبكلِّ شيء، وإلَّا فإنَّ كلام الله سبحانه وتعالى لا يخلف أبدًا؛ لكن قوم يقاتلون قتالًا جاهليًّا مبنيًّا على القومية المتمزِّقة وبدين باطل مضاد لدين الله فهؤلاء لا يستحقُّون النصر؛ ولذلك كانت اليهود الآن يفعلون بنا الأفاعيل، من يقدرون على الفعل ببدنه فعلوا، ومن لا يقدرون فإنَّهم يفعلون به ما يفعلون من المضار الاقتصادية العالمية، كما هو معروف؛ وحينئذ تبقى الآية محكمة غير منسوخة، باقية إلى يوم القيمة؛ لكن المشروط يتوقَّف على الشرط، فانتفاء الضرر موقوف على وجود شرطه وهو أن نطبق سيرة من وعدوا بهذا الوعد وهم النبي ﷺ وأصحابه.

ثم قال: {وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار}: يعني لو فرض حصل بين المسلمين وأهل الكتاب قتال ولَّو الأدبار ما يمكن يستقرُّون: {لا يقاتلونكم جميعًا إلَّا في قرى محصَّنة أو من وراء جدر}، ولكن الخطاب للرسول ﷺ وأصحابه ومن كان على

١- (قلت): رواه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٣٤٥).

٢- (قلت): البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٤٧٧). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِيَ الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)).

مثل هدي الرسول ﷺ وأصحابه؛ {وإن يقاتلوكم يولُّوكم} عندنا شرط وجواب؛ الشرط المقاتلة والجواب: تولِّي الأدبار؛ فهم بمجرَّد ما يحصل بيننا وبينهم لقاء وقبل أن يصل إليهم أول سهم يفرُّون يولُّون الأدبار والله أعلم؛ وهنا يقول: {يولُّوكم الأدبار}: أي يجعلون الأدبار تليكم وهو كناية عن الانهزام؛ لأنَّ المنهزم يولِّي ظهره المنهزم منه؛ ولهذا قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه حينما حوصر في مكة قال منشدًا:

ولسنا على الأعقاب تُدمى كُلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدماء

الذي تقطر الدماء على أقدامه مقبل؛ والذي تدمى أعقابه مدبر.

قوله: {يولُّوكم الأدبار}: حذفت منها النون لأنَّها وقعت جوابًا للشرط قال: {ثم لا ينصرون}: {ثم} للمهلة والتراخي؛ {لا ينصرون}: فيها النون وهو محل إشكال، لأنَّ {ثم} حرف عطف و{يولُّوكم الأدبار} معطوف عليه؛ والمعطوف على المهزوم يكون مجزومًا؛ ولكننا نقول: {ثم} هنا ليست للعطف ولكنَّها للاستئناف والتقدير؛ ولابدَّ من هذا التقدير لأنَّه لو كانت عطفًا على قوله: {يولُّوكم الأدبار} لجزمت ولقيل: (ثم لا ينصروا)؛ وحينئذ يفسد المعنى؛ لأنَّه لو كان انتفاء النصر عنهم حين يقاتلوننا لأمكن لقائل أن يقول: إنَّهم ينتصرون بعد ذلك؛ ولكنَّ الأمر ليس كذلك هم لا ينصرون أبدًا سواء قاتلونا أم لم يقاتلونا؛ ولهذا قال: {ضربت عليهم الذِّلَّة}، فتبيَّن الآن أنَّ {ثم} هنا ليست عاطفة ولكنَّها استئنافية، والفعل بعدها مرفوع لأنَّها جملة مبتدأ بها؛ لم تعطف على منصوب ولا على مجزوم.

قال الطبري: {ثم لا ينصرون}: يعني ثم لا ينصرهم الله، أيُّها المؤمنون، عليكم، لكفرهم بالله ورسوله، وإيمانكم بما آتاكم نبيكم محمد ﷺ لأنَّ الله عز وجل قد ألقى الرُّعب في قلوبهم، فأيَّدكم أيُّها المؤمنون بنصركم. وهذا وعدٌ من الله تعالى ذكره نبيه محمدًا ﷺ وأهل الإيمان، نصرَهم على الكفرة به من أهل الكتاب.

قال ابن كثير: وهكذا وقع، فإنَّهم يوم خيبر أذلَّهم الله وأرغم آنافهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كلُّهم أذلَّهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وهم كذلك، ويحكم، عليه السلام بشرع محمد ﷺ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلَّا الإسلام.

قال ابن العثيمين: النصر هو المنعة والقوة والصرف وما أشبه ذلك؛ فمعنى نصرتك؛ يعني صرفت عنه عدوه؛ وأيَّدته وقوَّيته، هذا هو معنى النصر؛ فهؤلاء لا ينصرون أبدًا.

ولكن قد يقول قائل: إنَّه جرت حروب بين المسلمين والنصارى، وبين المسلمين واليهود فنصر النصارى على المسلمين ونصر اليهود على المسلمين والجملة {لا ينصرون} جملة خبرية، وخبر الله عز وجل لا يمكن إخلافه؛ فما هو الجواب؟

أمَّا الأول فإنَّ من العلماء من قال: إنَّ هذا في اليهود؛ وأنَّ اليهود ما انتصروا يومًا من الدَّهر على المسلمين أبدًا؛ بل من هزيمة إلى هزيمة، هزموا في المدينة، بنو قينقاع وبنو النظير وبنو قريظة؛ وهزموا في خيبر بنو النظير، ولم يقم لهم قائمة أمام

المسلمين؛ وبناءً على هذا نقول: إنَّ الآية خاصة باليهود؛ أمَّا النصارى فلم تتعرَّض له الآية؛ ولكنَّنا نجيب بجواب أصح من هذا نقول: الخطاب للمسلمين حين كانوا يمثِّلون الإسلام بالعقيدية والقول والفعل وهم في هذه الحال سينصرون على اليهود والنصارى والمجوس وسائر الكفار؛ وحينئذ لا يشكل علينا تغلب النصارى الصليبيين على المسلمين، ولا يشكل علينا تسلُّط اليهود على العرب، لأنَّ القتال مع اليهود في راية العروبة قتال جاهلية، قتال طائفة لطائفة لا لدين؛ بل ربما هم يعتقدون أنَّهم يقاتلون للدين، يعتقدون إنَّ الأرض المقدسة التي كتب الله لهم مكتوبة لهم إلى يوم القيمة؛ فهم يقاتلون واثقين بوعد الله؛ وموسى قد قال لهم: {يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم}، فهم يقولون الأرض أرضنا بنص قول نبينا؛ فنحن نقاتل للوصول إلى أرض كتبها الله لنا؛ ويذكر أنَّه لمَّا كانت هزيمة عام سبع وستين ميلادي، لما دخلوا سينا وما استولوا عليه من بلاد العرب صار الواحد من الجنود يأخذ التراب ويقبله ثم يسجد عليه، ويبكي لأنَّه رجع إلى أرضه التي وعد؛ فصاروا يقاتلون عن عقيدة؛ أمَّا عن قومية بائسة طائشة فلا خير فيها. إذا الجواب عندنا على وجهين؛ الوجه الأول: أنَّ ذلك خاص باليهود، وأنَّ اليهود لم تقم لهم قائمة بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة ثم أجلوا بعد ذلك من خيبر. والوجه الثاني: أن المراد اليهود والنصارى لكن بشرط أن يكون المقابل لهم يقاتل للإسلام لتكون كلمة الله هي العليا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- فيه دليل على أنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يضرُّوا المسلمين؛ وهل الواقع شاهد لذلك؟ نقول: نعم شاهد لذلك، لمَّا كان المؤمنون على الإيمان الحق، أمَّا لمَّا تفرَّقوا وتمزَّقوا واختلفوا في دين الله فإنَّ الله يقول: {إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء}، لم يحصل نعم لم يتحقق لهم هذا الضمان من الله {لن يضرُّوكم إلَّا أذى}.

٢- أنَّه لو تقابل المسلمون وأهل الكتاب في القتال فالمنتصر من؟ المسلمون، {وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار} ولكن هذا الخبر هل صدق مَخبره؟ صدق لمَّا كان المؤمنون على الإيمان الحق، ولكن لمَّا اختلفوا وتفرَّقوا من بعد ما جاءهم البيِّنات رفع الله عنهم هذا الالتزام، ولم يلتزم لهم وكانوا فريسة لأعدائهم من اليهود والنصارى؛ واعلموا بارك الله فيكم أنَّه كلَّما بعدنا عن الإسلام زاد افتراس هؤلاء الأعداء لنا؛ ووجه ذلك أنَّ المسلمين إذا تخلوا عن الإسلام بقيت الموازنة بين قوى مادية وأخرى، ومعلوم أنَّ هؤلاء بالنسبة للقوة المادية سيكون أقوى منَّا، لأنَّنا إذا أضعنا أمر الله أضعنا القوة المادية؛ فإنَّ من جملة أمر الله أن يكون لدينا قوة مادية؛ إذًا فكلَّما أضعنا أمر الله حصل لهم من القوة علينا بقدر ما أضعنا من أمر الله؛ وكلُّ درجة بدرجة، كلَّما نزلنا درجة ارتقوا درجة؛ وهذا الأمر هو الواقع، الآن تكاد أن تقول إن السيطرة على البسيطة ليست للمسلمين ولكنَّها لغيرهم، حتى في بلاد المسلمين ليست السيطرة للمسلمين مع الأسف؛ لا نقول إنَّهم مغلوبون، قد يكونون غير مغلوبين عسكريًّا ولكن مغلوبون فكريًّا؛ لأنَّ الذي يقود المسلمين الآن فكريًّا هم الكفار، من اتباع الهوى والصدِّ عن سبيل

الله، وفتح أبواب الكفر على اختلاف مسمَّياته حتى ضاع المسلمون في الواقع، وصاروا يدبِّرون من الخارج وليس من شرط التدبير أن تحتل العساكر بلاد الإسلام لا، إذا استعمرت الأفكار بالنسبة للقادة فسد الناس؛ ولهذا يجب أن نكون منهم على حذر. المهم أنَّ قوله تعالى: {وإن يقاتلوكم يولُّوكم الأدبار}، نقول إنَّ هذا الخبر صدق مَخبره متى؟ حين كان المسلمون متمسِّكين بالإسلام؛ كان عدوُّهم مرعوبًا منهم مسيرة شهر: ((نصِّرت بالرُّعب مسيرة شهر(١)))، لأنَّهم متمسِّكون بدين الله منصورون بنصر الله.

٣- أنَّ أهل الكتاب إذا قاتلونا لا يكتفون بوضع السلاح بل يولُّون الأدبار يهربون لا يمكن أن يقفوا حول المسلمين؛ ولهذا قال: {يولُّوكم الأدبار}، وهذا أشدُّ ما يكون من الانهزام، عدوّك إذا هرب منك وولّاك دبره حينئذ تسيطر عليه أتمَّ السيطرة.

٤- أنَّ هؤلاء لا ينصرون؛ وهل المراد لا ينصرون علينا أو لا ينصرون نصرًا مطلقًا؟ نقول: لا ينصرون علينا وهو أيضًا مشروط بأن نتمسَّك بديننا، عقيدةً وقولًا وعملًا، وإلَّا فسينصرون علينا بقدر ما أهملنا من ديننا.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ {١١٢}

قال ابن العثيمين: {ضربت عليهم الذِّلَّة} فيه ثلاث قراءات: {عليهُمُ}، والثانية: {عليهِمُ}، هاتان القراءتان؛ والثالثة: {عليهِمُ}، عليهِم بدل من {عليهِمِ}؛ فصار الهاء فيها قراءتان: الضم والكسر؛ والميم فيها قراءتان: الضم والكسر.

وقوله: {ضربت عليهم الذِّلَّة}: الذي ضربها الله عز وجل، وسمَّى ذلك ضربًا كالضَّرب على الفلوس الذي يبقى منطبعًا لا يزول بمسح الأيدي، هذا إذا ضُرب يكون فيه ما ضرب، اسم الضَّارب مثلًا في الدولة الفلانية، أو بيان أنَّ هذا نسبته نصف قرش، قرش أكثر أقل، هذا ضرب لأنَّه ينطبع لا يتغيَّر، فكأن هذه الذِّلَّة مطبوعة عليهم لا يمكن أن تتغيَّر.

وقوله: {الذِّلَّة}، على وزن فِعْلَة، وهي تختلف عن الذُّل لأنَّها تدلُّ على ذلَّة معيَّنة مخصوصة، كما تقول: جلس فلان جِلْسة الأسد، يعني جِلْسَة معروفة، وهذه الذِّلَّة هي ذلَّة لا تخرج من قلوبهم؛ لأنَّه قال: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ}، فكما أنَّ النقش في السكة المضروبة لا يتحوَّل ولا يزول فكذلك هذه الذِّلَّة.

١- (قلت): البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١)، وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٦)، والإرواء (١/ ٣١٥ - ٣١٦): ق. والحديث بتمامه: وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتي أدركته الصَّلاة فليُصلِّ وأُحلَّت لي المغانمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامَّةً)).

هنا يقول: {ضربت عليهم الذِّلَّة}، الضمير يعود على أهل الكتاب، ولكن هل المراد أهل الكتاب من اليهود والنصارى أم أنَّه خاص باليهود؟ اختلف في هذا أهل العلم فقال بعضهم: إنَّه خاص باليهود. وقال بعض العلماء: بل هو عام، والأصل العموم؛ لأنَّ الضمير عليهم يعود على أهل الكتاب المذكورين في قوله: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ}[آل عمران: ١١٠]، فنقول: الضمير يعود على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإذا قُدر أنَّه صار لهم عزٌّ في وقت من الأوقات فإنَّما ذلك لسبب يقتضيه، فهو خلاف الأصل، وإلَّا فالأصل أنَّ الذِّلَّة مضروبة عليهم.

وقوله: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّة}: {الذِّلَّة} هنا بمعنى الإهانة، أي: أنَّ الله تعالى أهانهم.

{أَيْنَ مَا ثُقِفُوا} عندي: {أين ما} مكتوبة {أين} وحدها، كذا عندكم؟ والقاعدة أنها متصل بعضها ببعض، مقرونة {أينما}، لكن ما عليه المصحف قاعدة قديمة، قوله: {أَيْنَ مَا ثُقِفُوا}: يعني وجدوا، قال الله تعالى: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}[البقرة: ١٩١]: يعني حيث وجدتموهم. و{أَيْنَ}: ظرف مكان تدلُّ أيضًا على عموم الأمكنة، ويؤكِّد عمومها {ما} الزائدة: {أَيْنَ مَا ثُقِفُوا}، و{ثقفوا}: بمعنى وجدوا، يعني: في أيِّما مكان وجدوا فإنَّ الذِّلَّة مضروبة عليهم. لكن يقول: {إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَاسِ}. ففي هذه الحالة لا تكون الذِّلَّة مضروبة عليهم.

قال تعالى: {إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَاسِ}: الحبل هو السبب، وسمِّي السبب حبلًا لأنَّه يوصل إلى المقصود كما يوصل الحبل إلى المقصود فيما لو أدلى الإنسان دلوه في بئر مثلًا، فإنَّه يتوصل به إلى المقصود، قال بعض أهل العلم: إنَّ الحبل من الله هو الإسلام؛ لأنَّ الإسلام فيه العزَّة وفيه الظهور وفيه النصر، فهم أذلَّاء إلَّا أن يسلموا، فيكون المراد بالحبل من الله الإسلام، فإذا أسلموا ارتفعت عنهم الذِّلَّة، وقيل: المراد بالحبل من الله الذِّمَّة، يعني: أن يكونوا من أهل الذِّمَّة، وذلك أنَّ الإسلام يحمي أهل الذِّمَّة ويدافع عنهم، ولهذا بالنسبة لأهل الذِّمَّة الذين بيننا، يجب علينا حمايتُهم ممَّن يعتدي عليهم في مالٍ أو دمٍ أو عرضٍ؛ لأنَّهم تحت رعايتنا وهم يبذلون لنا الجزية ما لم ينقضوا الذِّمَّة، فإن نقضوا الذِّمَّة فإنَّهم يعودون كالحربيين يُقتَلون لانتقاض عهدهم، فالمراد بالحبل من الله صار الناس فيه على قولين: قول: إنَّه الإسلام. والقول الثاني: إنَّه الذِّمَّة.

أمَّا قوله: {وحبل من الناس}: فإن ظاهره العموم: يعني بسبب من الناس؛ أي أنَّ الناس يدافعون عنهم ويرفعون معنوياتهم ويعزُّونهم؛ ولكن ما هو الحبل من الناس؟ قيل: إنَّه العهد والأمان؛ فالعهد كالذي يجري بين المسلمين وبين الكفار، يحصل بينهم عهد أن لا يعتدي أحدٌ على أحدٍ، وأن تبقى هدنة كما حصل في غزوة الحديبية؛ والأمان: أن يدخل رجل من المشركين أو من اليهود والنصارى بأمان من أحد من المسلمين يؤمِّنه؛ والفرق بين العهد والأمان: أنَّ الأمان يصحُّ من كلِّ واحدٍ من المسلمين؛ لقول النبي ﷺ: ((قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ [١]))، والعهد لا يكون إلَّا بين أهل الحلِّ والعقد، يعني بين الإمام أو قائد الجيش أو ما أشبه ذلك؛ والفرق بين العهد والأمان والذِّمَّة: أنَّ الذِّمَّة تثبت لأهل الذِّمَّة حقوقًا تجب على

١- (قلت): مُتَّفق عَلَيْهِ. البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦)، وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٦٨)، والإرواء (٤٦٤).

المسلمين يدافعون بها عنهم؛ ولهذا يأخذون عوضًا عن ذلك، يعني يأخذ المسلمون عوضًا عن ذلك الجزية منهم؛ فالحبل من الناس هو العهد والأمان؛ ويحتمل أنَّ العهد من الناس أعمُّ من ذلك، أي بأن يكون المراد به العهد والأمان والنصرة والإعزاز، كما حصل لليهود الآن من النصارى من الأمريكان وغيرهم، فإنَّ اليهود أذلَّة قد ضرب الله عليه الذِّلَّة والهوان، لكن الأمم النصرانية الآن تساعدها وتعزّزها، لا محبَّة لها، ولكن من أجل أنَّها ضد المسلمين، فيكون المراد بالحبل من الناس هنا ما هو أعمُّ من العهد والأمان؛ ومعلوم أنَّه إذا صلح اللفظ للعموم فإنَّ الأَولى أن يبقى على عمومه؛ فيكون المراد بحبل من الناس أي مساعدة منهم وحماية كالعهد والأمان والنصرة والولاية وما أشبهها.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص٢٢: فبيَّن سبحانه أنَّهم أينما ثقفوا فعليهم الذِّلَّة إلَّا مع العهد فعلم أنَّ من له عهد وحبل لا ذلَّة عليه وان كانت عليه المسكنة، فإنَّ المسكنة قد تكون مع عدم الذِّلَّة.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى ج٧ص٦٢٨: وَلَمَّا كَانَ أَصْلُ دِينِ الْيَهُودِ الْكِبْرَ عَاقَبَهُمْ بِالذِّلَّةِ: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا}. وَلَمَّا كَانَ أَصْلُ دِينِ النَّصَارَى الْإِشْرَاكَ لِتَعْدِيدِ الطُّرُقِ إلَى اللَّهِ أَضَلَّهُمْ عَنْهُ؛ فَعُوقِبَ كُلٌّ مِنَ الْأُمَّتَيْنِ عَلَى مَا اجْتَرَمَهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}.

وقال رحمه الله – أيضًا – في ج١ص٣٠١: وَأَمَّا كَوْنُ الْيَهُودِ كَانُوا يَنْتَصِرُونَ عَلَى الْعَرَبِ فَهَذَا لَا يُعْرَفُ بَلْ الْمَعْرُوفُ خِلَافُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِك، فَقَالَ تَعَالَى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}. فَالْيَهُودُ – مِنْ حِينِ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ – لَمْ يَكُونُوا بِمُجَرَّدِهِمْ يَنْتَصِرُونَ لَا عَلَى الْعَرَبِ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ حُلَفَائِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَالذِّلَّةُ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ حِينِ بُعِثَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَذَّبُوهُ. قَالَ تَعَالَى: {يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}[آل عمران: ٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}[الصف: ١٤]، وَكَانُوا قَدْ قَتَلُوا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَغَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَ تَعَالَى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[البقرة: ٦١].

قال ابن العثيمين: {وباءوا بغضب من الله}، {باءوا}: أي رجعوا؛ ومنه قوله تعالى: {والذين تبوَّءوا الدار والإيمان}: أي سكنوها؛ فهذه المادة الباء والألف والهمزة تدلُّ على الرجوع والاستقرار، المعنى أنَّهم رجعوا بغضب من الله: أي مصطحبين للغضب؛ والغضب صفة انفعالية لا فعلية؛ والفرق بين الانفعالي والفعلي: أنَّ الفعلي يكون باختيار الإنسان وبالجوارح الظاهرة كالبطش مثلا؛ والانفعالي يكون بغير اختيار الإنسان وهو من القوى الباطنة؛ فالغضب صفة انفعالية وليست فعلية ولهذا تأتي

للإنسان بغير اختياره، يستثيره أحد من الناس فيغضب، يحمر وجهه وتنتفخ أوداجه ويقف شعره وربما يقتل من أمامه، وربما يطلّق نسائه وربما ينتحر أيضًا، فالغضب إذًا صفة انفعالية، هذا بالنسبة لغضب الإنسان الآدمي البشر؛ أمَّا غضب الله فهو صفة من صفاته التي لا يمكننا أن نعرف كيفيتها؛ لكنّه لاشك صفة قائمة بالله، يغضب ويرضى ويسخط ويكره ويحب، كلُّ هذه الصفات ثابتة لله عز وجل على الوجه الذي يليق به.

وقوله: {بغضب من الله}: {من} هذه للابتداء: أي بغضب صادر من الله؛ وهذه الجملة ممَّا يؤيِّد القول بأنَّ المراد بقوله: {ضربت عليهم الذِّلَّة} اليهود، لأنَّهم هم المغضوب عليهم؛ قلنا إنَّ {من} هي للابتداء: أي بغضب صادر من الله؛ وربما يقول قائل: إنَّها أعم من أن يكون الغضب صادرًا من الله، بل بغضب من تقدير الله؛ وعلى هذا تكون {من} للسببية، ويكون المراد بالغضب غضب الله وغضب غيره؛ وهذا هو السر في قوله: {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} ولم يقل: (غير الذين غضبت عليهم)؛ لأنَّ هؤلاء مغضوب عليهم من قبل الله ومن قبل أولياء الله.

{وضربت عليهم المسكنة}: الضارب هو الله؛ والمسكنة هي الفقر؛ فهم أذلّاء ليس عندهم شجاعة، فقراء ليس عندهم غنى؛ ولكن يجب أن نعلم أنَّ الغنى ليس كثرة العرض، وإنَّما الغنى غنى النفس والقلب؛ فهؤلاء قد ضربت عليهم المسكنة دائمًا في فقر حتى لو حصل الإنسان منهم ملايين الملايين فهم في فقر؛ ولذلك حتى الآن نجد أنَّ اليهود أحرص الناس على المال، وأنَّهم لا يمكن أن يبذلوا فلسًا إلَّا وهم يأملون أن يحصلوا درهمًا، ولا يبذلوا درهمًا إلَّا ويأملون أن يحصلوا دينارًا، وهذه حالهم ومن ثم صاروا من أغنى العالم إن لم نقل هم أغنى العالم؛ لكنَّهم أغنى العالم بكثرة العرض لا بالقلب والنفس فهم أشدُّ الناس فقرًا.

{ذلك بأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله} {ذلك} المشار إليه ما سبق من ضرب الذِّلَّة والغضب والمسكنة؛ والمشار إليه هنا مفرد مذكر؛ وإن كان ثلاثة أشياء، لأنَّ الإشارة عادت إليها باعتبار أنَّها مذكورة؛ فيكون تقدير الإشارة: ذلك المذكور؛ {بأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله}: الباء في {ذلك بأنَّهم} للسببية: أي ذلك بسبب أنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله؛ وكلمة {كانوا}: تدلُّ على اتِّصاف اسمها بخبرها؛ و{يكفرون}: فعل مضارع تدلُّ على استمرار الكفر منهم وهو كذلك؛ فإنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله مع ظهورها وبيانها حتى إنهم قالوا لنبيِّهم عليه الصلاة والسلام: {اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة}، مع أنَّه قد قال لهم: إنَّ الله إله واحد؛ فهم يكفرون بآيات الله، ومن جملة كفرهم أنَّهم كفروا بمحمد ﷺ مع أنَّهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم؛ ولا أشدَّ معرفةً من معرفة الإنسان لابنه ومع ذلك كفروا به عليه الصلاة السلام.

وقوله: {يكفرون بآيات الله}: الآيات جمع آية وهي العلامة، العلامة على الشيء التي إذا وجدت كان الشيء موجودًا لأنَّها علامته، كما لو قلت لك مثلًا: علامة طلوع الشمس أن ترى ضوئها على رأس جبل؛ فهنا متى رأيت الضوء على رأس الجبل فهي طالعة.

آيات الله تنقسم عند أهل العلم إلى قسمين: آيات كونية؛ وآيات شرعية؛ وكلُّها علامات على الله عز وجل؛ أمَّا الآيات الكونية فهي المخلوقات مثل الشمس والقمر والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وغيره، كلُّ مخلوق لله فهو آية من آياته سبحانه وتعالى: وفي كلِّ شيءٍ له آية ... تدلُّ على أنَّه واحد

أمَّا الآيات الشرعية فهي ما جاءت به الكتب، يعني التي أنزلها الله على الرسل، وإن شئت فقل: ما جاءت به الرسل ليعمَّ الكتب والسنن؛ ومعنى كون الشيء آية: أنَّ غير الله لا يمكن أن يحصل له ذلك أو أن يأتي به؛ لأنَّه لو أمكن أن يأتي به لم يكن آية؛ يقول الله عز وجل: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولوا اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه}، هذا تحدٍّ بالآيات الكونية، تحدَّى الله عز وجل هؤلاء بأصغر آية من الآيات الكونية الذباب، لا يستطيعون أن يخلقوه ولو اجتمعوا له؛ في الآيات الشرعية يقول الله عز وجل: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا}، ولهذا صار آية؛ لا يمكن أن يأتي أحد بمثل القرآن أبدًا لا من جهة صدق الأخبار ونفع القصص وعدالة الأحكام وبلاغة الكلام إلى غير ذلك، لو لم يكن منه إلَّا أنَّك لو تردِّده صباحًا ومساءً ما ملَلْته؛ بينما غيره من الكلام لو قرأته كم مرة مللته وتركته؛ أمَّا القرآن فسبحان الله لا تمل؛ الفاتحة كم مرة نقرأها في اليوم؟ على الأقل سبع عشرة مرة، ومع ذلك تقرأها في الركعة الثانية كأنَّك لم تقرأها في الركعة الأولى من إشفاقك عليها ومحبَّتك لها؛ وهذا لاشكَّ أنه من آيات الله سبحانه وتعالى.

إذًا الآيات الكونية هي المخلوقات؛ والشرعية ما جاءت به الرسل، كلُّ الشرائع آيات شرعية. وسمِّيت آية لأنَّها تعجز الغير، لا يمكن للغير أن يأتي بمثلها. الآيات الكونية تتعلَّق بالربوبية والشرعية تتعلَّق بالألوهية لأنَّها شرع، منهج، عبادة؛ ومع ذلك لها علاقة وصلة بالربوبية لأنَّها حكم والحكم يتعلَّق بالربوبية لأنَّ الرب هو الخالق المالك المدبِّر.

{ويقتلون الأنبياء بغير حق}: هذا أيضًا من أفعالهم الشنيعة أنَّهم يقتلون الأنبياء؛ وهذا أعلى ما يكون من الجناية على البشر، الضرب، الحبس، الإهانة، الأذى، كله دون القتل؛ فأعلى أنواع الأذية القتل؛ هؤلاء يقتلون الأنبياء قتلًا إمَّا ذبحًا بالسكين أو رميًا بالحجر أو بالسهم أو بغير ذلك؛ المهم أنَّهم يقتلون الأنبياء، فأخلَّ هؤلاء بالتوحيد والرسالة، بالتوحيد بكفرهم بآيات الله؛ والرسالة بقتلهم الأنبياء.

وقوله: {بغير حق}: هذه الصفة ليست قيدًا؛ ولكنَّها كشف وإيضاح؛ لو قلنا إنَّه قيد لزم من ذلك أن ينقسم قتل الأنبياء إلى قسمين: قسم بحق وقسم بغير حق؛ وهذا لا يكون؛ لأنَّ قتل الأنبياء كلَّه بغير حق؛ ولو قلنا إنَّها للإيضاح والكشف صار المعنى يختلف، فلا تكون قيدًا بل تكون لبيان الواقع، أي أنَّ قتل الأنبياء بغير حق؛ فيكون المقصود بذلك شدَّة التوبيخ لهؤلاء، وأنَّهم يقتلون أشرف الخلق بغير حق؛ هذه لها نظائر منها قوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم}، قوله: {اعبدوا ربكم الذي خلقكم}، {الذي خلقكم}: صفة للإيضاح والبيان؛ لأنَّك لو جعلتها قيدًا {اعبدوا ربكم الذي خلقكم}، لزم من ذلك أن يكون الرب ربين: ربًّا خلق؛ وربًّا لم يخلق؛ والأمر ليس كذلك؛ بل الرب هو

الخالق؛ فيكون هذا بيانًا وكشفًا؛ ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم}، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم؛ فقوله: {لما يحييكم}، ليس قيدًا ولكنَّه كشف وبيان؛ لأنَّك لو جعلته قيدًا لكان دعاء النبي ﷺ للمؤمنين ينقسم إلى قسمين: قسم يراد به الإحياء؛ وقسم يراد به الإماتة؛ وهذا غير صحيح؛ إذًا فقوله: {لما يحييكم} بيان وكشف لما يدعوا إليه وهو أنَّه ﷺ لا يدعوا الناس إلَّا بشيءٍ يحيِّيهم.

قال ابن كثير: أي: وإنَّما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد، فأعقبهم ذلك الذِّلَّة والصغار والمسكنة أبدًا، متَّصلًا بذلَّة الآخرة. ثم قال تعالى: {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}: أي إنَّما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقيضوا لذلك أنَّهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، عز وجل، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعياذًا بالله من ذلك، والله المستعان.

قال ابن العثيمين: {ذلك بما عصوا}: هذا من باب التوكيد، {ذلك بأنَّهم كانوا يكفرون}، {ذلك بما عصوا}، هذا من باب التوكيد لأنَّ الكفر عصيان؛ لكن كأنَّ الجملة هذه تعليل لذلك؛ لماذا كان الكفر سببًا لضرب الذِّلَّة عليهم والمسكنة والغضب؟ لأنَّه عصيان ومخالفة؛ {وكانوا يعتدون}، تعود إلى قتل الأنبياء؛ فقتل الأنبياء عدوان والكفر بالله معصية، مع العلم بأنَّه كلُّه معصية لكن هذا إلى العدوان أقرب وهذا إلى المعصية أقرب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ هؤلاء الذين ينتسبون للكتاب ولاسيَّما اليهود منهم قد ضربت عليهم الذِّلَّة؛ فهم أذلُّ الناس.

٢- أنَّ هؤلاء اليهود قد يكون لهم عزَّة بحبل من الله أو بحبل من الناس؛ ونحن قلنا إنَّ المراد بحبل من الله إمَّا الإسلام أو الذِّمَّة؛ إن كان هو الإسلام فإنَّ الاستثناء منقطع، لأنَّهم إذا أسلموا لم يكونوا من أهل الكتاب صاروا من المسلمين؛ وإن كانت الذِّمَّة فالاستثناء متَّصل.

٣- أنَّ أهل الكتاب قد ترتفع عنهم الذِّلَّة بحبل من الله أو حبل من الناس.

٤- أنَّ الناس قد ينصر بعضهم بعضًا بالباطل؛ وهذا عائد إلى قوله: {وحبل من الناس}، وهذا هو الواقع المحسوس أنَّ من الناس من ينصر غيره بالباطل؛ لأنَّ الناس ليسوا كلُّهم أهل عدل بل فيهم أهل الجور وأهل العدوان الذين يساعدون أهل العدوان.

٥- إثبات الغضب لله عز وجل؛ لقوله: {وباءوا بغضب من الله}. ومنهج أهل السنة والجماعة في مثل هذه الصفة إثباتها لله على الوجه اللائق به؛ وأنَّ الله يغضب وينتقم؛ ولكن أهل البدع يقولون إنَّ الله لا يغضب وحاشاه من الغضب؛ قدَّموا الرأي

على النَّص؛ لماذا؟ قالوا لأنَّ هذا الغضب، غليان دم القلب لطلب الانتقام؛ والله عز وجل منزَّه عن ذلك، أحد صمد، ليس له قلب بمعنى أنَّه لا يحتاج إلى ذلك لأنَّه أحد صمد؛ قال ابن عباس: الصمد الذي ليس له جوف؛ فعلى هذا يقولون إنَّ الغضب الذي وصف الله به نفسه ليس بثابت له لأنَّه منزَّه عنه؛ ولهذا لا يكون الغضب إلَّا في مقام القوة ويقابله الحزن يكون في مقام الضعف؛ ولكن أهل السنة والجماعة قالوا: لسنا أعلم بالله من نفسه وقد وصف نفسه بالغضب؛ فنحن نؤمن بالغضب بأنَّ الله يغضب؛ وأنَّ جميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه بانَّها واحد يجب إثباتها بدون تمثيل؛ ولا يلزم إذا كان غضب المخلوق هو غليان دم القلب لطلب الانتقام أن يكون هذا المعنى هو الذي يوصف الله به؛ بل نعلم أن بين غضب الخالق والمخلوق فرقا كما أن بين ذواتيهما فرقا؛ إذًا الغضب ثابت لله ولكنَّنا لا نعلم كيفيته، كيفيته موكولة إليه.

فإن قالوا: الغضب لغة هو غليان دم القلب؟ نقول: هذا غضب المخلوق أمَّا غضب الخالق فيختصُّ به؛ كما أنَّكم أنتم تثبتون الإرادة لله تقولون إنَّ الله مريد مع أنَّ إرادة المخلوق هي ميل القلب لما ينفعه أو يضرَّه أي لطلب منفعة أو دفع مضرَّة، هذه هي الإرادة، أنا عندما أريد الشيء أريده لطلب منفعتي أو لدفع مضرَّتي؛ هل الإرادة التي أثبتموها لله بهذا المعنى؟ سيقولون: لا؛ نحن نثبت لله إرادة تليق به وتخالف إرادة المخلوق؛ نقول: يجب عليكم إذًا أن تثبتوا لله غضبًا يليق به مخالفًا لغضب المخلوق، فالباب واحد، فإمَّا أن تنفوا ما أثبتم وإمَّا أن تثبتوا ما نفيتم؛ فإن أثبتوا ما نفوا وافقوا السلف؛ وإن نفوا ما أثبتوا وافقوا المعتزلة، وهم يرون أنَّهم في حرب مع السلف وفي حرب مع المعتزلة، يحاربون المعتزلة، ولا أدلَّ على ذلك من فعل أبي الحسن الأشعري رحمه الله كان معتزليًّا وبقي على الاعتزال أربعين سنة، ثم هداه الله، وأنكر على المعتزلة إنكارًا عظيمًا وبيَّن زيفهم وخطأهم وخطرهم وخلطهم فتبرَّأ منهم.

السلف يتبرَّأ منهم الذين قالوا إنَّنا لا نثبت الغضب لله؛ لأنَّهم يقولون إنَّ السلف مجسِّمة، ممثِّلة؛ إذ يعتقدون أنَّ من أثبت الصفات على وجه الحقيقة فهو مجسم ممثل؛ ولهذا صاروا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ فنحن نقول لهم كما أثبتم لله إرادة تليق به فأثبتوا له غضبًا يليق به؛ وإلَّا فانفوا الجميع لتوافقوا المعتزلة؛ وهم لا يثبتون الجميع ولا ينفون الجميع كما هو معروف من مذهبهم وأعني بذلك الأشعرية.

٦- أنَّ الله ضرب على هؤلاء من أهل الكتاب المسكنة؛ وسبق أنَّ المراد بها مسكنة القلب؛ فقد يكونون كثيري المال لكن لا يزالون في شحٍّ وبخل وطلب للمال.

٧- إثبات العلَّة: أي أنَّ أفعال الله سبحانه وتعالى معلَّلة أي مقرونة بالحكمة؛ ودليل ذلك قوله: {ذلك بأنَّهم}؛ وقد نفى الجبرية حكمة الله وتعليل أفعاله، وشبهتهم في هذا أنَّهم يقولون إنَّ العلَّة غرض يريده الفاعل، والله سبحانه وتعالى منزَّه عن الأغراض؛ ومن كلماتهم الدارجة يقولون: إنَّ الله منزَّه عن الأغراض والأعراض والأبعاض، ثلاثة أشياء: عن الأغراض؛ والأعراض؛ والأبعاض؛ الأغراض يعني الحكمة؛ ولهذا ينكرون الأسباب كلَّها، الأسباب الشرعية والأسباب الكونية؛ والأعراض الصفات الفعلية كالضحك وما أشبهها؛ والأبعاض الصفات الخبرية كاليدين والوجه والعينين وما أشبهها.

٨- أنَّ أفعال الله عز وجل وعقوباته لابدَّ أن يكون لها حكمة؛ لأنَّ هذا الغضب الذي باءوا به وضرب المسكنة والذِّلَّة بيَّن الله لها حكمة، وهي أنَّها كانوا يقتلون أنبياء الله بغير الحق ويكفرون بآيات الله ويعصون الله.

٩- أنَّ الكفر بآيات الله سبب للعقوبات؛ لقوله: {ذلك بأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله}، وقد دلَّ على هذا عدَّة آيات من القرآن مثل قوله تعالى: {وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كلِّ مكان رغدًا فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}.

١٠- عُتُوّ بني إسرائيل في الكفر، وقتل الأنبياء، والمعصية، والعدوان؛ لقوله: {ذلك بأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله ... }.

١١- أنَّ قتل الأنبياء موجب للعقوبة؛ لأنَّ الله ذكر لهذه العقوبة عدَّة أسباب منها قتل الأنبياء.

١٢- أنَّ قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله: {بغير حق}، وقد سبق توجيه ذلك أثناء التفسير.

١٣- جواز تعدُّد العلل لمعلول واحد؛ وهذا متَّفق عليه؛ وذلك لأنَّ العقوبات التي ذكرت عدَّة عقوبات والسبب واحد لكنَّه متعدِّد النوع؛ ويجوز أيضًا أن تتَّحد العلَّة، أي أن تكون واحدة والمعلول متعدِّدًا، مثل أن يفعل الإنسان فعلًا واحدًا يترتَّب عليه عدَّة أشياء.

١٤- أنَّ بني إسرائيل عندهم عدوان على حقِّ الله وعلى حقِّ الأنبياء وغيرهم؛ لقوله: {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}. وهذه الأوصاف وما ينتج عنها من العقوبات يجب أن نتَّخذ منها عبرة وهي الفائدة المهمة المسلكية: أن لا نقرأها على أنَّها أمر جرى وقصة تاريخية؛ يجب أن نقرأها من أجل أن نعتبر؛ لقول الله تعالى: {لقد كانت في قصصهم عبرة لأولي الألباب}.

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ {١١٣}

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال الإمام أحمد رحمه الله ج١ ص٣٩٦ حدثنا أبو النضر وحسن بن موسى قالا: حدثنا شيبان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود قال: أخَّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة قال: ((أمَّا إنَّه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم)). قال: وأنزل الله هؤلاء الآيات: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} حتى بلغ {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}. الحديث حسن كما قال الشوكاني ج١ ص٣٨٥ نقلًا عن السيوطي لأنَّ عاصمًا في حفظه شيء وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج١ ص٣١٢ رجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبي النجود وهو مختلف في الاحتجاج به وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد

الظمآن ص٩١ وابن جرير ج٤ ص٥٥ وأبو نعيم في الحلية ج٤ ص١٨٧. وأبو يعلى كما في المقصد العلي ج١ ص٢٧٦([1]).

هذا وقد ورد للآية سبب آخر ففي مجمع الزوائد ج٦ ص٧٣٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدَّقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد وتبعه إلَّا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله: {لَيْسُوا سَوَاءً} إلى قوله تعالى: {مِنَ الصَّالِحِينَ} رواه الطبراني ورجاله ثقات.

واختار الإمام أبو جعفر بن جرير ج٧ ص٢٩ الأول حيث قال بعد ذكره جملة من الأقوال غير أنَّ الأَولى بتأويل الآية قول من قال عني بذلك – تلاوة القرآن في صلاة العشاء لأنَّها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب فوصف الله أمة محمد ﷺ بأنَّهم يصلُّونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله.

وأقول لا مانع من نزول الآية في الجميع أو أنَّه تعدَّد سبب نزولها والله أعلم.

قال السعدي: لمَّا بيَّن تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبيَّن أفعالهم وعقوباتهم، بيَّن هاهنا الأمَّة المستقيمة، وبيَّن أفعالها وثوابها، فأخبر أنَّهم لا يستوون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه.

قال ابن العثيمين: {ليسوا سواء}: الضمير يعود على أهل الكتاب؛ و{سواء}: بمعنى مستوين، يعني ليسوا متساوين في هذه الأوصاف؛ بل منهم {أمَّة قائمة يتلون آيات الله ... }، ومنهم أمَّة فاسقة غير قائمة على أمر الله؛ {ليسوا سواء}: أي لا يستوون في المعصية والأحوال والأوصاف.

ثم بيَّن ذلك فقال: {من أهل الكتاب أمَّة قائمة}، قوله: {من أهل الكتاب}: هم اليهود والنصارى كما مرَّ علينا كثيرًا؛ وأظهر هنا في موضع الإضمار، إمَّا لطول الفصل بين الظاهر الذي ترجع إليه الضمائر وإمَّا لاستئناف الجملة؛ لأنَّ قوله: {من أهل الكتاب} جملة مستأنفة؛ {أمَّة}: أي طائفة؛ {قائمة}: أي ثابتة مستقيمة على أمر الله؛ فالقيام هنا بمعنى الثبات والاستقامة على أمر الله، وليس المراد به القيام الذي هو ضد القعود؛ لأنَّ المسلم قائم على أمر الله سواء كان واقفًا أو جالسًا أو مضطجعًا.

{يتلون آيات الله آناء الليل}: كلمة {قائمة} صفة، {يتلون آيات الله}: الجملة أيضًا صفة أخرى؛ ويجوز أن تكون حالًا؛ لأنَّ لدينا قاعدة نحوية، وهي أنَّه إذا وصفت النَّكرة، جاز في الصفة الثانية أن تكون حالًا، وأن تكون صفة؛ هذه القاعدة سواء كانت الصفة الثانية جملة أم مفردًا؛ فإذا قلت: (جاءني رجل كريم راكبًا)؛ صحَّ، لأنَّه يوصف؛ وإذا قلت: (جاءني رجل كريم

[1] – (قلت): حسنه الإمام الألباني في الثمر المستطاب، والتعليقات الحسان (١٥٢٨).

راكب)؛ صحَّ أيضًا؛ هنا في الآية الكريمة {أمَّة قائمة}: {أمَّة} نكرة، و{قائمة} صفة لها، {يتلون} يجوز أن تكون حالًا فتكون الجملة في موضع نصب على الحال؛ ويجوز أن تكون صفة.

{يتلون آيات الله}: التلاوة تارة يراد بها الاتِّباع وتارة يراد بها القراءة؛ فإن صلح المقام للمعنيين جميعًا حمل عليهما؛ وإن اختصَّ بأحدهما اختصَّ به؛ فإذا قلت: تلا علي آية من القرآن؛ فالمراد القراءة؛ وإذا قلت: هذا الرجل يتلوا آيات الله إخلاصًا وتعبُّدًا؛ فهذا يحتمل القراءة ويحتمل الاتِّباع؛ وإذا كان محتملًا للمعنيين وهما لا يتنافيان حمل عليهما؛ إذًا قوله: {يتلون آيات الله}، يشمل تلاوة اللفظ وتلاوة العمل بآيات الله؛ وقوله: {آناء الليل}، {آناء}: بمعنى أوقات، ومنه النَّوء للنَّجم؛ {آناء الليل}: يعني أوقات الليل وساعاته؛ {وهم يسجدون}: هذه الجملة يجوز فيها وجهان: أن تكون استئنافية؛ وأن تكون حالية من الواو في قوله: {يتلون}: يعني يتلون آيات الله والحال أنَّهم يسجدون؛ فوصفهم بتلاوة آيات الله وهي أفضل الذِّكر، وبالسجود وهو أفضل الحالات، لأنَّ السجود أفضل من القيام وأفضل من الركوع، حيث إنَّ الساجد أقرب ما يكون من ربه؛ لكن تلاوة الآيات أفضل الأذكار؛ فلهذا اختصَّت بالقيام؛ فقوله: {يتلون آيات الله}، هذا ذكر لأعلى أوصاف الكلام القول؛ {وهم يسجدون}: ذكر لأعلى أوصاف الفعل وهو السجود.

قال أبو زهرة: أنَّ الآية الكريمة في أهل الكتاب الماضين الذين استقاموا على الحقِّ، ولم يدركوا عصر النبي ﷺ وذلك لأنَّ القرآن الكريم تكلَّم عن ماضي أهل الكتاب وحاضرهم، فحاضرهم كان سوءًا، وذكر ما ضيهم فبيَّن أن بعضه كان سوءًا وكان منهم أمَة مقتصدة، فهذه الأوصاف في الأمَّة المقتصدة التي مضت، ويصحُّ أن تطلق على المخلصين من أهل الكتاب الذين لم يبلغوا دعوة الإسلام، وكان فيهم إخلاص للحقِّ وطلب له وإجابةٌ لداعيه إن دُعوا إليه، ويكونون داخلين بالقياس على الماضين..

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٢ص٢١٠: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}، {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}[آل عمران: ١١٤]، فَهَذِهِ الْآيَةُ تَتَنَاوَلُ الْيَهُودَ أَقْوَى مِمَّا تَتَنَاوَلُ النَّصَارَى وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[الأعراف: ١٥٩]، وَهَذَا مَدْحٌ مُطْلَقٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِالتَّوْرَاةِ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَدْحٌ لِمَنْ كَذَّبَ الْمَسِيحَ، وَلَا فِيهَا مَدْحٌ لِمَنْ كَذَّبَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَهَذَا الْكَلَامُ يُفَسِّرُهُ سِيَاقُ الْكَلَامِ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}[آل عمران: ١١٠]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[آل عمران: ١١٠]، فَقَدْ جَعَلَهُمْ نَوْعَيْنِ نَوْعًا مُؤْمِنِينَ وَنَوْعًا فَاسِقِينَ وَهُمْ أَكْثَرُهُمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ}، يَتَنَاوَلُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُؤْمِنًا قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا يَتَنَاوَلُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً}[الحديد: ٢٧]، إِلَى قَوْلِهِ: {وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا

النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[الحديد: ٢٦]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}[الصافات: ١١٣]، ثُمَّ لَمَّا قَالَ: {وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[آل عمران: ١١٠]، قَالَ: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[آل عمران: ١١١،١١٢]، وَضَرْبُ الذِّلَّةِ عَلَيْهِمْ أَيْنَمَا ثُقِفُوا وَمُبَاؤُهُمْ بِغَضَبِ اللَّهِ وَمَا ذُكِرَ مَعَهُ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَعِصْيَانُهُمْ وَاعْتِدَاؤُهُمْ كَانَ الْيَهُودُ مُتَّصِفِينَ بِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[البقرة: ٦١]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ٦٢]، فَتَنَاوَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمِلَلِ الْأَرْبَعِ مُتَمَسِّكًا بِهَا قَبْلَ النَّسْخِ بِغَيْرِ تَبْدِيلٍ، كَذَلِكَ آيَةُ آلِ عِمْرَانَ، لَمَّا وُصِفَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِمَا كَانُوا مُتَّصِفًا بِهِ أَكْثَرُهُمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْكُفْرِ قَالَ: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}، {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}[آل عمران: ١١٤]. وَهَذَا يَتَنَاوَلُ مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا مِنْهُمْ بِهَذَا قَبْلَ النَّسْخِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي لَمْ يُبَدَّلْ وَلَمْ يُنْسَخْ كَمَا قَالَ فِي الْأَعْرَافِ: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[الأعراف: ١٥٩]، وَقَوْلُهُ: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}[الأعراف: ٦٨ - ١٧٠].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[الأعراف: ١٨١]، فَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ عَمَّنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِهَذَا الْوَصْفِ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ مُحَمَّدًا ﷺ فَآمَنَ بِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- أنَّ أهل الكتاب ليسوا بسواء؛ فإنَّ منهم أمَّة ضالَّة ومنهم أمَّة قائمة بأمر الله؛ وهو صريح في الآية: {ليسوا سواء من أهل الكتاب}.

٢- بيان عدل الله عز وجل وأنَّه يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؛ فلمَّا ذكر الذَّم ذمَّ أهل كتاب في الآيات السابقة فقد يتوجَّه الفهم إلى أنَّ جميع أهل الكتاب على هذا الوصف أنَّهم يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقٍّ ويعصون الله ويعتدون على حقِّه وحقِّ عباده فقال الله: {ليسوا سواء}: يعني أنَّ منهم من ليس كذلك.

٣- أنَّ من أهل الكتاب أمَّة؛ والأمَّة تقتضي الجمع والعدد الكثير على الوصف المحمود المطلوب؛ وقد ذكروا أنَّه أسلم من اليهود نحو عشرين رجلًا ومن النصارى عدد كثير أيضًا؛ ولهذا عبَّر عن ذلك بقوله: {من أهل الكتاب أمَّة}، وذهب بعض العلماء إلى أنَّ المراد بالأمَّة هنا أمَّة الإسلام؛ لكن هذا بعيد جدًّا لأنَّ {أمَّة} مبتدأ وخبرها: {من أهل الكتاب}، ولم يعبِّر الله عز وجل عن هذه الأمَّة بأهل الكتاب بل قال: {هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا}، كما أنَّه لم يعبر عن أهل الكتاب بالمؤمنين؛ فكلُّ آية فيها {يا أيها الذين آمنوا}، فهي للمؤمنين بمحمد ﷺ؛ وكلُّ آيةٍ فيها أهل الكتاب فالمراد بهم بنو إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى وعيسى.

٤- الثناء على القيام بطاعة الله والثبات عليها؛ تؤخذ من {أمَّة قائمة}.

٥- الثناء على من يتلون كتاب الله قراءةً وعملًا؛ تؤخذ من {يتلون آيات الله}. من أين عرفت أنَّ تلاوة الكتاب قراءةً وعملًا محمودةً يثنى على صاحبها؟ من قوله: {وما يفعلوا من خيرٍ فلن يكفروه}؛ لأنَّ هذا ضد من اتَّصفوا بصفات الأولى لأنَّه لمَّا ذكر صفات الأولى قال: {ليسوا سواء}، ثم ذكر الفرق.

٦- فضيلة السجود؛ تؤخذ من قوله: {وهم يسجدون}.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ {١١٤}

قال السعدي: {يؤمنون بالله واليوم الآخر}: أي كإيمان المؤمنين إيمانًا يوجب لهم الإيمان بكلِّ نبي أرسله، وكلُّ كتاب أنزله الله، وخصَّ الإيمان باليوم الآخر لأنَّ الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحثُّ المؤمن به على ما يقرُّ به إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كلُّ ما يعاقب عليه في ذلك اليوم.

قال ابن العثيمين: {يؤمنون بالله}: الجملة استئنافية لبيان حال هؤلاء؛ ويجوز أن تكون صفة لقوله: {أمَّة}، وأن تكون حالًا.

والإيمان بالله سبحانه وتعالى يتناول أربعة أشياء: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه وصفاته؛ لابدَّ من هذا؛ فمن أنكر وجود الله فهو لم يؤمن به؛ ومن آمن به وأنكر توحيده في الربوبية فإنَّه لم يؤمن به؛ ومن آمن به وبربوبيته ولكنَّه أنكر انفراده بالألوهية فإنَّه لم يؤمن به؛ ومن آمن بذلك كلِّه ولكن أنكر شيئًا من صفاته فإنَّه لم يؤمن به؛ فلا

إيمان بالله إلَّا بهذه الأمور الأربعة؛ أمَّا الإيمان باليوم الآخر: أوَّلًا هو يوم القيامة وسمِّي يومًا آخر لأنَّه لا يوم بعده، إذ هو منتهى الخلائق ولا فيه ليل ولا نهار كلُّه يوم واحد، لا شمس ولا قمر ولا نجوم، كلٌّ في مكانه إمَّا في الجنة أو في النار فهو آخر شيءٍ يكون فيه العباد؛ ومعلوم أنَّ للعباد أربع دور: الدار الأولى في بطون أمهاتهم؛ والثانية في هذه الدنيا؛ والثالثة في البرزخ؛ والرابعة في اليوم الآخر وهي الأخيرة ولهذا سمِّي اليوم الآخر؛ اليوم الآخر يدخل في الإيمان به كلَّ ما أخبر به النبي ﷺ ممَّا يكون بعد الموت، كلَّ ما أخبر به ممَّا يكون بعد الموت؛ فسؤال الميت في قبره داخل في الإيمان باليوم الآخر، وعذاب القبر أو نعيمه داخل في الإيمان باليوم الآخر؛ ووجه ذلك أنَّ كلَّ من مات فقد قامت قيامته؛ فما يجده في قبره كالذي يجده بعد حشره، كلُّه من أمور الغيب، كلُّه في دار الجزاء؛ وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وَمِنْ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ).

قال محمد رشيد رضا: أَيْ يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا إِذْعَانِيًّا وَهُوَ مَا يُثْمِرُ الْخَشْيَةَ لِلَّهِ وَالِاسْتِعْدَادَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ لَا إِيمَانًا جِنْسِيًّا لَا حَظَّ لِصَاحِبِهِ مِنْهُ إِلَّا الْغُرُورُ وَالدَّعْوَى كَمَا هُوَ شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ؛ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صَوْتٌ فِي جُمْهُورِ أُمَّتِهِمْ لِغَلَبَةِ الْفِسْقِ وَالْفَسَادِ عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي التَّارِيخِ، وَبِذَلِكَ تَتَّفِقُ الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِيهِمْ، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ فَقَدِ اتَّبَعْنَا سُنَنَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى تَرَكَ سَوَادُنَا الْأَعْظَمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِحَيْثُ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْأُمَّةَ تَرَكَتْهُ إِلَّا أَفْرَادًا قَلِيلِينَ لَا تَأْثِيرَ لَهُمْ فِي الْمَجْمُوعِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ لَا يَتَبَاطَأُ عَمَّا يَعِنُّ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَإِنَّمَا يَتَبَاطَأُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء: ١٤٢]، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَقُولَ فِيهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَانُوا يُوَاظِبُونَ عَلَيْهَا: {وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}: الَّذِينَ صَلُحَتْ نُفُوسُهُمْ فَاسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُمْ وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُمْ.

وقال رحمه الله نقلاً عن شيخه: هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الْوَاقِعِ وَإِزَالَةِ الْإِيهَامِ السَّابِقِ، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخَذَهُ بِإِذْعَانٍ، وَعَمِلَ فِيهِ بِإِخْلَاصٍ فَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَهُوَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَفِي هَذَا الْعَدْلِ قَطْعٌ لِاحْتِجَاجِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

يَعْنِي: – أَنَّهُ لَوْلَا مِثْلُ هَذَا النَّصِّ لَكَانَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَمَا سَاوَانَا بِغَيْرِنَا مِنَ الْفَاسِقِينَ وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِهِ مُخْلِصُونَ لَهُ – وَفِيهِ اسْتِمَالَةٌ لَهُمْ وَتَنَاهٍ عَنِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْمِلَلِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ فِيهَا أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِفَضِيلَةٍ وَلَا مَزِيَّةٍ لِلْآخَرِ، كَأَنَّهُ بِمُجَرَّدِ مُخَالَفَتِهِ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ – وَإِنْ كَانَ مَعْذُورًا – تَتَبَدَّلُ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتٍ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا كَالَّذِي قَبْلَهُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ حَالَ كَوْنِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ خِلَافًا لِمُفَسِّرِنَا (الْجَلَالِ) وَغَيْرِهِ الَّذِينَ حَمَلُوا الْمَدْحَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يُمْدَحُونَ بِوَصْفِ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا يُمْدَحُونَ بِعُنْوَانِ الْمُؤْمِنِينَ.

قال ابن العثيمين: {ويسارعون في الخيرات}: يعني مع كونهم مؤمنين وكونهم مصلحين هم أيضًا مسارعون في الخيرات، يعني أنَّهم يتسارعون في الخيرات كما يتسارع الناس في الغنائم؛ وقال: {يسارعون في الخيرات}، ولم يقل: (إلى الخيرات)؛ مع أنَّ (سارع) تتعدَّى بإلى كما قال الله تعالى: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم}، لأنَّ المراد بذلك مسارعتهم إليها وفيها أثناء القيام بها؛ المسارعة إليها فإذا وصلوا إليها لم يقفوا عن المسارعة، يسارعون فيها؛ وهذا هو السبب والعلم عند الله في أنَّه قيل: {يسارعون في الخيرات}، ولم يقل: إليها؛ وقوله: {في الخيرات}: {الخيرات} جمع خير أو خيرة؛ وهي كلُّ ما انتفع به العبد أو نفع غيره.

قال أبو زهرة: قال: {يسارعون في الخيرات}، للإشارة إلى أنَّ هؤلاء يسيرون في كلِّ أعمالهم في سبيل الخير، فهم ينتقلون من خير إلى خير، في دائرة واحدة هي دائرة الخير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها، ولا يخرجون منها، فهم لَا ينتقلون مسارعين من شرٍّ إلى خير، بل إنَّهم ينتقلون من خير إلى خير، فكان التعبير بـ{في} له موضعه من البيان.

قال ابن العثيمين: {وأولئك من الصالحين}: {أولئك}، المشار إليه هذه الأمَّة القائمة من أهل الكتاب؛ قال أهل العلم: والصالح من قام بحقِّ الله وحقِّ العباد؛ وضدَّه الفاسد؛ والصلاح يدور على شيئين: علم وعمل؛ وضدَّه الجهل والكفر والتَّمرُّد؛ فمن كان جاهلًا فإنَّه ليس بصالح؛ والمراد ليس بصالح الصلاح الذي يكون في قمة الصلاح، وإلَّا فإنَّ معه من الصلاح بمقدار ما عنده من العلم؛ ومن لم يكن عاملًا فليس بصالح، وعنده من فقد الصلاح بقدر ما فقد من العمل.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد الآية: ١- الثناء على من آمن بالله واليوم الآخر؛ يؤخذ من قوله: {يؤمنون بالله واليوم الآخر}.

٢- الثناء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يؤخذ من الآية: {ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}.

لو قال قائل: لماذا بدأ بتلاوة آيات الله والسجود وثنى بالإيمان باليوم الآخر وثلَّث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلماذا جعل الإيمان وهو الأصل بين تلاوة الكتاب وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

الجواب: إنَّه لا يمكن الإيمان بالشيء إلَّا بعد العلم به، ولا نعلم عن اليوم الآخر إلَّا بعد تلاوة كتاب الله؛ ولكن قدَّم السجود على الإيمان باليوم الآخر لاقترانه بالتلاوة.

٣- الثناء على المسارعة في الخيرات؛ لقوله: {ويسارعون في الخيرات}؛ فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية التي فيها الثناء على المسارعة في الخير وبين قول النبي ﷺ: ((إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا[١]))؟

الجواب أن نقول: معناه إنَّ الخيرات ما وافق الشرع والمسارعة فيها أن تلتزم بها.

٤- الثناء على هؤلاء بالصلاح؛ لقوله: {وأولئك من الصالحين}. إذًا فينبغي لنا أن نلتزم أو نقوم بهذه الأعمال التي مدح الله بها هؤلاء القوم من أهل الكتاب وأثنى عليهم بها.

فإذا قال قائل: هل الصلاح أمر كسبي أو أمر فطري؟ لأنَّكم إن قلتم إنَّه أمر فطري فكيف يكون الإنسان نفسه ليكون صالحًا؛ وإن قلتم إنَّه أمر كسبي فهذا أمر ممكن؟

والجواب: أنَّ الأصل أنَّه أمر فطري {فطرة الله التي فطر الناس عليها} لكنَّه في النهاية والغاية يكون كسبيًّا؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه))؛ وللصلاح أسباب؛ منها ما ذكر الله هنا: تلاوة آيات الله كثرة الصلاح، الإيمان بالله واليوم الآخر وتحقيقه، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولهذا يشكوا كثير من الناس اليوم أنَّه قد يجد في قلبه شيئًا من الفساد فكيف يصلحه؟ نقول: أصلحه بما ذكر الله من هذه الأحوال لأهل الكتاب؛ فإنَّ هذا من أسباب الصلاح؛ ولهذا قال: {وأولئك من الصالحين}. وصحبة الأخيار من أسباب الصلاح، فهل في الآية ما يدلُّ عليها؟

نعم، لأنَّهم إذا كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يمكن أن يصحبوا أحدًا من أهل المنكر والشر؛ فيكون في الآية إشارة إلى صحبة الأخيار، ولاشكَّ أنَّ صحبة الأخيار من أسباب الصلاح؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنَّه مثل جليس الصالح بحامل المسك؛ ويروى عنه ﷺ أنَّه قال: ((المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل[٢])).

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ {١١٥}

قال ابن العثيمين: {وما يفعلوا من خيرٍ فلن يكفروه}: {ما} شرطية، وجملة: {فلن يكفروه} جواب الشرط؛ وفي هذه الآية قراءتان: {وما تفعلوا من خيرٍ فلن تكفروه} بالتاء؛ والثانية: {وما يفعلوا من خيرٍ فلن يكفروه} بالياء؛ فعلى القراءة الثانية بالياء لا يكون في الآية التفات لأنَّها جرت على ضمير الغيبة كما في الآية التي قبلها؛ وعلى قراءة التاء: {وما تفعلوا}، يكون فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وأيضًا يكون الخطاب فيها موجَّهًا إلى النبي ﷺ وإلى هذه الأمَّة؛ وقوله: {وما تفعلوا من

١- (قلت): البخاري (٦٣٦) بلفظ: ((إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلاَةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَلاَ تُسْرِعُوا فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا))، ومسلم (٦٠٢) بلفظ: ((إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا)).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (٩٢٧).

خيرٍ}: {من} هذه بيانية لوقوعها بعد اسم الشرط؛ واسم الشرط اسم مبهم يحتاج إلى بيان؛ ولهذا كلّما أتتك من بعد اسم الشرط فهي بيانية؛ وقوله: {من خيرٍ}: سبق لنا آنفًا أنَّ المراد بالخير كلَّ ما يقرّب إلى الله؛ وقوله: {فلن يكفروه}: يعني لن يحرموا ثوابه؛ والكفر أصله الستر، ومنه الكفراء، والكفراء هو غلاف طلع النخل؛ هذه الكفراء يستر؛ ولهذا قالوا إنَّ الكفر أصله الستر لأنَّ الإنسان يستر نعمة الله عليه ولا يظهرها عليه؛ فالنعمة تقتضي الشكر فإذا لم تشكر فهذا هو الكفر؛ إذًا {يكفروه}: أي فلن يحرموا ثوابه؛ لأنَّهم لو حرموا ثوابه لكان فعلهم لهذا الخير خفيًّا لم يظهر له أثر.

قال السعدي: فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة {من الصالحين} الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمّدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنَّهم مهما فعلوا {من خير} قليلًا كان أو كثيرًا {فلن يكفروه}: أي لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكنَّ الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتَّقوى، فلهذا قال: {والله عليم بالمتَّقين}، كما قال تعالى: {إنَّما يتقبَّل الله من المتَّقين}.

قال ابن العثيمين: {والله عليم بالمتَّقين}: فيجازيهم على تقواهم؛ والتَّقوى لها فوائد كثيرة؛ وتخصيص العلم بالمتَّقين من أجل الحثِّ على التَّقوى والحذر من مخالفتها وعدم القيام بها، وإلَّا فإنَّ الله عليم بكلِّ شيء[1].

قال أبو زهرة: وفى هذا النص الكريم إشارة إلى أنَّ النِّيَّة الطيِّبة في الخير مع سلامة العقيدة ونزاهة النفس تجعل العمل طيِّبًا مرجو الثواب دائمًا، لأنَّ الأساس دائمًا تقوى القلوب، ولذا قال تعالى في تذييل الآية: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمتَّقِينَ}.

وفى هذا التذييل الكريم إشارات إلى أمور ثلاثة:

أوّلها: أنَّ تقوى القلوب هي أساس لكلِّ خير، وهي المجنب من كلِّ شر.

والثاني: أنَّ التَّقوى إذا كانت شأنًا من شئون النفس، صار الشخص لا يوصف إلَّا بأنَّه من المتَّقين، وصار عمل الخير كسجيَّةٍ له من السَّجايا.

والثالث: أنَّ الله عليم بكلِّ ما تخفيه القلوب وهو يجزي بما يعلم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ من فعل خيرًا أثيب عليه؛ لأنَّ المراد بالنفي هنا تمام الإثبات، يعني أنَّهم يعطون أجره كاملًا بلا نقص لقوله: {وما يفعلوا من خير فلن يكفروه}.

٢- كمال عدل الله عز وجل لكون العامل إذا عمل عملًا أثيب عليه؛ ولو حوسب على ما أعطاه الله من النِّعم لهلك؛ لكن يثاب وتكون نعم الله عليه مجرَّد فضل من الله.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

٣- إثبات علم الله؛ لقوله: {والله عليم بالمتَّقين}.
٤- الثناء على أهل التَّقوى؛ والتَّقوى ذكرت في القرآن الكريم على وجوه متنوعة متعدِّدة: أمرًا وثناءً على أهلها وبيانًا لثمراتها: {يا أيها الذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويكفِّر عنكم سيِّئاتكم ويغفر لكم}.
٥- ثبوت الثواب على عمل الخير قليلًا كان أم كثيرًا؛ لقوله: {من خير}، وهي في سياق الشرط فتكون عامَّة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {١١٦}

قال ابن العثيمين: {إنَّ الذين كفروا}: يشمل كلَّ من كفر بالله من يهودي أو نصراني أو شيوعي أو دهري أو مسلم ارتدَّ؛ المهم كلَّ من كفر بالله فهذا حكمه؛ والكفر ذكر أهل العلم أنَّه قسمان: كفر مخرج عن الملَّة؛ وكفر غير مخرج عن الملّة؛ وعليه يتنزَّل قول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، قال: كفر دون كفر؛ ومن أمثلة هذا النوع - أعني الكفر الذي لا يخرج عن الملّة - قول النبي ﷺ: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر([1]))، فإنَّ قتال المسلم ليس بكفر مخرج عن الملّة؛ ولكنَّه كفر دون كفر لأنَّه لا أحد يقدُم على قتل المسلم إلَّا الكافر؛ فإذا قدِم المسلم على قتل أخيه المسلم فقد أتى على خصلة من خصال الكفر؛ والدليل على أنَّ قتال المسلم ليس بكفر مخرج عن الملَّة قوله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} إلى قوله: {إنَّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}؛ ومن ذلك قوله ﷺ: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن بالنسب والنياحة على الميت([2]))، ولها أمثلة؛ المهم أنَّ هذا كفر أصغر لا يخرج من الإسلام.
أمَّا الكفر الأكبر فهو الكفر الذي يخرج من الإسلام؛ مثل قوله تعالى: {إنَّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك شرُّ البرية}؛ وهنا يقول تعالى: {إنَّ الذين كفروا}: هل المراد به الكفر الأصغر الذي لا يخرج به الإنسان من الملَّة أم الأكبر؟ الظاهر والله أعلم أنَّ المراد به الأكبر لقوله تعالى: {وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} لأنَّ أصحاب النار لن يكونوا إلَّا الكفار كفرًا أكبر؛ لأنَّ صاحب الشيء هو الملازم له، ومن كفر كفرًا أصغر فإنَّه لن يلازم النار، بل لابدَّ له من الخروج منها.

١- (قلت): البخاري (٦٠٤٤)، ومسلم (٦٤)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٥).
٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٣٨).

وقوله: {إنَّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا}: يعني لن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله إذ أراد الله بهم سوءًا؛ قال الله تعالى: {إنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ له}، وحينئذ نقول: إنَّ قوله: {لن تغني}: أي لن تمنع ولن تدفع؛ فهي عاجزة عن منع ما أراد الله وعن رفعه.

وقوله: {أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا}: ذكر الأموال لأنَّ الأموال يفتدي بها الإنسان نفسه في مواطن الحرج؛ لو أنَّ أحدًا أمسك شخصًا وأراد أن يحبسه أو يقتله أو يعتدي على عرضه فقال له: دعني وخذ ما شئت من مالي؛ حينئذ أغنى عنه المال؛ الأولاد كيف يغنون عن الإنسان شيئًا؟ لأنَّ الأولاد يدافعون عن آبائهم وأمَّهاتهم وهم أشدُّ الناس حماسًا في الدفاع عن آبائهم وأمَّهاتهم؛ فالإنسان لا يمكن أن يدع عدوَّه يبطش بأمِّه أو بأبيه أبدًا وهو على قيد الحياة؛ فلهذا قال: {ولا أولادهم}، لأنَّ الأولاد هم الذين يدافعون عن آبائهم وعن أمَّهاتهم؛ {من الله شيئًا}، {شيئًا} نكرة في سياق النفي {لن تغني}؛ قال الأصوليون: والنَّكرة في سياق النفي تفيد العموم، أيْ: أيُّ شيء كان، سواء كان هذا الشيء شديدًا أم كان ضعيفًا.

قال أبو زهرة: وإنَّ الله سبحانه إذ قد حكم بذلك، وهو: {إنَّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا}، فقد أشار إلى أنَّ السبب في ذلك كفرهم؛ لأنَّ التعبير بالموصول يشير إلى أنَّ سبب هذا الحكم هو الكفر. ولماذا اعتبر النص الكريم الكفر سببًا لعدم غناء الأموال والأولاد، مع أنَّ طبيعة هذا الوجود تجعلها غير مغنية مؤمنًا أو كافرًا؟ والجواب عن ذلك أن المؤمنين لَا يعتقدون أنَّ أموالهم وأولادهم تغني عنهم من الله شيئًا، فلم يكن ثمَّة حاجة للنفي بالنسبة لهم، وفوق ذلك فإنَّ المؤمنين يتَّخذون من الأموال والأولاد سبيلًا لرفع منار الحقِّ وعزَّته، فهي تكفيهم بعض الكفاء، وإن كانت لَا تغنيهم عن الله تعالى، ولأنَّ كلمة {تغني} في معناها دفع الأذى، والله سبحانه وتعالى منزل الأذى بالكافرين عقابًا لجرائمهم ولشرورهم، وما تعرَّض المؤمن لهذا الأذى، فلا حاجة لهذا الدَّفع.

وفي ذلك النص السامي بحث لفظي، وهو تكرار النفي في قوله تعالى: {أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم} فـ{لا} هنا تفيد ثلاثة أمور:

أوَّلها: مزيد تأكيد للنفي الثابت بـ{لن}.

وثانيها: أنَّ تكرار {لا} يفيد أنَّهم كانوا يعتزُّون بالأموال والأولاد مجتمعين ويعتزُّون بأحدهما منفردًا، فنفَى سبحانه وتعالى الغناء عنهما مجتمعين ومنفردين أيضًا.

وثالثها: أنَّ المال يكون قوَّة في مواضع، والولد يكون قوَّة في مواضع، فتكرار النفي يستبين أنَّه لَا قوَّة تدفع مقت الله وغضبه لَا من المال ولا من الولد.

قال ابن العثيمين: {وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}، ففي الدنيا لا يغني عنهم مالهم شيئًا ولا ولدهم؛ وفي الآخرة كذلك هم أصحاب النار هم فيها خالدون؛ والنار معروفة، هي ذلك الجسم الحار ولكن حرارة النار في الآخرة ليست كحرارة النار في الدنيا، هي فضلت على حرارة النار في الدنيا بتسعة وستين جزءًا؛ فإذا قدِّرت الآن أعظم ما في الدنيا من النيران في

الحرارة فإنَّ نار جهنم أشدُّ منها، يعني تزيد عليها بتسعة وستين جزءًا، فإذا أخذنا الأصل والزيادة صارت سبعين، يعني مقدرا حرارتها سبعين عن حرارة نار الدنيا. وقوله: {أصحاب النار}: أي أهلها الملازمون لها {وهم فيها خالدون}: أي ماكثون.

قال الطبري: وإنَّما جعلهم أصحابها، لأنَّهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه، وقرينه الذي لا يزايله. ثم وكَّد ذلك بإخباره عنهم إنَّهم {فيها خالدون}، أنَّ صحبتهم إيَّاها صحبة لا انقطاع لها، إذْ كان من الأشياء ما يفارق صاحبه في بعض الأحوال، ويزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النارَ التي أصْلوها، ولكنَّها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع. نعوذ بالله منها وممَّا قرَّب منها من قول وعمل.

قال أبو زهرة: وقد أكَّد سبحانه وتعالى الحكم العادل بعدَّة تأكيدات منها التعبير بالإشارة المتضمِّن السَّلب من كلِّ قوَّة كانوا يعتزُّون بها، ومنها ذكر مصاحبتهم للنار، ومنها بيان قصرهم على النار لَا يتجاوزونها، ومنها ذكر الضمير {هم} فهو لتأكيد الحكم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان أنَّ الكفار مهما بلغوا في القوة عددًا ومددًا فإنَّ قوَّتهم لن تغنيهم من الله شيئًا، عددًا لقوله: أولاد؛ مددًا: أموال؛ مهما كثرت قوَّتهم عددًا ومددًا فإنَّها لن تغني عنهم من الله شيئًا.

٢- تمام قدرة الله وسلطته على العباد حيث إنَّ الكفار العتاة لا يستطيعون أن يدفعوا شيئًا بأموالهم وأولادهم ممَّا قضاه الله عز وجل.

فإن قال قائل: مفهوم الآية أنَّ المؤمنين تغني عنهم أموالهم وأولادهم من الله شيئًا؟

قلنا: هذا غير مراد؛ لأنَّ الآية سيقت في الرَّدِّ على الكفار الذين يفتخرون بأموالهم وأولادهم؛ فبيَّن الله أنَّ أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من الله شيئًا؛ أمَّا المؤمنون فقد قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون}، ولا أحد ينفعه ماله وولده إلَّا أن يكون عونًا له على طاعة الله.

٣- أنَّ الكفار في النار؛ لقوله: {أولئك أصحاب النار}.

٤- أنَّهم مخلَّدون فيها؛ لقوله: {هم فيها خالدون}، والجملة اسمية تدلُّ على الدوام والثبوت.

فإن قال قائل: هل هذا الخلود أبدي أم له غاية؟

فالجواب: أنَّه أبدي وليس له غاية؛ ودليل ذلك في كتاب الله في ثلاث آيات منه، في النساء والأحزاب والجن؛ ففي النساء يقول الله تعالى: {إنَّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا إلَّا طريق جهنَّم خالدين فيها أبدًا وكان ذلك على الله يسيرًا}؛ وفي سورة الأحزاب يقول الله تعالى: {إنَّ الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها أبدًا لا

يجدون وليًّا ولا نصيرًا }؛ وفي سورة الجن: {ومن يعص الله ورسوله فإنَّ له نار جهنم خالدين فيها أبدًا}؛ وليس بعد هذه الآيات قول يقال؛ بل لو قاله قائل فقوله مردود عليه؛ لأنَّ هذا أمر غيبي لا يعلم إلَّا من قبل الشرع والوحي؛ والوحي كما ترون نزل بأنَّهم خالدين فيها أبدًا، وإذا جاء النص فلا قياس؛ فمن ادَّعى أنَّهم يخلدون فيها إلى أمد فإنَّه لولا تأويله لكان أمره خطيرًا جدًّا؛ لكنَّه تأوَّل واشتبهت عليه بعض الآيات، وقال بعدم التخليد الأبدي، وإلَّا لكان أمره خطيرًا جدًّا؛ لأنَّ ظاهر هذا القول تكذيب القرآن والأمر خطير جدًّا لكنَّه صدر من أناس نعلم نصحهم لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم على وجه تأوَّلوا فيه، والله يغفر لهم تأويلهم؛ لكن بالنسبة للعقيدة التي بين الإنسان وبين ربِّه إذا تبيَّن له خطأ عالم من العلماء وجب عليه مخالفته؛ أمَّا بالنسبة للعالم فيرجوا له المغفرة والرحمة إذا علم بالنُّصح للأمَّة لأنَّه غير معصوم، العصمة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {١١٧}

قال أبو زهرة: وقد يقول قائل: لماذا لَا ينفعهم في الآخرة ما كانوا ينفقون من مالهم في الدنيا، وقد كان منهم جود وسخاء؛ بيَّن الله سبحانه مغبَّة ذلك الإنفاق وعاقبته، فقال تعالت كلماته: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أصابت ...}. وفي هذا التشبيه بيَّن سبحانه أنَّ هذا الإنفاق ليس خالصًا من الضَّرر في ذاته، فهو يحمل في ذاته ما يفسده ويجعله ضارًّا لَا نفْعَ فيه، وشرًّا لَا يمازجه خير.

قال ابن العثيمين: {مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته} هذا تمثيل أو تشبيه تمثيلي؛ لأنَّ التشبيه يقولون إنَّه نوعان: تشبيه إفرادي مثل أن تقول: (فلان كالبحر)، (فلان كالأسد)؛ وتشبيه تمثيلي بمعنى أنَّه تشبه الهيئة بالهيئة، يكون المشبَّه شيئًا مؤلَّفًا من عدَّة أمور والمشبَّه به كذلك يكون شيئًا مؤلَّفًا من عدَّة أمور، فيسمَّى عند البلاغيين تشبيهًا تمثيليًّا؛ والأول تشبيهًا إفراديًّا، {كثمل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم}، الصورة الآن ريح شديدة فيها برودة عظيمة ولها صرير من شدَّتها، {أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم}، فالتَّشبيه مركَّب الآن، من ريح شديدة باردة أصابت حرث قوم يعني مصيب ومصاب؛ {حرث قوم}: أي زرعهم؛ {ظلموا أنفسهم}: أي استحقُّوا أن يعذِّبهم الله عز وجل بهذه الريح فأهلكته؛ فإذا هبت الريح العاصفة الباردة القوية انتقامًا من بني آدم فإنَّها سوف تهلك هذا الحرث؛ وجه الشَّبه ظاهر لأنَّهم سلطوا على أموالهم تسليطًا عظيما لكن لم ينتفعوا بهذا التَّسليط، عادت هباءًا كما

قال تعالى: {إنَّ الذين ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون}، هذه حال الكفار إذا أنفقوا أموالهم لن ينتفعوها إطلاقًا، {كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته}.

{فيها صر}: يعني مشتملة على الصِّر؛ وفسَّرنا الصِّر بأمرين؛ البرودة والشدَّة، الصوت لها صرير من شدَّتها؛ وباردة، هذه لا تبقي على الزرع {لا تبقي ولا تذر}، {فأهلكته}.

قال ابن القيم في التفسير القيم: هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعة ربه ومرضاته. فشبَّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء، وحسن الذِّكر، ولا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدُّوا به عن سبيل الله وأتباع رسله – بالزرع الذي يزرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جدًّا، يحرق بردها كلَّ ما يمرُّ عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته. واختلف في {الصرّ}: فقيل: البرد الشديد. وقيل: النار. قاله ابن عباس. وقال ابن الأنباري: إنَّما وصفت الريح بأنَّها {صرٌّ}، لتصويتها عند الالتهاب. وقيل: {الصر}: الصوت الذي يصحب الريح من شدَّة هبوبها. والأقوال الثلاثة متلازمة، فهو برد شديد محرق ليبسة الحرث، كما تحرقه النار وفيه صوت شديد. وفي قوله: {أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم. فهو الذي سلَّط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأيبسته. فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها.

قال ابن العثيمين: {وما ظلمهم الله}: يعني أنَّ الله عز وجل ما ظلمهم حين سلَّطهم على إهلاك أموالهم بدون أن ينتفعوا بها، ما ظلمهم لأنَّ الله تعالى لا يظلم الناس شيئًا، {ولكن أنفسهم يظلمون}: يعني هم الذين يظلمون أنفسهم بكفرهم بآيات الله ولا أحد أجبرهم على هذا الكفر؛ وإذا فعل الإنسان الشيء بنفسه فلا يلومنَّ إلَّا نفسه. يعني أنَّهم ما ظلموا الله عز وجل، والله أيضًا ما ظلمهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم؛ أمَّا كونهم ما ظلموا الله فلأنَّ الله قال: {وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، وأمَّا كونهم لم يظلموا فلأنَّ الله تعالى يقول: {وما ظلمهم الله[١]}، فالله ما ظلمهم، وهم لم يظلموا الله: أي لم ينقصوه شيئًا، وإنَّما نقَّصوا أنفسهم {ولكن أنفسهم يظلمون}.

قال السعدي: {وما ظلمهم الله}: بإبطال أعمالهم، {ولكن} كانوا {أنفسهم يظلمون}: حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١– إثبات القياس؛ لقوله: {مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح}، ووجه

١– (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن (تحريم الله الظلم على نفسه) عند تفسير الآية (٢٥) من سورة آل عمران، وكلام ابن العثيمين عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة آل عمران في الفوائد رقم (٦).

ذلك أنَّ المثل إلحاق للأصل بالفرع، إلحاق للمشبَّه بالمشبَّه به؛ وهذا هو أصل القياس؛ أصل القياس إلحاق فرع بأصل في حكم لعلَّة جامعة؛ فكلُّ مثالٍ ضربه الله في القرآن ففيه دليل على القياس؛ إذ أنَّه إلحاق المشبَّه بالمشبَّه به؛ وعليه فيكون في هذه الآية إثبات القياس.

٢- حسن أو تمام بلاغة القرآن؛ وذلك بقياس الغائب على الشاهد؛ وجهه: أنَّ الريح التي فيها صر وأصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم كلٌّ يعرف أنَّها مدمِّرة ومهلكة؛ فكذلك أعمال الكافرين هالكة لا خير فيها لأنَّ الكفر مدمِّر لها؛ {وما منعهم أن تقبل نفقاتهم إلَّا أنَّهم كفروا بالله وبرسوله}.

٣- أنَّ الكافر لن ينتفع بما عمل في الآخرة؛ ووجهه: أنَّه إذا هلك ما عمله وزال فإنَّه لن ينفعه، لكن قد ينفعه في الدنيا فيدفع الله عنه به من البلاء ما ينفع أو يحصل من الخير الذي يرجوا.

٤- انتفاء الظلم عن الله؛ لقوله: {وما ظلمهم الله}.

٥- إثبات أنَّ الله تعالى موصوف بالنفي كما هو موصوف بالإثبات؛ وصف الله بالإثبات كثير في القرآن، وصفه بالنفي أقل لكنَّه موجود. وهذا النفي الذي وصف الله به نفسه هو نفي متضمِّن لثبوت، وهو كمال ضد ذلك الشيء؛ فإذا قال الله عن نفسه: {وما ربك بظلَّامٍ للعبيد}، قلنا لكمال عدله؛ وإذا قال: {وما الله بغافل عما يعملون}، لكمال مراقبته؛ وإذا قال: {وما مسَّنا من لغوب}، لكمال قوته وقدرته؛ وهلمَّ جرا؛ لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفي محض بل هو نفي لثبوت ضده على وجه الكمال.

يقول العلماء رحمهم الله: ولابدَّ من هذا التقدير إثبات كمال الضِّد؛ قالوا: لأنَّ مجرَّد النفي إن كان لعدم القابلية فلا مدح فيه؛ وإن كان للعجز عن المنفي فهو نقص؛ إن كان لعدم القابلية فلا مدح فيه، مثل لو قلنا: (الجدار لا يظلم)، (الجدار لا يغدر بالعهد لا يخلف الوعد)؛ نقول: هذا الكلام لغو؛ كلَّ الناس يعرفون هذا؛ فما مثلك إلَّا كمثل الذي قال: (السماء فوقنا والأرض تحتنا)؛ فإذا كان غير قابل لهذا المنفي عنه فإنَّ وصفه به لغو لا فائدة منه؛ وإن كان هذا النفي لعجزه عن تحقيقه صار نقصًا؛ لو قلنا: (إنَّ الله لا يظلم لأنَّه لا يستطيع أن يظلم)؛ لاشكَّ أنَّه نقص؛ إذًا فالقاعدة فيما وصفه لنفسه من النفي أنَّه ليس نفيًا محضًا، بل هو متضمِّن لإثبات كمال ضد ذلك النفي.

٦- أنَّ نفس الإنسان عنده أمانة يلحقها ظلمه وغشمه ويلحقها برَّه وإحسانه؛ فالإنسان عند نفسه أمانة يجب أن يرعى هذه الأمانة حقَّها؛ وإذا كان يجب على الإنسان أن يرعى الأمانة في ولده وأهله ففي نفسه من باب أَولى؛ ولهذا قال الله عز وجل: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} هذه وصيَّة منه تعالى لنا بأنفسنا؛ وقال: {يوصيكم الله في أولادكم}، فأوصانا الله لنا بأولادنا وصيَّة منه لنا بأولادنا والولد بضعة من أبيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ {١١٨}

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا بطانة من دونكم}: يمرُّ علينا مرارًا كثيرًا أنَّ الخطاب بمثل هذا، أوَّلًا: تصديره بالنداء يدلُّ على أهميته والتَّنَبُّه له. ثانيًا: توجيهه إلى المؤمنين له ثلاث فوائد:

أوَّلًا: الإغراء على الامتثال كأنَّه يقول إن كنت مؤمنًا فافعل كذا وكذا، إن كنت مؤمنًا فلا تفعل كذا وكذا، إن كنت مؤمنًا فصدِّق بالخبر؛ ففي توجيهه إلى المؤمنين إغراء بالامتثال.

ثانيًا: أنَّ امتثاله من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّه لا يخاطب الشخص بوصف ثم يوجه إليه حكم متعلّق بهذا الوصف إلَّا كان ذلك دليلًا على أنَّ امتثال هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّه لا يصحُّ أن توجَّه لفاسق كلمة تتعلَّق بالمؤمن.

الفائدة الثالثة: أنَّ الإخلال به نقص في الإيمان؛ إذا وجّه الله الخطاب إلى المؤمنين فهذا دليل على أنَّ الإخلال به نقص في الإيمان. ثم إنَّه لابدَّ أن يكون هناك فائدة عظيمة إذا وجّه الله الخطاب للمؤمنين كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك يعني استمع لها فإمَّا خير تؤمر به وإمَّا شرٌّ تنهى عنه).

في هذه الآية يقول الله: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم}: هذا نهي، هذه {لا} الناهية ولهذا جزمت الفعل فقال: {لا تتَّخذوا}، والمراد بالبطانة القوم المقرَّبون إلى الشخص، مأخوذ من بطانة الثوب لأنَّها أقرب إلى الجسد من ظهارته؛ فالثوب له بطانة وله ظهارة؛ البطانة أقرب؛ فالمعنى: لا تتَّخذوا قومًا مقرَّبين إليكم تفضون إليهم بالأسرار وتخبرونهم بالأحوال وبما تريدون أن تقوموا به؛ وقوله: {من دونكم}: أي من غيركم، كما في قوله تعالى: {واتَّخذوا من دون الله آلهة لعلَّهم ينصرون}: أي من غيره؛ والمعنى {من دونكم}: أي من غيركم، والمراد بذلك كلُّ من يغايرك في أمر من الأمور؛ وهذا يختلف، قد يكون في الدِّين مثلًا وقد يكون في الدنيا؛ فإذا كان الأمر يتعلَّق بالدِّين فحينئذ لا نتَّخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، لا نتَّخذ المنافقين أولياء من دون المؤمنين لأنَّهم غيرنا؛ إذا كان يتعلَّق بتجارة فلا نتَّخذ أحدًا بطانةً يخدعنا في تجارتنا لأنَّه مغايرٌ لنا في هذا الاتِّجاه؛ وهذه في الحقيقة قاعدة موجَّهة لكلِّ مؤمن وهي صالحة حتى للكافر، مثلًا لا يتَّخذ بطانة من دونه أي من غيره ممَّن يضرَّه اتِّخاذه بطانة.

قال ابن كثير: {لا تتَّخذوا بطانةً من دونكم}: أي من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصة أهله الذين يطَّلعون على داخل أمره. وقد روى البخاري، والنسائي، وغيرهما، عن أبي سعيد؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلَّا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضُّه عليه، والمعصوم من

عصم الله([1])). عن ابن أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه: إنَّ هاهنا غلامًا من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتَّخذته كاتبًا؟ فقال: (قد اتَّخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين([2])).

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أنَّ أهل الذِّمَّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطالة على المسلمين واطِّلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: {لا يألونكم خبالًا ودُّوا ما عنتُّم}.

قال ابن العثيمين: وقوله: {لا تتَّخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالًا ودُّوا ما عنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر}: هذه أربع جمل {لا يألونكم خبالًا} هذه واحدة؛ {ودُّوا ما عنتم} اثنين؛ {قد بدت البغضاء من أفواههم} ثلاثة؛ {وما تخفي صدورهم أكبر} أربعة.

يحتمل أنَّ هذه الجمل أوصاف؛ ويحتمل أنَّها جمل استئنافية معلِّلة، لبيان التعليل، يعني: لا تتَّخذوا بطانةً من دونكم لأنَّهم لا يألونكم خبالًا إلى آخره؛ وعلى القول الأول يكون معنى الآية: لا تتَّخذوا بطانةً من دونكم على هذا الوصف، أيّ بطانة من دونكم لا يألونكم خبالًا ودُّوا ما عنتم إلى آخره؛ فإن قلنا: بأنَّ هذه الجمل أوصاف فإنَّ قوله: {من دونكم}، يعتبر وصفًا خامسًا لأنَّ {من دونكم} الجار والمجرور صفة لبطانة؛ وعليه فيكون نهى الله أن نتَّخذ بطانة من اتَّصفوا بهذه الصفات الخمس أنَّهم من دوننا، أنَّهم لا يألوننا خبالًا، يودون ما عنتنا، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر.

قوله: {لا يألونكم خبالًا}: (ألى): بمعنى بذل الجهد: أي لا يألون جهدًا في خبالكم، يعني: أنَّهم يبذلون كلَّ جهدٍ في خبالكم؛ و{الخبال}: هو الفساد في الرأي والعقل؛ ولهذا يقول الناس للرجل الفاسد رأيه وعقله يقولون إنَّه خِبل؛ فمعنى {لا يألونكم خبالًا}: يعني لا يألون جهدًا في خبالكم، يبذلون كلَّ جهدٍ لفساد أموركم لأنَّهم قوم ليسوا منكم وهم بعيدون عنكم بطانةً من دونكم.

وقوله: {ودُّوا ما عنتُّم}: (الود): خالص المحبة: يعني أنَّهم يحبون بكلِّ قلوبهم ما عنتُّم، أي: الذي عنتُّم، أي: الذي شقَّ عليكم؛ ويحتمل أن تكون {ما} مصدرية: أي ودُّوا عنتكم؛ و(العَنَت): المشقَّة والشدَّة، كما قال الله تعالى: {ولو شاء الله لأعْنتكم}: أي ألحق بكم المشقَّة، وقال تعالى: {عزيز عليه ما عنتُّم}: أي ما شقَّ عليكم؛ فالمعنى أنَّ هؤلاء البطانة لا يألون جهدًا في فساد أمورنا، ويودُّون بكلِّ قلوبهم العنت علينا والإشقاق والإتعاب، العنت الفكري والبدني والمالي وكلُّ شيءٍ يمكن أن يلحقنا فيه مشقَّة فهؤلاء يودُّونه؛ الوصف الثالث: {قد بدت البغضاء من أفواههم}: {بدت}: أي ظهرت؛ و{من أفواههم} {من}: لبيان محل البدو؛ فهي ابتدائية: يعني ظهرت من أفواههم، كأنَّما يريدون أن يكتموا هذه البغضاء ولكنَّها

١- (قلت): البخاري (٧١٩٨).

٢- تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٥٠)، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/٦٥٨) من طريق أبي حيان التيمي به ورواه عبد بن حميد في تفسيره كما في الدر (٢/٣٠٠).

تبدوا؛ لابدَّ أن تفهم من أقوالهم وإن كانوا لا يريدون هذا ولهذا لم يقل: قد أبدوا البغضاء من أفواههم؛ بل قال: {قد بدت}، وهو دليل على أنَّها جاءت فلتة من أفواههم وإلَّا فهم يتكتَّمون في البغضاء من أجل أن يتوصَّلوا إلى مآربهم في اتِّخاذهم بطانة؛ لكن لابدَّ أن تبدوا البغضاء من أفواههم.

{وما تخفي صدورهم أكبر}: أي ممَّا يبدوا من أفواههم، يعني عندهم من البغضاء في القلوب أكثر بكثير ممَّا تبديه الألسن؛ هؤلاء القوم المتَّصفون بهذه الصفات نهانا الله أن نتَّخذهم بطانة؛ والنهي عن اتِّخاذهم بطانة يستلزم إبعادهم عنك والحذر منهم وأن لا تركن إليهم.

قال ابن كثير: أي: قد لاح على صفحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: {قد بيَّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون}.

قال ابن العثيمين: {قد بيَّنا لكم الآيات}: أي أظهرناها حتى صارت بيِّنة مثل فلق الصبح؛ و{الآيات}: العلامات؛ وهل المراد العلامات التي وصف بها هؤلاء أو هي أعمُّ فتشمل جميع ما بيَّن الله لنا؟ الأَولى أن نجعلها عامَّة، نقول: بيَّن الله تعالى لنا العلامات الدَّالَّة على الحقِّ وعلى الباطل في هذه المسألة وفي غيرها؛ وقوله: {قد بيَّنا لكم الآيات}، يدلُّ على أنَّه سبحانه وتعالى له عناية خاصة في المؤمنين تبيِّن لهم الآيات التي هي خافية عليهم.

وقوله: {إن كنتم تعقلون}: يعني أنَّه لا يظهر بياننا للآيات إلَّا لمن كان له عقل يعقل به نفسه وهواه؛ أمَّا غير العاقل فإنَّه لا ينتفع، {إنَّ الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يروا العذاب الأليم}، ويحتمل أنَّ الشرط {قد بيَّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون} عائد على قوله: {لا تتَّخذوا بطانة من دونكم}، والمعنى على هذا التقدير: إن كنتم تعقلون فلا تتَّخذوا بطانة من دونكم، أمَّا على الأول فيكون التقدير: إن كنتم تعقلون فقد بيَّنا لكم الآيات فاعقلوها؛ ومرَّ علينا أنَّ الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا يتنافيان فالأَولى أن تحمل عليهما؛ فيكون من العقل أن لا نتَّخذهم بطانة ومن العقل أن نتبيَّن ما بيَّنه الله لنا من الآيات.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تحريم اتِّخاذ البطانة التي ليست منَّا؛ لقوله: {لا تتَّخذوا}، والأصل في النهي التحريم.

٢- أنَّ هذا التحذير ليس خاصًّا بولاة الأمور؛ بل كلُّ إنسان لا يجوز له أن يتَّخذ بطانة من دونه، حتى الواحد الفرد منَّا لا يجوز أن يتَّخذ بطانة من دونه، بمعنى أنَّها ليست على طريقه ولا على منهاجه؛ فلو أنَّ رجلًا مسلمًا صادق كافرًا واتَّخذه بطانة يسر إليه بالأمور لقلنا إنَّ هذا حرام عليه؛ ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء تلقون

إليهم بالمودَّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإيَّاكم} إلى قوله: {تسرُّون إليهم بالمودَّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم}.

٣- أنَّ تجنُّب البطانة السيِّئة من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّ الخطاب وجّه إلى المؤمنين.

٤- أنَّ اتِّخاذ بطانة السوء من نواقص الإيمان؛ بناء على القاعدة التي أصَّلناها فيما سبق، أنَّ ما كان الإيمان مقتضيًا له فإنَّ فواته يكون نقصًا في الإيمان. وهل يكون من نواقض الإيمان؟ ربما يكون من نواقض الإيمان لو اتَّخذ هذه البطانة فيما يخرج من الإسلام.

٥- أنَّ الذين من دوننا لا يألوننا خبالًا؛ وهذا بناءً على أنَّ الجملة استئنافية للتعليل؛ وقد ذكرت لكم في التفسير أنَّ من العلماء من قال: إنَّها صفة لما قبلها، وأنَّ الذين من دوننا إذا كانوا لا يألوننا خبالًا فلا بأس أن نتَّخذهم بطانة؛ ولكن الظاهر الأول، أنَّ الجملة استئنافية للتعليل يعني أنَّ الذين من دوننا لا يألوننا خبالًا؛ ولنضرب لذلك مثلًا بالمؤمنين يتَّخذون بطانةً من الكافرين؛ فإنَّ الكفار لاشكَّ أنَّهم لا يقصِّرون في طلب الخبال لنا؛ يذكر أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه أبو موسى يريد منه أن يولِّي كاتبًا نصرانيًّا على بيت المال، لأنَّه – أي هذا الكاتب النصراني – كان جيِّدًا في الحساب، فكتب إليه عمر أن لا تفعل وأمره بعزله؛ فأعاد عليه مرة ثانية يطلب منه أن يبقيه كاتبًا فكتب إليه عمر: (مات النصراني والسلام)؛ يعني إذا مات هل معناه يتعطَّل حساب بيت المال؟ قدِّر أنَّه مات؛ أمَّا أن نأتمنه على بيت مال المسلمين وقد خان الله ورسوله فلا يمكن؛ وبه نعرف أنَّه لا يجوز أن يولَّى أعدائنا من الكفار أو غير الكفار أسرار أمورنا؛ لأنَّنا إذا ولَّيناهم أسرار أمورنا فقد أخذناهم بطانةً.

٦- بيان عناية الله سبحانه وتعالى بعباده المؤمنين حيث حذَّرهم إلى أمور قد تخفى عليهم؛ وذلك باتِّخاذ البطانات السيِّئة.

٧- أنَّ أعدائنا يودُّون لنا ما يشقُّ علينا؛ لقوله: {ودُّوا ما عنتم}.

وهنا سؤال: هل يودُّون ما شقَّ علينا في الدنيا أو في الدِّين أو كليهما؟ يشمل الأمرين؛ فيودُّون ما يدمِّر جيوشنا، يودُّون ما يدمِّر اقتصادنا، يودُّون ما يدمِّر معارفنا، يودُّون ما يدمِّر ديننا؛ والظاهر عندي والله أعلم أنَّ أهم شيء لديهم هو تدمير الدِّين؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ديننا إذا قوي صار فيه تدميرًا لهم؛ لكن اقتصادنا إذا قوي لا يكون فيه تدميرًا لهم لأنَّهم هم أقوى منَّا اقتصادًا وأقوى منَّا جيوشًا وأقوى منَّا عُدَّة؛ لكن الدِّين هو الذي يدمِّرهم؛ ولذلك نقول: إنَّ كلَّ ما يشقُّ علينا في أمر الدِّين والدنيا يتطلَّبونه، يريدونا أن يضيِّقوا في الدِّين بقدر ما يستطيعون؛ يودُّون أن يضايقونا في الاقتصاد بقدر ما يستطيعون؛ يودُّون أن يضايقونا في السلاح بقدر ما يستطيعون يرسلون لنا من الأسلحة ما عفا عليه الأثر، من الأسلحة التي زالت منفعتها في الوقت الحاضر، وصارت بالنسبة لأسلحة الوقت الحاضر كالسكين بالنسبة للأسلحة أو الهراوة يعني ليس فيها فائدة؛ لكن هم لا يهمُّهم، هم يريدون أن يكمِّلوا اقتصادهم وأن يشغِّلوا مصانعهم ولا يهمُّهم أن ننتفع أو ننضر.

٨- أنَّ أعدائنا إذا تأمَّل الإنسان أحوالهم وجد من أفواههم ريح البغضاء؛ لقوله: {قد بدت البغضاء من أفواههم} بما يتكلَّمون به؛ وربما تبدوا البغضاء من أفعالهم أحيانًا بالمضايقة؛ فهم أحيانًا يبدون من أفواههم وأحيانًا من أفعالهم بالتهديد ونحو ذلك بالتهديد الفعلي لا القولي.

٩- أنَّ ما في قلوب الأعداء من العداوة والبغضاء والحقد والحنق أكثر ممَّا يبدوا؛ وهذا أمر لا يطَّلع عليه إلَّا الله سبحانه وتعالى، وهو الذي أخبرنا بذلك {وما تخفي صدورهم أكبر} أكبر ممَّا تبديه أفواههم.

١٠- بيان أنَّ الأوصاف الذاتية أو الفعلية تتفاضل؛ لقوله: {أكبر}، وهو قد تكلَّم عن البغضاء، والبغضاء وصف في القلب ذاتي لا يمكن للإنسان أن يعرفه إلَّا بآثاره؛ فهنا بيَّن أنَّ البغضاء متفاوتة، وكذلك المحبَّة متفاوتة؛ ولاشك في المحبَّة كلُّ لا يشك فيها؛ لأنَّها جاءت في القرآن وفي السنة: {قل إن كان آبائكم وأبنائكم وإخوانكم} إلى قوله: {أحبَّ إليكم من الله ورسوله}، وقال النبي ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين([1]))؛ لكن البغضاء أيضًا تتفاوت، بعضها أعظم من بعض.

١١- منَّة الله سبحانه وتعالى علينا ببيان آياته؛ لقوله: {قد بيَّنا لكم الآيات}، والآيات التي بيَّنها الله قسمان؛ آيات كونية وآيات شرعية؛ وبيانه لها إمَّا بالمشاهدات الحسيَّة وإمَّا بالتأمّلات العقلية؛ فالآيات الشرعية تكون بالتأمُّلات العقلية والآيات الكونية بالمشاهدات الحسيَّة التي قد تكون طريقًا إلى التأمُّلات العقلية أيضًا.

١٢- أنَّه كلَّما كان الإنسان أقوى عقلًا كان أفهم لآيات الله؛ تؤخذ من قوله: {قد بيَّنَّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون}، إذًا كلَّما كان الإنسان أعقل كانت الآيات له أبين وأظهر.

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {١١٩}

قال ابن العثيمين: {ها أنتم أولاء تحبُّونهم}، في قوله: {ها أنتم} قراءتان: المد: {هآ أنتم}، والقصر: {ها أنتم}، وكلاهما قراءتان سبعيتان، ينبغي للقارئ أن يقرأ بهذه أحيانًا وبهذه أحيانًا إلَّا أمام العامَّة؛ فأمام العامَّة لا ينبغي أن تقرأ إلَّا بقراءة المصحف الذي بين أيديهم، لأنَّك لو قرأت بقراءة غير قراءة المصحف الذي بأيديهم اتَّهموك بالخطأ.

و{ها أنتم}: الهاء للتنبيه؛ قيل: إنَّها منقولة عن مكانها وأنَّ الأصل: أنتم هؤلاء تحبُّونهم؛ وقيل: بل هي للتنبيه وأنَّها في مكانها؛ لأنَّ التنبيه ينبغي أن يكون في أوَّل الكلمات، فهي في مكانها.

١- (قلت): البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤). وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٥٨٢).

وقوله: {أولاء}: منادى وأصله يا هؤلاء، {تحبُّونهم}: أي تحبُّون هذه البطانة الذين لا يألونكم خبالًا، والذين ودُّوا ما عنتُّم، والذين قد بدت البغضاء من أفواههم، والذين ما تخفيه صدورهم أكبر؛ وذلك لأنَّ المؤمنين يغلب عليهم سلامة القلب وطهارته وعدم ظنُّ السوء في غيرهم؛ وكان هؤلاء يتودَّدون إليهم ويدَّعون أنَّهم يَصِلونهم فيحبُّهم المؤمنون؛ بناءً على تغريرهم بهم؛ {ولا يحبُونكم}: يعني وهم لا يحبُّونكم مع أنَّكم تحبُّونهم؛ وكيف يحبُّوننا وقد بدت البغضاء من أفواههم؟

وقوله: {تحبُّونهم}: هذا معلوم لنا، لكن {ولا يحبُّونكم} هذا غير معلوم، ولكن الله أعطانا له قرائن وهي ما تبديه أفواههم. فإذا كانوا لا يحبُّونكم فيكف تحبُّونهم؟ الإنسان العاقل الحازم هو الذي يعامل من كانت هذه صفته بمثل ما كان عليه.

{وتؤمنون بالكتاب كلِّه}: {الكتاب} هنا اسم جنس يشمل جميع الكتب؛ {تؤمنون بالكتاب} القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف ابراهيم؛ تؤمنون بهذا كلّه وهم لا يؤمنون بذلك؛ يَصدُق هذا الوصف على اليهود والنصارى والمنافقين كلِّهم؛ لكنَّ اليهود يدَّعون أنَّهم مؤمنون بالتوراة والنصارى يدَّعون أنَّهم مؤمنون بالإنجيل والمنافقون لا يؤمنون بشيء.

{وإذا لقوكم قالوا آمنَّا} نفاقًا ومداهنةً؛ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ولهذا قال: {وإذا خلوا} وحدهم أو إلى شياطينهم، {عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ}: أي من شدَّة الغيظ؛ لكن من شدَّة الغيظ لما يرون من نعمة الله عليكم أو من شدَّة الغيظ لعدم إتِّباعكم لهم؛ أو من الأمرين جميعًا؛ بل ربما نقول: يشمل أيضًا ما ادَّعوا في أنَّهم أمضوا مع المسلمين وقتًا ولم يتمكَّنوا من نيل مآربهم. وقوله: {الأنامل}: هي أطراف الأصابع؛ وعضُّها يعبَّر به عن شدَّة النَّدم والحزن، ويعبَّر به عن شدَّة الغيظ؛ أحيانًا الذي يتوعَّدك تجده يعضُّ أنامله ويومئ برأسه ويقول: عسى أدركك، عسى أدركك، ليتوعَّدك؛ نقول هذا عضَّ أنامله من الغيظ؛ والثاني انكسرت سيارته فعضَّ أنملته هذا من شدَّة النَّدم؛ لكن هنا بيَّن الله عز وجل أنَّهم يعضُّون الأنامل من شدَّة الغيظ، يتمنَّى أن تكون أنت الذي بين أسنانه حتى يقضمك.

{قل موتوا بغيظكم}: الخطاب للنبي ﷺ أو لمن يتأتَّى خطابه وهو الأقرب؛ لأنَّه كان يخاطب المؤمنين بالأوَّل: {يا أيها الذين آمنوا}، {ها أنتم أولاء تحبُّونهم}: يعني فقل أيُّها المؤمن لهؤلاء: {موتوا بغيظكم}، هذا الأمر للإهانة وبيان عدم المبالاة به؛ و{قل موتوا بغيظكم}: الباء قيل إنَّها للغاية والمصاحبة: يعني ابقوا على غيظكم إلى أن تموتوا؛ وقيل: إنَّها للسببية: أي موتوا بسبب غيضكم فإنَّه لا يهمُّنا؛ والثاني أقرب؛ فالأوَّل: دعاء عليهم ببقاء الغيظ إلى الموت؛ والثاني: دعاء عليهم بتعجيل الموت بسبب الغيظ؛ فيكون هذا أقرب للصواب وأشدُّ في التَّحدِّي والبعد عنهم.

قال ابن كثير: أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أنَّ الله متمُّ نعمته على عباده المؤمنين ومكمِّل دينه، ومُعَلِّ كلمته ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيظكم.

{إنَّ الله عليم بذات الصدور}: أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغلِّ للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمِّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

قال ابن العثيمين: {قل موتوا بغيظكم إنَّ الله عليم بذات الصدور}، الجملة استئنافية يبيِّن الله فيها أنَّه عليم بذات الصدور، أي بصاحبة الصدور وهي القلوب؛ لأنَّ القلوب هي محلُّ العقل والإدراك والتَّدبير للجسد؛ وإنَّما قلنا إنَّ ذات الصدور هي القلوب لقوله تعالى: {فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}، والقلب هي محلُّ العقل ومحلُّ التدبير؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه))، وهي محلُّ النية والإرادة لأنَّ النبي ﷺ قال: ((إنَّما الأعمال بالنيَّات))؛ إذًا {عليم بذات الصدور}: أي بالقلوب؛ بصاحبة الصدور هذا تفسير لفظي، والمراد القلوب.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان علم الله سبحانه وتعالى بما في القلوب؛ لقوله: {تحبُّونهم ولا يحبُّونكم}، لأنَّ المحبَّة والكراهة من أعمال القلوب، ولا يطَّلع عليها إلَّا الله سبحانه وتعالى، لكن لها آثار تدلُّ عليها.

٢- التَّحذير ممَّن يبدي لك أنَّه ناصح لك وقلبه كاره لك؛ لأنَّ المقصود من هذا من قوله: {ها أنتم أولاء تحبُّونهم ... }، التَّحذير من هؤلاء؛ فلا تغتر بمن ظاهر حاله النُّصح؛ بل قس الأمور بالأفعال، لأنَّ الأفعال هي التي تبيِّن حقيقة الأمر؛ فكم من إنسان يقول لك قولًا وهو على خلاف ما يقول لك؛ ولكن الأفعال هي التي تبيِّن.

٣- أنَّ هذه الأمة الإسلامية تؤمن بجميع الكتب؛ لقوله: {وتؤمنون بالكتاب كلِّه} أمَّا اليهود فيكفرون بالإنجيل ويكفرون بالقرآن؛ وأمَّا النصارى فيكفرون بالقرآن، ومع ذلك هم كفار، لأنَّ من كفر بكتاب ممَّا أنزله الله فهو كافر بجميع الكتب؛ وقد مرَّ علينا تقرير هذا مرارًا، وأنَّ من كفر ببعض الرسل دون بعض فقد كفر بالجميع؛ وكذلك أيضًا من كفر ببعض الكتب فقد كفر بالجميع؛ وكذلك من كفر ببعض الشريعة فقد كفر بالشريعة كلِّها؛ لأنَّ الشريعة واحدة: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}.

٤- أنَّ هؤلاء يخادعون المؤمنين؛ لقوله: {إذا لقوكم قالوا آمنَّا وإذا خلوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ}.

٥- أنَّ العبرة بالأفعال لا بالأقوال؛ لقوله: {إذا خلوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ}: يعني أنَّهم من شدَّة غيظهم يعضُّون أناملهم كأنَّكم أنتم الذين بين أضراسهم ليمضغوكم مضغًا من شدَّة الغيظ والحنق؛ ولهذا تجد الناس حتى الآن إذا أراد شخص يتوعَّد إنسانًا أخذ أصبعه هكذا وقام يهزُّ برأسه وهو عاضٌّ نصفه لشدَّة غيظه.

٦- إثبات الأسباب؛ لقوله: {من الغيظ}، لأنَّ {من} للسببية: أي بسبب الغيظ؛ وإثبات الأسباب شيء معلوم ظاهر؛ ولو تأمَّلت لوجدت أنَّ كلَّ مسبَّب له سبب قطعًا؛ وأنَّ جميع الأشياء يجعل الله لها أسبابًا تحصل بها.

٧- أنَّه ينبغي للمسلم أن يكون قويًّا صارمًا أمام أعدائه؛ لقوله: {قل موتوا بغيظكم}.

٨- إثبات علم الله عز وجل لما في القلوب على وجه صريح؛ لقوله: {إنَّ الله عليم بذات الصدور} ودلالة هذه الجملة على علم الله بما في القلوب دلالة مطابقة؛ ودلالة قوله: {ها أنتم أولاء تحبُّونهم ولا يحبُّونكم} دلالة التزام.

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {١٢٠}

قال ابن العثيمين: {إن تمسسكم}: الخطاب للمؤمنين؛ وهنا أتى بصيغة الجمع، وأتى بصيغة المفرد في قوله: {قل موتوا بغيظكم}، وسبق أن جاء بصيغة الجمع، وهذا من التفنُّن في الخطاب؛ ومن فوائده الانتباه، أنَّ الإنسان إذا اختلف الأسلوب عنده انتبه وليس كما إذا كان الأسلوب على وتيرة واحدة.

{حسنة تسؤهم}: حسنة شاملة دينية ودنيوية، وبدنية ومالية، وأهلية؛ ووجه الشمول أنَّ {حسنة} نكرة، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ فأيُّ حسنةٍ تصيب المؤمنين فإنَّها تسوؤهم لأنَّهم أعداء، سواء كانت هذه الحسنة في المال أو البدن أو الأهل أو النصرة أو أيِّ حسنة كانت، فإنَّ هؤلاء تسوؤهم الحسنة إذا مسَّتكم.

{وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها}: السيئة هنا ما يسوؤكم؛ يعني إن أصابكم ما يسوؤكم في البدن أو الأهل أو المال أو الدِّين {يفرحوا بها}: يعني يلحقهم الفرح بسببها؛ وهنا يقول: {إن تمسسكم} في الحسنة؛ و{إن تصبكم} في السيئة؛ فهل هذا من باب اختلاف التعبير أو هناك فرق معنوي؟ قال بعض العلماء: إنَّ هذا من باب اختلاف التعبير وأنَّ معنى قوله: {إن تمسسكم حسنة}: أي إن تصبكم حسنة؛ قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}؛ وقال بعض العلماء: بل بينهما فرق لأنَّ المسَّ أخفُّ من الإصابة، وبنى على ذلك أنَّهم يساؤون من الحسنة وإن كانت قليلة جدًّا، ويفرحون بالسيئة إذا أصابت وأوجعت؛ وهذا الفرق بالنسبة لقوله: {إن تمسسكم حسنة} وجيه؛ لكن بالنسبة لقوله: {وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها}، لو قلنا بهذا الفرق لكان فرحهم بالسيئة لا يكون إلَّا إذا كانت شديدة؛ وهذا فيما يظهر خلاف حالهم؛ وبناءً على ذلك يترجَّح القول بأن مسَّ وأصاب بمعنى واحد، لكن اختلف التعبير لفائدة وهي التنبيه لأنَّه إذا اختلف الأسلوب فلابدَّ أن يحدث انتباه للمخاطب بخلاف ما إذا كان على وتيرة واحدة.

وقوله: {إن تصبكم سيئة}، هل يدخل في ذلك هزيمتهم في الجهاد؟ نعم يدخل؛ ويدلُّ لهذا قوله تعالى: {وإن منكم لمن ليبطئنَّ فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدًا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولنَّ كأن لم تكن بينكم وبينهم مودَّة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزًا عظيمًا}.

{وإن تصبروا وتتَّقوا لا يضرُّكم كيدهم شيئًا إنَّ الله بما يعملون محيط}: إن تصبروا على ما ينالكم منهم؛ وتتَّقوا فيما تعاملونهم به؛ لأنَّ الإنسان مطلوب بالنسبة لهؤلاء الكفار مطلوب بأمرين؛ الأول: الصبر على ما فعلوا؛ والثاني: أن يتَّقيَ الله فيما يفعل بهم {لا يضرُّكم كيدهم شيئًا}، الكيد هو المكر؛ والمكر هو التوصل بالأسباب الخفيَّة إلى الإيقاع بالخصم؛ فخرج بقولنا: التوصل بالأسباب الخفيَّة ما إذا توصل بأمر معلوم للإيقاع بخصمه فإنَّ هذا لا يسمَّى مكرًا؛ مثل أن يأتيه على وجه صريح فيقتله؛ لكن إذا أتاه على وجه خفي فقتله نقول هذا مكر وكيد؛ وقوله: {لا يضرُّكم كيدهم شيئًا}: {شيئًا} نكرة في سياق النفي فتشمل أيَّ شيء يكون؛ فالكفار إذا عاملناهم بالصبر والتَّقوى فلن يضرُّونا شيئًا.

قال ابن كثير: يرشدهم تعالى إلى السلامة من شرِّ الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتَّقوى، والتوكُّل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلَّا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلَّا بتقديره ومشيئته، ومن توكَّل عليه كفاه.

قال ابن العثيمين: وفي قوله: {لا يضرُّكم} قراءتان؛ إحداهما: {لا يضُرُّكم}، والثانية: {لا يضِرْكم} من الضَّيْر؛ والضَّيْر بمعنى الضرر وبمعنى الضيم؛ فهو ضرر بضيم، ومنه ما جاء في حديث رؤية الله سبحانه وتعالى، حيث قال النبي ﷺ: ((إنَّكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تَضَارون ولا تُضَارون)): أي لا يلحقكم ضير؛ فتكون القراءتان كلُّ واحدةٍ منهما أفادت معنى غير الأخرى، لأنَّ مطلق الضرر دون مطلق الضير، فالضير أشدُّ؛ فهم لا يلحقوننا بضرر ولا بضير.

وقوله: {شيئًا} نكرة في سياق النفي فتكون عامَّة، يعني أيِّ شيء يكون؛ ولكن هل يلحقهم من ذلك أذى؟ الجواب نعم؛ لقوله تعالى: {لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرًا}، ولكن لا يلزم من الأذى الضرر، ولهذا قال الله في الحديث القدسي: ((يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني))، وأثبت أن بني آدم يؤذونه فقال: ((يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدَّهر))، وقال: {إنَّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة}.

{إنَّ الله بما يعملون محيط}: الإحاطة هنا إحاطة العلم والقدرة والسلطان؛ فهو محيط بهم كإحاطة السور بمن في داخلهم، أي لا يتمكَّن أن يفرُّوا من قضاء الله عز وجل وعلمه وسلطانه وقدرته؛ وقوله: {بما يعملون}: {ما} هذه موصولة فتفيد العموم؛ ومرَّ علينا في النحو أنَّه لابدَّ لكلِّ اسم موصول من عائد يعود عليه حتى يتبيَّن أنَّ الجملة التي بعده صلة له؛ لأنَّه لا يمكن أن نعرف أنَّ الجملة لها صلة بما قبلها إلَّا برابط أو عائد؛ في باب المبتدأ يسمُّونه رابطًا، وفي باب الموصول يسمُّونه عائدًا؛ فأين العائد في قوله: {بما يعملون محيط}؟ العائد محذوف أي: (بما يعملونه محيط).

قال أبو زهرة: ذَيَّلَ الله سبحانه الآية بهذا النص، ليطمئنَّ المؤمنين ويهدِّد الكافرين، فالمعنى: الله تعالى محيط بما يعملون إحاطة علم وإحاطة قدرة، وإحاطة العلم فيها بيان أنَّه لا تخفى عليه خافية من كيدهم، وإحاطة القدرة مؤدَّاها أنَّه محبطٌ كلَّ ما يدبرون {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}. هذه وصايا الله تعالى للنبي ﷺ وللمؤمنين بالنسبة لسياسة أمورهم مع

مخالفيهم، يحترسون منهم، ولا يفرطون في الثِّقة بهم، فلا يتَّخذوا منهم بطانة وخاصة، وإلَّا كان الدَّمار والبوار والخبال، وهكذا نحن الآن، اللهم هيِّئ لنا من أمرنا رشدًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ العدو إذا أصاب عدوُّه حسنةٌ ساءته، وإذا أصابه سيئة فرِح بها؛ وقد جعل الفقهاء رحمهم الله هذا ضابطًا في العداوة حينما تكلَّموا في باب الشهادات على أنَّ العدو لا تقبل شهادته على عدوه، قالوا في ضابط العدو هو من سرَّه مساءتك وساءه مسرَّتك؛ مأخوذ من هذه الآية.

٢- بيان أنَّ العدو مهما أظهر لك من الصداقة فإنَّه كاذب؛ لأنَّ الذي يسوءه حسنتك لاشكَّ أنَّه ليس بصديق؛ وأنَّ الذي يفرح بمصيبتك لاشكَّ أنَّه ليس بصديق وإن تظاهر بالصداقة.

٣- بيان شدَّة عداوة هؤلاء للمؤمنين الذين اتَّخذوهم بطانة؛ فكيف تتَّخذونهم بطانة وهم يساؤون بما يسرُّكم ويسرُّون بما يسوؤكم.

٤- التحذير من تولية اليهود والنصارى لأمور المسلمين القيادية كأن يجعلوهم مدراء أو وزراء أو ما أشبه ذلك؛ لأنَّهم لا يألون لنا خبالًا، ويسرُّون بما يسوئنا ويساؤون بما يسرُّنا؛ فكيف نتَّخذهم بطانة نولِّيهم أمورنا القيادية من إدارة أو رئاسة أو غيرها.

٥- أنَّ أعدائنا لا يألون جهدًا في الكيد لنا؛ ولكن نداوي هذا بالصبر والتَّقوى؛ بالصبر على كلِّ ما يجب الصبر عليه من أوامر نقوم بها أو نواهي نتركها أو سياسات نتبعها؛ ونكون ثابتين على مبدأ، ليس كلُّ يوم لنا سياسة بل نكون ثابتين على مبدأ معيَّن نصبر عليه.

٦- أنَّ بالصبر والتَّقوى دفع الأعداء؛ لقوله: {وإن تصبروا وتتَّقوا لا يضرُّكم كيدهم شيئًا}؛ وما فعلوه علنًا هل يضرُّنا لو صبرنا واتَّقينا؟ لا يضرُّنا من باب أولى؛ لأنَّه إذا كان الكيد الذي يكون بالمكر والخديعة لا يضرُّنا مع الصبر والتَّقوى؛ فما كان ظاهرًا بيننا فهو من باب أَولى.

٧- إحاطة الله سبحانه وتعالى بعمل هؤلاء؛ في كلِّ شيء، في العلم والتدبير وإحباط أعمالهم وتدميرهم وغير ذلك؛ فالله محيط بهم من كلِّ وجه؛ ولكن قد يبتلي الله بهؤلاء الأعداء ويحصل من كيدهم ما يضرُّ لفوائد كثيرة منها: أن ينال المسلمون الصبر على المؤذي، وأن يرجعوا إلى الله عز وجل فيقيموا الدِّين؛ ومن فوائدها أيضا: أنَّ العدو يطغى ويرتفع ويعلوا فإذا بلغ القمَّة في العلو رمى به الله سبحانه وتعالى في السفل؛ فيكون نزوله من العلو إلى السفل أشدُّ من نزوله من أثناء الطريق؛ ولهذا الذي يسقط من السقف يكون أشدُّ ممَّن لو سقط من أثناء الدُّرج؛ فالله تعالى قد يملي للظالم حتى يتمادى في ظلمه وطغيانه حتى إذا ظنَّ أنَّه بلغ إلى القمَّة حطَّ به إلى أسفل السافلين؛ فصار ذلك أشدُّ وأعظم؛ وقد نبَّه الله ذلك في سورة آل عمران

فقال: {وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين}، مع أنَّه في ذلك الوقت كان الظفر للمشركين في أحد؛ لكن جعل الله ذلك سببًا لمحقهم؛ لأنَّهم إذا شمُّوا رائحة النصر ازدادوا في طغيانهم وقووا ثمَّ تكون النَّكبة.

٨- أنَّه يجب على الإنسان أن ينتظر نصر الله عز وجل وأن يثق بوعده؛ لقوله: {والله بما يعملون محيط}: يعني فلا تظنُّوا أنَّ أمرهم هذا كائن بدون قدرة الله عليه بل الله تعالى قادر عليه ومحيط به.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {١٢١}

قال ابن العثيمين: {وإذ غدوت من أهلك}، من هنا إلى قريب آخر السورة كلُّه في غزوة أحد وما يتعلَّق بها؛ فقوله: {وإذ غدوت}: {إذ} هذه ظرف وعاملها محذوف تقديره: أذكر إذ غدوت؛ و{غدوت}: بمعنى خرجت غدوة، أي في أوَّل النهار، كما كان الأمر كذلك فإنَّ النبي ﷺ خرج إلى غزوة أحد في أوَّل يوم السبت الموافق للحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، في هذا اليوم غدى النبي ﷺ من أهله؛ وقوله: {من أهلك}: {من} ابتدائية يعني أنَّ مبتدأ هذه الغدوة من أهله من المدينة؛ خرج النبي ﷺ غاديًا إلى أُحد بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم هل يخرج أو لا. وسبب هذه الغزوة أنَّ قريشًا قتل منهم سبعون رجلًا من كبرائهم وأسر منهم سبعون رجلًا في بدر أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبي ﷺ.

قال ابن كثير: وكان سببها أنَّ المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، وسلِمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلمَّا رجع قفلهم إلى مكة قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبًا من أُحد تلقاء المدينة، فصلَّى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فلمّا فرغ منها صلَّى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن عمرو، واستشار الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممَّن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامَتَه وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلَّنا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله ﷺ: ((ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له[١])). فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلمَّا كان بالشوط رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مغضبًا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالًا لاتَّبعناكم، ولكنَّا لا نراكم تقاتلون اليوم.

١- (قلت): البخاري (٢٨) باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}.

واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: لا يقاتلنَّ أحد حتى نأمره بالقتال.

وتهيَّأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف، والرُّماة يومئذٍ خمسون رجلًا فقال لهم: ((انضحوا الخيل عنَّا، ولا نؤتينَّ من قِبَلِكُم. والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطَّير فلا تبرحوا مكانكم([1]))).

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذٍ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين.

وتعبَّأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جلبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار.

قال السعدي: فلمَّا التقى المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتَّبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلمَّا رآهم الرُّماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلمَّا أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلَّا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين، فجال المسلمون جولةً ابتلاهم الله بها وكفَّر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنَّهم انحازوا إلى رأس جبل (أحد) وكفَّ الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعالى: {وإذ غدوت من أهلك}، والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أوَّل النهار، لأنَّ النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلَّا بعدما صلُّوا الجمعة.

قال ابن العثيمين: {تبوِّء} الجملة هذه حالية يعني حال كونك تبوِّء؛ ومعنى تبوِّء أي تنزِّل؛ والتبوُّء معناه النزول كما جاء في الحديث الصحيح: ((من كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النار([2]))): أي فلينزل نفسه في مقعد من النار؛ وقال تعالى: {والذين تبوَّءوا الدار والإيمان}: أي نزلوها؛ قال: {تبوِّء المؤمنين مقاعد للقتال}، المؤمن هو المُقِرُّ بما يجب الإيمان به مع

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٦٦٢)، والحديث بتمامه: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا زهير حدثنا أبو إسحق قال: سمعت البراء يحدث قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد وكانوا خمسين رجلًا عبد الله بن جبير وقال: ((إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل لكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم))، قال: فهزمهم الله، قال: فأنا والله رأيت النساء يسندن على الجبل فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟! فقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فأتوهم فصرفت وجوههم وأقبلوا منهزمين.

٢- (قلت): (صحيح متواتر)، البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٣)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٩).

القبول والإذعان؛ وهذا شهادة من الله عز وجل أيما شهادة على أنَّ هؤلاء الذين شهدوا هذه المعركة مؤمنون، {مقاعد للقتال} ويثبتون ويقعدون كثبوت القاعد؛ ولهذا قال: {مقاعد}، ولم يقل: منازل؛ من أجل أن يكون هذه الأماكن التي بوَّؤها مكان الثبات كثبات القاعد في مجلسه؛ وليس المعنى أنَّ النبي ﷺ جعل لهم هذه المنازل وقال اجلسوا؛ لا، هم يتكيَّفون كما يناسب مصلحة الحرب؛ لكنها سمِّيت مقاعد من أجل الثَّبات فيها.

{للقتال}: يعني لقتال الأعداء؛ وتعلمون أنَّ المقاتل لن يبقى في مكانه دائمًا بل هو يكرُّ ويفرُّ حسبما تقتضيه المصلحة.

قال السعدي: وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلَّا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلوّ همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة ﷺ.

قال ابن العثيمين: {والله سميع عليم}: أي سميع لما تقول لهم عليم بأحوالكم؛ وقد نقول: إنَّ كلمة {سميع} أعمُّ من كونها لما يقول لهم حين ترتيبهم وتبويئهم فتكون أشمل، وهذا هو الأحسن لأنَّه كلَّما كان اللفظ شاملًا كان أحسن وأعمُّ؛ {عليم}: أي عليم بما يحدث من قول وفعل وحال وحاضر ومستقبل.

قال السعدي: {والله سميع(١)} لجميع المسموعات، ومنه أنَّه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كلٌّ يتكلَّم بحسب ما في قلبه {عليم(٢)} بنيَّات العبيد، فيجازيهم عليها أتمَّ الجزاء، وأيضًا فالله سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولَّى تدبير أموركم، ويؤيِّدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون {إنَّني معكما أسمع وأرى}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- حسن تدبير الرسول ﷺ في الحرب؛ لقوله: {تبوء المؤمنين مقاعد للقتال}.

٢- أنَّه ينبغي للقاعد أن يبوِّئ أمكنة المقاتلين ويعرف كلُّ واحدٍ منهم مكانه وعمله حتى لا يحصل ازدواج يضرُّ بالجيش، كلُّ واحدٍ يرتبه على حسب ما يليق به، ويقول اجلس مكانك وهذا عملك واستمر عليه؛ لأنَّ في النظام ولاسيَّما في مثل هذه المواقف فائدة كبيرة؛ النظام مطلوب حتى في أعمالك اليومية في نفسك؛ فكيف بمثل هذه الأعمال الكبيرة.

٣- شهادة الله سبحانه وتعالى للذين خرجوا في أحد بأنَّهم مؤمنون؛ لقوله: {تبوِّء المؤمنين مقاعد للقتال}، لأنَّ المنافقين انخزلوا قبل أن يصلوا إلى مكان القتال، فقد رجعوا من أثناء السير.

٤- إثبات هذين الاسمين لله وهما: {السميع والعليم}؛ فالسميع يتعلَّق بالأصوات؛ والعليم يتعلَّق بما هو أعمُّ، بما يدرك بالسمع وما يدرك بالبصر وغير ذلك، فالعليم هو من أوسع الأسماء دلالة.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {١٢٢}

قال ابن كثير: قال البخاري: قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: {إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليُّهما وعلى الله فليتوكّل المؤمنون}، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب – وقال سفيان مرَّة: وما يسرُّني – أنَّها لم تنزل، لقول الله تعالى: {والله وليُّهما}. وكذا قال غير واحد من السلف: إنَّهم بنو حارثة وبنو سلمة.

قال ابن العثيمين: {إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليُّهما}: {إذ} هذه قال المعربون إنَّها بدلٌ من {إذ} الأُولى، يعني يكون التقدير على هذا، اذكر إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا؛ {الهم} يطلق على مجرَّد حديث النفس، ويطلق {الهم} على العزم، يعني: إنسان قد يهم يحدث نفسه هل يفعل أو لا يفعل، يقال هذا هم؛ ويطلق على العزم المصمِّم الذي ينفِّذ إن لم يوجد مانع؛ وهنا الطائفتان وهما بنو سلمة وبنو حارثة همُّوا أن يفشلوا؛ والفشل هنا بمعنى الجبن والخوف؛ يعني أنَّ هاتين الطائفتين وقع في قلوبهما الهم بالانهزام، وسببه ما جرى من المنافق عبد الله بن أُبَي الذي انخزل وانخذل بنحو ثلث الجيش؛ وتعرفون أنَّه إذا انخزل أو انخذل ثلث الجيش فإنَّ هذه ثُلمة كبيرة في الجيش؛ فهاتان القبيلتان همَّتا أن تفشلا، أن تجبنا وترجعا ولكنَّ الله تعالى ثبَّتهما ولهذا قال: {والله وليُّهما}، فثبَّتهما سبحانه وتعالى فلم يفعلا ما عزما عليه؛ وقوله: {والله وليُّهما}: هذه ولاية خاصة؛ وولاية الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى عامة وخاصة؛ فالولاية التي بمعنى تدبير الشؤون هذه عامَّة؛ والتي بمعنى العناية يعني التي تقتضي العناية هذه الولاية لاشك أنَّها خاصة، لأنَّ الإنسان إذا همَّ بالمعصية أو بالذنب ثم حصل له من عند الله ما يمنعه منه فهذه ولاية خاصة لاشك؛ كثيرًا ما يهمُّ الإنسان بالذنب أو بترك الواجب؛ يعني بالذنب من فعل معصية أو ترك واجب، فيجد في قلبه إذا همَّ بالفعل المحرَّم يجد في قلبه انحلالًا عن هذه الهمَّة وعدولًا عنها؛ هذه ولاية من الله؛ أو أحيانًا يهمُّ بترك الواجب فيقيِّض الله له من يعينه عليه حتى يفعل؛ هذا أيضًا ولاية خاصة؛ فهاتان القبيلتان لمَّا همَّتا تولَّاهما الله عز وجل بعنايته فلم يفشلا وبقيا مع الجيش؛ وكان بعض هاتين الطائفتين يقول فرحًا: لقد كان من حظِّهم أنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر عنهم بهذا الخبر، لأنَّه أخبر بأنَّهما همَّا أن يفشلا وأخبر بخبر آخر سار ومنقبةً لهما وهو {أنَّ الله وليُّهما}، فكان هذا بهذا.

{وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون}: {على الله} متعلِّقة بيتوكَّل، وقدِّمت لإفادة الحصر، يعني: على الله لا على غيره فليتوكَّل؛

قال ابن العثيمين في القول المفيد: والتوكُّل: هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثِّقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له، ولابدَّ من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتمادًا صادقًا حقيقيًّا.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب، نقص توكُّله على الله، ويكون قادحًا في كفاية الله، فكأنَّه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على الله ملغيًّا للأسباب، فقد طعن في حكمة الله، لأنَّ الله جعل لكلِّ شيءٍ سببًا، فمن اعتمد على الله اعتمادًا مجرَّدًا، كان قادحًا في حكمة الله ، لأنَّ الله حكيم، يربط الأسباب بمسبباتها، كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبي ﷺ أعظم المتوكِّلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب، فكان يأخذ الزاد في السفر، ولمَّا خرج إلى أُحد ظاهر بين درعين، أي: لبس درعين اثنين([1])ولمَّا خرج مهاجرًا أخذ من يدلُّه الطريق([2])ولم يقل سأذهب مهاجرًا وأتوكَّل على الله ، ولن أصطحب معي من يدلُّني الطريق، وكان ﷺ يتَّقي الحرَّ والبرد، ولم ينقص ذلك من توكُّله.

ويذكر عن عمر رضي الله عنه أنَّه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجيء بهم إلى عمر، فسألهم فقالوا: نحن المتوكِّلون على الله. فقال: لستم المتوكِّلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكُّل نصف الدِّين ولهذا نقول في صلاتنا: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }[الفاتحة: ٥]، فنطلب من الله العون اعتمادًا عليه سبحانه بأنَّه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: { فاعبده وتوكل عليه }[هود: ١٢٣]، وقال تعالى: {عليه توكَّلت وإليه أنيب}[هود: ٨٨]، ولا يمكن تحقيق العبادة إلَّا بالتوكُّل، لأنَّ الإنسان لو وُكِّل إلى نفسه وُكِّل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكَّن من القيام بالعبادة، فهو حين يعبد الله يشعر أنَّه متوكِّل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكُّل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكُّل، وأنَّنا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكُّل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك، فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكُّل، كما أنَّنا لا نوفَّق إلى حصول المقصود كما هو الغالب سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها.

والتوكُّل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكُّل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكَّل عليه، بحيث يعتقد أنَّ بيده جلب النفع ودفع الضر، فيعتمد عليه اعتمادًا كاملًا، مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله ، فهو مشرك شركًا أكبر،

١- صحيح: رواه أبو داود: كتاب الجهاد: باب في لبس الدروع، حديث (٢٥٩٠)، الإمام أحمد في (المسند) (٣/ ٤٤٩)، وابن ماجة، حديث (٢٨٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود.

– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٣٢) وقال: (حديث صحيح، وقد حسن الترمذي شاهده من حديث الزبير بن العوام، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي).

٢- البخاري: كتاب الإجارة / باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام ...، حديث (٢٢٦٣).

كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلَّا ممَّن يعتقد أنَّ لهؤلاء تصرُّفًا خفيًّا في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصوله على رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنَّه معتمد على هذا اعتماد افتقار، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنَّه مجرَّد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوَّض إليه التصرف فيه، كما لو وكَّلت شخصًا في بيع شيءٍ أو شرائه، وهذا لا شيء فيه، لأنَّه اعتمد عليه وهو يشعر أنَّ المنزلة العليا له فوقه، لأنَّه جعله نائبًا عنه، وقد وكَّل النبي ﷺ علي ابن أبي طالب أن يذبح ما بقى من هديه(١)، ووكَّل أبا هريرة على الصدقة(٢)، ووكَّل عروة بن الجعد أن يشتري له اضحية(٣)، وهذا بخلاف القسم الثاني، لأنَّه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المتوكَّل عليه اعتماد افتقار.

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ التوكُّل من أعلى المقامات، وأنَّه يجب على الإنسان أن يكون مصطحبًا له في جميع شؤونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولا يكون للمعطِّلة أن يتوكَّلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية)، لأنَّ المعطِّلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلَّا على من كان كامل الصفات المستحقَّة لأنَّه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية، لأنَّهم يقولون: إنَّ العبد مستقلٌّ بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثمَّ نعرف أنَّ طريق السلف هو خير الطُّرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتمُّ به جميع أحوال العابدين.

قال السعدي: {وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون}: ففيها الأمر بالتوكُّل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثِّقة بالله، وأنَّه بحسب إيمان العبد يكون توكُّله، وأنَّ المؤمنين أولى بالتوكُّل على الله من غيرهم، وخصوصًا في مواطن الشدَّة والقتال، فإنَّهم مضطرُّون إلى التوكُّل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبرِّي من حولهم وقوَّتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن.

قال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد:

{ وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون }: فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكُّل وأنَّ قوة التوكُّل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلَّما قوي إيمان العبد كان توكُّله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكُّل، وإذا كان التوكُّل ضعيفًا فهو دليل على ضعف الإيمان ولابدَّ، والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكُّل والعبادة، وبين التوكُّل والإيمان،

١- مسلم: كتاب الحج / باب حجة النبي ﷺ، حديث (١٢١٨).

٢- البخاري: كتاب الوكالة / باب إذا وكالة المرأة الإمام في النكاح، حديث (٢٣١١).

٣- البخاري: كتاب المناقب / باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، حديث (٣٦٤٣).

وبين التوكُّل والتَّقوى، وبين التوكُّل والإسلام، وبين التوكُّل والهداية، فظهر أنَّ التوكُّل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وأنَّ منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلَّا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوِّماته إلَّا على ساق التوكُّل([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- في هذه الآية دليل على أن طائفتين من المؤمنين همَّتا بالفشل ولكنَّ الله ثبتهما؛ همَّتا بالفشل أن يرجعا كما رجع المنافقون.

٢- أنَّ الدعاية ولو كانت باطلة ربما تؤثر حتى على المؤمن.

٣- أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يلطف بالمؤمن حتى يثبته على الحق؛ لقوله: {والله وليُّهما}.

٤- منَّة الله على هاتين الطائفتين حيث إنَّ الله كان وليًّا لهما؛ ولهذا فرحت الطائفتان بهذه الولاية أنَّ الله وليُّهما.

٥- وجوب التوكُّل على الله وأنَّه من مقتضى الإيمان؛ لقوله: {وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون}.

٦- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتوكَّل على الله لاسيَّما في هذه المواطن التي يشتدُّ فيها الأمر على المسلم بل على المؤمن؛ وأن لا ينظر إلى الأمور نظرًا ماديًّا لأنَّ وراء الأمور الماديَّة ما هو أعظم منها وهي قدرة الله سبحانه وتعالى التي تقضي على كلِّ هذه الأمور الماديَّة: {إنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون}.

٧- أنَّه كلَّما قوي الإيمان قوي التوكُّل على الله؛ لقوله: {وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون} بناء على قاعدة معروفة وهي أنَّ ما علِّق على وصف يقوى بقوته ويضعف بضعفه.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {١٢٣}

قال ابن العثيمين: {ولقد نصركم الله ببدر} هذه الجملة مؤكَّدة بأمور ثلاثة؛ الأول: القسم المقدَّر؛ والثاني: اللام؛ والثالث: قد؛ لأنَّ التقدير: والله لقد نصركم الله؛ والنصر هو أن يجعل الغلبة لهؤلاء على هؤلاء؛ فمن جعل الله لهم الغلبة فقد نصرهم.

وللنصر أسباب خمسة، أوَّلًا: الإخلاص لله؛ لقول الله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا}. والثاني: إقامة الصلاة؛ والثالث: إيتاء الزكاة؛ والرابع: الأمر بالمعروف؛ والخامس: النهي عن المنكر؛ لقول

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام وابن القيم عن (التوكُّل)، ومعنى إسم الله {الوكيل} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة آل عمران.

الله تعالى: {ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيز * الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}.

يقول الله عز وجل: {لقد نصركم الله ببدر} الباء هنا بمعنى في؛ فهي للظرفية؛ ولا غرابة أن تأتي الباء للظرفية كما في قوله تبارك وتعالى: {وإنَّكم لتمرُّون عليهم مصبحين وبالليل} يعني وفي الليل؛ فقوله: {ببدر} أي في بدر؛ وبدر مكان معروف، ولا يزال حتى الآن معروفًا بين مكة والمدينة.

وسبب هذه الغزوة أنَّ النبي ﷺ لمَّا سمع بعير لقريش قدمت من الشام ندب أصحابه إلى الخروج إليها لأخذها؛ لأنَّ قريشًا أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم وأموالهم، وهم حرب على رسول الله ﷺ، فكانت أموالهم حلًّا للرسول ﷺ؛ فندب أصحابه أن يخرجوا إليهم، وخرجوا في عدد قليل وعُدَّة ضعيفة؛ خرجوا نحو ثلاث مائة رجل وبضعة عشر رجلًا على سبعين بعيرًا وفرسين فقط يتعاقبونها؛ ولكن أبا سفيان وهو أمير العير أخذ نحو ساحل البحر لا على الطريق المعروف، وأرسل صارخًا إلى أهل مكة يستنجدهم لحماية عيرهم، ثم لمَّا نجا أرسل إليهم أنَّه نجا ونجت العير، ولكنَّهم كانوا قد تأهَّبوا للخروج لمحاربة النبي ﷺ؛ فخرجوا بكبرائهم وزعمائهم على الوصف الذي ذكر الله عز وجل خرجوا: {بطرًا ورئاء الناس ويصدُّون عن سبيل الله}، وقال لهم الشيطان: {لا غالب لكم اليوم من الناس وإنِّي جارٌ لكم}، ولكنَّه خانهم: {فلمَّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه}؛ خرجوا ما بين ألف وتسعمائة ومعهم النساء لأجل أن يشتدَّ قتالهم خوفًا على نسائهم؛ لأنَّهم خرجوا بالنساء وجعلوهنَّ في الخلف؛ فحصلت المعركة بين النبي ﷺ وبين هؤلاء المشركين، وكان النبي ﷺ وأصحابه في قلَّة عَدد وعُدد؛ ولكنَّ الله سبحانه وتعالى نصرهم؛ ولهذا قال: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلَّة}، {أذلَّة}: جمع ذليل كأعزَّة جمع عزيز.

أذلَّة من ناحية العَدد ومن ناحية العُدد؛ فثلاث مائة وبضعة عشر رجلًا بالنسبة لتسع مائة إلى ألف يعني أقلَّ من الثُّلث؛ والذي معهم من العُدَّة ليس بشيء، سبعون بعيرًا وفرسان؛ ولكنَّ الله نصرهم سبحانه وتعالى.

قال السعدي: وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلَّة في قلَّة عددهم وعُددهم مع كثرة عدد عدوِّهم وعُددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلَّا سبعون بعيرًا وفرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهَّزوا من مكة لفكاك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدَّة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له: (بدر) بين مكة والمدينة فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصرًا عظيمًا، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلًا من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتووا على معسكرهم ستأتي – إن شاء الله – القصة في سورة الأنفال، فإنَّ ذلك موضعها، ولكنَّ الله تعالى هنا أتى بها ليتذكَّر بها المؤمنون ليتَّقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال: {فاتَّقوا الله لعلَّكم تشكرون}، لأنَّ من اتَّقى ربه فقد شكره، ومن ترك التَّقوى فلم يشكره.

قال ابن العثيمين: {فاتَّقوا الله لعلَّكم تشكرون}: الفاء هذه للتَّفريع، يعني لهذا النصر الذي نصركم الله يجب عليكم أن تتَّقوا الله، وألَّا تجعلوا النصر سببًا للأشر والبطر كما يفعله من ليس عنده إيمان؛ إذا انتصر على عدوِّه جعل هذا سببًا للأشر والبطر؛ ودخل البلد وهو يغني ويطرب، كما ذكر عن بعض مذيعي العرب أيَّام حربهم مع اليهود يقول: غدًا تغني أم كلثوم في تل أبيب؛ سبحان الله هذا جزاء النعمة؟ أمَّا الرسول ﷺ فإنَّه دخل مكة عام الفتح وهو من أعظم الانتصارات مطأطِئًا رأسه خاضعًا لله سبحانه وتعالى؛ وهكذا ينبغي، أنَّ الإنسان إذا انتصر أن لا يجعل هذا الانتصار سببًا للأشر والبطر؛ بل يجعله من نعمة الله سبحانه وتعالى ويتَّقي الله؛ ولهذا قال: {فاتَّقوا الله}.

وقوله: {فاتَّقوا الله}: {التَّقوى} اتِّخاذ الوقاية من عذاب الله؛ بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لأنَّك إذا فعلت الأوامر وتركت النواهي فقد أخذت بالوقاية من عذاب الله سبحانه وتعالى.

{لعلَّكم تشكرون}: {لعلَّ} هنا للتعليل، أي لأجل أن تنالوا شكر الله؛ فالتَّقوى في الحقيقة شكر لله عز وجل، أي من أجل أن تنالوا درجة الشاكرين؛ وشكر النعمة يكون بالقلب واللِّسان والجوارح؛ أمَّا شكر القلب فأن تعتقد بأنَّ هذه النِّعم من الله فضلًا منه ونعمة، وأنَّه ليس لك منها إلَّا فعل السبب الذي أذن لك فيه؛ وأمَّا حقيقتها فهي من الله تؤمن بذلك، ولا تكن كما قال القائل: {إنَّما أوتيته على علم عندي} بل قل: أوتيته بفضل الله ورحمته حتى وإن كان من عملك؛ أمَّا إذا كان من فعل الله فهذا واضح أنَّ كلَّ إنسانٍ ينسبه إلى الله؛ ومع ذلك من الناس من لا ينسب ما كان من فعل الله إلى الله، إذا حصل المطر قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ إذًا لابدَّ أن تعتقد في قلبك أنَّ النعمة من الله؛ وأنَّ ما يحصل منك في جلب هذه النعمة ما هو إلَّا سبب مأذون فيه من الله عز وجل.

ثانيًا: اللِّسان، أن تثني بها على الله، لا أن تقولها فخرًا على عباد الله؛ بل تثني فتقول: الحمد لله الذي أعطاني كذا وكذا؛ لقول الله تعالى: {وأمَّا بنعمة ربك فحدِّث}.

ثالثًا: أن تعمل بجوارحك بطاعة الله ولاسيَّما فيما يتعلَّق بهذه النعمة بخصوصه؛ فليس من الشكر إذا رزقك الله مالًا أن تشتري به دخانًا تشربه؛ لأنَّ هذا استعانة بنعمة الله على معصية الله؛ أو أن تشتري به آلة لهو تتلهَّى بها؛ فإنَّ هذا ليس من الشكر؛ بل من الشكر أن تجعل النِّعمة معينة لك على طاعة الله وقد قال أحد الشعراء:

أفادتكم النَّعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

يدي: هذه الجوارح، ولساني: القول، الثناء على الله بالنِّعمة، والضمير المحجبا: الاعتقاد.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- امتنان الله سبحانه وتعالى على رسول الله ﷺ وأصحابه بنصرهم في بدر؛ والنصر لهم نصر للأمَّة إلى يوم القيامة.

٢- أنَّ الإنسان بغير نصر الله لا يستطيع أن ينتصر؛ لأنَّه إذا كان جند الله الذين هم أعظم جند كان على وجه الأرض وهم رسول الله ﷺ ومن معه لم ينتصروا بأنفسهم وإنَّما انتصروا بنصر الله، فمن سواهم من باب أَولى.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّنا لا نعلِّق النصر إلَّا بالله سبحانه وتعالى، لا نعلِّق النصر بقوَّتنا، ولا بقوة مساندة لنا، وإنَّما نعلِّق النصر بالله وحده، ونجعل هذه الأشياء الماديَّة التي يكون بها النصر نجعلها أسبابًا قد تتخلَّف عنها مسبباتها؛ لأنَّ النصر يكون من عند الله وحده.

٣- أنَّه كلَّما كان الإنسان أذلَّ لله كان أقرب إلى نصر الله؛ وكلَّما كان الإنسان مستغنيًا عن الله كان أبعد عن النصر؛ لقوله: {وأنتم أذلَّة}، والإنسان إذا رأى من نفسه العزَّة وعلا وشمخ فإنَّه يخذل، قال الله تعالى: {كلا إنَّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى}.

٤- أنَّ النصر لا يكون بكثرة العدد ولا بقوة العُدد؛ بل هو من عند الله سبحانه وتعالى؛ لكن كثرة العدد وقوة العُدد ممَّا أمرنا الله به وجعله سببًا للنصر، كما قال الله تعالى: {وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم}: أي من ورائهم، {لا تعلمونهم الله يعلمهم}، ولهذا يجب على ولاة الأمَّة الإسلامية أن يعدوا أعظم سلاح يفتك بالأعداء من أجل إذا احتاجوا إليه يستطيعون مهاجمة العدو أو المدافعة إذا اعتدى عليهم أحد؛ وأمَّا الأسلحة التقليدية التي تعتبر في وقتنا الحاضر مثل الحمير بالنسبة للخيل في الوقت السابق؛ فهذه لا تكفي، إلَّا إذا كان الإنسان لا يستطيع فإنَّه معذور؛ لكن إذا كان يستطيع فالواجب أن يجهز نفسه بكلِّ ما يستطيع من قوَّة؛ لأنَّ أعداء الإسلام يتربَّصون به الدوائر، ويريدون أن يقضوا على المسلمين بكلِّ وسيلة؛ فإذا لم يكن عندنا سلاح نكبتهم به ونخزيهم به ونذلَّهم به فإنَّنا لم نقم بما أوجب الله علينا: {وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة}.

٥- أن منْ منَّ الله عليه بنعمة كان ذلك موجبًا لتقوى الله؛ فالنصر سبب للتَّقوى والذلُّ لله والخضوع له والانطراح بين يديه كما فعل النبي ﷺ حين فتح مكة دخل مطأطئًا رأسه يتلوا كتاب الله عز وجل، خلافًا لما يفعله الناس اليوم أو بعض الناس، إذا انتصر جعل هذا النصر سببًا للأشر والبطر والملاهي والأغاني وغير ذلك من المعاصي؛ بل قد يكون بعد النصر أكثر منه فسوقًا ممَّا قبل الحرب؛ وهذا خلاف ما أمر الله به؛ لأنَّه قال: {ولقد نصركم الله}، {فاتَّقوا الله} فأمر بالتَّقوى بعد النصر لئلَّا يشمخ الإنسان بأنفه ،ويتطاول على ربه بانتصاره فيعود إلى ما كان عليه من الفرح والبطر والأشر.

٦- أنَّ تقوى الله من شكر الله؛ لقوله تعالى: {لعلَّكم تشكرون} وهذا أمر لاشكَّ فيه أنَّ التَّقوى من الشكر، بل هي الشكر حقيقةً؛ لأنَّ التَّقوى هي اتِّخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والشكر هو القيام بطاعة المنعِم بالقلب واللِّسان والجوارح.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ {١٢٤}

قال ابن العثيمين: أوّلًا: في هذه الآية قوله: {منزلين} فيها قراءة سبعية: {منزَّلين} بتشديد الزاي؛ يقول: {إذ تقول للمؤمنين} الخطاب للنبي ﷺ؛ وهذا من الخطابات التي تختصُّ برسول الله ﷺ؛ وقد مرَّ علينا أنَّ الخطابات الموجَّهة للرسول ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الأوَّل: ما دلَّ الدليل على أنَّه خاص به؛ والثاني: ما دلَّ الدليل على أنَّه عامٌّ للأمَّة؛ والثالث: ما لم يدلُّ عليه الدليل لا هذا ولا هذا؛ فما دلَّ الدليل على أنَّه خاصٌّ به فهو خاصٌّ به مثل هذه الآية: {إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم}، {وإذ تقول للَّذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه}، هذا خاص؛ {ألم نشرح لك صدرك}، هذا خاص؛ {يا أيُّها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك}، هذا أيضًا خاص، وإن كان الأمَّة يشملها يجب عليها التبليغ من جهة أخرى؛ الثاني: ما دلَّ الدليل فيه على العموم كقوله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهنَّ لعدَّتهن}، هذا واضح أنَّه عام لأنَّه قال: {يا أيُّها النبي إذا طلقتم النساء}، فوجَّه الخطاب أوَّلًا للنبي ﷺ ثمَّ عمَّم في الحكم فقال: {إذا طلقتم}؛ الثالث: ما لم يدلُّ الدليل عليه لا هذا ولا هذا فهو عام بلا شك، حكمه عام، لكن هل الخطاب عام من حيث اللَّفظ أو لا؟ الذي يظهر أنَّه عام حتى من حيث اللَّفظ؛ وذلك لأنَّ الخطاب للإمام خطاب لمن تبعه؛ ولهذا لو قال الوزير مثلًا للقائد: اذهب إلى الجهة الفلانية؛ كان ذلك الخطاب له ولمن كان تحت إمرته؛ كذلك الخطاب إذا وجِّه للرسول ﷺ ولم يدلُّ الدليل على أنَّه خاصٌّ به فهو شامل له وللأمَّة جميعًا؛ وقال بعض العلماء إنَّه لا يشمل الأمَّة وأنَّ الخطاب له وحده ولكن على الأمَّة الاتِّباع؛ وأنتم إذا تأمَّلتم وجدتم أنَّ الخلاف قريب من اللَّفظ، لأنَّهم متَّفقون على أنَّ الحكم عام، لكن هل الأمَّة تدخل في ضمنها للخطاب أو تدخل بخطاب آخر لأنَّها مأمورة بالإتِّباع؛ هذا محل الخلاف، والحقيقة أنَّك إذا تأمَّلته وجدت أنَّه قريب من الخلاف اللَّفظي.

قوله: {إذ} هذه ظرف، والقاعدة في اللغة العربية أن الظرف والجار والمجرور لابدَّ له من متعلّق؛ وذلك لأنَّ الظرف والجار والمجرور يقعان موقع المفعول به، وما كان واقعًا موقع المفعول به فلابدَّ له من عامل يكون واقعًا عليه؛ وقوله: {إذ تقول}، إذا قلنا إنَّها تحتاج إلى متعلّق، فأين متعلّقها؟ قيل: إنَّ متعلّقها قوله: {ولقد نصركم الله ببدر}؛ نصركم إذ تقول للمؤمنين؛ ولكن هذا قول ضعيف؛ والقول الثاني: أنَّه بدل من قوله: {وإذ غدوت من أهلك تبوِّء المؤمنين مقاعد للقتال}، التقدير: وإذ غدوت إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم؛ وهذا أقرب، ثمَّ إنَّ قوله: {إذ تقول للمؤمنين}، الخطاب فيه للنبي ﷺ؛ وهذا من الخطاب الخاص به الذي لا يتعدَّى إلى الأمَّة؛ وقوله: {للمؤمنين}: يعني بهم الصحابة رضي الله عنهم، ووصفهم بالإيمان دون الصحبة لأنَّه هو مناط النصر في كلِّ وقت حتى فيما بعد الصحابة فإنَّ الله ينصر الذين آمنوا.

{ألن يكفيكم}: هذه مقول القول، أي: إذ تقول لهم هذا الكلام: {ألن يكفيكم أن يمدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين}، قال أهل العلم: إنَّ الصحابة رضي الله عنهم بلغهم أنَّ المشركين صار بعضهم يمدُّ بعضًا على قتال النبي ﷺ وأصحابه؛ فقال لهم الرسول ﷺ: ألن يكفيكم، أي: يكون كافيًا لكم هذا الأمر أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة

منزلين؛ {بثلاثة آلاف من الملائكة}، الملائكة هم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، ووجه لهم عبادات وأعمالًا يقومون بها لا يعصون الله فيها ويفعلون ما يؤمرون؛ فليس عندهم استكبار تكون به المعصية، وليس عندهم عجز يكون به تخلُّف الفعل؛ بل هم سامعون مطيعون قادرون على تنفيذ أمر الله، بخلاف البشر فإنَّه يكون عندهم استكبار فيعصون الله، ويكون عندهم عجز فلا يقدرون على تنفيذ أمر الله؛ أمَّا الملائكة فعندهم قوة لا يعجزون عن امتثال أمر الله وعندهم انقياد تام فلا يعصون الله سبحانه وتعالى.

وقوله: {منزلين}: منزلين من السماء؛ لأنَّ الأصل أنَّ مكان الملائكة السماء؛ ولكن هناك ملائكة يكونون مع الإنسان كالكرام الكاتبين والحفظة الذين يتعاقبون على الإنسان ملائكة بالليل وملائكة بالنهار؛ وإلَّا فالأصل أنَّهم في السماء.

وقوله: {منزلين} فيها قراءتان: {منزلين} و{منزَّلين} فعلى قراءة التخفيف تكون من أنزل؛ وعلى قراءة التشديد تكون من نزل؛ والمعنى واحد؛ والذي ينزلهم هو الله سبحانه وتعالى لأنَّهم ينزلون بأمره.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- ما كان عليه النبي ﷺ في معاملة أصحابه من إدخال الأمل في قلوبهم عند اشتداد الأزمات؛ وهذه هي الطريقة السليمة؛ لأنَّك إذا أدخلت الأمل على الناس نشطوا ونسوا ما هم فيه من الهم والغم؛ أمَّا بعض الناس فيكون على العكس، تجده يدخل على الناس باب التشاؤم والمروعات والمخيفات، وكلَّما قلنا انتهت هذه المروعات جاءنا ما هو أشدُّ ترويعًا؛ هذا لاشك إنَّه خلاف السياسة الشرعية؛ بل هو خلاف العقل؛ الشيء الذي تدعوا الضرورة إليه ممَّا يروِّع هذا لابدَّ منه، أمَّا الذي لا تدعوا الحاجة إليه أو الضرورة فافتح للناس باب الأمل.

٢- إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: {أن يمدَّكم ربكم}، والربوبية نوعان: عامة وخاصة؛ ففي قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين} هذه عامَّة؛ وفي قوله: {ربكم} هنا خاصَّة؛ وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة فرعون الذين منَّ الله عليهم بالإيمان: {قالوا آمنَّا برب العالمين رب موسى وهارون}؛ الأولى عامَّة والثانية خاصَّة. والربوبية الخاصة تقتضي مع المعنى العام وهو التَّدبير والملك والتَّثبيت والإعانة والكفُّ عن الشرور وما أشبه ذلك لأنَّها خاصة.

٣- أنَّ الملائكة أجسام يحصون بالعدد؛ لقوله: {بثلاثة آلاف من الملائكة}.

٤- أنَّ موطن الملائكة هو السماء، هذا هو الأصل؛ لقوله: {منزلين} لأنَّ النزول إنَّما يكون من أعلى إلى أسفل؛ فإذا كان الملائكة هؤلاء منزلين دلَّ على أنَّ مكانهم في السماء هذا هو الأصل، لكن ينزلون الأرض كثيرًا حسب أمر الله سبحانه وتعالى.

٥- أنَّ الملائكة لم تقاتل بلا شك؛ ولكن هل أمدُّوا؟ ذكرنا أنَّ المسألة فيها قولان للعلماء؛ إن كان في بدر فقد أمدُّوا، وإن كان في أحد فإنَّهم لم يمدُّوا لأنَّ ذلك شرط بالصبر والتَّقوى.

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ {١٢٥}

قال ابن العثيمين: {بلى}: هذه للإثبات أو لتقرير الاستفهام، {ألن يكفيكم}، {بلى}: يعني يكفيكم. {أن يمدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين} يقول: {بلى}: يعني يكفيكم هذا الإمداد لكن بشرط إن تصبروا وتتَّقوا ويأتيكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بأكثر ممَّا قلت لهم؛ فالنبي ﷺ قال: ألن يكفيكم أن يمدَّكم بثلاثة آلاف؛ لكن إن صبرتم واتَّقيتم أمدَّكم الله بأكثر؛ ولهذا قال: {يمددكم ربكم بخمسة آلاف}؛ فهاهنا شيئان: ثلاثة آلاف من الملائكة هذا وعد به الرسول ﷺ؛ وخمسة آلاف من الملائكة زائد على الثلاثة هذا تكفَّل الله به لكن بشرط الصبر والتَّقوى.

وقوله: {ويأتوكم من فورهم هذا}: أي يأتوكم من الجهة التي جاؤوكم منها في وقت المبادرة؛ لأنَّ الفور معناه المبادرة بالشيء؛ فالمعنى أنَّهم إذا باغتوكم وأتوكم من فورهم فإنَّه يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين؛ فالشروط إذًا ثلاثة؛ الصبر؛ الثاني: التَّقوى؛ والثالث: أن يأتوهم من فورهم هذا؛ فإنَّ الله يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة ليسوا منزلين فقط بل مسوِّمين، أي معلِّمين علم الجهاد وعلم القتال؛ وهذا أبلغ من مجرَّد الإنزال؛ فالله سبحانه وتعالى تكفَّل بالزيادة وهذا يعود إلى الكميَّة، وتكفَّل بالقوة والشجاعة وهذا يعود إلى الكيفية.

وقوله: {مسوِّمين}: أي معلِّمين بعلامات القتال؛ لأنَّ العادة أنَّ الشجعان يجعلون لهم علامات فوق لأْمة الحرب حتى يعرف بها الشجاع من غيره. وقوله: {مسوِّمين} فيها قراءة سبعية أيضًا: {مسوَّمين} بالبناء للمجهول.

هذا الإمداد اختلف أهل العلم فيها هل هذا في بدر أو في أحد؟ فإن كان في بدر ففيه إشكال، حيث إنَّ الله تعالى ذكر أنَّ الله تعالى أمدَّهم في بدر بألف من الملائكة فقال: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين}، وهنا قال: ثلاثة آلاف، وخمسة آلاف؛ لكن جمعوا بينهما بأنَّه لا مانع أنَّ الله استجاب لهم فأمدَّهم بألف من الملائكة ثم زيد فيهم إلا ثلاثة آلاف، ثم زيد فيهم إلَّا خمسة آلاف إذا تمَّت الشروط؛ وبناءً على هذا القول يكون قوله: {إذ تقول}، متعلِّق بنصر.

والقول الثاني: أنَّ هذه الآية في أحد وليست في بدر؛ لأنَّ الذي في بدر كان الأمر فيها غير مشروط: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي ممدُّكم بألف من الملائكة مردفين}، وهذه مشروطة، ولم يحصل الشرط فلم يحصل المشروط، أي: أنَّ المسلمين في غزوة أحد لم يحصل منهم الشرط الذي اشترطه الله وهي التَّقوى والصبر؛ وذلك لأنَّهم حصل منهم تنازع وفشل ومعصية فلم يكونوا على الحال التي يستحقُّون بها ما شرط الله لهم؛ وهذا القول أصحُّ وأقرب؛ أن يكون المراد بذلك غزوة أحد، وأنَّه لم يحصل الإمداد، لأنَّ الإمداد كان مشروطًا بشرط لم يتحقَّق؛ وعلى هذا فلا يبقى إشكال بين الآيتين؛ لأنَّ

كلَّ آية نزلت في غزوة؛ ثم إنَّه يجب أن نعلم أنَّ الذي وعدهم به الرسول ﷺ غير الذي وعدهم الله به؛ فليس الكلام من متكلِّم واحد، بل من النبي ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى؛ فالرسول قال: {ألن يكفيكم أن يمدَّكم}، والله قال: {بلى إن تصبروا وتتَّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٥ص٣٧: قَالَ سُبْحَانَهُ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}[الأنفال: ٩، ١٠]، فَوَعَدَهُمْ بِالْإِمْدَادِ بِأَلْفٍ وَعْدًا مُطْلَقًا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ إمْدَادَ الْأَلْفِ بُشْرَى وَلَمْ يُقَيِّدْهُ، وَقَالَ فِي قِصَّةِ أُحُدٍ: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}، فَإِنَّ هَذَا أَظُنُّ فِيهِ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِأُحُدٍ؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الْآيَةُ. وَلِأَنَّهُ وَعْدٌ مُقَيَّدٌ، وَقَوْلُهُ فِيهِ: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ}، يَقْتَضِي خُصُوصَ الْبُشْرَى بِهِمْ.

وَأَمَّا قِصَّةُ بَدْرٍ، فَإِنَّ الْبُشْرَى بِهَا عَامَّةٌ، فَيَكُونُ هَذَا كَالدَّلِيلِ عَلَى مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ أَلْفَ بَدْرٍ بَاقِيَةٌ فِي الْأُمَّةِ، فَإِنَّهُ أَطْلَقَ الْإِمْدَادَ وَالْبُشْرَى وَقَدَّمَ {بِهِ} عَلَى {لَكُمْ} عِنَايَةً بِالْأَلْفِ، وَفِي أُحُدٍ كَانَتْ الْعِنَايَةُ بِهِمْ لَوْ صَبَرُوا فَلَمْ يُوجَدْ الشَّرْطُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١– أنَّ الصبر والتَّقوى سببان للنصر؛ لقوله: {إن تصبروا وتتَّقوا}: أي تصبروا على الأوامر وتتَّقوا المحارم وقد سبق تفسيرها.

٢– أنَّ الله سبحانه وتعالى زادهم على ما بشَّرهم به الرسول ﷺ زادهم ألفينَّ إذا صبروا واتَّقوا.

٣– أنَّ هؤلاء لو صبروا واتَّقوا يمدون بالملائكة الذين هم مسوِّمين أو مسوَّمين على قراءتين؛ فمسوَّمين، أي قد جعل فيهم علامة تختصُّ بهم كما سبق؛ علامة جعل لهم من الخيول على حسب ما جاءت به الروايات.

٤– أنَّ من نعمة الله على العبد أن يكون الذي يتولَّاه الملائكة، لأنَّ الملائكة تثبت على الخير بخلاف الشياطين فإنَّها تثبت على الشر. ويتفرَّع على هذه الفائدة أنَّه إذا امتنعت الملائكة عن بيت فإنَّه نوع من العقوبة، كما في قوله ﷺ: إنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {١٢٦}

قال ابن العثيمين: {وما جعله الله إلَّا بشرى لكم}: فالضمير {جعله} قيل: إنَّه يعود إلى {الإمداد}؛ أو إلى الوعد به بالشروط الثلاثة؛ وقيل: إنَّه يعود إلى قول الرسول ﷺ: {إذ تقول للمؤمنين}: يعني أنَّ الله لم يجعل قول الرسول ﷺ إلَّا بشرى لكم؛ والبشرى هي الخبر بما يسر؛ وهذه لاشكَّ أنَّها بشرى، إذ أنَّ المقاتل إذا علم أنَّ الله سبحانه وتعالى سيمدُّه بالملائكة فإنَّه سوف ينشط، ويقوى ويؤمن بالنصر، بخلاف ما إذا كان لم يحصل له هذا الشيء.

قال: {ولتطمئن قلوبكم به}: الاطمئنان معناه الاستقرار وعدم القلق؛ ولاشكَّ أنَّ طمأنينة القلب فيها راحة للنَّفس، وفيها فتح للتَّفاؤل والأمل، وفيها ثبات على الأمر بخلاف الإنسان الذي لم يطمئن قلبه فتجده دائمًا في قلق وضيق؛ أمَّا إذا اطمئنَّ قلبه فإنَّ ذلك ممَّا يعينه على التَّحمُّل والثبات والصبر؛ ولهذا قال: {ولتطمئنَّ قلوبكم به}.

في آية الأنفال يختلف السياق، هناك قال: {وما جعله الله إلَّا بشرى ولتطمئنَّ به قلوبكم}، وحذف قوله: {لكم}؛ وقدَّم الجار والمجرور على الفاعل، {ولتطمئنَّ به قلوبكم} في سورة الأنفال؛ أمَّا هنا {ولتطمئنَّ قلوبكم به}، وهذا ممَّا يؤيِّد أنَّ الآيتين ليستا في غزوة بدر؛ بل آية الأنفال في عزوة بدر، وهذه في غزوة أحد، ولم يحصل الإمداد لتخلُّف الشرط.

قال أبو زهرة: ولقد يقول قائل: كيف تكون البشرى مع أنَّ النتيجة لم تكن نصرًا، والبشرى يكون فيها الفوز ولا فوز هنا، والله سبحانه وتعالى لَا يتخلَّف قوله ولا وعده؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إنَّ تلك البشارة مقرونة بشرطها من جانبهم وهي أن يتَّقوا ويصبروا، وما صبروا أو على الأقل ما صبر الرُّماة منهم لأنَّهم ما ضبطوا أنفسهم، بل خالفوا نهى النبي ﷺ، واتَّبعوا هواهم فكان ما كان، وفوق ذلك فإنَّ البشرى قد تحقَّقت في أنَّ الله تعالى ألقى في قلوب المشركين الرُّعب عندما تلاوموا فيما بينهم بعد أن أصابوا من المؤمنين قرحًا، وقال قائلهم: (لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم وحدهم وقد بقي منهم رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم)، وما زالوا حتى أجمعوا الكرَّة على المؤمنين ولكنَّ الله تعالى أركسهم وخذلهم، وألقى في قلوبهم الرُّعب فرضوا من الغنيمة بالإياب.

قال ابن العثيمين: {وما النصر إلَّا من عند الله}: يعني حتى لو أمددتم بالملائكة الثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف فليس النصر بهم ولكنَّ النصر من عند الله وهو الذي يهيِّئ أسباب النصر؛ فلا تعتمد على غير الله سبحانه وتعالى ممَّا جعله الله سببًا في النصر.

قال السعدي: فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأمَّا النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنَّه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلِّين ليبيِّن لعباده أنَّ الأمر كلَّه بيديه، ومرجع الأمور إليه.

قال ابن العثيمين: {العزيز الحكيم}، {العزيز[١]}: يعني ذو العزَّة، وعزَّة الله سبحانه وتعالى ثلاثة أنواع: عزَّة القدر، وعزَّة القهر، وعزَّة الامتناع؛ عزَّة القدر: يعني الشرف والسيادة والفضل، مثل أن تقول: هذا الشيء عزيز وجوده يعني أنَّه منفرد بالصفات الكاملة عن غيره؛ عزَّة القهر يعني الغلبة، يعني أنَّه غالب ومنه قوله تعالى: {فقال أكفلنيها وعزَّني في الخطاب}: أي غلبني فيه؛ فالله سبحانه وتعالى له الغلبة، كما قال تعالى عن المنافقين: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ}، فسلَّم الله لهم ذلك أنَّ الأعزَّ يخرج الأذلُّ؛ ولكن لمن العزَّة؟ {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون}. إذًا عزَّة القهر يعني الغلبة، أنَّه غالب لكلِّ شيء؛ ومن الشعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

الثالث: عزَّة الامتناع يعني أنَّه يمتنع أن يناله السوء سبحانه وتعالى أو النقص؛ وهو مأخوذ من قولهم: أرض عزاز يعني صلبة قوية لا تؤثِّر فيها المعاول؛ فصارت العزَّة التي يتَّصف الله بها ثلاثة أنواع.

وأمَّا قوله: {الحكيم[٢]}: فالحكيم مأخوذة من الحكم والإحكام؛ فالحكم يعني القضاء؛ والإحكام يعني الإتقان؛ ونحن نعلم أنَّ حكم الله ينقسم إلى قسمين: حكم كوني لا يتخلَّف المحكوم فيه؛ وحكم شرعي قد يتخلَّف؛ فالحكم الكوني لا يتخلَّف أبدًا؛ ومنه قوله تعالى: {فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي}: يعني حكمًا كونيًّا؛ وأمَّا الحكم الشرعي فمثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: {ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم} ومنه قوله: {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}. فإذًا الحكم ينقسم إلى قسمين: كوني؛ وشرعي؛ ثم إنَّ في كلٍّ منهما حكمة، يعني ما من حكم كوني أو شرعي إلَّا وهو مقترن بالحكمة؛ لأنَّنا قلنا إنَّها مأخوذ من الحكم والإحكام؛ فالحكم الكوني لابدَّ أن يكون له حكمة؛ والحكم الشرعي لابدَّ أن يكون له حكمة؛ ثم الحكمة قد يكون المراد بها أنَّ وقوع الشيء على هذا الوجه حكمة، والغاية منه حكمة أيضًا، فتكون الحكمة في صورة الشيء، والحكمة الثانية في الغاية منه؛ فكون الصلوات على هذا الوجه هذا حكمة تتعلَّق بصورة العمل، والغاية منها حكمة تتعلَّق بالمراد من هذا العمل؛ فإذا قلنا الآن الحكمة إمَّا في الحكم الكوني أو الحكم الشرعي، وإمَّا أن تكون في صورة الشيء أو في غايته؛ صار عندنا أقسامًا كثيرة، وكلُّها داخلة في قوله تعالى: {الحكيم}.

وربط العزَّة بالحكمة يفيد معنًى ثالثًا غير المعنى المستفاد من العزَّة على انفراد أو الحكمة على انفراد؛ وذلك لأنَّ العزيز قد تغلبه العزَّة حتى يتصرَّف تصرُّف الطَّيش والسَّفه، كما قال الله تعالى: {وإذا قيل له اتَّق الله أخذته العزَّة بالإثم}، لكن عزَّة الله عز وجل لا تخرج عن الحكمة مع أنَّ له العزَّة المطلقة فإنَّ هذه العزَّة لا تخرج عن الحكمة، لن يفعل شيئًا على وجه السَّفه إنَّما يفعله على وجه الحكمة.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {العزيز} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الحكيم} مفصلًا عند تفسير الآية (٣٢) من سورة البقرة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ هذا الوعد من الله بشرى أو من الرسول على خلاف بين العلماء؛ والخلاف في هذا بسيط، الخطب يسير سواء كان ما جعله، أي: قول الرسول أو ما جعله، أي: قول الله لهم: {إلَّا بشرى}.

٢- أنَّ إمداد الشخص بما يعينه سبب لسروره وبشارته؛ لقوله: {وما جعله الله إلَّا بشرى}، وسبب لطمأنينة قلبه وثبوته وسكونه؛ لقوله: {ولتطمئنَّ به قلوبكم}.

٣- أنَّه مهما عظمت الأسباب إذا لم يؤيِّد الله الإنسان بنصرٍ فإنَّه لن ينتصر؛ لقوله بعد ذكر هذا الإمداد: {وما النصر إلَّا من عند الله}.

٤- أنَّه يجب على المرء مع فعل السبب أن يعتمد على ربه، وأن يؤمِّل النصر منه سبحانه وتعالى.

٥- أنَّ النصر من مقتضى اسمه العزيز الحكيم.

٦- أنَّ الله لن ينصر إلَّا من اقتضت الحكمة نصره؛ لقوله: {العزيز الحكيم}؛ ولا يرد على هذا أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل للمشركين نصرًا في غزوة أحد؛ لأنَّنا نقول هذا النصر فيه فائدة عظيمة للمسلمين؛ فهو حكمة، انتصار المشركين في أحد لا شكَّ أنَّه حكمة تترتَّب عليه فوائد عظيمة تذكر إن شاء الله في الآيات.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ {١٢٧}

قال ابن العثيمين: {ليقطع طرفًا من الذين كفروا }: اللام هنا للتعليل؛ والفاعل في قوله: {يقطع} يعود إلى الله سبحانه وتعالى؛ والمراد بالقطع هنا الإهلاك، أي: (ليهلك طرفًا)؛ والجار والمجرور: اللام هذه متعلِّقة إمَّا بقوله: {ولقد نصركم الله ببدر} ولكن هذا ضعيف لأنَّه بعيد، يعني أنَّه جاءت آيات كثيرة تفصل بين العامل والمعمول، وهذا لا نظير له؛ وإمَّا أن يكون متعلِّقًا بمحذوف تقديره: (فعل ذلك ليقطع طرفًا)؛ وهذا القول أصح؛ فتكون اللام متعلِّقة بفعل محذوف يقدَّر على وجه مناسب.

قوله: {ليقطع طرفا من الذين كفروا}: أي ليهلكهم، ولكن هل هذا فيما إذا انتصروا على المسلمين، أو فيما إذا انتصر المسلمون عليهم؟ أو على الوجهين جميعًا؟ الصواب أنَّه على الوجهين جميعًا؛ لأنَّه إن انتصر المسلمون وهزموهم فقد هلك طرفًا منهم؛ وإن انتصروا هم على المسلمين فإنَّهم سوف يلحقهم الغرور ونشوة النصر ثم يعيدون الكرة مرة ثانية وحينئذ يقضى عليهم؛ فيكون الوجهان حاصلين سواء غَلَبوا أم غُلِبوا.

وقوله: {طرفًا من الذين كفروا}: طرف الشيء هو منتهاه من أسفل أو من أعلى؛ المراد بالطرف هنا الذي يلي المسلمين، وذلك لأنَّ المسلمين مطالبون بقتال من يليهم من الكفار حتى يفتحوا بلاد الكفار بلدًا بلدًا: {يا أيُّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة}، وهذا كما أنَّه سنة الله الشرعية فهو أيضًا موافق للفطرة؛ لأنَّه ليس من الحكمة أن تذهب إلى البعيد تقاتله وتترك القريب؛ إذ أنَّ القريب في هذه الحال ربما يكون كمينًا يعني يحول بينك وبين رجوعك إلى بلدك.

قال أبو زهرة: في هذا النص الكريم بيان لثمرات نصر الله تعالى، وفيه يتبيَّن أنَّ نصر الله لعبادة المؤمنين ينتهي إلى غايات منها: أن يقطع طرفًا من الذين كفروا، وفسَّر العلماء ذلك بأن يقتل فريق منهم ويؤسر فريق، فإنَّ ذلك قطعٌ لهم، وعندي أنَّ قطع طرف من الذين كفروا يتحقَّق بذلك، ويتحقَّق بما هو أقوى منه، وهو أن تنقص عليهم الأرض من أطرافها، ويستولي على جزء من أرضهم، حتى يتحقَّق قوله تعالى: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ .....}.

قال ابن العثيمين: {أو يكبتهم}: يعني يخذلهم ويذلَّهم وإن لم يحصل فيهم قتل؛ {فينقلبوا خائبين}: ينقلبوا إلى بلادهم خائبين، أي: لم يحوزوا خيرًا، وذلك كما حصل في غزوة الأحزاب؛ فإنَّ الأحزاب رجعوا خائبين بدون قتال، كما قال الله تعالى: {وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال}، إذًا لا قتال، ردَّهم الله بالرِّيح والجنود التي لم نرها.

قال أبو زهرة: ومن غايات النصر ونتائجه أن يكبت الله تعالى الذين كفروا بسبب كفرهم، والكبت يطلق بعدَّة معانٍ، فيراد به الرَّد العنيف، ويراد به شدَّة الغيظ، وقيل: إنَّ أصله الكبد، أي إصابة الكبد وتقريحه بالغيظ الشديد، ويطلق ويراد به الخزي، والمعنى أنَّ من غايات نصر الله تعالى للمؤمنين أن يصاب الذين كفروا بالغيظ الشديد والخزي والألم النفسي، حتى يخبو صوت الكفر، ويعلو صوت الإيمان، ويصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعند الناس.

ينقلبون، أي: يعودون خائبين. وفي التَّعبير عن العودة بالانقلاب إشارة إلى أنَّ مقاصدهم قد انقلبت، فقد أرادوا اقتلاع الإسلام فما وهن المسلمون، وأرادوا أن يطفئوا النور فما انطفأ، فالانقلاب عودة من غير تحقُّق المقاصد، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الجراحات التي أصابت المؤمنين لم تكن نصرًا للكافرين، بل قد كانت ثمرة النصر للمؤمنين، إذ قد انقلب الكفار خائبين: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ....}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إثبات الحكمة لله عز وجل في أفعاله وتشريعاته؛ وذلك لأنَّ اللام في قوله: {ليقطع طرفًا} للتعليل، والتعليل هو الحكمة.

٢- أنَّ الله سبحانه وتعالى يسلِّط المؤمنين على الكفار ليقطع طرفًا من الذين كفروا؛ وليس كلُّ الذين كفروا، لأنَّ من حكمة الله أن يبقى الإيمان والكفر متصارعين دائمًا حتى يتبيَّن المؤمن الخالص من غيره.

٣- أنَّ مآل الكفار واحد من هذه الأمور الأربعة؛ يقطع طرفًا منهم وذلك هو إهلاكهم؛ أو يكبتهم وذلك هو خذلانهم؛ أو يتوب عليهم؛ أو يعذِّبهم.

٤- أنَّ الكبت وهو الإذلال والخذلان، هو الخيبة؛ لقوله: {فينقلبوا خائبين}. مثل قصة الأحزاب فإنَّ الله سبحانه وتعالى ردَّهم على أعقابهم خائبين.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ {١٢٨}

قال ابن العثيمين: {ليس لك من الأمر شيء}: قال بعض العلماء إنَّ المعنى: ليس إليك من الأمر شيء، مثل قوله تعالى: {ربنا إنَّنا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان}: يعني ينادي إلى الإيمان؛ ولكن الظاهر أنَّ اللام على بابها ليست بمعنى (إلى)؛ والمعنى (أنَّك لا تملك شيئًا)؛ وليس المعنى أنَّه: (لا يُردُّ إليك شيء)؛ بل المعنى: (أنَّك لا تملك شيئًا)؛ فاللَّام على ما هي عليه.

والخطاب في قوله: {ليس لك من الأمر شيء}: للنبي ﷺ؛ وقوله: {من الأمر}: يعني الأمر الكوني؛ أمَّا الأمر الشرعي فإنَّ للرسول ﷺ منه شيء لقوله تعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله}، أمَّا الأمر الكوني فلا.

قال ابن كثير: وقال البخاري: عن عبدالله ابن عمر: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: ((اللهم العن فلانًا وفلانًا)) بعد ما يقول: ((سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد))، فأنزل الله تعالى: {ليس لك من الأمر شيء} الآية(١).

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، وربما قال: إذا قال: ((سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد: اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)). يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: ((اللهم العن فلانًا وفلانًا)) لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: {ليس لك من الأمر شيء} الآية(٢).

١- صحيح: البخاري (٤٠٦٩).

٢- صحيح: البخاري (٤٥٦٠).

قال ابن العثيمين: وقوله: {أو يتوب عليهم}: قيل: إنَّها معطوفة على {يقطع}، وقيل: إن {أو} بمعنى (إلى)، (إلى أن يتوب عليهم)؛ فعلى القول الأول لا إشكال في الآية ويكون الله عز وجل ذكر عاقبة هؤلاء الكفار أربعة أمور: يقطع طرفًا من الذين كفروا؛ أو يكبتهم؛ أو يتوب عليهم؛ أو يعذِّبهم؛ وهذا الوجه كما ترون وجه حسن ليس فيه إلَّا الجملة المعترضة في قوله: {ليس لك من الأمر شيء} وهذا لا يضر، ففي القرآن جمل معترضة بين أشياء متقاربة في المعنى؛ بل فيه آيات، فمثل قوله تعالى: {حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى وقوموا لله قانتين} ذكرت هذه في أثناء آيات العدد، ولا يظهر للإنسان وجه مناسبة، لكنَّ الله عز وجل أعلم منَّا؛ كذلك أيضًا هنا، نقول: لا يضر أن توجد جملة معترضة مع أنَّنا سنبيِّن إن شاء الله المناسبة فيها؛ أمَّا القول الثاني: الذي يقول {أو} بمعنى (إلى)؛ فيقولون: إن في الآية حذفًا، والتقدير: ليس لك من الأمر شيء فاصبر أو يتوب الله عليهم؛ فيقدرون فعلًا هو: (اصبر)، يعني: (لا تدعو عليهم، اصبر أو يتوب عليهم)؛ وتعلمون أنَّ {أو} تأتي بمعنى: (إلى أن)، وبمعنى: (إلَّا أن)؛ فإذا قال القائل: (لأقتلن الكافر أو يسلم)؛ فهي بمعنى: (إلَّا أن)؛ ولا يصح أن تكون بمعنى: (إلى أن)؛ وإذا قال: {لألزمنَّ الغريم أو يقضيني دَيني)، فهي بمعنى: (إلى أن).

وقوله: {أو يتوب عليهم}: وذلك بهدايتهم للإسلام، لأنَّ الكلام الآن في الكافرين، وتوبة الله على الكافر أن يهديه للإسلام، وتوبته على الفاسق أن يردَّه عن الفسق إلى الطاعة.

وتوبة الله على العبد قسمان: توبة سابقة وتوبة لاحقة؛ وتوبة العبد متوسطة بينهما؛ وهذا مذكور في سورة التوبة، قال الله تعالى: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنَّه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنُّوا أن لا ملجأ من الله إلَّا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا}، {تاب عليهم ليتوبوا} هذه التوبة السابقة، والتوبة السابقة معناها التوفيق للتوبة، والتوبة اللاحقة قبول التوبة؛ وتوبة العبد تكون بينهما؛ {أو يتوب عليهم}: أي ييسِّرهم للإسلام من الكفر.

اذًا القول الراجح في قوله: {ليس لك من الأمر شيء} جملة معترضة، وعلى هذا فيكون قوله: {أو يتوب عليهم} معطوفًا على قوله: {ليقطع}؛ {أو يتوب عليهم}: أي يهيِّئ لهم أسباب التوبة حتى يتوبوا؛ وبيَّنَّا أنَّ لله سبحانه وتعالى على عبده

- (قلت): وورد في سبب نزوله أيضًا في صحيح مسلم (١٧٩١): حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: ((كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟))، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}[آل عمران: ١٢٨].

- وقال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((وشج في رأسه)): أي حصل جرح في رأسه الشريف والجراحة إذا كانت في الوجه أو الرأس تسمَّى شجة، ((يسلت)): أي يمسح.

توبتين: توبة التوفيق؛ وتوبة القبول؛ واستدللنا لذلك بقوله تعالى: {وعلى الثلاثة الذين خلِّفوا} إلى قوله: {ثم تاب الله عليهم ليتوبوا إنَّ الله هو التواب الرحيم}([1]).

{أو يعذبهم}: معطوف أيضًا على {ليقطع}؛ وهذه هي الحال الرابعة: أي يعذِّبهم بعذاب من عنده؛ فهذا كقوله: {قل هل تربَّصون بنا إلَّا إحدى الحسنيين ونحن نتربَّص بكم أن يصيبكم بعذابٍ من عنده أو بأيدينا}: يعني أو يعذِّبهم عذابًا من عنده فيرسل عليهم رجزًا بالمرض والطاعون والزلازل وغير ذلك؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ قدير.

{فإنَّهم ظالمون}: الجملة هذه موقعها ممَّا قبلها أنَّها تعليل لها: يعني أنَّهم يستحقُّون أحد هذه الأمور لأنَّهم ظالمون إلَّا التوبة؛ فإنَّ الله إذا تاب عليهم زال وصفهم بالظلم؛ والأربعة الذين كان الرسول ﷺ يدعو عليهم كلُّهم تاب الله عليهم فأسلموا؛ وفي هذا إشارة كما سبق إلى أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يدعو على شخص مهما بلغ في الكفر والطغيان باللَّعنة، بل لا يجوز أن يدعو عليه باللَّعنة لأنَّ اللَّعنة هي الطَّرد والإبعاد عن رحمة الله؛ ولا يحلُّ لك أن تتحجَّر رحمة الله؛ فقد يمنُّ الله على هذا الكافر المجرم فيتوب، كما أنَّه سبحانه وتعالى قد يمنُّ على الفاسق الذي لم يصل إلى حد الكفر فيستقيم وتصلح حاله.

قال السعدي: أنزل الله تعالى على رسوله نهيًا له عن الدعاء عليهم باللَّعنة والطرد عن رحمة الله {ليس لك من الأمر شيء} إنَّما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنَّما الأمر لله تعالى هو الذي يدبِّر الأمور، ويهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمنُّ عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنَّهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضرّوها وتسبَّبوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية ممَّا يدلُّ على أنَّ اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأنَّ العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئًا وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأنَّ الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أَولى ففيها أعظم رد على من تعلَّق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأنَّ هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كلُّه له، ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرَّة، إنَّ هذا لهو الضلال البعيد، وتأمَّل كيف لمَّا ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سببًا موجبًا لذلك، ليدلَّ ذلك على أنَّ النِّعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولمَّا ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتَّبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال {أو يعذِّبهم فإنَّهم ظالمون} ليدلَّ ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه.

---

[1]- (قلت): قال ابن العثيمين في القول المفيد: {أو يتوب عليهم }: فتاب عليهم، فآمنوا، وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته، فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا، لأن الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذي يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر – رضي الله عنه – قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى، فرسول الله ﷺ ومن دونه لا يستطيعون أن يغيِّروا شيئًا من أمر الله.

قال أبو زهرة: وقوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} تعليل لعذابهم عند إصرارهم، فالسبب في التعذيب بعد هذا الإصرار أنَّهم ظالمون، لأنَّهم اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم عن دينهم الذي ارتضوا، واعتدوا على النبي ﷺ بإيذائه والسخرية منه، واعتدوا مرة ثالثة بقتال المؤمنين، ومحاولة اقتلاع مدينتهم الطاهرة، واعتدوا على الحقائق فموَّهوها وزيَّفوها، واعتدوا على أنفسهم فأضلُّوها وأفسدوها؛ اعتدوا كلَّ هذه الأنواع من الاعتداء فكانوا ظالمين ومستحقِّين للعذاب، وقد أكَّد سبحانه وتعالى وصفهم بالظلم بـ{إنَّ} المؤكِّدة للحكم، وبالجملة الاسمية، وبوصفهم بالظلم كأنَّه شأن من شئونهم وطبيعة في نفوسهم، إذ لم تهدهم إلى الحقِّ الحجج الدَّامغة، ولا الآيات البيِّنة ولا القوَّة الغالبة.

قال القرطبي: زعم بعض الكوفيين أنَّ هذه الآية ناسخة للقنوت الذي كان النبي ﷺ يفعله بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح، واحتج بحديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث أبي هريرة أتمَّ منه. وليس هذا موضع نسخ وإنَّما نبَّه الله تعالى نبيَّه على أنَّ الأمر ليس إليه، وأنَّه لا يعلم من الغيب شيئًا إلَّا ما أعلمه، وأنَّ الأمر كلُّه لله يتوب على من يشاء ويجعل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شيء ولله ما في السموات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء. فلا نسخ، والله أعلم([1]). وبيَّن بقوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} أنَّ الأمور بقضاء الله وقدره ردًّا على القدرية وغيرهم.

قال الشوكاني في نيل الأوطار: (بَابُ الْقُنُوتِ فِي الْمَكْتُوبَةِ عِنْدَ النَّوَازِلِ وَتَرْكِهِ فِي غَيْرِهَا):

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ: ((قُلْت لِأَبِي: يَا أَبَتِ إنَّك قَدْ صَلَّيْت خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ هَاهُنَا بِالْكُوفَةِ قَرِيبًا مِنْ خَمْسِ سِنِينَ أَكَانُوا يَقْنُتُونَ؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ مُحْدَثٌ([2]))، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَاجَهْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: ((أَكَانُوا يَقْنُتُونَ فِي الْفَجْرِ؟([3]))). وَالنَّسَائِيُّ وَلَفْظُهُ قَالَ: ((صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عُثْمَانَ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيٍّ فَلَمْ يَقْنُتْ، ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ بِدْعَةٌ([4]))).

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّافُونَ لِمَشْرُوعِيَّتِهِ هَلْ يُشْرَعُ عِنْدَ النَّوَازِلِ أَمْ لَا؟ وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ. قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ: الْقُنُوتُ فِي الصُّبْحِ مَذْهَبُنَا؛ وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَابْنُ حَزْمٍ: كُلٌّ مِنْ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ حَسَنٌ([5]).

١- (قلت): الكلام على عدم النسخ صحيح؛ فأمَّا إذا كان القصد إطفاء الشرعية على بدعة القنوت في صلاة الصبح فقط دون الصلوات الأربع الأخرى والمداومة عليه بدون أن يكون ثمة نازلة نزلت بالمسلمين؛ فلا؛ لأنَّ هذا القول باطل كما سيأتي في كلام الشوكاني رحمه الله.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٢٩٢).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في الارواء (٤٣٥)

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في سنن النسائي (١٠٨٠). بلفظ: ((يا بني إنها بدعة)).

٥- (قلت): هذا القول ليس صحيحًا لأنَّ الحق واحد لا يتجزَّأ؛ فأمَّا أن يكون فعله دلَّ دليل على مشروعيته فيكون حسنًا، أو يكون منهيًّا عنه أو لم يدل الدليل على فعله فيكون تركه حسنًا وفعله باطلًا وإثمًا لأنَّه بدعة في الدِّين لآنَّ العبادات توقيفية على الدليل، أي عملها موقوفة على ثبوت الدليل وصحته.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ الِاتِّفَاقُ عَلَى تَرْكِ الْقُنُوتِ فِي أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ وَهِيَ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمغْرِبُ وَالْعِشَاءُ وَلَمْ يَبْقَ الْخِلَافُ إِلَّا فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ الْمَكْتُوبَاتِ وَفِي صَلَاةِ الْوِتْرِ مِنْ غَيْرِهَا.

وَأَمَّا الْقُنُوتُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ فَاحْتَجَّ الْمُثْبِتُونَ لَهُ بِحُجَجٍ مِنْهَا حَدِيثُ الْبَرَاءِ وَأَنَسٍ الْآتِيَانِ. وَيُجَابُ أَنَّهُ لَا نِزَاعَ فِي وُقُوعِ الْقُنُوتِ مِنْهُ ﷺ إِنَّمَا النِّزَاعُ فِي اسْتِمْرَارِ مَشْرُوعِيَّتِهِ، فَإِنْ قَالُوا: لَفْظُ ((كَانَ)) يَفْعَلُ يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْمَشْرُوعِيَّةِ، قُلْنَا: قَدْ قَدَّمْنَا عَنْ النَّوَوِيِّ مَا حَكَاهُ عَنْ جُمْهُورِ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ. سَلَّمْنَا فَغَايَتُهُ مُجَرَّدُ الِاسْتِمْرَارِ وَهُوَ لَا يُنَافِي التَّرْكَ آخِرًا كَمَا صَرَّحَتْ بِذَلِكَ الْأَدِلَّةُ الْآتِيَةُ عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ فِيهِمَا أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْفَجْرِ وَالْمَغْرِبِ، فَمَا هُوَ جَوَابُكُمْ؟ عَنْ الْمَغْرِبِ فَهُوَ جَوَابُنَا عَنْ الْفَجْرِ. وَأَيْضًا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: ((أَنَّهُ كَانَ يَقْنُتُ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعِشَاءِ الْآخِرَةِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ(١))، فَمَا هُوَ جَوَابُكُمْ عَنْ مَدْلُولِ لَفْظِ ((كَانَ)) هَهُنَا فَهُوَ جَوَابُنَا.

قَالُوا: أَخْرَجَ الدَّارَ قُطْنِيّ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَأَبُو نُعَيْمٍ وَأَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَنَسٍ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى قَاتِلِي أَصْحَابِهِ بِبِئْرِ مَعُونَةَ ثُمَّ تَرَكَ فَأَمَّا الصُّبْحُ فَلَمْ يَزَلْ يَقْنُتُ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا(٢))، وَأَوَّلُ الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَ قَاطِعًا لِلنِّزَاعِ وَلَكِنَّهُ مِنْ طَرِيقِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ قَالَ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ: لَيْسَ بِالْقَوِيِّ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: إِنَّهُ يَخْلِطُ. وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: يَهِمُ كَثِيرًا. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ الْفَلَّاسُ: صَدُوقٌ سَيِّئُ الْحِفْظِ وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ: ثِقَةٌ وَلَكِنَّهُ يُخْطِئُ. وَقَالَ الدَّوْرِيُّ: ثِقَةٌ وَلَكِنَّهُ يَغْلَطُ وَحَكَى السَّاجِيِّ أَنَّهُ قَالَ: صَدُوقٌ لَيْسَ بِالْمُتْقِنِ وَقَدْ وَثَّقَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَلِحَدِيثِهِ هَذَا شَاهِدٌ وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ وَلَيْسَ بِحُجَّةٍ.

قَالَ الْحَافِظُ: وَيُعَكِّرُ عَلَى هَذَا مَا رَوَاهُ الْخَطِيبُ مِنْ طَرِيقِ قَيْسِ بْنِ الرَّبِيعِ عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قُلْنَا لِأَنَسٍ: إِنَّ قَوْمًا مَا يَزْعُمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَزَلْ يَقْنُتُ فِي الْفَجْرِ، فَقَالَ: كَذَبُوا إِنَّمَا قَنَتَ شَهْرًا وَاحِدًا يَدْعُو عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَيْسٌ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا لَكِنَّهُ لَمْ يُتَّهَمْ بِالْكَذِبِ.

وَرَوَى ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْنُتْ إِلَّا إِذَا دَعَا لِقَوْمٍ أَوْ دَعَا عَلَى قَوْمٍ)) فَاخْتَلَفَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ أَنَسٍ وَاضْطَرَبَتْ، فَلَا يَقُومُ لِمِثْلِ هَذَا حُجَّةٌ انْتَهَى(٣).

١- (قلت): البخاري (٧٩٧)، ومسلم (٦٧٦).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في أصل صفة صلاة النبي ﷺ: (تنبيه): وأما حديث أنس: ((ما زال رسول الله ﷺ يقنت في الفجر حتى فارق الدنيا)). فحديث ضعيف، لا يصح. وإن صححه الحاكم والنووي! فهو ضعيف من قبل أبي جعفر الرازي - راويه - عن الربيع عن أنس. وقد بسط الكلام عليه ابن القيم في الزاد (١/٩٩ - ١٠٠)، والحافظ في التلخيص (٣/٤١٧ - ٤١٨)، وغيرهما.

- (فائدة): قال العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر في تعليقه على الترمذي (٢/٢٥٢): (وقد ترك الناس القنوت في النوازل التي تنزل بالمسلمين، وما أكثرها في هذه العصور في شؤون دينهم ودنياهم! حتى صاروا - من تفرقهم وإعراضهم عن التعاون حتى بالدعاء في الصلوات؛ صاروا - كالغرباء في بلادهم، وصارت الكلمة فيها لغيرهم! والقنوت في النوازل بالدعاء للمسلمين، والدعاء على أعدائهم ثابت عن النبي ﷺ في الصلوات كلها بعد قوله: ((سمع الله لمن حمده)) في الركعة الآخرة).

٣- (قلت): قال الإمام الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٥٧٤): قلت: ويعكر أيضًا على حديث الترجمة وما في معناه: ما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١ / ٢٤٥ / ٦٩٣) من طريق غالب من فرقد الطحان قال: (كنت عند أنس بن مالك شهرين، فلم يقنت في صلاة الغداة). وغالب هذا؛ لم أجد من ترجمه، وكذا قال الهيثمي (٢ / ١٤٧) في حديث آخر له عن أنس.

إِذَا تَقَرَّرَ لَكَ هَذَا عَلِمْت أَنَّ الْحَقَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُنُوتَ مُخْتَصٌّ بِالنَّوَازِلِ وَإِنَّهُ يَنْبَغِي عِنْدَ نُزُولِ النَّازِلَةِ أَنْ لَا تُخَصَّ بِهِ صَلَاةٌ دُونَ صَلَاةٍ. وَقَدْ وَرَدَ مَا دَلَّ عَلَى هَذَا الِاخْتِصَاصِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عِنْدَ ابْنِ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ ابْنِ حِبَّانَ بِلَفْظِ: ((كَانَ لَا يَقْنُتُ إِلَّا أَنْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ)) وَأَصْلُهُ فِي الْبُخَارِيِّ كَمَا سَيَأْتِي، وَسَتَعْرِفُ الْأَدِلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى تَرْكِ مُطْلَقِ الْقُنُوتِ وَمُقَيَّدِهِ وَقَدْ حَاوَلَ جَمَاعَةٌ مِنْ حُذَّاقِ الشَّافِعِيَّةِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ وَأَطَالُوا الِاسْتِدْلَالَ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْقُنُوتِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ فِي غَيْرِ طَائِلٍ.

وَحَاصِلُهُ مَا عَرَّفْنَاك، وَقَدْ طَوَّلَ الْمَبْحَثَ الْحَافِظُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْهَدْيِ وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: الْإِنْصَافُ الَّذِي يَرْتَضِيهِ الْعَالِمُ الْمُنْصِفُ أَنَّهُ ﷺ قَنَتَ وَتَرَكَ وَكَانَ تَرْكُهُ لِلْقُنُوتِ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا قَنَتَ عِنْدَ النَّوَازِلِ لِلدُّعَاءِ لِقَوْمٍ وَلِلدُّعَاءِ عَلَى آخَرِينَ ثُمَّ تَرَكَهُ لَمَّا قَدِمَ مَنْ دَعَا لَهُمْ وَخَلَصُوا مِنْ الْأَسْرِ وَأَسْلَمَ مَنْ دَعَا عَلَيْهِمْ وَجَاءُوا تَائِبِينَ وَكَانَ قُنُوتُهُ لِعَارِضٍ فَلَمَّا زَالَ تَرَكَ الْقُنُوتَ. وَقَالَ فِي غُضُونِ ذَلِكَ الْمَبْحَثِ: إِنَّ أَحَادِيثَ أَنَسٍ كُلَّهَا صِحَاحٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَلَا تَتَنَاقَضُ وَحَمَلَ قَوْلَ أَنَسٍ مَا زَالَ يَقْنُتُ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا إِلَى إِطَالَةِ الْقِيَامِ بَعْدَ الرُّكُوعِ وَقَدْ أَسْلَفْنَا الْأَدِلَّةَ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ فِي (بَابِ الْجِلْسَةِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ)، وَأَجَابَ عَنْ تَخْصِيصِهِ بِالْفَجْرِ بِأَنَّهُ وَقَعَ بِحَسَبِ سُؤَالِ السَّائِلِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا سَأَلَ أَنَسًا عَنْ قُنُوتِ الْفَجْرِ فَأَجَابَهُ عَمَّا سَأَلَهُ عَنْهُ وَبِأَنَّهُ ﷺ كَانَ يُطِيلُ صَلَاةَ الْفَجْرِ دُونَ سَائِرِ الصَّلَوَاتِ قَالَ: وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو رَبَّهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ وَيُمَجِّدُهُ فِي هَذَا الِاعْتِدَالِ، وَهَذَا قُنُوتٌ مِنْهُ بِلَا رَيْبٍ فَنَحْنُ لَا نَشُكُّ وَلَا نَرْتَابُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَقْنُتُ فِي الْفَجْرِ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا، وَلَمَّا صَارَ الْقُنُوتُ فِي لِسَانِ الْفُقَهَاءِ وَأَكْثَرِ النَّاسِ هُوَ هَذَا الدُّعَاءُ الْمَعْرُوفُ: ((اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْت. . . إلَخْ))، وَسَمِعُوا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَقْنُتُ فِي الْفَجْرِ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الصَّحَابَةِ حَمَلُوا الْقُنُوتَ فِي لَفْظِ الصَّحَابَةِ عَلَى الْقُنُوتِ فِي اصْطِلَاحِهِمْ وَنَشَأَ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا مُدَاوِمِينَ عَلَى هَذَا كُلِّ غَدَاةٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي نَازَعَهُمْ فِيهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ وَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ فِعْلِهِ الرَّاتِبِ بَلْ وَلَا يَثْبُتُ عَنْهُ أَنَّهُ فَعَلَهُ، وَغَايَةُ مَا رُوِيَ عَنْهُ فِي هَذَا الْقُنُوتِ أَنَّهُ عَلَّمَهُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ إلَى آخِرِ كَلَامِهِ وَهُوَ عَلَى فَرْضِ صَلَاحِيَّةِ حَدِيثِ أَنَسٍ لِلِاحْتِجَاجِ وَعَدَمِ اخْتِلَافِهِ وَاضْطِرَابِهِ مَحْمَلٌ حَسَنٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ الِاتِّفَاقُ عَلَى عَدَمِ وُجُوبِ الْقُنُوتِ مُطْلَقًا كَمَا صَرَّحَ بِهَذَا صَاحِبُ الْبَحْرِ وَغَيْرُهُ.

وأمّا قول المعلّق على نصب الراية (٢ / ١٣٢): (وقال النيموي: إسناده حسن)! فهو تحسينٌ انتصارًا لمذهبه الحنفي؛ نكاية بمخالفيه الذين انتصروا لمذهبهم الشافعي بتصحيح حديث الترجمة، وهكذا يضيع الحق بسبب التعصب المذهبي؛ والله تعالى هو المحمود على أن عافانا منه، ورزقنا حب السنة ونصرتها، والتعصُّب لها وحدها، فلله الشكر على ما أعطى، وأسأله المزيد من فضله في الآخرة والأولى.

وجملة القول: أن حديث الترجمة منكر لا يصح؛ لأنَّه ليس له طريق تقوم به الحجَّة، بل بعضها أشدُّ ضعفًا من بعض، ثم هو إلى ذلك مخالف لما رواه الثقات عن أنس: ((أنه ﷺ قنت في الصبح شهرًا)). كما تقدَّم. ولفظ ابن خزيمة: ((لم يكن يقنت إلَّا إذا دعا لقوم أو على قوم)). وله عنده في صحيحه (٦١٩) شاهد من حديث أبي هريرة، وإسناد كلٍّ منهما صحيح؛ كما قال الحافظ في الدراية (١ / ١٩٥)، وسبقه إلى ذلك ابن عبد الهادي؛ فقال: في التنقيح: – كما في نصب الراية (٢ / ١٣٣) –: (وسند هذين الحديثين صحيح، وهما نص في أن القنوت مختص بالنازلة): وهو الذي نصره ابن القيم في (زاد المعاد) بأسلوب رائع وتحقيق متين. فليراجع من شاء المزيد من العلم، وهو الذي انتهى إليه الحافظ ابن حجر الشافعي – وهو من إنصافه وتنزيهه عن التقليد –؛ فقال في الراية: (ويؤخذ من جميع الأخبار أنه ﷺ كان لا يقنت إلَّا في النوازل، وقد جاء ذلك صريحًا؛ فعند ابن حبان عن أبي هريرة. . .) . فذكر حديثه وحديث أنس المذكورين آنفًا.

وَعَنْ أَنَسٍ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَنَتَ شَهْرًا ثُمَّ تَرَكَهُ[١])). رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي لَفْظٍ: ((قَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى حَيٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ثُمَّ تَرَكَهُ[٢])). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَفِي لَفْظٍ: ١((قَنَتَ شَهْرًا حِينَ قُتِلَ الْقُرَّاءُ فَمَا رَأَيْته حَزِنَ حُزْنًا قَطُّ أَشَدَّ مِنْهُ[٣])) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. قَوْلُهُ: ((عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ)): هُمْ بَنُو سُلَيْمٍ قَتَلَةُ الْقُرَّاءِ كَمَا سَيَأْتِي فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

قَوْلُهُ: ((حِينَ قُتِلَ الْقُرَّاءُ)): هُمْ أَهْلُ بِئْرِ مَعُونَةَ وَقِصَّتُهُمْ مَشْهُورَةٌ.

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: ((كَانَ الْقُنُوتُ فِي الْمَغْرِبِ وَالْفَجْرِ[٤])). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْنُتُ فِي الصبح والْمَغْرِبِ [٥]))، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ: ((كَانَ الْقُنُوتُ)): أَيْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ. قَوْلُهُ: ((فِي الْمَغْرِبِ وَالْفَجْرِ)): تَمَسَّكَ بِهَذَا الطَّحَاوِيُّ فِي تَرْكِ الْقُنُوتِ فِي الْفَجْرِ، قَالَ: لِأَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى نَسْخِهِ فِي الْمَغْرِبِ فَيَكُونُ فِي الصُّبْحِ كَذَلِكَ، وَقَدْ عَارَضَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ ﷺ قَنَتَ فِي الصُّبْحِ ثُمَّ اخْتَلَفُوا هَلْ تَرَكَ أَمْ لَا؟ فَيُتَمَسَّكُ بِمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَثْبُتَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا مَا هُوَ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ.

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: ((أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنْ الْفَجْرِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَك الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} إلَى قَوْلِهِ: {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}[آل عمران: ١٢٨][٦])). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ. الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَيْضًا النَّسَائِيّ.

قَوْلُهُ: ((إذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ)): هَكَذَا وَرَدَتْ أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا. قَوْلُهُ: ((فُلَانًا وَفُلَانًا)): زَادَ النَّسَائِيّ: ((يَدْعُو عَلَى أُنَاسٍ مِنْ الْمُنَافِقِينَ)): وَبِهَذِهِ الزِّيَادَةِ يُعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ قَتَلَةِ الْقُرَّاءِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَزَلَتْ[٧])).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ قَالَ: ((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا سُفْيَانَ اللَّهُمَّ الْعَنْ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ فَنَزَلَتْ[٨]))، وَفِي أُخْرَى لِلتِّرْمِذِيِّ قَالَ: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو عَلَى أَرْبَعَةِ نَفَرٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ[٩]))، وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى نَسْخِ الْقُنُوتِ بِلَعْنِ الْمُسْتَحِقِّينَ، وَأَنَّ الَّذِي يُشْرَعُ عِنْدَ نُزُولِ النَّوَازِلِ إنَّمَا هُوَ الدُّعَاءُ لِجَيْشٍ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (١٢٩١)، وقال: رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في سنن النسائي (١٠٧٩).

٣- (قلت): البخاري (١٣٠٠).

٤- (قلت): البخاري (٧٩٨).

٥- (قلت): مسلم (٦٧٨).

٦- (قلت): البخاري (٤٠٦٩).

٧- (قلت): البخاري (٤٠٧٠).

٨- (قلت): صححه الإمام الألباني في سنن الترمذي (٣٠٠٤).

٩- (قلت): قال الإمام الألباني في سنن الترمذي (٣٠٠٥): حسن صحيح.

الْمُحِقِّينَ بِالنُّصْرَةِ وَعَلَى جَيْشِ الْمُبْطِلِينَ بِالْخِذْلَانِ وَالدُّعَاءُ بِرَفْعِ الْمَصَائِبِ وَلَكِنَّهُ يُشْكِلُ عَلَى ذَلِكَ مَا سَيَأْتِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ نُزُولِ الْآيَةِ عَقِبَ دُعَائِهِ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ وَعَلَى كُفَّارِ مُضَرَ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَجُوزُ فِعْلُهُ فِي الْقُنُوتِ عِنْدَ النَّوَازِلِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَد، أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرُبَّمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَك الْحَمْدُ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعَيَّاش بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. اللَّهُمَّ اُشْدُدْ وَطْأَتَك عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ قَالَ: يَجْهَرُ بِذَلِكَ. وَيَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ. اللَّهُمَّ: الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا حَيَّيْنِ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} الْآيَةَ([1]))، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: ((بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ إِذْ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ: اللَّهُمَّ نَجِّ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ. اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اُشْدُدْ وَطْأَتَك عَلَى مُضَرَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ([2])) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: ((لَأُقَرِّبَنَّ بِكُمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقْنُتُ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَيَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَلْعَنُ الْكُفَّارَ([3]))). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: وَصَلَاةِ الْعَصْرِ مَكَانَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ.

قَوْلُهُ: ((اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ)): فِيهِ جَوَازُ الدُّعَاءِ فِي الْقُنُوتِ لِضَعَفَةِ الْمُسْلِمِينَ بِتَخْلِيصِهِمْ مِنَ الْأَسْرِ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِ جَوَازُ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِالنَّجَاةِ مِنْ كُلِّ وَرْطَةٍ يَقَعُونَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَغَيْرِهِمْ. قَوْلُهُ: ((اُشْدُدْ وَطْأَتَك)): ((الْوَطْأَةُ)): الضَّغْطَةُ أَوْ الْأَخْذَةُ الشَّدِيدَةُ كَمَا فِي الْقَامُوسِ. قَوْلُهُ: ((كَسِنِي يُوسُفَ)): هِيَ السِّنِينُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ. وَفِيهِ جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَى الْكُفَّارِ بِالْجَدْبِ وَالْبَلَاءِ.

قَوْلُهُ: ((قَالَ: يَجْهَرُ بِذَلِكَ)): فِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ الْجَهْرِ بِالْقُنُوتِ. قَوْلُهُ: ((فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ)): بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ((فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ)). قَوْلُهُ: ((لَأُقَرِّبَنَّ)): فِي رِوَايَةِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ: ((إِنِّي لَأَقْرَبُكُمْ صَلَاةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ)). قَوْلُهُ: ((وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ . . . إلَخْ))، قِيلَ: الْمَرْفُوعُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وُجُودُ الْقُنُوتِ لَا وُقُوعُهُ فِي الصَّلَاةِ الْمَذْكُورَةِ فَإِنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَيُوَضِّحُهُ مَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ مِنْ تَخْصِيصِ الْمَرْفُوعِ بِصَلَاةِ الْعِشَاءِ، وَلِأَبِي دَاوُد: ((قَنَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْعَتَمَةِ شَهْرًا([4]))) أَوْ نَحْوَهُ لِمُسْلِمٍ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَنْفِي كَوْنَهُ ﷺ قَنَتَ فِي غَيْرِ الْعِشَاءِ. وَظَاهِرُ سِيَاقِ الْحَدِيثِ أَنَّ جَمِيعَهُ مَرْفُوعٌ. قَوْلُهُ: ((فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ))، قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ الِاخْتِلَافِ فِي كَوْنِهِ قَبْلَ الرُّكُوعِ أَوْ بَعْدَهُ. قَوْلُهُ: ((فَيَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ)): هُمْ مَنْ كَانَ مَأْسُورًا بِمَكَّةَ،

١- (قلت): البخاري (٤٥٦٠).

٢- (قلت): البخاري (٤٥٩٨).

٣- (قلت): البخاري (٧٩٧)، ومسلم (٦٧٦).

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٢٩٦).

وَالْكُفَّارُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ كَمَا بَيَّنَهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَدُلُّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْقُنُوتِ عِنْدَ نُزُولِ النَّوَازِلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ، وَقَدْ اقْتَصَرْنَا فِي شَرْحِهَا عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ وَإِنْ كَانَتْ تَحْتَمِلُ الْبَسْطَ لِعَدَمِ عَوْدِ التَّطْوِيلِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ بِفَائِدَةٍ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ((قَنَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهْرًا مُتَتَابِعًا فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ وَالصُّبْحِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، إذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ مِنْ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، عَلَى حَيٍّ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى رَعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَيُؤَمِّنُ مَنْ خَلْفَهُ([1]))، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَأَحْمَدُ وَزَادَ: ((أَرْسَلَ إلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَقَتَلُوهُمْ([2]))، قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ هَذَا مِفْتَاحُ الْقُنُوتِ. الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد مِنْ طَرِيقِ هِلَالِ بْنِ خَبَّابٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا الْحَاكِمُ وَلَيْسَ فِي إسْنَادِهِ مَطْعَنٌ إلَّا هِلَالُ بْنَ خَبَّابٍ فَإِنَّ فِيهِ مَقَالًا وَقَدْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَغَيْرُهُمَا.

قَوْلُهُ: ((فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ)): فِيهِ أَنَّ الْقُنُوتَ لِلنَّوَازِلِ لَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ الصَّلَوَاتِ فَهُوَ يَرُدُّ عَلَى مَنْ خَصَّصَهُ بِصَلَاةِ الْفَجْرِ عِنْدَهَا. قَوْلُهُ: ((إذَا قَالَ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)): فِيهِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الْقُنُوتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ وَهُوَ الثَّابِتُ فِي أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ. قَوْلُهُ: ((مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ)): بِضَمِّ السِّينِ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ اللَّامِ: قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ. قَوْلُهُ: ((عَلَى رَعْلٍ)): بِرَاءٍ مَكْسُورَةٍ وَعَيْنٍ مُهْمَلَةٍ سَاكِنَةٍ: قَبِيلَةٌ مِنْ سُلَيْمٍ كَمَا فِي الْقَامُوسِ، وَهُوَ وَمَا بَعْدَهُ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَقَوْلُهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ بَدَلٌ أَيْضًا مِنْ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِمْ. قَوْلُهُ: ((عُصَيَّةَ)): تَصْغِيرُ عَصًا سُمِّيَتْ بِهِ قَبِيلَةٌ مِنْ سُلَيْمٍ أَيْضًا. قَوْلُهُ: ((وَذَكْوَانَ)): هُمْ قَبِيلَةٌ أَيْضًا مِنْ سُلَيْمٍ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ النبي ﷺ لا يملك شيئًا من الأمر؛ أي الأمر الكوني؛ وفي هذه الجملة ردٌّ على الذين يتعلَّقون بالرسول ﷺ في الدعاء والاستعانة به والاستغاثة به حتى بعد موته، الآن تجدهم عند القبر الشريف يدعون الرسول ﷺ صراحة، بل إنَّهم عند الدعاء ولو كانوا بعيدين يتَّجهون إلى القبر لا إلى القبلة؛ وهذا من سفههم.

٢- أنَّ النبي ﷺ مكلَّف، يأمره الله وينهاه؛ وعليه فيكون في هذا إبطال لدعوى من يقولون إنَّ الإنسان إذا وصل إلى حالة معيَّنة من العبودية سقطت عنه التكاليف؛ وهذا قول طائفة من الصوفية، يقولون: إنَّ الإنسان إذا ترقَّى في اليقين حتى وصل إلى الدرجة العليا سقط عنه التكليف، وصار كلُّ شيءٍ حرام حلالًا له، وكلُّ شيءٍ واجب ليس بواجب عليه؛ فلا يوجبون عليه الصلاة، ولا يحرِّمون عليه الزنا، ولا شرب الخمر؛ لأنَّ الرجل وصل إلى الغاية؛ وهذه التكاليف عندهم ما هي إلَّا وسيلة وطريق، إذا وصل الإنسان إلى الغاية سقطت الوسيلة؛ فقالوا: لو أنَّك سافرت إلى بلد ووصلت إلى هذا البلد، هل تحتاج إلى

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في المشكاة (١٢٩٠).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في أصل صفة صلاة النبي ﷺ.

طريق تمشي فيه؟ لا؛ هم يقولون كذلك، العبادة طريق تصل به إلى غاية معيَّنة إذا وصلت إليها سقطت عنه؛ فيقال لهم: إذا كان النبي ﷺ وهو أشرف الخلق لا يصل إلى هذه المرتبة فما بالك بمن دونه.

٣- أنَّ الله تعالى قد يتوب على أعتى الناس وأشدُّهم كفرًا؛ لعموم قوله: {أو يتوب عليهم}.

٤- أنَّ الله قد يعذِّب الكافرين عذابًا ليس للمسلمين فيه يد، بل هو من عند الله وحده؛ لقوله: {أو يعذِّبهم}.

٥- أنَّ الله لا يعذِّب إلَّا بذنب؛ لقوله: {فإنَّهم ظالمون} والظالم مستحقٌّ أن ينكل الله به لأنَّ الله لا يحبُّ الظلم؛ بل إنَّه قال في الحديث القدسي: ((إنِّي حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا))([1]).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {١٢٩}

قال ابن العثيمين: لمَّا ذكر أنَّ النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء – فمن دونه من الخلق من باب أَولى –؛ بيَّن لمن يكون الأمر؛ فقال: {ولله ما في السموات وما في الأرض}: اللام هنا للاستحقاق والاختصاص والملك، يعني لله ملكًا واختصاصًا واستحقاقًا؛ والخبر الجار والمجرور مقدَّم على المبتدأ لإفادة الحصر، يعني لله لا لغيره.

قال السعدي: وجميع ما في السماوات والأرض، الكلُّ ملك لله مخلوقون مدبَّرون متصرَّف فيهم تصرُّف المماليك، فليس لهم مثقال ذرةٍ من الملك.

قال ابن العثيمين: وقوله: {ما في السموات وما في الأرض}: {ما} اسم موصول يشمل كلَّ ما في السموات والأرض من إنس وجن وحيوان وجماد وغير ذلك؛ وعبر ب{ما} إمَّا لأنَّ غير العاقل أكثر من العاقل فصار هذا من باب التغليب؛ وإمَّا لأنَّ المقصود الأعيان والأوصاف، وإذا كان المقصود الأعيان والأوصاف فإنَّه يؤتى ب{ما} لا ب(من)، ومنه قوله تعالى: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء}، ولم يقل: {من}؛ لأنَّه ليس المقصود العين، المقصود الوصف، يعني الذي يطيب لكم وتركنون إليه؛ على كل حال سواء كان {ما} من باب التغليب، أو لأنَّه يقصد بذلك الأعيان والأوصاف فإنَّها تدلُّ على العموم، وأنَّ جميع ما في السموات وما في الأرض لله.

وقوله: {السموات}: هذه جمع، وقد صرَّح الله تعالى في القرآن بأنَّ السموات سبع كما قال تعالى: {قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم}. أمَّا الأرض فليس في القرآن نصٌّ على أنَّها سبع، وإنَّما فيه ظاهر، يعني ما يدلُّ ظاهرًا على أنَّ الأرضين سبع، وهو قوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن}، فإنَّ المثلية هنا لا يمكن أن تكون مثلية الجنس والنوع والصفة؛ لأنَّ الأرض مختلفة عن السماء اختلافًا ظاهرًا؛ فتعيَّن أن تكون المراد بالمثلية العدد؛ وقد جاءت

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام مفصلًا عن هذا الحديث عند تفسير الآية (٢٥) من سورة آل عمران.

السنة مصرِّحة بذلك بأنَّ عدد الأرضين سبع؛ ولكن هذه الأرضون السبع هل هي متجاورة أو متطابقة كالسموات؟ ظنَّ بعض العلماء أنَّها متجاورة وأنَّ المراد بها القارات السبع؛ ولكن هذا ليس بصحيح، والصحيح أنَّها متطابقة أي بعضها فوق بعض؛ ودليل ذلك قول النبي ﷺ: ((من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، طوَّقه يوم القيمة من سبع أراضين))، فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّها متطابقة؛ إذ لو لم تكن كذلك لم يعذِّب هذا الذي اقتطع شبرا من الأرض إلَّا بأرضٍ واحدةٍ فقط، ثم هل هي متلاصقة أو متباينة؟ قال بعض العلماء إنَّها متلاصقة، وقال الآخرون بل إنَّها متباينة أي بين كلِّ أرضٍ وأخرى فاصل هواء، والله أعلم بذلك، وربما نطلع عن طريق علم الحديث على الراجح من هذين القولين.

وقوله: {يغفر}: مضارع، من المغفرة، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يوضع على الرأس عند القتال؛ فإنَّه ساتر للرأس وواق للرأس؛ فالمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: {لمن يشاء}: هذه الآية مقيَّدة بالحكمة، أي من اقتضت حكمته أن يغفر غفر له؛ هذا واحد؛ ثانيًا: مقيَّدة بما عدى الشرك فإنَّ الله يقول: {إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، لكنَّ المشرك لو أسلم لغفر الله له لقوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}، فيكون إذًا: {من يشاء}: أي من اقتضت الحكمة المغفرة له؛ لأنَّ مشيئة الله مقرونة بالحكمة؛ يستثنى من ذلك المشرك ما لم يتب فإن تاب غفر له.

وقوله: {ويعذِّب من يشاء}: يعني ممَّن يستحقُّ التَّعذيب؛ وقوله: {يعذِّب من يشاء}، لا يستثنى منه المشرك؛ لأنَّ المشرك قد أعلمنا الله تعالى أنَّه لا يشاء أن يغفر له؛ فلا يكون داخلًا في المشيئة، بل هو يعذِّب المشرك قطعًا؛ لأنَّ وعده لا يخلف سبحانه وتعالى؛ فالمشرك لابدَّ أن يعذَّب: {إنَّه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار}، لكن لو تاب فإنَّ الله يتوب عليه ويغفر له.

قال السعدي: وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمنُّ عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، {ويعذِّب من يشاء}: بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذِّبه على ذلك.

{والله غفور رحيم}: ثم ختم الآية باسمين كريمين دالَّين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال {والله غفور رحيم}، ففيها أعظم بشارة بأنَّ رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأنَّ منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذِّبه، فلم يختمها باسمين أحدهما دالٌّ على الرحمة، والثاني دالٌّ على النِّقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدلُّ على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمَّدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

قال ابن العثيمين: ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين مناسب جدًّا؛ لقوله: {يغفر لمن يشاء}، فلكونه غفورًا صار يغفر لمن يشاء؛ {الغفور([1])} اسم من أسماء الله المتعدِّية؛ إذًا لا يتمُّ الإيمان بها إلَّا بثلاثة أمور؛ الإيمان بأنَّها اسم من أسماء الله؛ والثاني: الإيمان بما تضمَّنته من صفة؛ والثالث: الحكم المترتَّب على هذه الصفة، وهو أنَّه يغفر، يعني ليس غفَّارًا بلا مغفرة بل هو يغفر؛ فنستفيد إذًا من هذه الآية إثبات الاسم {الغفور}، إثبات الصفة المغفرة، إثبات الحكم المترتب على هذا أنَّه يغفر بهذه المغفرة.

{الرحيم([2])} أيضًا اسم من أسماء الله، و{الرحيم} معناه ذو الرحمة المقتضية للإحسان والإنعام؛ فالإحسان والإنعام من مقتضى الرحمة وليس هو الرحمة بل هو من مقتضاه؛ برحمته يحسن وينعم؛ وقد فسَّر من ينكرون الرحمة بأنَّها الإحسان أو إرادة الإحسان؛ وهؤلاء هم الأشاعرة يقولون: إنَّ الله ليس له الرحمة؛ لأنَّ الرحمة رقَّة ولين وخضوع للأمر الواقع؛ فيقال لهم: هذه رحمة المخلوق؛ أمَّا رحمة الخالق فلا تتضمَّن نقصًا أبدًا بل هي كمال محض؛ ثم إنَّ قولكم إنَّها رقَّة ولين فنقول: إنَّ الرقَّة واللِّين صفة مدح لأنَّها خير من الغلظة؛ ولهذا قال الله تعالى: ((إنَّ رحمتي سبقت غضبي)). وقولهم إنَّها توجب أنَّ الإنسان يخضع للأمر الواقع وما أشبه ذلك حتى يرحم؛ نقول: هذا بالنسبة لرحمة المخلوق؛ أمَّا رحمة الخالق فليس فيها خضوع إطلاقًا؛ ثم إنَّه منقوضٌ عليكم لأنَّه يوجد مثلًا ملك من الملوك الذي لا أحد ينابذه فيما يتكلَّم به ويكون عنده من الرحمة شيء عظيم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: {ما في السموات}، و{ما} من صيغ العموم كما هو معروف.

٢- انفراد الله بذلك لتقديم الخبر، والخبر حقُّه التأخير؛ ومن طرق الحصر تقديم ما حقُّه التأخير.

٣- إثبات تعدُّد السموات؛ وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أنَّها سبع سموات؛ أمَّا الأرض فذكرت بصيغة الإفراد والمراد الجنس، فيشمل جميع الأرضين وقد بيَّنت السنة أنَّها سبع.

٤- إثبات المغفرة لله؛ لقوله: {يغفر}؛ وإثبات التعذيب؛ لقوله: {ويعذِّب}. ويتفرَّع على هاتين الفائدتين: إثبات تمام سلطانه في ملكه، وأنَّ الأمر له في التعذيب والمغفرة.

٥- إثبات المشيئة؛ لقوله: {لمن يشاء}، وقوله: {من يشاء}؛ والمشيئة تأتي كثيرًا في القرآن الكريم، ولكنَّها مقرونة بالحكمة، أي: من اقتضت الحكمة المغفرة له ومن اقتضت الحكمة أن يعذِّب.

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرحيم} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

٦- إثبات الاسمين الكريمين من أسماء الله وهما: الغفور والرحيم؛ وإثبات ما تضمَّناه من صفة، وهي المغفرة مأخوذة من {الغفور}، والرحمة مأخوذة من {الرحيم}.

٧- إثبات الحكم المترتَّب على ذلك؛ وهو ما يعرف عند بعض العلماء بالأثر، وهو أنَّه يغفر ويرحم؛ والقاعدة في أسماء الله أنَّه إذا كان الاسم متعدِّيًا فإنَّ الإيمان به يتضمَّن ثلاثة أمور: الإيمان بكونه اسمًا من أسماء الله، وما دلَّ عليه من صفة، وبالحكم الذي يترتَّب على ذلك؛ وإذا كان لازمًا غير متعدٍّ فإنَّ الإيمان به يتضمَّن الإيمان به اسمًا من أسماء الله، والإيمان بما دلَّ عليه من الصفة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {١٣٠}

قال السعدي: تقدَّم في مقدِّمة هذا التفسير أنَّ العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأنَّ الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أوَّلًا أن يعرف حدَّه، وما هو الذي أمر به ليتمكَّن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حدَّه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربِّه في تركه، وأنَّ هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي، وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت عن أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها وحثَّ على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حثَّ على تركها.

ولعلَّ الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة (أحد) أنَّه قد تقدَّم أنَّ الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنَّهم إذا صبروا واتَّقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: {وإن تصبروا وتتَّقوا لا يضرُّكم كيدهم شيئًا} ثم قال: {بلى إن تصبروا وتتَّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم} الآيات.

فكأنَّ النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التَّقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التَّقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى، ويدلُّ على ما قلنا أنَّ الله ذكر لفظ (التَّقوى) في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله: {أعدَّت للمتَّقين}، ومرتين مقيَّدتين، فقال: {واتَّقوا الله}، {واتَّقوا النار}.

قال أبو زهرة: ولقد ذكر القفال - من علماء الشافعية - أن بين هذه الآية الناهية عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة، وغزوة أحد مناسبة ظاهرة، وذلك أن المشركين في غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالًا كثيرة جمعوها من الرِّبا، ولعلَّ ذلك يدعو بعض المسلمين إلى الإقدام على الرِّبا، حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر ويتمكَّنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم عن ذلك.

لقد ابتدأ الله سبحانه وتعالى الآية بالنداء بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} لبيان أنَّ أكل الرِّبا ليس من شأن أهل الإيمان، وإنَّما هو من خواص أهل الكفر والعصيان، فإذا كان المشركون يأكلون الرِّبا ويَتَقَوون به، ويكاثرون أهل الإيمان بأموالهم التي اكتسبوها من السُّحت فليس لأهل الحقِّ أن يجاروهم، بل عليهم أن يحرِّموه على أنفسهم، ولا يأكلوا إلَّا حلالًا طيِّبًا.

قال السعدي: {يا أيها الذين آمنوا}: كلّ ما في القرآن من قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدلُّ على أنَّ الإيمان هو السبب الدَّاعي والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النَّهي؛ لأنَّ الإيمان هو التَّصديق الكامل بما يجب التَّصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح.

قال ابن العثيمين: تصدير الخطاب بالنداء يدلُّ على الاهتمام به؛ لأنَّ النداء يوجب يقظة المخاطب وانتباه المخاطب؛ والخطاب الذي يعتنى به يسبق بما يفيد الانتباه والاستحقاق.

وتوجيهه إلى المؤمنين {يا أيها الذين آمنوا} يدلُّ على فوائد؛ أوَّلًا: الإغراء والحثُّ على ما تضمَّنه الخطاب، لأنَّ مناداة هؤلاء باسم الإيمان يدلُّ على أنَّ ذلك من أجل أن يثير هممهم، كما تقول للرجل تخاطبه: (يا كريم أكرم ضيفك)؛ فإنَّك إذا قلت: (يا كريم)، فإنَّ هذا من باب الإغراء والحثِّ، يعني من أجل كرمك أكرم؛ وتقول: (يا حليم اترك السَفه)، وما أشبه ذلك؛ فالمقصود بمثل هذا الإغراء والحث؛ ويفيد أيضًا: أنَّ الالتزام بما دلَّ عليه الخطاب من مقتضيات الإيمان؛ فمثلًا: ترك أكل الربا من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّ الخطاب وجِّه للمؤمنين؛ ويستفاد أمر ثالث: وهو أنَّ المخالفة في هذا منقصة للإيمان وسبب لنقصانه.

وقوله: {يا أيها الذين آمنوا}: تأتي هكذا مطلقة في القرآن الكريم؛ لكن معناها مقيَّد بما يجب الإيمان به؛ هي مطلقة تشمل الإيمان بأيِّ شيء، لكنَّها مقيَّدة بما يجب الإيمان به؛ {ولكنَّ البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيِّين}، وبيَّن الرسول ﷺ أنَّ الإيمان يتضمَّن الإيمان بستة أشياء: بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ ثم الإيمان المراد به ليس مجرَّد التَّصديق فقط، بل الإقرار المتضمِّن أو المستلزم للقبول والإذعان؛ أمَّا مجرَّد أن يصدِّق الإنسان بالشيء فإنَّه ليس بمؤمن؛ فأبو طالب مثلًا مصدِّق بأنَّ محمدًا رسول الله ﷺ ومع ذلك لم ينفعه لأنَّه لم يقبل ولم يذعن؛ فلابدَّ من قبول وإذعان، يعني انقيادًا.

{يا أيها الذين آمنوا}: آمنوا بما يجب الإيمان به، وهي الأمور الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه(١))).

{لا تأكلوا الرِّبا أضعافًا مضاعفة}: الأكل معروف وخلافه الشرب واللِّبس والسكنى والانتفاعات الأخرى؛ لكنَّه عبَّر بالأكل لأنَّه أخصُّ ما يكون في ملابسة الإنسان؛ فالذي يدخل إلى جوفك ليس كالذي تلبسه ظاهر جسدك، وليس كالبيت الذي

١- (قلت): البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

تسكنه؛ فإنَّ أبلغ ما يكون في ملامسة الإنسان وهو الأكل؛ ولهذا نهى عنه؛ والإنسان عندما يكون عنده شيء وهو جائع عاري ليس عنده سكن؛ ما الذي يقدِّم؟ الأكل؛ فأشدُّ ما يكون ضرورة للإنسان هو الأكل؛ ولهذا قال: {لا تأكلوا الرِّبا}.

{الرِّبا} في اللغة الزيادة، ومنه قوله تعالى: {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت}: يعني علت؛ ومنه الرِّبا جمع رابية للمكان المرتفع من الأرض؛ والمراد بالرِّبا هنا الرِّبا الشرعي؛ وهو زيادة ونساء؛ زيادة ويسمَّى ربا الفضل؛ ونساء ويسمَّى ربا النسيئة؛ ويكون الرِّبا في أموال خاصة بيَّنها النبي ﷺ في قوله: ((الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح(١))) هذه الأشياء الستة متَّفق على جريان الرِّبا فيها؛ فإذا أبدل جنس بمثله لزم فيه شيئان: التساوي والتقابض في مجلس العقد؛ وإذا بيع بغير جنسه لزم فيه أمر واحد وهو التقابض في مجلس العقد؛ إلَّا بين الذهب والفضة، وسواهما، فإنَّه لا يشترط التقابض في مجلس العقد؛ إذًا الأموال الربوية ستة: الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح؛ إذا بيع واحد منها بمثله لزم فيها أمران وهما التقابض في مجلس العقد، والتماثل، التماثل يعني أن يكون سواء؛ وإذا بيع بغير جنسه ما عدى الذهب والفضة فإنَّه يشترط التقابض في مجلس العقد فقط دون التساوي؛ أمَّا الذهب والفضة فإذا بيع أحدهما بالآخر فلابدَّ فيه من التقابض، وإذا بيع أحدهما بالأجناس الأخرى الأربعة فإنَّه لا يشترط التقابض(٢)؛ فإذا بعت ذهبًا بذهب لزم التساوي وزنًا والتقابض؛ فلا يجوز أن تبيع غرامًا بغرامين ولو كان يدًا بيد؛ وهذا يسمَّى ربا الفضل لأجل الزيادة؛ ولا يجوز أن تبيع غرامًا بغرام ولكن مع عدم القبض؛ ويسمَّى هذا ربا النَّسيئة؛ وإذا بعت ذهبًا بفضة غرامًا بعشرة يجوز لكن يدًا بيد؛ وإذا بعت فضة ببر لا يشترط لا تقابض ولا تساوي؛ لأنَّ الذهب والفضة مع غيرهما لا يجري فيهما الرِّبا، يعني فيجوز أن أشتري منك صاع بر بدرهمين وإن لم أقبضك؛ وكذلك لو قبضتك ولم تقبضني كلُّ هذا جائز؛ وذلك لأنَّ الرِّبا بين الذهب والفضة وما سواهما ليس بجار؛ الدليل على اشتراط القبض والتساوي في الجنس الواحد قول النبي ﷺ: ((الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والملح بالملح مثلًا بمثل سواءً بسواء يدًا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد(٣)))، وقال: ((الذهب بالذهب ربا إلَّا هاء هاء(٤))): يعني إلَّا خذ وأعطني يعني يدًا بيد.

١- (قلت): مسلم (١٥٨٧).

٢- (قلت): للتوضيح أكثر: أولًا: اذا بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير....الخ؛ فيشترط التساوي في الوزن والتقابض في مجلس العقد.

ثانيًا: اذا بيع الذهب بالفضة أو العكس – أو الذهب والفضة بالأوراق النقدية – فيشترط فقط التقابض في مجلس العقد، ولا يشترط التساوي في الوزن.

ثالثًا: ولم يذكره الشيخ رحمه الله تعالى: اذا بيع البر والشعير والتمر والملح بعضهم ببعض فيشترط فقط التقابض في مجلس العقد، ولا يشترط التساوي في الوزن. لقوله ﷺ في حديث عبادة عند أبي داود وغيره: ((ولا بأس ببيع الذهب بالفضة، والفضة أكثرهما يداً بيد، وأما النسيئة فلا، ولا بأس ببيع البر بالشعير، والشعير أكثرهما يدًا بيد، وأمّا النسيئة فلا)).

رابعًا: اذا بيع الذهب والفضة بالبر والشعير والتمر والملح أو العكس فلا يشترط التقابض في مجلس العقد، ولا يشترط التساوي في الوزن.

٣- أخرجه مسلم برقم (١٥٨٧).

٤- (قلت): البخاري (٢١٧٤).

لكن قد يقول قائل: إنَّ قوله: ((إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد))، يشمل ما إذا باع بُرًّا بفضة فإنَّ الجنس مختلف؛ وإذا طبَّقنا هذا على الحديث قلنا لابدَّ أن يكون يدًا بيد لأنَّه قال ﷺ: ((إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد))، نقول: نعم هذا هو مقتضى هذا الحديث؛ لكن يخصِّصه ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين فقال: ((من أسلف في شيءٍ فليسلف في شيءٍ معلوم ووزن معلوم إلى أجلٍ معلوم([1]))). ومعنى يسلفون يعني يقدِّمون الدراهم الثمن ويؤخِّرون المُثمَّن، يعني يأتي الرجل ويشتري من صاحب البستان تمرًا لمدة سنة أو سنتين بدراهم يعطيها إيَّاه نقدًا؛ فهنا اشتري تمر بدراهم مع تأخُّر القبض؛ والسَّلم جائز بالإجماع وهذا هو الدليل لتخصيص قوله ﷺ: ((إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد)).

إذًا الرِّبا يكون في أموال خاصة وهي ستة بنص الحديث؛ أمَّا ما عداها فإنَّ من أهل العلم من قال ليس فيها ربا، كلُّ شيءٍ سوى هذه الستة لا ربا فيه؛ ومن أهل العلم من قال إن ما كان بمعناها فله حكمها؛ فالأوراق النقدية المستعملة الآن بدلًا عن النقد يكون لها حكم ذلك النقد؛ فإذا كانت أوراقًا عن فضة، يعني جعلت عوضًا عن فضة فلها حكم الفضة؛ لكن إذا اختلف جنسها دخل في عموم قوله: ((فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد)).

{أضعافًا مضاعفة}: ضعف الشيء مثله، بمعنى أنك تكرر مرتين فيكون ضعفا كدرهم بدرهمين مضاعفة يعني مزيدة على الضعف الأول، فمثلًا درهم بدرهمين وبعد سنة نجعله بثلاثة دراهم، وبعد سنة نجعله بأربعة دراهم؛ هذا هو فعل الجاهلية، ربا الجاهلية؛ يستدين الرجل من الشخص فإذا حلَّ الأجل قال: إمَّا أن توفي وإمَّا أن تربي؛ إذا أوفى برئت ذمَّته؛ إذا لم يوف يربي بمعنى أنَّه يزيد؛ فيقول مثلًا: إذا حلَّ وقدره ألف يقول: إمَّا أن توفيني الألف وإلَّا فهو عليك إلى السنة القادمة بألفين؛ فإذا جاءت السنة القادمة ولم يوف قال: إمَّا أن توفي وإمَّا أن تربي؛ فإذا أوفى برئت ذمَّته وإن لم يوف قال: نجعله للثالثة لكن يكون بثلاثة آلاف؛ هذه أضعاف مضاعفة، ولاشك أنَّها ظلم عظيم؛ لأنَّه إذا حلَّ الدَّين على الإنسان وليس عنده شيء فالواجب إنظاره كما قال الله تعالى: {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة}، وقال الله تعالى: {لا يكلف الله نفسًا إلَّا ما آتاها}، فالممتنع عن الوفاء ليس بآثم مع العجز، والمطالب بالوفاء مع العجز آثم؛ لأنَّ الله أوجب الإنظار.

قوله: {أضعافًا مضاعفة}: فيها قراءة: {أضعافًا مضعفة}، المعنى واحد.

وقوله: {أضعافًا مضاعفة}: ليس له مفهوم؛ لأنَّه جاء على وفق العادة الغالبة؛ وما جاء على وفق العادة الغالبة فإنَّه لا مفهوم له؛ هذه قاعدة من قواعد أصول الفقه: أنَّ القيد إذا كان من أجل أنَّه الأمر الغالب فإنَّه لا مفهوم له؛ وله أمثلة منها قوله تعالى: {وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن}، فإنَّ قوله: {اللاتي في حجوركم}، قيد على وفق العادة والغالب؛ ولهذا تحرم الربيبة وإن لم تكن في حجره. ومنه قوله تعالى: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا}، فإنَّ

١- (قلت): البخاري (٢٢٤٠)، ومسلم (١٦٠٤) بلفظ: ((مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ)).

هذا لا يدلُّ على أنَّ الأَمَة إذا امتنعت من الزنا لأنَّ الرجل الذي طلب منها أن تزاني به لا يعجبها، هل نقول لنا في هذه الحال لنا أن نكرهها على ذلك؟ يعني رجل عنده فتاتان؛ فتاة أجبرها على الزنا فأبت تحصنًا، تريد تحصن فرجها؛ هذه بنص الآية أنَّه لا يجوز إكراهها لأنَّها تريد التحصُّن؛ الفتاة الثانية طلب منها أن تزني بالرجل قالت: والله الرجل هذا خلقته قبيحة، وطلبت أن يكون الرجل الذي يطلب منها أن يزني به جميلًا؛ فهل يكرهها على القبيح؟ لا؛ هي امتنعت لا تريد التحصُّن لكن تريد رجلًا جميلًا؛ فهل له أن يكرهها في هذه الحال؟ لا؛ لأنَّ هذا هو الغالب فلا مفهوم له.

إذًا قوله: {أضعافًا مضاعفة}، هذا بناءً على الغالب وهو الرِّبا المعروف في الجاهلية الذي قاعدته وأساسه أن يقول الدَّائن: إمَّا أن توفي وإمَّا أن تربي.

قال السعدي: ففي قوله: {أضعافًا مضاعفة}، تنبيه على شدَّة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأنَّ تحريم الرِّبا حكمته أنَّ الله منع منه لما فيه من الظلم. وذلك أنَّ الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمَّته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعيَّن على المؤمن المتَّقي تركه وعدم قربانه، لأنَّ تركه من موجبات التَّقوى.

قال ابن العثيمين: {واتَّقوا الله}: نهى عن أكل الرِّبا أضعافًا مضاعفة ثم أمر بالتَّقوى؛ وهذا من باب التوكيد، يعني أنَّ أكلكم مجانب للتَّقوى؛ وتقوى الله سبحانه وتعالى هي اتِّخاذ الوقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

{لعلَّكم تفلحون}: {لعل} هنا للتعليل، لأنَّ الكلام صادر من الله، والتَّرجي في حقِّ الله مستحيل؛ لأنَّ التَّرجي طلب ما فيه مشقَّة، والله سبحانه وتعالى لا يشقُّ عليه شيء، كلُّ شيء عليه هين؛ فتكون {لعل} للتعليل، يعني: (من أجل أن تفلحوا)؛ والفلاح قال أهل العلم: إنَّه كلمة جامعة لحصول المطلوب وزوال المكروه؛ فهي من أجمع الكلمات؛ فمن حصل له مكروه فهو ناقص الفلاح؛ ومن زال عنه المكروه ولكن لم يحصل مطلوبه فهو ناقص الفلاح؛ ومن لم يحصل مطلوبه ولم ينجوا من مكروبه فلا فلاح عنده؛ ومن حصل له المطلوب ونجا من المكروب فهو المفلح؛ إذًا تقوى الله عز وجل من أسباب الفلاح؛ وكلُّ واحد من الناس ينشد الفلاح، كلُّ واحد يحب أن ينال مطلوبه وأن ينجوا من مرهوبه؛ فأين نجد هذا؟ نجده في تقوى الله عز وجل في القيام بطاعته واجتناب نهيه، وهو أمر يسير على من يسَّره الله عليه، افعل ما أمرت به واترك ما نهيت عنه وبذلك يحصل لك الفلاح([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تعظيم شأن الرِّبا وخطره؛ وجهه أنَّه صدر الخطاب في شأنه بالنداء.

٢- أنَّ اجتناب الرِّبا من مقتضيات الإيمان، وأنَّ كلَّ مؤمن صادق الإيمان فلابدَّ أن يتجنب أكل الرِّبا.

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن (الرِّبا) مفصلًا عند تفسير الآية (٢٧٥) من سورة البقرة.

٣- أنَّ أكل الرِّبا ينقّص الإيمان؛ وهذا أمر لاشك فيه عند أهل السنة والجماعة أنَّ أكل الرِّبا ينقص الإيمان لأنَّه كبيرة من كبائر الذنوب؛ وفعل الكبائر عند أهل السنة ينقص الإيمان؛ وعند الخوارج يخرج من الإيمان ويدخل الكفر؛ وعند المعتزلة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر؛ لأنَّهم يقولون إنَّ فاعل الكبيرة لا مؤمن ولا كافر؛ فهو خارج من الإيمان غير داخل في الكفر؛ وعند المرجئة مؤمن كامل الإيمان، لو أكل الربا ليلًا ونهارًا فهو مؤمن كامل الإيمان؛ لكن نحن نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان.

٤- تحريم أكل الرِّبا؛ لقوله: {لا تأكلوا الرِّبا}، والأصل في النهي التحريم لاسيّما وأنَّه أكَّد بقوله: {واتَّقوا الله}.

وهل يقاس على الأكل بقيَّة الإتلافات بالشرب واللِّباس وبناء المساكن وما أشبهها؟ الجواب نعم؛ لكن عبَّر بالأكل لأنَّه أخص وجوه الانتفاع، وغيره مثله.

٥- أنَّ الرِّبا محرَّم بأيِّ نوع من أنواعه، وسواء كان أضعافًا مضاعفة أو ضعفًا واحدًا أو دون الضعف: ((من زاد أو استزاد فقد أربى([١]))، والصَّاع بالصَّاعين وصفه النبي ﷺ بأنَّه عين الرِّبا؛ وليس فيه ظلم، وليس فيه أضعاف مضاعفة، ومع ذلك سمَّاه عين الرِّبا.

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ {١٣١}

قال ابن العثيمين: اتَّقوا الله واتَّقوا النار؛ {اتَّقوا الله} سبق الكلام عليها بأن معناها فعل الأوامر وترك النواهي؛ لكن تعبُّدًا لله، تفعل الأوامر تعبُّدًا لله وتترك النواهي تعبُّدًا لله وتذلُّلًا له؛ أمَّا قوله: {واتَّقوا النار}: فهي تقوى من نوع آخر وهي أن تتَّخذ ما يقيك منها كما تتَّخذ ما يقيك من الحر في الدنيا لقوله تعالى: {وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم}، فليس تقوانا للنار تقوى عبادة وتذلُّل كتقوانا لله؛ فاللفظ واحد والمعنى مختلف؛ فتقوى النار معناه أن نتَّخذ حجابًا دونها حتى لا يصيبنا لفحها؛ هذا هو تقوى النار، وليست كتقوى الله التي هي تقوى تذلُّل وعبادة.

هذه النار ورد في الكتاب والسنة من أوصافها وأوصاف عذابها ما تنخلع له القلوب وبسط هذا معروف؛ {التي أعدَّت}: أي هيِّئت لهم؛ والمعدُّ لها هو الله عز وجل؛ وقوله: {للكافرين}: أصل الكفر في اللغة الستر، ومنه الكفرة الذي نسميه الكافور وهو وعاء طلع النخل؛ هذا أصله في اللغة؛ أمَّا في الشرع فإنَّه جحد الإنسان لنعمة الله عز وجل، وأعظمه الكفر المخرج عن الملَّة، وهناك كفر دونه كما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: (كفر دون كفر)؛ وقوله: {للكافرين}: يعني الكافرين

١- (قلت): مسلم (١٥٨٤).

بما يجب الإيمان به، وأركان الإيمان وأصوله الستة بيَّنها الرسول ﷺ في قوله: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه([1]))).

قال السعدي: {واتّقوا النار التي أعدّت للكافرين}: بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف درجاتها، فإنَّ المعاصي كلَّها – وخصوصًا المعاصي الكبار – تجرُّ إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعدَّ الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجِّي من النار ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ودخول الجنان، وحصول الرحمة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٥ص٣٦٨: فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَأْكُلُوا الرِّبَا وَأَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَأَنْ يَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِ النَّارِ إذَا أَكَلُوا الرِّبَا وَفَعَلُوا الْمَعَاصِيَ مَعَ أَنَّهَا مُعَدَّةٌ لِلْكَافِرِينَ لَا لَهُمْ. وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ((أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَأَمَّا أَقْوَامٌ لَهُمْ ذُنُوبٌ فَيُصِيبُهُمْ سَفْعٌ مِنْ النَّارِ ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ اللَّهُ مِنْهَا([2]))).

وقال رحمه الله أيضًا في ج٢٠ص١٣٥: فَالتَّقْوَى اتِّقَاءُ الْمَحْذُورِ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَبِتَرْكِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَهُوَ بِالْأَوَّلِ أَكْثَرُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ تَقْوَى؛ لِأَنَّ فِعْلَ الْمَأْمُورِ بِهِ وَتَرْكَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ سَبَبُ الْأَمْنِ مِنْ ذَمِّ اللَّهِ وَسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِ اللَّهِ، فَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ خَوْفُ الْإِثْمِ، بِخِلَافِ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ مَضَرَّةٌ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَحَبُّ الَّذِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ وَلَهُ أَنْ لَا يَفْعَلَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ بِاسْمِ التَّقْوَى لِيُبَيِّنَ وُجُوبَ ذَلِكَ، وَأَنَّ صَاحِبَهُ مُتَعَرِّضٌ لِلْعَذَابِ بِتَرْكِ التَّقْوَى.

وَنَقُولُ ثَانِيًا: إنَّهُ حَيْثُ عَبَّرَ بِالتَّقْوَى عَنْ تَرْكِ الْمَنْهِيِّ إنْ قِيلَ ذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى}[المائدة: ٢]. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْبِرُّ مَا أُمِرْت بِهِ؛ وَالتَّقْوَى مَا نُهِيت عَنْهُ. فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إلَّا مَقْرُونًا بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ كَمَا ذَكَرَ مَعَهَا الْبِرَّ، وَكَمَا فِي قَوْلِ نُوحٍ: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}[نوح: ٣]، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ التَّقْوَى مُسْتَلْزِمَةٌ لِفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ.

وَنَقُولُ ثَالِثًا: إنَّ أَكْثَرَ بَنِي آدَمَ قَدْ يَفْعَلُ بَعْضَ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَلَا يَتْرُكُ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ إلَّا الصِّدِّيقُونَ، كَمَا قَالَ سَهْلٌ؛ لِأَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ لَهُ مُقْتَضَى فِي النَّفْسِ، وَأَمَّا تَرْكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ إلَى خِلَافِ الْهَوَى وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ فَهُوَ أَصْعَبُ وَأَشَقُّ، فَقَلَّ أَهْلُهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَفْعَلَهُ إلَّا مَعَ فِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ، لَا تُتَصَوَّرُ تَقْوَى وَهِيَ فِعْلٌ تَرْكٌ قَطُّ؛ فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ الشِّرْكَ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى الْمُضِلِّ وَاتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَاتِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ مِنْ الْمَأْمُورِ بِهِ أُمُورًا كَثِيرَةً تَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ، فَتَقْوَاهُمْ تَحْفَظُ لَهُمْ حَسَنَاتِهِمْ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا، وَتَمْنَعُهُمْ مِنْ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تَضُرُّهُمْ، بِخِلَافِ مَنْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ مَثَلًا؛ فَإِنَّ وُجُودَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ يُفْسِدُ عَلَيْهِ مِنْ الْمَأْمُورِ بِهِ مَا يُفْسِدُ فَلَا يَسْلَمُ لَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[طه: ١٣٢]، {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[الأعراف: ١٢٨]، {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}[الأعراف: ١٢٠].

١- (قلت): البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

٢- البخاري في الرقاق (٦٥٥٩)، وفي التوحيد (٧٤٥٠)، وأحمد ٣/١٣٣، ١٣٤كلاهما عن أنس.

والسفع: علامة تغير ألوانهم. يقال سفعت الشيء إذا جعلت عليه علامة، يريد أثرًا من النار. أنظر: النهاية في غريب الحديث ٢/٣٧٤.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُتَّقِينَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ النَّافِعَ وَاتَّقَى الْأَطْعِمَةَ الْمُؤْذِيَةَ فَصَحَّ جِسْمُهُ، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ سَلِيمَةً. وَغَيْرُ الْمُتَّقِي بِمَنْزِلَةِ مَنْ خَلَطَ مِنْ الْأَطْعِمَةِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ اغْتَذَى بِهَا لَكِنَّ تِلْكَ التَّخَالِيطَ قَدْ تُورِثُهُ أَمْرَاضًا، إمَّا مُؤْذِيَةً؛ وَإِمَّا مُهْلِكَةً، وَمَعَ هَذَا فَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ: إنَّ حَاجَتَهُ وَانْتِفَاعَهُ بِتَرْكِ الْمُضِرِّ مِنْ الْأَغْذِيَةِ أَكْثَرُ مِنْ حَاجَتِهِ وَانْتِفَاعِهِ بِالْأَغْذِيَةِ النَّافِعَةِ، بَلْ حَاجَتُهُ وَانْتِفَاعُهُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا أَعْظَمُ مِنْ انْتِفَاعِهِ بِمَا تَرَكَهُ مِنْهَا، بِحَيْثُ لَوْ لَمْ يَتَنَاوَلْ غِذَاءً قَطُّ لَهَلَكَ قَطْعًا، وَأَمَّا إذَا تَنَاوَلَ النَّافِعَ وَالضَّارَّ فَقَدْ يُرْجَى لَهُ السَّلَامَةُ؛ وَقَدْ يُخَافُ عَلَيْهِ الْعَطَبُ، وَإِذَا تَنَاوَلَ النَّافِعَ دُونَ الضَّارِّ حَصَلَتْ لَهُ الصِّحَّةُ وَالسَّلَامَةُ.

فَالْأَوَّلُ نَظِيرُ مَنْ تَرَكَ الْمَأْمُورَ بِهِ. وَالثَّانِي نَظِيرُ مَنْ فَعَلَ الْمَأْمُورَ بِهِ وَالْمَنْهِيَّ عَنْهُ، وَهُوَ المخلط الَّذِي خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا. وَالثَّالِثُ نَظِيرُ الْمُتَّقِي الَّذِي فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ وَاجْتَنَبَ مَا نُهِيَ عَنْهُ، فَعَظُمَ أَمْرُ التَّقْوَى لِتَضَمُّنِهَا السَّلَامَةَ مَعَ الْكَرَامَةِ، لَا لِأَجْلِ السَّلَامَةِ فَقَطْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْآخِرَةِ دَارٌ إلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ، فَمَنْ سَلِمَ مِنْ النَّارِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُنَعَّمْ عُذِّبَ، فَلَيْسَ فِي الْآدَمِيِّينَ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ الْعَذَابِ وَالنَّعِيمِ جَمِيعًا. فَتَدَبَّرْ هَذَا فَكُلُّ خَصْلَةٍ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا أَوْ أَثْنَى عَلَيْهَا فَفِيهَا فِعْلُ الْمَأْمُورِ بِهِ وَلَا بُدَّ: تَضَمُّنًا أَوْ اسْتِلْزَامًا، وَحَمْدُهَا لِنَيْلِ الْخَيْرِ عَنْ الشَّرِّ وَالثَّوَابِ عَنْ الْعِقَابِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- وجوب اتِّخاذ ما يقي من النار؛ لقوله: {واتَّقوا النار}، والأصل في الأمر الوجوب.

٢- أنَّ النار موجودة الآن؛ تؤخذ من قوله: {أعدَّت}.

٣- أنَّ أهل النار هم الكافرون؛ لقوله: {أعدَّت للكافرين}، أمَّا الفساق الذين يعذَّبون بالنار على قدر أعمالهم ثم يخرجون منها فإنَّ النار لم تعد لهم؛ حتى إنَّ بعض العلماء قال: إنَّ النار ناران نار الكافرين ونار العصاة؛ ولكن ظاهر النصوص خلاف ذلك وأنَّ النار واحدة؛ لكن عذابها يخفَّف ويثقل بحسب عمل الإنسان.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {١٣٢}

قال ابن العثيمين: الجملة هنا معطوفة على ما سبق؛ قوله: {وأطيعوا الله}: الطاعة هي موافقة الأمر فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور؛ فمن ترك مأمورًا به فليس بطائع ومن فعل منهيًّا عنه فليس بطائع؛ وأصلها من الطوع وهو الانقياد ومنه قولهم: هذه ناقة طوع، أي منقاد لقائدها لا تستعصي عليه.

{والرسول}: الرسول هنا فيه {أل}، وهي للعهد، لأنَّ هذا الخطاب موجَّه لهذه الأمَّة، وهذه الأمَّة رسولها واحد وهو محمد ﷺ؛ فتكون {أل} هنا للعهد الذهني، وذلك أنَّ العهد ثلاثة أنواع: ذهني، وذكري، وحضوري؛ فإن كانت {أل} تشير إلى شيء مذكور فهو ذكري مثل قوله تعالى: {كما أرسلنا إلى فرعون رسولًا فعصى فرعون الرسول}؛ وإن كانت تشير إلى شيءٍ حاضر فهي للعهد الحضوري، مثل قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم}؛ وهكذا كلّ {أل} تأتي بعد اسم الإشارة فهي للعهد الحضوري، مثل هذا الرجل هذا الإنسان وما أشبه ذلك؛ والثالث: العهد الذهني الذي يكون معلومًا بالذِّهن؛ فهنا الرسول هو محمد ﷺ وهو معهود ذهنًا.

{لعلَّكم ترحمون}: {لعل} هنا للتعليل وليست للتَّرجي؛ و{لعلَّ} تأتي كما مرَّ علينا كثيرًا تأتي للتعليل وللإشفاق وللتَّرجي وتأتي للتَّمنِّي أحيانًا؛ والفرق بين التَّمنِّي والتَّرجِّي: أنَّ التَّرجِّي فيما يرجى حصوله، والتَّمنِّي فيما لا يرجى حصوله؛ إمَّا لعسره وإمَّا لتعذُّره؛ وهنا للتعليل، يعني إذا أطعتم الله والرسول حصلت لكم الرحمة؛ والرحمة يكون بها حصول المطلوب وزوال المكروه؛ وإذا قرنت بالمغفرة صارت المغفرة لزوال المكروه والرحمة لحصول المطلوب، أي لعلَّكم تكونون في رحمة الله التي بها النجاة وحصول الثواب والأجر الكثير.

قال السعدي: {وأطيعوا الله والرسول}: بفعل الأوامر امتثالًا واجتناب النواهي، {لعلَّكم ترحمون}. فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كلَّ شيءٍ فسأكتبها للذين يتَّقون ويؤتون الزكاة} الآيات.

قال أبو زهرة: جاء الأمر بالطَّاعة لله ولرسوله بعد ذلك النهي القاطع، لأنَّ ما يتعلَّق بالأموال يتحكَّم فيه الأهواء، وتستولي عليه المنازع المختلفة فيكون مظنَّة العصيان بتأويل فاسد، أو تحريف مقصود، أو انحراف بسبب الطمع فينساق الشخص في طاعة من لَا يطاع، ويترك طاعة الله والرسول، وفى ذكر طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله في قرن واحد إشارة إلى أنَّ طاعة الرسول طاعة الله، وأنَّ الرسول مطاعٌ فيما يقول عن الله، ومعنى النص: (أطيعوا الله والرسول رجاء أن تكونوا في رحمة لَا في شقاء)، وفي هذا إشارة إلى أن تحريم الربا فيه رحمة عامة شاملة.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- وجوب طاعة الله ورسوله؛ تؤخذ من قوله تعالى: {أطيعوا الله والرسول}، والأصل في الأمر الوجوب.

٢- جواز اقتران الرسول باسم الله في الأمر الذي يكون مشتركًا بينهما؛ لقوله: {أطيعوا الله والرسول}، أمَّا الأمر الذي لا يكون مشتركًا بينهما وهو الأمر الكوني القدري فهذا لا يذكر الرسول مع الله إلَّا بحرف يدلُّ على التَّرتيب؛ وبهذا نعرف الفرق بين إسناد الشيء الشرعي إلى الله ورسوله وبين إسناد الشيء الكوني إلى الله ورسوله؛ فإسناد الشيء الشرعي يجوز بالواو،

وأمَّا الكوني فلا يجوز إلَّا ب{ثُمَّ} الدَّالَّة على التَّرتيب والمهلة. فإذا قلت في أمر شرعي: الله ورسوله أعلم؛ فهذا صحيح وجائز، وقد أقرَّه النبي ﷺ نفسه؛ فإنَّ في حديث زيد بن خالد الجهني أنَّ النَّبي ﷺ صلى بهم صلاة الصبح على إثر سماء من الليل فقال: ((هل تدرون ماذا قال ربكم([1])؟))، قالوا: الله ورسوله أعلم ... فأقرَّهم؛ لأنَّ المراد هنا العلم الشرعي؛ لكن في المسائل الكونية لمَّا قال له رجل: ما شاء الله وشئت؛ أنكر عليه وقال: ((أجعلتني لله ندًّا، بل ما شاء الله وحده([2]))).

٣– أنَّ طاعة الله ورسوله سبب للرحمة؛ لقوله: {لعلَّكم ترحمون} ولكن هل المراد الرحمة العامَّة أو الخاصة؟ المراد الخاصة، لأنَّ العامَّة حاصلة لنا على كلِّ حال حتى الكفار لهم رحمة من الله لكنَّها رحمة عامَّة؛ فالمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة التي بها سعادة الدنيا والآخرة.

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ {١٣٣}

قال أبو زهرة: المسارعة هنا معناها المبادرة والاتِّجاه الذي لا تراخي فيه، ومعنى المسارعة إلى مغفرة الله تعالى المبادرة باتِّخاذ طريقها، بأن يطهر قلبه من المعاصي ونفسه من الأدران، ويتَّجه إليه سبحانه بقلب سليم قد رحض عنه المعاصي كما رحض الثوب من الأوساخ.

قال ابن العثيمين: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض}: {سارعوا} ولم يقل: (أسرعوا)؛ لأنَّ المفاعلة تكون من اثنين في الغالب؛ المعنى أنَّه ليسابق بعضكم بعضًا إلى هذا الأمر المغفرة والجنة، وهذا كقوله تعالى: {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض}؛ {إلى مغفرة من ربكم}: (المغفرة): ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست هي مجرَّد التَّجاوز عن الذَّنب؛ لأنَّ أصلها من المغفر، والمغفر ما يوضع على الرأس حال الحرب يتوقَّى به السهام؛ وهو مفيد فائدتين وهما: الستر والوقاية؛ ويدلُّ لهذا قوله تعالى حينما يحاسب عبده في الآخرة ويقرُّ العبد بذنوبه فيقول: ((قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم([3])))، فالمغفرة إذًا ستر الذنب والتجاوز عنه؛ فمن ستر الله عليه

١– (قلت): متفق عليه. البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (٦١٨): والحديث بتمامه: عن زيد بن خالد الجهني: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: ((هل تدرون ماذا قال ربكم؟))، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب.

٢– (قلت): حسنه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٩).

٣– (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨)، والحديث بتمامه: عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إن الله يدني الْمُؤمن فَيَضَع على كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُول: نعم يَا رب حَتَّى قَرَّرَهُ ذنُوبه وَرَأى نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ. قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ على رؤوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لعنةُ اللَّهِ على الظالمين)).

ذنبه في الدنيا فقد غفر له؛ ولكن لا تتم المغفرة إلَّا بالتجاوز عن الذنب وعدم العقوبة عليه، وإلَّا فإن السَّتر نوع من المغفرة بلا شك، فإنَّ الإنسان لو فضح بذنبه والعياذ بالله لم يكن هذا مغفرة؛ لكن إذا ستر عليه فإنَّ هذا فيه مهلة أن يجعل الله تعالى الأمر بينه وبين عبده لعلَّه يتوب ولا يُعلَم بذنبه؛ والمسارعة إلى المغفرة هي المسارعة إلى فعل أسباب المغفرة؛ وأسباب المغفرة إمَّا استغفار، وإمَّا عمل صالح؛ فالاستغفار أن يقول: اللهم اغفر لي، استغفر الله، وما أشبه ذلك؛ وإمَّا عمل صالح لأنَّ من الأعمال الصالحة ما يكفَّر به الخطايا مثل الصلوات الخمس، الجمعة إلى الجمعة، رمضان إلى رمضان، العمرة إلى العمرة، العمل الصالح يذهب العمل السيِّئ؛ فإذًا المسارعة إلى المغفرة هي المسارعة إلى أسباب المغفرة؛ إمَّا بالاستغفار وهو طلب المغفرة، وإمَّا بالأعمال الصالحة التي تذهب السيِّئات.

قال أبو زهرة: ويلاحظ أنَّ القرآن يعدِّى المسارعة في الخير بـ(إلى)، والمسارعة في الشر بـ(في)، فيقول سبحانه: {يسارعون في الكفر}، ويقول هنا: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ}، لأنَّ المسارعة في الكفر تنقُّل في براثنه، فهم في قبَّته المظلمة التي تحيط بهم يتنقَّلون بالضلال في أرجائها، وهم في مرتبة واحدة، أمَّا المسارعة إلى الخير، فإنَّها انتقال من رتبة إلى رتبة، ومن مقام صالح إلى مقام أصلح منه.

قال ابن العثيمين: {وجنة عرضها}: مغفرة وجنة، لأنَّ الإنسان لا تتمُّ سعادته إلَّا بأمرين: زوال المكروه وحصول المطلوب؛ ففي أيِّ شيءٍ يكون زوال المكروه من هذه الآية؟ بالمغفرة؛ حصول المطلوب؟ بالجنة {جنة عرضها}؛ الجنة هنا هي الدار التي أعدَّها الله عز وجل لأوليائه، أعدَّها الله للمتَّقين، والمتَّقون المؤمنون هم أولياء الله؛ هذه هي الجنة؛ أمَّا الجنة في قوله تعالى: {كمثل جنة بربوة أصابها وابل} فهي البستان، ففرق، جنة الدنيا هي البساتين، جنة الآخرة هي الدار التي أعدَّها الله عز وجل لأوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يمكن للإنسان أن يتصور ما في الجنة من النعيم؛ أمَّا جنات الدنيا فكلُّ إنسانٍ يتصور ذلك، كلُّ إنسان يمكن أن يتصور جنة فلان وفلانة يعني بستانه على صفة كذا وكذا؛ لكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: {عرضها السموات والأرض}، وفي الآية الثانية: {عرضها كعرض السماء والأرض}، والفرق بينهما: أنَّ التَّشبيه هنا بليغ، وأمَّا التَّشبيه هناك فليس ببليغ، يعني من حيث الاصطلاح وإلَّا فكل القرآن بليغ؛ لأنَّهم يقولون: التَّشبيه بليغ مؤكَّد وغير مؤكَّد وبليغ وغير بليغ؛ إذا ذكرت أداة التَّشبيه فهو غير بليغ، فإذا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه صار بليغًا؛ هنا حذفت أداة التَّشبيه ووجه الشَّبه؛ أمَّا إذا ذكرت أداة التَّشبيه فإنَّه يسمَّى تشبيهًا مرسلًا؛ وإذا ذكر وجه الشَّبه صار مرسلًا غير مؤكَّد، مثلًا نقول: فلان كالبحر كرمًا، وإن شئت فقل: في الكرم؛ هذا التَّشبيه فيه كلُّ الأركان الأربعة؛ لأنَّ التَّشبيه له أركان أربعة مثل القياس: مشبَّه، مشبَّه به، أداة التَّشبيه، ووجه الشَّبه؛ فإذا قلت: فلان كالبحر كرمًا؛ أو في الكرم لا بأس، فهنا التَّشبيه ذكر فيه الأركان الأربعة، باعتبار ذكر أداة التَّشبيه يسمَّى مرسلًا؛ وباعتبار ذكر وجه الشَّبه يسمَّى غير بليغ؛ يعني إنَّ هذا أدنى أنواع التَّشبيه، فلان إذا ذكر المشبَّه والمشبَّه به وأداة التَّشبيه و وجه التَّشبيه فهذا أدنى أنواع التَّشبيه؛ إذا حذفت أداة التَّشبيه وذكر

وجه الشَّبه صار مؤكَّدًا لكنَّه غير بليغ؛ لأنَّك إذا قلت: فلان بحر؛ أكَّدت أنَّه بحر؛ في الكرم نقصت قليلًا؛ فإذا حذفت أداة التَّشبيه ووجه الشَّبه صار تشبيها بليغًا إذا قلت: فلان بحر؛ فإذا قلت: رأيت بحرًا يعطي الدراهم بلا عدٍّ؛ صار هذا أبلغ من الأوَّل، ويسمَّى هذا استعارة على كلِّ حال، {عرضها السموات والأرض} هذا التَّشبيه نوعه بليغ، لأنَّه حذفت منه أداة التَّشبيه ووجه الشَّبه فيكون بليغًا؛ {عرضها السموات والأرض}: يعني كعرض السماء والأرض؛ لكن هل يلزم من هذا أن تكون مالئة للسماء والأرض؟ أو أنَّها كعرض السماء والأرض وإن كانت هي في محلٍّ آخر؟ الثاني؛ ولذلك شكَّك بعض العلماء في الأحاديث التي فيها أنَّ رجلًا من اليهود سأل النبي ﷺ قال: عرضها السموات والأرض، كيف تكون عرضها السموات والأرض؟! أين السموات والأرض إذا كانت هي عرضها عرض السموات والأرض؟ فقال الرسول: ((أين يكون الليل إذا جاء النهار؟)) فهذا الحديث في رفعه نظر؛ لأنَّ الآية لا تدلُّ على أنَّ الجنة ملأت السموات والأرض وصارت في محلِّهما، بل تدلُّ على أنَّ عرضها عرض السموات والأرض وإن كانت هي فوقهما؛ ولذلك نقول: إنَّ الجنة فوق السموات والأرض كلِّها كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ: ((إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنَّه أعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقها عرش الرحمان ([1]))، وهذا يدلُّ على أنَّ الجنة فوق السموات؛ وأمَّا النار فهي في أسفل السافلين؛ وعلى هذا فلا يكون في الآية إشكال إطلاقًا؛ ويحتمل أن نقول: إنَّ هذا اليهودي أراد أن يلبس ويشبِّه في القرآن ويتَّبع ما تشابه، وإنَّ النبي ﷺ إذا صح الحديث أجابه على وجه يبهت فيه ولا يتكلَّم، وعلى مقتضى عقله فقال: ((أين الليل إذا جاء النهار([2])))؛ وعلى كلِّ حال فإنَّ معنى الآية الكريمة أنَّ هذه الجنة عرضها عرض السموات والأرض؛ طيب وطولها؟ قال بعض أهل العلم: إنَّه إذا كان عرضها السموات والأرض فطولها أعظم وأعظم، لأنَّ العادة أنَّ العرض دون الطول؛ ولكنَّ الصحيح أنَّ عرضها واحدة ليس لها عرض وطول؛ وذلك لأنَّها مستديرة وليست مربع؛ وإذا كانت كذلك فإنَّ عرضها يكون طولها، هذا هو الصحيح الذي صحَّحه جماعة من أهل العلم.

{أعدَّت للمتَّقين}: الذي أعدَّها الله عز وجل، وقد بيَّن الله ذلك في آيات أخرى مثل قوله تعالى: {وأعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار}، فالمعدُّ هو الله؛ ولكنَّه ذكر بصيغة المجهول ليوافق قوله فيما سبق: {أعدَّت للكافرين}؛ المتَّقون هم الذين اتَّخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

١- (قلت): الْبُخَارِيُّ (٧٤٢٣)، وصححه الإمام الألباني في مختصر العلو للعلي العظيم (٤٣)؛ والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها))، قالوا: يا رسول الله: أفلا نبشر الناس بذلك؟ قال: ((إن في الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كما بين السماء والأرض، إذا سألتم الله عز وجل فسألوه الفردوس فإنه في وسط الجنة وأعلا الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٨٩٢). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أرأيتَ هذا الليل [الذي] قد كان [أَلْبَسَ عليك كلَّ شيءٍ]؛ أَيْنَ جُعِل؟!)) قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ! قَالَ: ((فإن الله يفعل ما يشاء)).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والجنة؛ وهل الأمر للوجوب؟ نقول أمَّا فيما يجب فواجب، وفيما لا يجب ليس بواجب؛ ولكنَّ الإنسان يؤمر بأن يسارع. وفيه دليل على أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يؤثر غيره بالقربات؛ لأنَّه إذا آثر غيره بالقربات فهذا يعني التَّأخُّر؛ ومن أمثلة ذلك: أن يؤثر غيره بمكانه الفاضل في الصف، بأن يتأخَّر عن مكانه في الصف الأول لرجل آخر؛ فإنَّ هذا خلاف المسارعة إلى الخيرات؛ ولكن إذا ترتَّب على إيثار غيره بهذا المكان مصلحة أكبر من مصلحة التقدُّم لم يكن إيثاره من باب التأخُّر عن الخيرات، لأنَّه تنازل عن فضيلة إلى فضيلة أعلى؛ فلا يكون هذا إيثارًا في الحقيقة يدلُّ على زهد الإنسان فعل الخير؛ بل هو إيثار فيه انتقال من خير إلى ما هو خير منه؛ وقد مرَّ علينا أظن الإيثار بالقُرَب أنَّه ينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: الإيثار بالواجب؛ فهذا محرَّم؛ الثاني: الإيثار بالمستحب فهذا مكروه؛ والثالث: الإيثار بالمباح، ولكن لا يأتي هذا التقسيم بالنسبة للقُرَب لأنَّ القُرَب ما تكون مباح القرب من باب المشروع فعله؛ فهو إذًا قسمان الإيثار بالقرب: إيثار بواجب فهو حرام؛ إيثار بالمستحب فهو مكروه؛ مثال الإيثار بالواجب؟ عنده مال لا يكفي إلَّا لحج رجل واحد فيعطي غيره ليحجَّ به ويدَع نفسه؛ الإيثار في المستحب؟ تقدُّم في الصف؛ أن يؤثره بالمكان الفاضل في الصف.

٢- ما ذكر من أنَّ التَّخلية قبل التَّحلية؛ لأنَّه قال: {إلى مغفرة وجنة}، فبالمغفرة الزحزحة عن النار التي أوجبتها الذنوب؛ وبالجنة دخول الجنة: {فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز}.

٣- أنَّ المغفرة لا تكون إلَّا من الله: {إلى مغفرة من ربكم}، لأنَّ مغفرة غير الله لا تفيد، إنَّما تفيد في حق الإنسان الخاص، إذا سمح عنك وغفر لك فهذا يفيد، كما قال تعالى: {وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإنَّ الله غفور رحيم}.

٤- بيان سعة الجنة؛ لقوله: {عرضها السموات والأرض}.

٥- أنَّ الجنة موجودة الآن؛ لقوله: {أعدَّت}، والإعداد التهيئة؛ وقد تضافرت النصوص الكثيرة على أنَّ الجنة موجودة الآن.

٦- أنَّ أصحاب الجنة هم المتَّقون؛ لقوله: {للمتَّقين}، كما قال في النار: {أعدَّت للكافرين}؛ فالمتَّقون هم أهل الجنة.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {١٣٤}

قال السعدي: ثم وصف المتَّقين وأعمالهم، فقال: {الذين ينفقون في السراء والضراء}: أي في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قلَّ.

قال أبو زهرة: ومعنى النَّص السامي أنَّهم ينفقون، ويتجدَّد إنفاقهم آنًا بعد آنٍ، ولذا عبَّر بالمضارع؛ لأنَّ التَّعبير بالمضارع يفيد التجدُّد المستمر، والتَّعبير بالماضي يفيد الواقع المنقضي.

قال ابن العثيمين: وحينئذ قد يسأل السائل: كيف بدأ بالإنفاق دون ذكر الصلاة مثلًا؛ والصلاة أهم من الإنفاق؟ الجواب: لأنَّه لمَّا نهى عن أكل الرِّبا أضعافًا مضاعفة بدأ بضدِّه، ضد أكل الرِّبا وهو الأنفاق؛ وهذا كقوله: {وما آتيتم من ربا لِّيربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون}، فإنَّه لمَّا قال: {لا تأكلوا الرِّبا أضعافًا مضاعفة}، بدأ بذكر الإنفاق في صفات المتَّقين؛ ويمكن أن نقول: بدأ بهذا ومن بعده لأنَّ هذا فيما يتعلَّق بحقوق الناس، فلو تأمَّلنا مثلًا الإنفاق في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين كلُّها يتعلَّق بحقوق الناس، والرِّبا ظلم للناس وهذه الأشياء إحسان إلى الناس([١]).

{الذين ينفقون في السراء والضراء}؛ ينفقون ماذا؟ حذف المفعول ليكون دالًّا على العموم، أي: ينفقون كلَّ ما يمكن إنفاقه من أعيان ومنافع وجاه وغير ذلك؛ فإنَّ الإنسان قد ينفق أعيانًا كالثياب، ودراهم كالنقود مثلًا؛ وكذلك قد ينفق منافع بأن يعير شخصًا ما ينتفع به هذا المستعير؛ وجاهًا بأن يتوسط لشخص أو يشفع له؛ فالإنفاق هنا عام: {الذين ينفقون}؛ و{في السراء والضراء}: {السراء} ما يسر، {والضراء} ما يضر: يعني في حال الرخاء وفي حال الشدَّة ينفقون؛ ولم يبيِّن على من ينفقون؟؛ ولكنَّ الله قد بيَّن في سورة البقرة قال: {يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين بالمعروف}، فينفق في جهات الخير لا في جهات الشر؛ لأنَّه لو أنفق في جهات الشر لخرج عن وصف المتَّقين، والله سبحانه وتعالى ذكر الإنفاق هنا وصفًا للمتَّقين؛ فلابدَّ أن يكون إنفاقهم فيما يرضي الله.

إذا قال قائل: في السراء والضراء؛ أمَّا في السراء والسعة والرَّخاء فالإنفاق وجيه؛ وأمَّا في الضراء فكيف يكون الإنفاق؟ فالجواب: أنَّه يجب أن نعلم أنَّ الإنفاق ليس خاصًّا بالإنفاق على البعيد عنك، بل هو عام يشمل حتى الإنفاق على ابنك وبنتك وأمك وأبيك وزوجتك بل ونفسك، حتى الإنفاق على النفس يؤجر الإنسان عليه ويكون صدقة، قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كلمة جامعة نافعة قال: ((واعلم أنَّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلَّا أجرت عليها حتى ما تجعله في في امرأتك([٢])))؛ إذًا نقول هل يمكن الإنفاق في الضراء؟ الجواب نعم ينفق، قد يكون الإنسان في أشدُّ العسر وينفق على أهله وزوجته بل وعلى نفسه.

{والكاظمين الغيظ}: الكظم معناه المنع مع ألم وتأثُّر؛ الكظم يعني يكظم بألم وشدَّة وتأثُّر؛ والغيظ قيل: إنَّه أشدُّ الغضب، يعني أنَّهم إذا غضبوا وثاروا حبسوا غيظهم؛ ومعلوم أنَّ من أشدِّ ما يكون على الإنسان أن يحبس غيظه، ويعرف ذلك من

١- (قلت): قال ابن القيم في إعلام الموقعين: ثُمَّ ذَكَرَ الْجَنَّةَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَهَؤُلَاءِ ضِدُّ الْمُرَابِينَ، فَنَهَى سُبْحَانَهُ عَنْ الرِّبَا الَّذِي هُوَ ظُلْمٌ لِلنَّاسِ، وَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ الَّتِي هِيَ إحْسَانٌ إلَيْهِمْ.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨٢).

يكون سريع الغضب، فإنَّه إذا أراد أن يكظم الغيظ يجد شدَّة عظيمة كأنَّ أحدًا يصرعه صرعًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((ما تعدُّون الصُّرعة فيكم؟))، قالوا: الذي لا يصرع هو الصرعة؛ والصرع معناه الطرح، قال: ((إنَّما الصرعة من يملك نفسه عند الغضب)). وفي رواية أخرى: ((ليس الشديد بالصُّرعة إنَّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب([1]))). وصدق النبي ﷺ، كم من إنسان لا يملك نفسه عند الغضب، فتجده مثلًا يكسر ماله، يطلق زوجته، ربما يلطم نفسه، وربما يسقط نفسه من علو؛ المهم أنَّ الغضب شديد، جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى لا يدري ما يقول؛ ولهذا كان أصح أقوال أهل العلم أنَّ من غضب غضبًا لا يملك نفسه به فإنَّه لا عبرة بقوله أيًّا كان سواء كان طلاقًا أو خلعًا أو لعنًا أو قذفًا أو غير ذلك فإنَّه لا عبرة به لأنَّه ليس له قصد؛ وبعض الناس إذا غضب تغيب عنه الدنيا لا يرى من أمامه أبدًا ولا يسمع قول من يتكلَّم، ربما يتكلَّم بكلام مكروه ويصيحون به وهو لا يسمعهم من شدَّة غضبه؛ ولهذا نقول إنَّ الغضب ثلاثة أقسام: بداية وغاية ووسط؛ البداية؛ لا تؤثِّر لأنَّ كلَّ إنسان يغضب؛ والغاية؛ لا حكم لها، بمعنى أنَّ كلَّ ما صدر عن الغاضب فإنَّه لا حكم له؛ وذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه: إغاثة اللهفان في عدم وقوع طلاق الغضبان: أنَّ ذلك بالاتفاق؛ والثالث: الوسط؛ هذا محل خلاف بين العلماء، والصحيح أنَّه لا حكم لقوله وأنَّ طلاقه لا يقع.

هذا هو الصُّرعة الذي إذا ثارت نفسه ملكها؛ ولهذا قال: {والكاظمين الغيظ}: يعني إذا فعل بهم إنسان ما يغيظهم فإنَّهم يكظمون على شدَّة ومعاناة وألم؛ ويدلُّ على أنَّ الكظم فيه شدَّة ومعاناة قول النبي ﷺ: ((إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع([2]))، ولهذا يجد بعض الناس إذا أراد التثاؤب يجد شدَّة عظيمة في منع فتح فمه، مع أنَّ المشروع أن تكظم وأن لا تفتح الفم؛ وقد ذكر بعض العلماء شيئًا ييسِّر لك الكظم، قال: إذا أصابك التثاؤب فعَض شفتك السفلى، إذا عضتها لم يفتح؛ هذه لاشك أنَّها فيها علاج؛ إذًا الكظم معناه الحبس لكن بشدَّة ومعاناة؛ والغيظ أشدُّ الغضب؛ وإذا كانوا يكتمون الغيظ وهو أشدُّ الغضب فما بالك بما دونه؛ ولكن الحالة العلياء هي كظم الغيظ.

قال السعدي: {والكاظمين الغيظ}: أي إذا حصل لهم من غيرهم أذيَّة توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

قال ابن العثيمين: {والعافين عن الناس}: العفو ترك المؤاخذة على الذنب، والمعنى هم الذين إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالعفو، وخير من ذلك أن يقابلوه بالإحسان.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٢٣٥٢)؛ والحديث بتمامه: ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ أَوْ لِيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ فَإِنَّهُ إِذَا تَثَاءَبَ فَقَالَ: آهْ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَضْحَكُ مِنْ جوفه)).

قال ابن كثير: {والعافين عن الناس}: أي مع كفِّ الشَّرِّ يعفون عمَّن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: {والله يحب المحسنين}، فهذا من مقامات الإحسان.

وفي الحديث: ((ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا، ومن تواضع لله رفعه الله[١])).

قال ابن العثيمين: وقوله: {عن الناس}: عام شامل؛ ولكنَّه ليس على عمومه بالاتفاق؛ فإنَّ الإساءة إذا كانت لحقِّ الله فهي لله وليس لأحد أن يعفو عنها؛ فلو زنى رجل بمحرم رجل وأراد أن يعفو عنه؛ قلنا لا يمكن الحقُّ ليس إليك، والله عز وجل يقول: {الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله}؛ أمَّا إذا كان حقًّا للإنسان ليس فيه شائبة حقٍ لله، فهذا ينظر فيه، ليس على عمومه بل ينظر فيه؛ إن اقتضت المصلحة العفو فالعفو خير، وإن اقتضت المصلحة المؤاخذة فالمؤاخذة خير؛ وإن لم تقتضي المصلحة لا هذا ولا هذا بأن تساوى الأمران فالعفو خير؛ لقوله تعالى: {وأن تعفوا أقرب للتَّقوى}، والدليل على هذا أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله}، فعلم منه أنَّ من عفا بدون إصلاح فلا أجر له؛ بل قد يأثم على عفوه، مثال ذلك: رجل اعتدى عليه شخص شرير، كلَّما عفا الناس عنه ازداد شرًّا، فهنا المؤاخذة خير، بل قد تجب؛ إنسان آخر اعتدى على شخص لكنَّه رجل معروف بالاستقامة أعني المعتدي رجل معروف بالاستقامة وعدم الاعتداء، لكن بدرت منه المبادرة فحصلت منه الإساءة؛ فهنا العفو أَولى؛ ولاسيَّما إذا جاء هذا المعتدي يعتذر ويتعهَّد أن لا يعود أو ما أشبه ذلك؛ الثالث: رجل اعتدى على آخر وهو شرير لكنَّه لم يبلغ في الشر غايته، يعني أحيانًا وأحيانًا؛ فهنا العفو أفضل لأنَّه يتساوى الأمران، فالعفو هنا أفضل.

وقوله: {والعافين عن الناس}: يشمل حتى عن الكفار إذا لم يكونوا حربيين؛ فإنَّ الإنسان إذا عفا عنهم فيما يتعلَّق بحقِّه الخاص وكان في العفو إصلاح فإنَّه يدخل تحت الآية الكريمة.

قال السعدي: يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كلِّ من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأنَّ العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنَّما يكون ممَّن تحلَّى بالأخلاق الجميلة، وتخلَّى عن الأخلاق الرذيلة، وممَّن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله}.

قال ابن العثيمين: {والله يحبُّ المحسنين}: يعني الذين يحسنون إلى الناس؛ وهل إنَّ قوله: {والله يحبُّ المحسنين}، عائد على قوله: {للمتَّقين الذين ينفقون في السراء والضراء}، وأنَّ هؤلاء من المحسنين، أو أنَّه لمَّا ذكر العفو وهو إسقاط الإنسان حقَّه عن المؤاخذة ذكر حالًا أخرى أكمل منها وهي الإحسان فقال: {والله يحبُّ المحسنين}: يعني فإذا أحسنوا مع العفو كان ذلك سببًا لمحبَّة الله؛ الثاني له وجه والأول أعمُّ؛ لأنَّنا إذا قلنا: المتَّقين هل هم محسنون؟ نعم، لاشكَّ أنَّ المتَّقي

١- صحيح: مسلم (٢٥٨٨) بدون ذكر القسم.

محسن إذا كان كما وصف النبي ﷺ: يعبد الله كأنَّه يراه فإن لم يكن يراه فإنَّه يراك؛ والذين ينفقون الإنفاق إحسان؛ كاظم الغيظ إحسان، العفو عن الناس إحسان؛ فيكون هذا أشمل؛ فعليه نقول هذه الجملة فيها الترغيب والحثُّ على فعل الخصال السابقة وأنَّها من الإحسان؛ وإذا فعل الإنسان خصلة أعلى ممَّا سبق كانت داخلة في هذا من باب أَولى، يعني كما لو عفا وأحسن فإنَّنا نقول هذه خصلة زائدة على مجرَّد العفو فتكون أَولى بالدخول في قوله: {والله يحبُّ المحسنين}.

قال السعدي: ثم ذكر حالة أعمُّ من غيرها، وأحسن وأعلى وأجلُّ، وهي الإحسان، فقال تعالى: {والله يحبُّ المحسنين}، والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق. والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة الخالق فسَّرها النبي ﷺ بقوله: ((أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك))؛ وأمَّا الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامَّتهم وخاصَّتهم، والسَّعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبَّة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل النَّدى وكفُّ الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتَّقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحقِّ الله وحقِّ عبيده.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٣٠ص٣٦٤: قَالَ تَعَالَى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، فَذَكَرَ: أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ. وَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ هَذَا مِنْ الْإِحْسَانِ. وَالْإِحْسَانُ ضِدُّ الْإِسَاءَةِ، وَهُوَ فِعْلُ الْحَسَنِ، سَوَاءٌ كَانَ لَازِمًا لِصَاحِبِهِ، أَوْ مُتَعَدِّيًا إلَى الْغَيْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا}[الأنعام: ١٦٠]. فَالْكَاظِمُ لِلْغَيْظِ، وَالْعَافِي عَنْ النَّاسِ، قَدْ أَحْسَنَ إلَى نَفْسِهِ، وَإِلَى النَّاسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ عَمِلَ حَسَنَةً مَعَ نَفْسِهِ، وَمَعَ النَّاسِ، وَمَنْ أَحْسَنَ إلَى النَّاسِ فَإِلَى نَفْسِهِ. كَمَا يُرْوَى عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَحْسَنْتُ إلَى أَحَدٍ، وَمَا أَسَأْتُ إلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَحْسَنْتُ إلَى نَفْسِي، وَأَسَأْتُ إلَى نَفْسِي، قَالَ تَعَالَى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}[الإسراء: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}[فصلت: ٤٦].

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْإِحْسَانُ إلَى الْخَلْقِ إحْسَانًا إلَى الْمُحْسِنِ، يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ، لَكَانَ فَاعِلًا إثْمًا أَوْ ضَرَرًا؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ الَّذِي لَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى فَاعِلِهِ؛ إمَّا حَيْثُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ، وَإِمَّا شَرٌّ مِنْ الْعَبَثِ؛ إذَا ضَرَّ فَاعِلَهُ. وَالْعَفْوُ عَنْ الظَّالِمِ أَحَدُ نَوْعَيْ الصَّدَقَةِ؛ الْمَعْرُوفِ، وَالْإِحْسَانِ إلَى النَّاسِ. وَجِمَاعُ ذَلِكَ الزَّكَاةُ.

وَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ – دائماً يَأْمُرُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَهِيَ الصَّدَقَةُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ: ((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ(١)))، وَذَلِكَ نَوْعَانِ:

١- (قلت): البخاري (٦٠٢١)، ومسلم (١٠٠٥).

أَحَدُهُمَا: اتِّصَالُ نَفْعٍ إلَيْهِ.

الثَّانِي: دَفْعُ ضَرَرٍ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ الْمَظْلُومُ يَسْتَحِقُّ عُقُوبَةَ الظُّلْمِ، وَنَفْسُهُ تَدْعُوهُ إلَيْهِ، فَكَفَّ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَدَفَعَ عَنْهُ مَا يَدْعُوهُ إلَيْهِ مِنْ إضْرَارِهِ، فَهَذَا إحْسَانٌ مِنْهُ إلَيْهِ، وَصَدَقَةٌ عَلَيْهِ، وَاَللَّهُ تَعَالَى يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. فَكَيْفَ يَسْقُطُ أَجْرُ الْعَافِي؟! وَهَذَا عَامٌّ فِي سَائِرِ مَا لِلْعَبْدِ مِنْ الْحُقُوقِ عَلَى النَّاسِ؛ وَلِهَذَا إذَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ حُقُوقَ الْعِبَادِ وَذَكَرَ فِيهَا الْعَدْلَ نَدَبَ فِيهَا إلَى الْإِحْسَانِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة: ٢٨٠]. فَجَعَلَ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمَدِينِ الْمُعْسِرِ بِإِسْقَاطِ الدَّيْنِ عَنْهُ خَيْرًا لِلْمُتَصَدِّقِ مِنْ مُجَرَّدِ إنْظَارِهِ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- فضيلة الإنفاق على كلِّ حال؛ لقوله: {الذين ينفقون في السراء والضراء}.

فإن قال قائل: إذا كان الإنسان في ضرورة هو وعائلته فهل ينفق؟ نقول: لا، لا ينفق على أجنبي بل ينفق على نفسه وعائلته وهو داخل في الآية؛ لأنَّ إنفاقه على نفسه وعلى أهله صدقة.

٢- الثناء على من أنفق في السراء والضراء؛ وذلك لأنَّ الإنفاق في السراء ليس بغريب، كلَّ إنسان يهون عليه أن ينفق إذا كان في سراء؛ لكن الإنفاق في الضراء هو الذي يدلُّ على أنَّ الإنسان ينفق طلبًا للأجر لا زهدًا في المال.

٣- ينبغي للإنسان أن يكظم الغيظ لأنَّ ذلك من صفات أهل الجنة؛ لقوله: {والكاظمين الغيظ}؛ وأنَّ لكظم الغيظ أسبابًا منها: الوضوء؛ الجلوس إن كان قائمًا؛ الاضطجاع إن كان قاعدًا؛ الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ الصلاة؛ مفارقة المكان؛ كلُّ هذه من أسباب كظم الغيظ، ثم إنَّ الإنسان إذا كظم الغيظ مرَّة بعد أخرى صار هذا طبيعة وسجيَّة؛ لأنَّه يعتاد غلبة نفسه؛ فيكون له ذلك طبيعة وسجيَّة ولا يهمُّه.

فإن قال قائل: هل يمدح من لا يبالي بما أصابه من خير وشر؟ أو يمدح من كظم الغيظ عند وجود الشر؟ الثاني؛ لأنَّ الأول الذي لا يبالي سواء وجد من يثيرها أم لم يوجد، ومن قال له: تفضَّل يا رجل كمن قال له: تفضل يا حمار، هذا الذي لا يبالي لا هذا ولا هذا ماذا نقول له؟ هذا بليد، ولا يمدح على هذا أبدًا؛ لكن من يعرف الخير والشر ولكنَّه يكظم الغيظ عند وجود الشر هذا هو الذي يمدح.

٤- الحثُّ على العفو عن الناس؛ لكنَّه كما ذكرنا مقيَّد بما إذا كان أصلح.

٥- إثبات المحبَّة لله عز وجل، وأنَّه يحبُّ؛ وهل المحبَّة هنا صفة ثابتة لله أو يراد بها إرادة الإحسان أو الإحسان نفسه؟ الصحيح الأول: أنَّها صفة لله عز وجل، وأنَّ إرادة الإحسان أو الإثابة غير المحبَّة.

فإن قال قائل: المحبَّة لا تكون إلَّا بين المتجانسين، ولا مجانسة بين الخالق والمخلوق؟ نقول هذا غير صحيح، أصلًا لا يلزم من المحبَّة تجانس المتحابين؛ الإنسان يحب بعض السيارات التي يركب، بعض البعير، الإبل، بعض الدور؛ يحبُّها محبةً حقيقيَّةً بقلبه؛ أليس كذلك؟ فهذه الدعوى دعوى باطلة يكذِّبها الحس، والواقع أنَّ المحبَّة لا تكون إلَّا بين المتجانسين.

إذا قالوا إنَّ المحبَّة هي ميل الإنسان إلى ما يجلب له المنفعة أو يدفع عنه المضرَّة، ماذا نقول؟ نقول هذا أيضًا غير صحيح؛ وهذا وإن قدِّر أنَّه لازم المحبَّة في المخلوق فليس بلازم المحبَّة بالنسبة للخالق لأنَّ الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين؛ فإن قالوا: العقل لا يدلُّ عليها، فلا يجوز إثباتها؛ فالجواب عن هذا أوَّلًا: أنَّ العقل ليس دليلًا في إثبات صفات الله أو نفيها؛ فنحن نمنع الاعتماد على العقل في إثبات الصفات أو نفيها؛ ونقول من أين لكم أنَّ المدار في إثبات الصفات أو نفيها هو العقل؛ هذه واحدة؛ ثانيًا: أن نقول هب أنَّ العقل لم يدلُّ عليها فإنَّه لا ينفيها، لأنَّ دعواكم النفي في أنَّه لا يكون المحبَّة إلَّا بين متجانسين دعوى باطلة؛ والشرع قد أثبتها؛ وانتفاء الدليل المعيَّن الذي هو العقل على زعمكم لا يمنع انتفاء المدلول، لأنَّ المدلول قد يثبت بدليل آخر غير ما ذكرت؛ فهبْ أنَّ العقل لم يدلُّ عليه فقد دلَّ عليه السمع الكتاب والسنة فوجب ثبوت المحبَّة. ثالثًا أن نقول: إنَّ العقل قد دلَّ على ثبوت المحبَّة لله، العقل دلَّ على ثبوت المحبَّة لله؛ كيف ذلك؟ إثابة الطائعين يدلُّ على أنَّ الله أحبَّهم، إذ لا يمكن أن يثيب أحدٌ عقلًا إلَّا وهو يحبُّه؛ فيكون إثابة الطائعين دليلًا عقليًا على ثبوت المحبَّة كما جعلتم أنتم التَّخصيص دليلًا عقليًّا على ثبوت الإرادة؛ ولا فرق بينهما، بل إنَّ إثابة الطائعين أدلُّ على المحبَّة من دلالة التَّخصيص على الإرادة؛ ولكن يجب أن نعلم أنَّ محبَّة الله سبحانه وتعالى للإنسان ليست محبَّة لجماله أو لحسن ثيابه أو ما أشبه ذلك كما تكون بين المخلوقين؛ بل هي محبَّة لإيمانه وعمله، فكلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله وأكثر عبادةً لله صار أحبَّ إلى الله؛ ولهذا جاء في الحديث: ((إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم وإنَّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم([1]))، فالمدار على القلب والعمل؛ فكلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله وأكثر عبادةً لله كان أحبَّ إليه؛ ومن ذلك الإحسان.

٦- الحثُّ على الإحسان؛ يؤخذ من قوله: {والله يحبُّ المحسنين}، فإنَّ كلَّ إنسانٍ يعلم أنَّ الله يحبُّ الإحسان فسوف يحسن، ويتقدَّم إلى الإحسان ويحرص عليه؛ لأنَّ محبَّة الله للعبد هي غاية ما يريد، {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}، الغاية أنَّ الله يحبُّك حتى الذين قالوا: إنَّا نحبُّ الله، قال: طيب إن كنتم تحبُّون الله فاتَّبعوني يحببكم الله، لأنَّ الشأن كلَّ الشأن أن يحبُّك الله لا أن تقول إنِّي أحبُّ الله؛ هذا هو الشأن.

١- (قلت): مسلم (٢٥٦٤)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)).

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ {١٣٥}

قال ابن العثيمين: قال الله تبارك وتعالى في بيان أوصاف المتَّقين الذين أعدَّت لهم الجنة: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ...}. {والذين} الواو هذه حرف عطف؛ والأصل في المعطوف أن يكون مغايرًا للمعطوف عليه؛ ولكنَّ المغايرة قد تكون في المعنى، وقد تكون في الصفة، وقد تكون في اللفظ، وقد تكون في الذَّات؛ فلا يلزم من المغايرة إذا قلنا إنَّ العطف يقتضي المغايرة أن يكون المغايرة بالذَّات؛ بل قد يكون التغاير في الصفة وفي اللفظ وفي المعنى؛ فإذا قلنا: قدم زيد وعمرو؛ فهنا العطف يقتضي المغايرة في الذَّات؛ لأنَّ هذا غير هذا لاشك؛ وفي هذه الآية: {والذين إذا فعلوا فاحشة}، المغايرة بالصفة فهي كقوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدَّر فهدى والذي أخرج المرعى}، هل الذي قدَّر فهدى والذي أخرج المرعى هو الله أو غيره؟ هو الله، لكن هذا عطف صفة على صفة؛ التغاير في اللفظ مثل قول الشاعر: فألفا قولها كذبًا ومينًا

المين هو الكذب ولكنَّه عطفه عليه من باب عطف المترادفين؛ ولهذا لا يأتي في اللغة العربية كذبًا وكذبًا، إنَّما يأتي كذبًا ومينًا، لابدَّ من تغاير في اللفظ.

التغاير في المعنى قريب من التغاير في الصفة؛ فالَّذي معنا الآن: {والذين إذا فعلوا فاحشة}، من باب تغاير في الصفة. من صفاتهم: {أنَّهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم}، فاحشة هي ما يستفحش شرعًا أو عرفًا مثل الزنا، فإنَّ الزنا فاحشة شرعية وفاحشة عرفية؛ كذلك اللِّواط فاحشة شرعية وعرفية، قال لوط لقومه: {أتأتون الفاحشة}؛ كذلك نكاح ما نكح الآباء هو أيضًا فاحشة: {ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من نساء إلَّا ما قد سلف إنَّه كان فاحشةً ومقتًا}، ولهذا نقول: الفاحشة كلُّ ما يستفحش عقلًا أو شرعًا وعادةً؛ ولكن في باب الثواب والعقاب المرجع إلى الشرع؛ ولهذا قال بعض العلماء المراد بالفاحشة الكبيرة؛ وقوله: {أو ظلموا أنفسهم}: المراد به ما دون الفاحشة، ما دون الفاحشة وهي الصغائر؛ وعلى هذا فالعطف بين قوله: {فاحشة}، و{أو ظلموا أنفسهم} عطف بين متغايرين، وليس من باب عطف العام على الخاص، وإن كانت الفاحشة لاشكَّ أنَّها داخلة في ظلم النفس؛ لكنَّ المراد هنا التنويع: {أو ظلموا أنفسهم}. وإذا كان المراد التنويع لزم أن يكون كلُّ نوع سوى النوع الآخر.

وقوله: {أو ظلموا أنفسهم}، قد يقول قائل: كيف يتصور أنَّ الإنسان يظلم نفسه؟ وهو يدفع عن نفسه الظلم؟

والجواب على ذلك نقول: كلُّ من خالف أمر الله بفعل محرَّم أو ترك واجب فقد ظلم نفسه، قال الله تعالى: {ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه}؛ لماذا؟ لأنَّ النفس عندك أمانة تجب عليك رعايتها وقد أوصاك الله بها فقال: {ولا تقتلوا أنفسكم}؛

قال: {إنَّ عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حُرُم ذلك الدِّين القيم فلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم}، فنهى الله عن قتل النفس وعن ظلم النفس لأنَّها أمانة عندك.

إذًا نقول وجه كون الإنسان ظالم نفسه أنَّ نفسك عندك أمانة، فإذا فرطت في هذه الأمانة بأن أقحمت نفسك فيما حرَّم الله عليك، أو تأخَّرت عما أوجب الله عليك فقد ظلمت نفسك.

ظلم النفس هو في نفس الواقع ظلم في حقِّ الغير؛ لأنَّ ظلم النفس إمَّا في حقٍّ يتعلَّق بالله عز وجل، وإمَّا في حقٍ يتعلَّق بالمخلوق؛ فإن كان في حقِّ الله فإنَّك ظالم في حقِّ الله؛ وإن كان في حقِّ المخلوق فإنَّك ظالم في حقِّ المخلوق، قال النبي ﷺ: ((مطل الغني ظلم([1])))، وبهذا نعرف أنَّ من ظلم نفسه فقد ظلم ثلاثة: ظلم نفسه وظلم حقُّ الله عز وجل وظلم المخلوق؛ لأنَّ كلَّ هذه تتعلَّق بأوامر الله ونواهيه.

{ذكروا الله}: أي بالقلب وباللِّسان وبالجوارح؛ فإنَّهم إذا ظلموا أنفسهم أو فعلوا فاحشة ذكروا عظمة الله وما أعدَّ للمخالفين من العقاب، وذكروا كذلك رحمة الله وما أعدَّ للطائعين من الثواب؛ هذا ذكر بالقلب؛ فإذا ذكروا الله بالمعنى الأول ذكروا عظمته فخافوا من عقابه استقاموا على دينه هربًا من عقابه؛ وإذا ذكروا الله بالمعنى الثاني وهو ذكر رحمته وثوابه فإنَّهم يستقيمون على شرعه طلبًا للوصول إليه؛ فذِكر الأول من باب الهرب؛ والثاني من باب الطلب؛ والعابد بمقتضى الطلب أعلى حالًا من العابد بمقتضى الهرب؛ قالوا: لأنَّ الطالب ناصح في غيبة المطلوب وفي حضوره؛ والهارب ناصح في حضور المخوف، لكن في غير حضوره لا يهتم؛ ويمكن أن يؤخذ هذا من قول الرسول ﷺ: ((أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك))؛ إذًا ذكر القلب يكون على وجهين؛ الوجه الأول: ذكر عظمة الله عز وجل وعقوبته فيستقيم على شرعه هربًا من عقوبته؛ والثاني: ذكر رحمة الله عز وجل وفضله ومنته وثوابه العظيم؛ فيستقيم على شرعه طلبًا لثوابه ورجاء له؛ وذكر الله باللِّسان يمكن أن يكون المراد به الذِّكر الخاص مثل (لا إله إلا الله)؛ فذِكر الله لاشكَّ أنَّه من أسباب مغفرة الذنوب؛ فيذكرون الله بألسنتهم يقول: (لا إله إلا الله)، فيقولون كلمة الإخلاص؛ وهذه إذا قالها الإنسان مخلصًا غفر الله له؛ وكذلك أيضًا ذكر الله باللِّسان بالاستغفار اللهم اغفر لي، إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله بالاستغفار: اللهم اغفر لي أو أستغفر الله أو ما أشبه ذلك.

والذِّكر بالفعل هو أنَّهم يفعلون ما يكفِّر هذه الذنوب والخطايا؛ ومن ذلك الصدقة، فإنَّ النبي ﷺ قال: ((الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار([2])))، وكذلك أيضًا الصلاة فإنَّ الإنسان إذا توضأ وأسبغ الوضوء ثم صلَّى ركعتين لا يحدِّث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٢٨٨)، ومسلم (١٥٦٤). والحديث بتمامه: ((مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ فَإِذَا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيءٍ فَلْيتبعْ)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (١١٧)، وقال: صحيح أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم.

{فاستغفروا لذنوبهم}: الفاء للتَّرتيب والتَّعقيب يعني فإذا ذكروا الله استغفروا لذنوبهم؛ أي طلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى لذنوبهم؛ وتقدَّم لنا مرارًا أنَّ المغفرة تعني ستر الذنب والتَّجاوز عنه؛ وقوله: {لذنوبهم}: الذنوب هي المعاصي والآثام، فيسأل الله تعالى أن يغفر لهم هذه المعاصي والآثام؛ وإذا استغفر الإنسان ربه بنيَّة صادقة وافتقار إليه فإنَّ الله تعالى يغفر له؛ ولهذا قال: {ومن يغفر الذنوب إلَّا الله}.

قال ابن كثير: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ رجلًا أذنب ذنبًا، فقال: رب إني أذنبت ذنبًا فاغفره لي فقال الله عز وجل: عبدي عمل ذنبًا، فعلم أنَّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إني عملت ذنبًا فاغفره لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أنَّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إني عملت ذنبًا فاغفره لي، فقال عز وجل: علم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أنِّي قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء([1]))).

عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفَّعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإنَّ أبا بكر رضي الله عنه حدثني – وصدق أبو بكر – أنَّه سمع رسول الله ﷺ قال: ((ما من عبد يُذْنِبُ ذنبًا، فيُحْسِن الطُّهور، ثم يقومُ فيصلِّي ركعتين، ثم يستغفرُ الله؛ إلَّا غفر الله له))؛ ثم قرأ هذه الآية: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ... } إلى آخر الآية([2]).

وممَّا يشهد لصحَّة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ – أو: فيسبغ – الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، إلَّا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيُّها شاء([3]))).

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من توضأ نحو وضوئي هذا، ثمَّ صلَّى ركعتين لا يحدِّث فيهما نفسه غفر له ما تقدَّم من ذنبه([4]))). فقد ثبت هذا

١- (قلت):: البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (١٣٦١)، وقال: إسناده صحيح، وصححه ابن حبان، وحسَّنه الترمذي.

٣-(قلت): مسلم (٢٣٤).

٤-(قلت): البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦). والحديث بتمامه عند مسلم: حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ، وَحَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى التُّجِيبِيُّ، قَالَا: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَزِيدَ اللَّيْثِيَّ، أَخْبَرَهُ أَنَّ حُمْرَانَ، مَوْلَى عُثْمَانَ، أَخْبَرَهُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَعَا بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)). قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَكَانَ عُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ: هَذَا الْوُضُوءُ أَسْبَغُ مَا يَتَوَضَّأُ بِهِ أَحَدٌ لِلصَّلَاةِ.

الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين، كما دلَّ عليه الكتاب المبين من أنَّ الاستغفار من الذنب ينفع العاصين.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَبُو مَنْصُورٍ السَّمْعَانِيُّ أَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّيَانِيُّ أَنَا حميد بن زنجويه أخبرنا أبو النُّعْمَانُ السَّدُوسِيُّ أَخْبَرَنَا الْمَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ أَخْبَرَنَا غَيْلَانُ بْنُ جريرٍ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ معدي كرب، وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال: ((قال الله: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كان منك، ابن آدم إنّك إن لقيتني بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إن تذنب حتى يبلغ ذنبك عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرُ لك[١])).

قال ابن العثيمين: {ومن يغفر الذنوب إِلَّا الله}: {من} هذه اسم استفهام وليست اسم شرط، والدليل على أنَّها اسم استفهام وليست اسم شرط، أنَّ الفعل بعدها وقع مرفوعًا {ومن يغفرُ}، ثم إنَّ أداة الإثبات جاءت بعدها وهي {إلّا}؛ وعلى هذا فنقول: {من} اسم استفهام بمعنى النفي؛ ويدلُّ على أنَّها بمعنى النفي إتيان الإثبات بعدها وهي: {إلّا الله}.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من أن يأتي النفي بصيغة الاستفهام؟ فلماذا لم تكن الآية: (ولا يغفر الذنوب إلَّا الله)، كما في حديث أبي بكر رضي الله عنه الذي علمه النبي ﷺ حيث قال: ((اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلَّا

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((واستنثر)): قال جمهور أهل اللغة والفقهاء والمحدثون الاستنثار هو إخراج الماء من الأنف بعد الاستنشاق وهو مأخوذ من النثرة وهو طرف الأنف. ((لا يحدث فيهما نفسه)): المراد لا يحدث بشيء من أمور الدنيا وما لا يتعلق بالصلاة، ولو عرض له حديث فأعرض عنه، بمجرَّد عروضه عفي عن ذلك وحصلت له هذه الفضيلة إن شاء الله تعالى، لأنَّ هذا ليس من فعله وقد عفي لهذه الأمة عن الخواطر التي تعرض ولا تستقر.

١– حديث صحيح بشواهده. رجاله ثقات غير شهر بن حوشب، ففيه ضعف، وهو مدلس، ومعدي كرب هذا لم أجد من ذكر أنه يروي عن أبي ذر، وأنه روى عنه شهر بن حوشب على أنه اضطرب في اسمه كما سيأتي.

– وهو في شرح السنة (١٢٨٥) بهذا الإسناد.

– وأخرجه أحمد ٥/ ١٧٢ من طريق غيلان بن جرير، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن معدي كرب به. وهو عند الدارمي بالإسناد المتقدم لكن فيه عمرو بن معد يكرب، وكرره أحمد ٥/ ١٧٢/ ٢٠٩٩٤ من وجه آخر عن شهر، عن معد يكرب به، وقد توبع معد يكرب.

فقد أخرجه أحمد ٥/ ١٥٤ من طريق عبد الحميد بن بهرام، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ، عَنْ أبي ذر به، فالإسناد لا بأس به من أجل شهر بن حوشب ولم ينفرد به.

– فله شاهد من حديث أنس أخرجه الترمذي ٣٥٣٥ وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. قلت: إسناده لين لأجل كثير بن فائد، فإنه مقبول، ويحسن حديثه بالمتابعة، وقد توبع.

– ومن حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٣٤٦) والصغير (٨٢٠) والأوسط (٥٤٧٩). وقال الهيثمي في المجمع (١٧٦٢٨): وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وقيس بن الربيع، وكلاهما مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ.

– وورد من وجه آخر من حديث أبي ذر مختصرا أخرجه الحاكم ٤/ ٢٤١ وأحمد ٥/ ١٠٨ وفي إسناده عاصم بن بهدلة، وهو صدوق. والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

– وله شاهد من حديث أبي الدرداء أخرجه الطبراني كما في المجمع (١٧٦٢٩ و ١٧٦٣٠) من طريقين في الطريق الأول قال الهيثمي: وفيه من لم أعرفهم، وفي الثاني العلا بن زيد، وهو متروك.

الخلاصة: حديث الباب حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

أنت))، الشاهد قوله: ((ولا يغفر الذنوب))؛ وهذه جاءت كقوله: {ومن يغفر الذنوب إلَّا الله}، فنقول: لأنَّ النفي بصيغة الاستفهام أبلغ من النفي المجرَّد؛ لأنَّه إذا جاء النفي بصيغة الاستفهام صار مشربًا بالتَّحدِّي، كأن المستفهم يقول: ائت لي بأحد يغفر الذنوب إلَّا الله عز وجل؛ فيكون الاستفهام هنا دالًّا على النفي مشربًا بالتَّحدِّي.

{إلَّا اللهُ} بالرفع مع أنَّه وقع بعد {إلَّا}، لأنَّ الكلام مفرغ؛ والمفرغ هو الذي لم يذكر فيه المستثنى منه، الاستثناء المفرغ هو الذي لا يذكر فيه المستثنى منه؛ فإذا قلت: (ما قام إلَّا زيد)؛ فهنا الاستثناء مفرغ؛ لأيِّ شيء؟ لم يذكر فيه المستثنى منه؛ وإذا قلت: (ما قام أحد إلَّا زيد)؛ فهذا غير مفرغ، لأنَّه ذكر المستثنى منه؛ وإذا قلت: (ما رأيت إلَّا زيدًا)؛ مفرغ، لأيِّ شيء؟ لأنَّه لم يذكر المستثنى منه؛ وإذا قلت: (ما رأيت أحدًا إلَّا زيدًا)؛ فهذا غير مفرغ.

{ومن يغفر الذنوب إلَّا الله}: يعني لا أحد يغفر الذنوب إلَّا الله؛ لو تستغفر كلَّ الخلق من ذنبك ما نفعوك، لو أنَّك مثلًا أتيت إلى كلِّ الذي في المسجد وقلت: أستغفركم من الذنب الذي فعلت؛ هل ينفع مغفرته؟ لنفرض أنَّ رجلًا أساء في المسجد إساءة محرَّمة تؤذي المصلِّين، فجاء فقال: أيُّها المصلُّون أستغفركم ممَّا فعلت؛ هل يمكن أن يغفروا له؟ يمكن أن يغفروا له ما يتعلَّق بهم؛ ولكن أصل الذنب لا يمكن أن يغفروا له لأنَّ الله يقول: {ومن يغفر الذنوب إلَّا الله}.

{ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون}: قوله: {ولم يصرُّوا} معطوف على قوله: {فاستغفروا}، {فاستغفروا لذنوبهم ولم يصرُّوا}.

{يصرُّوا}: أي يستمروا على ما فعلوا ويبقوا عليه؛ لأنَّ طالب المغفرة لا يمكن أن يصرَّ؛ كيف تقول: اللهم اغفر لي، وأنت مصرٌّ على معصيتك؟ هذا سخرية واستهزاء؛ ولهذا قال: {ولم يصرُّوا على ما فعلوا} من الفاحشة وظلم النفس؛ {وهم يعلمون}([1]).

قوله: {وهم يعلمون}: يحتمل أن تكون استثنائية، {ولم يصرُّوا على ما فعلوا}: يعني أتى بجملة مستأنفة فقال: وهؤلاء يعلمون عظم الذنوب ويعلمون عظم من عصوه ولذلك لا يصرُّون على ما فعلوا؛ ويحتمل أن تكون الواو للحال، يعني ولم يصرُّوا على ما فعلوا حال كونهم عالمين بأنَّ الإصرار على الذنب لا تحصل معه المغفرة؛ أو وهم يعلمون بأنَّ هذا ذنب؛ فإذا وقع منهم ذنب أصرُّوا عليه؛ فإنَّهم لا يعلمون أنَّه ذنب؛ والآية ما دامت تحتمل هذه الأوجه الثلاثة فإنَّنا نقول على القاعدة أنَّها تحمل على كلِّ ما تحتمله الآية من معنى، ولا تناقض بين المعاني، فإنَّه يجب أن تحمل عليها كلِّها؛ فإن كانت تتناقض أو تتعارض المعاني فإنَّه يطلب المرجِّح لأنَّه لا يمكن أن يحمل الكلام على الشيء وضده فحينئذ نطلب المرجِّح؛ هذه هي القاعدة.

قال الطبري: وهم يعلمون أنّ الله قد تقدَّم بالنهي عنها، وأوعد عليها العقوبةَ من ركبها.

١- (قلت): قال ابن القيم في مدارج السالكين: قالوا: وَالْإِصْرَارُ عَقْدُ الْقَلْبِ عَلَى ارْتِكَابِ الذَّنْبِ مَتَى ظَفِرَ بِهِ، فَهَذَا الَّذِي يَمْنَعُ مَغْفِرَتَهُ.

- (قلت): من توفر فيه شروط التوبة الخمس وهي- الإخلاص لله، والإقلاع عن الذنب في الحال، والنَّدم على ما فعل من الذنب، والعزم على عدم العودة الى الذنب، وأن تكون التوبة في وقت القبول، أي: قبل الغرغرة أو طلوع الشمس من مغربها - فليس بِمُصِرّ؛ ومن فرّط في شرط واحد فهو المُصِرّ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٧ص٢٩: قَالَ سُبْحَانَهُ فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}.

فَوَصَفَهُمْ بِالْكَرَمِ وَالْحِلْمِ وَبِالْإِنْفَاقِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ وَالْعَفْوِ عَنْ النَّاسِ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَاتُ وَصَفَهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا فَقَالَ: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا}، فَوَصَفَهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا وَتَرْكِ الْإِصْرَارِ عَلَيْهَا لَا بِتَرْكِ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا السَّمْعُ، وَاللِّسَانُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْمَنْطِقُ، وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْمَشْيُ، وَالْقَلْبُ يَتَمَنَّى وَيَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ([1]))). وَفِي الْحَدِيثِ: ((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ([2]))). فَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْكَبِيرَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقَعُ فِي الْكَبِيرَةِ فَيُؤْمَرُ بِالتَّوْبَةِ، وَيُؤْمَرُونَ أَنْ لَا يُصِرُّوا عَلَى صَغِيرَةٍ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ المتَّقي لا يكون معصومًا من فعل الفاحشة أو ظلم النفس؛ لأنَّ الله لم يقل: وهم لا يفعلون الفواحش أو يظلمون أنفسهم، بل قال: {والذين إذا فعوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم}، إذًا ففعل الفاحشة لا يخدش بالتَّقوى إذا استغفر الإنسان وتاب؛ وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ إنَّه قال: ((كلُّ بني آدم خطاء، وخير الخطاءين التوابون))، وصحَّ عنه أنَّه قال ﷺ: ((لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم

١- (قلت): مسلم (٢١/٢٦٥٧) بلفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ)).

- وفي رواية أخرى متفق عليه: البخاري في القدر (٦٦١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٠/٢٦٥٧): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ)).

- (قلت): قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى)): معنى الحديث أن ابن آدم قدّر عليه نصيب من الزنى فمنهم من يكون زناه حقيقيًا بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازًا بالنظر الحرام، أو الاستماع إلى الزنى وما يتعلق بتحصيله، أو بالمس باليد بأن يمس أجنبية بيده أو يقبلها، أو بالمشي بالرجل إلى الزنى، أو الحديث الحرام مع أجنبية ونحو ذلك، أو بالفكر بالقلب، فكل هذه أنواع من الزنى المجازي ((والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه)): معناه أنه قد يحقق الزنى بالفرج وقد لا يحققه بأن لا يولج الفرج في الفرج وإن قارب ذلك.

٢- الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: (حديث غريب)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، والدارمي في الرقائق ٣٠٣/٢، وأحمد ١٩٨/٣، كلهم عن أنس بن مالك.

- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في المشكاة (٢٣٤١).

([١]))، إذًا ليس الشأن في أن لا يفعل الإنسان معصية، كلَّ إنسانٍ لابدَّ أن يعصي؛ الشأن في أنَّه إذا فعل المعصية رجع إلى الله.

٢- أنَّ الذنوب تنقسم إلى قسمين: فواحش ودونها؛ لقوله: {والذين إذا فعوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم}، و{أو} هنا للتنويع؛ وهذا متفق عليه بن العلماء أنَّ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر؛ ولكن ما هو الضابط للكبائر والصغائر؟ بعض العلماء يقول: إنَّ الكبائر معدودة. فجعل يعدِّدها فيقول: الكبيرة الأولى الكبيرة الثانية الكبيرة العاشرة إلى أن انتهى إلى ما بلغه علمه من الكبائر؛ وبعضهم يقول: إنَّ الكبائر محدودة وليست معدودة؛ ومعنى محدودة يعني معلَّقة بوصف لا بعدد؛ فقالوا مثلًا: ما فيه حدٌّ في الدنيا فهو كبيرة، مثل الزنا السرقة والقذف كلَّ ما فيه حدٌّ في الدنيا فهو كبيرة، كلَّ ما رُتِّبت عليه اللَّعنة فهو كبيرة مثل: ((لعن الله من آوى محدثًا))؛ ((لعن الله الراشي والمرتشي))، وما أشبهه؛ كلَّ ما رتِّب عليه غضب فهو كبيرة مثل قوله تعالى في القاتل: {وغضب الله عليه}؛ ما رتِّب عليه وعيد في الآخرة، بأن جاء النص من فعل كذا فهو في النار أو ما أشبه ذلك مثل: ((ما أسفل من الكعبين ففي النار)).

ومنهم من قال ورأيته لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كل ما رتِّب عليه عقوبة خاصة، عقوبة خاصة دنيوية أو أخروية فهو كبيرة؛ وما جاء النهي عنه بدون ذكر عقوبة فهو صغيرة؛ فقال مثلًا: الغش من كبائر الذنوب لأنَّ الشارع جعل له عقوبة خاصة: ((من غش فليس منَّا))؛ إيذاء الجار من كبائر الذنوب لقول النبي ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره))، وهذا الذي حدَّه رحمه الله يدخل فيه من الذنوب شيءٌ كثير، ولكن لاشك أنَّ ما قاله رحمه الله ليس معناه أنَّ هذه الكبائر تكون على مرتبة واحدة، بل حتى الكبائر فيها ما هو أكبر وفيها ما هو أصغر، كما في الحديث الصحيح: ((ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر ...))، وعلى هذا فنقول: الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، تؤخذ من الآية هذه؛ ثم الكبائر تختلف مراتبها بحسب ما يترتَّب عليه من المفاسد والآثام.

٣- أنَّ الإنسان مؤتمن على نفسه.

٤- سرعة انتباه هؤلاء عند فعل الذنوب؛ لقوله: {إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله}: أي يبادرون بالتوبة؛ والمبادرة بالتوبة من صفات المتَّقين؛ وهي واجبة لأنَّ التوبة إذا نزل الأجل لا تقبل، والإنسان لا يدري متى ينزل أجله؛ وعلى هذا فيجب أن يتوب الإنسان من ذنوبه فورًا بدون تأخير.

٥- أنَّ ذكر الله عز وجل سبب للتوبة والرجوع إلى الله؛ لقوله: {ذكروا الله}، وقد سبق لنا بيان وجوه هذا الذِّكر وهي ذكر بالقلب وذكر باللِّسان وذكر بالجوارح.

٦- أنَّهم يبادرون بالتوبة؛ وسبق استغفار هؤلاء المتَّقين لذنوبهم؛ لقوله: {فاستغفروا لذنوبهم}، ويتفرَّع على هذه الفائدة: عجز أولئك القوم الذين يقولون إنَّ الله غفور رحيم ولا يستغفرون الله؛ فإنَّ بعض المذنبين إذا نهيته عن الذنب قال: الله غفور رحيم؛

١- (قلت): مسلم (٢٧٤٩)، بزيادة ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ)) في أوله، وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٣٢٨).

ولكنَّه هو نفسه لا يستغفر؛ وإذا كان هؤلاء السادة يستغفرون ربهم، بل إذا كان الله أمر نبيه ﷺ أن يستغفر فما بالك بمن دونه؛ قال الله تعالى: {واستغفر لذنبك}، {واستغفر الله إنَّ الله كان غفورًا رحيمًا}.

٧- أنَّه لا أحد يستطيع أن يغفر الذنوب إلَّا الله؛ لقوله: {ومن يغفر الذنوب إلَّا الله}. ويتفرَّع عليها: أن لا تعتمد على أحد في مغفرة الذنوب أو طلب المغفرة وإنَّما يكون اتِّجاهك إلى الله عز وجل.

٨- أنَّ هؤلاء السادة المتَّقين لا يصرُّون على ما فعلوا من الفاحشة أو ظلم النفس وهم يعلمون.

٩- أنَّ الرجل إذا أذنب فاستغفر ثم أذنب فاستغفر فإنَّه يغفر له وإن تكرَّر الذنب منه؛ لأنَّ الله قال هنا: {ولم يصرُّوا على ما فعلوا}، ولم يقل: (ولم يعيدوا ما فعلوا)؛ لم يصرُّوا عليه وهم يعلمون، والإنسان إذا كان كلَّما أذنب استغفر فإنَّه يغفر له كقوله تعالى: {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعًا}، ولكن يجب أن لا يكون استغفاره بلسانه فقط وقلبه منطوٍ على الرجوع؛ فإن كان كذلك فإنَّ هذا الاستغفار لا يفيده؛ لكن يكون استغفاره حقيقة بقلبه ولسانه، والإنسان بشر ربما تغلبه نفسه في المستقبل فيفعل المعصية مع أنَّه قد استغفر منها؛ فنقول: مهما عملت ومهما تكرَّر منك الذنب مادمت تستغفر فإنَّ الله تعالى يغفر لك.

١٠- توبيخ من أصرَّ على الذنب وهو عالم به؛ لقوله: {ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون}؛ ولهذا قال العلماء: إنَّ الإصرار على المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة، لأنَّ إصراره عليها يدلُّ على تهاونه بمن عصاه.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {١٣٦}

قال ابن العثيمين: {أولئك جزائهم مغفرة}: {أولئك}، هنا إشارة وخطاب؛ الإشارة مأخوذة من قوله: {أولاء}، والخطاب في قوله: {أولئك}، الكاف؛ ويجب أن نعلم من حيث اللغة العربية أنَّ اسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه؛ وأمَّا (كاف الخطاب فبحسب المخاطب؛ فهنا يقول: {أولئك جزائهم}، الخطاب لواحد: يعني أولئك أيها المخاطب؛ فالخطاب لواحد والإشارة لجمع، يعني أولئك المتَّقون أيُّها المخاطب، {جزاءهم}: أي ثوابهم ومكافئتهم على عملهم، {مغفرة من ربهم} يكون بها النجاة من النار {وجنات} يكون بها حصول المطلوب في جنات النعيم، {مغفرة من ربهم}: أي عفو وتجاوز عن الذنوب وستر عن الخلق، {وجنات تجري من تحتها الأنهار}: {جنات} جمع، لأنَّ الجنة درجات كثيرة، ومنازل متنوعة يختلف الناس فيها بحسب أعمالهم؛ وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ أهل الجنة يتراءون الغرف كما نتراء الكوكب الدُرِّي الغابر في الأفق؛ قالوا: يا

رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم قال: ((بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين([1])))؛ هذه المنازل يختلف الناس فيها؛ أهل الجنة يراءونها مثل ما نرى الكوكب الدرّي المضيء الغابر في الأفق بعيد جدًّا ليس فوق مسامة الرؤوس بل هو بعيد؛ فهي درجات ولهذا تجمع؛ وأعلى ما فيها الفردوس لأنَّ فوقه عرش الله جل جلاله، وهو وسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة: {وجنات تجري من تحتها الأنهار} ووصف الله بأنَّها جنات لأنَّ فيها من أنواع النعيم ما لا يخطر على البال، فهي دار لا يمكن أن يدرك الإنسان كنهها وحقيقتها؛ لأنَّها أعظم من أن تدركها مخيلتنا؛ قال الله تعالى: {فلا تعلم نفس ما تخفي لهم من قرة أعين} وقال الله تعالى في الحديث القدسي: ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر([2]))).

وقوله: {تجري من تحتها الأنهار}: قال العلماء: أي من تحت قصورها وأشجارها لا من تحت أرضها؛ لأنَّه لو كان من تحت أرضها لكانت في الأسفل في القعر؛ ولكنها تمشي على سطح أرض الجنة إلَّا أنها تحت القصور والأشجار وقد ورد في الحديث أنَّ هذه الأنهار تجري بلا أخدود وبلا حفر؛ وفي ذلك يقول ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

تجري على الأرض بدون أن يكون لها أخدود، يعني سواقي أو حفر، ومع هذا تجري حيث أراد الإنسان.

وقوله: {الأنهار}: جمع نهر، وقد بيَّن الله تعالى في سورة القتال سورة محمد أنَّها أربعة أنواع: {فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه وأنهار من خمر لذَّةٍ للشاربين وأنهار من عسل مصفًّى}، {أنهار من ماء غير آسن}: يعني لا يقبل أن يكون آسنًا، بخلاف ماء الدنيا فإنه يكون آسنًا: أي متغيِّرًا، فإنَّه إذا تأخَّر وأبطأ تغيَّر؛ أمَّا ماء الجنة فلا يتغيَّر؛ {أنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه} بخلاف ألبان الدنيا فإنَّها تتغيَّر إذا زادت عن المدَّة تغيَّرت وفسدت؛ {أنهار من خمر لذَّةٍ للشاربين}، لذَّة وليس فيها غول ولا هم عنها ينزفون، لا توجع الرأس ولا تغتال العقول، وأشدُّ ما يكون من اللَّذَّة؛ الرابع: {أنهار من عسل مصفًّى}، ليس من عسل النحل الذي يكون نصفها أو أكثر شمعًا، ولكنَّه من عسلٍ مصفًّى.

١- (قلت): مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١). والحديث بتمامه عند مسلم: ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: ((بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الغابر)): الذاهب الماشي الذي تدلى للغروب وبعد عن العيون، ((من الأفق)): هكذا هو في عامة النسخ من الأفق قال القاضي: لفظة من هذه لابتداء الغاية ووقع في رواية البخاري ((في الأفق))، قال بعضهم: وهو الصواب، قال: وذكر بعضهم أن ((من)) في رواية مسلم لانتهاء الغاية، وقد جاءت كذلك كقولهم: (رأيت الهلال من خلل السحاب)، قال القاضي: وهذا صحيح، ولكن حملهم لفظة ((من)) هنا على انتهاء الغاية غير مُسَلَّم، بل هي على بابها: أي كان ابتداء رؤيته إياه رؤيته من خلل السحاب ومن الأفق.

٢- (قلت): مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

- بزيادة: (قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}) في آخرها عند البخاري.

{خالدين فيها}: أي ما كثين فيها مكثًا طويلًا؛ وقد جاءت آيات أخرى تدلُّ على أنَّ هذا الخلود خلود تأبيد؛ وقد أجمع علماء أهل السنة على أنَّها مؤبَّدة بما فيها من النعيم.

{ونعم أجر العاملين}: الجملة هنا إنشائية للمدح والثناء؛ الثناء على هذا الأجر العظيم؛ و{أجر العاملين}: أي ثوابهم، وجعله ذو الفضل والإحسان أجرًا ليكون الإنسان مطمئنًا على الحصول عليه إذا قدم العوض، وإلَّا فالمنَّة لله عز وجل أوَّلًا وآخرًا؛ لكن يمنُّ علينا والحمد لله بالعمل، ثمَّ يمنُّ علينا ثانيًا بالجزاء، ويقول: {هل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان}، كأنَّنا نحن المحسنون استقلالًا وابتداءً، فإذا أحسنَّا فجزاؤنا أن يحسن إلينا مع أنَّه واللهِ هو الذي أحسن إلينا أوَّلًا وآخرًا؛ كذلك يقول: {إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا}، سبحان الله يمنُّ علينا بالسَّعي ويوفِّقنا له ويعيننا عليه ثم يشكرنا عليه؛ هذا غاية الفضل والإحسان من الله عز وجل؛ {ونعم أجر العاملين}: الذين يعملون لهذا الأجر العظيم.

ونقول في إعراب قوله: {ونعم أجر العاملين}: أنَّ {أجر} فاعل والمخصوص محذوف تقديره: (نعم أجر العاملين الجنة)، كما قال الشاعر:

نعمت جزاء المتَّقين الجنة ... فيها الأماني والمنى والمنة

قال أبو زهرة: أي أولئك الذين اتَّصفوا بهذه الصفات بسببها قد استحقُّوا برحمة الله تعالى جزاءهم وهو ثلاثة: أعلاها مغفرة من ربهم الذي خلقهم وهذه المغفرة دليل رضاه، وهو أعلى جزاء، والثاني الجنات التي تتوافر فيها أنواع النعيم، وثالثها الخلود، فهو نعيم ليس على مظنَّة الانتهاء، إذ إنَّ توقُّع الزوال ينقص من قدره، ولذلك قال بعد ذلك سبحانه: {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}: أي ذلك الجزاء جدير بأن يُرغب فيه، ويتنافس فيه المتنافسون، ويطلبه كلَّ عارفٍ لحقيقته لم تلهه الدنيا بما فيها، فذلك المدح للحثِّ على طلبه والعمل على استحقاقه وعدم التَّخلُّف عن الاتِّجاه إليه.

قال السعدي: وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أنَّ الأعمال تدخل في الإيمان، خلافًا للمرجئة، ووجه الدِّلالة إنَّما يتمُّ بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدَّت للذين آمنوا بالله ورسله}، فلم يذكر فيها إلَّا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: {أعدَّت للمتقين}، ثم وصف المتَّقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدلَّ على أنَّ هؤلاء المتَّقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان جزاء المتّقين، وأنَّه جزاء لا يدركه الإنسان بتصوُّره لأنَّه أعظم ممَّا يتصور.

وفيها: أنَّ جزائهم متضمِّن لحصول المطلوب ودرء المكروه؛ يؤخذ من قوله: {مغفرة من ربهم وجنات} فبالمغفرة درء المكروه، وبالجنة حصول المطلوب.

٢- أنَّ مغفرة الله عز وجل للمرء من أعظم الثواب؛ فلا تستغرب أن تكثر من سؤال المغفرة، كان النبي ﷺ حينما نزلت عليه سورة النصر يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)).

٣- بيان حال الجنات التي وعدها المتّقون وما يصوِّره قوله: {تجري من تحتها الأنهار}، من النعيم العظيمة.

٤- أنَّ أهل الجنة خالدون فيها؛ لقوله: {خالدين فيها}، وقد دلَّت النصوص أنَّ هذا التخليد أبدي.

٥- عظم هذا الأجر؛ لأنَّ العظيم إذا أثنى على شيءٍ دلَّ على عظمه، والله تعالى أعظم شيءٍ وقد أثنى على هذا النعيم.

٦- بيان فضل الله عز وجل على عباده، حيث جعل هذا الجزاء أجرًا بمنزلة الأجر المحتَّم الذي لابدَّ من أن يناله العبد.

فإذا قال قائل: كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله ﷺ: ((لن يدخل الجنة أحد بعمله))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ((ولا أنا إلَّا أن يتغمدَّني الله برحمته))، وظاهر الآية التي معنا أنَّ هذه الجنة التي أعدَّت لهم أجر لهم، عوض عمَّا قاموا به من العمل!؛ والجواب عن هذا أن نقول: إنَّ قول الرسول ﷺ: ((لن يدخل الجنة أحدٌ بعمله)): أي على سبيل المكافئة أي أنَّ الجزاء يكافئ العمل ويكون عوضًا عنه؛ وأمَّا على أنَّه سبب من الأسباب ولكنَّ الله بفضله جعله بمنزلة العوض فهذا ثابت؛ فأعمالنا سبب، ولو قوبلت بنعم الله لم تكن شيئًا؛ لو أنَّك جمعت نعم الله عليك وقارنت بينها وبين عملك لكان العمل ضئيلًا جدًّا ولا ينسب لشيء؛ لو أصيب الإنسان بضيق في نفسه يبذل كلَّ ما يملك من أجل زوال هذه المحنة؛ كذلك البول، الغائط، السمع، البصر، إلى غير ذلك؛ نعم كثيرة لا يقابلها العمل؛ وقد قال بعض الشعراء:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلَّا بفضله ... وإن طالت الأيام واتَّصل العمر

هذا صحيح لأنَّنا نقول إذا وفقت للشكر وشكرت الله فهي نعمة لأنَّ الله قال: {وقليل من عبادي الشكور}، وما أكثر الذين كفروا نعمة الله، ثم إذا شكرت الله قلنا هي نعمة تحتاج أيضًا إلى شكر آخر؛ فإذا وفقت لشكر الشكر فهو نعمة ثالثة تحتاج إلى شكر وهلمَّ جرا؛ ولهذا قال: فكيف بلوغ الشكر إلَّا بفضله ... وإن طالت الأيام واتَّصل العمر

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {١٣٧}

قال السعدي: وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة (أحد) يعزّي تعالى عباده المؤمنين ويسلّيهم، ويخبرهم أنَّه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاولة، حتى جعل الله العاقبة للمتَّقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذِّبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

قال ابن العثيمين: {قد خلت}: جملة محققة ب{قد} لأنَّ {قد} إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد التحقيق؛ وإذا دخلت على الفعل المضارع تفيد التقليل؛ وقد تفيد التحقيق بالقرائن؛ فقول القائل: قد يجود البخيل؛ هذه للتقليل؛ وقوله تعالى: {قد يعلم الله المعوِّقين منكم} هذه تفيد التحقيق؛ أمَّا إذا دخلت على الماضي فإنَّها تكون للتحقيق، كقول المقيم: (قد قامت الصلاة).

{قد خلت}: أي مضت؛ {من قبلكم سنن}: الخطاب لهذه الأمَّة؛ والسنن جمع سنة وهي الطريقة، والمراد بها سنن الله عز وجل في المكذِّبين حيث يأخذهم ويدمِّرهم، كما قال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها}، قال: {دمَّر الله عليهم}: يعني أهلكهم وأبادهم؛ {وللكافرين أمثالها} من هذه الأمَّة. إذًا {سنن}: جمع سنة وهي الطريقة، والمراد بها: طريق الله تعالى في المكذِّبين للرسل حيث تكون عاقبتهم الهلاك والدمار.

{فسيروا في الأرض}: الفاء هنا للتَّرتيب وهي عاطفة، عطف جملة على جملة؛ و{سيروا}: فعل أمر من السير وهو المشي، والمراد به هنا: سير القلوب وسير الأقدام؛ فالإنسان يسير بقلبه ويسير بقدمه؛ أمَّا سيره بقلبه؛ فهو أن يتفكَّر في عاقبة من مضى زمنًا وفي عاقبة من مضى مكانًا؛ فمثلًا ديار ثمود موجودة الآن، يفكِّر الإنسان فيها مكانًا وزمانًا، فينظر كيف كان عاقبتهم؛ السير بالقدم قد يكون أشدُّ وقعًا من السير بالقلب؛ لأنَّ الإنسان يصل به إلى حقِّ اليقين والمشاهدة بالعين؛ والسير بالقلب أعمُّ وأشمل لأنَّ الإنسان يصل به إلى ما لا يمكنه الوصول إليه بالسير قُدُمًا.

وقوله: {فسيروا في الأرض}: {في} للظرفية، ولكنَّها عند المفسرين هنا بمعنى: {على}، أي: (سيروا على الأرض)؛ لأنَّ السير في جوف الأرض غير ممكن وغير مفيد أيضًا، وإنَّما يفيد السير على ظاهر الأرض؛ وقوله: {فسيروا في الأرض}: أي أرض من سبق؛ ف{أل} هنا للعهد المفهوم من قوله: {قد خلت من قبلكم سنن}، أي: (سيروا في أرضهم وانظروا كيف كانت عاقبتهم)؛ وقوله: {فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين}: انظروا بعين البصر والبصيرة، بهما جميعًا؛ فإن وصل إلى مكان هؤلاء الأمم فالنظر يكون بعين البصر وبعين البصيرة؛ وإن لم يصل ولكنَّه فكَّر في قلبه فالنظر يكون بعين البصيرة لأنَّ البصر لا يمكن أن يصل إليه وهو ينظر في قلبه.

{انظروا}: فعل أمر وهي تنصب المفعول به؛ لكنَّها علِّقت عن العمل لأنَّه وليها جملة استفهامية؛ والجملة الاستفهامية إذا وليت الفعل المتعدِّي منعته عن العمل؛ وعلى هذا فتكون الجملة في قوله: {كيف كان عاقبة المكذِّبين} في محل نصب مفعول {انظروا}.

أمَّا إعراب {كيف كان عاقبة المكذِّبين} تفصيلًا، فإنَّ {كيف} اسم استفهام مبنيٌّ على الفتح في محل نصب خبر {كان} مقدَّمًا، وتقديمه هنا واجب، لأنَّ الاستفهام له صدر الكلام؛ فإذا وقع خبرًا وجب تقديمه، فهنا {كيف} اسم استفهام مبنيٌّ على الفتح في محل نصب خبر {كان}؛ و{عاقبة} اسمها؛ وأمَّا {المكذِّبين}، فمعروف أنَّها مضاف إليه؛ {عاقبة المكذِّبين}: أي مآل أمرهم، عاقبة الشيء ما يعقبه ويؤول إليه الشيء؛ والمراد هنا ب{المكذِّبين}: هم المكذِّبين لله ورسله؛ كان عاقبتهم الهلاك والدمار؛ وعقوبتهم على حسب ذنوبهم، كما قال الله تعالى: {فكلًّا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، الذين أرسل الله إليهم حاصبًا قوم لوط؛ {إنا أرسلنا عليهم حاصبًا إلَّا آل لوط نجَّيناهم بسحر}، ومنهم من أخذته الصيحة كقوم صالح، ثمود؛ ومنهم من خسفنا به الأرض كقارون؛ ومنهم من أغرقنا كفرعون وقوم نوح، أغرقهم الله عز وجل؛ حسب ما تقتضيه الحكمة، والعقول قاصرة غالبًا عن معرفة تناسب العقوبة والعمل؛ أقول إنَّ العقول قاصرة غالبًا عن معرفة التناسب بين العقوبة وبين العمل؛ وأقول غالبًا لأنَّها أحيانًا قد تعرف المناسبة؛ فمثلًا نحن نعرف مناسبة إهلاك عاد بريح هو أنَّهم كانوا يقولون: {من أشدُّ منّا قوّة}؛ فأراد الله عز وجل أن يريهم أنَّه يهلكهم بما هو من ألطف الأشياء وهو الريح، الهواء اللطيف ومع ذلك دمَّر الله به هذه الأمَّة التي تفخر بقوَّتها.

في آل فرعون كان فرعون يعتزُّ بالأنهار التي تجري من تحته ويقول لقومه: {يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين}، فأهلكه الله عز وجل بجنس ما افتخر به وهو الماء؛ والباقي أنا لا أستطيع أن أحدِّد التناسب بين العمل وبين العقوبة، لكن قوله تعالى: {فكلًّا أخذنا بذنبه}، يدلُّ على أنَّ العقوبة تناسب العمل، ومن الأمثال المشهورة عند الناس: كما تدين تدان.

قال السعدي: {فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين}: فإنّكم لا تجدونهم إلَّا معذَّبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبيَّن لكلِّ أحد خسارهم، وذهب عزّهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل؟.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين ج١ص١٠٤: أَيْ: قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ فَانْظُرُوا إلَى عَوَاقِبِهِمْ السَّيِّئَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَهُمْ الْأَصْلُ وَأَنْتُمْ الْفَرْعُ، وَالْعِلَّةُ الْجَامِعَةُ التَّكْذِيبُ، وَالْحُكْمُ الْهَلَاكُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أهلك أممًا قبل هذه الأمَّة؛ لقوله: {سنن}.

٢- تسلية هذه الأمَّة من وجه؛ وتحذيرها من وجه آخر؛ تسليتها من وجه وتحذيرها من وجه آخر؛ تسليتها بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد عاقب من قبلها، فعقوبته لها في أُحد من سنن الله عز وجل؛ لأنَّه لاشكَّ أنَّ ما حصل في أُحد عقوبة: {حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون}؛ وفيه أيضًا تحذير من جهة أخرى عن عقوبةٍ أشدُّ لأنَّ الأمم السابقة أهلكوا ودمِّروا عن آخرهم.

٣- إثبات القياس؛ لأنَّ المقصود بقول: {فسيروا في الأرض} النظر والاعتبار وأن يقاس ما حضر على ما مضى وسبق.

٤- الأمر بالسير في الأرض؛ ولكن هل هو على إطلاقه أو من أجل الاعتبار فقط؟ لننظر: {فسيروا في الأرض فانظروا}، إذًا السير في الأرض لغير غرض شرعي مذموم، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من أهل العلم؛ لأنَّ السير في الأرض من غير غرض شرعي فيه إتعاب النفس وتعريضها للهلاك وإضاعة المال وإضاعة الوقت؛ أمَّا إذا كان لغرض شرعي فهو على حسب هذا الغرض؛ وعلى هذا فإنَّ السير في الأرض ينقسم إلى أقسام: قسم لأغراض محرَّمة، وهذا لاشكَّ في تحريمه؛ قسم آخر لأغراض مشروعة مطلوبة، وهذا لاشكَّ في طلبه؛ وقسم ثالث: لمجرَّد الفرجة والنزهة فهذا ينظر فيه؛ الأصل فيه الإباحة ولكن إن توصَّل به الإنسان إلى محرَّم كان حرامًا، وإن توصل به إلى مشروع كان مشروعًا؛ فمثال الأول السير في الأرض من أجل الحرام ما يفعله بعض الناس المترفون الذين يسيحون في أرض الكفر من أجل أن يحصلوا على مآربهم التي لا يستطيعون أن يحصلوا عليها في بلادهم؛ وهذا لاشكَّ في أنَّه حرام؛ لأنَّ السفر لهذا الغرض حرام، ونفس هذا الغرض أيضًا حرام، وإضاعة المال فيه حرام؛ فهو حرام مركَّب ظلمات بعضها فوق بعض والعياذ بالله؛ والثاني: الذي يكون مشروعًا مثل السير في الأرض لطلب الرزق الواجب، كإنسان ليس عنده ما يقوته وأهله فسار في الأرض من أجل الحصول على هذا الرزق؛ وكذلك أيضًا السير في الأرض لطلب العلم؛ وقد كان السلف رحمهم الله يسيرون في الأرض لطلب العلم مسيرة شهر من أجل مسألة واحدة، يرحلون ارتحالًا في الأرض من أجل مسألة واحدة؛ والسفر في ذلك الوقت ليس كالسفر في وقتنا هذا، فيه مشقَّة وفيه أخطار كبيرة؛ أمَّا السفر الذي لا لهذا ولا لهذا، فمثل سفر بعض الناس للاستجمام والنزهة في أيَّام إجازات الأعياد وما أشبهها، هذا نقول: ليس فيه بأس في الأصل لكن قد يكون مفضيًّا إلى خير فيكون خيرًا، كما لو كان في هذا السير صلة رحم أو بر والدين أو ما أشبه ذلك فإنه يكون في هذه الحال أمرًا مطلوبًا.

والسير في الأرض التي هلك أهلها هل هو من الأمور المطلوبة؟ نقول: نعم، إذا كان المقصود بهذا الاتِّعاظ؛ أمَّا إذا كان المقصود بهذا التفرُّج على قوة القوم وما أشبه ذلك فإنَّه لا يجوز؛ لأنَّ النبي ﷺ لما مرَّ بديار ثمود في ذهابه إلى تبوك مرَّ مسرِعًا مقنعًا رأسه ﷺ خائفا وقال ﷺ: ((لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلَّا وأنتم باكون فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم)). وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس الذين ماتت قلوبهم، يذهبون إلى ديار ثمود من أجل الاطِّلاع على مآثرهم

وآثارهم وقدرتهم فإنَّ هذا لاشكَّ أنَّه حرام؛ لأنَّ الرسول ﷺ نهى قال: ((لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلَّا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم([1]))).

٥- أنَّ عاقبة المكذِّب لله ورسوله عاقبته وخيمة؛ لقوله: {فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين}.

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ {١٣٨}

قال ابن العثيمين: {هذا}: المشار إليه هل هو القرآن أو ما ذكر من قوله: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ...}؟ في هذا قولان للمفسرين؛ منهم من قال: إنَّه عائد إلى القرآن لجريان ذلك كثيرًا في كتاب الله، كقوله تبارك وتعالى: {وهذا ذكر مبارك أنزلناه}، وما أشبه ذلك من الآيات التي فيها الإشارة التي تعود إلى القرآن نفسه؛ فيكون {هذا}: أي القرآن بيان للناس. ومنهم من قال: إنَّه عائد إلى أقرب مذكور، إلى ما ذكر؛ لأنَّ اسم الإشارة والضمير كلاهما يعودان على أقرب مذكور؛ ولكن الأَولى الأول، أن يكون عائدًا إلى القرآن كله؛ ومنه هذه الآية، لأنَّ هذه الآية من القرآن؛ فإذا جعلنا هذا يعود على القرآن كلِّه صارت من ضمنه ما ذكر في قوله: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ...}.

{بيان للناس}: {بيان} اسم مصدر {بيَّن، يُبيِّن}، والمصدر {تَبيينًا}، مثل بدَّل يبدِّل تبديلًا؛ ولكنَّ ال{بيان} اسم مصدر، مثل كلَّم يكلِّم تكليمًا واسم المصدر كلام؛ وقوله: {هذا بيان}، إذا قلنا إنَّه اسم مصدر، فقد عبَّر باسم المصدر الذي هو البيان عن الموصوف بالبيان، وهذا من باب المبالغة أن يجعل الموصوف هو الصفة نفسها؛ إذا عبَّرنا بالصفة عن الموصوف فهذا من باب المبالغة كأنَّنا سلبنا اتِّصافه بها حتى جعلناه هو نفس الصفة؛ ولهذا يقولون إنَّ قول القائل: فلان عدل؛ أبلغ من قولهم: فلان ذو عدل؛ كأنَّه جعل هذا الموصوف هو الصفة؛ إذًا فالقرآن ليس فيه البيان بل هو نفسه البيان؛ {هذا بيان للناس} مَن الناس؟ كلُّ الناس، كلُّ من قرأ القرآن تبيَّن له ما دلَّ عليه القرآن؛ ولكن هل كلُّ من بان له ذلك يهتدي؟ لا؛ ولهذا قال: {وهدى وموعظة للمتَّقين}، {هدًى}: بمعنى دلالة يستدلُّ به المتَّقي؛ {موعظةٌ}: الموعظة هي تليين القلوب بذكر ما يخاف منه، أو ذكر ما يرغب فيه.

قال الطبري: فإنَّه يعني بال{هدى}: الدِّلالةَ على سبيل الحقِّ ومنهج الدِّين، وبال{موعظة}: التَّذكرة للصواب والرشاد.

قال ابن العثيمين: فوصف الله القرآن بثلاثة أوصاف: وصف عام؛ ووصفان خاصان؛ الوصف العام هو: بيان للناس؛ والخاصان: هدًى وموعظةً؛ فإنَّه لا يهتدي به إلَّا المتقون، ولا يتَّعظ به إلَّا المتقون؛ أمَّا من ليس كذلك فهو عليهم عمًى ولا

١- (قلت): مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. البخاري (٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠). صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٢٦٣ - ٢٥٠٧)، والحديث بتمامه عند البخاري: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لأَصْحَابِ الْحِجْرِ: ((لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ)).

يزدادون به اتّعاظًا، بل يقول الله عز وجل: {وأمَّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم}: أي نجاسة إلى نجاستهم، {وماتوا وهم كافرون}؛ فسبحان الله كلام واحد يكون له هذا التأثير المتباين؛ في قوم هدًى وموعظةً؛ وعلى قوم عمًى ورجس؛ لأنَّ القلوب بمنزلة الأراضي، منها أرض طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ وينتفع بها الناس؛ ومنها أرض صلبة لا تشرب الماء ولكن تحفظ الماء فينتفع به الناس؛ ومنها أرض سبخة قيعان تشرب الماء ولكنَّها لا تنبت، فيزيدها الماء ضررًا لأنَّها إذا كانت يابسة أمكن السير عليها وإذا كانت رطبة لا يمكن السير عليها تكون زلقًا ودحرًا ومع ذلك لا ينتفع بها الناس لا بماء تحبسه ولا بنبات تخرجه؛ فهكذا القرآن، القرآن بالنسبة للناس منهم من ينتفع به ويزداد هدًى وتقوى؛ ومنهم من لا ينتفع به بل لا يزاد إلَّا عمًى وضلالةً لأنَّه كلَّما كذَّب بآية ازداد إثمًا وعقوبةً.

قال أبو زهرة: وقد ذكر أنَّ هذا بيان للناس أجمعين، يدركه كلُّ من له بصر يبصر به، وفهم يفهم به، وتحقُّق البيان لَا يقتضي تحقُّق أثره وهو المعرفة التي تهدي إلى الإيمان وتوجب الاتِّعاظ، إنَّما تكون الهداية من البيان والاتِّعاظ به للمتَّقين دون غيرهم، ولذلك جعل سبحانه البيان للناس جميعًا، والهداية والموعظة للمتَّقين منهم فقط؛ إذ إنَّ الهداية بالبيان تقتضي إشراقًا روحيًّا، واستعدادًا قلبيًّا، وإخلاصًا في طلب الحقيقة، والموعظة وهي الاستفادة من العبر، تقتضي قلبًا متفتِّحًا لإدراك الحقائق والاتِّجاه إليها بقصدٍ سليم، وذلك كلُّه لَا يتوافر إلَّا للمتَّقين الذين أخلصوا أنفسهم لله، وطلبوا الحق، وسلكوا سبيله لَا يبغونه عوجًا، ومثل البيان مثل البذر يلقى في الأرض، فإذا أصاب صحراء قاحلة جفَّ ولم ينتج، وإذا أصاب أرضًا خصبة أنبتت نباتًا حسنًا، وقد مثل النبي ﷺ العلم بالغيث وبين اختلاف الناس في تلقيه، فقال: ((مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ[١])).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٦ص١٤: قَوْلُهُ: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ}: فَالْبَيَانُ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ فَقِهَهُ، وَالْهُدَى وَالْمَوْعِظَةُ لِلْمُتَّقِينَ. هُنَا لَطِيفَةٌ تُزِيلُ إشْكَالًا يُفْهَمُ هُنَا: وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ هَذَا الْمُتَّقِي الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ هَذَا:

أَوَّلًا: مُمْتَنِعٌ؛ إذْ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا مُتَّقِيًا مَنْ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ.

وَثَانِيًا: أَنَّ الشَّرْطَ إنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُقَارِنَ الْمَشْرُوطَ، لَا يَجِبُ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ تَقَدُّمًا زَمَانِيًّا، كَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ.

وَثَالِثًا: أَنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يَبِينَ شَيْئَانِ:

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الِانْتِفَاعَ بِهِ بِالِاهْتِدَاءِ وَالِاتِّعَاظِ وَالرَّحْمَةِ هُوَ – وَإِنْ كَانَ مُوجِبًا لَهُ – لَكِنْ لَا بُدَّ مَعَ الْفَاعِلِ مِنَ الْقَابِلِ؛ إِذْ الْكَلَامُ لَا يُؤَثِّرُ فِيمَنْ لَا يَكُونُ قَابِلًا لَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَهْدِيَ وَيَعِظَ وَيَرْحَمَ، وَهَذَا حَالُ كُلِّ كَلَامٍ.

الثَّانِي: أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْمُهْتَدِينَ بِهَذَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، وَيُسْتَدَلُّ بِعَدَمِ الِاهْتِدَاءِ بِهِ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، كَمَا يُقَالُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِكِتَابِ بقراط هُمْ الْأَطِبَّاءُ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَطِبَّاءَ قَبْلَ تَعَلُّمِهِ؛ بَلْ بِتَعَلُّمِهِ وَكَمَا يُقَالُ: كِتَابُ سِيبَوَيْهِ كِتَابٌ عَظِيمُ الْمَنْفَعَةِ لِلنُّحَاةِ، وَإِنْ كَانُوا إنَّمَا صَارُوا نُحَاةً بِتَعَلُّمِهِ، وَكَمَا يُقَالُ: هَذَا مَكَانٌ مُوَافِقٌ لِلرُّمَاةِ وَالرِّكَابِ.

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان ج٢ص١٦٩: فالقرآن بصيرةٌ وتبصرةٌ وهدًى وشفاءٌ ورحمةٌ بمعنى عام وبمعنى خاص، ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدًى للعالمين، وموعظةٌ للمتّقين، وهدًى للمتّقين، وشفاءٌ للعالمين، وشفاءٌ للمؤمنين، وموعظةٌ للعالمين، وموعظةٌ للمتّقين، فهو في نفسه هدًى ورحمةٌ وشفاءٌ وموعظةٌ.

والهدى في الأصل: مصدر (هدى يهدي هدى)، فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديًا، ولكن يسمَّى (هُدى) لأنَّ من شأنه أن يهدي.

وهذا أحسن من قول من قال: إنَّه (هُدى) بمعنى: (هاد)، فهو مصدر بمعنى الفاعل ك(عدل) بمعنى: (العادل)، و(زور) بمعنى: (الزائر)، و(رجل صوم) بمعنى: (صائم)، فإنَّ الله سبحانه قد أخبر أنَّه يهدي به.

فالله الهادي، وكتابه الهدى الذي يهدي به على لسان رسوله ﷺ، فههنا ثلاثة أشياء: (فاعل، وقابل، وآلة)، فالفاعل: هو الله تعالى، والقابل: قلب العبد، والآلة: هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المُنَزَّل، والله سبحانه يهدي خلقه هدى، كما يقال: (دلهم دلالةً)، و(أرشدهم إرشادًا)، و(بيَّن لهم بيانًا).

والمقصود: أنَّ المحل القابل هو قلب العبد المتَّقي المنيب إلى ربِّه الخائف منه الذي يبتغي رضاه ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله، فكأنَّه وصل أثر فعله إلى محل قابل فيتأثَّر به، فصار هدًى له، وشفاءٌ، ورحمةٌ، وموعظةٌ، بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلًا، وصل إليه الهدى فلم يُؤَثِّر فيه، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء، فإنَّه لا يؤثِّر فيه شيئًا، بل لا يزيده إلَّا ضعفًا وفسادًا إلى فساده كما قال تعالى في السورة التي نزَّلها: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ}[التوبة: ١٢٤ – ١٢٥]، وقال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا}[الإسراء: ٨٢].

فَتَخَلُّف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارةً، ولعدم آلة الهدى تارةً، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي تارةً، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلَّا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة، وقد قال سبحانه: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه أنَّه قطع عنهم مادة الاهتداء وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنَّه لا خير فيه، فإنَّ الرجل إنَّما ينقاد للحقِّ بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبَّته، والحرص عليه، والفرح بالظَّفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من

السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمةً وحياةً، ولكن ليس فيها قبول له، ثم أكَّد الله هذا المعنى في حقِّهم بقوله: {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[الأنفال: ٢٣]. فأخبر أنَّ فيهم مع عدم القبول والفهم آفةٌ أخرى وهي الكبر والإعراض وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتَّبعوا الحقَّ ولم يعملوا به، فالهدى في حقِّ هؤلاء هدًى بيان وإقامة حجَّة لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتَّصل الهدى في حقِّهم بالرحمة.

وأمَّا المؤمنون: فاتَّصل الهدى في حقِّهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدًى، ولأولئك هدًى بلا رحمة، والرحمة المقارنة للهدى في حقِّ المؤمنين عاجلة وآجلة؛ فأمَّا العاجلة: فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبَّة الخير، والبر، وذوق طعم الإيمان، ووجدان حلاوته، والفرح والسرور بأن هَداهم الله تعالى لِما أضلَّ عنه غيرهم، ولِما اخْتُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنه، فهم يتقلَّبون في نور هداه ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم مُتَحيِّرًا في الظلمات، فهم أشدُّ الناس فرحًا بما آتاهم ربهم من الهدى؛ قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّما يَجْمَعُونَ}[يونس: ٥٨]، فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أنَّ الفضل والرحمة هو: العلم، والإيمان، والقرآن، وهما اتِّباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإنَّ الأمن، والعافية، والسرور، ولذَّة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف، والهم، والغم، والبلاء، والألم، والقلق، مع الضلال والحيرة.

ومَثَّل هذا بِمُسافِرَين؛ أحدهما: قد اهتدى لطريق مقصده، فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر: قد ضلَّ الطريق، فلم يدر أين يتوجَّه، كما قال تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هو الْهُدَى}[الأنعام: ٧١].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى هي بحسب هداه، فكلَّما كان نصيبه من الهدى أتَمُّ كان حظُّه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين. هي غير الرحمة العامة بالبَرِّ والفاجر، وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ}[البقرة: ١٥٧].

قال عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه: نِعم العدلان ونعمت العلاوة؛ فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة، والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة، ولَمّا كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى، كان أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ}[الفتح: ٢٩].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ القرآن بيان للناس في كلِّ شيء؛ فهو عام من حيث التبيين، عام من حيث المبيَّن له؛ المبيَّن له نأخذ العموم من قوله: {للناس}، والتبيين من كونه حذف المتعلّق، وحذف المتعلِّق يدلُّ على العموم، هذا بيان للناس في كلِّ شيء؛ ويؤيِّد هذا الآية التي ذكرناها آنفًا وهي قوله تعالى: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكلِّ شيء}.

٢- أنَّ القرآن صالح للهداية من المؤمن والكافر؛ لقوله: {للناس}، فهو يشمل المؤمن والكافر.

٣- أنَّه علم لكن للمتَّقين، يعني: لا ينتفع به إلَّا المتَّقون؛ لقوله: {وهدًى وموعظةٌ للمتقين}.

٤- أنَّ من لم يتَّعظ بالقرآن فليتَّهم نفسه؛ تؤخذ من قوله: {للمتَّقين}، فإذا لم تتَّعظ بالقرآن فاتَّهم نفسك فإنَّ فيك بلاء، كما أنَّ من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليتَّهم نفسه، فإنَّ صلاته قاصرة، لأنَّ الذي أخبر بأنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو الله عز وجل، وخبره صدق مطابق للواقع؛ فإذا علم الإنسان من واقع نفسه أنَّ صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر فليتَّهم نفسه لأنَّ خبر الله لا يُتَّهم؛ وهنا إذا لم تتَّعظ بالقرآن فاتَّهم نفسك بأنَّك غير متَّقي؛ لأنَّ المتَّقي لابدَّ أن يتَّعظ بالقرآن.

٥- فضيلة التَّقوى؛ وأنَّها سبب للاهتداء والاتِّعاظ بالقرآن.

٦- أنَّه كلَّما ازداد الإنسان تقوى ازداد هدًى وموعظةً؛ وجهه: أنَّ الحكم المعلَّق بوصفٍ يقوى بقوته ويضعف بضعفه؛ فإذا كان الهدى والموعظة معلَّق بالتَّقوى فإنَّه لابدَّ أن يزداد ويقوى بالتَّقوى، ويضعف وينقص بعدم التَّقوى.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٣٩}

قال ابن العثيمين: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون}: {لا} هذه ناهية، والفعل بعدها مجزوم بها بحذف النون {تهنوا}؛ وأصله (تهنون)، فحذفت النون من أجل الجزم.

{ولا تهنوا}: الخطاب لهذه الأمَّة وعلى رأسها نبينا ﷺ وأصحابه؛ و(الوهن): الضعف، يعني: (لا تضعفوا) كما قال الله تعالى: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم}، أي: (لا تضعفوا وتجبنوا)؛ {ولا تحزنوا}: على ما أصابكم؛ الإنسان في الحقيقة بين زمنين: زمن ماضي وزمن مستقبل؛ فإذا فاته الخير أو حصل له الشر في الزمن الماضي فحاله الحزن، يحزن على ما مضى؛ في المستقبل إذا ضعف وجبن فاته من الخير بقدر ضعفه وجبنه؛ ولهذا قال: {ولا تهنوا}: يعني عن العمل في المستقبل، {ولا تحزنوا}: عمَّا جرى عليكم في الماضي؛ لأنَّكم أنتم الأعلون، ومن كان الأعلى فستكون العاقبة له؛ ما كان مستقبلًا لا تضعفوا فيه ولا تجبنوا فيه؛ لأنَّ العاقبة لكم حيث إنَّكم أنتم الأعلون. فذكر الله سبحانه وتعالى حال إقدامهم وحال إدبارهم؛ حال إقدامهم

نهاهم عن الضعف، وهذا يعطيهم قوةً وإقدامًا؛ وحال إدبارهم نهاهم عن الحزن؛ وهذا يعطيهم إعراضًا عمَّا ورائهم وعدم الإلتفات إليه؛ ومعلوم أنَّ الحزن يكون فيما يسوءه، والحزن على ما مضى لا يفيد الإنسان بل يفتر عزيمته ويقلق راحته ولا يستفيد منه بشيء؛ ولهذا نهاهم النبي ﷺ عمَّا يعوقهم حال الإقبال وعمَّا يعوقهم حال الإدبار؛ يقول: {لا تهنوا}، هذا ما يعوق حال الإقبال والإقدام؛ فنهاهم عن الضعف، يعني: أقدموا لا تجبنوا، لا تتأخَّروا؛ {لا تحزنوا}، عمَّا يكون سببًا لتوقُّفهم في حال الإدبار؛ لأنَّ الإنسان إذا حزن على ما مضى بقي قلقًا لا يحسن التصرف؛ فنهاهم عن هذا وعن هذا.

وقد اختلف المفسِّرون في الواو هنا {وأنتم الأعلون}، هل هي حال أو استئنافية؟ إذا قلنا إنَّها حال، صار هذا النهي منحطًّا على الأمَّة، مادامت هي العليا، يعني: فإذا انخفضت، فلها أن تهن ولها أن تحزن لأنَّها ضعيفة، لا يمكنها أن تتقدَّم ولا يمكنها أن تتسلَّى عمَّا مضى؛ لأنَّها تتسلَّى بأيِّ شيءٍ؛ وإذا جعلنا الواو استئنافية، {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون}، صار فيها تشجيع للأمَّة بأن لا يضعفوا ولا يحزنوا لأنَّهم هم الأعلون، حتى لو أصيبوا بما يصابون به فيما تقتضيه حكمة الله بمداولة الأيام بين الناس؛ فإنَّ العاقبة لهم؛ وعلى هذا فيكون هذا الوجه الثاني أقرب إلى الصواب وإن كان الوجه الأول محتملًا.

قال السعدي: يقول تعالى مشجِّعًا لعباده المؤمنين، ومقوِّيًا لعزائمهم ومُنَهِّضًا لهممهم: {ولا تهنوا ولا تحزنوا}: أي ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى، فإنَّ الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوِّكم عليكم، بل شجِّعوا قلوبكم وصبِّروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلَّبوا على قتال عدوِّكم، وذكر تعالى أنَّه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المتيقِّن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال تعالى: {وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ج١ص٢٧٨: قال أبو العباس: (الحزن: وهو من منازل العوام، وهو انخلاع عن السرور، وملازمة الكآبة لتأسُّف عن فائت أو توجُّع لممتنع. وإنَّما كان من منازل العوام لأنَّ فيه نسيان المنَّة، والبقاءَ فى رقِّ الطبع، وهو فى مسالك الخواص حجاب، لأنَّ معرفة الله جلا نورها كلَّ ظلمة، وكشف سرورها كلَّ غُمَّة. فبذلك فليفرحوا.

وقيل: أوحى الله إلى داود: (يا داود بي فافرح، وبذكري فتلذَّذ، وبمعرفتي فافتخر. فعمَّا قليل أُفرغ الدار من الفاسقين، وأُنزل نقمتي على الظالمين).

اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين. ولهذا لم يأْمر الله به في موضع قط ولا أَثنى عليه، ولا رتَّب عليه جزاءً ولا ثوابًا، بل نهى عنه فى غير موضع كقوله تعالى: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ}[آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضِيقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}[النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: {فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[المائدة: ٢٦]، وقال: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا}[التوبة: ٤٠]، فالحزن هو بليَّة من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: {الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحزَنَ}[فاطر: ٣٤]، فحمده على أن أذهب عنهم تلك البليَّة ونجَّاهم منها.

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه: ((اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدَّين وغلبة الرجال([١]))).

فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء كلُّ شيئين منها قرينان: فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على ما يستقبل فهو الهمُّ. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهمَّ. والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل والجبن والبخل قرينان، فإن الإحسان يفرح القلب ويشرح الصدر ويجلب النِّعم ويدفع النِّقم، وتركه يوجب الضَّيم والضِّيق ويمنع وصول النِّعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال، وضلع الدَّين وغلبة الرجال قرينان، فإنَّ القهر والغلبة الحاصلة للعبد إمَّا منه وإمَّا من غيره، وإن شئت قلت: إمَّا بحقٍّ وإمَّا بباطل من غيره. والمقصود أن النبى ﷺ جعل الحزن ممَّا يستعاذ منه. وذلك لأنَّ الحزن يضعف القلب ويوهن العزم، ويضرُّ الإرادة، ولا شيء أحبُّ إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}[المجادلة: ١٠]، فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما، وأمَّا أن يكون عبادة مأْمورًا بتحصيلها وطلبها فلا، ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليَّات. ولكن يحمد فى الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته، فإنَّ المؤمن إمَّا أن يحزن على تفريطه وتقصيره خدمة ربه وعبوديته، وأمَّا أن يحزن على تورُّطه فى مخالفته ومعصيته وضياع أيَّامه وأوقاته.

وهذا يدلُّ على صحَّة الإيمان فى قلبه وعلى حياته، حيث شغل قلبه بمثل هذا الألم فحزن عليه، ولو كان قلبه ميتًا لم يحسّ بذلك ولم يحزن ولم يتألَّم، فما لجرح بميِّت إيلام، وكلَّما كان قلبه أشدُّ حياةً كان شعوره بهذا الألم أقوى، ولكن الحزن لا يجدى عليه([٢])، فإنَّه يضعفه؛ بل الذي ينفعه أن يستقبل السير ويجدُّ ويشمِّر، ويبذل جهده، وهذا نظير من انقطع عن رفقته فى السفر، فجلس فى الطريق حزينًا كئيبًا يشهد انقطاعه ويحدِّث نفسه باللِّحاق بالقوم. فكلَّما فتر وحزن حدَّث نفسه باللِّحاق برفقته، ووعدها إن صبرت أن تلحق بهم، ويزول عنها وحشة الانقطاع. فهكذا السالك إلى منازل الأبرار، وديار المقرَّبين، وأخصُّ من هذا الحزن حزنه على قطع الوقت بالتَّفرقة المُضْعِفَة للقلب عن تمام سيره وجدِّه فى سلوكه، فإنَّ التَّفرقة من أعظم البلاء على السالك، ولا سيَّما في ابتداء أمره، فالأول حزن على التفريط فى الأعمال، وهذا حزن على نقص حاله مع الله، وتفرقة قلبه، وكيف صار ظرفًا لتفرقة حاله، واشتغال قلبه بغير معبوده.

١- (قلت): البخاري (٢٨٩٣).

٢- (قلت): لا يجدى عليه: أي لا يأتي عليه كليًّا.

وأخصُّ من هذا الحزن حزنه على جزءٍ من أجزاءِ قلبه كيف هو خالٍ من محبَّة الله وعلى جزءٍ من أجزاءِ بدنه كيف هو منصرف فى غير محاب الله؛ فهذا حزن الخاصة، ويدخل فى هذا حزنهم على كلِّ معارض يشغلهم عمَّا هم بصدده من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج([1]).

فهذه المراتب من الحزن لابدَّ منها فى الطريق، ولكن الكيِّس من لا يدعها تملكه وتقعده، بل يجعل عوض فكرته فيها فكرته فيما يدفعها به، فإنَّ المكروه إذا ورد على النفس، فإن كانت صغيرة اشتغلت بفكرها فيه، وفى حصوله عن الفكرة فى الأسباب التي يدفعها به فأورثها الحزن، وإن كانت نفسًا كبيرةً شريفةً لم تفكر فيه، بل تصرف فكرها إلى ما ينفعها، فإن علمت منه مخرجًا فكَّرت فى طريق ذلك المخرج وأسبابه، وإن علمت أنَّه لا مخرج منه، فكَّرت فى عبودية الله فيه، وكان ذلك عوضًا لها من الحزن، فعلى كلِّ حال لا فائدة لها فى الحزن أصلًا والله أعلم.

وقال بعض العارفين: ليست الخاصة من الحزن فى شيء. وقوله رحمه الله: (معرفة الله جلا نورها كلَّ ظلمة، وكشف سرورها كلَّ غمَّة)، كلام فى غاية الحسن، فإنَّ من عرف الله أحبَّه ولابدَّ، ومن أحبَّه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمَّر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كلِّ جانب، فإنَّه لا حزن مع الله أبدًا، ولهذا قال تعالى حكاية عن نبيه ﷺ أنَّه قال لصاحبه أبى بكر: {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا}[التوبة: ٤٠]، فدلَّ أنَّه لا حزن مع الله، وأنَّ من كان الله معه فما له وللحزن؟! وإنَّما الحزن كلَّ الحزن لمن فاته الله، فمن حصَّل الله له فعلى أيِّ شيءٍ يحزن؟! ومن فاته الله فبأيِّ شيءٍ يفرح؟! قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا}[يونس: ٥٨]، فالفرح بفضله ورحمته تبعٌ للفرح به سبحانه.

فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كلِّ أحد بما يفرح به من حبيب أو حياة، أو مال، أو نعمة، أو ملك. يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كلِّه، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها فى قلبه ونضرتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقَّاهم الله نضرةً وسرورًا.

فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فهذا هو العلم الذي شمَّر إليه أولو الهمم والعزائم، واستبق إليه أصحاب الخصائص والمكارم.

تلك المكارم لا قعبانِ من لبن ... شيبًا بماءٍ فماذا بعد أبوالًا

١- (قلت): قال شيخ الإسلام في الإعتراضات المصرية ج١ص٦٤: وأمَّا الحزن على الميت ونحوه فيُرخَّص منه في الحزن الذي لا معصيةَ فيه وفي الدمع، كما يُستحبُّ فيه رحمةُ الميت، إذ ليس في ذلك تركُ واجبٍ ولا تعدِّي حدٍّ، وهذا هو الذي لا يملِكُه العبدُ، بل يكون بغير اختياره على سببٍ غيرِ محرَّم، فلهذا لم يؤاخِذ الله عليه.

- (قلت): كما ورد في الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه (٣١٤٩)، وصححه الإمام الألباني: عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيِّ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: اشْتَكَى سَعْدٌ شَكْوَى فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَلَمَّا دَخَلَ وَجَدَهُ فِي غَشْيَتِهِ فَقَالَ: قَدْ قَضَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا بَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَكَوْا فَقَالَ: ((أَلَا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا أَوْ يرحم))، وأشار إلى لسانه.

قال ابن العثيمين: {إن كنتم مؤمنين}: هذه شرط للعلو، يعني: أنتم الأعلون في حال كونكم مؤمنين؛ والإيمان كما تعلمون أخصُّ من الإسلام؛ لأنَّ الإسلام يقع من المنافق ومن ضعيف الإيمان؛ والإيمان لا يكون إلَّا من المؤمن حقًّا كامل الإيمان؛ ولهذا قال الله تعالى: {قالت الأعراب آمنَّا}، أنظر أعراب البادية تقول آمنَّا: {قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا}. لماذا قال: {ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم}؟ حتى الآن لم يدخل الإيمان في القلب، عندكم إسلام لكن ليس عندكم إيمان، إلَّا أنَّ الإيمان قريب منكم؛ لأنَّ قوله: {لمَّا}، حرف نفي يدلُّ على قرب المنفي، يعني أنَّ الإيمان قريبًا ما يدخل قلوبكم؛ أمَّا الآن فلا؛ إذًا نحن نقول هذه الأمَّة هي العليا بشرط الإيمان؛ أمَّا إذا لم يكن لديها إيمان فليس لها عهد عند الله بنصر؛ لأنَّ العهد الموثَّق بين الله وبين عباده في النصر هو أن يكون النصر متبادلًا {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} {ولينصر الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}، أمَّا إذا لم يكن منَّا نصر لله عز وجل، فإنَّ نصر الله قد يتخلَّف، يعني: ليس بمضمون.

إذًا أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين؛ علامات الإيمان كثيرة منها: أن لا يخاف الإنسان في تنفيذ حكم الله أحدًا من الخلق؛ فإن خاف أحدًا من الخلق فليس بمؤمن؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {إنَّما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين}، {يخوِّف أولياءه}: يعني يوقع الخوف في قلوبكم من أوليائه؛ ولهذا نقول إنَّ قوله: {أولياءه}، مفعول ثاني ل {يخوِّف}، والمفعول الأول محذوف، وتقدير الكلام: (يخوِّفكم أولياءه)؛ قال تعالى: {فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين * الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم}، فماذا قالوا؟ {وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}، فإذًا خوف الإنسان أولياءه وهم الكفار، فإنَّه لا يجوز لنا أن نخافهم، بل نفعل ما أمرنا الله به؛ ولكن أمر الله سبحانه لنا بقتال الكفار إنَّما يكون حين يكون لدينا قوة نستطيع أن نقاتلهم بها؛ أمَّا أن نقاتلهم بسلاح دون سلاحهم، وأقل من سلاحهم بكثير، فإنَّ هذا يعتبر تهوُّرًا؛ ولهذا لم يؤمر المؤمنون بالجهاد إلَّا حين صار لهم شوكة وقوة؛ فأمَّا إذا لم يكن فلا؛ لكن هذا يستلزم أنَّه يجب علينا أن نتسلَّح لقتالهم حتى يكون الدِّين لله؛ والخطاب هنا في إيجاد التَّسلُّح لولاة الأمر لا لأفراد الناس، لأنَّ أفراد الناس لا يستطيعون القيام بهذا؛ لكن ولاة الأمور من المسلمين يجب عليهم أن يكونوا جيشًا عرمرمًا مسلَّحًا من أحدث الأسلحة من أجل أن يقاتل: {الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقِّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}؛ لكن مع الأسف أنَّا اليوم فقدنا حتى السلاح الدَّعوي، حتى الدَّعوة لدين الإسلام لا نجد أحدًا يدعو كما ينبغي، بينما نجد النصارى على قدمٍ وساق في الدَّعوة إلى ما هم عليه من الباطل، يبذلون الأموال الكثيرة، ويغرِّرون بأنفسهم في الطرقات في البراري، يحمل القسيس منهم كسرة خبز وجرة ماء ويضرب الفلوات من أجل أن يدعو واحدًا من المسلمين إلى أن يكون نصرانيًّا؛ أمَا نحن فمع الأسف الشديد أنَّنا لا نحمل هذه القوة المعنوية في نفوسنا مع أنَّنا نحن إذا دعونا إلى الحقِّ فإنَّ ديننا ولله الحمد إذا عرض عرضًا صحيحًا في الدَّعوة وعرضًا صحيحًا في التطبيق فإنَّ ذلك كفيل بأن يدخل الناس في دين الله أفواجًا. أمَّا إذا كنَّا ندعو إلى الصِّدق مثلًا ونحن من أكذب عباد الله هذه ليست

دعوة، كيف تدعو إلى الصِّدق وأنت كذَّاب؟! إذا كنَّا ندعو للوفاء بالعهد ونحن من أغدر الناس، هذا تلاعب؛ إذا كنَا ندعو لحفظ الأمانة ونحن من أخون الناس ليس هذا بصحيح؛ إذا كان ديننا ينهى عن الرِّبا ومنَّا من يرابي، كيف الدعوة، أين الدعوة؟ إذا لم تمثَّل الدَّعوة بحال الدَّاعي تطبيقًا تامًّا بقدر المستطاع فإنَّه سينقص من قبول الناس بقدر ما نقص من تطبيقه؛ ولهذا نقول إنَّ الله شرط قال: {وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}، وصدق الله ورسوله؛ هل الأمَّة الإسلامية اليوم هي العليا؟ لا؛ لأنَّ الإيمان ناقص؛ فإذا لم يوجد الإيمان فسنتأخَّر، وسيكون من سوانا ممَّن لديه قوة مادية هو الأعلى؛ أنا أقول لكم إنَّ الإنسان إذا كان عنده إيمان وفعل ما يجب عليه من الاستعداد المادي كما فعل الرسول ﷺ وأصحابه فسينصرون على عدوِّهم بقوة لا طاقة لهم ولا لعدوهم بها؛ لكن بشرط أن يبذلوا الجهد بالسلاحين: سلاح الإيمان والسلاح المادي بقدر المستطاع؛ وإذا شئتم مثلًا على ذلك فانظروا إلى غزوة خندق، اجتمع على رسول الله ﷺ وهو في المدينة عشرة آلاف مقاتل من مختلف العرب وبأقوى سلاح ومعهم القوة العظيمة التي لا تقابلها قوة المسلمين من حيث القوة المادية؛ ففعل المسلمون كلَّما يستطيعون من الدفاع عن أنفسهم إلى حدِّ أنَّهم حفروا خندقًا، قاموا بالواجب، ولكن مع ذلك حوصروا نحوًا من شهر؛ فما الذي حصل؟ أتى الله عز وجل بقوَّةٍ لا قبل للكفار بها ولا للمسلمين أيضًا، ليس لهم فيها حول؛ وهي ريح شديدة باردة، وهي الريح الشرقية التي قال عنها الرسول ﷺ: ((نصِرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبُور[١]))، ريح شديدة باردة، وجنودًا من الملائكة تلقي الرُّعب في قلوب هؤلاء حتى رحلوا بين غروب الشمس وشروقها؛ كانت الريح تكفأ قدروهم وتهدم خيامهم وتقلقهم إقلاقًا عظيمًا، حتى إنَّ أبا سفيان وكان قائد الجيش في ذاك الوقت كان يصطلي على النار مع أنَّ النار غير مستقرة من شدَّة الهواء؛ وكان حذيفة بن اليمان قريبًا منه يقول: لو شئت لرميته بالسهم حتى يموت؛ لكنَّ النبي ﷺ قال له: ((لا تحدث شيئًا))، امتثال أمر النبي ﷺ الذي هو الحكمة منعه وإلَّا كان قتله سهلًا؛ فقال أبو سفيان: (لينظر كلُّ واحدٍ منكم جليسه من هو)؛ خاف أن يكون أحد من الناس من غير الجيش؛ يقول حذيفة: فأمسكت بيد رجل قريب مني وقلت: من أنت؟ هذا من ذكائه؛ لماذا؟ لئلَّا يسبق ذاك ويقول لحذيفة: من أنت؟؛ فالمهم على كلِّ حال إنَّ المسلمين إذا بذلوا ما يستطيعون من القوة المعنوية وهي الإيمان، والقوة المادية وهي ما أمر أن يعدُّوه للكفار فإنَّهم سينصرون بقوة لا قبل لهؤلاء بها. إذًا أنتم الأعلون متى؟ إن كنتم مؤمنين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- ينهى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن الوهن، عن العمل في المستقبل؛ وعن الحزن على ما مضى؛ لأنَّ هذا في الحقيقة كما أنَّه خلاف الشرع فهو خلاف العقل؛ وجهه: أنَّ الحزن على ما فات لا

١- (قلت): مُتَّفَق عَلَيْهِ. البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

يرد الفائت؛ لو تحزن ليلًا ونهارًا على ما مضى لم تغيِّر شيئًا، الذي مضى وقع كما هو لن يتغيَّر؛ ولهذا كان من الحزم أن لا يحزن الإنسان على شيءٍ مضى، بل يقول: قدر الله وما شاء فعل؛ كذلك الضعف عن المستقبل والوهن والخور كما أنَّه خلاف الشرع فهو خلاف العقل؛ لأنَّ العقل يقتضي أن تقابل الأمور بجدٍّ وحزم.

٢- أنَّه ينبغي للإنسان في غير أعمال الحرب والجهاد أن يكون قوي العزيمة لا يضعف ولا يجبن؛ وكم من إنسان ضعف وجبن ففاته خير كثير؛ ولو أقدم لحصل على خير كثير لأنَّ المستقبل لا تدري ما النتيجة فيه.

٣- أنَّ هذه الأمَّة هي العلياء بشرط أن تؤمن؛ لقوله: {وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}.

٤- التلميح بالتَّوبيخ إذا حصل الوهن أو الحزن لاسيَّما إذا قلنا إن الواو هنا واو الحال يعني كيف يليق بكم أن تهنوا وتحزنوا وأنتم الأعلون؛ لأنَّ الأعلى لا يليق به أن يهن أو أن يحزن.

٥- أنَّه كلَّما ازداد إيمان الأمَّة ازدادت علوًّا؛ تؤخذ من {وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}، لأنَّه رتَّب العلو على الإيمان؛ والمرتَّب على الشَّيء يزيد بزيادته وينقص بنقصه. قريب من هذه الآية قوله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدِّين كلِّه}: يعني يبيِّنه ويعلِّيه؛ ومنه قولهم: (ظهر على الجبل): يعني علا عليه؛ ومنه ظَهْر الحيوان وهو أعلى الحيوان؛ إذًا: {ليظهره على الدِّين كلِّه} يعني: ليعلِّيه؛ فإذا أردت أن تعلو على البشر فخذ بهذا الدِّين، لأنَّ هذا الدِّين لابدَّ أن يكون هو الدِّين العالي على كلِّ شيء.

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {١٤٠}

قال ابن العثيمين: {إن يمسسكم قرحٌ}: وفيها قراءة: {قُرحٌ} في الموضعين: {فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله}، فقيل معناهما واحد وأنَّ القَرح والقُرح هو الجرح؛ وقيل: إنَّ القُرح الجرح والقَرح ألم الجرح؛ والقولان وإن قلنا باختلافهما متلازمان؛ لأنَّ القَرح من لازم الجرح الذي هو القُرح؛ فالإنسان المقروح لابدَّ أن يكون متألِّمًا، يعني: إن يمسسكم جراح وألم فقد مسَّ القوم قَرح مثله، يعني: جراح وألم؛ بل قال الله تعالى في نفس سياق الآيات: {أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم}، فإذا كان أصابتكم مصيبة فقد أصبتم مثليها في أحد قتل منكم سبعون، لكن في بدر قتل من عدوِّكم سبعون وأُسر سبعون، أي: الضعف؛ هنا يقول: {فقد مسَّ القوم قرح مثله}، وفي هذا تسلية للمؤمنين لأنَّ الإنسان إذا علم أنَّ عدوَّه أصابه مثل ما أصابه فإنَّه يهون عليه المصيبة؛ تقول الخنساء وهي ترثي أخاها صخرًا:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلِّي النفس عنه بالتأسِّي

وإلى هذا أشار الله في القرآن فقال: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنَّكم في العذاب مشتركون}: فاشتراككم في العذاب لم ينفعكم ولم يخفِّف عنكم الألم؛ لكنَّ الله عز وجل يقول للمؤمنين: إن كنتم قد أصبتم بقَرح فقد أصيب عدوَّكم بقرح مثله؛ بل في آيةٍ أخرى يقول الله عز وجل: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم}؛ هنا التَّسلية أعظم: أي في طلبهم، يعني: لا تضعفوا في طلبهم، اطلبوهم اقتلوهم، {إن تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون}، صدق الله؛ {وترجون}، هذه النكتة: {وترجون من الله ما لا يرجون}، هذه الفائدة العظيمة؛ هم لا يرجون شيئًا، إنَما يريدون علوًّا واستكبارًا، خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس؛ وأنتم ترجون الجنة، ترجون الشهادة؛ ولهذا قال: {ترجون من الله ما لا يرجون}، والصحابة ماذا قالوا لأبي سفيان في أحد لمَّا قال: يوم بيوم بدر والحرب سجال، يعني: مرَّة لنا ومرَّة علينا؛ قالوا: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار؛ إذًا فالمؤمنون لا يظنُّون أنَّ عدوَّهم لا يصيبه ألم، لا يصيبه قرح، يصيبه؛ إذا قتل منهم واحد ذاقوا ألم هذا المقتول كما أنَّه لو قتل منَّا واحد فإنَّا ذقنا ألمه، لكن نحن نرجو من الله ما لا يرجون؛ ولهذا قال: {إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله}، هذه بهذه.

{وتلك الأيَّام نداولها بين الناس}: {تلك الأيَّام} المشار إليه هنا، بعيد، ولكنَّه في الحقيقة قريب، لأنَّ الأيَّام هي الزمن فهي قريب؛ لكن لمَّا كانت الأيَّام منها ما هو بعيد، غلب جانب البعد؛ يعني هذه الأيَّام نداولها بين الناس، يعني: نجعلها دوَلًا، تارةً يدال هذا على هذا، وتارةً يدال هذا على ذاك؛ ففي بدر كانت الدولة على المشركين وفي أحد كانت الدولة على المؤمنين؛ فهذا مرَّة وهذا مرَّة، لِحِكَم عظيمة بيَّنها الله سبحانه وتعالى فيما بعد؛ وقوله: {نداولها بين الناس}، يشمل مداولتها بين أمَّة وأمَّة، ويشمل كذلك مداولتها في الإنسان الواحد؛ فالإنسان يجد يومًا سرورًا ويجد يومًا آخر حزنًا؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ أَنَا زُهَيْرٌ أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عازب يحدث قَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: ((إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»، فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةَ، أَيْ قَوْمِ الْغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ. فذلك قوله: {وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ}[آل عمران: ١٥٣]، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يوم بدر أربعين ومائة، سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلًا، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أصحابه، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ

قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَّدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، فقال: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: اعْلُ هُبَلُ اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَلَا تُجِيبُوهُ))؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: ((قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ))، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَلَا تُجِيبُوهُ؟))، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: ((قُولُوا اللَّهُ مولانا ولا مولى لكم[1])).

قال ابن العثيمين: فالدنيا هكذا لا تبقى على حالٍ واحدة؛ ولهذا يقال: دوام الحال من المحال؛ فالأيَّام دول؛ وانظر إلى قوله: {نداولها} حيث أتت بصيغة (نون العظمة)، إشارة إلى أنَّ الله عز وجل لكمال سلطانه وكبريائه يديل الناس بعضهم على بعض؛ فالله عز وجل هو الذي بيده الأمر، حتى إنَّ الدولة تكون في بعض الأحيان لأعدائه على أوليائه لِحِكَمٍ يريدها، بيَّنه الله في قوله: {وليعلم الله الذين آمنوا ...}.

{وليعلم الله الذين آمنوا منكم}: الواو هنا حرف عطف، فما هو المعطوف عليه؟ هل هي الجملة التي سبقت: {وتلك الأيَّام نداولها بين الناس}؟ نقول لا؛ لأنَّ {وليعلم} تعليل للجملة التي قبلها وهي: {وتلك الأيَّام نداولها بين الناس}، والعلَّة غير المعلول ولا يصح عطفها عليه، لأنَّ العلَّة هي السبب في وجود المعلول؛ إذًا فهناك شيءٌ معطوف عليه فيقدر بما يناسب الحال؛ فالذي يناسب هنا أن نقول: إنَّ التقدير ليتبيَّن بذلك تمام سلطان الله عز وجل، نداولها بين الناس ليتبيَّن بذلك تمام سلطان الله، وأنَّ الله عز وجل هو الذي له الحكم، يحكم في عباده بما يشاء، فيخذل أقوامًا وينصر آخرين، ويأتي بالعسر ويأتي باليسر حتى يتبيَّن بهذا تمام سلطانه سبحانه وتعالى، حتى المخلوقات بعضها فيها خير وبعضها فيها شر، كلُّ هذا ليظهر للناس تمام السلطان للعلي الكبير سبحانه وتعالى؛ إذًا فالواو هنا {وليعلم}، حرف عطف والمعطوف عليه محذوف تقديره: (ليتبيَّن بذلك تمام سلطان الله).

{وليعلم الله الذين آمنوا}: علم وجود، وعلمًا يترتَّب عليه الجزاء؛ وإنَّما قلنا ذلك لأنَّ الله تعالى قد علم الذين آمنوا قبل أن يؤمنوا، فإنَّ علم الله بالأشياء علم أزلي، يعلم سبحانه وتعالى ما كان وما يكون إلى يوم القيمة، لكن يعلمه علم وجود، أي: يعلمه موجودًا؛ أمَّا العلم السابق فإنَّه يعلمه أنَّه سيوجد؛ وهناك فرق بين علمه الشيء موجودًا حال وجوده، وبين علمه الشيء بأنَّه سيوجد، هذا واحد؛ والثاني: يعلمه علمًا يترتَّب عليه الجزاء؛ وذلك حين يوجد الإيمان أو يفقد؛ أمَّا علم الله السابق فإنَّه

١- إسناده صحيح على شرط البخاري، عمرو بن خالد هو التميمي روى له البخاري، وقد توبع، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، زهير هو ابن معاوية، أبو إسحاق هو السّبيعي اسمه عمرو بن عبد الله.

- وهو في شرح السنة (٢٦٩٩) بهذا الإسناد.

- أخرجه المصنف من طريق البخاري وهو في صحيحه (٣٠٣٩) عن عمرو بن خالد بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ٤٠٤٣ وأبو داود ٢٦٦٢ والنسائي في الكبرى (١١٠٧٩)، والطيالسي ٧٢٥ وأحمد ٤/ ٢٩٣ وابن سعد في الطبقات (٢/ ٤٧)، وابن حبان ٤٧٣٨ والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٢٩- ٢٣٠) من طرق عن زهير بن معاوية به.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٤٧١٨).

لا يترتَّب عليه الجزاء، وذلك لأنَّ المؤمن لم يكن موجودًا بعد حتى يجازى أو لا يجازى؛ وبهذا يزول الإشكال الوارد على مثل هذه الجملة، ويحصل به الجواب عن الإشكال وهو أن يقال: إنَّ الله تعالى قد علم الذين آمنوا من قبل، فإنَّه سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ مقادير كلِّ شيءٍ إلى يوم القيمة، وقد علم المؤمن من غيره من قبل فكيف يقول: {وليعلم}؟ الجواب أن نقول: ليعلم علم وجود أي بأنَّ الشيء وجد، وتعلُّق العلم بالموجود غير تعلُّقه بالمعدوم الذي سيوجد؛ الثاني: أن يعلمه علمًا يترتَّب عليه الجزاء، لأنَّ علمه السابق بأنَّه سيوجد لا يترتَّب عليه الجزاء.

وقوله: {وليعلم الذين آمنوا}: لأنَّ المؤمن يرضى بمداولة الله الأيَّام بين الناس، يرضى بها رضًا تامًّا: إن أصابته ضرَّاء صبر، وإن أصابته سرَّاء شكر؛ ويعلم أنَّ ذلك بتقدير الله، فيرضى ويسلم؛ وأمَّا غير المؤمن فبالعكس، إن أصيب بسرَّاء أشر وبطر، وإن أصيب بضرَّاء ضجر وتسخَّط، يقول الله سبحانه وتعالى: {ومن الناس من يعبد الله على حرف}: أي على طرف: {فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة}، والفتنة هنا المراد بها: ضد الخير، {وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة}، وكم من إنسان ارتدَّ لأنَّه أصيب بمصيبة؛ إذًا نقول: {وليعلم الله الذين آمنوا}، لأنَّ المؤمن يرضى بمداولة الله الأيَّام بين العباد، إن أصابته ضرَّاء صبر أو سرَّاء شكر؛ غير المؤمن بالعكس لا يرضى بقضاء الله وقدره؛ يقول: {لو أطاعونا ما قتلوا}، {لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا}، وما أشبه ذلك، هذه واحدة؛ الحكمة الثانية: إنَّ قوله: {وليعلم}، معطوف على مقدرة، التقدير: (ليتبيَّن تمام سلطانه وليعلم)؛ الحكمة الثالثة: قال: {ويتَّخذ منكم شهداء}، انظر إلى هذا التعبير، لم يقل: (وليوجد)؛ بل قال: {ويتَّخذ منكم شهداء}، فهؤلاء الشهداء اتَّخذهم الله واصطفاهم لنفسه جل وعلا؛ ولولا مثل هذه الهزيمة لم يكن شهداء، ولكن من أجل أن يتَّخذ منكم شهداء، أي يتَّخذ منكم أناسًا قتلوا في سبيل الله؛ وكم من شهيد اتَّخذهم في غزوة أحد؟ سبعون رجلًا.

قال القرطبي: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}: أي يكرمكم بالشهادة؛ أي: ليُقتل قوم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم. وقيل: لهذا قيل شهيد: وقيل: سُمِّيَ شهيدًا لأنَّه مشهود له بالجنة وقيل: سُمِّيَ شهيدًا لأنَّ أرواحهم احتضرت دار السلام، لأنَّهم أحياء عند ربهم، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة؛ فالشهيد بمعنى الشاهد، أي: الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح.

وفي قوله تعالى: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}، دليل على أنَّ الإرادة غير الأمر كما يقول أهل السنة؛ فإنَّ الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين: حمزة وأصحابه وأراد قتلهم، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراده فواقعه آدم، وعكسه أنَّه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فامتنع منه؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ}[التوبة: ٤٦]، وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد، ولكنَّه خلق الكسل والأسباب القاطعة عن المسير فقعدوا.

قال ابن العثيمين: {والله لا يحبُّ الظالمين}: أوَّلًا: من هم الظالمون؟ الظالمون هم الذين نقصوا حقَّ الله وحقَّ عباده، لأنّ الأصل في الظلم النقص؛ لقوله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}: أي لم تنقص؛ فالظالم هو الذي نقص في حقِّ الله وحقِّ عباده بل وحقِّ نفسه، {وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، فالظالم لا يحبه الله، لكن إن كان ظلمه

ظلم كُفر، فلا حظَّ له في محبة الله، وإن كان ظلمه دون ذلك، فله من محبة الله بقدر ما معه من العدل، ومن كراهة الله بقدر ما معه من الظلم.

قوله: {لا يحبُّ الظالمين}: قد يبدوا غريبًا على القارئ مناسبة هذه الجملة بما قبلها: {ويتَّخذ منكم شهداء والله لا يحبُّ الظالمين}. كيف هذا؟ فيقال: الجواب من وجهين: الوجه الأول: أنَّ المراد بقوله: {والله لا يحبُّ الظالمين}، بيان أنَّ الذين تخلَّفوا عن غزوة أحد وهم مقدار ثلث الجيش لم يكن منهم شهيد لأنَّهم نجوا بأنفسهم؛ فلكونهم ظَلمة لم يتَّخذ الله منهم شهداء، فيكون ذلك تنديدًا بالذين تخلَّفوا ورجعوا في أثناء الطريق وهم عبد الله بن أبي ومن تبعه من المنافقين، فكأنَّه قال: اتَّخذ منكم أيها الصَّفوة شهداء، ولم يتَّخذ من أولئك الذين نكسوا على أعقابهم لأنَّ هؤلاء ظلمة والله لا يحبهم.

الوجه الثاني: أنَّ الذين قتلوا في أحد قتلوا على أيدي المشركين، والمشركون هم الظالمون كما قال تعالى: {إنَّ الشرك لظلم عظيم}، فهل انتصار الظالمين في أحد واستشهاد من استشهد من المسلمين في أحد لأن الله يحب الظالمين ويكره المؤمنين؟ لا؛ إذًا: {والله لا يحبُّ الظالمين}، لئلَّا يظنَّ ظانٌّ أنَّ انتصار المشركين في تلك الغزوة من محبة الله لهم، فبيَّن الله عز وجل أنَّه لا يحب الظالمين.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص١٩٩: فَجَمَعَ لَهُمْ فِي هَذَا الْخِطَابِ بَيْنَ تَشْجِيعِهِمْ وَتَقْوِيَةِ نُفُوسِهِمْ وَإِحْيَاءِ عَزَائِمِهِمْ وَهِمَمِهِمْ، وَبَيْنَ حُسْنِ التَّسْلِيَةِ، وَذِكْرِ الْحِكَمِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ إِدَالَةَ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ}، فَقَدِ اسْتَوَيْتُمْ فِي الْقَرْحِ وَالْأَلَمِ، وَتَبَايَنْتُمْ فِي الرَّجَاءِ وَالثَّوَابِ، كَمَا قَالَ: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}[النساء: ١٠٤]، فَمَا بَالُكُمْ تَهِنُونَ وَتَضْعُفُونَ عِنْدَ الْقَرْحِ وَالْأَلَمِ، فَقَدْ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، وَأَنْتُمْ أُصِبْتُمْ فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِي.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُدَاوِلُ أَيَّامَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنَّهَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يُقَسِّمُهَا دُوَلًا بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، بِخِلَافِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ عِزَّهَا وَنَصْرَهَا وَرَجَاءَهَا خَالِصٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى، وَهِيَ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَيَعْلَمُهُمْ عِلْمَ رُؤْيَةٍ وَمُشَاهَدَةٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَعْلُومِينَ فِي غَيْبِهِ، وَذَلِكَ الْعِلْمُ الْغَيْبِيُّ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، وَإِنَّمَا يَتَرَتَّبُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عَلَى الْمَعْلُومِ إِذَا صَارَ مُشَاهَدًا وَاقِعًا فِي الْحِسِّ.

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى، وَهِيَ اتِّخَاذُهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ الشُّهَدَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ أَعْلَى الْمَنَازِلِ وَأَفْضَلَهَا، وَقَدِ اتَّخَذَهُمْ لِنَفْسِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُنِيلَهُمْ دَرَجَةَ الشَّهَادَةِ.

وَقَوْلُهُ: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}، تَنْبِيهٌ لَطِيفُ الْمَوْقِعِ جِدًّا عَلَى كَرَاهَتِهِ وَبُغْضِهِ لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ انْخَذَلُوا عَنْ نَبِيِّهِ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ يَشْهَدُوهُ وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُحِبَّهُمْ فَأَرْكَسَهُمْ وَرَدَّهُمْ لِيَحْرِمَهُمْ مَا خَصَّ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَمَا أَعْطَاهُ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ، فَثَبَّطَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي وَفَّقَ لَهَا أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان رأفة الله سبحانه وتعالى برسول الله ﷺ وأصحابه بهذه التَّسلية العظيمة: {إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله}.

٢- أنَّه ينبغي للإنسان أن يعزِّي المصاب بمثل هذا، بمثل هذه التَّعزية فيقول مثلًا: يا أخي لست أول من أصيب؛ كم من أناس أصيبوا بمثل هذه المصيبة أو أكثر؛ ويقول له مثلًا: قدِّر أنَّ المصيبة أعظم من هذا لأنَّ كلَّ شيءٍ ممكن؛ فإذا أصبت بفقد ألف، فقدِّر أنَّك أصبت بفقد ألفين، لأنَّ هذا ممكن؛ فإذا قدَّرت أنَّك أصبت بفقد ألفين والمفقود ألف هان عليك فقد الألف؛ إذًا فالله علَّمنا كيف نعزِّي المصاب بأن نسلِّيه بذكر النظائر أو بذكر ما هو أعظم.

٣- أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل هذه الدنيا دوَلًا تتقلَّب لئلَّا يركن الإنسان إليها، لأنَّ الدنيا لو كانت دائمًا راحة ونعمة ركن الإنسان إليها ونسي الآخرة، ولو كانت دائمًا محنة ونقمة لكانت عذابًا مستمرًّا؛ ولكنَّ الله جعلها دوَلًا يدال فيها الناس بعضهم على بعض وتتداول الأحداث على الإنسان ما بين خير وشر.

٤- تمام سلطان الله سبحانه وتعالى في خلقه، وأنَّ له التدبير المطلق؛ بناءً على المقدَّر الذي قدَّرناه ليظهر بذلك أو ليتبيَّن بذلك تمام سلطان الله.

٥- أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العبد ليعلم إيمانه من عدمه بأنواع من الامتحانات، تارةً بالمصائب وتارةً بالمعائب؛ فهنا ابتلاء بالمصائب؛ وإذا يسَّر الله للإنسان أسباب المعصية فهذا ابتلاء بتيسير المعائب مثل قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ليبلونَّكم الله بشيءٍ من الصَّيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب}.

٦- أنَّ الله تعالى قد يقدِّر المكروه لِحِكم بالغة كثيرة؛ لقوله: {ليعلم الله الذين آمنوا ويتَّخذ منكم شهداء}.

٧- فضيلة الشهادة؛ تؤخذ من قوله: {ويتَّخذ منكم}، فكأنَّه سبحانه اصطفى هؤلاء الشهداء واتَّخذهم لنفسه.

٨- فضيلة شهداء أحد؛ لأنَّ قوله: {ليتَّخذ منكم شهداء}، أول من يدخل فيها شهداء أحد رضي الله عنهم.

٩- إثبات المحبة لله، أنَّ الله يحب؛ وجه ذلك: أنَّ نفيها عن الظالمين يدلُّ على ثبوتها لضدِّهم؛ لأنَّها لو انتفت عن هؤلاء وهؤلاء لم يكن في نفيها عن الظالمين فائدة؛ ولهذا استدلَّ الشافعي رحمه الله وغيره من أهل العلم على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة بقوله تعالى: {كلَّا إنَّهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون}: يعني الفجار؛ قال: (فلمَّا حجب هؤلاء عن رؤيته في السخط دلَّ على رؤية الآخرين في حال الرضا)؛ وهذا لاشكَّ استدلال جيِّد؛ فهنا نقول لما نفى المحبة عن الظالمين دلَّ على ثبوتها لمن كان ضدَّهم؛ لأنَّها لو كانت منتفية عن هؤلاء وهؤلاء، لم يكن لتخصيص الظالمين فائدة؛ المحبة يعني: كون الله يحب الشخص؛ هل فيها نقص بالنسبة لله؟ لا؛ ولهذا كان أهل السنة السلف يثبتون أنَّ الله يُحِبُّ وأنَّه يُحَبُّ أيضًا، كما قال تعالى: {فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه}، ومحبة الله سبحانه وتعالى إذا وفِّق العبد لها لا يعادلها شيء، ولا يماثلها لذَّة، يجد الإنسان في محبة الله لذَّة لا توصف أبدًا؛ حتَّى إنَّ بعض السلف يقول: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه

بالسيوف، الملوك هم في قمَّة النعيم الدنيوي؛ لكن أحباب الله وأولياء الله أعظم منهم في هذا النعيم؛ إذًا نقول من مذهب أهل السنة والجماعة إثبات المحبة لله، أن الله يُحِبُّ وأنه يُحَبُّ.

١٠- التحذير من الظلم لقوله: {لا يحبُّ الظالمين}، وكلّ إنسان يهرب هروبه من الأسد من كلِّ فعلٍ يؤدِّي إلى عدم محبَّة الله له؛ ففي هذا تحذير من الظلم؛ والظلم أقسام: إمَّا في حقِّ الله، وإمَّا في حقِّ الآدمي، والظلم في حقِّ الآدمي: إمَّا في المال، وإمَّا في النفس، وإمَّا في العرض، أنواع؛ لكن كلَّ ظلمٍ فإنَّ الله لا يحبُّه.

١١- أنَّ محبَّة الله قد تتبعَّض، بمعنى أنَّه يحب هذا أقوى من هذا، ويكره هذا أقوى من هذا؛ وجهه: (أنَّ الحكم إذا علِّق بوصف فإنَّه يزداد بزيادته ويقوى بقوَّته، وينقص بنقصه ويضعف بضعفه)؛ فإذا كان انتفاء المحبَّة من أجل الظلم فكلَّما كان الإنسان أظلم كان أبعد عن محبَّة الله عز وجل.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ {١٤١}

قال ابن العثيمين: ثمَّ ذكر الله فائدة أخرى رابعة؛ قال: {وليمحِّص الله الذين آمنوا}: {يمحِّص} بمعنى ينقِّي؛ وهل المراد تنقيتهم من غيرهم بحيث يتبيَّن المؤمن النَّقي الصافي الإيمان؟ أو تنقيتهم من الذنوب بما أصابهم من القرح؟ أو الأمران جميعًا؟ الأمران جميعًا، لأنَّا لدينا قاعدة سبقت وهي: أنَّ اللفظ إذا كان يحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر فإنَّه يحمل عليهما جميعًا؛ إذًا فهو يمحِّصهم: ينقِّيهم من الذنوب بما أصابهم من القرح، وينقِّيهم أيضًا باعتبار الخلاصة، يعني يتبيَّن بذلك خلاصة المؤمنين ممَّن في إيمانهم شيءٌ من الشَّك أو الكفر؛ وهذا أمر ظاهر وهو كما أشار الله في قوله: {وليعلم الله الذين آمنوا منكم}؛ إذًا من الحكمة فيما حصل للمسلمين من القرح أنَّ الله يمحص الذين آمنوا؛ ينقِّيهم من الذنوب بما أصابهم من هذه المصيبة، وينقِّيهم ببيان الخُلَّص أهل الصفوة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٤ص٢٥٤: وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ لَيْسَ سَبَبًا لِشَيْءٍ مِنْ الْمَصَائِبِ، وَلَا تَكُونُ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَطُّ سَبَبًا لِمُصِيبَةٍ، بَلْ طَاعَةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ لَا تَقْتَضِي إلَّا جَزَاءَ أَصْحَابِهَا بِخَيْرَيْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنْ قَدْ تُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ مَصَائِبُ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، لَا بِمَا أَطَاعُوا فِيهِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، كَمَا لَحِقَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، لَا بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ.

وَكَذَلِك مَا اُبْتُلُوا بِهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالزِّلْزَالِ، ليس هو بسبب نَفْسِ إيمَانِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، لَكِنْ اُمْتُحِنُوا به، لِيَتَخَلَّصُوا مما فيهم من الشَّرِّ وَفُتِنُوا بِهِ كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ بِالنَّارِ؛ لِيَتَمَيَّزَ طَيِّبُهُ مِنْ خَبِيثِهِ، وَالنُّفُوسُ فِيهَا شَرٌّ، وَالِامْتِحَانُ يُمَحِّصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ ذَلِك الشَّرِّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا

يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}[آل عمران: ١٥٤]، وَلِهَذَا قَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: {طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}[النمل: ٤٧]. وَلِهَذَا كَانَتْ الْمَصَائِبُ تُكَفِّرُ سَيِّئَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا تَرْتَفِعُ دَرَجَاتُهُمْ، وَمَا أَصَابَهُمْ فِي الْجِهَادِ مِنْ مَصَائِبَ بِأَيْدِي الْعَدُوِّ، فَإِنَّهُ يُعَظِّمُ أَجْرَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَا مِنْ غَازِيَةٍ يَغْزُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَسْلَمُونَ وَيَغْنَمُونَ إلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ. وَإِنْ أُصِيبُوا وَأَخْفَقُوا: تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ([1]))).

وَأَمَّا مَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالتَّعَبِ، فَذَاكَ يُكْتَبُ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[التوبة: ١٢٠].

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص١٩٩: ثُمّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى فِيمَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَهُوَ تَمْحِيصُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُوَ تَنْقِيَتُهُمْ وَتَخْلِيصُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمِنْ آفَاتِ النُّفُوسِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ خَلَّصَهُمْ، وَمَحَّصَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَتَمَيَّزُوا مِنْهُمْ، فَحَصَلَ لَهُمْ تَمْحِيصَانِ: تَمْحِيصٌ مِنْ نُفُوسِهِمْ، وَتَمْحِيصٌ مِمَّنْ كَانَ يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَهُوَ عَدُوُّهُمْ. ثُمّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى وَهِيَ مَحْقُ الْكَافِرِينَ بِطُغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ.

قال ابن العثيمين: الخامسة قال: {ويمحق الكافرين} سبحان الله، إذًا نصرهم يكون سببًا لمحقهم! لأنَّهم إذا انتصروا علوا واستكبروا وانتفخوا في أنفسهم، وظنُّوا أنَّ لهم السيطرة دائمًا فحينئذ يعيدون الكرَّة مرةً أخرى بقتال المسلمين، وبذلك يكون محقهم؛ هذا هو وجه الآية؛ وقال بعض أهل العلم: يمحق الكافرين يهلكهم بما جنوه على المسلمين من القرح؛ فجعل المحق يعني العذاب والهلاك في الآخرة؛ ولكنَّ المعنى الأول أوجه أنَّه يمحقهم محقًا حسيًّا؛ وذلك لأنَّهم إذا انتصروا في هذه المرَّة حاولوا أن يعيدوا الكرَّة مرة ثانية لأجل الانتصار مرةً أخرى، وبذلك يكون محقهم والقضاء عليهم.

وقوله: {الكافرين}، مأخوذ من الكفر، وأصل الكفر في اللغة الستر، ومنه سمِّيَ الكفراء، يعني: وعاء طلع النخل؛ لأنَّه يستر ما كان فيه؛ إذًا ذكر الله في هاتين الآيتين لمس القرح خمس فوائد.

قال شيخ الإسلام في شرح العقيدة الأصفهانية ص١٤٨: ثم ذكر حكمة أخرى فقال تعالى: {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}، ذلك أنَّ الله سبحانه إنَّما يعاقب الناس بأعمالهم، والكافر إذا كانت له حسنات أطعمه الله بحسناته في الدنيا فإذا لم تبق له

١- مسلم في الإمارة (١٩٠٦/١٥٣، ١٥٤) عن عبدالله بن عمرو.

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٧٤٦)، والحديث بتمامه: ((مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ، وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً، تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ)).

حسنة عاقبه بكفره، والكفار إذا أديلوا يحصل لهم من الطغيان والعدوان وشدَّة الكفر والتَّكذيب ما يستحقُّون به المحق ففي إدالتهم ما يمحقهم الله به.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ {١٤٢}

قال الشنقيطي: أَنْكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دُونَ أَنْ يُبْتَلَى بِشَدَائِدِ التَّكَالِيفِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْفَرْقُ بَيْنَ الصَّابِرِ الْمُخْلِصِ فِي دِينِهِ، وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَقَوْلِهِ: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}[٢ \ ٢١٤]، وَقَوْلُهُ: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[٩ \ ١٦]، وَقَوْلُهُ: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}[٢٩\ ١،٣].

قال ابن العثيمين: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة}: {أم} هنا منقطعة فتكون بمعنى {بل}، وهمزة الاستفهام، أي: (بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة): أي أظننتم أن تدخلوا الجنة؛ والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني: (هل تظنون أن تدخلوا الجنة بلا اختبار)؛ ولهذا قال: {ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}.

{أن تدخلوا الجنة}: وهي دار المتّقين التي أعدَّها الله سبحانه تعالى لهم، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ وكلُّ مؤمنٍ بها لابدَّ أن يسعى لها ويرجوا دخولها.

{ولمَّا يعلم}: الواو هنا حالية، يعني: (والحال أنَّ الله لا يعلم الذين جاهدوا منهم)؛ {ولمَّا} تأتي على أربعة أوجه في اللغة العربية؛ وهي هنا حرف نفي وجزم؛ ويفرَّق بينها وبين (لم)، بأنَّ مدخولها مترقَّب الحصول كقوله تعالى: {بل لمَّا يذوقوا عذاب}: أي لم يذوقوا ولكنَّه قريب؛ وهنا قال: {ولمَّا يعلم}: أي أنَّ الله لم يعلم ولكن علمه بذلك قريب؛ وقوله: {ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم}: أي بذلوا جهدهم في إعلاء كلمته بالقتال في سبيله؛ والعلم هنا ليس كالعلم الأزلي؛ فإنَّ علم الله عز وجل نوعان: أزلي سابق لا يترتَّب عليه ثواب ولا عقاب، وعلم بما حصل بعد حصوله، وهذا هو الذي يترتَّب عليه الثواب والعقاب، ويسمِّيه بعض العلماء علم ظهور، أي يعلمه ظاهرًا بعد أن لم يكن؛ فالمراد بالعلم هنا علم الشيء بعد كونه ووجوده، لأنَّه هو العلم الذي يترتَّب عليه الثواب والعقاب.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص٢٠٠: أَيْ وَلَمَّا يَقَعْ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَيَعْلَمُهُ، فَإِنَّهُ لَوْ وَقَعَ لَعَلِمَهُ فَجَازَاكُمْ عَلَيْهِ بِالْجَنَّةِ، فَيَكُونُ الْجَزَاءُ عَلَى الْوَاقِعِ الْمَعْلُومِ لَا عَلَى مُجَرَّدِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى مُجَرَّدِ عِلْمِهِ فِيهِ دُونَ أَنْ يَقَعَ مَعْلُومُهُ([١]).

قال ابن العثيمين: {ويعلم الصابرين}: {يعلم} معطوفة على {يعلم} السابقة، ولهذا جاءت مجزومة لكنَّها حرِّكت بالكسر لالتقاء الساكنين؛ {ويعلمَ الصابرين}: أي الذين يصبرون على ما أصابهم؛ والصبر هنا في هذا المقام يشمل الصبر بأنواعه الثلاثة؛ وذلك لأنَّ الجهاد فيه صبر على طاعة الله، وفيه صبر عن معصية الله، وفيه صبر على الأقدار المؤلمة؛ ففيه الصبر على طاعة الله لأن الإنسان يصبر نفسه ويحبسها، قال الله تعالى: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم}، فلابدَّ من أن يصبِّر الإنسان نفسه، ويحبسها حتى يخرج في الجهاد؛ وفيه صبر عن معصية الله، عن الفرار حين يتلاقى الصفَّان، فإنَّ هذا يحتاج إلى صبر وتحمُّل، لأنَّ صبر الإنسان قبل الدخول في المعركة قد يكون محتملًا، لكن بعد الدخول وإذا رأى السيوف أمام وجهه فإنَّه قد يفر؛ ولهذا قال الله تعالى: {ومن يولِّهم يومئذ دبره إلَّا متحرِّفًا لقتال أو متحيِّزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله}؛ وصبر على أقدار الله المؤلمة لأنَّ الجهاد لا يخلوا من الجراح ومن تعب ومن عنة ومشقَّة؛ ففيها أنواع الصبر الثلاثة: {ويعلم الصابرين}.

قال السعدي: هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنُّوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقَّة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإنَّ الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلَّما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلَّا بترك الرَّاحة، ولا يدرك النعيم إلَّا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب عند أرباب البصائر منحًا يسرُّون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال الشنقيطي: وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ سِرٌّ لَطِيفٌ وَعِبْرَةٌ وَحِكْمَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَانَا آدَمَ كَانَ فِي الْجَنَّةِ يَأْكُلُ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شَاءَ فِي أَتَمِّ نِعْمَةٍ وَأَكْمَلِ سُرُورٍ، وَأَرْغَدِ عَيْشٍ. كَمَا قَالَ لَهُ رَبُّهُ: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [٢٠ \ ١١٨ \ ١١٩] ، وَلَوْ تَنَاسَلْنَا فِيهَا لَكُنَّا فِي أَرْغَدِ عَيْشٍ وَأَتَمِّ نِعْمَةٍ، وَلَكِنَّ إِبْلِيسَ عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللَّهِ احْتَالَ بِمَكْرِهِ وَخِدَاعِهِ عَلَى أَبَوَيْنَا حَتَّى أَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، إِلَى دَارِ الشَّقَاءِ وَالتَّعَبِ.

وَحِينَئِذٍ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ جَنَّتَهُ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ الِابْتِلَاءِ بِالشَّدَائِدِ وَصُعُوبَةِ التَّكَالِيفِ. فَعَلَى الْعَاقِلِ مِنَّا مَعَاشِرَ بَنِي آدَمَ أَنْ يَتَصَوَّرَ الْوَاقِعَ وَيَعْلَمَ أَنَّنَا فِي الْحَقِيقَةِ سَبْيٌ سَبَاهُ إِبْلِيسُ بِمَكْرِهِ وَخِدَاعِهِ مِنْ وَطَنِهِ الْكَرِيمِ إِلَى دَارِ الشَّقَاءِ وَالْبَلَاءِ، فَيُجَاهِدُ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ وَنَفْسَهُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْوَطَنِ الْأَوَّلِ الْكَرِيمِ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: [الطَّوِيل]

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تُرَى ... نُرَدُّ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنَسْلَمُ

١- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن هذين النوعين من علم الله جل وعلا عند تفسير الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

وَلِهَذِهِ الْحِكْمَةِ أَكْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ ذِكْرِ قِصَّةِ إِبْلِيسَ مَعَ آدَمَ لِتَكُونَ نُصْبَ أَعْيُنِنَا دَائِمًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ التمني رأس مال المفلس الذي لن يحصل شيئًا؛ يعني كون الإنسان يتمنَّى بدون أن يفعل السبب هذا خسران؛ لقوله: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ...}.

٢- أنَّ الجنة لا تدرك بالتَّمنِّي، كما قال الحسن البصري رحمه الله: (ليس الإيمان بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي)، ليس بالتَّمنِّي بالقلب، ولا بالتَّحلِّي بالمظهر، (وإنَّما الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال).

٣- أنَّ الجنة غالية رخيصة؛ غالية لكون ثمنها غال، لأنَّه بذل النفوس في طاعة الله، والجهاد لإعلاء كلمته؛ رخيصة لأنَّ هذا الأمر على من سهَّله الله يسير جدًّا، ولهذا تجد الموفَّق يسابق إلى أن يكون ممَّن يكتب اسمه في الجهاد حتى يخرج فيجاهد في سبيل الله.

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى يمتحن العبد بما يدلُّ على صبره أو ضجره؛ لقوله: {ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}.

٥- أنَّ جزاء الله سواء كان عقوبة أو مثوبة لابدَّ أن يسبقه ما يمتحن فيه العبد؛ لقوله: {ولمَّا يعلم}، فلابدَّ من امتحان أوَّلًا لينظر.

٦- أنَّ علم الله عز وجل الأزلي لا يترتَّب عليه الثواب والعقاب؛ وإنَّما يترتَّب الثواب والعقاب على علم الله المقرون بالفعل الذي يكون علمًا بالشيء بعد وجوده.

٧- أنَّ الجهاد سبب لدخول الجنة؛ لقوله: {ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم}، ولا فرق بين الجهاد بالسلاح والجهاد بالعلم، كلاهما جهاد بل قد تحتاج الأمَّة الإسلامية إلى جهاد العلم أكثر ممَّا تحتاج إلى جهاد السلاح، وقد يكون بالعكس، وقد يستويان، ولكنَّه لابدَّ من وجودهما في الأمَّة الإسلامية، لابدَّ من وجود علماء، لابدَّ من وجود طلبة العلم، لابدَّ من وجود مسلَّحين يقاتلون الكفار بالسِّلاح، لأنَّ الجهاد لا ينزل عَلَمه إلى يوم القيمة لابدَّ أن يكون قائمًا.

٨- أنَّ الصبر سبب لدخول الجنة أيضًا؛ لقوله: {ويعلم الصابرين}، واعلم أنَّ الجزاء يكون على قدر العمل، فإذا كان ثواب الجهاد الجنة، وكذلك ثواب الصبر الجنة، دلَّ على عظم مرتبتهما في دين الله عز وجل.

٩- أنَّ الصبر درجة عالية لكنَّه يحتاج إلى مصبور عليه، لأنَّ الصبر على ما يلاءم الطبيعة ليس بصبر؛ ولهذا لا يقال للإنسان الذي وقف تحت الدُّش يصبُّ عليه ماءً باردًا في يوم حار لا يقال إنَّه صابر؛ لأنَّ هذا يلاءم طبيعته؛ الصبر لابدَّ له من شيءٍ يعانيه الإنسان لا يلاءم الطبيعة.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ {١٤٣}

قال ابن العثيمين: {ولقد كنتم}: أكّد الله هذه الجملة بثلاثة مؤكّدات لإقامة الحجة عليهم؛ بالقسم المقدَّر، وباللّام الواقعة في جوابه، وبقد؛ أي: {كنتم فيما مضى تمنّون الموت من قبل أن تلقوه}، وكانوا يتمنّون الموت، لا الموت على الفراش، ولكنّهم يتمنّون الموت في سبيل الله؛ وذلك أنّه تخلّف عن بدر جماعات كثيرة من الصحابة، فإنَّ غزوة بدر لم يكن الخروج فيها للغزوة، ولكن لأخذ العير؛ ولهذا لم يخرج من أهل المدينة كلّهم إلّا ثلاث مائة وبضعة عشر رجلًا على أنّهم يريدون العير، ولكنَّ الله جمع بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد؛ فاستشهد من استشهد من المسلمين نحو ثلاثة عشر رجلًا، وتمنّى الذين لم يدركوا هذه الغزوة أن قد خرجوا فيها ولاسيّما الشباب منهم؛ ولهذا لمّا استشارهم النبي ﷺ في غزوة أحد أيخرج إلى العدو أم يبقى في المدينة؟ كلُّهم قالوا: نخرج؛ ولاسيّما الذين تخلّفوا في بدر.

قال القرطبي: فلمَّا كان يوم أحد انهزموا، وكان منهم من تجلّد حتى قتل، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك، فإنّه قال لمّا انكشف المسلمون: (اللهم إني أبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء)، وباشر القتال وقال: (إيها إنّها ريح الجنة! إنّي لأجدها)، ومضى حتى استشهد. قال أنس: فما عرفناه إلّا ببنانه ووجدنا فيه بضعًا وثمانين جراحة. وفيه وفي أمثاله نزل: {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}[الأحزاب: ٢٣](١). فالآية عتاب في حقّ من انهزم، لا سيّما وكان منهم حَمْل للنبي ﷺ على الخروج من المدينة.

قال ابن العثيمين: وكانوا يتمنّون بذلك الشهادة كما استشهد إخوانهم في بدر؛ فهم كانوا يتمنون الموت، يقول: يا ليتنا خرجنا، يا ليتنا قتلنا في بدر، يتمنون الموت؛ والتَّمنّي هو أنَّ الإنسان يطلب تقديرًا في القلب ما يصعب حصوله سواء كان يصعب ثمَّ يحصل، أو يصعب ولا يحصل؛ ولهذا يقع التَّمنّي على الأشياء المستحيلة كقول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا ... فأخبره بما فعل المشيب

وهل يعود؟ لا يمكن أن يعود؛ ويكون في الشيء الذي فيه العسر ولكنّه قليل. إذًا يتمنّون الموت، يعني: في نفوسهم يتمنّون أنّهم كانوا مع أهل بدر استشهدوا فقتلوا في سبيل الله.

١- (قلت): صحيح البخاري (٤٠٤٨)، وصححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٦٩٨٤)، والأثر بتمامه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ - سُمِّيتُ بِهِ - وَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فكبر عَلَيْهِ فَقَالَ: أَوَّلُ مشهدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غُيِّبْتُ عَنْهُ! أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَرَانِي مَشْهَدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَعْدُ لَيرينَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ قَالَ: فَهَابَ أَنْ يقول غَيْرَهَا فشهد مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ قَالَ: وَاهًا لريحِ الجنةِ! أَجِدُهَا دُونَ أُحُدٍ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ بَيْنَ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ فَقَالَتْ عَمَّتِي - أخته -: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بدَّلوا تبديلاً}[الأحزاب: ٢٣].

{من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه}: يعني الذي تمنَّيتموه حصل لكم، {وأنتم تنظرون}: يعني رأيتموه وأنتم على أشدِّ ما يكون إحساسًا؛ وتأمَّل قوله: {وأنتم تنظرون}، هل هي مؤكِّدة أو مؤسِّسة؟ أكثر المفسرين على أنَّها مؤكِّدة؛ قال: لأنَّ من رأى فقد نظر؛ ولكنَّها في الحقيقة مؤسِّسة، لأنَّ الإنسان قد يرى ولكن لا يحقِّق ما رأى، قد يرى الشيء وهو غافل عنه؛ لكن إذا رآه وهو ينظر إليه تمامًا قد ركَّز فهذا نظر خاص، أخص من النظر العام؛ نحملها على ذلك لأن الأصل في الكلام التأسيس؛ لأن التوكيد نوع من الزيادة ليس فيه إلَّا توكيد ما مضى وقد لا يحتاج إليه؛ لكنَّ التأسيس هو الأصل؛ إذًا يقول الله عز وجل: {كنتم تمنون الموت من قبل}، ويقيم على ذلك الشهادة بالتوكيد: {لقد كنتم تمنون الموت}، {فقد رأيتموه وأنتم تنظرون}، فلماذا يحصل منكم هذا التخاذل؛ ولهذا قال: {فقد رأيتموه}: أي الموت؛ رأوا من استشهد في غزوة أحد رأوه بأعينهم؛ وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد: (رأوه): أي رأوا أسبابه وهو القتال، لأنَّ من لم يقتل لم يرى الموت؛ ولكن هذا التفسير فيه نظر؛ لأن رؤية الموت يراها الإنسان في نفسه وفي غيره؛ {فقد رأيتموه}: يعني فيما بينكم، {وأنتم تنظرون}.

قال الطبري: عن ابن إسحاق: {فقد رأيتموه وأنتم تنظرون}: أي الموتَ بالسيوف في أيدي الرجال، قد خلى بينكم وبينهم، وأنتم تنظرون إليهم، فصددتُم عنهم(١).

قال القرطبي: وتمنِّي الموت يرجع من المسلمين إلى تمنِّي الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنَّه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدَّى إلى القتل.

قال السعدي: وفي هذه الآية دليل على أنَّه لا يكره تمنِّي الشهادة، ووجه الدلالة أنَّ الله تعالى أقرَّهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنَّما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

قال ابن كثير: وقد ثبت في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف(٢))).

١- الأثر: سيرة ابن هشام ٣: ١١٧.

٢- (قلت): البخاري: (٢٩٦٦)، ومسلم: (١٧٤٢). والحديث بتمامه: عَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى، فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ، يُخْبِرُهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ))، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: ((اللهُمَّ، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((الحرورية)): أي لقتالهم وهم الخوارج، ((واسألوا الله العافية)): قد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة، ((فإذا لقيتموهم فاصبروا)): هذا حث على الصبر والقتال وهو آكد أركانه وقد جمع الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله}، ((واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)): معناه ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ومشي المجاهدين في سبيل الله فاحضروا فيه بصدق وأثبتوا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إقامة الحجة على من كانوا يتمنون الموت وقد رأوه ومع ذلك حصل منهم التَّخاذل؛ لقوله: {لقد كنتم تمنَّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه}: يعني فها أنتم الآن رأيتموه، فما موقفكم؟.

وفيه: أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يتمنَّى المكروه؛ لأنَّه إذا تمنَّاه ووقع ربما ينكص ولا يصبر؛ وقد قال النبي ﷺ: ((لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا فإنَّ الجنة تحت ظلال السيوف))، وهكذا الإنسان قد يشعر بنفسه أنَّه يقوى على الشيء ولكن يعجز عنه؛ وقد ذكروا أنَّ سحنون صاحب مالك رحمه الله كان من العباد، قال يومًا من الأيام كلامًا معناه: يا رب إنِّي صابر فكيف ما شئت فامتحني، أنظر بنو آدم فقير مسكين؛ يعني أصبر على كلِّ بلاء فامتحنِّي يا رب[1]؛ فأصيب بعسر البول، صار لا يبول إلَّا بمشقَّة شديدة؛ قالوا: فكان يدور على مدارس الصبيان، المدارس التي فيها الصبيان الصغار فيقول: ادعوا لعمِّكم الكذَّاب، أدعوا لعمِّكم الكذَّاب؛ وذهب إلى الصبيان لأنَّهم أقرب إلى الإجابة لطهارة قلوبهم وسلامتها ولا ذنوب عليهم؛ الكذَّاب لأنَّه قال: إنِّي أصبر فكيف ما شئت فامتحني ولم يصبر؛ وهكذا الإنسان ينبغي له أن يسأل الله العافية؛ لكن إذا ابتلي فليصبر.

٢- أنَّه لا بأس أن يوبِّخ الإنسان من تحدَّى واتخذ لمكانه مكانًا عاليًا إذا وجده قد تخاذل في هذا المكان، مثل لو كان رجلًا من الناس يزعم أنَّه صبور وأنَّه جلد وما أشبه ذلك فإذا ألمَّت به الأمور صار جبانًا هلوعًا لا يتحمَّل فيذكره؛ أظنُّ أحد الشعراء كان يقول في شعره: الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

شجاعة وعلم، كتابة كل شيء؛ فحصلت غزوة وكان فيها هذا الشاعر، فأراد أن ينهزم ويولِّي الدُّبر، وإذا حوله أناس قد حفظوا هذا البيت من شعره، فقالوا ما لك يا فلان وأنت تقول: الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم؛ فتحامل على نفسه ورجع وأظنُّه إن لم أكن نسيت أنَّه قتل؛ فالإنسان قبل أن يصاب بالبلاء قد يشعر من نفسه أنَّه قوي يصبر؛ لكن يعجز؛ فإذا ذكَّرت أحدًا بشيء كان يفتخر به ويقول: أنا أفعل وأنا أقول وأنا أصبر فهذا لا بأس به؛ ولكن هل هذا محمود إذا كان الأمر ضارًّا؟ أو ينظر للمصلحة؟ ينظر للمصلحة؛ قد يكون مسكينًا يفتخر بما لا فخر فيه فإذا وقع فيه وأراد أن يتأخَّر عنه ثم أغريته يقع في ضرر؛ فالمسألة يرجع فيها إلى المصلحة.

٣- جواز التأكيد على رأي من يرى أنَّ قوله: {فقد رأيتموه وأنتم تنظرون}، فيها توكيد؛ أي: جواز تأكيد اللفظ إذا دعت الحاجة إليه وكان ذلك مقتضى البلاغة؛ بل قد يكون مطلوبًا كما في هذه الآية؛ فهذه الآية على قول بأنَّ قوله: {وأنتم تنظرون} أنَّها توكيد، وأنَّها لم تأتي بمعنىً جديد؛ أمَّا على القول الراجح الذي رجَّحنا بأنَّها أتت بمعنىً جديد، فإنَّنا لا نأخذ

١- (قلت): أنشد هذا البيت: وليس لي في سواك حظ ... فيكف ما شئت فامتحني

هذه الفائدة من هذه الآية، لكن نأخذها من آية أخرى مثل: {وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين}، {كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون}، {أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى}، كثير في القرآن، تأكيدات للأهمية.

٤- أنَّه يجوز أن يتمنَّى الإنسان الشهادة، بل لو قيل بمشروعية هذا لم يكن بعيدًا، وقد قال عمر رضي الله عنه: (اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك والموت في بلد رسولك)، رضي الله عنه؛ فكان الناس يقولون: كيف هذا الدعاء وكيف يجاب؟ المدينة بلد إسلامي، ولكنَّه رضي الله عنه أجاب الله دعاءه، قتل ظلمًا وهو يصلِّي، ولم يقتل لأنَّه عمر بن الخطاب، قتل لأنَّه قائم بأمر الله منفِّذ لشريعة الله، قتله مجوسي مضاد للمسلمين حرب على المسلمين؛ فقتل في مدينة الرسول ﷺ فمات فيها؛ فتمنِّي الموت جائز.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ {١٤٤}

قال أبو زهرة: تقرير لحقيقة ثابتة وأمر واقع، وهو أنَّ محمدًا بشر من البشر، وأنَّه يموت كما يموت سائر البشر، وقد قرَّر هذه الحقيقة ومعها دليلها، وذلك ببيان حقيقتين كل واحدة منهما تصلح مقدمة في دليل لإثبات أنَّه ميت لَا محالة كما قال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتون}.

الحقيقة الأولى: أنَّ محمدًا رسول فقط فليس أكبر من رسول، ولذا قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ}: أي ليس له صفة تميِّزه على الناس إلَّا الرسالة.

والحقيقة الثانية: أنَّ الرسالة لَا تقتضي البقاء، فقد مضى رسل من قبله وماتوا، وقد قرَّرها سبحانه بقوله: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ}.

ومن مجموع الحقيقتين يثبت أنَّ محمدًا سيموت؛ لأنَّه إذا كان ليس إلَّا رسولًا، والرسل من قبله قد ماتوا، فهو سيموت لَا محالة.

قال ابن العثيمين: {وما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل}: {محمد} يعني محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي خاتم الأنبياء؛ أمَّا كونه رسولًا فهذا أمر معلوم، لكن محط الفائدة قوله: {قد خلت من قبله الرسل} توطئة لما بعده وهو قوله: {أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم} يعني أنَّ رسول الله ﷺ رسول قد خلت من قبله الرسل؛ فماتوا من قبله، ومنهم من قتل، كما قال الله تعالى: {ويقتلون النبيِّين بغير الحق}، فإذا كان كذلك، فهل أقوامهم لمَّا ماتت أنبيائهم

أو قتلوا تركوا أديانهم؟ الجواب: لا، لم يتركوا الأديان؛ وذلك لأنَّ الأمم إنَّما تعبد الله وتتبع الرسل، والرسل لا تنقطع رسالتهم بموتهم، بل رسالتهم باقية حتى تأتي رسالة تنسخها؛ أمَّا رسالة النبي ﷺ فإنَّه لا ناسخ لها لأنَّها آخر الرسالات.

قال ابن كثير: لمَّا انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إنَّ محمدًا قد قتل. ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا. وإنَّما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشجَّه في رأسه، فوقَّع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أنَّ رسول الله قد قتل، وجوَّزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخُّر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله – عز وجل – على رسوله ﷺ: {وما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل}: أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

قال ابن العثيمين: فلمَّا قال هذا، فتَّ ذلك في أعضاد الصحابة رضي الله عنهم؛ أوَّلًا: لأنَّ موت النبي ﷺ مصيبة عظيمة تحزن القلب وتضعف النفس؛ وثانيًا: لأنَّ محمدًا ﷺ كان قائدهم، وإذا مات القائد فإنَّه لاشك سيكون له أثر على الذين يقتادون بقيادته؛ فلمَّا شاع الخبر بأنَّ محمدًا ﷺ قتل حصل ما حصل على المسلمين فأصابهم غمًا بغم؛ وصار عند بعضهم بعض الشيء.

قال البغوي: عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنِ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ وَاشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ([1])).

قال ابن العثيمين: ولكنَّ الله عز وجل وبَّخهم فقال: {وما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل}، فإذا كان كذلك فهل الرسل الذين سبقوا وماتوا أو قتلوا هل ارتدَّ أقوامهم من بعدهم؟ لا؛ ولكن بقيت الرسالات وبقي الأتباع؛ وهنا قال: {أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم}: الهمزة هنا للاستفهام التوبيخي، يعني: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل؟ هذا لا يليق بكم ولا ينبغي لكم؛ بل مادام شريعته باقية فاتِّباعه باق ولا يليق بأي مؤمن أن يرتدَّ على عقبه إذا مات الرسول ﷺ.

{أفإن مات أو قتل انقلبتم}: هذه جملة شرطية، {إن مات}: فعل الشرط؛ {انقلبتم على أعقابكم}: ولكن محل التوبيخ هو جواب الشرط في الحقيقة؛ لأنَّه يوبِّخهم على انقلابهم على تقدير أن يكون مات أو قتل، أي: أتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل، لا يليق بكم؛ وقوله: {إن مات}: أي بغير فعل البشر، {أو قتل}: بفعل البشر؛ وقوله: {انقلبتم على أعقابكم}: أي رجعتم إلى الوراء؛ والأعقاب جمع عقب وهو العرقوب؛ والمنقلب على عقبيه يكون ماشيًا على غير هدى كالذي يمشي مكبًّا على وجهه، وقد قال الله تعالى: {أفمن يمشي مكبًّا على وجهه أهدى أمَّن يمشي سويًّا على صراط مستقيم}، والانقلاب على العقبين أعظم وأبلغ، لأنَّ الانقلاب على العقب يمشي الإنسان فيه على غير الهيئة المعتادة، على أنَّه يحتمل أن يكون المراد بالانقلاب على العقب: أي أنَّه يسقط على قفاه ولا يستطيع أن يتقدَّم أو يستقيم.

١- إسناده صحيح على شرط البخاري، ابن جريج هو عبد الملك بن عبد العزيز. وأخرجه البخاري ٤٠٧٦ عن عمرو بن علي بهذا الإسناد. و٤٠٧٤ عن ابن جريج به. وله شاهد عن أبي هريرة مرفوع أخرجه البخاري ٤٠٧٣ وغيره.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة ج١ص٨٢،٨٣: بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَوْتِهِ، وَلَا قَتْلِهِ يَنْتَقِضُ حُكْمُ رِسَالَتِهِ، كَمَا يَنْتَقِضُ حُكْمُ الْإِمَامَةِ بِمَوْتِ الْأَئِمَّةِ وَقَتْلِهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ خَالِدًا لَا يَمُوتُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ هُوَ رَبًّا، وَإِنَّمَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَقَدْ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَعَبَدَ اللَّهَ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، فَطَاعَتُهُ وَاجِبَةٌ بَعْدَ مَمَاتِهِ. وَجُوبُهَا فِي حَيَاتِهِ وَأَوْكَدُ؛ لِأَنَّ الدِّينَ كَمُلَ، وَاسْتَقَرَّ بِمَوْتِهِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ نَسْخٌ، وَلِهَذَا جُمِعَ الْقُرْآنُ بَعْدَ مَوْتِهِ لِكَمَالِهِ، وَاسْتِقْرَارِهِ بِمَوْتِهِ.

قال عمر بن سعود بن فهد العيد في شرح لامية شيخ الإسلام ج١٤ص٦: أقول للأحبة وهي ظاهرة على ضوء التتبع: تبيَّن لنا في واقعنا الذي نعيشه أنَّ الناس يتعلَّقون بالأشخاص في كثير من أمورهم، في مسائل دعوتهم، وفي مسائل إفتائهم، وفي مسائل عرضهم للحقِّ وغيره، وهذا من الخطأ والانحراف، ولعلَّ هذا قد حذَّرنا الله تعالى منه في كتابه فقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}[آل عمران: ١٤٤]، وكأن الله يبيِّن لنا هنا أنَّ الواجب علينا ألَّا ننظر إلى ذات محمد ﷺ(١)، وإنَّما نأخذ بمنهجه، {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ}، وكم من الناس كأنَّهم يتعلَّقون بالأفراد، ويظنُّون أنَّهم إذا وجدوا وجد الحق، وإذا ذهبوا ذهب الحق، وإذا ماتوا مات الحق، وإذا حيُّوا حيًّا الحق، هذا من الخطأ والجهل، والله قد جعل لنا منهجًا ودستورًا وهو الكتاب والسنة، وهو المنهج الذي يجب أن نأخذ به، وهو المنهج الذي يجب أن يرضى الناس به دون أن يربطوا بأفراد وبأشخاص معيَّنين.

قال القشيري في لطائف الإشارات: وإنّما قال: {أَفَإِنْ مات أَوْ قُتِلَ}، لأنه ﷺ مات. وقيل أيضًا لأنَّه قال: ((ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري(٢))).

قال إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ولمَّا كان الملك القادر على ما يريد لا يقول شيئًا وإن كان فرضًا إلَّا فعله ولو على أقل وجوهه، وكان في علمه سبحانه أنَّه ﷺ يموت موتًا – لكونه على فراشه –، وقتلًا – لكونه بالسُّم –، قال: {مات}: أي موتًا على الفراش، أو {قتل}: أي قتلًا.

قال ابن العثيمين: {ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئًا}: هنا قال: {ومن ينقلب}، فعدل بالجملة إلى العموم دون أن يقول: (وإن انقلبتم على أعقابكم فلن تضرُّوا الله شيئًا)؛ من أجل أن يكون الحكم عامًّا شاملًا؛ فقوله: {من ينقلب}: هذه {من} شرطية تعمُّ كلَّ منقلبٍ على عقبيه؛ والفعل هنا بعدها مجزوم؛ أمَّا جواب الشرط فهو: {فلن يضرَّ الله شيئًا}، المعروف

١- (قلت): لا يقصد المؤلِّف هنا أن لا نستنَّ بسنَّته ﷺ ونأخذه ﷺ لنا مثلًا أعلى، بل يقصد: أنَّ الواجب علينا أن لا نعتقد في ذاته بأنَّ الأمر كلَّه لمحمد ﷺ فإذا مات أو قتل ذهب الدين معه، بل الأمر كلَّه لله الحافظ لدينه وسنة ومنهج رسوله ﷺ. كما قال السعدي: وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطا في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: {أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم}، بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح وضعيف أبي داود (٤٥١٢)، حسن صحيح. والحديث بتمامه: ((مازلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر فهذا أوان قطعت أبهري)).

أنَّ جواب الشرط يكون مجزومًا وهنا منصوب {فلن يضرَّ}، والمعروف أنَّ جواب الشرط يقع مجزومًا لأنَّه لمَّا دخلت عليه {لن}، صار جواب الشرط جملة؛ واقترنت بالفاء لأنَّ جواب الشرط صدر ب{لن}؛ {فلن يضرَّ الله شيئًا}: {شيئًا} نكرة في سياق النفي فتعم، يعني: {أنَّ الذي ينقلب على عقبيه ويرتد عن الإيمان لن يضرَّ الله}، لأنَّ الله سبحانه وتعالى لن ينتفع بطاعة الطائعين، ولن يتضرَّر بمعصية العاصين؛ ولهذا قال: {ومن ينقلب على عقبيه}: فيرجع بعد أن كان مسلمًا {فلن يضرَّ الله شيئًا}، وإنَّما يضرُّ في الحقيقة نفسه.

قال أبو زهرة: وفى هذا تنبيه إلى ثلاثة أمور:

أولهما: أنَّ من يجاهد عليه أن يجاهد لحقيقة من الحقائق الثابتة الخالدة التي لا تفنى ولا تنتهي، ولا يقاتل لأجل الأشخاص الذين ينتهون ويفنون، فالمعاني خالدة، والأشخاص ميتون.

الثانية: أنَّ من يفسد قلبه فيرتدَّ بعد إيمان ويكفر بعد يقين، لا يضرُّ دين الله بل يضرُّ نفسه؛ لأنَّ الضَّال المضلُّ يضرُّ نفسه قبل أن يضرَّ غيره.

ثالثها: إخبار الله تعالى بأنَّ هذا الدين خالد ثابت باقٍ إلى يوم القيامة؛ لأنَّه سبحانه قد قرَّر أنَّه لا يضرُّه من يخرج عنه أو يمرق عن أحكامه، أو يتركها مستهينًا، فإنَّ للإسلام ربًّا يحميه، ورجالًا صدقوا ما عاهدوا الله عليه. ثم بيَّن سبحانه من بعد ذلك جزاء الصابرين الذين لم يرعبوا ولم يضطربوا، فقال سبحانه: {وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص٢٠١: أَنَّ وَقْعَةَ أُحُدٍ كَانَتْ مُقَدِّمَةً وَإِرْهَاصًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَثَبَّتَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ عَلَى انْقِلَابِهِمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِنْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ قُتِلَ، بَلِ الْوَاجِبُ لَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَى دِينِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَيَمُوتُوا عَلَيْهِ أَوْ يُقْتَلُوا، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ رَبَّ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، فَلَوْ مَاتَ مُحَمَّدٌ أَوْ قُتِلَ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ، فَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَمَا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيُخَلَّدَ لَا هُوَ وَلَا هُمْ، بَلْ لِيَمُوتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ سَوَاءٌ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ بَقِيَ، وَلِهَذَا وَبَّخَهُمْ عَلَى رُجُوعِ مَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ، لَمَّا صَرَخَ الشَّيْطَانُ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}، وَالشَّاكِرُونَ هُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا قَدْرَ النِّعْمَةِ، فَثَبَتُوا عَلَيْهَا حَتَّى مَاتُوا أَوْ قُتِلُوا، فَظَهَرَ أَثَرُ هَذَا الْعِتَابِ، وَحُكْمُ هَذَا الْخِطَابِ يَوْمَ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَثَبَتَ الشَّاكِرُونَ عَلَى دِينِهِمْ، فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ وَأَعَزَّهُمْ، وَظَفَّرَهُمْ بِأَعْدَائِهِمْ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ.

قال ابن العثيمين: {وسيجزي الله الشاكرين}: السين للتَّنفيس، وهي تحول الفعل المضارع من كونه صالحًا للحال والاستقبال إلى كونه للاستقبال؛ و{سوف} مثلها، إلَّا أنَّ {سوف} تدلُّ على المهلة والسين تدلُّ على الفورية؛ {وسيجزي الله الشاكرين}: أي سيكافئهم؛ والشاكرون: هم الذين قاموا بشكر نعمة الله؛ والشكر: هو القيام بطاعة المنعم بالقلب واللِّسان والجوارح؛ فالاعتراف بالقلب أنَّ النِّعم من الله شكر؛ والثناء على الله بها باللِّسان شكر؛ والقيام بالطاعة بما يناسب تلك

النعمة شكر؛ فشكر العلم مثلًا العمل به ونشره؛ شكر المال صرفه في طاعة الله؛ شكر القوة البدنية استعمال البدن في طاعة الله، وهلمَّ جرا؛ واعلم أنَّ بين الشكر والحمد عمومًا وخصوصًا وجهيًّا، أي: أنَّ أحدهما أعمُّ من الآخر من وجه؛ فباعتبار أنَّ الحمد يكون لكمال المحمود ولإنعام المحمود يكون أعمُّ من الشكر؛ وباعتبار أنَّ الحمد يكون باللِّسان يكون أخصُّ من الشكر؛ الشكر باعتبار كونه متعلِّقًا بالقلب واللِّسان والجوارح أعمُّ من الحمد؛ وباعتبار أنَّه في مقابلة نعمة أخصُّ من الحمد؛ يقول الشاعر: أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

وبهذا التقرير نعرف أنَّه ليس بين الحمد وبين الشكر ترادف بل هما متباينان، يتَّفقان في ما إذا حمد الله سبحانه تعالى على نعمته، كما لو أكل أو شرب فقال الحمد لله، فهذا يعتبر شكرًا وحمدًا؛ ويختلفان فيما إذا حمد الله على كماله فهنا لا يكون هذا من باب الشكر، وإذا شكر الله بجوارحه فليس هذا من باب الحمد.

وقال: {وسيجزي الله الشاكرين}، بماذا يجزيهم؟ بيَّنه الله سبحانه وتعالى في قوله: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلَّا مثلها}، {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها}، هذا جزاء؛ وصح عن النبي ﷺ أنَّ الله يضاعف الحسنة إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح ج٥ص٨٨: إنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ تَتَضَمَّنُ نَفْعَهُمْ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، وَذَلِكَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَدْفَعَ بِذَلِكَ مَضَرَّتَهُمْ وَيُزِيلَ حَاجَتَهُمْ وَفَاقَتَهُمْ؛ مِثْلَ رِزْقِهِمُ الَّذِي لَوْلَا هُوَ لَمَاتُوا جُوعًا، وَنَصْرِهِمُ الَّذِي لَوْلَا هُوَ لَأَهْلَكَهُمْ عَدُوُّهُمْ، وَمِثْلَ هُدَاهُمُ الَّذِي لَوْلَا هُوَ لَضَلُّوا ضَلَالًا يَضُرُّهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ. وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ النِّعْمَةِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ فَقَدُوهُ حَصَلَ لَهُمْ ضَرَرٌ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ وَإِمَّا فِيهِمَا.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: النِّعَمُ الَّتِي تَحْصُلُ بِهَا مِنْ كَمَالِ النِّعَمِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَةِ مَا لَا يَحْصُلُ بِدُونِهَا، كَمَا أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ نَوْعَانِ: أَبْرَارٌ أَصْحَابُ يَمِينٍ، وَمُقَرَّبُونَ سَابِقُونَ. وَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَيْنِ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ.

وَإِذَا كَانَتِ النِّعْمَةُ نَوْعَيْنِ، فَالْخَلْقُ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، وَحَصَلَ بِإِرْسَالِهِ هَذَانِ النَّوْعَانِ مِنَ النِّعْمَةِ، فَإِنَّ النَّاسَ بِدُونِهِ كَانُوا جُهَّالًا ضَالِّينَ أُمِّيِّينَ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ مِنْهُمْ، فَكَانَ إِرْسَالُهُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ نَوْعَيِ النَّعِيمِ، وَمَنِ اسْتَقْرَأَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْعِمْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ إِنْعَامِهِ بِإِرْسَالِهِ ﷺ وَإِنَّ الَّذِينَ رَدُّوا رِسَالَتَهُ هُمْ مَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}[إبراهيم: ٢٨]، وَلِهَذَا وَصَفَ بِالشُّكْرِ مَنْ قَبِلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ فَقَالَ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}[الأنعام: ٥٣]، وقال: {وسيجزي الله الشاكرين}.

قال السعدي: والشكر لا يكون إلَّا بالقيام بعبودية الله تعالى في كلِّ حال.

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، فقدُ رئيسٍ ولو عظم، وما ذاك إلَّا بالاستعداد في كلِّ أمر من أمور الدِّين بعدَّة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ لأنَّهم هم سادات الشاكرين.

قال القرطبي: هذه الآية أدلُّ دليل على شجاعة الصدِّيق وجراءته، فإنَّ الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ كما تقدَّم بيانه في [البقرة] فظهرت عنده شجاعته وعلمه. قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر فكشفه الصدِّيق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح([1])، الحديث؛ كذا في البخاري. وفي سنن ابن ماجه عن عائشة قالت: ((لمَّا قبض رسول الله ﷺ وأبو بكر عند امرأته ابنة خارجة بالعوالي، فجعلوا يقولون: لم يمت النبي ﷺ إنَّما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحي. فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبَّل بين عينيه وقال: أنت أكرم على الله من أن يميتك! مرتين. قد والله مات رسول الله ﷺ وعمر في ناحية المسجد يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم. فقام أبو بكر فصعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لم يمت، ومن كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}. قال عمر: (فلكأني لم أقرأها إلَّا يومئذ([2]))). ورجع عن مقالته التي قالها فيما ذكر الوائلي أبو نصر عبيدالله في كتابه الإبانة: عن أنس بن مالك أنَّه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله ﷺ واستوى على منبر رسول الله ﷺ تشهد قبل أبي بكر فقال: أمَّا بعد فإني قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلت، وإنِّي والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إلي رسول الله ﷺ، ولكنِّي كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا – يريد أن يقول حتى يكون آخرنا موتًا – فاختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب

١– (قلت): في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥: ٢٤٤): كان الصديق قد صلى بالمسلمين صلاة الصبح، وكان إذا ذاك قد أفاق رسول الله ﷺ إفاقة من غمرة ما كان فيه من الوجع، وكشف سترة الحجرة ونظر إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة خلف أبي بكر، فأعجبه ذلك وتبسم ﷺ حتى هم المسلمون أن يتركوا ما هم فيه من الصلاة لفرحهم به، وحتى أراد أبو بكر أن يتأخر ليصل الصف، فأشار إليهم ﷺ أن يمكثوا كما هم، وأرخى الستارة، وكان آخر العهد به ﷺ. فلما انصرف أبو بكر من الصلاة دخل عليه وقال لعائشة ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة – يعني إحدى زوجتيه وكانت ساكنة بالسنح شرقي المدينة – فركب على فرس وذهب إلى منزله، وتوفي ﷺ حين اشتد الضحى. . . فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق فأعلمه بموت النبي ﷺ، فجاء الصديق حين بلغه الخبر. والسنح منازل بني الحارس بن الخزرج في عوالي المدينة، بينها وبين مسجد رسول الله ﷺ ميل واحد.

٢– (قلت): البخاري (٤٤٥٤)، وصححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣١٩)، دون جملة الوحي.

الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله ﷺ. قال الوائلي أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها هي: (أنَّ النبي ﷺ لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم)، وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة وظهور المنافقين، فلمَّا شاهد قوة يقين الصديق الأكبر أبي بكر، وتفوُّهه بقول الله عز وجل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[آل عمران: ١٨٥]، وقوله: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[الزمر: ٣٠]، وما قاله ذلك اليوم – تنبه وتثبت وقال: (كأنِّي لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر). وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة، كأنها لم تنزل قط إلَّا ذلك اليوم. ومات ﷺ يوم الاثنين بلا اختلاف، في وقت دخوله المدينة في هجرته حين اشتد الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء، وقيل ليلة الأربعاء. وقالت صفية بنت عبدالمطلب ترثي رسول الله ﷺ:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا برا ولم تك جافيا

وكنت رحيما هاديا ومعلما ... لِيَبْك عليك اليوم من كان باكيا

لعمرك ما أبكي النبي لفقده ... ولكن لما أخشى من الهرْج آتيا

كأن على قلبي لذكر محمد ... وما خفت من بعد النبي المكاويا

أفاطم صلى الله رب محمد ... على جدث أمسى بيثرب ثاويا

فدى لرسول الله أمي وخالتي ... وعمي وآبائي ونفسي وماليا

صدقت وبلغت الرسالة صادقا ... ومت صليب العود أبلج صافيا

فلو أن رب الناس أبقى نبينا ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا

عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا

أرى حسنا أيتمته وتركته ... يبكِّي ويدعو جده اليوم ناعيا

فإن قيل: فلِم أُخِّر دفن رسول الله ﷺ: فالجواب من ثلاثة أوجه: الأول: ما ذكرناه من عدم اتفاقهم على موته. الثاني: لأنَّهم لا يعلمون حيث يدفنونه. قال قوم في البقيع، وقال آخرون في المسجد، وقال قوم: يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم. حتى قال العالم الأكبر([١]): سمعته يقول: ((ما دفن نبي إلَّا حيث يموت([٢]))، ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما. الثالث: إنَّهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتبَّ الأمر وانتظم الشمل واستوثقت الحال، واستقرت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرى عن ملأ منهم ورضا؛ فكشف الله به الكربة من أهل الرِّدة، وقام به الدِّين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي ﷺ فنظروا في دفنه وغسلوه وكفنوه. والله أعلم.

١- (قلت): يقصد: أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠١). والحديث عن أبي بكر رضي الله عنه بلفظ: ((لم يقبر نبي إلَّا حيث يموت)).

وفي تغيير الحال بعد موت النبي ﷺ، عن أنس قال: ((لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلُّ شيء، فلمَّا كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا(١))). أخرجه ابن ماجه، وقال: حدثنا محمد بن بشار أخبرنا عبدالرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: ((كنَّا نتقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد رسول الله ﷺ مخافة أن ينزل فينا القرآن، فلمَّا مات رسول الله ﷺ تكلَّمنا(٢))).

قال أبو زهرة: وقد يقول قائل لماذا عبَّر هنا بالشاكرين ولم يعبِّر بالصابرين، والصبر هنا هو الأظهر؟ فنقول: إنَّ الشكر في هذا المقام هو أعلى درجات الصبر، وذلك أنَّهم لم يحتملوا البلاء فقط، بل تجاوزوا حدَّ الصبر إلى حدِّ الشكر على هذه الشديدة، فالشكر هنا صبر وزيادة، وقليل من يكون على هذه الشاكلة، ولذا قال تعالى: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان أنَّ رسول الله ﷺ بشر يلحقه الموت كما يلحق جميع الرسل؛ لقوله: {وما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل ... }. وفيها أيضًا: أنَّ النبي ﷺ ليس ربًّا فيدعى ولا إلهًا فيعبد؛ لقوله: {إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل}.

٢- أنَّه ينبغي عرض الدليل بذكر النظائر ليقتنع الإنسان بما سمع؛ لقوله: {قد خلت من قبله الرسل}، فإنَّ من سمع هذا اقتنع وقال: مادام الرسل السابقون قد ماتوا أو قتلوا فإنَّ ذلك يكون تسلية له.

٣- إثبات أنَّ محمدًا ﷺ خاتم الرسل؛ لقوله: {قد خلت من قبله الرسل}، و{أل} هنا للعموم ولم يقل: قد خلت من قبله رسل؛ بل قال: {الرسل}، وإذا كان الرسل كلُّهم قد خلوا من قبله لزم من ذلك أن يكون هو آخرهم.

٤- جواز موت الرسول ﷺ وقتله؛ لقوله: {أفإن مات أو قتل}.

فإن قال قائل: يشكل على هذا أن الله قال في الشهداء: {ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون}، {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون}، فإذا كان هذا في الشهداء فكيف يكون الرسول ﷺ ميتًا مع أنَّه أفضل من الشهداء؟

والجواب عن ذلك أن نقول: إنَّ الحياة حياتان: حياة دنيوية جسدية وهي حياة الدنيا؛ وحياة برزخية ليست كحياة الدنيا فهذه هي التي تثبت للشهداء؛ والأنبياء أفضل من الشهداء حيث حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم؛ وأمَّا الشهداء فقد تأكل الأرض أجسادهم، فالأنبياء أجسادهم باقية وحياتهم البرزخية أكمل من حياة الشهداء بلا شك.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجة (١٦٣١).

٢- (قلت): البخاري (٥١٨٧)، صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجة (١٦٣٢)، والحديث بتمامه عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ((كُنَّا نَتَّقِي الكَلاَمَ وَالِانْبِسَاطَ إِلَى نِسَائِنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ هَيْبَةَ أَنْ يُنْزَلَ فِينَا شَيْءٌ فَلَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ تَكَلَّمْنَا وَانْبَسَطْنَا)).

٥- الرَّد على من توهَّم أو زعم أنَّ الرسول ﷺ حيٌّ في قبره؛ لقوله: {أفإن مات أو قتل}، ونحن نعلم بالضرورة من النقل المتواتر أنَّ النبي ﷺ لم يقتل؛ فإنَّه ما قتل بسيف ولا برمح، مات على فراشه، ولكن ثبت عنه ﷺ أنَّه قال: ((ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأبهر مني))، الأبهَرُ: عِرْق مُسْتَبْطِنُ الصُّلْبِ إذا انْقَطَعَ ماتَ صاحبُه؛ فهذا يدلُّ على أنَّ أكله الشاة المسمومة في خيبر كان له أثر في موته؛ ولهذا قال بعض التابعين وأظنُّه الزهري([1])قال: (إنَّ النبي ﷺ كان شهيدًا لأنَّ اليهود قتلوه)؛ ولكنَّ الله تعالى أمدَّ في عمره حتى تأخَّر؛ وهذا ليس ببعيد، لأنَّ أكلة خيبر كما ثبت عن النبي ﷺ: ((ما زال أثرها في لهواتي))، يُرى في لهاته أثر السُّم؛ السُّمُّ كان شديدًا، ولهذا مات أحد من الصحابة الذين أكلوا معه؛ لكنَّ الرسول ﷺ لم يبلع اللَّحم الذي أكل.

٦- أنَّ الارتداد عن الإسلام انقلاب على العقب؛ ولا يخفى علينا ماذا يكون أثر الانقلاب على العقب، انقلاب على أعقابهم وهو كذلك لأنَّ الذي على الإسلام يمشي على برهان ونور، يمشي على صراط مستقيم.

٧- الرَّد على الملحدين الذين يقولون إنَّ الإسلام رجعية ورجوع إلى الوراء؛ فإنَّنا نقول لهم: أنتم الرجعيون، أنتم الذين انقلبتم على أعقابكم؛ أمَّا من تمسَّك بالإسلام فإنَّه تقدُّمي؛ لأنَّ الإسلام يحثُّ على التقدُّم لكلِّ فضيلة: {سارعوا إلى المغفرة}، {استبقوا الخيرات}، {سابقوا إلى مغفرة}، والآيات كلُّها تدلُّ على أنَّ الإسلام يأمر بالتقدُّم، لكن ليس التقدُّم إلى الكفر الذي قال الله عن زعيمه: {يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار}، ولكنَّه التقدُّم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتَّقين؛ المهم أنَّ هذه الآية فيها ردٌّ على الملحدين الذين زعموا أنَّ التمسُّك بالإسلام رجعية؛ فنقول لهم: إنَّ التمسُّك بالإسلام هو التقدُّم، والتخلُّف عن الإسلام هو الرجعية.

٨- أنَّ الله عز وجل غني عن طاعة الطائعين؛ لقوله: {ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئًا}.

٩- انتفاء الضَّرر عن الله، وأنَّه لن يضرَّه شيء؛ ولكن إذا قال قائل: أليس الله تعالى قد قال في كتابه: {إنَّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة}؟ وفي الحديث القدسي: ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر))، فأثبت الأذية لله؟

فالجواب: أنَّه لا يلزم من الأذية الضَّرر؛ لا يلزم من الأذية الضَّرر؛ فالله تعالى قد يتأذَّى ولكن لا يتضرَّر؛ وأضرب لك مثلًا: لو أنَّ شخصًا جلس إلى جنبك وقد أكل بصلًا أو شرب دخانًا؛ ألست تتأذَّى برائحته؟ بلى؛ ولكن هل تتضرَّر؟ لا تتضرَّر؛ إذا رأيت شيئًا مكروهًا فإنَّك تتأذَّى ولكن لا تتضرَّر؛ إذًا لا يلزم من كون الله تعالى يتأذَّى أن يتضرَّر.

١٠- الحثُّ على الشكر؛ لقوله: {وسيجزي الله الشاكرين}؛ ووجهه أنَّ الجزاء أضيف إلى الله؛ فدلَّ على عظمه؛ لأنَّ الثواب من العظيم عظيم؛ ولهذا كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١- (قلت): قَالَهُ الزهري ومُوسَى بْنُ عقبة. وقال ابن القيم في الطب النبوي ج١ص٩١: وَلَمَّا احْتَجَمَ النَّبِيَّ ﷺ، احْتَجَمَ فِي الْكَاهِلِ، وَهُوَ أَقْرَبُ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا الْحِجَامَةُ إِلَى الْقَلْبِ، فَخَرَجَتِ الْمَادَّةُ السُّمِّيَّةُ مَعَ الدَّمِ لَا خُرُوجًا كُلِّيًّا، بَلْ بَقِيَ أَثَرُهَا مَعَ ضَعْفِهِ لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ تَكْمِيلِ مَرَاتِبِ الْفَضْلِ كُلِّهَا لَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ إِكْرَامَهُ بِالشَّهَادَةِ، ظَهَرَ تَأْثِيرُ ذَلِكَ الْأَثَرِ الْكَامِنِ مِنَ السُّمِّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا. وآنظر تفسير الآية (٨٧) من سورة البقرة.

١١- جواز الإطلاق في الكلام إذا جاء مفسَّرًا في موضع آخر؛ لقوله: {وسيجزي الله الشاكرين}، فإنَّ هذه الآية مجملة لم يبيِّن الله تعالى كيف هذا الجزاء، ولكنَّه قد بيَّن في نصوص أخرى، والشريعة يفسِّر بعضها بعضًا، ويقيِّد بعضها بعضًا، ويخصِّص بعضها بعضًا، وما تجده مجملًا في مكان تجده مبيَّنًا في مكان آخر؛ وهذا من تمام الشريعة، لأنَّ الشيء إذا أتاك مجملًا فإنَّ نفسك تتطلَّع إلى بيان هذا المجمل، فتحرص وتبحث وتقارن بين الأدلة وتقرن بعضها إلى بعض حتى يتبيَّن لك الأمر، وحتى تكون ملمًّا في كلِّ وقت بجميع النصوص.

١٢- أنَّ الخلق لو كانوا كلُّهم على الرِّدَّة فإنَّ الله تعالى لن يتضرَّر بذلك؛ لقوله: {فلن يضرَّ الله شيئًا} وهذا عام، يشمل أيُّ ضرر كان، سواء كان من فرد أو من جماعة.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ {١٤٥}

قال أبو زهرة: الكلام في هذه الآيات موصول بالآيات قبلها، ففي الآيات السابقة أشار سبحانه إلى اضطراب بعض المؤمنين عندما بلغهم كذبًا أنَّ النبي ﷺ قد قتل، فضعفت نفوس، ووهنت قلوب، واضطربت عقول، فبيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ محمدًا رسول من البشر، وأنَّه يموت كما يموت سائر البشر، وأنَّ له أجلًا ملموسًا، وأنَّ الدعوة الإسلامية كاملة ما دام النبي ﷺ قد بلغها وأتمَّ تبليغها، وبهذا أتمَّ ما عهد إليه، فإذا مات حمل هذه الأمانة مَن بعدُه ونقلوها إلى الأخلاف، ثمَّ أشار سبحانه وتعالى إلى أنَّ النفوس جميعها بيد الله، وأنَّه سبحانه قد جعل لكلِّ أجلٍ كتابًا.

قال القرطبي: هذا حضٌّ على الجهاد، وإعلام أنَّ الموت لابدَّ منه، وأنَّ كلَّ إنسانٍ مقتولٍ أو غير مقتولٍ ميِّت إذا بلغ أجله المكتوب له.

قال السعدي: أخبر تعالى أنَّ النفوس جميعها متعلِّقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى من الأسباب كلَّ سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أنَّ الله قضاه وقدَّره وكتبه إلى أجلٍ مسمًّى: {إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}.

قال ابن كثير: أي: لا يموت أحدٌ إلَّا بقدر الله، وحتى يستوفي المدَّة التي ضربها الله له؛ ولهذا قال: {كتابًا مؤجَّلًا}، كقوله: {وما يعمِّر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلَّا في كتاب}[فاطر: ١١]، وكقوله: {هو الذي خلقكم من طين ثمَّ قضى أجلًا وأجلٌ مسمًّى عنده}[الأنعام: ٢].

وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإنَّ الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبي حاتم: عن حبيب بن صهبان، قال: قال رجل من المسلمين – وهو حجر بن عدي -: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو، هذه النطفة؟ – يعني دجلة – {وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله كتابًا مؤجَّلًا}، ثمَّ أقحم فرسه دجلة فلمَّا أقحم أقحم الناس فلمَّا رآهم العدو قالوا: ديوان، فهربوا.

قال ابن العثيمين: {وما كان لنفس أن تموت}: أي يمتنع غاية الامتناع لأيِّ نفس من الأنفس أن تموت إلَّا بإذن الله؛ مهما حاول الناس أن يميتوا أحدًا بدون إذن الله فإنّهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا؛ وإذا جاءت {ما كان}، فإنّها للممتنع إمَّا شرعًا وإمَّا قدرًا؛ فهذه الآية: {وما كان لنفس أن تموت إلَّا بإذن الله}: أي ما كان قدرًا لنفس أن تموت إلَّا بإذن الله؛ وقوله: {لنفس}: نكرة في سياق النَّفي فتعمُّ كلَّ نفس من الآدميين وغير الآدميين، لا يمكن لأي نفس أن تموت إلَّا بإذن الله.

وقوله: {أن تموت}: (الموت) هو: مفارقة الحياة، ويحصل هذا بانفصال الروح عن الجسد انفصالًا تامًّا، وذلك لأنَّ الروح تتَّصل بالجسد اتصالًا تامًّا وتنفصل منه انفصالًا ناقصًا وتنفصل منه انفصالًا تامًّا؛ فإذا كان الإنسان يقضًا فالاتصال تام، وإذا كان نائمًا فهو انفصال ناقص، وإذا مات الإنسان فهو انفصال تام؛ ولكن هذا لا يمنع أن تعود إليه في قبره عودًا ليس على الوجه الذي هي عليه في الدنيا؛ لأنَّ حياة البرزخ تخالف حياة الدنيا؛ فالإنسان في قبره تعاد إليه روحه ويجلس ويخاطب ويتكلَّم ويفهم؛ ولكن ليست هذه الحياة كحياة الدنيا، لأنَّها لو كانت حياة دنيا لهلك فورًا، إذ أنَّه ... بالتراب الذي فوقه، وربما يكون غرقًا في ماء أو محترقًا بنار.

وقوله: {أن تموت إلَّا بإذن الله}: (الإذن) هنا يراد بها الإذن الكوني، لأن إذن الله تنقسم إلى قسمين: إذن كوني؛ وإذن شرعي؛ فالإذن الشرعي ما قضى به شرعًا وأذن فيه شرعًا، وهو تحت المشيئة قد يقع وقد لا يقع؛ فمثلًا يقول الله عز وجل: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}، الإذن هنا شرعي وليس بكوني، لأنَّ الله قد أذن به كونًا؛ لكنَّه لم يأذن به شرعًا؛ وكذلك قوله تعالى: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون}، هنا الإذن شرعي؛ أمَّا في مثل هذه الآية: {إلَّا بإذن الله}، فهي إذن كوني، يعني لا يمكن أن تموت إلَّا إذا أذن الله بذلك كونًا؛ وقوله: {إلَّا بإذن الله}: أي بقضائه وقدره.

{كتابًا مؤجَّلًا}: {كتابًا} هذه مصدر مؤكِّد للجملة التي قبله، أي: أنَّ الموت مكتوب كتابًا مؤجَّلًا محدَّدًا بحدٍّ معلوم، لا يتجاوزه ولا يقصر عنه؛ هذا الكتاب يكتب في عدَّة كتب: يكتب في ليلة القدر بأنَّه سيموت في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية من الشهر الفلاني؛ وهذه كتابة سنوية؛ ويكتب أيضًا إذا كان الإنسان في بطن أمه حين يبعث إليه الملك ويؤمر بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد؛ ويكتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؛ فهذه كتب لا تتغير: {كتابًا مؤجَّلًا} لا يزيد ولا ينقص.

{ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها}: {من} شرطية، وفعل الشرط {يرد}، و{نؤته} جواب الشرط؛ وفي كل من فعل الشرط وجوابه حذف، أمَّا في فعل الشرط فالحذف من وسط الكلمة، وأمَّا في جوابه فالحذف من آخر الكلمة؛ لأنَّ قوله: {يرد}

أصلها: يريد فحذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ و{نؤته}: أصلها (نؤتيه) فحذفت الياء للجازم؛ لأنَّ الفعل المعتل يجزم بحذف حرف العلة؛ {من يرد ثواب الدنيا}: أي من يرد الجزاء في الدنيا من الدنيا، فإنَّ الله تعالى يؤته منها، {نؤته}: أي نعطه، {منها}، وليس نعطه كلَّ الدنيا؛ فالإنسان قد يريد شيئًا كثيرًا من الدنيا ولكن لا يحصل له، وإنَّما يؤتى منها، {ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها}، مثلًا من يرد القصور والأموال الكثيرة، والزوجات والمراكب الأثيرة وما أشبه ذلك من يرد هذا يؤته الله منها؛ لأنَّ من يرد هذا لابدَّ أن يسعى له؛ فإذا كان لابدَّ أن يسعى له فالغالب أنَّ السَّعي التَّام يحصل به الموجد؛ ولهذا قال: {نؤته منها}، فيقدِّر الله الأسباب لحصول ما أراده من الدنيا؛ وقوله: {نؤته منها}، واضح في أنَّ الله لا يؤتيه كلَّ الدنيا وإنَّما يؤتى منها؛ وهذا يحتمل أن يكون عائدًا إلى ما أراده، بمعنى أنَّ الله لا يعطيه كلَّ ما يريد؛ ويحتمل أن يكون عائدًا إلى الدنيا من حيث هي على سبيل العموم، فيعطيه الله كلَّ ما أراد؛ وعلى كلِّ تقدير فهذه الآية مقيَّدة بآية الإسراء وهي قوله تعالى: {من كان يريد العاجلة}: يعني الدنيا، {عجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد}، ولم يقل: (عجَّلنا له ما يريد)، قال: {ما نشاء}، وهذا يؤيِّده الواقع، فإنَّ كثيرًا من الناس يريدون الدنيا ويسعون لها بأيديهم وأرجلهم وألسنتهم وأعينهم وأنوفهم ولكن لا يحصلونها؛ لأنَّ الله قيَّد هذا العموم الذي هنا، قيَّده في سورة الإسراء بقوله: {عجَّلنا له فيها ما نشاء}، لا ما يشاء هو؛ {ما نشاء لمن نريد}، فقيَّد المعجَّل والمعجل له: {ما نشاء لمن نريد} هنا، هذا الإطلاق يقيَّد بذلك.

{ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها}، ولا نعطه الآخرة كلَّها، لأنَّ الآخرة درجات يختلف فيها الناس، ولا يمكن أن يعطى الإنسان جميع درجات الناس، ولكن يعطى من الآخرة؛ ولهذا قال: {نؤته منها}، ولكنَّها تختلف عن عطية الدنيا، كما قال الله تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى}، فعطية الآخرة ليست هي كعطية الدنيا بل هي أعظم؛ ولهذا قال في آية الإسراء: {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا}، وهنا قال: {وسنجزي الشاكرين}، فدلَّ ذلك على أنَّ من أراد الآخرة فهو من الشاكرين، وسيجزي الله عز وجل الشاكرين بفضله الواسع؛ من أتى بحسنة أعطي عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ الآن يتطهَّر الإنسان في بيته فيسبغ الوضوء، فسيئاته تكفر عنه في آخر قطرة من قطرات الماء، فإذا تشهَّد فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء؛ إذا خرج من بيته بعد هذا التطهر يريد المسجد لا يخرجه إلَّا الصلاة لم يخطو خطوة واحدة إلَّا رفع الله له بها درجة وحط عنه بها خطيئة؛ هذا أيضًا ثواب كثير، كلُّ خطوةٍ لك فيها فائدتان؛ الأولى: رفع الدرجة والثاني: حطُّ الخطيئة؛ ثواب كثير عظيم في عمل قليل؛ فإذا دخل المسجد وصلَّى لم تزل الملائكة تصلِّي عليه مادام في مصلاه تقول: اللهم صلِّ عليه اللهم اغفر له اللهم ارحمه؛ دعاء من الملائكة سخَّرهم الله عز وجل؛ فأنت ترى أنَّ من أراد الآخرة فهو من الشاكرين وسيجزي الله الشاكرين، سيجزيهم على شكرهم أكثر بأضعاف مضاعفة من أعمالهم.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ مُحَمَّدُ بن علي بن أبي تَوْبَةَ الزَّرَّادُ أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ مُحَمَّدٍ الجرجرائي وَأَبُو أَحْمَدَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمُعَلِّمُ الْهَرَوِيُّ قَالَا: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى الْمَالِينِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْحَسَنُ بْنُ سفيان

النسوي أخبرنا حبّان بْنُ مُوسَى وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَسْمَاءَ ابْنُ أَخِي جُوَيْرِيَةَ بْنِ أسماء قالا: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إليه([1]))).

قال السعدي: {وسنجزي الشاكرين}، ولم يذكر جزاءهم ليدلَّ ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أنَّ الجزاء على قدر الشكر، قلَّةً وكثرةً وحُسنًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ آجال الأنفس محدَّدة؛ لقوله: {كتابًا مؤجَّلًا}.

٢- تسلية أصحاب الرسول ﷺ حين قيل لهم إنَّ محمدًا قد قتل فأصابهم ما أصابهم من الغم، فقال الله لهم لا يمكن أن يقتَل محمد قبل أجله: {وما كان لنفس أن تموت إلَّا بإذن الله كتابًا مؤجَّلًا}، إن كان الله قد أنهى أجله فإنَّه ينتهي وإن لم ينته أجله بقي إلى الأجل المحدَّد؛ فلماذا تجزعون، لماذا تجزعون إذا قيل إنَّ محمدًا قد مات أو قد قتل، وهذا شيءٌ مؤجَّل عند الله عز وجل وبإذنه؛ وما كان مؤجَّلًا عند الله وبإذنه فإنَّ الإنسان يجب عليه أن يستسلم له ويصبر عليه ويرضى به.

٣- إثبات أنَّ كلَّ شيءٍ حتى الموت مخلوق لله؛ لقوله: {إلَّا بإذن الله}، وما كان صادرًا عن إذن فهو مخلوق؛ ويدلُّ لهذا قوله تعالى: {الذي خلق الموت والحياة}.

٤- أنَّه لا يمكن أن يتقدَّم الإنسان أو يتأخَّر عن الأجل الذي قدَّره الله له؛ لقوله: {كتابًا مؤجَّلًا}، ويؤيِّد هذا آيات منها قوله تعالى: {إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}، ومنها: {ولن يؤخِّر الله نفسًا إذا جاء أجلها}.

١- إسناده صحيح، حبان بن موسى فمن فوقه رجال البخاري ومسلم، وابن أسماء لم أجد من ترجمه وبكل حال قد توبع، وهو حديث آحاد الأصل، ثم اشتهر عن يحيى بن سعيد الأنصاري. وهو في شرح السنة (٢٠٦) بهذا الإسناد.

- وأخرجه مسلم ١٩٠٧ والنسائي ١/ ٥٨ من طريق ابن المبارك به.

- وأخرجه البخاري ٥٤ و٥٠٧٠ ومسلم ١٩٠٧ والنسائي ١/ ٥٨ و٦/ ١٥٨ والبيهقي ٤/ ٢٣٥ و٦/ ٣٣١ والبغوي في شرح السنة (١) من طريق مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ به.

- وأخرجه البخاري (١) و٢٥٢٩ ومسلم ١٩٠٧ وأبو داود ٢٢٠١ والحميدي ٢٨ وأحمد ١/ ٢٥ وابن الجارود في المنتقى (٦٤) والبيهقي في السنن (١/ ٤١ و٧/ ٣٤١) من طريق سفيان الثوري، عن يحيى بن سعيد الأنصاري به.

- وأخرجه البخاري ٣٨٩٨ و٦٩٥٣ ومسلم ١٩٠٧ وابن ماجه ٤٢٢٧ وأحمد ١/ ٤٣ والدار قطني ١/ ٥٠ والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٢٤٤) والبيهقي ١/ ٤١ وفي معرفة السنن ص (١٩٠) من طرق عن يحيى بن سعيد به.

فإن قال قائل: يشكل على هذا قول النبي ﷺ: ((من أراد أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه([١]))، فإنَّ هذا يفيد بأنَّ الإنسان إذا وصل رحمه زيد في عمره؟

فالجواب عن ذلك أن يقال: مدُّ الأجل كبسط الرزق، والحديث يقول: ((أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره))، والرزق مكتوب؛ فقد بيَّن الرسول أنَّ الرزق يبسط ويوسَّع إذا وصل الإنسان رحمه؛ فكذلك الأجل يمدَّد إذا وصل الإنسان رحمه ولا فرق؛ وهذا كقولنا: من أراد أن يولد له فليتزوج؛ صحيح هذا أو لا؟ صحيح؛ ولا يعدوا الحديث أن يكون بيانًا لسبب طول العمر، وليس معناه أنَّ الإنسان له عمران، عمر عند قطيعة الرحم وعمر عند صلة الرحم؛ لأنَّ المعلوم عند الله والمكتوب عنده عمر واحد مقرون بسبب وهو صلة الرحم؛ فإذا وصل الإنسان رحمه علمنا أنَّ له عمرًا واحدًا زائدًا مقرونًا بالسبب؛ كقولنا أيضًا: يوضِّح ذلك أنَّك تقول: إذا أكل الجائع سلم من الموت؛ صحَّ أو لا؟ فهذا الإنسان على آخر رمق في الحياة أتينا له بطعام فأكل وعاش، هل نقول إنَّه كان له عمران، مع أنَّنا لو تأخَّرنا عن إسعافه بالطعام لمدَّة دقيقة واحدة لمات؛ فهذا لا نقول له عمران؛ نقول له عمر واحد؛ لكن سبب اندفاع الموت عنه الذي حصل من الجوع هذا الطعام؛ فالمسألة ليست فيها إشكال؛ إذا تأمَّلها الإنسان وجد أنَّ سبب زيادة العمر الذي هو صلة الرحم كغيره من الأسباب التي يحثُّ الشارع عليها؛ أيضًا نقول: من أراد الجنة فليعمل عملًا صالحًا وهو مؤمن بالله؛ هل نقول إنَّ الإنسان له حالان حال يكفر وحال يؤمن؟ أو نقول هذا قد قدَّره الله بقضائه السابق أن يكون مؤمنًا من أهل الجنة؟ الجواب الثاني؛ وهكذا الذي وصل رحمه نقول هذا من الأول لم يكن له إلَّا عمر واحد مبني على سبب وهي صلة الرحم؛ إذًا فالمراد من الحديث حثُّ الناس على صلة الرحم التي هي سبب لطول العمر.

٥- الرَّد على الجبرية؛ لقوله: {من يرد}، حيث أثبت للإنسان إرادة؛ والجبرية يقولون: إنَّ الإنسان ليس له إرادة، وأنَّه يفعل بدون اختيار ولا إرادة؛ ولكن كلَّ النصوص السمعية والعقلية تردُّ على قولهم.

٦- أنَّ الناس لهم مشارب ولكلٍّ مسلك؛ لقوله: {ومن ثواب الدنيا} {ومن يرد ثواب الآخرة} وهو كذلك.

ومنها: أنَّ الإخبار عن وقوع الشيء لا يدلُّ على حله؛ فقوله: {ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها} لا يدلُّ على حل إرادة الإنسان الدنيا بعمله، إنَّما هو خبر عن أمر وقع؛ والحل والحرمة يؤخذ من دليل آخر من الشرع؛ ومن ثم يتبيَّن خطأ من قال إنَّه لا يشترط للمرأة محرم في السفر لأنَّ الرسول أخبر أنَّ الضعينة تخرج من صنعاء إلى عدن لا تخشى إلَّا الله ولا تخاف على نفسها؛ لأنَّ هذا إخبار عن الواقع، وليس إقرارًا له شرعًا؛ ألم يقل الرسول ﷺ: ((لتتبعنَّ سنن

١- (قلت): قال الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٦)، متفق عليه من حديث أنس. وأخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، والحاكم (٤ / ١٦٠) من حديث علي وابن عباس.

وللحديث شاهد ثالث بنحوه وهو: (اعرفوا أنسابكم، تصلوا أرحامكم، فإنه لا قرب بالرحم إذا قطعت، وإن كانت قريبة، ولا بعد بها إذا وصلت، وإن كانت بعيدة).

من كان قبلكم))، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟([١])). بلى قال ذلك؛ هل يعني هذا أنَّه يجوز أن نتَّبع سنن اليهود والنصارى لأنَّ الرسول أخبر بأننا سنتَّبعها؟؛ فالإخبار عن الشيء وقوعًا لا يدلُّ عن جوازه شرعًا؛ يؤخذ جوازه أو عدم جوازه من أدلَّة أخرى.

٧- أنَّ الإنسان قد يريد بعلمه أن يمدح عند الناس، وهذا لا يكون له من عمله إلَّا ما ناله من الدنيا فقط؛ يعني مثلًا إنسان يصلِّي ليقال مجتهد في العبادة، يقرأ ليقال قارئ، يتصدَّق ليقال كريم، يقاتل ليقال شجاع، وما أشبه ذلك؛ هذا الذي يريد بعمله الصالح هذه الأمور الدنيوية، لأنَّ كلَّ هذه من أمور الدنيا ليس له حظ في الآخرة: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب}.

٨- إيثار إرادة الآخرة على الدنيا؛ لقوله: {وسنجزي الشاكرين}؛ فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ من أراد الآخرة فإنَّه من الشاكرين الذين يجزيهم الله عز وجل.

٩- إثبات الجزاء على العمل؛ وهذا أعني الجزاء على العمل دائر بين أمرين، بين عدل وفضل، ويمتنع الأمر الثالث وهو الظلم بالنسبة لله عز وجل؛ والذين يجازون العمال على أعمالهم ينقسمون في جزاءهم إلى ثلاثة أقسام عدل، وفضل، وظلم؛ ولهذا نجد الآن العمال عند كفلائهم من الكفلاء من يظلمهم ومنهم من يعطيهم حقَّهم كاملًا ومنهم من يزيد؛ أمَّا بالنسبة لجزاء الله سبحانه وتعالى فإنَّ الظلم ممتنع على الله لا عجزًا عنه ولكنَّ لكمال عدله سبحانه وتعالى: {وسنجزي الشاكرين}.

١٠- الحثُّ على الشكر؛ لأنَّ الإخبار بأنَّ الله يجزي الشاكرين يراد به الحثُّ على الشكر؛ والشكر قال العلماء: إنَّه يتعلَّق بالقلب واللِّسان والجوارح؛ فبالقلب بحيث يشعر الإنسان بنفسه أنَّ هذه النعمة من الله عز وجل لا من حوله وقوته، أي: لا من حول الإنسان وقوَّته ولكنَّها بفضل الله؛ باللِّسان يشكر الله، يعني يتحدَّث بنعمة الله، بلسان الحال وبلسان المقال؛ فلسان المقال أن يقول: أحمد الله الذي فضَّلني على كثير ممَّن خلق تفضيلًا، أحمد الله الذين أعطاني الولد، أحمد الله الذي أعطاني المال، أحمد الله الذي يسَّر لي بيتًا، وما أشبه ذلك؛ وبلسان الحال أن يظهر أثر النعمة على العبد، فإنَّ الله يحبُّ من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه؛ وعلى هذا فإذا آتى الله الإنسان مالًا وخرج إلى الناس بالثياب الخلقة أو بثياب الخيش أو ما أشبه ذلك هل يعدُّ شاكرًا؟ لا، أليس هذا زهدًا؟ ليس بزهد، هذا من رآه قال: هذا فقير ما أنعم الله عليه بشيء؛ فيكون هذا المظهر منبِّئًا عن أنَّ الله لم ينعم على هذا الشخص. بالفعل وهو الثالث: أن يقوم الإنسان بطاعة الله؛ إذا أنعم الله عليه بمال يتصدَّق منه، بعلم ينشره، بجاه يتوسَّط للناس ويشفع لهم، وما أشبه ذلك؛ هذا من الشكر بالفعل.

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ {١٤٦}

قال السعدي: هذا تسلية للمؤمنين، وحثٌّ على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأنَّ هذا أمر قد كان متقدِّمًا، لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: {وكأين من نبي}.

قال ابن العثيمين: أوَّلًا: القراءات في هذه الآيات كما يلي: {وكأيِّن} هذه واحدة؛ والثانية: {وكائن من نبي}؛ ثانيًا: {نبي} فيها قراءتان: {نبي} و{نبيء} بالهمزة؛ ثالثًا: {قاتل} فيها قراءتان: {قُتِل} و{قاتل}.

{كأيِّن}، الصحيح أنَّها كلمة غير مركَّبة، يعني بسيطة، والبسيطة عند النحويين يعنون بها غير المركَّب؛ فإذا قالوا هذه كلمة بسيطة يعني غير مركَّبة من كلمتين؛ فالصحيح أنَّ {كأيِّن} كلمة بسيطة غير مركَّبة؛ وقال بعضهم إنَّها مركَّبة من كاف التشبيه و{أين} الاستفهامية؛ ولكن الصحيح خلاف ذلك؛ الصحيح أنَّها كلمة بسيطة نطق بها العرب هكذا كما نطقوا بِ{كَم}؛ وأنَّ معنى: {كأيِّن من نبي}: معناها (كم من نبي)؛ فهي إذًا للتكثير وهي مبنيَّة على السكون: {كأين}، أو (كائن)، على اللغتين هي مبنيَّة على سكون النون؛ أمَّا محلُّها من الإعراب فهي مبتدأ، والجملة التي بعدها خبرها؛ وقوله: {من نبي}: جار ومجرور مميِّز ل{كأيِّن} لأنَّ {كأيِّن}، من الألفاظ المبهمة؛ والألفاظ المبهمة تحتاج إلى تمييز؛ من ذلك مثلًا ألفاظ العدد من الأشياء المبهمة؛ عندي عشرون؛ عشرون ماذا؟ مبهمة تحتاج إلى تمييز، عشرون رجلًا، عشرون كتابًا، عشرون بيتًا، عشرون سيارةً، وما أشبهها؛ {كأيِّن}، من الألفاظ المبهمة التي تحتاج إلى تمييز، وتمييزها يأتي بعدها مجرورًا ب{من}: {كأيِّن من نبي}.

{قاتل معه}: يعني كثير من الأنبياء، معنى {كأيِّن من نبي}: كثير من الأنبياء، وقوله: {قاتل معه ربِّيون كثير}، كلمة {قاتل}، أو {قُتِل}، اختلف المفسرون فيها؛ فبعضهم وقف عليها وقال في قراءته: {وكأين من نبي قُتِل}، أو {وكأين من نبي قاتل}، ثم استأنف فقال: {معه ربِّيون كثير}، وتكون جملة: {معه ربِّيون}، جملة مكونة من مبتدأ وخبر، {ربِّيون} مبتدأ، و{معه} خبر مقدَّم؛ والجملة في موضع نصب على الحال من الضمير في {قُتِل}، أو {قاتل}: يعني قتل، أو قاتل والحال أنَّ معه ربِّيين كثيرًا.

وقيل: إنَّ قوله: {وكأيِّن من نبي}، جملة مستقلة يوقف عليها ثم يستأنف فيقال: {قتل معه ربِّيون كثير}: يعني (وكأيِّن من نبي وجد وأرسل وبعث وأيِّد بالآيات واتبعه ناس فقتل معه وفي صحبته ربِّيون كثير)؛ وعلى هذا القول تكون: {ربِّيون} نائب فاعل على قراءة: {قتِل}، وفاعل على قراءة: {قاتل}، ويكون: {النَّبي} هنا سالمًا؛ أمَّا على الأول فيكون مقتولًا؛ فيكون المراد من الآية شيءٌ من التَّوبيخ واللَّوم للصحابة الذين جزعوا لما أصابهم في أحد؛ ولهذا قال: {فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله

وما ضعفوا ... }؛ هذا من حيث تركيب الجملة؛ أمَّا من حيث الإفراد فقوله: {من نبي}: المراد بالنَّبي من أوحي إليه بالشرع ولم يؤمر بتبليغه؛ ولكن لم ترد كلمة نبي في القرآن إلَّا مرادًا بها الرسول؛ لأنَّ النبي الذي لم يكلَّف بالرسالة لم يذكر في القرآن بلفظ نبي، ليس في القرآن لفظ نبي إلَّا ويراد به الرسول: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنَّبيِّين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم ... }، ونوح من المعلوم أنَّه من الرسل، بل هو من أولي العزم من الرسل؛ أشكل على بعض الناس قال: كيف يوحى إليه بالشرع ولا يؤمر بالتبليغ؟ ولكن هذا في الحقيقة ليس محل إشكال؛ لأنَّه يمكن الجواب عنه بأنَّه أوحي إليه بالشرع ليتعبَّد به، ويكون هذا من باب التذكير له إذا كان نبيًّا بعد الرسل، ومن باب البيان له إذا كان نبيًّا لم يسبق برسل؛ مثال الثاني: آدم، فإنَّ آدم نبي ولم يسبق برسل؛ ومثال الأول: ما وجد من أنبياء بني إسرائيل الذين ليس لهم أتباع، ولم يؤمروا بالتَّبليغ؛ فيكون إنباء الله لهم من باب التفضل عليهم بذكر الشريعة السابقة وإحيائها، وإن كانوا لم يلزموا أن يبلغوا الناس؛ وبهذا يزول الإشكال فيمكن أن ينبأ الله أحدًا ولا يأمره ولا يكلِّفه بالإبلا غ.

وقوله: {قاتل معه ربِّيون}: المقاتلة: مفاعلة تقتضي وجود مدافعة للقتل من الجانبين، وهي أعمُّ من القتل؛ ولهذا قد تجوز المقاتلة ولا يجوز القتل؛ لو وجدنا قرية لا يؤذِّنون مثلًا، فإنَّه يجب قتالهم، ولكن لا يجوز قتلهم، يعني أنَّنا إذا قدرنا على المعين ما نقتلهم، ولكن نقاتلهم حتى يؤذِّنوا؛ مثلًا لو وجدنا قرية لا يصلُّون العيد فإنَّه يجب علينا قتالهم حتى يصلُّوا العيد، ولكن لا يجوز قتلهم؛ فالقتل أخصُّ من القتال، بمعنى أنَّه يمكن أن يجوز القتال لقوم ولا يجوز قتلهم؛ ومن ذلك على رأي بعض العلماء الرجل الذي يريد المرور بين يديك أو بينك وبين سترتك فتدافعه فيأبى، فقد قال النبي ﷺ: ((فإن أبى فليقاتله))، ولكن لا يجوز أن يقتله؛ والفرق ظاهر؛ لأنَّنا لو قلنا إنَّه يجوز أن يقتله لجاز لهذا المصلِّي أن يضرب هذا الذي أراد المرور في مكان مميت ويسقط ميتًا؛ ولكن هذا ليس بجائز، وإنَّما يقاتله مقاتلة دفاع، فإذا اندفع كفَّ عنه.

وقوله: {ربِّيُّون} قال بعضهم: إنَّ الرِّبِّيِّين نسبة إلى الرب، ولكن كسرت الرَّاء لأنَّها تغيَّرت عند النسب، وكم من حركة تغيَّرت عند النسب، مثلًا بنو أمية نقول فيهم: الأُمويين أو الأَمويين؟ الأُمويين؛ فيختلف الحرف عند وجود النسبة؛ فالرِّبِّيُّون أصلها رَبِّيُّون من الرب أو من التربية وهي مفتوحة الراء؛ ولكنَّها لمَّا تحوَّلت إلى نسبة كسرت الرَّاء؛ وعلى هذا فالرِّبِّيُّون هم الذين قاموا بعبادة الرب، فنالوا منه سبحانه وتعالى تربية خاصة؛ ونظير ذلك قول العلماء: هذا عالم رباني، نسبة إلى الرب والتربية؛ وقيل: إنَّها مضافة إلى رِبة بالكسر، يعني منسوبة إلى ربة وهي الطائفة؛ فيكون المعنى: معه طوائف كثيرون، {رِبِّيُّون كثير}: أي طوائف كثيرون. وقوله: {كثير}، صفة لـ{رِبِّيُّون}، وهي لا تقتضي الأكثر، يعني: مثلًا إذا كان عندنا مائة وسلم منهم خمسون نقول هؤلاء كثير، سلم منهم عشرون نقول هذا كثير، سلم منهم ستون نقول هذا أكثر؛ لكن ما قبل الخمسين لا نقول فيها أكثر، وإنَّما نقول أكثر فيما تجاوز النِّصف؛ المهم أنَّ كثير هنا، يعني: طوائف كثيرة قاتلوا أو قتِلوا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١ص٥٨: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} الْآيَاتِ – وَالْأَكْثَرُونَ يَقْرَءُونَ قَاتَلَ – وَالرِّبِّيُّونَ الْكَثِيرُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: هُمْ الْجَمَاعَاتُ الْكَثِيرَةُ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ وَالْفَرَّاءُ: أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي أُخْرَى وَمُجَاهِدٌ وقتادة: جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَقُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ فِي الرَّاءِ، فَعَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ فَالرِّبِّيُّونَ الَّذِينَ قَاتَلُوا مَعَهُ: الَّذِينَ مَا وَهَنُوا وَمَا ضَعُفُوا. وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو وَغَيْرِهِ فَفِيهَا وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: يُوَافِقُ الْأَوَّلَ، أَيْ الرِّبِّيُّونَ يُقْتَلُونَ فَمَا وَهَنُوا، أَيْ مَا وَهَنَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، لِقَتْلِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، أَيْ مَا ضَعُفُوا لِذَلِكَ وَلَا دَخَلَهُمْ خَوَرٌ وَلَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ، بَلْ قَامُوا بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الْقِتَالِ حَتَّى أَدَالَهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَصَارَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا.

وَالثَّانِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قُتِلَ، مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ. وَهَذَا يُنَاسِبُ صرخ الشَّيْطَانِ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، لَكِنَّ هَذَا لَا يُنَاسِبُ لَفْظَ الْآيَةِ، فَالْمُنَاسِبُ أَنَّهُمْ مَعَ كَثْرَةِ الْمُصِيبَةِ مَا وَهَنُوا، وَلَوْ أُرِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ قُتِلَ وَمَعَهُ نَاسٌ لَمْ يَخَافُوا؛ لَمْ يُحْتَجْ إلَى تَكْثِيرِهِمْ بَلْ تَقْلِيلُهُمْ هُوَ الْمُنَاسِبُ لَهَا؛ فَإِذَا كَثُرُوا لَمْ يَكُنْ فِي مَدْحِهِمْ بِذَلِكَ عِبْرَةٌ.

وَأَيْضًا، لَمْ يَكُنْ فِيهِ حُجَّةٌ عَلَى الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ قَلِيلُونَ وَالْعَدُوُّ أَضْعَافُهُمْ، فَيَقُولُونَ وَلَمْ يَهِنُوا؛ لِأَنَّهُمْ أُلُوفٌ وَنَحْنُ قَلِيلُونَ.

وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ} يَقْتَضِي كَثْرَةَ ذَلِكَ، وَهَذَا لَا يُعْرَفُ أَنَّ أَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ قُتِلُوا فِي الْجِهَادِ.

وَأَيْضًا: فَيَقْتَضِي أَنَّ الْمَقْتُولِينَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ، وَهَذَا لَمْ يُوجَدْ؛ فَإِنَّ مَنْ قَبْلَ مُوسَى مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ، وَمُوسَى وَأَنْبِيَاءُ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الْغَزْوِ؛ بَلْ وَلَا يُعْرَفُ نَبِيٌّ قُتِلَ فِي جِهَادٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا كَثِيرًا وَيَكُونُ جَيْشُهُ كَثِيرًا؟!

وَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ – أَنْكَرَ عَلَى مَنْ يَنْقَلِبُ، سَوَاءٌ كَانَ النَّبِيُّ مَقْتُولًا أَوْ مَيِّتًا، فَلَمْ يَذُمَّهُمْ إذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ عَلَى الْخَوْفِ بَلْ عَلَى الِانْقِلَابِ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَلِهَذَا تَلَاهَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ث فَكَأَنْ لَمْ يَسْمَعُوهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهَا مَعْنًى آخَرَ: وَهُوَ أَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ فَيُقْتَلُ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَهُمْ لَا يَهِنُونَ، فَيَكُونُ ذِكْرُ الْكَثْرَةِ مُنَاسِبًا؛ لِأَنَّ مَنْ قُتِلَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ كَثِيرٌ، وَقَتْلُ الْكَثِيرِ مِنْ الْجِنْسِ يَقْتَضِي الْوَهَنَ، فَمَا وَهَنُوا وَإِنْ كَانُوا كَثِيرِينَ، وَلَوْ وَهَنُوا دَلَّ عَلَى ضَعْفِ إيمَانِهِمْ، وَلَمْ يَقُلْ هُنَا: وَلَمْ يَنْقَلِبُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ أَنَّ نَبِيَّهُمْ قُتِلَ لَقَالَ: فَانْقَلَبُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْكَرَهُ إذَا مَاتَ النَّبِيُّ أَوْ قُتِلَ، فَأَنْكَرَ سُبْحَانَهُ شَيْئَيْنِ: الِارْتِدَادَ إذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ، وَالْوَهْنَ وَالضَّعْفَ وَالِاسْتِكَانَةَ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ} .... إلَخْ. وَلَمْ يَقُلْ: فَمَا وَهَنُوا لِقَتْلِ النَّبِيِّ، وَلَوْ قُتِلَ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَذَكَرَ مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقُلْ: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا يُصِيبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي عَامَّةِ الْغَزَوَاتِ لَا يَكُونُ قَتْلَ نَبِيٍّ.

وَأَيْضًا: فَكَوْنُ النَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ أَوْ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ، لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ مَعَهُمْ فِي الْغَزَاةِ، بَلْ كُلُّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ وَقَاتَلَ عَلَى دِينِهِ فَقَدْ قَاتَلَ مَعَهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قُتِلَ عَلَى دِينِهِ فَقَدْ قُتِلَ مَعَهُ، وَهَذَا الَّذِي فَهِمَ الصَّحَابَةُ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ قِتَالِهِمْ كَانَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ، حَتَّى فَتَحُوا الْبِلَادَ شَامًا، وَمِصْرًا، وَعِرَاقًا، وَيَمَنًا، وَعَرَبًا، وَعَجَمًا، وَرُومًا، وَمَغْرِبًا، وَمَشْرِقًا، وَحِينَئِذٍ فَظَهَرَ كَثْرَةُ مَنْ قُتِلَ مَعَهُ، فَإِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا وَأُصِيبُوا وَهُمْ عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ كَثِيرُونَ، وَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبْرَةٌ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ يُقَاتِلُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى دِينِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ، وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ يَغْزُونَ فِي السَّرَايَا، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُمْ، كَانُوا مَعَهُ يُقَاتِلُونَ، وَهُمْ دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} الْآيَةَ [الفتح: ٢٩]، وَفِي قَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ} الْآيَةَ [الأنفال: ٧٥]. لَيْسَ مِنْ شَرْطِ مَنْ يَكُونُ مَعَ الْمُطَاعِ أَنْ يَكُونَ مُشَاهِدًا لِلْمُطَاعِ نَاظِرًا إِلَيْهِ.

وَقَدْ قِيلَ فِي: {رِبِّيُّونَ} هُنَا: إِنَّهُمُ الْعُلَمَاءُ، فَلَمَّا جَعَلَ هَؤُلَاءِ هَذَا كَلَفْظِ الرَّبَّانِيِّ، وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ هُمُ الْأَتْبَاعُ كَأَنَّهُ جَعَلَهُمُ المربوبين.

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الرَّبَّانِيِّينَ عَيْنُ الْأَحْبَارِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ، وَهُمْ أَئِمَّتُهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَلَا يَكُونُ هَؤُلَاءِ إِلَّا قَلِيلًا.

الثَّانِي: أَنَّ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ وَالصَّبْرِ لَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ رَبَّانِيِّينَ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أُعْطُوا عِلْمًا وَمَعَهُمُ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الثَّالِثُ: أَنَّ اسْتِعْمَالَ لَفْظِ الرَّبَّانِيِّ فِي هَذَا لَيْسَ مَعْرُوفًا فِي اللُّغَةِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ اسْتِعْمَالَ لَفْظِ الرِّبِّيِّ فِي هَذَا لَيْسَ مَعْرُوفًا فِي اللُّغَةِ، بَلِ الْمَعْرُوفُ فِيهَا هُوَ الْأَوَّلُ، وَالَّذِينَ قَالُوهُ قَالُوا: هُوَ نِسْبَةٌ لِلرَّبِّ بِلَا نُونٍ وَالْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورُ {رِبِّيٌّ} بِالْكَسْرِ، وَمَا قَالُوهُ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ قَرَأَهُ بِنَصْبِ الرَّاءِ وَقَدْ قُرِئَ بِالضَّمِّ، فَعُلِمَ أَنَّهَا لُغَاتٌ.

الْخَامِسُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ كُلَّ مَنْ يَأْمُرُهُ بِالْجِهَادِ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ أَوْ لَمْ يَكُنْ.

السَّادِسُ: أَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ فِي تَخْصِيصِ هَؤُلَاءِ بِالذِّكْرِ، وَإِنَّمَا الْمُنَاسِبُ ذِكْرُهُمْ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} الْآيَةَ [المائدة: ٦٣]. وَفِي قَوْلِهِ: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}[آل عمران: ٧٩]، فَهُنَاكَ ذِكْرُهُمْ بِهِ مُنَاسِبٌ.

السَّابِعُ: قِيلَ: إِنَّ الرَّبَّانِيَّ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ، فَزِيَادَةُ الْأَلِفِ وَالنُّونِ كَاللِّحْيَانِيِّ، وَقِيلَ: إِلَى تَرْبِيَتِهِ النَّاسَ، وَقِيلَ: إِلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ وَهَذَا أَصَحُّ، فَإِنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ الزِّيَادَةِ فِي النِّسْبَةِ؛ لِأَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إِلَى التَّرْبِيَةِ، وَهَذِهِ تَخْتَصُّ بِهِمْ، وَأَمَّا نِسْبَتُهُمْ إِلَى الرَّبِّ فَلَا اخْتِصَاصَ لَهُمْ بِذَلِكَ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ لَهُ فَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ، إِمَّا نِسْبَةَ عُمُومٍ أَوْ خُصُوصٍ وَلَمْ يُسَمِّ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ رَبَّانِيِّينَ، وَلَا سَمَّى بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ، فَإِنَّ الرَّبَّانِيَّ مَنْ يَرُبُّ النَّاسَ، كَمَا يَرُبُّ الرَّبَّانِيُّ السَّفِينَةَ، وَلِهَذَا كَانَ الرَّبَّانِيُّونَ يُذَمُّونَ تَارَةً، وَيُمْدَحُونَ أُخْرَى، وَلَوْ كَانُوا مَنْسُوبِينَ إِلَى الرَّبِّ لَمْ يُذَمُّوا قَطُّ. وَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ الثَّامِنُ:

أَنَّهَا إِنْ جُعِلَتْ مَدْحًا فَقَدْ ذُمُّوا فِي مَوَاضِعَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَدْحًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ خَاصَّةً يَمْتَازُونَ بِهَا مِنْ جِهَةِ الْمَدْحِ، وَإِذَا كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى رَبَّانِيِّ السَّفِينَةِ بَطَلَ قَوْلُ مَنْ يَجْعَلُ الرَّبَّانِيَّ مَنْسُوبًا إِلَى الرَّبِّ، فَنِسْبَةُ الرِّبِّيِّينَ إِلَى الرَّبِّ أَوْلَى بِالْبُطْلَانِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ إذَا قُدِّرَ أَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إلَى الرَّبِّ، فَلَا تَدُلُّ النِّسْبَةُ عَلَى أَنَّهُمْ عُلَمَاءُ. نَعَمْ تَدُلُّ عَلَى إيمَانٍ وَعِبَادَةٍ وَتَأَلُّهٍ، وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ مُتَأَلِّهٌ عَارِفٌ بِاَللَّهِ، وَالصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ كَذَلِكَ، وَلَمْ يُسَمَّوْا رَبَّانِيِّينَ وَلَا رِبِّيِّينَ، وَإِنَّمَا جَاءَ أَنَّ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ لَمَّا مَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْيَوْمَ مَاتَ رَبَّانِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ يُؤَدِّبُهُمْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَالْخُلَفَاءُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُسَمَّوْا رَبَّانِيِّينَ، وَإِنْ كَانُوا هُمْ الرَّبَّانِيِّينَ. وَقَالَ إبْرَاهِيمُ: كَانَ عَلْقَمَةُ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ، فَهُمْ أَهْلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَالْأَخْبَارُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ أَخْبَرَ بِالْعِلْمِ وَرَوَاهُ عَنْ غَيْرِهِ وَحَدَّثَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْ، أَوْ يَنْهَ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ فِي الرَّبَّانِيِّ، نُقِلَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: (هُمْ الَّذِينَ يُغَذُّونَ النَّاسَ بِالْحِكْمَةِ وَيُرَبُّونَهُمْ عَلَيْهَا)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (هُمْ الْفُقَهَاءُ الْمُعَلِّمُونَ).

قُلْتُ: أَهْلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ هُمْ الْفُقَهَاءُ الْمُعَلِّمُونَ. وَقَالَ قتادة وَعطَاءٌ: هُمْ الْفُقَهَاءُ الْعُلَمَاءُ الْحُكَمَاءُ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَأَحَدُهُمْ رَبَّانِيٌّ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الْمُعَلِّمُونَ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: أَحْسَبُ الْكَلِمَةَ عِبْرَانِيَّةً أَوْ سُرْيَانِيَّةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا عُبَيْدٍ زَعَمَ أَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ الرَّبَّانِيِّينَ.

قُلْتُ: اللَّفْظَةُ عَرَبِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إلَى رَبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي يَنْزِلُهَا وَيَقُومُ لِمَصْلَحَتِهَا، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رَبَّانِيُّونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى شَرِيعَةٍ مُنَزَّلَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قال الشنقيطي: وَالْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ مُبَيِّنَةٌ أَنَّ النَّبِيَّ الْمُقَاتِلَ غَيْرُ مَغْلُوبٍ بَلْ هُوَ غَالِبٌ، كَمَا صَرَّحَ تَعَالَى بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}[٥٨ \ ٢١]، وَقَالَ قَبْلَ هَذَا: {أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ}[٥٨ \ ٢٠]، وَقَالَ بَعْدَهُ: {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

وَأَغْلَبُ مَعَانِي الْغَلَبَةِ فِي الْقُرْآنِ الْغَلَبَةُ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ كَقَوْلِهِ: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}[٨ \ ٦٥]، وَقَوْلِهِ: {فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ}، وَقَوْلِهِ: {الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ}[٣٠ \ ٤٠]، وَقَوْلِهِ: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً}[٢ \ ٢٤٩]، وَقَوْلِهِ: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ}[٣ \ ١٢]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْمَقْتُولَ لَيْسَ بِغَالِبٍ بَلْ هُوَ قِسْمٌ مُقَابِلٌ لِلْغَالِبِ بِقَوْلِهِ: {وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ}[٤ \ ٧٤] ، فَاتَّضَحَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْقَتْلَ لَيْسَ وَاقِعًا عَلَى النَّبِيِّ الْمُقَاتِلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ وَقَضَى لَهُ فِي أَزَلِهِ أَنَّهُ غَالِبٌ، وَصَرَّحَ بِأَنَّ الْمَقْتُولَ غَيْرُ غَالِبٍ.

وَقَدْ حَقَّقَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ غَلَبَةَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى قِسْمَيْنِ: غَلَبَةٌ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَغَلَبَةٌ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ لِخُصُوصِ الَّذِينَ أُمِرُوا مِنْهُمْ بِالْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِالْقِتَالِ لَيْسَ بِغَالِبٍ وَلَا مَغْلُوبٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُغَالِبْ فِي شَيْءٍ وَتَصْرِيحُهُ تَعَالَى، بِأَنَّهُ كَتَبَ إِنَّ رُسُلَهُ غَالِبُونَ شَامِلٌ لِغَلَبَتِهِمْ مَنْ غَالَبَهُمْ بِالسَّيْفِ، كَمَا بَيَّنَّا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الْغَلَبَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَشَامِلٌ أَيْضًا لِغَلَبَتِهِمْ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، فَهُوَ مُبِينٌ أَنَّ نَصْرَ الرُّسُلِ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا} الْآيَةَ [٤٠ \

٥١]، وَفِي قَوْلِهِ: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ}[٣٧ \ ١٧١ \ ١٧٢]، أَنَّهُ نَصْرُ غَلَبَةٍ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ لِلَّذِينَ أُمِرُوا مِنْهُمْ بِالْجِهَادِ؛ لِأَنَّ الْغَلَبَةَ الَّتِي بَيَّنَ أَنَّهَا كَتَبَهَا لَهُمْ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ النَّصْرِ؛ لِأَنَّهَا نَصْرٌ خَاصٌّ، وَالْغَلَبَةُ لُغَةً الْقَهْرُ وَالنَّصْرُ لُغَةً إِعَانَةُ الْمَظْلُومِ، فَيَجِبُ بَيَانُ هَذَا الْأَعَمِّ بِذَلِكَ الْأَخَصِّ.

قال أبو زهرة: وقد فهم بعض العلماء أنَّ المراد أن بعض الأنبياء قتل في الميدان فما وهن جيشه بقتله ولا ضعف، فما كان يسوغ لهم أن يضطربوا ذلك الاضطراب يوم أحد.

ولكنّا نرى أنَّه ليس في الآية ما يشير إلى هذا المعنى، حتى يتعيَّن مرادًا لها، والحق أنَّ العبرة في كون النبيِّين كانوا يقاتلون ومعهم مؤمنون صادقو الإيمان، يصيبهم جراح، وتصيب أعداءهم، وما كانت جراحهم توهنهم أو تضعفهم أو تجعلهم يستكينون ويذلُّون، وقد نفَى الله تعالى عن أولئك الربانيِّين ثلاثة أوصاف لا تتَّفق مع الإيمان:

أوَّلها: الوهن فقد نفاه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}: والوهن اضطراب نفسي، وانزعاج قلبي، فهو يبتدئ في الداخل، وإذا وصل إلى الخارج كان ضعفًا وتخاذلًا، وإذا أنتج الضعف نتائجه كانت الاستكانة والذُّل، ولذلك ابتدأ بنفي الوهن، وقرن نفي الوهن بكون سببه ما أصابهم في سبيل الله للإشارة إلى أنَّ الوهن ينافي قوة الإيمان، لأنَّ من كان يقاتل في سبيل الله عليه أن يعلم الغاية من القتال، وهي توجب تحمل كلَّ الشدائد، والعاقبة للمتَّقين.

الوصف الثاني: الضعف والتَّخاذل الذي يوجبه اليأس والاضطراب، وهذا كما قلنا نتيجة للوهن.

والوصف الثالث: الاستكانة، وهي الرِّضا بالذُّل والعيش مع الهوان، وذلك ليس شأن المؤمن.

وقد نفَى سبحانه هذه الأوصاف الثلاثة مع أنَّ واحدًا يكفي نفيه لنفيها، لأنَّها متلازمة، لبيان قبح ما يقعون فيه لو سلطوا وصفًا منها على نفوسهم فاستمكن فيها.

قال ابن العثيمين: {فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله}: أي ما جبنوا من أجل ما أصابهم في سبيل الله؛ بل لم يزدهم ما أصابهم في سبيل الله إلَّا شجاعةً وإقدامًا؛ لأنَّ عندهم من الإيمان ما يدفعهم إلى ما يصيبهم في سبيل الله، كما أنَّ من طبيعة البشر أنَّ الإنسان إذا اعتدي عليه احتمى أو حمي وزاد إقدامًا؛ فكذلك هؤلاء ما جبنوا لما أصابهم ما أصابهم في سبيل الله؛ وقوله: {في سبيل الله}: أي في طريقه وشريعته؛ لأنَّهم مؤمنون بأنَّ كلَّما أصابهم فهو خير؛ ولمَّا دميت أصبع النبي ﷺ في إحدى الغزوات قال: ((هل أنت إلَّا إصبع دَميتِ وفي سبيل الله ما لَقيتِ[١])).

{وما ضعفوا}: أي ما ضعفت عزيمتهم، حتى لو قتل كثير منهم فإنَّها لا تضعف عزيمتهم، خلافًا لمن كان عنده جبن فإنَّه تضعف عزيمته إذا قتل أحد من قومه.

١- (قلت): مُتَّفق عَلَيْهِ. البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦)، وصححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٢٨٢).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((دميت)): أي جرحت وخرج منها الدم، ((ما لقيت)): لفظ ما هنا بمعنى الذي أي الذي لقيته محسوب في سبيل الله.

{وما استكانوا}: من الاستكانة وهي الذُّل، أي ما ذلُّوا لعدوهم مع أنَّه قتل منهم كثير، لكن كانوا على عزَّة، لأنَّ الذي يعلم أن من قتل من قومه فهو في سبيل الله لا يهتم إذ أنَّه مؤمن بأنَّه لو قتل هو لكان مقتولًا في سبيل الله، فلا يذلُّ لأعداء الله.

{والله يحبُّ الصابرين}: يحبُّ الصابرين الذين يصبرون على كلِّ ما يجب الصبر عليه؛ والصبر يقولون إنَّه ثلاثة أقسام؟ صبر على طاعة الله، يعني أنَّ الإنسان يصبر نفسه على الطاعة ولا يضجر منها ولا يدعها؛ وصبر عن معصية الله يصبر إنسان نفسه عن المعصية فلا يقدم عليها؛ وصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخَّط لما يقضيه الله عليه من الأشياء المؤلمة.

قال أبو زهرة: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}: الله سبحانه وتعالى يشير بهذا إلى أنَّ الذين لا يصيبهم وهن بسبب اشتداد المعركة ولا ضعف ولا ذلّ ولا استكانة واستسلام هم الصابرون حقًّا وصدقًا. والله سبحانه وتعالى يحبُّهم. ونقف هنا وقفة قصيرة عند معنى الصبر، واستحقاقه للمحبَّة لَا لمطلق الجزاء، إنَّ الصبر ليس هو احتمال الشدائد، فقط، بل هو ألَّا يتضعضع عند نزولها، وألَّا يضطرب التفكير عند اشتداد الشديدة، وأن تنفي مطامع النفس إلَّا ما كان منها إجابة لداعي الحق ونصرته، وأن تخلص القلوب عن شوائب الشهوات فلا تخضع لها ولا تذلّ، بل تتحكَّم كلُّ نفس في أهوائها، وألَّا يكون أنين ولا شكوى ولا ضجيج، وهذا هو الذي سُمِّيَ الصبر الجميل، والصبر على هذا المعنى هو أجل الصفات الإنسانية وأكملها؛ لأنَّه ضبط النفس، وكمال العقل، وسيطرة الحكمة وقوة الجنان، وهو يتضمَّن في ثناياه معنى الشكر، فهو عنصر من عناصره، ومظهر من مظاهره، وكان الجزاء أعلى جزاء، وهو المحبَّة من الله، ومحبة الله تعالى تتضمَّن رضوانه، وتتضمَّن ثوابه، وهي مرتبة أعلى منهما، ولا ينالها إلَّا الصابرون.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله سبحانه وتعالى له عناية خاصة بهذه الأمَّة، حيث يسليهم بما حصل للأمم السابقة؛ لقوله: {وكأيِّن من نبي قتل} على قراءة الوقف.

٢- أنَّ الجهاد مشروع في غير هذه الأمَّة؛ لقوله: {قاتل} والقتال من الأنبياء وأتباعهم لا يكون إلَّا عن جهاد، وهو كذلك.

٣- الثناء على من سبق ممَّن يستحق الثناء؛ ولهذا قال: {فما وهنوا وما استكانوا .... }.

٤- أنَ من طرق التشجيع والإغراء به أن يذكر للإنسان سلف يقتدي به ويتشجَّع للّحاق به؛ لقوله: {فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ... }.

٥- الإشارة إلى انحطاط مرتبة الذين يذلُّون لأعداء الله؛ تؤخذ من قوله: {وما استكانوا}، وذلك أنَّ الإنسان المؤمن يجب أن يكون أشم كالطود العظيم بالنسبة لأعداء الله، حتى إنَّه يجوز للإنسان الخيلاء وجر الثوب في مقابلة الأعداء، حتى إنَّ بعض العلماء قال: يجوز للجيش الإسلامي أن يصبغ بالسواد رأسه ولحيته أمام الأعداء من أجل إرهابهم، لأنَّهم يظنُّون أنَّ المقابل لهم شباب؛ على كلِّ حال سواء قلنا بهذا القول أم لم نقل ينبغي للإنسان أن لا يذلَّ أمام عدوِّه؛ بل أن يظهر العزَّ له بالقول

وبالفعل؛ لأنَّ إذلال الكافرين محبوب إلى الله، قال الله تبارك وتعالى في وصف النبي ﷺ وأصحابه: {محمد رسول الله والذين معه أشدَّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعًا سجَّدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرَّاع ليغيظ بهم الكفار}؛ وقال الله تعالى: {ولا ينالون من عدو نيلًا إلَّا كتب لهم به عمل صالح إنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين}، فكلُّ شيءٍ تغيض به الكفار فهو قربة لك عند الله، كلُّ شيءٍ تنال به الكفار من قتل أو أذى أو غير ذلك فإنَّه قربة يقرِّبك إلى الله عز وجل، إلَّا إذا كان بيننا وبينهم عهد فإنَّ الواجب الوفاء في عهدهم؛ لقول الله تعالى: {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنَّ الله يحبُّ المتَّقين}.

٦- إثبات المحبَّة لله؛ لقوله: {والله يحبُّ الصابرين}، والمحبَّة صفة من صفات الله تعالى المتعلِّقة بمشيئته؛ فهي من الصفات الفعلية لأنَّها تتعلَّق بالمشيئة؛ ووجه كونها تتعلَّق بالمشيئة أنَّها مربوطة بسبب، وكلُّ صفة مربوطة أو معلَّقة بسبب فإنَّها من الصفات الفعلية؛ وبناءً على هذه القاعدة المفيدة نقول: الرضا صفة فعلية لأنَّه مربوط بسبب، وكذلك الفرح، الضحك، وهكذا، كلُّ صفةٍ معلَّقة بسبب أو مربوطة به فإنَّها من الصفات الفعلية.

وهل الله يُحَبْ؟ نعم يحب، ولا ألذَّ للإنسان من محبَّة الله من كونه يحبُّ الله عز وجل؛ ولذلك إذا قمت تصلِّي وأنت صافي القلب بعيدا عن الدنيا مقبلًا على الله تجد في هذه الصلاة محبَّة لله ولذَّة عظيمة تنسيك الدنيا كلَّها، لأنَّك لا تجد شيئًا ألذ من محبَّة الله سبحانه وتعالى.

ومرَّ علينا كثيرًا ولا حاجة إلى التكرار أنَّ أهل التعطيل ينكرون حقيقة المحبَّة، ويقولون: إنَّ المراد بالمحبَّة الإثابة أو إرادة الإثابة، يعني الشيء المخلوق المنفصل عن الله وهو الثواب أو الإرادة؛ فمعنى يحبُّهم يحبُّ الصابرين على قولهم أي يثيبهم أو يريد أن يثيبهم.

٧- الحثُّ على الصبر؛ لقوله: {والله يحبُّ الصابرين}، لأنَّنا لا نعلم فائدة أجل وأعظم من الحثِّ على الصبر في مثل هذا التعبير.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {١٤٧}

قال ابن العثيمين: لمَّا ذكر الله تعالى حسن فعل هؤلاء الرِّبِّيُّون الذين قاتلوا مع الأنبياء وقتلوا، وأنَّهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، ذكر حسن قولهم فقال: {وما كان قولهم إلَّا أن قالوا}، وهذه الجملة مفيدة للحصر،

يعني حصرت أقوالهم عند هذه المصائب أنَّهم سألوا الله مغفرة الذنوب والإسراف، وسألوه الثبات؛ وذلك لأنَّ ما أصابهم إنَّما أصابهم بالذنوب كما قال الله تعالى: {أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم}. إذًا علاقة هذه الآية بما قبلها أنَّه لمَّا ذكر حسن فعالهم ذكر حسن مقالهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١٥ص٢٧٧: وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ التَّكْرَارِ فِي شَيْءٍ؛ فَإِنَّ {قَوْلَهُمْ} خَبَرُ {كَانَ} قُدِّمَ عَلَى اسْمِهَا، و{أَنَّ قَالُوا} فِي تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ، وَهُوَ الِاسْمُ، فَهُمَا اسْمُ كَانَ وَخَبَرُهَا، وَالْمَعْنَى: وَمَا كَانَ لَهُمْ قَوْلٌ إلَّا قَوْلُ: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْله تَعَالَى: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلَّا أَنْ قَالُوا}[الأعراف: ٨٢]، وَالْجَوَابُ قَوْلٌ؛ وَتَقُولُ: (مَا لِفُلَانِ قَوْلٌ إلَّا قَوْلُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ)، فَلَا تَكْرَارَ أَصْلًا.

قال ابن العثيمين: ومن حيث الإعراب يقول المعربون: إن {قول}، خبر {كان} مقدَّمًا، و{أن} وما دخلت عليه في {أن قالوا} اسمها مؤخَّرًا؛ وعلى هذا فهو من باب تقديم خبر كان؛ وخبر كان يكون جائز التَّقديم، وواجب التَّقديم، وممتنع التَّقديم حسب السياق؛ فإذا كان الخبر ممَّا له الصدارة كاسم الاستفهام مثلًا واسم الشرط كان واجب التَّقديم، كما تقول: أين كان زيد؛ وإذا كان في الاسم ضمير يعود على الخبر فقد يكون واجب التقديم أيضًا؛ والأصل هو جواز التقديم والتأخير، هذا الأصل؛ لكن قد يجب التقديم أحيانًا وقد يؤخَّر؛ فهنا بحسب التلاوة قدَّمه وجوبًا؛ لأنَّه لا يجوز أن نغيِّر كلام الله؛ لكن لو كان في غير القرآن لكان جوازًا؛ {وما كان قولهم}: يعني عند حدوث القتل، {إلَّا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا}.

{إلَّا أن قالوا}، الضمير يعود على الباقين منهم الذين لم يقتلوا، لأنَّ الذين قتلوا لا يمكن أن يقولوا: {ربنا اغفر لنا}، يعني: يا ربنا؛ فهو منادى حذفت منه ياء النداء تخفيفًا، وتَيَمُّنًا بالبداءة باسم الله؛ فحذف ياء النداء هنا له وجهان؛ الأول: التخفيف؛ والثاني: التيمُّن بالبداءة باسم الله؛ {إلَّا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا}، نادوا الله تعالى عند الدعاء باسم الربوبية لأنَّ الربوبية هي التي فيها التصرف؛ وإجابة الدعاء من باب الربوبية؛ توسَّلوا باسم الله الذي يناسب ما يطلبون وهو إجابة الدعاء؛ {إلَّا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا}، {اغفر}: يعني استر وتجاوز؛ لأنَّه مأخوذ من المغفر وهو ما يقي به المقاتل رأسه من السهام؛ وفي المغفر الستر والوقاية؛ ولهذا لو أنَّ الله سبحانه وتعالى هتك ستر المذنب لم تكن المغفرة تامَّة؛ ولو عذَّبه به وأخفاه عن الناس لم تكن المغفرة تامَّة؛ فإذا ستره وعفا عنه صارت المغفرة تامَّة؛ {ربنا اغفر لنا ذنوبنا}، أصل الذنوب يطلق على معانٍ متعدِّدة منها النصيب كما قال تعالى: {فإن للذين ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم}: أي نصيبهم؛ ومنه سُمِّي ذَنوب الماء، أي: الدَّلو، لأنَّه شيءٌ مقدَّر من الماء؛ ويطلق الذنب على الإثم لأنَّه نصيب العامل: {فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يره}، فهذه المادة الذال والنون والباء تدور حول هذا المعنى.

{وإسرافنا في أمرنا}: (الإسراف): مجاوزة الحد؛ ومجاوزة الحد هي إمَّا في غلو وإمَّا في تقصير؛ أمَّا مجاوزة الحدِّ في الغلو فظاهر؛ وأمَّا في التَّقصير فلأنَّ المطلوب من المكلَّف أن لا يتعدَّى حدود الله تجاوزًا ولا يقربها أيضًا؛ فإذا كان الإنسان فاعلًا

للمحرَّم فهو مسرف لأنَّه تجاوز حدَّ العبودية إذ مقتضى العبودية أن يكون مجتنبًا لما حرَّم الله؛ وإذا فرط في الواجب كان مسرفًا أيضًا فيما تقتضيه العبودية؛ لأنَّ مقتضى العبودية أن يكون قائمًا بالواجب؛ فالإنسان قد يسرف في الواجب وفي المحرَّم وفي المباح أيضًا، كما لو أسرف في الإنفاق على نفسه وعلى أهله فإنَّه داخل في الإسراف؛ وقوله: {وإسرافنا في أمرنا}: المراد بالأمر هنا الشأن، أي: في شأننا؛ وهو مفرد مضاف فيعمُّ جميع الأمور.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١١ص٦٩٣: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}؛ فَقَدْ قِيلَ: إنَّ الذُّنُوبَ هِيَ الصَّغَائِرُ، وَالْإِسْرَافُ هُوَ الْكَبَائِرُ.

وَ(التَّحْقِيقُ) أَنَّ (الذُّنُوبَ) اسْمُ جِنْسٍ وَ(الْإِسْرَافَ) تَعَدِّي الْحَدِّ، وَمُجَاوَزَةُ الْقَصْدِ، كَمَا فِي لَفْظِ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فَالذُّنُوبُ كَالْإِثْمِ، وَالْإِسْرَافُ كَالْعُدْوَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ}[الأنعام: ١٤٥]، وَمُجَاوَزَةُ قَدْرِ الْحَاجَةِ، فَالذُّنُوبُ مِثْلُ اتِّبَاعِ الْهَوَى بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ، فَهَذَا كُلُّهُ ذَنْبٌ، كَالَّذِي يَرْضَى لِنَفْسِهِ، وَيَغْضَبُ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ، وَ(الْإِسْرَافُ) كَالَّذِي يَغْضَبُ لِلَّهِ، فَيُعَاقِبُ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ، وَالْآيَةُ فِي سِيَاقِ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ.

وَقَدْ أَخْبَرَ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ بِقَوْلِهِ: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} الْآيَةَ [آل عمران: ١٤٦،١٤٧]، فَجَمَعُوا بَيْنَ الصَّبْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ. وَهَذَا هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الْمَصَائِبِ، الصَّبْرُ عَلَيْهَا، وَالِاسْتِغْفَارُ مِنْ الذُّنُوبِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَهَا.

قال أبو زهرة: وإنَّ ذلك الدُّعاء مناسب للقتال لأنَّ المقاتل إمَّا أن يقصر فيتخاذل، وإمَّا أن يتجاوز الحد فيقتل في غير حاجة إلى القتال، فكان هذا الدعاء في موضعه، وإنَّ الإسراف في القتل من غير حاجة إلى القتل مؤاخذ عليه كالتقصير، فمن يقتل امرأة أو عاملًا غير مقاتِل أو شيخًا هرمًا لَا رأيَ له في القتال، أو يقتل أسيرًا، أو يقتل بعد الأمان، يكون مسرفًا في أمره، فيكون مؤاخذًا، ولذلك طلبوا الاستغفار من الأمرين: التفريط والإفراط. وإن طلبهم هذا يدلُّ على سلامة قلوبهم، واستصغار عملهم، وذلك شأن الأتقياء. وفي تقديم الدعاء بالغفران إشارة إلى أنَّهم يقدِّمون طهارة نفوسهم وتزكية القلوب واعتبارها أساس الثبات والصبر في مواطن القتال؛ وجاء في الكشاف: والدعاء بالاستغفار مقدَّمًا على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع وهو أقرب إلى الاستجابة.

قال ابن العثيمين: {وثبّت أقدامنا}: عند ملاقاة الأعداء، وعند حلول الشبهات، وعند ورود الشهوات؛ فالإنسان محتاج إلى أن يثبته الله في مواطن القتال، إذ لو لم يثبِّته الله لفرَّ؛ محتاج إلى أن يثبِّته الله عند الشبهات إذ لو لم يثبِّته الله لزاغ؛ محتاج إلى أن يثبِّته الله عند الشهوات إذ لو لم يثبِّته الله لهلك، وكثير من الناس ينزلقون عند وجود الشبهات، فتجده ذا يقين ولكنَّه إذا وردت عليه أدنى شبهة تأثَّر لأنَّه لم يثبت؛ كثير من الناس أيضًا يكون عنده علم ويقين وليس عنده شك ولكنَّ

الشهوة قد تغلبه فلا يثبت؛ فتثبيت الأقدام في كلِّ موضع يمكن أن تزل فيه؛ فيدخل في ذلك كما قلت تثبيت الأقدام عند القتال كما هو سياق الآيات؛ وتثبيت الأقدام عند الشبهات، وتثبيت الأقدام عند الشهوات.

قال ابن عطية: {وَثَبِّتْ أَقْدامَنا}: يحتمل أن يجري مع ما قبله من معنى الاستغفار، فيكون المعنى: اجعلنا دائبين على طاعتك والإيمان بك، وتثبيت القدم على هذا: استعارة، ويحتمل أن يكون في معنى ما بعده من قوله: {وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ}، فيراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب، قال ابن فورك: في هذا الدعاء ردٌّ على القدرية، لقولهم: إنَّ الله لا يخلق أفعال العبد، ولو كان ذلك لم يسغ أن يدَّعي فيما لا يفعله.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص٢٠٣: لَمَّا عَلِمَ الْقَوْمُ أَنَّ الْعَدُوَّ إِنَّمَا يُدَالُ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَسْتَزِلُّهُمْ وَيَهْزِمُهُمْ بِهَا، وَأَنَّهَا نَوْعَانِ: تَقْصِيرٌ فِي حَقٍّ، أَوْ تَجَاوُزٌ لِحَدٍّ، وَأَنَّ النُّصْرَةَ مَنُوطَةٌ بِالطَّاعَةِ، قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْ لَمْ يُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرْهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا هُمْ عَلَى تَثْبِيتِ أَقْدَامِ أَنْفُسِهِمْ وَنَصْرِهَا عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَسَأَلُوهُ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بِيَدِهِ دُونَهُمْ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرْهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا وَلَمْ يَنْتَصِرُوا، فَوَفَّوُا الْمَقَامَيْنِ حَقَّهُمَا: مَقَامَ الْمُقْتَضِي، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالِالْتِجَاءُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَمَقَامَ إِزَالَةِ الْمَانِعِ مِنَ النُّصْرَةِ، وَهُوَ الذُّنُوبُ وَالْإِسْرَافُ.

قال ابن العثيمين: {وانصرنا على القوم الكافرين}: {انصرنا} يعني اجعل النصر لنا وهو الغلبة؛ {على القوم الكافرين}: يعني الكافرين بالله؛ فيدخل في ذلك أن ينصرك الله عز وجل على نفسك؛ لأنَّ نفسك إن لم ينصرك الله عليها فإنَّها تأمرك بالسوء: {وما أبرئ نفسي إنَّ النفس لأمَّارة بالسُّوء}، {وحملها الإنسان إنَّه كان ظلومًا جهولًا}، فإذا لم ينصرك الله عليها أهلكتك، وإذا نصرك الله عليها وجعل الغلبة للنفس المطمئنة سلمت منها؛ ويدخل في النصر على القوم الكافرين النصر على الشيطان، فإنَّ الشيطان كافر، قال الله تعالى: {إلَّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين}؛ ويدخل في ذلك النصر على كفار الإنس، وذلك حين قتالهم، فإنَّ الإنسان إذا لم ينصره الله عليهم فإنَّه لا ناصر له، كما قال الله تعالى: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}.

قال أبو زهرة: طلب النصر على الكافرين، وهو غاية القتال؛ لأنَّ الانتصار عليهم رفع لاعتدائهم، وتمكين لأهل الإيمان في الأرض، ومنع للفتنة في الدِّين، وإزالة الحواجز التي تحول بين النبي ودعوته، وذلك نصر لحقِّ الله تعالى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ هؤلاء الرِّبِّيِّين الذين قاتلوا مع النبي كملت منهم الأفعال والأقوال، الأفعال: {فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا}؛ الأقوال: أنَّهم لجئوا إلى الله عز وجل بسؤال مغفرة الذنوب والإسراف في الأمر لأنَّهم يعلمون أنَّ ما أصابهم إنَّما هو بسبب الذنوب.

٢- أنَّه ينبغي للإنسان أن يدعوا الله تعالى بهذا الدعاء لاسيَّما عند ملاقاة الكفار حتى ينتصر عليهم: {ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين}.

٣- أنَّ الإنسان مفتقر إلى مغفرة الله؛ لقوله: {ربنا اغفر لنا}، ولو كان غنيًّا عنها ما سألها، ولكنَّه مفتقر إليها غاية الافتقار حتى إنَّ النبي ﷺ لمَّا حدَّث أصحابه بأنَّه لن يدخل الجنة أحدٌ بعمله قالوا: ولا أنت؟ قال: ((ولا أنا إلَّا أن يتغمدني الله برحمته)).

٤- أنَّ الإنسان لا يخلوا من الإسراف على نفسه إمَّا في غلو وإمَّا في تقصير؛ وجه ذلك أنَّ سؤالهم الله أن يغفر لهم الإسراف يدلُّ على وجود هذا الشيء؛ وأنت إذا تأمَّلت نفسك وجدت أنَّك لن تخلو من الإسراف.

٥- أنَّ الإنسان مفتقر إلى تثبيت القدم من الله عز وجل؛ لقوله: {وثبِّت أقدامنا}، وقد ذكرنا أنَّ هذا يشمل ثلاثة مواطن: عند مواجهة الأعداء، وعند الشبهات، وعند الشهوات.

٦- أنَّ الله إذا لم ينصرك على عدوِّك فإنَّك لن تنتصر؛ لقوله: {وانصرنا على القوم الكافرين}، فإن قلت: هل هذا يعارض أمر الله عز وجل باتِّخاذ ما نستطيع أو بإعداد ما نستطيع للأعداء من القوة؟

فالجواب: لا؛ لأنَّك إذا سألت الله شيئًا فإن المطلوب منك أن تسعى في حصوله وإيجاده؛ ولهذا لو سألت الله الجنة فالمطلوب منك أن تعمل لها، لا أن تقول: اللهم إنِّي أسألك الجنة وتترك العمل؛ كذلك إذا سألنا الله أن ينصرنا على القوم الكافرين فإنَّ علينا أن نفعل من الأسباب ما نستطيع، سواء كانت هذه الأسباب معنويَّة أو ماديَّة.

فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {١٤٨}

قال ابن العثيمين: ثمَّ قال الله تعالى مُبَيِّنًا ما ترتَّب على حسن حالهم ومقالهم: {فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة}، {آتاهم}: بمعنى أعطاهم؛ و(أتاهم): بمعنى جاءهم؛ (أتى): بغير مد بمعنى جاء، و(آتى): بالمد بمعنى أعطى؛ وهنا المراد الثاني {فآتاهم الله ثواب الدنيا}: أي أعطاهم الله؛ وآتى تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر لأنَّها من باب كسا وأعطى؛ المفعول الأول هنا الهاء في {آتاهم}؛ والثاني: ثواب؛ {فآتاهم الله ثواب الدنيا}: أي جزائها، وذلك بالنصر على أعدائهم والغنيمة فيمن تحلُّ له الغنيمة؛ ومعروف أنَّها لا تحلُّ الغنيمة إلَّا لهذه الأمَّة؛ لكنَّ المراد النصر على الأعداء والعزَّة والغلبة عليهم.

{وحسن ثواب الآخرة}، ولم يقل: (ثواب الآخرة)؛ بل قال: {حسن}، لأنَّ ثواب الآخرة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ وليس ثوابًا مكافئةً فقط؛ إذ لو كان ثوابًا مكافئةً فقط لكانت الحسنة بمثلها؛ لكنَّه ثواب حسن وفضل؛ ولهذا قال: {وحسن ثواب الآخرة}، هذا وجه؛ الوجه الثاني: أنَّه لم يعبِّر بثواب الدنيا بالحسن لأنَّ الدنيا مهما كانت

فهي دار شقاء وعناء وكدر، لا يمكن أن يخلو صفوها من كدر؛ ولهذا لم يقل: (حسن ثواب الدنيا)؛ إذ أنَّه في الحقيقة ليس له حسن، وهو وإن كان حسنًا فهو حسن نسبي، وإلَّا ففيه حسن لاشك: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة}، لكنَّه أمر نسبي، حتى المنعمون بالنِّعمة تجدهم أحيانًا يأتيهم ما ينقص هذه النِّعمة.

{وحسن ثواب الآخرة}: يعني يوم القيمة، وذلك برفعة الدرجات في جنات النعيم والنجاة من دركات الجحيم.

{والله يحبُّ المحسنين}: يعني أنَّهم هم محسنون فأحبَّهم الله عز وجل؛ وكان من مقتضى محبَّته لهم هذا الثواب الحاصل في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: {يحب}: (المحبة) صفة من صفات الله الحقيقية؛ فهو يحب عز وجل حقيقة، وليس محبته بمعنى الثواب أو الجزاء كما قاله بعض أهل التحريف الذين ينكرون من الصفات ما ينكرون ومنها المحبة، ويقولون: إنَّ الله لا يُحِبُّ بل ولا يُحَبُّ؛ وتعليلهم أنَّ الحب لا يكون إلَّا بين متجانسين مخلوق ومخلوق؛ ولكن نقول لهم هذا باطل؛ فالحب قد يكون بين شيئين متباعدين، ومنه قول الرسول ﷺ: ((أحد جبل يحبنا ونحبه))، وهو جماد؛ ومن الأشياء المحسوسة الملموسة أنَّ الإنسان يحب أثاثه وأمتعته ورواحله وسياراته ودوره، يحبها محبة ظاهرة ملموسة محسوسة، وهي ليست من جنسه بل هي من جنس آخر بل هي أيضًا دونه لأنَّها ملكه؛ فهذا التعليل الذين نفوا به صفة المحبة لله عز وجل تعليل باطل.

وقوله: {المحسنين}: يشمل المحسنين في عبادة الله والمحسنين إلى عباد الله؛ أمَّا المحسنون في عبادة الله فقد بين الرسول ﷺ كيف يكون الإحسان، فقال حين سأله جبريل عن الإحسان قال: ((أن تعبد الله كأنَك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك))، يعني أن تعبد الله تعالى طلبًا مع اليقين التَّام؛ فإن لم تصل إلى هذه الدرجة فلا أقل من الدرجة الثانية وهي أن تعبد الله هربًا، تعبده كأنَّه يراك فتهرب من عقابه لتقوم بطاعته؛ فالإحسان في الحقيقة يشير فيه الرسول ﷺ إلى أنَّه نوعان: إحسان بطلب؛ وإحسان بهرب؛ الأول: أن تعبد الله كأنَّك تراه فتطلبه وترغب الوصول إليه؛ والثاني: كأنَّه يراك فتخافه وتخشاه وتعظمه؛ والأول أكمل من الثاني؛ هذا هو القول الرَّاجح في معنى الحديث، وإن كان بعضهم يقول إنَّه مرتبة واحدة، وأنَّ المعنى إن لم تكن تراه فإنَّه يراك، قريب من المعنى الأول؛ فالجملتان قريبتان من الترادف؛ ولكن الصواب ما قلناه أوَّلًا.

وإذا كان يحب المحسنين فإنَّه يترتَّب على محبة الله سبحانه وتعالى أشياء كثيرة منها ما يكون في الدنيا ومنها ما يكون في الآخرة؛ فممَّا يكون في الدنيا أنَّ الله إذا أحب الإنسان سدَّد أعماله وخطواته وأقواله وأفعاله، كما جاء في الحديث الصحيح: ((من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه))، هذا من فوائد محبَّة الله.

ومن فوائد محبَّة الله عز وجل: تيسير فعل الطاعة وترك المعصية؛ وذلك لأنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئًا طلب الوصول إليه؛ فإذا كان يحبُّ المال طلب الوصول إلى المال بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك؛ إذا أحبَّ شخصًا طلب الوصول إليه بمصاحبته ومصادقته؛ إذا أحبَّ أي شيء فإنَّه يطلب الوصول إليه؛ فإذا أحبَّ الله العبد أحبَّه العبد؛ فطلب الوصول إليه.

ومن فوائد محبَّة الله للعبد: أنَّ الله تعالى يلقي في قلوب العباد محبَّته، كما قال الله تعالى: {إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا}، وجاء في الحديث: ((أنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا نادى جبريل إني أحبُّ فلانًا فأحبَّه، فيحبَّه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض فيكون مقبولًا عند الناس([1]))).

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية التي تتعلَّق بالجزاء بأعظم جزاء وهو محبَّته الكريمة، وأشار إلى أنَّ هؤلاء الرَّبَّانيِّين قد استحقُّوه بسبب إحسانهم وإتقانهم لما عملوا وما جاهدوا فيه، وصبرهم في الشدائد والمكاره، وتلقِّيهم للأحداث بجنان ثابت وقلب رابط.

وإنَّا نجد أنَّ الله تعالى وصف المؤمنين بثلاث صفات، وكلّ واحدةٍ منها قد استحقَّت جزاءً، فالوصف الأول أنَّهم شاكرون، فقال: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}؛ لأنَّ الشكر أوَّل أبواب الطاعة، والرَّغبة في الفداء؛ إذ هو الإحساس بحقِّ المنعم فيما أنعم به. والوصف الثاني هو الصبر؛ لأنَّ الإيمان الذي هو أوَّل ثمرات الشكر يقتضي ضبط النفس عن أهوائها ومنع الاضطراب في الصدمات والرِّضا بكلِّ شديدة من غير أنين، والصابرون يحبُّهم الله. والوصف الثالث الإحسان، وهو نتيجة للصبر، وهو أن تكون النفس كلُّها لله، تراقبه في كلِّ عمل تعمله، وكلِّ قول تقوله، وكأنَّها ترى الله، وقد قال النبي ﷺ ((الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك([2])))، وبذلك يكون ممَّن يحبُّهم الله، ولقد قال النبي ﷺ عن ربه في العبد الذي يحبُّه: ((إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها([3]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله سبحانه وتعالى أثاب هؤلاء الذين أحسنوا في مقالهم وفعالهم؛ بثواب الدنيا وثواب الآخرة.

١- **(قلت):** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. البخاري (٧٤٨٥)، مُسلم (٢٦٣٧)، وصَححه الإمام الألباني في المشكاة (٥٠٠٥)، والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ)).

٢- **(قلت):** البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

٣- **(قلت):** البخاري (٦٥٠٢).

٢- أنَّ رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ فهو يثيب الطائع ثوابين؛ ثواب في الدنيا وثواب في الآخرة، بخلاف العقوبة فإنَّ الله تعالى لا يجمع بين عقوبتين؛ فإذا شرع عقوبة في الدنيا على ذنب فإنه لا يعاقب به في الآخرة، الحدود يعني العقوبات كحدِّ الزنا والسرقة، أنَّها كفارة لأصحابها، وقال النبي ﷺ في المتلاعنين قال لهما: ((عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة[١]))، بل إنَّ الله تعالى قال: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}، فلن يجمع الله للإنسان عقوبتين على معصية، عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة؛ لكن يجمع له بين ثوابين في الطاعة، ثوابًا في الدنيا وثوابًا في الآخرة لأن رحمة الله سبقت غضبه.

٣- الإشارة إلى خفة شأن الدنيا بالنسبة للآخرة؛ تؤخذ من قوله: {ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة}، كأن الدنيا ليست بشيء حتى يكون فيها حسن كما قرَّرنا؛ ففيه إشارة إلى أنَّ العاقل ينبغي له أن يعتني بثواب الآخرة الذي هو الحسن.

٤- إثبات البعث والجزاء؛ لقوله: {ثواب الآخرة}.

٥- إثبات المحبَّة لله وهي صفة حقيقية ثابت لله على وجه اللائق به؛ وكذلك الرضا ثابت لله؛ والفرح ثابت لله، والعجب ثابت لله، وهكذا جميع الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة يجب علينا أن نؤمن بها على أنَّها حقٌّ على حقيقتها، لأنَّ الله خاطبنا بالقرآن بلسان عربي مبين، ولم يأتي عن الصحابة ولا عن الأئمة أنهم حرفوا هذه النصوص عن ظواهرها؛ وهذا يدلُّ على أنَّهم أقرُّوا بها كما جاءت على ما هي عليه؛ وهذا مذهب السلف ومذهب أهل السنة والجماعة، وفيه الراحة والطمأنينة، لأنَّ الإنسان إذا لاقى ربه وقد أثبت الصفة التي دلَّ عليه القرآن والسنة فإنه يوافيه بحجة؛ لكن إذا وافى ربه وقد حرف وقال معنى: {يحب المحسنين}: أي يثيبهم ليس له حجَّة عند الله؛ ونحن نتكلَّم دائمًا على أنَّ الذين أنكروا شيئًا من صفات الله بحجة عقلية أننا نجيبهم على سبيل الإجمال بأن نقول:

أوَّلًا: أنَّ هذا خلاف لطريق السلف، لأنَّ السلف لم يستدلوا بالعقل على إثبات الصفات أو نفيها.

ثانيًا: أنَّ العقل لا مجاله له في باب صفات الله؛ لأن صفات الله خبر محض، والأخبار المحضة ليس للعقول فيها مجال إطلاقًا. ثم لو قال قائل: ألا يمكن أن نقيس الغائب على الشاهد؟

قلنا: لا يمكن القياس؛ لأنَّ الله نفى هذا القياس ونهى عنه؛ فقال: {ليس كمثله شيء}، وقال: {ولا تضربوا لله الأمثال}، أنا ربما أقيس شخصًا لم أعلم به على شخص أعلم به وأشاهده، لكنني لا يمكن أن أقيس الخالق على المخلوق لأنَّ الله نفى ذلك بل نهى عنه.

١- (قلت): مُسلم (١٤٩٣)، وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٣٠٥)، والحديث بتمامه: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَاعن بَين رجل وَامْرَأَته فانتفى مِنْ وَلَدِهَا فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَأَلْحَقَ الْوَلَدَ بِالْمَرْأَةِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي حَدِيثِهِ لَهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَعَظَهُ وَذَكَّرَهُ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ثُمَّ دَعَاهَا فَوَعَظَهَا وَذَكَّرَهَا وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَن من عَذَاب الْآخِرَة.

ثالثًا: أن نقول لهم إن نفيكم لما نفيتم بحجة أن العقل لا يدلُّ عليه غير صحيح في الاستدلال عند العقلاء؛ وذلك لأنَّنا لو قدرنا أنَّ العقل لا يدلُّ عليه فقد دلَّ عليه السمع؛ ونفي أو انتفاء الدليل المعيَّن لا يستلزم انتفاء المدلول؛ يعني إذا قلنا هذا لا يدلُّ على كذا قلنا لكن عندنا دليل آخر، هب أنَّ العقل لا يدلُّ على ما نفيتم من الصفات لكن السمع دلَّ عليه؛ وهذا كما أنَّه في الأمور المعقولات فهو أيضًا في الأمور المحسوسات، لو قلت إنَّ هذا الطريق لا يؤدِّي إلى مكة، هل معناه أنَّه لا يمكن أن نصل إلى مكة؟ يمكن أن نصل من طريق آخر؛ فهب أنَّ العقل لا يدلُّ على ثبوت ما نفيتم فإنَّنا نستدلُّ عليه بالسمع.

رابعًا: أن نقول: بل إنَّ العقل يدلُّ عليه وأَولى ممَّا ذكرتم، يعني أنَّا نثبت ما نفيتم بدلالة العقل نثبته بدلالة العقل، إثباتًا على وجه يكون أظهر ممَّا ذكرتم؛ فمثلًا هم يقولون: إنَّ الإرادة ثابتة لله دل عليها العقل، والكلام هنا مع الأشعرية، يقولون: إنَّ الإرادة ثابتة لله عز وجل لأنَّ العقل دلَّ عليها؛ ما هو دلالة العقل على الإرادة؟ التخصيص، يعني كون السماء سماء والأرض أرضًا هذا تخصيص؛ ما الذي خصَّص أن يكون السماء سماءً والأرض أرضًا؟ الإرادة، أراد الله أن يكون السماء سماء فكانت، وأن تكون الأرض أرضا فكانت؛ إذاً هذا دليل عقلي على ثبوت الإرادة لله؛ نقول: أنتم نفيتم الرحمة ونحن نستدلُّ لها بالعقل، ألم تكن نعم الله عليكم لا تحصى؟ سيقولون: بلى لا تحصى؛ إذًا هل هي آثار رحمة أو آثار غضب؟ آثار رحمة؛ ولهذا حتى العامي إذا جاء المطر وانتشر الخصب يقول: هذه من رحمة الله، من رحمة الله أنَّ الله نزل علينا المطر وانتشر الخصب، بل يقولون: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فيثبتون الرحمة لله بدليل عقلي؛ كذلك أيضًا الرضا يمكن أن نثبته بدليل العقل؛ إثابة الطائعين تدل على رضا الله عنهم؟ أو على غضبه؟ لو غضب لانتقم لكنه رضي فأثاب؛ فهذا دليل عقلي. فصار الذين ينكرون ما ينكرون من الصفات بحجة أنَّ العقل لا يدلُّ عليها محجوجون من أربعة أوجه.

٦- الحثّ على الإحسان؛ لأنَّ الإحسان سبب لغاية، هي غاية كلِّ إنسان وهي محبَّة الله؛ فإذا كان سببًا لهذه الغاية العظيمة كان مأمورًا به محثوثًا عليه؛ ويدلُّكم على أنَّ محبَّة الله هي الغاية أنَّ الله قال في كتابه: {قل إن كنتم تحبُّون الله فاتَّبعوني يحببكم الله}، ولم يقل: (فاتَّبعوني تصدقوا فيما ادَّعيتم)؛ بل قال: {يحببكم الله}، لأنَّ الثمرة العظيمة هي أنَّ الله يحبُّ، مع أنَّنا نضمن أنَّ من أحبَّ الله حقًّا فسيحبَّه الله؛ لأنَّ الله يقول: ((من أتاني يمشي أتيته هرولةً، ومن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، ومن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا[1]))، فإذا كانت محبَّتك لله صادقة فإنَّ محبَّة الله لك مضمونة، لكن البلاء كلَّ البلاء أن تدَّعي المحبَّة وليست محبَّتك صادقة؛ هذا البلاء، يكون قلبك مشغولًا بمحاب أخرى كمحبَّة المال، محبَّة الأولاد، محبَّة القصور، محبَّة المراكب، محبَّة النساء، وهكذا؛ هذه المحاب تضايق محبَّة الله في القلب، إلَّا إذا كانت تابعة لمحبَّته

١- (قلت): مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. البخاري (٧٤٠٥)، مُسلم (٢٦٧٥). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)).

انتبهوا لهذا يعني لا تقولوا: أنت تصدُّ علينا باب محبَّة ما جبلت النفوس على محبَّته؛ نقول: محبَّة هذه الأشياء إذا كانت تابعة لمحبَّة الله صارت من محبَّة الله؛ لو أحبَّ المال من أجل أن ينفقه في سبيل الله فهذه المحبَّة لا تزاحم محبَّة الله بل تزيده؛ لو أحبَّ النساء من أجل تكثير الأمَّة، ومن أجل تحصين فرجه، ومن أجل الفوائد التي رتِّبت على النكاح، كان هذا من محبَّة الله؛ لكن مجرَّد قضاء الوطر تجده يتعلَّق قلبه بكلِّ امرأة، ما يستقرُّ على شيء؛ حينئذ يكون هناك مزاحم فتضعف محبَّة الله سبحانه وتعالى في القلب؛ المهم أنَّ الشأن كلَّ الشأن هو أنَّ الله يحبُّ هذا، هو المهم.

٧- إثبات الصفات الاختيارية لله عز وجل، يعني التي تتعلَّق بمشيئته؛ فإذا علَّق الله الصفة على فعل علمنا أنَّها من الصفات الاختيارية المتعلِّقة بالمشيئة؛ كيف ذلك؟ لأنَّ الإحسان فعل العبد، وفعل العبد حادث؛ إذا كان الإحسان سببًا لمحبَّة الله وهو فعل العبد وهو حادث لزم من ذلك ثبوت المحبَّة المعلَّقة بالإحسان؛ والصفات الاختيارية أيضًا أنكرها الأشاعرة ونحوهم، وقالوا: لا يمكن أن يقوم بالله صفات حادثة اختيارية؛ لأنَّنا لو أثبتنا لله صفات حادثة لزم قيام الحوادث به، والحوادث لا تقوم إلَّا بالحادث، والله عز وجل أزلي أبدي؛ فيقال: ويلكم، هذا كذب أنَّ الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث؛ أليس الله يقول: {ويفعل الله ما يشاء}؟ والله يفعل ما يريد؟ أليس الإنسان منَّا إرادته ليست تابعة لوجوده؛ بل للإنسان إرادات تتجدَّد ولا يلزم أن يكون هذا المريد لم يوجد إلَّا عند وجود الإرادة؛ بل هو سابق عليها؟ نحن سابقون على إرادتنا، يعني: أنَّ الإنسان موجود قبل أن نريد؛ فلا يلزم تساوي الإرادة مثلًا أو الأفعال الاختيارية مع الوجود؛ فالإنسان يفعل أفعالًا كثيرة متجدِّدة لم تكن معه حين وجوده؛ فكذلك الرب عز وجل يفعل ما يريد أفعالًا لم تكن معه سبحانه وتعالى أزليَّة بل هي حادثة؛ لكن قد تكون حادثة النوع وقد تكون حادثة الآحاد، ويكون نوعها أزليًّا؛ فالكلام مثلًا أزلي لم يزل الله سبحانه وتعالى متكلِّمًا؛ لكن آحاده حادثة لاشك: {إنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن}، ونحن نعلم أنَّ مرادات الله عز وجل تقع: {كلَّ يوم هو في شأن}، يحيي ويميت ويعزُّ ويذلُّ ويرزق ويمنع، وكلَّ هذه الأشياء بإرادة مقرونة بالقول: {إنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون}، ومع ذلك لا يلزم منه أن يكون سبحانه وتعالى حادثًا؛ فتعليلهم هذا النفي الذي سلكوه تعليل عليل، والله لو قلنا إنَّ الله لا يفعل، لو قام به فعل لزم أن يكون حادثًا؛ إذًا هو عاجز عن الفعل؛ وهذا نقص وأي نقص؛ فانظر كيف كان أهل الباطل يفرُّون ممَّا يعتقدونه باطلًا فيقعون في شيء هو أبطل منه وأشرَّ منه، مع تطاولهم على تحريف النصوص وتعطيل الله عز وجل عمَّا وصف به نفسه؛ فهم محرِّفة معطِّلة واقعون في شرِّ ممَّا فروا منه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ {١٤٩}

قال ابن العثيمين: صدر الله هذه الآية بالنِّداء، والتَّصدير بالنِّداء يدلُّ على العناية بما سيوجَّه للمخاطب؛ وذلك لأنَّ النداء يفيد التنبيه، ولا ينبِّه الإنسان إلَّا لشيءٍ مهتم به؛ فإذا وجَّه الله الخطاب أو إذا صدر الخطاب بالنداء فهو دليل على العناية به

لأهميَّته؛ ثمَّ وجِّه إلى العباد باسم الإيمان: {يا أيها الذين آمنوا}، والغرض من ذلك هو أوَّلًا: الإغراء والتشجيع على قبول ما يلقى؛ لأنَّ الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على قبول ما أمره الله به وعلى ترك ما نهى الله عنه؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك، فإمَّا خير تؤمر به وإمَّا شرٌّ تنهى عنه).

ويفيد أيضًا فائدة ثانية: وهي أنَّ قبول المذكور من مقتضيات الإيمان، كما أنَّك لو وجَّهت إلى شخص كريم وقلت له: (يا أيها الكريم أعط الفقير وأعن المحتاج)، فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ إعطاء الفقير وإعانة المحتاج من مقتضى كرمه؛ إذًا قبول ما يأتي بعد هذا الخطاب يكون هذا من مقتضى الإيمان.

الفائدة الثالثة: أنَّ عدم قبوله نقص في الإيمان؛ لأنَّه إذا وجِّه الخطاب إلى إنسان بلفظ الإيمان ولكن لم يمتثل فهذا نقص في إيمانه، لأنَّ ما يأتي بعد النداء ب{يا أيها الذين آمنوا ... } إمَّا مأمور به أو منهي عنه أو مخبر به؛ فترك المأمور نقص في الإيمان، والوقوع في المحظور نقص في الإيمان، والتكذيب بالخبر نقص في الإيمان.

نستمع إلى هذا الخبر من الله عز وجل، خبر من هو عليم بكلِّ شيء: {إن تطيعوا الذين كفروا}، و{إن} هنا شرطية، وفعل الشرط: {تطيعوا} مجزوم بحذف النون، والواو فاعل لأنَّها من الأفعال الخمسة؛ وأمَّا جواب الشرط فهو قوله: {يردُّوكم على أعقابكم}، وهو مجزوم بحذف النون، والواو فاعل؛ قوله: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا}، إذًا هناك أمر موجه من الكفار إلى المؤمنين؛ لأنَّ الطاعة تقابل الأمر؛ أو نهي موجه من الكافرين إلى المؤمنين، يأمرونهم بالفحشاء وينهونهم عن المعروف؛ فإن أطعتموهم في ذلك فالجواب: {يردُّوكم على أعقابكم}؛ وقوله: {إن تطيعوا الذين كفروا}، عامة يشمل اليهود والنصارى والمشركين والملاحدة الذين ليس لهم دين ولا يتعبَّدون بشيء؛ أي واحد من الكفرة إذا أمرك بشيء وأطعته فإنَّه يردُّك على أعقابك فتنقلب خاسرًا؛ وقوله: {إن تطيعوا الذين كفروا}: أي فيما يتعبَّد به لله؛ أمَّا في المسائل الأخرى كمسائل الصناعة مثلًا فإنَّه لا تدخل في الآية لاشك؛ لو أنَّ مهندسًا من الكفار أمرك أن تصنع كذا لتكون النتيجة كذا فإنَّه لا يدخل في الآية؛ إنَّما يقصد به ما يكون على سبيل التعبُّد، يأمرك بالفحشاء، شرب الخمر، بالسرقة، بسوء الأخلاق؛ أو ينهاك عن المعروف، ينهاك عن الصلاة، ينهاك عن الإخلاص لله، وما أشبه ذلك.

وقوله: {يردُّوكم على أعقابكم}: ال{أعقاب} جمع عقب، وهو مؤخِّر القدم، ويقال له العرقوب، يعني يجعلونكم تمشون على الخلف؛ ومعلوم أنَّ الذي يمشي على الخلف سوف يقع في الحفر، ويطأ الشوك والحصى؛ وهذا قريب من قوله تعالى: {أفمن يمشي مكبًّا على وجهه أهدى أمن يمشي سويًّا على صراط مستقيم}؛ فهنا: {يردُّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين}، الانقلاب يقتضي التحوُّل من حال إلى حال؛ ولهذا يقال: انقلب في فراشه من الجنب الأيمن إلى الجنب الأيسر؛ إذًا هناك تحوُّل من حال إلى أخرى إذا أطعنا هؤلاء الكفار؛ وقوله: {خاسرين}، هذه حال من الواو في قوله: {تنقلبوا}: أي تكون في خسارة بعد أن كنتم في ربح؛ لأنَّ الإيمان ربح كما قال تعالى: {والعصر إنَّ الإنسان لفي خسر}: أي كلَّ إنسان؛ ولهذا {أل} هنا للعموم، أي: إنَّ كلَّ إنسان لفي خسر: {إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصبر}، الذين

اتَّصفوا بهذه الصفات الأربعة هم الرابحون ومن سواهم فهو خاسر عصره؛ وهذه الحكمة من أنَّ الله أقسم بالعصر دون غيره لأنَّ العصر هو خزائن الأعمال؛ فإذا لم يقم الإنسان بهذه الصفات الأربعة خسر عصره، وكان عمره خسارة؛ {فتنقلبوا خاسرين}، لأنَّكم تحوَّلتم من الإسلام إلى الكفر؛ وفي آيةٍ أخرى سبقت: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين}، فهنا قال: {الذين كفروا}، وهناك قال: {فريقًا من الذين أوتوا الكتاب}، لأنَّ الذين أوتوا الكتاب، بعضهم فيه خير كما قال تعالى: {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمَّة قائمة}، وهذا من بلاغة القرآن، لما قال: {إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب}، قال: {يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين} فريقًا منهم؛ أمَّا الكفار فكلُّ الكافرين يريدون منَّا أن نكفر وأن ننقلب على أعقابنا خاسرين.

قال أبو زهرة: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نتيجة إطاعة الكافرين في أيِّ عصرٍ من العصور إن كان هناك احتمال لذلك. فذكر في جواب الشرط نتيجتين، كلتاهما مترتِّبة على الأخرى، أولاهما: أشار إليها بقوله سبحانه: {يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}، والثانية المترتِّبة عليها: أشار إليها بقوله عز من قائل: {فَتَنقَلِبوا خَاسِرِينَ}.

ولنتكلم بكلمة موجزة في كلِّ واحدة من هاتين النتيجتين المتلازمتين اللتين يقتضي وجود إحداهما وجود الأخرى:

فالنتيجة الأولى: هي ردُّهم على أعقابهم، معناها أن يرجعوا إلى موضع الذِّلة الذي كانوا فيه قبل أن يؤذن لهم بالجهاد أو يرجعوا إلى ما كانوا عليه في غير انتظام وفي اضطراب، والمضطرب دائمًا لَا يملك زمام نفسه، والأعقاب جمع عقب، وهو مؤخِّر القدم، والتعبير بـ{يَرُدُّوكم عَلَى أَعْقَابِكُمْ}، فيه إشارات إلى أمور ثلاثة، أولها: أنَّ هذا مطلب للكافرين، فإن أطعتموهم فقد حقَّقتم لهم مقصدهم، وهو أن يردُّوكم، ولذا أسند الرَّد إليهم، ولم يقل ارتددتم؛ وثانيها: أنَّ طاعتهم التي يترتَّب عليها ما ذكره سبحانه هي أقصى الهزيمة وهي الكبوة التي لا قيام بعدها، ولذلك عبَّر عن هذا بالرجوع على الأعقاب، فهو رجعة إلى الوراء وليس وثبة إلى الأمام، والأمر الثالث الذي يشير إليه النَّص هو أنَّ زمام المؤمنين يكون نهائيًّا بأيدي الكافرين إذا أطاعوهم، وهذا هو ما آل إليه أمر المسلفين في العصور الأخيرة، وفي هذا تذكرة لمن يخشى.

والنتيجة الثانية: هي الانقلاب خاسرين، والتعبير بالانقلاب في قوله سبحانه: {فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ} يفيد أنَّ إطاعة الكافرين يكون حتمًا فيها تغيير حال أهل الإيمان، ولكنَّه تغيير هو انقلاب، وجعل أعلى ما فيهم أسفل، فهو نكسة تصيبهم، ويعزُّ عليهم من بعد أن يعودوا مستقيمين يضعون أغلى ما فيهم وهو الإيمان في موضعه، وإنَّ ذلك الانقلاب تلابسه لَا محالة الخسارة المؤكَّدة التي لا احتمال فيها؛ إذ يخسر المؤمنون إيمانهم، ويخسرون من وراء ذلك الآخرة، وينطبق عليهم قوله تعالى: {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، وإنَّ أولئك الذين يستخذون للكافرين ويسايرونهم، بل يطيعونهم وينتقلون من العزَّة والكرامة إلى الذِّلَّة والمهانة ويعتقدون القوة في الكافرين فيعطونهم الولاية، ينسون الله تعالى وولايته، ولذلك قال سبحانه مطمئنًا المؤمنين الصادقين الذين لَا يرضون بولاية الكافرين: {بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إثبات ولاية الله للمؤمنين؛ لأنَّه قال: {يا أيها الذين آمنوا}.

٢- فضيلة الإيمان، حيث وجَّه الخطاب للناس بوصف الإيمان في مقام الإرشاد والتَّنبيه؛ وأنَّ الإيمان مقتض للامتثال.

٣- أنَّه لا يجوز لنا أن نطيع الكافرين؛ لأنَّ طاعتهم وسيلة إلى الكفر: {إن تطيعوا الذين كفروا يردُّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين}.

٤- وجوب الحذر من الكفار؛ وأنَّهم لا يمكن أن يدبِّروا أمرًا فيه مصلحة للمسلمين والإسلام أبدًا، لا يمكن مستحيل حتى الحلفاء الذين يكون بينهم وبين المسلمين حلف لا يمكن أن يحالفوا المسلمين إلَّا لمصلحتهم قطعًا؛ فخزاعة كان بينها وبين رسول الله ﷺ حلف في صلح الحديبية لكن لمصلحتهم.

٥- أنَّ طاعة الكافر نتيجتها الحتمية الكفر؛ لقوله: {يردُّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين}؛ كيف ذلك؟ الكفار يأخذوننا شيئًا فشيئًا، يريدون منَّا أشياء نطيعهم فيها، ولا يقفون عند هذا الحدِّ بل يدخلون أشياء، حتى ننقلب على أعقابنا؛ وليس معنى ذلك أن نسجد لهم ونركع لهم، لا؛ إذا خرج الإنسان من دينه كفر؛ ولهذا يذكر عن بعض رؤسائهم أنَّه قال: نحن نسعى للتنصير لا من أجل أن نخرج المسلم من دينه إلى النصرانية لأنَّ دين النصرانية معروف، بعيد عن الفطرة، وأعني بدين النصرانية الذي هم عليه الآن؛ أمَّا ما جاء به المسيح فهو حقٌّ؛ لكن ما جاء به المسيح قد انتهى ونسخ بدين الإسلام؛ يقول: نحن لا نريد أن نخرج المسلم من دينه إلى النصرانية لكن يكفينا أحد أمرين؛ إمَّا أن نخرجه من دينه إلى لا دين، ويكون بهيميًّا ليس همُّه إلَّا بطنه وفرجه ومتعه؛ وإمَّا أن نشكِّكه في الدِّين؛ ومعلوم أنَّ الإيمان لا يصحُّ مع الشك، الإيمان يقين، إذا كان عند الإنسان أدنى تردُّد فليس بمؤمن؛ لابدَّ من إيمان؛ لا إيمان مع التردُّد؛ فهم يقولون يكفي هذا، يكفي أن نخرجه إلى أن يكون بهيميًّا أو متردِّدًا شاكًّا حائرًا؛ هذه نتيجة كفرية، وهذه نتيجة كفرية.

٦- أنَّ الكفر خسارة؛ لقوله: {فتنقلبوا خاسرين}؛ وإذا كان الكفر خسارة فالإيمان ربح؛ ولهذا لا نجد أحدًا أربح من المؤمن في هذه الدنيا حتى لو كان فقيرًا؛ ولو كان وحيدًا ليس عنده أموال ولا بنون فإنَّه أربح من الكافر؛ لأنَّ الكافر قد خسر الدنيا والآخرة، في الحقيقة أنَّ الكافر لم يستفد من دنياه، وإنَّما يعيش كما تعيش البهائم، كما قاله أعلم العالمين قال: {والذين كفروا يتمتَّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام}، سبحان الله مثال منطبق تمامًا: {يتمتَّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم}، نتيجة سيئة: {والنار مثوًى لهم}، يخرجون من الدنيا التي نعموا فيها إلى نار جهنم، وحينئذ يكون خروجهم أشدُّ وأصعب بخلاف المؤمنين يخرج من الدنيا ونكبها وتنغيصها إلى دار النعيم، كما قال الله تعالى: {الذين تتوفَّاهم الملائكة طيِّبين يقولون سلام عليكم}، عند موته؛ {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون}، وهذه الآية تدلُّ على نعيم القبر؛ لأنَّه قال:

{ادخلوا الجنة}، الآن من موتكم؛ وقد ثبت في الحديث الصحيح: ((أنَّه يفسح له في قبره مدَّ البصر ويفتح له باب إلى الجنة ويأتيه من روحها ونعيمها([١]))، كما هو معروف.

٧- التحذير الشديد من طاعة الكفار وولايتهم؛ ومع الأسف الشديد أنَّا نحن اليوم قد هان علينا الولاء والبراء الذي يجب أن يكون من المؤمن، وهو الذي يذوق به حلاوة الإيمان مفقود إلَّا ممَّن شاء الله؛ كان الناس أدركناهم إذا ذكر النصراني اقشعر جلده، اقشعر جلده؛ أعوذ بالله نصراني أو يهودي؛ الآن يقال إنَّ بعض الناس من المسلمين يصف النصراني بالأخوة، أخونا فلان؛ كيف أخونا فلان؟ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ماذا قال هو وقومه؟ {إنَّا بُرَآءُ منكم وممَّا تعبدون من دون الله}، تبرَّؤا منهم قبل أن يتبرَّؤوا من الأصنام: {إنَّا بُرَآءُ منكم وممَّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا}، إلى متى؟ {حتى تؤمنوا بالله وحده}، والله عز وجل يقول: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه}، هذه الأسوة الحسنة أن نتبرَّأ من الكافرين، أن نبغضهم، أن نعتقد أنَّهم أعداء مهما ألانوا لنا القول وزخرفوا لنا، فهم أعداءنا، والله لن تعود هذه العداوة ولاية أبدًا إلى يوم القيمة؛ إذًا يجب علينا أن نحذر؛ وهنا نوجِّه الخطاب إلى ولاة الأمور وإلى عامَّة الناس بالتحذير من الكفار وولايتهم، وننصحهم بأن يتَّخذوهم أعداءً حقيقيِّين كما هو الواقع؛ كذلك أيضًا الرعيَّة يجب عليهم أن يبتعدوا عن الكفار ولاسيَّما في هذه الجزيرة، لأنَّ هذه الجزيرة لها شأن خاص في إبعاد الكفار عنها، قال النبي ﷺ في مرض موته عند فراقه الدنيا يوصي أمَّته يقول: ((أخرجوا المشركين من جزيرة العرب([٢]))؛ ويقول: ((لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلَّا مسلمًا([٣]))، فالأول في الصحيحين والثاني في مسلم؛ ويقول فيما صح عنه أيضًا: ((أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب([٤]))، وننصح إخواننا العامَّة بأن يأخذوا بعين الانتباه هذه الوصيَّة من الرسول ﷺ، وأن لا يحضروا لهذه البلاد أحدًا من اليهود أو النصارى أو غيرهم من الكفار إلَّا للضرورة القصوى في حدود معيَّنة، يعني بمعنى: أن لا نحضرهم على سبيل الاستيطان المؤبَّد؛ بل يحضرونهم عند الضرورة وبقدر الضرورة، مدَّة معيَّنة لا على سبيل الاستيطان المؤبَّد.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣٣٩٤)، والحديث بتمامه: ((أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا الإنسان دفن فتفرق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق فأقعده قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فيقول: صدقت ثم يفتح له باب إلى النار فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك فأما إذ آمنت فهذا منزلك فيفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض إليه فيقول له: اسكن ويفسح له في قبره، وإن كان كافرا أو منافقا يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فيقول: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت به فإن الله عز وجل أبدلك به هذا ويفتح له باب إلى النار ثم يقمعه قمعة بالمطراق يسمعها خلق الله كلهم غير الثقلين)). فقال بعض القوم: يا رسول الله ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هبل عند ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: (({يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت})).

٢- (قلت): البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧).

٣- (قلت): مسلم (١٧٦٧).

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع وزيادته (٢٣٢). وفي الصحيحة (١١٣٤) بلفظ: ((لئن عشت لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أترك فيها إلا مسلمًا)).

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ {١٥٠}

قال ابن العثيمين: {بل الله مولاكم}: {بل} هنا للإضراب الإبطالي؛ لكنه إبطال شيء مقدَّر، لأنَّ طاعتنا للكفار تكون لرجاء أو خوف، يعني نحن إذا أطعنا الكفار فإمَّا أن نطيعهم رجاءً وإمَّا أن نطيعهم خوفًا؛ رجاء أن ينصروننا أن يمدوننا بالمال وما أشبه ذلك؛ خوفًا أن يسلَّطوا علينا وأن يحاربونا ويقاتلونا؛ هنا حصل الإضراب تمامًا فقال: {بل الله مولاكم}: يعني لا تطيعوهم وتتولَّونهم فإنَّ لكم من هو خير من ولايتهم وهو الله؛ ولهذا كان هذا الإضراب إضرابًا إبطاليًّا بشيءٍ مقدَّر، إن تطيعوا الذين كفروا من أجل أن يكونوا لكم أولياء فإنَّكم سوف يردُّونكم على أعقابكم فتنقلبون خاسرين، ثم قال: {بل الله مولاكم}: إذا كان الله هو مولانا سبحانه وتعالى فإنَّنا لا يهمُّنا أحدٌ من الخلق؛ ما دمنا نؤمن بأنَّ الله مولانا بما معنا من الأوصاف التي نستحقُّ بها الولاية؛ لأنَّه ليس كلَّ إنسانٍ يقول: (إنَّ وليَّ الله) يكون الله وليُّه؛ لكن إذا كان الله مولانا بما معنا من الأوصاف التي نستحقُّ بها الولاية فإنَّنا لن يهمّونا أبدًا مهما كانوا من القوة، ومهما كانوا من الصناعة، ومهما كانوا من المال فإنَّهم لن يهمُّونا؛ لأنَّ الله عز وجل معنا، من يقول للشيء كن فيكون؛ ولكنَّ الله عز وجل يأمرنا أن نقاتل بأيدينا؛ فإذا أعيتنا القدرة مع القيام بما يجب حينئذ جاءنا نصر من الله لا قبل للبشر به؛ وهذه حقيقة يجب أن نفهمها؛ نحن مأمورون بأن نُعِدَّ العُدَّة وأن نقاتل؛ لكن إذا جاءنا ما لا طاقة لنا به حينئذ يأتي نصر من الله ليس لنا به طاقة ولا لغيره؛ وله شواهد في التاريخ، فموسى عليه الصلاة والسلام لمَّا خرج من مصر وكان فرعون قد جمع له جميع أهل المدائن، كلُّ المدن جمعهم من أجل القضاء على موسى وقومه؛ وقال: {إنَّ هؤلاء لشرذمة قليلون}، ليخفِّف شأنهم عند قومه حتى يستعدوا ويهمُّوا بالقضاء عليهم؛ وصلوا إلى البحر؛ هل للإنسان طاقة بالبحر؟ لا، ليس له طاقة؛ ولهذا قال قومه: {إنَّا لمدركون}؛ لأنَّ البحر أمامهم وفرعون وجنوده خلفهم كيف يفتكون؛ قال: {كلَّا إنَّ معيَ ربِّي سيهدين}، فأمره الله عز وجل أن يضرب البحر، فضربه مرة واحدة بعصا تحمل باليد، مرة واحدة فقط، فانفلق اثني عشر طريقًا يبسًا بلحظة؛ هذه الأرض الرطبة التي هي وحل وطين صارت بلحظة يبسًا؛ وهذا الماء السيال صار كلُّ فرق منه كالطود العظيم كالجبل، جبال واقف ليست سيَّالة؛ حتى إنَّ بعض العلماء يقول: إنَّ الله جعل في هذه الكتل المائية فرجًا حتى ينظر بنو إسرائيل بعضهم إلى بعض؛ لأنَّ الإنسان في وسط الماء، المياه على يمينه ويساره ويخشى أنَّ أصحابه قد غرقوا، فجعل الله لهم فرجًا في هذه الأطواد ينظر بعضهم إلى بعض بلحظة؛ هذه لا طاقة للبشر بها؛ لكن من كان الله مولاه فهو منصور؛ خرجوا من البحر ناجين، ثمَّ دخل فرعون وقومه، فلمَّا دخلوا في البحر وتكاملوا داخلين أمر الله البحر أن ينطبق بلحظة فانطبق، بلحظة أغرقهم؛ وكان فرعون قد أرعب بني إسرائيل فأخرجه الله عز وجل لهم جسدًا ينظرون إليه: {فاليوم ننجِّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية}، فاطمئن أنَّه هلك.

وفيما يذكر من تاريخ هذه الأمَّة أن العلاء بن الحضرمي لمَّا وصل إلى البحرين وجد البحر أمامه، وليس معه سفن، فدعا الله عز وجل فعبر الماء على أقدامه، والخيول والإبل كلُّها تمشي على الماء كأنَّما تمشي على صفا من الحجر؛ هذه ليس لنا بها

طاقة. وكذلك أيضًا ما يذكر عن سعد بن أبي وقاص عند فتح المدائن أنَّه وصل إلى دجلة وهي تقذف زبدًا من قوة الجريان، والفرس عبروها بسفنهم وجسورهم وكسروا الجسور وأغرقوا السفن، ولم يبق للمسلمين شيء يعبرون به؛ فقال سعد بن أبي وقاص لسلمان الفارسي: أعطنا من آرائك؛ لأنَّه رضي الله عنه كان ذا رأي في الحرب، وهو الذي أشار بالخندق على المدينة في عام الأحزاب؛ فقال: والله لا أرى حيلة في هذا، بحر بين أيدينا وليس معنا سفن ولا جسور؛ ولكن دعني أنظر في القوم إن كانوا على ما ينبغي وهم أهل للنُّصرة فليس بنو إسرائيل بأَولى منَّا من النُّصرة؛ والله عز وجل قد فلق لهم البحر وعبروا؛ فذهب فوجد القوم فرسان في النهار ورهبان في الليل ركوعًا وسجودًا، وفي النهار يصلحون معدات الحرب ويستعدون؛ فرجع إليه بعد ثلاث، وقال: إنِّي وجدت القوم على أحسن ما يرام؛ ولكن توكَّل على الله؛ فنادى سعد بالرحيل وأنَّه سوف ينفذ البحر، وقال: إنِّي مكبِّر ثلاثًا، فإذا كبرت الثالثة فخوضوا البحر باسم الله؛ ففعلوا، فيقال سبحان الله إنَّهم عبروا كلُّهم بخيلهم ورجلهم وإبلهم، حتَّى إنَّه بعض المؤرِّخين ذكر أنَّ الخيل إذا تعبت أنشأ الله لها ربوة تقف عليها وتستريح؛ هذا نصر ليس لنا به طاقة، لكن من الله عز وجل؛ ولهذا قال هنا: لا تراءوا الكافرين ولا تطيعهم استجلابًا للنصر أو خوفًا منهم؛ لأنَّ لكم وليًّا أعظم منهم عز وجل وهو الله: {بل الله مولاكم وهو خير الناصرين} يعني خير من ينصر؛ بل هو خير الناصرين وأعظم الناصرين وأقدرهم وأقواهم عز وجل: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}، لا أحد؛ إذًا الإضراب هنا من أحسن ما يكون في هذا الموضع: {بل الله مولاكم وهو خير الناصرين}: أي خير من ينصر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إثبات ولاية الله للمؤمنين؛ لأنَّه قال: {بلِ الله مولاكم}، وهذه الولاية خاصة؛ لأنَّ ولاية الله للخلق نوعان: عامَّة لكلِّ أحد؛ وهذه معناها تولِّي الأمور سواء بنصر أو بخذلان؛ انتبه هذه ولاية عامَّة، معناها تولِّي الأمور بنصر أو خذلان أو غير ذلك، المهم متولِّي الخلق هو الله عز وجل، هذه ولاية عامَّة؛ ومنها قوله تعالى: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفَّته رسلنا وهم لا يفرِّطون ثمَّ ردُّوا إلى الله مولاهم الحق}، أمَّا الولاية الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين: {الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات والنور}، {والله وليُّ المؤمنين}، وهو عز وجل وليُّ المتَّقين؛ فالولاية هذه خاصة، ومقتضاها أنَّ الله سبحانه وتعالى يتولَّى هذا الذي استحقَّها باللُّطف والعناية يوفِّقه؛ ويفسِّر هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه: ((من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبُّ إليَّ ممَّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصره به،

ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها .. ([1])): يعني أنَّ الله يسدِّده في جميع تصرفاته؛ إذًا هذه ولاية خاصة تختصُّ بمن يستحقُّها من المؤمنين المتَّقين؛ هنا: {بل الله مولاكم} المراد بها الخاصة.

٢– أنَّ الله عز وجل ناصر لأوليائه؛ لقوله: {وهو خير الناصرين} وهذه من ولايته.

فإن قال قائل: كيف نجيب عمَّا أخبر الله في كتابه أنَّ من الناس من قتل الأنبياء بغير حق، كيف نجيب عن ذلك؟

فالجواب عن هذا من أحد وجهين: الوجه الأول: أنَّ المراد بالوعد بالنصر لمن أمر بالجهاد فإنَّ الله ينصره؛ لأنَّ الله لا يكلِّفه بشيءٍ إلَّا والعاقبة له فيه؛ وأمَّا الذين قتلوا من الأنبياء فإنَّهم لم يؤمروا بالجهاد؛ والوجه الثاني أن نقول: إنَّ النصر نوعان؛ نصر شخص، بمعنى أنَّ الإنسان يدركه بشخصه؛ ونصر معنوي، بمعنى أنَّ الله ينصر من جاء بهذا ولو بعد موته؛ ولهذا تجدون أئمة المسلمين تجدون أقوالهم حيَّة فكأنَّهم أحياء؛ أنت إذا أخذت كتابًا لعالم من العلماء وقرأت وانتفعت به فكأنَّما درسك هذا العالم؛ إذًا هذا نصر لمبدئه وهدفه ودعوته هذا نصر؛ فيه وجه ثالث أيضًا: أن نوزع النصر على الزمن، فنقول أنَّ النصر قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة؛ والذين قتلوا من الأنبياء سوف يكون نصرهم في الآخرة عندما يختصمون مع أقوامهم؛ لأنَّكم – لاحظوا يا إخوان – أنَّ أهل الحقِّ وأهل الباطل يوم القيمة يختصمون عند الله، يختصمون فيقضي بينهم فيما هم فيه يختلفون؛ أنتم لا تظنُّوا إنَّ الخلاف الذي يقع بين أهل الحقِّ وأهل الباطل ينتهي في الدنيا، لا؛ سوف يحكم الله بينهم يوم القيمة وينصر أهل الحق؛ {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيمة يفصل بينكم}، {ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون}، المهم على كلِّ حال آيات متعدِّدة تدلُّ على هذا: {إنَّك ميِّت وإنَّهم ميِّتون ثمَّ إنَّكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون}، إذًا إذا حكم الله لأهل الحقِّ على أهل الباطل يوم القيمة فهذا نصر.

٣– أنَّه يوجد من ينصر غير الله عز وجل، يعني يوجد أحد ينصر غير الله، {وإن استنصروكم في الدِّين فعليكم النصر إلَّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق}، لكنَّ الله هو خير الناصرين مثلَما أنَّه يوجد خالق غير الله لكنَّ الله أحسن الخالقين، كما ذكرنا لكم فيما سبق أنَّ الخلق المضاف لغير الله ليس هو الخلق المضاف لله، لأنَّ الخلق المضاف لله هو إبداع؛ والخلق المضاف لغير الله ما هو إلَّا تحويل وتغيير الشيء من شيءٍ إلى شيء من صورة إلى صورة.

١– (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (١٦٤٠).

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ {١٥١}

قال ابن عطية: وسبب هذه الآية: أنَّه لمَّا ارتحل أبو سفيان بالكفار بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وقال: انظر القوم، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم متشمِّرون إلى مكة، وإن كانوا على الخيل فهم عائدون إلى المدينة، فمضى علي فرآهم قد جنبوا الخيل فأخبر رسول الله ﷺ، فسرَّ وسرَّ المسلمون، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فتجهَّز واتبع المشركين يريهم الجلد، فبلغ حمراء الأسد وأنَّ أبا سفيان قال له كفار قريش: أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبق إلَّا الفل والطريد ننصرف عنهم؟ ارجع بنا إليهم حتى نستأصلهم فعزموا على ذلك، وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي قد جاء إلى رسول الله ﷺ وهو على كفره، إلَّا أن خزاعة كلّها كانت تميل إلى رسول الله ﷺ، فقال له: والله يا محمد لقد ساءنا ما أصابك، ولَوَدِدْنا أنَّك لم ترزأ في أصحابك، فلمَّا سمع رسول الله ﷺ والناس بما عزمت عليه قريش من الانصراف، اشتدَّ ذلك عليهم، فسخَّر الله ذلك الرجل معبد بن أبي معبد، وألقى بسببه الرُّعب في قلوب الكفار، وذلك أنَّه لمَّا سمع الخبر، ركب حتى لحق بأبي سفيان بالروحاء، وقريش قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فلمَّا رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرَّقون عليكم، قد اجتمع إليه من كان تخلَّف عنه، وندموا على ما صنعوا، قال: ويلك ما تقول؟ قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فو الله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصل بقيَّتهم، قال: فإنِّي أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه شعرًا قال وما قلت؟ قال قلت: [البسيط]

كادت تهدّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردي بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظلت عدوا أظنّ الأرض مائلة ... لمَّا سموا برئيس غير مخذول

إلى آخر الشعر، فوقع الرُّعب في قلوب الكفار، وقال صفوان بن أمية: لا ترجعوا فإنِّي أرى أنَّه سيكون للقوم قتال غير الذي كان، فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء، وهي بعد متناولة كلَّ كافر، ويجري معها قول النبي ﷺ: نصِّرت بالرُّعب مسيرة شهر، ويظهر أنَّ هذه الفضيلة إنَّما أعلم عليه السلام بها بعد هذه الأحوال كلِّها حين امتدَّ ظلُّ الإسلام، قال بعض أهل العلم: إنَّه لمَّا أمر الله المؤمن بالصبر، ووعده النصر، وأخبره أنَّ الرُّعب ملقى في قلوب الكفار، نقص الرُّعب من كلِّ كافر جزءًا مع زيادة شجاعة المؤمن، إذ قد وعد النصر فلذلك كلَّف المؤمن الوقوف للكافرين.

قال ابن كثير: وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ((أعطيت خمسًا لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي: نصّرت بالرُّعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلّت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامَّة([1]))).

قال ابن العثيمين: {سنلقي} الفاعل هو الله عز وجل؛ وعبَّر عن نفسه تعالى بفعل يقتضي الجمع مريدًا بذلك التعظيم، أي (سنلقي نحن)؛ ولا يمكن أن يراد به إلَّا ذلك؛ لأنَّ الله واحد ليس متعدِّدًا فلا يمكن أن يكون معه أحد، بخلاف غيره، فإنَّك إذا قلت لشخصٍ: سنأتيك، يحتمل أنَّك أردت التعظيم ويحتمل أنَّك أردت الجمع؛ لكن بالنسبة لله عز وجل لا يمكن أن يراد الجمع الذي هو للتَّعدُّد، وإنَّما يراد به التعظيم؛ ويدلُّ لهذا قوله تعالى في سورة الأنفال: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنِّي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب}، فالله سبحانه وتعالى هو الملقي، لكنَّه يذكر نفسه سبحانه وتعالى أحيانًا بصيغة الإفراد لأنَّه واحد، وأحيانًا بصيغة الجمع لأنَّه عظيم؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ويحتمل أنَّه يذكر نفسه بصيغة الجمع لما له من الجنود العظيمة التي لا يعلمها إلَّا هو)؛ فيكون هذا إشارة إلى أنَّه ذو عظمة وسلطان وجنود تفعل ما يأمر به جل وعلا.

وقوله: {سنلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب}: السين تدخل على الفعل المضارع وتفيد أمرين؛ الأول: القرب؛ والثاني: التحقيق؛ فهي تفيد التحقيق من وجه، وتفيد القرب من وجه آخر، بخلاف سوف فإنَّها تفيد التحقيق وتفيد الإمهال؛ ولهذا يكون سوف للتسويف، والسين للتنفيس أي القرب.

{سنلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب} فيها قراءتان: {الرُّعَب}، و{الرُّعْب}، وهذا يوجد في اللغة العربية كثيرًا، يعني التسكين للتخفيف والحركة على الأصل، مثل النهْر والنهَر؛ هذه: الرَّعْب، والرُّعَب، والمعنى واحد؛ والرُّعْب أشدُّ الخوف، وإنَّما ذكر الله عز وجل أنَّه يلقي الرُّعب في القلب لأنَّ القلب إذا دخله الرُّعب فإنَّه لا يمكن أن يثبته البدن؛ لو ثبت البدن أو حاول الإنسان الثبات فإنَّ قلبه من الرُّعب سوف يحمله عن الأرض حملًا ويفرُّ ولا يمكن أن يبقى؛ ولهذا نجد بني النظير لمَّا ألقى الله في قلوبهم الرُّعب صار الواحد منهم ينجوا بنفسه، حتى إنَّهم كانوا من شدَّة خوفهم يحملون الأمتعة ويكسرون البيوت، يعني ما يقلعون الأبواب على تؤدة وطمأنينة من شدَّة الرُّعب الذي أصابهم؛ والرُّعب أقوى سلاح يكون على العدو؛ فإذا ألقى الله الرُّعب في قلب العدو فإنَّه لن يبقى.

قال السعدي: ثمَّ ذكر السبب الموجب لإلقاء الرُّعب في قلوب الكافرين، فقال: {بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا} أي: ذلك بسبب ما اتَّخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتَّخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير

١- (قلت): البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

حجَّة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوبًا من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كلِّ شدَّة وضيق، هذا حاله في الدنيا، وأمَّا في الآخرة فأشدُّ وأعظم، ولهذا قال: {ومأواهم النار}.

قال ابن العثيمين: {بما أشركوا بالله} الباء هنا للسببية، أي بسبب شركهم بالله؛ وما يسمِّيها العلماء مصدرية، أي: بشركهم، وعلامة {ما} المصدرية أن يصح تحويل ما بعدها إلى مصدر، إذا صحَّ تحويل ما بعدها إلى مصدر فهي مصدرية؛ وقد ذكروا أنَّ ل(ما) عدَّة معاني، ذكروا لها معاني عشرة، مجموعة أو مشارًا إليها في بيت من الشعر:

ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكف ونفي زيد تعظيم مصدر

الأخير هو المثال الذي معنا: {بما أشركوا بالله}: أي بشركهم بالله حيث جعلوا لله تعالى شركاء؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مع الله إنَّما جعلوهم شركاء في العبادة لا في الربوبية؛ ولهذا كان شرك العرب شركًا في الألوهية لا في الربوبية: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ خلقهنَّ العزيز العليم}، {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله}، {قل لمن الأرض ومن فيها سيقولون لله}، فهم يقرُّون بأنَّ الله هو الخالق وأنَّ ما في الكون ملكه، لا ينكرون هذا، لكنَّهم يشركون في العبادة فيعبدون مع الله غيره، ومع ذلك يدَّعون أنَّهم يعبدون هذه الأصنام لتكون شفعاء لهم عند الله؛ فهم يقرُّون أيضًا أنَّها دون مرتبة الله لكن يعبدونها: {والذين اتَّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم}، يعني يقولون: {ما نعبدهم إلَّا ليقرِّبونا إلى الله زلفى}.

{ما لم ينزل به سلطانًا}: {ما} تحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، أي: الذي لم ينزل به سلطانًا؛ وتحتمل أن تكون نكرة موصوفة، أي: (شيئًا لم ينزل به سلطانًا)؛ والمعنى لا يختلف على التقديرين؛ فقوله: {ما لم ينزل به} فيها قراءتان: {يُنَزِّل}، و {يَنْزِل}، أي: بالتشديد والتَّخفيف؛ وقوله: {سلطانًا}: أي حجَّةً وبرهانًا؛ فيجعلون لله شركاء لم ينزل الله بهم سلطانًا، أي ليس لهم بهم حجة؛ وقوله: {ما لم ينزل به سلطانًا}، القيد هنا لبيان الواقع وليس للاحتراز، أي: أنَّ واقع هؤلاء الشركاء أنَّه لا سلطان لشركهم ولا دليل؛ وليس المعنى أنَّهم يشركون ما لم ينزِّل به، ولو أشركوا على ما نزل به لكانوا على صواب، لا؛ لأنَّه لا يمكن أن يأتي سلطان أي حجَّة على أنَّ الله له شركاء.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من ذكر هذا الوصف الذي يبيِّن الواقع؟

قلنا: الفائدة في ذلك إقامة الحجَّة على أنَّهم ليس لهم دليل في إشراكهم به، لأنَّهم بنوا على غير سلطان وعلى غير حجَّة؛ فإذا كان كذلك فالغرض من هذا التَّنفير عن هذا الإشراك؛ عكس ذلك أن يأتي وصف لبيان الواقع من أجل الحثِّ والإغراء على لزوم الحكم، كقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} فإنَّ الرسول ﷺ لا يدعوا الخلق إلى ما يميتهم وإنَّما يدعوهم إلى ما يحيِّيهم؛ فالقيد إذًا لبيان الواقع، ولكن جيء به للحثِّ والإغراء على إجابة دعوته، كما أنَّ القيد الذي في الآية هذه: {ما لم ينزل به سلطانًا}، لبيان بطلان هذا الإشراك، وأنَّه ليس له دليل.

واعلم أنَّ السلطان ما كان له سلطة؛ فالدَّليل يسمَّى سلطانًا، والأمير على القوم يسمَّى سلطانًا؛ وولاية الرجل على أهله سلطان؛ وهكذا كلُّ ما كان له سلطة فإنَّه يسمَّى سلطانًا؛ وقد يكون السلطان بمعنى القدرة على الشيء مثل قوله تعالى: {لا تنفذون إلَّا بسلطان}: أي بقدرة، ولا قدرة لكم على نفوذ أقطار السموات والأرض.

{ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين}: {مأواهم} أي: مرجعهم النار؛ فهم مغلوبون في الدنيا وفي الآخرة؛ في الدنيا يلقي الله في قلوبهم الرُّعب، فلا يقرون ولا يستقرون؛ وفي الآخرة مأواهم النار، والنار هي الدار التي أعدَّها الله عز وجل لأعدائه يعذِّبهم بها؛ وهي موجودة الآن، عرضت على النبي ﷺ في صلاة الكسوف حتى إنَّه تأخَّر مخافة أن يصيبه من وهَجها ﷺ، ورأى فيها من يعذَّب.

{وبئس مثوى الظالمين}: {بئس} فعل جامد لإنشاء الذَّم ويقابله: (نِعْمَ)؛ وهذا الفعل يحتاج إلى فاعل وإلى مخصوص؛ ففاعله {مثوى}؛ والمخصوص محذوف، والتقدير: (وبئس مثوى الظالمين النار)؛ و{المثوى}: المستقَر الذي يثوي إليه الإنسان ويستقرُّ فيه كالمسكن مثلًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إثبات الأفعال الاختيارية لله؛ لقوله: {سنلقي}.

٢- أنَّ من كمال الله عز وجل تجدُّد أفعاله التي تكون تابعة لإرادته وحكمته؛ لأنَّ إلقاء الرُّعب في قلوب هؤلاء حادث، لأنَّه سنلقي في المستقبل، ثم هؤلاء متى وجدوا، هل هم أزليُّون؟ هم حادثون، وقلوبهم حادثة، والرُّعب الذي يلقى فيها حادث؛ وبه نردُّ على من أنكروا أفعال الله الاختيارية، وقالوا: إنَّ الله سبحانه وتعالى ليس له أفعال حادثة، زعمًا منهم أنَّ الفعل الحادث لا يقوم إلَّا بحادث؛ فيلزم من هذا إنكار صفة القدم عن الله؛ هذا على زعمهم، ونحن نقول: هذه دعوى باطلة؛ من يقول: إنَّ الفعل الحادث لا يقوم إلَّا بحادث؟ نحن نشاهد أفعالًا لنا لم تكن قديمة كقدمنا، فالإنسان يتعشى اليوم غير عشاءه بالأمس؛ فهذا فعل حادث في محدث؛ فلا يلزم أن يكون الفعل مقارنًا للفاعل أبدًا لوجود الفاعل؛ إذًا نقول في هذه الآية ردٌّ على هؤلاء الذين ينكرون قيام الأفعال الاختيارية لله عز وجل.

٣- بيان عظمة الله؛ تؤخذ من قوله: {سنلقي}، فإنَّ هذه الصيغة تدلُّ على العظمة أو التعدُّد، والتعدُّد في حقِّ الله محال؛ فتعيَّن أن تكون للتَّعظيم.

٤- أنَّ محل الإرادة والتَّدبير للبدن هو القلب؛ لقوله: {سنلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب}، وليس المحل هو الدِّماغ كما هو مشهور عند فلاسفة اليوم؛ فإنَّ الدِّماغ في الحقيقة لا يدبِّر، الدِّماغ يتصوَّر ثم يرسل الصورة إلى القلب، والقلب يحكم، الدِّماغ بمنزلة ما يسمُّونه بالسكرتير، يجهز الأوراق ويصلحها ثم يرسلها إلى الملك ويقول ماذا تأمر؟ والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى

القلوب التي في الصدور}، نصٌّ واضح أنَّ العقل يكون بالقلب، وأنَّ محل هذا القلب هو الصدر، وبهذا نردُّ على من قالوا: إنَّ المراد بقوله: {قلوب يعقلون بها}، القلوب المعنوية وهي الدماغ؛ يقول كيف الله يقول: {ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} نصٌّ صريح؛ ثمَّ السنة أيّدت هذا فقال النبي ﷺ : ((ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب))، فالتَّدبير للقلب والتصوُّر للدِّماغ، التصوُّر للدِّماغ؛ قال الإمام أحمد رحمه الله: (العقل بالقلب وله اتصال بالدماغ)؛ واتصاله هو ما ذكرنا أنَّ الدِّماغ يتصوَّر ثم يرسل إلى القلب، والقلب يأمر بواسطة الدِّماغ والدِّماغ يحرِّك الأعصاب؛ وبهذا التقرير يتبيَّن لنا أنَّ ما جاء به القرآن والسنة في هذه المسألة لا يخالف ما كان معروفًا عند الأطبَّاء اليوم.

٥- أنَّ إلقاء الرُّعب في قلب الأعداء من أكبر النصر؛ لقوله: {وهو خير الناصرين}، ثم قال: {سنلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب}، فالرُّعب من أقوى أسباب النصر وهو أمر معروف. هذا الرُّعب هل هو خاص في عهد الرسول ﷺ؟ أو يشمل ما يحصل لأعداء أتباعه إلى يوم القيمة؟ الثاني هو الثابت؛ ولهذا قال النبي ﷺ فيما صحَّ عنه: ((نصِّرت بالرُّعب مسيرة شهر)).

٦- إثبات الأسباب؛ لقوله: {بما أشركوا}، لأنَّ الباء للسببية؛ وإثبات الأسباب هو الحقُّ، والأسباب إمَّا شرعيَّة وإمَّا حسِّيَّة؛ وإنكارها سفه في العقل وضلال في الدِّين، لأنَّ النصوص قد تكاثرت وتجمَّعت على إثبات الأسباب؛ دخول الجنّة لا يحصل إلَّا بسبب، والنجاة من النار لا يحصل إلَّا بسبب، الولد لا يحصل إلَّا بسبب، الرزق لا يحصل إلَّا بسبب، كلَّ شيءٍ لابدَّ له من سبب؛ فإنكار الأسباب ضلال في الدِّين وسفه في العقل؛ ومن العجب أنَّ الأشاعرة ومن نحا نحوهم في هذا الباب يقولون: إنَّ الله تعالى يوجد الأشياء بلا واسطة، وتقع الأشياء بتدبيره مباشرة بلا واسطة؛ لأنَّهم يقولون لو أثبتنا الواسطة وجعلنا لها تأثيرًا لكان هذا نوعًا من الشرك بالله؛ فمثلًا يقولون: لا أثر للسكين في قطع اللَّحم، ولا أثر للحجر في كسر الزجاجة؛ كيف؟ يعني إنسان أتى بلحم وجعل يقطعه بالسكين، يقول: لا أثر للسِّكين في قطع اللَّحم؛ من القاطع؟ الله؛ إنسان رمى زجاجة بحجر فانكسرت، لا أثر للحجر في كسر الزجاجة؛ من الذي كسرها؟ الله؛ لأنَّك لو قلت: إنَّ السكين قطعت اللحم أشركت بالله؛ لو قلت: إنَّ الحجر كسر الزجاجة أشركت بالله؛ إذًا الأسباب لا تؤثِّر؛ كيف لا تؤثر، نحن نشاهد هذا؟ قال: هذا خلقه الله عندها لا بها؛ سبحان الله! لو أتيت بعصا ليس بسكِّين وأردت تقطع اللَّحم؟ لا يقطع؛ لو أرسلت ريشة على زجاجة ولصقت بها من شدَّة حذفك إيَّاها لا تكسرها؛ إذًا لا يمكن أن ننكر هذا الشيء؛ هذا سفه في العقل؛ لكنَّنا نقول: هذه الأسباب لا يوجد بها المسبب بذاتها، وإنَّما يوجد بما أودع الله فيها من القوى التي خلقها الله عز وجل؛ من ذلك الرُّعب يلقى في قلوب الذين كفروا؛ لسبب وهو الإشراك([١]).

٧- أنَّه إذا كان الرُّعب يلقى في قلوب الذين كفروا لإشراكهم فإنَّ الأمن يلقى في قلوب الذين آمنوا لتوحيدهم؛ لأنَّ ما ثبت للشيء ثبت ضدّه لضدِّه؛ فإذا ثبت الرُّعب للكفار بسبب إشراكهم ثبت الأمن للمؤمنين بتوحيدهم؛ ويدلُّ لهذا قوله تعالى:

١- (قلت): أنظر في الفوائد رقم (٦) الآية (١٠٦) من سورة آل عمران.

{الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}، والظلم الشرك كما فسَّره النبي ﷺ؛ لمَّا نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: ((إنَّما ذلك الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح: {إنَّ الشرك لظلم عظيم}([1]))؛ إذًا كلَّما كان الإنسان أشدُّ إيمانًا بالله وأشدُّ توحيدًا له كان أشدُّ أمنًا واستقرارًا؛ وهذا شيء مجرَّب لأنَّ من كان أشدُّ إيمانًا وتوحيدًا لله كان أقوى توكُّلًا عليه، ومن أقوى أسباب الأمن ومصابرة الأعداء التوكُّل على الله عز وجل، حتى إنَّ من الناس من يقوم توكُّله على الله مقام الدواء في الشفاء، كما قرَّر شيخ الإسلام رحمه الله وهو واقع، بعض الناس يكون عنده قوة توكُّل على الله ويشفى بدون علاج، بسبب قوة توكُّله على الله؛ وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حينما ذكر أنَّ الدواء بالمحرَّم ليس ضروريًّا حتى يقال: إنَّ الدواء بالمحرَّم جائز للضرورة؛ قال: هذا ليس بضروري؛ لأنَّ المريض قد يشفى بدواء آخر، وقد يشفى بالقراءة، قال: وقد يشفى بقوة التوكُّل على الله؛ وقد مرض أبو بكر رضي الله عنه فقيل له: ألا ندعو لك طبيب؟ قال: (إنَّه قد رآني وقال: إني أفعل ما أريد)؛ يعني به الله عز وجل؛ فالحاصل أن نقول إنَّ الإنسان كلَّما قوى إيمانه بالله وقوي توحيده ازداد أمنًا وطمأنينةً واستقرارًا وهذا أمر مشاهد مدرك بالحس.

٨- أنَّه لا دليل لأحد على شركه؛ لقوله: {ما لم ينزل به سلطانًا}.

٩- النداء والإعلان عن سفه هؤلاء المشركين لكونهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ لو كان لهم دليل لعذروا، لكن لا دليل لهم؛ وهذا نداء عليهم وإعلان بسفههم.

١٠- إثبات الجزاء؛ لقوله: {ومأواهم النار}.

١١- إثبات أنَّ النار مأوى الكافرين الذين أشركوا بالله؛ فنحن نشهد بأنَّ كلَّ كافر مشرك فمأواه النار؛ ولكن لا نشهد بهذا لعين الشخص؛ ولكنَّنا نقول: إنَّا نعامله في الدنيا معاملة الكافر؛ فمثلًا لو مات زعيم من زعماء الكفرة كزعيم الرُّوس أو زعيم أمريكا أو ما أشبه ذلك، نحكم بأنَّه كافر وأنَّ كلَّ كافر في النار، ونحكم بأنَّه كافر فلا نصلِّي عليه ولا نكفِّنه ولا ندفنه مع المسلمين ولا ندعو له بالرحمة؛ لكن مسألة الجزاء هذا ندخله في العموم نقول: كلُّ كافرٍ فإنَّه في النار.

١٢- ذمُّ النار؛ ومثواها لقوله تعالى: {وبئس مثوى الظالمين}، وصدق الله عز وجل فإنَّ أبأس دار وأقبح دار وأخبث دار هي النار؛ ولهذا استحقَّت هذا الوصف من الله عز وجل.

١- (قلت): البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤). والحديث بتمامه عند سلم: عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}[الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[لقمان: ١٣])).

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {١٥٢}

قال ابن كثير: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه}: قال ابن عباس: وعدهم الله النصر.

وقد يستدلُّ بهذه الآية على أحد القولين المتقدِّمين في قوله: {إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدَّكم ربُّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتَّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين}، أنَّ ذلك كان يوم أحد لأنَّ عدوَّهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلمَّا واجهوهم كان الظَّفر والنصر أوَّل النهار للإسلام، فلمَّا حصل ما حصل من عصيان الرُّماة وفشل بعض المقاتلة، تأخَّر الوعد الذي كان مشروطًا بالثَّبات والطَّاعة؛ ولهذا قال: {ولقد صدقكم الله وعده}: أي أوَّل النهار.

قال ابن العثيمين: {ولقد صدقكم الله وعده}: وهذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات؛ المؤكِّد الأوَّل القسم المقدَّر، لأنَّ التقدير: (والله لقد)؛ والثاني اللّام؛ والثالث قد؛ فهذه ثلاثة مؤكِّدات في هذه الجملة؛ {صدقكم الله وعده}: أي أنجزه لكم؛ وقوله: {وعده}: منصوب بنزع الخافض، أي: (صدقكم الله في وعده، فيما وعدكم به من النصر)؛ يقال: صدَقه ويقال: صدَّقه، وبينهما فرق؛ فإذا قيل: صدَقه: يعني أخبره بالصدق؛ وإذا قيل: صدَّقه: أي قال إنَّ ما أخبرت به صدق؛ فالتَّصديق من المخاطَب للمتكلِّم، والصِّدق من المتكلِّم للمخاطَب؛ فمعنى قوله تعالى: {صدقكم الله وعده}: أي أنجز لكم الوعد فصار ما أخبركم به صدقًا؛ قالوا: ووعده منصوب بنزع الخافض، والتقدير: في وعده؛ والنصب بنزع الخافض مطَّرد مع (أن)؛ و(أنْ)؛ و(أمَّا) في غير هذا الموضع فليس بمطَّرد؛ قال ابن مالك في الألفية:

وفي أنَّ وأنْ يطرد مع ... أمن لبس كعجب أيدوا

يعني نزع الخافض يطَّرد مع (أنَّ)، و(أنْ) بشرط أن يؤمن اللَّبس.

ثم بيَّن موضع هذه الصِّدق فقال: {إذ تحسُّونهم بإذنه}: ف{إذ} هنا ظرف متعلِّق بصدق، أي: (صدقكم وعده حين حسستموهم بإذنه)؛ وقوله: {إذ تحسُّونهم بإذنه}، مضارع عبَّر به عن شيءٍ ماضٍ على تقدير حكاية الحال؛ لأنَّ القاعدة: أن يعبَّر عن الماضي بصيغة الماضي؛ فيقال: قام زيد؛ لكنَّه هنا عبَّر عن الماضي بصيغة الحاضر لحكاية الحال، لتقريب تصوُّر الماضي في الذِّهن؛ لأنَّ الماضي قد انقضى فربما يكون الإنسان ناسيًا له، فإذا صيغ بصيغة المضارع صار الماضي كأنَّه حاضر؛ وهذا ما يعبَّر عنه النحويون بحكاية الحال، حكاية حال الماضي، كأنَّها الآن واقعة من أجل أن يكون ذلك أقرب لحضورها في الذِّهن.

وقوله: {تحسُّونهم بإذنه}: (الحس): أشدُّ القتل؛ أي: تقتلونهم أشدَّ قتلة بإذن الله الكوني، لأنَّه قد وقع، وكلَّ شيءٍ قد وقع فإنَّ الله قد أذن به كونًا؛ وبإذنه الشرعي لأنَّ الله تعالى قد شرع لنا أن نقاتل الكفار، فيكون قتلنا لهم مأذونًا فيه شرعًا؛ إذًا في هذه الآية اجتمع الإذنان الكوني والشرعي.

فإن قال قائل: وهل قتل أحد من الكافرين في يوم أحد؟ فالجواب: نعم، قتل منهم تسعة رجال، وانهزموا وفرُّوا حتى رئي النساء ينطلقن يصعدن في الجبل مذعورات حاسرات الرؤوس كاشفات السيقان، لأنَّهن قد هربن حيث أيقنَّ بالأسر؛ وكانت الغلبة والعزَّة في أوَّل النَّهار للمسلمين.

ثم قال: {حتى إذا فشلتم وتنازعتم ...}: {حتى} قيل: إنَّها ابتدائية؛ وقيل: إنَّها للغاية، أي: (صدقكم وعده إذ تحسُّونهم بإذنه إلى أن فشلتم)؛ وعلى هذا فتكون {إذا} غير شرطية، يعني: (حتى وقت فشلكم)؛ هذا وجه، أي: (أنَّ صدق الوعد والحسِّ استمر إلى أن فشلتم)؛ والوجه الثاني: أنَّ {حتى} ابتدائية؛ فالجملة مستأنفة؛ وعلى هذا الوجه تكون {إذا} شرطية، وجوابها يذكر إن شاء الله.

{حتى إذا فشلتم}: (الفشل): معناه الجبن والخور، أي: (حتى إذا جبنتم وخرتم وعجزتم عن الانتصار)؛ {وتنازعتم في الأمر}: (المنازعة): المخاصمة والاختلاف؛ وقوله: {في الأمر}: هل المراد بالأمر الشأن، أو المراد بالأمر واحد الأوامر؟ على القول الأول يكون الأمر واحد الأمور، أي: (في شأنكم)؛ وعلى الثاني يكون الأمر واحد الأوامر، أي: (في أمر الرسول ﷺ)؛ ويكون الخطاب موجَّهًا إلى الرُّماة وكانوا خمسون رجلًا أمّر عليهم النبي ﷺ عبد الله بن جبير، وقال لهم: (لا تبرحوا مكانكم)، ابقوا في الجبل سواء كانت لنا أو علينا، ولمَّا رأوا المسلمين قد انتصروا وانهزم المشركون، وصار المسلمون يجمعون الغنائم، أرادوا النزول من الجبل، فنازعهم أميرهم وقال لهم: امكثوا اثبتوا، ولكنَّهم أصرُّوا على النزول فنزل منهم أكثرهم؛ إذًا يكون {الأمر} هنا واحد الأوامر، أي: (تنازعتم في أمر الرسول ﷺ)، فمنكم من قال: نبقى امتثالًا لأمره، ومنكم من نزل اغتنامًا لكسب الغنيمة؛ والمعنيان متلازمان لأنَّه لمَّا اختلفوا في أمر الرسول تنازعوا في شأنهم أي في أمرهم.

{وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون}: وعصيتم الرسول؛ لكن لم يذكر المفعول به كراهة لذكره حيث إنَّه يكون أشدُّ وقعًا وتوبيخًا، وكأنَّ الله عز وجل أراد أن يوبِّخهم بطريق ليِّن؛ قال: {وعصيتم}، ولم يذكر الرسول؛ لأنَّ هذا أهون ممَّا لو صرَّح به وقيل: (وعصيتم الرسول)؛ فإذا قيل: (وعصيتم الرسول)، صار أشدُّ وقعًا في التَّوبيخ؛ وقوله: {من بعد ما أراكم}: {أراكم} من الفاعل؟ الله، يعني: (من بعد ما أراكم رؤيا عين ما تحبُّون من النصر وهزيمة أعدائكم)؛ بقي علينا أن نقول: أين جواب الشرط على الوجه الثاني في {إذا}: {إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون}، قال بعضهم: إنَّ جواب الشرط: {تنازعتم}، (حتى إذا فشلتم تنازعتم وعصيتم)؛ وعلى هذا تكون الواو زائدة؛ وقال بعضهم: جواب الشرط {عصيتم}: أي (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون)؛ وقال بعضهم: جواب الشرط محذوف تقديره: (انقسمتم قسمين منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)؛ هذه ثلاثة أقوال؛ وقال بعضهم: محذوف

تقديره: فاتكم النصر، (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم ... فاتكم النصر)؛ وقال بعضهم: الجواب محذوف قطعًا، والقول بأنَّ الواو زائدة في {وتنازعتم}، وأنَّه هو جواب الشرط، أو في {وعصيتم}، وأنَّه جواب الشرط قول ضعيف؛ لأنَّ الحرف هنا حرف جاء لمعنى، يفوت بفواته ما جاء من أجله؛ فالجواب إذًا محذوف، وفائدة حذفه أن يذهب الذِّهن كلَّ مذهب في تقديره، وكلُّ شيءٍ يقدَّر جوابًا ل{إذا} لا ينافي المقدَّر الآخر فإنَّه صالح؛ وعلى هذا ممكن أن نقول: (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون فاتكم ما تحبُّون)؛ أو (فاتكم النصر)؛ أو (خذلتم)؛ أو (انقسمتم إلى قسمين)؛ المهم أنَّ كلَّ هذه الاحتمالات صحيحة ولا تتنافى؛ فقد فاتهم النصر وانقسموا إلى قسمين وخذلوا؛ ولكن هذا من بلاغة القرآن، الحذف من أجل أن يكون أشمل وأكثر للمعنى.

{منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}: {من} هنا تبعيضية، أي: (بعضكم)، بعضكم يريد الدنيا والبعض الآخر يريد الآخرة؛ فالذين نزلوا لجمع الغنائم ظاهر عليهم أنَّهم يريدون الدنيا؛ والذين ثبتوا ظاهر عليهم أنَّهم يريدون الآخرة؛ وهذا على سبيل المثال، وإلَّا فالأمثلة كثيرة في الذين يريدون الدنيا والذين يريدون الآخرة؛ حتى في طلب العلم من الناس من يريد الدنيا ومن الناس من يريد الآخرة، من الناس من يريد الجاه والرِّفعة والسِّيادة لأنَّ:

العلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العزِّ والشَّرف

ومنهم من يريد الآخرة، أن يحفظ شريعة الله، وأن يعلم عباد الله، وأن يتعبَّد لله على بصيرة وما أشبه ذلك؛ فهذا حال الناس كلِّهم، منهم من يريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة.

{ثمَّ صرفكم عنهم}: {ثم} أي: بعد أن صدقكم الله وعده بحسِّهم، أي بقتلهم صرفكم عنهم، يعني بعد أن فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم صرفكم عنهم؛ وتأمَّل قوله: {صرفكم}، فإنَّ الصرف يقتضي إقبالًا شديدًا يعانى فيه المقبل حتى يصرف، كما تقول: صرفت الدابة عن العلف وما أشبه ذلك؛ فيفيد بأنَّ المسلمين كانوا مقبلين جدًّا على هؤلاء الأعداء لكن صرفوا عنهم مع شدَّة رغبتهم في القضاء عليهم، لأنَّه كان لهم نصر في أوَّل الأمر لكن صُرِفوا عنه.

وقوله: {ليبتليكم}: أي ليختبركم؛ والابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان؛ ويكون في الخير ويكون في الشَّر؛ قال الله تعالى: {ونبلوكم بالشَّرِّ والخير فتنة}، وقال سليمان لمَّا رأى عرش بلقيس حاضرًا عنده مستقرًّا عنده قال: {هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر}، فالخير ابتلاء والشر ابتلاء؛ الشر يبتلى به الإنسان ليصبر، والخير يبتلى به ليشكر، فكله ابتلاء؛ ولهذا قال: {ليبتليكم}.

{ولقد عفا عنكم}: هذه الجملة أيضًا مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات؛ القسم المقدَّر لأنَّ الأصل {ولقد}: أي (والله لقد)؛ واللَّام، وقد؛ وإنَّما أُكِّدت الجملة هنا والجملة هناك في قوله: {ولقد صدقكم}، لأنَّه قد يتبادر من الوقائع خلاف ذلك؛ فمثلًا الجملة الأولى: {ولقد صدقكم الله وعده}، قد يتبادر من كون الهزيمة في آخر الأمر على المسلمين أنَّ الله لم يصدِّقهم وعده؛ فأكَّد ذلك بقوله: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه}، وهذا نصر؛ والثانية: لمَّا ابتلوا بهذه البلوى قد يتبادر

إلى الذِّهن بأنَّ الله سوف يعاقبهم على معصيتهم وتنازعهم وجبنهم فقال: {ولقد عفا عنكم}، فكان التأكيد هنا وفي أوَّل الآية في غاية ما يكون من البلاغة؛ لأنَّ المقام يقتضي التأكيد.

وقوله: {ولقد عفا عنكم}: (العفو) بمعنى التجاوز؛ ويكون محمودًا ويكون مذمومًا؛ إذا كان مع القدرة فهو محمود؛ وعفو الله بلا شك مع القدرة، لأنَّ الله قادر على أن ينتقم عز وجل، لكنَّه يعفو مع القدرة كما قال الله تعالى: {وكان الله عفوًّا قديرًا}؛ ويكون مذمومًا إذا كان مصدره العجز، إذا كان مصدره العجز فهو مذموم لا يحمد عليه الإنسان؛ لأنَّ هذا يدلُّ على ضعفه وعدم أخذه لنفسه بالحقِّ.

قال ابن كثير: عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبير وقال: ((إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا)). فلمَّا لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله ابن جبير: عهد إليَّ النبي ﷺ ألَّا تبرحوا، فأبوا، فلمَّا أبَوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: ((لا تجيبوه)). فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: ((لا تجيبوه)). فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إنَّ هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدوَّ الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: ((أجيبوه)). قالوا: ما نقول؟ قال: ((قولوا: الله أعلى وأجل)). فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: ((أجيبوه)). قالوا: ما نقول؟ قال: ((قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم))، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني([١]).

وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لمَّا كان يوم أحد هزم المشركون، فصرخ إبليس: أي عباد الله، أخراكم. فرجعت أولادهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله، أبي أبي. قال: قالت: فو الله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فو الله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لقي الله عز وجل([٢]).

وقال البخاري: عن أنس بن مالك: أنَّ عمه – يعني أنس بن النضر – غاب عن بدر فقال: غبت عن أوَّل قتال رسول الله ﷺ، لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله ما أجد فلقي يوم أحد، فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء – يعني المسلمين – وأبرأ إليك ممَّا جاء به المشركون، فتقدَّم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد. فمضى فقتل، فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه بشامة وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم([٣]).

١- (قلت): البخاري (٤٠٤٣).

٢- (قلت): البخاري (٣٢٩٠ ، ٣٨٢٤، ٤٠٦٥).

٣- (قلت): البخاري (٤٠٤٨).

قال ابن العثيمين: وقوله: {ولقد عفا عنكم}، يشمل كلَّ من وقعت منهم المخالفة؛ وهذا من فضل الله عليهم؛ ويجدر بنا هنا أن نذكر قصة عجيبة: جاء رجل من الخوارج إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو مستظل في الكعبة، فوقف عليه بعد أن سأل عنه فقال: من هذا ؟ قالوا: هذا عبد الله بن عمر؛ فوقف عليه وكان خارجيًّا، فسأله عن أمير المؤمنين عثمان قال له: أما علمت أنَّ عثمان بن عفان تخلَّف عن غزوة بدر؟ قال: بلى تخلَّف؛ قال: أما علمت أنَّه فرَّ يوم أحد؟ قال: بلى فرَّ؛ قال: أما علمت أنَّه لم يبايع بيعة رضوان؟ قال: بلى؛ قال الخارجي: الله أكبر؛ كبَّر يعني على أنَّه انتصر لأنَّه إنَّما سأل هذه الأسئلة الثلاثة ليقدح في عثمان رضي الله عنه، فكبَّر الخارجي، لمَّا كبَّر قال له: أمَّا وقد فعلت فسأحدثك؛ أمَّا تخلُّفه في غزوة بدر فإنَّ النبي ﷺ أمره أن يبقى ليُمَرِّض ابنته، ابنة الرسول ﷺ كانت مريضة، رقية زوجة عثمان؛ فتخلَّف ليمرِّضها بأمر النبي ﷺ، وضرب له النبي ﷺ بسهمه وأجره؛ إذاً هل يلام على هذا؟ لا يلام، وأمَّا فراره في أحد فإنَّ الله تعالى قال: {ولقد عفا عنكم}، بعد العفو هل يبقى أثر الذنب؟ لا؛ وأمَّا تخلُّفه عن بيعة الرضوان فإنَّه لا يوجد أحد من بطون قريش أعزُّ من البطن الذي منه عثمان لأنَّ بطنه قوي في قريش؛ فلم ير النبي ﷺ أحقُّ بأن يبعثه إلى قريش من عثمان فبعثه إلى قريش ليفاوضهم لأنَّ له مكانة، ثم إنَّ الرسول ﷺ لمَّا بايع المؤمنين تحت الشجرة أخذ بيده الكريمة ووضعها على اليد الأخرى وقال: ((هذه عن يد عثمان)). الله أكبر فكانت يد النبي ﷺ خيرًا من يد عثمان لعثمان؛ ثم قال: اذهب بها إلى قومك أو كلمة نحوها[١]؛ يعني أنت جئت تريد أن تقدح في أمير المؤمنين، وصار الآن القدح مدحًا؛ فمثل هذه المسائل ينبغي للإنسان أنه ينتبه له، لأنَّ بعض الناس ربما يسأل سؤالًا ظاهره الاسترشاد، ولكن يكون معناه النَّقد؛ فإذا جاء به على هذا الوجه ألقم الناقد حجرًا، وصار هذا من فهمه.

قال أبو زهرة: في هذا النَّص السَّامي يبيِّن سبحانه عفو الله تعالى ليرفع من نفوسهم، ويذهب الحسرة من قلوبهم، ويحيي موات العزَّة التي اختفت في وسط ذلك المضطرب، ولقد أكَّد سبحانه وتعالى عفوه بعدَّة تأكيدات أولها: بالتعبير بـ{قد}، فإنَّها للتَّحقيق، واستعمالها في أكثر آي القرآن للتَّحقيق، وثانيها: باللَّام. وثالثها: بالتعبير بالماضي. ولماذا أكَّد سبحانه وتعالى عفوه بهذا التأكيد؛ لأنَّ أولئك الأبرار الذين أخلصوا دينهم لله تعالى قد تجسَّم في نفوسهم خطؤهم، حتى توهَّموا أنَّه غير

١- (قلت): البخاري (٣٤٢٢)، وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٦٠٨٠)، والحديث بتمامه: عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ يُرِيدُ حَجَّ الْبَيْتِ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ. قَالَ فَمَنِ الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ. قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَحَدِّثْنِي: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ وَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ؟ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ أما فِراره يوْم أُحد فأشهدُ أَن اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ رُقَيَّةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ مَرِيضَةً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ». وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَان وَكَانَت بَيْعةُ الرضْوَان بعدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: ((هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ))، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ وَقَالَ: ((هَذِه لعُثْمَان)). فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ.

قابل للغفران، فإنَّ المؤمن التَّقى يستكثر هفوته، ويستصغر حسنته؛ لأنَّه يحسُّ بحقِّ الله تعالى عليه، ووجوب شكر النِّعم التي أنعم بها، وبمقدار قوَّة الإيمان يغلب المؤمن خوف العقاب على رجاء الثواب.

قال ابن العثيمين: {والله ذو فضل على المؤمنين}: {ذو} بمعنى صاحب، أي: صاحب فضل؛ {على المؤمنين}: يعني وأنتم منهم، ولذلك عفا عنكم؛ وهنا في الجملة إظهار في موضع الإضمار، إذ مقتضى السياق أن يقول: (والله ذو فضل عليكم)؛ وفائدة الإظهار في مقام الإضمار تقدَّمت لنا، وقلنا إنَّ فيه ثلاث فوائد؛ الفائدة الأولى أوَّلًا: إثبات هذا الوصف لمرجع الضمير؛ فمثلًا: (والله ذو فضل عليكم)؛ إذا قال: (على المؤمنين)، بدل (عليكم)، أفاد بأنهم مؤمنون؛ هذه واحدة؛ ثانيًا: العموم؛ لأنَّه لو قال: (والله ذو فضل عليكم)، اختصَّ الفضل بمرجع الضمير؛ فإذا قال: (على المؤمنين)، شملهم وغيرهم؛ الفائدة الثالثة: علَّة الحكم، الحكم كون الله ذا فضل، والعلَّة الإيمان؛ هذه فائدة الإظهار في موضع الإضمار؛ أمَّا في الإظهار هنا في موضع الإضمار مناسبة لفظية وهي: تناسب رؤوس الآيات؛ لأنَّه لو قال: (والله ذو فضل عليكم)، لم تتناسب مع ما بعدها ومع ما قبلها.

قال أبو زهرة: ولقد ذيَّل سبحانه الآية بقوله تعالى: {وَاللَّهُ ذو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، لبيان فضل الله تعالى العميم على عباده المؤمنين، فكلُّ شيءٍ بفضله، فنصْرهم في بدر بفضل منه، ونصْرهم في الابتداء في أُحد كان بفضل منه، وخذلانهم بفشلهم وتنازعهم فيه فضل بتعليمهم حقُّ الجهاد وواجبه، وعفوه عنهم هو الفضل كلُّه، ولقد تأكَّد فضل الله تعالى في الآية بقوله: {ذو فَضْلٍ}: أي صاحب فضل، والمرمى أنَّ الفضل يلازمه، ولا ينقطع عنه سبحانه وتعالى أبدًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله سبحانه وتعالى قد نصر المؤمنين في أحد كما نصرهم في بدر؛ ودليله قوله تعالى: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه}.

٢- أنَّ من البلاغة أن يؤكِّد الخبر إذا كان الحال تقتضي ذلك؛ يؤخذ من قوله: {ولقد صدقكم الله وعده} حيث كان فيه قسم، وتوكيد باللَّام، وقد.

٣- شدَّة عزيمة الصحابة رضي الله عنهم في طلب العدو؛ لأنَّه قال: {إذ تحسُّونهم بإذنه}، والحس القتل أو أشدَّه يعني كأنَّه يسمع له صوت عند القتل؛ وهكذا ينبغي للمسلمين أن يأتوا أعدائهم الحربيين على شدَّة وغلظة كما قال الله تعالى: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم}: يعني لا تضعفوا في طلبهم: {إن تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون}، أنظر التعزية للصحابة: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون}، وتزيدون عليهم: {وترجون من الله ما لا يرجون}.

٤- أنَّ النزاع والمعصية سبب لفوات كمال النصر؛ لأنَّه كان في أول الأمر انتصروا وقتلوا المشركين، لكن لمَّا حدثت هذا المانع امتنع أو انتفى كمال النصر.

٥- أنَّ مثل هذا الأمر؛ النِّزاع والمعصية سبب للخذلان؛ تؤخذ من واقع الأمر؛ لأنَّ قوله: {حتى إذا فشلتم}، قلنا إنَّ جواب الشرط محذوف، والمعنى {أنَّكم خسرتم هذا النصر وخذلتم}؛ ومن قرأ الغزوة تبيَّن له ما حصل للصحابة من الأمور العظيمة التي ستأتي إن شاء الله عند قوله: {فأثابكم غمًّا بغمٍّ}.

٦- أنَّ المعصية بعد النِّعمة أشدُّ من المعصية قبل النِّعمة؛ لقوله: {وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون}، وإلَّا لكان يقول: {وعصيتم} فقط؛ لكن كون المعصية تقع بعد أن أراهم الله ما يحبُّون هذه أعظم ممَّا إذا لم يكن الله أراهم ما يحبُّون.

٧- الحثُّ على اجتماع الكلمة؛ وجهه: أنَّ النِّزاع سبب للخذلان، فيكون الاتفاق سبب للنصر؛ وهو كذلك، اجتماع الناس على كلمة واحدة لاشك أنَّه سبب للنصر؛ ولهذا ينبغي لطلبة العلم والعلماء أن لا يظهر خلافهم ونزاعهم أمام العامَّة؛ الآراء لابدَّ أن تكون، لكن كون كلِّ واحد منهم يعيب على الآخر أن خالفه هذا خطر عظيم جدًّا؛ لأنَّ العامَّة ترى بعد هذا النِّزاع أن لا تثق بواحد منهم، على أنَّ العامَّة أيضًا سوف يتفرَّقون ويكون هذا مع هذا وهذا مع هذا؛ فالنِّزاع لاشكَّ أنَّه سبب للخذلان والفشل وتمزُّق الأُمَّة.

٨- أنَّ المدار كلَّه على ما في القلب؛ لقوله: {منكم من يريد الدنيا ومنكم من يرد الآخرة}، وكأنَّ هذا والله أعلم؛ فيه إشارة إلى أنَّ سبب الجبن والنِّزاع والمعصية سوء النيَّة من بعض من كان فيهم؛ لأنَّه يمكن أن نجعل قوله: {منكم من يريد الدنيا}، أن نجعلها جملة استئنافية تعليلية لما حصل؛ ولاشكَّ أنَّ المدار كلَّه على ما في القلب وأنَّه متى كان القلب صالحًا صلح العمل ومتى كان فاسدًا فسد العمل.

٩- أنَّه قد يكون في خير القرون من يعاب عليه الفعل؛ لقوله: {منكم من يريد الدنيا}، ولكنَّ الصحابة رضي الله عنهم بخاصة لهم من الفضائل والسوابق والصحبة وما حصل من الآفات وغيرها ما يكفِّر ما حصل منهم؛ ولهذا للصحابة مزيَّة على غيرهم، يعني المكفِّرات العامَّة لكلِّ أحد مثل: ((ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلَّا كفَّر الله بها عنه[١]))، هذه عامَّة لكلِّ أحد؛ لكن للصحابة أشياء خاصَّة توجب محو ما حصل منهم من السيِّئات؛ ويدلُّك لهذا أنَّ من أعظم المصائب وأكبر المعايب التجسُّس لحساب المشركين؛ ووقعت من حاطب رضي الله عنه، ولمَّا استأذن عمر رضي الله عنه النبي ﷺ في قتله قال له النبي ﷺ: ((أما علمت أنَّ الله قد اطَّلع إلى أهل بدر وقال: اعملوا ما شئتم فإنِّي قد غفرت لكم[٢]))، مع أنَّ هذه مصيبة عظيمة، التجسُّس لحساب الكفار يوجب القتل ولو كان الإنسان مسلمًا، لأنَّ هذا من السَّعي في الأرض فسادًا؛ ولهذا لم يقل الرسول ﷺ: لا تقتله لأنَّه مسلم؛ بل قال: لا تقتله لأنَّه شهد بدرًا، وقد قال الله تعالى:

١- (قلت): مُتَّفَق عَلَيْهِ، البخاري (٥٦٤١،٥٦٤٠، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٢)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٧٨٢).

٢-(قلت): مُتَّفَق عَلَيْهِ، البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣٢).

((اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم))؛ ولهذا كان القول الصحيح الذي لاشك فيه أنَّ الجاسوس يقتل ولو كان مسلمًا، لو كان يصلِّي ليلًا ونهارًا فإنَّه يقتل.

١٠- إثبات الأسباب؛ لقوله: {ثمَّ صرفكم عنهم ليبتليكم}، فإنَّ سبب صرف الله هؤلاء عن الكفار ما حصل منهم من الفشل والتنازع والمعصية.

١١- إثبات الحكمة في أفعال الله؛ فيكون في هذا ردٌّ على الجهمية ونحوهم ممَّن ينكرون حكمة الله عز وجل، ويقولون: إنَّ الله يفعل لا لحكمة ولكن مجرَّد مشيئة؛ ونحن نؤمن بأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا ولا يشرع شيئًا إلَّا لحكمة؛ لكن من الحكم ما هو معلوم للبشر ومنه ما هو مجهول لا تبلغه العقول.

١٢- أنَّ ما حصل من المؤمنين من التَّنازع والفشل والمعصية وإرادة الدنيا، كلَّه محاه الله عز وجل؛ يؤخذ من قوله: {ولقد عفا عنكم}، إذًا لا أثر له؛ وكما سمعتم في قصة الخارجي الذي جاء إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

١٣- إثبات الفضل لله عز وجل عليهم وعلى غيرهم من المؤمنين لقوله: {والله ذو فضل على المؤمنين}.

فإن قال قائل: وهل لله فضل على غير المؤمنين؟

فالجواب: نعم، له فضل على الناس: {إنَّ الله لذو فضل على الناس}، {والله ذو فضل على العالمين} على كلِّ أحد؛ لكن الفضل نوعان: فضل خاص وفضل عام؛ فالخاص للمؤمنين، والعام للجميع؛ وإلَّا فكلُّ أحد قد تفضَّل الله عليه بالصحَّة والعافية والطعام والشراب واللِّباس والأزواج والبنين وغير ذلك؛ لكنَّ الفضل الخاص الذي يتَّصل بفضل الآخرة هذا للمؤمنين فقط.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {١٥٣}

قال السعدي: يذكِّرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: {إذ تصعدون}: أي تجدون في الهرب، {ولا تلوون على أحد}: أي لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم همٌّ إلَّا الفرار والنَّجاء عن القتال.

قال ابن العثيمين: {إذ}: هذه ظرف، والظرف لابدَّ له من متعلِّق؛ ومتعلِّق {إذ} على أرجح الأقوال محذوف، التَّقدير: (أذكروا إذ تصعدون)؛ هذا أحسن ما قيل فيها، وقال بعضهم: إنَّها متعلِّقة بما قبلها: (ولقد عفا عنكم حين تصعدون)؛ وقال بعضهم: (ثمَّ صرفكم عنهم حين تصعدون)؛ ولكن الأقرب أنَّ المتعلِّق محذوف، التقدير: (أذكروا إذ تصعدون حتى تكون هذه

الحال دائمًا على أذهانكم)؛ وقوله: {تُصعدون}: بضمِّ التاء، وهي غير (تَصعدون) بفتحها، لأنَّ (الصعود) الرُّقي إلى أعلى، كما قال تعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب}، وأمَّا (الإصعاد)، فهو السَّير هربًا في أرضٍ مستوية، يقال: (أصعد): أي ذهب هاربًا أو مسرعًا في الأرض؛ وهذا هو الذي حصل للصحابة رضي الله عنهم، ومنهم من صعد الجبل؛ لكن المراد بقوله: {تصعدون}: أي تهربون سراعًا في أرض مستوية؛ لأنَّ أصعد مأخوذ من الصعيد، والصعيد وجه الأرض، كما قال تعالى: {فتيمَّموا صعيدًا طيِّبًا}.

{ولا تلوون على أحد}: أي لا تلتفتون إلى أحد؛ ولم يقل: (ولم تلتفتوا)، لأنَّ معنى (اللَّي): الانعطاف على الشيء؛ فهو أبلغ، هم لا يلوون على أحد هربًا، خوفًا من قتل الكفار إيَّاهم؛ وتصوُّر المشهد كيف كان، حوالي سبعمائة نفر من خيار المؤمنين يهربون، لا يبقى مع الرسول ﷺ إلَّا نفر قليل؛ وانظر أيضًا قال: {والرسول يدعوكم في أخراكم}، الرسول ﷺ في أخريات القوم هو الذي يلي الأعداء في الآخر، يدعوكم يا عباد الله كرُّوا ارجعوا، ولكن لشدَّة الأمر لا يلوون على أحد؛ وهذه قضية عظيمة؛ ولكنَّ الله سبحانه تعالى قد عفا عنهم ولم يؤاخذهم بما جرى؛ {أخراكم}: يعني الآخر منكم؛ لأنَّ من عادة النبي ﷺ أن يكون في أخريات القوم، ليس كالملوك يأخذ الصَّدر بل هو كالراعي يكون في الآخر يتفقَّد الرعيَّة، إنسان يحتاج إنسان تتخلَّف بعيره يتخلَّف فرسه فيساعده، كما في قصة جابر رضي الله عنه، جابر لمَّا رجعوا في سيرهم كان على جمل قد أعيى؛ أي تعب لا يمشي؛ قال: فلحقني النبي ﷺ؛ أنظر: هذا جمل تعبان يمشي في آخر الناس، ويقول: لحقني النبي؛ معناه أنَّه وراء هذا الجمل التَّعبان؛ قال: فلحقني، وضرب الجمل ضربًا عاديًّا ودعا له، فسار سيرًا لم يسر مثله قط، سبحان الله آية من آيات الله، ثمَّ قال له: ((بعنه بأوقية))، والأوقية أربعين أو خمسين درهم؛ ولكنَّه أبى؛ قال: لا أبيعه؛ قال: ((بعنه))؛ فبعته، باعه على النبي ﷺ، لكنَّه استثنى أن يحمله إلى المدينة، فأعطاه النبي ﷺ شرطه، ثمَّ لمَّا وصل المدينة وأتى إلى النبي ﷺ عند باب المسجد قال له: ((صلَّيت؟))، قال: لا؛ قال: ((أدخل فصلِّ ركعتين))؛ لأنَّ السنَّة للمسافر إذا قدم بلده أن يبدأ قبل كلِّ شيء بالمسجد يصلِّي فيه ركعتين؛ ثبت هذا من فعل الرسول وأمره ﷺ ، وهذه سنة تفوت كثيرًا من الناس، ثمَّ أعطاه الدراهم، وجابر يريد أن يعطيه الجمل، فقال النبي ﷺ: ((أتُراني ماكستك لآخذ جملك، خذ جملك ودراهمك فهو لك[1]))؛ هذا غاية ما يكون من الكرم؛ والنبي ﷺ لم يقصد أن يتصدَّق عليه؛ بعض العلماء رحمهم الله قالوا: إنَّ الرسول ﷺ أراد أن يتصدَّق

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٢٧١٨)، ومسلم (٧١٥)، وصححه الإمام الألباني في الإرواء (١٣٠٤) وقال: وأخرجه أحمد (٣/٢٩٩) من طريق عامر قال: حدثني جابر: ((أنه كان يسير على جمل له قد أعيا، فمر النبي ﷺ، فضربه، فدعا له، فسار سيرًا، ليس يسير مثله، ثم قال: بعنيه بأوقية، فبعته، فاستثنيت (وفى رواية: فاشترطت) حملانه إلى أهلي، (وفى أخرى: فبعته إياه على أن لي فقار ظهره حتى أبلغ المدينة)، فلما قدمنا أتيته بالجمل، ونقدني ثمنه، ثم انصرفت، فأرسل على أثرى، قال: ما كنت لآخذ جملك، فخذ جملك ذلك، فهو مالك. (وفى رواية): فقال: ((أتراني ماكستك لآخذ جملك؟ خذ جملك ودراهمك، فهو لك)). والسياق للبخاري، والرواية الثانية لأحمد، وهى عند أبى داود (٣٥٠٥)، والترمذى (١/٢٣٦) مختصرا وقال: (حسن صحيح). والثالثة لمسلم وكذا الرابعة.

وله فى الصحيحين والسنن وغيرها طرق وألفاظ كثيرة، وقد استقصيت الألفاظ فى (أحاديث البيوع وآثاره).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((حملانه)): أي الحمل عليه، ((ماكستك)): قال أهل اللغة: (المماكسة): هي (المكالمة في النقص من الثمن)، وأصلها النقص، ومنه مكس الظالم، وهو ما ينتقصه ويأخذه من أموال الناس.

عليه بثمن الجمل ففعل هذه الحيلة؛ هذا خطأ؛ لكنَّ الرسول ﷺ أراد أن يعرف كيف كان غلاء هذا الجمل في قلب جابر بعد أن كان عنده رخيصًا يريد أن يسيبه فطلب منه البيع؛ فالذي يظهر من قوله: ((أتُراني ماكستك لآخذ جملك))، أنَّ الرسول ﷺ لم يرد الشراء من الأصل؛ ولكنَّه أراد أن يعلم ما عند جابر رضي الله عنه.

قال ابن كثير: عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ - يعني يوم أحد([١]).

وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان، عن أبيه، عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام، التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ غير طلحة بن عبيد الله وسعد، عن حديثهما([٢]).

عن سعد بن أبي وقاص يقول: نثل([٣])لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد قال: ((ارم فداك أبي وأمي([٤]))).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهِقُوهُ، قَالَ: ((مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟)) - أَوْ ((هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ)) -، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: ((مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟)) - أَوْ ((هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ)) -، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: ((مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا([٥]))).

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن جده، عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين، عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشدَّ القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام([٦]).

وثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله - وهو حينئذ يشير إلى رباعيته - اشتدَّ غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله([٧]))). ورواه البخاري أيضًا من حديث ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ((اشتدَّ غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ، بيده في سبيل الله، اشتدَّ غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ([٨]))).

١- (قلت): البخاري (٤٠٦٣).
٢- (قلت): البخاري (٣٧٢٢ و٣٧٢٣)، ومسلم (٢٤١٤).
- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((عن حديثهما)): معناه (وهما حدَّثاني بذلك).
٣- نثل: يقال: أخَذَ دِرْعَه فنَثَلَها عليه. والنَّثْل: نَثْرُكَ الشيءَ كلَّه بمرَّةٍ. ونَثَلَ الرجلُ: سَلَحَ.
٤- (قلت): البخاري (٤٠٥٥).
٥- (قلت): صحيح مسلم (١٠٠).
٦- صحيح البخاري برقم (٤٠٥٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٦).
٧- صحيح البخاري برقم (٤٠٧٣)، وصحيح مسلم برقم (١٧٩٣).
٨- صحيح البخاري برقم (٤٠٧٤، ٤٠٧٦).

عن سهل بن سعد أنَّه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدَّم، وكان علي يسكب عليها بالمجن، فلمَّا رأت فاطمة رضي الله عنها أن الماء لا يزيد الدم إلَّا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقته، حتى إذا صار رمادًا ألصقته بالجرح، فاستمسك الدَّم([1]).

قال ابن العثيمين: {فأثابكم غمًا بغمٍّ}: الفاعل هو الله عز وجل؛ ومعنى {أثابكم}: أعطاكم ثوابًا؛ و{غمًّا}: هو الثواب الذي أعطاهم الله، فهو المفعول الثاني ل{أثابكم}؛ والثواب: هو المجازاة على العمل إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، حتى الجزاء على الشر يسمى ثوابًا، قال الله تعالى: {هل ثوِّب الكفار ما كانوا يفعلون}؛ لكن إذا قرن الثواب بالعقاب صار العقاب الجزاء على السيئات؛ وصار الثواب الجزاء على الحسنات؛ وأمثال هذا في اللغة كثير، تكون الكلمة لها معنى إذا أفردت، ولها معنى إذا قرنت بغيرها؛ وقوله: {فأثابكم غمًّا بغمٍّ}: {غمًّا} مفعول ثاني ل{أثابكم}؛ {بغمٍّ}: الباء هنا قيل: إنَّها للمصاحبة؛ وقيل: إنَّها للبدل؛ وقيل: إنَّها بمعنى على؛ ولكلٍّ وجهة نظر؛ فأمَّا الذين قالوا للمصاحبة فقالوا: {أثابكم غمًّا}: يعني مصحوبًا بغم، يعني: مقترنًا به لم يفصل بينهما فاصل، غموم متتابعة؛ والذي قالوا إنَّها بمعنى: (على)، قالوا: أصابكم غمًّا على غم، ولا يلزم أن تكون متتابعًا؛ والذين قالوا إنَّها للبدل والعوض يقول: معناها أصابكم غمًّا بغم بدلًا عن الغم الذي حصل منكم؛ وإذا تأمَّلنا وجدنا أنَّ الآية الكريمة تحتمل المعاني الثلاثة كما سيتبيَّن إن شاء الله من تفسير الغم؛ والقاعدة في التفسير أنَّ الآية إذا كانت تحتمل أكثر من معنى وليس بينهما منافاة فإنَّها تحمل على ما تحتمله من المعاني؛ لأنَّ هذا هو بلاغة القرآن.

فما هي الغموم التي أصابتهم؟ نحن نعرف أن المسلمين في أحد أصيبوا بمصائب عظيمة؛ أوَّلًا: كان النصر لهم في أوَّل النَّهار ثمَّ كان عليهم في آخر النَّهار؛ وهذا لاشكَّ أنَّه يحدث غمًّا عظيمًا لأنَّه بعد أن تفرح النفوس بالنصر ثم تنتكس يكون هذا أشدُّ عليها ممَّا لو كانت الانتكاسة لم تسبق بنصر.

ثانيًا: قتل منهم شهداء من شجعانهم مثل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهذا لاشكَّ أنَّه يفت في أعضادهم.

ثالثًا: تأخُّر ثلث الجيش تقريبًا من أثناء الطريق، وهم المنافقون الذين انخذل بهم عبد الله بن أبي المنافق.

رابعًا: أشيع أنَّ النبي ﷺ قتل، وماذا تكون نفوس المؤمنين إذا أشيع أنَّ إمامهم وقائدهم ﷺ قد قتل؛ تكون عظيمة تضيق عليهم الأرض بما رحبت.

خامسًا: أنَّ الرسول ﷺ أصيب يوم أحد، كسرت رباعيته وشجَّ وجهه وأصابه من الضعف والوهن ما لم يصبه من قبل؛ فالغموم كثيرة. وهذه الغموم إذا قلنا إن الباء بدلية يكون معناها أنكم أصابكم غم بسبب ما أصبتم الرسول ﷺ به من الغم، لأنَّ نزولهم من الجبل الذي جعلهم النبي ﷺ فيه، لاشكَّ أنَّه يحزن الرسول ﷺ؛ قائد مرتِّب للجيش أمرهم بأن لا يدعوا المكان مهما كان الأمر ثمَّ يخالفونه؛ طاعة النبي ﷺ في هذا الباب واجبة من وجهين؛ أوَّلًا: إنَّ أمره ﷺ شرع؛ وثانيًا: من جهة أنَّه

١- صحيح البخاري برقم (٢٩١١)، وصحيح مسلم برقم (١٧٩٠).

وليُّ الأمر، قائد، مخالفة القائد ولو لم يكن رسولًا تعتبر شديدة في نفسه؛ فكما أنَّه حصل للنبي ﷺ منهم غم أصابهم الله بغموم.

أمَّا على القول بأنَّها للمصاحبة فالأمر ظاهر؛ لأنَّها غموم متلاحقة في غزوة واحدة؛ وأمَّا كونه غمًّا على غم فكذلك أيضًا، كلَّما ذهب غمٌّ أتى غم آخر.

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: {فأثابكم غمًّا بغمٍّ} فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إيَّاكم غنيمة المشركين والظَّفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ – بعد الذي أراكم في كلِّ ذلك ما تحبُّون – بمعصيتكم ربكم، وخلافكم أمر النبي ﷺ، غم ظنكم أنَّ نبيكم قد قتل، وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم.

قال ابن العثيمين: {فأثابكم غمًّا بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم}: اللام هنا للتعليل والمعلِّل قوله: {فأثابكم}: أي أثابكم غمًّا بغمٍّ من أجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم؛ لأنَّ الغم الأكبر ينسي الغم الأصغر؛ فمثلًا إذا فاتهم النصر هذا غمٌّ بلا شك؛ لكن إذا قتل نبيُّهم ﷺ هذا أشدُّ؛ فلمَّا أشيع أنَّه قتل نسوا الغم الأول ولم يحزنوا عليه لأنَّهم أصيبوا؛ فإذا جاء الفرج وتبيَّن أنَّ الرسول ﷺ قد بقي زالت الغشاوة كلُّها؛ فيكون هذا من لطف الله بهم أنَّه يصيبهم المصائب تنسيهم المصائب الأولى ثم بعد ذلك تنفرج؛ وهذا من حسن ربوبية الله عز وجل وعناية بالصحابة والنبي ﷺ؛ ولهذا قال: {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم} من النصر والغنيمة؛ {ولا ما أصابكم} من الخذلان وفقد الغنيمة؛ فهذه من حكمة الله عز وجل، هذا هو الصواب في معنى الآية الذي لا تحتمل غيره؛ وأمَّا قول الجلالين رحمه الله: إن {لا} زائدة هنا والمعنى: (لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم)؛ فهذا قول بعيد جدًّا؛ بل إنَّ الله عز وجل يحبُّ من المؤمنين أن لا يحزنوا ويسليهم إذا وجدت أسباب الحزن، قال الله تعالى: {إنَّما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئًا إلَّا بإذن الله} هذه تسلية؛ فكيف يفعل الله شيئًا من أجل أن يحزنوا! هذا بعيد جدًّا؛ لكنَّ المعنى الذي ذكرناه أنَّ هذه الغموم التي أصابتهم من أجل أن ينسي بعضها بعضًا فلا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم؛ وحينئذ إذا انكشف الكلُّ صار له طعم لذيذ في النفوس.

{والله خبير بما تعملون}: {خبير[1]} مأخوذ من الخبر، وهو العلم ببواطن الأمور؛ ومنه سمِّي الزارع خبيرًا لأنَّه يدفن الحب ويخفيه؛ فالأصل أنَّ هذه المادة تدلُّ على خفاء؛ فـ{الخبير} هو العليم ببواطن الأمور؛ والعليم ببواطن الأمور، عليم بظواهر الأمور من باب أولى؛ وقوله: {خبير بما تعملون}: {بما}: أي بالذي {تعملون} من خير وشر، وفعل، وقول، ووسوسة في النفوس؛ لكن هنا قال: {بما تعملون}، لأنَّ المراد بالخبرة هنا ما يترتَّب عليها من حساب؛ فهي جملة خبرية تفيد التَّهديد لأنَّ

١- (قلت): أنظر معنى اسم الله {الخبير} مفصلًا عند تفسير الآية (١٨) من سورة الأنعام.

الله عز وجل لا يحاسب إلَّا على العمل؛ أمَّا حديث النفس فلا يحاسب عليه؛ لو حدث الإنسان نفسه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات ثمَّ لم ينفذ فإنَّه لا يحاسب؛ ولهذا قال: {خبير بما تعملون}.

قال أبو زهرة: ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا النَّص للإشارة إلى أنَّ ما وقع كلُّه كان في علم الله، يعلمه علمًا دقيقًا قد أحصى فيه كلَّ أعمالكم قبل وقوعها، وقدَّر نتائجها ونهاياتها، وما يعقبه بعد ذلك من عبرة يحملكم على الطاعة المطلقة للقائد الحكيم الذي يهديكم سبيل الرشاد، وأنَّه لا نصر مع المعصية، ولا هزيمة مع الطاعة واحتساب النيَّة، والله بكلِّ شيء محيط.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تذكير المؤمنين بما جرى منهم من المخالفة، حيث قال: {إذ تصعدون ولا تلوون}، هذا على القول بأن {إذ} متعلقة بمحذوف تقديره: أذكر؛ أمَّا على القول بأنَّها متعلِّقة ب{عفا} فيستفاد منها تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم في عفوه عنهم حين أصعدوا.

٢- التَّوبيخ اللَّطيف في قوله: {ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم}، فإنَّ الشجاعة تمنع أن يقع من الإنسان مثل هذه الحال يهرب ولا يلوي على أحد والرسول يدعوه يقول: ((إليَّ يا عباد الله))، ففيها توبيخ لطيف للصحابة ممَّا جرى منهم.

٣- حسن رعاية النبي ﷺ لأُمَّته في قيادته العظيمة، حيث يكون في أخريات القوم؛ وهذا شأنه ﷺ أن يكون في أخريات القوم من أجل أن يتفقدَّهم، وليس كالملوك الذين يتقدَّمون الناس بل هو يتأخَّر؛ وقصة جمل جابر ليست ببعيدة حيث كان النبي ﷺ في أخريات القوم فلحق جابرًا وكان معه جمل قد أعيا فلحقه النبي ﷺ وضربه ودعا له ومشى الجمل؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ من أهداف النبي ﷺ للتأخُّر مثل هذه الحال.

٤- أنَّه ينبغي للقائد أن يكون ذا شجاعة في قيادته، بحيث يثبت ويدعوا إلى الثبات؛ تؤخذ من قوله: {والرسول يدعوكم} لأنَّه لو لم يثبت وهرب معهم لم يكن صالحًا للقيادة.

٥- إثبات رسالة النبي ﷺ في قوله: {والرسول يدعوكم}.

٦- حكمة الله عز وجل وعدله في إثابته عباده؛ لقوله: {فأثابكم غمًّا بغمٍّ}، والعدل ظاهر جدًّا إذا جعلنا الباء للبدل؛ والحكمة ظاهرة إذا جعلناها للمصاحبة أو بمعنى {على}؛ لأنَّ هذه الغموم التي يتلو بعضها بعضًا، يخفِّف بعضها بعضًا.

٧- إثبات حكمة الله عز وجل في أفعاله؛ من قوله: {لكيلا} فإنَّ اللام هنا للتعليل.

ومسألة إثبات الحكمة لله في أفعاله وأحكامه الشرعية ينفيها الجهمية والأشعرية ويقولون: إنَّ أفعال الله لا تعلَّل لأنَّها لو عُلِّلت لكان يفعل لغرض، ولأنَّها لو علِّلت لصحَّ أن يتوجَّه السؤال إليه عنها فيقال: لم فعلت؟، والله سبحانه وتعالى لا يسأل عمَّا

يفعل وهم يسألون؛ وقد بيَّنّا فيما سبق أنَّ نفي العلَّة أو نفي الحكمة في أفعال الله يعدُّ تنقُّصًا لله عز وجل؛ لأنَّه إذا انتفت الحكمة في أحكامه الشرعية أو القدرية صارت أحكامه عبثًا ولعبًا، وقد أبطل الله تعالى ذلك في عدَّة آيات أشدُّها قوله تعالى: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظنُّ الذين كفروا فويل للذين كفروا النار}.

٨- أنَّ الله عز وجل يحبُّ من عباده أن لا يحزنوا، لأنَّه قدَّر الغمَّ بالغمِّ من أجل أن لا يحزنوا؛ وذلك لأنَّ الحزن يحدث للإنسان انقباضًا ربما يمنعه عن كثير من المصالح، وربما يحدث له عقدًا نفسية؛ والإنسان ينبغي أن يعود نفسه على انشراح الصَّدر وانبساط النفس بقدر ما يستطيع، لأنَّه لاشكَّ أنَّ الإنسان إذا كان صدره منشرحًا ونفسه منبسطة أنَّه يكون مستريحًا قابلًا للتَّفهُّم والتَّفهيم؛ وإذا كان محزونًا تجده لا يحبُّ أن يكلِّمه أحد فضلًا عن أن يكون له تفهيم أو فهم.

٩- التربية العظيمة للعباد وهي أن لا يحزنوا على ما فاتهم؛ إذا فاتك خير تظنُّه خيرًا لنفسك فقل: قدرُ الله وما شاء فعل، وكذلك إذا أصابك ما تكره قل: قدرُ الله وما شاء فعل؛ واعلم أنَّ الحزن لا يرد الفائت أبدًا وإنَّما يزيد الإنسان بلاء.

١٠- إثبات علم الله عز وجل الواسع لكلِّ معلوم؛ لقوله: {والله خبير بما تعملون}.

١١- وجوب الحذر من مخالفة الله عز وجل؛ وجهه: أنَّه إذا كان خبيرًا بعملنا فإنَّ ذلك يوجب لنا أن لا نخالفه، لأنَّنا إن خالفناه علم، وإذا علم فسوف يحاسبنا.

١٢- الرَّد على الجبرية؛ لقوله: {تعملون}، ووجه ذلك: أنَّه أضاف العمل إليهم؛ والجبرية يقولون: إنَّ الإنسان لا يعمل ولا يفعل شيئًا باختياره.

١٣- الرَّد على غلاة القدرية؛ من قوله: {خبير} لأنَّ غلاة القدرية ينكرون علم الله بفعل العبد، ويقولون: إنَّ الله عز وجل لا يعلم أفعال العبد لكن إذا فعلها علم بها.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {١٥٤}

قال ابن كثير: يقول تعالى ممتنًّا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأَمَنة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السِّلاح في حال همِّهم وغمِّهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال تعالى في سورة الأنفال، في قصة بدر: {إذ يغشِّيكم النُّعاس أمنةً منه}.

قال ابن العثيمين: {ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنة نعاسًا}: {ثم} للتَّرتيب بمهلة؛ أنزل الله عز وجل؛ {أنزل عليكم من بعد الغمِّ}: المراد بالغمِّ هنا جنس الغم، فيشمل الغم بعد الغم، كلَّ الغموم السابقة: {من بعد الغمِّ أمنةً نعاسًا}، {أمنةً}: يجوز في إعرابها وجهان؛ الوجه الأول: أن تكون مفعولًا لأجله؛ والثاني: أن تكون مفعولًا به لـ{أنزل} فعلى الوجه الأوَّل يكون: {نعاسًا} مفعول {أنزل}، وعلى الثاني يكون: {نعاسًا} بدلًا أو عطف بيان من {أمنةً}.

{أمنةً}: بمعنى أمن، يعني: (أنزل عليكم من بعد الغم أمنًا)، (أمنة)، و(أمن)، بمعنى واحد؛ ما هذا الأمن؟ قال: {نعاسًا}، والنعاس مقدِّمة النوم، وهو دليل على طمأنينة القلب، لأنَّ الخائف لا يمكن أن ينعس لأنَّ قلبه يرجف، مضطرب، لكن الآمن المطمئن ينعس؛ ولهذا قال: {نعاسًا}.

قال ابن كثير: عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان. وقال البخاري: عن أبي طلحة، قال: كنت فيمن تغشَّاه النُّعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه(١). وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم، من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلَّا يميد تحت جحفته من النُّعاس(٢).

{يغشى طائفةً منكم}: وفي قراءة: {تغشى طائفةً منكم}، فإذا كانت القراءة: {تغشى}، فالضمير يعود على {أمنةً}، وإذا كانت القراءة: {يغشى}، فالضمير يعود على {نعاسًا}؛ أي يصيب طائفة، والغشيان في الأصل التغطية، ومنه قوله تعالى:

١- (قلت): البخاري (٤٠٦٨).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٠٠٧).

{وعلى أبصارهم غشاوة}، وقوله: {يغشي الليل النهار}، لكن قد يراد به مجرَّد الإصابة، وقد يراد به مع الإصابة أنَّه إذا غشيهم، يعني: شملهم جميعًا، {يغشى طائفة منكم}: الخطاب للمؤمنين.

قال ابن كثير: {يغشى طائفةً منكم}: يعني أهل الإيمان واليقين والثَّبات والتوكُّل الصادق، وهم الجازمون بأنَّ الله سينصر رسوله وينجز له مأموله، ولهذا قال: {وطائفةٌ قد أهمَّتهم أنفسهم}: يعني لا يغشاهم النُّعاس من القلق والجزع والخوف.

قال ابن العثيمين: {وطائفةٌ قد أهمَّتهم أنفسهم}: يعني فلم يغشهم النُّعاس؛ لأنَّ أنفسهم قد أهمَّتهم أوقعتهم في الهمِّ؛ لأنَّهم يقولون: ماذا ندري ما يكون؛ ويخمّسون ويسدّسون؛ والذي هكذا حاله لا يأتيه النوم ولا يقربه النُّعاس؛ ولهذا قال: {قد أهمَّتهم أنفسهم}، وطوى ذكر ترك عدم النُّعاس لأنَّه يعلم من حالهم؛ فإذا كانت قد أهمَّتهم أنفسهم فإنَّه لا يمكن أن ينعسوا.

{يظنُّون بالله غير الحقِّ}: جملة {يظنُّون ...} يجوز أن تكون خبرًا ثانيًا لقوله: {وطائفةٌ}؛ والخبر الأوَّل جملة: {قد أهمَّتهم أنفسهم}: يعني وطائفةٌ أهمَّتهم أنفسهم، وكذلك يظنُّون بالله غير الحقِّ؛ ويجوز أن يكون: {يظنُّون} في موضع نصب على الحال من الضمير في: {أهمَّتهم}، يعني: أهمَّتهم حال كونهم يظنُّون بالله غير الحقِّ؛ يعني يظنُّون بالله سبحانه وتعالى ظنًّا غير ظنَّ الحقِّ؛ يظنُّون أشياء كثيرة؛ يقولون مثلًا: هل لنا من الأمر من شيء؟ نعم يظنُّون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية، يظنُّون مثلًا أنَّ الرسول ﷺ قتل حقيقةً، وأنَّه لا نصر للإسلام بعد هذه الهزيمة، وأنَّ الدولة ستكون للكافرين، وما أشبه ذلك من الظنُّون الفاسدة، ولاشكَّ أنَّ هذا ظنٌّ مبنيٌّ على الجهل؛ ولهذا قال: {غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية}، فبدأ ببطلان هذا الظنِّ أوَّلًا ثمَّ بيَّن أنَّه صادر عن جهل؛ ولهذا قال: {ظنَّ الجاهلية}: أي ظنَّ أهل الجهل؛ لأنَّ من عرف الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأحكامه لا يمكن أبدًا أن يظنَّ به هذا الظَّنِّ أنَّ الله يديل الباطل على الحقِّ، وأنَّ الله لا ينصر رسله، لا يظنَّ هذا الظنِّ إلَّا من لا يعرف الله عز وجل.

قال شيخ الإسلام في النبوات ج١ص٢٤٩: وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد: {وطائفةٌ قد أهمَّتهم أنفسهم يظنُّون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية}، فسَّره ابن عباس وغيره: بأنَّهم ظنُّوا أنَّ الله لم يُقَدِّر ما جرى، وأنَّه لا ينصر رسوله، فكما أنَّ القدر يجب الايمان به ويعلم أنَّ كلَّ ما كان، فقد سبق به علم الرب، فكذلك يعلم أنَّه لابدَّ أن ينصر رسله والذين آمنوا، وكما انَّه لا يجوز أن يقع خلاف المُقَدَّر فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا، ومثله قوله تعالى فيما أنزله عام الحديبية لمَّا ظنَّ ظانُّون أنَّ الرسول وأتباعه لا يُنصرون فقال تعالى: {ويعذِّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظَّانِّين بالله ظنَّ السَّوء عليهم دائرة السَّوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرًا}[الفتح: ٦]، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا ظنٌّ سوءٌ بالله، لا يجوز أن يظنَّ به أن يفعل ذلك، ومن ينفي الحكمة يقول يجوز عليه فعل كلِّ شيء وليس عنده ظنُّ سوءٍ بالله، وإن قيل: لمَّا أخبر أنَّه ينصره، كان ضدُّ ذلك ظنُّ سوءٍ لأنَّ خبره لا يقع بخلاف مخبره قيل عن هذا جوابان:

أحدهما: أنَّ هؤلاء يلزمهم تجويز إخلاف الوعد عليه لأنَّ هذا من باب الافعال المقدورة وهم يجوِّزون كلَّ مقدورٍ، وإذا قيل: إخلاف الوعد قبيح فهم ليس عندهم شيءٌ قبيح ينزِّهون الرَّب عنه.

الثاني: أنَّه إذا علم أنَّه يفعله ولو بالعلم الضروري فإنَّما ذاك لأنَّه واقع ولو قدّر أنَّ رجلًا ظنَّ أنَّ الله لا يفعل ما سيفعله ممَّا ليس فيه ذم، مثل أن يظنَّ أنَّه يموت بعد شهر لم يقل أنَّ هذا ظنُّ سوءٍ، وإنَّما يكون ظنُّ سوءٍ اذا كان المظنون عيبًا قبيحًا لا يجوز أن يضاف الى المظنون به ومنه قوله تعالى: {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر ويظنُّون بالله الظنونا}[الأحزاب: ١٠]، فهذا ذمٌّ لمن ظنَّ بالله الظنونا. ومن ذلك قوله تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون}[القلم: ٣٥، ٣٦]، وهذا يقتضي أنَّ هذا ممتنع عليه ومن حكم بجوازه فقد حكم حكمًا باطلًا جائزًا ممتنعًا كالذين جوّزوا أن تكون له بنات وهم يكرهون أن تكون لهم بنات فيجوّزون على الله ما هو قبيح عندهم، قال تعالى: {ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودًّا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون}[النحل: ٥٧- ٥٩].

قال ابن العثيمين: {يقولون هل لنا من الأمر من شيء} جملة: {يقولون ...} يصح أن تكون خبرًا ثالثًا ل{طائفة}؛ ويصح أن تكون حالًا من الواو في {يظنُّون}، يظنُّون حال كونهم قائلين؛ وقوله: {يقولون}: يحتمل أنَّهم يقولون في أنفسهم؛ ويحتمل أنَّهم يقولون بألسنتهم يعني يقول بعضهم لبعض: {هل لنا من الأمر من شيء}؛ والأصل في القول إذا أطلق فهو قول اللِّسان، وإذا كان قول النفس لابدَّ أن يقيد، كما قال الله تعالى: {ويقولون في أنفسهم لولا يعذِّبنا الله بما نقول}؛ فإذًا تكون الآية دالَّة على أنَّ هذه القول صادر منهم بألسنتهم.

{هل لنا من الأمر من شيء}: {هل} هنا للاستفهام؛ المراد بالاستفهام: الإنكار كأنَّهم يقولون هل نحن روجعنا؟ هل شاورونا؟ أو أنَّهم ينفون، أن يكون الاستفهام للنفي، يعني يقول: {ليس لنا من الأمر شيء}؛ ننظر ما الذي يؤيده سياق الآية؛ {يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إنَّ الأمر كلَّه لله}، هل يؤيّد أنَّ {هل} بمعنى (ما)؟، أو أنَّ {هل} بمعنى الإنكار؟ أي أنَّهم ينكرون أنَّه لم يرجع إليهم بشيء؟ سياق الآية يدلُّ على الثاني، وأنَّ هؤلاء أخذوا على القيادة في هذه الغزوة، أخذوا عليها أنَّها لم تراجعهم، وقالوا: {هل لنا من الأمر من شيء}؛ فقال الله عز وجل: {قل إنَّ الأمر كلَّه لله}، ويؤيِّد هذا أيضًا قوله: {يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هاهنا}: يعني لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما حصلت هذه الهزيمة، إلى آخر الآيات؛ فالظاهر أنَّ الاستفهام هنا ليس للنفي كما ذهب إليه بعض المفسِّرين، ولكن معناه الإنكار على القيادة أنَّها لم تراجعهم في هذا الأمر؛ يقول: {هل لنا من الأمر من شيء}: {الأمر} هنا واحد الأمور؛ يعني: هل لنا من أمور الحرب شيء؟ ليس لنا، ما وجه إلينا شيء من أمر الحرب؛ فكأنَّهم يريدون أن يتنصَّلوا ممَّا حصل، ويقول لأنَّا ما رجعنا ولا رجع إلينا ولا أخذ رأينا.

{قل إنَّ الأمر كلَّه لله}: فيها قراءتان: {كُلَّهُ}، و{كُلُّهُ}؛ وكلاهما قراءتان سبعيتان؛ فإذا كانت: {كلَّه}، صارت: {كُلَّ} منصوبة على توكيد الأمر: {إنَّ الأمر كلَّه لله}؛ وعلى قراءة الرفع تكون: {الأمر} اسم {إنَّ}، و{كُلُّ} مبتدأ، و{لله} خبر، والجملة من المبتدأ والخبر، خبر {إنَّ}؛ على كلِّ حال: {الأمر} هنا: {الأمر كلَّه لله}، يشمل الأمر الكوني والأمر الشرعي؛

فالأمر لله عز وجل كلِّه، هو الذي يتصرَّف في عباده كما يشاء حسب ما تقتضيه الحكمة سواء كان هذا الأمر كونيًّا وهو الذي يقول الله له كن فيكون؛ أو شرعيًّا وهو الأمر الموجَّه للعباد، افعلوا أو لا تفعلوا، كلَّه لله كما أنَّ الحكم كلَّه لله.

{يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك}: {يخفون} أي: (يضمرون في نفوسهم ما لا يبدونه للرسول ﷺ ولكنَّ الله يعلمه)؛ وهذا يعدُّ لاشكَّ ممَّا جرى من الصحابة رضي الله عنهم وهو أمر لو تركوه لكان أفضل، لو كانوا يصرِّحون للرسول ﷺ ويصارحونه لكان خيرًا من كونهم يتكلَّمون فيما بينهم ويخفونه عن رسول الله ﷺ؛ وهذا ليس لجميع الصحابة بل لطائفة منهم؛ لأنَّ المنافقين كلُّهم رجعوا قبل أن يصلوا إلى أحد، إن بقي فقد بقي ناس قليلون؛ لكن ظاهر الآية حيث قال: {يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمَّتهم أنفسهم}، أنَّ هذه الطائفة من المؤمنين، مع أنَّ المفسِّرون مختلفون في ذلك على قولين؛ القول الأوَّل: إنَّها طائفةٌ من المؤمنين لكنَّهم ضعاف الإيمان؛ والقول الثاني: أنَّ هذه الطائفة طائفة من المنافقين. ولكن الذي يرجِّح الأوَّل التَّقسيم لأنَّه قال: {يغشى طائفةً}، {وطائفةٌ قد أهمَّتهم}.

قوله: {يخفون في أنفسهم ما يبدون لك يقولون} جملة: {يقولون} تفسير للذي يخفونه؛ والقول هنا قول باللِّسان، لأنَّ القول إذا أطلق فهو قول اللِّسان.

{لو كان لنا من الأمر شيئًا ما قتلنا هاهنا}: هذا ما يخفونه؛ {الأمر} هنا واحد الأمور، يعني: (لو كان لنا من الشأن في هذه الغزوة شيء ورد الأمر إلينا ما قتلنا هاهنا)، يعني: ما خرجنا ولا قتلنا؛ وذلك أنَّ النبي ﷺ استشار الصحابة حين الخروج إلى أحد هل يخرجوا أم لا؟ فأشار إليه الشبان بأن يخرج لأنَّ كثيرًا منهم لم يخرجوا في غزوة بدر؛ فأرادوا أن يعوِّضوا عن تخلُّفهم عن غزوة بدر بهذه الغزوة؛ وقال بعض الصحابة: بل نبقى يا رسول الله في المدينة فإن دخلوا علينا قاتلناهم من على السطوح؛ وكان رأي النبي ﷺ يميل إلى هذا، ولكنَّه دخل بيته ﷺ ثمَّ عزم على أن يخرج، ولبس لَأْمَةَ الحرب وخرج؛ فكأنَّهم أرادوا أن يرجع عن عزيمته، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا له؛ فقال: ((ما كان لنبي لبس لَأْمَةَ الحرب أن يضعها حتى يفتح الله بينه وبين عدوِّه([1])))، هكذا أو نحوه، فخرج؛ فالذين قالوا نبقى في المدينة هم الذين قالوا: {لو كان لنا من الأمر شيءٍ ما قتلنا هاهنا}، يعني لبقينا في المدينة ولم نقتل.

{قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم}: {قل} يعني: يا محمد لهؤلاء الذين قالوا: {لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا}، {لو كنتم في بيوتكم} أي: بقيتم فيها ولم تخرجوا، ليس في مدينتكم فحسب بل في بيوتكم، في قعر البيت: {لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم}: يعني أنَّ اختفاءكم وبقائكم في بيوتكم لا يمنع أن تبرزوا إلى مضاجعكم حيث كتب عليكم القتل.

وقوله: {في بيوتكم}: فيها قراءتان سبعيتان: ضم الباء وكسرها؛ {في بُيوتكم} و {في بِيوتكم}؛ وفي: {كتب عليهم}: ثلاث قراءات سبعيات: كسر الهاء مع ضم الميم {عليهِمُ القتل}، وضم الهاء والميم: {عليهُمُ القتل}، وكسر الهاء والميم {عليهِمِ

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (١١٠٠)، وقال: أخرجه أحمد بسند حسن.

القتل}؛ يعني: {لو كنتم في بيوتكم لبرز}، وهذه {لو} شرطية، فعل الشرط: {كنتم}، وجوابه: {لبرز} وقد مرَّ علينا أن (لو) تأتي شرطية، وتأتي للتمنّي، مثل قوله تعالى: {ودوا لو تدهن فيدهنون}: يعني (ودوا أن تدهنوا)، فتكون مصدرية.

{لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل}: كتب عليهم القتل كتابة قدرية لا كتابة شرعية؛ فهي كقوله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون}، هذه كتابة قدرية؛ أمَّا قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام}، فهي كتابة شرعية بمعنى فرض.

{إلى مضاجعهم}: أي مكان الاضطجاع؛ لأنَّ الميت يضجع في قبره؛ ولكنَّه اضطجاع إلى أمد، إلى أن يبعث يوم القيمة؛ فإنَّ الاضطجاع في القبور ليس هو آخر شيء؛ ولمَّا سمع أعرابي رجلًا يقرأ قول الله تعالى: {ألهكم التكاثر حتى زرتم المقابر} قال: والله ما الزائر بمقيم؛ أنظر كيف فهم الأعراب؛ والله ما الزائر بمقيم؛ فاستدلَّ بهذه الآية على أنَّه لابدَّ من مفارقة لهذه المقابر، وذلك في البعث؛ وقوله: {إلى مضاجعهم}، قلت: محل اضطجاعهم الذي يدفنون فيه.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص٢٠٤: ثُمَّ إِنَّهُ تَدَارَكَهُمْ سُبْحَانَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَخَفَّفَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْغَمَّ، وَغَيَّبَهُ عَنْهُمْ بِالنُّعَاسِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ أَمْنًا مِنْهُ وَرَحْمَةً، وَالنُّعَاسُ فِي الْحَرْبِ عَلَامَةُ النُّصْرَةِ وَالْأَمْنِ، كَمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ النُّعَاسُ فَهُوَ مِمَّنْ أَهَمَّتْهُ نَفْسُهُ لَا دِينُهُ وَلَا نَبِيُّهُ وَلَا أَصْحَابُهُ، وَأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَقَدْ فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَأَنَّهُ يُسْلِمُهُ لِلْقَتْلِ، وَقَدْ فُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا حِكْمَةَ لَهُ فِيهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي [سُورَةِ الْفَتْحِ]، حَيْثُ يَقُولُ: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[الفتح: ٦]، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَنْسُوبَ إِلَى أَهْلِ الْجَهْلِ، وَظَنَّ غَيْرِ الْحَقِّ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَذَاتِهِ الْمُبَرَّأَةِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَسُوءٍ، بِخِلَافِ مَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّهِ، وَمَا يَلِيقُ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ وَبِكَلِمَتِهِ الَّتِي سَبَقَتْ لِرُسُلِهِ أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَخْذُلُهُمْ، وَلِجُنْدِهِ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ، فَمَنْ ظَنَّ بِأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَلَا يُتِمُّ أَمْرَهُ، وَلَا يُؤَيِّدُهُ وَيُؤَيِّدُ حِزْبَهُ، وَيُعْلِيهِمْ وَيُظْفِرُهُمْ بِأَعْدَائِهِ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَكِتَابَهُ، وَأَنَّهُ يُدِيلُ الشِّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا التَّوْحِيدُ وَالْحَقُّ اضْمِحْلَالًا لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا، فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَنَسَبَهُ إِلَى خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِهِ، فَإِنَّ حَمْدَهُ وَعِزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَإِلَهِيَّتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَنْ يُذَلَّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ، وَأَنْ تَكُونَ النُّصْرَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ وَالظَّفَرُ الدَّائِمُ لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْعَادِلِينَ بِهِ، فَمَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَلَا عَرَفَ صِفَاتَهُ وَكَمَالَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَغَايَةٍ مَحْمُودَةٍ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ عَلَيْهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ مَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ حِكْمَةٍ وَغَايَةٍ

مَطْلُوبَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهَا، وَأَنَّ تِلْكَ الْأَسْبَابَ الْمَكْرُوهَةَ الْمُفْضِيَةَ إِلَيْهَا لَا يَخْرُجُ تَقْدِيرُهَا عَنِ الْحِكْمَةِ لِإِفْضَائِهَا إِلَى مَا يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُوهَةً لَهُ فَمَا قَدَّرَهَا سُدًى، وَلَا أَنْشَأَهَا عَبَثًا، وَلَا خَلَقَهَا بَاطِلًا، {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}[ص: ٢٧]، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ.

*فَمَنْ قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيِسَ مِنْ رَوْحِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَيُسَوِّي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًى مُعَطَّلِينَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلَا يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَلَا يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، بَلْ يَتْرُكُهُمْ هَمَلًا كَالْأَنْعَامِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَجْمَعَ عَبِيدَهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي دَارٍ يُجَازِي الْمُحْسِنَ فِيهَا بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيُبَيِّنَ لِخَلْقِهِ حَقِيقَةَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَيُظْهِرَ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رُسُلِهِ، وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمُ الْكَاذِبِينَ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُضَيِّعُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ الصَّالِحَ الَّذِي عَمِلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَيُبْطِلُهُ عَلَيْهِ بِلَا سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ، أَوْ أَنَّهُ يُعَاقِبُهُ بِمَا لَا صُنْعَ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إِرَادَةَ فِي حُصُولِهِ، بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ بِهِ، أَوْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَيِّدَ أَعْدَاءَهُ الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَيُجْرِيهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ يُضِلُّونَ بِهَا عِبَادَهُ، وَأَنَّهُ يَحْسُنُ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى تَعْذِيبُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي طَاعَتِهِ فَيُخَلِّدُهُ فِي الْجَحِيمِ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ، وَيُنَعِّمُ مَنِ اسْتَنْفَدَ عُمْرَهُ فِي عَدَاوَتِهِ وَعَدَاوَةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ، فَيَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهُ فِي الْحُسْنِ سَوَاءٌ، وَلَا يُعْرَفُ امْتِنَاعُ أَحَدِهِمَا وَوُقُوعُ الْآخَرِ إِلَّا بِخَبَرٍ صَادِقٍ، وَإِلَّا فَالْعَقْلُ لَا يَقْضِي بِقُبْحِ أَحَدِهِمَا وَحُسْنِ الْآخَرِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ وَتَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ وَتَرَكَ الْحَقَّ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ، وَإِنَّمَا رَمَزَ إِلَيْهِ رُمُوزًا بَعِيدَةً، وَأَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَاتٍ مُلْغِزَةً لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، وَصَرَّحَ دَائِمًا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْبَاطِلِ، وَأَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُتْعِبُوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَتَطَلَّبُوا لَهُ وُجُوهَ الِاحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ، وَالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْكَشْفِ وَالْبَيَانِ، وَأَحَالَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا عَلَى كِتَابِهِ، بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا كَلَامَهُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ مِنْ خِطَابِهِمْ وَلُغَتِهِمْ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ، وَيُرِيحَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوقِعُهُمْ فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ، فَلَمْ يَفْعَلْ بَلْ سَلَكَ بِهِمْ خِلَافَ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الْحَقِّ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ هُوَ وَسَلَفُهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِقُدْرَتِهِ الْعَجْزَ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ قَادِرٌ وَلَمْ يُبَيِّنْ، وَعَدَلَ عَنِ الْبَيَانِ وَعَنِ التَّصْرِيحِ بِالْحَقِّ إِلَى مَا يُوهِمُ بَلْ يُوقِعُ فِي الْبَاطِلِ الْمُحَالِ وَالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ، فَقَدْ ظَنَّ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ أَنَّهُ هُوَ وَسَلَفُهُ عَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ بِصَرِيحِهِ دُونَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ، وَأَنَّ الْهُدَى وَالْحَقَّ فِي كَلَامِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ. وَأَمَّا كَلَامُ اللَّهِ فَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ وَالضَّلَالُ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُتَهَوِّكِينَ الْحَيَارَى هُوَ الْهُدَى وَالْحَقُّ، وَهَذَا مِنْ أَسْوَأِ الظَّنِّ بِاللَّهِ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَمِنَ الظَّانِّينَ بِهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِهِ وَتَكْوِينِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ كَانَ مُعَطَّلًا مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ، وَلَا يُوصَفُ حِينَئِذٍ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ، ثُمَّ صَارَ قَادِرًا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَعْلَمُ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا عَدَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا النُّجُومِ وَلَا بَنِي آدَمَ وَحَرَكَاتِهِمْ وَأَفْعَالَهُمْ، وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْأَعْيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا سَمْعَ لَهُ وَلَا بَصَرَ وَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا إِرَادَةَ وَلَا كَلَامَ يَقُولُ بِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ وَلَا يَتَكَلَّمُ أَبَدًا، وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ، وَلَا لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَقُومُ بِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّ نِسْبَةَ ذَاتِهِ تَعَالَى إِلَى عَرْشِهِ كَنِسْبَتِهَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَإِلَى الْأَمْكِنَةِ الَّتِي يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَنَّهُ أَسْفَلُ كَمَا أَنَّهُ أَعْلَى فَقَدْ ظَنّ بِهِ أَقْبَحَ الظّنّ وَأَسْوَأَهُ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ يُحِبُّ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَيُحِبُّ الْفَسَادَ كَمَا يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالْبِرَّ وَالطَّاعَةَ وَالْإِصْلَاحَ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى، وَلَا يَغْضَبُ وَلَا يَسْخَطُ، وَلَا يُوَالِي وَلَا يُعَادِي، وَلَا يَقْرُبُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَأَنَّ ذَوَاتَ الشَّيَاطِينِ فِي الْقُرْبِ مِنْ ذَاتِهِ كَذَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُفْلِحِينَ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُسَوِّي بَيْنَ الْمُتَضَادَّيْنِ، أَوْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِيَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ أَوْ يُحْبِطُ طَاعَاتِ الْعُمُرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصَةِ الصَّوَابِ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ تَكُونُ بَعْدَهَا، فَيُخَلِّدُ فَاعِلَ تِلْكَ الطَّاعَاتِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ بِتِلْكَ الْكَبِيرَةِ، وَيُحْبِطُ بِهَا جَمِيعَ طَاعَاتِهِ، وَيُخَلِّدُهُ فِي الْعَذَابِ كَمَا يُخَلِّدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَقَدِ اسْتَنْفَدَ سَاعَاتِ عُمُرِهِ فِي مَسَاخِطِهِ وَمُعَادَاةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَبِالْجُمْلَةِ:

*فَمَنْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، أَوْ عَطَّلَ حَقَائِقَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ نَصَبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فَيَدْعُونَهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ كَمَا يَنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ حِكْمَتِهِ وَخِلَافَ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ مِنْ ظَنِّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعَوِّضْهُ خَيْرًا مِنْهُ أَوْ مَنْ فَعَلَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ. سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْمَشِيئَةِ وَمَحْضِ الْإِرَادَةِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا صَدَقَهُ فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ، وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُخَيِّبُهُ وَلَا يُعْطِيهِ مَا سَأَلَهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُثِيبُهُ إِذَا عَصَاهُ بِمَا يُثِيبُهُ بِهِ إِذَا أَطَاعَهُ، وَسَأَلَهُ ذَلِكَ فِي دُعَائِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ وَخِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَمَا لَا يَفْعَلُهُ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا أَغْضَبَهُ وَأَسْخَطَهُ، وَأَوْضَعَ فِي مَعَاصِيهِ ثُمَّ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا، وَدَعَا مِنْ دُونِهِ مَلَكًا أَوْ بَشَرًا حَيًّا أَوْ مَيِّتًا يَرْجُو بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَعَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَيُخَلِّصَهُ مِنْ عَذَابِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي بُعْدِهِ مِنَ اللَّهِ وَفِي عَذَابِهِ.

*وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُسَلِّطُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْدَاءَهُ تَسْلِيطًا مُسْتَقِرًّا دَائِمًا فِي حَيَاتِهِ وَفِي مَمَاتِهِ، وَابْتَلَاهُ بِهِمْ لَا يُفَارِقُونَهُ، فَلَمَّا مَاتَ اسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ دُونَ وَصِيَّةٍ وَظَلَمُوا أَهْلَ بَيْتِهِ، وَسَلَبُوهُمْ حَقَّهُمْ وَأَذَلُّوهُمْ، وَكَانَتِ الْعِزَّةُ وَالْغَلَبَةُ وَالْقَهْرُ لِأَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِهِمْ دَائِمًا مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَلَا ذَنْبٍ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ الْحَقِّ، وَهُوَ يَرَى قَهْرَهُمْ لَهُمْ وَغَصْبَهُمْ إِيَّاهُمْ حَقَّهُمْ وَتَبْدِيلَهُمْ دِينَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ وَجُنْدِهِ، وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يُدِيلُهُمْ، بَلْ يُدِيلُ أَعْدَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، أَوْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بَلْ حَصَلَ هَذَا بِغَيْرِ قُدْرَتِهِ وَلَا مَشِيئَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الْمُبَدِّلِينَ لِدِينِهِ مُضَاجِعِيهِ فِي حُفْرَتِهِ تُسَلِّمُ أُمَّتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ كُلَّ وَقْتٍ كَمَا تَظُنُّهُ الرَّافِضَةُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ، سَوَاءٌ قَالُوا: إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُمْ وَيَجْعَلَ لَهُمُ الدَّوْلَةَ وَالظَّفَرَ، أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ فَهُمْ قَادِحُونَ فِي قُدْرَتِهِ أَوْ فِي حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، وَذَلِكَ مِنْ ظَنِّ السَّوْءِ بِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الرَّبَّ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بَغِيضٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ غَيْرُ مَحْمُودٍ عِنْدَهُمْ، وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَفْعَلَ خِلَافَ ذَلِكَ لَكِنْ رَفَوْا([1])هَذَا الظَّنَّ الْفَاسِدَ بِخَرْقٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَاسْتَجَارُوا مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، فَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ هَذَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلَا لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى دَفْعِهِ وَنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ، وَلَا هِيَ دَاخِلَةٌ تَحْتَ قُدْرَتِهِ، فَظَنُّوا بِهِ ظَنَّ إِخْوَانِهِمُ الْمَجُوسِ وَالثَّنَوِيَّةِ بِرَبِّهِمْ، وَكُلِّ مُبْطِلٍ وَكَافِرٍ وَمُبْتَدِعٍ مَقْهُورٍ مُسْتَذَلٍّ، فَهُوَ يَظُنُّ بِرَبِّهِ هَذَا الظَّنَّ وَأَنَّهُ أَوْلَى بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْعُلُوِّ مِنْ خُصُومِهِ، فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ بَلْ كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ السَّوْءِ، فَإِنَّ غَالِبَ بَنِي آدَمَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَبْخُوسُ الْحَقِّ نَاقِصُ الْحَظِّ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ فَوْقَ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: ظَلَمَنِي رَبِّي وَمَنَعَنِي مَا أَسْتَحِقُّهُ، وَنَفْسُهُ تَشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَهُوَ بِلِسَانِهِ يُنْكِرُهُ، وَلَا يَتَجَاسَرُ عَلَى التَّصْرِيحِ بِهِ، وَمَنْ فَتَّشَ نَفْسَهُ وَتَغَلْغَلَ فِي مَعْرِفَةِ دَفَائِنِهَا وَطَوَايَاهَا رَأَى ذَلِكَ فِيهَا كَامِنًا كُمُونَ النَّارِ فِي الزِّنَادِ، فَاقْدَحْ زِنَادَ مَنْ شِئْتَ يُنْبِئْكَ شَرَارُهُ عَمَّا

١- (قلت): في المغرب في ترتيب المعرب: رَفَا يَرْفُو رَفْوًا مِنْ بَاب طَلَبَ، (وَمِنْهُ) هَذِهِ خُرُوقٌ وَإِنْ كَانَتْ مَرْفُوَّةً أَيْ مَخِيطَةً أَوْ مَرْقُوعَةً.

- أي: خيّطوا أو رقّعوا الخرق بخرق أعظم منه. يعني أنهم برّروا هذا الظن السوء بالله.

فِي زِنَادِهِ، وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَهُ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَتُّبًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَاقْتِرَاحًا عَلَيْهِ خِلَافَ مَا جَرَى بِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِنْ ذَلِكَ.

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عظيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الْمَوْضِعِ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ كُلَّ وَقْتٍ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَلْيَظُنَّ السَّوْءَ بِنَفْسِهِ الَّتِي هِيَ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ، وَمَنْبَعُ كُلِّ شَرٍّ الْمُرَكَّبَةِ عَلَى الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فَهِيَ أَوْلَى بِظَنِّ السَّوْءِ مِنْ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَأَعْدَلِ الْعَادِلِينَ وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ الْغِنَى التَّامُّ وَالْحَمْدُ التَّامُّ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ سُوءٍ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَذَاتُهُ لَهَا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَصِفَاتُهُ كَذَلِكَ، وَأَفْعَالُهُ كَذَلِكَ، كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى.

فَلَا تَظْنُنَّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
وَلَا تَظْنُنَّ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا ... وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ ... أَيُرْجَى الْخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلِ
وَظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوأَى تَجِدْهَا ... كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ
وَمَا بِكَ مِنْ تُقًى فِيهَا وَخَيْرٍ ... فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ
وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ ... مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ

وَالْمَقْصُودِ مَا سَاقَنَا إِلَى هَذَا الْكَلَامِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكَلَامِ الَّذِي صَدَرَ عَنْ ظَنِّهِمُ الْبَاطِلِ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾[آل عمران: ١٥٤]، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آلِ عِمْرَانَ: ١٥٤]، فَلَيْسَ مَقْصُودُهُمْ بِالْكَلِمَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ إِثْبَاتَ الْقَدَرِ وَرَدَّ الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَقْصُودَهُمْ بِالْكَلِمَةِ الْأُولَى لَمَا ذُمُّوا عَلَيْهِ، وَلَمَا حَسُنَ الرَّدُّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، وَلَا كَانَ مَصْدَرُ هَذَا الْكَلَامِ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ ظَنَّهُمُ الْبَاطِلَ هَاهُنَا: هُوَ التَّكْذِيبُ بِالْقَدَرِ وَظَنُّهُمْ أَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ إِلَيْهِمْ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ تَبَعًا لَهُمْ يَسْمَعُونَ مِنْهُمْ لَمَا أَصَابَهُمُ الْقَتْلُ، وَلَكَانَ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ لَهُمْ فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الظَّنِّ الْبَاطِلِ الَّذِي هُوَ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهُوَ الظَّنُّ الْمَنْسُوبُ إِلَى أَهْلِ الْجَهْلِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ بَعْدَ نَفَاذِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ نَفَاذِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى دَفْعِهِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ إِلَيْهِمْ لَمَا نَفَذَ الْقَضَاءُ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ، وَجَرَى بِهِ عِلْمُهُ وَكِتَابُهُ السَّابِقُ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَلَا بُدَّ، شَاءَ النَّاسُ أَمْ أَبَوْا، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، شَاءَهُ النَّاسُ أَمْ لَمْ يَشَاءُوهُ، وَمَا جَرَى عَلَيْكُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ وَالْقَتْلِ فَبِأَمْرِهِ الْكَوْنِيِّ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى دَفْعِهِ، سَوَاءٌ كَانَ لَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ، وَأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَقَدْ كُتِبَ الْقَتْلُ عَلَى بَعْضِكُمْ لَخَرَجَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ مِنْ بُيُوتِهِمْ إِلَى

مَضَاجِعِهِمْ وَلَا بُدَّ، سَوَاءٌ كَانَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ الْأَشْيَاءِ إِبْطَالًا لِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ أَنْ يَقَعَ مَا لَا يَشَاؤُهُ اللَّهُ، وَأَنْ يَشَاءَ مَا لَا يَقَعُ.

قال ابن العثيمين: {وليبتليَ الله ما في صدوركم} {وليبتليَ} الواو حرف عطف، والمعطوف عليه مقدر، التقدير: {فعل ما فعل ليتبين لكم ما حصل بسبب عصيانكم وليبتليكم}، فالمقدر الآن علَّة ومعلول؛ لأجل أن يصح عطف العلَّة الثانية على العلَّة التي حذفت مع معلولها.

واللام لام التعليل؛ ولهذا يجب كسرها، ولا يجوز أن تسكنها، يعني لا يجوز أن تقرأ: (ولْيبتلي)؛ بل يجب أن تقول: {ولِيبتليَ}؛ لأنَّ لام التعليل مكسورة بكلِّ حال، بخلاف لام الأمر فإنَّ لام الأمر تسكن إذا وقعت بعد حرف العطف: الواو والفاء وثم؛ قال الله تعالى: {ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم}، {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا}؛ أمَّا لام التعليل فإنَّها مكسورة دائمًا ولو بعد الواو أو ثمَّ أو الفاء.

وقوله: {يبتليَ}: بمعنى يختبر ويمتحن؛ و{ما في صدوركم}: هي القلوب؛ لقول الله تعالى: {فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}.

{وليمحِّص ما في قلوبكم}: {وليمحِّص} معطوفة على: {ليبتليَ}، والتمحيص بمعنى التخليص، (مَحَّصَهُ): أي (خَلَّصَهُ)؛ يخلِّص ما في قلوبكم من كلِّ ما يكون فيه إرادات سيِّئة، كقوله: {منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}، أو فيه شيء من التسخُّط على القدر أو غير ذلك مما يفسد ما في القلب.

وقوله: {ما في قلوبكم}: إذا قال قائل: ذكرتم أنَّ ما في الصدور هي القلوب وأنَّ التَّمحيص أيضًا للقلوب، فيكف كان ذلك؟ نقول: نعم لأنَّ الابتلاء غير التَّمحيص، الابتلاء اختبار والتَّمحيص تنقية؛ ولهذا اختلف التعبير فقال: {وليبتلي ما في صدوركم}، {وليمحِّص ما في قلوبكم}، ولم يقل: (ما في صدوركم)، بل قال: {وليمحِّص ما في قلوبكم} من الأذى الذي يضرُّكم في دينكم؛ لأنَّ كراهة ما وقع، أو إرادة ما لا ينبغي إرادته، تكون في القلب؛ ولهذا كان التَّمحيص لما في القلب لا للقلب نفسه؛ والابتلاء للقلب نفسه، يبتلي ما في صدوركم ويمحِّص ما في القلوب، ينقِّي؛ فاختلف المورد، المورد في الأول القلب، وفي الثاني ما في القلب.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص٢١٣: ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ حِكْمَةٍ أُخْرَى فِي هَذَا التَّقْدِيرِ، هِيَ ابْتِلَاءُ مَا فِي صُدُورِهِمْ، وَهُوَ اخْتِبَارُ مَا فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ، فَالْمُؤْمِنُ لَا يَزْدَادُ بِذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَالْمُنَافِقُ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ مَا فِي قَلْبِهِ عَلَى جَوَارِحِهِ وَلِسَانِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى: وَهُوَ تَمْحِيصُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ تَخْلِيصُهُ وَتَنْقِيَتُهُ وَتَهْذِيبُهُ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ يُخَالِطُهَا بِغَلَبَاتِ الطَّبَائِعِ، وَمَيْلِ النُّفُوسِ، وَحُكْمِ الْعَادَةِ، وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ مَا يُضَادُّ مَا أُودِعَ فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، فَلَوْ تُرِكَتْ فِي عَافِيَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ لَمْ تَتَخَلَّصْ مِنْ هَذِهِ الْمُخَالَطَةِ وَلَمْ تَتَمَحَّصْ مِنْهُ، فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ الْعَزِيزِ أَنْ

قَيَّضَ لَهَا مِنَ الْمِحَنِ وَالْبَلَايَا مَا يَكُونُ كَالدَّوَاءِ الْكَرِيهِ لِمَنْ عَرَضَ لَهُ دَاءٌ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ طَبِيبُهُ بِإِزَالَتِهِ وَتَنْقِيَتِهِ مِنْ جَسَدِهِ، وَإِلَّا خِيفَ عَلَيْهِ مِنْهُ الْفَسَادُ وَالْهَلَاكُ، فَكَانَتْ نِعْمَتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْكَسْرَةِ وَالْهَزِيمَةِ وَقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ تُعَادِلُ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِمْ بِنَصْرِهِمْ وَتَأْيِيدِهِمْ وَظَفَرِهِمْ بِعَدُوِّهِمْ، فَلَهُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ التَّامَّةُ فِي هَذَا وَهَذَا.

قال ابن العثيمين: {والله عليم بذات الصدور}: الجملة هذه استئنافية لبيان إحاطة علم الله بما في القلب: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد}؛ وفائدة ختم الآية بها أنَّه لمَّا بيَّن أنَّ الله تعالى قدَّر ما قدَّر لهاتين الحكمتين الابتلاء والتَّمحيص بيَّن أنَّه بعد ذلك سيعلم ماذا يكون في القلب بعد هذا الابتلاء وهذا التَّمحيص.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله عز وجل هو الذي يجلب للمرء النوم أو يرفعه عنه؛ لقوله: {ثمَّ أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنةً نعاسًا}؛ ولكنَّ الله بحكمته جعل للنوم أسبابًا؛ فالإنسان مثلًا إذا اضطجع واسترخى أتاه النوم؛ وإذا انشغل قلبه واهتمَّ لأمر ما فإنَّه لا يأتيه النوم؛ وهذا كغيره من الأشياء التي تكون بإرادة الله ولكن لها سبب.

٢- أنَّك إذا أرقت ولم يأتك النوم في الليل فالجأ إلى الله عز وجل واسأله أن يذهب عنك الأرق.

٣- أنَّ النُّعاس قد يكون محمودًا ويعتبر من النِّعم؛ لقوله: {أمنة نعاسًا}؛ قال العلماء: النُّعاس في الحرب نعمة، والنُّعاس في العلم مذموم، يعني محمود في الحرب ونعمة، أمَّا في العلم فإنَّه مذموم؛ وكذلك أيضًا في الصلاة؛ ولكنَّه إذا غلب على الإنسان فإنَّه لا يؤاخذ به، إلَّا أنَّ النبي ﷺ أمر الإنسان إذا أصابه النُّعاس في الصلاة أن يضطجع وأن يستريح؛ قال: فلعلَّه يذهب ليدعوا لنفسه فيكون الأمر بالعكس.

٤- أنَّ النُّعاس الذي أصابهم إنَّما أصاب المؤمنين الخلَّص؛ لقوله: {يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمَّتهم أنفسهم}.

٥- أنَّه قد يوجد في الكُمَّل من المؤمنين شيءٌ من العيوب كالأنانية؛ فإنَّ قوله: {قد أهمَّتهم أنفسهم}، يدلُّ على أنانيتهم وأنَّهم ليس لهم هم إلَّا أنفسهم؛ والذي يليق بالمؤمن أن يكون همَّه في مثل هذه المواطن نصرة الإسلام، وعزَّة الإسلام، وأن يبيع نفسه لله.

٦- أنَّ الإنسان الذي لا يكون له همٌّ إلَّا نفسه في هذه المواطن، قد يبتلى بهذه البلوى العظيمة، وهي أن يظنُّوا بالله غير الحقِّ: {يظنُّون بالله غير الحقِّ}.

٧- ذمُّ من ظنَّ بالله غير الحقِّ؛ لأنَّ الله ذكر هذا في سياق ذم هؤلاء الذين ليس لهم همٌّ إلَّا أنفسهم؛ فإذا كان من ظنَّ بالله غير الحقِّ مذمومًا، كان من ظنَّ به ظنَّ الحقِّ محمودًا.

٨- أنَّه لا يظنُّ أحدٌ بالله ظنَّ غير الحقِّ إلَّا وهو جاهل؛ لقوله: {ظنَّ الجاهلية}، فكلُّ من ظنَّ بالله غير الحقِّ فإنَّه بلا شك جاهل لم يقدِّر الله حقَّ قدره.

٩- أنَّ هؤلاء أنكروا ما فعله الرسول ﷺ من الخروج إلى أحد لكنَّه على وجه خفي؛ لقولهم: {هل لنا من الأمر من شيء} لأنَّه على زعمهم لو كان لهم شيء من الأمر ما قتلوا.

١٠- بيان أنَّ الأمر كلَّه لله، الأمر الشرعي والأمر الكوني كلَّه لله عز وجل؛ ليس لأحد مع الله أمر؛ فكلَّ الأمر لله؛ لقوله: {قل إنَّ الأمر كلَّه لله}.

١١- أنَّه يجب على الإنسان أن ينكر المنكر بذكر الحقِّ؛ لأنَّ الله قال: {قل إنَّ الأمر كلَّه لله} والأمر في قوله: {قل} أدنى أحواله أن يكون للاستحباب.

١٢- أنَّ النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله: {يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك} لأنَّه لو كان يعلم الغيب لكان يعلم ما يخفون وإن لم يبدوه؛ ولكنَّ النبي ﷺ لا يعلم الغيب، لا في حياته ولا بعد مماته؛ وإذا كان لا يعلم الغيب في حياته فعدم علمه الغيب في مماته من باب أولى؛ وقد صرَّح الله بذلك حيث أمره أن يقول: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنِّي ملك} أمره الله أن يعلن هذا، وقد أعلنه ﷺ الملأ، لم يكتم شيئًا ممَّا أوحاه الله إليه ومنه هذا.

١٣- التَّنديد بمن يعترضون على القدر؛ لقوله: {يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ...}.

١٤- أنَّ (لو) بعد القدر لا تفيد شيئًا؛ لقوله: {قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم}.

١٥- أنَّ قضاء الله لا مفرَّ منه؛ لقوله: {قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم}.

١٦- أنَّه قد يكون فيها إشارة إلى أنَّ الشهداء يدفنون في مكان استشهادهم؛ لقوله: {لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم}: أي في أماكن قتلهم؛ وهذا إن لم تفده هذه الآية فقد استفيد من السنة، فإنَّ قومًا من الصحابة حملوا قتلاهم في أحد لدفنهم في المدينة فأمر النبي ﷺ بردهم إلى مصارعهم يدفنون هناك؛ فدفنوا في أحد.

١٧- إثبات الحكمة في أفعال الله؛ تؤخذ من قوله: {وليبتلي الله ما في صدوركم}، والنصوص في إثبات حكمة الله لا تعدُّ ولا تحصى؛ بل حتى الأمور الكونية التي لا حصر لها كلُّها تفيد إثبات حكمة الله عز وجل.

١٨- أنَّ العبرة والمدار على القلوب التي في الصدور؛ لقوله: {وليبتلي الله ما في صدوركم}. وقد بيَّنَّا فيما مضى أنَّ أحكام الدنيا على الظواهر وأحكام الآخرة على البواطن؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور}؛ وقوله تعالى: {إنَّه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر}، ولأنَّ النبي ﷺ كان لا يقتل المنافقين وهو يعلم ببعضهم ويقول: ((لا يتحدثَّ الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه))، إجراء لهم على ظاهرهم؛ ولأنَّه لو رجع إلى الباطن في أحكام الدنيا لسادت الفوضى بين الأُمَّة، لأنَّ كلَّ إنسان قد يقتل الشخص أو يؤدِّبه ويعزِّره ويقول إنَّ قلبه منطوي على الكفر والنفاق ويحصل في هذا من الشرِّ ما لا يمكن أن تعيش الأُمَّة به؛ ولكنَّ الله بحكمته ورحمته جعل أحكام الدنيا على الظواهر.

١٩- أنَّ الله تعالى قد يبتلي عباده لينقي قلوبهم ويخلِّصها من الشوائب؛ لقوله: {وليمحِّص ما في قلوبكم}، والتَّمحيص كما قلنا هو التَّنقية.

٢٠- إثبات علم الله بما في القلوب؛ لقوله: {والله عليم بذات الصدور}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: التَّحذير من إضمار ما لا يرضى به الله؛ لأنَّك إذا أضمرت ما لم يرضى به الله فسوف يحاسبك عليه وإن كان لا يبدوا للناس؛ فعلى المرء أن يحاسب نفسه دائمًا وينظر ما في قلبه، هل في قلبه الخير وإرادة ما يرضي الله؟ أو أنَّ الأمر بالعكس فليصحّح الوضع.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {١٥٥}

قال ابن العثيمين: {إنَّ الذين تولَّوا منكم}: هذه جملة مؤكِّدة بإنَّ، و{الذين} اسم {إنَّ}؛ وقوله: {إنَّما استزلَّهم الشيطان}: هذه الجملة خبر {إنَّ} {إنَّما استزلَّهم}؛ وقوله: {ولقد عفا الله عنهم}: جملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات وهي: القسم، واللَّام، وقد.

يقول الله عز وجل مخبرًا عن هؤلاء الذين تولَّوا يوم أحد وانهزموا يقول: {إنَّ الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان}، {تولَّوا}: يعني (أدبروا وهربوا)، وهم أكثر الجيش، حتى إنَّه لم يبق مع النبي ﷺ إلَّا نحو ثلاثة عشر رجلًا منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم؛ {يوم التقى}: أي (تلاقوا وجهًا لوجه)؛ {الجمعان}: مثنى جمع، والمراد بهم جمع الرسول ﷺ وجمع الكفار، المسلمون بقيادة النبي ﷺ والكفار بقيادة أبي سفيان.

قال أبو زهرة: التولِّي يستعمل بمعنى الإقبال وبمعنى الإدبار، فإن كان متعدِّيًا بنفسه كان بمعنى الإقبال، ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...}، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...}.

وإذا كانت متعدِّية بـ(عن)، أو غير متعدِّية أصلًا كانت بمعنى الإعراض، ومنه الإدبار عن الزَّحف والأمر في وقته، وهي هنا لذلك، والتولِّي الذي وقع فيه أولئك الذين ذكرهم سبحانه يوم التقى الجمعان كان في أحد ويشمل فريقين: أحدهما: الذين أقبلوا على الغنيمة وتركوا مواقعهم من الرِّماية فأُولئك بتركهم مواقعهم وإقبالهم على الغنيمة كانوا مدبرين يشبهون الفارِّين.

والفريق الثاني: الذين فرُّوا من القتال يوم أن اضطربت الموقعة وأصيب المؤمنون بجراح، وكانت فيهم مقتلتهم.

قال ابن العثيمين: {إنَّما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا}: {استزلَّ} في الأصل طلب الزَّلَّة، يعني: (إنَّما صدَّهم الشيطان من أجل أن يطلب زَلَّتهم)؛ وقيل: إنَّ {استزلَّ}: بمعنى (أَزَلَّ)، يعني: (إنما أَزَلَّهم)؛ والمراد بـ(أزلَّ): أي (أوقعهم في الزَّلل)،

والزَّلل هو الخطأ والانحراف عن الصواب؛ وقوله: {الشيطان}: اسم جنس، ولكلِّ إنسان شيطان قرين له يأمره بالشَّر وينهاه عن الخير؛ والشيطان هنا يقولون إنَّه مشتقٌّ من (شطن) إذا بعد، لبعده عن رحمة الله؛ ومن أجل ذلك كان منصرفًا كما قال تعالى: {وحفظناها من كلِّ شيطان رجيم}؛ وقال بعضهم: إنَّه من (شاط)؛ ولو كان كذلك لكان غير منصرف، إذا قصد به العَلَم؛ لأنَّه إذا كان من (شاط) صارت النون والألف زائدتين، وإذا كانت النون والألف زائدتين في عَلَمٍ أو في وصف امتنع من الصرف؛ {ببعض ما كسبوا}: الباء هنا للسببية: أي ببعض الذي كسبوه؛ أي أنَّ لديهم ذنوبًا كانت سابقة، ثم إنَّ الشيطان استزلَّهم بها، أي: أوقعهم في الزَّلل بسبب هذه الذنوب؛ لأنَّ الذنوب تكون سببًا للذنوب الأخرى؛ ولهذا قال بعض السلف: إنَّ من علامة قبول الحسنةِ الحسنة بعدها، ومن علامة ردِّها السيِّئة بعدها؛ فالإنسان إذا أذنب ذنبًا فإنَّه إن لم يتب فإنَّ الشيطان يوقعه في ذنب آخر؛ وهكذا حتى يصبح قد أحاطت به خطيئته؛ ولهذا قال العلماء: إنَّ المعاصي بريد الكفر؛ يعني تنتقل بالإنسان مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى قمَّة المعاصي وهو الكفر.

قال أبو زهرة: ومعنى {استزلَّهم الشيطان}: طلب لهم الزَّلل وسهَّله لهم ببعض ما كسبوا من صغائر؛ فإن تضافر الصغائر، وطلب الدنيا من شأنه أن يسهِّل ارتكاب الخطايا فإنَّ النفس تمرَّد عليها وتسير في طريقها، ولقد قال في ذلك الراغب الأصفهاني: استزلَّه إذا تحرَّى زلَّته.

{إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ}: أي استخرجهم حتى زلُّوا، فإنَّ الخطيئة الصغيرة إذا ترخَّص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، ومعنى هذا أنَّ الشيطان لَا يفتح معاقل النفس، ويغزو مواضع الفضيلة، إلّا بالصغائر التي تسهِّل الرَّذائل، فإذا فتح النفس من هذا المعقل هجم بكلِّ أسلحته، فتحكم الهوى والشيطان، واستضعفت النفس وذلَّت، وأحاطت بها الخطايا، وسدَّت عنها منافذ الهداية والنور.

والمعنى الجملي: أنَّ أولئك الذين كانوا سبب تلك الجراح، أو فرُّوا من الموقعة، قد وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب أنَّ نفوسهم لم تتَّجه إلى الله بكليَّتها ولهذا استزلَّهم الشيطان، وأمامهم الفرصة لتطهير نفوسهم.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص٢١٣: ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَوَلِّي مَنْ تَوَلَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنَّهُ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، فَاسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ حَتَّى تَوَلَّوْا، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ جُنْدًا عَلَيْهِمُ ازْدَادَ بِهَا عَدُوُّهُمْ قُوَّةً، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ جُنْدٌ لِلْعَبْدِ وَجُنْدٌ عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ، فَلِلْعَبْدِ كُلَّ وَقْتٍ سَرِيَّةٌ مِنْ نَفْسِهِ تَهْزِمُهُ أَوْ تَنْصُرُهُ، فَهُوَ يَمُدُّ عَدُوَّهُ بِأَعْمَالِهِ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ أَنَّهُ يُقَاتِلُهُ بِهَا، وَيَبْعَثُ إِلَيْهِ سَرِيَّةً تَغْزُوهُ مَعَ عَدُوِّهِ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ أَنَّهُ يَغْزُو عَدُوَّهُ، فَأَعْمَالُ الْعَبْدِ تَسُوقُهُ قَسْرًا إِلَى مُقْتَضَاهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْعَبْدُ لَا يَشْعُرُ أَوْ يَشْعُرُ وَيَتَعَامَى، فَفِرَارُ الْإِنْسَانِ مِنْ عَدُوِّهِ وَهُوَ يُطِيقُهُ إِنَّمَا هُوَ بِجُنْدٍ مِنْ عَمَلِهِ بَعَثَهُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَاسْتَزَلَّهُ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ عَفَا عَنْهُمْ، لِأَنَّ هَذَا الْفِرَارَ لَمْ يَكُنْ عَنْ نِفَاقٍ وَلَا شَكٍّ، وَإِنَّمَا كَانَ عَارِضًا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فَعَادَتْ شَجَاعَةُ الْإِيمَانِ وَثَبَاتُهُ إِلَى مَرْكَزِهَا وَنِصَابِهَا.

قال أبو زهرة: وقد أكَّد سبحانه عفوه بأربعة تأكيدات أوَّلها: بال(لام)، فهي تنبِّئ عن القسم، والثاني: (قد)، فإنَّها تفيد تأكيد تحقُّق القول، والثالث: وصف الله تعالى بالمغفرة فإنَّه يؤكِّد أنَّ العفو شأن في شئونه سبحانه، والرابع: الوصف بالحلم فإنَّه سبحانه لَا يسارع بالعقاب: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ.....}.

وقد أكَّد سبحانه أمر العفو، لتذهب عن نفوسهم حيرتها، ولتنخلع من الماضي ولتستقبل الحاضر والمستقبل بقلب جريء ثابت، ولتشعر بعون الله وتوفيقه وتأييده وتسديده.

قال ابن العثيمين: ثمَّ قال الله عز وجل لمَّا بيَّن خطأهم وأنهم هم السبب في هذا الخطأ: {ولقد عفا الله عنهم}: أي عن الذين تولَّوا؛ وهذه كالتي سبقت في قوله: {ثمَّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم}، فكرَّر الله العفو مرتين. والعفو: ترك المؤاخذة على الذَّنب؛ ويكون في الغالب في ترك الواجبات، يعني أنَّ الله يعفوا عمَّن ترك الواجب؛ والمغفرة تكون من فعل المحرم.

{إنَّ الله غفور حليم}: الغفور والحليم من أسماء الله؛ و{الغفور}: معناه ذو المغفرة، وهي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنَّ أصلها من المغفر وهو ما يلبس على الرأس يتَّقى بها السِّهام، وهو جامع بين الستر والوقاية؛ أمَّا {الحليم}: فهو التأنِّي وعدم السُّرعة؛ ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

فمعنى الحليم: الممهِّل للعباد، المتأنِّي في عقوبتهم.

قال السعدي: {إنَّ الله غفور(١)} للمذنبين الخطَّائين بما يوفِّقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفِّرة، {حليم(٢)} لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه. ثمَّ إن تاب وأناب قبل منه، وصيَّره كأنَّه لم يَجْرِ منه ذنب، ولم يصدر منه عيب، فلله الحمد على إحسانه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان سبب انهزام من انهزم من الصحابة؛ وهو استزلال الشيطان لهم، ثمَّ بيان هذا السبب الذي بني عليه هذا السبب وهو بعض ما كسبوا من المعاصي. فيتفرَّع على هذه الفائدة فائدتان:

الفائدة الأولى: أنَّ كلَّ تركٍ للواجب أو فعل للمحرَّم فإنَّما هو من استزلال الشيطان؛ لأنَّه هو الذي يأمر بالفحشاء وينهى عن المعروف؛ فكلُّ ما حصل من تفريط في واجب أو وقوع في محرَّم فإنَّه من الشيطان.

والفائدة الثانية: أنَّ الإنسان قد يعاقب بالمعصية فتكون عقوبته أن يعصي الله مرة ثانية.

١- (قلت): أنظر معنى اسم الله {الغفور} مفصلًا عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): أنظر معنى اسم الله {الحليم} مفصلًا عند تفسير الآية (٢٢٥) من سورة البقرة.

ويتفرَّع على هذا أيضًا فائدة ثالثة وهي: أنَّ العقوبة لا تختص بالألم البدني أو فوات الشهوات؛ قد تكون العقوبة بخذلان المرء عن الطاعات؛ ويذكر عن الحسن البصري رحمه الله أنَّه قال: (إنَّ الرجل ليحرم قيام الليل بما فعل من المعصية أو بالذنب يصيبه)؛ ولاشكَّ أنَّ المعاصي سبب للخذلان؛ ويؤيِّد ما قلنا هذه الآية: {إنَّما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا}، وهي التي بنينا عليها هذه الفائدة؛ لكن يؤيِّدها أيضًا قوله تعالى: {فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم}، هذه عقوبة بدنية؛ {وجعلنا قلوبهم قاسية}، هذه عقوبة دينية؛ {يحرِّفون الكلم من بعض مواضعه}، أيضًا عقوبة دينية؛ {ونسوا حظًّا ممَّا ذكِّروا به} كذلك؛ فالمعاصي لها أسباب سيئة وعواقب وخيمة.

٢- تحريم الفرار إذا التقى الجمعان؛ وجهه: أنَّ الله بيَّن أنَّ هذا من استزلال الشيطان وأنَّه عفا عنهم ولولا أنَّهم مستحقُّون للعقوبة لم يكن لقوله: {ولقد عفا عنهم} فائدة. يستثنى من تحريم الفرار عند التقاء الجمعان مسائل:

أوَّلًا: إذا كانوا أكثر من مثليهم فلهم الفرار؛ ولكن الثبات أفضل.

الثاني: إذا كان متحرِّفًا لقتال، يعني فرَّ من أجل أن يأتي بأسلحة؛ أو يستحثَّ قومًا على الجهاد؛ أو ذهب من أجل أن يكرَّ عليهم من جهة أخرى؛ المهم أنَّه متحرِّف لقتال.

المسألة الثالثة: {أو متحيِّزًا إلى فئة}: يعني أنَّ الجبهة التي هو فيها ضعفت ففرَّ من أجل أن يتحيَّز إلى فئة أقوى؛ أو تكون الجبهتان ضعيفتين فتتحيَّز إحداهما إلى الأخرى فهذا لا بأس به؛ وما عدا ذلك فإنَّ الفرار يوم الزحف من كبائر الذنوب كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولُّوهم الأدبار ومن يولِّهم يومئذ دبره إلَّا متحرِّفًا لقتال أو متحيِّزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}.

٣- إثبات أنَّ للشيطان تأثيرًا على العبد حتى في أعماله الصالحة حتى في الجهاد؛ لقوله: {إنَّما استزلَّهم الشيطان}؛ وتحصل العصمة من هذا الشيطان بما ذكره الله عز وجل في قوله: {وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله} هذه العصمة، كلَّما أحسست بشيءٍ داخل ينهاك عن معروف ويأمرك بمنكر فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٤- الرَّد على الجبرية؛ تؤخذ من قوله: {ببعض ما كسبوا}، ومن قوله: {تولَّوا منكم}.

٥- بيان أنَّ الله عز وجل قد عفا عن هؤلاء؛ لقوله: {ولقد عفا الله عنهم}.

٦- أنَّه ينبغي التأكيد من أجل زيادة طمأنينة المخاطب؛ لأنَّه أكَّد هذه الجملة الخبرية التي تفيد العفو عنهم، أكَّدها ب(قسم ولام وقد)، من أجل أن تزداد طمأنينتهم في هذا العفو؛ وقد سبق أن قصصنا عليكم قصة الخارجي الذي جاء إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وأراد أن يلمز عثمان بأنَّه تخلَّف عن بدر وفرَّ يوم أحد ولم يبايع بيعة الرضوان؛ وأنَّ ابن عمر أجابه بجواب مقنع، وقال: (اذهب بها إلى قومك)؛ لأنَّ الرجل جاء من أجل التشويش والتشويه لعثمان رضي الله عنه.

٧- بيان فضل الله على عباده؛ وإلَّا فإنَّ الفرار الذي حصل من الصحابة عظيم، ولكن رحمة الله أوسع؛ فمن أجل سعة رحمة الله عفا الله عنهم.

٨– إثبات اسمين من أسماء الله وهما: الغفور الحليم وما تضمَّناه من صفة، الغفور تضمَّن المغفرة، والحليم تضمَّن الحلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {١٥٦}

قال أبو زهرة: ما زالت النصوص القرآنية الكريمة تذكر العِبَر في هزيمة أُحُد، وكأن هذه الهزيمة التي لم تكن فاصلة، بل رجع فيها المنتصرون لم يلووا على شيء، فيها دروس فائدتها أكبر من فائدة النصر، وفيها كشف لأحوال نفسية، ومعرفتها ذريعة إلى الاستمرار على القتال والانتصار فيه، وفي هذه الآيات بيَّن الله سبحانه وتعالى الفرق بين النفس المؤمنة إذا فقدت أحبابها أو أصفياءها في جهاد أو ما يشبهه، والنفس الكافرة إذا أصيبت بمثل هذه الإصابة، وفي هذه الآيات أيضا يبيِّن سبحانه أن النظر إلى الماضي المؤلم من غير الاقتصار على الاعتبار يؤدِّي إلى الحسرة والحزن الدائم، فالنفس الدُّبرية التي تلاحقها دائمًا بآلام الماضي لَا تسعد في ذاتها، ولا تتأهَّب لعمل يحتاج إلى تضافر الهمم وتحفُّز العزائم، فإنَّ تقرُّح القلب بآلام الماضي كفرٌ بالله، وعدم تفويض إليه سبحانه، وعدم إيمان بالمستقبل الذي يكون يوم القيامة، ويكون الأمر فيه كلَّه لله تعالى، وإنَّ هذه الروح الدُّبرية هي روحِ الكافرين، وقد نهى الله سبحانه عن أن يكونوا مثلهم فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ.....}.

قال ابن العثيمين: فيها أوَّلًا ما يتعلَّق باللغة العربية قوله: {وقالوا لإخوانهم}: اللام ليست للتعدِّية أي تعدية القول؛ لأنَّ إخوانهم قد ماتوا وقتلوا فلا يمكن أن يوجَّه القول إليهم؛ لكنَّها بمعنى (في)، أي: (قالوا في إخوانهم)؛ أو بمعنى: (قالوا عن إخوانهم)؛ وكذلك أيضًا قوله: {ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم}: اللام للعاقبة، يعني: يقال هذا القول ليجعل الله هذا القول حسرةً في قلوبهم.

قال السعدي: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم. ينهاهم عن مشابهتهم في كلِّ شيء، وفي هذا الأمر الخاص.

قال ابن العثيمين: {يا أيها الذين آمنوا}: النِّداء موجَّه للمؤمنين؛ وفائدة توجيه النِّداء إلى المؤمنين بهذا الخطاب أوَّلًا: الحثُّ والإغراء على قبول ما يوجَّه إليهم وامتثاله؛ لأنَّ وصف الإيمان يزيد الإنسان قوة وشجاعة كما لو قلت لشخص: يا أيها الرجل افعل كذا وكذا، أي: لرجولتك افعل؛ وهذا سيعطيه قوة واندفاعًا في قبول ما توجَّه إليه؛ الفائدة الثانية: أنَّ ما يأتي بعدها

من مقتضيات الإيمان؛ الفائدة الثالثة: أنَّ مخالفة ذلك نقص في الإيمان؛ لأنَّه إذا كان قبوله والإتيان به من مقتضيات الإيمان كان مخالفته من نواقص الإيمان.

أمَّا بدء الخطاب بالنِّداء فإنَّه يفيد التَّنبيه والعناية بما يذكر؛ ولهذا قال ابن مسعود: (إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإمَّا خير تؤمر به وإمَّا شرٌّ تنهى عنه).

{يا أيها الذين آمنوا}: الإيمان شرعًا هو الإقرار المتضمّن للقبول والإذعان؛ فالإقرار المجرَّد لا يسمَّى شرعًا إيمانًا؛ بل لابدَّ من قبول وإذعان؛ قبول ضد الرَّفض، والإذعان ضد الاستكبار.

يقول: {لا تكونوا كالذين كفروا}: يعني مثل الذين كفروا؛ يعني لا تتشبَّهوا بهؤلاء الكفار في مثل هذا الاعتراض على القدر، لأنَّ هؤلاء معترضون على القدر.

{وقالوا لإخوانهم}: وهذا لاشكَّ إنَّه من جملة كفرهم لأنَّه دالٌّ على ضعف الإيمان؛ وقوله: {وقالوا لإخوانهم}، قال بعض المفسِّرين: إخوانهم في النَّسب؛ وقال بعض المفسِّرين: إخوانهم في الكفر؛ والثاني أقرب، أي: قالوا في شأن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض.

{إذا ضربوا}: أي الإخوان، {في الأرض}: أي سافروا فيها لتجارة أو غيرها؛ {أو كانوا غزًى}: الضمير في {كانوا} يعود على: الإخوان؛ {غزًى}: جمع غاز على وزن فعُل؛ وقال ابن مالك رحمه الله في هذا:

وفعل لفاعل وفاعلة ... وصفين نحو عاذل وعاذلة

{لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا}: يعني لو لم يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا لم يغزوا ما قتلوا؛ هذا فيه ما يسمَّى عند البلاغين لفًّا ونشرًا، {ما ماتوا} مقابل {إذا ضربوا}؛ و{ما قتلوا} مقابل {أو كانوا غزًى}؛ و{إذا ضربوا} مقابل {أو كانوا غزًى}؛ إذًا فهو مرتَّب؛ إذًا يقول هؤلاء لو أنَّهم لم يسافروا ما ماتوا، ولو أنَّهم لم يغزوا ما قتلوا.

قال الشنقيطي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ إِذَا مَاتَ بَعْضُ إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: لَوْ أَطَاعُونَا فَلَمْ يَخْرُجُوا إِلَى الْغَزْوِ مَا قُتِلُوا، وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَلْ يَقُولُونَ لَهُمْ ذَلِكَ قَبْلَ السَّفَرِ إِلَى الْغَزْوِ لِيُثَبِّطُوهُمْ أَوْ لَا؟ وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}[٣ \ ١٦٨]، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُمْ ذَلِكَ قَبْلَ الْغَزْوِ لِيُثَبِّطُوهُمْ كَقَوْلِهِ: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} الْآيَةَ [٩ \ ٨١]، وَقَوْلِهِ: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [٣٣ \ ١٨]، وَقَوْلِهِ: {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ}[٤/ ٧٢]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قال ابن العثيمين: {ليجعل الله ذلك}: أي (ليجعل الله ذلك القول الذي قالوه وهو لا يغني عنهم شيئًا)، يجعله الله {حسرةً في قلوبهم}، {حسرةً}: يعني تحسُّرًا وندمًا، يستحسر به القلب ولا ينبسط ولا يفرح، وإلَّا فإنَّ هذا القول لا يغني شيئًا؛ واللام في قوله: {ليجعل} سبق أن قلنا إنَّها للعاقبة؛ لو أنَّهم ظنُّوا أنَّ هذا حسرة وأنَّه لا فائدة منه إلَّا التحسُّر والنَّدم وتكرار المصيبة ما قالوا هذا؛ ولكن الواقع أنَّه يكون حسرة في قلوبهم وإلَّا فإنَّه لا يغني شيئًا؛ لأنَّ الأمر بيد الله؛ ولهذا قال: {والله

يحيي ويميت}، الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل؛ فإذا قدَّر الله إماتة شخص على سبب من الأسباب يسَّر له هذا السبب، وصار هو نفسه يفعل ذلك السبب؛ أو صار غيره يتسبَّب له؛ فالإحياء والإماتة بإذن الله عز وجل، والله يحيي ويميت.

{والله بما تعملون بصير([1])}: يعني ومن جملة ما هو بصير به عملهم؛ والبصير هنا يحتمل بصر الرُّؤية ويحتمل بصر العلم، يحتمل المعنيين جميعًا؛ فهو بصير بما نعمل بمعنى عليم، بصر العلم؛ بصير بما نعمل بمعنى راء ما نعمل وهذا بصر الرُّؤية.

فإذا قال قائل: هل تثبتون لله بصر رؤية؟

قلنا: نعم، قال النبي ﷺ: ((حجابه النور)): أي الله عز وجل ((لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ([2]))، هذا إثبات البصر لله؛ أمَّا بصر العلم فواضح كثير؛ إذًا في هذه الآية إثبات إحاطة علم الله عز وجل بكلِّ ما نعمل؛ لقوله: {بما تعملون}؛ و{ما} هنا اسم موصول؛ واسم الموصول يفيد العموم، كلَّما جاءك اسم موصول فإنَّه للعموم ولو كان واحدًا، قال الله عز وجل: {والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتَّقون}، أنظر مفرد عاد عليه الإشارة والضمير جمعًا، لأنَّه عام؛ فاسم الموصول وإن كان لفظه لفظ المفرد يكون للعموم.

{بما تعملون بصير}: فيها قراءة ثانية: {بما يعملون بصير} فهل في الآية التفات؟ ليس فيها التفات في الحقيقة؛ لأنَّه إذا قال: {بما تعملون}، فالخطاب في أوَّل الآية موجَّه للمؤمنين: {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا} مخاطب، لا تكونوا فإن كنتم فالله بما تعملون بصير؛ إذًا لا التفات؛ وإذا جعلنا: {بما يعملون} عائد {للذين كفروا وقالوا لإخوانهم}، فليس فيه التفات أيضًا.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تعلية شأن المؤمنين بإيمانهم؛ لقوله: {يا أيها الذين آمنوا}، لأنَّ المخاطب لا ينادى إلَّا بأحبِّ الأوصاف إليه؛ ولهذا لو ناديت أحدًا بأقبح الأوصاف لسبَّك وشتمك؛ ففيه تعلية شأن المؤمنين بإيمانهم.

٢- فضيلة الإيمان وأنَّه مقتضٍ لكلِّ الأخلاق الفاضلة.

٣- الإشارة إلى النهي عن التَّشبه بالكفار؛ لقوله: {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا}؛ والتَّشبه بالكفار اختلف فيه العلماء، فذهب أصحاب الإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه إلى أنَّ التَّشبُّه بالكفار مكروه، والمكروه عند الفقهاء كراهة تنزيه، أي يثاب تاركه امتثالًا ولا يعاقب فاعله؛ لكن قولهم هذا ضعيف، والصواب أنَّ التَّشبه بالكفار حرام؛ لمَّا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حديث: ((من تشبَّه بقومٍ فهو منهم))، في كتابه القيم الذي أشير به على كلِّ طالب علم وهو:

١- (قلت): أنظر معنى اسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع(١٨٦٠)، والحديث بتمامه: ((إنَّ الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)).

(اقتضاء صراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، قال: (وأقلُّ أحوال هذا الحديث التَّحريم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبِّه بهم)؛ لأنَّ قوله: ((من تشبَّه بقومٍ فهو منهم)) ظاهره أنَّه كافر؛ فالاقتصار على الكراهة التي يراد بها كراهة التنزيه عند الفقهاء فيه نظر ظاهر؛ المهم أنَّ في هذه الآية الإشارة إلى النهي عن التَّشبُّه بالكفار لاسيَّما إذا كان الفعل نفسه محرَّمًا، فإنَّ قولهم هذا فيه اعتراض على القدر كما سيتبيَّن إن شاء الله.

فإن قال قائل: ما هو ضابط التشبه؟ وهل يشترط فيه القصد؟

فالجواب: أنَّ ضابط التَّشبُّه أن يأتي بما يختصُّ بالكفار من لباس أو تحلية جسم أو غيره، بحيث أن يقول من رآه هذا من الكفار؛ لأنَّه لا يمكن أن يقول هذا من الكفار إلَّا إذا كان الشيء مختصًّا بهم؛ أمَّا إذا كان عامًّا فإنَّه لا يمكن أن يقال من الكفار؛ فمثلًا البنطلون الذي يسمَّى البنطلون عند الناس في بعض البلاد الإسلامية هو لباس الناس؛ فهل نقول إنَّ البنطلون تشبُّه؟ لا؛ لأنَّه ليس خاصٌّ بالكفَّار، ترى الإنسان ولا تقول هذا كافر لأنَّه ممكن يكون كافر وممكن يكون مسلم.

ولا يشترط في التَّشبُّه القصد لأنَّ إنسان لو قصد التَّشبُّه لكان الخطر عظيمًا؛ لأنَّه لا يقصد التَّشبُّه بهم إلَّا من ملأ قلبه أو كاد يملأ بمحبَّتهم وتعظيمهم؛ بل التَّشبُّه حاصل بصورة التَّشبُّه سواء قصد أم لم يقصد؛ هذا نقوله باعتبار الشخص نفسه؛ أمَّا باعتبار إنكارنا عليه فإنَّا ننكر عليه مطلقًا؛ لأنَّنا لو سكتنا عن الإنكار عليه لأمكن كلُّ واحد أن يقول: إنَّني لم أقصد التَّشبُّه؛ فنحن نقول الإنكار على المتشبِّه مطلقًا سواء قصد أم لم يقصد؛ لكنَّ الكلام على المتشبِّه نفسه هل يشترط لكونه متشبِّهًا أن يقصد التَّشبُّه؟ الجواب لا؛ إذا حصلت صورة التَّشبُّه فقد تشبَّه سواء قصد أم لم يقصد.

التَّشبُّه في الأمور الدينية أعظم بكثير من التَّشبُّه في الأمور العادية؛ لأنَّ التَّشبُّه بهم في الأمور الدينية، يعني تعظيم الباطل لذاته لا لكونه من خصائصهم؛ ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله في أحكام أهل الذِّمَّة: أنَّه حرام بالاتفاق، وقال: هذا إن سلم فاعله من الكفر فقد أتى محرَّمًا لاشكَّ فيه؛ لأنَّ التَّشبُّه بهم في الأمور الدينية يعني تعظيم دينهم؛ ودينهم منسوخ بدين محمد ﷺ بإجماع المسلمين؛ ومن زعم أنَّ اليهود أو النصارى أو غيرهم على دين صحيح مقبول عند الله فهو كافر، لأنَّ الله عز وجل يقول: {ومن يبتغي غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه}، ويقول: {إنَّ الدِّين عند الله الإسلام}، وصحَّ عن النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأُمَّة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به إلَّا كان من أصحاب النار([1]))، وإذا قيل أصحاب النار فهم أصحابه الذين لا يخرجون منها وهم الكفار.

٤- أنَّ النَّدم على ما وقع لا يرفع الواقع؛ لأنَّ الله قال: {والله يحيي ويميت}.

١- (قلت): مُسلم (٢٤٠). وصححه الإمام الألباني في المشكاة (١٠)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يسمع بِي أحد مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ من أَصْحَاب النَّار)).

٥- أنَّ هذا الدين رحمة؛ لأنَّ نهي الله عن النَّدم على ما مضى مصلحة للإنسان، لأنَّه يطمئن قلبه ولا يتحسَّر ولا يحزن، فإنَّه يقول لنفسه هذا الأمر لابدَّ أن يقع كما وقع؛ فلا حاجة أن تقول: لو أنِّي فعلت ما حصل، لا حاجة، إنَّما تقول: لو أنِّي فعلت في أمر تكون فرطت فيه؛ أمَّا شيء لم يكن بتفريطك فهذا لا يحلُّ لك أن تتندم عليه.

٦- أنَّه لو أنَّ شخصًا سافر ثم صار عليه حادث فقال أهله: لو أنَّه ما سافر كان أسلم له، كان ما يحصل عليه حادث؛ نقول هذا من قول الكفار: {قالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض لو كانوا عندنا ما ماتوا}، هذا قول الكفار؛ المؤمن لا يقول هكذا، المؤمن يقول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ ويقول {وكلّ شيء عنده بمقدار}؛ ويقول: {لكلِّ أجل كتاب}، وما أشبه ذلك من الآيات الدالَّة على أنَّ الأمر بيد الله ولا يمكن أن يتغيَّر المقدور عمَّا وقع أبدًا.

٧- أنَّ هؤلاء المعترضين على القدر يكون اعتراضهم حسرة في قلوبهم ولا ينسون المصيبة، وتجد الشيطان يلعب بهم، ليته ما راح ليته ما غزا ليته ما فعل، يلعب به؛ ولهذا قال النبي ﷺ مشيرًا إلى هذا المعنى: ((المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))؛ ثمَّ قال: ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز))، احرص واستعن ولا تعجز، يعني لا تكسلوا، وتضعف عن إتمام العمل، وإن أصابك شيءٌ بعد الحرص والاستعانة بالله والقوَّة في العمل: ((إن أصابك شيء فلا تقل: لو أنِّي فعلت لكان كذا وكذا، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان)). إذًا من قال (لو) معترضًا على القدر فقد شابه الكفار، وقد فتح على نفسه باب عمل الشيطان.

٨- الرَّد على القدرية؛ قوله: {ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم}، يعني: أنَّ الله قدر أن يقولوا هذا القول ليجعله حسرةً في قلوبهم.

٩- إثبات أنَّ الإحياء والإماتة بيد الله: {والله يحيي ويميت}، وهذا أيضًا مؤجل، الإحياء والإماتة مؤجلة بأجل لا يزيد ولا ينقص أبدًا {لكلِّ أجل كتاب}.

١٠- إثبات عموم علم الله عز وجل بكل ما نعمل؛ لقوله: {والله بما تعملون بصير}، أو {بما يعملون بصير}.

ويترتَّب على هذه الفائدة فائدة مسلكية ينتفع بها الإنسان في سلوكه وعمله وهي: أنَّه إذا آمن بأنَّ الله بصير بما يعمل لزم من ذلك أن يستقيم على أمره؛ أنت عندما تريد أن تفعل معصية أذكر هذه الآية أنَّ الله بصير بعملك؛ إذا أردت أن تعمل طاعة أذكر هذا، أنَّ الله بصير بعملك فأحسن الطاعة؛ فهذه تفيد الإنسان في سيره إلى الله عز وجل؛ إذا آمن بأنَّ الله بصير بما يعمل حسن سيره إلى الله، واستعان بذلك على إحسان العبادات وعلى ترك المحرَّمات.

١١- الرَّد على الجبرية، حيث أضاف الله العمل إليهم والجبرية لا يضيفون العمل إلى الإنسان يقولون إنَّ الإنسان مجبر على عمله؛ فالإنسان الذي يحرك يده اختيارًا كالإنسان الذي فيه رعشة، كلاهما سواء لا يستطيعان أن يمنعا أنفسهما.

إذا قال قائل: {والله يحي ويميت}، قال مارد لإبراهيم: أنا أحيي وأميت، ماذا نقول؟ نقول: لست أنت الذي تحيي وتميت، أنت تفعل سبب الحياة والموت، وأيضًا لست تفعل سبب الحياة الناشئة؛ تفعل سبب بقاء الحياة وإلّا فالحياة من الله أوّلًا؛ الإماتة أيضًا لست أنت الذي تميت وإنّما تفعل سبب الموت؛ ولو شاء الله أن لا يموت من جرحته جرحًا مميتًا لم يمت.

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ {١٥٧}

قال ابن العثيمين: في هذه الآية كلمتان فيهما قراءتان؛ الأولى قال: {مُتُّم} بضم الميم؛ مأخوذة من مات يموت؛ و{مِتُّم} بكسر الميم؛من مات يمات، يعني كلُّها لغة عربية تقول: مات الرجل يموت الرجل؛ مات الرجل يمات الرجل، إذًا هي من باب فرح يفرح.

الثاني قال: {خيرٌ ممَّا يجمعون}؛ و{خيرٌ ممَّا تجمعون}، على قراءة الياء فيها التفات، وعلى قراءة التاء لا؛ لأنَّ الآية كلُّها للخطاب. وفي الآية أيضًا من جهة اللغة العربية: (ولئن قتلتم أو متُّم لمغفرة من الله)، اجتمع في الجملة قسم وشرط؛ وعند اجتماع الشرط والقسم في الجملة، يحذف جواب الشرط؛ ولهذا جاء جواب القسم: {لمغفرة}؛ فاللام هنا واقعة في جواب القسم؛ واللام في {لئن} موطِّئة للقسم، وجواب الشرط محذوف؛ فإن قال قائل: كيف يحذف وهو ركن من الجملة؟ قلنا: لأنَّه وجد ما يسدُّ مسدَّه وهو جواب القسم.

يقول الله عز وجل: {ولئن قتلتم}: الخطاب للمؤمنين؛ {في سبيل الله}: أي في الجهاد في سبيله؛ ويحتمل أن يكون أعمُّ من ذلك، بمعنى قتلتم في سبيل الله في الجهاد، أو قتلتم في سبيل الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو قتلتم في سبيل الله في الدعوة إليه، أو قتلتم في سبيل الله في بيان الحقِّ، كلُّ هذا داخل في سبيل الله، الجهاد جهاد الكفار، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعوة إلى الله، بيان الحقِّ؛ لأنَّ الجامع بينها أنَّ هذا قتل وهو يدافع عن دين الله عز وجل؛ فالذي يقتل في سبيل الله يقول الله عز وجل: {لمغفرة من الله ورحمة خير ممَّا يجمعون}: خير من الدنيا وما فيها؛ وقوله سبحانه وتعالى: {أو متُّم}، هل نقول إنَّ المعنى: (أو متُّم في سبيل الله)، فيكون المراد به من مات في الجهاد؟ أو (أو متُّم مطلقًا)؟ الظاهر الثاني، لأنَّ الله عز وجل لو أراد الأول لقال: (ولئن قتلتم أو متُّم في سبيل الله)؛ فلمَّا أخَّر {متُّم} عن القيد، علم أنَّه غير مراد في الجملة الثانية؛ ولهذا يقول العلماء: إنَّ الوصف أو الشرط إذا تعقَّب جملًا عاد إلى الكلِّ؛ وإن توسَّط جملًا فهو لما سبقها؛ أي عاد على ما سبقه فقط دون ما تأخَّر عنه، إلَّا ما دلَّ عليه الدليل؛ وعلى هذا نطبق قول الله عز وجل: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون إلَّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم}؛ هذه الآية فيها قيد بالاستثناء تعقب الجمل الثلاث، فهل يعود إلى الثلاث؟ نقول: الاستثناء لا يعود إلى الجملة الأولى: {فاجلدوهم ثمانين جلدة} بالاتِّفاق؛ فلو أنَّ القاذف تاب

فإنَّ حقَّ المقذوف لا يسقط، يجلد ثمانين جلدة ولو تاب؛ فلا يعود إليها بالإجماع؛ وأمَّا الثالثة: {وأولئك هم الفاسقون} فيعود إليها بالإجماع؛ فإذا تاب القاذف زال عنه وصف الفسق بالاتفاق؛ وأمَّا الوسطى: {ولا تقبلوا لهم شهادةً أبدًا}؛ فإذا تاب القاذف فهل تقبل شهادته أو لا ففيه الخلاف، منهم من قال تقبل ومنهم من قال لا تقبل.

اذًا أنَّ من مات فإنَّه لن تفوته المغفرة، ثمَّ هؤلاء الذين يموتون في سبيل الله ينتقلون إلى ما هو أفضل؛ ولهذا يتمنُّون أن يعودوا إلى الدنيا لا ليعيشوا فيها ولكن ليقتلوا مرةً ثانية في سبيل الله، كذلك الموت؛ {وللآخرة خير لك من الأولى}، {بل تريدون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى}، أتظنُّ أنَّ المؤمن إذا مات يندم على أنَّه مات من أجل فوات محبوب له؟ لا؛ من أجل العمل، يتمنَّى أنَّه باقٍ ليزداد عمله لا ليتمتَّع بالدنيا، لأنَّه ينتقل إلى دار أفضل، مادام يفسح له في قبره مدَّ بصره ويأتي من نعيم الجنة وروحها هذا ليس له نظير في الدنيا.

قال أبو زهرة: أنَّه ذكر أنَّ الموت قد يكون في سبيل الله وذلك إذا كان المؤمن يعيش طول حياته مخلصًا لله وللحقِّ وللمعرفة والهداية يحبُّ الشَّيء لَا يحبُّه إلَّا لله تعالى، وكان الله ورسوله أحبَّ إليه من نفسه، فإنَّ من يكون كذلك يعيش لله وفي سبيل الله ويموت في سبيل الله.

وأنَّه قدَّم {قُتلتم} في هذا المقام لأنَّه المناسب؛ لأنَّ الكلام الكريم في أعقاب مقتلة أصابت المسلمين وأصابهم همٌّ بسببها فناسب تقديم {قتلتم} على {متُّم} وإنَّ الخطاب هنا للمؤمنينِ الذين جاهدوا، وهو مبيِّن لجزائهم وقال سبحانه: {وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ}.

قال ابن العثيمين: {لمغفرة من الله}: ال{مغفرة}: فيها النَّجاة من المكروه، وال{رحمة} فيها حصول المطلوب؛ وإضافة المغفرة إلى الله تدلُّ على عظمة هذه المغفرة؛ وذلك لأنَّ الشيء يعظم بعظم باذله؛ فمثلًا إذا قلت: أعطاني الملك عطيَّة، وقلت أعطاني الصعلوك عطيَّة؛ الصعلوك من هو؟ الفقير؛ ماذا يتصوَّر الناس إذا قلت: أعطاني الملك عطيَّة؟ أنَّها كثيرة، أعطاني الصعلوك عطيَّة؟ أنَّها قليلة؛ فالشيء يعظم بحسب ما يضاف إليه؛ فلهذا قال: {لمغفرة من الله}: أي ابتدائها منه، فهو الذي يبتدئ بها عز وجل ويتفضَّل به؛ {ورحمة}: يعني منه، {خيرٌ ممَّا يجمعون}، أو {خيرٌ ممَّا تجمعون} من الدنيا كلِّها. قال الله تعالى: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ ممَّا يجمعون}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ من قتل في سبيل الله أو مات من المؤمنين فقد انتقل إلى خيرٌ من الدنيا كلِّها؛ لقوله: {خيرٌ ممَّا يجمعون}.

٢- منَّة الله عز وجل عباده بتسليتهم في الأمور التي يهمُّهم فواتها؛ فالإنسان يهمُّ فوات الدنيا، الكلُّ يحبُّ أن يبقى في الدنيا؛ فإذا جاءت التَّسلية من الله وقيل: إنَّك إذا متَّ أو قتلت انتقلت إلى ما هو خير، فإنَّ الإنسان يتسلَّى بهذا، ويقول: الحمد لله أنَّني إذا انتقلت إلى الآخرة فأنا أنتقل إلى خيرٌ من الدنيا.

٣- الجمع بين المغفرة والرحمة ليكمل للإنسان سعادته، إذ أنَّ بالمغفرة زوال المكروه وبالرحمة حصول المطلوب.

٤- جواز إيقاع التَّفضيل بين شيئين بينهما بُعدٌ تام؛ لأنَّك إذا نسبت ما في الدنيا للآخرة فليس بشيء، قال النبي ﷺ: ((لموضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها))، وأبين من ذلك قوله تعالى: {آلله خيرٌ أمَّا يشركون}.

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ {١٥٨}

قال ابن العثيمين: نقول في {لئن متُّم} من حيث الإعراب ما قلناه في الآية التي قبلها، أي أنَّه اجتمع فيها قسم وشرط فحذف جواب الشرط؛ ونقول في: {متُّم} قراءتان كما في الآية التي قبلها بكسر الميم على أنَّها من مات يمات، وبضم الميم على أنَّها من مات يموت.

يقول الله عز وجل: إن متُّم أو قتلتم فإنَّ مرجعكم إلى الله، مهما طالت بكم الأيَّام أو قصرت، المرجع إلى الله؛ وإذا كان المرجع إلى الله فإنَّ الإنسان سوف يبقى مطمئنًّا؛ إذ أنَّ من كان مرجعه إلى الله عز وجل فإنَّه لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا؛ بل إنَّه إذا كان مؤمنًا فإنَّه يستبشر، لقول الله تعالى: {واتَّقوا الله واعلموا أنَّكم ملاقوه وبشِّر المؤمنين}، ولمَّا حدَّث النبي ﷺ عائشة فقال: ((من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقائه ومن كره لقاء الله كره الله لقائه))، قالت: يا رسول الله كلُّنا يكره الموت، ولقاء الله يكون بالموت؛ قال: ((ليس الأمر كذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الأجل فبشِّر بالجنة اشتاق إلى ربِّه وأحبَّ لقاء الله؛ والكافر إذا حضره الأجل بشِّر بالنار فكره لقاء الله فكره الله لقائه([١]))).

قال أبو زهرة: الخطاب الأول للتبشير بالنسبة للمجاهدين كما أشرنا، والخطاب هنا يعمُّ المجاهدين وغيرهم، ولذا قدَّم فيه {متُّم} على {قتلتم}، وبيَّن أنَّ الجميع سيلقون ربَّهم، وأنَّهم سيحشرون إليه، أي: سيجمعون جميعًا يوم الحشر مسوقين إليه

١- (قلت): متفق عليه. البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٤). والحديث بتمامه عند مسلم:((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ))، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: ((لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((كره الله لقاءه)): هذا الحديث يفسِّر آخره أوَّله ويبيِّن المراد بباقي الأحاديث المطلقة (من أحبَّ لقاء الله، ومن كره لقاء الله)، ومعنى الحديث: أنَّ الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند النزع في حالة لا تقبل توبته ولا غيرها، فحينئذ يبشَّر كلَّ إنسان بما هو صائر إليه وما أعدَّ له ويكشف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبُّون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعدَّ لهم، ويحب الله لقاءهم: أي فيجزل لهم العطاء والكرامة؛ وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله لقاءهم: أي يبعدهم عن رحمته وكرامته ولا يريد ذلك بهم، وهذا معنى كراهته سبحانه لقاءهم.

سبحانه وتعالى، والتَّعبير بالحشر إشارة إلى أنَّ الجميع يجتمعون لَا يفلت منهم أحد، فالمنافقون والمشركون والمؤمنون الذين قتلوا والذين نجوا مجموعون عند ربِّهم، وسيلقاهم، وسيحاسب كلَّ امرئٍ بما كسب، للمجاهدين مقامهم، ولغيرهم مهواهم الذي هووا إليه، ففي هذا إنذار وتبشير وتذكير بلقاء الله العلي الكبير.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ المرجع إلى الله عز وجل مهما طالت بالإنسان الحياة وعلى أيِّ صفةٍ كان موته سواء كان بقتل أو بغيره.

٢- زيادة التَّسلية للمؤمنين؛ لأنَّ المؤمن إذا علم أنَّ مرجعه إلى الله فإنَّه سوف يطمئن، وسوف يستبشر وينشرح صدره بذلك.

٣- إثبات لقاء الله عز وجل؛ لقوله: {لإلى الله تحشرون}.

٤- إثبات الحشر يوم القيمة؛ فإنَّ الناس يقومون من قبورهم ويحشرون إلى الله عز وجل ليجازيهم.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {١٥٩}

قال ابن العثيمين: {فبما رحمةٍ من الله لنت لهم}: الفاء عاطفة؛ والباء حرف جر؛ و{ما} زائدة، وقد كره بعض العلماء أن تقول: زائدة أو أن تقول عن حرف في القرآن أنَّه زائد، قال: لأنَّ القرآن لا زيادة فيه؛ ولكن نقول إنَّ المراد بقولنا زائدة أي من حيث الإعراب لا من حيث المعنى.

وقوله: {فبما رحمة} إذا جعلنا {ما} زائدة تكون: {رحمة} مجرورة بالباء؛ وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: {فبما نقضهم ميثاقهم}، أي: فبنقضهم ميثاقهم؛ ومنها قوله تعالى: {قال عمَّا قليل ليصبحنَّ نادمين}: أي عن قليل.

وقوله: {فبما رحمةٍ من الله لنت لهم}: الجار والمجرور متعلِّق بالفعل في {لنت}؛ وقوله: {ولو كنت}: {لو} هذه شرطية وفعل الشرط {كنت}، وجوابه: {لانفضوا من حولك}، والباقي ليس فيه مشكل.

يقول الله عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ ومبيِّنًا نعمته عليه وعلى أمَّته يقول: {فبما رحمة من الله لنت لهم}، أي: فبسبب رحمة الله لك ولأمَّتك أنَّك كنت ليِّنا لهم، ليِّنا في مقالك، ليِّنا في جلوسك، ليِّنا في مقابلتك، في كلِّ أحوالك؛ فالرسول ﷺ من أسهل الناس خلقًا وأكرمهم نزلًا؛ وقد قال الله عنه وكفى به قولًا: {وإنَّك لعلى خلق عظيم}.

وقوله: {فبما رحمةٍ من الله}، أسند الرحمة إلى الله عز وجل لأنَّه المتفضِّل بها، ولأنَّ إسنادها إليه يفيد عظمتها وأنَّها رحمة عظيمة؛ وقوله: {لنت لهم}، الضمير يعود على الصحابة رضي الله عنهم وعلى من بعدهم أيضًا، لأنَّ التشريع الذي يقع في عهد الصحابة تشريع لهم وللأمَّة إلى يوم القيمة؛ كونه رحمة واضح، كونه رحمة لهم واضح أيضًا من أجل أن يألفوه ويستأنسوا به وتتسهَّل معاملته إيَّاهم؛ ولهذا كان النبي ﷺ لا يخيَّر بين شيئين إلَّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

قال السعدي: أي: برحمة الله لك ولأصحابك، مَنَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترقَّقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبُّوك، وامتثلوا أمرك.

قال ابن العثيمين: {ولو كنت فضًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك}، هذه عطفًا على قوله: {لنت لهم}، اللِّين يقابله الشدَّة، الشدَّة تكون في الهيئة، في القول، في القلب؛ قال: {ولو كنت فضًّا} الفض؛ الجافي الشديد في مقاله، تجده جافيًا لا يهتم بأحد، يقابل الناس يُصَعِّر خدَّه لهم، لا يهتم بأحد جاف؛ أيضًا في قوله تجده عنيفًا شديدًا لا يلين؛ وقوله: {غليظ القلب}: الغلظ؛ هذا في القلب، تجد قلبه قاسيًا لا يرحم ولا ينزل الناس منازلهم، ولا ينظر إلى الأحوال المقترنة بالأفعال؛ أحيانًا تكون هناك أحوال تقترن بفعل الشخص يعذر بفعله من أجلها؛ فتجد غليظ القلب يعامل الناس معاملة واحدة، لا ينظر إلى أحوالهم ولا ينظر إلى ظروفهم كما يقولون، وإنَّما تجده غليظ القلب قاسيًا لا يلين؛ ومن أعظم ما يدلُّ على ذلك ما يبدر من بعض الناس في معاملة الصغار، تجده في معاملة الصغار عنيفًا يريد من الصغير أن يكون أدبه كأدب الكبير؛ وهذا لاشكَّ أنَّه خطأ عظيم، وهذا من غلظ القلب؛ ولمَّا رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ يقبل الحسن والحسين قال: تُقَبِّلون أولادكم؟ قال: ((نعم))؛ قال: إنَّ لي عشرة من الولد ما قَبَّلتُهُم؛ قال: ((أو أمْلِكَ لك أن نزع الله الرحمة من قلبك(١)))، فالإنسان ينبغي له أن يكون رحيمًا، وأن يكون ليِّن القلب.

{لانفضُّوا من حولك}: {انفضوا} أي: تفرقوا وخرجوا، ومنه قوله تعالى: {وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضُّوا إليها}، أي: تفرَّقوا إليها وخرجوا؛ وقال: {لانفضُّوا من حولك} ولم يقل: (منك)؛ لأنَّ: {من حولك} أبلغ من قوله: (منك)، يعني: انفضُّوا وبعدوا حتى لا يقربون إلى مكان قريب منك.

قال السعدي: فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدِّين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدِّين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذمِّ والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟!

أليس من أوجب الواجبات، وأهمُّ المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللِّين وحسن الخلق والتأليف، امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله.

١- (قلت): البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

ثمَّ أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التَّقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التَّقصير في حقِّ الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

قال ابن العثيمين: {فاعف عنهم}: هذا تفريع على قوله: {فبما رحمةٍ من الله لنت لهم}؛ فاعف عنهم إذا قصَّروا في حقِّك؛ والعفو هو التسامح وعدم المؤاخذة.

{واستغفر لهم}: في حقِّ الله عز وجل إذا قصَّروا فيه؛ فالصحابة قد يقصِّرون في حقِّ الرسول ﷺ وقد يقصِّرون في حقِّ الله؛ أمَّا في حقِّ الرسول فقال: {فاعف عنهم}، وما أكثر ما يحصل من جفاة الأعراب أو غيرهم من الكلام المسيء إلى رسول الله ﷺ، ولكنَّه يصبر ويتحمَّل ويعفو عنهم، إلى حد أنَّ رجلًا من الأنصار قال له لمَّا حكم له في خصومة بينه وبين الزبير بن العوام قال له رجل من الأنصار: أن كان ابن عمَّتك يا رسول الله([1])؟ هذا اتِّهام فضيع؛ وقال له رجل وهو يقسِّم فيئًا قال: إنَّ هذا لقسمة ما أريد بها وجه الله([2])!.

وقال له: اعدل([3])؛ كلُّ هذه الكلمات كان النبي ﷺ يصبر ويحتسب الأجر من الله، ويعفو حتى أحيانًا يأتي من زوجاته ما يأتيه ممَّا يحصل من الغيرة بين النساء وهو يعفو عنهم؛ اذًا قوله: {واستغفر لهم} يعني: ما أخطئوا فيه من حقِّ الله، كما قال تعالى: {واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات}.

{وشاورهم في الأمر}: الضمير يعود في: {وشاورهم}: يعني لأصحابك، (شاور أصحابك في الأمر)، والمشورة هي استطلاع الرأي بحيث يعرض الشيء على المستشار ليستطلع رأيه، وينظر ما رأيه فيه؛ والمستشار مؤتمن يجب عليه أن يؤدِّي الأمانة على الوجه الذي يرى أنَّه أصلح لمستشيره؛ وقوله: {في الأمر}، المراد بكلمة {الأمر} أوَّلًا: واحد الأمور لا واحد الأوامر؛ لأنَّ الأوامر ما يستشير فيها أحدًا، الأوامر يأمر بها الشرع؛ لكن: {في الأمر}: أي (في الشأن)، وهو مفرد محلًّى بأل؛ فهل {أل} هذه للعموم؟ أي: شاورهم في كلِّ أمر؟ أو هو عام أريد به الخاص؟ أي: شاورهم في الأمر الذي يكون مشتركًا أو يشتبه عليك وجهه؟ أم ماذا؟ الثاني بلا شكٍّ؛ لأنَّه لا يمكن أنَّ الرسول ﷺ يأمره الله بأن يشاورهم في كلِّ شيء، إنَّما يشاورهم

١- (قلت): مُتَّفق عَلَيْهِ. البخاري (٢٣٥٩، ٢٣٦٠)، ومسلم (٢٣٥٧). وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٩٩٣)، والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الْمَاءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ، فَاخْتَصَمُوا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: ((اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ))، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ. فَتَلَوَّنَ وَجْهُ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: ((يَا زُبَيْرُ اسْقِ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ))، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا} [النساء: ٦٥].

٢- (قلت): البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (٢٤١٢)، والحديث بتمامه: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسْمًا فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: ((يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)).

٣- (قلت): البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣)، والحديث بتمامه عند مسلم: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا، يُعْطِي النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ، قَالَ: ((وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ))، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: ((مَعَاذَ اللهِ، أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)).

في الأمر العام المشترك، بدليل قوله تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}، أمرهم الذي يجمعهم جميعًا شورى بينهم؛ أمَّا الأمر الخاص فإنَّه تطلب الاستشارة عند اشتباه الأمر؛ كما فعل النبي ﷺ حين استشار علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد في شأن عائشة لمَّا حصلت قصة الإفك، وكثر القول فيها والقيل، استشار النبي ﷺ أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب في شأنها[١]؛ وغير هذا من الأمور الخاصة التي قد تشكل على الرسول ﷺ فيستشير فيها. إذًا: {وشاورهم}: استطلع رأيهم، {في الأمر}: أي في الأمر المشترك، أو في الأمر الخاص إذا اشتبه عليك الأمر؛ وذلك لأنَّ الشورى يحصل فيها فوائد نذكرها إن شاء الله في الفوائد.

قال السعدي: {وشاورهم في الأمر}: أي الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإنَّ في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

منها: أنَّ المشاورة من العبادات المتقرَّب بها إلى الله.

ومنها: أنَّ فيها تسميحًا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإنَّ من له الأمر على الناس – إذا جمع أهل الرأي والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث – اطمأنَّت نفوسهم وأحبُّوه، وعلموا أنَّه ليس بمستبدٍّ عليهم، وإنَّما ينظر إلى المصلحة الكليَّة العامَّة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنَّهم لا يكادون يحبُّونه محبَّة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامَّة.

ومنها: أنَّ في الاستشارة تنوَّر الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإنَّ المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتمَّ له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلًا وأغزرهم علمًا، وأفضلهم رأيًا: {وشاورهم في الأمر} فكيف بغيره؟!

قال ابن كثير: قال عبد الله بن عمرو: إنَّه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدِّمة: أنَّه ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكن يعفو ويصفح. ولهذا قال تعالى: {فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر}، ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييبًا لقلوبهم؛ ليكونوا أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر في الذَّهاب إلى العير فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاوَرَهم – أيضًا – أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعتق بالتقدُّم إلى أمام القوم، وشاورهم في أُحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار

١- (قلت): البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠)، وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٢٢٢١)، وهو قطعة من حديث الإفك الطويل.

جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السَّعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنَّا لم نجيء لقتال أحد، وإنَّما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

وقال ﷺ في قصة الإفك: ((أشيروا عليَّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبنوهم بمن – والله – ما علمت عليه إلَّا خيرًا([1]))). واستشار عليًّا وأسامة في فراق عائشة، رضي الله عنها.

فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجبًا عليه أو من باب النَّدب تطييبًا لقلوبهم؟ وعلى قولين. عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((المستشار مؤتمن([2]))).

قال القرطبي: قال العلماء: أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ؛ وذلك أنَّه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصَّته عليهم من تَبِعَةٍ؛ فلمَّا صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضًا، فإذا صاروا في هذه الدَّرجة صاروا أهلًا للاستشارة في الأمور. قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شُرْتُ الدابة وشوَّرتُها إذا علمت خبرها بجري أو غيره. ويقال للموضع الذي تركض فيه: مشوار.

وقال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يستشير أهل العلم والدِّين فعزله واجب. هذا ما لا خلاف فيه. وقد مدح الله المؤمنين بقوله: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[الشورى: ٣٨]. قال أعرابي: ما غبنت قط حتى يغبن قومي؛ قيل: وكيف ذلك؟ قال لا أفعل شيئًا حتى أشاورهم. وقال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدِّين، ووجوه الجيش فيما يتعلَّق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلَّق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلَّق بمصالح البلاد وعمارتها. وكان يقال: ما ندم من استشار. وكان يقال: من أعجب برأيه ضلَّ.

وقوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}، يدلُّ على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظُّنون مع إمكان الوحي؛ فإنَّ الله أذن لرسوله ﷺ في ذلك. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يشاور فيه أصحابه؛ فقالت طائفة: ذلك في مكائد الحروب، وعند لقاء العدو، وتطييبًا لنفوسهم، ورفعًا لأقدارهم، وتألُّفًا على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه. روي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي. وقال مقاتل وقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شقَّ عليهم: فأمر الله تعالى؛ نبيَّه ﷺ أن يشاورهم في الأمر: فإنَّ ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم. فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم. وقال آخرون: ذلك فيما لم يأته فيه وحي. روي ذلك عن الحسن البصري

١- (قلت): البخاري (٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي: ((أبنوا أهلي)): باء مفتوحة مخففة ومشددة رووه هنا بالوجهين التخفيف أشهر والأبن بفتح الهمزة التهمة يقال أبنة يأبنه ويأبنه بضم الباء وكسرها إذا اتهمه ورماه بخلة سوء فهو مأبون قالوا وهو مشتق من الأبن بضم الهمزة وفتح الباء وهي العقد في القسي تفسدها وتعاب بها.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٠).

والضحاك قالا: ما أمر الله تعالى نبيَّه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنَّما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمَّته من بعده. وفي قراءة ابن عباس: (وشاورهم في بعض الأمر) ولقد أحسن القائل:

شاور صديقك في الخفي المشكل ... واقبل نصيحة ناصح متفضل

فالله قد أوصى بذاك نبيه ... في قوله: (شاورهم) و(توكَّل)

وجاء في مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ((المستشار مؤتمن)). قال العلماء: وصفة المستشار إن كان في الأحكام أن يكون عالمًا دَيِّناً، وقلَّما يكون ذلك إلَّا في عاقل. قال الحسن: ما كمل دين امرئ ما لم يكمل عقله. فإذا استشير من هذه صفته واجتهد في الصلاح وبذل جهده فوقعت الإشارة خطأ فلا غرامة عليه؛ قاله الخطابي وغيره.

وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلًا مجرِّبًا وادًّا في المستشير. قال: شاور صديقك في الخفي المشكل.

وقال آخر: وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبًا ولا تعصه

والشورى بركة. وقال بعضهم: شاور من جرَّب الأمور؛ فإنَّه يعطيك من رأيه ما وقع عليه غاليًا وأنت تأخذه مجانًا. وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة – وهي أعظم النوازل – شورى. قال البخاري: وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها. وقال سفيان الثوري: ليكن أهل مشورتك أهل التَّقوى والأمانة، ومن يخشى الله تعالى. وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلَّا هداهم لأفضل ما يحضر بهم.

والشورى مبنيَّة على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولًا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكِّلًا عليه، إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب؛ وبهذا أمر الله تعالى نبيَّه في هذه الآية.

قال ابن العثيمين: {فإذا عزمت فتوكَّل على الله} {فإذا عزمت} أي {صممت على الفعل}؛ بعد المشورة أو قبل المشورة؟ الظاهر بعد المشورة لأنَّ الفاء تدلُّ على أنَّ ما بعدها مفرَّع على ما قبلها، أي: فإذا عزمت بعد الإشارة واستطلاع الرأي فلا تعتمد على مشورتهم، اعتمد على الله {فتوكَّل على الله}.

قال القرطبي: قتادة: أمر الله تعالى ﷺ نبيه إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكَّل على الله، لا على مشاورتهم. والعزم هو الأمر المروى المنقَّح ، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا.

قال ابن العثيمين: فهنا أمر بالأسباب والاعتماد على الله عز وجل؛ الأسباب هي المشورة، والاعتماد على الله هي التوكُّل عليه؛ فما معنى التوكُّل؟ معنى التوكُّل: هو الاعتماد على الله عز وجل في جلب المنافع ودفع المضار مع الثِّقة بالله، وشعور النَّفس بأنَّه محتاج إلى الله عز وجل مع فعل الأسباب.

{إنَّ الله يحبُّ المتوكِّلين}: لمَّا أمره بالتوكُّل بين الثَّمرة العظيمة من هذا التوكُّل، وله ثمرات كثيرة منها هذه الثَّمرة التي ذكر الله: {إنَّ الله يحبُّ المتوكِّلين} عليه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان رحمة الله عز وجل بنبيه ﷺ وبأمَّته؛ بجعل الرسول ﷺ ليِّنا لهم، هذه رحمة به وبهم.

٢- أنَّه ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون ليِّنًا ليتعرَّض لرحمة الله عز وجل؛ دليل ذلك ظاهر أنَّ الرسول سيد الأمَّة جميعًا فألانه الله لهم.

٣- أنَّ اللِّين أولى بكثير من الفضاضة والشدَّة، لأنَّ الله جعله من الرحمة؛ ولكنَّ الفقهاء رحمهم الله لمَّا ذكروا ما ينبغي للقاضي أن يتأدَّب به قالوا: ينبغي أن يكون ليِّنًا من غير ضعف؛ لأنَّ بعض الناس قد يكون ليِّنًا ويكون بسبب لينه ضعيفًا ما يكون حازمًا، وهذا نقص في اللِّين؛ لكن ينبغي أن يكون ليِّنًا مع الحزم والقوة في موضعها؛ لأنَّ القوَّة في موضعها حكمة؛ فاللِّين إن ضاعت به الحكمة فهو مذموم، وإن اجتمعت مع الحكمة فهو محمود.

٤- بيان مضار الفضاضة والغلظة، وأنَّ من أعظم مضارها نفور الناس عن الإنسان إذا كان فضًّا غليظ القلب؛ لقوله تعالى لرسوله: {ولو كنت فضًّا غليظ القلب لانفضُّوا من حولك}، هذا مع أنَّهم يرجون من قربهم من الرسول ﷺ ما يرجون، فكيف إذا كان الإنسان لا يرجى منه ما يرجى من الرسول؟ إذا كان فضًّا غليظ القلب فالظَّاهر أنَّه لا يكفي أن ينفضُّوا من حوله فربَّما رموه بالحجارة؛ لأنَّ الصحابة يرجون من الرسول الخير بقرِّبهم منه؛ فإذا قدِّر أنَّه فضٌّ غليظ القلب ينفضُّون من حوله فمن سواه من باب أولى.

٥- الإشارة إلى أنَّه ينبغي للإنسان أن يستعمل مع الناس كلَّما يجلبهم إليه؛ وجهه: أنَّه جعل الفضاضة والغلظة سببًا للتَّنفير على سبيل الذَّم لا على سبيل المدح؛ فينبغي للإنسان أن يستعمل في معاملة الناس كلَّما يقرِّبهم إليه، بشرط أن لا يضيِّع شيئًا من الواجبات .

٦- أنَّ الإنسان قد يعذر في الابتعاد عن أهل الخير إذا كانوا جفاة غلاظ القلوب؛ لقوله تعالى: {لانفضُّوا من حولك}، ويعني بهم الصحابة؛ ويعني المنفضُّ عنه الرسول؛ فإذا كان الصحابة لا يلامون على الانفضاض من الرسول لو كان فضًّا غليظ القلب فما بالك بمن دونه بمراحل؛ فلهذا إذا كان الإنسان فضًّا غليظ ولم يرى الناس حوله لا يلومنَّ إلَّا نفسه؛ ونحن نرى الآن أنَّ الإنسان ربما يكون كافرًا فإذا كان يعامل الناس باللِّين والرِّفق والبشاشة والسماحة ربما يفضِّلونه على مسلمٍ فضٍّ غليظ القلب.

٧- أنَّه ينبغي للإنسان أن يعفو عن حقِّه في معاملة إخوانه؛ لقوله: {فاعف عنهم}؛ ولكن هذه الآية مقيَّدة بما إذا كان العفو إصلاحًا، قيَّدها قوله تعالى: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله}. أمَّا إذا كان في العفو زيادة إفساد وطغيان فإنَّ هذه المصلحة تضمَّنت مفسدة أعظم، مثل لو كان الجاني معروفًا بالشَّر والفساد، فالأَولى أن نؤاخذه بالذَّنب؛ ولهذا ينبغي في حوادث السيَّارات أن لا يتعجَّل الإنسان بالعفو عمَّن تسبَّب بالحادث بل ينظر؛ إذا كان من الرِّجال المتهوِّرين الذين إذا عفونا عنه اليوم أحدث حادثًا غدًا؛ فهنا الأَولى أن لا نعفو؛ أمَّا إذا علمنا أنَّ الرجل شديد الحرص على سلامة الأنفس والأموال، ولكن

هذا أمرٌ قدِّر ونعلم أنَّه سوف يتحرَّز غاية التحرُّز في المستقبل، فإنَّ الأَولى في هذا العفو؛ إذًا مقيَّد بالإصلاح. والعفو ليس بواجب، لأنَّ الله يقول: {ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل}، فمن انتصر لنفسه بعد أن ظلم فليس عليه سبيل؛ لكنَّ الأفضل أن يعفو إذا كان في العفو يصلح.

٨- أنَّ التَّفريط في حقِّ النبي ﷺ قد يكون ذنبًا؛ لأنَّ الله لمَّا أمر نبيه بالعفو عن حقِّه الخاص قال: {واستغفر لهم}، وهو كذلك فإنَّ الرسول ﷺ ليس كغيره؛ لأنَّ له حقُّ الإسلام، وحقُّ الرِّسالة، ولأنَّه أعظم الناس حقوقًا علينا؛ فالاعتداء في حقِّه أشدُّ من غيره، يكسب الإثم؛ ولهذا قال: {فاعف عنهم واستغفر لهم}. غير الرسول ﷺ إذا عفا عن حقِّه الخاص انتهى؛ لكن الرسول لمَّا كان الأمر الذي يتعلَّق به متعلِّقًا بحقِّ الله عز وجل قال: {واستغفر لهم}، ولهذا لو سبَّ أحدٌ شخصًا من الناس لم يكفر، ولو سبَّ النبي ﷺ كفر لعظم حقِّه.

٩- الأمر بالشورى؛ لقوله: {وشاورهم في الأمر}، وهذا الأمر قد يكون للوجوب وقد يكون للاستحباب حسب الأمر المشاور فيه وحسب الإشكال الواقع فيه؛ فالأمور الكبيرة مع الإشكال الكبير تكون المشاورة فيها واجبة؛ والأمور الصغيرة أو مع الإشكال اليسير تكون مشورة مستحبَّة؛ فإذًا الأمر هنا: {وشاورهم}، مشترك بين الوجوب والاستحباب، حسب ما تقتضيه الحال؛ والحكمة من الأمر بالمشاورة تتبين بفوائد المشاورة، فللمشاورة فوائد منها: ألَّا يستبدَّ الرئيس، أو ولي الأمر برأيه؛ هذه فائدة مهمة جدًّا. ومن فوائدها: تعويد الأمَّة على النظر في شؤونهم حتى يتمرَّنوا ويمارسوا هذا الأمر. ومن فوائدها: التَّواضع، ممَّن شاور؛ لاشكَّ أنَّه إذا شاور فهو متواضع. ومن فوائدها: تنشيط الأمَّة، حيث ترى أنَّه يرجع إليها في الرأي، فتنشط وتعمل ما فيه الخير العام، بخلاف ما إذا استبدَّ وليَّ الأمر في رأيه فإنَّه وإن كان صوابًا ربما تشمئزُّ النُّفوس منه؛ فيقولون مثلًا: لم يرجع إلينا، لم يشاورنا في هذا الأمر الكبير، وما أشبه ذلك.

ومن فوائدها أيضًا: أنَّه إذا اجتمعت الآراء مع حسن النيَّة فإنَّ الغالب أنَّ الله يوفِّقهم للصواب، إذا اجتمعت الآراء مع حسن النيَّة فإنَّ الله يوفِّقهم للصَّواب. ومن فوائدها: أنَّ الإنسان ربما يرى في هذا الأمر مصلحة ويفوته ما يترتَّب عليه من مفسدة لاسيَّما إذا كان له هوى؛ فإنَّ الهوى كما قيل يعمي ويصم؛ أحيانًا يكون للإنسان هوى فيرى المصلحة ولا يرى المفسدة في الشيء، فإذا حصل التشاور تبيَّنت المصالح من المفاسد. ومن فوائد المشورة: أنَّ الأمَّة إذا اجتمعت على رأيها لم يكن للناس اعتراض؛ ومعلوم أنَّ الذي يشاور هم أهل الأمانة وأهل الحلِّ والعقد والمعرفة؛ فإنَّ وليَّ الأمر إذا أشكلت عليه مسألة شرعيَّة فمن يشاور؟ علماء الشرع؛ أشكلت عليه مسألة سياسيَّة يشاور علماء السياسة؛ أشكلت عليه مسألة اجتماعية يشاور علماء الاجتماع؛ أشكلت عليه مسألة جيولوجية يشاور علماء الجيولوجي؛ مسألة طبيَّة يشاور علماء الطِّب، ليس معناه أنَّه يجعل مستشارين دائمًا، قد يكونون في بعض المواضع أجهل من الحمير؛ لا؛ إنَّما يجعل المستشارين لكلِّ حال ما يناسبها؛ لأنَّ من شرط الاستشارة أن يكون المستشار ذا رأي سديد وأمانة؛ ومعلوم أنَّك لو استشرت عالمًا من العلماء في الشرع من أحسن العلماء في مسألة طبيَّة، ماذا يقول؟ ما يقدر يقول شيء؛ يقال: إنَّ رجلًا جاء إلى شخص يدَّعي الطِّب فقال له: إنِّي أحتاج إلى

عمليَّة في فدك، تعرفون الفدك؟ الفدك في البطن يعني ينشق البطن وتطلع الأمعاء؛ فقال له هذا الطبيب المتقدِّم: أنا أعرف أشقُّ البطن ولكن ما أعرف أخيطه؛ قال له: يا أخي هذا ذئب يعرف يشق البطن ولا يعرف يخيطه؛ أقول بعض الناس يمكن يدخل نفسه في أشياء لا يعرفها، وهذا خطأ؛ الواجب أنَّ الإنسان يعرف نفسه؛ إذا سئل عن شيء ليس من اختصاصه يقول، هذا ليس إليَّ؛ فمثلًا لو وليّ الأمر جاء يستشير عالمًا من علماء الشرع في مسألة طبيَّة ما يصلح هذا؛ لكن جاء يستشير عالم في الجيولوجيا في مسألة اجتماعية لا يصلح؛ ليس من اختصاصه؛ إذًا الإشارة تكون في كلِّ إنسانٍ بحسبه، بما يناسبه لأنَّ المستشار مؤتمن. من فوائد الشورى أيضًا: أنَّه إذا أخطأ الإمام أو وليّ الأمر لم ينسب الخطأ له، ينسب إلى مستشاريه؛ ولهذا يقول بعضهم في المشورة، يقول: إنَّ الشورى سترٌ لعيبك، إذا أخطأت قالوا: هذا من المستشارين وإن أصبت مدحونا أنا وإيَّاهم، من فوائدها أنَّها طاعة لله ورسوله؛ لأنَّ الله أمر بها. من فوائدها إغاظة أعداء الإسلام؛ إذا رأوا أنَّ المسلمين يجتمعون على رأيٍ واحدٍ ويتفرَّقون عليه، لاشكَّ أنَّ هذا يغيظهم. من فوائدها تقوية عزيمة المستشير، بأنَّه إذا رأى هؤلاء قد وافقوه مثلًا تقوى عزيمته، فيكون هذا أدعى للقطع بالحكم ما يتردَّد، ربما لو صدَّره من تلقاء نفسه ربما يتردَّد أو يخشى أنَّ أحدًا يعترض؛ فإذا كان باجتماع الشورى يعزم.

١٠– أنَّه يجب على الإنسان أن يكون اعتماده على الله عز وجل مع فعل الأسباب؛ لقوله: {فإذا عزمت فتوكَّل على الله}.

١١– أنَّ النبي ﷺ يعتريه ما يعتري البشر من التردُّد في الأمور؛ ووجه الدِّلالة أوَّلًا في قوله: {شاورهم}، وثانيًا في قوله: {فإذا عزمت}، فإنَّ العزيمة قد يسبقها تردُّد كما هو الواقع.

١٢– أنَّه ينبغي للإنسان إذا عزم على الأمر أن لا يتردَّد؛ لأنَّ التَّردُّد يحيِّر الإنسان ويوقعه في القلق؛ ولهذا قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا

وكثير من الناس يرى المصلحة في شيء ويعزم عليه ثمَّ يتردَّد، فيكون مذبذبًا أحيانًا كذا وأحيانًا كذا؛ ويؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمة نافعة جدًّا وهي قوله: (من بورك له في شيء فليلزمه)، كلمة عجيبة لو توزن بالذهب لوزنته، يعني إذا عمل الإنسان عملًا ورأى فيه البركة والثمرة فليلزمه؛ ولنضرب لهذا مثلًا بحال طالب العلم، طالب العلم مثلًا شرع في كتاب دراسة أو مراجعة ووجد فيه خيرًا، وجد أنَّه يستفيد ينتفع؛ ماذا نقول له؟ الزم هذا، لا تقول: والله هذا كتاب مختصر قليل أبغى أطول؛ طالب بدأ في زاد المستقنع ورأى فيه بركة وانتفع به، قال: ما يكفي هذا أبغى أطالع في الإنصاف، ما يكفي أبغى أطالع في المغني ما يكفي، أبغى أطالع المجموع ما يكفي، دور الفنون لابن عقيل؛ هذا ما يصح، إذا بارك الله في شيءٍ فالزمه حتى لا يضيع عليك الوقت.

وهنا مسألة أيضًا ترد عليَّ ويمكن عليكم؛ مثلًا يريد الإنسان أن يطالع مسألة في الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، يراجع الفهرس ليقرأ عليه، ثمَّ يلاحظ مسألة ثانية يروح يناظر، يضيع عليه الوقت، يروح يناظر الأصل الذي هو قاصد يروح، ربما يرجع بعدين يدور تعرض له مسألة الثانية ويقول: خلِّي نشوف، ثمَّ يضيع عليه الوقت؛ ولهذا كان من حكمة الرسول ﷺ أن

يبدأ بالشيء الذي يريده؛ لمَّا دعاه عتبان بن مالك رضي الله عنه ليصلِّي في مكان في بيته يتَّخذه مصلَّى، خرج النبي ﷺ إليه ومعه بعض أصحابه، فلمَّا دخل البيت قال: يا رسول الله قد صنعت لكم طعامًا قال: ((أرني المكان الذي تريد أن أصلِّي فيه)) قبل الطعام؛ لماذا؟ لأنَّه جاء إلى هذا الغرض؛ ابدأ بالغرض الذي أنت أتيت إليه؛ فهذه مسألة ينبغي للإنسان أنَّه يجعلها على باله في تصرُّفاته في العلم، وحتى في الدنيا؛ مثلًا بعض الناس التجار يتعامل بالبز؛ أي القماش، ثمَّ يسمع أنَّ في واحد من الناس اشترى أرضًا وباعها وكسب فيها، قال: خلاص بطَّلنا نروح إلى الأراضي؛ ثم يسمع أنَّ واحدًا يكسب بالسيَّارات، يقول: بطَّلنا ثمَّ تضيع عليه الأمور، لا، فإذا كان قد وجد بركة في التجارة الأَولى يستمر عليها لا يعود نفسه في الانتقالات التي لا فائدة فيها؛ وهذه نأخذها من قوله: {فإذا عزمت فتوكَّل على الله}، إذا كنت ذا عزيمة اعتمد على عزيمتك.

١٣ – إثبات المحبَّة لله عز وجل، أنَّ الله يحبُّ؛ ومحبَّة الله حقيقيَّة، لأنَّ لدى أهل السنة والجماعة قاعدة أنَّ كلَّ ما وصف الله به نفسه فهو حقيقة؛ لكن مذهبهم مبرأ من التمثيل والتكييف، والتحريف والتعطيل؛ يكفي عنه أن نقول: إنَّه حقيقة، يعني إذا قلنا إنَّه حقيقة فمعناه أنَّه مبرأ من التحريف والتعطيل؛ يبقى التمثيل والتكييف أيضا يتبرؤون من التمثيل والتكييف، لا يمثِّلون صفات الله بصفات خلقه ولا يكيِّفونه؛ إذًا من فوائد هذه الآية إثبات المحبَّة لله، أي صفة المحبَّة.

١٤ – فضيلة التوكُّل؛ ووجهه: أنَّ الله علَّق المحبَّة عليه، وهذا يدلُّ على فضيلته وعلى الحثِّ عليه.

فإن قال قائل: هل التوكُّل خاصٌّ بالله؟

فالجواب: أمَّا توكُّل العبادة الذي يعتمد الإنسان فيه على ربِّه، ويفوِّض الأمر إليه فهذا خاصٌّ بالله؛ وأمَّا توكُّل الاستنابة، بمعنى أنَّ الإنسان ينيب غيره عنه في شيء من الأشياء فهذا جائز؛ ولكنَّ الفرق بينهما ظاهر؛ الأوَّل: التوكُّل على الله يقطع الإنسان العلائق عن ما سوى الله عز وجل حتى عن نفسه، يفوِّض الأمر إلى الله تفويضًا كاملًا؛ لكنَّ الاستنابة يرى أنَّه فوق الوكيل، أنا وكَّلت إنسانًا يشتري لي حاجة، أنا متوكِّل عليه أو غير متوكِّل؟ متوكِّل عليه؛ ولكن هل توكُّلي عليه كتوكُّلي على الله؟ أبدًا، لأنَّ توكُّلي على الله تفويض إلى الله تفويضًا مطلقًا، وأعتقد أنَّه هو حسب؛ لكن هذا الرجل توكُّلي عليه على أنَّه نائب عنِّي لا على أنِّي طريح بين يديه مفوِّض الأمر إليه، على أنَّه نائب عني؛ أستطيع أن أعزله، أستطيع أن أوبِّخه إذا خالف مرادي، أستطيع أن أحاسبه إذا تسبَّب عليَّ بضرر، بخلاف التوكُّل على الله.

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {١٦٠}

قال ابن العثيمين: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم}: هذه الجملة جملة شرطيَّة، فعل الشرط فيها مضارع مجزوم: {إن ينصركم}، وجواب الشَّرط فيها جملة اسميَّة مصدرة ب{لا} النافية؛ و{لا} النافية إذا كانت صدرًا لجواب الشرط يقترن الجواب بالفاء وجوبًا؛ { لا غالب لكم} جملة اسميَّة.

{وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}: هذه الجملة أيضًا جملة شرطية؛ فعل الشرط فيها فعل مضارع، وجواب الشرط فيها جملة استفهامية مرتبطة بالفاء؛ وجوبًا، لأنَّ الجملة اسميَّة.

وقوله: {فمن ذا الذي ينصركم من بعده} فيها: {من}، و{ذا}، و{الذي}؛ فهل {ذا} التي بعد {من} اسم موصول أو ملغاة؟ ملغاة؛ لأنَّه أتى بعدها اسم موصول؛ و{ذا} التي بعد {من} تكون اسمًا موصولًا بشرط أن لا يأتي بعدها اسم موصول، فإن أتى بعدها اسم الموصل تعيَّن أن تكون ملغاة؛ وقال بعض النَّحويين: لا يتعيَّن أن تكون ملغاة ويكون اسم الموصول الثاني توكيدًا لاسم الموصول الأوَّل، كأن يقال: (فمن الذي الذي ينصركم من بعده)؛ هذا ما يتعلَّق بالآية من حيث الإعراب؛ أمَّا قوله تعالى: {وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون}، فقد سبق الكلام على مثلها.

يقول الله عز وجل في هذه الآية: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم}: يعني (إن يقدِّر الله نصركم)؛ وإنَّما قلت: إن يقدر الله نصركم، لأنَّه لو كان المراد النصر بالفعل لم يكن لقوله: {فلا غالب لكم} فائدة، لأنَّ النصر قد حصل؛ وعلى هذا فيكون المعنى: {إن ينصركم}، (إن يقدر نصركم). وهذا نظير قول النبي ﷺ: ((واعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك))، قال بعض العلماء: ((أنَّ ما أصابك)): أي ما قدر أن يصيبك، لأنَّ ما أصابك بالفعل قد حصل، فلا يستقيم قوله: ((لم يكن ليخطئك)) ولكن الصحيح أنَّ الحديث على ظاهره، ((أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك))، يعني: أنَّ الأمر لا يمكن أن يقع على خلاف الواقع، فما أصابك لم يكن ليخطئك أبدًا فلا حاجة إلى النَّدم.

هنا يقول: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم}: و{لا} هذه نافية للجنس، والنافية للجنس نصٌّ في العموم؛ لأنَّ النفي قد يكون عام للعموم نصًّا، وقد يكون للعموم ظاهرًا؛ والفرق بين النصِّ والظاهر أنَّ النَّص لا يحتمل التَّخصيص، والظاهر يحتمل أن يكون عامًّا أريد به الخصوص؛ قال أهل العلم في النحو: و(لا) النافية نصٌّ في العموم، كما أنَّ (من) الزائدة إذا جاءت بعد النفي صار النفي نصًّا في العموم، كما لو قلت: (ما في الدار من رجل)؛ هذه نص في العموم كقولك: (لا رجل في الدار)؛ الحاصل قوله: {فلا غالب لكم} عامَّة، يعني: (لا أحد يغلبكم مهما كانت قوَّتهم ومهما كان عددهم)؛ وإنَّما قال الله ذلك من أجل أن نعلِّق النصر بالله عز وجل لا بغيره.

ثمَّ قال: {وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}: {يخذلكم} مقابل: {ينصركم}؛ الخذلان ضد النصر، وهذه من القواعد التي تفيد في تفسير القرآن، أنَّ الكلمة قد يتبيَّن معناها بما قرن معها من الضِّد.

لو قال لك قائل: ما معنى ثبات في قوله تعالى:{فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا}؟ فرادى؛ هل راجعت القاموس؟ لا، من أين عرفت أنَّها فرادى؟ قابلها بقوله: {أو انفروا جميعًا}.

{إن يخذلكم}: أي (إن يقدِّر لكم الخذلان)، وهو عدم النصر، {فمن ذا الذي ينصركم من بعده}، ويمكن أيضًا أن نستدلَّ على معنى الخذلان بقوله: {فمن ذا الذي ينصركم من بعده}، {من} استفهام بمعنى النفي؛ ولكنَّه جاء النفي بصيغة الاستفهام لأنَّه مشرب بمعنى التَّحدِّي، يعني كأنَّ الله يقول: (نتحدَّاكم إذا أراد الله خذلانكم أن ينصركم أحدكم من بعده حتى لو اجتمعت قوى الأرض كلِّها، على أن تنصركم)؛ والله تعالى اذا لم ينصركم فإنَّه لا يمكن أن تنتصروا؛ {وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم بعده}؟ الجواب: لا أحد.

قال ابن القيم في شفاء العليل ج١ص١٠٠: وأصل الخذلان: التَّرك والتَّخلية، ويقال للبقرة والشاة إذا تخلَّفت مع ولدها في المرعى وتركت صواحباتها: خذول.

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، ولن يضرك خذلان من خذلك، وإن يخذلك؛ فلن ينصرك الناس، أي لا تترك أمري للناس، وارفض الناس لأمري.

والخذلان: أن يخلق الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها، والتوفيق ضده؛ أن لا يدعه ونفسه، ولا يكله إليها، بل يصنع له ويلطف به ويعينه، ويدفع عنه، ويكلؤه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خلى بينه وبين نفسه فقد هلك كلَّ الهلاك. ولهذا كان من دعائه ﷺ: ((يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كلُّه، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحدٍ من خلقك([1]))). فالعبد مطروح بين الله وبين عدوِّه إبليس، فإن تولَّاه الله لم يظفر به عدوَّه. وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان، كما يفترس الذِّئب الشاة.

فإن قيل: فما ذنب الشاة إذا خلى الرَّاعي بين الذئب وبينها، وهل يمكنها أن تقوى على الذئب وتنجو منه؟.

قيل: لعمر الله، إنَّ الشيطان ذئب الإنسان، كما قال الصادق المصدوق، ولكن لم يجعل الله لهذا الذئب اللَّعين على هذه الشاة سلطانًا، مع ضعفها. فإذا أعطت بيدها وسالمت الذئب ودعاها فلبَّت دعوته وأجابت أمره ولم تتخلَّف، بل أقبلت نحوه سريعة مطيعة، وفارقت حمى الرَّاعي الذي ليس للذئاب عليه سبيل، ودخلت في محلِّ الذئاب الذي من دخله كان صيدًا لهم، فهل الذَّنب كلَّ الذَّنب إلَّا على الشاة؟ فكيف والرَّاعي يحذِّرها ويخوِّفها وينذرها؟ وقد أراها مصارع الشاة التي انفردت عن الرَّاعي، ودخلت وادي الذئاب.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠)، والحديث بتمامه: ((ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)).

قال ابن العثيمين: {وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون}: {على} هنا في {على الله}، جار ومجرور مقدَّم على عامله وهو: {يتوكَّل}؛ وتقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر، أي: (على الله لا غيره فليتوكَّل)؛ والفاء هنا قال النحويون: إنَّها زائدة لتحسين اللَّفظ، ولا يمكن أن تكون عاطفة، لأنَّ الواو في قوله: {وعلى الله} تغني عنه؛ ولهذا لو قيل: (وعلى الله ليتوكَّل) صحَّ؛ فهي زائدة لتحسين اللَّفظ، ووجه كونها لتحسين اللفظ ظاهر؛ لأنَّ اللَّفظ لو قلت: (وعلى الله ليتوكَّل المؤمنون)، لم يكن في ذاك البلاغة؛ فإذا قلت: (فليتوكَّل) صار هذا أبلغ؛ وقوله: {فليتوكَّل}: أي (فليعتمد)؛ ولكنَّ التَّوكُّل على الله عز وجل ليس كالتوكُّل على الآدمي؛ التوكُّل على الله فيه إنابةٌ وخضوعٌ وذلٌّ وتفويضٌ واعتمادٌ تامٌّ على الله، بخلاف ما إذا توكَّل الإنسان على شخصٍ وكيل له، فإنَّه لاشكَّ يعتمد عليه فيما وكَّله فيه، لكن لا يجد من قلبه أنَّه مفوَّض تفويضًا تامًّا، ومنيبًا إليه وخاضع له؛ فالتوكُّل على الله عبادة؛ ولهذا قال: {وعلى الله} وحده {فليتوكَّل المؤمنون} به؛ والإيمان بالله إذا أطلق شمل جميع ما يجب الإيمان به من الأركان الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ في قوله لجبريل: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه)).

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ هَوَازِنَ الْقُشَيْرِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الحسين بن شجاع البزاز بِبَغْدَادَ أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمُ الْأَنْبَارِيُّ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْعَوَّامِ أَخْبَرَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَدْخُلُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ))، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: ((هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))، فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادع الله لي أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: ((أَنْتَ مِنْهُمْ))، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أن يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: ((سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ(١))).

١- حديث صحيح. إسناده ضعيف، قال بهز بن حكيم وعلي المديني وأبو حاتم الرازي، وروي عن أحمد ويحيى وغيرهم: لم يسمع الحسن من عمران بن حصين. راجع المراسيل ص (٤٠) لكن تابعه ابن سيرين كما سيأتي، وللحديث شواهد تبلغ به حد الشهرة. وهو في شرح السنة (٤٠٠٢) بهذا الإسناد.

- وأخرجه أحمد ٤/ ٤٣٦ وأبو عوانة ١/ ٨٧ والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٨) من طريق هشام بن حسان به.

- وأخرجه مسلم ٢١٨ من طريق المعتمر عن هشام بن حسان، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ عمران به.

- وورد مختصرا عند أحمد ٤/ ٤٤٣ وأبو عوانة ١/ ٨٨ والطبراني ١٨/ (٤٢٥) - (٤٢٧) و (٤٩٤) من طرق عن عمران بن حصين به.

- وأخرجه الطبراني ١٨/ (٦٠٥) وابن منده في الإيمان (٩٧٩) مطوّلا من طريق عبيد الله بن عمرو، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عمران بن الحصين به.

- وأخرجه ابن حبان ٦٠٨٩ من وجه آخر عن عمران مطوّلا.

- وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ٥٨١١ و٦٥٤٢ ومسلم ٢١٦ وأحمد ٢/ ٤٠٠- ٤٠١ وابن منده ٩٧٠ و٩٧١ والبيهقي ١٠/ ١٣٩ والبغوي في شرح السنة (٤٢١٨ من طريق الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عنه.

- ومن حديث ابن عباس أخرجه البخاري ٥٧٠٥ ومسلم ٢٢٠ والترمذي ٢٤٤٦ وأحمد ١/ ٢٧١.

الخلاصة: هو حديث مشهور.

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي توبة قال أخبر مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَارِثِ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكِسَائِيُّ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَحْمُودٍ أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَلَّالُ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ حَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ حَدَّثَنِي بَكْرُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُبَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بطانًا([1]))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ لقوله: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم}.

٢- وجوب تعلُّق القلب بالله وحده في طلب الانتصار؛ لقوله: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم}؛ إذًا بناءً على هذه القاعدة يطلب النصر من الله عز وجل.

٣- أنَّ الله إذا قدَّر خذلان أحد فلا ناصر له؛ لقوله: {وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}.

٤- أنَّه إذا آمن الإنسان بهذا فإنَّه لابدَّ أن يفعل أسباب النصر التي يكون بها النصر؛ إذا آمنت أنَّ النصر بيد الله، وأنَّ الله إذا خذلك لا ينصرك أحد، فهل تأتي بأسباب النصر التي رتَّب الله عليها النصر أو لا؟ نعم لاشكَّ؛ وأسباب النصر متعدِّدة وهي خمسة: الأول: الإخلاص لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرضِ كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا}، الإخلاص لله في العبادة.

الثانية: إقام الصلاة؛ إيتاء الزكاة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قال الله تعالى: {ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيز * الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}، هذه ما تذكر لكن الأربعة هذه أسباب أضفها إلى الأول تكون خمسة؛ وتأمَّل قوله تعالى: {إنَّ الله لقويٌّ عزيز}، يتبيَّن لك أنَّ هذا النصر محقَّق لأنَّه إذا كان الله قويًّا عزيزًا فكلُّ من أمامه ضعيف ذليل، ثمَّ تأمَّل مرة أخرى قوله: {ولله عاقبة الأمور}، يتبيَّن لك أنَّ القوى الظاهرة الماديَّة مهما عظمت فإنَّ عاقبتها بيد الله عز وجل، هو الذي يجعل العاقبة لمن شاء {والعاقبة للمتَّقين}؛

١- إسناده صحيح، ابن المبارك ثقة روى له الشيخان، ومن دونه توبعوا، ومن فوقه ثقات رجال مسلم، أبو تميم الجيشاني هو عبد الله بن مالك. هو في شرح السنة (٤٠٠٣) بهذا الإسناد. أخرجه المصنف من طريق ابن المبارك، وهو في الزهد (٥٥٩) عن حيوة بن شريح بهذا الإسناد. ومن طريق ابن المبارك أخرجه الترمذي ٢٣٤٤ وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٦٩) والقضاعي في الشهاب (١٤٤٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح اهـ.

- وأخرجه أحمد ١/ ٣٠ والحاكم ٤/ ٣١٨ وأبو يعلى ٢٤٧ وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٦٩) من طريق أبي عبد الرحمن المقرئ عن حيوة به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وإسناده جيد رجاله كلهم ثقات رجال مسلم.

- وأخرجه ابن ماجه ٤١٦٤ وأحمد ١/ ٥٢ من طريق ابن وهب عن ابن لهيعة، عن بكر بن عمرو بهذا الإسناد. وابن وهب روى عن ابن لهيعة قبل احتراق كتبه.

- وفي الباب عن ابن عمر أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٢٩٧) وإسناده ضعيف.

ولهذا قال بعض السفهاء: سبحان الله إذا أقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر نغلب أمريكا وروسيا؟ نقول: نعم يا سفيه، العاقبة لله وللمتّقين، {ولله عاقبة الأمور}، ما هي لروسيا ولا لأمريكا ولا لإنكلترا ولا لفرنسا، بل لله وحده عاقبة الأمور؛ وإذا أردت أن تعرف هذا من الناحية التاريخية فانظر ماذا جرى للأمَّة الإسلامية في أوَّل عهدها، أسقطت الدول الكبرى العظمى في عهدها، دولة الروم ودولة الفرس، ودولة القبط في مصر، وظهروا وملكوا مشارق الأرض والمغارب، هذا ومن الناحية الواقعية؛ زلزلة واحدة بلحظات من ربِّ العرش تدمِّر كلَّ شيء، ولا يستطيع أحد أن يمنع هذه الزلزلة؛ أظنُّ قبل سنتين صارت هناك زلزال وبراكين تفجَّرت ذابت الجبال الصم البكم على الناس وأحرقتهم؛ بأمر من؟ بأمر الله عز وجل؛ فلهذا نقول: إنَّ من ضعف الإيمان أن ينظر الإنسان إلى الأمر الذي أمامه الأمر المادي ولا ينظر إلى قدرة الله عز وجل وقوّته؛ إذًا لابدَّ أن نسلك أسباب النصر، ونحن إذا سلكنا أسباب النصر بإيمان ويقين تحقَّق لنا.

٥- التَّحذير من فعل أسباب الخذلان؛ لقوله: {وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}؛ ومن أسباب الخذلان تولِّي الكفار ومناصرتهم ومعاضدتهم لأنَّ هذا من أسباب الخذلان؛ اعتمِد على الله عز وجل لأنَّ الله قال: {وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}.

٦- وجوب التوكُّل على الله وحده؛ يؤخذ من قوله: {وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون}؛ إفراده بالتوكُّل يؤخذ من تقديم المعمول على عامله لأنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر؛ هذه قاعدة حتى بين المبتدأ والخبر لو قلت: {لله ملك السموات والأرض}: يعني لا لغيره.

٧- أنَّ التوكُّل من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّه علَّق الحكم على وصف وهو الإيمان، فدلَّ ذلك على أنَّه كلَّما قوي الإيمان قوي التوكُّل على الله، وكلَّما ضعف الإيمان ضعف التوكُّل على الله.

فإن قال قائل: هل إفراد الله بالتوكُّل ينافي فعل الأسباب؟

الجواب: لا؛ بل فعل الأسباب من التوكُّل على الله؛ لأنَّك أنت إذا توكَّلت على الله فمن مقتضيات التوكُّل عليه أن تفعل ما أمرك به.

فلو قال قائل: أنا سأدخل النار متوكِّلًا على الله، نقول هذا غير صحيح، اللهم إلَّا أن يقع ذلك عن سبيل التَّحدِّي ممكن هذا أن يكون آية من آيات الله، ينصر الله هذا الفاعل لنصرة دينه ويكون دخوله في النار كرامة؛ ولهذا ذُكر أنَّ شيخ الإسلام رحمه الله لمَّا ناظر رئيس البطائحية الذي جاء يناظره في مسائل من أصول الدين، قال له رئيس البطائحية: أنا أصوب منك لأنِّي أستطيع أن أدخل في النار ولا يصيبني منها شيء؛ فهل تستطيع أن تدخل في النار ولا يصيبك شيء؟ يقول شيخ الإسلام قال: نعم أنا أستطيع بشرط أن أنزل وإيَّاك في هذا النهر ونتغسَّل تمامًا ثمَّ ندخل النار؛ لماذا قال هذا؟ لأنَّ الرجل قد طلا جسمه بشيء يضاد للنار، ويريد أن يموِّه على الناس، يدخل النار يقول: أنظروا ابن تيمية، أنا دخلت النار ونجوت منها وهذا الرجل عجز؛ لكن ابن تيمية ولله الحمد قد أعطاه الله ذكاء وفطنة وفراسة، قال: ما في مانع ندخل النار جميعًا لكن بشرط

بعد أن نغتسل بهذا الماء؛ وماذا حصل؟ انهزم الرجل؛ على كلِّ حال أقول: إنَّ فعل الأسباب لا ينافي التوكُّل؛ ولهذا شواهد أوَّلًا: نعلم علم اليقين أنَّ نبينا محمد ﷺ سيد المتوكِّلين أليس كذلك؟ ومع ذلك يتوقَّى الحر، ويتوقَّى البرد، ويأكل لدفع الجوع، ويشرب لدفع الظمأ؛ أليس كذلك؟ في الغزوات كان يلبس الدرع يتوقَّى به السِّهام؛ وفي غزوة أحد لبس درعين؛ في غزوة الخندق لمَّا أحاط الأحزاب بالمدينة حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه، ولم يقل توكَّل على الله وإذا كان يمكن يجيئونا يجيئون وإذا ما يمكن يجيئون لا يجيئون، لا، فعل السبب؛ والوقائع على هذا كثيرة تدلُّ على أنَّ فعل الأسباب لا ينافي التوكُّل، ولكن يجب أن نلاحظ شرطًا مهمًّا، وهي أن تكون الأسباب أسبابًا شرعيَّة أو كونيَّة لا أسبابًا وهميَّة؛ أسبابًا شرعيَّة يعني ثبت بالشرع أنَّها سبب؛ أو أسبابًا كونيَّة أي ثبت بالتَّجارب أنَّها سبب؛ لأنَّ ما ثبت بالتَّجارب لم يدلَّ عليه الشرع؛ لكن دلَّت عليه التَّجربة وهذا سبب كوني؛ أمَّا السبب الوهمي كتعليق التمائم غير شرعيَّة وما أشبه ذلك، التطير أيضًا سبب وهمي فهذا لا يجوز الاعتماد عليه؛ فهناك أسباب شرعيَّة وأسباب كونيَّة وأسباب وهميَّة؛ إذًا فعل الأسباب لا ينافي التوكُّل بل هو من تمام التوكُّل.

فإذا قال قائل: الأسباب الشرعيَّة لا تنافي التوكُّل لاشك فيه؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يتعوذ بالمعوِّذات وكان يقول: ((من قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه الشيطان حتى يصبح[1]))، وهذه من الأسباب الشرعيَّة؛ وقال عن الفاتحة: ((إنَّها رقية)).

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {١٦١}

قال ابن العثيمين: {وما كان لنبيٍّ}: فيها قراءة: {لنبيءٍ}؛ {أن يَغلَّ} فيها قراءة: {أن يُغلَّ}؛ ما الفرق بين القراءتين في: {لنبيٍّ}، و{لنبيءٍ}؟ أمَّا {لنبيءٍ}، فهي على وزن فعيل من النَّبأ بالهمزة؛ وهل هو بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول أو بمعناهما جميعًا؟ يشملهما؛ فالنبيء فعيل بمعنى فاعل لأنَّه منبئ، وفعيل بمعنى مفعول لأنَّه منبَّأ؛ الرسول ﷺ منبئ منبأ؛ على قراءة: {لنبيٍّ} بالياء، قيل إنَّه مسهَّل وأنَّ أصله لنبيء فسهلت الهمزة إلى ياء؛ وقيل: بل هو مشتقٌّ من النبوة وهي الارتفاع؛ وعلى هذا فيكون {لنبيٍّ} أصله (لنبيو)؛ لكن لِعِلَّة تصريفيَّة صارت الواو ياء؛ فما هي القاعدة في هذا، أن تجعل الواو ياء؟ يقول:

١- (قلت): لم أجده بهذا اللفظ، بل بلفظ آخر في صحيح البخاري (٥٠١٠)، وصححه الإمام الألباني في تخريج الكلم الطيب (٣١). والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَصَّ الْحَدِيثَ فَقَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ.

إذا اجتمعت الواو والياء في كلمة وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء، أي إذا قلنا: لنبيو فقد اجتمعت الواو والياء في كلمة وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء فصار {لنبيٍّ}؛ هل يمكن أن نقول على هذه القراءة إنَّه مشتقٌّ من الوجهين: من النَّبأ ومن النُّبوة؟ يمكن بناءً على ما سبق من أنَّ الكلمة في القرآن إذا احتملت معنيين لا يتنافيان تحمل عليهما جميعًا؛ لأنَّ معاني القرآن واسعة.

أمَّا: {أن يَغُلَّ}: ففيها قراءة {أن يُغَلَّ}، والفرق بينهما ظاهر: {أن يَغلَّ} مبنيَّة للفاعل؛ و{أن يُغلَّ} مبنيَّة للمفعول؛ أمَّا على وجه: {أن يَغُلَّ} فالمعنى أنَّ الله نفى أنَّ النبي يغلُّ؛ وغلول النبي يحتمل معنيين: غلول المال وغلول العلم؛ فغلول العلم كتمه؛ وغلول المال إخفائه وأخذه؛ وكلُّ هذا منتفٍ عن النبي شرعًا، ولم يعلم أنَّه واقعٌ قدرًا؛ ولا يمكن أن يقع قدرًا بما نعلم؛ فالنبي لا يمكن أن يكتم ما أنزل الله إليه ولا يمكن أن يسرق من مال المسلمين؛ أمَّا على: {أن يُغَلَّ}: فمعناه أنَّ النبي يُغِلَّهُ غيره.

قال الله عز وجل: {وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ}، إذا جاءت: {ما كان} في القرآن فإنَّ معناها النفي المحقَّق؛ مثل قوله تعالى: {وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم}، ومثل قوله تعالى: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه}، و{وما كنَّا معذِّبين حتى نبعث رسولًا}، والشواهد في هذا كثيرة، يعني أنَّ هذا منتفٍ قطعًا ولا يمكن أن يكون {وما كان لنبيٍّ أن يغلَّ} على هذه القراءة، يعني أن الله يقول: إنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن يغلُّوا، كلَّ الأنبياء، لأنَّ {نبي} نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ فالله تعالى ينفي أن يَغلَّ النبي شرعًا؛ وقدرًا أيضًا، لأنَّنا لا نعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى قدَّر على نبيٍّ الغلول، أن يغلَّ بنفسه وهذا بعيد؛ أمَّا على قراءة: {أن يُغلَّ}، فإنَّ الله تعالى ينفي شرعًا أن يغلَّ النبي، يعني ما كان شرعًا أن يُغلَّ النبي؛ لأنَّ النبي إذا كسب المال فإنَّ ماله للمسلمين جميعًا، وإذا كان للمسلمين جميعًا فإنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يغلَّ منه شيئًا، لأنَّه لو غلَّ منه شيئًا لكان هذا يتعلَّق بجميع المسلمين؛ المال هذا للمسلمين جميعًا فإذا أخذت منه شيئًا فقد خنت جميع المسلمين، لاسيَّما المشتركون في هذه الغنيمة. يعني فما كان لنبيٍّ أن يُغَلَّ شرعًا؛ ولكن قد يُغَلُّ قدرًا، كما وقع هذا في عهد النبي ﷺ.

قال السعدي: الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كلِّ مال يتولَّاه الإنسان وهو محرَّم إجماعًا، بل هو من الكبائر، كما تدلُّ عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنَّه ما ينبغي ولا يليق بنبيٍّ أن يَغلَّ، لأنَّ الغلول – كما علمت – من أعظم الذنوب وأشرُّ العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كلِّ ما يدنِّسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقًا، وأطهرهم نفوسًا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزَّههم عن كلِّ عيب، وجعلهم محلَّ رسالته، ومعدن حكمته {الله أعلم حيث يجعل رسالته}.

فبمجرَّد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كلِّ أمرٍ يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأنَّ معرفته بنبوَّتهم، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: {وما كان لنبي أن يغلَّ}: أي يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوَّته.

قال ابن العثيمين: ثمَّ قال الله: {ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيمة}: الإشكال في إعراب {يأت بما غلَّ} لماذا صارت مكسورة وجواب الشرط يكون مجزومة؟ ... التاء مكسورة من قبل حتى لو كانت الياء موجودة، لو قلت: يأتي؛ ... يعني تبقى الكسرة التي قبل الياء دليلًا على الياء المحذوفة؛ إذًا يأت مجزومة على هذه الحال، جواب الشرط مجزوم بحذف الياء والكسرة قبلها بناء عليها.

{ومن يغلل} هنا عموم؛ ولم يقل: (ومن يغلل من الأنبياء)؛ لو فرض أن يغل؛ بل قال: {ومن يغلل}، يعني: من أتباع الأنبياء؛ {يأت بما غلَّ يوم القيمة}، يأتي به يوم القيمة حاملًا له أمام الناس في هذا الموقف العظيم الذي تشهده الخلائق كلُّها، كما قال تعالى: {واليوم الموعود وشاهد ومشهود}. وإعراب {يوم القيمة}؟ مفعول فيه، متعلقة ب{يأت} وليس ب{غلَّ}، لأنَّ يوم القيامة ليس فيه غلول. وهل يأتي بنفس الذي غلَّ؟ أو يأتي بالعقاب المرتَّب عليه؟ نقول: إنَّ ظاهر الآية يدلُّ على أنَّه يأتي بنفس الذي غلَّ، إن كانت شاة تيعر؛ بعير لها رغاء؛ أي شيء يغلَّه يأتي به يوم القيمة؛ لو غلَّ ثيابًا؟ أتى بها يوم القيمة؛ لكن هل يأتي بها مكتسيًا بها؟ لا، يأتي بها حاملًا لها وهو عاري؛ البعير الذي غلَّه فركبه هل يأتي به يوم القيمة راكبًا عليه؟ لا، يأتي به حاملًا له تعذيبًا له.

قال ابن كثير: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضًا في أحاديث متعدِّدة.

عن المستورد بن شداد. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من كان لنا عاملًا فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا من اتَّخذ غير ذلك فهو غالٌّ أو سارق(١))).

وعن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: ((ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلَّا جاء به يوم القيامة على رقبته إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر)) ثمَّ رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال: ((اللهم هل بلَّغت))، ثلاثًا(٢).

وعن أبي هريرة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، ثمَّ قال: ((لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفينَّ أحدكم

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٦٤٨٦).

٢- (قلت): مُتَّفَق عَلَيْهِ. البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢)، صححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٨٢).

يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك([١])).

وعن عدي بن عميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا أيُّها الناس، من عمل لنا منكم عملًا فكتَمَنا منه مخيطًا فما فوقه فهو غَلٌّ يأتي به يوم القيامة))، قال: فقال رجل من الأنصار أسود – قال مجاهد: هو سعيد بن عبادة – كأنِّي أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: ((وما ذاك؟)) قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: ((وأنا أقول ذاك الآن: من استعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذه. وما نهي عنه انتهى([٢]))).

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ردُّوا الخياط والمخيط، فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة([٣]))).

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: بعثني رسول الله ﷺ ساعيًا ثمَّ قال: ((انطلق – أبا مسعود – لا ألفينَّك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته)). قال: إذًا لا أنطلق. قال: ((إذًا لا أكرهك([٤]))). تفرَّد به أبو داود.

وعن عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لمَّا كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد؟ فقال رسول الله ﷺ: ((كلَّا إنِّي رأيته في النار في بردة غلَّها – أو عباءة)). ثمَّ قال رسول الله ﷺ: ((يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنَّه لا يدخل الجنة إلَّا المؤمنون)). قال: فخرجت فناديت: ألا إنَّه لا يدخل الجنة إلَّا المؤمنون([٥]). وكذا رواه مسلم، والترمذي من حديث عكرمة بن عمار به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال أبو داود عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالًا فينادي في الناس، فيجيئون بغنائمهم يخمِّسه ويقسِّمه، فجاء رجل يومًا بعد النِّداء بزمام من شعر فقال: يا رسول الله، هذا كان ممَّا أصبنا من الغنيمة. فقال:

١- (قلت): مُتَّفَق عَلَيْهِ. البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١)، صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٣).

٢- (قلت): مسلم (١٨٣٣)، وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٧٥٢).

٣- حسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٣).

- (قلت): وصحح حديثا آخر في السلسلة الصحيحة (١٩٧٣) بلفظ: ((يا أيها الناس ليس لي من هذا الفيء ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم فردوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله يوم القيامة عارا ونارا وشنارا)).

٤- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢٩٤٧).

٥- المسند (٣٠/١)، وصحيح مسلم برقم (١١٤)، وسنن الترمذي برقم (١٥٧٤).

- (قلت): وصححه الإمام الألباني في المشكاة (٤٠٣٤).

((أسمعت بلالًا ينادي ثلاثًا؟))، قال: نعم. قال: ((فما منعك أن تجيء به؟)) فاعتذر إليه، فقال: ((كلَّا أنت تجيء به يوم القيامة، فلن أقبله منك([١])).

قال ابن العثيمين: {ثمَّ توفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}: {ثمَّ} أي بعد أن يبعث الناس يوم القيمة ويأتي كلَّ إنسانٍ بما غلَّ: {توفَّى} من التَّوفية؛ يقال: وفَّى حقَّه أي أعطاه إيَّاه؛ وقوله: {كلُّ نفسٍ بما كسبت} يشمل حتى الرسل، يشمل الرسل والمرسل إليه: {فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين}، كلٌّ يعطى ما كسب؛ وقوله: {كلُّ نفسٍ ما كسبت}، يحتمل أن يكون المراد بالعموم هنا من كان مكلَّفًا، لأنَّ غير المكلَّف لا يعاقب، لأنَّه مرفوع عنه القلم؛ وقد يقال إنَّه يشمل حتى غير المكلَّف لأنَّ التَّوفية لا يلزم منها العقوبة، قد يوفَّى حقَّه بالأجر؛ ومعلوم أنَّ غير المكلَّف يؤجر؛ فهو يكتب له ولا يكتب عليه.

قال السعدي: وتأمَّل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة. لمَّا ذكر عقوبة الغالِّ، وأنَّه يأتي يوم القيامة بما غلَّه، ولمَّا أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان الاقتصار على الغالِّ يوهم – بالمفهوم – أنَّ غيره من أنواع العاملين قد لا يوفُّون – أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

قال ابن العثيمين: {وهم لا يظلمون}: الجملة حال من قوله: {كلُّ نفس}، لأن معناها العموم؛ {وهم}: أي الأنفس، {لا يظلمون}: أي لا ينقصون من الحسنات ولا يزاد في السيئات؛ لأنَّ الظلم في الأصل هو النقص كما قال الله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}: أي لم تنقص؛ والظلم يشمل شيئين؛ الأول: الزيادة في السيئات؛ والثاني: النقص من الحسنات، وكلاهما ممتنع في حقِّ الله عز وجل، كما قال الله تعالى: {وما ربك بظلَّام للعبيد}، {ولا يظلم ربك أحدًا}، وإنَّما انتفى الظلم عنه لكمال عدله لا لعجزه عن الظلم؛ هو قادر على أن يظلم عز وجل ولكنَّه لكمال عدله لا يظلم.

ولدينا قاعدة في العقيدة وهي: أنَّ جميع الصفات التي نفاها الله عن نفسه لا يراد بها مجرَّد النَّفي وإنَّما يراد بها إثبات كمال الضِّد؛ فمثلًا الظلم ما ضدَّه؟ العدل؛ فإذا نفى الله عن نفسه الظلم فالمراد بذلك أنَّه لكمال عدله لا يظلم([٢])؛ وإنَّما قلنا ذلك لأنَّ النفي المحض لا يوجد في صفات الله أبدًا؛ إذ أنَّ النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء فضلًا عن أن يكون كمالًا. إذًا كلَّما نفاه الله عن نفسه فاعلموا أنَّه ليس المراد نفي هذا الشيء فقط بل المراد إثبات كمال ضدِّه. مثلًا: {وما مسَّنا من لغوب}: يعني من تعب، ما المراد؟ إثبات كمال القوَّة، يعني ما مسَّنا من لغوب لكمال قوَّتنا وهلمَّ جرا.

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٤٧٨٩)، علمًا ان الحديث من رواية عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، والحديث بتمامه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَصَابَ مَغْنَمًا أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّاسِ فَيَجِيءُ النَّاسُ بِغَنَائِمِهِمْ فَيُخَمِّسُهُ وَيُقَسِّمُهُ فَأَتَاهُ رَجُلٌ . بَعْدَ ذَلِكَ . بِزِمامٍ مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ: ((أَمَا سَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟)) قَالَ: نَعَمْ قَالَ: ((فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟)) فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كُنْ أَنْتَ الَّذِي يَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَنْ أقبلَه منك)).

٢- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام مفصلًا عن تحريم الله الظلم على نفسه عند تفسير الآية (٢٥) من سورة آل عمران.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز في حقِّهم كتمان ما أنزل الله عليهم؛ لقوله: {وما كان لنبيٍّ أن يغلَّ}.

٢- أنَّه لا يجوز لأتباع النبي الغلول: {وما كان لنبي أن يغلّ}، إذًا فأتباعه ليس لهم أن يغلوا؛ ولهذا كان الغلول من كبائر الذنوب، حتى إنَّ العلماء يقولون وقد جاءت به السنة أيضًا: أنَّ الغالَّ يحرق رحله إلَّا المصحف وما فيه روح والسلاح؛ تحريق الرحل من أجل التنكيل به؛ وإلَّا فمن الممكن أن يقول قائل: لماذا تحرقون رحله لماذا لا تتركونه في بيت المال، ينتفع المسلمون منه؟ لكن نقول إنَّ إحراقه خير من إدخاله بيت المال؛ لأجل التنكيل به، ليكون ردعًا له ولغيره أن يعودوا إلى الغلول.

٣- أنَّ الأنبياء لا يُغلُّون شرعًا؛ وأنَّ النبي لا يحلُّ لأحدٍ أن يَغلَّه، أن يغلَّ من الغنيمة التي اكتسبها بحرب.

٤- أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: {ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيمة} وهذا على سبيل العقوبة؛ وبهذا نعرف ضعف قول من قال من السلف: غلُّ المصحف لتأتي به يوم القيمة؛ هذا خطأ، لأنَّه يأتي به يوم القيمة على سبيل العقوبة لا على سبيل الثواب؛ وربما يأتي به يوم القيمة لا على الوجه الذي غلَّه في الدنيا.

٥- إثبات البعث؛ لقوله: {يأت بما غلَّ يوم القيمة}.

٦- إثبات قدرة الله عز وجل، وأنَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يأتي الإنسان بما غلَّ مع أنَّه قد فني وزال وإذا كان طعامًا قد أكل؛ ولكنَّ الله سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ قدير: {إنَّما أمره إذا أرد شيئًا أن يقول له كن فيكون}.

٧- جزاءُ كلُّ نفسٍ بما كسبت؛ لقوله: {ثمَّ توفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبت} لا زيادة ولا نقص.

٨- نفي الظلم عن الله؛ لقوله: {وهم لا يظلمون}. ويتفرَّع على هذا بناء على القاعدة التي ذكرناها في الصفات: إثبات كمال عدله سبحانه وتعالى.

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {١٦٢}

قال ابن العثيمين: {أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله}: الهمزة هنا للاستفهام، ويليها حرف عطف؛ وقد ذكرنا فيما سبق أنَّه إذا جاءت همزة الاستفهام وبعدها حرف عطف فإنَّ لعلماء النحو في ذلك رأيين؛ الرأي الأول: أنَّ الهمزة داخلة على جملة مقدَّرة تناسب المقام؛ والفاء عاطفة على تلك الجملة؛ والرأي الثاني: أنَّ الهمزة داخلة على الجملة الموجودة ولم يحذف شيء، ولكنَّها مقدَّمة عن موضعها لأنَّ لها الصَّدارة؛ وأنَّ الفاء في مثل: {أفمن اتَّبع} محلها في الأصل قبل الهمزة،

والتقدير: (فأمن اتَّبع)؛ ولكن لمَّا كان الاستفهام له الصَّدارة قدِّمت على حرف العطف؛ وقلنا إنَّ هذا أسهل؛ ووجه سهولته أنَّه لا يحتاج إلى تكلُّف تقدير المحذوف، لأنَّه أحيانًا يصعب عليك أن تقدِّر المحذوف؛ وربما تقدِّر محذوفًا ويقدِّر غيرك غيره؛ إذًا نعتمد أنَّ الهمزة للاستفهام وأنَّ الفاء عاطفة على ما قبلها.

{أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء}: {من} هنا اسم استفهام أو اسم موصول؟ التقدير: (أفالذي اتَّبع)؛ إذًا هي اسم موصول لأن لا نجعل أداة الاستفهام داخلة على اسم الاستفهام أو على جملة استفهامية؛ {اتَّبع رضوان الله}: أي (تتبع ما يرضي الله عز وجل)؛ فكلُّ ما يرضي الله يقوم به.

{كمن باء بسخطٍ من الله}: {كمن} أي: (كالذي)؛ {باء}: أي (رجع)، أي: (كالذي رجع بسخطٍ من الله}، ضد الرضوان. فالمطيع يتعرَّض للرضوان والعاصي للسَّخط.

قال السعدي: يخبر تعالى أنَّه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك، ممَّن هو مكبٌّ على المعاصي، مسخطٌ لربه، هذان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله، {أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون}.

قال ابن العثيمين: {ومأواه جهنَّم}: الواو يحتمل أن تكون للاستئناف، ويكون المراد بها الإخبار عن مآل هذا الذي باء بسخطٍ من الله؛ ويحتمل أن تكون عاطفة على جملة صلة الموصول وهي: {باء}: أي (كمن باء)، و(كمن مأواه جنهم)؛ {ومأواه جهنم}: {مأواه} أي: (مرجعه الذي يأوي إليه إيواء لا مغادرة بعده)؛ و{جهنم}: اسم من أسماء النار؛ وسمِّيَت بهذا الاسم المشتقُّ من الجهمة، والجهمة تتضمَّن السَّواد واللبس، لأنَّ جهنم سوداء عميقة بعيدة العمق؛ وقيل: إنَّ جهنم لفظ معرَّب من كهنام، وكهنام أصلها اسم للنار، يعني يقال: نار كهنام؛ يعني أنَّ أصلها في غير اللغة العربية ثمَّ بالتَّعريب صار جهنم.

{وبئس المصير}: (بئس) جملة إنشائية لإفادة الذَّم؛ و(نِعمَ) جملة إنشائية لإنشاء المدح؛ و(بئس) و(نِعم)، يحتاجان إلى شيئين؛ كلَّما جاءت (نعم) و(بئس) فإنَّها تحتاج إلى فاعل ومخصوص؛ فهنا {وبئس المصير}: {المصير} فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: (وبئس المصير هي): أي جهنم؛ أو (وبئس المصير مصيره)، يعني يجوز هذا وهذا.

قال أبو زهرة: هذا هو القانون السامي الذي وضعه سبحانه، وهو التساوي بين العمل وجزائه، وأنَّهم لَا يتساوون في ذات أنفسهم، وفي الجزاء إذا اختلفت أعمالهم، ويفيد النَّص أنَّ الجزاء يتَّحد إذا اتَّحد العمل، ويختلف إذا اختلف العمل، وفي النَّص الكريم عدَّة إشارات بيانية:

الأولى: أنَّه ساق الكلام مساق الاستفهام الإنكاري الذي يفيد النفي أي إنكار الوقوع، وهذا يفيد أنَّ ذلك القانون بديهي لَا تختلف فيه العقول، بحيث لو سئل كلَّ واحدٍ من الناس عن ذلك لأجاب بأنَّه لَا يستوي من اتَّبع رضوان الله، مع من يبوء بغضب الله.

والثانية: أنَّ الله سبحانه وتعالى سمَّى الأمناء الذين لَا يغُلُّون ولا يخونون في أيِّ شيءٍ، وخصوصًا في الغنائم: يتَّبعون رضوان الله تعالى، وذلك لأنَّهم يخرجون مجاهدين في سبيل الحقِّ ورفع كلمة الله وقد قدَّموا أنفسهم لمرضاته، وكانوا ممَّن شَرَوْا أنفسهم لله، ومن المؤمنين الذين اشترى الله سبحانه وتعالى أنفسهم، وفي ذلك رضوان الله تعالى، وهو أعظم جزاء في الدنيا والآخرة.

والثالثة: أنَّه عبَّر عن الذين يغلُّون ويخونون بأنَّهم يبوءون: أي يعودون على أنفسهم بسخطٍ الله تعالى، والسخط ليس هو الغضب المجرَّد، بل هو الغضب الذي يصحبه أو يترتَّب عليه العقاب، وفرق بين عملين: أحدهما يجلب أبلغ الرِّضا، وثانيهما يجلب أبلغ الغضب وأشدَّ العقاب، وإنَّ ذكر هذه المقابلة ليعرف الذين يغُلُّون بالغنائم أنَّهم لَا يكسبون لأنَّ ما يخسرونه أضعاف ما يكسبون من عرض لَا بقاء له، والعبرة بفاضل ما بين الكسبين، أمَّا الذين قد اختاروا الأمانة سبيلًا، فإنَّهم لَا يخسرون شيئًا؛ لأنَّ مال الخيانة لَا يعدُّ كسبًا، بل هو سحت لا كسب فيه، ومع أنَّهم لَا يخسرون شيئًا، وكسبهم عظيم لَا حد له، وهو رضوان الله تعالى.

والرابعة: أنَّه سبحانه عبَّر عن اتِّباع أوامر الله ونواهيه باتِّباع رضوانه، لأنَّ الطاعة المخلصة تؤدِّي إلى رضوانه سبحانه وتعالى، فطلب رضا الله في طاعته.

ولقد عقَّب سبحانه ذكر سخطه بذكر عقابه؛ لأنَّ السَّخط والعقاب متلازمان، كما أشرنا، ولذا قال سبحانه: {وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}: أي أنَّ عودتهم بغضب الله الشديد يتبعه حتمًا ذلك المصير يوم القيامة، وهو أن يكون المستقر الذي يستقرون فيه وينتهون إليه، هو جهنم، وهي الهاوية التي يهوون إليها في النار، جزاء هاوية الخيانة التي أصابتهم في الدنيا، وبئس ذلك المصير الذي صاروا إليه، وكان لهم نهاية، وإن لم يريدوه لهم غاية.

وإنَّ نتيجة عدم التساوي بين من يتَّبع رضوان الله تعالى ويطلبه بإقامة الطاعات على وجهها الأكمل، ومن يختارون الشرَّ سبيلًا – هي أن يكون الناس درجات بحسب مقدار طلب الرضوان، ومقدار اتِّباع السَّخط، ولذا قال سبحانه: { هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١– بيان أنَّه لا يستوي من يتَّبع رضوان الله ممَّن يبوء بسخطه؛ لقوله: {أفمن اتَّبع}، {كمن باء}، والاستفهام هنا للنفي.

٢– إثبات أنَّ الرِّضا صفة من صفات الله؛ لقوله: {رضوان الله}، ومن قاعدة أهل السنة والجماعة أنَّ كلُّ وصفٍ وصف الله به نفسه فإنَّه يجب علينا أن نؤمن به وأن نصف الله به، فنقول: إنَّ لله رضوانًا وأنَّه يرضى. والرضى صفة فعل، لأنَّ الرِّضا له سبب، وكلُّ صفة من صفات الله لها سبب فإنَّها من الصفات الفعلية. أنكر بعض الناس الصفات الفعلية لله متعلِّلين بعلَّتين:

العلَّة الأولى: أنَّ صفات الأفعال حادثة، والحوادث لا تقوم إلَّا بحادث، لأنَّ حدوث الصفة يدلُّ على حدوث الموصوف، فالحوادث لا تقوم إلَّا بحادث.

العلَّة الثانية: قالوا إن كانت هذه الصفات الفعلية التي تحدث بعد أن لم تكن موجودة كمالًا لزم أن يكون متَّصفًا بها دائمًا لا تتعلَّق بالمشيئة؛ وإن كانت نقصًا لزم أن يمتنع من الاتِّصاف بها دائمًا؛ لأنَّ النَّقص لا يمكن أن يتَّصف الله به.

فنقول في العلَّة الأولى: إنَّ قولكم إنَّ الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث غير صحيح، لأنَّ الحوادث فعل الفاعل، والفعل عقلًا يتأخَّر عن الفاعل لاشكَّ، لأنَّ الفعل يكون بإرادة الفاعل وقدرته، وهو متأخِّر عن وجوده؛ فالفاعل سابق للمفعول وسابق للفعل أيضًا، فكيف نقول: إنَّ الحادث لا يقوم إلَّا بحادث؟ يجوز أن يكون أزليًّا ثمَّ حدث منه الفعل، كما أنَّنا نحن الآن نولد وتحدث أفعالنا بعد ولادتنا.

ونقول في التَّعليل الثاني: حال فعلها كمال لاشكَّ، وحال عدمها ليس كمالًا، الكمال في عدمها، خذ الرِّضا، الرِّضا على من يستحقُّ الرِّضا كمال، ولا يستحقُّ الرِّضا إلَّا بعد فعل ما يوجبه؛ الرِّضا لمن لا يستحقُّ نقص؛ لأنَّه ينافي الحكمة؛ فإذًا إذا اتَّصف الله بالرِّضا فإنَّه اتَّصف به في الحال التي يكون بها كمالًا؛ الرِّضا يفسِّره الذين يقتصرون على إثبات سبع صفات بأنَّه الثواب أو إرادة الثواب؛ والصحيح أنَّ الرِّضا صفة نفسية يتَّصف الله بها عز وجل وليست الثواب، لأنَّ الإثابة خلق ما يثاب به، خلق ما يثاب به وهي غير الرِّضا؛ بل من مقتضيات الرِّضا وآثاره، وليست هي الرِّضا بلا شكَّ؛ أنت الآن إذا رضيت عن شخص بعد أن ترضى عنه تثيبه بما ترى أنَّه ثواب له؛ إذا كان هكذا فإنَّه لا يصحُّ أن نفسِّر الملزوم باللَّازم لأنَّهما شيئان متباينان؛ فحينئذ يتبيَّن أنَّ الصواب ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة؛ أن نصف الله بما وصف به نفسه ولا نغيِّر؛ رضوان الله نعم الله يرضى وما المانع؟ وليس فيه أي محذور ولا نقص.

٣- إثبات السَّخط لله؛ لقوله: {كمن باء بسخطٍ من الله}، والسَّخط والغضب معناهما متفارق؛ وأهل السنة يقولون: إنَّ السَّخط صفة حقيقية ثابتة لله، وأهل البدع يقولون: لا، لا يمكن أن يسخط الله عز وجل، بل المراد بالسَّخط: الانتقام أو إرادة الانتقام؛ يعني ليس وصفًا في نفسه بل معناه انتقم وعاقب المسخوط عليه؛ أو أراد أن ينتقم منه؛ وهذا بناءً على أنَّ صفات الأفعال لا تقوم بالله، التعليل هو ما سبق.

ونحن نقول إنَّ الانتقام من آثار السَّخط، وإرادة الانتقام أيضًا من آثار السَّخط، والدليل على هذا قوله تعالى: {فلمَّا آسفونا انتقمنا منهم}، آسفونا: بمعنى أغضبونا انتقهما منهم؛ فجعل الانتقام بعد وجود الغضب؛ وهذا يدلُّ على أنَّ هذا ليس هو هذا.

٤- التَّحذير من التَّعرض لسخط الله؛ لقوله: {كمن باء بسخطٍ من الله}.

٥- إثبات النار؛ لقوله: {ومأواه جهنم}، وهي ثابتة الآن موجودة ولا تفنى أبدًا؛ لأنَّ الله ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع من كلامه، في سورة النساء وفي سورة الأحزاب وفي سورة الجن؛ فقال في سورة النساء: {إنَّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله

ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا إلَّا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا}، وقال في سورة الأحزاب: {إنَّ الله لعن الكافرين وأعدَّ لهم سعيرًا خالدين فيها أبدًا}، وقال في سورة الجن: {ومن يعص الله ورسوله فإنَّ له نار جهنم خالدين فيها أبدًا}. ولا قول بعد قول الله عز وجل، لأنَّ قوله أصدق الكلام وأبين الكلام وهو الخالق عز وجل.

٦- ذمُّ النار والثناء عليها بالقدح؛ تؤخذ من قوله: {وبئس المصير}.

٧- التَّنبُّه لأمرٍ يتكلَّم فيه الناس كثيرًا الآن؛ يقولون إذا مات الرجل: إنَّه رجع إلى مثواه الأخير؛ وهذا لو أخذنا بظاهره لكان يتضمَّن إنكار البعث، مع أنَّ القبر ليس المثوى الأخير؛ المثوى الأخير هي الآخرة، الجنة أو النار؛ القبر مزار؛ سمع أعرابي رجلًا يقرأ قول الله تعالى: {ألهكم التكاثر حتى زرتم المقابر}، فقال: والله إنَّ الزائر ليس بمقيم؛ من أين فهم هذا؟ من: {زرتم}، وهذا فهم فطري لا يحتاج إلى دراسة؛ نعم، لكن بعض الأعراب عندهم ذكاء عظيم؛ وهذا كالذي سمع قارئًا يقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم)؛ قال الأعرابي: اقرأها صوابًا ما هو هكذا؛ فقال: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله عزيز حكيم} قال: الآن، عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع.

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {١٦٣}

قال ابن العثيمين: يعود الضمير {هم} على: (من اتبع رضوان الله)، وعلى: (من باء بسخطٍ من الله)؛ ولكن هنا يشكل علينا أنَّه أعاد الضمير بصيغة الجمع {هم}، مع أنَّ {من} وصلتها بصيغة الإفراد، {أفمن اتَّبع} {كمن باء}؛ والجواب عن ذلك سهل: لأنَّ الاسم الموصول يفيد العموم، فيجوز أن يعود الضمير إليه باعتبار لفظه ويجوز أن يعود إليه باعتبار معناه؛ ألم تسمع إلى قول الله تعالى: {والذي جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتَّقون}، ما قال: (أولئك هو المتَّقي)، بل قال: {هم المتَّقون}، فأعاد الضمير على معنى اسم الموصول وهو الجمع.

قال: {هم}: أي الذين اتَّبعوا رضوان الله والذين باءوا بسخطٍ من الله، {درجات عند الله}؛ منازل عند الله، يختلفون؛ فكلُّ من كان أتْبع لرضا الله، كان أرفع عند الله، وكلَّما كان أبعد من الله كان أنزل؛ أي في المراتب؛ والعكس بالعكس. ونقول النار دركات والجنة درجات؛ والدرجات إذا جاءت عامَّة دخل هذا وهذا يعني صلحت لهذا وهذا، قال الله تعالى: {ولكلٍّ درجات ممَّا عملوا}؛ أمَّا إذا خصَّت بأهل النار فإنَّه يقال: دركات، كما قال الله تعالى: {إنَّ المنافقين في الدَّرك الأسفل من النار}.

قال السعدي: أي: كلُّ هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم. فالمتَّبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتَّبعون لمساخط الله

يسعون في النزول في الدَّركات إلى أسفل سافلين، كلٌّ على حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللَّوح المحفوظ، ووكَّل ملائكته الأمناء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

{والله بصير بما يعلمون}: {بصير([1])} اسم فاعل يجوز أن يكون من الإبصار بالعين، ويجوز أن يكون من الإبصار بالعلم؛ فيكون {بصير} بمعنى (عليم)، أو {بصير} بمعنى (راءٍ)؛ وهل لله بصر؟ نعم، قال النبي ﷺ: ((حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه([2])))؛ {والله بصير بما يعملون}: أي بالذي يعملونه من ظاهر وباطن وخير وشر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الناس عند الله منازل مختلفة. ويتفرَّع على هذه الفائدة أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ لأنَّ زيادة الدرجات بعد زيادة الإيمان، باليقين والعمل الصالح؛ زيادة الإيمان هل هي زيادة اليقين، أو زيادة الأقوال، أو زيادة الأفعال، أو الجميع؟ الجميع؛ فاليقين يتفاضل لاشك؛ والأقوال تتفاضل، ليس من قال: لا إله إلا الله عشرًا كمن قالها عشرين مثلًا؛ الأفعال كذلك تتفاضل، ليس من صلَّى ست ركعات كمن صلَّى عشر ركعات؛ وهذا هو ما جرى عليه أهل السنة والجماعة أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد باليقين والقول والفعل؛ كيف يزيد اليقين هل اليقين يتفاضل؟ نعم يتفاضل بنص القرآن، قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لله عز وجل: {ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي}، هذا دليل من القرآن؛ دليل من الواقع أنَّ الإنسان كلَّما كثر المخبرون بالخبر ازداد يقينًا، وإذا شاهد ازداد أكثر؛ ولهذا جاء في الحديث: ((ليس الخبر كالمعاينة))، أمَّا زيادة الأقوال والأفعال هذا شيءٌ واضح ولا إشكال فيه.

٢- إثبات العلو لله عز وجل؛ لقوله: {عند الله}، والعندية تعني عندية المكان؛ وإذا كانوا درجات فالدرجات ترتفع شيئًا فشيئًا؛ فيؤخذ منها إثبات علو الله؛ وهذا أمر متَّفق عليه ومجمع عليه بين السَّلف، وقد دلَّ على علو الله عز وجل الأدلَّة الخمسة كلُّها: الكتاب والسنة والإجماع والعقل و الفطرة؛ الكتاب والسنة مملوءان من ذلك؛ والإجماع يقول شيخ الإسلام رحمه الله:(والله يعلم أنِّي بعد البحث التّام ومطالعة ما أمكن من كلام السَّلف ما رأيت أحدًا منهم قال: (إنَّ الله ليس في السماء)؛ وأمَّا العقل فقد دلَّ على علو الله؛ العلو صفة كمال فالله عز وجل أحقُّ بصفات الكمال؛ والثاني: أنَّ السُّفل صفة نقص، والله منزَّه عن النقص؛ أمَّا الفطرة فكلُّ إنسان لم يقرأ كتب أهل البدع أين يتَّجه قلبه إذا ذكر الله؟ إلى العلو؛ ولهذا يقال: إنَّ أبا المعالي الجويني كان يقرِّر في العلو ويقول: إنَّ الله تعالى كان ولم يكن شيء قبله، وهو الآن على ما كان عليه؛

١- (قلت): أنظر معنى إسم الله {البصير} مفصلًا عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء.

٢- (قلت): مسلم (١٧٩)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٨٦٠)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: ((إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)).

هذا الكلام ما يفهمه الإنسان؛ (كان ولم يكن شيء قبله وهو الآن على ما كان عليه)؛ لا يفهمه الإنسان، لكنَّه يريد أن ينكر استواء الله على العرش؛ فقال له الهمداني رحمه الله: (يا شيخ دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها الإنسان، ما قال عارف قط: يا الله إلَّا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو)؛ فجعل يضرب على رأسه ويقول: (حيَّرني الهمداني حيَّرني الهمداني) ما له جواب؛ أنت لو ما درست شيئًا أبدًا تقول: (يا الله، وين يروح قلبك؟ فوق؛ إذًا نقول: علو الله ثابت في الأدلَّة الخمسة، في الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، وكما رأيتم ابن القيم رحمه الله يكرِّر هذا المعنى في النونية تكرارًا كثيرًا لأنَّه من أعلى صفات الكمال.

٣- إثبات إحاطة الله عز وجل بما نعمل؛ لقوله: {والله بصير بما يعملون}، ويترتَّب على هذا الأدب السلوكي، وهو أن نحذِّر من مخالفته؛ لأنَّنا إذا كنَّا نعلم أنَّه بصير بما نعمل فسوف نتجنَّب كلَّ ما يسخطه عز وجل، ونأتي بكلِّ ما يرضيه، لاسيَّما وأنَّ الآية جاءت بعد قوله: {أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله}.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {١٦٤}

قال ابن العثيمين: {لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث}: كلَّما جاءت {لقد} في القرآن فإنَّها جملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات وهي: القسم المقدَّر، واللَّام، وقد؛ إذ تقدير الكلام: (والله لقد منَّ الله).

فإذا قال قائل: ما الدَّاعي للقسم مع كون الأمر ظاهرًا؟ لأنَّ القسم إنَّما يقال للشَّاكِّ المتردِّد تحلف له، أو المنكر تحلف له أيضًا؛ فلماذا أقسم الله في هذه الآية على أنَّه مانٌّ على المؤمنين ببعث محمد ﷺ؟ هو لو قال: (لقد منَّ الله على الناس)؛ لكن قال: {على المؤمنين} الذين يعرفون أنَّ ذلك منَّة؟

نقول: إنَّ الدَّاعي للقسم ليس هو الإنكار أو الشكِّ من المخاطب بل قد يكون الدَّاعي للقسم أهمية المقسم عليه، وإن لم يكن هناك شكٌّ؛ وهذه الآية من هذا النوع، يعني المقصود بذلك بيان أهمية هذه المنَّة العظيمة التي لا يعادلها شيء.

{لقد منَّ الله على المؤمنين}: على المؤمنين خاصة دون غيرهم، لأنَّ الكفَّار لم يعرفوا هذه المنَّة ولم يرفعوا بها رأسًا، ولم يروا في مخالفتها بأسًا، فتركوها وأعرضوا عنها وحرِموا خيرها؛ أمَّا المؤمنون فهم الذين تبيَّنت لهم هذه المنَّة واستمسكوا بها.

{إذ بعث}: هذه إمَّا أن تكون ظرفًا لمنَّة، وإمَّا أن تكون للتعليل أي: (لأنَّه بعث)؛ وكلاهما لا يتنافيان؛ فهي بيان لمحل المنَّة وهي البعثة، وهي كذلك أيضًا تعليل للمنَّة؛ وقوله: {بعث} أصل البعث الإنشاء، وسمِّيَت الرسالة بعثًا لأنَّها إخراج للناس من حال إلى حال؛ فكأنَّهم بعثوا خلقًا جديدًا، وأنشئوا خلقًا جديدًا.

{فيهم رسولًا}: {في} للظرفية لأنَّ النبي ﷺ بعث في وسط المؤمنين، وكان هو ﷺ أشرف من بعث فيهم نسبًا؛ وقوله: {رسولًا}: أي مرسلًا من عند الله.

{من أنفسهم}: أي من جنسهم؛ وفي سورة الجمعة قال: {هو الذي بعث في الأمِّيِّين رسولًا منهم}، لأنَّ النبي ﷺ من الأمِّيِّين، وأمَّا عامَّة الناس فليس منهم ولكنَّه من أنفسهم، أي من جنسهم، كما قال تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها}، فمعنى: {من أنفسهم}: أي من جنسهم؛ ولاشكَّ أنَّ كونه من جنسنا أتمُّ في النِّعمة، لأنَّه لو كان من الملائكة ما ألَّفه النَّاس ولا ركنوا إليه، وربما لا يقبلون منه؛ فإذا كان من جنسهم يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وينام كما ينامون، ويكون معهم في أسواقهم وفي بيوتهم كان ذلك أبلغ في المنَّة.

قال السعدي: هذه المنَّة التي امتنَّ الله بها على عباده، أكبر النِّعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحًا لهم، مشفقًا عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلِّمهم ألفاظها ومعانيها. ويزكِّيهم من الشرك، والمعاصي، والرذائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

قال ابن العثيمين: {يتلوا عليهم آياته}: جملة: {يتلوا} صفة ثانية ل{رسولهم}، أي: رسولًا من أنفسهم تاليًا عليهم آياته؛ والتلاوة هنا تشمل التلاوة لفظًا والتلاوة معنىً والتلاوة حُكمًا؛ التلاوة لفظًا: يعني يقرأ الكتاب بينهم؛ التلاوة معنىً: يعني يعلِّمهم معانيها؛ التلاوة حُكمًا: يعني يعمل بأحكامها ﷺ؛ ولاشكَّ أن هذه الثلاثة كلِّها تحتملها كلمة: {يتلوا} فهو ﷺ يتلوه لفظًا ويتلوه معنىً، قال الله تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نزِّل إليهم}، ويتلوه عليهم كذلك حكمًا، قالت عائشة رضي الله عنها: ((كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك))، يتأوَّل القرآن؛ يعني يطبِّقه. وقوله: {آياته}: المراد بها الآيات الشرعية، وهي الوحي الذي أنزله الله على رسوله ﷺ.

{ويزكِّيهم}: أي يطهِّرهم، يطهِّرهم حسًّا ومعنىً؛ أمَّا الطَّهارة حسًّا فقد أمرهم بالوضوء عند الصلاة، وأمرهم بالغسل من الجنابة، وأمرهم بإزالة النجاسة، بل حثَّ على النظافة عمومًا؛ وأمَّا التزكية معنىً فهو أنَّه طهَّر قلوبهم من الشرك والشكِّ والنِّفاق وسوء الأخلاق، وهذَّب أخلاقهم ﷺ حتى زكت نفوسهم وأخلاقهم.

{ويعلِّمهم الكتاب والحكمة}: يعلِّمهم الكتاب والحكمة ليست تكرارًا مع قوله: {يتلوا عليهم آياته}، لأنَّ الأوَّل تلاوة، والثاني تعليم؛ والتعليم أخصُّ من التلاوة، لأنَّ الإنسان إذا تلا عندك القرآن لا يعدُّ معلِّمًا لك، يعلِّمك إذا أقرأك إيَّاه ولقَّنك إيَّاه؛ فالنبي ﷺ كان يعلِّمهم الكتاب؛ والتعليم هنا شامل لتعليم اللَّفظ وتعليم المعنى وتعليم الحكم أي العمل به؛ وقوله: {الكتاب}: يعني القرآن، وسمِّيَ كتابًا لأنَّه مكتوب؛ فهو (فعال) بمعنى (مفعول)؛ وقد تكرَّر علينا كثيرًا أنَّ فعالًا تأتي بمعنى مفعولًا، كفراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني، وكتاب بمعنى مكتوب؛ هذا القرآن كتاب مكتوب؛ في أي موضع كتب؟ في اللَّوح المحفوظ، والكتب التي بأيدي السَّفرة، والكتب التي بأيدينا؛ وقال بعض أهل العلم: إنَّ المراد

ب{الكتاب} هنا الكتابة؛ لأنَّ العرب كانوا أمِّيِّين، ولمَّا نزل هذا الكتاب العظيم تعلَّموا الكتابة، فصاروا يكتبون القرآن للرسول ﷺ، ثم صاروا يكتبون بعض الأحاديث، ثمَّ انتشرت الكتابة فيهم؛ وأنَّ من جملة الفداء الذي أخذ من أسرى بدر أن يعلموا صبيان أهل المدينة القراءة والكتابة؛ وأيَّد هذا القائل قوله بأنَّ تعليمهم الكتاب مستفاد من قوله: {يتلوا عليهم آياته}؛ ولكن في هذا نظرًا، نحن لا نمنع أن يكون المراد بالكتاب هنا الكتابة والقرآن جميعًا؛ لأنَّ القاعدة عندنا في التفسير أنَّه متى احتملت الكلمة معنيين فأكثر ولا منافاة بينهما فإنَّ الواجب حملها عليهما؛ لأنَّ كتاب الله عز وجل واسع المعنى؛ فعلى هذا يكون المراد بالكتاب القرآن والكتابة.

وقوله: {الحكمة}: قال بعض العلماء: أي السنة(١)، كما قال تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة}، وقيل: المراد بالحكمة أنَّه علمهم كيف يضعون الأشياء مواضعها؛ لأنَّ الشريعة الإسلامية تعلِّم الإنسان كيف يضع الشيء في موضعه، وأيضًا علَّمهم الحكمة التي هي أسرار التشريع؛ لأنَّ الشرع كما تعلمون أحكام وحِكَم؛ فالأحكام ظاهرة، والحِكَم هي الأسرار والمعاني التي تناط بها هذه الأحكام؛ والإنسان إذا عرف هذه الحِكَم والأسرار تبيَّن له أنَّ الشريعة ليست لهوًا ولا لعبًا، وأنَّ الشريعة ذات معانٍ سامية لا يدركها إلَّا من فتح الله عليه؛ ويمكن أن نقول بأنَّ الحكمة تشمل هذا وهذا، أي علَّمهم السنة التي يطلق عليها الحكمة، وعلَّمهم وضع الأشياء مواضعها وأسرار الشريعة؛ وحكمها ليزدادوا بصيرة في دين الله.

قال شيخ الإسلام في النبوات ص١٧٢: قوله تعالى: {لقد منَّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}، وقد وصف الرسول بذلك في مواضع فذكر هذا في البقرة في دعوة ابراهيم وفي قوله تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكِّيكم ويعلِّمكم الكتاب والحكمة}، وفي قوله: {واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به}، وهنا لم يذكر {يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم} لحكمة تختصُّ بذلك، وذكر هذا في آل عمران في قوله: {لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة}، وقد قال: {واذكرن ما يتلى في بيوتكنَّ من آيات الله والحكمة}، وهذا شبه الموضع الثالث في البقرة، فأخبر في غير موضع عن الرسول أنَّه يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة؛ فالتلاوة والتزكية عامَّة لجميع المؤمنين، فتلاوة الآيات يحصل بها العلم، فإنَّ الآيات هي العلامات والدلالات فاذا سمعوها دلَّتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر والإقرار بوجوب طاعته، وأمَّا التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده، كما أنَّ تلاوة آياته يحصل بها العلم، وسمّيت آيات القرآن آيات وقيل انَّها آيات الله كقوله: {تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقِّ}، لأنَّها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد، فهي تدلُّ

١- (قلت): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١ص٦: وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ؛ مِنْهُمْ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وقتادة وَالشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُمْ: {الْحِكْمَةُ}: هِيَ السُّنَّةُ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ أَزْوَاجَ نَبِيِّهِ أَنْ يَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِهِنَّ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ،{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}، وَالْكِتَابُ: الْقُرْآنُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا كَانَ الرَّسُولُ يَتْلُوهُ هُوَ السُّنَّةُ.

على ما أخبر به وعلى ما أمر به ونهى عنه، وتدلُّ أيضًا على أنَّ الرسول صادق اذ كانت ممَّا لا يستطيع الانس والجن أن يأتوا بمثلها وقد تحدَّاهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع، وأيضًا فهي نفسها فيها من بينات الادلَّة والبراهين ما يبيِّن الحق، فهي آيات من وجوه متعدِّدة، ثمَّ قال: {ويعلِّمهم الكتاب والحكمة}، وهذا لمن يعلم ذلك منهم وقد يتعلَّم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة، فالكتاب هو الكلام المنزَّل الذي يكتب، والحكمة هي السنة، وهي معرفة الدِّين والعمل به، وقد قال تعالى: {وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}، وقال تعالى: {واتَّخذوا آياتي وما أنذروا هزوًا}، ففرق بين الآيات الدالَّة على العلم التي يعلم بالعقل انَّها دلائل للرَّب؛ وبين النذر وهو الإخبار عن المخوف، كإخبار الانبياء بما يستحقُّه العصاة من العذاب، فهذا يعلم بالخبر والنذر ولهذا قال: {وما كنَّا معذِّبين حتى نبعث رسولًا}، وأمَّا الآيات فتعلم دلالتها بالعقل، والانبياء جاءوا بالآيات والنُّذر، وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلَّا رجالًا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذِّكر ان كنتم لا تعلمون بالبيِّنات والزُّبر}، وقال تعالى: {فإن كذَّبوك فقد كذِّب رسل من قبلك جاءوا بالبيِّنات والزُّبر والكتاب المنير}، ومثل هذا كثير يذكر أنَّ جميع الانبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل.

قال ابن العثيمين: {وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين} {إن} تأتي في اللغة العربية لعدَّة معانٍ، ويعيِّن المعنى السياق؛ فتأتي {إن} شرطية مثال ذلك: {إن تنصروا الله ينصركم}؛ وتأتي أيضًا نافية؛ وعلامة {إن} النافية أن تأتي بعدها {إلا}: {إن هذا إلَّا سحر مبين}، {إن هذا إلَّا إفكٌ مفترى}، {إن هذا إلَّا قول البشر}، {إن هذا إلَّا ملكٌ كريم}؛ وتأتي مخفَّفة من الثقيلة مثل هذه التي معنا، {وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} هذه {إن} مخفَّفة من الثقيلة، وأصلها: وإنَّهم كانوا من قبل؛ وعلامة {إن} المخفَّفة من الثقيلة أن تأتي اللَّام في الخبر، إذا أتت بعدها اللَّام فهي مخفَّفة من الثقيلة؛ وتأتي {إن} زائدة مثل قول الشاعر: (بنو غدانة ما إن أنتم ذهبوا): أي (ما أنتم ذهبوا)؛ التي في الآية الكريمة هنا: {وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين} نقول: إن هذه مخفَّفة من الثقيلة؛ وعلامتها أن تأتي اللَّام في خبرها أو في اسمها إن تأخَّر، المهم أن تأتي بعدها اللام. أين هو اسمها؟ قيل: إنَّه محذوف مقدَّر باسم ظاهر، والتَّقدير: (وإن الشأن كانوا من قبل في ضلال مبين)؛ وقال بعضهم: بل هو محذوف مقدَّر بضمير مناسب، وهذا هو الصحيح؛ فإذا كان الخبر جمعًا صار الضمير المقدَّر جمعًا؛ وعلى هذا فيكون التقدير هنا: (وإنَّهم كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين)؛ فيقدَّر ضمير الشأن بما يناسب المقام.

{وإن كانوا}: الضمير يعود على المؤمنين الذين بعث فيهم رسول ﷺ؛ {من قبل} أي قبل بعث هذا الرسول؛ {لفي ضلال مبين}، {في}: للظرفية يعني أنَّ الضلال محيط بهم كإحاطة الظرف بمظروفه؛ {مبين}: بمعنى بيِّن.

قال السعدي: أي: لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربِّهم، ولا ما يزكِّي النفوس ويطهِّرها، بل ما زيَّن لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- عظيم منَّة الله عز وجل على المؤمنين ببعث الرسول ﷺ؛ تؤخذ من تأكيد هذه المنَّة بالقسم.

٢- أنَّ المنَّة ببعثة الرسول إنَّما كانت على المؤمنين لأنَّهم الذين انتفعوا بها؛ لقوله: {على المؤمنين}.

٣- أنَّ من لم ينتفع بالمنَّة صار كالمسلوبة منه؛ لأنَّه خصَّ المنَّة بالمؤمنين.

٤- وجوب شكر نعمة الله على منْ منَّ الله عليه بالإيمان؛ تؤخذ من قوله: {لقد منَّ الله} لأنَّ المراد بهذا الخبر هو شكر نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه المنَّة وألَّا يتعاظم الإنسان في نفسه.

٥- الرَّد على الأعراب الذين مَنُّوا بإيمانهم وإسلامهم على الرسول ﷺ، قال الله تعالى: {يمنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنُّوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم مؤمنين}.

٦- اللُّجوء إلى الله عز وجل بأن يثبِّتك على الإيمان؛ لأنَّه إذا كان هو المانُّ به فهو الذي يملك ثبوته وزواله، فارجع إليه.

٧- فضيلة الرسول ﷺ حيث كان مبعوثًا من قبل الله؛ والرسول يشرَّف ويعظَّم بحسب من أرسله؛ ولهذا يفرِّق الناس بين رسول السلطان ورسول الخادم، رسول السلطان يرونه أعظم من الرسول العادي.

٨- ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: {إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم}.

٩- إثبات منَّة الله عز وجل بكون هذا الرسول من جنسنا؛ لقوله: {من أنفسهم}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: ردُّ أولئك السفهاء المعاندين الذين قالوا: {لو لا أنزل عليه ملك}؛ قال الله تعالى: {ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا}، لأنَّه لا يمكن أن يعيش الملك بين البشر، ولا يمكن أيضًا للبشر أن يتقبَّلوا منه كما يتقبَّلوا ممَّن كان من جنسهم.

١٠- الثَّناء العظيم على رسول الله ﷺ حيث كان يتلو عليهم آيات الله، ويزكِّيهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة.

١١- حرص النبي ﷺ على إبلاغ الرسالة حيث كان يتلو عليهم آيات الله ويعلِّمهم الكتاب والحكمة.

١٢- أنَّ القرآن معجز؛ يؤخذ من قوله: {آياته} لأنَّ الآيات بمعنى العلامات، والعلامة على الشيء هي المعيِّنة له والتي لا تصلح لغيره؛ فهي آية لله لا تصلح لغيره.

١٣- جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ نأخذها من قوله: {ويزكِّيهم} مع أنَّ الله قال: {إنَّك لا تهدي من أحببت} لكنَّه ﷺ سبب للتَّزكية؛ ففي الآية جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لكن بشرط أن يكون معلومًا بأنَّه سبب إمَّا عن طريق الشرع أو طريق العقل أو طريق الحس؛ أمَّا شيءٌ متوهَّمٌ أنَّه سببٌ وليس بسبب فهذا لا يجوز.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {١٦٥}

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال الإمام أحمد رحمه الله ج١ ص٣٠ حدثنا أبو نوح قراد أنبأنا عكرمة ابن عمار حدثنا سماك الحنفي أو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم بدر قال نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهو ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثمَّ مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ثمَّ قال: ((اللهم أين ما وعدتني، اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إنَّك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا))، قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرداه ثمَّ التزمه من ورائه ثمَّ قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربُّك فإنَّه سينجز لك ما وعدك وأنزل الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ}، فلمَّا كان يومئذ والتقوا فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلًا وأسر منهم سبعون رجلًا، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعليًا وعمر رضي الله عنهم فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان فإنِّي أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم فيكونوا عضدًا، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا بن الخطاب قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكِّنني من فلان قريبًا لعمر فأضرب عنقه، وتمكِّن عليًّا رضي الله عنه من عقيل فيضرب عنقه، وتمكِّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنَّه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين هؤلاء صناديدهم وأئمَّتهم وقادتهم فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفِّداء، فلمَّا أن كان من الغد قال عمر رضي الله عنه غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر رضي الله عنه وإذا هما يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما قال: فقال النبي ﷺ الذي عرض على أصحابك من الفداء لقد عرض عَلَيَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لِشجرةٍ قريبة، وأنزل الله عز وجل: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} – إلى قوله: {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ} من الفداء، ثمَّ أحلَّ الله لهم الغنائم، فلمَّا كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدَّم على وجهه وأنزل الله عز وجل: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا} بأخذكم الفداء.

الحديث رجاله رجال الصحيح وقد عزاه ابن كثير والسيوطي لابن أبي حاتم مختصرًا وإنَّما سقته بتمامه لما فيه من العبر.

وسيأتي ذكر بعض مخرجيه في سورة الأنفال إن شاء الله.

قال أبو زهرة: الكلام إلى الآن موصول في غزوة أحد وأعقابها، وفي هذه الآيات يبيِّن سبحانه أنَّه ما كان يليق بالمتردِّدين الذين أصاب اليأس قلوبهم، أن يعجبوا لماذا كانت الهزيمة، وإنَّه لَا يصحُّ أن تأخذهم روح الانهزام إلى هذا الحدِّ؛ لأنَّهم إذا كانوا قد أصيبوا في هذه الواقعة بقتلى فقد أصيب أعداؤهم بضعف ما أصيبوا، ولأنَّه لَا عجب في أن يهزموا لأنَّهم خالفوا قائدهم، والله سبحانه وتعالى قدَّر لهم تلك الهزيمة لكي يعتبروا، ويحسنوا التَّدبير، ويحسنوا الطاعة، ويحترموا حقَّ القيادة الحكيمة الرشيدة، ولكي يتَّخذوا من الهزيمة علاجًا للأخطاء التي سببتها وتوقِّيًا في المستقبل لها، ولكي يبثَّ في نفوس أهل الإيمان أنَّ الحرب ليست نصرًا مستمرًا، ولكن العاقبة في النهاية لأهل الحقِّ والعدل والرَّشاد، وهناك فائدة للهزيمة أنَّها تبيِّن الصادق الإيمان من المنافق الذي لَا يؤمن بشيء، ففي المحنة يتميَّز الخبيث من الطيب، وإذا كان النصر في بدر قد فتح باب النفاق، فدخل في الإسلام من لم يؤمنوا به، وأعلنوا الاعتقاد من يبطنون خلافه، ويخفون ما لا يبدون، فإنَّ الهزيمة في أُحد قد كشفت النِّفاق والمنافقين، بل إنَّ غزوة أحد من أوَّل أمرها قد كشفت النِّفاق، فقد أخذ المنافقون يثبطون، حتى همَّت طائفتان أن تفشلا والله وَلِيُّهُمَا، فلمَّا كانت النتيجة أخذوا يبثُّون الأوهام الفاسدة، ليضعضعوا عزائم المؤمنين، ويشكِّكوا ضعفاءهم في اعتمادهم على الله، فغزوة أحد قد كشفت النِّفاق في أوَّلها وفي آخرها، وحسبها ذلك فائدة.

قال ابن العثيمين: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا}: الهمزة هنا تلاها حرف عطف، وقد مرّ علينا كثيرًا أنَّ الهمزة إذا وليها حرف عطف فلعلماء النحو في ذلك قولان: أحدهما أنَّ العطف على شيءٍ مقدَّر يناسب المقام؛ والثاني: أنَّ العطف على ما سبق؛ وعلى هذا الوجه تكون الهمزة مقدَّمة عن موضعها؛ وموضعها بعد حرف العطف؛ وقلنا إنَّ هذا أسهل على المعرَّب لأنَّه لا يحتاج إلى تكلُّف المقدَّر، وأحيانًا قد يصعب على الإنسان أن يقدِّر شيئًا مناسبًا.

وقوله: {لمَّا} هذه هنا شرطية؛ ودليل كونها شرطية أنَّها تحمَّلت فعل الشرط وجوابه، فعل الشرط في قوله: {أصابتكم}، وجوابه: {قلتم أنَّى هذا}. و{لمَّا} تأتي على عدَّة وجوه؛ تأتي بمعنى (إلَّا)، وتأتي بمعنى (حين)، وتأتي بمعنى (لم)، وتأتي شرطية؛ ففي قوله تعالى: {إن كلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظ}، هذه بمعنى (إلَّا)، يعني: (ما كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظ)؛ وفي قوله تعالى: {بل لمَّا يذوقوا عذاب}، هذه بمعنى (لم)، وإن كان بينهما فروق لكن هي بمعنى (لم) نافية؛ وفي قوله تعالى: {إلَّا قوم يونس لمَّا آمنوا كشفنا عنهم}، هنا بمعنى (حين)؛ فهذه وجوه أربعة ل{مَّا} الواردة في كتاب الله عز وجل.

وقوله: {أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها}: {أصابتكم} يعني حلَّت بكم {مصيبة}؛ ما حلَّ بهم في أحد؛ فإنَّه قتل منهم سبعون رجلًا على رأسهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عمُّ النبي ﷺ؛ وقوله: {قد أصبتم مثليها}، هذا يشير سبحانه وتعالى إلى ما حصل في يوم بدر، فإنَّ يوم بدر قتل فيه من المشركين سبعون رجلًا، وأسر منهم سبعون رجلًا؛ فسبعون مع سبعين، ضعفا سبعين؛ ولهذا قال: {مثليها}.

فإن قال قائل: كيف قال: {قد أصبتم مثليها}، مع أنَّ المقتول سبعون، والمأسور سبعون، والأسر ليس القتلى؟

قلنا: إنَّ الأسر يحصل به من الإذلال مثل ما يحصل به من القتل وربما يكون أكثر؛ لأنَّ المقتول يقتل ويستريح لكن المأسور يستذل؛ {حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق}: يعني الأسر، {فإمَّا منًّا بعد وإمَّا فداء حتى تضع الحرب أوزارها}، ولهذا يخير الإمام في المأسورين بين أمور أربعة: بين أن يقتلهم، وبين أن يسترقَّهم، وبين أن يفديهم بمال أو بأسير مسلم، وبين أن يطلقهم. فالحاصل أنَّ الأسر في الإذلال كالقتل، إن لم يكن مثله فهو أشدُّ منه لا يقصر منه.

{قلتم} هذه جواب {لمَّا}، يعني إذا أصابتكم مصيبة {قلتم أنَّى هذا}، كيف أصبنا ونحن جنود الله ومع رسول الله ﷺ، كيف تأتينا الهزيمة؟ {أنَّى هذا}: هذه {أنَّى} استفهامية، وتأتي شرطية؛ ففي قولك: (أنَّى تقم أقم)؛ هذه شرطية؛ وفي مثل هذه الآية استفهامية، يعني: (كيف يكون هذا): {أنَّى هذا}، وهذا الاستفهام للتعجُّب ولا أظنُّ أن يكون للإنكار؛ لأنَّ الصحابة رضي الله عنهم لا ينكرون من قدر الله شيئًا، ولكنَّهم يتعجَّبون كيف يصيبنا هذا ونحن جند الله ومع رسول الله ﷺ؛ قال الله تعالى: {قل}: يعني (قل لهم يا محمد) {هو من عند أنفسكم}، وهنا لم يقل الله عز وجل هذا القول؛ بل أمر الله نبيه أن يقول: {أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم}؛ بل أمر نبيه أن يبلِّغهم؛ وهذا الأمر للتَّبليغ الخاص؛ وقد قلنا إنَّ القرآن كلَّه مأمورٌ رسول الله ﷺ أن يقوله جميعًا للناس؛ هذه واحدة؛ ويوجد بعض الأحكام أو بعض الأخبار يؤمر بها النبي ﷺ ليبلِّغها تبليغًا خاصًّا؛ فهنا قال: {قل}، يعني: (قل لهؤلاء الذين يقولون أنَّى هذا)، {هو}، أي: ما أصابكم {من عند أنفسكم}، {من} هنا للسببية، أي: (بسببكم فأنتم السبب)؛ والذي يظهر لنا من السبب هو ما حصل من النزاع والمعصية للنبي ﷺ حيث أمرهم أن يبقوا في المكان الذي عيَّنه لهم سواء كانت الغلبة للمسلمين أو كانت الغلبة للكافرين؛ ولكنَّهم رضي الله عنهم وعفا عنهم لمَّا رأوا المشركين قد انهزموا وأنَّ المسلمين بدؤا يجمعون الغنائم ظنُّوا أنَّ المسألة انتهت، فنزلوا من المكان الذي عيَّنه النبي ﷺ لهم والذي حصل هو أنَّ الفرسان من المشركين لمَّا رأوا الثَّغر خاليًا وهو من وراء المسلمين يحميهم من وراء، كرُّوا من وراء المسلمين واختلطوا بهم، وحصل ما أراد الله عز وجل؛ هذا معنى قوله: {من عند أنفسكم}.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٨ص٢٤٠: فَالْإِنْسَانُ إذَا أَصَابَتْهُ الْمَصَائِبُ بِذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ كَانَ هُوَ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ، كما قَالَ تَعَالَى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}، فَإِذَا تَابَ وَاسْتَغْفَرَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَالذُّنُوبُ مِثْلُ أَكْلِ السُّمِّ، فَهُوَ إذَا أَكَلَ السُّمَّ مَرِضَ أَوْ مَاتَ فَهُوَ الَّذِي يَمْرَضُ وَيَتَأَلَّمُ وَيَتَعَذَّبُ وَيَمُوتُ، وَاَللَّهُ خَالِقُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَإِنَّمَا مَرِضَ بِسَبَبِ أَكْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ بِأَكْلِ السُّمِّ. فَإِنْ شَرِبَ التِّرْيَاقَ النَّافِعَ عَافَاهُ اللَّهُ، فَالذُّنُوبُ كَأَكْلِ السُّمِّ، وَالتِّرْيَاقُ النَّافِعُ كَالتَّوْبَةِ النَّافِعَةِ، وَالْعَبْدُ فَقِيرٌ إلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ، فَهُوَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يُلْهِمُهُ التَّوْبَةَ، فَإِذَا تَابَ تَابَ عَلَيْهِ، فَإِذَا سَأَلَهُ الْعَبْدُ وَدَعَاهُ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ. كَمَا قَالَ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} .

قال ابن القيم في بدائع الفوائد ج٢ص٢٤٢: فما سلط على العبد من يؤذيه إلَّا بذنبٍ يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه ممَّا علمه وعمله أضعاف ما يذكره، وفي الدُّعاء المشهور ((اللهم إنِّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم[١]))، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه ممَّا لا يعلمه أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذٍ إلَّا بذنب؛ ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال له: قف حتى أدخل البيت ثمَّ أخرج إليك فدخل فسجد لله وتضرَّع إليه وتاب وأناب إلى ربِّه ثمَّ خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلَّطك به عليَّ. وسنذكر إن شاء الله تعالى أنَّه ليس في الوجود شرٌّ إلَّا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلَّط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح، وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشغل بها، وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبُّر ما نزل به، بل يتولَّى هو التوبة وإصلاح عيوبه والله يتولَّى نصرته وحفظه والدفع عنه ولابدَّ، فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرُّشد بيد الله لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فما كلُّ أحد يوفَّق لهذا، لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

قال ابن العثيمين: {إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[٢]}: ختم الآية بهذه الجملة في غاية ما يكون من المناسبة، فهو قدير على أن ينتصر من هؤلاء المشركين، ولكنَّه لم يفعل ذلك لحكمة، كما قال تعالى: {ذلك ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض}، لأنَّ الله لو شاء لأماتهم، أو خسف بهم، أو أنزل عليهم صواعق، أو ما أشبه ذلك: {ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلَّ أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم}، وقوله: {كلِّ شيء}، هذه عامَّة تشمل كلَّ شيء، تشمل ما كان موجودًا فهو قادر على إعدامه، وما كان معدومًا فهو قادر على إيجاده، ولا استثناء في هذا العموم.

وأمَّا قول المفسِّر رحمه الله في سورة المائدة: {وهو على كلِّ شيءٍ قدير}، قال: وخصَّ العقل ذاته فليس عليها بقادر؛ فهذا تخصيص في غير محلِّه؛ أوَّلًا: أنَّ العقل ليس له تدخُّل في صفات الله عز وجل؛ الثاني أن نقول: ماذا تريد بقولك: وخصَّ العقل ذاته؟ هل تريد أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يقدر أن يفعل، لا يقدر أن ينزل، لا يقدر أن يستوي، لا يقدر أن يأتي يوم القيمة للفصل بين عباده، إن أردت هذا فهذا خطأ، فالله قادر على أن يفعل، على أن يستوي على العرش، على أن ينزل إلى السماء الدنيا، على أن يأتي للفصل بين عباده، كما صحَّ بذلك النقل؛ أم تريد بقولك: خصَّ العقل ذاته؛ أنَّه لا يقدر على أن يفعل بنفسه ما لا يليق به كالموت مثلًا؛ إن أردت ذلك فهذا خطأ منك أيضًا، وذلك لأنَّ القدرة إنَّما تتعلَّق بالممكنات أمَّا المستحيلات فهي مستحيلة غير واقعة؛ هل يمكن أن نقول إنَّ الشيء يكون متحرِّكًا ساكنًا؟ لا يمكن، هذا لا تتعلَّق به القدرة

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٧٣١).

٢- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن {إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير} عند تفسير الآيات (٢٠، ١٠٦)، و(١٤٨) في الفوائد رقم (٨) من سورة البقرة.

أصلًا؛ والله عز وجل لا يمكن أن يتَّصف بالنَّقص: {ولله المثل الأعلى}، فكونك تفرض أنَّ الله تعالى يمكن أن يتَّصف بالنَّقص ولكنَّه غير قادر عليه هذا خطأٌ عظيم، نقول هذا أصلًا غير وارد على القدرة كما قال السفاري رحمه الله: (بقدرة تعلّقت بممكن)؛ فالشيء المستحيل مستحيل لا تتعلّق به القدرة أصلًا، لأنَّه إذا كان الشيء ساكنًا لا يمكن أن يكون متحرِّكًا، وإذا كان متحرِّكًا لا يمكن أن يكون ساكنًا؛ والله قادر على كلِّ شيء، لكن إذا قدَّر على أن يجعله متحرِّكًا صار غير ساكن، وقدَّر على أن يكون ساكنًا صار غير متحرِّكًا؛ فهذا أصلًا لا يرد على العقل؛ فإذًا نقول: {على كلِّ شيءٍ قدير} عمومًا مطلقًا لا استثناء فيه.

قال ابن القيم في زاد المعد ج٣ص٢١٤: وَخَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} بَعْدَ قَوْلِهِ: {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}، إِعْلَامًا لَهُمْ بِعُمُومِ قُدْرَتِهِ مَعَ عَدْلِهِ، وَأَنَّهُ عَادِلٌ قَادِرٌ، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ الْقَدَرِ وَالسَّبَبِ، فَذَكَرَ السَّبَبَ وَأَضَافَهُ إِلَى نُفُوسِهِمْ، وَذَكَرَ عُمُومَ الْقُدْرَةِ وَأَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ، فَالْأَوَّلُ يَنْفِي الْجَبْرَ، وَالثَّانِي يَنْفِي الْقَوْلَ بِإِبْطَالِ الْقَدَرِ، فَهُوَ يُشَاكِلُ قَوْلَهُ: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[التكوير: ٢٨-٣٠].

وَفِي ذِكْرِ قُدْرَتِهِ هَاهُنَا نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ بِيَدِهِ وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَوْ شَاءَ لَصَرَفَهُ عَنْكُمْ، فَلَا تَطْلُبُوا كَشْفَ أَمْثَالِهِ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا تَتَّكِلُوا عَلَى سِوَاهُ، وَكَشَفَ هَذَا الْمَعْنَى وَأَوْضَحَهُ كُلَّ الْإِيضَاحِ بِقَوْلِهِ: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ}[آل عمران: ١٦٦]، وَهُوَ الْإِذْنُ الْكَوْنِيُّ الْقَدَرِيُّ، لَا الشَّرْعِيُّ الدِّينِيُّ، كَقَوْلِهِ فِي السِّحْرِ: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة: ١٠٢].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله وبَّخ الذين قالوا: {أنَّى هذا}.

ويتفرَّع على هذا: جواز توبيخ من كان كامل الإيمان إذا فعل ما يستحقُّ التَّوبيخ عليه؛ يعني أنَّنا لا نقول إنَّ كمال إيمانه يمنع أن نوبِّخه إذا فعل ما يقتضي توبيخه.

٢- أنَّه من المستحسن أنَّ الإنسان يذكَّر بما يهون المصيبة عليه؛ لقوله: {قد أصبتم مثليها}.

٣- أنَّه ينبغي لمن أجاب غيره أن يجيبه بما يمنع احتجاجه؛ لقوله: {قل هو من عند أنفسكم} يعني فأنتم السبب.

٤- إثبات الأسباب؛ لقوله: {قل هو من عند أنفسكم}.

٥- منَّة الله على الصحابة رضي الله عنهم بأنَّ الله تعالى قد جعل على أيديهم إصابة أكبر مما أصابهم؛ لقوله: {قد أصبتم مثليها}.

٦- إثبات اسم {القدير} من أسماء الله؛ لقوله: {إنَّ الله على كلِّ شيء قدير} والقدرة صفة يتَّصف بها القادر تمنعه من وصف العجز؛ وذكرنا فيما سبق ما تستلزم.

٧- أنَّه ينبغي إذا وصفتم الله بالقدرة أن نصفه كما وصف نفسه، فنقول: إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير، خلافًا لمن قال: إنَّ الله على ما يشاء قدير؛ لأنَّه إذا قال: (إنَّ الله على ما يشاء قدير)، فقد يكون مفهوم العبارة: (أنَّ ما لا يشاؤه لا يقدر عليه)؛ وهو قادر على ما شاء وعلى ما لم يشأ؛ وأيضًا إذا قلنا إنَّه على ما يشاء قدير فإنَّه يدخل علينا مذهب القدرية الذين قالوا: إنَّ الله لا يشاء أفعال العباد؛ فإذا كان لا يشاء أفعال العباد وقلنا إنَّه لا يقدر إلَّا على ما شاء لزم أن لا يكون قادرًا على أفعال العباد؛ هذان اثنان، ثالثًا: أنَّنا إذا قلنا: على ما يشاء قدير؛ فقد خرجنا عمَّا وصف الله به نفسه لأنَّ الله قال: {إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير}.

فإن قال قائل: ما تقولون في قصة الرجل الذي أخبر عنه النبي ﷺ بأنَّه يكون آخر أهل الجنة دخولًا وأنَّ الله يقول له: إنِّي على ما أشاء قادر؟

فالجواب على ذلك: أنَّ هذا حديث عن مسألة وقعت؛ فإذا وقع شيء من الأشياء وكان الإنسان يستغرب وقوعه، فقال: كيف يقع هذا الشيء؟ نقول له: إنَّ الله على ما يشاء قادر، يعني أنَّ الله لمَّا شاءه وقع؛ أمَّا أن نصف الله بالوصف المطلق غير المقيَّد بفعل، فإنَّ الأَولى أن نقول: {إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير}.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ {١٦٦}

قال ابن العثيمين: {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله}: {ما} هذه شرطية، ودليل أنَّها شرطية أنَّه وجد في الجملة فعل شرط {أصابكم}، وجوابه {فبإذن الله}؛ فعل وقرن بالفاء لأنَّه جملة إسمية؛ إذ تقدير الكلام: فهو بإذن الله.

قال: {وما أصابكم يوم التقى الجمعان}: يعني بالتقاء الجمعين التقائهما يوم أحد، فإنَّه لمَّا التقى الجمعان صارت النهاية أن هزم المسلمون واستشهد منهم سبعون رجلًا؛ وهذه نكبة أمام الكفَّار، لأنَّ الكفَّار سيكون لهم في هذه الحال سيطرة وعلو واستكبار كما وقع، فإنَّ أبا سفيان قال في ذلك اليوم: أعل هبل، أي أنَّه افتخر بعلو صنمه على المسلمين الذين يعبدون الله.

وهذا الذي حصل يوم التقى الجمعان يقول الله عز وجل: {فبإذن الله}، بإذن الله القدري، يعني الله هو الذي قدَّره؛ وإذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني؛ فما تعلَّق بالتكوين والخلق فهو إذن كوني، مثل قوله تعالى: {وإذ تخرج الموتى بإذني}، فإنَّ هذا إذن كوني؛ وما تعلَّق بالشرع فهو إذن شرعي مثل قوله تعالى: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون}، وقوله: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدِّين ما لم يأذن به الله}، إذنًا شرعيًّا.

فإذا قيل: ما الفرق بينهما؟

فالجواب: أنَّ الفرق بينهما أنَّ الإذن الشرعي يكون فيما يحبُّه الله، والإذن الكوني يكون فيما يحبُّه وما لا يحبُّه؛ والثاني: أنَّ الإذن الكوني يقع فيه المأذون به؛ والإذن الشرعي قد يقع وقد لا يقع؛ هذا هو الفرق بينهما.

وقوله: {فبإذن الله}: أي فهو كائن بإذن الله، أي: الباء للسببية؛ ولهذا صحَّ أن يعطف عليها قوله: {وليعلم المؤمنين}. واللام في قوله: {ليعلم} للتعليل، ولا يجوز أن تسكن، أي لا يجوز قراءة أن تقول: (ولْيعلم)؛ لأنَّ الذي تسكن بعد حروف العطف المعروفة هي لام الأمر؛ أمَّا لام التعليل فهي مكسورة دائمًا.

{وليعلم المؤمنين}: يعني الذين صدقوا الله في إيمانهم، وقالوا فيما أصابهم إنَّه بقدر الله ورضوا به، وتابوا إلى الله من أسبابه وهي المعاصي والتنازع؛ والعلم هنا علم ظهور، يعني: وليعلمه بعد ظهوره؛ أمَّا علم الإدراك؛ أي علمه قبل ظهوره فهو ثابت لله عز وجل لأنَّ الله علم كلَّ شيءٍ إلى يوم القيمة؛ وأيضًا هذا العلم علم يترتَّب عليه الثواب؛ أمَّا علم الله السابق فإنَّه لا يترتَّب عليه الثواب ولا يترتَّب عليه العقاب؛ هذان فرقان؛ الفرق الثالث: أنَّ هذا العلم علمٌ بالشيء بعد أن وقع؛ فهو علم بأنَّه وقع؛ وأمَّا العلم الأزلي فهو علم بأنَّه سيقع؛ وهناك فرق بين العلم بأنَّه وقع وبين العلم بأنَّه سيقع؛ هذه ثلاثة أوجه وإلَّا فإنَّ كثيرًا من الناس يقول: {وليعلم المؤمنين} أليس الله قد علمه؟ فنقول: بلى علمه، لكن العلم يختلف من هذه الوجوه الثلاثة([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تسلية المؤمن بقضاء الله وقدره؛ لقوله: {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله}، لأنَّ المؤمن إذا علم أنَّه من عند الله رضي وسلَّم.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذا وبين قوله فيما سبق: {أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا قل هو من عند أنفسهم}؟

قلنا: الجواب أنَّ الجمع بينهما أنَّ إضافتها إلى الأنفس من باب إضافة الشيء إلى سببه، يعني أنتم السبب؛ وأمَّا إضافتها إلى إذن الله فهو من باب إضافة الشيء إلى فاعله؛ الذي قضى هذا هو الله لكن السبب أنتم؛ وإذا انفكَّت الجهة زال التَّعارض؛ فالجهة الأولى في الآية الأولى سبب، والثانية فعل وتقدير.

٢- أنَّ الله قد يقدِّر على عبده المؤمن ما يكرهه لحِكَم عظيمة؛ لقوله: {فبإذن الله}، وفي الحديث الصحيح أنَّ الله قال: ((ما تردَّدت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابدَّ له منه([2]))، فتأمَّل الآن أنَّ الله عز وجل يفعل ما يكره المؤمن لكن لحكمة، وهو أنَّه قضى عز وجل بحكمته بالفناء على كلِّ الخلق: {كلُّ من عليها فان}.

١- (قت): أنظر تفسير الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

٢- (قلت): البخاري (٦٥٠٢).

٣- إثبات الحكمة فيما أصاب الناس يوم التقى الجمعان؛ وأنَّه صار محنةً عُلم به المؤمن من الكافر أو من المنافق؛ المنافقون قالوا: {لو أطاعونا ما قتلوا}، {لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا}؛ أمَّا المؤمنون فقالوا: رضينا بالله ربًّا واستسلموا لقضاء الله وقدره فثبت بذلك إيمانهم؛ لقوله: {وليعلم المؤمنين}.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ المقضي المكروه محنةٌ للعبد، فعليه أن يعتبر وأن يصبر حتى يكون من المؤمنين الصابرين: {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون}.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ {١٦٧}

قال ابن العثيمين: {وليعلم الذين نافقوا}؛ قال في المؤمنين: {وليعلم المؤمنين} بالوصف، وأمَّا المنافقون قال: {وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم ...} فأتى بالفعل؛ وذلك لأنَّ النِّفاق طارئ عليهم، فإنَّ كثيرًا من المنافقين كان آمن ثمَّ كفر، كما قال الله تعالى: {ذلك بأنَّهم آمنوا ثمَّ كفروا}، ولهذا أتى بالفعل الدالِّ على التجدُّد؛ وأيضًا ليناسب قوله: {وقيل لهم تعالوا}.

والنِّفاق في الأصل هو إظهار خلاف الواقع؛ ومنه سمِّيَ نافقة الجربوع، الجربوع من ذكائه إذا حفر له جحرًا جعل له بابًا ظاهرًا يدخل منه ويخرج منه، ويجعل في أقصى ذلك الجحر طبقة خفيفة، يعني يخرق إلى أن يصل إلى قريب الانفتاح، فتبقى طبقة خفيفة جدًّا، من أجل إذا هوجم من باب الجحر خرج من هذه القشرة الرقيقة، لأنَّها تكون سهلة عليها؛ فيكون هذه مخادعة؛ لأنَّ الصَّائد إذا أراد صيده ثمَّ هجم عليه من الباب لا يدري أنَّ هناك نافقة فيخرج الجربوع من هذه النافقة.

والجربوع حلال، هو يشبه الفأر إلى حدٍّ كبير، لكن له أرجلًا طويلة، وأيدٍ قصيرة، وله ذيلٌ طويل في طرفه هدب؛ على كلِّ حال أقول إنَّ النِّفاق مأخوذ من هذا، أصله من هذا، لأنَّ فيه مكرًا ومخادعة.

{وليعلم الذين نافقوا}، مثل عبد الله بن أبي، فإنَّ عبد الله بن أبي كان من المعارضين للخروج إلى أحد، ولكن النبي ﷺ عزم على الخروج بمشورة بعض الصحابة ولاسيما الذين لم يدركوا بدرا، الذين لم يخرجوا في بدر هم الذين أشاروا على النبي ﷺ، وأكَّدوا عليه بالمشورة أن يخرج إلى أحد؛ خرج الناس مؤمنهم ومنافقهم، وفي أثناء الطريق انخزل عبد الله بن أبي بنحو ثلث الجند، ولحقهم من لحقهم من المؤمنين يوبِّخونهم ويأمرونهم بالرُّجوع: {وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا} على الأقل، إمَّا قتالًا في سبيل الله أو دفاعًا عن أوطاننا؛ فالقتال في سبيل الله قتال يعتبر جهادًا يثاب عليه المقاتل ثواب المجاهد، وقتال الدفاع بحسب نيَّة المقاتل؛ فهم قيل لهم: {تعالوا قاتلوا في سبيل الله} جهادًا، {أو ادفعوا} عن أوطانكم؛ هم لو رجعوا

يقاتلون دفاعًا لاشك، لأنَّهم ليس عندهم إيمان بما في سبيل الله؛ {قالوا لو نعلم قتالًا لاتَّبعناكم}؛ المراد منه تبريرًا لرجوعهم؛ هم يبرِّرون رجوعهم من الجيش يقولون: نحن معكم لكن ما نعلم قتالًا، وهذه قولة رجل مخذول جبان؛ والإنسان الشجاع يقول: نعم نأتي نقاتل أو ندفع، ثمَّ إن حصل القتال فنحن مستعدُّون، وإن لم يحصل رجعنا حيث جئنا؛ ولهذا قال: {قالوا لو نعلم قتالًا لاتَّبعناكم}؛ سبق الكلام على قوله: {لو} وأنَّها في مثل هذا السياق تكون شرطية.

قال السعدي: أي: لو نعلم أنَّكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتَّبعناكم، وهم كذبة في هذا. قد علموا وتيقَّنوا وعلم كلُّ أحدٍ أنَّ هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنَّهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرِّقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصوَّر أنَّهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكنَّ المنافقين ظنُّوا أنَّ هذا العذر، يروج على المؤمنين.

قال ابن العثيمين: {هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان}: أي في هذا اليوم الذي انصرفوا فيه وانخزلوا عن المسلمين هم للكفر أقرب منهم للإيمان، وإن كان فيهم شيءٌ من الإيمان، ولعلَّ هذا في بعضهم لكن هم للكفر أقرب.

{يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم} مثل أنَّهم يأتون إلى النبي ﷺ ويقولون: نشهد إنَّك لرسول الله، ويذكرون الله فيقولون: لا إله إلا الله، ويحضرون بعض الصلوات على أنَّهم مسلمون؛ فهم {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم}؛ الذي في أفواههم الإسلام؛ والذي في قلوبهم الكفر.

قال السعدي: وهذه خاصية المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضدَّه في قلوبهم وسرائرهم. ومنه قولهم: {لو نعلم قتالًا لاتَّبعناكم}، فإنَّهم قد علموا وقوع القتال.

ويستدلُّ بهذه الآية على قاعدة (ارتكاب أخفُّ المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما)؛ لأنَّ المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدِّين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان.

قال ابن العثيمين: {والله أعلم بما يكتمون}: والله أعلم من غيره بما يكتم هؤلاء؛ ولهذا أبدى الله ما يكتمونه وأنَّهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وفي قوله: {والله أعلم بما يكتمون} خلاف بين المفسِّرين؛ فمنهم من قال: إن {أعلم} بمعنى عالم، عالم بما يكتمون، خوفًا من أن تقع المفاضلة بين علم المخلوق وعلم الخالق؛ لأنَّك إذا جئت بأفعل التفضيل فإنَّ مقتضى ذلك أن يكون بين المفضَّل والمفضَّل عليه اشتراك في الأصل، ولكن المفضَّل زاد على المفضَّل عليه؛ ولذا تجدهم يفسِّرون في مثل هذه الآية: يفسِّرون {أعلم} بعالم، (والله عالم بما يكتمون)؛ ولكن هذا القول ضعيف؛ أوَّلًا: أنَّهم صرفوا اللَّفظ عن ظاهره؛ لأنَّ اللَّفظ اسم تفضيل، والمعنى الذي أثبتوه اسم فاعل، وبينهما فرق، ولا يجوز أن نصرف القرآن عن ظاهره إلَّا بدليل؛ والثاني: أنَّهم إذا قالوا (عالم) لم يمنع المشاركة على وجه المماثلة بأنَّه يقال: فلان عالم وفلان عالم؛ لكن

إذا قيل: فلان أعلم من فلان؛ امتنعت المشاركة على وجه المماثلة لظهور التَّفضيل؛ فهم الآن فرُّوا من شيءٍ ووقعوا في شرٍّ منه، فرُّوا من أن يطلقوا {أعلم} على الله لأنَّها تقتضي اشتراك المفضَّل والمفضَّل عليه في أصل المعنى، لكن وقعوا في معنى لا يمنع المشاركة على وجه المماثلة، وهذا شر؛ إذًا نقول إنَّ: {أعلم} اسم تفضيل على ظاهرها، ولا يستلزم ذلك شيئًا ممَّا ينزّه الله عنه، ونحن نعلم أنَّ هناك اشتراكًا في العلم بين الخالق والمخلوق، لكن يمتاز الخالق بما يختصُّ به والمخلوق بما يختصُّ به؛ وإلَّا فلا شكَّ إنَّ العلم الذي يوصف الله به، لأصله ثبوت في المخلوق، فمثلًا الله يعلم أنَّ هذا العمود من الحديد وأنت تعلم؛ لكن علم الله أشدُّ إحاطة منك وأسبق، وهو علم لا يزول، وعلمك ليس كإحاطة علم الله وليس أزليًّا وليس أبديًّا، فيختصُّ الخالق بعلمه والمخلوق بعلمه؛ ولهذا قال الله تعالى: {وما أوتيتم من العلم إلَّا قليلًا}.

وقوله: {أعلم بما يكتمون}: أي (بما يخفون في نفوسهم من الكفر)؛ وأمَّا ما يظهرونه من اللِّسان فهو معروف للمسلمين وغير المسلمين.

قال الطبري: والله أعلم من هؤلاء المنافقين الذين يقولون للمؤمنين: {لو نعلم قتالًا لاتبعناكم}، بما يضمرون في أنفسهم للمؤمنين ويكتمونه فيسترونه من العداوة والشنآن، وأنهم لو علموا قتالًا ما تبعوهم ولا دافعوا عنهم، وهو تعالى ذكره محيط بما هم مخفوه من ذلك، مطَّلع عليه، ومحصيه عليهم، حتى يهتك أستارهم في عاجل الدنيا فيفضحهم به، ويُصليهم به الدرك الأسفل من النار في الآخرة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج٧ص٢٧٩: فَقَوْلُهُ: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا}، ظَاهِرٌ فِيمَنْ أَحْدَثَ نِفَاقًا وَهُوَ يَتَنَاوَلُ مَنْ لَمْ يُنَافِقْ قَبْلُ، وَمَنْ نَافَقَ ثُمَّ جَدَّدَ نِفَاقًا ثَانِيًا، وَقَوْلُهُ: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ} يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَقْرَبَ مِنْهُمْ بَلْ إمَّا أَنْ يَتَسَاوَيَا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا لِلْإِيمَانِ أَقْرَبَ، وَكَذَلِكَ كَانَ؛ فَإِنَّ ابْنَ أُبَي لَمَّا انْخَزَلَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، انْخَزَلَ مَعَهُ ثُلُثُ النَّاسِ، قِيلَ: كَانُوا نَحْوَ ثَلَاثِمِائَةٍ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ ذَلِكَ كُلُّهُمْ مُنَافِقِينَ فِي الْبَاطِنِ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إلَى النِّفَاقِ.

فَإِنَّ ابْنَ أبي كَانَ مُظْهِرًا لِطَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْإِيمَانِ بِهِ؛ وَكَانَ كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ يَقُومُ خَطِيبًا فِي الْمَسْجِدِ يَأْمُرُ بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ مَا فِي قَلْبِهِ يَظْهَرُ إلَّا لِقَلِيلِ مِنْ النَّاسِ إنْ ظَهَرَ، وَكَانَ مُعَظَّمًا فِي قَوْمِهِ؛ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيَجْعَلُوهُ مِثْلَ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ؛ فَلَمَّا جَاءَتْ النُّبُوَّةُ بَطَلَ ذَلِكَ، فَحَمَلَهُ الْحَسَدُ عَلَى النِّفَاقِ، وَإِلَّا فَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ دِينٌ يَدْعُو إلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا فِي الْيَهُودِ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِدِينِهِ وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ حُسْنَهُ وَنُورَهُ، مَالَتْ إلَيْهِ الْقُلُوبُ لَا سِيَّمَا لَمَّا نَصَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَصَرَهُ عَلَى يَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، صَارَ مَعَهُ الدِّينُ وَالدُّنْيَا؛ فَكَانَ الْمُقْتَضِي لِلْإِيمَانِ فِي عَامَّةِ الْأَنْصَارِ قَائِمًا، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُعَظِّمُ ابْنَ أبي تَعْظِيمًا كَثِيرًا وَيُوَالِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ ابْنُ أبي أَظْهَرَ مُخَالَفَةً تُوجِبُ الِامْتِيَازَ؛ فَلَمَّا انْخَزَلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَالَ: يَدَعُ رَأْيِي وَرَأْيَهُ، وَيَأْخُذُ بِرَأْيِ الصِّبْيَانِ – أَوْ كَمَا قَالَ – انْخَزَلَ مَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ، مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُنَافِقْ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَفِي الْجُمْلَةِ، فَفِي الْأَخْبَارِ عَمَّنْ نَافَقَ بَعْدَ إيمَانِهِ مَا يَطُولُ ذِكْرُهُ هُنَا؛ فَأُولَئِكَ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَكَانَ مَعَهُمْ إيمَانٌ، هُوَ الضَّوْءُ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ بِهِ الْمَثَلَ، فَلَوْ مَاتُوا قَبْلَ الْمِحْنَةِ وَالنِّفَاقِ مَاتُوا عَلَى هَذَا الْإِسْلَامِ الَّذِي يُثَابُونَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا الَّذِينَ امْتُحِنُوا فَثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَا مِنْ الْمُنَافِقِينَ حَقًّا الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنْ الْإِيمَانِ بِالْمِحْنَةِ، وَهَذَا حَالُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا أَوْ أَكْثَرِهِمْ، إذَا ابْتُلُوا بِالْمِحَنِ الَّتِي يَتَضَعْضَعُ فِيهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ، يَنْقُصُ إيمَانُهُمْ كَثِيرًا وَيُنَافِقُ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ الرِّدَّةَ إذَا كَانَ الْعَدُوُّ غَالِبًا؛ وَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى غَيْرُنَا مِنْ هَذَا مَا فِيهِ عِبْرَةٌ. وَإِذَا كَانَتْ الْعَافِيَةُ، أَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَكِنْ إيمَانًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الْمِحْنَةِ.

وَلِهَذَا يَكْثُرُ فِي هَؤُلَاءِ تَرْكُ الْفَرَائِضِ وَانْتِهَاكُ الْمَحَارِمِ. وَهَؤُلَاءِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا: {آمَنَّا} فَقِيلَ لَهُمْ: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}[الحجرات: ١٤]: أَيْ الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ، الَّذِي أَهْلُهُ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ إذَا أُطْلِقَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات:١٥]، فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ رَيْبٌ عِنْدَ الْمِحَنِ الَّتِي تُقَلْقِلُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ، وَالرَّيْبُ يَكُونُ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ وَفِي عَمَلِ الْقَلْبِ؛ بِخِلَافِ الشَّكِّ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْعِلْمِ([1])؛ وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ بِالْيَقِينِ إلَّا مَنْ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ وَإِلَّا فَإِذَا كَانَ عَالِمًا بِالْحَقِّ؛ وَلَكِنَّ الْمُصِيبَةَ أَوْ الْخَوْفَ أَوْرَثَهُ جَزَعًا عَظِيمًا لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ يَقِينٍ. قَالَ تَعَالَى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}[الأحزاب: ١١]. وَكَثِيرًا مَا تَعْرِضُ لِلْمُؤْمِنِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ يَرِدُ عَلَى قَلْبِهِ بَعْضُ مَا يُوجِبُ النِّفَاقَ. وَيَدْفَعُهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إثبات النِّفاق في هذه الأُمَّة؛ لقوله: {وليعلم الذين نافقوا} أي بعد إيمانهم؛ ولم يبرز النِّفاق إلَّا بعد غزوة بدر، وغزوة بدر كانت في السنة الثانية في رمضان، وحصل بها للمسلمين من العزِّ ما جعل المنافقين يظهرون نفاقهم، لأنَّهم صاروا يخافون من المؤمنين فصاروا ينافقون، أي يظهرون أنَّهم مسلمون أو أنَّهم مؤمنون وما هم بمؤمنين.

٢- التَّحذير من النِّفاق؛ وفي الآية الأولى: التَّرغيب في الإيمان؛ والذي يميِّز بين هذا وهذا هي قرينة الحال؛ فإنَّ المنافقين سيأتي من أفعالهم ما يدلُّ على أنَّهم في غاية الذَّم.

٣- أنَّ المنافقين من أكذب الناس؛ لقوله: {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم}؛ ويقولون: {لو نعلم قتالًا لاتَّبعناكم}، وهم كاذبون في هذا لأنَّهم يعلمون أنَّه سيكون قتال؛ لأنَّ أعداء المسلمين جاءوا من بلادهم تركوا أهليهم وتركوا بلادهم تركوا

---

[1]- (قلت): قال ابن العثيمين في تفسير الآية (٢) من سورة البقرة: و(الريب): هو الشك؛ ولكن ليس مطلق الشك؛ بل الشك المصحوب بقلق لقوة الداعي الموجب للشك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهذا الشك؛ فهي قلقة منه. بخلاف مطلق الشك.؛ ولهذا من فسّر الريب بالشك فهذا تفسير تقريبي؛ لأن بينهما فرقاً.

أموالهم وهم في غاية الحنق على الرسول ﷺ وفي غاية الاستعداد؛ فهل يعقل أنَّ قومًا جاءوا على هذه الصفة يرجعون يقولون: سلام عليكم في أمان الله؟! لا يعقل؛ فقول المنافقين: {لو نعلم القتال لاتَّبعناكم} هم كاذبون فيه؛ ولهذا قال: {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم}.

٤- أنَّ القول عند الإطلاق هو الذي يتواطأ عليه القلب واللِّسان؛ لقوله: {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم} لأنَّه لو قال: {يقولون}، لكان القول في الأصل ما تواطأ عليه القلب واللِّسان؛ لكن لمَّا كان هذا القول يختلف فيه القلب عن اللِّسان قيَّده بالأفواه قال: {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم}. وبهذا التَّقرير يندفع عنَّا قولان، القول الأول: أنَّ بعض المفسِّرين قالوا إنَّ قوله: {بأفواههم} من باب التأكيد فهو كقوله: {وما من دابَّة في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلَّا أممٌ أمثالكم}؛ قالوا: لأنَّ القول لا يكون إلَّا بالأفواه؛ ويندفع به أيضًا قول آخر أشدَّ منه وهو القول بالكلام النفسي؛ قالوا: إنَّه لمَّا قيَّد هذا القول بالأفواه دلَّ على أنَّ هناك قولًا نفسيًّا وهو ما كان في القلب؛ وهذا أخطر من الأول؛ لأنَّ هذا مبنيٌّ على بدعة الأشاعرة ومن وافقهم في أنَّ كلام الله هو المعنى القائم بالنفس؛ وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا القول من تسعين وجهًا في كتابٍ سمَّاه (التسعينية) وأشار إليه ابن القيم رحمه الله في النونية كما مرَّ علينا قريبًا؛ إذًا الفائدة من قوله: {بأفواههم} هو أنَّ هذا القول ليس قولًا مطلقًا؛ لأنَّ القول المطلق ما تواطأ عليه القلب واللِّسان.

يمكن أن نفرِّع على هذا فائدة مهمة وهي: أنَّ من نطق بقول دون أن يكون له قصد في قلبه فإنَّه لاغٍ، يعني فإنَّ أثر هذا النُّطق لاغٍ؛ يمكن أن نأخذ هذا من هذه الآية، كما يشهد لهذا قوله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللَّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان}، وهذا يفيد جدًّا؛ فمثلًا: طلاق السكران لا يقع لأنَّه باللِّسان فقط؛ طلاق الموسوس لا يقع لأنَّه باللِّسان فقط؛ يوسوس دائمًا أنَّه طلَّق زوجته، وتجده يحدِّث نفسه وهو على فراشه ومع زوجته، يقول: فلانة طالق وربما حتى في الصلاة يقول هذا؛ ويعجز عن كبح نفسه، نقول هذا الرجل لو طلَّق بلسانه ألف مرَّة فليس بشيء؛ ولهذا يستفتوننا كثيرًا من الناس في هذه المسألة ونقول: إنَّ الطلاق ليس عليك طلاق، قال: ولو تكلَّمت؟ قلت: ولو تكلَّم ما عليك الطلاق، لأنَّه ما قصد؛ أحيانًا يقول: والله أنا بريح نفسي زوجتي طالق؛ نقول: هذا إغلاق ولا طلاق في إغلاق، مثل بعض الناس إذا شكَّ هل أحدث أو لا ذهب يحدث قبل من أجل أن يتيقَّن، أحيانًا يحدث بحدث مسموع، وأحيانًا يذهب يمسُّ ذكره ويرى أنَّه ينقض الوضوء بمس الذَّكر وما أشبه ذلك؛ نقول: لا، يا أخي أنت ريِّح نفسك، أعطانا رسول الله ﷺ قاعدة وهي: أن لا ننصرف من الصلاة ولا نخرج من المسجد حتى نسمع صوتًا أو نجد ريحًا؛ لا تبلبل نفسك؛ افرض أنَّ ما عندك ماء أو أنَّ الوقت بارد وأنت ماش على هذه الطريقة كلَّما شككت نقضت الوضوء ثمَّ توضَّأت، تذهب تنقض الوضوء ثم تبقى إمَّا أن تتوضَّأ بالماء البارد أو تتيمَّم هذا غلط؛ المهم أنَّ الشيء الذي لا يقصد يؤخذ من هذه الآية ومن غيرها أيضًا من السنن الأخرى أنَّه لا عبرة به.

٥- إثبات علم الله عز وجل بسرائر الأمور؛ لقوله: {والله أعلم بما يكتمون}.

٦- تحذير العبد من أن يكتم في قلبه ما لا يرضاه الله عز وجل؛ يؤخذ من قوله: {أعلم بما يكتمون}.

٧- أنَّ المنافقين يحرصون غاية الحرص على كتمان نفاقهم، ولكنَّ الله يعلم بذلك، وقد كشفهم الله بقوله: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطًا}.

٨- أنَّ المنافقين لا خير فيهم لا في الجهاد في سبيل الله ولا في الدِّفاع عن المسلمين؛ لقوله: {وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا}، فهم لا خير فيهم لا يأتون للقتال في سبيل الله ولا للدِّفاع.

٩- أنَّ الإنسان تتغيَّر أحواله فيكون في حال أقرب إلى الإيمان من الكفر وفي حال أخرى بالعكس؛ لقوله: {هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان}؛ واستدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على زيادة الإيمان ونقصانه؛ فما وجه الدِّلالة من الآية؟ كلَّما قرب الإنسان للإيمان سوف يزداد إيمانه، كلَّما بعد سوف ينقص؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ ولكن هل يزيد بالعمل الظاهر أو يزيد حتى في العمل الباطن؟ نعم يزيد في هذا وهذا؛ فالعمل الظاهر نجد بعض الناس يكثر من الأعمال الصالحة فيزداد إيمانهم؛ أمَّا في الباطن فكذلك يزداد إيمان الإنسان بالباطن بحسب ما يكون عنده من البيِّنات؛ فهذا ابراهيم قال: {رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي}، والإنسان يدرك بحسِّه أنَّه إذا أخبره ثقة بخبر ثمَّ أخبره ثقة بنفس الخبر ثمَّ ثقة ثمَّ ثقة يحسُّ بنفسه أنَّه كلَّما زاد المخبرون ازداد إيمانه، وهذا شيءٌ مشاهد ليس فيه إشكال.

١٠- ويؤخذ من الآية الكريمة أنَّ الكفر ضد الإيمان؛ لقوله: {هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان}، ولكن هل يجتمع الإيمان والكفر في قلب رجل؟ نقول أمَّا الإيمان المطلق والكفر المطلق فلا يمكن أن يجتمعا، وأمَّا الإيمان الناقص أو الكفر دون الكفر فيمكن أن يجتمعا على مذهب أهل السنة والجماعة أنَّ الإنسان يكون فيه خصال إيمان وخصال كفر فيحب على ما معه من الإيمان ويكره على ما معه من الكفر.

١١- أنَّه ينبغي للإنسان أن يحترس في الحكم وأن لا يطلق الحكم؛ بل يحترس فيه؛ لقوله: {هم للكفر يومئذٍ أقرب منه للإيمان}، وهو ما يسمَّى في عرف الدبلوماسيين التحفُّظ؛ لأنَّ قوله: {يومئذٍ} احترازٌ ممَّا سبق وممَّا سيأتي، لأنَّه ربما أنَّه فيما سبق هم للإيمان أقرب، وربما في المستقبل أيضًا يغير الله حاله فيكون للإيمان أقرب؛ فأنت إذا حكمت على شخص فينبغي لك أن تقيد بأنَّ الإطلاق ربما يأخذ المحكوم عليه هذا الحكم مطلقًا؛ وافرض أنَّك تريد أن تعدِّل شخصًا تقول إنَّه عدل، إذا أعطيته وصف العدالة على سبيل الإطلاق فربما يفسق فيما بعد وتبقى هذه الوثيقة عنده؛ لكن الحمد لله الآن الناس يحترسون من هذا بذكر التاريخ، لأنَّه إذا ذكر التاريخ وأنت عدلته في هذا التاريخ فإنَّه لا لوم عليك في المستقبل فيما لو اختلفت حاله لأنَّك إنَّما تعدِّله في ذلك الوقت، ربما تختلف حاله ويكون فاسقًا بعد ذلك فما عليك منه.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {١٦٨}

قال ابن العثيمين: {الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا}: {الذين} هنا بدل من {الذين} السابقة في قوله: {وليعلم الذين نافقوا}؛ أو صفة، وكونها صفة أَولى بل هو المتعين؛ وذلك لأنَّ البدل يكون هو المقصود بالحكم دون المبدَّل منه؛ فإذا قلت: (كلِ الرغيف ثلثه)؛ ولهذا لو أكل النصف لأكل السدس بغير حق؛ فإذا قال: أنت قلت لي: (كل الرغيف)، قلت: لكني أبدلت وقلت ثلثه؛ فالسدس الذي أكلته زائدًا الآن يعتبر أكلًا بغير حق؛ فتكون آثمًا، ولصحاب الرغيف أن يطالبك بقيمة السدس؛ على كلِّ حال البدل هو المقصود بالحكم، كما قال ابن مالك رحمه الله في الألفية:

التابع المقصود بالحكم بلا ... واسطة هو المسمى بدلا

وعلى هذا فتعيَّن أن تكون: {الذين} الثانية صفة ل{الذين} الأولى؛ واسم الموصول يصح أن يكون صفة لأنَّه بصلته يكون بمعنى المشتق؛ {الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا}، قوله: {لإخوانهم}: أي إخوانهم ظاهرًا؛ هذا هو الصحيح؛ وقال بعضهم: لإخوانهم في النَّسب؛ والمعنى الأول أصح لأنَّهم لا يخاطبون إخوانهم في النَّسب فقط، بل يخاطبون كلُّ من استشهد في غزوة أحد، وليس كلُّ من استشهد أخًا لواحد من المنافقين؛ فيكون المراد بإخوانهم أي ظاهرًا، لأنَّ المنافقين مع المؤمنين كأنَّهم مؤمنون؛ ولهذا لمَّا استؤذن النبي ﷺ في قتلهم قال: ((لا يتحدَّث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه))، إذًا فهم ظاهرًا إخوان وأصحاب؛ فلهذا نقول: {لإخوانهم}، المراد لإخوانهم ظاهرًا، لأنَّهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

وقوله: {وقعدوا}: أي تخلَّفوا عن القتال، والله سبحانه وتعالى يسمِّي المتخلِّفين عن القتال قعودًا فقال: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضَّرر والمجاهدون في سبيل الله}، فسمَّى المتخلِّفين عن القتال قعدة؛ وقال تعالى: {وقيل اقعدوا مع القاعدين}؛ {ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّة ولكن الله كره انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين}؛ إذًا {وقعدوا}: يعني تخلَّفوا عن القتال؛ والجملة في قوله: {وقعدوا} في محل نصب على الحال بتقدير {قد}، أي: (وقد قعدوا)؛ وهذا أَولى من أن نجعل الجملة معطوفة على الصِّلة، يعني: (قالوا وقعدوا)؛ لأنَّ قولهم حال كونهم قعودًا أشد؛ فهم جمعوا بين الأمرين بين السوء في القول والسوء في الفعل.

{لو أطاعونا ما قتلوا}: يطيعونهم بعدم الخروج؛ لأنَّ المنافقين أشاروا بعدم الخروج، ولكنَّ النبي ﷺ والصادقين من المؤمنين أبَوا إلَّا أن يخرجوا؛ وفي أثناء الطريق انخزل عبد الله بن أبي ومن معه بثلث العسكر، فتخلَّفوا ولهذا قال: {لو أطاعونا ما قتلوا}؛ وفي قراءة: {ما قُتِّلوا} بالتشديد على سبيل المبالغة؛ لأنَّ الذين استشهدوا حصل فيهم تمثيل، مثل حمزة رضي الله

عنه فإنَّه مُثِّل به، حتى إنَّ هند بنت عتبة أخذت كبده ومضغتها ولكن لم تستطع أن يبتلعها؛ فنقول: {قُتِّلوا} بناء على أنَّ هذا التقتيل مبالغ فيه، لما فيه من المثلة؛ أمَّا: {قتلوا} فأمرها ظاهر.

قال أبو زهرة: فهم لَا يتألَّمون لإخوانهم وذوي رحمهم، ولكن يلقون باللَّوم عليهم. وخلاصة القول: إنَّهم فرحون بأنَّهم لم يقتلوا لأنَّهم لم يخرجوا، ولائمون لمن خرجوا وقتلوا، شامتون فيهم، وهم بهذا يقرّرون أنَّ موتهم سببه الخروج للقتال، وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى ذلك عليهم ببيان أنَّ الموت مكتوب على الإنسان، وتقدِّر أسبابه، فقد يكون قتال ولا موت، وقد يكون موت من غير قتال، فقال سبحانه: {قلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كنتُمْ صَادِقِينَ}.

قال السعدي: أي: جمعوا بين التَّخلُّف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتَّكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًّا عليهم: {قل فادرءوا}: أي ادفعوا، {عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين} إنَّهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

قال ابن العثيمين: {قل}: يعني يا محمد لهؤلاء: {فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين}، {ادرءوا}: بمعنى (ادفعوا)، يعني هل أنتم لمَّا تخلَّفتم نجوتم من الموت؟ الجواب: لا؛ إن كنتم صادقين فادرءوا عن أنفسكم الموت إذا جاءكم الموت، لا يستطيعون هذا، لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم الموت؛ وقوله: {إن كنتم صادقين} هذا من باب التَّحدِّي، يعني إن كنتم صادقين في أن من تخلَّف لا يموت، فادفعوا عن أنفسكم الموت؛ والجواب أنَّهم لا يستطيعون ذلك؛ وفي ختم هذا التَّحدِّي {ادرءوا} بقوله: {إن كنتم صادقين}، تأكيد كذبهم في قولهم: {لو أطاعونا ما قتلوا}: يعني هم لو تخلَّفوا فالموت سيأتيهم.

قال السعدي: وفي هذه الآيات دليل على أنَّ العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- التَّنديد بهؤلاء الذين جمعوا بين قبح الفعل وقبح القول؛ يؤخذ من قوله: {قالوا}، {وقعدوا}، قبح الفعل من كونهم {قعدوا}؛ وقبح القول من قولهم: {لو أطاعونا ما قتلوا}.

٢- أنَّ هؤلاء مع قبح قولهم وإدخال النَّدم على قومهم اعترضوا على القدر؛ لقولهم: {لو أطاعونا ما قتلوا}.

٣- الإشارة إلى أنَّ مثل هذا القول عند حلول القدر لا يجوز؛ لأنَّه سيق في سياق الذَّم؛ وهو كذلك؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((إن أصابك شيء)): يعني بعد بذل الجهد ((فلا تقل لو أنِّي فعلت لكان كذا وكذا(١)))، أمَّا لو قاله الإنسان خبرًا لا اعتراضًا

١- (قلت): مسلم (٢٦٦٤).

على القدر ولا ندمًا على ما وقع، فإنَّ هذا لا بأس به، ومنه قول النبي ﷺ: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأحللت معكم))، وليس هذا من باب التَّمنِّي كما ذهب إليه بعض العلماء، وأنَّ لو هنا استعملت في تمنِّي الخير؛ بل نقول: هي خبر؛ وهذا يقع كثيرًا، قد تقول للشخص: لو زرتني بالأمس لأكرمتك، وما أشبه ذلك تريد بذلك الخبر؛ وعلى هذا فنقول إنَّ استعمال (لو) يكون على وجوه؛ الوجه الأول: أن يكون اعتراضًا على القدر؛ فهذا لا يجوز، وهو منازعة للرب عز وجل في قضائه وقدره؛ الحال الثانية: أن يكون مثارًا للنَّدم والتحسُّر فهذا لا يجوز أيضًا؛ لأنَّ النبي ﷺ نهى عنه فقال: ((إن أصابك شيءٌ فلا تقل لو أنِّي فعلت كذا لكان كذا وكذا))؛ الثالث: أن يكون خبرًا عن الواقع؛ فهذا لا بأس به؛ لأنَّه لا يحمل الإنسان على النَّدم، وليس فيه منازعة لقدر الله عز وجل، وهو يقع كثيرًا في كلام الناس.

٤- تحدِّي هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام بدفع الموت عنهم؛ لقوله: {قل فادرءوا عن أنفسكم الموت}.

٥- أنَّه لا يمكن درء الموت، لأنَّ ما وقع التَّحدِّي به فإنَّه لا يمكن وقوعه، إذ لو أمكن وقوعه لم يكن للتَّحدِّي به فائدة؛ ومن هنا نعرف أنَّ قول الله تعالى: {يا معشر الجنس والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلَّا بسلطان}، لا يصح تنزيله على وصول الناس الآن على أعماق الفضاء وإلى الكواكب، وإلى أعماق الكواكب كما زعم بعضهم حينما وصل الناس إلى القمر وحلَّوا به، قالوا: إنَّ هذا ممَّا دلَّ عليه القرآن؛ لأنَّ الله قال: {لا تنفذون إلَّا بسلطان}، والسلطان العلم؛ فهؤلاء أوتوا علمًا حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، فالقرآن شاهد لذلك؛ ولكن هذا في الحقيقة تحريف للقرآن، فالقرآن في الآية هذه إنَّما هو للتَّحدِّي، بدليل أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: {كلُّ من عليها فان}، {يسأله من في السموات والأرض كلَّ يوم هو في شأن}، {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلَّا بسلطان}، {يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس}، {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان}، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ المراد بذلك التَّحدِّي، ويكون يوم القيمة ليس في الدنيا؛ ولهذا نقول: هؤلاء لو نفذوا من أقطار الأرض لم ينفذوا من أقطار السموات؛ والآية فيها التَّحدِّي في هذا وهذا؛ والمهم أنَّه لا ينبغي أن نخضع نصوص القرآن من أجل أن نقول إنَّها دالَّة على ما حدث أو ما يحدث؛ بل نقول: إنَّ ما حدث أو يحدث إذا قامت البراهين على صدقه فإنَّه لا يحتاج إلى أن نقحمه في دلالة القرآن؛ نقول هذا شيء وقع وشهد به كلَّ الناس فهو صحيح، لو كنَّا نقحم كلَّما حدث من العلوم في الوقت الحاضر في القرآن لكنَّا نحمِّل القرآن ما لا يحتمل؛ وليعلم أنَّ تفسير القرآن تعبير عن مراد الله بهذا الكلام؛ فمن فسَّره بغير ما يظهر من مراده فهو كاذب على الله مفترٍ عليه؛ فالمسألة ليست هيِّنة؛ يعني: أنا قد أبيح لنفسي أن أفسِّر كلام واحد من الناس؛ لكن لا أستبيح لنفسي أن أقول في كتاب الله ما لم نعلم أنَّ الله أراده؛ فالمفسِّر يشهد على الله بأن الله أراد كذا؛ فليحذر من هذه المسألة.

٦- تكليف النبي ﷺ تكليفًا خاصًا بإبلاغ شيء من القرآن أو مجادلة أحد من الناس؛ لقوله: {قل فادرءوا}: يعني أنت جادلهم وتحدِّهم وقل: {فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين}.

٧- معاملة الناس بما يظهر من حاله؛ لقوله: {الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا}، فإنَّه سبق لنا أن قلنا إنَّ الصواب في الأخوة هنا الأخوة الظاهرة لا أخوة النَّسب، لأنَّه ليس كلُّ من قتل في أحد يكون له قرابة لهؤلاء المنافقين.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ {١٦٩}

قال السعدي: هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرُّض للشهادة.

قال ابن العثيمين: {ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا} فيها قراءتان: {قتِلوا} و{قتّلوا} وكذلك {تحسَب} و {تحسِب} كلاهما سبعيتان؛ {ولا تحسبنَّ} الخطاب هنا إمَّا للرسول ﷺ أو لكلِّ من يصحُّ توجيه الخطاب إليه؛ فإن كان لكلِّ من يصحُّ توجيه الخطاب إليه دخل فيه النبي ﷺ وغيره؛ وإن كان خطابًا للنبي ﷺ دخل فيه غيره بالتَّبع؛ فيكون المقصود قصدًا أوليًّا بهذا الخطاب النبي ﷺ وغيره تبعًا له؛ أمَّا إذا قلنا إنَّه أي الخطاب موجَّه لكلِّ من يصحُّ توجيه الخطاب إليه فهو عام، يعني: (ولا تحسبنَّ أيُّها المخاطب)، هذا على الثاني؛ أو (ولا تحسبنَّ أيُّها النبي)، هذا على الأول؛ والحسبان هنا بمعنى الظَّن، يعني: (لا تظن أن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا)؛ وقوله: {قتلوا في سبيل الله}: يشمل من قتله العدو ومن قتل حرفة للعدو، كما لو ارتدَّ السَّهم على حامله فقتله فإنَّه يكون مقتولًا في سبيل الله. وقوله: {في سبيل الله} بيَّنها الرسول ﷺ بأنَّ المراد بذلك من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وذلك حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، وفي لفظ: يقاتل ليرى مكانه، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ كلمة جامعة مانعة قال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))؛ إذًا المراد بالذين قتلوا في سبيل الله؛ هم الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، لا شجاعة ولا حميَّة ولا رياءً؛ الشجاعة معناها أنَّ الإنسان تحمله شجاعته على أن يقاتل، لأنَّ الشجاع يحب القتال، كما أنَّ الصيَّاد يحب الصيد، وإن لم يجنِ إلَّا شيئًا قليلًا؛ الرجل الشجاع يحب أن يقاتل؛ فلو أنَّ رجلًا قاتل من أجل الشجاعة، حملته شجاعته على القتال فهذا ليس في سبيل الله؛ حميَّة وطنيَّة أو قوميَّة فليس في سبيل الله؛ فمن قاتل من أجل الدفاع عن الديار فقط فقتاله مساوي لقتال الكافر، حتى الكفار يقاتلون دفاعًا عن بلادهم، لكن من قاتل دفاعًا عن بلده من أجل أنَّه بلد إسلامي ليحمي الإسلام بهذا القتال فهو في سبيل الله؛ ولذلك يجب إذا وجَّهنا الجند للقتال دفاعًا عن الوطن أن نقول: لا حظوا أنَّكم تدافعون عن وطنكم باعتباره وطنًا إسلاميًّا لا مجرَّد وطنيَّة. والثالث قاتل رياءً فقط ليرى أنَّه رجل مقاتل في سبيل الله، هذا ليس في سبيل الله، حتى لو كانت هناك نيات أخرى؛ قاتل لمجرَّد طاعة أميره فقط فليس في سبيل الله؛ يعني الرسول ﷺ سئل عن ثلاثة؛ ولا أجاب عن كلِّ واحد بعينه، بل أجاب بكلمة جامعة مانعة لأجل أن تشمل حتى النيَّات الأخرى سوى هذه الثلاث، ربما تأتي

نيَّات أخرى غير هذه الثلاث، فتخرج بالحديث أو تدخل فيه؛ ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)). هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله من هم؟ هل هم أهل بدر أو أهل أحد؟ أو هو عام؟ هو عام، لكن أوَّل من يدخل فيه الشهداء في بدر وفي أحد لا شك.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتًا}: سبيل الله طريقه، ويطلق ويضاف أحيانًا إلى المؤمن قال الله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتَّبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولَّى} فهو يضاف إلى الله باعتبارين: باعتبار أنَّه واضعه، هو الذي شرع هذا الطريق؛ واعتبار أنَّه موصل إليه؛ ويضاف إلى المؤمنين باعتبار واحد، وهو أنَّهم هم الذين سلكوه.

{أمواتًا}: هذه مفعول ثان ل{تحسب}، لأنَّ حَسَبَ يَحسَبُ مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، بخلاف كسى وأعطى فإنَّها تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر؛ هنا قال: {أمواتًا بل أحياء} والمعروف أنَّه إذا قتل مات، فكيف ذلك؟ المراد: لا تحسبنَّ أنَّهم ماتوا وانتهوا؛ لا، هم ماتوا لكن انتقلوا إلى حياة أخرى أفضل ممَّا فارقوه؛ فيكون المعنى لا تحسب أنَّهم أمواتًا؛ يعني أنَّهم ماتوا وانتهوا، ليس الأمر كذلك بل هم أحياء؛ ماتوا ميتة الدنيا ولكن هم أحياء حياة أخرى تتميَّز عن الحياة الدنيا وهي خير وأفضل؛ وقوله: {عند ربهم}: {عند} هذه تفيد القرب من الله عز وجل؛ وهو كذلك، فإنَّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثمَّ تعرج إلى قناديل معلَّقة تحت العرش؛ فهذه عندية خاصة يمتاز فيها بالقرب من الله سبحانه وتعالى؛ فقوله: {بل أحياء}: أي (بل هم أحياء)، والمراد بذلك حياة أرواحهم؛ أمَّا أبدانهم فقد ماتوا لا شك؛ لكن أرواحهم حيَّة حياة برزخيَّة؛ ولهذا قال: {عند ربهم}، وليس الحياة المطلقة التي هي الحياة الدنيا، لأنَّها لو كانت الحياة الدنيا ما صاروا قتلوا في سبيل الله، لكانوا باقين، ولما صحَّ أن يدفنوا؛ وهم فارقوا الدنيا ودفنوا لكنَّهم أحياء عند الله عز وجل حياة لا تشبه حياة الدنيا.

قال الشنقيطي: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَلْ حَيَاتُهُمْ هَذِهِ فِي الْبَرْزَخِ يُدْرِكُ أَهْلُ الدُّنْيَا حَقِيقَتَهَا أَوْ لَا؟ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي [سُورَةِ الْبَقَرَةِ] أَنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَهَا بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}[٢ \ ١٥٤]؛ لِأَنَّ نَفْيَ الشُّعُورِ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْإِدْرَاكِ مِنْ بَابٍ أَوْلَى كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

قال ابن العثيمين: وقوله: {يرزقون}: أي يعطون، لأنَّ الرزق في اللغة العطاء، ومنه قوله تعالى: {وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم}، ارزقوهم: أعطوهم، يعني يعطون من رزق الله في الجنة حيث شاءوا؛ ولكن هذا العطاء عطاء ناقص بالنسبة للعطاء الأكمل الذي يكون بعد البعث؛ لأنَّ العطاء هنا قبل القيامة عطاء للبدن وعطاء للروح وكلاهما ناقص بالنسبة لما بعده؛ فهو عطاء للبدن لأنَّه في القبر يفسح له مدَّ البصر، ويفتح له باب إلى الجنة، ويأتيه من رَوحها ونعيمها؛ لكنَّه لا يتمتَّع التَّمتُّع الكامل؛ كذلك الأرواح لا تتمتَّع التَّمتُّع الكامل في وجودها في الجنة؛ يكون التَّمتَّع الكامل بعد البعث حين تلتقي الأرواح بالأجساد اللِّقاء الذي لا مفارقة بعده، لأنَّه إذا التقت الأرواح في البعث فلا مفارقة، تبقى أبد الآبدين وحينئذ يحصل كمال النعيم.

قال ابن كثير: عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ – يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ – عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، فَقَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((إِنَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ تَشَاءُ؛ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّك اطِّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ؟ – فَفَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِك مَرَّةً أُخْرَى فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا([1]))).

حديث آخر: عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((ما من نفس تموت، لها عند الله خير، يسرُّها أن ترجع إلى الدنيا إلَّا الشهيد فإنَّه يسرُّه أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة([2]))).

حديث آخر: عن جابر قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((أما علمت أنَّ الله أحيا أباك فقال له: تمنَّ علي، فقال له: أُرَدُّ إلى الدنيا، فأُقتَل مرة أخرى، فقال: إنِّي قضيت الحكم أنَّهم إليها لا يرجعون([3]))). وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أنَّ أبا جابر – وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه – قتل يوم أحد شهيدًا. قال البخاري: وقال أبو الوليد، عن شعبة عن ابن المنكدر قال: سمعت جابرًا قال: لمَّا قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني والنبي ﷺ لم ينه، وقال النبي ﷺ: ((لا تبكه – أو: ما تبكيه – ما زالت الملائكة تظلُّه بأجنحتها حتى رفع([4]))).

حديث آخر: عن جابر بن عبد الله قال: نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: ((يا جابر، ما لي أراك مهتمًّا؟)) قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك دَينًا وعيالًا. قال: فقال: ((ألا أخبرك؟ ما كلَّم الله أحدًا قط إلَّا من وراء حجاب، وإنَّه كلَّم أباك كفاحًا)) – قال علي: الكفاح: المواجهة – ((فقال: سلني أعطك. قال: أسألك أن أردَّ إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب عز وجل: إنَّه سبق منِّي القول أنَّهم إليها لا يرجعون. قال: أي رب: فأبلغ من ورائي. فأنزل الله عز وجل: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا} الآية([5]))).

قال القرطبي: وقد اختلف العلماء في غسل الشهداء والصلاة عليهم؛ فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري إلى غسل جميع الشهداء والصلاة عليهم؛ إلَّا قتيل المعترك في قتال العدو خاصة؛ لحديث جابر قال قال النبي ﷺ: ((أدفنوهم في

١– صحيح: مسلم في الإمارة (١٨٨٧).
٢– صحيح: مسلم (١٨٧٧).
٣– حسن: أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٦١).
– (قلت): وحسنه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٢٩٠).
٤– (قلت): البخاري (٤٠٨٠)، ومسلم (٢٤٧١).
٥– (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٩٠٥).
– وأنظر تفسير الآية (١٥٤) من سورة البقرة.

دمائهم)): يعني يوم أحد ولم يغسلهم([1])، رواه البخاري. وقال سعيد بن المسيب والحسن: يغسلون. قال أحدهما: إنَّما لم تغسل شهداء أحد لكثرتهم والشُّغل عن ذلك. قال أبو عمر: ولم يقل بقول سعيد والحسن هذا أحد من فقهاء الأمصار إلَّا عبيدالله بن الحسن العنبري، وليس ما ذكروا من الشُّغل عن غسل شهداء أحد علَّة؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان له وليٌّ يشتغل به ويقوم بأمره. والعلَّة في ذلك – والله أعلم – ما جاء في الحديث في دمائهم أنَّها تأتي يوم القيامة كريح المسك، فبان أنَّ العلَّة ليست الشُّغل كما قال من قال في ذلك، وليس لهذه المسألة مدخل في القياس والنظر، وإنَّما هي مسألة اتِّباع للأثر الذي نقله الكافة في قتلى أحد لم يغسلوا. وقد احتج بعض المتأخِّرين ممَّن ذهب مذهب الحسن بقوله ﷺ في شهداء أحد. ((أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة([2]))). قال: وهذا يدلُّ على خصوصهم وأنَّه لا يشركهم في ذلك غيرهم. قال أبو عمر: وهذا يشبه الشذوذ، والقول بترك غسلهم أَولى؛ لثبوت ذلك عن النبي ﷺ في قتلى أحد وغيرهم. وروى أبو داود عن جابر قال: رمي رجل بسهم في صدره أو في حلقه فمات فأدرج في ثيابه كما هو. قال: ونحن مع رسول الله ﷺ([3]).

وأمَّا الصلاة عليهم فاختلف العلماء في ذلك أيضًا؛ فذهب مالك والليث والشافعي وأحمد وداود إلى أنَّه لا يصلَّى عليهم؛ لحديث جابر قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثمَّ يقول: ((أيُّهما أكثر أخذًا للقرآن؟))، فإذا أشير له إلى أحدهما قدَّمه في اللَّحد وقال: ((أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة))، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يغسلوا ولم يصلِّ عليهم([4]). وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام: يصلَّى عليهم. ورووا آثارًا كبيرة أكثرها مراسيل أنَّ النبي ﷺ صلَّى على حمزة وعلى سائر شهداء أحد.

وأجمع العلماء على أنَّ الشهيد إذا حمل حيًّا ولم يمت في المعترك وعاش وأكل فإنَّه يصلَّى عليه؛ كما قد صنع بعمر رضي الله عنه.

واختلفوا فيمن قتل مظلومًا كقتيل الخوارج وقطَّاع الطريق وشبه ذلك؛ فقال أبو حنيفة والثوري: كلُّ من قتل مظلومًا لم يغسل، ولكنَّه يصلَّى عليه وعلى كلِّ شهيد؛ وهو قول سائر أهل العراق. وللشافعي قولان: أحدهما – يغسل كجميع الموتى إلَّا من قتله أهل الحرب؛ وهذا قول مالك. قال مالك: لا يغسل من قتله الكفار ومات في المعترك. وكان مقتول غير قتيل المعترك –

١– (قلت): البخاري (١٣٤٦).

٢– (قلت): البخاري (١٣٤٧)، وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٧٠٧)، وقال: أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله قال: ((كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول: أيهما أكثر أخذا للقرآن، فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه فى اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم فى دمائهم، ولم يغسلوا، ولم يصل عليهم)).

وأخرجه أبو داود (٣١٣٨ و ٣١٣٩)، والنسائى (١/٢٧٧ ـ ٢٧٨)، وابن ماجه (١٥١٤)، والبيهقي (٤/٣٤)، وكذا ابن الجارود (٢٧٠). ورواه أحمد (٣/٢٢٩) من طريق الزهرى عن ابن جابر عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال فى قتلى أحد: ((لا تغسلوهم، فإن كل جرح أو كل دم يفوح مسكا يوم القيامة))، ولم يصل عليهم.

قلت: وهذا سند صحيح على شرط الشيخين، وعبد ربه هو عبد ربه بن سعيد كما جاء فى الجزء الثالث من (الأمالي) للمحاملي رواية الأصفهانيين وهو ثقة مشهور كما قال فى (التعجيل).

٣– (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣١٣٣).

٤– (قلت): البخاري (١٣٤٣).

قتيل الكفار - فإنَّه يغسل ويصلَّى عليه. وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه. والقول الآخر للشافعي - لا يغسل قتيل البغاة. وقول مالك أصح؛ فإنَّ غسل الموتى قد ثبت بالإجماع ونقل الكافة. فواجب غسل كلُّ ميِّت إلَّا من أخرجه إجماع أو سنة ثابتة. وبالله التوفيق.

والعدو إذا صبَّح قومًا في منزلهم ولم يعلموا به فقتل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك، أو حكم سائر الموتى؛ وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة أعادها الله: أغار العدو - قصمه الله - صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس في أجرانهم على غفلة، فقتل وأسر، وكان من جملة من قتل والدي رحمه الله؛ فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجَّة فقال؛ غسِّله وصلِّ عليه، فإنَّ أباك لم يقتل في المعترك بين الصَّفَّين. ثمَّ سألت شيخنا ربيع بن عبدالرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبيّ فقال: إنَّ حكمه حكم القتلى في المعترك. ثمَّ سألت قاضي الجماعة أبا الحسن علي بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا: غسِّله وكفِّنه وصلِّ عليه؛ ففعلت. ثمَّ بعد ذلك وقفت على المسألة في (التبصرة) لأبي الحسن اللَّخمي وغيرها. ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسَّلته، وكنت دفنته بدمه في ثيابه.

وهذه الآية تدلُّ على عظيم ثواب القتل في سبيل الله والشهادة فيه حتى أنَّه يكفِّر الذنوب؛ كما قال ﷺ: ((القتل في سبيل الله يكفِّر كلَّ شيء إلَّا الدَّين كذلك قال لي جبريل عليه السلام آنفًا([1]))). قال علماؤنا ذكر الدَّين تنبيه على ما في معناه من الحقوق المتعلِّقة بالذِّمم، كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل العمد وجراحه وغير ذلك من التَّبعات، فإنَّ كلُّ هذا أَولى ألَّا يغفر بالجهاد من الدَّين فإنَّه أشدُّ، والقِصاص في هذا كلِّه بالحسنات والسيِّئات حسبما وردت به السنة الثابتة. روى عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يحشر الله العباد - أو قال الناس، شكَّ همام، وأومأ بيده إلى الشام - عراة غرلًا بهما. قلنا: ما بهم؟ قال: ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه من قرب ومن بعد أنا الملك أنا الدَّيَّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللَّطمة. قال قلنا: كيف وإنَّما نأتي الله حفاة عراة غرلًا. قال: بالحسنات والسيِّئات([2]))). أخرجه الحارث بن أبي أسامة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((أتدرون من المفلس؟)). قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: ((إنَّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياه فطرحت عليه ثمَّ طرح في النار([3]))). وقال ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو أنَّ رجلًا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه([4]))). وروى أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ((نفس

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٤٤٠)، ولكن بهذا اللفظ: ((القتل في سبيل الله يكفر كل خطيئة إلَّا الدَّين)).

٢- (قلت): قال الإمام الألباني في صحيح الترهيب والترغيب (٣٦٠٨): حسن لغيره. وحسنه في الأدب المفرد (٥٧٠/٩٧٠) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

٣- (قلت): مسلم (٢٥٨١).

٤- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٦٠٠).

المؤمن معلَّقة ما كان عليه دين([١]))». وقال أحمد بن زهير: سئل يحيى بن معين عن هذا الحديث فقال: هو صحيح. فإن قيل: فهذا يدلُّ على أنَّ بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل، ولا تكون أرواحهم في جوف طير كما ذكرتكم، ولا يكونون في قبورهم، فأين يكونون؟ قلنا: قد ورد عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بارق يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشيًّا([٢]))، فلعلهم هؤلاء. والله أعلم. ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية: وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنَّهم {يُرْزَقُونَ}.

والدَّين الذي يحبس به صاحبه عن الجنة – والله أعلم – هو الذي قد ترك له وفاء ولم يوص به. أو قدر على الأداء فلم يؤدِّه، أو أدانه في سرف أو في سفه ومات ولم يوفه. وأمَّا من أدان في حقٍّ واجب لفاقة وعسر ومات ولم يترك وفاء فإنَّ الله لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله؛ لأنَّ على السلطان فرضًا أن يؤدِّي عنه دينه، إمَّا من جملة الصدقات، أو من سهم الغارمين، أو من الفيء الراجع على المسلمين. قال ﷺ: ((من ترك دينًا أو ضياعًا فعلى الله ورسوله ومن ترك مالًا فلورثته([٣]))).

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٣ص٢٦٤: وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ تُعْلَمُ حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَأَنَّهَا أَكْمَلُ مِنْ حَيَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَأَتَمُّ وَأَطْيَبُ، وَإِنْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مُتَلَاشِيَةً، وَلُحُومُهُمْ مُتَمَزِّقَةً، وَأَوْصَالُهُمْ مُتَفَرِّقَةً، وَعِظَامُهُمْ نَخِرَةً، فَلَيْسَ الْعَمَلُ عَلَى الطَّلَلِ إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي السَّاكِنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}[البقرة: ١٥٤]، وَإِذَا كَانَ الشُّهَدَاءُ إِنَّمَا نَالُوا هَذِهِ الْحَيَاةَ بِمُتَابَعَةِ الرُّسُلِ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، فَمَا الظَّنُّ بِحَيَاةِ الرُّسُلِ فِي الْبَرْزَخِ؟ وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ ... وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خَيَالٌ سَارِي

فَلِلرُّسُلِ وَالشُّهَدَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ يَقْظَةٌ مِنْ نَوْمِ الدُّنْيَا أَكْمَلُهَا وَأَتَمُّهَا، وَعَلَى قَدْرِ حَيَاةِ الْعَبْدِ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَكُونُ شَوْقُهُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَسَعْيُهُ وَحِرْصُهُ عَلَى الظَّفَرِ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- فضيلة من قتل في سبيل الله؛ لكونهم أحياء عند الله عز وجل.

٢- التَّرغيب في الجهاد ليحصل الإنسان على الشهادة. ولكن هنا مسألة: هل يشرع للإنسان أن يجاهد ليقتل في سبيل الله؟ أو الذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا؟ الثاني؛ ولهذا ينبغي للإنسان إذا ذهب إلى الجهاد في سبيل الله أن ينوي أنه يقاتل

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في التعليقات الحسان (٣٠٥٠).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

٣- (قلت): البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم (١٦١٩)، وقال الإمام الألباني في المشكاة (٣٠٤١): متفق عليه بلفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ. وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ)). وَفِي رِوَايَة: ((من ترك دينا أو ضياعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ)). وَفِي رِوَايَةٍ: ((مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَيْنَا)).

لتكون كلمة الله هي العليا، لا مجرَّد أن يقتل في سبيل الله؛ لأنَّ كونه في سبيل الله مفرَّع على كونه يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ حتى إن بعض العلماء يقول: إذا قاتل من أجل أن يقتل فقط فهذا قاتل ليموت؛ ولكن القتال الحقيقي هو أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وهو إذا قتل فهو في سبيل الله؛ وبعض العلماء يقول لا بأس أن ينوي بالجهاد أن يقتل في سبيل الله، لأنه لن يتم له أن يقتل في سبيل الله إلَّا إذا قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ ولكن حتى لو قيل بهذا فإنَّ النيَّة الأولى والرتبة الأولى هي العليا، أن يخرج ليقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ثمَّ يتمنَّى الشهادة بناءً على هذا.

٣- أنَّه يصحُّ نفي الشيء باعتبار، لا نفيًا مطلقًا؛ لقوله: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا}، فإنَّ نفي كونهم أمواتًا هنا يراد به الموت الذي حصل فيه العدم بلا فائدة وبدون ثواب.

٤- فضيلة الشهداء بكونهم عند الله؛ لقوله تعالى: {بل أحياء عند ربهم}.

٥- إبطال حجَّة من قال: إنَّ الرسول ﷺ حيٌّ في قبره يرزق، وقال: إنَّ مقام النبوَّة أعلى من مقام الشهادة ولاشكَّ في هذا، لكن قولهم: إنَّه حي في قبره يرزق، إن أرادوا أنَّها حياة برزخية فهذا حقيقة؛ وإن أرادوا أنَّها حياة دنيوية فهذا كذب لاشكَّ؛ لأنَّه لو كانت حياة دنيوية ما غسل ولا كفن ولا صلِّي عليه ولا دفن، ولكان الصحابة رضي الله عنهم وَأَدُوا النبي ﷺ، دفنوه حيًّا؛ ولا يرد على هذا أنَّها تُرَدُّ عليه روحه فيردَّ السلام على من سلم عليه؛ لأنَّ ردُّ الروح في البدن في القبر ليس كردِّها في حياة الدنيا، بل هو ردٌّ خاص؛ ولذلك لا يحتاج الميِّت في قبره إلى طعام ولا شراب ولا هواء وإن ردَّت إليه روحه.

٦- أنَّ الشهداء يرزقون وهم أموات؛ لقوله: {بل أحياء عند ربهم يرزقون}؛ ولكن هذا الرزق هل يحتاج إلى ما يحتاج الناس في الدنيا؟ بمعنى أنه يحتاج إلى براز في القبل أو الدُّبر؟ لا؛ لأنَّ هذا رزق أخروي، والرزق الأخروي لا يحتاج إلى ذلك، حتى أهل الجنة باقون فيها أبد الآبدين ولا يحتاجون إلى هذا، وإنَّما يخرج الطعام والشراب بصفة عرق، ولكنَّه ليس كعرق الدنيا أيضًا، عرق منتن كريه الرائحة، بل هو أطيب من رائحة المسك فهذا معنى قوله: {عند ربهم يرزقون}.

٧- أنَّه إذا ثبت هذا للشهداء فإنَّه يثبت للأنبياء من باب أَولى؛ فالأنبياء أحياء؛ ويمتاز الأنبياء عن الشهداء بأنَّ الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجسادهم بخلاف الشهداء؛ فإنَّ الأرض تأكلهم ولكن قد لا تأكل بعضهم إكرامًا لهم، وإلَّا فالأصل أنَّهم كغيره تأكلهم الأرض.

٨- إثبات العنديَّة لله عز وجل، أي أن يكون أحد من الخلق عند الله؛ لقوله: {بل أحياء عند ربهم}، وهذه عنديَّة خاصة كقوله تعالى: {إنَّ الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبِّحونه وله يسجدون}.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {١٧٠}

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ الشُّرَيْحِيُّ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الثَّعْلَبِيُّ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَامِدٍ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بن شاذان أنا جسعويه أَنَا صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال لأصحابه: ((إنّه لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ جعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهار الجنة تأكل مِنْ ثِمَارِهَا وَتَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا لهيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم وَرَأَوْا مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ، قَالُوا: يَا لَيْتَ قَوْمَنَا يَعْلَمُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ من النّعيم وما يصنع اللَّهُ بِنَا كَيْ يَرْغَبُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَتَّكِلُوا عَنْهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا مُخْبِرٌ عَنْكُمْ وَمُبَلِّغٌ إِخْوَانَكُمْ فَفَرِحُوا بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً} إِلَى قَوْلِهِ: {لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}([١]))).

قال ابن العثيمين: {فرحين بما آتاهم الله من فضله}: الفرح ضد الحزن، وهو قريب من معنى السرور؛ المعنى أنَّهم مسرورون بما آتاهم الله من فضله؛ أي بالذي أعطاهم من فضله؛ ولم يبيِّنه سبحانه وتعالى بل أتى مجملًا لأنَّه ذكر مفصَّلًا في آيات أخرى بعد دخول الجنة يوم القيمة، وأمَّا هنا فهو إجمال؛ {بما آتاهم الله من فضله}، {آتاهم}: بمعنى (أعطاهم)؛ وأمَّا (أَتاهم): فبمعنى (جاءهم)؛ يقول: {آتاهم الله من فضله}: الفضل في اللغة الزيادة؛ والمراد بالفضل هنا ما تفضَّل الله به عليهم من النَّعيم الذي لم يكن يخطر على بالهم.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج٣ص١٠٩: وَالْفَرَحُ لَذَّةٌ تَقَعُ فِي الْقَلْبِ بِإِدْرَاكِ الْمَحْبُوبِ وَنَيْلِ الْمُشْتَهَى. فَيَتَوَلَّدُ مِنْ إِدْرَاكِهِ حَالَةٌ تُسَمَّى الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ. كَمَا أَنَّ الْحُزْنَ وَالْغَمَّ مِنْ فَقْدِ الْمَحْبُوبِ. فَإِذَا فَقَدَهُ: تَوَلَّدَ مِنْ فَقْدِهِ حَالَةٌ تُسَمَّى الْحُزْنَ وَالْغَمَّ. وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْأَمْرَ بِالْفَرَحِ بِفَضْلِهِ وَبِرَحْمَتِهِ عَقِيبَ قَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[يونس: ٥٧].

١– حديث حسن. تفرد المصنف بهذا الإسناد.

سليمان بن عمرو، لم ينسبه المصنف، وأخشى أن يكون النخعي وهو أبو داود، فإنه وحده من هذه الطبقة وهو متروك كذاب، وقد توبع ومن دونه، والإسناد غريب بكل حال لأن فيه ذكر عطاء، وقد رواه الأئمة عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ، عَنْ أبي الزبير، عن سعيد بن جبير.

وأخرجه أبو داود ٢٥٢٠ والحاكم ٢/ ٨٨ وأبو يعلى ٢٣٣١ وأحمد ١/ ٢٦٦ والبيهقي ٩/ ١٦٣ والواحدي في أسباب النزول (٢٦١)، عن عبد الله بن إدريس، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ إسماعيل بن أمية، عن أبي الزبير، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عباس به. وصرّح ابن إسحاق بالتحديث في رواية أحمد، وحديثه حسن.

– وأخرجه أحمد ١/ ٢٦٥– ٢٦٦ والطبري ٨٢٠٥ عن أبي الزبير، عن ابن عباس وإسناده منقطع أبو الزبير لم يسمع من ابن عباس كما في مراسيل ابن أبي حاتم ص ١٩٣، لكن الحجة في الرواية المتقدمة، ويشهد له حديث ابن مسعود المتقدم، والله أعلم.

وَلَا شَيْءَ أَحَقُّ أَنْ يَفْرَحَ الْعَبْدُ بِهِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، الَّتِي تَتَضَمَّنُ الْمَوْعِظَةَ وَشِفَاءَ الصُّدُورِ مِنْ أَدْوَائِهَا بِالْهُدَى وَالرَّحْمَةِ.

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ: أَنَّ مَا آتَى عِبَادَهُ مِنَ الْمَوْعِظَةِ – الَّتِي هِيَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، الْمَقْرُونُ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَشِفَاءَ الصُّدُورِ الْمُتَضَمِّنَ لِعَافِيَتِهَا مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ، وَالظُّلْمَةِ، وَالْغَيِّ، وَالسَّفَهِ – وَهُوَ أَشَدُّ أَلَمًا لَهَا مِنْ أَدْوَاءِ الْبَدَنِ، وَلَكِنَّهَا لَمَّا أَلِفَتْ هَذِهِ الْأَدْوَاءَ لَمْ تُحِسَّ بِأَلَمِهَا. وَإِنَّمَا يَقْوَى إِحْسَاسُهَا بِهَا عِنْدَ الْمُفَارَقَةِ لِلدُّنْيَا. فَهُنَاكَ يَحْضُرُهَا كُلُّ مُؤْلِمٍ مُحْزِنٍ. وَمَا آتَاهَا مِنْ رَبِّهَا الْهُدَى الَّذِي يَتَضَمَّنُ ثَلَجَ الصُّدُورِ بِالْيَقِينِ، وَطُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ بِهِ، وَسُكُونَ النَّفْسِ إِلَيْهِ، وَحَيَاةَ الرُّوحِ بِهِ. وَالرَّحْمَةَ الَّتِي تَجْلِبُ لَهَا كُلَّ خَيْرٍ وَلَذَّةٍ. وَتَدْفَعُ عَنْهَا كُلَّ شَرٍّ وَمُؤْلِمٍ.

فَذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا. أَيْ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُفْرَحَ بِهِ. وَمَنْ فَرِحَ بِهِ فَقَدْ فَرِحَ بِأَجَلِّ مَفْرُوحٍ بِهِ. لَا مَا يَجْمَعُ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْهَا. فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَوْضِعٍ لِلْفَرَحِ. لِأَنَّهُ عُرْضَةٌ لِلْآفَاتِ. وَوَشِيكُ الزَّوَالِ، وَوَخِيمُ الْعَاقِبَةِ، وَهُوَ طَيْفُ خَيَالٍ زَارَ الصَّبَّ فِي الْمَنَامِ. ثُمَّ انْقَضَى الْمَنَامُ. وَوَلَّى الطَّيْفُ. وَأَعْقَبَ مَزَارَهُ الْهِجْرَانَ.

وَقَدْ جَاءَ الْفَرَحُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى نَوْعَيْنِ. مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ.

فَالْمُطْلَقُ: جَاءَ فِي الذَّمِّ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}[القصص: ٧٦]. وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ}[هود: ١٠].

وَالْمُقَيَّدُ: نَوْعَانِ أَيْضًا. مُقَيَّدٌ بِالدُّنْيَا. يُنْسِي صَاحِبَهُ فَضْلَ اللَّهِ وَمِنَّتَهُ. فَهُوَ مَذْمُومٌ. كَقَوْلِهِ: {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}[الأنعام: ٤٤].

وَالثَّانِي: مُقَيَّدٌ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ. وَهُوَ نَوْعَانِ أَيْضًا. فَضْلٌ وَرَحْمَةٌ بِالسَّبَبِ. وَفَضْلٌ بِالْمُسَبَّبِ، فَالْأَوَّلُ: كَقَوْلِهِ: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}[يونس: ٥٨]. وَالثَّانِي: كَقَوْلِهِ: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}[آل عمران: ١٧٠].

فَالْفَرَحُ بِاللَّهِ، وَبِرَسُولِهِ، وَبِالْإِيمَانِ، وَبِالسُّنَّةِ، وَبِالْعِلْمِ، وَبِالْقُرْآنِ: مِنْ أَعْلَى مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[التوبة: ١٢٤].

وَقَالَ: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ}[الرعد: ٣٦].

فَالْفَرَحُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ: دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِهِ عِنْدَ صَاحِبِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَإِيثَارِهِ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّ فَرَحَ الْعَبْدِ بِالشَّيْءِ عِنْدَ حُصُولِهِ لَهُ: عَلَى قَدْرِ مَحَبَّتِهِ لَهُ، وَرَغْبَتِهِ فِيهِ. فَمَنْ لَيْسَ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّيْءِ لَا يُفْرِحُهُ حُصُولُهُ لَهُ، وَلَا يُحْزِنُهُ فَوَاتُهُ. فَالْفَرَحُ تَابِعٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالرَّغْبَةِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الِاسْتِبْشَارِ: أَنَّ الْفَرَحَ بِالْمَحْبُوبِ بَعْدَ حُصُولِهِ، وَالِاسْتِبْشَارُ يَكُونُ بِهِ قَبْلَ حُصُولِهِ إِذَا كَانَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حُصُولِهِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ}[آل عمران: ١٧٠].

قال السعدي: أي: مغتبطين بذلك، قد قرَّت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللَّذَّة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتمَّ لهم النعيم والسرور، وجعلوا {يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم}، أي: يبشِّر بعضهم بعضًا، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنَّهم سينالون ما نالوا.

قال ابن العثيمين: {ويستبشرون بالذين لم يحلقوا بهم}: الواو هنا حرف عطف؛ وهل هي معطوفة على: {فرحين} من باب عطف الفعل على الاسم؟ أو معطوفة على: {يرزقون}؟ نقول: يحتمل هذا وهذا، ولكنَّ المعنى لا يختلف كثيرًا؛ قوله: {يستبشرون}: أي يبشر بعضهم بعضًا بما سيذكر؛ فمعنى استبشر أي بشَّر غيره، أو استبشر دخلت عليه البشرى بفعل غيره.

{بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم}: يعني بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، ولم يقتلوا حتى الآن في سبيل الله.

{ألَّا خوف} هذه: {أن} مصدرية لكنَّها أدغمت بلا {ألَّا خوف} والقاعدة الأخيرة في الكتابة أن تكتب {أن}؛ لكنَّ القاعدة القديمة أن لا تكتب، وهنا لم تكتب {ألَّا خوف} لكن أصل الكلمة {أن لا}؛ {أن} هنا يقولون إنَّها بدل من قوله: {الذين لم يلحقوا بهم}، وكأنَّه قال: (يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بأن لا خوف عليهم)؛ ونوع البدل هنا بدل اشتمال، لأنَّ الخوف ليس بعض الإنسان؛ بدل اشتمال يعني: (يستبشرون بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)؛ {ألَّا خوف عليهم}: فيما يستقبل من أمرهم، {ولا هم يحزنون}: على ما مضى من أمرهم؛ لأنَّ الأصل أنَّ الخوف للمستقبل، والحزن للماضي.

{يستبشرون بنعمة من الله وفضل}: الجملة استئنافية تبيِّن استبشارًا سببه غير السبب الأول؛ الأول: سببه أنَّهم ينتظرون إخوانًا لهم لم يلحقوا بهم؛ والسبب الثاني للاستبشار: ما أنعم الله عليهم من النعمة والفضل؛ وهنا قال: {يستبشرون}، وقبل بقليل يقول: {فرحين بما آتاهم الله}، ولا منافاة بينهما؛ فهم فرحين بما حصل، ويستبشرون بالذي سيحصل؛ فهم فرحين بما آتاهم الله مغتبطين به مسرورين به.

قال ابن كثير: وقال سعيد بن جبير: لمَّا دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا للقتال باشروها بأنفسهم، حتى ويستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم – أي ربهم – أنِّي قد أنزلت على نبيِّكم وأخبرته بأمركم، وما أنتم فيه، فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: {ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم} الآية.

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس، رضي الله عنه، في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار، الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله ﷺ على الذين قتلوهم، يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس: ((ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع: {أن بلغوا عنَّا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضي عنَّا وأرضانا}(١))).

١- صحيح البخاري برقم (٢٨٠١، ٤٠٩٥)، وصحيح مسلم برقم (٦٧٧).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ هؤلاء الشهداء لهم شعور يفرحون؛ لأنَّ الفرح من الشعور النفسي. وهل يحزنون؟ ذكر في بعض الآثار أنَّ الميت تعرض عليه أعمال أقاربه، فإذا كانت سيئة حزن، وإن كانت حسنة فرح، لكنَّها آثار يشكُّ الإنسان في صحَّتها.

٢- قوله: {فرحين بما آتاهم الله من فضله}؛ أنَّ هذا الثواب الذي يناله هؤلاء الشهداء ثواب عظيم؛ وجه الدِّلالة: أنَّه من عند إله عظيم ذي إفضال؛ والثواب يعظم بعظم المثيب، لاسيما وهو قد قال: {من فضله}.

٣- أنَّ الفضل لله على عباده في الدنيا وفي الآخرة؛ لقوله: {بما آتاهم الله من فضله}؛ فكما أنَّ لله فضلًا في الدنيا له فضل في الآخرة؛ فمن أمثلة فضله في الدنيا قوله تعالى: {ولو أنَّهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنَّا إلى الله راغبون}، فهذا فضل دنيوي.

٤- أنَّ هؤلاء الشهداء يستبشرون، أي يبشِّر بعضهم بعضًا بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أي من بعدهم، يعني يستبشرون بأنَّه سيلحقهم أناس شهداء يكونون في منازلهم.

٥- أنَّ هؤلاء الشهداء ليس عليهم خوف ولا حزن، لا خوف يتعلَّق بالمستقبل، ولا حزن يتعلَّق بالماضي؛ أمَّا كونهم لا خوف عليهم في المستقبل فلأنَّهم قد أحلَّهم الله الجنات، والجنة من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويصحُّ فلا يسقم، ويحيى فلا يموت، وفيها من النَّعيم ما لا عين رأت وأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ وأهل الجنة في الآخرة هم أهل الجنة في الدنيا؛ ولهذا لا تجد أحدًا أنعم بالًا وأسرُّ حالًا من المؤمن، إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن أذنب استغفر، ودائمًا مع الله عز وجل في حكمه الكوني وفي حكمه الشرعي، راضٍ بقضاء الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمره كلَّه خير، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلَّا للمؤمن([١]))).

وقد ذكر بعض العلماء أنَّ قوله تعالى: {لا يذوقون فيها الموت إلَّا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم}، مع أنَّ الموتة الأولى قد خلصت، لأنَّ نعيم أهل الجنة مستمر من الحياة الدنيا إلى دخول الجنة؛ وأمَّا كونهم لا يحزنون على ما مضى أعني الشهداء، فلأنَّهم استكملوا عملًا من أفضل الأعمال، وهو الجهاد في سبيل الله الذي أدَّى إلى الشهادة فلا يحزن؛ من خرج من الدنيا شهيدًا فقد خرج أكمل خروج في الطبقة الثالثة من طبقات الذين أنعم الله عليهم.

١- (قلت): مسلم (٢٩٩٩)، وصححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٣٩٨٠)، والحديث بتمامه: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)).

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ {١٧١}

قال ابن العثيمين: {يَسْتَبْشِرُونَ}: أي ومع ذلك يستبشرون بفضل زائد؛ ولهذا قال: {بنعمة من الله وفضل}؛ ومن ذلك أنَّهم يؤمِّلون النظر إلى وجه الله، وأنَّهم بشِّروا بأنَّ حالهم خلود ولا موت، ويستبشرون أيضًا بما وعدهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا، وما زالوا، يذكرونه لأنَّ في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

{وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين} فيها قراءتان: {وأنَّ الله} بالفتح؛ {وإنَّ الله} بالكسر؛ فعلى قراءة الفتح تكون معطوفة على: {نعمة}، أي: (وبأنَّ الله)؛ وعلى قراءة الكسر تكون استئنافية من الله عز وجل لا من كلامهم، يعني يستبشرون بنعمة الله وفضل، والله تعالى قد جازاهم على عملهم، {وإنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين}: أي لا يتركه هملًا وسدىً بل لابدَّ أن يثيبهم عليه؛ والجملة مؤكِّدة ب{إن} فقط؛ {وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين}.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ أنا زاهر بْنُ أَحْمَدَ الْخَلَّالُ أَنْبَأَنَا أَبُو إِسْحَاقُ الْهَاشِمِيُّ أَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مَنْ بَيْتِهِ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ، أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أو يرجعه إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أو غنيمة([١]))).

وَقَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثغب دَمًا اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ([٢]))).

أَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي أَنَا أَبُو طَاهِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمِشٍ الزِّيَادِيُّ أَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْقَطَّانُ أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ الدَّارَابَجِرْدِيُّ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يزيد المقري أَنَا سَعِيدٌ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَجْلَانَ عَنِ الْقَعْقَاعِ

١- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أبو الزناد هو عبد الله بن ذكوان، والأعرج هو عبد الرحمن بن هرمز.

- وهو في الموطأ (٢/ ٤٤٣- ٤٤٤) عن أبي الزناد بهذا الإسناد. ومن طريق مالك أخرجه البخاري ٣١٢٣ و٧٤٥٧ و٧٤٦٣ والنسائي ٦/ ١٦ وابن حبان ٤٦١٠.

وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٣١١ و٢٣١٢) عن أبي الزناد به وأخرجه مسلم ١٨٧٦ والبيهقي ٩/ ١٥٧ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحزامي، عن أبي الزناد به.

- وأخرجه البخاري ٢٧٨٧ من طريق الزُّهْرِيِّ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أبي هريرة.

- وأخرجه النسائي ٨/ ١١٩ من طريق عطاء بن ميناء بن أبي هريرة.

- وأخرجه أحمد ٢/ ٣٩٩ و٤٢٤ والبيهقي ٩/ ٣٩ من طريق سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أبيه، عن أبي هريرة.

٢- صحيح. أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٤٦١) ومن طريق مالك أخرجه البخاري ٢٨٠٣ والبيهقي ٤/ ١١ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ، عن أبي هريرة مرفوعًا.

وأخرجه مسلم ١٨٧٦ والنسائي ٦/ ٢٨- ٢٩ وأحمد ٢/ ٢٤٢ والبيهقي ٩/ ١٦٤ من طرق عن سفيان عن أبي الزناد به.

وأخرجه مسلم ١٨٧٦ والبيهقي ٩/ ١٦٥ من طريق عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَبِي هريرة.

وأخرجه أحمد ٢/ ٢٣١ عن محمد بن فُضَيْلٍ، عَنْ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي زرعة، عن أبي هريرة.

- وأخرجه الترمذي ١٦٥٦ من طريق سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أبيه، عن أبي هريرة.

بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الشَّهِيدُ لَا يَجِدُ أَلَمَ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ أَلَمَ الْقَرْصَةِ(١))).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- استبشار الشهداء مرةً ثانية بما أنعم الله عليهم من الفضل؛ لأنَّ الاستبشار الأوَّل: فيما يكون لإخوانهم؛ والثاني: فيما أنعم الله عليهم؛ فهم لهم استبشارات متعدِّدة حسب ما يجدون من نعيم.

٢- إسناد النعمة إلى مسديها وهو الله، لا يرون لأنفسهم فضلًا، بل يرون الفضل والمنَّة لله عليهم؛ ولهذا قال: {بنعمة من الله وفضل}.

٣- عظم النِّعمة التي يعطونها؛ وجهه: أنَّ الله أضافها إليه؛ وإضافة العطاء إلى الله يدلُّ على عظمته.

٤- كلُّ مؤمن فلن يضيع الله أجره؛ لقوله: {وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين}، أو على القراءة الثانية: {وإنَّ الله}، فالله عز وجل لا يضيع أجر المؤمنين، كلَّ إنسان يعمل وهو مؤمن فإنَّ أجره لن يضيع.

٥- إثبات عدل الله عز وجل؛ وذلك بعدم إضاعته أجر المؤمنين؛ والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٦- فضيلة الإيمان، وأنَّه سبب للحصول على الثواب والأجر.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ {١٧٢}

قال ابن كثير: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح}: هذا كان يوم (حمراء الأسد)، وذلك أنَّ المشركين لمَّا أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلمَّا استمروا في سيرهم تندَّموا لم لا تَمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة. فلمَّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذِّهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أنَّ بهم قوَّة وجَلَدًا، ولم

١- حسن غريب. إسناده حسن لأجل محمد بن عجلان، فإنه صدوق في حفظه شيء من الضعف، وباقي الإسناد ثقات، سعيد هو ابن أبي أيوب واسمه مقلاص، أبو صالح اسمه ذكوان، مشهور بكنيته.

- وهو في شرح السنة (٢٦٢٤) بهذا الإسناد.

وأخرجه الترمذي ١٦٦٨ وابن ماجه ٢٨٠٢ وأحمد ٢/ ٢٩٧ والدارمي ٢/ ٢٠٥ وابن حبان ٤٦٥٥ من طرق عن صفوان بن عيسى، عن محمد بن عجلان بهذا الإسناد، واستغربه المصنف في شرح السنة وكذا الترمذي فقال: حسن صحيح غريب اهـ.

وأخرجه النسائي ٦/ ٣٦ وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٤) من طريقين عن ابن عجلان به. وحسن إسناده الشيخ شعيب في الإحسان وذكره الألباني في الصحيحة (٩٦٠)، وهو من جهة الإسناد حسن، لكن المتن فيه غرابة، إذ هناك من الشهداء من يجد ألم الجراحة، والله أعلم، فالمتن غريب.

يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ.

وقال البخاري: عن عائشة رضي الله عنها: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجر عظيم} قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، رضي الله عنهما، لمَّا أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: ((من يرجع في إثرهم؟))، فانتدب منهم سبعون رجلًا فيهم أبو بكر والزبير، رضي الله عنهما([1]).

قال ابن العثيمين: استجابوا: بمعنى أجابوا وانقادوا لله والرسول حينما دعاهم النبي ﷺ إلى الغزوة مرة أخرى بعد أحد، لمَّا قيل له إنَّ المشركين أرادوا الكرَّة على المسلمين، لما علموا بالجراح الذي أصاب المسلمين والوهن والضعف، وقفوا في حمراء الأسد وقالوا: لماذا لا نرجع ونقضي على محمد وأصحابه؟ الآن هم في أقرب ما يكون للقضاء عليهم؛ فأمرهم النبي ﷺ أن يستعدُّوا للقتال فاستجابوا لله والرسول مع ما أصابهم من الجراح والتَّعب النفسي والتَّعب البدني، لأنَّه استشهد منهم سبعون من ألفين لاشكَّ أنَّهم عدد كبير؛ فهم أصيبوا بالقرح البدني والنفسي، والنبي ﷺ أيضًا جرح وكسرت رباعيته، وحصل ما حصل من الأمور التي لا نشعر بها الآن ونحن نصوِّرها بأفكارنا، لكن لو كنَّا نشاهدها عين اليقين لكان الأمر فضيعًا جدًّا؛ هؤلاء الذين أصابهم القرح وفي قراءة: {القُرح} هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول قال: {للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجر عظيم} الذين أحسنوا منهم بالإتِّباع، واتَّقوا بترك المخالفة: {لهم أجر عظيم} يعني كثير واسع، أجر عظيم كثير واسع.

قال أبو زهرة: اختصَّ سبحانه وتعالى من أولئك الذين جاهدوا ولم يستشهدوا بعد بأنَّ لهم أجرًا عظيمًا، وهنا يلاحظ ثلاثة أمور: (أوَّلها): أنَّ الله لم يذكر الأجر لهم جميعًا، لأنَّهم كانوا أحياء، والحيّ قد يغيِّر ويبدِّل، فكان لابدَّ من التَّقييد بالإحسان والتَّقوى، أي يستمر على ما هو عليه.

(ثانيها): أنَّ الإحسان هنا غير التَّقوى، إذ الإحسان هو إجادة الخطَّة، واتِّباع المنهج المستقيم في القتال، وذلك لابدَّ منه في الانتصار، والطاعة المطلقة للقائد من إحكام الخطَّة.

(ثالثها): أنَّ التَّقوى – وهي وقاية النفس من الغرض والهوى والاتِّجاه إلى الله وإخلاص وقلب سليم خال من الشوائب – أساس الأجر العظيم، والله سبحانه وتعالى بكلِّ شيءٍ عليم.

١- (قلت): البخاري (٤٠٧٧).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان فضيلة الصحابة رضي الله عنهم؛ وأنَّهم بما معهم من الأعمال نالوا خيرية هذه الأمَّة لأنَّهم استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح؛ وقد بيَّنَّا في التفسير أنَّ أهل مكة المشركين لمَّا انصرفوا من أحد ندموا على ما حصل، وقالوا: لماذا لا نرجع ونقضي على محمد ونسبي ذراريهم، ثمَّ تركوا ذلك، عدلوا وقالوا: في العام القادم.

٢- أنَّ أمر الرسول ﷺ أمر لله؛ لقوله: {الذين استجابوا لله والرسول}، ومعلوم أنَّه لم ينزل الوحي بأمرهم في الخروج إلى المشركين وإنَّما الذي أمرهم الرسول ﷺ.

٣- أنَّ المصائب مَحَكٌّ لمعرفة الرجال؛ وذلك أنَّ هذه المصيبة التي حصلت في أحد كانت محكًّا للصحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّه لولا فضلهم وميزتهم على الخلق ما خرجوا بعد أن أصابهم القرح.

٤- أنَّ ما عملوه فهو من الإحسان؛ لقوله: {للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجر عظيم}، ولم يقل: (لهم أجر)؛ بل قال: {للذين أحسنوا منهم}، ويحتمل أن يكون هذا القيد قيدًا تخصيصًا، يعني الذين استجابوا لله والرسول منهم من أحسن واتَّقى، ومنهم من حصل منهم بعض الخلاف، مثل الرُّماة الذين جعلهم النبي ﷺ على الجبل، فإنَّهم عفا الله عنهم لم يحصل منهم إحسان كما ينبغي ولا تقوى.

٥- فضيلة الإحسان والتَّقوى؛ لقوله: {لهم أجر عظيم}، وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى شيئًا من أجر الإحسان والتَّقوى فقال: {إنَّ الله مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون}.

٦- أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ لأنَّه لاشكَّ أنَّ التَّقوى والإحسان من أعظم عمل العبد فكان ثوابها عظيمًا.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {١٧٣}

قال أبو زهرة: الكلام متَّصل بالكلام في أعقاب أحد، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابتهم الجراح، ولم تمنعهم هذه الجراح من أن يجيبوا داعي الله، ويستعدُّوا، ويتقدَّموا؛ ويتغلَّبوا على روح التردُّد والهزيمة التي كان يبثُّها المنافقون، وترشح لها الجراح، وإنَّ أبا سفيان قد همَّ أن يرجع إلى المدينة، فخرجوا للقائه، ولكن ثبَّطه الله، فعادوا، ولقد كان أولئك الذين استجابوا لداعي الجهاد، وهم في تلك الحال، لهم موقف آخر جليل ذو شأن في الجهاد،

وأثر في الإسلام، ولقد ذكر الله ذلك الموقف بقوله تعالت كلماته: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا}.

قال ابن العثيمين: {الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم}: هذه أيضًا بدل ممَّا سبق، أو عطف بيان، أو صفة وهي الأقرب، وذلك لأنَّ البدل لا يراد به البدل والمبدَّل منه؛ وإنَّما يراد به البدل الثاني، بخلاف النَّعت فإنَّه يراد به المنعوت والنَّعت؛ ولهذا نقول: إنَّ البدل هنا ضعيف لأنَّه لو كان المراد البدل لسقط الوصف السابق، كما قال ابن مالك في الألفية: التابع المقصود بالحكم بلا ... واسطة هو المسمَّى بدلا

{الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم} القائل رجل[١] جاء إلى النبي ﷺ وقال له: إنَّ أبا سفيان قد جمع لك يريد الكرَّة عليك، فاخشوهم: احذروهم، اتَّقوهم وما أشبه ذلك؛ فماذا قالوا؟ {فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}، سبحان الله المؤمن عند المصائب يزداد إيمانًا؛ لمَّا أحاط الأحزاب بالمدينة قال المؤمنون: {هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله}، فازدادوا إيمانًا؛ هنا أيضًا لمَّا قيل لهم إنَّ الناس قد جمعوا لكم زادهم إيمانًا، أي إيمانًا بالله واعتمادًا عليه وتوكُّلًا عليه وقالوا: {حسبنا الله ونعم الوكيل}: {حسبنا} يعني كافينا الله جل جلاله؛ وهذه الجملة: {حسبنا الله} فيها مبتدأ وخبر، لكنَّ الخبر فيها مقدَّم، والتقدير: (الله حسبنا)؛ ويجوز أن يكون {حسبنا} مبتدأ، و{الله} خبر، لكن المعروف أنَّ المحكوم عليه هو المبتدأ، والمحكوم به هو الخبر؛ وعلى هذا فيكون {حسبنا} خبر مقدَّم، و{الله} مبتدأ مؤخَّر؛ {حسبنا الله}: أي كافينا، ولو جمع لنا الناس فإنَّنا لا نخشاهم وإنَّما نخشى الله عز وجل وهو كافينا.

{ونعم الوكيل}: {نعم} فعل إنشاء يقصد به المدح؛ وفاعله لابدَّ أن يكون محلًّى بأل أو مضافًا لما حلي بأل؛ {ولنعم دار المتَّقين}، هذه مضافة لمحل بأل؛ وهنا {نعم الوكيل}، الفاعل فيها محلًّى بأل؛ وتحتاج إلى فاعل وإلى مخصوص؛ والغالب أنَّ المخصوص يكون محذوفًا، والتقدير في هذه الآية: (ونعم الوكيل هو). ليس المراد بالوكيل هنا المتوكَّل عن غيره؛ ولكن المراد المدافع عن غيره؛ لأنَّ الله عز وجل لا يتوكَّل عن أحد بل بيده الأمر كلُّه؛ فيكون المراد بالوكيل هنا المدافع.

قال السعدي: {وقالوا حسبنا الله}: أي كافينا كل ما أهمَّنا، {ونعم الوكيل}: المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم.

قال ابن كثير: قال البخاري: عن ابن عباس: {حسبنا الله ونعم الوكيل}، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا: {إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}[٢].

١- (قلت): قال الشنقيطي: قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْمُرَادُ بِالنَّاسِ الْقَائِلِينَ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ أَوْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ خُزَاعَةَ كَمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ وَيَدُلُّ لِهَذَا تَوْحِيدُ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ} الْآيَةَ [٣ \ ١٧٥].
قَالَ صَاحِبُ الْإِتْقَانِ، قَالَ الْفَارِسِيُّ: وَمِمَّا يُقَوِّي أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَاحِدٌ قَوْلُهُ: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ}، فَوَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: {ذَلِكُمْ} إِلَى وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ، وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى جَمْعًا لَقَالَ: (إِنَّمَا أُولَئِكُمُ الشَّيْطَانُ). فَهَذِهِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي اللَّفْظِ.

٢- صحيح البخاري برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٠٨١)، والمستدرك (٢/٢٩٨)، وأقره الذهبي مع أن البخاري قد روى هذا الحديث من هذا الوجه.

عن ابن عباس في قوله: {فإذا نقر في النَّاقور}[المدثر: ٨]، قال: قال رسول الله ﷺ: ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، يسمع متى يؤمر فينفخ)). فقال أصحاب محمد ﷺ: فما نقول؟ قال: ((قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكّلنا([1]))).

قال شيخ الإسلام في جامع الرسائل ج١ص٨٩: التَّوَكُّل عِنْد الْجُمْهُور يجلب الْمَنْفَعَة وَيدْفع الْمضرَّة وَهُوَ سَبَب عِنْد الْأَكْثَرين. وَالْمَقْصُود هُنَا الْكَلَام على التَّوَكُّل، فَإِن الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُور أَن المتوَكّل يحصل لَهُ بتوكُّله من جلب الْمَنْفَعَة وَدفع الْمضرَّة مَا لَا يحصل لغيره، وَكَذَلِكَ الدَّاعِي وَالْقُرْآن يدلُّ على ذَلِك فِي مَوَاضِع كَثِيرَة، ثمَّ هُوَ سَبَب عِنْد الْأَكْثَرين، وعلامة عِنْد من يَنْفِي الْأَسْبَاب، قَالَ تَعَالَى: {وَمن يتَّق الله يَجْعَل لَهُ مخرجًا وَيَرْزقهُ من حَيْثُ لَا يحْتَسب * وَمن يتوكَّل على الله فَهُوَ حَسبه إِنَّ الله بَالغ أمره قد جعل الله لكلِّ شَيْءٍ قدرًا}[سُورَة الطَّلَاق ٢ – ٣]، والحسب: الْكَافِي، فَبيَّن أَنَّه كَاف من توكَّل عَلَيْهِ، وَفِي الدُّعَاء: (يَا حسب المتوَكّل)، فَلَا يُقَال: (هُوَ حسب غير المتوَكّل كَمَا هُوَ حسب المتوَكّل)، لِأَنَّهُ علَّق هَذِه الْجُمْلَة على الأولى تَعْلِيق الْجَزَاء على الشَّرْط، فَيمْتَنع فِي مثل ذَلِك أَن يكون وجود الشَّرْط كَعَدَمِهِ، وَلِأَنَّهُ رتَّب الحكم على الْوَصْف الْمُنَاسب لَهُ، توكُّل الْمُؤمن على الله هُوَ سَبَب كَونه حسبًا لَهُ، فَعلم أَنَّ توكُّلَه هُوَ سَبَب كَونه حسبًا لَهُ، وَلِأَنَّهُ ذكر ذَلِك فِي سِيَاق التَّرْغِيب فِي التَّوَكُّل كَمَا رغَّب فِي التَّقْوَى، فَلَو لم يحصل للمتوكّل من الْكِفَايَة مَا لَا يحصل لغيره، لم يكن ذَلِك مرغبًا فِي التَّوَكُّل، كَمَا جعل التَّقْوَى سَببًا لِلْخُرُوجِ من الشدَّة وَحُصُول الرزق من حَيْثُ لَا يحْتَسب، وَقد قَالَ تَعَالَى: {الَّذين قَالَ لَهُم النَّاس إِنَّ النَّاس قد جمعُوا لكم فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إِيمَانًا وَقَالُوا حَسبنَا الله وَنعم الْوَكِيل}[سُورَة آل عمرَان ١٧٣]، فمدحوه سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ {نعم الْوَكِيل} لما توكَّلوا عَلَيْهِ بقَوْلهمْ: {حَسبنَا الله}: أَي كافينا الله، لَا يسْتَحق الْمَدْح إِن لم يجلب لمن توكَّل عَلَيْهِ مَنْفَعَة وَيدْفع عَنهُ مضرَّة، وَالله خير من توكَّل الْعباد عَلَيْهِ، فَهُوَ نعم الْوَكِيل، يجلب لَهُم كلَّ خير وَيدْفع عَنْهُم كلَّ شَرّ.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٢ص٣٣٠: وَكَذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَصْحَابُهُ، يَوْمَ أُحُدٍ، لَمَّا قِيلَ لَهُمْ بَعْدَ انْصِرَافِهِمْ مِنْ أُحُدٍ: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ}، فَتَجَهَّزُوا وَخَرَجُوا لِلِقَاءِ عَدُوِّهِمْ، وَأَعْطَوْهُمُ الْكَيْسَ([2])مِنْ نُفُوسِهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، فَأَثَّرَتِ الْكَلِمَةُ أَثَرَهَا، وَاقْتَضَتْ مُوجَبَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: ٢]، فَجَعَلَ التَّوَكُّلَ بَعْدَ التَّقْوَى الَّذِي هُوَ قِيَامُ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا، فَحِينَئِذٍ إِنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، فَهُوَ حَسْبُهُ، وَكَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[المائدة: ١١]، فَالتَّوَكُّلُ وَالْحَسْبُ بِدُونِ قِيَامِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا عَجْزٌ مَحْضٌ، فَإِنْ كَانَ مَشُوبًا بِنَوْعٍ مِنَ التَّوَكُّلِ، فَهُوَ تَوَكُّلُ

١– المسند (٦/٢٤)، وسنن أبي داود برقم (٣٦٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٤٦٢). وصححه لإمام الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢).

٢– (قلت): في الفروق اللغوية للعسكري: أَنَّ (الْكيس): هُوَ سرعَة الْحَرَكَة فِي الْأُمُور وَالْأَخْذ فِي مَا يَعْنِي مِنْهَا دون مَا لَا يَعْنِي، يُقَال: (غُلَام كيس)، إِذا كَانَ يسرع الْأَخْذ فِي مَا يُؤمر بِهِ ويترك الفضول وَلَيْسَ هُوَ من قبيل الْعُلُوم والحذق.

عَجْزٍ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ تَوَكُّلَهُ عَجْزًا، وَلَا يَجْعَلَ عَجْزَهُ تَوَكُّلًا، بَلْ يَجْعَلُ تَوَكُّلَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا الَّتِي لَا يَتِمُّ الْمَقْصُودُ إِلَّا بِهَا كُلِّهَا.

وَمِنْ هَاهُنَا غَلِطَ طَائِفَتَانِ مِنَ النَّاسِ: إِحْدَاهُمَا: زَعَمَتْ أَنَّ التَّوَكُّلَ وَحْدَهُ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ كَافٍ فِي حُصُولِ الْمُرَادِ، فَعُطِّلَتْ لَهُ الْأَسْبَابُ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ الْمُوصِلَةُ إِلَى مُسَبَّبَاتِهَا، فَوَقَعُوا فِي نَوْعِ تَفْرِيطٍ وَعَجْزٍ، بِحَسَبِ مَا عَطَّلُوا مِنَ الْأَسْبَابِ، وَضَعُفَ تَوَكُّلُهُمْ مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا قُوَّتَهُ بِانْفِرَادِهِ عَنِ الْأَسْبَابِ، فَجَمَعُوا الْهَمَّ كُلَّهُ، وَصَيَّرُوهُ هَمًّا وَاحِدًا، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ قُوَّةٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، فَفِيهِ ضَعْفٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَكُلَّمَا قَوِيَ جَانِبُ التَّوَكُّلِ بِإِفْرَادِهِ أَضْعَفَهُ التَّفْرِيطُ فِي السَّبَبِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ التَّوَكُّلِ، فَإِنَّ التَّوَكُّلَ مَحَلُّهُ الْأَسْبَابُ، وَكَمَالُهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِيهَا، وَهَذَا كَتَوَكُّلِ الْحَرَّاثِ الَّذِي شَقَّ الْأَرْضَ، وَأَلْقَى فِيهَا الْبِذْرَ، فَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي زَرْعِهِ وَإِنْبَاتِهِ، فَهَذَا قَدْ أَعْطَى التَّوَكُّلَ حَقَّهُ، وَلَمْ يَضْعُفْ تَوَكُّلُهُ بِتَعْطِيلِ الْأَرْضِ، وَتَخْلِيَتِهَا بُورًا، وَكَذَلِكَ تَوَكُّلُ الْمُسَافِرِ فِي قَطْعِ الْمَسَافَةِ مَعَ جِدِّهِ فِي السَّيْرِ، وَتَوَكُّلُ الْأَكْيَاسِ مِنَ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهِ، مَعَ اجْتِهَادِهِمْ فِي طَاعَتِهِ، فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَثَرُهُ، وَيَكُونُ اللَّهُ حَسْبَ مَنْ قَامَ بِهِ.

وَأَمَّا تَوَكُّلُ الْعَجْزِ وَالتَّفْرِيطِ، فَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَثَرُهُ، وَلَيْسَ اللَّهُ حَسْبَ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَكُونُ حَسْبَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ إِذَا اتَّقَاهُ، وَتَقْوَاهُ فِعْلُ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا، لَا إِضَاعَتُهَا.

وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ: الَّتِي قَامَتْ بِالْأَسْبَابِ، وَرَأَتِ ارْتِبَاطَ الْمُسَبَّبَاتِ بِهَا شَرْعًا وَقَدَرًا، وَأَعْرَضَتْ عَنْ جَانِبِ التَّوَكُّلِ، وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ وَإِنْ نَالَتْ بِمَا فَعَلَتْهُ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا نَالَتْهُ، فَلَيْسَ لَهَا قُوَّةُ أَصْحَابِ التَّوَكُّلِ، وَلَا عَوْنُ اللَّهِ لَهُمْ وَكِفَايَتُهُ إِيَّاهُمْ وَدِفَاعُهُ عَنْهُمْ، بَلْ هِيَ مَخْذُولَةٌ عَاجِزَةٌ، بِحَسَبِ مَا فَاتَهَا مِنَ التَّوَكُّلِ.

فَالْقُوَّةُ كُلُّ الْقُوَّةِ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ، فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَالْقُوَّةُ مَضْمُونَةٌ لِلْمُتَوَكِّلِ، وَالْكِفَايَةُ وَالْحَسْبُ وَالدَّفْعُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَنْقُصُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا يَنْقُصُ مِنَ التَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ، وَإِلَّا فَمَعَ تَحَقُّقِهِ بِهِمَا، لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونُ اللَّهُ حَسْبَهُ وَكَافِيَهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْشَدَ الْعَبْدَ إِلَى مَا فِيهِ غَايَةُ كَمَالِهِ، وَنَيْلُ مَطْلُوبِهِ، أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَيَبْذُلَ فِيهِ جُهْدَهُ، وَحِينَئِذٍ يَنْفَعُهُ التَّحَسُّبُ وَقَوْلُ: (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، بِخِلَافِ مَنْ عَجَزَ وَفَرَّطَ حَتَّى فَاتَتْهُ مَصْلَحَتُهُ ثُمَّ قَالَ: (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، فَإِنَّ اللَّهَ يَلُومُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي هَذَا الْحَالِ حَسْبَهُ، فَإِنَّمَا هُوَ حَسْبُ مَنِ اتَّقَاهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ.

قال الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: اسم الله **{الوكيل}:**

فقد سمَّى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادًا به العلمية ودالًّا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية، وسمَّاه به رسوله ﷺ في كثير من النصوص النبوية، وقد ورد المعنى محمولًا عليه مسندًا إليه كما جاء في قوله تعالى: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}**، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الذي ورد فيه الاسم على سبيل الإطلاق معرَّفًا بالألف واللام، وقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}[النساء:

٨١]، وقال أيضًا: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}[النساء: ١٣٢]، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً}[المزمل: ٩]، {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} [الإسراء: ٦٥]، أما الاسم في حال التقييد والإضافة فهو كقوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[الأنعام: ١٠٢]، وكقوله أيضًا: {قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}[يوسف: ٦٦]، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[الزمر: ٦٢].

وعند البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنه قَالَ: كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: ١٧٣].

وعند مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِي ﷺ قَالَ فيمن تكلّم في المهد: ((وَبَيْنَا صَبِي يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ .. قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ..إلي أن قالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا([1]))).

وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي أن رسول الله ﷺ قال: ((كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ متى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ))، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِي ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: ((قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا)).

و{الْوَكِيل} في اللغة: هو القَيِّم الكَفِيل الذي تكفل بأرْزَاق العِبَاد، وحَقِيقة الوكيل أنَّه يَسْتَقل بَأمْر المَوْكُول إليه، يقال: تَوَكَّلَ بالأَمْر إذا ضَمِنَ القِيام به، وَوَكَّلت أمْرِي إلى فلان أي ألْجَأته إليه، واعْتَمدت فِيه عَليه، وَوَكَّل فُلان فُلانًا إذا اسْتَكفاه أمْرَه، إمَّا ثقةً بِكفايَتِه أو عَجزًا عن القيام بأمر نفسه، والتوكُّل يقال على وجهين، يقال: توكَّلت لفلان، بمعنى توليَّت له وتعهَّدته، وعند البخاري من حديث سهل بن سعد الساعدي، قال النبي ﷺ: ((من توكَّل لي ما بين رجليه، وما بين لحييه، توكَّلت له بالجنة([2])))، وعند البخاري من حديث أبى هريرة، أنَّ رسول اللَّه قال: ((مثل المجاهد في سبيل اللَّه، واللَّه أعلم بمن يجاهد في سبيله كمثل الصائم القائم، وتوكَّل اللَّه للمجاهد في سبيله أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالمًا مع أجر أو غنيمة)).

١- (قلت): مسلم (٢٥٥٠).

٢- (قلت): البخاري (٦٨٠٧).

الوجه الثاني: وكَّلته فتوكَّل لي وتوكَّلت عليه، بمعنى اعتمدته قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: ٣]، وربما يفسَّر الوكيل بالكفيل، والوكيل أعم، لأنَّ كلَّ كفيل وكيل، وليس كلُّ وكيلٍ كفيلًا، وعند الترمذى وصححه الألبانى من حديث عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول اللَّه ﷺ: ((لو أنَّكم كنتم توكَّلون على اللَّه حق توكِّله، لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا([1]))).

واسم الله {الوكيل} يدلُّ على ذات الله وعلى صفة التَّدبير والتوكُّل بالخلائق كصفة فعل بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمُّن، وعلى صفة التدبير والتوكُّل بدلالة التضمُّن، ويدلُّ باللُّزوم على الحياة والقيومية، والسمع والبصر والعلم والقدرة، والعزة والعظمة، والعدل والحكمة والغنى والقوَّة وكلُّ ما يلزم من صفات الكمال واسم الله {الوكيل} دلَّ على صفة من صفات الأفعال.

كيف ندعو الله باسمه {الوكيل} دعاء مسألة ودعاء عبادة؟ دعاء المسألة: كما في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: ١٧٣]، وروى أبو داود وحسنه الشيخ الألباني من حديث أَبِي بَكْرَةَ أن رَسُول ﷺ قال: ((دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ([2])))، وفي مستدرك الحاكم وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة من حديث أنس رضي الله عنه أنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قال لفاطمة: ((ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث وأصلح لي شأني كلَّه ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا([3]))).

أمَّا دعاء العبادة: فعلم العبد ويقينه أنَّ الله قد ضمَّن له الرزق ولا يتواكل عن طلبه بل يأخذ بأسبابه تحرُّزًا من الطمع وفساد القلب، فلا يضيع حقِّ الزوجة والولد، برغم أنَّ أرزاقهم على اللَّه، والذي يفعل ذلك تارك للسبيل والسنة، لأنَّ درجات التوكُّل ومراحله ثلاث درجات يجب على الموحِّد ألَّا يقلل من شأنها ولا يأخذ بواحدة ويدع الأخرى: الدرجة الأولى هي توجُّه القلب إلى اللَّه على الدوام، لعلمه أنَّ اللَّه على كلِّ شيءٍ قدير، وهو يعطي ويمنع، فالقدرة كلُّها له، يحكم في خلقه بأمره ما شاء وكيف شاء، أمَّا الأسباب فهي كالآلة بيد الصانع هو الذي يسيِّرها ويدبِّرها ويوفِّق من أخذ بها أو يخذله، الدرجة الثانية في التوكُّل هي توجُّه الجوارح إلى الأسباب، فقد أثبت اللَّه الأسباب وآثارها لمعاني الحكمة في تصريفه الأشياء وتقليبها على سبيل الابتلاء، وإيقاع الأحكام على المحكوم وعودة الجزاء على الظالم أو المظلوم بالعقاب أو الثواب، ليكون المتوكِّل قائمًا بأحكام الشرع، ملتزمًا بمقتضى العطاء والمنع، فالله عز وجل أمرنا بالسعي، فلا يضرُّ التصرُّف والتكسُّب في المعايش لمن صحَّ توكُّله على اللَّه، ولا يقدح في منزلته عند الله، الدرجة الثالثة في التوكُّل هي التسليم والرضا واليقين بسابق التقدير

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٣١٠).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في الكلم الطيب (١٢١).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في الصحيحة (٢٢٧).

والقضاء، لأنَّ الاستسلام لقضاء اللَّه وقدره يكون بعد الأخذ بالأسباب، ولا يأتي قبلها وإلَّا كان تواكلًا وهو مرفوض، والعبد وقتها يكون على حسن اليقين وجميل الصبر وحقيقة الرضا، فتسكن القلوب عند النوازل والبلاء وتطمأن النفوس إلى حكمة الابتلاء، لاعتقادهم أن الله هو الوكيل الذي يدبر الخلائق كيف شاء، {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}[النساء:١٣٢](١).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان أنَّ المؤمن كلَّما ضاقت عليه المصائب فإنَّه يلجأ إلى ربِّه، ويزداد إيمانًا به؛ لقوله: {الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}، ونظير هذا قوله تعالى: {ولمَّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلَّا إيمانًا وتسليمًا}، فالمؤمن كلَّما أصابت النَّكبات والمصائب ازداد إيمانًا بالله ومعرفة به.

٢- جواز إرادة الخصوص بلفظ العموم، وأنَّ هذا أسلوب لغوي لا يخرج به الإنسان عن قواعد اللغة العربية؛ لقوله: {الذين قال لهم الناس}، والقائل واحد: {إن الناس قد جمعوا لكم}، والجامع لهم بعض من الناس.

٣- أنَّ المؤمن حقًّا لا يهمه أن يجمع له أعداء الله؛ لقوله تعالى: {فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}.

٤- أنَّ الحسب هو الله وحده ولا أحد معه؛ لقوله: {حسبنا الله}، ولم يقولوا: (حسبنا الله ورسوله)، بل قالوا: {حسبنا الله} وحده؛ فالله وحده هو الحسب كما أنَّه وحده المتوكَّل عليه؛ وبهذا نعرف أنَّ قوله تعالى: {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتَّبعك من المؤمنين}، أنَّ {من} في قوله: {ومن اتَّبعك}، معطوفة على الكاف في قوله: {حسبك}، وليست معطوفة على لفظ الجلالة حسبك الله؛ لأنَّها لو عطفت على لفظ الجلالة لكان المعنى أنَّ الله حسبك ومن اتَّبعك من المؤمنين حسبك؛ وليس الأمر كذلك، وإنَّما حسبه وحسب من اتَّبعه هو الله عز وجل.

٥- الثناء على الله عز وجل بكونه وكيلًا لعباده أي حسيبًا لهم، عمدة لهم؛ لقوله: {ونعم الوكيل}.

٦- إثبات اسم {الوكيل} لله؛ لأنَّ تقدير الآية: (ونعم الوكيل هو)؛ وقد ذكر الله في آية أخرى: {أنَّه على كلِّ شيءٍ وكيل} فالوكيل من أسماء الله، وليس المعنى القائم بالأمر نيابة عنهم؛ بل معناه المتكفِّل بشؤون العباد.

١- (قلت): أنظر كلام ابن العثيمين عن (التوكل) عند تفسير الآية (١٢٢) من سورة آل عمران.

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ {١٧٤}

قال ابن العثيمين: {فانقلبوا}: أي هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول وخرجوا بأمر النبي ﷺ لقتال هؤلاء الكفار الذين بلغهم عنهم أنَّهم مجمعون على الكَرَّة على المسلمين، خرجوا؛ فلمَّا بلغوا ما بلغوا من الطريق، بلغوا حمراء الأسد، وجدوا المشركين قد ذهبوا؛ لأنَّ المشركين صرفهم الله، وقالوا نرجع العام القادم؛ {انقلبوا} عائدين إلى المدينة بعد أن وصلوا إلى حمراء الأسد.

قال السعدي: وجاء الخبر المشركين أنَّ الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلَّف منهم، فألقى الله الرُّعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل، حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتّكال على ربِّهم، ثمَّ إنَّه قد كُتب لهم أجر غزاة تامَّة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

قال ابن العثيمين: {بنعمة من الله وفضل}: وهذه النعمة هي أنَّهم سلموا من ملاقاة العدو، ولم يحصل حرب؛ لأنَّ العدو مضى في سبيله ولم يرجع؛ وأمَّا قوله: {وفضل}: ففسِّرت بأنَّ المراد به فضل الجهاد، وأنَّ الله كتب لهم بهذا الخروج أجر غزوة كاملة فسلموا من الحرب ونالوا ثواب المجاهدين.

وقوله: {لم يمسسهم سوء}: أي لم يصبهم ما يسوؤهم لا من جهة عدوِّهم ولا من جهة أحوالهم، بل كانوا على أحسن ما يرام ذهابًا ورجوعًا.

قال شيخ الإسلام في جامع الرسائل ج١ص٩٠: التَّوَكُّل سَبَب نعْمَة الله وفضله؛ وَقد قَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا حَسبنَا الله وَنعم الْوَكِيل * فانقلبوا بِنِعْمَة من الله وَفضل لم يمسسهم سوء وَاتبعُوا رضوَان الله وَالله ذُو فضل عَظِيم}[سُورَة آل عمرَان: ١٧٣ - ١٧٤] فَمُعَقِّب هَذَا الْجَزَاء وَالْحكم لذَلِك الْوَصْف وَالْعَمَل بِحرف الْفَاء وَهِي تفِيد السَّبَب، فَدلَّ ذَلِك على أَن ذَلِك التَّوَكُّل هُوَ سَبَب هَذَا الإنقلاب بِنِعْمَة من الله وَفضل، وَأَن هَذَا الْجَزَاء جَزَاء على ذَلِك الْعَمَل.

قال ابن العثيمين: {واتَّبعوا رضوان الله}: فيها قراءتان: {رِضوان} و {رُضوان} بكسر الراء وضمها؛ أي اتَّبعوا ما يرضي الله عز وجل؛ بالاستجابة للرسول ﷺ؛ فإنَّ الاستجابة لله ورسوله سبب لرضا الله عز وجل.

{والله ذو فضل عظيم}: بمعنى صاحب فضل عظيم على العباد في الدنيا والآخرة، ومنه أن تفضل على هؤلاء بأن انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

قال أبو زهرة: ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بذلك النَّص السامي وهي تصف المولى العلي الكريم بأنَّه صاحب فضل عظيم لَا تكتنه حقيقته، ولا يحدُّه الحصر، وقد بدا فيما أسبغه الله تعالى من نعم على الناس أجمعين، وما أنقذ به عباده

المؤمنين من شرِّ الكافرين، وما وفَّقهم له من طلب رضوانه وما نصرهم به من نصر مؤزَّر، والتَّنكير في الفضل ووصفه لإفادة كثرته وقوة أثره.

ومن أفضل نعم الله أنَّه ثبت قلوب المؤمنين، فلم يفزعوا عندما دسَّت الأخبار لإفزاعهم وترويعهم، فلم يروَّعوا لأنَّ الله حاميهم وهم اعتمدوا عليه وهو وليُّهم؛ والتَّرويع من الأوهام إنَّما يكون لأولياء الشيطان، ولذلك قال سبحانه موازنًا بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشيطان: {إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- فضيلة هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول بما أصابهم من الثواب.

٢- أنَّ الإنسان إذا عمل العمل وسعى فيه ولم يكمله كتب له أجره كاملًا؛ ولهذا شواهد؛ منها قوله تعالى: {ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثمَّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله}؛ ومنها قول النبي ﷺ: ((من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا[١]))، حتى طالب العلم لو مات قبل أن يدرك ما يريد من العلم فإنَّه يكتب له ما نوى لأنَّه شرع فيه وعمل ما يقدر عليه، فيناله الأجر.

٣- إثبات الرِّضى لله؛ يؤخذ من قوله: {رضوان الله}، و(الرِّضا) صفة من صفات الله الحقيقية، وهي من الصفات الفعلية؛ لأنَّ القاعدة عند السلف أنَّ كلَّ ما يتعلَّق بمشيئة الله من الصفات فهو صفة فعلية، والرِّضا يتعلَّق بمشيئته، كلُّ صفةٍ معلَّقة بسبب فإنَّها بلا شك تتعلَّق بالمشيئة؛ فرضوان الله معلَّق بفعل ما يرضيه؛ وعلى هذا فتكون هذه الصفة متعلِّقة بمشيئته.

أرأيتم بماذا يفسِّر أهل التعطيل رضا الله؟ يفسِّرونه بالثواب، لأنَّ الثواب شيء منفصل بائن عن الله، ما هو من صفات الله، مخلوق مفعول؛ أو يفسِّرونه بإرادة الثواب لأنَّهم يثبتون الإرادة؛ أمَّا الرِّضا نفسه فإنَّهم لا يثبتونه؛ ولاشكَّ أنَّ هذا أعني تفسير الرِّضى بإرادة الثواب أو بالثواب نفسه لاشكَّ أنَّه تحريف للكلم عن مواضعها؛ ويا سبحان الله كيف يثبت الله لنفسه أنَّه رضي ونحن نقول: لا؛ رضي يعني أثاب، أو رضي يعني أراد أن يثيب!؛ أنحن أعلم بالله من نفسه؟! أبدًا والله لسنا بأعلم؛ إذًا نحن نثبت الرِّضا لله حقيقةً وأنَّه صفة من صفاته الفعلية التي تتعلَّق بمشيئته؛ ولكن هل رضاه كرضانا؟ لا؛ لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، فكما أنَّ سمعه وبصره وحياته وعلمه وقدرته لا تماثلها قدر المخلوقين، وكذلك هو لا يماثل المخلوقين، فكذلك الرِّضا والفرح والعجب وغيره.

١- **(قلت):** صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (٧٩٩)، والحديث بتمامه: ((إذا مرض العبد أو سافر كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا)).

٤- إثبات اتِّصاف الله عز وجل بالفضل العظيم، العظيم في كميته العظيم في كيفيته؛ أمَّا في كميته فإنَّ الله يقول: {وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها}، وجعل جزاء الحسنة عشرًا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة؛ وأمَّا في كيفيته فقد قال الله عز وجل: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}.

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧٥}

قال ابن العثيمين: {إنَّما ذلكم الشيطان يخوِّف أوليائه}: {إنَّما} أداة حصر، والحصر عند العلماء إثبات الحكم للمحصور فيه ونفيه عمَّا سواه؛ إذًا فهو بمنزلة نفي وإثبات، وله طرق، يعني الحصر ليس له طريق واحد فقط؛ له طرق منها {إنَّما}، ومنها تقديم ما حقَّه التأخير، ومنها النفي والإثبات مثل: (لا قائم إلَّا زيد)؛ ومنها إذا كانت الجملة اسمية معرفًا طرفاها؛ وهذا معروف في كتب البلاغة؛ {إنَّما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه}: يعني (ما الشيطان إلَّا مخوِّف أوليائه)؛ وقوله: {ذلكم}، تضمن إشارة، أي مشارًا إليه، ومخاطبًا؛ الإشارة {ذا}، والخطاب الكاف؛ الإشارة بحسب المشار إليه والكاف بحسب المخاطب.

{الشيطان}: يجوز في إعرابها وجهان؛ الوجه الأول: أن يكون خبرًا للمبتدأ {ذا}؛ والثاني: أن تكون بدلًا منه أو عطف بيان؛ فعلى الأول يكون جملة: {يخوف} في موضع نصب على الحال؛ وعلى الثاني تكون جملة: {يخوف} خبر المبتدأ؛ وكلاهما صحيح؛ فالشيطان يخوِّف أوليائه؛ وقوله: {يخوِّف}، هي معروف أنَّها تنصب مفعولين بالتَّحويل؛ المفعول الأول محذوف وتقديره: (يخوِّفكم أوليائه)؛ و{أوليائه} هنا هي المفعول الثاني، وليس المعنى (أنَّه يخوِّف أوليائه)، المعنى: (أنَّه يخوِّف الناس من أوليائه)، فيكون المعنى على هذا، المفعول الأول محذوف، والثاني هو الموجود، والتقدير: (يخوِّفكم أوليائه): أي يعظِّمهم في صدوركم حتى تخافوهم، وتتركوا الجهاد، وتتركوا الدعوة لأنَّكم تخافون منهم، بسبب تخويف الشيطان؛ وأولياء الشيطان كلُّ مجرم وفاسق وملحد وكافر، هؤلاء هم أولياء الشيطان، كما قال الله تعالى: {أولئك حزب الشيطان ألا إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون}، فكلُّ كافر ملحد فاجر فهو من أولياء الشيطان.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ج١ص٥٦: وَالْعَبْدُ مُفْتَقِرٌ دَائِمًا إلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، كَمَا هُوَ مُفْتَقِرٌ إلَى عِبَادَتِهِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْهَدَ دَائِمًا فَقْرَهُ إلَى اللَّهِ، وَحَاجَتَهُ فِي أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا لَهُ، وَأَنْ يَكُونَ مُعِينًا لَهُ؛ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ، وَلَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إلَّا إلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: {إنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}: أَيْ يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ. هَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ؛ كَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ وَأَهْلِ اللُّغَةِ كَالْفَرَّاءِ وَغَيْرِهِ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَاَلَّذِي نَخْتَارُهُ فِي الْآيَةِ: يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ. تَقُولُ الْعَرَبُ أَعْطَيْتُ الْأَمْوَالَ: أَيْ أَعْطَيْتُ الْقَوْمَ الْأَمْوَالَ؛ فَيَحْذِفُونَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ.

قُلْتُ: وَهَذَا لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يُخَوِّفُ النَّاسَ أَوْلِيَاءَهُ تَخْوِيفًا مُطْلَقًا، لَيْسَ لَهُ فِي تَخْوِيفِ نَاسٍ بِنَاسٍ ضَرُورَةٌ؛ فَحَذَفَ الْأَوَّلَ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَقْصُودًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ الْمُنَافِقِينَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَر؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ تَخْوِيفِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فِي إِنَّمَا نَزَلَتْ فِيمَنْ خَوَّفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ قَالَ: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ}، الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ؛ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: {فَاخْشَوْهُمْ}[آل عمران:١٧٣]، قَبْلَهَا، وَالَّذِي قَالَ الثَّانِي: فَسَّرَهَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، وَهُوَ أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ؛ لِأَنَّ سُلْطَانَهُ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ يُدْخِلُ عَلَيْهِمُ الْمَخَاوِفَ دَائِمًا، وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ وَعُدَدٍ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَهُمْ مُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ لَا يُخَوِّفُهُمُ الْكُفَّارُ، أَوْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ؛ أَيْ: يُخَوِّفُ الْمُنَافِقِينَ أَوْلِيَاءَهُ، وَهُوَ يُخَوِّفُ الْكُفَّارَ كَمَا يُخَوِّفُ الْمُنَافِقِينَ؛ وَلَوْ أُرِيدَ أَنَّهُ يَجْعَلُ أَوْلِيَاءَهُ خَائِفِينَ لَمْ يَكُنْ لِلضَّمِيرِ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ؛ هُوَ قَوْلُهُ: {فَلَا تَخَافُوهُمْ}.

قال ابن العثيمين: {فلا تخافوهم}: أي لا يؤثِّر فيكم تخويفه فتخافون منهم.

{وخافون إن كنتم مؤمنين}: لا تخافوهم فيؤثِّروا عليكم هذا بترك الجهاد، {وخافون} فلا تتأثَّروا بهم وجاهدوا ولا يهمنَّكم.

{إن كنتم مؤمنين}: هذه {إن} شرطية وقد مرَّ علينا أنَّ لعلماء العربية فيها وجهان؛ الوجه الأول: أنَّها جملة شرطية لا تحتاج إلى جواب لأنَّه مفهوم ممَّا سبق، وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله؛ والثاني: أنَّها تحتاج إلى جواب، وأنَّ جوابها محذوف معلوم ممَّا سبق، أي: (إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم).

قال السعدي: وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنَّه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان شدَّة عداوة الشيطان لبني آدم، حيث يرعبهم ويخوِّفهم بأوليائه.

٢- أنَّ الشيطان يدافع عن أوليائه؛ بل يهاجم بهم؛ لقوله: {يخوِّف أوليائه}.

٣- أنَّه يجب على المؤمن ألَّا يخاف من أولياء الشيطان؛ لقوله: {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}.

فإن قال قائل: الخوف أمر طبيعي يعتري الإنسان عندما يرى ما يخاف أو يسمع به ولا يستطيع مدافعته؟

فالجواب عن ذلك يقال: بل يستطيع مدافعته بأن يشقَّ طريقته الذي أوجب الله عليه، ولا يهتم بأحد، وإلَّا فمن المعلوم أنَّ طبيعة الإنسان الخوف ممَّا يكره؛ لكن نقول: امض لسبيلك ولا تلتفت؛ فقوله: {فلا تخافوهم وخافون}: أي لا يؤثِّر خوفهم فيكم شيئًا: {وخافون}، لأنَّكم إن تركتم الجهاد عذَّبتُكم.

٤- أنَّه كلَّما قوي إيمان الإنسان بالله قوي خوفه منه؛ لقوله: {إن كنتم مؤمنين}.

٥- أنَّه كلَّما قوي الإيمان بالله قوي الخوف منه وضعف الخوف من أولياء الشيطان؛ لقوله: {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}.

ثمَّ اعلم أنَّ العلماء رحمهم الله قالوا: إنَّ الخوف ينقسم إلى أقسام؛ الخوف الأول خوف العبادة: وهو خوف السِّر الذي يخاف الإنسان فيه شيئًا خفيًّا، كخوفه من الولي الميت أو من الشيطان أو ما أشبه ذلك؛ وهذا عبادة ولا يجوز إلَّا لله عز وجل.

الثاني: خوف طبيعي يعتري الإنسان بسبب وجود ما يخاف منه؛ وهذا لا يلام عليه العبد إلَّا أن يكون سببًا في ترك واجب أو وقوع في محرَّم، وإلَّا فإنَّ العبد لا يلام عليه؛ وقد وقع من الأنبياء عليهم السلام، قال الله عن موسى: {فأصبح في المدينة خائفًا يترقَّب}، وقال سبحانه وتعالى يخاطب موسى حينما ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى قال: {خذها ولا تخف}، وقال عن موسى حينما اجتمع السحرة له قال: {فأوجس في نفسه خيفة موسى}، وقال عن ابراهيم لمَّا جاءته الملائكة ولم يأكلوا قال: {فلمَّا رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف}، والآيات في هذا كثيرة؛ فالخوف الطبيعي من طبيعة الإنسان ولا يلام عليه العبد إلَّا إذا تضمَّن ترك واجب أو فعل محرَّم.

القسم الثالث: خوف الجبناء وهذا هو المشكل؛ الجبان يخاف من كلِّ شيء حتى لو حركت الريح سعفة لقال: هذا صوت مدافع؛ لماذا؟ لأنَّه جبان؛ ولهذا لا يأتيه النوم كما قال تعالى فيما سبق: {ثمَّ أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنة نعاسًا}، هذا القسم الثالث يجب على المؤمن أن يطارده ما أمكن؛ لأنَّ المؤمن ليس بجبان، المؤمن قوي، ومن أكبر أسباب دفعه أن يذكر الإنسان ربه عز وجل، فإنَّ بذكر الله تطمئن القلوب، وتزول الكروب، وينشرح صدر المرء، ويزول عنه الخوف والرُّعب والذُّعر؛ فهذه أقسام الخوف.

٦- أنَّ الخوف من مقتضيات الإيمان ومستلزماته؛ لقوله: {إن كنتم مؤمنين}.

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٧٦}

قال ابن العثيمين: {ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر}: في قوله: {يحزنك} قراءتان؛ القراءة الأولى: {يحزُنك}، من الثلاثي حزَنه يحزُنه؛ والقراءة الثانية: {يحزِنك}، من الرباعي أحزنه؛ {ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر}: أي يسارعون إليه، ولكنَّه عدى يسارع ب{في} إشارة إلى أنَّ هؤلاء يسارعون إلى الكفر ويتوغَّلون فيه؛ وهذا من باب التَّضمين؛ وقد مرَّ علينا أنَّ علماء النحو اختلفوا فيما إذا عدي الفعل بغير الحرف المعتاد، فقال بعضهم: إنَّ التجوُّز في الحرف؛ وقال بعضهم:

إنَّ التجوُّز في الفعل؛ والفرق بين القولين أنَّه على القول الأول نحوِّل معنى الحرف الموجود إلى الحرف المناسب للفعل؛ وعلى الثاني نحوِّل الفعل إلى المعنى المناسب للحرف؛ وأوضح مثال من ذلك قوله تعالى: {عينًا يشرب بها عباد الله}، المعروف أن {يشرب} تتعدَّى ب(من)، وهنا تعدَّت بالباء؛ فقال بعض النحويين: الباء بمعنى (من)، والتقدير: يشرب منها عباد الله؛ وقال بعض العلماء: {يشرب} بمعنى (يروى)؛ ومعلوم أنَّ الرَّي يستلزم الشرب؛ فتكون {يشرب} هنا دالَّة على معنى الشُّرب باللُّزوم وعلى الرَّي؛ ويكون هذا أبلغ ممَّا لو قلنا: (يشرب منه)؛ لأنَّ الإنسان قد يشرب ولا يروى؛ وهذا الأخير هو مذهب نحاة البصرة، أي أنَّهم يحوِّلون الفعل إلى معنى مناسب للحرف ليكون الفعل دالًّا على معناه اللَّفظي وعلى معناه اللُّزومي.

وهنا قوله تعالى: {في الكفر}، خلاف ما يتوقَّعه السامع، إذ أنَّ المسارعة تتعدَّى ب(إلى) كما في قوله تعالى: {وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم}؛ وهنا جاءت ب{في} مكان (إلى)؛ واختلف العلماء في مثل هذا التركيب، هل التجوُّز بحرف الجر، أو بالفعل الذي تعدَّى بحرف الجر؟؛ على قولين؛ أحدهما: أنَّ التَّجوُّز بحرف الجر، يعني أنَّنا نقدِّر حرفًا مناسبًا للفعل؛ فنقول {في} بمعنى (إلى)؛ والثاني: أنَّ التَّجوُّز في الفعل بمعنى أن نضمِّن الفعل معنى يتعدَّى ب{في}؛ ونقول: إنَّ الثاني أَولى وأدق وأعمق؛ فيضمن: (يسارعون فيه)؛ (يدخلون فيه بسرعة)؛ فإذا فسَّرنا (يدخلون فيه بسرعة) تضمَّن المسارعة والدخول في الشيء؛ وقوله: {في الكفر}: أصل الكفر السَّتر، ومنه الكفراء وهو وعاء طلع النخل، وهو معروف لدى الجميع، ولكنَّه في الاصطلاح هو ما جحد ما جاء به النبي ﷺ أو جحد بعضه، أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه؛ هذا تعريف الكفر: جحد ما جاء به النبي ﷺ أو جحد بعضه ولو حرفًا واحدًا من كتاب الله.

قال أبو زهرة: والمعنى لَا يحزنك ولا تكن في نفسك حسرةً على الذين يسارعون في الكفر، أي يوغلون فيه وينتقلون من درجة إلى درجة فينتقلون من الضَّلال والجحود إلى التَّضليل ومن التَّضليل إلى الفتنة ثمَّ القتال، ثمَّ التَّدبير الخبيث والمكرُ السَّيِّئ.

قال ابن العثيمين: {إنَّهم لن يضروا الله شيئًا}: الجملة هنا محلها ممَّا قبلها تعليل، أي: (مهما سارعوا في الكفر فإنَّهم لن يضروا الله شيئًا)؛ وقوله: {لن يضرُّوا الله}: أي (لن يلحقوا الضَّرر به جل وعلا وتقدَّس أن ينال بضرر)؛ وفي الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنَّ الله تعالى قال: ((يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضرُّوني)).

وقوله: {شيئًا}: هذا نكرة في سياق النَّفي، والنَّكرة في سياق النَّفي تفيد العموم، يعني لن يضرُّوا الله أي شيء لا في ذاته، ولا في ملكه، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في غير ذلك، لن يضروا الله شيئًا أبدًا؛ كما قال الله تعالى في الحديث القدسي الذي أشرنا إليه آنفًا.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص٥٨: فبيَّن أنَّ الخلق لا يضرُّونه سبحانه بكفرهم، لكن يؤذونه تبارك وتعالى إذا سَبُّوا مُقَلِّب الأمور وجعلوا له سبحانه ولدًا أو شريكًا وآذوا رسله وعباده المؤمنين، ثمَّ إنَّ الأذى لا يضرُّ المؤذى إذا تعلَّق

بحقِّ الرسول فقد رأيت عظم موقعه وبيانه أنَّ صاحبه من أعظم الناس كفرًا وأشدِّهم عقوبةً فتبيَّن بذلك أنَّ قليل ما يؤذيه يكفر به صاحبه ويحلُّ دمه.

قال السعدي: فالله ناصر دينه، ومؤيِّد رسوله، ومنفِّذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنَّما يضرُّون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفِّقهم لما وفَّق له أولياءه ومن أراد به خيرًا، عدلًا منه وحكمة، لعلمه بأنَّهم غير زاكين على الهدى، ولا قابلين للرَّشاد، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

قال ابن العثيمين: {يريد الله أن لا يجعل لهم حظًّا في الآخرة}: أي (يريد الله سبحانه وتعالى بكفرهم ألَّا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة)؛ والإرادة هنا إرادة كونية، أي: (يشاء الله أن لا يصير لهم نصيبًا في الآخرة لا قليلًا ولا كثيرًا)؛ وهكذا كلُّ كافر ليس له نصيب في الآخرة؛ المؤمن له نصيب في الآخرة لكن قد يسبق بعذاب وقد لا يسبق.

قال أبو زهرة: أي أنَّه لَا يصحُّ أن تحزن لمسارعتهم في الكفر وانحدارهم في مهاويه؛ لأنَّ الله سبحانه هو الذي لم يجعل لهم حظًّا في الآخرة، فما عصوا الله تعالى غالبين لإرادته، بل عصوا بإرادتهم وإرادته سبحانه، وإن كان لَا يرضى لعباده الكفر، وفرق ما بين الرضا والإرادة، فالله سبحانه وتعالى لم يرد أن يجعل لهم حظًّا في الآخرة، ولكنَّه لَا يحب الكفر ولا يرضاه.

فالمعنى أنَّ كفرهم ليس مراغمة لله – سبحانه – حتى تحزن وإنَّما هو بإرادته لأنَّه أراد ألَّا يكون لهم حظ من الخير في الآخرة ولهم بدل الحظ من الخير عذاب عظيم، ولذلك قال سبحانه: {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، لتهديدهم بما يستقبلهم فوق الخزي العظيم في الدنيا.

قال ابن العثيمين: {ولهم عذاب عظيم}: {لهم} أي لهؤلاء الذين يسارعون في الكفر؛ {عذاب}: أي عقوبة؛ {عظيم}: أي ذو عظمة؛ وعظمة كلُّ شيء بحسبه؛ ففي مقام المدح تكون العظمة مدحًا؛ وفي مقام الذَّم تكون العظمة ذمًّا؛ فقوله تعالى: {سبحانك هذا إفك عظيم}؛ كلمة عظيم هنا من باب الذَّم؛ {ولها عرش عظيم}، من باب المدح؛ المهم أنَّ العظم في كلِّ موضعٍ بحسبه، قد يكون مدحًا وقد يكون ذمًّا؛ هنا العقوبة لاشكَّ أنَّها مكروهة عند الإنسان أن يعاقب؛ فهي بالنسبة لفعل الله عدل، وبالنسبة للمخلوق المعذَّب قبح وذم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١– تهديد هؤلاء الذين يسارعون في الكفر؛ لقوله: {ولا يحزنك}، {إنَّهم لن يضرُّوا الله}: أي لا يهمَّنَّك أمرهم فسوف يعذَّبون.

٢– حرص النبي ﷺ على هداية الخلق؛ لأنَّه يحزنه هؤلاء الذين يسارعون في الكفر؛ ولولا حرصه ﷺ ما حزن لكفرهم.

٣- بيان ما يلحق النبي ﷺ من الهم أو من الحزن لعدم إسلام الأمَّة؛ وذلك لمحبَّته ﷺ للخير حتى الذي يسارعون في الكفر يحزنه عملهم لأنَّه يودُّ أن يسلموا.

٤- بيان ما يقع فيه سفهاء بني آدم من الخطأ والخطل(١)؛ لكون هؤلاء يسارعون في الكفر مع أنَّه ضرر عليهم وهلاك.

٥- انتفاء الضَّرر عن الله وأنَّه لا تضرُّه معصية العاصين كما لا تنفعه طاعة الطائعين؛ لقوله: {إنَّهم لن يضرُّوا الله شيئًا}.

فإن قيل: إنَّ الله قد أثبت أنَّ بعض عباده يؤذيه في قوله تعالى: {إنَّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} وفي قوله في الحديث القدسي: ((يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدَّهر وأنا الدَّهر))، فكيف نجمع بين نفي الضَّرر وإثبات الأذيَّة؟

فالجواب أن يقال: لا يلزم من الأذيَّة الضَّرر؛ فقد يتأذَّى الإنسان بالشيء ولا يتضرَّر به؛ أرأيت لو صلَّى إلى جانبك أو جلس إلى جانبك رجل قد أكل بصلًا وثومًا فإنَّك تتأذَّى بما معه أو برائحته ولكن لا تتضرَّر؛ فلا يلزم من الأذيَّة أن يتضرَّر؛ وحينئذ لا معارضة بين نفي الضَّرر عن الله عز وجل وإثبات الأذيَّة.

٦- بيان غنى الله عز وجل عن كلِّ من سواه؛ لقوله: {إنَّهم لن يضرُّوا الله شيئًا}.

٧- إثبات الإرادة لله عز وجل؛ لقوله: {يريد أن لا يجعل لهم حظًّا في الآخرة}؛ وقد قسَّم العلماء إرادة الله تعالى إلى قسمين: إرادة كونية وإرادة شرعية؛ فالكونية هي ما يتعلَّق بفعله؛ والشرعيَّة ما يتعلَّق بشرعه؛ الكونيَّة بمعنى المشيئة، والشرعية بمعنى المحبَّة؛ الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم فيها وقوع المراد؛ فإذًا الفروق ثلاثة.

فإذا قال قائل: ما تقولون في إيمان أبي بكر أهو مراد بالإرادة الكونية أو الشرعية؟ والجواب إرادة كونية وشرعية؛ لأنَّه وقع بالإرادة الكونية؛ ولأنَّه متعلِّق بالشرع بما يحبه الله.

وما تقول في إيمان أبي لهب؟ مراد شرعًا لا كونًا؛ لأنَّ الله لو أراده كونًا لكان.

وما تقولون في كفر المسلم؟ ليس مرادًا لا كونًا ولا شرعًا؛ لأنَّه الآن مسلم ما كفر؛ لو أراد الله أن يكفر لكفر؛ وهل هو مراد شرعًا كفره؟ لا؛ إذًا هذا انتفى فيه الإرادتان؛ وإيمان المؤمن اجتمعت فيه الإرادتان.

فإيمان الكافر إرادة شرعية؛ كفر الكافر إرادة كونية، هو مراد كونًا غير مراد شرعًا؛ وإيمان الكافر مراد شرعًا غير مراد كونًا؛ وإسلام المسلم مراد كونًا وشرعًا؛ وكفر الكافر مراد كونًا لا شرعًا، إذًا فيه ما تجتمع فيه الإرادتان وما تنتفي فيه الإرادتان؛ وما فيه الإرادة الشرعية فقط وما فيه الإرادة الكونية فقط؛ وهذا التقسيم لا تظنُّوا أنَّه مجرد تزيين، التَّقسيم هذا مهم؛ لأنَّ من الناس من قال إن المعاصي غير مرادة لله لا كونًا ولا شرعًا مع أنها واقعة؛ نوافقهم على أنها غير مرادة شرعا لكنها مرادة كونًا؛ ولهذا يقولون: كل المعاصي فهي محبوبة لله لأن الله أرادها كونًا؛ لو أنه لا يحبها ما أرادها؛ وعلى هذا يتبين أن هذا التقسيم ليس مجرد تزيين للَّفظ، بل وراءه أمر معنوي.

٨- أنه لا حظ للكافر في الآخرة لأنه مخلد في النار؛ لقوله: {يريد الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة}.

١- (قلت): الخطل: المنطق الفاسد المضطرب وقد (خطل) في كلامه من باب طرب، وأخطل: أي أفحش. القاموس المحيط (٣/ ٣٦٨).

٩- ومن فوائدها بالمفهوم: أنَّ الكافر قد يكون له حظٌّ في الدنيا، وكفره لا يمنعه من الحظِّ في الدنيا.

فإن قال قائل: إنَّ الله قال في كتابه: {ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}، فهذا يدلُّ على أن الكافر لا يحصل له نعيم في الدنيا؟

قلنا: نعم الأصل أن لا يحصل له نعيم في الدنيا، هذا الأصل؛ لكنَّه قد ينعم استدراجًا كما قال تعالى: {والذين كفروا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إنَّ كيدي متين}.

١٠- إثبات الآخرة، وأنَّها حقٌّ، وأنَّ الناس ينقسمون فيها إلى قسمين: منهم من له نصيب ومنهم من لا نصيب له؛ لقوله: {في الآخرة}.

١١- إثبات العقوبة لهؤلاء الكفار؛ فليس حظّهم أن لا يجدوا حظًّا في الآخرة؛ بل لا يجدون حظًّا في الآخرة ومع ذلك يعذَّبون؛ ليت الأمر أن يحرموا من النَّعيم أو من الحظِّ والنَّصيب بل الأمر أشدُّ؛ ولهذا يقولون: {يا مالك ليقض علينا ربك}، نستريح؛ {وقال الذين كفروا في النار لخزنة جهنَّم ادعوا ربَّكم يخفِّف عنَّا يومًا من العذاب}.

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {١٧٧}

قال أبو زهرة: النص الكريم في بيان معاملة الله تعالى للذين تركوا الحق، ويتبعون الضلال، ويُحادُّون الله ورسوله سرًّا وإعلانًا، وقد بيَّن سبحانه في الآية أنَّه لا يصحُّ أن تكون مسارعة الكفار في الكفر وتنقُّلهم من حال إلى حال فيه سببًا في حزنك، وإلقاء الغمِّ في قلبك، لأنَّهم لَا يضرُّون إلَّا أنفسهم ولن يضرُّوك شيئًا ما دام الله سبحانه معك، ولن يتخلَّى عنك، وفي هذه الآيات يبيِّن معاملة الله تعالى لهؤلاء الكافرين، واختباره سبحانه للمؤمنين، وأنَّه سبحانه وتعالى قد قدَّر كلَّ ذلك في علمه المكنون الذي لَا يطَّلع عليه أحد.

قال ابن العثيمين: هذه الآية صلتها بما قبلها أنَّها كالتَّوكيد لها؛ قوله: {إنَّ الذين اشتروا الكفر}: أي اختاروا الكفر على الإيمان، وإلَّا فإنَّ الكفر ليس سلعة يباع ويشترى؛ فالإشتراء هنا بمعنى الاختيار وترك الطرف الآخر.

وقوله: {اشتروا الكفر بالإيمان}، إذا قال قائل: هم لم يؤمنوا؟

قلنا: لكن اختيارهم للكفر أخرجهم من الفطرة التي كانوا عليها وهي التوحيد؛ فهم اشتروا الكفر بعد الإيمان؛ وسبق معنى الكفر؛ وأمَّا الإيمان[١]فإنَّه في اللغة قيل: التصديق، واستدلُّوا لذلك بقوله تعالى: {وما أنت بمؤمنٍ لنا}، وقيل: الإقرار، والإقرار أخصُّ من التصديق، واستدلَّ هؤلاء بأنَّ الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة فلابدَّ أن تتعدَّى بما تتعدَّى به؛ ومن المعلوم

١- (قلت): أنظر الكلام مفصلًا عن معنى الإيمان عند تفسير الآية (٣) من سورة البقرة.

أنَّ الإيمان لا يتعدَّى كما يتعدَّى التصديق؛ فإنَّك تقول: صدقته ولا تقول آمنته؛ إذًا فليس معناهما واحدة؛ بل معنى الإيمان الإقرار؛ وهذا في اللغة، أمَّا في الشرع فهو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان؛ ليس مجرَّدَ الإقرارُ إيمانٌ، بل لابدَّ من أن يقبل ما جاء به الرسول ويذعن له؛ ولهذا لم يكن أبو طالب مؤمنًا مع أنَّه مقرٌّ بما جاء به الرسول ﷺ لكنَّه لم يقبله ولم يذعن له فلم يكن مؤمنًا؛ وإذا كان هذا هو الإيمان أي الإقرار المستلزم للقبول والإذعان فإنَّه يتضمَّن جميع شرائع الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، أنَّ الإيمان شامل للاعتقاد وقول اللِّسان وعمل الجوارح وعمل القلب أيضًا، عمل القلب والجوارح وقول اللِّسان واعتقاد القلب، أربعة أشياء كلُّها من الإيمان.

قال أبو زهرة: هذه الآية تبيِّن حال الذين عاندوا الرسول، ولم يخلصوا في طلب الحق، وهؤلاء أقبلوا على الكفر راغبين فيه طالبين له، حتى إنَّهم ليجعلون الإيمان الذي أودعه الله تعالى النفوس في تكوينها، وجعله موضع النور في كيانها – ثمنًا يقدم في نظير الكفر الذي يأخذونه، وفي هذا دلالة على أمرين:

أوَّلهما: أنَّ الكافرين طمس على قلوبهم فاستبدلوا بفطرة الإيمان التي فطر الله الناس عليها كفرًا قامت الدلائل على بطلانه فكان هذا دليلًا على تمكُّن الضَّلال، وكلَّ ما يقع منهم بعد ذلك من شرٍّ يجب أن يكون متوقَّعًا، فيهون أمره، ويضعف في النَّفس أثره.

ثانيهما: أنَّ الإيمان في ملك كلِّ إنسان، وهو الأصل الذي يجب أن يهتدى إليه عندما تلوح ظواهره وبيِّناته فإنَّ الله تعالى قد ألهم كلَّ نفسٍ فجورها وتقواها، والبيِّنات الشاهدة الواضحة المؤيِّدة الهادية تجعل الإيمان في قبضة يد طالب الحقِّ، فإذا فتح قلبه للكفر، فقد باع أغلى شيء في الوجود، وهو الإيمان، بأحقر شيء في الوجود وهو الكفر، والكلام بعد ذلك فيه استعارة تمثيلية، وهي تصوير الكافر الذي يترك بيِّنات الله وآياته، وإنَّها لكثيرة، ويختار الضلال مع قيام الأدلَّة على بطلانه، بمن يكون في يده أجود بضاعة، ويبيعها بأرخص الأثمان، بل بشيءٍ لا يفيد قط، وفيه إشارة إلى أنَّ الكافرين يعلمون أم ما هم عليه هو الباطل، ولكنَّه العناد والطغيان، وقد ذكر ذلك سبحانه وتعالى بقوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ . . .}.

قال ابن العثيمين: {لن يضرُّوا الله شيئًا}: كالآيات السابقة تمامًا؛ {ولهم عذابٌ أليم} هنا قال: إنَّه أليم، وهناك قال: إنَّه عظيم، فيجتمع في عذابهم العظم والألم؛ و{أليم} هنا بمعنى (مؤلم)، وليست بمعنى شديد، فهي بمعنى اسم الفاعل من الرباعي من آلمه يؤلمه إيلامًا فهو مؤلم.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه المنافقين الذين تقدَّم إلى نبيه ﷺ فيهم: أن لا يحزنه مسارعتهم إلى الكفر، فقال لنبيه ﷺ: إنَّ هؤلاء الذين ابتاعوا الكفر بإيمانهم فارتدُّوا عن إيمانهم بعد دخولهم فيه، ورضوا بالكفر بالله وبرسوله، عوضًا من الإيمان، لن يضرُّوا الله بكفرهم وارتدادهم عن إيمانهم شيئًا، بل إنَّما يضرُّون بذلك أنفسهم، بإيجابهم بذلك لها من عقاب الله ما لا قِبل لها به.

وإنَّما حثَّ الله جل ثناؤه بهذه الآيات من قوله: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ} إلى هذه الآية، عبادَه المؤمنين على إخلاص اليقين، والانقطاع إليه في أمورهم، والرِّضى به ناصرًا وحدَه دون غيره من سائر خلقه؛ ورغَّب بها في جهاد أعدائه وأعداء دينه، وشجَّع بها قلوبهم، وأعلمهم أنَّ من وليه بنصره فلن يُخذل ولو اجتمع عليه جميعُ من خالفه وحادَّه، وأنَّ من خذله فلن ينصره ناصرٌ ينفعُه نصرُه، ولو كثرت أعوانه ونصراؤه،

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان شدَّة رغبة الكفَّار بالكفر؛ لأنَّهم اشتروه اشتراءً، والمشتري طالب للسلعة؛ فهم يأخذون الكفر عن رغبة.

٢- بيان خسران هؤلاء حيث أخذوا الكفر بدلًا عن الإيمان؛ وهذه أخسر صفقةٍ على وجه الأرض أن يأخذ الإنسان الكفر بالإيمان، طائعًا طيبةً به نفسه.

٣- بيان كمال الله عز وجل وأنَّه لا تضرُّه معصية العاصي ولا تنفعه طاعة الطائعين؛ لقوله: {إنَّهم لن يضرُّوا الله شيئًا}.

٤- كمال سلطان الله، حيث إنَّ هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان لم يضرُّوا الله شيئًا، مع أنَّ المعروف أنَّ المَلك كلَّما قلَّت جنوده ضعفت قوَّته إلَّا الله عز وجل فإنَّه لا يضرُّه شيء.

٥- أنَّ عذاب هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان عذاب مؤلم؛ ولذلك قال الله تعالى: {وهم يصطرخون فيها}، يصارخون: {ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنَّا نعمل}، فينادون توبيخًا: {أولم نعمركم ما يتذكَّر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير}.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ {١٧٨}

قال أبو زهرة: قد يرد على الخاطر: إذا كان أمر الله هو الغالب فَلِمَ يترك هؤلاء في هذا النعيم؟ فقال سبحانه ذلك النَّص الكريم.

قال ابن العثيمين: {ولا يحسبن الذين كفروا}: أي لا يظنَّ الذين كفروا؛ وفيها قراءة ثانية سبعية: {ولا تحسبنَّ الذين كفروا}.

{أنَّما نملي لهم}: أي نمهلهم عن الأخذ بالعقوبة؛ {خير لأنفسهم}.

وهنا يقع تساؤل: لماذا كانت خير مع أنَّه قال: {نملي} والفعل المضارع ينصب المفعول به؟

لكن {أنَّما} حرف حصر؟ و{ما} اسم موصول.

إذًا يكون التقدير: (أنَّ الذي نملي لهم خير)، مع أنَّ عندي مرسومة متَّصلة ب{أن}، فصورتها صورة الحصر، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون اسمًا موصولًا، لأنَّ العلماء اتَّبعوا في رسم المصحف الرسم العثماني، ولو مشينًا على القاعدة الموجودة الآن لكتبت {أن} وحدها و{ما} وحدها: {إنَّ ما نملي لهم}؛ هذه {إنَّما} على الحصر؛ أي نمهلهم.

قال الطبري: يعني بذلك تعالى ذكره: ولا يظنَّنَّ الذين كفروا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، أنَّ إملاءنا لهم خيرٌ لأنفسهم. ويعني بـ(الإملاء)، الإطالة في العمر، والإنساء في الأجل، ومنه قوله جل ثناؤه: {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}[مريم: ٤٦]: أي حينًا طويلًا ومنه قيل: (عشتَ طويلًا وتملَّيت حبيبًا). و(الملا) نفسه: الدَّهر، و(الملوان): الليل والنهار.

قال السعدي: أي: ولا يظنَّ الذين كفروا بربِّهم ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أنَّ تركنا إيَّاهم في هذه الدنيا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خير لأنفسهم، ومحبَّة منَّا لهم. كلَّا ليس الأمر كما زعموا، وإنَّما ذلك لشرٍّ يريده الله بهم، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: {إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين}، فالله تعالى يملي للظالم، حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، حتى إذا أخذه أخذ عزيزٍ مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنُّوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

قال ابن العثيمين: {ليزدادوا إثمًا}: اللام للتعليل باعتبار فعل الله، يعني (أنَّه عز وجل يملي من أجل زيادة الإثم)؛ وللعاقبة باعتبار حال المشركين أو الكافرين؛ لأنَّهم ما كفروا لأجل أن يزدادوا إثمًا ولكن كفرهم كان سببًا لزيادة الإثم؛ وقوله: {ليزدادوا إثمًا}: أي إلى إثمهم؛ لأنَّ الرجل إذا كفر عشرة أيامٍ وزاد يومًا زاد كفرًا أكثر وهكذا؛ فهم لا يستفيدون من دنياهم بل يزدادون بذلك كفرًا.

{ولهم عذاب مهين} {مهين}: أي مذل، من الإهانة؛ وذلك لأنَّهم إنَّما كفروا استكبارًا وعُلُوًّا فعوقبوا بعذاب يذلُّهم ويهينهم.

قال الطبري: حدثنا محمد بن بشار قال، حدثنا عبد الرحمن قال، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن خيثمة، عن الأسود قال: قال عبد الله: ما من نفس برَّة ولا فاجرة إلَّا والموتُ خير لها. وقرأ: {ولا يحسبن الذين كفروا أنَّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا} وقرأ: {نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ}[سورة آل عمران: ١٩٨][١].

١- عبد الرحمن: هو ابن مهدي. وسفيان: هو الثوري. خيثمة: هو ابن عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي. وهو تابعي ثقة، أخرج له الجماعة كلهم. الأسود: هو ابن يزيد النخعي. وهذا الحديث، وإن كان موقوفًا لفظًا، فإنه - عندنا - مرفوع حكمًا، لأنه مما لا يدرك بالرأي.

وروي من طريق عبد الرزاق، عن الثوري، بهذا الإسناد. ورواه الحاكم في المستدرك ٢: ٢٩٨، من رواية جرير، عن الأعمش، به. وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه). ووافقه الذهبي.

وذكره ابن كثير ٢: ٣٢٨، من رواية ابن أبي حاتم، من طريق أبي معاوية، عن الأعمش، به، نحوه. ثم قال: (وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن الأعمش، به).

وذكره السيوطي ٢: ١٠٤، وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبي بكر المروزي في الجنائز، وابن المنذر، والطبراني. وروي نحو معناه، من حديث أبي الدرداء.

قال أبو زهرة: وقد وصف عذاب هؤلاء بأنَّه مهين ليتعزَّى المؤمنون عمَّا يرون من عزَّة هؤلاء وسلطانهم ببيان أنَّهم سيكونون من بعد في أشدِّ الذِّلَّة؛ لأن عذاب الله سبحانه سيريهم الهوان الحقيقي الدائم الذي لَا رفعة معه.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ تلك الشدائد التي تنزل بالمؤمنين هي خير لهم ليتبيَّن الطيِّب من الخبيث، ولذا قال سبحانه: { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّه يجب على الإنسان أن لا يظنَّ أنَّ إمهال الله له خير له؛ تؤخذ من النهي، والأصل في النهي التحريم؛ فلا يجوز للإنسان أن يغترَّ بإمهال الله له.

٢- أنَّ الله عز وجل بحكمته قد يستدرج بعض الخلق فيعطيه النِّعم تترى وذاك متجاوز لحدوده، ليبلغ في الطغيان غايته حتى إذا أخذه لم يفلته، كما قال النبي ﷺ: ((إنَّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وتلا قوله تعالى: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنَّ أخذه أليم شديد}([1]))).

فإن قال قائل: هل تقيسون العاصي على الكافر؟ بمعنى أنَّه قد يمهل له وهو مقيم على المعصية؟

قد نقول بالقياس بجامع أنَّ كلَّ واحد منهما أمهله الله ولم يعاقبه؛ وقد نقول بعدم القياس، وذلك لأنَّ الكفر أعظم من الفسوق؛ ولكن من رجع إلى ظاهر القرآن تبيَّن له أنَّه حتى الفاسق ربَّما يمهل له؛ في قوله تعالى: {ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}.

٣- أنَّه يجب على الإنسان أن يعتبر في عمره؛ وهل هو قد أمضاه في طاعة الله فليبشِر بالخير، وإن أمضاه في معصية الله والله تعالى يدر عليه النِّعم فليعلم أنَّ هذا استدراج.

٤- الإشارة إلى أنَّ الإنسان قد يغتر بظواهر الحال ولو كان من المتَّقين؛ لقوله: {ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّما نملي لهم خير لأنفسهم إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا} فالإنسان قد يغتر بظاهر الحال ويقول إنَّ الله لم ينعم عليَّ نعمة إلَّا لأنَّني أهل، كما قال قارون: {إنَّما أوتيته على علمٍ عندي}.

٥- إثبات زيادة الآثام؛ لقوله: {ليزدادوا إثمًا} فتدلُّ بالمفهوم على زيادة الإيمان؛ لأنَّه إذا زادوا إثمًا فما نقص عن الإثم كانت زيادة في الإيمان؛ ولهذا قال أهل السنة والجماعة: إنَّ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٦- إثبات العقوبة المذلَّة لهؤلاء؛ لقوله: {ولهم عذاب مهين}.

٧- أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فإنَّ هؤلاء لمَّا استكبروا على الخلق وعلوا عليهم أذلَّهم الله.

١- (قلت): مُتَّفق عَلَيْهِ. البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ {١٧٩}

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج٢ص٨٠: هَذِه الْآيَة من كنوز الْقُرْآن نبَّه فِيهَا على حكمته تَعَالَى الْمُقْتَضِيَة تَمْيِيز الْخَبيث من الطّيب، وَأَنَّ ذَلِك التَّمْيِيز لَا يَقع إِلَّا برسله، فاجتبى مِنْهُم من شَاءَ وأرسله إِلَى عباده، فيتميَّز برسالتهم الْخَبيث من الطَّيب والوليُّ من الْعَدو وَمن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته مِمَّن لَا يصلح إِلَّا للوقود، وَفِي هَذَا تَنْبِيه على الْحِكْمَة فِي إرْسَال الرُّسُل وَأَنه لَابُدَّ مِنْهُ وأنَّ الله تَعَالَى لَا يَلِيق بِهِ الْإِخْلَال بِهِ، وإنَّ من جحد رِسَالَة رسله فَمَا قَدَره حقَّ قدره وَلَا عرفه حقَّ مَعْرفَته وَنسبه إِلَى مَا لَا يَلِيق بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا قدرُوا الله حقَّ قدره إِذْ قَالُوا مَا أنزل الله على بشرٍ من شَيْء}. فَتَأَمَّل هَذَا الْموضع حقَّ التَّأَمُّل واعطه حَظَّه من الْفِكر، فَلَو لم يكن فِي هَذَا الْكتاب سواهُ لَكَانَ من أجل مَا يُسْتَفَاد، وَالله الْهَادِي إِلَى سَبِيل الرشاد.

قال ابن العثيمين: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه}: {ما} نافية؛ و{كان} فعل ماضي ناقص؛ واللام يسمُّونها لام الجحود، يعني لام النفي، وهي التي تأتي بعد كون منفي إمَّا (ما كان)؛ وإمَّا (لم يكن)، مثالها في (ما كان)، هذه الآية: {ما كان الله ليذر} ومثالها في (لم يكن) {لم يكن الله ليغفر لهم}؛ وسمِّيت لام الجحود والجحود هو النَّفي، لأنَّها واقعة في سياق النفي؛ أين النفي؟ {لم يكن} أو {ما كان}؛ هذا وهي تنصب الفعل المضارع إمَّا بنفسها كما هو اختيار الكوفي أو بأن مضمرة وجوبًا كما هو اختيار البصري.

وقوله: {ما كان الله}: يعني أنَّ هذا ممتنع غاية الامتناع؛ إذا جاء مثل هذا التعبير في القرآن فإنَّه يعني الامتناع، أنَّه ممتنع على الله عز وجل غاية الامتناع أن يفعل كذا؛ وهذا الامتناع ليس امتناعًا لعدم القدرة عليه، فهو قادر، لكنَّه امتناع شرعي، أي يمتنع بحسب ما تقتضيه حكمته أن يترك المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب.

وقوله: {ليذر}: أي ليترك؛ وقوله: {المؤمنين}: يعني الذين آمنوا بالله؛ {على ما هم عليه}: بدون تمييز بين الخبيث والطيب هذا مستحيل على الله؛ وقوله: {على ما أنتم عليه}: أي من غير بيان؛ وذلك لأنَّ المجتمع النبوي في عهد النبي ﷺ خليط بين المؤمنين الخلص والكافرين الخلَّص والمنافقين؛ أمَّا الكافرون الخلَّص فهم متميِّزون؛ بإعلانهم بالكفر وتصريحهم به، ولا تخفى حالهم على أحد؛ وأمَّا المؤمنون الخلَّص فكذلك، أمرهم واضح ظاهر؛ يبقى الآن الاشتباه بين المؤمن الخالص وبين المنافق، لأنَّ المنافقين يظهرون الإيمان وأنَّهم معهم: {إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا}؛ فإذًا يحتاج أن يميز الله عز وجل بين

الخبيث والطيب؛ ولهذا قال: {على ما أنتم عليه}: يعني من الخفاء والإشكال؛ {حتى يميز الخبيث من الطيب}: يعني يفصل بين الخبيث والطيب بما يخبر به عز وجل.

قال أبو زهرة: {عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْه} من اليسر، وعدم التَّعرُّض للشدائد، ومعنى {يَمِيزَ} يفصل، وقرئ: {يُمَيِّزَ}(١): أي يحدِّد ويبيِّن، والطيب هو الصادق الإيمان، والخبيث هو المنافق ومن يثق به من ضعاف الإيمان، ومعنى النَّص الكريم: ما كان من شأن الله تعالى وسنَّته في عباده، ومعاملته لأهل الإيمان والصدق أن يتركهم في حال من اليسر الذي لَا صعوبة معه، فإنَّ ذلك يجعلهم مختلطين لَا مميِّز يميِّز من دخل في الإيمان وأشرب قلبه حبَّه، ومن دخل في الإسلام ولم يذق حلاوته، ومن أضمر الكفر وأظهر الإيمان، وما كان الله تعالى ليتركهم غير متميِّزين حتى يبيِّن الخبيث من الطيب، وتنفصل الأقسام، وتتميَّز كلَّ جماعة بحقيقتها؛ وهذا على أنَّ قوله تعالى: {عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْه} من نصر مستمر، لَا مشقَّة فيه ولا ابتلاء. وعلى أنَّ قوله تعالى: {عَلَى مَا أَنتمْ عَلَيْهِ}: بمعنى مختلطين غير متميِّزين يكون السياق واضحًا.

قال ابن العثيمين: {وما كان الله ليطلعكم على الغيب}: يعني (وما كان الله ليطلعكم على الغيب في تمييز الطيب من الخبيث)؛ فأنتم لا تعلمون ما في صدور هؤلاء الخبثاء المنافقين لأنَّكم لا تعلمون الغيب، والله عز وجل ما كان ليطلعكم على الغيب؛ وهذه الآية مقيَّدة بآية الجن: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلَّا من ارتضى من رسول فإنَّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا}، هذه الآية تشبه تمامًا آية الجن؛ ولهذا قال: {ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء}، هذا استدراك على قوله: {وما كان الله ليطلعكم على الغيب}، فإنَّ هذا الخطاب عام حتى النبي ﷺ، ولكن يستدرك فقال: {ولكنَّ الله يجتبي من رسله من يشاء}: يعني يختار من رسله من يشاء فيطلعه على الغيب الذي يريد أن يطلعه عليه.

الآن هذه القطعة والجملة من الآية تصوِّر لنا حال المجتمع النبوي في عهد النبي ﷺ أنَّ فيهم أناسًا يخفى أمرهم، فبيَّن الله عز وجل أن هؤلاء الناس الذين يخفى أمرهم لابدَّ أن يفصل الله بينهم وبين المؤمنين بالعلامات التي يظهرها؛ ولا يكون هذا بإطّلاعكم على الغيب لأنَّ الله عز وجل لا يطلع أحدًا على الغيب إلَّا من ارتضى من رسوله؛ ويكون هذا عن طريق اطِّلاعنا على ما في قلوب هؤلاء عن طريق الوحي؛ ولهذا سمَّى النبي ﷺ عددًا من المنافقين لحذيفة بن اليمان الذي كان يُلَقَّب ب(صاحب السِّر) سر النبي ﷺ؛ أنظر الآن الرسول ﷺ أسرَّ إلى حذيفة بأسماء رجال من المنافقين ولم يسر إلى أبي بكر ولا إلى عمر ولا إلى من هو أفضل من حذيفة؛ وهذه تذكرنا بقاعدة ذكرها ابن القيم رحمه الله في النونية، أنَّ الخصيصة بفضيلة معينة لا تستلزم الفضل المطلق؛ وأنَّ الفضل نوعان: مطلق ومقيَّد؛ فهنا لاشك أنَّ حذيفة رضي الله عنه امتاز عن الصحابة بما أخبره به النبي ﷺ مَن هؤلاء المنافقين؛ لكنَّه لا يلزم من هذا أن يكون أفضل ممَّن له الفضل المطلق عليه كأبي بكر وعمر وما

١- أي بتشديد الياء؛ وبها قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف.

أشبههما؛ المهم أنَّنا لا نعلم عمَّا في قلوب هؤلاء، ولكن الله يميِّزهم بما يطلع عليه نبيه ﷺ؛ ولهذا قال: {ولكنَّ الله يجتبي من رسله من يشاء}. ومن الذي اجتباه من الرسل في عهد النبوة المحمدية؟ محمد ﷺ ولا نبي غيره.

قال ابن القيم في زاد المعاد ج٣ص١٩٧: أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ وَسُنَّتَهُ فِي رُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ جَرَتْ بِأَنْ يُدَالُوا مَرَّةً وَيُدَالَ عَلَيْهِمْ أُخْرَى، لَكِنْ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، فَإِنَّهُمْ لَوِ انْتَصَرُوا دَائِمًا دَخَلَ مَعَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَغَيْرُهُمْ، وَلَمْ يَتَمَيَّزِ الصَّادِقُ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَوِ انْتُصِرَ عَلَيْهِمْ دَائِمًا لَمْ يَحْصُلِ الْمَقْصُودُ مِنَ الْبَعْثَةِ وَالرِّسَالَةِ، فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ أَنْ جَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ لِيَتَمَيَّزَ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ وَيُطِيعُهُمْ لِلْحَقِّ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِمَّنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَى الظُّهُورِ وَالْغَلَبَةِ خَاصَّةً.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْلَامِ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ هرقل لأبي سفيان: (هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ قَالَ: سِجَالٌ يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، قَالَ: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ).

وَمِنْهَا: أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ الْكَاذِبِ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا أَظْهَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَطَارَ لَهُمُ الصِّيتُ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا مَنْ لَيْسَ مَعَهُمْ فِيهِ بَاطِنًا، فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ سَبَّبَ لِعِبَادِهِ مِحْنَةً مَيَّزَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ، فَأَطْلَعَ الْمُنَافِقُونَ رُءُوسَهُمْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ، وَتَكَلَّمُوا بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ، وَظَهَرَتْ مُخَبَّآتُهُمْ، وَعَادَ تَلْوِيحُهُمْ تَصْرِيحًا، وَانْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ انْقِسَامًا ظَاهِرًا، وَعَرَفَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ لَهُمْ عَدُوًّا فِي نَفْسِ دُورِهِمْ، وَهُمْ مَعَهُمْ لَا يُفَارِقُونَهُمْ، فَاسْتَعَدُّوا لَهُمْ، وَتَحَرَّزُوا مِنْهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ}: أَيْ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْتِبَاسِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُنَافِقِينَ حَتَّى يَمِيزَ أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ كَمَا مَيَّزَهُمْ بِالْمِحْنَةِ يَوْمَ أُحُدٍ؛ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} الَّذِي يَمِيزُ بِهِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ مُتَمَيِّزُونَ فِي غَيْبِهِ وَعِلْمِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ أَنْ يَمِيزَهُمْ تَمْيِيزًا مَشْهُودًا فَيَقَعُ مَعْلُومُهُ الَّذِي هُوَ غَيْبٌ شَهَادَةً. وَقَوْلُهُ: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ}، اسْتِدْرَاكٌ لِمَا نَفَاهُ مِنِ اطِّلَاعِ خَلْقِهِ عَلَى الْغَيْبِ سِوَى الرُّسُلِ، فَإِنَّهُ يُطْلِعُهُمْ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْبِهِ كَمَا قَالَ: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ}[الجن: ٢٦ ، ٢٧]، فَحَظُّكُمْ أَنْتُمْ وَسَعَادَتُكُمْ فِي الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ الَّذِي يُطْلِعُ عَلَيْهِ رُسُلَهُ فَإِنْ آمَنْتُمْ بِهِ وَأَيْقَنْتُمْ فَلَكُمْ أَعْظَمُ الْأَجْرِ وَالْكَرَامَةِ.

قال ابن العثيمين: {فآمنوا بالله ورسله}: يعني حقِّقوا إيمانكم بالله ورسله، وذلك بالتصديق التَّام والانقياد والإذعان بدون اعتراض لا على القضاء والقدر ولا على الحكم الشرعي، آمنوا بالله ورسوله؛ هكذا حال المؤمن حقًّا هو الذي ينقاد لأمر الله الكوني فيرضى به، وينقاد لأمر الله الشرعي فينفذه ويذعن له، مع أنَّ الانقياد للحكم الكوني يعمُّ كلَّ أحد سواء طوعًا أو كرهًا؛ {ورسله} جمع رسول؛ ومن المعلوم أنَّ الرسل هم الذين كلَّفهم الله سبحانه وتعالى بما أوحى إليهم أن يعملوا به ويدعوا إليه ويبلغه الناس؛ وقوله: {آمنوا بالله ورسله} الإيمان بالله يتضمَّن أربعة أمور؛ الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه وصفاته؛ لابدَّ من هذا كلِّه فمن نقص شيئًا منها فإنَّه لم يؤمن بالله حقيقة؛ والإيمان بالرسل يتضمَّن

تصديقهم فيما جاؤوا به من الوحي، ويتضمَّن التعبُّد لله بشريعتهم على من ألزموا باتِّباعهم؛ ومن المعلوم أنَّه بعد بعثة الرسول ﷺ لم يلزم الخلق إلَّا باتِّباع النبي محمد ﷺ؛ فإنَّ شريعته نسخت جميع الأديان؛ إذًا كيف نؤمن بعيسى عليه الصلاة والسلام؟ نؤمن بأنَّه رسول الله حقًّا، وأنَّ الله أنزل إليه الكتاب، وأنَّه صادق فيما جاء به من الرسالة؛ وأمَّا شرعه فلسنا مأمورين باتِّباعه؛ نحن مأمورون بالإيمان به فقط.

{وإن تؤمنوا وتتَّقوا فلكم أجر عظيم}: يعني (وإن تؤمنوا بقلوبكم وتتَّقوا بجوارحكم فلكم أجر عظيم)؛ الإيمان بالقلب هو الإقرار المتضمِّن للقبول والإذعان؛ والتَّقوى اتِّخاذُ الوقاية من عذاب الله عز وجل؛ وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في التَّقوى؛ ولكن ليعلم أنَّ التَّقوى قد تقرن بالبر وقد تقرن بالإحسان: {وإن تحسنوا وتتَّقوا}، قد تقرن بالإصلاح؛ فإذا قرنت بمثل هذا تفسَّر بأنَّ المراد بها اجتناب محارم الله؛ أمَّا إذا أطلقت فإنَّها تشمل الأوامر والنواهي؛ وهذا كثير، من الأسماء إذا قرن مع غيره صار له معنًى، وإذا وحِّد صار له معنًى؛ لكن أيهما أشمل وأعمُّ إذا قرن أو إذا أفرد؟ إذا أفرد؛ لأنَّه إذا قرن مع غيره فإنَّ هذا الذي قرن معه سيأخذ جانبًا كبيرًا من المعنى.

قال: {وإن تؤمنوا وتتَّقوا فلكم أجر عظيم}: الفاء هنا واقعة في جواب الشرط لربط الجملة الجوابية بالجملة الشرطية الفعلية؛ وإنَّما قرنت بالفاء لأنَّ الجواب وقع جملة اسميَّة؛ وقوله: {أجر}: يعني ثوابًا؛ وسمَّى الله الثواب أجرًا من باب التكرُّم والتفضُّل، كأنَّنا نحن مستأجرين أدَّينا العمل فنطالب بالأجرة، مع أنَّ الحقَّ لله علينا؛ إذًا نقول الأجر هنا الثواب وسمَّى الله ذلك أجرًا تفضُّلًا منه، كأنَّنا أجراء قمنا بالعمل فنطالب بالأجرة؛ وهذا كقوله تعالى: {من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له}، فهل الله فقير حتى نقرضه؟ كلَّا؛ ولكن هذا من باب إظهار التزام الله عز وجل بالوفاء لعبده إذا أوفى بعهده: {وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم}؛ وقوله: {عظيم}: هذا وصف من الله عز وجل لهذا الأجر؛ والوصف بالعظم من العظيم يدلُّ على عظمه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله عز وجل لابدَّ أن يميز الخبيث من الطيب؛ لقوله: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه}.

فإن قال قائل: بماذا يحصل الميز؟ قلنا يحصل بالوحي في عهد النبوة، يحصل بالقرائن في غير عهد النبوة وفي عهد النبوة أيضًا؛ فإنَّ القرائن قد تبيِّن الخبيث من الطيب، بحيث نلاحظ أعماله وننظر كيف يسير وكيف يعمل فيتبيَّن لنا خبثه من طيبه.

٢- بيان رحمة الله عز وجل بعباده، حيث لا يتركهم هكذا يشتبه بعضهم ببعض بل لابدَّ من ميز هذا من هذا.

٣- بيان حكمة الله عز وجل في أفعاله ومشروعاته أيضًا؛ لقوله: {وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب}.

٤- انقسام الناس إلى خبيث وطيب؛ لقوله: {حتى يميز الخبيث من الطيب} وهذا كقوله: {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن}، ولم يذكر قسمًا ثالثًا؛ وقال تعالى في سورة هود: {فمنهم شقيٌّ وسعيد}، ولم يذكر قسمًا ثالثًا؛ ففي العمل قسَّم الله الناس إلى قسمين، وفي الجزاء أيضًا قسَّمهم إلى قسمين.

فإذا قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الخوارج الذين يقولون: إنَّ الناس إمَّا مؤمن أو كافر، ولا يمكن لأحد أن يجمع بين الإيمان والكفر؟

فالجواب أن يقال: ليس فيه دليل لمذهبهم؛ لأنَّ المؤمن إذا لم يفعل ما يخرج به من الإيمان فإنَّه لا يصدق عليه وصف الخبيث على سبيل الإطلاق، بل هو من قسم الطيب لكن فيه خبث، وهذا الطيب غلب على خبثه، كما أنَّ الكافر أيضًا وإن فعل ما يحمد عليه كالبر والجود والشجاعة وطلاقة الوجه وما أشبه ذلك، هذه خصال الإيمان لكن خبثه أعظم من هذه الخصال فهو من قسم الخبثاء وليس من قسم الطيِّبين؛ إذًا نقول: هؤلاء المؤمنون الذين عندهم صفات الكفر من قسم الطيِّب الذي فيه خبث، لكن طيبه يغلب على خبثه؛ والكفار الذين فيهم خصال من الطيِّب من قسم الخبيث، لكن الطيب الذي فيهم قد انغمر في جانب الخبث؛ وعلى هذا فلا تقسيم، فليس هناك قسم ثالث، بل هما قسمان لكن ما غلب عليه أحد الوصفين فهو منهم.

٥- أنَّ من ادَّعى علم الغيب فهو كاذب؛ نأخذها من قوله: {وما كان الله ليطلعكم على الغيب}، فمن ادَّعى علم الغيب فهو كاذب؛ بل هو كافر؛ لقوله تعالى: {قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلَّا الله}، ولأنَّه إذا ادَّعى علم الغيب فقد كذَّب مضمون قوله: {وما كان الله ليطلعكم على الغيب}؛ والمراد بالغيب ما غاب غيبًا مطلقًا؛ وذلك الذي يكون في المستقبل؛ أمَّا الشيء الحاضر ولكنَّه غائب عن ناس دون أناس فهذا قد يطَّلع عليه الإنسان وإن لم يشاهده بخبر الجن، الجن يسيحون في الأرض يذهبون شمالًا ويمينًا وهم سريعو التَّصرُّف؛ فربما يسعون في الأرض ثم يخبرون أولياءهم بما شاهدوا في أراضٍ بعيدة فيكون هذا غيبًا إضافيًا؛ ومعنى إضافي يعني بالإضافة إلى قوم دون قوم؛ فالذين شاهدوه ليس غيبًا عندهم، والبعيدون عنه هو غيب؛ الآن الذي في الشارع هذا الذي في جنب المسجد ونحن هنا هو بالنسبة إلينا غيب لا نطَّلع عليه؛ لكن لو دخل علينا رجل وقال: رأيت في الشارع كذا وكذا؛ نقول: نحن لم نعلم الغيب لكن أخبرنا عن أمر وقع شاهده من أخبرنا به؛ فالمراد بالغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله هو الغيب المطلق وهو الذي يكون في المستقبل؛ فهذا لا يطَّلع عليه إلَّا الله.

فإن قال قائل: ألسنا إذا رأينا السماء مدلهمة والرعد قاصفًا والبرق خاطفًا ألسنا نتوقَّع المطر؟ بلى؛ فإذا قلنا ستمطر فليس هذا من علم الغيب، بل هذا مبنيٌّ على القرائن قد يخطئ ظنُّنا؛ وقد يأمر الله هذه السحاب فيتمزَّق ولا يمطر، لكن هذا حسب ما نتوقع، ولسنا نقول: هذا علم بل هو ظن مبني على قرائن؛ المهم لئلا يلتبس عليكم الأمر: أن الغيب هو الغيب المطلق وهو الذي يكون في المستقبل؛ أمَّا الغيب الإضافي النِّسبي فهذا قد يطَّلع الله عليه من شاء من عباده بواسطة كالجن

مثلًا، الجن يعلمون ما حصل في الأرض ويخبرون به أوليائهم؛ لكن من أولياء الجن؟ أولياء الجن قد يكونون متَّقين وقد يكونون مجرمين؛ فإن كانت ولاية الجن لهم بسبب الشرك فيهم كالذبائح للجن وما أشبه ذلك فهذه ولاية إجرام؛ لكن يقول شيخ الإسلام رحمه الله: إنَّ الجن قد يتولُّون المؤمن لإيمانه يحبُّونه في الله ويخدمونه في أمره؛ قال: وهذا جائز بشرطين: ألَّا تكون وسيلة استخدامهم محرَّمة، وألَّا يستخدمهم في محرَّم؛ فمثلًا إذا قالوا: لا نخدمك حتى تسجدوا لنا؛ هذا حرام شرك؛ لا نستخدمك حتى تدخل فلانًا السجن؛ هذا حرام لكنَّه ليس بشيء، يعني خدموه بدون شرك بدون حرام لكن استخدمهم في شيءٍ محرَّم فقال لهم مثلًا: اذهبوا إلى فلان فأرجفوا بإبله حتى يهرب وتشرد؛ اذهبوا إلى فلان فآذوه، روِّعوه في بيته روِّعوه في سوقه هذا حرام لا يجوز.

فلو قال قائل: إنَّ استخدامهم حرام بكلِّ حال لأنَّ الله تعالى يقول: {ويوم نحشرهم جميعًا يا معشر الجنِّ قد استكثرتم من الإنس وقال أوليائهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجَّلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلَّا ما شاء الله إنَّ ربك حكيم عليم}، وهذا يدلُّ على أنَّ استمتاع الإنسان بالجن محرَّم بكلِّ حال؟

فالجواب على ذلك أن نقول: اقرأ الآية التي بعدها حيث قال: {وكذلك نولِّي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون}، فهذا الاستمتاع استمتاع في ظلم ولاشكَّ أنَّه حرام؛ أمَّا إذا كان استمتاعًا بما ينفع وخلا من المحرَّم في طريقه أو في استخدامه فإنَّ هذا لا بأس به.

٦- أنَّ الله قد يطلع الخلق على الغيب بواسطة الرسل؛ لقوله: {ولكنَّ الله يجتبي من رسله من يشاء}.

٧- أنَّ الرسل ممَّن اجتباهم الله واصطفاهم على الخلق؛ وهذا موجود في القرآن بأنَّ الأنبياء هم الصفوة كما قال الله تعالى: {وإنَّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار}.

٨- إثبات المشيئة لله عز وجل؛ لقوله: {من يشاء} ولكنَّنا نقول كلُّ شيءٍ علَّقه الله بالمشيئة فإنَّه لابدَّ أن يكون مقرونًا بالحكمة، ليست مشيئة مجرَّدة بل لابدَّ أن تكون مقرونة بالحكمة ودليل ذلك قوله تعالى: {وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا}، فقال: {إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا}، إشارة إلى أنَّ مشيئته تتبع علمه وحكمته.

٩- وجوب الإيمان بالله ورسله عمومًا؛ لقوله: {فآمنوا بالله ورسله}، وقد بيَّنَّا في التفسير كيفية الإيمان بالرسل، وأنَّه يؤمن بأنَّهم حقٌّ وجاءوا من عند الله وهم صادقون، أمَّا اتِّباعهم فهو خاص بالنبي ﷺ.

١٠- فضيلة الإيمان والتَّقوى وأنَّه يترتَّب عليهما الأجر العظيم.

١١- بيان منَّة الله على العباد، حيث جعل إثابتهم على العمل بمنزلة الأجر المتقرَّر لهم، كأنَّ شخصًا استأجر أجراء وأعطاهم أجرهم فرضًا؛ ولكن من الذي فرضه عليه؟ الذي فرضه هو الله عز وجل.

١٢- إثبات الجزاء، وأنَّه من جنس العمل، فكما أنَّ الإيمان والتَّقوى يعتبر أمرًا عظيمًا ظاهرًا وباطنًا فكذلك الأجر كان أجرًا عظيمًا.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {١٨٠}

قال ابن العثيمين: {ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم}: {يحسبنَّ} فيها ثلاث قراءات؛ الأولى: {ولا يحسَبنَّ}، والثانية: {ولا يحسِبنَّ}، والثالثة: {ولا تحسَبنَّ} بالخطاب؛ وكلُّها قراءات سبعية يسنُّ للإنسان أن يقرأ بهذه أحيانًا وبهذه أحيانًا، إلّا أنَّه لا ينبغي أن يقرأ بالقراءة الخارجة عن المصحف أمام العامَّة، لأنَّ ذلك قد يوجب فتنة.

يقول الله عز وجل: {ولا يحسبنَّ}: أي (لا يظنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله)؛ والبخل هو المنع مع شح؛ ولهذا عدي بالباء ولم يقل: (يبخلون ما آتاهم). بل قال: يبخلون به، أي يمنعون مع شح، يشحُّون به.

قال القرطبي: واختلف في البخل والشح؛ هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين. فقيل: البخل الامتناع من إخراج ما حصل عندك. والشُّح: الحرص على تحصيل ما ليس عندك. وقيل: إنَّ الشُّح هو البخل مع حرص. وهو الصحيح لما رواه مسلم عن جابر بن عبدالله أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((اتَّقوا الظلم فإنَّ الظُّلم ظلمات يوم القيامة واتَّقوا الشُّحَّ فإنَّ الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم([١]))). وهذا يرد قول من قال: إنَّ البخل منع الواجب، والشُّحُّ منع المستحب. إذ لو كان الشُّحُّ منع المستحب لما دخل تحت هذا الوعيد العظيم، والذَّمَّ الشَّديد الذي فيه هلاك الدنيا والآخرة. ويؤيِّد هذا المعنى ما رواه النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ((لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري رجل مسلم أبدًا ولا يجتمع شحٌّ وإيمان في قلب رجل مسلم([٢]))). وهذا يدلُّ على أنَّ الشُّحَّ أشدُّ في الذَّمِّ من البخل؛ وذكر الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أنَّ النبي ﷺ قال للأنصار: ((من سيِّدكم؟)) قالوا: الجدُّ بن قيس على بخل فيه؛ الحديث([٣]).

قال ابن العثيمين: وقوله: {بما آتاهم}: أي أعطاهم الله من فضله؛ وفيه إشارة إلى أنَّ هذا البخل في غير موضعه لأنَّهم بخلوا بشيء ليس من كسبهم ولا من كدِّهم بل هو من الله وبخلوا به أن يصرفوه فيما أمرهم الله به؛ وهذا غاية ما يكون من

١- (قلت): مسلم: (٢٥٧٨).

- قال محمد فؤاد عبدالباقي في شرحه لصحيح مسلم: قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده.

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٣١١٤).

٣- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٢٧/٢٩٦)، والحديث بتمامه: عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟)) قُلْنَا: جُدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ. قَالَ: ((وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ)). وَكَانَ عَمْرٌو عَلَى أَصْنَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يُولِمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَزَوَّجَ.

الحمق أنَّ الذي أعطاك وقال: (اصرفه في كذا) تبخل؛ فإنَّ هذا من الحمق البالغ إذ أنَّ الأمر يقتضي أنَّ الذي أعطاك إذا أمرك أن تصرفه في كذا أن تصرفه كما أمر لأنَّه فضله.

وقوله: {بما آتاهم الله من فضله}: أي من خيره؛ لأنَّ الفضل في الأصل هو الزيادة، فالإنسان قد يعمل أحيانًا عملًا يؤمِّل أنَّه يكسب فيه ألفًا فيكسب ألفين أو أكثر من فضل الله عز وجل وقد يخسر.

قال أبو زهرة: وفي الآية الكريمة إشارة إلى أنَّ سبب البخل نسيان أصل المال، إذ أنَّ البخيل يحسب أنَّ ما يأتي إليه من مال إنَّما هو بجهوده وكسبه فقط، وليس فضلًا من الله، وينسى أنَّ الله سبحانه وتعالى هو المعطي المانع، وأنَّه يرزق من يشاء بغير حساب، وأنَّ الرجلين يسعيان ويتَّخذان الأسباب، فتأتي جائحة لهذا تأكل الأخضر واليابس، وينجو مال ذاك، والله على كلِّ شيء قدير، وبكلِّ شيء عليم، ولذا بيَّن الله سبحانه أنَّ المال الذي يجيء إليهم إنَّما هو بفضل من الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال: {يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّه مِن فَضْلِهِ}، فهو يبيِّن لهم أنَّ المال مال الله تعالى، وأنَّ الله تعالى يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء.

قال ابن العثيمين: وقوله: {هو خيرًا لهم}: {خيرًا}: مفعول ثاني ل{يحسب}، والمفعول الأول محذوف تقديره: بخلهم هو خيرًا لهم، (ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بخلهم خيرًا لهم، بل هو شرٌّ لهم)، كما ذكر الله عز وجل؛ و{خير} هنا اسم تفضيل فلابدَّ من مفضَّل ومفضَّل عليه؛ فما هو المفضَّل والمفضَّل عليه؟

المفضَّل عليه هو البخل، يعني: هو خيرًا لهم من العطاء، يعني: لا يظنُّوا أنَّ البخل خير من العطاء، فهم يظنُّون أنَّ البخل أفضل من العطاء، وهذا الظنُّ خطأ، لأنَّ النبي ﷺ قال: ((ما نقصت صدقة من مال))، وكم من إنسان يزداد ماله بالصدقة، ولا تنقص الصدقة مالًا مع الاحتساب لقوله تعالى: {وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه}، ومعنى يخلفه: أي يأتي بخلفه.

يقول عز وجل: {بل هو شرٌّ لهم}: شرٌّ لهم من أيِّ شيء؟ هو شرٌّ من العطاء، والعطاء ليس فيه شر؛ لكنَّ الله خاطب هؤلاء بحسب اعتقادهم حيث يظنُّون أنَّهم إذا أنفقوا ضاق عليهم الرزق، فيقول القائل منهم: أنا عندي ألف إذا أنفقت منه مائة نقص وصار تسع مائة، فيظنُّون أنَّ هذا شر؛ فيقول الله عز وجل إنَّ المنع هو الشر؛ ولهذا قال: {بل هو شرٌّ لهم} شرٌّ لهم من العطاء؛ فالعطاء خير والمنع شر.

قال السعدي: أي: ولا يظنَّ الذين يبخلون، أي: يمنعون ما عندهم ممَّا آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك ممَّا منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرُّهم منه لعباده، فبخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنُّوا به[1] على عباد الله، وظنُّوا أنَّه خيرٌ لهم، بل هو شرٌّ لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم.

١- (قلت): الفرق بين الضَّن والبخل: أنَّ الضَّن أصله أن يكون بالعواري، والبخل بالهيئات ولهذا تقول: (هو ضنين بعلمه)، ولا يقال: (بخيل بعلمه)، لانَّ العلم أشبه بالعارية منه بالهبة، وذلك أنَّ الواهب إذا وهب شيئًا خرج من ملكه فإذا أعار شيئًا لم يخرج أن يكون عالمًا به فأشبه العلم العارية فاستعمل فيه من اللفظ ما وضع لها ولهذا قال الله تعالى: {وما هو على الغيب بضنين}، ولم يقل: (ببخيل).[أنظر الفروق اللغوية:١/٣٣٢].

قال ابن العثيمين: {سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيمة}: السين يقول علماء النحو: إنَّها للتَّنفيس وتفيد التَّحقيق. التَّنفيس معناه حصول الشيء عن قرب، والتَّحقيق واضح؛ يعني أنَّ كلمة: {سيطوَّقون}، أبلغ في التَّحقيق من كلمة: (يطوقون)؛ لأنَّ السين تفيد التَّحقيق؛ وتفيد أيضًا التَّنفيس وهو الشيء عن قرب؛ فتفيد {سيطوَّقون}: أنَّ هؤلاء سوف يعاقبون هذه العقوبة حتمًا وعن قرب؛ من أين أخذنا الحتمية؟ من السين الدالَّة على تحقُّق الوقوع؛ وأخذنا القرب لأنَّ التَّنفيس الذي تدلُّ عليه السين معناه القرب.

فإذا قال قائل: إنَّ تحقُّقه معلوم، لكن كيف يكون قريبًا؟

قلنا: إنَّ يوم القيمة قريب، قال الله تعالى: {وما يدريك لعلَّ الساعة تكون قريبًا}؛ فيوم القيمة وإن كان بعيد في نظر الناس لكنَّه في الحقيقة قريب؛ وانظر إلى الأيام كيف تنطوي بسرعة حتى تنتهي لتعرف أنَّ يوم القيمة وإن بعد أمده فهو في الحقيقة قريب.

{سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيمة}: أي (سيجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم)؛ والطوق معروف مثل طوق القميص يحيط بالعنق؛ وقد بيَّن النبي ﷺ كيف يكون هذا التطويق فقال: ((مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ، يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ – يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ {وَلاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ.([1]))؛ قال العلماء: الشجاع الأقرع هو الذكر من الحيَّات، والأقرع كثير السم، لأنَّ رأسه من كثرة سمه قد تمزَّق شعره فهو أقرع، وله زبيبتان أي غدتان تشبهان الزبيب؛ قد امتلأتا من السم، فيأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه كما جاء مفصلًا في الحديث، ويقول: أنا كنزك أنا مالك، يقول ذلك توبيخًا له، فيزداد بذلك حسرة؛ هذا هو تفسير الآية الكريمة كما فسَّرها النبي ﷺ.

قال البغوي: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمُلَيْحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ أَنَا أَبِي أَنَا الْأَعْمَشُ عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ فقال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَوْ وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ أَوْ كَمَا حَلَفَ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ لَهُ إِبِلٌ أَوْ بَقَرٌ أَوْ غَنَمٌ لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا إِلَّا أُتِيَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَأَسْمَنَهُ، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا كُلَّمَا جَازَتْ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ([2]))).

١- (قلت): البخاري (٤٥٦٥).

٢- إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، الأعمش هو سليمان بن مهران.

- وهو في شرح السنة (١٥٥٣) بهذا الإسناد.

- أخرجه المصنف من طريق البخاري، وهو في صحيحه (١٤٦٠) عن عمر بن حفص بهذا الإسناد.

- وأخرجه مسلم ٩٩٠ والترمذي ٦١٧ والنسائي ٥/ ٢٩ وابن ماجه ١٧٨٥ وأحمد ٥/ ١٥٧- ١٥٨ والدارمي ١/ ٣٨١ وابن حبان ٣٢٥٦ والبيهقي ١٤٦٠ من طرق عن الأعمش به.

قال ابن كثير: عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ الذي لا يؤدِّي زكاة ماله يمثِّل الله له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان، ثمَّ يلزمه يطوِّقه، يقول: أنا كنزك، أنا كنزك[١])).

قال الحافظ أبو يعلى: عن ثوبان، عن النبي ﷺ؛ قال: ((من ترك بعده كنزًا مثّل له شجاعًا أقرع يوم القيامة له زبيبتان، يتبعه ويقول: من أنت؟ ويلك. فيقول: أنا كنزك الذي خلفت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها، ثم يتبعه سائر جسده[٢])). إسناده جيد قوي ولم يخرجوه.

قال ابن العثيمين: وقوله: {سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيمة}: يعبِّر الله سبحانه وتعالى عن الجزاء بالعمل نفسه، وهو كثير في القرآن، مثل: {سيجزون ما كانوا يعملون}، وهنا: {سيطوَّقون ما بخلوا به}، وذلك لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فكأنَّه هو العمل نفسه؛ فلهذا يعبِّر الله عنه كثيرًا. ويوم القيمة هو يوم يبعث الناس؛ وسمِّي يوم القيمة لوجوه ثلاثة: يقوم الناس فيه لرب العالمين، ويقوم فيه الأشهاد، ويقوم فيه العدل؛ يقوم الناس لرب العالمين كما قال تعالى: {ألا يظنَّ أولئك أنَّهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين}؛ وكذلك يقام فيه القسط لقوله: {ونضع الموازين القسط ليوم القيمة}؛ والثالث يقام فيه الأشهاد كما قال الله تعالى: {إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، فلهذا سمِّي يوم القيمة.

قال أبو زهرة: بهذا النص الكريم تبيَّن قبح البخل، ويتبيَّن مقام الإنفاق في سبيل الله ولكن ما حدُّ البخل؛ وما حدُّ السرف؟ وبهذين الحدَّين يتبيَّن الإنفاق الحلال والقصد.

لقد قرَّر العلماء أنَّ الإنفاق في سبيل الله تعالى لَا إسراف فيه قط، ولو كان بكلِّ المال وأنَّه يروى أنَّ عمر بن الخطاب تبرَّع في إحدى الغزوات بنصف ماله، وأنَّ أبا بكر الصديق تبرَّع بكلِّ ماله، فسأله النبي ﷺ قائلًا: ((ما أبقيت لأهلك؟)) فقال صدِّيق هذه الأمَّة: الله ورسوله[٣]. وقد كان ذو النورين عثمان بن عفان يجهز الجيش كلَّه أحيانًا، كما فعل في ساعة العسرة، ولم يعد ذلك إسرافًا.

وقد اتَّفقوا أيضًا على أنَّ الامتناع عن الإنفاق في سبيل الله تعالى في عسرة الدولة، ومداهمة الأعداء لها، بخل بل هو أقبح البخل وأشدَّه، ولذلك أجاز الفقهاء فرض ضرائب إذا داهمت الأمَّة الإسلامية الأعداء وامتنع الأغنياء عن الإنفاق، وهذا النوع من البخل هو المقصود بهذا النَّص الكريم.

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٦٩٠).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٥٩)، وقال: رواه البزار وقال إسناده حسن والطبراني وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.

٣- رواه الترمذي وقالَ هَذَا حَدِيث حسن صَحِيح: كتاب المناقب - في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٠٨). كما رواه أبو داود في الزكاة - في الرخصة في ذلك (١٤٢٩)، والدارمي: الرجل يتصدق بجميع ما عنده (١٦٠١)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (باب لَا صَدَقَةَ إلا عَن ظَهر غِنى).

- (قلت): وحسنه الإمام الألباني في المشكاة (٦٠٣٠)، والحديث بتمامه: عَن عُمَرَ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ وَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا. قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟)) فَقُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ. فَقَالَ: ((يَا أَبَا بَكْرٍ؟ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟)) . فَقَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَأَبُو دَاوُد.

وقد اتَّفقوا أيضًا على أنَّ كلَّ درهم ينفق في معصية هو إسراف، والخلاصة أنَّ الحدَّ ما بين الإسراف والبخل هو الإنفاق في غير ما أمر الله تعالى، ولذلك يقول ابن عباس: إنفاق ألف في سبيل الله لَا يكون إسرافًا، وإنفاق درهم في معصية يكون إسرافًا([1]).

قال ابن العثيمين: {ولله ميراث السموات والأرض}: {لله}: اللام هذه للاختصاص، والجار والمجرور خبر مقدَّم، وتقديمه يفيد الحصر، أي: أنَّه لله وحده؛ والميراث انتقال المال من سابق إلى لاحق كانتقاله من الميت إلى الحي؛ فمن الذي يرث السموات والأرض ويبقى بعدها؟ هو الله؛ ولهذا قال: {ولله ميراث السموات والأرض}، لا يتحوَّل ميراثها إلَّا إليه وحده عز وجل؛ ومناسبة هذه الجملة لما بعدها واضح، وذلك أنَّ الذي يبخل بماله إنَّما يبخل به ليبقى له، فبيَّن الله أنَّه لن يبقى لماله، لابدَّ أن يموت ويرثه ورثته، ثمَّ ورثته يموتون ويرثهم ورثتهم ثمَّ هكذا إلى أن ينتهي الإرث إلى الله عز وجل؛ فالمناسبة إذًا بين هذه الآية وما قبلها ظاهرة جدًّا، يعني: امنع أو لا تمنع سوف تخلف مالك من بعدك ويرثه ورثتك ومن وراءهم ورثتهم إلى أن ينتهي الإرث إلى الله عز وجل، فتفارق أنت جميع مالك ويكون لمن بعدك.

{والله بما تعملون خبير}: فيها قراءتان: {تعملون}، و{يعملون}؛ وختم الآية بهذا الاسم وهو ال{خبير([2])} واضح المناسبة؛ لأنَّ هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله قد لا يطَّلع عليهم الخلق، فالإنسان قد يكون عنده ملايين ولا يعلم الناس عنه ويبخل بزكاتها ولا يعلم عنه؛ فبيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ الله خبير بعملهم؛ والغالب أنَّ من منع الحقَّ في ماله سلِّط على هلكته في الباطل، يعني فتحت له أبواب من الباطل يصرف فيها ماله؛ ولهذا هدَّدهم الله بقوله: {والله خبير بما يعملون}.

قال السعدي: أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال. قال تعالى: {إنَّا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون}، وتأمَّل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كلَّ واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أوَّلًا: أنَّ الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكًا للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمنعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأنَّ إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: {وأحسن كما أحسن

١- (قلت): في الفروق اللغوية ج١ص١١٤: الفرق بين التبذير والاسراف: قيل: التبذير: إنفاق المال فيما لا ينبغي. والاسراف: صرفه زيادة على ما ينبغي.

وبعبارة اخرى: الاسراف: تجاوز الحد في صرف المال، والتبذير: اتلافه في غير موضعه، هو أعظم من الاسراف، ولذا قال تعالى: {إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين}.

قيل: وليس الاسراف متعلقًا بالمال فقط، بل بكل شيء وضع في غير موضعه اللائق به، ألا ترى أن الله سبحانه وصف قوم لوط بالإسراف لوضعهم البذر في غير المحرث، فقال: {إنكم لتاتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون}. ووصف فرعون بالإسراف بقوله: {إنه كان عاليًا من المسرفين}.

أقول: ويستفاد من بعض الاخبار أن الاسراف على ضربين: حرام، ومكروه.

فالأول: مثل إتلاف مال ونحوه فيما فوق المتعارف.

والثاني: إتلاف شيء ذي نفع بلا غرض، ومنه إهراق ما بقي من شرب ماء الفرات ونحوها خارج الماء. وقد روي ذلك عن أمير المؤمنين.

٢- (قلت): أنظر معنى إسم الله {الخبير} مفصلًا عند تفسير الآية (١٨) من سورة الأنعام.

الله إليك}. فمن تحقَّق أنَّ ما بيده، فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضرُّه، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

ثمَّ ذكر ثانيًا: أنَّ هذا الذي بيد العباد كلُّها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثمَّ ذكر ثالثًا: السبب الجزائي، فقال: {والله بما تعملون خبير}: فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعها – ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر – لم يتخلَّف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

قال أبو زهرة: هذا النَّص الكريم يفيد أربعة معانٍ تؤكِّد وجوب الإنفاق في سبيل الخير، والجهاد في سبيل الله تعالى: المعنى الأول – أنَّ المال كلُّه لله تعالى، فهو الذي أعطى كما عبَّر سبحانه وتعالى: {بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}، وأنَّ مآل المال إليه سبحانه وتعالى في ضمن ما يؤول إليه كلَّ شيء في هذا الوجود، بلا استثناء مطلقًا، ومن يبخل لورثة يرثونه، فليعلم أنَّ الميراث كلُّه لله تعالى، وأنه سيعطيهم إن أراد سبحانه، وإن لم يرد لهم عطاء فسينفقونه إسرافًا وبدارًا.

والمعنى الثاني – هو بيان سلطان الله تعالى على كلِّ ما في الوجود، فهو ملكه، وهو الذي يؤول إليه، وفي ذلك بيان كمال سلطانه، وتأكيد لمعنى أنَّه المعطي الوهاب، والقوي الرزاق المتين، ولذلك لم يعبِّر عن الميراث بأنَّه ميراث الأموال التي نعرفها، بل ميراث كلَّ ما حوته السماء وما حوته الأرض.

والمعنى الثالث – أنَّ العطاء الذي يعطيه الله تعالى بعض عباده، ويختصَّهم به يوجب عليهم تكليفات مالية فيه، فإذا كان سبحانه وتعالى قد ابتلى الفقراء بالفقر، فقد ابتلى الأغنياء بالمال، وأوجب عليهم أن يعطوا، وهم محاسبون على مالهم، {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُم الْمُفْلِحُونَ}، وقد فهم هذا من ذكر علم الله تعالى الدقيق العظيم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: {وَاللَّه بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}.

والمعنى الرابع – أنَّ الجزاء سيكون شاملًا كاملًا؛ لأنَّ علم الله دقيق لَا يترك صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}. ولذلك عبَّر سبحانه عن علمه بأعمالنا بأنَّه خبير، والخبرة هي العلم الدقيق الشامل.

ولقد كان الشُّحُّ في موضع الإنفاق يسرى إلى المسلمين من اليهود الذين كانوا يجاورونهم، ولذلك ذكر بعض شنائع اليهود لِيَنْفُر المسلمون منهم، ولا يقلِّدوهم في خساستهم، فقال سبحانه وتعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تهديد من بخل بما آتاه الله من فضله؛ وسبق لنا أنَّ البخل هو منع الواجب في المال، منع الواجب في المال هذا هو البخل الذي يتهدَّد ويتوعَّد عليه.

٢- أنَّ الشيطان قد يغرُّ الإنسان، فيقول: لا تنفق فيهلك مالك؛ لقوله: {ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم}، ولاشكَّ أنَّ هذا هو الواقع، ودليل ذلك أنَّ الله يحذرِّنا دائمًا من هذا الشيطان فيقول: {فلا تغرَّنَّكم الحياة الدنيا ولا يغرَّنَّكم بالله الغرور}، وأول من يغرنا بالله هو الشيطان.

٣- إقامة اللَّوم والتَّوبيخ على هؤلاء الذين بخلوا؛ يؤخذ من قوله: {بما آتاهم الله من فضله}، أي كيف يبخلون بشيء ليس من كسبهم ولا من كدِّهم بل هو من فضل الله فيبخلون به في طاعة الله.

٤- أنَّ ما أوتيه الإنسان من علم أو مال أو ولد فإنَّه من الله عز وجل؛ فالولد لا يقول الإنسان: أوتيته بسبب أنِّي تزوجت وأتيت أهلي؛ والعلم لا يقول: أوتيته بأنِّي سعيت فيه؛ والمال كذلك لا يقول: أوتيته بأنِّي سعيت فيه؛ لأنَّ الكلَّ من فضل الله؛ فتوفيقك للسَّعي في هذا الأمر من فضل الله، ثمَّ حصول النتيجة التي كنت ترجوها من فضل الله؛ فكم من إنسان خذل فلم يسعى؛ وكم من إنسان سعى ولم يحصل على ثمرة؛ فأصل السَّعي والثَّمرة كلُّها من الله؛ ولهذا قال: {بما آتاهم الله من فضله}.

٥- تحذير الباخلين من البخل؛ لقوله: {ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم}.

٦- أنَّ الإنسان قد يزين له سوء عمله فيظنُّه حسنًا؛ فالبخل خلق سيء وعمل سيء، قد يزيَّن للإنسان فيبخل مع أنَّه من الأعمال السيِّئة والأخلاق السيِّئة.

٧- إثبات العقوبة العظيمة على هؤلاء الباخلين؛ أنَّهم يطوَّقون به يوم القيمة حين لا ينفعهم النَّدم ولا يمكنهم الخلاص.

٨- تحقُّق وقوع الجزاء؛ لقوله: {سيطوَّقون} وذلك بواسطة السين.

٩- إقامة الحجَّة على أنَّ هذا البخل ليس بنافع أصحابه؛ مأخوذ من قوله: {ولله ميراث السموات والأرض}، فبخلهم لن يخلدهم في الدنيا، ولن يخلد المال لهم، بل هم سوف يجازون عليه، وسوف ينتقل المال منهم إلى ورثتهم ومن ورثتهم إلى الآخرين حتى ينتهي الأمر إلى الله عز وجل.

١٠- إثبات يوم القيمة؛ لقوله: {ما بخلوا به يوم القيمة}، والإيمان بيوم القيمة أحد أركان الإيمان الستة كما هو معروف، ولا يتمَّ إيمان عبد حتى يؤمن به؛ فإن وقع منه شكٌّ فيه فإنَّه لم يتمَّ إيمانه.

١١- إثبات علم الله عز وجل؛ لقوله: {بما تعملون خبير}؛ لأنَّ الخبرة كما قال العلماء: هي العلم ببواطن الأمور؛ ومن المعلوم أنَّ العليم ببواطن الأمور عليم بظواهرها من باب أَولى.

١٢– الإشارة إلى اسم الله {الآخر[١]} فإنَّ الله هو الأول والآخر؛ تؤخذ من قوله: {ولله ميراث السموات والأرض} فإذا ثبت إرثه لهما لزم من ذلك أن يكون هو الآخر عز وجل.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ {١٨١}

قال البغوي: وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى يَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاعَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَأَنْ يُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ بيت مدراسهم فَوَجَدَ نَاسًا كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ قَدِ اجْتَمَعُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ فِنْحَاصُ بْنُ عَازُورَاءَ وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، وَمَعَهُ حَبْرٌ آخَرُ يُقَالُ لَهُ: أَشْيَعُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفِنْحَاصَ: اتَّقِ اللَّهَ وأسلم فو الله إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَآمِنْ وَصَدِّقْ وَأَقْرِضِ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ، وَيُضَاعِفْ لَكَ الثَّوَابَ، فَقَالَ فِنْحَاصُ: يَا أَبَا بَكْرٍ تَزْعُمُ أَنَّ رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُ أَمْوَالَنَا وَمَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ؟ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَإِنَّ الله إِذًا الفقير وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَإِنَّهُ يَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيُعْطِينَا، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا أَعْطَانَا الرِّبَا، فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَذَهَبَ فِنْحَاصُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ انْظُرْ مَا صَنَعَ بِي صَاحِبُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟)) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ قَالَ قَوْلًا عَظِيمًا زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فقير وهم أَغْنِيَاءُ، فَغَضِبْتُ لِلَّهِ فَضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَجَحَدَ ذَلِكَ فِنْحَاصُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى تكذيبًا وردًّا عَلَى فِنْحَاصَ وَتَصْدِيقًا لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ}([٢]).

قال ابن العثيمين: أوَّلًا نتكلَّم على ما في الآية من القراءات؛ الذي عندنا الآن: {سنكتب} بالنون و{نقول} بالنون أيضًا؛ وبناءً على هذه القراءة تكون {ما} مفعولًا به، وتكون: {قتلَ} معطوفة على المفعول به، والمعطوف على المنصوب منصوب؛

١– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الآخر} مفصلًا عند تفسير الآية (٣) من سورة الحديد.

٢– إسناده إليهم مذكور أول الكتاب، وتقدم الكلام عليه، وذكره الواحدي في أسباب النزول (٢٧٥) عن عكرمة والسدي ومقاتل وابن إسحاق بدون إسناد.

وأخرجه الطبري ٨٣٠٠ من حديث ابن عباس وفي إسناده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، وهو مجهول.

وأخرجه الطبري ٨٣٠٢ عن السدي مرسلًا باختصار، و٨٣١٦ عن عكرمة مرسلًا، فهذه الروايات تتأيَّد بمجموعها، ويعلم أنَّ له أصلًا، والله أعلم.

– (قلت): وممَّا يؤيِّد صحة وقوع هذه الحادثة قول الحافظ في الفتح عندما ذكر سبب نزول الآية {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا}، قال: وَرَوَى بن أبي حَاتِمٍ وبن الْمُنْذِر بِإِسْنَاد حسن عَن بن عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيمَا كَانَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَبَيْنَ فِنْحَاصَ الْيَهُودِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}، – تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِ – فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَلَتْ. وذكر السيوطي في اللباب وقال: انَّ سنده حسن.

وعلى القراءة الثانية: {سيكتب ما قالوا} تكون {ما} نائب فاعل مرفوعة مبنيٌّ على السكون في محل الرفع؛ ويكون: {قتلُ} معطوف على مرفوع على نائب فاعل فيكون بالرفع؛ وعليه يكون {قتلهم} مبنيًّا على قراءة {يكتب}، ولا يجوز أن تقرأ: (سنكتب ما قالوا وقتلُهم)؛ لا؛ لا يمكن أن يرفع (قتلُ) إلّا إذا قرأنا: {سيكتب}؛ و{الأنبياء بغير حق ويقول} هذه: {يقول} توافق قراءة {سيكتب}؛ {ونقول ذوقوا عذاب الحريق}.

أمَّا: {الأنبياء}: ففيها قراءتان: {الأنبئاء}، والثاني: {الأنبياء} بالياء كما في {النبيّين} و{النبيئين}، فعلى قراءة: {الأنبئاء}، تكون من {النبأ} بالهمز وهو الخبر؛ وعلى قراءة الياء تكون من {النّبوة}، وهي الارتفاع.

يقول الله عز وجل: {لقد سمع الله قول الذين قالوا} أكّد الله هذا الخبر بثلاثة مؤكّدات؛ الأوّل: القسم المقدَّر، لأنَّ اللّام هنا واقعة في جواب القسم؛ والثاني: {قد}؛ والثالث: اللّام في قوله: {لقد سمع}، وإنَّما أكّده سبحانه وتعالى للمبالغة في تهديد هؤلاء، وأمَّا نحن المؤمنين فإنَّا نعلم أنَّه بمجرَّد ما يخبرنا عن شيءٍ فهو مؤكَّد، لكن من أجل تهديد هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة؛ {سمع} هنا بمعنى: (أدرك هذا القول، أي سمعه سماعًا)، ولا نقول بأُذنه لأنَّه لا يلزم من السماع الأُذن، بخلاف قولنا استوى على العرش، فنقول بذاته، لأنَّ الله أضاف الفعل إلى نفسه؛ أمَّا هنا لا نقول سمع بأُذنه؛ لأنَّه لا يلزم من السماع ثبوت الأُذن؛ فها هي الأرض يوم القيمة تحدث أخبارها أي تخبر عمَّا فعل الناس عليها أو عمَّا قالوا عليها، مع أنَّه ليس لها أذن؛ الجلود والأيدي والأرجل تشهد يوم القيمة على الإنسان بما عمل، وهي ليس لها آذان؛ إذًا لا يجوز أن نقول إنَّ الله له أُذن بناءً على أنَّ الله أُثبت له السمع؛ لأنَّه لا يلزم من السمع ثبوت الأذن.

إذا قال قائل: ألستم أثبتم لله عينًا؟

نقول بلى أثبتنا؛ كيف أثبتنا؟ من طريق أنَّه يرى أو من طريق أنَّه أثبت لنفسه عينين؟ الثاني، لولا أنَّ الله أثبت لنفسه عينين ما جاز لنا أن نثبت العين؛ ولهذا نحن نؤمن بأنَّ الله يتكلَّم، لكن هل نقول بلسان؟ أبدًا لا نقوله، مع أنَّ الله قال: {نزل به الروح الأمين على قلبك بلسان عربيٍّ مبين}، لكننا لا نقول لله لسان، ولا نقول لله شفتين، لأنَّ الله لم يثبت ذلك لنفسه، ولا يلزم من الكلام ثبوت اللِّسان، بدليل أنَّ الأرض تحدِّث أخبارها، والجلود تشهد، ويقول صاحب الجلد لجلده لم شهدت علينا؟ فيقول: {أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء} ولا يقول: لي لسان وشفتان؛ إذًا لا يجوز أن نثبت لله لسانًا ولا شفتين بمجرَّد ثبوت الكلام، كما أنَّه لا يجوز أن نثبت له أسنانًا؛ لأنَّ الأسنان إنَّما تكون لمن يحتاج إليها لمضغ الطعام ولا نثبت له أمعاء وما أشبه ذلك؛ لأنَّ هذه تستلزم النَّقص، إذ أنَّها آلات للأكل، والأكل مستحيل على الله عز وجل.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج١ص٢٧٠: الله يسمع، حين الكلام سمع ذلك جل وعلا. وهذا ما يثبته أهل السنة والجماعة، هذا ولا شكَّ يعظم الصفة في نفس المؤمن لأنَّه يعلم أنَّ الله جل وعلا يسمع سرَّه ونجواه؛ {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}، يسمع جل وعلا السِّرَّ والنَّجوى فلا يخفى عليه شيء، سمعه وسع الأصوات، ما من

شيء يُسْمَع إلّا والله جل وعلا يسمعه، يسمع صوت دبيب النمل فوق الصفا، وهذه الصفة يجب الإيمان بها كما ذكرت بدلالاتها. السمع في النصوص، السمع من حيث هو فعل: (سَمِعَ) أتى على أربعة أنحاء:

الأول: السمع المتعلّق بالمسموعات يعني بالأصوات.

الثاني: السمع المتعلّق بالمعاني، وهو سمع الفهم والعلم والعقل.

الثالث: السمع بمعنى الإيجاب، (سمع): بمعنى أجاب، وهذا متعلّق بالسؤال.

الرابع: السمع بمعنى الانقياد، (سَمِعَ): بمعنى انقاد، (سمع فلان لفلان)، بمعنى انقاد له.

هذه أربعة جاءت في القرآن والسنة هذه الأربعة ولا خامس لها:

الأول: (سَمِعَ) تعلُّقه بالأصوات كالآيات التي سمعت وهي قوله جل وعلا: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}، هذا سماع للمسموعات يعني للأصوات؛ {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}.

الثاني: سمع فهم وعقل وإدراك كقوله جل وعلا: {وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}، ليس المنفي هنا سماع الأصوات؛ {وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}: يعني سمع الإدراك والفهم والعقل، قال جل وعلا: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ}، {يسمعون}: يعني يفهمون، قال جل وعلا: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}: يعني ألقى قلبه، سمعه الذي هو سمع الفهم ليس الأذن فقط.

الثالث: (سمع) بمعنى أجاب وهو متعلّق بالسؤال وهذا في قولنا في الصلاة (سمع الله لمن حمده): يعني أجاب الله سؤال من حمده أو أجاب الله حمد من حمده، والإجابة هنا تكون بالثواب أو بالعطاء.

الرابع: سمع الانقياد والطاعة وهذا كما قال جل وعلا: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}: يعني منقادون لهم، وكذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا}: يعني انقادوا واتّبعوا وأطيعوا، كذلك قوله: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ}، {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ}: يعني سمع الانقياد.

إذا تبيَّن لك ذلك فهي مُرتَّبة على هذا التَّرتيب فقد يسمع سمع الأصوات ولا يفهم كما قال جل وعلا: {وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}، سمعوا الصوت ولم يفهموا الكلام على وجهه.

الثاني: قد يكون سمع عقل وفهم ولا يكون إجابة لسؤال. أن يُسأل فلان فيفهم، يسمع الأصوات يفهم ويعقل معنى السؤال ولكن لا يجيب.

الثالث: سمع إجابة متضمّن للإجابة وللفهم ولسمع الصوت.

الرابع: الانقياد وهو متضمّن للجميع.

وهذه كلُّها مثبتة لله جل وعلا على وجه الكمال – المثبت لله جل وعلا هذه الثلاثة أمَّا الرابع الذي هو سمع الانقياد والطاعة هذه خاطب الله جل وعلا بها المخلوق –.

أمَّا المخلوق فلا يتَّصف من تلك الصفات إلَّا بأقلِّها فله سمع يناسب ذاته الحقيرة، سمع للأصوات.

إذا فهِمَ فيفهَمُ الفَهْمَ الذي يناسب عقله وذاته، إذا أجاب فإنَّما يجيب بما يقدر عليه من الأشياء الحقيرة التي في يديه، وإذا انقاد فإنَّه ينقاد على وجه النَّقص أيضًا، حاشا الكُمَّلِ من خلق الله جل وعلا وهم الرسل فإنَّ انقيادهم لله جل وعلا وطاعتهم كاملة ومع ذلك يستغفرون الله جل وعلا.

إذا تبيَّن لك ذلك فيظهر لك عظم هذه الصفة صفة السمع لله جل وعلا واسم الله (السميع)، فإنَّه جل وعلا يسمع الأصوات ويعلم جل وعلا معاني كلام الخلق على اختلاف لغاتهم وعلى تفنُّن حاجاتهم، يخاطب جل وعلا العربي، ويخاطب جل وعلا العجمي، يخاطب صاحب كلَّ لسان والله جل وعلا هو الذي خلق اللُّغات وخلق الألسنة، وهو جل وعلا يسمع ذلك ويجيب ويثيب ويحاسب تبارك وتعالى. هذا ملخَّص الكلام على صفة (السمع) لله جل وعلا([1]).

قال ابن العثيمين: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إنَّ الله فقير}: وهم أناس من اليهود، منهم رجل يسمَّى فِنْحَاصُ بْنُ عَازُوراء ولكنَّ الله عز وجل في كتابه لا يذكر شيئًا خاصًا إلَّا لسبب لابدَّ من تعيين الشخص، ولهذا لم يذكر الله عز وجل أحدًا باسمه في القرآن إلَّا رجلًا مؤمنًا ورجلًا كافرًا فقط؛ الرجل المؤمن زيد بن الحارثة: {فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها}، والرجل الكافر من هذه الأمَّة أبو لهب، هذا تعليم من الله لنا، لأنَّ الوصف أَفْيَد لعمومه؛ هذه من جهة؛ ومن جهة أخرى أنَّها قد تتغيَّر حال المعيَّن، يكون بالأول فاسقًا ماردًا كافرًا ثمَّ يسلم ويتوب الله عليه؛ فإذا تاب ولم يكن له اسم أحسن؛ لكن لو ذكر اسمه بقي عارًا عليه ولو تاب؛ الثاني: أنَّه أعم، لأنَّ تعليق الحكم بالوصف أعم من تعليقه بالشخص؛ ولهذا إذا علِّق الحكم بالشخص احتمل الخصوصية، وإذا قلنا بعموم الحكم المعلَّق بالشخص فإنَّه ليس عمومًا شموليًّا ولكنَّه عموم تمثيلي، تمثيل يعني بالقياس؛ إذًا لهذا ينبغي لنا في مثل هذه الأمور أن لا نعيِّن الشخص بعينه، حتى لو أردنا أن نتكلَّم على صحيفة خبيثة، فالأَولى أن لا نعينها؛ نقول مثلًا: (قالت بعض الصحف)؛ وإذا ذكرنا الكلام عرف، أوَّلًا: لأنَّ الصحيفة قد تتغيَّر؛ وثانيًا: إذا حصرنا فقد يفهم السامع أنَّه لا يوجد سوى هذه؛ لكن إذا عمَّمنا وجعلنا الحكم معلَّقًا بالوصف شمل غيرها؛ أمَّا إذا عيَّنَّاها فقد يفهم السامع ولاسيَّما العامَّة الذي لا يعرف، يقيس أنَّ البلاء خاص بهذه الصحيفة مثلًا، لا يعرف أن يقيس؛ فإذا جعلنا المسألة معلَّقة بالوصف صار هذا أنفع؛ وهذه مسألة يدلُّ عليه القرآن وكذلك السنة، كان الرسول ﷺ لا يقول: ما بال فلان يقول كذا، يقول: ما بال أقوام، من أجل الفائدتين اللَّتين أشرنا إليهما.

{الذين قالوا إنَّ الله فقير ونحن أغنياء}: وسبب قولهم هذا أنَّ الله قال: {من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له}؛ فرحت اليهود بهذا وجاءت إلى النبي ﷺ وقالت: يا محمد إنَّ ربك قد افتقر، لأنَّه يطلب القرض منَّا؛ ولم يعلم هؤلاء البلهاء إن كانوا صادقين في ما ادَّعوا، وهم كاذبون في ما ادَّعوا حتى قولهم: إنَّ الله قد افتقر هم كاذبون ما يعتقدون هذا، لكن تَنَزُّلًا معهم نقول: إنَّ الله عز وجل جعل الإنفاق في سبيله له بمنزلة القرض إشعارًا للمنفق بأنَّه سوف يجازى عليه، كما أنَّ المقترض

---

[1] - (قلت): أنظر معنى إسم الله {السميع} مفصلًا عند تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة.

يجب عليه أن يوفي قرضه؛ فهكذا جعل الله سبحانه وتعالى العمل له بمنزلة القرض تفضُّلًا منه عز وجل وإحسان لعباده؛ واليهود لا يستغرب أن يصفوا الله بمثل هذا، فهم قالوا: يد الله مغلولة، فوصفوه بالبخل، يد الله مغلولة ما ينفق؛ وهم قالوا: إنَّ الله خلق السموات والأرض في ستة أيَّام ثمَّ تعب واستراح يوم السبت؛ ولهذا يجعلون يوم السبت هو يوم الرَّاحة عندهم، قاتلهم الله وهم كاذبون في هذا، قال الله تعالى: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيَّام وما مسَّنا من لغوب}. وليتهم اقتصروا على هذا، أقول ليتهم بناء على ما بعده وإلَّا وصفهم الله بهذا الوصف منكر من أعظم المنكر، قالوا: {ونحن أغنياء}، فجعلوا أنفسهم أكمل من الله؛ وهذا غاية من الوقاحة.

قال أبو زهرة: وفي هذا التَّعبير بيان أنَّ الله تعالى مُطَّلِعٌ عليهم، ومراقب لهم مراقبة من يستمع إليهم، وفي ذلك من التَّهديد ما فيه، إذ إنَّه إشعار بأنَّ ذا الجلال القوي القهار القادر على كلِّ شيء والذي يملك الوجود ومن فيه وما فيه، مستمع لما يقال في شأنه، وما يتجرَّؤون به عليه، كما يقول القائل لن يجده يتجرَّأ على عظيم: إنَّه يسمع قولك ويعلم به، فارتقب عواقب ما تفعل، واستشعر الهيبة والمخافة والخشية: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وقد عقَّب سبحانه ذلك بنتائج تلك المراقبة، وصرَّح بالتَّهديد الشديد في قوله تعالى: {سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ}.

في هذا الكلام تهديد شديد لهم، وذلك لأنَّ المعنى: سنثبت عليهم في سجل الله تعالى قولهم هذا وتجرُّؤهم عليه سبحانه، وليس المراد مجرَّد الكتابة، بل المراد نتيجتها وهو الحساب عليها، والجزاء من العذاب الأليم، والتَّعبير بالكتابة كناية عن العلم المستتر الثابت الذي تترتَّب عليه نتائجه وثمراته، ولما تضمَّنته الكتابة من معنى العقاب الرَّادع الذي لَا مناص منه عبَّر بالمضارع فقال سبحانه: {سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا}، والتَّعبير بـ{مَا قَالُوا}، فيه إشارة إلى ما فيه من تجرُّؤٌ على الله تعالى، وتهجُّمٌ على مقامه الأعلى سبحانه.

قال ابن العثيمين: {سنكتب ما قالوا}، وإضافة الكتابة إليه لأنَّ جنوده يكتبون ذلك، ودليل هذا قوله تعالى: {كلَّا بل تكذِّبون بالدِّين وإنَّ عليكم لحافظين كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون}، وقوله تعالى وهي أصرح: {أم يحسبون أنَّا لا نسمع سرَّهم ونجواهم بلى} نسمع {ورسلنا لديهم يكتبون}، إذًا الكتابة هنا كتابة الله عز وجل بملائكته، الملائكة تكتب، وأضاف كتابة الملائكة إلى نفسه جل وعلا لأنَّهم يكتبون بأمره وهم جنده، كما يقول القائد: فعلت كذا والفاعل غيره، الفاعل هم الجنود؛ الملك والسلطان يتكلَّم بالشيء مضيفًا إيَّاه إلى نفسه لأنَّه حصل بأمره وسلطته؛ إذًا: {سنكتب ما قالوا} بملائكتنا، والله عز وجل أحيانًا يضيف الشيء لنفسه مريدًا به الملائكة، مثل قوله تعالى: {فلو لا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون} أقرب إليه بملائكتنا؛ ولهذا قال: {ولكن لا تبصرون} ممَّا يدلُّ على أنَّ القريب في نفس المكان، لكنَّنا لا نبصرهم وهؤلاء هم الملائكة؛ ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد}، الرَّاجح فيها أنَّ المراد أقرب إليه بملائكتنا بدليل قوله: {إذ يتلقى المتلقِّيان عن

اليمين وعن الشمال قعيد}، وهذا هو ما حقَّقه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه، ذكره في مواضع من كلامه منها كلامه في شرح حديث النزول وهو مشهور متداول.

يقول: {سنكتب ما قالوا}، مجرَّد الإطِّلاع عليه أو للمجازاة؟ للمجازاة بدليل ما يأتي في آخر الآية.

{وقتلهم الأنبياء بغير حق}، ذكر قتل الأنبياء بغير حقٍّ مع أنَّهم لم يقولوا: إنَّا قتلنا الأنبياء، لكن ليبيِّن أنَّ هؤلاء اعتدوا على حقِّ الله وعلى حقِّ رسله وأنبيائه، فقتلوا الأنبياء بغير حقٍّ؛ الذي يقتل الرسول يقتل النبي، لأنَّ النبي أدنى مرتبة من الرسول؛ لكن الذي يقتل الأنبياء لو قيل: يقتلون الأنبياء في غير القرآن؛ لقلنا إنَّه لا يشمل قتلهم الرسل لأنَّ الرسول أخص؛ أمَّا في القرآن فكلُّ نبيٍّ ذكر في القرآن فهو رسول؛ إذًا فهو شامل لقتل الأنبياء والرسل.

وقوله: {قتلهم الأنبياء بغير حق}، القيد هنا قيد احترازي أو قيد كاشف؟ قيد كاشف، يعني أنَّ قتلهم للأنبياء بغير حق؛ وليس المعنى أنَّ الأنبياء ينقسم قتلهم إلى حقٍّ وغير حقٍّ؛ كلُّ قتل للأنبياء بغير حق، ومع ذلك لا يقتلون الأنبياء لشخصه، يقتلونه لما جاء به من الحقِّ؛ أي واحد يأتي بهذه النبوة يقتل.

قال القرطبي: {وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ}: أي ونكتب قتلهم الأنبياء، أي رضاهم بالقتل. والمراد قتل أسلافهم الأنبياء؛ لكن لمَّا رضوا بذلك صحَّت الإضافة إليهم. وحسَّن رجل عند الشعبي، قتل عثمان رضي الله عنه فقال له الشعبي: شركت في دمه. فجعل الرِّضا بالقتل قتلًا؛ رضي الله عنه.

قلت: وهذه مسألة عظمى، حيث يكون الرِّضا بالمعصية معصية. وقد روى أبو داود عن العرس بن عميرة الكندي عن النبي ﷺ قال: ((إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها – وقال مرَّة فأنكرها – كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها([١]))). وهذا نص.

قال أبو زهرة: وقد قرن سبحانه ذلك القول الجريء بعمل جريء من أسلافهم، وقد ارتضوه، فكان من الحقِّ أن ينسب إليهم، وهو ما عبَّر عنه سبحانه وتعالى بقوله: {وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ}، وذلك لإثبات جرأتهم في الشرِّ، واستهانتهم بالحقائق الدينية، وشَرَهِهِم إلى الفساد، وقد أثبت الله سبحانه وتعالى بذلك فساد فعلهم بهذا القتل الشنيع، وفساد قولهم بذلك القول الفاسد الجريء على الله سبحانه وتعالى.

وهنا تثار ثلاثة أمور نتكلَّم فيها بإيجاز:

أوَّلها: في قرن هاتين الجريمتين، وقد أشرنا إلى أنَّهما من نوع واحد، وهو التَّجرُّؤ على الله سبحانه وتعالى، فالقديمة تجرُّؤ على رسالة الله، والثانية تجرُّؤ على ذات الله، وبذلك يكونون قد عتوا عتوًّا كبيرًا، وضلُّوا ضلالًا بعيدًا.

١- (قلت): حسنه الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٢٣).

ثانيها: أنَّ نسبة القتل إلى الحاضرين صحيحة لأنَّهم رضوا به، وإن لم يكونوا قد باشروه، ومن رضي بجريمة فقد فعلها، وقد قال النبي ﷺ: ((إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها)).

وثالثها: أنَّه وصف قتلهم للنبيِّين بأنَّه بغير حق – مع أنَّ هذا النوع من الإجرام لَا يمكن أن يكون بحقٍّ أبدًا، وذلك للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعظم شرِّهم، وأنَّهم لَا يبالون أكان فعلهم في موضعه أم في غير موضعه.

وقد قلنا إنَّ هذه الكتابة هي للعقاب، وقد قال سبحانه بعد ذلك مصرِّحًا بالعقاب: {ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}؛ (الذوق): هو الإحساس، وهو هنا الإحساس بالألم، والتأصُّل في الذَّوق أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه، وهو هنا للألم، فالتَّعبير فيه تهكُّم عليهم، كما قال تعالى: {فَبَشِّرْهم بِعَذَابٍ أَلِيم}، والحريق النار الملتهبة، وهذا الكلام فيه إيجاز حذف، إذ أنَّ السِّياق تضمن حذف كلمات دلَّ فيها ما ظهر على ما طوى، إذًا المعنى سنكتب ما قالوا وما فعلوا ونلقيهم في جهنم وبئس المصير، ونخاطبهم وهم يَصْلون نارها بقولنا: ذوقوا عذاب تلك النار الملتهبة وآلامها، وذلك مثواهم، وقد صرَّح سبحانه بالسبب في ذلك العذاب الأليم، وإن كان ما مضى دالًّا عليه فقال: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}.

قال القرطبي: {وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}: أي يقال لهم في جهنم، أو عند الموت، أو عند الحساب هذا. ثمَّ هذا القول من الله تعالى، أو من الملائكة؛ قولان. وقراءة ابن مسعود (ويقال). والحريق اسم للملتهبة من النار، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة.

قال ابن العثيمين: يقصد به الإهانة والإذلال، وإلَّا فإنَّهم سيذوقون عذاب الحريق إذا قيل لهم ذلك أم لم يقال؛ لكن من باب الإهانة؛ وانظر إلى الإهانة العظيمة والتَّهكم في قوله تعالى: {ذق إنَّك أنت العزيز الكريم}، يقال له وهو يعذَّب في النار إهانة له؛ أي أنَّ عِزَّك وكرمك لم ينفعك: {ونقول ذوقوا عذاب الحريق}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إثبات سمع الله عز وجل؛ لقوله: {لقد سمع الله}، والسمع هنا بمعنى إدراك الصوت وإن خف؛ والمراد به هنا التَّهديد.

وليعلم أنَّ العلماء رحمهم الله قسَّموا سمع الله إلى قسمين؛ فالأول: بمعنى الاستجابة؛ والثاني: بمعنى إدراك الأصوات؛ أمَّا السمع بمعنى الاستجابة فهو كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون}، {سمعنا}: يعني بآذانهم، {وهم لا يسمعون}: أي لا يستجيبون؛ وقال تعالى: {فاتَّقوا الله ما استطعتم واسمعوا}: اسمعوا يعني سمع

استجابة؛ ومنه قوله تعالى عن ابراهيم: {إنَّ ربي لسميع الدعاء}: أي لمستجيب الدعاء؛ ومعلوم أنَّ هذا النوع أو هذا القسم من السمع معلوم أنَّه من الصفات الفعلية؛ لأنَّه يتعلّق بمشيئته.

والقسم الثاني من السمع: سمع الإدراك؛ قالوا: وينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ قسم يراد به التَّهديد؛ وقسم يراد به التأييد؛ وقسم يراد به بيان الإحاطة والشمول لسمع الله؛ فأمَّا الذي يراد به التأييد فكقوله تعالى لموسى: {قال لا تخافا إنَّني معكما أسمع وأرى}، المراد بالسمع هنا التأييد. وقد يقول قائل: والتَّهديد أيضًا بالنسبة إلى فرعون. وأمَّا الذي يراد به التَّهديد فمثل هذه الآية: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إنَّ الله فقير ونحن أغنياء}؛ وأمَّا الذي يراد به بيان شمول علم الله عز وجل وسعته فمثل قوله تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها}، قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في طرف الحجرة وإنَّه ليخفى عليَّ بعض حديثها – سبحان الله – والله عز وجل فوق عرشه فوق سبع سموات يسمع كلام هذه المرأة: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما}، تحاور الرسول والمرأة يسمعه: {إنَّ الله سميع عليم}.

٢– بيان ما عليه اليهود من الوقاحة والعدوان حيث اعتدوا على الرب عز وجل بوصفهم إيَّاه بأنَّه فقير.

٣– أنَّهم لشدَّة عتوِّهم وبغيهم لم يقتصروا على أنَّهم وصفوا الله بأنَّه فقير، بل قالوا: نحن أغنياء، فأثبتوا الكمال لأنفسهم والنقص لله عز وجل.

٤– أنَّ اليهود كما اعتدوا على الله اعتدوا على رسل الله؛ فقتلوا الأنبياء بغير حق؛ فصار منهم عدوان على مقام التوحيد ومقام الرسالة؛ فلم يحقّقوا شهادة أن لا إله إلَّا الله ولا أنَّ رسل الله رسل الله.

٥– إثبات القول لله عز وجل؛ في قوله: {ونقول ذوقوا عذاب الحريق}، والله سبحانه وتعالى قد ثبت له القول بإجماع السلف، أنَّه يقول ويتكلَّم بكلام حقيقي بحرف وصوت مسموع؛ وهذا الكلام صفة من صفاته ليس بمخلوق؛ وقالت المعتزلة والجهمية إنَّه خلق من مخلوقاته، هو كلامه لكنَّه خلق من مخلوقاته؛ وقالت الأشاعرة ومن ضاهاهم إنَّه لا يتكلَّم بكلام يسمع، وكلامه هو الكلام القائم بنفسه، والذي يسمع عبارة عنه أو حكاية وهو مخلوق، المسموع مخلوق؛ وقد ذكر ابن القيم أنَّ شيخ الإسلام رحمه الله أبطل هذا القول من تسعين وجهًا في رسالة تسمَّى (التسعينية) وأظنُّها موجودة في الفتاوى.

٦– أنَّ هؤلاء سوف يذوقون العذاب بالألم النفسي والألم البدني؛ لقوله: {وذوقوا عذاب الحريق}، ففي قوله: {ذوقوا}: ألم نفسي، لأنَّ هذا توبيخ وإهانة؛ فالأمر هنا للتَّوبيخ والإهانة، وفي {الحريق}: ألم بدني.

٧– الرَّد على من قال إنَّ أهل النار لا يذوقون العذاب لأنَّ أجسامهم تأخذ على النار وتتكيَّف بها فيصبحون لا يذوقون ألمًا؛ ونردُّ عليهم بقوله: {وذوقوا عذاب الحريق}.

٨- بيان قدرة الله عز وجل، حيث يحترق هؤلاء وتنضج جلودهم، وكلّما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها، ومع ذلك لا يموتون، مع أنَّ مثل هذا الحريق لو أصاب أحدًا من الدنيا لهلك ولكنَّهم لا يموتون كما قال الله تعالى: {لا يموت فيها ولا يحيى}، فلا يموت ويستريح، ولا يحيى حياة هنيئة.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ {١٨٢}

قال ابن العثيمين: {ذلك بما قدَّمت أيديكم}: هذا من تمام قوله: {وذوقوا عذاب الحريق}: أي يقال لهم زيادة في التَّوبيخ والنَّدم والحسرة {ذلك}؛ أي ما أصابهم من العذاب والتَّوبيخ؛ فالمشار إليه: ما سبق من قوله: {وذوقوا عذاب الحريق}؛ وهنا قال: {ذلك}؛ مع أنَّه يتحدَّث عن جماعة وأتى بكاف المخاطب المفردة، لأنَّه مرَّ علينا قريبًا أنَّ اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وأنَّ الكاف بحسب المخاطب على اللُّغة الفصحى؛ أو هي بفتح الكاف مفردة للمذكر وبكسرها مفردة للمؤنث؛ أو هي بفتح الكاف مطلقًا؛ وكلُّها لغات، لكن الأكثر أنَّها بحسب المخاطب.

{بما قدَّمت أيديكم}: أي (بسبب)؛ فالباء هنا سببية؛ و{ما} اسم موصول بمعنى (الذي): أي (بالذي)؛ وقوله: {قدَّمت أيديكم}: أي (في الدنيا)؛ والمراد بالأيدي هنا أنفسهم، لكن أضيف المقدَّم إلى الأيدي لأنَّ الغالب أنَّ الأيدي هي محل البطش والعمل، وإلَّا فمن المعلوم أنَّهم قد قدَّمت أيديهم وألسنتهم وأرجلهم وكلَّ قواهم.

{وأنَّ الله ليس بظلَّامٍ للعبيد}: و{أنَّ} هنا بالفتح عطفًا على {ما} في قوله: {بما قدَّمت}؛ أي: (وذلك بأنَّ الله ليس بظلَّام للعبيد)؛ وقوله تعالى: {وأنَّ الله ليس بظلَّام}: {ظلَّام} على صيغة المبالغة ولكنَّها في نفس الوقت على صيغة النسبة؛ والفرق بينهما أنَّ صيغة المبالغة تدلُّ على الكثرة، والنسبة تشمل الكثرة والقلَّة؛ فهل المراد هنا صيغة المبالغة أو النسبة؟ المراد النسبة؛ لماذا؟ لأنَّنا لو قلنا المراد بذلك صيغة المبالغة، لكان المنفي كثرة الظلم، مع أنَّ الله لا يظلم مثقال ذرة؛ وعلى هذا فنقول: {ظلَّام} هنا نسبة، يعني: ليس بذي ظلم، كما تقول: فلان ليس نجَّارًا، يعني ليس بذي نجارة أي ليس منسوبًا إلى النَّجَّارين؛ وقوله: {للعبيد}: جمع (عبد)، و(عبد) اسم مفرد وهو من أكثر المفردات جموعًا، له جموع متعدِّدة كثيرة، مثل (شيخ) اسم مفرد له جموع كثيرة تبلغ إلى عشرة جموع؛ والعبيد هنا المراد بهم العبيد كونًا؛ فهو لا يظلم أحدًا من العبيد كونًا، وإنَّما قلنا كونًا لندفع أنَّ المراد بذلك العبيد شرعًا، وهما متعبِّدون لله؛ وذلك لأنَّ الله لا يظلم لا الكافر ولا المؤمن، كلٌّ يجازى بحسب عمله؛ فالعبودية في هذه الآية هي العبودية العامَّة الشاملة للكافر والمؤمن؛ فالله لا يظلم كافرًا ولا يظلم مؤمنًا؛ يجازي كلَّ إنسان بعمله.

قال محمد رشيد رضا: أَيْ ذَلِكَ الْعَذَابُ إِنَّمَا يُصِيبُكُمْ بِعَمَلِكُمْ وَبِكَوْنِهِ تَعَالَى عَادِلًا فِي حُكْمِهِ، وَفِعْلِهِ لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ، فَيُعَاقِبُ غَيْرَ الْمُسْتَحِقِّ لِلْعِقَابِ وَلَا يَجْعَلُ الْمُجْرِمِينَ كَالْمُتَّقِينَ، وَالْكَافِرِينَ كَالْمُؤْمِنِينَ، فَلَوْ كَانَ سُبْحَانَهُ ظَلَّامًا لَجَازَ أَلَّا يُذُوقُوا ذَلِكَ الْعَذَابَ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِآيَاتِهِ، وَقَتْلِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِ بِأَنْ يُجْعَلُوا مَعَ الْمُقَرَّبِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وإِذًا لَكَانَ الدِّينُ عَبَثًا {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[٣٨: ٢٨]، {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[٤٥: ٢١]، {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[٦٨: ٣٥، ٣٦]، فَالِاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَ تَعْذِيبِ أُولَئِكَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ هُوَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُحْسِنِ، وَالْمُسِيءِ، وَوَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَنَاهِيكَ بِهِ ظُلْمًا كَبِيرًا، فَبِهَذَا كُلِّهِ تَعْلَمُ أَنَّ اسْتِشْكَالَ عَطْفِ نَفْيِ الظُّلْمِ عَلَى جَرَائِمِهِمْ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَالْمُبَالَغَةَ بِصِيغَةِ {ظَلَّامٍ} أَفَادَتْ أَنَّ تَرْكَ مِثْلِهِمْ يُعَدُّ ظُلْمًا كَبِيرًا، أَوْ كَثِيرًا([١]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- إثبات الأسباب؛ تؤخذ من قوله: {بما قدَّمت أيديهم}.

٢- نفي الظلم عن الله؛ لقوله: {وأنَّ الله ليس بظلَّام للعبيد}.

وهنا نقف لنبيِّن أنَّ الله سبحانه وتعالى موصوف بالإثبات وموصوف بالنَّفي؛ أمَّا الإثبات فإنَّ الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بإثبات كلُّ صفة كمال، كلُّ صفة كمال فهي ثابتة لله؛ وما ميزان الكمال؛ هل هو عقولنا القاصرة؟ أو ميزان الكمال نصوص الكتاب والسنة؟ الثاني هو الميزان؛ ولهذا نحن لا نحكم على الله فنقول هذه صفة لائقة به وهذه الصفة غير لائقة؛ بل المرجع في هذا إلى الكتاب والسنة في التَّفصيل؛ أمَّا في الإجمال فالعقل يدلُّ على أنَّ الرب لابدَّ أن يكون كاملًا؛ أمَّا الصفات المنفية فإنَّه لا يراد بها مجرَّد النفي، بل المراد انتفاء هذه الصفة لثبوت كمال الضِّد؛ فإذا نفى أن يكون ظلَّامًا للعبيد فذلك لكمال عدله، وإذا نفى أن تأخذه سنة ونوم فذاك لكمال حياته وقيُّوميَّته؛ وإذا نفى أن يصيبه لغوب فذلك لكمال قوَّته وهكذا؛ ويجب أن نعلم أنَّه لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفي مجرَّد؛ والدليل قول الله تعالى: {ولله المثل الأعلى} والنفي المجرَّد ليس مثلًا أعلى، المثل الأعلى يعني الوصف الأعلى الأكمل؛ والنفي المجرَّد عدم؛ والعدم ليس بشيء فضلًا على أن يكون وصفًا أعلى.

ثانيًا: أنَّ النَّفي المحض قد يكون لعجز الموصوف عنه، وقد يكون لعدم قابليته لهذا المنفي، يعني معناه نفينا عنه هذا الشيء لأنَّه عاجز لا يستطيع أن يفعل هذا الشيء الذي نفيناه عنه؛ وقد يكون لعدم قابليته لهذا الشيء؛ فمثلًا إذا قال قائل: فلان

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام وابن العثيمين عن (تحريم الله جل وعلا الظلم على نفسه، وعدم ظلمه لعباده) مفصلًا عند تفسير الآيتين (٢٥ و١٠٨) من سورة آل عمران.

رجل حبيب ما يظلم الناس ولا يعتدي عليهم؛ نفهم من هذا الكلام عجزه؛ ولهذا قلنا حبيب، حبيب عند الناس كلمة تصغير وتحقير؛ وهذا كقول الشاعر: قُبَيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

إنَّما فهمنا أنَّه ذم، من التَّصغير؛ والتَّصغير في الأصل يدلُّ على التَّحقير. على كلِّ حال لا يمكن يوجد في صفات الله نفي محض؛ وقد يكون النفي إذا لم يتضمَّن كمالًا قد يكون لعدم القابلية، يعني أنَّ ما نفي عنه هذا الوصف ليس لكماله لكنَّه لا يقدر؛ ومثَّل العلماء لذلك بأن تقول: إنَّ جداري لا يظلم، لماذا أصلًا ليس بقادر، لو أراد أن يظلم لم يقدر؛ إذا خذوا هذه القاعدة: لا يوجد في صفات الله تعالى نفي محض بل كلَّ ما نفى الله عن نفسه فهو متضمِّن لكمال ضدِّه.

٣- أنَّ الله تعالى يخبر عمَّا يخبر من صفاته لتطمين الخلق؛ لقوله: {وأنَّ الله ليس بظلَّام للعبيد} حتى يطمئن الإنسان أنَّه لن يجازى إلَّا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

٤- جواز إطلاق البعض على الكلِّ إذا وجدت قرينة تدلُّ عليه؛ نأخذها من الآية التي معنا من قوله: {بما قدَّمت أيديكم} المراد بما قدَّمتم؛ واليد بعض من الإنسان، لكنَّه القرينة تدلُّ على أنَّ المراد الكلّ، يعني (بما قدَّمتم)؛ ونظيرها في صفات الله: {أو لم يروا أنَّا خلقنا لهم ممَّا عملت أيدينا أنعامًا}، الإبل مثلًا قال الله: {ممَّا عملت أيدينا}، هل نقول إنَّ الله خلق الإبل بيده كما خلق آدم؟ لا؛ نقول: {ممَّا عملت أيدينا} ممَّا عملنا؛ لأنَّ الله لم يخلق الإبل مثلًا بيده؛ فيكون المراد ممَّا عملنا؛ لكن ليس معنى هذا أنَّ الآية ليس فيها دلالة على ثبوت اليد لله، بل فيها دلالة على ثبوت اليد لله عز وجل.

٥- انتفاء الظلم عن الله؛ لقوله: {وأنَّ الله ليس بظلَّام للعبيد}.

٦- إمكان الظلم من الله لولا أنَّ الله نفاه عن نفسه؛ لقوله: {وأنَّ الله ليس بظلَّام} لأنَّه لو كان الظلم غير ممكن في حقه لم يصح أن يتمدَّح به عز وجل؛ إذ لا يتمدَّح بشيء إلَّا إذا كان تركه اختيارًا؛ أمَّا لو كان مستحيلًا في حقِّه لم يكن للتمدُّح به فائدة. وبناءً على هذه الفائدة: يكون فيها ردٌّ على الجهمية، الجهمية يقولون: إنَّ الظلم محال على الله لذاته، لا لأنَّ الله نفاه عن نفسه؛ لأنَّهم يقولون: إنَّه مهما تصرَّف فقد تصرَّف في ملكه، والمتصرِّف في ملكه يفعل ما يشاء؛ فالظلم عندهم المحال لذاته، كما قال ابن القيم في النونية: (والظلم عندهم المحال لذاته)؛ ونحن نقول الظلم ليس محال لله، لو شاء الله أن يظلم لظلم؛ ولكنَّه نفاه عن نفسه تمدُّحًا بذلك؛ ولهذا قال في الحديث القدسي: ((يا عبادي إنِّي حرَّمت الظلم على نفسي)) وهذا يدلُّ على إمكانه منه لكنَّه لا يفعل.

فإن قال قائل: قد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((إنّ الله لو عذَّب أهل سماواته وأرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم(١)))؟

فالجواب أن نقول: لا معارضة بين هذا الحديث وبين الآية؛ لأنَّ الله لو عذَّبهم لم يمكن أن يعذِّبهم وهو ظالم لهم؛ إذًا لا يعذِّبهم إلَّا وهم مستحقُّون للعذاب؛ وعلى هذا فيكون الحديث مطابقًا للآية؛ أو يقال وجه آخر: إنَّ الله لو عذَّب أهل

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في الظلال (٢٤٥).

السموات والأرض لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم؛ إذا أراد أن يناقش العباد، فإنَّ من نوقش الحساب عذِّب؛ لأنَّه لو ناقشهم لكانت نعمة واحدة من نعمه تقابل جميع أعماله؛ وحينئذ يستحقُّون أن يعذَّبوا؛ فلنا في هذا الحديث مخرجان؛ المخرج الأول: أنَّه يعذِّبهم وهو غير ظالم لهم، أي لا يعذِّبهم إلَّا بذنب فيكون مطابقًا للآية؛ والثاني: أنَّ المراد بذلك المناقشة، مناقشة الحساب لأنَّ الله لو ناقشهم سبحانه وتعالى لكان نعمة واحدة من نعمه تحيط بجميع أعماله، فيبقون وليس عنده رصيد.

فإذا قال قائل: هذه صفة سلبية كما يقولون، وهل توجد الصفات السلبية في صفات الله؟

فالجواب: لا؛ لكن المراد بالصفات السلبية ثبوت كمال ضدِّها، فهو لا يظلم لا لعجزه عن الظلم ولكن لكمال عدله.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {١٨٣}

قال ابن العثيمين: هذا أيضًا من كذب هؤلاء اليهود أنَّهم قالوا: {إنَّ الله عهد إلينا}: أي أوصانا وصيَّة موثَّقة بالعهد؛ يقال: عهد إليه؛ أي أوصى إليه وصيَّة موثَّقة، ومنه العهد بالولاية؛ أي ولاية الحاكم إلى من بعده، فإنَّه يوصي بالحكم إلى من بعده مثل عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى عمر.

{ألَّا نؤمن لرسول}: يعني لرسول من عند الله؛ {حتى يأتينا بقربان تأكله النار} وذلك بأن نقرِّب قربانًا من طعام أو بهائم أو لحم أو ثياب ثمَّ تنزل نار من السماء فتأكل هذا القربان، يعني أنَّهم حصروا الآيات التي يطلبونها من الرسول بأن يأتي بنار تأكل هذا القربان؛ وكانوا فيما سبق إذا غنموا غنائم من الكفار جمعوها ثمَّ نزلت نار من السماء فأكلتها حتى أُحِلَّت الغنائم لهذه الأمَّة؛ هؤلاء يقولون لا نؤمن لرسول إلَّا إذا أتانا بهذه الآية فقط، وهي أنَّنا إذا قرَّبنا قربانًا أكلته النار.

قال السعدي: فجمعوا بين الكذب على الله، وحصر آية الرسل بما قالوه، من هذا الإفك المبين وأنَّهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار، فهم – في ذلك – مطيعون لربهم، ملتزمون عهده، وقد علم أنَّ كلَّ رسول يرسله الله، يؤيِّده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكًا لم يلتزموه، وباطلًا لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: {قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيِّنات}.

قال ابن العثيمين: {قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيِّنات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم}: يعني قد جاءتكم رسل بأكثر ممَّا تدعون الآن؛ {بالبيِّنات}: أي بالآيات البيِّنات التي تبيِّن صدق رسالتهم؛ والثاني: {وبالذي قلتم}: أي بالقربان الذي تأكله النار؛ والذي قلتم دون البيِّنات التي جاءوا بها، بدليل أنَّه قدَّم قوله: {بالبيِّنات}، فدلَّ هذا على أنَّ ما قالوه وإن كان آيةً لكنَّه

دون البيِّنات التي جاءوا بها لأنَّهم جاءوا بأعظم من هذا؛ فمثلًا موسى عليه الصلاة والسلام جاء ببيِّنة أعظم من ذلك، كان يلقي العصا فتكون حيَّة ويردُّها يحملها فتكون عصًا؛ كان يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء لكن من غير عيب، من غير برص؛ كذلك أيضًا عيسى عليه السلام كان يخرج الأموات من القبور أحياء أو يقف على الميت قبل أن يدفن فيحيا بإذن الله عز وجل: {يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله}؛ فيها قراءتان: {فيكون طيرًا}، {فيكون طائرًا}: يعني يكون طيرًا طائرًا أيضًا بالفعل؛ أيُّهما أعظم هذا أو أن تنزل نار من السماء تأكل القربان؟ الأولى أعظم؛ ولهذا قدَّمه. {فلم قتلتموهم}: {فلم} الفاء عاطفة، و{لما} اللام حرف جر، و{ما} استفهامية؛ ومن قواعد الإملاء أن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جرّ فإنَّها تحذف ألفها مثل: عَمَّ، بِمَ، لِمَ، مِمَّ، كَيمَ؛ المهم على كلِّ حال (ما) إذا دخل عليها حرف جر تحذف ألفها.

{فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين}: في أنَّكم تقبلون الرسل إذا جاءوا بهذه الآية؛ وقوله: {إن كنتم صادقين} الجملة شرطية، وذهب بعض العلماء كابن القيم رحمه الله إلى أنَّ مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب، لأنَّ المعنى مفهوم بدونه، والجواب إنَّما يؤتى به ليتمّم المعنى؛ وقال بعضهم: بل جوابها محذوف دلَّ عليه ما قبله؛ وعلى هذا الرأي يكون التقدير: {إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم}.

فإن قال قائل: لماذا عدل الله عز وجل عن المطالبة بصدق ما ادَّعوه؟

قلنا: هذا من باب التنزُّل مع الخصم، يعني على فرض أنَّ الأمر كما قلتم فقد اعتديتم حتى فيما جيء به من مطلوبكم اعتديتم على الرسل؛ وأرجوا أن ننتبه لهذا، أوَّلًا من ادَّعى دعوة فإنَّنا نعامل بمراتب؛ المرتبة الأولى: صحَّة ما قال؛ المرتبة الثانية: مخالفته لما قال؛ فهنا لم يطالبهم الله عز وجل بصحَّة ما قالوا من باب موافقة الخصم، أقول من باب موافقة الخصم أحسن من التنزُّل لأنَّ الذي معنا قرآن، أنا قلت بالأوَّل تنزُّل بناءً على العبارة المعروفة عند العلماء، ونحن نقول هنا موافقة الخصم؛ فهنا قد وافق الخصم قال: نعم هب أنَّ الأمر كما قلتم وأنَّه عهد إليكم ألَّا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربان تأكل النار، فقد جاءكم رسول بقربان تأكله النار ومع ذلك قتلتموه؛ إذًا فطلبكم هذه الآية المعيَّنة ليس عن صدق، لأنَّها قد جاءتكم ومع ذلك كذَّبتم الرسل وقتلتموهم؛ فهنا عدل عن المطالبة بصحة الدعوى من باب موافقة الخصم، أي أنَّكم لا تريدون أن تصدِّقوا الرسل وإنَّما تريدون تكذيبهم.

قال أبو زهرة: فالصِّدق المنفي هو صدق الارتباط بين الإيمان وتلك الحجَّة التي يطلبونها، والاستفهام إنكاري ينفي أن يكون ثمَّة مبرِّر للقتل على أي وجه كان المبرِّر، وينفي أيضًا صدقهم.

وسياق الخطاب الموجَّه للنبي ﷺ هو لبيان تعنُّتهم، وأنَّهم لا يطلبون حجَّة لنقص الدليل، بل يتعنَّتون، وأنَّهم فعلوا مع من أتوا لهم بهذا الدليل أشدُّ ممَّا فعلوا معك. وهنا أمر يجب التنبيه إليه، وهو أنَّ القتل والتَّكذيب مع هذه الحجَّة كان من أسلافهم، والخطاب للذين حضروا عصر النبي ﷺ، ومن يجيء بعده ممن على شاكلتهم، ولقد وجِّهت إليهم جريمة الماضين منهم؛ لأنَّ

وصف التعنُّت الذي أدَّى إلى ما كان من الأسلاف قائم في الأخلاف، ولأنَّهم راضون عن أعمالهم، فكان حقًّا أن يخاطبوا بجريمتهم؛ ولأنَّهم تكلَّموا عن الماضين منهم بأنَّهم منهم فقالوا: إنَّ الله عهد إلينا، مع أنَّ الأمر كان في هؤلاء الماضين لَا فيهم، لذلك كان عليهم أن يتحمَّلوا وصف الإجرام الذي وقع من الماضين حتى يتخلَّصوا من تلك الأمَّة الخاسرة، ويدخلوا في أمَّة الإيمان وأهل الإذعان.

ولقد بيَّن الله لنبيه أنَّ هؤلاء جنس قائم بذاته تَعوَّد التَّكذيب، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، ولذا قال سبحانه: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان تعنت هؤلاء اليهود الذين ردُّوا ما جاء به النبي ﷺ من البيِّنات بناءً على ما ادَّعوه من هذه القاعدة.

٢- أنَّه ينبغي عند المخاصمة إفحام الخصم بما يدَّعيه ليكون ذلك أبلغ في دحض حجَّته؛ يؤخذ من قوله: {قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيِّنات وبالذي قلتم}، لأنَّه إذا خوصم بما يقوله لم يبق له حجَّة؛ ومن ذلك مخاصمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للرافضة وأهل التعطيل، حيث يخاصمهم بما يُقِرُّون به؛ فمثلًا الأشاعرة أو المعتزلة أهل التعطيل عمومًا قالوا: إنَّ المراد بآيات الصفات خلاف الظاهر، لأنَّ العقل يمنع من الأخذ بظاهرها؛ فقالت الفلاسفة أهل التخييل: المراد بنصوص المعاد خلاف الظاهر، خلاف الظاهر لامتناع القول بظاهرها، لأنَّه ليس هناك بعث ولا رب ولا جنة ولا نار؛ فبماذا ردَّ عليهم أهل التعطيل؟ أهل التعطيل يقرُّون بالبعث واليوم الآخر قالوا: إنَّ كلامكم هذا غير مقبول، بل البعث حقٌّ وواقع، وذلك لأنَّنا علمنا أنَّ الرسل جاءت به، وأنَّ الشُّبَه المانعة منه وهي قول القائل: {من يحيي العظام وهي رميم} فاسدة؛ فلزم القول بثبوته؛ ونحن نقول لهم: أيضًا آيات الصفات علمنا بأنَّ الرسل جاءوا بها، وقد علمنا فساد الشُّبهة المانعة منه فوجب إثباتها؛ بل قال شيخ الإسلام رحمه الله: إنَّ نصوص الصفات في الكتاب والسنة أكثر بكثير من نصوص المعاد؛ لأنَّك لا تكاد تجد آية في كتاب الله إلَّا وجدت فيها اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته؛ فالمهم أنَّ إفحام الخصم بحجَّته أنكى وأقوى في خصمه، أي في أنَّنا نخصمه ولا يستطيع أن يجادل بعد ذلك.

٣- أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام جاءوا بالبيِّنات الدالَّة على رسالتهم، ولابدَّ من هذا عقلًا كما هو واقع شرعًا؛ لأنَّه لو جاء رسول من البشر يقول: أنا رسول الله إليكم أدعوكم إلى كذا وأمنعكم من كذا ومن خالفني قاتلته، هل يقبل منه ذلك؟ لا يقبل إلَّا ببيِّنة تشهد بما قال؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: ((ما من رسول يرسله الله عز وجل إلَّا آتاه من الآيات ما

يؤمن على مثله البشر، وإنَّما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيمة([1]))؛ وهذا لابدَّ منه إذ لا يقبل أحد أن يأتي شخص ويقول: أنا رسول الله إليكم افعلوا كذا واتركوا كذا وإن لم تفعلوا فإنِّي أقاتلكم إلَّا ببيِّنة.

٤– إقامة الحجَّة على هؤلاء الذين ادَّعوا هذه الدعوى بأنَّهم قتلوا الأنبياء الذين جاءوا بما قالوه.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ {١٨٤}

قال ابن العثيمين: ثمَّ قال الله تعالى مسلِّيًا لرسوله ﷺ: {فإن كذبوك فقد كذِّب رسل من قبلك جاءوا بالبيِّنات والزُّبر والكتاب المنير}، فيها قراءة: {وبالزُّبر والكتاب المنير}، أي زيادة الباء.

يقول الله عز وجل: {فإن كذَّبوك}، الخطاب للرسول ﷺ؛ والفاعل قريش وأهل الكتاب وكلُّ من كذَّب الرسول؛ {فقد كذِّب} الفاء واقعة في جواب الشرط لأنَّه مقرون ب{قد}؛ وقوله: {كذِّب رسل} وفي آية أخرى: {فقد كذَّبت رسل} فلماذا جاء التذكير والتأنيث؟ نقول لأنَّ {الرسل} جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه ثبوت التاء وحذفها؛ قال ابن مالك رحمه الله:

والتاء مع جمع سوى السالم من ... مذكر كالتاء مع إحدى اللبن

اللَّبِن إحداها لِبنة؛ فاللبنة تذكر وتؤنث، وجميع الجموع تذكر وتؤنث ما عدى جمع المذكر السالم على رأي ابن مالك؛ ويضاف إليها على رأي ابن هشام جمع المؤنث السالم؛ ويقابله من قال بأن جميع الجموع يجوز تذكيرها وتأنيثها حتى السالم من مذكر أو مؤنث؛ ومنه قول الزمخشري يرد به على أعدائه يقول: (لا أبالي بجمعهم كلُّ جمع مؤنث)؛ المؤنث لا يقابل الرجال؛ الشاهد قوله: (كلُّ جمع مؤنث)؛ والذي يظهر والله أعلم أنَّ الرأي الصحيح رأي ابن هشام، أنَّ السالم من الجمع المذكَّر يجب تذكيره ومن الجمع المؤنث يجب تأنيثه أمَّا جمع التكسير فيجوز فيها التذكير والتأنيث؛ هنا: {فقد كذِّب}، وفي آية أخرى: {فقد كذِّبت}. وقوله: {رسل من قبلك} الرسول كما مرَّ علينا كثيرًا هو الذي أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

قال السعدي: أي: هذه عادة الظالمين ودأبهم، الكفر بالله وتكذيب رسل الله وليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور ما أتوا به، أو عدم تبين حجَّة، بل قد {جاءوا بالبيِّنات}، أي: الحجج العقلية والبراهين النقلية.

قال ابن العثيمين: جملة: {جاءوا بالبيِّنات}، يجوز أن تكون صفة ل{رسل} ويجوز أن تكون حالًا؛ أمَّا جواز أن تكون صفة فظاهر، لأنَّ {رسل} منكر فالذي يأتي من بعده يكون صفة؛ وأمَّا جواز كونها حالًا مع أن الذي قبلها منكر فلأن هذه النَّكرة وصفت، وإذا وصفت النَّكرة جاز وقوع الحال منها، لأنَّها إذا وصفت تخصَّصت.

١– (قلت): متفق عليه. البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢). والحديث بتمامه عند مسلم: ((مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).

{البينات}: هي الآيات، البيّنات الشرعية والكونية؛ فالآيات الشرعية هي الكتب التي جاءوا بها، والآيات الكونية هي ما يسمّى بالمعجزات الحسّيّة.

{والزُّبر}: جمع زبور، والمراد به ما اشتمل على المواعظ والزواجر، هذا الزُّبر؛ ولهذا كان الزَّبور الذي أوتيه داود أكثره مواعظ وزواجر.

{والكتاب المنير}: {الكتاب} بمعنى المكتوب؛ و{المنير} بمعنى المنير للظلمات؛ وهذا العطف وهو: {والزُّبر والكتاب المنير} من باب عطف الصفة على الصفة الأخرى؛ لأنَّ الزُّبر تتضمَّن الكتاب المنير؛ وعطف الصفات بعضها على بعض موجود في القرآن ومنه قوله تعالى: {سبِّح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدَّر فهدى والذي أخرج المرعى}، فقوله: {والذي قدَّر}: هذا من باب عطف الصفات: {والذي أخرج}: أيضًا من باب عطف الصفات؛ فالتغاير هنا تغاير صفة وليس تغاير أداة.

قال السعدي: {والكتاب المنير} للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضًا للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم، ولا يهمَّنَّك شأنهم.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تسلية الرسول ﷺ. ويتفرَّع عليها: أن يتسلى الإنسان بكلِّ ما أصاب غيره؛ فمثلًا الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يؤذى فيتسلَّى بأذيَّة غيره؛ لأنَّ الإنسان إذا علم أنَّ غيره أصيب بمثل ما أصيب به لاشكَّ أنَّه ينسى الحزن، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا تقول:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

الشاهد هنا قولها: أسلِّي النَّفس عنه بالتأسِّي؛ فالإنسان إذا نظر يمينًا وشمالًا وإذا هذا مصاب بعقله، وهذا مصاب ببدنه، وهذا مصاب بأهله، وهذا مصاب بماله يتسلَّى؛ كذلك الرسول ﷺ إذا قال الله له: قد كذِّب رسل من قبلك، لاشكَّ أنَّه يهون عليه المصيبة وأنَّه يتسلَّى بذلك، لأنَّه بشر يلحقه من أحكام البشرية ما يلحق غيره.

٢- أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام يؤذون بالتَّكذيب، ولا أظنُّ أنَّ شيئًا أشقُّ على النَّفس من التَّكذيب فيمن جاء بالصِّدق؛ الإنسان يكاد يتقطَّع إذا أخبر بشيءٍ صِدق ثمَّ قيل له: كذبت؛ فكيف وهم من عند الله عز وجل مؤيَّدون بآياته يُكَذَّبون؛ لاشكَّ أنَّها شديدة عليهم، ولكنَّهم يصبرون عليهم الصلاة والسلام، كما قال الله تعالى: {ولقد كذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذِّبوا وأوذوا}: يعني وعلى ما أوذوا أو معطوفة على: {كذِّبت}، أي وحصل لهم الأذيَّة أيضًا فصبروا على ما كذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا.

٣- أنَّ الرسل لابدَّ أن يؤيَّدوا بالبيِّنات؛ لقوله: {جاءوا بالبيِّنات}.

٤- أنَّ الرسل السابقين كلُّهم جاؤوا بالكتاب، ما من رسول إلَّا ومعه كتاب؛ ويؤيِّد هذا قوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط}، وذلك لأنَّه لابدَّ لكلِّ رسول من شريعة، والشريعة تكون بما يكتب، سواء نزلت وحيًا ثمَّ كتبت أو نزلت مكتوبة كالتوراة، فإنَّ الله كتبها بيده وأنزلها عز وجل.

٥- أنَّ الكتب السابقة ككتابنا كلُّها تنير الطريق لمن أراد المسير، ولكن أعظمها إنارة هو هذا القرآن الكريم؛ ولهذا كان مُهيمنًا على ما سبقه من الكتب، كلُّ الكتب التي سبقه منسوخة به.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ {١٨٥}

قال السعدي: هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنَّها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغرُّ بمحاسنها، ثمَّ هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفَّى فيها النفوس ما عملت في هذه الدَّار، من خير وشر.

قال ابن العثيمين: {كلُّ}: من صيغ العموم، وال{نفس} قد يراد بها الروح وقد يراد بها البدن بالروح؛ وكلاهما صحيح؛ فالموت يذوقه البدن وتذوقه الروح.

وقوله: {ذائقة الموت}: أي ذائقة طعمه، أي لابدَّ أن تموت؛ ولكنَّ الله عبَّر بالذَّوق لأنَّه أبلغ في الحصول، لأنَّ الذَّوق يحصل به حقُّ اليقين. وقد قسَّم العلماء اليقين إلى ثلاثة درجات: علم؛ وعين؛ وحق؛ فالعلم بالخبر، والعين بالمشاهدة، والحق بالذَّوق؛ فإذا قال لك قائل: هذه تفاحة وقد أخفاها في كيس والقائل صدوق؛ فبماذا تسمِّي هذا؟ تُسمِّيه بعلم اليقين؛ فإذا كشفها فهو عين اليقين؛ فإذا أكلها المخبر فهو حقُّ اليقين؛ ولهذا عبَّر عز وجل بالذَّائقة، لأنَّ الموت حقٌّ لابدَّ لكلِّ حي من موت إلَّا الحي القيوم عز وجل.

وقوله: {كلُّ نفس}: هل المراد من بني آدم ومن الجن ممَّن على الأرض بحيث نقول: إنَّ الملائكة لا يموتون؟

الجواب لا؛ كلُّ أحدٍ يموتون: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلَّا من شاء الله}، ذكر العلماء أنَّه يستثنى من هذا ممَّن لا يموت وممَّن خلقوا للبقاء، يستثنى الولدان الذين في الجنة، والحور اللاتي في الجنة فإنَّهم خلقوا للبقاء فلا يموتون؛ أمَّا الملائكة وجميع الخلق فإنَّهم يموتون.

قال ابن كثير: فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أوَّلًا.

قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية ج٧ص٤٣٠: قال الله تعالى لموسى صلى الله عليه وسلم: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}[طه: ٤١]، وقال: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}[آل عمران: ٢٨-٣٠]، وقال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[الأنعام: ٥٤]، وقال عيسى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}[المائدة: ١١٦]، وقال: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[آل عمران: ١٨٥]، فقد عرف من عقلَ عن الله تعالى أنَّه لا يعني نفسه مع الأنفس التي تذوق الموت، وقد ذكر الله كلَّ نفس؛ فكذلك إذا قال: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، لا يعني نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة؛ ففي هذا دلالة وبيان لمن عقل عن الله عز وجل، وهذا من كلامه يبيّن أنَّ مسمَّى لفظ (النفس) عنده هي ذات الله تعالى أخبر أنَّها لا تدخل في عموم قوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، كما لم يدخل في عموم قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[آل عمران :١٨٥]، مع إخبار أنَّ له نفسًا كما تلاه من الآيات؛ ومعلوم أنَّ قوله: {كُلُّ نَفْسٍ}، ليس المراد به صفة من صفات الإنسان، بل المراد به هو نفسه، فعلم أنَّ قوله تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي} ونظائر ذلك ليس هو صفة للرَّب بل هو الرَّب نفسه.

قال ابن كثير: وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنَّه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدَّة وفرغت النطفة التي قدَّر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البريَّة – أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرَّة؛ ولهذا قال: {وإنَّما توفَّون أجوركم يوم القيامة}.

قال ابن العثيمين: وقوله: {وإنَّما توفَّون أجوركم يوم القيمة}: هذه حصر، يعني: لا توفون أجوركم إلَّا يوم القيمة؛ والمراد بالتَّوفية هنا توفية الكمال، وإلَّا فإنَّ الإنسان قد يوفَّى أجره في الدنيا ويدخَّر له أيضًا زيادةً على ذلك، والكافر أيضًا ربما يوفَّى أجره في الدنيا أي ما عمل من خير فإنَّه يطعم به في الدنيا لكن في الآخرة ليس له خلاق؛ وقوله: {وإنَّما توفَّون أجوركم يوم القيمة} بعد قوله: {كلُّ نفس ذائقة الموت}، قد يشعر بأنَّ المراد بيوم القيمة هنا ما هو أعمُّ من القيامة الكبرى، فيشمل القيامة الصغرى التي تكون لكلِّ موجود من ذوات النفوس.

{فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز}: {زحزح} أي دفع ببطء، وذلك لأنَّ النار محفوفة بالشهوات، والشهوات تميل إليها النفوس فلا يكاد الإنسان ينصرف عن هذه الشهوات إلَّا بزحزحة لأنَّه مقبل عليها بقوة؛ ولهذا قال: {زحزح عن النار}: أي دفع عنها بمشقَّة وشدَّة؛ {وأدخل الجنة فقد فاز}: لأنَّه نجا من المرهوب وحصل على المطلوب؛ {وما الحياة الدنيا إلَّا متاع الغرور}: {ما} هذه نافية ولم تعمل عمل ليس لأنَّ النفي انتقض، وإذا انتقض النفي بطل عمله. وقوله: {الحياة الدنيا}: وصفها بالدنيا لوجهين؛ الوجه الأول: لدنوّها زمنًا، والوجه الثاني: لدنوّها قدرًا؛ أمَّا دنوُّها زمنًا فظاهر لأنَّها قبل الآخرة؛ وأمَّا دنوُّها قدرًا فقد قال النبي ﷺ: ((لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها))، ليست دنياك التي أنت فيها

وليست دنياك الخاصة بك أنت؛ بل الدنيا من أوّلها إلى آخرها؛ إذًا الحياة هذه بالنسبة للآخرة دنيئة، ودانية من الدنو وهو الانحطاط.

قال ابن كثير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئم: {فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز}([1]))).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة، فلتدركه منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه([2]))).

قال السعدي: ومفهوم الآية، أنَّ من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فإنَّه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السَّرمدي. وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأنَّ العاملين يجزون فيه بعض الجزاء ممَّا عملوه، ويقدَّم لهم أنموذج ممَّا أسلفوه، يفهم هذا من قوله: {وإنَّما توفَّون أجوركم يوم القيامة}، أي: توفية الأعمال التَّامَّة، إنَّما يكون يوم القيامة، وأمَّا ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: {ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر}.

قال ابن كثير: {وما الحياة الدنيا إلَّا متاع الغرور}: تصغيرًا لشأن الدنيا، وتحقيرًا لأمرها، وأنَّها دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى}[الأعلى:١٦، ١٧]، وقال تعالى: {وما الحياة الدنيا في الآخرة إلَّا متاع} [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: {ما عندكم ينفد وما عند الله باق}[النحل:٩٦]، وقال تعالى: {وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى}[القصص:٦٠]، وفي الحديث: ((والله ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع إليه؟([3]))).

وقال قتادة في قوله: {وما الحياة الدنيا إلَّا متاع الغرور}: هي متاع، هي متاع متروكة أوشكت – والله الذي لا إله إلَّا هو – أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلَّا بالله.

قال ابن العثيمين: وقوله: {إلَّا متاع الغرور}: أي متعة تغرُّ صاحبها وتخدعه؛ وكم من أناس زيّنت لهم الدنيا فانخدعوا بها، وكان مآلهم إلى السَّحيق لأنَّهم اغتروا بها.

١- رواه أحمد في مسنده (٢/٤٣٨)، والترمذي في السنن برقم (٣٢٩٢)، والحاكم في المستدرك (٢/٢٩٩)، وقال: (على شرط مسلم)، ووافقه الذهبي، كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة به. وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة وله شواهد من حديث سهل بن سعد في الصحيحين كما سيأتي، ومن حديث أنس بن مالك عند أحمد في المسند (٣/١٤١)، انظر الكلام عليه موسعا في: السلسلة الصحيحة للألباني برقم (١٩٧٨).

– (قلت): وحسنه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٠١٣).

٢- صحيح: مسلم (١٨٤٤).

٣- صحيح: مسلم (٢٨٥٨).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- الموت حقٌّ لابدَّ منه؛ لقوله: {كلُّ نفس ذائقة الموت}.

٢- حثُّ الإنسان على المبادرة في العمل الصالح لأنَّه إذا كان ميتًا ولا محالة وهو لا يدر متى يموت، فإنَّ العقل كالشرع يقتضي أن يبادر ولاسيَّما في قضاء الواجبات والتَّخلِّي عن المظالم، لا تؤخِّر فإنَّ التَّأخير له آفات؛ كثيرًا ما يقول الإنسان أنا سأفعل هذا غدًا ولكن يتهاون ثمَّ يأتي الغد وما بعده ويضيع عليه الوقت.

٣- أنَّ كمال الأجر إنَّما يكون يوم القيمة؛ لقوله: {وإنَّما توفَّون أجوركم}، والتَّوفية تقتضي أنَّ هناك شيئًا سابقًا يزاد، وهو كذلك، فإنَّ الإنسان قد يثاب في الدنيا على عمله ولاسيَّما الإحسان إلى الخلق وقضاء حوائجهم؛ لأنَّه ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه([1]))).

وقال: ((من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته([2]))).

٤- إثبات يوم القيمة؛ لقوله: {يوم القيمة}، وسمِّي يوم القيمة لأنَّه يقوم فيه الناس لرب العالمين هذا واحد؛ ويقوم الأشهاد؛ ويقام فيه القسط؛ وأدلَّة هذا معروف قال الله تعالى: {يوم يقوم الناس لرب العالمين}، وقال تعالى: {إنَّا للنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال سبحانه وتعالى: {ونضع موازين القسط ليوم القيمة}.

٥- أنَّه لا يكمل الفوز إلَّا بأمرين: أن يزحزح الإنسان عن النار وأن يدخل الجنة؛ ومعلوم أنَّ من زحزح عن النار فلابدَّ أن يدخل الجنة؛ لأنَّه ليس في الآخرة إلَّا داران فقط إمَّا النار وإمَّا الجنة؛ وقد بيَّن النبي ﷺ في الحديث الصحيح ما يحصل به هذا الثواب العظيم الزحزحة عن النار وإدخال الجنة فقال: ((من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحبُّ أن يؤتى إليه))، فذكر حقُّ الله وحقُّ العباد؛ فمن وجد من نفسه هذين الوصفين الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنَّه يأتي إلى الناس ما يحبُّ أن يؤتى إليه فليبشر بهذا.

٦- أنَّها تدلُّ على أنَّ الله لا يرى في الجنة؛ صح؟ ما فيها لا نفي ولا إثبات؛ ولكن الزمخشري في تفسيره قال: أي فوز أعظم من أن يزحزح الإنسان عن النار ويدخل الجنة، أي فوز أعظم؛ يريد بذلك نفي الرؤية؛ فنقول له: إذا دخل الإنسان الجنة فإنَّه سيرى ربه، ويكون رؤيته لله عز وجل أعظم النعيم؛ فليس في الآية ما يدلُّ على نفي الرؤية إطلاقًا، وإذا لم يكن فيها دليل على

١- (قلت): رواه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)).

٢- (قلت): البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠). والحديث بتمامه: ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ مَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).

نفي الرؤية فإنَّ هناك نصوصًا من القرآن والسنة تدلُّ على ثبوت الرؤية، والمؤمن هو الذي لا يتتبع المتشابه من القرآن يتتبَّع المحكم ويحمل عليه المتشابه.

٧- التَّزهيد في الدنيا؛ لقوله: {وما الحياة الدنيا إلَّا متاع الغرور}.

٨- أنَّه يجب على الإنسان الحذر من مغبَّة الدنيا وغرورها؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((والله ما الفقر أخشى عليكم وإنَّما أخشى أن تفتح الدنيا عليكم فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم([1]))، وصدق الرسول ﷺ أنَّ هذا هو الخوف؛ وانظر الآن لمَّا فتحت الدنيا على الناس حصل الهلاك، حتى الذين لم تفتح عليهم إذا سمعوا من فتحت عليهم هلكوا. الآن نسمع في بعض بلاد الأرض أنَّ هناك قتالًا على الخبز والطعام مع أنَّهم فقراء، لكنَّهم يتقاتلون عليه لأنَّهم يسمعون أن هناك من يشبع من الخبز لا في بلادهم بل في بلاد غيرهم؛ فإذا انصرف الإنسان إلى الدنيا وصارت همَّه فإنَّها ستغرُّه وتخدعه: {وما الحياة الدنيا إلَّا متاع الغرور}.

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {١٨٦}

قال ابن العثيمين: {لتبلونَّ}: هذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات؛ هذه دائمًا تمرُّ بنا ونبيِّنها، اللَّام ونون التوكيد والقسم المقدَّر؛ لأنَّ اللام هذه موطئة للقسم أي: (والله لتبلون)؛ والابتلاء الاختبار، والله سبحانه تعالى أحيانًا يختبر بالخير وأحيانًا يختبر بالشر، كما قال الله تعالى: {ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنة}، وكما قال الله تعالى عن سليمان: {هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر}، وذلك أنَّ الإنسان دائر بين حالين؛ إمَّا شيء يسرُّ به ويفرح به، فهذا وظيفته الشكر؛ وإمَّا شيء يسوؤه ويحزنه فهذا وظيفته الصبر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمره كلَّه خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له ولا يكون ذلك إلَّا للمؤمن([2]))).

١- (قلت): البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١). والحديث بتمامه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافَوْا صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ انْصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ((أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟))، فَقَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: ((فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَ اللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ))، وفي رواية: ((وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ)).

٢- (قلت): مسلم (٢٩٩٩)، والحديث بتمامه: عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)).

هنا يقول عز وجل: {لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم}: {في أموالكم} إمَّا من قبل الله عز وجل كالجوائح؛ وإمَّا من قبل المخلوقين كتسلُّط المشركين على أموال المسلمين؛ وكلُّ هذا من البلوى الذي يبتلي الله به العباد.

وقوله: {وأنفسكم}: يشمل أيضًا البلوى المتَّصلة والمنفصلة؛ البلوى المتَّصلة ما يحصل على الإنسان من البلوى في بدنه من الله عز وجل، مثل المرض والعجز وما أشبه ذلك؛ والبلوى المنفصلة ما تكون في الأولاد، لأنَّ الأولاد من أنفسنا، يبتلى الإنسان في ولده في أهله في زوجته وغير ذلك، هذا أيضًا من الابتلاء؛ ثمَّ إنَّ الابتلاء الذي يكون إمَّا من الله عز وجل وإمَّا من المخلوق، يبتلى الإنسان في نفسه من المخلوقين، يؤذونه أحيانًا بالضَّرب، وأحيانًا بالقول، وأحيانًا بالقتل كما قتلوا الأنبياء بغير حق.

قال السعدي: يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنَّهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التَّعريض لإتلافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التَّكليف بأعباء التَّكاليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد في سبيل الله، والتَّعرُّض فيه للتَّعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يحب.

قال ابن العثيمين: {ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم}: وهم اليهود والنصارى؛ {ومن الذين أشركوا}: وهم الوثنيون كقريش وغيرهم، هذا لبيان الواقع؛ وذلك لأنَّ القيود أحيانًا تكون لبيان الواقع لا للاحتراز، وهذا كثير مثل قوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم} فهنا لو قال قائل: هل لنا رب لم يخلقنا؟! نقول: لا؛ لماذا قال: {الذي خلقكم}؟ لبيان الواقع.

تسمعون منهم: {أذًى كثيرًا} بالقول لأنَّه هو الذي يسمع، مثل أن يُعَيِّروكم أو يسبُّوا دينكم أو يسبُّوا نبيكم؛ وقد قالوا عن النبي ﷺ إنَّه ساحر كذَّاب: {أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنَّ هذا لشيء عجاب}، وقالوا إنَّه مجنون: {أئنَّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون}، وقالوا إنَّه كاهن، ووصفوه بكلِّ عيب؛ ولاشكَّ أنَّ هذا يؤذي المؤمنين، ويؤذي النبي ﷺ؛ ولكن وظيفتنا نحو هذا الأمر الصبر؛ وقوله: {أذًى كثيرًا}: يعني وأذًى قليلًا من باب أَولى؛ لكن الأذى الكثير أشدُّ على الإنسان من الأذى القليل، ومع ذلك فإنَّه مأمور بالصبر؛ ولهذا قال: {وإن تصبروا وتتَّقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور}. وتأمَّل قوله: {أذًى} ولم يقل (ضررًا)؛ لأنَّ هذا الذي نسمع يؤذينا ولكن لا يضرُّنا، قال تعالى: {وإن تتَّقوا وتصبروا لا يضرُّكم كيدهم شيئًا}، وهنا فرق بين الأذيَّة وبين الضَّرر، قد يتأذَّى الإنسان بالشيء ولا يتضرَّر منه؛ ولهذا أثبت الله سبحانه وتعالى أنَّ عباده يؤذونه، أي من عباده من يؤذيه، ونفى أن يكون أحد يضرُّه؛ فقال عز وجل في الحديث القدسي: ((يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني))، وقال: {إنَّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذابًا مهينًا}، فأثبت الأذيَّة وقال تعالى في الحديث القدسي: ((يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدَّهر وأنا الدَّهر))، فأثبت الأذيَّة أيضًا؛ أمَّا الضَّرر فلا؛ فهنا يسمع المؤمنون من أهل الكتاب ومن المشركين ما يؤذيهم ولكنَّه لا يضرُّهم.

قال الشيخ مقبل في الصحيح المسند: قال الإمام أبو دواد رحمه الله ج٣ ص١١٤ حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أنَّ الحكم بن نافع حدَّثهم أنَّ شعيب عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون والمشركون يعبدون الأوثان واليهود وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والعفو ففيهم أنزل الله تعالى {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} الآية.

فلمَّا أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبي ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطًا يقتلونه فبعث محمد بن مسلمة وذكر قصة قتله فلمَّا قتلوه فزعت يهود والمشركون فغدوا على النبي ﷺ فقالوا طرق صاحبنا فقتل فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمون عامَّة صحيفة.

الحديث قال المنذري قوله عن أبيه فيه نظر فإنَّ أباه عبد الله بن كعب ليست له صحبة ولا هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ويكون الحديث على هذا مرسلًا ويحتمل أن يكون أراد بأبيه جده وهو كعب بن مالك فيكون الحديث على هذا مسندًا إذ قد سمع عبد الرحمن من جدِّه كعب بن مالك وكعب هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم وقد وقع مثل هذا في الأسانيد في غير موضع ا. هـ. من عون المعبود بتصرف وذكره الواحدي في أسباب النزول بهذا السند وبهذا اللفظ.

هذا وقد ذكر لها سبب آخر، قال الحافظ في الفتح ج٩ ص٢٩٨ وروى ابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن أنَّها نزلت فيما بين أبي بكر وبين فنحاص اليهودي في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} – تعالى الله عن قوله – فغضب أبو بكر فنزلت. وذكره السيوطي في اللباب وقال إن سنده حسن. ولا تنافي بينهما إذ يحتمل أن الآية نزلت في هذا وهذا.

قال السعدي: وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أنَّ حكمته تعالى تقتضي ذلك، ليتميَّز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنَّه تعالى يقدِّر عليهم هذه الأمور، لما يريده بهم من الخير ليعلِّي درجاتهم، ويكفِّر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتمَّ به إيقانهم، فإنَّه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر، {قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلَّا إيمانًا وتسليمًا}.

ومنها: أنَّه أخبرهم بذلك لتتوطَّن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنَّهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخفُّ عليهم مؤنته، ويلجؤون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: {وإن تصبروا وتتَّقوا} أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء والامتحان وعلى أذيَّة الظالمين، وتتَّقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرُّب إليه، ولم تتعدَّوا في صبركم الحدَّ الشرعي من الصبر في موضع لا يحلُّ لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

قال ابن العثيمين: {وإن تصبروا وتتَّقوا}: تصبروا على ما سمعتم، وعلى ما ابتليتم به في أموالكم وأنفسكم؛ والصبر بمعنى الحبس، ومنه قولهم: قتل صبرًا أي حبسًا، يوقف ويحبس ويقتل؛ وهو في الشرع حبس القلب واللِّسان والجوارح عن ما يغضب الله عز وجل؛ قال أهل العلم: والصبر على ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله وهو أعلى الأقسام؛ وصبر عن معصية الله وهو دونه؛ وصبر على أقدار الله المؤلمة وهو دون الاثنين؛ لأنَّ الاثنين الأوَّلين صبر على شرع الله، والثاني صبر على قدر الله، والصبر على قدر الله يكون من المؤمن والكفار ومن الناطق والبهيم، لكن الصبر على شرع الله لا يكون إلَّا من المؤمن، ثمَّ الصبر على المأمور أعلى من الصبر عن المحظور، لأنَّ الصبر عن المحظور كفٌّ فقط، والصبر على المأمور فعل، فهو إيجاد وعمل، ففيه نوع من الكلفة، بخلاف الصبر عن فعل المحظور، فإنَّه ليس إلَّا مجرَّد كفٌّ؛ على أنَّه قد يكون الصبر عن المحظور بالنسبة للنَّفس أحيانًا أشدُّ من الصبر على فعل المأمور، يسهل على بعض الناس مثلًا أن يصلِّي، لكن يصعب عليه أن يدع ما حرَّم الله عليه من الأمور التي تحثُّه نفسه إليها حثًّا. صبر الصائم على الصيام من الأول؛ وصبره على ألمه الذي يحصل بالجوع والعطش من الثالثة الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ وصبره عن ما حرِّم عليه بالصوم من الثاني؛ ولهذا يسمَّى شهر رمضان شهر الصبر، لأنَّ جميع أنوع الصبر الثلاثة تحصل للصائم؛ ففي الصيام صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر على الأقدار؛ صبر يوسف على إلقاء إخوته في البئر من الثالث؛ وصبره عن إجابة امرأة العزيز من الثاني صبر عن المعصية؛ وصبره على الدعوة إلى الله وهو في السجن من الأول.

{وتتَّقوا} الله عز وجل لئلَّا تتجاوزوا أو تعتدوا على غيركم، وذلك لأنَّ النَّفس مجبولة على محبَّة الانتقام من الغير إذا حصلت منه أذيَّة، فربما يعتدي الإنسان ويأخذ أكثر من حقِّه؛ ولهذا قال: {وإن تصبروا وتتَّقوا}: أي تتَّقوا الله عز وجل فلا تعتدوا على الذين أسمعوكم الأذى.

{فإنَّ ذلك من عزم الأمور}: أي من معزومات الأمور؛ ف{عزم} هنا مصدر بمعنى اسم المفعول، أي من الأمور المعزومة التي تحتاج إلى عزم وإلى همَّة وإلى مكابدة لأنَّها شاقَّة على النفس؛ والعزم في الأمور من الصفات الحميدة التي وصف بها الكُمَّل من الخلق، قال الله تعالى: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل}، فالعزم لاشكَّ أنَّه خُلُقٌ عالٍ يهبه الله عز وجل لمن يشاء؛ فإذا كان الإنسان عنده عزم في أموره فهذا هو الموفَّق؛ أمَّا الإنسان الذي ليس عنده عزم فتجده دائمًا في ملل وفي كسل وفي تهاون فإنَّ هذا لاشكَّ خاسر يخسر؛ فالإنسان العازم في أموره هو الرابح دنيًا ودينًا.

قال ابن كثير: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أنَّ أسامة بن زيد أخبره قال: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: {ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرًا} قال: وكان رسول الله ﷺ يتأوَّل في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم.

هكذا رواه مختصرًا، وقد ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية مطوَّلًا فقال: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير؛ أنَّ أسامة بن زيد أخبره أنَّ رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا. فسلَّم رسول الله ﷺ ثمَّ وقف، فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، إنَّه لا أحسن ممَّا تقول إن كان حقًّا، فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا فإنَّا نحب ذلك. فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثمَّ ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: ((يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب – يريد عبد الله بن أبي – قال كذا وكذا)). فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح فو الله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوّجوه ويعصبوه بالعصابة، فلمَّا أبى الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: {ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرًا وإن تصبروا وتتَّقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور}، وقال تعالى: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} الآية [البقرة:١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلمَّا غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام وأسلموا([1]).

فكان من قام بحقٍّ، أو أمر بمعروفٍ، أو نهى عن منكرٍ، فلابدَّ أن يؤذى، فما له دواء إلَّا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله، عز وجل.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص٢١٦: إنَّ الأمر بالصبر على أذاهم وبتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة وإقامة حدَّ الله عليهم عند القدرة، فإنَّه لا خلاف بين المسلمين أنّا إذا سمعنا مشركًا أو كتابيًّا يؤذي الله ورسوله فلا عهد بيننا وبينه وجب علينا أن نقاتله ونجاهده إذا أمكن ذلك. وآعلم أنَّ هذه الآية وما شابهها منسوخ من بعض الوجوه وذلك أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا قدم المدينة كان بها يهود كثير ومشركون وكان أهل الأرض إذ ذاك صنفين: مشركًا أو صاحب كتاب فهادن رسول الله ﷺ من بها من اليهود وغيرهم وأمرهم الله إذ ذاك بالعفو والصفح كما في قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

١- صحيح البخاري برقم (٤٥٦٦)، ورواه مسلم في صحيحه برقم (١٧٩٨).

يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}، فأمره الله بالعفو والصَّفح عنهم إلى أن يظهر الله دينه ويعزَّ جنده فكان أوَّل العزِّ وقعة بدر فإنَّها أذلَّت رقاب أكثر الكفار الذين بالمدينة وأرهبت سائر الكفار.

قال أبو زهرة: وفى النَّص الكريم إشارات بيانية نبيِّنها، فإن في بيانها ذكرًا لمرامي النَّص الكريم:

أوَّلها: أنَّه عبَّر عن المخالفين الذين كفروا بالنبي ﷺ بما يشير بأنَّهم قسمان: قسم أوتي علم الكتاب الذي نزل على بعض الأنبياء من قبل النبي ﷺ، والقسم الثاني المشركون الذين لَا يؤمنون بكتاب، ولا يهتدون بهدي، وقد جمع القرآن القسمين في أمر واحد، وهو معاداة النبي ﷺ.

وقد دفعتهم المعاداة إلى الجحود، وما كانت المعاداة لشخصه، بل كانت لما جاء به، وما يدعو إليه، وفي الجمع بين العالم بالكتاب والجاهل به إشارة إلى أنَّه عند وجود المعاندة يستوي العالم والجاهل، فإنَّ الجاهل يَعْمَهُ في عمياء جهالته، والعالم يطمس الله تعالى على قلبه، فيكون هو والجاهل سواء.

والثاني: الإشارة إلى أنَّه إذا كان سبب معاندة المشركين جهلًا فسبب معاندة الكتابيين هو الحسد، إذ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ذلك أنَّهم بمقتضى كونهم أوتوا الكتاب من قبل ظنُّوا ذلك اختصاصًا اختصُّوا به، وأنَّهم أَولى أن تكون الرسالة فيهم دون غيرهم، {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ. . .}، وبذلك سكن قلبهم الحقد والحسد، وحيث كان الحسد كانت العداوة وكان العمى عن إدراك الحقائق.

الثالث: التَّعبير عن نزول الأذى بسماعه، وقال سبحانه: {وَلَتَسْمَعنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا}، والذي يُسمع هو كلام، وعبر عنه بالأذى لأنَّه يؤدي إلى أذى، وموضوعه أذى، وهو في ذاته أذى، فكأن الأذى في ذات القول، ولذلك كان مفعولًا للسماع، ووصفه سبحانه وتعالى بأنَّه أذًى كثير، وذلك ليبيِّن لهم ما يوجب استعدادهم لسماعه، من أذى ليس بقليل في مقداره، ولا في نوعه، ولا في موضوعه، فالكثرة ليس المراد منها المقدار فقط، بل الكثرة تشمل المقدار والنوع، والطريقة والموضوع.

وقد بيَّن سبحانه وتعالى العلاج في هذا البلاء: {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}. الصبر ضبط النفس وحبسها عن الجزع، وحبسها على العمل واتِّخاذ الأهبّة، وحبسها أيضًا مع أهل الإيمان كما قال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. . .}، فالصبر يتضمَّن ضبط النفس عن الجزع، وقوة الاحتمال، والتَّضافر مع الجماعة، وقد وصف النبي ﷺ صبر الأنصار فيما روي عنه من أنَّه قال فيهم: ((يقلُّون عند الطَّمع، ويكثرون عند الفزع[1])).

١- جزء من حديث رواه العسكري في الأمثال كما جاء في جامع الأحاديث والمراسيل ١٣٤٩٢ - ج ١٩، ص ٣٧.

{تتَّقُوا}: معناها أن تتَّخذوا الوقاية بطلب رضا الله تعالى، ورجاء ما عنده، وأن تستعدوا، وتدفعوا الاعتداء بالحقِّ وتعملوا على الخروج من المحنة، فليس شأن المؤمن استسلامًا للمصائب تنزل به، بل شأنه صبر من غير جزع، وعمل من غير طمع، وجدٌّ وجهادٌ ودفع للشرِّ.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ التَّقوى والصبر هما من الأمور التي أمر الله تعالى بها لأنَّها تؤدِّي إلى النجاح، ولذلك قال سبحانه: {فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}: أي إنَّ ذلك ممَّا يعقِّد الأمور ويربطها ويوثِّقها ويؤكِّدها، ويجعلها قويَّة منتجة مثمرة، فالصبر والتَّقوى بهما النجاح في الأمور.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ أهل الكتاب فيما يصنعون قد خالفوا ما أخذ عليهم من مواثيق، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ من البلاغة تأكيد الشيء بما يوجب الاطمئنان فيه؛ لقوله: {لتبلونَّ في أنفسكم}، والتَّأكيد يقول علماء البلاغة: إنَّه قد يكون حسنًا وقد يكون واجبًا وقد يكون لغوًا، يكون لغوًا إذا لم تدع الحاجة إليه؛ وذلك لأنَّ التأكيد لابدَّ فيه من زيادة؛ ما هي الزيادة؟ زيادة الحروف التي حصل بها التأكيد؛ فإذا لم يكن حاجة إليه صار لغوًا؛ ثمَّ إنَّه أيضًا لغو من حيث المعنى، ولهذا لو أنَّك أكَّدت لشخص شيئًا شاهده؛ لو قلت: والله لقد صلَّيت ركعتين حين دخلت المسجد وهو يراك يشاهد، ماذا يقول لك؟ يقول: كيف تقسم لي وأنا أشهد؛ هذا لغو من القول؛ ويكون التوكيد حسنًا إذا كان عند المخاطب شيء من التردُّد فيحسن أن تؤكِّد له الكلام ليطمئن؛ ويكون واجبًا إذا كان المخاطب منكِرًا أو فاعلًا فعل المنكِر؛ المنكر هو الذي إذا ألقيت إليه الخبر قال: أبدًا ما حصل؛ هنا يجب أن تؤكِّد له؛ والفاعل فعل المنكر هو الذي يفعل فعلًا لو كان مصدِّقًا ما فعله؛ ولهذا قال الله تعالى: {ثمَّ إنَّكم بعد ذلك لميِّتون}، هنا فيه تأكيد بإنَّ واللَّام؛ هل الموت يحتاج إلى توكيد؟ كلنا يعرف أنَّه سيموت؛ لكن لمَّا كان فعل أكثر بني إنسان فعل المنكر حسن التوكيد.

٢- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتفطَّن لما هو فيه من خير وشر، ليعلم أنَّه ابتلاء من الله؛ ففي الخير يبتلى ليشكر، وفي ضدِّه يبتلى ليصبر.

٣- التأكيد على الحذر من أهل الكتاب اليهود والنصارى والمشركين أيضًا؛ وجهه: أنَّ الله أكَّد لنا أنَّنا سنسمع منهم ما يؤذينا؛ وهم يمكرون بنا بالقول وبالفعل؛ ولهذا يجب التحرُّز من اليهود والنصارى وألَّا نتَّخذهم أولياء، وأن نعلم أنَّهم لن يعطونا قرشًا إلَّا في مقابلة درهم أو أكثر؛ ولن ينفعونا بشيءٍ إلَّا وقد ضرُّونا بأكثر منه؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بين عداوة هؤلاء، وأنَّه لا يجوز اتِّخاذهم أولياء، وأنَّهم اليهود والمشركين أشدُّ الناس عداوة؛ وأقربهم مودَّة الذين قالوا

إنّا نصارى، والخطاب هنا في نصارى معيَّنين وصفهم الله بقوله: {ذلك أنَّ منهم قسِّيسين ورهبانًا وأنَّهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدَّمع ممَّا عرفوا من الحقِّ}، فهل في نصارى اليوم من يكون هذا وصفهم؟ أبدًا بالعكس، هم يحاربون دين الإسلام ربما أكثر من محاربة اليهود، لأنَّه صارت بينهم وبين المسلمين معارك أدمت قلوبهم وأيتمت أولادهم ولن ينسوه، المعارك الصليبية لن ينسوها أبدًا؛ فهم في الحقيقة إذا سمعنا ما ينشرونه من دينهم المنسوخ الذي لا يقبل عند الله وحرصهم على ذلك، وكونهم يجمعون حتى من العجائز من الأموال ما يقضون به على الإسلام ليدخل الناس في النصرانية، عرفنا أنَّهم يسعون بكلِّ وسيلة إلى القضاء على الإسلام؛ ولهذا هم يأملون أنَّهم في حدود الألفين ستكون أفريقيا كلُّها على زعمهم نصرانية، ولكن بحول الله إنَّ الأمر سيكون منقلبًا عليهم، ستكون إن شاء الله إسلامية وسيدحرهم الله عز وجل ويردَّهم على أعقابهم خائبين.

٤- الثناء على الصبر أمام ما نسمعه من أذيَّة الأعداء، وأن لا يردَّنا ذلك على أعقابنا وأن نحذر منهم.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله هل هذه الآية منسوخة وأنَّنا نصبر ونتَّقي إذا كنَّا عاجزين على الرَّد بالمثل أو هي محكمة؟ والصحيح أنَّها محكمة، وأنَّها إنَّما تكون في حال يكون الصبر فيه على الأذى خيرًا؛ أمَّا إذا كان الأمر بالعكس فالخير مطلوب في جميع الأحوال.

٥- التَّنبيه على فضيلة العزم في الأمور؛ لقوله: {فإنَّ ذلك من عزم الأمور}، وكلَّما كان الإنسان عازمًا في أموره كان ذلك أنجح له وأحسن.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ {١٨٧}

قال ابن العثيمين: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب}: {إذ} ظرف لما مضى، وتأتي في القرآن كثيرًا محذوفة العامل، ويقدِّره العلماء بقولهم: (واذكر إذ أخذ الله)، يعني أذكر هذا للناس مبيِّنًا ما حصل؛ وقوله: {ميثاق}: الميثاق هو العهد الثقيل، وسمِّي العهد الثقيل ميثاقًا، من الوثاق وهو الحبل الذي يشدُّ به الإنسان ويربط، كما في قوله تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق}: يعني الحبل الذي تربطونهم به وتأسرونهم به؛ فالميثاق بمعنى العهد الثقيل وسمِّي العهد الثقيل ميثاقًا لأنَّه كالرباط للمعاهد.

وقوله: {الذين أوتوا الكتاب}: المراد بهم اليهود والنصارى؛ أخذ الله عليهم العهد والميثاق بما أعطاهم من الكتاب أن يبيِّنوه للناس؛ ولهذا قال: {لتبيِّنُنَّه}، اللام موطِّئة للقسم، أي أخذ عليهم عهد بهذا؛ {لتبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه}، هنا قال:

{لتبيِّنُنَّه}، {ولا تكتمونه}؛ فكيف يصح قوله: {ولا تكتمونه}، مع أنه قال: {لتبيِّنُنَّه}، لأنَّ البيان ضد الكتمان؟ ولكن نقول: المعنى (لتبيِّنُنَّه بيانًا لا كتمان فيه)؛ والكتمان نوعان؛ إمَّا إخفاء بعض الآيات؛ وإمَّا تحريف الآيات إلى معانٍ أخرى، فإنَّ هذا يعدُّ كتمًا، لأنَّ الذي يحرِّف الآيات إلى معانٍ أخرى، لم يبيِّن الآيات على ما هي عليه؛ بل كتم المعنى الحقيقي المراد إلى معنىً آخر؛ فالكتم نوعان: إخفاء لبعض الآيات كما قال الله تعالى: {تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا}، وإمَّا أن يكون الكتم كتم المعنى، أي لا يبيِّن المعنى وإنَّما يحرِّف؛ فالكتم إذًا نوعان؛ إخفاء الألفاظ، والثاني: إخفاء المعاني بحيث لا يغيِّر اللَّفظ لكن يغيِّر المعنى، فهذا كتمان، ومن ذلك مثلًا أنَّ النصارى قالوا: إنَّ محمد بن عبد الله ﷺ ليس هو الذي بشَّر به عيسى، لأنَّ الذي بشَّر به عيسى اسمه أحمد، وهذا اسمه محمد؛ هذا كتمان معنى.

فإن قال قائل: هل يشعر العالم بهذا الميثاق، وأنَّه جرى بينه وبين الله عز وجل صفقة عهد؟

الجواب: لا يشعر؛ لكن إيتاء الله العلم له يعتبر ميثاقًا، يعني كون الله يهبه علمًا هذا ميثاق، ما أعطاك هذا العلم إلَّا من أجل أن تبيِّنه، وإن كان الإنسان لا يستحضر أنَّه جرى بينه وبين ربه عهد كما يعاهد أهل الذِّمَّة مثلًا، ولكن إيتاء الله عز وجل العلم له هذا عهد أن يبيِّن.

قال السعدي: وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كلِّ من أعطاه الله الكتب وعلَّمه العلم، أن يبيِّن للناس ما يحتاجون إليه ممَّا علَّمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإنَّ كلُّ من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبيِّنه، ويوضِّح الحق من الباطل.

فأمَّا الموفَّقون، فقاموا بهذا أتمَّ القيام، وعلَّموا الناس مما علَّمهم الله، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان.

وأمَّا الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبئوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرَّؤا على محارم الله، وتهاونًا بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنًا قليلًا وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتَّبعين أهواءهم، المقدِّمين شهواتهم على الحق.

قال ابن العثيمين: في هذه الآية: {لتبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه} قراءات؛ فيها قراءة: {ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه}: يعني بالياء بدلًا عن التاء؛ فعلى القراءة الأولى بالتاء يكون في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وعلى القراءة الثانية يكون الكلام نسقًا واحد ليس فيه التفات.

والالتفات ذكرنا أنَّ فيه فوائد وهي: التَّنبيه على هذه الجملة، لأنَّ الكلام إذا صار على نسق واحد شرد الذِّهن، فإذا جاء التفات كأنَّه يقول انتبه؛ وأحيانًا يكون فيه تشويق السامع، لأنَّ العدول عن الغيبة إلى الخطاب أشدُّ وقعًا من الغيبة، يعني أنَّ المشافهة بالخطاب أشدُّ وقعًا من المشافهة بالغيب، ولهذا قال الله تعالى: {عبس وتولَّى أن جاءه الأعمى}، ولم يقل:

(عبست)، وهو يريد سبحانه وتعالى النبي ﷺ، لكن أسلوب الغيبة أهون وقعًا من أسلوب الخطاب؛ وتأمَّلوها في قصة الخضر مع موسى في الأول في الجملة الأولى قال له: {ألم أقل إنَّك لن تستطيع معي صبرًا}؛ في الثانية قال: {ألم أقل لك إنَّك لن تستطيع معي صبرًا}، فكانت الثانية أشدُّ من الأولى، أشدُّ وقعًا؛ وفيه أيضًا قراءة في الآية التي بعدها.

{فنبذوه وراء ظهورهم}: {نبذوه} أي نبذوا العهد ونبذوا الميثاق، أي (تركوه)؛ ومع ذلك لم يطرحوه بين أيديهم بل طرحوه وراء ظهورهم، وهو كناية عن شدَّة إعراضهم عمَّا آتاهم الله من الكتاب، حيث نبذوه نبذًا، ولم ينبذوه أمامهم بل وراء ظهورهم؛ فيكون هذا أشدُّ في كراهية ما أنزل الله وفي الاستكبار عنه والإعراض عنه؛ {واشتروا به ثمنًا قليلًا}، {اشتروا به}: أي (استبدلوا به)؛ {ثمنًا قليلًا}: أي بهذا العهد والميثاق ثمنًا قليلًا؛ والثمن القليل الذي اشتروه إبقاء رئاستهم وجاههم وسلطانهم على قومهم؛ لأنَّ هؤلاء الأحبار والقسِّيسين لو تبعوا محمدًا زالت رئاستهم ووجاهتهم، وصاروا كعامَّة الناس؛ فقالوا: نكذِّب محمدًا ونبقى على ما كنَّا عليه من الرئاسة والجاه والتَّقديم؛ إذًا ما هو المبيع وما هو الثَّمن؟ المبيع العهد، والثمن الجاه والرئاسة وما أشبه ذلك؛ ووصف الله هذا بأنَّه قليل، وصدق الله فإنَّ جميع ما في الدنيا قليل، قال الله تعالى: {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتَّقى}، فهذا الذي استبدلوه هو ثمن قليل زهيد لا يدوم للإنسان ولا يدوم الإنسان له، بل لابدَّ من زواله؛ إمَّا زوال الإنسان وإمَّا زوال الثَّمن الذي اشتراه.

{فبئس ما يشترون}: {بئس} فعل ماضي جامد، يعني: لا يتصرَّف، النحويون يسمُّون الفعل الذي لا يتصرَّف جامدًا لأنه باقٍ على حالٍ واحدة، والمتصرِّف يسمُّونه متصرِّفًا لأنَّه يشبه المائع الذي يسير ويسيل، لكن هذا جامد لا يتصرَّف؛ وقوله: {بئس ما يشترون}: كلمة (بئس) و(نعم) وما أشبههما تحتاجان إلى شيئين: إلى فاعل، ومخصوص بالذَّم أو بالمدح؛ فقوله: {يشترون}: هذا هو فاعل {ما}؛ والمخصوص محذوف والتقدير: (فبئس ما يشترون هذا الشراء).

قال السعدي: لأنَّه أخسُّ العوض، والذي رغبوا عنه – وهو بيان الحقِّ الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية – أعظم المطالب وأجلُّها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النَّفيس إلَّا لسوء حظِّهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له.

قال ابن كثير: وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدَّالِّ على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعدِّدة عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار(١))).

قال أبو زهرة: {فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}: أي أنَّه مذموم قبيح ما يطلبون من أعراض الدنيا في نظير إهمال الشريعة والعهد الموثَّق. وإنَّ هذا الكلام يدلُّ على وجوب إعلان الحقائق الدينية والدَّعوة إليها، ومجابهة مخالفيها بإثم المخالفة، ومن أحسن ما قرأت

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٢٢٣)، وقال: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ؛ و(٢٢٤)، وقال: وَرَوَاهُ ابْن مَاجَه عَن أنس.

في ذلك ما قاله الزمخشري في التَّعليق على هذا: (كفى به دليلًا على أنَّه مأخوذ على العلماء أن يبيِّنوا الحقَّ للناس، وألَّا يكتموا منه شيئًا لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة، وتطييب لنفوسهم، واستجلاب لمسارِّهم، أو لجرِّ منفعة وحطام دنيا، أو لتقية، أو لبخل بالعلم وغيره من أن ينسب إلى غيرهم).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الله عز وجل أخذ على أهل العلم العهد ببيان علمه وعدم كتمانه؛ لقوله: {وإذ أخذ الله....}.

٢- التَّحذير من كتمان العلم؛ لأنَّ الله ذكر ذلك على سبيل الذَّم لا على سبيل المدح؛ وقد جاء عن النبي ﷺ أنَّ: ((من سئل عن علم وهو يعلمه ثمَّ كتمه ألجم بلجام من نار يوم القيمة))؛ كما أنَّه كتم العلم ولم ينطق فإنَّه يجعل له يوم القيمة لجامًا يلجم به على فمه لسكوته عن بيان العلم.

٣- وجوب بيان العلم على أهل العلم، أنَّه يجب على أهل العلم أن يبيِّنوا العلم الذي آتاهم الله؛ ولم يذكر الله عز وجل الوسيلة التي يحصل بها البيان، فتكون على هذا مطلقة راجعة إلى ما تقتضيه الحال؛ قد يكون البيان بالقول، وقد يكون بالكتابة، وقد يكون في المجالس العامَّة، وقد يكون في المجالس الخاصة على حسب الحال، لأنَّ الله أطلق البيان ولم يفصِّل ولم يعيِّن.

٤- أنَّه في الأمور الهامَّة ينبغي أن يقرن النفي بالإثبات ليتحقَّق الكمال؛ لقوله: {لتبيِّنُنَّه ولا تكتمون}، ووجه ذلك ما أشرنا إليه قبل أنَّ البيان عدم الكتمان، لكن لما قال: {ولا تكتمونه} أكَّد البيان، وأن يكون بيانًا كاملًا ليس فيه كتمان.

٥- الذَّمُّ القبيح لأهل الكتاب اليهود والنصارى؛ لقوله: {فنبذوه وراء ظهورهم}، وأنتم تجدون شدَّة الوقع في قوله: {نبذوه}، ثمَّ شدَّة الاستكبار بقوله: {وراء ظهورهم}.

٦- أنَّ هؤلاء الذين نبذوا العهد والميثاق وراء ظهورهم أخذوا بدله ثمنًا قليلًا، يعني لم يأخذوا مقابلًا ولا مماثلة ولا ما فوقه ولكنَّهم أخذوا بدله ثمنًا قليلًا ممَّا يدلُّ على خسَّة ودناءة هممهم؛ حيث أخذوا الأدنى بدلًا عن الأعلى.

٧- القدح في هذه الطريقة؛ لقوله: {فبئس ما يشترون}.

٨- تحذير أولئك الذي يحابون الرؤساء والأمراء والوجهاء والأعيان في ترك بيان العلم؛ لأنَّ الله تعالى أثنى بالقدح واللَّوم والتَّوبيخ على من كانت هذه حاله؛ والواجب البيان حتى عند الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء، بل إنَّ بيان الحقِّ عندهم يكون أوجب، وكلمة الحقِّ عند سلطان جائر من أفضل الجهاد.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {١٨٨}

قال ابن العثيمين: {ولا تحسبنَّ}: فيها قراءات: {لا تحسَبنَّ}، و{لا تحسِبنَّ} بكسر السين؛ وفيها قراءة: {لا يحسَبنَّ} بالياء بدل التاء؛ فعلى قراءة التاء يكون الخطاب موجَّها إمَّا للنبي ﷺ، وإمَّا لكلِّ من يصحُّ أن يتوجَّه إليه الخطاب؛ والمعنى الثاني أعمُّ وأشمل، يعني لا تحسبنَّ أيها المخاطب.

{الذين يفرحون بما أتوا}: {الذين} محلها من الإعراب أنَّها مفعول أوَّل ل{تحسبنَّ}، والمفعول الثاني إمَّا أن نقول إنَّه محذوف قبل جملة: {فلا تحسبنَّ}، ويكون المعنى: (لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا ناجين)؛ ثمَّ فرَّع عليه قوله: {فلا تحسبنَّهم بمفازة من العذاب}؛ ويحتمل أن قوله: {فلا تحسبنَّهم} جملة مؤكِّدة لقوله: {لا تحسبنَّ}، وعلى هذا فيكون المفعول الثاني هو قوله: {بمفازة}، والأوَّل أقرب، أي (لا تحسبنَّهم ناجين، فلا تحسبنَّهم بمفازة).

وقوله: {فلا تحسبنَّهم} فيها ثلاث قراءات: {فلا تحسَبنَّهم}، و{فلا تحسِبنَّهم}، و{فلا يحسبنَّهم}: يعني لا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

يقول الله عز وجل: {لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا}: أي يفرحون فرح أشر وبطر ومنَّة على الله وعلى رسوله ﷺ؛ {بما أتوا}: أي بما أتوا من الأعمال التي يتقرَّبون بها إلى الله على زعمهم، ولكنَّهم يفرحون بها منَّةً على الله ورسوله.

{ويحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا}: أي يحبُّون أنَّ الناس يحمدونهم على شيءٍ لم يفعلوه؛ مثل أن يتظاهر للناس بالصلاح من أجل أن يثنى عليهم وهم لم يفعلوا الصلاح، ومثل ما فعل أهل الكتاب كتموا صفة النبي ﷺ ولم يبيِّنوها، فقالوا: الآن غلبنا محمد حيث قلنا إنَّه ليس هو المبشَّر به، ففرحوا بما أتوا وأحبُّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا. وكذلك المنافقون يفرحون بما أتوا ويحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا؛ فأمَّا المسلم إذا فرح بما أنعم الله عليه من العمل وأحب أن يحمد بما لم يفعل لا رياءً، ولكن من طبيعة البشر أنَّه يحبُّ أن يحمده الناس، فإنَّ هذا لا يدخل في الآية؛ فالذي يدخل في الآية صنفان: الصنف الأوَّل أهل الكتاب الذين فرحوا بما أتوا من كتمان صفة النبي ﷺ وعدم الإيمان به، ويحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا حيث يتظاهرون للناس بأنَّه لو جاء الرسول الذي بشَّر به عيسى لآمنَّا به؛ والصنف الثاني المنافقون؛ فإنَّ المنافقين يفرحون بما أتوا، ويقولون: نحن أسلمنا أمام محمد وأصحابه، وهم على العكس من ذلك؛ ولهذا قال: {يحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا} من الإخلاص والمحبَّة لله ورسوله واتِّباع رسوله ﷺ.

قال ابن كثير: يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: ((من ادَّعى دعوى كاذبة ليتكثَّر بها لم يزده الله إلَّا قلَّة[١])). وفي الصحيح: ((المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور[٢])).

وعن الرحمن بن عوف: أنَّ مروان قال: اذهب يا رافع – لبوَّابه – إلى ابن عباس، رضي الله عنه، فقل لئن كان كلُّ امرئٍ منَّا فرح بما أتى وأحبَّ أن يحمد بما لم يفعل – معذَّبًا، لنُعَذَّبَنَّ أجمعون؟ فقال ابن عباس: وما لكم وهذه؟ إنَّما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثمَّ تلا ابن عباس: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا فبئس ما يشترون}، وتلا ابن عباس: {لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا} الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيءٍ، فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم، والترمذي والنسائي في تفسيريهما، وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، كلهم من حديث عبد الملك بن جريج، بنحوه ورواه البخاري أيضًا من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن علقمة بن وقاص: أنَّ مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فذكره[٣].

وقال البخاري: عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه؛ أنَّ رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبُّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: {لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا} الآية[٤].

{فلا تحسبنَّهم بمفازةٍ من العذاب}: {المفازة} مكان الفوز، أي فلا تحسبنَّهم بمكان يفوزون به وينجون به من العذاب بل هم منغمسون في العذاب.

قال أبو زهرة: أي إذا كانوا بهذا الوصف الذي وُصفُوا به، وهو الضلال المبين فلا تَحْسبنَّهم بمفازة أي بمنْجَاة من العذاب، والتَّعبير عن النجاة من العذاب الأليم بقوله تعالى: {بِمَفَازَةٍ}، الإشارة إلى أنَّ أقصى ما يكون لهم من فوز أن ينجوا من العذاب

١- (قلت): مسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه. ولم أجده عند البخاري. والحديث بتمامه: عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((لَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنِ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قِلَّةً، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ فَاجِرَةٍ)).

– قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه لهذا الحديث: ((ومن ادعى دعوى كاذبة)): هذه اللغة الفصيحة يقال: دعوى باطل وباطلة، وكاذب وكاذبة، حكاهما صاحب المحكم والتأنيث أفصح، ((ومن حلف على يمين صبر فاجرة)): قال القاضي عياض رحمه الله: لم يأت في الحديث هنا الخبر عن هذا الحالف إلا أن يعطفه على قوله قبله: ((ومن ادَّعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده بها الله إلا قلة)): أي وكذلك من حلف على يمين صبر فهو مثله ويمين الصبر هي التي ألزم بها الحالف عند حاكم ونحوه وأصل الصبر هو الحبس والإمساك ومعنى الفجور في اليمين هو الكذب.

٢- (قلت): البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٢٩). والحديث بتمامه: عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَقُولُ إِنَّ زَوْجِي أَعْطَانِي مَا لَمْ يُعْطِنِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ)).

٣- المسند (١/٢٩٨)، وصحيح البخاري برقم (٤٥٦٨)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٨)، وسنن الترمذي برقم (٣٠١٤)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٠٨٦).

٤- صحيح البخاري برقم (٤٥٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٧).

الأليم أي المؤلم، ولكنَّهم لن ينجوا منه أبدًا، ولذا أكَّد النهي بالخبر، فقال: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}: أي عذاب مؤلم أشدَّ الإيلام، أو بكلِّ ما يتصوَّر العقل من إيلام، ولذلك جاءت كلمة أليم نكرة، فذكر سبحانه عذابهم الأليم بالسَّلب والإيجاب، فنفى أوَّلًا أنَّهم بمنجاة منه، وأخبر ثانيًا بأنَّهم واقعون وهنا بيان لطرق الشيطان إلى النَّفس. إنَّه يجعل الشخص يحمد كلَّ ما يأتيه أي يصدر عنه، ويجعل نفسه هي مقياس الخير والشَّر، ويحبب إليه الثناء بغير الحق، وذلك هو الغرور، وهو الضلال، وهو الضعف النفسي، والفرح بما لم يفعل، وإنَّ الثناء الكاذب ضار بمن يكون موضع الثناء، وضارٌ بالمجتمع ولذلك قال ﷺ: ((إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التُّراب([1]))، وقال ﷺ: ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنَّما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله([2]))).

قال ابن العثيمين: {ولهم عذاب أليم}: الجملة هذه استئنافية، لمَّا بيَّن أنَّهم ليسوا بمفازة من العذاب وليسوا ناجين، أكَّد هذا بقوله: {ولهم عذاب أليم }، {أليم}: بمعنى مؤلم، فهي فعيل بمعنى مفعل؛ وفعيل بمعنى مفعل تأتي في اللغة العربية كثيرًا، ومنه قول الشاعر: أمن ريحانة الداع السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

(السميع) بمعنى المسمع.

قال السعدي: ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنَّهم هم المحقُّون في حالهم ومقالهم، وكذلك كلُّ من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنَّه محقٌّ وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

قال ابن القيم في مدارج السالكين ج١ص١٠٥: مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ، فَلَيْسَ عَمَلُهُ مُوَافِقًا لِشَرْعٍ، وَلَيْسَ هُوَ خَالِصًا لِلْمَعْبُودِ، كَأَعْمَالِ الْمُتَزَيِّنِينَ لِلنَّاسِ، الْمُرَائِينَ لَهُمْ بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَهَؤُلَاءِ شِرَارُ الْخَلْقِ، وَأَمْقَتُهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَهُمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ وَالشِّرْكِ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَالْإِخْلَاصِ. وَهَذَا الضَّرْبُ يَكْثُرُ فِيمَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْفَقْرِ وَالْعِبَادَةِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ الْبِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ، وَالرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوهُ مِنَ الِاتِّبَاعِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِلْمِ، فَهُمْ أَهْلُ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ.

قال السعدي: ودلَّت الآية بمفهومها على أنَّ من أحبَّ أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتِّباع الحقِّ، إذا لم يكن قصده بذلك الرِّياء والسَّمعة، أنَّه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنَّه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين}،

١- (قلت): مسلم (٣٠٠٢).

٢- (قلت): البخاري (٣٤٤٥).

وقال: {سلام على نوح في العالمين، إنَّا كذلك نجزي المحسنين}، وقد قال عباد الرحمن: {واجعلنا للمتَّقين إمامًا}، وهي من نعم الباري على عبده، ومننه التي تحتاج إلى الشكر.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- تحذير من يفرح بما أتى فرح مِنَّة وإدلال على الله عز وجل، أو فرح غدر وخيانة كالمنافقين.

٢- التَّحذير من محبَّة الإنسان أن يحمد بما لم يفعل؛ وهذا يقع كثيرًا؛ أحيانًا يصرِّح الإنسان وهو كاذب، وأحيانًا يوري فيظنَّ السَّامع أنَّه فاعل وهو لم يفعل؛ أمَّا الأوَّل فأن يقول مثلًا: صلَّيت البارحة آخر الليل ودعوت الله وهو كاذب، لكن من أجل أن يحمد على ذلك؛ أو يقول: رأيت فقيرًا فتصدَّقت عليه؛ أو يقول: طبعت كتابًا أو أنقذت غريقًا أو ما أشبه ذلك وهو كاذب؛ هذا قسم صرَّح بما لم يفعل؛ وأحيانًا يوري يتظاهر أمام الناس أنَّه فعل وهو لم يفعل؛ فالذي يسمع كلامه يقول: هذا هو الفاعل وهو لم يفعل، وكلاهما مذموم؛ أمَّا من أحبَّ أن يحمد بما لم يفعل ولكنَّه لم يتظاهر أمام الناس بالشيء ليحمد عليه فهذا لا يضر، لأنَّ كلَّ واحدٍ يحبُّ أن يحمد وإن لم يفعل؛ ولكن إذا حمد أن يفعل وهو متظاهر للناس بأنَّه فاعل هذا هو المذموم.

٣- أنَّ من كان على هذا الحال فلن ينجوا من العذاب؛ لقوله: {فلا تحسبنَّهم بمفازةٍ من العذاب}.

٤- إثبات العذاب الأليم لمن هذه حاله؛ وأنَّها منطبقة على صنفين من الناس: أهل الكتاب الذين كتموا صفة الرسول ﷺ؛ والثاني: المنافقون.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {١٨٩}

قال أبو زهرة: أنذر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة وبشَّر، وأرشد وزجر، وبيَّن غرور الذين كفروا بزخارف الدنيا، والتَّمكين لهم فيها ممَّا دلَّاهم بغرور، وجعلوا يعتقدون أنَّ السلطان فيها دليل السلطان في الآخرة. وفي هذه الآية الكريمة يبيِّن سلطانه سبحانه، وهو الذي وعد وأوعد، وهدَّد وحرَّض، ولذلك قال سبحانه وتعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قال ابن العثيمين: {ولله} جار ومجرور خبر مقدَّم؛ {ملك} مبتدأ مؤخَّر؛ {والله على كلِّ شيءٍ قدير} جملة استئنافية.

{ملك السموات}: أي ملك الأعيان وملك التصرف؛ فهو مالك لأعيانهم، وهو مالك للتصرف فيها، قال الله تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلَّا لمن أذن له}؛ {لا يملكون مثقال ذرَّة}: يعني على سبيل الاستقلال، {وما لهم فيهما من شرك}: على سبيل المشاركة؛ {وما له}: أي ما لله؛ {منهم}: أي من هؤلاء الذين تدعون: {من ظهير}: أي من معين؛ {ولا تنفع الشفاعة عنده إلَّا لمن أذن له}: أي لا أحد يشفع عند الله إلَّا بإذنه؛ هذه الآية يقولون: إنَّها قطعت علائق المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان؛ لأنَّه يقول: هذه الأصنام هل لها ملك مستقل في السموات والأرض؟ هل شاركت الله؟ هل أعانته، هل تنفع شفاعتها إلَّا بإذنه؟ لا، كلُّ جوابٍ بالنفي، وعلى هذا فلا تنفعهم عبادة هذه الأصنام.

المهم أنَّ قوله: {لله ملك السموات}، يشمل الأعيان والتصرف؛ فالله تعالى مالك الأعيان ومالك التصرف؛ وقوله: {السموات}: يعني السبع؛ {والأرض}: للجنس فتشمل الأراضين السبع.

قال أبو زهرة: أي لله وحده سبحانه ملك السماوات والأرض بما فيهما ومن فيهما، وتقديم لفظ الجلالة لإفادة الاختصاص والانفراد، وفي ذلك إشارة إلى أنَّه وحده المتصرِّف، وهو الذي يعطي ويمنع ويحاسب ويعاقب، وقد أعطى من أعطى في الدنيا ليتمتَّعوا حتى حين، وأبقى ما أبقى في الآخرة ليجزي الصابرين، وينال عهده المتَّقون، وإن عطاءه لحكمة، ومنعه لحكمة، وفيه إشارة إلى كمال قدرتها، وأنَّه إن أوعد بالعقاب، ووعد بالثواب فهو القدير على تنفيذ ما وعد وأوعد.

قال القرطبي: هذا احتجاج على الذين قالوا إنَّ الله فقير ونحن أغنياء، وتكذيب لهم. وقيل: المعنى لا تظنَّنَّ الفرحين ينجون من العذاب؛ فإنَّ لله كلُّ شيء، وهم في قبضة القدير؛ فيكون معطوفًا على الكلام الأول، أي إنَّهم لا ينجون من عذابه يأخذهم متى شاء.

قال ابن العثيمين: {والله على كلِّ شيءٍ قدير}: والقدرة هي التمكُّن من الفعل بلا عجز، قال الله تعالى: {هو الذي خلقكم من ضعف ثمَّ جعل لكم من بعد ضعف قوة}، فقابل الضعف بالقوة، وقال: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنَّه كان عليمًا قديرًا}، فقابل القدرة بالعجز؛ فالقدرة ضدُّها العجز، والقوة ضدُّها الضعف.

وقوله: {على كلِّ شيءٍ قدير}: عام في كلِّ شيء؛ فما من موجود إلَّا والله قادر على إعدامه، وما من معدوم إلَّا والله قادر على إيجاده؛ وما من موجود إلَّا والله قادر على تضييعه وتحويله من شيء إلى آخر؛ إذًا هو على كلِّ شيءٍ قدير، وهو قادر على أفعاله؛ يفعل ما يشاء؛ وهل هو قادر على ذاته؟ يقولون: إذا قصدت أنَّ الله قادر على إعدام ذاته عز وجل مثلًا فحاشا وكلَّا، فإنَّ هذا لا تتعلَّق به القدرة أصلًا لأنَّه من المستحيل؛ ولهذا قال السفاريني رحمه الله في عقيدته قال: له الحياة .... واقتدر بقدرة تعلَّقت بممكن؛ ولكن مع ذلك نقول: من الأدب أن تقول: (إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير) وتسكت؛ لأنَّ الآيات التي جاءت بهذا عامَّة، ولا تقل: (إنَّ الله لا يقدر على الشيء المستحيل)؛ لأنَّ المستحيل أصلًا لا يتعلَّق به الفعل؛ يعني مثلًا: السكون والحركة هل يمكن أن يجتمعان؟ لا يمكن، لأنَّه إن تحرك لم يكن ساكنًا، وإن سكن لم يكن متحرِّكًا؛ إذًا الله سبحانه

وتعالى قادر على أن يجعل الساكن متحرِّكًا والمتحرِّك ساكنًا، لكن تريد أن يكون ساكنًا ومتحرِّكًا في آن واحد؛ لا يمكن، ساكن يعني غير متحرِّك، متحرِّك يعني غير ساكن.

فإذا قال قائل: هل يمكن أن يجعل الله المتحرِّك ساكنًا؟ نعم، يحوِّل المتحرِّك إلى ساكن؛ أو يجعل الساكن متحرِّكًا؟ نعم، لكن يجعل الحركة والسكون في آن واحد لا يمكن أصلًا؛ لأنَّه مادام الحركة يعني يساوي عدم السكون، السكون يساوي عدم الحركة؛ بمجرَّد أن يتحرَّك انتفى عنه السكون، بمجرَّد أن يسكن انتفى عنه الحركة؛ ولكن من الأدب أن نقول: إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير ولا حاجة أن نفصِّل؛ إنَّما نحن نشعر بأنفسنا أنَّ المستحيل لا يمكن، على اسمه مستحيل([1]).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- الحثُّ على تدبُّر خلق السموات.

٢- أنَّ ملك السموات والأرض خاص بالله عز وجل؛ ووجهه: تقديم الخبر، والقاعدة أنه إذا قدِّم ما حقَّه التأخير كان ذلك دليلًا على الحصر.

٣- أنَّ الملك المطلق لله وحده؛ لأنَّه قدَّم الخبر على المبتدأ في قوله: {ولله ملك} وتقييدنا الملك بالمطلق ينفي توهَّم التَّعارض بين قوله تعالى: {ولله ملك السموات} حيث حصر الملك له وحده وقوله تعالى: {إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم}، ووجهه أنَّ الملك المضاف إلى المخلوق ملك مقيَّد ليس ملكًا مطلقًا، ودليل هذا أنَّ هذا المالك من المخلوق لو أراد أن يتصرَّف بماله على خلاف ما جاءت به الشريعة كان ممنوعًا من هذا ولا يملكه، والله جل وعلا يملك ملكًا عامًّا شاملًا يستغني به عن غيره.

٤- الإشارة إلى أنَّه لا يجوز للإنسان أن يتصرَّف في ملكه إلَّا على حسب إذن الشارع؛ لأنَّ كون الملك لله يدلُّ على أنَّ تصرفنا فيه إنَّما يكون بطريق الوكالة، يتقيَّد بما أذن له؛ ولهذا لو وكَّلت شخصًا على بيع بيت لم يملك أن يؤجِّره، لأنَّه إنَّما وكِّل على البيع فقط وهو المالك، والمالك الذي يملك البيت لم يأذن له في التأجير، إنَّما أذن له بالبيع؛ فنحن باعتبار ما ملكت أيماننا لا نملكها ملكًا مطلقًا نتصرَّف فيها كيف شئنا، وإنّما تملُّكنا لها تملُّك مقيَّد.

٥- أنَّ الشيء العام للخلق ليس ملكًا لأحد، الذي أخرجه الله عز وجل وليس من صنع إنسان فهو غير ملك لأحد إلَّا من سبق إليه بمقتضى النصوص الشرعية؛ ووجه ذلك أنَّ الله جعل السموات والأرض ملكهما له؛ فإذا كان له فإنَّك لا تملك شيئًا من أرضه إلَّا على الوجه الذي أذن فيه.

١- (قلت): أنظر تفصيل الكلام عن {إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير} عند تفسير الآيات (٢٠، ١٠٦)، و(١٤٨) في الفوائد رقم (٨) من سورة البقرة.

٦- عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله: {والله على كلِّ شيءٍ قدير}، وأنت إذا قرأت هذه الآية وطبَّقتها على ما يورده بعض أهل الباطل من التشكيك في الشريعة فإنَّك تستريح، مثلًا يقول بعض الملحدين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر يقول: كيف يعود الإنسان إنسانًا بعد أن كان ترابًا؟ وجوابنا على هذا سهل أن نقول: إنَّ هذا من قدرة الله (والله على كلِّ شيءٍ قدير).

٧- أنَّ من آمن بأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير فإنَّه يطرد عنه اليأس؛ لأنَّ الإنسان قد يصاب بمرض فييئس من برئه بعد العلاج فيقال له: لا تيئس (إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير)، وأنت إذا أراد الله أن يبقى المرض بك فقد يكون خيرًا لك، لأنَّك تكسب من وراءه الثواب من الله عز وجل: فإنَّه لا يصب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلَّا كفَّر الله له به يعني من ذنوبه، فأنت لا تيئس إذا أصابك مرض لا يرجى زواله مثلًا، لا تيئس فإنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير.

٧- أنَّ ما أخبر الله عن نفسه من الأمور التي يستبعدها العقل فإنَّها حقٌّ؛ لأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير؛ فمثلًا لو قال: كيف ينزل إلى السماء الدنيا وهو على العرش؟ فنقول له: الله على كلِّ شيءٍ قدير، وليس لك أن تعارض ما أخبر به رسول الله ﷺ عن ربه في أحاديث متواترة بمجرَّد وهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ {١٩٠}

قال ابن العثيمين: يقول الله عز وجل مؤكِّدًا مضمون هذه الجملة الخبرية: {إنَّ في خلق السموات والأرض}، إيجاد الشيء على غير مثال سبق يسمَّى خلقًا. وفي خلق السموات والأرض آيات من عدَّة أوجه؛ الوجه الأول: من جهة الكبر والسعة؛ والوجه الثاني: ما فيهما من الحسن والبهاء والجمال، قال الله تعالى: {ولقد زيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح}، والذي يطَّلع على ما صوَّره العلماء من هذه الآيات العظيمة يتبيَّن له عظمة الله عز وجل في هذا الخلق. كذلك من جهة إتقانها وعدم تخلخلها، قال الله تعالى: {فارجع البصر هل ترى من فطور ثمَّ ارجع البصر كرَّتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير}.

وكذلك ما أودع الله فيه من المواد المتعدِّدة المختلفة الأنواع والأشكال والمنافع كما قال الله تعالى: {وفي الأرض قطع متجاورات}: يعني متجاورات بعضها إلى جوار بعض ولكن بينها من الاختلاف ما لا يعلمه إلَّا الله. وفيهما أيضًا ما فيهما من المنافع العظيمة للخلق؛ فالشمس فيها خير عظيم والقمر كذلك والأشجار وغيرها، كلُّها فيها خيرات عظيمة من آيات الله عز وجل؛ فأنت ترى النخيل على أرض واحدة، وتسقى بماء واحد، ويفضل الله بعضها على بعض في الحجم واللون والمذاق والادِّخار، وهي جنس واحد لكنَّها مختلفة؛ والآيات في هذا كثيرة، لو أنَّ الإنسان جلس وتأمَّل وتدبَّر وكتب كل ما يأتي على خاطره لجمع آيات كثيرة في هذا؛ ونحن مأمورون أن نتدبَّر ما في السموات والأرض من الآيات: {أولم يتفكَّروا في خلق السموات والأرض}، لنستدلَّ بها على كمال قدرة الله عز وجل؛ وما في ذلك من الحكم العظيمة والرحمة.

وقوله: {السموات والأرض}، هذا التَّعبير القرآني غالبًا أن الله يذكر السموات مجموعة إلى الأرض مفردة، ولم يأت في القرآن الكريم التّصريح بعدد الأرض بخلاف السماء فقد جاء التَّصريح بأنَّها سبع سموات كما قال تعالى: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن}، أي في العدد لا في الكيفية ولا في الماهية؛ وجاءت السنة صريحة في هذا في قول النبي ﷺ: ((من اقتطع شبرًا من الأرض طوَّقه الله به يوم القيمة من سبع أراضين)).

{واختلاف الليل والنهار}: اختلاف الليل والنهار من وجوه شتى أيضًا فيه آيات:

أوَّلًا: من جهة أنَّ الليلة ظلمة والنهار نور، وهذا من آيات الله، قال الله تعالى: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} فهذا من آيات الله: {وجعلنا الليل والنهار آيتين}.

كذلك أيضًا اختلافهما من جهة الطول والقصر، أحيانًا يطول الليل وأحيانًا يطول النهار وأحيانًا يتساويان، ولا أحد يستطيع أن يقوم بهذا؛ فهو من آيات الله؛ ولو أنَّ أهل الأرض كلَّهم اجتمعوا على أن يدخلوا من الليل جزء في النهار ما استطاعوا ولا العكس؛ فهذا من آيات الله. ويدخل في اختلافهما حرًّا وبردًا، أحيانًا يكون هذا حارًّا وهذا باردًا وأحيانًا يتساويان.

ومن ذلك أيضًا: اختلافهما في الرخاء والشدَّة؛ أحيانًا تمرُّ بك الأيام رخاء وأحيانًا تمرُّ بك الأيام شدَّة.

ومن هذه الآيات: اختلافهما في العزِّ والذُّلِّ والنصر والخذلان، ينصر أحيانًا أقوام ويخذل هؤلاء الأقوام في آن آخر وهكذا؛ فإذًا الليل والنهار فيهما آيات في اختلافهما، في ذاتهما وفيما يقع فيهما، قال الله تعالى: {وتلك الأيام نداولها بين الناس}، ولو تأمَّل الإنسان لوجد أكثر ممَّا ذكرنا من اختلاف الليل والنهار.

{لآيات لأولي الألباب}: {آيات} جمع، الآيات هنا، لأنَّها متنوِّعة ومتعدِّدة، ولكنَّها لا يفهمها ولا يتَّخذها آيات إلَّا أولو الألباب؛ ولهذا قال: {لآيات لأولي الألباب}: أي لأصحاب العقول؛ وسمِّي العقل لبًّا لأنَّه خالص الإنسان كما أنَّ اللُّب خالص الحبَّة مثلًا؛ فالإنسان بعقله وليس بفكره؛ والعقل ليس هو الذَّكاء كما قد يتبادر بأذهان كثير من الناس؛ ولكن العقل هو الرُّشد في التصرف، كلَّما كان الإنسان أشدُّ رشدًا وتصرُّفًا كان أعقل، وليس كل ما كان أذكى فهو أعقل لا، لا يمكن، لأنَّه قد يكون من الأذكياء من هو أبعد الناس عن العقل.

ولهذا يمكن أن نقول لصناديد الكفرة الممتلئين ذكاء نقول: إنَّهم غير عقلاء وإن كانوا أذكياء؛ قال الله لبني إسرائيل: {أتأمرون الناس بالبرِّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}، مع أنَّهم عندهم عقل؛ فأصحاب الألباب هم الذين يعرفون ما في هذه الأشياء الأربعة من الآيات العظيمة: خلق السموات، خلق الأرض، اختلاف الليل، اختلاف النهار.

قال السعدي: وخصَّ الله بالآيات أُولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنَّهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص٣٣٢: الخوض في ذات الله محرَّمة، وكذلك التفكُّر في ذات الله أيضًا منهيٌّ عنه.

لكن المأمور به أن يُفكِّر المرء في آلاء الله – عز وجل –. قد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكِّروا في ذات الله فتهلكوا([1]))).فالمأمور به العبد أن يتفكَّر في آلاء الله، وآلاء الله – عز وجل – يعني في آياته.

آيات الله – عز وجل – نوعان:

– آيات مرئية وهي ملكوته في السموات وفي الأرض وما خَلَقَ الله من شيء.

– وآيات متلوة وهي القرآن.

فمن تفكَّر في آلاء الله دلَّهُ على عِظَمِ ربه – عز وجل – وأصابه طمأنينة وسكينة وخشوع وخضوع للرب – عز وجل –.

لهذا أمرنا ربنا سبحانه بالتفكُّر في آلائه وملكوته وآياته، قال سبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[آل عمران: ١٩٠-١٩١]، وقال سبحانه: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا}[الأعراف: ١٣٤، والروم: ٨]، وقال سبحانه أيضًا: {قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[يونس: ١٠١]، وقال – عز وجل –: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}، تقف هنا، {مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ}[سبإ: ٤٦]، والنبي ﷺ حُبِّبَ إليه الخلاء، حُبِّبَ إليه أن يدخل غار حرَّاء ويمكث فيه الليالي ذوات العدد يَتَحَنَّثْ ويتأمَّل في ملكوت الله – عز وجل –؛ وهذا يُحدِثْ من حقائق الإيمان في النفس ومن الارتباط والذُّلِّ لله – عز وجل – ما يُحدِث؛ ولهذا كان من هدي السلف رضوان الله عليهم التفكُّر في آلاء الله – عز وجل – وقلَّة الكلام.

قالت أم الدَّرداء في وصف زوجها أبي الدَّرداء (كانت أكثر عبادة أبي الدَّرداء التفكُّر([2])). وكان الحسن البصري رحمه الله يقول (عاملنا القلوب بالتَّفكُّر فأورثها التَّذَكُّرْ، فرجعنا بالتَّذَكُّرْ على التَّفكُّر وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار). هذه كلمة عظيمة، الناس قلوبهم مُضْغَة كلُّها تتحرَّك وتقذف الدَّم؛ ولكنَّ القلب الحي {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا}[يس: ٧٠]، صاحب القلب الحي هذا يكون قلبه له سمع وبصر؛ يعني يرى أشياء و يتفرَّس في الأشياء ويكون له مرئيات، يرى ما لا يراه الآخرون.

قال: (عاملنا القلوب بالتَّفكُّر)، التَّفكُّر في آلاء الله، وليس التَّفكُّر في الله ولا في ذات الله، إنَّما التَّفكُّر في آلاء الله – عز وجل –، فيما خلق، في آياته التي أعطاها المرسلين، في آياته المتلوة، القرآن إلى آخره، يعني في المنظورة والمقروءة.

---

[1] – (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (١٧٨٨). والحديث بتمامه بلفظ: ((تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله عز وجل)).

[2] – حلية الأولياء (٢٠٨/١).

﴿فأورثها التَّذَكُّرْ﴾: يعني تَذَكُّر العبد، إذا تفكَّر وخلا بنفسه فإنَّه سيتذكَّر؛ لكن تَذَكُّرَهُ سيكون ضعيفًا؛ لأنَّه بدايات التَّذكُّر بعد التَّفكُّر. قال: ﴿فرجعنا﴾ – هو يحكي حال السلف الحسن البصري يقول: ﴿عاملنا﴾ يعني السلف يعني طبقة التابعين – قال: ﴿فرجعنا بالتَّذَكُّر﴾؛ هذا الذي تذكَّرناه وصار في القلب نوع حياة رجعنا به على التَّفَكُّرْ، تَفَكَّرْنَا من جديد، نظرنا في الملكوت، في آلاء الله، في تصرُّف الله – عز وجل – في خلقه، في آيات الله في القرآن.

﴿فرجعنا بالتَّذكُّر على التَّفكُّر وحركنا القلوب بهما﴾: يعني مرَّة بعد مرَّة، هذا تذكُّر بعد تفكُّر، تذكُّر بعد تفكُّر، يبقى العبد في الإيمان.

قال: ﴿فإذا القلوب لها أسماع وأبصار﴾: ينفتح القلب من معارف الله – عز وجل – ومن الأُنْسِ به ومن لذَّة مناجاته ومن إيثار ما عنده على ما في هذه العاجلة، وعلى إيثار مَحَابِّهِ – جل جلاله – على أهواء النَّفس ما لا يدركه إلَّا من وفَّقه الله – جل جلاله –.

لهذا قال: ﴿وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ﴾: سمة أهل السنة والجماعة أنَّهم لا يخوضون في الله، ولا يخوضون في صفات الله وإنَّما يذكرون ما دَلَّ عليه الكتاب والسنة ويُعَلِّمُونَ ذلك، وإنَّما المهم العمل، المهم هذا القلب أن يكون صالحًا، أن يكون خاشعًا لله، منيبًا لله – جل جلاله –، ولهذا صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: ((عينان لا تمسَّهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله([١])))، وقال في السبعة الذين يظلَّهم الله في ظلِّه: ((ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه([٢])))).

قال ابن كثير: وقد ثبت أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجُّده، فقال البخاري، رحمه الله: عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثمَّ رقد، فلمَّا كان ثلث اللَّيل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: {إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب} ثمَّ قام فتوضَّأ واستن. فصلَّى إحدى عشرة ركعة. ثمَّ أذن بلال فصلَّى ركعتين، ثم خرج فصلَّى بالناس الصبح([٣]).

قال البغوي: أَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي أَنَا أَبُو نُعَيْمٍ عَبْدُ الملك بن الحسن الأسفراييني أَنَا أَبُو عَوَانَةَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَافِظُ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ أَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِيهِ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَآهُ اسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَأَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ سِتَّ رَكَعَاتٍ كُلُّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ ثُمَّ أَتَاهُ الْمُؤَذِّنُ فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا وَفِي

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في المشكاة (٣٨٢٩).

٢- (قلت): البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

٣- صحيح البخاري برقم (٤٥٦٩).

سَمْعِي نُورًا وَفِي لِسَانِي نورًا واجعل من خلفي نورًا ومن أمامي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا([1]))).

وَرَوَاهُ كُرَيْبٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَزَادَ: ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ يَسَارِي نُورًا)).

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- الحثُّ على التأمُّل في خلق السموات والأرض؛ لأنَّ الله ذكر أنَّ فيهما آيات، والآيات هي العلامة، وكلَّما ازدادت الآيات وضوحا ازداد الإيمان قوَّة.

٢- والتأمُّل في خلق السموات والأرض على الوجوه التي ذكرناها في التفسير، من حيث ذواتهما ومنافعهما وما فيهما من الخير والمصالح حتى لا يذهب ذاهب إلى أنَّها خلقت عبثًا.

٣- الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار من رخاء إلى شدَّة وبالعكس؛ ومن حرب إلى سلم، ومن عزٍّ إلى ذلٍّ، ومن فقر إلى غنى، وبالعكس في هذه الأمور.

٤- الثَّناء على أصحاب العقول؛ لأنَّ الله جعل هذا الاختلاف آية لذوي العقول؛ أمَّا من لا عقل له فإنَّه لا ينتفع بهذه الآيات ولا يعتبر بها، وتمرُّ عليه وكأنَّها مظاهر طبيعية لا علاقة لفعل الله تعالى بها؛ وهذا من الطمس على القلوب وعلى الأبصار؛ لأنَّ هذا الكون المنظم على هذا النظام البديع لا يمكن أبدًا أن يقع إلَّا من رب حكيم عز وجل، ولا يمكن أن يقع من فاعل على وجه السَّفه أبدًا.

١- إسناده صحيح على شرط مسلم، ابن فضيل هو محمد.

- وهو في شرح السنة (٩٠١) بهذا الإسناد.

- وأخرجه مسلم ٧٦٣ ح ١٩١ من طريق محمد بن فضيل بهذا الإسناد.

- وأخرجه أبو يعلى ٢٥٤٥ من طريق عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عباس بهذا الإسناد.

- وأخرجه البخاري ٦٣١٦ ومسلم ٧٦٣ وأبو داود ٥٠٤٣ والترمذي في الشمائل (٢٥٥)، والنسائي ٢/ ٢١٨ وابن ماجه ٥٠٨ وعبد الرزاق ٣٨٦٢ و٤٧٠٧ وابن حبان ٢٦٣٦ من طرق عن سلمة بن كهيل، عَنْ كُرَيْبٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مطوّلا ومختصرا.

- وأخرجه مالك ١/ ١٢١- ١٢٢ من طريق مخرمة بن سليمان، عَنْ كُرَيْبٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. ومن طريق مالك أخرجه البخاري ١٨٣ و١١٩٨ و٤٥٧٠ و٤٥٧١ و٤٥٧٢ ومسلم ٧٦٣ ح ١٨٢ وعبد الرزاق ٤٧٠٨ وأبو عوانة ٢/ ٣١٥ والطحاوي ١/ ٢٢٨ وابن حبان ٢٥٧٩ والبيهقي ٣/ ٧.

- وأخرجه البخاري ١١٧ و٦٩٧ وأحمد ١/ ٣٤١ و٣٥٤ والدارمي ١/ ٢٨٦ والطحاوي في المعاني (١/ ٢٨٧) من طرق عن الحكم، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عباس.

٥- أنَّ الرب عز وجل أظهر آياته لخلقه مع أنَّ مجرَّد الإيمان بأنَّ الله تعالى حي موجود يكفي، لكن كلَّما تعدَّدت الأدلَّة والآيات ازداد الشيء يقينًا؛ ودليل هذا أنَّ ابراهيم قال لله عز وجل: {رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي}، فالإنسان قد يكون مؤمنًا ولا إشكال عنده في الأمر لكن يحتاج إلى من يطمئنه.

٦- الثناء على العقل؛ وهو عقل الرُّشد؛ لقوله عز وجل: {لآيات لأولي الألباب}.

٧- أنَّه كلَّما كان الإنسان أعقل كان بالله وآياته أعلم؛ لقوله: {إنَّ في ذلك لآيات لأولي الألباب}، والحكم المعلَّق على وصف يثبت بثبوته ويعدم بعدمه؛ فإذا كان أصحاب العقول هم الذين ينتفعون بهذه المخلوقات ويستدلُّون بها على الخالق عز وجل وعلى ما له من صفات الكمال فإنَّ من عقله عقل بهيمي لا ينتفع بهذه الآيات لأنَّه ليس من ذوي الألباب.

فإن قال قائل: العقول هبة من الله عز وجل، فكيف يذمُّ الإنسان على فقدها أو يمدح على وجودها؟ فالجواب: أنَّ عقل الرُّشد نوعان: عقل غريزي وعقل اكتسابي أو كسبي؛ فالعقل الغريزي لا يحتاج إلى التأمُّل والتَّفكُّر؛ وأمَّا المكتسب فإنَّه يحتاج إلى تأمُّل ونظر وتفكُّر لأنَّه كلَّما ازداد تفكُّره ازداد إيمانه ويقينه ورشده.

هل يؤخذ من الآية الكريمة الثناء على ذوي العقول؟ نعم؛ لأنَّ الله جعل هذه الآيات نافعة لأُولي العقول؛ وعلى هذا فينبغي لك أن تكرس جهودك على التأمُّل المبني على العقل حتى يكون عندك عقل غريزي وعقل مكتسب.

٨- أنَّ ذكر الله عز وجل من لوازم العقل ومقتضياته؛ لقوله: {لأُولي الألباب الذين يذكرون الله}.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {١٩١}

قال ابن العثيمين: ثمَّ بيَّن الله تعالى ما يتَّصف به هؤلاء فقال: {الذين يذكرون الله}: وهذه صفة مبيِّنة، يعني لنا أن نجعلها عطف بيان ولنا أن نجعلها صفة مبينة لحالهم: {الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم}: يعني يذكرون الله على كلِّ حال، {قيامًا}، وهي أعلى ما يكون الجسد قائمًا، {وقعودًا}، وهي مرتبة بين القيام والاضطجاع؛ والثالثة: {على جنوبهم}، يذكرون الله سبحانه وتعالى بالتأمُّل في هذه المخلوقات؛ كلَّما رأوا شيئًا استدلُّوا به على كمال حكمة الله وقدرته وعلمه وهذا ذكر؛ يذكرون الله بألسنتهم بالتهليل والتسبيح والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك؛ يذكرون الله بجوارحهم بالقيام والركوع والسجود في الصلاة بالطواف بالبيت بالوقوف بمزدلفة بالوقوف بعرفة بالوقوف بمنى برمي الجمار، كلُّ عبادةٍ تتعبَّد لله تعالى وهي عبادة فعلية فهي من ذكر الله، لأنَّك تريد بها وجه الله، وبذلك تكون ذاكرًا له؛ وقوله: {وعلى جنوبهم}: يذكرون الله على جنوبهم بالقلوب والجوارح.

قال ابن كثير: كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين، رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب([١]))).

أي: لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، {ويتفكَّرون في خلق السماوات والأرض}: أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدَّالَّة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته.

قال ابن العثيمين: {ويتفكَّرون في خلق السموات والأرض}: التَّفكُّر إعمال الفكر، يعني إعمال المخ، كما يقولون: يفكِّر، {في خلق السموات والأرض}: لأيِّ شيءٍ خلقت، وكيف خلقت، وكيف رفعت السماء، وكيف سطحت الأرض، وما أشبه ذلك؛ المهم أنَّهم يعملون أفكارهم، ثمَّ يتفكَّرون هل هذه السموات والأرض خلقت نفسها أم كانت مخلوقة؟ يستنتجون بهذا التَّفكير أنَّ السموات والأرض كانتا مخلوقتان؛ لأنَّهم بالتَّفكير يطَّلعون على ما لا يطَّلع عليه غيرهم.

قال ابن كثير: وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إنِّي لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيءٍ إلَّا رأيت لله عليَّ فيه نعمة، أو لي فيه عبرة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (التَّفكُّر والاعتبار).

وعن الحسن البصري أنَّه قال: تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة. وقال الفضيل: قال الحسن: الفكرة مرآةٌ تريك حسناتك وسيِّئاتك. وقال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وربما تمثل بهذا البيت:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كلِّ شيءٍ له عبرة

وقد ذمَّ الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدَّالَّة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلَّا وهم مشركون}[يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: {الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكَّرون في خلق السماوات والأرض}.

قال أبو زهرة: والتَّفكُّر في السماوات والأرض له ثلاث درجات بعضها أعلى من بعض، أدناها أن ننظر إلى السماء وما فيها من نجوم وكواكب وشمس وقمر وأبراج، وما فيها من نظام بديع محكم، وهذه هي النظرة العامَّة التي تكون لذوي الألباب وغيرهم، لأنَّ هذه النَّظرة أساس الحس وإشراق المحسوس.

والمرتبة الثانية التَّفكُّر في خلقها وأسرار وجودها ونواميسها وقوانينها، وهذا ما يفكِّر فيه علماء الكونيات الذين يعرفون ما اشتمل عليه الكون من قوى وما أودعها الخالق من أجرام وقوانين لسيرها.

المرتبة الثالثة وهي أعلاها، وهي النظرة التي تتَّجه إلى الخالق من وراء المخلوق، فيتدبَّر الكون وما فيه ليدرك عظمة المبدع، فيتعرَّف من جمال الصنعة جلال الصانع، وهذا النوع هو المذكور في هذه الآية وهو أعلى مراتب العبادة، وقد كان بعض الصحابة يقول: (إنَّ ضياء الإيمان التَّفكُّر).

١- صحيح البخاري برقم (١١١٥).

وإنَّ هذا النوع الأخير مِن التَّفكُّر يجعل القلب يخضع واللِّسان يخشع فينطق مستشعرًا عظمة الله قائلًا: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}. تلك الضَّراعة التي بدت على الألسنة هي أولى ثمرات التَّفكُّر، لقد وصلوا بمفكِّرهم إلى إدراك ربهم فقالوا: {ربنا}، ونادوه سبحانه بذلك النداء الخاضع الضارع الشاكر لنعمائه، وقد وصلوا بتفكيرهم وتدبُّرهم إلى أنَّ هذا الكون لَا يمكن أن يخلق باطلًا، أي لَا يكون لغير غاية، ولا لغير حكمة، فمعنى البطلان هنا العبث وعدم الغاية وإنَّهم ليعلمون أنَّ ذلك مستحيل على الله تعالى، ولذا أردفوا هذا بقولهم: {سبحانك}: أي تنزَّهت ذاتك وتقدَّست، وبذلك ارتفعوا إلى مقام التَّقديس وهو كمال العبودية والألوهية.

قال ابن العثيمين: {ربنا ما خلقت}: هذه الجملة مقول لقول محذوف، يعني يقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلًا، يعني بعد أن يتفكَّروا في خلق السموات والأرض تحصل لهم هذه النتيجة المباركة: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}؛ قوله: {ما خلقت}: هذه نافية؛ وقوله: {باطلًا}: حال لازمة لو حذفت لفسد الكلام؛ وعلى هذا فتكون لازمة؛ والقاعدة في الحال اللَّازمة هي التي لو حذفت لفسد الكلام؛ لو حذفت: {باطلًا} لكان اللفظ؛ {ربنا ما خلقت هذا}، مع أنَّه خلقه؛ وكم من جملة حالية أو مفرد حال صار لابدَّ منه في الكلام، وتسمَّى هذه حال اللَّازم.

وقوله: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}: يعني يا ربنا، فهو منادى منصوب بياء نداء المحذوفة.

قال ابن كثير: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}: أي ما خلقت هذا الخلق عبثًا، بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ثمَّ نزَّهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: {سبحانك}: أي عن أن تخلق شيئًا باطلًا.

قال ابن العثيمين: {سبحانك} سبحان: اسم مصدر منصوب على المفعولية المطلقة وعامله محذوف؛ والتَّقدير من حيث المعنى: (نسبِّحك تسبيحك): أي (ننزِّهك تنزيهك اللَّائق بك)؛ وأصل التسبيح التنزيه والإبعاد عن السوء، ومنه قولهم: سبَّح فلان يعني أبعد؛ ونزل في الماء ليسبح؛ وقوله: {سبحانك}: أي (تنزيهًا لك أن تخلق هذه السموات والأرض باطلًا)؛ وقد بيَّن الله في آيةٍ أخرى أنَّ من ظنَّ أنَّ الله خلق شيئًا باطلًا فقد أخذ بظنِّ الكفار؛ {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار} ولهذا قال: {فقنا عذاب النار}.

قال ابن القيم في روضة المحبين ج١ص٦٠: فنزَّهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السموات عبثًا لغير حكمة ولا غاية محمودة، وهو سبحانه يحمد لهذه الغايات المحمودة كما يحمد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها، وخَلَقَ ما يكره لاستلزامه ما يحبُّه وترتَّب المحبوب له عليه، ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبُّه لما يترتَّب عليه من فوات محبوب له أعظم منه، أو حصول مكروه أكره إليه من ذلك المحبوب، وهذا كما ثبَّط قلوب أعدائه عن الأيمان به وطاعته، لأنَّه يكره طاعاتهم ويفوت بها ما هو أحبُّ إليه منها من جهادهم، وما يترتَّب عليه من الموالاة فيه والمعاداة وبذلُ أوليائه نفوسهم فيه وإيثار محبَّته ورضاه على نفوسهم، ولأجل هذا خلق الموت والحياة وجعل ما على الأرض

زينةً لها؛ قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}، وقال {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}.

وقال رحمه الله أيضًا في شفاء العليل ج١ص١٩٨: وأخبر أنَّ هذا ظنُّ أعدائه لا ظنُّ أوليائه فقال: {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظنُّ الذين كفروا}، وكيف يتوهَّم أنَّه عرفه من يقول: أنَّه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة، ولا نهى لحكمة، وإنَّما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة، وهل هذا إلَّا إنكار لحقيقة حمده؟ بل الخلق والأمر إنَّما قام بالحِكَم والغايات، فهما مظهران بحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإنَّ الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزَّه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه، فإنَّهم أثبتوا خلقًا وأمرًا لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة، وينهى عمَّا فيه مصلحة، والجميع بالنسبة إليه سواء؛ ويجوز عندهم أن يأمر بكلِّ ما نهى عنه وينهى عن جميع ما أمر به، ولا فرق بين هذا وهذا إلَّا لمجرَّد الأمر والنهي، ويجوز عندهم أن يعذِّب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلَّا بخبر الرسول وإلَّا فهو جائز عليه، وهذا من أقبح الظنِّ وأسوأه بالرب سبحانه، وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه؛ والعجب العجاب أنَّ كثيرًا من أرباب هذا المذهب ينزِّهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه ولا ينزِّهونه عن هذا الظلم والجور ويزعمون أنَّه عدل وحقٌّ وأن التوحيد عندهم لا يتمُّ إلَّا به كما لا يتمُّ إلَّا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته وتكلُّمه وتكليمه وصفات كماله فلا يتمُّ التوحيد عند هذه الطائفة إلَّا بهذا النفي وذلك الإثبات.

قال ابن العثيمين: {قنا}: مأخوذ من الوقاية، أي: قنا عذاب النار بما تشاء، إمَّا بعدم إدخالها؛ يعني أن لا ندخلها أصلًا أو بإخراجنا منها بالشفاعة؛ لأنَّ المؤمن الفاسق يستحقُّ دخول النار على فسقه ثمَّ بعد ذلك يخرج منها، وقد يعفو الله عنه؛ لقوله تعالى: {إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}.

قال ابن كثير: {فقنا عذاب النار}: أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل يا من هو منزَّه عن النقائص والعيب والعبث، قنا من عذاب النار بحولك وقوتِّك وقيِّضنا لأعمال ترضى بها عنَّا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم.

قال أبو زهرة: ثمَّ اعترتهم وقد وصلوا إلى هذا النوع من العلمِ خشية العلماء، مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عزِيزٌ غَفُورٌ}، ولذلك غلب عليهم الخوف من عذاب الله تعالى فقالوا مرتِّبين على تفكُّرهم ما أدى إليه: {فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}: فهذه ضراعة إلى الله تعالى أن يقيهم عذاب النار، والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين: أولهما: أن يوفقهم لتجنب ما لَا يرضيه، والثاني: أن يغفر لهم ما أفرطوا في جنبه سبحانه وتعالى.

وقد كان ترتيب الخوف على التَّفكُّر له موضعه لأنَّ نهاية التَّفكُّر هو الخوف، إذ ينتهي إلى أعلى درجات الشعور بالمهابة لله تعالى، وهو يجعل المؤمن يستصغر حسناته، ويستكثر سيئاته.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- فضيلة إدامة ذكر الله عز وجل على كلِّ حال؛ لقوله: {الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا}؛ وكان أبلغ من وفَّى بهذا حقَّه رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: ((كان النبي ﷺ يذكر الله على كلِّ أحيانه([1]))).

٢- جواز ذكر الله تعالى للجُنب، أي: أنَّه يجوز للجُنب أن يذكر الله؛ لدخوله في العموم؛ {يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم}.

٣- أنَّ ذكر الله في حال كون الإنسان على جَنب لا يعدُّ استهانة بالذِّكر، وكذلك قراءة القرآن إذا قرأ بها على جَنب؛ وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ كان يقرأ القرآن متَّكِئًا في حجر عائشة وهي حائض رضي الله عنها.

٤- فضيلة التَّفكُّر في خلق السموات والأرض؛ لقوله: {ويتفكَّرون في خلق السموات والأرض}، ولكنَّ التَّفكُّر المقرُون بقول: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}، لا التَّفكُّر الذي يراد به الاطلاع على العلم المادي فقط في خلق السموات، لأنَّ هذا التَّفكُّر وإن كان يفيد الإنسان في الدنيا لكنَّه لا يفيده في الآخرة؛ لابدَّ أن يكون التَّفكُّر هذا منتجًا هذا القول والإقرار: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}.

٥- أنَّه إذا أثني على المتفكِّرين في الخلق فالمتفكِّرين في الشرع من باب أَولى؛ لأنَّ الشرع ليس أمرًا محسوسًا؛ فالتَّفكُّر فيه أبلغ في الإيمان من التَّفكُّر في الخلق؛ الخلق أمر محسوس كلُّ إنسان يدركه، لكن حِكَم وأسرار الشرائع ليس كلَّ أحدٍ يدركها.

٦- التوسل إلى الله تعالى بالربوبية حال الدعاء؛ وأكثر ما يكون التوسل به من أسماء الله في الدعاء هو الربوبية؛ لأنَّ الربوبية فيها الخلق والملك والتَّدبير؛ فلهذا نجد أنَّ أكثر ما يدعى به وصف الربوبية.

٧- انتفاء الباطل في خلق الله نفيًا مطلقًا؛ يؤخذ من قوله: {ما خلقت هذا باطلًا}، وإذا انتفى الباطل نفيًا مطلقًا ثبت الحقُّ، كما قال الله تعالى: {وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلَّا بالحقِّ}.

١- (قلت): مسلم (٣٧٣).

٨- إثبات ما أثبته أهل السنة من أنَّ من صفات الله ما هو منفي أو ما هو سلبي؛ لقوله: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}؛ والقاعدة عند أهل السنة أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرَّد النفي، وإنَّما يراد بها النفي مع إثبات كمال الضِّد، لأنَّه لثبوت كمال الضِّد انتفى هذا الوصف.

٩- الإقرار من هؤلاء العقلاء بأنَّ الله هو الخالق: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}؛ وهو من تقرير توحيد الربوبية.

١٠- إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}؛ لأنَّه لو خلقها باطلًا لانتفت الحكمة، فإذا انتفى الباطل ثبتت الحكمة؛ وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة أنَّ أفعال الله وشرائع الله كلُّها لحكمة، ليس فيها شيءٌ عبثًا إطلاقًا؛ وما خفيت علينا حكمته فهو لقصور أفهامنا وليس لانتفاء الحكمة فيه؛ لأنَّ الله قال: {وما أوتيتم من العلم إلَّا قليلًا} ونحن نؤمن بأنَّ الله عز وجل لا يحكم بشيء حِكَمًا كونيًّا ولا قدريًّا إلَّا لحكمة.

١٩- تنزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص؛ مأخوذة من قوله: {سبحانك}؛ والذي ينزه الله عنه شيئان: النقص والعيب؛ مماثلة المخلوقين حتى فيما هو كمال في المخلوقين فإنَّ الله منزَّه عن مماثلتهم، قال الله تعالى: {ليس كمثله شيء}، وقال تعالى: {وما مسَّنا من لغوب}؛ فكلُّ نقص قد تعالى الله عنه.

١١- أنَّ صفوة الخلق محتاجون إلى الدعاء للوقاية من النار؛ لقولهم: {سبحانك فقنا عذاب النار}.

١٢- إثبات التوسل في الدعاء بصفات الله؛ من قوله: {فقنا} لأنَّه بنوا {فقنا} على قولهم: {سبحانك فقنا}: يعني أنَّنا نتوسل إلى الله عز وجل بتنزُّهه عن النَّقص أن يقينا عذاب النار لأنَّنا نحن مؤمنون، يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكَّرون في خلق السموات والأرض ويقرُّون بأنَّها خلقت بالحقِّ وللحقِّ، وينزِّهون الله عز وجل عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وينبني على ذلك أنَّهم جعلوا ذلك وسيلة لوقاية الله تعالى إيَّاهم من النار: {سبحانك فقنا}؛ لأنَّه من المعروف في اللغة العربية أنَّ الفاء تدلُّ على تفرُّع ما بعدها على ما قبلها.

١٣- إثبات النار، وهي دار المجرمين والعصاة والظالمين والكفرة؛ لقوله: {فقنا عذاب النار}.

في الآية كلمتان لا يجوز فصل إحداهما عن الأخرى {ما خلقت هذا باطلًا}؛ لو قلت: {ربنا ما خلقت هذا}؛ وسكتت أوهم معنًى فاسدًا؛ ولهذا يجب الوصل: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا} مثل: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى}؛ لابدَّ أن تَصِل؛ لو قلت: {لا تقربوا الصلاة} فقط، فسد المعنى؛ ومثل: {فويل للمصلِّين الذين هم عن صلاتهم ساهون}، لابدَّ أن تصِل فتقول: {الذين عن صلاتهم ساهون}، وذلك لأنَّك لو سكتَّ لأوهم أنَّ الوعيد لمن يصلِّي.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ {١٩٢}

قال أبو زهرة: هذا في مقام التعليل لضراعتهم بالوقاية من النار، وهو تعظيم لأمر العقاب يوم القيامة، وفيه فوق ذلك شعور بالعدالة إذا وقع العقاب، إذ إنَّه يكون من ظلم المرتكب، وفيه أيضًا بيان أنَّ العقاب إن أراده الله فلا مناصَّ منه، ولا منجاة بنصر ناصر، أو شفاعة شفيع، وأعظم العقاب ما فيه من الخزي أمام الله واهب الوجود، ومولي النعم وذي الجلال والإكرام، والخزي في أصل معناه الوقوع في بليَّة، وقد يطلق على الوقوع في البلايا المعنوية بأن يكون قد ارتكب أمرًا يتعيَّر به أمام الناس ولا مناصَّ لردِّ اعتباره وقوله تعالى: {فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} يتضمَّن هذه المعاني.

قال ابن العثيمين: هذه الآية كالتعليل للدعاء السابق: {فقنا عذاب النار}؛ لأنَّ من أدخلته النار فقد أخزيته؛ {ربنا}؛ هذه منادى حذفت منها ياء النداء والتقدير: (يا ربنا)؛ {إنَّك من تدخل النار}، {إن} واسمها في: {إنَّك} والجملة شرطية: {من تدخل النار فقد أخزيته} في محل رفع خبر {إن}؛ {وما للظالمين من أنصار} مبتدأ وخبر، الخبر مقدَّم والأنصار مؤخَّر، وهو مجرور ب{من} الزائدة {من أنصار}؛ والتقدير: (وما للظالمين أنصار)؛ هذا إعراب الآية.

يقول هؤلاء السَّادة العقلاء: {ربنا إنَّك من تدخل النار فقد أخزيته}: {من} يشمل العصاة والكفار؛ فالعصاة مستحقُّون لدخول النار، وإذا أدخلوا النار فإنَّهم غير مظلومين لأنَّهم مستحقُّون لذلك؛ والكفار مستحقُّون لدخولها على وجه التأبيد والتخليد؛ وكلٌّ منهم إذا أدخل النار فقد أخزاه الله أمام العالم، أي فضحه وهتك سرَّه.

قال صالح آل الشيخ في شرح العقيدة الواسطية ج٢ص٥١: فإنَّ الدخول في الكتاب والسنة دخولان:

ثَمَّ مطلق الدخول.

وثَمَّ الدخول المطلق.

أمَّا مطلق الدخول يعني أصله يعني حصول الدخول.

وأمَّا الدخول المطلق يعني الذي يكون داخلًا في النار ومستقرًّا فيها، وهذه هي حالة أهل الكفر يعني الدخول الكامل الأبدي.

ومن دخل ليخرج هذا يَصدُق عليه أنَّه دخل، ولكن دخوله لخروج وليس دخوله لمقام.

قال ابن العثيمين: وقوله: {وما للظالمين من أنصار}: هنا إظهار في موضع الإضمار، إذ مقتضى السِّياق أن يقول: (وما لهم من أنصار)؛ ولكنَّه أظهر في موضع الإضمار لفائدتين؛ الفائدة الأولى: أنَّ الذين يدخلوا النار يستحقُّون وصفهم بالظلم؛ والثاني: العموم أنَّ كلَّ ظالم حتى وإن لم يدخل النار، إذا أراد الله أن يعاقبه فإنَّه لن يجد من ينصره؛ وفيه فائدة ثالثة وهي: إثبات العلَّة في الحكم؛ لو قال: (وما لهم من أنصار)؛ لم يتبيَّن لنا أنّ السبب بأنَّهم ظلموا أنفسهم؛ فإذا وصفهم بهذا فكأنَّه بيَّن الحكم بعلَّته.

وقوله: {من أنصار}: يعني (من أعوان)، لأنَّ (الناصر) بمعنى (المعين)؛ وسواء كان العون في دفعهم أو في تخليصهم؛ فلا أحد ينصرهم عند إدخالهم فيمنعهم ولا أحد ينصرهم إذا سقطوا فيها فيخرجهم، قال الله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلَّا بإذنه}.

قال أبو زهرة: {وَمَا لِلظالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}: أي أنَّ المذنبين ظالمون فهم معاقبون بحقٍّ ولا ناصر لهم، و {مِنْ} دالَّة على استغراق النفي، أي لَا ناصر لهم أيًّا كان، وفى ذلك إشارة إلى انفراد الله تعالى بالسلطان.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- فقه هؤلاء السَّادة من أُولي الألباب، حيث بيَّنوا سبب دعائهم أن يقيهم الله من النار، وأنَّ سبب ذلك هو أنَّ النار دار الخزي {ربنا إنَّك من تدخل النار فقد أخزيته}.

٢- إثبات النار؛ لقوله: {من تدخل النار}.

٣- أنَّه لا نصير للظالم؛ وذلك في الآخرة؛ أمَّا في الدنيا فقد ينصر الظالم ولكن تدور عليه الدوائر؛ لكن في الآخرة لا أحد ينصره.

٤- أنَّ الظلم سبب لدخول النار؛ لقوله: {للظالمين من أنصار} بعد قولهم: {ربنا إنَّك من تدخل النار فقد أخزيته}.

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ {١٩٣}

قال ابن القيم في بدائع الفوائد ج٤ص١٦٦: فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسَّلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيِّئاتهم وإدخالهم مع الأبرار إلى جنَّته التي وعدهموها، وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسَّلوا بإنعامه عليهم أوَّلًا، إلى إنعامه عليهم آخرًا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته وهو إحدى الوسائل إليه وهي الوسيلة التي أمرهم بها في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}، وأخبر عن خاصة عباده أنَّهم يبتغون الوسيلة إليه إذ يقول تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}؛ فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السموات والأرض أنَّه لم يخلقها باطلًا وأثمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه والتوسل إليه بطاعته والإيمان به.

قال ابن العثيمين: نقول في {ربنا إنَّنا سمعنا}: مثل ما قلنا في {ربنا إنَّك من تدخل النار}، أو: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}، أي: أنَّها منادى حذفت منها ياء النداء؛ {إنَّنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان}؛ جملة: {ينادي للإيمان} صفة لقوله: {مناديًا}؛ لكن فائدتها أنَّها بيَّنت ماذا ينادي له؛ وذلك أنَّ المنادي قد يكون ينادي لكذا ولكذا فبيَّنت ماذا ينادي له؛ فهي إذًا صفة ل{مناديًا}.

{أن آمنوا بربكم}: {أن} هذه تفسيرية لأنَّها جاءت بعد جملة تتضمَّن القول دون حروفه، وكلّ (أن) تقع بعد جملة تتضمَّن معنى القول دون حروفه، فإنَّها تسمَّى تفسيرية أي بمعنى: (أي)؛ ومنه قوله تعالى: {وأوحينا إليه أن اصنع الفلك}: أي اصنع الفلك، ف{أن} هنا تفسيرية.

{ربنا فاغفر لنا}: الفاء هذه عاطفة ولكنَّها تفيد السببيَّة لأنَّها عطفت جملة على جملة؛ وقوله: {سيِّئاتنا} بالكسر مع أنَّها مفعول به لأنَّها جمع مؤنث سالم.

{مع الأبرار}: ظرف؛ ولكن هنا المراد بالظرف أو المراد بالمعيَّة المعيَّة الحكمية لا الزمنية، لأنَّ ميتات الأبرار تختلف.

يقول: {ربنا إنَّنا سمعنا مناديًا}: قالوا ذلك تحدُّثًا بنعمة الله على ما أنعم به من إرسال هذا المنادي؛ وقولهم: {سمعنا مناديًا ينادي للإيمان}، هذا المنادي معناها اللَّفظي المصوِّت، لأنَّ النِّداء هو رفع الصوت؛ ولكن المراد به محمد ﷺ؛ وسماعهم له يقع على وجهين؛ أحدهما: أن يسمعوا صوته مباشرة بدون واسطة؛ والثاني: أن يسمعوا من غيره ما جاء به، يسمعوه من ورثته وهم العلماء؛ وكلُّ هذا داخل في الآية يعني السماع المباشر الذين سمعوا من صوته، والسماع غير المباشر والذي سمعوه بالواسطة من ورثته وهم العلماء.

وقوله: {ينادي للإيمان}؛ قد يقول قائل: أنَّ المتوقَّع أن يقال: (إلى الإيمان)؛ ولكنَّه أتى باللام لأنَّ اللَّام ألصق من (إلى)؛ إذ أنَّ (إلى) تفيد الغاية، والغاية لابدَّ لها من مغيا، والمغيا طرف، فهو مؤذن بالبعد؛ أمَّا {للإيمان} فهي للإلصاق، ألصق من (إلى).

{أن آمنوا بربِّكم}: هذا بيان للإيمان الذي دعا إليه الرسول ﷺ، {فآمنَّا}: الإيمان بالله عز وجل هو: الإقرار المتضمِّن للقبول والإذعان، وليس مجرَّد الإقرار؛ لو كان الإيمان مجرَّد الإقرار لكان أبو طالب مؤمنًا لأنَّه مقر؛ ولكنَّه لا يكون إيمانًا حتى يتضمَّن القبول والإذعان يعني الانقياد؛ فأمَّا إذا لم يقبل أو قبل ولم يذعن فإنَّه ليس بمؤمن.

وقوله هنا: {أن آمنوا بربِّكم}: قد يقول قائل: هل الإيمان يقتصر على ركن واحد وهو الإيمان بالله؟

فالجواب: أنَّ من آمن بالله آمن بكلِّ ما أخبر الله به؛ ومنه بقيَّة الأصول الستة: ملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه؛ فعلى هذا يكون الإيمان بالله متضمِّنًا للإيمان ببقيَّة أركان الإيمان، ويكون ذكرها أحيانًا مفصَّلة من باب التفصيل والبيان، وليس من باب التَّخصيص، فإنَّ الإيمان بالله يتضمَّن هذا كلَّه، {أن آمنوا بربِّكم فآمنَّا}: يعني أقررنا بذلك مع القبول والإذعان.

قال أبو زهرة: إذا كان ذكر الله يربِّي القلب، والتفكُّر يهديه، وهما معًا يرفعان المؤمن إلى مرتبة الخوف من الله، فإنَّ التَّذكُّر لله والتَّفكُّر في خلقه يفتح أيضًا القلب للتصديق والإذعان للحقائق الدينية، ولذلك كان من ثمرات التَّفكُّر إجابة نداء الحقِّ، والإيمان بالله ورسوله والغيب، ولذلك كان شأن أولئك المتذكِّرين المتفكِّرين في خلقه أنَّهم بمجرَّد أن سمعوا نداء الإيمان أجابوا....؛ وهنا بحوث لفظية:

أوَّلها: أنَّ أولئك سمعوا نداء المنادي، ولكن أسند السمع إلى الشخص لكمال الانتباه إليه، ولأنَّ شخص المنادي له أثر في حسن الاستماع لأنَّه رسول من عند الله، فما اقتنعوا بالحقِّ لذات الحقِّ فقط، بل لأنَّ الدَّاعي صادق أمين.

ثانيها: أنَّه أطلق المنادي، ثمَّ ذكر بعد ذلك أنَّه ينادِي بالإيمان وذلك لما فيه من إبهام بعده بيان، فيكون البيان أكثر ثباتًا، ولأنَّ الإطلاق أعطى المنادي تفخيمًا وتكبيرًا، ولأنَّ النداء إلى الحقِّ اعتبر كالعنوان له.

وثالثها: أنَّ الإيمان ذكر مطلقًا على أنَّه إيمان بالرب، وذلك للدِّلالة على الإذعان المطلق لله وللحقِّ والهدى، وقد أجابوا نداء الإيمان فقالوا: {فآمنَّا}.

وسماع النداء لَا يلزم أن يكون من شخص المنادي، بل يعمُّ السماع من شخصه وتتبُّع رسالته من بعده.

قال ابن العثيمين: {ربنا فاغفر لنا}: أي (بسبب إيماننا اغفر لنا ذنوبنا)؛ والمغفرة هي ستر الذنب والتَّجاوز عنه؛ وإنَّما نقول: إنَّها ستر وتجاوز لأنَّها مأخوذة من المغفر وهو ما يلبس على الرأس من الحديد الذي يقي السهام؛ ومعلوم أنَّ هذا المغفر فيه ستر وفيه وقاية؛ فمن قال من العلماء: المغفرة الستر؛ فإنَّ تفسيره لها ناقص؛ بل لابدَّ أن يقال: الستر مع الوقاية.

{ذنوبنا}: الذنوب هي المعاصي، وأصلها النصيب كما قال تعالى: {فإنَّ للذين ظلموا ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم}: أي نصيبًا مثل نصيب أصحابهم، ولكنَّها خصَّت بالنصيب من الآثام.

{وكفِّر عنَّا سيِّئاتنا}: السَّيِّئات طلبوا تكفيرها والذنوب طلبوا مغفرتها؛ لأنَّ السَّيِّئات هي الصغائر تكفَّر بالأعمال الصالحة، بالطاعات؛ ولا يمكن أن تكفَّر بالطاعات إلَّا بعد أن تكون الطاعات على الوجه الأكمل؛ لأنَّ الطاعات إذا نقصت لم تقوى على تكفير السيئات، إذ أنَّ الإنسان قد يفعل الطاعة ولا يحصل له منها إلَّا إبراء الذِّمَّة فقط، لكن لا تقوى على التكفير حتى تكون تامَّة بقدر المستطاع؛ ولهذا قالوا: {كفِّر عنَّا سيِّئاتنا بما نفعله من الأعمال الصالحة}.

ثمَّ اعلم أنَّ تكفير السيئات أي ما يكفَّر به قد يكون معيَّنًا من قبل الشرع، مثل كفَّارة الظهار، كفَّارة القتل، كفَّارة الجماع في نهار رمضان، هذا مقيَّد في الشرع؛ وقد يكون عامًّا كتكفير السَّيِّئات عمومًا بالصلاة، بالوضوء، بالجمعة إلى الجمعة، برمضان إلى رمضان، العمرة إلى العمرة؛ فالتَّكفير إمَّا مقيَّد وإمَّا مطلق عام.

{وتوفَّنا مع الأبرار}: {توفنا} يعني (اقبضنا إليك)، والتَّوفية بمعنى القبض، ومنه قولهم: توفَّى فلان حقَّه أي قبضه وافيًا، وقولهم: {مع الأبرار}: المعيَّة هنا ليست معيَّة زمنيَّة لتعذُّر اجتماع وفات الأبرار في آن واحد؛ لكنَّها معيَّة حُكميَّة، مصاحبة حُكمية، يعني أن نكون معهم أي في جملتهم ولو كنَّا بعدهم، وليست معيَّة مصاحبة، لاختلاف الأزمان بين موت الأبرار

بعضهم مع بعض؛ والأبرار جمع بر، والبر هو كثير الخيرات، قال الله تعالى: {إنَّا كنَّا من قبل ندعوه إنَّه هو البَرُّ الرحيم}؛ وأهل الحقِّ والأعمال الصالحة لاشكَّ أنَّهم كثيرو فعل الخير وأنَّهم أبرار.

قال السعدي: {وتوفَّنا مع الأبرار} يتضمَّن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثَّبات إلى الممات.

قال أبو زهرة: كان التَّفكُّر والتَّذكُّر لله سببًا في قوة إحساسهم بهفواتهم ونسيانهم حسناتهم وتواضعهم أمام ربهم خاضعين خاشعين، ولذلك طلبوا ثلاثة أمور: أوَّلها: الغفران إحساسًا بتقصيرهم وفضل ربهم. وثانيها: تكفير السَّيِّئات، أي الأمور التي تسيء في ذاتها، والفرق بين الذنب والسَّيِّئة، أنَّ السَّيِّئة عصيان فيه إساءة، والذنب فيه تقصير وتبطؤ عن الخير والغفران، والتَّكفير كلاهما ستر، ولكن الأوَّل يتضمَّن معنى عدم العقاب، والثاني يتضمَّن ذهاب أثر الإساءة. والمطلب الثالث الذي طلبوه هو أنَّ الله يتوفَّاهم مع الأبرار، أي يميتهم مع الأبرار بأن يسلكوا طريق الاستقامة في الدنيا حتى يخرجوا منها مع المستقيمين الأبرار الأخيار.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّه ينبغي للإنسان أن يعترف بنعمة الله عليه غير مانٍّ بها على ربه؛ لقولهم: {ربَّنا إنَّنا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربِّكم فآمنَّا}.

٢- أنَّ دعوة النبي ﷺ دعوة إلى الإيمان: {ينادي للإيمان}.

٣- بيان أنَّ رسول الله ﷺ بذل الجهد في دعوة الخلق إلى الحقِّ؛ لأنَّ النداء يكون برفع الصوت، فكأن الرسول ﷺ يدعو الناس بأعلى صوته يناديهم للإيمان.

٤- أنَّ الكلمات قد يستغنى بمضمونها عن تفصيلها؛ لقوله: {ربَّنا إنَّنا آمنَّا}: أي بكلِّ شيء يجب الإيمان به؛ فكلُّ ما أخبر الله به فإذا صدَّقنا به وأقررنا به فهو داخل في الإيمان بالله عز وجل.

٥- الإشارة إلى بيان العلَّة؛ لقوله: {أن آمنوا بربِّكم}؛ فالرب أهل لأن يؤمن به الإنسان لأنَّه ربٌّ خالقٌ مالكٌ مدبِّرٌ، فهو جدير بأن يؤمن به العبد.

٦- أنَّ ذكر الإنسان لعمله الصالح لا يحبطه؛ فإذا قال: أمرني ربي بالصلاة فصلَّيت أو بالزكاة فزكَّيت أو بالحج فحججت فإنَّ هذا لا يبطل العمل؛ لأنَّهم قالوا: {أن آمنوا بربِّكم فآمنَّا}.

٧- جواز التوسل في الدعاء بالأعمال الصالحة؛ لقولهم: {فاغفر لنا ذنوبنا} عطفا على قولهم: {ربَّنا إنَّنا آمنَّا}؛ والتوسل بالأعمال الصالحة ممَّا ثبت بالسنة أيضًا، في قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار بصخرة عظيمة لم يستطيعوا زحزحتها،

فقال بعضهم لبعض: إنَّه لا ينجيكم من ذلك إلَّا أن تتوسَّلوا إلى الله بصالح أعمالكم؛ فتوسَّل كلٌّ منهم بصالح عمله؛ فلمَّا دعى الأوَّل وتوسَّل بصالح العمل انفرجت الصخرة قليلًا، ثمَّ الثاني قليلًا لكن لا يستطيعون الخروج، ثمَّ الثالث فانفرجت كلَّها فخرجوا يمشون.

هنا يحسن أن نذكر أنواع التوسُّل؛ التوسُّل ينقسم إلى قسمين: ممنوع؛ وجائز؛ فالممنوع ما لم يرد به الشرع؛ والجائز ما ورد به الشرع؛ هذا هو الضابط؛ فما لم يرد به الشرع من أنواع التوسُّل فهو ممنوع مثل: التوسُّل بجاه الرسول ﷺ، وهذا يقع كثيرًا عند بعض العلماء يقول: أتوسَّل إليك بجاه نبيك؛ فالتوسُّل هنا غير مشروع فيكون ممنوعًا لأنَّ التوسُّل جعل الشيء وسيلة، وكون الشيء وسيلة لا يثبت إلَّا بدليل من الشرع؛ وجاه النبي ﷺ ليس سببًا لقبول دعائنا، لأنَّ جاهه ﷺ مما يختصُّ هو نفسه بفضله؛ أمَّا نحن فليس لنا تعلُّقٌ فيه. إذًا ضابط الممنوع هو ما لم يرد به الشرع؛ ووجه منعه أن من توسَّل بشيءٍ فقد جعله سببًا، والسبب يتوقَّف ثبوته على دلالة الشرع. أمَّا الجائز فهو ما جاء به الشرع، وهو أنواع:

الأوَّل: التوسُّل بأسماء الله بأن تقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى؛ ودليله حديث ابن مسعود رضي الله عنه في دعاء الكرب والغم: ((أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ... ([1]))، فهذا توسُّل بأسماء الله، بكل اسم هو لك.

الثاني: التوسُّل بصفات الله عز وجل؛ ومن ذلك قول النبي ﷺ: ((اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحييني ما علمت الحياة خيرًا لي([2]))، فقوله: ((بعلمك الغيب)): هذا توسل لله بصفته؛ ومن ذلك: ((اللهم برحمتك أستغيث))، فإنَّ هذا ليس استغاثة بالرحمة ولكن استغاثة بالله لصفته وهي الرحمة، فإنَّ الرحيم يغيث.

الثالث: التوسُّل إلى الله بأفعاله؛ والفعل وإن كان من الصفات لكن هو صفة ليست أزليَّة أبديَّة؛ ومنه قولنا في التَّشهُّد: ((اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد))، فقوله: ((كما صلَّيت على إبراهيم))، المراد بذلك التوسُّل إلى الله، يعني مثل ما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فصلِّ على محمد؛ وإذا قلنا بهذا صارت الكاف للتعليل، وبهذا التقرير يرتفع الإشكال الذي أورده بعض العلماء وقالوا: من المعلوم أنَّ محمدًا ﷺ أفضل من إبراهيم، والقاعدة أن المشبَّه دون مرتبة المشبَّه به، وهنا قال: ((صلِّ على محمد كما صلَّيت))؛ وإذا قلنا بأنَّ الكاف ليست

١- (قلت): صححه الإمام الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ج١ص١١٠، والحديث بتمامه: ((اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي)).

٢- (قلت): صححه الإمام الألباني في (صفة الصلاة)، و(الكلم الطيب)، و(الظلال) (١٢٩)، والحديث بتمامه: ((اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَكَلِمَةَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فِي الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنا وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَبِيدُ وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين)).

للتَّشبيه ولكنَّها للتعليل، وأنَّ هذا من باب التوسُّل، يعني أنَّنا لا نسألك أمرًا غريبًا نسألك أمرًا فعلته من قبل؛ فإنَّ الإشكال هنا يرتفع ولا يبقى فيها الإشكال. التوسُّل إلى الله بأسمائه؛ التوسُّل إلى الله بصفاته؛ التوسُّل إلى الله بأفعاله.

الرابع: التوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان، بالإيمان به وبرسله؛ ومنه هذه الآية: {ربَّنا إنَّنا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربِّكم فآمنَّا ربَّنا فاغفر لنا}؛ فجعلوا إيمانهم بذلك وسيلة لسؤال المغفرة: {ربَّنا فاغفر لنا ذنوبنا}.

الخامس: التوسُّل إلى الله عز وجل بالأعمال الصالحة، ليس بالإيمان بالأعمال الصالحة؛ ومن ذلك قصة أصحاب الغار الثلاثة حين انطبقت عليهم صخرة فسدَّت فم الغار ولا يستطيعون زحزحتها فقالوا: توسَّلوا إلى الله بصالح أعمالكم؛ فتوسَّل أحدهم بكمال برِّه لوالديه؛ وتوسَّل الثاني بكمال عفَّته؛ وتوسَّل الثالث بكمال أمانته؛ ففرَّج الله عنهم([١]).

فإذا قال قائل: التوسُّل بهذا والذي قبله فيه إشكال، لأنَّه قد يقول قائل: أليس هذا إدلالًا على الله عز وجل وإعجابًا وفخرًا بالعمل؟ كأنَّه يقول: يا رب إنِّي فعلت كذا وفعلت كذا فاغفر لي مثلًا.

الجواب: لا؛ بل هذا من باب التَّذلُّل لله عز وجل، وأنَّني يا رب قد ذللت لك وعلمت أنَّك الملجأ فعبدتك وآمنت بك فأسألك أن تغفر لي مثلًا.

السادس: التوسُّل إلى الله بذكر حال الدَّاعي، التوسُّل إلى الله بذكر حاله، أن تذكر حالك فتقول: اللهم إنِّي ظلمت نفسي فاغفر لي؛ الأوَّل توسُّل بعمل صالح وهنا على العكس بالحال؛ ومن ذلك قول موسى: {رب إنِّي لما أنزلت إلي من خير فقير} ما ذكر إلَّا هذا؛ وهذا توسُّل إلى الله بذكر الحال؛ لأنَّ الإنسان إذا ذكر حاله وأنَّه مفتقر إلى الله أوجب ذلك له أن يلجأ إلى ربِّه عز وجل فيكون هذا من أسباب إجابة الدُّعاء.

١- (قلت): رواه البخاري في صحيحه (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣))، والحديث بتمامه: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رؤوسهما أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((غار)): الغار الثقب في الجبل؛ ((فإذا أرحت عليهم)): أي إذا رددت الماشية من المرعى إليهم وإلى موضع مبيتها وهو مراحها يقال أرحت الماشية وروحتها بمعنى؛ ((نأى بي ذات يوم الشجر))، وفي بعض النسخ ناء بي وهما لغتان وقراءتان ومعناه بعد والنأي البعد؛ ((بالحلاب)): الإناء الذي يحلب فيه يسع حلبة ناقة ويقال له المحلب قال القاضي وقد يريد بالحلاب اللبن المحلوب؛ ((يتضاغون)): أي يصيحون ويستغيثون من الجوع؛ ((فلم يزل ذلك دأبي)): أي حالي اللازمة؛ ((فلما وقعت بين رجليها)): أي جلست مجلس الرجل للوقاع؛ ((لا تفتح الخاتم إلا بحقه)): الخاتم كناية عن بكارتها وقولها بحقه أي بنكاح لا بزنى؛ ((بفرق)): بفتح الراء وإسكانها لغتان الفتح أجود وأشهر وهو إناء يتسع ثلاثة آصع؛ ((فرغب عنه)): أي كرهه وسخطه وتركه.

السابع: التوسُّل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح؛ ومنه قول عكاشة بن محصن للنبي ﷺ لمَّا قال: ((إنَّ من أمتي سبعين ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب))، قال: ادع الله أن يجعلني منهم؛ فقال: ((أنت منهم[١]))؛ ومنه قول الأعرابي: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السُّبل فادع الله أن يغيثنا فدعا، ومنه قول عمر للعباس: قم فادع الله؛ فقال: اللهم إنَّا نتوسَّل إليك بنبيِّنا فتسقينا وإنَّا نتوسَّل إليك بعم نبيِّنا[٢].

وهذا النوع السابع ينبغي أن يلاحظ الطالب ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، يلاحظ أنَّه إذا طلب منه أن يدعوا له فإنَّما يقصد بهذا منفعة الدَّاعي وأجره؛ لأنَّ الدَّاعي يؤجر إذا دعا لأخيه؛ وإنَّما قال ذلك احترازًا ممَّا إذا أراد الطالب نفع نفسه فقط، قال: فإنَّ هذا من المسألة المذمومة أن تقول ادع الله لي قصدك منفعة نفسك، لا، قل: أدع الله لي وأن تقصد أن ينتفع هو أيضًا بدعائه لك لأنَّه يؤجر على الإحسان إليك؛ ولأنَّه إذا دعى لك بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك مثله أو ولك بمثله؛ هذا إذا أردت أن تطلب من شخص أن يدعوا لك أنت خاصة؛ أمَّا إذا طلبت منه أن يدعوا للمسلمين عمومًا فهذا ليس من المسألة المذمومة حتى وإن لم تلاحظ نفعه هو؛ ونظيره لو أنَّك سألت رجلًا درهمًا لنفسك أو قلت أعطني درهمًا لفلان الفقير؛ كان الأوَّل من السؤال المذموم، والثاني من الإحسان إلى المعطي وإلى المعطى، لأنَّك تنفع المعطي في الآخرة وتنفع المعطى في الدنيا.

فهذه سبعة أنواع من التوسُّل كلُّها جاءت بها السنة، وهي جائزة لأنَّها حقيقةً سببٌ من الأسباب، والوسيلة هي أصلا تشبه الوصيلة؛ والسين والصاد يتناوبان كثيرًا كما في قوله: {اهدنا السراط المستقيم}، و{اهدنا الصراط المستقيم} كلاهما قراءتان سبعيتان؛ إذًا نأخذ من هذه الآية: {ربنا اغفر لنا ذنوبنا} جواز التوسُّل بالإيمان، واستطردنا بذكر أقسام التوسُّل.

٨- أنَّ كلَّ أحدٍ محتاج لمغفرة الذنوب؛ لقولهم: {فاغفر لنا ذنوبنا}؛ فلا تغرَّنَّك كثرة الطاعات، فالإنسان كلَّما كثرت طاعاته فينبغي أن يكون أخوف على نفسه من أن تردَّ هذه الطاعات ويذهب عمله سدى.

٩- التَّفريق بين المعاصي؛ بعضها ذنوب وبعضها سيِّئات؛ وهو كقولنا: إنَّها تنقسم إلى كبائر وصغائر، والكبائر والصغائر تختلف في ذاتها وتختلف فيما بينها، فالكبائر منها كبرى ومنها صغرى، والصغائر منها ما يقرب من الكبائر ومنها ما هو دون ذلك.

١- (قلت): رواه مسلم في صحيحه (٢١٨)، والحديث بتمامه: ((يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ))، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))، فَقَامَ عُكَّاشَةُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: ((أَنْتَ مِنْهُمْ))، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: ((سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((لا يكتوون)): الاكتواء استعمال الكي في البدن وهو إحراق الجلد بحديدة محماة؛ ((ولا يسترقون)): الاسترقاء طلب الرقية.

٢- (قلت): رواه البخاري في صحيحه (١٠١٠)، والحديث بتمامه: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا ﷺ فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا))، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ.

- قال مصطفى البغا في شرحه للحديث: ((استسقى)): طلب السقيا ونزول المطر. ((نتوسل)): نجعله وسيلتنا إليك لما له من حرمة عندك تعطفك علينا.

١٠- جواز سؤال الموت على طريق أهل الخير؛ لقولهم: {وتوفَّنا مع الأبرار}، وهذا ليس من باب الدُّعاء بالموت العاجل، وإنَّما هو من باب الدُّعاء بالموت على صفة مطلوبة، وهي أن يموت على ما مات عليه الأبرار.

١١- الثَّناء على أهل البرِّ والإحسان؛ لقوله: {وتوفَّنا مع الأبرار}.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ {١٩٤}

قال أبو زهرة: لقد ترقُّوا في الطلب، فانتقلوا من طلب الغفران إلى طلب الثواب، فمعنى النص الكريم: (أعطنا يوم القيامة ما وعدتنا به على ألسنة رسلك الأكرمين)، وقد أخَّروا ذلك لشعورهم بهفواتهم أكثر من شعورهم بحسناتهم التي يستحقُّون عليها الثواب.

قال ابن العثيمين: {ربَّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيمة}: انظر إلى التِّكرار في قوله: {ربَّنا}، لأنَّهم يتلذَّذون بهذا التَّعبير أن يكون الله ربَّهم، وإذا كان الله ربَّهم فهم عبيده؛ وتلذُّذ الإنسان بعبوديته لله عز وجل دليل على كمال إيمانه؛ لأنَّه كلَّما كان الإنسان أذلَّ لله كان أكمل إيمانًا؛ ولهذا يكرِّرون ربَّنا ربَّنا تلذُّذًا بهذا الاسم الكريم.

{وآتنا ما وعدتنا}: {آتنا} بمعنى (أعطنا)، بخلاف (ائتنا) فهي بمعنى (جئنا)؛ (آتى): بمعنى (أعطى)، (أتى): بمعنى (جاء)؛ والمصدر من (آتى): (إيتاء)، قال الله تعالى: {وإيتاء ذي القربى}؛ والمصدر من (أتى): (إتيان).

يقول: {وآتنا ما وعدتنا على رسلك}: {ما} هذه موصولة ومحلُّها من الإعراب مفعول ثاني ل{آت}؛ لأنَّ {آت} تنصب مفعولين؛ وأصلهما من أخوات (أعطى)، يعني ليس أصلهما المبتدأ والخبر؛ فالذي ينصب مفعولين إن كان أصلهما المبتدأ والخبر فهو من أخوات (ظنَّ)، وإن لم يكن أصلهما المبتدأ والخبر فهما من أخوات (أعطى).

{ما وعدتنا على رسلك}: أي (عهدت به إلينا من الثواب الجزيل على أعمالنا)؛ وقوله: {على رسلك} تحتمل معنيين؛ أحدهما: (على الإيمان برسلك)؛ والثاني: (على أيدي رسلك)؛ فعبَّر بالرُّسل عن أيدي الرُّسل؛ لأنَّ الذي وعدهم هم الرُّسل أنفسهم، وعدوا المؤمنين بما وعدهم الله به، ووعدوا المخالفين بما توعَّدهم الله به.

قال ابن القيم في حادي الأرواح ج١ص٨٩: والمعنى: وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من دخول الجنة؛ وقالت طائفة: معناه وآتنا ما وعدتنا على الإيمان برسلك، وليس يسهل حذف الاسم والحرف معًا إلَّا أن يقدر على تصديق رسلك وطاعة رسلك، وحينئذ فيتكافأ التقديران ويترجَّح الأوَّل بأنَّه قد تقدَّم قولهم: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا}، وهذا صريح في الإيمان بالرسول والمرسل؛ ثمَّ توسَّلوا إليه بإيمانهم أن يؤتيهم ما وعدهم على السنة الرُّسل

فإنَّهم أنَّما سمعوا بوعدهم لهم بذلك من الرُّسل وذلك أيضًا يتضمَّن التصديق بهم وأنَّهم بلَّغوهم وعده فصدَّقوا به وسألوه أن يؤتيهم إيَّاه، وهذا هو الذي ذكره السلف والخلف في الآية.

وقيل: المعنى آتنا ما وعدتنا من النَّصر والظَّفر على ألسنة الرُّسل؛ والأوَّل أعمُّ وأكمل؛ وتأمَّل كيف تضمَّن إيمانهم به والإيمان بأمره ونهيه ورسله ووعده ووعيده وأسمائه وصفاته وأفعاله وصدق وعده والخوف من وعيده واستجابتهم لأمره، فبمجموع ذلك صاروا مؤمنين بربِّهم تعالى، فبذلك صحَّ لهم التوسُّل إلى سؤال ما وعدهم به والنجاة من عذابه.

قال ابن العثيمين: {ولا تخزنا يوم القيمة}: {تخزنا} أي (تفضحنا وتذلَّنا)؛ **{يوم القيمة}:** أي (يوم يقوم الناس من قبورهم لله عز وجل)، وسمِّي هذا اليوم يوم القيمة لأمور ثلاثة؛ الأوَّل: أنَّه يقوم الناس فيه من قبورهم لله؛ والثاني: أنَّه يقام فيه العدل؛ والثالث: أنَّه يقوم فيه الأشهاد.

{إنَّك لا تخلف الميعاد}: تعليل لسؤالهم، يعني (سألناك يا ربنا أن تعطينا هذا لأنَّك لا تخلف الميعاد يعني الوعد)، وإنَّما انتفى عنه إخلاف الوعد لكمال صدقه وكمال قدرته؛ لأنَّ إخلاف الوعد إمَّا أن يكون لكذب الواعد، كميعاد أهل النفاق؛ وإمَّا أن يكون لعجز الواعد، أي أنَّه يفي لكن عجز؛ والله عز وجل قد انتفى في حقِّه الأمران: أعني الكذب والعجز؛ فهو لكمال صدقه وكمال قدرته لا يخلف الميعاد؛ وهذه الصفة من الصفات السلبية، السلبي يعنى بمعنى النفي، من الصفات السلبية.

والصفات السلبية يراد بها شيئان؛ الأول: انتفاء الصفة التي نفيت؛ والثاني: إثبات كمال ضدها؛ فإذا قلت: فلان لا يكذب، فالمعنى أنَّه كامل الصدق لا يوجد في كلامه كذب؛ ولهذا نقول: إنَّ الصفات المنفيَّة عن الله عز وجل لا يراد بها مجرَّد النفي وإنَّما يراد بها إثبات كمال الضِّد.

قال ابن القيم في حادي الأرواح ج١ص٩٠: وقد أشكل على بعض الناس سؤالهم أن ينجز لهم ما وعدهم مع أنَّه فاعل لذلك ولابد!

وأجاب: بأنَّ هذا تعبُّد محض كقوله: {رَبِّ احْكُمْ بِالْحَق}، وقول الملائكة: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}.

وخفي على هؤلاء أنَّ الوعد معلَّق بشروط؛ منها الرغبة إليه سبحانه وتعالى وسؤاله أن ينجزه لهم، كما أنَّه معلَّق بالإيمان وموافاتهم به وأن لا يلحقه ما يحبطه، فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم، تضمَّن ذلك توفيقهم وتثبيتهم وإعانتهم على الأسباب التي ينجز لهم بها وعده؛ كان هذا الدُّعاء من أهم الادعية وأنفعها وهم أحوج إليه من كثير من الادعية.

وأمَّا قوله: {رب أحكم}: فهذا سؤال له سبحانه وتعالى أن ينصرهم على أعدائهم فيحكم لهم عليهم بالنصر والغلبة، وكذلك سؤال الملائكة ربهم أن يغفر للتائبين هو من الأسباب التي يوجب بها لهم المغفرة، فهو سبحانه نصب الأسباب التي يفعل بها ما يريده بأوليائه وأعدائه، وجعلها أسبابًا لإرادته كما جعلها أسبابًا لوقوع مراده، فمنه السبب والمسبَّب، وإن أشكل عليك ذلك فانظر إلى خلقه الأسباب التي توجب محبَّته وغضبه، فهو يحب ويرضى ويغضب ويسخط عبر الأسباب التي خلقها

وشاءها، فالكلُّ منه وبه فهو مبتدأ من مشيئته وعائد إلى حكمته وحده، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد لا يَلِجُهُ إلَّا العالمون بالله.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّه ينبغي للدَّاعي أن يكثر من الثناء على الله تعالى بأسمائه وصفاته لأنَّ هذا من وسائل إجابة الدُّعاء.

٢- كمال إيمان هؤلاء بوعد الله؛ لقولهم: {وآتنا ما وعدتنا}، إذ لو كان عندهم شك ما سألوا هذا السؤال.

٣- أنَّ الرُّسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه؛ لقوله: {على رسلك}، ولا شكَّ أنَّ الرُّسل هم الواسطة بين الله وبين الخلق([1])؛ ومن حكمة الله أن جعلهم من البشر، لأنَّه لا يمكن التلاؤم بينهم وبين البشر إذا لم يكونوا من جنسهم؛ ولهذا قال الله تعالى رادًّا على الكفار الذين قالوا: لو كان محمدًا ملكًا لآمنَّا به؛ قال الله سبحانه وتعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر ثمَّ لا ينظرون ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا}، وحينئذ تعود المشكلة على زعمهم {وللبسنا عليهم ما يلبسون}.

٤- إثبات أنَّ الخلق لهم أكثر من رسول؛ لقوله: {على رسلك}، لأنَّ {رسل} جمع {رسول}، وهذا أمر معلوم باليقين القطعي، فالقرآن كلُّه مملوءٌ من قصص الأنبياء.

فإذا قال قائل: قد ورد الجمع يراد به واحد كقوله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين}، ومعلوم أنَّ قوم نوح لم يكذِّبوا إلَّا نوحًا؟

فالجواب عن ذلك أن نقول: إنَّ هذه الآية قد دلَّت على أنَّ المرسل إليهم واحد، ولكن لمَّا كان تكذيب الرسول الواحد تكذيبًا لجميع الرسل قال: {كذبت قوم نوح المرسلين}؛ لأنَّ المقصود هو التَّكذيب بالجنس لا بالواحد؛ فكأنَّهم كذَّبوا بجنس الرسالة وقالوا: لا يمكن أنَّ الله يبعث الرسل كما قال تعالى في بيان تكذيب الأمم أنَّهم يقولون لرسلهم: {ما أنتم إلَّا بشر مثلنا}.

٥- أنَّ هؤلاء الأبرار يؤمنون بيوم القيمة وبما يلحق الناس به من الذُّلِّ والخزي؛ لقوله: {ولا تخزنا يوم القيمة}.

٦- أنَّ الخوف من عذاب الله لا ينافي البر؛ لقولهم: {ولا تخزنا يوم القيمة}، بل إنَّ الخوف من عذاب الله يزيد البر؛ لأنَّه يزيد تصديقه بما أخبر الله به.

٧- كمال صدق الله وقدرته؛ تؤخذ من قوله: {إنَّك لا تخلف الميعاد}.

١- (قلت): يقصد الشيخ رحمه الله بأنَّ الرُّسل هم الواسطة بين الله وبين الخلق فيما هم فيه مكلَّفون بتبليغه للخلق، أي النَّازل من الله الى عباده، وليست العبادات الصاعدة من العباد الى الله جل وعلا، لأنَّ اتِّخاذ الواسطة في هذه الحال يكون شركًا فتنبَّه.

٨- أنَّ الله تعالى لا يخلف الميعاد أبدًا.

فإن قال قائل: يرد على هذا قوله: {إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، وقد توعَّد الله سبحانه تعالى العصاة بما يستحقُّون من الذنوب مثل: ((لا يدخل الجنة قتات([١]))، أي: نمَّام.

فالجواب: أنَّنا متى قلنا إن هذا النفي يراد به بيان كمال الله في الصدق والقدرة فإن عفوه عمن استحق العقاب لا يعدُّ إخلافًا للوعد يعني هو قادر؛ ولكنَّه كمال فوق كمال؛ فإن العفو عن الانتقام مع القدرة كمال، قال الله تعالى: {إن تبدوا خيرًا أو تخفوه أو تعفوا عن سوءٍ فإنَّ الله كان عفوًا قديرًا}.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ {١٩٥}

قال ابن كثير: عن سلمة، رجل من آل أم سلمة، قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله عز وجل: {فاستجاب لهم ربُّهم أنِّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى} إلى آخر الآية([٢]). وقالت الأنصار: هي أوَّل ظعينة([٣])قدِّمت علينا.

قال ابن العثيمين: {فاستجاب}: بمعنى (أجاب)، كما قال تعالى: {والذين استجابوا لربِّهم وأقاموا الصلاة}: فهي بمعنى الإجابة، أي أجابهم الله؛ وقوله: {فاستجاب لهم ربُّهم} انظر إلى هذا التَّلطُّف بهم، لم يقل: (فاستجاب لهم الله)، بل قال: {فاستجاب لهم ربُّهم}: لأنَّهم كانوا يدعون ب{ربَّنا}، يعني فهذا الرَّب الذي ما زالوا يدعونه استجاب لهم.

١- (قلت): البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)، والحديث بتمامه: عن همام قال كنا مع حذيفة فقيل له إن رجلًا يرفع الحديث إلى عثمان فقال حذيفة: سمعت النبي ﷺ يقول ((لا يدخل الجنة قتّات)).

(يرفع الحديث إلى عثمان): أي ينقل كلام الناس إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. ((قتّات)): النمام، وقيل: هو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون ذلك ثم ينقل ما سمعه منهم.

٢- (قلت): صحح الإمام الألباني هذا الحديث: عن رجل من ولد أم سلمة عن أم سلمة قالت يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة فأنزل الله تعالى: {أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض}، في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٠٢٣) بحديث آخر قبله برقم (٣٠٢٢) ما نصه: عن مجاهد عن أم سلمة أنها قالت يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تبارك وتعالى: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض}، قال مجاهد: وأنزل فيها: {إن المسلمين والمسلمات}، وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة قال أبو عيسى هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسل أن أم سلمة قالت كذا وكذا.

٣- (قلت): أول ظعينة: أي: أول امرأة. والظَّعينَةُ: الهَوْدَجُ. وإنما سُميَّت المرأةُ ظَعينَةً لأنَّها تكونُ فيه. أنظر ديوان الأدب لأبو ابراهيم الفارابي.

{أنِّي لا أضيع}: أي (لا أهدر ولا أفوت)؛ {عمل عامل منكم}؛ بل أوفي كلَّ عامل ما يستحق؛ وقوله: {من ذكر أو أنثى}: هذه بيان ل{عامل}؛ ولهذا نقول: أن {من} بيانية.

قال أبو زهرة: فإذا كان سيجزيهم الجزاء الأوفى فلأنَّهم عملوا خيرًا، وسبحان الله الشاكر العليم، هم يطلبون الجنة منحة من الله، لأنَّهم لا يعتقدون أنَّ عملهم يدخلهم الجنة استصْغارًا لأعمالهم بجوار نعمة رب العالمين عليهم، والله الكريم المنَّان يبيِّن لهم أنَّ ما ينالون من خير من عملهم، وأنَّ الله إذا لم يثبهم لكان مضيِّعًا لعمل الخير الذي قاموا به، وإنَّ الله لَا يضيع أجر من أحسن عملًا، ففي الآية الكريمة إشارة إلى عدله ورحمته، وبيان القانون الأمثل للعدل، وهو أن يكون الجزاء من جنس العمل {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}.

وبيَّن سبحانه تعميم الجزاء لكلِّ عامل بذكر النَّوعين اللذين خلقهما الله تعالى في هذا الوجود، فقال: {مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى}؛ فلا فرق في الجزاء بين الذكر والأنثى.

وفى التَّعبير باللَّفظ السامي {ربهم[١]}، إشارة إلى أنَّ الذي يجزيهم هو خالقهم ومربِّيهم والمنعم عليهم، وفيه مشاكلة بين لفظ الدُّعاء والإجابة، ومعنى قوله تعالى: {بَعْضُكُم مِّنْ بعْضٍ}: أي أنَّ الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، فأنتم جنس واحد يتمِّم بعضه بعضًا، فلا تُحرَم الأنثى جزاءً ولا يحابى الذَّكر دونها، فهذا النَّص السَّامي فيه تعليل لمعنى التَّسوية في الجزاء بين الذكر والأنثى. وبعض العلماء فسَّر قوله تعالى: {بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ}، أنَّها لعموم أجناس الناس، أي أنَّكم جميعًا أيها الناس بعضكم من بعض لَا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أسود ولا أبيض، فالجزاء من جنس العمل أيًّا كان العامل، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، وهذا النَّص الكريم يشير إلى عدَّة معانٍ سامية:

أوَّلها: أنَّ المرأة ليست شيطانة ولا نجسًا، بل لها كلُّ ما للرَّجل وإن كان له درجة في الدنيا لتنظيم الحياة.

وثانيها: أنَّ العمل له جزاؤه من غير نظر إلى قبيلة العامل أو لونه.

ثالثها: أنَّ استجابة الله ثابتة من وقت عمل العامل.

قال ابن العثيمين: {بعضكم من بعض}: يعني بعضكم من بعض في الدُّعاء واستجابته؛ وفي العمل والثواب؛ فأنتم جنس واحد، ما ثبت للذَّكر ثبت للأنثى، وما ثبت للأنثى ثبت للذَّكر؛ وتأمَّل كيف قال هنا: {بعضكم من بعض}، وقال في سورة التوبة: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض}، لأنَّ المراد بالآية في النُّصرة؛ فكلُّ مؤمن فهو وليٌّ لأخيه ناصر له؛ وقد قال في مقابلها في المنافقين: {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض}، وليسوا أولياء بعضهم لبعض، لأنَّهم – أعني المنافقين – لا يتولَّى بعضهم الآخر بخلاف المؤمنين.

١– (قلت): أنظر معنى إسم الله {الرب} مفصلًا عند تفسير الآية (٢) من سورة الفاتحة.

{فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا} هذه خمسة أوصاف؛ {هاجروا}: يعني هجروا بلادهم وخرجوا منها إلى بلاد الإسلام؛ {وأخرجوا من ديارهم}: إمَّا مباشرة بأن طردوا من البلاد، أو بالتَّضييق عليهم حتى يخرجوا؛ لأنَّ الإخراج من البلاد قد يكون مباشرة يطرد، وقد يكون بالتَّضييق عليه حتى يخرج؛ والأوَّل أشدُّ؛ لأنَّ الثاني يمكنه أن يصبر ويتحمَّل ولا يخرج، يختفي أحيانًا، ويهرب أحيانًا، ويبقى في بلده؛ لكن الطَّرد يمسك ويطرد، هذا أشدُّ؛ ولهذا قال أهل العلم خصوصًا الحنابلة فيمن فعل ما يوجب الحدِّ من زنا أو غيره ثم لجأ إلى مكة إلى الحرم، فإنَّه لا يخرج من الحرم ولا يقام عليه الحدُّ في الحرم لأنَّه لجأ إليه: {ومن دخله كان آمنًا}، ولكنَّه يضيق عليه فلا يؤاكل ولا يشارب ولا يبايع ولا يكلَّم حتى تضيق عليه الأرض ويخرج؛ أمَّا أن يخرج بالقوَّة ويقال: اخرج لنقيم عليك الحدَّ فلا؛ إذًا هناك فرق بين من أخرجوا بالفعل يعني بالقوَّة والمباشرة أو من أخرجوا بواسطة التَّضييق عليهم.

{وأخرجوا من ديارهم}: يعني التي يسكنونها سواء بأجرة أو بغير أجرة، فإنَّ الدار المستأجرة مثلًا تسمَّى دارًا للإنسان.

{وأوذوا في سبيلي}: يعني مع أنَّهم أخرجوا حصل لهم أذيَّة في سبيل الله أي في دين الله، كما حصل للنبي ﷺ حين كان ساجدًا تحت الكعبة فذهب قوم من قريش وأتوا بسلى الجزور ووضعوه على ظهره؛ هذا إيذاء، هو لم يضرَّه لكنَّه أذيَّةٌ له؛ وفعل أيضًا في كثير من الصحابة من الأذى ما هو معروف بالسيرة.

{وقاتلوا وقتِلوا}، وهناك قراءة الثانية: {وقاتلوا وقتّلوا}، وقراءة ثالثة: {وقتلوا وقاتلوا}؛ فالقراءات إذًا ثلاث والمعنى لا يختلف اختلافًا كبيرًا؛ أمَّا قوله: {قاتلوا}، فهذا يعني الجهاد، هم قاتلوا الكفَّار؛ وأمَّا قوله: {قتلوا}، فهذا يعني الاستشهاد، قتلهم الكفَّار في سبيل الله؛ وأمَّا قوله: {قتِلوا وقاتلوا}، فهي هي لكنَّها تقديم وتأخير؛ وأمَّا قوله: {قاتلوا وقتّلوا}، فهي أشدُّ كما قال تعالى: {قتلوا تقتيلًا}، فالتقتيل أشدُّ من مجرَّد القتل.

قال ابن كثير: وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله، فيعقر جواده، ويعفر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت في الصحيح أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفِّر الله عني خطاياي؟ قال: ((نعم))، ثمَّ قال: ((كيف قلت؟)): فأعاد عليه ما قال، فقال: ((نعم، إلَّا الدين، قاله لي جبريل آنفًا(١))).

قال ابن العثيمين: {لأكفرنَّ عنهم سيِّئاتهم ...}: أي بما حصل لهم من هذه الأشياء بالهجرة والإخراج من الدِّيار والإيذاء في سبيل الله والمقاتلة في سبيل الله والقتل؛ والجملة في قوله: {لأكفرنَّ} خبر مبتدأ في قوله: {فالذين هاجروا}، ولكنَّها جملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات: اللَّام والقسم ونون التَّوكيد؛ والفرق بين مغفرة الذنوب وتكفير السَّيِّئات عند الجمع بينهما أنَّ المغفرة في الكبائر والتَّكفير في الصغائر، تكفِّرها الأعمال الصالحة ويكفِّرها المصائب؛ ويجوز أن يراد بالسَّيِّئات هنا ما هو

١- صحيح: مسلم (١٨٨٥).

- (قلت): قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((محتسب)) المحتسب هو المخلص لله تعالى؛ ((إلَّا الدَّين)): فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأنَّ الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفِّر حقوق الآدميين وإنَّما يكفِّر حقوق الله تعالى.

أعمُّ؛ لأنَّها لم تقرن بالذنوب حتى نقول كلَّ واحدةٍ لها معنى؛ وهذا له نظائر كثيرة تجد بعض الكلمات يكون لها معنى وحدها ولهذا معنى إذا اقترنت بغيرها.

{ولأدخلنَّهم}: الجملة أيضًا فيها تأكيد باللَّام والقسم والنون؛ فهي معطوفة على قوله: {لأكفرنَّ}، فمحلها الرَّفع على أنَّها خبر المبتدأ كالأولى.

{ولأدخلنَّهم جنات تجري من تحتها الأنهار}: جنات بالجمع، وأحيانًا يقال بالإفراد، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات؛ وفي القرآن في سورة الرحمن أنَّ أنواع الجنات أربعة، وربما يكون هناك أنواع أخرى لا نعلم بها؛ المهم أنَّ الجمع باعتبار الأنواع والإفراد باعتبار الجنس؛ وأصل الجنة البستان الكثير الأشجار، وسمِّي بذلك لأنَّه يجنُّ من فيه أي يستره، والمادة هذه (الجيم والنون) كلُّها دالَّة على السَّتر والخفاء، ومنه الجنة للمقاتل يأخذها ويستتر بها عن السِّهام؛ ومنها الجنان يعني القلب لاختفائها؛ ومنه الجن لاستتارهم.

يقول عز وجل: {تجري من تحتها الأنهار}: الجريان معروف، والأنهار جمع نهر، وجمعت لأنَّها أربعة أنواع مذكورة في سورة القتال: {فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه وأنهار من خمر لذَّةٍ للشَّاربين وأنهار من عسل مصفًّى}، وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص ولا تحتاج إلى حفر ولا إلى إقامة جدر، قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

وقوله: {تجري من تحتها}، هل المراد من تحت الأرض أو من تحت الأشجار الساترة؟ الثاني هو المراد، من تحت الأشجار والقصور أنهار مطَّردة لكنَّها لا تؤذي لأنها تنقاد لأمر مالكها، تنقاد له إذا أمر هذا النهر أن ينصرف يمينًا أو شمالًا فعل بأمر الله عز وجل؛ إذا أمره أن يقف وقف.

{ثوابًا من عند الله}: الثواب يطلق على العطاء الذي يعطاه الإنسان، كما في قوله تعالى: {هل ثوِّب الكفَّار ما كانوا يفعلون}: أي هل أعطي؛ ويطلق على الإثابة التي هي فعل المثيب؛ والأصل الأوَّل، أنَّ الثواب اسم لما يثاب به كالعطاء اسم لما يعطى؛ وقد يراد به الإثابة.

قال أبو زهرة: والثواب أصله من رجوع الشيء إلى حالته، فكأنَّ الجزاء على العمل رجوع بالعمل إلى الحال التي يكون عليها أو يستحقُّها، وقد قال الراغب في ذلك: والثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، فيسمَّى الجزاء تصوُّرًا أنَّه هو هو (أي أنَّ الجزاء هو ذات العمل)، ألا ترى كيف جعل الله الجزاء نفس العمل: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)، ولم يقل جزاه، والثواب يقال في الخير والشر، لكنَّ الأكثر المتعارف في الخير، وعلى هذا قوله عز وجل: {ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}.

قال ابن العثيمين: {من عند الله}: العندية هنا تقتضي تعظيم هذا الثواب، لأنَّ الثواب من العظيم يكون عظيمًا، كقول النبي ﷺ في الدُّعاء الذي علَّمه أبا بكر قال: ((اغفر لي مغفرة من عندك وارحمني([1]))).

{والله عنده حسن الثواب}: الجملة هذه مؤكِّدة لما سبق، أي: أنَّ الله سبحانه وتعالى يثيبهم الثواب الحسن لأنَّ هذا هو الذي عند الله، ولهذا يجازي المحسن بحسنته عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قال أبو زهرة: وقد ختم سبحانه وتعالى النَّص الكريم بقوله تعالى: {ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)}، لبيان اختصاصه سبحانه بالثواب الحسن كأنَّ كلَّ جزاءٍ للأعمال في الدنيا لَا يُعَدُّ حسنًا بجوار ما أعدَّه الله تعالى للمحسنين من عباده وما في الدنيا من ثمرات الأعمال لَا يُعَدُّ شيئًا، وهذا تمهيد لقوله سبحانه: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- بيان فضل الله عز وجل بإجابة هؤلاء الذين دعوا بما سبق؛ لقوله: {فاستجاب لهم}.

٢- ثبوت سمع الله؛ لأنَّه لم يثبهم إلَّا حين سمع دعاءهم.

٣- أنَّ تكرار الدُّعاء من أسباب الإجابة.

٤- أنَّ الدُّعاء باسم الربوبية أقرب إلى الإجابة من الدُّعاء باسم آخر، لأنَّ أكثر الأدعية الواردة في القرآن جاءت باسم الربوبية.

٥- عناية الله عز وجل بهؤلاء الأبرار؛ لقوله: {فاستجاب لهم ربُّهم} لأنَّ هذه الربوبية ربوبية خاصة.

٦- أنَّ الله يعطي الأجر كاملًا؛ لقوله: {أنِّي لا أضيع عمل عامل}، وهذا النفي يتضمَّن إثباتًا؛ فإذا كان لا يضيع عمل عامل فمقتضاه أنَّه يعطي العامل أجر كلَّ ما عمل.

٧- استواء الذَّكر والأنثى في الجزاء على الحسنات؛ لقوله: {من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض}.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: ((ما رأيتم من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكنَّ))، وذكر من نقصان دينها أنَّها إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم؟ قلنا: بلى؛ لكنَّها إذا صلَّت في الوقت الذي تطالب بالصلاة فيه فإنَّ أجرها وأجر الرجل سواء؛ فإذا صلَّت امرأة صلاة الظهر وصلَّى الرجل صلاة الظهر فهما في الأجر سواء.

٨- فضيلة الهجرة؛ لقوله: {فالذين هاجروا}؛ وقد قال العلماء إنَّ الهجرة تنقسم إلى أقسام:

١- (قلت): البخاري (٦٣٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي قَالَ: قُلِ ((اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)).

القسم الأول: هجر ما حرَّم الله؛ فإنَّ المهاجر من هجر ما نهى الله عنه؛ وهذا يعني أنَّ المهاجر هو الذي قام بفعل الواجبات وترك المحرَّمات.

الثاني: الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، كما فعل المهاجرون من مكة إلى المدينة؛ وهذه هي التي يكون فيها المدح الذي جاء في القرآن.

والثالث: الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة؛ فإن بعض البلاد تكون بلادًا إسلامية، تقام فيها الشعائر الإسلامية، ينادى فيها بالأذان وتقام الجماعات وتقام الجمعات فهي بلاد إسلام، ولكنَّها بلاد فسق من جهة أخرى لكثرة المعاصي والفواحش وغيرها في هذا البلد، فيهاجر الإنسان منها إلى بلد الاستقامة.

فلننظر ما هو الواجب من هذه الأنواع الثلاثة؛ نقول أمَّا الأول وهو هجر ما حرَّم الله فهو واجب على كلِّ إنسان، حتى في بلاد الإسلام المستقيمة يجب عليه أن يهجر ما حرَّم الله؛ وأمَّا الثاني وهو المهاجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام؛ فإنَّ العلماء رحمهم الله يقولون: إن كان قادرًا على إظهار دينه لم تجب الهجرة، وإن كان عاجزًا وجبت عليه الهجرة حتى لو كان من أهل البلد أصلًا؛ فإذا كان في بلاد يحبسون الحريَّات، ويمنعون المسلمين من إقامة شعائر دينهم كالصلوات في الجماعة مثلًا فالهجرة هنا واجبة؛ لأنَّ المسلم لا يقدر على إظهار دينه؛ وإن كان في بلد تعتبر نفسها بلد حرية فإنَّ الهجرة ليست بواجبة، ولكن مع هذا نقول هي أكمل وأحسن ممَّا لو بقي خوفًا من الفتنة.

الثالث: الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة، هذه فيها تفصيل أيضًا إن كان يخشى على نفسه من الفتنة وجبت عليه الهجرة، وإن كان لا يخشى لم تجب عليه الهجرة وربما يكون بقاؤه أحسن وأنفع إذا كان يدعوا إلى دين الله عز وجل.

٩- أنَّ الإخراج من الديَّار سبب لتكفير السَّيِّئات؛ لقوله: {وأخرجوا من ديَّارهم}، وكذلك أيضًا قوله: {وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا}.

لكن لو قال قائل: إنَّ التَّكفير مرتَّب على كلِّ الأوصاف الخمسة؟

فالجواب عن ذلك أن نقول: إنَّ تعليق التَّكفير بهذه الأوصاف الخمسة دليل على أنَّ لكلِّ وصف منها تأثيرًا في الحكم؛ ولولا التَّأثير لكلِّ واحد منها ما صحَّ أن تكون تكفيرًا للسَّيِّئات؛ وهذه فائدة مهمة؛ لأنَّ بعض المجادلين قد يقولون: إنَّ الحكم مرتَّب على أسباب خمسة أو أكثر؛ فنقول: نعم إذا رتِّب على أسباب أكثر من واحد فإنَّ هذه الأسباب يدلُّ على أنَّ لكلِّ واحد منها تأثيرًا، ولولا أنَّ له تأثيرًا ما ترتَّب الحكم أصلًا؛ لأنَّنا إذا قلنا رقم واحد ليس فيه تأثير، ورقم اثنين ليس فيه تأثير، رقم ثلاثة ليس فيه تأثير، رقم أربعة ليس فيه تأثير، لم يثبت الحكم؛ فإذا قلنا كلَّ واحدٍ له تأثير لكن قد يقوى على حصول الحكم وقد لا يقوى إلَّا على حصول بعضه.

١٠- أنَّ الإيذاء في سبيل الله يزداد الإنسان به أجرًا.

ويتفرَّع على هذه القاعدة: أنَّه ينبغي للإنسان أن يصبر على الإيذاء في سبيل الله مادام ينتظر الأجر به؛ لأنَّ الإنسان كلَّما علم أنَّه ينال أجرًا وثوابًا بإيذائه فإنَّه لابدَّ أن يصبر عليه.

١١- فضيلة القتال في سبيل الله؛ لقوله: {وقاتلوا}.

١٢- فضيلة القتل في سبيل الله إذا قتل إنسان؛ ومعلوم أنَّ القتل في سبيل الله من الشهادة في سبيل الله.

١٣- أنَّ الأعمال الصالحة تكفِّر بها السَّيِّئات أي تستر؛ لأنَّ الكفر مأخوذ من السَّتر، ومنه الكفراء لوعاء طلع النخل، ويسمَّى باللُّغة العاميَّة الكافور الغلاف الذي يكون على طلع النَّخل لأنَّه يستره، فلهذا سمِّي ستر السَّيِّئات بالحسنات سمِّي تكفيرًا.

١٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى ضمَّن ضمانًا مؤكَّدًا لهؤلاء الذين اتَّصفوا بهذه الصفات الخمس ضمَّنهم ضمانين؛ الضَّمان الأوَّل: تكفير السَّيِّئات؛ والضمان الثاني: إدخال الجنات؛ وهذا الضمان مؤكَّد بثلاثة مؤكِّدات؛ الأول {لأكفرنَّ}؛ والثاني {لأدخلنَّ}؛ والثالث: نون التوكيد.

١٥- التشويق إلى الجنة ليزداد الإنسان قوة في العمل لها؛ لقوله: {ولأدخلنَّهم جنات تجري من تحتها الأنهار}، والجنات في الأصل في اللغة العربية هي البساتين الكثيرة الأشجار، لأنَّها أي البساتين الكثيرة الأشجار تجن من فيها، أي تستره وتغطيه؛ فيستفاد منها التَّشويق إلى هذا الثواب العظيم.

١٦- أنَّ في الجنة قصورًا؛ لقوله: {من تحتها}، والتَّحت لا يكون إلَّا بمقابل الفوق العالي وهو كذلك.

١٧- أنَّ الجنة فيها عدَّة أنهار؛ وهي مجملة هنا مفصَّلة وفي سورة القتال مفصَّلة على أنَّها أربعة: {أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه وأنهار من خمر لذَّةٍ للشَّاربين وأنهار من عسل مصفًّى}.

١٨- أنَّ هذا الجزاء مثوبة لهم من الله؛ فلله فيه المنَّة عليهم، وليس لهم المنَّة على الله بعملهم؛ لقوله تعالى: {ثوابًا من عند الله}، ولو شاء الله لم يثبهم، ولو شاء الله لأثابهم دون ذلك، ولكنَّه بفضله جعل الثواب لهم هذا الثواب العظيم.

١٩- الإشارة إلى عظم هذا الثواب؛ تؤخذ من قوله: {من عند الله}، وذلك لأنَّ العطيَّة تعظم بحسب معطيها، والهبة تعظم بحسب واهبها؛ فإذا كان ذلك من عند الله كان هذا دليلًا على أنَّه ثواب عظيم؛ لأنَّ الثَّواب من العظيم عظيم.

٢٠- أنَّه لا يتلقَّى حسن الثواب إلَّا من الله؛ لقوله: {والله عنده} وحده {حسن الثواب}، لأنَّه مهما أتاك من ثواب الخلق فإنَّه لن يكون مثل ثواب الله؛ فحسن الثواب إنَّما هو عند الله وحده، وفي هذه الجملة تأكيد لعظم هذا الثواب؛ لأنَّه لمَّا قال: {من عند الله}، استفدنا منه عظم الثواب؛ فإذا قال: {والله عنده حسن الثواب}، استفدنا أيضًا فائدة أخرى تأكيد ما سبق، أنَّ هذا الثواب ثواب عظيم وأنَّه أحسن مثوبة يثاب بها الإنسان: {والله عنده حسن الثواب}.

هل يستفاد من هذه الآية الكريمة: علوّ الله؟ نعم، ذهب بعض العلماء أنّه كلّما جاءت العندية فهي دليل على العلو؛ ولكنّها في بعض المواضع ليست واضحة، وفي بعض المواضع واضحة مثل قوله: {إنَّ الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته}، ومثل قوله: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته}، فهنا الفوقية واضحة، لكن في مثل هذه الآية ليست ظاهرة جدًّا.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ {١٩٦}

قال أبو زهرة: في الآيات السابقة إشارات إلى سطوة المشركين، إذ آذوا المؤمنين، وأخرجوهم من ديارهم، وقاتلوهم وقتلوا منهم، وقد بيَّن سبحانه أنَّه سيجزي المؤمنين على صبرهم وهجرتهم، وجهادهم، ولكن قد يعرض للخاطر: لماذا يكون هؤلاء المشركون في هذه القوّة وتلك النِّعمة الدنيوية؛ فجاء النهي الكريم ليمنع من توسوس له نفسه من أن يغتر بما عليه هؤلاء المشركون من قوّة وسطوة ومتاع دنيوي.

قال ابن العثيمين: {لا} في قوله: {لا يغرنَّك} ناهية؛ ولكن سيقول قائل: كيف تكون ناهية والفعل مفتوح – لأنَّ النون هي آخر الفعل –؟ والجواب على هذا أنَّه إذا اتَّصلت نون التوكيد بالفعل المضارع لفظًا وتقديرًا صار مبنيًّا على الفتح؛ فإن اتَّصلت به لفظًا لا تقديرًا لم يكن مبنيًّا مثل: {ثمَّ لتسألنَّ يومئذٍ عن النَّعيم}، فهنا نون التوكيد متَّصلة بالمضارع لكن لفظًا لا تقديرًا؛ وإذا لم تتَّصل به لم يبن إلَّا إذا اتَّصلت به نون النِّسوة؛ فالمضارع يبنى في حالين: إذا اتَّصلت به نون النِّسوة أو نون التَّوكيد لفظًا وتقديرًا؛ وقوله: {لا يغرنَّك}: {يغرنَّ} فعل مضارع مبنيٌّ على الفتح في محل جزم؛ والخطاب هنا يحتمل أن يكون للرسول ﷺ ويحتمل أن يكون لكلِّ من يتأتَّى خطابه؛ والقاعدة عندنا في التَّفسير أنَّه إذا كانت الآية تحتمل معنيين متباينين لكن لا يتناقضان حملت عليهما، وإذا احتملت معنيين أحدهما أعمُّ حملت على الأعمِّ، لأنَّ الأخصَّ يدخل في الأعمِّ ولا عكس؛ فهنا إذا قلنا إنَّ الخطاب خاص بالنبي ﷺ أخرجنا عنه بقيَّة الأمَّة، وإذا قلنا إنَّ الخطاب عامٌّ لكلِّ من يتأتَّى خطابه صار شاملًا للرسول ﷺ ولغيره؛ وعلى هذا فيكون الخطاب هنا عامًّا، يعني: لا يغرنَّك – أيُّها الرَّائي الذي ترى تقلُّب الكفَّار في البلاد – هذا التقلُّب.

وقوله: {تقلُّب الذين كفروا}: يعني تردُّدهم في البلاد وتقلُّبهم من بلد إلى آخر، وتقلُّبهم في التِّجارات وفي أنواع الصناعات وفي غيرها ممَّا فتح الله عليهم، فهذا لا يغرنَّك؛ ووجه الغرور الذي قد يحصل هو أنَّ الإنسان قد يغترُّ بهذا الذي أعطاهم الله عز وجل فيصنع مثل صنيعهم، أو يظنَّ أنَّ إعطاء الله إيَّاهم هذا الشيء دالٌّ على أنَّه لا ينكر ما هم عليه، ولو أنكر لم يمكِّنهم من التَّقلُّب في البلاد؛ وعلى هذا فيكون الغرور من وجهين؛ الوجه الأول: ظنَّ أنَّ ما هم عليه حقٌّ، لأنَّه يقول: لو كان باطلًا ما مكَّنهم الله تعالى من هذا التَّقلُّب، الثاني: أن يفعل مثل فعلهم؛ كما انخدع كثير من الناس اليوم، حيث ظنُّوا أنَّ الكفَّار وصلوا

إلى ما وصلوا إليه من أجل تحلُّلهم من دينهم؛ فصار يرى أنَّ الالتزام بالدِّين سبب للتَّأخُّر والتَّقهقر؛ والحقيقة أنَّ هذا لا يغرُّ المؤمن لأنَّ الله قال في كتابه: {ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين}، ويقول الله تعالى: {والذين كفروا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إنَّ كيدي متين}، فلا تغتر، هذا ليس إلَّا زيادة حسرة فيما عليهم.

قال أبو زهرة: ومعنى تقلُّب هؤلاء الأعداء في البلاد تصرُّفهم فيها حاكمين مسيطرين أقوياء ينتقلون أحرارًا من بلد إلى بلد، وجملة معنى النَّص الكريم لا يَصِحُّ أن يُخدع أحدٌ بما عليه أولئك الناس من قوَّة وسطوة وتصريف في شئون البلاد، فإنَّ هذا إلى أمد قصير، وهو متاع قليل، ولذا قال سبحانه: {مَتاعٌ قَلِيلٌ ثمَّ مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- نهي الإنسان أن يغترَّ بما أوتي الكفَّار من النِّعم والرفاهية؛ لقوله: {لا يغرنَّك تقلُّب الذين كفروا في البلاد}.

٢- أنَّ ما يعطيه الله العبد من الرَّخاء وسعة الرزق والانطلاق في الأرض يمينًا وشمالًا ليس دليلًا على رضاه عن العبد، وإنَّما المقياس برضا الله عن عبد هو اتِّباع العبد لشرع الله.

٣- أنَّ الله عز وجل قد يستدرج المرء بإغداق النِّعم عليه فتنة له؛ كما قال تعالى: {ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنة}، ووجه ذلك أنَّ الله مكَّن هؤلاء الكفَّار من التَّقلُّب في البلاد كما يشاؤون فتنة لهم ليستمروا على ما هم عليه فيكون ذلك شرٌّ كما قال تعالى: {ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا}.

٤- أنَّ المؤمن يضيق الله عليه في الرِّزق أحيانًا ليرجع إليه بخلاف الكافر؛ {ظهر الفساد في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلَّهم يرجعون}، أمَّا الكفَّار فقد تُمَهَّدُ لهم الدُّنيا ويعطون ما يريدون لتكون جنَّتهم دنياهم بخلاف المؤمنين.

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ {١٩٧}

قال ابن العثيمين: {متاع قليل} {متاع}: خبر مبتدأ محذوف والتَّقدير: (هو متاع)، (هو): أي (تقلُّبهم متاع قليل)؛ والمتاع ما تكون به المتعة سواء كانت متعة نفسيَّة أو متعة جسديَّة؛ وكلُّ متعة أضيفت إلى الدنيا أو إلى الكفَّار فهي متعة جسديَّة، كما قال الله تعالى: {والذين كفروا يتمتَّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم}؛ فقوله: {متاع قليل} خبر مبتدأ محذوف؛

والمتاع ما تحصل به المتعة، والمتعة نوعان: متعة قلبية روحية وهذه لا تكون إلَّا للمؤمن، يتمتَّع بذكر الله وبما أنعم الله عليه من الإيمان؛ ومتعة جسديَّة يشترك فيها الإنسان والبهائم وهي ما يحصل للجسد من اللَّذة والنَّعيم وغير ذلك.

{متاع قليل}: قليل في زمنه، وقليل في كميَّته وفي كيفيَّته، في كلِّ شيء؛ الزمن قليل محدود وهو عمر الإنسان، ذلك العمر المجهول الذي لا يدري الإنسان متى ينتهي؛ قليل أيضًا في الكميَّة لأنَّ الإنسان لا يملك كلَّ شيء؛ قليل في الكيفيَّة لأنَّ الإنسان قد يحرم التَّمتُّع في هذه الدنيا بأمراض تعتريه ولا يتمتَّع بها، قد يحرم بفقد بعض الأشياء والله أعلم.

{ثمَّ مأواهم جهنَّم وبئس المهاد}: يعني (ثمَّ بعد هذه المتاع القليل مأواهم جهنم)، وأتى ب{ثم} وإن كانت دالَّة على التَّراخي للإشارة إلى أنَّه مهما طالت بهم المدَّة في هذه الحياة فإنَّ مآلهم هذا المآل الخبيث؛ و(المأوى): بمعنى (ما يأوي إليه الإنسان)، فهو اسم مكان، أي: (المصير الذي يصيرون إليه هي جهنم).

قال أبو زهرة: {ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ}: العطف ب{ثمَّ} ليس للدِّلالة على التَّراخي الزمني فقط، بل للدِّلالة على تفاوت ما بين حالهم في الدنيا، وما يكونون عليه في الآخرة، والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الشخص ليستقرَّ فيه ويطمئن، فكان استقرارهم هو جهنم، وهي اسم لنيران يوم القيامة.

قال ابن العثيمين: و{جهنم}، اسم من أسماء النار، وسمِّيت بذلك قيل: لأنَّها مشتقَّة من التَّهجُّم أو من الجُّهمة وهو السواد؛ وقيل: إنّه اسم أعجمي وأصله كهنام لكن عُرِّب إلى جهنم وهو اسم من أسماء النار فهو غير مشتق؛ وأيًّا كان فهو اسم من أسماء النار.

{وبئس المهاد}: {بئس} فعل من أفعال الذَّم يرفع الفاعل، وله فاعل وله مخصوص؛ فالفاعل هو المهاد والمخصوص محذوف، والتَّقدير: (وبئس المهاد هي)؛ وإنَّما احتاج النحويون إلى هذا التَّقدير لأنَّ المهاد غير النار، والذّم للنار، فكان لابدَّ من ذكر مخصوص بالذَّم غير فاعل الفعل، والمخصوص بالذَّم هو الضمير المحذوف، أي: (وبئس المهاد هي)؛ هذا ما قدرَّه أهل العلم؛ والمهاد ما يكون مهدًا للإنسان أي مَقَرًّا له، ومنه قوله تعالى: {الذي جعل الأرض مهدًا}، {مهدًا}: أي مقرًّا تستقرُّون فيه.

قال أبو زهرة: والمهاد هو المكان الممهَّد والفراش اللَّيِّن، ويكون التَّعبير عن مآلهم بالمهاد من قبيل التَّهكُّم. ويصحُّ أن يقال إنَّهم هم الذين مهَّدوه لأنفسهم، ويكون المعنى: (بئس الذي مهدوا به لأنفسهم): أي أنَّهم بأعمالهم في الدنيا قد مهَّدوا لأنفسهم فراشًا من اللَّظى والجحيم وبئس هذا المهاد. وفى هذا تعزية للمؤمنين أبلغ تعزية، وقد روى الترمذي أنَّ رسول الله قال: ((ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بما يرجع[١])).

١- (قلت): مسلم (٢٨٥٨).

قال ابن كثير: وهذه الآية كقوله تعالى: {ما يجادل في آيات الله إلَّا الذين كفروا فلا يغرك تقلُّبهم في البلاد}[غافر: ٤]، وقال تعالى: {إنَّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثمَّ إلينا مرجعهم ثمَّ نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون}[يونس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: {نمتِّعهم قليلًا ثمَّ نضطرهم إلى عذاب غليظ}[لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: {فمهِّل الكافرين أمهلهم رويدًا}[الطارق: ١٧]: أي قليلًا وقال تعالى: {أفمن وعدناه وعدًا حَسنًا فهو لاقيه كمن متَّعناه متاع الحياة الدنيا ثمَّ هو يوم القيامة من المحضرين}[القصص: ٦١].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ الدنيا مهما أعطي الإنسان فيها من نعيم فإنَّها متاع قليل، قليل في زمنه في كميَّته في كيفيَّته؛ لكن الآخرة بالعكس، قال النبي ﷺ: ((لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها))، ليست الدنيا الحاضرة عندك فقط، خير من كلِّ الدنيا من أوَّلها إلى آخرها وما فيها وهو موضع السوط؛ وإلى هذا يشير قوله تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى}.

٢- الحذر من لعب أعداء المسلمين بالمسلمين، حيث يغرونهم بوسائل التَّرفيه، ويفتحون لهم وسائل التَّرفيه ليلهوهم عمَّا خلقوا له من عبادة الله، وعمَّا ينبغي أن يكونوا عليه من العزَّة والكرامة؛ فإنَّ هذه الوسائل التَّرفيهية هي في الحقيقة حَبٌ مسموم للدجاج، والحب المسموم للدجاج تغترُّ به، تجد حبًّا منتفخًا ليِّنًا فتفرح به وتأخذه بطرف زقومها وتبتلعه بسرعة ولكنَّه يقطِّع أمعاءها؛ فهكذا أعداؤنا فتحوا علينا أبواب التَّرفيه من كلِّ ناحية من أجل أن ننغمس في هذه الرَّفاهية ونقول: ليس لنا همٌّ إلَّا الرَّفاهية، وننسى ما خلقنا له من عبادة الله، وليس ما ينبغي لنا أن نكون عليه من العزَّة والكرامة والمصالح؛ تؤخذ من هذه الآية: {لا يغرنَّك تقلُّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل}.

٣- أنَّه لا يمكن للكافر أن يدخل الجنة؛ لقوله: {ثمَّ مأواهم جهنم}، لا يمكن أن تكون مأواهم الجنة أبدًا؛ لأنَّهم كفَّار.

٤- إشارة إلى أنَّ هذا النَّعيم الذي يدركونه في الدنيا سوف ينسى بهذا المأوى السيِّئ؛ إذا كان المأوى هو النار نسوا كلَّ شيء، كما جاء في الحديث: ((أنَّه يؤتى بالرجل يوم القيمة بأنعم أهل الدنيا يعني أكثرهم نعمة ورفاهيَّة فيغمس بالنار غمسة واحدة فيقال: هل رأيت خيرًا قط؟ فيقول: لا ما رأيت خيرًا قط[١]))؛ لأنَّه تنسيه هذه الغمسة الواحدة كلَّ ما حصل له في الدنيا من نعيم؛ ((ويؤتى بأبأس أهل الدنيا أي أشدَّهم بأسًا فيغمس في الجنة غمسة فيقال: هل رأيت شرًّا قط؟ فيقول: ما

١- (قلت): مسلم (٢٨٠٧)، والحديث بتمامه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: ((فيصبغ في النار صبغة))، أي يغمس غمسة، ((بؤسا))، البؤس هو الشدة.

رأيت شرًّا))؛ لأنَّه نسيه بهذا النَّعيم الذي هو لحظة، كلَّ ما حصل له في الدنيا من بئس وفقر وأذى؛ وهذه الحقائق نحن نؤمن به لكن الغفلة تستولي علينا وكأنَّها لم تأت، نكون في سكرة وإلَّا لو رجعنا إلى هذه الحقائق وتمشَّينا على مقتضاها لحصل لنا خير كثير، السَّكرة بمحبَّة الدُّنيا وإيثارها على الآخرة تنسينا هذا؛ الصحابة رضي الله عنهم بالصَّدمة التي حصلت لهم بموت النبي ﷺ نسوا آيات من القرآن، نسوا قوله تعالى: {وما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم}، حتى جاء صدِّيق هذه الأمَّة وأثبتها جأشًا عند الصَّدمات أبو بكر وتلاها على المنبر، وكأنَّها لم تكن نزلت؛ فأقول: إنَّا في الحقيقة ننسى هذه الحقائق ولا نشعر بها ولكن سيأتي الوقت الذي يشعر الإنسان بها، إذا حلَّ الأجل تمنَّى الإنسان أنَّه استغل وقته بطاعة الله، ولكن أنَّى له ذلك لا يمكن أن يؤخَّر لحظة واحدة عن الوقت.

٥- بيان قبح هذا المأوى لأنَّ الله أثنى عليه بأسوأ الثناء فقال: {وبئس المهاد} وهذا يدلُّ على قبح مأوى أهل النار.

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ {١٩٨}

قال ابن العثيمين: {لكن الذين اتَّقوا ربَّهم لهم جنات ... }: {لكن} حرف استدراك؛ غير عاملة؛ {الذين}: مبتدأ {لهم جنات}: مبتدأ وخبر، والمبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول.

هنا قد يقول قائل: ما وجه مجيء الاستدراك في هذه الآية: {لكن الذين اتَّقوا}؟ لأنَّ الاستدراك إنَّما يكون فيما يتوقَّع دخوله فيما سبق؛ فأنت مثلًا تقول: قام القوم لكن فلان لم يقم - ممَّن يتوقَّع أن يكون فيهم قائم -؛ وجه الاستدراك هنا: {لكن الذين اتَّقوا ربهم}، أنَّ الذين اتَّقوا ربهم لو حصل لهم من الدنيا مثل ما حصل لهؤلاء الكفَّار لم يكن ذلك حائلًا بينهم وبين ما عند الله؛ يعني قد يحصل تقلُّب المؤمنين في البلاد كتقلُّب الكفار؛ فهل يكون مأوى المتَّقين كمأوى الكافرين؟ لا؛ ولهذا قال: {لكن الذين اتَّقوا ربَّهم}؛ فالاستدراك هنا من ألطف ما يكون لئلَّا يظنَّ الظَّانُّ أنَّ الله لو مكَّن للمؤمنين أن يتقلَّبوا في البلاد تقلُّب الكفَّار لفاتهم ما عند الله، فبيَّن أنَّه لن يفوتهم.

والتَّقوى تمرُّ بنا كثيرًا، وأحسن ما فسِّرت به أنَّها[١]: اتِّخاذ ما يقي من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا أجمع ما قيل في التَّقوى؛ وقوله: {الذين اتَّقوا ربهم}: ولم يقل: (اتَّقوا الله)، إشارة إلى أنَّ ربوبية الله لهم ربوبية خاصة أعانهم فيها على التَّقوى ووفَّقهم لها، فكانت ربوبيته لهم ربوبية خاصة بهم كربوبيته لبعض الأنبياء مثل: {رب موسى وهارون}، فهي ربوبية خاصة لا يشركهم فيها أحد.

١- (قلت): أنظر كلام شيخ الإسلام عن (التَّقوى) عند تفسير الآية (١٧٧) من سورة البقرة.

{لهم جنات تجري من تحتها الأنهار}: {جنات} جمع جنة؛ وأصلها البستان الكثير الأشجار؛ سمِّي بذلك لأنَّه يجنُّ من كان فيه، أي يستره؛ ولكنَّنا لا نفسِّر جنات أو جنة التي في القرآن والتي يريد الله بها جنة الخلد بهذا التفسير عند العامَّة، لأنَّك لو فسَّرتها هذا التفسير عند العامَّة، لنزلت رغبتهم في الجنة نزولًا كثيرًا، لقالوا: البستان الفلاني أحسن منها، فيه أشجار وفيه نخيل وفيه كذا وفيه كذا؛ لكنَّنا نقول عند العامَّة: الجنة هي الدار التي أعدَّها الله تعالى للمتَّقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ وأعتقد أنَّك لو فسَّرتها عند عجوز من عجائزنا فقلت: الجنة البستان الكثير الأشجار والنخيل؛ لقالت: مالك عقل؛ ما هي الجنة هكذا؛ لأنَّها تتصوَّر الجنَّة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ ولهذا أنا أقول: ينبغي لطالب العلم أن يفسِّر القرآن بمعناه، ولكن إذا خاف فتنة فسَّره بما يوافق العقول ولا يخالف النصوص؛ فإذا قلت عند العامَّة: الجنة هي الدار التي أعدَّها الله تعالى للمتَّقين وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالتَّفسير هذا صحيح؛ لكن عندما تتكلَّم مع طالب العلم يقول: ما معنى الجنة، ولماذا سمِّيت بهذا؟ نأتي إلى المادة، الجيم والنون نجد أنَّها كلُّها تدلُّ على الاستتار، فتقول: هي في الأصل البستان الكثير الأشجار، ولنا أن نقول إنَّ الجنة في الأصل هي هذا المعنى لكن نقلت شرعًا إلى الدار التي أعدَّها الله للمتَّقين، كما نقلت الصلاة والزكاة والحج والعمرة إلى معناها الشرعي.

{تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها}: سبق لنا أنَّ قوله: {من تحتها} يدلُّ على علو قصورها وأشجارها، وأنَّ الأنهار أربعة، وأنَّها تجري بلا أخدود وبلا شق ساق، تجري حيث شاء صاحبها.

{خالدين فيها}: الخلود هو البقاء، أي: (باقون فيها أبدًا)؛ كما قال الله تعالى في آيات أخرى متعدِّدة: {خالدين فيها أبدًا}.

{نزلًا من عند الله}: {نزلًا} هذه منصوبة على الحال، أي: (حال كون هذه الجنات نزلًا).

فإذا قال قائل: كيف تكون حالًا وصاحبها نكرة، لأنَّ جنات نكرة، والحال لا تأتي من نكرة، لابدَّ أن يكون صاحبها معرفة؟

فالجواب على ذلك أن نقول: صاحبها نكرة لكنَّه خصِّص بالنعت: {تجري من تحتها الأنهار}؛ والنكرة المخصَّصة تأتي من الحال كما تأتي من النَّعت.

ثانيًا قد يقول قائل: إنَّ الحال يكون مشتقًّا لا جامدًا، و{النزل}: وهو (اسم لما يقدَّم للضَّيف من الطعام)؛ جامد وليس بمشتق؟

فالجواب: أنَّه قد تأتي الحال جامدة لكنَّها مؤولة بالمشتق، يعني أنَّهم مكرَّمين بهذا النُّزل.

وقوله: {من عند الله}: أي: (أنَّ هذا النُّزل ليس من فلان أو فلان؛ بل من عند أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وهو الله)، والنُّزل من الأكرم يكون عظيمًا وكريمًا وكثيرًا.

{وما عند الله خيرٌ للأبرار}: {ما} اسم موصول، ولا يمكن أن تكون نافية؛ لأنَّ المعنى يفسد كثيرًا؛ لو قلت {ما} نافية صار المعنى: (ليس عند الله خيرٌ للأبرار)؛ وهذا كذب؛ فهي {ما} الموصولة، يعني: (والذي عند الله خير)؛ فتكون مبتدأ و{خير} خبره، يعني: (والذي عند الله خيرٌ ممَّا ذكر من وصف الجنات)؛ وهذا كقوله تعالى: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد}.

ففي الجنة أكثر ممَّا يتمنَّاه الإنسان وأكثر ممَّا يتصوَّره، وهو النظر إلى وجه الله عز وجل؛ فإنَّ النظر إلى وجه الله عز وجل أعظم ما يكون من النَّعيم، ولهذا سمَّاه الله زيادة في قوله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}؛ فقد فسَّر أعلم الخلق بكلام الله وهو النبي ﷺ الزيادة بأنَّها النظر إلى وجه الله؛ و{الأبرار}: جمع (برّ)، و(البر): كثير الخير، ومنه قوله تعالى: {إنَّا كنا ندعوه من قبل إنَّه هو البرُّ الرحيم}: أي كثير الخيرات؛ وذلك بفعلهم ما أمر الله به وتركهم ما نهى الله عنه.

قال الشنقيطي: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا عِنْدَهُ لِلْأَبْرَارِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ النَّعِيمُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ}[٨٢ \ ١٣]، وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ النَّعِيمِ الشُّرْبَ مِنْ كَأْسٍ مَمْزُوجَةٍ بِالْكَافُورِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}[٧٦ \ ٥].

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- أنَّ المتَّقين وإن تقلَّبوا في البلاد فليس مآلهم كمآل الكافرين؛ لقوله: {لكن الذين اتَّقوا ربهم}.

٢- فوائد التَّقوى، وأنَّ من فوائدها ما حصل لهؤلاء المتَّقين من النُّزل العظيم عند الله عز وجل، وهي هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

٣- أنَّ هؤلاء المتَّقين ثوابهم عند الله عز وجل أكثر بكثير ممَّا يعطى هؤلاء الذين يتقلَّبون في البلاد؛ لأنَّ الله قال في المتقلِّبين: {متاع قليل}؛ أمَّا هؤلاء فقال: {لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} دائمًا وأبدًا.

٤- عظم هذا الجزاء والثواب الذي يحصل لهم لأنَّه نزل من عند أكرم الأكرمين وهو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {نزلًا من عند الله}.

٥- ما استنبطه بعض أهل العلم من أنَّ قوله: {وما عند الله} يفيد العلو، وذلك لأنَّه لا يمكن أن يفيد السُّفل، لأنَّ ذلك نقص ينزَّه الله عنه، فتعيَّن أن يكون ذلك في العلو: {وما عند الله خيرٌ للأبرار}.

٦- أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فإنَّ هؤلاء لمَّا كانوا بَرَرة كثيري الخيرات كان لهم عند الله عز وجل هذا النُّزل العظيم.

٧- أنَّ في الجنات أنهار عظيمة تجري من تحت غرفها وأشجارها؛ لقوله تعالى: {تجري من تحتها الأنهار}.

٨- أنَّ من منَّ الله عليه بالتَّقوى فإنَّ ذلك من مقتضى ربوبية الله تعالى الخاصَّة، حيث قال: {اتَّقوا ربهم}؛ فتخصيص الربوبية هنا بهؤلاء المتَّقين هو من باب الربوبية الخاصة، وقد مرَّ علينا كثيرًا أنَّ ربوبية الله عز وجل لخلقه نوعان: عامَّة، وخاصَّة؛

فالعامَّة هي الشاملة لجميع الخلق؛ والخاصَّة هي الخاصَّة بالمؤمنين؛ كما أنَّ العبودية أيضًا نوعان: عامَّة وهي التي لجميع الخلق، كما في قوله تعالى: {إن كلُّ ما في السموات والأرض إلَّا آتي الرحمن عبدًا}؛ وخاصة وهي عبودية الله عز وجل للمؤمنين، كما قال الله تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا}؛ وهذه الخاصَّة منها ما هو أخصُّ كما في عبودية الرُّسل؛ فهي أخصُّ من العبودية العامَّة للمؤمنين المتَّقين، قال الله تعالى: {تبارك الذين نزل الفرقان على عبده}؛ وعلى هذا ففي العبودية عموم مطلق وعموم نسبي؛ فالعموم المطلق هو الذي يشمل جميع من في السموات والأرض؛ والنِّسبي هو عموم عبوديَّة المؤمنين؛ فإنَّه عامٌّ بالنسبة لعبودية الرُّسل، خاص بالنسبة للعبوديَّة المطلقة.

٩- هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار إذا كانت نزلًا وهو ما يُقدَّم للضَّيف من الكرامة فما بالك بما يكون بعد هذا، سيكون خيرًا كثيرًا.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {١٩٩}

قال ابن العثيمين: {وإنَّ من أهل الكتاب لمن}: {إنَّ} للتوكيد واللَّام أيضًا للتَّوكيد؛ ففي الآية مؤكِّدان: {إنَّ}، واللَّام؛ وهنا لا يخفى أنَّ في الجملة تقديمًا وتأخيرًا: {وإنَّ من أهل الكتاب} خبر مقدَّم؛ {لمن يؤمن} مبتدأ مؤخَّر؛ {لمن يؤمن بالله}: أي (للذي يؤمن بالله وما أنزل إليكم).

وقوله: {وإنَّ من أهل الكتاب}: هم اليهود والنصارى؛ {لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ...}: وهؤلاء كثير في النصارى فإنَّه آمن منهم كثير بمحمد ﷺ؛ أمَّا في اليهود الذين آمنوا بمحمد ﷺ في حياته فلم يبلغوا العشرة؛ فمن اليهود الذين أسلموا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، فإنَّه كان حبرًا من أحبارهم فأسلم؛ ومن النصارى كثير مثل النجاشي ملك الحبشة. ومن جملة ما أنزل إلينا أن يؤمنوا بعموم رسالة النبي ﷺ، وأنَّه مرسل إليهم كما أنَّه مرسل إلى العرب؛ فأمَّا من قال أنا أؤمن برسالة محمد ﷺ لكن للعرب خاصَّة فإنَّه لم يؤمن بما أنزل إلينا؛ لا يمكن أن يتمَّ إيمانٌ بما أنزل إلينا حتى يؤمن بمحمد ﷺ على أنَّه رسول لجميع الخلق، وأنَّه رسول إليهم يجب عليهم أن يتَّبعوه؛ ولهذا أقسم النبي ﷺ أنَّه: لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة، - يعني أمَّة الدَّعوة يهودي ولا نصراني - ثمَّ لا يؤمن بما جاء به إلَّا كان من أصحاب النار، إذا ماتوا وهو لم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ كان من أصحاب النار.

وقوله: {وما أنزل إليهم}: أمَّا ما أنزل إليهم فظاهر أنَّهم سيؤمنون به، اليهود يؤمنون بالتوراة والنصارى بالإنجيل، ولكن إذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فإنَّهم لم يؤمنوا بالتَّوراة ولا بالإنجيل؛ لأنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام قد بشَّرهم بمحمد ﷺ، قال الله

تعالى: {وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إنِّي رسول الله إليكم مصدِّقًا لما بين يدي من التوراة ومبشِّرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلمَّا جاءهم بالبيِّنات قالوا هذا سحر مبين}، فقوله: {فلمَّا جاءهم}: يعني محمدًا ﷺ، فهو بعد أن جاءهم بالبيِّنات وأنَّه الرَّسول المبشَّر الذي بشَّر به عيسى قالوا: هذا سحر مبين، ولم يؤمنوا به ولم يتَّبعوه. إذًا: الذي يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم يقول: لا يتمُّ إيمانه بأنَّ محمدًا أُرسل إلى العرب؛ بل لا يتمُّ إيمانه حتى يؤمن بمحمد ﷺ على أنَّه رسول الله إلى جميع البشر، وأنَّه ملزم باتِّباعه، ويتبعه كما يتبعه غيره.

{خاشعين لله}: يحتمل أن تكون حالًا من: {من}، {لمن يؤمن}؛ وبناءً على ذلك يكون مراعًا بها المعنى، لأنَّ {مَن} لفظها مفرد ومعناها الجمع، لأنَّ اسم الموصول وإن كان مفردًا يصحُّ للعموم، مع أنَّ {من} من الأسماء الموصولة التي للمفرد وللجماعة؛ أقول: إنَّ {خاشعين} يحتمل أن تكون حالًا مِن {مَن}، (للذي يؤمن حال كونه خاشعًا)؛ أو من فاعل: {يؤمن}، (لمن يؤمن حال كونه خاشعًا)؛ والمعنى لا يتغيَّر؛ والخشوع هو الذُّل؛ أي متذلِّلًا لله عز وجل، يؤمن بالله متذلِّلًا له خاشعًا له.

{لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا}: أي (لا يأخذون ويطلبون بآيات الله ثمنًا قليلًا)؛ فالشِّراء هنا بمعنى الأخذ؛ لأنَّه ليس هناك عقد بيع وشراء؛ لكن لمَّا كان المشتري يأخذ السِّلعة طالبًا لها حريصًا عليها صار الذين يأخذون الحياة الدنيا بالآخرة بمنزلة المشتري؛ ولهذا قال: {لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا}، وهي الدنيا برئاستها أو بمالها أو بجاهها أو بغير ذلك؛ وفيه إشارة إلى أنَّ من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب من يبقي على رئاسته وعلى جاهه وماله ليكفر بالرُّسل؛ فمثلًا أبو جهل وغيره من زعماء العرب وقريش، ما الذي صدَّهم عن اتِّباع محمد ﷺ إلَّا الكبر والإبقاء على الجاه وعلى الرئاسة؛ ولهذا يقولون: {لو لا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}: يعني هلَّا أنزل على رجل عظيم حتى نتَّبعه؛ وهم يقولون ذلك ويعلمون أنَّ محمدًا ﷺ من خيرهم، بل هو خيرهم نسبًا، وأنَّه أعظمهم وأشرفهم، وهم يسمُّونه قبل الرسالة الأمين والصادق؛ لكن لمَّا جاءت الرسالة كفروا بها وأنكروها. والمراد ب{آيات الله} هنا؛ الآيات الشرعية؛ لأنَّ من الناس من يشتري ثمنًا قليلًا بالآيات الشرعية، ومعنى: (يشتري ثمنًا قليلًا): أي يأخذ الجاه والرئاسة والمال وغير ذلك بدلًا عن آيات الله الشرعية؛ ووصف الله ذلك بأنَّه قليل لأنَّه بالنسبة لما في الآخرة ليس بشيء، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها)).

قال محمد رشيد رضا نقلا عن شيخه: إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، وَذَكَرَ حَالَ الْكَافِرِينَ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ، ذَكَرَ فَرِيقًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَهْتَدُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَكَانُوا مُهْتَدِينَ مِنْ قَبْلِهِ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ هَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَ مَنْ وَصَفَهُمْ بِالْخُشُوعِ لِلَّهِ، وَمَا كُلُّ مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِالْكِتَابِ خَاشِعٌ لِلَّهِ، وَهَذَا الْخُشُوعُ هُوَ رُوحُ الدِّينِ، وَهُوَ السَّائِقُ لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ الْجَدِيدِ، وَهُوَ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَهَذَا الثَّمَنُ يَعُمُّ الْمَالَ وَالْجَاهَ، فَإِنَّ مِنْهُ التَّمَتُّعَ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّ صَعْبًا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتْرُكَ مَا أَلِفَهُ، وَخَصَّ هَؤُلَاءِ بِالذِّكْرِ عَلَى كَوْنِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وُعِدُوا بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي مُقَابَلَةِ الْكَافِرِينَ لِأَجْلِ الْقُدْوَةِ بِهِمْ فِي صَبْرِهِمْ عَلَى الْحَقِّ فِي الدِّينِ السَّابِقِ، وَالدِّينِ اللَّاحِقِ،

وَذَكَرَ إِيمَانَهُمْ بِصِيغَةِ التَّأْكِيدِ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ – بِغُرُورِهِمْ بِكِتَابِهِمْ، وَتَوَهُّمِهِمُ الِاسْتِغْنَاءَ بِمَا عِنْدَهُمْ عَنْ غَيْرِهِ – كَانُوا أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ، وَكَانَ مِنَ الْغَرَابَةِ بَعْدَ ذَلِكَ الْعِنَادِ وَمُكَابَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَسَدِهِ عَلَى النُّبُوَّةِ، وَالتَّشَدُّدِ فِي إِيذَائِهِ أَنْ يُؤْمِنَ بَعْضُهُمْ إِيمَانًا صَحِيحًا كَامِلًا ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ قَلِيلِينَ، وَكَانُوا مِنْ خِيَارِهِمْ عِلْمًا، وَفَضْلًا، وَبَصِيرَةً، وَإِنَّنَا نَرَى عُلَمَاءَنَا الْأَذْكِيَاءَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَلَّمَا يَرْجِعُونَ عَنْ عَقِيدَةٍ، أَوْ رَأْيٍ فِي الدِّينِ جَرَوْا عَلَيْهِ، وَتَلَقَّوْهُ عَنْ مَشَايِخِهِمْ، وَقَرَءُوهُ فِي كُتُبِهِمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا، وَخَطَأً ظَاهِرًا.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْيِيدٌ لِكَوْنِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ضِيقٍ خَيْرًا مِنْ حَالِ الْكَافِرِينَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ سَعَةٍ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى حَالِ الْأَخْيَارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَيْفَ لَا يَحْفُلُونَ بِذَلِكَ الْمَتَاعِ الدُّنْيَوِيِّ. بَلْ يُؤْثِرُونَ عَلَيْهِ مَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، فَهَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ وَالْأُسْوَةِ لِلْمُسْلِمِينَ. أَقُولُ: وَصَفَهُمْ بِخَمْسِ صِفَاتٍ:

إِحْدَاهَا: الْإِيمَانُ بِاللهِ، يَعْنِي الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الَّذِي لَا تَشُوبُهُ نَزَغَاتُ الشِّرْكِ، وَلَا يُفَارِقُهُ الْإِذْعَانُ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ، لَا كَمَنْ قَالَ فِيهِمْ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}[٢: ٨]، وَلَا مَنْ قَالَ فِيهِمْ: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}[١٢: ١٠٦].

ثَانِيهَا: الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَدَّمَهُ عَلَى مَا بَعْدَهُ؛ لِأَنَّهُ الْعُمْدَةُ الَّذِي عَلَيْهِ الْعَمَلُ، وَلَهُ الْهَيْمَنَةُ، وَالْحُكْمُ الْفَصْلُ فِي الْخِلَافِ لِثُبُوتِهِ بِالْيَقِينِ، وَعَدَمِ طُرُوءِ الضَّيَاعِ عَلَيْهِ وَالتَّحْرِيفِ.

ثَالِثُهَا: مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ اللهُ – تَعَالَى – إِلَى أَنْبِيَائِهِمْ. وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ ضَيَاعَ وَنِسْيَانَ بَعْضِهِ، وَطُرُوءَ التَّحْرِيفِ بِالتَّرْجَمَةِ، وَالنَّقْلِ بِالْمَعْنَى عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ هُوَ الْإِيمَانُ بِهِ إِجْمَالًا، وَاتِّبَاعُ مَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ فِيهِ تَفْصِيلًا، وَالْقُرْآنُ هُوَ الْعُمْدَةُ فَلَا يُعْتَدُّ بِإِيمَانِ مَنْ خَالَفَهُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ.

رَابِعُهَا: الْخُشُوعُ وَهُوَ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُعِينُ عَلَى اتِّبَاعِ مَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ مِنَ الْعَمَلِ، فَالْخُشُوعُ أَثَرُ خَشْيَةِ اللهِ – تَعَالَى – فِي الْقَلْبِ تَفِيضُ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَالْمَشَاعِرِ، فَيَخْشَعُ الْبَصَرُ بِالسُّكُونِ وَالِانْكِسَارِ، وَيَخْشَعُ الصَّوْتُ بِالْمُخَافَتَةِ وَالتَّهَدُّجِ، كَمَا يَخْشَعُ غَيْرُهَا.

خَامِسُهَا: وَهِيَ أَثَرٌ لِمَا قَبْلَهُ عَدَمُ اشْتِرَاءِ شَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا بِآيَاتِ اللهِ كَمَا هُوَ فَاشٍ فِي أَصْحَابِ الْإِيمَانِ التَّقْلِيدِيِّ الْجِنْسِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ مِلَّتِهِمْ، وَيَقَعُ مِثْلُهُ مِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي سَائِرِ الْمِلَلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا قَبْلَهَا.

{أولئك لهم أجرهم عند ربهم}: أَيْ أُولَئِكَ الْمُتَّصِفُونَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الصِّفَاتِ لَهُمْ أَجْرُهُمُ اللَّائِقُ بِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمُ الَّذِي رَبَّاهُمْ بِنِعَمِهِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ؛ أَيْ فِي دَارِ الرِّضْوَانِ الَّتِي نَسَبَهَا الرَّبُّ – عَزَّ وَجَلَّ – إِلَيْهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَلِأَهْلِهَا، بِخِلَافِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِثْلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمَغْرُورِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَسَلَفِهِمْ عِنَادًا حَمَلَهُمْ عَلَى كِتْمَانِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ، فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَظَهَرَتْ لَهُ حَقِيقَتُهَا كَمَا ظَهَرَتْ لَهُمْ، وجحد وَعَانَدَ كَمَا جَحَدُوا وَعَانَدُوا فَلَا يُعْتَدُّ بِإِيمَانِهِ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، وَكُتُبِهِمْ، وَلَا يَكُونُ إِيمَانُهُ بِاللهِ

– تَعَالَى – إِيمَانًا صَحِيحًا مَقْرُونًا بِالْخَشْيَةِ، وَالْخُشُوعِ ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَخْشَاهُ فِي مُكَابَرَةِ الْحَقِّ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْبَاطِلِ. وَلَا يُنَافِي هَذَا مَا فِي آيَةِ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا}[٢: ٦٢]، مِنَ الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ فِيمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ – ﷺ – عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَلَمْ تَظْهَرْ لَهُمْ حَقِيقَتُهَا كَالَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ.

قال ابن العثيمين: {أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم}: أولئك الذين عدلوا عن الدنيا ولم يأخذوها بدلًا عن طاعة الله والإيمان به؛ {لهم أجرهم}: أي ثوابهم؛ وإضافته إلى الله {عند ربِّهم}؛ يدلُّ على عظمه، وأنَّه عظيم جدًّا؛ فإنَّ الشيء من العظيم عظيم، ومن الكريم كثير؛ ولهذا قال: {لهم أجرهم عند ربِّهم}.

وقوله: {لهم أجرهم عند ربِّهم}، فيه إشارة كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد أنَّه باقٍ، لأنَّ ما عند الله يبقى؛ ولهذا يخلد أهل الجنة فيها أبدًا.

{إنَّ الله سريع الحساب}: السرعة هي عدم التَّباطؤ في الشيء، والله تعالى سريع الحساب من وجهين؛ الوجه الأول: أنَّ الدنيا قليلة؛ وفانية وسريعة وما هي إلَّا لحظات ثم تنقضي بسرعة.

الوجه الثاني: يوم القيمة، فإنَّ الله تعالى يحاسب الخلائق كلَّها في نصف يوم؛ لقوله تعالى: {أصحاب الجنة يومئذ خيرٌ مستقرًّا وأحسن مقيلًا}؛ والقيلولة إنَّما تكون في نصف النهار، هكذا تكون في نصف النهار؛ ويلزم من هذا أنَّ الله يحاسب الخلائق كلَّهم في نصف يوم، حتى إنَّ كلَّ واحدًا منهم يقيل في منزله ومستقرِّه.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١– الثناء على بعض أهل الكتاب؛ لقوله: {وإنَّ من أهل الكتاب}؛ و{من} هنا للتَّبعيض، وهم قليل.

٢– عدل الله عز وجل بإسناد الفضل إلى أهله؛ فإنَّ الله عز وجل لمَّا ذكر عقاب الكافرين وثواب المؤمنين قال: {وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن}؛ فأسند الفضل إلى أهله عز وجل.

٣– أنَّ هؤلاء الذين يؤمنون بما أنزل الله على رسوله ﷺ مع إيمانهم بكتبهم إنَّما يفعلون ذلك تعظيمًا لله وذلًّا له، لا طلبًا للدنيا أو المدح أو ما أشبه ذلك؛ لقوله تعالى: {خاشعين لله}.

٤– بيان إخلاص هؤلاء حيث لم يؤمنوا بالله وما أنزل إلينا من أجل الدنيا؛ فهم لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ويدلُّ قوله: {خاشعين لله}، على أنَّهم مخلصون في إيمانهم بالله وما أنزل إليهم، يعني لا يقصدون شيئًا من الدنيا أو جاه أو رئاسة أو رياء.

٥– أنَّ هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب عن إخلاص سوف يكون لهم الأجر يعني الثواب في الآخرة، وإن فاتهم ما يفوتهم من الدنيا بسبب إسلامهم؛ لقوله: {أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم}.

٦- بيان قدرة الله عز وجل في سرعة حسابه، حيث قال: {إنَّ الله سريع الحساب}؛ وقد أورد بعض الصحابة على النبي ﷺ إشكالًا في هذا المعنى، وقال: كيف يحاسبنا في ساعة ونحن جمع، يعني كثير؟ فقال: ((ألا أخبرك بشيء من آلاء الله)) أي: من آياته؛ ((يقرِّب لك هذا، وذكر له القمر))، القمر مخلوق من مخلوقات الله، وكلُّ الناس يرونه في ساعة واحدة لا يضامون في رؤيته؛ فإذا كان هذا في مخلوق من مخلوقات الله يضيء نوره على كلِّ من رآه، ويشترك فيه من العالم ما لا يحصيه إلَّا الله، فما بالك بالخالق جل وعلا.

٧- إثبات الحساب، وأنَّ الإنسان سوف يحاسب على عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ لقوله: {إنَّ الله سريع الحساب}. وليعلم أنَّ الحقوق نوعان: حقٌّ لله عز وجل فهو مبني على المسامحة وعلى العفو والإحسان؛ وحقٌّ للخلق بالاعتداء عليهم وعلى أعراضهم فهذا لا يغفره الله عز وجل؛ بل قد قال النبي ﷺ حين بعث معاذ إلى اليمن قال: ((إيَّاك وكرائم أموالهم، واتَّق دعوة المظلوم فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب([1])))، فالمظلوم يلجأ إلى الله عز وجل؛ فإذا رجع إلى ربه وهو سيلجأ بصدق لأنَّه قد ضيم من الخلق، فإذا رجع إلى الله عز وجل بهذا الصِّدق فإنَّ الله عز وجل يجيب دعوته، ويقول عز وجل: ((وعزَّتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين([2])))، فلذلك يجب على الإنسان أن يحذر من ظلم نفسه بتفريطه بحقِّ الله عز وجل، ومن ظلم غيره بالعدوان عليه بالقول أو الفعل؛ فإنَّ الدنيا لن تدوم لابدَّ من زواله، ولابدَّ من رجوعه إلى الله عز وجل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٢٠٠}

قال ابن العثيمين: دائمًا نتكلَّم على قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} ونستشهد بقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله يقول: {يا أيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك يعني استمع لها فإمَّا خيرٌ تؤمر به وإمَّا شرٌّ تنهى عنه)، وقلنا: أوَّلًا: إنَّ الله تعالى إذا صدَّر الخطاب بهذا فهو دليل على العناية به؛ وجهه: أنَّه صدَّره بالنِّداء الذي يفيد تنبيه المخاطب، ثمَّ إذا كان النِّداء بوصف الإيمان كان دليلًا على أن ما يأتي بعده من مقتضى الإيمان، لأنَّه لولا أنَّه من مقتضاه ما صدَّر الخطاب لمن يوجَّه إليه بلفظ الإيمان؛ فكأنَّه قال: يا أيها الذين آمنوا بإيمانكم افعلوا كذا وكذا، أو لإيمانكم لا تفعلوا كذا وكذا.

ثانيًا: يدلُّ على أنَّ مخالفة ذلك من نواقض الإيمان أو من نواقص الإيمان؛ إن كان الشيء من أصول الدِّين مثل: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله}؛ فإنَّ مخالفته من نواقض الإيمان؛ وإن كان في فرع من فروع الدِّين فإنَّ مخالفته من نواقص الإيمان مثل قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم}، لو لم يتفسَّح

١- (قلت): البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

٢- (قلت): حسنه الإمام الألباني في الصحيحة (٨٧٠).

الإنسان ما قلنا إنَّه كافر، بل نقول: هو مخالف للأمر وإيمانه ناقص، لأنَّ مقتضى الإيمان أن يفعل ما أمر الله به، حيث وجَّه الله له هذا الأمر بوصف الإيمان.

ثالثًا: أنَّه يفيد الإغراء، يعني إغراء الإنسان وحثّه على أن يفعل ما وجّه إليه من الأمر أو النِّعمة؛ لأنَّ الإنسان إذا وصف بوصف فإنه يغريه هذا الوصف؛ فإذا قيل لشخص: يا أيها الكريم جُدَّ على هذا؛ معناه أنَّك تغريه وأنَّه لكرمه لابدَّ أن يجود؛ ولهذا لمَّا قيل للمتنبي، قيل له في مجال القتال إنَّك قلت: الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم؛ قال: الآن قتلتني، ثمَّ أقدم حتى قتل؛ وذلك لأنَّ الوصف الذي يتَّصف به الإنسان ويفخر به إذا لم يطبِّقه فعلًا فإنَّه كاذب في دعواه؛ فكأنَّ الله يقول: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا.

{اصبروا وصابروا ورابطوا}: اصبروا على كلِّ ما يحتاج إلى صبر؛ ومعلوم أنَّ الذي يحتاج إلى الصبر هو الذي يخالف هوى النفس، الذي يخالف هواك هو الذي يحتاج إلى الصبر؛ لأنَّه يشقُّ عليك تحمُّله؛ فطاعة الله عز وجل ثقيلة على النفوس فاصبر عليها، المعاصي ثقيل تركها على النفوس اصبر على التَّرك؛ الآلام والمصائب التي تصيب الإنسان ثقيلة على النفس اصبر عليها؛ فالمصائب التي تصيب الإنسان هي بنفسها مكفِّرة للذنوب، فإذا احتسب الإنسان أجرها على الله وانتظر بذلك ثواب الله كانت مع التَّكفير زيادة حسنات؛ والإنسان في الدنيا لابدَّ أن يبتلى، كما قال الشاعر:

فيوم لنا ويوم علينا ... ويوم نساء ويوم نسر

لم تبق الدنيا لأحد زاهيةً مطلقًا أبدًا؛ وهذه من حكمة الله عز وجل يبتلي الإنسان بالنِّعم ويبتليه بالمصائب، قال الله تعالى: {ونبلوكم بالخير والشرِّ فتنة وإلينا ترجعون}؛ فعلى الإنسان أن يصبر على كلِّ ما يخالف هواه؛ والصبر ثقيل على النفس متعب لها؛ ولكن الإنسان ينظر إذا صبر إلى ما أمامه، ما النتيجة خير: {إنَّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}؛ إذا صبر فليبشر بالخير، وفي المثل: من صبر ظفر؛ وفي الشعر: والصبر مثل اسمه مر مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

وهذا شيء مجرَّب، دائمًا إذا صبر الإنسان ظفر ولاسيَّما إذا قرن صبره باحتساب الأجر على الله عز وجل فإنَّه يكون في ذلك الثواب والعاقبة الحميدة([1]).

{وصابروا }: المصابرة تكون من اثنين؛ ولهذا جاءت على وزن فاعل، فاعل كقاتل وجاهد صابر، أيضًا لابدَّ من شخص آخر يضادك فصابره، الصبر الأول ليس فيه أحد يضاده إنَّما هو شيء بينك وبين نفسك تصبر؛ الشيء الثاني: إنسان يضادك ويثيرك ويعتدي عليك صابره، يعني بمعنى غالبه بالصبر، غالبه بالصبر؛ وهذا يكون في ملاقات الأعداء؛ فالعدو يصابرك وأنت تصابره، ولكنَّ الله تعالى قد سلى عباده المؤمنون في قوله تعالى: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون}؛ أنت إذا جرحت تتألَّم، وهو إذا جرح يتألَّم لاشكَّ: {وترجون من الله ما لا يرجون}؛ فرق عظيم؛ فالذي يرجوا من الله عز وجل الثواب على ما حصل له يهون عليه هذا الشيء، حتى إنَّه أحيانًا لا يشعر به من شدَّة احتسابه الأجر على الله

١- (قلت): أنظر كلام العلماء عن (الصبر) مفصلًا عند تفسير الآيات (١٥٣الى ١٥٧) من سورة البقرة.

عز وجل؛ إذًا الصبر حبس النفس مع غير مصابر، وتكون على ما لا يلائم الإنسان وما يشقُّ عليه، والمصابرة مع شخص مضاد يصابرك ويصبر عليك، على معاندتك وعلى مضادتك فأنت اصبر اصبر، وقد قال الله عز وجل: {ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور}.

{ورابطوا}: المرابطة أخصُّ من المصابرة، يعني رابطوا على الطاعات؛ ومن ذلك ما بيَّنه النبي ﷺ حيث قال: ((إسباغ الوضوء على المكاره، كثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط([1]))، إسباغ الوضوء على المكاره: يعني في أيام السبرات والبرودة فإنَّ الإنسان إذا أسبغ الوضوء يعني أتمَّه وأكمله دلَّ هذا على إيمانه بالله عز وجل، وعلى شدَّة تصديقه ورجائه لثواب الله؛ والثاني: كثرة الخطا إلى المساجد، فإنَّ الإنسان إذا ذهب إلى المسجد البعيد الذي يحتاج إلى كثرة الخطا، دلَّ هذا على مرابطته في الخير ومثابرته عليه وصدق الإيمان في قلبه؛ ولهذا يذهب إلى المسجد ولو كان بعيدًا ويتردَّد إليه ولو كان كثيرًا، يتردَّد إليه على الأقل في اليوم والليلة خمس مرات ولو كان كثيرًا؛ هذا أيضًا يدلُّ على المرابطة على الخير. ومن المرابطة: المرابطة في الثغور، لكنها غير موجودة في عهد النبي ﷺ؛ لأنَّه في عهد النبي ﷺ ما فيه مرابطة يخرج النبي ﷺ إلى العدو ويغزو ويرجع، لكن بعد ذلك لمَّا فتحت الفتوحات وانتشر الإسلام في أقطار الأرض صارت المرابطة، واحتاج المسلمون إلى مرابطة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة إلى الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط)) ثلاثًا؛ لأنَّ الرَّباط على الحدود الإسلامية غير موجود في عهد الرسول ﷺ.

قال ابن العثيمين: {واتَّقوا الله}: واتَّقوا الله هذا أمر بتقوى الله عز وجل؛ وسبق لنا مرات كثيرة أنَّ المراد بالتَّقوى اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ هذا أحسن ما قيل في التَّقوى؛ وعطفها على ما سبق إمَّا أن يقال: من باب عطف العام على الخاص، وهو كثير في القرآن، وإمَّا أن يقال: إنَّ ما سبق أوامر والتَّقوى للنَّواهي، كما نقول في قوله تعالى: {وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى} أنَّ البرَّ فعل الخير والتَّقوى اجتناب الشرِّ؛ وإذا ذكرت التَّقوى وحدها شملت فعل الخير وترك الشرِّ؛ والمعنيان لا يتنافيان؛ فهذه الأوصاف أو الأوامر الأربعة: {اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقوا الله} كلُّها مؤدَّاها تشتمل على شيء واحد، وهي فعل الأوامر واجتناب النواهي.

{لعلَّكم تفلحون}: {لعل} هنا للتَّعليل وليست للرَّجاء، لأنَّ كلام الله عز وجل ليس فيه رجاء، فإنَّه على كلِّ شيءٍ قدير، ولا يصعب عليه شيء ولا يعسره شيء؛ لكنَّها للتَّعليل، أي: لأجل أن تفلحوا؛ و(الفلاح): قالوا إنَّها كلمة جامعة للفوز بالمطلوب

١- (قلت): مسلم (٢٥١)، والحديث بتمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟)) قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: ((إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ)).

- قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث: (إسباغ الوضوء على المكاره))، المكاره جمع مكره وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه والكره بالضم والفتح المشقة والمعنى أن يتوضأ مع البرد الشديد والعلل التي يتأذى معها بمس الماء؛ ((فذلكم الرباط))، أي الرباط المرغب فيه وأصل الرباط الحبس على الشيء كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة.

والنَّجاة من المرهوب، الفلاح أن يفوز الإنسان بمطلوبه وأن ينجوا من مرهوبه، ولاشكَّ أنَّ كلَّ واحدٍ من الخلق يتمنَّى أن يفوز بمطلوبه وأن ينجوا من مرهوبه.

قال السعدي: فعلم من هذا أنَّه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلَّا بها، ولم يفت أحدًا الفلاح إلَّا بالإخلال بها أو ببعضها.

قال ابن القيم في عدة الصابرين ج١ص٢٠: (الفرق بين الصبر والتصبُّر والاصطبار والمصابرة):

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن، ان كان خُلُقًا له وملكة سمِّي صبرًا، وان كان بتكلُّف وتمرُّن وتجرُّع لمرارته سمِّي تصبُّرًا، كما يدلُّ عليه هذا البناء لغة فإنَّه موضوع للتَّكلُّف كالتَّحلُّم والتَّشجُّع والتَّكرُّم والتَّحمُّل ونحوها، وإذا تكلَّفه العبد واستدعاه صار سجيَّة له، كما في الحديث عن النبي أنَّه قال: ((ومن يتصبَّر يصبره الله([1]))؛ وكذلك العبد يتكّلف التعفُّف حتى يصير التعفُّف له سجيَّة، كذلك سائر الأخلاق، وهي مسألة اختلف فيها الناس هل يمكن اكتساب واحد منها، أو التَّخلُّق لا يصير خُلُقًا أبدًا كما قال الشاعر:

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على النَّاقل

وقال آخر: يا أيُّها المتحلِّي غير شيمته ... انَّ التخلُّق يأتي دونه الخُلق

فقبح التطبُّع شيمة المطبوع ...

قالوا: وقد فرغ الله سبحانه من الخُلق والخَلق والرزق والأجل؛ وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخُلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسَّخاء والشجاعة والوجود شاهد بذلك، قالوا: والمزاولات تعطي المَلَكات، ومعنى هذا أنَّ من زاول شيئًا واعتاده وتمرَّن عليه صار مَلَكة له وسجيَّة وطبيعة، قالوا: والعوائد تنقل الطبائع، فلا يزال العبد يتكلَّف التَّصبُّر حتى يصير الصبر له سجيَّة، كما أنَّه لا يزال يتكلَّف الحِلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقًا بمنزلة الطبائع؛ قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوَّة القبول والتَّعلُّم، فنقل الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل، غير أنَّ هذا الانتقال قد يكون ضعيفًا فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث، وقد يكون قويًّا ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبعه إذا قوى الباعث واشتدَّ، وقد يَستحكِم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعًا ثانيًا، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذى انتقل عنه.

وأمَّا الاصطبار: فهو أبلغ من التَّصبُّر فإنَّه افتعال للصَّبر بمنزلة الاكتساب، فالتَّصبُّر مبدأ الاصطبار كما أنَّ التَّكسُّب مقدِّمة الاكتساب، فلا يزال التَّصبُّر يتكرَّر حتى يصير اصطبارًا.

وأمَّا المصابرة: فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر فإنَّها مفاعلة تستدعى وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه،

١- (قلت): البخاري (١٤٦٩).

والمصابرة وهى حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهى الثَّبات واللُّزوم والاقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبُّدٍ بالتَّقوى، فأخبر سبحانه أنَّ ملاك ذلك كلُّه التَّقوى، وأنَّ الفلاح موقوف عليها فقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}؛ فالمرابطة كما أنَّها لزوم الثَّغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلَّا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.

(الفوائد)

قال ابن العثيمين: من فوائد هذه الآية: ١- يوجِّه الله النِّداء إلى المؤمنين فيستفاد منه: فضيلة الإيمان، وأنَّ أهل الإيمان هم الأجدر، هم أجدر الناس بتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله: {يا أيُّها الذين آمنوا}.

٢- أنَّه ينبغي للإنسان أن يأتي في أسلوبه بما يحمل الإنسان على فعل ما طلب منه أو ترك ما نهي عنه؛ لقوله: {يا أيُّها الذين آمنوا اصبروا}.

٣- الأمر بالصبر؛ لقوله: {اصبروا}؛ وهو في الحقيقة مشترك قد يكون واجبًا وهو الصبر على الواجب وعلى ترك المحرَّم وعلى الآلام المؤلمة؛ وقد يكون مستحبًّا وهو الصبر على المستحبَّات أو على ترك المكروهات، فإنَّ الصبر هنا ليس بواجب لكنَّه أكمل وأفضل.

٤- الأمر بالمصابرة؛ وأنَّ الإنسان يصابر من يضادُّه ويمدُّ له؛ فإنَّ العاقبة ستكون له عليه إذا صابره امتثالًا لأمر الله عز وجل ورجاءً لثوابه وتحسُّبًا للعاقبة الحميدة التي تكون فيها الدائرة على من ضادَّه.

٥- الأمر بالمرابطة؛ والمرابطة إن كانت على واجب فهي واجبة وإن كانت على مستحبٍّ فهي مستحبَّة حسب الأمر المرابط عليه.

٦- الأمر بالتَّقوى؛ والتَّقوى واجبة، يعني اتِّقاء الوقوع في المحرَّم إمَّا بترك الواجب وإمَّا بفعل المحرَّم.

٧- النتائج الحميدة لمن قام بأوامر الله من الصبر والمصابرة والمرابطة والتَّقوى، وهي أي: العاقبة الحميدة، هي الفلاح؛ لقول الله تعالى: {لعلَّكم تفلحون}.

تمَّ تفسير سورة آل عمران بعون الله وفضله